

تفسير ابن عطية

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

ولد سنة ٤٨١هـ وتوفي سنة ٥٤١هـ

رحمها الله تعالى

طبعة جديدة منقحة ومترجمة
مترجمة فيها الآيات المتعلقة بالتفسير بألفاظ
قريب من الصنف الشريف

دار ابن خزيمة



ابن عطية الأندلسي وكتابه المحرر الوجيز^(١)

٤٨٠ — ٥٤١

بقلم: مَجْد مكي

الحمد لله حقَّ حمده، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ على مَنْ لا نَبِيَّ بعده، وآلِهِ وصحبه، وبعد:

فإنَّ القرن السادس الهجري من أخْصَب القرون وأكثرها عطاءً في مجال تفسير القرآن العظيم، ففي النصف الأول من هذا القرن ظهر أربعة من كبار المفسرين: اثنان من المشاركة، وهما: الزمخشري (ت ٥٣٨)، والبغوي (ت ٥١٦). واثنان من المغاربة، وهما: ابن عطية (ت ٥٤١)، وابن العربي (ت ٥٤٣)، ولكل واحد من هؤلاء المفسرين منهجٌ متميِّز في تفسيره.

ويبرز من هؤلاء المفسرين الكبار في القرن السادس: الإمام القاضي أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي رحمه الله تعالى.

أسرة ابن عطية العلمية وأثرها في نبوغه العلمي: ينحدر بنو عطية من سلالة عربية، ويتمون إلى أصل عريق، فجدُّهم الذي انتسبوا إليه هو: عطية بن خالد بن خِفاف المُحاربي، أحد الجنود الذين قدموا لفتح الأندلس، ونزل قشتالة، وهي قرية تابعة لغرناطة. والده هو الإمام الحافظ أبو بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب الأندلسي الغرناطي المالكي (٤٤١ - ٥١٨)، سمع من علماء الأندلس في عصره، وارتحل إلى المشرق، فحجَّ بيت الله الحرام. قال عنه تلميذه ابن بَشْكُوَال في «الصلة» (٤٥٨: ٢): «كان حافظاً للحديث وطُرقه وعِلِّله، عارفاً بأسماء رجاله ونَقَلَيْهِ، منسوباً إلى فهمه، ذاكرًا لمتونه ومعانيه، وقرأت بخط بعض أصحابنا أنه سمعه يذكر أنه كرَّر البخاري سبع مئة مرة». قال: «وكان أديباً شاعراً لغوياً، ديناً فاضلاً، أكثر النَّاس عنه، وكُفُّ بصره في آخر عمره». وَرِثَ عبدالحق عن

(١) مصادر ترجمته: الصلة ٣٨٦: ٢ - ٣٨٧، بغية الملتبس: ٣٧٦، معجم ابن الأبار: ٢٦٩ - ٢٧٣، صلة الصلة، لابن الزبير: ٢، سير أعلام النبلاء: ١٩ - ٥٨٧، الديباج المذهب: ٥٧: ٢ - ٥٨، بغية الوعاة: ٧٣: ٢ - ٧٤، طبقات المفسرين، للسيوطي: ١٦ - ١٧، طبقات المفسرين للدودوي: ٢٦٠: ١ - ٢٦١، نفع الطيب: ٦٧٩: ١، كشف الظنون: ٤٣٩ و ١٦١٣، شجرة النور الزكية: ١٢٩: ١، ومن الدراسات المعاصرة: منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم لأستاذنا الدكتور عبد الوهاب فايد، نشر مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٣، وجُل ما كتبه هنا استفدته منه، ومقدمة المحققين لطبعة قطر: ١: ٢٠، ومقدمة فهرس ابن عطية ص ٩ - ٣٧ وذكر المحققان أنَّ للأستاذ صالح باجية دراسة عن ابن عطية وتفسيره أعدها لنيل الدكتوراة بإشراف الدكتور علي الشامي، ونوقشت بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين سنة ١٤٠١.

هذه الأسرة ما كان لها من مواهب علمية، فَلَاخَتْ عليه إمارات النبوغ، ومخايل الذكاء منذ نعومة أظفاره.

ولادته وعصره: ولد سنة ٤٨١ بعد عامين من معركة الزلاقة التي انتصر فيها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين على الجيوش النصرانية. وعاش في عصر المرابطين الذين قضوا على الخطر الصليبي الذي كان يهدد المسلمين، وقضوا على حكم ملوك الطوائف في الأندلس.

عاصر ابن عطية العهد المرابطي منذ دخوله الأندلس إلى نهايته، وقد انتعشت الحركة العلمية في عصرهم، وانتشرت المدارس، وقد حفلت كتب التراجم والطبقات بتراجم كثير من المفسرين والمحدثين والفقهاء والنُّحاة واللغويين والمؤرخين الذين نبغوا في هذا العصر المرابطي.

شيوخه: تتلمذ ابن عطية على كثير من شيوخ عصره، تكوَّنت على أيديهم شخصيته العلمية، ونَمَت ملكاته ومواهبه^(١). وفي مقدمة شيوخه والده الحافظ أبو بكر غالب بن عبد الرحمن (٤٤١ - ٥١٨)، والحافظ الناقد أبو علي الغساني (٤٢٧ - ٤٩٨)، والحافظ أبو علي الصَّدفي (ت ٥١٤)، والإمام المقرئ ابن الباذش (٤٤٤ - ٥٢٨)، والفقيه أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عثاب القرطبي (٤٣٣ - ٥٢٠).

نشأة ابن عطية العلمية: نشأ ابن عطية أول ما نشأ في مدينة غرناطة، وكانت حافلة بمدارس العلم، وأقبل على طلب العلم بجِدٍّ ونشاط، بفضل رعاية والده وحُسن توجيهه، وقد استمرت هذه الرعاية إلى الوقت الذي قام فيه عبدالحق بكتابة تفسيره.

ذكر الضبي في «بغية الملتبس» (ص ٤٢٧): أنَّ والده كان ربما أَيْقَظ ابنه في الليل مرَّتين، يقول له: «قم يا بني، اكتب كذا وكذا في موضع كذا من تفسيرك». وقرأ على والده كتب الحديث والتفسير والفقه واللغة، كما أنه استجاز له بعض الإجازات العلمية. وسعى عبدالحق للقاء العلماء واستجازتهم، ومنهم محمد بن أبي غالب القيرواني استجازه عند دخوله غرناطة سنة ٤٩٤ ولم يتجاوز عمره ثلاثة عشر عاماً، ولقي أبا علي الغساني واستجازه سنة ٤٩٥، وكان يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً. ولم يقنع بالإجازة العلمية، فارتحل إلى عواصم الأندلس وحواضرها لقراءة الكتب على الشيوخ، هذا ولم يبلغ ابن عطية من العمر عشرين عاماً حتى كان قد اتَّصل بأعظم علماء الأندلس، فَرَحَلَ إلى قرطبة، وإشبيلية، ومرسية، وبلنسية، وحيَّان.

مكانته العلمية: أجمع الذين ترجموا له على سَعَةِ معرفته وتفنُّنه في العلوم. قال ابن بَشْكُوَال في «الصلة»: «كان واسعَ المعرفة، قويَّ الأدب، متفناً في العلوم». وقال ابن فُرحون في «الديباج المذهب» (ص ١٧٤): «كان القاضي أبو محمد عبدالحق، فقيهاً عالماً بالتفسير والأحكام والحديث والفقه والنحو واللغة والأدب». وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٩: ٥٨٧): «الإمام العلامة، شيخ المفسرين.. وكان إماماً في الفقه، وفي التفسير، وفي العربية، قويَّ المشاركة، ذكياً فطناً مُدركاً، من أوعية العلم».

آثاره العلمية: وأكبر دليل على تبحُّره في العلم، وتفنُّنه فيه، ما أنتجه هذا الإمام، وما تركه من آثار علمية وأدبية، تشهد له بالإمامة. وقد تجلَّت هذه الآثار في مجالات ثلاثة: مجال التأليف، ومجال الشعر والأدب، ومجال

(١) وقد ترجم لشيوخه في «فهرسه» وقال في مقدمته: «هذه تسمية من لقيته من الشيوخ حَمَلَةَ العلم، وذكر ما رويته عنهم، ومن أجازني» وبلغ عددهم ٣٠ شيخاً. وقال في خاتمة «فهرسه»: هذا ذكر من لقيته من الشيوخ الذين رَوَيْت عنهم - أسأل الله أن ينفعني بصحتهم - وذكر من حدثني ممن لم ألقه» وقد صدر «فهرسه» بتحقيق الأستاذين محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، وصدرت الطبعة الأولى عن دار الغرب الإسلامي ١٩٨٠.

التلمذة عليه. ففي مجال التأليف وضع كتابه العظيم في تفسير القرآن الكريم - وسيأتي الحديث عنه -، وألف «فهرسة» ضمّنها مروياته وأسماء شيوخه. وأما مجال الشعر والأدب، فقد كان ابن عطية شاعراً كبيراً. ومن شعره يصف الزمان وأهله:

داء الزمان وأهله
أطلعت في ظلماته
لصحابة أعيانها
أخلاقهم ماء صفا
كالدرّ ما لم تختبر
وله يتخلق بأخلاق الشيب ويندب الشباب:

داء يعمّر له السعلاج
ودأ كما سطع السراج
في من قناتهم اعوجاج
مرأى ومطعمهم أجاج
فلذا اختبرت فهُم زجاج

ربعانه وليالي العيش أسحار
ورونق العمر غرض والهوى جاز

سقياً لعهد شباب ظللت أمرح في
أيام روض الصبا لم تذو أغصنه

وأما مجال التلاميذ، فقد رحلوا إليه من كل مكان، وانتفع به خلق كثير، وأذكر من هؤلاء على سبيل المثال^(١): الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي (ت ٥٧٥)، والإمام الحافظ أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد المعروف بابن حبيب (٥٠٤ - ٥٨٤)، وقد قرأ ابن حبيب على ابن عطية جميع تفسيره بالمرية، والإمام الفقيه أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الملك بن أبي جمره المرسى (٥١٨ - ٥٩٩)، والإمام النحوي أبو جعفر أحمد بن عبدالرحمن بن مضاء اللخمي القرطبي (ت ٥٩٣).

ولايته القضاء: وولي خطة القضاء في مدينة (المرية) سنة ٥٢٩ في آخر دولة المرابطين. قال ابن فرحون في «الدياج المذهب» (ص ١٢٥): «ولما ولي - يعني قضاء المرية - توخى الحق، وعدل في الحكم، وأعز الخطة». وظل في هذا المنصب أكثر من عشر سنوات. قال النباهي في «تاريخ قضاة الأندلس» (ص ١٠٩): «قصد (مرسية)، مولى قضاءها، فصد عن دخولها، وصرف منها إلى (لورقة) اعتداء عليه، فتوفي بها رحمه الله تعالى». وفاته: توفي بحصن لورقة في منتصف رمضان سنة ٥٤١ عن ستين عاماً.

تفسير ابن عطية

تاريخ تأليفه: بدأ ابن عطية في وضع هذا التفسير في وقت مبكر من حياته، فقد سبق في نشأته أن والده الفقيه أبا بكر غالب بن عبدالرحمن كان ربما أيقظ ابنه أبا محمد عبدالحق في الليلة مرتين، يقول له: قم يا بني اكتب كذا وكذا في موضع كذا من تفسيرك. وهذا يدل على أن أباه المتوفى سنة ٥١٨ كان يحثه على كتابة هذا التفسير، ويشجعه على الاستمرار فيه، ويوقظه بالليل كثيراً، يأمره بأن يضع في تفسيره بعض المعاني التي تجول في خاطره. فابن عطية بدأ في تفسيره قبل وفاة أبيه، وقد كان في ذلك الوقت في عتفوان شبابه، إذ كان في حدود الثلاثين، وقد مكث في تأليفه مدة طويلة، ولقي الكثير من المتاعب والمشاق، ويشير إلى ذلك في مقدمة تفسيره حيث يقول: «وأنا

(١) يُنظر مقدمة تحقيق فهرس ابن عطية، فقد عرف بعشرين تلميذاً من تلاميذ ابن عطية ص ١٥ - ١٩.

وإن كُنْتُ من المقصّرين فقد ذكرت في هذا الكتاب كثيراً من علم التفسير، وحملت خواطري فيه على التعب الخطير، وعمرت به زمني، واستفرغت فيه مِنِّي، إذ كتاب الله عزّ وجلّ لا يفسّر إلا بتعريف جميع العلوم فيه، وجعلته ثمرة وجودي، ونخبة مجهودي».

الباعث على تأليفه: ويذكر ابن عطية في مقدمة تفسيره الباعث له على تأليف هذا التفسير، فقال: أنه أراد أن يختار لنفسه، وينظر في علم يعدّ أنواره لظلم رُفْسه، فعلم أنّ شرف العلم على قدر شرف المعلوم، ووُجد أنّ علم كتاب الله هو أمتنّ العلوم حبّالاً، وأرسخها جبالاً، وأجملها آثاراً، وأسطعها أنواراً، وأيقن أنه أعظم العلوم تقريباً إلى الله تعالى، وتخليصاً للثبّات، ونهياً عن الباطل، وحضاً على الصالحات، ورجا من وراء اشتغاله بهذا العلم أنّ الله تعالى يُحرّم على النار فكراً عَمَرْتُهُ أكثر عُمره معانيه، ولساناً مَرَن على آياته ومثانيه، ونفساً مَيَّزَت براءة رُفْفه ومبانيه، وجالت في ميادينه ومعانيه، ومن أجل ذلك كله، ثنى إلى هذا العلم عِنان النظر، وأقطعته جانب الفكر، وجعله فائدة العمر، ثم فرغ إلى كتابة هذا التفسير.

مقدمة تفسيره: وقد مضى ابن عطية في تفسيره بنفس طويل، بعد أن قدّم بين يدي تفسيره بمقدّمات تعطي القارئ بيانات هامة، وتمدّه بأشياء ينبغي أن تكون راسخة في حفظ الناظر في هذا العلم^(١).

وتشمل هذه المقدمات ما يلي:

ما ورد عن النبي ﷺ وعن الصحابة، وعن نبهاء العلماء في فضل القرآن المجيد وصورة الاعتصام به:

فضل تفسير القرآن والكلام على لغته، والنظر في إعرابه ودقائق معانيه.

ما قيل في الكلام في تفسير القرآن، والجرأة عليه، ومراتب المفسّرين.

معنى قول النبي ﷺ: «إنّ هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه».

ذكر جَمْع القرآن وشكله ونقطة وتحزيبه وتغشيره.

ذكر الألفاظ التي في كتاب الله وللغات العجم بها تعلق.

نبذة مما قال العلماء في إعجاز القرآن.

الألفاظ التي يقتضي الإيجاز استعمالها في تفسير كتاب الله تعالى.

تفسير أسماء القرآن وذكر السورة والآية.

مصادر ابن عطية في تفسيره: مصادر ابن عطية في تفسيره كثيرة متنوعة، في التفسير، والقراءات، والحديث، واللغة والنحو.

مصادره من كتب التفسير: من أهم كتب التفسير المشرقية التي تأثر بها ابن عطية وأفاد منها تفسير ابن جرير الطبري (ت ٣١٠) المسمّى «جامع البيان»، وأفاد منه في عنايته بالمأثور، إلا أنه حذف الأسانيد، كما تأثر به في كثير من الآراء. ولم يكن موقفه الناقل الموافق، بل كان كثيراً ما يخالف الطبري، ويناقش أقواله، كما في مناقشته في قصة شك إبراهيم في إحياء الموتى [البقرة].

ومن كتب التفسير التي استقى منها: تفسير النقّاش المسمّى «شفاء الصدور» ومؤلفه هو: أبو بكر محمد بن الحسن بن زياد الموصلي (ت ٣٥١) وهو متهم بالكذب في الحديث. كما تأثر في تفسيره بمصادر مغربية كتفسير

(١) طبع مقدمة ابن عطية مع مقدمة تفسيرية أخرى المستشرق الأسترالي (آرثر جفري) الذي كان أستاذاً في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وقد نشر هاتين المقدمتين تحت عنوان: «مقدمتان في علوم القرآن» في القاهرة سنة ١٩٥٤. وفي نشرته الكثير من التحريف والخطأ.

المهدوي، وأندلسية كتفسير مكي بن أبي طالب القيسي. أما تفسير المهدوي، فهو المسمى «التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل» ومؤلفه هو: أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت ٤٤٠). وأما تفسير مكي فهو كتاب «الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه» ومؤلفه: أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧).

مصادره من كتب القراءات: مصادر ابن عطية في كتب القراءات كثيرة من أبرزها: كتاب «الحُجَّة في علل القراءات السبع» لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي (ت ٣٧٧)، وقد اعتمد عليه اعتماداً كبيراً، واستشهد بكثير من نصوصه وعباراته، كما ناقش أقواله، وانتقد بعض آرائه.

ومن مصادره: «المُخْتَسَب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها» لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢)، وكتب أبي عمرو الداني (ت ٤٤٤) مثل: «التيسير» و«جامع البيان في القراءات».

مصادره من كتب الحديث: ذكر ابن عطية في مقام الاستشهاد في تفسيره كثيراً من الأحاديث النبوية، واعتمد على مصنفات الحديث المشهورة، مثل: «الجامع الصحيح» للبخاري، و«المسند الصحيح» لمسلم، و«السنن» لأبي داود، والترمذي، والنسائي.

مصادره من كتب اللغة والنحو: استمدَّ ابن عطية المادة اللغوية والنحوية في تفسيره من مصادر كثيرة، مثل: «معاني القرآن» للفراء (ت ٢٠٧)، وللزجاج (ت ٣١١)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة مَعْمَر بن المثنى (ت ٢٠٩)، وكتاب «الأغفال» للفارسي (ت ٣٧٧)، و«العين» للخليل بن أحمد (ت ١٧٥)، و«إصلاح المنطق» لابن السكيت (ت ٢٩١)، و«المجمل» لابن فارس (ت ٣٩٥)، و«الكتاب» لسيبويه (١٨٨)، و«المُقتضب» للمبرد (ت ٢٨٥).

مصادره من كتب الفقه: كان ابن عطية مالكي المذهب، ولقد استمدَّ المادة الفقهية في تفسيره من أمهات كتب المذهب المالكي، مثل «المدونة» لسحنون بن سعيد (ت ٢٤٠)، و«الواضحة» لعبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨)، و«التفريع» لأبي القاسم بن الجلاب (ت ٣٧٨)، كما اعتمد ابن عطية في مسائل الخلاف بين أصحاب المذاهب الفقهية على كتاب «الإشراف على مذاهب أهل العلم في الاجتماع والاختلاف» لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت ٣٠٩).

مصادره من كتب التوحيد: انتفع ابن عطية في مجال التوحيد بكتب الإمام أبي الحسن الأشعري (ت ٣٣٤)، وكتب القاضي أبي بكر الباقلاني كـ «التمهيد» وغيره، وكتب أبي المعالي الجويني إمام الحرمين (ت ٤٧٨) كـ «الإرشاد» وغيره.

منهج ابن عطية في التفسير

يقوم منهج ابن عطية في تفسيره على عدة أسس، نبرزها فيما يلي:

جمعه بين المأثور والرأي:

جمع ابن عطية في تفسيره بين المأثور والرأي الذي يقوم على قوانين العلم والنظر السديد. وقد تجلت عناية ابن عطية بالمأثور فيما ذكره في تفسيره من الأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين. ولكنه لا يلتزم بتخريج الأحاديث

النّبوة، ونسبتها إلى مصادرها، في بعض الأحيان. ومما ينبّه عليه أنه أورد في تفسيره أحاديث ضعيفة في غاية الضعف، بل موضوعة، وهو أمر يؤخذ عليه، ويُنتقد تفسيره بسببه. كالحديث الذي أوردته في فضل آية الكرسي، أنه وقع في نفس موسى: هل ينال الله عزّ وجلّ؟ وهو حديث منكر. قال ابن كثير في «تفسيره»: «هذا حديث غريب جداً، والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع». وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذُكْوَنٌ﴾ [المائدة: ٥٥]، وذكر حديث تصدّق عليّ بخاتمه وهو راكم. وهو حديث موضوع.

موقفه من الإسرائيليات: قلل ابن عطية في تفسيره من ذكر الروايات الإسرائيلية، ونعى على المفسرين إكثارهم منها، وتناول في تفسيره كثيراً من هذه الروايات بالنقد والتحصيل. وذكر في مقدمة تفسيره أنه لا يذكر من القصص الإسرائيلية إلا ما لا تنفك الآية إلا به. ولذلك نجده يختصر من ذكر الروايات الإسرائيلية. قال ابن عطية بعد أن أورد شيئاً مما قاله المفسرون في قصة الملكين هاروت وماروت: «وهذا القصص يزيد في بعض الروايات وينقص في بعض، ولا نقطع منه شيء، فلذلك اختصرته» [البقرة: ١٠٢]. كما أنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ...﴾ [البقرة: ٢٤٨]. يذكر اختلاف المتأولين في كيفية إتيان التابوت، وكيف كان بدء أمره، ثم يعقب على ذلك فيقول: «وكثرت الرواة في قصص التابوت، وصورة حملته، بما لم أر لإثباته وجهاً، للين إسناده». ولم يستطع ابن عطية أن يتخلص من رواية الإسرائيليات، وقد ذكر طرفاً منها دون أن يعقب عليها، متأثراً بالطابع العام الذي طغى على كتب التفسير في عصره.

اتجاهه في تفسيره إلى اللغة والنحو: أقام ابن عطية تفسيره على أساس من اللغة والنحو، في بيان معاني المفردات وإعراب الكلمات، وتصريف المشتقات^(١). فعني عناية تامة بتحديد معنى الكلمات، وشرح مدلولات المفردات. ولذلك يقول في مقدمة تفسيره: «وقصّدت تتبع الألفاظ حتى لا يقع طفرٌ كما في كثير من كتب المفسرين» والطفر: الثوب والقفر، ويعني به هنا: تخطّي وجه الصواب إلى الخطأ في معاني الألفاظ القرآنية. ويكثر في تفسيره من الشواهد الشعرية على معاني القرآن، كما يكثر من ذكر الوجوه الإعرابية في الآية، وبيان المذاهب النحوية^(٢)، كما يرجع بعض الآراء النحوية، ويرد على الآراء الضعيفة.

إقلاله من الأسرار البلاغية في تفسيره: لم يغنِ ابن عطية كثيراً في تفسيره بالأسرار البيانية، والنكات البلاغية، ووجوه الإعجاز البياني، مع أنه يرى أن وجه إعجاز القرآن هو نظمه، وصحة معانيه، وفصاحة ألفاظه. والسُر في ذلك - كما يبيّن الدكتور عبدالوهاب فايد - أن ابن عطية كغيره من الأندلسيين والمغاربة لم يشغل نفسه كثيراً في علوم البلاغة والبيان، ولم يعكف على دراستها والتعمّق في مسائلها. يضاف إلى ذلك أن ابن عطية ضيق دائرة المجاز في القرآن، حيث أنه كان يرى أنه لا مجاز فيما تنأت في الحقيقة. ومن المعلوم أن المجاز بأقسامه هو أهم الفصول في الدراسات البلاغية. على أن تفسير ابن عطية لم يخل من صور بيانية وبلاغية ذكرها، ككلامه عن التشبيه، والاستعارة، والمجاز، والإيجاز، وأبرز بعض الأسرار البلاغية في التعبير القرآني.

توجيه القراءات المستعملة والشاذة: أورد ابن عطية في تفسيره القراءات المستعملة والشاذة، وبين ما تحتمله هذه القراءات من المعاني. قال في مقدمة تفسيره: «وقصّدت إيراد جميع القراءات، مستعملها وشاذها، واعتمدت تبين المعاني وجميع محتملات الألفاظ». وقام بتوجيه هذه القراءات، وكان له نظرات صادقة وآراء سديدة،

(١) انظر مثلاً: كلامه حول اشتقاق لفظ الملائكة عند تفسيره الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) انظر مثلاً: ذكره لمذاهب النحاة البصريين والكوفيين في إعراب كلمة (بسم) في مقدمة تفسيره.

وجهود موفقة^(١)، كما يتقد الوجوه الضعيفة التي ذكرها بعض العلماء^(٢).

منهجه في عرض الأحكام الفقهية: كان ابن عطية إماماً من أئمة المالكية، وفقهياً من كبار فقهاءهم. وذكر في تفسيره أقوال علماء المالكية في المسائل الفقهية وذكر إلى جانب ذلك اجتهادات الفقهاء الأخرى. ونجده يفضل القول في المسألة الواحدة، فيذكر ما قاله علماء المالكية، وما دونوه في كتبهم^(٣). وابن عطية - وهو يعرض للمذاهب الفقهية في تفسيره - لا يرتضي مذهب داود الظاهري، ومتابعة ابن حزم الأندلسي له^(٤). كما يرد بعض الأقوال الضعيفة التي تنقل في بعض المذاهب الفقهية.

تهمة الاعتزال في تفسير ابن عطية: لقد وُجِّهت تهمة الاعتزال إلى تفسير ابن عطية من عالمين كبيرين: أحدهما: هو شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨). قال في مقدمة «أصول التفسير»: «... وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير «الكشاف»... ثم إنه يدَّع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة، لكن ينبغي أن يُعطى كل ذي حق حقه، ويُعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب». وقال ابن تيمية في «الفتاوى»: «وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري، وأصح نقلاً، وأبعد عن البدع. وإن اشتمل على بعضها - بل هو خير منه بكثير، بل لعلّه أرجح هذه التفاسير». وكذلك اتَّهم الإمام ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٣) ابن عطية بالاعتزال، ونقل في «الفتاوى الحديثة» (ص ١٧٢) عن ابن عرفة المالكي أن تفسير ابن عطية - في نظره - أخطر من تفسير «الكشاف»؛ لأن الزمخشري اشتهر بين الناس أمره بالاعتزال، فكانوا في تفسيره على حذر، أما ابن عطية فعُرف أنه سني، ولكنه يدس الاعتزال في تفسيره...». وقد قام بمناقشة هذه التهمة أستاذنا الدكتور عبد الوهاب فايد في كتابه «منهج ابن عطية في تفسير القرآن» (ص ٢٢١ - ٢٦٢) وبين أنها لا تعتمد على أساس صحيح، وأثبت أن ابن عطية كان يتمسك في تفسيره مع مذهب أهل السنة، ولا يحيد عنه، وأنه كان يقوم بالرد على آراء المعتزلة، وانتهى بعد دراسة طويلة متأنية إلى أن تهمة الاعتزال التي نسبت إلى ابن عطية مرفوضة شكلاً وموضوعاً.

القيمة العلمية لتفسير ابن عطية: لقد أجمع العلماء الذين ترجموا لابن عطية أن تفسيره له شأن عظيم. وإليك طائفة من أقوالهم:

قال ابن عميرة الضبي (ت ٥٩٩) في «بغية الملتبس في رجال الأندلس» (ص ٣٧٦): «ألف - يعني ابن عطية - في التفسير كتاباً ضخماً أرى فيه على كل من تقدّم...».

وقال ابن الأبار (ت ٦٥٨) في «المعجم في أصحاب أبي علي الصّديقي» (ص ٢٦١): «وتأليفه في التفسير جليل الفائدة، كتبه الناس كثيراً، وسمعوا منه، وأخذوه عنه».

(١) انظر مثلاً: توجيهه لقراءة (تنسّزها) في قوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْإِطَارِ كَيْفَ تُنْبِئُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وتوجيهه لقراءة ﴿يَخْلُوتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخْلُوتُ أَنَّكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: ٢٣].

(٢) كما في قراءة ﴿وَالْمُتَكَبِّرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَبَرُوا هُنَا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَالزُّكُوفَ﴾ [المائدة: ٦٩]، وقراءة ﴿يَسْهَوُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِالْأَفْهَىٰ يُسْهَوْنَ﴾ [التوبة: ٣٠].

(٣) انظر مثلاً: كلامه عن الهيئات التي تؤدّي عليها الصلاة حالة الغدر عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا...﴾ [آل عمران: ١٩١]. وتفصيله في دخول المرافق في الوضوء أم لا، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَيُّكُمْ إِلَى الْمُرَاقِقِ﴾ [النساء: ١٠٣].

(٤) انظر مثلاً: رده عليه في المريض الذي يجوز له التيمم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ...﴾ [النساء: ٤٣]، وكذلك تضعيفه مذهب أهل الظاهر.

وقال علي بن سعيد (ت ٦٨٥) كما في «نفح الطيب» (٣: ١٧٩): «ولأبي محمد بن عطية الغرناطي في تفسير القرآن الكتاب الكبير الذي اشتهر وطار في الغرب والشرق، وصاحبه من فضلاء المائة السادسة».

وقال أبو الحسن النباهي (ت قبل سنة ٨٠٠) في «تاريخ قضاة الأندلس» (ص ١٠٩): «وَأَلَّفَ كتابه المسمى بالوجيز في التفسير، فجاء من أحسن تأليف، وأبدع تصنيف».

وقال الإمام المفسر محمد بن أحمد بن جُزي الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١) في مقدمة تفسيره «التسهيل لعلوم التنزيل» (١: ١٠): «وأما ابن عطية، فكتابه في التفسير أحسن التأليف وأعدلها، فإنه أطلع على تأليف مَنْ كان قبله، فهذبها ولخصها، وهو - مع ذلك - حسن العبارة، مُسَدِّد النظر، محافظ على السِّتَةِ».

وقال الإمام المفسر أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي (ت ٧٤٥) في مقدمة تفسيره «البحر المحيط» (١: ٩): «مُثْنِياً على تفسيري الزمخشري وابن عطية: «إنهما أَجَلُ مَنْ صَنَّفَ في علم التفسير، وأفضل مَنْ تعرض للتنقيح والتحرير» كما يقول عن كتابيهما: «إنهما أنجدا وأغارا، وأشرقا في سماء هذا العلم بِذَرْنِ وَأَنَارَا، وتنزلاً من الكتب التفسيرية منزلة الإنسان من العين، والذهب الإبريز من العين، وبيمة الدهر من اللآلي، وليلة القدر من الليالي».

وقال ابن خلدون في «مقدمته» (٣: ٩٩٨): «فلما رجع الناس إلى التحقيق وللمتحيص، وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب، فلخص تلك التفاسير كلها، وتحري ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس، حسن المَنَحَى».

وقال الإمام المفسر المحدث السيوطي (ت ٩١١) في «بغية الوعاة» (ص ٢٩٥): «وَأَلَّفَ تفسير القرآن الكريم، وهو أصدق شاهد له بإمامته في العربية وغيرها».

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور في المقدمة الأولى من مقدمات تفسيره «التحرير والتنوير» (١: ١٤): «مقارناً بين تفسير ابن عطية والزمخشري: «كلاهما يغوص على معاني الآيات، ويأتي بشواهدا من كلام العرب. ويذكر كلام المفسرين، إلا أنَّ منحى البلاغة والعربية بالزمخشري أحض، ومنحى الشريعة على ابن عطية أغلب، وكلاهما عضدنا الباب، ومرجع مَنْ بعدهما من أولي الأبواب».

تأثر المفسرين المغاربة بتفسير ابن عطية

كان لتفسير ابن عطية أثر كبير فيمن جاء بعده من المفسرين المغاربة، وقد ظهر هذا الأثر واضحاً جلياً في أربعة من كتب التفسير، وهذه الكتب هي:

- ١ - الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١).
- ٢ - التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جُزي الكلبي الغرناطي (ت شهيداً ٧٤١).
- ٣ - البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي (ت ٧٤٥).
- ٤ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لأبي زيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري (ت ٨٧٦).

تأثر القرطبي بتفسير ابن عطية في كتابه «الجامع لأحكام القرآن»: لقد تأثر القرطبي بتفسير ابن عطية منهجاً وموضوعاً، ونقل الكثير من نصوصه في تفسيره، ونسب هذه النصوص إليه، وأغفل ذلك في بعض الأحيان. وتناول القرطبي الكثير من كلام ابن عطية بالشرح والتعليق، وطوراً بالنقد والتعقيب^(١). ومما تميَّز به

القرطبي في «تفسيره» تخريج الأحاديث النبوية التي أوردها في تفسيره، إلا أنه تابع ابن عطية في إيراد بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة^(١).

تأثر ابن جُزَي بتفسير ابن عطية في كتابه «التسهيل»: يعدُّ تفسير ابن عطية مصدراً أساسياً وهاماً لكتاب «التسهيل»، وقد اعتبره «أحسن التأليف وأعدلها» كما في مقدمة تفسيره. ومن مظاهر تأثر ابن جُزَي بابن عطية: وضُّعه لمقدمة في علوم القرآن قَدَّم بها لتفسيره، وهي تشبه إلى حد كبير مقدمة ابن عطية، ويتدُّد اسم ابن عطية في تفسير ابن جُزَي، ويقتبس منه في بعض الأحيان دون أن يشير إليه، ويقلده في اختياراته لبعض الأقوال أو نقده وتضعيفه لها. كما يناقشه في بعض المواضع^(٢).

تأثر أبي حيان بتفسير ابن عطية في كتابه «البحر المحيط»: لقد نوَّه أبو حيان في مقدمة تفسيره بابن عطية، وكان تفسير ابن عطية في مقدمة التفاسير التي أفاد منها أبو حيان فائدة عظيمة، وانتفع بها انتفاعاً كبيراً، وتأثر بها تأثراً بالغاً. وقد عُني في تفسيره بالمدلول اللغوي، والإعراب النحوي، وجمع القراءات المستعملة وتوجيهها، ونقل في كتابه كثيراً من نصوص هذا التفسير، ونسب النقول إليه بدقة، وتناول كلامه بالشرح والتحليل تارة، وبالنقد والمناقشة تارة أخرى. ولا تكاد تخلو صفحة من صفحات تفسيره إلا وله فيها رد على ابن عطية أو مناقشة له، وتعقيباته - في أغلب الأحيان - ترجع إلى النحو والقراءات. ونظراً لكثرة ما أثاره أبو حيان في كتابه «البحر» مع ابن عطية من الانتقادات والتعقيبات النحوية قام أحد تلاميذه، وهو تاج الدين أحمد بن عبد القادر بن مكتوم (ت ٧٤٩هـ) فجمع تعقيبات أبي حيان على ابن عطية، وتعقباته كذلك على الزمخشري في كتاب أسماء: «الدر اللقيط من البحر المحيط»، وهو مطبوع على حاشية «البحر المحيط». كما قام أحد العلماء، وهو يحيى بن محمد الشادي (ت ١٠٩٦هـ) بتأليف كتاب في هذا الموضوع باسم: «المحاكمات بين أبي حيان وابن عطية والزمخشري» ناقش فيه أبا حيان في ردوده ومناقشاته.

اختصار الثعالبي لتفسير ابن عطية في كتابه «الجواهر الحسان»: لقد قام الإمام عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي في تفسيره «الجواهر الحسان» في تفسير القرآن باختصار تفسير ابن عطية، ثم أضاف إليه بعض الفوائد التي أخذها من كتب المفسرين السابقين وغيرهم. يقول في مقدمة تفسيره (١: ٣): «إني جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر ما أرجو أن يُقرَّ الله به عيني وعينك في الدارين، فقد ضُمَّنته - بحمد الله - المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية، وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة، وثقات أعلام هذه الأمة... ولم أنقل شيئاً من ذلك بالمعنى، خوف الوقوع في الزلل، وإنما هي عبارات وألفاظ لمن أعزوها إليه». وقد حذف الثعالبي في «تفسيره» الشواهد الشعرية، والوجوه النحوية، وأقلَّ من ذكر القراءات. ولم تنحصر مهمته في النقل من تفسير ابن عطية، بل كان له جهود في التعليق على «تفسيره»، والتعقيب عليه، ومن ذلك: تخريج الأحاديث التي أوردها ابن عطية من غير تخريج، وتعليقه على كلام ابن عطية بما يزيده وضوحاً وبياناً^(٣). هذا، وقد أُلِف

(١) انظر أمثلة على تساهل القرطبي رحمه الله تعالى في إيراد بعض الأحاديث المنكرة والموضوعة في مواضع من «تفسيره»، وخالف عادته في إيراد الأحاديث معزوة إلى مصادرها ومخرجها في «التعليقات الحافلة» لشيخنا العلامة عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى على «الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة» ص ١٣٦ - ١٣٩.

(٢) انظر: كتاب ابن جُزَي ومنهجه في التفسير للأستاذ الشيخ علي محمد الزبيري رحمه الله تعالى ١: ٢٨١ - ٢٨٦، وقد أغفل أستاذنا الدكتور عبد الوهاب في مبحث تأثر المغاربة بتفسير ابن عطية في رسالته القيمة «منهج ابن عطية» تأثر ابن جُزَي به.

(٣) منهج ابن عطية في تفسير القرآن ص ٢٩٤ - ٢٩٩.

عبدالعزیز بن بزیة التیمی التونسي تفسیراً جمع فيه بین ابن عطية والزمخشري، وتوفي ابن بزیة سنة ٦٦٢. ومن كبار المفسرين المغاربة الذين تأثروا بابن عطية من المعاصرين العلامة الإمام المفسر محمد الطاهر بن عاشور في كتابه «التحرير والتنوير». ومع عناية المغاربة بتفسير ابن عطية، فقد ذاع صيته حتى عند علماء المشاركة. قال ابن فرحون في «الديباج» (١: ٤٥٥) في ترجمة عمه العلامة أبي محمد عبدالله بن فرحون اليعمری المدني المولد والمنشأ المتوفى سنة ٧٦٩: «سمعتة يقول: لازمت تفسير ابن عطية حتى كدت أحفظه»^(١).

طباعات هذا التفسير: بقي هذا التفسير حبيس الخزائن والمخطوطات الدفينة، ولم تتوجه الهمم إلى طباعته مع النهضة العلمية التي توجهت لطباعة أمهات كتب التفسير، إلى أن قامت وزارة الأوقاف المغربية بخدمة الكتاب وطباعته، بتحقيق المجلس العلمي للقرويين بفاس معتمدة في نشره على عدة نسخ منها نسخة من خزنة القرويين، والخزانة الناصرية، ومن سوس ومراكش وغيرها. وصدر سنة ١٣٩٥ في ستة عشر مجلداً، ثم طبع ثانية بقطر سنة ١٣٩٨ على نفقة أمير قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني وصدر في ثلاثة عشر مجلداً، بتحقيق وتعليق الرحالي الفاروقي، وعبدالله الأنصاري، والسيد عبد العال السيد إبراهيم، ومحمد الشافعي صادق العناني، واعتمدوا في تحقيقه على ست نسخ مخطوطة، وعنوا بتصحيحه وإخراجه بالمستوى اللائق. كما صدر جزءان من التفسير إلى الآية ٩٣ من سورة آل عمران عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف بمصر، بتحقيق الأستاذ أحمد صادق الملاح. وعن طبعة قطر المحققة تقوم «دار ابن حزم» ببيروت بتقديم الكتاب للقراء في مجلد واحد، وقد اجتهدت في مقابلته وتصحيحه. ونحن الآن في عصر تيسير المعلومات وتقديمها لطلابها في أقل وقت وأصغر حجم. . . ولذلك فقد اجتهدت «دار ابن حزم» في تقديم كتب التراث الضخمة في حجم صغير، أشبه ما يكون بالمعجم الذي يسهل مراجعته، ويخف حمله، ويحقق للقارئ طلبته في وقت قصير. . . ولم يعد مع انتشار الكتب وطباعتها بالكم الهائل، يتيسر للقارئ التهم متابعتها، ولا شراؤها، ولا يتسع لها المكان ولا الزمان ولا المال.

وقد أصدرت «دار ابن حزم» في سبيل تقريب المصادر وأمهات الكتب إلى القراء عدة من التفاسير، في مجلدة واحدة، منها: «تفسير ابن كثير»، و«فتح القدير» للشوكاني، و«زاد المسير» لابن الجوزي، ومنها في الستة: «صحيح البخاري»، و«صحيح مسلم»، و«سنن أبي داود»، و«الترمذي»، و«النسائي»، و«ابن ماجه»، و«نيل الأوطار» للشوكاني، وفي السيرة والتاريخ: «زاد المعاد» لابن القيم، و«البداية والنهاية» لابن كثير. وتتابع جهودها في هذا الميدان متوخية تيسير هذه المراجع لتكون في متناول طلاب العلم، يسهل عليهم اقتناؤها، ومراجعتها، والاستفادة منها. على أن ذلك لا يغني الباحث المتطلع - رغم الجهود المبذولة في التصحيح والمقابلة - عن مراجعة الأصول، والتحقق من سلامة النص وصحته، سائلاً المولى سبحانه أن يرزقنا حسن القصد، وأمانة العلم، ودقة الفهم، وراشد العمل وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

قاله وكتبه:

مجد مكي

جدة الجمعة ٢٢ / محرم / ١٤٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة الكتاب ومقدمته

وهي تشتملُ على أنواعٍ من علوم القرآن: كالقول في فضائله، وتأويل آياته، وكجمعه وإعجازه وعربيّته، وكتفسير الأحرف السبعة الواردة في شأنه.

«تفسير ابن عطية خير من الزمخشري، وأصح نقلاً وبحثاً، وأبعد عن البدع... بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير».

(ابن تيمية)

«لَمَّا رَجَعَ النَّاسُ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالتَّمْحِصِ، وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْحَقِّ ابْنُ عَطِيَّةٍ مِنَ الْمَتَأَخِّرِينَ بِالْمَغْرِبِ، فَلَخَّصَ تِلْكَ التَّفَاسِيرَ كُلَّهَا، وَتَحَرَّى مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّحَّةِ مِنْهَا».

(ابن خلدون)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

الحمد لله الذي بَرَأَ النَّسَمَ، وَأَفَاضَ النَّعْمَ، وَمَنَحَ الْقِسْمَ، وَسَوَّىٰ مِنْ تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ الْعِصْمَ؛ ذِي الْعِزَّةِ الْقَاهِرَةِ، وَالْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ، وَالْآلَاءِ الْمَتَظَاهِرَةِ، الَّذِي أَوْجَدَنَا بَعْدَ الْعَدَمِ، وَجَعَلَنَا الْخِيَارَ الْوَسْطَ مِنَ الْأُمَمِ، وَخَوَّلَنَا عَوَارِفَ لَا تُخْصَى، وَهَدَانَا شِرْعَةً رَمَتْ بِنَا مِنْ رِضْوَانِهِ إِلَى الْغُرُضِ الْأَقْصَى.

أَنْزَلَ إِلَيْنَا الْقُرْآنَ الْعَزِيزَ، وَعَدَّ فِيهِ وَبَشَّرَ، وَأَوْعَدَ وَحَذَّرَ، وَنَهَى وَأَمَرَ، وَأَكْمَلَ فِيهِ الدِّينَ، وَجَعَلَهُ الْوَسِيلَةَ النَّاجِعَةَ، وَالْحَبْلَ الْمَتِينَ، وَيَسَّرَهُ لِلذِّكْرِ، وَخَلَّدَهُ غَابِرَ الدَّهْرِ، عِصْمَةً لِلْمُعْتَصِمِينَ، وَنَوَّرَ سَاطِعاً فِي مَشْكَلَاتِ الْمُخْتَصِمِينَ، وَحُجَّةً قَائِمَةً عَلَى الْعَالَمِ، وَدَعْوَةً شَامِلَةً لِفِرْقِ بَنِي آدَمَ. كَلَامُهُ الَّذِي أَعْجَزَ الْفُصَحَاءَ، وَأَخْرَسَ الْبُلْغَاءَ، وَشَرَّفَ الْعُلَمَاءَ. لَهُ الْحَمْدُ دَائِباً، وَالشُّكْرُ وَاصِباً، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ.

- وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ الْكَرِيمِ، صِفْوَتِهِ مِنَ الْعِبَادِ، وَشَفِيعِ الْخَلَائِقِ فِي الْمَعَادِ، صَاحِبِ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَالْحَوْضِ الْمُرُودِ، النَّاهِضُ بِأَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ وَالتَّبْلِيغِ الْأَعْظَمِ، وَالْمَخْصُوصُ بِشَرَفِ السَّعَايَةِ فِي الصَّلَاحِ الْأَعْظَمِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ صَلَاةً مُسْتَمِرَّةً الدَّوَامِ، جَدِيدَةً عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ.

وَبَعْدَ - أَرْشَدَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكَ - فَإِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ الْعُلُومَ فَنُوناً، وَحَدِيثَ الْمَعَارِفِ شُجُوناً، وَسَلَكْتُ فَإِذَا هِيَ أَوْدِيَّةٌ، وَفِي كُلِّ لِسَلَفٍ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وَأَنْدِيَّةٌ، رَأَيْتُ أَنَّ الْوَجْهَ لِمَنْ تَشَوَّقَ لِلتَّحْصِيلِ، وَعِزَمَ عَلَى الْوُصُولِ؛ أَنَّ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ طَرَفٍ خِيَاراً، وَلَنْ يَذُوقَ النَّوْمَ - مَعَ ذَلِكَ - إِلَّا غِرَاراً، وَلَنْ يَرْتَقِيَ هَذَا النَّجْدَ، وَبِيلُغَ هَذَا الْمَجْدِ، حَتَّى يُنْضِيَ مَطَايَا الْجَهْدِ، وَيَصِلَ التَّأْوِيْبَ بِالْإِسَادِ، وَيَطْعَمَ الصَّبْرَ وَيَكْتَحِلَ بِالسُّهَادِ، فَجَرَيْتُ فِي هَذَا الْمَضْمَارِ صَدْرَ الْمُعْمَرِ طَلْقاً، وَذَهَبْتُ حَتَّى تَفَسَّخْتُ أَتِنَا، وَتَصَبَّبْتُ عَرْقاً، إِلَى أَنْ انْتَهَجَ بِفَضْلِ اللَّهِ عَمَلِي، وَخَزْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا قُسِمَ لِي، ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى مَنْ اخْتَبَى، وَتَخَيَّرَ مِنَ الْعُلُومِ وَاجْتَبَى، أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عُلُومِ الشَّرْعِ، يَسْتَنْفِذُ فِيهِ غَايَةَ الْوُسْعِ، يَجُوبُ آفَاقَهُ، وَيَتَّبِعُ أَعْمَاقَهُ، وَيَضْبِطُ أَصُولَهُ، وَيُخَيِّمُ فُصُولَهُ، وَيُلْخِصُ مَا هُوَ مِنْهُ، أَوْ يُؤَوِّلُ إِلَيْهِ،

وفي بدفع الاعتراضات عليه، حتى يكون لأهل العلم كالحصن المشيد، والذخر العتيد، يستندون إليه في أقواله، ويختدّون على مثاله.

فلما أردت أن أختار لنفسي، وأنظر في علم أعيد أنواره لظلم رمسي؛ سبّرتها بالتنوع والتقسيم، وعلمت أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم، فوجدت أمّنتها حبلاً، وأرسخها جبلاً، وأجمّلها آثاراً، وأسّطعها أنواراً: عِلْمُ كتاب الله جلّت قدرته، وتقدّست أسماؤه، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ الذي استقل بالسُّنة والقرّض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، هو العلم الذي جعل للشرع قواماً، واستعمل سائر المعارف خُدّاماً، منه تُؤخذ مبادئها، وبه تعتبر نواشيتها، فما وافقه منها نصّح، وما خالفه رُفِض ودُفِع، فهو عُصْرُها النмир، وسراجها الوهاج، وقمرها المنير. وأيقنت أنه أعظم العلوم تقريباً إلى الله تعالى، وتخليصاً للنيات، ونهياً عن الباطل، وحضاً على الصالحات، إذ ليس من علوم الدنيا فيخيلُ حامله من منازلها صينداً، ويمشي في التلطف لها رويداً. ورجوت أن الله تعالى يُحرّم على النار فكراً عمّرتُه - أكثر عُمره - معانيه، ولساناً مرّ على آياته ومثانيه، ونفساً ميّزت براعة رُضفِهِ ومبانيه، وجالت صوامها في ميادينه ومغانيه. فتنّيت إليه عينان النظر، وأقطعته جانب الفكر، وجعلته فائدة العُمر. وما ونيت - عِلْمُ الله - إلا عن ضرورةٍ بحسب ما يُلْم في هذه الدار من شغوب، ويمس من لغوب. أو بحسب تعهد نصيب من سائر المعارف. فلما سلكت سبيله بفضل الله ذللاً، وبلغت فيه من أطراد الفهم أملاً، رأيت أن نُكثّه وفوائده تغلب قوة الحفظ وتَفدّح، وتسعّ لمن يروم تقييدها في فكره وتبرج، وأنها قد أخذت بحظها من الثقل، فهي تنقّص من الصّدر تفصي الإبل من العقل. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَلَقْنَا عَنَتَكَ قَوْلًا نَّيْلًا﴾ قال المفسرون: أي عِلْم معانيه والعمل بها، وقد قال النبي ﷺ: «قِيدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ».

ففرغت إلى تعليق ما يتنخل لي في المناظرة من علم التفسير، وترتيب المعاني، وقصدت أن يكون جامعاً وجيزاً محرراً، لا أذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به، وأثبت أقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم، على ما تلقى السلف الصالح رضوان الله عليهم كتاب الله تعالى من مقاصده العربية السليمة من إلحاد أهل القول بالرموز واللغز، وأهل القول بعلم الباطن، وغيرهم، فمتى وقع لأحد من العلماء الذين قد حازوا حُسن الظن بهم لفظ ينحو إلى شيء من أغراض الملحدين نبهت عليه.

وسردت التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية: من حكم، أو نحو، أو لغة، أو معنى، أو قراءة، وقصدت تتبّع الألفاظ حتى لا يقع طفر كما في كثير من كتب المفسرين.

ورأيت أن تصنيف التفسير كما صنع المهدوي رحمه الله مُفرّق للنظر، مشعّب للفكر، وقصدت إيراد جميع القراءات مستعملها وشاذها، واعتمدت تبين المعاني وجميع احتمالات الألفاظ، كل ذلك بحسب جهدي، وما انتهى إليه علمي، وعلى غاية من الإيجاز وحذف فضول القول. وأنا أسأل الله جلّت قدرته أن يجعل ذلك كله لوجهه، وأن يُبارك فيه، وينفع به، وأنا وإن

كنت من المقصرين فقد ذكرت في هذا الكتاب كثيراً من علم التفسير، وحملت خواطري فيه على التعب الخطير، وعَمَزْتُ به زماني، واستفرغْتُ فيه مَنِّي. إذ كتاب الله تعالى لا يتفسَّر إلا بتصريف جميع العلوم فيه، وجعلته ثمرة وجودي، ونُجْبَةً مجهودي. فَلْيَسْتَضَوِّبْ للمرء اجتهاده، وَلْيَعْذُرْ في تقصيره وخطئه، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولنقدّم بين يدي القول في التفسير أشياء قد قدّم أكثرها المفسرون، وأشياء ينبغي أن تكون راسخة في حفظ الناظر في هذا العلم، مجتمعة لذهنه.



باب

ما ورد عن النبي ﷺ وعن الصحابة ونبهاء العلماء رضي الله عنهم في فضل القرآن المجيد وصورة الاعتصام به

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ سَتَكُونُ فِتْنٌ كَقِطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ». قيل: فَمَا النِّجَاةُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، فِيهِ: نَبَأٌ مَنْ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرٌ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ فَضْلٌ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَه تَجَبَّرَ قِصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَنَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَثَوْرُهُ الْمُبِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَنْشَعِبُ مَعَهُ الْأَرَاءُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَمَلُهُ الْأَنْقِيَاءُ، مَنْ عَلِمَ عِلْمَهُ سَبَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ اعْتَصَمَ بِهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، وقال أنس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَدْ اسْتَسْكَ بِالْقُرْآنِ الْوَيْقْنَ﴾ قال: هي القرآن.

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيَتَوَرَّ الْقُرْآنَ».

وقال رسول الله ﷺ: «اتْلُوا هَذَا الْقُرْآنَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْجُزُكُمْ بِالْحَرْفِ مِنْ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ أَلَمْ حَرْفٍ، وَلَكِنْ الْأَلْفَ حَرْفٌ، وَاللَّامَ حَرْفٌ، وَالْمِيمَ حَرْفٌ». وروى عنه ﷺ أنه قال في آخر خطبة خطبها وهو مريض: «أيها الناس: إني تارك فيكم الثقلين، إنه لن تغمي أبصاركم، ولن تضيّل قلوبكم، ولن تنزل أقدامكم، ولن تقصر أيديكم، كتاب الله سبب بينكم وبينه، طَرَفُهُ بِيَدِهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فاعملوا بِمُحْكَمِهِ، وَأَمِنُوا بِمُتَشَابِهِهِ، وَأَجَلُوا حِلَالَهُ، وَحَرَّمُوا حَرَامَهُ، أَلَا وَعِثْرَتِي وَأَهْلَ بَيْتِي هُوَ الثَّقَلُ الْآخِرُ، فَلَا تَسْبِعُوهُمْ فَتَهْلِكُوا».

وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لِمَ صار الشعر والخُطْبُ يُمَلُّ ما أُعيد منها والقرآن لا يُمَلُّ؟ فقال: «لأن القرآن حُجَّةٌ على أهل الدهر الثاني، كما أنه حجة على أهل الدهر الأول، فكل طائفة تتلقاه غَضاً جديداً، ولأن كل امرئ في نفسه متى أعاده وفكر فيه، تلقى منه في كل مرة علوماً

غضة، وليس هذا كله في الشعر والخطب».

وقيل لمحمد بن سعيد: ما هذا التزديد للقصص في القرآن؟ فقال: ليكون لمن قرأ ما تيسر منه حظاً في الاعتبار.

وروي عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قرأ القرآن فرأى أَنَّ أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استنصّر ما عظم الله».

وقال ﷺ: «ما مِنْ شافعٍ أفضلَ عندَ الله تعالى من القرآن، لا نبي ولا ملك».

وقال ﷺ: «أفضلُ عبادة أمتي القرآن».

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: «مَنْ قرأ القرآن فقد أذرجت النبوة بينَ جنبيه، إلا أنه لا يوحى إليه».

وحدث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومَنْ قرأ مائتي آية لم يكتب من الغافلين، ومَنْ قرأ ثلاثمائة آية لم يحاجه القرآن».

وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «أشرف أمتي حملة القرآن».

وروي عن عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى آخر الآية، فقال: سابقكم سابق، ومقتصدكم ناج، وظالمكم مغفور له.

وقال رسول الله ﷺ: «ألا إِنَّ أَصْفَرَ البيوت بَيْتَ صَفِيرٍ مِنْ كتاب الله». وروى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «القرآن شافع مُشَفَّع، وماحِل مُصَدَّق، مَنْ شَفَعَ له القرآن نجا، ومن مَحَلَ به القرآن يوم القيامة كبه الله لوجهه في النار، وأحقُّ مَنْ شَفَعَ له القرآن أهله وحمَلته، وأولى مَنْ مَحَلَ به مَنْ عَدَلَ عنه وَضِيَعُهُ».

وقال ﷺ: «إِنَّ الذي يتعاهد القرآن ويشتدُّ عليه، له أَجْران، والذي يقرأ القرآن وهو خفيف عليه، مع السَّفَرَةِ، الكرام البررة».

وقال ابن مسعود: ملَّ أصحاب رسول الله ﷺ ملَّةً، فقالوا: يا رسول الله حدثنا، فأنزل الله تعالى ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَتَابًا نَقَشَ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الآية، ثم ملُّوا ملَّةً أخرى، فقالوا: يا رسول الله قُصَّ علينا، فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾.

وروى عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أفضلكم مَنْ تَعَلَّمَ القرآن وعَلَّمه».

وقال عبدالله بن مسعود: إِنَّ كُلَّ مُؤَدِّبٍ يَجِبُ أَنْ يُؤْتِيَ أدبَهُ، وَإِنَّ أدَبَ الله القرآن.

وَمَرَّ أَعْرَابِيٌّ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَعِنْدَهُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، فَقَالَ: مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ لَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ: يَقْتَسِمُونَ مِيرَاثَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَمَرَّتْ امْرَأَةٌ عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَتْ: «طُوبَى لِبَطْنِ حَمَلِكْ، وَلِثَدْيَيْنِ رَضَعْتَهُمَا». فَقَالَ عِيسَى: «طُوبَى لِمَنْ قَرَأَ كِتَابَ اللَّهِ، وَاتَّبَعَ مَا فِيهِ». وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ قَالَ: هُوَ الْقُرْآنُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرِجْمَتِهِ﴾ قَالَ: الْإِسْلَامُ وَالْقُرْآنُ. وَقِيلَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّكَ لَتَقِلُّ الصَّوْمَ. فَقَالَ: إِنَّهُ يَمْنَعُنِي عَنِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَقِرَاءَتُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ.

وَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ، لَمْ تَزَلْ دَارُهُ الْبَارِحَةَ تَزْهَرُ فِيهَا وَحَوْلُهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ؟ فَقَالَ لَهُمْ: «فَلَعَلَّهُ قَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ»، فَسُئِلَ ثَابِتُ ابْنُ قَيْسٍ، فَقَالَ: نَعَمْ، قَرَأْتُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ. وَفِي هَذَا الْمَعْنَى حَدِيثٌ صَحِيحٌ، عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ، فِي تَنْزُلِ الْمَلَائِكَةِ فِي الظُّلَّةِ لَصَوْتِهِ بِقِرَاءَةِ الْبَقَرَةِ.

وَذَكَرَ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي عَنْ عَلِيِّ الْأَثَرَمِ قَالَ: كُنْتُ أَتَكَلَّمُ فِي الْكِسَائِيِّ، وَأَقَعَ فِيهِ، فَرَأَيْتُهُ فِي الْمَنَامِ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ بَيْضٌ، وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فَقَالَ: «غُفِرَ لِي بِالْقُرْآنِ».

وَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ: عَهْدَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ». وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ: إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُبَسِّطَ الْقَوْلُ، وَيُخْزَنَ الْفَعْلُ، وَيُرْفَعَ الْأَشْرَارُ، وَيُوضَعَ الْأَخْيَارُ، وَأَنْ تُقْرَأَ الْمَثَنَاءُ عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ لَا تُغَيَّرُ، قِيلَ: وَمَا الْمَثَنَاءُ؟ قَالَ: مَا اسْتَكْتَبْتَ مِنْ غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ، قِيلَ لَهُ: فَكَيْفَ بِمَا جَاءَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: مَا أَخَذْتُمُوهُ عَمَّنْ تَأْمَنُونَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَدِينِهِ فَاغْتَلُّوهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَتَعَلَّمُوهُ، وَعَلَّمُوهُ أَبْنَاءَكُمْ، فَإِنَّكُمْ عَنْهُ تُسْأَلُونَ، وَبِهِ تُجْزَوْنَ، وَكَفَى بِهِ وَاعِظًا لِمَنْ عَقَلَ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ: إِنَّ إِخْوَانًا لَكَ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ يُقْرِئُونَكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُونَكَ أَنْ تُوَصِّيَهُمْ. فَقَالَ: أَقْرِئُهُمُ السَّلَامَ، وَمُرْهُمْ فَلْيُعْطُوا الْقُرْآنَ خِزَائِمَهُمْ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْقَصْدِ وَالسَّهُولَةِ، وَيُجَنِّبُهُمُ الْجَوْرَ وَالْحُزُونَ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: أَوْصِنِي. فَقَالَ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَأَزْعِهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ.

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ أَحْسَنِ النَّاسِ قِرَاءَةً، أَوْ صَوْتًا بِالْقِرَاءَةِ؟ فَقَالَ: «هُوَ الَّذِي إِذَا سَمِعْتَهُ رَأَيْتَهُ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى».

وَقَالَ ﷺ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ قَوْمٌ يَقْبِمْوْنَهُ كَمَا يَقَامُ الْقَدَحُ، وَيُضَيِّعُونَ مَعَانِيَهُ، يَتَعَجَّلُونَ أَجْرَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ».

وَيُرَوَّى أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ لَمَّا قَدَمُوا أَيَّامَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَمِعُوا الْقُرْآنَ، فَجَعَلُوا يَبْكُونَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَكَذَا كُنَّا، ثُمَّ قَسَتِ الْقُلُوبُ.

وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَرَأَ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَهُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ فَأَنَّ أَتَمَّ عَيْدٍ مِنْهَا عَشْرِينَ يَوْمًا.

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: إِنَّا كُنَّا نَأْخُذُ الْقُرْآنَ مَرَّاحِلَ، وَجَعَلْتُمُ اللَّيْلَ جَمَلًا تَرْكَبُونَهُ فَتَقْطَعُونَ بِهِ الْمَرَّاحِلَ، وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَأَوْهُ رَسَائِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، فَكَانُوا يَتَدَبَّرُونَهَا بِاللَّيْلِ، وَيَتَفَقَّدُونَهَا بِالنَّهَارِ.

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ الْقُرْآنَ لِتَعْمَلُوا بِهِ، فَأَخَذْتُمْ دَرَسَهُ عَمَلًا، إِنْ أَحَدُهُمْ لَيَتْلُو الْقُرْآنَ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ مَا يَسْقُطُ مِنْهُ حَرْفًا، وَقَدْ أَسْقَطَ الْعَمَلُ بِهِ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٩)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (١٠) أَيَّ عِلْمٍ مَعَانِيهِ، وَالْعَمَلُ بِهِ، وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ ثَقِيلٌ، فَمَالَ النَّاسُ إِلَى الْمُيسَّرِ، وَتَرَكُوا الثَّقِيلَ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ مِنْهُمْ.

وَقِيلَ لِيُوسُفَ بْنِ أَسْبَاطٍ: بِأَيِّ شَيْءٍ تَدْعُو إِذَا خَتَمْتَ الْقُرْآنَ؟ فَقَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ تِلَاوَتِي، لِأَنِّي إِذَا خَتَمْتُهُ، ثُمَّ تَذَكَّرْتُ مَا فِيهِ مِنَ الْأَعْمَالِ، خَشِيتُ الْمَمِتَّ، فَأَعْدَلُ إِلَى الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّسْبِيحِ.

وَقَرَأَ رَجُلٌ الْقُرْآنَ عَلَى بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، قَالَ: فَلَمَّا خَتَمْتُهُ أَرَدْتُ الرَّجُوعَ إِلَى أَوَّلِهِ، فَقَالَ لِي: اتَّخَذْتُ الْقِرَاءَةَ عَلَيَّ عَمَلًا؟ أَذْهَبَ فَاقْرَأْهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي لَيْلِكَ، وَانْظُرْ مَاذَا يُفْهَمُكَ مِنْهُ فَاعْمَلْ بِهِ.



باب

في فضل تفسير القرآن والكلام على لغته والنظر في إعرابه ودقائق معانيه

وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَيُّ عِلْمٍ الْقُرْآنَ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَرَبِيَّتُهُ، فَالْتَمَسُوهَا فِي الشُّعْرِ». وَقَالَ أَيْضًا ﷺ: «أَعْرَبُوا الْقُرْآنَ، وَالتَّمَسُّوا غَرَائِبَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُعْرَبَ».

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِعْرَابُ الْقُرْآنِ أَصْلٌ فِي الشَّرِيعَةِ، لِأَنَّ بِذَلِكَ تَقُومُ مَعَانِيهِ الَّتِي هِيَ الشَّرْعُ.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ قَالَ: الْحِكْمَةُ: الْفَهْمُ فِي الْقُرْآنِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْحِكْمَةُ: الْقُرْآنُ وَالْفَقْهُ فِيهِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: الْحِكْمَةُ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ.

وذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه جابر بن عبد الله، فوصفه بالعلم، قال له رجل: جُعِلْتُ فداك، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت؟ قال: إنه كان يعرف تفسير قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَاكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.

وقال الشعبي: رَحَلَ مسروق إلى البصرة في تفسير آية، ف قيل له: إن الذي يُفسرها رَحَلَ إلى الشام، فتجهَّز ورحل إليه حتى علم تفسيرها.

وقال إياس بن معاوية: مَثَّلُ الذين يقرؤون القرآن ولا يعرفون تفسيره، كمثُل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً، وليس عندهم مصباح، فتدخلتهم روعة لا يدرون ما في الكتاب، ومَثَلَ الذي يَعْرِفُ التفسير، كمثُل رجل جاءهم بمصباح، فقرأوا ما في الكتاب.

وقال ابن عباس: الذي يقرأ ولا يُفسَّر، كالأعرابي الذي يهذُّ الشَّعْرَ.

وقال مجاهد: أَحَبُّ الخلق إلى الله أَعْلَمُهُمْ بما أنزل.

وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية إلا أَحَبَّ أَنْ يُعْلَمَ فيمن أنزلت، وما يَعْنِي بها.

وقال النبي ﷺ: «لا يَفْقَهُ الرجلُ كُلَّ الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة».

وقال الحسن: أهلكتهم العُجْمَةُ، يقرأ أحدهم الآية فيعيا بوجوها حتى يفترى على الله فيها.

وكان ابن عباس يبدأ في مجلسه بالقرآن، ثم بالتفسير، ثم بالحديث.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما من شيء إلا وَعِلْمُهُ في القرآن، ولكن رأي الرجل يَفْجُرُ عنه.



باب

ما قيل في الكلام في تفسير القرآن والجرأة عليه

ومراتب المفسرين

رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (ما كان رسول الله ﷺ يُفسَّر من كتاب الله إلا آياً بعدد، عِلْمُهُ إِيَّاهُنَّ جبريل).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا الحديث: في مُعَيَّبات القرآن، وتفسير مجمله، ونحوهما، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى، ومن جملة مُعَيَّباته ما لم يُعْلَمَ الله به، كوقت قيام الساعة ونحوه، ومنها ما يُستقرأ من ألفاظه كعدد النفخات في الصُّور، وكرتبة خلق السموات والأرض.

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من تكلم في القرآن برأيه، فأصاب فقد أخطأ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا، أن يُسأل الرجل عن معنى في كتاب الله، فيتسور عليه برأيه، دون نظر فيما قال العلماء، واقتضته قوانين العلوم، كالنحو والأصول. وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته، والنحاة نحوه، والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرد رأيه.

وكان جِلَّةً من السلف، كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، وغيرهما، يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدمهم. وكان جِلَّةً من السلف، كثير عددهم، يفسرونه وهم أبقوا على المسلمين في ذلك، رضي الله عنهم.

فأما صدرُ المفسرين، والمؤيدُ فيهم، فعليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ويتلوه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وهو تجرد للأمر وكمله وتبَّعُه، وتبَّعُه العلماء عليه، كمجاهد، وسعيد بن جبَّير، وغيرهما.

والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وقال ابن عباس: ما أخذتُ من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب، وكان عليُّ بن أبي طالب يُثني على تفسير ابن عباس، ويحضُّ على الأخذ عنه، وكان عبدالله بن مسعود يقول: نِعْمَ تُرْجَمَانِ القرآنَ عبدالله بن عباس، وهو الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «اللهم فقهه في الدين»، وحسبك بهذه الدعوة. وقال عنه علي بن أبي طالب: ابنُ عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

ويتلوه عبدالله بن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وكل ما أخذ عن الصحابة فَحَسَنَ متقدِّم. ومن المبرزين في التابعين: الحسن بن أبي الحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبَّير، وعلقمة. قرأ مجاهد على ابن عباس قراءةً تفهَّم ووقوف عند كل آية. ويتلوهم عكرمة، والضحاك بن مزاحم، وإن كان لم يلق ابن عباس، وإنما أخذ عن ابن جبَّير، وأما السُّدي رحمه الله فكان عامر الشعبي يطعن عليه، وعلى أبي صالح، لأنه كان يراهما مُقَصِّرَيْن في النظر. ثم حَمَلَ تفسير كتاب الله تعالى عُدُولُ كُلِّ خَلْفٍ. وألف الناس فيه: كعبدالرزاق، والمفضل، وعلي بن أبي طلحة، والبخاري، وغيرهم.

ثم إن محمد بن جرير الطبري رحمه الله، جمع على الناس أشتات التفسير، وقرب البعيد، وشفأ في الإسناد. ومن المبرزين في المتأخرين أبو إسحق الزجاج، وأبو علي الفارسي، فإن كلامهما منخول.

وأما أبو بكر النقاش، وأبو جعفر النحاس، فكثيراً ما استدرك الناس عليهما، وعلى سننهما مكِّي بن أبي طالب، وأبو العباس المهدوي، متقن التأليف، وكلُّهم مجتهد مأجور، رحمهم الله، ونصّر وجوهم.

باب

معنى قول النبي ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»

اختلف الناس في معنى هذا الحديث اختلافاً شديداً، فذهب فريق من العلماء إلى أن تلك الحروف السبعة، هي فيما يتفق أن يقال على سبعة أوجه فما دونها، كتعال، وأقبل، وإلي، ونحوي، وقصدي، وأقرب، وجيء. وكاللغات التي في (أف). وكالحروف التي في كتاب الله فيها قراءات كثيرة، وهذا قول ضعيف.

قال ابن شهاب في كتاب مسلم: بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كلام محتمل.

وقال فريق من العلماء: إن المراد بالسبعة أحرف معاني كتاب الله تعالى، وهي: أمر ونهي، ووعد ووعد، وقصص ومجادلة، وأمثال، وهذا أيضاً ضعيف، لأن هذه لا تسمى أحرفاً، وأيضاً فالإجماع أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال، ولا تحليل حرام، ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة.

وحكى صاحب (الدلائل) عن بعض العلماء - وقد حكى نحوه القاضي أبو بكر ابن الطيب - قال: تدبرث وجوه الاختلاف في القراءة، فوجدتها سبعة، منها ما تتغير حركته، ولا يزول معناه ولا صورته، مثل: ﴿هَنَّ أَطْهَرَ﴾ و ﴿أَطْهَرَ﴾، ومنها: ما لا تتغير صورته ويتغير معناه، مثل: ﴿رَبَّنَا بَعْدَ﴾ و ﴿بَاعَدَ﴾، ومنها: ما تبقى صورته، ويتغير معناه باختلاف الحروف، مثل: ﴿نُنَشِّرُهَا﴾ و ﴿نُنْشِرُهَا﴾، ومنها: ما تتغير صورته ويبقى معناه، كقوله: ﴿كَأَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَلَكُوتٌ﴾ و ﴿كَالْصُّوفِ الْمَتَّقُوشِ﴾، ومنها: ما تتغير صورته ومعناه. مثل: ﴿وَطَلَعَ مَنُصُّورٌ﴾ (٢٩) و ﴿وَطَلَعَ مَنُصُّودٌ﴾، ومنها: بالتقديم والتأخير، كقوله: ﴿وَبَعَثَ سَكْرَةَ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾، و ﴿سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ﴾، ومنها: بالزيادة والنقصان، كقوله: ﴿يَسَّعَ وَسَّعُونَ نَجْمَةً﴾، و ﴿أَتَى﴾.

وذكر القاضي أبو بكر الطيب في معنى هذه السبعة الأحرف حديثاً عن النبي ﷺ قال: «إن هذا القرآن من سبعة أبواب، على سبعة أحرف: نهى وأمر، وحلال وحرام، ومُحْكَمٌ ومتشابه، وأمثال، فأجلوا حلاله، وحرموا حرامه، واثمروا بأوامره، وانتهوا بنواهيه، واعتبروا بمُحْكَمِهِ، وآمنوا بمتشابهه». قال القاضي: فهذا تفسير منه ﷺ للأحرف السبعة، ولكن ليست هذه التي أجاز لهم القراءة بها على اختلافها، وإنما الحرف في هذه بمعنى الجهة والطريقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَبْدٌ مُّسَوِّغٌ لِّمَا كَفَرُوا بِهِ﴾ أي على وجه وطريقة، هي ريب وشك، فكَذَلِكَ معنى هذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك.

وذكر القاضي أيضاً أن أبا رضي الله عنه روى عن النبي ﷺ أنه قال: «يا أباي: إني أفرثت القرآن على حرف أو حرفين، ثم زادني الملك حتى بلغ سبعة أحرف، ليس منها إلا شاف كاف، إن قلت: غفور رحيم، سميع عليم، أو عليم حكيم، ما لم تَخْتِمْ عذاباً برحمة، أو رحمة بعذاب». وقد أَسْنَدَ ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، وذكر من كلام ابن مسعود نحوه.

قال القاضي ابن الطيب: وهذا أيضاً سبعة، غير السبعة التي هو وجوه وطرائق، وغير السبعة التي هي قراءات ووسع فيها، وإنما هي سبعة أوجه من أسماء الله تعالى، وإذا ثبتت هذه الرواية حُمِلَ على أن هذا كان مطلقاً ثم نسخ، فلا يجوز للناس أن يُبدِّلوا اسماً لله في موضع بغيره، مما يوافق معناه أو يخالفه.

قال القاضي: وزعم قوم: أن كل كلمة تختلف القراءة فيها فإنها على سبعة أوجه، وإلا بطل معنى الحديث. قالوا: وتُعرف بعض الوجوه بمجيء الخبر به، ولا يُعرف بعضها إذا لم يأت به خبر.

قال: وقال قوم: ظاهر الحديث يوجب أن يوجد في القرآن كلمة أو كلمتان تُقرأ على سبعة أوجه، فإذا حصل ذلك تم معنى الحديث. قال القاضي أبو بكر ابن الطيب: وقد زعم قوم أن معنى الحديث أنه أنزل على سبع لغات مختلفات، وهذا باطل، إلا أن يريد الوجوه المختلفة التي تستعمل في القصة الواحدة، والدليل على ذلك: أن لغة عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب، وهشام بن حكيم، وابن مسعود: واحدة، وقراءتهم مختلفة، وخرجوا فيها إلى المناكرة، فأما الأحرف السبعة التي صوّب رسول الله ﷺ القراءة بجمعها، وهي التي راجع فيها فزاده، وسهل عليه لعلمه تعالى بما هم عليه، من اختلافهم في اللغات؛ فإنها سبعة أوجه، وسبع قراءات مختلفات وطرائق يُقرأ بها على اختلافها في جميع القرآن أو معظمه، حسبما تقتضيه العبارة في قوله: (أنزل القرآن)، فإنما يريد به الجميع، أو، المعظم، فجائز أن يُقرأ بهذه الوجوه على اختلافها. ويدل على ذلك قول الناس: حَرَفَ أباي، وحرف ابن مسعود. ونقول في الجملة: إن القرآن منزّل على سبعة أحرف من اللغات، والإعراب، وتغيير الأسماء والصور، وإن ذلك مفترق في كتاب الله، ليس بموجود في حرف واحد وسورة واحدة، يقطع على اجتماع ذلك فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: انتهى ما جمعت من كلام القاضي أبي بكر رضي الله عنه، وإطلاقه البطلان على القول الذي حكاه: فيه نظر، لأن المذهب الصحيح الذي قرره آخر من قوله: «ونقول في الجملة» - إنما صح وترتب من جهة اختلاف لغات العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، وهو اختلاف ليس بشديد التباين حتى يجهل بعضهم ما عند بعض في الأكثر، وإنما هو أن قريشاً استعملت في عباراتها شيئاً، واستعملت هذيل شيئاً غيره في ذلك المعنى، وسعد بن بكر غيره، والجميع كلامهم في الجملة ولغتهم، واستدلال القاضي رضي الله عنه بأن لغة عمر، وأبي، وهشام، وابن مسعود واحدة، فيه نظر، لأن ما استعملته قريش ومنهم عمر وهشام، وما استعملته الأنصار ومنهم أبي، وما استعملته هذيل ومنهم ابن مسعود قد يختلف، ومن ذلك النحو من الاختلاف هو الاختلاف في

كتاب الله سبحانه، فليست لغتهم واحدة في كل شيء، وأيضاً فلو كانت لغتهم واحدة بأن نفرضهم جميعاً من قبيلة واحدة، لما كان اختلافهم حجة على من قال: إن القرآن أنزل على سبع لغات؛ لأن منكرتهم لم تكن لأن المنكر سمع ما ليس في لغته فأنكره، وإنما كانت لأنه سمع خلاف ما أقرأه النبي ﷺ، وعساه قد أقرأه ما ليس من لغته واستعمال قبيلته، فكأن القاضي رحمه الله إنما أبطل أن يكون النبي ﷺ قصد في قوله: «على سبعة أحرف» عد اللغات التي تختلف بجمليتها، وأن تكون سبعة متباينة، لسبع قبائل تقرأ كل قبيلة القرآن كله بحرفها، ولا تدخل عليها لغة غيرها. بل قصد النبي ﷺ عنده عد الوجوه والطرائق المختلفة في كتاب الله، مرة من جهة لغة، ومرة من جهة إعراب، وغير ذلك، ولا مزية أن هذه الوجوه والطرائق إنما اختلفت لاختلاف في العبارات بين الجملة التي نزل القرآن بلسانها، وذلك يقال فيه اختلاف لغات، وصحيح أن يقصد عليه السلام عد الأنحاء والوجوه التي اختلفت في القرآن بسبب اختلاف عبارات اللغات، وصحيح أن يقصد عد الجماهير والرؤوس من الجملة التي نزل القرآن بلسانها، وهي قبائل مضر فجعلها سبعة، وهذا القول أكثر توسعة للنبي عليه السلام، لأن الأنحاء تبقى غير محصورة، فعسى أن الملك قد أقرأه بأكثر من سبعة طرائق ووجوه. قال القاضي في كلامه المتقدم: فجائز أن يقرأ بهذه الوجوه على اختلافها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والشرط الذي يصح به هذا القول هو أن تُروى عن النبي عليه السلام، ومال كثير من أهل العلم كأبي عبيد وغيره، إلى أن معنى الحديث المذكور أنه أنزل على سبع لغات لسبع قبائل أثبت فيه من كل لغة منها، وهذا القول هو المتقرر من كلام القاضي رضي الله عنه، وقد ذكر بعضهم قبائل من العرب رؤماً منهم أن يُعَيَّنوا السبع التي يحسن أن تكون مراداً عليه السلام، نظروا في ذلك بحسب القطر، ومن جاور منشأ النبي عليه السلام، واختلفوا في التسمية وأكثروا، وأنا ألخص الغرض جهدي بحول الله، فأصل ذلك وقاعدته: قريش، ثم بنو سعد بن بكر، لأن النبي عليه السلام قُرَشي، واسترضع في بني سعد، ونشأ فيهم، ثم ترعرع وعُقت تائمه، وهو يخالط في اللسان كنانة، وهذيل، وثقيف، وخزاعة، وأسد، وضبة، وألفافها لقربهم من مكة وتكرارهم عليها، ثم بعد هذه تميماً وقيساً ومن انضاف إليهم وسط جزيرة العرب، فلما بعثه الله تعالى، ويسر عليه أمر الأحرف، أنزل عليه القرآن بلغة هذه الجملة المذكورة، وهي التي قسّمها على سبعة لها السبعة الأحرف، وهي اختلافاتها في العبارات حسبما تقدّم.

قال ثابت بن قاسم: لو قلنا: من هذه الأحرف لقريش، ومنها لكنانة، ومنها لأسد، ومنها لهذيل، ومنها لتيميم، ومنها لضبة وألفافها، ومنها لقَيْس، لكان قد أتى على قبائل مضر في مراتب سبعة تستوفي اللغات التي نزل بها القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نحو ما ذكرناه، وهذه الجملة هي التي انتهت إليها الفصاحة، وسلمت لغاتها من الدخل، ويسرها الله لذلك ليظهر آية نبيه بعجزها عن معارضة ما أنزل عليه، وسبب سلامتها أنها في وسط جزيرة العرب، في الحجاز، ونجد، وتهامة، فلم تطرفها الأمم،

فأما اليمن وهو جنوبي الجزيرة، فأفسدت كلامَ عربيه خلطة الحبشة والهنود، على أن أبا عبيد القاسم بن سلام وأبا العباس المبرد، قد ذكرا أن عرب اليمن من القبائل التي نزل القرآن بلسانها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك عندي إنما هو فيما استعملته عربُ الحجاز من لغة اليمن، كالعِرم والفتّاح، فأما ما انفردوا به (كالزُخَيْخ والقُلُوب) ونحوه، فليس في كتاب الله منه شيء، وأما ما والى العراق من جزيرة العرب، وهي بلادُ ربيعة وشرقي الجزيرة فأفسدت لغتها مخالطةُ الفرس والنبط ونصارى الحيرة وغير ذلك.

وأما الذي يلي الشام، وهو شمال الجزيرة، وهي بلاد آل جَفَنَةَ وابن الرافلة وغيرهم، فأفسدتها مخالطةُ الروم وكثير من بني إسرائيل، وأما غربي الجزيرة فهي جبال تسكن بعضها هذيل وغيرهم، وأكثرها غير معمور، فبقيت القبائل المذكورة سليمة اللغات، لم تكدُرْ صَفْوُ كلامها أمة العجم، ويُقَوِّي هذا المنزَع أنه لما اتسع نطاق الإسلام، وداخَلَتِ الأُمَمُ العرب، وتجرّد أهلُ المِصرين: البصرة والكوفة، لِجَفَظِ لسان العرب وكتَبَ لغتها، لم يأخذوا إلا عن هذه القبائل الوسيطة المذكورة ومن كان معها، وتجنّبوا اليمن والعراق والشام، فلم يُكْتَبَ عنهم حرف واحد، وكذلك تجنبوا حواضر الحجاز: مكة والمدينة والطائف، لأن السبي والتجار من الأمم كثروا فيها فأفسدوا اللغة، وكانت هذه الحواضر في مدة النبي ﷺ سليمة، لقلة المخالطة، فمعنى قول النبي ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أي فيه عبارات سبع قبائل، بلغة جُمَلَتِها نَزَلَ، فيعبر عن المعنى فيه بعبارة قريش، ومرة بعبارة هذيل، ومرة بغير ذلك، بحَسَبِ الأفصح والأوجز في اللفظة، ألا ترى أن (فَطَرَ) معناها عند غير قريش (ابتدأ خلق الشيء وعَمَلَه) فجاءت في القرآن، فلم تتجه لابن عباس حتى اختصم إليه أعربايمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُها، قال ابن عباس: ففهمت حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال أيضاً: ما كنت أدري معنى قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ حتى سمعتُ بنتَ ذي يَزَن تقول لزوجها: تعال أفَاتِخْكَ أي أحاكمك، وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿أَزْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ فوقف به فتى، فقال: إن أبي يتخوفني حقي. فقال عمر: الله أكبر، أو يأخذهم على تخوف، أي على تَقْصُصٍ لهم. وكذلك اتفق لقطبة بن مالك إذ سمع النبي ﷺ يقرأ في الصلاة: ﴿وَالْتَّخَلَّ بِاسْقَنْتِ﴾، ذكره مسلم في باب القراءة في صلاة الفجر، إلى غير هذا من الأمثلة، فأباح الله تعالى لنبيه هذه الحروف السبعة - وعارضه بها جبريل في عرضاته على الوجه الذي فيه الإعجاز، وَجَوْدَةُ الرِّصْف، ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام: «فاقرؤوا ما تيسر منه»، بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يُبَدِّل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرضاً أن يُبَدِّل هذا وهذا، حتى يكون غير الذي نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي عليه السلام ليوسّع بها على أمته، فقرأ مرة لأبيّ بما عارضه به جبريل صلوات الله عليهما، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً، وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ، قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني

حتى انتهى إلى سبعة أحرف». وعلى هذا تجيء قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان، وقراءة هشام بن حكيم لها، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبي ﷺ في كل قراءة منهما، وقد اختلفنا: «هكذا أقراني جبريل؟» هل ذلك إلا لأنه أقرأه بهذه مرة وبهذه مرة؟ وعلى هذا يحمل قول أنس بن مالك حين قرأ: ﴿إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ.. وَأَصُوبٌ قِيلًا﴾، فقيل له: إنما نقرأ (وأقوم)، فقال أنس: (أصوب وأقوم وأهياً) واحد، فإنما معنى هذا أنها مَزُوءَةٌ عن النبي ﷺ، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ثم إن هذه الروايات الكثيرة لما انتشرت عن رسول الله ﷺ، وافترق الصحابة في البلدان، وجاء الخلف، وقرأ القرآن كثير من غير العرب، ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وذلك أنهم اجتمعوا في غزوة أزمينية فقرأت كل طائفة بما روي لها، فاختلفوا، وتنازعوا، حتى قال بعضهم لبعض: أنا كافر بما تقرأ به، فأشفق حذيفة مما رأى منهم، فلما قَدِمَ حذيفة المدينة فيما ذكر البخاري وغيره، دخل إلى عثمان بن عفان قبل أن يدخل بيته فقال: أذكر هذه الأمة قبل أن تهلك، قال فيما ذا؟ قال: في كتاب الله، إني حضرت هذه الغزوة، وجمعت ناساً من العراق، ومن الشام، ومن الحجاز، فوصف له ما تقدم، وقال: إني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلفت اليهود والنصارى. قال عثمان رضي الله عنه: أفعل. فتجرّد للأمر، واستناب الكُفَاة العلماء الفصحاء في أن يكتبوا القرآن، ويجعلوا ما اختلفت القراءة فيه على أشهر الروايات عن رسول الله ﷺ، وأفصح اللغات، وقال: إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلسان قريش، فمعنى هذا: إذا اختلفتم فيما روي، وإلا فمحال أن يحيلهم على اختلاف من قبلهم، لأنه وضِعَ قرآن. فكتبوا في القرآن من كل اللغات السبع، مرة من هذه، ومرة من هذه، وذلك مقيد بأن الجميع مما روي عن النبي ﷺ وقرئ عليه، واستمر الناس على هذا المصحف المتخير، وترك ما خرج عنه مما كان كُتِبَ سداً للذريعة، وتغليبا لمصلحة الألفة، وهي المصاحف التي أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه أن تُحرق أو تُحرق، فأما ابن مسعود فأبى أن يزال مصحفه فترك، ولكن أبى العلماء قراءته سداً للذريعة، ولأنه روي أنه كتب فيه أشياء على جهة التفسير، فظنها قوم من التلاوة فتخلط الأمر فيها، ولم يسقط فيما ترك معنى من معاني القرآن لأن المعني جزء من الشريعة، وإنما تركت ألفاظ معانيها موجودة في الذي أثبت.

ثم إن القرأة في الأمصار تتبعا ما روي لهم من اختلافات، لا سيما فيما وافق خط المصحف، فقرأوا بذلك حسب اجتهاداتهم، فلذلك ترتب أمر القراء السبعة وغيرهم، رحمهم الله، ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة، وبها يصلح، لأنها ثبتت بالإجماع، وأما شأد القراءات فلا يصلح به، وذلك لأنه لم يجمع الناس عليه. أما أن المروي منه عن الصحابة رضي الله عنهم، وعن علماء التابعين لا يعتقد فيه إلا أنهم رَوَوْهُ، وأما ما يؤثر عن أبي السمال ومن قاربه فلا يوثق به، وإنما أذكره في هذا الكتاب لئلا يُجهل، والله المستعان.

وكان المصحف غير مشكول، ولا منقوط، وقد وقع لبعض الناس خلاف في بعض ما ذكرته في هذا الباب، ومنازعات، اختصرت ذلك كراهة التطويل، وعوِّلْتُ على الأسلوب الواضح الصحيح، والله المرشد للصواب برحمته.



باب ذِكْرُ جَمْعِ الْقُرْآنِ وَنَكَلِهِ وَنَقْطِهِ وَتَخْزِيْبِهِ وَتَفْصِيْرِهِ

كان القرآن في مُدَّةِ النَّبِيِّ ﷺ متفرقاً في صدور الرجال، وقد كتب الناس منه في صحف وفي جريد وطَّرَر، وفي لِخاف، وفي خزف، وغير ذلك، فلما استحرَّ القتل بالقراء يوم اليمامة، أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع القرآن، مخافة أن يموت أشياخ القراءة، كأبي، وزيد، وابن مسعود، فيذهب، فندبا إلى ذلك زيد بن ثابت فجمعه غير مرتَّب السور بعد تعب شديد منه، رضي الله عنه، وروى أن في هذا الجمع سقطت الآية من آخر براءة، حتى وجدها عند خزيمة بن ثابت، وحكى الطبري: أنه إنما سقطت له في الجمع الأخير، والأول أصح، وهو الذي حكى البخاري، إلا أنه قال فيه: مع أبي خزيمة الأنصاري، وقال: إن في الجمع الثاني فقد زيد آية من سورة الأحزاب ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ فوجدها مع خزيمة بن ثابت، وبقيت الصحف عند أبي بكر، ثم عند عمر بن الخطاب بعده، ثم عند حفصة بنته في خلافة عثمان، وانتشرت في خلال ذلك صُحُفٌ في الآفاق كُتِبَتْ عن الصحابة، كمصحف ابن مسعود، وما كتب عن الصحابة بالشام، ومصحف أبي، وغير ذلك، وكان في ذلك اختلاف حسب السبعة الأحرف التي أنزل القرآن عليها، فلما قدم حذيفة من غزوة أرمينية، حسبما قد ذكرنا، انتدب عثمان لجمع المصحف، وأمر زيد بن ثابت بجمعه، وقرن بزيد فيما ذكر البخاري ثلاثة من قریش: سعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الله بن الزبير. وكذلك ذكر الترمذي، وغيرهما، وقال الطبري فيما روى: إنه قرن بزيد أبان بن سعيد بن العاص وحده، وهذا ضعيف، وقال الطبري أيضاً: إن الصحف التي كانت عند حفصة جُعِلَتْ إماماً في هذا الجمع الأخير، وروى أن عثمان رضي الله عنه قال لهم: إذا اختلفتم في شيء فاجعلوه بِلُغَةِ قُرَيْشٍ، فاختلفوا في التابوه والتابوت، قرأه زيد بن ثابت بالهاء، والقرشيون بالتاء، فأثبتته بالتاء، وكتب المصحف على ما هو عليه غابر الدهر، ونَسَخَ عثمان منه نسخاً، ووجه بها إلى الآفاق، وأمر بما سواها من المصاحف أن تُحرق أو تُخرق، تروى بالحاء غير منقوطة، وتروى بالحاء على معنى ثم تدفن، ورواية الحاء غير منقوطة أحسن.

قال القاضي أبو بكر بن الطيب: وترتيب السور اليوم هو من تلقاء زيد ومن كان معه، مع مشاركة من عثمان رضي الله عنه في ذلك، وقد ذكر ذلك مكِّي رحمه الله في تفسير سورة براءة، وذكر أن ترتيب الآيات في السور، ووضع البسملة في الأوائل هو من النبي ﷺ، ولما لم يأمر بذلك في أول براءة تركت بلا بسملة. هذا أحد ما قيل في براءة، وذلك مُستَقْصى في موضعه مُوقى إن شاء الله تعالى.

وظاهر الآثار أن السبع الطول، والحواميم. والمفضل كان مرتباً في زمن النبي ﷺ، وكان في السور ما لم يُرتَّب، فذلك هو الذي رُتِّب وقت الكُتُب.

وأما شكل المصحف ونقطه، فَرَوِي أن عبد الملك بن مروان أمر به وعمله، فتجرَّد لذلك الحجاج بواسط، وجدَّ فيه وزاد تحزيبه، وأمر وهو والي العراق الحسن ويحيى بن يَعْمَر بذلك، وألف إثر ذلك كتاباً في القراءات، جمع فيه ما روي من اختلاف الناس فيما وافق الخط، ومشى الناس على ذلك زمناً طويلاً إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه في القراءات.

وأُسند الزبيدي في «الطبقات» إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي، وذكر أيضاً أن ابن سيرين كان له مصحف نَقَطَهُ له يحيى بن يَعْمَر، وذكر أبو الفرج أن زياد بن أبي سفيان أمر أبا الأسود بنقط المصحف.

وذكر الجاحظ في كتاب «الأمصار» أن نصر بن عاصم أول من نقط المصاحف، وكان يقال له: نصر الحروف.

وأما وضع الأعشار فيه، فمرَّبِّي في بعض التواريخ أن المأمون العباسي أمر بذلك، وقيل: إن الحجاج فعل ذلك، وذكر أبو عمرو الداني عن قتادة أنه قال: بدووا فنقطوا، ثم خمسوا، ثم عشروا، وهذا كالإنكار.



باب

في ذكر الألفاظ التي في كتاب الله

وللغات العجم بها تعلق

اختلف الناس في هذه المسألة، فقال أبو عبيدة وغيره: إن في كتاب الله تعالى من كل لغة. وذهب الطبري وغيره إلى أن القرآن ليس فيه لفظة إلا وهي عربية صريحة، وأن الأمثلة والحروف التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت للفتان، فتكلمت بها العرب والفرس أو الحبشة بلفظ واحد، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾، قال ابن عباس: نشأ بلفظ الحبشة: قام من الليل.

ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كَلَامًا مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، قال أبو موسى الأشعري: كفلان: ضعفان من الأجر بلسان الحبشة. وكذلك قال ابن عباس في القسورة: إنه الأسد بلغة الحبشة، إلى غير هذا من الأمثلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي أقوله: إن القاعدة والعقيدة هي أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فليس فيه لفظة تخرج عن كلام العرب فلا تفهمها إلا من لسان آخر، فأما هذه الألفاظ وما جرى مجراها، فإنه كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات وبرحلتى قريش، كسفر مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، إلى الشام، وكسفر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكسفر عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة، وكسفر الأعشى إلى الحيرة، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة، فعلمت العرب بهذا كله ألفاظاً أعجمية، غيرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إلى تخفيف ثقل العُجْمَةِ، واستعملتها في أشعارها ومحاواراتها، حتى جرت مجرى العربي الصريح، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن، فإن جهلها عربي ما فكجهله الصريح ما في لغة غيره، كما لم يعرف ابن عباس معنى فاطر، إلى غير ذلك. فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ، أنها في الأصل أعجمية، لكن استعملتها العرب وعربتها، فهي عربية بهذا الوجه، وما ذهب إليه الطبري من أن اللغتين اتفقتا في لفظة لفظة فذلك بعيد، بل إحداهما أصل والأخرى فرع في الأكثر، لأننا لا ندفع أيضاً جواز الاتفاق قليلاً شاذاً.

نبذة مما قال العلماء في إعجاز القرآن

اختلف الناس في إعجاز القرآن، بم هو؟ فقال قوم: إن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، وإن العرب كُلفت في ذلك ما لا يُطاق، وفيه وقع عجزها. وقال قوم: إن التحدي وقع بما في كتاب الله تعالى من الأنبياء الصادقة، والغيوب المسرودة، وهذان القولان إنما يرى العجز فيهما من قد تقررت الشريعة ونبؤة محمد ﷺ في نفسه. وأما من هو في ظلمة كفره، فإنما يتحدى فيما يتبين له - بينه وبين نفسه - عجزه عنه، وأن البشر لا يأتي بمثله، ويتحقق مجيئه من قبل المتحدي.

فكفار العرب لم يمكنهم قط أن ينكروا أن رصف القرآن ونظمه وفصاحته مُتَلَقًى من قِبَل محمد ﷺ، فإذا تُحْدِثَ بمثل ذلك وعجزت فيه، علم كل فصيح ضرورة أن هذا نبي يأتي بما ليس في قدرة البشر الإتيان به، إلا أن يخص الله تعالى من يشاء من عباده، وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والخدّاق، وهو الصحيح في نفسه، وإن التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه: أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كله علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن قط محيطاً. فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النظر يبطل قول

من قال: إن العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن، فلما جاء محمد ﷺ صُرفوا عن ذلك، وعجزوا عنه.

والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة واحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة، يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال يُتَفَحَّحُ حَوْلًا كاملاً، ثم تُعْطَى لآخر نظيره، فيأخذها بقريحة جامعة فيبدل فيها وينقح، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل. وكتاب الله لو نُزعت منه لفظة ثم أُدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبيينُ لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ، في سلامة الذوق، وجودة القريحة، وميز الكلام، ألا ترى ميز الجارية نفس الأعشى وميز الفرزدق نفس جرير من نفس ذي الرمة، ونظر الأعرابي في قوله: (عز فحكم فقطع). إلى كثير من الأمثلة اكتفيت بالإشارة إليها اختصاراً.

فصور قيام الحجة بالقرآن على العرب: أنه لما جاء محمد ﷺ وقال: ﴿قَاتُوا سُورَةَ مِّن مِّثْلِهِ﴾، قال كل فصيح في نفسه: وما بال هذا الكلام حتى لا آتي بمثله؟ فلما تأمله وتدبره ميز منه ما ميز الوليد بن المغيرة حين قال: «والله ما هو بالشعر، ولا هو بالكهانة، ولا بالجنون». وعرف كل فصيح بينه وبين نفسه أنه لا يقدر بشر على مثله، فصَحَّ عنده أنه من عند الله، فمنهم من آمن وأذعن، ومنهم من حسد كأبي جهل وغيره، ففر إلى القتال، ورضي بسفك الدم عجزاً عن المعارضة، حتى أظهر الله دينه، ودخل جميعهم فيه، ولم يمض رسول الله ﷺ وفي الأرض قبيل من العرب يُعلن كفره، وقامت الحجة على العالم بالعرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة - في معجزة عيسى بالأطباء، وفي معجزة موسى بالسحرة، فإن الله تعالى إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره، فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته. وكذلك الطب في زمن عيسى، والفصاحة في مدة محمد عليهم الصلاة والسلام.



باب

في الألفاظ التي يقتضي الإيجاز استعمالها

في تفسير كتاب الله تعالى

اعلم أن القصد إلى إيجاز العبارة قد يسوق المتكلم في التفسير إلى أن يقول: خَاطَبَ الله بهذه الآية المؤمنين، وشَرَفَ الله بالذكر الرجلَ المؤمنَ من آل فرعون، وحكى الله تعالى عن أم موسى أنها قالت: ﴿قُصِيَّتْ﴾، ووقف الله ذرية آدم على رُبُوبِيَّتِهِ بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ ونحو هذا من إسناد أفعال إلى الله تعالى لم يأت إسنادها بتوقيف من الشرع، وقد استعمل هذه الطريقة المفسرون

والمُحَدِّثُونَ والفقهاء، واستعملها أبو المعالي في «الإرشاد»، وذكر بعض الأصوليين أنه لا يجوز أن يُقال: «حكى الله» ولا ما جرى مجراه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على تقرير هذه الصفة له، وثبوتها مستعملة كسائر أوصافه تبارك وتعالى، وأما إذا استعمل ذلك في سياق الكلام، والمراد منه: حكى الآية أو اللفظ، فذلك استعمال عربي شائع، وعليه مشى الناس، وأنا أتَحَفَّظُ منه في هذا التعليق جهدي، لكنني قدَّمْتُ هذا الباب لِمَا عسى أن أقع فيه نادراً، واعتذاراً عما وقع فيه المفسرون من ذلك.

وقد استعملت العربُ أشياء في ذكر الله تعالى تُحْمَلُ على مجاز كلامها، فمن ذلك قول عامر يرتجز بالنبي ﷺ:

فَاغْفِرْ فِدَاءَ لَكَ مَا اقْتَفَيْنَا
وقول أم سلمة: (فعزم الله لي) في الحديث في موت أبي سلمة، وإبدال الله لها منه رسول الله، ومن ذلك قولهم: الله يدري كذا وكذا، والدراية إنما هي التأني للعلم بالشيء حتى يتيسر ذلك، قال أبو علي: واحتج بعض أهل النظر على هذا الإطلاق بقول الشاعر:

لَا هُمْ لَا أَدْرِي وَأَنْتَ الدَّارِي
قال أبو علي: وهذا لا بُدَّ فيه، لأنه يجوز أن يكون من غلط الأعراب.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك أقول: إن الطريقة كلها عربية، لا يثبت للنظر المنحول شيء منها. وقد أنشد بعض البغداديين:

لَا هُمْ إِنْ كُنْتَ الَّذِي بَعْدِي
وقد قال العجاج:
فَارْتَأَحَ رَبِّي وَأَرَادَ رَحْمَتِي
وقال آخر:

قَدْ يُضِيحُ اللَّهُ أَمَامَ السَّارِي
وقال الآخر:

يَا فَعْعَسِي لِمَ أَكَلْتَهُ؟ لِمَهُ؟
وقال أوس:
أَبْنِي لَبِنِي لَا أَحِبُّكُمْ
وقال الآخر:

وَإِنَّ اللَّهَ ذَاقُ عُقُولَ نَسِيم
ومن هذا الاستعمال الذي يُبْنَى البابُ عليه قول سعد بن معاذ: «عرق الله وجهك في النار».
يقول هذا للرامي الذي رماه. وقال: «خذها وأنا ابن العرقة».

وفي هذه الأمثلة كفاية فيما نحونا، إذ التَّظْيِيرُ لذلك كثيرٌ موجود. وإن خرج شيء من هذا على

حذف مضاف، فذلك مُتَوَجِّهٌ في الاستعمال الذي قصدنا الاعتذار عنه، والله المستعان.



باب

في تفسير أسماء القرآن وذكر السورة والآية

هو القرآن، وهو الكتاب، وهو الفرقان، وهو الذكر.

فالقرآن مصدر من قولك: قرأ الرجل إذا تلا، يقرأ قرآنًا وقراءة، وحكى أبو زيد الأنصاري: وقرءأ، وقال قتادة: القرآن معناه التأليف، قرأ الرجل إذا جَمَعَ وألَّف قولاً، وبهذا فسر قتادة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (٧) أي تأليفه، وهذا نحو قول الشاعر:

ذِرَاعِي بِكَرَةِ أَدْمَاءٍ بِكُرٍ هَجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا
أي: لم تجمع في بطنها ولداً، فهو أقره لها، والقول الأول أقوى، أي: القرآن مصدر من قرأ إذا تلا.
ومنه قول حسان بن ثابت يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنه:

ضَحُّوْا بِأَشْمَطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَنْسِيحاً وَقُرْآنَا
أي قراءة.

وأما الكتاب فهو مصدر من كَتَبَ إذا جَمَعَ، ومنه قيل: كتيبة لاجتماعها، ومنه قول الشاعر:

... وَاكْتُنِبَهَا بِأَسْيَارِ

أي اجمعها.

وأما الفرقان فهو مصدر، لأنه فَرَّقَ بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر، فرقاً وفرقاناً.

وأما الذُّكْرُ فسمي به لأنه ذُكِّرَ به الناس آخرتهم، وإلهتهم، وما كانوا في غفلة عنه، فهو ذُكْرُ لهم، وقيل: سمي بذلك لأن فيه ذُكْرُ الأُمَمِ الماضية، والأنبياء، وقيل: سُمِّيَ بذلك لأنه ذُكِّرَ وشَرَفُ لمحمد، وقومه، وسائر العلماء به.

وأما السورة فإن قريشاً كلُّها وَمَنْ جاورها من قبائل العرب: كهذيل، وسعد بن بكر، وكنانة يقولون: سُورَةٌ بغير همز، وتميم كلها وغيرهم أيضاً يهزمون، فيقولون: سُورَةٌ.

فأما من همز فهي عنده كالبقية من الشيء، والقطعة منه التي هي سُور - وسورة من أسأر إذا أبقي، ومنه سُور الشراب، ومنه قول الأعشى وهو ميمون بن قيس:

فَبَائِثٌ وَقَدْ أَسَارَتْ فِي الْفُؤَا دِ صَدْعاً عَلَى نَأْيِهَا مُسْتَطِيراً

أي أبقت فيه، وأما من لا يهمز، فمنهم من يراها من المعنى المتقدم إلا أنها شُهِلَتْ همزتها، ومنهم من يراها مشبهة بسورة البناء، أي القطعة منه، لأن كلَّ بناء فإنما يبنى قطعة بعد قطعة، وكل قطعة منها سورة، وجمع سورة القرآن: سُور بفتح الواو، وجمع سورة البناء: سُور بسكونها.

قال أبو عبيدة: إنما اختلفا في هذا، فكأن سور القرآن هي قطعة بعد قطعة حتى كمل منها القرآن، ويقال أيضاً للرتبة الرفيعة من المجد والملك: سورة، ومنه قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَغْطَاكَ سُورَةً
فَكَانَ الرِّتْبَةُ اثْبَتَتْ حَتَّى كَمَلَتْ.

وأما الآية فهي العلامة في كلام العرب، ومنه قول الأسير الموصي إلى قومه باللغز: (بآية ما أكلت معكم خيساً). فلما كانت الجملة النامة من القرآن علامة على صدق الآتي بها، وعلى عجز المتحدّي بها سُميت آية، هذا قول بعضهم، وقيل: سميت آية لما كانت جملة وجماعة كلام، كما تقول العرب: جئنا بآيتنا، أي بجماعتنا، وقيل: لما كانت علامة للفصل بين ما قبلها وما بعدها سميت آية، ووزن آية عند سيبويه فَعْلَةٌ بفتح العين، أصلها (أَيَّةٌ)، تحركت الياء الأولى وما قبلها مفتوح فجاءت آية، وقال الكسائي: أصل آية (أَيَّةٌ) على وزن فاعلة، حذفت الياء الأولى مخافة أن يلتزم فيها من الإدغام ما لزم في دابة. وقال مكّي في تعليل هذا الوجه: سَكُنَتْ الأولى وأدغمت فجاءت آية على وزنة ذابة، ثم سهلت الياء المثقلة، وقيل: أصلها (أَيَّةٌ) على وزن فَعْلَةٌ بسكون العين، أبدلت الياء الساكنة ألفاً استثقلاً للتضعيف، قاله الفراء، وحكاه أبو علي عن سيبويه في ترجمة ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ﴾، وقال بعض الكوفيين: أصلها (أَيَّةٌ) على وزن فَعْلَةٌ بكسر العين، أبدلت الياء الأولى ألفاً لثقل الكسر عليها وانفتاح ما قبلها.



باب

القول في الاستعاذة

قال الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ معناه: إذا أردت أن تقرأ، وشرعت، فأوقع الماضي موقع المستقبل لثبوته، وأجمع العلماء على أن قول القارئ: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ليس بآية من كتاب الله، وأجمعوا على استحسان ذلك والتزامه في كل قراءة في غير صلاة، واختلفوا في التعوذ في الصلاة، فابن سيرين، وإبراهيم النخعي، وقوم: يتعوذون في الصلاة في كل ركعة، ويمثلون أمر الله بالاستعاذة على العموم في كل قراءة. وأبو حنيفة، والشافعي: يتعوذان في الركعة الأولى من الصلاة، ويريان أن قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة. ومالك رحمه الله: لا يرى التعوذ في الصلاة المفروضة، ويراها في قيام رمضان، ولم يحفظ عن النبي ﷺ أنه تعوذ في صلاة.

وحكى الزهراوي عن الحسن أنه قال: نزلت الآية في الصلاة، وتُديننا إلى الاستعاذة في غير الصلاة، وليس بفرض. قال غيره: كانت فرضاً على النبي ﷺ وحده، ثم تأسّينا به.

وأما لفظ الاستعاذة؛ فالذي عليه جمهور الناس هو لفظ كتاب الله تعالى: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم). ورؤي عن ابن عباس أنه قال: (أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال له: قل يا

محمد: أَسْتَعِذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. ثم قال: قل: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).
وروى سليمان بن سالم عن ابن القاسم رحمه الله: أن الاستعاذة «أعوذ بالله العظيم من الشيطان
الرجيم، إن الله هو السميع العليم، بسم الله الرحمن الرحيم».
وأما المقرئون فأكثرُوا في هذا من تبديل الصفة في اسم الله تعالى، وفي الجهة الأخرى كقول
بعضهم: أعوذ بالله المجيد من الشيطان المريد، ونحو هذا مما لا أقول فيه: نعمت البدعة، ولا
أقول: إنه لا يجوز.

ومعنى الاستعاذة: الاستجارة والتخيز إلى الشيء، على معنى الامتناع به من المكروه، والكلام
على المكتوبة يجيء في (بسم الله)، فذلك الموضع أولى به.

وأما (الشيطان): فاختلف الناس في اشتقاقه، فقال الحُدَّاق: هو فَيَعَال من شَطَنَ إِذَا بَعُدَ، لأنه
بَعُدَ عن الخير ورحمة الله، ومن اللفظة قولهم: نَوَى شَطُون، أي: بعيدة، قال الأعشى:

نَأَتْ بِسُعَادٍ عَنْكَ نَوَى شَطُونٌ قَبَائِثُ وَالْفُؤَادُ بِهَا رَهِينٌ

ومنه قيل للجبَل: شَطَنٌ لِبُعْدِ طَرَفِيهِ وامتداده، وقال قوم: إن (شيطانا) مأخوذ من شاط يشيط
إِذَا هَاجَ وَأَخْرَقَ ونحوه، إذ هذه أفعاله فهو فَعْلَان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَيَرُدُّ عَلَى هَذِهِ الْفِرْقَةِ أَنَّ سَبِيْبِيهِ حَكَى أَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ:
تَشْيِطَنَّ فَلَان إِذَا فَعَلَ أَفَاعِيلُ الشَّيَاطِينِ، فِهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّهُ تَفْعِيلٌ مِنْ شَطَنَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ شَاط لَقَالُوا:
تَشْيِطُ، وَيَرُدُّ أَيْضًا عَلَيْهِمْ بَيْتُ أُمِيَّةِ ابْنِ أَبِي الصَّلْتِ:

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ثُمَّ يُلْقَى فِي السُّجْنِ وَالْأَكْبَالِ

فهذا شاطن من شَطَنَ لَا شَكَّ فِيهِ.

وأما (الرجيم) فهو فَعِيل بمعنى مفعول، كقتيل، وجريح، ونحوه، ومعناه: أَنَّهُ رُجِمَ بِاللَّعْنَةِ
وَالْمَقْتِ وَعَدِمَ الرَّحْمَةَ.

قال المَهْدَوِيُّ رحمه الله: أَجْمَعَ الْقَرَاءُ عَلَى إِظْهَارِ الْإِسْتِعَاذَةِ فِي أَوَّلِ قِرَاءَةِ سُورَةِ الْحَمْدِ، إِلَّا
حِمَزةَ فَإِنَّهُ أَسْرَهَا، وَرَوَى الْمُسَيَّبِيُّ عَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْتَتِحُونَ الْقِرَاءَةَ بِالْبِسْمَلَةِ.

القول في تفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رُوي عن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه، أنه قال: البَسْمَلَةُ تيجان السور. وروى أن رجلاً قال بحضرة النبي ﷺ: تَعَسَّ الشَّيْطَانُ، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُلْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَتَعَاظَمُ عِنْدَهُ، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَإِنَّهُ يَصْغُرُ حَتَّى يَصِيرَ أَقْلٌ مِنْ ذُبَابٍ».

وقال علي بن الحسين رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَتْ بِكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَذْنٍ أَعْرَفٍ مُّشْرِكًا﴾ قال معناه: إذا قلت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

وروي عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال له: «كيف تفتح الصلاة يا جابر؟» قالت: قلت: بالحمد لله رب العالمين. قال: «قل: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل، فعلمني الصلاة، فقرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، - يجهر بها -».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان الحديثان يقتضيان أنها آية من الحمد، ويرد ذلك حديث أبي بن كعب الصحيح، إذ قال له النبي ﷺ: «هَلْ لَكَ أَلَّا تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ حَتَّى تَعْلَمَ سُورَةَ، مَا أَنْزَلَ فِي التَّوْرَةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلَهَا؟» قال: فجعلت أُبْطِئُ فِي الْمَشْيِ رَجَاءً ذَلِكَ، فقال لي: «كَيْفَ تَقْرَأُ إِذَا افْتَتَحْتَ الصَّلَاةَ؟» قال: فقرأت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، حتى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا. ويردُّه الحديث الصحيح: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ، يَقُولُ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾». ويردُّه أنه لم يُحْفَظْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَلَا عَنْ عُمَرَ، وَلَا عَنْ عُثْمَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَرَأُوا فِي صَلَاتِهِمْ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ويردُّه عددُ آياتِ السورة، لأنَّ الإجماعَ أَنَّهَا سَبْعُ آيَاتٍ إِلَّا مَا رُوِيَ عَنْ حُسَيْنِ الْجَعْفِيِّ أَنَّهَا سِتُّ آيَاتٍ، وَهَذَا شَاذٌ لَا يَعُولُ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ أَنَّهُ جَعَلَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ آيَةً، فَهِيَ عَلَى عَدِّ ثَمَانِي آيَاتٍ، وَهَذَا أَيْضًا شَاذٌ. وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِ﴾ هو الفصل في ذلك.

والشافعي رحمه الله يعضد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية من الحمد، وكثير من قراء مكة والكوفة، ولا يعدون ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. ومالك رحمه الله، وأبو حنيفة، وجمهور الفقهاء والقراء لا يعدون البسملة آية.

والذي يحتمله عندي حديث جابر، وأبي هريرة - إذا صَحَا - أن النبي ﷺ رأى قراءة جابر وحكايته أمر الصلاة قراءة في غير الصلاة على جهة التعلم، فأمره بالبسملة لهذا، لا لأنها آية، وكذلك في حديث أبي هريرة رآها قراءة لتعليم، ولم يفعل ذلك مع أبي؛ لأنه قصد تخصيص السورة، ووسمها من الفضل بما لها، فلم يدخل معها ما ليس منها، وليس هذا القصد في حديث جابر وأبي هريرة، والله أعلم.

وقال ابن المبارك: إن البسملة آية في أول كل سورة، وهذا قول شاذ رد الناس عليه.

وروى الشَّعْبِيُّ، والأعمش، أن رسول الله ﷺ كان يكتب: (باسمك اللهم) حتى أمر أن يكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فكتبها، فلما نزلت: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ كتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فلما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ شَيْئَيْنِ وَإِنَّكُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، كتبها. وروى عمرو بن شرحبيل أن جبريل أول ما جاء النبي عليه السلام قال له: قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وروى عن ابن عباس أن أول ما نزل به جبريل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وفي بعض طرق حديث خديجة، وحملها رسول الله ﷺ إلى ورقة، أن جبريل قال للنبي ﷺ: قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فقالها، فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ» الحديث.

والبسملة تسعة عشرة حرفاً، فقال بعض الناس: إن رواية بلغتهم أن ملائكة النار الذين قال الله فيهم: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ إنما ترتب عددهم على حروف ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ولكل حرف ملك، وهم يقولون في كل أفعالهم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فمن هنالك هي قوتهم، وباسم الله استضعفوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه من مَلَح التفسير، وليست من متين العلم، وهي نظير قولهم في ليلة القدر: إنها ليلة سبع وعشرين، مراعاة للفظه هي في كلمات سورة «إنا أنزلناه»، ونظير قولهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل: «ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه»، فإنها بضعة وثلاثون حرفاً، قالوا: فلذلك قال النبي ﷺ: «لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها، أيهم يكتبها أول».

و «الباء» في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ متعلقة عند نحاة البصرة باسم تقديره: ابتدائي مستقر أو ثابت ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾. وعند نحاة الكوفة بفعل تقديره: ابتدأت ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، فـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ في موضع رفع على مذهب البصريين، وفي موضع نصب على مذهب

الكوفيّين، كذا أطلق القول قوم، والظاهر من مذهب سيويه: أن الباء متعلقة باسم كما تقدم. و ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ في موضع نصب متعلقة بثابت أو مستقر بمنزلة «في الدار» من قولك: «زيد في الدار»، وكسرت باء الجر ليناسب لفظها عملها، أو لكونها لا تدخل إلا على الأسماء، فخصت بالخفض الذي لا يكون إلا في الأسماء، وليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف اسماً، نحو (الكاف) في قول الأعشى:

أَتَنَّتْهُونَ، وَلَا يَنْهَى دَوِي شَطَطِ
 كَالطَّغْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الرِّزْتُ وَالْفُتْلُ
 وحذفت الألف من «بسم الله» في الخط اختصاراً وتخفيفاً لكثرة الاستعمال. واختلف النحاة إذا كتب «باسم الرحمن، وباسم القاهر»، فقال الكسائي، وسعيد الأخفش: تُحذف الألف، وقال يحيى بن زياد: لا تحذف إلا مع ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فقط، لأن الاستعمال إنما كثر فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أما في غير اسم الله تعالى فلا خلاف في ثبوت الألف و[اسم] أصله «سيمو» بكسر السين أو «سمو» بضمها، وهو عند البصريين مشتق من السمو، يقال: سَمًا يسمو، فعلى هذا تضم السين في قولك: سمو، ويقال: سَمَى يسمى فعلى هذا تكسر، وحذفت الواو من سمو، وكسرت السن من «سيم» كما قال الشاعر:

بِسْمِ الَّذِي فِي كُلِّ سُورَةٍ سِمَةٌ
 وسكنت السين من [بسم] اعتلالاً على غير قياس، وإنما استدل على هذا الأصل الذي ذكرناه بقولهم في التصغير: «سُمِّي»، وفي الجمع: «أسماء»، وفي جمع الجمع: «أسامي». وقال الكوفيون: أصل اسم وأسم من (السمة) وهي العلامة، لأن الاسم علامة لمن وضع له، وحذفت فاؤه اعتلالاً على غير قياس، والتصغير والجمع المذكوران يردان هذا المذهب الكوفي، وأما المعنى فيه فجيد، لولا ما يلزمهم من أن يقال في التصغير «وسيم»، وفي الجمع «أوسام»، لأن التصغير والجمع يردان الأشياء إلى أصولها.

وقد ذكر بعض المفسرين في هذا الموضع «الاسم والمسمى»، هل هما واحد؟ فقال الطبري رحمه الله: إنه ليس بموضع للمسألة، وأنحى في خطبته على المتكلمين في هذه المسألة ونحوها، ولكن بحسب ما قد تُدوّل القول فيها، فلنقل: إن الاسم «كزيد، وأسد، وفرس» قد يرد في الكلام، يراد به الذات، كقولك: «زيد قائم» و «الأسد شجاع»، وقد يرد، ويراد به التسمية ذاتها، كقولك: «أسد ثلاثة أحرف»، ففي الأول يقال: الاسم هو المسمى، بمعنى «يراد به المسمى»، وفي الثاني: لا يراد به المسمى، ومن ورود الأول قولك: «يا رحمن اغفر لي» وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾، ومن ورود الثاني قولك: «الرحمن وصف الله تعالى»، وأما «اسم» الذي هو «ألف، وسين، وميم»، فقد يجري في لغة العرب مجرى الذات، يقال: «ذات، ونفس، واسم، وعين»، بمعنى، وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وقوله: ﴿تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، وقوله: ﴿مَا تَقْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾، وعضدوا ذلك بقول لبيد:

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَنْبِكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اغْتَدَزَ وَقَالُوا: إِنْ لِبِدًا أَرَادَ التَّحِيَّةَ.

وقد يجري «اسم» في اللغة مجرى ذات العبارة، وهو الأكثر من استعماله، فمنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، على أشهر التأويلات فيه، ومنه قول النبي عليه السلام: «إِنْ لَهِ تِسْعَةُ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». وعلى هذا النحو استعمل النحويون الاسم في تصريف أقوالهم، فالذي يُتَنَخَّلُ من هذا أَنَّ الْأَسْمَاءَ قد تجيء يراد بها ذوات المسميات، وفي هذا يقال: الاسم هو المسمى، وقد تجيء يراد بها ذواتها نفسها لا مسمياتها، وَمَرَّ بِي أَنَّ مَالِكًا رَحِمَهُ اللَّهُ سئل عن الاسم: أهو المسمى؟ فقال: «ليس به، ولا هو غيره»، يريد دائماً في كل موضع، وهذا موافق لما قلناه.

والمكتوبة التي لفظها ﴿اللَّهُ﴾ أَبْهَرُ أَسْمَاءِ اللَّهِ تعالى، وأكثرها استعمالاً، وهو المتقدم لسائرهما في الأغلب، وإنما تجيء الآخر أوصافاً.

واختلف الناس في اشتقاقه: فقالت فرقة من أهل العلم: هو اسم مرتجل، لا اشتقاق له من فعل، وإنما هو اسم موضوع له تبارك وتعالى، والآلف واللام لازمة له، لا لتعريف ولا لغيره، بل هكذا وضع الاسم. وذهب كثير من أهل العلم إلى أنه مشتق من أَلَّه الرجل إذا عبد، وتأله إذا تشكك، ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج:

لِلَّهِ ذُرُّ الْغَانِيَاتِ الْمُؤَدَّةِ سَبَّخْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأْلِهِي
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُكَ وَأَلْهَتَكَ﴾ على هذه القراءة، فإن ابن عباس وغيره قال: وعبادتك، قالوا: فاسم الله مشتق من هذا الفعل لأنه الذي يألهه كل مخلوق ويعبده، حكاه النقاش في صدر سورة آل عمران. فإنه فعال من هذا.

واختلف: كيف تَعَلَّلَ (إِلَه) حتى جاء (الله)؟ ف قيل: حذفت الهمزة حذفاً على غير قياس، ودخلت الآلف واللام للتعظيم على (لاه)، وقيل: بل دخلتا على (إِلَه) ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام فجاء (أَلِلاه)، ثم أُدْغِمَتِ اللام في اللام، وقيل: إن أصل الكلمة (لاه)، وعليه دخلت الآلف واللام، والأول أقوى.

وروي عن الخليل أن أصل إله (ولاه). وأن الهمزة مبدلة من واو كما هي في إشاح وإشاح، وإسادة وإسدة، وقيل: إن أصل الكلمة (ولاه) كما قال الخليل، إلا أنها مأخوذة من (وله) الرجل إذا تحير، لأنه تعالى تتحير الأبواب في حقائق صفاته، والفكر في المعرفة به، وحذفت الآلف الأخيرة من الله لثلاث يشكل بخط اللات، وقيل: طرحت تخفيفاً، وقيل: هي لغة، فاستعملت في الخط، ومنها قول الشاعر:

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَخْرِدُ حَزْدَ الْجَنَّةِ الْمُغْلَّةِ

[وَالرُّحْمَنُ] صفة مبالغة من الرحمة، ومعناها أنه انتهى إلى غاية الرحمة، كما يدل على الانتهاء سكران وغضبان، وهي صفة تختص بالله، ولا تطلق على البشر. وهي أبلغ من فعل، وفعل أبلغ من فاعل، لأن راحماً يقال لمن رحم ولو مرة واحدة، ورحيماً يقال لمن كثر منه ذلك، والرحمن النهاية في الرحمة، وقال بعض الناس: الرحمن والرحيم بمعنى واحد، كالندمان والنديم، نعم إنهما من فعل واحد، ولكن أحدهما أبلغ من الآخر. وأما المفسرون فعبروا عن ﴿الْزَّكَّى الرَّحِيمِ﴾ بعبارات فمنها:

أَن الْعَزْزَمِيُّ قَالَ: معناه الرحمن بجميع خلقه في الأمطار، ونعم الحواس، والنعم العامة، الرحيم بالمؤمنين، بالهداية لهم، واللفظ بهم. ومنها: أَن أبا سعيد الخدري، وابن مسعود رويَا أَن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة». وقال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله، والرحيم: إنما هو من جهة المؤمنين كما قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه كلها أقوال تتعاضد، وقال عطاء الخراساني: كان الرحمن، فلما اختزل، وسُمِّي به مسيلمة الكذاب قال الله لنفسه: ﴿الْزَّكَّى الرَّحِيمِ﴾، فهذا الاقتران بين الصفتين ليس لأحد إلا الله تعالى، وهذا قول ضعيف، لأن ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الْزَّكَّى الرَّحِيمِ﴾ ① كان قبل أن ينجم أمر مسيلمة، وأيضاً فَتَسْمِي مسيلمة بهذا لم يكن مما تأصل وثبت. وقال قوم: إن العرب كانت لا تعرف لفظة الرحمن، ولا كانت في لغتها، واستدلوا على ذلك بقول العرب: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ أَتَسْبَدُّ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، وهذا القول ضعيف، وإنما وقفت العرب على تعيين الإله الذي أمروا بالسجود له لا على نفس اللفظ.

واختلف في وصل الرحيم بالحمد، فروي عن أم سلمة عن النبي ﷺ: «الرَّحِيمَ الْحَمْدُ» تُسَكَّن الميم، ويوقف عليها، ويبتدأ باللف مقطوعة، وقرأ به قوم من الكوفيين، وقرأ جمهور الناس (الرَّحِيمَ الْحَمْدُ) يعرب الرحيم بالخفض، وتوصل الألف من الحمد، ومن يشأ أن يقدر أنه أسكن الميم، ثم لما وصل الألف حركتها للالتقاء، ولم يعتد باللف الوصل، فذلك سائغ، والأول أخصر، وحكى الكسائي عن بعض العرب أنها تقرأ (الرَّحِيمَ الْحَمْدُ) بفتح الميم وصلة الألف، كأنها سكنت الميم وقطعت الألف، ثم أُلْقِيَتْ حركتها على الميم وحذفت، ولم ترو هذه قراءة عن أحد فيما علمت، وهذا هو نظر يحيى بن زياد في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَلَمْ أَلَمْ﴾.

تفسير فاتحة الكتاب

بحول الله تعالى

قال ابن عباس، وموسى بن جعفر، عن أبيه، وعلي بن الحسين، وقتادة، وأبو العالية، ومحمد بن يحيى بن حبان: إنها مكية، ويؤيد هذا أن في سورة الججر: ﴿وَلَقَدْ مَآئِنَكَ سَبْعًا مِّنَ الثَّنَائِي﴾ والججر مكية بإجماع.

وفي حديث أبي بن كعب: «إنها الشَّعْبُ المَثْنِي، والشَّعْبُ الطَّوْل» نزلت بعد الحجر بمُدَدٍ، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنه كانت قط في الإسلام صلاة بغير ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ورؤي عن عطاء بن يسار، وسودة بن زياد، والزهرري محمد بن مسلم، وعبيد بن عمير أن سورة الحمد مدنية.

وأما أسماؤها - فلا خلاف أنها يقال لها: فاتحة الكتاب؛ لأن موضعها يعطي ذلك، واختلف - هل يقال لها: أم الكتاب؟ ففكره الحسن ابن أبي الحسن ذلك، فقال: أم الكتاب الحلال والحرام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ تُكِنُّهُنَّ مِنْ أَثَمِ الْكِتَابِ وَأَنْتَ مُنَشِّئُهُنَّ﴾ وقال ابن عباس وغيره: يقال لها: أم الكتاب. وقال البخاري: سميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصحف، ويقراءتها في الصلاة.

وفي تسميتها بأُم الكتاب حديث رواه أبو هريرة. واختلف - هل يقال لها أم القرآن؟ ففكره ذلك ابن

سيرين، وجوزّه جمهور العلماء، قال يحيى بن يعمر: أم القرى مكة، وأم خراسان مرو، وأم القرآن سورة الحمد، وقال الحسن بن أبي الحسن: اسمها أم القرآن. وأما المثنائي فقيل: سميت بذلك لأنها تنثني في كل ركعة، وقيل: سميت بذلك لأنها استثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذخراً لها.

وأما فضل هذه السورة فقد قال رسول الله ﷺ في حديث أبي بن كعب: «إنها لم يَنْزَلْ في التوراة،

ولا في الإنجيل، ولا في الفرقان مثلاً» ويروى أنها تعدل ثلثي القرآن، وهذا العدل إما أن يكون في المعاني، وإما أن يكون تفضيلاً من الله تعالى لا يُعلل، وكذلك يجيء عدل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وعدل ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ وغيرها، وروى أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لِلْحَمْدِ لله رب العالمين فضل ثلاثين حسنة، على سائر الكلام»، وورد حديث آخر أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كُتِبَ له عَشْرُونَ حسنة، ومن قال: الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ كُتِبَ له ثَلَاثُونَ حسنة» وهذا الحديث هو في الذي يقوله من المؤمنين مؤتجراً طالب ثواباً، لأن قوله: ﴿الْحَمْدُ لله﴾ فسي ضمنها التوحيد الذي هو معنى لا إله إلا الله، ففي قوله: توحيد وحمد،



وفي قول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ توحيد فقط، فأما إذا أخذنا بموضعهما من شرع الملة، ومحلهما من دفع الكفر والإشراك، ف (لا إله إلا الله) أفضل، والحاكم بذلك قول النبي ﷺ: «أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِن قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

﴿الْحَمْدُ﴾ معناه: الشناء الكامل، والألف واللام فيه لاستغراق الجنس من المحامد، وهو أعم من الشكر، لأن الشكر إنما يكون على فعل جميل يُسدى إلى الشاكر، وشكره حمداً ما، والحمد الممجّد هو ثناء بصفات المحمود من غير أن يسدي شيئاً، فالحامد من الناس قسمان: الشاكر والمثنّي بالصفات، وذهب الطبري إلى أن الشكر والحمد بمعنى واحد، وذلك غير مرضي. وحكى عن بعض الناس

أنه قال: الشكر ثناء على الله بأفضاله وإنعامه، والحمد ثناء بأوصافه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أصح معنى من أنهما بمعنى واحد، واستدل الطبري على أنهما بمعنى، بصحة قولك: الحمد لله شكراً، وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه، لأن قولك: شكراً، إنما خصصت به الحمد أنه على نعمة من النعم.

وأجمع السبعة، وجمهور الناس على رفع الدال من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وروى عن سفيان بن عيينة، وروية بن العجاج: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بفتح الدال، وهذا على إضمار فعل، وروى عن الحسن بن أبي الحسن، وزيد بن علي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بكسر الدال على إتيان الأول الثاني، وروى عن ابن أبي عبله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بضم الدال واللام على إتيان الثاني الأول. قال الطبري: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناء أننى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا به عليه، فكأنه قال: قالوا الحمد لله، وعلى هذا يجيء قولوا إياك. قال: وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه، كما قال الشاعر:

وأعلم أنني سأكون زمناً
إذا سار السَّوَاعِجُ لا يسيرُ
فقال السائلون: لمن حفرتم؟
فقال المخبرون لهم: وزيرُ
المعنى: «المحفور له وزير»،
فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه،
وهذا كثير.

وقرأت طائفة (رَبِّ) بالنصب، فقال

بعضهم: هو نصب على المدح، وقال بعضهم: هو على النداء، وعليه يجيء إياك.

و (الرَّبِّ) في اللغة المعبود، والسيد المالك، والقائم بالأمور، المصلح لما يفسد منها، والملك، تأتي اللفظة لهذه المعاني.

فمما جاء بمعنى «المعبود» قول الشاعر في صنم:

أَرْبُ يَبُولُ الثُّغْلَبَانِ بِرَأْسِهِ
لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثُّغَالِبُ
ومما جاء بمعنى «السيد المالك» قولهم: رب العبيد والممالك.

ومما جاء بمعنى «القائم بالأمور الرئيس فيها» قول لبيد:

وَأَهْلَكُنْ يَوْمًا رَبَّ كِنْدَةَ وَإِنَّهُ
وَرَبُّ مَعْدُ بَيْنَ خَبْتٍ وَعَزْزَرِ
ومما جاء بمعنى «الملك» قول النابغة:

تَحَبُّ إِلَى الثُّعْمَانِ حَتَّى تَنَالَهُ
فَدَى لَكَ مِنْ رَبِّ طَرِيفِي وَتَالِدِي
ومن معنى «الإصلاح» قولهم: أديم مربوب. أي مُصْلَحُ قال الشاعر:

كَانُوا كَسَالَةً حَمَقَاءَ إِذْ حَقَنْتُ
سِلَاحَهَا فِي أَدِيمٍ غَيْرِ مَرْبُوبٍ
ومن معنى «الملك» قول صفوان بن أمية لأخيه يوم حنين: «لَأَنْ يَرْتُنِّي رَجُلٌ مِنْ قَرِيشٍ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَرْتُنِّي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ»، ومنه قول ابن عباس في شأن عبدالله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان: «وإن كان لا بد، لأن يرتُنِّي رجل من بني عمي أحب إلي من أن يرتُنِّي غيرهم». ذكره البخاري في سورة براءة، ومن ذلك قول الشاعر:

وَكُنْتُ امْرَأً أَفْضَتْ إِلَيْكَ رَبَابَتِي
وَقَبْلَكَ رَيْثُنِي فَضِغْتُ رُبُوبُ
وهذه الاستعمالات قد تتداخل، فالرَّبُّ على الإطلاق الذي هو رب الأرباب على كل جهة هو الله تعالى.

و ﴿الْمَلِكِ﴾ جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى، يقال لجملة: عالم، ولأجزائه من الإنس والجن وغير ذلك: عالم عالم، وبحسب ذلك يجمع على العالمين، ومن حيث عالم الزمان متبدل في زمان آخر حسن جمعها. ولفظة (العالم) جمع لا واحد له من لفظه، وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على مُوجِدِهِ، كذا قال الزُّجَاجُ.

وقد تقدم القول في ﴿الْعَزِيزِ﴾.

واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فقرأ عاصم، والكسائي: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. قال الفارسي: وكذلك قرأها قتادة، والأعمش. قال مكي: وروى الزهري أن رسول الله ﷺ قرأها كذلك بالألف، وكذلك قرأها أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وطلحة، والزبير رضي الله عنهم.

وقرأ بقية السبعة ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وأبو عمرو منهم يُسَكِّنُ اللام فيقرأ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، هذه رواية عبدالوارث عنه. وروى عن نافع إشباع الكسرة من الكاف في (ملك) فيقرأ: مَلِكِي، وهي لغة للعرب

ذكرها المهدي، وقرأ أبو حنيفة (ملك) بفتح الكاف وكسر اللام، وقرأ ابن السمين، وعمر بن عبدالعزيز، والأعمش، وأبو صالح السمان، وأبو عبد الملك الشامي (مالك) بفتح الكاف، وهذان على النداء ليكون ذلك توطئة لقوله: (إياك)، ورد الطبري على هذا وقال: إن معنى السورة قولوا: الحمد لله، وعلى ذلك بجي (إياك). و (اهدنا)، وذكر أيضاً أن من فصيح كلام العرب الخروج من الغيبة إلى الخطاب، وبالعكس، كقول أبي كبير الهذلي:

يا ونح نفسي كان جدُّه خالد
وبياض وجهك للشراب الأعفر
وكما قال لبيد:

باتت تشكى إلي النفس مُجهشةً
وقد حَمَلْتُكِ سبعاً بعدَ سَبعينَا
وكقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفِكَ وَجَرَيْنَ يَمِينُ﴾. وقرأ يحيى بن يعمر، والحسن بن أبي الحسن، وعلي بن أبي طالب: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ على أنه فعل ماضٍ، وقرأ أبو هريرة (مليك) بالياء وكسر الكاف، وقال أبو علي: «وَلَمْ يَجُلْ أَحَدٌ مِنَ الْقُرَاءِ أَلْفَ (مالك)، وذلك جائز إلا أنه لا يقرأ بما يجوز إلا أن يأتي بذلك أثر مستفيض».

و (المَلِكُ والمَلِكُ) بضم الميم وكسرها، وما تصرف منهما راجع كله إلى (مَلِكٌ) بمعنى شدَّ وضبط، ثم يختص كل تصريف من اللفظة بنوع من المعنى. يدل ذلك على الأصل في (ملك) قول الشاعر:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَزْتُ فَتَقَهَا
.....
وهذا يصف طعنة فأراد (شدَّذت). ومن ذلك قول أوس بن حجر:

فَمَلَكْتُ بِاللَّيْطِ الَّذِي تَحْتَ قَشْرِهَا
كَغَزَقِي بَبَيْضِ كُنْهُ الْقَيْضِ مِنْ عِلْ
أراد (شدَّذ)، وهذا يصف صانع قوس ترك من قشرها ما يحفظ قلب القوس، و «الذي» مفعول، وليس بصفة للليط، ومن ذلك قولهم: «إملاك المرأة»، وإملاك فلان» إنما هو ربط النكاح، كما قالوا: عُقْدَةُ النكاح، إذ النكاح موضع شدَّ وَرَبِطَ، فالمالك للشيء شادَّ عليه، ضابط له، وكذلك المَلِكُ.

واحتج من قرأ (ملك) بأن لفظة (ملك) أعم من لفظة (مالك)، إذ كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكاً، والملك الذي يدبر المالك في ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك، وتتابع المفسرون على سرد هذه الحجة، وهي عندي غير لازمة، لأنهم أخذوا اللفظتين مطلقتين، لا بنسبة إلى ما هو المملوك وفيه الملك، فأما إذا كانت نسبة الملك هي نسبة المالك فالمالك أبلغ - مثال ذلك: أن نقدر مدينة أهلة عظيمة، ثم نقدر لها رجلاً يملكها أجمع، أو رجلاً هو ملكها فقط، إنما يملك التدبير والأحكام، فلا شك أن المالك أبلغ تصرفاً وأعظم، إذ إليه إجراء قوانين الشرع فيها، كما لكل أحد في ملكه، ثم عنده زيادة التملك، وملك الله تعالى يوم الدين هو على هذا الحد، فهو مالكة ومَلِكُهُ، والقراءتان حستان.

وحكى أبو علي في حجة من قرأ: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أن أول من قرأ ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ مروان بن الحكم، وأنه قد يدخل في المَلِكُ ما لا يدخل في المَلِكُ، فيقال: مالك الدنانير والدرهم والطير والبهائم، ولا يقال: مَلِكُهَا، و (مالك) في صفة الله تعالى يعم ملك أعيان الأشياء، وملك الحكم فيها. وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ﴾ قال أبو بكر: الأخبار الواردة تبطل أن أول من قرأ: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ مروان بن الحكم، بل القراءة بذلك أوسع، ولعل قائل ذلك أراد أنه أول من قرأ في ذلك العصر، أو البلد ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي الترمذي أن النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر، رضي الله عنهما قرؤوا: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ بغير ألف، وفيه أيضاً أنهم قرؤوا ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ بألف.

قال أبو بكر: والاختيار عندي ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾، لأن المَلِكُ والمَلِكُ يجمعهما معنى واحد، وهو الشدُّ والربط، كما قالوا ملكت العجين أي شددته، إلى غير ذلك من الأمثلة، والمَلِكُ أفخم وأدخل في المدح، والآية إنما نزلت بالثناء والمدح لله سبحانه، فالمعنى أنه ملك المملوك في ذلك اليوم، لا مُلِكٌ لغيره، قال: والوجه لمن قرأ (مالك) أن يقول: إن المعنى أن الله تعالى يملك ذلك اليوم أن يأتي به، كما يملك سائر الأيام، لكن خصصه

بالذكر لعظمه في جمعه وحوادثه قال أبو الحسن الأخفش: «يقال مَلِكٌ بَيْنَ الْمَلِكِ بضم الميم، ومالك بَيْنَ الْمَلِكِ والملك بفتح الميم وكسرهما»، وزعموا أن ضم الميم لغة في هذا المعنى. وروى بعض البغداديين: «لي في هذا الوادي يَمْلِكُ وَمَلِكٌ وَمُلْكٌ» بمعنى واحد.

قال أبو علي: حكى أبو بكر بن السراج، عن بعض من اختار القراءة بِمَلِكٍ، أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء بقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فلا فائدة في قراءة من قرأ (مالك) لأنها تكرير. قال أبو علي: ولا حجة في هذا، لأن في التنزيل أشياء على هذه الصورة، تقدّم العام ثم ذكر الخاص كقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلَّيُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾. فالخالق يعمُّ، وذكر المصور لما في ذلك من التنبيه على الصنعة ووجوه الحكمة. وكما قال تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقَنُونَ﴾ بعد قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ والغيب يعمُّ الآخرة وغيرها. ولكن ذكرها لعظمها، والتنبيه على وجوب اعتقادها، والرد على الكفرة الجاحدين لها. وكما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الَّذِي وَصَّى بِهِ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِهِ وَإِلَى الْمَوْلَى يَكُونُونَ لَهَا مِنَ الرَّاغِبِينَ﴾ فذكر الرحمن الذي هو عام، وذكر الرحيم بعده لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأيضاً فإن الرب يتصرف في كلام العرب بمعنى المَلِكِ كقوله: (ومن قبل ربّثني قضت رثوب).

وغير ذلك من الشواهد، فتنعكس الحجة على من قرأ ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

والجر في (ملك) أو (مالك) على كلتا القراءتين هو على الصفة للاسم المجرور قبله، والصفات تجري على موصوفها إذا لم تقطع عنهم لزم أو مدح، والإضافة إلى (يوم الدين) في كلتا القراءتين من باب (يا سارق الليلة أهل الدار)، اتسع في الظرف فنصب نصب المفعول به، ثم وقعت الإضافة إليه على هذا الحد، وليس هذا كإضافة قوله تعالى: ﴿وَعِنْدُ عَلَمٍ السَّاعَةِ﴾، لأن الساعة مفعول بها على الحقيقة، أي أنه يعلم الساعة وحقيقتها، فليس أمرها على ما الكفار عليه من إنكارها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما على المعنى الذي قاله ابن السراج، من أن معنى ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أنه يملك مجيئه ووقوعه، فإن الإضافة إلى اليوم كإضافة المصدر إلى الساعة، لأن اليوم على قوله مفعول به على الحقيقة، وليس ظرفاً اتسع فيه.

قال أبو علي: ومن قرأ ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾، فأضاف اسم الفاعل إلى الظرف المتسع فيه، فإنه حذف المفعول من الكلام للدلالة عليه تقديره: مالك يوم الدين الأحكام. ومثل هذه الآية في حذف المفعول به مع الظرف قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فنصب الشهر على أنه ظرف، والتقدير: فمن شهد منكم المضّر في الشهر، ولو كان الشهر مفعولاً للزم

الصوم للمسافر، لأن شهادته للشهر كشهادة المقيم، وشهد يتعدى إلى مفعول، يدلّك على ذلك قول الشاعر:

وَيَوْمًا شَهِدْنَاهُ سُلَيْمًا وَعَامراً

و (الدّين) لفظ يجيء في كلام العرب على أنحاء: منها «الملة»، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. إلى كثير من الشواهد في هذا المعنى. وسمي حظ الرجل منها في أقواله وأعماله واعتقاداته «ديناً» فيقال: «فلان حسن الدين». ومنه قول النبي ﷺ في رؤياه في قميص عمر الذي رآه يجره، (قيل: فما أولئك يا رسول الله؟ قال: «الدين»). وقال علي بن أبي طالب: «مَحَبَّةُ العلماء دين يَدان به».

ومن أنحاء اللفظة الدّين بمعنى «العادة».

فمنه قول العرب في الريح: «عَادَتْ هَيْفَ لَأَذْيَانَهَا».

ومنه قول امرئ القيس: كَيْدِيْنِكَ مِنْ أُمِّ الْحَوِيْرْتِ قَبْلَهَا

ومنه قول الشاعر:

أَهَذَا دِيْنُهُ أَبَدًا وَدِيْنِي؟

إلى غير ذلك من الشواهد، يقال: دين ودينة أي عادة.

ومن أنحاء اللفظة الدين «سيرة الملك وملكته»، ومنه قول زهير:

لَشَنْ حَلَلْتِ بِجَوْ فِي بَنِي أَسَدٍ
فِي دِيْنِ عَمْرٍو وَحَالَتْ بَيْنُنَا فَذَكَ
أَرَادَ فِي مَوْضِعِ طَاعَةِ عَمْرٍو

وسيرته، وهذه الأنحاء الثلاثة لا يفسر بها قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

ومن أنحاء اللفظة؛ الدين: «الجزاء»، فمن ذلك قول الفند الزماني:

وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُذْوِ
نِ دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا
أَي جازيناهم.

ومنه قول كعب بن جميل:
إِذَا مَازَمَوْنَا رَمَيْنَاهُمْ
وَدِنَاهُمْ مِثْلَ مَا يَقْرِضُونَا
ومنه قول الآخر:

وَأَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ مُلْكَكَ زَائِلٌ
وَأَعْلَمُ بِأَنَّ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ
وهذا النحو من المعنى هو الذي يصلح لتفسير قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، أي يوم الجزاء على الأعمال والحساب بها، كذلك قال ابن عباس، وابن مسعود، وابن جريج، وقتادة، وغيرهم. قال أبو علي: ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، ﴿الْيَوْمَ نَجْزِي مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وحكى أهل اللغة: «دِنْتُهُ بفعله دِينًا» بفتح الدال، و «دِينًا» بكسرها: جزيته، وقيل: الدِّينُ: المصدر، والدينُ بكسر الدال: الاسم. وقال مجاهد: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي يوم الحساب مدينين محاسنين، وهذا عندي يرجع إلى معنى الجزاء.

ومن أنحاء اللفظة؛ الدين: «الذل»، والمدين: العيد، والمدينة: الأمة، ومنه قول الأخطل:

رَبِّتْ وَرَبَّا فِي حَجَرِهَا ابْنُ مَدِينَةٍ
تَرَاهُ عَلَيَّ مِسْحَاتِهِ يَسْتَرْكُلُ
أَي ابن أمة، وقيل: بل أراد ابن مدينة من المُدُن، الميم أصلية، ونسبه إليها، كما يقال: ابن ماء وغيره، وهذا البيت في صفة كرامة، فأراد أَنَّ أهل المدن أعلم بفلاحة الكرم من أهل بادية العرب.

ومن أنحاء اللفظة، الدين: «السياسة»، والدِّيان «السَّاس»، ومنه قول ذي الإصبع:

لَا إِبْنَ عَمَكُ لَا أَفْضَلْتُ فِي حَسَبِ
يَوْمًا وَلَا أَتَتْ دِيَانِي فَتَحْزُونِي
ومن أنحاء اللفظة، الدين: «الحال»، قال النضر بن شميل: سألت أعرابياً عن شيء فقال لي: «لو لقيتني على دين غير هذه لأخبرتكَ». ومن أنحاء اللفظة، الدين: «الداء» عن اللحياني وأشد:

يَا دِينَ قَلْبِكَ مَنْ سَلَمَى وَقَدْ دِينَا
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أما هذا الشاهد فقد يتأول على غير هذا النحو، فلم يبق إلا قول اللحياني.

وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نطق المؤمن به إقرار بالربوبية، وتذلل، وتحقيق لعبادة الله، إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك، وقدم المفعول على الفعل اهتماماً، وشأن العرب تقديم الأهم. ويذكر أن أعرابياً سب آخر، فأعرض المسيب عنه، فقال له الساب: إياك أعني، فقال الآخر: وعنتك أغرض، فقدَّمَا الأهم.

وقرأ الفضل الرقاشي (إِيَّاكَ) بفتح الهمزة، وهي لغة مشهورة. وقرأ عمرو بن فائد: (إِيَّاكَ) بكسر الهمزة وتخفيف الياء، وذلك أنه كره تضعيف الياء لِثِقَلِهَا، وكون الكسرة قبلها، وهذا كتخفيف (رب) و (إن). وقرأ أبو السَّوَّار الغنوي (هَيَّاكَ) نَعْبُدُ، وَهَيَّاكَ نُسْتَعِينُ) بالهاء وهي لغة.

واختلف النحويون في (إِيَّاكَ)، قال الخليل: (إِيَّا) اسم مضمَر، أُضِيفَ إِلَى مَا بَعْدَهُ لِلدِّيانِ لَا لِلتَّعْرِيفِ، وَحَكَى عَنِ الْعَرَبِ: «إِذَا بَلَغَ الرَّجُلُ السَّتِينَ فَإِيَّاهُ وَإِيَّا الشَّوَابَ»، وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: (إِيَّا) اسْمٌ مَبْهَمٌ، أُضِيفَ لِلتَّخْصِيسِ لَا لِلتَّعْرِيفِ. وَحَكَى ابْنُ كَيْسَانَ عَنْ بَعْضِ الْكُوفِيِّينَ: أَنَّ (إِيَّاكَ) بِكَمَالِهِ اسْمٌ مَضْمَرٌ، وَلَا يَعْرِفُ اسْمَ مَضْمَرٍ يَتَغَيَّرُ آخِرُهُ غَيْرَهُ. وَحَكَى عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: الْكَافُ وَالْهَاءُ وَالْيَاءُ هِيَ الْاسْمُ الْمَضْمَرُ، لَكِنِّهَا لَا تَقُومُ بِأَنْفُسِهَا، وَلَا تَكُونُ إِلَّا مُتَصِلَاتٍ، فَإِذَا تَقَدَّمتِ الْأَفْعَالُ جَعَلَ (إِيَّا) عِمَاداً لَهَا، فَيُقَالُ: (إِيَّاكَ، وَإِيَّاهُ، وَإِيَّايَ). وَإِذَا تَأَخَّرَتْ اتَّصَلَتْ بِالْأَفْعَالِ وَاسْتَغْنَى عَنْ (إِيَّا). وَحَكَى عَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّ (إِيَّا) اسْمٌ مَبْهَمٌ يَكْنَى بِهِ عَنِ الْمَنْصُوبِ، وَزِيدَتْ الْكَافُ وَالْهَاءُ تَفْرِقُهُ بَيْنَ الْمُخَاطَبِ وَالْغَائِبِ وَالتَّكْلِمِ، وَلَا مَوْضِعَ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ، فَهِيَ كَالْكَافِ فِي ذَلِكَ، وَفِي أَرَأَيْتَكَ زَيْدًا مَا فَعَلَ.

و (نَعْبُدُ) معناه: نُقِيمُ الشَّرْعَ وَالْأَوَامِرَ مَعَ تَذَلُّلٍ وَاسْتِكَانَةٍ، وَالطَّرِيقَ الْمَذَلُّلُ يُقَالُ لَهُ: مُعَبَّدٌ، وَكَذَلِكَ الْبَعِيرُ، وَقَالَ طَرَفَةُ:

تُبَارِي عِشَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتْبَعَتْ
وَزَيْفًا وَزَيْفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعْبَدٍ
وتكررت (إياك) بحسب اختلاف
الفاعلين، فاحتاج كل واحد منهما إلى
تأكيد واحتمام.

و (نستعين)، معناه نطلب العون
منك في جميع أمورنا، وهذا كله
تبر من الأصنام، وقرأ الأعمش،
وابن وثاب، والنخعي: (نستعين)
بكسر النون، وهي لغة لبعض قريش
في النون والتاء والهمزة، ولا
يقولونها في ياء الغائب، وإنما ذلك
في كل فعل سمي فاعله فيه زوائد،
أو فيما يأتي من الثلاثي على فَعِلَ
يَفْعُلُ بكسر العين في الماضي،
وفتحها في المستقبل، نحو عِلِمَ
وشَرِبَ، وكذلك فيما جاء معتل
العين نحو خال يخال، فإنهم
يقولون: يخال وإخال. و (نستعين)
أصله نَسْتَعِينُ. نقلت حركة الواو
إلى العين، وقلبت ياء لانكسار ما
قبلها، والمصدر: (استعانة)، أصله
(استعوان)، نُقلت حركة الواو إلى
العين، فلما انفتح ما قبلها وهي في
نية الحركة انقلبت ألفاً، فوجب
حذف أحد الألفين الساكنين، فقيل:
حذفت الأولى لأن الثانية مجلوبة
لمعنى، فهي أولى بالبقاء، وقيل:
حذفت الثانية؛ لأن الأولى أصلية
فهي أولى بالبقاء، ثم لزمت الهاء
عوضاً من المحذوف.

وقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا سَبِيلَكَ﴾ رغبة،
لأنها من المربوب إلى الرب، وهكذا
صيغة الأمر كلها، فإذا كانت من
الأعلى فهي أمر.

والهداية في اللغة: الإرشاد، لكنها

تتصرف على وجوه يعبر عنها
المفسرون بغير لفظ الإرشاد، وكلها
إذا تأملت رجعت إلى الإرشاد.

فالهدى يجيء بمعنى: «خلق
الإيمان في القلب»، ومنه قوله
تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَى هُدًى مِّنْ
رَّبِّهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو
إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا
تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ
يُرِيدُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُ يَفْرَحْ صَدْرُهُ
لِلْإِسْلَامِ﴾. قال أبو المعالي: فهذه
آيات لا يتجه حملها إلا على خلق
الإيمان في القلب، وهو محض
الإرشاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقد جاء الهدى بمعنى «الدعاء».
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ
هَادٍ﴾، أي داع، وقوله تعالى:
﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾
وهذا يبين فيه الإرشاد، لأنه ابتداء
إرشاد، أجاب المدعو أو لم يجب.

وقد جاء الهدى بمعنى «الإلهام»،
من ذلك قوله تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ
خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، قال المفسرون:
معناه: ألهم الحيوانات كلها إلى
منافعها. وهذا أيضاً يبين فيه معنى
الإرشاد.

وقد جاء الهدى بمعنى «البيان».
من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ
فَهَدَّيْنَاهُمْ﴾، قال المفسرون: معناه:
بيّنا لهم، قال أبو المعالي: معناه:
دعوناهم. ومن ذلك قوله تعالى:
﴿إِنَّا عَيْنًا لِّلْهَدَى﴾ أي علينا أن
نبين، وفي هذا كله معنى الإرشاد.

قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية
والمراد بها «إرشاد المؤمنين إلى
مسالك الجنان، والطرق المفضية
إليها». من ذلك قوله تعالى في صفة
المجاهدين: ﴿لَقَدْ يُبْدِلُ أَصْنَامَهُمُ
مِّثْلَهُمْ رُسُلًا بَالِغًا﴾، ومنه قوله
تعالى: ﴿فَأَعِزُّوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَيِّمِ﴾،
معناه: فاسلكوهم إليها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه الهداية بعينها هي التي تقال في
طرق الدنيا، وهي ضد الضلال،
وهي الواقعة في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. على
صحيح التأويلات، وذلك بيّن من
لفظ الصراط، و (الهدى) لفظ
مؤنث، وقال اللحياني: هو مذكر،
قال ابن سيده: و (الهدى) اسم من
أسماء النهار، قال ابن مقبل:

حَتَّى اسْتَبْنَتْ الْهُدَى وَالْبَيْدَ هَاجِمَةً
يَخْشَعْنَ فِي الْآلِ غُلْفًا أَوْ يُضْلِلُنَا
و (الصُّرَاطُ) في اللغة الطريق
الواضح، فمن ذلك قول جرير:

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ
- إِذَا أَعْرَجَ الْمَوَارِدُ - مُسْتَقِيمٍ
ومنه قول الآخر:

فَصَدَّ عَنْ نَهْجِ الصُّرَاطِ الْوَاضِحِ
وحكى النقاش: الصراط: الطريق.
بلغة الروم، وهذا ضعيف جداً.

واختلف القراء في الصراط:
فقرأ ابن كثير، وجماعة من
العلماء: (السرائط) بالسین، وهذا هو
أصل اللفظة. قال الفارسي: ورويت
عن ابن كثير بالصاد، وقرأ باقي
السبعة - غير حمزة - بصاد خالصة،
وهذا بدل للسین بالصاد، لتناسبها مع

الطاء في الإطباق، فيحسنان في السمع، وحكاها سيبويه لغة. قال أبو علي: زوي عن أبي عمرو «السين والصاد»، «المضاربة بين الصاد والزاي»، رواه عنه العريان بن أبي سفيان، وروى الأصمعي عن أبي عمرو أنه قرأها بزاي خالصة. قال بعض اللغويين: ما حكاها الأصمعي في هذه القراءة خطأ منه، إنما سمع أبا عمرو يقرأ بالمضاربة فتوهمها زايًا، ولم يكن الأصمعي نحوياً فَيُؤْمَنُ على هذا، وحكى هذا الكلام أبو علي عن أبي بكر بن مجاهد، وقرأ حمزة بين «الصاد والزاي»، وروى أيضاً عنه أنه إنما يلتزم ذلك في المعرفة دون النكرة. قال ابن مجاهد: وهذه القراءة تكلف حرف بين حرفين، وذلك أصعب على اللسان، وليس بحرف يبنى عليه الكلام، ولا هو من حروف المعجم، ولست أدفع أنه كلام فصحاء العرب، إلا أن الصاد أفصح وأوسع.

وقرأ الحسن والضحاك: «اهْدِنَا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» دون تعريف، وقرأ جعفر بن محمد الصادق: «اهْدِنَا صِرَاطَ الْمُسْتَقِيمِ» بالإضافة، وقرأ ثابت البناني: «بَصِّرْنَا الصِّرَاطَ».

واختلف المفسرون في المعنى الذي استعير له الصراط في هذا الموضع، وما المراد به؟ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصراط المستقيم هنا القرآن. وقال جابر: هو الإسلام، يعني الحنيفية، وقال: سعت ما بين السماء والأرض. وقال محمد بن الحنفية:

هو دين الله الذي لا يُقبل من العباد غيره. وقال أبو العالية: هو رسول الله ﷺ، وصاحبه: أبو بكر وعمر، وذكر ذلك للحسن بن أبي الحسن فقال: صدق أبو العالية ونصح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويجتمع من هذه الأقوال كلها أن الدعوة إنما هي في أن يكون الداعي على سَنِّ الْمُتَمِّعِ عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، في معتقداته، وفي التزامه لأحكام شرعه، وذلك هو مقتضى القرآن والإسلام، وهو حال رسول الله ﷺ وصاحبه. وهذا الدعاء إنما أمر به المؤمنون وعندهم المعتقدات، وعند كل واحد بعض الأعمال، فمعنى قوله:

«اهْدِنَا» فيما هو حاصل عندهم: طلب التثبيت والدوام، وفيما ليس بحاصل إما من جهة الجهل به، أو التقصير في المحافظة عليه: طلب الإرشاد إليه. وأقول: إن كل داع به فإنما يريد الصراط بكماله في أقواله، وأفعاله، ومعتقداته، فيحسن على هذا أن يدعو في الصراط على الكمال مَنْ عنده بعضه، ولا يتجه أن يراد باهدنا في هذه الآية: اخلق الإيمان في قلوبنا. لأنها هداية مقيدة إلى صراط، ولا أن يراد بها ادعنا، وسائر وجوه الهداية يتجه.

و (الصراط) نصب على المفعول الثاني، و (المستقيم): الذي لا اعوجاج فيه، ولا انحراف، والمراد أنه استقام على الحق، وإلى غاية الفلاح ودخول الجنة، وإعلال

(مستقيم) أن أصله (مُسْتَقِيمٌ)، نقلت الحركة إلى القاف، وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها.

﴿وَصِرَاطَ الَّذِينَ﴾ بدل من الأول. وقرأ عمر بن الخطاب، وابن الزبير: ﴿صِرَاطَ مَنْ أَتَعَمَّتْ عَلَيْهِمْ﴾، و (الذين) جمع الذي، وأصله (لِذِ)، حذفت منه الياء للتونين، كما تحذف من عم وقاض، فلما دخلته الألف واللام ثَبَّتَ الياء، والذي اسم مبهم ناقص محتاج إلى صلة وعائد، وهو مبني في إفراده وجمعه، معرب في تثنيته، ومن العرب من يُعرب جَمْعُهُ فيقول في الرفع: (اللذون)، وكتب الذي بلام واحدة في الإفراد والجمع تخفيفاً لكثرة الاستعمال.

واختلف الناس في المشار إليهم بأنه أنعم عليهم، فقال ابن عباس، وجمهور المفسرين: إنه أراد صراط النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين. وانتزعوا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ حَيْثُ هُمْ وَأَشَدَّ تَبَيُّنًا﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿فَالْآيَةُ تَقْتَضِي أَنْ هَؤُلَاءِ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وهو المطلوب في آية الحمد. وقال ابن عباس أيضاً: الْمُتَمِّعُ عليهم هم المؤمنون. وقال الحسن بن أبي الحسن: الْمُتَمِّعُ عليهم أصحاب محمد ﷺ. وحكى

مكي وغيره عن فرقة من المفسرين: أن المُنْعَم عليهم مؤمنو بني إسرائيل، بدليل قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعْ بِرَّكَرِ يَلْ أَدْكُرُوا يَتَّبِعِ الْيَقِ أَنْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ وقال ابن عباس: المُنْعَم عليهم أصحاب موسى قبل أن يبذلوا، وهذا والذي قبله سواء، وقال قتادة ابن دعامه: المُنْعَم عليهم الأنبياء خاصة. وحكى مكي عن أبي العالية أنه قال: المنعم عليهم: محمد ﷺ، وأبو بكر، وعمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تقدم ما حكاه عنه الطبري من أنه فسر الصراط المستقيم بذلك، وعلى ما حكى مكي ينتقض الأول، ويكون الصراط المستقيم طريق محمد ﷺ، وأبي بكر، وعمر رضي الله عنهما، وهذا أقوم في المعنى؛ لأن تسمية أشخاصهم طريقاً تجوز.

واختلف القراء في (الهَاء) من (عليهم) فقرأ حمزة ﴿عليهم﴾ بضم الهاء وإسكان الميم، وكذلك ﴿لديهم﴾ و ﴿إلئهم﴾، وقرأ الباقون في جميعها بكسر الهاء، واختلفوا في (الميم)، فروي عن نافع: التخير بين ضمها وسكونها، وروي عنه أنه كان لا يعيب ضم الميم، فدل ذلك على أن قراءته كانت بالإسكان، وكان عبدالله بن كثير يصل الميم بواو انضمت الهاء قبلها أو انكسرت فيقرأ: (عليهمو وقلوبهمو، وسمعهمو، وأبصارهمو). وقرأ ورش الهاء مكسورة والميم موقوفة، إلا أن تلقى الميم ألفاً أصلية فليحق في اللفظ واواً مثل قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ﴾، وكان أبو عمرو،

وعاصم، وابن عامر، والكسائي، يكسرون ويسكنون (الميم)، فإذا لقي الميم حرف ساكن اختلفوا، فكان عاصم، وابن كثير، ونافع يفضون على كسر الهاء وضم الميم مثل قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ﴾ و ﴿مِنْ دُونِهِمْ أَمْرَاتَيْنِ﴾ وما أشبه ذلك، وكان أبو عمرو يكسر الهاء والميم فيقول: ﴿عليهم الدَّلَّةُ﴾ و ﴿إليهم اثنتين﴾، وما أشبه ذلك وكان الكسائي يضم الهاء والميم معاً ﴿عليهم الدَّلَّةُ﴾، ومن ﴿دونهم امرأتين﴾ قال أبو بكر أحمد بن موسى: وكل هذا الاختلاف في كسر الهاء وضمها إنما هو في الهاء التي قبلها كسرة أو ياء ساكنة، فإذا جاوزت هذين لم يكن في الهاء إلا الضم، فإذا لم يكن قبل الميم هاء قبلها كسرة أو ياء ساكنة لم يجز في الميم إلا الضم أو التسكين في مثل قوله: منكم وأنتم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحكى صاحب الدلائل قال: قرأ بعضهم ﴿عَلَيْهِمُو﴾ بواو وضميتين، وبعضهم بضميتين وألقى الواو، وبعضهم بكسرتين وألقى الياء، وبعضهم بكسرتين وألقى الياء، وبعضهم بكسر الهاء وضم الميم، قال: وذلك مروى عن الأئمة ورؤساء اللغة. قال ابن جني: حكى أحمد بن موسى ﴿عليهمو وعليهم﴾ بضم الميم من غير إشباع إلى الواو، و ﴿عليهم﴾ بسكون الميم، وقرأ الحسن، وعمرو بن فائد ﴿عليهمي﴾، وقرأ ﴿عليهم﴾ بكسر الميم من غير إشباع إلى الياء، وقرأ الأعرج ﴿عليهم﴾

بكسر الهاء وضم الميم من غير إشباع. وهذه القراءات كلها بضم الهاء إلا الأخيرة، وبإزاء كل واحدة منها قراءة بكسر الهاء فيجيء في الجميع عشر قراءات.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. اختلف القراء في الراء من (غير)، فقرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: بخفض الراء. وقرأ ابن كثير ﴿غير﴾ بالنصب، ورؤي عنه الخفض.

قال أبو علي: والخفض على ضربين: على البدل من ﴿الذين﴾ أو على الصفة للنكرة، كما تقول: مررت برجل غيرك، وإنما وقع هنا صفة للذين؛ لأن الذين هنا ليس بمقصود قصدهم، فالكلام بمنزلة قولك: إني لأمر بالرجل مثلك فأكرمه، قال: والنصب في الراء على ضربين: على الحال كأنك قلت: أنعمت عليهم لا مغضوباً عليهم، أو على الاستثناء كأنك قلت: إلا المغضوب عليهم، ويجوز النصب على: أعني، وحكي نحو هذا عن الخليل.

ومما يحتج به لمن ينصب - أنَّ (غير) نكرة، فكره أن يوصف بها المعرفة. والاختيار الذي لا خفاء به الكسر، وقد روي عن ابن كثير، فأولى القراءتين ما لم يخرج عن إجماع قراء الأمصار. قال أبو بكر بن السراج: «والذي عندي أن (غير) في هذا الموضع مع ما أضيف إليه معرفة». وهذا شيء فيه نظر ولبس، فليفهم عني ما أقول: اعلم

أن حكم كل مضاف إلى معرفة أن يكون معرفة، وإنما تنكرت (غير) و (مثل) مع إضافتهما إلى المعارف من أجل معناهما، وذلك إذا قلت: «رأيتُ غيرك»، فكل شيء سوى المخاطب فهو غيره، وكذلك إذا قلت: «رأيتُ مثلك» فما هو مثله لا يحصى، لكثرة وجوه المماثلة، فإنما صارنا نكرتين من أجل المعنى، فأما إذا كان شيء معرفة له ضد واحد، وأردت إثباته، ونفي ضده، وعلم ذلك السامع فوصفته بغير وأضفت (غير) إلى ضده فهو معرفة، كقولك: «عليك بالحركة غير السكون»، وكذلك قوله: «غير المفضوب»، لأن من أنعم عليه لا يعاقبه إلا من غضب عليه، ومن لم يغضب عليه فهو الذي أنعم عليه، فمتى كانت (غير) على هذه الصفة وقصد بها هذا المقصد فهي معرفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أبقى أبو بكر (الذين) على حد التعريف، وجوز نعتها بغير لما بيّنه من تعرّف (غير) في هذا الموضع، وغير أبي بكر وقف مع تنكر (غير)، وذهب إلى تقريب (الذين) من النكرة، إذ هو اسم شائع لا يختص به معين، وعلى هذا جوز نعتها بالنكرة.

و «الْمُضْطَرِبِّ عَلَيْهِمُ»: اليهود، و (الضالون) النصارى، هكذا قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والسدي، وابن زيد، وروى ذلك عدي بن حاتم عن رسول الله ﷺ، وذلك بيّن من كتاب الله تعالى، لأن ذكر

غضب الله على اليهود متكرر فيه كقوله: «وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي اتَّخَذَ اللَّهُ لِقَوْمٍ أَسَافُوا» وكقوله تعالى: «قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ دَلَّكَ بُرْهَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَقَدْ كُفِرُوا بِهِ وَإِنَّهُمْ فِي صَعِيرٍ مُنْقَرِعِينَ» وكقوله تعالى: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِيثَاقَكُمْ فِي سَتَرٍ فَأَنزَلْنَا سُنَّاتٍ فَجَاءُوا بِغِلَابٍ وَاتَّخَذُوا صُلَحَاءَ لَهُمْ يَتَحَفَّهُمْ فِي أُمَمٍ وَإِذَا اتَّخَذْتُمْ عِشْرَةً تُنَاصِرُونَهُمْ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ» والغضب عليهم هو من الله تعالى، وغضب الله تعالى عبارة عن إظهاره عليهم محناً، وعقوبات، وذلة، ونحو ذلك. مما يدل على أنه قد أبدعهم، عن رحمته بعداً مؤكداً مبالغاً فيه. والنصارى كان محققوهم على شرعة قبل ورود شرع محمد ﷺ، فلما ورد ضلوا، وأما غير محققهم فضلالهم متقرر منذ تفرقت أقوالهم في عيسى عليه السلام، وقد قال الله تعالى فيهم: «وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلَحُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ». قال مكسي رحمه الله حكاية: دخلت (لا) في قوله: (ولا الضالين) لثلاث يتوهم أن الضالين عطف على الذين، قال: وقيل: هي مؤكدة بمعنى غير. وحكى الطبري أن (لا) زائدة، وقال: هي هنا على نحو ما هي عليه في قول الرازي:

فَمَا أَلْوَمَ الْبَيْضُ إِلَّا تَسْخَرَا

أراد: أن تَسْخَرَ. وفي قول الأحرص:

وَلَحَيْنَنِي فِي اللَّهْوِ أَلَا أَجِبُهُ
وَلِلْهُودِ ذَائِبٌ غَيْرُ غَافِلٍ

قال الطبري: يريد ويلحيني في اللهو أن أحبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبيت الأحرص إنما معناه: إرادة ألا أحبه، ف (لا) فيه متمكنة. قال الطبري: ومنه قوله تعالى: «فَمَا تَتَلَوْنَهَا إِلَّا لَكِن بِلُغَتِكَ الْمُنْفَرَةِ مِنَ الْجَنَّةِ» (لا) بمعنى الحذف، لأنها تقدمها الجحد في صدر الكلام، فسيق الكلام الأخير مناسباً للأول، كما قال الشاعر:

مَا كَانَ يَرْضَى رَسُولُ اللَّهِ فِعْلَهُمْ
وَالطَّبِيبَانِ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عَمْرُ
وقرأ عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب: «غَيْرِ الْمَضْطَرِبِّ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ»، وروى عنهما في (الراء) النصب والخفض في الحرفين. قال الطبري: فإن قال قائل: أليس الضلال من صفة اليهود كما أن النصارى عليهم غضب؟ فلم خص كل فريق بذكر شيء مفرد؟ قيل: هم كذلك، ولكن وسم الله لعباده كل فريق بما قد تكررت العبارة عنه، وفهم به أمره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير شاف، والقول في ذلك أن أفاعيل اليهود من اعتدائهم، وتعننتهم، وكفرهم، مع رؤيتهم الآيات، وقتلهم الأنبياء - أمور توجب الغضب في عرفنا، فسعى تعالى ما أحاط بهم غضباً، والنصارى لم يقع لهم شيء من ذلك، إنما ضلوا من أول كفرهم، دون أن يقع منهم ما يوجب غضباً خاصاً بأفاعيلهم، بل هو الذي يعم كل كافر وإن اجتهد،

فلهذا تقرر العبارة على الطائفتين بما ذكر.

وليس في العبارة بالضالين تعلق للقدرة في أنهم أضلوا أنفسهم، لأن هذا إنما هو كقولهم: تهدم الجدار، وتحرك الشجرة، والهادم والمحرك غيرهما، وكذلك النصارى، خلق الله الضلال فيهم فضلوا بتكسبهم.

وقرأ أيوب السخيتاني: ﴿الضَّالِّينَ﴾ بهمزة غير ممدودة، كأنه قرأ من التقاء الساكنين، وهي لغة. وحكى أبو زيد قال: سمعت عمرو بن عبيد يقرأ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾، فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب دأبه وشأبه. قال أبو الفتح: وعلى هذه اللغة قول كثير:

.....
إِذَا مَا أَلْعَوَالِي بِالْفَيْسِطِ اخْمَازَتْ
وقول الآخر:

وَلِلْأَرْضِ أَمَا سُودَهَا فَتَجَلَّلَتْ
بِإِبَاضاً، وَأَمَا بَيْضُهَا فَادَّهَأَتْ
وأجمع الناس على أن عدد أي سورة الحمد سبع آيات: العالمين: آية - الرحيم: آية - الدين: آية - نستعين: آية - المستقيم: آية - أنعمت عليهم: آية - ولا الضالين: آية.

وقد ذكرنا في تفسير ﴿يَسْمِعُ أَمْرًا﴾ ﴿يَنْفَعُ نَفْسًا﴾ ما ورد من خلاف ضعيف في ذلك.

القول في آمين

رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا قَالَ

الإمام: وَلَا الضَّالِّينَ، فَقُولُوا: آمِينَ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ فِي السَّمَاءِ تَقُولُ: آمِينَ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلَهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ عُفِّرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». وَرَوَى (أَنَّ) جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا عَلَّمَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَقَتَّ نُزُولَهَا فَقَرَأَهَا قَالَ لَهُ: قُلْ آمِينَ. وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: (آمين) خاتم رب العالمين، يختم به دعاء عبده المؤمن. وَرَوَى (أَنَّ) النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَدْعُو فَقَالَ: أَوْجِبْ إِنْ خَتَمَ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: بِأَيِّ شَيْءٍ يَخْتِمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «بِآمِينَ».

ومعنى آمين عند أكثر أهل العلم: اللهم استجب، أو أجب يا رب. ونحو هذا، قاله الحسن بن أبي الحسن وغيره، ونص عليه أحمد ابن يحيى ثعلب وغيره، قال قوم: هو اسم من أسماء الله تعالى. رَوَى ذَلِكَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَمِجَاهِدٍ، وَهَلَالِ بْنِ يَسَافٍ. وقد روي أن آمين اسم خاتم يطبع به كتب أهل الجنة التي تؤخذ بالإيمان.

فمقتضى هذه الآثار أن كل داع ينبغي له في آخر دعائه أن يقول: آمين. وكذلك كل قارئٍ للحمد في غير صلاة، لكن ليس بِجَهْرِ التَّزْوِيلِ، وَأَمَّا فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: يَقُولُهَا كُلُّ مُصَلٍّ مِنْ إِمَامٍ وَقَدْ وَمَأْمُومٍ قَرَأَهَا أَوْ سَمِعَهَا، وَقَالَ مَالِكٌ فِي الْمَدُونَةِ: لَا يَقُولُ الْإِمَامُ: آمِينَ، وَلَكِنْ يَقُولُهَا مَنْ خَلْفَهُ وَيَخْفُونَ، وَيَقُولُهَا الْفُؤَادُ. وقد رَوَى عَنْ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ الْإِمَامَ يَقُولُهَا

أَسْرًا أَمْ جَهْرًا، وَرَوَى عَنْهُ أَنَّ الْإِمَامَ لَا يُؤْمِنُ فِي الْجَهْرِ، وَقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ: يُؤْمِنُ، وَقَالَ ابْنُ بَكْرٍ: هُوَ مَخِيرٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا الخلاف إنما هو في الإمام، ولم يختلف في الفرد، ولا في المأموم.

إلا أن ابن نافع قال في كتاب ابن حارث: لا يقولها المأموم إلا إن سمع الإمام يقول: «ولا الضالين»، وإذا كان بعيد لا يسمعه فلا يقول، وقال ابن عبدوس: يتحرى قدر القراءة ويقول: آمين.

وهي لفظة مبنية على الفتح لالتقاء الساكنين، وكان الفتح مع الياء أخف من سائر الحركات، ومن العرب من يقول: آمين فيمُدُّ، ومنه قول الشاعر:

آمِينَ آمِينَ لَا أَرْضَى بِوَاحِدَةٍ
حَتَّى أَبْلُغَهَا أَلْفَيْنِ آمِينَا
ومن العرب من يقول بالقصر، ومنه قول الشاعر:

تَبَاعَدَ مِنِّي فَطُحِلَ إِذْ سَأَلْتُهُ
آمِينَ قَرَأَ اللَّهُ مَا بَيَّنَّنَا بُعْدًا
واختلف الناس في معنى قول النبي ﷺ: «فَمَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ» فقيل: في الإجابة، وقيل: في خلوص النية، وقيل: في الوقت، والذي يترجح أن المعنى فمن وافق في الوقت مع خلوص النية والإقبال على الرغبة إلى الله بقلب سليم، والإجابة تتبع حينئذ لأن من هذه حاله فهو على الصراط المستقيم.

(٢) تفسير

سورة البقرة

بحول الله تعالى ومعونته

أَوْ كَانَتَهُمَا ظِلَّةٌ مِنْ طَيْرٍ
صَوَافٍ، تُجَادِلَانِ عَنْ
صَاحِبَيْهِمَا، وَفِي الْبَخَارِيِّ
أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «مَنْ
قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ
الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَّتَا».

وروى أبو هريرة عنه رضي الله عنه
أَنَّهُ قَالَ: «الْبَيْتُ الَّذِي تُقْرَأُ
فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لَا يَدْخُلُهُ
الشَّيْطَانُ»، وروى عنه
عليه السلام أَنَّهُ قَالَ:
«لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ، وَسَنَامُ
الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، فِيهَا
آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ،
وَهِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ».

وعدد آي سورة البقرة
مائتان وخمس وثمانون
آية، وقيل: وست وثمانون آية،
وقيل: سبع وثمانون.

① تفسير قوله تعالى: ﴿الْعَمَّ﴾.

اختلف في الحروف التي في أوائل
الصور على قولين: قال الشعبي
عامر بن شراحيل، وسفيان الثوري،
وجماعة من المحدثين: هي:
سَ رَ الله في القرآن، وهي من المتشابهة
الذي انفرد الله بعلمه، ولا يجب أن
يُتَكَلَّمُ فيها، ولكن نؤمنُ بها، وتَمُرُّ
كما جاءت.

وقال الجمهور من العلماء: بل
يجب أن يُتَكَلَّمُ فيها، وَتُلْتَمَسُ
الفوائد التي تحتها، والمعاني التي
تتخرج عليها، واختلفوا في ذلك
على اثني عشر قولاً.

فقال علي بن أبي طالب، وابن
عباس رضي الله عنهما: الحروف
المقطعة في القرآن هي اسم الله

هذه السورة مدنية، نَزَلَتْ فِي مُدَّةٍ
شَتَّى، وَفِيهَا آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «وَأَتَقُوا يَوْمَ
تُجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ
مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ»، ويقال
لسورة البقرة: (فُسطاطُ القرآن)
لعظمتها وبهائتها، وما تضمنت من
الأحكام والمواعظ، وتعلمها
عبدالله بن عمر رضي الله عنهما
بفقهها وجميع ما تحتوي عليه من
العلوم في ثمانية أعوام، وفيها
خمسمائة حكم، وخمسة عشر مثلاً،
وروى الحسن بن أبي الحسن أن
رسول الله ﷺ قال: «أَيُّ الْقُرْآنِ
أَفْضَلُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،
قَالَ: «سُورَةُ الْبَقَرَةِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَأَيُّهَا
أَفْضَلُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.
قَالَ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ»، ويقال: إنا آيات
الرحمة والرجاء والعذاب تنتهي فيها.
معانيها إلى ثلاثمائة وستين معنى.

وروى أن رسول الله ﷺ قال:
«أَعْطَيْتُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ مِنَ الذِّكْرِ
الْأَوَّلِ، وَأَعْطَيْتُ طَهَ وَالطَّوَّاسِينَ مِنَ
الْوَحْيِ مُوسَى، وَأَعْطَيْتُ فَاتِحَةَ
الْكِتَابِ وَخَوَاتِمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنَ
تَحْتِ الْعَرْشِ».

وفي الحديث الصحيح عن
النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَجِيءُ الْبَقَرَةُ وَآلُ
عِمْرَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَيَاتَانِ
بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ غَمَامَتَانِ سَوْدَاوَانِ،



الأعظم، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها.
وقال ابن عباس أيضاً: هي
أسماء الله أفسم بها.

وقال زيد بن أسلم: هي أسماء
للسور.

وقال قتادة: هي أسماء للقرآن
كالفرقان، والذكر.
وقال مجاهد: هي فواتح للسور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
كما يقولون في أول الإنشاد لشهر
القصاصد: «بل ولا بل»، نحا هذا
النحو أبو عبيدة والأخفش.

وقال قوم: هي حساب «أبي جاد»،
لتدل على مدة ملة محمد ﷺ، كما
ورد حديث حُيَيِّ بْنِ أَسْطَبٍ، وَهُوَ
قَوْلُ أَبِي الْعَالِيَةِ رُفَيْعٍ، وَغَيْرِهِ.

وقال قطرب وغيره: هي إشارة إلى
حروف المعجم، كأنه يقول للعرب:
إنما تحدثكم بنظم من هذه الحروف

التي عرفتم، فقولوه: ﴿الَمْ﴾
بمنزلة قولك: (أ - ب - ت - ث) لتدل
بها على التسعة والعشرين حرفاً.

وقال قوم: هي أمارة قد كان الله
جعلها لأهل الكتاب أنه سَيُنْزَلُ على
محمد كتاباً في أول سور منه حروف
مقطعة.

وقال ابن عباس: هي حروف تدل
على «أنا الله أعلم»، «أنا الله أرى»،
«أنا الله أقصّل».

وقال ابن جبير، عن ابن عباس:
هي حروف كل واحد منها: إما أن
يكون من اسم من أسماء الله، وإما
من نعمة من نعمه، وإما من اسم
ملك من ملائكته، أو نبي من أنبيائه.
وقال قوم: هي تنبيه كيا في التداء.

وقال قوم: روي أن المشركين لما
أعرضوا عن سماع القرآن بمكة نزلت
ليستغربوها، فيفتحوا لها أسماعهم،
فيسمعون القرآن بعدها، فتجب
عليهم الحجة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والصواب ما قاله الجمهور - أن تفسر
هذه الحروف، وتُلْتَمَسَ لها التأويل،
لأننا نجد العرب قد تكلمت بالحروف
المقطعة نظماً لها ووضعاً، بدل
الكلمات التي الحروف منها، كقول
الشاعر:

قُلْنَا لَهَا فِي فَقَالَتْ: قَاف

.....

أراد - قالت: وَقَفْتُ. وكقول
القاتل:

بِالْخَيْرِ خَيْرَاتٍ وَإِنْ شَرّاً قَا
وَلَا أُرِيدُ الشَّرَّ إِلَّا أَنْ تَا
أراد: وَإِنْ شَرّاً فشر، وأراد: إِلَّا أَنْ
تشاء، والشواهد في هذا كثيرة،

فليس كونها في القرآن مما تنكره
العرب في لغتها، فينبغي إذا كان من
معهود كلام العرب أن يطلب تأويله
وتُلْتَمَسَ وجهه.

والوقف على هذه الحروف على
السكون لنقصانها، إلا إذا أُخْبِرَتْ
عنها، أو عَطِفَتْهَا فَإِنَّكَ تُعْرِبُهَا.
وموضع (الَمْ) من الإعراب: رفع
على أنه خبر ابتداء مُضْمَر، أو على
أنه ابتداء، أو نصب بإضمار فعل،
أو خفض بالقسم، وهذا الإعراب
يتجه الرفع منه في بعض الأقوال
المتقدمة في الحروف، والنصب في
بعض، والخفض في قول ابن عباس
رضي الله عنهما: إنها أسماء الله
أقسم بها.

تفسير قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ﴾

الاسم من [ذلك] الذال والألف،
وقيل: الذال وحدها، والألف
تقوية، واللام لبعد المشار إليه،
وللتأكيد، والكاف للخطاب،
وموضع (ذلك) رفع كأنه خبر ابتداء،
أو ابتداء وخبره بعده.

واختلف في (ذلك) هنا، فقيل: هو
بمعنى هذا، وتكون الإشارة إلى هذه
الحروف من القرآن، وذلك أنه قد
يشار بذلك إلى حاضر تعلق به بعض
الغيبة، وبهذا إلى غائب هو من
الثبوت والحضور بمنزلة وقرب.

وقيل: هو على بابيه إشارة إلى
غائب، واختلف في ذلك الغائب
فقيل: ما قد كان نزل من القرآن،
وقيل: التوراة والإنجيل، وقيل:
الروح المحفوظ، أي الكتاب الذي
هو القدر، وقيل: إن الله قد كان
وعد نبيه أن ينزل عليه كتاباً لا يحويه

الماء، فأشار إلى ذلك الوعد. وقال
الكسائي: (ذلك) إشارة إلى القرآن
الذي في السماء لم ينزل بعد،
وقيل: إن الله قد كان وعَدَ أهل
الكتاب أن ينزل على محمد كتاباً،
فالإشارة إلى ذلك الوعد، وقيل: إن
الإشارة إلى حروف المعجم في قول
من قال: ﴿الَمْ﴾ حروف
المعجم التي تحديتكم بالنظم فيها.

ولفظ (الكتاب) مأخوذ من كتبت
الشيء إذا جمعته وضممت بعضه إلى
بعض، ككُتِبَ الخُزْ - بضم الكاف
وفتح التاء - وكُتِبَ الناقه.

ورفع (الكتاب) يتوجه على البدل،
أو على خبر الابتداء، أو على عطف
اليان.

ولا ﴿رَبِّ فِيهِ﴾ معناه: لا شك فيه،
ولا ارتياب به، والمعنى: أنه في ذاته
لا ريب فيه، وإن وَقَعَ ريب للكفار.

وقال قوم: لفظ قوله: ﴿لَا رَبِّ
فِيهِ﴾ لفظ الخبر، ومعناه النهي:

وقال قوم: هو عموم يُراد به
الخصوص، أي عند المؤمنين، وهذا
ضعيف. وقرأ الزهري، وابن
محيصن، ومسلم بن جندب، وعبيد
ابن عمير: (فيه) بضم الهاء، وكذلك
إليه وعليه، وبه، ونصله، ونوله.
وما أشبه ذلك حيث وقع على
الأصل، وقرأ ابن اسحق: ﴿فِيهِو﴾
بضم الهاء ووصلها بواو.

و ﴿هُدًى﴾ معناه: رشاد وبيان،
وموضعه من الإعراب: رفع على أنه
خبر (ذلك)، أو خبر ابتداء مضمَر، أو
ابتداء وخبره في المجزوء قبله، ويصح
أن يكون موضعه نصباً على الحال من
(ذلك)، أو مِن (الكتاب)، ويكون

عليك مثل الذي صليت فاغتصبي
نوماً، فإن لجنت المرء مضطجعا
ومنه قول الآخر:

لها حارس لا يبرح الذفر بيئتها
وإن دُبِحت صلى عليها وزمزا
فلما كانت الصلاة في الشرع دعاء
انضاف إليه هيأت وقراءة، سمي
جميع ذلك باسم الدعاء. وقال قوم:
هي مأخوذة من الصلاة، وهو عرق
في وسط الظهر، ويفترق عند
العجب فيكتنفه، ومنه أخذ المصلي
في سبق الخيل، لأنه يأتي مع صلوئ
السابق، فاشتقت الصلاة منه، إما
لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبّهت
بالمصلي من الخيل، وإما لأن الراعي
والساجد ينثني صلوا.

والقول إنها من الدعاء أحسن.
وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ﴾ كتبت (مما) متصلة، و
(ما) بمعنى الذي فحقها أن تكون
منفصلة، إلا أن الجار والمجرور
كشيء واحد، وأيضاً فلما خفيت نون
(من) في اللفظ حذفت في الخط، و
(الرزق) عند أهل السنة ما صح
الانتفاع به حلالاً كان أو حراماً،
بخلاف قول المعتزلة: إن الحرام
ليس برزق، و (يُنْفِقُونَ) معناه هنا:
يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة،
وما نذهب إليه من غير ذلك.

قال ابن عباس: ينفقون: يؤتون
الزكاة احتساباً لها. قال غيره: الآية
في النفقة في الجهاد.

قال الضحاك: هي نفقة كانوا
يتقربون بها إلى الله عز وجل على
قدر يسرههم. قال ابن مسعود، وابن
عباس أيضاً: هي نفقة الرجل على

كان يهزم حروفاً من السواكن بأعينها
ستذكر في مواضعها إن شاء الله .

وإذا كان سكون الهمزة علامة
للجزم لم يترك همزها مثل:
(نَسَّأَهَا)، و (هَيَّئْ لَنَا) وما أشبهه.
وقوله ﴿بِالْيَمِينِ﴾ - قالت طائفة:
معناه يصدقون إذا غابوا وخلوا، لا
كالمنافقين الذين يؤمنون إذا
حضرُوا، ويكفرون إذا غابوا. وقال
آخرون: يُصَدِّقُونَ بما غاب عنهم مما
أخبرت به الشرائع. واختلفت عبارة
المفسرين في تمثيل ذلك فقالت
فرقة: الغيب في هذه الآية: الله عز
وجل، وقال آخرون: القضاء
والقدر. وقال آخرون: القرآن وما
فيه من الغيوب. وقال آخرون:
الحشر والصراف والميزان والجنة
والنار. وهذه الأقوال لا تتعارض،
بل يقع الغيب على جميعها.
والغيب في اللغة: ما غاب عنك
من أمر، ومن مطمئن الأرض الذي
يغيب فيه داخله.

وقوله ﴿يُفَيْقُونَ﴾ معناه: يظهرونها
ويشتمونها كما يقال: أقيمت السوق.
هذا تشبيه بالقيام من حالة خفاء قعود
أو غيره، ومنه قول الشاعر:
وَإِذَا يُقَالُ: أَتَيْتُمْ لَمْ يَبْرَحُوا
حَتَّى تُقِيمَ الْخَيْلُ سَوْقَ طِعَانٍ
ومنه قول الشاعر:

أَقَمْنَا لِأَهْلِ الْعِرَاقِيْنَ سَوْقَ الـ
ضُرَابِ فَخَاسُوا وَوَلُّوا جَمِيعاً
وَأَصْلُ (يُقِيمُونَ) يَقُومُونَ، نقلت
حركة الواو إلى القاف فانقلبت ياء
لكون الكسرة قبلها. و (الصلاة)
مأخوذة من صلى يُصلي إذا دعا.
كما قال الشاعر:

العامل فيه معنى الإشارة، أو من
(الضمير) في (فيه)، والعامل فيه معنى
الاستقرار، وفي هذا القول ضعف.
وقوله: ﴿لِلنَّازِعَاتِ﴾: اللفظ مأخوذ
من وَقَى، وفعله اتقى على وزن
افتعل، وأصله «لِلْمَوْتَقِينَ»،
استقلت الكسرة على الياء، فسكنت
وحذفت للتقاء، وأبدلت الواو تاءً
على أصلهم في اجتماع الواو والتاء،
وأدغمت التاء في التاء فصار
«لِلْمَتَقِينَ». والمعنى: للذين
يتقون الله تعالى بامتنال أوامره،
 واجتناب معاصيه، كان ذلك وقاية
بينهم وبين عذاب الله.

تفسير قوله عز وجل:
﴿يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: يُصَدِّقُونَ،
ويتعدى بالياء، وقد يتعدى باللام
كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ
تَبَعَ دَعْوَتَهُ﴾، وكما قال: ﴿فَمَا أَصْنَوْا
لِأُتَى﴾، وبين التثنية فزق، وذلك
أن التعدية باللام في ضمنها تعد بالياء
يفهم من المعنى.

واختلف القراء في همز
﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فكان ابن كثير، ونافع،
وعاصم، وابن عامر، وحَمْزَة،
والكسائي يهزمون ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وما
أشبهه مثل: يأكلون، ويأمرون،
ويؤتون، وكذلك مع تحرك الهمزة
مثل: يؤخركم، ويؤذه، إلا أن حمزة
كان يستحب ترك الهمز إذا وقف،
والباقيون يقفون بالهمز، وروى وُزْش
عن نافع ترك الهمز في جميع ذلك.
وقد روي عن عاصم أنه لم يكن
يهزم الهمزة الساكنة، وكان أبو عمرو
إذا أذرج القراءة، أو قرأ في الصلاة
لم يهزم كل همزة ساكنة، إلا أنه

وَالْفَلَحُ: الظفر بالبغيه، وإدراك الأمل، ومنه قول لبيد:
واعقلي - إن كُنْتُ لَمَّا تَغْلِي -
ولقد أفلح من كان عقل -
وقد وردت للعرب أشعار فيها
الفلاح بمعنى البقاء كقوله:

وَنَرْجُو الْفَلَاحَ بَعْدَ عَادٍ وَجَمِيرٍ
وكقول الأصبط:

لكل هم من الهموم سعة
والصُبْح والمُسَيَّ لا فلاح معه
والبقاء يعقب إدراك الأمل، والظفر
بالبغيه، إذ هو رأس ذلك وملاكه،
وحكى الخليل الفلاح على المعنيين.

٦ - ٧ تفسير قوله عز وجل:
معنى الكفر مأخوذ من قولهم:
كفر إذا غطى وستر، ومنه قول
الشاعر:

في ليلة كَفَّرَ التُّجُومَ غَمَامُهَا
أَي سَتَرَهَا، ومنه سُيِّي الليل كافراً؛
لأنه يغطي كل شيء بسواده، قال
الشاعر:

فَسَدَّ كَرًا ثِقْلًا رَثِيدًا بَعْدَمَا
أَلْفَتْ دُكَّاءَ يَمِينِهَا فِي كَافِرٍ
ومنه قيل للزراع: كفار، لأنهم
يغطون الحب.

فكفر في الدين معناه: غطى على
قلبه بالرين عن الإيمان، أو غطى
الحق بأقواله وأفعاله.

واختلِفَ فيمن نزلت هذه الآية بعد
الاتفاق على أنها غير عامة، لوجود
الكفار قد أسلموا بعدها، فقال قوم:
هي فيمن سبق في علم الله أنه لا
يؤمن، أراد الله تعالى أن يُعْلِمَ أَنَّ فِي

الخفض عطفاً.

وقوله: ﴿يَمَّا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾
يعني القرآن، ﴿وَمَا أَنزَلَ مِنْ
قَبْلِكَ﴾ يعني الكتب
السالفة، وقرأ أبو حيوه،
ويزيد بن قطيب ﴿يَمَّا
أَنزَلَ﴾ و ﴿مَا أَنزَلَ﴾ بفتح
الهمزة فيهما خاصة،
والفعل على هذا يحتمل أن
يُسند إلى الله تعالى،
ويحتمل إلى جبريل،
والأول أظهر وألزم.

﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ قيل:
معناه: بالدار الآخرة،
وقيل: بالنشأة الآخرة.

و ﴿يُؤْتُونَ﴾ معناه:
يعلمون علماً متمكناً في
نفوسهم، واليقين أعلى درجات
العلم، وهو الذي لا يمكن أن يدخله
شك بوجه.

وقول مالك رحمه الله: «فيحلف
على يقينه، ثم يخرج الأمر على
خلاف ذلك»، تجوَّز في العبارة على
عُرف تجوَّز العرب، ولم يقصد
تحرير الكلام في اليقين.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى
المذكورين و (أولاء) جمع (ذا)، وهو
مبني على الكسر، لأنه ضعف لإبهامه
على قوة الأسماء، وكان أصل البناء
السكون، فحرک لالتقاء الساكنين، و
(الكاف) للخطاب، و (الهدى) هنا:
الإرشاد، و ﴿أُولَئِكَ﴾ الثاني ابتداء، و
﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ خبره، و (هم) فضل،
لأنه وقع بين معرفتين، ويصح أن
يكون (هُنَّ) ابتداء و (المفلحون)
خبره، والجملة خبر (أُولَئِكَ).

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُوا الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٤﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿٦﴾ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ الْأَشْهَاءُ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الشَّكَّاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَإِذَا لُعِنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَعِزُّونَ ﴿٩﴾ اللَّهُ يَسْتَعِزُّ بِهِمْ وَيَنْذَرُهُمْ فِي طَعْنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَوُا الْفَضْلَةَ بِالْهَدَىٰ فَجَارَحَتْ بِهَا قُلُوبَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١١﴾

أهله. والآية تعم الجميع، وهذه
الأقوال تمثيل لا خلاف.

١ - ١١ تفسير قوله عز وجل:
اختلف المتأولون فيمن المراد بهذه
الآية، وبالتالي قبلها، فقال قوم: الآيتان
جميعاً في جميع المؤمنين، وقال
آخرون: هما في مؤمني أهل الكتاب،
وقال آخرون: الآية الأولى في مؤمني
العرب، والثانية في مؤمني أهل
الكتاب، كعبد الله بن سلام، وفيه نزلت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه الأقوال لا تتعارض، فمن
جعل الآيتين في صنف واحد،
فإعراب (والذين) خفض على
العطف، ويصح أن يكون رفعا على
الاستئناف أي وهم الذين، ومن
جعل الآيتين في صنفين فإعراب
(الذين) رفع على الابتداء، وخبره
﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ ويحتمل

الناس من هذه حالة دون أن يُعَيَّن أحد. وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية في حُيَيِّ ابن أخطب، وأبي ياسر بن أخطب، وكعب بن الأشرف ونظرائهم، وقال الربيع بن أنس: نزلت في قادة الأحزاب وهم أهل القليب بيدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هكذا خُكي هذا القول، وهو خطأ، لأن قادة الأحزاب قد أسلم كثير منهم، وإنما ترتبت الآية في أصحاب القليب، والقول الأول مما حكيناه هو المعتمد عليه، وكل من عَيَّن أحداً فإنما مثل بمن كشف الغيب - بموته على الكفر - أنه في ضمن الآية.

وقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾، معناه: معتدل عندهم، ومنه قول الشاعر:

وليل يقول من ظلماته
سواءً صحيحات العيون وغورها

قال أبو علي: في اللفظة أربع لغات: يوى «يكسر السين»، وسواء «بفتحها والمد»، وهاتان لغتان معروفتان، ومن العرب من يكسر السين ويُمُدُّ، ومنهم من يضم أوله ويقصره، وهاتان اللغتان أقل من تينك، ويقال: يبي بمعنى سواء كما قالوا: في وقواء.

و (سواء) رُفع على خبر إن، أو رفع على الابتداء وخبره فيما بعده، والجملة خبر إن، ويصح أن يكون خبر إن (لا يؤمنون). وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، ونافع: ﴿أَنذَرْتَهُمْ﴾ بهمزة مطولة، وكذلك ما أشبه ذلك في جميع القرآن، وكذلك كانت قراءة الكسائي إذا

خفف، غير أن مدَّ أبي عمرو أطول من مدَّ ابن كثير؛ لأنه يدخل بين الهمزتين ألفاً، وابن كثير لا يفعل ذلك، وروى قالون، وإسماعيل ابن جعفر، عن نافع إدخال الألف بين الهمزتين مع تخفيف الثانية. وروى عنه ورش تخفيف الثانية بين بين دون إدخال ألف بين الهمزتين، فأما عاصم وحزمة والكسائي - إذا حقق - وابن عامر، فبالهمزتين ﴿أَنذَرْتَهُمْ﴾، وما كان مثله في كل القرآن، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحق بتحقيق الهمزتين، وإدخال ألف بينهما. وقرأ الزهري، وابن محيصن ﴿أَنذَرْتَهُمْ﴾ بحذف الهمزة الأولى، وتدل (أم) على الألف المحذوفة.

وكثر مكّي في هذه الآية بذكر جائزات لم يُقرأ بها، وحكاية مثل ذلك في كتب التفسير عتاء.

والإنذار: إعلامٌ بتخويف، هذا حذو، وأنذرت فعل يتعدى إلى مفعولين، قال الله عز وجل ﴿فَقَدْ أَنذَرْتُكُمْ صَافَةَ يَوْمٍ يَأْتِي السَّاعَةَ فِيهِ يُؤدِّي الْأُفُوكَ وَالْمُنَافِقُ فِيهِ يُنَافِقُ فَذُكِّرْ﴾ وقال: ﴿إِنَّا أَنذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ وأحد المفعولين في هذه الآية محذوف لدلالة المعنى عليه. وقوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الخبر، وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام لأن فيه التسوية التي هي في الاستفهام، ألا ترى أنك إذا قلت مخبراً: سواء عليّ أععدت أم ذهبت، وإذا قلت مستفهماً: أخرج زيد أم قام؟ فقد استوى الأمران عندك، هذان في الخبر،

وهذان في الاستفهام، وعدم علم أحدهما بعينه، فلما عتتهما التسوية جرى على هذا الخبر لفظ الاستفهام لمشاركته إياه في الإبهام، وكل استفهام تسوية، وإن لم تكن كل تسوية استفهاماً.

وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ مأخوذاً من الختم وهو الطبع، والخاتم الطابع، وذهبت طائفة من المتأولين إلى أن ذلك على الحقيقة، وأن القلب على هيئة الكف ينقبض مع زيادة الضلال والإعراض إضبعاً إضبعاً، وقال آخرون: ذلك على المجاز، وأن ما خلق الله في قلوبهم من الكفر والضلال والإعراض عن الإيمان سماه ختماً. وقال آخرون ممن حمّله على المجاز: الختم هنا أُنشد إلى الله تعالى لما كفر الكافرون به، وأعرضوا عن عبادته وتوحيده، كما يقال: أهلك المال فلاناً، وإنما أهلكه سوء تصرفه فيه، وقرأ الجمهور ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾، وقرأ ابن أبي عبله ﴿وَعَلَىٰ أَسْمَاعِهِمْ﴾، وهو في قراءة الجمهور مصدر يقع للقليل والكثير، وأيضاً فلما أُضيف إلى ضمير جماعة دلّ المضاف إليه على المراد، ويحتمل أن يريد على مواضع سمعهم، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. و(الغشاة): الغطاء المغشي الساتر، ومنه قول النابغة:

هلا سألت بني ذبياناً ما حسبي
إذا الدُخانُ تَغَشَّى الأَشْمَطَ البَرِّما

وقال الآخر:

تَبَغْثُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ
فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَعْتُ نَفْسِي أَلْوَمَهَا

ورفع (غشاوة) على الابتداء، وما قبله خبر، وقرأ عاصم فيما روى المفضل الضبي عنه ﴿غَشَاوَةٌ﴾ بالنصب على تقدير: وجعل على أبصارهم غشاوة، والختم - على هذا التقدير - في القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والوقف على قوله: ﴿وَعَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وقرأ الباقون (غشاوة) بالرفع، قال أبو علي: وقراءة الرفع أولى، لأن النصب: إما أن تحمله على ختم الظاهر، فيعترض في ذلك أنك حلت بين حرف العطف والمعطوف به، وهذا عندنا وإنما يجوز في الشعر، وإما أن تحمله على فعل يدل عليه ختم تقديره: وجعل على أبصارهم، فيجيء الكلام من باب:

.....
مَتَقَلَّدًا سِيفًا وَزُمَحًا
وقول الآخر:

.....
عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا
ولا تكاد تجد هذا الاستعمال في خال سعة واختيار، فقراءة الرفع أحسن، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة، قال: ولم أسمع من الغشاوة فعلاً مصرفاً بالواو، فإذا لم يوجد ذلك وكان معناها معنى ما اللام منه الباء من غشي يغشى بدلالة قولهم: الغشيان، فالغشاوة من غشى كالجباوة من جبيت في أن الواو كأنها بدل من الباء إذ لم يصرف منه فعل كما لم يصرف من الجباوة.

وقال بعض المفسرين: الغشاوة على الأسماع والأبصار - والوقف في قوله: ﴿وَعَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وقال آخرون:

الختم على الجميع، والغشاوة هي الخاتم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد ذكرنا اعتراض أبي علي على هذا القول.

وقرأ أبو حنيفة ﴿غَشَاوَةٌ﴾ بفتح الغين والرفع، وهي قراءة الأعمش، وقال الثوري: كان أصحاب عبد الله يقرؤونها ﴿غَشِيَّةٌ﴾ بفتح الغين والياء والرفع، وقرأ الحسن ﴿غَشَاوَةٌ﴾ بضم الغين، وثُرثت ﴿غَشَاوَةٌ﴾ بفتح الغين، وأصوب هذه القراءات المقروء بها ما عليه السبعة من كسر الغين على وزن (عِمَامَة)، والأشياء التي هي أبداً مشتملة هكذا يجيء وزنها كالضِمَامَةِ والعِمَامَةِ والكِتَابَةِ والعَصَابَةِ والريَابَةِ وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ معناه: بمخالفتك يا محمد، وكفرهم بالله، استوجبوا ذلك، و (عظيم) معناه بالإضافة إلى عذاب دونه يتخلله فتور، وبهذا التخلل المتصور يصح أن يتفاضل العرضان كسوادين: أحدهما أشبع من الآخر إذ قد تخلل الآخر ما ليس بسواد.

⑧ - ⑨ تفسير قوله عز وجل: كان أصل النون أن تكسر للالتقاء، لكنها تفتح مع الألف واللام، ومن قال: استثقلت كسرتان تتوالى في كلمة على حرفين فمعترض بقولهم: من ابنك، ومن اسمك وما أشبهه، واختلف النحويون في لفظة (الناس) فقال قوم: هي من نسي، فأصل ناس نسي قلب فجاء نيس، تحركت الباء وانفتح ما قبلها، فانقلبت ألفاً فقليل: ناس، ثم دخلت الألف

واللام، وقال آخرون: ناس اسم من أسماء الجموع دون هذا التعليل دخلت عليه الألف واللام. وقال آخرون: أصل ناس أناس، دخلت الألف واللام في الأناس حذفتم الهمزة فجاء الناس، أدغمت اللام في النون لقرب المخارج.

وهذه الآية نزلت في المنافقين. وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ رجع من لفظ الواحد إلى لفظ الجمع بحسب لفظ (من) ومعناها، وحسن ذلك، لأن الواحد قبل الجمع في الرتبة، ولا يجوز أن يرجع متكلم من لفظ جمع إلى توحيد، لو قلت: «ومن الناس من يقومون ويتكلم» لم يجز. وسمى الله تعالى يوم القيامة اليوم الآخر لأنه لا ليل بعده، ولا يقال يوم إلا لما تَقَدَّمَهُ ليل، ثم نفى تعالى الإيمان عن المنافقين، وفي ذلك رد على الكرامية في قولهم: «إن الإيمان قول باللسان وإن لم يُعْتَقَدْ بالقلب».

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾، فقال الحسن ابن أبي الحسن: المَعْنَى يخادعون رسول الله، فأضاف الأمر إلى الله تجوزاً لتعلق رسوله به، ومخادعتهم هي تحيلهم في أن يفشي رسول الله والمؤمنون لهم أسرارهم فيحفظون بما يكرهونه، ويتنبهون من ضرر المؤمنين على ما يحبونه. وقال جماعة من المتأولين: بل يخادعون الله والمؤمنين، وذلك بأن يظهروا من الإيمان خلاف ما أبطنوا من الكفر، ليحقنوا دماءهم، ويحرزوا أموالهم، ويظنون أنهم قد

نجوا وخذعوا وفازوا، وإنما خدعوا أنفسهم، لحصولهم في العذاب، وما شعروا لذلك.

واختلف القراء في «يُخَدَعُونَ» الثاني، فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «يُخَادِعُونَ»، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي «وما يَخْدَعُونَ»، وقرأ أبو طالوت عبد السلام بن شداد، والجارود ابن أبي سبرة «يُخَدَعُونَ» بضم الياء، وقرأ قتادة، ومُورِق العجلي «يُخَدَعُونَ» بضم الياء وفتح الخاء وكسر الدال وشدها. فوجه قراءة ابن كثير ومن ذكر إحراز تناسُب اللفظ، وأن يُسمَّى الفعل الثاني باسم الفعل الأول المسبَّب له، ويبيح ذلك كما قال الشاعر:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا
فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ
فجعل انتصاره جهلاً، ويؤيد هذا المنزع في هذه الآية أن (فاعل) قد يجيء من واحد، كما قُبِثَ للضر وطَارَقَتِ النعل. وتجه أيضاً هذه القراءة بأن يُنْزَلَ ما يخطر ببالهم، ويهجم في خواطرهم، من الدخول في الدين، والنفاق فيه، والفكر في الأمر وضده في هذا المعنى - بمنزلة محاوراة أجنبيَّين، فيكون الفعل كأنه من اثنين، وقد قال الشاعر:

تَذَكَّرَ مَنْ أَتَى وَمِنْ أَيْنَ شُرْبُهُ
يُؤَامِرُ نَفْسِيهِ كَذِي الْهَجْمَةِ الْإِبِلُ
وأشد ابن الأعرابي:

لَمْ تَذَرِ مَا لَا. وَلَسْتَ قَائِلَهَا
عُمْرَكَ مَا عِشْتَ آخِرَ الْأَبْدِ
وَلَمْ تُؤَامِرْ نَفْسِيكَ مُقْتَرِباً
فيها وفي أختها ولم تكذب

وقال الآخر:

يُؤَامِرُ نَفْسِيهِ فِي الْعَيْشِ فُسْحَةً
أَيَسْتَرْجِعُ الذُّبْيَانَ أَمْ لَا يَطْوُرُهَا؟

وأشد ثعلب عن ابن الأعرابي:
وَكُنْتَ كَذَاتِ الضُّيْءِ لَمْ تَذَرِ إِذْ بَعَثَ
تُؤَامِرُ نَفْسِيهَا أَتَسْرِقُ أَمْ تَزْنِي؟
ووجه قراءة عاصم ومن ذكر: أن ذلك الفعل هو خدع لأنفسهم يمضي عليها تقول: خادعت الرجل بمعنى أعملت التحيل عليه فخدعته بمعنى: تمت عليه الحيلة، ونفذ فيه المراد، والمصدر خدع بكسر الخاء وخديعة، حكى ذلك أبو زيد، فمعنى الآية: وما ينفذون السوء إلا على أنفسهم فيها.

ووجه قراءة أبي طالوت أحد أمرين: إما أن يُقَدَّرَ الكلام وما يُخَدَعُونَ إلا عن أنفسهم، فحذف حرف الجر ووصل الفعل. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَخْذَرُ يَوْمَ تَوْتَوْا﴾ أي من قومه، وإما أن يكون (يُخَدَعُونَ) أعمل عمل ينتقضون لما كان المعنى: وما ينتقضون ويستلبون إلا أنفسهم، ونحوه قول الله تعالى: ﴿لَيْلَةَ الْقِيَامِ أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ كِتَابَ الْكِتَابِ﴾ ولا تقول: رفعت إلى المرأة، ولكن لما كان بمعنى الإنشاء ساغ ذلك. ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَزُكَّ﴾ وإنما يقال: هل لك في كذا، ولكن لما كان المعنى: أجذبك إلى أن تزكى ساغ ذلك وحسن، وهو باب سني من فصاحة الكلام. ومنه قول الفرزدق:

كَيْفَ تَرَانِي قَالِباً مَجْنِي
قَدْ قَتَلَ اللَّهُ زِيَاداً عَنِّي
لما كانت قَتَلَ قد دخلها معنى

صرف، ومنه قول الآخر:

إِذَا رَضِيتَ عَلَيَّ بَشُو قُشَيْرٍ
لَعَنَرُ اللَّهُ أَعَجَبَنِي رِضَاهَا

لما كانت رضىيت قد تضمنت معنى أقبلت علي. وأما الكسائي فقال في هذا البيت: وَصَلَ رَضِي بَوَضَلَ نقيضه وهو سَخَط، وقد تجري أمور في اللسان مجرى نقائضها.

ووجه قراءة قتادة المبالغة في الخدع، إذ هو مصير إلى عذاب الله.

قال الخليل: يقال: خَافَعَ من واحد لأن في المخادعة مهلة، كما يقال: عاجلت المريض لمكان المهلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا من دقيق نظره، وكأنه يرد فاعل إلى اثنين ولا بد من حيث ما فيه مهلة ومدافعة ومماطلة، فكأنه يقاوم في المعنى الذي تجيء فيه فاعل. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَرْوُونَ﴾ معناه: وما يعلمون علم تفتن وتهذ، وهي لفظة مأخوذة من الشعار كأن الشيء المتفتن له شعار للنفس، والشعار: الشوب الذي يلي جسد الإنسان، وهو مأخوذ من الشعر، والشاعر المتفتن لغريب المعاني، وقولهم ليت شعري معناه: ليت فطنتي تُدرك، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

عَفُوا بِسَهْمٍ فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ
ثُمَّ اسْتَفَاءُوا وَقَالُوا: حَبِذَا الْوَضْحُ
واختلف: ما الذي نفى الله عنهم أن يشعروا له؟ فقالت طائفة: وما يشعرون أن ضرر تلك المخادعة راجع عليهم لخلودهم في النار، وقال آخرون: وما يشعرون أن الله

يكشف لك سرهم ومخادعتهم في قولهم: آمنا.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

المرض عبارة مُستَعَارَةٌ للفساد الذي في عقائد هؤلاء المنافقين، وذلك إما أن يكون شكاً، وإما جحداً بسبب حسدهم، مع علمهم بصحة ما ينجحون، وينحو هذا فسر المتأولون. وقال قوم: المرض غمهم بظهور أمر رسول الله ﷺ. وقرأ الأصمعي على أبي عمرو: «مَرَضٌ» بسكون الراء، وهي لغة في المصدر. قال أبو الفتح: وليس بتخفيف. واختلف المتأولون في معنى قوله: «فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا» فقيل: هو دعاء عليهم، وقيل: هو خير أن الله قد فعل بهم ذلك، وهذه الزيادة هي بما ينزل من الوحي، ويظهر من البراهين، فهي على هؤلاء المنافقين عني، وكلما كذبوا زاد المرض، وقرأ حمزة «فَرَادَهُمُ» بكسر الزاي وكذلك ابن عامر، وكان نافع يشم الزاي إلى الكسر، وفتح الباقون. و«أَلِيمٌ» معناه مؤلِّمٌ، كما قال الشاعر وهو عمرو ابن معدي كرب:

أَمِنْ رِنْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ

.....

بمعنى مُسمع.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر «يَكْذِبُونَ» بضم الياء وتشديد الذال، وقرأ الباقون بفتح الياء وتخفيف الذال، فالقراءة بالتثنية يؤيدها قوله تعالى قبل: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فهذا إخبار بأنهم يكذبون،

والقراءة بالتخفيف يؤيدها أن سياق الآيات إنما هي إخبارٌ بكذبهم، والتوعد بالعذاب الأليم متوجه على التكذيب، وعلى الكذب في مثل هذه النازلة إذ هو مُنْطَوٌّ على الكفر، وقراءة التثنية أرجح.

و«إِذَا» ظرف زمان. وحكي عن المبرد أنها في قولك في المفاجأة: «خرجت فإذا زيد» ظرف مكان لأنها تضمنت جثة، وهذا مردود، لأن المعنى: خرجت فإذا حضور زيد، فإنما تضمنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان، ومنه قولهم: «الْيَوْمَ خَمَرٌ، وَغَدًا أَمْرٌ» فمعناه: وجود خمر، ووقوع أمر، والعامل في «إِذَا» في هذه الآية: قالوا. وأصل «قِيلَ» قول، نُقِلَتْ حركة الواو إلى القاف فقلبت ياء لانكسار ما قبلها، وقرأ الكسائي: قِيلَ وَغِيضَ وَسَيءٌ وَسِيئٌ وَحِيلَ وَسِيْقٌ وَجِيءٌ بضم أوائل ذلك كله، وروى ذلك عن ابن عامر، وروى عنه أنه كسر غِيضَ وقِيلَ وجِيءَ، الغين والقاف والجيم، حيث وقع من القرآن، وضم نافع من ذلك كله حرفين سَيءٌ وَسِيئٌ، وكسر ما بقي. وكان ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، يكسرون أوائل هذه الحروف كلها.

والضمير في «لَهُمْ» عائد إلى المنافقين المشار إليهم قبل. وقال بعض الناس: الإشارة هنا هي إلى منافقي اليهود. وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: لم يجيء هؤلاء بعد، ومعنى قوله:

لم ينقضوا، بل هم يجيئون في كل زمان.

و«لَا تُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ» معناه: بالكفر وموالة الكفرة، و«تَحَنُّ» اسم من ضمائر الرفع منبهي على الضم إذ كان اسماً قوياً يقع للواحد المعظم، والاثنتين، والجماعة، فأعطي أسنى الحركات، وأيضاً فلما كان في الأغلب ضمير جماعة، وضمير الجماعة في الأسماء الظاهرة الواو أعطي الضمة إذ هي أخت الواو.

ولقول المنافقين «إِنَّمَا تَحَنُّ مَقِيلُونَ» ثلاث تأويلات: أحدها: جحد أنهم يفسدون، وهذا استمرار منهم على النفاق. والثاني: أن يقرأوا بموالة الكفار، ويدعون أنها صلاح من حيث أنهم قرابة توصل، والثالث: أنهم مصلحون بين الكفار والمؤمنين، فلذلك يداخلون الكفار.

و«الْأَلْفَ» استفتاح كلام، و«إِنْ» بكسر الألف استئناف، و«هُمْ» الثاني رفع بالابتداء، و«لَا تُقْسِدُونَ» خبره، والجملة خبر إن، ويحتمل أن يكون فصلاً، ويسميه الكوفيون العماد، ويكون المفسدون خبر إن. فعلى هذا لا موضع لـ «هُمْ» من الإعراب، ويحتمل أن يكون تأكيداً للضمير في (إنهم)، فموضعه نصب.

ودخلت الألف واللام في قوله: «لَا تُقْسِدُونَ» لما تقدم ذكر اللفظة في قوله: «لَا تُقْسِدُوا» فكأنه ضرب من العهد، ولو جاء الخبر عنهم ولم يتقدم من اللفظة ذكر لكان «أَلَا إِنَّهُمْ مَفْسِدُونَ» قاله الجرجاني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الألف واللام تتضمن المبالغة كما تقول: «زيد هو الرجل»، أي حق الرجل، فقد تستغني عن مقدمة تقضي عهداً.

و ﴿لَكِنَّ﴾ بجملته حرف استدراك، ويحتمل أن يراد هنا: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم مفسدون، ويحتمل أن يراد: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ أن الله يفضحهم، وهذا مع أن يكون قولهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ جحداً محضاً للإفساد، والاحتمال الأول هو بأن يكون قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ اعتقاداً منهم أنه صلاح في صلة القرابة، أو إصلاح بين المؤمنين والكافرين.

١٣ - ١٤ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: صدّقوا بمحمد ﷺ وشرعه، مثل ما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يثرب، قالوا: أنكون كالذين خفّت عقولهم؟ و [السُّفَهَاءُ]: الخفة والركة الداعية إلى الخفة، يقال: «ثوب سفیه» إذا كان رقيقاً هلّهل النسيج، ومنه قول ذي الرمة:

مَشْنِينَ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسْفُهُتْ
أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيحِ السَّوَاسِمِ
وهذا القول إنما كانوا يقولونه في الخفاء، فأطلع الله عليه نبيه والمؤمنين، وقرر أن السفه ورقة الحلول وفساد البصائر إنما هو في حيزهم وصفة لهم، وأخبر أنهم لا يعلمون أنهم هم السفهاء للزّين الذي على قلوبهم.

وقال قوم: الآية نزلت في منافقي اليهود، والمراد بالناس: عبدالله

ابن سلام ومن أسلم من بني إسرائيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تخصيص لا دليل عليه. و ﴿لَقُوا﴾ أصله لقّوا استثقلت الضمة على الياء فسكنت، فاجتمع الساكنان فحذفت الياء.

وقرأ ابن السمين: ﴿لَا قُوا الَّذِينَ﴾.

وهذه كانت حال المنافقين: إظهار الإيمان للمؤمنين، وإظهار الكفر في خلواتهم بعضهم مع بعض، وكان المؤمنون يلبسونهم على ذلك لموضع القرابة، فلم تلتبس عليهم الشهادات، ولا تقرر تعيّنهم في النفاق تقررًا يوجب لوضوحه الحكم بقتلهم، وكان ما يظهرونه من الإيمان يحقن دماءهم، وكان رسول الله ﷺ يعرض عنهم، ويدعهم في غمرة الاشتباه، مخافة أن يتحدّث عنه أنه يقتل أصحابه، فينفر الناس، حسب ما قاله عليه السلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين قال له في وقت قول عبدالله بن أبي ابن سلول: ﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ القصة، دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» فهذه طريقة أصحاب مالك رضي الله عنه في معنى كف رسول الله ﷺ عن قتل المنافقين، مع علمه بكفرهم في الجملة، نص على هذا محمد بن الجهم، وإسماعيل القاضي، والأبهري، وابن الماجشون، واحتج بقوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَلَّذِينَ فِي

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِرُوكَ فِيهَا إِلَّا فِيلًا ﴿١٣﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا خِيَدَهُمْ ثَقَفُوا تَقْصِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

قال قتادة: معناه: إذا هم أعلنوا النفاق.

وقال مالك رحمه الله: النفاق في عهد رسول الله ﷺ هو: الزندقة فينا اليوم، فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استتابة، لأنه لا يظهر ما يُستتاب منه، وإنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليس لأمره أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذا لم يُشهد على المنافقين. قال القاضي إسماعيل: لم يشهد على عبدالله بن أبي إلا زيد بن أرقم وحده، ولا على الجلاس بن سويد إلا عمير بن سعد ربيبه وحده، ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أقوى من انفراد زيد وغيره أن اللفظ ليس بصريح كُفر، وإنما يفهم من قُوَّةِ الكُفر. قال الشافعي رحمه الله: السنة فيمن شهد عليه بالزندقة، فجحده وأعلن الإيمان، وتبرأ من كل دين سوي الإسلام، أن ذلك يمنع من إراقة دمه، وبه قال أصحاب الرأي والطبري وغيرهم. قال الشافعي وأصحابه: وإنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين، ما كانوا يُظهرونه من الإسلام بألسنتهم مع العلم بنفاقهم، لأن ما يُظهرونه يجب ما قبله، فمن قال: إن عقوبة الزندقة أشد من عقوبة الكفار فقد خالف معنى الكتاب والسنة، وجعل

شهادة الشهود على الزنديق فوق شهادة الله على المنافقين، قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ قال الشافعي: وأبو حنيفة، وابن حنبل، وأهل الحديث: فالمعنى الموجب لكف رسول الله ﷺ عن قتل المنافقين مع العلم بهم أن الله تعالى نهاه عن قتلهم إذا أظهروا الإيمان، وصلوا، فكذلك هو الزنديق. واحتج ابن حنبل بحديث عبيد الله بن عدي بن الخيار عن رجل من الأنصار في الذي شهد عليه عند رسول الله ﷺ بالنفاق فقال: «أليس يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟» قالوا: بلى، ولا شهادة له. قال: «أليس يصلي؟» قالوا: بلى، ولا صلاة له. قال: «أولئك الذين نهاني الله عنهم»، وذكر أيضاً أهل الحديث ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال فيهم: «لَعَلَّ اللَّهُ سَيُخْرِجُ مِنْ أَضْلَابِهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَيُصَدِّقُ الْمُرْسَلِينَ، وَيُخْلِصُ الْعِبَادَةَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» قال أبو جعفر الطبري في كتاب «اللطيف» في باب «المرتد»: إن الله قد جعل الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر، لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله ﷺ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين، بما أظهروا، ووكّل سرائرهم إلى الله، وقد كذب الله ظاهرهم في قوله

تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ينفصل المالكيون عما أُرْمَوْه من هذه الآية بأنها لم تعين أشخاصهم، وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموص عليه بالنفاق، وبقي لكل واحد منهم أن يقول: لم أرْذ بها، وما أنا إلا مؤمن، ولو عَيَّنَ أَحَدٌ لَمَّا جَبَّ كَذِبُهُ شَيْئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شُيَاطِينِهِمْ﴾ وصلت ﴿خَلَوْا﴾ بـإلى، وعرفها أن توصل بالباء فتقول: خلوت بفلان، من حيث نُزِلَتْ خلوا في هذا الموضع منزلة، ذهبوا وانصرفوا، إذ هو فعل معادل لقوله: ﴿لَقُوا﴾.

وهذا مثل ما تقدم من قول الفرزدق:

قد قَتَلَ الله زياداً عَنِّي.

لما أنزلها منزلة صَرَفَ ورؤ، وقال مكّي: يقال: خلوت بفلان، بمعنى سخرت به، فجاءت إلى في الآية زواياً عن الاشتراك في الباء، وقال قوم: [إلى] بمعنى (مع) وفي هذا ضعف، ويأتي بيانه إن شاء الله في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ أَضْكَرَ إِلَى اللَّهِ﴾ وقال قوم: (إلى) بمعنى (الباء)، إذ حروف المعاني يبدل بعضها من بعض، وهذا ضعيف يأباه الخليل وسيويه، وغيرهما.

واختلف المفسرون في المراد بالشیاطین. فقال ابن عباس رضي الله عنه: هم رؤساء الكفر،

وقال ابن الكلبي وغيره: هم شياطين الجن، وهذا في هذا الموضع بعيد، وقال جمع من المفسرين: هم الكهان. ولفظ «الشَّيْطَانَةُ» الذي معناه: البعد عن الإيمان والخير، يعم جميع من ذكر والمنافقين، حتى يقدر كل واحد شيطان غيره، فمنهم الخالون ومنهم الشياطين. و «مُسْتَهْزِئُونَ» معناه تتخذ هؤلاء الذين نصانهم بإظهار الإيمان هُزُؤاً، ونستخف بهم، ومذهب سيبويه رحمه الله: أن تكون الهمزة مضمومة على الواو في «مُسْتَهْزِئُونَ»، وحكى عنه أبو علي أنها تخفف بين بين، ومذهب أبي الحسن الأخفش: أن تُقَلَّبَ الهمزة ياء قلباً صحيحاً، فيقرأ «مُسْتَهْزِئُونَ». قال ابن جني: حمل الياء الضمة تذكراً لحال الهمزة مضمومة، والعرب تعاف ياء مضمومة قبلها كسرة، وأكثر القراء على ما ذهب إليه سيبويه، ويقال: هزى واستهزأ بمعنى، فهو كعجب واستعجب، ومنه قول الشاعر:

وَمُسْتَعْجِبٌ مِمَّا يَرَى مِنْ أَنَاتِنَا
وَلَوْ زَبْنَتْهُ الْحَرْبُ لَمْ يَسْتَرْزِمِ
١٥ - ١٦ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المفسرون في هذا الاستهزاء؛ فقال جمهور العلماء: هي تسمية العقوبة باسم الذنب، والعرب تستعمل ذلك كثيراً، ومنه قول الشاعر:

أَلَا لَا يَخْجَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا
فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

وقال قوم: إن الله تعالى يفعل بهم أفعالاً هي في تأمل البشر هزؤ، حسب ما يُروى: «إن النار تجمد كما تجمد الإهالة فيمشون عليها، ويظنونها منجاة فتخسف بهم». وما يروى: «إن أبواب النار تفتح لهم فيذهبون إلى الخروج»، نحا هذا المنحى ابن عباس، والحسن.

وقال قوم: استهزاؤه بهم، هو استدراجهم من حيث لا يعلمون، وذلك أنهم، بدؤور نعم الله الدنيوية عليهم يظنون أنه راض عنهم، وهو تعالى قد حثم عذابهم، فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء.

و «وَيَذَرُكُمْ فِي» معناه: يزيدهم في الطغيان، وقال مجاهد: «معناه: يُعْلِي لَهُمْ». قال يونس بن حبيب: يقال «مذ في الشر، وأمد في الخير». وقال غيره: «مذ الشيء. ومده ما كان مثله ومن جنسه، وأمده ما كان مغايراً له»، تقول: مذ النهر، ومذه نهر آخر، ويقال: أمده، قال اللحياني: يقال لكل شيء دخل فيه مثله فكثره: «مذه يُمْدُهُ مَذًا»، وفي التنزيل: «وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ».

ومادة الشيء ما يمهده، دخلت فيه الهاء للمبالغة. قال ابن قتيبة وغيره: مَدَدْتُ الدواة وأمددتها بمعنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يشبه أن يكون مَذَذْتُها جعلت إلى مدادها آخر، وأمددتها جعلتها ذات مَذَاذٍ، مثل قَبَرٍ وَقَبْرٍ، وحَصَر

وَأَخْصَرَ، ومددنا القوم: صرنا لهم أنصاراً، وأمددناهم بغيرنا، وحكى اللحياني أيضاً: أمد الأمير جنده بالخيال، وفي التنزيل: «وَأَنذَرْتَكُمْ بِأَنزَالِ وَتِيَّتٍ».

قال بعض اللغويين: «وَيَذَرُكُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ» أي يمهلهم ويُلْجِئهم، فتحتمل اللفظة أن تكون من المد الذي هو المَطْل والتطويل، كما فسر في «عَمَدُ مُنَدِّمٍ»، ويحتمل أن تكون هي معنى الزيادة في نفس الطغيان، و «الطغيان»: الغلو وتعدي الحد، كما يقال: طغى الماء، وطغت النار، وروي عن الكسائي إمالة طغيانهم - و «يَمْعُونَ»: يترددون حيرة. والعَمَةُ الحيرة من جهة النظر، والعَامَةُ الذي كأنه لا يبصر من التحير في ظلام، أو فلاة، أو هم.

وقوله: «أَوَّلَئِكَ» إشارة إلى المتقدم ذكرهم، وهو رفع بالابتداء، و «الَّذِينَ» خبره، و «أَشْتَرُوا» صلة للذين، وأصله اشتريوا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً، فحذفت لالتقاء الساكنين، وقيل: استثقلت الضمة على الياء فسكنت، وحذفت لالتقاء، وحركت الواو بعد ذلك لالتقاء الساكن بعدها، وخصت بالضم لوجوه، منها: أن الضمة أخت الواو وأخف الحركات عليها. ومنها: أنه لما كانت واو جماعة ضمت كما فعل بالنون في نحن. ومنها: أنها ضمت إتياعاً لحركة الياء المحذوفة قبلها. قال أبو علي: صار الضم فيها أولى، ليفصل بينها وبين واو أو، ولو، إذ

هذان يحركان بالكسر. وقرأ أبو السمال، قعن العدوي، بفتح الواو في: «أَشْتَرُوا الضَّلَاةَ»، وقرأها يحيى بن يعمر بكسر الواو، و «الضَّلَاةَ» والضلال: التلف، نقض الهدى، الذي هو الرشاد إلى المقصد.

واختلفت عبارة المفسرين في معنى قوله: «أَشْتَرُوا الضَّلَاةَ بِالْهَدَى» فقال قوم: أخذوا الضلالة، وتركوا الهدى، وقال آخرون: استحبوا الضلالة، وتجنبوا الهدى، كما قال تعالى: «فَأَسْتَحَبُّوا الْمَمَى عَلَى الْمُنَى». وقال آخرون: الشراء هنا استعارة وتشبيه، لما تركوا الهدى، وهو معرض لهم، ووقعوا بدله في الضلالة، واختاروها، شَبَّهُوا بمن اشتروا فكأنهم دفعوا في الضلالة هداهم، إذ كان لهم أخذه، وبهذا المعنى تعلق مالك رحمه الله في منع أن يشتري الرجل على أن يتخير في كل ما تختلف أحاد جنسه، ولا يجوز فيه التفاضل.

وقال قوم: الآية فيمن كان آمن من المنافقين، ثم ارتد في باطنه وعقده، ويقرب الشراء من الحقيقة على هذا.

وقوله تعالى: «فَمَا رِيحَتْ يَحْرَتُهُمْ» ختم للمثل بما يشبه مبدأه في لفظة الشراء، وأسند الربح إلى التجارة كما قالوا: «ليل قائم، ونهار صائم»، والمعنى: فما ربحوا في تجارتهم. وقرأ إبراهيم بن أبي عبله: «فَمَا رِيحَتْ تَجَارَتُهُمْ» بالجمع.

أَوْ مِنْ جَمَاعَةٍ، وَقَالَ النَحْوِيُّونَ:
الذي اسم مبهم يقع للواحد
والجميع، و ﴿أَسْتَوْقِدُ﴾ قيل: معناه
أوقد، فذلك بمنزلة عجب
وإستعجب بمعنى. قال أبو علي:
وبمنزلة هزيء وإستهزاء، وسخر
واستسخر، قرأ واستقر، وعلا قرنه
واستعلاه، وقد جاء استفعل بمعنى
أنعل: أجاب واستجاب، ومنه قول
الشاعر:

وداع دعا يا مَنْ يَجِيبُ إِلَى الثَّدْيِ
فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبٌ
وأخلف لأهله واستخلف إذا جلب
لهم الماء، ومنه قول الشاعر:
وَمُسْتَخْلِفَاتٍ مِنْ بِلَادِ ثَنُوقَةٍ
لِمُضْفَرَةِ الْأَسْدَادِ خُمُرُ الْحَوَاصِلِ
ومنه قول الآخر:

.....
سَقَاهَا فَرَوَاهَا مِنْ الْمَاءِ مُخْلِفٌ
ومنه: أوقد واستوقد، قاله أبو
زيد، وقيل: استوقد: يراد به طلب
من غيره أن يوقد له على المشهور
من باب استفعل، وذلك يقتضي
حاجته إلى النار، فانطفأها مع
حاجته إليها أنكى له، واخْتَلِفَ فِي
﴿أَصْنَاءَتْ﴾ فقيل: يتعدى، لأنه يُقَالُ
بالهمزة من ضاء، ومنه قول
العباس بن عبدالمطلب في
النبي ﷺ:

وَأَنْتَ لَنَا وَلِذَلِكَ أَشْرَقْتَ الْأَزْ
ضَ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الْأَفْضَ
وعلى هذا فما في قوله ﴿مَا حَوْلَكَ﴾
مفعولة، وقيل: أضاءت لا تتعدى،
لأنه يقال: ضاء وأضاء بمعنى، فما
زائدة، وحوله ظرف.

كَثِيلُهُ شَيْءٌ، لَأَنَّ
مَا يَتَحَصَّلُ لِلْعَقْلِ مِنْ
وَحْدَانِيَةٍ وَأَزَلِيَّةٍ، وَفِي مَا
لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ لَيْسَ
يُمَانِلُهُ فِي شَيْءٍ، وَذَلِكَ
الْمُتَحَصِّلُ هُوَ الْمَثَلُ
الْأَعْلَى الَّذِي فِي قَوْلِهِ
عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ
الْأَعْلَى﴾ وَقَدْ جَاءَ فِي
تَفْسِيرِهِ: ﴿إِنَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ﴾، ففسر بجهة
الوحدانية.

وقوله: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ رفع
بالابتداء، والخبر في
الكاف، وهي على هذا
اسم، كما هي في قول
الأعشى:

أَتَنْتَهُونَ وَلَنْ يَنْهَى ذَوِي شَطْطٍ
كَالطَّغْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَيْتُ وَالْفُتْلُ
ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً،
تقديره: مثلهم مستقر كمثل، فالكاف
على هذا حرف، ولا يجوز ذلك في
بيت الأعشى، لأن المحذوف فاعل
تقديره شيء كالطعن، والفاعل لا
يجوز حذفه عند جمهور البصريين،
ويجوز حذف خبر الابتداء إذا كان
الكلام دالاً عليه، وجوز أبو الحسن
الأخفش حذف الفاعل، وأن تكون
الكاف في بيت الأعشى حرفاً.

وَوَحْدَ ﴿الَّذِي﴾ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ
تَشْبِيهَ الْجَمَاعَةِ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِنَّمَا
الْمَقْصِدُ أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَنَافِقِينَ
فَعَلَهُ كَفَعَلِ الْمُسْتَوْقِدِ، وَ (الَّذِي)
أَيْضاً لَيْسَ بِإِشَارَةٍ إِلَى وَاحِدٍ وَلَا بِدَلِيلٍ
إِلَى هَذَا الْفِعْلِ: وَقَعَ مِنْ وَاحِدٍ،

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ
بَكَمُوعِي قَوْمٍ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ
ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُبٌ يَمْجَعُونَ أَصْبَعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ
حَذَرًا لَمَوْتٍ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ نَكَادُ الْوُقُوفُ يَخْتَفُونَ
أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَتْ لَهُمْ مَنَافِقِيهِمْ وَإِذَا أَعْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ لَئِنْ أَرَادَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ رِيشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِيشًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا
فَأَنْتُمْ يَسُورُونَ مِنْ شَيْءٍ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَعُوا
النَّارَ الَّتِي وَفُودَهَا النَّاسُ وَالْحَبَارَةُ أَصْدَتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ﴾، قيل: المعنى في
شرائهم هذا، وقيل: على الإطلاق،
وقيل: في سابق علم الله، وكل هذا
يحتمله اللفظ.

﴿١٧﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:
الْمَثَلُ وَالْمِثْلُ وَالْمَثِيلُ وَاحِدٌ،
معناه: الشبه. هكذا نص أهل
اللغة، والمتماثلان: المتشابهان،
وقد يكون مثل الشيء جرمًا مثله،
وقد يكون ما تُعْقَلُ النفس وتوهمه
من الشيء مثلاً له، فبقوله تعالى:
﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ﴾، معناه: أن الذي
يتحصل في نفس الناظر في أمرهم
كمثل الذي يتحصل في نفس
الناظر في أمر المستوقد، وبهذا
يزول الإشكال الذي في تفسير
قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾،
وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ

واختلف المتأولون في فعل المنافقين الذي يشبه فعل الذي استوقد ناراً، فقالت طائفة: هي فيمن كان آمن ثم كفر بالنفاق، فإيمانه بمنزلة النار أضاءت، وكفره بعد بمنزلة انطفائها وذهاب النور. وقال الحسن بن أبي الحسن وغيره: إن ما يظهر المنافق في الدنيا من الإيمان فيحقن به دمه، ويحرز ماله، وينكح ويخالط، كالنار التي أضاءت ما حوله، فإذا مات صار إلى العذاب الأليم، فذلك بمنزلة انطفائها وبقائه في الظلمات، وقالت فرقة: إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار، وانصرافهم إلى مردتهم، وارتكاسهم عندهم كذاهبها. وقال فرقة: إن المنافقين كانوا عند رسول الله ﷺ والمؤمنين في منزلة بما أظهروه، فلما فضحهم الله، وأعلم بنفاقهم، سقطت المنزلة، فكان ذلك كله بمنزلة النار وانطفائها. وقالت فرقة منهم قتادة: نُطْقُهُمْ بلا إله إلا الله والقرآن كإضاءة النار، واعتقادهم الكفر بقلوبهم كانطفائها، قال جمهور النحاة: جواب (لما) ذهب، ويعود الضمير من نورهم في هذا القول على (الذي)، ويصح شبه الآية بقول الشاعر:

وإن الذي حانت بقلج دماؤهم
هم القوم كل القوم يا أم خالد
وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد، لأن بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر، كبقاء المنافق، على الاختلاف المتقدم. وقال قوم: جواب (لما) مضمر، وهو: طفئت،

والضمير في نورهم على هذا للمنافق، والإخبار بهذا هو عن حال تكون في الآخرة، وهو قوله تعالى: ﴿فَضَرَبَ بِسُورٍ لَهُمُ بَاطِلٌ﴾ وهذا القول غير قوي.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو السمال: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ يَسْكُونُ اللَّامَ، وَقرأ قوم: ﴿ظُلُمَاتٍ﴾ بفتح اللام.

قال أبو الفتح: في ظلمات وكسرات ثلاث لغات: إتباع الضم بالضم، والكسر الكسر، أو التخفيف بأن يعدل إلى الفتح في الثاني، أو التخفيف بأن يسكن الثاني، وكل ذلك جائز حسن، فأما فَعَلَةٌ بالفتح فلا بد فيه من التثنية إتياعاً، فنقول تَمَرَةً وَتَمَرَاتٍ. وذهب قوم في (ظلمات) بفتح اللام إلى أنه جمع ظلم فهو جمع جمع.

و (الأَصَمُّ): الذي لا يسمع، و (الأَبْكَمُ): الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس، وقيل: الأَبْكَمُ والأخرس واحد، ووصفهم بهذه الصفات إذ أعمالهم من الخطأ وقلة الإجابة كأعمال من هذه صفته، و ﴿سُوءٌ﴾ رفع على خبر الابتداء، فما أن يكون ذلك على تقدير تكرار أولئك، وإما على إضمار (هم). وقرأ عبدالله بن مسعود، وحفصة أم المؤمنين رضي الله عنهما: ﴿صَمًا، بِكَمَا، عَمِيًا﴾ بالنصب، ونصبه على الحال من الضمير في ﴿مُهَيَّيَّنًا﴾، وقيل: هو نصب على الذم، وفيه ضعف، وأما من جعل الضمير في ﴿تُؤْتِيهِمْ﴾ للمنافقين لا للمستوقدين، فنصب هذه الصفات على الحال من

الضمير في (تركهم). قال بعض المفسرين: قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إخبار منه تعالى أنهم لا يؤمنون بوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما كان يصح هذا أن لو كانت الآية في معينين. وقال غيره: معناه فهم لا يرجعون ما داموا على الحال التي وصفهم بها، وهذا هو الصحيح، لأن الآية لم تعين، وكلهم معرض للرجوع، مدعو إليه.

﴿أَقْ﴾، للتخيير، معناه: مثلوهم بهذا، أو بهذا، لا على الاختصار على أحد الأمرين. وقوله: ﴿أَقْ كَصُوبٍ﴾ معطوف على ﴿كَثَلٍ أَلَيَّ﴾ وقال الطبري: (أو) بمعنى (الوار).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عُجَمَةٌ. و (الصَّبَبُ) المطر، من صاب يصوب إذا انحط من علو إلى سفلى، ومنه قول علقمة بن عبدة:

كأنهم صابث عليهم سحابة
صواعقها لطيرهم ذبيب
وقول الآخر:

فَلَسْتُ لِإِنْسِي وَلَكِنْ لِمَلَأَكِ
تَنْزَلُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ
وأصل (صَبَبَ) صَيَّبَ، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً وأدغمت كما فعل في سيد وميت. وقال بعض الكوفيين: أصل (صَبَبَ) صَوَّبَ على مثال فَعَّلَ، وكان يلزمه ألا يُعْلَى كما لم يُعْلَ طویل، فبهذا يضعف هذا القول. وقوله تعالى: ﴿ظُلُمَتِ﴾

بالجمع إشارة إلى ظُلْمَةِ الليل، وظُلْمَةِ الدُّجْنِ، ومن حيث تتراكب وتزايد جُمُعَتِ، وَكَوْنُ الدُّجْنِ مظلماً هول وغم للنفس، بخلاف السحاب والمطر إذا انجلى دُجَّتْهُ فإنه سارٌ جميل. ومنه قول قيس بن الخطيم: فَمَارَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْقَطَا كَأَنَّ الْمَصَابِيحَ حَوْدَاقُهَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا، وَلَا مُزْنَةَ دَلُوحَ تَكْشِفُ أَذْجَائُهَا واختلف العلماء في (الرَّغْدِ)، فقال ابن عباس، ومجاهد، وشهر بن حوشب، وغيرهم: هو مَلَكٌ يَزْجُرُ السحاب بهذا الصوت المسموع، كلما خالفت سحابة صاح بها، فإذا اشتد غضبه طارت النار مِنْ فِيهِ فهي الصواعق، واسم هذا المَلَك: الرعد، وقيل: الرعد مَلَكٌ وهذا الصوت تسميحه، وقيل: الرعد اسم الصوت المسموع، قاله علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، هذا هو المعلوم في لغة العرب، وقد قال لبيد في جاهليته:

فَجَعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِأَلْفًا
رِسَ يَوْمَ الْكِبْرِيَّهَةِ التَّجْدُ
وَزُوِّي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:
الرَّعْدُ رِيحٌ تَخْتَنِقُ بَيْنَ السَّحَابِ
فَتَصُوتُ ذَلِكَ الصَّوْتِ، وَقِيلَ: الرَّعْدُ
اصْطِكَاكُ أَجْرَامِ السَّحَابِ، وَأَكْثَرُ
الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الرَّعْدَ مَلَكٌ، وَذَلِكَ
صَوْتُهُ يَسِيحُ وَيَزْجُرُ السَّحَابَ.

واختلفوا في (البرق)، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هو مخراق حديد بيد المَلَك يسوق به السحاب. وقال ابن عباس: هو سوط نور بيد الملك يزجي به

السحاب، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه: أَنَّ البرق مَلَكٌ يترأى وقال قوم: البرق ماء، وهذا قول ضعيف.

والصاعقة: قال الخليل: هي الوقعة الشديدة من صوت الرعد، يكون معها أحياناً قطعة نار، يقال: إنها من المخراق الذي بيد المَلَك، وقيل في قطعة النار: إنها ما يخرج من فم الملك عند غضبه.

وحكى الخليل عن قوم من العرب: الصاعقة بالسين. وقال النقاش: يقال: صاعقة وصعقة وصاقعة بمعنى واحد، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿مِنْ الصَّوَاعِقِ﴾ بتقديم القاف. قال أبو عمرو: وهي لغة تميم. وقرأ الضحّاك بن مزاحم: ﴿جَدَارَ الْعُوثِ﴾ بكسر الحاء وبألف.

واختلف المتأولون في المقصد بهذا المثل، وكيف تترتب أحوال المنافقين الموازنة لِمَا في المثل من الظلمات، والرعد، والبرق، والصواعق. فقال جمهور المفسرين: مثل الله تعالى القرآن بالصَّيْبِ لما فيه من الإشكال عليهم، والعَمَى: هو الظلمات وما فيه من الوعيد، والزجر: هو الرعد، وما فيه من النور، والهجج الباهرة التي تكاد أن تبهرهم هو البرق، وتخوفهم وروعهم وحذرهم هو جعل أصابعهم في آذانهم، وفضح نفاقهم واشتبار كفرهم وتكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة ونحوه هي الصواعق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله صحيح يَبَيِّنُ، وروي عن ابن مسعود أنه قال: إن رجلين من

المنافقين هربا من النبي ﷺ إلى المشركين فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله، وأيقنا بالهلك فقالا: ليتنا أصبحنا فنأتي محمداً، ونضع أيدينا في يده، فأصبحا وأتياه، وحَسُنَ إسلامهما، فضرب الله ما نزل بهما مثلاً للمنافقين. وقال أيضاً ابن مسعود: إن المنافقين في مجلس رسول الله ﷺ كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم لئلا يسموا القرآن، فضرب الله المثل لهم، وهذا وفاق لقول الجمهور الذي ذكرناه.

وقال قوم: الرعد والبرق هما بمثابة زجر القرآن ووعيده.

و ﴿يُخِطِّطُ بِالْكَافِ﴾ معناه: يعقابه وأخذه، يقال: أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذاً حاصراً من كل جهة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُخِطِّطُ بِشِرْكِهِ﴾، ففي الكلام حذف مضاف. و ﴿يَكَاذِبُ﴾ فعلٌ ينفي المعنى مع إيجابه، ويوجبه مع النفي، فهنا لم يخطف البرق الأبصار، والخطف: الانتزاع بسرعة، واختلفت القراءة في هذه اللفظة، فقرأ جمهور الناس: ﴿يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ بفتح الياء والطاء وسكون الخاء على قولهم في الماضي خَطَفَ بكسر الطاء، وهي أفصح لغات العرب، وهي قرشية. وقرأ علي بن الحسين، ويحيى بن وثاب: ﴿يَخْطِفُ﴾ بفتح الياء وسكون الخاء وكسر الطاء على قول بعض العرب في الماضي خَطَفَ بفتح الطاء. ونسب المهدوي هذه القراءة إلى الحسن وأبي رجاء، وذلك وهم. وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري، وقتادة: ﴿يَخْطِفُ﴾ بفتح الياء وكسر الخاء

والطاء وتشديد الطاء، وهذه أصلها يختطف أدغمت التاء في الطاء وكسرت الخاء لالتقاء الساكنين. وحكى ابن مجاهد قراءة لم ينسبها إلى أحد «يَخْطُفُ» بفتح الياء والحاء وتشديد الطاء المكسورة، قال أبو الفتح: أصلها يختطف، نقلت حركة التاء إلى الخاء، وأدغمت التاء في الطاء. وحكى أبو عمر الداني عن الحسن أيضاً أنه قرأ: «يَخْطُفُ» بفتح الياء والحاء والطاء وشدها، وروي أيضاً عن الحسن والأعمش بكسر الثلاثة وشد الطاء منها، وهذه أيضاً أصلها يختطف. أدغم وكسرت الخاء للالتقاء، وكسرت الياء إنباعاً. وقال عبدالوارث: رأيته في مصحف أبي بن كعب: «يَخْطُفُ» بالتاء بين الياء والحاء، وقال الفراء: قرأ بعض أهل المدينة «يَخْطُفُ» بفتح الياء وسكون الخاء وشد الطاء مكسورة، قال أبو الفتح: إنما هو اختلاس وإخفاء فيلطف عندهم فيرون أنه إدغام، وذلك لا يجوز؛ لأنه جمع بين ساكنين دون عذر، وحكى الفراء قراءة عن بعض الناس «يَخْطُفُ» بضم الياء وفتح الخاء وشد الطاء مكسورة كأنه تشديد مبالغة لا تشديد تعدية. ومعنى [يَكَاذِبُ] يَكْذِبُ أَنْبَصَارُهُمْ: تكاذب حجج القرآن وإبراهيم وآياته الساطعة تبههم. ومن جعل البرق في المثل الزجر والوعيد، قال: يكاذب ذلك يصيبهم، و«كَلَّمَ» ظَرَفَ والعامل فيه «مَنْوَأَ»، وهو أيضاً جواب «كَلَّمَ»، و«أَكَلَّ» صِلَةٌ (ما)، وَمَنْ جعل (أَصَاءَ) يتعدى قَدَّرَ له مفعولاً، ومن جعله بمنزلة

(ضَاءَ) استغنى عن ذلك، وقرأ ابن أبي عبله: «أَصَاءَ لَهُمْ» بغير همز، وهي لغة. وفي مصحف أبي بن كعب: «مَزَّوْا فِيهِ»، وفي قراءة ابن مسعود: «مَضَّوْا فِيهِ»، وقرأ الضحاك: «وَإِذَا أَظْلِمَ» بضم الهمز وكسر اللام. و«قَاتَرُوا» معناه: ثبتوا لأنهم كانوا قياماً، ومنه قول الأعرابي: وقد أقام الدُفْرُ صِعري بعد أن أكنث صعره يريد أثبت الدهر.

ومعنى الآية فيما روي عن ابن عباس وغيره: كلما سمع المنافقون القرآن، وظهرت لهم الحجج، أنبأوا ومشوا معه، فإذا نزل من القرآن ما يعمون فيه ويضلون به أو يكلفونه، قاموا أي ثبتوا على نفاقهم. وروي عن ابن مسعود أن معنى الآية: كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم، وتوالت عليهم النعم قالوا: دين محمد دين مبارك، وإذا نزلت بهم مصيبة، أو أصابتهم شدة سخطوا وثبتوا في نفاقهم.

وقال قوم: معنى الآية: كلما خفي عليكم نفاقهم، وظهر لكم منهم الإيمان مشوا فيه، فإذا افتضحوا عندكم قاموا. ووحد السمع لأنه مصدر، يقع للواحد والجمع. وحكى النقاش أن من العلماء من قرأ: «بِأَسْمَاعِهِمْ». وقرأ إبراهيم بن أبي عبله: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَذْبَحَ أَسْمَاعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ»، وخص الأسماع والأبصار لتقدم ذكرها في الآية، ويشبه هذا المعنى في حال المنافقين أن الله لو شاء لأوقع بهم ما يتخوفونه من الزجر والوعيد، أو لَفَضَحَهُمْ عند

المؤمنين، وسلط المؤمنين عليهم، وبكل مذهب من هذين قال قوم. وقوله تعالى: ﴿لَا كَلِمَةٍ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لفظه العموم، ومعناه عند المتكلمين: على كل شيء يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه، و«قَدِيرٌ» بمعنى قادر، وفيه مبالغة، وخص هنا صفته التي هي القدرة بالذكر لأنه قد تقدم ذكر فعل مضمته الوعيد والإخافة، فكان ذكر القدرة مناسباً لذلك.



تفسير قوله عز وجل:

[يا] حرف نداء، وفيه تنبيه، و[أي] هو المنادى، قال أبو علي: اجتنبت (أي) بعد حرف النداء فيما فيه الألف واللام؛ لأن في حرف النداء تعريفاً، فكان يجتمع تعريفاً، و[ها] تنبيه وإشارة إلى المقصود، وهي بمنزلة ذا في الواحد. و«لَتَأْتِيَ» نعت لازم لأي. وقال مجاهد: «تَأْتِيَا النَّاسَ» حيث وقع في القرآن مكي، و«تَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا» مدني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قد تقدم في أول السورة أنها كلها مدنية، وقد يجيء في المدني «تَأْتِيَا النَّاسَ»، وأما قوله في «تَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا» فصحيح.

وقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ معناه: وَحْدَهُ وَخُصُّوهُ بالعبادة، وذكر تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته. إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها، فذكر ذلك حجة عليهم. و«لَكَلَّ» في هذه الآية قال فيها كثير من المفسرين: هي بمعنى إيجاب التقوى، وليست من الله تعالى بمعنى تَرْجُحُ وتوقع. وقال سيبويه، ورؤساء اللسان: هي على بابها، والترجي

والتوقع إنما هو في حيز البشر، أي إذا تأملتكم حالكم مع عبادة ربكم رجوتم لأنفسكم التقوى. و ﴿لَمَّا كُنْتُمْ مَتَعَلِفَةً﴾ بقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، ويتجه تعلقها بخلقكم، أي لما ولد كل مولود على الفطرة فهو إن تأمله متأمل توقع له رجاء أن يكون متقياً. و ﴿تَتَّقُونَ﴾ مأخوذ من الوقاية، وأصله تَوَقَّيُونَ، نقلت حركة الياء إلى القاف وحذفت للالتقاء مع الواو الساكنة، وأدغمت الواو الأولى في التاء.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ نَصَبَ عَلَىٰ إِتِّبَاعِ﴾ المتقدم، ويصح أن يكون مرفوعاً على القطع، وما ذكر مكي: من إضمار أعني، أو مفعول بتتقون فضعيف. و ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى صير في هذه الآية، لتعديها إلى مفعولين، و ﴿وَرَشَّاهُ﴾ معناه: تفرشونها، وتستقرون عليها، وما في الأرض مما ليس بفراش كالجبال والبحار فهو من مصالح ما يفتersh منها، لأن الجبال كالآوتاد، والبحار يركب فيها إلى سائر منافعها.

و ﴿السَّمَاءَ﴾ قيل: اسم مفرد، جمعه سموات، وقيل: هو جمع واحد سماوة. وكل ما ارتفع عليك في الهواء فهو سماء، والهواء نفسه غُلُوًّا يقال له: سماء، ومنه الحديث «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ طُولَهُ فِي السَّمَاءِ سِتُونَ فَرَسًا». واللفظ من السمو وتصاريفه.

وقوله تعالى: ﴿يَنَّا﴾ تشبيه بما يفهم، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا يَافًى﴾، وقال بعض الصحابة: بناها على الأرض كالقبة.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يريد السحاب، سمي بذلك تجوزاً لما كان

يلي السماء ويقاربها، وقد سماوا المطر سماء للمجاورة، ومنه قول الشاعر:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَسُومٍ
رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَاباً

فتجوز أيضاً في رعيته، فتوسط المطر جعل السماء عشباً. وأصل (ماء) موه يدل على ذلك قولهم في الجمع: مياه وأمواه، وفي التصغير: مَوْنَةٌ، وانطلق اسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التملك أي هي مُعَدَّةٌ أَنْ يَصِحَّ الانتفاع بها فهي رزق، وَرَدَّ بهذه الآية بعض الناس قول المعتزلة: إن الرزق ما يصح تملكه، وليس الحرام برزق.

وواحد الأنداد: نِدٌّ. وهو المقاوم والمضاهي كان مثلاً أو خلافاً أو ضدّاً، ومن حيث قاوم وضاهى فقد حصلت مماثلة ما، وقال أبو عبيدة معمر، والمفضل: الضد: الند، وهذا التخصيص منهما تمثيل لا حصر.

واختلف المتأولون: مَنْ المخاطب بهذه الآية؟ فقالت جماعة من المفسرين: المخاطب جميع المشركين، فقوله على هذا ﴿وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يريد العلم الخاص بأنه تعالى خلق وأنزل الماء، وأخرج الرزق، ولم تُثَبِّط الآية الجهالة عن الكفار. وقيل: المراد كفار بني إسرائيل، فالمعنى: تعلمون من الكتب التي عندهم، أن الله لا يَنْدُ له، وقال ابن فورك: يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين، فالمعنى لا تردوا أيها المؤمنون وتجعلوا الله أنداداً بعد علمكم - الذي هو نفي الجهل - بأن الله واحد.

وهذه الآية تعطي أن الله تعالى

أغنى الإنسان بنعمه هذه عن كل مخلوق، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا، فقد أخذ بطرف من جعل لله نداً. عصمنا الله تعالى بفضلته، وقَصَّرَ آمالنا عليه بِمَنِّهِ وَطَوَّلِهِ، لا رب غيره.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٤﴾ تفسير قوله عز وجل: [الرَّيْبُ] الشك، وهذه الآية أن الخطاب المتقدم إنما هو لجماعة المشركين الذين تُحَدِّثُوا، وتقدم تفسير لفظ [سُورَةٌ] في صدر هذا التعليق.

وقرأ يزيد بن قطيب: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ بألف، واختلف المتأولون على من يعود الضمير في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، فقال جمهور العلماء: هو عائد على القرآن، ثم اختلفوا، فقال الأكثر: من مثل نظمه ورضيحه وفصاحة معانيه التي يعرفونها، ولا يُعْجِزُهُمْ إِلَّا التَّأْلِيفُ الذي حُصِّصَ به القرآن، وبه وقع الإعجاز على قول حُذِّقَ أَهْلُ النُّظَرِ، وقال بعضهم: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ في غيوبه، وصدقه، وقُدِّمَ، فالتحدي عند هؤلاء وقع بالقديم، والأول أبين، و ﴿بَيْنَ﴾ على هذا القول زائدة، أو لبيان الجنس، وعلى القول الأول هي للتبعية، أو لبيان الجنس. وقالت فرقة: الضمير في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ عائد على محمد ﷺ، ثم اختلفوا، فقالت طائفة: من أُمِّي صادق مثله، وقالت طائفة: من ساجر، أو كاهن، أو شاعر مثله على زعمكم أيها المشركون. وقالت طائفة: الضمير في مثله عائد على الكتب القديمة: التوراة، والإنجيل، والزبور.

وَيَسِّرَ اللَّهُ لَكَ الْأَمْثَالَ وَتَجْعَلُ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارَ كَلِمَاتٍ يَتَذَكَّرُ بِهِ نَبِيُّكُم ۚ وَلَهُمْ فِيهَا أَنْزَالٌ مُطَهَّرٌ وَلَهُمْ فِيهَا مَخْرَجٌ وَمَخِيلٌ ۚ وَأَنْزَالٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّكَ مُتَجَدِّدٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ۚ أَسْأَلُكُمْ فِيهِ الْإِيمَانَ ۚ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِمَا تَحْكُمُونَ ۚ إِنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۚ بَلْ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ۚ وَهُدًى لِبَعْضٍ ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۚ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَائِبُونَ ۚ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْثَلًا فَأَخَذْتُمْ مِنْكُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ ثُمَّ يُنصِّبُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۚ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جِجَعًا أَسْوَءَ ۚ أَنْتُمْ إِلَى السَّمَاءِ فُتُونَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ يَكْلِي كُلَّ شَيْءٍ عَالِمٌ ۚ

أيضاً من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أمر بالإيمان وطاعة الله، خرج في هذه الألفاظ المحذرة. وقرأ الجمهور ﴿وَقُودُهَا﴾ بفتح الواو. وقرأ الحسن بن أبي الحسن، ومجاهد، وطلحة بن مصرف، وأبو حيوة: ﴿وَقُودُهَا﴾ بضم الواو في كل القرآن، إلا أن طلحة استثنى الحرف الذي في البروج. و«بفتح الواو» هو الحطب، و«بضمها» هو المصدر، وقد حكيا

وقوله تعالى: ﴿وَأَذَعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ معناه: دعاء استصراخ، والشهداء من شهادهم وحضرهم من عون ونصير، قاله ابن عباس: وقيل عن مجاهد: إن المعنى دعاء استحضرار. والشهداء جمع شاهد، أي من يشهد لكم أنكم عارضتم، وهذا قول ضعيف. وقال الفراء: شُهِدَاؤُهُمْ، يراد بهم ألهتهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي فيما قلتم من الرب. هذا قول بعض المفسرين، وقال غيره: فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة، ويؤيد هذا القول أنه قد حُكي عنهم في آية أخرى ﴿وَإِنْ تَنَسَّاءُ لَقُلْنَا يَسْئَلُ هَذَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ لَمْ تَقْعَلُوا﴾ دخلت ﴿إِنْ﴾ على ﴿لَمْ﴾ لأن ﴿لَمْ﴾ تَقْعَلُوا معناه تركتم الفعل، فإن لا تؤثر، كما لا تؤثر في الماضي من الأفعال، و﴿تَقْعَلُوا﴾ جزم بلم، وجزمت ﴿لَمْ﴾ لأنها أشبهت (لا) في التثنية في أنهما ينفيان، فكما تحذف (لا) تنوين الاسم، كذلك تحذف (لَمْ) الحركة أو العلامة من الفعل.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَقْعَلُوا﴾ نُصِبَتْ بِهِ (لَنْ)، ومن العرب من يجزم بها. ذكره أبو عبيدة.

ومنه بيت النابغة على بعض الروايات:

فَلَنْ أَعْرَضَ - آيَتِ اللَّعْنِ - بِالضَّفْدِ

وفي الحديث في منامة عبدالله بن عمر «فَقِيلَ لِي: لَنْ تُرَخَّ» هذا على تلك اللغة، وفي قوله: ﴿وَإِنْ تَقْعَلُوا﴾ إثارة لِهَمَجِهِمْ، وتحريك لِنَفْسِهِمْ؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبداع، وهو

وهو القول الذي سقط فيه منذر بن سعيد.

وذهب بعض المتأولين: إلى أن هذه النار المخصصة بالحجارة هي نار الكافرين خاصة، وأن غيرها هي للعصاة. وقال الجمهور: بل الإشارة إلى جميع النار، لا إلى نار مخصوصة، وإنما ذَكَرَ الكافرين ليحصل المخاطبون في الوعيد، إذ فعلهم كفر، فكأنه قال: أعدت لمن فعل فعلكم، وليس يقتضي ذلك أنه لا يدخلها غيرهم، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ﴾.

تفسير قوله عز وجل:

﴿يَسِّرُ﴾ مأخوذ من البَسْرَةِ، لأن ما يَسِّرُ به الإنسان من خير أو شر يظهر عليه أثره في بَسْرَةِ الوجه، والأغلب استعمال البشارة في الخير، وقد تستعمل في الشر مقيدة به، منصوفاً

جميعاً في الحطب، وقد حكيا في المصدر. قال ابن جني: من قرأ بضم الواو، فهو على حذف مضاف، تقديره: ذو وقودها، لأن الوقود بالضم مصدر وليس بالناس. وقد جاء عنهم «الوقود» بالفتح في المصدر، ومثله: «قُلعت به ولوعاً» بفتح الواو، وكله شاذ، والباب هو الضم.

وقوله: ﴿الْأَنْبَاءِ﴾ عموم معناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء بدخولها. وروي عن ابن مسعود في الحجارة: أنها حجارة الكبريت، وخصت بذلك؛ لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب:

سرعة الانتقاد، وتتن الرائحة، وكثرة الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا حُمِيت.

وفي قوله تعالى: ﴿أَعَذَّتْ﴾ رد على من قال: إن النار لم تخلق حتى الآن

على الشر المبشر به، كما قال تعالى: ﴿فَبَيَّنَّاهُ يُكَذِّبُ آلِيَّهِ﴾، ومتى أطلق لفظ البشارة فإنما يحمل على الخير.

وفي قوله تعالى: ﴿وَعَكِلُوا أَصْلَابَكُمْ﴾ ردُّ على من يقول إن لفظة الإيمان بمجرد ما تقتضي الطاعات، لأنه لو كان ذلك ما أعادها، ولأنَّ في موضع نصب بيِّن، وقيل: في موضع خفض على تقدير بَاءِ الجر. و﴿جَنَّاتٍ﴾ جمع جَنَّة، وهي بستان الشجر والنخيل، وبستان الكرم يقال له: الفردوس، وسميت جنة؛ لأنها تجنُّ من دخلها أي تستره، ومنه المِجنَّ والجَنَن وجَنَّ الليل.

و﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ معناه: من تحت الأشجار التي يتضمنها ذكر الجنة، وقيل: قوله ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ معناه: بإزائها كما تقول: داري تحت دار فلان. وهذا ضعيف. و﴿الْأَنْهَارُ﴾ المياه في مجاريها المتطاولة الواسعة، لأنها لفظة مأخوذة من أَنْهَزْتُ أَيْ وَسَعْتُ، ومنه قول قيس بن الخطيم:

مَلَكْتُ بِهَا كَفْيَ فَأَنْهَزْتُ فَتَقَّهَا
يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا
ومنه قول النبي ﷺ: «ما أنهرَ الدم، وذكر اسم الله عليه فكلوه». معناه: ما وسَّع الذبح حتى جرى الدم كالنهر، ونسب الجاري إلى النهر وإنما يجري الماء وحده تجوُّراً، كما قال: «واسأل القرية»، وكما قال الشاعر:

نُبِّشْتُ أَنْ الشَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدْتُ
وَأَسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كُلَيْبَ الْمَجْلِسِ
وروي أن أنهار الجنة ليست في

أخاديد، إنما تجري على سطح أرض الجنة منضبطة. وقوله ﴿كَلَّمَآ﴾: ظرف يقتضي الحصر.

وفي هذه الآية رد على من يقول: إن الرزق من شروطه التملك، ذكر هذا بعض الأصوليين، وليس عندي بَيِّن.

وقولهم [هَذَا] إشارة إلى الجنس، أي هذا من الجنس الذي رزقنا منه من قبل، والكلام يحتمل أن يكون تعجباً، وهو قول ابن عباس، ويحتمل أن يكون خبراً من بعضهم لبعض، قاله جماعة من المفسرين. وقال الحسن، ومجاهد: يرزقون الشجرة، ثم يرزقون بعدها مثل صورتها. والطعم مختلف، فهم يتعجبون لذلك، ويخبر بعضهم بعضاً، وقال ابن عباس: ليس في الجنة شيء مما في الدنيا سوى الأسماء، وأما الذوات فمتباينة، وقال بعض المتأولين: المعنى أنهم يرون الثمر فيُمَيِّزُون أجناسه، حين أشبهه منظره ما كان في الدنيا، فيقولون: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقول ابن عباس الذي قبل هذا يردُّ على هذا القول بعض الرد. وقال بعض المفسرين: المعنى هذا الذي وَعَدْنَا به في الدنيا، فكأنهم قد رَزَقُوهُ في الدنيا إِذْ وَعَدَ اللهُ منتجِز. وقال قوم: إن ثمر الجنة إِذَا قُطِفَ منه شيء خرج في الحين في موضعه مثله، فهذا إشارة إلى الخارج في موضع المجني، وقرأ جمهور الناس ﴿وَأَنْتَوَا﴾ بضم الهمز، وضم التاء،

وقرأ هارون الأعور: ﴿وَأَنْتَوَا﴾ بفتح الهمزة والتاء، والفاعل على هذه القراءة: الولدان والخدام، و﴿أَنْتَوَا﴾ على قراءة الجماعة أصله أَتَيُوا - نقلت حركة الباء إلى التاء، ثم حذفت الياء للالتقاء.

وقوله تعالى: ﴿مُتَشَبِّهَاتٌ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم، معناه: يشبه بعضه بعضاً في المنظر، ويختلف في الطعم، وقال عكرمة: معناه يشبه ثمر الدنيا في المنظر، وُتَبَايَنَ في جلِّ الصفات، وقال قتادة: متشابهات: معناه خياراً لا رذل فيه، كقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا مُتَشَبِّهَاتٌ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه يريد متناسباً في أن كل صنف هو أعلى جنسه، فهذا تشابه ما، وقيل ﴿مُتَشَبِّهَاتٌ﴾ أي مع ثمر الدنيا في الأسماء، لا في غير ذلك من هيئة وطعم. و﴿أَزْوَاجٌ﴾ جمع زَوْج، والمرأة زَوْجُ الرجل، والرجل زَوْجُ المرأة، ويقال في المرأة: زوجة، ومنه قول الفرزدق:

وَإِنَّ الَّذِي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي
كَسَاعٍ إِلَى أَشَدِّ الشَّرِّ يَسْتَبِيلُهَا
وقال عمار بن ياسر في شأن عائشة رضي الله عنها: (والله إني لأعلم إنها زوجته في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم). ذكر البخاري وغيره الحديث بطوله. و﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ أبلغ من طاهرة، ومعنى هذه: الطهارة من الحيض والبزاق، وسائر أقدار الآدميات، وقيل: من الآثام، و(الخُلُود): الدوام في الحياة، أو الملك ونحوه، وخلد بالمكان إِذَا

استمرت إقامته فيه، وقد يستعمل الخلود مجازاً فيما يطول، وأما هذا الذي في الآية فهو أبدي حقيقة.

﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذكر المفسرون أنه لما ضَرَبَ الله تعالى الْمُتَلَبِّثِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَالَ الْكُفَّارُ: مَا هَذِهِ الْأَمْثَالُ؟ اللَّهُ أَجَلُ مِنْ أَنْ يَضْرِبَ هَذِهِ أَمْثَالاً، فنزلت الآية.

وقال ابن قتيبة: إنما نزلت؛ لأن الكفار أنكروا ضرب المثل في غير هذه السورة بالذباب والعنكبوت، وقال قوم: هذه الآية مَثَلٌ لِلدُّنْيَا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف يأباه رصف الكلام واتساق المعنى.

و ﴿يَسْتَحْيِي﴾ أصله يَسْتَحْيِي. عينه ولامه حرفا علة، أَعْلَتِ اللام منه بأن استثقلت الضمة على الياء فسكنت. وقرأ ابن كثير في بعض الطرق عنه، وابن مُحَنِصِنٍ، وغيرهما: ﴿يَسْتَحْيِي﴾ بكسر الحاء، وهي لغة لتيميم، نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت، ثم استثقلت الضمة على الياء الثانية فسكنت، فحذفت إحداهما للالتقاء.

واختلف المتأولون في معنى ﴿يَسْتَحْيِي﴾ في هذه الآية: فترجح الطبري أن معناه: يَخْشَى، وقال غيره: معناه يترك، وهذا هو الأولى، ومن قال: يمتنع أو يمنعه الحياء فهو يترك، أو قريب منه.

ولما كان الجليل القدر في الشاهد لا يمنعه من الخوض في نازل القول إلا الحياء من ذلك، رد الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ على القائلين:

كيف يضرب الله مثلاً بالذباب ونحوه؟ أي أن هذه الأشياء ليست من نازل القول، إذ هي من الفصيح في المعنى المبلغ أغراض المتكلم إلى نفس السامع، فليست مما يستحي منه. حكى المهدوي أن الاستحياء في هذه الآية راجع إلى الناس، وهذا غير مُرضي.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَضْرِبَ﴾: (أَنْ) مع الفعل في موضع نصب كأنها مصدر في موضع المفعول، ومعنى ﴿يَضْرِبَ مَثَلًا﴾: يبين ضرباً من الأمثال، أي نوعاً، كما تقول هذا من ضرب هذا، والضرب المثل، ويحتمل أن يكون مثل ضرب البعث، وضرب الذلة، فيجيء المعنى أن يلزم الحجة بمثل.

و ﴿مَثَلًا﴾ مفعول، فقيل: هو الأول، وقيل: هو الثاني قُدِّم وهو في نية التأخير، لأن ضرب في هذا المعنى يتعدى إلى مفعولين.

واختلفوا في قوله: ﴿مَا بَعُوضَةً﴾ فقال قوم: ﴿مَثَلًا﴾ صلة زائدة لا تفيد إلا شيئاً من تأكيد، وقيل: [ما] نكرة في موضع تلصّب على السدل لإيهامها. حكى المهدوي هذا القول عن الفراء، والزجاج، وثعلب، وقيل غير هذا مما هو تخليط دعا إليه الظن أن ﴿يَضْرِبَ﴾ إنما يتعدى إلى مفعول واحد، وقال بعض الكوفيين: نصب ﴿بَعُوضَةً﴾ على تقدير إسقاط حرف الجر، والمعنى: أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة. وحكي عن العرب (له) عشرون ما ناقة فجعلاً، وأنكر أبو العباس هذا الوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يترجح أن ﴿مَا﴾ صفة مُخَصَّصَةٌ، كما تقول: جئتكَ في أمر ما فتفيد النكرة تخصيصاً وتقريباً، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

سَلَعَ مَا وَمَثَلُهُ عَشْرُ مَا
عَائِلُ مَا وَعَالَتِ الْبَيْتُورَا
و ﴿بَعُوضَةً﴾ على هذا مفعول ثان، وقال قوم: [ما] نكرة، كأنه قال شيئاً، والآية في هذا يشبهها قول حسان بن ثابت:

فَكَفَى بِنَا فَضْلاً عَلَى مَنْ غَيْرُنَا
حُبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِثْنَا
وقد تقدم نظير هذا القول، والشبه بالبيت غير صحيح عندي.

والبعوضة فَعُولَةٌ، من بَعَضَ: إذا قَطَعَ اللحم، يقال بَضَعَ وِبَعَضَ بمعنى، وعلى هذا جعلوا قول الشاعر:

لَيْغَمَ النَّبِيْتُ بَيْتَ أَبِي دَنَارٍ
إِذَا مَا خَافَ بَعْضُ الْقَوْمِ بَعْضَا
وقرأ الضحّاك، وإبراهيم بن أبي عبلة، وروية بن العجاج ﴿بَعُوضَةً﴾ بالرفع. قال أبو الفتح: وجه ذلك أن [ما] اسم بمنزلة الذي، أي لا يستحي أن يضرب الذي هو بعوضة مثلاً. فحذف العائد على الموصول، وهو مبتدأ، ومثله قراءة بعضهم: [تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ]، أي على الذي هو أَحْسَنُ. وحكى سيبويه: ما أنا بالذي قاتل لك شيئاً، أي هو قاتل.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَوْفَاهُ﴾ مَنْ جَعَلَ [ما] الأولى صلة زائدة، فما الثانية عطف على ﴿بَعُوضَةً﴾، ومن جعل [ما] إسماً فما الثانية عطف عليها.

وقال الكسائي، وأبو عبيدة، وغيرهما: المعنى فما فوقها في الصغر وقال قتادة، وابن جريج، وغيرهما: المعنى في الكبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والكل مُحْتَمَلٌ، والضمير في [أَنَّهُ] عائد على المثل.

واختلف النحويون في [مَاذَا] فقيل: هي بمنزلة اسم واحد بمعنى أي شيء أراد الله؟ وقيل: [مَا] اسم و [ذَا] اسم آخر بمعنى الذي، فما في موضع رفع بالابتداء، وذا خبره، ومعنى كلامهم هذا: الإنكار بلفظ الاستفهام، وقوله: ﴿مَثَلًا﴾ نصب على التمييز، وقيل: على الحال من [ذَا] في [يَهْدَى]، والعامل فيه الإشارة والتنبيه.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ فقيل: هو من قول الكافر - أي: ما مراد الله بهذا المثل الذي يفرق به الناس إلى ضلالة، وإلى هدى؟ وقيل: بل هو خبر من الله تعالى أنه يضل بالمثل الكفار الذين يعمون به، ويهدي به المؤمنين الذين يعلمون أنه الحق، وفي هذا رد على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يخلق الضلال.

ولا خلاف أن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ - من قول الله تعالى، ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ إلى آخر الآية رداً من الله تعالى على قول الكفار: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾.

والفُسْقُ: الخروج عن الشيء، يقال: فَسَقَتِ الْفَارَةُ إذا خرجت من

جُحْرهَا، والرُّطْبَةُ إذا خرجت من قشرها، والفُسْقُ في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج من طاعة الله عز وجل، فقد يقع على من خرج بكفر، وعلى من خرج بعصيان، وقراءة جمهور الأمة في هذه الآية ﴿يُضِلُّ﴾ بضم الياء فيهما، وروي عن إبراهيم بن أبي عبيدة أنه قرأ ﴿يُضِلُّ﴾ بفتح الياء ﴿كَثِيرًا﴾ بالرفع ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ بالرفع.

قال أبو عمرو الداني: هذه قراءة القدرية، وابن أبي عبيدة من ثقات الشاميّين، ومن أهل السنة، ولا تصح هذه القراءة عنه مع أنها مخالفة خط المصحف، وروي عن ابن مسعود أنه قرأ في الأولى ﴿يُضِلُّ﴾ بضم الياء، وفي الثانية ﴿وَمَا يُضِلُّ﴾ بفتح الياء ﴿به﴾ إلا الفاسقون، وهذه قراءة مجاهد، وهي قراءة متجهة لولا مخالفتها خط المصحف المجمع عليه.

﴿٢٧﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل: التَّقْضُ: ردّ ما أبرم على أوله غير مُبَرَّم. والعَهْدُ في هذه الآية: التقدم في الشيء والوَصَاةُ به.

واخْتُلِفَ في تفسير هذا العهد، فقال بعض المتأولين: هو الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهر أبيهم آدم كالذُرّ، وقال آخرون: بل: نصب الأدلة على وحدانية الله بالسموات والأرض وسائر الصنعة - هو بمنزلة العهد. وقال آخرون: بل هذا العهد هو الذي أخذه الله على عباده بوساطة رسله: أن يوحّدوه، وألا يعبدوا غيره. وقال آخرون: بل هذا

العهد هو الذي أخذه الله تعالى على أتباع الرسل والكتب المنزلة: أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وألا يكتموا أمره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالآية على هذا في أهل الكتاب، وظاهر ما قبل وبعد أنها في جميع الكفار. وقال قتادة: هذه الآية هي فيمن كان آمن بالنبي عليه السلام ثم كفر به فنقض العهد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لم ينسب الطبري شيئاً من هذه الأقوال.

وكل عهد جائز بين المسلمين فنقضه لا يحلّ بهذه الآية. والضمير في ﴿يُضِلُّ﴾ يحتمل العودة على (العهد)، أو على (اسم الله تعالى)، و(ميثاق) مفعّل من الوثيقة، وهي الشدّ في العقد والرّبط ونحوه، وهو في هذه الآية اسم في موضع المصدر، كما قال عمرو بن شبيب:

أَكْفُرْ أَبْغَذَ رَدَّ الْمَوْتِ عَنِّي
وَبَغْذَ عَطَائِكَ الْمَائَةِ الرُّنَاغَا؟

أراد بعد إعطائك. وقوله تعالى: ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُؤْصَلَ﴾. [مَا] في موضع نصب يقطعون، واختلف ما الشيء الذي أمر بوصله؟ فقال قتادة: الأرحام عامة في الناس، وقال غيره: خاصّة فيمن آمن بمحمد، كأن الكفار يقطعون أرحامهم. وقال جمهور أهل العلم: الإشارة في هذه الآية إلى دين الله وعبادته في الأرض، وإقامة شرائعه، وحفظ حدوده، وهذا هو الحق، والرحم جزء من هذا، و[أَنْ] في موضع نصب بدل من [مَا]، أو

مفعول من أجله، وقيل: [أَنْ] في موضع خفض يدل من الضمير في (به)، وهذا منجّه.

﴿يُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعبدون غير الله، ويجورون في الأفعال إذ هي بحسب شهراتهم، و (الخاسر): الذي نقص نفسه حظها من الفلاح والفوز. والخسران: النقص كان في ميزان أو غيره.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ لفظه لفظ الاستفهام، وليس به، بل هو تقرير وتوبيخ. أي: كيف تكفرون ويَعْمُ عليكم وَقُدْرَتُهُ هذه؟ و (كَيْفَ) في موضع نصب على الحال، والعامل فيها ﴿تَكْفُرُونَ﴾، وتقديرها: أجاحين تكفرون؟ أمكرين تكفرون؟ و ﴿كَيْفَ﴾ مبنية، وخُصَّت بالفتح لحنه. ومن قال: إن ﴿كَيْفَ﴾ تقرير وتعجب، فمعناه: أن هذا الأمر إن عَنَ فحقه أن يَتَّعَبَ منه لغرابته ويُعْذِرَ عن المألوف من شكر المنعم، و (الواو) في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ﴾ واو الحال.

واختلف في ترتيب هاتين الموتيتين والحياتين، فقال ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد: فالمعنى كنتم أمواتاً معدومين قبل أن تُخْلَقُوا دارسين، كما يُقال للشيء الدارس: مَيِّت. ثم خُلِقْتُمْ وأُخْرِجْتُمْ إلى الدنيا فأحياكم، ثم أماتكم الموت المعهود، ثم يحييكم للبعث يوم القيامة.

وقال آخرون: كنتم أمواتاً بكون آدم من طين ميتاً قبل أن يُحْيَا، ثم نفخ فيه الروح فأحياكم بحياة آدم، ثم يميتكم، ثم يحييكم على ما تقدم. وقال قتادة: كنتم أمواتاً في أصلاب

آبائكم، فأخرجتم إلى الدنيا، فأحياكم، ثم كما تقدم. وقال غيره: كنتم أمواتاً في الأرحام قبل نفخ الأرواح، ثم أحياكم بالخروج إلى الدنيا، ثم كما تقدم.

وقال ابن زيد: إن الله تعالى أخرج نسم بني آدم أمثال الذُرِّ، ثم أماتهم بعد ذلك فهو قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾. ثم أحياهم بالإخراج إلى الدنيا، ثم كما تقدم. وقال ابن عباس، وأبو صالح: كنتم أمواتاً بالموت المعهود، ثم أحياكم للسؤال في القبور، ثم أماتكم فيها، ثم أحياكم للبعث، وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: وكنتم أمواتاً بالخمول، فأحياكم بأن ذكرتم وشرفتم بهذا الدين والنبي الذي جاءكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول هو أولى هذه الأقوال، لأنه الذي لا محيد للكفار عن الإقرار به في أول ترتيبه. ثم إن قوله أولاً: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ وإسناده آخرأ الإمامة إليه تبارك وتعالى مما يقوي ذلك القول، وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معدومين، ثم للإحياء في الدنيا، ثم للإماتة فيها قَوِيَّ عليهم لزوم الإحياء الآخر، وجاء جردهم له دعوى لا حجة عليها.

والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد على الله تعالى، أي إلى ثوابه أو عقابه، وقيل: هو عائد على الإحياء، والأول أظهر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَرْجَعُونَ﴾ بضم التاء وفتح الجيم، وقرأ ابن أبي إسحاق، وابن محيصن، وابن يعمر، وسلام، والقياض بن غزوان، ويعقوب الحضرمي: (يرجعون).

وترجعون) بفتح الياء والتاء حيث وقع. و ﴿خَلَقَ﴾ معناه: اخترع وأوجد بعد العدم، وقد يقال في الإنسان: خلق عند إنشائه شيئاً، ومنه قول الشاعر:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَتَغْضُ
الْقَوْمَ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي
ومنه قوله الآخر:

مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَقُو
لُ فَجِئْتِي فِيهِ قَلِيلَةً
و ﴿لَكُمْ﴾ معناه: للاعتبار، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده من نصب العبر: الإحياء، والإماتة، والخلق، والاستواء إلى السماء، وتسويتها. وقال قوم: بل معنى ﴿لَكُمْ﴾ إباحة الأشياء وتمليكها، وهذا قول من يقول: إن الأشياء قبل ورود السمع على الإباحة يَنْتَهِي هذه الآية، وخالفهم في هذا التأويل القائلون بالخطر، والقائلون بالوقف. وأكثر القائلين بالخطر استثنوا أشياء اقتضت حالها مع وجود الإنسان الإباحة كالتنفس، والحركة، ويرد على القائلين بالخطر: كل حظر في القرآن، وعلى القائلين بالإباحة: كل تحليل في القرآن وإباحة. ويرجع الوقف إذا قدرنا نازلة لا يوجد فيها سمع، ولا تتعلق به، ومعنى الوقف: أنه استفاد جهد الناظر فيما يحزب من التوازل. وحكى ابن فورك عن بن الصائغ أنه قال: لم يخل العقل قط من السمع، ولا نازلة إلا وفيها سمع، أو لها به تعلق، أو لها حال تستصحب، قال: فينبغي أن يعتمد على هذا، ويغني عن النظر في حظر وإباحة ووقف. و ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال.

وهذا إنما يجيء في قوله تعالى: ﴿عَلَى الْمَرْشِ اسْتَوَى﴾ والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع النقلة وحلول الحوادث، ويبقى استواء القدرة والسلطان.

و ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ﴾، قيل: المعنى جعلهن سواء، وقيل: سَوَّى سطوحها بالإملاص و ﴿سَبَّحَ﴾ نُصِبَ على البدل من الضمير، أو على المفعول بسَوَّى بتقدير حذف الجار من الضمير، كأنه قال: فسوى منهن سبعا. وقيل: نصب على الحال، وقال: ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ﴾ إمّا على أن

السماء جمع، وإمّا على أنه مفرد اسم جنس، فهو دال على الجمع. وقوله تعالى: ﴿وَقَوْفٍ يَكْبِتُ عَلَيْهِ﴾ معناه: بالموجودات، وتحقق علمه بالمعدومات من آيات أخر.

وهذه الآية تقتضي أن الأرض وما فيها خلق قبل السماء، وذلك صحيح، ثم دُجِيت الأرض بعد خلق السماء، وبهذا تتفق معاني الآيات هذه والتي في سورة (المؤمن) وفي (الأنعام).

﴿٣٠﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال معمر بن المثنى: [إِذَا] زائدة، والتقدير: وقال ربك. قال أبو إسحق الزجاج: هذا اجترأ من أبي عبيدة، وكذلك رد عليه جميع المفسرين، وقال الجمهور: ليست زائدة وإنما هي معلقة بفعل مُقَدَّر تقديره: واذكر إذ قال. وأيضاً فقوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ

مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ الآية يقتضي أن يكون التقدير: وابتداء خلقكم إذ قال ربك للملائكة. وإضافة ﴿رب﴾ إلى محمد ﷺ، ومخاطبته بالكاف تشريف منه له، وإظهار اختصاصه به. والملائكة واحداً ملك، أصله: مَلَكٌ على وزن مَفْعَل، من لَأَك إذا أرسل، وجمعه ملائكة على وزن مَفَاعِلَة. وقال قوم: أصل مَلَكٌ مَأْلَك من أَلَك إذا أرسل، ومنه قول عدي بن زيد:

أبلغ الثعمان عني مألِكاً
أنه قد طال حبسي وانتظاري
واللغتان مسموعتان، لَأَك، وأَلَك، قُبِلَتْ فيه الهمزة بعد اللام فجاء وزنه مَفْعَل وجمعه ملائكة، وزنه مَعَا فلة. وقال ابن كيسان: هو من مَلَك يملك والهمزة فيه زائدة كما زيدت في شَمَال من شَمَل فوزنه فَعَال، ووزن جمعه فَعَائِلَة، وقد يأتي في الشعر على أصله كما قال:

فَلَسْتُ لِإِنْسِي وَلَكِنْ لِمَلَاكٍ
تَنْزَلُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ
وأما في الكلام فسهلت الهمزة وألقيت حركتها على اللام أو على العين - في قول ابن كيسان - فقيل: ملك، والهاء في (ملائكة) لتأنيث الجموع غير حقيقي، وقيل: هي للمبالغة كعلامة ونسابة، والأول أبين، وقال أبو عبيدة: الهمزة في (ملائكة) مجتلية؛ لأن واحداً ملك. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا الذي نحا إليه ابن كيسان.

و ﴿جَاعِلٌ﴾ في هذه الآية بمعنى خالق، ذكره الطبري عن أبي رزق، ويقضي بذلك تعديها إلى مفعول

وَأِذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُسَبِّحُهَا وَسَبَّحَكَ الْمَاءُ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ فِيكُمْ بَشِيرٌ قَالُوا بَلَى سُبْحَانَكَ قُلُوبُنَا غُيِبَتْ عَنْكَ إِنَّا تَعْلَمُ السُّبُوتَ وَالْأَرْضَ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا تَتَّخِذُ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَقِيَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَذَبَتْ قَنَابٌ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْوَاوِي الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ ثم هنا: هي لترتيب الأخبار، لا لترتيب الأمر في نفسه، و ﴿اسْتَوَى﴾: قال قوم معناه: علا دون تكييف ولا تحديد، هذا اختيار الطبري، والتقدير: علا أمره وقدرته وسلطانه، وقال ابن كيسان: معناه قَصَدَ إلى السماء، أي بخلقه واختراعه، وقيل: معناه كَمُلَ صنعه فيها، كما تقول: استوى الأمر. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قلق.

وحكى الطبري عن قوم: أن المعنى أقبل، وضعفه.

وحكى عن قوم: أن المستوي هو الدخان، وهذا أيضاً ياباه رصف الكلام. وقيل المعنى: استولى، كما قال الشاعر:

قَدْ اسْتَوَى بِشَرِّ عَلَى الْعِرَاقِ
مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

واحد. وقال الحسن وقتادة: ﴿جَاعِلٌ﴾ بمعنى فاعل. وقال ابن سابط عن النبي ﷺ أنه قال: إن ﴿الْأَرْضِ﴾ هنا يعني بها مكة، لأن الأرض دحيت من تحتها، ولأنها مقر من هلك قومه من الأنبياء، وأن قبر نوح وهود وصالح بين المقام والركن.

و ﴿حَافِظٌ﴾ معناه: من يخلف، قال ابن عباس: كانت الجن قبل بني آدم في الأرض فأفسدوا، وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم قبلاً من الملائكة قتلهم، وألحق قُلُوبَهُمْ بجزائر البحار، ورؤوس الجبال، وجعل آدم وذريته خليفة. وقال الحسن: إنما سمي الله بني آدم خليفة لأن كل قرن منهم يخلف الذي قبله، الجيل بعد الجيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ففي هذا القول يحتمل أن تكون بمعنى خالفة وبمعنى مخلوفة. وقال ابن مسعود: إنما معناه: خليفة مني في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري، يعني بذلك آدم عليه السلام ومن قام مقامه بعده من ذريته، وقرأ زيد بن علي (خَلِيفَةُ) بالقاف.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجَمَّلُ فِيهَا﴾ الآية، قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم الغيب، ولا تسبق بالقول، وذلك عام في جميع الملائكة، لأن قوله: ﴿لَا يَسْقُوتُ بِالْقُلُوبِ﴾ خرج على جهة المدح لهم. قال القاضي أبو بكر بن الطيب: «فهذه قرينة العموم، فلا يصح مع هذين الشرطين إلا أن يكون عندهم من

إفساد الخليفة في الأرض نبأً ومقدمة»، قال ابن زيد وغيره: «إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان من يستخلفه الله في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعاً: الاستخلاف والعصيان وقال أحمد بن يحيى ثعلب وغيره: إنما كانت الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء في الأرض، فجاء قولهم ﴿أَتَجَمَّلُ فِيهَا﴾ الآية على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟ وقال آخرون: كان الله تعالى قد أعلم الملائكة أنه يخلق في الأرض خلقاً يفسدون، ويسفكون الدماء، فلما قال لهم بعد ذلك: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ ﴿قَالُوا أَتَجَمَّلُ فِيهَا﴾ الآية على جهة الاسترشاد والاستعلام. هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به قبل أو غيره؟

و (السَّفْكُ) صبُّ الدَّم، هذا عرفه، وقد يقال: سَفَكَ كلامه في كذا إذا سَرَدَهُ، وقراءة الجمهور بكسر الفاء، وقرأ أبو حنيفة وابن أبي عبيدة و ﴿يَسْفُكُ﴾ بضم الفاء، وقرأ ابن هرمز ﴿وَيَسْفُكُ﴾ بالنصب بوار الصرف، كأنه قال: من يجمع أن يفسد وأن يسفك. وقال المهدوي:

هو نصب في جواب الاستفهام. والأول أحسن.

وقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ قال بعض المتأولين: هو على جهة الاستفهام كأنهم أرادوا: ونحن نسبح بحمدك الآية أم نتغير عن هذه الحال؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يحسن مع القول بالاستفهام المحض في قولهم: ﴿أَتَجَمَّلُ﴾.

وقال آخرون: معناه التمدح ووصف حالهم، وذلك جائز لهم، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي حَفِظْتُ عَلَىَّ﴾، وهذا يحسن مع التعجب والاستعظام لأن يستخلف الله من يعصيه في قولهم: ﴿أَتَجَمَّلُ﴾؟

وعلى هذا أدَّبَهُمْ بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقال قوم: معنى الآية: ونحن لو جعلتنا في الأرض واستخلفتنا نسبح بحمدك، وهذا أيضاً حسن مع التعجب والاستعظام في قولهم: ﴿أَتَجَمَّلُ﴾؟ ومعنى ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾: ننزهك عما لا يليق بك ويصفتاك. وقال ابن عباس، وابن مسعود: تسبيح الملائكة صلاتهم لله، وقال قتادة: تسبيح الملائكة قولهم: سبحان الله، على عرفه في اللغة.

و ﴿بِحَمْدِكَ﴾ معناه: نُخْلِطُ التسبيح بالحمد، ونصلِّه به، ويحتمل أن يكون قوله ﴿بِحَمْدِكَ﴾ اعتراضاً بين الكلامين، كأنهم قالوا: (ونحن نسبح ونُقدِّس)، ثم اعترضوا على جهة التسليم، أي: وأنت المحمود في الهداية إلى ذلك.

و ﴿وَنَقُذِسُ لَكَ﴾، قال الضحاك، وغيره: معناه: نطهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك، والتقديس التطهير بلا خلاف، ومنه الأرض المقدسة أي المطهرة، ومنه بيت المقدس، ومنه القدس الذي يُتطهر به. وقال آخرون: ﴿وَنَقُذِسُ لَكَ﴾ معناه: ونقدسك أي نعظمك، ونطهر ذكرك عما لا يليق به. قاله مجاهد، وأبو صالح، وغيرهما، وقال قوم: ﴿وَنَقُذِسُ لَكَ﴾ معناه: نصلي لك، وهذا ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، الأظهر أن ﴿أَعْلَمُ﴾ فعل مستقبل، و ﴿مَ﴾ في موضع نصب به، وقيل: ﴿أَعْلَمُ﴾ اسم، و ﴿مَ﴾ في موضع خفض بالإضافة، ولا يصح الصرف فيه بإجماع من النحاة، وإنما الخلاف في أفعل إذا سمي به وكان نكرة، فسيبويه والخليل لا يصرفانه، والأخفش يصرفه.

واختلف أهل التأويل في المراد بقوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فقال ابن عباس: كان إبليس - لعنه الله - قد أعجب، ودخله الكبر لما جعله الله خازن السماء الدنيا، وشرفه وقيل: بل لما بعثه الله إلى قتل الجن الذين كانوا أفسدوا في الأرض فهزهم وقتلهم بجنده، قال ابن عباس أيضاً: واعتقد أن ذلك لمزية له، واستخف الكفر والمعصية في جانب آدم عليه السلام، قال: فلما قالت الملائكة ﴿وَنَحْنُ سَاجِدُونَ﴾ يحمدك ونُقَدِّسُ لَكَ، وهي لا تعلم أن في نفس إبليس خلاف ذلك، قال الله لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

تَعْلَمُونَ﴾، يعني ما في نفس إبليس، وقال قتادة: لما قالت الملائكة: ﴿أَنجَعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، وقد علم الله تعالى أن فيمن يستخلف في الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: أفعال الفضلاء من بني آدم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ﴾ معناه: عرف، وتعليم آدم هنا عند قوم إلهام علمه ضرورة، وقال قوم: بل تعليم بقول، فإما بواسطة ملك، أو بتكليم قبل هبوطه الأرض، فلا يشارك موسى عليه السلام في خاصته، وقرأ اليماني ﴿وَعَلَّمَ﴾ بضم العين على بناء الفعل للمفعول ﴿آدَمَ﴾ مرفوعاً. وقال أبو الفتح: وهي قراءة يزيد البربري، و (آدم) أفعل مشتق من الأدمة وهي حمرة تميل إلى السواد، وجمعه آدم، وأوادم، كحمر وأحامر، ولا ينصرف بوجه، وقيل: آدم وزنه فاعل مشتق من أديم الأرض كأن الملك آدمها وجمعه آدمون وأوادم، ويلزم قائل هذه المقالة صرفه، وقال الطبري: (آدم) فعل رباعي سُمِّيَ به.

وَرَوَى عن النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله آدم من أديم الأرض كلها، فخرجت ذريته على نحوها، منهم الأبيض والأسود والأسمر، والسهل والحزن، والطيب والخبيث».

واختلف المتأولون في قوله: ﴿الْأَسْمَاءُ﴾، فقال جمهور الأمة: علّمه التسميات، وقال قوم: عرض عليه الأشخاص، والأول أبين، ولفظة ﴿عَلَّمَ﴾ تعطي ذلك.

ثم اختلف الجمهور في أي الأسماء

علمه، فقال ابن عباس، وقاتدة، ومجاهد: علّمه اسم كل شيء من جميع المخلوقات، دقيقها وجليلها، وقال حميد الشامي: علمه أسماء النجوم فقط، وقال الربيع بن خثيم: علمه أسماء الملائكة فقط، وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته فقط، وقال الطبري: علمه أسماء ذريته والملائكة، واختار هذا ورجهه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَحَكَى النَّفَاسَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ تَعَالَى عَلَّمَهُ كَلِمَةً وَاحِدَةً عَرَفَ مِنْهَا جَمِيعَ الْأَسْمَاءِ، وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ الْأَجْنَاسِ كَالْجِبَالِ، وَالْخَيْلِ، وَالْأَوْدِيَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، دُونَ أَنْ يَعِينَ مَا سَمَّيَتْهُ ذَرْيَتُهُ مِنْهَا. وَقَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ: عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ مَا خُلِقَ فِي الْأَرْضِ، وَقَالَ قَوْمٌ: عَلَّمَهُ الْأَسْمَاءَ بِلُغَةٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ وَقَعَ الْأَصْطِلَاحُ مِنْ ذَرْيَتِهِ فِيمَا سَوَاهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ عَلَّمَهُ الْأَسْمَاءَ بِكُلِّ لُغَةٍ تَكَلَّمَتْ بِهَا ذَرْيَتُهُ، وَقَدْ غَلَا قَوْمٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى حَتَّى حَكَى ابْنُ جُنَيْنٍ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ أَنَّهُ قَالَ: عَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يَحْسِنُ مِنَ النَّحْوِ مِثْلَ مَا أَحْسَنَ سَيْبِيهِ، وَنَحْوَ هَذَا مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي هُوَ بَيِّنُ الْخَطَأِ مِنْ جِهَاتٍ.

وقال أكثر العلماء: علمه تعالى منافع كل شيء ولما يصلح. وقال قوم: عرض عليه الأشخاص عند التعليم، وقال قوم: بل وصفها له دون عرض أشخاص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه كلها احتمالات، قال الناس بها.

وقرأ أنبي بن كعب: ﴿ثُمَّ عَرَضَهَا﴾، وقرأ ابن مسعود: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُنَّ﴾.

واختلف المتأولون: هل عرض على الملائكة أشخاص الأسماء أو الأسماء دون الأشخاص؟ فقال ابن مسعود، وغيره: عرض الأشخاص، وقال ابن عباس، وغيره: عرض الأسماء، فمن قال في الأسماء بعموم كل شيء قال: عرضهم أمة، ونوعاً نوعاً، ومن قال في الأسماء إنها التسميات استقام على قراءة أبي: ﴿عَرَضَهَا﴾، ونقول في قراءة من قرأ ﴿عَرَضَهُنَّ﴾ إن لفظ الأسماء يدل على الأشخاص، فلذلك ساء أن يقول للأسماء ﴿عَرَضَهُنَّ﴾.

و ﴿أَنْتُمْ﴾ معناه: أخبروني، والنبأ: الخبر، ومنه النبي، وقال قوم: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق، ويتقرر جوازه، لأنه تعالى علم أنهم لا يعلمون، وقال المحققون من أهل التأويل: ليس هذا على جهة التكليف، وإنما هو على جهة التقرير والتوقيف.

وقوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ ظاهره حضور أشخاص، وذلك عند العرض على الملائكة، وليس في هذه الآية ما يوجب أن الاسم أريد به المسمى، كما ذهب إليه مكي والمهدوي، فمن قال: إنه تعالى عرض على الملائكة أشخاصاً استقام له مع لفظ ﴿هَؤُلَاءِ﴾، ومن قال: إنه إنما عرض أسماء فقط جعل الإشارة بهؤلاء إلى أشخاص الأسماء وهي غائبة، إذ قد حضر ما هو منها

بسبب، وذلك أسماؤها، وكأنه قال لهم في كل اسم لأي شخص هذا؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يظهر أن الله تعالى علم آدم الأسماء، وعرض مع ذلك عليه الأجناس أشخاصاً، ثم عرض تلك على الملائكة، وسألهم عن تسمياتها التي قد تعلمها آدم. ثم إن آدم قال لهم: هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، و ﴿هَؤُلَاءِ﴾ لفظ مبني على الكسر، والقصر فيه لغة تميم وبعض قيس وأسد، قال الأعشى:

هؤلاءم هؤلاء كلاً أعطي

تبعاً محذوذة بنعالي

و ﴿كُنْتُمْ﴾ في موضع الجزم

بالشرط، والجواب عند سيبويه فيما

قبله، وعند المبرد محذوف

والتقدير: إن كنتم صادقين فأنبئوني،

وقال ابن مسعود: وابن عباس،

وناس من أصحاب النبي عليه

السلام: معنى الآية: إن كنتم

صادقين في أن الخليفة يفسد

وتسفيك. وقال آخرون: صادقين في

أني إن استخلفكم سيختم بحمدي،

وقدسنتم لي، وقال الحسن، وقتادة:

رؤي أن الملائكة قالت حين

خلق الله آدم: ليخلق ربنا ما شاء،

فلن يخلق خلقاً أعلم منا، ولا أكرم

عليه، فأراد الله تعالى أن يريهم من

علم آدم وكرامته خلاف ما ظنوا.

فالمعنى: إن كنتم صادقين في

دعواكم العلم، وقال قوم: معنى

الآية: إن كنتم صادقين في جواب

السؤال، عالمين بالأسماء. قالوا:

ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد، وقالوا: سبحانك. حكاه النقاش،

قال: ولو لم يشترط عليه الصدق في الإنباء لجاز لهم الاجتهاد، كما جاز للذي أماته الله مائة عام، حين قال له: ﴿كَمْ لَيْتَ﴾، ولم يشترط عليه الإصابة، فقال ولم يصب، فلم يُعْتَفَ، وهذا كله محتمل، وحكى الطبري أن بعض المفسرين قال: معنى ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾: إذ كنتم، قال الطبري: وهذا خطأ.

وإن قال قائل: ما الحكمة في

قول الله تعالى للملائكة: ﴿إِنْ

جَآءَكُمُ الْآيَةُ؟ قيل: هذا امتحان لهم

واختبار، ليَقَعُ منهم ما وقع،

ويؤدبهم تعالى من تعليم آدم وتكريمه

بما أدب. و ﴿سُبْحَانَكَ﴾ نصب على

المصدر، قال الكسائي: نصبه على

أنه منادى مضاف.

قال الزهراوي: موضع ﴿مَا﴾ من

قولهم: ﴿مَا عَلَّمْنَا﴾ نصب بعلمتنا،

وخبر التبرئة في ﴿لَنَا﴾. ويحتمل أن

يكون موضع ﴿مَا﴾ رفعاً على أنه

بدل من خبر التبرئة، كما تقول: لا

إله إلا الله، أي لا إله في الوجود

إلا الله. و ﴿أَنْتَ﴾ في موضع نصب

تأكيد للضمير في ﴿إِنَّكَ﴾ أو في

موضع رفع على الابتداء، و

﴿الْعَلِيمُ﴾ خبره، والجملة خبر

﴿إِنْ﴾، أو فاصلة، لا موضع لها من

الإعراب، و ﴿الْعَلِيمُ﴾ معناه العالم،

ويزيد عليه معنى من المبالغة والتكثير

من المعلومات في حق الله عز

وجل. و ﴿الْحَكِيمُ﴾ معناه: الحاكم

وبينهما مزية المبالغة، وقيل: معناه

المتحكم، كما قال عمرو بن معدي

كرب:

أمن ربحانة الداعي السميع.

أي: المُسمع، ويجيء الكلام على هذا من صفات الفعل، وقال قوم: الحكيم المانع من الفساد، ومنه: حَكَمَةُ الفرس مانعته: ومنه قول جرير:

أَبْنِي حَبِيفَةً أَخْكِمُوا سَفَهَاءَكُمْ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضَبَا
(٣٣) - (٣٤) تفسير قوله عز وجل:

﴿أَتَيْنَهُمْ﴾ معناه: أخبرهم، وهو فعل يتعدى إلى مفعولين، أحدهما بحرف الجر، وقد يحذف حرف الجر أحياناً، تقول: نُئِيتَ زيداً، قال سيبويه: معناه نُئِيتَ عن زيد، والضمير في ﴿أَتَيْنَهُمْ﴾ عائد على الملائكة بإجماع، والضمير في ﴿أَسْمَائُهُمْ﴾ مُخْتَلَفٌ فيه، حسب الاختلاف في الأسماء التي عَلَّمَهَا آدم، قال أبو علي: كلهم قرأ ﴿أَتَيْنَهُمْ﴾ بالهمز وضُمُّ الهاء إلا ما رُوي عن ابن عامر ﴿أَتَيْنَهُمْ﴾ بالهمز وكسر الهاء، وكذلك روى بعض المكيين عن ابن كثير، وذلك على إتباع كسرة الهاء لكسرة الباء، وإن حَجَزَ الساكن فحجزه لا يعتد به. قال أبو عمرو الداني: وقرأ الحسن، والأعرج: ﴿أَتَيْنَهُمْ﴾ بغير همز، قال ابن جني: وقرأ الحسن ﴿أَتَيْنَهُمْ﴾ على وزن أَعْطَيْهِمْ، وقد رُوي عنه ﴿أَتَيْنَهُمْ﴾ بغير همز. قال أبو عمرو: وقد رُوي مثل ذلك عن ابن كثير من طريق القواس.

قال أبو الفتح: أما قراءة الحسن ﴿أَتَيْنَهُمْ﴾ كأَعْطَيْهِمْ فعلى إبدال الهمزة ياء، على أنك تقول أَتَيْتُ كأَعْطَيْتُ، وهذا ضعيف في اللغة، لأنه بدل لا تخفيف، والبدل عندنا لا يجوز إلا

في ضرورة شعر. قال بعض العلماء: إن في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاهُمْ﴾ نبوة لآدم عليه السلام إذ أمره الله أن ينبيء الملائكة بما ليس عندهم من علم الله عز وجل.

ويجوز فتح الباء من ﴿إِنِّي﴾ وتسكينها، وقال الكسائي: رأيت العرب إذا لقبت عندهم الباء همزة فتحوها. قال أبو علي: كان أبو عمرو يفتح ياء الإضافة المكسور ما قبلها عند الهمزة المفتوحة والمكسورة إذا كانت متصلة باسم أو بفعل، ما لم يطل الحرف، فإنه يثقل فتحها، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْسِمْ بِالْآلَاءِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَذْكُرُوا مَا كُنتُمْ﴾. والذي يخيف: ﴿إِنِّي أَرَى﴾، و﴿أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معناه ما غاب عنكم، لأن الله تعالى لا يغيب عنه شيء، الكل معلوم له، و﴿مَلِكٌ﴾ في موضع نصب بأعلم. قال المهدوي: ويجوز أن يكون قوله ﴿أَعْلَمُ﴾ اسماً بمعنى التفضيل في العلم فتكون ﴿مَلِكٌ﴾ في موضع خفض بالإضافة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإذا قدر الأول اسماً فلا بد بعده من إضمار فعل ينصب ﴿غَيْبٌ﴾ تقديره: إني أعلم من كل أعلم غيب، وكونها في الموضعين فعلاً مضارعاً أخصر وأبلغ.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿مَا يُدْرِكُ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. فقالت طائفة: ذلك على معنى العموم في معرفة أسرارهم وظواهرهم وبواطنهم أجمع.

وحكى مكي أن المراد بقوله: ﴿مَا يُدْرِكُ﴾ قولهم: ﴿أَتَجْمَلُ فِيهَا﴾ الآية. وحكى المهدوي أن ﴿مَا يُدْرِكُ﴾ قولهم: «ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق أعلم منا ولا أكرم عليه»، فجعل هذا مما أبدوه لما قالوه. وقال الزهراوي: ما أبدوه هو يدارهم بالسجود لآدم.

واختلف في المكتوم، فقال ابن عباس، وابن مسعود: المراد ما كتبه إبليس في نفسه من الكبير والكفر، ويتوجه قوله: ﴿تَكْتُمُونَ﴾ للجماعة والكاظم واحد في هذا القول على تجوز العرب واتساعها، كما يقال لقوم قد جنى سفيه منهم: أنتم فعلتم كذا، أي منكم فاعله، وهذا مع قصد تنيف، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنَ الَّذِينَ أَكْفَرُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾. وإنما ناداه منهم غِيثَةً، وقيل الأقرع، وقال قتادة: المكتوم هو ما أسره بعضهم إلى بعض من قولهم: «ليخلق ربنا ما شاء»، فجعل هذا مما كتموه لما أسره، و﴿إِذْ﴾ من قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ معطوف على ﴿إِذْ﴾ المتقدمة.

وقول الله تعالى، وخطابه للملائكة مستقر قديم في الأزل بشرط وجودهم وفهمهم، وهذا هو الباب كله في أوامر الله سبحانه ونواهيه ومخاطباته، و﴿قُلْنَا﴾ كناية العظم عن نفسه بلفظ الجمع.

وقوله: ﴿لِلْمَلَكِكَةِ﴾ عمومٌ فيهم، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ﴿لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا﴾، برفع التاء العلامة إتباعاً لضممة ثالث المستقبل. قال أبو علي: وهذا خطأ، وقال الزجاج:

أبو جعفر من رؤساء القراءة، ولكنه غلط في هذا، قال أبو الفتح: لأن [الملائكة] في موضع جر فالتاء مكسورة كسرة إعراب، وهذا الذي ذهب إليه أبو جعفر إنما يجوز إذا كان ما قبل الهمزة حرفاً ساكناً صحيحاً، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ آتِ أَخْرَجَ عَلَيْهِمْ﴾ والسجود في كلام العرب الخشوع والتذلل، ومنه قول الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ
وْغَايَتِهِ وَضَعُ الْوَجْهِ بِالْأَرْضِ.

والجمهور على أن سجود الملائكة لآدم إيماء وخضوع. ذكره النقاش وغيره، ولا تدفع الآية أن يكونوا بلغوا غاية السجود، وقوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَجْدًا﴾ لا دليل فيه لأن الجائي على ركبته واقع.

واختلف في حال السجود لآدم، فقال ابن عباس: تعبدتهم الله بالسجود لآدم. والعبادة في ذلك لله. وقال علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس: إنما كان سجود تحية، كسجود أبوي يوسف عليه السلام، لا سجود عبادة. وقال الشعبي: إنما كان آدم كالقبلة ومعنى ﴿لَادَمَ﴾: إلى آدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذه الوجوه كلها كرامة آدم عليه السلام، وحكى النقاش عن مقاتل أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم قبل أن يخلقه، قال: والقرآن يرد على هذا القول، وقال قوم: سجود الملائكة كان مرتين، والإجماع يرد هذا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، نصب على الاستثناء المتصل، لأنه من الملائكة على قول الجمهور، وهو ظاهر الآية، وكان خازناً وملكاً على سماء الدنيا والأرض، واسمه عزازيل، قاله ابن عباس. وقال ابن زيد، والحسن، هو أبو الجن، كما أن آدم أبو البشر، ولم يكن قط ملكاً، وقد روي نحوه عن ابن عباس أيضاً، قال: واسمه الحارث. وقال شهر بن حوشب: كان من الجن الذين كانوا في الأرض وقاتلتهم الملائكة، فسبّوه صغيراً، وتعبّد وخُوطب معها حكاه الطبري عن ابن مسعود، والاستثناء على هذه الأقوال منقطع، واحتج بعض أصحاب هذا القول بأن الله تعالى قال صفة للملائكة: ﴿لَا يَصْغُونَ لِلَّهِ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ورجح الطبري قول من قال: إن إبليس كان من الملائكة، وقال: ليس في خلقه من نار، ولا في تركيب الشهوة والنسل فيه حين غضب عليه، ما يدفع أنه كان من الملائكة. وقوله عز وجل: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ يخرج على أنه عجل عملهم فكان منهم في هذا، أو على أن الملائكة قد تسمى جناً لاستنارها. قال الله تعالى: ﴿يَجْعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَبَاً﴾ وقال الأعشى في ذكر سليمان عليه السلام:

وَسَخَّرَ مِنْ جِنِّ الْمَلَائِكِ تِسْعَةً
قِيَاماً لَذِيهِ يَخْمَلُونَ بِلاَ أَجْزٍ
أَوْ عَلَى أَنْ يَكُونَ نَسْبُهُ إِلَى الْجِنَّةِ
كَمَا يَنْسَبُ إِلَى الْبَصْرَةِ بَصْرِي، لَمَا
كَانَ خَازِناً عَلَيْهَا.

وإبليس لا ينصرف، لأنه اسم أعجمي معرف. قال الزجاج: وزنه فغليل، وقال ابن عباس، والسدي، وأبو عبيدة، وغيرهم: هو مشتق من أبلس إذا أبعد عن الخير، ووزنه على هذا إفعيل، ولم تصرفه هذه الفرقة لشذوذه، وأجروه مجرى إسحق من أسحقه الله، وأيوب من آب يثوب، مثل قيوم، من قام يقوم، ولما لم تصرف هذه ولها وزن من الاشتقاق، كذلك لم يصرف هذا وإن توجه اشتقاقه، لقلته وشذوذه، ومن هذا المعنى قول الشاعر العجاج:

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسًا؟
قَالَ: نَعَمْ أَعْرِفُهُ وَأَبْلَسًا
أَيُّ: تَغَيَّرَ وَيُعَدُّ عَنِ الْعِمَارَةِ وَالْأُسْ
بِهِ، ومثله قول الآخر:

وَفِي السُّجُودِ صُفْرَةٌ وَإِبْلَاسُ
وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا هُمْ
مُتَّبِعُونَ﴾، أي يائسون من الخير،
مُتَّبِعُونَ مِنْهُ فِيمَا يَزُورُونَ.

و ﴿أَبَى﴾ معناه: امتنع من فعل ما أمر به، و ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ دخل في الكبرياء. والإبائية مقدمة على الاستكبار في ظهورهما عليه، والاستكبار والأنفة مقدمة في معتقده. وروى ابن القاسم، عن مالك أنه قال: بلغني أن أول معصية كانت الحسد والكبر والشح. حسد إبليس آدم، وتكبر، وشح آدم في أكله من شجرة قد نُهي عن قربها.

حكى المهدوي عن فرقة أن معنى ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وصار من الكافرين، وقال ابن فورك: وهذا خطأ ترده الأصول، وقالت فرقة: قد

كان تقدم قبل من الجن مَنْ كفر فشبّهه الله بهم، وجعله منهم لَمَّا فعل من الكفر فعلهم. وذكر الطبري عن أبي العالية أنه كان يقول: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ معناه: من العصاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتلك معصية كُفِّرَ، لأنها عن معتقد فاسد صدرت.

وروي أن الله تعالى خلق خلقاً، وأمرهم بالسجود لآدم فعصوا، فأحرقهم بالنار، ثم خلق آخرين، وأمرهم بذلك فعصوا فأحرقهم، ثم خلق الملائكة فأمرهم بذلك فسجدوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والإسناد في مثل هذا غير وثيق. وقال جمهور المتأولين: معنى ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي في علم الله أنه سيكفر، لأن الكافر حقيقة، والمؤمن حقيقة هو الذي قد علم الله منه الموافاة.

وذهب الطبري إلى أن الله أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بني آدم، وهم اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ، مع علمهم بنبوته، ومع تقدم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم. واختلف هل كُفِّرَ إبليس جهلاً أو عناداً؟ على قولين بين أهل السنة، ولا خلاف أنه كان عالماً بالله قبل كفره، فَمَنْ قال إنه كفر جهلاً قال: إنه سلب العلم عند كفره. وَمَنْ قال كُفِّرَ عناداً قال: كفر ومعه علمه، والكفر عناداً مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن شاء.

ولا خلاف أن الله تعالى أخرج

إبليس عند كفره، وأبعده عن الجنة، وبعد إخراجه قال لآدم ﴿أَسْكَنْ﴾.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿أَسْكَنْ﴾ معناه: لازم الإقامة، ولفظه لفظ الأمر، ومعناه الإذن، و﴿أَنْتَ﴾ تأكيد للضمير الذي في ﴿أَسْكَنْ﴾، و﴿وَزَوْجَكَ﴾ عطف عليه، والزوج امرأة الرجل، وهذا أشهر من زوجة، وقد تقدم. و﴿الْجَنَّةِ﴾ البستان عليه حظيرة.

واختلف في الجنة التي أسكنها آدم: هل هي جنة الخلد أو جنة أعدت لهما؟ وذهب مَنْ لم يجعلها جنة الخلد إلى أن مَنْ دخل الجنة الخلد لا يخرج منها. وهذا لا يمتنع. إلا أن السمع ورد أن مَنْ دخلها مُقَاباً لا يخرج منها وأما من دخلها ابتداءً كآدم فغير مستحيل، ولا ورد سمع بأنه لا يخرج منها.

واختلف متى خلقت حواء من ضلع آدم عليه السلام؟ فقال ابن عباس: حين أنبأ الملائكة بالأسماء وأسجدوا له أَلْفِيَّتَ عليه السَّنة وَخُلِقَتْ حَوَاءٌ، فاستيقظ وهي إلى جانبه، فقال - فيما يزعمون: لحمي ودمي، وسكن إليها، فذهبت الملائكة لتجرب علمه، فقالوا له: يا آدم ما اسمها؟ قال: حواء، قالوا: ولم؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي، ثم قال الله له: ﴿أَسْكَنْ أَنْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ﴾.

وقال ابن مسعود، وابن عباس أيضاً: لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشاً، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصيري ليسكن إليها، ويتأنس بها، فلما انتبه رآها فقال:

من أنت؟ قالت: امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلي.

وحذفت النون من ﴿كَلَّا﴾ للأمر، والآلف الأولى لحركة الكاف، حين حذفت الثانية لاجتماع المثليين، وهو حذف شاذ. ولفظ هذا الأمر بـ ﴿كَلَّا﴾ معناه الإباحة، بقرينة قوله: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، والضمير في ﴿يُنْهَا﴾ عائد على الجنة، وقرأ ابن وثاب والنخعي ﴿وَعُدًّا﴾ بسكون الغين، والجمهور على فتحها، و﴿الرُّعْدُ﴾ العيش الدار الهَيَّ الذي لا عناء فيه، ومنه قول امرئ القيس:

بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمًا
يَأْمَنُ الْأَحْدَاثَ فِي عَيْشِ رَغَدٍ
و﴿رَعْدًا﴾ منصوب على الصفة لمصدر محذوف، وقيل: هو نصب على المصدر في موضع الحال، و﴿حَيْثُ﴾ مبنية على الضم، ومن العرب من يبينها على الفتح، ومن العرب من يُعْرِبُهَا حسب موضعها بالرفع والنصب والخفض، كقوله: ﴿مَسْتَلْبِطُهُمْ وَمِنْ حَيْثُ لَا يَكْلُونُ﴾ ومن العرب من يقول: (حوث).

و﴿شِئْتُمَا﴾ أصله شِئْتُمَا حول إلى فعلتما، تحركت ياؤه وانفتح ما قبلها جاء (شِئْتُمَا) حذفت الآلف الساكنة الممدودة للالتقاء، وكسرت الشين لتدل على الياء، فجاء (شِئْتُمَا)، هذا تعليل المبرد، فأما سيويه فالأصل عنده (شِئْتُمَا) بكسر الياء، نقلت حركة الياء إلى الشين، وحذفت الياء بعد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ معناه: لا تقرباها بأكل، لأن الإباحة فيه وقعت. قال بعض

الحذاق: إن الله لما أراد النهي عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضي الأكل وما يدعو إليه، وهو القرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مثال بين في سد الذرائع، وقرأ ابن محيصن: ﴿هَٰذِي﴾ على الأصل، والهاء في هذه بدل من الياء. وليس في الكلام هاء تأنيث مكسور ما قبلها غير هذه، وتحتل هذه الإشارة أن تكون إلى شجرة معينة واحدة، أو إلى جنس. وحكى هارون الأعور عن بعض العلماء قراءة ﴿الشجرة﴾ بكسر الشين. والشجر كل ما قام من النبات على ساق.

اختلف في هذه الشجرة التي نهى عنها ما هي؟ فقال ابن مسعود، وابن عباس: هي الكرم، ولذلك حُرِّمَت علينا الخمر، وقال ابن جريج عن بعض الصحابة: هي شجرة التين، وقال ابن عباس أيضاً، وأبو مالك، وعطية، وقتادة: هي السنبلة، وجها ككلى البقر، أحلى من العسل، وألين من الزبد. وزوي عن ابن عباس أيضاً أنها شجرة العلم فيها ثمر كل شيء، وهذا ضعيف لا يصح عن ابن عباس. وحكى الطبري عن يعقوب بن عتبة أنها الشجرة التي كانت الملائكة تحنك بها للخلد، وهذا أيضاً ضعيف، قال: واليهود تزعم أنها الحنظلة، وتقول: كانت حلوة ومرة من حينئذ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس في شيء من هذا التعمين ما يعضده خبر، وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن

شجرة فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها.

وفي حظره تعالى على آدم الشجرة ما يدل على أن مكانه في الجنة لا يدوم لأن المخلد لا يحظر عليه شيء، ولا يؤمر ولا ينهى، وقيل: إن هذه الشجرة كانت خصت بأن تُخَوَّجَ أكلها إلى التبرز، فلذلك نهى عنها، فلما ولم تكن الجنة موضع تبرز أُهبط إلى الأرض.

وقوله: ﴿فَنَكَّأَ﴾ في موضع جزم على العطف على (لا تقربا)، ويجوز فيه النصب على الجواب، والناصب عند الخليل وسيبويه (أن) المضمرة، وعند الجرّمى الفاء.

والظالم في اللغة الذي يضع الشيء غير موضعه، ومنه قولهم: (من أشبه أباه فما ظلم). ومنه المظلومة الجلد لأن المطر لم يأتها في وقته، ومنه قول عمرو بن قميئة:

ظَلَمَ الْبِطَاحُ بِهَا أَنْهَالُ حَرِيصَةٍ
فَضَمًّا التُّطَافُ لَهُ بُعَيْدُ الْمُفْلَعِ
والظلم في أحكام الشرع على مراتب: أعلاها الشرك، ثم ظلم المعاصي وهي مراتب.

وهو في هذه الآية يدل على أن قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ على جهة الوجوب لا على الندب، لأن من ترك المندوب لا يُسمى ظالماً، فاقتضت لفظة الظلم قوة النهي.

و (أزلهما) مأخوذ من الزل، وهو في الآية مجاز، لأنه في الرأي والنظر، وإنما حقيقة الزلل في القَدَم. قال أبو علي: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ يحتمل تأويلين - أحدهما: كسبهما الزلّة - والآخر أن يكون من زَلَّ إذا

عشر، وقرأ حمزة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ مأخوذ من الزوال، كأنه المزيل لما كان إغواؤه مؤدياً إلى الزوال، وهي قراءة الحسن وأبي رجاء.

ولا خلاف بين العلماء أن إبليس اللعين هو متولي إغواء آدم.

واختلف في الكيفية: فقال ابن عباس، وابن مسعود، وجمهور العلماء: أغواهما مشافهة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاَسَهُمَا﴾،

والمُقَاسمة ظاهرها المشافهة، وقال بعضهم: إن إبليس لما دخل إلى آدم كلمه في حاله، فقال: يا آدم - ما أحسن هذا لو أن خلداً كان، فوجد إبليس السبيل إلى إغوائه. فقال: هل أدلك على شجرة الخلد، وقال بعضهم: دخل الجنة في فم الحية، وهي ذات أربع كالبختية بعد أن عرض نفسه على كثير من الحيوان فلم تدخله إلا الحية، فخرج إلى حواء وأخذ شيئاً من الشجرة، وقال: انظري - ما أحسن هذا، فأغواها حتى أكلت، ثم أغوى آدم، وقالت له حواء: كل، فإني قد أكلت فلم يضرني، فأكل فبدت لهما سوءاًتهما، وحصلا في حكم الذنب، ولعننت الحية، وزدت قوائمها في جوفها، وجعلت العداوة بينها وبين بني آدم.

وقيل لحواء: كما آدميت الشجرة، فكذلك يصيبك الدم في كل شهر، وكذلك تحمليين كرهاً، وتضعين كرهاً، تشرفين به على الموت مراراً، زاد الطبري والنقاش: وتكونين سفية، وقد كنت حليمة.

وقالت طائفة: إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد أن أخرج منها،

وقيل: مَنْ نعمة الجنة إلى
شقاء الدنيا، وقيل: من
رفعة المنزل إلى سفلى مكانة
الذنب، وهذا كله يتقارب .
وقرأ أبو حيوه ﴿اهبطوا﴾
بضم الباء، ويفعل كثير في
غير المتعدي وهبط غير
متعدي، والهبوط النزول من
علو إلى أسفل .

واختلف: من المخاطب
بالهبط؟ فقال السدي
وغيره: آدم وحواء وإبليس
والحية. وقال الحسن: آدم
وحواء والوسوسة. وقال
غيره: والحية، لأن إبليس
فقد كان أهبط قبل عند
معصيته.

و ﴿بَعَثَكُمْ لَمِيضَ عَذَابٍ﴾ جملة في موضع الحال، وأفرد لفظ عذاب من حيث لفظه بعض، وبعض وكل تجري مجرى الواحد، ومن حيث لفظه عذاب تقع للواحد والجميع، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الْعَذَابُ الْمُؤَلَّمُ﴾ .

و«لَكُمْ فِي الْأَنْزِ مُسْتَقَرٌّ» أي موضع استقرار، قاله أبو العالية، وابن زيد، وقال السدي: المراد الاستقرار في القبور.

والممتع: ما يُستمع به: من أكل ولبس وحياة وحديث وأنس، وغير ذلك، وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه:

وَوَفَّقْتُ عَلَى قَبْرِ غَرِيبٍ بِعَفْوَ
مَتَاعٍ قَلِيلٍ مِنْ حَبِيبٍ مُفَارِقٍ
وَاخْتَلَفَ الْمَتَأُولُونَ فِي الْحَيْنِ هـ

هنا، فقالت فرقة: إلى الموت، وهذا قول من يقول: **الْمُسْتَقَرُّ** هو المقام في الدنيا، وقالت فرقة: إلى جحيم: إلى يوم القيامة، وهذا قول من يقول: **الْمُسْتَقَرُّ** هو في القبور، ويترتب أيضاً على أن **الْمُسْتَقَرَّ** في الدنيا أن يراد بقوله ﴿وَلَكُمْ﴾ أي لأنواعكم في الدنيا استقرار ومتاع قرناً بعد قرن إلى يوم القيامة، والحين: المدة الطويلة من الدهر أقصرها في الإيمان والالتزامات سنة، قال الله تعالى: ﴿تَوَفَّيْ أَكْثَرَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذَنُ رَبَّهَا﴾، وقد قيل: أقصرها ستة أشهر، لأن من النخل ما يثمر في كل ستة أشهر، وقد يستعمل الحين في المحاورات في القليل من الزمن. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا حِينٌ﴾ فائدة لأدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها، ومنقول إلى الجنة التي وُعد بالرجوع إليها، وهي لغير آدم دالة على المعاد.

وَرَوَى أَنَّ آدَمَ نَزَلَ عَلَى جَبَلٍ مِنْ جِبَالِ سُرَنْدِيبَ وَأَنَّ حَوَاءَ نَزَلَتْ بِجَدَّةَ، وَأَنَّ الْحَيَّةَ نَزَلَتْ بِأَصْبَهَانَ، وَقِيلَ بِمِيسَانَ، وَأَنَّ إِبْلِيسَ نَزَلَ عَلَى الْأَيْلَةِ.

﴿٢٧﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فقال الكلمات، فتاب الله عليه عند ذلك، و ﴿ءَادَمَ﴾ رفع به (تلقى) ﴿كَلِمَاتٍ﴾ نصب بها، والتلقي من آدم هو الإقبال عليها، والقبول لها، والفهم، وحكي مكي قولاً أنه ألهمها فانتفع بها، وقرأ ابن كثير: ﴿مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ بالنصب ﴿مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ بالرفع، فالتلقي من الكلمات هو نيل آدم بسببها رحمه الله وتوبته.

وإِنَّمَا أَغْوَىٰ آدَمَ الشَّيْطَانُ وَسُلْطَانُهُ
وَوَسَّوَسَ الَّتِي أُعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى، كَمَا
قَالَ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ
آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ»، وَالضَّمِيرُ فِي
﴿عَنَّا﴾ عَائِدٌ عَلَى الشَّجَرَةِ فِي قِرَاءَةِ
مَنْ قَرَأَ ﴿أَزْلَهُمَا﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ
عَلَى الْجَنَّةِ، فَأَمَّا مَنْ قَرَأَ ﴿أَزْلَهُمَا﴾،
فَإِنَّهُ يَعُودُ عَلَى الْجَنَّةِ فَقَطْ، وَهَذَا
مَحْذُوفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ الظَّاهِرُ تَقْدِيرُهُ
«فَأَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ»، وَقَالَ قَوْمٌ: أَكَلَا
مِنْ غَيْرِ الَّتِي أُشِيرَ إِلَيْهَا فَلَمْ يَتَأَوَّلَا
النَّهْيَ وَاقِعًا عَلَى جَمِيعِ جَنَسِهَا، وَقَالَ
آخَرُونَ: تَأَوَّلَا النَّهْيَ عَلَى النَّدْبِ.

وقال ابن المسيب: إنما أكل آدم
بعد أن سقته حواء الخمر، فكان في
غير عقله.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ يحتمل وجوهاً، ف قيل: أخرجهما من الطاعة إلى المعصية،

واختلف المتأولون في الكلمات، فقال الحسن بن أبي الحسن: هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الآية، وقال مجاهد: هي أن آدم، قال: «سبحانك اللهم لا إله إلا أنت، ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت التواب الرحيم».

وقال ابن عباس: هي أن آدم قال: أي رب. ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى. قال: أي رب. ألم تنفخ في من روحك؟ قال: بلى، قال: أي رب، ألم تُسكنني جنتك؟ قال: بلى، قال: أرأيت إن بُت وأطمع أراجمي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم. قال عبيد ابن عمير: إن آدم قال: أي رب، أرأيت ما عصيتك فيه شيء كتبته علي أم شيء ابتدعته؟ قال: بل شيء كتبته عليك، قال: أي رب. كما كتبته علي فاغفر لي. وقال قتادة: الكلمات هي أن آدم قال: أي رب. أرأيت إن أنا بُت وأصلحت؟ قال: إذا أدخلك الجنة. وقالت طائفة: إن آدم رأى مكتوباً على ساق العرش «محمد رسول الله»، فتشفع بذلك فيه الكلمات. وقالت طائفة: إن المراد بالكلمات ندمه واستغفاره وحزنه، وسماها كلمات مجازاً لما هي في خلقها، صادرة عن كلمات، وهي كن في كل واحدة منهن، وهذا قول يقتضي أن آدم لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود.

ومثل بعض سلف المسلمين عما ينبغي أن يقوله المذنب فقال يقول ما قال أبواه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ وما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾، وما قال يونس: ﴿لَا

إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

و ﴿قَاتِبٌ عَلَيْكَ﴾ معناه: رجع به، والتوبة من الله تعالى: الرجوع على عبده بالرحمة والتوفيق، والتوبة من العبد: الرجوع عن المعصية، والندم على الذنب مع تركه فيما يستأنف وإنما خص الله تعالى آدم بالذكر هنا في التلقي والتوبة، وحواء مشاركة له في ذلك بإجماع لأنه المخاطب في أول القصة بقوله: ﴿أَسْكَنْ أَنتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ﴾، فلذلك كملت القصة بذكره وحده، وأيضاً فلأن المرأة حرمة ومستورة، فأراد الله الستر لها، ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. وروي أن الله تعالى تاب على آدم في يوم عاشوراء.

وكنية آدم أبو محمد، وقيل: أبو البشر، وقرأ الجمهور ﴿إِنَّهُ﴾ بكسر الألف على القطع، وقرأ ابن أبي عقرب ﴿أَنَّهُ﴾ بفتح الهمة على معنى لأنه. وبنية ﴿الْوَابِ﴾ للمبالغة والتكثير.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَابِ الرَّحِيمُ﴾، تأكيد - فائدته أن التوبة على العبد إنما هي نعمة من الله لا من العبد وحده، لئلا يعجب الثائب، بل الواجب عليه شكر الله تعالى في توبته عليه.

وكرر الأمر بالهبوط لما علق بكل أمر منهما حكماً غير حكم الآخر، فعلق بالأول العداوة، وعلى بالثاني إتيان الهدى، وقيل: كرر الأمر بالهبوط على جهة تغليظ الأمر وتأكيده، كما تقول لرجل: قم قم.

وحكى النقاش أن الهبوط الثاني إنما هو من الجنة إلى السماء، والأول في ترتيب الآية إنما هو إلى الأرض وهو الآخر في الوقوع، فليس في الأمر تكرار على هذا.

و ﴿جَنِينًا﴾ حال من الضمير في ﴿أَفْطُوا﴾، وليس بمصدر، ولا اسم فاعل، ولكنه عوض منهما، دال عليهما، كأنه قال: هبوطاً جليماً، أو هابطين جميعاً.

واختلف في المقصود بهذا الخطاب، فقيل: آدم وحواء وإبليس وذريتهم، وقيل: ظاهره المموم، ومعناه الخصوص في آدم وحواء، لأن إبليس لا يأتيه هدى، وخوطباً بلفظ الجمع تشريفاً لهما، والأول أصح لأن إبليس مخاطب بالإيمان بإجماع. وإن في قوله: ﴿فَأَمَّا﴾ هي للشرط، دخلت (ما) عليها مؤكدة ليصح دخول النون المشددة، فهي بمثابة لام القسم التي تجي لتجيء النون، وفي قوله تعالى: ﴿يَنْبِئُ﴾ إشارة إلى أن أفعال العباد خلق الله تعالى، واختلف في معنى قوله ﴿هُدًى﴾ فقيل: بيان وإرشاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب أن يقال: بيان ودعاء، وقالت فرقة: الهدى الرسل، وهي إلى آدم من الملائكة، وإلى بني من البشر هو فَمَنْ بعده.

وقول تعالى: ﴿فَمَنْ يَبْعُ هُدًى﴾، شرط جوابه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ قال سيويه: الشرط الثاني وجوابه هما جواب الأول في قوله: ﴿فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وحكي عن الكسائي أن

قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، جواب الشرطين جميعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حكى هذا، وفيه نظر، ولا يتوجه أن يخالف سيبويه هنا، وإنما الخلاف في نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَرَيِّينَ﴾ ﴿فَرَجَّ وَرَحَّانَ﴾، فيقول سيبويه: جواب الشرطين محذوف لدلالة قوله: ﴿فَرَجَّ﴾ عليه. ويقول الكوفيون: ﴿فَرَجَّ﴾ جواب الشرطين. وأما في هذه الآية فالمعنى يمنع أن يكون ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ جواباً للشرطين، وقرأ الجحدري، وابن أبي إسحق ﴿هُدًى﴾، وهي لغة هذيل، قال أبو ذؤيب يري بني:

سَبَقُوا هَوًى وَعَتَّقُوا لِهَوَاهُمْ
فَتَجَرَّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضَرُغٌ
وكذلك يقولون: عَصَى وما أشبهه، وعلّة هذه اللغة أن ياء الإضافة من شأنها أن يَكسر ما قبلها، فلما لم يصح في هذا الوزن كَسْرُ الألف الساكنة أبدلت ياءً وأدغمت، وقرأ الزهري، ويعقوب، وعيسى الثقفي: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ نصب بالتبئة. ووجهه أنه أعم وأبلغ في رفع الخوف، ووجه الرفع أنه أعدل في اللفظ لينعطف المرفوع من قوله: ﴿هُمْ يَخْزَوْنَ﴾ على مرفوع. و (لا)

في قراءة الرفع عاملة عمل ليس، وقرأ ابن مُحَيِّص باختلاف عنه: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ بالرفع وترك التنوين، وهي على أن تعمل (لا) عمل ليس، لكنه حذف التنوين تخفيفاً لكثرة الاستعمال، ويحتمل قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي فيما بين أيديهم من الدنيا ﴿وَلَا هُمْ يَخْزَوْنَ﴾

على ما فاتهم منها، ويحتمل أن لا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون فيه، ويحتمل أن يريد: أنه يُدخلهم الجنة حيث لا خوف ولا حزن.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، عطف جملة مرفوعة على جملة مرفوعة، وقال: ﴿وَكَذَّبُوا﴾ وكان في الكفر كفاية، لأن لفظة ﴿كَفَرُوا﴾ يشترك فيها كفر النعم، وكفر المعاصي، ولا يجب بهذا خلوه، فيبين أن الكفر هنا هو الشرك بقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، والآية هنا يحتمل أن يريد المتلوة، ويحتمل أن يريد العلامة المنصوبة، وقد تقدم في صدر هذا الكتاب القول على لفظ آية، و ﴿أُولَئِكَ﴾ رفع بالابتداء، و ﴿أَصْحَابُ﴾ خبره، والصحبة الاقتران بالشيء في حالة ما في زمن ما، فإن كانت الملازمة والخلطة فهو كمال الصحبة، وهكذا هي صحبة أهل النار لها، وبهذا القول ينفك الخلاف في تسمية الصحابة رضي الله عنهم، لأن مراتبهم متباينة، أقلها الاقتران في الإسلام والزمن، وأكثرها الخلطة والملازمة، و ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال.

﴿٥٠﴾ - ﴿٥١﴾ تفسير قوله عز وجل:

[يَا] حرف نداء مضمن معنى التنبيه، قال الخليل: والعامل في المنادى فعل مضمّر كأنه يقول: أريد أو أدعو، وقال أبو علي الفارسي: العامل حرف نداء عصب به معنى الفعل المضمّر، فقوي فعل، وبدل على ذلك أنه ليس في حروف المعاني ما يلتزم بانفراده مع الأسماء

غير حرف النداء، و ﴿يَبَى﴾ منادى مضاف، و ﴿إِسْرَءِيلَ﴾ هو: يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم عليهم، وهو اسم أعجمي، يقال فيه: إسرائيل، وإسرائيل، وتميم تقول: اسرائين، و [إسرا] هو بالعبرانية عبد، و [إيل] اسم الله تعالى، فمعناه: عبد الله، وحكى المهدوي أن [إسرا] مأخوذ من الشد في الأسر، كأنه الذي شد الله أسره، وقوى خلقه، وزوي عن نافع، والحسن، والزهري، وابن أبي إسحق، ترك همز [إسرائيل].

والذكر في كلام العرب على أنحائه، وهذا منها، ذكر القلب الذي هو ضد النسيان. والنعمة هنا اسم الجنس، فهي مفردة بمعنى الجمع، وتحركت الياء من ﴿يَسْتَبَى﴾ لأنها لقيت الألف واللام، ويجوز تسكينها، وإذا سكنت حذفت للالتقاء، وفتحها أحسن لزيادة حرف في كتاب الله تعالى، وخصص بعض العلماء النعمة في هذه الآية، فقال الطبري: بعثة الرسل منهم، وإنزال المن والسلوى، وإنقاذهم من تعذيب آل فرعون، وتفجير الحجر. وقال غيره: النعمة هنا، أن أدركهم مدة محمد ﷺ. وقال آخرون: هي أن منحهم علم التوراة، وجعلهم أهله وحملته، وهذه أقوال على جهة المثال، والعموم في اللفظة هو الحسن. وحكى مكي أن المخاطب من بني إسرائيل بهذا الخطاب هم المؤمنون بمحمد ﷺ. لأن الكافر لا نعمة لله عليه.

وقال ابن عباس: وجمهور العلماء: الخطاب لجميع بني

إسرائيل في مدة النبي عليه السلام، مؤمنهم وكافرهم.

والضمير في ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يراد به على آبائكم، كما تقول العرب: ألم نهزمكم يوم كذا، لوقعة كانت بين الآباء والأجداد؟ ومن قال: إنما خوطب المؤمنون بمحمد ﷺ استقام الضمير في عليكم، ويجيء كل ما توالى من الأوامر على جهة الاستدامة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا بِهِدْيَ أُورِ بْنِ هَارُونَ﴾. أمر وجوابه، فقال الخليل: جزم الجواب ما في الأمر من معنى الشرط، والوفاء بالعهد هو التزام ما تضمن من فعل. وقرأ الزهري: ﴿أَوْفَ﴾ بفتح الواو وشد الفاء للكثير.

واختلف المتأولون في هذا العهد إليهم، فقال الجمهور: ذلك عام في جميع أوامره ونواهيه ووصاياه، فيدخل في ذلك ذكر محمد ﷺ الذي في التوراة، وقيل: العهد قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾. الآية: وقال ابن جريج: العهد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية، وَعَهْدُهُمْ: هو أن يُدخلهم الجنة. ووافؤهم بعهد الله أمانة لوفاء الله تعالى لهم بعهدهم، لا علة له، لأن العلة لا تتقدم المعلول.

وقوله: ﴿وَلِئَلَّا فَازَهُبِينَ﴾ الاسم (إيا)، والباء ضمير ككاف المخاطب، وقيل: ﴿إيائي﴾ بجملته هو الاسم، وهو منصوب بإضمار فعل مؤخر تقديره: وإيائي أهربوا فارهبون، وامتنع أن يُقدَّر مقدماً لأن

الفعل إذا تقدم لم يحسن أن يتصل به إلا ضمير خفيف فكان يجيء، وارهبون.

والرهبة يتضمن الأمر بها معنى التهديد، وسقطت الباء بعد النون لأنها رأس آية. وقرأ ابن أبي إسحق بالياء.

و ﴿ءَامَنُوا﴾ معناه: صدقوا، و ﴿مُصَدِّقًا﴾ نصب على الحال من الضمير في ﴿أَنزَلْتُ﴾ وقيل: من (مَا)، والعامل فيه ﴿ءَامَنُوا﴾، وما أنزلت كناية عن القرآن، و ﴿لِنَا مَنَّكُمْ﴾ يعني من التوراة.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِدِيَارِهِمْ﴾ هذا من مفهوم الخطاب الذي المذكور فيه والمسكوت عنه حكمهما واحد، فالأول والثاني وغيرهما داخل في النهي، ولكن حذروا البدار إلى الكفر به، إذ على الأول كفُلٌ مِنْ فَعْلٍ الْمُقْتَدِي بِهِ، ونصب ﴿أَوَّلَ﴾ على خبر كان.

قال سيبويه: أول [أفعل] لا فعل له لاعتلال فائه وعينه. قال غير سيبويه: هو أوَّل من وأل إذا نَجَا خُفِضَتِ الهمزة وأبدلت واواً وأدغمت، وقيل: إنه من آل فهو [أَوَّل] قُلُب فجاء وزنه [أَعْقَل] وَسَهْل وأبدل وأدغم.

ووحده ﴿كَافِرٍ﴾ وهو بنية الجمع، لأن أفعل إذا أضيف إلى اسم متصرف من فعل جاز إفراد الاسم، والمراد به الجماعة، قال الشاعر:

وَإِذَا هُمْ طَجِعُوا فَأَلَامَ طَاعِمٍ
وَإِذَا هُمْ جَلَعُوا فَشَرُّ جِيَاعٍ
وسيبويه يرى أنها نكرة مختصرة من

معرفة كأنه قال: (ولا تكونوا أول كافرين به). وقيل: معناه «ولا تكونوا أو فريق كافر».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد كان كفر قبلهم كفار قريش فإنما معناه: من أهل الكتاب، إذ هم منظور إليهم في مثل هذا، لأنهم حجة مظنون بهم علم.

واختلف في الضمير في ﴿بِهِ﴾ على من يعود؟ فقيل: على محمد عليه السلام، وقيل: على التوراة إذا تضمنها قوله: ﴿لِنَا مَنَّكُمْ﴾، وعلى هذا القول يجيء ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِدِيَارِهِمْ﴾ مستقيماً على ظاهره في الأولية، وقيل: الضمير في ﴿بِهِ﴾ عائد على القرآن، إذ تضمنه قوله: ﴿بِمَا أَنزَلْتُ﴾.

واختلف المتأولون في الثمن الذي نهوا أن يشتروه بالآيات، فقالت طائفة: إن الأحبار كانوا يعلمون دينهم بالأجرة فنهوا عن ذلك، وفي كتبهم: «علم مجاناً كما علمت مجاناً، أي باطلاً بغير أجرة». وقال قوم: كانت للأحبار مأكلة يأكلونها على العلم كالراتب، فنهوا عن ذلك، وقال قوم: إن الأحبار أخذوا رشاً على تغيير قصة محمد عليه السلام في التوراة، ففي ذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قليلاً﴾ وقال قوم: معنى الآية: ولا تشتروا بأوامري ونواهي وآياتي ثمناً قليلاً، يعني الدنيا ومدتها، والعيش الذي هو نزر لا خطر له، وقد تقدم نظير قوله: ﴿وَلِئَلَّا فَازَهُبِينَ﴾ وبين (أَثْنُون) و (أَزْهَبُونَ) فرق أن الرهبة مقرون بها وعيد بالغ.

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ولا تخلطوا، يقال: لبست الأمر - بفتح الباء - ألبسه إذا خلطته، ومزجت بيته بمشكيله وحقه بباطله، وأما قول الشاعر:

وَكَيْتِبَةَ لَبَسَتْهَا بَكْتَيْبَةَ

فالظاهر أنه من هذا المعنى، ويحتمل أن يكون من اللباس.

واختلف أهل التأويل في المراد بقوله: ﴿الْحَقُّ يَلْبِطُ﴾، فقال أبو العالية: قالت اليهود: محمد نبي مبعوث، ولكن إلى غيرنا، فإقرارهم ببعثه حق، وجحدهم أنه بعث إليهم باطل. وقال الطبري: كان من اليهود منافقون، فما أظهروا من الإيمان حق، وما أبطنوا من الكفر باطل. وقال مجاهد: معناه لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام. وقال ابن زيد: المراد بالحق التوراة، والباطل ما بدلوا فيها من ذكر محمد عليه السلام. و ﴿تَلْبَسُوا﴾ جزم بالنهي، و ﴿تَكْتُمُوا﴾ عطف عليه في موضع جزم، ويجوز أن يكون في موضع نصب بإضمار أن، وإذا قدرت أن كانت مع تكتموا بتأويل المصدر، وكانت الواو عاطفة على مصدر مقدر من تلبسوا، كأن الكلام: «ولا يكن لبسكم الحق بالباطل، وكنتمكم الحق»، وقال الكوفيون: تكتموا نصب بواو الصرف. و ﴿الْحَقُّ﴾ بعني به أمر محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، جملة في موضع الحال، ولم يشهد لهم تعالى بعلم، وإنما نهاهم عن كتمان

ما علموا، ويحتمل أن تكون شهادة عليهم بعلم حق مخصوص، في أمر محمد عليه السلام، ولم يشهد لهم بالعلم على الإطلاق، ولا تكون الجملة على هذا في موضع الحال، وفي هذه الألفاظ دليل على تغليب الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل.

و ﴿أَقْبِسُوا أَلَكُوتَ﴾ معناه: أظهروا هيئتها وأديموها بشروطها، وذلك تشبيه بإقامة القاعد إلى حال ظهور، ومنه قول الشاعر:

وَإِذَا يُقَالُ أَتَيْتُمُ لَمْ يَبْرَحُوا
حَتَّى تُقَيِّمَ الْخَيْلُ سَوْقَ طِعَانٍ
وقد تقدم القول في (الصلاة).

و ﴿الزَّكَاةَ﴾ في هذه الآية هي المفروضة، بقرينة إجماع الأمة على وجوب الأمر بها، والزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد، وسمي الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة، أو بالأجر الذي يثيب الله به المُرْكُوعِي. وقيل: الزكاة مأخوذة من التطهير، كما يقال: زكا فلان أي طهر من دنس الجرحرة والإغفال، فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين، ألا ترى النبي عليه الصلاة والسلام سمي ما يخرج في الزكاة أوساخ الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا مَعَ الرُّكُوعِ﴾ قال قوم: جعل الركوع - لما كان من أركان الصلاة - عبارة عن الصلاة كلها، وقال قوم: إنما خص الركوع بالذكر، لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع، وقالت فرقة: إنما

قال ﴿رُكْعٌ﴾ لأن الأمر بالصلاة أولاً لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله ﴿رُكْعٌ﴾ بشهود الجماعة، والركوع في اللغة: الانحناء بالشخص. قال لبيد:

أَخْبِرْ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ
أَدْبُ كَأَنِّي كُلَّمَا تَمَسْتُ زَاكِعُ
ويستعار أيضاً في الانحطاط في المنزلة، قال الأضبط بن قريع:

وَلَا تُعَادِ الضَّعِيفَ عِلَّكَ أَنْ
تَرْكَعَ يَوْمًا وَالدَّهْرُ قَدْ زَفَعَهُ
وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا النَّاسُ﴾ خرج مخرج الاستفهام، ومعناه التوبيخ، والبر يجمع وجوه الخير والطاعات، ويقع على كل واحد منها اسم بر، و ﴿تَسْؤُونَ﴾، معناه: تتركون كما قال الله تعالى: ﴿سُؤًا اللَّهُ فَتَسِيئُونَ﴾. واختلف المتأولون في المقصود بهذه الآية، فقال ابن عباس: كان الأخبار يأمرون أتباعهم، ومقلديهم باتباع التوراة، وكانوا هم يخالفونها في جحدهم منها صفة محمد ﷺ. وقالت فرقة: كان الأخبار إذا استرشدتهم أحد من العرب في اتباع محمد ﷺ دلوه على ذلك، وهم لا يفعلونه. وقال ابن جريج: كان الأخبار يحضون الناس على طاعة الله، وكانوا هم يواقعون المعاصي، وقالت فرقة: كانوا يحضون على الصدقة ويخلون.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ﴾ معناه: تدرسون وتقرءون، ويحتمل أن يكون المعنى تتبعون أي في الاقتداء به ﴿وَالْكِتَابِ﴾: التوراة، وهي تنهاهم عما هم عليه من هذه الصفة الذميمة.

وقوله: ﴿أَنَلَا تَقُولُوا﴾ معناه: أفلا تمنعون أنفسكم من موقعة هذه الحال المُرذية لكم؟ والعقل: الإدراك المانع من الخطأ، مأخوذ منه عقاب البعير الذي يمنعه من التصرف، ومنه: المعقل أي موضع الامتناع.

وقوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾.

قال مقاتل معناه: على طلب الآخرة. وقال غيره: المعنى استعينوا بالصبر على الطاعات وعن الشهوات على نيل رضوان الله، وبالصلاة على نيل الرضوان وحط الذنوب، وعلى مصائب الدهر أيضاً، ومنه الحديث، كان رسول الله ﷺ إذا كَرِهَ أمر فزع إلى الصلاة، ومنه ما روي أن عبداً بن عباس نعي إليه أخوه (قثم) وهو في سفر، فاسترجع، وتنحى عن الطريق، وصلى، ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾.

وقال مجاهد: الصبر في هذه الآية: الصوم، ومنه قيل لرمضان شهر الصبر، وخص الصوم والصلاة على هذا القول بالذكر لتناسبهما في أن الصيام يمنع الشهوات، ويزهد في الدنيا. والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتخشع، ويُقرأ فيها القرآن الذي يُذكر بالآخرة. وقال قوم: الصبر على بابه، والصلاة الدعاء، وتجيء هذه الآية على هذا القول مشبهة لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَيْتَ

فَيْكَةً فَانْتَبِهُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ لأن الثبات هو الصبر، وذكر الله هو الدعاء.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿وَأَنَلَا لَكِبْرَةٌ﴾ على أي شيء يعود الضمير، فقيل: على الصلاة وقيل: على الاستعانة التي يقتضيها قوله: ﴿أَسْتَعِينُوا﴾، وقيل: على العبادة التي يتضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة. وقالت فرقة: على إجابة محمد ﷺ، وفي هذا ضعف لأنه لا دليل له من الآية عليه، وقيل: يعود الضمير على الكعبة، لأن الأمر بالصلاة إنما هو إليها، وهذا أضعف من الذي قبله. وكبيرة معناه: ثقيلة شاقة.

والخاشعون: المتواضعون المخشون، والخشوع: هيئة في النفس، يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع.

و ﴿يُظُنُّونَ﴾ في هذه الآية، قال الجمهور: معناه يوقنون، وحكى المهدوي، وغيره: أن الظن هنا يصح أن يكون على بابه، ويضمر في الكلام بذنوبهم، فكأنهم يتوقعون لقاء مذنبين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تعسف، والظن في كلام العرب قاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه، وقد يوقع الظن موقع اليقين في الأمور المتحققة، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحس، لا تقول العرب في رجل مرئي حاضر: أظن هذا إنساناً، وإنما تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس بعد كهذه

الآية، وكقوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ أَنَّهُمْ ثَوَاقِبُهَا﴾، وكقول دريد بن الصمة:

فَقُلْتُ لَهُمْ: ظَلُّوا بِالْفَنَى مُدَجِّجَ سَرَائِهِمْ بِالْفَارِسِيِّ الْمُسَرِّدِ
وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ ثَلُفُوا رِيْهِمْ﴾ أن وجملتها تسد مسد مفعولي الظن، والملافة هي للعقاب حذف الشواب. ففي الكلام حذف المضاف. ويصح أن يكون الملافة هنا بالرؤية التي عليها أهل السنة، وورد بها متواتر الحديث. وحكى المهدوي أن الملافة هنا مفاعلة من واحد مثلاً: عافاك الله، وهذا ضعيف، لأن لقي يتضمن معنى لاقى وليست كذلك الأفعال كلها، بل قُتل خلاف قَاعَلَ في المعنى، وملاقوا أصله ملاقون لأنه بمعنى الاستقبال، فحذفت النون تخفيفاً، فلما حذفت تمكنت الإضافة بمناسبتها للأسماء، وهي إضافة غير محضة لأنها لا تُعرَف.

وقال الكوفيون: ما في اسم الفاعل الذي هو بمعنى المجيء من معنى الفعل يقتضي إثبات النون وإعماله، وكونه وما بعده اسمين يقتضي حذف النون والإضافة.

و ﴿رَجِعُونَ﴾ قيل: معناه بالموت، وقيل: بالحشر والخروج إلى الحساب والعرض ويُقَوَّى هذا القول الآية المتقدمة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُبَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد على الرب تعالى، وقيل: على اللقاء الذي يتضمنه ﴿ثَلُفُوا﴾.

والمشفوع له شفع، وكذلك الشفع فيما لم يقسم.

وسبب هذه الآية: أن بني إسرائيل قالوا: نحن أبناء الله وأبناء أنبيائه، وسيشفع لنا آباؤنا، فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعة، ولا تجزي نفس عن نفس، وهذا إنما هو في الكافرين - للإجماع - وتواتر الحديث بالشفاعة في المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ قال أبو العالية: العدل الفدية. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَعَدْلُ الشَّيْءِ هو الذي يساويه قيمة وقدرًا، وإن لم يكن في جنسه والعدل بكسر العين هو الذي يساوي الشيء من جنسه وفي جرمه. وحكى الطبري أن من العرب من يكسر العين من معنى الفدية، فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير.

والضمير في قوله: ﴿وَلَا تُمْ﴾، عائد على الكافرين الذين اقتضتهم الآية، ويحتمل أن يعود على النفسين المتقدم ذكرهما، لأن اثنين جمع، أو النفس للجنس، وهو جمع.

وحصرت هذه الآية المعاني التي اعتادها بنو آدم في الدنيا، فإن الواقع في شدة مع آدمي لا يتخلص إلا بأن يشفع له، أو ينصر، أو يفندي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي خَلَصْنَاكُمْ، (وَالْأَصْلُ أَهْلٌ، قلبت الهاء ألفًا كما عمل في ماء، ولذلك ردها التصغير إلى الأصل فقيل: أَهْلٌ وَوَيْتٌ، وقد قيل في (آل): إنه اسم غير أهل، أصله أول، وتصغيره أوئل، وإنما نسب

والتقدير: «عذاب يوم» أو: «هول يوم» ثم حذف ذلك، وأقام اليوم مقامه، ويصح أن يكون نصبه على الظرف لا للمتقوى لأن يوم القيامة ليس بيوم عمل، ولكن معناه: «جيشوا متقين يوماً». و ﴿لَا تَجْزَى﴾ معناه لا تُغني. وقال السدي: معناه لا تقضي. ويُقْوِيه قوله ﴿ثِيَابًا﴾، وقيل: المعنى لا تكافئ، ويقال جزى وأجزأ بمعنى واحد.

وقد فرق بينهما قوم فقالوا: جزء بمعنى قضى وكافًا. وأجزأ بمعنى أغنى وكفى. وقرأ أبو السمال ﴿تَجْزَى﴾ بضم التاء والهمز، وفي الكلام حذف قال البصريون: التقدير: «لا تجزي فيه»، ثم حذف «فيه»، وقال غيرهم: حذف ضمير متصل بتجزي تقديره: «لا تجزيه»، على أنه يقبح حذف هذا الضمير في الخبر، وإنما يحسن في الصلة. وقال بعض البصريين: التقدير: «لا تجزي فيه»، فحذف حرف الجر واتصل الضمير، ثم حذف الضمير بتدريج.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَقَمَةٌ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالتاء، وقرأ الباقون بالياء من تحت على المعنى، إذ تأنيث الشفاعة ليس بحقيقي، والشفاعة مأخوذة من الشفع وهما الاثنان، لأن الشافع

وَإِذْ يَخْتَصِمُونَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سِوَاهُ الْعَذَابِ يَذُبُّونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ الْبَيْتَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ غَرَقَاتِهِ آلِ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعَهْدَ مِنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٤٩﴾ ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥١﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَهْدِيكُمْ رَبِّي بِطَرِيقٍ إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْبَلُوا أَنْفُسَكُمْ وَذِكْرُكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ مِنْ بَعْدِ مَا لَكُمْ مِنْهُ هُوَ الْوَأْتِيبُ الرَّجِيمُ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَا لَعْنَتَ الصَّيْقَةِ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ بَشَّرْنَا بِرَبِّكَ بَعْدَ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٤﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلَّ آيَةٍ تَظُنُّونَ مَا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٥﴾

٤٧ - ٤٩ تفسير قوله عز وجل:

قد تكرر هذا النداء، والتذكير بالنعمة، وفائدة ذلك أن الخطاب الأول يصح أن يكون للمؤمنين، ويصح أن يكون للكافرين منهم. وهذا المتكرر إنما هو للكافرين بدلالة ما بعده، وأيضاً فإن فيه تقوية التوقيف، وتأكيده الحضر على ذكر أيادي الله، وحسن خطابهم بقوله: ﴿فَضَلَّلْنَاكُمْ عَلَى الْفَالِغِينَ﴾، لأن تفضيل آبائهم وأسلافهم تفضيل لهم، وفي الكلام اتساع، قال قتادة، وابن زيد، وابن جريج، وغيرهم: المعنى على عالم زمانهم الذي كانت فيه النبوة المتكررة والمُلْك، لأن الله تعالى يقول لأمة محمد ﷺ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَأَنْقَرُوا يَوْمًا﴾ نصب (يومًا) باتقوا على السعة

الفعل إلى آل فرعون وهم إنما كانوا يفعلونه بأمره وسلطانه لتوليهم ذلك بأنفسهم، وقال الطبري رحمه الله: ويقتضي هذا أَنَّ مَنْ أَمَرَهُ ظَالِمٌ بِقَتْلِ أَحَدٍ فَقَتَلَهُ الْمَأْمُورُ فَهُوَ الْمَأْخُوذُ بِهِ.

وآل الرجل: قرابته وشيعته وأتباعه، ومنه قول أراكه الثقيفي:

فَلَا تَبْنِكْ مَيْتًا بَعْدَ مَيِّتٍ أَجْنُهُ
عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ وَآلِ أَبِي بَكْرٍ
يعني المؤمنين الذين قبروا رسول الله ﷺ.

والأشهر في (آل) أن يضاف إلى الأسماء لا إلى البقاع والبلاد، وقد يقال: آل مكة، وآل المدينة، (وفرعون) اسم لكل من مَلَكَ مِنْ الْعَمَالِقَةِ مصر، وفرعون موسى قيل: اسمه مصعب بن الريان، وقال ابن إسحق: اسمه الوليد بن مصعب، وزُوي أنه كان من أهل اصطخر، ورد مصر فاتفق له فيها الملك، وكان أصل كون بني إسرائيل بمصر نزولُ إسرائيل بها زمن ابنه يوسف عليهما السلام.

و ﴿يَسْمُونَكُمْ﴾ معناه: يأخذونكم به، ويلزمونكم إياه، ومنه المساومة بالسَّلعة، وسامه خِطَّةٌ خَسَفَ، ويسمونكم إعرابه رفع على الاستثناف، والجملة في موضع نصب على الحال، أي سائمين لكم سوء العذاب، ويجوز ألا تقدر فيه الحال، ويكون وصف حال ماضية، وسوء العذاب أشده، وأصعبه قال السدي: كان يصرفهم في الأعمال القذرة، ويذبح الأبناء، ويستحي النساء. وقال غيره: صرفهم على الأعمال: الحرث، والزراعة،

والبناء، وغير ذلك، وكان قومه جنداً ملوكاً.

وقرأ الجمهور: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بشد الباء المكسورة على المبالغة، وقرأ ابنُ محيصن ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بالتخفيف، والأول أرجح، إذ الذبح مكرر.

وكان فرعون على ما زُوي قد رأى في منامه ناراً خرجت من بيت المقدس فأحرقت بيوت مصر، فأولت له رؤياه: أَنَّ مولوداً من بني إسرائيل ينشأ فيخرب ملك فرعون على يديه، وقال ابن إسحق، وابن عباس، وغيرهما: إن الكهنة والمنجمين قالوا لفرعون: قد أظلك زمن مولود من بني إسرائيل يخرب ملكك، وقال ابن عباس أيضاً: إن فرعون وقومه تذاكروا وعد الله لإبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فأمر عند ذلك بذبح الذكور من المولودين في بني إسرائيل، ووكّل بكل عشر نساء رجلاً يحفظ من يحمل منهم، وقيل: وكل بذلك القوابل.

وقالت طائفة: معنى يذبحون أبناءكم: يذبحون الرجال، ويسمون أبناء لما كانوا كذلك، واستدل هذا القائل بقوله تعالى: ﴿يَنَاءُكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح من التأويل أن الأبناء هم: الأطفال الذكور، والنساء هم: الأطفال الإناث. وعبر عنهم باسم النساء بالمأل وليذكرهن بالاسم الذي في وقته، يُسْتَحْيَيْنَ وَيُمْتَهَنَ، ونفس الاستحياء ليس بعذاب، ولكن العذاب بسببه وقع الاستحياء، و﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بدل من ﴿يسمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خبر، فهو كمفرد حاضر، و (بلاء) معناه: امتحان واختبار، ويكون البلاء في الخير والشر، وقال قوم: الإشارة بـ ﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى التنجية، فيكون البلاء على هذا في الخير، أي وفي تنجيّكم نعمة من الله عليكم، وقال جمهور الناس: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء هنا في الشر، والمعنى: وفي الذبح مكروه وامتحان.

وحكى الطبري وغيره في كيفية نجاتهم: أن موسى عليه السلام أوحى إليه أن يسري من مصر ببني إسرائيل، فأمرهم موسى أن يستعبروا الحلي والمتاع من القبط، وأحل الله ذلك لبني إسرائيل، فسرى بهم موسى من أول الليل، فأعلم فرعون فقال: لا يتبعهم أحد حتى تصيح الديكة، فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك حتى أصبح، وأمات الله - تلك الليلة - كثيراً من أبناء القبط، فاشتغلوا في الدفن، وخرجوا في الاتباع مُشْرِقِينَ، وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه، وكانت عدة بني إسرائيل نيفاً على ستمائة ألف، وكانت عدة فرعون ألف ألف ومائتي ألف. وحكى غير هذا مما اختصرته لقلة ثبوته، فلما لحق فرعون موسى ظن بنو إسرائيل أنهم غير ناجين، فقال يوشع ابن نون لموسى: أين أمِرت؟ فقال: هكذا، وأشار إلى البحر، فركض يوشع فرسه فيه حتى بلغ الغمر ثم رجع، فقال لموسى: أين أمرت فوالله ما كَذَبْتَ ولا

كُذِّبَتْ؟ فَأَشَارَ إِلَى الْبَحْرِ، وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ، وَأَوْحَى إِلَى الْبَحْرِ أَنْ انْفِرْ لِمُوسَى إِذَا ضَرَبَكَ، فَبَاتَ الْبَحْرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ يَضْطَرِبُ، فَحِينَ أَصْبَحَ ضَرَبَ مُوسَى الْبَحْرَ وَكَانَ أَبَا خَالِدٍ، فَانْفَرَقَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ عَاشُورَاءَ.

﴿٥٠﴾ - ﴿٥١﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿فَرَقْنَا﴾ معناه: جعلناه فِرْقًا، وقرأ الزهري: ﴿فَرَقْنَا﴾ بتشديد الراء، ومعنى ﴿بِكُمْ﴾ بسببكم، وقيل: لَمَّا كَانُوا بَيْنَ الْفِرْقِ وَقْتَ جَوَازِهِمْ فَكَانَهُ بِهِمْ فِرْقٌ، وقيل: معناه لكم، والباء عوض اللام، وهذا ضعيف.

و ﴿الْبَحْرُ﴾ هو بحر القلزم، ولم يفرق البحر عرضاً جَزْعاً من ضفة إلى ضفة، وإنما فرق من موضع إلى موضع آخر في ضفة واحدة، وكان ذلك الفرق يقرب موضع النجاة، ولا يلحق في البر إلا في أيام كثيرة بسبب جبال وأوعار حائلة. وذكر العامري أن موضع خروجهم من البحر كان قريباً من بركة فلسطين وهي كانت طريقهم.

وقيل: انفلق البحر عرضاً، وانفرد البحر على اثني عشر طريقاً، طريق لكل سبط، فلما دخلوها قالت كل طائفة: غرق أصحابنا، وجزعوا، فقال موسى: اللهم أعني على أخلاقهم السيئة، فأوحى الله إليه أن أدر عصاك على البحر، فأدارها فصار في الماء فتوح كالطاق يرى بعضهم بعضاً وجازوا، وجبريل عليه السلام في ساقطهم على ماذيئة بحث بني

إسرائيل ويقول لآل فرعون: مهلاً حتى يلحق آخركم أولكم، فلما وصل فرعون إلى البحر أراد الدخول فنفر فرسه، فتعرض له جبريل بالرُمكة فاتبعها الفرس، ودخل آل فرعون وميكائيل في ساقطهم على الضفة وحده انطبق البحر عليهم ففرقوا.

و ﴿نُظِّرُونَ﴾ قيل: معناه بأبصاركم لِتُزَبَّ بعضهم من بعض، وقيل: معناه ببصائرهم للاعتبار، لأنهم كانوا في شغل عن الوقوف، والنظر بالأبصار، وقيل: إن آل فرعون طَفَّؤا على الماء فنظروا إليهم، وقيل: المعنى وأنتم بخاله من ينظر لو نظر، كما تقول: هذا الأمر منك بمزأى ومستمع، أي بحال تراه وتسمعه إن شئت.

قال الطبري رحمه الله: وفي إخبار القرآن على لسان محمد ﷺ بهذه المغيبات التي لم تكن من علم العرب، ولا وقعت إلا في خفي على بني إسرائيل دليل واضح عند بني إسرائيل، وقائم عليهم بثبوت محمد ﷺ. وقرأ الجمهور: ﴿وَأَعِزَّنَا﴾، وقرأ أبو عمرو ﴿وَعَزَّنَا﴾، ورجحه أبو عبيد، وقال: إن المواعدة لا تكون إلا من البشر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا بصحيح لأن قول موسى لوعده الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة.

و ﴿مُوسَى﴾ اسم أعجمي لا ينصرف للعجمة والتعريف، والقَيْطُ على ما يُرَوَى يقولون للماء: مُو، وللشجر:

سَا، فلما وجد (موسى) في التابوت عند ماء وشجر سُمي موسى.

قال ابن إسحق: هو موسى، بن عمران، بن يصر، بن قاهت، ابن لاوي، بن يعقوب، بن إسحق، بن إبراهيم الخليل.

ونصب ﴿أَرْبَعِينَ﴾ على المفعول الثاني، ولا يجوز نصبها على الظرف في هذا الموضع، وهي فيما روي ذو القعدة وعشر ذي الحجة، وخَصَّ اللَّيَالِي بِالذِّكْرِ دُونَ الْأَيَّامِ إِذَا اللَّيْلَةُ أَقْدَمَ مِنَ الْيَوْمِ، وقبله في الرتبة ولذلك وقع بها التاريخ.

قال النقاش: وفي ذلك إشارة إلى صلة الصوم، لأنه لو ذكر الأيام لَأَمَكْنَ أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّهُ كَانَ يَفْطِرُ بِاللَّيْلِ، فلما نص على الليالي اقتضت قوة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين ليلة بأيامها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حدثني أبي رضي الله عنه، قال: سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهري رحمه الله يعظ الناس بهذا المعنى في الخلوة بالله، والدنو منه في الصلاة ونحوه، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب، ويقول: أين حال موسى في القرب من الله، ووصال ثمانين من الدهر من قوله - حين سار إلى الخضر - لفتاه في بعض يوم: ﴿إِنَّا عَدَاءُكَ؟﴾

وكل المفسرين على أن الأربعين كلها ميعاد. وقال بعض البصريين: وعده رأس الأربعين ليلة، وهذا ضعيف. وقوله: ﴿ثُمَّ أَتَّخَذْتُمْ﴾، قرأ أكثر السبعة بالإدغام، وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية حفص عنه بإظهار

الذال. وَثُمَّ لِلْمَهْلَةِ، ولتدل على أن الاتخاذ بعد المواعدة. وَاتَّخَذَ وَزْنَهُ افتعل من الأخذ، قال أبو علي: هو من [تَخَذَ] لا من [أَخَذَ]، وأنشد الممزق:

وَقَدْ تَخَذْتَ رَجُلِي لَدَى جَنْبِ عَزْزَهَا
نَسِيفاً كَأَفْحُوصِ الْقَطَاةِ الْمُطْرُقِ
وَنُصِيبُ ﴿أَلَيْجَالُ﴾ بِاتَّخَذْتُمْ،
والمفعول الثاني محذوف: اتخذتم العجل إلهاً، واتخذ قد يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: ﴿يَلْتَمِزْنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾، وقد يتعدى إلى مفعولين أحدهما هو الآخر في المعنى، كقوله تعالى: ﴿أَفَعَدُوا آيَاتِهِمْ جُنُحًا﴾، وهذه الآية وغيرها، والضمير في ﴿يَتَدَوَّرُ﴾ يعود على موسى، وقيل: على انطلاقه للتكليم، إذ المواعدة تقتضيه، وقيل: على الوعد.

وقصص هذه الآية: أن موسى ﷺ لما خرج ببني إسرائيل من مصر قال لهم: إن الله تعالى سَيُنْجِيكُمْ من آل فرعون، وَيُنِيلِكُمْ حلِيهم ومتاعهم الذي كان أمرهم باستعارته، وَوَرِي أَنَّهُمْ استعاروه برأيهم، فنفلهم الله ذلك بعد خروجهم، وقال لهم موسى عن الله تعالى: إنه ينزل علي كتاباً فيه التحليل والتحريم والهدى لكم، فلما جاوزوا البحر طالبوا موسى بما قال لهم من أمر الكتاب، فخرج لميعاد ربه وحده، وقد أعلمهم بالأربعين ليلة، فعادوا عشرين يوماً بعشرين ليلة، ثم قالوا: هذه أربعون من الدهر، وقد أخلفنا الموعد، وبدأ تعنتهم وخلافهم، وكان السامري رجلاً من بني إسرائيل

يُسَمَّى موسى بن ظفر، وقيل: لم يكن من بني إسرائيل، كان غريباً فيهم، وكان قد عرف جبريل عليه السلام وقت عبورهم البحر، فقالت طائفة: أنكر هيئته فعرف أنه ملك. وقالت طائفة: كانت أم السامري ولدته عام الذبح فجعلته في غار وأطبقت عليه، فكان جبريل ﷺ يغذوه بأصابع نفسه، فيجد في إصبع لبناً، وفي إصبع عسلاً، وفي إصبع سمناً، فلما رآه وقت جواز البحر عرفه فأخذ من تحت حافر فرسه قبضة تراب وألقى في روعه أنه لن يُلقِيها على شيء ويقول له: كن إلا كان، فلما خرج موسى لميعاده، قال هارون لبني إسرائيل: إن ذلك الحلي والمتاع الذي استعرت من القبط لا يحل لكم، فجيئوا به حتى تأكله النار التي كانت العادة أن تنزل على القرايين، وقيل: بل أوقد لهم ناراً، وأمرهم بطرح جميع ذلك فيها، فجعلوا يطرحون، وقيل: بل أمرهم أن يضعوه في حفرة دون نار حتى يجيء موسى، وجاء السامري فطرح القبضة وقال: كن عاجلاً.

وقيل: إن السامري كان في أصله من قوم يعبدون البقر، وكان يعجبه ذلك، وقيل: بل كانت بنو إسرائيل قد مرت مع موسى على قوم يعبدون البقر، فقالوا يا موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فوعاها السامري، وعلم أن من تلك الجهة يُفتنون، ففتنت بنو إسرائيل بالعجل، وظلت منهم طائفة يعبدونه، فاعتزلهم هارون بمن تبعه، فجاء موسى من ميعاده فغضب غضباً يأتى قصصه

في موضعه من القرآن إن شاء الله، ثم أوحى الله إليه أنه لن يتوب على بني إسرائيل حتى يقتلوا أنفسهم، ففعلت بنو إسرائيل ذلك.

فَرُوي أَنَّهُمْ لبسوا السلاح، من عَبَدَ منهم ومن لم يَعْبُدْ، وألقى الله عليهم الظلام فَقَتَلَ بعضهم بعضاً، يقتل الأب ابنه والأخ أخاه، فلما استحر فيهم القتل وبلغ سبعين ألفاً عفا الله عنهم، وجعل من مات منهم شهيداً، وتاب على البقية، فذلك قوله ﴿لَمْ نَعَفُوا عَنْكُم﴾.

وقال بعض المفسرين: وقف الذين عبدوا العجل صفّاً، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم. وقالت طائفة: جلس الذين عبدوا بالأفنية، وخرج يوشع بن نون ينادي: ملعون من حل جبوته وجعل الذين لم يعبدوا يقتلونهم، وموسى في خلال ذلك يدعو لقومه، ويرغب في العفو عنهم، وإنما عوقب الذين لم يعبدوا بقتل أنفسهم على أحد الأقوال، أو بقتل قرايبتهم على الأقوال الآخر لأنهم لم يغيروا المنكر حين عُبِدَ العجل، وإنما اعتزلوا، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عَبَدَهُ.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾، مبتدأ وخبر في موضع الحال، وقد تقدم تفسير الظلم.

والعفو تغطية الأثر، وإذهاب الحال الأولى من الذنب أو غيره، ولا يستعمل العفو بمعنى الصفح إلا في الذنب، وعفا عنهم عز وجل، أي عَمَّنْ بقي منهم لم يقتل. و﴿لَسَّكُمْ﴾، تَرَجَّ لهم في حقهم،

وتوقع منهم، لا في حق الله عز وجل، لأنه كان يعلم ما يكون منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ الآية، ﴿إِذْ﴾ عطف على ما ذكر من النعم، و﴿الْكِتَابُ﴾ هو التوراة بإجماع من المتأولين، واختلف في ﴿الْفُرْقَانِ﴾ هنا - فقال الزجاج وغيره: هو التوراة كرر المعنى لاختلاف اللفظ، ولأنه زاد معنى التفرقة بين الحق والباطل، ولفظة الكتاب لا تعطي ذلك. وقال آخرون: الكتاب التوراة، والفرقان سائر الآيات التي أوتي موسى ﷺ، لأنها فرقت بين الحق والباطل. وقال آخرون: الفرقان النصر الذي فرق بين حالهم وحال آل فرعون بالنجاة والفرق، وقال ابن زيد: الفرقان انفراق البحر له، حتى صار فرقاً، وقال الفراء وقطرب: معنى هذه الآية آتينا موسى الكتاب، ومحمداً الفرقان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف. و﴿لَكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ تَرْجُ وتَوَقَّع مثل الأول.

٥٤ - ٥٥ تفسير قوله عز وجل:

هَذَا الْقَوْلُ مِنْ مُوسَى ﷺ كان بأمر من الله تعالى، وحذف الياء في (يا قومي) لأن النداء موضع حذف وتخفيف، والضمير في ﴿اتَّخَذَكُمْ﴾ في موضع خفض على اللفظ، وفي موضع رفع بالمعنى، و﴿الْيَحْيَى﴾ لفظة عربية اسم لولد البقرة، وقال قوم: سمي عجلاً لأنه استعجل قبل مجيء موسى عليه السلام، وليس هذا القول بشيء، واختلف هل بقي

العجل من ذهب؟ فقال ذلك الجمهور، وقال الحسن ابن أبي الحسن: صار لخباً ودماً، والأول أصح. وتوبوا: معناه: ارجعوا عن المعصية إلى الطاعة. وقرأ الجمهور ﴿بَارِئُكُمْ﴾ بإظهار الهمزة وكسرهما، وقرأ أبو عمرو ﴿بَارِئُكُمْ﴾ بإسكان الهمزة. ورؤي عن سيبويه اختلاس الحركة وهو أحسن، وهذا التسكين يحسن في توالي الحركات، وقال المبرد: لا يجوز التسكين مع توالي الحركات في حرف الإعراب، وقراءة أبي عمرو ﴿بَارِئُكُمْ﴾ لحن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد رؤي عن العرب التسكين في حرف الإعراب، قال الشاعر:

إِذَا اغْوَجَجْنِ قُلْتُ صَاحِبَ قَوْمٍ

وقال امرؤ القيس:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْقِبِ
إِنَّمَا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاعِلِ

وقال آخر:

قالت سليمة: اشتر لنا سويقاً

وقال الآخر:

.....

وَقَدْ بَدَا هُكِّ مِنْ الْمِثْرِ

وقال جرير:

.....

وَنَهَرُ يَبْرَى وَمَا تَعْرِفُكُمْ الْعَرَبُ

وقال وضاح اليمن:

إِنَّمَا شَغْرِي شَهْدٌ
قَدْ خَلِطَ بِجُلْجُلَانِ

ومن أنكر التسكين في حرف الإعراب فحجته أن ذلك لا يجوز

من حيث كان علماً للإعراب. قال أبو علي: وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة في جواز تسكينها مع توالي الحركات.

وقرأ الزهري: باريكم بكسر الياء من غير همز ورؤيت عن نافع، وقرأ قتادة: ﴿فَأَقْبِلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، وقال: هي من الاستقالة. قال أبو الفتح: اقتال هذه افتعل، يحتمل أن يكون عينها واواً كاقْتاد، ويحتمل أن يكون ياءً كاقْتاس.

والتصريف يضعف أن يكون من الاستقالة، ولكن قتادة رحمه الله ينبغي أن يحسن الظن به في أنه لم يورد ذلك إلا بحجة عنده.

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾، قبله محذوف تقديره: ففعلتم، وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾، معناه: على الباقيين، وجعل الله تعالى القتل لمن قُتل شهادة، وتاب على الباقيين، وعفا عنهم. قال بعض الناس ﴿فَأَقْبِلُوا﴾ في هذه الآية معناه بالتوبة، وإماتة عوارض النفوس من شهوة وتعتت وغضب، واحتج بقوله عليه السلام في الثوم والبصل: ﴿فَلْتَمِثْهُمَا طَبْخًا﴾. ويقول حسان:

.....

قُتِلَتْ قُتِلَتْ فَهَاتِيهَا لَمْ تُقْتَلِ

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾، يريد السبعين الذين اختارهم موسى، واختلف في وقت اختيارهم، فحكى أكثر المفسرين أن ذلك بعد عبادة العجل، اختارهم ليستغفروا لبني إسرائيل. وحكى النقاش وغيره أنه اختارهم حين خرج من البحر، وطلب بالمعاد، والأول أصح.

وقصة السبعين أن موسى ﷺ لما رجع من تكليم الله، ووجد العجل قد عُبد، قالت له طائفة ممن لم يعبد العجل: نحن لم نكفر، ونحن أصحابك، ولكن أسمعنا كلام ربك، فأوحى الله إليه أن اختر منه سبعين شيخاً، فلم يجد إلا ستين، فأوحى الله إليه أن اختر من الشباب عشرة، ففعل، فأصبحوا شيوخاً، وكان قد اختار ستة من كل سبط، فزادوا اثنين على السبعين، فتشاحوا فيمن يتأخر، فأوحى الله إليه أن من تأخر له أجر مثل من مضى، فتأخر يوشع بن نون، وطالوت بن يوفنا، وذهب موسى عليه السلام بالسبعين بعد أن أمرهم أن يتجنّبوا النساء ثلاثاً ويغتسلوا في اليوم الثالث، واستخلف هارون على قومه، ومضى حتى أتى الجبل فألقى عليهم الغمام. قال النقاش وغيره: غشيتهم سحابة، وحيل بينهم وبين موسى بالنور فوقوا سجوداً، قال السدي وغيره: وسمعوا كلام الله يأمر وينهى فلم يطيقوا سماعه، واختلطت أذهانهم، ورغبوا أن يكون موسى يسمع ويعبر لهم ففعل، فلما فرغ وخرجوا بدلت منهم طائفة ما سمعت من كلام الله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَنصَرِفُونَ﴾.

واضطرب إيمانهم، وامتنحهم الله بذلك، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ولم يطلبوا من الرؤية محالاً، أما إنه عند أهل السنة ممتنع في الدنيا من طريق السمع - فأخذتهم حينئذ الصاعقة فاحترقوا وماتوا موت هُمُودٍ يَغْتَبِرُ به الغير. وقال قتادة:

ماتوا وذهبت أرواحهم، ثم رُدُّوا لاستيفاء آجالهم، فحين حصلوا في ذلك الهُمود جعل موسى يناشد ربه فيهم، ويقول: أي رب. كيف أرجع إلى بني إسرائيل دونهم فيهلكون ولا يؤمنون بي أبداً، وقد خرجوا معي وهم الأخيار؟ قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني: وهم بحال الخير وقت الخروج وقال قوم: بل ظن موسى عليه السلام أن السبعين إنما عوقبوا بسبب عبادة العجل، فذلك قوله:

﴿أَتَلْبَثُونَ﴾، يعني السبعين ﴿وَمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ يَتَىٰ﴾؟ يعني عبدة العجل وقال ابن فورك: يحتمل أن تكون معاقبة السبعين لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى: أرنا، وليس ذلك من مقدور موسى ﷺ.

و ﴿جَهْرَةً﴾ مصدر في موضع الحال، والأظهر أنها من الضمير في ﴿زَيَّ﴾، وقيل: من الضمير في ﴿تُؤْمِنُونَ﴾، وقيل: من الضمير في ﴿تَلْبَثُونَ﴾. والجهرة: العلانية ومنه: الجهر ضد السر، و﴿جَهْرَ الرجل الأمر كَشَفَهُ﴾.

وقرأ سهل بن شعيب، وحميد بن قيس: ﴿جَهْرَةً﴾ بفتح الهاء، وهي لغة مسموعة عند البصريين فيما فيه حرف الحلق ساكناً قد انفتح ما قبله، والكوفيون يجيزون فيه الفتح، وإن لم يسمعوه، ويحتمل أن يكون [جهرة]

وَأَذْهَبُوا أَهْلَهُمْ فَكَفُّوا عَنْهَا حَتَّىٰ يَسْتَمِرَّ رَعْدًا وَأَدْخَلُوا الْآيَاتِ سَجْدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَيَّرَ زَيْدَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ قَبَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَرَّ الذِّمِّيَّ قِيلَ لَهُمْ قَارِئُ نَسَاعِلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجَزًا لَّيِّنَ السَّامَةِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا فَأَقْدَعَهُ كُلُّ أَتَّاسٍ مِّنْهُمْ يَهُدَّ كُلُّهُمُ الْغِيَّ إِنَّ اللَّهَ لَبَاسِقٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنشَرُوا مِنْ رَّذِيٍّ لِّلَّهِ وَلَا تَعْتَوِافِ الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦١﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِّمُوسَىٰ إِنَّ نَاصِيئَتَكَ طَعَامٌ وَجِدْ فَادْعَ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُؤُومِهَا وَبَعْدِيهَا وَيَصْلِيهَا قَالِ اتَّبَعْتُ لِقَاكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بَالِغِي هُوَ خَيْرٌ أَمْ يَطُوعًا مِّمَّا لَكَ لَكُمْ نَاسًا لَّئِيْمٌ وَصَرَّيْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالسَّكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبِي مِنِّي وَاللَّهُ ذَاكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَّلُوا الَّذِينَ يَتَّبِعُوا لِقَاكَ ذَاكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦٢﴾

جمع جاهر، أي حتى نرى الله كاشفين هذا الأمر، وقرأ عمر، وعلي رضي الله عنهما: ﴿فَأَخَذْنَاكُمْ الصُّفْعَةَ﴾، ومضى في صدر السورة معنى الصاعقة، والصفقة ما يحدث بالإنسان عن الصاعقة. و ﴿نَظَرُونَ﴾ معناه: إلى حالكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حتى أحالهم العذاب وأزال نظرهم.

٥٨ - ٥٩ تفسير قوله عز وجل:

أجاب الله تعالى فيهم رغبة موسى عليه السلام، وأحياهم من ذلك الهمود أو الموت ليستوفوا آجالهم، وتاب عليهم، والبعت هنا الإنارة، كما قال: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَّرْقِبًا﴾ وقال قوم: إنهم لما أُخِيُوا وأُنِجَ عليهم بالتوبة سألوا موسى عليه السلام أن يجعلهم الله أنبياء، فذلك قوله: ﴿هَمْ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، أي أنبياء

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي على هذه النعمة. والترجيح إنما هو في حق البشر. ونزلت الألواح بالتوراة على موسى في تلك المدة، وهذا قول جماعة. وقال آخرون: إنَّ الألواح نزلت في ذهابه الأول وحده.

وذكر المفسرون في تظليل الغمام، أن بني إسرائيل لما كان من أمرهم ما كان من القتل، وبقي منهم من بقي حصلوا في فحص التيه بين مصر والشام، فأمرُوا بقتال الجبارين فعَصَوْا، وقالوا: ﴿فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا﴾ فعدا موسى عليهم فعوقبوا بالبقاء في ذلك الفحص أربعين سنة يتيهون في مقدار خمسة فراسخ أو ستة. روي أنهم كانوا يمشون النهار كله وينزلون للمبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس، فندم موسى عليه السلام على دعائه عليهم، فقليل له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْفَوْرِ الْفَوْرِ الْفَوْرِ﴾ وروي أنهم ماتوا بأجمعهم في فحص التيه، ونشأ بنوهم على خير طاعة، فهم الذين خرجوا من فحص التيه، وقاتلوا الجبارين. وإذا كان جميعهم في التيه قالوا لموسى: من لنا بالطعام؟ قال: الله. فأنزل الله عليهم المن والسلوى، قالوا: من لنا من حر الشمس؟ فظلل عليهم الغمام. قالوا: بم نستصبح بالليل؟ فضرب لهم عمود نور في وسط محلثهم. وذكر مكى عمود نار. قالوا: من لنا بالماء؟ فأمر موسى بضرب الحجر، قالوا: من لنا باللباس؟ فأعطوا ألباساً لهم ثوب، ولا يخلق ولا يدرك، وأن تنمو صغارها حسب نمو الصبيان.

ومعنى ﴿وَلَلَّيْنِ﴾ جعلناه ظللاً. و

﴿الْغَمَامُ﴾ السحاب، لأنه يغم وجه السماء أي يستره. وقال مجاهد: هو أبرد من السحاب وأرق وأصفى، وهو الذي يأتي الله فيه يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يأتي أمره وسلطانه وقضاؤه، وقيل: الغمام ما أبيض من السحاب، والمن صمغة خلوة، هذا قول فرقة، وقيل: هو: عسل. وقيل: شراب حلوا، وقيل: الذي ينزل اليوم على الشجر.

وقيل: المن خبز الرقاق مثل الثقي، وقيل: هو الزنجبين، وقيل: الزنجبيل، وفي بعض هذه الأقوال بُغِذ. وقيل: المن مصدر يعنى به جميع ما من الله به مُجَمَّلاً. وقال النبي ﷺ في كتاب مسلم: «الكمأة ممّا من الله به على بني إسرائيل، وماؤها شفاء للعين»، فقيل: أراد عليه السلام أن الكمأة نفسها ممّا أنزل نوعها على بني إسرائيل، وقيل: أراد أنه لا تعب في الكمأة ولا جذاذ ولا حصاد فهي مئة دون تكلف من جنس من بني إسرائيل في أنه كان دون تكلف.

وروي أن المن كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج فيأخذ منه الرجل ما يكفيه ليومه، فإن ادخر فسد عليه إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم، لأن يوم السبت يوم عبادة. والمن هنا اسم جمع لا واحد له من لفظه.

والسلوى طير بإجماع من المفسرين قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم، قيل: هو السمانى بعينه، وقيل: طائر يعيل

إلى الخُمرة مثل السمانى، وقيل: طائر مثل الحمام تحشره عليهم الجنوب. قال الأخفش: السلوى جُمُعُهُ وَوَاحِدُهُ بَلْفُظٌ وَاجِدٌ، قال الخليل: جمعٌ واحدته سلواة قال الكسائي: السلوى واحدة جمعها سلاوي، والسلوى اسم مقصور لا يظهر فيه الإعراب لأن آخره ألف، والألف حرف هوائي أشبه الحركة فاستحالت حركته، ولو حُرِّك لرجع حرفاً آخر، وقد غلط الهذلي فقال:

وَقَاسَمَهَا بِاللَّهِ عَهْدًا لَأَتُنْمِ
أَلَدُ مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا نَشُورَهَا
ظن السلوى العسل.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا﴾ الآية معناه: وقلنا: كلوا، فحذف اختصاراً لدلالة الظاهر عليه، و﴿الطَّبِيبُ﴾ هنا قد جمعت الحلال واللذيذ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يُقَدَّر قبله فَعَصَوْا، ولم يقابلوا النعم بالشكر، والمعنى: وما وضعوا في موضع مضرة لنا، ولكن وضعوه في موضع مضرة لهم حيث لا يجب. وقال بعض المفسرين: ما ظلمونا ما نقصونا، والمعنى يرجع إلى ما لخصناه.

و (الْقَرْيَةُ) المدينة، تُسمى بذلك لأنها تقرت، أي اجتمعت، ومنه قرئت الماء في الحوض: أي جمعته، والإشارة بهذه إلى بيت المقدس في قول الجمهور، وقيل: إلى أريحا، وهي قريب من بيت المقدس. قال عمر بن شبة: كانت قاعدة ومسكن ملوك. ولما خرج ذرية بني إسرائيل من التيه أمروا بدخول القرية المشار إليها وأما

الشيخ فماتوا فيه. وروي أن موسى ﷺ مات في التيه، وكذلك هارون عليه السلام، وحكى الزجاج عن بعضهم أن موسى وهارون، لم يكونا في التيه لأنه عذاب، والأول أكثر. و﴿كُلُّهُ﴾ إباحة، وقد تقدم معنى الرُّغْد - وهي أرض مباركة عظيمة الغلَّة، فلذلك قال: رَغْدًا.

و﴿الْبَابُ﴾ قال مجاهد: هو باب من مدينة بيت المقدس يعرف إلى اليوم بباب حطة، وقيل: هو باب القبة التي كان يصلى إليها موسى ﷺ، وروي عن مجاهد أيضاً أنه باب في الجبل الذي كلم عليه موسى كالفرضة. و﴿سُجَّكَاءُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه معناه: ركوعاً وقيل متواضعين خضوعاً لا على هيئة معينة، والسجود يعم هذا كله لأنه التواضع، ومنه قول الشاعر:

تَرَى الْأَكْثَمَ فِيهِ سُجَّداً لِلْخَوَافِرِ
وَرَوَى أَن الْبَابَ خَفَضَ لَهُمْ لِيَقْصِرَ
وَيَدْخُلُوا عَلَيْهِ مُتَوَاضِعِينَ.

و﴿حِطَّةٌ﴾ فِعْلَةٌ مِنْ حَطَّ يَحْطُ وَرَفَعَهُ عَلَى خَيْرِ ابْتِدَاءٍ كَانَهُمْ قَالُوا: سَأَلْنَا حِطَّةً لِدُنُونِنَا، هذا تقدير الحسن بن أبي الحسن. وقال الطبري: التقدير دخولنا الباب كما أمرنا حطة، وقيل: أمروا أن يقولوها مرفوعة على هذا اللفظ. وقال عكرمة وغيره: أمروا أن يقولوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لتَحِطَ بِهَا ذُنُوبِهِمْ. وقال ابن عباس: قيل لهم: استغفروا، وقولوا: ما يحط ذنوبكم. وقال آخرون: قيل لهم أن يقولوا هذا الأمر حق، كما أعلمنا، وهذه الأقوال الثلاثة تقتضي النصب، وقرأ

إبراهيم بن أبي عبلة ﴿حِطَّةٌ﴾ بالنصب.

وحكى عن ابن مسعود وغيره أنهم أَمُرُوا بالسجود وأن يقولوا حِطَّةً، فدخلوا يزحفون على أَسْتَاهِهِمْ ويقولون: حنطة حبة حمراء في شعرة، ويروي غير هذا من الألفاظ. وقرأ نافع ﴿يَغْفِرُ﴾ بالياء من تحت مضمومة، وقرأ ابن عامر ﴿تَغْفِرُ﴾ بالتاء من فوق مضمومة، وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿وَيَغْفِرُ﴾ بفتح الياء على معنى يغفر الله، وقرأ الباقر ﴿تَغْفِرُ﴾ بالنون، وقرأت طائفة ﴿تَغْفِرُ﴾ كأن الحطة تكون سبب الغفران.

والقراء السبعة على ﴿خَطَايَاكُمْ﴾، غير أن الكسائي كَانَ يُمِيلُهَا، وقرأ الجحدري: ﴿تَغْفِرُ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ بضم التاء من فوق ورفع الخطيئة وقرأ الأعمش ﴿يَغْفِرُ﴾ بالياء من أسفل مفتوحة ﴿خَطِيئَتَكُمْ﴾ نصباً، وقرأ قتادة مثل الجحدري، وروي عنه أنه قرأ بالياء من أسفل مضمومة ﴿خَطِيئَتَكُمْ﴾ رفعاً، وقرأ الحسن البصري: ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ أي يغفر الله، وقرأ أبو حيوة: ﴿تَغْفِرُ﴾ بالتاء من فوق مرفوعة ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ بالجمع ورفع التاء، وحكى الأهوازي أنه قرأ ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ بهمز الألف الأولى وسكون الآخرة، وحكى أيضاً أنه قرأ بسكون الأولى وهمز الآخرة. قال الفراء: خطايا جمع خطية، بلا همز كهديّة وهدايا، وركية وركايا.

وقال الخليل: هو جمع خطيئة بالهمز، وأصله ﴿خِطَايِيَّةٌ﴾ قدمت الهمزة على الياء فجاء (خطائي)،

أبدلت الياء ألفاً بدلاً لا زماً فانفتحت الهمزة التي قبلها فجاء (خطاءاً) همزة بين ألفين، وهي من قبيلهما فكأنها ثلاث ألفات فقلبت الهمزة ياء فجاء خطايا. قال سيبويه: أصله [خطاييء] همزت الياء كما فعل في مدائن وكتائب فاجتمعت همزتان فقلبت الثانية ياء ثم أعلت على ما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَزِيدُ اللَّهُ يُسْرَتَهُ﴾ عدة المعنى إذا غفرت الخطايا بدخولكم وقولكم: زيد بعد ذلك لمن أحسن، وكان من بني إسرائيل من دخل كما أمر وقال: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فقبل: هم المراد بالمحسنين هُنا.

﴿٥٩﴾ - ﴿٦٠﴾ تفسير قوله عز وجل: رَوَى أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءُوا الْبَابَ دَخَلُوا مِنْ قَبْلِ أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُمْ دَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وبدلوا فقالوا حبة في شعرة، وقيل: قالوا: حنطة حبة حمراء فيها شعرة، وقيل: شعيرة، وحكى الطبري أنهم قالوا: «هطي شمقانا أزيه»، وتفسيره ما تقدم.

والرَّجَزُ: العذاب. وقال ابن زيد، ومقاتل، وغيرهما: إن الله تعالى بعث على الذين بدلوا ودخلوا على غير ما أمروا الطاعون فأذهب منهم سبعين ألفاً. وقال ابن عباس: أمات الله منهم في ساعة واحدة نيفاً على عشرين ألفاً، وقرأ ابن محيصن ﴿وَجُزْءاً﴾ بضم الراء وهي لغة في العذاب والرجز أيضاً اسم صنم مشهور، والباء في قوله ﴿يَمَاءً﴾ متعلقة بأنزلنا، وهي باء السبب.

و﴿يَسْقُونَ﴾ معناه يخرجون عن طاعة الله، وقرأ النخعي، وابن

وثَّاب، ﴿يَفْسِقُونَ﴾ بكسر السين، يقال: فسق يفسق ويفسق بضم السين وكسرها، و﴿إِذْ﴾ متعلقة بفعل مضمر تقديره: «اذكر»، و﴿أَسْتَقْنَى﴾ معناه: طلب السقيا، وعرف استفعل طلب الشيء، وقد جاء في غير ذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَقْنَى اللَّهَ﴾، بمعنى غَنِي، وقولهم: استعجب بمعنى عجب، ومثل بعض الناس في هذا بقولهم: ﴿أَسْتَقْسَرُ الْبُقَاتِ﴾، و﴿أَسْتَوْفَى الْجَمَلُ﴾ إذ هي بمعنى انتقل من حال إلى حال. وكان هذا الاستسقاء في فحص التيه فأمره الله تعالى بضرب الحجر آيةً منه، وكان الحجر من جبل الطور على قدر رأس الشاة يُلْقَى في كسر جَوَالِقٍ وَيُرْجَلُ به، فإذا نزلوا وُضِعَ في وسط مجلسهم، وضربه موسى.

وذكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه في كل مرحلة في منزلته من المرحلة الأولى، وهذا أعظم في الآية.

ولا خلاف أنه كان حجراً منفصلاً مربعاً تطرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى ﷺ، وإذا استَقْنُوا عن الماء ورحلوا جفت العيون.

وفي الكلام حذف تقديره: فضربه فانفجرت، والانفجار: انصداع شيء عن شيء، ومنه الفجر، والانجاس في الماء أقل من الانفجار.

و﴿أَفْتَنَّا﴾ مُعْرِبَةٌ دون أخواتها لصحة معنى التثنية، وإنما يبنى واحد مع واحد، وهذه إنما هي اثنان مع واحد، فلو بُنِيَتْ لرد ثلاثة واحداً، وجاز اجتماع علامتي التأنيث في قوله: ﴿أَفْتَنَّا عَشْرَكُمْ﴾ لبعد العلامة من

العلامة، ولأنهما في شيئين، وإنما مُنِعَ ذلك في شيء واحد نحو مسلمتات وغيره. وقرأ ابن وثاب، وابن أبي ليلى، وغيرهما: ﴿عَشِيرَةٌ﴾ بكسر الشين، رُوي ذلك عن أبي عمرو، والأشهر عنه الإسكان، وهي لغة تميم، وهو نادر لأنهم يُخَفَّفُونَ كثيراً وتَقْلَوُا في هذه. وقرأ الأعشى ﴿عَشِيرَةٌ﴾ بفتح الشين، وهي لغة ضعيفة، وروي عنه كسرها وتسكينها، والإسكان لغة الحجاز. و﴿عَيْنًا﴾ نصب على التمييز، والعين اسم مشترك، وهي هنا منبع الماء، و﴿أَنْبِئُوا﴾ اسم جمع لا واحد له من لفظه، ومعناه هنا: كل سبط لأن الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، وهم ذرية الإثنا عشر أولاد يعقوب عليه السلام، والمَشْرَب المَفْعَل موضع الشرب، كالمَشْرَع موضع الشروع في الماء، وكان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعدها.

وفي الكلام محذوف تقديره: وقلنا لهم: كلوا المن والسلوى واشربوا الماء المنفجر من الحجر المنفصل، وبهذه الأحوال حسنت إضافة الرزق إلى الله وإلا فالجميع رزقه، وإن كان فيه تَكْسِبٌ للعبد.

﴿وَلَا تَمْنُوا﴾ معناه: ولا تُفَرِّطُوا في الفساد، يقال: عني الرجل يَغْنَى غُنُوًّا وَعَيْنِي يَغْنَى غِنًى إذا أَفْسَدَ أَفْسَادًا، والأولى هي لغة القرآن، والثانية شاذة.

وتقول العرب: عَنَّا يَعْتُوا غُنُوًّا، ولم يُفَرَّأ بهذه اللغة لأنها تُوجِبُ ضم الثاء من تَعْتُوا، وتقول العرب: عاث يعيث إذا أَفْسَدَ، وعث يُمُثُّ كذلك،

ومنه غُنَّةُ الصوف وهي السوسة التي تلحسه، و﴿مُفِيدِينَ﴾ حال. وتكرر المعنى لاختلاف اللفظ.

وفي هذه الكلمات إباحة النعم، وتعدادها، والتقدم في المعاصي، والنهي عنها.

﴿٦١﴾ تفسير قوله عز وجل:

كان هذا القول منهم في التيه، حين ملأوا المن والسلوى، وتذكروا عيشهم الأول بمصر، وكنى عن المن والسلوى طعام واحد، وهما طعامان لأنهما كان يُؤْكَلَانِ في وقت واحد، ولتكرارهما سواء أبداً، قيل لهما طعام واحد، ولغة بني عامر ﴿فَادَعَ﴾ بكسر العين، و﴿يُخْرِجُ﴾ جزم بما تضمنه الأمر من معنى الجزاء، وبنفس الأمر على مذهب أبي عمر الجرمي. والمفعول على مذهب سيبويه مُضْمَرٌ تقديره: مأكولاً مما تنبت الأرض، وقال الأخفش (مِنْ) في قوله: [مِمَّا] زائدة و (ما) مفعولة، وأبى سيبويه أن تكون (مِنْ) ملغاة في غير النفي، كقولهم: «ما رأيت من أحد». ومِنْ في قوله: ﴿يَنْ يَنْقَلِبَا﴾، لبيان الجنس، ونقلها بدل بإعادة الحرف. والبقل كل ما تنبت الأرض من النَّجْم، والقَاء جمع قِثَاءَةٍ. وقرأ طلحة بن مصرف، ويحيى بن وثاب ﴿قُتَاتِهَا﴾ بضم القاف. وقال ابن عباس، وأكثر المفسرين: الفوم الحنطة، وقال مجاهد: الفوم الخبز، وقال عطاء وقتادة، الفوم جميع الحبوب التي يمكن أن تخبز كالحنطة والفول والعدس ونحوه، وقال الضحاك: الفوم الثوم، وهي قراءة عبدالله بن

مسعود بالثاء، وروي ذلك عن ابن عباس، والشاء تبدل من الفاء كما قالوا: مغاير ومغاير وجذث وجذف، ووقعوا في عاثور شر وعافور شر على أن البدل لا يقاس عليه، والأول أصح لأنها الحنطة، وأنشد ابن عباس قول أحيحة بن الجلاح:

قَدْ كُنْتُ أَغْنَى النَّاسِ شَخْصاً وَاجِداً
وَرَزَدَ الْمَدْيِئَةَ عَنْ زِرَاعَةِ قُومٍ
يعني حنطة، قال ابن دريد: الغوم الزرع أو الحنطة. وأزد السراة يسمون السنبل فوماً.

والاستبدال طلب وضع الشيء موضع الآخر وأدنى مأخوذ عن أبي إسحق الزجاج من الدنو أي القرب في القيمة، وقال علي بن سليمان: هو مهموز من الدنيء البين الدناءة، بمعنى الأخس إلا أنه خُففت همزته، وقال غيره: هو مأخوذ من الدون أي الأحط، فأصله أَدَوْنَ أَفْعَلْ، قُلِبَ فجاء أفلح، وقلبت الواو ألفاً لتطرفها. وقرأ زهير الكسائي: ﴿أَنْتَا﴾.

ومعنى الآية: أنتستبدلون البقل والقثاء والغوم والعدس والبصل التي هي أدنى باليمن والسلوى الذي هو خير؟

والوجه الذي يوجب فضل اليمن والسلوى على الشيء الذي طلبوه يحتمل أن يكون تفاضلاً في القيمة، لأن هذه البقول لا خطر لها، وهذا قول الزجاج، ويحتمل أن يفضل اليمن والسلوى لأنه الطعام الذي مَنَّ الله به، وأمرهم بأكله، وفي استدامة أمر الله تعالى وشكر نعمته

أجر وذخر في الآخرة، والذي طلبوا عارٍ من هذه الخصال، فكان أدنى في هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل في الطيب واللذة به، فالبقول لا محالة أدنى من هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل في حسن الغذاء ونفحه، فالتمر والسلوى خير لا محالة في هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل من جهة أنه لا كلفة فيه ولا تعب، والذي طلبوا لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب، فهو أدنى في هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل في أنه لا ميزة في جلّه وحُلوصه، لنزوله من عند الله، والحبوب والأرض يتخللها البيوع والغصب، وتدخلها الشبهة فهي أدنى في هذا الوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويرتب الفضل للتمر والسلوى بهذه الوجوه كلها.

وفي الكلام حذف تقديره: فدعا موسى ربه فأجابه فقال لهم: ﴿أَفَيْطُوا﴾ وقد تقدم ذكر معنى الهبوط، وكأن القادم على قُطَيْرٍ مُنْصَبٍّ عليه، فهو من نحو الهبوط.

وجمهور الناس يقرءون ﴿مَصْرًا﴾ بالتثنية، وهو خط المصحف إلا ما حُكي عن بعض مصاحف عثمان رضي الله عنه، وقال مجاهد وغيره: مَنْ صَرَفَهَا أراد مصراً من الأمصار غير مُعَيَّن، واستدلوا بما اقتضاه القرآن من أمرهم بدخول القرية، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التيه. وقالت طائفة: من صرفها أراد مصراً فرعون بعينها، واستدلوا بما في القرآن من أن الله أورث بني إسرائيل ديار آل فرعون

وآثارهم، وأجازوا صرفها، قال الأخفش: لخصتها وشبهها بهند ودعد، وسيبويه لا يجيز هذا، وقال غير الأخفش: أراد المكان فصرف.

وقرأ الحسن، وأبان بن تغلب، وغيرهما: ﴿أَفَيْطُوا مِصْرَ﴾ بترك الصرف، وكذلك هي في مصحف أبي بن كعب، وقالوا: هي مصر فرعون. قال الأعمش: هي مصر التي عليها صالح بن علي، وقال أشهب: قال لي مالك: هي عندي مصر، قرنتك، مسكن فرعون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ يقتضي أنه وكلهم إلى أنفسهم، وقرأ النخعي، وابن وثاب: ﴿يَسْأَلُكُمْ﴾ بكسر السين وهي لغة، ﴿وَمُرِيتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالسَّكَنَةَ﴾ معناه: أَلزَمُوها، وَقُضِيَ عليهم بها، كما يُقال: ضرب الأمير البعث، وكما قالت العرب: ضربة لازب، أي إلزام مُلْزَم ولازم، فينضاف المصدر إلى المفعول بالمعنى، وكما يقال: ضرب الحاكم على اليد، أي حجر وألزم، ومنه: ضرب الدهر ضَرَبَاتِهِ، أي ألزم إلزاماته.

و ﴿الدَّلَّةُ﴾ فغلة من الدل، كأنها الهيئة والحال. ﴿وَالسَّكَنَةُ﴾ من المسكين، قال الزجاج: هي مأخوذة من السكون، وهي هنا زِيُّ الفقر وخضوعه، وإن وجد يهودي غني فلا يخلو من زِيِّ الفقر ومهاتته. قال الحسن وقتادة: المسكنة الخراج، أي الجزية، وقال أبو العالية: المسكنة الفاقة والحاجة.

﴿وَبَاؤُوا بِمَصْصِرَ يَتَ اللَّهُ﴾ معناه: مَرُّوا متحملين له، تقول: بُؤْتُ بكذا

أنبياء، كفعيل في المعتل نحو ولي وأولياء وصفي وأصفياء، وحكى الزهراوي أنه يقال: نبؤ إذا ظهر فهو نبى، والطريق الظاهر نبى بالهمز، وزوي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: السلام عليك يا نبي الله، وهمز، فقال له النبي ﷺ: «لست بنبي الله - وهمز - ولكني نبي الله». ولم يهمز -: قال أبو علي: ضَعَفَ سندُ هذا الحديث. ومما يَقْوِي ضعفه أنه ﷺ قد أنشده المادح:

يَا خَاتِمَ النَّبَاءِ.

ولم يؤثّر في ذلك إنكار، والجمع كالواحد.

وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُ النَّبِيَّ﴾ تعظيم للشُّعْعة والذنب الذي أتوه، ومعلوم أنه لا يقتل نبي بحق، ولكن من حيث قد يتخيل مُتَخَيِّلٌ لذلك وجهاً، فصرح قوله ﴿يَتَّبِعُ النَّبِيَّ﴾ عن شُعْعة الذنب ووضوحه، ولم يَجْتَرَمَ قَطُّ نبي ما يُوجِبُ قتله. وإنما أباح الله تعالى من أباح منهم، وسلط عليهم، كرامة لهم، وزيادة في منازلهم، كمثّل مَنْ يُقتل في سبيل الله من المؤمنين قال ابن عباس وغيره: «لم يقتل قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال، وكل من أمر بقتال نُصِرَ»، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ ردّ على الأول وتأكيّد للإشارة إليه والباء في (بِمَا) باء السبب، و﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ معناه يتجاوزون الحدود، والاعتداء: تجاوز الحد في كل شيء، وعرفه في الظلم والمعاصي.

١٢١ - ١٢٢ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون في المراد بالذين آمنوا في هذه الآية، فقال سفيان الثوري: هم المنافقون في أمة

في موضعين: في سورة الأحزاب ﴿إِنْ وَبَّيْتَ نَفْسَكَ لِلنَّاسِ إِنَّكَ أَرَادَ النَّبِيَّ﴾ بلا مد ولا همز، و ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين من جنس واحد. وترك الهمز في جميع ذلك الباقون، فأما من همز فهو عنده من أنباء إذا أخبر، واسم فاعله مثنىة قفيل: نبي بمعنى مثنىة كما قيل: سميع بمعنى مُسمع، واستدلوا بما جاء من جمعه على نبأه قال الشاعر:

يَا خَاتِمَ النَّبَاءِ إِنَّكَ مُرْسَلٌ
بِالْحَقِّ، كُلُّ هَذِي إِلَهٍ هَذَاكَ
فهذا كما يجمع فعيل في الصحيح كظريف وظرفاء وشبهه. قال أبو علي: زعم سيبويه أنهم يقولون في تحقير النبوة: «كان مُسِيلَةً نُبُوَّتُهُ نُبِيَّةً سُوًى». وكلهم يقولون: تَنَبَّأَ مسيلمه. فاتفقهم على ذلك دليل على أن اللام همزة.

واختلف القائلون بترك الهمز في نبي، فمنهم من اشتق اشتقاق مَنْ هَمَزَ، ثم سَهَّلَ الهمز، ومنهم من قال: هو مشتق من نَبَأَ يَنْبِئُ إذا ظهر، فالنبي الطريق الظاهر، وكان النبي من عند الله طريق الهدى والنجاة، وقال الشاعر:

لَمَّا وَرَدَنَ نَبِيًّا وَاسْتَشَبَّ بِنَا
مُسَخَّنْفَرٍ كَخَطُوطِ السَّيْحِ مُنْسَجِلٍ
واستدلوا بأن الأغلب في جمعه

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢١﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
يَقُولُوا وَادِّكُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُفْقَنُونَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿١٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ ﴿١٢٤﴾ فَعَلَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَذْبُحُونَهَا
هَؤُلَاءِ قَالُوا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٢٦﴾ قَالُوا
ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا فِيهِ قَالَتْ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَرَأَ
وَلَا يَكْرَهُونَ أَنْ يَتَّخِذَ ذَلِكَ مَا فَعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿١٢٧﴾
قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوُحُهَا تَسْوَرُّ لُطْيَرًا ﴿١٢٨﴾

أني تحملته، ومنه قول مهلهل لبجير بن الحارث بن عباد: «بُؤُ يَشِمُ نَعْلِي كُتَيْبٍ».

والغضب بمعنى الإرادة صفة ذات، وبمعنى إظهاره على العبد بالمعاقبة صفة فعل، والإشارة بذلك إلى ضرب الذلة وما بعده.

والباء في ﴿يَأْتِيهِمْ﴾ باء السبب، وقال المهدي: إن الباء بمعنى اللام، والمعنى: لأنهم. والآيات هنا تحتل أن يراد بها التسع وغيرها ما يخرق العادة، وهي علامة لصديق الآتي بها، ويحتمل أن يراد آيات التوراة التي هي كآيات القرآن.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿وَتَقْتُلُونَ﴾ بالتاء على الرجوع إلى خطابهم وزوي عنه أيضاً بالياء، وقرأ نافع بهمز ﴿النَّبِيِّينَ﴾ وكذلك حيث وقع في القرآن إلا

محمد ﷺ، كأنه قال: إن الذين آمنوا في ظاهر أمرهم، وقرنهم باليهود والنصارى والصابئين، ثم بين حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم، فمعنى قوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ - في المؤمنين المذكورين - مَنْ حَقَّقَ وأخلص، وفي سائر الفرق المذكورة - مَنْ دَخَلَ في الإيمان. وقالت فرقة: الذين آمنوا هم المؤمنون حقاً بمحمد ﷺ، وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ يكون فيهم، بمعنى: مَنْ ثبت ودام، وفي سائر الفرق بمعنى مَنْ دَخَلَ فيه. وقال السدي: هم أهل الحنيفية يمتن لم يلحق محمداً ﷺ كزيد بن عمرو بن ثعليل، وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل، والذين هادوا كذلك يمتن لم يلحق محمداً ﷺ، إلا من كفر بعيسى عليه السلام، والنصارى كذلك يمتن لم يلحق محمداً ﷺ، والصابئين كذلك، وقيل: إنها نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، وذكر له الطبري قصة طويلة، وحكاها أيضاً ابن إسحق، مقتضاها: أنه صحب عبداً من النصارى فقال له آخرهم: إن زمان نبي قد أطل، فإن لحقت فآمن به، ورأى منهم عبادة عظيمة، فلما جاء إلى النبي ﷺ وأسلم، ذكر له خبرهم، وسأله عنهم، فنزلت هذه الآية.

وروي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في أول الإسلام، وقرر الله بها أن مَنْ آمَنَ بمحمد ﷺ، ومَنْ بقي على يهوديته ونصرانيته وصابئيته، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر فله أجره، ثم نسخ ما قرر من ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا

فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، وردت الشرائع كلها إلى شريعة محمد ﷺ.

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ هم اليهود، وسُمُّوا بذلك لقولهم: ﴿إِنَّا هُنَا لَكُمْ﴾ أي: تبنا، فاسمهم على هذا من هاد، يهود. وقال الشاعر:

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ مَذْجِهِ هَادٍ

أي تائب، وقيل: نُسبوا إلى يهودا بن يعقوب، فلما غُرب الاسم لحقه التغيير كما تُغَيَّرُ العرب في بعض ما عريت من لغة غيرها، وحكى الزهراوي: أن التهويد النطق في سكون وقار ولين، وأنشد:

وَحُوذُ مِنَ اللَّائِي تَسْمَعُنَ بِالضُّحَى

قَرِيضَ الرَّدَافِي بِالْغِنَاءِ الْمُهْودِ
قال: ومن هذا سميت اليهود، وقرأ أبو السمال «هَادُوا» بفتح الدال.

﴿وَالضَّرِيزَةُ﴾ لفظة مشتقة من الضَّيْر، إما لأن قريتهم تسمى ناصرة، ويقال: نصرياً، ويقال: نصرتنا، وإما لأنهم تناصروا، وإما لقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ آمَنَ بِي إِلَى اللَّهِ؟﴾ قال سيبويه: واحِدُهُ نَصْرَانٌ وَتَضْرَانَةٌ كَتُذْمَانٍ وَتُذْمَانَةٌ وندامى، وأنشد:

فَكَلْنَا هُمَا خَرْتُ وَأَسْجَدَ رَأْسُهَا

كما سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحْتَفِ وَأَنشد الطبري:

يَظَلُّ إِذَا دَارَ الْعَيْشِيُّ مُحْتَفَاً

ويُضْحِي لَدَيْهِ وَهُوَ نَصْرَانٌ شَامِسٌ
قال سيبويه: إلا أنه لا يستعمل في الكلام إلا بياء نسب، قال الخليل: واحد النصارى نصري كمهري ومهاري.

والصابيء في اللغة: مَنْ خَرَجَ من دين إلى دين، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم: قد صَبَا، وقيل: إنما سميتهم بذلك لما أنكروا الآلهة، تشبيهاً بالصابئين في الموصول الذين لم يكن لهم بَرٌّ إلا قولهم: «لا إله إلا الله». وطائفة هَمَزَتْهُ وجعلته من صَبَاتِ النجوم إذا طلعت وصَبَاتُ ثِيْبَةُ الغلام إذا خرجت، قال أبو علي: يقال: صَبَاتَ على القوم بمعنى طرأَتْ، فالصابيء التارك لدينه الذي شَرع له، إلى دين غيره، كما أن الصابيء على القوم تارك لأرضه ومنتقل إلى سواها، وبالهمز قرأ القراء غير نافع، فإنه لم يهمز، ومن لم يهمز جعله من صَبَا يَصْبُو إذا مال، أو يجعله على قلب الهزمة ياء، وسيبويه لا يجيزه إلا في الشعر.

وأما المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿وَالضَّرِيزَةُ﴾ فقال السدي: هم فرقة من أهل الكتاب، وقال مجاهد: هم قوم لا دين لهم، ليسوا بيهود ولا نصارى، وقال ابن أبي نجيع: هم قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية لا تؤكل ذبائحهم، وقال ابن زيد: هم قوم يقولون: «لا إله إلا الله»، وليس لهم عمل ولا كتاب، كانوا بجزيرة الموصل، وقال الحسن بن أبي الحسن، وفتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى القبلة، ويصلون الخمس، ويقرؤون الزبور، رآهم زياد بن أبي سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حتى عرف أنهم يعبدون الملائكة.

و ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ آمَنَ

يَأْتِيهِ، في موضع نصب بدل من ﴿الَّذِينَ﴾ والفاء في قوله: ﴿فَلَهُمْ﴾ داخلة بسبب الإيهام الذي في (مَنْ)، و ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ابتداء وخبر، في موضع خبر (إِنْ)، ويحتمل ويحسن أن تكون (مَنْ) في موضع رفع بالابتداء، ومعناها الشرط، والفاء في قوله: ﴿فَلَهُمْ﴾ مُوطئة أن تكون الجملة جوابها، و ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ خبر (مَنْ)، والجملة كلها خبر (إِنْ)، والعائد على (الَّذِينَ) محذوف لا بد من تقديره وتقديره: (مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله). وفي الإيمان باليوم الآخر اندرج الإيمان بالرسول والكتب، ومنه يفهم - لأن البعث لم يعلم إلا بإخبار رسول الله عنه تبارك وتعالى. وجمع الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، بعد أن وحد في (مَنْ آمَنَ) لأن (مَنْ) تقع على الواحد والتثنية والجمع، فجاز أن يخرج ما بعدها مفرداً على لفظها، أو مثني أو مجموعاً على معناه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَنْتَهِمْ عَنْ تَبَوُّهِ آلِهِ﴾، فجمع على المعنى، وكقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ ثم قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، فجمع على المعنى. وقال الفرزدق:

تَعَالَى فَإِنْ عَاهَدْتَنِي لَا تَخُونَنِي
نَكْرٌ مِثْلَ مَنْ يَأْذِيبُ يَضْطَجِبَانِ
فثنى على المعنى. وإذا جرى ما بعد من على اللفظ فجاز أن يخالف به بعد على المعنى، وإذا جرى ما بعدها على المعنى فلم يستعمل أن يخالف به بعد على اللفظ، لأن الإلباس يدخل في الكلام. وقرأ

الحسن: ﴿وَلَا خَوْفٌ﴾ نصب على التبرئة، وأما الرفع فعلى الابتداء، وقد تقدم القول في مثل هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾، ﴿إِذْ﴾ معطوفة على التي قبلها، والميثاق مفعال من وَثَّقَ يَثِقُ مثل ميزان من وَزَنَ يَزِنُ، و ﴿أَطْلُورُ﴾ اسم الجبل الذي نوجي موسى عليه، قاله ابن عباس، وقال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم: الطور اسم لكل جبل، ويستدل على ذلك بقول العجاج:

ذَاتِي جَنَاحِيهِ مِنَ الطُّورِ قَمَزَ
تَقْضِي الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَزَ
وقال ابن عباس أيضاً: الطور كل جبل يثبت، وكل جبل لا يثبت فليس بطور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله على أن اللفظة عربية، وقال أبو العالية، ومجاهد: هي سريانية، اسم لكل جبل.

وقصص هذه الآية: أن موسى عليه السلام لما جاء إلى بني إسرائيل من عند الله تعالى بالألواح فيها التوراة قال لهم: خذوها والتزموها، فقالوا: لا، إلا أن يُكَلِّمَنَا الله بها كما كلمك، فصعقوا، ثم أحيوا، فقال لهم: خذوها، فقالوا: لا، فأمر الله تعالى الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان عسكرهم، فجعل عليهم مثل الظلة، وأخرج الله تعالى البحر من ورائهم وأضرم ناراً بين أيديهم، فأحاط بهم غضبه، وقيل لهم: خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها وإلا سقط عليكم الجبل، وغرقكم

البحر، وأحرقتكم النار، فسجدوا توبةً لله، وأخذوا التوراة بالميثاق. وقال الطبري رحمه الله عن بعض العلماء: لو أخذوها أول مرة لم يكن عليهم ميثاق، وكانت سجدتهم على شق لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفاً، فلما رحمهم الله قالوا: لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها، فأمرُوا سجودهم على شق واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي لا يصح سواء، أن الله تعالى اخترع - وقت سجودهم - الإيمان في قلوبهم لا أنهم آمنوا كرهاً وقلوبهم غير مطمئنة، وقد اختصرت ما سرد في قصص هذه الآية، وقصدت أصحها الذي تقتضيه ألفاظ الآية، وخلط بعض الناس صَغَفَةَ هذه القصة بصَغَفَةِ السبعين.

وقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَكُمْ يَقْوَاهُ﴾ في الكلام حذف تقديره: وقلنا: خذوا. و ﴿آتَيْنَكُمْ﴾ معناه: أعطيناكم، و ﴿يَقْوَاهُ﴾، قال ابن عباس معناه: بجهد واجتهاد، وقيل: بكثرة درس، وقال ابن زيد: معناه بتصديق وتحقيق، وقال الربيع: معناه بطاعة الله، ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، أي تذكروا واحفظوا أوامره وعيده ولا تنسوه ولا تضيعوه. والضمير عائد على ﴿مَا آتَيْنَكُمْ﴾، ويعني التوراة، وتقدير صلة (مَا) واذكروا ما استقر فيه، و ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، تَرَجَّحَ في حق البشر.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يُولَئْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الآية، تَوَلَّى تَفَعَّلَ، وأصله الإعراض والإبصار عن الشيء

بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعاً ومجازاً.

و ﴿فَضَّلَ اللَّهُ﴾ رفع بالابتداء والخبر مضمرة عند سيويه لا يجوز إظهاره للاستغناء عنه، تقديره: فلولا فضل الله عليكم تدارككم، ﴿رَحِمْتَهُ﴾ عطف على (فضل). قال قتادة فضل الله الإسلام، ورحمته القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن المخاطب بقوله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لفظاً ومعنى من كان في مدة محمد ﷺ، والجمهور على أن المراد بالمعنى من سلف، و ﴿لَكُنْكُمْ﴾ جواب (لَوْلا)، و ﴿وَجَنَّ الْفُقَرَاءَ﴾ خبر كان، والخُسران، الثُّفُفان.

وَتَوَلَّيْهِمْ من بعد ذلك إما بالمعاصي، فكان فضل الله بالتوبة والإمهال إليهما، وإما أن يكون توليهم بالكفر، فكان فضل الله بأن لم يُعَاجِلْهُم بالإهلاك ليكون من ذريتهم من يؤمن، أو يكون المراد من لحق محمداً ﷺ، وقد قال ذلك قوم، وعليه يتجه قول قتادة: إن الفضل الإسلام، والرحمة القرآن، ويتجه أيضاً أن المراد بالفضل والرحمة إدراكهم مدة محمد ﷺ.

١٥ - ١٧ تفسير قوله عز وجل:

﴿عَلَيْكُمْ﴾ معناه: عرفتم، كما تقول: علمت زيدا بمعنى عرفته فلا يتعدى العلم إلا إلى مفعول واحد، و ﴿أَعْتَدْنَا﴾ معناه: تجاوزوا الحد مصرف من الاعتداء، و ﴿وَجَنَّ﴾ أَلَسَّيْتُ معناه: في يوم السبت،

ويحتمل أن يريد في حكم السبت، و ﴿أَلَسَّيْتُ﴾ إما مأخوذ من السُّبُوت الذي هو الراحة والدُّعَة، وإما من السُّبُت هو القطع، لأن الأشياء فيه سبتت وتمت خلقتها.

وقصة اعتدائهم فيه: أن الله عز وجل أمر موسى عليه السلام بيوم الجمعة، وعرفه فضله، كما أمر به سائر الأنبياء، فذكر موسى ذلك لبني إسرائيل عن الله، وأمرهم بالتشريع فيه، فأبوا، وتعدوه إلى يوم السبت، فأوحى الله إلى موسى أن دعهم وما اختاروا من ذلك، وامتنحهم فيه بأن أمرهم بترك العمل، وحرصهم عليهم صيد الحيتان، وشدد عليهم اليمين بأن كانت الحيتان تأتي يوم السبت حتى تخرج إلى الألفية. قاله الحسن بن أبي الحسن، وقيل: حتى تخرج خراطيمها من الماء، وذلك إما بإلهام من الله تعالى، أو بأمر لا يعمل، وإما بأن فهمها معنى الأمانة التي في اليوم مع تكراره حتى فهمت ذلك، ألا ترى أن الله تعالى قد أَلْهَمَ الدواب معنى الخوف الذي في يوم الجمعة من أمر القيامة؟ يقضي بذلك قول النبي ﷺ: «وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة فرقاً من الساعة» وحمام مكة قد فهم الأمانة إما أنها متصلة بقرب فهمها.

وكان أمر بني إسرائيل بأئيلة على البحر، فإذا ذهب السبت ذهب الحيتان فلم تظهر إلى السبت الآخر، فبقوا على ذلك زماناً حتى اشتبها الحوت، فعمد رجل يوم السبت فربط حوتاً بِخَزَمَةٍ وضرب له وتداً بالساحل، فلما ذهب السبت جاء

وأخذه فسمع قوم بفعله فصنعوا مثل ما صنع، وقيل: بل خَفَر رجل في غير السبت حفيراً، فخرج إليه البحر فإذا كان يوم السبت خرج الحوت وحصل في الحفير، فإذا جَزَر ذهب الماء من طريق الحفير وبقي الحوت، فجاء بعد السبت فأخذه، ففعل قوم مثل فعله، وكثر ذلك حتى صادوه يوم السبت علانية، وباعوه في الأسواق، فكان هذا من أعظم الاعتداء، وكانت من بني إسرائيل فرقة نَهَتْ عن ذلك، فنَجَتْ من العقوبة، وكانت منهم فرقة لم تعص ولم تنه، فقيل: نَجَتْ مع الناهين، وقيل هلكت مع العاصين.

و ﴿كُونُوا﴾ لفظة أمر، وهو أمر التكوين، كقوله تعالى لكل شيء: ﴿كُنْ يَكُونُ﴾ ولم يؤمروا في المصير إلى حال المسخ بشيء يفعلونه ولا لهم فيه تكسب، و ﴿خَيْرِيكَ﴾ معناه: مبعدين أذلاء صاغرين كما يقال للكلب وللمطرود: إخساً، تقول: خسأته فخسأ، وموضعه من الإعراب، النصب على الحال، أو على خبر بعد خبر.

وروي في قصصهم أن الله تعالى مسخ العاصين قردةً بالليل، فأصبح الناجون إلى مساجدهم ومجتمعاتهم، فلم يروا أحداً من الهالكين، فقالوا: إن للناس لشأناً، ففتحوا عليهم الأبواب كما كانت مغلقة بالليل، فوجدوهم قردة، يعرفون الرجل والمرأة، وقيل: إن الناجين كانوا قد قسموا بينهم وبين العاصين القرية بجدار، تبرأ منهم،

فأصبحوا ولم تفتح مدينة الهالكين، فتسوروا عليهم الجدار، فإذا هم قردة يشب بعضهم على بعض.

وروي عن النبي ﷺ وثبت، أن المسوخ لا تنسل، ولا تأكل، ولا تشرب، ولا تعيش أكثر من ثلاثة أيام، ووقع في كتاب مسلم، عنه عليه السلام: «أن أمة من الأمم فقدت وأرامها الفأر»، وظاهر هذا أن المسوخ تنسل، فإن كان أراد هذا فهو ظن منه عليه السلام في أمر لا مدخل له في التبليغ، ثم أوجي إليه بعد ذلك أن المسوخ لا تنسل. ونظير ما قلناه نزوله عليه السلام على مياه بدر، وأمره باطراح تذكير النخل، وقد قال ﷺ: «إذا أخبرتكم برأي في أمور الدنيا فإنما أنا بشر».

وروي عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه مسخت قلوبهم فقط، وزدت أفهامهم كأفهام القردة، والأول أقوى وأظهر. والضمير في ﴿لَجَعَلْنَاهُمْ﴾ يحتمل العود على المسحة والعقوبة، ويحتمل على الأمة التي مسخت، ويحتمل على القردة، ويحتمل على القرية إذ معنى الكلام يقتضيها وقيل: يعود على الحيتان، وفي هذا القول بُعِدَ.

والثُّكَّالُ: الزُّجَر والعقاب، والثُّكَّال والأنكال قيود الحديد، فالثُّكَّال عقاب يُنْكَل بسببه غير المعاقب عن أن يفعل مثل ذلك الفعل، قال السدي: ما بين يدي المسخة ما قبلها من ذنوب القوم، وما خلفها لمن يذنب بعدها مثل تلك الذنوب، وهذا قول جيد. وقال غيره: ما بين يديها أي من حضرها من الناجين، وما

خلفها لمن يجيء بعدها، وقال ابن عباس: لما بين يديها أي من بعدهم من الناس لِيُخَذَّرَ ويتقي، وما خلفها، لمن بقي منهم عبرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما أراه يصح عن ابن عباس رضي الله عنه، لأن دلالة ما بين اليد ليست كما في القول، قال ابن عباس أيضاً: لما بين يديها وما خلفها أي من القري، فهذا ترتيب أجرام لا ترتيب في الزمان و﴿مَوْعِظَةً﴾ مَفْقَلَةٌ من الانسماط والازدجار، و﴿لَتُنْفِكَ﴾ معناه: للذين نُهُوا ونُجُوا، وقالت فرقة: معناه لأمة محمد ﷺ، واللفظ يعم كل متي من كل أمة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقَالُ مَوْسَى﴾ الآية، ﴿إِذْ﴾ عطف على ما تقدم، والمراد تذكيرهم بنقض سلفهم للميثاق، وقرأ أبو عمرو: ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ بإسكان الراء، وروي عنه اختلاس الحركة، وقد تقدم القول في مثله في ﴿بَارِكُمْ﴾.

وسبب هذه الآية على ما روي أن رجلاً من بين إسرائيل أسن، وكان له مال، واستبطأ ابن أخيه موته، وقيل: أخوه، وقيل: ابنا عمه، وقيل: ورثه كثير غير معينين - فقتله ليرثه، وألقاه في سبط آخر غير سبطه ليأخذ دينته، وَيُلْطَخُهُمْ بدمه، وقيل: كانت بنو إسرائيل في قريتين متجاورتين فألقاه إلى باب أحد المدينتين، وهي التي لم يُقتل فيها، ثم جعل يطلبه هو وسبطه حتى وجده قتيلاً، فتعلق بالسيط أو بسكان المدينة التي وجد القاتل عندها، فأنكروا قتله، فوقع

بين بني إسرائيل في ذلك لحاء حتى دخلوا في السلاح. فقال أهل النهي منهم: أنقتل رسول الله معنا؟ فذهبوا إلى موسى عليه السلام، فقصوا عليه القصة، وسألوه البيان، فأوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة فيضرب القاتل ببعضها فيحيا ويخبر بقاتله، فقال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ فكان جوابهم أن قالوا: ﴿أَتَذْبَحُ هَزْؤاً﴾.

قرأ الجحدري: ﴿أَتَذْبَحُونَ﴾ بالياء على معنى أيتخذنا الله؟ وقرأ حمزة: ﴿هَزْؤاً﴾ بإسكان الزاي والهمز، وهي لغة، وقرأ عاصم ﴿هَزْؤاً﴾ بضم الزاي والهاء والهمز، وقرأ أيضاً دون همز ﴿هَزْؤاً﴾ حكاة أبو علي، وقرأت طائفة من القراء بضم الهاء والزاي، والهمزة بين بين، وروي عن أبي جعفر، وشيبة ضم الهاء وتشديد الزاي ﴿هَزْؤاً﴾.

وهذا القول من بني إسرائيل ظاهره فساد اعتقاد يَمُنُّ قاله، ولا يصح الإيمان ممن يقول لنبي قد ظهرت معجزته، وقال: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، أتخذنا هزْؤاً، ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبي ﷺ لوجب تكفيره، وذهب قوم إلى ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية، على نحو ما قال القائل للنبي ﷺ في قسمة غنائم حنين: «إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله» وكما قال له الآخر: «أعدل يا محمد»، وكل محتمل والله أعلم.

وقول موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، يحتمل

تَشَابَهَ، وهي قراءة يحيى بن يعمر، فأدغم، وقرأ أيضاً ﴿تَشَابَهَ﴾ بتخفيف الشين على حذف التاء الثانية، وقرأ ابن مسعود ﴿يَشَابَهَ﴾ بالياء وإدغام التاء، وحكى المهدوي عن المعيطي ﴿تَشَبَّهَ﴾ بتشديد الشين والياء دون ألف، وحكى أبو عمرو الداني قراءة ﴿مُتَشَبَّهٌ﴾ اسم فاعل من تَشَبَّهَ، وحكى أيضاً ﴿يَتَشَابَهُ﴾.

وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنابة ما، وانقياد، ودليل ندم، وحرص على موافقة الأمر، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿لَوْ لَا مَا اسْتَشْنَوْنَا مَا اهْتَدَوْا إِلَيْهَا أَبَدًا﴾، والضمير في ﴿إِنَّ﴾ هو اسم (إِنَّ)، و﴿مهتدون﴾ الخبر، واللام للتأكيد، والاستثناء اعتراض قُدِّم على ذكر الاهداء تَهْمُماً به.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿ذُلُّوا﴾ مُذَلَّلَةٌ بالعمل والرياضة، تقول بقرة ذلول، بينة الذل، بكسر الذال، ورجل ذلول، بَيِّنُ الذل بضم الذال وذلول نعت لبقرة أو على إضمار هي، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ﴿لَا ذُلُّوا﴾ بنصب اللام.

و﴿يُتِيرُ الْأَرْضَ﴾ معناه بالحراثة، وهي عند قوم: جملة في موضع رفع على صفة البقرة أي: لا ذلول مثيرة. وقال قوم: تشير فعل مستأنف، والمعنى إيجاب الحرث، وأنها كانت تحرث ولا تسقي، ولا يجوز أن تكون هذه الجملة في موضع الحال، لأنها من نكرة.

و﴿سَقَى الْمَرْثَ﴾ معناه بالسانية أو غيرها من الآلات، والحرث: ما حُرِّثَ وَزُرِعَ. و﴿مُسَكَّمَةً﴾ بناءً مبالغة

من السلامة، قال ابن عباس وقتادة، وأبو العالية: معناه من العيوب وقال مجاهد، وقتادة: معناه من الشيات والألوان، وقال قوم: معناه من العمل ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ أي لا خلاف في لونها، هي صفراء كلها، لا بياض فيها، ولا حمرة، ولا سواد. قاله ابن زيد، وغيره. والموشى المختلط الألوان، ومنه وشي الثوب تزيينه بالألوان، ومنه الواشي لأنه يزين كذبه بالألوان من القول، والتَّوْزُ الأُشْيُه الذي فيه بُلُقَةٌ. يُقَالُ: فَرَسٌ أَبْلَقُ، وَكَبْشٌ أَخْرَجَ، وَتَيْسٌ أَبْرَقَ، وَكَلْبٌ أَبْقَعَ، وَتَوَزَّ أَشْيَاهُ، كل ذلك بمعنى البُلُقَةِ.

وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شددوا فشد الله عليهم، ودين الله يسر، والتعمق في سؤال الأنبياء مذموم.

وقصة وجود هذه البقرة على ما روي أن رجلاً من بني إسرائيل ولِدَ له ابن، وكانت له عجلة فأرسلها في غيضة، وقال: اللهم إني استودعتك هذه العجلة لهذا الصبي، ومات الرجل، فَلَمَّا كَبِرَ الصَّبِيُّ قَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: إِنَّ أَبَاكَ كَانَ قَدْ اسْتَوْدَعَكَ اللَّهُ عَجَلَةً لَكَ، فَاذْهَبْ فَخُذْهَا، فَذَهَبَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْبَقْرَةُ جَاءَتْ إِلَيْهِ حَتَّى أَخَذَ بِقَرْنَيْهَا، وَكَانَتْ مُسْتَوْحِشَةً فَجَعَلَ يَقْرُدُهَا نَحْوَ أُمِّهِ، فَلَقِيَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَوَجَدُوا بِقَرْتَهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي أَمَرُوا بِهَا.

وروت طائفة أنه كان رجل من بني إسرائيل برأ بأبيه، فنام أبوه يوماً وتحت رأسه مفتاح مسكنهما، فمر به بائع جوهر، فسامه فيه بستانين

ألفاً، فقال له ابن النائم: اصبر حتى ينتبه أبي، وأنا آخذه منك بسبعين ألفاً، فقال صاحب الجوهر: أنبه أباك وأنا أعطيكه بخمسين ألفاً، فدام كذلك حتى بلغه مائة ألف وانحط صاحب الجوهر إلى ثلاثين ألفاً، فقال له ابن النائم: والله لا أشتريه منك بشيء، برأ بأبيه، فعوضه الله منه أن وجدت البقرة عنده.

وقال قوم: وجدت عند عجوز تعول يتامى كانت البقرة لهم، إلى غير ذلك من اختلاف في قصتها، هذا معناه، فلما وجدت البقرة ساموا صاحبها، فاشتط عليهم، وكانت قيمتها على ما روي عن عكرمة ثلاثة دنانير، فأتوا به موسى عليه السلام، وقالوا: إن هذا اشتط علينا، فقال لهم: أَرْضَوْهُ فِي مِلْكِهِ فاشتروها منه بوزنها مرة، قَالَهُ عُبَيْدَةُ السَّلْمَانِي، وقيل: بوزنها مرتين، وقال السدي: بوزنها عشر مرار. وقال مجاهد: كانت لرجل يبرأ أمه، وأخذت منه بملء جلد لها دنانير، وحكى مكي أن هذه البقرة نزلت من السماء، ولم تكن من بقر الأرض، وحكى الطبري عن الحسن أنها كانت وحشية.

و﴿الْقَنَ﴾ مبني على الفتح، ولم يتعرف بهذه الألف واللام، ألا ترى أنها لا تفارقه في الاستعمال؟ وإنما بُنِيَ لِأَنَّهُ ضَمَّنَ مَعْنَى حَرْفِ التَّعْرِيفِ، وَلَأَنَّهُ وَاقِعٌ مَوْقِعُ الْمُبْهَمِ، إِذْ مَعْنَاهُ هَذَا الْوَقْتُ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا بَيْنَ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَقُرِئَ: ﴿قَالُوا الْآنَ﴾ بسكون اللام وهمزة بعدها، و﴿قَالُوا الْآنَ﴾ بمدة على الواو وفتح اللام دون همز، و﴿قَالُوا

حيي، وأخبر بقاتله عاد ميتاً كما كان، واستدل مالك رحمه الله بهذه النازلة على تجويز قول القاتل، وأن تقع معه القسامة.

٧٤ - ٧٥ تفسير قوله عز وجل:

﴿تَسْتَأْذِنُ أَيَّ صَلَبَةٍ أَيَّ صَلَبَةٍ وَجَعْتَ، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى. وقال ابن عباس: المراد قلوب ورثة القاتل، لأنهم حين حيي، وقال: إنهم قتلوه، وعاد إلى حال موته أنكروا قتله، وقالوا: كذب. بعد ما رأوا هذه الآية العظمى لكن نفذ حكم الله تعالى بقتلهم. قال عبيدة السلماني: ولم يرث قاتل من حيثئذ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبمثلها جاء شرعنا وحكي، مالك رحمه الله في الموطأ: أن قصة أحيحة بن الجلاح في عمه هي التي كانت سبباً ألا يرث قاتل ثم ثبت ذلك الإسلام كما ثبت كثيراً من نوازل الجاهلية. وقال أبو العالية، وقتادة، وغيرهما: إنما أراد الله قلوب بني إسرائيل جميعاً في معاصيهم وما ركبوه بعد ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ الآية، الكاف في موضع رفع خبر لهي تقديره فهي مثل الحجارة ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ مرتفع بالمعطف على الكاف، أو على خبر الابتداء بتقدير تكرر هي، و ﴿قَسْوَةً﴾ نصب على التمييز. والعرف في ﴿أَوْ﴾، أنها للشك، وذلك لا يصح في هذه الآية. واختلف في معنى ﴿أَوْ﴾، هنا، فقالت طائفة: هي بمعنى الواو كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَوْ كَفَرًا﴾، أي

مِذْرًا يَذَرُ الْخُصُومَ يَقُولُ مِثْلُ خَدِّ الصَّنَمَةِ الْهُذُونِي والضمير في قوله ﴿فَهِيَ﴾ عائد على النفس، وقيل: على القتلة. وقرأ أبو حنيفة، وأبو السوار الغنوي ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَسَمَةً فَادْرَأْتُمْ﴾.

وقرأت فرقة: ﴿فَتَدَارَأْتُمْ﴾ على الأصل. وموضع (ما) نصب بمخرج والمكتوم هو أمر المقتول. وقوله: ﴿أَضْرِبُوهُ بِعَصَاهُ﴾، آية من الله تعالى على يدي موسى عليه السلام، أن أمرهم أن يضربوا ببعض البقرة القاتل، فَيَحْيَا ويخبر بقاتله، فقيل: ضربه: وقيل: ضربوا قبره لأن ابن عباس ذكر أن أمر القاتل وقع قبل جواز البحر، وأنهم داموا في طلب البقرة أربعين سنة، وقال القرظي: لقد أمروا بطلبها وما هي في صلب ولا رحم بعد. وقال السدي: ضرب باللحمة التي بين الكتفين وقال مجاهد، وقتادة، وعبيدة السلماني: ضرب بالفخذ، وقيل ضرب باللسان، وقيل: بالذنب، وقال أبو العالية: بعظم من عظامها. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَةَ﴾، الإشارة بذلك إلى الإحياء الذي تضمنه قصص الآيات، إذ في الكلام حذف تقديره فضره فحي. وفي هذه الآية حض على العبرة، ودلالة على البعث في الآخرة، وظاهرها أنها خطاب لبني إسرائيل حيثئذ، حكي لمحمد ﷺ لِيُتَبَرَّكَ بِهِ إلى يوم القيامة، وذهب الطبري إلى أنها خطاب لمعاصري محمد ﷺ، وأنها مقطوعة من قوله: ﴿أَضْرِبُوهُ بِعَصَاهُ﴾ ورؤي أن هذا القاتل لما

الآن بحذف الواو من اللفظ دون همز، و ﴿قَالُوا آلَانُ﴾ بقطع الألف الأولى وإن كانت ألف وصل، كما تقول: يا الله.

و ﴿جِئْتُ بِالْحَقِّ﴾ معناه عند من جعلهم عصاة: يثبت لنا غاية البيان، وجئت بالحق الذي طلبناه، لا أنه كان يجيء قبل ذلك بغير حق، ومعناه عند أبي زيد الذي حمل محاورتهم على الكفر: الآن صدقت، وأذعنوا في هذه الحال حين بين لهم أنها سليمة، وقيل: إنهم عيَّنوها مع هذه الأوصاف، وقالوا هذه بقرة فلان، وهذه الآية تُعْطِي أن الذبح أصل في البقر، وإن نحررت أجزت.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، عبارة عن تشبهم في ذبحها، وقلة مبادرتهم إلى أمر الله. وقال محمد بن كعب القرظي: كان ذلك منهم لغلاء البقرة وكثرة ثمنها، وقال غيره: كان ذلك خوف الفضيحة في أمر القاتل. وقيل: كان ذلك للمعهود من قلة انقيادهم، وتعتهم على الأنبياء، وقد تقدم قصص القاتل الذي يراد بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾، والمعنى قلنا لهم اذكروا إِذْ قَتَلْتُمْ، و ﴿فَادْرَأْتُمْ﴾ أصله: (تدارأتم). أدغمت التاء في الدال، فتعذر الابتداء بمُدْعَم فجلبت ألف الوصل، ومعناه تدافعتم أي دفع بعضكم قتل القاتل إلى بعض. قال الشاعر:

صَادَفَ ذُرَّةَ السَّيْلِ ذُرَّةً يَذْفَعُهُ

وقال الآخر:

وكفوراً. وكما قال الشاعر:

نَالِ الْخِلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قُدْرًا
كَمَا أَتَى رَبِّهِ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ

أي وكانت له. وقالت طائفة: هي بمعنى بل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَأْتِيَنَّكَ أَلْفٌ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، المعنى بل يزيدون. وقالت طائفة: معناها

التخيير، أي شبهوها بالحجارة تصيبوا، أو بأشد من الحجارة تصيبوا. وقالت فرقة: هي على بابها في الشك، ومعناه عندكم أيها المخاطبون، وفي نظرمكم أن لو شاهدتم قسوتها لشككنتم: أهى كالحجارة أو أشد من الحجارة؟ وقلت فرقة: هي على جهة الإبهام على المخاطب، ومنه قول أبي الأسود الدؤلي:

أَجِبْ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا
وَعَبَّاسًا وَخَنْزَرَةً أَوْ عَلِيًّا

ولم يشك أبو الأسود، وإنما قصد الإبهام على السامع، وقد عورض أبو الأسود في هذا واحتج بقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْفَيْنَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وهذه الآية مفارقة لببت أبي الأسود، ولا يتم معنى الآية إلا بأو. وقالت فرقة: إنما أراد الله تعالى أن فيهم من قلبه كالحجر، وفيهم من قلبه أشد من الحجر، فالمعنى فهي فرقتان كالحجارة أو أشد، ومثل هذا قولك أطعمتك الحلو أو الحامض، يريد أنه لم يخرج ما أطعمته عن هذين. وقالت فرقة: إنما أراد عز وجل أنها كانت كالحجارة يُترجى لها الرجوع والإنبابة كما تنفجر الأنهار ويخرج الماء من الحجارة، ثم زادت قلوبهم

بعد ذلك قسوة بأن صارت في حد من لا تُرجى إنبابته، فصارت أشد من الحجارة فلم تخل أن كانت كالحجارة طوراً أو أشد طوراً، وقرأ أبو حيوة «قَسَاوَةً»، والمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ آيَةٌ مَعَذَةٌ لِلْحِجَارَةِ، وَتَفْضِيلُهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي مَعْنَى قَلَّةِ الْقِسْوَةِ. وقال قتادة: عَذَّرَ اللهُ تعالى الحجارة ولم يعذر شقي بني آدم. وقرأ قتادة: ﴿وَأَنَّ﴾، مخففة من الثقيلة، وكذلك في الثانية والثالثة، وفرق بينها وبين النافية لام التأكيد في ﴿لَمَّا﴾، و ﴿مَا﴾ في موضع نصب اسم لأن، ودخل اللام على اسم (إن) لما حال بينهم المجرور، ولو اتصل الاسم بلأن لم يصح دخول اللام لشغل اجتماع تأكيدين. وقرأ مالك بن دينار «يَنْفَجِرُ» بالنون وياء من تحت قبلها وكسر الجيم. ووحد الضمير في ﴿يَنْفَجِرُ﴾ حملاً على لفظ (ما). وقرأ أبي بن كعب، والضحاك «مِنْهَا الْأَنْهَارُ» حملاً على الحجارة. والأنهار جمع نهر، وهو ما كثر ماؤه جرياً من الأخاديد. وقرأ طلحة بن مصرف «لَمَّا» بتشديد الميم في الموضعين وهي قراءة غير متبعة. و ﴿يَنْشَقُّ» أصله يَنْشَقُّ، أدغمت التاء في الشين، وهذه عبارة عن العيون التي لم تعظم حتى تكون أنهاراً. أو عن الحجارة التي تَنْشَقُّ وإن لم يجر ماء منفسح.

وقرأ ابن مصرف: «يَنْشَقُّ» بالنون. وقيل في هبوط الحجارة: تفيؤ ظلالها، وقيل: المراد الجبل

الذي جعله الله دكاً، وقيل: إن الله تعالى يخلق في بعض الأحجار خشية وحياء يهبط بها من علو تواضعاً.

ونظير هذه الحياة حياة الحجر المسلم على النبي ﷺ، وحياء الجزع الذي أن لفقد النبي ﷺ.

وقيل: لفظة الهبوط مجاز، وذلك أن الحجارة - لما كانت القلوب تعتبر بخلقها، وتخضع ببعض مناظرها - أضيف تواضع الناظر إليها كما قالت العرب: «ناقاة تاجرة»، أي تبعث من يراها على شرائها. وقال مجاهد: «ما تردى حجر من رأس جبل، ولا تفجر نهر من حجر، ولا خرج ماء منه إلا من خشية الله نزل بذلك القرآن»، وقال مثله ابن جريج، وحكى الطبري عن فرقة: أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَّ﴾، وكما قال زيد الخيل:

بَجَمْعِ تَضِلُّ الْبُلُقُ فِي حُجَرَاتِهِ
تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْخَوَافِرِ
وكما قال جرير:

... الْجِبَالُ الْخُشْعُ
أي من رأى الحجر هابطاً تخيل فيه الخشية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف، لأن براعة معنى الآية تختل به، بل القوي أن الله تعالى يخلق للحجارة قدراً ما من الإدراك تقع به الخشية والحركة.

و ﴿يَنْفَجِرُ» في موضع نصب خبر ﴿مَا﴾، لأنها الحجازية، يُقَرَّى ذلك دخول الباء في الخبر، وإن كانت

وأصله من حَجَّ إذا قصد، لأن المتحاجين كل واحد منهما يقصد غلبة الآخر، و ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ معناه في الآخرة، وقيل ﴿عِنْدَ﴾ بمعنى: في ربكم - أي فيكونون أحق به، وقيل: المعنى: عند ذكر ربكم. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَمُوتُونَ﴾، قيل: هو من قول الأخبار للأتباع، وقيل: هو خطاب من الله للمؤمنين، أي: أفلا تعقلون أن بني إسرائيل لا يؤمنون وهم بهذه الأحوال؟ والعقل علوم ضرورية.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ بالياء من أسفل، وقرأ ابن محيصن ﴿أَوَلَا تَعْلَمُونَ﴾ بالتاء خطاباً للمؤمنين.

والذي أسروه: كفرهم - والذي أعلنوه: قولهم: أمنا، هذا في سائر اليهود، والذي أسره الأخبار: صفة محمد ﷺ والمعرفة به، والذي أعلنوه: التَّحَدُّ به، ولفظ الآية يعم الجميع. و ﴿أُمِّيُونَ﴾ هنا عبارة عن جَهْلَةٍ بالتوراة. قال أبو العالية، ومجاهد، وغيرهما: المعنى: ومن هؤلاء اليهود المذكورين. فالآية مُنَبِّهَةٌ على عامتهم وأتباعهم، أي أنهم يمتن لا يُطمع في إيمانهم، لِمَا غمرهم من الضلال. وقيل: المراد هنا بالأميين قوم ذهب كتابهم للذنوب ركبوا فبقوا أميين. وقال عكرمة والضحاك: هم في الآية نصارى العرب، وقيل: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: هم المجوس، والضمير في ﴿يَنْهَهُم﴾ على هذه الأقوال هو للكفار أجمعين، وقول أبي العالية، ومجاهد

وجهُ هذه الأقوال، وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبيدة: ﴿أُمِّيُونَ﴾ بتخفيف الميم، والأُمِّيُّ في اللغة الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب - نُسِبَ إلى الأُمِّ، إما لأنه بحال أمه من عدم الكتاب، لا بحال أبيه، إذ النساء ليس من شغلهن الكتاب، قاله الطبري، وإما لأنه بحال ولدته أمه فيها، لم ينتقل عنها، وقيل: نُسِبَ إلى الأمة وهي القامة والخلفة، كأنه ليس له من الآدميين إلا ذلك، وقيل: نسب إلى الأمة على سذاجتها قبل أن تعرف المعارف، فإنها لا تقرأ ولا تكتب، ولذلك قال النبي ﷺ في العرب: ﴿إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَحْسِبُ وَلَا نَكْتُبُ﴾ الحديث، والألف واللام في ﴿الْكِتَابِ﴾ للعهد، ويعني به التوراة في قول أبي العالية، ومجاهد.

والأمانى جمع أُمْنِيَّةٍ، وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع، في بعض ما روي عنه ﴿أَمَانِي﴾ بتخفيف الياء، وأصل أُمْنِيَّةٍ أُمْنُويَّةٌ على وزن (أفعولة)، ويُجَمَّع هذا الوزن على (أفاعِل)، وعلى هذا يجيء تخفيف الياء، ويجمع على (أفاعيل) - فَعَلَى هذا يجيء أَمَانِي، أدغمت الياء في الياء فجاء أَمَانِي واختلف في معنى [أَمَانِي] فقالت طائفة: هي هنا من تَمَنَّى الرجل إذا تَرَجَّى فمعناه أَن تَمَنَّى من لا يكتب ولا يقرأ، وإنما يقول بظنه شيئاً سمعه فتمنى أَنه من الكتاب، وقال آخرون: هي من تمنى إذا تلا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ ومنه قول الشاعر:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ
وَأَخْرَهُ لَأَقَى جَمَامَ الْمَقَادِرِ
فمعنى الآية: أنهم لا يعلمون الكتاب إلا سماع شيء يُتْلَى لا علم لهم بصحته، وقال الطبري: هي من تَمَنَّى الرجل إذا حَدَّثَ بحديث مختلق كذب، وذكر أهل اللغة أن العرب تقول: تَمَنَّى الرجل إذا كَذَّبَ، واختلق الحديث، ومنه قول عثمان رضي الله عنه: «مَا تَمَنَيْتُ وَلَا تَغْنَيْتُ مِنْذُ أَسْلَمْتُ». فمعنى الآية أن منهم أُمِّيَّينَ لا يعلمون الكتاب إلا أنهم يسمعون من الأخبار أشياء مختلفة يظنونها من الكتاب، ﴿وَرَنَ﴾ نافية بمعنى (ما)، والظن هنا على بابهِ في الميل إلى أحد الجائزين.

﴿٧٩﴾ - ﴿٨٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿الَّذِينَ﴾ في الآية يراد بهم الأخبار والرؤساء، قال الخليل: الويل شدة الشر: وقال الأصمعي: الويل القبوح، وهو مصدر لا فعل له، ويجمع على ويلات، والأحسن فيه - إذا انفصل - الرفع، لأنه يقتضي الوقوع ويصح النصب على معنى الدعاء، أي ألزمه الله وِلا.

وَوَيْلٌ، وَوَيْحٌ، وَوَيْسٌ، وَوَيْبٌ، تتقارب في المعنى، وقد فرق بينها قوم، وروى سفيان، وعطاء بن يسار، أن الويل في هذه الآية وإد يجري بفناء جهنم من صديد أهل النار، وروى أبو سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أَنه وإد في جهنم بين جبلين يهوي فيه الهاري أربعين خريفاً، وقال أبو عبيد: إنه صهرج في جهنم. وروى عثمان بن عفان

رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه جبل من جبال النار، وحكى الزهراوي عن آخرين أنه باب من أبواب جهنم. و ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ﴾ هم الأخبار الذين بدلوا التوراة، وقوله ﴿يَأْتِيهِمْ﴾ بيان لجرمهم وإثبات لمجاهرتهم الله.

وفرق بين من كَتَبَ وبين من أمر، إذ المتولي للفعل أشد موافقة يَمُنُّ لم يَتَوَلَّه، وإن كان رأياً له، وقال ابن السراج: هو كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم، وإن لم تكن حقيقة في كتب أيديهم.

والذي بدلوا هو صفة النبي ﷺ ليستديموا رياستهم ومكاسبهم، وقال ابن إسحق: كانت صفته في التوراة أسمر ربعة فردوه آدم طويلاً، وذكر السدي أنهم كانوا يكتبون كتباً يبدلون فيها صفة النبي ﷺ ويبيعونها من الأعراب، ويبشونها في أتباعهم، ويقولون: هي من عند الله. وتناسق هذه الآية على التي قبلها يُعْطِي أن هذا الكتب والتبديل إنما هو للاتباع الأميين الذين لا يعلمون إلا ما قرئ لهم.

والشمن - قيل: عَرَض الدنيا، وقيل: الرُّشَا والمأكَل التي كانت لهم، ووصفه بالقللة إمَّا لفنائه، وإمَّا لكونه حراماً. وكرر الويل لتكرار الحالات التي استحقوه بها، و ﴿يَكْتُوبُونَ﴾ معناه من المعاصي والخطايا، وقيل: من المال الذي تضمنه ذِكْرُ الثمن.

وقوله تعالى: ﴿كُن تَمَسَّنَا الْكَافُ﴾ الآية، روى ابن زيد، وغيره، أن سببها أن النبي ﷺ قال لليهود: «مَنْ أَهْل النار؟ فقالوا: نحن، ثم

تخلفونا أنتم، فقال لهم: «كذبتم، لقد علمتم أننا لا نخلفكم»، فنزلت هذه الآية. ويقال: إن السبب أن اليهود قالت: إن الله تعالى أقسم أن يدخلهم النار أربعين يوماً عدد عبادتهم العجل، قاله ابن عباس، وقتادة، وعطاء.

وقالت طائفة: قالت اليهود: إن في التوراة أن طول جهنم مسيرة أربعين سنة، وأنهم يقطعون في كل يوم سنة، حتى يكملوها وتذهب جهنم. وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وابن جريج، إنهم قالوا: إن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وأن الله تعالى يعذبهم بكل ألف سنة يوماً. و ﴿أَتُخَذْتُمْ﴾ أصله: أُنْتُخِذْتُمْ، وزنه أفتعلتم من الأخذ، سُهِّلَت الهمزة الثانية لامتناع جمع همزتين فجاء أيتخذتم، فاضطربت الياء في التصريف جاءت ألفاً في ياتخذوا، وواواً في موتخذ، فبدلت بحرف جلد ثابت وهو التاء وأدغمت، فلما دخلت في هذه الآية ألف التقرير استغني عن ألف الوصل. ومذهب أبي علي أن أُنْتُخَذْتُمْ من تَخَذَ لا من أَخَذَ، وقد تقدم ذكر ذلك.

وقال أهل التفسير: العهد من الله في هذه الآية الميثاق والموعود، وقال ابن عباس وغيره: معناه هل قلتم لا إله إلا الله، وآمنتم، وأطعتم، فتدلون بذلك، وتعلمون أنكم خارجون من النار؟ فعلى هذا التأويل الأول يجيء المعنى: هل عاهدكم الله على الذي تدعون؟ وعلى التأويل الثاني يجيء: هل أسلفتم عند الله أعمالاً ترجب ما تدعون؟

وقوله: ﴿فَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ اعتراض أثناء الكلام.

و ﴿بَلَى﴾ رد بعد النفي، بمنزلة نعم بعد الإيجاب، وقال الكوفيون: أصلها [بَلَى] التي هي للإضراب عن الأول، وزيدت عليها الياء ليحسن الوقف عليها، وضُمَّت الياء معنى الإيجاب والإيناع بما يأتي بعدها. وقال سيبويه: هي حرف مثل [بَلَى] وغيره، وهي في هذه الآية رد لقول بني إسرائيل: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا الْكَافُ﴾، فردَّ الله عليهم، وبين أن الخلود في النار والجنة بحسب الكفر والإيمان.

و ﴿مَنْ﴾ شرط في موضع رفع بالابتداء و ﴿أُولَئِكَ﴾ ابتداء ثان و ﴿أَخَذَ﴾ خبره، والجملة خبر الأول، و[الفاء] موطئة أن تكون الجملة جواب الشرط. وقالت طائفة: السيئة: الشرك، كقوله ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُنْتُ وَجْهَهُمْ فِي النَّارِ﴾ والخطيئات كبائر الذنوب، وقرأ قوم ﴿خَطِيئَتُهُ﴾ بالإنفراد، وقال قوم: السيئة الكبائر وأفرادها وهي بمعنى الجمع لما كانت تدل على الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسُدُّوا يَمَنَتَ اللَّهِ﴾ والخطيئة: الكفر، ولفظة الإحاطة تُقَوِّي هذا القول، وهي مأخوذة من الحائط المحدق بالشيء. وقال الربيع بن خيثم، والأعمش، والسدي، وغيرهم: معنى الآية: مات بذنوب لم يتب منها، وقال الربيع أيضاً: مات على كفره، وقال الحسن بن أبي الحسن، والسدي: كل ما تَوَعَّد الله عليه بالنار فهي الخطيئة المحيطة.

والخلود في هذه الآية على

إحساناً بالوالدين، ويعترض هذا القول بأن المصدر قد تقدم عليه ما هو معمول له، وقيل: تتعلق الباء بأحسنوا، المقدر، والمعنى: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، وهذا قول حسن، وقدم اللفظ بالوالدين

تهمماً فهو نحو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وفي الإحسان تدخل أنواع بر الوالدين كلها، ﴿وَزَى﴾ عطف على الوالدين و ﴿الْقَرْنِ﴾ بمعنى القرابة، وهو مصدر كالرُجْعَى والمُعْبَى، وهذا يتضمن الأمر بصلة الرحم، ﴿وَالْيَتَامَى﴾ جمع يتيم كنديم وندامى، واليُثم في بني آدم فقد الأب، وفي البهائم فقد الأم، وقال عليه السلام: ﴿لَا يُثَمُّ بَعْدَ بُلُوغٍ﴾.

وحكى الماوردي أن اليُثم يقال في بني آدم في فقد الأم. وهذا يتضمن الرأفة باليتامى وحيلة أموالهم، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو الذي لا شيء له، لأنه مشتق من السكون، وقد قيل: إن المسكين هو الذي له بُلْعَةٌ من العيش، وهو على هذا مشتق من السُكْن، وهذا يتضمن الحض على الصدقة والمواساة، وتفقد أحوال المساكين.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، أمر - عطف على ما تضمنه: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، وما بعده من معنى الأمر والنهي، أو على أحسنوا المقدر في قوله: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وقرأ حمزة، والكسائي ﴿حَسَنًا﴾ بفتح الحاء والسين، قال الأخفش: هما بمعنى واحد كالْبُخْل والبُخْل، قال الزجاج وغيره: بل المعنى في القراءتين: وقولوا قولاً

وإنما هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على لسان موسى عليه السلام وغيره من أنبيائهم عليهم السلام.

وأخذ الميثاق قول، فالمعنى قلنا لهم: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ بالياء من أسفل، وقرأ الباقر بالتاء من فوق، حكاية ما قيل لهم، وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود، ﴿لَا تَعْبُدُوا﴾ على النهي. وقال سيويه: متعلق

بقسم، والمعنى: وإذا استخلفناكم والله لا تعبدون. وقالت طائفة: تقدير الكلام بالآ لا تعبدوا إلا الله، ثم حذف الباء، ثم حذف أن فارتفع الفعل لزوالها، فلا تعبدون على هذا معمول لحرف النصب، وحكى عن قطرب: أن ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ في موضع الحال، أي أخذنا ميثاقهم موحدين، وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير، ونظام الآية يدفعه مع كل قراءة.

وقال قوم: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ نهي في صيغة خبر، ويدل على ذلك أن في قراءة أبي ﴿لَا تَعْبُدُوا﴾، والباء في قوله: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قيل: هي متعلقة بالميثاق، عطفاً على الباء المقدرة أولاً على قول من قال: التقدير: بأن لا تعبدوا. وقيل: تتعلق بقوله ﴿إِحْسَانًا﴾، والتقدير: قلنا لهم: لا تعبدون إلا الله، وأحسنوا

وَلَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاسْتِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٣﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَقُولُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى فَتَعْدُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا آخَرُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَرُدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِفَاعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَوُوا الْبَيَّةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِإِسْرَءِيلَ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنِينَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٦﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مِمَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٧﴾

١٣

الإطلاق والتأبيد في المشركين، ومستعار بمعنى الطول في العصاة، وإن علم انقطاعه كما يقال: ملك خالد، ويدعى للملك بالخلد.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية يدل هذا التقسيم على أن قوله: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ الآية، في الكفار، لا في العصاة، ويدل على ذلك أيضاً قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمُ﴾ لأن العاصي مؤمن فلم تُحط به خطيئته، ويدل على ذلك أيضاً أن الرد كان على كفار ادعوا أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة، فهم المراد بالخلود، والله أعلم.

٨٣ - ٨٤ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكروا إذ أخذنا، وقال مكي رحمه الله: هذا هو الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالنذر، وهذا ضعيف،

حَسَنًا - بفتح السين - أو قولاً ذا حُسْنٍ، بضم الحاء. وقرأ قوم: حُسْنِي مِثْلُ فَعْلَى، وردّه سيبويه لأن أفعَلَ وفعلَى لا تجيء إلا معروفة إلا أن يزال عنها معنى التفضيل، وتبقى مصدرأ كالعقبى، فذلك جائز وهو وجه القراءة بها.

وقرأ عيسى بن عمر، وعطاء بن أبي رباح، ﴿حُسْنًا﴾ بضم الحاء والسين. وقال ابن عباس: معنى الكلام: قولوا لهم: لا إله إلا الله، ومروهم بها، وقال ابن جريج: قولوا لهم: حسناً في الإعلام بما في كتابكم من صفة محمد ﷺ. قال سفيان الثوري: معناه مروهم بالمعروف وانهم عن المنكر، وقال أبو العالية: معناه قولوا لهم الطيب من القول، وحاوروهم بأحسن ما تحبون أن تحاوروا به، وهذا حض على مكارم الأخلاق.

وحكى المهدوي عن قتادة أن قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، منسوخ بآية السيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن هذه الأمة خطوبت بمثل هذا اللفظ في صدر الإسلام، وأما الخبر عن بني إسرائيل وما أمروا به فلا نسخ فيه، وقد تقدم القول في إقامة الصلاة. وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها وتنزل النار على ما تُقْبَلُ، ولا تنزل على ما لم يُقْبَلْ، ولم تكن كزكاة أمة محمد ﷺ.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: الزكاة التي أمروا بها طاعة الله والإخلاص. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمُ﴾ الآية،

خطاب لمعاصري محمد ﷺ، أسند إليهم تولي أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل، قال نحوه ابن عباس وغيره. و﴿ثُمَّ﴾ مبنية على الفتح ولم تجر مجرى زِدْ وَشَدْ لأنها لا تتصرف. وضمت التاء الأخيرة من ﴿تَوَلَّيْتُمُ﴾ لأن تاء المفرد أخذت الفتح، وتاء المؤنث أخذت الكسر، فلم يبق للتثنية والجمع إلا الضم.

و﴿قَلِيلًا﴾ نصب على الاستثناء، قال سيبويه: والمستثنى منصوب على التشبيه بالمفعول به، قال المبرد: هو مفعول حقيقة لأن تقديره استثنيت كذا، والمراد بالقليل جميع مؤمنهم قديماً من أسلافهم، وحديثاً كابن سلام وغيره، والقلة على هذا هي في عدد الأشخاص، ويحتمل أن تكون القلة في الإيمان أي لم يبق حين عصوا وكفر آخرهم بمحمد ﷺ إلا إيمان قليل إذ لا ينفعهم، والأول أقوى، وقرأ قوم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ برفع القليل، ورويت عن أبي عمرو.

وهذا على بدل قليل من الضمير في ﴿تَوَلَّيْتُمُ﴾، وجاز ذلك مع أن الكلام لم يتقدم فيه نفي لأن توليتهم معناه النفي، كأنه قال ثم لم تفوا بالميثاق إلا قليل، والسفك صبّ الدم وسرد الكلام، وقرأ طلحة بن مصرف، وشعيب بن أبي حمزة ﴿لَا تَسْفُكُونَ﴾ بضم الفاء، وقرأ أبو نهيك ﴿لَا تَسْفُكُونَ﴾ بضم التاء وكسر الفاء وتضعيفها. وإعراب ﴿لَا تَسْفُكُونَ﴾ كما تقدم في ﴿لَا تَقْبُدُونَ﴾. و﴿وَمَاءَكُمْ﴾ جمع دم وهو اسم منقوص، أصله دمي وتثنيته دميان وقيل: أصله دمي بسكون الميم،

وحركت في التثنية لتدل الحركة على التغير الذي في الواحد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ معناه: ولا ينفي بعضكم بعضاً بالفتنة والبغي. ولما كانت ملتهم واحدة، وأمرهم واحداً، وكانوا في الأمم كالشخص الواحد، جعل قتل بعضهم لبعض، ونفي بعضهم بعضاً قتلاً لأنفسهم ونفياً لها، وكذلك حكم كل جماعة تخاطب بهذا اللف في القول. وقيل: لا تسفكون دماءكم أي لا يقتل أحد فيقتل قصاصاً فكأنه سفك دم لما تسبب في ذلك، ولا يفسد في الأرض فيُنْفَى فيكون قد أخرج نفسه من دياره، وهذا تأويل فيه تكلف، وإنما كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً ألا يقتل بعضهم بعضاً، ولا ينفية، ولا يسترقه، ولا يدعه يُسْتَرْقَ إلى غير ذلك من الطاعات.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي خلفاً بعد سلف أن هذا الميثاق أخذ عليكم والتزمتموه، فينتجه في هذه اللفظة أن تكون من الإقرار الذي هو ضد الجحد، وتتعدى بالباء، وأن تكون من الإقرار الذي هو إبقاء الأمر على حاله، أي أقررتهم هذا الميثاق ملتزماً، وقوله ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ قيل: الخطاب يراد به من سلف منهم، والمعنى: وأنتم شهداء، أي حضور أخذ الميثاق والإقرار، وقيل إن المراد من كان في مدة محمد ﷺ، والمعنى: وأنتم شهداء، أي بينة أن هذا الميثاق أخذ على أسلافكم فمن بعدهم منكم.

﴿هُؤُلَاءِ﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿هُؤُلَاءِ﴾ دالة على أَنَّ المخاطبة للحاضرين لا تحتمل رداً إلى الأسلاف، قيل: تقدير الكلام: يا هؤلاء، فحذف حرف النداء، ولا يحسن حذفه عند سيبويه مع المُبْهَمَات. ولا تقول: هذا أقبل. وقيل: تقديره أعني هؤلاء. وقيل: هؤلاء بمعنى الذين، فالتقدير ثم أنتم الذين تقتلون، فتقتلون صلة لهؤلاء ونحوه، قال يزيد بن مفرغ الحُميري:

عَدَسٌ مَا لِعَبَادِ عَلَيْنِكَ إِسَارَةٌ
تَجُوبُ وَهَذَا تَحْمِيلُ طَلِيْقٍ
وقال الأستاذ الأجل أبو الحسن بن أحمد شيخنا رضي الله عنه: ﴿هُؤُلَاءِ﴾ رفع بالابتداء و ﴿أَنْتُمْ﴾ خبر مقدم، وتقتلون حال، بها تم المعنى، وهي كانت المقصود، فهي غير مستغنى عنها، وإِنَّمَا جاءت بعد أن تم الكلام في المسند والمُسند إليه، كما تقول: هذا زيد منطلقاً، وأنت قد قصدت الإخبار بانطلاقه لا الإخبار بأن هذا هو زيد. وهذه الآية خطابٌ لقريظة، والتَّضْيِيرُ، وبني قَيْنِقَاعَ وذلك أن التَّضْيِيرَ وقريظة حالفت الأوس، وبني قَيْنِقَاعَ حالفت الخزرج، فكانوا إذا وقعت الحرب بين بني قَيْلَةَ ذهب كل طائفة من بني إسرائيل مع أحلافها، فقتل بعضهم بعضاً وأخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وكانوا مع ذلك يفدي بعضهم أسرى بعض أتباعاً لحكم التوراة، وهم قد خالفوها بالقتال والإخراج. وقرأ الحسن بن أبي الحسن ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بضم التاء

الأولى، وكسر الثانية وشذها على المبالغة، والديار: مباني الإقامة، وقال الخليل: محلة القوم دأرهم، وقرأ عاصم، وحمزة والكسائي ﴿تَنْظَاهِرُونَ﴾ بتخفيف الظاء، وهذا على حذف التاء الثانية من تَنْظَاهِرُونَ، وقرأ بقية السبعة ﴿تَنْظَاهِرُونَ﴾ بشد الظاء على إدغام التاء في الظاء، وقرأ أبو حنيفة ﴿تَنْظَاهِرُونَ﴾ بضم التاء وكسر الهاء، وقرأ مجاهد، وقتادة، ﴿تَنْظَهْرُونَ﴾ بفتح التاء وشد الظاء والهاء مفتوحة دون ألف، ورويت هذه عن أبي عمرو. ومعنى ذلك على كُلِّ قراءة: تتعاونون، وهو مأخوذ من الظَّهْر كأن المتظاهرين يستند كُلُّ واحد منهما ظهره إلى صاحبه. والإِثْمُ العُھْدُ الراتب على العبد من المعاصي والمعنى بمكتسبات الإِثْمِ - والعدوان تجاوز الحدود والظلم. وحسن لفظ الإتيان من حيث هو في مقابلة الإخراج فيظهر التضاد المُقْبِحُ لفعلهم في الإخراج.

وقرأ حمزة ﴿أَسْرَى تَفْدُوهُمْ﴾، وقرأ نافع وعاصم والكسائي: ﴿أَسَارَى تَفَادُوهُمْ﴾، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وابن كثير: ﴿أَسَارَى تَفْدُوهُمْ﴾، وقرأ قوم: ﴿أَسْرَى تَفَادُوهُمْ﴾. وأسارى: جمع أسير والأسير مأخوذ من الأسر وهو الشد. سُمِّيَ بذلك لأنه يؤسر أي يُشد وثاقاً، ثم كثر استعماله حتى لزم، وإن لم يكن ثَمَّ ربط ولا شد، وأسير فعيل بمعنى مفعول ولا يجمع بواو ونون وإنما يُكسر على أسرى وأسارى، والأقيس فيه أسرى، لأن

فعيلاً بمعنى مفعول الأصل فيه أن يجمع على فَعْلَى كقتلى وجرحى، والأصل في فَعْلَان أن يجمع على فَعَالِي بفتح الفاء، وفَعَالِي بضمها، كسكران وكسَلَان وسُكَارَى وكسَالَى. قال سيبويه: فقالوا في جمع كسَلَان: كسَلَى، شَبَّهوا بأسرى كما قالوا: أسارى، شَبَّهوا بكسَالَى، ووجه الشبه أن الأسر يدخل على الممرِّ مُكرهاً كما يدخل الكسل، وفَعَالَى إِنَّمَا يجيء فيما كان آفة تدخل على الممرِّ.

و ﴿تَشْدُوهُمْ﴾ معناه في اللغة تُطْلِقُونَهُمْ بعد أن تأخذوا عنهم شيئاً، قاله أبو علي، وفاديت نفسي إذا أطلقته بعد أن دفعت شيئاً، فعلى هذا قد تجيء بمعنى قَدَيْت أي دفعت فيه من مال نفسي، ومنه قول العباس للنبي ﷺ: «أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً». وهما فعلان يتعديان إلى مفعولين، الثاني منهما بحرف جر، تقول: فديت زيدا بمال، وفاديته بمال، وقال قوم: هي في قراءة تُفَادُوهُمْ مُفَاعَلة في أسرى بأسرى، وقال أبو علي: كل واحد من الفريقين فعل: الأسر دفع الأسير، والمأسور منه دفع أيضاً إِمَّا أسيراً وإِما غيره، والمفعول الثاني محذوف.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ﴾، قيل في ﴿هو﴾: إنه ضمير الأمر، وتقديره: والأمر محرم عليكم، و ﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾ في هذا القول بدل من ﴿هو﴾، وقيل: ﴿هو﴾ فاصلة وهذا مذهب الكوفيين وليست، هنا بالتي هي عماد و ﴿مُحَرَّمٌ﴾ على هذا ابتداء و ﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾ خبره، وقيل: هو

الضمير المقدر في محرم قُدِّم وأظهر، وقيل: هو ضمير الإخراج تقديره: وإخراجهم محرم عليكم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ يعني التوراة، والذي آمنوا به فداء الأسارى، والذي كفروا به قتل بعضهم بعضاً وإخراجهم من ديارهم - وهذا توبيخ لهم، وبيان لقبح فعلهم.

وروي أن عبدالله بن سلام مرَّ على رأس الجالوت بالكوفة وهو يفادي من النساء من لم تقع عليه العرب، ولا يفادي من وقع عليه، فقال له ابن سلام: أما إنَّه مكتوب عندك في كتابك أن تفاديهم كلَّهم. ثمَّ توعدهم عز وجل. والخزي: الفضيحة والعقوبة يقال: خزي الرجل يخزي خزيًا إذا ذلَّ من الفضيحة، وخزي يخزي خزاية إذا استحيا...

واختلف ما المراد بالخزي ها هنا؟ فقيل: القصاص فيمن قتل، وقيل: ضرب الجزية عليهم غابر الدهر، وقيل: قتل قريظة وإجلاء النضير، و ﴿الَّذِينَ﴾ مأخوذة من دنا يدنو، وأصل الباء فيها واو، ولكن أبدلت فرقاً بين الأسماء والصفات.

و ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ الخلود في جهنم، وقرأ الحسن، وابن هرمز ﴿تَرْدُونَ﴾ بئاء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ﴾ الآية، قرأ نافع، وابن كثير ﴿يُغْمَلُونَ﴾ بياء على ذكر الغائب، فالخطاب بالآية لأمة محمد ﷺ، والآية واعظة لهم بالمعنى إذ الله تعالى بالمرصاد لكل كافر وعاصر. وقرأ الباقون بئاء على الخطاب

المحتمل أن يكون في سرد الآية وهو الأظهر، ويحتمل أن يكون لأمة محمد ﷺ، فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «إن بني إسرائيل قد مضوا، وأنتم الذين تُننون بها يا أمة محمد».

(٨٦) - (٨٨) تفسير قوله عز وجل:

جعل الله ترك الآخرة، وأخذ الدنيا مع قدرتهم على التمسك بالآخرة بمنزلة من أخذها ثمَّ باعها بالدنيا، وهذه النزعة صرفها مالك رحمه الله في فقه البيوع، إذ لا يجوز الشراء على أن يختار المشتري في كل ما تختلف صفة أحاده، ولا يجوز فيه التفاضل كالحجل المذبوحة وغيرها، ولا يخفف العذاب في الآخرة، ولا يُنصرون لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وَالْكِتَابِ﴾ التوراة ونصبه على المفعول الثاني لآتين، و ﴿فَقَتْنَا﴾ مأخوذ من القفا، تقول: قَفَيْتُ فلاناً بفلان إذا جثت به من قَبْل قفاه، ومنه قَفَا يقفوا إذا اتبع، وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتَرًا﴾، وكل رسول جاء بعد موسى فإنما جاء بإثبات التوراة والأمر بلزومها إلى عيسى عليه السلام. وقرأ الحسن، ويحيى ابن يعمر: ﴿بِالْوَسْطِ﴾ ساكنة السين، ووافقهما أبو عمرو إذا انضاف ذلك إلى ضمير نحو: رسلنا ورسولهم، و ﴿الْبَيْتِ﴾ الحجج التي أعطاه الله عيسى، وقيل: هي آياته من إحياء، وإبراء، وخلق طير، وقيل: هي الإنجيل، والآية تعم جميع ذلك، ﴿وَأَيَّدْتَهُ﴾ معناه قويناه، والأيد القوة. وقرأ ابن محيصن، والأعرج،

وحميد ﴿أَيَّدْنَاهُ﴾. وقرأ ابن كثير، ومجاهد: ﴿رُوحَ الْقُدُسِ﴾ بسكون الدال. وقرأ الجمهور بضم القاف والدال، وفيه لغة فتحها، وقرأ أبو حنيفة ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بواو. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: روح القدس: هو الاسم الذي به كان يُحيى الموتى. وقال ابن زيد: هو الإنجيل كما سُمي الله تعالى القرآن روحاً. وقال السدي، والضحاك، والربيع، وقتادة: روح القدس جبريل ﷺ، وهذا أصح الأقوال، وقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: «افجِ قريشاً، وروح القدس معك»، ومرة قاله له: «وجبريل معك»، وقال الربيع، ومجاهد: القدس اسم من أسماء الله تعالى كالقُدُّوس، والإضافة على هذا إضافة الملك إلى المالك، وتوجهت لما كان جبريل عليه السلام من عباد الله تعالى، وقيل: القدس الطهارة، وقيل: القدس البركة.

و ﴿كَلَّمَآ﴾ ظرف، والعامل فيه ﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾، وظاهر الكلام الاستفهام ومعناه التوبيخ والتقرير، ويتضمن أيضاً الخبر عنهم، والمراد بهذه الآية بنو إسرائيل، ويروى أن بني إسرائيل كانوا يقتلون في اليوم ثلاثمائة نبي، ثم تقوم سوقهم آخر النهار، وروي: سبعين نبياً ثم تقوم سوق بقلهم آخر النهار، وفي ﴿تَوَكَّلْ﴾ ضمير حذف من صلة (ما) لطول اللفظ. والهوى أكثر ما يُستعمل فيما ليس بحق، وهذه الآية من ذلك، لأنهم إنما كانوا يهوون الشهوات، وقد يستعمل في الحق،

مصحف أبي بن كعب (مصدقاً) بالنصب، و ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ معناه أن بني إسرائيل كانوا قبل مبعث النبي ﷺ قد علموا خروجه بما عندهم من صفته وذكر وقته، وظنوا أنه منهم، فكانوا إذا حاربوا الأوس والخزرج فغلبتهم العرب قالوا لهم: لو خرج النبي الذي قد أطلّ وقته لقتلناكم معه، واستنصرنا عليكم به، و ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ معناه يستنصرون، وفي الحديث: (كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين)، وزوي أن قريظة، والنضير، وجميع يهود الحجاز في ذلك الوقت، كانوا يستفتحون على سائر العرب، وبسبب خروج النبي المنتظر كانت نقلتهم إلى الحجاز وسكناهم به، فإنهم كانوا علموا صُغِّع المبعث، وما عرفوا أنه محمد عليه السلام وشرعه، ويظهر من هذه الآيات العناد منهم، وأن كُفِّرهم كان مع معرفة ومعاندة، و ﴿قَتَلَهُ اللَّهُ﴾ معناه: إبعاده لهم وخزيهم لذلك، واختلف النحاة في جواب [لَمَّا] و [لَمَّا] الثانية في هذه الآية، فقال أبو العباس المبرد: جوابهما في قوله: ﴿كَتَبُوا﴾، وأعيدت لَمَّا الثانية لطول الكلام، ويفيد ذلك تقريراً للذنب وتأكيده له، وقال الزجاج: لَمَّا الأولى لا جواب لها، للاستغناء عن ذلك بدلالة الظاهر من الكلام عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأنه محذوف.

وقال الفراء: جواب لَمَّا الأولى في الفاء وما بعدها، وجواب لَمَّا الثانية كفروا، وبسبب أصله بشئ سهلت

المعنى فكيف يَغْرُب عنها علم محمد ﷺ؟ فردّ الله عليهم بقوله: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، وبسبب في هذه الآية نقض للأول، وإضراب عنه، ثم بين تعالى أن السبب في نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لعنوا بما تقدم من كفرهم واجترامهم، وهذا هو الجزاء على الذنب بأعظم منه، واللعن الإبعاد والطرود. و ﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: فإيماناً قليلاً ما يؤمنون، والضمير في يؤمنون لحاضري محمد ﷺ،

وربته قلة هذا الإيمان، إمّا لأن من آمن بمحمد منهم قليل، فيقل لقلة الرجال، قال هذا المعنى قتادة، وإما لأن وقت إيمانهم عندما كانوا يستفتحون به قبل مبعثه قليل، إذ قد كفروا بعد ذلك، وإمّا لأنهم لم يبق لهم بعد كفرهم غير التوحيد على غير وجهه، إذ هم مجسمون، فقد قللوه بجحدهم الرسول، وتكذيبهم التوراة، فإنما يقل من حيث لا ينفعهم كذلك، وعلى هذا التأويل يجيء التقدير: فإيماناً قليلاً، وعلى الذي قبله: فوقاً قليلاً، وعلى الذي قبله فعدداً من الرجال قليلاً، و ﴿مَنَّا﴾ في قوله ﴿مَنَّا يُؤْمِنُونَ﴾ زائدة مؤكدة، و ﴿قَلِيلًا﴾ نصب بيؤمنون.

٨٩ - ٩٠ تفسير قوله عز وجل: الكتاب: القرآن، و ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يعني التوراة، وزوي أن في

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ يَسْمَا أَشْرَافِيَّةً أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعثًا أَن يَزِيلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَنْ بَشَاءَ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِعُصْبٍ عَلَى عُصْبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذْ أَقِيلَ لَهُمْ مَا مَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْوِنُنَا يَا أَنزِلْ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُوا بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَيْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِمْ يُبْعَثُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

ومنه قول عمر رضي الله عنه في قصة أسرى بدر: «فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت» و ﴿أَشْكَبْتُمْ﴾ من الكبر، و ﴿قَرِيبًا﴾ مفعول مقدم. وقرأ جمهور القراء: ﴿عُغْلَفَ﴾ بإسكان اللام على أنه جمع أغلف مثل خمر وضفر والمعنى قلوبنا عليها غلف وغشاوة فهي لا تفقه. قاله ابن عباس: وقال قتادة: المعنى عليها طابع. وقالت طائفة: غُلف بسكون اللام جمع غلاف أصله غُلف بتشكيل اللام فحُفِّفَ، وهذا قل ما يستعمل إلا في الشعر. وقرأ الأعمش، والأعرج، وابن محيصن: ﴿عُغْلَفَ﴾ بتشكيل اللام جمع غلاف، ورويت عن أبي عمرو، فالمعنى. هي أوعية للعلم والمعارف بزعمهم، فهي لا تحتاج إلى علم محمد. وقيل:

الهمزة ونقلت إلى الياء حركتها، ويقال في بش: بيس، إبتاعاً للكسرة وهي مستوفية للذم، كما أن نعم مستوفية للمدح. واختلف النحويون في (بَيْسَمًا) في هذا الموضع، فذهب سيبويه أن (ما) فاعلة بيس، ودخلت عليها بيس كما تدخل على أسماء الأجناس والتكررات لمّا أشبهتها (ما) في الإبهام، فالتقدير على هذا القول: «بيس الذي اشتروا به أنفسهم أن يكفروا»، كقولك: بيس الرجل زيد، و (ما) في هذا القول موصولة، وقال الأخفش: (ما) في موضع نصب على التمييز كقولك: بيس رجلاً زيد، فالتقدير: بيس شيئاً أن يكفروا، و «أَشْتَرُوا بِوَدِّ أَنْفُسِهِمْ»، في هذا القول صفة (ما). وقال الفراء: بيسما بجملته شيء واحد رُكِبَ كحذاً، وفي هذا القول اعتراض لأنه فعل يبقى بلا فاعل، و «مَا» إنما تكفّ أبداً حروفاً. وقال الكسائي: ما واشتروا بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه، فالتقدير: بيس اشتراؤهم أنفسهم أن يكفروا. وهذا أيضاً مُعْتَرَض لأن بيس لا تدخل على اسم معين متعرف بالإضافة إلى الضمير. وقال الكسائي أيضاً: إن (ما) في موضع نصب على التفسير، ثم (ما) أخرى مضمرة، فالتقدير: بيس شيئاً ما اشتروا به أنفسهم، و «أَنْ يَكْفُرُوا» في هذا القول بدل من (ما) المضمرة، ويصح في بعض الأقوال المتقدمة أن تكون «أَنْ يَكْفُرُوا» في موضع خفض بدلاً من الضمير في (به)، وأما في

القولين الأولين فَأَنْ يَكْفُرُوا ابتداءً وخبره فيما قبله.

و «أَشْتَرُوا» بمعنى باعوا، يقال شري واشتري بمعنى باع وبمعنى ابتاع و «مَا أُنْزِلَ اللَّهُ» يعني به القرآن، ويحتمل أن يراد به التوراة، لأنهم إذا كفروا بعبسى ومحمد عليهما السلام فقد كفروا بالتوراة، ويحتمل أن يراد به الجميع من توراة وإنجيل وقرآن، لأن الكفر ببعض يلزم الكفر بالكل. و (بغياً) مفعول من أجله، وقيل: نصب على المصدر، و «أَنْ يُنْزَلَ» نصب على المفعول من أجله، أو في موضع خفض بتقدير: بأن يُنْزَلَ، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: «أَنْ يُنْزَلَ» بالتخفيف في النون والزاي، و «بَيْنَ فَضْلِهِ» يعني من النبوة والرسالة، «مَنْ يَشَاءُ» يعني به محمداً ﷺ، لأنهم حسدوه لمّا لم يكن منهم، وكان من العرب، ويدخل في المعنى عيسى ﷺ لأنهم كفروا به بغياً، والله قد فضل عليه.

وباءوا: معناه مضوا متحملين لمّا يُذْكَرُ أنهم باءوا به، و «يَنْصَبُ» معناه من الله تعالى، لكفرهم بمحمد ﷺ «عَلَى غَضَبٍ» متقدم من الله تعالى عليهم، قيل: لعبادتهم العجل، وقيل: لقولهم: عَزَّزْنَا ابن الله، وقيل: لكفرهم بعبسى عليه السلام، فالمعنى: عَلَى غَضَبٍ قد بَاءَ به أسلافهم، حظ هؤلاء منه وافر بسبب رضاهم بتلك الأفعال وتصويهم لها.

وقال قوم: المراد بقوله: «يَنْصَبُ عَلَى غَضَبٍ» التأكيد، وتشديد الحال عليهم، لأنه أراد غضبين مُعَلَّلَيْنِ

بقصتين. و «هَين» مأخوذ من الهوان، وهو ما اقتضى الخلود في النار، لأن من لا يَخْلُدُ مِنْ عَصَا المسلمين إنما عذابه كعذاب الذي يقام عليه الحد لا هوان فيه، بل هو تطهير له. وقوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: يعني اليهود أنهم إذا قيل لهم: آمنوا بالقرآن الذي أنزل الله على محمد ﷺ قالوا: نؤمن بما أنزل علينا، يعنون التوراة. «بِمَا وَرَاءَهُ». قال قتادة: أي ما بعده، قال الفراء: أي ما سواه ويعني به القرآن. وإذا تكلم رجل، أو فعلاً فأجاء يقال له: ما وراء ما أتيت به شيء، أي ليس يأتي بعده، ووصف تعالى القرآن بأنه الحق.

و «مُصَدِّقًا» حال مُؤَكِّدَةً عند سيبويه وهي غير منتقلة، وقد تقدم معناها في الكلام، ولم يبق لها هي إلا معنى التأكيد، وأشد سيبويه على الحال المؤكدة:

أَنَا ابْنُ دَاوُدَ مَعْرُوفًا بِهَا حَسْبِي وَهَلْ لِدَاوُدَ يَاللَّاسِ مِنْ غَارٍ؟ و «لِمَا مَعَهُمْ» يريد به التوراة.

وقوله تعالى: «قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ» الآية رد من الله تعالى عليهم في أنهم آمنوا بما أنزلَ عَلَيْهِمْ، وتكذيب منه لهم في ذلك، واحتجاج عليهم. ولا يجوز الوقف على «قُلْ» لنقصان الحرف الواحد، إلا أن البرزني وقف عليه بالهاء، وسائر القراء بسكون الميم. وخاطب الله من حضر محمداً ﷺ من بني إسرائيل بأنهم قتلوا الأنبياء لما كان ذلك من فعل أسلافهم. وجاء «تَقْتُلُونَ» بلفظ الاستقبال

والمعنى: جعلت قلوبهم تشربه، وهذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكن أمر العجل في قلوبهم، وقال قوم: إن معنى قوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَجَلَ﴾ شربهم الماء الذي ألقى فيه موسى بُرَادَةَ العجل، وذلك أنه بَرَدَ بالمبرد ورماء في الماء، وقيل لبني إسرائيل: اشربوا من ذلك الماء، فشرب جميعهم، فمن كان يحب العجل خرجت برادة الذهب على شفثيه. وهذا قول يردُّه قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾، ورؤي أن الذين تبين فيهم حب العجل أصابهم من ذلك الماء الجن.

وقوله تعالى: ﴿يَكْفُرُهُمْ﴾ يحتمل أن تكون باء السبب، ويحتمل أن تكون بمعنى مع.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَسْكَأُ﴾ الآية، أمر لمحمد ﷺ أن يوبخهم بأنه بشس هذه الأشياء التي فعلتم، وأمركم بها إيمانكم الذي زعمتم في قولكم: ﴿تُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، و (ما): في موضع رفع، والتقدير: بشس الشيء قتل واتخاذ عجل، وقول سمعنا وعصينا. ويجوز أن تكون (ما) في موضع نصب، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرط، وقد يأتي الشرط والشارط يعلم أن الأمر على أحد الجهتين، كما قال الله عن عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتُمْ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ وقد علم أن عيسى عليه السلام لم يقله، كذلك: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، والقاتل يعلم أنهم غير مؤمنين، لكنه إقامة حجة بقياس بين، وقال قوم: ﴿إِنْ﴾ هنا نافية بمنزلة (ما) كالتي تقدمت. وقرأ الحسن، ومسلم بن

وفرق البحر، وغير ذلك من آيات موسى عليه السلام، وقوله: ﴿ثُمَّ﴾ تدل على أنهم فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر في الآيات، وذلك أعظم في ذنبهم، وقد تقدمت قصة اتخاذهم العجل، والضمير في قوله: ﴿مِنْ بَدْوِهِمْ﴾ عائد على موسى عليه السلام، أي من بعده حين غاب عنكم في المناجاة، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿بَدْوِهِمْ﴾ على المجيء، وهذه الآية ترد عليهم في أن من آمن بما

نزل عليه لا يتخذ العجل، وقد تقدم ذكر أخذ الميثاق ورفع الطور.

وقوله: ﴿وَعُدُّوا مَا يَتَّبِعُكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، يعني التوراة، والشرع. و ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بعزم، ونشاط، وجِدْ، ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ معناه هنا: وأطيعوا، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط. وقالت طائفة من المفسرين: إنهم ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، ونطقوا بهذه الألفاظ مبالغة في التعنت والمعصية، وقالت طائفة: ذلك مجاز، ولم ينطقوا بسمعنا وعصينا ولكن فعلهم اقتضاه، كما قال الشاعر:

امْتَلَأَ الْحَزْضُ وَقَالَ قَطْنِي

.....

وهذا أيضاً احتاج عليهم في كذب قولهم: ﴿تُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَجَلَ﴾، التقدير: حب العجل،

فَلْإِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ لَآخِرَةٌ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٢﴾ وَلَنْ تَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَنَجْذِثَهُمْ أَغْرَاصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٥﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ وَمَا كُفِّرُوهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهِدُوا عَاهِدًا أَنُبِّدَهُمْ فَرِيقًا يَّتَّبِعُهمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٩﴾

١٥

وهو بمعنى المضي لما ارتفع الإشكال بقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾، وإذا لم يشكّل فجازئ سَوْقُ الماضي بمعنى المستقبل، وسَوْقُ المستقبل بمعنى الماضي، قال الحطّية:

شَهِدَ الْخُطِيئَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ
أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقَّ بِالْعُذْرِ

وفائدة سَوْقُ الماضي في موضع المستقبل الإشارة إلى أنه في الثبوت كالماضي الذي قد وقع، وفائدة سوق المستقبل في معنى الماضي الإعلام بأن الأمر مستمر ألا ترى أن حاضري محمد ﷺ لما كانوا راضين بفعل أسلافهم بقي لهم من قتل الأنبياء جزء، و ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ شرط، والجواب متقدم، وقالت فرقة: [إِنْ] نافية بمعنى (ما).

٩٢ - ٩٣ تفسير قوله عز وجل: ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: التوراة، والعصا،

جندب ﴿يَهُوَ إِيْمَانُكُمْ﴾ برفع الهاء .
 وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ
 الْدَارُ الْآخِرَةُ﴾ الآية، أمر
 لمحمد ﷺ أَنْ يُؤَيِّخَهُم، والمعنى:
 إن كان لكم نعيمها وحظوتها وخيرها
 فذلك يقتضي حرصكم على الوصول
 إليها فتمنوا الموت، و﴿الْدَارُ﴾:
 اسم كانت، و﴿عَالِمِكُمْ﴾ خبرها،
 ويجوز أن يكون نصب ﴿عَالِمِكُمْ﴾
 على الحال، و﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ خبر
 كان، و﴿يَنْ دُونِ النَّاسِ﴾ يحتمل أن
 يراد بالناس محمد ﷺ ومن تبعه،
 ويحتمل أن يراد العموم التام، وهو
 قول اليهود فيما حفظ عنهم، وقرأ
 ابن أبي إسحاق بكسر الواو من
 ﴿تَمْنُوا﴾ للالتقاء، وحكى الأهوازي
 عن أبي عمرو أنه قرأ ﴿تَمْنُوا
 الموت﴾ بفتح الواو، وحكى عن
 غيره اختلاس الحركة في الرفع،
 وقراءة الجماعة بضم الواو .
 وهذه آية بينة أعطاها الله رسوله
 محمداً ﷺ، لأن اليهود قالت:
 ﴿يَنْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا﴾، وشبهه
 ذلك من القول، فأمر الله نبيه أن
 يدعوهم إلى تَمْنِي الموت، وأن
 يعلمهم أنه من تمناه منهم مات،
 ففعل النبي ﷺ ذلك، فعلم اليهود
 صدقه فأحجموا عن تَمْنِيه فَرَقاً
 من الله لقبح أعمالهم، ومعرفتهم
 لكذبهم في قولهم: ﴿يَنْ أَبْنَاءُ
 اللَّهِ﴾، وحرصاً منهم على الحياة،
 وقيل: إن الله منعهم من التمني،
 وقصرهم على الإمساك عنه، لتظهر
 الآية لنبيه ﷺ .

والمراد بقوله: ﴿تَمْنُوا﴾ أريدوه
 بقلوبكم واسألوه، هذا قول جماعة

من المفسرين، وقال ابن عباس:
 المراد به السؤال فقط وإن لم يكن
 بالقلب، وقال أيضاً هو وغيره: إنما
 أمروا بالدعاء بالموت على أردى
 الحزين من المؤمنين أو منهم .

وذكر المهدوي وغيره أن هذه الآية
 كانت مدة حياة النبي ﷺ وارتفعت
 بموته. والصحيح أن هذه النازلة من
 موت مَنْ تمنى الموت إنما كانت
 أياماً كثيرة عند نزول الآية، وهي
 بمنزلة دعائه النصارى من أهل نجران
 إلى المباهلة، وقالت فرقة: إن سبب
 هذا الدعاء إلى تمنى الموت أنَّ
 النبي ﷺ أراد به هلاك الفريق
 المكذب، أو قطع حجتهم، لا أنَّ
 علته قولهم: ﴿يَنْ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ .

ثم أخبر تعالى عنهم بمعجزهم،
 وأنهم لا يَمْنُونَهُ، و﴿أَبْدًا﴾ ظرف
 زمان، وإذا كانت (ما) بمعنى الذي
 فتحتاج إلى عائد تقديره: قَدَمْتُهُ،
 وإذا كانت مع ﴿قَدَمْتُ﴾ بمشابهة
 المصدر غنيت عن الضمير، هذا
 قول سيبويه، والأخفش يرى
 الضمير في المصدرية. وأضاف
 ذنوبهم واجترامهم إلى الأيدي،
 وأسند تقديمها إليها، إذ الأكثر من
 كسب العبد الخير والشر إنما هو
 بيديه، فحمل جميع الأشياء على
 ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 بِالْفَالِغِينَ﴾ ظاهرها الخبر، ومضمنها
 الوعيد، لأن الله عليم بالظالمين
 وغيرهم، ففائدة تخصيصهم حصول
 الوعيد .

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

(وجد) في هذا المعنى تتعدى إلى
 مفعولين، لأنها من أفعال النفس،

ولذلك صح تعدّيها إلى ضمير
 المتكلم في قول الشاعر:

تَلَقَّيْتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي
 وَجَعْتُ مِنَ الْإِسْفَاءِ لَيْتاً وَأَخْدَعَا
 وقال النبي ﷺ في الضب: ﴿إِنَّهُ لَمْ
 يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي فَأَجِدَنِي أَهَافَهُ﴾ .

وحرصهم على الحياة لمعرفةهم
 بذنوبهم، وأن لا خير لهم عند الله
 تعالى .

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ
 أَشْرَكُوا﴾، قيل: المعنى وأحرص من
 الذين أشركوا، لأن مشركي العرب
 لا يعرفون إلا هذه الحياة الدنيا، ألا
 ترى إلى قول امرئ القيس:

تَمْنَعُ مِنَ الدُّنْيَا قَبْلَئِكَ فَاِنْ

.....

والضمير في ﴿أَحَدَهُمْ﴾ يعود في
 هذا القول على اليهود، وقيل: إن
 الكلام تم في حياة ثم استؤنف
 الإخبار عن طائفة من المشركين أنهم
 يود أحدهم، وهي المجوس، لأن
 تشميتهم العاطس لفظ بلغتهم معناه
 «عش ألف سنة»، فكأن الكلام:
 ومن المشركين قوم يود أحدهم،
 وفي هذا القول تشبيه بني إسرائيل
 بهذه الفرقة من المشركين. وقصد
 الألف بالذكر لأنها نهاية العقد في
 الحساب .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزٍ﴾،
 اختلف النحاة في ﴿هُوَ﴾، فقيل: هو
 ضمير الأحد المتقدم، فالتقدير:
 (وما أحدهم بمزحزحه)، وخبر
 الابتداء في المجرور، و﴿أَنْ يَمُرَّ﴾
 فاعل بمزحزحه، وقالت فرقة: هو
 ضمير التعمير، والتقدير: (وما
 التعمير بمزحزحه)، والخبر في

المجورور، وأن يعمر بدل من التعمير في هذا القول، وقالت فرقة: هو ضمير الأمر والشأن، وقد رُدَّ هذا القول بما حفظ عن النحاة من أن الأمر والشأن إنما يفسر بجملة سالمة من حرف جر.

وقد جوز أبو علي ذلك في بعض مسائله الحليات.

وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: هو عماد، وقيل: (ما) عاملة حجازية وهو اسمها والخبر في ﴿يُخْرِجُونَهُ﴾، والزحزحة الإبعاد والتشحية، وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ بِبَيْرٍ يَمَّا يَمْلُكُونَ﴾ وعيدٌ، والجمهور على قراءة ﴿يَغْمُلُونَ﴾ بالياء من أسفل، وقرأ قتادة، والأعرج، ويعقوب ﴿يَغْمُلُونَ﴾ بالتاء من فوق، وهذا على الرجوع إلى خطاب المتوَعِّدين من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآية، نزل على سبب لم يتقدم له ذكر فيما مضى من الآيات، ولكن أجمع أهل التفسير أن اليهود قالت: جبريل عدونا، واختلف في كيفية ذلك، فقيل: إن يهود فداك قالوا للنبي ﷺ: نسألك عن أربعة أشياء، فإن عرفتها اتبعناك، فسألوه عما حرم إسرائيل على نفسه، فقال: «لحوم الإبل وألبانها»، وسألوه عن الشبه في الولد فقال: «أبي ماءٍ علا كان الشبه له»، وسألوه عن نومه فقال: «تنام عيني ولا ينام قلبي»، وسألوه عمن يجيئه من الملائكة فقال: «جبريل»، فلما ذكره قالوا: ذاك عدونا، لأنه ملك الحرب والشدائد والجذب، ولو كان الذي

يجيئك ميكائيل ملك الرحمة والخصب والأمطار لاتبعناك. وقيل: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتكرر على بيت المدراس، فاستحلفهم يوماً بالذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء، أتعلمون أن محمداً نبي؟ قالوا: نعم، قال: فلم تهلكون في تكذيبه؟ قالوا: صاحبه جبريل، وهو عدونا. وذكر أنهم قالوا سبب عدوانهم له: أنه حمى بخت نصر حين بعثوا قبل أن يملك من يقتله، فنزلت هذه الآية لقولهم.

وفي (جبريل) لغات: ﴿جَبْرِيلُ﴾ بكسر الجيم والراء من غير همز، وبها قرأ نافع، و ﴿جَبْرِيلُ﴾ بفتح الجيم وكسر الراء من غير همز، وبها قرأ ابن كثير، وروي عنه أنه قال: رأيت النبي ﷺ في النوم هو يقرأ ﴿جَبْرِيلُ وَيُكَالُ﴾، فلا أزال أقرؤهما أبداً كذلك. و ﴿جَبْرُؤَالُ﴾ بفتح الجيم والراء وهمزة بعد الراء واللام، وبها قرأ عاصم، و ﴿جَبْرِئِيلُ﴾ بفتح الجيم والراء وهمزة بين الراء وياء بين الهمزة واللام، وبها قرأ حمزة والكسائي، وحكاها الكسائي عن عاصم، و ﴿جَبْرَائِيلُ﴾ بألف بعد الراء ثم همزة، وبها قرأ عكرمة، و ﴿جَبْرَائِيلُ﴾ بزيادة ياء بعد الهمزة، و ﴿جَبْرَائِيلُ﴾ بياءين، وبها قرأ الأعمش، و ﴿جَبْرُؤَالُ﴾ بفتح الجيم والراء وهمزة ولام مشددة، وبها قرأ يحيى بن يغمر، و ﴿جَبْرُؤَالُ﴾ لغة فيه. و ﴿جَبْرَيْنُ﴾ بكسر الجيم والراء وياء ونون، قال الطبري: هي لغة بني أسد، ولم يقرأ بها.

وجبريل اسم أعجمي عربته العرب

فلها فيه هذه اللغات، فبعضها هي موجودة في أبنية العرب وتلك أدخل في التعريب كجبريل الذي هو كقنديل، وبعضها خارج عن أبنية العرب، فذلك كمثل ما عربته العرب ولم تدخله في بناء كإبريسم وفيرند وأجَز ونحوه. وذكر ابن عباس، وغيره: أن جَبْرَ، وَمَيْكَ، وَسَرَّافَ، هي كلها بالأعجمية بمعنى عبد ومملوك، وإيل: اسم الله تعالى، ويقال فيه: إل، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين سمع سجع مسيلمة: «هذا كلام لم يخرج من إل».

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ زَكَرَّا عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ الضمير في ﴿فَإِنَّ﴾ عائد على الله عز وجل، والضمير في ﴿زَكَرَّا﴾ عائد على جبريل ﷺ، والمعنى بالقرآن وسائر الوحي، وقيل: الضمير في (إنه) عائد على جبريل، وفي ﴿زَكَرَّا﴾ على القرآن، وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف.

وجاءت المخاطبة بالكاف في ﴿قَلْبِكَ﴾ اتساعاً في العبارة، إذ ليس ثم من يخاطبه النبي ﷺ بهذه الكاف، وإنما يجيء قوله: فإنه نزل على قلبي، لكن حسن هذا إذ يحسن في كلام العرب أن تُخرز اللفظ الذي يقوله المأمور بالقول، ويحسن أن تقصد المعنى الذي يقوله فتسرده مخاطبة له، كما تقول لرجل: قل لقومك لا يهينوك، فكذلك هي الآية، ونحو من هذا قول الفرزدق:

أَلَمْ تَرَ أَنِّي يَوْمَ جَوْسُوْنَقَةٍ
بَكَيْتُ فَنَادَتْنِي هُنَيْدَةُ مَالِيَا؟

فأحرز المعنى ونكب عن نداء هنيءة: مالك؟

و ﴿يَا ذِينَ اللَّهِ﴾ معناه: بعلمه وتمكينه إياه من هذه المنزلة، و ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من ضمير القرآن في ﴿تَزَكَّيْكُمْ﴾ و ﴿لِمَا بَيَّنَّتْ يَدَيَّيْكُمْ﴾: ما تقدمه من كتب الله تعالى، و ﴿هُدًى﴾: إرشاد، و (البشرى): أَكْثَرُ استعمالها في الخير، ولا تجيء في الشر إلا مقيدة به، ومقصد هذه الآية تشريف جبريل ﷺ ذم معاديه.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ الآية، وعيد وذم لمُعَادِي جبريل عليه السلام، وإعلام أن عداوة البعض تقتضي عداوة الله لهم. وعداوة العبد لله هي معصيته واجتناب طاعته، ومعاداة أوليائه. وعداوة الله للعبد تعذيبه وإظهار أثر العداوة عليه.

وذكر جبريل وميكائيل وقد كان ذكر الملائكة عهما تشريفاً لهما. وقيل: خصاً لأن اليهود ذكروهما، ونزلت الآية بسببهما، فذكرهما واجب، لثلاثا تقول اليهود: إنا لم نعاد الله وجميع ملائكته. وقرأ نافع ﴿مِيكَائِيلَ﴾ بهمة دون ياء. وقرأ بها ابن كثير فيما روي عنه. وقرأ ابن عامر، وابن كثير أيضاً، وحمزة، والكسائي: ﴿مِيكَائِيلَ﴾ بياء بعد الهمزة. وقرأ أبو عمرو، وعاصم ﴿مِيكَالَ﴾، ورويت عن ابن كثير منذ رأها في النوم كما ذكرنا. وقرأ ابن محيصن ﴿مِيكَئِلَ﴾ بهمة دون ألف، وقرأ الأعمش: ﴿مِيكَائِيلَ﴾ بياءين.

وظهر الاسم في قوله: ﴿لَقَدْ لَلَّيْكُمْ﴾، لثلاثا يشكل عود الضمير، وجاءت العبارة بعموم الكافرين لأن عود

الضمير على (من) يشكل سواء أفردته أو جمعته، ولو لم نبال بالإشكال وقلنا: المعنى يدل السامع على المقصد للزم تعيين قوم بعداوة الله لهم، ويحتمل أن الله قد علم أن بعضهم يؤمن فلا ينبغي أن تطلق عليه عداوة الله للمالك.

وروي أن رجلاً من اليهود لقي عمر بن الخطاب، فقال له: رأيت جبريل الذي يزعم صاحبك أنه يجيئه؟ ذلك عدونا. فقال له عمر رضي الله عنه: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ إلى آخر الآية، فنزلت على لسان عمر رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا الخبر ضعيف من جهة معناه. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، ذكر الطبري أن ابن سوريا قال للنبي ﷺ: يا محمد. ما جئت بأية بيّنة. فنزلت هذه الآية. و ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ هنا: الخارجون عن الإيمان، فهو فسق الكفر، والتقدير: وما يكفر بها أحد إلا الفاسقون، لأن الإيجاب لا يأتي إلا بعد تمام جملة النفي.

١٣١ - ١٣٢ تفسير قوله عز وجل: قال سيبيوه: الواو واو العطف، دخلت عليه ألف الاستفهام، وقال الأخفش: هي زائدة، وقال الكسائي: هي أذ، وفتحت تسهلاً، وقرأها قوم: ﴿أَوْ﴾ ساكنة الواو فتجيء بمعنى (بَل) كما يقول القائل: لأضربنك، فيقول المجيب: أَوْ يكفي الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا كله متكلف، وأو في هذا

المثال متمكنة في التقسيم، والصحيح قول سيبيوه، وقرئ: ﴿عَهْدُوا عَهْدًا﴾، وقرأ الحسن، وأبو رجاء: ﴿عُوهِدُوا﴾، و (عَهْدًا) مصدر، وقيل: مفعول بمعنى أعطوا عهداً، والتبذ: الطرح والإلقاء، ومنه: التَّيْدُ والتَّيْوُذُ. والفريق: اسم جمع لا واحد له من لفظه، ويقع على اليسير والكثير من الجمع، ولذلك فسرت كثرة النابذين بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾، لما احتمل الفريق أن يكون الأقل، و ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في هذا التأويل حال من الضمير في ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، ويحتمل الضمير العود على الفريق، ويحتمل العود على جميع بني إسرائيل، وهو أذم لهم، والعهد الذي نبذوه هو ما أخذ عليهم في التوراة من أمر محمد ﷺ، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿نَقَضَهُ فَرِيقٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾، يعني به محمداً ﷺ، و ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾ هو التوراة و ﴿مُصَدِّقٌ﴾ نعت لرَسُول، وقرأ ابن أبي عبيدة ﴿مُصَدِّقًا﴾ بالنصب. و ﴿لِمَا﴾ يجب بها الشيء لوجوب غيره، وهي ظرف زمان، وجوابها فَيَسِيءُ الَّذِي يَجِيءُ، و ﴿الْكِتَابِ﴾ الذي أوتوه التوراة، و ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ مفعول نبذ، والمراد القرآن لأن التكذيب نبذ. وقيل: المراد التوراة لأن مخالفتها والكفر بما أخذ عليهم فيها نبذ.

و ﴿وَرَأَى ظُهُورَهُمْ﴾ مَثَل، لأن ما يجعل ظهرياً فقد زال النظر إليه جملة، والعرب تقول: جعل هذا

الأمر وراء ظهره وذُبرَ أذنه، وقال الفرزدق:

ثَمِيمٌ بَنُ زَيْدٍ لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي
بِظَهْرٍ فَلَا يَغْنِي عَنِّي جَوَائِهَا
و ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَمْلَكُونَ﴾ تشبيه بمن
لا يعلم، إذ فعلوا فعل الجاهل،
فيجيء من اللفظ أنهم كفروا على
علم.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا﴾
الآية، يعني اليهود، قال ابن زيد:
المراد مَنْ كان في عهد سليمان،
وقال ابن عباس: المراد مَنْ كان في
عهد النبي ﷺ، وقيل الجميع، و
﴿تَتْلُوا﴾ قال عطاء: معناه تقرأ من
التلاوة، وقال ابن عباس: تتلوا:
تُتْلَعُ، كما تقول: جاء القوم يتلو
بعضهم بعضاً، وتتلوا بمعنى تَلَّتْ،
فالمستقبل وَضِعَ موضع الماضي،
وقال الكوفيون: المعنى ما كانت
تتلوا، وقرأ الحسن والضحاك:
الشياطون بالواو، وقوله: ﴿عَلَىٰ مَلِكٍ
سُلَيْمَانَ﴾ أي على عهد ملك
سليمان، وقيل: المعنى - في ملك
سليمان، بمعنى في قصصه وصفاته
وأخباره. وقال الطبري: اتَّبَعُوا
بمعنى قَضَّلُوا، وعلى ملك سليمان
أي على شرعه ونبوته وحاله.

والذي تلتة الشياطين - قيل: إنهم
كانوا يُلقُونَ إلى الكهنة الكلمة من
الحق معها المائنة من الباطل حتى
صار ذلك علمهم، فجمعه سليمان
ودفنه تحت كرسيه، فلما مات قالت
الشياطين: إن ذلك كان علم
سليمان، وقيل: بل كان الذي تلتة
الشياطين سحراً وتعليمه، فجمعه
سليمان عليه السلام كما تقدم،

وقيل: إن سليمان عليه السلام كان
يملي على كاتبه آصف بن برخيا
علمه ويَحْتَرِثُهُ، فلما مات أخرجه
الجن وكتبت بين كل سطرين سطراً
من سحر، ثم نسبت ذلك إلى
سليمان، وقيل: إن آصف تواطأ مع
شياطين على أن يكتبوا سحراً ينسبوه
إلى سليمان بعد موته، وقيل: إن
الجن كتبت ذلك بعد موت سليمان
واختلقته ونسبته إليه، وقيل: إن
الجن والإنس حين زال ملك سليمان
عنه اتخذ بعضهم السحر والكهانة
علماً، فلما رجع سليمان إلى ملكه
تتبع كتبهم في الآفاق ودفنها، فلما
مات قال شيطان لبني إسرائيل: هل
أدلكم على كنز سليمان الذي به
سُحِّرَتْ له الجن والريح؟ هو هذا
السحر، فاستخرجته بنو إسرائيل،
وأنبئ فيهم، ونسبوا سليمان إلى
السحر، وكفروا في ذلك حتى
برأه الله على لسان محمد ﷺ.

وروي أن رسول الله ﷺ لما ذكر
سليمان في الأنبياء قال بعض اليهود:
انظروا إلى محمد، يذكر سليمان في
الأنبياء وما كان إلا ساحراً. وقوله
تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ تبرئة
من الله تعالى لسليمان، ولم يتقدم
في الآيات أن أحداً نسب إلى الكفر
ولكنها آية نزلت في السبب المتقدم
أن اليهود نسبته إلى السحر، والسحر
والعمل به كفر.

ويُقتل الساحر عند مالك كفراً، ولا
يستتاب كالزنديق، وقال الشافعي:
يُسأل عن سحره، فإن كان كفراً
استتيب منه، فإن تاب وإلا قتل.
وقال مالك فيمن يعقد الرجال عن

النساء: يعاقب ولا يقتل، واختلف
في ساحر الذمة - فقيل: يقتل، وقال
مالك: لا يقتل إلا إن قتل بسحره،
ويضمن ما جنى، ويقتل إن جاء منه
بما لم يعاهد عليه. وقرأ نافع،
وعاصم، وابن كثير، وأبو عمرو،
بتشديد النون من ﴿لَيْكُنْ﴾، ونصب
الشياطين. وقرأ حمزة، والكسائي،
وابن عامر بتخفيف النون وُزِعَ
الشياطين. قال بعض الكوفيين:
التشديد أحب إلي إذا دخلت عليها
الواو، لأن المخففة بمنزلة (تَل) و(تَلَّ)
لا تدخل عليها الواو. قال أبو
علي: ليس دخول الواو عليها معنى
يوجب التشديد، وهي مثقلة ومخففة
بمعنى واحد، إلا أنها لا تعمل إذا
خفت.

وكفر الشياطين إما بتعليمهم
السحر، وإما بعلمهم به، وإما
بتكفيرهم سليمان به، وكل ذلك
كان. والناس المعلومون أتباع
الشياطين من بني إسرائيل، و
﴿الْيَتَر﴾ مفعول ثان يُعْلَمُونَ،
وموضع ﴿يَمْلَكُونَ﴾ نصب على
الحال، أو رفع على خبر ثان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى
الْمَلَائِكَةِ بِبَابٍ مُّزُورٍ وَمَرْوَةٍ﴾.
(ما) عطف على ﴿الْيَتَر﴾ فهي
مفعولة، وهذا على القول بأن الله
تعالى أنزل السحر على الملائكة فَنَتَتْ
للناس، ليكفر من اتبعه، ويؤمن من
تركه، أو على قول مجاهد وغيره:
إن الله تعالى أنزل على الملائكة
الشيء الذي يُفَرَّقُ به بين المرء
وزوجه دون السحر، أو على القول:
إنه تعالى أنزل السحر عليها ليعلم،

على جهة التحذير منه والنهي عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتعليم على هذا القول إنما هو تعريف يسير بمبادئه.

وقيل إن (ما) عطف على (ما) في قوله: ﴿مَا تَنَلَّوْا﴾. وقيل: (ما) نافية، رد على قوله: ﴿وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَنُ﴾، وذلك أن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر فنفى الله ذلك.

وقرأ ابن عباس، والحسن، والضحاك، وابن أبيزي، ﴿الْمَلِكَيْنِ﴾ بكسر اللام. وقال ابن أبيزي: هما داود وسليمان، وعلى هذا القول أيضاً فما نافية، وقال الحسن هما عِلْجَانٍ كانا ببابل ملكين، فما على هذا القول غير نافية، وقرأهما كذلك أبو الأسود الدؤلي وقال: هما هاروت وماروت فهذا كقول الحسن. وبابل لا ينصرف للتأنيث والتعريف، وهي قطر من الأرض، واختلف أين هي؟ فقال قوم: هي بالعراق وما والاها، وقال ابن مسعود لأهل الكوفة: أنتم بين الحيرة وبابل. وقال قتادة: هي من نصيبين إلى رأس العين. وقال قوم: هي بالمغرب وهذا ضعيف وقال قوم: هي جبل دماوند.

و ﴿هَرُوتَ وَوَرُوتَ﴾ بدل من ﴿الْمَلَكَيْنِ﴾ على قول من قال: هما ملكان. ومن قرأ ملكَيْن بكسر اللام وجعلهما داود وسليمان، أو جعل الملكَيْن جبريل وميكائيل جعل هاروت وماروت بدلاً من الشياطين في قوله ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾، وقال: هما شيطانان.

ويجيء ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إما على أن الاثنين جمع، وإما على تقدير أتباع لَهْدِين الشيطانين اللذين هما الرأس. ومن قال: كان عِلْجَيْنِ قال: ﴿هَرُوتَ وَوَرُوتَ﴾ بدل من قوله: ﴿الْمَلَكَيْنِ﴾.

وقيل: هما بدل من الناس في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّاسٌ﴾. وقرأ الزهري ﴿هاروت وماروت﴾ بالرفع، ووجه البدل من ﴿الشَّيَاطِينَ﴾ في قوله: ﴿تَنَلَّوْا الشَّيَاطِينَ﴾ أو من الشياطين الثاني على قراءة من خفف ﴿لَكُنْ﴾ وَزَعَفَ،

أو على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هما هاروت وماروت. وَزَى مَنْ قال إنهما مَلَكَانِ أن الملائكة مَقْتَت حكام بني آدم، وزعمت أنها لو كانت بمثابتهم من البعد عن الله لأطاعت حق الطاعة، فقال الله لهم: اختاروا ملكين يحكما بين الناس، فاختاروا هاروت وماروت، فكانا يحكما، فاختصمت إليهما امرأة، ففَتِنَا بها، فراوداها فأبَت حتى يشربا الخمر، ويقتلا، ففعلا، وسألتهما عن الاسم الذي يصعدان به السماء فعلماها إياه، فتكلمت به فخرجت فمسخت كوكباً فهي الزهرة، وكان ابن عمر يلعنها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف، وبعيد على ابن عمر رضي الله عنهما. وروي أن الزهرة نزلت إليهما في صورة امرأة

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ ۖ وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَوَرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يَفْتَرُونَ بِهِ يَتَّبِعُونَ آيَاتَهُمَا وَرُوَيْدَهُمَا هُمَ مُضِلُّونَ وَمَا لَهُمْ فِي آيَاتِهِمَا مِنْ حَافِظٍ ۚ وَمَا يَسْتَرْشِدُونَ ۚ وَمَا يُغْنِيهِمْ وَلَهُمْ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ وَأَتَقُوا لِمَؤُتِيهِ بْنِ عِندِ اللَّهِ حَذَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۚ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا رِجْسًا وَفُتِلُوا ۚ أَنْظَرْنَا وَأَسْمَعُوا وَلَكِنْ كَفَرُوا عَذَابُ آيَةٍ ۚ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ۚ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

١٦

من فارس فجرى لهما ما ذكر، فأطلع الله الملائكة على ما كان من هاروت وماروت فتعجبوا، وبقي في الأرض لأنهما خَيْرًا، بين عذاب الآخرة وعذاب الدنيا فاختارا عذاب الدنيا، فهما في سرب من الأرض معلقين يصفقان بأجنحتهما.

وروت طائفة أنهما يعلمان السحر في موضعهما ذلك، وأخذ عليهما ألا يعلما أحداً حتى يقولوا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر. وهذا القصص يزيد في بعض الروايات وينقص في بعض ولا يقطع منه بشيء فلذلك اختصرته.

﴿١٠٣﴾ - ﴿١٠٤﴾ تفسير قوله عز وجل: ذكر ابن الأعرابي في البياقوتة أن ﴿يُعَلِّمَانِ﴾ بمعنى يُعَلِّمَانِ وَيُشْعِرَانِ، كما قال كعب بن زهير:

تَعَلَّمُ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي وَأَنْ وَعِيدُا مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ

وَحَمَلَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ
إِنَّمَا نَزَلُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ بِالسَّحَرِ
وَيُنْهَوْنَ عَنْهُ.

وقال الجمهور: بل التعليم على
عرفه. و ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾: قالت فرقة:
بتعلم السحر، وقالت فرقة:
باستعماله، وحكى المهدوي أن
قولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾
استهزاء، لأنهما إنما يقولانه لمن قد
تحققا ضلاله. و ﴿مِنْ﴾ في قوله:
﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ زائدة بعد النفي، وقوله
تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾، قال سيبويه:
التقدير فَهُمْ يَتَعَلَّمُونَ، وقيل: هو
معطوف على قوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾
أَلْتَأْتُونَ وَمَنْعَهُ الزَّجَاجَ، وقيل: هو
معطوف على موضع ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ﴾
لأن قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ﴾ وإن دخلت
عليه ما النافية فمضمته الإيجاب في
التعليم، وقيل: التقدير فَيَأْتُونَ
فَيَتَعَلَّمُونَ، واختاره الزجاج.

والضمير في ﴿يَعْلَمَانِ﴾ هو لهاروت
وعماروت المَلَكَيْنِ أو المَلِكَيْنِ
الْعِلْمَيْنِ على ما تقدم. والضمير في
﴿يَتَعَلَّمَانِ﴾ قيل: هو عائد عليهما،
وقيل: على السحر، وعلى الذي
أنزل على الملكين.

و ﴿يُتَرَفِّعُونَ﴾ معناه تُرْفَعُ فرقة العصمة
وقيل معناه يُؤْخَذُونَ الرجل عن
المرأة حتى لا يقدر على وطئها،
فهي أيضاً فرقة.

وقرأ الحسن، والزهرى، وقتادة
﴿الْفَرْ﴾ براء مكسورة خفيفة، وزوي
عن الزهرى تشديد الراء، وقرأ ابن
أبي إسحق ﴿الْمَرْ﴾ بضم الميم
وهمزة، وهي لغة هذيل.

وقرأ الأشهب العقيلي ﴿الْمَرْ﴾

بكسر الميم وهمزة، ورويت عن
الحسن. وقرأ جمهور الناس
﴿الْمَرْ﴾ بفتح الميم وهمزة.

والزوج هنا امرأة الرجل، وكل
واحد منهما زوج الآخر، ويقال
للمرأة: زوجة، قال الفرزدق:

وَإِنَّ الَّذِي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي
كَسَاعٍ إِلَى أَسَدِ الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا

وقرأ الجمهور ﴿بِضَارَيْنِ﴾. وقرأ
الأعمش ﴿بِضَارِي بِهِ مِنْ أَحَدٍ﴾
فقيل: حذف النون تخفيفاً، وقيل:
حذف للإضافة إلى أحد، وحيل بين
المضاف والمضاف إليه بالمجرور.

و ﴿يُؤَاذِنُ اللَّهُ﴾ معناه: بعلمه
وتمكينه، و ﴿يَسْأَلُهُمْ﴾ معناه: في
الآخرة، ﴿وَلَا يَسْأَلُهُمْ﴾ فيها أيضاً
وإن نفع في الدنيا بالمكاسب،
فالْمُرَاغَى إنما هو أمر الآخرة.

والضمير في ﴿عَلِمُوا﴾ عائد على
بني إسرائيل حسب الضمائر
المتقدمة، وقيل: على الشياطين،
وقيل: على المَلَكَيْنِ وهما جمع،
وقال: ﴿أَشْرَبَهُ﴾ لأنهم كانوا يعطون
الأجرة على أن يعلموا، والخلاق:
النصيب والحظ، وهو هنا بمعنى
الحِجَابِ والقدر، واللام في قوله
﴿لَنْ﴾ المتقدمة للقسم، المؤذنة بأن
الكلام قسم لا شرط.

وتقدم القول في بنسما، و
﴿شَكَرُوا﴾ معناه: باعوا، وقد تقدم
مثله، والضمير في ﴿يَعْلَمُونَ﴾ عائد
على بني إسرائيل باتفاق. ومن قال:
أن الضمير في ﴿عَلِمُوا﴾ عائد عليهم
خرج هذا الثاني على المجاز، أي:
لما عملوا عمل من لا يعلم كانوا
كانهم لا يعلمون ومن قال: إن

الضمير في ﴿عَلِمُوا﴾ عائد على
الشياطين أو المَلَكَيْنِ قال: إن أولئك
علموا ألا خلاق لمن اشتراه،
وهؤلاء لم يعلموا، فهو على
الحقيقة. وقال مكي: الضمير في
﴿عَلِمُوا﴾ لعلماء أهل الكتاب، وفي
قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾
للتعلمين منهم.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ ءَانِسُوا﴾
موضع أن رفع، المعنى: ولو وقع
إيمانهم، ويعني الذين اشتروا
السحر، و ﴿لَوْ﴾ تقتضي جواباً،
فقالت فرقة: جوابها ﴿لَمْ تَوْتَهُ﴾ لأنها
مصدر يقع للمضي والاستقبال،
وجواب (لو) لا يكون إلا ماضياً أو
بمعناه، وقال الأخفش: لا جواب
لِلَّوْ في هذه الآية مظهرًا ولكنه مقدر،
أي: لو آمنوا لأتينا. وقرأ قتادة،
وأبو السمال، وابن بريدة ﴿لَمْ تَوْتَهُ﴾
بسكون التاء، وفتح الواو، وهو
مصدر أيضاً كمشورة ومثورة. و
[مشوبة] رفع بالابتداء و ﴿خَيْرٌ﴾
خبره، والجملة خبر [أن]. والمثوبة
عند جمهور الناس بمعنى الثواب
والأجر، وهذا هو الصحيح، وقال
قوم: معناه: الرجعة إلى الله، من
ثاب يشوب إذا رجع، واللام فيها لام
القسم، لأن لام الابتداء مستغنى
عنها، وهذه لا غنى عنها. وقوله:
﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يحتمل نفي
العلم عنهم، ويحتمل أن يراد لو
كانوا يعلمون علماً ينفع. وقرأ
جمهور الناس ﴿زَاعَتَا﴾ من المُرَاعَاةِ
بمعنى فاعلنا، أي ارعنا نرعى، وفي
هذا جفاء أن يخاطب به أحد نبيه،
وقد حض الله تعالى على خفض

الجماعة، يظهرون بذلك إكباره، وهم يريدون في الباطن ناعولا من الرعوننة، و﴿أَنْظُرْنَا﴾ مضمومة الألف والظاء معناها: انتظرنا وأمهل علينا، ويحتمل أن يكون المعنى تفقدنا، من النظر، وهذه لفظة مخلصة لتعظيم النبي ﷺ على المعنيين.

والظاهر عندي استدعاء نَظَرِ العين المقترن بتدبير الحال، وهذا هو معنى راعنا فَبَدَلْتُ للمؤمنين اللفظة ليزول تعلق اليهود وقرأ الأعمش، وغيره ﴿أَنْظُرْنَا﴾ بقطع الألف

وكسر الظاء، بمعنى أخرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك ونلتقي منك.

ولمَّا نهى الله تعالى في هذه الآية وأمر، حَضَّ بغَضٍّ على السمع الذي في ضمنه الطاعة، وأعلم أن لِمَنْ خالف أمره فكفر عذاباً أليماً، وهو المُول، و﴿وَأَسْمُوا﴾ معطوف على ﴿قُولُوا﴾ لا على معمولها.

١٠٥ - ١٠٦ تفسير قوله عز وجل:

التقدير: ولا من المشركين، وعَمُ الذين كفروا، ثم بين أجناسهم من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان، ليسبين في الألف واللام في ﴿الَّذِينَ﴾ أنها ليست للعهد يراد بها معين.

ومعنى الآية: أنا ما أمرناكم به من أن تعظموا نبيكم خير من الله منحكم إياه، وذلك لا يوده الكفار، ثم يتناول اللفظ كل خير غير هذا، و

الصوت عنده، وتعزيزه، وتوقيره. فقال من ذهب إلى هذا المعنى: إن الله تعالى نهى المؤمنين عنه لهذه العلة، ولا مدخل لليهود في الآية على هذا التأويل، بل هو نهى عن كل مخاطبة فيها استواء مع النبي ﷺ. وقالت طائفة: هي لغة كانت الأنصار تقولها، فقالها رفاعة بن زيد بن التابوت للنبي ﷺ ليتاً بلسانه وطعناً، كما كان يقال: اسمع غَيْرَ مسمع، فنهى الله المؤمنين أن يقال هذه اللفظة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ووقف هذه اللغة على الأنصار تقصير، بل هي لغة جميع العرب، فاعل من المراعاة، فكانت اليهود تصرفها إلى الرعوننة، يظهرون أنهم يريدون المراعاة، ويبطنون أنهم يريدون الرعوننة التي هي الجهل وحكى المهدوي عن قوم أن هذه الآية على هذا التأويل ناسخة لفعل قد كان مباحاً، وليس في هذه الآية شروط النسخ، لأن الأول لم يكن شرعاً متقرباً.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وابن أبي ليلى، وابن مُحَيْصِن، وأبو حَيْوَةَ: ﴿رَاعِنًا﴾ بالتنوين وهذه من معنى الجهل، وهذا محمول على أن اليهود كانت تقوله، فنهى الله تعالى المؤمنين عن القول المباح سد ذريعة لثلاث يتطرق منه اليهود إلى المحذور، إذ المؤمنون إنما كانوا يقولون: ﴿رَاعِنًا﴾ دون تنوين. وفي مصحف ابن مسعود ﴿رَاعُونًا﴾، وهي شاذة، ووجهها أنهم كانوا يخاطبون النبي ﷺ كما تخاطب

﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلُوا مُوسَى مِنْ قَبْلُ ۖ وَنَبْتَدِلَ الْكَافِرَ بِالْإِيمَانِ فَتَدْرُسَ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ رَدُّوهُكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَرُوا أَحْسَنًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ فَاعْتَمُوا ۖ وَاصْضَعُوا حَقِّي بِأَنِّي اللَّهُ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُثْهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۚ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقُلْتُ هُوَ رَحْمَةُ رَبِّي وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ مِنْ الْأُولَىٰ وَلَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾

١٧

﴿أَنْ﴾ مع الفعل بتأويل المصدر، و﴿مِنْ﴾ زائدة في قول بعضهم، ولما كان ود نزول الخير منتفياً قام ذلك مقام الجُحْد الذي يلزم أن يتقدم من الزائدة على قول سيبويه والخليل، وأما الأخفش فيجيز زيادتها في الواجب.

وقال قوم: ﴿مِنْ﴾ للتبعض لأنهم يريدون ألا ينزل على المؤمنين من الخير قليل ولا كثير، ولو زال معنى التبعض لساغ لقاتل أن يقول: نريد ألا ينزل خير كامل، ولا نكره أن ينزل بعض، فإذا نفى ود نزول البعض فذلك أخرى في نزول خير كامل.

والرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها التي قد منحها الله عباده قديماً وحديثاً، وقال قوم: الرحمة هي القرآن، وقال قوم: نُبُوَّة

محمد ﷺ، وهذه أجزاء الرحمة العامة التي في لفظ الآية.

وقوله تعالى: ﴿مَا تَنَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآية، النسخ - في كلام العرب - على وجهين: أحدهما النقل، كنقل كتاب من آخر، والثاني الإزالة، فأما الأول فلا مدخل له في هذه الآية، وورد في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا سَنَنْسِخُ مَا كُنَّا نَمْلِكُ﴾، وأما الثاني الذي هو الإزالة فهو الذي في هذه الآية، وهو منقسم في اللغة على ضربين: أحدهما يثبت الناسخ بعد المنسوخ، كقولهم: نسخت الشمس الظل، والآخر لا يثبت كقولهم: نسخت الريح الأثر.

وورد النسخ في الشرع حسب هذين الضربين. والناسخ حقيقة هو الله تعالى، ويسمى الخطاب الشرعي ناسخاً إذ به يقع النسخ.

وحد الناسخ عند حذاق أهل السنة الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً مع تراخيه عنه.

والنسخ جائز على الله تعالى عقلاً، لأنه ليس يلزم عنه محال، ولا تغيير صفة من صفاته تعالى، وليست الأوامر معلقة بالإرادة فيلزم من النسخ أنَّ الإرادة تغيرت، ولا النسخ يُطَرِّوْ علم، بل الله تعالى يعلم إلى أي وقت ينتهي أمره بالحكم الأول، ويعلم نسخه له بالثاني.

والبداء لا يجوز على الله تعالى، لأنه لا يكون إلا يُطَرِّوْ علم أو لِتَغْيِيرِ إرادة، وذلك محال في جهة الله تعالى. وجعلت اليهود النسخ والبداء

واحداً، ولذلك لم يُجَوِّزوه فضلاً. والمنسوخ عند أئمتنا: الحكم الثابت نفسه، لا ما ذهبنا إليه المعتزلة من أنه مثل الحكم الثابت فيما يستقبل، والذي قادهم إلى ذلك مذهبهم في أن الأوامر مرادة، وأن الحُسن صفة نفسية للحسن، ومراد الله تعالى حَسَنٌ، وقد قامت الأدلة على أن الأوامر لا ترتبط بالإرادة، وعلى أن الحُسن والقبح في الأحكام إنما هو من جهة الشرع لا بصفة نفسية.

والتخصيص من العموم يوهم أنه نسخ وليس به، لأنَّ المُخَصَّص لم يتناول العموم قط، ولو ثبت قطعاً تناول العموم لشيء ما ثم أخرج ذلك الشيء عن العموم لكان نسخاً لا تخصيصاً، والنسخ لا يجوز في الأخبار، وإنما هو مختص بالأوامر والنواهي، ورد بعض المعترضين الأمر خبراً بأن قال: أليس معناه: واجب عليكم أن تفعلوا كذا؟ فهذا خبر، والجواب أن يقال: إن في ضمن المعنى إلا أن أنسخه عنكم وأرفعه، فكما تضمن الأمر ذلك الإخبار، كذلك تضمن هذا الاستثناء.

وصور النسخ تختلف: فقد ينسخ الأثقل إلى الأخف، كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لاثنتين. وقد ينسخ الأخف إلى الأثقل، كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان.

وقد ينسخ الجثل بمثله ثقلاً وخفةً، كالقبلة.

وقد ينسخ الشيء لا إلى بدل، كصدقة النجوى.

والنسخ التام أن تنسخ التلاوة والحكم، وذلك كثير، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: كنا نقرأ (لا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ فَإِنَّهُ كُفِّرَ).

وقد تنسخ التلاوة دون الحكم، كآية الرجم.

وقد ينسخ الحكم دون التلاوة، كصدقة النجوى، وكقوله تعالى: ﴿إِن كَانُوا هُمُ الَّذِينَ أَزَوَّجَكُمْ إِلَى الْكَافِرَاتِ فَقَاتِلُوا كَقَاتِلِ الَّذِينَ ذُكِّرْتُمْ وَلَا تَزِدْ لَهُمْ مَثَلًا مَا كَفَرْتُمْ﴾، والتلاوة والحكم حكمان، فجائز نسخ أحدهما دون الآخر، وينسخ القرآن بالقرآن، والسنة بالسنة، وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي، وينسخ خبر الواحد بخبر الواحد، وهذا كله متفق عليه، وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة، وذلك موجود في قوله ﷺ: «لا وصية لوارث»، وهو ظاهر مسائل مالك رحمه الله، وأبى ذلك الشافعي رحمه الله، والحجة عليه من قوله - إسقاطه الجدل في حد الزنا عن الثيب الذي يُرْجَم، فإنه لا مسقط لذلك إلا السنة، فعل النبي ﷺ.

وكذلك حذاق الأئمة على أن السنة تنسخ بالقرآن. وذلك موجود في القبلة، فإن الصلاة إلى الشام لم تكن قط في كتاب الله، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوا إِلَى الْكَافِرَاتِ﴾ فإن رجوعهن إنما كان بصلح النبي ﷺ لقرش.

والحذاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلاً، واختلفوا هل وقع شرعاً؟ فذهب أبو المعالي، وغيره إلى وقوعه في نازلة مسجد قباء، في التحول إلى القبلة، وأبى ذلك قوم.

ولا يصح نسخ نص بقياس، إذ من شروط القياس ألا يخالف نصاً، وهذا كله في مدة النبي ﷺ. وأما بعد موته واستقرار الشرع فأجمعت الأمة أنه لا نسخ، ولهذا كان الإجماع لا يُنسخ ولا يُنسخ، لأنه إنما يتعقد بعد النبي ﷺ، فإذا وجدنا إجماعاً يخالف نصاً فنعلم أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن.

وقال بعض المتكلمين: النسخ الثابت متقرر في جهة كل أحد، علم الناسخ أو لم يعلمه، والذي عليه الحذاق أن من لم يبلغه الناسخ فهو متعبد بالحكم الأول، فإذا بلغه الناسخ طرأ عليه حكم النسخ. والحذاق على جواز نسخ الحكم قبل فعله، وهو موجود في كتاب الله تعالى في قصة الذبيح.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مَا نَسَخَ﴾ بفتح النون، مِنْ نَسَخَ، وقرأت طائفة ﴿نُتْسَخَ﴾، بضم النون، مِنْ أَنْسَخَ، وبها قرأ ابن عامر وَخَذَهُ مِنَ السَّبْعَةِ.

قال أبو علي الفارسي: ليست لغة لأنه لا يقال: نَسَخَ وَأُنْسَخَ بمعنى، ولا هي للتعدية، لأن المعنى يجيء: ما نكتب من آية، أي ما نُنْزَلُ فيجاء القرآن كله على هذا منسوخاً، وليس الأمر كذلك، فلم يبق إلا أن يكون المعنى: ما نجده منسوخاً، كما تقول: أحمدت الرجل وأبخلته، بمعنى وجدته محموداً وبخيلاً، قال أبو علي: وليس يجده منسوخاً إلا بأن ينسخه، فتتفق القراءتان في المعنى، وإن اختلفتا في اللفظ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد خَرَجَ قَرَأَهُ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ الْمَعْنَى

على وجهين: أحدهما أن يكون المعنى: ما نكتب ونُنْزَلُ من اللوح المحفوظ، أو ما نُؤْخِرُ فيه وترك فلا نُنْزِلُهُ أَي ذَلِكَ فَعَلْنَا فَإِنَّا نَأْتِي بِخَيْرٍ مِنَ الْمَوْخَرِ الْمَتْرُوكِ أَوْ بِمِثْلِهِ، فيجاء الضميران في ﴿وَنُتْسَخَ﴾ أَوْ ﴿مِثْلُهَا﴾ عائدتين على الضمير في ﴿نُنْسَاهَا﴾.

والمعنى الآخر: أن يكون نسخ من النسخ بمعنى الإزالة، ويكون التقدير: ما ننسخك أي نبيح لك نسخه، كأنه لما نسخها الله أباح لنبيه تركها بذلك النسخ، فسمى تلك الإباحة إنساحاً. و [مَا] شرطية، وهي مفعولة بنسخ، و [نُتْسَخَ] جزم بالشرط. واختلف القراء في قراءة قوله: ﴿نُتْسَخَ﴾ فقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وعاصم، وابن عامر، وجمهور من الناس ﴿نُتْسَخَ﴾ بضم النون الأولى، وسكون الثانية، وكسر السين، وترك الهزمة، وهذه من أنسى المنقول من نسي، وقرأت ذلك فرقة كما تقدم إلا أنها حمزت بعد السين، فهذه بمعنى التأخير، تقول العرب: أنسأت الدين وغيره أنسته إنسأة إذا أخرته. وقرأ طائفة: ﴿أَوْ نُتْسَخَ﴾ بفتح النون الأولى، وسكون الثانية، وفتح السين، وهذه بمعنى الترك، ذكرها مكّي ولم ينسبها، وذكرها أبو عبيد البكري في كتاب «اللتالي» عن سعد بن أبي وقاص، وأزاه وهم. وقرأ سعد بن أبي وقاص ﴿أَوْ نُتْسَخَ﴾ بشاء على مخاطبة النبي ﷺ، ونون بعدها ساكنة، وفتح السن، هكذا قال أبو الفتح، وأبو عمرو الداني، فقيل لسعد: إن سعيد ابن المسيب يقرأها بنون أولى

مضمومة وسين مكسورة، فقال: «إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب»، وتلا ﴿سَتُرِيكَ مَلَا تَسَى﴾ ﴿وَأَذْكُرُكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

وقرأ سعيد بن المسيب - فيما ذكر عنه أيضاً - أَوْ ﴿نُتْسَخَ﴾ بضم التاء أولاً وفتح السين وسكون النون بينهما، وهذه من النسيان، وقرأ الضحاك بن مزاحم، وأبو رجاء ﴿نُتْسَخَ﴾ بضم النون الأولى وفتح الثانية وسين مكسورة مشددة، وهذه أيضاً من النسيان، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وابن عباس، وإبراهيم النخعي، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وعبيد بن عمير، وابن كثير، وأبو عمرو ﴿نُتْسَاهَا﴾ بنون مفتوحة وأخرى بعدها ساكنة وسين مفتوحة وألف بعدها مهموزة، وهذه من التأخير، تقول العرب: نسأت الإبل عن الحوض أنسؤها نساً، أي أخرتها، وكذلك يقال: أنسأ الإبل إذا زاد في ظمئها يوماً أو يومين أو أكثر من ذلك، بمعنى أخرها عن الورد.

وقرأت فرقة مثل هذه القراءة إلا أنها بتاء مفتوحة أولاً على مخاطبة النبي ﷺ وإسناد الفعل إليه. وقرأ أبو حية مثل ذلك إلا أنه ضم التاء أولاً. وقرأ أبي بن كعب ﴿أَوْ نُتْسِكَ﴾ بضم النون الأولى وسكون الثانية وسين مكسورة وكاف مخاطبة، وفي مصحف سالم مولى أبي حذيفة ﴿أَوْ نُتْسِكُهَا﴾ مثل قراءة أبي إلا أنه زاد ضمير الآية. وقرأ الأعمش ﴿مَا نُنْسِكُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسخها نجيء بمثلها﴾، وهكذا ثبت

في مصحف عبدالله بن مسعود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه القراءات لا تخلو كل واحدة منها أن تكون من النسء أو الإنساء بمعنى التأخير، أو تكون من النسيان.

والنسيان في كلام العرب يجيء في الأغلب ضد الذكر، وقد يجيء بمعنى الترك، فالمعاني الثلاثة مقولة في هذه القراءات، فما كان منها يترتب في لفظه النسيان الذي هو ضد الذكر. فمعنى الآية: ما ننسخ من آية أو نقدر نسيانك لها فتنسأها حتى ترتفع جملة وتذهب، فإننا نأتي بما هو خيرٌ منها لكم أو مثلٌ في المنفعة. وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى الترك فإن الآية معه تترتب فيها أربعة معان: أحدها: ما ننسخ - على وجوه النسخ - أو نترك غير منزل عليك فإننا لا بد أن ننزل - وفقاً بكم - خيراً من ذلك أو مثله، حتى لا ينقص الدين عن حد كماله. والمعنى الثاني: أو نترك تلاوته - وإن رفعنا حكمه - فيجئ النسخ على هذا رفع التلاوة والحكم. والمعنى الثالث: أو نترك حكمه - وإن رفعنا تلاوته - فالنسخ أيضاً على هذا رفع التلاوة والحكم، والمعنى الرابع: أو نتركها غير منسوخة الحكم ولا التلاوة، فالنسخ على هذا المعنى هو على جميع وجوهه. ويجيء الضميران في ﴿يَنسَخْ﴾ أو ﴿يَنسَخُ﴾ عائدين على المنسوخة فقط، وكان الكلام: إن نسحنا أو أبقينا فإننا نأتي بخير من المنسوخة أو مثلها، وما كان من هذه القراءات يحمل على

معنى التأخير فإن الآية معه تترتب فيها المعاني الأربعة التي في الترك - أولها: ما ننسخ أو نؤخر إنزاله. والثاني: ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر حكمه وإن أبقينا تلاوته. والثالث: ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر تلاوته وإن أبقينا حكمه. والرابع: ما ننسخ أو نؤخره مثبناً لا ننسخه. ويعود الضميران كما ذكرنا في الترك. وبعض هذه المعاني أقوى من بعض، لكن ذكرنا جميعها لأنها تحتمل، وقد قال جميعها العلماء، إما نصاً، وإما إشارة فكلناها.

وقال الزجاج: إن القراءة ﴿أو نُثْبِتُهَا﴾ بضم النون ومكون الثانية وكسر السين لا يتوجه فيها معنى الترك، لأنه لا يقال: أنسى بمعنى ترك. وقال أبو علي، وغيره: ذلك منجبه، لأنه بمعنى نجعلك تتركها وكذلك ضعف الزجاج أن تحمل الآية على النسيان الذي هو ضد الذكر، وقال: إن هذا لم يكن للنبي ﷺ، ولا نسي قرآناً. وقال أبو علي، وغيره: ذلك جائز، وقد وقع، ولا فرق بين أن ترفع الآية بنسخ، أو بتنسية، واحتج الزجاج بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي لم نفعل، قال أبو علي: لم نذهب بالجميع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: على معنى إزالة النعمة كما توعد، وقد حكى الطبري القول عن أقدم من الزجاج ورد عليه، والصحيح في هذا أن نسيان النبي ﷺ لِمَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْسَاهُ - وَلَمْ يُرْذَ أَنْ يَثْبُتَ قرآناً - جائز.

فأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي ﷺ معصوم منه قبل التبليغ وبعد التبليغ ما لم يحفظه أحد من أصحابه، وأما بعد أن يحفظ فجائز عليه ما يجوز على البشر، لأنه قد بلغ وأدى الأمانة، ومنه الحديث: (حين أسقط آية، فلما فرغ من الصلاة قال: «أفي القوم أبي؟» قال: نعم يا رسول الله، قال: «فَلِمَ لَمْ تُذَكِّرْنِي؟» قال: حسب أنها رفعت. فقال النبي ﷺ: «لم ترفع، ولكني نسيتها») ولفظة خير في الآية صفة تفضيل، والمعنى: بأنفع لكم أيها الناس في عاجل إن كانت الناسخة أخف، وفي آجل إن كانت أثقل، وبمثلها إن كانت مستوية، وقال قوم: خير في الآية مصدر، ومن لا ابتداء الغاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقبلي هذا القول لقوله تعالى: ﴿أَوْ يُثْبِتْ﴾، إلا أن يعطف المثل على الضمير في منها دون إعادة حرف الجر وذلك معترض.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَلَمْ أَنْ﴾، ظاهره الاستفهام ومعناه التقرير، والتقرير محتاج إلى معادل كالاستفهام المحض، فالمعادل هنا على قول جماعة: [أَمْ تُرِيدُونَ]، وقال قوم: [أَمْ] هنا منقطعة، فالمعادل على قولهم محذوف تقديره: أم علمتم، وهذا كله على أن القصد بمخاطبة النبي ﷺ مخاطبة أمته، وأما إن كان هو المخاطب وحده فالمعادل محذوف لا غير. وكلا القولين مَرُوءِي، ومعنى الآية: إن الله تعالى ينسخ ما يشاء، ويثبت

ما يشاء، ويفعل بأحكامه ما يشاء، هو قدير على ذلك وعلى كل شيء. وهذا لإنكار اليهود النسخ، وقوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَمُومٌ﴾ عموم معناه الخصوص إذ لم تدخل فيه الصفات القديمة بدلالة العقل ولا المحالات لأنها ليست بأشياء، والشيء في كلام العرب الموجود و﴿قَدِيرٌ﴾ اسم فاعل على المبالغة من قَدَرَ بفتح العين يقدِّر بكسرهما، ومن العرب من يقول: قدير بكسر العين يقدِّر بفتحها.

﴿١٠٧﴾ - ﴿١٠٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

الملك: السلطان، ونفوذ الأمر، والإرادة، وجُمع الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ دال على أن المراد بخطاب النبي ﷺ خطاب أمته. والُولَيَّ: فيعل من ولي إذا جاور ولصق، فالناصر، والمعين، والقائم بالأمر، والحافظ، كلهم مجاور بوجوه ما، والناصر: فيعل من النصر، وهو أشد مبالغة من ناصر.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾، قالت فرقة: ﴿أَمْ﴾ رد على الاستفهام الأول فهي معادلته، وقالت فرقة: أم استفهام مقطوع من الأول، كأنه قال: أتريدون؟ وهذا موجود في كلام العرب، وقالت فرقة: أم هنا بمعنى بل وألف الاستفهام، قال مكي، وغيره: وهذا يضعف، لأن أم لا تقع بمعنى بل إلا إذا اعترض المتكلم شك فيما يورده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس كما قال مكي رحمه الله، لأن بل قد تكون للإضراب عن اللفظ الأول لا عن معناه، وإنما يلزم ما

قال على أحد مَعْنَيَيْ بل، وهو الإضراب عن اللفظ والمعنى، ونغم ما قال سيبويه: بل لترك كلام وأخذ في غيره. وقال أبو العالية: إن هذه الآية نزلت حين قال بعض الصحابة للنبي ﷺ: ليت ذنوبنا جرت مجرى ذنوب بني إسرائيل بتعجيل العقوبة في الدنيا، فقال النبي ﷺ: «قد أعطاكم الله خيراً مما أعطى بني إسرائيل» وتلا: ﴿وَمَنْ يَمَلِّ سَوْءًا أَوْ يَطْلَمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، فتجيء إضافة الرسول ﷺ إلى الأمة على هذا حسب الأمر في نفسه، وحسب إقرارهم، وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن رافع بن حريملة اليهودي سأل النبي ﷺ تفجير عيون وغير ذلك، وقيل: إن كفار قريش سألوا النبي ﷺ أن يأتيهم بالله جهرة، وقيل: سألوه أن يأتيهم بالله والملائكة قبيلاً، وقال مجاهد: سألوه أن يرد الصفا ذهباً، فقال لهم: «خلوا ذلك كالمائدة لبني إسرائيل» فأبوا ونكصوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فتجيء على هذه الأقوال إضافة الرسول إليهم حسب الأمر في نفسه لا على إقرارهم.

وما سئل موسى عليه السلام هو أن يرى الله جهرة، وقرأ الحسن ابن أبي الحسن، وغيره «سبيل» بكسر السين وياء، وهي لغة يقال: سبَلْتُ أَسْأَلُ، ويحتمل أن يكون مَنْ هَمْزَ أَبْدَل الهمزة ياء على غير قياس، ثم كسر السين من أجل الياء. وقرأ بعض القراء بتسهيل الهمزة بين الهمزة

والياء مع ضم السين. وكُنِيَ عن الإعراض عن الإيمان والإقبال على الكفر بالتبديل. وقال أبو العالية: الكفر هنا الشدة، والإيمان الرخاء، وهذا ضعيف، إلا أن يريد هما مستعارتين أي الشدة على نفسه والرخاء لها عبارة عن العذاب أو النعيم. وأما الْمُتَقَارَفُ من شدة أمور الدنيا ورخائها فلا تُفسر الآية به، و﴿صَلِّ﴾ أخطأ الطريق، والسواء من كل شيء الوسط والمعظم، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي سَوَاءٍ الْجَبَرِ﴾، وقال عيسى بن عمر: «كتبت حتى انقطع سوائي»، وقال حسان بن ثابت في رثاء النبي ﷺ على ما ذكر ابن إسحق وغيره:

يَا وَنَحْ أَنْصَارَ السَّيِّ وَزَفَطِهِ
بَعْدَ الْمَغِيبِ فِي سَوَاءِ التَّمَلُّحِ
وقال أبو عبيدة: هو في عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو عندي وهم منه. و﴿أَسْبَلِ﴾ عبارة عن الشريعة التي أنزلها الله لعباده، لما كانت السبب إلى نيل رحمته كانت السبيل إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، كثير: مرتفع يودُّ، وهو نعت للمكرة، وحذفت الموصوف النكرة قليل، ولكن جاز هنا لأنها صفة متمكنة ترفع الإشكال، بمنزلة فريق. قال الزهري: عني بكثير واحد، وهو كعب بن الأشرف، وهذا تحامل، وقوله: ﴿يُرِيدُكُمْ﴾ يرد عليه، وقال ابن عباس: المراد ابنا أخطب حبي وأبو ياسر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقيل بقوله: ﴿فَأَقْزَوُا الشُّرَكِيَّ﴾، وقال قوم: ليس هذا حد المنسوخ لأن هذا في نفس الأمر كان التوقيف على مدته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على من يجعل الأمر المنتظر أوامر الشرع، أو قتل. قريظة وإجلاء النضير، وأما من يجعله أجل بني آدم فيترتب النسخ في هذه الآية بعينها لأنه لا يختلف أن آيات المودعة المطلقة قد نسخت كلها، والنسخ هو مجيء الأمر في هذه المقيدة، وقيل: مجيء الأمر هو فرض القتال، وقيل: قتل قريظة وإجلاء النضير. وقال أبو عبيدة في هذه الآية: إنها منسوخة بالقتال، لأن كل آية فيها ترك القتال فهي مكية منسوخة، وحكمه بأن هذه الآية مكية ضعيف، لأن معاندات اليهود إنما كانت بالمدينة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مقتضاه في هذا الموضع وعد للمؤمنين.

﴿١١٢﴾ - ﴿١١٣﴾ تفسير قوله عز وجل: قالت فرقة من الفقهاء: إن قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ عموم، وقالت فرقة: هو من مجمل القرآن، والمرجح أن ذلك عموم من وجه ومجمل من وجه، فعموم من حيث الصلاة الدعاء، فحملة على مقتضاه ممكن، وخصصه الشرع بهيئات وأفعال وأقوال، ومجمل من حيث الأوقات وعدد الركعات لا يفهم من اللفظ، بل السامع فيه مفتقر إلى التفسير، وهذا كله في ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وأما الزكاة فمجملة لا

عند أنفسهم تأكيداً وإلزاماً كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ - و ﴿يَكْتُمُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، ولا طلمح يطمح بها. وقيل: يتعلق بقوله: ﴿يُرَدُّوكُمْ﴾، فالمعنى: أنهم ودوا الرد بزيادة أن يكون من تلقائهم، أي بإغوائهم وتزيينهم.

واختلف في سبب هذه الآية - فقيل: إن حذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر أتيا بيت المدراس، فأراد اليهود صرفهم عن دينهم فثبنا عليه ونزلت الآية، وقيل: إنما هذه الآية تابعة في المعنى لما تقدم من نهى الله من متابعة أقوال اليهود في ﴿رَعِبْتُمْ﴾ وغيره، وأنهم لا يودون أن ينزل خير ويودون أن يردوا المؤمنين كفاراً.

و ﴿الْحَقُّ﴾ المراد في هذه الآية: نبوة محمد ﷺ، وصحة ما المسلمون عليه. وهذه الآية من الظواهر في صحة الكفر عناداً، واختلف أهل السنة في جواز ذلك، والصحيح عندي جوازه عقلاً وبُعْده وقوعاً، ويترتب في كل آية تقتضيه أن المعرفة تسلب في ثاني حال من العناد. والعفو: ترك العقوبة وهو من عفت الآثار، والصفح: الإعراض عن المذنب كأنه يولي صفحة العتق. وقال ابن عباس: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿صَبْرُونَ﴾.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٣﴾ وَاللَّهُ الشَّرِيفُ الْغَرِيبُ فَأَتَيْنَاهُ فَلَوْا قَتَلُوا وَجْهَ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ ﴿١١٤﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِيرٌ ﴿١١٥﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٨﴾

وفي الضمن الأتباع فتجيء العبارة متمكنة. و ﴿الْكِتَابُ﴾ هنا التوراة. و ﴿وَقُلُوْا﴾ هنا بمنزلة (أن) لا تحتاج إلى جواب، وقيل: يتقدر جوابها في وُد، التقدير: لو يردونكم لودوا ذلك، فود دالة على الجواب، لأن من شرطه أن يكون متأخراً عن (لو)، و ﴿كَلَّمَا﴾ مفعول ثانٍ، ويحتمل أن يكون حالاً، و ﴿حَسَكَا﴾ مفعول له، وقيل: هو مصدر في موضع الحال.

واختلف في تعلق قوله: ﴿مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ﴾ فقيل: يتعلق بـوَد، لأنه بمعنى ودوا، وقيل: يتعلق بقوله ﴿حَسَكَا﴾، فالوقف على قوله: ﴿كَلَّمَا﴾، والمعنى على هذين القولين: أنهم لم يجدوا ذلك في كتاب، ولا أمروا به، فهو من تلقائهم. ولفظة الحسد تعطي هذا، فجاء ﴿مَنْ

غير. قال الطبري: إنما أمر الله هنا بالصلاة والزكاة لتحط ما تقدم من ميلهم إلى قول اليهود: ﴿رَعَيْنَا﴾ لأن ذلك نهى عن نوعه، ثم أُمِرَ المؤمنون بما يحطه. والخبر المقدم مُنْقَضٌ لأنه فعل، فمعنى ﴿يَجِدُوهُ﴾: تجدوا ثوابه وجزاءه، وذلك بمنزلة وجوده، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، خبر في اللفظ معناه الوعد والوعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ معناه: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقال النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فجمع قولهم، ودلّ تفریق نوعيهم على تفرق قولتهم، وهذا هو الإيجاز واللف. وهود: جمع هائد، مثل عائد وعود. ومعناه الثائب الراجع، ومثله في الجمع: بازل ويَزَل، وحائل وحول، وبائر وبُور. وقيل: هو مصدر يوصف به الواحد والجميع كقطر وعدل ورضا. وقال الفراء: أصله يهودي حذف ياءه على غير قياس. وقرأ أبي بن كعب: ﴿إِلَّا مَنْ كَانَ يَهُودِيًّا﴾، وكذبهم الله تعالى، وجعل قولهم أُنْبِيَا، وقد قُطِعُوا قبل بقوله: ﴿فَتَنَزَّلُ الْمَوْتَ﴾، وأمر محمد ﷺ بدعائهم إلى إظهار البرهان.

وقيل: إن الهاء في ﴿هَكَأُو﴾ أصلية من (هاتا، يهاتي) وأميت تصريف هذه اللفظة كله إلا الأمر منه، وقيل: هي عوض من همزة آتي، وقيل: ها تنبيه، وألزم همزة آتي الحذف. والبرهان: الدليل الذي يوقع اليقين. قال الطبري: طلب

الدليل هنا يقضي بإثبات النظر، ويرد على من ينفيه، وقول اليهود: ﴿لَنْ نَفِيَّ حَسَنَتَ بَعْدَهُ﴾ بَلَى إِذْ هِيَ رَدٌّ بالإيجاب في جواب النفي، حرف مرتجل لذلك، وقيل: هي (بل) زيدت عليها الياء لتزيلها عن حد النسق الذي في (بل).

و﴿أَسْلَمَ﴾ معناه: استسلم وخضع وذان، ومنه قول زيد بن عمرو ابن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ
لَهُ الْمُرْزُ تَخِيلُ غَذْباً زُلَالاً
وخص الوجد بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان وموضع الحواس، وفيه يظهر العز والذل، ولذلك يقال: وجه الأمر، أي معظمه وأشرفه، قال الأعشى:

أَوَّلُ الْحُكْمِ عَلَى وَجْهِهِ
لَيْسَ قَضَائِي بِأَلْهَى الْجَائِرِ

ويصح أن يكون الوجه في هذه الآية، المقصد، ﴿وَقَوَّحِينَ﴾ جملة في موضع الحال، وعاد الضمير في (لَهُ) على لفظ ﴿نَنْ﴾ وكذلك في قوله: ﴿أَبْرَزُ﴾، وعاد في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المعنى، وكذلك في ﴿يَحْزَنُونَ﴾. وقرأ ابن محيصن ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ دون تنوين في الفاء المرفوعة، فقيل: ذلك تخفيف، وقيل: المراد فلا الخوف، فحذفت الألف واللام. والخوف: هو لما يتوقع، والحزن: هو لما قد وقع.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ الآية، معناه ادعى كل فريق أنه أحق برحمة الله من الآخر. وسبب نزول الآية أن نصارى نجران اجتمعوا مع يهود المدينة عند النبي ﷺ،

فتسايوا، وكفر اليهود بعبسى وبالإنجيل، وكفر النصارى بموسى وبالتوراة، وفي هذا من فعلهم كفر كل طائفة بكتابها، لأن الإنجيل يتضمن صدق موسى وتقرير التوراة، والتوراة تتضمن التبشير بعبسى وصحة نبوته، وكلاهما تضمن صدق محمد ﷺ. فعنفهم الله تعالى على كذبهم، وفي كتبهم خلاف ما قالوا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَمَّ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، تنبيه لأمة محمد ﷺ على ملازمة القرآن، والوقوف عند حدوده، كما قال الحر بن قيس في عمر بن الخطاب (وكان وقافاً عند كتاب الله). والكتاب الذي يتلونه - قيل: التوراة والإنجيل، فالألف واللام للجنس، وقيل: التوراة لأن النصارى تمتثلها، فالألف واللام للعهد.

اختلف - من المراد بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ فقال الجمهور: عني بذلك كفار العرب لأنهم لا كتاب لهم، وقال عطاء: المراد أمم كانت قبل اليهود والنصارى، وقال قوم: المراد اليهود، وكأنه أعيد قولهم، وهذا ضعيف، وأخبرهم تعالى بأنه ﴿يَعْتَمِدُ بَيْنَهُمْ﴾، والمعنى بأن يشب من كان على شيء أي شئبه حق، ويعاقب من كان على غير شيء. وقال الزجاج: المعنى يريهم عياناً من يدخل الجنة ومن يدخل النار. و ﴿يَوْمَ أَقْبَتَهُ﴾ سمي بقيام الناس من القبور، إذ ذلك مبدأ لجميع ما في اليوم، وفي الاستمرار بعده. وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ بصيغة الماضي حسن على مراعاة يوم الحكم، وليس هذا من

وضع الماضي موضع المستقبل لأن اختلافهم ليس في ذلك اليوم بل في الدنيا.

﴿١١٤﴾ - ﴿١١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية. ﴿مَنْ﴾ رفع بالابتداء و ﴿أَظْلَمُ﴾ خبره، والمعنى: لا أحد أظلم، واختلف في المشار إليه من هذا الصنف الظالم فقال ابن عباس وغيره: المراد النصارى الذين كانوا يؤذون مَنْ يصلي ببيت المقدس ويطرحون فيه الأقدار. وقال قتادة، والسدي: المراد الروم الذين أعانوا بخت نصر على تخريب بيت المقدس حين قتلت بنو إسرائيل يحيى بن زكريا عليه السلام. وقيل: المغني بخت نصر. وقال ابن زيد: المراد كفار قريش حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام.

وهذه الآية تتناول كل من منع من مسجد إلى يوم القيامة، أو خرّب مدينة إسلام لأنها مساجد وإن لم تكن موقوفة إذ الأرض كلها مسجد لهذه الأمة، والمشهور (مسجد) بكسر الجيم، ومن العرب من يقول: (مسجد) بفتحها. و ﴿أَنْ يُذَكَّرَ﴾ في موضع نصب إما على تقدير حذف (من) وتسلط الفعل، وإما على البدل من المساجد، وهو بدل الاشتغال الذي شأن البدل فيه أن يتعلق بالمُبدل منه، ويخص به أو يقوم به صفة، ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفعولاً من أجله، ويجوز أن تكون في موضع خفض على إسقاط حرف الجر، ذكره سيبويه.

ومن قال من المفسرين: إن الآية

بسبب بيت المقدس جعل الخراب الحقيقي الموجود، ومن قال: هي بسبب المسجد الحرام جعل منع عمارته خراباً إذ هو داع إليه. ومن جعل الآية في النصارى روى أنه مرّ زمان بعد ذلك لا يدخل نصراني بيت المقدس إلا أوجع ضرباً، قاله قتادة والسدي، ومن جعلها في قريش قال: كذلك تُودي بأمر النبي ﷺ أنه لا يحجج مشرك، و ﴿خَائِفِينَ﴾ نصب على الحال.

وهذه الآية ليست بأمر بين منهم من المساجد، لكنها تطرق إلى ذلك، وبراءة فيها وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

ومن جعل الآية في النصارى قال: الخزي قتل الحربي، وجزية الذمي، وقيل: الفتوح الكائنة في الإسلام كعمورية وهرقلة وغير ذلك. ومن جعلها في قريش جعل الخزي غلبتهم في الفتح وقتلهم والعذاب في الآخرة لمن مات منهم كافراً، و ﴿خِزْيٌ﴾ رفع بالابتداء، وخبره في المجرور.

و ﴿الْمَشْرِقُ﴾ موضع الشروق، و ﴿الْمَغْرِبُ﴾ موضع الغروب أي هما له ملك وما بينهما من الجهات والمخلوقات، وخصهما بالذكر وإن كانت جملة المخلوقات كذلك لأن سبب الآية اقتضى ذلك.

و ﴿أَنْ مَّا﴾ شرط، و ﴿تَوَلَّوْا﴾ جزم به، والجواب في قوله: ﴿فَتَمَّ﴾، والمعنى: فأينما تولوا نحوه وإليه، لأن ولي - وإن كان غالب استعمالها أدير - فإنها تقتضي أنه يقبل إلى ناحية، تقول: ولّيت عن كذا وإلى

كذا. وقرأ الحسن: ﴿تَوَلَّوْا﴾ بفتح التاء واللام، و ﴿ثم﴾ مبنية على الفتح وهي في موضع نصب على الظرف، و ﴿وَيَسَّ اللَّهُ﴾ معناه الذي وجهنا إليه، كما تقول: سافرت في وجه كذا أي في جهة كذا.

واختلف الناس في تأويل الوجه الذي جاء مضافاً إلى الله تعالى في مواضع من القرآن، فقال الحذاق: ذلك راجع إلى الوجود، والعبارة عنه بالوجه من مجاز كلام العرب إذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد وأجلها قدراً. وقال بعض الأئمة: تلك صفة ثابتة بالسمع، زائدة على ما توحيه العقول من صفات القديم تعالى، وضَعُف أبو المعالي هذا القول.

ويتجه في بعض المواضع كهذه الآية أن يراد بالوجه الجهة التي فيها رضاه وعليها ثوابه، كما تقول: تصدقت لوجه الله تعالى، ويتجه في هذه الآية خاص أن يراد بالوجه الجهة التي وجهنا إليها في القبله حسبما يأتي في أحد الأقوال. وقال أبو منصور في المقنع: يحتمل أن يراد بالوجه هنا الجاه، كما تقول: فلان وجه القوم، أي موضع شرفهم، فالتقدير: فتمّ جلال الله وعظمته.

واختلف المفسرون في سبب هذه الآية. فقال قتادة: أباح الله لنبيه ﷺ بهذه الآية أن يصلي المسلمون حيث شاؤوا، فاختار النبي ﷺ بيت المقدس حينئذ، ثم نسخ ذلك كله بالتحول إلى الكعبة. وقال مجاهد، والضحاك: معناه إشارة إلى الكعبة،

أي حيث كنتم من المشرق والمغرب
فأنتم قادرون على التوجه إلى الكعبة
التي هي وجه الله الذي وجهكم
إليه، وعلى هذا فهي ناسخة لبیت
المقدس. وقال ابن زيد: كانت
اليهود قد استحسنت صلاة النبي ﷺ
إلى بيت المقدس، وقالوا: ما اهتدى
إلا بنا، فلما حول إلى الكعبة قالت
اليهود: ما ولاهم عن قبلتهم؟
فنزلت: ﴿وَلِلَّهِ الشَّرَفُ وَلِلْعَرَبِ﴾ الآية.
وقال ابن عمر: نزلت هذه الآية في
صلاة النافلة في السفر حيث توجهت
بالإنسان دابته. وقال النخعي: الآية
عامة، أينما تولوا في متصرفاتكم
ومساعيكم فَمَنْ وجه الله، أي موضع
رضاه وثوابه وجهة رحمته التي
يوصل إليها بالطاعة. وقال
عبدالله بن عامر بن ربيعة: نزلت
فيمن اجتهد في القبلة فأخطأ، وورد
في ذلك حديث رواه عامر بن ربيعة
قال: (كنا مع النبي ﷺ في سفر في
ليلة مظلمة، فتحرى قوم القبلة
واعملوا علامات، فلما أصبحوا رأوا
أنهم قد أخطؤوها، فعزفوا
رسول الله ﷺ بذلك فنزلت هذه
الآية، وذكر قوم هذا الحديث على
أن النبي ﷺ لم يكن مع القوم في
السفر وذلك خطأ.

وقال قتادة أيضاً: نزلت هذه الآية في
النجاشي، وذلك أنه لما مات دعا
النبي ﷺ المسلمين إلى الصلاة عليه،
فقال قوم: كيف يُصَلَّى على مَنْ لم
يُصَلَّ إلى القبلة قط؟ فنزلت هذه الآية،
أي أن النجاشي كان يقصد وجه الله
وإن لم يبلغه التوجه إلى القبلة.
وقال ابن جبير: نزلت الآية في

الدعاء لما نزلت: ﴿ادْعُوهُ اشْتَجِبْ
لَكُمْ﴾ قال المسلمون: إلى أين ندعو؟
فنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَوْنَ فَمَهْ وَجْهُ اللَّهِ﴾.
وقال المهدوي: وقيل: هذه الآية
منتظمة في معنى التي قبلها، أي لا
يمنعكم تخريب مسجد من أديان
العبادات، فإن المسجد المخصوص
لِلصلاة إن خرب فَمَهْ وجه الله
موجود حيث توليتهم، وقال أيضاً:
نزلت الآية حين صُدَّ رسول الله ﷺ
عن البيت.

و ﴿دَبَّحْ﴾ معناه مُنْتَسِع الرحمة،
﴿عَلِمَ﴾ أين يضعها. وقيل: واسع
معناه هنا أنه يوسع على عباده في
الحكم، دَبَّحٌ يُسَرُّ، عليم بالنيات التي
هي ملاك العمل وإن اختلفت
ظواهره في قِبَلَةٍ وما أشبهها.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
قرأ هذه الآية عامة القراء:
﴿وَقَالُوا﴾ بواو تربط الجملة
بالجملة، أو تعطف على (سَمِعَ).

وقرأ ابن عامر، وغيره: ﴿قَالُوا﴾
بغير واو. قال أبو علي: وكذلك هي
في مصاحف أهل الشام. وحذف
هذه الواو يتجه من وجهين: أحدهما
أن هذه الجملة مرتبطة في المعنى
بالتى قبلها فذلك يغني عن الواو.
والآخر أن تستأنف هذه الجملة ولا
يراعى ارتباطها بما تقدم.

واختلف على من يعود الضمير في
﴿قَالُوا﴾؟ فقيل: على النصاري
لأنهم قالوا: المسيح ابن الله
وذُكِرَ هُمْ أشبه بسياق الآية، وقيل:
على اليهود لأنهم قالوا: عزيز
ابن الله، وقيل: على كفرة العرب
لأنهم قالوا: الملائكة بنات الله.

و ﴿سُبْحَنَهُ﴾ مصدر معناه تنزيهاً له
وتبرئته مِمَّا قالوا، و ﴿هَآ﴾ رفع
بالابتداء والخبر في المجرور، أو
بالاستقرار المقدر، أي كل ذلك له
ملك، والذين قالوا: إن الله اتخذه
ولداً داخل في جملة ما في السموات
والأرض ولا يكون الولد إلا من
جنس الوالد لا من المخلوقات
المملوكات.

والقنوت في اللغة الطاعة، والقنوت
طول القيام في عبادة، ومنه القنوت
في الصلاة، فمعنى الآية: أن
المخلوقات كلها تُقَاتِلُ الله، أي
تخشع وتطيع، والكفار والجمادات
قتوتهم في ظهور الصنعة عليهم
وفيهم. وقيل: الكافر يسجد ظله
وهو كاره.

و ﴿بَصِيرٌ﴾ مصروف من مُبْدِع،
كبصير من مُبْصِر، ومثله قول
عمرو بن معدي كرب:

أَمِينُ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ

يريد المُسْمِع. والمُبدِع المخترع
المنشئ، ومنه أصحاب البِدْع ومنه
قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه
في صلاة رمضان: نعمت البِدْعَة
هذه.

وخص السموات والأرض بالذكر
لأنها أعظم ما نرى من مخلوقاته جل
وعلا.

و ﴿قَدَّرَ﴾ معناه: قَدَّرَ، وقد يجيء
بمعنى أمضى، ويتجه في هذه الآية
المعنيان، فعلى مذهب أهل السنة قَدَّرَ
في الأزل وأمضى فيه، وعلى مذهب
المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد.
والأمر واحد الأمور، وليس هنا

بمصدر أمر يأمر، ﴿وَيَكُونُ﴾ رفع على الاستئناف، قال سيبويه: معناه فهو يكون، قال غيره: ﴿يَكُونُ﴾ عطف على ﴿يَقُولُ﴾، واختاره الطبري وقرّره. وهو خطأ من جهة المعنى لأنه يقتضي أن القول مع التكوين والوجود، وتكلم أبو علي الفارسي في هذه المسألة بما هو فاسد من جهة الاعتزال لا من جهة العربية.

وقرأ ابن عامر ﴿فَيَكُونُ﴾ بالنصب، وضغفه أبو علي، وَوَجْهَهُ - مع ضغفه - على أن يشفع له شبه اللفظ. وقال أحمد بن موسى في قراءة ابن عامر: هذا لحن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن الفاء لا تحمل في جواب الأمر إلا إذا كانا فعلين يطرد فيهما معنى الشرط، تقول: أكرم زيداً فيكرمك، والمعنى: إن تُكْرِمَ زيداً يكرمك، وفي هذه الآية لا يتجه هذا، لأنه يجيء تقديره: إن تكن تكن، ولا معنى لهذا، والذي يطرد فيه معنى الشرط هو أن يختلف الفاعلان أو الفعلان، فالأول أكرم زيداً فيكرمك، والثاني أكرم زيداً فتسود.

وتلخيص المعتقد في هذه الآية أن الله عز وجل لم يزل أمراً للمعدومات بشرط وجودها، قادراً على تأخر المقدورات، عالماً مع تأخر وقوع المعلومات، فكل ما في الآية مما يقتضي الاستقبال فهو بحسب المأمورات، إذ المحدثات تجيء بعد أن لم تكن، وكل ما يستند إلى الله تعالى من قدرة وعلم وأمر فهو قديم لم يزل.

ومن جعل من المفسرين (قضى) بمعنى أمضى عند الخلق والإيجاد فكأن إظهار المخترعات في أوقاتها الْمُؤَجَّلَةُ قول لها: (كُنْ) إذ التأمل يقتضي ذلك على نحو قول الشاعر: وَقَالَتِ الْأَقْرَابُ لِلْبَطْنِ الْحَقِّ

وهذا كله يجري مع قول المعتزلة، والمعنى الذي تقتضيه عبارة (كن): هو قديم قائم بالذات، والوضوح التام في هذه المسألة يحتاج أكثر من هذا البسط.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية، قال الربيع، والسدي: هم كفار العرب، وقد طلب عبدالله بن أبي أمية وغيره من النبي ﷺ نحو هذا، نفى عنهم العلم لأنهم لا كتاب عندهم ولا اتباع نبوة، وقال مجاهد: هم النصارى، لأنهم المذكورون في الآية أولاً، ورجحه الطبري، وقال ابن عباس: المراد مَنْ كان على عهد رسول الله ﷺ من اليهود، لأن رافع بن حريملة قال للنبي ﷺ: أسمعنا كلام الله، وقيل: الإشارة بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلى جميع هذه الطوائف، لأن كلهم قال هذه المقالة أو نحوها، ويكون الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، و ﴿لَوْلَا﴾ تحضيض بمعنى هَلَا كما قال الأشهب بن رُميلة:

تَعْدُونَ عَقْرَ النَّيْبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ
بَنِي ضَوْطَرَى لَوْلَا الْكَيْمِيُّ الْمُقْتَعَا
وليست هذه لولا التي تعطي منع الشيء لوجود غيره، وفرق بينهما أنها في التحضيض لا يليها إلا الفعل

مظهراً أو مقدراً، وعلى بابها في المنع للجواب يليها الابتداء، وجرت العادة بحذف الخبر.

والآية هنا: العلامة الدالة، وقد تقدم القول في لفظها. و ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ اليهود والنصارى في قول من جعل الذين لا يعلمون كفار العرب - وهم اليهود في قول من جعل الذين لا يعلمون النصارى - وهم الأمم السالفة في قول من جعل الذين لا يعلمون العرب والنصارى واليهود، والكاف الأولى من ﴿كَذَلِكَ﴾ نعت لمصدر مقدر. و ﴿وَيْسَلُ﴾ نعت لمصدر محذوف، ويصح أن يعمل فيه ﴿قَالَ﴾. وتشابه القلوب هنا هو في طلب ما لا يصح، أو في الكفر وإن اختلفت ظواهرهم. وقرأ ابن أبي إسحق وأبو حيوة: ﴿تَشَابَهَتْ﴾ بشد الشين، وقال أبو عمرو الداني: وذلك غير جائز لأنه فعل ماض.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لما تقدم ذكر الذين أضلهم الله حتى كفروا بالأنبياء وطلبوا ما لا يجوز لهم أتبع ذلك بذكر الذين بين لهم ما ينفع وتقوم به الحجة، لكن البيان وقع وتحصل للموقنين فلذلك خصهم بالذكر، ويحتمل أن يكون المعنى: قد بينا البيان الذي هو خلق الهدى، فكأن الكلام: قد هدينا مَنْ هدينا. واليقين إذا اتصف به العلم خصصه وبلغ به نهاية الوثاقة.

وقوله تعالى: ﴿بَيَّنَّا﴾ قرينة تقتضي أن اليقين صفة لعلمهم، وقرينة أخرى وهي أن الكلام مدح لهم.

وأما اليقين في استعمال الفقهاء إذا لم يتصف به العلم فإنه أحط من العلم لأن العلم عندهم معرفة المعلوم على ما هو به، واليقين معتقد يقع للموقن في حقه والشيء على خلاف معتقده، ومثال ذلك تيقن المقلد ثبوت الصانع، ومنه قول مالك رحمه الله في الموطأ في مسألة الحالف على الشيء يتيقنه والشيء في نفسه على غير ذلك، وأما حقيقة الأمر فاليقين هو الأخص، وهو ما علم على الوجه الذي لا يمكن أن يكون إلا عليه.

﴿١١٩﴾ - ﴿١٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ﴿يَشِيرًا﴾ لمن آمن، و ﴿نِيرًا﴾ لمن كفر، وقرأ نافع وحده ﴿وَلَا تَسْأَلُ﴾ بالجزم على النهي، وفي ذلك معنيان: أحدهما - لا تَسْأَلُ على جهة التعظيم لحالهم من العذاب، كما تقول: فلان لا تَسْأَلُ عنه، تعني أنه في نهاية تشهره من خير أو شر.

والمعنى الثاني روي فيه أن النبي ﷺ قال: «ليت شعري ما فعل أبواي؟» فنزلت: ﴿وَلَا تَسْأَلُ﴾، وحكى المهدوي رحمه الله أن النبي ﷺ قال: «ليت شعري أي أبوي أحدث موتاً؟» فنزلت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خطأ يَمُنُّ رواه أو ظنه، لأن أباه مات وهو في بطن أمه، وقيل: وهو ابن شهر، وقيل: ابن شهرين، وماتت أمه بعد ذلك بخمس سنين منصرفة به من المدينة من زيارة أخواله، فهذا مما لا يتوهم أنه خفي عليه ﷺ.

وقرأ باقي السبعة ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ بضم التاء واللام، وقرأ قوم ﴿وَلَا تَسْأَلُ﴾ بفتح التاء وضم اللام، ويتجه في هاتين القراءتين معنيان: أحدهما الخبر، أنه لا يسأل عنهم ولا يسأل هو عنهم، والآخر أن يراد معنى الحال كأنه قال: وغير مسؤول وغير سائل عنهم، عطفاً على قوله: بشيراً ونذيراً.

وقرأ أبي بن كعب: ﴿وَمَا تَسْأَلُ﴾، وقرأ ابن مسعود ﴿وَلَنْ تُسْأَلُ﴾ وهاتان القراءتان تؤيدان معنى القطع والاستئناس في غيرهما.

والجسيم إحدى طبقات النار.

ويقال: رَضِيَ يَرْضَى رِضاً وَرِضاً وَرِضْوَاناً، وَخُكِيَ رِضَاءٌ مَمْدُوداً، وقال: ﴿يَلْتَمُهُمْ﴾ وهما ملتان مختلفتان بمعنى - لن ترضى اليهود حتى تتبع ملتهم، ولن ترضى النصارى حتى تتبع ملتهم فجمعهم إيجازاً لأن ذلك مفهوم.

والملة: الطريقة، وقد اختصت اللفظة بالشرائع والدين، وطريق ممل أي قد أثر المشي فيه.

وروي أن سبب هذه الآية أن اليهود والنصارى طلبوا رسول الله ﷺ الهدنة، ووعده أن يتبعوه بعد مدة خداعاً منهم، فأعلمه الله تعالى أن إعطاء الهدنة لا ينفع عندهم، وأطلعه على سر خداعهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ

وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ لَأَنْتَ مِنَ الْغَالِبِينَ مِنَ اللَّهِ وَمِنَ النَّاسِ وَلَئِنْ لَمْ يَنْصُرُوا لَكَ الْكِتَابَ يَنْصُرُوا بِحَقِّكَ وَلَا وَلِيَّكَ وَأَنْتَ بِمَعُونَةِ اللَّهِ وَمَنْ يُكْفِرْ بِهِ فَعَنْتَ عَلَيْهِ وَأَنْتَ فَصْلُكَ عَلَى الْعَالَمِينَ وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢١﴾ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَتْهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَابْتَدَأَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَرَّمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٣﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيُسَلِّمُ إِلَيْهِ ﴿١٢٤﴾

هُوَ الْهُدَى﴾ أي ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الذي يضعه في قلب من يشاء هو الهدى الحقيقي لا ما يدعيه هؤلاء، ثم قال تعالى لنبيه: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الآية، فهذا شرط خوطب به النبي ﷺ، وأُمَّتُهُ معه داخله فيه.

﴿أَهْوَاءَهُ﴾: جمع هوى، ولما كانت مختلفة جمعت، ولو حمل على أفراد الملة لقليل: هواهم، والولي الذي يتولى الإصلاح والحيطة والنصر والمعونة، و ﴿نَصِيرِي﴾ بناء مبالغة في اسم الفاعل من نصر.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ الآية، ﴿الَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء، و ﴿ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ صلته، وقال قتادة: المراد بالذين في هذا الموضع مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أُمَّة

محمد ﷺ. والكتاب على هذا التأويل القرآن، وقال ابن زيد: المراد مَنْ أسلم من بني إسرائيل، والكتاب على هذا التأويل التوراة، وآتيناهم: معناه أعطيناهاهم، وقال قوم: هذا مخصوص بالأربعين الذين وردوا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في السفينة فأثنى الله عليهم، ويحتمل أن يراد بالذين العموم في مؤمني بني إسرائيل والمؤمنين من العرب، ويكون الكتاب اسم الجنس، و ﴿يَتْلُوهُ﴾ معناه: يتبعونه حتى اتباعه بامثل الأمر والنهي، وقيل: يتلونونه: يقرؤونه حتى قراءته، وهذا أيضاً يتضمن الاتباع والامتثال، و ﴿يَتْلُوهُ﴾ - إذا أريد بالذين الخصوص فيمن اهتدى - يصح أن يكون خبر الابتداء، ويصح أن يكون ﴿يَتْلُوهُ﴾ في موضع الحال، والخبر ﴿أُولَئِكَ﴾. وإذا أريد بالذين العموم لم يكن الخبر إلا ﴿أُولَئِكَ﴾، و ﴿يَتْلُوهُ﴾ حال لا يستغنى عنها، وفيها الفائدة لأنه لو كان الخبر في ﴿يَتْلُوهُ﴾ لوجب أن يكون كل مؤمن يتلو الكتاب حتى تلاوته.

و ﴿حَقَّ﴾ مصدر، والعامل فيه فعل مضمر وهو بمعنى أفعّل ولا يجوز إضافته إلى واحد معرف، وإنما جازت هنا لأن تعرف التلاوة بإضافتها إلى الضمير ليس بتعرف محض، وإنما هو بمنزلة قولهم: رجل واحد أمة، ونسيج وحده، والضمير في ﴿يَتْلُوهُ﴾ عائذ على الكتاب، وقيل: يعود على محمد ﷺ، لأن متبعي التوراة

يجدون فيها فيؤمنون به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل عندي أن يعود الضمير على الهدى الذي تقدم، وذلك أنه ذكر كفار اليهود والنصارى في أول الآية وحذر رسوله من اتباع أهوائهم، وأعلمه بأن هدى الله هو الهدى الذي أعطاه وبعثه به، ثم ذكر له أن المؤمنين التاليين لكتاب الله هم المؤمنون بذلك الهدى المقتدون بأنوارهم، والضمير في ﴿يَتْلُوهُ﴾ يحتمل من العود ما ذكر في الأول. و ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُونَ﴾ ابتداء وعماد وخبر، أو ابتداء وابتداء وخبر، والثاني خبره خبر الأول. والخسران: نقصان الحظ.

﴿١٢٢﴾ - ﴿١٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الحسن، وغيره ﴿يَغْمِثِي﴾ بتسكين الياء تخفيفاً لأن أصلها التحريك كتحرريك الضمائر: لك وبك، ثم حذفها الحسن للالتقاء، وفي السبعة من يحرك الياء، ومنهم من يسكنها.

وإن قدرنا فضيلة بني إسرائيل مخصوصة بكثرة الأنبياء وغير ذلك، فالعالمون عموم مطلق، وإن قدرنا تفضيلهم على الإطلاق فالعالمون عالمو زمانهم لأن أمة محمد ﷺ أفضل منهم بالنص، وقد تقدم القول على مثل هذه الآية إلى قوله: ﴿يُعْزِرُونَ﴾.

ومعنى ﴿وَلَا تَقْعَمَكَ نَفْسُكَ﴾ أنها ليست ثم - وليس المعنى أنه يشفع فيهم أحد فيُرد، وإنما نفى أن تكون ثم شفاعته على حد ما هي في الدنيا، وأما الشفاعته التي هي في تعجيل

الحساب فليست بنافعة لهؤلاء الكفرة في خاصتهم، وأما الأخيرة التي هي بإذن من الله تعالى في أهل المعاصي من المؤمنين فهي بعد أن أخذ العقاب حقه، وليس لهؤلاء المتوَعِّدِينَ من الكفار منها شيء.

والعامل في ﴿وَلَا تَقْعَمَكَ نَفْسُكَ﴾ و ﴿إِنَّمَا﴾ معناه اختبر، وإبراهيم يقال: إن تفسيره بالعربية أب رحيم.

وقرأ ابن عامر في جميع سورة البقرة ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾. وقُدِّم على الفاعل للاهتمام إذ كون الرب مبتلياً معلوم، فإنما يَهْتَمُّ السامع بمن ابتلي، وكون الضمير المفعول متصلاً بالفاعل موجب تقديم المفعول فإنما بُني الكلام على هذا الاهتمام.

واختلف أهل التأويل في الكلمات، فقال ابن عباس: هي ثلاثون سهماً هي الإسلام كله لم يَتِمَّ أحد كاملاً إلا إبراهيم صلوات الله عليه، عشرة منها في براءة: ﴿التَّائِبِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ الآية، وعشرة في الأحزاب: ﴿إِنَّ السَّالِفِينَ وَالْمُسْلِمِينَ﴾، وعشرة في: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾.

وقال ابن عباس أيضاً، وقتادة: الكلمات عشر خصال، خمس منها في الرأس: المضمضة والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك، وفرق الرأس، وقيل بدل فرق الرأس: إعفاء اللحية. وخمس في الجسد: تغليم الظفر، وحلق العانة، ونشف الإبط، والاستنجاء بالماء، والاختتان، وقال ابن عباس أيضاً: هي عشر خصال، ست في البدن، وأربع في الحج: الختان، وحلق

العانة، ونشف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب، والغسل يوم الجمعة، والطواف بالبيت، والسعي، ورمي الجمار، والإفاضة. وقال الحسن بن أبي الحسن: هي خلال الست التي امتحن بها: الكوكب، والقمر، والشمس، والنار، والهجرة، والختان، وقيل بدل الهجرة: الذبح. وقالت طائفة: هي مناسك الحج خاصة. وروي أن الله تعالى أوحى إليه أن تطهر، فتمضمض، ثم أن تطهر، فاستنشق، ثم أن تطهر، فاستاك، ثم أن تطهر، فأخذ من شارب، ثم أن تطهر، ففرق شعره، ثم أن تطهر، فاستنجد، ثم أن تطهر، فحلق عانته، ثم أن تطهر، فنتف إبطه، ثم أن تطهر، فقلع أظافره، ثم أن تطهر، فأقبل على جسده ينظر ماذا يصنع فاختنن بعد عشرين ومائة سنة، وفي البخاري أنه اختن وهو ابن ثمانين سنة بالقدم.

قال الراوي فأوحى الله إليه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يَأْتُمُونُ بِكَ فِيهِ هذه الخصال، ويقتدي بك الصالحون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أقوى الأقوال في تفسير هذه الآية، وعلى هذه الأقوال كلها إبراهيم عليه السلام هو الذي أتم. وقال مجاهد، وغيره: إن الكلمات هي أن الله عز وجل قال لإبراهيم: إني مبتليكَ بأمر فما هو؟ قال إبراهيم: تجعلني إماماً للناس، قال الله: نعم، قال إبراهيم: تجعل البيت مشاية، قال الله: نعم، قال إبراهيم: وأمنأ، قال الله: نعم، قال

إبراهيم: وترينا مناسكنا وتثوب علينا، قال الله: نعم، قال إبراهيم: تجعل هذا البلد أمنأ، قال الله: نعم، قال إبراهيم: وترزق أهله من الثمرات، قال الله: نعم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا القول فالله تعالى هو الذي أتم، وقد طول المفسرون في هذا، وذكروا أشياء فيها بُغْد فاخترتها.

وإنما سُمِّيَتْ هذه الخصال كلمات لأنها اقترنت بها أوامر هي كلمات. وروي أن إبراهيم عليه السلام لما أتم هذه الكلمات أو أمنأها الله عليه كتب الله له البراءة من النار، فذلك قوله تعالى: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾.

والإمام: القدوة، ومنه قيل لخيطة البناء إمام، وهو هنا اسم مفرد، وقيل في غير هذا الموضع: هو جمع أم، وزنه فاعل أصله أمم، فيجيء مثل قائم وقيام، وجائع وجياع، ونائم ونيام. وجعل الله تعالى إبراهيم إماماً لأهل طاعته فلذلك اجتمعت الأمم على الدعوى فيه، وأعلم الله تعالى أن كان حنيفاً، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَبَيْنَ ذُرِّيَّتِي﴾ هو على جهة الدعاء والرغبة إلى الله، أي: ومن ذريتي يا رب فاجعل. وقيل: هذا منه على جهة الاستفهام عنهم، أي وبين ذريتي يا رب ماذا يكون؟

والذرية مأخوذة من ذَرَأَ يَذْرُؤُ، أو من ذَرَى يَذْرَى، أو من ذَرَّ يَذْرُ، أو من ذَرَأَ يَذْرَأُ، وهي أفعال تتقارب معانيها، قد طوّل في تحليلها أبو الفتح وشفي.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأَلَّ

عَهْدِي﴾ أي وقال الله. والعهد فيما قال مجاهد: الإمامة، وقال السدي: النبوة، وقال قتادة: الأمان من عذاب الله، وقال الربيع، والضحاك: العهد: الدين، دين الله تعالى. وقال ابن عباس: معنى الآية: لا عهد عليك لظالم أن تطيعه، ونصب ﴿الظَّالِمِينَ﴾ لأن العهد ينال كما ينال، وقرأ قتادة، وأبو رجاء، والأعمش: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ بالرفع. وإذا أولنا العهد الدين أو الأمان وأن لا طاعة لظالم، فالظلم في الآية ظلم الكفر، لأن المعاصي المؤمن ينال الدين والأمان من عذاب الله، وتلزم طاعته إذا كان ذا أمر. وإذا أولنا العهد النبوة أو الإمامة في الدين، فالظلم ظلم المعاصي فما زاد.

(١٢٥) - (١٢٦) تفسير قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ عَظَّمَ عَلَى ﴿وَإِذْ﴾ المتقدمة، و ﴿آلَيْتَ﴾ الكعبة، و ﴿مَثَّائِكَ﴾ يحتمل أن يكون من ثاب إذا رجع لأن الناس يشوبون إليها أي ينصرفون، ويحتمل أن تكون من الشواب أي يشابون هناك. قال الأخفش: دخلت الهاء للمبالغة لكثرة من يشوب أي يرجع، لأنه قل ما يفارق أحد البيت إلا وهو يرى أنه لم يقض منه وطراً، فهي كناية عن علامة، وقال غيره، هي هاء تأنيث المصدر فهي مفعلة أصلها مؤثبة نقلت حركة الواو إلى الشاء فانقلبت الواو ألفاً لانفتاح ما قبلها، وقيل: هو على تأنيث البقعة كما يقال: مقام ومقامة.

وقرأ الأعمش ﴿مَثَابَاتٍ﴾ على

الجمع، وقال ورقة بن نوفل في الكعبة:

مَثَاباً لَأَقْنَاءِ الْقَبَائِلِ كُلِّهَا
تَحُبُّ إِلَيْهَا الْبِعْمَلَاتِ الطَّلَائِحُ
﴿وَأَنْتَ﴾ معناه: أن الناس يغيرون ويقتلون حول مكة وهي آمنة من ذلك، يلقي الرجل بها قاتل أبيه فلا يهيجه لأن الله تعالى جعل لها في النفوس حرمة، وجعلها آمناً للناس والطير والوحوش. وخصص الشرع من ذلك الخمس الفواسق على لسان النبي ﷺ.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمره، والكسائي: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ بكسر الخاء على جهة الأمر، فقال أنس بن مالك وغيره: معنى ذلك ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب، وفي ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّتْ كَنُكٌ﴾ - وقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فهذا أمر لامة محمد ﷺ. وقال المهدوي: وقيل: ذلك عطف على قوله: ﴿أَذْكُرُوا﴾ فهذا أمر لبني إسرائيل. وقال الربيع بن أنس: ذلك أمر لإبراهيم ومتبعيه فهي من الكلمات كأنه قال: إني جاعلك للناس إماماً واتخذوا، وذكر المهدوي رحمه الله أن ذلك عطف على الأمر الذي يتضمنه قوله: جعلنا البيت مثابة، لأن المعنى ثوبوا. وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ بفتح الخاء على جهة الخبر عن من اتخذ من متبعي إبراهيم، وذلك معطوف على قوله:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ كأنه قال: وإذا اتخذوا، وقيل: هو معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾ دون تقدير إذ، فهي جملة واحدة، وعلى تقدير إذ جملتان.

واختلف في مقام إبراهيم - فقال ابن عباس، وقتادة، وغيرهما، وخرجه البخاري: إنه الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناوله إياها في بناء البيت وغرقت قدماء فيه. وقال الربيع بن أنس: هو حجر ناولته إياه امرأته فاغتسل عليه وهو راكب، جاءت به من شق ثم من شق فغرقت رجلاه فيه حين اعتمد عليه.

وقال فريق من العلماء: المقام: المسجد الحرام. وقال عطاء بن أبي رباح: المقام: عرفة والمزدلفة والجمار. وقال ابن عباس: مقامه: مواقف الحج كلها. وقال مجاهد: مقامه: الحرم كله؛ و﴿مُصَلًّى﴾ موضع صلاة، هذا قول من قال: المقام الحجر، ومن قال بغيره قال: مصلى مدعي على أصل الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا﴾، العهد في اللغة على أقسام هذا منها الوصية بمعنى الأمر، و﴿أَنْ﴾ في موضع نصب على تقدير بأن وحذف الخافض، قال سيبويه: إنها بمعنى أي مفسرة فلا موضع لها من الإعراب و﴿طَهَّرْنَا﴾ قيل: معناه ابنياء وأسسه على طهارة ونية طهارة فيجيء مثل قوله: ﴿أَتَيْتُكَ عَلَى كَثُوفٍ﴾. وقال مجاهد: هو أمر بالتطهير من عبادة الأوثان، وقيل: من الفرت والدم، وهذا ضعيف لا

تعضده الأخبار، وقيل: من الشرك. وأضاف الله البيت إلى نفسه تشريفاً للبيت، وهي إضافة مخلوق إلى خالق ومملوك إلى مالك، و﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ ظاهره أهل الطواف، وقاله عطاء وغيره. وقال ابن جبير: معناه للغرباء الطائرين على مكة.

﴿وَالْمَكِينِينَ﴾ قال ابن جبير: هم أهل البلد المقيمون، وقال عطاء: هم المجاورون بمكة. وقال ابن عباس: المصلون. وقال غيره: المعتكفون.

والعكوف في اللغة، اللزوم للشيء والإقامة عليه، كما قال الشاعر:

عَكَفَ الْبَيْطُ يَلْعَبُونَ الْفَشْرَجَا
فمعناه الملازمي البيت إرادة وجه الله العظيم.

﴿وَأَرْكَعَ السُّجُودَ﴾ المصلون، وخص الركوع والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصلي إلى الله تعالى، وكل مقيم عند بيت الله إرادة ذات الله، فلا يخلو من إحدى هذه الرتب الثلاث: إما أن يكون في صلاة، أو طواف، فإن كان في شغل من دنياه فحال العكوف على مجاورة البيت لا يفارقه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ الآية، دعا إبراهيم عليه السلام لذريته وغيرهم بمكة بالأمن ورغد العيش، و﴿أَجْعَلْ﴾ لفظه الأمر وهو في حق الله رغبة ودعاء، و﴿ءَامَنَّا﴾ معناه من الجبارة والمسلطين والعدو المستأصل والمثلاث التي تحل بالبلاد، وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفراً لا ماء فيه ولا نبات،

فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيره
ونبتت فيها أنواع الثمرات.

وروي أن الله تعالى لما دعها
إبراهيم أمر جبريل صلوات الله عليه
فاقتلع فلسطين وقيل قطعة من
الأردن، فطاف بها حول البيت سبعا
وأنزلها بؤج، فسميت الطائف بسبب
ذلك الطواف.

واختلف في تحريم مكة متى كان،
فقال فرقة: جعلها الله حراماً يوم
خلق الله السموات والأرض، وقالت
فرقة: حرمها إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والأول قاله النبي ﷺ في خطبته ثاني
يوم الفتح، والثاني قاله أيضاً
النبي ﷺ، ففي الصحيح عنه:
«اللهم إن إبراهيم حرم مكة، وإني
حرمت المدينة، ما بين لابتيها
حرام».

ولا تعارض بين الحديثين لأن
الأول إخبار سابق علم الله فيها
وقضائه، وكون الحرمة مدة آدم،
وأوقات عمارة القطر بإيمان، والثاني
إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها،
وإظهاره ذلك بعد الدثور.

وكل مقال من هذين الإخبارين
حسن في مقامه، عظم الحرمة ثاني
يوم الفتح على المؤمنين، بإسناد
التحريم إلى الله تعالى، وذكر إبراهيم
عند تحريره المدينة مثلاً لنفسه، ولا
محالة أن تحريم المدينة هو أيضاً من
قبل الله تعالى، ومن نافذ قضائه
وسابق علمه.

و ﴿وَمَنْ يَدُلَّ عَلَىٰ مَكْرَهِ هَٰذَا﴾،
وخص إبراهيم المؤمنين بدعائه.
وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ الآية، قال

أبي بن كعب، وابن إسحق
وغيرهما: هذا القول من الله
عز وجل لإبراهيم. وقرؤوا
﴿فَأَمْتَعَهُ﴾ بضم الهمزة
وفتح الميم وشد التاء ﴿ثُمَّ
أَضْطَرُّهُ﴾ بقطع الألف
وضم الراء، وكذلك قرأ
السبعة حاشا ابن عامر فإنه
قرأ ﴿فَأَمْتَعَهُ﴾ بضم الهمزة
وسكون الميم وتخفيف
الثاء ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ بقطع
الألف. وقرأ يحيى ابن
وثاب ﴿فَأَمْتَعَهُ﴾ كما قرأ
ابن عامر ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾
بكسر الهمزة على لغة
قريش في قولهم: لا
إخال. قرأ أبي بن كعب

﴿ثُمَّ أَمْتَعَهُ﴾ و﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُ﴾ ومن شرط
والجواب في فأمته.

وموضع [من] رفع على الابتداء
والخبر. ويصح أن يكون موضعها
نصباً على تقدير: وأرزق من كفر،
فلا تكون شرطاً. وقال ابن عباس،
ومجاهد، وغيرهما: هذا القول هو
من إبراهيم ﷺ، وقرؤوا: ﴿فَأَمْتَعَهُ﴾
بفتح الهمزة وسكون الميم، ﴿ثُمَّ
أَضْطَرُّهُ﴾ بوصل الألف وفتح الراء،
وقرئت بالكسر، ويجوز فيها الضم.
وقرأ ابن محيصن: ﴿ثُمَّ أَطْرُهُ﴾
بإدغام الضاد في الطاء. وقرأ
يزيد بن أبي حبيب: ﴿ثُمَّ اضْطَرُّهُ﴾
بضم الطاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فكان إبراهيم عليه السلام دعا
للمؤمنين وعلى الكافرين.

و ﴿قَلِيلًا﴾ معناه مدة العمر، لأن

سورة البقرة

سورة البقرة

وَلَا ذَرْعًا لَهُمْ لِشَرِّهِمْ فَلَوْ أَعِدَّ مِنَ النَّارِ رَبَّنَا فَقَلَّ
مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْقَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ
لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا
إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ
مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَلَا مَن سِوَهُ نَفْسُهُ وَلِقَدْ أَضْطَرَّنَا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ إِلَى الْآخِرَةِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ
قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ
وَيَعْقُوبَ يَنْبِيُّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا
وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ
إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا
وَحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ذَلِكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَلُونَ عَنْ مَّا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٤﴾

٢٠

متاع الدنيا قليل، وهو نعت إما
لمصدر كأنه قال: متاعاً قليلاً، وإما
لزمان كأنه قال: وقتاً قليلاً، أو زماناً
قليلاً.

و ﴿النَّصِيرُ﴾ مُفْعِل كموضع من
صار بصير، ويس أصلها بش، وقد
تقدمت في ببسما، وأمته معناه:
أخوله الدنيا وأبقيه فيها بقاءً قليلاً،
لأنه فإن مُنْقَض.

وأصل المتاع الزاد، ثم استعمل
فيما يكون آخر أمر الإنسان أو عطائه
أو أفعاله، قال الشاعر:

وقفتُ على قبرٍ غريبٍ بقفرةٍ
مَتَاعٌ قَلِيلٌ مِنْ حَبِيبَتِ مُفَارِقِ
ومنه تُمْتِيع الزوجات، ويضطر الله
الكافر إلى النار جزاءً على كفره.

﴿١٢٧﴾ - ﴿١٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل:
المعنى: واذكر ﴿وَلَا ذَرْعًا﴾ و
﴿فَلَقَا عِدَّةً﴾: جمع قاعدة وهي

الأساس، وقال الفراء: هي الجدر، وفي هذا تجوز، والقواعد من النساء جمع قاعد، وهي التي قعدت عن الولد، وحذفت تاء التأنيث لأنه لا دخول للمذكر فيه، هذا قول بعض النحاة، وقد شذ حذفها مع اشتراك المذكر بقولهم: ناقة ضامر، ومذهب الخليل أنه متى حذفت تاء التأنيث زال الجري على الفعل وكان ذلك على النسب.

والبيت هنا الكعبة بإجماع، واختلف بغد رواة القصص، فقيل: إن آدم بنائه فيها، ثم دثر ودرس حتى دُلَّ عليه إبراهيم فرفع قواعده، وقيل: إن آدم هبط به من الجنة، وقيل: إنه لما استوحش في الأرض حين نقص طوله وفقد أصوات الملائكة أهيط إليه وهو كالدرة، وقيل: كالباقوتة، وقيل: إن البيت كان ربوة حمراء، وقيل: بيضاء ومن تحته دُحيت الأرض، وإن إبراهيم ابتدأ بناءه بأمر الله ورفع قواعده.

والذي يصح من هذا كله أن الله أمر إبراهيم برفع قواعد البيت، وَجَائِزٌ قَدْهُمْ، وجائز أن يكون ذلك ابتداء، ولا يرجح شيء من ذلك إلا بسند بقطع العذر.

وقال عبيد بن عمير: رفعها إبراهيم وإسماعيل معاً، وقال ابن عباس: رفعها إبراهيم وإسماعيل يناوله الحجارة، وقال علي ابن أبي طالب: رفعها إبراهيم وإسماعيل طفل صغير، ولا يصح هذا عن علي رضي الله عنه لأن الآية والآثار ترويه.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ عطف على إبراهيم،

وقيل: هو مقطوع على الابتداء وخبره فيما بعد. قال الماوردي: إسماعيل أصله اسمع ياء إيل، وهذا ضعيف. وتقدير الكلام: يقولان: ﴿رَبَّنَا نَبِّئْ﴾، وهي قراءة أبي ابن كعب، وعبد الله بن مسعود كذلك بثبوت (يقولان)، وقالت فرقة: التقدير: وإسماعيل يقول: ربنا. وحذف لدلالة الظاهر عليه. وكل هذا يدل على أن إسماعيل لم يكن طفلاً في ذلك الوقت.

وخصاً هاتين الصفتين لتناسيهما مع حالهما، أي السميع لدعائنا والعليم بنياتنا: وقولهما: اجعلنا: بمعنى صيرنا، تتعدى إلى مفعولين، ﴿سُلَيْمِينَ﴾ هو المفعول الثاني، وكذلك كانا فإنما أرادا التشبث والدوام. والإسلام فسي هذا الموضع: الإيمان والأعمال جميعاً. وقرأ ابن عباس، وعوف: مُسْلِمِينَ على الجمع، وبين في قوله: ﴿وَبَيْنَ ذُرِّيَّتَيْنَا﴾، للتبعيض، وخص من الذرية بعضاً لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين. والأمة الجماعة، وحكى الطبري أنه أراد بذلك العرب خاصة، وهو ضعيف، لأن دعوته ظهرت في العرب وفيمن آمن من غيرهم.

وقرأ نافع، وحزمة والكسائي: ﴿أَرْثَا﴾ بكسر الراء، وقرأ ابن كثير: ﴿أَرْثَا﴾ بإسكان الراء، وقرأ أبو عمرو بين الإسكان والكسر اختلاصاً، والأصل أرثينا، حذفت الياء للجزم، ونقلت حركة الهمزة إلى الراء، وحذفت تخفيفاً واستثقل بغد من سكن الراء الكسرة كما

استثقلت في (فخذ)، وهنا من الإجحاف ما ليس في (فخذ). وقالت طائفة: أرنا من رؤية البصر. وقالت طائفة: من رؤية القلب، وهو الأصح، ويلزم قائله أن يتعدى الفعل منه إلى ثلاثة مفاعيل، وينفصل بأنه يوجد مُعْدَى بالهمزة من رؤية القلب كغير المعدي، قال حطائط ابن يعفر أخو الأسود بن يعفر:

أريني جِوَاداً مَاتَ هَزْلاً لَأَنْسِي
أَرَى مَا تَرَيْنِ، أَوْ بِخَيْلٍ مُخَلَّدًا

وقال قتادة: المناسك معالم الحج. وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت ودعا بهذه الدعوة بعث الله إليه جبريل فحج به، وقال ابن جريج: المناسك المذابح أي مواضع الذبح، وقال فريق من العلماء: المناسك العبادات كلها ومنه الناسك أي العابد. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وَأَرْهَمَ مَنَاسِكَهُمْ﴾ كأنه يريد الذرية.

والتوبة الرجوع، وعرفه شرعاً من الشر إلى الخير، وتوبة الله على العبد رجوعه به وهدايته له. واختلف في معنى طلبهم التوبة وهم أنبياء معصومون، فقالت طائفة: طلبا التشبث والدوام، وقيل: أرادا من بعدهما من الذرية، كما تقول: بَرَّني فلان وأكرمني وأنت تريد في ولدك وذريتك، وقيل: - وهو الأحسن عندي - إنهما لما عرفا المناسك وبنا البيت وأطاعا، أرادا أن يَسْتَأْذِنَا للناس أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصل من الذنوب وطلب التوبة.

وقال الطبري: إنه ليس أحد من خلق الله تعالى إلا وبينه وبين الله تعالى معان يجب أن تكون أحسن ممّا هي. وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ، ومن الكبائر، ومن الصفات التي فيها رذيلة، واختلف في غير ذلك من الصفات، والذي أقول به: إنهم معصومون من الجميع، وإن قول النبي ﷺ: «إِنِّي لَأَتُوبُ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ وَأَسْتَغْفِرُهُ سَبْعِينَ مَرَّةً، إِنَّمَا هُوَ رَجُوعُهُ مِنْ حَالَةٍ إِلَى أُرْفَعُ مِنْهَا لِتَزِيدَ عُلُومُهُ وَاطْلَاعُهُ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، فَهُوَ يَتُوبُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الْأُولَى إِلَى الْأُخْرَى، وَالتَّوْبَةُ هُنَا لِنُغْوَةٍ.

وقوله تعالى: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ» الآية، هذا هو الذي أراد النبي ﷺ بقوله: «أَنَا دَعَاؤُهُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَيُسْرَى عَيْسَى». ومعنى «مِنْهُمْ»: أن يعرفوه ويتحققوا فضله، ويشفق عليهم ويحرص، و«يَتْلُو» في موضع نصب نعت لرسول أي تالياً عليهم، ويصح أن يكون في موضع الحال، والآيات: آيات القرآن، والكتاب: القرآن، ونسب التعليم إلى النبي ﷺ من حيث هو يعطى الأمور التي ينظر فيها ويعلم طرق النظر بما يلقى الله إليه ويوحيه. وقال قتادة: الحكمة: السُّنَّةُ وبيان النبي ﷺ وسلم الشرائع. وروى ابن وهب عن مالك، أن الحكمة الفقه في الدين والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى، و«يُزَكِّيهِمْ» معناه: يُطَهِّرُهُمْ وينميهم بالخير، ومعنى الزكاة لا يخرج عن التطهير والتنمية، و

﴿الَّذِي يَغْلِبُ وَيَتَمُّ مَرَادُهُ وَلَا يَرُدُّ، وَ﴿الْحَكِيمُ﴾ الْمُصِيبُ مَوَاقِعَ الْفِعْلِ الْمَحْكَمِ لَهَا.

﴿١٣١﴾ - ﴿١٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَمَنْ﴾ استفهام من موضع رفع بالابتداء، و﴿يَرْعُبُ﴾ خبره، والمعنى يزهد فيها ويرأى بنفسه عنها، والملة: الشريعة والطريقة، و﴿سَفِهَ﴾ من السفه الذي معناه الرُّقَّةُ والخِفَّةُ. واختلف في نصب «نفسه» فقال الزجاج: سَفِهَ بمعنى جهل، وعدّاه بالمعنى، وقال غيره: سَفِهَ بمعنى أفلك. وحكى ثعلب، والمبرد: أن (سَفِهَ) بكسر الفاء يتعدى كسفه بفتح الفاء وشدها، وحكى عن أبي الخطاب أنها لغة. وقال الفراء: نصبها على التمييز.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأنّ السفه يتعلق بالنفس والرأي والخلق، فكأنه ميزها بين هذه ورأى أن هذا التعريف ليس بمحض لأنّ الضمير فيه الإبهام الذي في (مَنْ)، فكأن الكلام: إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسًا. وقال البصريون: لا يجوز التمييز مع هذا التعريف، وإنما النصب على تقدير حذف (في). فلما انحذف حرف الجر قوي الفعل، وهذا يجري على مذهب سيويه فيما حكاه من قولهم: ضرب فلان الظهر والبطن أي في الظهر والبطن. وحكى مكي أن التقدير إلا من سفه قوله نفسه، على أن نفسه تأكيد، حذف المؤكّد وأقيم التوكيد مقامه قياساً على النعت والمنعوت، وهذا قول متحامل. واصطفى: افتعل من الصفة، معناه: تخير الأصفى،

وأبدلت التاء طاءً لتناسبها مع الصاد في الإطباق. ومعنى هذا الاصطفاء أنه نَبَأَهُ واتخذ خليلاً، و﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ متعلق باسم فاعل مقدر من الصلاح، ولا يصلح تعلقه بالصالحين لأن الصلة لا تتقدم الموصول، هذا على أن تكون الألف واللام بمعنى الذي، وقال بعضهم: الألف واللام هنا للتعريف، ويستقيم الكلام، وقيل: المعنى إنه في عمل الآخرة لمن الصالحين، فالكلام على حذف مضاف.

وقوله تعالى: «إِذْ قَالَ لَوْ رَبُّهُ أَسْلِمَ»، العامل في «إِذْ» اصطفتياه، وكان هذا القول من الله حين ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس. والإسلام هنا على أتم وجوه.

وقرأ نافع وابن عامر: «وَأَوْصَى». وقرأ الباقون: «وَوَصَّى»، والمعنى واحد - إلا أن وصى يقتضي التكثير، والضمير في «بِهَذَا» عائِد على كلمته التي هي: «أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»، وقيل: على الملة المتقدمة، والأول أصوب لأنه أقرب مذكور. وقرأ عمرو بن فائد الأسواري: «وَيَعْقُوبُ» بالنصب على أن يعقوب داخل فيمن أوصى. واختلف في إعراب رفعه - فقال قوم من النحاة: التقدير، ويعقوب أوصى بنيه أيضاً، فهو عطف على إبراهيم. وقال بعضهم: هو مقطوع منفرد بقوله: «يَنبِئُ» فتقدير الكلام (ويعقوب قال: يا بني). واصطفى هنا معنا تخير صفوة الأديان، والألف واللام في الدين للعهد لأنهم قد كانوا عرفوه، وكسرت إن بعد أوصى لأنها

﴿وَأَنشُرْ مُتَلَبِّثِينَ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال.

﴿١٣٢﴾ - ﴿١٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا الخطاب لليهود والنصارى الذين انتحلوا الأنبياء صلوات الله عليهم، ونسبوه إلى اليهودية والنصرانية، فرد الله عليهم وكذبهم وأعلمهم أنهم كانوا على الحنيفية الإسلام، وقال لهم - على جهة التقرير والتوبيخ -: أشهدتكم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدعون عن علم؟ أي: لم تشهدوا، بل أنتم تفترون.

و ﴿أَمْ﴾ تكون بمعنى ألف الاستفهام في صدر الكلام، لغة يمانية. وحكى الطبري أن ﴿أَمْ﴾ يستفهم بها في وسط كلام قد تقدم صدره، وهذا منه، ومنه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ وقال قوم: [أَمْ] بمعنى بل والتقدير: بل شهد أسلافكم يعقوب، وعلمتم منهم ما أوصى به ولكنكم كفرتم جحداً، ونسبتموهم إلى غير الحنيفية عناداً.

والأظهر أنها التي بمعنى بل وألف الاستفهام معاً. و ﴿شُهِدَآءَ﴾: جمع شاهد أي حاضر. ومعنى الآية: حضر يعقوب مقدّمات الموت، وإلا فلو حضر الموت لما أمكن أن يقول شيئاً. وقدم ﴿يَعْقُوبَ﴾ على جهة تقديم الأهم، والعامل في ﴿إِذْ﴾ (شهادة). و ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، وعبر عن المعبود بـ

وَقَالُوا أَكُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِثْلَ بَرِئِهِمْ خِينًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٢﴾ قُولُوا أَمْسَا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ وَاسْتَعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أَوْفَى مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أَوْفَى النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِمْ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ نَوْلُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٤﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٥﴾ قُلْ أَنَحْنُ نُنَافِي اللَّهَ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٦﴾ أَمْ نَقُولُ أَنْ إِنَّا هُمْ وَإِسْحَاقَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْرًا اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتُحُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمْسَلُونَ ﴿١٣٨﴾

بمعنى القول، ولذلك سقطت أن التي تقتضيها أوصى في قوله: أن يا بني. وقرأ ابن مسعود والضحاك: ﴿أَنْ يَا بَنِي﴾ بثبوت أن.

وقوله: ﴿فَلَا تَتَوَلَّوْا إِلَا وَآشُرْ مُتَلَبِّثِينَ﴾ إيجازٌ بليغ، وذلك أن المقصود من أمرهم بالإسلام الدوام عليه فأتى بلفظ موجز يقتضي المقصود ويتضمن وعظاً وتذكيراً بالموت، وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ولا يدري متى، فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه فقد توجه من وقت الأمر دائباً لازماً. وحكى سيبويه - فيما يشبه هذا المعنى - قولهم: لا أرينك ها هنا، وليس إلى المأمور أن يحجب إدراك الأمر عنه، فإنما المقصود: إذهب وزل عن ها هنا، فجاء بالمقصود بلفظ يزيد معنى الغضب والكرهية.

[ما] تجربة لهم، ولم يقل: (من) لثلا يطرق لهم الاهتداء، وإنما أراد أن يختبرهم، وأيضاً فالمعبودات المتعارفة من دون الله جمادات كالآوثان والنار والشمس والحجارة، فاستفهمهم عما يعبدون من هذه، و ﴿مِنْ بَدَى﴾ أي من بعد موتي. وحكى أن يعقوب حين خُبر كما يُخبر الأنبياء اختار الموت وقال: أمهلوني حتى أوصي بني وأهلي، فجمعهم وقال لهم هذا فاهتدوا، و ﴿قَالُوا تَبَدُّ إِلَهُكَ﴾ الآية، فأرزه ثبوتهم على الدين ومعرفتهم الله تعالى، ودخل إسماعيل في الآباء لأنه عم، وقد قال النبي ﷺ في العباس: «ردوا عليّ أبي، إني أخاف أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف يمزوة بن مسعود»، وقال عنه في موطن آخر: «هذا بقية آبائي» ومنه قوله عليه السلام: «أنا ابن اللبّيعين»، على القول الشهير في أن إسحق هو الذبيح، وقرأ الحسن، وابن يعمر، والجحدري، وأبو رجاء: ﴿وَاللَّهُ أَيْبُكَ﴾. واختلف بعد فقيل: هو اسم مفرد أرادوا به إبراهيم وحده، وقال بعضهم: هو جمع سلامة، وحكى سيبويه: أب وأبون وأبين، قال الشاعر:

قَلَمَّا تَبَيَّنَ أَصْوَاتُنَا
بَكَيْنٍ وَفَذَيْنَا بِالْأَيْبَا
وقال ابن زيد: يقال: قُدم إسماعيل لأنه أسن من إسحق، ﴿وَاللَّهُ﴾ بدل من ﴿إِلَهُكَ﴾، وكرره لفائدة الصفة بالوحدانية.

وقيل: ﴿إِلَهُكَ﴾ حال، وهذا قول حسن لأن الغرض إثبات حال

الوحدانية، ﴿وَنَحْنُ لَمْ مُسْلِمُونَ﴾ ابتداء وخير، أي كذلك كُنَّا نحن ونكون، ويحتمل أن يكون في موضع الحال، والعامل ﴿نَعْبُدُ﴾، والتأويل الأول أمدح.

وقوله تعالى: ﴿فَدَّ خَلَّتْ﴾، في موضع رفع نعت لأمة، ومعناه: ماتت وصارت إلى الخلاء من الأرض، ويعنى بالأمة الأنبياء المذكورون، والمخاطب في هذه الآية اليهود والنصارى، أي أنتم أيها الناحلوهم اليهودية والنصرانية، ذلك لا ينفعكم، لأن كل نفس لها ما كسبت من خير وشر، فخيرهم لا ينفعكم إن كسبتم شراً. وفي هذه الآية رد على الجبرية القائلين: لا اكتساب للعبد، ﴿وَلَا تُشْتَوْنَ عَمَّا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾ فتتلوهم ديناً.

وقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، نظير قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

ونصب ﴿بَلَّةً﴾ بإضمار فعل، أي: بل تتبع ملَّة، وقيل: نُصِبَتْ عَلَى الإِغْرَاءِ، وقرأ الأعرج، وابن أبي عبلة: ﴿بَلْ مِلَّةٌ﴾ بالرفع، والتقدير: بل الهدى ملَّة، و﴿حِينَئِذٍ﴾ حال، وقيل: نصب بإضمار فعل لأن الحال تقل من المضاف إليه. والحنف: الميل، ومنه الأحنف لما مالت إحدى قدميه إلى الأخرى. والحنيف في الدين: الذي مال عن الأديان المكروهة إلى الحق، وقال قوم: ألحنف: الاستقامة، وسُمِّيَ المعوج القدمين أحنف تفاؤلاً كما قيل: سليم ومفازة. ويجيء الحنيف في الدين المستقيم على جميع

طاعات الله عز وجل، وقد خصص بعض المفسرين - فقال قوم: الحنيف الحاج، وقال آخرون: المختتن، وهذه أجزاء الحنف. ونفى عنه الإشرار فانتفت عبادة الأوثان واليهودية لقولهم: عزيز بن الله، والنصرانية لقولهم: المسيح ابن الله. ﴿١٣٦﴾ - ﴿١٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا الخطاب لأمة محمد ﷺ - علمهم الله الإيمان.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ يعني به القرآن، وصحة إضافة الإنزال إليهم من حيث هم المأمورون والمنهين فيه.

و﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ يجمعان إبراهيم وإسماعيل، هذا هو اختيار سيويه، والخليل. وقال قوم: براهيم وإسماعيل، وقال الكوفيون: براهيم وإسماعيلة، وقال المبرد: أباه وأسماع، وأجاز ثعلب براه كما يقال في التصغير بُرَيْه. و﴿وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ هم ولد يعقوب، وهم: روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وربالون، ويشحر، ودنية بنته، وأُمهم ليا، ثم خلف على أختها راحيل فولدت له يوسف، وبنامين، وولدت له من سَرَيَّتَيْنِ، دان، ونفتالي، وجاد، وأشرو. والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل، فسموا الأسباط لأنه كان على كل واحد منهم سبط.

﴿وَمَا أَوْفَى مُوسَى﴾ هو التوراة وآياته، وما أوتي عيسى هو الإنجيل وآياته، فالمعنى: إنا نؤمن بجميع الأنبياء لأن جميعهم جاء بالإيمان بالله، فدين الله واحد، وإن اختلفت أحكام الشرائع، و﴿لَا تَفَرَّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي: لا

نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما تفعلون، وفي الكلام حذف تقديره: بين أحد منهم وبين نظيره، فاختصر لفهم السامع، والضمير في ﴿لَهُ﴾ عائذ على اسم الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ﴾ الآية. خطاب لمحمد ﷺ وأمته، والمعنى: إن صدقوا تصديقاً مثل تصديقكم، فالمماثلة وقعت بين الإيمانين، هذا قول بعض المتأولين وقيل: الباء زائدة مؤكدة، والتقدير آمنوا مثل، والضمير في ﴿بِهِ﴾ عائذ كضمير في ﴿لَهُ﴾، فكان الكلام: فإن آمنوا بالله مثل ما آمنتم به. ويظهر عود الضمير على [مَا]. وقيل: مثل زائدة كما هي في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقالت فرقة: هذا من مجاز الكلام، تقول: هذا أمر لا يفعله مثلك، أي لا تفعله أنت، فالمعنى: فإن آمنوا بالذي آمنتم به، هذا قول ابن عباس، وقد حكاه عنه الطبري قراءة، ثم أسند إليه أنه قال: «لا تقولوا: فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به، فإنه لا مثل لله تعالى، ولكن قولوا: فإن آمنوا بالذي آمنتم أو بما آمنتم به».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على جهة التفسير، أي هكذا فليتأول، وحكماهما أبو عمرو الداني قراءتين عن ابن عباس فانه أعلم.

وقوله: ﴿وَلَنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا، يعني به اليهود والنصارى، والشقاق: المشاقة والمحادة والمخالفة، أي في شقاق لك هم في شق وأنت في شق، وقيل: الشقاق معناه شق كل واحد وصل ما بينه وبين صاحبه، ثم وعده تعالى أنه سيفكفه إياهم، ويغلبه

قالوا: لم يكونوا على اليهودية والنصرانية قيل لهم: فهلما إلى دينهم إذ يُقْرُونَ بالحق.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ أَهْلُكُمْ أَمْ﴾ الله؟ تقرير على فساد دعواهم، إذ لا جواب لمفطور إلا أن الله تعالى أعلم. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لفظه الاستفهام، والمعنى: لا أحد أظلم منهم، وإياهم أراد تعالى بكتمان الشهادة.

واختلف في الشهادة هنا، ما هي؟ فقال مجاهد، والحسن، والربيع: هي ما في كتبهم من أن الأنبياء على الحنيفية لا على ما ادعواهم، وقال قتادة، وابن زيد: هي ما عندهم من الأمر بتصديق محمد ﷺ وأتباعه، والأول أشبه بسياق معنى الآية، واستودعهم الله تعالى هذه الشهادة ولذلك قال: ﴿يَكُنْ عَلَى هَذَا مَتَعَلِّقَةً﴾ بـ ﴿عِنْدَكُمْ﴾، كأن المعنى شهادة تحصلت له من الله، ويحتمل أن تتعلق ﴿وَمَنْ﴾ بـ ﴿كَتَبَ﴾، أي كتبها من الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِمَقْبَلٍ عَنَّا تَمَلُّونَ﴾، وعيد وإعلام أنه لا يترك أمرهم سدى، وأن أعمالهم تُخصى ويجازون عليها، والغافل الذي لا يفتن للأمور إهمالاً منه، مأخوذ من الأرض الغفل، وهي التي لا علم بها.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ الآية، كررها عن قرب لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى، فوجب التأكيد، فلذلك كررها،

محيصن: ﴿أَتَحَاجُّونَنَا﴾ بإدغام النون في النون، وخف الجمع بين ساكنين لأن الأول حرف مدّ ولين، فالمدّ كالحركة، ومن هذا الباب: دابة وشابّة، و ﴿فِي اللَّهِ﴾ معناه: في دينه والقرب منه والحظوة لديه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَقُولُ﴾ عطف على ألف الاستفهام المتقدمة، وهذه القراءة بالتاء من فوق قرأها ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بالياء من أسفل، و ﴿أَمْ﴾ على هذه القراءة مقطوعة، ذكره الطبري، وحكي عن بعض النحاة أنها ليست بالمقطوعة لأنك إذا قلت: أتقوم أم يقوم عمرو؟ فالمعنى: أياكون هذا أم هذا؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المثال غير جيد، لأن القائل فيه واحد والمخاطب واحد، والقول في الآية من اثنين والمخاطب اثنان غيران، وإنما تشبهه معادلة [أم] للآلف على الحكم المعنوي كأن معنى ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا﴾: أي أتحتاجون محمداً أم تقولون؟

وقيل: إن [أم] في هذا الموضع غير معادلة على القراءتين، وحجة ذلك اختلاف معنى الآيتين وأنهما ليسا قسمين، بل المحاجة موجودة في دعواهم الأنبياء عليهم السلام.

وَوَقَّعَهُمْ تعالى على موضع الانقطاع في الحجة، لأنهم إن قالوا: إن الأنبياء المذكورين على اليهودية والنصرانية كذبوا، لأنه قد علم أن هذين الدينين حدثا بعدهم، وإن

عليهم، فكان ذلك في قتل بني قينقاع وبني قريظة وإجلاء النصير، وهذا الوعد وانتجازه من إعلام نبوة محمد ﷺ. و ﴿السَّيِّعُ﴾ لكل قائل، ﴿الْقَلِيمُ﴾ بما يجب أن ينفذ في عبادته. و ﴿مِثْقَةَ اللَّهِ﴾ شريعته وسنته وفطرته، وذلك أن النصراني لهم ماء يصبغون فيه أولادهم، فهذا ينظر إلى ذلك، وقيل: سُمي الدين صبغة استعارة من حيث تظهر أعماله وسنته على المتدين كما يظهر الصبغ في الثوب وغيره. ونصب الصبغة على الإغراء، وقيل: بدل من ﴿مِثْقَةَ﴾ وقيل: نصب على المصدر المؤكّد لأن ما قبله من قوله: ﴿فَقَدْ آمَنَّا﴾ هو في معنى يلبسون أو يتجلجلون صبغة الله، وقيل: التقدير ونحن له: مسلمون صبغة الله، فهي متصلة بالآية المتقدمة، وقال الطبري: «من قرأ برفع ﴿مِثْقَةَ﴾ قرأ برفع ﴿صِبْغَةَ﴾». قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد ذكرتها عن الأعرج، وابن أبي عجلة. ﴿وَنَحْنُ لَمْ نَعْبُدْ﴾ ابتداء وخبر.

﴿١٣٩﴾ ﴿١٤٠﴾ تفسير قوله عز وجل: معنى الآية: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين زعموا أنهم أبناء الله وأجباؤه وادّعوا أنهم أولى بالله منكم لقدّم أديانهم وكتبهم: ﴿أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ؟﴾ أي: أتجاذبوننا الحجة على دعواكم؟ والرب تعالى واحد، وكل مجازي بعمله فأى تأثير لقدّم الدين، ثم وبخوا بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَمْ نَحْيُيُونَ﴾، أي: ولم تخلصوا أنتم فكيف تدعون ما نحن أولى به منكم؟ وقرأ ابن

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَبْغِي الرَّسُولَ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكِبْرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَادَهُ إِنَّ إِلَهَ الْبَاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٣﴾ قَدْ رَأَى نَقْلُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَا لِسَانُكَ فَبَلَّغْ رِضَاهَا قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِلَى الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لِيُعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٢٢٤﴾ وَلَكِنْ آتَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ مَآيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَكِنْ آتَيْنَا أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْكَ مِنَ الْوَحْيِ إِذْ أَلَمِنَ الْفَالِغِيونَ ﴿٢٢٥﴾

٢٢

ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة ففرضت الخمس وأُم فيها جبريل عليه السلام، وكانت أول صلاة الظهر، وتَوَجَّه بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم هاجر النبي ﷺ إلى المدينة في ربيع الأول وتمادى إلى بيت المقدس إلى رجب من سنة اثنتين، وقيل: إلى جمادى، وقيل: إلى نصف شعبان.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، الكاف متعلقة بالمعنى الذي في قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، أي كما هديناكم إلى قبله إبراهيم وشريعته كذلك جعلناكم أُمَّةً، ﴿وَأُمَّةً﴾: مفعول ثان، ووسطاً: نعت. والائمه: القرن من الناس، ﴿وَسَطًا﴾: معناه عدلاً، رُوي ذلك عن رسول الله ﷺ، وتظاهرت به عبارة المفسرين.

أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ قَوْلِهِمْ. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ إقامة حُجَّة، أي: له ملك المشارق والمغارب وما بينهما، ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إشارة إلى هداية الله تعالى هذه الأمة إلى قبله إبراهيم. والصراط: الطريق. واختلف العلماء، هل كانت صلاة رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس بأمر من الله تعالى في القرآن، أو بوحى غير مثلول؟، فذكر ابن قورك عن ابن عباس قال: أول ما نُسخ من

القرآن القبلة، وقال الجمهور: بل كان أمر قبله بيت المقدس بوحى غير مثلول، وقال الربيع: خُيِّر رسول الله ﷺ في التواحي فاختار بيت المقدس ليستألف بها أهل الكتاب، ومن قال بوحى غير مثلول قال: كان ذلك ليختبر الله تعالى من آمَنَ من العرب لأنهم كانوا يألفون الكعبة وينافرون بيت المقدس وغيره، واختلف - كم صُلِّيَ إلى بيت المقدس؟ ففي البخاري ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ورُوي عن أنس بن مالك تسعة أو عشرة أشهر، ورُوي عن غيره ثلاثة عشر شهراً.

وحكى مكى عن إبراهيم بن إسحاق أنه قال: أول أمر الصلاة أنها فرضت بمكة ركعتين في أول النهار، وركعتين في آخره، ثم كان الإسراء

ولترداد ذكرهم أيضاً في معنى غير الأول.

﴿٢٢٢﴾ - ﴿٢٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل: أَعْلَمَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ سَيَقُولُونَ فِي شَأْنِ تَحَوُّلِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الشَّامِ إِلَى الْكَعْبَةِ: ﴿هَآ وَآلَهُمْ﴾، والسفهاء هم الخفاف الأحلام والعقول، والسُّفَهَاءُ: الخفة والهلهلة، ثوبٌ سفیه أي غير متقن النسيج، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

مَشِينٌ كَمَا أَهْتَرْتُ رِمَاحَ تَسْفَهَتْ
أَعَالِيهَا مَرَّ الرِّيحِ السُّوَايسِمِ
أَيِ اسْتَحْفَظَهَا، وخص بقوله: ﴿هَآ وَآلَهُمْ﴾ لأن السُّفَهَاءَ يكون في جمادات وحيوانات، والمراد بالسفهاء هنا جميع مَنْ قال: ﴿هَآ وَآلَهُمْ﴾، وقالها فِرَقٌ، واختلف في تعيينهم - فقال ابن عباس: قالها الأحزاب منهم، وذلك أنهم جاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد: ما ولاك عن قبلتنا؟ ارجع إلينا ونؤمن بك، يريدون فتنته، وقال السدي: قالها بعض اليهود والمنافقون استهزاء، وذلك أنهم قالوا: اشتاق الرجل إلى وطنه.

وقالت طائفة: قالها كفار قريش، لأنهم قالوا: ما ولاه عن قبلته؟ ما رجع إلينا إلا لعلمه أننا على الحق، وسيرجع إلى ديننا كله، ﴿وَلَا هُمْ﴾ معناه صرفهم، والقبلة: فِغْلَةٌ هيئة المقابل للشيء، فهي كالقعدة والازرة.

وجعل المستقبل موضع الماضي في قوله: ﴿سَيَقُولُ﴾ دلالة على استدامة ذلك، وأنهم يستمرون على ذلك القول، ونص ابن عباس وغيره

والوسط: الخيار والأعلى من الشيء، كما تقول: فلان وسط القوم، وواسطة القلادة أنفـس حجر فيها، والأمير وسط الجيش، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾، والوسط بإسكان السين ظرف مبني على الفتح، وقد جاء مُتَمَكِّناً في بعض الروايات في بيت الفرزدق:

فَجَاءَتْ بِمَجْلُومٍ كَأَنَّ جَبِيْنَهُ
صَلَاةٌ وَزَسِ وَسْطُهَا قَدْ تَفَلَّقَا
برفع الطاء، والضمير عائد على صلاة، وزوي بفتح الطاء، والضمير عائد على الجائية، فإذا قلت: حفرت وسط الدار أو وسط الدار فالمعنى مختلف.

قال بعض العلماء: أمة محمد ﷺ لم تُكَلِّم في الدين كما فعلت اليهود، ولا فَتَرَتْ كالتنصاري، فهي متوسطة، فهي أعلاها وخيرها من هذه الجهة.

وقول النبي ﷺ «خير الأمور أوساطها» أي: خيارها.

وقد يكون العلو والخير في الشيء إما بأنه أنفـس جنسيه، وإما أن يكون بين الإفراط والتقصير، فهو خيار من هذه الجهة، و﴿شُهِدَ﴾: جمع شاهد.

واختلف المفسرون في المراد بالناس في هذا الموضع - فقالت فرقة: هم جميع الجنس. وأمة محمد ﷺ تشهد يوم القيامة للأنبياء على أمهم بالتبليغ، وذلك أن نوحاً تُنَاكَرُهُ أُمُّهُ في التبليغ، فتقول له أمة محمد: نحن نشهد لك، فيشهدون، فيقول الله لهم: كيف شهدتم على ما لم تحضروا؟ فيقولون: أي ربنا،

جاءنا رسولك، ونزل إلينا كتابك، فنحن نشهد بما عهدت إلينا وأعلمتنا به، فيقول الله تعالى: صدقتم.

وروي في هذا المعنى حديث صحيح عن النبي ﷺ، وروي عنه: «أَنَّ أُمَّهُ تَشْهَدُ لِكُلِّ نَبِيٍّ نَاكَرَهُ قَوْمُهُ».

وقال مجاهد: معنى الآية: تشهدون لمحمد أنه قد بلغ الناس في مدته من اليهود والنصارى والمجوس. وقالت طائفة: معنى الآية: يشهد بعضكم

على بعض بعد الموت، كما قال رسول الله ﷺ حين مرت به جنازة فأثني عليها بالخير فقال: وجبت، ثم بأخرى فأثني عليها شراً فقال: وجبت، يعني الجنة والنار، فُسِّلَ عن ذلك فقال: أنتم شهداء الله في الأرض، وروي في بعض الطرق أنه قرأ: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

وكوّن الرسول عليكم شهيداً قيل: معناه: بأعمالكم يوم القيامة، وقيل: أن يشهد عليكم بالتبليغ إليكم، وقيل: عليكم بمعنى: لكم، أي يشهد لكم بالإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ الآية، قال قتادة والسدي، وعطاء، وغيرهم: القبلة

هنا بيت المقدس، والمعنى: لم نجعلها حين أمرناك بها أولاً إلا فتنة، لنعلم من يتبعك من العرب الذين إنما يألفون مسجد مكة، أو من اليهود على ما قال الضحاك من أن الأخبار قالوا للنبي ﷺ: إن بيت المقدس هو قبلة الأنبياء، فإن صليت إليه اتبعناك، فأمره الله بالصلاة إليه امتحاناً لهم فلم يؤمنوا.

وقال بعض من ذكر القبلة بيت المقدس: والمعنى: وما جعلنا صرف القبلة التي كنت عليها وتحولها، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقال ابن عباس: القبلة في الآية الكعبة، و﴿كُنْتَ﴾ بمعنى (أنت) كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، بمعنى أنتم، أي: وما جعلناها وصرفناك إليها إلا فتنة.

وروي في ذلك أن رسول الله ﷺ لما حول إلى الكعبة أكثر في ذلك اليهود والمنافقون، وارتاب بعض المؤمنين حتى نزلت الآية، وقال ابن جريج: بلغني أن ناساً ممن كان أسلم رجعوا عن الإسلام.

ومعنى قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمَ﴾ أي: ليعلم رسولي والمؤمنون به، وجاء الإسناد بنون العظمة إذ هم حزبه وخاصته، وهذا شائع في كلام العرب، كما تقول: فَتَّحَ عمر العراق وَجَبَى خَراجها، وإنما فعل ذلك جنده وأتباعه، فهذا وجه التجوز إذا ورد علم الله تعالى بلفظ استقبال لأنه قديم لم يزل.

وجه آخر وهو أن الله قد علم في الأزل من يتبع الرسول، واستمر العلم حتى وقع حدوثهم، واستمر في حين الأتباع والانقلاب، ويستمر بعد ذلك، والله تعالى متصف في كل ذلك بأنه يعلم. فأراد بقوله: ﴿لِتَعْلَمَ﴾ ذَكَرَ علمه وقت مواعنتهم الطاعة أو المعصية، إذ بذلك الوقت يتعلق الثواب والعقاب، فليس معنى ﴿لِتَعْلَمَ﴾: لنشيب، فالمعنى: لنعلم

في حال استحقوا فيها الثواب، وعلق العلم بأفعالهم لتقوى الحجة ويقع الثبوت فيما علمه، لا مدافعة لهم فيه.

وحكى ابن فورك أيضاً: أن معنى ﴿لِنَعْلَمَ﴾: لنميز، وذكره الطبري عن ابن عباس.

وحكى الطبري أيضاً: أن معنى ﴿لِنَعْلَمَ﴾: لنرى، وهذا كله متقارب، والقاعدة نفى استقبال العلم بعد أن لم يكن.

وقرأ الزهري: ﴿لِنُعْلَمَ﴾ على ما لم يُسم فاعله.

و﴿يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ عبارة عن المرتد الراجع عما كان فيه من إيمان أو شغل أو غير ذلك. والرجوع على العقب أسوأ حالات الراجع في مشيه عن وجهته، فلذلك شبه المرتد في الدين به، وظاهر التشبيه أنه بالمتقهقر، وهي مشية الحيران الفازع من شيء قد قرب منه. ويحتمل أن يكون هذا التشبيه بالذي رد ظهره ومشى أدراجه، فإنه عند انقلابه إنما ينقلب على عقبيه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ الآية، والضمير في ﴿كَانَتْ﴾ راجع إلى القبلة إلى بيت المقدس، أو إلى التحويلة إلى الكعبة حسب ما ذكرناه من الاختلاف في القبلة، وقال ابن زيد: هو راجع إلى الصلاة التي صُلِّيَتْ إلى بيت المقدس. وشهد الله تعالى في هذه الآية للمتبعين بالهداية، و﴿كَبِيرَةً﴾ هنا معناه: شاقة صعبة تكبر في الصدور، و﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة، ولذلك لزمتهما

اللام لتزيل اللبس الذي بينها وبين النافية، وإذا ظهر التثقيل في (إِنْ) فربما لزمّت اللام وربما لم تلزم. وقال الفراء: (إِنْ) بمعنى (ما) واللام بمنزلة إلا.

ولما حُوِّلَت القبلة كان من قول اليهود: يا محمد - إن كانت الأولى حقاً فأنت الآن على باطل، وإن كانت هذه حقاً فكنت في الأولى على ضلال، فوجست نفوس بعض المؤمنين، وأشفقوا على من مات قبل التحويل من صلاتهم السالفة فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ بِمَنْتَكُمْ﴾.

وخاطب الحاضرين والمراد مَنْ حضر وَمَنْ مات، لأن الحاضر يغلب، كما تقول العرب: ألم تقتلكم في موطن كذا؟ ومن خوطب لم يقتل ولكنه غلب لحضوره، وقرأ الضحاك ﴿لِيُضَيِّعَ﴾ بفتح الضاد وشد الياء.

وقال ابن عباس، والبراء بن عازب، وقتادة، والسدي، والربيع، وغيرهم: الإيمان هنا: الصلاة، وسمي الصلاة إيماناً لما كانت صادرة عن الإيمان والتصديق في وقت بيت المقدس وفي وقت التحويل.

ولما كان الإيمان قطباً عليه تدور الأعمال وكان ثابتاً في حال التوجه هنا وهنا ذكّره - إذ هو الأصل الذي به يرجع في الصلاة وغيرها إلى الأمر والنهي.

ولثلا تندرج في اسم الصلاة صلاة المنافقين إلى بيت المقدس، فذكر المعنى الذي هو ملاك الأمر.

وأيضاً فسميت إيماناً إذ هي من شعب الإيمان.

والرافة أعلى منازل الرحمة، وقرأ قوم: ﴿لَرَوْفٌ﴾ على وزن فَعْلٍ، ومنه قول الوليد بن عتبة:

وَسُرُّ الطَّالِبِينَ - وَلَا تَكُنْهُ -

بِقَاتِلِ عَمِّهِ الرُّؤْفُ الرَّجِيمِ
تقول العرب: رَوْفٌ - ورؤوفٌ - ورئفٌ - كحذير - ورأف. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿لَرَوْفٌ﴾ بغير همز، وكذلك سهل كل همزة في كتاب الله تعالى ساكنة كانت أو متحركة.

﴿١٤١﴾ - ﴿١٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المقصود بقلب البصر، وذكر الوجه لأنه أعلم وأشرف، وهو المستعمل في طلب الرغائب، تقول: بذلت وجهي في كذا، وفعلت لوجه فلان، ومنه قول الشاعر:

رَجَعْتُ بِمَا أَبْغَيْ وَوَجْهِي بِمَايِهِ

وأيضاً فالوجه يتقلب بقلب البصر، وقال قتادة والسدي وغيرهما: كان رسول الله ﷺ يقلب وجهه في الدعاء إلى الله تعالى، أي يحوله إلى قبله مكة، وقيل: كان يقلب ليؤذن له في الدعاء.

ومعنى التقلب نحو السماء أن السماء جهة قد تعود العالم منها الرحمة كالمطر والأنوار والوحي، فهم يجعلون رغبتهم حيث توالى النعم. و﴿رَزَقْنَاهَا﴾ معناه: تُحبها وتقرّ بها عينك.

وكان رسول الله ﷺ يحب الكعبة والتحول عن بيت المقدس لوجوه ثلاثة رويت، فقال مجاهد: لقول

اليهود: ما علم محمد دينه حتى أتبعنا، وقال ابن عباس: وليصيب قبله إبراهيم عليه السلام، وقال الربيع، والسدي: وليستألف العرب بمحبته في الكعبة، وقال عبدالله بن عمر: إنما وجه رسول الله ﷺ وأمه حبال ميزاب الكعبة، وقال ابن عباس، وغيره: بل وجه إلى البيت كله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والميزاب: هو قبله المدينة والشام، وهنالك قبله أهل الأندلس بتقريب، ولا خلاف أن الكعبة قبله من كل أفق.

وقوله تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَاهِي﴾ الآية، أمرٌ بالتحول ونسخ لقبله الشام.

وقيل: نزل ذلك على النبي ﷺ وهو في صلاة الظهر بعد ركعتين منها فتحول في الصلاة. وذكر أبو الفرج أن عباد بن نهيك كان مع رسول الله ﷺ في هذه الصلاة. وقيل: إنما نزلت الآية في غير صلاة وكانت أول صلاة إلى الكعبة العصر، و﴿شَطْرَكَ﴾ نصب على الظرف، ويشبه المفعول به لوقوع الفعل عليه، ومعناه: نحو وتلقاء.

قال ابن أحرر:

تَعْدُو بِنَا شَطْرَ جَمْعٍ وَهِيَ عَاقِدَةٌ قَدْ كَارَبَ الْعَقْدُ مِنْ إِفَادِهَا الْحَقْبَا

وقال غيره:

أَقُولُ لَأَمْ زَنْبَاعُ أَقِيمِي
صُدُورَ الْعِيسِ شَطْرَ بَنِي تَمِيمٍ

وقال لقيط:

وَقَدْ أَظْلَكُكُمْ مِنْ شَطْرٍ تُغْرِكُمْ
هَزْلٌ لَهُ ظَلَمٌ تُغْشَاكُمْ قَطْعًا

وقال غيره:

أَلَا مَنْ مُبْلَغَ عَمْرٍأ رَسُولًا
وَمَا تُغْنِي الرِّسَالَةَ شَطْرَ عَمْرٍو
﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا﴾ أمرٌ للأمة

ناسخ. وقال داود بن أبي هند: إن في حرف ابن مسعود ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ تِلْقَاءَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وقال محمد بن طلحة: إن فيه ﴿فَوَلُّوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَهُ﴾، وقرأ ابن أبي عيلة: ﴿فَوَلُّوا وَجُوهَكُمْ تِلْقَاءَهُ﴾. والذين أوتوا الكتاب: اليهود والنصارى، وقال السدي: المراد اليهود، والأول أظهر، والمعنى: إن اليهود والنصارى يعلمون أن الكعبة هي قبله إبراهيم إمام الأمم، وأن استقبالها هو الحق الواجب على الجميع اتباعاً لمحمد ﷺ الذي يجدونه في كتبهم، وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي: ﴿عَمَّا تَمَلُّونَ﴾ بناءً على المخاطبة، فإما على إرادة أهل الكتاب أو أمة محمد ﷺ، وعلى الوجهين فهو إعلام بأن الله تعالى لا يهمل أعمال العباد، ولا يغفل عنها، وضمنه الوعيد، وقرأ الباقر بالباء من تحت.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ آتَيْتَ﴾ الآية، أعلم الله تعالى نبيه حين قالت له اليهود: راجع بيت المقدس ونؤمن بك، مخادعة منهم - أنهم لا يتبعون له قبله، يعني جملتهم لأن البعض قد أتبع كعبدالله بن سلام وغيره، وأنهم لا يدينون بدينه، أي فلا تصغ إليهم، والآية هنا: العلامة. وجاء جواب ﴿لَكِنْ﴾ كجواب (لو) وهي ضدها في أن (لو) تطلب الماضي والوقوع و(إن) تطلب الاستقبال

لأنهما جميعاً يترتب قبلهما معنى القسم، فالجواب إنما هو للقسم لا أن أحد الحرفين يقع موقع الآخر. هذا قول سيويه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَارِكٍ لِنَبِيِّنَّ﴾، لفظ خبر يتضمن الأمر، أي: فلا تركن إلى شيء من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُهُمُ﴾ الآية، قال السدي وابن زيد: المعنى: ليست اليهود متبعة قبله النصارى، ولا النصارى متبعة قبله اليهود، فهذا إعلام باختلافهم وتدابيرهم وضلالهم، وقال غيرهما: معنى الآية: وما من أسلم معك منهم بمتبع قبله من لم يسلم، ولا من لم يسلم بمتبع قبله من أسلم، والأول أظهر في الأبعاض.

وقبله النصارى مشرق الشمس، وقبله اليهود بيت المقدس.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ آتَيْتَ﴾ الآية، خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، وما ورد من هذا النوع الذي يوهم من النبي ﷺ ظُلماً مُتَوَقَّعاً فهو محمول على إرادة أمته، لعصمة النبي ﷺ، وقطعنا أن ذلك لا يكون منه فإنما المراد من يمكن أن يقع ذلك منه، وخوطب النبي ﷺ تعظيماً للأمر.

والأهواء جمع هوى، ولا يجمع على أهوية، على أنهم قد قالوا: ندى وأندية قال الشاعر:

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَّةٍ
لَا يُبْصِرُ الْكَلْبُ مِنْ ظُلْمَانِهَا الطُّبَا
وهوى النفس إنما يستعمل في الأكثر فيما لا خير فيه، وقد يستعمل

الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُرَوِّدُونَ. كَمَا يُرَوِّدُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ لَمَكَدُوا لَهُمْ مَكِيدًا. فَالْحَقُّ مِنَ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُودٌ فَأَسْتَفِيقُوا الْخَيْرَاتِ إِنَّمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٧﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّمِ بَدَعْتُمْ بِالْكُفْرِ تَعْدُوكُمْ ﴿١٤٩﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيَكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُؤْمِنُكُمْ مَالَهُمْ تَكُونُوا تَقُونَ ﴿١٥٠﴾ فَأَذْكُرُوا فِي آذَانِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٢﴾

٢٣

ابتداء والخبر مقدر بعده.
وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿الحق﴾ بالنصب على أن يعمل فيه ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ويصح نصبه على تقدير: الزم الحق.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته، وامترى في الشيء إذا شك فيه، ومنه الجراء لأن هذا يشك في قول هذا، وأنشد الطبري شاهداً على أن الممترين شاكون قول الأعشى:

تَدُرُّ عَلَى أَسْوَاقِ الْمُمْتَرِينَ

ن رخصاً إذا ما السُّرَابُ ازْجَحَنَ
وهم في ذلك لأن أبا عبيدة وغيره قالوا: الممترين في البيت هم الذين يمزون الخيل بأرجلهم همزاً لتجري، كأنهم يحتلبون الجري منها، فليس في البيت معنى من الشك كما قال الطبري.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٍ﴾، الوجهة: فعلية من المواجهة، كالقبلة، وقوله: ﴿مَرُّ﴾ عائد على اللفظ المفرد في ﴿كُلِّ﴾، والمراد به الجماعات، والمعنى: لكل صاحب ملة وجهة هو مولياها نفسه. قاله الربيع، وعطاء، وابن عباس. وقرأ ابن عباس، وابن عامر وحده من السبعة: ﴿مَرُّ مَرِيَّاتٍ﴾، وقالت طائفة: الضمير في ﴿مَرُّ﴾ عائد على الله تعالى والمعنى: الله مولياها إياهم. وقالت فرقة: المعنى في الآية أن

في الخير مُقَيَّدٌ به كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أسرى بدر: «فهو رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر» و﴿إِذَا﴾ حرف معناه: إن تقرر ما ذكر.

﴿١٤٦﴾ - ﴿١٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع بالابتداء، والخبر ﴿يُرَوِّدُونَ﴾، ويصح أن يكون في موضع خفض نعتاً للظالمين، و﴿يُرَوِّدُونَ﴾ في موضع الحال. وخص الأبناء دون الأنفس وهي ألصق لأن الإنسان يمر عليه من زمنه برهة لا يعرف فيها نفسه، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه. والمراد هنا معرفة الوجه وميزه لا معرفة حقيقة النسب، ولعبد الله بن سلام رضي الله عنه في هذا الموضع كلام معترض يأتي موضعه إن شاء الله.

والضمير في ﴿يُرَوِّدُونَ﴾ عائد على الحق في القبلة والتحول بأمر الله إلى الكعبة. قاله ابن عباس، وقتادة، وابن جريج، والربيع. وقال قتادة أيضاً، ومجاهد، وغيرهما: هو عائد على محمد ﷺ، أي يعرفون صدقه ويؤنونه.

والفريق: الجماعة، وخص لأن منهم من أسلم ولم يكتم، والإشارة بالحق إلى ما تقدم من الخلاف في ضمير ﴿يُرَوِّدُونَ﴾، فعم الحق مبالغة في ذمهم. ﴿وَهُمْ يَكُونُونَ﴾ ظاهر في صحة الكفر عناداً.

وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، الحق رفع على إضمار الابتداء، والتقدير هو الحق، ويصح أن يكون

للכל ديناً وشرعاً وهو دين الله وملة محمد، وهو مولياها إياهم، أتبعها من اتبعها، وتركها من تركها. وقال قتادة: المراد بالآية أن الصلاة إلى الشام ثم الصلاة إلى الكعبة، لكل واحدة منهما وجهة، الله مولياها إياهم.

وحكى الطبري أن قوماً قرؤوا: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ﴾ بإضافة «كل» إلى ﴿وُجْهَةٍ﴾ وخطأها الطبري، وهي متجهة. أي: فاستبقوا الخيرات كل وجهة ولا تكموها، ولا تعترضوا فيما أمركم بين هذه وهذه، أي إنما عليكم الطاعة في الجميع، وقدم قوله: كُلُّ وَجْهَةٍ على الأمر في قوله: ﴿فَأَسْتَفِيقُوا﴾ للاهتمام بالوجهة كما يُقدم المفعول، وذكر أبو عمرو الداني هذه القراءة عن ابن عباس رضي الله عنه.

وَسَلِّمْتَ الْوَاوِ فِي ﴿وَجْهَهُ﴾ وَلَمْ تُجَرَّ كِعِدَّةٍ وَزَنْيَةٍ، لَأَنَّ وَجْهَهُ ظَرْفٌ، وَتِلْكَ مَصَادِرُ فَسَلِّمْتَ لِلْفَرْقِ، وَأَيْضاً فَلْيَكْمُلْ بِنَاءُ الْهَيْئَةِ كَالْجَلْسَةِ، وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ شَذَّ عَنِ الْقِيَاسِ فَسَلِّمَ، وَقَوْمٌ إِلَى أَنَّهُ اسْمٌ لَيْسَ بِمَصْدَرٍ، قَالَ غَيْرُ أَبِي عَلِيٍّ: وَإِذَا أُرِدْتَ الْمَصْدَرُ قُلْتَ: جِهَةٌ وَقَدْ تَقَالُ الْجِهَةُ فِي الظَّرْفِ.

وَحَكَى الطَّبْرِيُّ عَنْ مَنْصُورٍ أَنَّهُ قَالَ: نَحْنُ نَقْرُؤُهَا: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا قَبْلَةَ يَرْضُونَهَا﴾، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ بِاسْتِثْبَاقِ الْخَيْرَاتِ وَالْبِدَارِ إِلَى سَبِيلِ النِّجَاةِ، ثُمَّ وَعَظَهُمْ بِذِكْرِ الْحَشْرِ مَوْعِظَةً تَتَضَمَّنُ وَعِيداً وَتَحْذِيرًا. وَقَوْلُهُ: ﴿يَأْتِي بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾، يَعْنِي بِهِ الْبَعْثُ مِنَ الْقُبُورِ. ثُمَّ اتَّصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدَّرٍ عَلَيْهِ لِنَتَّاسِبِ الصِّفَةِ مَعَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْإِتْيَانِ بِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ مَعْنَاهُ: حَيْثُ كُنْتَ وَأَتَى تَوَجُّهَتْ مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، ثُمَّ تَكَرَّرَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَأْكِيداً مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّ مَوْقِعَ التَّحْوِيلِ كَانَ صَعْباً فِي نَفْسِهِمْ جَدّاً فَأكَّدَ الْأَمْرَ لِيَرَى النَّاسُ التَّهَمُّمَ بِهِ فَيَخَفُ عَلَيْهِمْ وَتَسْكُنُ نَفْسُهُمْ إِلَيْهِ.

١٥٠ - ١٥١ تفسير قوله عز وجل: ﴿قُولُوا وَبُورَكُمْ سَطْرُكُمْ﴾، هُوَ فَرَضُ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ عَلَى الْمُصَلِّينَ - وَقَرُضُ الْمُصَلِّي مَا دَامَ يَرَى الْكَعْبَةَ أَنْ يَصَادِفَهَا بِاسْتِقْبَالِهِ، فَإِذَا غَابَتْ عَنْهُ فَفَرَضَهُ الْاجْتِهَادُ فِي مَصَادِفَتِهَا، فَإِنْ اجْتَهَدَ ثُمَّ كَشَفَ الْغَيْبَ أَنَّهُ أَخْطَأَ فَلَا شَيْءَ

عَلَيْهِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَرَأَى مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يَعِيدَ فِي الْوَقْتِ إِحْرَازاً لِفَضِيلَةِ الْقِبْلَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ الْآيَةُ، قَرَأَ نَافِعٌ وَحْدَهُ بِتَسْهِيلِ الْهَمْزَةِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ ﴿إِنَّمَا﴾ بِالْهَمْزِ. وَالْمَعْنَى: عَرَفْتَكُمْ وَجْهَ الصَّوَابِ فِي قِبَلَتِكُمْ وَالْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ لَثَلَا وَقَوْلُهُ: ﴿لِلنَّاسِ﴾ عَمُومٌ فِي الْيَهُودِ وَالْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالنَّاسِ الْيَهُودُ، ثُمَّ اسْتَشْنَى كِفَارَ الْعَرَبِ، وَقَوْلُهُ: ﴿تَنْتَهُمُ﴾ يَرُدُّ هَذَا التَّأْوِيلَ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُتَّصِلٌ، وَهَذَا مَعَ عُمُومِ لَفْظَةِ النَّاسِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِمْ إِلَّا الْحُجَّةُ الدَّاحِضَةُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا يَعْنِي الْيَهُودَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ كُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي النَّازِلَةِ فِي قَوْلِهِمْ: مَا وَلَاؤُنَا اسْتِهْزَاءً، وَفِي قَوْلِهِمْ: تَحْيِيرٌ مُحَمَّدٌ فِي دِينِهِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي لَمْ تَنْبَغِ إِلَّا مِنْ عَابِدٍ وَثَنٍ، أَوْ مِنْ يَهُودِيٍّ، أَوْ مِنْ مُنَافِقٍ. وَسَمَّاها تَعَالَى حُجَّةً وَحَكَمَ بِفَسَادِهَا حِينَ كَانَتْ مِنْ ظُلْمَةٍ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، وَهَذَا مَعَ كَوْنِ النَّاسِ الْيَهُودَ فَقَطْ، فَقَدْ ذَكَرْنَا ضَعْفَ هَذَا الْقَوْلِ، وَالْمَعْنَى: لَكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا يَعْنِي كِفَارَ قُرَيْشٍ فِي قَوْلِهِمْ: رَجِعْ مُحَمَّدٌ إِلَى قِبَلَتِنَا وَسِيرْجِعْ إِلَى دِينِنَا كُلِّهِ - وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ كُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي النَّازِلَةِ مِنْ غَيْرِ الْيَهُودِ.

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَزَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ، وَابْنُ زَيْدٍ: ﴿أَلَا﴾ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَتَخْفِيفِ اللَّامِ عَلَى مَعْنَى اسْتِفْتَاَحِ

الْكَلَامِ، فَيَكُونُ ﴿الَّذِينَ﴾ ابْتِدَاءً، أَوْ عَلَى مَعْنَى الْإِغْرَاءِ بِهِمْ فَيَكُونُ ﴿الَّذِينَ﴾ نَصَباً بِفَعْلٍ مُقَدَّرٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْ﴾ الْآيَةَ، تَحْقِيرٌ لِشَأْنِهِمْ، وَأَمْرٌ بِاطْرَاحِ أَمْرِهِمْ وَمِرَاعَاةِ أَمْرِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَيْمُّ﴾ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا﴾، وَقِيلَ: هُوَ مُقْطُوعٌ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ، وَالْخَبَرُ مُضْمَرٌ بَعْدَ ذَلِكَ، التَّقْدِيرُ: لَا تَيْمُّ نَعْمَتِي عَلَيْكُمْ عَرَفْتَكُمْ قِبَلَتِي وَنَحْوَهُ. ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَهْتَدُونَ﴾ تَرْجُحُ فِي حَقِّ الْبَشَرِ، وَالْكَافُ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَمَا﴾ رَدٌّ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَيْمُّ﴾ أَيَّ إِمْتَاماً كَمَا، وَهَذَا أَحْسَنُ الْأَقْوَالِ، أَيَّ لَا تَيْمُّ عَلَيْكُمْ فِي بَيَانِ سُنَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا يَنْصِتُ﴾ إِجَابَةٌ لِدَعْوَتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبِنَا وَأَبْنَيْتُمْ فِيهِمْ رَسُولًا يَنْصِتُ﴾ الْآيَةَ، وَقِيلَ: الْكَافُ مِنْ ﴿كَمَا﴾ رَدٌّ عَلَى ﴿تَهْتَدُونَ﴾ أَيَّ اهْتِدَاءً كَمَا، وَقِيلَ: هُوَ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ عَلَى الْحَالِ. وَقِيلَ: هُوَ فِي مَعْنَى التَّأْخِيرِ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَذْكُرُوا﴾.

وهذه الآية خطاب لأمة محمد ﷺ، وهو المعنى بقوله: ﴿رَسُولًا يَنْصِتُ﴾، وَ﴿رَسُولًا﴾ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ عَلَى الصِّفَةِ، وَالْآيَاتُ: الْقُرْآنُ، وَ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾: يَطْهَرُكُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَيَنْمِيكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَ﴿الْكِتَابُ﴾ الْقُرْآنُ، وَ﴿الْحِكْمَةُ﴾ مَا يُتْلَقُ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ سُنَّةٍ وَفَقْهِ وَدِينٍ.

وَمَا لَمْ تَكُونُوا تَكُونُونَ قَصَصَ مَنْ سَلَفَ، وَقَصَصَ مَا يَأْتِي مِنَ الْغَيْبِ.

﴿١٥٢﴾ - ﴿١٥٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال سعيد بن جبير: معنى الآية: اذكروني بالطاعة أذكركم بالشواب والمغفرة، أي اذكروني عند كل أموركم فيحملكم خوفي على الطاعة فأذكركم حينئذ بالشواب.

وقال الربيع، والسدي: المعنى: اذكروني بالدعاء والتسبيح ونحوه، وفي الحديث: (إن الله تعالى يقول: ابن آدم: اذكرني في الرخاء أذكرك في الشدة)، وفي حديث آخر: (إن الله تعالى يقول: وإذا ذكرني عبدي في ملاذ ذكرته في ملاذ خير منهم)، وروي: (إن الكافر إذا ذكر الله ذكره الله باللعة والخلود في النار)، وكذلك العصاة يأخذون بحظ من هذا المعنى، وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: (قل للعاصين لا يذكروني).

﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾ واشكروني بمعنى واحد، ولي أشهر وأفصح مع الشكر. ومعناه: نعمي وأيادي، وكذلك إذا قلت: شكرتك فالمعنى: شكرت صنيعك وذكرته، فحذف المضاف إذ معنى الشكر ذكر اليد وذكر مسديها معاً، فما حذف من ذلك فهو اختصار للدلالة ما بقي على ما حذف.

﴿وَتَكْفُرُون﴾ أي نعمي وأيادي، وانحذفت نون الجماعة للجزم وهذه نون المتكلم، وحذفت الياء التي بعدها تخفيفاً لأنها رأس آية، ولو كان نهياً عن الكفر ضد الإيمان لكان (ولا تكفروا) بغير النون.

﴿يَا﴾ حرف نداء، و﴿آي﴾ منادى، و﴿ها﴾ تنبيه، وتجلب (أي)

فيما فيه الألف واللام، لأن في حرف النداء تعريفاً ما فلو لم تجلب (أي) لاجتمع تعريفان، وقال قوم: الصبر: الصوم، ومنه قيل لرمضان: شهر الصبر. وتقدم معنى الاستعانة بالصبر والصلاة، واختصاره أنهما رادعان عن المعاصي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ معناه: بمعاونته وإنجاده، فهو على حذف مضاف، كما قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: «اهجهم وروح القدس معك». وكما

قال: «ارموا وأنا مع بني فلان» الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية. سبها أن الناس قالوا فيمن قتل ببدر وأحد: مات فلان، مات فلان. فكره الله أن تحط منزلة الشهداء إلى منزلة غيرهم فنزلت هذه الآية، وأيضاً فإن المؤمنين صعب عليهم فراق إخوانهم وقراباتهم فنزلت الآية مسلية لهم، تعظم منزلة الشهداء، وتخبر عن حقيقة حالهم، فصاروا مغبوطين لا محزوناً لهم، ويبيّن ذلك من حديث أم حارثة في السير.

والفرق بين الشهيد وغيره إنما هو الرزق، وذلك أن الله تعالى فضلهم بدوام حالهم التي كانت في الدنيا فرزقهم، وروي عن النبي ﷺ في ذلك أن أرواح الشهداء في حواصل

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَعْمِلُوا وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَلَتَبْلُغُنَّكَ مَنَاسِكُ مِنَ الْغَوَابِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴿١٥٤﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٥﴾ إِنَّ الصَّغَا وَالْمَرْءَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَاجَّ آلَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَالْهَدْيِ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّنَا لِكَتَابِ اللَّهِ وَالْكِتَابِ وَلِئِكَ يُلْعَنُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٥٧﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَمَّاؤُا هُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٥٩﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٠﴾ وَاللَّهُ كَرِيمٌ ﴿١٦١﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٢﴾

طير خضر تعلق من ثمر الجنة، وروي أنهم في قتاديل من ذهب، إلى كثير من هذا ولا محالة أنها أحوال لطوائف، أو للجميع في أوقات متغايرة. وجمهور العلماء على أنهم في الجنة، ويؤيده قول النبي ﷺ: «إنه في الفردوس الأعلى»، وقال مجاهد: هم خارج الجنة، ويعلقون من شجرها.

﴿وَأَمُوتَ﴾ رفع بلإضمار الابتداء، والتقدير: هم أموات، ولا يجوز إعمال القول فيه، لأنه ليس بينه وبينه تناسب، كما صح قولك: قلت كلاماً وحجة.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، أي قبل أن نشعركم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَبْلُغُنَّكَ﴾ الآية. أمر تعالى بالاستعانة بالصبر والصلاة وأخبر أنه مع الصابرين، ثم اقتضت الآية بعدها من فضل الشهداء ما

يقوي الصبر عليهم ويخفف المصيبة، ثم جاء بعد ذلك من هذه الأمور التي لا تتلقى إلا بالصبر أشياء تعلم أن الدنيا دار بلاءٍ ومِحْنٍ، أي فلا تنكروا فراق الإخوان والقرابة ثم وعد الصابرين آخرًا.

وقال عطاء، والجمهور، إن الخطاب في هذه الآية لأمة محمد ﷺ، وقيل: الخطاب لقريش وحل ذلك بهم، فهي آية للنبي ﷺ. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أظهر.

﴿وَلَنَبَاذَنَكُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ معناه: لنمتحنكم، وحركت الواو لالتقاء الساكنين، وقيل: الفعل مبني وهو مع النون الثقيلة بمزلة خمسة عشر.

والخوف: يعني من الأعداء في الحروب، والجوع: الجذب والسنة، وأما الحاجة إلى الأكل فإنما اسمها الغرث، وقد استعمل فيه المحدثون الجوع اتساعاً، ونقص الأموال: بالجوائح والمصائب. والأنفس: بالموت والقتل. والثمرات: بالعايات ونزع البركة. فالمراد: بشيء من هذا، وشيء من هذا، فاكثفي بالأول إيجازاً ولذلك وحّد. وقرأ الضحّاك ﴿بِأَشْيَاءَ﴾ على الجمع، والمعنى قريب بعضه من بعض.

وقال بعض العلماء: إنما المراد في هذه الآية مَوْنُ الجهاد وكلفه، فالخوف من العدو، والجوع به وبالأسفار إليه، ونقص الأموال بالنفقات فيه، والأنفس بالقتل، والثمرات بإصابة العدو لها، أو بالغفلة عنها بسبب الجهاد.

ثم وصف تعالى الصابرين الذين

بشرهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ الآية، وجعل هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب، وعُصْرَةَ الْمُتَمَتِّحِينَ، لما جمعت من المعاني المباركة وذلك: توحيد الله، والإقرار له بالعبودية، والبعث من القبور.

وقال سعيد بن جبير: لم يعط هذه الكلمات نبي قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال: يا أسفي على يوسف، وروي أن مصباح رسول الله ﷺ انطفأ ذات ليلة فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، فقيل: أمصية هي يا رسول الله؟ قال: «نعم. كل ما آذى المؤمن فهي مصيبة».

وقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةً﴾ الآية، نعم من الله على الصابرين المسترجعين. وصلوات الله على عبده: عفو ورحمته، وبركته، وتشريفه إياه في الدنيا والآخرة، وكرر الرحمة لما اختلف اللفظ تأكيداً، وهي من أعظم أجزاء الصلاة منه تعالى. وشهد لهم بالاهتداء، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قرأ هذه الآية: «نعم العذلان، ونعم العلواة». أراد بالعذلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الاهتداء.

﴿١٥٨﴾ - ﴿١٦٠﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الصَّافَّاتِ وَالْمُزَوَّدَاتِ﴾: جِيْلَان بمكة.

والصفا: جمع صفاة، وقيل هو: اسم مفرد جمعه صفي وأصفاء، وهي الصخرة العظيمة، قال الراجز:

مَوَاقِعُ الطَّيْرِ عَلَى الصُّفِيِّ
وقيل: من شروط الصفا البياض والصلابة.

والمروة: واحدة المرو، وهي الحجارة الصغار التي فيها لين. ومنه قول الذي أصاب شاته الموت من الصحابة: (فذكرتها بمروّة)، ومنه قول الأمين: أخرجني إلى أخي، فإن قتلني فمروّة كسرت مروّة، وصمصامة قطعت صمصامة، وقد قيل في المرو: إنها الصلاب، قال الشاعر:

وَتَوَلَّى الْأَرْضَ خُفّاً ذَابِلًا
فَلِذَا مَا صَادَفَ الْمَرْوَ رَضَخَ
والصحيح أن المرو الحجارة صليبها ورخوها الذي يتشظى وترق حاشيته وفي هذا يقال المرو أكثر، وقد يقال في الصليب، وتأمل قول أبي ذؤيب:

خَشِي كَانِي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةً
بِصَفَا الْمُشْفَرِّ كُلِّ يَوْمٍ تُفْرَغُ
وجبيل الصفا بمكة صليب، وجبيل المروة إلى اللين ماهق، فبذلك سُمِّيَا.

قال قوم: ذُكِرَ الصفا لأن آدم وقف عليه، ووقفت حواء على المروة فَأَبْنَتْ لذلك. وقال الشعبي: كان على الصفا صنم يدعى إسافاً وعلى المروة صنم يدعى نائلة فاطرد ذلك في التذكير والتأنيث، وقدم المذكر.

﴿وَمِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ معناه: من معالمه ومواضع عبادته، وهي جمع شعيرة أو شعارة. وقال مجاهد: ذلك راجع إلى القول، أي مما أشعركم الله بفضله، مأخوذ من شعرت إذا تحسست، وشعرت مأخوذ من الشعار وهو ما يلي الجسد من الثياب، والشعار مأخوذ من الشعر.

ومن هذه اللفظة هو الشاعر.

و﴿حَجَّ﴾ معناه: قصد وتكرر، ومنه قول الشاعر:

وَأَشْهَدُ مِنْ عَوْفٍ حُلُولًا كَثِيرَةً
يَحْجُونَ بَيْتَ الزُّبُرْقَانِ الْمُرْغَمَا
ومنه قول الآخر:

يَحْجُ مَأْمُومَةً فِي قَعْرَمَا لِحَفٍّ

و﴿اَعْتَمَرَ﴾ زار وتكرر، مأخوذ من عمرت الموضع.

والجناح: الإثم والميل عن الحق والطاعة. ومن اللفظة الجناح لأنه في شق، ومنه قيل للخباء: جناح لتمايله وكونه كذي أجنحة، ومنه: ﴿وَلَنْ جَنَّتَا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَّا لَهَا﴾.

و﴿يَطُوفُ﴾ أصله يَطُوفُ، سَكُنَتْ التَّاءُ وأدغمت في الطاء، وقرأ أبو السمال: ﴿أَنْ يَطُوفَ﴾، وأصله يطوف، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً فجاء يَطُوفُ، أدغمت التَّاءُ بعد الإسكان في الطاء على مذهب من أجاز إدغام الثاني في الأول كما جاء في (مُذَكَّر)، ومن لم يُجز ذلك قال: قلبت التَّاءُ طاءً، ثم أدغمت الطاء في الطاء، وفي هذا نظر، لأن الأصلي أدغم في الزائد، وذلك ضعيف.

وروي عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وشهر بن حوشب أنهم قرؤوا: ﴿أَلَا يَطُوفُ﴾ وكذلك في مصحف عبدالله بن مسعود، وأبي بن كعب ﴿أَلَا يَطُوفُ﴾، وقيل: ﴿أَلَا يَطُوفُ﴾ بضم الطاء وسكون الواو.

وقوله: ﴿إِنَّ أَلَمَنَا وَالْمَرَّةَ مِنْ سَعِيرٍ﴾ خبر يقتضي الأمر بما عهد من الطواف بهما، وقوله: ﴿فَلَا جَنَاحَ﴾، ليس المقصد منه إباحة

الطواف لمن شاء لأن ذلك بعد الأمر لا يستقيم، وإنما المقصد منه رفع ما وقع في نفوس قوم من العرب من أن الطواف بينهما فيه حرج، وإعلامهم أن ما وقع في نفوسهم غير صواب.

واختلف في كيفية ذلك. فروي أن الجن كانت تعزف وتطوف بينهما في الجاهلية، فكانت طائفة من تهامة لا تطوف بينهما في الجاهلية لذلك، فلما جاء الإسلام تخرجوا من الطواف، وروي عن عائشة رضي الله عنها: (أن ذلك في الأنصار، وذلك أنهم كانوا يهللون لمناة التي كانت بالمشلل حذو قُدَيْدٍ ويعظمونها فكانوا لا يطوفون بين إساف ونائلة إجلالاً لتلك، فلما جاء الإسلام تخرجوا فنزلت هذه الآية). وروي عن الشعبي أن العرب التي كانت تطوف هنالك كانت تعتقد ذلك السعي إجلالاً لإساف ونائلة، وكان الساعي يتمسح بإساف، فإذا بلغ المروة تمسح بنائلة، وكذلك حتى تتم أشواطه فلما جاء الإسلام كرهوا السعي هنالك إذ كان بسبب الصنمين.

واختلف العلماء في السعي بين الصفا والمروة.

فمذهب مالك والشافعي أن ذلك فرض ركن من أركان الحج لا يجزي تاركه أو ناسيه إلا العودة، ومذهب الشوري وأصحاب الرأي أن الدم يجزي تاركه، وإن عاد فحسن، فهو عندهم نَذْبٌ.

وروي عن أبي حنيفة: إن ترك أكثر من ثلاثة أشواط فعليه دم، وإن ترك ثلاثة فأقل فعليه لكل شوطٍ إطعام

مسكين. وقال عطاء: ليس على تاركه شيء لا دم ولا غيره، واحتج عطاء بما في مصحف ابن مسعود: ﴿أَلَا يَطُوفُ بِهِمَا﴾، وهي قراءة خالفت مصاحف الإسلام، وقد أنكرتها عائشة رضي الله عنها في قولها لعروة حين قال لها: أرأيت قول الله: ﴿فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾، فما نرى على أحد شيئاً ألا يطوف بهما. قالت: «يا عُرْيَةُ كَلَا، لو كان ذلك لقال: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأيضاً فإن ما في مصحف ابن مسعود يرجع إلى معنى ﴿أَنْ يَطُوفَ﴾ وتكون (لا) زائدة صلة في الكلام كقوله: ﴿مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسَبَّحَ﴾، وكقول الشاعر:

مَا كَانَ يَرْضَى رَسُولُ اللَّهِ فِعْلَهُمْ
وَالطَّيِّبَانِ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ
أي: وعمر.

وكقول الآخر:

وَمَا أَلَوْمُ اللَّيْضُ أَلَا تَسْخَرَا
ومذهب مالك وأصحابه في العمرة أنها سنة، إلا ابن حبيب فإنه قال بجوبها.

وقرأ قوم من السبعة وغيرهم: ﴿وَمَنْ يَطُوعَ﴾ بالياء من تحت على الاستقبال والشرط، والجواب في قوله: ﴿فَإِنْ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمر، وعاصم: ﴿تَطَوَّعَ﴾ على بابهِ في الماضي ﴿فَمَنْ﴾ على هذه القراءة بمعنى الذي، ودخلت الفاء في قوله: ﴿فَإِنْ﴾ للإيهام الذي في ﴿وَمَنْ﴾. حكاه مكي، وقال أبو

وقد تقدم معنى اللعنة، واختلف في اللاعنين - فقال قتادة، والربيع: الملائكة والمؤمنون، وهذا ظاهر واضح جار على مقتضى الكلام. وقال مجاهد، وعكرمة: هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجذب بذنوب علماء السوء الكاتمين

فيلعنونهم، وذكروا بالواو والنون كَمَنْ يَعْقِل، لأنهم أسند إليهم فعل مَنْ يَعْقِل، كما قال: ﴿رَأَيْتُمْ لِي اللَّاعِنُونَ كُلَّ الْمَخْلُوقَاتِ مَا عَدَا الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْإِنْسَ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا ضُرِبَ فِي قَبْرِه فَصَاحَ سَمِعَهُ الْكَلُّ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ فَلَعْنَهُ كُلَّ سَامِعٍ». وقال ابن مسعود: المراد بهم ما قال النبي ﷺ: «إِنَّ كُلَّ مُلَاعِنٍ إِنْ اسْتَحَقَّ اللَّعْنَةَ وَإِلَّا انْصَرَفَتْ عَلَى الْيَهُودِ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ لَا يَقْتَضِيهَا اللَّفْظُ، وَلَا تَثْبِتُ إِلَّا بِسَنَدٍ يَقْطَعُ الْعُذْرَ.

ثم استثنى الله تعالى التائبين، وقد تقدم معنى التوبة.

﴿وَأَسْلَمُوا﴾ في أعمالهم وأقوالهم ﴿وَيَسْلَمُوا﴾، قال مَنْ فسر الآية على العموم: معناه بينوا توبتهم بميزر العمل والبروع فيه، ومن فسرها على أنها في كاتمي أمر محمد قال: المعنى بينوا أمر محمد ﷺ فتجيء الآية فيمن أسلم من اليهود والنصارى، وقد تقدم معنى توبة الله على عبده، وأنها رجوعه به عن المعصية إلى الطاعة.

﴿١٦١﴾ - ﴿١٦٢﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، محكمة في الذين وافوا على

ورهبان النصارى الذين كتبوا أمر محمد ﷺ، قال الطبري: وقد روي أن معينين منهم سألهم قوم من أصحاب النبي ﷺ عما في كتبهم من أمره، فكتبوا، فنزلت.

وتتناول الآية بعد كل من كتب علماً من دين الله يحتاج إلى بشه، وذلك مفسر في قول النبي ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكُتِمَ أَجْمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُلْجَمُ مِنْ نَارِهِ. وَهَذَا إِذَا كَانَ لَا يَخَافُ وَلَا ضَرَرَ عَلَيْهِ فِي بَشِهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الَّتِي أَرَادَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ:

(لَوْلَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُكُمْ حَدِيثًا)، وقد ترك أبو هريرة ذلك حين خاف فقال: (خَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَائِينَ، أَمَا أَحَدُهُمَا فَبَشْتُهُ، وَأَمَا الْآخَرُ فَلَوْ بَشْتُهُ قَطَعَ هَذَا الْبَلْعُومُ)، وهذه الآية هي التي أراد عثمان رضي الله عنه في قوله: (لَا حَدَّثْتُكُمْ حَدِيثًا لَوْلَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُكُمْوه). وَمَنْ رَوَى فِي كَلَامِ عُثْمَانَ: (لَوْلَا أَنَّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ). فالمعنى غير هذا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أمر محمد ﷺ. ثم يعم بعد كل ما يُكْتَمُ مِنْ خَيْرٍ. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿وَمَنْ بَدَّ مَا بَيَّنَّهُ﴾ على الأفراد.

﴿وَفِي الْكِتَابِ﴾ يراد به السورة والإنجيل بحكم سبب الآية، وأنها في أمر محمد ﷺ، ثم يدخل القرآن مع تعميم الآية.

إِنِّي فَخَرْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَيَّنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦١﴾ وَرَبِّ السَّامِ مِنَ يَنْبُغِدِ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَضَبِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٢﴾ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَوَّاهُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَتَرْكَبُنَا طَبَقًا يَكُونُ كَالْأَرْضِ حَلَالًا لَنَا وَلَدَلَّعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٤﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٥﴾

٢٥

علي: يحتمل ﴿تَطَوُّعٌ﴾ أن يكون في موضع جزم و﴿وَمَنْ﴾ شرطية، ويحتمل أن تكون ﴿وَمَنْ﴾ بمعنى الذي والفعل صلة لا موضع له من الإعراب والفاء مؤذنة أن الثاني وجب لوجوب الأول.

وَمَنْ قَالَ بوجوب السعي قال: معنى ﴿تَطَوُّعٌ﴾ أي زاد برأ بعد الواجب فجعله عاماً في الأعمال، وقال بعضهم: معناه: من تطوع بحج أو عمرة بعد حجة الفريضة.

وَمَنْ لَمْ يوجب السعي قال: المعنى تطوع بالسعي بينهما. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿فَمَنْ تَطَوُّعٌ بِخَيْرٍ﴾.

ومعنى ﴿شَاكِرٌ﴾: أي يبذل الثواب والجزاء، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات والأعمال، لا يضيع معه عامل بر ولا غيره - عَمَلٌ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ الآية، المراد بالذين أحبار اليهود

كفرهم، واختلف في معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ أَجْمَعِينَ﴾ وهم لا يلعنون أنفسهم - فقال قتادة، والربيع: المراد بالناس المؤمنون خاصة. وقال أبو العالية: معنى ذلك في الآخرة، وذلك أن الكفرة يلعنون أنفسهم يوم القيامة. وقالت فرقة: معنى ذلك أن الكفرة يقولون في الدنيا: لعن الله الكافرين، فيلعنون أنفسهم من حيث لا يشعرون.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿وَالْمَلَكُ وَالَّذِينَ أَجْمَعِينَ﴾ بالرفع على تقدير: يلعنهم الله.

واللعنة في هذه الآية تقتضي العذاب فلذلك قال: ﴿خَلِدِينَ فِيهَا﴾، والضمير عائد على اللعنة، وقيل: على النار، وإن كان لم يجر لها ذكر لثبوتها في المعنى، ثم أعلم تعالى برفع وجوه الفرق عنهم لأن العذاب إذا لم يخفف ولم يؤخر فهو النهاية.

﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه يؤخرون عن العذاب، ويحتمل أن يكون من النظر نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والأول أظهر لأن النظر بالعين إنما يُعدى بالي إلا شاذاً في الشعر.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ﴾ الآية إعلام بالوحدانية، وواحد في صفة الله تعالى معناه نفى المثل والنظير والتد. وقال (أبو المعالي): هو نفى التبعية والانقسام. وقال عطاء: لما نزلت هذه الآية بالمدينة قال كفار قريش بمكة: ما الدليل على هذا؟ وما آيته وعلامته؟ وقال سعيد بن المسيب: قالوا: إن كان هذا يا

محمد، فأثبتنا بآية من عنده تكون علامة الصدق، حتى قالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، فقيل لهم: ذلك لكم، ولكن إن كفرتم بعد ذلك عذبتم، فأشفق رسول الله ﷺ وقال: «دعني أدعهم يوماً بيوم» فنزل عند ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية.

ومعنى ﴿فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ﴾: في اختراعها وإنشائها، وقيل: المعنى إن في خلقه أي هيئة السموات والأرض. ﴿وَأَخْلَقَ أَيْلَ وَالنَّهَارِ﴾ معناه أن هذا يخلّف هذا، وهذا يخلّف هذا فهما خلفه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾.

وكما قال زهير: بها العين والآرام يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم وقال الآخر:

وَلَهَا بِالْمَاطِرُونَ إِذَا أَكَلَ التُّمْلُ الَّذِي جَمَعَا خِلْفَةً حَتَّى إِذَا ازْتَبَعَتْ سَكَنَتْ مِنْ جِلْتِي بِعَا ويحتمل أيضاً الاختلاف في هذه الآية أن يراد به اختلاف الأوصاف. والليل جمع ليلة، وتجمع ليالي، وزيدت فيها الياء كما زيدت في كراهية ورفاهية.

والنهار يجمع على نُهْرٍ وأَنْهَرَةٍ، وهو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، يقضي بذلك قول النبي ﷺ لعدي بن حاتم: «إنما هو بياض النهار وسواد الليل»، وهذا هو مقتضى الفقه في الإيمان ونحوها، فأما على ظاهر اللغة وأخذه من

السَّعَةِ فهو من وقت الإسفار إذا اتسع وقت النهار كما قال:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَهَا يَرِي قَائِمٌ مِنْ ذُونِهَا مَا وَرَاءَهَا وقال الرَّجَّاج في كتاب الأنواء: أول النهار ذرور الشمس، قال: وزعم النضر بن شميل أن أول النهار ابتداء طلوع الشمس، ولا يعد ما قبل ذلك النهار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقول النبي ﷺ هو الحكم.

﴿وَالْفُلُكُ﴾ السفن، وإفراده وجمعه بلفظ واحد، وليست الحركات تلك بأعيانها، بل كأنه بنى الجمع بناء آخر، يدل على ذلك توسط التثنية في قولهم: فُلُكَان، والفُلُك المفرد مذكّر، قال الله تعالى: ﴿فِي الْفُلُكِ الشَّحُونِ﴾.

﴿وَمَا يَفْعُ الْنَّاسُ﴾ هي التجارات وسائر المآرب التي يُركب لها البحر من غزو وحج. والنعمة بالفلك هي إذا انتفع بها، فلذلك خص ذكر الانتفاع، إذ قد تجري بما يضر.

﴿وَمَا أَرْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ يعني به الأمطار التي بها إنعاش العالم، وإخراج النبات والأرزاق. ﴿وَبَشَّ﴾ معناه: فَرَّقَ وَنَسَطَ، ﴿وَدَاكَّرَهُ﴾ تجمع الحيوان كله، وقد أخرج بعض الناس الطير من الدواب، وقال الأعشى:

.....
دَبِيبٌ قَطَا الْبَطْحَاءِ فِي كُلِّ مَنَهْلٍ
وقال علقمة بن عبدة:

.....
صَوَّاعِقُهَا لَطِيفٌ مِنْ دَبِيبٍ
﴿وَتَقَرَّبَ الرِّيحُ﴾ إرسالها عقيماً،

وملقحة، وصرأً، ونضرأً، وهلاكاً، ومنه إرسالها جنوباً وشمالاً، وغير ذلك، والرياح: جمع ربح، وجاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب، إلا في يونس في قوله: ﴿وَجَزَيْنَ يَوْمَ رِيحٍ مُّطَبَّرَةٍ﴾ وهذا أغلب وقوعها في الكلام.

وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا هبت الريح يقول: «اللَّهُمَّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن ريح العذاب شديدة ملتزمة الأجزاء، كأنها جسم واحد، وريح الرحمة لينة متقطعة، فلذلك هي رياح، وهو معنى نشر. وأفردت مع الفلك، لأن ريح إجراء السفن إنما هي واحدة متصلة، ثم وصفت بالطيب، فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب، وهي لفظة من ذوات السواو، يقال: ريح وأرواح، ولا يقال: أرياح، وإنما قيل: رياح من جهة الكسرة وطلب تناسب الياء معها.

وقد لحن في هذه اللفظة عمارة بن عقيل بن بلال، فاستعمل الأرياح في شعره، ولحن في ذلك، وقال له أبو حاتم: إن الأرياح لا تجوز، فقال: أما تسمع قولهم: رياح؟ فقال أبو حاتم: هذا خلاف ذلك، فقال: صدقت ورجع.

وأما القراء السبعة فاختلفوا - فقرأ نافع: الرياح في اثني عشر موضعاً: هنا، وفي الأعراف: ﴿يُرْسِلُ الرِّيَّحَ﴾، وفي إبراهيم: ﴿أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَّحُ﴾، وفي الحجر: ﴿الرِّيَّحُ لَوَّحٌ﴾، وفي الكهف: ﴿تَذَرُهُ

الرِّيَّحُ﴾، وفي الفرقان: ﴿أَرْسَلَ الرِّيَّحَ﴾، وفي النمل: ﴿وَمِنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ﴾، وفي الروم موضعين، وفي فاطر، وفي الجاثية، وفي عسق: ﴿يُسْكِنُ الرِّيَّحَ﴾، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر موضعين من هذه بالإفراد: في إبراهيم، وفي عسق، وقرؤوا سائرهما كقراءة نافع، وقرأ ابن كثير بالجمع في خمسة مواضع: هنا، وفي الحجر، وفي الكهف، وفي الروم الحرف الأول، وفي الجاثية: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّحِ﴾، وباقى ما في القرآن بالإفراد.

وقرأ حمزة بالجمع في موضعين، في الفرقان، وفي الروم الحرف الأول، وأفرد سائر ما في القرآن، وقرأ الكسائي حمزة، وزاد عليه في الحجر، ﴿الرِّيَّحُ لَوَّحٌ﴾.

ولم يختلفوا في توحيد ما ليس فيه ألف ولام.

﴿وَالسَّحَابِ﴾: جمع سحابة، سمي بذلك لأنه ينسحب، كما قالوا: حَبَا لأنه يحبو، قاله أبو علي الفارسي. وتسخيره: بعثه من مكان إلى آخر.

فهذه آيات أن الصانع موجود، والدليل العقلي يقوم أن الصانع للعالم لا يمكن أن يكون إلا واحداً، لجواز اختلاف الاثنين فصاعداً.

﴿١٦٦﴾ - ﴿١٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذكر الله تعالى الوحدانية، ثم الآيات الدالة على الصانع، الذي لا يمكن أن يكون إلا واحداً، ثم ذكر في هذه الآية الجاحدين الضالين تعجباً من سوء ضلالهم مع الآيات - لأن المعنى: إن في هذه الأمور

آيات بينة، ومن الناس - مع ذلك البيان - من يتخذ.

وخرج ﴿يَخْذُ﴾ مؤخداً على لفظ ﴿مَنْ﴾ والمعنى جمعه. و﴿مِنْ دُونَ﴾ لفظ يعطي غيبة ما تضاف إليه (دون) عن القضية التي فيها الكلام وتفسير (دون) بسوى، أو بغير، لا بطرد.

والند: النظر والمقاوم والموازي، كان ضدّاً، أو خلافاً، أو مثلاً، إذا قاوم من جهة فهو منها ند.

وقال مجاهد، وقتادة: المراد بالأنداد الأوثان. وجاء ضميرها في ﴿يُؤَيِّدُ﴾ ضمير مَنْ يعقل، لَمَّا نُزِلَتْ بالعبادة منزلة مَنْ يعقل، وقال ابن عباس، والسدي: المراد بالأنداد الرؤساء المتبعون، يطيعونهم في معاصي الله تعالى. و﴿يُؤَيِّدُ﴾ في موضع نصب نعت للأنداد، أو على الحال من المضمر في ﴿يَخْذُ﴾، أو يكون في موضع رفع نعت لـ ﴿مَنْ﴾، وهذا على أن تكون ﴿مَنْ﴾ نكرة.

والكاف من ﴿كُتِبَ﴾ في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، وحب: مصدر مضاف إلى المفعول في اللفظ، وهو على التقدير مضاف إلى الفاعل المضمر، تقديره: كحجهم. أي يُسَوُّون بين محبة الله ومحبة الأوثان.

ثم أخبر أن المؤمنين أشد حبا لله لإخلاصهم وتيقنهم الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، قرأ نافع، وابن عامر بالتاء من فوق، و﴿أَنَّ﴾ بفتح الألف، و﴿أَنَّ﴾ الأخرى كذلك عطف على الأولى، وتقدير ذلك: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم

للعذاب، وفزعهم منه، واستعظامهم له، لأقروا أن القوة لله، فالجواب مضمرة على هذا النحو من المعنى، وهو العامل في ﴿أَنْ﴾.

وتقدير آخر: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب، وفزعهم منه، لعلمت أن القوة لله جميعاً، وقد كان النبي ﷺ علم ذلك، ولكن خطب، والمراد أمته، فإن فيهم من يحتاج إلى تقوية علمه بمشاهدة مثل هذا.

وتقدير ثالث: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب - لأن القوة لله - لعلمت مبلغهم من النكال، ولاستعظمت ما حل بهم، فاللام مضمرة قبل (أَنْ) فهي مفعول من أجله، والجواب محذوف مقدر بعد ذلك، وفي حذف جواب (لو) مبالغة، لأنك تدع السامع يسمو به تخيله، ولو شرحت له، لوطنت نفسه إلى ما شرحت.

وقرأ الحسن، وقاتدة، وشيبة، وأبو جعفر: ﴿تَرَى﴾ بالثاء من فوق، وكسر الهمزة من ﴿إِنْ﴾، وتأويل ذلك: ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب، لاستعظمت ما حل بهم، ثم ابتدأ الخبر بقوله: إن القوة لله.

وتأويل آخر: ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب يقولون: إن القوة لله جميعاً لاستعظمت حالهم.

وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم، وابن كثير ﴿يَرَى﴾ بالياء من أسفل وفتح الألف من ﴿أَنْ﴾. تأويله: ولو يرى في الدنيا الذين ظلموا حالهم في الآخرة، إذ يرون العذاب، لعلموا أن القوة لله.

وتأويل آخر، روي عن المبرد والأخفش: ولو يرى (بمعنى يعلم) الذين ظلموا إذ يرون العذاب، أن القوة لله جميعاً، لاستعظمو ما حل بهم، ف﴿يَرَى﴾ عامل في ﴿أَنْ﴾ وسدت مسد المفعولين.

وقال أبو علي: الرؤية في هذه الآية رؤية البصر، والتقدير في قراءة الباء وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وحذف جواب (لو) للمبالغة، ويعمل في ﴿أَنْ﴾ الفعل الظاهر، وهو أرجح من أن يكون العامل فيها مقدراً.

ودخلت ﴿إِذْ﴾ وهي لَمَّا مضى في أثناء هذه المستقبلات تقريباً للأمر، وتصحيحاً لوقوعه، كما يقع الماضي موقع المستقبل في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَفَرَةِ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا عَمَلُهُمْ سُوءٌ وَاعْتَدُوا عَذَابَ اللَّهِ الْعَظِيمَ﴾ ومنه قول الأشعر النخعي:

بَقِيتُ نَفْسِي وَانْحَرَفْتُ عَنِ الْعَلَا
وَلَقِيتُ أَضْيَافِي بِوَجْهِ عَبُوسٍ
وَقَرَأْتُ طَائِفَةً ﴿يَرَى﴾ بالياء من أسفل، وكسر الألف من ﴿إِنْ﴾، وذلك إما على حذف الجواب وابتداء الخبر، وإما على تقدير: لقالوا: إن القوة لله جميعاً.

وقرأ ابن عامر وحده: ﴿يُروْنَ﴾ بضم الياء، والباقون بفتحها. وثبت بنص هذه الآية القوة لله، بخلاف قول المعتزلة، في نفيعهم معاني الصفات القديمة.

وقالت طائفة: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ كُلُّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وقال قتادة: هم الشياطين المضلون، وقال

الربيع، وعطاء: هم رؤساؤهم. ولفظ الآية يعم هذا كله.

و﴿إِذْ﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿شَكَّيْذُ الْعَذَابِ﴾، ويحتمل أن يكون العامل فيها اذكر.

و﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ - بفتح الباء - هم العبداء لغير الله، والضالون المقلدون لرؤسائهم أو للشياطين. وتبريهم هو بأن قالوا: إنا لم نُضِلْ هؤلاء، بل كفروا بإرادتهم، وتعلق العقاب على المتبعين بكفرهم ولم يتأت ما حاولوه من تعلق ذنوبهم على المضلين. وقرأ مجاهد بتقديم الفعل المسند إلى المتبعين للرؤساء، وتأخير المسند إلى المتبعين.

والسبب في اللغة: الحبل الرابط الموصل، فيقال في كل ما يَتَمَسَّكُ به فيصل بين شيئين. وقال ابن عباس: الأسباب هنا الأرحام. وقال مجاهد: هي العهود، وقيل: المؤذات، وقيل: المنازل التي كانت لهم في الدنيا. وقال ابن زيد، والسدي: هي الأعمال إذ أعمال المؤمنين كالسبب في تنعيمهم، فتقطعت بالظالمين أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ الآية، وقال الأتباع الذين تُبْرَى منهم: لو رُدَدنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحاً ونبتراً منهم، والكثرة العودة إلى حال قد كانت. ومنه قول جرير:

وَلَقَدْ عَظَفْنَ عَلَى قَرَارَةِ عَظْفَةٍ
كَرَّ الْمَنِيحِ، وَجَلَزْنَ ثُمَّ مَجَالَا
وَالْمَنِيحُ هنا أحد الأغفال من سهام الميسر، وذلك أنه إذا خرج من

وطرائقه، قال ابن عباس: خطواته: أعماله، قال غيره: آثاره قال مجاهد: خطاياه، قال أبو مجلز: هي النذور في المعاصي، قال الحسن: نزلت فيما سئوه من البحيرة والسائبة ونحوه، قال النقاش: نزلت في ثقيف وخزاعة وبني الحارث بن كعب.

وقرأ ابن عامر، والكسائي: ﴿خُطُوتٍ﴾ بضم الخاء والطاء، ورويت عن عاصم، وابن كثير بخلاف، وقرأ الباقون بسكون الطاء، فإِذَا أرادوا ضم الطاء وخففوها إذ هو الباب في جمع فُعْلَةٌ كُفْرَةٌ وَغُرَفَاتٌ، وإِذَا أنهم تركوها في الجمع على سكونها في المفرد. وقرأ أبو السمال: ﴿خُطُوتٍ﴾ بفتح الخاء والطاء. وروي عن علي بن أبي طالب، وقتادة، والأعمش، وسلام: ﴿خُطُوتٍ﴾ بضم الخاء والطاء وهمزة على الواو، وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطأ من الخطأ لا من الخطو.

وكل ما عدا السنن والشرائع من البدع والمعاصي فهي خطوات الشيطان.

و﴿عُدَّتْ﴾ يقع للمفرد والتثنية والجمع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْتِرُكُمْ﴾ الآية، ﴿إِنَّمَا﴾ تصلح للحصر، وقد تجيء غير حاصرة بل للمبالغة، كقولك: إِنَّمَا الشجاع عنتره. كأنك تحاول الحصر أو توهمه، فإنما يعرف معنى ﴿إِنَّمَا﴾ بقرينة الكلام الذي هي فيه، فهي في هذه الآية حاصرة. وأمر الشيطان إما بقوله في زمن الكهنة

في هذا القول أحاديث. وأضيفت هذه الأعمال إليهم من حيث هم مأمورون بها، وأما إضافة الفاسدة فمن حيث عملوها.

و﴿حَسْرَتٍ﴾ حال على أن تكون الرؤية البصرية، ومفعول على أن تكون قلبية، والحسرة أعلى درجات الندامة والهم بما فات، وهي مشتقة من الشيء الحسير الذي قد انقطع وذهبت قوته كالبعير والبصر، وقيل: من حَسَرَ إذا كَشَفَ، ومنه قول النبي ﷺ: «يحسر الفرات من جبل من ذهب».

عن جبل من ذهب، ﴿حَسْرَتٍ﴾ - ﴿حَسْرَتٍ﴾ تفسير قوله عز وجل: الخطاب عام، و﴿مَا﴾ بمعنى الذي، و﴿حَسْرَتٍ﴾ حال من الضمير العائد على (ما). وقال مكِّي: نعت لمفعول محذوف تقديره: شيئاً حلالاً، وهذا يبعد، وكذلك مقصد الكلام لا يعطي أن يكون ﴿حَسْرَتٍ﴾ مفعولاً به ﴿كُلُوا﴾، تأمل.

و﴿طَبِيبًا﴾ نعت، ويصح أن يكون ﴿طَبِيبًا﴾ حالاً من الضمير في ﴿كُلُوا﴾ تقديره: مستطيين. والطيب عند مالك: الحلال فهو هنا تأكيد لاختلاف اللفظ، وهو عند الشافعي المستلذ، ولذلك يمنع أكل الحيوان القذر وكل ما هو خبيث.

و﴿خُطُوتٍ﴾ جمع خطوة، وهي ما بين القدمين في المشي، فالمعنى: النهي عن اتباع الشيطان وسلوك سبيله

وَلَا إِذِ قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا أَفْنَيْنَا عَلَيْهِ
ءَاتَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَآيَقُولُونَ شَيْئًا وَلَا
يَهْتَدُونَ ﴿١٦٨﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعِقُ
بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَبِدَاءَ صُمٍ بِكُمْ عُمَىٰ فَهَهُ لَا يَسْمَعُونَ
﴿١٦٩﴾ بَنَاتُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٠﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمْ الْفِسَّةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِكَ بِهِ
لِيَعْلَمَ اللَّهُ فَمَنْ أَضْطَرَّ عَلَيْهِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَكُونُ
فِي بَطْنِهِمْ إِلَّا النَّارُ وَلَا يَكْلُمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا
أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَرَّلَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٤﴾

٢٦

الربابة رد لفوره لأنه لا فرض فيه، ولا حكم عنه.

والكاف من قوله: ﴿كَمَا﴾ في موضع نصب على النعت، إما لمصدر أو لحال تقديرها: متبرئين كما، والكاف من قوله: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُ﴾، قيل: هي في موضع رفع على خبر ابتداء تقديره: الأمر كذلك، وقيل: هي كاف تشبيه مجردة، والإشارة إلى حالهم وقت تمنيعهم الكرة.

والرؤية في الآية هي من رؤية البصر، ويحتمل أن تكون من رؤية القلب.

و﴿أَعْمَلَكُمْ﴾ قال الربيع، وابن زيد: المعنى: الفاسدة التي ارتكبوها فوجبت لهم بها النار، وقال ابن مسعود، والسدي: المعنى: الصالحة التي تركوها ففاتتهم الجنة، ورويت

وحيث يُتَصَوَّرُ وإما بوسوسته، فإذا أُطِيعَ نفذ أمره.

والسوء: مصدر من ساء يسوء، وهي المعاصي وما تسوء عاقبته، ﴿وَالْفَسْكَ﴾ قال السدي: هي الزنا، وقيل: كل ما بلغ حداً من الحدود، لأنه يتفاحش حينئذ، وقيل: هي ما تفاحش ذكره، وأصل الفحش قبح المنظر كما قال امرؤ القيس:

وَجِدَّ كَجِدِّ الرَّثْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ
إِذَا هِيَ نَضَّتْهُ وَلَا يَسْتَطِلُّ
ثم استعملت اللفظة فيما يستقبح من المعاني. والشرع هو الذي يُخَسَّنُ وَيُقَبِّحُ، فكل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء.

﴿وَمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال الطبري: يريد به ما حرّموا من البحيرة والسائبة ونحوها وجعلوه شرعاً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا يَدُّ لَهُمْ﴾، يعني كفار العرب، وقال ابن عباس: نزلت في اليهود، وقال الطبري: الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ عائذ على ﴿الْأَنْسِ﴾ من قوله: ﴿يَتَأَيَّأُ الْإِنْسُ كُلُّهُ﴾، وقيل: هو عائذ على ﴿وَيَتَّوَكَّلُ﴾ في قوله: ﴿وَيَتَّوَكَّلُ الْإِنْسُ مَنْ يَتَّخِذْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾.

﴿وَأُتِيْعُوا﴾ معناه بالعمل والقبول. ﴿وَمَا أَرْزَأَ اللَّهُ﴾ هو القرآن والشرع. ﴿وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ معناه وجدنا، قال الشاعر: عبدالله

فَأَلْفَبْنَتْهُ غَيْرُ مُسْتَعْتَبٍ
وَلَا ذَا كِبَرٍ اللَّهُ إِلَّا قَلِيلًا
والألف في قوله: ﴿وَأُولُو﴾ للاستفهام، والواو لمطف جملة كلام على جملة، لأن غاية الفساد الالتزام أن يقولوا: نتبع آباءنا ولو كانوا لا

يعقلون، ففَرَرُوا على التزامهم هذا، إذ هذه حال آبائهم.

وقوة ألفاظ هذه الآية تعطي إبطال التقليد، وأجمعت الأمة على إبطاله في العقائد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، المراد تشبيه واعظ الكافرين وداعيتهم، والكافرين الموعوظين - بالراعي الذي ينعتق بالغنم أو الإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه ولا تفقه ما يقول، هكذا فسر ابن عباس، وعكرمة، والسدي، وسيبويه، فذكر تعالى بعض هذه الجملة وبعض هذه، ودل المذكور على المحذوف، وهذه نهاية الإيجاز.

والنعت: زجر الغنم والصياح بها، قال الأخطل:

انْعَقْ بِضَائِكَ يَا جَرِيرٍ فَإِنَّمَا
مَثَلُكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالًا
وقال قوم: إنما وقع التشبيه براعي الضأن لأنها من أبلد الحيوان، فهي تحمق راعيها، وفي المثل: «أحمق من راعي ضأن ثمانين».

وقد قال زُيْدُ لِمَالِكِ بْنِ عَوْفٍ فِي يَوْمِ هَوَازِنَ: «رَاعِي ضَأْنٍ وَاللَّهِ»، وقال الشاعر:

أَضْبَحْتُ هَزْأً لِرَاعِي الضَّأْنِ يَهْزَأُ بِي
مَاذَا يَرِيْبُكَ مِنِّي رَاعِي الضَّأْنِ؟
فمعنى الآية أن هؤلاء الكفرة يمر الدعاء على أذانهم صفحاً يسمعون ولا يفقهونه، إذ لا يتفقهون بفقهه.

وقال ابن زيد: المعنى في الآية: ومثل الذين كفروا في اتباعهم آلهتهم وعبادتهم إياها، كمثّل الذي ينعتق بما لا يسمع منه شيئاً، إلا دويّاً غير

مفيد، يعني بذلك الصدى الذي يستجيب من الجبال.

وجه الطبري في الآية معنى آخر وهو أن المراد: ومثل الكافرين في عبادتهم آلهتهم، كمثّل الذي ينعتق بشيء بعيد منه، فهو لا يسمع من أجل البعد، فليس للناثق من ذلك إلا النداء الذي يتبعه ويُنصّب، فإنما شبه في هذين التأويلين الكفار بالناثق، والأصنام بالمنعوق به، وشبهوا في الصمم والبكم والعمى بمن لا حسة له، لما لم ينتفعوا بحواسهم، ولا صرفوها في إدراك ما ينبغي، ومنه قول الشاعر:

أَصُمُّ عَمَّا سَاءَهُ سَمِيعُ
ولما تقرر فقدّم لهذه الحواس قضي بأنهم لا يعقلون، إذ العقل - كما قال أبو المعالي وغيره - علومٌ ضرورية تعطّيها هذه الحواس، إذ لا بد في كسبها من الحواس. وتأمل.

﴿١٧٢﴾ - ﴿١٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

الطَّيِّبُ هُنَا يَجْمَعُ الْحَلَالَ
والمستلذ، والآية تشير بتبعية حلال ﴿وَيُن﴾ إلى أن الحرام رزق. وحضّ تعالى على الشكر، والمعنى في كل حالة، ﴿وَيُن﴾ شرط، والمراد بهذا الشرط التثبّت وهز النفس، كما تقول: افعل كذا إن كنت رجلاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ هنا حاصرة، ﴿وَالْمَيْتَةَ﴾ نصب بـ ﴿حَرَّمَ﴾، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ﴿وَالْمَيْتَةَ﴾ بالتشديد. قال الطبري، وجماعة من اللغويين: التشديد والتخفيف من

مَيِّتٌ وَمَيِّتٌ لِّغَتَانِ. وقال أبو حاتم، وغيره: ما قد مات فيقالان فيه، وما لم يمت فلا يقال فيه مَيِّتٌ بالتخفيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هكذا هو استعمال العرب، ويشهد بذلك قول الشاعر:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَحَّ بِمَيِّتٍ
إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتٌ الْأَخْيَاءِ

استراح: من الراحة، وقيل: من الرائحة. ولم يقرأ أحد بتخفيف ما لم يمت، إلا ما روى البيهقي عن ابن كثير ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ والمشهور عنه التثقل، وأما قول الشاعر:

إِذَا مَا مَاتَ مَيِّتٌ مِنْ تَمِيمٍ
فَسَرَّكَ أَنْ يَعْيشَ قَجِيءٌ بِزَادٍ
فالأبلغ في الهجاء أن يريد المَيِّتَ حقيقة، وقد ذهب بعض الناس إلى أنه أراد من شارف الموت، والأول أشهر. وقرأ قوم: ﴿المَيِّتَةُ﴾ بالرفع على أن تكون ﴿وَمَا﴾ بمعنى الذي و﴿إِنَّ﴾ عاملة.

وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي: ﴿حُرْمٌ﴾ - على ما لم يَسْمَ فاعله، ورفع ما ذكر تحريمه، فإن كانت ﴿وَمَا﴾ كافة فالميتة مفعول لم يسم فاعله، وإن كانت بمعنى الذي فالميتة خير.

ولفظ الميتة عموم، والمعنى مخصص لأن الحوت والجراد لم يدخل قط في هذا العموم. والميتة: ما مات دون ذكاة مما له نفس سائلة، والطافي من الحوت، جَوَزُهُ مالك وغيره، ومنعه العراقيون. وفي الميت دون تسبب من الجراد خلاف - منعه مالك، وجمهور أصحابه.

وجوزه ابن نافع، وابن عبدالحكم. وقال ابن وهب: إن ضم في غرائر فضمه ذكاته. وقال ابن القاسم: لا - حتى يُصنع به شيء يموت منه كقطع الرؤوس والأجنحة والأرجل، أو الطرح في الماء، وقال سحنون: لا يطرح في ماء بارد، وقد أشهب: إن مات مِنْ قَطْعِ رِجْلٍ أو جناح لم يؤكل لأنها حالة قد يعيش بها وينسل.

﴿وَالَّذِينَ﴾ يراد به المسفوح، لأن ما خالط اللحم فغير محرم بإجماع. وفي دم الحوت المزايل للحوت اختلاف روي عن القاسمي أنه طاهر، ويلزم عن طهارته أنه غير محرم.

وخص ذكر اللحم من الخنزير ليدل على تحريم عينه دُكِّيَ أو لم يُدَك، وليعم الشحم وما هنالك من الغضاريف وغيرها، وأجمعت الأمة على تحريم شحمه.

وفي خنزير الماء كراهية - أبى مالك أن يجيب فيه، وقال: أنتم تقولون: خنزيراً. وذهب أكثر اللغويين إلى أن لفظة الخنزير رباعية، وحكى ابن سيده عن بعضهم أنه مشتق من خزر العين لأنه كذلك ينظر، فاللفظة على هذا ثلاثية.

﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ لَبِئْسَ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس، وغيره: المراد ما ذبح لأنصاب والأوثان، و﴿أَهْلٌ﴾ معناه: صبيح، ومنه استهلال المولود، وجرت عادة العرب بالصياح باسم المقصود بالذبيحة، وغلب ذلك في استعمالهم حتى عُبر به عن النية التي هي علة التحريم - ألا ترى أن علي بن أبي طالب

رضي الله عنه راعى النية في الإبل التي نحرها غالب أبو الفرزدق، فقال: إنها مما أهل به لغير الله، فتركها الناس ورأيت في أخبار الحسن بن أبي الحسن أنه سُئل عن امرأة مترفة صنعت لِلْمَعْبَةِ عرساً، فذبحت جزوراً، فقال الحسن: لا يحل أكلها، فإنها إنما ذبحت لصنم. وفي ذبيحة المجوسي اختلاف، ومالك لا يجيزها البتة. وذبيحة النصراني واليهودي جائزة. واختلف فيما حرم عليهم كالطريفة والشحم وغيره بالإجازة والمنع. وقال ابن حبيب: ما حُرِّمَ عليهم بالكتاب فلا يحل لنا من ذبحهم، وما حرموه باجتهادهم فذلك لنا حلال. وعند مالك كراهية فيما سمي عليه الكتابي المسيح أو ذبحه لكنيسته، ولا بلغ بذلك التحريم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ الآية - ضمنت النون للالتقاء إتياعاً للضمة في الطاء حسب قراءة الجمهور، وقرأ أبو جعفر، وأبو السمال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ بكسر الطاء، وأصله (اضْطَرَّ) فلما أدغم نقلت حركة الراء إلى الطاء. وقرأ ابن محيصن: ﴿فَمَنْ اطْرُ﴾ بإدغام الضاد في الطاء، وكلك حيثما وقع في القرآن.

ومعنى اضطر: ضَمَّهُ عُدْمَ وَغَزَتْ، هذا هو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء والفقهاء. وقيل: معناه أكره وغلب على أكل هذه المحرمات.

و﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ في موضع نصب على الحال، والمعنى فيما قال قتادة، والربيع، وابن زيد، وعكرمة وغيرهم: غير قاصد فساد وتعد، بأن

ذكاة بوجه، وإنما الرخصة فيما تصح الذكاة في نوعه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ الآية قال ابن عباس، وقتادة، والربيع، والسدي: المراد أحبار اليهود، الذين كتموا أمر محمد ﷺ، و﴿الْكِتَابُ﴾: التوراة والإنجيل، والضمير في (به) عائد على الكتاب، ويحتمل أن يعود على (ما) وهو جزء من الكتاب فيه أمر محمد ﷺ، وفيه وقع الكتم لا في جميع الكتاب، ويحتمل أن يعود على الكتمان.

يجد عن هذه المحرمات مندوحة وبأكلها، وهؤلاء يجيزون الأكل منها في كل سفر مع الضرورة، وقال مجاهد، وابن جبير، وغيرهما: المعنى غير باغ على المسلمين وعاد عليهم، فيدخل في الباغي والمعادي قطاع السبل، والخارج على السلطان، والمسافر في قطع الرحم والغارة على المسلمين وما شاكله، ولغير هؤلاء هي الرخصة. وقال السدي: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي غير متزيد على حد إمساك رقه، وإبقاء قوته، فيجوز أكله شهوة - ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي متزود.

وقال مالك رحمه الله: يأكل المضطر شبعه، وفي الموطأ - وهو لكثير من العلماء - أنه يتزود إذا خشي الضرورة فيما بين يديه من مفازة وقفر. وعادٍ معناه: عائد، فهو من المقلوب كشاكي السلاح، أصله شائك، وكهار أصله هائر، وكلاهما أصله لاث.

وباغ أصله باغي، استثقلت الكسرة على الياء فسكنت، والتونين ساكن، فحذفت الياء، والكسرة تدل عليها، ورفع الله الإثم لما أحل الميتة للمضطر - لأن التحريم في الحقيقة متعلقه التصرف بالأكل، لا عين المحرم، ويطلق التحريم على العين تجوزاً.

ومنع قوم التزود من الميتة وقالوا: لما استقلت قوة الأكل صار كمن لم تصبه ضرورة قبل.

ومن العلماء من يرى أن الميتة من بني آدم والخنزير لا تكون فيها رخصة اضطرار لأنهما لا تصح فيهما

والثمن القليل: الدنيا والمكاسب، ووصف بالقلّة لانقضائه ونفاده، وهذه الآية - وإن كانت نزلت في الأحبار - فإنها تتناول من علماء المسلمين من كتم الحق مختاراً لذلك لسبب دنيا يصيبها.

وذكرت البطون في أكلهم المؤدي إلى النار، دلالة على حقيقة الأكل، إذ قد يستعمل مجازاً في مثل: أكل فلان أرضي ونحوه، وفي ذكر البطن أيضاً تنبيه على مذمتهم، لأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم، الذي لا خطر له، وعلى هجنتهم بطاعة بطونهم. وقال الربيع، وغيره: سمي مأكلهم ناراً لأنه يؤول بهم إلى النار، وقيل: معنى الآية: إن الله تعالى يعاقبهم على كتمانهم بأكل النار في جهنم حقيقة. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾،

قيل: هي عبارة عن الغضب عليهم، وإزالة الرضى عنهم، إذ في غير موضع من القرآن ما ظاهره أن الله تعالى يكلم الكافرين كقوله: ﴿أَتَسْتَأْذِنُ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونُ﴾ ونحوه، فتكون هذه الآية بمنزلة قولك: فلان لا يكلمه السلطان، ولا يلتفت إليه، وأنت إنما تعبر عن انحطاط منزلته لديه. وقال الطبري وغيره: المعنى: ولا يكلمهم بما يحبون، وقيل: المعنى: لا يرسل إليهم الملائكة بالنتيجة.

﴿وَلَا يُرَكِّبُهُمْ﴾ معناه: ولا يطهرهم من موجبات العذاب، وقيل: المعنى لا يسميهم أركياء. و﴿أَلِيَّهُمْ﴾ اسم فاعل بمعنى مؤلم.

﴿يُؤَيِّدُ﴾ - ﴿يُؤَيِّدُ﴾ تفسير قوله عز وجل: لَمَّا تَرَكُوا الْهُدَى وَأَعْرَضُوا عَنْهُ وَلَا زَمُوا الضَّلَالَةَ وَتَكْسَبُوهَا - مع أن

الإسلام وأهله. و﴿يَبْرُ﴾ هنا معناه: من الحق والاستقامة.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ الآية، وقرأ أكثر السبعة برفع الراء، والبر اسم ليس، قال أبو علي: ليس بمنزلة الفعل فالوجه أن يليها الفاعل ثم المفعول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: مذهب أبي علي أن (ليس) حرف، والصواب الذي عليه الجمهور أنها فعل. وقرأ حمزة، وعاصم في رواية حفص: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ بنصب الراء، وجعل ﴿أَنْ تُولُوا﴾ بمنزلة المضمر، إذ لا يوصف كما لا يوصف المضمر، والمضمر أولى أن يكون اسماً يخبر عنه.

وفي مصحف أبي بن كعب، وعبدالله بن مسعود: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تُولُوا﴾، وقال الأعمش: إن في مصحف عبدالله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الْبِرَّ﴾.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: الخطاب بهذه الآية للمؤمنين، فالمعنى: ليس البر الصلاة وحدها، وقال قتادة، والربيع: الخطاب لليهود والنصارى، لأنهم اختلفوا في التوجه والتولي، فاليهود إلى بيت المقدس، والنصارى إلى مطلع الشمس، وتكلموا في تحويل القبلة، وفضلت كل فرقة توليها، ف قيل لهم: ليس البر ما أنتم فيه، ولكن البر من آمن بالله. قرأ قوم: ﴿وَلَكِنَّ الْآلِرَّ﴾ بشد النون ونصب البر. وقرأ الجمهور ﴿وَلَكِنْ الْبِرُّ﴾ والتقدير: ولكن البرُّ برٌّ من. وقيل: التقدير: ولكن ذو البر من،

الضبط عند المبرد بضم الهمزة وكسر الباء، ورُدُّ عليه في ذلك، فإنه لا يُعرف في اللغة أَصْبِرَ بمعنى صبر، وإنما البيت أَصْبَرُهَا بفتح الهمزة وضم الباء، ماضيه صبر، ومنه المصبورة، وإنما يرد قول أبي العباس على معنى: أجعلها ذات صبر.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾ الآية، المعنى: ذلك الأمر، أو الأمر ذلك، بأن الله نزل الكتاب بالحق، فكفروا به، والإشارة على هذا إلى وجوب النار لهم، ويحتمل أن يقدر: فعلنا ذلك، ويحتمل أن يقدر: وجب ذلك، ويكون ﴿الْكِتَابُ﴾ جملة القرآن على هذه التقديرات. وقيل: إن الإشارة بالكتاب إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي كَفَرُوا سَوَاءً عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ الآية، أي: وجبت لهم النار بما قد نزل الله في الكتاب من الخبر به، والإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ - على هذا - إلى اشتراطهم الضلالة بالهدى، أي ذلك بما سبق لهم في علم الله وورد إخباره به. و﴿يَالْحَقُّ﴾ معناه: بالواجب، ويحتمل أن يراد بالأخبار الحق أي الصادقة، والذين اختلفوا في الكتاب - قال السدي: هم اليهود والنصارى، لأن هؤلاء في شق. وهؤلاء في شق، ويظهر أن الشقاق سميت به المشادة والمقابلة ونحوه، لأن كل واحد يشق الوصل الذي بينه وبين مُشَاقِه. وقيل: إن المراد بالذين اختلفوا كفار العرب، لقول بعضهم: هو سحر، وبعضهم: هو أساطير، وبعضهم: هو مفترى، إلى غير ذلك - وشقاق هذه الطوائف إنما هو مع

الهدى ممكن لهم ميسر - كان ذلك كبيع وشراء، وقد تقدم إيعاب هذا المعنى. ولما كان العذاب تابِعاً للضلالة التي اشتروها، وكانت المغفرة تابعة للهدى الذي اطرحوه أدخلوا في تجوز الشراء.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ قال جمهور المفسرين: ﴿ما﴾ تعجب، وهو في حيز المخاطبين، أي هم أهل أن تعجبوا منهم ومما يطول مكثهم في النار. وفي التنزيل: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرٌ﴾ و﴿أَنجِ يَوْمَ نَأْصِرْ﴾ وبهذا المعنى صدر أبو علي، وقال قتادة، والحسن، وابن جبير، والربيع: أظهر التعجب من صبرهم على النار لما عملوا عمل من وطن نفسه عليها. وتقديره: ما أجراًهم على النار إذ يعملون عملاً يؤدي إليها. وقيل: (ما) استفهام معناه: أي شيء صبرهم على النار؟ ذهب إلى ذلك معمر بن المثنى، والأول أظهر.

ومعنى ﴿أَصْبَرَهُمْ﴾ في اللغة: أمرهم بالصبر، ومعناه أيضاً: جعلهم ذوي صبر، وكلا المعنيين متجه في الآية على القول بالاستفهام. وذهب المبرد في باب التعجب من «المقتضب» إلى أن هذه الآية تقرير واستفهام لا تعجب، وأن لفظة ﴿أَصْبِرْ﴾ بمعنى اضطر وحبس، كما تقول: أصبرت زيدا على القتل، ومنه نهى النبي ﷺ أن تصبر البهائم، قال ومثله قول الشاعر:

قُلْتُ لَهَا أَصْبِرْهَا ذَائِباً
أَمْثَالُ بَسْطَامِ بْنِ قَيْسٍ قَلِيلٌ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ووصفهم الله تعالى بالشقى، والمعنى: هم الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية من العمل الصالح.

﴿١٧٨﴾ - ﴿١٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿كَيْبٌ﴾ معناه: فُرض وأُثبت، والكُتِبَ مستعملٌ في الأمور المخدلات الدائمة كثيراً. وقيل: إن ﴿كَيْبٌ﴾ في مثل هذا إخبار عما كُتِبَ في اللوح المحفوظ وسبق به القضاء.

وصورة فُرِضَ القصاص هو أن القاتل فُرض عليه - إذا أراد الولي القتل - الاستسلام لأمر الله، والانقياد لقصاصه المشروع، وأن الولي فُرض عليه الوقوف عند قتل قاتل ولّيه، وترك التعدي على غيره كما كانت العرب تتعدى، وتقتل بقتيلها الرجل من قوم قاتله. وأن الحكام وأولي الأمر فُرض عليهم النهوض بالقصاص، وإقامة الحدود، وليس القصاص بلزام - إنما اللزام ألا يتجاوز القصاص إلى اعتداء، فأما إذا وقع الرضى، بدون القصاص، من دية أو عفو، فذلك مباح. فالآية مُعْلِمَةٌ أن القصاص هو الغاية عند الشراح.

﴿أَلْقِصَاصٌ﴾ مأخوذ من قص الأثر، فكأن القاتل سلك طريقاً من القتل فقص أثره فيها، ومشى على سبيله في ذلك.

﴿أَلْقَتَلٌ﴾ جمع قتيل، لفظ يؤث تأنيث الجماعة، وهو مما يدخل على الناس كرهاً، فلذلك جاء على هذا البناء، كَجَزَخَى وَزَمَنَى وَحَمَقَى وَصَزَعَ وَغَزَقَى.

وغيره: ابن السبيل المسافر لملازمته السبيل، وهذا كما يقال: ابن ماء للطائر الملازم للماء، ومنه قول النبي ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ابْنُ زَنَاءٍ أَيْ: الملازم له، وقيل: لَمَّا كانت السبيل تُبْرِزه، شُبَّهَ ذلك بالولادة، فنسب إليها. وقال قتادة: ابن السبيل: الضيف.

﴿وَفِي أَرْقَابٍ﴾ يراد به العنق وفك الأسرى وإعطاء أواخر الكتابات - ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أتمها بشروطها. وذكر الزكاة هنا دليلٌ على أن ما تقدم ليس بالزكاة المفروضة، ﴿وَأَلْمُؤْتُونَ﴾ عطف على ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾، ويحتمل أن يُقَدَّر: وَهُمْ الْمُؤْتُونَ.

﴿وَالْقَصِيرِينَ﴾ نصب على المدح، أو على إضمار فعل، وهذا مهيج في تكرار النعوت. وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿وَالْمُؤْتِينَ﴾ على المدح، أو على قطع النعوت. وقرأ يعقوب، والأعمش، والحسن: ﴿وَالْمُؤْتُونَ وَالصَّابِرُونَ﴾. وقرأ الجحدري: ﴿يَغُفُّوهُمْ﴾.

﴿وَالْأَسَاءَ﴾ الفقر والفاقة، ﴿وَالْفَرَلَةَ﴾ المرض ومصائب البدن، ﴿وَيَسِيرَ الْأَبْيَاسِ﴾ وقت شدة القتال، هذا قول المفسرين في الألفاظ الثلاثة. وتقول العرب: بَشَسَ الرجل إذا افتقر، ويؤس إذا شجع.

ثم وصف تعالى أهل هذه الأفعال البرّة بالصدق في أمورهم. أي: هُم عند الظن بهم، والرجاء فيهم، كما تقول: صدقني المال، وصدقني الرمح، ومنه: عود صدق، وتحتمل اللفظة أيضاً صدق الأخبار،

وقيل: البرُّ بمنزلة اسم فاعل تقديره ولكن البارُّ مَنْ، والمصدر إذا نُزِلَ منزلة اسم الفاعل فهو ولا بد محمول على حذف مضاف كقولك: رجل عدل ورضى.

والإيمان: التصديق. أي صدق بالله تعالى، وبهذه الأمور كلها حسب مخبرات الشرائع.

وقوله تعالى: ﴿وَمَاءَ أَمْوَالِ عَلَى حَيْبٍ﴾ الآية، هذه كلها حقوق في المال سوى الزكاة، وبها كمال البر. وقيل: هي الزكاة. و﴿وَمَاءَ﴾ معناه: أعطى، والضمير في ﴿حَيْبٍ﴾ عائد على المال، فالمصدر مضاف إلى المفعول، ويجيء قوله: ﴿عَلَى حَيْبٍ﴾ اعتراضاً بليغاً أثناء القول. ويحتمل أن يعود الضمير على الإيتاء، أي في وقت حاجة من الناس وفاقة، فإيتاء المال حبيب إليهم، ويحتمل أن يعود على اسم الله تعالى من قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾، أي من تصدق محبة في الله تعالى وطاقته، ويحتمل أن يعود على الضمير المستكن في ﴿وَمَاءَ﴾، أي: على حبه المال، فالمصدر مضاف إلى الفاعل.

والمعنى المقصود أن يتصدق المرأة في هذه الوجوه وهو شحيح صحيح يخشى الفقر ويأمل الغنى، كما قال ﷺ، والشح في هذا الحديث هو الغريزي الذي في قوله تعالى: ﴿وَأَخْصِرْتِ الْأَنْفُسَ الشَّحَّ﴾. وليس المعنى أن يكون المتصدق متصفاً بالشح الذي هو البخل.

﴿وَدَى الْفَرِيفِ﴾ يراد به قرابة الشَّب. واليُثَم في الآدميين من قبل الأب قبل البلوغ. وقال مجاهد،

واختلف في سبب هذه الآية - فقال الشعبي: إن العرب كان أهل العزة منهم والمنعة، إذا قُتِلَ منهم عبدٌ قتلوا به حراً، وإذا قُتِلَت امرأة قتلوا بها ذكراً، فنزلت الآية بذلك، ليعلم الله تعالى بالسوءية، ويذهب أمر الجاهلية.

وحكي أن قوماً من العرب تقاتلوا قتال غمّة، ثم قال بعضهم: نقلت بعبداً أحراراً فنزلت الآية.

وقيل: نزلت بسبب قتال وقع بين قبيلتين من الأنصار، وقيل: من غيرهم، فقتل هؤلاء من هؤلاء رجلاً، وعبيداً ونساء، فأمر رسول الله ﷺ أن يُصْلَحَ بينهم، ويقاصهم بعضهم ببعض بالديات على استواء: الأحرار بالأحرار، والنساء بالنساء والعبيد بالعبيد.

وروي عن ابن عباس أن الآية نزلت مقتضية ألا يُقتل الرجل بالمرأة، ولا المرأة بالرجل، ولا يدخل صنف على صنف، ثم نسخت بآية المائدة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هكذا روي، وآية المائدة إنما هي إخبار عما كتب على بني إسرائيل، فلا يترتب النسخ إلا بما تُلقَى عن رسول الله ﷺ، من أن حكمنا في شرعنا مثل حكمهم.

وروي عن ابن عباس فيما ذكر أبو عبيد - وعن غيره: أن هذه الآية محكمة، وفيها إجمال فسرته آية المائدة، وأن قوله هنا: ﴿أَلَمْ يَأْتِ﴾ يعم الرجال والنساء، وقاله مجاهد.

وقال مالك رحمه الله: أحسن ما

سمعت في هذه الآية أنه يراد بها الجنس، الذكر والأنثى فيه سواء، وأعيد ذكر الأنثى تأكيداً وتهماً بإذهاب أمر الجاهلية.

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعن الحسن بن أبي الحسن: أن الآية نزلت مُبَيَّنَّةً حكم المذكورين، ليدل ذلك على الفرق بينهم وبين أن يُقتل حرٌ عبداً، أو عبدٌ حراً، أو ذكرٌ أنثى، أو أنثى ذكراً، وقالوا: إنه إذا قتل رجل امرأة، فإن أراد أولياؤها قتلوا صاحبهم، ووفوا أولياءه نصف الدية منه، وإن أرادوا استخيوه وأخذوا منه دية المرأة. وإذا قتل المرأة رجلاً فإن أراد أولياؤه قتلوا وأخذوا نصف الدية، وإلا أخذوا دية صاحبهم واستخيوها. وإذا قتل الحر العبد فإن أراد سيد العبد قتل، وأعطى دية الحر، إلا قيمة العبد، وإن شاء استحيا وأخذ قيمة العبد - هذا مذكور عن علي رضي الله عنه، وعن الحسن، وقد أنكر ذلك عنهما أيضاً.

وأجمعت الأمة على قتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، والجمهور لا يرون الرجوع بشيء، وفرقة ترى الاتباع بفضل الديات. قال مالك والشافعي: وكذلك القصاص بينهما فيما دون النفس. وقال أبو حنيفة: لا قصاص بينهما فيما دون النفس، وإنما هو في النفس بالنفس. وقال النخعي، وقتادة، وسعيد بن المسيب، والشعبي، والثوري، وأبو حنيفة، ومحمد بن الحسن، وأبو

يوسف: يقتل الحر بالعبد. وقال مالك رحمه الله، وجمهور من العلماء: لا يقتل الحر بالعبد، ودليلهم إجماع الأمة على أن العبد لا يقاوم الحر فيما دون النفس، فالنفس مقيسة على ذلك. وأيضاً فالإجماع فيمن قُتِلَ عبداً خطأ أنه ليس عليه إلا القيمة، فكما لم يشبهه الحر في الخطأ، لم يشبهه في العمد. وأيضاً فإن العبد سلعة من السلع يباع ويشتري. وإذا قتل الرجل ابنه فإن قصد إلى قتله مثل أن يضجعه ويذبحه أو يصبره مما لا عذر فيه، ولا شبهة في ادعاء الخطأ، فإنه يقتل به قولاً واحداً في مذهب مالك. وإن قتله على حد ما يرمى أو يضرب فيقتله، ففيه في المذهب قولان: يقتل به، ولا يقتل وتغلظ الدية.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُتِيَ لَمْ يَنْ أَحِبُّهُ﴾ فيه أربع تأويلات.

أحدها: أن ﴿فَمَنْ﴾ يراد بها القاتل، و﴿عُتِيَ﴾ يتضمن عافياً هو ولي الدم، و(الأخ) هو المقتول. ويصح أن يكون هو الولي على هذا التأويل، وهي أخوة الإسلام، و﴿عُتِيَ﴾ هو الدم الذي يُعفى عنه، ويرجع إلى أخذ الدية، هذا قول ابن عباس وجماعة من العلماء، والعفو على هذا القول في بابه. والضميران راجعان على ﴿مَنْ﴾ في كل تأويل.

والتأويل الثاني: - وهو قول مالك - أن ﴿فَمَنْ﴾ يراد بها الولي، و﴿عُتِيَ﴾ بمعنى يُسَرَّ، لا على بابها في العفو،

و(الْأَخ) يراد به القاتل، و﴿شَوْءٌ﴾ هي الدية، والأخوة على هذا أخوة الإسلام - ويحتمل أن يراد بالأخ على هذا التأويل المقتول، أي يُسَرُّ له من قبل أخيه المقتول وبسببه، فتكون الأخوة أخوة قرابة وإسلام. وعلى هذا التأويل قال مالك رحمه الله: إن الولي إذا جنح إلى العفو على أخذ الدية، فإن القاتل مُحْخِرٌ بين أن يعطيها أو يسلم نفسه، فمرة تيسر ومرة لا تيسر. وغير مالك يقول: إذا رضي الأولياء بالدية فلا خيار للقاتل بل تلزمه، وقد روي أيضاً هذا القول عن مالك، ورجحه كثير من أصحابه.

والتأويل الثالث: أن هذه الألفاظ في المعنيين الذين نزلت فيهم الآية كلها، وتساقطوا الديات فيما بينهم مقاصدة حسب ما ذكرناه آنفاً فمعنى الآية: فمن فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من تلك الديات - ويكون ﴿عُفِيَ﴾ بمعنى فضل، من قولهم: عفا الشيء إذا كثر، أي أفضلت الحال له أو الحساب أو القدر.

والتأويل الرابع: هو على قول علي رضي الله عنه، والحسن بن أبي الحسن في الفضل بين دية المرأة ودية الرجل، والحر والعبد، أي من كان له ذلك الفضل، فاتباع بالمعروف. و﴿عُفِيَ﴾ في هذا الموضع أيضاً بمعنى فضل، وكأن الآية من أولها بينت الحكم، إذا لم تتداخل الأنواع، ثم الحكم إذا تداخلت، و﴿شَوْءٌ﴾ في هذه الآية مفعول لم يُسَمَّ فاعله، وجاز ذلك.

و﴿عُفِيَ﴾ لا يتعدى الماضي الذي بُنيت منه - من حيث يقدر ﴿شَوْءٌ﴾ تقدير المصدر، كأن الكلام: عفي له من أخيه عفو، و﴿شَوْءٌ﴾ اسم عام لهذا وغيره - أو من حيث تقدر عفي بمعنى ترك، فتعمل عملها، والأول أجود، وله نظائر في كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْرُبُوا شَيْئاً﴾ قال الأخفش: التقدير لا تضره ضرراً، ومن ذلك قول أبي خراش:

فَعَارِيَتْ شَيْئاً وَالدَّرِيْسُ كَأَمَّا
يُزْعِزْهُ وَرْدٌ مِّنَ السُّومِ مُرْدُمٌ
وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ رفع على خبر ابتداء مضمّر تقديره: فالواجب والحكم اتباع، وهذا سبيل الواجبات كقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا بِمَقْرُوبٍ﴾ وأما المندوب إليه فيأتي منصوباً كقوله تعالى: ﴿فَتَمَرَّبَ الرِّقَابَ﴾، وهذه الآية حض من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب، وحسن القضاء من المؤدي، وقرأ ابن أبي عبيدة ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ بالنصب.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَخَفِيفٌ مِّن رَّيْبِكُمْ﴾، إشارة إلى ما شرعه لهذه الأمة من أخذ الدية، وكانت بنو إسرائيل لا دية عندهم، إنما هو القصاص فقط.

والاعتداء الْمُتَوَعَّد عليه في هذه الآية هو أن يأخذ الرجل دية وليه ثم يقتل القاتل بعد سقوط الدّم. واختلف في العذاب الأليم الذي يلحقه - فقال فريق من العلماء منهم مالك: هو كمن قتل ابتداءً إن شاء الولي قتله، وإن شاء عفا عنه، وعذابه في الآخرة. وقال قتادة،

وعكرمة، والسدي وغيرهم: عذابه أن يقتل البتة، ولا يُمْكِن الحاكم الولي من العفو، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «نقسم ألا يعفى عن رجل عفا عن الدّم، وأخذ الدية ثم عدا فقتل» وقال الحسن: عذابه أن يرد الدية فقط، ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة. وقال عمر بن عبدالعزيز: أمره إلى الإمام يصنع فيه ما رأى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حِكْمَةٌ﴾ نحوه قول العرب في مثل: «القتل أوقى للقتل»، ويروى: أبقي بساء وقاف، ويروى: أنفى بنون وفاء. والمعنى أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم به ازدجر من يريد قتل أحد مخافة أن يقتص منه فحياً بذلك معاً. وهذا الترتيب مما سبق لهما في الأزل. وأيضاً فكانت العرب - إذا قتل الرجل الآخر - حمي قبيلاهما وتقاتلوا، وكان ذلك داعية إلى موت العدد الكثير، فلما شرع الله القصاص قنع الكل به، ووقف عنده، وتركوا الاقتتال، فلمهم في ذلك حياة.

وخص أولي الأبواب بالذكر، تنبيهاً عليهم، لأنهم العارفون القابلون للأوامر والنواهي، وغيرهم تبع لهم.

و﴿تَتَّقُونَ﴾ معناها: القتل فتسلمون من القصاص، ثم يكون ذلك داعية لأنواع التقوى في غير ذلك فإن الله تعالى يثيب على الطاعة بالطاعة. وقرأ أبو الجوزاء أوس بن عبدالله الربيعي: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَصِ﴾ أي

في كتاب الله الذي شرع فيه القصاص وحكمه. ويحتمل أن يكون مصدراً كالقصاص، أي أنه قص أثر القاتل قصصاً، فقتل كما قتل.

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ الآية، كأن الآية متصلة بقوله: ﴿يَتَأْتِيَكَ أَشْوَاهُ﴾، فلذلك سقطت واو العطف، و﴿كُتِبَ﴾ معناه فُرض وأُثبت. وقال بعض أهل العلم: الوصية فرض. وقال قوم: كانت فرضاً ونسخت، وقال فريق: هي مندوب إليها، و﴿كُتِبَ﴾ عامل في رفع ﴿الْوَصِيَّةِ﴾ على المفعول الذي لم يسم فاعله في بعض التقديرات وسقطت علامة التأنيث من ﴿كُتِبَ﴾ لطول الكلام فَحَسُنَ سقوطها. وقد حكى سيبويه: «قام امرأة»، ولكن حُسُنَ ذلك إنما هو مع طول الحائل.

ولا يصح عند جمهور النحاة أن تعمل الوصية في ﴿إِذَا﴾ لأنها في حكم الصلة للمصدر الذي هو ﴿الْوَصِيَّةِ﴾، وقد تقدمت فلا يجوز أن يعمل فيها متقدمة ويتجه في إعراب هذه الآية أن يكون ﴿كُتِبَ﴾ هو العامل في ﴿إِذَا﴾، والمعنى توجه إيجاب الله عليكم ومقتضى كتابه إذا حضر، فعبّر عن توجه الإيجاب، بـ﴿كُتِبَ﴾ ليتنظم إلى هذا المعنى أنه مكتوب في الأزل. و﴿الْوَصِيَّةِ﴾ مفعول لم يسم فاعله بـ﴿كُتِبَ﴾. وجواب الشرطين: ﴿إِذَا﴾ و﴿إِنْ﴾. مُقَدَّرٌ يدل عليه ما تقدم من قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾، كما تقول: شكرت فعلك إن جئتني إذا كان كذا.

ويتجه في إعرابها أن يكون التقدير: كتب عليكم الإيصاء، ويكون هذا الإيصاء المقدر الذي يدل عليه ذكر الوصية بعد هو العامل في ﴿إِذَا﴾، وترتفع (الوصية) بالابتداء، وفيه جواب الشرطين على نحو ما أنشد سيبويه:

مَنْ يَفْعَلِ الصَّالِحَاتِ اللَّهُ يَحْفَظَهَا

أو يكون رفعها بالابتداء بتقدير: فَعَلِيهِ الوصية، أو بتقدير الفاء فقط، كأنه قيل: فالوصية للوالدين.

ويتجه في إعرابها أن تكون ﴿الْوَصِيَّةِ﴾ مرتفعة بـ﴿كُتِبَ﴾ على المفعول الذي لم يسم فاعله، وتكون ﴿الْوَصِيَّةِ﴾ هي العامل في ﴿إِذَا﴾، وهذا على مذهب أبي الحسن الأخفش، فإنه يُجِيز أن يتقدم ما في صلة الموصول بشرطين هما في هذه الآية:

أحدهما: أن يكون الموصول ليس بموصولٍ مخض، بل يشبه الموصول، وذلك كالألف واللام حيث توصل، أو كالمصدر، وهذا في الآية مصدر وهو ﴿الْوَصِيَّةِ﴾.

والشرط الثاني: أن يكون المتقدم ظرفاً، فإن في الظرف يسهل الاتساع، و﴿إِذَا﴾ ظرف، وهذا رأي أبي الحسن في قول الشاعر:

تَقُولُ وَصَّكَتَ وَجْهَهَا بِجَمِينِهَا
أَبْغَلِي هَذَا بِالرَّحَا الْمُتَقَاعِشِ؟
فإنه يرى أن (بالرحا) متعلق بقوله: (المتقاعش) كأنه قال: أبغلي هذا المتقاعش بالرحا. وجواب الشرطين

في هذا القول كما ذكرناه في القول الأول.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ﴾، مجاز، لأن المعنى: إذا تخوف حضرت علاماته. والخير في هذه الآية: المأل.

واختلف موجب الوصية في القدر الذي تجب منه - فقال الزهري، وغيره: تجب فيما قُلَ وفيما كثر، وقال النخعي: تجب في خمسمائة درهم فصاعداً، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقناة: في ألف فصاعداً.

واختلف العلماء في هذه الآية - فقال فريق: هي محكمة، ظاهرها العموم، ومعناها الخصوص، في الوالدين اللذين لا يرثان، كالكافرين والعبدن، وفي القرابة غير الوارثة، وقال ابن عباس، والحسن، وقناة: الآية عامة، وتقرر الحكم بها برهة، ونسخ منها كل من يرث بأية الفرائض، وفي هذه العبارة يدخل قول ابن عباس، والحسن وغيرهما: أنه تُنسخ منها الوالدان وثبت الأقربون الذين لا يرثون. وَيَبَيَّنُ أن آية الفرائض في سورة النساء ناسخة لهذه - للحديث المتواتر: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث». وقال ابن عمر، وابن عباس أيضاً، وابن زيد: الآية كلها منسوخة، وبقيت الوصية ندباً، ونحو هذا قول مالك رحمه الله، وقال الربيع ابن خثيم، وغيره: لا وصية لوارث. وقال عذرة بن ثابت للربيع بن خثيم: أوص لي بمصحفك، فنظر الربيع إلى

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٨١﴾
 وَمَنْ يَخَفْ مِنْ مَوْصِيٍّ أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ ثَلَاثُونَ نَهْيًا أَوْ ثَمَانِيَةٌ وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ الْيُسْرَ وَلَكُمْ فِي هَذَا آيَاتٌ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلِقَائِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٥﴾

٢٨

الآية، والقول الأول أسبق للناظر، لكن في ضمنه أن يكون المبدل عالماً بالنهي عامداً لخلافه. والضمير في ﴿إِثْمُهُ﴾ عائذ على التبديل، و﴿سَمِيعٌ عَلَيْهِ﴾ صفتان لا يخفى معهما شيء من جَنَفِ الموصيين وتبديل المتعدين. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر، عن عاصم: ﴿مِنْ مَوْصٍ﴾ بفتح الواو وتشديد الصاد، وقرأ الباقون بسكون الواو.

وَالْجَنَفُ: الميل - وقال الأعشى:

تَجَانَفُ عَنْ حَجَرِ الْيَمَامَةِ نَاقَتِي
 وَمَا قَصَدْتُ مِنْ أَهْلِهَا لِيَسْوَائِكَ
 وقال عامر الرام الخضري المحاريبي:

هُمُ الْمَوْلَى وَقَدْ جَنَفُوا عَلَيْنَا
 وَإِنَّا مِنْ عَدَاوتِهِمْ لَزُرُورٌ
 ومعنى الآية على ما قال مجاهد: مَنْ خَشِيَ أَنْ يَحِيفَ الْمَوْصِي وَيَقْطَعَ مِيرَاثَ طَائِفَةٍ، وَيَتَعَمَّدَ الْإِذَايَةَ أَوْ يَأْتِيَهَا دُونَ تَعَمَّدٍ، وَذَلِكَ هُوَ الْجَنَفُ دُونَ إِثْمٍ، وَإِذَا تَعَمَّدَ فَهُوَ الْجَنَفُ فِي إِثْمٍ، فَالْمَعْنَى: مَنْ وَعَظَهُ فِي ذَلِكَ وَرَدَّهُ عَنْهُ، فَأَصْلَحَ بِذَلِكَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَرَثَتِهِ، وَمَا بَيْنَ الْوَرِثَةِ فِي ذَاتِهِمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ عَنْ الْمَوْصِي إِذَا عَمِلَتْ فِيهِ الْمَوْعِظَةُ، وَرَجَعَ عَمَّا أَرَادَ مِنَ الْإِذَايَةِ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِ.

ولده وقرأ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ ونحو هذا صنع ابن عمر رضي الله عنه. وقال بعض أهل العلم: إن الناسخ لهذه الآية هي السنة المتواترة في الحديث المذكور قبل، وقد تقدم توجيه نسخ السنة للكتاب في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا تَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ وقال قوم من العلماء: الوصية للقرابة أولى، فإن كانت لأجنبي فمعهم، ولا تجوز لغيرهم مع تركهم، وقال الناس حين مات أبو العالية: عجباً له، أعتقه امرأة من رباح، وأوصى بماله لبني هاشم. وقال الشعبي: لم يكن ذلك له ولا كرامة. وقال طائوس: إذا أوصى لغير قرابته ردت الوصية إلى قرابته، ونُقِضَ فعله. وقاله جابر بن زيد، وقال الحسن، وجابر بن زيد أيضاً، وعبد الملك بن يعلى: يبقى ثلث الوصية حيث جعلها، ويُزَدُ ثلثاها إلى قرابته. وقال مالك رحمه الله، وجماعة من العلماء: الوصية ماضية حيث جعلها الميت.

وَالْأَقْرَبُونَ: جمع أقرب. و﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ معناه: بالقصد الذي تعرفه النفوس دون إضرار بالورثة ولا تنزير للموصية. و﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد، وَخَصَّ الْمُتَقُونَ بِالذِّكْرِ تَشْرِيفاً لِلرَّبَّةِ لِيَتَبَارَى النَّاسُ إِلَيْهَا.

﴿١٨١﴾ - ﴿١٨٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿بَدَلَهُ﴾ عائذ على الإيصاء وأمر الميت، وكذلك في ﴿يَحْتَمِلُ﴾، ويحتمل أن يعود الذي في ﴿يَحْتَمِلُ﴾ على أمر الله تعالى في هذه

وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة والربيع: معنى الآية: من خاف - أي علم ورأى وأتى علمه عليه بعد موت الموصي - أن الموصي حاف وجنف وتعمد إذاية بعض ورثته، فأصلح ما وقع بين الورثة من الاضطراب والشقاق فلا إثم عليه، أي لا يلحقه إثم المبدل المذكور قبل وإن كان في فعله تبديل ما ولا بد، ولكنه تبديل لمصلحة، والتبديل الذي فيه الإثم إنما هو تبديل الهوى، وقرأ عبدالله بن عمر: ﴿فَلَا تُثْمُ﴾ عليه بحذف الألف.

و﴿كُتِبَ﴾ معناه فُرِضَ. و﴿الصِّيَامُ﴾ في اللغة: الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال، ومنه قول النابغة:

خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ
 تَحْتَ الْعَجَاجِ، وَخَيْلٌ تَعْلُكُ اللَّجْمَا
 أي: خيل ثابتة ممسكة ومنه

قول الله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي: إمساكاً عن الكلام، ومنه قول امرئ القيس:

كَأَنَّ الشَّرِيَا عَلِقَتْ فِي مَصَامِهَا

أي في موضع ثبوتها وإمساكها، ومنه قوله:

فَدَخَ ذَا وَسَلَّ إِلَهُمْ عَنَّا بِجَسْرَةٍ
ذُمُولٌ إِذَا صَامَ النَّهَارُ وَهَجَرَا
أي: وقفت الشمس عن الانتقال وثبتت.

والصيام في الشرع: إمساك عن الطعام والشراب مقترنة به قرائن، من مراعاة أوقات وغير ذلك، فهو من مجمل القرآن في قول الحذاق، والكاف من قوله: ﴿كَمَا﴾ في موضع نصب على النعت تقديره: كُتِبَ كَمَا، أو صَوْمًا كَمَا، أو على الحال - كأن الكلام: كُتِبَ عليكم الصيام مشبهاً ما كتب على الذين من قبلكم.

وقال بعض النحاة: الكاف في موضع رفع على النعت للصيام، إذ ليس تعريفه بمحض لمكان الإجمال الذي فيه مما فسرتة الشريعة، فلذلك جاز نعتها بكما، إذ لا تنعت بها إلا النكرات، فهو بمنزلة: ﴿كُتِبَ عليكم صِيَامٌ﴾ وقد ضعف هذا القول. واختلف المتأولون في موضع التشبيه - فقال الشعبي وغيره: المعنى: كتب عليكم رمضان كما كتب على النصراني، قال: فإنه كتب عليهم رمضان فبدلوه لأنهم احتاطوا له، بزيادة يوم في أوله، ويوم في آخره، قرناً بعد قرن، حتى بلغوه خمسين يوماً، فصعب عليهم في الحر فنقلوه

إلى الفصل الشتوي. قال النقاش: وفي ذلك حديث عن دغفل بن حنظلة، والحسن البصري، والسدي. وقيل: بل مرض ملك من ملوكهم، فنذر إن بريء أن يزيد فيه عشرة أيام، ثم آخر سبعة، ثم آخر ثلاثة، ورأوا أن الزيادة فيه حسنة بإزاء الخطأ في نقله. وقال السدي، والربيع: التشبيه هو أنه من الإفطار إلى مثله، لا يأكل ولا يشرب ولا يطرأ، فإذا حان الإفطار فلا يفعل هذه الأشياء من نام، وكذلك كان في النصراني أولاً، وكان في أول الإسلام، ثم نسخ الله بسبب عمر وقيس بن صرمة بما يأتي من الآيات في ذلك وقال عطاء: التشبيه كتب عليكم الصيام ثلاثة أيام من كل شهر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي بعض الطرق: ويوم عاشوراء، كما كتب على الذين من قبلكم ثلاثة أيام من كل شهر ويوم عاشوراء، ثم نسخ هذا في هذه الأمة بشهر رمضان، وقالت فرقة: التشبيه كتب عليكم كصيام بالإطلاق، أي: قد تقدم في شرع غيركم - فالذين عام في النصراني وغيرهم. و﴿لَمَّا كُتِبَ﴾ ترجع في حقهم، و﴿تَتَّقُونَ﴾ قال السدي: معناه تتقون الأكل والشرب والوطء بعد النوم على قول من تأول ذلك. وقيل: تتقون على العموم لأن الصيام كما قال عليه السلام جُئْتُ ووجاء وسبب تقوى لأنه يمتيت الشهوات. و﴿أَنِيَا﴾ مفعول ثان بـ﴿كُتِبَ﴾ قاله الفراء، وقيل: هي نصب على الظرف، وقيل: نصبها بالصيام، وهذا لا يحسن إلا على أن يعمل الصيام في الكاف من ﴿كَمَا﴾

على قول من قدر صوماً كما، وإذا لم يعمل في الكاف قبح الفصل بين المصدر وبين ما عمل فيه - بما عمل فيه غيره، وذلك إذا كان العامل في الكاف ﴿كُتِبَ﴾. وجوز بعضهم أن يكون ﴿أَنِيَا﴾ ظرفاً لعمل فيه الصيام. و﴿تَتَّقُونَ﴾ قيل: رمضان، وقيل: الثلاثة الأيام.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ أُمَّيَّةٌ أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ التقدير: فأفطر فعدة من أيام أخر، وهذا يسمونه فحوى الخطاب.

واختلف العلماء في حد المرض الذي يقع به الفطر - فقال قوم: متى حصل الإنسان في حال يستحق بها اسم المرض صح الفطر قياساً على المسافر أنه يفطر لعله السفر، وإن لم تدعه إلى الفطر ضرورة، وقاله ابن سيرين. وقال جمهور من العلماء: إذا كان به مرض يؤذيه ويؤلمه أو يخاف تعاديه، أو يخاف من الصوم تزيده صح له الفطر، وهذا مذهب حذاق أصحاب مالك وبه يناظرون، وأما لفظ مالك فهو: المرض الذي يشق على المروء ويتبلغ به. وقال الحسن: إذا لم يقدر من المرض على الصلاة قائماً أفطر، وقالت فرقة: لا يفطر بالمرض إلا مَنْ دعت ضرورة المرض نفسه إلى الفطر، ومتى احتمل الضرورة معه لم يفطر، وهذا قول الشافعي رحمه الله.

واختلف العلماء في الأفضل من الفطر والصوم في السفر - فقال قوم، والشافعي، ومالك - في بعض ما روي عنه: الصوم أفضل لِمَنْ قَوِيَّ، وجُلُّ مذهب مالك التخيير، وقال ابن

عباس، وابن عمر، وغيرهما: الفطر أفضل. وقال مجاهد، وعمر بن عبدالعزيز، وغيرهما: أيسرهما أفضلهما، وكره ابن حنبل وغيره الصوم في السفر، وقال ابن عمر: من صام في السفر قضى في الحضر وهو مذهب عمر رضي الله عنه.

ومذهب مالك في استحبابه الصوم لمن قدر عليه وتقصير الصلاة حسن. لأن الزمة تبرأ في رخصة الصلاة وهي مشغولة في أمر الصيام، والصواب المبادرة بالأعمال، وقال ابن عباس رضي الله عنه: الفطر في السفر عزيمة، وذهب أنس بن مالك إلى الصوم وقال: إنما نزلت الرخصة ونحن جوع، نروح إلى جوع، ونغدو إلى جوع. والسفر سفر الطاعة، كالحج والجهاد بإجماع، ويتصل بهذين سفر صلة الرحم وطلب المعاش الضروري، وأما سفر التجارة والمباحات فمختلف فيه بالمنع والجواز، والقول بالجواز أرجح. وأما سفر المعاصي فمختلف فيه بالجواز والمنع، والقول بالمنع أرجح. ومسافة سفر الفطر عند مالك حيث تقصر الصلاة. واختلف في قدر ذلك - فقال مالك: يوم وليلة، ثم رجع فقال: ثمانية وأربعون ميلاً، وروي عنه: يومان، وروي عنه في العتية: خمسة وأربعون ميلاً، وفي المبسوط: أربعون ميلاً، وفي المذهب: ستة وثلاثون ميلاً، وفيه: ثلاثون. وقال ابن عمر، وابن عباس، والثوري: الفطر في سفر ثلاثة أيام، وفي غير المذهب يقصر في ثلاثة أميال فصاعداً.

وقوله تعالى: ﴿وَمِدَّةٌ﴾، مرفوع على خبر الابتداء تقديره: فالحكم أو فالواجب عدة، ويصح أن يرتفع على ابتداء والخبر بعده، والتقدير: عدة أمثل له، ويصح: فعليه عدة. واختلف في وجوب متابعتها على قولين، و﴿أَخْرَجَ﴾ لا ينصرف عند سبويه لأنه معدول عن الألف واللام، لأن هذا البناء إنما يأتي بالألف واللام كما تقول: الفضل والكبر اجتمع فيه العدل والصفة. وجاء في الآية ﴿أَخْرَجَ﴾ ولم يجيء أخرى لثلاث تشكل بأنها صفة للعدة، والباب أن جمع مالا يعقل يجري في مثل هذا مجرى الواحدة المؤنثة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ أَوِي مَعَهُ﴾، إلى غير ذلك.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُطَوَّقُونَهُ﴾ بكسر الطاء وسكون الياء، والأصل: يطوقونه، نقلت حركة الواو إلى الطاء وقلبت ياء لانكسار ما قبلها، وقرأ حميد: ﴿يَطُوقُونَهُ﴾، وذلك على الأصل والقياس الإعلال. وقرأ ابن عباس ﴿يَطُوقُونَهُ﴾ بمعنى يكلفونه، وقرأت عائشة، وطاوس، وعمر بن دينار: ﴿يَطُوقُونَهُ﴾ بفتح الياء وشد الطاء مفتوحة. وقرأت فرقة: ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ بضم الياء وفتح الطاء وشد الياء مفتوحة، وقرأ ابن عباس: ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ بفتح الياء وشد الطاء المفتوحة وشد الياء المفتوحة بمعنى يتكلفونه، وحكاها النقاش عن عكرمة، وتشديد الياء في هذه اللفظة ضعيف.

وقرأ نافع، وابن عامر من طريق ابن ذكوان: ﴿فَذِيَّةٌ طَعَامٌ مَسَاكِينَ﴾

بإضافة الفدية. وقرأ هشام عن ابن عامر: ﴿فَذِيَّةٌ طَعَامٌ مَسَاكِينَ﴾ بتنوين الفدية. وقرأ الباقون: ﴿فَذِيَّةٌ﴾ بالتنوين ﴿طَعَامٌ مَسَاكِينَ﴾ بالإفراد، وهي قراءة حسنة لأنها بينت الحكم في اليوم. وجمع المساكين لا يدري كم منهم في اليوم إلا من غير الآية. وقال أبو علي: فإن قلت: كيف أفردوا المسكين والمعنى على الكثرة لأن الذين يطبقونه جمع، وكل واحد منهم يلزمه مسكين، فكأن الوجه أن يجمعوا كما جمع المطبقون؟ فالجواب أن الإفراد حسن، لأنه يفهم بالمعنى أن لكل واحد مسكيناً. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزِينُونَ لَمْ يَخْشَوْا رَبَّهُمْ فَاسْتَغْنَوْا﴾، فليست الثمانون متفرقة في جميعهم، بل لكل واحد ثمانون. واختلف المتأولون في المراد بالآية.

فقال معاذ بن جبل، وعلقمة، والنخعي، والحسن البصري، وابن عمر، والشعبي، وسلمة بن الأكوع، وابن شهاب: كان فرض الصيام هكذا على كل الناس، من أراد صام، ومن أراد أطعم مسكيناً وأفطر، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ اثْنَهُ فَلْيَصُمْهُ﴾ وقالت فرقة: وعلى الذين يطبقونه: أي على الشيوخ والعجز الذين يطبقون لكن بتكلف شديد، فأباح الله لهم الفدية والفطر، وهي محكمة عند قائلها هذا القول، وعلى هذا التأويل تجيء قراءة ﴿يَطُوقُونَهُ﴾.

وقال ابن عباس: نزلت هذه

الرخصة للشيخ والعجز خاصة، إذا أفطروا وهم يطيقون الصوم، ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ فزالت الرخصة، إلا لِمَنْ عجز منهم، وقال السدي: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: على الذين كانوا يطيقونه وهم بحالة الشباب، ثم استحالوا بالشيخ فلا يستطيعون الصوم، وهي عنده محكمة، ويلزم الشيخ عنده الفدية إذا أفطروا، ونحوه عن ابن عباس. وقال مالك: لا أرى الفدية على الشيخ الضعيف واجبة، وتستحب لمن قدر عليها، والآية عنده إنما هي فيمن يدركه رمضان وعليه صوم من المتقدم، فقد كان يطيق في تلك المدة الصوم فتركه فعليه الفدية، وقال الشافعي وأبو حنيفة: على الشيخ العاجز الإطعام، وحكى الطبري عن عكرمة أنه كان يقرؤها: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فَاَفْطَرُوا﴾. ومذهب مالك رحمه الله، وجماعة من العلماء أن قدر الفدية مَدًّا لكل مسكين، وقال قوم: قوت يوم، وقال قوم: عشاء وسحور، وقال سفيان الثوري: نصف صاع من قمح، أو صاع من تمر أو زبيب.

والضمير في ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ عائد على الصيام، وقيل: على الطعام، وهو قول ضعيف.

واختلف في الحامل - فقال ابن عمر، وابن عباس: تغدي وتفطر ولا قضاء عليها. وقال الحسن، وعطاء، والضحاك، والزهري، وربيعة، ومالك: تقضي الحامل إذا أفطرت، ولا فدية عليها. وقال الشافعي،

وأحمد بن حنبل، ومجاهد: تقضي وتفدي إذا أفطرت، وكذلك قال مالك في الموضع: إنها إذا أفطرت تقضي وتفدي، هذا هو المشهور، وقال في مختصر ابن عبدالحكم: لا إطعام على الموضع.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَقَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لِّكَ﴾ الآية، قال ابن عباس، وطاوس، وعطاء، والسدي: المراد من أطعم مسكينين فصاعداً وقال ابن شهاب: من زاد الإطعام مع الصوم، وقال مجاهد: من زاد في الإطعام على المد.

و﴿خَيْرٌ﴾ الثاني صفة تفضيل، وكذلك الثالث، وخير الأول قد نزل منزلة: مالا أو نفعاً. وقرأ أبي بن كعب: ﴿وَالصَّوْمُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ بدل: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يقتضي الحض على الصوم، أي فاعلموا ذلك وصوموا.

الشهر: مشتق من الاشتهار، لأنه مشتهر، لا يتعذر علمه على أحد يريده. ورمضان عِلْقُهُ الاسم من مدة كان فيها في المرض وشدة الحر. وكان اسمه قبل ذلك ناتقاً، كما سمي ربيع من مدة الربيع، وجمادى من مدة الجمود. وكره مجاهد أن يقال: رمضان، دون أن يقال: شهر رمضان، كما قال الله تعالى، وقال: لعل رمضان اسم من أسماء الله عز وجل، وقرأ جمهور الناس: ﴿شَهْرٌ﴾ بالرفع، ووجه خبر ابتداء، أي ذلكم شهر، وقيل: بدل من الصيام، وقيل: على الابتداء وخبره: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، وقيل:

ابتداء وخبره: ﴿فَمَنْ شَهِدَ﴾، و﴿الَّذِي أُنْزِلَ﴾ نعت له. فمن قال: إن الصيام في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ هي ثلاثة أيام وعاشوراء، قال: هاهنا بالابتداء، ومن قال: إن الصيام هنالك هو رمضان وهو الأيام المعدودة قال هنا بخبر الابتداء أو بالبدل من ﴿الصِّيَامِ﴾. وقرأ مجاهد، وشهر بن حوشب: ﴿شَهْرٌ﴾ بالنصب، ورواه أبو عمارة، عن حفص، عن عاصم، ورواه هارون عن أبي عمرو، وهي على الإغراء، وقيل: نصب (بِتَضَمُّنٍ) وقيل: نصب على الظرف. وقرأت فرقة بإدغام الراء في الراء، وذلك لا تقتضيه الأصول لاجتماع الساكنين فيه.

واختلف في إنزال القرآن فيه، فقال الضحاك: أنزل في فرضه وتعظيمه والحض عليه، وقيل: بُدِءَ بنزوله فيه على النبي ﷺ، وقال ابن عباس فيما يؤثر: أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة ليلة أربع وعشرين من رمضان، ثم كان جبريل ينزله رسلاً رسلاً في الأوامر والنواهي والأسباب. وروى واثله بن الأسقع عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿فَنَزَلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَالتَّوْرَةُ لِسِتِّ مَضْنَيْنِ مِنْهُ، وَالْإِنْجِيلُ لثَلَاثِ عَشْرَةٍ، وَالْقُرْآنُ لِأَرْبَعِ عَشْرِينَ﴾.

وترك ابن كثير همزة القرآن مع التعريف والتذكير حيث وقع، وقد قيل: إن اشتقاقه على هذه القراءة من قُرْنٍ وذلك ضعيف.

و﴿هُدًى﴾ في موضع نصب على الحال من القرآن، فالمراد أن القرآن بجملته من محكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ. هدى، ثم شُرِّفَ بالذكر والتخصيص ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ منه، يعني الحلال والحرام والمواظع والمحكم كله. فالألف واللام في ﴿الْمَدَنِيِّ﴾ للعهد، والمراد الأول و﴿الْفَرَقَاتِ﴾ المفرق بين الحق والباطل. و﴿شِهَابٍ﴾ بمعنى حَضَرٍ، و﴿الشَّهْرِ﴾ نُصِبَ على الظرف، والتقدير من حضر المصر في الشهر، وقرأ الحسن، وعيسى الثقفى، والزهري، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو حيو: ﴿فَلْيَسْتَمْتُمْ﴾ بتحريك اللام، وكذلك قرؤوا لَمْ الأمر في جميع القرآن على أصلها الذي هو الكسر. وقال علي بن أبي طالب، وابن عباس، وعبيدة السلماني: ﴿مَنْ شِهَابٍ﴾ أي من حضر دخول الشهر، وكان مقيماً في أوله فليكمل صيامه، سافر بعد ذلك أو أقام، وإنما يفطر في السفر من دخل عليه رمضان وهو في سفر. وقال جمهور الأمة: من شهد أول الشهر أو آخره فليصم ما دام مقيماً. وقال أبو حنيفة وأصحابه: من شهد الشهر بشروط التكليف غير مجنون ولا مُتَمَيٍّ عليه فليصمه، ومن دخل عليه رمضان وهو مجنون، وتمادى به طول الشهر، فلا قضاء عليه، لأنه لم يشهد الشهر بصفة يجب بها الصيام، ومن جُنَّ أول الشهر أو آخره فإنه يقضي أيام جنونه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونُصِبَ الشهر على هذا التأويل هو

على المفعول الصريح بِشَهْدٍ. قوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾، بمنزلة: أو مُسَافِراً فلذلك عطف على اسم. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، ويحيى بن وثاب، وابن هرمز، وعيسى بن عمر: ﴿الْيُسْرِ، وَالْفُسْرِ﴾ بضم السين، والجمهور بسكونه، وقال مجاهد، والضحاك بن مزاحم: اليسر: الفطر في السفر، والعسر: الصيام في السفر - والوجه عموم اللفظ في جميع أمور الدين، وقد فسر ذلك قول النبي ﷺ: «دين الله يُسْر».

وقوله تعالى: ﴿وَلْيُكْمِلُوا الْيَذَّةَ﴾ معناه: وليكمل من أفطر في سفره أو في مرضه عدة الأيام التي أفطر فيها، وقرأ أبو بكر، عن عاصم، وأبو عمرو في بعض ما روي عنه: ﴿وَلْيُكْمِلُوا﴾ بتشديد الميم، وقد روي عنهما التخفيف كالجماعة، وهذه اللام متعلقة: إما بـ﴿يُرِيدُ﴾ فهي اللام الداخلة على المفعول كالذي في قولك: ضربت لزيد، والمعنى: ويريد إكمال العدة، وهي مع الفعل مقدرة بأن، كأن الكلام: ويريد لأن تكملوا، هذا قول البصريين، ونحوه قول أبي صخر: أريد لأتسى ذكراً فكَأْتَمَا

وإما فعل مضمر بعد، تقديره: ولأن تكملوا العدة رخص لكم هذه الرخصة، وهذا قول بعض الكوفيين. ويحتمل أن تكون هذه اللام لام الأمر، والروا عاطفة جملة كلام على جملة كلام.

وقوله: ﴿وَلْيُكْمِلُوا اللَّهَ﴾، حض

على التكبير في آخر رمضان، واختلف الناس في حذ - فقال ابن عباس: يُكَبِّرُ المُرَّةَ مِنْ رُؤْيَةِ الْهَلَالِ إِلَى انْقِضَاءِ الْخُطْبَةِ، ويمسك وقت خروج الإمام، وَيُكَبِّرُ بتكبيره. وقال قوم: يُكَبِّرُ من رؤية الهلال إلى خروج الإمام إلى الصلاة. وقال سفيان: هو التَّكْبِيرُ يوم الفطر. وقال مالك: هو من حين يخرج الرجل من منزله إلى أن يخرج الإمام.

ولفظه عند مالك وجماعة من العلماء: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. ثلاثاً، ومن العلماء من يكبر ثم يهمل ويسبح أثناء التكبير، ومنهم من يقول: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، وقد قيل غير هذا، والجميع حسن واسع مع البدأة بالتكبير.

و﴿هَدَنَكُمْ﴾ قيل: المراد لما ضل فيه النصارى من تبديل صيامهم، وتعميم الهدى جيد. ﴿وَلَلَّكُم تَشْكُورًا﴾ تَرَجُّعٌ في حق البشر، أي: على نعمة الله في الهدى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ الآية، قال الحسن بن أبي الحسن: سببها أن قوماً قالوا للنبي ﷺ: أَقْرَبُ رَبِّنا فَتَنَاجِيهِ أَمْ بَعِيدُ فَنُتَادِيهِ؟ فنزلت. وقال عطاء: لما نزلت: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال قوم: في أي ساعة ندعوه؟ فنزلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ وقال مجاهد: بل قالوا: إلى أين ندعوه؟ فنزلت هذه الآية، وقال قتادة: بل قالوا: كيف ندعوه؟ فنزلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾ رُوي أَنَّ

الشين باختلاف عنهما، قرأ هذه القراءة والتي قبلها.

﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

لفظة ﴿أُحِلَّ﴾ تقتضي أنه كان محرماً قبل ذلك، و﴿لَيْلَةً﴾ نصب على الظرف، وهي اسم جنس فلذلك أفردت، ونحوه قول عامر الرام الخضري المحاري:

هُمُ الْمَوْلَى وَقَدْ جَنَّفُوا عَلَيْنَا
وَأَنَا مِنْ عَدَاوَتِهِمْ لَزُورُ
و﴿أَزَقْتُ﴾ كناية عن الجماع، لأن الله تعالى كريم يكنى، قاله ابن عباس، والسدي. وقرأ ابن مسعود ﴿الرُّفُوثُ﴾. و﴿أَزَقْتُ﴾ في غير هذا ما فُحش من القول، ومنه قول الشاعر:

.....

عَنِ الْلُغَا وَزَقَّتِ الشُّكْلُمُ
وقال أبو إسحاق: الرفت كل ما يأتيه الرجل مع المرأة من قبله ولمس وجماع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أو كلام في هذه المعاني، ومنه قول النبي ﷺ: ﴿مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَزِفْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ خَطَايَاهُ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ﴾.

وسبب هذه الآية فيما قال ابن عباس، وغيره: أن جماعة من المسلمين اختانوا أنفسهم، وأصابوا النساء بعد النوم أو بعد صلاة العشاء على الخلاف. منهم عمر بن الخطاب، جاء إلى امرأته فأرادها فقالت له: قد نمت فظن أنها تعتل فوقع بها، ثم تحقق أنها قد كانت نامت، وكان الوطء بعد نوم أحدهما ممنوعاً. وقال السدي: جرى له هذا

الدعاء، والوصف بمجانب الدعوة وصف بحسن النظر، والبعد عن الاعتداء، والتوفيق من الله تعالى إلى الدعاء في مقدور. وانظر أن أفضل البشر المصطفى محمداً ﷺ قد: «دعا أن لا يجعل بأس أمته بينهم». الحديث فُتِنَ بِهَا إِذْ كَانَ الْقَدْرُ سَبْقَ بَغِيرِ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ قال أبو رجاء الخراساني: معناه: فليدعوا لي.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: المعنى:

فليطلبوا أن أجيبهم، وهذا هو باب استفعل، أي طلب الشيء إلا ما شذ مثل استغنى الله.

وقال مجاهد، وغيره: المعنى: فليستجيبوا لي، فيما دعوتهم إليه من الإيمان، أي بالطاعة والعمل. ويقال: أجاب واستجاب بمعنى ومنه قول الشاعر:

وَدَاعَ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى الثَّدَى
فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبُ
أي لم يجبه.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيُؤْمَرُوا بِي﴾ قال أبو رجاء: في أي أجيب دعاءهم، وقال غيره: بل ذلك دعاء إلى الإيمان بجملته.

وقرأ الجمهور: ﴿يَرْضُدُّوكَ﴾ بفتح الياء وضم الشين، وقرأ قوم بضم الياء وفتح الشين، وروي عن ابن أبي عتبة، وأبي حيو: فتح الياء وكسر

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَاوِ الرَّفْتُ إِلَى صَاكِكُمْ مِنْ لِيَّاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٍ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَاقْنِ بَيْنَهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرْوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمْ فِي السُّجُودِ يَتْلُو حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَهْلِ كُلِّ هِيَ مَوْفِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحُجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ أَتَى وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَوْا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ﴿٤٠﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْسُقُونَ وَلَا تَقْتَدُوا بِهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤١﴾

المشركين قالوا لما نزل: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، كيف يكون قريباً من بيننا وبينه على قولك سبع سماوات في غلظ سمك كل واحدة خمسمائة عام وفيما بين كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَاكَ﴾، أي فَإِنِّي قريب بالإجابة والقدرة. وقال قوم: المعنى: أجيب إن شئت، وقال قوم: إن الله تعالى يجيب كل الدعاء فيما أن تظهر الإجابة في الدنيا، وإما أن يكفر عنه، وإما أن يُدْخِرْ له أجر في الآخرة، وهذا بحسب حديث الموطأ: «مَا مِنْ دَاعٍ يَدْعُو إِلَّا كَانَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثِ» الحديث. وهذا إذا كان الدعاء على ما يجب دون اعتداء، فإن الاعتداء في الدعاء ممنوع، قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ قال المفسرون: أي في

في جارية له، قالوا: فذهب عمر فاعتذر عند رسول الله ﷺ، وجرى نحو هذا لكعب بن مالك الأنصاري، فنزل صدر الآية فيهم، فهي ناسخة للحكم المتقرر في منع الوطء بعد النوم.

وحكى النحاس، ومكي أن عمر نام، ثم وقع بامرأته، وهذا عندي بعيد على عمر رضي الله عنه. وروي أن صرمة بن قيس، ويقال: صرمة بن مالك، ويقال: أبو أنس قيس بن صرمة نام قبل الأكل فبقي لذلك دون أكل حتى غشي عليه في نهاره المقبل، فنزل فيه من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾.

واللباس: أصله في الثياب، ثم شبه التباس الرجل بالمرأة وامتزاجهما وتلازمهما بذلك، كما قال النابغة: إذا ما الضَّجِيعُ تُسَّى جِيدَهَا تَدَاعَتْ فُكَاثَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا وقال النابغة أيضاً:

لَبِسْتُ أَنَسًا فَأَقْسَيْتُهُمْ وَأَقْسَيْتُ بَعْدَ أَنَسٍ أَنَسَا فشبه خلطته لهم باللباس. نحا هذا المنحى في تفسير اللباس الربيع، وغيره. وقال مجاهد، والسدي: لباس: سكن، أي يسكن بعضهم إلى بعض.

وإنما سميت هذه الأفعال اختياناً لعاقبة المعصية وجزائها، فراكبها يخون نفسه ويؤذيها.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: من المعصية التي واقعتها، ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ يحتمل أن يريد عن المعصية بعينها، فيكون ذلك تأكيداً وتأنيساً بزيادة على التوبة، ويحتمل أن يريد

عفا عما كان ألزمكم من اجتناب النساء فيما يؤتف بمعنى تركه لكم. كما تقول: شيء مغفوق عنه أي متروك.

قال ابن عباس، وغيره: ﴿يَتَشَرَّوْهُنَّ﴾ كناية عن الجماع مأخوذ من البشرة، وقد ذكرنا لفظة ﴿الْفَنَ﴾ في ماضي قصة البقرة، ﴿وَأَتَقُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، والحكم ابن عتيبة، وعكرمة، والحسن، والسدي، والربيع، والضحاك - معناه: وابتغوا الولد. وروي أيضاً عن ابن عباس وغيره أن المعنى: وابتغوا ليلة القدر، وقيل: المعنى: ابتغوا الرخصة والتوسعة. قاله قتادة، وهو قول حسن. وقرأ الحسن - فيما روي عنه - ومعاوية بن قرة: وَأَتَبَعُوا مِنَ الْأَتْبَاعِ، وجوزها ابن عباس، ورجح ابتغوا من الابتغاء.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ﴾ نزلت بسبب صرمة بن قيس، و﴿حَتَّى﴾ غاية للتبيين، ولا يصح أن يقع التبيين لأحد ويحرم عليه الأكل إلا وقد مضى لطلوع الفجر قدر، و﴿الْعَطَشُ﴾ استعارة وتشبيه لرقعة البياض أولاً ورقعة السواد الحاف به، ومن ذلك قول أبي ذؤاد:

قَلَمًا بَصَرَزَنٍ بِهِ غَدَوَةٌ وَلَا حَ مِنْ الْفَجْرِ خَيْطٌ أَنَارَا وَيروى (فَنَارَا)، وقال بعض المفسرين: الخيط: اللون، وهذا لا يطرد لغة، والمراد فيما قال جميع العلماء: بياض النهار وسواد الليل، وهو نص قول النبي - ﷺ - لعدي بن حاتم في حديثه المشهور،

﴿يَنْ﴾ الأولى لا ابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، و﴿الْفَجْرِ﴾ مأخوذ من تفجر الماء لأنه يتفجر شيئاً بعد شيء.

وروي عن سهل بن سعد، وغيره من الصحابة أن الآية نزلت إلا قوله: ﴿يَنْ الْفَجْرِ﴾ فصنع بعض الناس خططين أبيض وأسود، فنزل قوله تعالى: ﴿يَنْ الْفَجْرِ﴾ - وروي أنه كان بين طرفي المدة عام من رمضان إلى رمضان تأخر البيان إلى وقت الحاجة. وعدي بن حاتم جعل خططين على وسادة وأخبر النبي ﷺ فقال له: «إِنَّ وسادك لعريض»، وروي أنه قال له: «إِنَّك لعريض القفا»، ولهذه الألفاظ تأويلان.

واختلف في الحد الذي يَتَبَيَّنُ يجب الإمساك، فقال الجمهور - وبه أخذ الناس، ومضت عليه الأمصار والأعصار، ووردت به الأحاديث الصحاح - ذلك الفجر المعترض الآخذ في الأفق يمنة ويسرة، فبطول أوله في الأفق يجب الإمساك وهو مقتضى حديث ابن مسعود، وسُمره بن جندب.

وروي عن عثمان بن عفان، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس وطلق بن علي، وعطاء بن أبي رباح، والأعمش، وغيرهم: أن الإمساك يجب بتبين الفجر في الطرق، وعلى رؤوس الجبال، وذكر عن حذيفة أنه قال: تسحرت مع رسول الله ﷺ وهو النهار إلا أن الشمس لم تطلع، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه صلى الصبح بالناس ثم قال: «الآن

تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود. قال الطبري: «وما قادمهم إلى هذا القول أنهم يرون أن الصوم إنما هو في النهار، والنهار عندهم من طلوع الشمس، لأن آخره غروبها فكذا أوله طلوعها».

وحكى النقاش، عن الخليل بن أحمد أن النهار من طلوع الفجر، ويدل على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَقْرِضْ مَن لَّدَكَ مِنَ الْبُيُوتِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول في نفسه صحيح وقد ذكرت حجته في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وفسي الاستدلال بهذه الآية نظر ومن أكل وهو يشك: هل طلع الفجر أم لم يطلع؟ فعليه عند مالك القضاء.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُواْ الْبَيْتَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أمر يقتضي الوجوب، و﴿إِلَى﴾ غاية، وإذا كان ما بعدها من جنس ما قبلها فهو داخل في حكمه، كقولك: اشترت الفدان إلى حاشيته، وإذا كان من غير جنسه كما تقول: اشترت الفدان إلى الدار لم يدخل في المحدود ما بعد إلى.

ورأت عائشة رضي الله عنها أن قوله: ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ يقتضي النهي عن الوصال، وقد واصل النبي ﷺ ونهى الناس عن الوصال، وقد واصل جماعة من العلماء.

وقد تقدم أن هذه الآية نسخت الحكم الذي في قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ على قول من رأى التشبيه في الامتناع من الوطء والأكل بعد النوم في قول

بعضهم، وبعد صلاة العشاء في قول بعضهم.

والليل الذي يتم به الصيام مغيب قرص الشمس، فمن أفطر وهو شاك هل غابت الشمس، فالمشهور من المذهب أن عليه القضاء والكفارة، وفي ثمانية أبي زيد: عليه القضاء فقط قياساً على الشاك في الفجر، وهو قول جماعة من العلماء، وقال إسحاق والحسن: لا قضاء عليه كالناسي عنده.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْتَغُواْ فِي السُّبُلِ﴾ قالت فرقة: المعنى: لا تجامعوهن، وقال الجمهور: ذلك يقع على الجماع فما دونه مما يتلذذ به من النساء، و﴿عَبَثُواْ﴾ ملازمون، يقال: عكف على الشيء إذا لازمه مقبلاً عليه، قال الراجز:

.....

عكف النبط يلعبون الفنزجا
وقال الشاعر:

وَقَدْ بَنَتْ أَلَّيْلَ حَوْلِيْ عَكْفًا
عُكُوفَ الْبَوَاكِي بَيْنَهُنَّ صَرِيْعُ
وقال أبو عمرو، وأبو حاتم: قرأ قتادة: ﴿عَكُفُونَ﴾ بغير ألف، والاعتكاف سُتَّةٌ. وقرأ الأعمش: ﴿في المسجد﴾ بالإنفراد، وقال: هو المسجد الحرام. قال مالك رحمه الله وجماعة معه: لا اعتكاف إلا في مساجد الجماعات، وروي عن مالك أيضاً أن ذلك في كل مسجد، ويخرج إلى الجمعة كما يخرج إلى ضروري أشغاله، وقال قوم: لا اعتكاف إلا في أحد المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ المِطِيُّ إليها، وقالت فرقة،

لا اعتكاف إلا في مسجد نبي. وقال مالك: لا يعتكف أقل من يوم وليلة، ومن نذر أحدهما لزمه الآخر. وقال سحنون: من نذر اعتكاف ليلة لم يلزمه شيء، وقالت طائفة: أيهما نذر اعتكفه ولم يلزمه أكثر. وقال مالك: لا اعتكاف إلا بصوم، وقال غيره: يعتكف بغير صوم. وروي عن عائشة أنه يعتكف في غير مسجد، و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى هذه الأوامر والنواهي. والحدود: الحواجز بين الإباحة والحظر، ومنه قيل للبواب حداد لأنه يمنع، ومنه الحاذ لأنها تُمنع من الزينة.

والآيات: العلامات الهادية إلى الحق، و﴿لَكُمْ﴾ ترج في حقهم، وظاهر ذلك عموم، ومعناه خصوص فيمن يسره الله للهدى بدلالة الآيات التي تتضمن أن الله يفضل من يشاء.

﴿١٩٠﴾ - ﴿١٨٩﴾ تفسير قوله عز وجل:
الخطاب لأمة محمد ﷺ، والمعنى: لا يأكل بعضكم مال بعض، فأضيفت الأموال إلى ضمير المنهي لما كان كل أحد منهياً ومنهياً عنه، وكما قال: ﴿تَتَلَوْنَهَا﴾.

ويدخل في هذه الآية القمار والخداع والغصب وجدد الحقائق وغير ذلك، ولا يدخل فيه الغبن في البيع مع معرفة البائع بحقيقة ما بيع لأن الغبن كأنه وهبه.

وقال قوم: المراد بالآية: ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل أي في الملاهي والقيان، والشرب والبطالة.

فتجيء على هذا إضافة المال إلى ضمير المالكين.

وقوله تعالى: ﴿وَتَذَلُّوا بِهَا﴾ الآية، يقال: أدلى الرجل بالحجة، أو بالأمر الذي يرجو النجاح به، تشبيهاً بالذي يرسل الدلو في البئر يرجو بها الماء.

قال قوم: معنى الآية: تُسارعون في الأموال إلى المخاصمة إذا علمتم أن الحجة تقوم لكم، إما بألا تكون على الجاحد بينة، أو يكون مال أمانة، كاليتيم ونحوه، مما يكون القول فيه قوله، فالباء في ﴿بِهَا﴾ باء السبب.

وقيل معنى الآية: ترشوا بها على أكل أكثر منها، فالباء إلزاق مجرد، وهذا القول يترجح لأن الحكماء مظنة الرشاء، إلا من عُصِمَ وهو الأقل، وأيضاً فإن اللفظتين متناسبتان: تُذَلُّوا مِنْ أَرْسَلِ الدَّلُو، والرشوة من الرشاء، كأنها يمد بها لتقصي الحاجة.

﴿وَتَذَلُّوا﴾ في موضع جزم عطفاً على ﴿تَأْكُلُوا﴾، وفي مصحف أبي: ﴿وَلَا تُذَلُّوا﴾ بتكرار حرف النهي، وهذه القراءة تؤيد جزم ﴿وَتَذَلُّوا﴾ في قراءة الجماعة.

وقيل: ﴿وَتَذَلُّوا﴾ في موضع نصب على الظرف، وهذا مذهب كوفي، أن معنى الظرف هو الناصب، والذي ينصب في مثل هذا عند سيبويه (أن) مضرة.

والفريق: القطعة والجزء و﴿بِالْإِثْمِ﴾ معناه: بالظلم والتعدي، وسُمي ذلك إثمًا لما كان الإثم معنى يتعلق بفاعله، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي

أنكم مبطلون آثمون، وهذه مبالغة في المعصية والجرأة.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَكُونُكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾، الآية - قال ابن عباس، وقتادة، والربيع، وغيرهم: نزلت على سؤال قوم من المسلمين النبي ﷺ عن الهلال. وما فائدة محاقه وكماله ومخالفته لحال الشمس؟

وجُمع وهو واحد في الحقيقة من حيث كونه هلالاً في شهر غير كونه هلالاً في الآخر، فإنما جمع أحواله من الهلالية، والهِلال ليلتان بلا خلاف ثم يُقْصَر، وقيل: ثلاث، وقال الأصمعي: هو هلال حتى يُخَجَّر ويستدير له كالخيوط الرقيق، وقيل: هو هلال حتى يبهز بضوئه السماء وذلك ليلة سبع.

وقوله: ﴿مَوَاقِيتُ﴾ معناه: لمَحَلُّ الديون وانقضاء العدد والأكرية وما أشبه هذا من مصالح العباد، ومواقيت الحج أيضاً يُعرف بها وقته وأشهره.

﴿مَوَاقِيتُ﴾ لا ينصرف، لأنه جمع لا نظير له في الأحاد، فهو جمع ونهاية جمع، إذ ليس يجمع. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿وَالْحَجُّ﴾ بكسر الحاء في جميع القرآن. وفي قوله: ﴿حَجَّ أَلْبَيْتَ﴾ في آل عمران، قال سيبويه: الحَجُّ كالرَّد والشَّد، والحجُّ كالذَّكْر فهما مصدران بمعنى، وقيل: الفتح مصدر، والكسر الاسم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾ الآية، قال البراء بن عازب، والزهري، وقتادة: سببها أن الأنصار كانوا إذا حجوا أو اعتمروا يلتزمون تشريعاً ألا

يحول بينهم وبين السماء حائل، فكانوا يتسمنون ظهور بيوتهم على الجدران، وقيل: كانوا يجعلون في ظهور بيوتهم فتوحاً يدخلون منها، ولا يدخلون من الأبواب، وقيل غير هذا مما يشبهه فاختصرته، فجاء رجل منهم فدخل من باب بيته فغُيِّرَ بذلك فنزلت الآية.

وقال إبراهيم: كان يفعل ما ذكر قوم من الحجاز. وقال السدي: ناس من العرب، وهم الذين يسمون الحمس. قال: فدخل النبي ﷺ باباً ومعه رجل منهم، فوقف ذلك الرجل، وقال: «إني أحمس» فقال له النبي ﷺ: «وأنا أحمس»، فنزلت الآية. وروى الربيع أن النبي ﷺ دخل وخلفه رجل أنصاري فدخل وخرق عادة قومه، فقال له النبي ﷺ: «لم دخلت وأنت قد أحمرمت؟» قال: دخلت أنت فدخلت بدخولك، فقال له النبي ﷺ: «إني أحمس» أي من قوم لا يدينون بذلك، فقال الرجل: «وأنا ديني دينك» فنزلت الآية. وقال أبو عبيدة:

الآية ضرب مثل، المعنى: ليس البر أن تسألوا الجهال، ولكن اتقوا واسألوا العلماء، فهذا كما يقال: أتيت هذا الأمر من باب. وقال غير أبي عبيدة: المعنى: ليس البر أن تشدوا في الأسئلة عن الأهلة وغيرها، فتأتون الأمور على غير ما يجب، وهذا يحتمل الأول أسد.

وأما ما حكاه المهدوي، ومكي عن ابن الأنباري من أن الآية مثل في جماع النساء فبعيد مُغَيِّرُ نمط الكلام. وقرأ ابن كثير، وابن عامر،

لكم أيها المؤمنون أن توقعوه بهم .
ويحتمل أن يكون المعنى : والفتنة
أي الكفر والضلال، الذي هم فيه
أشد في الحرّم، وأعظم جزماً من
القتل الذي عيروكم به في شأن ابن
الحضرمي .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا مَن دُونَهُ﴾ الآية، قال الجمهور:
كان هذا ثم نسخ، وأمر بالقتال في
كل موضع . قال الربيع: نسخه:
﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ . وقال
قتادة: نسخه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ
الْأَكْثَرُ لِمَ قُتِلَ فَاذْكُرْهُمُ قَاتِلُوا الشِّرْكَ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وقال مجاهد: الآية
محكمة، ولا يجوز قتال أحد في
المسجد الحرام إلا بعد أن يقاتل .
وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش:
﴿وَلَا تَقْتُلُوا مَن دُونَهُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ
فَاقْتُلُوهُمْ﴾ بالقتل في الأربعة، ولا
خلاف في الأخيرة أنها ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾،
والمعنى على قراءة حمزة،
والكسائي، والأعمش: فإن قتلوا
منكم فاقتلوهم أيها الباقون، وذلك
كقوله تعالى: ﴿قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ
كَيْدًا فَمَا وَهَرُوا﴾ أي: فما وهن
الباقون .

والانتها في هذه الآية: هو
الدخول في الإسلام، لأن غفران الله
ورحمته إنما تكون مع ذلك .

وقوله تعالى: ﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ
فِتْنَةً﴾ أمر بالقتال لكل مشرك في كل
موضع، على قول من رآها ناسخة،
ومن رآها غير ناسخة قال: المعنى:
قاتلوا هؤلاء الذين قال الله فيهم:
﴿فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾، والأول أظهر، وهو

قاتلوا الذين هم بحالة من
يقاتلكم، ولا تعتدوا في
قتل النساء والصبيان
والرهبان وشبههم، فهي
محكمة على هذا القول،
وقال قوم: المعنى:
لا تعتدوا في القتال لغير
وجه الله، كالحمية وكسب
الذكر .

١٩١ - ١٩٢ تفسير قوله
عز وجل:
قال ابن إسحاق وغيره:
نزلت هذه الآية في شأن
عمرو بن الحضرمي
وواقده، وهي سرية
عبدالله بن جحش .
و﴿تَقْتُلُوهُمْ﴾ معناه:

أحكمتم غلبهم، ولقيتموهم قادين
عليهم، يقال: رجل ثقّف لقف، إذا
كان محكماً لما يتناوله من الأمور،
﴿وَأَنْزِلُوهُمْ﴾ قال الطبري: الخطاب
للمهاجرين، والضمير لكفار قريش .
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
بل الخطاب لجميع المؤمنين،
ويقال: أخرجوكم إذا أخرجوا
بعضهم الأجل قدراً . وهم النبي ﷺ
والمهاجرين .

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: الفتنة
التي حملوكم عليها، وراموكم بها
على الرجوع إلى الكفر، أشد من
القتل .

قال مجاهد: أي من أن يُقتل
المؤمن، فالقتل أخف عليه من
الفتنة . قال غيره: بل المعنى:
الفتنة التي فعلوا أشد في هتك
حُرّمات الحق من القتل الذي أبيح

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرِجُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوا مَن دُونَهُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا
فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ
الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشُّهْرُ الْحَرَامُ
بِالشُّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ فِصَاصٌ مِّنْ أَعْدَتِي عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا
عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْدَتِي عَلَيْكُمْ وَأَنْتَوُا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْتَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَقْلُوا بَآيَاتِ اللَّهِ لِيُكَلِّمَكُمُ
وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَيُّوهُ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ
فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا بِرُءُوسِكُمْ بِإِلَهِكُمْ
لَهْدًى حِلَّةً قَدْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضٌ أَوْ يَدٌ أَوْ يَدٌ مِنْ رَأْسِهِ فَيَقْدِرُ
مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِّنْ تَمَعٍ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ
فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً
إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَأَنْتَوُا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

والكسائي، ونافع بخلاف عنه:
﴿البيوت﴾ بكسر الباء . وقرأ بعض
القراء: ﴿وَلَكِنَّ الْآلِ﴾ بتشديد نون
(لكن) ونصب (البر)، وقد تقدم
القول على ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ
ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾، ﴿وَأَنْتَقُوا﴾ معناه: اجعلوا
بينكم وبين عقابه وقاية،
﴿وَلِلَّهِكُمْ﴾ ترج في حق البشر،
والفلاح: درك البغية .

وقوله تعالى: ﴿وَقَتْلُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ﴾ الآية، هي أول آية نزلت في
الأمر بالقتال، قال ابن زيد،
والربيع: معناها: قاتلوا من قاتلكم،
وَقُتُّوا عَنْكُمْ كَفَ عَنْكُمْ، ولا تعتدوا
في قتال من لم يقاتلكم، وهذه
الموادعة منسوخة بآية براءة ويقول:
﴿وَقَتْلُوا الشِّرْكَ كَافَّةً﴾ .

وقال ابن عباس، وعمر بن
عبد العزيز، ومجاهد: معنى الآية:

أمر بقتال مطلق، لا بشرط أن يبدأ الكفار، دليل ذلك قوله: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾، والفتنة هنا: الشرك وما تابعه من أذى المؤمنين، قاله ابن عباس، وقتادة، والربيع، والسدي، و﴿الَّذِينَ﴾ هنا الطاعة والشرع. وقال الأعشى ميمون بن قيس:

هو دأب الرِّبَابِ إِذْ كَرِهُوا الدِّينَ
بِزَاكَاءٍ بِغَزْوَةٍ وَصِيَالٍ
والانتهاء في هذا الموضع يصح مع عموم الآية في الكفار أن يكون الدخول في الإسلام، ويصح أن يكون أداء الجزية.

وسمي ما يُصنع بالظالمين عدواناً من حيث هو جزاء عدوان، إذ الظلم يتضمن العدوان، والعقوبة تسمى باسم الذنب في غير ما موضع والظالمون: هم - على أحد التأويلين - من بدأ بقتال، وعلى التأويل الآخر من بقي على كفر وفتنة.

وقوله تعالى: ﴿النَّهْرُ لَمَرٌّ﴾ بالنَّهْرِ لَمَرٌّ أي عباس، ومجاهد، وقتادة، ويقسم والسدي، والربيع، والضحاك، وغيرهم: نزلت في عمرة القضية وعام الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً حتى بلغ الحديبية سنة ست، فصده كفار قريش عن البيت، فانصرف، ووعد الله أنه سيدخله عليهم فدخله سنة سبع، فنزلت الآية في ذلك، أي: الشهر الحرام الذي غلبكم الله فيه وأدخلكم الحرم عليهم، بالشهر الحرام الذي صدوكم فيه.

ومعنى ﴿وَالْمَرْبُوتُ يَمَاسٌ﴾ على هذا التأويل أي: حرمة الشهر، وحرمة

البلد، وحرمة المحرمين حين صددم بحرمة البلد والشهر والقطان حين دخلتم.

وقال الحسن بن أبي الحسن: نزلت الآية في أن الكفار سألوا النبي ﷺ: هل يقاتل في الشهر الحرام؟ فأخبرهم أنه لا يقاتل فيه، فهموا بالهجوم عليه فيه، وقتل من معه حين طمعوا أنه لا يذافع فيه، فنزلت: ﴿النَّهْرُ لَمَرٌّ﴾ بالنَّهْرِ لَمَرٌّ أي هو عليكم في الامتناع من القتال أو الاستباحة بالشهر الحرام عليهم في الوجهين، فأية سلكو فاسلكوا، ﴿وَالْمَرْبُوتُ﴾ على هذا جمع حرمة عموماً: النفس، والمال، والعرض، وغير ذلك. فأباح الله بالآية مدافعتهم. والقول الأول أكثر.

وقالت فرقة: قوله: ﴿وَالْمَرْبُوتُ يَمَاسٌ﴾ مقطوع مما قبله، وهو ابتداء أمرٍ كان في أول الإسلام أن من انتهك حرمتك يُلْتَمَسَ منه مثل ما اغتدّي عليك به، ثم نسخ ذلك بالقتال.

وقالت طائفة: ما تناول من الآية التعدي بين أمة محمد والجنائيات ونحوها لم ينسخ، وجازز لمن تُعَدِّي عليه في مال أو جرح أن يتعدى بمثل ما تُعَدِّي عليه به إذا خفي ذلك له وليس بينه وبين الله في ذلك شيء، قاله الشافعي، وغيره وهي رواية في مذهب مالك.

وقالت طائفة - منهم مالك - ليس ذلك له، وأمور القصاص وقُفَّتْ على الحكام. والأموال يتناولها قول النبي ﷺ: «أَدَّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ

اتَّعَمَّنَكَ، ولا تخن من خاتك». وقرأ الحسن ابن أبي الحسن: ﴿وَالْحُرُمَاتُ﴾ بسكون الراء.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَغْتَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ الآية. اختلف في نسخ هذه الآية حسب ما تقدم، وسُمِّيَ الجزاء على العدوان عدواناً كما قال: ﴿اللَّهُ يَنْتَهِيَنَّ رِجْمًا﴾ إلى غير ذلك ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ قيل: معناه في ألا تعتدوا. وقيل: في ألا تزيدوا على المثل.

وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية وما هو في معناها بمكة والإسلام لم يُعَزَّ، فلما هاجر رسول الله ﷺ وعزَّ دينه أمر المسلمون برفع أمورهم إلى حكامهم، وأمروا بقتال الكفار، وقال مجاهد: بل نزلت هذه الآية بالمدينة بعد عمرة القضاء، وهي في التدرج في الأمر بالقتال.

﴿١٩٥﴾ - ﴿١٩٦﴾ تفسير قوله عز وجل: سبيل الله هنا: الجهاد - واللفظ يتناول - بعد - جميع سبيله.

وقال أبو عبيدة، وقوم: الباء في قوله: ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ زائدة. التقدير: (تَلْقُوا أَيْدِيَكُمْ).

وقال الجمهور: ذلك ضرب مثل. تقول: ألقى فلان يده في أمر كذا إذا استسلم، لأن المستسلم في القتال يلقي سلاحه بيده، فكذاك فُعل كل عاجز في أي فعل كان، ومنه قول عبدالمطلب: «والله إن إلقاءنا بأيدينا إلى الموت لعجز».

وقال قوم: التقدير: لا تَلْقُوا أنفسكم بأيديكم، كما تقول: لا تفسد حالك برأيك.

و﴿النَّهْلُ﴾ بضم اللام مصدر منهلك. وقرأ الخليل: ﴿النَّهْلُ﴾

بكسر اللام، وهي مفعلة من هَلَكَ بشد اللام.

وروي عن أبي أيوب الأنصاري أنه كان على القسطنطينية فحمل رجل على عسكر العدو فقال قوم: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: لا. إن هذه الآية نزلت في الأنصار حين أرادوا - لما ظهر الإسلام - أن يتركوا الجهاد، ويعمروا أموالهم، وأما هذا فهو الذي قال الله فيه: ﴿وَيَتَذَكَّرُ أَلْئَاسٍ مِّنْ يَّشْرِي نَفْسَهُ أَتَيْكَآ مِّمَّكَاتِ اللَّهِ﴾.

وقال حذيفة بن اليمان، وابن عباس، والحسن، وعطاء، وعكرمة، وجمهور الناس: المعنى: لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله، وتخافوا العيلة، فيقول الرجل: ليس عندي ما أنفق.

وقال قوم: المعنى، لا تقنطوا من التوبة.

وقال البراء بن عازب، وعبيدة السلماني: الآية في الرجل يقول: قد بلغت في المعاصي، فلا فائدة في التوبة، فينهمك بعد ذلك.

وقال زيد بن أسلم: المعنى: لا تسافروا في الجهاد بغير زاد، وقد كان فعل ذلك قوم فأداهم ذلك إلى الانقطاع في الطريق، أو الكون عالة على الناس.

وقوله: ﴿وَأَخْيَرُوا﴾ قيل: معناه: في أعمالكم بامثال الطاعات، وروي ذلك عن بعض الصحابة.

وقيل: المعنى: وأحسنوا في الإنفاق في سبيل الله، وفي الصدقات، قاله زيد بن أسلم.

وقال عكرمة: المعنى: وأحسنوا الظن بالله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا نَجِّ وَأَقْرَبَ﴾ قال ابن زيد، والشعبي، وغيرهما: إتمامهما ألا يفسخا، وأن تُتَمَّما إذا بدأت بهما. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إتمامهما أن تحرم بهما من ذؤيرة أهلك، وفعله عمران بن حصين. وقال سفيان الثوري: إتمامهما أن تخرج قاصداً لهما، لا لتجارة، ولا لغير ذلك، ويؤيد هذا قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ وقال قتادة، والقاسم بن محمد: إتمامهما أن تحرم بالعمرة وتقضيها في غير أشهر الحج، وأن تسم الحج دون نقص ولا جبر بدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مبني على أن الدم في الحج والعمرة جبرٌ نقص، وهو قول مالك وجماعة من العلماء. وأبو حنيفة وأصحابه يرون أن كثرة الدم كمالٌ وزيادة، وكلما كثر عندهم لزوم الدم فهو أفضل، واحتجوا بأنه قيل للنبي ﷺ: ما أفضل الحج؟ فقال: «الحج والشح» ومالك ومن قال بقوله يراه شح التطوع. وقالت فرقة: إتمامهما أن تفرد كل واحدة من حجة وعمرة ولا تقرن، وهذا على أن الأفراد أفضل. وقالت فرقة: القرآن أفضل وذلك هو الإتمام عندهم. وقال ابن عباس، وعلقمة، وإبراهيم، وغيرهم: إتمامهما أن تقضي مناسكهما كاملة بما كان فيهما من دماء.

وفروض الحج: التَّيَّةُ، والإحرام، والطواف المتصل بالسعي، والسعي

بين الصفا والمروة عندنا خلافاً لأبي حنيفة، والوقوف بعرفة، والجمرة على قول ابن الماجشون.

وأما أعمال العمرة: فَنِيَّةٌ وإحرام وطواف وسعي، واختلف في فرض العمرة.

فقال مالك رحمه الله: هي سنة واجبة لا ينبغي أن تُشْرَكَ كالوتر، وهي عنده مرة واحدة في العام وهذا قول جمهور أصحابه.

وحكى ابن المنذر في «الإشراف» عن أصحاب الرأي أنها عندهم غير واجبة.

وحكى بعض القرويين والبغداديين عن أبي حنيفة أنه يوجبها كالحج - وبأنها سُنة. قال ابن مسعود وجمهور من العلماء، وأسند الطبري النص على ذلك عن رسول الله ﷺ. وروى عن علي بن أبي طالب، وابن عباس، وابن عمر، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، والشعبي، وجماعة تابعين أنها واجبة كالفرض، وقاله ابن الجهم من المالكيين. وقال مسروق: الحج والعمرة فرض، نزلت العمرة من الحج منزلة الزكاة من الصلاة.

وقرأ الشعبي، وأبو حية: «العمرة لله» برفع العمرة على القطع والابتداء. وقرأ ابن أبي إسحاق: «الحج» بكسر الحاء، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَأَيُّهَا نَجِّ وَأَقْرَبَ﴾ و«العمرة إلى البيت» و«وَأَيُّهَا نَجِّ وَأَقْرَبَ» و«البيت»، وروي غير هذا مما هو كالتفسير.

وقوله تعالى: ﴿إِن أُخْرِجْتُمْ فَا

أَسْتَيْسَرَ يَنْ أَلْتَدَى، قال علقمة، وعروة بن الزبير، وغيرهما: الآية فيمن أحصر بالمرض لا بالعدو. وقال ابن عباس وغيره بعكس ذلك، والمشهور من اللغة: أحصر بالمرض وخُصِرَ بالعدو، وفي «المجمل» لابن فارس: حُصِرَ بالمرض وأُخْصِرَ بالعدو. وقال الفراء: هما بمعنى واحد في المرض والعدو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح أن (خُصِرَ) إنما هي فيما حاط وجاور، فقد يحصر العدو والماء ونحوه، ولا يحصر المرض. وأحصر معناه: جعل الشيء ذا حصر كأقْبَرُ وأخسى وغير ذلك، فالمرض والماء والعدو وغير ذلك قد يكون محصوراً لا حاصراً، ألا ترى أن العدو كان محصوراً في عام الحديبية؟ وفي ذلك نزلت هذه الآية عند جمهور أهل التأويل - وأجمع جمهور الناس على أن المُنْخَصِرَ بالعدو يحل حيث أُخْصِرَ وَيَنْحَرُ هُدْيُهُ إِنْ كَانَ ثُمَّ هُدْيٌ وَيَحْلِقُ رَأْسَهُ. وقال قتادة، وإبراهيم: يبعث بهديه إِنْ أَمَكْنَهُ، فإذا بلغ محله صار حلالاً، ولا قضاء عليه عند الجميع، إلا أن يكون ضرورة فعليه حَجَّةُ الإسلام. وقال ابن الماجشون: ليست عليه حَجَّةٌ الإسلام وقد قضاها حين أحصر، وهذا ضعيف لا وجه له. وقال أشهب: يُهْدِي المُنْخَصِرَ بَعْدُ هُدْيًا مِنْ أَجْلِ الحَصْرِ. وقال ابن القاسم: لا يُهْدِي شيئاً إلا إِنْ كَانَ معه هُدْيٌ فَأَرَادَ نَحْرَهُ، ذكره ابن أبي زيد، وقال عطاء وغيره: المُنْخَصِرَ بالمرض كالمنخصر بالعدو.

وقال مالك وجمهور من العلماء: المُنْخَصِرُ بالمرض لا يحمله إلا البيت، ويقيم حتى يفتق وإن أقام سنين، فإذا وصل البيت بعد فوت الحج قطع التلبية في أوائل الحرم وحل بعمره، ثم تكون عليه حجة قضاء، وفيها يكون الهدي، وقيل: إِنْ الهدي يجب في وقت الحصر أولاً. ولم ير ابن عباس مَنْ أُخْصِرَهُ المرض داخلاً في هذه الآية، وقال: إِنْ المريض إِنْ لم يكن معه هُدْيٌ حل حيث حُجِسَ، وَإِنْ كَانَ معه هُدْيٌ لم يحل حتى يبلغ الهدي محله ثم لا قضاء عليه. قال: وَإِنَّمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾، والأمن إنما هو من العدو فليس المريض في الآية.

﴿وَمَا﴾ في موضع رفع، أي فالواجب، أو فعليكم ما استيسر، ويحتمل أن تكون في موضع نصب، أي فانحروا، أو فاهدوا.

وما استيسر - عند جمهور أهل العلم -: شاة، وقال ابن عمر، وعروة بن الزبير: ما استيسر: جَمَلٌ دون جَمَلٍ، وبقرة دون بقرة.

وقال الحسن: أعلى الهدي بَذَنَةٌ، وأوسطه بقرة، وأخسه شاة.

﴿وَالْمُدْيَةِ﴾: جمع هُدْيَةٍ كَجَذْيَةٍ السرج، وهي البراد جمعها جُدْيٌ. ويحتمل أن يكون الهدي مصدراً سُمِّيَ به كَالزُّهْنِ ونحوه، فيقع للإفراد وَلِلْجَمْع. وقال أبو عمرو بن العلاء: لا أعرف لهذه اللفظة نظيراً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ الآية، الخطاب لجميع الأمة: مُنْخَصِرٌ وَمُخْلَى. ومن العلماء مَنْ يراها للمُنْخَصِرِينَ خاصةً.

ومحل الهدي حيث يحل نحره، وذلك لِمَنْ لَمْ يُخْصِرْ بَيْتَهُ، ولمن أُخْصِرَ بَعْدُ حيث أحصر إذا لم يمكن إرساله.

وأما المريض فإن كان له هُدْيٌ فيرسله إلى محله.

والترتيب: أن يرمي الحاج الجمرة، ثم ينحر، ثم يحلق، ثم يطوف طواف الإفاضة، فإن نحر رجل قبل الرمي أو حلق قبل النحر فلا حرج حسب الحديث ولا دم. وقال قوم: لا حرج في الحج ولكن يهريق دماً. وقال عبد الملك بن الماجشون - من أصحابنا -: إذا حلق قبل أن ينحر فليهد. وإن حلق رجل قبل أن يرمي فعليه دم قولاً واحداً في المذهب.

قال ابن الموزان، عن مالك: ويمرُّ المُوَسَّى على رأسه بعد الرمي، ولا دم في ذلك عند أبي حنيفة وجماعة معه. وقرأ الزهري، والأعرج، وأبو حنيفة: ﴿الْهَدْيُ﴾ بكسر الدال وشد الباء في الموضعين وأحدثه هدية، ورويت هذه القراءة عن عاصم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَنَ كَاتِبٌ وَيَنُكِرُ وَيُحِلُّ لِيَوْمَئِذٍ﴾ الآية، والمعنى: فحلقت لإزالة الأذى، فَيُذِيَّةٌ، وهذا هو فحوى الخطاب عند أكثر الأصوليين.

ونزلت هذه الآية في كعب بن عجرة حين رآه رسول الله ﷺ ورأسه يتناثر فَمَلَأَ فَأَمَرَهُ بِالْحَلِّاقِ، ونزلت الرخصة.

﴿وَذِيَّةٌ﴾ رفع على خبر الابتداء. والصيام عند مالك، وعطاء، ومجاهد، وإبراهيم، وغيرهم، وجميع أصحاب مالك -: ثلاثة أيام.

والصدقة: ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع، وذلك مُدَان بِمُدِّ النَّبِيِّ ﷺ، والنسك: شاة بإجماع، ومن ذبح أفضل منها فهو أفضل.

وقال الحسن بن أبي الحسن، وعكرمة: الصيام عشرة أيام، والإطعام عشرة مساكين. وقرأ الزهري: ﴿أَوْ نَسْكَ﴾ بسكون السين. وقال سعيد بن جبير، ومجاهد: النسك: شاة، فإن لم يجدها فقيمتها يُشْتَرَى بها طعامٌ فَيُطْعَمُ منه مُدَانٌ لكل مسكين، فإن لم يجد القيمة عرفها، وعرف ما يشتري بها من الطعام، وصام عن كل مُدَيْنِ يوماً.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ذلك كله حيث شاء، وقاله إبراهيم، وهو مذهب مالك وأصحابه، إلا ابن الجهم فإنه قال: لا يكون النسك إلا بمكة. وقال عطاء - في بعض ما روي عنه - وأصحاب الرأي: النسك بمكة، والصيام والإطعام حيث شاء. وقال الحسن ابن أبي الحسن وطاوس وعطاء أيضاً، ومجاهد، والشافعي: النسك والإطعام بمكة، والصيام حيث شاء. والمفتدي مخير في أي هذه الثلاثة شاء، وكذلك قال مالك وغيره في كل ما في القرآن، أو فإنه على التخيير.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ قال علقمة، وعروة: المعنى: إذا برئتم من مرضكم، وقال ابن عباس، وقتادة، وغيرهما: إذا أمنتُم من خوفكم من العدو المخَصِر، وهذا

أشبه باللفظ، إلا أن يُتَخَيَّلَ الخوف من المرض، فيكون الأمان منه. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَنَّ بِالْعَمَةِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية.

قال عبدالله بن الزبير، وعلقمة، وإبراهيم: الآية في الْمُخَصَّرِينَ دون الْمُخَلَّى سَبِيلَهُمْ. وصورة المتمتع عند ابن الزبير أن يُحَصَّرَ الرجلُ حتى يفوته الحج، ثم يصل إلى البيت، فيحل بعمره، ويقضي الحج من قابل، فهذا قد تمتع بما بين العمرة إلى حج القضاء. وصورة المتمتع المحَصَّرِ عند غيره أن يُحَصَّرَ فيحل دون عمره ويؤخرها حتى يأتي من قابل فيعتمر في أشهر الحج وَيُحُجُّ من عامه.

وقال ابن عباس، وجماعة من العلماء: الآية في الْمُخَصَّرِينَ وغيرهم ممن خلى سبيله. وصورة المتمتع أن تجتمع فيه ستة شروط: أن يكون معتمراً في أشهر الحج، وهو من غير حاضري المسجد الحرام، ويحل، وينشئ الحج من عامه ذلك، دون رجوع إلى وطنه، أو ما سواه بُغْداً. هذا قول مالك وأصحابه.

واختلف لم سُمِّيَ مُتَمَتِّعاً؟ - فقال ابن القاسم: لأنه تمتع بكل ما لا يجوز للمحرم فعله، من وقت حله في العمرة إلى وقت إنشائه الحج، وقال غيره: سُمِّيَ متمتّعاً لأنه تمتع بإسقاط أحد السفرين، وذلك أن حق العمرة أن تقصّد سفر، وحق الحج كذلك، فلما تمتع بإسقاط أحدهما ألزمه الله هذياً، كالقارن الذي يجمع الحج والعمره في سفر واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه شِدَّةٌ على القادم مكة من سائر الأنظار لما أسقط سفرأ، والمكي لا يقتضي حاله سفرأ، في عمره ولا حج، لأنه في بقعة الحج. فلم يُلْزَم شيئاً لأنه لم يُسْفِط شيئاً، ومن قال إن اسم التمتع وحكمه إنما هو من جهة التمتع بالنساء والطيب وغير ذلك، فيرد عليه أنه يستغرق قوله: ﴿فَمَنْ تَعَنَّ بِالْعَمَةِ إِلَى اللَّهِ﴾ المكي وغيره على السواء في القياس، فكيف يشتد مع ذلك على الغريب الذي هو أعذر، ويُلْزَمُ هدياً ولا يُفْعَلُ ذلك بالمكي؟ فيترجح بهذا النظر أن التمتع إنما هو من أجل إسقاط أحد السفرين. إلا أن أبا عبيد قال - في كتاب الناسخ والمنسوخ له -: إن العمرة في أشهر الحج ممنوعة للمكي، لا تجوز له، ورخص الله تعالى للقادم، لطول بقائه محرماً، وقرن الرخصة بالهدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه شدة على أهل مكة، وبهذا النظر يحسن أن يكون التمتع من جهة استحابة ما لا يجوز للمحرم، لكنه قول شاذ لا يقول عليه.

وجُلُّ الأُمة على جواز العمرة في أشهر الحج للمكي، ولا دم عليه، وذكر أبو عبيد القولين عن ابن عمر، واستند إليه في الذي وافقه، وقد حكاه الطبري عن ابن عباس وقال: إنه قال: يا أهل مكة، لا مُتَمَتِّعٌ لكم، إن الله قد أحلها لأهل الأفاق، وحرّمها عليكم، إنما يَقْطَعُ أحدكم وادياً ثم يُحرم بعمره، فمعنى هذا أنهم متى أحرموا داموا إلى الحج.

ذِي الْحِجَّةِ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفْعَ وَلَا سُفُوفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَكَزَّوْدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿٣١﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَلَمَّا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّاكِينَ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَشْرًا ضَمًّا ﴿٣٣﴾ فَلَمَّا أَفْضَيْتُمْ مِنْ بَيْتِكَ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ إِشَادَ كَذِكْرِكُمْ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ الْكَافِرِينَ مَنْ يَمُوتُ رِبًّا عَائِلًا فِي الْأَرْضِ وَالَّذِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَلَقُوا وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَيْرِ ﴿٣٥﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَيْرِ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آدَبَ اللَّهُ النَّاسَ ﴿٣٦﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نُصِيبُ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٧﴾

٣١

لأبي حنيفة. وقيل: كاملة: تأكيد. كما تقول: كتبت بيدي. وكقوله تعالى: ﴿نَحَرُ عَلَيْهِمُ الثَّقَفَ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ وقيل: لفظها الإخبار ومعناها الأمر. أي: أكملوها فذلك فرضها.

وقال الأستاذ الأجل أبو الحسن علي بن أحمد: المعنى: تلك كاملة، وتكرر الموصوف تأكيداً، كما تقول: زيد رجل عاقل.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ﴾ الآية، الإشارة إلى التمتع وهديه وحكمه، وهذا على قول من يرى أن المكى لا تجوز له المتعة في أشهر الحج. فكأن الكلام: ذلك الترخيص - ويتأيد هذا بقوله: ﴿لَنْ يَكُنْ﴾ لأن اللام أبداً إنما تجيء مع الرخص، تقول: لك أن تفعل كذا، وأما مع الشدة فالوجه أن تقول:

ذِي الْحِجَّةِ، لَأَنَّ بِانْقِضَائِهِ يَنْقُضُ الْحَجَّ. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن عمر، ومالك بن أنس وجماعة من أهل العلم: من فاته صيامها قبل يوم النحر، فله صيامها في أيام التشريق، لأنها من أيام الحج. وقال قوم: له ابتداء تأخيرها إلى أيام التشريق، لأنه لا يجب عليه الصيام، إلا بالآل يجد يوم النحر هدياً.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْهُ إِذَا رَكَعْتَ﴾ قال مجاهد، وعطاء، وإبراهيم: المعنى

إذا رجعت من منى، فمن بقي بمكة صامها، ومن نهض إلى بلده صامها في الطريق. وقال قتادة والربيع: هذه رخصة من الله تعالى، والمعنى: إذا رجعت إلى أوطانكم، فلا يجب على أحد صوم السبعة إلا إذا وصل وطنه، إلا أن يتشدد أحد كما يفعل من يصوم في السفر في رمضان. وقرأ زيد بن علي: ﴿وَسَبِّحَهُ﴾ بالنصب. أي: وصوموا سبعة، ولما جاز أن يتوهم متوهم التخيير بين ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع، أزيل ذلك بالجملة من قوله تعالى: ﴿يَلَلَهُ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن: المعنى: كاملة في الثواب كمن أهدي، وقيل: كاملة في الثواب كمن لم يتمتع، وهذا على أن الحج الذي لم تكثر فيه الدماء أخلص وأفضل، خلافاً

وقال السدي: المتمتع هو الذي يفسخ الحج في العمرة، وذلك لا يجوز عند مالك. وفي صحيح مسلم حديث سُرَاقَةَ بِنْتِ مَالِكٍ. قال: (قلت: يا رسول الله. فَنَسَخَ الْحَجَّ فِي الْعُمْرَةِ - أَلَنَا خَاصَةً أَمْ لِلْأَبَدِ؟) فقال: «بَلْ لِلْأَبَدِ أَبَدٌ».

وإنما شرط في المتمتع أن يحل في أشهر الحج، لأنها مدة يملكها الحج، فمن كان فيها محرماً فحقه أن يصل الإحرام إلى الحج. وفي كتاب مسلم إيعاب الأحاديث في هذا المعنى، ومذهب عمر، وقول أبي ذر: أن متعة النساء ومتعة الحج خاصتان لأصحاب النبي ﷺ. وقال طاوس: «من اعتمر في غير أشهر الحج ثم أقام حتى حج من عامه فهو متمتع». وقال الحسن بن أبي الحسن: «من اعتمر بعد يوم النحر في بقية العام فهو متمتع». وهذان القولان شاذان لم يوافقهما أحد من العلماء، وقد تقدم القول فيما استيسر من الهدي.

﴿٣١﴾ - تفسير قوله عز وجل:

قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ إما بعدم المال، وإما بعدم الحيوان - و﴿فِي لَيْلٍ﴾ قال عكرمة، وعطاء: له أن يصومها في أشهر الحج، وإن كان لم يحرم بالحج، وقال ابن عباس، ومالك بن أنس: له أن يصومها منذ يحرم بالحج. وقال عطاء أيضاً، ومجاهد: لا يصومها إلا في عشر ذي الحجة. وقال ابن عمر، والحسن، والحكم: يصوم يوماً قبل يوم التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة، وكلهم يقول: لا يجوز تأخيرها عن عشر

عليك. وأما من يرى أن المكّي يعتمر، ولا دم عليه، لأنه لم يسقط سفرًا، فالإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ - على قوله - هي إلى ﴿الْمَكِّيِّ﴾، أي ذلك الاشتداد والإلزام.

واختلف الناس في ﴿حَايِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بعد الإجماع على أهل مكة وما اتصل بها. وقال الطبري: بعد الإجماع على أهل الحرم، وليس كما قال - فقال بعض العلماء: من كان حيث تجب الجمعة عليه بمكة فهو حضري، ومن كان أبعد من ذلك فهو بدوي. فجعل اللفظة من الحضارة والبدادة. وقال بعضهم: من كان بحيث لا تقصر الصلاة إلى مكانه، فهو حاضر أي مشاهد، ومن كان أبعد من ذلك فهو غائب. وقال عطاء بن أبي رباح: مكة وضجنان وذو طوى وما أشبهها حاضرو المسجد الحرام. وقال ابن عباس ومجاهد: أهل الحرم كُلُّهُ حاضرو المسجد الحرام. وقال مكحول، وعطاء: من كان دون المواقيت من كل جهة حاضرو المسجد الحرام. وقال الزهري: من كان على يوم أو يومين فهو من حاضري المسجد الحرام.

ثم أمر تعالى بتقواه على العموم، وحذر من شديد عقابه.

وقوله تعالى: ﴿أَلْحَجُّ أَنَّهُمْ مَمْلُوكَاتٌ﴾. في الكلام حذف تقديره: أشهر الحج أشهر. أو: وقت الحج أشهر. أو: وقت عمل الحج أشهر والغرض إنما هو أن يكون الخبر عن الابتداء هو الابتداء نفسه والحج ليس بالأشهر، فاحتيج

إلى هذه التقديرات. ومن قدر الكلام: الحج في أشهر فيلزمه مع سقوط حرف الجر نصب الأشهر، ولم يقرأ بنصبها أحد.

وقال ابن مسعود، وابن عمر، وعطاء، والربيع، ومجاهد والزهري: أشهر الحج: شوال وذو القعدة وذو الحجة كله. وقال ابن عباس، والشعبي، والسدي، وإبراهيم: هي: شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة، والقولان لمالك رحمه الله، حكى الأخير ابن حبيب. وجمع على هذا القول الأخير الاثنان وبعض الثالث، كما فعلوا في جمع عشر فقالوا: عشرون لعشرين، ويومين من الثالث، وكما قال امرؤ القيس:

.....

ثلاثين شهرًا في ثلاثة أحوال فمن قال: إن ذا الحجة كله من أشهر الحج، لم ير ذمًا فيما يقع من الأعمال بعد يوم النحر، لأنها في أشهر الحج، وعلى القول الآخر ينقضي الحج بيوم النحر ويلزم الدُّم فيما عمل بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ رَضَى فِيهِكَ لَكِ﴾ أي من ألزمه نفسه، وأصل الفرض: الحز الذي يكون في السهام والقسي وغيرها، ومنه فريضة النهر والجبل، فكأن من التزم شيئًا - وأثبتته على نفسه - قد فرضه.

وقرئ الحج هو بالثنية، والدخول في الإحرام - والتلبية تبع لذلك. و﴿مَنْ﴾ رفع بالابتداء، ومعناها الشرط، والخبر قوله: ﴿وَمَنْ﴾ لأن ﴿مَنْ﴾ ليست بموصولة، فكأنه قال:

«فرجل فرض». وقوله: ﴿فَلَا رَكَّ﴾ يحتمل أن يكون الخبر، وتكون ﴿رَكَ﴾ صفة.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِكَ﴾. ولم يجيء الكلام «فَرَضَ فِيهَا». فقال قوم: هما سواء في الاستعمال. وقال أبو عثمان المازني. الجمع الكثير لما لا يعقل يأتي كالواحدة المؤنثة، والقليل ليس كذلك، تقول: الأجداع انكسران، والجذوع انكسرت. ويؤيد ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ عَذَّةَ النَّفْثِ﴾ ثم قال: منها. وقرأ نافع: ﴿فَلَا رَكَّ وَلَا سُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ بنصب الجميع، وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿فَلَا رَكَّ وَلَا سُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ بالرفع في الاثنين ونصب الجدل. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بالرفع في الثلاثة. ورويت عن عاصم في بعض الطرق.

و﴿لَا﴾ بمعنى ليس في قراءة الرفع، وخبرها محذوف على قراءة أبي عمرو، و﴿فِي لَكِ﴾ خبر ﴿وَلَا جِدَالَ﴾. وحذف الخبر هنا هو مذهب أبي علي. وقد خولف في ذلك، بل ﴿فِي لَكِ﴾ هو خبر الكل، إذ هو في موضع رفع في الوجهين لأن ﴿وَلَا﴾ إنما تعمل على بابها فيما يليها، وخبرها مرفوع باق على حاله من خبر الابتداء. وظن أبو علي أنها بمنزلة ليس في نصب الخبر، وليس كذلك، بل هي الاسم في موضع الابتداء يطلبان الخبر، و﴿فِي لَكِ﴾ هو الخبر في قراءة كلها بالرفع، وفي قراءة كلها بالنصب.

والتحريم: أن ﴿فِي لَحَجٍّ﴾ في موضع نصب بالخبر المقدر كأنك قلت: «موجود في الحج»، ولا فرق بين الآية وبين قولك: زيد في الدار.

وقال ابن عباس، وابن جبير، والسدي، وقتادة، ومالك، ومجاهد، وغيرهم: الرفث، الجماع. وقال عبدالله بن عمر، وطاوس، وعطاء، وغيرهم: الرفث: الإعرابة والتعريب، وهو الإفحاش بأمر الجماع عند النساء خاصة، وهذا قول ابن عباس أيضاً، وأنشد وهو محرم:

وَهَلْ يُمْشِيْنَ بِنَا قَمِيْسًا
إِنْ تَضَدَّقَ الطَّيْرُ نَيْكَ لَمِيْسًا
فَقِيلَ لَهُ: ترفث وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما كان عند النساء. وقال قوم: الرفث الإفحاش بذكر النساء، كان ذلك يحضرتهن أم لا. وقد قال ابن عمر للحادي: لا تذكر النساء، وهذا يحتمل أن تحضر امرأة فلذلك نهاه، وإنما يقوي القول من جهة ما يلزم من توقير الحج. وقال أبو عبيدة: الرفث اللغا من الكلام وأنشد:

عَنِ اللَّغَا وَرَفَثِ التَّكَلُّمِ
وَلَا حِجَّةَ فِي الْبَيْتِ، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَلَا رَفُوثٌ﴾.

وقال ابن عباس، وعطاء، والحسن، وغيرهم: الفسوق: المعاصي كلها لا يختص بها شيء دون شيء.

وقال ابن عمر، وجماعة معه: الفسوق: المعاصي في معنى الحج قتل الصيد وغيره.

وقال ابن زيد، ومالك: الفسوق: الذبح للأصنام. ومنه قول الله تعالى: ﴿أَوْ فَسَادًا أَوَّلًا لِّغَيْرِ اللَّهِ يَوْمَ﴾.

وقال الضحاك: الفسوق: التنازع بالألقاب، ومنه قول الله تعالى: ﴿يَنْتَسِبُ إِلَيْكُمْ الْفُسُوقُ﴾.

وقال ابن عمر أيضاً، ومجاهد، وعطاء، وإبراهيم: الفسوق: السباب. ومنه قول النبي ﷺ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقَالَتْ كُفْرٌ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعموم جميع المعاصي أولى الأقوال.

وقال قتادة، وغيره: الجدل هنا: السباب.

وقال ابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، ومجاهد: الجدل هنا: أن تمازي مسلماً حتى تغضبه.

وقال مالك، وابن زيد: الجدل هنا: أن يختلف الناس أيهم صادف موقف إبراهيم عليه السلام، كما كانوا يفعلون في الجاهلية، حين كانت قریش تقف في غير موقف سائر العرب، ثم يتجادلون بعد ذلك.

وقال محمد بن كعب القرظي: الجدل: أن تقول طائفة: حجنا أبْرُ من حجكم، وتقول الأخرى مثل ذلك.

وقالت فرقة: الجدل هنا: أن تقول طائفة: الحج اليوم، وتقول طائفة: بل الحج غداً، وقيل: الجدل كان في الفخر بالأباء.

وقال مجاهد، وجماعة معه: الجدل: أن تُنسى العرب الشهور

حسب ما كان النسيء عليه، فقرر الشرع وقت الحج ويُنسئ وأخبر أنه حتم لا جدال فيه، وهذا أصح الأقوال وأظهرها.

والجدال مأخوذ من الجدل وهو القتل، كأن كل مجادل يقاتل صاحبه، وأما ما كان النسيء عليه، فظاهر سير ابن إسحاق وغيرها من الدواوين، أن الناسئ كان يحل المحرم لثلاث تتوالى على العرب ثلاثة أشهر لا إغارة فيها، ويحرم صفر وربما سموه المحرم، وتبقى سائر الأشهر بأسمائها حتى يأتي حجهم في ذي الحجة على الحقيقة.

وأسد الطبري عن مجاهد أنه قال: كانوا يُسقطون المحرم ثم يقولون: صفران لصفر وشهر ربيع الأول، ثم كذلك ينقلون أسماء الشهور، ويتبادل وقت الحج في الحقيقة لكنه يبقى في ذي الحجة بالتسمية لا في حقيقة الشهر. قال: فكان حج أبي بكر سنة تسع في ذي القعدة على الحقيقة، ثم حج رسول الله ﷺ سنة عشر في ذي الحجة على الحقيقة، وقال: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ الْحَدِيثَ، وَنَزَلَتْ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أَي قد تبين أمره فلا ينتقل شهر البتة أبداً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقَعَّلُوا مِنْ حَبِيرٍ يَسْلَمُهُ اللَّهُ﴾ المعنى: فَيُثَبِّبُ عَلَيْهِ، وفي هذا تحضيض على فعل الخير. وقوله تعالى: ﴿وَتَكَرَّرُوا﴾ الآية، قال ابن عمر، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: نزلت الآية في طائفة من العرب كانت تضيء إلى الحج بلا زاد، ويقول بعضهم: نحن

المتوكلون، ويقول بعضهم: كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا؟ فكانوا يبقون عالة على الناس، فنهوا عن ذلك، وأمروا بالتزود.

وقال بعض الناس: تزودوا الرفيق الصالح، وهذا تخصيص ضعيف، والأولى في معنى الآية: «وتزودوا لمعادكم من الأعمال الصالحة». وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الْخَيْرِ النَّتَقِيُّ﴾ حض على التقوى.

وخص أولوا الأبواب بالخطاب، وإن كان الأمر يعم الكل - لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله، وهم قابلوا أوامره، والناهضون بها، وهذا على أن اللب لب التجارب، وجودة النظر، وإن جعلناه لب التكليف فالنداء بأولي الأبواب عام لجميع المكلفين.

واللب: العقل. تقول العرب: لَبِثْتُ بضم الباء الأولى أَلْبُ بضم اللام حكاه سيبويه، وليس في الكلام فَعَلٌ يَفْعُلُ بضم العين فيهما غير هذه الكلمة.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الآية. الجُنَاح أعم من الإثم، لأنه فيما يقتضي العقاب، وفيما يقتضي العتاب والنزجر، و﴿تَتَّبِعُوا﴾ معناه: تطلبون بمحاولتكم.

وقال ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعطاء: إن الآية نزلت لأن العرب تخرجت لما جاء الإسلام أن يحضروا أسواق الجاهلية كعكاظ وذئ المجاز ومجئة، فأباح الله تعالى ذلك. أي: لا درك في أن تتجروا وتطلبوا الربح.

وقال مجاهد: كان بعض العرب لا يتجرون مذ يُحرمون فنزلت الآية في إباحة ذلك.

وقال ابن عمر: فيمن أكرى ليحج - حجة تام، ولا حرج عليه في ابتغاء الكراء.

وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، وابن الزبير ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ «في مواسم الحج».

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَقَاتٍ﴾ أجمع أهل العلم على تمام حج من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهاراً قبل الليل، إلا مالك بن أنس فإنه قال: لا بد أن يأخذ من الليل شيئاً. وأما من وقف بعرفة بالليل فلا خلاف بين الأمة في تمام حجة. وأفاض القوم أو الجيش إذا اندفعوا جملة، ومنه: أفاض الرجل في الكلام، ومنه: فاض الإناء وأفضته، ومنه: المفيض في القداح. والتنوين في ﴿عَرَقَاتٍ﴾ على حده في «مسلمات» الكسرة مقابلة للياء في مسلمين، والتنوين مقابل للنون. فإذا سميت به شخصاً ترك، وهو معرف على حده قبل أن تسمي به.

فإن كان عرفات اسماً لتلك البقعة كلها فهو كما ذكرنا، وإن كان جمع عرفة فهو كمسلمات دون أن يسمى به. وحكى سيبويه كسر التاء من ﴿عرفاتٍ﴾ دون تنوين في حالة النصب والخفض مع التعريف. وحكى الكوفيون فتحها في حالة النصب والخفض تشبيهاً ببناء فاطمة وطلحة. وسميت تلك البقعة

عرفات، لأن إبراهيم عرفها حين رآها على ما وصفت له. قال السدي، وقال ابن عباس: سميت بذلك لأن جبريل عليه السلام كان يقول لإبراهيم عليه السلام: هذا موضع كذا فيقول: قد عرفت، وقيل: سميت بذلك لأن آدم عرف بها حواء حين لقيها هناك، والظاهر أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع. وعرفة هي نعمان الأراك. وفيها يقول الشاعر:

تَزَوَّدْتُ مِنْ نَعْمَانَ عُوْدَ أَزَاكَةٍ
لِيَهْتِدِ وَلَكِنْ مَنْ يُبْلَغُهُ هُنْدًا
وَالنَّشْرُ الْهَكَرَاءُ ﴿جمع كله، وهو ما بين جبلي المزدلفة من حد مفضي مأزمي عرفة إلى بطن محسر. قال ذلك ابن عباس، وابن جبير، والربيع، وابن عمر، ومجاهد: فهي كلها مشعر، إلا بطن محسر، كما أن عرفة كلها موقف، إلا بطن عرنة بفتح الراء وضمها.

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «عرفة كلها موقف إلا بطن عرنة، والمزدلفة كلها مشعر، وارتفعوا عن بطن محسر». وذكر هذا عبدالله بن الزبير في خطبته، وفي المزدلفة قرن قزح الذي كانت قریش تقف عليه.

وذكر الله تعالى عند المشعر الحرام تَذَبُّ عند أهل العلم. وقال مالك: من مرَّ به ولم ينزل فعليه دم. وقال الشافعي: من خرج من مزدلفة قبل نصف الليل فعليه دم، وإن كان بعد نصف الليل فلا شيء عليه. وقال الشعبي، والنخعي: من فاته الوقوف بمزدلفة فاته الحج. وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُكُمْ﴾ تعديد

أي: فاستغيثوا به، والجؤوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم بآبائكم. وقالت طائفة: معنى الآية: اذكروا الله وعظموه وذُنبوا عن حرمه، وادفعوا من أراد الشرك والنقص في دينه ومشاعره، كما تذكرون آباءكم بالخير، إذا غَضَ أحد منهم وتحمون جوانبهم، وتذُبنون عنهم.

وقرأ محمد بن كعب القرظي: ﴿كُذِّرْكُمْ آبَاءَكُمْ﴾، أي اهتبلوا بذكره كما يهتبل المرء بذكر ابنه، فالمصدر على هذه القراءة مضاف إلى المفعول، و﴿أَشْنَكُ﴾ في موضع خفض عطفاً على ﴿ذَكَّرَكُمْ﴾، ويجوز أن يكون في موضع نصب - التقدير: أو اذكروه أشد ذكراً.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْ أُنَاسٍ مِّنْ يَقُولُ﴾ الآية. قال أبو وائل، والسدي، وابن زيد: كانت عاداتهم في الجاهلية أن يدعوا في مصالح الدنيا فقط، إذ كانوا لا يعرفون الآخرة، فَنُهِوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا، وجاء النهي في صيغة الخبر عنهم.

والخلاق: النصيب والخط، و﴿مِّنْ﴾ زائدة لأنها بعد النفي، فهي مستغرقة لجنس المحظوظ.

وقال قتادة: حسنة الدنيا: العافية في الصحة وكفاف المال، وقال الحسن بن أبي الحسن: حسنة الدنيا: العلم والعبادة. وقال السدي: حسنة الدنيا: المال، وقيل: حسنة الدنيا: المرأة الحسنة، واللفظة تقتضي هذا كله، وجميع محاب الدنيا.

وحسنة الآخرة: الجنة بإجماع - ﴿وَقَدْ عَدَّتْ أَلْسِنًا﴾ دعاء في ألا يكون المرء ممن يدخلها بمعاصيه، وتخرجه الشفاعة، ويحتمل أن يكون دعاء مؤكداً لطلب دخول الجنة، لتكون الرغبة في معنى النجاة، والفوز من الطرفين، كما قال أحد الصحابة للنبي ﷺ: «أنا إنما أقول في دعائي: اللهم أدخلني الجنة، وعافني من النار. ولا أدري ما ذُنُوتُكَ ولا ذُنُوتَ معاذ؟» فقال له رسول الله ﷺ: «حولها تُذُنِينَ».

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ الآية. وغد على كسب الأعمال الصالحة في صيغة الإخبار المجرد، والربُّ تعالى سريع الحساب لأنه لا يحتاج إلى عقد، ولا إلى إعمال فكر، وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسب الله الخلاق في يوم؟ فقال: كما يرزقهم في يوم، وقيل: الحساب هنا المجازاة، كأن المجازي يعد أجزاء العمل ثم يجازي بمثلها، وقيل: معنى الآية: سريع مجيء يوم الحساب، فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة، وأمر الله تعالى عباده بذكره في الأيام المعدودات، وهي الثلاثة التي بعد يوم النحر. وهي أيام التشريق، وليس يوم النحر من المعدودات، ودل على ذلك إجماع الناس على أنه لا يَنُفَّر أحد يوم القر وهو ثاني يوم النحر، فإن يوم النحر من المعلومات، ولو كان يوم النحر من المعدودات لساغ أن ينفر من شاء متعجلاً يوم القر لأنه قد أخذ يومين من المعدودات. وحكى

مكي، والمهدوي، عن ابن عباس أنه قال: المعدودات هي أيام العشر. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إما أن يكون من تصحيف النسخة، وإما أن يريد العشر الذي بعد يوم النحر وفي ذلك بُعْدٌ.

والأيام المعلومات: هي يوم النحر ويومان بعده، لإجماعهم على أنه لا ينحر أحد في اليوم الثالث. والذكر في المعلومات إنما هو على ما رَزَقَ الله من بهيمة الأنعام. وقال ابن زيد: المعلومات عشر ذي الحجة وأيام التشريق، وفي هذا القول بعد.

وجعل الله الأيام المعدودات أيام ذكر الله، وقد قال النبي ﷺ: «هِيَ أَيَّامٌ أَكُلَ وَشَرِبَ وَذَكَرَ اللَّهَ».

ومن جملة الذكر التكبير في أثر الصلوات - واختلف في طرفي مدة التكبير.

فقال عمر بن الخطاب، وجلي بن أبي طالب وابن عباس:

يُكَبَّرُ من صلاة الصبح من يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال ابن مسعود، وأبو حنيفة: يُكَبَّرُ من غداة عرفة إلى صلاة العصر من يوم النحر.

وقال يحيى بن سعيد: يُكَبَّرُ من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الظهر من آخر أيام التشريق.

وقال مالك: يُكَبَّرُ من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وبه قال الشافعي.

وقال ابن شهاب: يكبر من الظهر يوم النحر إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال سعيد بن جبير: يُكَبَّرُ من

الظهر يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال الحسن بن أبي الحسن: يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الظهر يوم النفر الأول. وقال أبو وائل: يكبر من صلاة الظهر يوم عرفة إلى صلاة الظهر يوم النحر.

ومشهور مذهب مالك أنه يُكَبَّرُ إثر كل صلاة ثلاث تكبيرات. وفي المذهب رواية أنه يقال بعد التكبيرات الثلاث: لا إله إلا الله، والله أكبر، والله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ الآية. قال ابن عباس، والحسن، وعكرمة، ومجاهد: المعنى: من تفر في اليوم الثاني من الأيام المعدودات فلا حرج عليه، ومن تأخر إلى الثالث فلا حرج عليه، فمعنى الآية: كل ذلك مُباح، وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماماً وتأكيذاً إذ كان من العرب من يذم المتعجل وبالعكس فنزلت الآية رافعة للجناح في كل ذلك.

ومن العلماء من رأى أن التعجل إنما أبيح لمن بعد فطره لا للمكي والقريب إلا أن يكون له عذر، قاله مالك، وغيره. ومنهم من رأى أن الناس كلهم مباح لهم ذلك. قاله عطاء وغيره. وقال علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وإبراهيم: معنى الآية: من تعجل فقد غفر له، ومن تأخر فقد غفر له، واحتجوا بقوله عليه السلام: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرُفْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ غَطَايَاهُ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» فقوله تعالى: ﴿فَلَا إِثْمَ﴾ نفي عام وتبرئة مطلقة.

وقال مجاهد أيضاً: معنى الآية: من تعجل أو تأخر فلا إثم عليه إلى العام القابل، وأسند في هذا القول أثر.

وقال أبو العالية: المعنى في الآية: لا إثم عليه لمن اتقى بقية عمره، والحاج مغفور له البتة.

وقال أبو صالح وغيره: معنى الآية: لا إثم عليه لمن اتقى قتل الصيد وما يجب عليه تجنبه في الحج.

وقال أيضاً: لمن اتقى في حجه فأثى به تاماً حتى كان مبروراً. واللام في قوله: ﴿لَيْسَ أَثْمٌ﴾، متعلقة إما بالغفران على بعض التأويلات أو بارتفاع الإثم في الحج على بعضها. وقيل: بالذكر الذي دل عليه قوله: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾، أي الذكر لمن اتقى، ويسقط رمي الجمرة الثالثة عن تعجل.

وقال ابن أبي زمنين: يرميها في يوم النفر الأول حين يريد التعجيل.

قال ابن المواز: يرمي المتعجل في يومين بإحدى وعشرين حصاة، كل جمرة بسبع حصيات فيصير جميع رمية بتسع وأربعين حصاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأنه قد رمى جمرة العقبة بسبع يوم النحر، قال ابن المواز: ويسقط رمي اليوم الثالث.

وقرأ سالم بن عبدالله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بوصل الألف، ثم أمر تعالى بالتقوى، وذكر بالحر والوقوف بين يديه.

﴿٢٠٨﴾ - ﴿٢٠٩﴾ تفسير قوله عز وجل: قال السدي: نزلت في الأخنس بن

شريق، واسمه أبي، والأخنس لقب، وذلك أنه جاء إلى النبي ﷺ فأظهر إسلامه، وقال: الله يعلم أنني صادق، ثم هرب بعد ذلك، فمر بقوم من المسلمين، فأحرق لهم زرعاً، وقتل لهم حُمراً، فنزلت فيه هذه الآيات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ما ثبت قط أن الأخنس أسلم.

وقال ابن عباس: نزلت في قوم من المنافقين تكلموا في الذين قُتلوا في غزوة الرجيع: عاصم بن ثابت، وحُبيب، وابن الدثنة، وغيرهم، وقالوا: ويح هؤلاء القوم، لا هم قعدوا في بيوتهم، ولا أدوا رسالة صاحبهم، فنزلت هذه الآيات في صفات المنافقين، ثم ذكر المستشهدين في غزوة الرجيع في قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ مَنَ شَرَى نَفْسَهُ أَتَيْنَاكَ مِنْهَا كَافَّةً﴾ الآية.

وقال قتادة، ومجاهد، وجماعة من العلماء: نزلت هذه الآيات في كل مبطن كُفِّر أو نفاق، أو كذب، أو إضرار، وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك. فهي عامة، وهي تشبه ما ورد في الترمذي أن في بعض كتب الله تعالى: «إِنْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَوْمًا أَلَسْتُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ، يَلْبَسُونَ النَّاسَ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللَّيْنِ، يَجْتَرُونَ الدُّنْيَا بِالْأَلْبَانِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَيْبَى يَغْتَرُونَ؟ وَعَلِيَّ يَجْتَرُونَ؟ حَلَفْتُ لَا سُلْطَنَ عَلَيْهِمْ فَتَنَةٌ تَدْعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانٌ».

ومعنى: ﴿وَيُتَيْدُ اللَّهُ﴾ أي يقول: الله يعلم أنني أقول حقاً.

وقرأ أبو حيوة، وابن محيصن: **﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ﴾** بإسناد الفعل إلى الله. المعنى: يعجبك قوله والله يعلم منه خلاف ما قال - والقراءة التي للجماعة أبلغ في ذمه لأنه قوي على نفسه التزام الكلام الحسن، ثم ظهر من باطنه خلافه، وما في قلبه مختلف بحسب القراءة، فعلى قراءة الجمهور: هو الخير الذي يظهر، أي هو في قلبه بزعمه. وعلى قراءة ابن محيصن، هو الشر الباطن. وقرأ ابن عباس: **﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِ﴾**. وقرأ أبي وابن مسعود: **﴿وَيَسْتَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِ﴾**.

والألد: الشديد الخصومة، الصعب الشكيمة، الذي يلوي الحجاج في كل جانب، فيشبه انحرافه المشي في ليديدي الوادي، ومنه: لديد الفم، واللدود. ويقال: منه لددت بكسر العين، ألد. وهو ذم، ومنه قول النبي ﷺ: **«أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلْدُ الْخَصْمُ»** ويقال: لددته بفتح العين، ألدّه بضمها إذا غلبته في الخصام، ومن اللفظة قول الشاعر:

إِنْ تَحْتَ الْأَحْجَارِ خَزْماً وَعِزْماً
وَحَصِيماً أَلْدَ ذَا مِغْلَاقٍ

والخصام - في الآية - مصدر خاصم، وقيل: جمع خصم ككلب وكلاب، فكان الكلام: وهو أشد الخصماء وألدّهم.

﴿وَتَوَكَّلْ﴾ و**﴿سَكِّنْ﴾** تحتل جميعاً معنيين - أحدهما: أن تكونا فعل قلب فيجيء **﴿تَوَكَّلْ﴾** بمعنى ضلّ، وغضب، وأنف في نفسه، فسمى بحيلة وإدارته الدوائر على الإسلام،

ومن هذا السعي قول الله تعالى: **﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾** ومنه: **﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾**، ومنه قول الشاعر:

أَسْعَى عَلَى جُلِّ بَنِي مَالِكٍ
كُلُّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ سَاعٍ
ونحى هذا المنحى في معنى الآية ابن جريج، وغيره. والمعنى الثاني: أن تكونا فعل شخص فيجيء **﴿تَوَكَّلْ﴾** بمعنى أدبر ونهض عنك يا محمد، و**﴿سَكِّنْ﴾** يجيء معناها بقدميه، فقطع الطريق وأسدها. نحا هذا المنحى ابن عباس، وغيره. وكلا السعنين فساد.

وقوله تعالى: **﴿وَيَهْلِكُ الْخَرْتُ﴾** و**﴿الْأَنْثَى﴾** قال الطبري: المراد الأخنس في إحراقه الزرع، وقتله الحُمُر. وقال مجاهد: المراد أن الظالم يفسد في الأرض فيمسك الله المطر فيهلك الحرث والنسل. وقيل: المراد أن المفسد يقتل الناس فيقطع عمار الزرع والمنسلون. وقال الزجاج: يحتمل أن يراد بالحرث النساء وبالنسل نسلهن.

وقال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن الآية عبارة عن مبالغة في الإفساد إذ كل فساد في أمور الدنيا فعلى هذين الفصلين يدور.

وأكثر القراء على أن **﴿يَهْلِكُ﴾** بضم الياء وكسر اللام وفتح الكاف عطفاً على: **﴿لِيُثَبِّتَ﴾**، وفي مصحف أبي بن كعب: **﴿وَلِيَهْلِكُ﴾**. وقرأ قوم: **﴿ويهلك﴾** بضم الكاف - إما عطفاً على **﴿يُثَبِّتُكَ﴾**، وإما على **﴿سَكِّنْ﴾** لأنها بمعنى الاستقبال، وإما على

القطع والاستثناف. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق، وأبو حيوة، وابن محيصن: **﴿وَيَهْلِكُ﴾** بفتح الياء وكسر اللام وضم الكاف ورفع **﴿الْخَرْتُ وَالْأَنْثَى﴾**. وكذلك رواه ابن سلمة عن ابن كثير. وعبد الوارث عن أبي عمرو. وحكى المهدوي أن الذي روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إنما هو: **﴿وَيَهْلِكُ﴾** بضم الياء والكاف **﴿الْخَرْتُ﴾** بالنصب. وقرأ قوم **﴿وَيَهْلِكُ﴾** بفتح الياء واللام ورفع **﴿الْحَرْتُ﴾**، وهي لغة هلك يهلك تلحق بالشواذ كركن يزكن.

والحرث - في اللغة - شق الأرض للزراعة ويسمى الزرع حرثاً للمجاورة والتناسب، ويدخل سائر الشجر والغراسات في ذلك حملاً على الزرع، ومنه قوله عز وجل: **﴿إِذْ يَخْشَعُونَ فِي الْحَرْثِ﴾** وهو كرم على ما ورد في التفسير.

وسمى النساء حرثاً على التشبيه. والنسل: مأخوذ من نسل ينسل إذا خرج متتابعاً، ومنه نسال الطائر - ما تتابع سقوطه من ريشه، ومنه قوله تعالى: **﴿وَهُمْ يَنْ كَلِّ حَذَبٍ يَنْسِلُونَ﴾** ومنه قول امرئ القيس:

.....

فَسَلِي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِ
و**﴿لَا يُحِبُّ﴾** معناه: لا يحبه من أهل الصلاح، أو لا يحبه ديناً وإلا فلا يقع إلا ما يحب الله تعالى وقوعه، والفساد واقع، وهذا على ما ذهب إليه المتكلمون من أن الحب بمعنى الإرادة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والحب له على الإرادة مزية إشار-

فلو قال أحد: إن الفساد المراد تنقصه مزية الإيثار لصح ذلك، إذ الحب من الله تعالى إنما هو لِمَا حسن من جميع جهاته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ الآية. هذه صفة الكافر والمنافق الذاهب بنفسه زهواً. ويكره للمؤمن أن يوقعه في الحرج في نحو هذا. وقال بعض العلماء: كفى بالمرء إثماً أن يقول له أخوه: اتق الله، فيقول له: عليك نفسك مثلك يوصيني؟

والعزة هنا: المُنعة وشدة النفس، أي اعتر في نفسه وانتحى فأوقعته تلك العزة في الإثم حين أخذته به، وألزمته إياه. ويحتمل لفظ الآية أن تكون: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ﴾ مع الإثم فمعنى الباء يختلف بحسب التأويلين.

وحسبُه: أي كافيه معاقبة وجزاء، كما تقول للرجل: كفاك ما حل بك، وأنت تستعظم وتعظم عليه ما حل به. و﴿لِلْهَيْبَةِ﴾ ما مهَّد الرجل لنفسه كأنه الفراش.

ومن هذا الباب قول الشاعر:

.....

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ
وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْآيَاتِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ الآية تتناول كل مجاهد في سبيل الله، أو مستشهد في ذاته، أو مغير منكرو. والظاهر من هذا التقسيم أن تكون الآيات قبل هذه على العموم في الكافر، بدليل الوعيد في النار، وبأخذ العصاة الذين فيهم شيء من هذا الخلق يحفظهم من وعيد الآية. ومن قال إن الآيات المتقدمة هي في منافقين

تكلموا في غزوة الرجيع قال: هذه الآية في شهداء غزوة الرجيع.

وَمَنْ قال: تلك في الأخنس قال: هذه في الأنصار والمهاجرين المبادرين إلى الإيمان. وقال عكرمة، وغيره: هذه في طائفة من المهاجرين، وذكروا حديث صهيب أنه خرج من مكة إلى النبي ﷺ فاتبعته قريش لترده. فنثر كنانته وقال لهم: تعلمون والله أنني لمن أُرماكم رجلاً، والله لأُرمينكم ما بقي لي سهم، ثم لأضربن بسيفي ما بقي في يدي منه شيء. فقالوا له: لا نتركك تذهب عنا غنياً، وقد جئتنا صلوكاً، ولكن دلنا على مالك ونتركك، فدلهم على ماله وتركوه، فهاجر إلى النبي ﷺ فلما رآه قال له: فربح البيع أبا يحيى. فنزلت فيه هذه الآية.

ومن قال: قصد بالأول العموم قال في هذه كذلك بالعموم. و﴿يَشْرِي﴾ معناه يبيع، ومنه: ﴿وَشَرَوْهُ بِشَرْبِ بَخْتِ﴾، ومنه قول يزيد بن مفرغ الحميري:

وَشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْسَ نَسِي
مِنْ بَعْدِ بُرْدِ كُنْتُ هَامَهُ

وقال الآخر:

يُعطى بِهَا ثَمَنًا فَيَمْنَعُهَا
ويقول صَاحِبُهُ: ألا تشري
ومن هذا تسمى الشراة كأنهم الذين باعوا أنفسهم من الله تعالى.

وحكى قوم أنه يقال: شري بمعنى اشترى، ويحتاج إلى هذا من تأول الآية في صهيب لأنه اشترى نفسه بماله ولم يبعها، اللهم إلا أن يقال: إن عزم صهيب على قتالهم بيع لنفسه

من الله تعالى فتستقيم اللفظة على معنى باع. وتأول هذه الآية عمر بن الخطاب، وعلي ابن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم في مُغَيَّرِي المنكر، ولذلك قال علي، وابن عباس: اقتل الرجلان، أي قال المغير للمفسد: اتق الله - فأبى المفسد، وأخذته العزة فشرى المغير نفسه من الله تعالى وقائله فافتلا.

وروي أن عمر بن الخطاب كان يجمع في يوم الجمعة شباباً من القرأة، فيهم ابن عباس، والخُر بن قيس، وغيرهما: فيقرؤون بين يديه ومعه، فسمع عمر ابن عباس يقول: اقتل الرجلان حين قرأ له هذه الآية، فسأله عما قال: ففسر له هذا التفسير، فقال له عمر: الله تلادك يا ابن عباس.

وقال أبو هريرة، وأبو أيوب - حين حَمَلَ هشام بن عامر على الصف في القسطنطينية فقال قوم: ألقى بيده إلى التهلكة - ليس كما قالوا: بل هذا قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ الْآيَاتِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ الآية.

و﴿أَيْتَنَاءُ﴾ مفعول من أجله، ووقف حمزة على: ﴿مَنْ يَشْرِي﴾ بالتاء، والباقون بالهاء. قال أبو علي: وجه وقف حمزة بالتاء إما أنه على لغة من يقول: طلحت وعلقمت، ومنه قول الشاعر:

.....

بل جَوَزَ نِيَهَاءَ كَظْهَرِ الْحَجَفِثِ
وإما أنه لما كان المضاف إليه في ضمن اللفظة ولا بد، أثبت التاء كما ثبت في الوصل، ليعلم أن المضاف إليه مراد.

الْمُتَّقِينَ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

سَلِّبْ يَسْرَهُ يَلْ كَمْ ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَةٍ يُتْلَى وَمَنْ يَدْرِ لِمَا
 اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٠٩﴾ زَيْنَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَيَسْعَوْنَ فِي الدُّنْيَا ءَامُوا وَالَّذِينَ
 اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْفُؤُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
 ﴿٢١٠﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ
 وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
 فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ
 مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا
 يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ النَّاسَاءُ وَانضَرَّاهُ
 وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ
 الْآلَاءُ نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٢﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُعْطُوا قُلْ
 مَا أَنفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالَّذِينَ وَالْمُسْلِمِينَ
 وَإِنَّ السَّيْلَ وَمَا فَعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٣﴾

٣٣

إذا جنحوا لها، وأما أن
 يتبدى بها فلا.

واختلف - بعد حمل
 اللفظة على الإسلام - من
 المخاطب؟ فقالت فرقة:
 جميع المؤمنين
 بمحمد ﷺ، والمعنى:
 أمرهم بالثبوت فيه والزيادة
 من التزام حدوده،
 ويستغرق ﴿كَافَّةً﴾

حينئذ المؤمنين، وجميع
 أجزاء الشرع، فتكون
 الحال من شيئين وذلك
 جائز نحو قوله تعالى:
 ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيْلًا﴾
 إلى غير ذلك من الأمثلة.

وقال عكرمة: بل
 المخاطب من آمن بالنبي من بني
 إسرائيل كعبدالله بن سلام، وغيره،
 وذلك أنهم ذهبوا إلى تعظيم يوم
 السبت وكرهوا لحم الجمل، وأرادوا
 استعمال شيء من أحكام التوراة
 وخلط ذلك بالإسلام، فنزلت هذه
 الآية فيهم، فكافة - على هذا -
 لأجزاء الشرع فقط. وقال ابن
 عباس: نزلت الآية في أهل الكتاب.
 والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى
 وعيسى ادخلوا في الإسلام بمحمد
 كافة، فكافة - على هذا - لأجزاء
 الشرع، وللمخاطبين. على من يرى
 السلم الإسلام. ومن يراها المسالمة
 يقول: أمرهم بالدخول في أن يعطوا
 الجزية. و﴿كَافَّةً﴾ معناه جميعاً،
 والمراد بالكافة الجماعة التي تكف
 مخالفيها. وقيل: إن ﴿كَافَّةً﴾
 نعت لمصدر محذوف كأن الكلام،

دخله كافة فلما حذف المنعوت بقي
 النعت حالاً.

وتقدم القول في ﴿خَطَوَاتٍ﴾
 والألف واللام في ﴿الْمُتَّقِينَ﴾
 للجنس، و﴿عَدُوٌّ﴾ يقع على الواحد
 والاثنتين والجمع و﴿يُنِيبُ﴾ يحتمل
 أن يكون بمعنى أبان عدواته وأن
 يكون بمعنى بان في نفسه أنه عدو
 لأن العرب تقول: بان الأمر وأبان
 بمعنى واحد.

﴿٢٠٩﴾ - ﴿٢١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:
 قرأ جمهور الناس: ﴿زَكَّلْتُمْ﴾
 بفتح اللام. وقرأ أبو السمال:
 ﴿زَلَّلْتُمْ﴾ بكسرهما. وأصل الزلل في
 القدم، ثم يستعمل في الاعتقادات
 والآراء وغير ذلك. والمعنى: ضللتهم
 وغشمتهم عن الحق.

و﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ محمد وآياته
 ومعجزاته إذا كان الخطاب أولاً
 لجماعة المؤمنين، وإذا كان الخطاب
 لأهل الكتابين فالبيّنات ما ورد في
 شرائعهم من الإعلام بمحمد ﷺ
 والتعريف به.

و﴿عَزِيزٌ﴾ صفة مقتضية أنه قادر
 عليكم، لا تعجزونه، ولا تمتنعون
 منه، و﴿حَكِيمٌ﴾ أي محكم فيما
 يعاقبكم به لزللكم.

وحكى النقاش أن كعب الأبحار لما
 أسلم، كان يتعلم القرآن، فأقرأه
 الذي كان يعلمه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
 عَزَّوَجَلَّ رَحِيمٌ﴾ فقال كعب: إني
 لأستنكر أن يكون هكذا، ومر بهما
 رجل، فقال كعب: كيف تقرأ هذه
 الآية؟ فقرأ الرجل: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
 عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال كعب: هكذا
 ينبغي.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ
 بِالْعِبَادِ﴾ ترجمة تقتضي الحض على
 امتثال ما وقع به المدح في الآية،
 كما أن قوله تعالى: ﴿فَتَسْبُحُوْهُ
 جَهْمًا﴾ تخويف يقتضي التحذير مما
 وقع به الذم في الآية.

ثم أمر تعالى المؤمنين بالدخول في
 السلم. وقرأ ابن كثير، ونافع،
 والكسائي: ﴿السلم﴾ بفتح السين.
 وقرأ الباقر بكسرهما في هذا
 الموضع فقيل: هما بمعنى واحد
 يقعان للإسلام وللمسالمة. وقال أبو
 عمرو بن العلاء: السلم بكسر
 السين: الإسلام، وبالفتح المسالمة،
 وأنكر المبرد هذه التفرقة. ورجح
 الطبري حمل اللفظة على معنى
 الإسلام لأن المؤمنين لم يؤمروا قط
 بالابتداء بالدخول في المسالمة،
 وإنما قيل للنبي ﷺ أن يجنح للسلم

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ الآية. الخطاب للنبي ﷺ. و﴿هَلْ﴾ من حروف الابتداء كما، و﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون، والمراد: هؤلاء الذين يزلون.

والظَّلُّ جمع غُلَّة، وهي: ما أطل من فوق. وقرأ قتادة، والضحاك: ﴿فسي ظلال﴾ وكذلك روى هارون بن حاتم، عن أبي بكر، عن عاصم هنا، وفي الحرفين في الزمر. وقال عكرمة: ظلل: طاقات. وقرأ الحسن، وابن القعقاع، وأبو حيوه ﴿والملائكة﴾ بالخفض عطفاً على الغمام. وقرأ جمهور الناس بالرفع عطفاً على ﴿آفَ﴾، والمعنى يأتيهم حكم الله وأمره ونهيه وعقابه إياهم، وذهب ابن جريج، وغيره إلى أن هذا التوعد هو بما يقع في الدنيا. وقال قوم: بل هو توعد بيوم القيامة. وقال قوم: قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ وعيدٌ بيوم القيامة وأما الملائكة فالوعيد هو بإتيانهم عند الموت.

والغمام أرق السحاب وأصفاه وأحسنه، وهو الذي ظلل به بنو إسرائيل. وقال النقاش: هو ضباب أبيض. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾.

و﴿فَيَقُومُ الْأَمْرُ﴾ معناه: وقع الجزاء وعذب أهل العصيان. وقرأ معاذ بن جبل: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾. وقرأ يحيى بن يعمر: ﴿وَقُضِيَ الْأُمُورُ﴾ بالجمع. وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي: ﴿فَرُجِعَ﴾ على بناء الفعل للفاعل. وقرأ الهافون: ﴿فَرُجِعَ﴾ على

بنائه للمفعول وهي راجعة إليه تعالى قبل وبعد، وإنما نبه بذكر ذلك في يوم القيامة على زوال ما كان منها إلى الملوك في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية. الخطاب لمحمد ﷺ، وفيه إباحة السؤال لمن شاء من أمته: ومعنى الآية توبيخهم على عنادهم بعد الآيات البينة. وقرأ أبو عمرو في رواية ابن عباس عنه: ﴿أَسْأَلُ﴾ على الأصل. وقرأ قوم: ﴿أَسْأَلُ﴾ على نقل الحركة إلى السين وترك الاعتداد بذلك في إبقاء ألف الوصل على لغة من قال الخمر ومن قرأ ﴿سَلِّ﴾ فإنه أزال ألف الوصل، حين نقل واستغنى عنها. و﴿كَمْ﴾ في موضع نصب - إما بفعل مضمر بعدها لأن لها صدر الكلام تقديره: كم أتينا ﴿ءَاتَيْنَهُمْ﴾ وإما بـ ﴿ءَاتَيْنَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿يَنْزِلُ إِلَيْهِ﴾ هو على التقدير الأول مفعول ثانٍ لأتيناها، وعلى الثاني في موضع التمييز. ويصح أن تكون ﴿كَمْ﴾ في موضع رفع بالابتداء والخبر في ﴿ءَاتَيْنَهُمْ﴾ ويصير فيه عائد على ﴿كَمْ﴾ تقديره: كم أتيناهاهموه. - والمراد بالآية: كم جاءهم في أمر محمد ﷺ من آية مرفوعة به دالة عليه.

و﴿يَمَنَّا اللَّهُ﴾ لفظ عام لجميع إنعامه ولكن يقوي من حال النبي معهم أن المشار إليه هنا محمد ﷺ، فالمعنى: من يبدل من بني إسرائيل صفة نعمة الله، ثم جاء اللفظ منسحباً على كل مُبْدِلٍ نعمةً لله تعالى.

وقال الطبري: النعمة هنا -

الإسلام، وهذا قريب من الأول. ويدخل في اللفظ أيضاً كفار قريش الذين بُعِثَ محمدٌ منهم نعمة عليهم، فبدلوا قبولها والشكر عليها كفراً - والشورى أيضاً نعمة على بني إسرائيل، أرشدتهم وهدتهم فبدلوا بالتحريف لها وجحدٍ أمر محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ خبرٌ يقتضي ويتضمن الوعيد.

والعقاب: مأخوذ من العقب، كان المعاقب يمشي بالمجازاة له في آثار عقبيه.

ومنه عقبة الراكب، وعقبة القدر. وقوله تعالى: ﴿رَبِّنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَلْحِيَوْهُمُ الدُّنْيَا﴾ المَرْزُؤُنُ هو خالقها ومُخْتَرِعُهَا وخالق الكفر. وَيَرْزُئُهَا أيضاً الشيطان بوسوسته وإغوائه. وقرأ مجاهد، وحמיד بن قيس، وأبو حيوه: ﴿رُزِّنَ﴾ على بناء الفعل للفاعل ونصب ﴿الحياة﴾. وقرأ ابن أبي عبله: ﴿رُزِّنَتْ﴾ بإظهار العلامة - والقراءة دون علامة هي للحائل، ولكون التأنيث غير حقيقي.

وخص الذين كفروا بالذكر لقبولهم التزيين جملةً، وإقبالهم على الدنيا، وإعراضهم عن الآخرة بسببها. والتزيين من الله تعالى واقع للكل، وقد جعل الله ما على الأرض زينة لها لِيَبْلُوَ الْخَلْقَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، فالمؤمنون الذين هم على سنن الشرع لم تفتنهم الزينة، والكفار تملكتهم لأنهم لا يعتقدون غيرها، وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه - حين قُدِمَ عليه بالمال -: «اللهم إنا

لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا.

وقوله: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾، إشارة إلى كفار قريش لأنهم كانوا يعظمون حالهم من الدنيا، ويغترون بها، ويسخرون من أتباع النبي ﷺ. كبلال، وصهيب، وابن مسعود، وغيرهم. فذكر الله قبيح فعلهم، ونبه على خفض منزلتهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ومعنى القوق هنا في الدرجة والقدر، فهي تقتضي التفضيل وإن لم يكن للكفار من القدر نصيب، كما قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾. وتحتمل الآية أن المتقين هم في الآخرة في التمتع والفوز بالرحمة فوق ما هم هؤلاء فيه في دنياهم، وكذلك خير مستقراً، من هؤلاء في نعمة الدنيا. فعلى هذا الاحتمال وقع التفضيل في أمر فيه اشتراك، وتحتمل هذه الآية أن يراد بالفوق المكان من حيث الجنة في السماء والنار في أسفل السافلين فيعلم من ترتيب الأمكنة أن هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار.

وتحتمل الآيتان أن يكون التفضيل على ما يتضمنه زعم الكفار، فإنهم كانوا يقولون: وإن كان معاذ فلنا فيه الحظ أكثر مما لكم، ومنه حديث خباب مع العاصي بن وائل.

وهذا كله من التحميلات حفظ لمذهب سيبويه والخليل في أن التفضيل إنما يجيء فيما فيه شركة، والكوفيون يجيزونه حيث لا اشتراك.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرُدُّ مَنْ يَشَاءُ يَسِّرْ حِسَابَ﴾ يحتمل أن يكون

المعنى: والله يرزق هؤلاء الكفرة في الدنيا فلا تستعظموا ذلك، ولا تقيسوا عليه الآخرة، فإن الرزق ليس على قدر الكفر والإيمان بأن يحسب لهذا عمله، ولهذا عمله، فيرزقان بحساب ذلك، بل الرزق بغير حساب الأعمال - والأعمال ومجازاتها محاسبة ومعادة إذ أجزاء الجزاء تقابل أجزاء الفعل المجازي عليه، فالمعنى أن المؤمن - وإن لم يرزق في الدنيا - فهو فوق يوم القيامة.

وتحتمل الآية أن يكون المعنى: إن الله يرزق هؤلاء المستضعفين علو المنزلة بكونهم فوق، وما في ضمن ذلك من التعميم بغير حساب، فالآية تنبيه على عظم النعمة عليهم، وجعل رزقهم بغير حساب من حيث هو دائم لا ينتهي فهو لا ينفد.

ويحتمل أن يكون: ﴿يَسِّرْ حِسَابَ﴾ صفة لرزق الله تعالى كيف يصرف إذ هو جلّت قُدْرَتُهُ لا يُفْقِدُ بَعْدَ، فَفَضْلُهُ كله بغير حساب.

ويحتمل أن يكون المعنى في الآية: من حيث لا يحتسب هذا الذي يشاؤه الله. كأنه قال: بغير احتساب من المرزوقين كما قال تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسِبُ﴾.

وإن اعترض معترض على هذه الآية بقوله تعالى: ﴿عَلَّاهُ حِسَابَ﴾ فالمعنى في ذلك: محسباً، وأيضاً فلو كان عدلاً لكان الحساب في الجزاء والمثوبة لأنها معادة. وغير الحساب في التفضل والإنعام.

﴿٢١٣﴾ - ﴿٢١٤﴾ تفسير قوله عز وجل: قال أبي بن كعب، وابن زيد:

المراد بالناس: بنو آدم حين أخرجهم الله نسماً من ظهر آدم، أي كانوا على الفطرة.

وقال مجاهد: الناس: آدم وحده وقيل: آدم وحواء.

وقال ابن عباس، وقتادة: الناس: القرون التي كانت بين آدم ونوح، وهي عشرة - كانوا على الحق حتى اختلفوا، فبعث الله تعالى نوحاً ففن بعده.

وقال قوم: الناس: نوح، ومن في سفيته - كانوا مسلمين، ثم بعد ذلك اختلفوا.

وقال ابن عباس أيضاً: كان الناس أمة واحدة كفاراً - يريد في مدة نوح، حين بعث الله.

وكان - على هذه الأقوال - هي على بابها من المضي المنقضي، وتحتمل الآية معنى سابعاً وهو أن يخبر عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة، في خلوصهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق، لولا من الله عليهم وتفضله بالرسول، ف﴿كَانَ﴾ على هذا للشبوت، لا تختص بالمضي فقط، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَكَ رَحِيمًا﴾.

والأمة: الجماعة على المقصد الواحد، ويسمى الواحد أمة إذا كان منفرداً بمقصد، ومنه قول النبي ﷺ في قس بن ساعدة: ﴿يُخْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أمةٌ وحده﴾.

وقرأ أبي بن كعب: ﴿كَانَ الْبَشَرِ أمةٌ واحدة﴾، وقرأ ابن مسعود: ﴿كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فَبَعَثَ﴾، وكل من قَدَّرَ ﴿النَّاسِ﴾ في الآية مؤمنين قدر في الكلام

﴿تَاخْتَلَفُوا﴾، وكل من قدرهم كفاراً كانت بعثة النبيين إليهم. وأول الرسل - على ما ورد في الصحيح في حديث الشفاعة - نوح لأن الناس يقولون له: أنت أول الرسل. والمعنى: إلى تقويم كفار، وإلا فآدم مُرسل إلى بنيهِ يعلمهم الدين والإيمان - و﴿تُبَيِّرَ﴾ معناه: بالشواب على الطاعة، و﴿تُذِيرَ﴾ معناه: من العقاب على المعاصي، ونصّب اللفظتين على الحال.

و﴿الْكِتَابُ﴾ اسم الجنس، والمعنى جميع الكتب. وقال الطبري: الألف واللام في ﴿الْكِتَابُ﴾ للعهد، والمراد التوراة. و﴿يُحْكَمْ﴾ مسند إلى ﴿الْكِتَابِ﴾ في قول الجمهور. وقال قوم: المعنى: ليحكم الله. وقرأ الجحدري: ﴿يُحْكَمْ﴾ على بناء الفعل للمفعول. وحكى عنه مكي ﴿يُحْكَمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأظنه تصحيفاً لأنه لم يُحْكَمْ عنه البناء للمفعول كما حكى الناس - والضمير في ﴿فِيهِ﴾ عائد على ﴿مَا﴾ من قوله: ﴿فِيْنَا﴾، والضمير في ﴿فِيهِ﴾ الثانية يحتمل العود على ﴿الْكِتَابِ﴾، ويحتمل على الضمير الذي قبله، و﴿الَّذِينَ أَوْفُوا﴾ أرباب العلم به والدراسة له. وخصهم بالذكر تنبيهاً منه تعالى على الشبهة في فعلهم، والقبح الذي واقعوه، و﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: الدلالات والحجج. و﴿بَيِّنًا﴾ منصوب على المفعول له. والبي: التعدي بالباطل. و﴿هُدًى﴾ معناه: أرشد، وذلك خلق الإيمان

في قلوبهم، وقد تقدم ذكر وجوه الهدى في سورة (الحمد) - والمراد ب﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من آمن بمحمد ﷺ - فقالت طائفة: معنى الآية: أن الأمم كذب بعضهم كتاب بعض فهدى الله أمة محمد للتصديق بجميعها. وقالت طائفة: إن الله هدى المؤمنين للحق فيما اختلف فيه أهل الكتابين - من قولهم: إن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً. وقال ابن زيد: من قبلتهم - فإن قبله اليهود إلى بيت المقدس والنصارى إلى المشرق. ومن يوم الجمعة - فإن النبي ﷺ قال: «هذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فليهود هذا وللنصارى بعد غد» - ومن صيامهم وجميع ما اختلفوا فيه.

وقال الفراء: في الكلام قلب، واختاره الطبري قال: وتقدمه ﴿فَهَكَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ - ودعاه إلى هذا التقدير خوف أن يَحْتَبِلَ اللفظ أنهم اختلفوا في الحق، فهدى الله المؤمنين لبعض ما اختلفوا فيه، وعساه غير الحق في نفسه. نحا إلى هذا الطبري في حكايته عن الفراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وادعاء القلب على لفظ كتاب الله دون ضرورة - يدفع إلى ذلك عجز وسوء نظر، وذلك أن الكلام يخرج على وجهه ووصفه لأن قوله: ﴿فَهَكَى﴾ يقتضي أنهم أصابوا الحق، وتم المعنى في قوله: ﴿فِيهِ﴾. وتبين بقوله: ﴿وَبَيِّنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ جنس ما وقع الخلاف فيه.

قال المهدوي: وقدم لفظ

الاختلاف على لفظ الحق اهتماماً، إذ العناية إنما هي بذكر الاختلاف. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا عندي بقوي. وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا حَقَّهُ مِنْ الْحَقِّ﴾ أي عن الإسلام.

و﴿بِآيَاتِهِ﴾ قال الزجاج: معناه: بعلمه - وقيل: بأمره - والإذن هو العلم والتمكن، فإن اقترن بذلك أمر صار أقوى من الإذن بمزية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ رد على المعتزلة في قولهم: إن العبد يستبد بهدياً نفسه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَبَيْتَهُ﴾ الآية، ﴿أَمْ﴾ قد تجيء الابتداء كلام بعد كلام وإن لم يكن تقسيم ولا معادلة ألف استفهام - وحكى بعض اللغوين أنها قد تجيء بمثابة ألف الاستفهام يُتدأ بها.

و﴿حَبَيْتَهُ﴾ تطلب مفعولين - فقال النحاة: ﴿أَنْ تَدْعُوا﴾ تُسَد مسد المفعولين لأن الجملة التي بعد ﴿أَنْ﴾ مستوفاة المعنى، ويصح أن يكون المفعول الثاني محذوفاً تقديره: ﴿أَحْسِبْتُمْ دخولكم الجنة واقعاً ولماً﴾.

ولا يظهر أن يقدر المفعول الثاني في قوله: ﴿وَلَكِنَّا يَأْتِكُمْ﴾ بتقدير: ﴿أَحْسِبْتُمْ دخولكم الجنة خلواً من أن يصيبكم ما أصاب من قبلكم﴾، لأن ﴿عَلَا﴾ حال، والحال هنا إنما تأتي بعد توفية المفعولين، والمفعولان هما الابتداء، والخبر قبل دخول حسب، و﴿الْبَاسَاءُ﴾ في المال، و﴿الْفَرَآةُ﴾ في البدن. و﴿عَلَا﴾ معناه: انقروضوا - أي صاروا في

فيها؟ وأين يضعون ما لزم إنفاقه؟
 و﴿مَا﴾ يصح أن تكون في موضع رفع
 على الابتداء و﴿ذَا﴾ خبرها، فهي
 بمعنى الذي و﴿يُنْفِقُونَ﴾ صلة، وفيه
 عائد على ﴿ذَا﴾ تقديره: ينفقونه.
 ويصح أن تكون ﴿مَاذَا﴾ اسماً واحداً
 مركباً في موضع نصب ب﴿يُنْفِقُونَ﴾
 فيعري من الضمير، ومتى كانت اسماً
 مركباً فهي في موضع نصب إلا ما
 جاء من قول الشاعر:

وَمَاذَا عَسَى الْوَاشُونَ أَنْ يَتَحَدَّثُوا
 سِوَى أَنْ يَقُولُوا: إِنِّي لِكَ عَاشِقٍ
 فَإِنْ عَسَى لَا تَعْمَلُ فِيمَا قَبْلَهَا -
 فَمَاذَا؟ في موضع رفع، وهو
 مركب إذ لا صلة له إِذَا.

قال قوم: هذه الآية في الزكاة
 المفروضة، وعلى هذا نسخ منها
 الوالدان وَمَنْ جَرَى مجراها من
 الأقربين.

وقال السدي: نزلت هذه الآية قبل
 فرض الزكاة، ثم نسختها الزكاة
 المفروضة.

ووهم المهدوي على السدي في
 هذا فتُسبب إليه أنه قال: إن الآية في
 الزكاة المفروضة ثم نسخ منها
 الوالدان.

وقال ابن جريج، وغيره: هي
 ندب، والزكاة غير هذا الإنفاق،
 فعلى هذا لا نسخ فيها.

واليثم: فقد الأب قبل البلوغ،
 وتقدم القول في المسكين وابن
 السيل.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾ جزم بالشرط
 والجواب في الفاء. وقرأ علي بن
 أبي طالب رضي الله عنه: ﴿تَفْعَلُوا﴾

﴿وَزُلْزِلُوا ثُمَّ زُلْزِلُوا﴾ ويقول
 الرسول ﴿وقرأ نافع: ﴿يَقُولُ﴾ بالرفع. وقرأ
 الباقون: ﴿يَقُولُ﴾
 بالنصب، فحتى غاية
 مجردة، تنصب الفعل
 بتقدير إلى أن. وعلى
 قراءة نافع كأنها اقترن بها
 تسبب فهي حرف ابتداء
 ترفع الفعل.

وأكثر المتأولين على أن
 الكلام إلى آخر الآية من
 قول الرسول والمؤمنين،
 ويكون ذلك من قول
 الرسول على طلب
 استعجال النصر لا على
 شك ولا ارتياب.

والرسول اسم الجنس، وذكره الله
 تعظيماً للنزلة التي دعت الرسول إلى
 هذا القول.

وقالت طائفة: في الكلام تقديم
 وتأخير، والتقدير: حتى يقول الذين
 آمنوا: متى نصر الله؟ فيقول
 الرسول: ألا إن نصر الله قريب.
 فقدم الرسول في الرتبة لمكانته، ثم
 قدم قول المؤمنين لأنه المتقدم في
 الزمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 وهذا تحكم، وحمل الكلام على
 وجه غير متعذر.

ويحتمل أن يكون: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ
 اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ إخباراً من الله تعالى
 مؤتلفاً بعد تمام ذكر القول.

﴿٢١٥﴾ - ﴿٢١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
 السائلون: هم المؤمنون، والمعنى:
 يسألونك - ما هي الوجوه التي ينفقون

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
 شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٥﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَاقِ
 الْأَكْثَرِ فَقَالَ لَهُ قُلْ فِيهِ كَيْدٌ وَصَدْعٌ سَبِيلُ اللَّهِ
 وَكَفَرٌ بِهِ، وَالْمَسْجِدَ الْأَكْرَبُ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ
 عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُبْعَثُونَكُمْ
 حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ
 مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَبِمَتٍ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
 أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٦﴾ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
 هَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
 اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٧﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ
 وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا
 أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ
 كَذَلِكَ يَسْتَبِينَ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٨﴾

٣٤

خلاء من الأرض.

وهذه الآية نزلت في قصة
 الأحزاب، حين حَصَرُوا
 رسول الله ﷺ وأصحابه في المدينة،
 هذا قول قتادة، والسدي وأكثر
 المفسرين. وقالت فرقة: نزلت الآية
 تسلية للمهاجرين الذين أصيبت
 أموالهم بعدهم في بلادهم، وقتنوا
 هُمْ قبل ذلك.

و﴿يَتَلَّ﴾ معناه: «شبه». فالتقدير:
 أي شبه الذين خَلَّوْا.

والزلزلة: شدة التحريك، تكون في
 الأشخاص، وفي الأحوال. ومذهب
 سيبويه أن زُلْزَلَ رباعي كذخرَج.
 وقال الزجاج: هو تضعيف في زَلْ
 فيجيء التضعيف على هذا في الفاء.

وقرأ الأعمش: ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ ويقول
 الرسول ﴿بالواو بدل حتى.
 وفي مصحف ابن مسعود:

بالباء على ذكر الغائب، وظاهر الآية الخبر وهي تتضمن الوعد بالمجازاة.

و﴿كُتِبَ﴾ معناه: فرض، وقد تقدم مثله، وهذا هو فرض الجهاد. وقرأ قوم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾، وقال عطاء بن أبي رباح: فرض القتال على أعيان أصحاب محمد، فلما استقر الشرع وقيم به، صار على الكفاية - وقال جمهور الأمة: أول فرضه إنما كان على الكفاية دون تعيين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واستمر الإجماع على أن الجهاد على أمة محمد ﷺ فرض كفاية، فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقيين، إلا أن ينزل العدو بساحة الإسلام فهو حينئذ فرض عين.

وذكر المهدوي، وغيره عن الثوري أنه قال: الجهاد تطوع، وهذه العبارة عندي إنما هي على سؤال سائل، وقد قيم بالجهاد فقيلاً له: ذلك تطوع.

والكُره بضم الكاف: الاسم، وبفتحها المصدر، وقال قوم: الكُره بفتح الكاف ما أكره المرء عليه، والكُره ما كرهه هو. وقال قوم: هما بمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ الآية. قال قوم: عسى من الله واجبة، والمعنى: عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظهرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيداً، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُمُ﴾ الآية قوة أمر.

وقوله تعالى: ﴿يَتَكَلَّفُونَكَ مِنَ الشَّهْرِ الْكَرَّاءِ﴾ الآية، نزل في قصة عمرو بن الحضرمي، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية عليها عبدالله بن جحش الأسدي مقدمه من بدر الأولى، فلقوا عمرو بن الحضرمي ومعه عثمان بن عبدالله بن المغيرة، وأخوه نوفل المخزوميان، والحكم بن كيسان، في آخر يوم من رجب، على ما ذكر ابن إسحاق، وفي آخر يوم من جمادي الآخرة على ما ذكره الطبري عن السدي وغيره: والأول أشهر. على أن ابن عباس قد ورد عنه أن ذلك كان في أول ليلة من رجب، والمسلمون يظنونها من جمادي، وأن القتال في الشهر الحرام لم يقصدوه، وأما على قول ابن إسحاق فإنهم قالوا: إن تركناهم اليوم دخلوا الحرم فأزمعوا قتالهم، فرمى واقد بن عبدالله عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله وأسر عثمان بن عبدالله والحكم، وفر نوفل فأعجزهم واستسهل المسلمون هذا في الشهر الحرام خوف فوتهم، فقالت قريش: محمد قد استحل الأشهر الحرم، وغيروا بذلك، وتوقف النبي ﷺ. وقال: «ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم»، فنزلت هذه الآية.

وذكر المهدوي أن سبب هذه الآية أن عمرو بن أمية الضمري قتل رجلين من بني كلاب في رجب فنزلت، وهذا تخليط من المهدوي. وصاحب عمرو كان عندهما عهد من

النبي ﷺ، وكان عمرو قد أنلت من قصة بئر معونة، وذكر صاحب بن عباد، في رسالته المعروفة بالأسدية أن عبدالله بن جحش سمي أمير المؤمنين في ذلك الوقت لكونه مؤمراً على جماعة من المؤمنين.

و﴿يَتَالِ﴾ بدل عند سيبويه، وهو بدل الاشتمال. وقال الفراء: هو خفض بتقدير عن. وقال أبو عبيدة: هو خفض على الجوار. وقوله هذا خطأ، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ عَنْ قِتَالٍ فِيهِ﴾ بتكرير «عن» وكذلك قرأها الربيع، والأعمش. وقرأ عكرمة: ﴿عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قَاتِلْ﴾ دون ألف فيهما.

والشهر في الآية اسم الجنس، وكانت العرب قد جعل الله لها الشهر الحرام قواماً، تعتدل عنده، فكانت لا تسفك دماً، ولا تغير في الأشهر الحرم، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب.

وروى جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ لم يكن يغزو فيها إلا أن يغزى، فذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَالِ فِيهِ كِبِيرٌ﴾، و﴿وَصَدُّ﴾ مبتدأ مقطوع مما قبله، والخبر «أكبر»، و﴿وَالسَّجْدِ﴾ معطوف على «سبيل الله»، وهذا هو الصحيح.

وقال الفراء: ﴿وَصَدُّ﴾ عطف على «كبير» وذلك خطأ لأن المعنى يسوق إلى أن قوله: ﴿وَكَفَرٌ يَوْمٌ﴾ عطف أيضاً على «كبير»، ويجيء من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر عند الله، وهذا بين فساد.

ومعنى الآية على قول الجمهور - إنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام ومن كفركم بالله وإخراجكم أهل المسجد منه - كما فعلوا برسول الله ﷺ وأصحابه - أكبر جرمًا عند الله.

وقال الزهري، ومجاهد، وغيرهما قوله: ﴿قُلْ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ منسوخ بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ ويقولون: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ وقال عطاء: لم تنسخ، ولا ينبغي القتال في الأشهر الحرم، وهذا ضعيف. وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ المعنى عند جمهور المفسرين: والفتنة التي كنتم تفتنون المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا أشد اجترامًا من قتلهم في الشهر الحرام. وقيل: المعنى: والفتنة أشد من أن لو قتلوا ذلك المفتون، أي: فعلكم على كل إنسان أشد من فعلنا. وقال مجاهد وغيره: الفتنة هنا: الكفر، أي كفركم أشد من قتلنا أولئك.

٢١٨ - ٢١٩ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْكُدُوا﴾ ابتداء خبر من الله - عز وجل - وتحذير منه للمؤمنين من شر الكفرة، و﴿يُرَدُّكُمْ﴾ نصب بـ﴿حَتَّى﴾ لأنها غاية مجردة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْكُدْ﴾، أي يرجع عن الإسلام إلى الكفر. قالت طائفة من العلماء: يُستتاب المرتد فإن تاب وإلا قتل. وقال عبيد بن عمير، وطاوس، والحسن: على

خلاف عنه - والشافعي - في أحد قولي: يقتل دون أن يُستتاب. ورؤي نحو هذا عن أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومقتضى قولهما أنه يقال له للحين: راجع، فإن أبي قُتل. وقال عطاء بن أبي رباح: إن كان المرتد ابن مسلمين قُتل دون استتابة، وإن كان أسلم ثم ارتد استتيب، وذلك لأنه يجهل من فضل الإسلام ما لا يجهل ابن المسلمين.

واختلف القائلون في الاستتابة - فقال عمر بن الخطاب: يُستتاب ثلاثة أيام، وبه قال مالك، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب الرأي، والشافعي - في أحد قولي. وقال الزهري: يدعى إلى الإسلام فإن تاب وإلا قتل. وروي عن علي بن أبي طالب أنه استتاب مرتدًا شهرًا فأبى فقتله. وقال النخعي، والثوري: يستتاب محبوساً أبدًا. قال ابن المنذر: واختلفت الآثار عن عمر في هذا الباب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كان رضي الله عنه ينفذ بحسب جرم ذلك المرتد، أو قلة جرمه، المقترن بالردة.

وحبط العمل إذا انفسد في آخره فيطل. وقرأ أبو السمال: ﴿حَبِطَتْ﴾ بفتح الباء في جميع القرآن. وقال علي بن أبي طالب، والحسن، والشعبي، والحكم، والليث، وأبو حنيفة، وإسحاق بن راهويه: ميراث المرتد لورثته من المسلمين. وقال

مالك، وربيع، وابن أبي ليلى، والشافعي، وأبو ثور: ميراثه في بيت المال - وأجمع الناس على أن ورثته من أهل الكفر لا يرثونه إلا شذوذًا، روي عن عمر بن عبد العزيز، وعن قتادة، وروي عن عمر بن عبد العزيز خلافه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الآية. قال جندب بن عبد الله، وعروة بن الزبير، وغيرهما: لما قُتل واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي في الشهر الحرام توقّف رسول الله ﷺ عن أخذ خُمسه الذي وفق في فرضه له عبد الله بن جحش، وفي الأسيرين، فعنف المسلمون عبد الله بن جحش، وأصحابه - حتى شق ذلك عليهم - فتلّفاهم الله عز وجل بهذه الآية في الشهر الحرام، ثم بذكرهم والإشارة إليهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ثم هي باقية في كل من فعل ما ذكر الله عز وجل.

وهاجر الرجل إذا انتقل نفلة إقامة من موضع إلى موضع، وقصد ترك الأول إيثارة للثاني وهي: مُفاعلة من هَجَرَ. ومن قال: المهاجرة الانتقال من البادية إلى الحاضرة فقد أوهم بسبب أن ذلك كان الأغلب في العرب، وليس أهل مكة مهاجرين على قوله.

وجاهد: مُفاعلة من جهد إذا استخرج الجهد، و﴿يَرْبُحُونَ﴾ معناه: يطمعون ويستقربون، والرجاء تنعم، والرجاء أبدًا معه خوف ولا بد. كما أن الخوف معه رجاء، وقد يتجاوز

أحياناً وبجيء الرجاء بمعنى ما يقارنه من الخوف كما قال الهذلي:

إِذَا لَسَعَتْهُ النُّحْلُ لَمْ يَزُجْ لَسْعَهَا
وَحَالَفَهَا فِي بَيْتِ نَوْبِ عَوَامِلٍ
وقال الأصمعي: إذا اقترن حرف
النفي بالرجاء كان بمعنى الخوف
كهذا البيت، وكقوله عز وجل: ﴿لَا
يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ المعنى: لا يخافون،
وقد قيل: إن الرجاء في الآية على
بابه، أي لا يرجون الثواب في لقائنا
وبإزاء ذلك خوف العقاب. وقال
قوم: اللفظة من الأضداد دون تجوز
في إحدى الجهتين، وليس هذا
بجيد. وقال الجاحظ في كتاب
«البلدان»: إن معنى قوله: (لَمْ يَزُجْ
لَسْعَهَا) أي لَمْ يَزُجْ بُزْءَ لَسْعِهَا
وزواله، فهو يصبر عليه. وباقي الآية
وغد.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ
الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ﴾ الآية - السائلون:
هم المؤمنون، و«الْخَمْرُ» مأخوذة
من خَمَرَ إذا ستر، ومنه قول
النبي ﷺ: «خَمَرُوا الْإِنَاءَ» ومنه:
خَمَارُ الْمَرْأَةِ - وَالْخَمْرُ: ما وارك من
شجر وغيره، ومنه قول الشاعر:

أَلَا يَأْزِيدُ وَالضُّحَاكَ سِيرَا
فَقَدْ جَاوَزْتَمَا خَمَرَ الطَّرِيقِ
أي: سيراً مُدِلِّينَ فَقَدْ جَاوَزْتَمَا
الوَهْدَةَ الَّتِي يَسْتَرُ بِهَا الذِّيبُ وَغَيْرَهُ،
ومنه قول العجاج:

فِي لَامِعِ الْعُقْبَانِ لَا يَمُشِي الْخَمَرُ
.....

يصف جيشاً برايات غير مستخف.
ومنه قولهم:

دَخَلَ فُلَانٌ فِي غَمَارِ النَّاسِ
وخمَارهم، أي: هو بمكان خاف،

فلما كانت الخمر تستر العقل وتغطي
عليه سُميت بذلك.

والخمر ماء العنب الذي غُلِيَ ولم
يطبخ وما خامر العقل من غير ذلك
فهو في حكمه.

وحُرِّمَت الخمر بالمدينة يوم حرمت
وهي من العسل، والزبيب، والتمر،
والشعير، والقمح، ولم تكن عندهم
خمر عنب. واجمعت الأمة على
خمر العنب - إذا غلت ورمت بالزبد
- أنها حرام قليلاً وكثيراً، وأن
الحد واجب في القليل منها والكثير.
وجمهور الأمة على أن ما أسكر
كثيره من غير خمر العنب فمحرم
قليلاً وكثيره، والحد في ذلك
واجب، وقال أبو حنيفة، وسفيان
الثوري، وابن أبي ليلى، وابن
شبرمة، وجماعة من فقهاء الكوفة:
«ما أسكر كثيره من غير خمر العنب
فما لا يسكر منه حلال، وإذا سكر
أحد منه دون أن يتعمد الوصول إلى
حد السكر فلا حد عليه» وهذا قول
ضعيف يردّه النظر. وأبو بكر
الصدّيق، وعمر الفاروق، والصحابه
رضي الله عن جميعهم على خلافه.

وروي أن النبي عليه الصلاة
والسلام قال: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ،
وكل خمر حرام، وما أسكر كثيره
فقليلاً حرام». قال ابن المنذر في
«الإشراق»: لم يبق هذا الخبر مقالة
لقاتل، ولا حجة لمحتج.

وروي أن هذه الآية أول تطرق إلى
تحريم الخمر، ثم بعده: ﴿لَا تَقْرَبُوا
الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾. ثم قوله
تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ النَّاسُ أَنْ يُؤَفَّقَ
بَيْنَكُمْ أَلْعَدَّةَ وَالْبَعْضَةَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ

وَمَصَدَّقٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ
مُنْتَبِهُونَ ﴿؟﴾ ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا
لَنْفَرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَزْلَمُ يَجْسُ مِنْ
عَمَلِ النَّاسِ فَاجْنَبُوهُ﴾ فقال
رسول الله ﷺ: «حُرِّمَتِ الْخَمْرُ».

ولم يحفظ عن النبي ﷺ في حدّ
الخمر إلا أنه جلد أربعين. خرجه
مسلم، وأبو داود. وروي عنه ﷺ
أنه ضرب فيها ضرباً مشاعاً وحزره
أبو بكر أربعين سوطاً، وعمل بذلك
هو، ثم عمر، ثم تهافت الناس فيها
فشدد عليهم الحد وجعله كأخف
الحدود ثمانين، وبه قال مالك،
وقال الشافعي بالأربعين - وضرب
الخمر غير شديد عند جماعة من
العلماء لا يبدو إبط الضارب. وقال
مالك: الضرب كله سواء لا يخفف
ولا يبرح - ويجتنب من المضروب
الوجه والفرج والقلب والدماغ
والخواصر بإجماع.

وقالت طائفة: هذه الآية منسوخة
بقوله: ﴿فَاجْنَبُوهُ لَكُمْ تُقْبَلُونَ﴾،
يريد ما في قوله: ﴿وَمَنْعُ النَّاسِ﴾
من الإباحة والإشارة إلى الترخيص.
و«الْمَيْمِرُ» مأخوذ من يَسِر: إذا
جزر، والياسر: الجازر، ومنه قول
الشاعر:

قَلَّمَ يَزَلْ بِكَ وَاشْيِهِمْ وَمَكْرَهُمْ
حَتَّى أَشَاطُوا بِغَيْبِ لَحْمٍ مِنْ يَسَرٍ
ومنه قول الآخر:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشُّغْبِ إِذْ يَنْسِرُونَنِي
أَلَمْ تَنْسَأُوا أَنِي ابْنُ فَارَسٍ زَهْدَمٍ
والجزور الذي يستهم عليه يسمى
مَيْمِراً لأنه موضع اليسر - ثم قيل
للسهام مَيْمِرٌ للمجاورة.
وقال الطبري: الميسر مأخوذ من

يَسِّرْ لِي هَذَا إِذَا وَجِبَ وَتَسْنَى،
وَنَسِبَ الْقَوْلَ إِلَى مُجَاهِدٍ، ثُمَّ جَلَبَ
مِنْ نَصِّ كَلَامِ مُجَاهِدٍ مَا هُوَ خِلَافُ
لِقَوْلِهِ، بَلْ أَرَادَ مُجَاهِدُ الْجَزْرَ.

واليسر: الذي يدخل في الضرب
بالقداح، وجمعه أيسار، وقيل: يَسِّرْ
جمع ياسر كحارس وحرّس
وأحراس.

وسهام الميسر سبعة لها حظوظ،
وفيها فروض على عدة الحظوظ،
وثلاثة لا حظوظ لها، ولا فروض
فيها. وهي: الفُدْ. والثَوَامُ.
والرُقَيْبُ. والحلّس. والثّافس.
والمسبل. والمعلّى. والثلاثة التي لا
حظوظ لها: المنيح. والسّفيج.
والتّوْعْدُ. تزداد هذه الثلاثة لتكثر
السهام وتختلط على الخُرْضة، وهو
الضارب بها فلا يجد إلى الميل مع
أحد سبيلاً.

وكانت عادة العرب أن تضرب بهذه
القداح في - الشتوة وضيق الوقت
وكلب البرد على الفقراء - تشتري
الجزور، ويضمن الأيسار ثمنها ثم
تنحر وتقسم على عشرة أقسام،
وأخْطأ الأصمعي في قسمة الجزور
فذكر أنها كانت على قدر حظوظ
السهام ثمانية وعشرين قسماً وليس
كذلك. ثم يضرب على العشرة
الأقسام فمن فاز سهمه بأن يخرج من
الريابة متقدماً أخذ أنصباؤه وأعطاه
الفقراء.

وفي أحيان ربما تقامروا لأنفسهم
ثم يغرم الثمن من لم يفز سهمه،
ويميش بهذه السيرة فقراء الحي،
ومنه قول الأعشي:
المطمع المنيح إذا ما شتوا

والجاء علو القوت على التّيابير
ومنه قول الآخر:

بِأَيْدِيهِمْ مَفْرُومَةٌ وَمَغَالِقُ
يَعُودُ بِأَرْزَاقِ الْعَفَاةِ مَنِيحُهَا
والمنيح في هذا البيت المستمنح،
لأنهم كانوا يستعيرون السهم الذي
قد أمّلس، وكثر فوزه، فذلك المنيح
المددوح.

وأما المنيح الذي هو أحد الثلاثة
الأغفال فذلك إنما يوصف بالكر،
وإياه أراد جرير بقوله:

وَلَقَدْ عَطَفَنَ عَلَى فَرَاةٍ عَطْفَهُ
كَرُّ الْمَنِيحِ وَجَلَنَ ثُمَّ مَجَالَا
ومن الميسر قول لبيد:

إِذَا يَسَرُّوا لَمْ يورِثِ الْيُسْرُ بَيْنَهُمْ
قَوَاجِشٌ يُنْعَى ذِكْرُهَا بِالْمَصَافِ
فهذا كله هو نفع الميسر إلا أنه أكل
مال الغير بالباطل فيه إثم كبير.

وقال محمد بن سيرين، والحسن،
وابن عباس، وابن المسيب،
وغيرهم: كل قمار ميسر - من نرد
وشطرنج ونحوه حتى لعب الصبيان
بالجوز.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ
كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ الآية. قال ابن
عباس والربيع: الإثم فيهما بعد
التحریم، والمنفعة فيهما قبله.
وقالت طائفة: الإثم في الخمر:
ذهاب العقل والسباب والافتراء
والإذابة والتعدي الذي يكون من
شاربها - والمنفعة: اللذة بها، كما
قال حسان بن ثابت:

وَنَشْرَبُهَا فَتَشْرِكُنَا مُلُوكاً
وَأُنْشَدَ لَا يَنْهَيْنَهُنَّ الْقَاءُ
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَقْحَاهَا. وقال

مجاهد: المنفعة بها كسب أثمانها،
ثم أعلم الله عز وجل أن الإثم أكبر
من النفع وأعود بالضرر في الآخرة
فهذا هو التقدمه للتحريم.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿كَثِيرٌ﴾
بالشاء المثلثة، وحجتهما أن
النبي ﷺ: (لعن الخمر ولعن معها
عشرة: بائعها ومبتاعها والمشترا له
وعاصرها والمعصورة له وساقها
وشاربها وحاملها والمحمولة إليه
وأكل ثمنها) فهذه أاثم كثيرة.

وأيضاً فجمع المنافع يحسن معه
جمع الأاثم وكثير بالثاء المثلة يعطي
ذلك.

وقرأ باقي القراء، وجمهور الناس:
﴿كَبِيرٌ﴾ بالباء الموحدة، وحجتها أن
الذنب في القمار وشرب الخمر من
الكبائر فوصفه بالكبير أليق.

وأيضاً فاتفاقهم على ﴿أَكْثَرُ﴾ حجة
لكبير بالباء الموحدة، وأجمعوا على
رفض أكثر بالشاء مثلثة إلا ما في
مصحف ابن مسعود فإن فيه ﴿قل﴾
فيهما إثم كثير وإثمهما أكثر بالثاء
مثلثة في الحرفين.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ﴾،
يحتمل مقصدين - أحدهما أن يراد
في استعمالهما بعد النهي، والآخر
أن تُراد خلال سوء التي فيهما.

وقال سعيد بن جبير: لما نزلت
﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾
كرهها قوم للإثم، وشربها قوم
للمنافع، فلما نزلت ﴿لَا تَقْرَبُوا
الْفَكَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ تجنبوها عند
أوقات الصلوات، فلما نزلت: ﴿وَإِنَّمَا
الْفَقْرُ وَالْيَبْسُ وَالْأَكْثَابُ وَالْأَذْكَمُ يَنْزِلُ

وَقَالَ ﷺ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا أَبْقَتْ غَنًى»، وفي حديث آخر: «ما كان عن ظهر غنى» وقرأ جمهور الناس: ﴿الْمَغْفُوءُ﴾ بالنصب. وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿العَفْوُ﴾ بالرفع. واختلف عن ابن كثير وهذا متروك على «مَاذَا» فمن جعل «مَا» ابتداءً وإذا خبره بمعنى الذي وقدر الضمير في «يُنْفِقُونَ» عائداً قرأ ﴿الْمَغْفُوءُ﴾ بالرفع لتصح مناسبة الجمل، ورفع على الابتداء تقديره: العفو إنفاقكم أو الذي

وَقَالَ ﷺ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا أَبْقَتْ غَنًى»، وفي حديث آخر: «ما كان عن ظهر غنى» وقرأ جمهور الناس: ﴿الْمَغْفُوءُ﴾ بالنصب. وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿العَفْوُ﴾ بالرفع. واختلف عن ابن كثير وهذا متروك على «مَاذَا» فمن جعل «مَا» ابتداءً وإذا خبره بمعنى الذي وقدر الضمير في «يُنْفِقُونَ» عائداً قرأ ﴿الْمَغْفُوءُ﴾ بالرفع لتصح مناسبة الجمل، ورفع على الابتداء تقديره: العفو إنفاقكم أو الذي

عَلَى الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لِمَلَكُم مَّقْلُوحُونَ» قال عمر بن الخطاب: «ضبيعة لك اليوم، قرنت بالميسر والأنصاب». وقال رسول الله ﷺ: «حُرِّمَتْ الْخُمُرُ». ولما سمع عمر بن الخطاب قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ أَنْتُمْ تُنْفِقُونَ؟﴾ قال: انتهينا. انتهينا.

قال الفارسي، وقال بعض أهل النظر: حرمت الخمر بهذه الآية، لأن الله تعالى قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَبَّنَا وَكَانَ الْفَوْزُ بِمَا ظَهَرَ بَيْنَنَا وَبَكَانَ الْإِيمَانُ﴾ وأخير في هذه الآية أن فيها إثماً فهي حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ليس هذا النظر بجيد، لأن الإثم الذي فيها هو الحرام لا هي بعينها على ما يقتضيه هذا النظر.

وقال قتادة: ذم الله الخمر بهذه الآية ولم يحرمها.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَذَلِكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَغْفُوءُ﴾ قال قيس بن سعد: هذه الزكاة المفروضة. وقال جمهور العلماء: بل هي نفقات التطوع. وقال بعضهم: نسخت بالزكاة. وقال آخرون: هي محكمة وفي المال حق سوى الزكاة.

والعفو: هو ما ينفقه المرء دون أن يجهد نفسه وماله، ونحو هذا هي عبارة المفسرين، وهو مأخوذ من عفا الشيء إذا كثر، فالمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة. وروي أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ فَلْيُنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ عَلَى مَنْ يَمْعُولُ، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلْيَتَصَدَّقْ بِهِ».

التأويل - بالآيات، وعلى التأويل الأول وهو المشهور عن ابن عباس وغيره يتعلق ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بتفكرون. ﴿٢٢٠﴾ - ﴿٢٢١﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله قبل: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ ابتداءً آية، وقد تقدم تعلقه وكون ﴿يُنْفِقُونَ﴾ موقفاً يقوي تعلق ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالآيات. وقرأ طاوس: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لِّبِهِمْ خَيْرٌ﴾.

وسبب الآية فيما قال السدي، والضحاك، أن العرب كانت عاداتهم أن يتجنبوا مال البيت، ولا يخالطوه في مأكول ولا مشرب ولا شيء، فكانت تلك مشقة عليهم، فسألوا عنه رسول الله ﷺ.

وقال ابن عباس، وسعيد بن المسيب: سببها أن المسلمين - لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ الآية، ونزلت: ﴿إِنَّ الْكَلِمَةَ يَأْكُلُونَ

تنفقون العفو. ومن جعل «مَاذَا» اسماً واحداً مفعولاً بينفقون قرأ: ﴿قُلِ الْمَغْفُوءُ﴾ بالنصب بإضمار فعل وصح له التناسب. ورفع ﴿الْمَغْفُوءُ﴾ مع نصب «مَاذَا» جائز ضعيف، وكذلك نصبه مع رفعها.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَلَكُم تَنفِقُونَ﴾ الإشارة إلى ما تقدم تبينه من أمر الخمر والميسر والإنفاق، وأخبر تعالى أنه يبين للمؤمنين الآيات التي تقودهم إلى الفكرة في الدنيا والآخرة، وذلك طريق النجاة لمن نفعت فكرته.

وقال مكي: معنى الآية: أنه يبين للمؤمنين آيات في الدنيا والآخرة تدل عليهما وعلى منزلتيهما، لعلهم يتفكرون في تلك الآيات، فقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ متعلق - على هذا

أَتَوَكَّلْ أَلَيْسَ كُلُّمَا تَجَنَّبُوا الْيَتَامَى وَأَمْوَالَهُمْ، وَعَزَلَوْهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَإِنْ تَخَالَطَوْهُمْ فَاذْخَبُوا عَنْكُمْ﴾ الآية. وقيل: إن السائل عبدالله بن رواحة، وأمر الله تعالى نبيه أن يجيب بأن من قصد الإصلاح في مال اليتيم فهو خير، وما فعل بعد هذا المقصد من مخالطة وانسباط بعوض منه فلا حرج - ورفع الله تعالى المشقة في تجنب اليتيم ومأكله ومشربه، وأباح الخلطة في ذلك، إذا قصد الإصلاح ورفق اليتيم.

مثال ذلك أن يكتفي اليتيم - دون خلطة - بقدر ما في الشهر، فإن دعت خلطة الولي إلى أن يزداد في ذلك القدر فهي مخالطة فساد، وإن دعت إلى الحط من ذلك القدر فهي مخالطة إصلاح. وقوله تعالى: ﴿فَاذْخَبُوا عَنْكُمْ﴾ خبر ابتداء محذوف. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ تحذير.

والعنت: المشقة، ومنه عنت العزبة - وعقبة عنوت. أي: شاقة - وعنت البعير إذا انكسر بعد جبر. فالمعنى: لا تَغْبِطُكُمْ في تجنب أمر اليتامي، ولكنه خفف عنكم.

وقال ابن عباس: المعنى لأوبقكم بما سلف من نيلكم من أموال اليتامي.

و﴿عَبْرٌ﴾: مقتضاه لا يَزِدُّ أمره، و﴿حَكِيمٌ﴾: أي محكم ما ينفذه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ﴾ الآية. قرأ جمهور الناس: ﴿تَنكِحُوا﴾ بفتح التاء، وقرئت في الشاذ بالضم كأن المتزوج لها أنكحها من نفسه - ونكح

أصله الجماع، ويستعمل في الزوج تجوزاً واتساعاً.

وقالت طائفة: المشركات هنا من يشرك مع الله إلهاً آخر، فلم تدخل اليهوديات ولا النصرانيات في لفظ هذه الآية ولا في معناها.

وسببها قصة أبي مرثد كثرأ بن حصين مع عتاق التي كانت بمكة. وقال قتادة، وسعيد بن جبير: لفظ الآية العموم في كل كافرة، والمراد بها الخصوص أي غير الكتابيات، وبينت الخصوص آية المائدة ولم يتناول العموم قط الكتابيات.

وقال ابن عباس، والحسن: تناولهن العموم ثم نسخت آية سورة المائدة بعض العموم في الكتابيات، وهذا مذهب مالك رحمه الله. ذكره ابن حبيب.

وقال: ونكاح اليهودية والنصرانية - وإن كان قد أحله الله مستثقل مذموم، وكره مالك رحمه الله تزوج الحرييات لعله ترك الولد في دار الحرب، ولتصرفها في الخمر والخنزير، وأباح نكاح الكتابيات عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وجابر بن عبدالله، وطلحة، وعطاء بن أبي رباح، وابن المسيب، والحسن، وطاوس، وابن جبير، والزهري، والشافعي، وعوام أهل المدينة والكوفة. ومنع مالك، والشافعي وأبو حنيفة، والأوزاعي، وإسحاق - نكاح المجوسية. وقال ابن حنبل: لا يعجبني. وزوي أن حذيفة بن اليمان تزوج مجوسية. وقال ابن القصار. قال بعض أصحابنا: يجب - على أحد القولين

أن لهم كتاباً - أن تجوز مناعتهم. وقال ابن عباس في بعض ما روي عنه: إن الآية عامة في الوثنيات والمجوسيات والكتابيات، وكل من كان على غير الإسلام حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا هي ناسخة للآية التي في سورة المائدة، وينظر إلى هذا قول ابن عمر في الموطأ: «ولا أعلم إشراكاً أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى».

وروي عن عمر أنه فرق بين طلحة بن عبيدالله وحذيفة بن اليمان وبين كتابيتين وقال: نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب، فقال: لو جاز طلاقكما لجاز نكاحكما، ولكن أفرق بينكما صغرة قمأة، وهذا لا يستند جيداً، وأسند منه أن عمر أراد التفريق بينهما فقال له حذيفة: أترعم أنها حرام فأخلي سبيلها يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا أترعم أنها حرام ولكنني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن. وروي عن ابن عباس نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَمَةُ مُؤْمِنَةٌ﴾ إخبار أن المؤمنة المملوكة خير من المشركة وإن كانت ذات الحسب والمال، ولو أعجبتكم في الحسن وغير ذلك، هذا قول الطبري وغيره.

وقال السدي: نزلت في عبدالله بن رواحة - كانت له أمة سوداء فطمعها في غضب، ثم ندم فأتى النبي ﷺ فأخبره وقال: هي تصوم وتصلي وتشهد الشهادتين. فقال رسول الله ﷺ: «هذه مؤمنة» فقال ابن رواحة لأعتقنها ولأتزوجنها،

ففعّل، فطعن عليه ناس فنزلت الآية فيه.

ومالك رحمه الله لا يجوز عنده نكاح الأمة الكتابية. وقال أشهب في كتاب محمد فيمن أسلم وتحتة أمة كتابية: إنه لا يفرق بينهما - وروى ابن وهب وغيره عن مالك أن الأمة المجوسية لا يجوز أن توطأ بملك اليمين.

وأبو حنيفة وأصحابه يجيزون نكاح الإماء الكتابيات.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ الآية. أجمعت الأمة على أن المشرك لا يَطَأُ المؤمنة بوجه، لما في ذلك من الغضاضة على دين الإسلام، والقراء على ضم التاء من ﴿تُنكِحُوا﴾.

وقال بعض العلماء: إن الولاية في النكاح نص في لفظ هذه الآية - ولعبد مؤمن مملوك خير من مشرك حبيب، ولو أعجبك حسنه وماله حسب ما تقدم.

وليس التفضيل هنا بلفظة ﴿خَيْرٌ﴾ من جهة الإيمان فقط لأنه لا اشتراك من جهة الإيمان، لكن الاشتراك موجود في المعاشرة والصحبة وملك العصمة وغير شيء. وهذا النظر هو على مذهب سيبويه في أن - لفظه أفعل التي هي للتفضيل لا تصح حيث لا اشتراك، كقولك: الثلج أبرد من النار، والنور أضوأ من الظلمة.

وقال الفراء، وجماعة من الكوفيين: تصح لفظه أفعل حيث الاشتراك، وحيث لا اشتراك. وحكى مكي عن نفطوية أن لفظه

التفضيل تجيء في كلام العرب إيجاباً للأول ونفياً عن الثاني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحتل الآية عندي أن يكون ذكر العبد والأمة عبارة عن جميع الناس حرهم ومملوكهم، كما قال ﷺ: ﴿لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، وكما نعتقد أن الكل عبيد الله، وكما قال تعالى: ﴿يَتِمُّ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّلُ﴾ فكأن الكلام في هذه الآية: (ولامرأة ولرجل).

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾، الإشارة إلى المشركات والمشركين، أي أن صحبتهم ومعاشرتهم توجب الانحطاط في كثير من هواهم مع تربيتهم النسل، فهذا كله دعة إلى النار، مع السلامة من أن يدعو إلى دينه نصاً من لفظه، والله تعالى يمتن بالهداية ويبين الآيات، ويحض على الطاعات التي هي كلها دواع إلى الجنة. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿وَالْمَغْفِرَةُ﴾ بالرفع على الابتداء.

والإذن: العلم والتمكين فإن انضاف إلى ذلك أمر فهو أقوى من الإذن، لأنك إذا قلت: أذنت في كذا، فليس يلزمك أنك أمرت، و﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ترج في حق البشر، ومن تذكر عمل حسب التذكر فنجاً.

﴿٢٢٢﴾ - ﴿٢٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل: ذكر الطبري، عن السدي أن السائل ثابت بن الدحداح. وقال قتادة، وغيره: إنما سألوا لأن العرب في المدينة وما والاها، كانوا قد استنوا بسنة بني إسرائيل، في تجنب مأكلة الحائض ومساكنتها، فنزلت هذه الآية: وقال مجاهد: كانوا يتجنبون

النساء في الحيض ويأتونهن في أدبارهن فنزلت الآية في ذلك.

و﴿الْحَيِضُ﴾: مصدر كالحيض، ومثله: المقيبل من قال يقبل. قال الراعي:

بُسَيْثٌ مَرَايْقُهُنَّ فَوْقَ مَزْلَةٍ لَا يَسْتَطِيعُ بِهَا الْقِرَاءُ مَقِيلًا

وقال الطبري: المحيض: اسم الحيض، ومنه قول رؤبة في العيش:

إِلَيْكَ أَشْكُو شِدَّةَ الْمَعِيشِ وَمَرُّ أَعْوَامٍ نَتَفَنَ رِيشِي

و﴿أَذَى﴾ لفظ جامع لأشياء تؤذي: لأنه دم وقذر ومُنْتَن، ومن سبيل البول: وهذه عبارة المفسرين للفظه.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّزَلَوْا﴾ يريد: جماعهن بما فسر من ذلك

رسول الله ﷺ من أن يشد الرجل إزار الحائض ثم شأنه بأعلاها وهذا أصح ما ذهب إليه في الأمر، وبه قال ابن عباس، وشريح، وسعيد بن جبير، ومالك، وجماعة عظيمة من العلماء.

وروي عن مجاهد أنه قال: الذي يجب اعتزاله من الحائض الفرج وحده.

وروي ذلك عن عائشة، والشعبي، وعكرمة. وروي أيضاً عن ابن عباس، وعبيدة السلماني أنه يجب أن يعتزل الرجل فراش زوجته إذا حاضت، وهذا قول شاذ. وقد وقفت على ابن عباس خالته ميمونة رضي الله عنهما وقالت له: أرغبة عن سنة رسول الله ﷺ؟

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرَنَّ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في

رواية حفص عنه: ﴿يَتَطَهَّرْنَ﴾ بسكون الطاء وضمة الهاء، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل عنه: ﴿يُطَهَّرْنَ﴾ بتشديد الطاء والهاء وفتحها.

وفي مصحف أبي، وعبدالله: ﴿حَتَّى يَتَطَهَّرْنَ﴾. وفي مصحف أنس بن مالك: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا النِّسَاءَ فِي مَحِيضِهِنَّ وَاصْتَرِلُوهُنَّ حَتَّى يَتَطَهَّرْنَ﴾.

ورجح الطبري قراءة تشديد الطاء وقال: هي بمعنى يغتسلن، لإجماع الجميع على أنه حرام على الرجل أن يقرب امرأته بعد انقطاع الدم حتى تطهر. قال: وإنما الاختلاف في الطهر - ما هو؟ فقال قوم: هو الاغتسال بالماء، وقال قوم: وضوء كوضوء الصلاة، وقال قوم: هو غسل الفرج، وذلك يحلها لزوجها وإن لم تغتسل من الحيضة. ورجح أبو علي الفارسي قراءة تخفيف الطاء إذ هو ثلاثي مضاد لطمئت وهو ثلاثي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكل واحدة من القراءتين تحتل أن يراد بها الاغتسال بالماء، وأن يراد بها انقطاع الدم وزوال أذاه. وما ذهب إليه الطبري من أن قراءة شد الطاء مضمناها الاغتسال، وقراءة التخفيف مضمناها انقطاع الدم أمر غير لازم، وكذلك ادعاؤه الإجماع، أما إنه لا خلاف في كراهية الوطء قبل الاغتسال بالماء.

وقال الأوزاعي: من فعله تصدق بنصف دينار، ومن وطئ في الدم تصدق بدينار. وأسند أبو داود عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الذي

يأتي امرأته وهي حائض قال: «يتصدق بدينار أو بنصف دينار». وقال ابن عباس: الدينار في الدم والنصف عند انقطاعه. ووردت في الشدة في هذا الفعل آثار. وجمهور العلماء على أنه ذنب عظيم يتاب منه، ولا كفارة منه بهال.

وذهب مالك - رحمه الله - وجمهور العلماء، إلى أن الطهر الذي يحل جماع الحائض التي يذهب عنها الدم، هو تطهرها بالماء كطهور الجنب، ولا يجزي من ذلك تيمم ولا غيره.

وقال يحيى بن بكير، وابن القرطي: إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لا ماء حلت لزوجها وإن لم تغتسل. وقال مجاهد، وعكرمة، وطاوس: انقطاع الدم يحلها لزوجها، ولكن بأن تتوضأ. و﴿حَتَّى﴾ غاية لا غير، و﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ يريد بجماع، وهذا من سد الذرائع.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ الآية. القراءة ﴿تَطَهَّرْنَ﴾ بتاء مفتوحة وهاء مشددة، والخلاف في معناه كما تقدم من التطهر بالماء أو انقطاع الدم. ومجاهد، وجماعة من العلماء يقولون هنا: إنه أريد الغسل بالماء ولا بد - بقرينة الأمر بالإتيان. وإن كان قُرْبُهُنَّ قبل الغسل مباحاً، لكن لا تقع صيغة الأمر من الله تعالى إلا على الوجه الأكمل.

﴿فَأَتَوْهُنَّ﴾ إباحة، والمعنى: من حيث أمركم الله باعتزالهن وهو الفرج، أو من السرة إلى الركبتين، أو جميع الجسد حسبما تقدم. هذا

كله قول واحد - وقال ابن عباس، وأبو رزين: المعنى من قَبْلِ الطهر لا من قَبْلِ الحيض، وقاله الضحاك - وقال محمد بن الحنفية: المعنى من قَبْلِ الحلال لا من قَبْلِ الزنى - وقيل: المعنى من قَبْلِ حال الإباحة لا صائمات ولا محرمات ولا غير ذلك.

والتوابون: الراجعون، وعرفه: من الشر إلى الخير.

والمتطهرون. قال عطاء، وغيره: المعنى بالماء. وقال مجاهد، وغيره: المعنى: من الذنوب. وقال أيضاً مجاهد: المعنى: من إتيان النساء في أدبارهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه نظر إلى قوله تعالى حكاية عن قوم لوط: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ بَيْنَ قَرَبَيْكُم مِّنْ أَنثَىٰ يَبْتَغُونَ﴾ وقرأ طلحة ابن مصرف: ﴿الْمُطَهَّرِينَ﴾ بشد الطاء والهاء.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾ الآية قال جابر بن عبدالله، والربيع: سببها أن اليهود قالت: إن الرجل إذا أتى المرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول وعابت على العرب ذلك، فنزلت الآية تتضمن الرد على قولهم، وقالت أم سلمة وغيرها: سببها أن قريشاً كانوا يأتون النساء في الفرج على هيئات مختلفة، فلما قدموا المدينة وتزوجوا أنصاريات أرادوا ذلك فلم ترده نساء المدينة، إذ لم تكن عادة رجالهم إلا الإتيان على هيئة واحدة، وهي الانبطاح، فبلغ ذلك النبي ﷺ، وانتشر كلام الناس في ذلك، فنزلت الآية مبينة

الهيئات كلها، إذا كان الوطء في موضع الحرث.

﴿وَتَرْتَبُّهُ﴾ تشبيه لأنهن مُزدرع الذرية، فلفظة الحرث تعطي أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج خاصة إذ هو المزدرع.

وقوله: ﴿أَنْ يَشْتُمُّ﴾ معناه: عند جمهور العلماء - من صحابة وتابعين وأئمة - أي وجه شتم، مقبلة ومذبذبة وعلى جنب - ﴿وَأَنْ﴾ إنما تجيء سؤالاً أو إخباراً عن أمر له جهات، فهي أعم في اللغة من (كيف) ومن (أين) ومن (متى)، هذا هو الاستعمال العربي.

وقد فسر الناس ﴿أَنْ﴾ في هذه الآية - بهذه الألفاظ، وفسرها سيويه بـ(كيف ومن أين) باجتماعهما. وذهبت فرقة ممن فسرهما بأيّن إلى أن الوطء في الدبر جائز، روي ذلك عن عبدالله بن عمر وروى عنه خلافة وتكفير من فعله، وهذا هو اللائق به - ورويت الإباحة أيضاً عن ابن أبي مليكة، ومحمد بن المنكدر، ورواها مالك عن يزيد بن رومان، عن سالم، عن ابن عمر، وروي عن مالك شيء في نحوه، وهو الذي وقع في العتية، وقد كذب ذلك على مالك. وروي بعضهم أن رجلاً فعل ذلك في عهد النبي ﷺ فتكلم الناس فيه فنزلت هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد ورد عن رسول الله ﷺ في مصنف النسائي، وفي غيره أنه قال: «إتيان النساء في أدبارهن حرام»، وورد عنه فيه أنه قال: «ملعون من أتى امرأة في دبرها». وورد عنه أنه

قال: «من أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على قلب محمد»، وهذا هو الحق المتبع - ولا ينبغي لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يعرج في هذه النازلة على زلة عالم بعد أن تصح عنه، والله المرشد لا رب غيره.

وقال السدي: معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَوَّاهُ لَأَنْشِكُ﴾ أي الأجر في تجنب ما نهيت عنه، وامتنال ما أمرت به. وقال ابن عباس: هي إشارة إلى ذكر الله على الجماع، كما قال النبي ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى امرأته قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقنا، ففضي بينهما ولد لم يضره». وقيل: معنى ﴿وَقَدْ مَوَّاهُ لَأَنْشِكُ﴾: طلب الولد، ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾: تحذير، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُكْفَرُونَ﴾: خبر يقتضي المبالغة في التحذير، أي فهو مجازيكم على البر والإثم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: تأنيس لفاعلي البر ومُتبعي سنن الهدى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْمَلُوا اللَّهَ عَرْضَةً﴾ الآية ﴿عَرْضَةً﴾ فُعلة بناء للمفعول، أي كثيراً ما يتعرض لما ذكر، تقول: جَمَلْتُ عرضة للركوب، وفرس عرضة للجري، ومنه قول كعب بن زهير:

من كل نضاجة الذفري إذا عرقت
عرضتها طاميس الإغلام مجهول
ومقصد الآية: ولا تُعَرِّضُوا اسم الله تعالى للأيمان به، ولا تكثروا من الأيمان، فإن الحنث مع الإكثار وفيه قلة رعي لحق الله تعالى.

ثم اختلف المتأولون - فقال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، والربيع، وغيرهم: المعنى: فيما تريدون الشدة فيه، من ترك صلة الرحم والبر والإصلاح - قال الطبري: التقدير: لأن لا تَبْرُوا ولا تَتَّقُوا ولا تصلحوا. وقدره المهدوي: كراهة أن تَبْرُوا. وقال بعض المتأولين: المعنى: ولا تحلفوا بالله كاذبين إذا أردتم البر والتقوى والإصلاح، فلا يحتاج إلى تقدير (لا) بعد (أن) - ويحتمل أن يكون هذا التأويل في الذي يريد الإصلاح بين الناس فيحلف حائشاً ليكمل غرضه، ويحتمل أن يكون على ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «نزلت في تكثير اليمين بالله نهياً أن يحلف الرجل به براً فكيف فاجراً؟» فالمعنى: إذا أردتم لأنفسكم البر. وقال الزجاج، وغيره: معنى الآية: أن يكون الرجل إذا طلب منه فعل خير اعتل بالله تعالى فقال: علي يمين وهو لم يحلف. ﴿وَأَنْ تَبْرُوا﴾ مفعول من أجله، والبر جميع وجوه الخير. بر الرجل إذا تعلق به حكمها ونسبها كالحاج والمجاهد والعالم وغير ذلك وهو مضاد للإثم إذ هو الحكم اللاحق عن المعاصي و﴿يَعِيبُ﴾ أي لأقوال العباد، ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم، وهو مجاز على الجميع.

وأما سبب الآية - فقال ابن جريج: نزلت في أبي بكر الصديق إذ حلف أن يقطع إنفاقه عن مسطح بن أثانة حين تكلم مسطح في حديث

يُكْفَرُ، فأشبه قوله بالكفارة قول من لا يراها لغواً.

وقال ابن عباس أيضاً، وطاوس: لغو اليمين: الحلف في حال الغضب. وروى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمين في غضب». وقال مكحول الدمشقي وجماعة من العلماء: لغو اليمين: أن يحرم الرجل على نفسه ما أحل الله، فيقول: ما لي عليّ حرام إن فعلت كذا، أو الحلال عليّ حرام. وقال بهذا القول مالك بن أنس، إلا في الزوجة، فإنه ألزم فيها التحريم إلا أن يخرجها الحالف بقلبه.

وقال زيد بن أسلم، وابنه: لغو اليمين: دعاء الرجل على نفسه: أعني الله بصره، أذهب الله ماله، هو يهودي، هو مشرك، هو ليفيئة إن فعل كذا. وقال ابن عباس أيضاً، والضحاك: لغو اليمين: هي المكفرة أي إذا كفرت اليمين فيجئ نذ سقطت وصارت لغواً، ولا يؤاخذ الله بتكفيرها والرجوع إلى الذي هو خير. وقال إبراهيم النخعي: لغو اليمين: ما حث فيه الرجل ناسياً. وحكى عن ابن عبد البر قولاً: إن اللغو أيمان المكره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وطريقة النظر أن تتأمل لفظة اللغو ولفظة الكسب، ويحكم موضعهما في اللغة، فكسب المرء ما قصده ونواه، واللغو ما لم يتعمده أو ما حقه لهجته أن يسقط، فيقوي على هذه الطريقة بعض الأقوال المتقدمة ويضعف بعضها.

وقد رفع الله عز وجل المؤاخذة

واختلف العلماء في اليمين التي هي لغو - فقال ابن عباس، وعائشة، وعامر الشعبي، وأبو صالح، ومجاهد: لغو اليمين: قول الرجل في درج كلامه واستعجاله في المحاورة: لا والله، وبلى والله دون قصد لليمين. وروى أن قوماً تراجعوا القول بينهم وهم يرمون بحضرة النبي ﷺ، فحلف أحدهم لقد أصبْتُ وأخطأت يا فلان، فإذا الأمر بخلاف، فقال رجل: حنث يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «أيمان الرماة

لغو، لا إثم فيها ولا كفارة».

وقال أبو هريرة، وابن عباس أيضاً، والحسن، ومالك بن أنس، وجماعة من العلماء: لغو اليمين ما حلف به الرجل على يقينه، فكشف الغيب خلاف ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا اليقين هو غلبة ظن، أطلق الفقهاء عليه لفظة اليقين تجوزاً. قال مالك: مثله أن يرى الرجل على بعد فيعتقد أنه فلان، لا يشك، فيحلف ثم يجيء غير المحلوف عليه. وقال سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعبد الله وعروة ابنا الزبير: لغو اليمين: الحلف في المعاصي كالذي يقسم ليشرب الخمر، أو ليقطع الرحم، فيه ترك ذلك الفعل، ولا كفارة عليه. وقال سعيد بن جبير مثله، إلا أنه قال:

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصٌ أَزْوَاجَهُمْ وَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَرَبُوا أَطْلَقُوا فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمَطْلَقَتُ يَرْتَضِي بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ فُرُوجٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُوَ لَكُمْ أَحَقُّ بِرَيْبٍ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ أَطْلَقَتْ مَرَّتَانٍ فَأَمَّا الْفُتُورِيُّ أَوْ تُرَيْبِيُّ يَخْشَى اللَّهَ وَهُوَ الْحَسَنُ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بَأَمْوَءَ الْيَتَامَىٰ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافُوا أَلَّا يُعْطُوا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ حِفْظُهُمْ أَلَّا يُعْطُوا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا حِلَّ لِمَنْ بَعْدَ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُعْطُوا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

٣٦

الإفك. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق مع ابنه عبد الرحمن في حديث الضيافة حين حلف أبو بكر ألا يأكل الطعام. وقيل نزلت في عبد الله بن رواحة مع بشير بن سعد حين حلف ألا يكلمه.

واليمين: الحلف، وأصله أن العرب كانت إذا تحالفت أو تعاهدت أخذ الرجل يمين صاحبه بيمينه، ثم كثر ذلك حتى سمي الحلف والعهد نفسه يميناً.

﴿٢٢٥﴾ - ﴿٢٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

اللغو: سقط الكلام الذي لا حكم له، ويستعمل في الهجر والرفث وما لا حكم له من الأيمان تشبيهاً بالسقط من القول، يقال منه: لغا يلغو لغواً، ولغى يلغى لغياً، ولغة القرآن بالواو.

والمؤاخذة: هي التناول بالمعقوبة.

بالإطلاق في اللغو، فحقيقته ما لا إثم فيه ولا كفارة. والمواخذة في الأيمان هي بعقوبة الآخرة في الغموس والمصبورة - وفيما ترك تكفيره مما فيه كفارة - وبالعقوبة الدنيا في إلزام الكفارة فيضعف القول بأنها اليمين المكفرة لأن المواخذة قد وقعت فيها، وتخصيص المواخذة بأنها في الآخرة فقط تحكم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَوَازِدْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ قال ابن عباس، والنخعي وغيرهما: ما كسب القلب: هي اليمين الكاذبة الغموس، فهذه فيها المواخذة في الآخرة، والكفارة إنما هي فيما يكون لغواً إذا كُفِّرَ.

وقال مالك وجماعة من العلماء: الغموس لا تُكْفَرُ، هي أعظم ذنباً من ذلك. وقال الشافعي، وقتادة، وعطاء، والربيع: اليمين الغموس تُكْفَرُ، والكفارة مواخذة - والغموس: ما قصد الرجل في الحلف به الكذب، وكذلك اليمين المصبورة، المعنى فيهما واحد، ولكن الغموس سميت بذلك لأنها غمست صاحبها في الإثم، والمصبورة سميت بذلك لأنها صَبِرَها مغالبة وقوة عليها، كما يصبر الحيوان للقتل والرمي. وقال زيد بن أسلم قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَوَازِدْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ هو في الرجل يقول: هو مشرك إن فعل، أي هذا لغو إلا أن يعقد الإشراك بقلبه ويكسبه.

﴿عَفْوَرٌ رَجِيءٌ﴾ صفتان لا تفتان بما ذكر من طرح المواخذة، إذ هو باب رفق وتوسعة.

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلِّونَ بَيْنَ

يَسَائِبِهِمْ﴾ الآية. قرأ أبي بن كعب، وابن عباس: ﴿لِّلَّذِينَ يُقْسِمُونَ﴾، و﴿يُؤَلِّونَ﴾: معناه: يحلفون، يقال: أَلَى يُؤَلِي إِيْلَاءً، والآية اليمين، ويقال فيها أيضاً: أَلَوْه بفتح الهمزة وبضمها وبكسرهما.

والتربص: التأني والتأخر، وكان من عادة العرب أن يحلف الرجل ألا يظأ امرأته، يقصد بذلك الأذى عند المشارة ونحوها، فجعل الله تعالى في ذلك هذا الحد لئلا يضر الرجل بالنساء، وبقي للحالف على هذا المعنى فسحة فيما دون الأربعة أشهر.

وَاخْتَلَفَ - مَنِ المراد أن يلزمه حكم الإيلاء؟ فقال مالك رحمه الله: هو الرجل يغاضب امرأته فيحلف بيمين - يلحق عن الجئت فيها حكم - ألا يظأها - ضرراً منه - أكثر من أربعة أشهر لا يقصد بذلك إصلاح ولد رضيع ونحوه. وقال به عطاء وغيره، وقال علي بن أبي طالب، وابن عباس، والحسن بن أبي الحسن: هو الرجل يحلف ألا يظأ امرأته على وجه مغاضبة ومشارة، وسواء كان في ضمن ذلك إصلاح ولد أو لم يكن. فإن لم يكن عن غضب فليس بإيلاء. وقال ابن عباس: لا إيلاء إلا بغضب. وقال ابن سيرين: سواء كانت اليمين في غضب أو غير غضب هو إيلاء. وقاله ابن مسعود، والثوري، ومالك، والشافعي، وأهل العراق. إلا أن مالكا قال: ما لم يرد إصلاح ولد. وقال الشعبي، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبدالله، وابن المسيب: كل يمين

حلفها الرجل، ألا يظأ امرأته، أو ألا يكلمها، أو أن يضارها، أو أن يغاضبها، فذلك كله إيلاء. وقال ابن المسيب - منهم - إلا أنه إن حلف ألا يكلم وكان يظأ فليس بإيلاء، وإنما تكون اليمين على غير الوطء إيلاء إذا اقترن بذلك الامتناع من الوطء.

وأقوال من ذكرناه - مع سعيد - مسجلة محتملة ما قال سعيد، ومحتملة أن فساد العشرة إيلاء، وذهب إلى هذا الاحتمال الأخير الطبري. وقال ابن عباس أيضاً: لا يُسمى مولياً إلا الذي يحلف ألا يظأ أبداً، حكاه ابن المنذر. وقال مالك، والشافعي، وأحمد، وأبو ثور: لا يكون مولياً إلا إن زاد على الأربعة أشهر.

وقال عطاء، والثوري، وأصحاب الرأي: الإيلاء أن يحلف على أربعة أشهر فصاعداً. وقال قتادة، والنخعي، وحمام بن أبي سليمان، وإسحاق، وابن أبي ليلى: من حلف على قليل من الوقت أو كثير فتركها أربعة أشهر فهو مول، قال ابن المنذر: وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم.

وقوله تعالى: ﴿مِن يَسَائِبِهِمْ﴾ يدخل فيه الحرائر والإماء إذا تزوجن.

والعبد يلزمه الإيلاء من زوجته. وقال الشافعي، وأحمد وأبو ثور: أجله أربعة أشهر وقال مالك، والزهري، وعطاء بن أبي رباح، وإسحاق: أجله شهران. وقال الحسن: أجله من خرة أربعة أشهر، ومن أمة زوجة شهران، وقاله النخعي. وقال الشعبي: الإيلاء من

الامة نصف الإيلاء من الحرّة. وقال مالك، والشافعي، وأصحاب الرأي، والأوزاعي، والنخعي، وغيرهم: المدخول بها وغير المدخول بها سواء في لزوم الإيلاء فيهما. وقال الزهري، وعطاء، والثوري: لا إيلاء إلا بعد الدخول. وقال مالك: ولا إيلاء من صغيرة لم تبلغ، فإن آلى منها فبلغت لزوم الإيلاء من يوم بلوغها. وقال عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبو الدرداء، وابن عمر، وابن المسيب، ومجاهد، وطاوس، ومالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو عبيد: إذا انقضت الأربعة الأشهر وقف، فإذا فاء وإما طلق، وإلا طلق عليه. وقال ابن مسعود، وابن عباس، وعثمان، وعلي أيضاً، وزيد بن ثابت، وجابر بن زيد، والحسن، ومسروق: بانقضاء الأربعة الأشهر دخل عليه الطلاق دون توقيف.

واختلف في الطلاق الداخل على المولى - فقال عثمان، وعلي، وابن عباس وابن مسعود، وعطاء، والنخعي، والأوزاعي، وغيرهم: هي طلاق بائنة لا رجعة له فيها. وقال سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، ومكحول، والزهري، ومالك: هي رجعية.

﴿قَاتُوا﴾ معناه: رجعوا، ومنه: ﴿حَتَّى تَقَعَ لَكُم مِّنَ اللَّهِ وَكَفَّارَتُهُ﴾ (والفهيء): الظل الراجع عشيّاً.

وقال الحسن، وإبراهيم: إذا فاء المولى ووطيء فلا كفارة عليه في

يمينه لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ قَاتُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا متركب على أن لغو اليمين ما حلف في معصية، وترك وطء الزوجة معصية.

وقال الجمهور: إذا فاء كفر، والفهيء عند ابن المسيب، وابن جبير: لا يكون إلا بالجماع. وإن كان مسجوناً أو في سفر مضى عليه حكم الإيلاء إلا أن يطاء، ولا عذر له ولا فيء يقول.

وقال مالك رحمه الله: لا يكون الفهيء إلا بالوطء أو بالتكفير إلا في حال العذر كالثائب والمسجون. قال ابن القاسم في المدونة: لا أن تكون يمينه ممّا لا يكفرها لأنها لا تقع عليه إلا بعد الحنث فإن القول يكفيه ما دام معذوراً.

واختلف القول في المدونة في اليمين بالله تعالى - هل يكتفي فيها بالفهيء بالقول والعزم على التكفير أم لا بُد من التكفير، وإلا فلا فيء؟ وقال الحسن، وعكرمة، والنخعي وغيرهم: الفهيء من غير المعذور الجماع، ولا بد من المعذور أن يشهد أنه قد فاء بقلبه.

وقال النخعي أيضاً: يصح الفهيء بالقول والإشهاد فقط، ويسقط حكم الإيلاء، أرايت إن لم يتشر للوطء؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويرجع في هذا القول إن لم يطاء إلى باب الضرر. وقرأ أبي بن كعب: ﴿فَإِنْ قَاتُوا فِيهِمْ﴾. وزوي عنه: ﴿فَإِنْ قَاتُوا فِيهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾

الآية. قال القائلون: إن بمضي الأربعة الأشهر يدخل الطلاق، وعزيمة الطلاق هي ترك الفهيء، حتى تنصرم الأشهر. وقال القائلون: لا بد من التوقيف بعد تمام الأشهر، والعزيمة: هي التخليق أو الإبانة وقت التوقيف حتى يطلق الحاكم، واستدل من قال بالتوقيف بقوله: ﴿سَمِعْتُ﴾، لأن هذا الإدراك إنما هو في المقولات. وقرأ ابن عباس: ﴿فَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾.

تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس ﴿قَاتُوا﴾ على وزن فُعول - اللام همزة. وروي عن نافع شد الواو دون همز. وقرأ الحسن: ﴿فَلَمَّا قَرَأُوا﴾ بفتح القاف وسكون الراء وتنوين الواو خفيفة - وحكم هذه الآية مقصده الاستبراء، لا أنه عبادة، ولذلك خرجت منه من لم يبين بها، بخلاف عدة الوفاة التي هي عبادة.

﴿وَالطَّلَاقُ﴾ لفظ عموم يراد به الخصوص في المدخول بهن، ولم تدخل في العموم المطلقة قبل البناء، ولا الحامل، ولا التي لم تحض، ولا القاعد. وقال قوم: تناولهن العموم ثم نسيخن، وهذا ضعيف، فإنما الآية فيمن تحيض وهو عرف النساء، وعليه معظمهن، فأغنى ذلك عن النص عليه.

والقرء في اللغة: الوقت المعتاد تردده، وقرء النجم: وقت طلوعه، وكذلك وقت أفوله. وقرء الريح: وقت هبوبها. ومنه قول الرازي:

يَارُبِّ ذِي ضُفْنٍ عَلَيَّ قَارِضٍ
لَهُ قُرْءٌ كَفَرُوهُ الْحَائِضُ

أراد وقت غضبه. فالحيض على هذا: يسمى قُرْءًا، ومنه قول النبي ﷺ: «اتركي الصلاة أيام إقرائك»، أي أيام حيضك، وكذلك على هذا النظر يسمى الطهر قُرْءًا، لأنه وقت معتاد تردده، يعاقب الحيض، ومنه قول الأعشى:

وفي كل عام أنت جاثيم غزوة
تشد لأقصاها عزيمة عزائك
مؤزفة مالا وفي الحَي رفة
بما ضاع فيها من قروء نسائك
أي من أطهارهن. وقال قوم: القُرء مأخوذ من قُرء الماء في الحوض، وهو جمعه، فكان الرحم تجمع الدم وقت الحيض، والجسم يجمعه وقت الطهر.

واختلف - أيهما أراد الله تعالى بالثلاثة التي حددها للمطلقة؟ فقال أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن عباس، والضحاك، ومجاهد، والربيع، وقتادة، وأصحاب الرأي، وجماعة كبيرة من أهل العلم: المراد الحيض، فإذا طلق الرجل امرأته في طهر لم يطأ فيه استقبلت حيضة، ثم حيضة، ثم حيضة. فإذا اغتسلت من الثالثة خرجت من العدة. وقال بعض من يقول بالحيض: إذا طهرت من الثالثة انقضت العدة قبل الغسل، وهذا قول سعيد بن جبير وغيره. وقالت عائشة، وابن عمر، وجماعة من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، منهم سليمان بن يسار، ومالك: المراد الأطهار، فإذا طلق الرجل امرأته في طهر لم يطأ فيه اعتدت بما بقي منه ولو ساعة ثم استقبلت طهراً ثانياً بعد حيضة، ثم ثالثاً بعد حيضة

ثانية، فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة حلت للأزواج، وخرجت من العدة. فإن طلق مطلق في طهر قد مس فيه لزمه الطلاق، وقد أساء، واعتدت بما بقي من ذلك الطهر. وقال ابن القاسم، ومالك: إن المطلقة إذا رأت أول نقطة من الحيضة الثالثة، خرجت من العصمة، وهو مذهب زيد بن ثابت وغيره. وقال أشهب: لا تنقطع العصمة والميراث حتى يتحقق أنه دم حيض لثلاث يكون دفعة دم من غير الحيض.

واختلف المتأولون في المراد بقوله: «مَا حَلَكَ» - فقال ابن عمر، ومجاهد، والربيع، وابن زيد، والضحاك: هو الحيض والحمل جميعاً ومعنى النهي عن الكتمان، النهي عن الإضرار بالزوج، وإذهاب حقه. فإذا قالت المطلقة: حضت - وهي لم تحض - ذهب بحقه من الارتجاع، وإذا قالت: لم أحض - وهي قد حاضت - ألزمته من النفقة ما لم يلزمه فأصيرت به، أو تقصد بكذبها في نفي الحيض ألا يرتجع حتى تتم العدة ويقطع الشرع حقه، وكذلك الحامل تكتم الحمل لينقطع حقه من الارتجاع.

وقال قتادة: كانت عادتهن في الجاهلية أن يكتمن الحمل ليُتحقق الولد بالزوج الجديد، ففي ذلك نزلت الآية. وقال السدي: سبب الآية: أن الرجل كان إذا أراد أن يطلق امرأته سألها: أبها حمل؟ مخافة أن يضر بنفسه وولده في فراقها. فأمرهن الله بالصدق في ذلك. وقال إبراهيم

النخعي، وعكرمة: المراد بـ«مَا حَلَكَ» الحيض. وروي عن عمر، وابن عباس أن المراد الحمل. والعموم أرجح.

وفي قوله تعالى: «وَلَا يَحِلُّ لَكَنَّ» ما يقتضي أنهم مؤتمنات على ما ذكر، ولو كان الاستقصاء مباحاً لم يمكن كتم. وقرأ مبشر بن عبيد: «فِي أَرْحَامِهِنَّ» بضم الهاء.

وقوله: «إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» الآية. أي حق الإيمان، فإن ذلك يقتضي ألا يكتمن الحق، وهذا كما تقول: إن كنت حراً فانتصر - وأنت تخاطب حراً -.

وقوله: «وَيَوْمَئِذٍ أَتَىٰ مِثْرَهُنَّ فِي ذَلِكَ» - إن أرادوا إصْلَاحَهُنَّ. البعل: الزوج، وجمعه على بعولة شاذ لا ينقاس، لكن هو المسموع. وقال قوم: الهاء فيه دالة على تأنيث الجماعة، وقيل: هي هاء تأنيث دخلت على يعول، ويعول لا شذوذ فيه.

وقرأ ابن مسعود: «يُرْدِيَهُنَّ» بزيادة تاء. وقرأ مبشر بن عبيد: «يُرْدِيَهُنَّ» بضم الهاء، ونص الله تعالى بهذه الآية على أن للزوج أن يرتجع امرأته المطلقة ما دامت في العدة، والإشارة بـ«ذَلِكَ» هي إلى المدة، ثم اقترن بما لهم من الرد شرط إرادة الإصلاح دون المضارة، كما تشدد على النساء في كتم ما في أرحامهن، وهذا بيان الأحكام التي بين الله تعالى، وبين عباده في ترك النساء الكتمان، وإرادة الرجال الإصلاح، فإن قصد أحد بعد هذا فساداً، أو كتمت امرأة ما في رحمها، فأحكام الدنيا على الظاهر والبواطن إلى الله

تعالى، يتولى جزاء كل ذي عمل - وتُضعف هذه الآية قول من قال في المولى: إن بانقضاء الأشهر الأربعة نزول العصمة بطلقة بائنة لا رجعة فيها، لأن أكثر ما تعطي ألفاظ القرآن أن ترك النفي في الأشهر الأربعة هو عزم الطلاق، وإذا كان ذلك فالمرأة من المطلقات اللواتي يترصدن ويعولنهن أحق بردهن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ تَشَاءُ أَلَدِي عَتِيَّتٍ بِمَرْيَمَ﴾. قال ابن عباس: ذلك في التزين والتصنع والمواتاة. وقرأ الضحاك، وابن زيد: ذلك في حسن العشرة، وحفظ بعضهن لبعض، وتقوى الله فيه. والآية تعم جميع حقوق الزوجية وقوله: ﴿وَلِلرَّجَالِ عَتِيَّتٌ دَرَجَةٌ﴾. قال مجاهد، وقادة: ذلك تنبيه على فضل حفظه على حفظها في الجهاد والميراث وما أشبهه. وقال زيد بن أسلم وابنه: ذلك في الطاعة - عليها أن تطيعه، وليس عليه أن يطيعها، وقال عامر الشعبي: ذلك الصداق الذي يعطي الرجل، وأنه يلاعن إن قُذِفَ، وتُحَذَّ إن قُذِفَتْ. وقال ابن عباس: تلك الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة، والتوسع للنساء في المال والخلق، أي أن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه. وهذا قول حسن بارع. وقال ابن إسحاق: الدرجة: الإنفاق وأنه قوام عليها. وقال ابن زيد: الدرجة: ملك العصمة وأن الطلاق بيده. وقال حميد: الدرجة: اللحية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إن صح عنه - ضعيف لا

يقتضيه لفظ الآية ولا معناها. وإذا تؤملت هذه الوجوه التي ذكر المفسرون فيجيء من مجموعها درجة تقتضي التفضيل. و﴿عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه أحد، و﴿حَكِيمٌ﴾ فيما ينفذه من الأحكام والأمور.

﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾:

قال عروة بن الزبير، وقادة، وابن زيد، وغيرهم: نزلت هذه الآية بياناً لعدد الطلاق الذي للمرأة فيه أن يرتجع، دون تجديد مهر وولي، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية يُطْلَقُونَ ويرتجعون إلى غير غاية، فقال رجل لامرأته على عهد النبي ﷺ: لا أؤويك ولا أدعك تحلين. فقالت: وكيف؟ قال: أطلقك، فإذا دنا مُضِي عديت راجعتك - فشكت ذلك، فنزلت الآية.

وقال ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد وغيرهم: المراد بالآية التعريف بسنة الطلاق، أي مَنْ طلق اثنتين فليتنق الله في الثالثة، فإذا تركها غير مظلومة شيئاً من حقها، وإما أمسكها محبباً عشرتها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية تتضمن هذين المعنيين.

والإمسك بالمعروف: هو الارتجاع بعد الثانية إلى حسن العشرة، والتزام حقوق الزوجية. والتسريح يحتمل لفظه معنيين - أحدهما: تركها تيمم العدة من الثانية، وتكون أملك لنفسها، وهذا قول السدي، والضحاك، والمعنى الآخر: أن يطلقها ثالثة فيسرحها بذلك، وهذا قول مجاهد، وعطاء، وغيرهما -

ويقوى عندي هذا القول من ثلاثة وجوه:

أولها: أنه روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله: هذا ذكر الطلقتين فأين الثالثة؟ فقال النبي ﷺ: هي قوله: ﴿أَوْ تَسْرِحْ﴾. **﴿يُحَسِّنُ﴾**.

والوجه الثاني: أن التسريح من ألفاظ الطلاق، ألا ترى أنه قد قرئ: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا السَّرَاحَ﴾.

والوجه الثالث: أن فعل تفعيلاً بهذا التضعيف يُعْطَى أنه أحدث فعلاً مكرراً على الطلقة الثانية، وليس في الترك إحداث فعل يعبر عنه بالتفعيل، و﴿فَأَمْسَكَ﴾ مرتفع بالابتداء، والخبر: أمثل، أو أحسن، ويصح أن يرتفع على خبر ابتداء تقديره: فالواجب إمساك، وقوله: ﴿يُحَسِّنُ﴾ معناه ألا يظلمها شيئاً من حقها، ولا يتعدى في قول.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا﴾ الآية، خطاب للأزواج، نهاهم به أن يأخذوا من أزواجهم شيئاً على وجه المضارة، وهذا هو الخلع الذي لا يصح إلا بألا ينفرد الرجل بالضرر.

وخص بالذكر ما أتى الأزواج نساءهم، لأن العرف من الناس أن يطلب الرجل عند الشقاق والفساد ما خرج عن يده، هذا وكدهم في الأغلب فلذلك خص بالذكر.

وقرأ جميع السبعة - إلا حمزة - ﴿يَخَافُ﴾ بفتح الياء على بناء الفعل للفاعل، فهذا باب (خَافَ) في التعدي إلى مفعول واحد، وهو أن وقرأ حمزة وحده ﴿يَخَافُ﴾ بضم

الباء على بناء الفعل للمفعول، فهذا على تعديّة (خاف) إلى مفعولين أحدهما أسند الفعل إليه، والآخر أن بتقدير حرف جر محذوف. فموضع ﴿أَنْ﴾ خفض بالجار المقدر عند سيوبه والكسائي ونصب عند غيرهما لأنه لما حذف الجار، وصل الفعل للمفعول الثاني مثل أستغفر الله ذنباً، وأمرتك الخير.

وفي مصحف ابن مسعود: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافُوا﴾ بالياء وواو الجمع والضمير على هذا للحكام ومتوسطي أمور الناس.

وحرم الله تعالى على الزوج - في هذه الآية - أن يأخذ إلا بعد الخوف ألا يقيما، وأكد التحريم بالوعيد لمن تعدى الحد. وأجمع عوام أهل العلم على تحظير أخذ مالها، إلا أن يكون النشوز وفساد العشرة من قبيلها. قال ابن المنذر: روي ذلك عن ابن عباس، والشعبي، ومجاهد، وعطاء، والنخعي، وابن سيرين، والقاسم بن محمد، وعروة بن الزبير، والزهرري، وحמיד بن عبد الرحمن، وقتادة، وسفيان الثوري، ومالك، وإسحاق، وأبي ثور.

وقال مالك رحمه الله، والشعبي، وجماعة معهم: فإن كان مع فساد الزوجة ونشوزها فساداً من الزوج. وَتَفَاقَمَ مَا بَيْنَهُمَا فَالْفِدْيَةُ جَائِزَةٌ للزوج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى ذلك أن يكون الزوج - لو ترك فساده - لم يزل نشوزها هي.

وأما إن انفرد الزوج بالفساد فلا

أعلم أحداً يُجِيزُ له الفدية إلا ما روي عن أبي حنيفة أنه قال: إذا جاء الظلم والنشوز مِنْ قِبَلِهِ فَخَالَعَتْهُ، فهو جائز ماض، وهو أتم لا يحل ما صنع، ولا يَرُدُّ ما أخذ. قال ابن المنذر: وهذا خلاف ظاهر كتاب الله، وخلاف سنة رسول الله ﷺ، ولو قيل لأحد: أجهد نفسك في طلب الخطي ما وجد أمراً أعظم من أن ينطق القرآن بتحريم شيء فيحله هو ويجيزه.

وحذود الله - في هذا الموضع - هي ما يلزم الزوجين من حسن العشرة وحقوق العصمة.

ونازلة حبيبة بنت سهل، وقيل: جميلة بنت أبي ابن سلول - والأول أصح - مع ثابت بن قيس حين أباح له النبي ﷺ أخذ الفدية منها، إنما كان التعسف فيها من المرأة لأنها ذكرت عنه كل خير وأنها لا تحب البقاء معه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ غَفَّمْ أَلَا يُبَيِّنَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ المخاطبة للحكام والمتوسطين لمثل هذا الأمر وإن لم يكن حاكماً، وترك إقامة حدود الله هو استخفاف المرأة بحق زوجها وسوء طاعتها إياه. قاله ابن عباس، ومالك بن أنس، وجمهور الفقهاء، وقال الحسن بن أبي الحسن، وقوم معه: إذا قالت له لا أطيع لك أمراً، ولا أغتسل لك من جنابة، ولا أبر لك قسماً، حل الخلع. وقال الشعبي: ﴿أَلَا يُبَيِّنَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ معناه: ألا يطيعا الله، وذلك أن المغاضبة تدعو إلى ترك الطاعة. وقال عطاء ابن أبي رباح: يحل

الخلع والأخذ أن تقول المرأة لزوجها إني لأكرهك ولا أحببك، ونحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ إباحة للفدية، وشركهما في ارتفاع الجناح، لأنها لا يجوز لها أن تعطيه مالها، حيث لا يجوز له أخذه، وهي تقدر على المخاصمة فإذا كان الخوف المذكور جاز له أن يأخذ ولها أن تعطي، ومتى لم يقع الخوف فلا يجوز لها أن تعطي على طلب الفراق.

وقال ابن عمر، والنخعي، وابن عباس، ومجاهد، وعثمان بن عفان رضي الله عنه، ومالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وعكرمة، وقبيصة بن ذؤيب، وأبو ثور، وغيرهم: مباح للزوج أن يأخذ من المرأة في الفدية جميع ما تملكه، وقضى بذلك عمر بن الخطاب. وقال طاوس، والزهرري، وعطاء، وعمرو بن شعيب، والحسن، والشعبي، والحكم، وحمام، وأحمد، وإسحاق: لا يجوز له أن يزيد على المهر الذي أعطاها، وبه قال الربيع، وكان يقرأ هو والحسن بن أبي الحسن: ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ مِنْهُ﴾ بزيادة ﴿منه﴾ يعني: مما آتيتموهن، وهو المهر، وحكى مكى هذا القول عن أبي حنيفة، وابن المنذر أثبت. وقال ابن المسيب: لا أرى أن يأخذ منها كل مالها، ولكن ليدع لها شيئاً، وقال بكر بن عبدالله المزني: لا يجوز للرجل أن يأخذ من زوجته شيئاً خلعاً قليلاً ولا كثيراً قال: وهذه الآية منسوخة بقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ

وقتادة، والسدي: هذا ابتداء الطلقة الثالثة، فيجىء التسريح المتقدم ترك المرأة تتم عدتها من الثانية.

ومن قول ابن عباس رضي الله عنه أن الخلع فسخ عصمة، وليس بطلاق، واحتج من هذه الآية بذكر الله تعالى الطلاقين، ثم ذكره الخلع، ثم ذكره الثالثة بعد الطلاقين، ولم يك للخلع حكم يعتد به. ذكر هذا ابن المنذر في الأشراف عنه، وعن عكرمة، وطاوس، وأحمد،

وإسحاق، وأبي ثور - وذكر عن الجمهور خلاف قولهم.

وقال مجاهد: هذه الآية بيان ما يلزم المسرح. والتسريح: هو الطلقة الثالثة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْرِحْ﴾ يحتمل الوجهين: إما تركها تتم العدة، وإما إرداف الثالثة، ثم بين في هذه الآية حكم الاحتمال الواحد، إذ الاحتمال الثاني قد علم منه أنه لا حكم له عليها بعد انقضاء العدة.

و﴿تَنْكِحْ﴾ في اللغة جار على حقيقته في الوطء ومجاز في العقد. واجتمعت الأمة في هذه النازلة على اتباع الحديث الصحيح في بنت سمائل، امرأة رفاعة حين تزوجها عبد الرحمن بن الزبير، وكان رفاعة قد طلقها ثلاثاً، فقالت للنبي ﷺ:

وَأَدْخَلْتُمُ النِّسَاءَ قَبْلَ أَنْ يَكُنَّ حُرًّا فَأَمْسَكُوهُنَّ بِمَعْرِفِي أَوْ سَرَّوْنِي بِمَعْرِفِي وَلَا تُنْكِحُوهُنَّ ضَرَارًا لِعَدَّتِهِنَّ وَأَمَّا يَفْعَلُ ذَلِكَ فَقَدْ ظَنَنْتُهُنَّ نَفْسَهُنَّ وَلَا نَذْنِدُوهَا بِأَيْتِ اللَّهِ هَذَا وَادَّكُرُوا يَفْعَلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُعْطِيكُمْ بِمَعْرِفَتِهِمْ اللَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ قَبْلَ أَنْ يَكُنَّ حُرًّا فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَنْفُسَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكُرُ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَالْوَلَدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْصَبَ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ وِزْرًا لِوَسْعِهَا لَا تُنْكَرُ وَلِلَّهِ يُولَدُهَا وَلَا مَوْلُودَ لَهُ يُولَدُوهَا وَعَلَى الْوَارِثِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَ ائْتِصَالُ عَن تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِحُوا أُولَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوْلُ وَاللَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

٣٧

أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْبِدَ الرَّجُلَ تَكُنَّ رَجْعٌ وَءَاتَيْتُهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأن الأمة مجمعة على إجازة الفدية، ولأن المعنى المقترن بآية الفدية غير المعنى الذي في آية إرادة الاستبدال.

وقوله تعالى: ﴿وَبَلَكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ الآية - أي هذه الأوامر والنواهي هي المعالم بين الحق والباطل، والطاعة والمعصية، فلا تتجاوزوها. ثم توعد تعالى على تجاوز الحد، ووصف المتعدي بالظلم، وهو وضع الشيء في غير موضعه، والظلم معاقب صاحبه. وهو كما قال ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

٣٨ - تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس، والضحاك،

إني لا أريد البقاء مع عبد الرحمن، ما معه إلا مثل الهدية، فقال لها رسول الله ﷺ: «لعلك أردت الرجوع إلى رفاعة؟ لا. حتى يدوق عسيلتك وتذوقي عسيلته». فرأى العلماء أن النكاح المحل إنما هو الدخول والوطء وكلهم على أن مغيب الحشفة يُجِلُّ، إلا الحسن ابن أبي الحسن فإنه قال: لا يُجِلُّ إلا الإنزال، وهو ذوق العسيلة، وقال بعض الفقهاء: التقاء الختانين يُجِلُّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى واحد، إذ لا يلتقي الختانان إلا مع المغيب الذي عليه الجمهور. وروي عن سعيد بن المسيب أن العقد عليها يحلها للأول، وخطيء هذا القول لخلافه الحديث الصحيح، ويتأول على سعيد رحمه الله أن الحديث لم يبلغه، ولما رأى العقد عاملاً في منع الرجل نكاح امرأة قد عقد عليها أبوه قاس عليه عمل العقد في تحليل المطلقة - وتحليل المطلقة ترخيص، فلا يتم إلا بالأوفى، ومنع الابن شدة تدخل بأرق الأسباب على أصلهم في البر والجنث.

والذي يُجِلُّ عند مالك رحمه الله: النكاح الصحيح والوطء المباح، والمحلل إذا وافق المرأة فلم تنكح زوجاً، ولا يُجِلُّ ذلك، ولا أعلم في اتفاهه مع الزوجة خلافاً. وقال عثمان بن عفان: إذا قصد المحلل التحليل وحده لم يحل، وكذلك إن قصدته المرأة وحدها. ورخص فيه - مع قصد المرأة وحدها - إبراهيم، والشعبي إذا لم يأمر به الزوج.

وقال الحسن بن أبي الحسن: إذا

هم أحد الثلاثة بالتحليل لم تحل للآول وهذا شاذ. وقال سالم والقاسم: لا بأس أن يتزوجها ليحلها إذا لم يعلم الزوجان.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ﴾ الآية. المعنى: إن طلقها المتزوج الثاني فلا جناح عليهما أي المرأة والزوج الأول، قاله ابن عباس، ولا خلاف فيه، والظن على بابيه من تغليب أحد الجائزين. وقال أبو عبيدة: أيقنا. وقوله في ذلك ضعيف، و﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ الأمور التي أمر ألا تتعدى.

وخص الذين يعلمون بالذكر تشريفاً لهم، وإذ هم الذين ينتفعون بما بين، أي نصب للعبارة من قول أو صنعة.

وأما إذا أردنا بالتيين خلق البيان في القلب فذلك يوجب تخصيص الذين يعلمون بالذكر، لأن من طبع على قلبه لم يبين له شيء، وقرأ السبعة ﴿يَبَيِّنُهَا﴾ بالياء. وقرأ عاصم - فيما روي عنه ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ بالنون.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الآية - خطاب للرجال لا يختص بحكمه إلا الأزواج، وذلك نهى للرجل أن يطول العدة على المرأة مضارة منه لها، بأن يرتجع قرب انقضائها، ثم يطلق بعد ذلك. قاله الضحاك وغيره، ولا خلاف فيه.

ومعنى ﴿بَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ﴾ قاربن، لأن المعنى يضطر إلى ذلك، لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك.

ومعنى ﴿فَاتَّيَكُمُنَّ﴾: راجعوهن و﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ قيل: هو الإشهاد،

﴿وَلَا تُنكِحُنَّ﴾ أي لا تراجعوهن ضراراً، وباقي الآية بين.

المراد: آياته النازلة في الأوامر والنواهي.

وقال الحسن: نزلت هذه الآية فيمن طلق لاعباً أو هزلًا، أو راجع كذلك. وقالت عائشة، وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة»، ووقع هذا الحديث في المدونة من كلام ابن المسيب: (النكاح، والطلاق، والعنق)، ثم ذكر الله عبادته بإنعامه عليهم بالقرآن والسنة.

و﴿الْحِكْمَةَ﴾ هي السنة المبينة على لسان رسول الله ﷺ مراد الله فيما لم يُنصَّ عليه في الكتاب - والوصف بـ﴿عَلِيمٍ﴾ يقتضيه ما تقدم من الأفعال التي ظاهرها خلاف النية فيها كالمحلل والمُرتجع مضارة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْصِلُونَّ﴾. الآية خطاب للمؤمنين الذين منهم الأزواج، ومنهم الأولياء، لأنهم المراد في ﴿تَعْصِلُونَّ﴾.

وبلوغ الأجل في هذا الموضع تنبيه لأن المعنى يقتضي ذلك. وقد قال بعض الناس في هذا الموضع: إن المراد بـ﴿تَعْصِلُونَّ﴾ الأزواج، وذلك بأن يكون الارتجاع مضارة عضلاً عن نكاح الغير. فقوله: ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾ على هذا يعني به الرجال إذ منهم الأزواج، وعلى أن المراد بـ﴿تَعْصِلُونَّ﴾ الأولياء، فالأزواج هم الذين كن في عصمتهم.

والعضل: المنع من الزواج. وهو من معنى التضييق والتعسير كما يقال: أعضلت الدجاجة إذا عسر بيضها - والداء العضال العسير البرء.

نزلت هذه الآية في معقل بن يسار وأخته، وقيل: في جابر بن عبد الله، وذلك أن رجلاً طلق أخته، وقيل بنت عمه وتركها حتى تمت عدتها، ثم أراد ارتجاعها فغار جابر وقال: تركتها وأنت أملك بها - لا زواجكها أبداً، فنزلت الآية. وهذه الآية تقتضي ثبوت حق الولي في إنكاح وليته، وأن النكاح يفتقر إلى ولي، خلاف قول أبي حنيفة: «إن الولي ليس من شروط النكاح».

وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ معناه: المهر والإشهاد.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ خطاب للنبي ﷺ، ثم رجوع إلى خطاب الجماعة، والإشارة في ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ترك العضل و﴿أَنْتُمْ أَطَهَرُ﴾ معناه، أطيّب للنفس، وأطهر للعرض والدين، بسبب العلاقات التي تكون بين الأزواج، وربما لم يعلمها الولي فيؤدي العضل إلى الفساد والمخالطة على ما لا ينبغي، والله تعالى يعلم من ذلك ما لا يعلم البشر.

﴿بِرِضَمَنْ أَوْلَدَهُنَّ﴾ خبر معناه الأمر على الوجوب لبعض الوالدات، والأمر على جهة الندب لبعضهن، فأما المرأة التي في العصمة فعليها الإرضاع وهو عرف يلزم، إذ قد صار كالشرط، إلا أن تكون شريفة ذات ترقة فعرّفها ألا ترضع، وذلك

كالشرط، فإن مات الأب ولا مال للصبي فمذهب مالك في المدونة أن الرضاع لازم للأُم بخلاف النفقة، وفي كتاب ابن الجلاب: رضاعة في بيت المال. وقال عبد الوهاب: هو من فقهاء المسلمين، وأما المطلقة طلاق بينونة فلا رضاع عليها، والرضاع على الزوج إلا أن تشاء هي، فهي أحق به بأجرة المثل، هذا مع يسر الزوج، فإن كان معدماً لم يلزمها الرضاع إلا أن يكون المولود لا يقبل غيرها فتجبر حينئذ على الإرضاع، ولها أجر مثلها في يسر الزوج، وكل من يلزمها الإرضاع فإن أصابها عذر يمنعها منه عاد الإرضاع على الأب. وروي عن مالك أن الأب إذا كان معدماً ولا مال للصبي فإن الرضاع على الأم، فإن كان بها عذر ولها مال فالإرضاع عليها في مالها.

وهذه الآية في المطلقات، قاله السدي، والضحاك، وغيرهما، جعلها الله حداً عند اختلاف الزوجين في مدة الرضاع، فمن دعا منهما إلى إكمال الحولين فذلك له: وقال جمهور المفسرين: إن هذين الحولين لكل ولد.

وروي عن ابن عباس أنه قال: هي في الولد الذي يمكث في البطن ستة أشهر، فإن مكث سبعة أشهر فرضاعه ثلاثة وعشرون شهراً، فإن مكث ثمانية أشهر فرضاعه اثنان وعشرون شهراً، فإن مكث تسعة أشهر فرضاعه أحد وعشرون شهراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأن هذا القول اثبتني على قوله تعالى: ﴿وَحَلَهُ وَصَلَهُ ثَلَاثُونَ شهراً﴾ إلا أن لك حكماً على الإنسان عموماً. وسُمي العام حَوْلًا لاستحالة الأمور فيه في الأغلب.

ووصفهما بكاملين إذ مما قد اعتيد تجوزاً أن يقال: في حول ويعض آخر في حولين، وفي يوم ويعض آخر مشيت يومين، وصبرت عليك في ديني يومين وشهرين.

وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرُّضَاعَةَ﴾ مبني على أن الحولين ليسا بفرض لا يتجاوز. وقرأ السبعة: ﴿أَنْ يُنِمَّ الرُّضَاعَةَ﴾ بضم الياء ونصب الرضاعة. وقرأ مجاهد، وابن محيصن، وحמיד، والحسن، وأبو رجاء: ﴿تَنِمُّ الرُّضَاعَةَ﴾ بفتح التاء الأولى ورفع الرضاعة، على إسناد الفعل إليها. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عتبة، والجارود بن أبي سيرة كذلك، إلا أنهم كسروا الراء من ﴿الرُّضَاعَةَ﴾، وهي لغة كالحضارة والحضارة وغير ذلك. وروي عن مجاهد أنه قرأ: ﴿الرضعة﴾ على وزن القَعْلَةِ، وروي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿أَنْ يَكْمَلَ الرضاعة﴾ بالياء المضموه. وانتزع مالك رحمه الله، وجماعة من العلماء من هذه الآية - أن الرضاعة المُحَرَّمَةُ الجارية مجرى النسب إنما هي ما كان في الحولين لأن بانقضاء الحولين تمت الرضاعة، فلا رضاعة، وروي عن قتادة أنه قال: هذه الآية تضمنت فرض الإرضاع على الوالدات، ثم يُسر ذلك وخُفِّفَ بالتخيير الذي في قوله: ﴿لَمَنْ أَرَادَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مبتدع.

﴿تفسير قوله عز وجل:

﴿الْمَوْلُودُ﴾: اسم جنس وصنف من الرجال، والرزق في هذا الحكم: الطعام الكافي.

وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ يجمع حسن القدر في الطعام وجودة الأداء له، وحسن الاقتضاء من المرأة، ثم بين تعالى أن الإنفاق على قدر غنى الزوج ومنصبتها بقوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا نَفْسَهَا﴾، وقرأ جمهور الناس: ﴿تُكَلِّفُ﴾ بضم التاء، ﴿نَفْسٌ﴾ على ما لم يُسم فاعله. وقرأ أبو رجاء: ﴿تُكَلِّفُ﴾ بفتح التاء بمعنى تتكلف ﴿نَفْسٌ﴾ فاعله. وروى عنه أبو الأشهب: ﴿لَا تُكَلِّفُ﴾ بالنون ﴿نَفْساً﴾ بالنصب. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وأبان، عن عاصم: ﴿لَا تُضَارُّ والدَةً﴾ بالرفع في الراء وهو خبر معناه الأمر، ويحتمل أن يكون الأصل ﴿لَا تُضَارُّ﴾ بكسر الراء الأولى، ف﴿والدة﴾ فاعله، ويحتمل أن يكون الأصل ﴿تُضَارُّ﴾ بفتح الراء الأولى ف﴿والدة﴾ مفعول لم يُسم فاعله، ويعطف ﴿مَوْلُودٌ﴾ على هذا الحد في الاحتمالين. وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وعاصم ﴿لَا تُضَارُّ﴾ بفتح الراء المشددة وهذا على النهي، ويحتمل أصله ما ذكرنا في الأولى.

ومعنى الآية - في كل قراءة - النهي عن أن تضار الوالدة زوجها المطلق بسبب ولدها، وأن يضارها هو بسبب الولد أو يضار الظئر لأن لفظة نهيه

تعم الظئر، وقد قال عكرمة في قوله: ﴿لَا تُضَارُّ وَلَا تُضَارَّ﴾ معناه: الظئر.

ووجه الضرر لا تنحصر وكل ما ذكر منها في التفاسير فهو مثال. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿لَا تُضَارُّ﴾ براءة بين - الأولى مفتوحة. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿لَا تُضَارَّ﴾ بإسكان الراء وتخفيفها. وروي عنه الإسكان والتشديد. وروي عن ابن عباس: ﴿لَا تُضَارُّ﴾ بكسر الراء الأولى.

واختلف العلماء في معنى قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ فقال قتادة، والسدي، والحسن، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وغيرهم: هو وارث الصبي إن لو مات. قال بعضهم: وارثه من الرجال خاصة يلزمه الإرضاع كما كان يلزم أبا الصبي لو كان حياً، وقاله مجاهد، وعطاء. وقال قتادة أيضاً وغيره: هو وارث الصبي من كان من الرجال والنساء، ويلزمهم إرضاعه على قدر موارثهم منه. وحكى الطبري عن أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن أنهم قالوا: الوارث الذي يلزمه إرضاع المولود هو وليه ووارثه إذا كان ذا رحم محرم منه، فإن كان ابن عم وغيره وليس بذی رحم محرم فلا يلزمه شيء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول تحكم. وقال قبيصة بن ذؤيب، والضحاك، وبشير بن نصر قاضي عمر بن عبد العزيز:

الوارث هو الصبي نفسه، أي عليه في ماله إذا ورث أباه إرضاع نفسه. وقال سفيان رحمه الله: الوارث هو الباقي من والذي المولود بعد وفاة الآخر منهما، ويرى مع ذلك - إن كانت الوالدة هي الباقية - أن يشاركها العاصب في إرضاع المولود على قدر حظه من الميراث.

ونص هؤلاء الذين ذكرت أقوالهم على أن المراد بقوله تعالى: ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ الرزق والكسوة، وذكر ذلك أيضاً من العلماء إبراهيم النخعي، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، والشعبي، والحسن، وابن عباس وغيرهم.

وقال مالك رحمه الله في «المدينة»، وجميع أصحابه، والشعبي أيضاً، والزهري، والضحاك، وجماعة من العلماء: بل المراد بقوله: ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ ألا يضار، وأما الرزق والكسوة فلا شيء عليه منه. وروي ابن القاسم عن مالك أن الآية تضمنت أن الرزق والكسوة على الوارث، ثم نسخ ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالإجماع من الأمة ألا يضار الوارث، والخلاف - هل عليه رزق وكسوة أم لا؟

وقرأ يحيى بن يعمر: ﴿وَعَلَى الْوَرَّةِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ بالجمع.

تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿أَرَادَ﴾ للوالدين، و﴿يَضَالُ﴾ معناه: فطاماً عن الرضاع - ولا يقع التشاور ولا يجوز التراضي إلا بما لا ضرر فيه على المولود،

فإذا ظهر في حاله الاستغناء عن اللبن قبل تمام الحَوْلَيْنِ فلا جناح على الأبوين في فصله، هذا معنى الآية. وقاله مجاهد، وقاتدة، وابن زيد، وسفيان وغيرهم - وقال ابن عباس: لا جناح مع التراضي في فصله قبل الحَوْلَيْنِ وبعدهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحرير القول في هذا، أن فصله قبل الحولين لا يصح إلا بتراضيهما، وألا يكون على المولود ضرر، وأما بعد تمامهما فمن دعا إلى الفصل فذلك له، إلا أن يكون في ذلك على الصبي ضرر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِبْنَوهَا﴾ مخاطبة لجميع الناس، نجمة الآباء والأمهات، أي لهم اتخاذ الظئر مع الاتفاق على ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ فمخاطبة للرجال خاصة إلا - على أحد التأويلين - في قراءة من قرأ: ﴿أَتَيْتُمْ﴾ وقرأ السبعة من السبعة: ﴿أَتَيْتُمْ﴾ بالمد. المعنى: أعطيتهم. وقرأ ابن كثير: ﴿أَتَيْتُمْ﴾ بمعنى ما جئتم وفعلتم، كما قال زهير:

وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ أَبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
قال أبو علي: المعنى: إذا سلمتم ما أتيتهم نقده أو إعطاءه أو سوقه، فحذف المضاف، وأقيم الضمير مقامه، فكأن التقدير: ما أتيتموه، ثم حذف الضمير من الصلة، ويحتمل اللفظ معنى آخر - قاله قتادة - وهو: إذا سلمتم ما أتيتهم من إرادة الاسترضاع، أي سلم كل واحد من الأبوين ورضي، وكان ذلك عن

وهذه الآية هي في عدة المتوفى عنها زوجها، وظاهرها العموم، ومعناها الخصوص في الحرائر غير الحوامل، ولم يعن بالآية ما يشذ من مرتابة ونحوها.

وحكى المهدوي عن بعض العلماء: أن الآية تناولت الحوامل، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ﴾ الآية. وعدة الحامل وضع حملها عند جمهور العلماء، وروي عن علي بن أبي طالب، وابن عباس، وغيرهما: أن تمام عدتها آخر الأجلين.

والتريص: التصبر والتأني بالشخص في مكان أو حال، وقد بين تعالى ذلك بقوله: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾، والأحاديث عن النبي ﷺ متظاهرة أن التريص بإخداد - هو الامتناع عن الزينة وليس المصبوب الجميل، والطيب ونحوه، والتزام المبيت في مسكنها، حيث كانت وقت وفاة الزوج. وهذا قول جمهور العلماء، وهو قول مالك وأصحابه.

وقال ابن عباس، وأبو حنيفة - فيما روي عنه - وغيرهما: ليس المبيت بمراعى، تبيت حيث شئت.

وقال الحسن بن أبي الحسن: ليس الإحداد بشيء، إنما تتريص عن الزواج، ولها أن تزين وتطيب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَتَوَفَّوْنَ﴾ بضم الياء. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿يَتَوَفَّوْنَ﴾ بفتح الياء، وكذلك روى المفضل عن عاصم، ومعناه يستوفون أجالهم.

على أن الله تعالى بصير بكل عمل، وفي هذا وعيد وتحذير، أي فهو مجاز بحسب عملكم.

تفسير قوله عز وجل:

قال بعض نحاة الكوفيين: الخبر عن ﴿الَّذِينَ﴾ متروك، والقصد الإخبار عن أزواجهم بأنهن يتريصن. ومذهب نحاة البصرة أن خبر ﴿الَّذِينَ﴾ مترتب بالمعنى وذلك أن الكلام إنما تقديره: ﴿يتريص أزواجهم﴾. وإن شئت قدرته: ﴿وأزواج الذين

يتوفون منكم يتريصن﴾. فجاءت العبارة في غاية الإيجاز، وإعرابها مترتب على هذا المعنى المالك لها المقرر فيها.

وحكى المهدوي عن سيبويه: أن المعنى: «وفيمَا يتلى عليكم الذين يتوفون» ولا أعرف هذا الذي حكاه، لأن ذلك إنما يتجه إذا كان في الكلام لفظ أمر بعد. مثل قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا﴾ وهذه الآية فيها معنى الأمر لا لفظه.

فيحتاج مع هذا التقدير إلى تقدير آخر يستغنى عنه إذا حضر لفظ الأمر - وحسن مجيء الآية هكذا أنها توطئة لقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذْ﴾ القصد بالمخاطبة من أول الآية إلى آخرها الرجال الذين منهم الحكام والنظار، وعبارة المبرد والأخفش ما ذكرناه.

وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ يَمَاعَزُونَ خَيْرٌ لِّمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِكُمْ فِيمَا عَرَضَ بِهِنَّ مِنَ خَطِيئَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَنَفْنَ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَأْخُذُوهُنَّ بِسَاءِ مَا لَأن تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَقْرَبُوا عَقْدَةَ الزَّكَاجِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَعَلِمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرَبُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَعُوهُنَّ عَلَى التَّوَسُّعِ قَدَرَهُنَّ عَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرَهُنَّ مَتَعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْحَسَنَيْنِ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ قَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا قَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَا أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بَيْنَهُمَا عَقْدَةُ الزَّكَاجِ وَإِنْ تَعَفَّوْا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

اتفاق منهما وقصد خير وإرادة معروف من الأمر.

وعلى هذا الاحتمال فيدخل في الخطاب بـ﴿سَلَّمْتُمْ﴾ الرجال والنساء، وعلى التأويل الذي ذكر أبو علي وغيره فالخطاب للرجال لأنهم الذين يعطون أجر الرضاع. قال أبو علي: ويحتمل أن تكون ﴿مَّا﴾ مصدرية، أي إذا سلمتم الإتيان، والمعنى كالأول، لكن يستغنى عن الصنعة من حذف المضاف، ثم حذف الضمير.

قال مجاهد: المعنى: إذا سلمتم إلى الأمهات أجرهن، بحساب ما أرضعن إلى وقت إرادة الاسترضاع. وقال سفيان: المعنى: إذا سلمتم إلى المسترضعة وهي الظئر أجرها بالمعروف.

وباقى الآية أمر بالتقوى، وتوقيف

وجعل الله الأربعة الأشهر والعشر عبادة في العدة فيها استبراء للحمل، إذ فيها تكمل الأربعون، والأربعون، والأربعون، حسب الحديث الذي رواه ابن مسعود وغيره، ثم ينفخ الروح.

وجعل تعالى العشر تكملة، إذ هي مظنة لظهور الحركة بالجنين، وذلك لنقص الشهور أو كمالها، ولسرعة حركة الجنين أو إبطائها، قاله سعيد بن المسيب، وأبو العالية وغيرهما.

وقال تعالى: ﴿عَشْرًا﴾ ولم يقل: ﴿عَشْرَةً﴾ تغليظاً لحكم الليالي، إذ الليلة أسبق من اليوم، والأيام في ضمنها، وعشر أخف في اللفظ. قال جمهور أهل العلم: ويدخل في ذلك اليوم العاشر، وهو من العدة، لأن الأيام مع الليالي. وحكى منذر بن سعيد، وروي أيضاً عن الأوزاعي أن اليوم العاشر ليس من العدة بل انقضت بتمام عشر ليال. قال المهدي: وقيل: المعنى: وعشر مدد، كل مدة من يوم وليلة.

وروي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿أربعة أشهر وعشر ليالٍ﴾.

تفسير قوله عز وجل:

أضاف تعالى الأجل إليهن إذ هو محدود مضروب في أمرهن.

والمخاطبة بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ عامة لجميع الناس، والتلبس بهذا الحكم هو للحكم والأولياء اللاصقين، والنساء المعتدات.

وقوله عز وجل: ﴿فِيمَا فَعَلْنَ﴾ يريد به الزوج فما دونه، من التزين،

وطراح الإحداد. قال مجاهد، وابن شهاب، وغيرهما: أراد - بما فعلن - النكاح لمن أحبين، إذا كان معروفاً، غير منكر. ووجوه المنكر في هذا كثيرة.

وقال بعض المفسرين: ﴿يَلْمِزْنَ﴾ معناه بالإشهاد.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وعيدٌ يتضمن التحذير، و﴿خَبِيرٌ﴾ اسم فاعل من خبر إذا تقصى علم الشيء.

تفسير قوله عز وجل:

المخاطبة بهذه الآية لجميع الناس، والمباشر لحكمها هو الرجل الذي في نفسه تزويج معتدة.

والتعريض: هو الكلام الذي لا تصريح فيه، كأنه يعرض لفكر المتكلم به. وأجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزويجها، وتنبه عليه، لا يجوز، وكذلك أجمعت على أن الكلام معها بما هو زنت، وذكر جماع، أو تحريض عليه، لا يجوز، وجوز ما عدا ذلك.

ومن أعظمه قرباً إلى التصريح، قول النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس: «كوني عند أم شريك، ولا تسبقيني بنفسك» ومن المجوز قول الرجل: إنك إلي خير، وإنك لمرغوب فيك، وإني لأرجو أن أتزوجك، وإن يقدر أمر يكن - هذا هو تمثيل مالك، وابن شهاب، وكثير من أهل العلم في هذا.

وجائز أن يمدح نفسه، ويذكر مآثره على جهة التعريض بالزواج، وقد فعله أبو جعفر محمد بن علي بن

حسين، واحتج بأن النبي ﷺ فعله مع أم سلمة.

والهدية إلى المعتدة جائزة، وهي من التعريض، قاله سحنون وكثير من العلماء. وقد كره مجاهد أن يقول: لا تسبقيني بنفسك ورأه في المواعدة سراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي على أن يتأول قول النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس، إنه على جهة الرأي لها فيمن يتزوجها، لا أنه أرادها لنفسه، وإلا فهو خلاف لقوله ﷺ.

والخطبة - بكسر الخاء - فعل الخاطب من كلام وقصد واستلطاف بفعل أو قول، يقال: خطبها يخطبها خطباً وخطبة ورجل خطاب كثير التصرف في الخطبة، ومنه قول الشاعر:

بَرَحَ بِالْعَيْنَيْنِ خُطَابُ الْكُثْبِ
يَقُولُ إِنِّي خَاطِبٌ وَقَدْ كَذَبُ
وَلِنَّمَا يَخْطُبُ عَسَا مِنْ حَلَبِ

والخطبة فعلة كجلسة وقعدة. والخطبة - بضم الخاء - هي الكلام الذي يقال في النكاح وغيره. و﴿أَكْتَنَّتْ﴾ معناه: سترتم وأخفيتم. تقول العرب: كُنْتُ الشيء من الأجرام، إذا سترته في بيت أو ثوب، أو أرض ونحوه، وأكُنْتُ الأمر في نفسي. ولم يسمع من العرب كُنْتُه في نفسي، وتقول: أكن البيت الإنسان ونحو هذا.

فرفع الله الجناح عنم أراد تزوج المعتدة مع التعريض ومع الإكناز ونهى عن المواعدة التي هي تصريح بالتزوج وبناء عليه، واتفاق على

وعد، فرخص - لعلمه تعالى - بغلبة النفوس وطماحها وضعف البشر عن ملكها.

وقوله تعالى: ﴿سَتَذْكُرُهُنَّ﴾ قال الحسن: ستخطبونهن، كأنه قال: إن لم تنهوا. وقال غير الحسن: معناه علم الله أنكم ستذكرون النساء المعتدات في نفوسكم وبألسنتكم لمن يخف عندهم، فنهى عن أن يوصل إلى التواعد معها، لما في ذلك من هتك حرمة العدة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾، ذهب ابن عباس، وابن جبير، ومالك، وأصحابه، والشعبي، ومجاهد، وعكرمة، والسدي، وجمهور أهل العلم إلى أن المعنى: لا توافقوهن بالمواعدة والتوثق وأخذ العهود في استسرار منكم وخفية، فـ ﴿سِرًّا﴾ - على هذا التأويل - نصب على الحال، أي مستسرين. وقال جابر بن زيد، وأبو مجلز لاحق بن حميد، والحسن بن أبي الحسن، والضحاك، وإبراهيم النخعي: السر في هذه الآية الزنى: أي لا تواعدوهن زنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هكذا جاءت عبارة هؤلاء في تفسير السر، وفي ذلك عندي نظر، وذلك أن السر في اللغة يقع على الوطء، حلاله وحرامه، لكن معنى الكلام وقرينته ترد إلى أحد الوجهين، فمن الشواهد قول الحطيئة:

وَيَخْرُمُ سِرُّ جَارَتِهِمْ عَلَيْهِمْ
وَيَأْكُلُ جَارُهُمْ أَثْفَ الْقِصَاصِ
فقرينة هذا البيت تُعطي أن السر أراد به الوطء حراماً، وإلا فلو

تزوجت الجارة كما يَحْسُنُ لم يكن في ذلك عار، ومن الشواهد قول الآخر:

أَخَالَتْنَا سِرُّ النِّسَاءِ مُحَرَّمٌ
عَلَيَّ وَتَشْهَادُ النَّدَامَى عَلَى الْخَمْرِ
لَيْتَن لَمْ أَصْبُحْ دَاهِنًا وَلِفَيْفَهَا
وَنَاعِبَهَا يَوْمًا بِرَاغِيَةِ الْبُكَرِ
فقرينة هذا الشعر أنه أراد تحريم جماع النساء عموماً، في حرام وحلال، حتى ينال ثأره.

والآية تعطي النهي عن أن يواعد الرجل المعتدة أن يطأها بعد العدة بوجه التزويج، وأما المواعدة في الزنى فمحرم على المسلم مع معتدة وغيرها.

وحكى مكي عن ابن جبير أنه قال: سرّاً: نكاحاً، وهذه عبارة مخلصة، وقال ابن زيد: معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي: لا تنكحوهن سرّاً وتكتمون ذلك، فإذا حلت أظهرتموه ودخلتم بهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فابن زيد في معنى السر مع القول الأول، أي خفية. وإنما شذ في أن سمي العقد مواعدة، وذلك قلق، لأن العقد متى وقع - وإن كنتم - فإنما هو في عزم العقدة، وحكى مكي عنه أنه قال: الآية منسوخة بقوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾.

وأجمعت الأمة على كراهية المواعدة في العدة للمرأة في نفسها وللأب في ابنته البكر، وللسيد في أمته - قال ابن المواز: «فأما الولي الذي لا يملك الجبر فأكرهه وإن نزل لم أفسخه». وقال مالك - رحمه الله

- فيمن يواعد في العدة ثم يتزوج بعدها: «فراقها أحب إليّ، دخل بها أو لم يدخل، وتكون تطليقة واحدة، فإذا حلت خطبها مع الخطاب». هذه رواية ابن وهب، وروى أشهب عن مالك أنه يفرق بينهما إيجاباً. وقاله ابن القاسم، وحكى ابن حارث مثله عن ابن الماجشون، وزاد ما يقتضي أن التحريم يتأبد.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ استثناء منقطع، والقول المعروف: هو ما أبيض من التعريض، وقد ذكر الضحاك، أن من القول المعروف أن يقول الرجل للمعتدة: احبسي عليّ نفسك، فإن لي بك رغبة، فتقول هي: وأنا مثل ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي مواعدة، وإنما التعريض قول الرجل: إنكم لأكفء كرام، وما قُدر كان، وإنك لمعجبة، ونحو هذا.

﴿٢٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل: عَزَمَ الْعُقْدَةَ: عَقَدَهَا بِالْإِشْهَادِ وَالْوَلِيِّ، وَحَيْثُ تَسْمَى عُقْدَةً.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾. يريد تمام العدة، و﴿الْكِتَابُ﴾ هنا هو الحد الذي جعل، والقدر الذي رُسم من المدة، سماه كتاباً إذ قد حده وفرضه كتاب الله تعالى، كما قال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وكما قال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ ولا يحتاج عندي في الكلام إلى حذف مضاف، وقد قدر أبو إسحاق في ذلك حذف مضاف، أي: «فرض

الكتاب»، وهذا على أن جعل الكتاب القرآن.

واختلف أهل العلم إن خالف أحد هذا النهي، وعزم العقدة قبل بلوغ الأجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأنا أفضل المسألة إن شاء الله تعالى.

أما إن عقد في العدة وعشر عليه ففسخ الحاكم نكاحه، وذلك قبل الدخول - فقول عمر بن الخطاب وجماعة من العلماء: إن ذلك لا يؤيد تحريماً، وقاله مالك، وابن القاسم في «المدونة» في آخر الباب الذي يليه ضرب أجل امرأة المفقود. وقال الجميع: يكون خاطباً من الخطاب.

وحكى ابن الجلاب - عن مالك - رواية أن التحريم يتأبد في العقد في العدة، وإن فسخ قبل الدخول.

وأما إن عقد في العدة ودخل بعد انقضائها - فقال قوم من أهل العلم: ذلك كالدخول في العدة يتأبد التحريم بينهما. وقال قوم من أهل العلم: لا يتأبد بذلك تحريم. وقال مالك مرة يتأبد التحريم، وقال مرة: وما التحريم بذلك بالبين، والقولان له في «المدونة» في طلاق السنة.

وأما إن دخل في العدة فقول عمر بن الخطاب، ومالك، وجماعة من أصحابه، والأوزاعي، والليث، وغيرهم من أهل العلم: أن التحريم يتأبد وقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وإبراهيم، وأبي حنيفة، والشافعي، وجماعة من العلماء، وعبد العزيز ابن

أبي سلمة، إن التحريم لا يتأبد - وإن وطئ في العدة - بل يفسخ بينهما، ثم تَعْتَدُ منه، ثم يكون خاطباً من الخطاب.

قال أبو حنيفة، والشافعي: تعتد من الأول، فإذا انقضت العدة فلا بأس أن يتزوجها الآخر. وحكى ابن الجلاب رواية في المذهب أن التحريم لا يتأبد مع الدخول في العدة، ذكرها في العالم بالتحريم المجترى لأنه زان، وأما الجاهل فلا أعرف فيها خلافاً في المذهب.

حدثني أبو علي الحسين بن محمد الغساني منأولة، قال: نا أبو عمر بن عبد البر، نا عبد الوارث بن سفيان، نا قاسم بن أصبغ، عن محمد بن إسماعيل، عن نعيم بن حماد، عن ابن المبارك، عن أشعث، عن الشعبي، عن مسروق، قال: بلغ عمر بن الخطاب أن امرأة من قريش تزوجها رجل من ثقيف في عدتها، فأرسل إليهما ففرق بينهما، وعاقبهما، وقال: لا تنكحها أبداً، وجعل صداقها في بيت المال، وفشا ذلك في الناس فبلغ علياً فقال: يرحم الله أمير المؤمنين، ما بال الصداق وبيت المال، إنما جهلا فينبغي للإمام أن يردهما إلى السنة. قيل: فما تقول أنت فيها؟ قال: لها الصداق بما استحلت من فرجها، ويُفَرَّق بينهما، ولا جلد عليهما، وتكمل عدتها من الأول، ثم تعتد من الثاني عدة كاملة ثلاثة أقراء، ثم يخطبها إن شاء، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فخطب الناس فقال: أيها الناس - رُدُّوا الجهالات إلى السنة.

وهذا قول الشافعي، والليث في العدة من اثنين.

قال مالك، وأصحاب الرأي، والأوزاعي، والثوري: عدة واحدة تكفيهما جميعاً سواء كانت بالحمل أو بالأقراء أو بالأشهر.

وروى المدنيون، عن مالك، مثل قول علي بن أبي طالب، والشافعي في إكمال العدتين. واختلف قول مالك رحمه الله في الذي يدخل في العدة عالماً بالتحريم مجترئاً، فمرة قال: العالم والجاهل فيه سواء، لا حد عليه، والصداق له لازم، والولد لاحق، ويعاقبان ولا يتناكحان أبداً، ومرة قال: العالم بالتحريم كالزاني يُحَدُّ ولا يلحق به الولد، وينكحها بعد الاستبراء، والقول الأول أشهر عن مالك رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَوْا﴾ إلى آخر الآية. تحذير من الوقوع فيما نهى عنه، وتوقيف على غفره وحلمه في هذه الأحكام التي بين ووسع فيها من إباحة التعريض ونحوه.

﴿٢٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء إخبار برفع الجناح عن المطلق قبل البناء، والجماع، فرض مهراً أو لم يفرض. ولما نهى رسول الله ﷺ عن التزوج لمعنى الذوق وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوج لطلب العصمة والتماس ثواب الله، وقصد دوام الصبغة - وقع في نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد واقع جزاءً من هذا المكروه، فنزلت الآية رافعةً للجناح في ذلك إذ كان أصل النكاح على المقصد الحسن.

وقال قوم: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾

معناه: لا طلب بجميع المهر، بل عليكم نصف المفروض لمن فرض لها، والمتعة لمن لم يفرض لها.

وقال قوم: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: في أن ترسلوا الطلاق في وقت حيض، بخلاف المدخول بها.

وقال مكي: المعنى لا جناح عليكم في الطلاق قبل البناء، لأنه قد يقع الجناح على المطلق بعد أن كان قاصداً للذوق، وذلك مأمون قبل المسيس.

والخطاب بالآية لجميع الناس.

وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿تَسْوَمُنَّ﴾ بغير ألف. وقرأ الكسائي، وحمة: ﴿تَسْمَسُوهُنَّ﴾ بألف وضم التاء، وهذه القراءة الأخيرة تعطي المس من الزوجين، والقراءة الأولى تقتضي ذلك بالمعنى المفهوم من المس، ورجحها أبو علي لأن أفعال هذا المعنى جاءت ثلاثية على هذا الوزن: نَكَّحَ وَسَفَدَ وَقَرَعَ وَذَقَطَ وضرب الفحل. والقراءتان حستان. و﴿تَقْرَبُوا﴾ عطفاً على ﴿تَسْمَسُوا﴾ وفرض المهر إثباته وتحديده.

وهذه الآية تعطي جواز العقد على التفويض، لأنه نكاح مقرر في الآية، مبين حكم الطلاق فيه، قاله مالك في «المدونة».

والفريضة: الصداق.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْوَمُنَّ﴾ معناه: أعطوهن شيئاً يكون متاعاً لهن، وحمله ابن عمر، وعلي بن أبي طالب، والحسن بن أبي الحسن، وسعيد بن جبير، وأبو قلابة، والزهري، وقتادة، والضحاك بن

مزاحم - على الوجوب، وحمله أبو عبيد، ومالك بن أنس، وأصحابه، وشريح، وغيرهم - على النذب، ثم اختلفوا في الضمير المتصل بـ ﴿تَسْمَسُوا﴾ من المراد به من النساء؟ فقال ابن عباس، وابن عمر، وعطاء، وجابر بن زيد، والحسن، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب الرأي: المتعة واجبة للمطلقة قبل البناء والفرض، ومندوبة في غيرها.

وقال مالك وأصحابه: المتعة مندوب إليها في كل مطلقة وإن دخل بها، إلا في التي لم يدخل بها وقد فرض لها، فحسبها ما فرض لها، ولا متعة لها.

وقال أبو ثور: لها المتعة ولكل مطلقة.

وأجمع أهل العلم على أن التي لم يفرض لها ولم يدخل بها لا شيء لها غير المتعة. فقال الزهري: يقضي لها بها القاضي. وقال جمهور الناس: لا يقضي بها، قاله شريح، ويقال للزوج: إن كنت من المتقين والمحسنين فمتع ولم يقض عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مع إطلاق لفظ الوجوب عند بعضهم، وأما ربط مذهب مالك، فقال ابن شعبان: المتعة بإزاء غم الطلاق، ولذلك ليس للمختلعة والمبارية والملاعنة متعة. وقال الترمذي، وعطاء، والنخعي: للمختلعة متعة. وقال أصحاب الرأي: للملاعنة متعة.

وقال ابن القاسم: ولا متعة في نكاح مفسوخ.

قال ابن المواز: ولا فيما يدخله الفسخ بعد صحة العقد مثل ملك أحد الزوجين صاحبه.

وروي ابن وهب، عن مالك: أن المخيرة لها المتعة بخلاف الأمة تعتق تحت العبد فتختار، فهذه لا متعة لها، وأما الحرة تخير أو تملك، أو يتزوج عليها أمة فتختار هي نفسها في ذلك كله فلها المتعة، لأن الزوج سبب الفراق، وعليها هي غضاضة في ألا تختار نفسها.

واختلف الناس في مقدار المتعة - فقال ابن عمر: أدنى ما يجزي في المتعة ثلاثون درهماً أو شبيهاً، وروي أن ابن محيريز كان يقضي على صاحب الديوان بثلاثة دنانير. وقال ابن عباس: أرفع المتعة خادم، ثم كسوة، ثم نفقة. وقال عطاء: أوسط ذلك درع وخمار وملحفة. وقال الحسن: يمتع كل على قدره - هذا بخادم، وهذا بأثواب. وهذا بثوب، وهذا بنفقة، وكذلك يقول مالك بن أنس. ومتع الحسن بن علي بعشرين ألفاً وزقاق من عسل، ومتع شريح بخمسمائة درهم، وقالت أم حميد بن عبدالرحمن بن عوف: كأني أنظر إلى خادم سوداء متع بها عبدالرحمن بن عوف وزوجه أم أبي سلمة. وقال أصحاب الرأي، وغيرهم: متعة التي تطلق قبل الدخول والفرض - نصف مهر مثلها لا غير.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْوَيْحِ قَدَرٌ وَعَلَى الْفَقْرِ قَدَرٌ﴾ دليل على رفض التحدد. وقرأ الجمهور: ﴿عَلَى الْوَيْحِ﴾ بسكون الواو وكسر السين

بمعنى الذي أوسع أي اتسعت حاله.
وقرأ أبو حيو: ﴿المُوسِعُ﴾ بفتح
الواو وشد السين وفتحها، وقرأ ابن
كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم
في رواية أبي بكر: ﴿قَدْرُهُ﴾ بسكون
الدال في الموضعين. وقرأ ابن
عامر، وحزمة، والكسائي، وعاصم
- في رواية حفص - ﴿قَدْرُهُ﴾ بفتح
الدال فيهما. قال أبو الحسن
الأخفش، وغيره: هما بمعنى، لغتان
فصيحتان، وكذلك حكى أبو زيد:
تقول: خذ قدر كذا وقدر كذا
بمعنى، ويُقرأ في كتاب الله:
﴿فَسَاكَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدِرُهَا﴾. وقال: ﴿وَمَا
قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ولو حركت
الدال لكان جائزاً.

و﴿الْمُقْتَرِ﴾: المقل القليل المال.

و﴿مَتَّعًا﴾: نصب على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿بِالْمُقْتَرِ﴾ أي لا
حُمْل فيه ولا تكلف على أحد
الجانبين، فهو تأكيد لمعنى قوله:
﴿عَلَى الْكُلُوبِ قَدَرٌ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرٌ﴾.

ثم أكد تعالى التَّدْب بقوله: ﴿حَقًّا
عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي في هذه النازلة من
التمتع هم محسنون، ومن قال بأن
المتعة واجبة. قال: هذا تأكيد
الوجوب أي على المحسنين بالإيمان
والإسلام، فليس لأحد أن يقول:
لست بمحسن على هذا التأويل،
و﴿حَقًّا﴾ صفة لقوله: ﴿مَتَّعًا﴾ أو
نصب على المصدر، وذلك أدخل
في التأكيد للأمر.

﴿تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في هذه الآية.

فقال فرقة فيها مالك، وغيره:

إنها مخرجة المطلقة بعد الفرض من
حكم التمتع إذ يتناولها قوله تعالى:
﴿وَيَتَوَفَّوْنَ﴾.

وقال ابن المسيب: نسخت هذه
الآية الآية التي في الأحزاب، لأن
تلك تضمنت تمتع كل من لم يدخل
بها.

وقال قتادة: نسخت هذه الآية الآية
التي قبلها.

وقال ابن القاسم في «المدونة»:
كان المتاع لكل مطلقة بقوله تعالى:
﴿وَالْمُطَلَّقَتِ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾، ولغير
المدخول بها بالآية التي في سورة
الأحزاب فاستثنى الله المفروض لها
قبل الدخول بهذه الآية، وأثبت
للمفروض لها نصف ما فرض فقط.

وزعم زيد بن أسلم أنها منسوخة
بهذه الآية، حكى ذلك في «المدونة»
عن زيد بن أسلم زعماً.

وقال ابن القاسم: إنه استثناء،
والتحريم يرد ذلك إلى النسخ الذي
قال زيد، لأن ابن القاسم قال: إن
قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَتِ مَتَّعٌ﴾ عم
الجميع ثم استثنى الله منه هذه التي
فرض لها قبل المسيس.

وقال فريق من العلماء - منهم أبو
ثور: المتعة لكل مطلقة عموماً،
وهذه الآية إنما بينت أن المفروض
لها تأخذ نصف ما فرض، ولم يعن
بالآية إسقاط متعتها، بل لها المتعة
ونصف المفروض.

وقرأ الجمهور: ﴿نِصْفٌ﴾ بالرفع،
والمعنى: فالواجب نصف ما
فرضتم. وقرأت فرقة: ﴿فَنِصْفٌ﴾
بنصب الفاء، والمعنى: فادفعوا

نصف. وقرأ علي بن أبي طالب،
وزيد بن ثابت: ﴿فَنِصْفٌ﴾ بضم
النون في جميع القرآن وهي لغة،
وكذلك روى الأصمعي قراءة عن
أبي عمرو بن العلاء.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَتَوَفَّاكَ﴾
استثناء منقطع لأن عفوه عن
النصف ليس من جنس أخذه من
و﴿يَتَوَفَّاكَ﴾، معناه: يترك
ويصفح، ووزنه يَفْعُلن. والمعنى:
إلا أن يترك النصف الذي وجب
لهن عند الزوج.

والعافيات في هذه الآية كل امرأة
تملك أمر نفسها، وقال ابن عباس،
وجماعة من الفقهاء والتابعين:
ويجوز عفو البكر التي لا ولي لها.
وحكاه سحنون في «المدونة» عن
غير ابن القاسم، بعد أن ذكر لابن
القاسم أن وضعها نصف الصداق لا
يجوز.

وأما التي في جَبْر أب أو وصي
فلا يجوز وضعها لنصف صداقها
قولاً واحداً فيما أحفظ.

واختلف الناس في المراد بقوله:
﴿أَوْ يَتَوَفَّاكَ أَلَّذِي يَدْرُهُ عَقْدَةُ الْكَافِ﴾.

فقال ابن عباس، وعلقمة،
وطاوس، ومجاهد، وشريح،
والحسن، وإبراهيم، والشعبي، وأبو
صالح، وعكرمة، والزهرى، ومالك
 وغيرهم: هو الولي الذي المرأة في
جحره، فهو الأب في ابنته التي لم
تملك أمرها، والسيد في أمتيه، وأما
شريح فإنه جوز عفو الأخ عن نصف
المهر، وقال: أنا أعفو عن مهور بني
مرة وإن كرهن، وكذلك قال

عكرمة: يجوز عفو الذي عقد عقدة النكاح بينهما، كان عماً أو أخاً أو أباً، وإن كرهت.

وقالت فرقة من العلماء: الذي بيده عقدة النكاح الزوج، قاله علي بن أبي طالب، وقاله ابن عباس أيضاً، وشريح أيضاً رجع إليه، وقاله سعيد بن جبير، وكثير من فقهاء الأمصار.

فعلى القول الأول النذب لهما هو في النصف الذي يجب للمرأة، فإذا أن تعفو هي، وإما أن يعفو وليها، وعلى القول الثاني فالنذب في الجهتين، إما أن تعفو هي عن نصفها، فلا تأخذ من الزوج شيئاً، وإما أن يعفو الزوج عن النصف الذي يُحط، فيؤدي جميع المهر، وهذا هو الفضل منهما، وبحسب حال الزوجين يحسن التحمل والتجمل.

ويروى أن جبير بن مطعم دخل على سعد بن أبي وقاص فعرض عليه ابنة له فتزوجها، فلمّا خرج طلقها وبعث إليه بالصدّق، فقيل له: لم تزوجتها؟ فقال: عَرَضَهَا عَلَيَّ فكَرِهْتُ رَدَّه - قيل: فلم تبعت بالصدّق؟ قال: فأين الفضل؟.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتاج القائلون بأن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج - بأن هذا الولي لا يجوز له ترك شيء من صداقها قبل الطلاق، فلا فرق بعد الطلاق، وأيضاً فإنه لا يجوز له ترك شيء من مالها الذي ليس من الصداق، فَمَالُهُ يترك نصف الصداق؟ وأيضاً

فإنه إذا قيل: إنه الولي، فما الذي يخص بعض الأولياء دون بعض وكلهم بيده عقدة النكاح، وإن كان كافلاً، أو وصياً، أو الحاكم، أو الرجل من العشيرة؟ ويحتاج من يقول: إنه الولي الحاجر بعبارة الآية لأن قوله: ﴿الَّذِي يَدُوهْ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ عبارة متمكنة في الولي، وهي في الزوج قلقة بعض القلق. وليس الأمر في ذلك كما قال الطبري، ومكي من أن المطلق لا عقدة بيده، بل نسبة العقدة إليه باقية، من حيث كان عقدها قبل. وأيضاً فإن قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَتَّقُوْا﴾ لا يدخل فيه من لا تملك أمرها، لأنها لا عفو لها، فكذلك لا يغبن النساء بعفو من يملك أمر التي لا تملك أمرها. وأيضاً فإن الآية إنما هي ندب إلى ترك شيء قد وجب في مال الزوج، يعطي ذلك لفظ العفو الذي هو الترك والاطراح، وإعطاء الزوج المهر كاملاً لا يقال فيه عفو، إنما هو انتداب إلى فضل. اللهم إلا أن تقدر المرأة قد قبضته. وهذا إطار لا يعتد به. قال مكي: وأيضاً فقد ذكر الله الأزواج في قوله: ﴿فَصِصْ مَا قَرَضْتُمْ﴾ ثم ذكر الزوجات بقوله: ﴿يَتَّقُوْا﴾ فكيف يعبر عن الأزواج بعد بالذي بيده عقدة النكاح؟ بل هي درجة ثالثة، لم يبق لها إلا الولي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ يَتَّقُوْا﴾ بفتح الواو لأن الفعل منصوب. وقرأ

الحسن بن أبي الحسن: ﴿أَوْ يَتَّقُوْا﴾ بفتح الواو ساكنة. قال المهدي ذلك على التشبيه بالآلف. ومنه قول عامر بن الطفيل:

فَمَا سَوَّدَتْني عَامِرٌ عَنْ وِزَانِي
أَبْسَى الله أَنْ أَسْمُوْا بِأَمْ وَلَا أَبِ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي عندي أنه استقل الفتحة على واو متطرفة قبلها متحرك، لقلة مجيئها في كلام العرب، وقد قال الخليل رحمه الله: لم يجيء في الكلام واو مفتوحة متطرفة قبلها فتحة إلا في قولهم: «عفوة» وهو جمع «عفو» وهو ولد الحمار، وكذلك الحركة ما كانت قبل الواو المفتوحة فإنها ثقيلة.

ثم خاطب تعالى الجميع نادياً بقوله: ﴿وَأَنْ تَتَّقُوْا أَزْوَاجَكُمْ لِلتَّقْوَى﴾ أي: يا جميع الناس، وهذه قراءة الجمهور بالتاء باثنين من فوق. وقرأ أبو نهيك، والشعبي: ﴿وَأَنْ يَتَّقُوْا﴾ بالياء، وذلك راجع إلى الذي بيده عقدة النكاح.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تَنَسَوْا الْفَضْلَ﴾، وقرأ علي بن أبي طالب، ومجاهد، وأبو حيوة، وابن أبي عبيدة: ﴿وَلَا تَنَاسَوُا الْفَضْلَ﴾ وهي قراءة متمكنة المعنى، لأنه موضع تناس لا نسيان إلا على التشبيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَسَوُا الْفَضْلَ﴾ ندب إلى المجاملة. قال مجاهد: الفضل إتمام الزوج الصداق كله، أو ترك المرأة النصف الذي لها.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَمُوتُونَ بِمَيْرٍ﴾ خبر في ضمنه الوعد للمُخْسن، الحرمان لغير المحسن.

كَانَ مَشْهُودًا ﴿٢٣٨﴾ فَيَقْوِي هَذَا
كله أمر الصبح .
وقالت فرقة: هي صلاة
الظهر، قاله زيد بن
ثابت، ورفع فيه حديثاً عن
النبي ﷺ وقاله أبو سعيد
الخدري، وعبدالله بن
عمر، واحتج قائلو هذه
المقالة بأنها أول صلاة
صليت في الإسلام فهي
وسطى بذلك، أي
فُضِلَى، فليس هذا التوسط
في الترتيب، وأيضاً،
فروي أنها كانت أشق
الصلوات على أصحاب
النبي ﷺ لأنها كانت
تجئ في الهاجرة وهم قد
نَفَسَتْهُمْ أعمالهم في أموالهم، وأيضاً
فيدل على ذلك ما قالته حفصة
وعائشة حين أُمِلَتْما ﴿حَنِظُوا عَلَى
الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ «وصلاة
العصر» فهذا اقتران الظهر والعصر .
وقالت فرقة: الصلاة الوسطى
صلاة العصر، لأنها قبلها صلاتا نهار
وبعدا صلاتا ليل، وروي هذا القول
عن علي بن أبي طالب، وابن
عباس، وأبي هريرة، وابن عمر،
وأبي سعيد الخدري، وفي مصحف
عائشة رضي الله عنها: ﴿وَالصَّلَاةِ
الْوُسْطَى﴾ «وهي العصر» وهو قولها
المروي عنها . وقاله الحسن
البصري، وإبراهيم النخعي، وفي
إملاء حفصة أيضاً: ﴿وَالصَّلَاةِ
الْوُسْطَى﴾ «وهي صلاة العصر» .
ومن روى، «وصلاة العصر» فيتأول
أنه عطف إحدى الصفتين على

تفسير قوله عز وجل:
الخطاب لجميع الأمة، والآية أمر
بالمحافظة على إقامة الصلوات في
أوقاتها بجميع شروطها .
وذكر تعالى الصلاة الوسطى ثانية،
وقد دخلت قبل في عموم قوله:
﴿الصَّلَاةِ﴾ لأنه قصد تشريفها
وإغراء المصلين بها . وقرأ أبو جعفر
الرواسي: «وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى»
بالنصب على الإغراء . وقرأ كذلك
الحلواني .
واختلف الناس في أي صلاة هو
هذا الوصف .
فذهبت فرقة إلى أنها الصبح، وأن
لفظ وسطى يراد به الترتيب لأنها
قبلها صلاتا ليل يجهر فيها، وبعدها
صلاتا نهار يُسَرُّ فيها، قال هذا
القول علي بن أبي طالب، وابن
عباس، وصلى بالناس يوماً الصبح
فكنت قبل الركوع، فلما فرغ قال:
هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا الله
أن نقوم فيها قانتين، وقاله أبو
العالية، ورواه عن جماعة من
الصحابة، وقاله جابر بن عبدالله،
وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة،
ومجاهد، وعبدالله بن شداد بن
الهادي، والربيع ومالك بن أنس .
وقوى مالك ذلك بأن الصبح لا
تجمع إلى غيرها، وصلاتا جمع
قبلها وصلاتا جمع بعدها . وقد قال
رسول الله ﷺ: «لو يعلمون ما في
الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا»،
وقال: «إنهما أشد الصلوات على
المتأففين»، «وفضل الصبح لأنها كقيام
ليلة لمن شهداها، والعَتَمَةُ نصف
ليلة» . وقال الله: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ

الأخرى وهما لشيء واحد كما
تقول: «جاءني زيد الكريم
والعاقل» . وروي عن ابن عباس أنه
قرأ: ﴿حَنِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ
الْوُسْطَى﴾ «صلاة العصر» على
البدل، وروي هذا القول سُمرة بن
جندب عن النبي ﷺ . وتواتر
الحديث عن النبي ﷺ أنه قال يوم
الأحزاب: «سَمِعْنَا عَنْ الصَّلَاةِ
الْوُسْطَى صَلَاةَ الْعَصْرِ مَلَأَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ
وَقُبُورَهُمْ نَارًا» . وقال علي بن أبي
طالب رضي الله عنه: «كنا نرى أنها
الصبح حتى قال رسول الله ﷺ يوم
الأحزاب: «سَمِعْنَا عَنْ الصَّلَاةِ
الْوُسْطَى صَلَاةَ الْعَصْرِ»، فعرنا أنها
العصر» .

وقال البراء بن عازب: «كنا نقرأ
على عهد النبي ﷺ: «حافظوا على
الصلوات وصلاة العصر»، ثم

تجئ في الهاجرة وهم قد
نَفَسَتْهُمْ أعمالهم في أموالهم، وأيضاً
فيدل على ذلك ما قالته حفصة
وعائشة حين أُمِلَتْما ﴿حَنِظُوا عَلَى
الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ «وصلاة
العصر» فهذا اقتران الظهر والعصر .
وقالت فرقة: الصلاة الوسطى
صلاة العصر، لأنها قبلها صلاتا نهار
وبعدا صلاتا ليل، وروي هذا القول
عن علي بن أبي طالب، وابن
عباس، وأبي هريرة، وابن عمر،
وأبي سعيد الخدري، وفي مصحف
عائشة رضي الله عنها: ﴿وَالصَّلَاةِ
الْوُسْطَى﴾ «وهي العصر» وهو قولها
المروي عنها . وقاله الحسن
البصري، وإبراهيم النخعي، وفي
إملاء حفصة أيضاً: ﴿وَالصَّلَاةِ
الْوُسْطَى﴾ «وهي صلاة العصر» .
ومن روى، «وصلاة العصر» فيتأول
أنه عطف إحدى الصفتين على

نسخها الله فقرأنا: ﴿حَفِظُوا عَلَ الْفَكَوَاتِ وَالْفَكَوَاتِ الْوُسْطَى﴾، فقال له رجل: فهي العصر؟ قال: قد أخبرتك كيف قرأناها وكيف نسخت، والله أعلم.

وروى أبو مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «الصَّلَاةُ الوسطى صلاة العصر».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا القول جمهور الناس، وبه أقول والله أعلم.

وقال قبيصة بن ذؤيب: الصلاة الوسطى: صلاة المغرب لأنها متوسطة في عدد الركعات، ليست ثنائية ولا رباعية، وأيضاً فقبلها صلاتا سر، وبعدها صلاتا جهر.

وحكى أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر في شرح باب جامع الوقوت وغيره، عن فرقة، أن الصلاة الوسطى صلاة العشاء الآخرة، وذلك أنها تجيء في وقت نوم، وهي أشد الصلوات على المنافقين، ويستحب تأخيرها، وذلك شاق، فوقع التأكيد في المحافظة عليها، وأيضاً فقبلها صلاتان وبعدها صلاتان.

وقالت فرقة: الصلاة الوسطى لم يعينها الله تعالى فهي في جملة الخمس غير معينة كليلة القدر في ليالي العشر، فعل الله ذلك لتقع المحافظة على الجميع، قاله نافع عن ابن عمر. وقاله الربيع بن خثيم.

وقالت فرقة: الصلاة الوسطى هي صلاة الجمعة، فإنها وسطى فضلى لِمَا خُصَّتْ به من الجمع والخطبة،

وجعلت عيداً، ذكره ابن حبيب ومكي.

وقال بعض العلماء: الصلاة الوسطى: المكتوبة الخمس. وقوله أولاً: ﴿عَلَّ الْفَكَوَاتِ﴾ يعم النفل والفرض، ثم خص الفرض بالذكر، ويجري مع هذا التأويل قوله ﷺ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى».

وقوله تعالى: ﴿وَتُؤْمَرُوا لِلَّهِ قَنْتَيْنِ﴾ معناه: في صلاتكم، واختلف الناس في معنى قانتين - فقال الشعبي: معناه: مطيعين. وقاله جابر بن زيد، وعطاء وسعيد بن جبير. وقال الضحاك: كل قنوت في القرآن فإنما يعنى به الطاعة، وقاله أبو سعيد عن النبي ﷺ، وإن أعمل كل دين فهم اليوم يقومون عاصين، فقبل لهذه الأمة: وقوموا لله مطيعين. وقال نحو هذا الحسن بن أبي الحسن، وطاوس. وقال السدي: قانتين معناه: ساكتين.

وهذه الآية نزلت في المنع من الكلام في الصلاة، وكان ذلك مباحاً في صدر الإسلام، وقال عبدالله بن مسعود: كنا نتكلم في الصلاة ونرد السلام ويسأل الرجل صاحبه حاجته قال: ودخلت يوماً والنبي ﷺ يصلي بالناس فسلمت، فلم يرد عليّ أحد فاشتد ذلك عليّ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «إنه لم يعنني أن أرد عليك إلا أنا أمرنا أن نقوم قانتين لا نتكلم في الصلاة».

والقنوت: السكوت، قاله زيد بن أرقم وقال: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَتُؤْمَرُوا لِلَّهِ قَنْتَيْنِ﴾ فأمرنا بالسكوت. وقال مجاهد:

خاشعين، القنوت: طول الركوع والخشوع، وغض البصر، وخفض الجناح، وإحضار الخشية والفكر في الوقوف بين يدي الله تعالى.

وقال الربيع: القنوت: طول القيام وطول الركوع والانتصاب له. وقال قوم: القنوت: الدعاء. وقانتين معناه: داعين. روي معنى هذا عن ابن عباس.

وفي الحديث: قنت رسول الله ﷺ شهراً يدعو على رعل وذكوان، فقال قوم: معناه دعا - وقال قوم: معناه طول قيامه، ولا حجة في هذا الحديث لمعنى الدعاء.

﴿٢٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى بالقيام له في الصلاة، بحالة قنوت، وهو الوقار والسكينة، وهودء الجوارح، وهذا على الحالة الغالبة من الأمن والطمأنينة، ثم ذكر تعالى حالة الخوف الطارئة أحياناً، فرخص لعبيده في الصلاة رجالاً متصرفين على الأقدام، وركبائاً على الخيل والإبل ونحوهما، إيماء وإشارة بالرأس حيث ما توجه. هذا قول جميع العلماء، وهذه هي صلاة الفذ الذي قد يضايقه الخوف على نفسه في حال المسابقة، أو من سيع يطلبه، أو عدو يتبعه، أو سيل يحمله.

وبالجملة - فكل أمر يخاف منه على روحه فهو يبيع ما تضمنته هذه الآية.

وأما صلاة الخوف بالإمام وانقسام الناس فليس حكمها في هذه الآية. وفرّق مالك رحمه الله بين خوف العدو المقاتل، وبين خوف السبع

ونحوه، بأن استحب في غير خوف العدو الإعادة في الوقت، إن وقع الأمن، وأكثر فقهاء الأمصار على أن الأمر سواء.

وقوله تعالى: ﴿فَرَجَلًا﴾ هو جمع راجل، أو رَجَل - من قولهم: رَجِلَ الإنسان يرجل رجلاً، إذا عدم المركوب ومشى على قدميه، فهو رَجِلٌ ورَجِلٌ - ورَجُلٌ - بضم الجيم - وهي لغة أهل الحجاز، يقولون: مشى فلان إلى بيت الله حافياً رَجُلًا - حكاه الطبري وغيره، ورَجُلَان ورَجِيل ورَجِل. وأنشد ابن الأعرابي في رَجُلَان:

عَلَيَّ إِذَا لَأَقِيْتُ لَيْلَى بِخَلْوَةٍ
أَنْ أَذَارَ بَيْتَ اللَّهِ رَجُلَانِ حَافِيَاً
ويجمع على رجال ورَجُلَى ورَجَالِي ورَجَالِي ورَجَالَة ورَجَال ورَجَالِي ورَجُلَان ورَجُلَة ورَجُلَة بفتح الجيم وأرَجَلَة وأرَاجِل وأَرَاجِيل، والرُّجُل الذي هو اسم الجنس يجمع أيضاً على رجال، فهذه الآية وقوله تعالى: ﴿يَأْتُواكَ بِكُلِّ كَلَامٍ﴾ هما من لفظ الرُّجُلَة أي عدم المركوب. وقوله تعالى: ﴿تُحِبُّونَ مِنَ رَجَالِكُمْ﴾ فهو جمع اسم الجنس المعروف، وحكى المهدوي عن عكرمة، وأبي مجلز أنهما قرأا: ﴿فَرَجُلًا﴾ بضم الراء وشد الجيم المفتوحة.

وعن عكرمة أيضاً أنه قرأ: ﴿فَرَجُلًا﴾ بضم الراء وتخفيف الجيم. وحكى الطبري عن بعضهم أنه قرأ: ﴿فَرَجُلًا﴾ دون ألف على وزن فعل بضم الفاء وشد العين. وقرأ جمهور القراء: ﴿أَوْ رَكْبَانًا﴾، وقرأ بريد بن ميسرة: ﴿فَرَجُلًا﴾

فَرَكْبَانًا﴾ بالفاء. والركبان جمع راكب، وهذه الرخصة في ضمنها بإجماع من العلماء أن يكون الإنسان حيث ما توجه من السموت، ويتقلب ويتصرف بحسب نظره في نجاة نفسه.

واختلف الناس - كم يُصَلَّى من الركعات؟ فمالك رحمه الله، وجماعة من العلماء لا يرون أن ينقص من عدد الركعات شيئاً، بل يصلي المسافر ركعتين ولا بد.

وقال الحسن بن أبي الحسن، وقتادة، وغيرهما: يصلي ركعة إيماء. وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة. وقال الضحاك بن مزاحم: يصلي صاحب خوف الموت في المسافة وغيرها ركعة، فإن لم يقدر فليكبّر تكبيرتين. وقال إسحاق بن راهويه: فإن لم يقدر إلا على تكبيرة واحدة أجزأت عنه، ذكره ابن المنذر.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ الآية - فقالت فرقة: المعنى: فإذا زال خوفكم الذي أجاءكم إلى هذه الصلاة فاذكروا الله بالشكر على هذه النعمة في تعليمكم هذه الصلاة التي وقع بها الإجزاء، ولم تفتكم صلاة من الصلوات، وهذا هو الذي لم يكونوا يعلمونه. وقالت فرقة: المعنى: فإذا كنتم آمنين قبل، أو بعد، كأنه قال: فمتى كنتم على أمن فاذكروا الله، أي صلوا الصلاة التي قد علمتموها، أي: فصلوا كما

علمكم صلاة تامة. حكاه النقاش وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله - على هذا التأويل: ﴿فَمَا لَمْ تَكُونُوا﴾ بدل من ﴿مَا﴾ التي في قوله: ﴿كَمَا﴾، وإلا لم يتسق لفظ الآية، وعلى التأويل الأول ﴿فَمَا﴾ مفعولة ب﴿عَلَّكُمْ﴾.

وقال مجاهد: معنى قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ فإذا خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة. ورد الطبري على هذا القول، وذلك فيه تحويم على المعنى كثير، والكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾ للتشبيه بين ذكر الإنسان لله ونعمة الله عليه في أن تعادلا، وكان الذكر شبيهاً بالنعمة في القدر وكفاء لها، ومن تأول ﴿أَذْكُرُوا﴾ بمعنى صلوا على ما ذكرناه، فالكاف للتشبيه بين صلاة العبد والهيئة التي علمه الله.

﴿تفسير قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء، والخبر في الجملة التي هي ﴿وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ﴾. وقرأ ابن كثير، ونافع، والكسائي، وعاصم - في رواية أبي بكر - ﴿وَصِيَّةٌ﴾ بالرفع، وذلك على وجهين - أحدهما: الابتداء، والخبر في الظرف الذي هو قوله: ﴿لِأَزْوَاجِهِمْ﴾. ويحسن الابتداء بكرة من حيث هو موضع تخصيص، كما حسن أن يرتفع ﴿سلاماً عليك﴾. و﴿خَيْرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ﴾ - و﴿أَمْتُ فِي حَجَرٍ لَا فَيْكَ﴾. لأنها مواضع دعاء، والوجه الآخر أن تضمّر له خبراً تقديره: فعليهم وصية لأزواجهم، ويكون قوله: ﴿لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ صفة.

قال الطبري: قال بعض النحاة: المعنى: كتبت عليهم وصية، قال: وكذلك هي في قراءة عبدالله بن مسعود.

وقرأ أبو عمرو، وحمزة، وابن عامر: ﴿وَصِيَّةٌ﴾ بالنصب، وذلك حمل على الفعل كأنه قال: ليوصوا وصيةً و﴿لَأَزْوَاجِهِمْ﴾ - على هذه القراءة - صفةٌ أيضاً. قال هارون: وفي حرف أبي بن كعب: ﴿وَصِيَّةٌ لَأَزْوَاجِهِمْ، مَتَاعٌ﴾ بالرفع، وفي حرف ابن مسعود: ﴿الْوَصِيَّةُ لَأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً﴾. وحكى الخفاف أن في حرف أبي: ﴿فَمَتَاعٌ لَأَزْوَاجِهِمْ﴾ بدل ﴿وَصِيَّةٌ﴾. ومعنى هذه الآية: أن الرجل إذا مات، كان لزوجته أن تقيم في منزله سنة، ويُنفقَ عليها من ماله، وذلك وصية لها.

واختلف العلماء - ممن هي هذه الوصية؟ - فقالت فرقة: كانت وصية من الله تعالى، تجب بعد وفاة الزوج. قال قتادة: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها، فلها السكنى والنفقة حولاً في مال زوجها، ما لم تخرج برأيها، ثم نسخ ما في هذه الآية من النفقة بالربع أو الثمن الذي في سورة النساء، ونسخ سكنى الحول بالأربعة الأشهر والعشر، وقاله الربيع، وابن عباس، والضحاك، وعطاء، وابن زيد. وقالت فرقة: بل هذه الوصية هي من الزوج، كانوا ندبوا إلى أن يوصوا للزوجات بذلك، فيتوفون على هذا القول معناه: يقاربون الوفاة، ويحتضرون، لأن الميت لا يوصي.

قال هذا القول قتادة أيضاً، والسدي، وعليه حمل الآية أبو علي الفارسي في الحجة. قال السدي: إلا أن العدة كانت أربعة أشهر وعشراً، وكان الرجال يوصون بسكنى سنة، ونفقتها، ما لم تخرج، فلو خرجت بعد انقضاء العدة - الأربعة الأشهر والعشر - سقطت الوصية، ثم نسخ الله تعالى ذلك بنزول الفرائض فأخذت ربعها أو ثمنها، ولم يكن لها سكنى ولا نفقة، وصارت الوصايا لمن لا يرث، وقال الطبري عن مجاهد: إن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها، والعدة كانت قد ثبتت أربعة أشهر وعشراً، ثم جعل الله لهن وصية منه سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة، فإن شاءت المرأة سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قوله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ حَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وألفاظ مجاهد رحمه الله التي حكى عنه الطبري، لا يلزم منها أن الآية محكمة، ولا نص مجاهد على ذلك، بل يمكن أنه أراد ثم نسخ ذلك بعد بالميراث.

و﴿مَتَاعاً﴾ نصب على المصدر. وكان هذا الأمر إلى الحول من حيث العام معلم من معالم الزمان، قد أخذ بحظ من الطول.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ معناه: ليس لأولياء الميت ووارثي المنزل إخراجها و﴿غَيْرِ﴾ نصب على المصدر عند الأخفش، كأنه قال: لا إخراجاً، وقيل: نصب على

الحال من الموصين. وقيل: هي صفة لقوله: ﴿مَتَاعاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ حَرَجْنَ﴾ الآية، معناه: إن الخروج إذا كان من قبل الزوجة، فلا جناح على أحد - ولي أو حاكم أو غيره - فيما فعلن في أنفسهن، من تزويج، وترك حداد، وتزوين، إذا كان ذلك من المعروف الذي لا ينكر.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفِيرٌ﴾ صفة تقتضي الوعيد بالنقمة لمن خالف الحد في هذه النازلة، فأخرج المرأة، وهي لا تريد الخروج، ﴿حَكِيمٌ﴾، أي محكم لما يأمر به عباده.

وهذا كله قد زال حكمه بالنسخ المتفق عليه، إلا ما قاله الطبري مجاهداً رحمه الله. وفي ذلك نظر على الطبري رحمه الله.

﴿٢٤١﴾ - ﴿٢٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل: اختلف الناس في هذه الآية.

فقال أبو ثور: هي محكمة، والمتعة لكل مطلقة، دخل بها أو لم يدخل، فرض لها أو لم يفرض بهذه الآية.

وقال الزهري: لكل مطلقة متعة، وللأمة يطلقها زوجها.

وقال سعيد بن جبير: لكل مطلقة متعة.

وقال ابن القاسم في إرخاء الستور من «المدونة»: جعل الله تعالى المتاع لكل مطلقة بهذه الآية، ثم استثنى في الآية الأخرى التي قد فرض لها، ولم يدخل بها، فأخرجها من المتعة، وزعم زيد بن أسلم أنها نسختها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ثوباً إلا عاد كفناً ريماً حتى ماتوا
لأجالهم التي كتبت لهم.

وروى ابن جريج عن ابن عباس
أنهم كانوا من بني إسرائيل، وأنهم
كانوا أربعين ألفاً وثمانية آلاف،
وأنهم أميتوا ثم أحيوا، وبقيت
الرائحة على ذلك السبط من بني
إسرائيل إلى اليوم، فأمرهم الله
بالجهاد ثانية فذلك قوله: ﴿وَقَتَّلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه القصص كله لبن الأسانيد،
وإنما اللازم من الآية أن الله تعالى
أخبر نبيه محمداً ﷺ أخباراً في عبارة
التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر
خرجوا من ديارهم فراراً من الموت
فأماهم الله تعالى ثم أحياهم ليروا
هم، وكل من خلف بعدهم أن
الإمامة إنما هي بيد الله لا بيد غيره،
فلا معنى لخوف خائف، ولا لاغترار
مغتر. وجعل الله تعالى هذه الآية
مقدمة بين يدي أمره المؤمنين من أمة
محمد بالجهاد. هذا قول الطبري،
وهو ظاهر رصف الآية. ولموردي
القصص في هذه القصة زيادات
اختصرتها لضعفها.

واختلف الناس في لفظ ﴿أُولَئِكَ﴾
فقال الجمهور: هي جمع ألف، قال
بعضهم: كانوا ثمانين ألفاً. وقال ابن
عباس: كانوا أربعين ألفاً، وقيل:
كانوا ثلاثين ألفاً. وهذا كله يجري
مع ﴿أُولَئِكَ﴾، إذ هو جمع الكثير،
وقال ابن عباس أيضاً: كانوا ثمانية
آلاف، وقال أيضاً: أربعة آلاف،
وهذا يضعفه لفظ ﴿أُولَئِكَ﴾ لأنه جمع
الكثير. وقال ابن زيد في لفظة

﴿وَلَمَّا كُنْتُمْ﴾ ترج في حق البشر،
ومن رأي هذا المبين له رجا أن يعقل
ما بين له.

﴿١٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه رؤية القلب بمعنى: ألم تعلم،
والكلام عند سيبويه بمعنى تنبه إلى
أمر الذين، ولا تحتاج هذه الرؤية
إلى مفعولين.

وقصة هؤلاء فيما قال الضحاك:
هي أنهم قوم من بني إسرائيل أمروا
بالجهاد فخافوا الموت بالقتل في
الجهاد، فخرجوا من ديارهم فراراً
من ذلك، فأماهم الله ليعرفهم أنه لا
يُنَجِّيهم من الموت شيء، ثم أحياهم
وأمرهم بالجهاد بقوله: ﴿وَقَتَّلُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية.

وحكى قوم من اليهود لعمر بن
الخطاب رضي الله عنه أن جماعة
من بني إسرائيل وقع فيهم الوباء
فخرجوا فراراً منه، فأماهم الله فبنى
عليهم سائر بني إسرائيل حائطاً،
حتى إذا بليت عظامهم بعث الله
حزقيل النبي عليه السلام فدعا الله
فأحياهم له.

وقال السدي: هم أمة كانت قبل
واسط، في قرية يقال لها: (ذاوردان)
وقع بها الطاعون فهربوا منه، وهم
بضعة وثلاثون ألفاً في حديث
طويل. ففيهم نزلت الآية. وقال:
إنهم فروا من الطاعون: الحسن
وعمر بن دينار. وحكى النقاش
أنهم فروا من الحمى. وحكى فيهم
مجاهد أنهم لما أحيوا رجعوا إلى
قومهم يعرفون لكن سحنة الموت
على وجههم، ولا يلبس أحد منهم

فقر ابن القاسم من لفظ النسخ إلى
لفظ الاستثناء، والاستثناء لا يتجه في
هذا الموضع، بل هو نسخ محض،
كما قال زيد بن أسلم، وإذا التزم
ابن القاسم أن قوله: ﴿وَلَمَّا كُنْتُمْ﴾
عَمَّ كُلَّ مطلقة، لزمه القول بالنسخ
ولا بد.

وقال عطاء بن أبي رباح وغيره:
هذه الآية في الشَّيْب اللواتي قد
جومعن، إذ قد تقدم في غير هذه
الآية ذكر المتعة للواتي لم يدخل
بهن، فهذا قول بأن التي قد فرض
لها قبل المسيس لم تدخل قط في
هذا العموم، فهذا يجيء على أن
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوهُنَّ مِن بَإِلِّ
أَن تَسُوهُنَّ﴾ مخصصة لهذا الصنف
من النساء، ومتى قيل: إن العموم
تناولها، فذلك نسخ لا تخصيص.

وقال ابن زيد: هذه الآية نزلت
مؤكدة لأمر المتعة، لأنه نزل قبل
﴿حَقَّ عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ فقال رجل: فإن
لم أرد أن أحسن، لم أمتع؟ فنزلت:
﴿حَقَّ عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ فوجب ذلك
عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
هذا الإيجاب من تقويل الطبري لا
من لفظ ابن زيد.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ﴾ نصب على
المصدر، و﴿الْمُتَّقِينَ﴾ هنا ظاهره أن
المراد من تلبس بتقوى الله تعالى،
والكساف في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾
للتشبيه، و﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى هذا
الشرح، والتنويع الذي وقع في
النساء وإلى إلزام المتعة لهن، أي
كبيانه هذه القصة يبين سائر آياته،

﴿الْوَفْ﴾: إنما معناها: وهم مؤتلفون أي لم تخرجهم فرقة قومهم ولا فتنة بينهم، إنما كانوا مؤتلفين فخالفت هذه الفرقة فخرجت فإرأاً من الموت وابستغاء الحياة، فأما تهم الله في مناجهم بزعمهم.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ الآية إنما هي مبالغة في العبارة عن فعله بهم، كأن ذلك الذي نزل بهم فعل من قيل له: مُتْ - فمات.

وحكي أن ملكين صاحبا بهم: موتوا - فماتوا، فالمعنى قال لهم الله بواسطة الملكين. وهذا الموت ظاهر الآية، وما روي في قصصها أنه موت حقيقي فارقت فيه الأرواح الأجساد، وإذا كان ذلك فليس بموت آجالهم، بل جعله الله في هؤلاء كمرض وحادث مما يحدث على البشر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ اللَّهُ لَدُوْ قَضَلِ عَلَى النَّاسِ﴾ الآية - تنبيه على فضل الله على هؤلاء القوم الذين تفضل عليهم بالنعيم، وأمرهم بالجهاد، وأمرهم ألا يجعلوا الحول والقوة إلا له حسبما أمر جميع العالم بذلك، فلم يشكروا نعمته في جميع هذا، بل استبدوا وظنوا أن حولهم وسعيهم ينجيهم، وهذه الآية تحذير لسائر الناس من مثل هذا الفعل، أي: فيجب أن يشكر الناس فضل الله في إيجاده لهم ورزقه إياهم، وهدايته بالأوامر والنواهي، فيكون منهم الجري إلى امتثالها لا طلب الخروج عنها. وتخصيصه تعالى الأكثر، دلالة على الأقل الشاكر.

﴿٢٤٥﴾ - ﴿٢٤٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

الواو في هذه الآية عاطفة جملة كلام على جملة ما تقدم. هذا قول الجمهور، إن هذه الآية هي مخاطبة لأمة محمد ﷺ بالقتال في سبيل الله، وهو الذي ينوي به أن تكون كلمة الله هي العليا حسب الحديث، وقال ابن عباس، والضحاك: الأمر بالقتال هو للذين أحيوا من بني إسرائيل، فالواو على هذا عاطفة على الأمر المتقدم، المعنى: وقال لهم: قاتلوا - قال الطبري رحمه الله: ولا وجه لقول من قال: إن الأمر بالقتال هو للذين أحيوا. و﴿عَلَيْمٌ﴾ معناه للأقوال، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات.

ثم قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ الآية فدخل في ذلك المقاتل في سبيل الله، فإنه يقرض رجاء الثواب كما فعل عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة.

ويروى أن هذه الآية لما نزلت قال أبو الدحداح: «يا رسول الله. أو أن الله يريد منا القرض؟»، قال: «نعم يا أبا الدحداح». قال: «فإني قد أقرضت حائطي» لحائط فيه ستمائة نخلة، ثم جاء الحائط وفيه أم الدحداح فقال: «أخرجني فإني قد أقرضت ربي حائطي هذا»، قال: فكان رسول الله ﷺ يقول: ﴿كَمْ مِنْ عِذْقٍ مُذَلَّلٍ لِأَبِي الدَّحْدَحِ فِي الْجَنَّةِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقال فيه أبو الدحداحة، واستدعاء القرض في هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو

الغني الحميد لكنه تعالى شبه إعطاء المؤمن في الدنيا ما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء، وقد ذهبت اليهود في مدة النبي ﷺ إلى التخليط على المؤمنين بظاهر الاستقراض، وقالوا: إلهكم محتاج يستقرض، وهذا بين الفساد.

وقوله: ﴿حُشْنَا﴾، معناه: تطيب فيه النية، ويشبه أيضاً أن تكون إشارة إلى كثرة وجودته.

واختلف القراءة في: تشديد العين وتخفيفها - ورفع الفاء ونصبها - وإسقاط الألف وإثباتها من قوله تعالى: ﴿فَيُضْعِفُهُ﴾، فقرأ ابن كثير: ﴿فَيُضْعِفُهُ﴾ برفع الفاء من غير ألف وتشديد العين في جميع القرآن. وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه نصب الفاء في جميع القرآن، ووافقه عاصم على نصب الفاء إلا أنه أثبت الألف: ﴿فَيُضْعِفُهُ﴾ في جميع القرآن، وكان أبو عمرو لا يسقط الألف من ذلك كله إلا قوله تعالى: ﴿يُضْعَفُ لَهَا﴾ ﴿الْمَذَابُ﴾ من سورة الأحزاب، فإنه بغير ألف كان يقرؤه. وقرأ حمزة والكسائي ونافع ذلك كله بالألف ورفع الفاء.

فالرفع في الفاء يتخرج على وجهين: أحدهما العطف على الصلة، وهو ﴿يُقْرِضُ﴾، والآخر يستأنف الفعل ويقطعه. قال أبو علي: والرفع في هذا الفعل أحسن، لأن النصب إنما هو بالفاء في جواب الاستفهام، وذلك إنما يترتب إذا كان الاستفهام عن نفس الفعل الأول ثم

يجيء الثاني مخالفاً له. تقول: أنقرضني فأشكرك؟ وها هنا: إنما الاستفهام عن الذي يقرض لا عن الإقراض، ولكن تحمل قراءة ابن عامر وعاصم في النصب على المعنى، لأنه لم يستفهم عن فاعل الإقراض إلا من أجل الإقراض، فكان الكلام: أيقرض أحد الله فيضاعفه له.

ونظير هذا - في الحمل على المعنى - قراءة من قرأ: ﴿مَنْ يَضِلْ اللَّهُ فُلاْ هَادِي لَهُ، وَيَذْزِهِمْ﴾ بجزم ﴿يَلْزِمُهُمْ﴾ لما كان معنى قوله: ﴿كَذَلِكَ هَادِي لَكُمُ﴾ فلا يَهْدُهُ. وهذه الأضعاف الكثيرة هي إلى السبع المائة التي رويت ويعطىها مثال السنبلة.

وقرأ ابن كثير: ﴿يَبْسُطُ﴾ بالسين، ونافع بالصاد، في المشهور عنه. وقال الحلواني، عن قالون، عن نافع: إنه لا يبالى كيف قرأ: (بسطة ويسط) بالسين أو الصاد.

وروى أبو قرة، عن نافع: ﴿يَبْسُطُ﴾ بالسين. وروي أن النبي ﷺ طلب منه أن يسمر بسبب غلاء خيف على المدينة فقال: «إن الله هو الباسط القابض، وإنني لأرجو أن ألقى الله ولا يتبعني أحد بمظلمة في نفس ولا مال».

﴿تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية خبر عن قوم من بني إسرائيل، نالهم ذلة وغلبة عدو، فطلبوا الإذن في الجهاد وأن يؤمروا به، فلما أمروا كع أكثرهم وصبر الأقل فنصرهم الله. وفي هذا كله مثال للمؤمنين ليحذر المكروه ويقتدى بالحسن.

﴿وَاللَّكَّ﴾ في هذه الآية جميع القوم، لأن المعنى يقتضيه، وهذا هو أصل اللفظة، ويسمى الأشراف الملاً تشبيهاً.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ معناه: من بعد موته وانقضاء مدته. واختلف المتأولون في النبي الذي قيل له: ابعث - فقال ابن إسحاق وغيره، عن وهب بن منبه: وهو شمويل بن بالي. وقال السدي: هو شمعون. وقال قتادة: هو يوشع بن نون.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: وهذا قول ضعيف، لأن مدة داود هي بعد مدة موسى يقرون من الناس، ويوشع هو فتى موسى، وكانت بنو إسرائيل تغلب من حاربها. وروي أنها كانت تضع التابوت الذي فيه السكينة والبقية في مأزق الحرب فلا تزال تغلب حتى عصوا، وظهرت فيهم الأحداث وخالف ملوكهم الأنبياء واتبعوا الشهوات. وقد كان الله تعالى قد أقام أمورهم بأن يكون أنبياءهم يسدون ملوكهم، فلما فعلوا ما ذكرنا سلط الله عليهم أمماً من الكفرة فغلبوهم، وأخذ لهم التابوت في بعض الحروب، فذل أمرهم. وقال السدي: كان الغالب لهم جالوت وهو من العمالقة، فلما رأوا أنه الاصطلام وذهاب الذكر أنف بعضهم، وتكلموا في أمرهم حتى

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوَّلُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَهُمْ آيَاتٌ أَنَا مَلِكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَكَانَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ لَآتِيًا لَأَنقُتِلَنَّهُمْ قَالُوا وَمَا نَا إِلَّا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاءَنَا قَلَمًا كُتِبَ عَلَيْهِمْ لَقَاتِلُوا قَالُوا قَاتِلُوا لَا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُصْطَفِيَنَّ عَلَيْهِكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي أَوَّلِهِ وَالْجِسْرِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْكُتُوبُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

اجتمع ملؤهم على أن قالوا لنبي الوقت: ﴿آيَاتٌ لَنَا مَلِكًا﴾، الآية، وإنما طلبوا ملكاً يقوم بأمر القتال، وكانت المملكة في سبط من أسباط بني إسرائيل يقال لهم بنو يهوذا، فعلم النبي بالوحي أنه ليس في بيت المملكة من يقوم بأمر الحرب، ويسر الله لذلك طالوت.

وقرأ جمهور الناس: ﴿نُقَاتِلُ﴾ بالنون وجزم اللام على جواب الأمر. وقرأ الضحاك وابن أبي عبة: ﴿يُقَاتِلُ﴾ بالياء ورفع الفعل فهو في موضع الصفة للملك.

وأراد النبي المذكور عليه السلام أن يتوثق منهم فوقفهم على جهة التقرير وسبر ما عندهم بقوله: ﴿قُلْ عَسَيْتُمْ﴾ وقرأ نافع: ﴿هَسَيْتُمْ﴾ بكسر السين في الموضعين، وفتح الباقون السين. قال أبو علي: الأكثر

عَلَيْهِمُ بِالْأَلْبَانِ». وقرأ أبي بن كعب: ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾.

تفسير قوله عز وجل:

قال وهب بن منبه: إنه لما قال الملأ من بني إسرائيل لشمويل بن بالي ما قالوا، سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكاً ويدله عليه، فقال الله تعالى له: انظر إلى القرن الذي فيه الدهن في بيتك، فإذا دخل عليك رجل فشئ الدهن الذي في القرن فهو ملك بني إسرائيل، فاذهبن رأسه منه، وملكنه عليهن. قال: وكان طالوت رجلاً دباحاً، وكان من سبط بنيامين بن يعقوب، وكان سبطه لا نبوة فيه ولا ملك، فخرج طالوت في بُغَاءٍ دابة له أضلها فقصد شمويل عسى أن يدعو له في أمر الدابة أو يجد عنده فرجاً فشئ الدهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو دهن القدس فيما يزعمون. قال: فقام إليه شمويل فأخذه ودهن منه رأس طالوت، وقال له: أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله بتقديمه، ثم قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، وطالوت: اسم أعجمي معرب، ولذلك لم ينصرف.

وقال السدي: إن الله أرسل إلى شمعون عصاً، وقال له: من دخل عليك من بني إسرائيل فكان على طول هذه العصا فهو ملكهم، فقيس بها بنو إسرائيل فكانت تطولهم حتى مر بهم طالوت في بُغَاءٍ حمارة الذي كان يسقي عليه، وكان رجلاً سقاءً، فدعوه فقاوسوه بالعصا، فكان مثلها، فقال لهم نبيهم ما قال.

فتح السنين وهو المشهور. ووجه الكسر قول العرب: هو عسي بذلك، مثل خبر وشج، وقد جاء فعل وفعل في نحو: نَقَمَ وَتَقَمَ، فكذلك عسيت وعسيت، فإن أسند الفعل إلى ظاهر فقياس عسيتم أن يقال: عسي زيد مثل رضي. فإن قيل - فهو القياس، وإن لم يُقَلْ فسائغ أن يؤخذ باللغتين، فيستعمل إحداهما في موضع الأخرى كما فعل ذلك في غيره. ومعنى هذه المقالة: هل أنتم قريب من التولي والفرار إن كتب عليكم القتال؟

تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وأي شيء يجعلنا ألا نقاتل وقد وترنا وأخرجنا من ديارنا؟ وقالوا هذه المقالة وإن كان القاتل لم يخرج - من حيث قد أخرج من هو مثله، وفي حكمه - ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم لما فرض عليهم القتال ورأوا الحقيقة ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب تولوا، أي اضطربت نياتهم، وفترت عزائمهم، وهذا شأن الأمم المتنعة المائلة إلى الدعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة، فإذا حضرت الحرب كُتت وانقادت لطبيعتها.

وعن هذا المعنى نهى النبي ﷺ بقوله: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاقبوا».

ثم أخبر الله تعالى عن قليل منهم أنهم ثبتوا على النية الأولى، واستمرت عزيمتهم على القتال في سبيل الله، ثم تواعد الظالمين في لفظ الخبر الذي هو قوله: ﴿وَاللَّهُ

ثُمَّ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَعْتَنُوا وَحَادُوا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَجَرَّوْا عَلَى سَنَنِهِمْ، فَقَالُوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ؟﴾ أَي لَأَنَّهُ لَيْسَ فِي بَيْتِ مَلِكٍ، وَلَا سَبَقَتْ لَهُ فِيهِ سَابِقَةٌ، وَلَمْ يُؤْتَ مَالاً وَاسِعاً يَجْمَعُ بِهِ نَفُوسَ الرِّجَالِ حَتَّى يَغْلِبَ أَهْلَ الْأَنْفَةِ بِمَالِهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وترك القوم السبب الأقوى وهو قدر الله وقضاؤه السابق، وأنه مالك الملك، فاحتج عليهم بنبيهم عليه السلام بالحجة القاطعة، وبين لهم مع ذلك تعليل اصطفاؤه طالوت، وأنه بسطة في العلم، وهو ملك الإنسان. والجسم الذي هو معينه في الحرب وعدته عند اللقاء.

قال ابن عباس: كان في بني إسرائيل سبطان - أحدهما للنبوة، والآخر للملك، فلا يبعث نبي إلا من الواحد، ولا ملك إلا من الآخر، فلما بعث طالوت من غير ذلك قالوا مقاتلهم.

قال مجاهد: معنى المُلْك في هذه الآية الإمرة على الجيش ولكنهم قلقوا لأن من عادة من تولى الحرب وغلب أن يستمر ملكاً.

واصطفى: افتعل مأخوذ من الصفوة وقرأ نافع: ﴿بِصُفَّةٍ﴾ بالصاد. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿بِسُفَّةٍ﴾ بالسين. والجمهور على أن العلم في هذه الآية يراد به العموم في المعارف. وقال بعض المتأولين: المراد علم الحرب. وأما جسمه فقال وهب بن منبه: إن أطول رجل

في بني إسرائيل كان يبلغ منكب طالوت.

٢٤٧ - تفسير قوله عز وجل:

لما علم نبيهم عليه السلام تعتهم وجذالهم في الحجج تَمَّمْ كلامه بالقطعي الذي لا اعتراض عليه وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ مَلَائِكَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وظاهر اللفظ أنه من قول النبي لهم، وقد ذهب بعض المتأولين إلى أنه من قول الله تعالى لمحمد ﷺ، والأول أظهر - وأضيف ملك الدنيا إلى الله تعالى إضافة مملوك إلى مالك، و﴿رَبِّعٌ﴾ معناه: وسعت قدرته وعلمه كل شيء.

وأما قول النبي لهم: ﴿إِنَّ آيَةَ مَلَكِي﴾ فإن الطبري ذهب إلى أن بني إسرائيل تعتنوا، وقالوا لنبيهم: وما آية مُلك طالوت؟ وذلك على جهة سؤال الدلالة على صدقه في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَمَكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن نبيهم قال لهم ذلك على جهة التغيبط والتنبية على هذه النعمة التي قرنها الله بملك طالوت، وجعلها آية له دون أن تعن بنو إسرائيل لتكذيب نبيهم، وهذا عندي أظهر من لفظ الآية - وتأويل الطبري أشبه بأخلاق بني إسرائيل الذميمة، فإنهم أهل تكذيب وتعنت واعوجاج، وقد حكى الطبري معناه عن ابن عباس، وابن زيد، والسدي.

واختلف المفسرون في كيفية إتيان التابوت، وكيف كان بدء أمره.

فقال وهب بن منبه: كان التابوت

عند بني إسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتى عصوا فغلبوا على التابوت، وصار التابوت عند القوم الذين غلبوا فوضعوه في كنيسة لهم فيها أصنام، فكانت الأصنام تصبح منكسة، فجعلوه في قرية قوم فأصاب أولئك القوم أوجاع في أعناقهم.

وقيل: جعل في مخرة قوم، فكان يصيبهم الناسور، فلما عظم بلاؤهم كيف كان قالوا: ما هذا إلا لهذا التابوت فلنرده إلى بلاد بني إسرائيل، فأخذوا عجلة فجعلوا التابوت عليها، وربطوها ببقرتين فأرسلوهما في الأرض نحو بلاد بني إسرائيل، فبعث الله ملائكة تسوق البقرتين حتى دخلتا به على بني إسرائيل وهم في أمر طالوت فأيقنوا بالنصر، وهذا هو حمل الملائكة للتابوت في هذه الرواية.

وقال قتادة، والربيع: بل كان هذا التابوت مما تركه موسى عند يوشع بن نون، فجعله يوشع في البرية، ومرت عليه الدهور حتى جاء وقت طالوت، وكان أمر التابوت مشهوراً عندهم في تركه موسى، فجعل الله الإتيان به آية لملك طالوت، وبعث الله ملائكة حملته إلى بني إسرائيل. فيروى أنهم رأوا التابوت في الهواء يأتي حتى نزل بينهم، وروى أن الملائكة جاءت به تحمله حتى جعلته في دار طالوت، فاستوسقت بنو إسرائيل عند ذلك على طالوت.

وقال وهب بن منبه: كان قدر التابوت نحواً من ثلاثة أذرع في

ذراعين. وقرأ زيد بن ثابت: ﴿التَّابُوتُ﴾ وهي لغته، والناس على قراءته بالتاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكثر الرواة في قصص التابوت وصورة حمله بما لم أر لإثباته وجهاً للين إسناده.

٢٤٨ - تفسير قوله عز وجل:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: السكينة ربح هفافة لها وجه كوجه الإنسان، وروى عنه أنه قال: هي ربح خجوج، ولها رأسان. وقال مجاهد: السكينة: لها رأس كرأس الهرة، وجناحان وذنب. وقال: أقبلت السكينة والصرود وجبريل مع إبراهيم من الشام - وقال وهب بن منبه عن بعض علماء بني إسرائيل: السكينة: رأس هرة ميتة كانت إذا صرخت في التابوت بصراخ الهر أيقنوا بالنصر. وقال ابن عباس: السكينة: طست من ذهب من الجنة، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء، وقاله السدي. وقال وهب بن منبه: السكينة روح من الله يتكلم إذا اختلفوا في شيء أخبرهم ببيان ما يريدون.

وقال عطاء بن أبي رباح: السكينة: ما يعرفون من الآيات فيسكنون إليها. وقال الربيع بن أنس: ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: رحمة من ربكم. وقال قتادة: ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: وقار لكم من ربكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم،

معنى ما ذكر عليه، وهو: «فَاتَّفَقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى طَالُوتَ مَلِكًا وَأَذَعْنُوهُ وَتَهِيشُوا لَغْزِهِمْ عَدُوَّهُمْ» ﴿٢٤٩﴾ - ﴿فَصَلَّ﴾ معناه: خرج بهم من القطر وفصل حال السفر من حال الإقامة. قال السدي وغيره: كانوا ثمانين ألفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا محالة أنهم كان فيهم المؤمن والمنافق والمجد والكسلان. وقال وهب بن منبه: لم يتخلف عنه إلا ذو عذر من صغر أو كبر أو مرض. واختلف المفسرون في النهر - فقال وهب بن منبه: لما فصل طالوت قالوا له: إن المياه لا تحملنا فادع الله يُخْرِجَ لنا نهرًا، فقال لهم طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ الآية. وقال قتادة: النهر الذي ابتلاه الله به هو نهر بين الأردن وفلسطين، وقاله ابن عباس - وقال أيضاً هو والسدي: النهر نهر فلسطين - وقرأ جمهور القراء: ﴿يَنْكِرُ﴾ بفتح الهاء. وقرأ مجاهد، وحמיד الأعرج، وأبو السمال، وغيرهم: ﴿يَنْهَرُ﴾ بإسكان الهاء في جميع القرآن.

ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء علم أنه يطيع فيما عدا ذلك، ومن غلب شهوته في الماء وعصا الأمر فهو بالعصيان في الشدائد أخرى. وروي أنهم أتوا النهر وهم قد نالهم عطش وهو في غاية العذوبة والحسن، ولذلك رخص للمطيعين في العُرْفَةِ ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع، وليكسروا نزاع النفس في

عصا موسى، وعصا هارون، ولوحان من التوراة، والمن - وقال عطية بن سعد: هي عصا موسى، وعصا هارون وثيابهما ورضاض الألواح.

وقال الثوري: من الناس من يقول: البقية قفيز من، ورضاض الألواح، ومنهم من يقول: العصا والنعلان. وقال الضحاك: البقية: الجهاد وقتال الأعداء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أي الأمر بذلك في التابوت، إما أنه مكتوب فيه، وإما أن نفس الإتيان به هو كالأمر بذلك، وأسند الترك إلى آل موسى وهارون من حيث كان الأمر مندرجاً من قوم إلى قوم، وكلهم آل لموسى وهارون. وآل الرجل قرابته وأتباعه. وقال ابن عباس، والسدي، وابن زيد: حمل الملائكة هو سوقها التابوت دون شيء يحمله سواها حتى وضعت بين يدي بني إسرائيل وهم ينظرون إليه بين السماء والأرض - وقال وهب بن منبه، والثوري - عن بعض أشياخهم -: حنلها إياه هو سوقها الثورين أو البقرتين اللتين جرتا العجلة، ثُمَّ قرر تعالى أَنَّ مجيء التابوت آية لهم إِنْ كانوا يُمَنُّ يُؤْمِنُون ويُبَصِّرُ بعين حقيقة.

﴿٢٥٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قبل هذه الآية متروك من اللفظ يدل

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ فَقَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَجُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَـمَ مِنْ فِتْنَةٍ فَنِيلَ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَبَازِينِ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٥١﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَاحِبَهَا وَثَمَّتْ أَقْدَامُكَ وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٢﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَكَانَ اللَّهُ أَلْمَلِكُ وَالْحَكِيمُ وَعَلَّمَهُ مَكَايِدَهُ وَلَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥٣﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٤﴾

٤١

فكانت النفوس تسكن إلى ذلك، وتأنس به وتقوى، فالمعهود أن الله ينصر الحق والأمور الفاضلة عنده، والسكينة على هذا: فعبيلة مأخوذة من السكون، كما يقال: عزم عزيمة، وقطع قطعية.

واختلف المفسرون في البقية - ما هي؟ فقال ابن عباس: هي عصا موسى ورضاض الألواح. وقال الربيع: هي عصا موسى وأمور من التوراة. وقال عكرمة: هي التوراة والعصا ورضاض الألواح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا ما روي من أن موسى لما جاء قومه بالألواح فوجدتهم قد عبدوا العجل ألقى الألواح غضباً فتكسرت، فنزع منها ما بقي صحيحاً، وأخذ رضاض ما تكسر فجعل في التابوت. وقال أبو صالح: البقية

هذه الحال إلى الاعتراف بالأيدي لنظافته وسهولته، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الأكف أنظف الآنية».

ومنه قول الحسن رحمه الله:

لَا يَذْلِفُونَ إِلَى مَاءٍ بِأَيْتِيَةٍ
إِلَّا اغْتِرَافًا مِنَ الْخُذْرَانِ بِالرَّاحِ
وظاهر قول طالوت: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ هو أن ذلك بوحى إلى النبي، وإخبار من النبي لطلالوت. ويحتمل أن يكون هذا مما ألهم الله طالوت إليه فجرب به جنده، وجعل الإلهام ابتلاء من الله لهم، وهذه النزعة واجب أن تقع من كل متولي حرب، فليس يحارب إلا بالجدد المطيع - ومنه قول معاوية: «علي في أخبث جند وأعصاه، وأنا في أصح جند وأطوعه»، ومنه قول علي رضي الله عنه: «أفسدتم علي رأبي بالعصيان».

ويبين أن العُفرة كائفة ضرر العطش عند الحزمة الصابرين على شظف العيش الذين همّهم في غير الرفاهية، كما قال عروة:

.....

وَأَحْسَوْقَرَاخَ الْمَاءِ وَالْمَاءَ بَارِدُ
فيشبه أن طالوت أراد تجربة القوم. وقد ذهب قوم إلى أن عبدالله بن حذافة السهمي إنما أمر أصحابه بإيقاد النار والدخول فيها تجربة لطاعتهم لكنه حملة مزاحه على تخشين الأمر الذي كلفهم.

وقوله: ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي ليس من أصحابي في هذه الحرب، ولم يخرجهم بذلك عن الإيمان. ومثل هذا قول النبي ﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ

منا، ومن رمانا بالنبل فليس منا، وليس منا من شق الجيوب ولطم الخُدود» - وفي قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْمَئِنَّهُ﴾ سُدُّ الذرائع، لأن أدنى الذوق يدخل في لفظ الطعم، فإذا وقع النهي عن الطعم فلا سبيل إلى وقوع الشرب ممن يتجنب الطعم، ولهذه المبالغة لم يأت الكلام: ﴿وَمَنْ لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ﴾.

وقرأ أبو عمرو، ونافع، وابن كثير: ﴿غُرْفَةً﴾ بفتح الغين، وهذا على تعدية الفعل إلى المصدر، والمفعول محذوف، والمعنى: إلا من اغترف ماء غُرْفَةً. وقرأ الباقر: ﴿غُرْفَةً﴾ بضم الغين، وهذا على تعدية الفعل إلى المفعول به، لأن الغرفة هي الغين المُفترقة، فهذا بمنزلة: إلا من اغترف ماء، وكان أبو علي يرجح ضم الغين، ورَّجَّحه الطبري أيضاً من جهة أن ﴿غُرْفَةً﴾ بالفتح إنما هو مصدر على غير اغتراف.

ثم أخبر تعالى عنهم أن الأكثر شرب وخالف ما أريد منه - وروى عن ابن عباس، وقتادة، وغيرهما أن القوم شربوا على قدر يقينهم - فشرب الكفار شرب الهيم، وشرب العاصون دون ذلك، وانصرف من القوم ستة وسبعون ألفاً، وبقي بعض المؤمنين لم يشرب شيئاً، وأخذ بعضهم العُفرة. فأما من شرب فلم يَزُو بل بَرَّح به العطش، وأما من ترك الماء فحسنت حاله، وكان أجلد ممن أخذ العُفرة.

﴿٢٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

جاوز: فاعل من جاز يجوز، وهي

مُفاعلة من اثنين في كل موضع لأن النهر وما أشبهه كأنه يجاوز.

واختلف الناس في الذين معه كم كانوا - فقال البراء بن عازب: كنا نتحدث أن عدة أهل بدر كعدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر - ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وفي رواية: وثلاثة عشر رجلاً، وما جاز معه إلا مؤمن.

وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: أنتم كعدة أصحاب طالوت: وقال السدي، وابن عباس: «بل جاز معه أربعة آلاف رجل». قال ابن عباس: «فيهم من شرب» قال: فلما نظروا إلى جالوت وجنوده: ﴿فَكَأَلُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ﴾، ورجع منهم ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون، هذا نص قول السدي، ومعنى قول ابن عباس، فعلى القول الأول قالت الجهلة: لا طاقة لنا اليوم على جهة امتكثار العدو، فقال أهل الصلابة منهم والتصميم والاستماتة: ﴿كَمْ يَنْ يَنْكَرُ قَلِيلَكَ﴾ الآية. وظن لقاء الله - على هذا القول - يخشأن أن يكون ظناً على بابيه، أي: يظنون أنهم يستشهدون في ذلك اليوم لعزمهم على صدق القتال، كما جرى لعبدالله بن حرام في أحد، ولغيره.

وعلى القول الثاني، قال كثير من الأربعة آلاف: لا طاقة لنا على جهة الفشل والفرع من الموت، وانصرفوا عن طالوت، فقال المؤمنون الموقنون بالبعث والرجوع إلى الله وهم عدة أهل بدر ﴿كَمْ يَنْ

فَنَكَّرَ، والظنُّ - على هذا - بمعنى اليقين، وهو فيما لم يقع بعد ولا خرج إلى الحس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما روي عن ابن عباس من أن في الأربعة الآلاف مَنْ شرب يرد عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾.

وأكثر المفسرين على أنه إنما جاوز النهر مَنْ لم يشرب إلا عُرفه، ومن لم يشرب جملة، ثم كانت بصائر هؤلاء مختلفة، فبعض كع، وقليل صم.

وقرأ أبي بن كعب: ﴿كَأَيُّنْ مِنْ فِتْنَةٍ﴾، والفتنة: الجماعة التي يرجع إليها في الشدائد. من قولهم: فاء يفيء إذا رجع، وقد يكون الرجل الواحد فتنة تشبيهاً والمليك فتنة الناس، والجبل فتنة، والحصن - كل ذلك تشبيه.

وفي قولهم رضي الله عنهم: ﴿كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ﴾ الآية، تحريض بالمثال، وحض واستشعار للصبر واقتداء بمن صدق ربه - وإذن الله هنا: تمكيته، وعلمه - مجموع ذلك هو الإذن ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بنصره وتأنيده.

٢٥٠ - تفسير قوله عز وجل:

﴿بَرَّوْا﴾ معناه: صاروا في البراز وهو الأفصح من الأرض، المتسع، وجالوت: اسم أعجمي معرب - والإفراغ أعظم الصُّبِّ، كأنه يتضمن عموم المُفْرِغ عليه - والهزم أصله أن يُضْرَب الشيء يدخل بعضه في بعض، وكذلك الجيش الذي يُرَدُّ يركب رده، ثم قيل في معنى

الغلبة: هزم - وكان جالوت أمير العمالقة وَمَلِكُهُمْ، وكان فيما روي في ثلاثمائة ألف فارس.

وروي في قصة داود وقته جالوت أن أصحاب طالوت كان فيهم إخوة داود وهم بنو إيشي، وكان داود صغيراً يرعى غنماً لأبيه، فلما حضرت الحرب قال في نفسه: لأذهب لرؤية هذه الحرب، فلما نهض مر في طريقه بحجر فناداه: يا داود خذني بي تقتل جالوت، ثم ناداه حجر آخر، ثم آخر، ثم آخر، فأخذها، وجعلها في مخلاته.

وسار، فلما حضر الناس خرج جالوت يطلب مبارزاً، فكع الناس عنه حتى قال طالوت: من يبرز له ويقتله فأنا أزوجه بنتي وأحكمه في مالي، فجاء داود فقال: أنا أبرز له وأقتله، فقال له طالوت: فاركب فرسي، وخذ سلاحي، ففعل وخرج في أحسن شكة، فلما مشى قليلاً رجع، فقال الناس: جبن الفتى، فقال داود: إن كان الله لم يقتله لي ويُعني عليه لم ينفعني هذا الفرس، ولا هذا السلاح، ولكني أحب أن أقاتله على عادتي. قال: وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع، فنزل وأخذ مخلاته فتقلدها، وأخذ مقلاعه وخرج إلى جالوت وهو شاك في سلاحه، فقال له جالوت: أنت يا فتى تخرج إلي؟ قال: نعم. قال: هكذا كما يخرج إلي الكلب؟ قال: نعم، وأنت أهون، قال: لأطعمن اليوم لحماً الطير والسباع، ثم تدانبا فأدار داود مقلاعه، وأدخل يده إلى الحجارة فروي أنها التأمت فصارت

حجراً واحداً، فأخذه فوضعه في المقلاع، وسمى الله وأداره ورماه، فأصاب به رأس جالوت فقتله، وحز رأسه وجعله في مخلاته واختلط الناس، وحمل أصحاب طالوت، وكانت الهزيمة - ثم إن داود جاء يطلب شرطه من طالوت فقال له: إن بنات الملوك لهن غرائب من المهر ولا بد لك من قتل مائتين من هؤلاء الجراجمة الذين يؤذون الناس، وتجيئني بغلفهم، وطمع طالوت أن يعرض داود للقتل بهذه الفزة، فقتل داود منهم مائتين، وجاء بذلك وطلب امرأته فدفعها إليه طالوت، وعظم أمر داود، فيروي أن طالوت تخلى له عن الملك وصار هو الملك، ويروي أن بني إسرائيل غلبت طالوت على ذلك بسبب أن داود قتل جالوت، وكان سبب الفتح - وروي أن طالوت أخاف داود حتى هرب منه فكان في جبل إلى أن مات طالوت، فذهبت بنو إسرائيل إلى داود فملكته أمرها - وروي أن نبي الله شمويل أوحى الله إليه أن يذهب إلى إيشي ويسأله أن يعرض عليه بني، فيدهن الذي يشار إليه بدهن القدس، ويجعله ملك بني إسرائيل، والله أعلم - أي ذلك كان - غير أنه يقطع من ألفاظ الآية على أن داود صار ملك بني إسرائيل.

وقد روي في صدر هذه القصة أن داود كان يسير في مطبخة طالوت ثم كلمه حجر فأخذه فكان ذلك سبب قتله جالوت ومملكته وقد أكثر الناس في قصص هذه الآية، وذلك كله لئلا الأسانيد فلذلك انتقيت منه ما تنفك

به الآية، وتعلم به مناقل النازلة، واختصرت سائر ذلك.

وأما الحكمة التي آتاه الله فهي النبوة والزبور، وقال السدي: آتاه الله ملك طالوت ونبوة شمعون، والذي علمه: هي صنعة الدروع، ومنطق الطير، وغير ذلك من أنواع علمه ﷺ.

(٢٥١) - (٢٥٢) تفسير قوله عز وجل:

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لولا دفعه بالمؤمنين به في صدور الكفرة على مر الدهر لفسدت الأرض، لأن الكفر كان يطبقها ويتمادى في جميع أقطارها والله تعالى لا يخلي الزمان من قائم بحق، وداع إلى الله، ومقاتل عليه إلى أن جعل ذلك في أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة - له الحمد كثيرًا.

قال مكي: وأكثر المفسرين على أن المعنى: لولا أن الله يدفع بمن يصلي عمن لا يصلي وبمن يتقي عمن لا يتقي لأهلك الناس بذنوبهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا معنى الآية، ولا هي منه في ورد ولا صدر - والحديث الذي روى ابن عمر صحيح وما ذكر مكي من احتجاج ابن عمر عليه بالآية لا يصح عندي، لأن ابن عمر من الفصحاء.

وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ﴾، وفي الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ﴾. وقرأ نافع: ﴿وَلَوْلَا دَفَعَا اللَّهُ﴾، و﴿لَا يَدْفَعُ اللَّهُ﴾. وقرأ الباقون: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ﴾، و﴿لَا يَدْفَعُ اللَّهُ﴾، ففروا بينهما،

والدفاع يحتمل أن يكون مصدر دفع ككُتِبَ كتاباً ولقي لقاء، ويحتمل أن يكون مصدر دافع كقاتل قتالاً.

والإشارة بتلك إلى ما سلف من القصص والأنبياء، وفي هذه القصة بجملتها مثال عظيم للمؤمنين ومُعْتَبَرٌ، وقد كان أصحاب محمد مُعَذِّين لحرب الكفار، فلهم في هذه النازلة معتبر يقتضي تقوية النفوس، والثقة بالله، وغير ذلك من وجوه العبرة.

(٢٥٣) تفسير قوله عز وجل:

﴿تِلْكَ﴾ رفع بالابتداء و﴿الرُّسُلُ﴾ خبره، ويجوز أن يكون ﴿الرُّسُلُ﴾ عطف بين ﴿فَضَّلْنَا﴾ الخبر، و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى جماعة مؤنثة اللفظ.

ونص الله في هذه الآية على تفضيل بعض الأنبياء على بعض، وذلك في الجملة دون تعيين مفضل، وهكذا هي الأحاديث عن النبي عليه السلام، فإنه قال: «أنا سيد ولد آدم»، وقال: «لا تفضلوني على موسى». وقال: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس ابن متى»، وفي هذا نهى شديد عن تعيين المفضل - لأن يونس عليه السلام كان شاباً، وتفسخ تحت أعباء النبوة، فإذا كان هذا التوقيف فيه لمحمد ﷺ فغيره أخرى، فربط

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَمَا تَجُنَّاعِيسِي ابْنُ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَعُتِبُوا مِنْ أَمَانٍ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْتُمْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ تَمَارَرْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَعْجَ وَبَعْدَ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

٤٢

الباب أن التفضيل فيهم على غير تعيين المفضل - وقد قال أبو هريرة: خير ولد آدم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وهم أولوا العزم - والمكلم موسى ﷺ، وقد سئل رسول الله ﷺ عن آدم - أنبيئ مرسل هو؟ فقال: «نعم، نبي مكلم»، وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان في الجنة، فعلى هذا تبقى خاصة موسى.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ قال مجاهد، وغيره: هي إشارة إلى محمد ﷺ، لأنه بعث إلى الناس كافة، وأعطى الخمس التي لم يُعْطِها أحد قبله، وهو أعظم الناس أئمة، وختم الله به النبوات، إلى غير ذلك من الخلق العظيم الذي أعطاه الله، ومن معجزاته، وياهر آياته، ويحتمل اللفظ أن يراد به

محمد وغيره ممن عظمت آياته، ويكون الكلام تأكيداً للأول، ويحتمل أن يريد رفع إدريس المكان العلي، ومراتب الأنبياء في السماء فتكون الدرجات في المسافة، وبقي التفضيل مذكوراً في صدر الآية فقط.

وبينات عيسى عليه السلام: هي إحياء الموتى، وإبراء الأكفم والأبرص، وخلق الطير من الطين. وروح القدس: جبريل عليه السلام، وقد تقدم ما قاله العلماء فيه.

﴿٢٥٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

ظاهر اللفظ في قوله: ﴿مِنْ بَنِيهِمْ﴾، يعطي أنه أراد القوم الذين جاؤوا من بعد جميع الرسل، وليس كذلك المعنى بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبي، فَلَفَّ الكلام لفافاً، لم يفهمه السامع وهذا كما تقول: اشتريت خيلاً ثم بيعته، فجائز لك هذه العبارة، وأنت إنما اشتريت فرساً ثم بيعته، ثم آخر وبعته، ثم آخر وبعته، وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبي. فمنهم من آمن، ومنهم من كفر بغياً وحسداً على حطام الدنيا، وذلك كله بقضاء وقدر، وإرادة من الله تعالى. ولو شاء خلاف ذلك لكان ولكنه المستأثر بسر الحكمة في ذلك، الفعّال لما يريد، فاقتتلوا بأن قاتل المؤمنون الكافرين على مر الدهر، وذلك هو دفع الله الناس بعضهم ببعض.

﴿٢٥٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن جريج: هذه الآية تجمع

الزكاة والتطوع، وهذا كلام صحيح، فالزكاة واجبة، والتطوع مندوب إليه. وظاهر هذه الآية أنها مراد بها جميع وجوه البر: من سبيل خير، وصلة رحم، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين يترجح منه أن هذا الندب إنما هو في سبيل الله، ويقوي ذلك قوله في آخر الآية: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال - وندب الله تعالى بهذه الآية إلى إنفاق شيء مما أنعم به، وهذا غاية التفضل فعلاً وقولاً - وحذر تعالى من الإمساك إلى أن يجيء يوم لا يمكن فيه بيع ولا شراء ولا استدراك نفقة في ذات الله، إذ هي مبايعة على ما قد فسرناه في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ إذ البيع فدية، لأن المرأة قد يشتري نفسه ومراده بماله، وكأن معنى الآية معنى سائر الآي التي تتضمن ألا فدية يوم القيامة - وأخبر الله تعالى بعدم الخلّة يوم القيامة، والمعنى: خلّة نافعة تقتضي المساهمة كما كانت في الدنيا، وأهل التقوى بينهم في ذلك اليوم خلّة ولكنها غير محتاج إليها، وخلّة غيرهم لا تغني عن الله شيئاً - وأخبر تعالى أن الشفاعة أيضاً معدومة في ذلك اليوم. فحمل الطبري ذلك على عموم اللفظ وخصوص المعنى، وأن المراد: «ولا شفاعة للكفار»، وهذا لا يحتاج إليه، بل الشفاعة المعروفة في الدنيا وهي انتداب الشافع وتحكمه على كره المشفوع عنده

مرتفعة يوم القيامة البتة، وإنما توجد شفاعة بإذن الله تعالى، فحقيقتها رحمة من الله تعالى لكنه شرف الذي أذن له في أن يشفع، وإنما المعدوم مثل حال الدنيا من البيع والخلّة والشفاعة.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ بالنصب، في كل ذلك بلا تنوين وكذلك في سورة إبراهيم: ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ وفي الطور: ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾، وقرأ الباقر جميع ذلك بالرفع والتنوين.

و﴿الظَّالِمُونَ﴾ واضعرو الشيء في غير موضعه. وقال عطية بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل: «الظَّالِمُونَ هُمُ الْكَافِرُونَ».

﴿٢٥٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية سيدة آي القرآن، ورد ذلك في الحديث، وورد أنها تعدل ثلث القرآن، وورد أن من قرأها أول ليلة لم يقربه شيطان، وكذلك من قرأها أول نهاره. وهي متضمنة التوحيد، والصفات الغلبي و﴿أَقْدَمُ﴾ مبتدأ، و﴿لَا إِلَهَ﴾ مبتدأ ثان، وخبره محذوف تقديره: «معبود» أو «موجود»، و﴿إِلَّا هُوَ﴾ بدل من موضع: ﴿لَا إِلَهَ﴾، و﴿الْحَيُّ﴾ صفة من صفات الله تعالى ذاتية، وذكر الطبري عن قوم أنهم قالوا: الله تعالى حي لا بحياة، وهذا قول المعتزلة، وهو قول مرغوب عنه، وحكي عن قوم أنه حي بحياة هي صفة له - وحكي عن قوم أنه يقال:

حي كَمَا وصف نفسه ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه.

وَالْقِيَوْمَ ﴿٢٥٥﴾ فيعملون - من القيام أصله: قيُوم، اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت الأولى في الثانية بعد قلب الواو ياء، وقيُوم بناء مبالغة، أي: هو القائم على كل أمر بما يجب له، وبهذا المعنى فسره مجاهد، والربيع، والضحاك.

وقرأ ابن مسعود، وعلقمة، وإبراهيم النخعي، والأعمش: ﴿الْحَيِّ الْقَيَّامُ﴾ بالأكف.

ثم نفى عز وجل أن تأخذه سنة أو نوم، وفي لفظ الأخذ غلبة ما، فلذلك حسنت في هذا الموضع بالنفي - والسنة: بدء النعاس، وهو فتور يعتري الإنسان وترنيق في عينيه، وليس يفقد معه كل ذهنه، والنوم هو المستثقل الذي يزول معه الذهن.

والمراد بهذه الآية أن الله تعالى لا تدركه أفة، ولا يلحقه خلل بحال من الأحوال، فجعلت هذه مثلاً لذلك، وأقيم هذا المذكور من الآفات مقام الجميع، وهذا هو مفهوم الخطاب كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِّمَنَّا أَيُّ﴾ ومما يفرق بين الوسن والنوم قول عدي بن الرقاع:

وَسَنَانٌ أَقْصَدَهُ الثُّعَاسُ فَرْنَقَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِسَائِمٍ وبهذا المعنى في السنة فُسِّر الضحاك والسدي. وقال ابن عباس وغيره: السنة النعاس، وقال ابن زيد: الوسنان الذي يقوم من النوم

وهو لا يعقل حتى ربما جرد السيف على أهله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الذي قال ابن زيد فيه نظر، وليس ذلك بمفهوم من كلام العرب. وروى أبو هريرة قال: (سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى على المنبر قال: وقع في نفس موسى هل ينام الله جل ثناؤه. فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً، ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما، قال: فجعل ينام وتكاد يدها تلتقيان، ثم يستيقظ فيحبس إحداهما عن الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يدها فانكسرت القارورتان. قال: ضرب الله له مثلاً أن لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي بالملك، فهو مالك الجميع وربّه - وجاءت العبارة بهما وإن كان في الجملة من يعقل من حيث المراد الجملة والموجود. ثم قرر ووقف تعالى من يتعاطى أن يشفع عنده إلا أن يأذن هو فيه جل وعلا.

وقال الطبري: هذه الآية نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله فقال الله: ﴿لَقَدْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، وتقرر في هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء في الشفاعة وهم الأنبياء والعلماء وغيرهم.

والإذن هنا راجع إلى الأمر فيما نص عليه كمحمد ﷺ إذا قيل له: فواشفع تشفع، وإلى العلم والتمكين

إن شفع أحد من الأنبياء والعلماء قبل أن يؤمر - والذي يظهر أن العلماء والصالحين يشفعون فيمن لم يصل إلى النار وهو بين المنزلتين، أو وصل ولكن له أعمال صالحة. وفي البخاري في باب بقية من أبواب الرؤية: (إن المؤمنين يقولون: ربنا. إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا، فهذه شفاعة فيمن يقرب أمره، وكما يشفع الطفل المحبب لوالديه على باب الجنة). الحديث. وهذا إنما هو في قرباتهم ومعارفهم - وأن الأنبياء يشفعون فيمن حصل في النار من عصاة أمهم بذنوب دون قربى ولا معرفة إلا بنفس الإيمان، ثم تبقى شفاعة أرحم الراحمين في المستغرقين في الذنوب الذين لم تنلهم شفاعة الأنبياء.

وأما شفاعة محمد في تعجيل الحساب فخاصة له، وهي الخامسة التي في قوله: ﴿وَأَعْطَيْتِ الشَّفَاعَةَ﴾ وهي عامة للناس، والقصد منها إراحة المؤمنين، وتبجيل الكفار منها المصير إلى العذاب، وكذلك إنما يطلبها إلى الأنبياء المؤمنون. والضميران في قوله: ﴿أَيَّدِيهِمْ وَمَا خَلَفَهُمْ﴾ عائدان على كل من يعقل ممن تضمنه قوله: ﴿لَقَدْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقَالَ مجاهد: ما بين أيديهم: الدنيا، وما خلفهم: الآخرة، وهذا في نفسه صحيح عند الموت، لأن ما بين اليد هو كل ما تقدم الإنسان، وما خلفه هو كل ما يأتي بعده، وينحو قول مجاهد قال السدي وغيره.

﴿٢٥٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عَلَيْهِ﴾ معناه: من معلوماته، وهذا كقول الخضر لموسى عليهما السلام - حين نقر العصفور في حرف السفينة -: «ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر»، فهذا وما شاكله راجع إلى المعلومات لأن علم الله تعالى الذي هو صفة ذاته لا يتبعض - ومعنى الآية: لا معلوم لأحد إلا ما شاء الله أن يعلمه.

واختلف الناس في الكرسي الذي وصفه الله تعالى بأنه وسع السماوات والأرض.

فقال ابن عباس: كرسية: علمه، ورجحه الطبري، وقال: منه الكراسية للصحائف التي تضم العلم، ومنه قيل للعلماء: الكراسي، لأنهم المعتمد عليهم، كما يقال: أوتاد الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الألفاظ تعطي بعض ما ذهب إليه من أن الكرسي العلم، قال الطبري: ومنه قول الشاعر:

تحف بهم بيض الوجوه وغُصْبَةٌ
كُرَاسِيٌّ بِالْأَخْدَاطِ حِينَ تَنْبُثُ
يريد بذلك علماء بحوادث الأمور ونوازلها.

وقال أبو موى الأشعري: الكرسي موضع القدمين، وله أطيظ كأطيظ الرجل.

وقال السدي: هو موضع قدميه، وعبرة أبي موسى مخلصه لأنه يريد هو من عرش الرحمن كموضع

القدمين في أسرة الملوك، فهو مخلوق عظيم بين يدي العرش نسبه إليه نسبة الكرسي إلى سرير الملك، والكرسي هو موضع القدمين، وأما عبارة السدي فقلقة، وقد مال إليها منذر البلوطي، وأولها بمعنى ما قدم من المخلوقات على نحو ما تأول في قول النبي عليه السلام: «يَضَعُ الْجَبَّارُ فِيهَا قَدَمَهُ». وهذا عندي عناء، لأن التأويل لا يضطر إليه إلا في ألفاظ النبي عليه السلام، وفي كتاب الله، وأما في عبارة مفسر فلا.

وقال الحسن بن أبي الحسن: الكرسي هو العرش نفسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش والعرش أعظم منه، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس»، وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت في فلاة من الأرض».

وهذه الآية منبثة عن عظم مخلوقات الله تعالى، والمستفاد من ذلك عظم قدرته إذ لا يؤوده حفظ هذا الأمر العظيم.

﴿يُؤَدِّيهِ﴾ معناه: يثقله يقال: أدنى الشيء بمعنى أثقلني وتحملت منه مشقة، وبهذا فسر اللفظة ابن عباس، والحسن، وقتادة، وغيرهم.

وروي عن الزهري، وأبي جعفر، والأعرج - بخلاف عنهم - تخفيف

الهمزة التي على الواو الأولى، جعلوها بينَ بينَ، لا تخلص واوًا مضمومة ولا همزة محققة، كما قيل في لؤم لؤم.

﴿الَّتِي﴾ يراد به علو القدرة والمنزلة، لا علو المكان لأن الله منزّه عن التحيز.

وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: هو العلي عن خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول جهلة مجسمين، وكان الوجه ألا يحكى، وكذا ﴿الْعَظِيمُ﴾ هي صفة بمعنى عظم القدر والخطر، لا على معنى عظم الأجرام.

وحكى الطبري عن قوم أن ﴿الْعَظِيمُ﴾ معناه المُعْظَم كما يقال: العتيق بمعنى المعتق، وأنشد قول الأعشى:

وَكَأَنَّ الْخُمْرَ الْعَتِيقَ مِنَ الْإِنْسِ
مَنْطِ مَمْزُوجَةً بِسَاءِ زَلَالِ
وذكر عن قوم أنهم أنكروا ذلك، وقالوا: لو كان بمعنى مُعْظَم لوجب ألا يكون عظيماً قبل أن يخلق الخلق وبعد فأنهم إذ لا مُعْظَم له حينئذ.

﴿٢٥٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

الدين في هذه الآية: المعتقد والملة بقرينة قوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾.

والإكراه الذي في الأحكام من الأيمان والبيوع والهبات وغير ذلك ليس هذا موضعه، وإنما يجيء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فإذا تقرر أن الإكراه المنفي هنا هو في تفسير

المعتقد من الملل والنحل فاختلف الناس في معنى الآية.

فقال الزهري: سألت زيد بن أسلم عن قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فقال: كان رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين لا يُكره أحداً في الدين، فأبى المشركون إلا أن يقتلهم فاشتأذن الله في قتالهم فأذن له، قال الطبري: والآية منسوخة في هذا القول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويلزم على هذا أن الآية مكية، وأنها من آيات المواعدة التي نسختها آية السيف.

وقال قتادة، والضحاك بن مزاحم: هذه الآية محكمة خاصة في أهل الكتاب الذين يبذلون الجزية ويؤدونها عن يد صغرة، قالوا: وأمر رسول الله ﷺ أن يقتل العرب أهل الأوثان لا يقبل منهم إلا لا إله إلا الله، أو السيف، ثم أمر فيمن سواهم أن يقبل الجزية، ونزلت فيهم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى مذهب مالك: أن الجزية تقبل من كل كافر سوى قريش - أي نوع كان - فتجئ الآية خاصة فيمن أعطى الجزية من الناس كلهم لا يقف ذلك على أهل الكتاب كما قال قتادة والضحاك.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: إنما نزلت هذه الآية في قوم من الأوس والخزرج، كانت المرأة تكون مقلدة لا يعيش لها ولد، فكانت تجعل على نفسها - إن جاءت بولد -

أن تهوده، فكان في بني النضير جماعة على هذا النحو، فلما أجلي رسول الله ﷺ بني النضير قالت الأنصار: كيف نصنع بأبنائنا؟ إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه، وأما إذ جاء الله بالإسلام فنكرهم عليه؟ فنزلت: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ الآية. وقال بهذا القول عامر الشعبي، ومجاهد، والحسن، إلا أنه قال: كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع.

وقال السدي: نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له أبو حصين، كان له ابنان، فقدم تجار من الشام المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الرجوع أتاهم ابنا أبي حصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا، ومضيا معهم إلى الشام، فأتى أبوهما رسول الله ﷺ مشكياً أمرهما، ورغب في أن يبعث رسول الله ﷺ من يردهما، فنزلت: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب - وقال: أبعدهما الله، هما أول من كفر، فوجد أبو الحصين في نفسه على رسول الله ﷺ حين لم يبعث في طلبهما، فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. ثم إنه نسخ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة براءة.

والصحيح في سبب قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حديث الزبير مع جاره الأنصاري في حديث السقي.

وقوله تعالى: ﴿مَدَّ يَدَيْكَ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾ معناه: بنصب الأدلة، ووجود الرسول الداعي إلى الله، والآيات المنيرة. والرشد مصدر من قولك: رشد - بكسر الشين وضمها - يرشد رَشْداً ورَشْداً ورَشْداً - والغي مصدر من غَوَى يغوى إذا ضل في معتقد أو رأي، ولا يقال الغي في الضلال على الإطلاق - وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿الرَّشَادَ﴾ بالألف. وقرأ الحسن، والشعبي، ومجاهد: ﴿الرُّشْدَ﴾ بفتح الراء والشين، وروى عن الحسن ﴿الرُّشْدَ﴾ بضم الراء والشين.

والطاغوت: بناء مبالغة من طغى يطغى، وحكى الطبري: يطغون إذا جاوز الحد بزيادة عليه ووزنه فغلوت. ومذهب سيبويه أنه اسم مفرد كأنه اسم جنس يقع للكثير والقليل، ومذهب أبي على أنه مصدر كرهوت وجبروت، وهو يوصف به الواحد والجمع، وقلبت لاه إلى موضع العين وعينه موضع اللام قليل: طاغوت. وقال المبرد: هو جمع، وذلك مردود. واختلف المفسرون في معنى الطاغوت - فقال عمر بن الخطاب، ومجاهد، والشعبي، والضحاك، وقتادة، والسدي: الطاغوت: الشيطان - وقال ابن سيرين، وأبو العالية: الطاغوت: الساحر. وقال سعيد بن جبير، ورفيع، وجابر بن عبد الله، وابن جريج: الطاغوت: الكاهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويَبَيِّنُ أن هذه أمثلة في الطاغوت،

كفروا به، فذلك إخراجهم من النور إلى الظلمات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكان هذا القول أحرز نوراً في المعتقد خرج منه إلى ظلمات، ولفظ الآية مستغن عن هذا التخصيص، بل هو مترتب في كل أمة كافرة آمن بعضها كالعرب، ومترتب في الناس جميعاً، وذلك أن من آمن منهم بالله وليه، أخرجه من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن كفر بعد وجود الداعي والنبي المرسل فشيطنه ومغويه كأنه أخرجه من الإيمان إذ هو مُعَدُّ وأهل للدخول فيه. وهذا كما تقول لمن منعك الدخول في أمر: أخرجتني يا فلان من هذا الأمر، وإن كنت لم تدخل فيه البتة.

ولفظه الطاغوت في هذه الآية تقتضي أنه اسم جنس، ولذلك قال: أولياؤهم بالجمع، إذ هي أنواع، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿أُولِيَائِهِمُ الطَّوَاغُيْتُ﴾ يعني الشياطين، وحكم عليهم بالخلود في النار لكفرهم.

﴿تفسير قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنبيه، وهي رؤية القلب. وقرأ علي بن أبي طالب: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بجزم الراء، والذي حاج إبراهيم هو نمروذ بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح ملك زمانه وصاحب النار والبعوضة، هذا قول مجاهد، وقتادة، والربيع، والسدي، وابن إسحاق، وزيد بن أسلم، وغيرهم - وقال ابن جريج: هو أول ملك في الأرض، وهذا مردود. وقال قتادة: هو أول من تجبر، وهو

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فَعَلَى مِنْ الوثاقة، وهذه الآية تشبيه. واختلفت عبارة المفسرين في الشيء المشبه بالعروة - فقال مجاهد: العروة الإيمان. وقال السدي: الإسلام. وقال سعيد بن جبير، والضحاك: العروة: لا إله إلا الله. وهذه العبارات ترجع إلى معنى واحد.

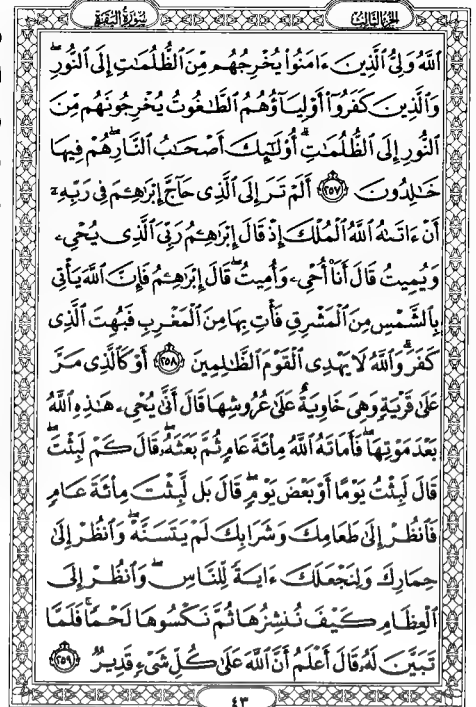
والانقسام: الانكسار من غير بينونة، وإذا نفي ذلك فلا بينونة بوجه، والفصم كسر بينونة، وقد يجيء الفصم بالفاء في معنى البينونة، ومن ذلك قول

ذي الرمة:

كَأَنَّهُ ذُمْلُجٌ مِنْ فِضَّةٍ نَبَّةٍ
فِي مَلْعَبٍ مِنْ عَذَارَى آلِ حَيٍّ مَفْصُومٍ
ولما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده القلب حُسن في الصفات ﴿عَلِيمٌ﴾ من أجل النطق و﴿عَلِيمٌ﴾ من أجل المعتقد.

﴿تفسير قوله عز وجل:

الولي: فعيل من ولي الشيء إذا جاوره ولزمه، فإذا لازم أحد أحداً بنصره ووده واهتباله فهو وليه، هذا عرفه في اللغة. قال قتادة: ﴿أَلْطَلَمَكْتُ﴾ الضلالة و﴿أَلْتَوَّيْتُ﴾ الهدى، وبمعناه قال الضحاك، والربيع. وقال مجاهد، وعبيدة بن أبي لبابة: إن قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية - نزلت في قوم آمنوا بعبسى، فلما جاء محمد عليه السلام



لأن كل واحد منها له طغيان، والشيطان أصل ذلك كله. وقال قوم: الطاغوت: الأصنام. وقال بعض العلماء: كل ما عُبِد من دون الله فهو طاغوت، وهذه تسمية صحيحة في كل معبود يرضى ذلك كفرعون ونمرود ونحوه، وأما من يرضى ذلك كعزير وعيسى عليهما السلام، ومن لا يعقل كالآوثان فسميت طاغوتاً في حق العبد، وذلك مجاز، إذ هي بسبب الطاغوت الذي يأمر بذلك ويحسنه وهو الشيطان.

وقدم تعالى ذكر الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ليظهر الاهتمام بوجود الكفر بالطاغوت.

والعروة في الأجرام هي موضع الإمساك وشد الأيدي، و﴿أَسْتَمْسَكَ﴾ معناه قبض وشد يديه،

صاحب الصرح ببابل، وقيل: إنه ملك الدنيا بأجمعها ونفذت فيها طينته، وهو أحد الكافرين، والآخر بخت نصر، وقيل: إن الذي حاج إبراهيم نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

وفي قصص هذه المحاجة روايتان: إحداهما: ذكر زيد بن أسلم أن النمرود هذا تعد يأمر للناس بالميرة فكلما جاء قوم قال: من ربكم وإلهكم؟ فيقولون: أنت. فيقول: ميروهم، وجاء إبراهيم عليه السلام يمتار، فقال له: من ربك وإلهك؟ قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فلما سمعها نمرود قال: ﴿أَنَا أَنحِي وَأُيَمِّتُ﴾، فعارضه إبراهيم بأمر الشمس فبهت الذي كفر، وقال: لا تميره، فرجع إبراهيم إلى أهله دون شيء، فمر على كتيب من رمل كالديقيق فقال: لو ملأت غرارتي من هذا فإذا دخلت به فرح الصبيان حتى أنظر لهما، فذهب بذلك فلما بلغ منزله فرح الصبيان وجعلا يلعبان فوق الغرارتين، ونام هو من الإعياء، فقالت امرأته: لو صنعت له طعاماً يجده حاضراً إذا انتبه، ففتحت إحدى الغرارتين فوجدت أحسن ما يكون من الخواري فخبزته، فلما قام وضعته بين يديه، فقال: من أين هذا؟ فقالت: من الديقيق الذي سقت، فعلم إبراهيم أن الله تعالى يسر لهم ذلك.

وقال الربيع، وغيره في هذا القصص: إن النمرود لما قال: ﴿أَنَا

أَنحِي وَأُيَمِّتُ﴾ أحضر رجلين فقتل أحدهما، وأرسل الآخر، وقال: قد أحيت هذا، وأمّث هذا، فلما رد عليه بأمر الشمس بهت.

والرواية الأخرى: ذكر السدي أنه لما خرج إبراهيم من النار أدخله على الملك، ولم يكن قبل ذلك دخل عليه، فكلّمه، وقال له: مَنْ ربك؟ قال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، قال نمرود: ﴿أَنَا أَنحِي وَأُيَمِّتُ﴾ أنا أخذ أربعة نفر فأدخلهم بيتاً، ولا يطعمون شيئاً، ولا يسقون حتى إذا جاعوا أخرجتهم فأطعمت اثنين فحسبوا، وترك اثنين فماتا، فعارضه إبراهيم بالشمس فبهت.

وذكر الأصوليون في هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام وصف ربه تعالى بما هو صفة له من الإحياء والإماتة لكنه أمر له حقيقة ومجاز - قصد إبراهيم عليه السلام الحقيقة، ففرع نمرود إلى المجاز، وموّه به على قومه، فسلم له إبراهيم تسليم الجدل، وانتقل معه من المثال وجاءه بأمر لا مجاز فيه، فبهت الذي كفر ولم يمكنه أن يقول: أنا الآتي بها من المشرق، لأن ذوي الأسنان يكذبونه.

وقوله: ﴿حَاجَّ﴾، وزنه فاعل، من الحجة، أي جاز به إياها، والضمير في ﴿رَبِّيَّ﴾ يحتمل أن يعود على إبراهيم عليه السلام، ويحتمل أن يعود على الذي حاج، و﴿أَن﴾ مفعول من أجله، والضمير في ﴿جَاءَتْهُ﴾ للنمرود، وهذا قول

جمهور المفسرين، وقال المهدوي: يحتمل أن يعود الضمير على إبراهيم ﴿أَن جَاءَتْهُ﴾ ملك النبوة، وهذا تحامل من التأويل.

وقرأ جمهور القراء: ﴿أَن أَخْبِي﴾ بطرح الألف التي بعد النون من ﴿أَنَا﴾ إذا وصلوا في كل القرآن غير نافع، فإن وزشاً، وابن أبي أويس، وقالون رأوا إثباتها في الوصل إذا لقبتها همزة في كل القرآن مثل: ﴿أَنَا أَنحِي﴾، ﴿أَنَا أَخُولُ﴾ إلا فسي قوله تعالى: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فإنه يطرحها في هذا الموضع مثل سائر القراء، وتابع أصحابه في حذفها عند غير همزة. قال أبو علي: ضمير المتكلم الاسم فيه الهمزة والنون، ثم إن الألف تلحق في الوقف كما تلحق الهاء أحياناً في الوقف، فإذا اتصلت الكلمة التي هي فيها بشيء سقطت الهاء، فكذلك هذه الألف، وهي مثل ألف حيها وهذا مثل الألف التي تلحق في القوافي، فتأمل. قال أبو علي فإذا اتصلت الكلمة بشيء سقطت الألف لأن الشيء الذي تتصل به الكلمة يقوم مقام الألف، وقد جاءت الألف مثبتة في الوصل في الشعر - من ذلك قول الشاعر:

أَنَا شَيْخُ الْعَشِيرَةِ فَاغْرِ قُونِي
حَبِيداً قَدْ تَذَرَيْتُ السُّنَامَا
وقرأ الجمهور: ﴿فَبَهْتَ الَّذِي﴾ بضم الباء وكسر الهاء، يقال: بهت الرجل إذا انقطع وقامت عليه الحجة، قال ابن سيدة: ويقال في هذا المعنى: بهت بفتح الباء وكسر

الهَاءِ، وَبُهِتَ بفتح الباءِ وضم الهاءِ. قال الطبري: وَحُكِيَ عن بعض العرب في هذا المعنى: بَهِتَ بفتح الباءِ والهَاءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هكذا ضبطت اللفظة في نسخة ابن ملول دون تقييد بفتح الباءِ والهَاءِ. قال ابن جني: قرأ أبو حيوة: «قَبِهَتْ» بفتح الباءِ وضم الهاءِ، وهي لغة في بهت بكسر الهاءِ. قال: وقرأ ابن السميع: «فَبِهَتْ» بفتح الباءِ والهَاءِ على معنى قَبِهَتْ إبراهيم الذي كفر، فالذي في موضع نصب، قال: وقد يجوز أن يكون بَهِتَ بفتحهما لغة في بَهِتَ قال: وحكى أبو الحسن الأخفش قراءة «قَبِهَتْ» بكسر الهاءِ كَخَرِقَ وَذَهَشَ قال: والأكثر بالضم في الهاءِ، قال ابن جني: يعني أن الضم يكون للمبالغة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تأول قوم في قراءة من قرأ: «قَبِهَتْ» بفتحهما أنه بمعنى سب وقذف، وأن نمروداً هو الذي سب إبراهيم حين انقطع ولم تكن له حيلة.

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» إخبار لمحمد عليه السلام وأُمَّته، والمعنى لا يرشدهم في حججهم على ظلمهم، لأنه لا هدى في الظلم. فظاهره العموم، ومعناه الخصوص كما ذكرنا لأن الله قد يهدي الظالمين بالتوبة والرجوع إلى الإيمان، ويحتمل أن يكون الخصوص فيمن يوافي ظالماً.

﴿تفسير قوله عز وجل:

عطفت ﴿أَوْ﴾ في هذه الآية على المعنى، لأن مقصد التعجيب في قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ» يقتضي المعنى: أَرَأَيْتَ كالذي حاج؟ ثم جاء قوله: «أَوْ كَالَّذِي عَظَفَا» على ذلك المعنى.

وقرأ أبو سفيان بن حسين: «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ» بفتح الواو وهي واو عطف دخل عليها ألف التقرير. قال سليمان بن بريدة، وناجية ابن كعب، وقتادة، وابن عباس، والربيع، وعكرمة، والضحاك: الذي مر على القرية هو عزيز، قال وهب بن منبه وعبدالله بن عبيد بن عمير، ويكر بن مضر: هو أرمياء. وقال ابن إسحاق: أرمياء هو الخضر، وحكاه النقاش عن وهب بن منبه، وهذا كما تراه، إلا أن يكون اسماً وافق اسماً، لأن الخضر معاصر لموسى، وهذا الذي مر على القرية هو بعده بزمان من سبط هارون فيما روى وهب بن منبه. وحكى مكى عن مجاهد أنه رجل من بني إسرائيل غير مسمى، قال النقاش: ويقال: هو غلام لوط عليه السلام، واختلف في القرية أيما هي؟ فحكى النقاش أن قوماً قالوا: هي المؤتفكة. وقال ابن زيد: إن القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا مَرَّ عليهم رجل وهم عظام تلوح فوق ينظر فقال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأَمَاتَهُ اللهُ مائة عام ثم بعثه، وترجم الطبري على هذا القصص بأنه قولٌ بأن القرية التي

مر عليها هي التي أهلك الله فيها الذين خرجوا من ديارهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقول ابن زيد لا يلائم الترجمة لأن الإشارة بهذه على مقتضى الترجمة هي إلى المكان، وعلى نفس القول هي إلى العظام والأجساد، وهذا القول من ابن زيد مناقض لألفاظ الآية، إذ الآية إنما تضمنت قرية خاوية لا أنيس فيها، والإشارة بهذه إنما هي إلى القرية، وإحيائها إنما هو بالعمارة ووجود البناء والسكان. وقال وهب بن منبه، وقتادة، والضحاك، وعكرمة، والربيع: القرية بيت المقدس لما خربها بخت نصر البابلي، وفي الحديث الطويل حين أحدثت بنو إسرائيل الأحداث وقف أرمياء أو عزيز على القرية وهي كالثل العظيم وسط بيت المقدس، لأن بخت نصر أمر جنده بنقل التراب إليه حتى جعله كالجبل، ورأى أرمياء البيوت قد سقطت حيطانها على سقفها، والعريش سقف البيت، وكل ما يهبط لظل أو يكن فهو عريش، ومنه عريش الدالية والشمار، ومنه قوله تعالى: «وَرَمَّا بَعْرُشُونَ».

قال السدي: يقول: هي ساقطة على سقفها، أي سقطت السقف ثم سقطت الحيطان عليها. قال غير السدي: معناه خاوية من الناس على العروش، أي على البيوت، وسقفها عليها لكنها خوت من الناس، والبيوت قائمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وانظر استعمال العريش مع علي في الحديث في قوله: (وكان المسجد يومئذ على عريش في أمر ليلة القدر).

و﴿حَاوِيَةً﴾ معناه: خالية، يقال: خوت الدار تخوى خواءً، ويقال: خَوَيْتُ، قال الطبري: والأول أنصح.

وقوله: ﴿أَنْ يُّعَيَّ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ معناه: من أي طريق؟ وبأي سبب؟ وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان كما قال الآن في المدن الخربة التي يبعد أن تعمر وتسكن، فكأن هذا تلهف من الواقف المعبر على مدينته التي عهد فيها أهله وأحبته، وضرب له المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه، والمثل الذي ضرب له في نفسه يحتمل أن يكون على أن سؤاله إنما كان عن إحياء الموتى من بني آدم، أي: أني يحيي هذه الله موتاهما.

وقد حكى الطبري عن بعضهم أنه قال: كان هذا القول شكاً في قدرة الله على الإحياء فلذلك ضرب له المثل في نفسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس يدخل شك في قدرة الله على إحياء قرية بجلب العمارة إليها، وإنما يتصور الشك من جاهل في الوجه الآخر والصواب ألا يتأول في الآية شك.

وروي في قصص هذه الآية أن بني إسرائيل لما أحدثوا الأحداث بعث الله عليهم بخت نصر البابلي فقتلهم وجلاهم من بيت المقدس

فخره، فلما ذهب عنه جاء أرمياؤه فوقف على المدينة معتبراً فقال: ﴿أَنْ يُّعَيَّ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، قال: فأما الله تعالى، وكان معه حمار قد ربطه بحبل جديد، وكان معه سلة فيها تين، وهو طعامه، وقيل: تين وعنب، وكان معه ركوة من خمر، وقيل: من عصير، وقيل: قلة ماء هي شرابه، وبقي مئتا مائة عام فزوي أنه بلي وتفرقت عظامه هو وحماره، وزوي أنه بلي دون الحمار، وأن الحمار بقي حياً مربوطاً لم يموت ولا أكل شيئاً ولا بليت رتمه، وزوي أن الحمار بلي وتفرقت أوصاله دون عزيز، وزوي أن الله بعث إلى تلك القرية من عمرها ورد إليها جماعة بني إسرائيل حتى كملت على رأس مائة سنة، وحينئذ حيي عزيز، وزوي أن الله رد عليه عينيه وخلق له حياة يرى بها كيف تعمر القرية وتُخيا مدة من ثلاثين سنة تكمله المائة، لأنه بقي سبعين مئتا كله، وهذا ضعيف ترد عليه ألفاظ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾، معناه: أحياء، وجعل له الحركة والانتقال فسأله الله تعالى بواسطة الملك: ﴿كَمْ لَيْتَ؟﴾ على جهة التقرير، و﴿كَمْ﴾ في موضع نصب على الظرف فقال: ﴿لَيْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، قال ابن جريج، وقنادة، والربيع: أماته الله غدوة يوم، ثم بعث قبل الغروب فظن هذا اليوم واحداً فقال: لبت يوماً، ثم رأى بقية من الشمس فخشي أن يكون كاذباً فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فقيل

له: ﴿لَيْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ - ورأى من عمارة القرية وأشجارها ومبانيها ما دلّه على ذلك. قال النقاش: العام مصدر كالعموم، سمي به هذا القدر من الزمان، لأنها عومة من الشمس في الفلك، والعموم كالسبح وقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا معنى كلام النقاش، والعام على هذا كالقول، والقال، وظاهر هذه الإمامة أنها بإخراج الروح من الجسد. وزوي في قصص هذه الآية أن الله بعث لها ملكاً من الملوك يعمرها ويجد في ذلك حتى كان كمال عمارتها عند بعث الله القائل: ﴿أَنْ يُّعَيَّ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

وقرأ ابن كثير، وعاصم، ونافع: ﴿لَيْتَ﴾ في كل القرآن بإظهار الشاء، وذلك لتباين مخرج الشاء من مخرج الشاء، وذلك أن الطاء والثاء والذال من حيز، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي بالإدغام في كل القرآن، أجروهما مجرى المثليين من حيث اتفق الحرفان في أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا، وفي أنهما مهموسان قال أبو علي: وَيُقَوَّى ذلك وقوُّ هذين الحرفين في روي قصيدة واحدة.

﴿تفسير قوله عز وجل:

وقف في هذه الألفاظ على بقاء طعامه وشرابه على حاله لم يتغير، وعلى بقاء حماره حياً على مربطه هذا على أحد التأويلين، وعلى التأويل الثاني وقف على الحمار

كيف يُغيا وتجتمع عظامه، وقرأ ابن مسعود: ﴿وهذا طعامك وشرابك لم يتسنه﴾، وقرأ طلحة بن مصرف، وغيره: ﴿وانظر إلى طعامك وشرابك المائة سنة﴾.

قال أبو علي: واختلفوا في إثبات الهاء في الفعل من قوله عز وجل: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ - وَأَقْنَدُهُ﴾، و﴿مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾، و﴿سُلْطَانُهُ﴾، و﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِبَةٌ﴾ وإسقاطها في الوصل - لم يختلفوا في إثباتها في الوقف - فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: هذه الحروف كلها بإثبات الهاء في الوصل، وكان حمزة يحذفهن في الوصل، وكان الكسائي يحذفها في ﴿يَكُنْ لَهُ﴾ و﴿أَقْنَدُهُ﴾ ويثبتها في الباقي، ولم يختلفوا في ﴿حِسَابُهُ﴾ و﴿كُنْ لَهُ﴾ أنهما بالهاء في الوقف والوصل.

و﴿يَكُنْ لَهُ﴾ يحتمل أن يكون من تسنى الشيء إذا تغير وفسد، ومنه «الحما المسنون» في قول بعضهم، وقال الزجاج: ليس منه، وإنما المسنون: المصبوب على سنن الأرض، فإذا كان من (تَسَنَّنَ) فهو: (لَمْ يَتَسَنَّنْ)، قلبت النون ياء كما فعل في (تَطَطَّنْتُ) حتى قلت: (لم أتظن) فيجيء تَسَنَّنَ: تَسَنَّى، ثم تحذف الياء للجزم فيجيء المضارع: (لَمْ يَتَسَنَّ). ومن قرأها بالهاء على هذا القول فهي هاء السكت، وعلى هذا يحسن حذفها في الوصل.

ويحتمل ﴿يَكُنْ لَهُ﴾ أن يكون من السنة وهو الجذب والقحط وما

أشبهه، يُسْمُوْنَهُ بذلك، وقد اشتق منه فعل فقيل: (اسْتَوُوا)، وإذا كان هذا أو من السنة التي هي العام على قول من يجمعها سنوات فعلى هذا أيضاً إنها هاء السكت، والمعنى: لم تغير طعامك القحوط والجذوب ونحوه، أو لم تغيره السنون والأعوام.

وأما من قال في تصغير السنة: سُنَيْهَةٌ، وفي الجمع: سَنَهَات، وقال: أَسْنَهْتُ عند بني فلان - وهي لغة الحجاز - ومنها قول الشاعر:

وَلَيْسَتْ بِسَنَهَاءَ وَلَا رُجْبِيَّةَ
ولكن عرايا في السنين الجوائح
فإن القراءة على هذه اللغة هي بإثبات الهاء ولا بُدَّ، وهي لام الفعل، وفيها ظهر الجزم بَلَمْ، وعلى هذا هي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وقد ذكر. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ﴾ على الإدغام.

وقال النقاش: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ﴾ معناه: لم يتغير، من قوله تعالى: ﴿مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾، ورد النحاة على هذا القول لأنه لو كان من: أَسَنَ الماء لَجاء ﴿لَمْ يَتَأَسَّنْ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَىٰ جَمْرِكَ﴾ فقال وهب بن منبه، وغيره: المعنى: وانظر إلى اتصال عظامه وإحيائه جزءاً جزءاً، ويروى أنه أحياء الله كذلك حتى صار عظاماً ملتئمة، ثم كساه لحماً حتى كمل حماراً، ثم جاء ملك فنفخ في أنفه الروح فقام الحمار ينهق، وروى عن الضحاك، وهب بن منبه أيضاً أنهما قالا: بل قيل له: وانظر إلى حمارك

قائماً في مربطه لم يصبه شيء مائة سنة. قالا: وإنما العظام التي نظر إليها عظام نفسه، قالا: وأعمى الله العيون عن أرمياء وحمارة هذه المدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكثر أهل القصص في صورة هذه النازلة تكثيراً اختصرته لعدم صحته.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجْلَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ معناه: لهذا المقصد من أن تكون آية فعلنا بك هذا، وقال الأعمش: موضع كونه آية هو أنه جاء شاباً على حاله يوم مات فوجد الأبناء والحفدة شيوخاً، وقال عكرمة: جاء وهو ابن أربعين سنة كما كان يوم مات ووجد بنيه قد نيفوا على مائة سنة، وقال غير الأعمش: بل موضع كونه آية أنه جاء وقد هلك كل من يعرف فكان آية لمن كان حياً من قومه إذ كانوا مؤمنين بحاله سمعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي إمامته هذه المدة ثم إحيائه أعظم آية، وأمره كله آية للناس غابر الدهر لا يحتاج إلى تخصيص بعض ذلك دون بعض.

وأما العظام التي أمر بالنظر إليها فقد ذكرنا من قال: هي عظام نفسه، ومن قال: هي عظام الحمار - وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿تُنْشِرُهَا﴾ بضم النون الأولى وبالراء، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿تُنْشِرُهَا﴾ بالزاي، وروى أبان عن عاصم: ﴿تُنْشِرُهَا﴾ بفتح النون الأولى، وضم الشين، وبالراء، وقرأها كذلك

الحسن، وابن عباس، وأبو حيوة، فمن قرأ: ﴿تَنْشُرُهَا﴾ بضم النون الأولى وبالراء فمعناه: نُحْيِيهَا - يقال: أنشر الله الموتى، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾، وقال الأعشى:

.....

يَا عَجَباً لِّلْمَيِّتِ النَّاشِرِ
وقراءة عاصم ﴿تَنْشُرُهَا﴾ بفتح النون الأولى وضم الشين يحتمل أن يكون لغة في الإحياء، يقال: نشرت الميت وأنشرته فيجيء: نشر الميت ونشرته، كما يقال: حسرت الدابة وحسرتها، وغاض الماء وبغضته، ورجع زيد ورجعته، ويحتمل أن يراد بها ضد الطي كأن الموت طي للعظام والأعضاء، وكأن الإحياء وجمع بعضها إلى بعض نشر - وأما من قرأ: ﴿تَنْشُرُهَا﴾ بالزاي فمعناه: نرفعها، والنشر المرتفع من الأرض، ومنه قول الشاعر:

تَرَى الثُّغْلَبَ الْخَوْلِيَّ فِيهَا كَأَنَّهُ
إِذَا مَا عَلَا تَنْشَرَا جِصَّانَ مُجَلَّلُ
قال أبو علي وغيره: فتقديره: ننشزها برفع بعضها إلى بعض للإحياء، ومنه نشوز المرأة، وقال الأعشى:

.....

قُضَاعِيَّةٌ تَأْتِي الْكَوَاهِنَ نَاشِرَا
يقال: نشز وأنشزته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقلق عندي أن يكون معنى النشوز رفع العظام بعضها إلى بعض، وإنما النشوز الارتفاع قليلاً قليلاً، فكأنه وقف على نبات العظام الرفات وخروج ما يوجد منها عند الاختراع.

وقال النقاش: تَنْشُرُهَا معناه: تُنْشِئُهَا، وانظر استعمال العرب تجده على ما ذكرت لك، من ذلك: نشز ناب البعير، والنشز من الأرض على التشبيه بذلك. ونشزت المرأة كأنها فارقت الحال التي ينبغي أن تكون عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾ أي ارتفعوا شيئاً فشيئاً كنشوز الناب، فبذلك تكون التوسعة، فكأن النشوز ضرب من الارتفاع، ويبعد في الاستعمال أن يقال لمن ارتفع في حائط أو غرفة: نشز. وقرأ النخعي: ﴿تَنْشُرُهَا﴾ بفتح النون وضم الشين والزاي، ورؤي ذلك عن ابن عباس، وقتادة، وقرأ أبي بن كعب: ﴿كَيْفَ تَنْشِيهَا﴾ بالياء.

والكسوة: ما وارى من الشياب، وشبه اللحم بها، وقد استعاره النابغة للإسلام فقال:

الْحَنَدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْنِني أَجَلِي
حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سَرَبَالَا
ويروى أنه كان يرى اللحم والعصب والعروق كيف تلثم وتتواصل، وقال الطبري: المعنى في قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَكَ﴾ أي: لما اتضح له عياناً ما كان مستنكراً في قدرة الله عنده قبل عيانه ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خطأ لأنه ألزم ما لا يقتضيه اللفظ، وفسر على القول الشاذ والاحتمال الضعيف.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿أَعْلَمُ﴾

مقطوعة الألف مضمومة الميم، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ﴾ موصولة الألف ساكنة الميم، وقرأها أبو رجاء.

وقرأ عبدالله بن مسعود، والأعمش: ﴿قِيلَ أَعْلَمُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فأما هذه فبينة المعنى، أي قال الملك له - والأولى بينة المعنى، أي قال هو: أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وهذا عندي ليس بإقرار بما كان قبل ينكره كما زعم الطبري، بل هو قول بعثه الاعتبار، كما يقول الإنسان المؤمن إذا رأى شيئاً غريباً من قدرة الله: لا إله إلا الله، ونحو هذا. وقال أبو علي: معناه: أَعْلَمُ هذا الضرب من العلم الذي لم أكن علمته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني علم المعانية.

وأما قراءة حمزة، والكسائي فتحتمل وجهين - أحدهما: قال الملك له: اعلم، والآخر أن ينزل نفسه منزلة المخاطب الأجنبي المنفصل، فالمعنى: فلما تبين له قال لنفسه: اعلم، وأنشد أبو علي - في مثل هذا - قول الأعشى:

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرُّكْبَ مُرْتَجِلُ

.....

وقوله:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةً أَرَمَدَا؟

.....

وأمثله هذا كثيرة. وتأنس أبو علي في هذا المعنى بقول الشاعر:

تَذَكَّرَ مِنْ أَلَى وَمِنْ أَيْنَ شُرْبِهِ
يُؤَامِرُ نَفْسِيهِ كَذِي الْهَجْمَةِ الْأَيْلُ

وليست مظنة ذلك، ويجوز أن يقول: هي أرجى آية لقوله: ﴿أَوَلَمْ تَوْتِنِ﴾ أي أن الإيمان كاف لا يحتاج بعده إلى تنقيح وبحث، وأما قول عطاء بن أبي رباح: «دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس» فمعناه من حب المعانية، وذلك أن النفوس مستشرقة إلى رؤية ما أخبرت به، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ليس الخبر كالمعانية»، وأما قول النبي عليه الصلاة والسلام: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» فمعناه أنه لو كان شك لكننا نحن أحق به، ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم. والذي روي فيه عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ذلك محض الإيمان» إنما هو في الخواطر الجارية التي لا تثبت، وأما الشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر، وذلك هو المنفي عن الخليل عليه السلام.

وإحياء الموتى إنما ثبت بالسمع، وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به، يدلك على ذلك قوله: ﴿رَبِّكَ الَّذِي يُتِيهِ وَيُتِيكَ﴾ فالشك يبعد على من ثبتت قدمه في الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوة والخلة، والأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر التي فيها رذيلة إجماعاً.

وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكاً، وذلك أن الاستفهام بدو كَيْفَ إنما هو عن حال شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول - نحو

رجح الطبري هذا القول الذي يجري مع ظاهر الحديث، وقال: «إن إبراهيم لما رأى الجيفة يأكل منها الحيتان ودواب البر ألقى الشيطان في نفسه فقال: متى يجمع الله هذه من بطون هؤلاء؟».

وأما من قال بأن إبراهيم لم يكن شاكاً فاختلفوا في سبب سؤاله - فقال قتادة: إن إبراهيم رأى دابة قد توزعت السباع فعجب وسأل هذا السؤال، وقال الضحاك نحوه، قال: وقد علم عليه السلام أن الله قادر على إحياء الموتى، وقال ابن زيد: رأى الدابة تنقسمها السباع والحيتان لأنها كانت على حاشية البحر. وقال ابن إسحاق: بل سببها أنه لما فارق النمرود وقد قال له: أنا أحيي وأميت فكر في تلك الحقيقة والمجاز فسأل هذا السؤال.

وقال السدي، وسعيد بن جبير: بل سبب هذا السؤال أنه لما بُشِّرَ بأن الله اتخذه خليلاً أراد أن يدل بهذا السؤال ليحرب صحة الخلة، فإن الخليل يدل بما لا يدل به غيره، وقال سعيد بن جبير: ﴿وَلَكِنْ يَطْمِئِنُّ قَلْبِي﴾ يريد بالخلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما ترجم به الطبري عندي مردود، وما أدخل تحت الترجمة متأول، فأما قول ابن عباس: «هي أرجى آية» فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى - وسؤال الإحياء في الدنيا

وَلَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ قُلْتَ لِيْ وَلَكِنْ لِيُطْمَئِنُّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْلِدْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْتَ سَمْعَ سَنَائِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِّائَةٌ جَبَتْ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ يُؤْتِوْا مَّا يُنْفِقُونَ مَّا أَفْنَوْا مَنَّا وَلَا أَدَّى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُطِيلُوْا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

تفسير قوله عز وجل:

العامل في ﴿وَإِذْ﴾ فعل مضمر تقديره: واذكر. واختلف الناس لم صدرت هذه المقالة عن إبراهيم عليه السلام؟ - فقال الجمهور: إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكاً في إحياء الله الموتى قط، وإنما طلب المعانية، وترجم الطبري في تفسيره فقال: وقال آخرون: سأل ذلك ربه لأنه شك في قدرة الله على إحياء الموتى، وأدخل تحت الترجمة عن ابن عباس أنه قال: «ما في القرآن آية أرجى عندي منها»، وذكر عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: «دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس» فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، وذكر حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» (الحديث)، ثم

قولك: كيف علم زيد؟ وكيف نسج الشوب؟ ونحو هذا - ومتى قلت: كيف ثوبك؟ وكيف زيد؟ فإنما السؤال عن حال من أحواله، وقد تكون ﴿كَيْفَ﴾ خبراً عن شيء شأنه أن يُستفهم عنه بكيف نحو قولك: كيف شئت فكن، ونحو قول البخاري: كيف كان بدء الوحي.

و﴿كَيْفَ﴾ في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبر عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصلح، فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح، مثال ذلك: أن يقول مدح: أنا أرفع هذا الجبل. فيقول له المكذب: أرني كيف ترفعه. فهذه طريقة مجاز في العبارة، ومعناها تسليم جدلي، كأنه يقول: افرض أنك ترفعه، أرني كيف؟ فلما كان في عبارة الخليل عليه السلام هذا الاشتراك المجازي خلع الله له ذلك، وحمله على أن يبين الحقيقة فقال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلَىٰ﴾ فأكمل الأمر، وتخلص من كل شك، ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ معناه: إيماناً مطلقاً، دخل فيه فعل إحياء الموتى، والواو واو حال دخلت عليها ألف التقرير.

و﴿يُطْمَئِنِّ﴾ معناه: ليسكن عن فكره، والطمأنينة اعتدال وسكون على ذلك الاعتدال، فطمأنينة الأعضاء معروفة كما قال عليه السلام: «ثم اركع حتى تطمئن

راكعاً الحديث، وطمأنينة القلب هي أن يسكن فكره في الشيء المعتقد. والفكر في صورة الإحياء غير محذور، كما لنا نحن اليوم أن نفكر فيها بل هي فكر فيها عبر، فأراد الخليل أن يعاين فتذهب فكره في صورة الإحياء إذ حركه إلى ذلك إما أمر الدابة المأكولة، وإما قول النمرود: ﴿أَنَا أَنِي وَأَنْتَ﴾، وقال الطبري: معنى ليطمئن: ليقن، وحكى نحو ذلك عن سعيد بن جبير، وحكي عنه: ليزداد يقيناً، وقاله إبراهيم، وقتادة، وقال بعضهم: لأزداد إيماناً مع إيماني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا زيادة في هذا المعنى تُمكن إلا السكون عن الفكر وإلا فاليقين لا يتبع. وروي أن الأربعة التي أخذ إبراهيم هي الديك والطاوس والحمام والغراب، ذكر ذلك ابن إسحاق عن بعض أهل العلم الأول، وقاله مجاهد، وابن جريج، وابن زيد، وقال ابن عباس: مكان الغراب الكركي. وروي في قصص هذه الآية أن الخليل عليه السلام أخذ هذه الطير حسبما أمر، وذكأها ثم قطعها قطعاً صفاراً، وجمع ذلك مع الدم والريش، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءاً على كل جبل، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء وأمسك رؤوس الطير في يده، ثم قال: تعالين بلذن الله، فتطايرت تلك الأجزاء، وطار الدم إلى الدم، والريش إلى الريش حتى التأمّت كما كانت أولاً وبقيت بلا رؤوس، ثم كرر النداء، فجاءته سعيّاً

حتى وضعت أجسادها في رؤوسها، وطار يذن الله تعالى.

وقرأ حمزة وحده: ﴿فَصِرْهُنَّ إِيَّكَ﴾ بكسر الصاد، وقرأ الباقون بضمها، ويقال: صُرت الشيء أصوره بمعنى قطعته، ومنه قول رؤبة:

صُرتنا به الحُكْمَ وأعيا الحُكْمَا

ومنه قول الخنساء:

فَلَوْ يُلاقِي الَّذِي لَا تَيْتُهُ حَضَنُ
لَطَلَّتْ الشَّمُ مِنْهُ وَهِيَ تَنْصَارُ
أي: تنقطع، ويقال أيضاً: صُرت الشيء بمعنى أملتُهُ، ومنه قول الشاعر:

يَصُورُ عَنوقَهَا أَحْرَى زَنِيمَ
لَهُ صَخَبٌ كَمَا صَخَبَ الْقَرِيمُ
ومنه قول الأعرابي في صفة نساء: «هُنَّ إِلَى الصَّبَا صُورٌ وَعَنَ الْحَنَّا نُورٌ» فهذا كله في ضم الصاد. ويقال أيضاً: في هذين المعنيين «القطع والإمالة»: صُرت الشيء بكسر الصاد أصيره، ومنه قول الشاعر:

وَفَرَعَ يَصِيرُ الْجِدَّ وَحَفَّ كَأَنَّهُ
عَلَى اللَّيْلِ قَنَوَانُ الْكُرُومِ الدَّوَالِخُ
ففي اللفظة لغتان قُرئ بهما.

وقد قال ابن عباس، ومجاهد في هذه الآية: ﴿صُرْهُنَّ﴾ معناه: قطعهن، وقال عكرمة، وابن عباس - في بعض ما روي عنه - إنها لفظة بالنبطية معناها: قطعهن، وقاله الضحّاك، وقال أبو الأسود الدؤلي: هي بالسريانية، وقال قتادة: صُرهن: فصلهن، وقال ابن إسحاق: معناه: قطعهن، وهو

الصور في كلام العرب، وقال عطاء بن أبي رباح: فصرهن معناه: اضممنهن إليك، وقال ابن زيد: معناه: اجمعهن، وروي عن ابن عباس معناه: أوثقهن، فقد تأول المفسرون اللفظة بمعنى التقطيع، وبمعنى الإمالة، فقلوه: ﴿إِلَيْكَ﴾ على تأويل التقطيع متعلق بـ﴿خُذْ﴾ وعلى تأويل الإمالة والضم متعلق بـ﴿صُرْهُنَّ﴾، وفي الكلام متروك يدل عليه الظاهر تقديره: فأملهن إليك وقطعهن، وقرأ قوم: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ بضم الصاد وشذ الرائ المفتوحة، كأنه يقول: فشدن، ومنه صُرَّة الدنانير.

وقرأ قوم: ﴿فَصِصْهُنَّ﴾ بكسر الصاد وشذ الرائ المفتوحة، ومعناه: صيحن من قولك: صر الباب والقلم إذا صوت، ذكره النقاش، قال ابن جني: وهي قراءة غريبة وذلك أن يفعل بكسر العين في المضاعف المتعدي قليل، وإنما بابه يفعل بضم العين كشذ يشذ ونحوه، لكن قد جاء منه: نَمَّ الحديث ينمه وينمه، وهُوَ الحرب يهرها ويهرها، ومنه قول الأعشى:

لِيَعْتَوِزَنَّكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهْزَه

.....

إلى غير ذلك في حروف قليلة، قال ابن جني: وأما قرعة عكرمة بضم الصاد فيحتمل في الرائ الضم والفتح والكسر كمدً وشذً، والوجه ضم الرائ من أجل ضمة الهاء من بعد. قال المهدوي وغيره: وروي عن عكرمة فتح الصاد وشذ الرائ

المكسورة، وهذه بمعنى فاحسهن، من قولهم: صرّ يصري إذا حبس، ومنه الشاة المضرة.

واختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ على كل جبلٍ مِثْنَيْنِ جُزْءًا، فروى أبو حمزة عن ابن عباس أن المعنى: اجعل جزءاً على كل ربع من أرباع الدنيا، كأن المعنى: اجعلها في أركان الأرض الأربعة، وفي هذا القول بُعد. وقال قتادة، والربيع: المعنى: واجعل على أربعة أجبل على كل جبل جزءاً من ذلك المجموع المتقطع، فكما يبعث الله هذه الطير من هذه الجبال فكذلك يبعث الخلق يوم القيامة من أرباع الدنيا وجميع أقطارها. وقرأ الجمهور: ﴿جُزْءًا﴾ بالهمز. وقرأ أبو جعفر: ﴿جُزْءًا﴾ بشد الزاي في جميع القرآن، وهي لغة في الوقف، فأجرى أبو جعفر الوصل مجراه، وقال ابن جريج، والسدي: أمر أن يجعلها على الجبال التي كانت الطير والسباع حين تأكل الدابة تطير إليها وتسير نحوها وتنفرق فيها، قالوا: وكانت سبعة أجبل، فكذلك جزءاً ذلك المقطع من لحم الطير سبعة أجزاء، وقال مجاهد: بل أمر أن يجعل على كل جبل يليه جزءاً. قال الطبري: معناه دون أن تحصر الجبال بعدد، بل هي التي كان يصل إبراهيم إليها وقت تكليف الله إياه تفريق ذلك فيها، لأن الكل لفظ يدل على الإحاطة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعيد أن يكلف جميع جبال الدنيا، فلن يحيط بذلك بصره، فيجيء ما

ذهب إليه الطبري جيداً متمكناً، والله أعلم أي ذلك كان.

ومعنى الآية أن إبراهيم عليه السلام كان بحيث يرى الأجزاء في مقامه، ويرى كيف التأمّت وكذلك صحت له العبرة - وأمره بدعائهن وهنّ أموات إنما هو لتقرب الآية منه، وتكون بسبب من حاله ويرى أنه قصد بعرض ذلك عليه، ولذلك جعل الله تعالى سيرهن إليه سعيّاً إذ هي مشية المجذّ الراغب فيما يمشي إليه، فكان من المبالغة أن رأى إبراهيم جذّها في قصده وإجابة دعوته، ولو جاءت مشياً لزالّت هذه القرينة، ولو جاءت طيراناً لكان ذلك على عرف أمرها، فهذا أغرب منه، ثم وقف عليه السلام على العلم بالعمة التي في ضمنها القدرة، وعلى الحكمة التي بها إتقان كل شيء.

﴿٢٤٠﴾ ﴿٢٤١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية لفظها بيان مثال بشرف النفقة في سبيل الله وبحسنها، وضمنها التحريض على ذلك، وهذه الآية في نفقة التطوع، وسبيل الله كثيرة، وهي جميع ما هو طاعة وعائد بمنفعة على المسلمين والملة، وأشهرها وأعظمها غناء الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا.

والحبة اسم جنس لكل ما يزرعه ابن آدم ويقتاته، وأشهر ذلك البر، وكثيراً ما يراد بالحب، ومنه قول المتلمس:

أَلَيْتَ حَبَّ الْعِرَاقِ الدُّهْرَ أَطْعَمَهُ

والحب يأكله في القرية السوس وقد يوجد في سنبل القمح ما فيه مائة حبة، وأما في سائر الحبوب

فأكثر ولكن المثال وقع بهذا القدر، وقد ورد القرآن بأن الحسنة في جميع أعمال البر بعشر أمثالها، واقتضت هذه الآية أن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمئة ضعف، ويثبت ذلك الحديث الصحيح.

واختلف العلماء في معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَضْعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ - فقالت طائفة: هي مبينة ومؤكدة لما تقدم من ذكر السبع المائة، وليس ثم تضعيف فوق سبعمئة. وقالت طائفة من العلماء: بل هو إعلام بأن الله تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمئة ضعف. وروي عن ابن عباس أن التضعيف ينتهي - لمن شاء الله - إلى ألفي ألف، وليس هذا بثابت الإسناد عنه، وقال ابن عمر: لما نزلت هذه الآية قال النبي عليه الصلاة والسلام: «وَبِزِدْ أُمْتِي، فَنَزَلَتْ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضْعِفَهُ لَهُ﴾»، فقال: رَبِّ زِدْ أُمْتِي، فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَجْزِي الْمُؤْتِينَ أَجْرَهُمْ بِضِعْفٍ جَسَّادٍ﴾».

﴿سُبْحَلَهُ﴾ فُتْعِلَةٌ من أسبل الزرع أي أرسل ما فيه، كما يسبل الثوب، والجمع سنابل.

وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ﴾ حذف مضاف تقديره: مثل إنفاق الذين، أو تقديره: كمثله ذي حبة.

وقال الطبري في هذه الآية: إن قوله: ﴿فِي كُلِّ سُبْحَلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ معناه إن وجد ذلك، وإلا فعلى أن نفرضه، ثم أدخل عن الضحاك أنه قال: ﴿فِي كُلِّ سُبْحَلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ معناه: كل سنبله أنبتت مائة حبة،

فجعل الطبري قول الضحاك نحو ما قال هو، وذلك غير لازم من قول الضحاك.

قال أبو عمرو الداني: قرأ بعضهم: ﴿مِائَةً﴾ بالنصب على تقدير: أنبتت مائة حبة.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ الآية، لما تقدم في الآية التي قبل هذه ذكر الإنفاق في سبيل الله على العموم بين في هذه الآية أن ذلك الحكم إنما هو لمن لم يُنْفِقْ إنفاقه مثلاً ولا أذى. وذلك أن المنفق في سبيل الله إنما يكون على أحد ثلاثة أوجه - إما أن يريد وجه الله تعالى ويرجو ثوابه، فهذا لا يرجو من المنفق عليه شيئاً ولا ينظر من أحواله في حال سوى أن يراعي استحقيقه، وإما أن يريد من المنفق عليه جزاء بوجه من الوجوه فهذا لم يرد وجه الله، بل نظر إلى هذه الحال من المنفق عليه، وهذا هو الذي متى أخلف ظنه من بإنفاقه وأذى، وإما أن ينفق مضطراً دافع غرم إما لِمَا تَتَّيَّ لِلْمَنْفَقِ عَلَيْهِ أو قرينة أخرى من اعتناء منفق ونحوه، فهذا قد نظر في حال ليست لوجه الله، وهذا هو الذي متى توبع وخرج بوجه من وجوه الحرج أذى.

فالمن والأذى يكشفان بمن ظهرا منه أنه إنما كان على ما ذكرناه من المقاصد، وأنه لم يخلص لوجه الله، فلهذا كان المن والأذى مبطلين للصدقة من حيث بين كل واحد منهما أنها لم تكن صدقة.

وذكر النقاش أنه قيل: إن هذه الآية نزلت في عثمان بن عفان، وقيل:

في علي بن أبي طالب، وقال مكي: في عثمان وابن عوف.

والمن: ذكر النعمة على معنى التعدد لها والتفريع بها - والأذى: السب والتشكي، وهو أعم من المن، لأن المن جزء من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وقوعه.

وذهب ابن زيد إلى أن هذه الآية هي في الذين لا يخرجون في الجهاد، بل ينفقون وهم قعود، وأن الأولى التي قبلها هي في الذين يخرجون بأنفسهم وأموالهم، قال: ولذا شرط على هؤلاء، ولم يشترط على الأولين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول نظر لأن التحكم فيه باد.

وقال زيد بن أسلم: «لئن ظننت أن سلامك ينقل على من أنفقت عليه تريد وجه الله فلا تسلم عليه»، وقالت له امرأة: «يا أبا أسامة، دلي على رجل يخرج في سبيل الله حقاً فإنهم إنما يخرجون ليأكلوا الفواكه، فإن عندي أسهماً وجعبة»، فقال لها: «لا بارك الله في أسهمك وجعبتك فقد أذيتهم قبل أن تعطيه».

وضمن الله الأجر للمنفق في سبيل الله، والأجر الجنة، ونفى عنه الخوف بعد موته لما يستقبل، والحزن على ما سلف من دنياه، لأنه يغتبط بآخرته.

﴿٢٦٢﴾ ﴿٢٦٣﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا إخبار جزم من الله تعالى أن القول المعروف وهو الدعاء والتأيس والترجى بما عند الله خير من صدقة هي في ظاهرها صدقة، وفي باطنها

لا شيء، لأن ذلك القول المعروف فيه أجر، وهذه لا أجر فيها.

قال المهدي وغيره: التقدير في إعرابه: قول معروف أولى، ومغفرة خير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا ذهاب برونق المعنى، وإنما يكون المقدر كالظاهر، والمغفرة الستر للمخلّة وسوء حالة المحتاج، ومن هذا قول الأعرابي - وقد سأل قوماً بكلام فصيح، فقال له قائل: ممن الرجل؟ فقال: «اللهم غفرأ، سوء الاكتساب يمنع من الانتساب»، وقال النقاش: يقال: معناه ومغفرة للسائل إن أغلظ أو جفا إذا حرم.

ثم أخبر تعالى بغناه عن صدقة من هذه حاله، وعاقبة أمره، وعن حلمه عمن يمكن أن يوقع هذا من عبده وإمهاله.

وقوله تعالى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا بُطْلَانًا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ الآية. العقيدة أن السيئات لا تبطل الحسنات، فقال جمهور العلماء في هذه الآية: إن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمن أو يؤذي فإنه لا يتقبل صدقته، وقيل: بل جعل الله للملك عليها أمانة، فهو لا يكتبها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أحسن لأن ما نتلقى نحن على المعقول من بني آدم فهو أن المان المؤذي ينص على نفسه أن نيته لم تكن لله عز وجل على ما ذكرناه قبل، فلم ترتب له صدقة، فهذا هو بطلان الصدقة بالمن والأذى، والمن والأذى في صدقة لا يبطل صدقة

غيرها، إذ لم يكشف ذلك على النية في السليمة، ولا قدح فيها.

ثم مثل الله هذا الذي يمن ويؤذي بحسب مقدمة نيته بالذي ينفق رياء لا لوجه الله، والرياء مصدر من فاعل من الرؤية، كأن الرياء تظاهر وتفاخر بين من لا خير فيه من الناس. قال المهدي: والتقدير: كإبطال الذي ينفق رياء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يحتل أن يريد الكافر الظاهر الكفر، إذ قد ينفق ليقال جواد، وليشني عليه بأنواع الشناء، ولغير ذلك، ويحتل أن يريد المنافق الذي يظهر الإيمان.

ثم مثل هذا الذي ينفق رياء بصفوان عليه تراب، فيظنه الظان أرضاً منبتة طيبة، كما يظن قوم أن صدقة هذا المرثي لها قدر أو معنى، فإذا أصاب الصفوان وإبل من المطر انكشف ذلك التراب، وبقي صلداً، فكذلك هذا المرثي إذا كان يوم القيامة، وحضرت الأعمال، انكشف سره، وظهر أنه لا قدر لصدقته ولا معنى.

فالمن والأذى يكشف عن النية، فيبطل الصدقة، كما يكشف الوابل الصفا فيذهب ما ظن أرضاً.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿رياء الناس﴾ بغير همز، ورويت عن عاصم.

والصفوان: الحجر الكبير الأملس، قيل: هو جمع واحدته صفوانة، وقال قوم: واحدته صفواة، وقيل: هو أفراد، وجمعه صفي، وأنكره المبرد، وقال: إنما هو جمع صفا،

ومن هذا المعنى الصفواء والصفاء. قال امرؤ القيس:

كَمَنْبِتٍ يَزُلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالٍ مَنِيهِ
كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمُنْتَزِلِ

وقال أبو ذؤيب:

حَسْبِيَ كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ
بِصَفَا الْمَشْفَرِ كُلِّ حِينٍ تُقْرَعُ
وَقَرَأَ الزهري، وابن المسيب:

﴿صَفْوَانٌ﴾ بفتح الفاء، وهي لغة.

والوابل: الكثير القوي من المطر وهو الذي يسيل على وجه الأرض. والصلد من الحجارة الأملس الصلب الذي لا شيء فيه، ويستعار للرأس الذي لا شعر فيه، ومنه قول رؤبة:

.....

بَرَأَقَ أَصْلَادُ الْجَبِينِ الْأَجَلَةَ
قال النقاش: الصلد: الأجرد بلغة هذيل.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْفَرُونَ﴾ يريد به الذين ينفقون رياء، أي: لا يقدرون على الانتفاع بثواب شيء من إفاقهم ذلك، وهو كسبهم - وجاءت العبارة بيقدر على معنى الذي، وقد انحمل الكلام قبل على لفظ الذي، وهذا هو مهيع كلام العرب، ولو انحمل أولاً على المعنى لقبج بعد أن يحمل على اللفظ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إما عموم يراد به الخصوص في الموافي على الكفر، وإما أن يراد به أنه لم يهدهم في كفرهم، بل هو ضلال محض، وإما أن يريد أنه لا يهديهم في صدقاتهم وأعمالهم وهم على الكفر.

وما ذكرته في هذه الآية من تفسير

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِنَيْكَاءٍ مَرْضَاتٍ لِلَّهِ
وَتَنْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَتَأْتَّى أَكْطَافَهَا ضَعْفَتٌ فَإِن لَّمْ يَمْسَسْهَا وَابِلٌ فَطُفِلَ
وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ
لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعُفَاءٌ
فَأَصَابَهَا غِمَصٌ رَّيْبِيَّةٌ نَارٌ فَاحَرَّتْ كَذَلِكَ يَبْيُحُّ اللَّهُ
لَكُمْ الْآلِهَاتِ لِمَلِكِكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ نِّعَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَا
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ مَنَّهُ تَنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ
بِتَاجِرِيهِ إِلَّا أَنْ تُخِصُّوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ
﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ
وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾
يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَوَّلَ مَا آتَيْنِي

تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبيتاً، وقال مجاهد، والحسن: معنى قوله: ﴿وَتَنْبِيئًا﴾ أي أنهم يشتبئون أين يضعون صدقاتهم، وقال الحسن: كان الرجل إذا هم بصدقة تثبت، فإن كان ذلك لله أمضاه، وإن خالطه شك أمسك، والقرول الأول أصوب لأن هذا المعنى الذي ذهب إليه مجاهد والحسن إنما عبارته ﴿وَتَنْبِيئًا﴾ فإن قال محتج: إن هذا من المصادر التي خرجت على غير المصدر

كقوله تعالى: ﴿وَتَنْبَلَّ إِلَيْهِ تَنْبِيلاً﴾ وكقوله: ﴿أَنْتَنُكَرُ مِنَ الْأَرْضِ تَنَاقًا﴾، فالجواب أن هذا لا يسوغ إلا مع ذكر المصدر، والإفصاح بالفعل المتقدم للمصدر، وأما إذا لم يقع إفصاح بفعل فليس لك أن تأتي بمصدر في غير معناه، ثم تقول: أخجله على فعل كذا وكذا لفعل لم يتقدم له ذكر. هذا مهيج كلام العرب فيما علمت.

وقال قتادة: ﴿وَتَنْبِيئًا﴾ معناه: وإحساناً من أنفسهم. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نحو القول الأول.

والجنة: البستان، وهي قطعة أرض نبتت فيها الأشجار حتى سترت الأرض، فهي من لفظ الجنين والجن والجنة وجن الليل.

والربوة: ما ارتفع من الأرض ارتفاعاً يسيراً معه في الأغلب كثافة

لغة، وتقويم معنى، فإنه مسند عن المفسرين، وإن لم تجيء ألفاظهم ملخصة في تفسير إبطال المن والأذى للصدقة.

﴿٢٦٥﴾ تفسير قوله عز وجل: من أساليب فصاحة القرآن أنه يأتي فيه ذكر نقيض ما تقدم ذكره، لتستبين حال التضاد بعرضها على الذهن، فلما ذكر الله صدقات القوم الذين لا خلاق لصدقاتهم، ونهى المؤمنين عن مواقة ما يشبه ذلك بوجه ما، عقب في هذه الآية بذكر نفقات القوم الذين تركوا صدقاتهم وهي على وجهها في الشرع، ف ضرب لها مثلاً.

وتقدير الكلام: ومثل نفقة الذين ينفقون كمثّل غراس جنة، لأن المراد بذكر الجنة غراسها. أو يقدر الإضمار في آخر الكلام، دون إضمار نفقة في أوله، كأنه قال: كمثّل غراس جنة.

﴿وَأَنْتَنَاءُ﴾ معناه: طلب، وإعراجه النصب على المصدر في موضع الحال، وكان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله، لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذي هو ﴿وَتَنْبِيئًا﴾ عليه، ولا يصح في ﴿تَنْبِيئًا﴾ أنه مفعول من أجله، لأن الإنفاق من أجل التثبيت. وقال مكي في «المشكل»: كلاهما مفعول من أجله وهو مردود بما بيّناه.

﴿وَمَرَسَاتٍ﴾ مصدر من رضي يرضى. وقال الشعبي، والسدي، وقاتدة، وابن زيد، وأبو صالح: ﴿وَتَنْبِيئًا﴾ معناه: وتيقناً، أي أن نفوسهم لها بصائر متأكدة، فهي

التراب وطيبه وتعمقه، وما كان كذلك فنباته أحسن.

ورياض الحزن ليست من هذا كما زعم الطبري، بل تلك هي الرياض المنسوبة إلى نجد لأنها خير من رياض تهامة، ونبات نجد أعطر، ونسيمه أبرد وأرق، ونجد يقال له: الحزن، وقلماً يصلح هواء تهامة إلا بالليل، ولذلك قالت الأعرابية: (زوجي كليل تهامة). وقال ابن عباس: «الربوة المكان المرتفع الذي لا تجري فيه الأنهار».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إنما أراد به هذه الربوة المذكورة في كتاب الله، لأن قوله تعالى: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ إلى آخر الآية يدل على أنها ليس فيها ماء جار، ولم يرد ابن عباس أن جنس الربا لا يجري فيها ماء، لأن الله تعالى قد

ذكر ربوة ذات قرار ومعين.

والمعروف في كلام العرب أن الربوة ما ارتفع عما جاوره سواء جرى فيها ماء أو لم يجر، وقال الحسن: الربوة الأرض المستوية التي لا تعلو فوق الماء، وهذا أيضاً أراد أنها ليست كالجبل والظرب ونحوه.

قال الخليل: الربوة أرض مرتفعة طيبة. وخص الله بالذكر التي لا يجري فيها ماء من حيث هي العرف في بلاد العرب فمثل لهم بما يحسنه كثيراً.

وقال السدي: ﴿يَرْبُوهَ﴾ أي يرباوه، وهو ما انخفض من الأرض، وهذه عبارة قلقة. ولفظ الربوة هو مأخوذ من ربا يربو إذا زاد، يقال: (ربوة) بضم الراء، وبها قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ونافع، وأبو عمرو. ويقال: (ربوة) بفتح الراء، وبها قرأ عاصم، وابن عامر، وكذلك خلفهم في سورة المؤمنين. ويقال: (ربوة) بكسر الراء، وبها قرأ ابن عباس فيما حكى عنه، ويقال: رباوة بفتح الراء والياء وألف بعدها، وبها قرأ أبو جعفر، وأبو عبد الرحمن، ويقال: رباوة بكسر الراء وبها قرأ الأشهب العقيلي.

و﴿أَنْتَ﴾ معناه: أعطت، والأكل: بضم الهمزة وسكون الكاف الثمر الذي يؤكل، والشيء المأكول من كل شيء يقال له: أكل، وإضافته إلى الجنة إضافة اختصاص، كسرج الدابة، وباب الدار، وإلا فليس الثمر مما تأكله الجنة.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿أَكْلُهَا﴾ بضم الهمزة وسكون

الكاف، وكذلك كل مضاف إلى مؤنث، وفارقهما أبو عمرو فيما أضيف إلى مذكر مثل ﴿أَكْلُهُ﴾ أو كان مضافاً إلى غير حكني مثل ﴿أَكْلِي﴾ خَطِيطٌ فَنَقَلَ أبو عمرو ذلك وخفاه.

وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي في جميع ما ذكرناه بالتثنية. ويقال: أكل وأكل بمعنى، وهو من أكل بمنزلة الطعنة من طعم، أي الشيء الذي يطعم ويؤكل، و﴿ضَمَّتَيْنِ﴾ معناه: اثنين، مما يُظَنُّ بها ويُحْزَرُ من مثلها، ثم أكد تعالى مدح هذه الربوة بأنها إن لم يصبها وابل فإن الطل يكفيها، وينوب مناب الوابل، وذلك لكرم الأرض.

والطل: المستدق من القطر الخفيف، قاله ابن عباس وغيره، وهو مشهور في اللغة، وقال قوم: الطل: الندى، وهذا تجوز وتشبيه، وقد روي ذلك عن ابن عباس. قال المبرد: تقديره: فطل يكفيها، وقال غيره: التقدير: فالذي أصابها طل، فشبه نمو نفقات هؤلاء المخلصين الذين يربي الله صدقاتهم، كثرية الفل والفصيل حسب الحديث بنمو نبات هذه الجنة بالربوة الموصوفة، وذلك كله بخلاف الصفوان الذي انكشف عنه ترابه بقي صلباً.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَلَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَمَبِئْسَ﴾ وعد ووعيد، وقرأ الزهري: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالياء، كأنه يريد الناس أجمع، أو يريد المنافقين فقط، فهو وعد محض.

﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾: حكى الطبري عن السدي أن هذه

الآية مثل آخر لنفقة الرباء، ورجح هو هذا القول، وحكى عن ابن زيد أنه قرأ قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَطْلُوْنَ صَدَقَتَكُمْ بِاللَّيْلِ وَالْأَذَى﴾ الآية. قال: ثم ضرب في ذلك مثلاً فقال: ﴿يُؤَدُّ أَحَدَكُمْ﴾ الآية، وهذا أبين من الذي رجح الطبري، وليست هذه الآية بمثل آخر لنفقة الرباء، هذا هو مقتضى سياق الكلام.

وأما بالمعنى في غير هذا السياق فتشبه حال كل منافق أو كافر عمل وهو يحسب أنه يحسن صنعا، فلما جاء إلى وقت الحاجة لم يجد شيئاً، وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصحاب النبي ﷺ عن هذه الآية فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال وهو غاضب: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال له ابن عباس: هذا مثل ضربه الله كأنه قال: أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير فإذا فني عمره واقترب أجله ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء، فرضي ذلك عمر.

وروي ابن أبي مليكة أن عمر تلا هذه الآية: ﴿يُؤَدُّ أَحَدَكُمْ﴾، وقال: هذا مثل ضرب للإنسان يعمل عملاً صالحاً حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عَمِلَ عَمَلٍ السوء. فهذا نظير يحمل الآية على كل ما يدخل تحت ألفاظها، وقال بنحو هذا مجاهد، وقتادة، والربيع، وغيرهم.

وخص النخيل والأعناب بالذكر لشرفها وفضلها على سائر الشجر، وقرأ الحسن: ﴿جَنَاتٍ﴾ بالجمع.

وقوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾، هو تحت بالنسبة إلى الشجر، والواو في قوله: ﴿وَأَسَاكِبُهُ﴾ واو الحال، وكذلك في قوله: ﴿لَكُمْ﴾، و﴿سُعْمَاءُ﴾ جمع ضعيف، وكذلك: ضعاف.

والإعصار: الريح الشديدة العاصف التي فيها إحراق لكل ما مرت عليه، يكون ذلك في شدة الحر، ويكون في شدة البرد، وكل ذلك من فيح جهنم ونفسها كما تضمن قول النبي ﷺ: «إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنْ الصَّلَاةِ، فَإِنْ شَدَّ الْحَرُّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، وَإِنْ النَّارُ اشْتَكَتْ إِلَى رَبِّهَا الْحَدِيثَ بِكَمَالِهِ، فَإِذَا أَنَّهُ نَارٌ عَلَى حَقِيقَةٍ وَإِلَّا فَهُوَ نَفْسُهَا يَوْجَدُ عَنْهَا كَأَثَرُهَا».

قال السدي: الإعصار: الريح والنار السموم، وقال ابن عباس: ريح فيها سموم شديدة، وقال ابن مسعود: إن السموم التي خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءاً من النار، يريد من نار الآخرة. وقال الحسن بن أبي الحسن: إعصار فيه نار: ريح فيها صر ويرد، وقاله الضحاك.

وفي المثل: - «إِنْ كُنْتَ رِيحاً فَقَدْ لَأَيْتَ إِعْصَاراً» - والريح إعصار لأنها تعصر السحاب، والسحاب معصرات إما أنها حوامل فهي كالمعصر من النساء وهي التي تكون عرضة للحمل، وإما لأنها تعصر بالرياح، وبهذا فسر عبيد الله بن الحسن العنبري القاضي.

وحكى ابن سيدة أن المعصرات فسرهما قوم بالرياح لا بالسحاب. وقال الزجاج: الإعصار: الريح الشديدة تصعد من الأرض إلى السماء وهي التي يقال لها الزوبعة.

قال المهدوي: قيل لها إعصار لأنها تلتف كالثوب إذا عصر، وهذا ضعيف. والإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى هذه الأمثال المبينة، و﴿تَلَكُّكُمْ﴾ ترج في حق البشر، أي إذا تأمل من يبين له هذا البيان رجع له التفكير، وكان أهلاً له.

وقال ابن عباس: ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها.

﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾:

هذا الخطاب هو لجميع أمة محمد ﷺ، وهذه صيغة أمر من الإنفاق. واختلف المتأولون - هل المراد بهذا الإنفاق الزكاة المفروضة أو التطوع؟ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعبيدة السلماني، ومحمد بن سيرين: هي في الزكاة المفروضة - نهى الناس عن إنفاق الرديء فيها بدل الجيد، وأما التطوع فكما للمرء أن يتطوع بقليل فكذلك له أن يتطوع بنازل في القدر، ودرهم زائف خير من ثمرة، فالأمر على هذا القول للوجوب.

والظاهر من قول البراء بن عازب، والحسن بن أبي الحسن، وقتادة أن الآية في التطوع. وروى البراء بن عازب وعطاء بن أبي رباح ما معناه أن الأنصار كانوا أيام الجداد يعلقون أفناء الثمر في جبل بين أسطواناتين في المسجد، فيأكل من ذلك فقراء المهاجرين، فعلق رجل حشفاً فراه رسول الله ﷺ فقال: «بِشْ مَا عَلَّقَ هَذَا»، فنزلت الآية، والأمر على هذا القول للندب، وكذلك نُدبوا إلى ألا يتطوعوا إلا بجيد مختار.

والآية تعم الوجهين لكن صاحب الزكاة يتلقاها على الوجوب، وصاحب التطوع يتلقاها على الندب.

وهؤلاء كلهم وجمهور المتأولين قالوا: معنى ﴿مِنْ طَيِّبَاتٍ﴾: من جيد ومختار ما كسبتم، وجعلوا الخبيث بمعنى الرديء والردالة.

وقال ابن زيد: معناه: من حلال ما كسبتم قال: وقوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ أي الحرام، وقول ابن زيد: ليس بالقوي من جهة نسق الآية، لا من معناه في نفسه.

وقوله: ﴿مِنْ طَيِّبَاتٍ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يحتمل ألا يقصد به لا الجيد ولا الحلال، لكن يكون المعنى كأنه قال: أنفقوا مما كسبتم، فهو حصص على الإنفاق فقط، ثم دخل ذكر الطيب تبییناً لصفة حسنة في المكسوب عاماً، وتقريراً للنعمة، كما تقول: أعطمت فلاناً من مشيع الخبز، وسقيته من مروي الماء، والطيب على هذا الوجه يعم الجودة والحل، ويؤيد هذا الاحتمال أن عبدالله بن مغفل قال: (ليس في مال المؤمن خبيث).

و﴿كَسَبْتُمْ﴾ معناه: كانت لكم فيه سعاية، إما بتعب بدني أو مقاوله في تجارة. والموروث داخل في هذا، لأن غير الوارث قد كسبه إذ الضمير في ﴿كَسَبْتُمْ﴾ إنما هو لنوع الإنسان أو المؤمنين.

﴿وَمِمَّا كَسَبْتُمْ﴾ معناه: كانت لكم فيه سعاية، إما بتعب بدني أو مقاوله في تجارة. والموروث داخل في هذا، لأن غير الوارث قد كسبه إذ الضمير في ﴿كَسَبْتُمْ﴾ إنما هو لنوع الإنسان أو المؤمنين.

و﴿تَيَمَّمُوا﴾ تعمدوا وتقصدوا،

يقال: تَيْمَّمَتِ الرجل كذا وكذا إذا قصده، ومنه قول امرئ القيس:

تَيْمَّمَتِ الْعَيْنُ الَّتِي عِنْدَ ضَارِحٍ
يَفِيءُ عَلَيْهَا الظَّلَّ عَرْمَضَهَا طَامِي
ومنه قول الأعشى:

تَيْمَّمْتُ قَيْسًا وَكَمْ دُونَهُ
مِنَ الْأَرْضِ مِنْ مَهْمَةٍ ذِي شَرِّ
ومنه التيمم الذي هو البذل من الوضوء عند عدم الماء، وهكذا قرأ جمهور الناس.

وروي البزي عن ابن كثير بتشديد التاء في أحد وثلاثين موضعاً أولها هذا الحرف.

وحكى الطبري أن في قراءة عبدالله بن مسعود: «وَلَا تَأْمَمُوا الْخَبِيثَ» مِنْ أَمَمْتُ إِذَا قَصَدْتُ، ومنه إمام البناء، والمعنى في القراءة تين واحد. وقرأ الزهري، ومسلم بن جندب: «وَلَا تَيْمَّمُوا» بضم التاء وكسر الميم، وهذا على لغة من قال: يمت الشيء، بمعنى قصده.

وفي اللفظة لغات - منها: أَمَمْتُ الشيء خفيفة الميم الأولى، وأَمَمْتُ بشدها، وَتَمَّمْتُ وَتَيْمَّمْتُ. وحكى أبو عمرو أن ابن مسعود قرأ: «وَلَا تَوَمَّمُوا» بهزمة بعد التاء، وهذه على لغة من قال: أَمَمْتُ مثقلة الميم، وقد مضى القول في معنى الخبيث.

وقال الجرجاني (في كتاب نظم القرآن): قال فريق من الناس: إن الكلام تم في قوله: «الْخَبِيثَ». ثم ابتدأ خيراً آخر في وصف الخبيث فقال: «يَتَذَكَّرُ» وَأَنْتُمْ لَا تَأْخُذُونَهُ إِلَّا إِذَا أَغْمَضْتُمْ، أي ساهلتم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأن هذا المعنى عتاب للناس وتقريع. والضمير في «يَتَذَكَّرُ» عائذ على «الْخَبِيثَ». قال الجرجاني: وقال فريق آخر: بل الكلام متصل إلى قوله: «يَتَذَكَّرُ» فالضمير في «يَتَذَكَّرُ» عائذ على «مَنْ كَتَبْتُمْ» ويجيء «تَتَذَكَّرُونَ» في موضع نصب على الحال وهو كقوله: أنا أخرج أجاهد في سبيل الله.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: «وَلَسْتُمْ بِأَعْيُنِي» إِلَّا أَنْ تَتُوبُوا وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْفُجَاءُ، فقال البراء بن عازب، وابن عباس، والضحاك، وغيرهم: معناه: ولستم بأخذيه في ديونكم وحقوقكم عند الناس إلا أن تساهلوا في ذلك، وتتركوا من حقوقكم، وتكروهونه ولا ترضونه، أي لا تفعلوا مع الله ما لا ترضونه لأنفسكم، وقال الحسن بن أبي الحسن: معنى الآية: «ولستم بأخذيه لو وجدتموه في السوق يباع إلا أن يهضم لكم من ثمنه».

وروي نحوه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: وهذان القولان يشبهان كون الآية في الزكاة الواجبة، وقال البراء بن عازب أيضاً: معناه: ولستم بأخذيه لو أهدى لكم إلا أن تغمضوا، أي تستحيوا من المهدي فتقبلوا منه ما لا حاجة لكم فيه، ولا قدر له في نفسه، وهذا يشبه كون الآية في التطوع، وقال ابن زيد: معنى الآية: ولستم بأخذيه الحرام إلا أن تغمضوا في مكروهه.

وقرأ جمهور الناس: «إِلَّا أَنْ تَتُوبُوا» بضم التاء، وسكون الغين،

وكسر الميم. وقرأ الزهري بفتح التاء، وكسر الميم مخففاً، وروي عنه أيضاً: «تَغْمِضُوا» بضم التاء وفتح الغين وكسر الميم مشددة.

وحكى مكي عن الحسن البصري: «تَغْمِضُوا» مشددة الميم مفتوحة، وقرأ قتادة بضم التاء وسكون الغين وفتح الميم مخففاً، قال أبو عمرو: معناه: إلا أن يغمض لكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذه اللفظة تنتزع إما من قول العرب: أغمض الرجل في أمر كذا إذا تساهل فيه، ورضي ببعض حقه وتجاوز، فمن ذلك قول الطرماح ابن حكيم:

لَمْ يَفْشَأْ بِالْوَثْرِ قَوْمٌ وَلِلْمُضْ
يَمِ أُنَاسٌ يَرْضَوْنَ بِالْإِغْمَاضِ
وإما أن تنتزع من تغميض العين، لأن الذي يريد الصبر على مكروه يغمض عنه عينيه، ومنه قول الشاعر:

إِلَى كَمْ وَكَمْ أَشْيَاءُ مِنْكَ تَرْبِيُنِي
أَغْمُضُ عَنْهَا لَسْتُ عَنْهَا بِذِي عَمَى؟

وهذا كالإغماض عند المكروه، وقد ذكرنا لنقاش هذا المعنى في هذه الآية، وأشار إليه مكي - وإما من قول العرب: أغمض الرجل إذا أتى غامضاً من الأمر، كما تقول: أغمض إذا أتى عمان، وأغرق إذا أتى العراق، وأنجد وأغور إذا أتى نجداً، والغور الذي هو تهامة، ومنه قول الجارية:

«وإن دسر أغمض».

فقراءة الجمهور تُخْرِجُ: على التجاوز، وعلى تغميض العين، لأن أغمض بمنزلة غمض، وعلى أنها

بمعنى حتى تأتوا غامضاً من التأويل والنظر في أخذ ذلك، إما لكونه حراماً على قول ابن زيد، وإما لكونه مُهدي أو مأخوذاً في دين على قول غيره.

وأما قراءة الزهري الأولى فمعناها: تهضموا سوماً من البائع منكم فيحطكم، قال أبو عمرو: معنى قراءة الزهري: حتى تأخذوا بنقصان، وأما قراءته الثانية فهذا مذهب أبي عمرو الداني فيها، ويحتمل أن يكون من تغميض العين.

وأما قراءة قتادة فقد ذكرت تفسير أبي عمرو لها، وقال ابن جني: معناها: توجدوا قد غمضتم في الأمر بتأولكم، أو بتساهلكم، وجريتم على غير السابق إلى النفوس، وهذا كما تقول: أحمدت الرجل، وجدته محموداً، إلى غير ذلك من الأمثلة.

ثم نبه تعالى على صفة الغنى، أي لا حاجة به إلى صدقاتكم، فمن تقرب وطلب مثوبة فليعمل ذلك بماله قدر، و﴿حَيْدٌ﴾ معناه: محمود في كل حال، وهي صفة ذات.

﴿٢٦٨﴾ - ﴿٢٦٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية وما بعدها وإن لم تكن أمراً بالصدقة فهي جالبة النفوس إلى الصدقة - بين عز وجل فيها نزغات الشيطان ووسوسته وعداوته. وذكر بشوابه هو لا رب غيره، وذكر بتفضله بالحكمة، وأثنى عليها، ونبه أن أهل العقول هم المتذكرون الذين يقيمون بالحكمة قدر الإنفاق في طاعة الله عز وجل وغير ذلك.

ثم ذكر علمه بكل نفقة ونذر، وفي

ذلك وعد ووعد، ثم بين الحكم في الإعلان والإخفاء، وكذلك إلى آخر المعنى.

والوعد في كلام العرب - إذا أطلق - فهو في الخير، وإذا قيد بالموعد ما هو، فقد يُقيد بالخير، وقد يقيد بالشر، كالبشارة - فهذه الآية مما قُيد الوعد فيها بمكره وهو الفقر.

والفحشاء: كل ما فحش، وفحش ذكره ومعاصي الله كلها فحشاء، وروى حيو عن رجل من أهل الرباط أنه قرأ ﴿الْفُقَر﴾ بضم الفاء، وهي لغة، وقد قال ابن عباس: في الآية اثنتان من الشيطان، واثنتان من الله تعالى.

وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً مِنْ ابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَلِإِعْذَارٍ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبٍ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَتَعَوَّذْ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلِكِ فَوَعْدٌ بِالْخَيْرِ، وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ»، ثم قرأ عليه السلام: ﴿الشَّيْطَانُ يَمِدُّكُمْ أَلْفَقَرَّ وَيَأْتِرُكُمْ﴾ الآية.

والمغفرة: هي الستر على عباده في الدنيا والآخرة، والفضل: هو الرزق في الدنيا والتوسعة فيه، والنعيم في الآخرة وبكل قد وعد الله تعالى. وذكر النقاش أن بعض الناس تأنس بهذه الآية أن الفقر أفضل من الغنى، لأن الشيطان إنما يبعد العبد من الخير وهو بتخويفه الفقر يبعد منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس في الآية حجة قاطعة إلا أن المعارضة بها قوية - وروي أن في التوراة: «عبدني، أنفق من رزقي

أبسط عليك فضلي، فإن يدي مبسوطة على كل يد مبسوطة». وفي القرآن مصداقه وهو: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الْكَافِرِينَ﴾.

و﴿يَسِّرْ﴾ لأنه وسع كل شيء رحمة وعلماً.

ثم أخبر تعالى عن نفسه أنه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ أي يعطيها لمن يشاء من عباده، واختلف المتأولون في الحكمة في هذا الموضع - فقال السدي: الحكمة: النبوة، وقال ابن عباس: هي المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وعربيته، وقال قتادة: الحكمة: الفقه في القرآن، وقاله مجاهد، وقال مجاهد أيضاً: الحكمة: الإصابة في القول والفعل، وقال ابن زيد وأبو زيد بن أسلم: الحكمة: العقل في الدين، وقال مالك: الحكمة: المعرفة في الدين، والفقه فيه، والاتباع له، وروى عنه ابن القاسم أنه قال: الحكمة التفكير في أمر الله، والاتباع له، وقال أيضاً: الحكمة: طاعة الله، والفقه في الدين والعمل به، وقال الربيع: الحكمة: الخشية. ومنه قول النبي عليه السلام: «رأس كل شيء خشية الله تعالى». وقال إبراهيم: الحكمة: الفهم، وقال زيد بن أسلم، وقال الحسن: الحكمة: الورع.

وهذه الأقوال كلها ما عدا قول السدي قريب بعضها من بعض، لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتقان في عمل أو قول - وكتاب الله: حكمة - وسنة نبيه:

يفعله المرء تبرعاً، وما يفعله بعد إلزامه لنفسه، ويقال: نذر الرجل كذا إذا التزم فعله ينذر بضم الذال وينذر بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّكَفَّ اللَّهُ بِمَوْلَى﴾ قال مجاهد: معناه: يحصيه، وفي الآية وعد ووعد، أي من كان خالص النية فهو مثاب، ومن أنفق رياءً أو لمعنى آخر مما يكشفه المن والاذى ونحو ذلك فهو ظالم، يذهب فعله باطلاً، ولا يجد ناصراً فيه، ووجد الضمير في ﴿يَسْمَعُ﴾ وقد ذكر شيئين

من حيث أراد ما ذكر أو نص.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا
الْمَدَنِيَّةَ﴾ الآية. ذهب جمهور
المفسرين إلى أن هذه الآية هي في
صدقة التطوع، قال ابن عباس:
«جعل الله صدقة السرف في التطوع
تفضل علانيتهما، يقال: بسبعين
ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة
علانيتهما أفضل من سرها يقال:
بخمسة وعشرين ضعفاً، قال:
وكذلك جميع الفرائض والتوافل في
الأشياء كلها».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: **وَيُقَوَّى** ذلك قول النبي ﷺ: «**صلاة الرجل في بيته أفضل من صلاته في المسجد إلا المكتوبة**»، وذلك أن الفرائض لا يدخلها رياء، والتوافل عرضة لذلك.

وقال سفيان الثوري: هذه الآية في

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّهُ
يَسْمَعُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٧٧﴾ إِنْ
الْصَّدَقَاتُ فَبِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تَحْفُوها وَتُؤْتُوها
فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَكَفَّرَ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٧٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا
فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ
لَا تُنْفِقُونَ ﴿١٧٩﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصُوا فِي سَمْعِ
لَا يَسْتَطِيعُونَ حَرْبًا وَلا يَأْتُوا بِالْأَمْوَالِ
الْحَاثِلَةِ أَنْفُسَاءَ مِنَ التَّعْطِفِ يَعْرِفُهُمْ
لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا
فَأَنَّ اللَّهَ بِهٖ عَلِيمٌ ﴿١٨٠﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
بِالْأَيْدِي وَاللِّسَانِ سِرًّا وَوَعْلَانِ
رَبُّهُمْ وَلَا تَخَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

حكمة، وكل ما ذكر فهو جزء من
الحكمة التي هي الجنس - وقرأ
الجمهور: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾
على بناء الفعل للمفعول، وقرأ
الزهري ويعقوب: ﴿وَمَنْ يُوتِ﴾
بكسر التاء على معنى، ومن
يُؤْتَ الله الحكمة، فَعَنْ مفعول أول
مقدم، والحكمة مفعول ثان، وقرأ
الأخفش: ﴿وَمَنْ يُؤْتِيهِ الْحِكْمَةَ﴾،
وقرأ الربيع بن خثيم: ﴿تُؤْتِي
الْحِكْمَةَ مَنْ تَشَاءُ﴾ بالتاء في
﴿تُؤْتِي﴾، وفي ﴿تَشَاءُ﴾ منقوطة من
فوق، ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ بالياء.

وباقى الآية تذكر بيّنة وإقامة لهمم
العَقْلَة. والألباب: العقول،
واحداها: لُب.

٢٧٥ - ٢٧٦ تفسیر قوله عز وجل:

كانت النذور من سيرة العرب ،
تُكثر منها ، فذكر تعالى النوعين : ما

التطوع، وقال يزيد بن أبي حبيب: **إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ فِي الصَّدَقَةِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَكَانَ يُأْمَرُ بِقِسْمِ الزَّكَاةِ فِي السَّرِّ - وَهَذَا مُرَدُّدٌ لَا سِيَّمَا عِنْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، فَقَدْ قَالَ الطَّبْرِيُّ: أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى أَنَّ إِظْهَارَ الرَّاجِبِ أَفْضَلَ، قَالَ الْمَهْدِيُّ: وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْآيَةِ فَرْضُ الزَّكَاةِ، وَمَا تَطَوَّعَ بِهِ، فَكَانَ الْإِخْفَاءُ فِيهِمَا أَفْضَلَ فِي مَدَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ سَاءَتْ ظَنُونُ النَّاسِ بَعْدَ ذَلِكَ فَاسْتَحْسَنَ الْعُلَمَاءُ إِظْهَارَ الْفَرْضِ ثَلَاثًا يَظُنُّ بِأَحَدِ الْمَنَعِ، وَهَذَا الْقَوْلُ مُخَالِفٌ لِلْآثَارِ، وَيَشْبَهُهُ فِي زَمَانِنَا أَنْ يُحَسِّنَ التَّسْتَرُّ بِصَدَقَةِ الْفَرْضِ فَقَدْ كَثُرَ الْمَنَاعُ لَهَا وَصَارَ إِخْرَاجُهَا عَرَضَةً لِلرَّيَاءِ - وَقَالَ الْقَاشِ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَسَخَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ أَزْوَاجَهُمْ بِأَنفُسِهِمْ وَأَتْلَافَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً...﴾ الآية.**

وقوله: ﴿فَنِيَمًا مِّنْ﴾ ثناء على إبداء الصدقة، ثم حكم أن الإخفاء خير من ذلك الإبداء.

واختلف القراء في قوله: ﴿فَنِيْعًا
مِّنْ﴾، فقرأ نافع في غير رواية ورش،
وأبو عمرو، وعاصم في رواية أبي
بكر، والمفضل: ﴿فَنِيْعًا﴾ بكسر
النون وسكون العين. وقرأ عاصم في
رواية حفص، وابن كثير، ونافع في
رواية ورش: ﴿فَنِيْعًا﴾ بكسر النون
والعين، وقرأ ابن عامر، وحمزة
والكسائي: ﴿فَنِيْعًا﴾ بفتح النون
وكسر العين وكلهم شدد الميم.

قال أبو علي: من قرأ بسكون العين لم يستقم قوله، لأنه جمع بين ساكنين، الأول منهما ليس بحرف

مدّ ولين، وإنما يجوز ذلك عند النحويين إذا كان الأول حرف مدّ، إذ المد يصير عوضاً من الحركة، وهذا نحو: دابة وضوال، وشبهه، ولعل أبا عمرو أخفى الحركة واختلسها، كأخذه بالإخفاء في (باريكم - ويأمركم) فظن السامع الإخفاء إسكاناً للطف ذلك في السمع وخفائه.

وأما من قرأ نعيمًا بكسر النون والعين فحجته أن أصل الكلمة نعيم بكسر الفاء من أجل حرف الحلق، ولا يجوز أن يكون ممن يقول: هذا نغم، ألا ترى أن من يقول: «هذا قدم ملك»، فيدغم «هؤلاء قوم ملك» و«جسم ماجد».

وقال سيبويه: «نعيما» بكسر النون والعين ليس على لغة من قال: «نغم» فأسكن العين، ولكن على لغة من قال: «نغم» فحرك العين، وحدثنا أبو الخطاب أنها لغة هزيل، وكسرهما - كما قال - لعب ولو كان الذي قال: «نعيما» ممن يقول: «نغم» بسكون العين لم يجز الإدغام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يشبه أن هذا يمتنع لأنه يسوق إلى اجتماع ساكنين. قال أبو علي: وأما من قرأ: «نعيما» بفتح النون وكسر العين فإنما جاء بالكلمة على أصلها وهو نعيم، ومنه قول الشاعر:

ما أقلت قدمي إنهم
نعم الساعون في الأمر الميسر
ولا يجوز أن يكون ممن يقول قبل الإدغام: «نغم» بسكون العين، وقال المهدوي: وذلك جائز

محتمل، وتكسر العين بعد الإدغام لالتقاء الساكنين.

قال أبو علي: و(ما) من قوله: «فَيَنبَأُ» في موضع نصب، وقوله: «مِنْ» تفسير للفاعل المضمر قبل الذكر، والتقدير: نعم شيئاً يبدؤها، وقوله: والإبداء هو المخصوص بالمدح إلا أن المضاف حذف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وبذلك على هذا قوله: «فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» أي الإخفاء خير، فكما أن الضمير هنا للإخفاء لا للصدقات، فكذلك أولاً الفاعل هو الإبداء وهو الذي اتصل به الضمير فحذف الإبداء، وأقيم ضمير الصدقات مقامه.

واختلف القراءة في قوله تعالى: «وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ»، فقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر: «وَتَكْفُرُ» بالنون ورفع الراء، وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: «وَتَكْفُرُ» بالنون والجزم في الراء، وزوي مثل ذلك أيضاً عن عاصم وقرأ ابن عامر: «وَتَكْفُرُ» بالياء ورفع الراء، وقرأ ابن عباس: «وَتَكْفُرُ» بالتاء وكسر الفاء وجزم الراء، وقرأ عكرمة: «وَتَكْفُرُ» بالتاء وفتح الفاء وجزم الراء، وقرأ الحسن: «وَتَكْفُرُ» بالياء وجزم الراء، وزوي عن الأعمش أنه قرأ «وَيَكْفُرُ» بالياء ونصب الراء، وقال أبو حاتم: قرأ الأعمش: «يَكْفُرُ» بالياء دون واو قبلها ويجزم الراء.

وحكى المهدوي عن ابن هرمز أنه قرأ: «وَتَكْفُرُ» بالتاء ورفع الراء، وحكى عن عكرمة وشهر بن حوشب أنهما قرآ بتاء ونصب الراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فما كان من هذه القراءات بالنون فهي نون العظمة، وما كان منها بالتاء فهي الصدقة فاعلة إلا ما روي عن عكرمة بفتح الفاء فإن التاء في تلك القراءة إنما هي للسيئات. وما كان منها بالياء فالله تعالى هو المكفر - والإعطاء في خفاء هو المكفر أيضاً كما ذكره مكي، وأما رفع الراء فهو على وجهين: أحدهما أن يكون الفعل خبر ابتداء تقديره: ونحن نكفر، أو: وهي تكفر، أعني الصدقة، أو والله يكفر، والثاني: القطع والاستئناف، وألا تكون الواو العاطفة للاشتراك لكن لعطف جملة على جملة. وأما الجزم في الراء فإنه حمل للكلام على موضع قوله تعالى: «فَهُوَ خَيْرٌ» إذ هو في موضع جزم جواباً للشرط كأنه قال: وإن تخفوها يكن أعظم لأجركم، ثم عطفه على هذا الموضع، كما جاءت قراءة من قرأ: «مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ لَمٍّ وَيَلْزَمُ» بجزم الراء وأمثلة هذا كثيرة.

وأما نصب الراء فعلى تقدير (أن) وتأمل، وقال المهدوي: هو مشبه بالنصب في جواب الاستفهام، إذ الجزاء يجب به الشيء لوجوب غيره كالاستفهام. والجزم في الراء أفصح هذه القراءات، لأنها تؤذن بدخول التكفير في الجزاء، وكونه مشروطاً إن وقع الإخفاء، وأما رفع الراء فليس فيه هذا المعنى.

و«مِنْ» في قوله: «مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ» للتبعيض المحض، والمعنى في ذلك متمكن، وحكى الطبري عن فرقة

أنها قالت: ﴿وَيَنْ﴾ زائدة في هذا الموضع، وذلك منهم خطأ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ خَيْرٌ﴾ وغد ووعيد.

﴿٢٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي عن سعيد بن جببر في سبب هذه الآية: أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ: «لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم»، فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من أهل دين الإسلام.

وذكر النقاش أن النبي عليه السلام أتى بصدقات فجاءه يهودي فقال: أعطني، فقال النبي ﷺ: «ليس لك من صدقة المسلمين شيء» فذهب اليهودي غير بعيد، فنزلت الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ مَدْرَهُمْ﴾ فدعاه رسول الله ﷺ فأعطاه، ثم نسخ الله ذلك بآية الصدقات.

وروي عن ابن عباس أنه كان ناس من الأنصار لهم قرابات في بني قريظة والنضير، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة في أن يسلموا إذا احتاجوا فنزلت الآية بسبب ذلك.

وحكى بعض المفسرين أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أرادت أن تصل جدها أبا حنيفة، ثم امتنعت من ذلك لكونه كافراً فنزلت الآية في ذلك.

وذكر الطبري أن مقصد النبي ﷺ بمنع الصدقة إنما كان ليسلموا ويدخلوا في الدين، فقال الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ مَدْرَهُمْ﴾.

وهذه الصدقة التي أبيحت عليهم

حسبما تضمنته هذه الآثار إنما هي صدقة التطوع، وأما المفروضة فلا يجزي دفعها لكافر، وهذا الحكم متصور للمسلمين اليوم مع أهل ذمتهم ومع المُشْرَاقِينَ من الحريين.

قال ابن المنذر: أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم أن الذمي لا يُعطى من زكاة الأموال شيئاً، ثم ذكر جماعة ممن نص على ذلك ولم يذكر خلافاً - وقال المهدي: ورخص للمسلمين أن يعطوا المشركين من قراباتهم من صدقة الفريضة بهذه الآية، وهذا مردود عندي.

والهedy الذي ليس على محمد ﷺ هو خلق الإيمان في قلوبهم، وأما الهدي الذي هو الدعاء فهو عليه، وليس بمراد في هذه الآية، ثم أخبر تعالى أنه هو يهدي من يشاء أي يرشده، وفي هذا رد على القدورية وطوائف المعتزلة.

ثم أخبر أن نفقة المرم تأجراً إنما هي لنفسه، فلا يراعي حيث وقعت. ثم بين تعالى أن النفقة المعتد بها المقبولة إنما هي ما كان ابتغاء وجه الله، هذا أحد التأويلات في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لِيُثَبِّتَ اللَّهُ وَجْهَ اللَّهِ﴾، وفيه تأويل آخر، وهو أنها شهادة من الله تعالى للصحابه أنهم إنما ينفقون ابتغاء وجهه، فهو خيرٌ منه لهم فيه تفضيل، وعلى التأويل الآخر هو اشتراط عليهم، ويتناول الاشتراط غيرهم من الأمة. ونصب قوله: ﴿لِيُثَبِّتَ اللَّهُ﴾ هو على المفعول من أجله.

ثم ذكر تعالى أن ثواب الإنفاق يُؤْفَى إلى المنفقين، والمعنى في الآخرة ولا يبخسون منه شيئاً، فيكون ذلك البخس ظلماً لهم، وهذا هو بيان قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾.

والخير في هذه الآية المال، لأنه اقترن بذكر الإنفاق، فهذه القرينة تدل على أنه المال، ومتى لم يقتصر بما يدل على أنه المال فلا يلزم أن يكون بمعنى المال نحو قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَشْتَرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّكَ دَرَّةَ حَبِيرٍ بِسَرٍّ﴾ إلى غير ذلك. وهذا الذي قلناه تحرز من قول عكرمة: «كل خير في كتاب الله فهو المال».

﴿٢٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه اللام في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلقة بمحذوف تقديره: الإنفاق أو الصدقة للفقراء.

وقال مجاهد، والسدي، وغيرهما: المراد بهؤلاء الفقراء فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم، ثم تتناول الآية كل من دخل تحت صفة الفقر غابر الدهر، وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر لأنه لم يكن هناك سواهم، لأن الأنصار كانوا أهل أموال وتجارة في قطرهم.

ثم بين الله تعالى من أحوال أولئك الفقراء المهاجرين ما يوجب الحنو عليهم بقوله: ﴿الَّذِينَ أَهْبَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والمعنى: حبسوا ومنعوا، وذهب بعض اللغويين إلى أن أخصر وأخصر بمعنى واحد من الحبس والمنع سواء كان ذلك بعدد أو بمرض ونحوه من الأعذار، حكاه ابن سيدة وغيره.

وفسر السدي هنا الإحصار بأنه بالعدو، وذهب بعضهم إلى أن أحصر إنما يكون بالمرض والأعداء، وخُصِر بالعدو، وعلى هذا فسر ابن زيد، وقتادة، ورجحه الطبري، وتأول في هذه الآية أنهم هم حاسبوا أنفسهم بريقة الدين، وقصد الجهاد، وخوف العدو، إذ أحاط بهم الكفر فصار خوف العدو عذراً أحصروا به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا متجه كأن هذه الأعداء أحصرتهم، أي جعلتهم ذوي حصر كما قالوا: قبره أدخله في قبره، وأقبره جعله ذا قبر، فالعدو وكل محيط يُحصِر، والأعداء المانعة تُحصِر بضم التاء وكسر الصاد أي تجعل المرأة كالمحاط به، وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يحتمل الجهاد، ويحتمل الدخول في الإسلام، واللفظ يتناولهما.

والضرب في الأرض: هو التصرف في التجارة، وضرب الأرض هو المشي إلى حاجة الإنسان في البراز، وكانوا لا يستطيعون الضرب في الأرض لكون البلاد كلها كفوراً مطبقاً، وهذا في صدر الهجرة، فقلتهم تمنع من الاكتساب بالجهاد، وإنكار الكفار عليهم إسلامهم يمنع من التصرف في التجارة، فبقوا فقراء إلا أنهم من الانقباض وترك المسألة والتوكل على الله بحيث يحسبهم الجاهل بباطن أحوالهم أغنياء.

والتعفف: تفعل بتاء مبالغة، من عَفَّ عن الشيء إذا أمسك عنه، وتنزه عن طلبه، وبهذا فسر قتادة وغيره.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿يَحْسِبُهُمْ﴾ بكسر السين، وكذلك هذا الفعل في كل القرآن، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة: ﴿يَحْكِبُهُمْ﴾ بفتح السين في كل القرآن، وهما لغتان في (يحسب) كعهد يعهد ويعهد، بفتح الهاء وكسرهما في حروف كثيرة أنت كذلك، قال أبو علي: فتح السين في (يحسب) أقيس، لأن العين من الماضي مكسورة، فبابها أن تأتي في المضارع مفتوحة، والقراءة بالكسر حسنة لمجيء السمع به، وإن كان شاذاً عن القياس.

و﴿يَتَّقُونَ﴾ في قوله: ﴿يَتَّقُونَ﴾، لا ابتداءً للغاية، أي: من تعففهم ابتدأت محسبته، وليست لبيان الجنس، لأن الجاهل بهم لا يحسبهم أغنياء غناء تعفف، وإنما يحسبهم أغنياء غنى مال، ومحسبته من التعفف ناشئة، وهذا على أنهم متعففون عفة تامة عن المسألة، وهو الذي عليه جمهور المفسرين، لأنهم قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ إِلْكَائاً﴾ المعنى: لا يسألون الناس البتة، وتحتمل الآية معنى آخر ﴿يَتَّقُونَ﴾ فيه لبيان الجنس سنذكره بعد.

والسيما مقصورة: العلامة، وبعض العرب يقول: السيمياء بزيادة ياء وبالمد، ومنه قول الشاعر:

.....

لَهُ سِيمِيَاءٌ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرِ
واختلف المفسرون في تعيين هذه السيمياء التي يعرف بها هؤلاء المتعففون - فقال مجاهد: هي

التخشع والتواضع، وقال السدي، والربيع: هي جهد الحاجة وقصف الفقر في وجوهمهم، وقلة النعمة، وقال ابن زيد هي رثة الحال. وقال قوم - وحكاها مكي -: هي أثر السجود، وهذا أحسن، وذلك لأنهم كانوا متفرغين متوكلين، لا شغل لهم في الأغلب إلا الصلاة، فكان أثر السجود عليهم أبداً.

والإلحاف والإلحاح بمعنى واحد، وقال قوم: هو مأخوذ من ألحف الشيء إذا غطاه وعمه بالتغطية، ومنه إلحاف، ومنه قول ابن أحر:

يَظَلُّ يَحْفُهُنَّ بِقَفَقْفَيْنِهِ
وَيُلْجِفُهُنَّ مَقَافاً تُخِينَا

يصف ذكر نعام يحضن بياضاً، فكان هذا السائل المُلِحُّ يعم الناس بسؤاله فيلحفهم ذلك. وذهب الطبري، والزجاج، وغيرهما إلى أن المعنى: لا يسألون البتة، والآية تحتمل المعنيين: ففي السؤال جملة، ونفي الإلحاف فقط، أما الأول فعلى أن يكون التعفف صفة ثانية لهم، ويحسبهم الجاهل بفقرهم لسبب تعففهم أغنياء من المال، وتكون ﴿يَتَّقُونَ﴾ لا ابتداءً للغاية، ويكون قوله: ﴿لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ إِلْكَائاً﴾ لم يرد به أنهم يسألون غير إلحاف، بل أريد به التنبيه على سوء حالة من يسأل إلحافاً من الناس، كما تقول: «هذا رجل خير لا يقتل المسلمين»، فقولهم: «خير» قد تضمن أنه لا يقتل ولا يعصي ولو بأقل من ذلك، ثم نبهت بقولك: «لا يقتل المسلمين» على قبح فعل غيره ممن يقتل، وكثيراً ما يقال مثل هذا إذا كان المنبه عليه

بوجود الثاني، أي ليس ثم منار فإذا لا يكون ابتداء بمنار، وليس ثم قدم فإذا لا يكون عفاء، وليس ثم جور فإذا لا يكون خوف. وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّقُونَ النَّاسَ﴾ ^(٢٧٤) لا يترتب فيه شيء من هذا، لأن حرف النفي دخل على أمر عام للإلحاف وغيره، ثم خصص بقوله: ﴿لَا يَتَّقُونَ﴾ ^(٢٧٤) جزءاً من ذلك العام فليس بعدم الإلحاف ينتفي السؤال، وبيت الشعر ينتفي فيه الأول بعدم الثاني إذا دخل حرف النفي فيه على شيء متعلق وجوده بوجود الذي يراد أنه معدوم، والسؤال ليس هكذا مع الإلحاف، بل الأمر بالعكس إذ بعدم الإلحاف منهم ويبقى لهم سؤال لا إلحاف فيه.

ولو كان الكلام: «لا يلحفون الناس سؤالاً» لقرب الشبه بالآيات المتقدمة. وكذلك لو كان بعد: «لا يسألون شيء إذا عدم عدم السؤال» كأنك قلت: تكسباً أو نحوه - لصح الشبه، والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يَبْذُرُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ^(٢٧٥) مخض أي يعلمه ويخصيه ليجازي عليه ويشب.

﴿٢٧٥﴾ - ﴿٢٧٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت له أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية، وقال ابن جريج: نزلت الآية في رجل فعل ذلك ولم يسم علماً ولا غيره، وقال ابن عباس

أي ليس ثم منار فليس يكون ابتداء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إن كان الزجاج أراد ألا يكون منهم سؤال البتة، فذلك لا تعطيه الألفاظ التي بعد «لا»، وإنما ينتفي السؤال إذا ضبط المعنى من أول الآية على ما قدمناه. وإن كان أراد: لا يكون منهم سؤال إلحاف فذلك نص الآية.

وأما تشبيه الآية ببيت امرئ القيس فغير

صحيح، وذلك أن قوله:

عَلَى لَا حِبَّ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ

.....

وقول الآخر:

قِفْ بِالطُّلُولِ الَّتِي لَمْ يُغْفِهَا الْقِدَمُ

.....

وقول الآخر:

وَمَنْ خَفْتُ مِنْ جُزْؤِهِ فِي الْقَضَاءِ
فَمَا خَفْتُ جُزْؤَكَ يَا عَافِيَةَ
وما جرى مجراه ترتيب يسبق منه أنه لا يهتدى بالمنار وإن كان المنار موجوداً. فلا ينتفي إلا المعنى الذي دخل عليه حرف النفي فقط، وكذلك ينتفي العفاء وإن وجد القدم، وكذلك ينتفي الخوف وإن وجد الجور، وهذا لا يترتب في الآية.

ويجوز أن يريد الشعراء أن الثاني معدوم فلذلك أدخلوا على الأول حرف النفي إذ لا يصح الأول إلا

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٤﴾ يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَالَّذِي لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَرَوْا مَا بَيْنِي وَالرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٧﴾ إِنْ لَمْ تَعْمَلُوا فَاذْنُوبُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُدُّهُنَّ أَمْوَالُكُمْ لَا تَنْظِلُمُونَ وَلَا تَرْجِعُونَهَا ﴿٢٧٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ زَكَاةٌ فَغَنِيَةٌ فَإِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا تُرْجِعُونَ فَيُدْخِلُهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَحِيَّتٍ تَحِيَّتِ كُلِّ نَفْسٍ مَأْكُوسَةٍ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

موجوداً في القضية، مشاراً إليه في نفس المتكلم والسامع. وسؤال الإلحاف لم تخل منه مدة وهو مما يكره، فلذلك نه عليه، وأما المعنى الثاني فعلى أن يكون التعفف داخلياً في المحسبة، أي أنهم لا يظهر لهم سؤال، بل هو قليل.

وبإجمال فالجاهل به مع علمه بفقرهم يحسبهم أغنياء عفاً، ف«ينك» لبيان الجنس على هذا التأويل، ثم نفى عنهم سؤال الإلحاف وبقي غير الإلحاف مقررأ لهم حسب ما يقتضيه دليل الخطاب، وهذا المعنى في نفي الإلحاف فقط هو الذي تقتضيه ألفاظ السدي.

وقال الزجاج رحمه الله: المعنى: لا يكون منهم سؤال فلا يكون إلحاف، وهذا كما قال امرؤ القيس: عَلَى لَا حِبَّ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ

أيضاً: نزلت هذه الآية في علف الخيل، وقال عبدالله بن بشر الغافقي، وأبو ذر، وأبو أسامة، والأوزاعي، وأبو الدرداء. قالوا: هي في علف الخيل المرتبطة في سبيل الله، وقال قتادة: هذه الآية في المنفقين في سبيل الله من غير تبذير ولا تقتير.

والآية - وإن كانت نزلت في علي بن أبي طالب - فمعناها يتناول كل من فعل فعله، وكل مشاء بصدقه في الظلم إلى مظنة الحاجة. وأما علف الخيل والنفقة عليها فإن ألفاظ الآية تتناولها تناولاً محكماً، وكذلك المنفق في الجهاد، المباشر له إنما يجيء إنفاقه على رتب الآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان المؤمنون يعملون بهذه الآيات من قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَأُصَدِّقْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فلما نزلت براءة بتفصيل الزكاة قصروا عليها. وقد تقدم القول على نفي الخوف والحزن.

والفاء في قوله: ﴿فَلَهُمْ﴾ دخلت لما في ﴿الَّذِينَ﴾ من الإبهام، فهو يشبه بإبهامه الإبهام الذي في الشرط، فحسنت الفاء في جوابه كما تحسن في الشرط، وإنما يوجد الشبه إذا كان ﴿الَّذِي﴾ موصولاً بفعل، وإذا لم يدخل على ﴿الَّذِي﴾ عامل يغير معناه. فإن قلت: «الذي أبوه زيد هو عمرو» فلا تحسن الفاء في قولك: «فهو» - بل تلبس المعنى، وإذا قلت: «ليت الذي جاءك جاءني» لم يكن للفاء - مدخل في المعنى. وهذه الفاء المذكورة إنما تجيء مؤكدة للمعنى،

وقد يستغنى عنها إذا لم يقصد التأكيد كقوله بعد: ﴿لَا يَوْمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ الآية. الربا: هو الزيادة، وهو مأخوذ من: رَبًا يَرَبُو إِذَا تَمَّا وزاد على ما كان. وغالبه ما كانت العرب تفعله من قولها للغريم: أتقضي أم تربني؟ فكان الغريم يزيد في عدد المال ويصبر الطالب عليه، ومن الربا البين التفاضل في النوع الواحد لأنها زيادة، وكذلك أكثر البيوع المنوعة إنما نجد منعها لمعنى زيادة، إما في عين مال، وإما في منفعة لأحدهما من تأخير ونحوه.

ومن البيوع ما ليس فيه معنى الزيادة، كبيع الشمرة قبل بُدُو صلاحها، وكالبيع ساعة النداء يوم الجمعة، فإن قيل لفاعلهما أَكَلُ رِبَاً، فتجوز وتشبه.

والربا من ذوات الواو، وتشبيته: رِبَاً عند سيويه، ويكتب بالألف، قال الكوفيون: يكتب ويشي بالياء لأجل الكسرة التي في أوله، وكذلك يقولون في الثلاثي من ذوات الواو إذا انكسر الأول أو انضم نحو «ضحى»، فإن كان مفتوحاً نحو صفاً فكما قال البصري.

ومعنى هذه الآية: الذين يكسبون الربا ويفعلونه، وقصد إلى لفظة الأكل، لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال، ولأنها دالة على الجشع، فأقيم هذا البعض من توابع الكسب مقام الكسب كله، فاللباس والسكنى والادخار والإنفاق على العيال وغير ذلك داخل كله في قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنه، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة، والربيع، والضحاك، والسدي، وابن زيد: معنى قوله: ﴿لَا يَوْمُونَ﴾ من قبورهم في البعث يوم القيامة، وقال بعضهم: يجعل معه شيطان يخنقه، وقالوا كلهم: يبعث كالمجنون عقوبة له وتمقيتاً عند جمع المحشر، وَيَقْوِي هذا التأويل المجمع عليه أَنَّ في قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿لَا يَوْمُونَ﴾ يوم القيامة إلا كما يقوم المجنون، وأما ألفاظ الآية فكانت تحتل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون، لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه، وهذا كما نقول لمسرع في مشيه مخلط في هيئة حركاته إما من فزع أو غيره: قد جن هذا. وقد شبه الأعشى ناقته في نشاطها بالجنون في قوله:

وَتَضْبِيعُ مِنْ غَبِّ السُّرَى وَكَأَنَّهَا
أَلَمَ بِهَا مِنْ طَائِفِ الْجَنِّ أَوْلَقُ
لكن ما جاءت به قراءة ابن مسعود، وتظاهرت به أقوال المفسرين يضعف هذا التأويل.

و﴿يَخْطِئُ﴾ يَتَفَعَّلُ من: خبط يخط، كما تقول: تملكه وتعبده وتحمله.

والمس: الجنون، وكذلك الأولق والألس والزؤد.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ معناه عند جميع المتأولين: في الكفار، وأنه قول بتكذيب الشريعة ورد عليها، والآية كلها في الكفار المرين نزلت، ولهم

قيل: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ ولا يقال ذلك لمؤمن عاص ولكن يأخذ العصاة في الربا بطرف من وعيد هذه الآية.

ثم جزم تعالى الخبر في قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، وقال بعض العلماء في قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾، هذا على عموم القرآن، لأن العرب كانت تقدر على إنفاذه لأن الأخذ والإعطاء عندها بيع، وكل ما عارض العموم فهو تخصيص منه. وقال بعضهم: «هو من مجمل القرآن الذي فسر بالمحلل من البيع، وبالمحرم من الربا». والقول الأول عندي أصح، قال جعفر بن محمد الصادق: «حرم الله الربا ليتقارض الناس». وقال بعض العلماء: حرمه الله لأنه مَثْلَةٌ للأموال مَهْلِكَةٌ للناس.

وسقطت علامة التأنيث في قوله: ﴿فَنَ جَاءَهُ﴾ لأن تأنيث الموعظة غير حقيقي وهي بمعنى: وعظ. وقرأ الحسن: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ﴾ بإثبات العلامة.

وقوله: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أي من الربا لا تَبَاغَةٌ عليه منه في الدنيا ولا في الآخرة، قاله السدي وغيره، وهذا حكم من الله تعالى لمن أسلم من كفار قريش وثقيف ومن كان يتجر هنالك، و﴿سَلَفَ﴾ معناه: تقدم في الزمن وانقضى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أربع تأويلات - أحدها: أن الضمير عائد على ﴿الرِّبَا﴾، بمعنى: وأمر الربا إلى الله في إمرار تحريره أو غير ذلك. والآخر: أن يكون الضمير عائداً على ﴿مَا سَلَفَ﴾ أي

أمره إلى الله في العفو عنه وإسقاط التبعة فيه، والثالث: أن يكون الضمير عائداً على ذي الربا، بمعنى: أمره إلى الله في أن يشبته على الانتهاء أو يعيده إلى المعصية في الربا. والرابع: أن يعود الضمير على المنتهي، ولكن بمعنى التأنيس له، وبسط أمله في الخير، كما تقول: وأمره إلى طاعة وخير، وموضع رجاء، وكما تقول: وأمره في نمو أو إقبال إلى الله وإلى طاعته. ويجيء الأمر هاهنا ليس في الربا خاصة، بل وجملة أموره.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ يعني إلى فعل الربا، والقول إنما البيع مثل الربا، وإن قدرنا الآية في كافر فالخلود خلود تأبيد حقيقي، وإن لحظناها في مسلم عاص، فهذا خلود مستعار على معنى المبالغة، كما تقول العرب: «ملك خالد»: عبارة عن دوام ما، لا على التأبيد الحقيقي.

﴿يَمْحَقْ﴾ معناه: ينقص ويذهب، ومنه محاق القمر وهو انتقاصه، ﴿وَيَرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ معناه: ينميتها ويزيد ثوابها تضاعفاً، تقول: ربت الصدقة، وأرباها الله تعالى ورباها، وذلك هو التضعيف لمن يشاء، ومنه قول النبي ﷺ: «إِنْ صَدَقَ أَحَدُكُمْ لَتَقْعَ فِي يَدِ اللَّهِ، فَيَرْبِيهَا لَهُ كَمَا يَرْبِي أَحَدُكُمْ فَصِيلَهُ أَوْ فَلْوَهُ حَتَّى يَجِيءَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ اللِّقْمَةَ لَعَلَى قَدَرِ أَحَدٍ». وقد جعل الله هذين الفعلين بعكس ما يظنه الحريص الجشع من بني آدم، يظن الربا يغنيه وهو في

الحقيقة يمحق، ويظن الصدقة تُفْقِرُه وهي نماء في الدنيا والآخرة.

وقرأ ابن الزبير: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ﴾ بضم الياء وكسر الحاء مشددة ﴿وَيَرْبِي﴾ بفتح الراء وشد الباء، ورويت عن النبي ﷺ كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يقتضي أن الزجر في هذه الآية للكفار المستحلين، القائلين على وجه التكذيب للشرع: ﴿إِنَّمَا أَلِيقَ بِمِثْلِ الرِّبَا﴾. ووصف الكفار بأنهم إما مبالغة من حيث اختلف اللفظان، وإما لذهب الاشتراك الذي في ﴿كُفَّارٌ﴾ إذ قد يقع على الزارع الذي يستر الحب في الأرض. قاله ابن فورك قال: ومعنى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يحب الكفار الأتيم محسناً صالحاً بل يريد مسيئاً فاجراً، ويحتمل أن يريد: والله لا يحب توفيق الكفار الأتيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه تأويلات مستكرهة - أما الأول فأفراط في تعدية الفعل، وحمله من المعنى ما لا يحتمله لفظه، وأما الثاني فغير صحيح المعنى، بل الله تعالى يحب التوفيق على العموم ويحبه، والمحبة في الشاهد يكون منه ميل إلى المحبوب، ولطف به، وحرص على حفظه، وتظهر دلائل ذلك. والله تعالى يريد وجود الكافر على ما هو عليه وليس له عنده مزية الحب بأفعال تظهر عليه نحو ما ذكرناه في الشاهد وتلك المزية موجودة للمؤمن.

ولما انقضى ذكرهم عقب بذكر ضدهم ليبين ما بين الحالين فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، وقد تقدم تفسير مثل ألفاظ هذه الآية، وخص الصلاة والزكاة بالذكر - وقد تَضَمَّنَتْهُمَا عمل الصالحات - تشريفاً لهما، وتنبيهاً على قدرهما إِنْهُمَا رأس الأعمال - الصلاة في أعمال البدن، والزكاة في أعمال المال.

﴿٢٧٨﴾ - ﴿٢٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

سبب هذه الآية أنه كان الربا بين الناس كثيراً في ذلك الوقت، وكان بين قريش وثقيف ربا، فكان لهؤلاء على هؤلاء، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة قال في خطبته في اليوم الثاني من الفتح: «أَلَا كُلُّ رِبا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبا أَضَعَهُ رِبا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَبَدَأَ ﷺ بِعَمِّهِ وَأَخَصِّ النَّاسِ بِهِ، وَهَذِهِ مِنْ سُنَنِ الْعَدْلِ لِلْإِمَامِ أَنْ يَفِيضَ الْعَدْلَ عَلَى نَفْسِهِ وَخَاصَّتِهِ فَيَسْتَفِيزُ حِينَئِذٍ فِي النَّاسِ، ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى مَكَّةَ عَثَابُ بْنُ أَبِي سَيْدٍ، فَلَمَّا اسْتَنْزَلَ أَهْلَ الطَّائِفِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ اشْتَرَطُوا شُرُوطاً مِنْهَا مَا أَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمِنْهَا مَا لَمْ يَعْطِهِ، وَكَانَ فِي شُرُوطِهِمْ أَنْ كُلَّ رِبا لَهُمْ عَلَى النَّاسِ فَإِنْهُمْ يَأْخُذُونَهُ، وَكُلَّ رِبا عَلَيْهِمْ فَهُوَ مَوْضُوعٌ، فَيُرَوَّى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَّرَ لَهُمْ هَذِهِ، ثُمَّ رَدَّهَا اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ كَمَا رَدَّ صَلَاحَهُ لِكِفَارِ قَرِيشٍ فِي رَدِّ النَّسَاءِ إِلَيْهِمْ عَامَ الْحَدِيثِ.

وذكر النقاش رواية أن رسول الله ﷺ أمر أن يكتب في أسفل الكتاب لثقيف: «لَكُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْهِمْ»، فلما

جاءت آجال رباهم بعثوا إلى مكة للاقتضاء وكانت الديون لبني غيرة. وهم بنو عمرو بن عمير من ثقيف، وكانت لهم على بني المغيرة المخزوميين، فقال بنو المغيرة: لا نعطي شيئاً. فإن الربا قد وضع، ورفعوا أمرهم إلى عثاب بن أسيد بمكة، فكتب به إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وكتب بها رسول الله ﷺ إلى عثاب، فعلمت بها ثقيف فكفت. هذا سبب الآية على اختصار مجموع مما روى ابن إسحاق، وابن جريج، والسدي، وغيرهم، فمعنى الآية: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بترككم ما بقي لكم من ربا وصفحكم عنه.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ شرط محض في ثقيف على بابيه، لأنه كان في أول دخولهم في الإسلام، وإذا قدرنا الآية فيمن تقرر إيمانه فهو شرط مجازي على جهة المبالغة، كما تقول لمن تريد إقامة نفسه: إن كنت رجلاً فافعل كذا.

وحكى النقاش عن مقاتل بن سليمان أنه قال: ﴿إِنْ﴾ في هذه الآية بمعنى «إِذْ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مردود لا يعرف في اللغة، وقال ابن تورك: يحتمل أنه يريد: يا أيها الذين آمنوا بمن قبل محمد من الأنبياء ذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين بمحمد إذ لا ينفع الأول إلا بهذا. وهذا مردود بما روي في سبب الآية.

ثم توعدهم تعالى - إن لم يذروا الربا - بحرب من الله ورسوله،

والحرب داعية القتل، وروى ابن عباس أنه يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب. وقال ابن عباس أيضاً: من كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه، فحق على إمام المسلمين أن يستتبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه. وقال قتادة: أوعد الله أهل الربا بالقتل فجعلهم بهرجاً أينما ثقفوا، ثم ردهم تعالى مع التوبة إلى رؤوس أموالهم وقال لهم: ﴿لَا تَقْلِبُوا فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي لَكُمْ﴾ في أن يتمسك بشيء من رؤوس أموالكم فتذهب أموالكم. ويحتمل أن يكون ﴿لَا تَقْلِبُوا﴾ في مطل، لأن (مطل الغني ظلم) كما قال ﷺ، فالمعنى أن يكون القضاء مع وضع الربا، وهكذا سنة الصلح، وهذا أشبه شيء بالصلح، ألا ترى أن النبي ﷺ لما أشار على كعب بن مالك في دين ابن أبي حدرود بوضع الشطر فقال كعب: نعم يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ، للآخر: «قِمْ فاقضه»، فتلقى العلماء أمره بالقضاء سنة في المصالحات. وقرأ الحسن: ﴿مَا بَقِيَ﴾ بكسر القاف وإسكان الباء وهذا كما قال جرير:

هُوَ الْخَلِيفَةُ فَارْضُوا مَا رَضِيَ لَكُمْ
مَاضِي الْغَزِيْمَةِ مَا فِي حُكْمِهِ جَنْفٌ
وَوَجْهَهَا أَنَّهُ شِبْهُ الْبَاءِ بِالْأَلْفِ، فَكَمَا لَا تَصِلُ الْحَرَكَةُ إِلَى الْأَلْفِ فَكَذَلِكَ لَمْ تَصِلْ هُنَا إِلَى الْبَاءِ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ.

وقرأ أبو السمال: ﴿مِمَّنِ الرُّبُوءُ﴾ بكسر الراء المشددة وضم الباء وسكون الواو، وقال أبو الفتح: شذُّ

هذا الحرف في أمرين - أحدهما: الخروج من الكسر إلى الضم بناء لازماً، والآخر: وقوع الواو بعد الضمة في آخر الاسم، وهذا شيء لم يأت إلا في الفعل نحو: يغزو ويدعو - أما (ذو) الطائفة بمعنى الذي فشاذة جداً، ومنهم من يغير واوها إذا فارق الرفع فيقول: رأيت ذا قام. وَوَجْهُ القراءة أنه فُحْمُ الألف فانتحى بها الواو التي الألف بدل منها، على حد قولهم: الصلاة والزكاة، وهي بالجملة قراءة شاذة.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر، والكسائي: ﴿فَأَذْنُوا﴾ مقصورة مفتوحة الذال. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿فَأَذْنُوا﴾ ممدودة مكسورة الذال، قال سيبويه: أذنت: أعلمت، وأذنت: ناديت وصوتت بالإعلام، قال: وبعض يجري أذنت مجرى أذنت. قال أبو علي: من قال: فأذنوا فقصّر معناه: فاعلموا الحرب من الله، قال ابن عباس وغيره من المفسرين: معناه: فاستيقنوا الحرب من الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي من الإذن، وإذا أذن المرء في شيء فقد قرره وبنى مع نفسه عليه فكأنه قال لهم: فقررروا الحرب بينكم وبين الله ورسوله، ويلزمهم - من لفظ الآية - أنهم مُسْتَدْعَوُ الحرب والباغون لها إذ هم الآذنون بها وفيها، ويندرج في هذا المعنى الذي ذكرته عليهم بأنهم حرب، وتيقنهم لذلك. قال أبو علي: من قرأ فأذنوا، فمَدَّ فتقديره: فأعلموا من لم ينته عن ذلك بحرب،

والمفعول محذوف، وقد ثبت هذا المفعول في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَذْنُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾، وإذا أمسروا بإعلام غيرهم علموا هم لا محالة، قال: ففي إعلامهم علمهم، وليس في علمهم إعلامهم غيرهم، فقراءة المد أرجح لأنها أبلغ وأكد، قال الطبري: قراءة القصير أرجح لأنها تختص بهم، وإنما أمروا على قراءة المد بإعلام غيرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقراءتان عندي سواء لأن المخاطب في الآية محصور بأنه كل من لم يذر ما بقي من الربا، فإن قيل لهم: ﴿فَأَذْنُوا﴾ فقد عصم الأمر، وإن قيل لهم: ﴿فَأَذْنُوا﴾ بالمد فالمعنى أنفسكم وبعضكم بعضاً، وكأن هذه القراءة تقتضي فسحاً لهم في الارتياح والتثبت، أي فاعلموا نفوسكم هذا، ثم انظروا في الأرجح لكم: ترك الربا أو الحرب.

وقرأ جميع القراء: ﴿لَا تَظْلُمُونَ﴾ بفتح التاء، و﴿لَا تَظْلُمُونَ﴾ بضمها، وقد مضى تفسيره، وروي المفضل عن عاصم: ﴿لَا تَظْلُمُونَ﴾ بضم التاء في الأولى وفتحها في الثانية. قال أبو علي: وترجح قراءة الجماعة بأنها تناسب قوله: ﴿فَإِنْ تَبَيَّنَ فِي إِسْنَادِ الْفَعْلَيْنِ إِلَى الْفَاعِلِ، فَجَبِيءُ تَظْلُمُونَ﴾ بفتح التاء أشكل بما قبله.

﴿٢٨٠﴾ ﴿٢٨١﴾ تفسير قوله عز وجل:

حكم الله تعالى لأرباب الربا برؤوس أموالهم عند الواجدين للمال، ثم حكم في ذي العسرة بالنظرة إلى حالة اليسر، قال

المهدوي: وقال بعض العلماء: هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية من بيع من أعسر بدين، وحكى مكي أن النبي ﷺ أمر به في صدر الإسلام فإن ثبت فعل النبي ﷺ فهو نسخ، وإلا فليس بنسخ.

والعسر: ضيق الحال من جهة عدم المال، ومنه: جيش العسرة.

والنظرة: التأخير، والميسرة: مصدر بمعنى اليسر، وارتفع ﴿ذُو عُسْرٍ﴾ بكان التامة التي هي بمعنى وجد وحدث، هذا هو قول سيبويه، وأبي علي، وغيرهما، ومن هنا يظهر أن الأصل الغنى ووفور الذمة، وأن العدم طارئ حادث يلزم أن يثبت، وقال بعض الكوفيين - وحكاها الطبري - بل هي كان الناقصة، والخبر محذوف تقديره: وإن كان من غرمائكم ذو عسرة، وارتفع قوله: ﴿فَتَنْظُرُهُ﴾ على خبر ابتداء مقدر، تقديره: فالواجب نظره، أو فالحكم نظره، قال الطبري: وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿وَإِنْ كَانَ ذَا عُسْرَةٍ﴾ على معنى: وإن كان المطلوب. وقرأ الأعمش: ﴿وَإِنْ كَانَ مُغْتَبِراً فَتَنْظُرُهُ﴾. قال أبو عمرو الداني، عن أحمد بن موسى: وكذلك في مصحف أبي بن كعب، قال مكي، والنقاش: وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهل الربا، وعلى من قرأ: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو﴾ فهي عامة في جميع من عليه دين، وهذا غير لازم. وحكى المهدوي أن في مصحف عثمان: ﴿فَإِنْ كَانَ﴾ بالفاء ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ بالواو.

وقراءة الجماعة: ﴿تَنْظُرُهُ﴾ بكسر

الظاء، وقرأ مجاهد، وأبو رجاء، والحسن: ﴿فَنظَرَهُ﴾ بسكون الظاء، وكذلك قرأ الضحاك، وهي لغة تميمية، وهم الذين يقولون: كُرم زيد بمعنى كُرم، ويقولون كبَد في كبد - وكَتَف في كتف.

وقرأ عطاء بن أبي رباح: ﴿فَنَاطِرَهُ﴾ على وزن فاعلة، وقال الزجاج: هي من أسماء المصادر، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَوْفَتِهَا كَافَّةٌ﴾، وكقوله تعالى: ﴿نَحْنُ لَنْ نَحْمِلَ بِهَا فَاهِرَةً﴾، و﴿حَابَةِ الْأَعْيُنِ﴾ وغيره. وقرأ نافع وحده: ﴿مَيْسِرَةً﴾ بضم السين، وقرأ باقي السبعة، وجمهور الناس: ﴿مَيْسِرَةً﴾ بفتح السين، على وزن مفعلة، وهذه القراءة أكثر في كلام العرب، لأن مفعله بضم العين قليل، قال أبو علي: قد قالوا: مسربة ومشربة. ولكن مفعلة بفتح العين أكثر في كلامهم.

وقرأ عطاء بن أبي رباح أيضاً ومجاهد: ﴿فَنَاطِرَهُ إِلَى مَيْسِرِهِ﴾ على الأثر في ﴿نَاطِرَهُ﴾، وجعلوا الهاء ضمير الغريم، وضماً السين من ﴿مَيْسِرِهِ﴾، وكسر الراء، وجعلوا الهاء ضمير الغريم. فأما ﴿نَاطِرَهُ﴾ ففَاعِلُهُ من التأخير، كما تقول: سَابِغُهُ، وأما ﴿مَيْسِرُهُ﴾ فشاذ - قال سيبويه: ليس في الكلام (مَفْعَل). قال أبو علي: يريد في الأحاد، فأما في الجمع فقد جاء قول عدي بن زيد:

أَبْلِغِ الثُّغْمَانَ عَنِّي مَأْلَكَا
أنه قد طال حبسي وانتظاري
وقول جميل:
بِئْسَ - الزمي (لا) إِنَّ (لا) إِنَّ لَزِمْتِي

على كثرة الواشين أي مَعُونُونَ فالأول: جمع مألَكة، والآخر: جمع معونة، وقال ابن جني: إِنَّ عِدِيًّا أراد مَأْلَكَةً فحذف، وكذلك جميل أراد: أي مَعُونَةً، وكذلك قول الآخر:

لَيْسُومُ رَوْعٍ أَوْ فَعَالٍ مَكْرُومٍ
أراد مَكْرَمَةً فحذف. قال: ويحتمل أن تكون جموعاً كما قال أبو علي. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فَإِنْ كَانَ مَيْسِرُ جَمْعٍ مَيْسِرَةٌ فيجري مجرى هذه الأمثلة، وإن كان قارنه أراد به الأفراد فذلك شاذٌ، وقد خطأه بعض الناس، وكلام سيبويه يرد.

واختلف أهل العلم - هل هذا الحكم بالنظرة إلى الميسرة واقف على أهل الربا أو هو منسحب على كل ذي دين حال؟ فقال ابن عباس، وشريح: ذلك في الربا خاصة، وأما الديون وسائر الأمانات فليس فيها نظرة، بل تؤدي إلى أهلها - وكان هذا القول يترتب إذا لم يكن في فقر مدقع، وأما مع الفقر والعُدم الصريح، فالحكم هي النظرة ضرورة.

وقال جمهور العلماء: النظرة إلى الميسرة حكم ثابت في المعسر سواء كان الدين رباً، أو من تجارة في ذمة، أو من أمانة، وبذلك فسره الضحاك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ ابتداء وخبره ﴿فَبَرِّ﴾، وندب الله تعالى بهذه الألفاظ إلى الصدقة على المعسر، وجعل ذلك خيراً من إنظاره. قاله السدي، وابن زيد،

والضحاك، وجمهور الناس، وقال الطبري: وقال آخرون: معنى الآية: وأن تصدقوا على الغني والفقير خير لكم، ثم أدخل الطبري تحت هذه الترجمة أقوالاً لقنادة، وإبراهيم النخعي لا يلزم منها ما تضمنته ترجمته، بل هي كقول جمهور الناس، وليس في الآية مدخل للغي.

وقرأ جمهور القراء: ﴿تَصَدَّقُوا﴾ بتشديد الصاد على الإدغام من تَصَدَّقُوا، وقرأ عاصم: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بتخفيف الصاد، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بفك الإدغام. وروى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب أنه قال: «كان آخر ما أنزل من القرآن آية الربا، وقبض رسول الله ﷺ ولم يفسرها لنا، فدعوا الربا، والريبة». وقال ابن عباس: «آخر ما نزل آية الربا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا عندي أنها من آخر ما نزل، لأن جمهور الناس - ابن عباس، والسدي، والضحاك، وابن جريج، وغيرهم - قالوا: آخر آية نزلت قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُنْزَلُ السُّجُودُ فَبِذَلِكَ إِلَى اللَّهِ﴾.

وقال سعيد بن المسيب: بلغني أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين. وروي أن قوله: ﴿وَأَتَقُوا﴾ نزلت قبل موت النبي ﷺ بتسع ليال، ثم لم ينزل بعدها شيء، وروي: بثلاث ليال، وروي أنها نزلت قبل موته بثلاث ساعات، وأنه قال عليه السلام: «اجعلوها بين آية الربا

كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَقَ
بِالْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنْ
يُوجِبَهُمْ بِذِكْرِ الرَّجْعَةِ إِذْ
هِيَ مِمَّا تَنْفَطِرُ لَهُ الْقُلُوبُ،
فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَأَنْقُزُوا يَوْمًا﴾
ثُمَّ رَجَعَ فِي ذِكْرِ الرَّجْعَةِ
إِلَى الْغَيْبَةِ رَفَقًا بِهِمْ. وَقَرَأَ
أَبِي بِن كَعْب: ﴿يَوْمًا
تُرْفُونَ﴾ بِضَمِّ النَّاءِ.

وجمهور العلماء على أن
هذا اليوم المحذّر منه هو
يوم القيامة والحساب
والتوفية، وقال قوم هو
يوم الموت والأول أصح
بحكم الألفاظ في الآية،
وفي قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾
مضاف محذوف تقديره:

إلى حكم الله، وفضل قضائه،
وقوله: ﴿وَهُمْ﴾ ردّ على معنى ﴿كُلُّ
نَفْسٍ﴾ لا على اللفظ إلا على قراءة
الحسن: ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فقوله:
﴿وَهُمْ﴾ ردّ على ضمير الجماعة في
﴿يَرْجِعُونَ﴾.

وفي هذه الآية نص على أن الثواب
والعقاب متعلق بكسب الإنسان،
وهذا ردّ على الجبرية.

تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس رضي الله عنه:
نزلت هذه الآية في السلم خاصة،
معناه أن سلم أهل المدينة كان سبب
هذه الآية، ثم هي تتناول جميع
المداينات إجماعاً.

وبين تعالى بقوله: ﴿يَذَرِي﴾ ما في
قوله: ﴿تَذَكَّرْتُمْ﴾ من الاشتراك، إذ
قد يقال في كلام العرب: تداينوا
بمعنى: جازى بعضهم بعضاً.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِذَيْنِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَحْسَ مِنْهُ شَيْئًا
فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَنِيهَا أَوْ ضِعْفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يُمْلِهُهُ فَليُسْجَلْ وَلَيْسَ بِالْعَدْلِ وَأَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ
مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ
مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ
إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا
أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ
عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ
أَلَّا يَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَقَلُّوا فَإِنَّهُ فَسَوْفَ يَكُمُ وَأَنْقُزُوا
اللَّهُ وَبِعَلَّمَكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهِ سَعًى

٤٨

وآية اللذين، وحكى مكي أن
النبي ﷺ قال: «جاءني جبريل
فقال: اجعلها على رأس مائتين
وثمانين آية من البقرة».

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْقُزُوا﴾ إلى آخر
الآية وعظ لجميع الناس، وأمر
يخص كل إنسان و﴿يَوْمًا﴾ منصوب
على المفعول لا على الظرف.

وقرأ أبو عمرو بن العلاء:
﴿تَرْجِعُونَ﴾ بفتح الناء وكسر الجيم،
وقرأ باقي السبعة ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بضم
الطاء وفتح الجيم، فمثل قراءة أبي
عمرو: ﴿إِنَّ لَنَا إِيَّاهُمْ﴾ ومثل
قراءة الجماعة: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾
﴿وَلَكِنْ رُدُّوا إِلَى رَبِّي﴾. والمخاطبة
في القراءتين بالناء على جهة المبالغة
في الوعظ والتحذير. وقرأ الحسن:
﴿يَرْجِعُونَ﴾ بالياء على معنى يرجع
جميع الناس. قال ابن جنبي:

ووصفه الأجل بـ ﴿مُسَمًّى﴾ دليل
على أن الجهالة لا تجوز، فكان الآية
رفضتها، وإذا لم تكن تسمية وحد
فليس هناك أجل - وذهب بعض
الناس إلى أن كتب الديون واجب
على أربابها فرض بهذه الآية، وذهب
الربيع إلى أن ذلك وجب بهذه
الألفاظ، ثم خففه الله تعالى بقوله:
﴿فَإِنْ آمَنَ بِكُمْ بَعْضُ﴾، وقال
الشعبي: كانوا يرون أن قوله: ﴿فَإِنْ
آمَنَ﴾، ناسخ لأمره بالكتب، وحكي
نحوه ابن جريج، وقاله ابن زيد،
وروي عن أبي سعيد الخدري، وقال
جمهور العلماء: الأمر بالكتب ندب
إلى حفظ الأموال، وإزالة الريب،
وإذا كان الغريم تقياً فما يضره
الكتاب، وإن كان غير ذلك فالكتاب
ثقاف في دينه، وحاجة صاحب
الحق، وقال بعضهم: إن أشهدت
فحزم، وإن ائتمنت ففي حال وسعة،
وهذا هو القول الصحيح، ولا يترتب
نسخ في هذا لأن الله تعالى ندب إلى
الكتب فيما للمرء أن يهبه ويتركه
بإجماع، فنذبه إنما هو على جهة
الحيلة للناس.

ثم أخبر تعالى أنه سيقع الائتمان
فقال: إن وقع ذلك فليؤدّ - الآية،
فهذه وصية للذين عليهم الديون،
ولم يجزم تعالى الأمر نصاً بآلا
يكتب إذا وقع الائتمان.

وأما الطبري رحمه الله فذهب إلى
أن الأمر بالكتب فرض واجب،
وطول في الاحتجاج، وظاهر قوله
أنه يعتقد الأوامر على الوجوب حتى
يقوم دليل على غير ذلك.
واختلف الناس في قوله تعالى:

وغير ذلك. والسفيه: المهلهل الرأي في المال الذي لا يُحسن الأخذ لنفسه ولا الإعطاء منها، مشبه بالثوب السفيه وهو الخفيف النسيج، والسَّفه: الخفة، ومنه قول الشاعر وهو ذو الرمة:

مَشِينٌ كَمَا افْتَرَزَتْ رِمَاحٌ تَسْفُهُتْ
أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيحِ الشَّوَابِسِ
وهذه الصفة في الشريعة لا تخلو من حجر أب أو وصي، وذلك هو وَلِيُّه، ثم قال: ﴿أَوْ صَيِّقًا﴾ والضعيف: هو المدخول العقل، الناقص الفطرة، وهذا أيضاً قد يكون وَلِيُّه أباً أو وصياً - والذي لا يستطيع أن يُجِلَّ هو: الصغير، وَلِيُّه وصيه أو أبوه، والغائب عن موضع الإِشهاد إما لمرض أو لغير ذلك من العذر، وَلِيُّه وكيله، وأما الآخرس فيسوغ أن يكون من الضعفاء، والأولى أنه ممن لا يستطيع، فهذه أصناف تتميز، وقد تجد من ينفرد بواحد واحد منها، وقد يجتمع منها اثنان في شخص، وربما اجتمعت كلها في شخص، وهذا الترتيب ينتزع من قول مالك وغيره من العلماء الحذاق.

وقال بعض الناس: السفيه: الصبي الصغير، وهذا خطأ، وقال قوم: الضعيف: هو الكبير الأحمق، وهذا قول حسن.

وجاء الفعل مضاعفاً في قوله: ﴿أَنْ يُجِلَّ﴾، لأنه لو فُكَّ لتوالت حركات كثيرة، والفك في هذا الفعل لغة قريش. و﴿يَالْقَدْلُ﴾ معناه: بالحق وقصد الصواب.

﴿كَمَا﴾ متعلقة بما في قوله: ﴿وَلَا يَأْتِ﴾ من المعنى، أي كما أنعم الله عليه بعلم الكتابة فلا يأب هو وليفضل كما أفضل الله عليه، ويحتمل أن يكون الكلام على هذا المعنى تاماً عند قوله: ﴿أَنْ يَكْتُبَ﴾، ثم يكون قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ ابتداءً كلام، وتكون الكاف متعلقة بقوله: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾، أما إذا أمكن الكتاب فليس يجب الكتب على معين، ولا وجوب النذب، بل له الامتناع، إلا إن استأجره، وأما إذا عَدِمَ الكاتب فيتوجه وجوب النذب حينئذ على الحاضر، وأما الكتب في الجملة فندب كقوله تعالى: ﴿وَأَكْمَلُوا الْخَيْرَ﴾ وهو من باب عون الضائع.

تفسير قوله عز وجل:

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّخِذِ اللَّهَ رَبًّا وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾

أمر الله تعالى الذي عليه الحق بالإملاء، لأن الشهادة إنما تكون بحسب إقراره، وإذا كتبت الوثيقة وأقر بها فهو كإملائه، وأمر الله بالتقوى فيما يجمل، ونهى عن أن يبخس شيئاً من الحق، والبخس: النقص بنوع من المخادعة والمدافعة، وهؤلاء الذين أمروا بالإملاء هم المالكون لأنفسهم إذا حضروا.

ثم ذكر الله تعالى ثلاثة أنواع تقع نوازلهم في كل زمن، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا سَوَاءً يَسْتَوِي﴾، والحق يترتب في جهات سوى المعاملات، كالموارث إذا قسمت،

﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ﴾، فقال عطاة وغيره: واجب على الكاتب أن يكتب، وقال الشعبي، وعطاء أيضاً: إذا لم يوجد كاتب سواه فواجب عليه أن يكتب، فقال السدي: هو واجب مع الفراغ.

وقوله تعالى: ﴿يَالْقَدْلُ﴾، معناه: بالحق والمعدلة، والباء متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبْ﴾، وليست متعلقة بـ﴿كَاتِبًا﴾، لأنه كان يلزم ألا يكتب وثيقة إلا العدل في نفسه، وقد يكتبها الصبي والعبد والمسخوط إذا أقاموا فقهها، أما المنتصبون لكتبها فلا يجوز للولاء أن يتركوهم إلا عدولاً مرضيين، وقال مالك رحمه الله: لا يكتب الوثائق من الناس إلا عارف بها، عدل في نفسه، مأمون، لقوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْقَدْلِ﴾.

ثم نهى الله تعالى الكاتب عن الإيابة، وأبى يأبى شاذ لم يجيء إلا قَلَى يَقْلَى وأبى يأبى، ولا يجيء فَعَلٌ يفعلُ بفتح العين في المضارع إلا إذا رده حرف حلق، قال الزجاج والقول في أبى - أن الألف فيه أشبهت الهمزة فلذلك جاء مضارعه يفعل بفتح العين.

وحكى المهدوي عن الربيع والضحاك أن قوله: ﴿وَلَا يَأْتِ﴾ منسوخ بقوله: ﴿وَلَا يَصْأَرُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

والكاف من قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ متعلق بقوله: ﴿أَنْ يَكْتُبَ﴾، المعنى: كتباً كما علمه الله، هذا قول بعضهم، ويحتمل أن تكون

وذهب الطبري إلى أن الضمير في ﴿وَلَيْكُمُ﴾ عائذ على الحق، وأسند في ذلك عن الربيع وعن ابن عباس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي شيء لا يصح عن ابن عباس، وكيف تشهد البيئة على شيء وتدخل مالا في ذمة السفية بإملاال الذي له الدين؟ هذا شيء ليس في الشريعة، والقول ضعيف إلا أن يريد قائله أن الذي لا يستطيع أن يحمل بمرضه إذا كان عاجزا عن الإماء فليحمل صاحب الحق بالعدل، ويسمع الذي عجز فإذا كمل الإماء أقر به، وهذا معنى لم تعن الآية إليه، ولا يصح هذا إلا فيمن لا يستطيع أن يحمل بمرض فقط.

تفسير قوله عز وجل:

﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾

الاستشهاد: طلب الشهادة، وعبر ببناء مبالغة في: ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ دلالة على من قد شهد وتكرر ذلك منه، فكأنها إشارة إلى العدالة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ رِّجَالِكُمْ﴾، نص في رفض الكفار والصبيان والنساء، وأما العبيد فاللفظ يتناولهم، واختلف العلماء فيهم - فقال شريح، وإسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل: شهادة العبد جائزة إذا كان عدلا، وغلبوا لفظ الآية، وقال مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وجمهور العلماء: لا تجوز شهادة العبد، وغلبوا نقص الرق.

واسم كان الضمير في الذي في قوله: ﴿يَكُونُ﴾، والمعنى في قول الجمهور: فإن لم يكن المستشهد

رجلين، أي أغفل ذلك صاحب الحق أو قصده لعذر ما، وقال قوم: بل المعنى: فإن لم يوجد رجلان، ولا يجوز استشهاد المرأتين إلا مع عدم الرجال، وهذا قول ضعيف، ولفظ الآية لا يعطيه، بل الظاهر منه قول الجمهور.

وقوله: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، مرتفع بأحد ثلاثة أشياء: إما أن يقدر: فليستشهد رجل وامرأتان، وإما: فليكن رجل وامرأتان، ويصح أن تكون تامة وناقصة، ولكن التامة أشبه، لأنه يقل الإضمار، وإما: فرجل وامرأتان يشهدون - وعلى كل وجه فالمقدر هو العامل في قوله: ﴿أَنْ تَقِيلَ إِحْدَهُمَا﴾.

وروى حميد بن عبد الرحمن عن بعض أهل مكة أنهم قرؤوا: ﴿وامرأتان﴾ بهمز الألف ساكنة، قال ابن جني: لا نظير لتسكين الهمزة المتحركة على قياس، وإنما خففوا الهمزة فقربت من الساكن، ثم بالغوا في ذلك فصارت الهمزة ألفا ساكنة، كما قال الشاعر:

يَقُولُونَ جَهْلًا: لَيْسَ لِلشَّيْخِ عَيْلٌ
لَتَمَرِي لَقَدْ أَغْيَلْتُ وَأَنْ رُقُوبٌ
يريد: وأنا - ثم بعد ذلك يدخلون الهمزة على هذه الألف كما هي، وهي ساكنة، ومنه قراءة ابن كثير: ﴿عَنْ سَأْقِيهَا﴾، وقولهم: بَأَزْ، وَخَاتَمٌ، قال أبو الفتح: فإن قيل: شبهت الهمزة بالألف في أنها ساوتها في الجهر والزيادة والبدل والحذف وقُرْبُ المخرج فقول مخشوب لا صنعة فيه ولا يكاد يُفْنَعُ بمثله.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾ رفع في موضع الصفة لقوله عز وجل: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، قال أبو علي: ويدخل في هذه الصفة قوله: ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ لاختلاف الإعراب، وهذا حكم لفظي، وأما المعنى فالرضى شرط في الشهادتين كما هو في الرجل والمرأتين.

قال ابن بكير وغيره: قوله: ﴿مَنْ رَضَوْنَ﴾ مخاطبة للحكام، وهذا غير نبيل إنما الخطاب لجمع الناس لكن المتلبس بهذه القضية إنما هم الحكام، وهذا كثير في كتاب الله يعم الخطاب فيما يتلبس به البعض. وفي قوله: ﴿مَنْ رَضَوْنَ﴾ دليل على أن في الشهود من لا يُرضى فيجزي من ذلك أن الناس ليسوا بمحمولين على العدالة حتى تثبت لهم.

وقرأ حمزة وحده: ﴿إِنْ تَضِلُّ﴾ بكسر الألف وفتح التاء وكسر الضاد ﴿فَتَذَكَّرُ﴾ بفتح الذال ورفع الراء، وهي قراءة الأعمش، وقرأها الباقون: ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾ بفتح الألف ﴿فَتَذَكَّرُ﴾ بنصب الراء غير أن ابن كثير وأبا عمرو خففا الذال والكاف وشدها الباقون.

وقد تقدم القول فيما هو العامل في قوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾ و﴿أَنْ تَقِيلَ﴾ مفعول من أجله، والشهادة لم تقع لأن تضل إحداها وإنما وقع إشهاد امرأتين لأن تذكر إحداها إن ضلت الأخرى، قال سيبويه، وهذا كما تقول: أعددت هذه الخشبة أن يميل هذا الحائط فأدعته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولما كانت النفوس مستشفرة إلى معرفة أسباب الحوادث قدم في هذه الآية ذكر سبب الأمر المقصود أن يخبر به، وفي ذلك سبق النفوس إلى الإعلام بمرادها، وهذا من أبرع أنواع الفصاحة، إذ لو قال رجل لك: أعددت هذه الخشبة أن أدمع بها هذا الحائط لقال السامع: ولم تدعم حائطاً قائماً؟ فيجب ذكر السبب فيقال: إذا مال. فجاء في كلامهم تقديم السبب أخصر من هذه المحاورة. وقال أبو عبيد: معنى تفضل: تنسى، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها، وذكر جزء، ويبقى المرء بين ذلك حيران ضالاً، ومن نسي الشهادة جملة فليس يقال: ضل فيها، فأما قراءة حمزة فجعل ﴿إِنْ﴾ للجزاء، والفاء في قوله: ﴿فَتَذَكَّرْ﴾ جواب الجزاء، وموضع الشرط وجوابه رفع بكونه صفة للمذكور وهما المرأتان. وارتفع ﴿تَذَكَّرْ﴾ كما ارتفع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ قَيْنِمْ اللَّهُ يَنْتَهُ﴾ هذا قول سيبويه، وفي هذا نظر. وأما نصب قوله: ﴿فَتَذَكَّرْ﴾ على قراءة الجماعة فعلى العطف على الفعل المنصوب به ﴿أَنْ﴾.

وتخفيف الكاف على قراءة أبي عمرو، وابن كثير هو بمعنى تنقيله من الذكر، يقال: ذكّر وأذكّر. تُعَدُّهُ بالتضعيف أو بالهمز. وروي عن أبي عمرو بن العلاء، وسفيان بن عيينة أنهما قالاً: معنى قوله: ﴿فَتَذَكَّرْ﴾ بتخفيف الكاف أي تردها ذكراً في الشهادة، لأن شهادة امرأة نصف شهادة، فإذا

شهدتا صار مجموعهما كشهادة ذكّر، وهذا تأويل بعيد غير فصيح، ولا يحسن في مقابلة الضلال إلا الذكر وذكّرت بشد الكاف يتعدى إلى مفعولين، و﴿أَحَدُهُمَا﴾ في الآية محذوف، تقديره: فتذكر إحداهما الأخرى الشهادة التي ضلت عنها. وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر: ﴿أَنْ تُضِلَّ﴾ بضم التاء وفتح الضاد بمعنى أن تنسى، هكذا حكى عنهما أبو عمرو الداني، وحكى النقاش عن الجحدري ضم التاء وكسر الضاد بمعنى أن تُضِلَّ الشهادة، تقول: أضللت الفرس والبعير إذا تلفا لك وذهبا فلم تجدهما. وقرأ حميد بن عبد الرحمن، ومجاهد: ﴿فَتَذَكَّرْ﴾ بتخفيف الكاف المكسورة ورفع الراء، وتضمنت هذه الآية جواز شهادة امرأتين بشرط اقترانهما برجل، واختلف قول مالك في شهادتهما - فروى عنه ابن وهب أن شهادة النساء لا تجوز إلا حيث ذكرها الله في الدين، وفيما لا يطلع عليه أحد إلا هُنَّ للضرورة إلى ذلك، وروي عن ابن القاسم أنها تجوز في الأموال، والوكالات على الأموال، وكل ما جر إلى مال، وخالف في ذلك أشهب وغيره.

وكذلك إذا شهدن على ما يؤدي إلى غير مال - ففيها قولان في المذهب.

قوله عز وجل:

﴿وَلَا يَأْتِ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا﴾

قال قتادة، والربيع، وغيرهما: معنى الآية: إذا دعوا أن يشهدوا فيتقيد حق بشهادتهم، وفي هذا المعنى نزلت لأنه كان يطوف الرجل في القوم الكثير يطلب من يشهد له فيتخرجون هم عن الشهادة فلا يقوم معه أحد فتزلت الآية في ذلك.

وقال الحسن بن أبي الحسن: الآية جمعت أمرين - لا تأب إذا دُعيت إلى تحصيل الشهادة، ولا إذا دُعيت إلى أدائها، وقاله ابن عباس.

وقال مجاهد: معنى الآية - لا تأب إذا دُعيت إلى أداء شهادة قد حصلت عندك. وأسند النقاش إلى النبي ﷺ أنه فسر الآية بهذا. قال مجاهد: فأما إذا دُعيت لشهادة أولاً فإن شئت فاذهب، وإن شئت فلا تذهب، وقاله: لاحق بن حميد، وعطاء، وإبراهيم، وابن جبير، والسدي، وابن زيد، وغيرهم.

والآية كما قال الحسن جمعت أمرين على جهة النذب، فالمسلمون مندوبون إلى معونة إخوانهم، فإذا كانت الفسحة لكثرة الشهود والأمن من تعطيل الحق فالمدعو مندوب، وله أن يتخلف لأدنى عذر، وإن تخلف لغير عذر فلا إثم عليه، ولا ثواب له، وإذا كانت الضرورة، وخيف تعطيل الحق أدنى خوف قوي النذب، وقرب من الرجوب. وإذا علم أن الحق يذهب ويتلف بتأخر الشاهد عن الشهادة فواجب عليه القيام بها لا سيما إن كانت محصلة، وكان الدعاء إلى أدائها، فإن هذا الطرف أكد، لأنها قلادة في العنق، وأمانة تقتضي الأداء.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ معناه: تملوا، و﴿مَنْبِرًا أَوْ كَعِيرًا﴾ حالان من الضمير في: ﴿تَكُونُوا﴾، وقدم الصغير اهتماماً به، وهذا النهي عن السامة إنما جاء لتردد المدائنة عندهم، فخيف عليهم أن يملوا الكتب.

و﴿أَقْسَطُ﴾ معناه: أعدل، وهذا أفعَل من الرباعي، وفيه شذوذ فانظر هل هي من قَسَطَ بضم السين كما تقول أكرم من كرم. يقال: أقسط بمعنى عدل، وقَسَطَ بمعنى جار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْفَالِيطُونَ فَكَانُوا يُهْمَرُ حَطًّا﴾ ومن قدر قوله: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ بمعنى: وأشد إقامة فذلك أيضاً أفعَل من الرباعي. ومن قدرها من قام بمعنى: اعتدل زال عن الشذوذ، ﴿وَأَذَنُ﴾ معناه: أقرب و﴿تَرْتَابُوا﴾ معناه: تشكوا، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿يَسْأَلُوا، وَيَكْتُوبُوا وَيَزْتَابُوا﴾ كلها بالياء على الحكاية عن الغائب.

قوله عز وجل:

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾.

لما علم الله تعالى مشقة الكتاب عليهم نص على ترك ذلك، ورفع الجناح فيه في كل مبايعة بنقد، وذلك في الأغلب إنما هو في قليل كالمطعم ونحوه لا في كثير كالأملاك ونحوها، ولذا قال السدي، والضحاك: هذا فيما كان يبدأ بأخذ وتعطي، و﴿أَنْ﴾ في موضع نصب على الاستثناء

المنقطع.

وقوله تعالى: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ يقتضي التقابض والبيئنة بالمقبوض - ولما كانت الرباع والأرض وكثير من الحيوان لا تقوى البيئنة به ولا يغاب عليه - حسن الكتب فيها، ولحقت في ذلك بمبايعة الدين. وقرأ عاصم وحده: ﴿تِجَارَةً﴾ نصباً، وقرأ الباقون: ﴿تِجَارَةً﴾ رفعاً، قال أبو علي: وأشك في ابن عامر - وإذا أتت (كان) بمعنى حدث ووقع - غنيت عن خبر، وإذا خُلع منها معنى الحدوث لزمها الخبر المنصوب، فحجة من رفع ﴿تِجَارَةً﴾ أن (كان) بمعنى حدث ووقع، وأما من نصب فعلى خبر (كان) والاسم مقدر، تقديره عند أبي علي، إمّا: «المبايعة» التي دلت الآيات المتقدمة عليها، وإمّا: «إِلَّا أَنْ تَكُونَ التِّجَارَةُ تِجَارَةً» ويكون مثل ذلك قول الشاعر:

فَدَى لِبَنِي دُفْلَ بْنِ شَيْبَانَ نَاقَتِي
إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْتَعَا
أَي: إذا كان اليوم يوماً، هكذا أنشد أبو علي البيت، وكذلك أبو العباس المبرد، وأنشد الطبري:
وَلَسْهُ قَرْوَمِي أَي قَوْمٍ لِحُرَّةٍ
إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْتَعَا
وأنشده سيويه: يوم بالرفع.
إِذَا كَانَ يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبٍ

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، قال الطبري: معناه: وأشهدوا على صغير ذلك وكبيره،

واختلف الناس - هل ذلك على الوجوب أو على الندب؟ فقال الحسن، والشعبي، وغيرهما: ذلك على الندب. وقال ابن عمر، والضحاك: ذلك على الوجوب، وكان ابن عمر يفعله في قليل الأشياء وكثيرها. وقاله عطاء، ورجع ذلك الطبري: والوجوب في ذلك قلق، أما في الدقائق فصعب شاق، وأما ما كثر فربما يقصد التاجر الاستيلاف بترك الإشهاد، وقد يكون عادة في بعض البلاد، وقد يستحي من العالم والرجل الكبير الموقر فلا يشهد عليه، فيدخل ذلك كله في الائتمان، ويبقى الأمر بالإشهاد ندباً لما فيه من المصلحة في الأغلب ما لم يقع عذر يمنع منه كما ذكرنا، وحكى المهدوي عن قوم أنهم قالوا: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ منسوخ بقوله: ﴿إِنْ أَيْنَ﴾ الآية. وذكره مكي عن أبي سعيد الخدري.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ فقال الحسن، وقشادة، وطاوس، وابن زيد، وغيرهم: المعنى: ولا يضار الكاتب بأن يكتب ما لم يُمل عليه، ولا يضار الشاهد بأن يزيد في الشهادة أو ينقص منها، وقال مثله ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، إلا أنهم قالوا: لا يضار الكاتب والشاهد بأن يمتنع، ولفظ الضرر يعم هذا، والقول الأول، والأصل في ﴿يُضَارُّ﴾ على هذين القولين يضارز بكسر الراء، ثم وقع الإدغام وفتحت الراء في الجزم لخفة الفتحة.

وَقَرَأْ عِكرمة: ﴿وَلَا يُضَارِزُ﴾ بكسر الراء الأولى ﴿كَاتِبًا وَلَا شَهِيدًا﴾ بالنصب، أي لا يبدأهما صاحب الحق بضرر، ووجوه المضارة لا تنحصر. وروى يفسم عن عكرمة أنه قرأ: ﴿وَلَا يُضَارُ﴾ بالإدغام وكسر الراء للالتقاء، وقرأ ابن محيصن: ﴿وَلَا يُضَارُ﴾ برفع الراء مشددة، قال ابن مجاهد: ولا أدري ما هذه القراءة. قال أبو الفتح: هذا الذي أنكره ابن مجاهد معروف، وذلك أن تجعل ﴿لَا﴾ نفيًا أي: ليس ينبغي أن يضار، كما قال الشاعر:

عَلَى الْحَكَمِ الْمَأْيِي يَوْمًا إِذَا قَضَى
قَضِيَّتَهُ أَلَا يَجُوزَ وَيَقْصِدُ
فرفع «ويقصد» على إرادة وينبغي أن يقصد، فكذلك يرتفع ﴿وَلَا يُضَارُ﴾ على معنى: وينبغي ألا يضار، قال: وإن شئت كان لفظ خبر على معنى النهي، وهذا قريب من النظر الأول.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعَلُوا فَاكَةً سُوءًا بِكُمْ﴾ مَنْ جَعَلَ المضارة المنهي عنها زيادة الكاتب والشاهد فيما أُملي عليهما أو نقصهما منه فالفسوق على عرفه في الشرع، وهو موقعة الكبائر، لأن هذا من الكذب المؤذي في الأموال والأبشار، وفيه إبطال الحق - ومن جعل المضارة المنهي عنها أذى الكاتب والشاهد

وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، والضحاك، والسدي، وطاوس، وغيرهم: معنى الآية: ولا يضار كاتب ولا شهيد بأن يؤذيه طالب الكتبة أو الشهادة فيقول: اكتب لي أو اشهد لي، في وقت عذر أو شغل للكاتب أو الشاهد، فإذا اعتذرا بعذرهما حرج وأذاهما، وقال: خالفت أمر الله ونحو هذا من القول، ولفظ المضارة إذ هو من اثنين يقتضي هذه المعاني كلها، والكاتب والشاهد على القول الأول رفع بفعلهما، وفي القول الثاني رفع على المفعول الذي لم يسم فاعله، وأصل ﴿يُضَارُ﴾ على القول الثاني يضار بفتح الراء، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن ابن مسعود، ومجاهد أنهم كانوا يقرؤون: ﴿وَلَا يُضَارُ﴾ بالفك وفتح الراء الأولى، وهذا على معنى أن يبدأهما بالضرر طالب الكتبة والشهادة، وذكر ذلك الطبري عنهم في ترجمة هذا القول، وفسر القراءة بهذا المعنى، فدل ذلك على أن الراء الأولى مفتوحة كما ذكرنا. وحكى أبو عمرو الداني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وابن عباس، وابن أبي إسحاق، ومجاهد أن الراء الأولى مكسورة، وحكى عنهم أيضاً فتحها. وفك الفعل هي لغة أهل الحجاز، والإدغام لغة تميم. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وعمرو بن عبيد: ﴿وَلَا يُضَارُ﴾ بجزم الراء، قال أبو الفتح: تسكين الراء مع التشديد فيه نظر، ولكن طريقه أجري الوصل مجرى الوقف،

بأن يقال لهما: أجيبا ولا تخالفا أمر الله أو جعلها امتناعهما إذا دُعيا، فالفسوق على أصله في اللغة الذي هو الخروج من شيء كما يقال: فسقت الفأرة إذا خرجت من جحرها، وفسقت الرطبة، فكان فاعل هذا فسَّقَ عن الصواب والحق في هذه النازلة، ومن حيث خالف أمر الله في هذه الآية فيقرب الأمر من الفسوق العرفي في الشرع.

وقوله: ﴿بِكُمْ﴾ تقديره: فسوق حال بكم، وباقي الآية موعظة وتعليل نعمة، والله المستعان لا رب غيره، وقيل: معنى الآية: الواعد بأن من اتقى عِلْمَ الخير وألهمه.

تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر الله تعالى النذب إلى الإشهاد والكتب لمصلحة حفظ الأموال والديون، عَقِبَ ذلك بذكر

حال الأعذار المانعة من الكتب، وجعل لها الرهن، ونص من أحوال الرهن على السفر الذي هو الغالب من الأعذار، لا سيما في ذلك الوقت لكثرة الغزو.

ويدخل في ذلك بالمعنى كل عذر، فرب وقت يتعذر فيه الكاتب في الحضر، كأوقات أشغال الناس، وبالليل، وأيضاً فالخوف على خراب ذمة الغريم عذر يوجب طلب الرهن. وقد رهن النبي ﷺ درعه عند يهودي طلب منه سلف الشعير فقال: إنما يريد محمد أن يذهب بمالي، فقال النبي ﷺ: «كُذِّبَ، إِنِّي لَأَمِينٌ فِي الْأَرْضِ، أَمِينٌ فِي السَّمَاءِ، وَلَوْ أَتَمَنَنْ لَأَدَيْتَ، اذْهَبُوا إِلَيْهِ بِدِرْعِي».

وقد قال جمهور من العلماء: الرهن في السفر ثابت في القرآن، وفي الحضر ثابت في الحديث، وهذا حسن، إلا أنه لم يمعن النظر في لفظ السفر في الآية، وإذا كان السفر في الآية مثلاً من الأعذار، فالرهن في الحضر موجود في الآية بالمعنى إذ قد تترتب الأعذار في الحضر. وذهب الضحاک، ومجاهد إلى أن الرهن والائتمان إنما هو في السفر، وأما الحضر فلا ينبغي شيء من ذلك، وضعف الطبري قولهما في الرهن بحسب الحديث الثابت الذي ذكرته، وقوى قولهما في الائتمان والصحيح ضعف القول في الفصلين، بل يقع الائتمان في الحضر كثيراً ويحسن.

وقرأ جمهور القراء: ﴿كَاتِبًا﴾ بمعنى: رجل يكتب، وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس ﴿كِتَابًا﴾: بكسر

الكاف، وتخفيف التاء، وألف بعدها، وهو مصدر. قال مكي: وقيل: هو جمع كاتب كقائم وقيام، ومثله صاحب وصحاب، وقرأ بذلك مجاهد، وأبو العالية، وقالوا: المعنى: وإن عذمت الدواة والقلم والصحيفة.

ونفي وجود الكتاب يكون بعدم أي آلة اتفق من الآلة، فنفي الكتاب يعمها، ونفي الكاتب أيضاً يقتضي نفي الكتاب، فالقراءتان حسنتان إلا من جهة خط المصحف، وروي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿كُتَابًا﴾ بضم الكاف على جمع كاتب، وهذا يحسن من حيث لكل نازلة كاتب فقبل للجماعة: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كُتَابًا﴾، وهذا هو الجنس الذي تدل عليه قراءة من قرأ: ﴿كَاتِبًا﴾. وحكي المهدي، عن أبي العالية أنه قرأ: ﴿كُتُبًا﴾، وهذا جمع (كتاب) من حيث النوازل مختلفة، وهذا هو الجنس الذي تدل عليه قراءة من قرأ: ﴿كُتَابًا﴾.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، وجمهور من العلماء: ﴿قَوْمًا﴾، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿قُرْهُنَ﴾ بضم الراء والهاء، وروي عنهما تخفيف الهاء، وقد قرأ بكل واحدة جماعة غيرهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: رهن الشيء في كلام العرب معناه: دام واستمر. يقال: أرهن لهم الشرب وغيره. قال ابن سيدة: ورهته: أي أدامه. ومن رهن بمعنى

دام قول الشاعر:
اللَّحْمُ وَالْخُبْزُ لَهُم رَاهِنٌ
وَقَهْرَةٌ رَاوَوْهَا سَاكِبٌ

أي: دائم، قال أبو علي: ولما كان الرهن بمعنى الثبوت والدوام فمن ثم بطل الرهن عند الفقهاء إذا خرج من يد المرتهن إلى يد الراهن بوجه من الوجوه، لأنه فارق ما جعل له، ويقال: أرهن في السلعة إذا غالى فيها حتى أخذها بكثير الثمن، ومنه قول الشاعر في وصف ناقة:

يطوي ابن سلمى بها من راكب بُعْدًا
عبيدته أرهنت فيها الدنانير
العيد بطن من مَهْرَةٍ، وإبل مَهْرَةٍ
موصوفة بالنجاسة. ويقال في معنى الرهن الذي هو التوثق من الحق: أرهنت إرهناً فيما حكى بعضهم. وقال أبو علي: يقال: أرهنت في المغفلة، وأما في القرض والبيع فرهنت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقال بلا خلاف في البيع والقرض: رهنت رهناً، ثم سمي بهذا المصدر الشيء المدفوع، ونقل إلى التسمية، ولذلك كسر في الجمع كما تكسر الأسماء، وكما تكسر المصادر التي يسمى بها وصار فعله ينصبه نصب المفعول به لا نصب المصدر تقول: رهنت رهناً، فذلك كما تقول: رهنت ثوباً لا كما تقول: رهنت الثوب رهناً، وضربت ضرباً، قال أبو علي: وقد يقال في هذا المعنى: أرهنت، وفعلت فيه أكثر، ومنه قول الشاعر:

يُراهِئُنِي قَيْزُهُئُنِي بَنِيهِ
وَأَرَهْنُهُ بَنِيَّ بِمَا أَقُولُ
وقال الأعشى:

حَتَّى يُفِيدَكَ مِنْ بَنِيهِ رَهْبِنَةً
تُعْشُ وَتَزْهَنُكَ السَّمَاءُ الْفَرْقَدَا

فهذه رُويت من: زَهَنَ. وأما أرهن فمنه قول همام بن مَوْه:

ولمّا خَشِيتُ أَظْافِيرَهُمْ
تَجَوْتُ وَأَزْهَنْتُهُمْ مَالِكًا
قال الزجاج: يقال في الرهن: رَهنت وأرَهنت، وقاله ابن الأعرابي، ويقال: رَهنت لسانِي بكذا، ولا يقال فيه: أرَهنت.

فمن قرأ: ﴿رُهْنٌ﴾ فهو جمع زَهَن ككَبَش وكِبَاش، وكَغَب وكِغَاب، ونُغَل ونِغَال، ويُنْغَل ويُنْغَال. ومن قرأ: ﴿فُرْهَنٌ﴾ بضم الراء والهاء فهو جمع زَهَن - كسَقَف وسَقْف، وأسَد وأسَد، إذ فُعَل وفُعُل يتقاربان في أحكامهما، ومن قرأ: ﴿فُرْهَنٌ﴾ بسكون الهاء فهو تخفيف رُهْن وهي لغة في هذا الباب كله - ككُتِب وفُخِد وعُضِد وغير ذلك. قال أبو علي: وتكسير رُهْن على أقل العدد لم أعلمه جاء، ولو جاء لكان قياسه أَفْعَل ككَلَب وأكَلَب، وكأنهم استغنوا بالكثير عن القليل في قولهم: ثلاثة شسوع، كما استغن ببناء القليل عن بناء الكثير في رُسْن وأرسان.

فرهن يجمع على بناءين من أبنية المجموع وهما: فُعَل وفِغَال، فمما جاء على فُعَل قول الأعشى:

أَلَيْتَ لَا أُعْطِيهِ مِنْ أَيْتَانِيَا
رُهْنًا فَيَفْسِدُهُمْ كَمَنْ قَدْ أَفْسَدَا
قال الطبري: تأول قوم أن رُهْنًا بضم الراء والهاء، جمع رهان، فهو جمع جمع، وحكاه الزجاج عن الفراء. ووجه أبو علي قياساً يقتضي أن يكون رهاناً جمع زَهَن بأن يقال: يُجمع فُعَل على فِغَال كما جمعوا فعلاً على فاعل في قول ذي الرمة:

وَقَرْنُ بِالرُّزْقِ الْجَمَائِلُ بَغْدَا
تَقَوَّبَ عَنْ غِرْبَانٍ أَوْزَاكِهَا الْخَطُرُ
ثم ضعف أبو علي هذا القياس، وقال: إن سيبويه لا يرى جُمع الجمع مطرداً، فينبغي ألا يقدم عليه حتى يرد سماعاً.

وقوله عز وجل: ﴿مَقْبُورَةٌ﴾ يقتضي بينونة المرتهن بالرهن، وأجمع الناس على صحة قبض المرتهن، وكذلك على قبض وكيله فيما علمت، واختلفوا في قبض عدل يوضع الرهن على يديه - فقال مالك، وجميع الصحابة، وجمهور العلماء: قبض العدل قبض، وقال الحكم بن عتيبة، وأبو الخطاب قتادة بن دعامة، وغيرهما: ليس قبض العدل بقبض. وقول الجمهور أصح من جهة المعنى في الرهن.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ آيَنَ﴾ الآية، شرط ربط به وصية الذي عليه الحق بالأداء، وقوله: ﴿فَلْيَوَدَّ﴾ أمر بمعنى الوجوب، بقرينة الإجماع على وجوب أداء الديون، وثبوت حكم الحاكم به، وجبره الغرماء عليه، وبقرينة الأحاديث الصحاح في تحريم مال الغير، وقوله: ﴿أَتَتَنَّتْ﴾ مصدر سُمي به الشيء الذي في الذمة، وأضافها إلى الذي عليه الدين من حيث لها إليه نسبة، ويحتمل أن يريد بالأمانة نفس المصدر، كأنه قال: فليحفظ مروءته، فيجيء التقدير: فليؤد دين أمانته، وقرأ عاصم - فيما روى عنه أبو بكر - ﴿الَّذِي أَوْثَمَنَ﴾ برفع الذال، ويشير بالضم إلى الهمزة، قال أحمد بن

موسى: وهذه الترجمة غلط، وقرأ الباقون بالذال مكسورة، وبعدها همزة ساكنة بغير إشمام، وهذا هو الصواب الذي لا يجوز غيره. وروى سليم عن حمزة إشمام الهمزة الضم، وهذا خطأ أيضاً لا يجوز، وصوب أبو علي هذا القول كله الذي لأحمد بن موسى، واحتج له، وقرأ ابن محيصن: ﴿الَّذِي إِثْمَنَ﴾ بياء ساكنة مكان الهمزة، وكذلك ما كان مثله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ نهي عن الوجوب بعدة قرائن منها الوعيد. وموضع النهي هو حيث يخاف الشاهد ضياع الحق. وقال ابن عباس: على الشاهد أن يشهد حيثما استشهد، ويخبر حيثما استخبر، قال: ولا تقل: أخبر بها عند الأمير، بل أخبر بها لعله يرجع ويرعوي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي بحسب قرينة حال الشاهد، والمشهود فيه، والنازلة، لا سيما مع فساد الزمن، وأردال الناس، ونفاق الحيلة، وأغراض الدنيا عند الحكام. فرب شهادة إن ضرح بها في غير موضع النفوذ كانت سبباً لتخلف باطلاً ينطمس به الحق.

و﴿إِثْمَ﴾ معناه: قد تعلق به الحكم اللاحق عن المعصية في كتمان الشهادة. وإعراجه أنه خبر ﴿إِنْ﴾ و﴿قَلْبِهِ﴾ فاعل بـ﴿إِثْمَ﴾، ويجوز أن يكون ابتداء، و﴿قَلْبِهِ﴾ فاعل يسد مسد الخبر، والجملة خبر ﴿إِنْ﴾، ويجوز أن يكون ﴿قَلْبِهِ﴾

بدلاً على بدل البعض من الكل، وخص الله تعالى ذكر القلب إذ الكم من أفعاله، وإذ هو المضغة التي بصلاحها يصلح الجسد، كما قال عليه السلام، وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿فَإِنَّهُ إِنَّمَا قَلْبُهُ﴾ بنصب الباء، قال مكي: هو على التفسير، ثم ضعفه من أجل أنه معرفة. وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلَيْهِ﴾ تواعد وإن كان لفظها يعم الوعد والوعيد.

﴿٢٨٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: جميع ما في السماوات وما في الأرض ملك لله وطاعة لأنه الموجد المخترع لا رب غيره، وعبر بـ ﴿مَا﴾ وإن كان ثم من يعقل لأن الغالب إنما هو جماد وحيوان لا يعقل، ويقل من يعقل من حيث قلت أجناسه إذ هي ثلاثة: ملائكة، وإنس، وجن - وأجناس الغير كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُمَاسِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ معناه أن الأمر سواء لا ينفع فيه المواراة والكتم، بل يعلمه ويحاسب به، وقوله: ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ تقتضي قوة اللفظ أنه ما تقرر في النفس، واعتقد، واستصحبت الفكرة فيه، وأما الخواطر التي يمكن دفعها فليست في النفس إلا على تجوز.

واختلف الناس في معنى هذه الآية - فقال ابن عباس، وعكرمة، والشعبي: هي في معنى الشهادة التي نهى عن كتمها، ثم أعلم في هذه

الآية أن الكاتم لها، المخفي في نفسه محاسب، وقال ابن عباس أيضاً، وأبو هريرة، والشعبي، وجماعة من الصحابة والتابعين: (إن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب محمد ﷺ، وقالوا: هلكتنا يا رسول الله إن حوسبنا بخواطر أنفسنا، وشق ذلك على النبي ﷺ، لكنه قال لهم: «أتريدون أن تقولوا كما قالت بنو إسرائيل: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا» - فقالوا، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْمَهَا﴾ فكشف عنهم الكربة، ونسخ بهذه الآية تلك). هذا معنى الحديث المروي، وله طرق من جهات، واختلفت عباراته، واستتبت عبارة هؤلاء القائلين بلفظة النسخ في هذه النازلة.

وقال سعيد بن مرجانة: جئت عبدالله بن عمر فتلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُمَاسِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ ثم قال: والله لئن أخذنا بهذه الآية لنهلكن، ثم بكى حتى سالت دموعه وسمع نشيجه، قال ابن مرجانة: فقامت حتى جئت ابن عباس فأخبرته بما قال ابن عمر وبما فعل، فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، لقد وجد المسلمون منها حين نزلت مثل ما وجد عبدالله بن عمر فأنزل الله: ﴿لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْمَهَا﴾ الآية، فنسخت الوسوسة وثبت القول والفعل - وقال الطبري، وقال آخرون: هذه الآية محكمة غير منسوخة والله تعالى يحاسب خلقه

على ما عملوا من عمل وعلى ما لم يعملوه مما ثبت في نفوسهم فأضمره ونووه وأرادوه، فيغفر للمؤمنين ويأخذ به أهل الكفر والنفاق، ثم أدخل عن ابن عباس ما يشبه هذا المعنى، وقال مجاهد: الآية فيما يطرأ على النفوس من الشك واليقين. وقال الحسن: الآية محكمة، وليست بمنسوخة. قال الطبري: وقال آخرون نحو هذا المعنى الذي ذكر عن ابن عباس. إلا أنهم قالوا: إن العذاب الذي يكون جزاء لما خطر في النفوس وصحبه الفكر هو بمصائب الدنيا والآمها وسائر مكارهاها، ثم أسند عن عائشة رضي الله عنها نحو هذا المعنى. ورجح الطبري أن الآية محكمة غير منسوخة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الصواب، وذلك أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ معناه: مما هو في وسعكم وتحت كسبكم، وذلك استصحاب المعتقد والفكر فيه، فلما كان اللفظ مما يمكن أن تدخل فيه الخواطر أشق الصحابة والنبي ﷺ، فبين الله تعالى لهم ما أراد بالآية الأولى وخصصها، ونص على حكمه أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها - والخواطر ليست هي ولا دفعها في الوسع، بل هو أمر غالب، وليست مما يكسب ولا يكتسب، وكان في هذا البيان فَرْجُهُمْ، وكشف كربهم وبإي الآية محكمة لا نسخ فيها.

ومما يدفع أمر النسخ أن الآية

﴿٢٨٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

سبب هذه الآية أنه لما أنزلت: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْا﴾ وأشفق منها النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ثم تقرر الأمر على أن قالوا: سمعنا وأطعنا، فرجعوا إلى التضرع والاستكانة - مدحهم الله - وأثنى عليهم في هذه الآية، وقدم ذلك بين يدي رفقهم بهم، وكشفه لذلك الكرب الذي أوجبه تأولهم، فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح، والثناء، ورفع المشقة في أمر الخواطر، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى، كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك: من ذمهم، وتحميلهم المشقات من الذلة والمسكنة والجلاء، إذ قالوا سمعنا وعصينا - وهذه ثمرة العصيان، والتمرد على الله، أعاذنا الله من نقمته.

﴿وَأَمَّنْ﴾ معناه: صدق - ﴿وَأَرْسَلْ﴾: محمد ﷺ، ﴿وَيَمَّا﴾ أنزل إليه من ربه - هو القرآن، وسائر ما أوحى إليه - من جملة ذلك هذه الآية التي تأولوها شديدة الحكم - ويروى أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه - قال: «ويحق له أن يؤمن»، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَأَمَّنْ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وكل لفظة تصلح للإحاطة، وقد تستعمل غير محيطية على جهة التشبيه بالإحاطة، والقرينة تبين ذلك في كل كلام، ولما وردت هنا بعد قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ دل ذلك على إحاطتها بمن ذكر.

والإيمان بالله: هو التصديق به، وبصفاته، ورفض الأصنام وكل

وقرأ الجعفي، وخلاد، وطلحة بن مُصَرِّف: ﴿يَغْفِرُ﴾ بغير فاء، وروى أنها كذلك في مصحف ابن مسعود قال ابن جني: هي على البدل من ﴿يَكْسِبُكُمْ﴾ في تفسير المحاسبة، وهذا كقول الشاعر:

رُوِّدَا بَنِي شَيْبَانَ يَغْفِرُ وَعِيدُكُمْ
ثَلَاثُوا غَدَا حَتْلِي عَلَى سَقَوَانِ
ثَلَاثُوا جِياداً لَا تَحِيدُ عَنِ الرُّغَى
إِذَا مَا غَدَتْ فِي الْمَأْزِقِ الْمُثَدَانِ
فهذا على البدل، وكرر الشاعر الفعل لأن الفائدة فيما يليه من القول.

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني من العصاة الذين ينفذ فيهم الوعيد، قال النقاش: يغفر لمن يشاء، أي: لمن يترع عنه، ويعذب من يشاء، أي: من أقام عليه، وقال سفيان الثوري: يغفر لمن يشاء العظيم، ويعذب من يشاء على الصغير. وتعلق بهذه الآية قوم ممن قال بجواز تكليف ما لا يطاق، وقال: إن الله قد كلفهم أمر الخواطر وذلك مما لا يطاق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير بين، وإنما كان أمر الخواطر تأويلاً تأوله أصحاب النبي ﷺ، ولم يثبت تكليفاً إلا على الوجه الذي ذكرنا من تقرير النبي ﷺ إياهم على ذلك، ومسألة تكليف ما لا يطاق نتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ولما ذكر المغفرة والتعذيب بحسب مشيئته تعالى عقب ذلك بذكر القدرة على جميع الأشياء إذا ما ذكر جزء منها.

خبر، والأخبار لا يدخلها النسخ، فإن ذهب ذهاب إلى تقرير النسخ فإنما يترتب له في الحكم الذي لحق الصحابة حين فزعوا من الآية، وذلك أن قول النبي ﷺ لهم: «قولوا: سمعنا وأطعنا» يجيء منه الأمر بأن يثبتوا على هذا ويلتزموا، وينتظروا لطف الله في الغفران، فإذا قرر هذا الحكم فصحيح وقوع النسخ فيه، وتشبه الآية حينئذ قوله عز وجل: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَلْبِثُوا مِائَتِينَ﴾ فهذا لفظه الخبر ولكن معناه: التزموا هذا، واثبتوا عليه، واصبروا بحسبه، ثم نسخ ذلك بعد ذلك، وأجمع الناس - فيما علمت - على أن هذه الآية في الجهاد منسوخة بصبر المائة للمائتين، وهذه الآية في البقرة أشبه شيء بها.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ﴾ جزماً، وقرأ ابن عامر وعاصم: ﴿فَيَغْفِرُ وَيُعَذِّبُ﴾ رفعاً - فوجه الجزم أنه أتبعه ما قبله ولم يقطعه وهكذا تحسن المشاكلة في كلامهم، ووجه الرفع أنه قطعه من الأول - وقطعه على أحد وجهين - إما أن تجعل الفعل خبراً لمبتدأ محذوف، فيرتفع الفعل لوقوعه موقع خبر المبتدأ، وإما أن تعطف جملة من فعل وفاعل على ما تقدمها. وقرأ ابن عباس، والأعرج، وأبو حيوة: ﴿فَيَغْفِرُ وَيُعَذِّبُ﴾ بالنصب على إضمار «أَنْ» وهو معطوف على المعنى كما في قوله: ﴿فَيَصْنَعُهُ﴾

معبود سواه. والإيمان بملأئكته: هو اعتقاد وجودهم وأنهم عباد الله، ورفض معتقدات الجاهلية فيهم. والإيمان بكتبه: هو التصديق بكل ما أنزل على الأنبياء الذين تضمن ذكرهم كتاب الله المنزل على محمد ﷺ، أو ما أخبر هو به.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم - في رواية أبي بكر - وابن عامر: ﴿وَكُتِبَ﴾ على الجمع، وقرؤوا في التحريم: ﴿وَكُتِبَ﴾ على التوحيد، وقرأ أبو عمرو هاهنا، وفي التحريم: ﴿وَكُتِبَ﴾ على الجمع، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وَكُتِبَ﴾ على التوحيد فيهما، وروى حفص، عن عاصم هاهنا وفي التحريم: ﴿وَكُتِبَ﴾ مثل أبي عمرو. وروى خارجة عن نافع مثل ذلك، وبكل قراءة من هذه قرأ جمهور من العلماء، فمن جمع أراد جمع كتاب، ومن أفرد أراد المصدر الذي يجمع كل مكتوب كان نزوله من عند الله تعالى، هذا قول بعضهم، وقد وجهه أبو علي، وهو كما قالوا: نُسِجَ اليمن، وقال أبو علي في صدر كلامه: أما الأفراد في قول من قرأ ﴿وَكُتِبَ﴾ فليس كما تفرد المصادر وإن أريد بها الكثير، كقوله: ﴿وَادْعُوا تَتُورًا كَتِيرًا﴾ ونحو ذلك. ولكن كما تفرد الأسماء التي يراد بها الكثرة كقولهم: كثر الدينار والدرهم، ونحو ذلك، فإن قلت: هذه الأسماء التي يراد بها الكثرة إنما تجيء مفردة، وهذه مضافة، قيل: فقد جاء في المضاف ما يعنى به الكثرة، ففي التنزيل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ وفي

الحديث: «منعت العراق ذرهمها وقيزها» فهذا يراد به الكثير كما يراد بما فيه لام التعريف. ومنه قول ابن الرقاع:

يَذْعُ الْحَيَّ بِالْعَشِيِّ غِرَاءً
وَهُمْ عَنْ رَغِبِهِمْ أَغْنَاءُ
ومجيء أسماء الأجناس معرفة بالألف واللام أكثر من مجيئها مضافة.

وقراءة الجماعة: ﴿وَرُسُلِهِ﴾ بضم السين، وكذلك: ﴿رُسُلْنَا وَرُسُلُكُمْ وَرُسُلِكَ﴾ إلا أبا عمرو فروي عنه تخفيف ﴿رُسُلْنَا وَرُسُلُكُمْ﴾، وروي عنه في ﴿رُسُلِكَ﴾ التشكيل والتخفيف، قال أبو علي: مَنْ قرأ ﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾ بالثقل فذلك أصل الكلمة، ومن خفف فكما يخفف في الأحاد مثل: عتق وطئ، فإذا خفف في الأحاد فذلك أخرى في الجمع الذي هو أثقل.

وقرأ يحيى بن يعمر: ﴿وَكُتِبَ وَرُسُلِهِ﴾ بسكون التاء والسين، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَكُتِبَ﴾ ولقائه - ورسله، وقرأ جمهور الناس: ﴿لَا تُفَرِّقْ﴾ بالنون، والمعنى: يقولون: ﴿لَا تُفَرِّقْ﴾، وقرأ سعيد بن جبير، ويحيى بن يعمر، وأبو زرعة بن عمرو بن جرير، ويعقوب: ﴿لَا يُفَرِّقْ﴾ بالياء، وهذا على لفظ كل، قال هارون: وهي في حرف ابن مسعود: ﴿لَا يُفَرِّقُونَ﴾ بالياء، ومعنى هذه الآية: أن المؤمنين ليسوا كاليهود والنصارى في أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا

وَأَطَعْنَا﴾ مدح يقتضي الحض على هذه المقالة، وأن يكون المؤمن يمثلها غابر الدهر، والطاعة: قبول الأوامر.

و﴿غُفْرَانِكَ﴾ مصدر كالكفران والخسران - ونصبه على جهة نصب المصادر، والعامل فيه فعل مقدر. وقال الزجاج: تقديره: اغفر غفرانك. وقال غيره: نطلب أو نسأل غفرانك، و﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ إقرار بالبعث والوقوف بين يدي الله تعالى.

وروي أن النبي ﷺ - لما نزلت هذه الآية - قال له جبريل: يا محمد: إن الله قد أجل الشئ عليك وعلى أمتك، فسل تعطه، فسأل إلى آخر السورة.

﴿٢٨٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ خبر جزم نص على أنه لا يكلف العباد من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلب أو الجوارح إلا وهي في وسع المكلف، ومقتضى إدراكه ونيته، وبهذا انكشفت الكربة عن المسلمين في تأولهم أمر الخواطر، وتأول من ينكر جواز تكليف ما لا يطاق هذه الآية بمعنى أنه لا يكلف ولا كلف، وليس ذلك بنص في الآية، ولا أيضاً يدفعه اللفظ، ولذلك ساغ الخلاف.

وهذا المعنى الذي ذكرناه في هذه الآية يجري مع معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَكُفُّ أَلْسِنَ وَلَا يُرِيدُ يَكُفُّ أَلْسِنَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾،

وقوله تعالى: ﴿فَأَنقُزُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

واختلف الناس في جواز تكليف ما لا يطاق في الأحكام التي هي في الدنيا بعد اتفاقهم على أنه ليس واقعاً الآن في الشرع، وأن هذه الآية أذنت بعدمه - فقال أبو الحسن الأشعري، وجماعة من المتكلمين: تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً، ولا يخرم ذلك شيئاً من عقائد الشرع، ويكون ذلك أمارة على تعذيب المكلف، وقطعاً به، وينظر إلى هذا تكليف المصور أن يعقد شعيرة حسب الحديث.

واختلف القائلون بجوازه - هل وقع في رسالة محمد ﷺ أم لا؟ فقالت فرقة: وقع في نازلة أبي لهب، لأنه حكم عليه بتبُّ اليدين، وصلي النار، وذلك مؤذن بأنه لا يؤمن، وتكليف الشرع له الإيمان راتب، فكأنه كلف أن يؤمن، وأن يكون في إيمانه أنه لا يؤمن لأنه إذا آمن فلا محالة أنه يؤمن بسورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾.

وقالت فرقة: لم يقع قط، وقوله تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا﴾ إنما معناه إن وافى على كفره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما لا يطاق ينقسم أقساماً، فمنه المحال عقلاً كالجمع بين الضدين، ومنه المحال عادة كرفع الإنسان جبلاً، ومنه ما لا يطاق من حيث هو مهلك كالاحتراق بالنار ونحوه. ومنه ما لا يطاق للاشتغال بغيره، وهذا إنما يقال فيه: ما لا يطاق على تجوز كثير.

و﴿يَكُفُّ﴾ يتعدى إلى مفعولين -

أحدهما محذوف تقديره: عبادة أو شيئاً. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿إِلَّا وَسِعَهَا﴾ بفتح الواو وكسر السين، وهذا فيه تجوز، لأنه مقلوب، وكان وجه اللفظ ﴿إِلَّا وَسِعَتْهُ﴾، كما قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وكما قال: ﴿وَيَسِعُ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ولكن يجيء هذا من باب أدخلت القلنسوة في رأسي، وفمي في الحجر.

وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ يريد من الحسنات، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ يريد من السيئات - قاله السدي، وجماعة من المفسرين. ولا خلاف في ذلك، والخواطر ونحوها ليس من كسب الإنسان - وجاءت العبارة في الحسنات بـ﴿لَهَا﴾ من حيث هي مما يفرح الإنسان بكسبه ويُسرُّ به، فتضاف إلى ملكه، وجاءت في السيئات بـ﴿عَلَيْهَا﴾ من حيث هي أوزار وأثقال ومحتملات صعبة، وهذا كما تقول: لي مال، وعليّ دين، وكما قال المتصدق باللقطة: اللهم عن فلان فإن أبي فلي وعلي، وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف حسناً لنمط الكلام كما قال: ﴿فَهَلْ أَكْفَرُونَ أَنَّهُمْ رُبُّا﴾ هذا وجه، والذي يظهر لي في هذا أن الحسنات هي ما كسب دون تكلف، إذ كاسبها على جادة أمر الله ورسم شرعه، والسيئات تكتسب ببناء المبالغة، إذ كاسبها يتكلف في أمرها خرق حجاب نهي الله تعالى، ويتخطأ إليها، فيحسن في الآية مجيء التصريفين إحرازاً لهذا المعنى.

وقال المهدوي، وغيره: وقيل: معنى الآية: لا يؤخذ أحد بذنب أحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا صحيح في نفسه، لكن من غير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ معناه: قولوا في دعائكم.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿إِنْ نَسِينَا أَوْ أَغْلَيْنَا﴾ - فذهب الطبري وغيره إلى أنه النسيان بمعنى الترك، أي إن تركنا شيئاً من طاعتك، وأنه الخطأ المقصود - قالوا: وأما النسيان الذي يغلب المرء، والخطأ الذي هو عن اجتهاد فهو موضوع عن المرء، فليس بمأمور في الدعاء في ألا يؤاخذ به، وذهب كثير من العلماء إلى أن الدعاء في هذه الآية إنما هو في النسيان الغالب، والخطأ غير المقصود، وهذا هو الصحيح عندي.

قال قتادة - في تفسير الآية - : بلغني أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لَأَمْتِي عَنْ نِسْيَانِهَا وَخَطْئِهَا»، وقال السُّدِّي: لما نزلت هذه الآية فقالوها، قال جبريل للنبي ﷺ: (قد فعل الله لهم ذلك يا محمد). فظاهر قوليهما ما صححته، وذلك أن المؤمنين لما كشف عنهم ما خافوه في قوله تعالى: ﴿يُمَاسِكُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أمروا بالدعاء في دفع ذلك الذي ليس من طاقة الإنسان دفعه، وذلك في النسيان والخطأ. والإصر: الثقل، وما لا يطاق على أتم أنواعه.

وهذه الآية - على هذا القول -

تقضي بجواز تكليف ما لا يطاق، ولذلك أمر المؤمنين بالدعاء في ألا يقع هذا الجائر الصعب.

ومذهب الطبري والزجاج أن تكليف ما لا يطاق غير جائز، فالنسيان عندهم: المتروك من الطاعات، والخطأ هو المقصود من العصيان. والإصر: هو العبادات الثقيلة كتكاليف بني إسرائيل من قتل أنفسهم، وقرض أبدانهم، ومعاقبتهم على معاصيهم في أبدانهم حسبما كان يكتب على أبوابهم، وتحملهم العهد الصعبة. وما لا طاقة للمرء به: هو عندهم على تجوز، كما نقول: لا طاقة لي على خصومة فلان، ولغير ذلك من الأمر تستصعبه وإن كنت في الحقيقة تطيقه، أو يكون ذلك ما لا طاقة لنا به من حيث هو مهلك لنا كعذاب جهنم وغيره. وأما لفظة «أخطأ» فقد تجيء في القصد ومع الاجتهاد.

قال قتادة: الإصر: العهد والميثاق الغليظ، وقاله مجاهد وابن عباس، والسدي، وابن جريج، والربيع، وابن زيد. وقال عطاء: الإصر: المسخ قردة وخنازير. وقال ابن زيد أيضاً: الإصر: الذنب لا كفارة فيه ولا توبة منه. وقال مالك رحمه الله: الإصر: الأمر الغليظ الصعب، والآصرة - في اللغة - : الأمر الرابط من ذمام أو قرابة أو عهد ونحوه، فهذه العبارات كلها تنحو نحو، والإصرار: الحبل الذي تربط به الأحمال ونحوها، والقيء يضم عضدي الرجل، يقال: أصر يأصر أصرأ، والإصر - بكسر الهمزة:

الاسم من ذلك، وفي هذا نظر. وزوي عن عاصم أنه قرأ: أصر بضم الهمزة.

ولا خلاف أن ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يراد به اليهود.

وقال الضحاك: والنصارى. وأما عبارات المفسرين في قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ فقال قتادة: لا تشدد علينا كما شددت على من كان قبلنا. وقال الضحاك: لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيع. وقال نحوه ابن زيد. وقال ابن جريج: لا تمسخنا قردة وخنازير.

وقال سلام بن سابور: الذي لا طاقة لنا به الغلظة، وحكاه النقاش عن مجاهد وعطاء ومكحول. وروي أن أبا الدرداء كان يقول في دعائه: وأعوذ بك من غلظة ليس لها عدة. وقال السدي: هو التغليظ والأغلال التي كانت على بني إسرائيل من التحريم.

ثم قال تعالى فيما أمر المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَأَعِثَّ عَنَّا﴾، أي: فيما واقعناه وانكشف، ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾، أي: استر علينا ما علمت منا، ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾، أي: تفضل مبتدئاً برحمة منك لنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهي مناح من الدعاء متباعدة، وإن كان الغرض المراد بكل واحد منها واحداً وهو دخول الجنة.

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ مدح في ضمنه تقرب إليه، وشكر على نعمه، ومولى: هو من ولي فهو مفعول أي: موضع الولاية، ثم ختمت

الدعوة بطلب النصر على الكافرين الذي هو ملاك قيام الشرع، وعلو الكلمة، ووجود السبيل إلى أنواع الطاعات.

وروي أن جبريل عليه السلام أتى محمداً ﷺ فقال: قل: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، فقالها، فقال جبريل: قد فعل، فقال: قل كذا وكذا، فيقولها، فيقول جبريل: قد فعل. إلى آخر السورة، تظاهرت بهذا المعنى أحاديث.

وروي عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال: آمين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا يظن به أنه رواه عن النبي ﷺ، فإن كان ذلك فكمال، وإن كان بقياس على سورة الحمد من حيث هناك دعاء، وهنا دعاء فحسن.

وروي أبو مسعود عقبة بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفْتَاهُ»، يعني عن قيام الليل. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما أظن أحداً عقل وأدرك الإسلام ينাম حتى يقرأهما».

وروي أن النبي ﷺ قال: «أوتيت هؤلاء الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يؤتني أحد قبلي».

كملت سورة البقرة، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين.

(٣) تفسير سورة آل عمران

هذه السورة مدنية بإجماع فيما علمت، وذكر النقاش أن اسم هذه السورة في التوراة: طيبة.

① - ① تفسير قوله عز وجل:

قد تقدم ذكر اختلاف العلماء في الحروف التي في أوائل السور في أول سورة البقرة، ومن حيث جاء في هذه السورة ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ جملة قائمة بنفسها فتتصور تلك الأقوال كلها في:

﴿آل﴾ في هذه السورة، وذهب الجرجاني في النظم إلى أن أحسن الأقوال هنا أن يكون ﴿آل﴾ إشارة إلى حروف المعجم كأنه يقول: هذه الحروف كتابك أو نحو هذا، ويدل قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ على ما ترك ذكره مما هو خبر عن الحروف، قال: وذلك في نظمه مثل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّنْ سَخَّ اللَّهُ صَدْرُكَ لِلْإِسْلَامِ ۖ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ وترك الجواب لدلالة قوله: ﴿قَوْلٌ لِّلْغَيْبِ ۖ قُلُوبُهُمْ يَنْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ تقديره: كمن قسا قلبه، ومنه قول الشاعر:

فلا تدفنوني إن دُفني مُحَرَّمٌ عليكم، ولكن: خامري أم عامر التقدير: ولكن اتركوني للتي يقال لها: «خامري أم عامر».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يحسن في هذا القول أن يكون ﴿نَزَلَ﴾ خبر قوله ﴿آل﴾ حتى يرتبط الكلام إلى هذا المعنى. وهذا

الذي ذكره القاضي الجرجاني فيه نظر، لأن مثله ليست صحيحة الشبه بالمعنى الذي نحا إليه، وما قاله في الآية محتمل، ولكن الأبرع في نظم الآية أن تكون ﴿آل﴾ لا تضم ما بعدها إلى نفسها في المعنى، وأن يكون ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ كلاماً مبتدأ جزماً جملة رادة على نصارى نجران الذين وفدوا على رسول الله عليه السلام فحاجوه في عيسى ابن مريم وقالوا: إنه الله، وذلك أن ابن إسحاق

والربيع وغيرهما ممن ذكر السير رووا أن وفد نجران قدم على رسول الله ﷺ نصارى ستون راكباً، فيهم من أشرفهم أربعة عشر رجلاً، في الأربعة عشر ثلاثة نفر إليه يرجع أمرهم: العاقب أمير القوم وذو رأيهم واسمه عبدالمسيح، والسيد ثمالهم وصاحب مجتمعهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل أسقفهم وعالمهم؛ فدخلوا على رسول الله ﷺ المسجد إثر صلاة العصر، عليهم الحبراث جبب وأردية، فقال أصحاب رسول الله عليه السلام: ما رأينا وفداً مثلهم جمالاً وجلالة، وحانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد رسول الله ﷺ إلى المشرق فقال النبي ﷺ: «دعوه»؛ ثم أقاموا بالمدينة أياماً يناظرون رسول الله ﷺ



في عيسى ويزعمون أنه الله، إلى غير ذلك من أقوال بشعة مضطربة، ورسول الله ﷺ يرد عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يبصرون، ونزل فيهم صدر هذه السورة إلى نيف وثمانين آية إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الابتهاال، وسيأتي تفسير ذلك.

وقرأ السبعة ﴿آلَمَ الله﴾ بفتح الميم والالف ساقطة، وروي عن عاصم أنه سَكَنَ الميم ثم قَطَعَ الالف، وروي الأولى التي هي كالجماعة حفص، وروي الثانية أبو بكر، وذكرها الفراء عن عاصم، وقرأ أبو جعفر الرؤاسي وأبو حيوة ﴿آلَمَ﴾ بكسر الميم للالتقاء، وذلك رديء لأن الباء تمنع من ذلك، والصواب الفتح قراءة جمهور الناس. قال أبو علي: حروف التهجي مبنية على

الوقف، فالميم ساكنة واللام ساكنة، فحركات الميم بالفتح كما حركت النون في قولك: من الله، ومن المسلمين، إلى غير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن قال بأن حركة الهمزة القيت على الميم فذلك ضعيف لإجماعهم على أن الألف الموصولة في التعريف تسقط في الوصل، فما يسقط فلا تلقى حركته، قاله أبو علي.

وقد تقدم تفسير قوله: ﴿الَّذِي أَلْقَى الْقُرْآنَ فِي آيَةِ الْكَرْسِيِّ﴾، والآية هنالك إخبار لجميع الناس، وكررت هنا إخباراً بحجج هؤلاء النصارى، ويرد عليهم أن هذه الصفات لا يمكنهم ادعاؤها لعيسى عليه السلام لأنهم إذ يقولون إنه صلب فذلك موت في معتقدهم لا محالة، إذ من البين أنه ليس بقيوم.

وقرأ جمهور القراء ﴿الْقُرْآنَ﴾ وزنه فيعمل، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبدالله بن مسعود وعلقمة بن قيس ﴿الْقِيَامَ﴾ وزنه - فيعال - وروي عن علقمة أيضاً أنه قرأ ﴿الْقِيمَ﴾ وزنه فيعمل، وهذا كله من: قام بالأمر يقوم به إذا اضطلع بحفظه وبجميع ما يحتاج إليه في وجوده، والله تعالى القيام على كل شيء بما ينبغي له أو فيه أو عليه.

وتنزيل الله الكتاب هو بواسطة الملك جبريل عليه السلام، و﴿الْكِتَابَ﴾ في هذا الموضع القرآن باتفاق من المفسرين.

وقرأ جمهور الناس ﴿رَزَّكَ عَلَيْكَ﴾ بتشديد الزاي ﴿الْكِتَابَ﴾ بنصب

الباء، وقرأ إبراهيم النخعي ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ بتخفيف الزاي ورفع الباء، وهذه الآية تقتضي أن قوله: ﴿أَنَّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي أَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ جملة مستقلة منجزة.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون المعنى ضمن الحقائق من خبره وأمره ونهيه ومواعظه، فالباء على حدها في قوله: جاءني كتاب بخبر كذا وكذا، أي ذلك الخبر مقتض فيهِ، والثاني: أن يكون المعنى أنه نزل الكتاب باستحقاق أن ينزل لما فيه من المصلحة الشاملة، وليس ذلك على أنه واجب على الله تعالى أن يفعله، بل له بالحق أن يفعله، فالباء في هذا المعنى على حدها في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾. وقال محمد بن جعفر بن

الزبير: معنى قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾: أي فيما اختلف فيه أهل الكتاب واضطرب فيه هؤلاء النصارى الوافدون، وهذا داخل في المعنى الأول.

﴿مُتَذَكِّرًا﴾ حال مؤكدة وهي راتبة غير منتقلة لأنه لا يمكن أن يكون غير مصدق لما بين يديه من كتب الله، فهو كقول ابن دارة:

أنا ابنُ دارةٍ معروفٌ بها نسبي وهل بدارةٍ يا للناس من عار؟
﴿لَمَّا بَيَّنَّ يَدَيَّ﴾ التوراة والإنجيل وسائر كتب الله التي تليقت من شرعنا كالزبور والصحف؛ وما بين اليد في هذه الحوادث هو المتقدم في الزمن.

﴿التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ اسمان أصلهما عبراني، لكن النحاة وأهل اللسان حملوهما على الاشتقاق العربي، فقالوا في التوراة: إنها من وري الزند يَري إذا قدح وظهرت ناره، يقال: أوريته فوري، ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَوَيْتَ﴾ وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾. قال أبو علي: فأما قولهم: وَرَيْتُ بك زنادي على وزن فَعِلْتُ فزعم أبو عثمان أنه استعمل في هذا الكلام فقط ولم يجاوز به غيره.

وتوراة عند الخليل وسيبويه وسائر البصريين فوعلة كحوقلة، أصلها وَوَزِيَةٌ قلبت الواو الأولى تاء كما قلبت في «تولج» وأصله «ولج» من: ولجت. وحكى الزجاج عن بعض الكوفيين: أن توراة أصلها تَفَعَّلَة بفتح العين، من: وَرَيْتُ بك زنادي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما ينبغي أن تكون من: أوريته، قال: فهي تَوْرِيَةٌ. وقال بعضهم: يصلح أن تكون تفعلة بكسر العين مثل توصية ثم رُدَّتْ إلى تفعلة بفتح العين. قال الزجاج: وكأنه يجيز في توصية توصاة وذلك غير مسموع، وعلى كل قول فالباء لما انفتح ما قبلها وتحركت هي انقلبت ألفاً فقل: توراة، ورجح أبو علي قول البصريين وضعف غيره.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم: ﴿التَّوْرَةَ﴾ مفتوحة الراء، وكان حمزة ونافع يلفظان بالراء بين اللفظين بين الفتح والكسر، وكذلك فعلا في قوله: ﴿مَعَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ و﴿يَوْمَ الْأَنْشَارِ﴾

﴿مِنْ قَرَارٍ﴾ إذا كان الحرف مخفوضاً. وروى المسيبي عن نافع فتح الرءاء من التوراة، وروى ورش عنه كسرهما، وكان أبو عمرو والكسائي يكسران الرءاء من التوراة ويميلان ﴿مِنْ الْأَبْرَارِ﴾ وغيرها أشد من إمالة حمزة ونافع.

وقالوا في الإنجيل: إنه إفعيل من النجل، وهو الماء الذي ينز من الأرض؛ قال الخليل: استنجلت الأرض وبها نجل إذا خرج منها الماء. والنجل أيضاً الولد والنسل. قاله الخليل وغيره، ونجله أبوه أي ولده، ومن ذلك قول الأعشى:

أنسجب أيام والداه به
إذ نجله فنعم ما نجلا

قال ابن سيدة عن أبي علي: معنى قوله: «أيام والداه به» كما تقول: أنا بالله وبك، وقال أبو الفتح: معنى البيت: أنسجب والداه به أيام إذ نجله، فهو كقولك: حينئذ ويومئذ لكنه حال بالفاعل بين المضاف الذي هو «أيام» وبين المضاف إليه الذي هو «إذ». ويروى هذا البيت: «أنسجب أيام والديه». والنجل: الرمي بالشئ وذلك أيضاً من معنى الظهور وفراق شئ شيئاً، وحكى أبو القاسم الزجاجي في نوادره: أن الوالد يقال له: نجل، وأن اللفظة من الأضداد، وأما بيت زهير فالرواية الصحيحة فيه:

وكل فحل له نجل
أي ولد كريم ونسل. وروى الأصمعي فيما حكى عنه «وكل فرع له نجل»، وهذا لا يتجه إلا على

تسمية الوالد نجلاً. وقال الزجاج: الإنجيل مأخوذ من النجل وهو الأصل، فهذا ينحو إلى ما حكى أبو القاسم.

قال أبو الفتح: فالتوراة من وَرَى الزناد إذا ظهرت ناره، والإنجيل من نَجَل إذا ظهر ولده، أو من ظهور الماء من الأرض، فهو مستخرج إما من اللوح المحفوظ وإما من التوراة.

و﴿الْفَرْقَانِ﴾ من الفرق بين الحق والباطل، فحروفها مختلفة والمعنى قريب بعضه من بعض، إذ كلها معناه: ظهور الحق وبيان الشريع وفصله من غيره من الأباطيل.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿الأنجيل﴾ - بفتح الهزعة - وذلك لا يتجه في كلام العرب، ولكن تحميه مكانة الحسن من الفصاحة، وأنه لا يقرأ إلا بما روى، وأراه نحا به نحو الأسماء الأعجمية.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعني من قبل القرآن.

وقوله: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ معناه: دعاء، والناس: بنو إسرائيل في هذا الموضع، لأنهم المدعوون بهما لا غير، وإن أراد أنهما هدى في ذاتهما مدعو إليه فرعون وغيره، منصوب لمن اهتدى به، فالناس عام في كل من شاء حينئذ أن يستبصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال هنا: ﴿لِلنَّاسِ﴾، وقال في القرآن: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ وذلك عندي لأن هذا خبر مجرد، وقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبر مقترن به الاستدعاء والصرف إلى الإيمان، فحسنت الصفة، ليقع من السامع

النشاط والبدار، وذكر الهدى الذي هو إيجاد الهداية في القلب، وهنا إنما ذكر الهدى الذي هو الدعاء، والهدى الذي هو في نفسه معد أن يهتدي به الناس، فسمي هدى لذلك، وقال ابن فورك: التقدير هنا: هدى للناس المتقين، ويرد هذا العام إلى ذلك الخاص، وفي هذا نظر.

والفرقان: القرآن، سمي بذلك لأنه فرق بين الحق والباطل، قال محمد بن جعفر: فرق بين الحق والباطل في أمر عيسى عليه السلام، الذي جادل فيه الوفد، وقال قتادة والربيع وغيرهما: فرق بين الحق والباطل في أحكام الشرائع، وفي الحلال والحرام ونحوه، والفرقان يعم هذا كله. وقال بعض المفسرين: الفرقان هنا: كل أمر فرق بين الحق والباطل، فيما قُدِّم وحُدِّث، فيدخل في هذا التأويل طوفان نوح، وفرق البحر لفرق فرعون، ويوم بدر، وسائر أفعال الله تعالى المفرقة بين الحق والباطل، فكأنه تعالى ذكر الكتاب العزيز، ثم التوراة والإنجيل، ثم كل أفعاله ومخلوقاته التي فرقت بين الحق والباطل، كما فعلت هذه الكتب، ثم توعده تعالى الكفار عموماً بالعذاب الشديد، وذلك يعم عذاب الدنيا بالسيف والغلبة، وعذاب الآخرة بالنار، والإشارة بهذا الوعيد إلى نصارى نجران، وقال النقاش: إلى اليهود، كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، وابني أخطب وغيرهم.

﴿عَزَّ﴾ معناه: غالب، وقد ذلَّ له كلُّ شيء؛ والنفقة والانتقام: معاينة المذنب بمبالغة في ذلك.

﴿٥﴾ - ﴿٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية أخبر عن علم الله تعالى بالأشياء على التفصيل، وهذه صفة لم تكن لعيسى ولا لأحد من المخلوقين، ثم أخبر عن تصويره البشر في أرحام الأمهات، وهذا أمر لا ينكره عاقل، ولا ينكر أن عيسى وسائر البشر لا يقدرُونَ عليه، ولا ينكر أن عيسى عليه السلام من المصورين في الأرحام، فهذه الآية تعظيمٌ لله تعالى في ضمنها الرد على نصارى نجران.

وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَنِّيهِ شَيْءٌ﴾ وعيد ما لهم؛ فسر بنحو هذا محمد بن جعفر بن الزبير والربيع، وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُمَوِّكُكُمْ﴾ ردُّ على أهل الطبيعة، إذ يجعلونها فاعلة مستبدلة، وشرح النبي ﷺ كيفية التصوير في الحديث الذي رواه ابن مسعود وغيره: «إن النطفة إذا وقعت في الرَّحِمِ مكثت نطفة أربعين يوماً، ثم تكون علقة أربعين يوماً، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليها ملكاً فيقول: يا رب، اذكر أم أنثى؟ أنثى أم سميد؟». الحديث بطوله على اختلاف ألفاظه. وفي مسند ابن سنجر حديث: «إن الله يخلق عظام الجنين وغضاريفه من مني الرجل ولحمه وشحمه وسائر ذلك من مني المرأة». (صَوَّرَ) بناء مبالغة من: صار يصور إذا أمال وثنى إلى حال ما، فلما كان التصوير إمالة إلى حال

وإثباتاً فيها، جاء بناؤه على المبالغة. والرحم: موضع نشأة الجنين.

﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يعني من طول وقصر ولون وسلامة وعاهة وغير ذلك من الاختلافات.

﴿الْعَزِيزُ﴾: الغالب، و﴿الْحَكِيمُ﴾: ذو الحكمة أو المحكم في مخلوقاته، وهذا أخص بما ذكر من التصوير.

﴿الْكِتَابُ﴾ في هذه الآية: القرآن بإجماع من المتأولين، والمحكمات: المفصلات المبينات الثابتات الأحكام، والمتشابهات: هي التي فيها نظر وتحتاج إلى تأويل ويظهر فيها ببادي النظر إما تعارض مع أخرى أو مع العقل، إلى غير ذلك من أنواع التشابه، فهذا الشبه الذي من أجله توصف بمتشابهات إنما هو بينها وبين المعاني الفاسدة التي يظهر أهل الزيغ ومن لم يُمنع النظر، وهذا نحو الحديث الصحيح، عن النبي عليه السلام: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور متشابهات» أي يكون الشيء حراماً في نفسه فيشبه عند من لم يمتنع النظر شيئاً حلالاً، وكذلك الآية يكون لها في نفسها معنى صحيح فتشبه عند من لم يمتنع النظر أو عند الزائغ معنى آخر فاسداً، فربما أراد الاعتراض به على كتاب الله، هذا عندي معنى الإحكام والتشابه في هذه الآية، ألا ترى أن نصارى نجران قالوا للنبي عليه السلام: أليس عندك في كتابك أن عيسى كلمة الله وروح منه؟ قال: «نعم»، قالوا: فحسبنا إذاً، فهذا هو التشابه.

واختلفت عبارة المفسرين في تعيين المحكم والمتشابه المراد بهذه الآية، فقال ابن عباس: المحكمات: هي قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَمَكَّنُوا أَنْتُمْ لِمَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى ثلاث آيات، وقوله في بني إسرائيل: ﴿وَوَقَّيْ رَبُّكَ أَلَّا تَبِيدُوا لِلْآثَانِ﴾، وهذا عندي مثال أعطاه في المحكمات. وقال ابن عباس أيضاً: المحكمات: ناسخه وحلاله وحرامه وما يؤمن به ويعمل به؛ والمتشابهات: منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يُعمل به. وقال ابن مسعود وغيره: المحكمات: الناسخات، والمتشابهات: المنسوخات، وهذا عندي على جهة التمثيل؛ أي يوجد الإحكام في هذا والتشابه في هذا، لا أنه وقف على هذا النوع من الآيات. وقال بهذا القول قتادة والربيع والضحاك. وقال مجاهد وعكرمة: المحكمات: ما فيه الحلال والحرام، وما سوى ذلك فهو متشابه يصدق بعضه بعضاً، وذلك مثل قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وهذه الأقوال وما ضارعها يُضعفها أن أهل الزيغ لا تعلق لهم بنوع مما ذكر دون سواه.

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المحكمات: هي التي فيهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ليس لها تصريف ولا تحريف عما وُضعن عليه، والمتشابهات: لهن تصريف

وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد، وهذا أحسن الأقوال في هذه الآية. وقال ابن زيد: المحكم: ما أحكم فيه قصص الأنبياء والأمم، وبين لمحمد وأمه، والمتشابه: هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور بعضه باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وبعضه يعكس ذلك نحو قوله: ﴿حَيَّةٌ سَعْيٌ﴾ و﴿ثَبَّانٌ تُبَيِّنُ﴾ ونحو: ﴿أَسْكَكَ يَلْكُ﴾ و﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ﴾.

وقالت جماعة من العلماء منهم جابر بن عبدالله بن رثاب وهو مقتضى قول الشعبي وسفيان الثوري وغيرهما: المحكمات من آي القرآن: ما عرف العلماء تأويله وفهموا معناه وتفسيره، والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه. قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة وخروج يأجوج ومأجوج والدجال ونزول عيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور.

قال القاضي أبو محمد عبدالحق رضي الله عنه: أما الغيوب التي تأتي فهي من المحكمات، لأن ما يعلم البشر منها محدود، وما لا يعلمونه وهو تحديد الوقت محدود أيضاً. وأما أوائل السور فمن المتشابه لأنها مُعَرَّضَةٌ للتأويل، ولذلك اتبعت اليهود وأرادوا أن يفهموا منه مدة أمية محمد عليه السلام.

وفي بعض هذه العبارات التي ذكرنا للعلماء اعتراضات، وذلك أن التشابه الذي في هذه الآية مقيّد بأنه مما لأهل الزيف به تعلق، وفي بعض

عبارات المفسرين تشابه لا يقتضي لأهل الزيف تعلقاً.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ أُمَّ الْكِتَابِ﴾ فمعناه الإعلام بأنها معظم الكتاب وعمدة ما فيه، إذ المحكم في آيات الله كثير قد فُصِّلَ ولم يُقَرِّط في شيء منه.

قال يحيى بن يعمر: هذا كما يقال لمكة: أم القرى، وللمرو: أم خراسان، وكما يقال: أم الرأس لمجتمع الشؤون إذ هو أخطر مكان. قال المهدوي والنقاش: كل آية محكمة في كتاب الله يقال لها أم الكتاب؛ وهذا مردود؛ بل جميع المحكم هو أم الكتاب، وقال النقاش: وهذا كما تقول: كلكم علي أسد ضار؛ وهذا المثال غير محكم. وقال ابن زيد: ﴿أُمَّ الْكِتَابِ﴾ معناه: جماع الكتاب. وحكى الطبري عن أبي فاختة أنه قال: ﴿مَنْ أُمَّ الْكِتَابِ﴾ يراد به فواتح السور إذ منها يستخرج القرآن ﴿الَّذِي﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ منه استخرجت سورة البقرة ﴿الَّذِي﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ منه استخرجت سورة آل عمران. وهذا قول متداع للسقوط مضطرب لم ينظر قائله أول الآية وآخرها ومقصدها، وإنما معنى الآية الإنحاء على أهل الزيف والإشارة بذلك أولاً إلى نصارى نجران وإلى اليهود الذين كانوا معاصرين لمحمد عليه السلام، فإنهم كانوا يعترضون معاني القرآن، ثم تعم بعد ذلك كل زائغ، فذكر الله تعالى أنه نزل الكتاب على محمد إفضالاً منه ونعمة، وَأَنَّ مُحَكَّمَةً وَيَبَيِّنُهُ

الذي لا اعتراض فيه هو معظمه والغالب عليه، وأن متشابهه الذي يحتمل التأويل ويحتاج إلى التفهم هو أقله. ثم إن أهل الزيف يتركون المحكم الذي فيه غُثِّيَتْهُمْ ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة وأن يفسدوا ذات البين ويردوا الناس إلى زُرْنِغِهِمْ، فهكذا تتوجه المذمة عليهم.

﴿وَأَخْرَجَ﴾ جمع أخرى ولا ينصرف لأنه صفة، وعدل عن الألف واللام في أنه يشئ ويجمع، وصفات التفضيل كلها إذا عريت عن الألف واللام لم تثن ولم تجمع، كأفضل وما جرى مجراه، ولا يفاضل بهذه الصفات بين شيئين إلا وهي منكرة، ومتى دخلت عليه الألف واللام زال معنى التفضيل بين أمرين، وليس عَدْلٌ (أخر) عن الألف واللام مؤثراً في التعريف كما هو عَدْلٌ (سحر) بل أخر نكرة، وأما سحر فعديل لأنه زالت الألف واللام وبقي معرفة في قوله: «جئت يوم الجمعة سحر». وخلط المهدوي في هذه المسألة وأفسد كلام سيويه فتأمل.

﴿٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ يعلم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل صاحب بدعة. والزيف: الميل، ومنه زاغت الشمس، وزاغت الأبصار. والإشارة بالآية في ذلك الوقت كانت إلى نصارى نجران لتعرضهم للقرآن في أمر عيسى عليه السلام، قاله الربيع، وإلى اليهود، ثم تنسحب على كل ذي بدعة أو كفر، وبالميل عن الهدى قُسر الزيف

محمد بن جعفر بن الزبير وابن مسعود وجماعة من الصحابة ومجاهد وغيرهم.

﴿وَمَا تَكُنْ مِنْهُ﴾ هو الموصوف أنفأ به متشابهات. وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: إن لم يكونوا الحرورية وأنواع الخوارج فلا أدري من هم. وقالت عائشة: «إذا رأيتم الذين يجادلون في القرآن فهم الذين عنى الله فاحذروهم» وقال الطبري: الأشبه أن تكون الآية في الذين جادلوا رسول الله ﷺ في مدته ومدة أمته بسبب حروف أوائل السور، وهؤلاء هم اليهود.

﴿وَأَيُّكُمْ﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَفْعُولِ مِنْ أَجْلِهِ، وَمَعْنَاهُ طَلَبُ الْفِتْنَةِ. وَقَالَ الرِّبِيعُ: الْفِتْنَةُ هُنَا: الشُّرْكُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْفِتْنَةُ: الشَّبَهَاتُ وَاللِّبْسُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

ثم قال: ﴿وَأَيُّكُمْ تَأْوِيلُ﴾ والتأويل هو مَرَدُّ الْكَلَامِ وَمَرْجَعُهُ وَالشَّيْءُ الَّذِي يَقِفُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْنَى، وَهُوَ مِنْ آلِ يَوْوِلٌ، إِذَا رَجَعَ، فَالْمَعْنَى: وَطَلَبُ تَأْوِيلِهِ عَلَى مَنَازِعِهِمُ الْفَاسِدَةِ. هَذَا فِيمَا لَهُ تَأْوِيلٌ حَسَنٌ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا لَا يَتَأَوَّلُ بَلْ يَوْقِفُ فِيهِ كَالْكَلَامِ فِي مَعْنَى الرُّوحِ وَنَحْوِهِ فَفُسِّ طَلَبُ تَأْوِيلِهِ هُوَ اتِّبَاعُ مَا تَشَابَهَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ابْتَغُوا مَعْرِفَةَ مَدَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَمْتَهُ.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْكَمْ تَأْوِيلُهُ﴾ إِلَّا اللَّهُ ﴿فَهَذَا عَلَى الْكَمَالِ وَالتَّوْفِيقِ﴾ فِيمَا لَا يَتَأَوَّلُ وَلَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ؛ كَأَمْرِ الرُّوحِ، وَتَعَرُّفِ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ وَسَائِرِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي أَنْذَرَ بِهَا

الشرع، وفيما يمكن أن يتأوله العلماء ويصح التطرق إليه، فمعنى الآية: وما يعلم تأويله على الكمال إلا الله.

واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فرأت فرقة أن رفع ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ هو بالعطف على اسم الله عز وجل، وأنهم داخلون في علم المتشابه في كتاب الله، وأنهم مع علمهم به ﴿يَقُولُونَ﴾: آمَنَّا بِهِ... الآية، قال بهذا القول ابن عباس، وقال: أنا ممن يعلم تأويله. وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به، وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير وغيرهم، ﴿يَقُولُونَ﴾ على هذا التأويل نصب على الحال.

وقالت طائفة أخرى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ رفع بالابتداء وهو مقطوع من الكلام الأول، وخبره ﴿يَقُولُونَ﴾. والمنفرد بعلم المتشابه هو الله وحده بحسب اللفظ في الآية، وفعل الراسخين قولهم: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾، قالت عائشة وابن عباس أيضاً. وقال عروة بن الزبير: إن الراسخين لا يعلمون تأويله ولكنهم يقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾. وقال أبو نهيك الأسدي: إِنَّكُمْ تَصِلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَإِنِهَا مَقْطُوعَةٌ، وَمَا انْتَهَى عِلْمُ الرَّاسِخِينَ إِلَّا إِلَى قَوْلِهِمْ: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾. وقال مثل هذا عمر بن عبد العزيز، وحكى نحوه الطبري عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه المسألة إذا تؤملت قُرْبُ الْخِلَافِ فِيهَا مِنَ الْإِتْفَاقِ، وَذَلِكَ

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَسَمَ آتَى الْكِتَابِ قَسَمِينَ: مُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا، فَالْمُحْكَمُ هُوَ الْمُتَضَحُّ الْمَعْنَى لِكُلِّ مَنْ يَفْهَمُ كَلَامَ الْعَرَبِ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى نَظَرٍ وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ شَيْءٌ يُلْبِسُ، وَيَسْتَوِي فِي عِلْمِهِ الرَّاسِخُ وَغَيْرُهُ، وَالْمُتَشَابِهُ يَتَنَوَّعُ، فَمَنْهُ مَا لَا يُعْلَمُ الْبَتَّةَ، كَأَمْرِ الرُّوحِ، وَأَمَّا الْمَغْشِيَّاتُ الَّتِي قَدْ أَعْلَمَ اللَّهُ بِوُقُوعِهَا إِلَى سَائِرِ ذَلِكَ، وَمَنْهُ مَا يَحْمِلُ عَلَى وَجْهِهِ فِي اللُّغَةِ وَمَنَاجٍ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، فَيَتَأَوَّلُ وَيُعْلَمُ تَأْوِيلَهُ الْمُسْتَقِيمَ، وَيَزَالُ مَا فِيهِ مِمَّا عَسَى أَنْ يَتَغَلَّقَ بِهِ مِنْ تَأْوِيلٍ غَيْرِ مُسْتَقِيمٍ كَقَوْلِهِ فِي عِيسَى: ﴿رُوحٌ مِنْهُ﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَا يُسَمَّى أَحَدٌ رَاسِخًا إِلَّا بِأَنْ يَعْلَمَ مِنْ هَذَا النَّوعِ كَثِيرًا بِحَسَبِ مَا قُدِّرَ لَهُ، وَإِلَّا فَمَنْ لَا يَعْلَمُ سِوَى الْمُحْكَمِ فَلَيْسَ يُسَمَّى رَاسِخًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْكَمْ تَأْوِيلُهُ﴾ الضمير عائد على جميع متشابه القرآن، وهو نوعان كما ذكرنا، فقولته: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ مقتضى ببديهة العقل أنه يعلمه على الكمال والاستيفاء، يعلم نوعه جميعاً، فإن جعلنا قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ عطفاً على اسم الله تعالى، فالمعنى إدخالهم في علم التأويل لا على الكمال، بل علمهم إنما هو في النوع الثاني من المتشابه، وبديهة العقل تقضي بهذا، والكلام مستقيم على فصاحة العرب كما تقول: ما قام لنصرتي إلا فلان وفلان، وأحدهما قد نصرك بأن حارب معك، والآخر إنما أعانك بكلام فقط، إلى كثير من المثل، فالمعنى: ﴿وَمَا يَسْكَمْ﴾ تأويل المتشابه

إلا الله والراسخون كلُّ بقدره وما يصلح له، والراسخون بحال قول في جميعه: ﴿أَمَّا يَدُ﴾، وإذا تحصل لهم في الذي لا يعلم ولا يتصور عليه تمييز من غيره فذلك قدر من العلم بتأويله، وإن جعلنا قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ رفعا بالابتداء مقطوعاً مما قبله، فتسميتهم راسخين يقتضي بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع؟ وما الرسوخ إلا المعرفة بتعاريف الكلام، وموارد الأحكام، ومواقع المواظ، وذلك كله بقريحة مُعَدَّة، فالمعنى: وما يعلم تأويله على الاستيفاء إلا الله، والقوم الذين يعلمون منه ما يمكن أن يُعَلَّمَ يقولون في جميعه: ﴿أَمَّا يَدُ كُلِّ تَنْ عِنْدَ رَبِّكَ﴾، وهذا القدر هو الذي تعاطى ابن عباس رضي الله عنه، وهو ترجمان القرآن، ولا يُتَأَوَّلُ عليه أنه علم وقت الساعة وأمر الروح وما شاكلة. فأعراب ﴿الرَّاسِخُونَ﴾ يحتمل الوجهين، ولذلك قال ابن عباس بهما، والمعنى فيهما يتقارب بهذا النظر الذي سطرناه.

فأما من يقول: إن المتشابه إنما هو ما لا سبيل لأحد إلى علمه فيستقيم على قوله إخراج الراسخين من علم تأويله، لكن تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح، بل الصحيح في ذلك قول مَنْ قال: المحكم ما لا يحتمل إلا تأويلاً واحداً، والمتشابه ما احتتمل من التأويل أوجهاً. وهذا هو مُتَّبِعُ أَهْلِ الزَيْغِ،

وعلى ذلك يترتب النظر الذي ذكرته. ومن قال من العلماء الحدائق بأن الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه فإنما أرادوا هذا النوع، وخافوا أن يظنَّ أحد أن الله وصف الراسخين بعلم التأويل على الكمال، وكذلك ذهب الزجاج إلى أن الإشارة بما تشابه منه إنما هي إلى وقت البعث الذي أنكره، وفسر باقي الآية على ذلك، فهذا أيضاً تخصيص لا دليل عليه. وأما من يقول: إن المتشابه هو المنسوخ فيستقيم على قوله إدخال الراسخين في علم التأويل، ولكن تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح. ورجح ابنُ قُورِك أن الراسخين يعلمون التأويل وأظن في ذلك.

وقرأ أبي بن كعب وابن عباس: ﴿إِلَّا اللَّهُ وَيَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ أَمَّا يَدُ﴾. وقرأ ابن مسعود: ﴿وَأَيْتِنَا تَأْوِيلَهُ إِنْ تَأْوِيلُهُ إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ أَمَّا يَدُ﴾. والرسوخ: الثبوت في الشيء، وأصله في الأجرام أن يرسخ الجبل أو الشجر في الأرض. وسئل النبي عليه السلام عن الراسخين في العلم فقال: «هو من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه».

وقوله: ﴿كُلُّ تَنْ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ فيه ضمير عائد على كتاب الله، محكمه ومتشابهه، والتقدير: كلُّه من عند ربنا، وحذف الضمير لدلالة لفظ «كل» عليه، إذ هي لفظة تقتضي الإضافة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ما يقول هذا ويؤمن به

ويقف حيث وقف ويدع اتباع المتشابه إلا ذولب، وهو العقل، وأولو: جمع ذو.

﴿٨﴾ - ﴿٩﴾ تفسير قوله عز وجل: يحتمل أن تكون هذه الآية حكاية عن الراسخين في العلم أنهم يقولون هذا مع قولهم: ﴿أَمَّا يَدُ﴾، ويحتمل أن يكون المعنى منقطعاً من الأول، لما ذُكِرَ أَهْلُ الزَيْغِ وذكر نقيضهم وظهر ما بين الحالتين عقبة ذلك بأن علم عبادة الدعاء إليه في أن لا يكونوا من الطائفة الذميمة التي ذُكِرَتْ، وهي أهل الزيف. وهذه الآية حجة على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يُضِلُّ العباد، ولو لم تكن الإزاعة من قلبه لما جاز أن يدعى في دفع ما لا يجوز عليه فعله.

﴿تَزِيغٌ﴾ معناه: تُجِلُّ قلوبنا عن الهدى والحق. وقرأ أبو واقد والجراح: ﴿لَا تَزِيغْ قُلُوبُنَا﴾ بإسناد الفعل إلى القلوب، وهذه أيضاً الرغبة إلى الله تعالى. وقال أبو الفتح: ظاهر هذا ونحوه الرغبة إلى القلوب وإنما المسؤول الله تعالى، وقوله: «الرغبة إلى القلوب» غير متمكن. ومعنى الآية على القراءتين: أي لا يكن منك خلُقُ الزيف فيها فتزيغ هي؛ قال الزجاج: وقيل: إن معنى الآية: لا تكلفنا عبادة ثقيلة تزيغ منها قلوبنا؛ وهذا قول فيه التحفظ من خلُقِ الله تعالى الزيف والضلالة في قلب أحد من العباد.

﴿وَيَنْ لَّدُنْكَ﴾ معناه: من عندك ومن قلبك، أي يكون فضلاً لا عن سبب منا ولا عن عمل. وفي هذا استسلام وتطراح. والمراد: هب لنا نعيماً

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله تعالى:

هَمَمُ الْكَفَارِ الَّذِينَ لَا يُقْرُونَ بِبَعْثٍ إِنَّمَا هِيَ - عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ وَإِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - فِي زِينَةِ الدُّنْيَا وَهِيَ الْعَالِ وَالْبَنُونَ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ ذَلِكَ الْمَتَّهِمَ فِيهِ لَا يَغْنِي عَنْ صَاحِبِهِ شَيْئاً، وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ؛ (وَمِنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿يَنْتَ اللَّهُ﴾ لَا بَتْدَاءَ الْغَايَةِ، وَالْإِشَارَةُ بِالْآيَةِ إِلَى مَعَاصِرِي النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانُوا يَفْخَرُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ، وَهِيَ - بَعْدَ -

مُتَاوَلَةٌ كُلِّ كَافِرٍ.

وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: ﴿لَنْ يُغْنِي﴾ بِالْيَاءِ، عَلَى تَذْكِيرِ الْعَلَامَةِ.

وَالْوُقُودُ بِفَتْحِ الْوَاوِ: مَا يَحْتَرِقُ فِي النَّارِ مِنْ حَطَبٍ وَنَحْوِهِ، وَكَذَلِكَ هِيَ قِرَاءَةُ جَمْهُورِ النَّاسِ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَجَمَاعَةٌ غَيْرُهُمَا: ﴿وُقُودٌ﴾ بِضَمِّ الْوَاوِ، وَهَذَا عَلَى حَذْفِ مِضَافٍ تَقْدِيرُهُ: «حَطَبٌ وَقُودُ النَّارِ» وَالْوُقُودُ بِضَمِّ الْوَاوِ: الْمَصْدَرُ، وَقَدَّتِ النَّارُ تَقْدُّ إِذَا اشْتَعَلَتْ. وَالدَّأْبُ وَالدَّأْبُ بِسُكُونِ الْهَمْزَةِ وَفَتْحِهَا - مَصْدَرُ دَابٍ يَدَابُ، إِذَا لَزِمَ فَعَلَ شَيْءً وَدَامَ عَلَيْهِ مُجْتَهِداً فِيهِ، وَيُقَالُ لِلْعَادَةِ: «دَابٌ»، فَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ: تَشْبِيهُ هَؤُلَاءِ فِي لُزُومِهِمُ الْكُفْرَ وَدَوَاهِمَهُ عَلَيْهِ بِأَوْلَئِكَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَآخِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي الْوَعِيدَ بِأَنْ يَصِيبَ هَؤُلَاءِ مِثْلُ مَا أَصَابَ أَوْلَئِكَ مِنَ الْعِقَابِ.

وَالْكَافِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّابٌ﴾ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ، التَّقْدِيرُ: دَاهِيَهُمْ كَذَّابٌ، وَيَصُحُّ أَنْ يَكُونَ الْكَافِ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ؛ قَالَ الْفَرَاءُ: هُوَ نَعَتْ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: كَفَرَا كَذَّابٌ، فَالْعَامِلُ فِيهِ ﴿كَذَّارُوا﴾، وَرَدَّ هَذَا الْقَوْلُ الزَّجَاجُ بِأَنَّ الْكَافَ خَارِجَةٌ مِنَ الصَّلَةِ فَلَا يَعْمَلُ فِيهِ مَا فِي الصَّلَةِ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَيَصُحُّ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ فَعْلٌ مُقَدَّرٌ مِنْ لَفْظِ الْوُقُودِ، وَيَكُونُ التَّشْبِيهُ فِي نَفْسِ الْإِحْتِرَاقِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَكُنِ الْإِنَّمَالُ بِمَنْزِلَةِ الْوُقُودِ﴾ وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَرْجَحُ الْأَقْوَالِ أَنْ تَكُونَ الْكَافُ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ، وَالْهَاءُ فِي ﴿يَقِيلُهُمْ﴾ عَائِدَةٌ عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَعُودَ عَلَى مَعَاصِرِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْكَافِرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا يُقْرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ يَرِيدُ بِالْآيَاتِ: الْمَتَلَوَّةَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: الْعَلَامَاتِ الْمَنْصُوبَةَ. وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَةُ الْمَفْسِّرِينَ فِي تَفْسِيرِ الدَّأْبِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ رَاجِعٌ إِلَى الْمَعْنَى الَّتِي ذَكَرْنَاهُ.

﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَعَاصِمٌ وَابْنُ عَامِرٍ: ﴿سُفُّوْكَ وَتُفُّوْكَ﴾ بِالتَّاءِ مِنْ فَوْقٍ، وَ﴿يُرَوِّئُهُمْ﴾ بِالْيَاءِ مِنْ تَحْتٍ، وَحَكَى أَبَانٌ عَنْ عَاصِمٍ ﴿قَرَوُّهُمْ﴾ بِالتَّاءِ مِنْ فَوْقٍ، وَقَرَأَ نَافِعٌ ثَلَاثَتَهُنَّ بِالتَّاءِ مِنْ فَوْقٍ، وَقَرَأَ حَمْزَةُ ثَلَاثَتَهُنَّ بِالْيَاءِ مِنْ تَحْتٍ،

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ تُنْفِ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَّابٌ مَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاحْذَرُوا اللَّهَ يَوْمَ يَكُونُ لِلَّهِ شِدَادُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْيَهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ فِيْئَتَهُمْ رَأَى الْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهُ يُوَيِّدُ بَصَرَهُمْ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ لَاؤُلِ الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ذَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَنْصَاةِ وَالْأَعْيُنِ الْمُسَوِّمَةِ وَالْأَنْفُسِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمُنَاقَبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِمَا نَذَرْتُكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ حَدَّثْتُ تَعْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تُنْهَرُوا تَحْلِيلِينَ فِيهَا وَأَرْزَاقٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعَاصِيَةِ ﴿١٥﴾

صَادراً عَنْ الرَّحْمَةِ، لِأَنَّ الرَّحْمَةَ رَاجِعَةٌ إِلَى صِفَاتِ الذَّاتِ فَلَا تُتَّصَوَّرُ فِيهَا الْهَبَةُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾ إِقْرَأْ بِالْبَعْثِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ الزَّجَاجُ: هَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي عَلِمَهُ الرَّاسِخُونَ وَأَقْرَأُوا بِهِ، وَخَالَفَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مَا تَشَابَهَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْرِ الْبَعْثِ حِينَ أَنْكَرُوهُ، وَالرَّيْبُ: الشَّكُّ، وَالْمَعْنَى: إِنَّهُ فِي نَفْسِهِ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَإِنْ وَقَعَ فِيهِ رَيْبٌ عِنْدَ الْمَكْذِبِينَ بِهِ فَذَلِكَ لَا يَعْتَدُ بِهِ، إِذْ هُوَ خَطَأٌ مِنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَخْلُكُ أَلَيْمَكَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ إِخْبَاراً مِنْهُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَأَمْتِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حِكَايَةً مِنْ قَوْلِ الدَّاعِينَ، فَبَيَّنَ ذَلِكَ إِقْرَارَ بِصِفَةِ ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَالْمِيعَادُ: مِفْعَالٌ مِنَ الرُّعْدِ.

وبكل قراءة من هذه قرأ جمهور من العلماء، وقرأ ابن عباس، وطلحة بن مصرف، وأبو حيوة: ﴿يُرْوَنَهُمْ﴾ بالياء المضمومة، وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاء من فوق مضمومة. واختُلفَ من الذين أُمِرَ بالقول لهم من الكفار؟ فقيل: هم جميع معاصريه من الكفار، أمر بأن يقول لهم هذا الذي فيه إعلامٌ بغيب ووعيد قد صدق بحمد الله، غلب الكفر وصار من مات عليه إلى جهنم. ونحا إلى هذا أبو علي في «الحجة»، وتظاهرت روايات بأن المراد يهود المدينة، قال ابن عباس وغيره: «لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر، وقدم المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً»، فقالوا: يا محمد، لا تغرنك نفسك أن قتلت نفرأ من قريش كانوا أعماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، فأنزل الله في قولهم هذه الآية». وروي حديث آخر ذكره النقاش، وهو «أن النبي عليه السلام لما غلب قريشاً ببدر قالت اليهود: هذا هو النبي المبعوث الذي في كتابنا وهو الذي لا تُهزَمُ له راية، وكثرت فتنتهم بالأمر، فقال لهم رؤسائهم وشياطينهم: لا تَعَجَلُوا وأمهلوا حتى نرى أمره في وقعة أخرى، فلما وقعت أحد كفر جميعهم ويقوا على أولهم، وقالوا: ليس محمد بالنبى المنصور فنزلت الآية في ذلك»، أي قل لهؤلاء اليهود: سيغلبون - يعني

قريشاً - وهذا التأويل إنما يستقيم على قراءة «سَيَغْلِبُونَ وَيُخْشَرُونَ» بالياء من تحت، ومن قرأ بالتاء فمعنى الآية: قل للكفار جميعاً هذه الألفاظ. ومن قرأ بالياء من تحت فالمعنى: قل لهم كلاماً هذا معناه، وتحتمل قراءة التاء التأويل الذي ذكرناه آنفاً، أي قل لليهود: ستغلب قريش. ورجح أبو علي قراءة التاء على المواجهة، وأن الذين كفروا يعم الفريقين: المشركين واليهود، وكل قد غُلِبَ بالسيف والجزية والذلة. والحشر: الجمع والإحضار.

وقوله تعالى: ﴿يَسَّسَ اللَّيْهَادُ﴾ يعني جهنم، هذا ظاهر الآية، وقال مجاهد: المعنى يشس ما مهدوا لأنفسهم، فكأن المعنى: وبشس فعلهم الذي أدامهم إلى جهنم.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي يَتَّى﴾... الآية تحتمل أن يخاطب بها المؤمنون، وأن يخاطب بها جميع الكفار، وأن يخاطب بها يهود المدينة، ويكل احتمال منها قد قال قوم، فمن رأى أن الخطاب بها للمؤمنين فمعنى الآية تثبيت النفوس وتشجيعها، لأنه لما قال للكفار ما أُمِرَ به أمكن أن يستبعد ذلك المنافقون وبعض ضَعْفَةِ المؤمنين، كما قال قائل يوم الخندق: «يعدنا محمد أموال كسرى وقيصر، ونحن لا نأمن على أنفسنا في المذهب»، وكما قال عدي بن حاتم حين أخبره النبي عليه السلام بالأمانة التي تأتي، فقلت في نفسي: «وأي دُعَار طيء

الذين سَعَرُوا البلاد؟... الحديث بكماله، فنزلت الآية مقوية لنفوس المؤمنين ومبينة صحة ما أخبر به بالمثال الواقع.

فمن قرأ ﴿تُرْوَنَهُمْ﴾ بالتاء من فوق فهي مخاطبة لجميع المؤمنين، إذ قد رأى ذلك جمهور منهم، والهاء والميم في ﴿تُرْوَنَهُمْ﴾ لجميع المشركين، وفي ﴿يَتَّى﴾ لجميع المؤمنين، ومن قرأ بالياء من تحت فالمعنى يرى الجمع من المؤمنين جمع الكفار مثلي جمع المؤمنين، ومن رأى أن الخطاب لجميع الكفار ومن رأى أنه لليهود فالآية عنده داخلة فيما أمر محمد عليه السلام أن يقول لهم احتجاجاً عليهم، وتبييناً لصورة الوعيد المتقدم في أنهم سيفلبون. فمن قرأ ﴿يُرْوَنَهُمْ﴾ بالياء من تحت فالمعنى: يرى الجمع من المؤمنين جمع الكفار مثلي جمع المؤمنين، ومن قرأ بالتاء فالمعنى: فلو حضرتم أو إن كنتم حضرتم، وسأغت العبارة لوضوح الأمر في نفسه ووقوع اليقين به لكل إنسان في ذلك العصر، ومن قرأ بضم التاء أو الياء فكأن المعنى: إن اعتقاد التضعيف في جمع الكفار إنما كان تخميناً وظناً لا يقيناً، فلذلك ترك في العبارة ضرباً من الشك وذلك أن أرى - بضم الهمزة - تقولها فيما بقي عندك فيه نظر، وأرى - بفتح الهمزة - تقولها فيما قد صَحَّ نظرك فيه. ونحا هذا المنحى أبو الفتح وهو صحيح. قال أبو علي: والرؤية في هذه الآية رؤية عين، ولذلك تعدت إلى مفعول واحد، و﴿يَتَّى﴾ نصب على

الحال من الهاء والميم في ﴿تَرَوْنَهُمْ﴾، وأجمع الناس على أن الفاعل بِتَرَوْنَ هم المؤمنون، والضمير المتصل هو للكفار، إلا ما حكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: بل كثر الله عدد المؤمنين في عيون الكافرين حتى كانوا عندهم ضعفيهم، وضعف الطبري هذا القول، وكذلك هو مردود من جهات، بل قلل الله كل طائفة في عين الأخرى، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فقلل الكفار في عيون المؤمنين ليقع التجاسر ويحتقر العدو، وهذا مع اعتقاد النبي وقوله واعتقاد أولي الفهم من أصحابه أنهم من التسعمائة إلى الألف، لكن أذهب الله عنهم البهاء وانتشار المساكر وفخامة الترتيب، حتى قال ابن مسعود في بعض ما روي عنه: لقد قلت لرجل إلى جنبي أترامهم سبعين؟ فقال: أظنهم مائة، فلما أخذنا الأسرى أخبرونا أنهم كانوا ألفاً. وقلل الله المؤمنين في عيون الكفار ليغفروا ولا يحزموا، وتظاهرت الروايات أن جمع الكفار بيدر كان نحو الألف فوق التسعمائة، وأن جمع المؤمنين كان ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، وقيل: وثلاثة عشر، فكان الكفار ثلاثة أثلاث من المؤمنين، لكن رجع بنو زهرة مع الأخنس بن شريق، ورجع طالب بن أبي طالب وأتباع وناس كثير حتى بقي للقتال من المثليين، وقد ذكر النقاش نحوه من هذا. فذكر الله تعالى المثليين إذ أمرهما متيقن لم يدفعه قط أحد، وقد حكى

الطبري عن ابن عباس: أن المشركين في قتال بدر كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلاً. وقد ذهب الزجاج وبعض المفسرين إلى أنهم كانوا نحو الألف وأراهم الله المؤمنين مثليهم فقط، قال: فهذا هو التقليل في الآية الأخرى، ثم نصرهم عليهم مع علمهم بأنهم مثلاهم في العدد، لأنه قد كان أعلم المسلمين أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار، وروى علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي عليه السلام أنه قال يوم بدر: «القوم ألف». وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ يريد علامة وأماره ومعتبراً، والفئة: الجماعة من الناس سميت بذلك لأنها يفاء إليها، أي يرجع في وقت الشدة، وقال الزجاج: الفئة: الفرقة، مأخوذة من فأوث رأسه بالسيف، ويقال: فأيته إذا فلقت، ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفئتين هي إلى يوم بدر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فِيئَةً تَقَنَّى﴾ برفع فئة على خبر ابتداء تقديره: إحداهما فئة، وقرأ مجاهد والحسن والزهري وحيد: ﴿فِيئَةٍ﴾ بالخفض على البديل، ومنهم من رفع ﴿كَافِرَةٌ﴾ ومنهم من خفضها على العطف، وقرأ ابن أبي عجلة: ﴿فِيئَةٍ﴾ بالنصب وكذلك ﴿كَافِرَةٌ﴾. قال الزجاج: ينتجه ذلك على الحال كأنه قال: التقنا مؤمنة وكافرة، وينتجه أن يضمير فعل أعني ونحوه. و﴿رَأَى﴾ أَمَرِيٌّ نصب على المصدر. و﴿يُؤَيَّدُ﴾: معناه: يقوي من الأيد وهو القوة.

﴿تَقَنَّى﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس: ﴿زَيْنٌ﴾ على بناء الفعل للمفعول ورفع ﴿زَيْنٌ﴾ على أنه مفعول لم يسم فاعله، وقرأ الضحاك ومجاهد: ﴿زَيْنٌ﴾ على بناء الفعل للفاعل ونصب ﴿حُبٌّ﴾ على أنه المفعول، واختلف الناس من المزيّن؟ فقالت فرقة: الله زين ذلك، وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأنه قال: لما نزلت هذه الآية قلت: الآن يا ربّ حين زينتها لنا فنزلت: ﴿قُلْ أَزَيَّنُّكُمْ يَحْيَىٰ بَيْنَ ذَٰلِكُمْ﴾، وقالت فرقة: المزيّن هو الشيطان، وهذا ظاهر قول الحسن بن أبي الحسن، فإنه قال: من زينها؟ ما أخذ أشد لها ذمّاً من خالقها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا قيل: زين الله، فمعناه بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجبلّة على الميل إلى هذه الأشياء. وإذا قيل: زَيَّنَّ الشيطان فمعناه: بالوسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوهها. والآية تحتل هذين النوعين من التزيين، ولا يختلف مع هذا النظر. وهذه الآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توبيخ لمعاصري محمد ﷺ من اليهود وغيرهم. و﴿الْكُفْرَاتِ﴾ ذميمة واتباعها مُرَدُّ وطاعتها مهلكة، وقد قال عليه السلام: «حُقِّبَ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ» فحسبك أن النار حفت بها، فمن واقعها خلص إلى النار.

﴿وَالْقَنَاطِيرِ﴾ جمع قنطار، وهو

العقدة الكبيرة من المال. واختلف الناس في تحرير حذّه كم هو؟ فروى أبي بن كعب، عن النبي عليه السلام أنه قال: «القنطار ألف ومائتا أوقية»، وقال بذلك معاذ بن جبل وعبدالله بن عمر وأبو هريرة وعاصم بن أبي النجود وجماعة من العلماء، وهو أصح الأقوال. لكن القنطار على هذا يختلف باختلاف البلاد في قدر الأوقية. وقال ابن عباس والضحاك بن مزاحم والحسن بن أبي الحسن: القنطار ألف ومائتا مثقال، وروى الحسن ذلك مرفوعاً عن النبي عليه السلام. قال الضحاك: وهو من الفضة ألف ومائتا مثقال، وروي عن ابن عباس أنه قال: القنطار من الفضة اثنا عشر ألف درهم، ومن الذهب ألف دينار، وروي ذلك عن الحسن والضحاك. وقال سعيد بن المسيب: القنطار ثمانون ألفاً. وقال قتادة: القنطار مائة رطل من الذهب أو ثمانون ألف درهم من الفضة. وقال السدي: القنطار ثمانية آلاف مثقال وهي مائة رطل. وقال مجاهد: القنطار سبعون ألف دينار؛ وروي ذلك عن ابن عمر. وقال أبو نضرة: القنطار ملء مسك ثور ذمياً. قال ابن سيدة: هكذا هو بالسرانية. وقال الربيع بن أنس: القنطار المال الكثير بعضه على بعض. وحكى النقاش عن ابن الكلبي أن القنطار بلغة الروم ملء مسك ثور ذمياً. وقال النقاش: القناطير ثلاثة، والمقنطرة تسعة لأنه جمع الجمع، وهذا ضعف نظير

وكلام غير صحيح، وقد حكى مكّي نحوه عن ابن كيسان أنه قال: لا تكون المقنطرة أقل من تسعة، وحكى المهدوي عنه وعن الفراء: لا تكون المقنطرة أكثر من تسعة، وهذا كله تحكم. وقال أبو هريرة: القنطار اثنا عشر ألف أوقية. وحكى مكّي قولاً أن القنطار أربعون أوقية ذهباً أو فضة، وقاله ابن سيدة في المحكم، وقال: القنطار بلغة بربر ألف مثقال. وروى أنس بن مالك عن النبي عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنبِئْهُمْ بِقِطَارِكُمْ﴾ قال: ألف دينار، ذكره الطبري، وحكى الزجاج أنه قيل: إن القنطار هو رطل ذهباً أو فضة، وأظنها وهماً، وأن القول مائة رطل فسقطت «مائة» للناقل. والقنطار إنما هو اسم المعيار الذي يوزن به، كما هو الرطل والريغ، ويقال لما بلغ ذلك الوزن: هذا قنطار أي يعدل القنطار. والعرب تقول: قُنْطَرُ الرجل إذا بلغ ماله أن يوزن بالقنطار. وقال الزجاج: القنطار مأخوذ من عَقَدَ الشيء وإحكامه، والقنطرة المعقودة نحوه، فكأن القنطار عقدة مال.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿الْمُقَنْطَرَةُ﴾؛ فقال الطبري: معناها المضغفة، وكأن القناطير ثلاثة والمقنطرة تسع، وقد تقدم ذكر هذا النظر، وقال الربيع: معناها المال الكثير بعضه فوق بعض. وقال السدي: معنى المقنطرة: المضروبة حتى صارت دنائير أو دراهم. وقال

مكي: المقنطرة المكملة، والذي أقول: إنها إشارة إلى حضور المال وكونه عتيداً، فذلك أشهى في أمره، وذلك أنك تقول في رجل غني من الحيوان والأملاك: فلان صاحب قناطير مال، أي لو قُوِّمَتْ أملكه لاجتمع من ذلك ما يعدل قناطير، وتقول في صاحب المال الحاضر العتيذ: هو صاحب قناطير مقنطرة، أي قد حَصَلَتْ كذلك بالفعل بها، أي قُنْطِرَتْ فهي مقنطرة، وذلك أشهى للنفس وأقرب للارتفاع ويلوغ الآمال. وقد قال مروان بن الحكم: ما المال إلا ما حازته العياب، وإذا كان هذا فسواء كان المال مسكوكاً أو غير مسكوك، أما إن المسكوك أشهى لما ذكرناه، ولكن لا يُعطى ذلك لفظة (المقنطرة).

﴿وَالْمَكِيلُ﴾ جمع خائل عند أبي عبيدة، سمى بذلك الفرس لأنه يختال في مشيه فهو كطائر وطيور، وقال غيره: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه.

واختلف المفسرون في معنى ﴿الْمُسَوِّمُ﴾؛ فقال سعيد بن جببر وابن عباس وعبدالله بن عبد الرحمن بن أبزي والحسن والربيع ومجاهد: معناه: الراعية في المروج والمسارح، تقول: سامت الدابة والشاة إذا سرحت وأخذت سَوِّمَهَا من الرعي، أي غايةً جهدها، ولم تقصُر عن حال دون حال، وأسَمَّتْهَا أنا إذا تركتها لذلك، ومنه قول النبي ﷺ: «فِي سَائِمَةِ الْغَنَمِ الرُّكَاةُ»، ومنه قوله عز وجل: ﴿فِيهِ ثَبِيبُونَ﴾، وروي عن مجاهد أنه

قال: المسومة معناه: المطهمة الحسان، وقاله عكرمة: سوما الحُسْنُ. وروي عن ابن عباس أنه قال: المسومة معناه: المُعَلَّمَةُ، ثِيَابُ الْخَيْلِ فِي وَجُوهِهَا، وقاله قتادة، ويشهد لهذا القول بيت لبيد:

وَعِدَاءُ قَاعِ الْقُرْنَتَيْنِ أَثْنَيْتُهُمْ
رُجُلًا يَلُوحُ خِلَالَهَا التَّسْوِيمُ
وأما قول النابغة:

بِسْمِ كَالْقِدَاحِ مُسَوَّمَاتٍ
عَلَيْهَا مَغْشَرُ أَشْبَاهِ جِنَّ
فيحتمل أن يريد المطهمة الحسان، ويحتمل أن يريد المعلمة بالثياب، ويحتمل أن يريد المعدة. وقد فسر الناس قوله تعالى: ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ بمعنى مُعَدَّة، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ معناه: المعدة للجهاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قوله: «الجهاد» ليس من تفسير اللفظة.

﴿وَالْأَنْثَرِ﴾ الأصناف الأربعة: الإبل والبقر والضأن والمعز. ﴿وَالْحَرْثِ﴾ هنا اسم لكل ما يحرق، وهو مصدر سمي به، تقول: حَرَّثَ الرجل حرثاً إذا أثار الأرض لمعنى الفلاحة، فيقع اسم الحرث على زرع الحبوب وعلى الجنات وغير ذلك من أنواع الفلاحة. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَخْشَوْنَ فِي الْحَرْثِ﴾ قال جمهور المفسرين: كان كزماً.

والمناخ: ما يستمتع به ويتنفع مدة ما منحصرة؛ و﴿الْمَتَابِ﴾: المرجع،

تقول: أب الرجل يؤوب، ومنه قول الشاعر:

.....
رَضِيْتُ مِنَ الْغَنِيْمَةِ بِالْإِيَابِ
وقول الآخر:

.....
إِذَا مَا الْقَارِطُ الْعَنْزِي أَبَا
وقول عبيد:

.....
وَعَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَثُوبُ
وأصل مأب مأوب، نُقِلَتْ حَرَكَةُ الْوَاوِ إِلَى الْهَمْزَةِ وَأُبْدِلَ مِنَ الْوَاوِ أَلِفٌ، مِثْلُ مَقَالٍ، فَمَعْنَى الْآيَةِ: تَقْلِيلُ أَمْرِ الدُّنْيَا وَتَحْقِيرُهَا، وَالتَّرْغِيبُ فِي حَسَنِ الْمَرْجِعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ.

وفي قوله: ﴿رَبَّنَا لِلنَّاسِ...﴾ الآية، تحسّر ما على نحو ما في قول النبي عليه السلام: «تَتَزَوَّجُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ...» الحديث؛ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذِيقُكُمْ﴾ الآية بمشابهة قول النبي ﷺ: «فاظفر بذات الدين».

﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: في هذه الآية تسليّة عن الدنيا وتقوية لنفوس تاركها، وذكر تعالى حال الدنيا وكيف استقرّ تزوين شهواتها، ثم جاء الإنبياء بخير من ذلك هادياً للنفوس وجامعاً لها، لتسمع هذا النبأ المستغرب النافع لمن عقل. وأنبيء: معناه أخير.

وذهبت فرقة من الناس إلى أن الكلام الذي أمر النبي ﷺ بقوله تَمَّ في قوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، و﴿جَنَّتْ﴾ على هذا مرتفع بالابتداء

المضمر تقديره: ذلك جنات؛ وذهب آخرون إلى أن الكلام تَمَّ في قوله: ﴿مِنَ ذَلِكَ﴾، وأن قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾ خبر متقدم، و﴿جَنَّتْ﴾ رفع بالابتداء، وعلى التأويل الأول يجوز في ﴿جَنَّتْ﴾ الخفض بدلاً من ﴿خَيْرٍ﴾، ولا يجوز ذلك على التأويل الثاني، والتأويلان محتملان.

وقوله: ﴿مِنَ تَحْتِهَا﴾ يعني من تحت أشجارها وعلوها من الغرف ونحوها.

و﴿خَلِيلِينَ﴾ نصب على الحال.

وقوله: ﴿وَأَرْزُقْ﴾ عطف على الجنات، وهو جمع زوج وهي امرأة الإنسان، وقد يقال زوجة، ولم يأت في القرآن.

و﴿مُطَهَّرَةً﴾، معناه من المعهود في الدنيا من الأقدار والريب وكل ما يصم في الخلق والخلق. ويحتمل أن يكون الأزواج: الأنواع والأشياء.

والرضوان: مصدر من الرضى، وفي الحديث عن النبي عليه السلام:

«إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا اسْتَقَرُوا فِيهَا وَحَصَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» قال الله لهم: أتريدون أن أعطيكم ما هو أفضل من هذا؟ قالوا: يا ربنا وأي شيء أفضل من هذا؟ فيقول الله تعالى: أَجَلُ عَلَيْكُمْ رضواني فلا أسخط عليكم أبداً هذا سياق الحديث، وقد يجيء مختلف الألفاظ، والمعنى قريب بعضه من بعض.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْمَكَادِ﴾ وعد ووعيد.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ واستئناف الكلام. وقرأ الكسائي وحده: ﴿أَنَّ الَّذِينَ﴾ بفتح الألف. قال أبو علي: (أَنَّ) بدل من (أَنَّهُ) الأولى، وإن شئت جعلته من بدل الشيء من الشيء وهو هو، لأن الإسلام هو التوحيد والعدل، وإن شئت جعلته من بدل الاشتغال، لأن الإسلام يشتمل على التوحيد والعدل، وإن شئت جعلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ بدلاً من ﴿الْقِسْطِ﴾ لأنه هو في المعنى. ووجه الطبري هذه القراءة بأن قدر في الكلام واو عطف ثم حذف وهي مرادة، كأنه قال: (وإن الدين) وهذا ضعيف. وقرأ عبدالله بن العباس: ﴿إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بكسر الألف من إنه، وقرأ: ﴿أَنَّ الَّذِينَ﴾ بفتح الألف، فأعمل ﴿شهد﴾ في ﴿أَنَّ الَّذِينَ﴾ وجاء قوله: ﴿إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراضاً جميلاً في نفس الكلام المتصل. وتناول السدي الآية على نحو قراءة ابن عباس فقال: الله وملائكته والعلماء يشهدون ﴿أَنَّ الَّذِينَ﴾ عند الله الإسلام. وقرأ أبو المهلب عمُّ مُحَارِبِ بن دثار: ﴿شهداء اللّٰه﴾ على وزن فُعْلَاء وبالإضافة إلى المكتوبة، قال أبو الفتح: هو نصبٌ على الحال من الضمير في ﴿المُستغفرين﴾، وهو جمع شهيد أو جمع شاهد كعالم وعلماء، وروي عن أبي المهلب هذا أنه قرأ: ﴿شهداء الله﴾ برفع الشهداء، وروي عنه أنه قرأ: ﴿شهد الله﴾ على وزن فُعْل - بضم الفاء والعين - ونصب شهداء على الحال، وحكى النقاش أنه قُرئ: ﴿شهد

اللّٰه﴾ بضم الشين والهاء والإضافة إلى المكتوبة، قال: فمنهم من نصب الدال ومنهم من رفعها. وأصوب هذه القراءات قراءة الجمهور، وإيقاع الشهادة على التوحيد. ﴿وَالْمَلَكُتُ وَأُولُوا الْقُلُوبِ﴾ عطف على اسم الله تعالى، وعلى بعض ما ذكرناه من القراءات يجيء قوله: ﴿وَالْمَلَكُتُ وَأُولُوا الْقُلُوبِ﴾ ابتداءً وخبره مقدر، كأنه قال: ﴿وَالْمَلَكُتُ وَأُولُوا الْقُلُوبِ﴾ يشهدون ﴿قَائِمًا﴾ نصب على الحال من اسمه تعالى في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ أو من قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾. وقرأ ابن مسعود: ﴿الْقَائِمُ بِالْقِسْطِ﴾ والقسط: العدل.

﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

قد تقدّم ذكر اختلاف القراء في كسر الألف من ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ وفتحها، والذين في هذه الآية: الطاعة والملة، والمعنى: إن الدين المقبول أو النافع أو المقرر.

﴿وَالْإِسْلَامُ﴾ في هذه الآية هو الإيمان والطاعة، قاله أبو العالية، وعليه جمهور المتكلمين، وعبر عنه قتادة ومحمد بن جعفر بن الزبير بالإيمان، ومرادهما أنه مع الأعمال. والإسلام هو الذي سأل عنه جبريل النبي عليه السلام حين جاء يعلم الناس دينهم... الحديث، وجواب النبي له في الإيمان والإسلام يفسر ذلك، وكذلك تفسيره قوله عليه السلام: «بني الإسلام على خمس»... الحديث. وكل مؤمن بنبية ملتزم لطاعات شرعه فهو داخل تحت هذه الصفة. وفي قراءة ابن

مسعود: ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ عند الله للإسلام باللام.

ثم أخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب أنه كان على علم منهم بالحقائق، وأنه كان بغياً وطلباً للدنيا، قاله ابن عمر وغيره.

﴿وَالَّذِينَ أَوْثَرُوا آلَهُمْ﴾ لفظ يعم اليهود والنصارى، لكن الربيع بن أنس قال: المراد بهذه الآية اليهود وذلك أن موسى عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا سبعين حبراً من أحبار بني إسرائيل فاستودعهم التوراة، عند كل حبر جزء، واستخلف يوشع بن نون، فلما مضى ثلاثة قرون وقعت الفرقة بينهم. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المراد بهذه الآية النصارى، وهي توبيخ لنصارى نجران.

﴿وَبَنِيَّ﴾ نصب على المفعول من أجله أو على الحال من ﴿الَّذِينَ﴾. ثم توعّد عز وجل الكفار.

وسرعة الحساب يحتمل أن يراد بها سرعة مجيء القيامة والحساب، إذ هي متيقنة الوقوع، فكل آت قريب، ويحتمل أن يراد بسرعة الحساب أن الله تعالى يحاطه بكل شيء علماً لا يحتاج إلى عد ولا فكرة، قاله مجاهد.

﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿عَاجِلُكُمْ﴾ فاعلوك من الحجة، والضمير في حاجوك لليهود ولنصارى نجران، والمعنى: إن جادلوك وتعتنوا بالأقاييل المزورة، والمغالطات فأنشد إلى ما كلّفت من الإيمان والتبليغ، وعلى الله نصر.

وقوله: ﴿وَتَبَيَّنَ﴾ يحتمل أن يراد به المقصد كما تقول: خرج فلان في وجه كذا، فيكون معنى الآية: جعلت مقصدي لله، ويحتمل أن يكون معنى الآية: أسلمت شخصي وذاتي وكلّيتي وجعلت ذلك لله. وعبر بالوجه إذ الوجه أشرف أعضاء الشخص وأجمعها للحواس. وقد قال حذائق المتكلمين في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّنَا وَهَبْ لَنَا مِنْهَا آيَةً﴾ إنها عبارة عن الذات.

﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ في هذا الموضع بمعنى دفعْتُ وأمضيتُ، وليست بمعنى دخلت في السلم لأن تلك لا تتعدى. وقوله: ﴿وَمَنْ أَتَّبَعْنِي﴾ في موضع رفع، عطف على الضمير في ﴿أَسْلَمْتُ﴾، ويجوز أن يكون مبتدأ، أي: ومن اتبعن أسلم وجهه. وقال بعضهم: يحتمل أن يكون في موضع خفض عطفاً على اسم الله تعالى كأنه يقول: جعلت مقصدي لله بالإيمان به والطاعة له، ولمن اتبعني بالحفظ له والتحفي بتعليمه وصحبته. ولك في ﴿أَتَّبَعْنِي﴾ حذف الياء وإثباتها، وحذفها أحسن اتباعاً لخط المصحف. وهذه النون إنما هي لتسلم فتحة لام الفعل فهي مع الكسرة تغني عن الياء لا سيما إذا كانت رأس آية، فإنها تشبه قوافي الشعر، كما قال الأعشى:

وهل يمنعن ارتيادي البلا
د من حذر الموت أن يأتين
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَتَّكِرْنَ أَكْرَمِينَ﴾، فإذا لم تكن نون فإنبات الياء أحسن، لكنهم قد قالوا: هذا

غلام قد جاء، فافتكوا بالكسرة دلالة على الياء. و﴿الَّذِينَ أَوْثَرُوا آلَكَئِذٍ﴾ في هذا الموضع يجمع اليهود والنصارى باتفاق، والأميون: هم الذين لا يكتبون، وهم العرب في هذه الآية، وهذه النسبة هي إلى الأم أو إلى الأمة، أي كما هي الأم، أو على حال خروج الإنسان عن الأم، أو على حال الأمة الساذجة قبل التعلم والتحذق.

وقوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ تقرير في ضمنه الأمر، كذا قال الطبري وغيره، وذلك بين، وقال الزجاج: ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ تهديد، وهذا حسن، لأن المعنى: أسلمتم أم لا؟ وقوله: ﴿فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ جاءت العبارة بالماضي مبالغة في الإخبار بوقوع الهدى لهم وتحصله. وقوله: ﴿فَلَمَّا عَلِمْتَ الْإِثْمَ﴾ ذكر بعض الناس أنها آية موادة وأنها مما نسخته آية السيف؛ وهذا يحتاج أن يقترن به معرفة تاريخ نزولها، وأما على ظاهر نزول هذه الآية في وقت وفد نجران فإنما المعنى: ﴿فَلَمَّا عَلِمْتَ الْإِثْمَ﴾ بما فيه قتال وغيره، والبلاغ مصدر بلغ بتخفيف عين الفعل، وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصِرِّكَ الْبَاسِكُ﴾ وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

١١ - تفسير قوله عز وجل:

قال محمد بن جعفر بن الزبير وغيره: إن هذه الآية في اليهود والنصارى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتعم كل من كان بهذه الحال.

والآية توسيخ للمعاصرين لرسول الله ﷺ بمساوئ أسلافهم وبقائهم أنفسهم على فعل ما أمكنهم من تلك المساوئ؛ لأنهم كانوا خزى على قتل محمد عليه السلام. وروي أن بني إسرائيل قتلوا في يوم واحد سبعين نبياً وقامت سوق البقل بعد ذلك. وروى أبو عبيدة بن الجراح عن النبي عليه السلام أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبياً، فاجتمع من خيارهم وأجبارهم مائة وعشرون ليغيروا وينكروا فقتلوا أجمعين، وكل ذلك في يوم واحد؛ وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَنُفِّلُوا﴾. وقوله تعالى: ﴿يَسْخَرُونَ﴾ مبالغة في التحرير للذنب إذ في الإمكان أن يقتضي ذلك أمر الله تعالى بوجه ما من تكربة النبي أو غير ذلك. وعلى هذا المعنى تجيء أفعال من كذا إذا كان فيها شياخ مثل: أحب وخير وأفضل ونحوه مقولة بين شيئين ظاهرهما الاشتراك بينهما.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَنُفِّلُوا﴾. وقراء حمزة وجماعة من غير السبعة: ﴿وَيُقَاتِلُونَ الَّذِينَ﴾، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَقَاتِلُوا الَّذِينَ﴾، وقرأها الأعمش، وكلها متوجهة وأبينها قراءة الجمهور.

والقسط: العدل، وجاءت البشارة بالعذاب من حيث نص عليه، وإذا جاءت البشارة مطلقة فمجملاً فيما يستحسن.

ودخلت الفاء في قوله: ﴿فَبَيَّنَّا﴾ لما في (الذي) من معنى الشرط في هذا الموضع، فذلك بمنزلة قولك:

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال بعض العلماء: إن هذه الآية دافعة لباطل نصارى نجران في قولهم: إن عيسى هو الله، وذلك أن هذه الأوصاف تبين لكل صحيح الفطرة أن عيسى عليه السلام ليس في شيء منها، وقال قتادة: «ذكر لنا أن النبي عليه السلام سأل ربه أن يجعل في أمته ملك فارس والروم» فنزلت الآية في ذلك. وقال مجاهد: الملك في هذه الآية: النبوة. والصحيح أنه مالك الملك كله مطلقاً في جميع أنواعه، وأشرف ملك يؤتيه سعادة الآخرة؛ وروي أن الآية نزلت بسبب أن النبي عليه السلام بشر أمته بفتح ملك فارس وغيره فقالت اليهود والمنافقون: هيهات وكذبوا ذلك.

واختلف النحويون في تركيب لفظه ﴿اللَّهُمَّ﴾ بعد إجماعهم على أنها مضمومة الهاء مشددة الميم المفتوحة وأنها منادى، ودليل ذلك أنها لا تأتي مستعملة في معنى خبر، فمذهب الخليل وسيبويه والبصريين أن الأصل: يا الله، فلما استعملت الكلمة دون حرف النداء الذي هو «يا» جعلوا بدل حرف النداء هذه الميم المشددة، والضممة في الهاء هي ضمة الاسم المنادى المفرد، وذهب حرفان فعوض بحرفين. ومذهب الفراء والكوفيين أن أصل (اللهم) يا الله أم: أي أم بخير، وأن ضمة الهاء هي ضمة الهمزة التي كانت في (أم) نقلت. وردّ الزجاج على هذا القول وقال: محال أن يترك الضم الذي هو دليل على نداء المفرد وأن تجعل في اسم الله ضمة

(أم)، هذا إلحاذ في اسم الله تعالى. وهذا غلو من الزجاج. وقال أيضاً: إن هذا الهمز الذي يُطْرَحُ من الكلام فشأنه أن يؤتى به أحياناً كما قالوا: وَيُلْمُهُ فِي رَيْلِ أُمِّهِ، والأكثر إثبات الهمزة، وما سمع قط يا الله أم في هذا اللفظ. وقال أيضاً: ولا تقول العرب يا أَللَّهُم. وقال الكوفيون: إنه قد يدخل حرف النداء على (اللهم) وأنشدوا على ذلك:

وما عليك أن تقولني كلماً
سَبَّخْتُ أو هللت يا اللَّهُمَّ مَا
أردد علينا شيخنا مسلماً

قالوا: فلو كانت الميم عوضاً من حرف النداء لما اجتمعا. قال الزجاج: وهذا شاذ لا يعرف قائله ولا يترك له ما في كتاب الله وفي جميع ديوان العرب. قال الكوفيون: إنما تزداد الميم مخففة في فم وايم ونحوه، فأما ميم مشددة فلا تزداد. قال البصريون: لما ذهب حرفان عوض بحرفين. و﴿مَلِكٌ﴾ نصب على النداء، نص سيبويه على ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال: إن ﴿اللَّهُمَّ﴾ لا يوصف لأنه قد ضمت إليه الميم، قال الزجاج: و﴿مَلِكٌ﴾ عندي في الإعراب صفة لاسم الله تعالى وكذلك ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ﴾، قال أبو علي: وهو مذهب أبي العباس، وما قال سيبويه أصوب، وذلك أنه ليس في الأسماء الموصوفة شيء على حد (اللهم) لأنه اسم مفرد ضُمَّ إليه صوت، والأصوات لا توصف، نحو «غاق» وما أشبهه. وكان حكم الاسم المفرد ألا

يوصف، وإن كانوا قد وصفوه في مواضع، فلما ضُمَّ هنا ما لا يوصف إلى ما كان قياسه ألا يوصف صار بمنزلة صوت ضُمَّ إليه صوت نحو «خَيْلٌ» فلم يوصف. قال النضر بن شميل: من قال: اللهم، فقد دعا الله بجميع أسمائه كلها، وقال الحسن: اللهم مُجْمَعُ الدعاء.

وخَصَّ الله تعالى: ﴿أَلَعَدَّ﴾ بالذكر وهو تعالى بيده كل شيء، إذ الآية في معنى دعاء ورغبة، فكأن المعنى: بيدك الخير فأَجْزِلُ حظي منه. وقيل: المراد بيدك الخير والشر فحذف لدلالة أحدهما على الآخر، كما قال: ﴿يَتَيْكُمُ الْخَرَّ﴾. قال النقاش: بيدك الخير أي: النصر والغنيمة، فحذف لدلالة أحدهما.

وقال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدي وابن زيد في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَلَيْدٌ فِي الْنَّهَارِ﴾... الآية: إنه ما ينتقص من النهار فيزيد في الليل، وما ينتقص من الليل فيزيد في النهار، دأباً كل فصل من السنة، وتحتمل ألفاظ الآية أن يدخل فيها تعاقب الليل والنهار كأن زوال أحدهما ولوَّج في الآخر.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ النَّمْلَ مِنْ كَنَنِهِ﴾... الآية، فقال الحسن: معناه تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، وروي نحوه عن سلمان الفارسي. وروى الزهري أن النبي ﷺ دخل على بعض أزواجه فإذا بامرأه حسنة النعمة فقال: «من هله؟» قالت: إحدى خالاتك، فقال: «إن خالاتي بهذه

البلدة لغرائب، أي خالائي هي؟
قالت: خالدة بنت الأسود بن
عبد يغوث، فقال النبي ﷺ:
«سبحان الذي يخرج الحي من
الميت» وكانت امرأة صالحة، وكان
أبوها كافراً، وهو أحد المستهزئين
الذين كُفِّيَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ. فالمراد على
هذا القول موت قلب الكافر وحياء
قلب المؤمن، والحياة والموت
مستعاران.

وذهب جمهور كثير من العلماء إلى
أن الحياة والموت في الآية إنما هما
الحياة حقيقة والموت حقيقة لا
باستعارة، ثم اختلفوا في المثل التي
فسروا بها، فقال عكرمة: هو إخراج
الدجاجة وهي حية من البيضة وهي
ميتة، وإخراج البيضة وهي ميتة من
الدجاجة وهي حية، ولفظ الإخراج
في هذا المثل وما ناسبه لفظ متمكن
على عرف استعماله. وقال
عبد الله بن مسعود في تفسير الآية:
هي النطفة تخرج من الرجل وهي
ميتة وهو حي، ويخرج الرجل منها
وهي ميتة. ولفظ الإخراج في تنقل
النطفة حتى تكون رجلاً إنما هو
عبارة عن تغير الحال، كما تقول في
صبي جيد البنية: يخرج من هذا
رجل قوي، وهذا المعنى يسميه ابن
جني: التجريد، أي تجرد الشيء من
حالي إلى حال هو خروج. وقد
يحتمل قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُ الْكَتَمَ
مِنْ آلِي﴾ أن يراد به أن الحيوان
كله يميته فهذا هو معنى التجريد
بعينه، وأنشد ابن جني على ذلك:

أفأنت بنو مروان ظلماً دماًنا
وفي الله - إن لم ينصفوا - حكّم عدل

وروى السدي عن أبي مالك قال
في تفسير الآية: هي الحبة تخرج من
السنبلة، والسنبلة تخرج من الحبة،
والنواة تخرج من النخلة، والنخلة
تخرج من النواة، والحياة في النخلة
والسنبلة تشبيه.

وقوله تعالى: ﴿يَتَرَكِبَ حَبَابٌ﴾ قيل
معناه: بغير حساب منك، لأنه تعالى
لا يخاف أن تنتقص خزائنه، هذا
قول الربيع وغيره. وقيل: معنى بغير
حساب: أي من أحد لك، لأنه
تعالى لا معقب لأمره. وقرأ عاصم
في رواية أبي بكر، وابن كثير وأبو
عمرو وابن عامر «الميت» بسكون
الياء في جميع القرآن. وروى حفص
عن عاصم «مِتْ أَلْتَيْتَ» بتشديد
الياء، وقرأ نافع وحزمة والكسائي
«أَلْتَيْتَ» بتشديد الياء في هذه الآية،
وفي قوله: ﴿إِنَّ بَلَرَكَيْتَ﴾ و«يَكْرِ
تَيْتَ»، وخُفِّتَ حمزة والكسائي غير
هذه الحروف. قال أبو علي: الميت
هو الأصل، والواو التي هي عين منه
انقلبت ياء لإدغام الياء فيها، وميت
بالتخفيف محذوف منه عينه أُعْلِثَ
بالحذف كما أُعْلِثَ بالقلب،
والحذف حَسَنٌ والإتمام حسن، وما
مات وما لم يمت في هذا الباب
يستويان في الاستعمال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وذهب قوم إلى أن الميت بالتخفيف
إنما يستعمل فيما قد مات، وأما
الميت بالتشديد فيستعمل فيما مات
وفيما لم يمت بعد.

تفسير قوله عز وجل:

هذا النهي عن الاتخاذ إنما هو فيما
يظهره المرء، فأما أن يتخذه بقلبه

ونيته فلا يفعل ذلك مؤمن،
والمنهتون هنا قد قرر لهم الإيمان،
فالنهي إنما هو عبارة عن إظهار
اللطيف للكفار والميل إليهم، ولفظ
الآية عام في جميع الأعصار.

واختلف الناس في سبب هذه
الآية، فقال ابن عباس: كان
كعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق
وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من
الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال
رفاعة بن المنذر بن زبير وعبد الله بن
جبير وسعد بن خزيمة لأولئك النفر:
اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا
مباطنتهم، فأبى أولئك النفر إلا
موالاة اليهود، فنزلت الآية في ذلك.
وقال قوم: نزلت الآية في قصة
حاطب بن أبي بلتعة وكتابه إلى أهل
مكة، والآية عامة في جميع هذا،
ويدخل فيها فعل أبي لبابة في إشارته
إلى حلقه حين بعثه النبي عليه السلام
في استنزال بني قريظة. وأما تعذيب
بني المغيرة لعمار فنزل فيما أباح
النبي عليه السلام لعمار «إِلَّا مَنْ
أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ».

وقوله تعالى: ﴿يَنْ دُونَ﴾ عبارة عن
كون الشيء الذي تضاف إليه (دون)
غائباً متنعياً ليس من الأمر الأول في
شيء، وفي المثل: «وَأَمْرٌ دُونَ عُنَيْدَةٍ
الْوَدْمُ» كأنه من غير أن ينتهي إلى
الشيء الذي تضاف إليه، ورتبها
الزجاج: المضادة للشرف من الشيء
الدون، وفيما قاله نظر.

قوله: ﴿فَلَيْتَ مِنْكَ اللَّهُ فِي شَيْءٍ﴾
معناه: في شيء مرضي على الكمال
والصواب، وهذا كما قال النبي عليه
السلام: «من غشنا فليس منا» وفي

الكلام حذف مضاف، تقديره: فليس من التقرب إلى الله أو التزلف ونحو هذا.

وقوله: ﴿فِي تَقَى﴾ هو في موضع نصب على الحال من الضمير الذي في قوله: ﴿فَلَيْسَ مِنْكَ اللَّهُ﴾. ثم أباح الله إظهار اتخاذهم بشرط الانتفاء، فأما إبطانه فلا يصح أن يتصف به مؤمن في حال.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَقَى﴾ أصله وَقِيَّةٌ - على وزن فُعْلة - بضم الفاء وفتح العين - أبدلوا من الواو تاء كشجاء وتكأة فصار تَقِيَّةٌ، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها فجاء تَقَاةٌ. قال أبو علي: يجوز أن تكون تَقَاةٌ مثل رماة حالاً من ﴿تَكْتَفُوا﴾ وهو جمع فاعل وإن كان لم يستعمل منه فاعل، ويجوز أن يكون جمع تَقِيٍّ وجعل فاعيل بمنزلة فاعل.

وقرأ ابن عباس والحسن وحמיד بن قيس ويعقوب الحضرمي ومجاهد وقتادة والضحاك وأبو رجاء والجحدري وأبو حيوة ﴿تَقِيَّةٌ﴾ - بفتح التاء وشد الياء - على وزن فعيلة، وكذلك روى المفضل عن عاصم، وأمال الكسائي القاف في (تَقَاةٌ) في الموضعين، وأمال حمزة في هذه الآية ولم يمل في قوله: ﴿حَقَّ تَقَالِيدُ﴾، وفتح سائر القراء القاف إلا أن نافعاً كان يقرأها بين الفتح والكسر.

وذهب قتادة إلى أن معنى الآية ﴿إِلَّا أَنْ تَكْتَفُوا مِنْهُ تَقَى﴾ من جهة صلة الرحم أي: ملامة، فكان الآية عنده مبيحة الإحسان إلى القرابة من

الكفار. وذهب جمهور المفسرين إلى أن معنى الآية: إلا أن تخافوا منهم خوفاً، وهذا هو معنى التقية. واختلف العلماء في التقية ممن تكون؟ وبأي شيء تكون؟ وأي شيء تبيح؟ فأما الذي تكون منه التقية فكل قادر غالب يُكْرَهُ بجورٍ منه، فيدخل في ذلك الكفار إذا غلبوا وجَوْرُهُ الرؤساء والسلاطة وأهل الجاه في الحواضر. قال مالك رحمه الله: وزوج المرأة قد يُكْرَهُ.

وأما بأي شيء تكون التقية ويترتب حكمها؟ فذلك بخوف القتل، وبالخوف على الجوارح، وبالضرب بالسوط، وبسائر التعذيب، فإذا فُعل بالإنسان شيء من هذا أو خافه خوفاً متمكناً فهو مُكْرَهُ وله حُكْمُ التقية. والسجن إكراه، والتقييد إكراه، والتهديد والوعيد إكراه، وعداوة أهل الجاه الجَوْرَةُ تقية. وهذه كلها بحسب حال المُكْرَهُ، وبحسب الشيء الذي يكره عليه، فكم من الناس ليس السجن فيهم بإكراه، وكذلك الرجل العظيم يُكْرَهُ بالسجن والضرب غير المتلف ليكفر فهذا لا تتصور تقيته من جهة عظم الشيء الذي طُلب منه، ومسائل الإكراه هي من النوع الذي يدخله فقه الحال.

وأما أي شيء تبيح؟ فاتفق العلماء على إباحتها للأقوال باللسان من الكفر وما دونه، ومن بيع وهبة وطلاق، وإطلاق القول بهذا كله، ومن مداراة ومصانعة. وقال ابن مسعود: ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنت متكلماً به. واختلف الناس في

الأفعال، فقال جماعة من أهل العلم منهم الحسن ومكحول ومسروق: يفعل المكروه كل ما حُمِلَ عليه مما حَرَّمَ الله فعله وينتجى نفسه بذلك. وقال مسروق: فإن لم يفعل حتى مات دخل النار. وقال كثير من أهل العلم منهم سحنون: بل إن لم يفعل حتى مات فهو مأجور، وتزكته ذلك المباح أفضل من استعماله. وروي أن عمر ابن الخطاب قال في رجل يقال له: نهيت ابن الحارث، أخذته الفرس أسيراً، فعرض عليه شرب الخمر وأكل الخنزير وهُدِّدَ بالنار فلم يفعل فغذوه فيها، فبلغ ذلك عمر فقال: وما كان على نهيت أن يأكل؟. وقال جمع كثير من العلماء: التقية إنما هي مبيحة للأقوال، فأما الأفعال فلا، روي ذلك عن ابن عباس والربيع والضحاك، وروي ذلك عن سحنون، وقال الحسن في الرجل يقال له: اسجد لصنم وإلا قتلناك، قال: إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد ويجعل نيته لله، فإن كان إلى غير القبلة فلا وإن قتلوه، قال ابن حبيب: وهذا قول حسن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما يمنعه أن يجعل نيته لله تعالى وإن كان لغير قبلة، وفي كتاب الله: ﴿فَأَيُّنَا تَوَلَّوْا فَمَنْ وَجَّهَ اللَّهُ﴾. وفي الشرع إباحة التنفل للمسافر إلى غير القبلة. هذه قواعد مسألة التقية، وأما تشعب مسائلها فكثير لا يقتضي الإيجاز جمعه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى...﴾ إلى آخر الآية، وعيد وتنبية ووعظ وتذكير بالآخرة. وقوله

من المكان أو الزمان. قال النابغة:

.....

سَبَقَ الجَوَادِ إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الْأَمَدِ
فهذه غاية في المكان، وقال
الطرماح:

كل حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ عِدَّةَ الْعُمَدِ
وَمُسَوِّدٌ إِذَا انْقَضَى أَمَدُهُ
فهذه غاية في الزمان.

وقال الحسن في تفسير هذه الآية:
يَسْرُ أَحَدُهُمُ الْأَيُّ يَلْقَى عَمَلَهُ ذَلِكَ
أَبْدًا، ذَلِكَ مَنَاهُ، أَمَا فِي الدُّنْيَا فَقَدْ
كَانَتْ خَطِيئَتُهُ يَسْتَلْذُّهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ
بِالْمُؤْسَى﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى
التحذير لأن تحذيره وتنبيهه على
النجاة رافة منه بعباده، ويحتمل أن
يكون ابتداء إعلام بهذه الصفة،
فمقتضى ذلك التأنيس لثلا يفرط
الوعيد على نفس مؤمن، وتجيء
الآية على نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ
رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ
الْعِقَابِ﴾ لأن قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ
نَفْسَكُمْ﴾ معناه: والله محذور العقاب.

(٣١) - (٣٢) تفسير قوله عز وجل:
اختلف المفسرون فيمن أمر
محمد ﷺ أن يقول له هذه المقالة،
فقال الحسن بن أبي الحسن وابن
جريج: إن قوماً على عهد النبي ﷺ
قالوا: يا محمد إنا نحب ربنا،
فنزلت هذه الآية في قولهم،
جعل الله فيها اتباع محمد علماً
لحبّه. وقال محمد بن جعفر بن
الزبير: أمر رسول الله ﷺ أن يقول
هذا القول لنصارى نجران، أي: إن
كان قولكم في عيسى وغلوكم في
أمره حباً لله فأتبعوني. ويحتمل أن

اختلف في العامل به،
فقال مكي بن أبي طالب:
العامل فيه ﴿يَذَرُكُمْ﴾، وقال
الطبري: العامل فيه قوله:
﴿وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾،
وقاله الزجاج، وقال
أيضاً: العامل فيه
(ويحذركم الله نفسه
يوم)، ورجحه، وقال
مكي حكاية: العامل فيه
فعل مضمر تقديره: «اذكر
يوم». و﴿مَا﴾ بمعنى
الذي، و﴿تَحْذَرُكُمْ﴾ قال
قتادة: معناه: موقراً،
وهذا تفسير بالمعنى،
والحضور أبين من أن
يفسر بلفظ آخر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ
يُنُوءُ﴾ يحتمل أن تكون ﴿مَا﴾
معطوفة على ﴿مَا﴾ الأولى فهي في
موضع نصب وتكون ﴿يُنُوءُ﴾ في
موضع الحال، وإلى هذا العطف
ذهب الطبري وغيره، ويحتمل أن
تكون رفعاً بالابتداء ويكون الخبر في
قوله: ﴿يُنُوءُ﴾ وما بعده، كأنه قال:
وعملها السيء مردودٌ عندها، إن
بينها وبينه أمداً.

وفي قراءة ابن مسعود ﴿يُنُوءُ
وَذُنُوءٌ﴾. وكذلك قرأ ابن أبي عبله،
ويجوز على هذه القراءة أن تكون
﴿مَا﴾ شرطية، ولا يجوز ذلك على
قراءة ﴿يُنُوءُ﴾ لأن الفعل مستقبل
مرفوع، والشرط يقتضي جزمه،
اللهم إلا أن يُقَدَّرَ في الكلام
محذوف «فهي تود» وفي ذلك
ضعف. والأمد: الغاية المحدودة

يَوْمَ تَحْذَرُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ تُحْشَرُ وَمَا عَمِلَتْ
مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ
اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣١) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
(٣٢) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْكَافِرِينَ (٣٣) إِنْ اللَّهَ أَصْلَقَ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ
وَعَلَّامُ الْغُيُوبِ (٣٤) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٥) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَّوْتُ لَكَ
مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) فَلَمَّا
وَضَعَهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ الذَّكَرُ إِلَّا أُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٧) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَوَقَعَهَا فِي يَدَيْكَ كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا
رُوحُكَ فَانْحَرَبَ أَرْحَامُهَا وَقَالَ بِرُوحِهِ أَنَّ لَكَ هَذَا
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ يَتَّبِعْ حِسَابَ (٣٨)

تعالى: ﴿نَفْسُكُمْ﴾ نائبة عن إياه،
وهذه مخاطبة على معهود ما يفهمه
البشر، والنفس في مثل هذا راجع
إلى الذات، وفي الكلام حذف
مضاف لأن التحذير إنما هو من
عقاب وتنكيل ونحوه، فقال ابن
عباس والحسن: ويحذركم الله
عقابه.

(٣٩) - (٤٠) تفسير قوله عز وجل:
الضمير في ﴿تُحْشَرُوا﴾ هو للمؤمنين
الذين تُهَرَا عن اتخاذ الكافرين
أولياء، والمعنى: إنكم إن أبغضتم
الحرص على إظهار موالاتهم فإن الله
يعلم ذلك ويكرهه منكم. وقوله:
﴿وَيَسَّرُ مَا فِي السَّكُونِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾
معناه: على التفصيل. وقوله: ﴿عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، والشئ في
كلام العرب: الموجود. وقد
و﴿يَوْمَ﴾ نُصِبَ عَلَى الظرف، وقد

تكون الآية عامة لأهل الكتاب اليهود والنصارى لأنهم كانوا يدعون أنهم يحبون الله ويحبهم. ألا ترى أن جميعهم قالوا: ﴿حَنُّ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ﴾، ولفظ «أحبوا» إنما يعطي أن الله يحبهم، لكن يعلم أن مرادهم «ويحبوه» فيحسن أن يقال لهم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾.

وقرأ الزهري ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ بتشديد النون، وقرأ أبو رجاء: ﴿يُخَبِّئُكُمْ﴾ بفتح الباء وضم الباء الأولى من «حَبَّ» وهي لغة، قال الزجاج: حَبَّبْتُ قَلِيلًا فِي اللُّغَةِ، وَزَعَمَ الْكِسَائِيُّ أَنَّهَا لُغَةٌ قَدِ مَاتَتْ، وَعَلَيْهَا اسْتَعْمَلَ مَحْبُوبٌ.

والمحبة إرادة يقترب بها إقبال من النفس وميل بالمعتقد. وقد تكون الإرادة المجردة فيما يكره المريد، والله تعالى يريد وقوع الكفر ولا يحبه، ومحبة العبد لله تعالى يلزم عنها ولا بد أن يطيعه، وتكون أعماله بحسب إقبال النفس، وقد تمثل بعض العلماء حين رأى الكعبة فأنشد:

هذه داره وأنست محب
ما بقاء الدموع في الآفاق
ومحبة الله للعبد أمارتها للتمائل أن يرى العبد مهدياً مسدداً ذا قبول في الأرض، فلطف الله بالعبد ورحمته إياه هي ثمرة محبته، وبهذا النظر يتفسر لفظ المحبة حيث وقعت من كتاب الله عز وجل.

وذكر الزجاج أن أبا عمرو وقرأ: ﴿وَيُغْفِرْ لَكُمْ﴾ بإدغام الراء في اللام، وخطأ القراءة وغلط من رواها عن

أبي عمرو فيما حسبت. وذهب الطبري إلى أن قوله: ﴿قُلْ أَلْبِسُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ خطاب لنصارى نجران. وفي قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ وعيد، ويحتمل أن يكون بعد الصّدع بالقتال.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما مضى صدر من محاجة نصارى نجران والرّد عليهم وبيان فساد ما هم عليه، جاءت هذه الآية مُعلِّمةً بصورة الأمر الذي قد ضلوا فيه، ومنبئة عن حقيقته كيف كانت، فبدأ تعالى بذكر فضله على هذه الجملة التي آل عمران منها، ثم خص امرأة عمران بالذكر لأن القصد وصف قصة القوم إلى أن يبين أمر عيسى عليه السلام وكيف كان.

﴿وَأَسْطَلَقَ﴾ معناه: اختار صفو الناس، فكان ذلك هؤلاء المذكورين وبقي الكفار كدراً. و﴿ءَادَمَ﴾ هو أبونا عليه السلام، اصطفاه الله تعالى بالإيجاد والرسالة إلى بنيه والنبوة والتكليم، حسباً ورد في الحديث، وحكى الزجاج عن قوم أن الله اصطفى آدم عليه السلام بالرسالة إلى الملائكة في قوله: ﴿أَتَيْنَهُمْ بِآثْمَاءَ﴾ وهذا ضعيف؛ ونوح عليه السلام هو أبونا الأصغر في قول الجمهور، وهو أول نبي بُعث إلى الكفار، وانصرف نوح مع عجمته وتعريفه لخفة الاسم، كهود ولسوط. ﴿وَأَلَّ﴾ لِبَرَزِيَّةٍ يعني بإبراهيم الخليل عليه السلام، والآل في اللغة: الأهل والقربة، ويقال للاتباع وأهل الطاعة: آل، فمنه آل فرعون، ومنه قول الشاعر وهو أراكة الشقي في

رثاء النبي ﷺ وهو يعزي نفسه في أخيه عمرو:

فلا تبك مَيتاً بعدَ مَيتٍ أجثُه
عليّ وعباسٌ وآلُ أبي بكر
أراد جميع المؤمنين. والآل في هذه الآية يحتمل الوجهين، فإذا قلنا أراد بالآل القرابة والبيتية، فالتقدير: إن الله اصطفى هؤلاء على عالمي زمانهم، أو على العالمين عاماً بأن نقدر محمداً عليه السلام من آل إبراهيم؛ وإن قلنا: أراد بالآل الأتباع فيستقيم دخول أمة محمد في الآل لأنها على ملّة إبراهيم.

وذهب منذر بن سعيد وغيره إلى أن ذكر آدم يتضمن الإشارة إلى المؤمنين به من بنيه، وكذلك ذكر نوح عليه السلام، وأن آل الأتباع، فعُميت الآية جميع مؤمني العالم، فكان المعنى: إن الله اصطفى المؤمنين على الكافرين، وخص هؤلاء بالذكر تشريفاً لهم، ولأن الكلام في قصة بعضهم.

﴿وَأَلَّ عمران﴾ أيضاً يحتمل من التأويل ما تقدّم في ﴿آل إبراهيم﴾؛ وعمران هو رجل من بني إسرائيل من ولد سليمان بن داود فيما حكى الطبري؛ قال مكي: هو عمران بن ماثال، وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ذكر الله تعالى أهل بيتين صالحين ورجلين صالحين، فضلهما على العالمين، فكان محمد من آل إبراهيم. وقال ابن عباس: اصطفى الله هذه الجملة بالذنين والنبوة والطاعة له.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ نُصِبَ على البدل، وقيل: على الحال لأن معنى

محرراً، وفي هذا نظر، والبيت الذي نذرته له هو بيت المقدس.

قال ابن إسحاق: كان سبب نذر حنة أنها كانت قد أميكت عنها الولد حتى أسنت، فبينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائراً يزق فرخاً له، فتحركت نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولداً، فحملت بمریم، وهلك عمران، فلما علمت أن في بطنها جنيناً جعلته نذيرة لله أن يخدم الكنيسة لا يتنفع به في شيء من أمر الدنيا.

وقال مجاهد: ﴿مَحْرَأً﴾ معناه: خادماً للكنيسة، وقال مثله الشعبي وسعيد بن جبير، وكان هذا المعنى من التحرير للكنائس عرفاً في الذكور خاصة، وكان فرضاً على الأبناء التزام ذلك، فقالت: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ ولم تنص على ذكوره لمكان الإشكال، ولكنها جزمته الدعوة رجاء منها أن يكون ذكراً. وتقبل الشيء وقوله: أخذه حيث يُنصَرُ الأخذ والرضى به في كل حال، فمعنى قولها: ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾: أي أرض عني في ذلك، واجعله فعلاً مقبولاً مجازئ به، و﴿السَّيِّئِ﴾ إشارة إلى دعائها، ﴿الْعَلِيمِ﴾ إشارة إلى نيتها.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية خطاب من الله تعالى لمحمد عليه السلام، والوضع: الولادة، وأنت الضمير في ﴿وَمَهَّيْنَا﴾ حملاً على الموجودة ورفعاً للفظ (ما) التي في قولها: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ وقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَّيْتُ أَنْتَ﴾ لفظ خبر في ضمنه التحسر والتلهف،

ذرى، وإذا كانت من ذراً فوزنها فعيلة كمريقة أصلها ذريئة فالزمت البدل والتخفيف، كما فعلوا في البرية في قول من رآها من برأ الله الخلق، وفي كوكب دري، في قول من رآه من «دراً» لأنه يدفع الظلمة بضوئه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ذُرِّيَّةً﴾ بضم الـذال، وقرأ زيد بن ثابت والضحاك: ﴿ذَرِيَّةً﴾ - بكسر الـذال - وقوله تعالى: ﴿بَعْضًا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي في الإيمان والطاعة وإنعام الله عليهم بالنبوة.

واختلف الناس في العامل في قوله: ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ - فقال أبو عبيدة معمر: ﴿إِنَّ﴾ زائدة، وهذا قول مردود، وقال المبرد والأخفش: العامل فعل مضمر تقديره: «اذكر إذ»، وقال الزجاج: العامل معنى الاصطفاء، التقدير: «واصطفى آل عمران إذ». وعلى هذا القول يخرج عمران من الاصطفاء؛ وقال الطبري ما معناه: إن العامل في «إذ» قوله: ﴿يَبِيْءُ﴾.

وامرأة عمران اسمها حنة بنت قاذوذ فيما ذكر الطبري عن ابن إسحاق، وهي أم مريم بنت عمران.

ومعنى قوله: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحْرَأً﴾ أي: جعلت نذراً أن يكون هذا الولد الذي في بطني حبساً على خدمة بيتك، محرراً من كل خدمة وشغل من أشغال الدنيا، أي: عتيقاً من ذلك فهو من لفظ الحرية، ونصبه على الحال. قال مكّي: فمن نصبه على النعت لمفعول محذوف يقدره: غلاماً

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضًا مِنْ بَعْضٍ﴾ متشابهين في الدين والحال، وهذا أظهر من البدل. والذرية في عرف الاستعمال تقع لما تناسل من الأولاد سفلاً، واشتقاق اللفظة في اللغة يُعطي أن تقع على جميع الناس، أي كل أحد ذرية لغيره، فالناس كلهم ذرية بعضهم لبعض، وهكذا استعملت الذرية في قوله تعالى: ﴿أَنَا حَمَلٌ ذُرِّيَّتُهُ فِي الْقَلْبِ الْمَشْحُونِ﴾ أي ذرية هذا الجنس، ولا يسوغ أن يقال في والد: هذا ذرية لولده إذ اللفظة من «ذر» إذا بث، فهكذا يجيء معناها، وكذلك إن جعلناها من «ذرا»، وكذلك إن جعلت من «ذراً»، أو من الذر الذي هو صغار النمل. قال أبو الفتح: الذرية يحتمل أن تكون مشتقة من هذه الحروف الأربعة، ثم طول أبو الفتح القول في وزنها على كل اشتقاق من هذه الأربعة الأحرف تطويلاً لا يقتضي هذا الإيجاز ذكره، وذكرها أبو علي في الأعراف في ترجمة: ﴿يَنْظُرُونَ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، قال الزجاج: أصلها فُعْلِيَّة من الذر، لأن الله أخرج الخلق من صلب آدم كالذر. قال أبو الفتح: هذه نسبة إلى الذر غير أولها، كما قالوا في النسبة إلى الخرم: جرمي - بكسر الحاء - وغير ذلك من تغيير النسب، قال الزجاج: وقيل: أصل ذرية ذرورة، وزنها فُعْلُولَة، فلما كثرت الرءاء أبدلوا من الأخيرة ياء فصارت ذُرُويَّة، ثم أدغمت الواو في الياء فجاءت ذُرِّيَّة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا اشتقاق من ذر يذر، أو من

وَيَبِّئُ اللَّهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَضَعْتَ﴾ بفتح العين وإسكان التاء - وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿وَضَعْتَ﴾ - بضم التاء وإسكان العين - وهذا أيضاً مُخْرِجٌ قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ من معنى الخبر إلى معنى التلهف، وإنما تلهفت لأنهم كانوا لا يحزرون الإنثى لخدمة الكنائس ولا يجوز ذلك عندهم، وكانت قد رَجَبَتْ أَنْ يكون ما في بطنها ذكراً، فلما وضعت أنثى تلهفت على فوت الأمل وأفزعتها أن نذرت ما لا يجوز نذره، وقرأ ابن عباس: ﴿وَضَعْتَ﴾ - بكسر التاء - على الخطاب من الله لها.

وقولها: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ تريد في امتناع نذره، إذ الأنثى تحيض ولا تصلح لصحبة الرهبان، قاله قتادة والربيع والسدي وعكرمة وغيرهم، وبدأت بذكر الأهم في نفسها، وإلا فسياق قضتها يقتضي أن تقول: وليست الأنثى كالذكر، فتضع حرف النفي مع الشيء الذي عندها وانتفت عنه صفات الكمال للغرض المراد.

وفي قولها: ﴿وَلِإِنِّي سَوَّيْتُهَا مَرْثَةً﴾ سَوَّيْتُ تسمية الأطفال قرب الولادة، ونحوه قول النبي ﷺ: «ولد لي الليلة مولود فسميته باسم أبي إبراهيم». وقد روي عنه عليه السلام «أن ذلك في يوم السابع يعق عن المولود ويسمى» قال مالك رحمه الله: «ومن مات ولده قبل السابع فلا عقيقة عليه ولا تسمية» قال ابن حبيب: «أحب إلي أن

يسمى، وأن يسمى السقط لما روي من رجاء شفاعته».

ومريم لا ينصرف لعجمته وتعريفه وتأنثيه. وباقى الآية إعادة، وورد في الحديث عن النبي عليه السلام من رواية أبي هريرة قال: «كل مولود من بني آدم له طعنة من الشيطان وبها يستهل إلا ما كان من مريم ابنة عمران وابنها، فإن أمها قالت حين وضعتها: ﴿وَلِإِنِّي أُيْهِدُكَ إِلَهُ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فَضَرَبَ بَيْنَهُمَا حِجَابَ فَطَمَنَ الشَّيْطَانُ فِي الْحِجَابِ» وقد اختلف ألفاظ الحديث من طرق، والمعنى واحد كما ذكرته.

وقوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ إخبار لمحمد عليه السلام بأن الله رضي مريم لخدمة المسجد كما نذرت أمها وسئى لها الأمل في ذلك، والمعنى يقتضي أن الله تعالى أوحى إلى زكرياء ومن كان هنالك بأنه قد تقبلها، ولذلك جعلوها كما نذرت.

وقوله: ﴿يَقْبُولُ﴾ مصدر جاء على غير المصدر، وكذلك قوله: ﴿تَبَاكَ﴾ بعد «أثبت».

وقوله: ﴿وَأَلْبَنَاهَا تَبَاكَ حَسَكًا﴾، عبارة عن حسن النشأة وسرعة الجودة فيها في خلقه وخلقه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ معناه: ضمها إلى إنفاقه وحضنه، والكافل هو المربي الحاضن، قال ابن إسحاق: إن زكرياء كان زوج خالتها لأنه وعمران كانا سلفين على أختين، ولدت امرأة زكرياء يحيى،

وولدت امرأة عمران مريم، وقال السدي وغيره: إن زكرياء كان زوج ابنة أخرى لعمران، ويعضد هذا القول قول النبي ﷺ في يحيى وعيسى: «ابنا الخالة» قال مكي: وهو زكرياء بن آذن. وذكر قتادة وغير واحد من أهل العلم أنهم كانوا في ذلك الزمان يتشاحون في المحرر عند من يكون من القائمين بأمر المسجد فيتساهمون عليه، وأنهم فعلوا في مريم ذلك، فزوي أنهم ألقوا أفلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة في النهر، وقيل: أفلاماً بَرَوْهَا من عود كالسهم والقِداح، وقيل: عصياً لهم، وهذه كلها تقلم. وزوي أنهم ألقوا ذلك في نهر الأردن، وروي أنهم ألقوه في عين. وروي أن قلم زكرياء صاعد الجرية، ومضت أفلام الآخرين مع الماء في جريته. وروي أن أفلام القوم عاثت على الماء معروضة كما تفعل العيدان وبقي قلم زكرياء مرتزاً واقفاً كأنما ركز في طين، فكفلها زكرياء عليه السلام بهذا الاستهام، وحكى الطبري عن ابن إسحاق أنها لما ترعرعت أصابت بني إسرائيل مجاعة فقال لهم زكرياء: إني قد عجزت عن إنفاق مريم فاقترعوا على من يكفلها، ففعلوا، فخرج السهم على رجل يقال له جُرْنَج، فجعل ينفق عليها، وحينئذ كان زكرياء يدخل عليها المحراب عند جُرْنَج فيجد عندها الرزق. وهذا استهام غير الأول، هذا المراد منه دفعها، والأول المراد منه أخذها. ومضت هذه الرواية أن زكرياء كفلها من لدن

طفولتها دون استهام، لكن لأن أمها هلك، وقد كان أبوها هلك وهي في بطن أمها، فَضَمَّهَا زكرياء إلى نفسه لقربانها من امرأته، وهكذا قال ابن إسحاق. والذي عليه الناس أن زكرياء إنما كفل بالاستهام لتشახم حينئذ فيمن يكفل المحرور.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ - مفتوحة الفاء خفيفة - ﴿زَكْرِيَاءَ﴾ مرفوعاً ممدوداً، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ - مشددة الفاء، ﴿زَكْرِيَاءَ﴾ ممدوداً منصوباً - في جميع القرآن، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ - مشددة الفاء مفتوحة، ﴿زَكْرِيَاءَ﴾ مقصوراً في جميع القرآن، وفي رواية أبي بن كعب: ﴿وَأَكْفَلَهَا زَكْرِيَاءَ﴾ - بفتح الفاء - على التعدية بالهمزة. وقرأ مجاهد: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ - بسكون اللام - على الدعاء ﴿رَبِّهَا﴾ بنصب الباء على النداء، ﴿وَأَتَيْنَهَا﴾ - بكسر الباء - على الدعاء، ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ - بكسر الفاء وشدها - على الدعاء ﴿زَكْرِيَاءَ﴾ منصوباً ممدوداً، وروي عن عبد الله بن كثير، وعبد الله المزني: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ - بكسر الفاء خفيفة - وهي لغة يقال: كَفَّلَ يَكْفُلُ - بضم العين في المضارع، وكَفَّلَ - بكسر العين - يَكْفُلُ - بفتحها - في المضارع. وزكرياء: اسم أعجمي يمدُّ وَيُقْصِرُ، قال أبو علي: لما عُرِبَ صادف العربية في بئانه فهو كالهيجاء تمدُّ وتقصُر. قال الزجاج: فأما تركُ صرفه فلأن فيه في المَدُّ اللَّي تَأْنِيثٌ وفي القصر ألف تَأْنِيثٌ.

قال أبو علي: ألفُ زكرياء ألفُ تَأْنِيثٌ ولا يجوز أن تكونَ ألفُ إلحاق، لأنه ليس في الأصول شيءٌ على وزنه، ولا يجوز أن تكونَ متقلبةً، ويقال في لغة: زَكْرِيَّ مَنْوُنٌ معرب، قال أبو علي: هاتان ياءا نَسَبٍ ولو كانتا اللتين في زكرياء لوجب ألا ينصرف الاسم للعجمة والتعريف، وإنما حذفت تلك وجلبت ياء النسب. وحكى أبو حاتم زكري بغير صرف وهو غلط عند النحاة، ذكره مكي.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّمَآ﴾ ظرف والعامل فيه ﴿وَجَدَ﴾، والمحراب: المبنى الحسن كالغرف والعلالي ونحوه، ومحراب القصر: أشرف ما فيه، ولذلك قيل لأشرف ما في المصلى - وهو موقف الإمام -: محراب، وقال الشاعر:

رَبُّهُ مُحْرَابٌ إِذَا جَسَّهَا
لَمْ أَلْقَهَا أَوْ أَرْتَقِي سَلْمًا
ومثل قول الآخر:

كَدُمَى الْعَاجِ فِي الْمَحَارِبِ أَوْ كَأْ
جَبَّضِ فِي الرُّوضِ زَهْرَهُ مُسْتَنْبِرُ
وقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ معناه: طعاماً تتغذى به مما لم يعهده ولا عرف كيف جُلِبَ إليها، وكانت - فيما ذكر الربيع - تحت سبعة أبواب مغلقة، وحكى مكي أنها كانت في غرفة يُطْلَعُ إليها بسلم، قال ابن عباس: وجد عندها عنباً في مِكْتَلٍ في غير حينه، وقاله ابن جبير ومجاهد، وقال الضحاك ومجاهد أيضاً وقتادة: كان يجدُ عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف

في الشتاء، وقال ابن عباس: كان يجد عندها ثمار الجنة: فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، وقال الحسن: كان يجد عندها رزقاً من السماء ليس عند الناس، ولو أنه علم أن ذلك الرزق من عنده لم يسألها عنه؛ وقال ابن إسحاق: هذا الدخول الذي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿كَلَّمَآ دَكَلَّ عَلَيْهَا﴾ إنما هو دخولُ زكرياء عليها وهي في كفالة جريج أخيراً، وذلك أن جريجاً كان يأتيها بطعامها فينتخبه الله ويكثره، حتى إذا دخل إليها زكرياء عجب من كثرتة فقال: ﴿يَتَرَمَّ آتِيَ لَكَ مَنَّا﴾، والذي عليه الناس أقوى مما ذكره ابن إسحاق.

وقوله: ﴿أَنَّهُ﴾ معناه: كيف؟ ومن أين؟ وقولها: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ دليلٌ على أنه ليس من جُلِبَ بشر، وهكذا تلقى زكرياء المعنى وإلا فليس كان يقنع بهذا الجواب. قال الزجاج: وهذا من الآية التي قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا نَهْجًا نَّارِيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، وروي أنها لم تَلْقَمْ ثدياً قط.

وقولها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقرير لكون ذلك الرزق من عند الله، وذهب الطبري إلى أن ذلك ليس من قول مريم وأنه خبرٌ من الله تعالى لمحمد ﷺ، والله تعالى لا تنتقص خزائنه، فليس يحسب ما يخرج منها. وقد يعبر بهذه العبارة عن المكثرين من الناس أنهم يُنفقون بغير حساب، وذلك مجاز وتشبيه، والحقيقة هي فيما يتفق من خزائن الله تعالى.

٣٨ - ٣٩ تفسير قوله عز وجل:

هناك - في كلام العرب - إشارة إلى مكان فيه بُعد أو زمان، وهنالك - باللام - أبلغ في الدلالة على البعد، ولا يُعَرَّبُ (هنالك) لأنه إشارة فأشبه الحروف التي جاءت لمعنى.

ومعنى هذه الآية: إن في الوقت الذي رأى زكرياء رزق الله لمريم ومكانتها منه، وفكر في أنها جاءت أئمتها بعد أن أسئت وأن الله تقبلها وجعلها من الصالحات، تحرك أمله لطلب الولد وقوي رجاءه، وذلك منه على حال سنٍّ ووهن عظم واشتعال شيب، وذلك لخوفه الموالي من ورائه - حسبما يتفسر في سورة مريم إن شاء الله - فدعا ربه أن يهب له ذرية طيبة. والذرية: اسم جنس يقع على واحد فصاعداً كما الولي اسم جنس كذلك، وقال الطبري: إنما أراد هنا بالذرية واحداً، ودليل ذلك طلبه ولياً ولم يطلب أولياء، وأنت الطيبة حملاً على لفظ الذرية كما قال الشاعر: أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال وكما قال الآخر:

فما تزدري من حبة جبلية
سكات إذا ما عض ليس بأردا
وفيما قاله الطبري تعقب، وإنما الذرية والولي اسما جنس يقعان للواحد فما زاد، وهكذا كان طلب زكرياء عليه السلام، و«طيبة» معناه: سليمة في الخلق والدين نقية، «سبح» في هذه الآية بناء اسم فاعل.

ثم قال تعالى: ﴿فَدَاؤُهُ الْمَلَكُ﴾

وترك محذوف كثير دل ما ذكر عليه، تقديره: فقبل الله دعاءه، ووهبه يحيى، وبعث الملك أو الملائكة بذلك إليه، فنادته، وذكر أنه كان بين دعائه والاستجابة له بالبشارة أربعون سنة، وذكر جمهور المفسرين أن المنادي المخبر إنما كان جبريل وحده، وهذا هو العرف في الوحي إلى الأنبياء، وقال قوم: بل نادت ملائكة كثيرة حسبما تقتضيه ألفاظ الآية. وقد وجدنا الله تعالى بعث ملائكة إلى لوط وإلى

إبراهيم عليه السلام وفي غير ما قصة.

وفي مصحف عبدالله بن مسعود وقراءته: ﴿فناداه جبريل وهو قائم يصلي﴾. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو: ﴿فَدَاؤُهُ﴾ - بالتاء - ﴿الْمَلَكُ﴾، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فناداه الملائكة﴾ - بالالف وإمالة الدال - قال أبو علي: من قرأ بالتاء فلموضع الجماعة، والجماعة ممن يعقل في جمع التكسير تجري مجرى ما لا يعقل، ألا ترى أنك تقول: هي الرجال كما تقول: هي الجذوع وهي الجمال، ومثله: ﴿فَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾. ففسر أبو علي على أن المنادي ملائكة كثيرة، والقراءة بالتاء على قول من يقول: المنادي جبريل وحده متجهة على مراعاة لفظ

هَذَا الَّذِي دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا لِمَقْرُرٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عِلْمٌ وَقَدْ بَلَغْتُ الْكِبَرِ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤١﴾ قَالَ إِنَّا جَعَلْنَا لَكَ آيَةً إِذْ أَنْتَ تَقُومُ فِي الْمِحْرَابِ نَادَىكَ الْمَلَائِكَةُ قُلْ هَذَا نَذِيرٌ لَكَ وَلِأُمَّتِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْفَاسِقِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْزِجُ امْرَأَتِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدُ لَكَ وَأَذْكُرُ آيَاتِكَ وَلَسْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٥﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٧﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٨﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٥٠﴾

الملائكة، وعبر عن جبريل بالملائكة إذ هو منهم، فذكر اسم الجنس كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾، قال أبو علي: ومن قرأ: ﴿فناداه الملائكة﴾، فهو كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن المنادي كثير، ومن قال إنه جبريل وحده كالسدي وغيره فأورد الفعل مراعاة للمعنى، وعبر عن جبريل عليه السلام بالملائكة إذ هو اسم جنسه.

وقوله تعالى: ﴿فَدَاؤُهُ﴾ عبارة تستعمل في التبشير وفيما ينبغي أن يُسْرَعَ به ويُتَهَيَّأ إلى نفس السامع لئلا يسر به، فلم يكن هذا من الملائكة إخباراً على عرف الوحي بل نداء كما نادى الرجل الأنصاري كعب بن مالك من أعلى الجبل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ﴾ جملة في موضع الحال، و﴿يَكُنِي﴾ صفة القاسم، و﴿آلِيَّارَبِّ﴾ في هذا الموضع موقف الإمام من المسجد.

وقرأ ابن عامر وحزمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بكسر الالف، قال أبو علي: وهذا على إضمار القول، كأنه قال: ﴿فَنَادَاهُ أَنِ الْتَكَيْكُ﴾ فقلت، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ إنني مغلوبٌ على قراءة من كسر الالف، وقال بعض النحاة: كُسِرَتْ بعد النداء والدعاء لأن النداء والدعاء أقوال. وقرأ الباقر بفتح الالف من قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَنْبِئُكَ﴾ قال أبو علي: المعنى: فنادته بأن الله، فلما خُذِفَ الجار منها وصل الفعل إليها فنصبها، فأُنْ في موضع نصب، وعلى قياس قول الخليل في موضع جر. وفي قراءة عبدالله: ﴿فِي الْمَحَرَابِ﴾ يا زكرياء إِنَّ اللَّهَ، قال أبو علي: فقله: ﴿زَكْرِيَاءُ﴾ في موضع نصب بوقوع النداء عليه، ولا يجوز فتح الالف في ﴿إِنَّ﴾ على هذه القراءة لأن (نادته) قد استوفت مفعولها، أحدهما الضمير والآخر المنادى، فإن فتحت ﴿إِنَّ﴾ لم يبقَ لها شيء متعلق به، قال أبو علي: وكلهم قرأ: ﴿فِي آلِيَّارَبِّ﴾ بفتح الراء إلا ابن عامر فإنه أمالها، وأطلق ابن مجاهد القول في إمالة ابن عامر الالف من (محراب) ولم يخص الجر من غيره، وقال غير ابن مجاهد: إنما نميله في الجر فقط.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يُنَبِّئُكَ﴾ بضم الياء وفتح الباء والتشديد - في كل القرآن إلا في:

﴿عَسَى﴾ فإنهما قرآن ذلك الذي يُنَبِّئُ اللَّهَ عباده - بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين. وقرأ نافع وعاصم وابن عامر: ﴿يُنَبِّئُكَ﴾ بشد الشين المكسورة في كل القرآن، وقرأ حمزة: ﴿يُبَشِّرُ﴾ خفيفاً - بضم الشين - مما لم يقع في كل القرآن إلا قوله تعالى: ﴿يَبْشُرُ الْيُسُورُونَ﴾. وقرأ الكسائي: ﴿يُبَشِّرُ﴾ مخففة في خمسة مواضع: في آل عمران في قصة زكرياء وقصة مريم، وفي سورة بني إسرائيل والكهف: ﴿وَيُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي - عسق - ﴿يُنَبِّئُ اللَّهَ عِبَادَهُ﴾.

قال غير واحد من اللغويين: في هذه اللفظة ثلاث لغات، بَشَّرَ بشد الشين، وَيَشَّرَ بتخفيفها، وأبَشَّرَ يُبَشِّرُ إشاراً، وهذه القراءات كلها متجهة فضيحة مروية، وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿يُنَبِّئُكَ﴾ - بضم الياء وتخفيف الشين المكسورة - من «أبشِر»، وهكذا قرأ في كل القرآن.

ويحيى: اسم سماه الله به قبل أن يولد، قال أبو علي: وهو اسم بالعبانية صادف هذا البناء، والمعنى من العربية: قال الزجاج: لا ينصرف لأنه إن كان أعجمياً ففيه التعريف والعجمة، وإن كان عربياً فالتعريف ووزن الفعل، وقال قتادة: سماه الله يحيى لأنه أحياء بالإيمان. و ﴿مُصَدِّقًا﴾ نصب على الحال، وهي مؤكدة بحسب حال هؤلاء الأنبياء عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿يَكْمُرُ مِنَ اللَّهِ﴾، قال ابن عباس ومجاهد وقاتدة والحسن والسدي وغيرهم: الكلمة

هنا يراد بها عيسى ابن مريم. وسمى الله عيسى كلمة إذ صدر عن كلمة منه تعالى لا بسبب إنسان آخر كعُزْفِ البشر. وروى ابن عباس أن امرأة زكرياء قالت لمريم وهما حاملتان: إني أجد ما في بطني يتحرك لما في بطنك، وفي بعض الروايات: يسجد لما في بطني. قال: فذلك تصديقه، أي: أول التصديق. وقال بعض الناس: ﴿يَكْمُرُ مِنَ اللَّهِ﴾ معناه: بكتاب من الله، الإنجيل وغيره من كتب الله، فأوقع المفرد موقع الجمع، فد(كلمة): اسم جنس، وعلى هذا النظر سَمَتِ العرب القصيدة الطويلة كلمة.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا﴾ قال فيه قتادة: أي والله، سيّد في الحلم والعبادة والورع، وقال مرة: معناه: في العلم والعبادة، وقال ابن جبير: ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي حليماً، وقال مرة: السيد: التقى. وقال الضحاك: ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي تقياً حليماً، وقال ابن زيد: السيد: الشريف، وقال ابن المسيب: السيد: الفقيه العالم، وقال ابن عباس: ﴿وَسَيِّدًا﴾ يقول: تقياً حليماً، وقال عكرمة: السيد: الذي لا يغلبه الغضب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كل من فسر من هؤلاء العلماء المذكورين السؤدد بالحلم فقد أحرز أكثر معنى السؤدد، ومن جرّد تفسيره بالعلم والتقوى ونحوه فلم يفسّر بحسب كلام العرب، وقد تحضّل العلم ليحيى عليه السلام بقوله عز وجل: ﴿مُصَدِّقًا يَكْمُرُ مِنَ اللَّهِ﴾،

وتحصّل التقى بباقي الآية. وخضع الله بذكر السؤدد الذي هو الاعتمال في رضى الناس على أشرف الوجوه دون أن يقع في باطل، هذا اللفظ يعُم السؤدد، وتفصيله أن يقال: بذل الندى وهذا هو الكرم، وكف الأذى وهنا هي العفة بالفرج واليد واللسان، واحتمال العظامم وهنا هو الحلم وغيره من تحمّل الغرامات وجبر الكسر والإفضال على المسترشد والإنقاذ من الهلكات. وانظر أن النبي ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، يجمع الله الأولين والآخرين»، وذكر حديث الشفاعة في إطلاق الموقف، وذلك منه احتمال في رضى ولد آدم، فهو سيدهم بذلك. وقد يوجد من الثقات العلماء من لا يبرز في هذه الخصال، وقد يوجد من يبرز في هذه فيسمى سيداً وإن قصر في كثير من الواجبات، أعني واجبات النذب والمكافحة في الحق وقلة المبالاة باللائمة. وقد قال عبدالله بن عمر رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أسود من معاوية بن أبي سفيان، قيل له: وأبو بكر وعمر؟ قال: هما خير من معاوية، ومعاوية أسود منهما. فهذه إشارة إلى أن معاوية برز في هذه الخصال ما لم يواقع محذوراً؛ وأن أبا بكر وعمر كانا من الاستصلاح بالواجبات وتتبع ذلك من أنفسهما وإقامة الحقائق على الناس بحيث كانا خيراً من معاوية، ومع تتبع الحقائق، وحمل الناس على الجادة، وقلة المبالاة برضاهم، والوزن بقسطاس الشريعة تحريراً،

ينخرم كثير من هذه الخصال التي هي السؤدد ويشغل الزمن عنها. والتقى والعلم والأخذ بالأشد أركد وأعلى من السؤدد، أما إنه يحسن بالتقى العالم أن يأخذ من السؤدد بكل ما لا يخل بعلمه وتقاه، وهكذا كان يحيى عليه السلام، وليس هذا الذي يحسن بواجب ولا بد، كما ليس التتبع والتحرير في الشدة بواجب ولا بد، وهما طرفا خير قد حفتها الشريعة، فمن صائر إلى هذا ومن صائر إلى هذا، ومثال ذلك: حاكم صليبي معتب فظ على من عنده أدنى عوج، لا يعتني في حوائج الناس، وآخر ينشط الوجه بسأم يعتني فيما يجوز، ولا يتتبع فيما لم يُرَفَّع إليه وينفذ الحكم مع رفي بالمحكوم عليه، فهما طريقان حسان.

وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ أصل هذه اللفظة الحبس والمنع، ومنه الحصر لأنه يحصر من جلس عليه، ومنه سمي السجن حصيراً وجهنم حصيراً، ومنه حصر العدو وإحصاء المرض والعذر، ومنه قيل: الذي لا ينفق مع ثذمائه حصور، قال الأخطل:

وشارب مَرَبِح بالكأس نادمني
لا بالحصور ولا فيها بسوار
ويقال للذي يكتم السر حصور
وحصر، قال جرير:

ولقد تساقطني الوشاة فصادفوا
حصراً بسرّك يا أميم ضنيينا
وأجمع من يعتد بقوله من المفسرين على أن هذه الصفة ليحيى عليه السلام إنما هي الامتناع من

وطء النساء، إلا ما حكى مكّي من قول من قال: إنه الحصور عن الذنوب أي لا يأتيها. وروى ابن المسيب عن ابن العاصي - إما عبدالله وإما أبوه - عن النبي ﷺ، أنه قال: «كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكرياء» قال: ثم دلى رسول الله ﷺ بيده إلى الأرض فأخذ عويداً صغيراً، ثم قال: «وذلك أنه لم يكن له ما للرجال إلا مثل هذا العود، ولذلك سماه الله سيداً وحصوراً». وقال ابن مسعود: الحصور: العتین، وقال مجاهد وقتادة: الحصور: الذي لا يأتي النساء، وقال ابن عباس والضحاك: الحصور: الذي لا ينزل الماء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ذهب بعض العلماء إلى أن حصر يحيى عليه السلام كان لأنه لم يكن له إلا مثل الهدية، وذهب بعضهم إلى أن حصره كان لأنه كان عنيماً لا يأتي النساء وإن كانت خلقته غير ناقصة، وذهب بعضهم إلى أن حصره كان بأنه كان يمسك نفسه تقى وجلداً في طاعة الله، وكانت به القدرة على جماع النساء. قالوا: وهذا أمدح له وليس له في التأويلين الأولين مدح، إلا بأن الله يسر له شيئاً لا تكسب له فيه، وباقي الآية بين، وروي من صلاحه عليه السلام أنه كان يعيش من العشب، وأنه كان كثير البكاء من خشية الله حتى خدد الدمع في وجهه طرقات وأخاديد.

تفسير قوله عز وجل:

اختلف المفسرون - لم قال زكرياء:

﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي عَلَمٌ؟﴾ فقال
عكرمة والسدي: إنه لما نودي بهذه
البشارة، جاء الشيطان يكدّر عليه
نعمته ربه، فقال: هل تدري من
ناداك؟ قال: نادتنني ملائكة ربي،
قال: بل ذلك الشيطان، ولو كان
هذا من عند ربك لأخفاه لك كما
أخفيت ندامك، قال: فخالطت قلبه
وسوسة وشك مكانه، فقال: ﴿أَنَّى
يَكُونُ لِي عَلَمٌ؟﴾.

وذهب الطبري وغيره إلى أن زكرياء
لما رأى حال نفسه وحال امرأته وأنها
ليست بحال نسل سأل عن الوجه
الذي به يكون الغلام، أتبدل المرأة
خلقها أم كيف يكون؟ وهذا تأويل
حسن لائق بزكرياء عليه السلام. قال
مكي: وقيل إنما سأل لأنه نسي
دعائه لطول المدة بين الدعاء
والبشارة وذلك أربعون سنة، وهذا
قول ضعيف المعنى.

و﴿أَنَّى﴾ معناه: كيف؟ ومن أين؟
وقوله: ﴿بَلَقَنِي إِلَهُكَ﴾ استعارة،
كان الزمان طريقاً والحوادث تتساقط
فيه فإذا التقى حادثان فكان كل واحد
منهما قد بلغ صاحبه، وحقيقة البلوغ
في الأجرام أن ينتقل البالغ إلى
البلوغ إليه. وحسن في الآية ﴿بَلَقَنِي
إِلَهُكَ﴾ من حيث هي عبارة واهية
منفعل، و«بلغت» عبارة فاعل
مستعمل، فتأمله. ولا يعترض على
هذا بقوله: ﴿وَقَدْ بَلَقْتُ مِنْ إِلَهِكَ
عَيْنًا﴾ لأنه قد أفصح بضعف حاله
في ذكر العتي.

والعاقرة: الإنسان الذي لا يلد،
يقال ذلك للمرأة والرجل، قال
عامر بن الطفيل:

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقراً
جباناً فما عذري لدي كل محضر
وعاقرة: بناء فاعل وهو على النسب
وليس بجار على الفعل.

والإشارة بـ«ذلك» في قوله تعالى:
﴿كَذَلِكَ اللَّهُ﴾ يحتمل أن تكون إلى
هذه الغريبة التي بُشّر بها، أي كهذه
القدرة المستغربة هي قدرة الله، ففي
الكلام حذف مضاف، والكلام تام
في قوله: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ﴾، وقوله:
﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ شرح للإبهام الذي
في «ذلك». ويحتمل أن تكون
الإشارة بـ«ذلك» إلى حال زكرياء
وحال امرأته كأنه قال: ربّ على أي
وجه يكون لنا غلام ونحن بحال
كذا؟ فقال له: «كما أنتما يكون لكما
الغلام»، والكلام تام على هذا
التأويل في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾، وقوله:
﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ جملة مبنية
مقررة في النفس وقوع هذا الأمر
المستغرب.

﴿تفسير قوله عز وجل:

الآية: العلامة. وقال الربيع
والسدي وغيرهما: إن زكرياء قال:
رب إن كان ذلك الكلام من قبلك
والبشارة حق، فاجعل لي علامة
أعرف صحة ذلك بها، فعوقب على
هذا الشك في أمر الله بأن منع الكلام
ثلاثة أيام مع الناس. وقالت فرقة من
المفسرين: لم يشك قط زكرياء وإنما
سأل عن الجهة التي يكون الولد وتتم
البشارة، فلما قيل له: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ
يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ سأل علامة على
وقت الحمل ليعرف متى يحمل
بيحيى.

واختلف المفسرون - هل كان منعه

الكلام لآفة نزلت به أم كان ذلك
لغير آفة؟ فقال جبير بن نفير: ربا
لسانه في فيه حتى ملأه ثم أطلقه الله
بعد ثلاث. وقال الربيع وغيره:
عوقب لأن الملائكة شافهته بالبشارة
فسأل بعد ذلك علامة فأخذ الله عليه
لسانه، فجعل لا يقدر على الكلام.
وقال قوم من المفسرين: لم تكن
آفة، ولكنه مُنِعَ محاوره الناس فلم
يقدر عليها، وكان يقدر على
ذكر الله، قاله الطبري، وذكر نحوه
عن محمد بن كعب.

ثم استثنى الرمز، وهو استثناء
منقطع. وذهب الفقهاء في الإشارة
ونحوها إلى أنها في حكم الكلام في
الآيمان ونحوها، فعلى هذا يجيء
الاستثناء متصلاً، والكلام المراد
بالآية إنما هو النطق باللسان لا
الإعلام بما في النفس، فحقيقة هذا
الاستثناء أنه منقطع.

وقرأ جمهور الناس: ﴿رَمَزًا﴾ -
بفتح الراء وسكون الميم - وقرأ
علقمة بن قيس: ﴿رَمَزًا﴾ بضمهما،
وقرأ الأعمش: ﴿رَمَزًا﴾ بفتحهما.
والرمز في اللغة: حركة تُعَلِّمُ بما في
نفس الرامز بأي شيء كانت الحركة
من عين أو حاجب أو شفة أو يد أو
عود أو غير ذلك. وقد قيل للكلام
المحرّف عن ظاهره: رموز، لأنها
علامات بغير اللفظ الموضوع للمعنى
المقصود بالإعلام به. وقد يقال
للتصويت الدال على معنى: رمز،
ومنه قول جوية بن عائد:

وكان تكلم الأبطال رمزاً
وغمغمة لهم مثل الهدير

وأما المفسرون فخصص كل واحد منهم نوعاً من الرمز في تفسيره هذه الآية، فقال مجاهد: ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾، معناه: إلا تحريكاً بالشتين، وقال الضحاك: معناه: إلا إشارة باليد والرأس، وبه قال السدي وعبدالله بن كثير، وقال الحسن: أمسك لسانه فجعل يشير بيده إلى قومه، وقال قتادة: ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ معناه: إلا إيماء. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ بنصب الفعل بأن، وقرأ ابن أبي عبله: ﴿أَلَا تَكَلِّمُ﴾ برفع الميم، وهذا على أن تكون «أن» مخففة من الثقيلة ويكون فيها ضمير الأمر والشأن، والتقدير: أيتك أنه لا تكلم الناس. والقول بأن هذه الآية نسخها قول النبي عليه السلام: «لا صمت يوماً إلى الليل» قول ظاهر الفساد من جهات.

وأمره تعالى بالذكر لربه كثيراً لأنه لم يحل بينه وبين ذكر الله، وهذا قاض بأنه لم تدركه آفة ولا علة في لسانه، وقال محمد بن كعب القرظي: لو كان الله رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لركباء عليه السلام حيث قال: ﴿ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ لكنه قال له: ﴿وَأَذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ﴾ معناه: قل: سبحان الله، وقال قوم معناه: صل، والقول الأول أصوب لأنه يناسب الذكر ويستغرب مع امتناع الكلام مع الناس. والعشي في اللغة: من زوال الشمس إلى مغيبها، ومنه قول القاسم بن محمد: ما أدركت الناس إلا وهم يصلون الظهر

بعشي، والعشي من حين يفىء الفىء، ومنه قول حميد بن ثور: فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفىء من برد العشي تذوق والعشي: اسم مفرد عند بعضهم، وجمع عشية عند بعضهم كسفينة وسفين، و﴿وَالْأَبْكُرُ﴾ مصدر أبكر الرجل، إذا بادر أمره من لدن طلوع الشمس، وتتمادى البكرة شيئاً بعد طلوع الشمس، يقال: أبكر الرجل وبكر، فمن الأول قول ابن أبي ربيعة:

أَيُّنَ آلٍ نَعْمَى أَنْتَ غَادٍ فَمُبَكَّرُ

ومن الثاني قول جرير:
أَلَا بَكَرْتُ سَلَمَى فَجَدَ بِكُورِهَا
وَشَقَّ الْعَصَا بَعْدَ اجْتِمَاعِ أَمِيرِهَا
وقال مجاهد في تفسير الإيكار: أول الفجر، والعشي: ميل الشمس حتى تغيب.

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٣﴾ تفسير قوله عز وجل:
قال الطبري: العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله: ﴿النَّبِيَّ﴾، فهو عطف على قوله: ﴿إِذْ قَالَتْ أُمْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾، وقال كثير من النحاة: العامل في ﴿إِذْ﴾ في هذه الآية فعل مضمّر تقديره: «واذكر»، وهذا هو الراجح لأن هذه الآيات كلها إنما هي إخبارات بغيث تدل على نبوة محمد ﷺ، مقصد ذكرها هو الأظهر في حفظ رونق الكلام.

وقرأ عبدالله بن عمر وابن مسعود: ﴿وَإِذْ قَالَ الْمَلَأِكَةُ﴾.

واختلف المفسرون؛ هل المراد هنا بالملائكة جبريل وحده أو جمع من الملائكة؟ وقد تقدم القول على معنى

مثلها في قوله تعالى: ﴿فَتَذَكَّرُ الْمَلَأِكَةُ﴾.

﴿وَأَسْمَلَتْكَ﴾: مأخوذ من صفا يصفو وزنه «افتعل»، وبدلت طاء لتناسب الصاد. فالمعنى: تخيرك لطاعته.

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَّارَكَ﴾ معناه: من كل ما يصم النساء في خلق أو خلق أو دين، قاله مجاهد وغيره. وقال الزجاج: قد جاء في التفسير أن معناه: من الحيض والنفاس؛ وهذا يحتاج إلى سند قوي وما أحفظه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْمَلَتْكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْمَلَائِكَةِ﴾ إن جعلنا «المَلَائِكَةَ» عاماً فيمن تقدم وتاخر جعلنا الاصطفاء مخصوصاً في أمر عيسى عليه السلام وأنها اصطفت لتلد من غير فعل، وإن جعلنا الاصطفاء عاماً جعلنا قوله: «المَلَائِكَةُ» مخصوصاً في عالم ذلك الزمان، قاله ابن جريج وغيره، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير نساء الجنة مريم ابنة عمران، وخير نساء الجنة خديجة بنت خويلد»، وروي عنه أنه قال: «خير نساها مريم بنت عمران، وخير نساها خديجة بنت خويلد» فذهب الطبري وغيره إلى أن الضمير في قوله: «خير نساها» يراد به الجنة، وذهب قوم إلى أنه يراد به الدنيا، أي كل امرأة في زمانها، وقال النبي ﷺ: «خير نساء ركين الإبل صالح نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأراهه على زوج في ذات يده». قال أبو هريرة راوي الحديث: ولم تتركب مريم بنت عمران بغيراً قط، وهذه الزيادة فيها غيب، فلا

يتأول أن أبا هريرة رضي الله عنه قالها إلا عن سماع من النبي ﷺ. وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد». وقد أسند الطبري أن النبي عليه السلام قال لفاطمة بنته: «أنت سيدة نساء أهل الجنة، إلا مريم بنت عمران البتول» وأنه قال: «فضلت خديجة على نساء أمتي، كما فضلت مريم على نساء العالمين».

وإذا تأملت هذه الأحاديث وغيرها مما هو في معناها، وجدت مريم فيها متقدمة، فسألت أن يتأول عموم الاصطفاء على العالمين عموماً أيضاً. وقد قال بعض الناس: إن مريم نبيه، قال ابن إسحاق: كانت الملائكة تقبل على مريم فتقول: ﴿يَسْمِعُ إِنَّ اللَّهَ أَصَلَفُكَ﴾ الآية، فيسمع ذلك زكرياء فيقول: إن لمريم لشأناً، فمن مخاطبة الملائكة لها جعلها هذا القائل نبيه، وجمهور الناس على أنه لم تنبأ امرأة.

﴿أَفْتَى﴾ معناه: أعبدني وأطيعي، قاله قتادة والحسن، وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «كل قنوت في القرآن فهو بمعنى طاعة الله» ويحتمل أن يكون معناه: أطيلي القيام في الصلاة، وهذا هو قول الجمهور، وهو المناسب في المعنى لقوله: ﴿وَأَسْبِرِي وَارْكَبِي﴾ وبه قال مجاهد، وابن جريج، والربيع، وروى مجاهد أنها لما خطبت بهذا قامت حتى ورمت

قدمها. وروى الأوزاعي أنها قامت حتى سال الدم والقيح من قدميها. وروى أن الطير كانت تنزل على رأسها تظنها جماداً لسكونها في طول قيامها. وقد قال سعيد بن جبير: ﴿أَفْتَى رَيْكَ﴾ معناه: أخلصي لربك.

واختلف المتأولون: لم قدم السجود على الركوع؟ فقال قوم: كان ذلك في شرع زكرياء وغيره منهم، وقال قوم: الواو لا تعطي رتبة، وإنما المعنى: افعلي هذا وهذا، وقد علم تقديم الركوع. وهذه الآية أكثر إشكالاً من قولنا: «قام زيد وعمرو» لأن قيام زيد وعمرو ليس له رتبة معلومة، وهذه الآية قد علم أن السجود بعد الركوع، فكيف جاءت الواو بعكس ذلك؟ فالقول عندي في ذلك أن مريم أُمِرَتْ بفصلين ومعلمين من معالم الصلاة، وهما طول القيام والسجود، وخصاً بالذكر لشرفهما في أركان الصلاة، إذ العبد يقرب في وقت سجوده من الله تعالى، وهذان يختصان بصلاتها مفردة، وإلا فمن يصلي وراء إمام فليس يقال له: أطل قيامك، ثم أمرت - بعدُ - بالصلاة في الجماعة، فقبل لها: ﴿وَارْكَبِي مَعَ ارْكَبِينَ﴾، وقصد هنا معلم من معالم الصلاة، لئلا يتكرر لفظ، ولم يرد بالآية السجود والركوع الذي هو منتظم في ركعة واحدة، والله أعلم.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه المخاطبة لمحمد عليه السلام، والإشارة بذلك إلى ما تقدم ذكره من القصص. والأنبياء: الأخبار،

﴿الْقَبِي﴾: ما غاب عن مدارك الإنسان. ﴿وُجِدَ﴾ معناه: نلقه في نفسك في خفاء؛ وحذ الوحي إلقاء المعنى في النفس في خفاء، ثم تختلف أنواعه، فمنه بالملك، ومنه بالإلهام، ومنه بالإشارة، ومنه بالكتاب، كما قال كعب بن زهير:

أتى العُجْمَ والآفاق منه قصائد
بقين بقاء الوحي في الحجر الأصم
تقول العرب: أوحى، وتقول:
وحى. وفي هذه الآية بيان لنبوة محمد عليه السلام، إذ جاءهم بغيوب لا يعلمها إلا من شاهدها وهو لم يكن لديهم، أو من قرأها في كتب أهل الكتاب، ومحمد عليه السلام أُمي من قوم أميين، أو من أعلمه الله بها وهو ذاك ﷺ. ﴿لَدَيْهِنَّ﴾ معناه: عندهم ومعهم، وقد تقدم القول في الأقسام والكفل. وجمهور العلماء على أنه استهام لأخذها والمنافسة فيها. وقال ابن إسحاق: إنما كان استهامهم حين نالتهم المجاعة دفعاً منهم لتحمل مؤثنتها.

﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ معناه: يتراجعون القول الجهير في أمرها، وفي هذه الآية استعمال القرعة، والقرعة سنة، وكان النبي ﷺ إذا سافر أقرع بين نسائه، وقال عليه السلام: «لو يعلمون ما في الصف الأول لاستهموا عليه». وجمهور الأمة على تجويز القرعة إلا من شذ فظن أنها قمار، وهذا كله فيما يصلح التراضي بكونه دون قرعة، فكأن القرعة محسنة لذلك الاختصاص. وأما حيث لا يجوز التراضي كعتق العبيد في ثلث

الميت فجوزها الجمهور ومنعها أبو حنيفة. وفي الحديث أن النبي ﷺ أقرع بين ستة أعبد، فأعتق اثنين وأرق أربعة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكْتُلُوا مَرْيَمَ﴾ ابتداء وخبر في موضع نصب بالفعل الذي تقديره: ينظرون ﴿إِنَّهُمْ يَكْتُلُوا مَرْيَمَ﴾، والعامل في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ فعل مضمر تقديره: اذكر ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾، وهكذا يطرّد وصف الآية وتتوالى الإعلالات بهذه الغيوب. وقال الزجاج: العامل فيها: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾، ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَتَيْهِمْ﴾، وهذا كله يرده المعنى، لأن الاختصاص لم يكن عند قول الملائكة.

وقرأ ابن مسعود وعبد الله بن عمر: ﴿إِذْ قَالَ الْمَلَائِكَةُ﴾. واختلف المتأولون؛ هل الملائكة هنا عبارة عن جبريل وحده أو عن جماعة من الملائكة؟ وقد تقدم معنى ذلك كله في قوله آنفاً: ﴿تَنَادَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ فتأمل، وتقدم ذكر القراءات في قوله: ﴿يَبْيِئْرُكُمْ﴾.

واختلف المفسرون؛ لم عبر عن عيسى عليه السلام بـ ﴿كَاتِبٌ﴾ فقال قتادة: جعله الله كلمة إذ هو موجود بكلمة وهي قوله تعالى لمراداته: «كن»، وهذا كما تقول في شيء حادث: هذا قدر الله، أي هو عن قدر الله، وكذلك تقول: هذا أمر الله. وترجم الطبري فقال: وقال آخرون: بل الكلمة اسم لعيسى سماه الله بها كما سُمي سائر خلقه بما شاء من الأسماء، فمقتضى هذه الترجمة أن الكلمة اسم مرتجل

لعيسى، ثم أدخل الطبري تحت الترجمة عن ابن عباس أنه قال: الكلمة هي عيسى، وقول ابن عباس محتمل أن يفسر بما قال قتادة وبغير ذلك مما سنذكره الآن، وليس فيه شيء مما ادعى الطبري رحمه الله. وقال قوم من أهل العلم: سماه الله كلمة من حيث كان تقدم ذكره في توراة موسى وغيرها من كتب الله وأنه سيكون، فهذه كلمة سبقت فيه من الله، فمعنى الآية: أنت يا مريم مبشرة بأنك المخصوصة بولادة الإنسان الذي قد تكلم الله بأمره، وأخبر به في ماضي كتبه المنزلة على أنبيائه. و﴿أَسْمُكُمْ﴾ في هذا الموضع، معناه: تسميته، وجاء الضمير مذكراً من أجل المعنى، إذ الكلمة عبارة عن ولد.

واختلف الناس في اشتقاق لفظه ﴿الْمَسِيحِ﴾ فقال قوم: هو من ساح يسيح في الأرض إذا ذهب ومشى في أقطارها، فوزنه «مفعّل». وقال جمهور الناس: هو من «مسح» فوزنه «فعليل»؛ واختلفوا - بعد - في صورة اشتقاقه من «مسح» فقال قوم من العلماء: سمي بذلك من مساحة الأرض لأنه مشاهفاً فكانه مسحها، وقال آخرون: سمي بذلك لأنه ما مسح بيده على ذي علة إلا برىء، فهو على هذين القولين «فعليل» بمعنى «فاعل». وقال ابن جبير: سمي بذلك لأنه مُسَح بالبركة، وقال آخرون: سمي بذلك لأنه مُسِيحٌ بدهن القدس، فهو على هذين القولين «فعليل» بمعنى «مفعول»، وكذلك هو في قول من قال:

مسحه الله فطهره من الذنوب. قال إبراهيم النخعي: المسيح: الصديق، وقال ابن جبير عن ابن عباس: المسيح: الملك، وسمي بذلك لأنه ملك إحياء الموتى وغير ذلك من الآيات، وهذا قول ضعيف لا يصح عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿عِيسَى﴾ يحتمل من الإعراب ثلاثة أوجه: البديل من المسيح، وعطف البيان، وأن يكون خبراً بعد خبر، ومنع بعض النحاة أن يكون خبراً بعد خبر وقال: كان يلزم أن يكون أسماً على المعنى أو أسماً على اللفظ للكلمة، ويتجه أن يكون ﴿عِيسَى﴾ خبر ابتداء مضمر، تقديره: هو عيسى ابن مريم، ويدعو إلى هذا كون قوله: ﴿إِنَّ مَرْيَمَ﴾ صفة لعيسى إذ قد أجمع الناس على كتبه دون ألف، وأما على البديل أو عطف البيان فلا يجوز أن يكون ابن مريم صفة لعيسى لأن الاسم هنا لم يرد به الشخص، هذه النزعة لأبي علي، وفي صدر الكلام نظر.

و﴿وَجِهَا﴾ نُصِبَ على الحال وهو من الوجه، أي: له وجه ومنزلة عند الله. والمعنى في الوجهية أنه حيثما أقبل بوجهه عظم وروعي أمره، وتقول العرب: فلان له وجه في الناس وله جاه، وهذا على قلب في اللفظة، يقولون: جاهني يجوهني بكذا أي واجهني به، وجاء عيسى عليه السلام في الدنيا نبوته وذكره، ورفع في الآخرة مكانته ونعيمه وشفاعته. و﴿وَيَرْاَ الْمَقَرِّينَ﴾ معناه: من الله تعالى.

عسى أن يقذفها به متعسف ظان. والمهد: موضع اضطجاع الصبي وقت تربيته. وأخبر تعالى عنه أنه أيضاً يكلم الناس كهلاً، وفائدة ذلك - إذ كلام الكهل عَرِفَ - أنه إخبار لها بحياته إلى سن الكهولة، هذا قول الربيع وجماعة من المفسرين.

وقال ابن زيد: فائدة قوله: ﴿وَكَهْلًا﴾ الإخبار بنزوله عند قتله الدجال كهلاً. وقال جمهور الناس: الكهل: الذي بلغ سن الكهولة. وقال مجاهد: الكهل: الحليم،

وهذا تفسير الكهولة بعرض مصاحب لها في الأغلب. واختلف الناس في حد الكهولة، فقيل: الكهل: ابن أربعين سنة، وقيل: ابن خمس وثلاثين، وقيل: ابن ثلاث وثلاثين، وقيل: ابن اثنتين وثلاثين، وهذا حد أولها. وأما آخرها فاثنتان وخمسون، ثم يدخل سن الشيخوخة.

وقول مريم: ﴿رَبِّ أَلَيْسَ لِي وَلَدٌ﴾ استفهام عن جهة حملها، واستغراب للحمل على حال بكارتها. و﴿يَتَسَنَّى﴾ معناه: يطأ ويجامع، والمسييس: الجامع، ومريم لم تنفِ ميسس الأيدي، والإشارة بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ يحتمل أن تكون إلى هذه القدرة التي تتضمنها البشارة بالكلمة، ويحتمل أن تكون إلى حال مريم وبكارتها، وقد تقدم شرح هذين التأويلين في

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّبِيِّينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي شَيْءٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ بِيَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمَلَكُمْ إِنَّ اللَّهَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴿٥٠﴾ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا أَحْسَنَ عِيسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْيَهُودُ يَكُونُونَ أَنْصَارًا لِلَّهِ عَامِلِينَ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

٤٦ - ٤٧ تفسير قوله عز وجل: ﴿وَيُكَلِّمُ﴾ قوله: «ومكلماً»، وذلك معطوف على قوله: ﴿وَجِئَهَا﴾، وجاز عطف الفعل المستقبل على اسم الفاعل لما بينهما من المضارعة، كما جاز عطف اسم الفاعل على الفعل المستقبل في قول الشاعر:

بِثَّ أَعْشِيهَا بِعُضْبٍ بَاتِرٍ
يَقْصِدُ فِي أَسْوَقِهَا وَجَائِرٍ
وقوله: ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ حال من الضمير في ﴿وَيُكَلِّمُ﴾، و﴿وَكَهْلًا﴾ حال معطوفة على قوله: ﴿فِي الْمَهْدِ﴾، وقوله: ﴿مِّنَ الصَّبِيِّينَ﴾ حال معطوفة على قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ﴾.

وهذه الآية إخبار من الله تعالى لمريم بأن ابنها يتكلم في مهده مع الناس آية دالة على براءة أمه مما

أمر زكرياء عليه السلام، وجاءت العبارة في أمر زكرياء ﴿يَفْعَلُ﴾ وجاءت هنا ﴿يَخْلُقُ﴾ من حيث أمر زكرياء داخل في الإمكان الذي يُتعارف وإن قل، وقصة مريم لا تتعارف البتة، فلفظ الخلق أقرب إلى الاختراع وأدل عليه. وروي أن عيسى عليه السلام ولد لثمانية أشهر فلذلك لا يعيش من يولد من غيره لمثل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ﴾ معناه إذا أراد إيجاده، والأمر: واحد الأمور، وهو مصدرٌ سمي به، والضمير في ﴿لَهُ﴾ عائد على الأمر، والقول على جهة المخاطبة، قال مكي: وقيل: المعنى يقول لأجله، وهذا ينحو إلى ما نوره عن أبي علي بعد.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿يَكُونُ﴾ بالرفع، وقرأ ابن عامر وحده: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالنصب، فوجه الرفع العطف على ﴿يَقُولُ﴾ أو تقدير: فهو يكون. وأما قراءة ابن عامر فغير متجهة لأن الأمر المتقدم خطابٌ للمقضي وقوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ خطابٌ للمخبر، فليس كقوله: قم فأحسن إليك، لكن وجهها أنه راعى الشبه اللفظي في أن يقدم في الكلام لفظ أمر كما قال أبو الحسن الأخفش في نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّمَآذِي إِلَهِينَ﴾. ﴿أَمْسُوا يَوْمَ الْمَوْزَنَ﴾ إنه مجرى جواب الأمر وإن لم يكن له جواباً في الحقيقة، فكذلك على قراءة ابن عامر يكون قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ بمنزلة جواب الأمر وإن لم يكن جواباً. وذهب أبو علي في هذه المسألة إلى أن القول فيها ليس بالمخاطبة

المحضة، وإنما هو قول مجازي كما قال:

امتلاً الخوض وقال قطني

وغير ذلك، قال: لأن المتفتي ليس بكائن فلا يخاطب كما لا يؤمر، وإنما المعنى: فإنما يكونه فهو يكون، فهذه نزعة اعتزالية، رحمه الله وغفر له.

﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ نافع وعاصم: ﴿وَعِلْمُهُ﴾ بالياء، وذلك عطف على: ﴿يُنِيرُكَ بِكَلِمَةٍ﴾، كذا قال أبو علي، ويحتمل أن يكون في موضع الحال عطفاً على: ﴿وَيَكْلِمُ﴾. وقرأ الباقون: ﴿ونعلمه﴾ بالنون، وهي مثل قراءة الباء في المعنى لكن جاءت بنون العظمة، قال الطبري: قراءة الباء عطف على قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، وقراءة النون عطف على قوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الذي قاله خطأ في الوجهين مفسد للمعنى.

و﴿الِكْتَبِ﴾ هو الخط باليد فهو مصدر كتب يكتب، هذا قول ابن جريج وجماعة المفسرين، وقال بعضهم: هي إشارة إلى كتاب منزل لم يعين، وهذه دعوى لا حجة عليها. وأما: ﴿الِكْتَمَةُ﴾ فهي السنة التي يتكلم بها الأنبياء في الشرعيات والمواعظ ونحو ذلك، مما لم يوح إليهم في كتاب ولا بملك، لكنهم يلهمون إليه وتقوى غرائزهم عليه. وقد عبر بعض العلماء عن الحكمة بأنها الإصابة في

القول والعمل، فذكر الله تعالى في هذه الآية أنه يعلم عيسى عليه السلام الحكمة، والتعليم متمكن فيما كان من الحكمة بوحى أو ماثوراً عن تقدم عيسى من نبي وعالم. وأما ما كان من حكمة عيسى الخاصة به فإنما يقال فيها نعلمه على معنى نُهَيَّءْ غريزته لها ونقدره ونجعل له يتمرن في استخراجها ويجري ذهنه إلى ذلك.

﴿وَالْتَّوْرَةَ﴾: هي المنزلة على موسى عليه السلام، ويروى أن عيسى عليه السلام كان يستظهر التوراة، وكان أعلم الناس وأعمل بما فيها، ويروى أنه لم يحفظها عن ظهر قلب إلا أربعة: موسى ويوشع بن نون وعزير وعيسى عليهم السلام. وذكر ﴿الْإِنْجِيلَ﴾ لمريم وهو لم ينزل بعد لأنه كان كتاباً مذكوراً عند الأنبياء والعلماء وأنه سيتزل.

وقوله: ﴿وَرَسُولًا﴾ حال معطوفة على: ﴿وَعِلْمُهُ﴾. إذ التقدير: ومعلماً الكتاب، فهذا كله عطف بالمعنى على قوله: ﴿وَيَهَيَّأُ﴾ ويحتمل أن يكون التقدير: ويجعله رسولاً.

وكانت رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، مبنياً حكم التوراة ونادياً إلى العمل بها ومحللاً أشياء مما حرم فيها، كالشحوم ولحوم الإبل وأشياء من الحيتان والطيور.

ومن أول القول لمريم إلى قوله: ﴿إِسْرَءِيلَ﴾ خطاب لمريم، ومن قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جَعَلْتُكَ﴾ إلى قوله: ﴿مُسْقِيَةً﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لمريم على معنى: يكون من قوله

لبنى إسرائيل: كيت وكيت، ويكون في آخر الكلام متروك يدل عليه الظاهر، تقديره: فجاء عيسى بني إسرائيل رسولاً فقال لهم ما تقدم ذكره: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾. ويحتمل أن يكون المتروك مقدراً في صدر الكلام بعد قوله: ﴿إِنِّي بَقِيَ إِسْرَءِيلَ﴾ فيكون تقديره: فجاء عيسى كما بشر الله رسولاً إلى بني إسرائيل بأنني قد جئتكم، ويكون قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جَعَلْتُكُمْ﴾ ليس بخطاب لمريم، والأول أظهر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنِّي قَدْ جَعَلْتُكُمْ﴾ بفتح الالف، تقديره: بأنني، وقرأ في الشاذ: ﴿إِنِّي قَدْ جَعَلْتُكُمْ﴾، وجمهور الناس قرؤوا: ﴿يَتَيَّوَرُّ﴾ على الأفراد، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿بآيات﴾، وكذلك في قوله بعد هذا: ﴿وجعلتكم آيات من رُبِّكُمْ﴾. واختلف القراء في فتح الالف وكسرها من قوله: ﴿أَنِّي أَخْلَقُ﴾ - فقرأ نافع وجماعة من العلماء: ﴿إِنِّي﴾ بكسر الالف، وقرأ باقي السبعة وجماعة من العلماء: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الالف. فوجه قراءة نافع: إما القطع والاستثنا، وإما أنه فسر الآية بقوله: (إني) كما فسر المثل في قوله: ﴿كَتَلَّيْءَ آدَمَ﴾ بقوله: ﴿خَلَقْتُ مِنْ رَّأْسِ﴾ إلى غير ذلك من الأمثلة، ووجه قراءة الباقيين البديل من ﴿آية﴾، كأنه قال: وجئتكم بأنني أخلق، وقيل: هي بدل من ﴿أَنِّي﴾ الأولى، وهذا كله يتقارب في المعنى.

و﴿أَخْلَقُ﴾ معناه: أندر وأهينئ ييدي، ومن ذلك قول الشاعر:

الإحياء أحاديث كثيرة لا يوقف على صحتها. وإحياء الموتى هي آيته المعجزة المعروضة للتحدي، وهي بالمعنى متحدت بها وإن كان لم ينص على التحدي بها. وآيات عيسى عليه السلام إنما تجري فيما يعارض الطب لأن علم الطب كان شرف الناس في ذلك الزمان وشغلهم، وحينئذ أثيرت فيه العجائب، فلما جاء عيسى عليه السلام بغرائب لا تقتضيها الأمزجة وأصول الطب، وذلك إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، علمت الأطباء أن هذه القوة من عند الله، وهذا كأمير السحرة مع موسى والفصحاء مع محمد عليهما السلام، ووقع في التواريخ المترجمة عن الأطباء أن جالينوس كان في زمن عيسى عليه السلام، وأنه رحل إليه من رومية إلى الشام ليلقاه فمات في طريقه ذلك.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنبِئْهُمْ﴾... الآية؛ فقال السدي وسعيد بن جبير وابن إسحاق ومجاهد وعطاء: كان عيسى من لدن طفولته وهو في الكتاب يخبر الصبيان بما يفعل آباؤهم في منازلهم، وبما يؤكل من الطعام ويذخر حتى قال بنو إسرائيل لأبنائهم: لا تخالطوا هذا الساحر، وكذلك إلى أن نبي، فكان يقول لكل من سأل عن هذا المعنى: أكلت البارحة كذا وادخرت كذا. قال ابن إسحاق: وكان معلمه يريد أن يعلمه الشيء فيسبقه إليه عيسى، فيتعجب معلمه من ذلك ويذكره للناس.

وقال قتادة: معنى الآية إنما هو في نزول المائدة عليهم، وذلك أنها لما أنزلت أخذ عليهم عهداً أن يأكلوا ولا يخسئ أحد شيئاً ولا يدخره ويحمله إلى بيته، فخانوا وجعلوا يخبثون من ثمار الجنة وطعامها الذي كان ينزل على المائدة، فكان عيسى عليه السلام يخبر كل أحد عما أكل وعما ادخر في بيته من ذلك، وعوقبوا على ذلك.

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿يَمَا تَأْكُلُونَ﴾ تحتمل أن تكون بمعنى «الذي» وتحتمل المصدرية، وكذلك ﴿وَمَا تَكْخُرُونَ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿تَكْخُرُونَ﴾ بدال مشددة وخاء مكسورة، وهو تفتعلون من ذخرت، أصله تذكرون، استثقل النطق بالذال والتاء لتقاربهما في المخرج فأبدلت التاء دالاً وأدغمت الذال في الدال، كما صنع في مذكر ومطلع، بمعنى مضطلع وغير ذلك، نحو قول الشاعر:

إن الكريم الذي يعطيك نائله
عفواً وتظلم أحياناً فيطيلم
بالطاء غير منقوطة. وقرأ الزهري ومجاهد وأيوب السختياني وأبو السمال: ﴿تَكْخُرُونَ﴾ بدال ساكنة وخاء مفتوحة.

وقوله: ﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الإحياء والإبراء والإنباء. وفي مصحف ابن مسعود: ﴿لآيات﴾ على الجمع.

وقوله: ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ توقيف، والمعنى: لآيات نافعة هادية إن آمنتم وأبصرتم، وإلا فليست بنافعة ولا هادية، فأما كونها آيات

فعلى كل حال آمنوا أو كفروا، هذا كله على أن المخاطبة لمن لم يؤمن - بعد - وهو ظاهر حاله مع بني إسرائيل، وإن كان خطابه لمؤمنين، أو لما كانوا مؤمنين بموسى، فمعنى الآية: التثبيت وهز النفس، كما تقول لإنسان تقيم نفسه إلى شيء: أما أنت يا فلان يلزمك أن تفعل كذا وكذا إن كنت من الرجال.

﴿٥٠﴾ - ﴿٥١﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال معطوفة على قوله: ﴿إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ﴾. لأن قوله في موضع الحال، وكان عيسى عليه السلام مصدقاً للتوراة متبعا لها عاملاً بما فيها. قال وهب بن منبه: كان يسبب ويستقبل بيت المقدس.

وقال قتادة في تفسير قوله: ﴿وَلَا جُدْلَ لَكُمْ بَعَثَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، كان الذي جاء به عيسى ألين من الذي جاء به موسى، وقال ابن جريج: أحل لهم لحوم الإبل والشحوم، قال الربيع: وأشياء من السمك، وما لا يصيصة له من الطير. وكان في التوراة محرمات تركها شرع عيسى على حالها، فلفظة البعض على هذا متمكنة، وقال أبو عبيدة: البعض في هذه الآية بمعنى الكل، وخطأه الناس في هذه المقالة، وأنشد أبو عبيدة شاهداً على قوله بيت لبيد:

تَرَكَ أَمَكْنَةً إِذَا لَمْ يَرْضَها
أو يخترم بعض النفوس جماعها
وليس في البيت له حجة لأن لبيداً أراد نفسه فهو تبعيض صحيح، وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ إشارة إلى

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَأَتَّبِعْنَا الرَّسُولَ فَاكُنْ بِسَمْعِ
 أَشْهَادِكُمْ ﴿٥٢﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرًا اللَّهُ عَزَّ
 الْمَكْرِبِينَ ﴿٥٣﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَسْعَىٰ فِي مَنَافِكِ وَرَافِعُكَ
 إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ
 فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ
 فَأَحْكُمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا الَّذِينَ
 كَفَرُوا فَأَعْدَبَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ نَسِيَ
 لَهُمْ مِنْ نَصِيرِينَ ﴿٥٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُغِبُّ الْفَاطِنِينَ ﴿٥٦﴾
 ذَلِكَ نَتَلَوُ عَالَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ
 مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ
 لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٨﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُنْكَرِينَ ﴿٥٩﴾
 فَمَنْ كَانَ يَكُن فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ
 أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ
 ثُمَّ نَلْعَلْ فَنُجْعَلَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٠﴾

٥٧

ما حرمه الأحبار بعد موسى
 وشرعه، فكان عيسى رد أحكام
 التوراة إلى حقائقها التي نزلت من
 عند الله تعالى.

وقرأ عكرمة: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بفتح
 الحاء والراء المشددة، وإسناد الفعل
 إلى الله تعالى أو إلى موسى عليه
 السلام. وقرأ الجمهور: ﴿وَجِئْتُكُمْ﴾
 بِبَآئِهِ، وفي مصحف عبدالله بن
 مسعود: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ
 رَبِّكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا﴾ تحذير ودعاء إلى الله
 تعالى. وقرأ جمهور الناس: ﴿إِنَّ اللَّهَ
 رَفِيعٌ ذَرُبُكُمْ﴾ بكسر الالف على
 استئناف الخبر، وقرأه قوم: ﴿أَنَّ اللَّهَ
 رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ بفتح الالف؛ قال
 الطبري: ﴿أَنَّ﴾ بدل من ﴿بَآئِهِ﴾،
 في قوله: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَآئِهِ﴾، وفي
 هذا ضعف، وإنما التقدير:

أطيعوني، لأن الله ربي
 وربكم، أو يكون المعنى:
 لأن الله ربي وربكم
 فاعبدوه.

وقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ
 مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى
 قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَفِيعٌ
 ذَرُبُكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، لأن
 ألفاظه جمعت الإيمان
 والطاعات. والصراف:
 الطريق، والمستقيم: الذي
 لا اعوجاج فيه.

عز وجل:

قبل هذه الآية متروك به
 يتم اتساق الآيات،
 تقديره: فجاء عيسى عليه
 السلام كما بشر الله به فقال جميع ما
 ذكر لبني إسرائيل ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾،
 ومعنى ﴿أَحَسَّ﴾: علم من جهة
 الحواس بما سمع من أقوالهم في
 تكذيبه ورأى من قرائن الأحوال
 وشدة العداء والإعراض؛ يقال:
 أحسست بالشيء وحسيت به،
 أصله: حسست فأبدلت إحدى
 السينين ياء. و﴿الْكُفْرَ﴾ هو

التكذيب به، وروي أنه رأى منهم
 إرادة قتله، فحينئذ طلب النصر،
 والضمير في ﴿يَنْهَكُمْ﴾ لبني إسرائيل.
 وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ آمَنَ بِي﴾
 ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ عبارة عن حال عيسى عليه
 السلام في طلبه من يقوم بالدين
 ويؤمن بالشرع ويحميه، كما كان
 محمد ﷺ يعرض نفسه على القبائل
 ويتعرض للأحياء في المواسم. وهذه
 الأفعال كلها وما فيها من أقوال يعبر

عنها بـ ﴿قَالَ مَنْ آمَنَ بِي﴾ إلى الله.
 ولا شك أن هذه الألفاظ كانت في
 جملة أقواله للناس. والأنصار: جمع
 نصير، كشهد وأشهد وغير ذلك،
 وقيل: جمع ناصر، كصاحب
 وأصحاب. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾
 يحتمل معنيين، أحدهما: من
 ينصرني في السبيل إلى الله؟ فتكون
 «إلى» دالة على الغاية دلالة ظاهرة
 على بابها. والمعنى الثاني: أن يكون
 التقدير: من يضيف نصرته إلى
 نصره الله لي؟ فيكون بمنزلة قوله:
 ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِيَّاءُ أَنْفُسِكُمْ﴾ فإذا
 تأملتها وجدت فيها معنى الغاية لأنها
 تضمنت إضافة شيء إلى شيء. وقد
 عبر عنها ابن جريج والسدي بأنها
 بمعنى «مع»؛ و«نعم» إن «مع» تسد
 في هذه المعاني مسد «إلى» لكن
 ليس يباح من هذا أن يقال إن «إلى»
 بمعنى «مع» حتى غلط في ذلك
 بعض الفقهاء في تأويل قوله تعالى:
 ﴿وَأَيُّكُمْ إِلَى الرَّافِقِ﴾ فقال: «إلى»
 بمعنى «مع» وهذه عجمة، بل «إلى»
 في هذه الآية غاية مجردة، وينظر؛
 هل يدخل ما بعد «إلى» فيما قبلها
 من طريق آخر؟

و﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ قوم مر بهم عيسى
 عليه السلام فدعاهم إلى نصره واتباع
 ملته، فأجابوه وقاموا بذلك خير
 قيام، وصبروا في ذات الله. وروي
 أنه مر بهم وهم يصطادون السمك.
 واختلف الناس؛ لم قيل لهم
 الحواريون؟ فقال سعيد بن جبير:
 سموا بذلك لبياض ثيابهم ونقاها؛
 وقال أبو أروطة: سموا بذلك لأنهم
 كانوا قصارين يحورون الثياب، أي

يُبَيِّنُونَهَا، وقال قتادة: الحواريون: أصفياء الأنبياء، الذين تصلح لهم الخلافة، وقال الضحاك ونحوه، وهذا تقرير حال القوم وليس بتفسير اللفظة؛ وعلى هذا الحد شبه النبي ﷺ ابن عمته بهم في قوله: «وحواري الزبير» والأقوال الأولى هي تفسير اللفظ، إذ هي من الحور، وهو البياض، حورت الشوب: ببيضته، ومنه الحواري. وقد تسمي العرب النساء الساكنات في الأمصار: الحواريات، لغلبة البياض عليهن، ومنه قول أبي جلدة البشكري:

فقل للحواريات يبكين غيرنا
ولا تبكيننا إلا الكلاب النوايح
وذكر مكي أن مريم دفعت عيسى عليه السلام في صغره في أعمال شتى، وكان آخر ما دفعته إلى الحواريين وهم الذين يقصرون الثياب ثم يصبغونها فأراهم آيات وصيغ لهم ألواناً شتى من ماء واحد. وقرأ جمهور الناس: «الْحَوَارِيُّونَ» بتشديد الياء، وأحدهم «حواري» وليست بياء نسب وإنما هي كياء كرسى، وقرأ إبراهيم الشَّحَعي وأبو بكر الشَّقَفي: «الْحَوَارِيُّونَ» مخففة الياء في جميع القرآن. قال أبو الفتح: العرب تعاف ضمة الياء الخفيفة المكسور ما قبلها وتمتنع منها، ومتى جاءت في نحو قولهم: العاديون والقاضيون والساعيون أعلت بأن تستقل الضمة فتسكن الياء وتنقل حركتها ثم تحذف لسكونها وسكون الواو بعدها فيجاء العادون ونحوه، فكان يجب على هذا أن يقال: الحوارون، لكن وجه القراءة

على ضعفها أن الياء خففت استقلالاً لتضعفها وحملت الضمة دلالة على أن التشديد مراد، إذ التشديد محتمل للضمة، وهذا كما ذهب أبو الحسن في تخفيف يستهزئون إلى أن أخلص الهمة ياء البتة وحملها الضمة تذكراً لحال الهمة المرادة فيها.

وقول الحواريين: «وَأَكْهَدُ» يحتمل أن يكون خطاباً لعيسى عليه السلام، أي: اشهد لنا عند الله، ويحتمل أن يكون خطاباً لله تعالى كما تقول: أنا أشهد الله على كذا، إذا عزم وبالغت في الالتزام، ومنه قول النبي عليه السلام في حجة الوداع: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». قال الطبري: وفي هذه الآية توبيخ لنصارى نجران، أي: هذه مقالة الأسلاف المؤمنين بعيسى، لا ما تقولونه أنتم يا من يدعي له الألوهية.

وقوله: «رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَرْسَلْتَ» يريدون في الإنجيل وآيات عيسى. و«الرَّسُولَ» عيسى عليه السلام.

وقولهم: «نَاكُتُبُنَا مَعَ النَّبِيِّينَ» عبارة عن الرغبة في أن يكونوا عنده في عداد من شهد بالحق من مؤمني الأمم، ولما كان البشر يقيد ما يحتاج إلى علمه وتحققه في ثاني حال بالكتاب، عبروا عن فعل الله بهم ذلك. وقال ابن عباس: قولهم: «مَعَ النَّبِيِّينَ» معناه: اجعلنا من أمة محمد ﷺ في أن نكون ممن يشهد على الناس.

ثم أخبر تعالى عن بني إسرائيل الكافرين بعيسى فقال: «وَمَكْرُوا» يريد تحيلهم في أخذ عيسى للقتل بزعمهم، ويروى أنهم تحيلوا له،

وأذكروا عليه العيون حتى دخل هو والحواريون بيتاً فأخذوهم فيه، فهذا مكر بني إسرائيل، فجازاهم الله تعالى بأن طرح شبه عيسى على أحد الحواريين ورفع عيسى، وأعقب بني إسرائيل مذلةً وهواناً في الدنيا والآخرة. فهذه العقوبة هي التي سماها الله مكرًا في قوله: «وَمَكَّرَ اللَّهُ»، وذلك مهيعٌ أن تُسَمَّى العقوبة باسم الذنب وإن لم تكن في معناه؛ وعلى هذا فسر جمهور المفسرين الآية، وعلى أن عيسى قال للحواريين: من يصبر فيلقى عليه شبهي فيقتل وله الجنة؟ فقال أحدهم: أنا، فكان ذلك. وروى قوم أن بني إسرائيل دسَّ يهودياً جاسوساً على عيسى حتى صحبه ودلَّهم عليه ودخل معه البيت، فلما أحيط بهم ألقى الله شبه عيسى على ذلك الرجل اليهودي فأخذ وصلب. فهذا معنى قوله: «وَمَكَّرُوا» ومعناه أيضاً تسمية عقوبة باسم الذنب. والمكر في اللغة: السعي على الإنسان دون أن يظهر له ذلك، بل أن يُبْطِنَ الماكِرُ ضدَّ ما يبدى.

وقوله: «وَاللَّهُ خَبَرُ الْمَكْرِينَ» معناه: في أنه فاعل حق في ذلك، والماكر من البشر فاعل باطل في الأغلب، لأنه في الأباطيل يحتاج إلى التحيل، والله سبحانه أشد بطشاً وأنفذ إرادة، فهو خير من جهات لا تحصي، لا إله إلا هو. وذكر خصر عيسى عليه السلام، وعدة أصحابه به وأمر الشبه وغير ذلك من أمره سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

﴿٥٥﴾ - ﴿٥٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال الطبري: العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾. قال غيره من النحاة: العامل فعلٌ مضمَر تقديره: اذكر؛ وهذا هو الأصوب. وهذا القول هو بواسطة الملك لأن عيسى ليس بمكلم. و﴿عِيسَى﴾ اسم أعجمي معربٌ فلذلك لا ينصرف، وهو بالسريانية - يسوع - عدلته العرب إلى عيسى.

واختلف المفسرون في هذا التوفي؛ فقال الربيع: هي وفاة نوم، رفعه الله في منامه، وقال الحسن وابن جريج ومطر الوارق ومحمد بن جعفر بن الزبير وجماعة من العلماء: المعنى: إني قابضك من الأرض ومحصلك في السماء فهو توفي قبض وتحصيل، وقال ابن عباس: هي وفاة موت، معناه: إني مميتك، هذا لفظ ابن عباس ولم يفسر. فقال وهب بن منبه: توفاه الله بالموت ثلاث ساعات ورفعه فيها ثم أحياه الله بعد ذلك عنده في السماء، وفي بعض الكتب: سبع ساعات. وقال الفراء: هي وفاة موت ولكن المعنى: إني متوفيك في آخر أمرك عند نزولك وقتلك الدجال، ففي الكلام تقديم وتأخير، وقال مالك في جامع العتبية: مات عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. ووقع في كتاب مكِّي عن قوم: إن معنى (مُتَوَفِّيكَ) متقبل عملك، وهذا ضعيف من جهة اللفظ.

وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسى عليه السلام في السماء حي، وأنه ينزل

في آخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال ويفيض العدل ويظهر هذه الملة، ملة محمد، ويحج البيت ويعتمر، ويبقى في الأرض أربعاً وعشرين سنة، وقيل أربعين سنة، ثم يمته الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقول ابن عباس رضي الله عنه: هي وفاة موت لا بد أن يتم، إما على قول وهب بن منبه، وإما على قول الفراء، وقوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتُكَ إِكَّ﴾ عبارة عن نقله إلى علو من سفلى، وقوله: ﴿إِكَّ﴾ إضافة تشريف لما كانت سماه والجهة المكرمة المعظمة المرجوة، وإلا فمعلوم أن الله تعالى غير متحيز في جهة، وقوله تعالى: ﴿وَمَطَّحَرَكْ﴾ حقيقة التطهير إنما هي من دنس ونحوه، واستعمل ذلك في السب والدعاوى والآثام وخلطة الأشرار ومعاشرتهم، تشبيهاً لذلك كله بالأدناس، فظهر الله العظيم عيسى من دعاوى الكفرة ومعاشرتهم القبيحة له.

وقوله تعالى: ﴿وَيَا عِيسَى﴾ اسم فاعل للاستقبال، وحذف تنوينه تخفيفاً، وهو متعد إلى مفعولين، لأنه بمعنى مُصَيِّر، فأحدهما ﴿الَّذِينَ﴾، والآخر في قوله: ﴿قُوَّةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقال ابن زيد: الذين اتبعوه هم النصارى، والذين كفروا هم اليهود، والآية مخبرة عن إذلال اليهود وعقوبتهم بأن النصارى فوقهم في جميع أقطار الأرض إلى يوم القيامة. فخصص ابن زيد المتبعين والكافرين وجعله حكماً دنيوياً لا فضيلة فيه للمتبعين الكفار منهم بل

كونهم فوق اليهود عقوبة لليهود فقط، وقال جمهور المفسرين بعموم اللفظ في المتبعين، فيدخل في ذلك أمة محمد ﷺ لأنها متبعة لعيسى، نص على ذلك قتادة وغيره، وكذلك قالوا بعموم اللفظ في الكافرين. فمقتضى الآية إعلام عيسى عليه السلام أن أهل الإيمان به كما يجب هم فوق الذين كفروا بالحجة والبرهان وبالعزة والغلبة، ويظهر من عبارة ابن جريج وغيره أن المراد المتبعون له في وقت استنصاره وهم الحواريون، جعلهم الله فوق الكافرين لأنه شرفهم وأبقى لهم في الصالحين ذكراً، فهم فوقهم بالحجة والبرهان، وما ظهر عليهم من أمارات رضوان الله.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَكُمْ رَجُوعُكُمْ﴾ الخطاب لعيسى، والمراد الإخبار بالقيامة والحشر، فلذلك جاء اللفظ عاماً من حيث الأمر في نفسه لا يخص عيسى وحده فكأنه قال له: ثم إليّ - أي إلى حكمي وعدلي - يرجع الناس، فخطابه كما تخاطب الجماعة إذ هو أحدها، وإذ هي مرادة في المعنى، وفي قوله تعالى: ﴿فَأَحْكُمْ﴾. . إلى آخر الآية، وعد عيسى والمؤمنين ووعد للكافرين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. . الآية، إخبار بما يجعل عليه حالهم من أول أمرهم، وليس بإخبار عما يفعل بعد يوم القيامة، لأنه قد ذكر الدنيا وهي قبل. وإنما المعنى: فأما الكافرون فالصنع بهم أنهم يعذبون عذاباً شديداً في الدنيا بالأسر والقتل والجزية والذل، ومن لم ينله منهم

فهو تحت خوفه إذ يعلم أن شرع الإسلام طالب له بذلك، وقد أبرز الوجود هذا. وفي الآخرة معناه: بعذاب النار، ثم ذكر قسم الإيمان وقرن به الأعمال الصالحات تنبيهاً على درجة الكمال ودعاء إليها.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿فَيُؤَيِّدُكُمْ﴾ بالياء على الغيبة، والفعل مسند إلى الله تعالى، وقرأ الباقر وأبو بكر عن عاصم: ﴿فَتُؤَيِّدُهُمْ﴾ بالنون، وهي نون العظمة. وتوفية الأجور هي قسم المنازل في الجنة فذلك هو بحسب الأعمال، وأما نفس دخول الجنة فبرحمة الله وبفضله. وتقدم نظير قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَجِبُ الظَّالِمِينَ﴾ في قوله قبل: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿ذَلِكَ﴾ رفع بالابتداء والإشارة به إلى ما تقدم من الأنباء. و﴿تَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ﴾ خبر ابتداء، وقوله: ﴿يَنْ أَلَّايَتِ﴾ لبيان الجنس، ويجوز أن تكون للتبعية، ويصح أن يكون: ﴿تَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ﴾ حالاً، ويكون الخبر في قوله: ﴿يَنْ أَلَّايَتِ﴾، وعلى قول الكوفيين يكون قوله: ﴿تَتْلُوهُ﴾ صلة لذلك، على حد قولهم في بيت ابن مفرغ الحميري:

..... وهذا تحمليين طليق

ويكون الخبر في قوله: ﴿يَنْ أَلَّايَتِ﴾. وقول البصريين في البيت: إن «تحمليين» حال، التقدير: وهذا محمولاً. و﴿تَتْلُوهُ﴾ معناه: نسرده، و﴿يَنْ أَلَّايَتِ﴾ ظاهره آيات

القرآن، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿يَنْ أَلَّايَتِ﴾ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ والمستغريات أن تأتيهم بهذه الغيوب من قبلنا، ويسبب تلاوتنا وأنت أمي لا تقرأ. ولست ممن صحب أهل الكتاب. فالمعنى: إنها آيات لنبوتك. وهذا الاحتمال إنما يتمكن مع كون ﴿تَتْلُوهُ﴾ حالاً.

و﴿الَّذِكْرُ﴾ ما ينزل من عند الله و﴿الْحَكِيمُ﴾ يجوز أن يتأول بمعنى المُحْكَم، وهو فعيل بمعنى مفعول، ويحتمل أن يتأول بمعنى مصرح بالحكمة، فيكون بناء اسم فاعل. قال ابن عباس: ﴿الَّذِكْرُ﴾: القرآن، و﴿الْحَكِيمُ﴾: الذي قد كمل في حكمته.

وذكر ابن عباس وقتادة وعكرمة والسدي وغيرهم، قالوا: سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾... الآية أن وفد نصارى نجران جادلوا النبي ﷺ في أمر عيسى وقالوا: بلغنا أنك تشتم صاحبنا وتقول: هو عبد، فقال النبي ﷺ: «وما يضر ذلك عيسى، أجل هو عبد الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» فقالوا: فهل رأيت بشراً قط جاء من غير فعل أو سمعت به؟ وخرجوا من عند النبي فأنزل الله عليه هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾ بعض الناس بأن صفة عيسى، وقرنوا ذلك بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ قالوا: معناه: صفة الجنة؛ وهذا عندي ضعف في فهم معنى الكلام، وإنما المعنى: إن المثل الذي تتصوره النفوس والعقول من عيسى

هو كالمصور من آدم، إذ الناس كلهم مجمعون على أن الله تعالى خلقه من تراب من غير فعل، وكذلك مثل الجنة عبارة عن المصور منها، وفي هذه الآية صحة القياس، أي: إذا تصوّر أمر آدم قيس عليه جواز أمر عيسى عليه السلام. والكاف في قوله: ﴿كَثَلُ﴾ اسم على ما ذكرناه من المعنى، وقوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ عبارة عن الحق في نفسه، أي: هكذا هو الأمر فيما غاب عنكم. وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ﴾ تفسير لمثل آدم الذي ينبغي أن يتصور، والمثل والمثال بمعنى واحد، ولا يجوز أن يكون ﴿عَلَيْكُمْ﴾ صلة لآدم ولا حالاً منه، قال الزجاج: إذ الماضي لا يكون حالاً أنت فيها بل هو كلام مقطوع منه، مضمته تفسير المثل.

وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَالَ﴾ ترتيب للأخبار لمحمد ﷺ، المعنى: خلقه من تراب ثم كان من أمره في الأزل أن قال له: كن وقت كذا، وعلى مذهب أبي علي الفارسي في أن القول مجازي مثل «وقال قطني» وأن هذه الآية عبارة عن التكوين، ف﴿ثم﴾ على بابها في ترتيب الأمرين المذكورين، وقراءة الجمهور: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالرفع على معنى: فهو يكون، وقرأ ابن عامر: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالنصب، وهي قراءة ضعيفة الوجه، وقد تقدم توجيهها آنفاً في مخاطبة مريم.

وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ رفع على الابتداء وخبره فيما يتعلق به قوله: ﴿يَنْ رَبِّكَ﴾، أو الحق

ذلك، أو ما قلنا لك، ويجوز أن يكون خبر ابتداء، تقديره هذا الحق. ﴿الْمُتَزَيَّنَّ﴾ هم الشاكون، والمجرية: الشك. ونُهي النبي ﷺ في عبارة اقتضت ذم الممترين، وهذا يدل على أن المراد بالامتراء غيره، ولو قيل: فلا تكن ممترياً لكانت هذه الدلالة أقل، ولو قيل: فلا تمتد لكانت أقل، ونُهي عليه السلام عن الامتراء مع بعده عنه على جهة التشبث والدوام على حاله.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ معناه: جادلَكَ ونازعَكَ الحجة، والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾ يحتمل أن يعود على عيسى، ويحتمل أن يعود على الحق. ﴿وَالْعَلِيَّ﴾ الذي أشير إليه بالمجيء هو ما تضمنته هذه الآيات المتقدمة من أمر عيسى.

وقوله تعالى: ﴿تَقُولُ مَا تَوَلَّوْا...﴾ الآية، استدعاء المباهلة، وتَمَلَّوْا تفاعلوا من العلو، وهي كلمة قصد بها أولاً تحسين الأدب مع المدعو ثم اطردت حتى يقولها الإنسان لعدوه وللبيهمة ونحو ذلك. ﴿وَنَبَّهْلُ﴾ معناه: نلتعن، ويقال: عليهم بهلة الله بمعنى اللعنة، والابتهال: الجد في الدعاء بالبهلة.

وروي في قصص هذه الآية: أنها نزلت بسبب محاكمة نصارى نجران في عيسى عليه السلام وقولهم: هو الله، وكانوا يكثرون الجدل، وقد روى عبدالله بن الحارث بن جزء السوائي عن النبي عليه السلام أنه قال: «ليت بيني وبين أهل نجران حجاباً فلا أراهم ولا يروني» لشدة ما

كانوا يمارون؛ فلما قرأ النبي ﷺ الآية دعاهم إلى ذلك. فروى الشعبي وغيره أنهم وعدوه بالغد أن يلاعنوه، فانطلقوا إلى السيد والعاقب فتابعاهم على أن يلاعنوا، فانطلقوا إلى رجل آخر منهم عاقل فذكروا له ما صنعوا فذمهم وقال لهم: إن كان نبياً ثم دعا عليكم هلكتم، وإن كان ملكاً فظهر عليكم لم يُبق عليكم، قالوا: فكيف نصنع وقد واعدنا؟ قال: إذا غدوتم فدعاكم إلى ذلك فاستعينوا بالله من ذلك، فعسى أن يعفيكم؛ فلما كان الغد غدا رسول الله ﷺ محتضناً حسيناً أخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، فدعاهم إلى الميعاد، فقالوا: نعوذ بالله، فأعاد فأعادوا التعموذ، فقال النبي ﷺ: «فإن أبيتم فأسلموا، فإن أبيتم فأعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، فإن أبيتم فإني أبذل إليكم على سواء» قالوا: لا طاقة لنا بحرب العرب، ولكننا نؤدي الجزية. قال: فجعل عليهم كل سنة ألفي حلة: ألفاً في رجب وألفاً في صفر، وطلبوا منه رجلاً أميناً يحكم بينهم فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، وقال عليه السلام: «لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران لو تموا على الملاءمة». وروى محمد بن جعفر بن الزبير وغيره أن رسول الله ﷺ لما دعاهم قالوا: دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نفعل، فذهبوا إلى العاقب وهو ذو رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: يا معشر النصارى، والله لقد عرفتم أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر

صاحبكم عيسى، ولقد علمتم ما لَأَعَنَّ قَوْمٌ قط نبياً بقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه الاستئصال إن فعلتم، فإن أبيتم إلا إلف دينكم وما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم حتى يريكم الزمان رأيه. فأتوا النبي عليه السلام فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك وأن نبقي على ديننا، وصالحوه على أموال وقالوا له: ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم في أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا رضى. وروى السدي وغيره أن النبي عليه السلام جاء هو وعلي وفاطمة والحسن والحسين ودعاهم فأبوا وجزعوا، وقال لهم أبحارهم: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً، فصالحوا النبي ﷺ على ثمانين ألف درهم في العام، فما عجزت عنه الدراهم ففي العروض: الحلة بأربعين، وعلى أن عليهم ثلاثاً وثلاثين درعاً وثلاثة وثلاثين بعبيراً وأربعاً وثلاثين فرساً عارية كل سنة، ورسول الله ﷺ ضامن لذلك حتى يؤديها إليهم. وقال رسول الله ﷺ: «لو لواعنوا لاستؤصلوا من جديد الأرض»، وقال أيضاً: «لو فعلوا لاضطرم عليهم الوادي ناراً». وروى علباء بن أحمر الشكري قال: لما نزلت هذه الآية أرسل محمد ﷺ إلى علي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين ودعا اليهود ليُلاعنهم، فقال شاب من اليهود: ويحكم، أليس عهدكم بالأمس بإخوانكم الذين مسخوا قردة وخنازير؟ فلا

تلاعبوا فانتهوا. وفي هذه القصة اختلافات للرواة وعبارات تجري كلها في معنى ما ذكرناه لكننا قصدنا الإيجاز.

وفي ترك النصارى الملاعة لعلمهم
ببنوة محمد شاهد عظيم على صحة
نبوته ﷺ، وما روي من ذلك خير
مما روى الشعبي من تقسيم ذلك
الرجل العاقل فيهم أمر محمد بأنه إما
نبي وإما ملك، لأن هذا نظر
دنياوي، وما روى الرواة من أنهم
تركوا الملاعة لعلمهم ببنوته أحج لنا
على سائر الكفرة وأليق بحال
محمد ﷺ. ودعاء النساء والأبناء
للملاعة أهز للنفوس، وأدعى
لرحمة الله، أو لغضبه على
المبطلين. وظاهر الأمر أن النبي ﷺ
جاءهم بما يخصه، ولو عزموا
استدعى المؤمنين بأبنائهم ونسائهم،
ويحتمل أنه كان يكتفي بنفسه
وخاصته فقط.

٦٧ - ٦٨ تفسير قوله عز وجل :
 هذا خبر من الله تعالى جَزَمَ مُؤَكَّدٌ
 فَصَّلَ بِهِ بَيْنَ الْمُخْتَصِمِينَ ، وَالْإِشَارَةُ
 بِـ«هَذَا» هِيَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ فِي أَمْرِ
 عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
 وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ .

و«الْفَقَصُ» معناه: الإخبار، تقول: قص يقصّ قصاً وقصصاً، إذا تتبع الأمر يخبر به شيئاً بعد شيء، قال قوم: هو مأخوذ من: قصّ الأثر. وقوله: ﴿مَوْءٍ﴾ يحتمل أن يكون فصلاً ويحتمل أن يكون ابتداء، و﴿من﴾ في قوله: ﴿وَمِنَ الْإِبْرَةِ﴾ مؤكدة بعد النفي، وهي التي يتم الكلام دونها لكنها تعطى معنى

التأكيد، وقوله تعالى:
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾
وعيد.

واختلف المفسرون؛ من
المراد بقوله: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ تَمَآرَٔوا؟﴾ فقال
قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا يَهُودَ
ٱلْمَدِينَةِ إِلَى ٱلْكَلِمَةِ
ٱلسَّوِيَّةِ وَهُمْ ٱلَّذِينَ
حَاجَّوْا فِي إِبْرَٰهِيمَ، وَقَالَ
ٱلرَّبِيعُ وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَقَالَ
مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ بْنُ
ٱلزَّبِيرِ: نَزَلَتِ ٱلْآيَةُ فِي وَفْدِ
نَجْرَانَ، وَقَالَ ٱلسَّيِّدُ.

وقال ابن زيد: لما أبى أهل نجران ما دُعوا إليه من الملائنة، دعوا إلى ذلك، وهى الكلمة السواء.

والذي يظهر لي أن الآية نزلت في وفد نجران، لكن لفظ أهل الكتاب يعمهم وسواهم من النصارى واليهود، فدعا النبي ﷺ بعد ذلك يهود المدينة بالآية، وكذلك كتب بها إلى هرقل عظيم الروم، وكذلك ينبغي أن يُدعى بها أهل الكتاب إلى يوم القيامة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إِلَّا كَلِمَةً﴾ بفتح الكاف وكسر اللام، وروى أبو السمال: ﴿كَلِمَةً﴾ - بفتح الكاف وسكون اللام .. وروى عنه أنه قرأ: ﴿كَلِمَةً﴾ - بكسر الكاف وسكون اللام - وذلك على إلقاء حركة اللام على الكاف، كما قالوا في كَيْد: كَيْد بكسر الكاف وسكون

وَإِنْ خُذَ إِلَهُهُ الْأَقْصَصُ لَشَقَّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنْ اللَّهُ لَهْوُ
 الْعَرِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾
 قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَسَّوْا إِلَىٰ كَلِمَةِ سَلَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
 أَلَّا نَسْجُدَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
 بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
 مُسْلِمُونَ ﴿١٥﴾ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي
 إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَلَا الْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ مَا قَالَا
 تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ هَٰذَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ حُجِّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ
 عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ
 لَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ﴿١٧﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
 حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ أَوَّلَى النَّاسِ
 بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَذَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يُوْشِعُونَ
 وَمَا يَضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠﴾ يَٰ أَهْلَ
 الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ ﴿٢١﴾

الباء. والكلمة هنا عبارة عن الألفاظ التي تتضمن المعاني المدعو إليها، وهي ما فسرهُ بعد ذلك بقوله: ﴿أَلَا تَنبَذُ﴾... الآية، وهذا كما تسمي العرب القصيدة كلمة، وجمهور المفسرين على أن الكلمة هي ما فسر بعد، وقال أبو العالية: الكلمة السواء: لا إله إلا الله، والقولان مجتمعان، لأن كل ما فسر ينطبق عليه معنى: لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿مَوَاقٍ﴾ نعت للكلمة. قال قتادة والربيع وغيرهما: معناه: إلى كلمة عدل، فهذا معنى السواء، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿إلى كلمة عدل بيننا وبينكم﴾ كما فسر قتادة والربيع، وقال بعض المفسرين: معناه: إلى كلمة قصد. وهذا قريب في المعنى من الأول، والسواء والعدل والقصد

مصادر وُصِفَ بها في هذه التقديرات كلها.

والذي أقوله في لفظة ﴿سَوَاءٌ﴾ أنها ينبغي أن تفسر بتفسير خاص بها في هذا الموضع، وهو أنه دعاهم إلى معانٍ جميع الناس فيها مسترون، صغيرهم وكبيرهم. وقد كانت سيرة المدعويين أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً فلم يكونوا على استواء حال، فدعاهم بهذه الآية إلى ما تألفه النفوس من حق لا يتفاضل الناس فيه، فسواء - على هذا التأويل - بمنزلة قولك لآخر: هذا شريك في مال سواء بيني وبينه؛ والفرق بين هذا التفسير وبين تفسير اللفظة بعدل، أنك لو دعوت أسيراً عندك إلى أن يسلم أو تضرب عنقه، لكنت قد دعوته إلى السواء الذي هو العدل، وعلى هذا الحد جاءت لفظة ﴿سَوَاءٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَيُّذُ الْيَتِيمِ عَلَى سَوَاءٍ﴾ على بعض التأويلات، ولو دعوت أسيرك إلى أن يؤمن فيكون حراً مقاسماً لك في عيشك، لكنت قد دعوته إلى السواء الذي هو استواء الحال على ما فسرت. واللفظة على كل تأويل فيها معنى العدل، ولكني لم أرَ لمقدم أن يكون في اللفظة معنى قصد استواء الحال، وهو عندي حسن، لأن النفوس تألفه، والله الموفق للصواب برحمته.

وقوله: ﴿أَلَا تَعْبُدُ﴾ يحتمل أن يكون في موضع خفض بمعنى: إلى ألا تعبد، فذلك على البدل من ﴿كَذَّبْتَ﴾، ويحتمل أن يكون في موضع رفع بمعنى: هي ألا تعبد،

وما ذكره المهدوي وغيره من أن تكون مفسرة إلى غير ذلك من الجائزات التي يلزم عنها رفع ﴿نَعْبُدُ﴾ إكثار منهم فاختصرته. واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً هو على مراتب، أعلاها اعتقادهم فيهم الألوهية، وعبادتهم لهم على ذلك، كعزير وعيسى ابن مريم، وبهذا فسر عكرمة، وأدنى ذلك طاعتهم لأساقفتهم ورؤسائهم في كل ما أمروا به من الكفر والمعاصي والتزامهم طاعتهم شرعاً، وبهذا فسر ابن جريج. فجاءت الآية بالدعاء إلى ترك ذلك كله، وأن يكون الممثل ما قاله الله تعالى على لسان نبيه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿قُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أمر بالإعلان بمخالفتهم ومواجهتهم بذلك، وإشهادهم على معنى التوبيخ والتهديد، أي: سترون أنتم أيها المتولون عاقبة توليكم كيف تكون.

① - ①٦ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية؛ فقال ابن عباس: اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند النبي عليه السلام فتنازعو عنده فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله الآية. وقال السدي وقتادة، وحكى الطبري عن مجاهد وقتادة أيضاً أنهما قالاً: نزلت الآية بسبب دعوى اليهود أنه منهم وأنه مات يهودياً، وجعل هذا القول تحت ترجمة مفردة له.

والصحيح أن جميع المتأولين إنما نحوا منحى واحداً، وأن الآية في اليهود والنصارى؛ وألفاظ الآية تعطي ذلك، فكيف يدافع أحد أحد الفريقين عن ذلك؟ وهذه الآية مبينة فساد هذه الدعاوى التي لا تشبه لقيام الدليل القاطع على فسادها، لأنهم ادعوا لإبراهيم الخليل نحللاً لم تحدث في الأرض، ولا وجدت إلا بعد موته بمدة طويلة، ولما كان الدليل عقلياً قال الله تعالى لهم موبخاً: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟﴾

واختلف القراء في قوله: ﴿هَآأَنْتُمْ﴾ في المد والهمز وتركه، فقرأ ابن كثير: ﴿هَآأَنْتُمْ﴾ في وزن هعنتم، وقرأ نافع وأبو عمرو: ﴿هَآنْتُمْ؟﴾ استفهاماً بلا همز، وقرأ الباقون: ﴿هَآ أَنْتُمْ﴾ ممدوداً مهموزاً، ولم يختلفوا في مدّ ﴿هَآأَنْتُمْ؟﴾ و﴿أَوْلَآءَ؟﴾. فوجه قراءة ابن كثير أنه أبدل من همزة الاستفهام الهاء، أراد: أنتم، ووجه قراءة نافع وأبي عمرو أحد أمرين، يجوز أن تكون - ها - التي للتنبيه دخلت على - أنتم - ويكون التنبيه داخلاً على الجملة، كما دخل على قولهم: هلم، وكما دخلت «يا» التي للتنبيه في قوله: ﴿أَلَا يَا سَجْدُوا﴾، وفي قول الشاعر:

يا قاتل الله صبياناً تجيء بهم
أم الهندي من زندي لها واري
وقول الآخر:

يا لعنة الله والأقوام كلهم
والصالحين على سماعاً من جارٍ
وخففت الهمزة من ﴿أَنْتُمْ﴾ ولم

تحقق بعد الألف، كما قالوا في هبابة: هبة، ويجوز أن تكون الهاء في ﴿هَآئِمْ﴾ بدلاً من همزة الاستفهام، كوجه قراءة ابن كثير، وتكون الألف هي التي تدخل بين الهمزتين، لتفصل بينهما. ووجه قراءة الباقيين ﴿هَآئِمْ﴾ مهموزاً ممدوداً يحتمل الوجهين اللذين في قراءة نافع وأبي عمرو، وحققوا الهمزة التي بعد الألف، ولم يخففوها كما خففها أبو عمرو ونافع، ومن لم يَزِ إلحاق الألف للفصل بين الهمزتين كما يراه أبو عمرو، فينبغي أن تكون ﴿هَآ﴾ في قوله للتنبيه ولا تكون بدلاً من همزة الاستفهام، وأما ﴿هَؤُلَاءِ﴾ ففيه لغتان، المد والقصر، وقد جمعهما بيت الأعشى في بعض الروايات:

هؤلاء ثم هؤلاء قد أغطي
ثُ نعالاً محدوةً بنعال
وأما إعراب: ﴿هَآئِمْ هَؤُلَاءِ﴾ فابتداء وخبر، و﴿حَآجَتُمْ﴾ في موضع حال لا يستغنى عنها، وهي بمنزلة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ﴾. ويحتمل أن يكون ﴿هَؤُلَاءِ﴾ بدلاً أو صفة ويكون الخبر ﴿حَآجَتُمْ﴾، وعلى مذهب الكوفيين ﴿حَآجَتُمْ﴾ صلة لهؤلاء، والخبر في قوله: ﴿فَلَمْ تَعَاوَنُوا﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي على زعمكم، وإنما المعنى فيما تُشَبَّه فيه دعوكم، ويكون الدليل العقلي لا يرد عليكم، وفسر الطبري هذا الموضع بأنه فيما لهم به علم من جهة كتبهم وأنبأهم

مما أيقنوه وثبت عندهم صحته؛ وذهب عنه رحمه الله أن ما كان هكذا فلا يحتاج معهم فيه إلى حاجة، لأنهم يجدونه عند محمد ﷺ، كما كان هنالك على حقيقته، وبقي الآية بين:

﴿٧٧﴾ - ﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن حقيقة أمر إبراهيم، فنفى عنه اليهودية والنصرانية والإشراك الذي هو عبادة الأوثان، ودخل في ذلك الإشراك الذي تتضمنه اليهودية والنصرانية. وجاء ترتيب النفي على غاية الفصاحة: نفى نفس الجبل وقوّز الحالة الحسنة، ثم نفى نفيّاً بيّن به أن تلك الملل فيها هذا الفساد الذي هو الشرك، وهذا كما تقول: ما أخذت لك مالا بل حفظته، وما كنت سارقاً، فنفيّت أقبح ما يكون في الأخذ.

ثم أخبر تعالى إخباراً مؤكداً أن أولى الناس بإبراهيم الخليل عليه السلام هم القوم الذين اتبعوه على ملته الحنيفية؛ وهنا يدخل كل من اتبع الحنيفية في الفترات وهذا النبي محمد ﷺ، لأنه بعث بالحنيفية السمحة، و﴿الَّتِي﴾ في الإعراب نعت، أو عطف بيان، أو بدل، وفي كونه بدلاً نظراً. و﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني بمحمد ﷺ وسائر الأنبياء على ما يجب دون المحرّفين المبدلين. ثم أخبر أن الله تعالى ﴿وَرِئُ الْكَافِرِينَ﴾ وعداً منه لهم بالنصر في الدنيا والنعيم في الآخرة.

والحنيف مأخوذ من الحنف، وهو

الاستقامة، وقيل: هو الميل، ومنه قيل للمائل الرجل: أحنف، فالحنيف من الاستقامة معناه: المستقيم، ومن الميل معناه: المائل عن معوج الأديان إلى طريق الحق. واختلفت عبارة المفسرين عن لفظة الحنيف حتى قال بعضهم: الحنيف: الحاج، وكلّها عبارة عن الحنف بأجزاء منه كالحج وغيره. وأسند الطبري عن عبدالله بن عمر عن أبيه، أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود، فسأله عن دينه، وقال له: إني أريد أن أكون على دينكم، فقال اليهودي: إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيع، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وكان لا يعبد إلا الله. فخرج من عنده فلقي عالماً من النصارى فقالوه بمثل مقالة اليهودي، إلا أن النصراني قال: بنصيبك من لعنة الله، فخرج من عنده وقد اتفقا له على دين إبراهيم فلم يزل رافعاً يديه إلى الله، وقال: اللهم إني أشهدك أنني على دين إبراهيم، وروى عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «لكل نبيء ولادة من النبيين وإن وليي منهم أبي وخليل ربي إبراهيم» ثم قرأ ﴿وَكَأَنَّكَ أَكَلْتَ اللَّائِسَ بِإِبْرَاهِيمَ﴾... الآية.

مكي: وقيل: إن هذه الآيات غني بها قريظة والنضير وبنو قينقاع ونصارى نجران.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ تَلْسَوْتَ الْحَقَّ﴾ معناه: تخلطون، تقول: لبست الأمر - بفتح الباء - بمعنى خلطته، ومنه

قوله تعالى: ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَنَاسِكًا﴾ وتقول: لبست الثوب - بكسر الباء.

قال ابن زيد: الحق الذي لبسوه هو التوراة المنزلة، والباطل الذي لبسوه به هو ما كتبوه بأيديهم ونسبوه إلى التوراة. وقال ابن عباس: الحق إسلامهم بكرة، والباطل كفرهم عشية؛ والآية نزلت في قول عبدالله بن الصيف وعدي بن زيد والحارث بن عوف: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وجه النهار، ونكفر آخره، عسى أن نلبس على المسلمين أمرهم. وقال قتادة وابن جريج: ﴿لَمْ تَلْسَوْتَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ لَمْ تَخْلُطُوا الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ بِالْإِسْلَامِ، وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل غيره الإسلام؟ فكأن المعنى على هذا: لَمْ تَبْقُوا عَلَى هَذِهِ الْأَدْيَانِ وَتَوَجَدُونَهَا فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ لِبْسٌ عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ؟ قال بعض المفسرين: الحق الذي لبسوه قولهم: محمد نبي مرسل، والباطل الذي لبسوه به قول أحبارهم: لكن ليس إلينا، بل ملأ موسى مؤنثة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَتَسْتَكْبِرُونَ﴾ يريد شأن محمد ﷺ، كذلك قال الربيع وابن جريج وقاتة وغيرهم. وفي قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ توقيف على العناد ظاهر؛

باللفظة، وإنما اطرده لأن هذا الضلال في الآية وفي البيتين اقتصر به هلاك، وأما أن تفسر لفظة الضلال بالهلاك فغير قويم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُبْلِغُونَكَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ إعلام بأن سوء فعلهم عائد عليهم، وأنهم يبعدهم عن الإسلام هم الضالون، ثم أعلم أنهم لا يشعرون بذلك، أي لا يتفطنون، مأخوذ من الشعار المأخوذ من الشعر، وقيل: المعنى: لا يشعرون أنهم لا يصلون إلى إضلالكم.

ثم وقفهم تعالى موبخاً لهم على لسان نبيه ﷺ، والمعنى: قل لهم يا محمد: لأي سبب تكفرون بآيات الله التي هي آيات القرآن؟ وأنتم تشهدون أن أمره وصفة محمد الذي هو الآتي به في كتابكم؟ قال هذا المعنى قتادة وابن جريج والسدي. وتحتمل الآية أن يريد بالآيات ما ظهر على يدي محمد عليه السلام من تعجيز العرب والإعلام بالغيوب وتكلم الجمادات وغير ذلك؛ و﴿تَكْفُرُونَ﴾ - على هذا - تكون بمعنى تحضرون وتعابنون. والتأويل الأول أقوى لأنه روي أن أهل الكتاب كانوا قبل ظهور محمد ﷺ يخبرون بصفة النبي الخارج وحاله، فلما ظهر كفروا به حسداً، فإخبارهم المتقدم لظهوره هو الشهادة التي وقفوا عليها. قال

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسَوْنَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَأْمُرُ بِذَلِكَ آتِلٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَتَفْتَنُ الْآخِرَةَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا إِلَّا مَا تَنَجَّعَ بِهِمْ قُلُوبُ الْهَادِينَ هَذَا اللَّهُ أَنْ يُؤَيِّدَ أَحَدًا بِشَيْءٍ مَا أَوْفَيْتُمْ وَأَنْتُمْ تَخْلَعُونَ عَندهمْ قُلُوبُ الْفَضْلِ بِدَلَالَةِ يُؤَيِّدُ مِنْ شَيْءٍ وَاللَّهُ وَسِعَ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٧١﴾ يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِقِطَارٍ يُؤَدِّي إِلَيْكُمُ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِذِي بَارٍ لَا يُؤَدِّي إِلَيْكُمُ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِمْ قَالِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُورِ سَيْسِلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ بَلْ مَنَ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَأَتَىٰ فَاِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكْفُرُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

٦٩ - ٧١ تفسير قوله عز وجل:

أخبر الله تعالى عن طائفة أنها تود وتشتغي أن تفضل المسلمين، أي تشلفهم في دينهم وتجعلهم في ضلال، ثم فسر الطائفة بقوله: ﴿يَنْتَفِلِخُوا فِي الْكِتَابِ﴾ فيحتمل «ين» أن تكون للتبعيض، وتكون الطائفة الرؤساء والأخبار الذين يسكن الناس إلى قولهم، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس وتكون الطائفة جميع أهل الكتاب.

وقال الطبري: ﴿يُؤَيِّدُهُمْ﴾ معناه: يهلكونكم، واستشهد ببيت جرير:

كنت القذى في موج أخضر مزبد
قذفت الأتي به فضل ضللا
وقول النابغة:

فأب مضلوه بعين جلية... البيت
وهذا تفسير غير خاص

قال أبو إسحاق الزجاج: ولو قيل: «وتكتموا الحق» لجاز على قولك: لم تجمعوا ذا وذا؟ على أن «تكتموا» في موضع نصب على الظرف في قول الكوفيين، وبإضمار «أن» في قول أصحابنا. قال أبو علي: الظرف هاهنا يقيح، وكذلك إضمار «أن» لأن «وتكتموا» معطوف على موجب مقرر، وليس بمستفهم عنه، وإنما استفهم عن السبب في اللبس، واللبس موجب فليست الآية بمنزلة قولهم: أأكل السمك وتشرب اللبن؟ وبمنزلة قولك: أتقوم فأقوم؟ والعطف على الموجب المقرر قبيح متى نصب، إلا في ضرورة شعر كما روي:

.....
وألحق بالحجاز فأسترىحا
وقد قال سيويه في قولك: أسرث حتى تدخل المدينة؟ لا يجوز إلا النصب في «تدخل» لأن السير مستفهم عنه غير موجب، وإذا قلت: أيهم سار حتى يدخلها؟ رفعت، لأن السير موجب والاستفهام إنما وقع عن غيره.

(٧٢) - (٧٣) تفسير قوله عز وجل:

أخبر تعالى في هذه الآية أن طائفة من اليهود من أحبارهم ذهبت إلى خديعة المسلمين بهذا المنزع، قال الحسن: قالت ذلك يهود خيبر ليهود المدينة، قال قتادة وأبو مالك والسدي وغيرهم: قال بعض الأحبار: ليظهر الإيمان لمحمد صدر النهار ثم لنكفر به آخر النهار، فيقول المسلمون عند ذلك: ما بال هؤلاء كانوا معنا ثم انصرفوا عنا؟ ما

ذلك إلا لأنهم انكشفت لهم حقيقة في الأمر فيشكون، ولعلمهم يرجعون عن الإيمان بمحمد ﷺ. ولما كانت الأحبار يُظنُّ بهم العلم وجودة النظر والاطلاع على الكتاب القديم، طمعوا أن تنخدع العرب بهذه النزعة ففعلوا ذلك: جاؤوا إلى النبي ﷺ بكرة فقالوا: يا محمد أنت هو الموصوف في كتابنا، ولكن أمهلنا إلى العشي حتى ننظر في أمرنا، ثم رجعوا بالعشي فقالوا: قد نظرنا ولست به.

«وَجَنَّةٌ» على هذا التأويل منصوب بقوله: «ءَامَنُوا» والمعنى: أظهروا الإيمان في وجه النهار، والضمير في قوله: «ءَاخِرُهُ» عائد على النهار.

وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: نزلت الآية لأن اليهود ذهبت إلى المكر بالمؤمنين، فصلوا مع النبي ﷺ صلاة الصبح، ثم رجعوا آخر النهار فصلوا صلاتهم ليرى الناس أنهم بدت لهم منه ضلالة بعد أن كانوا اتبعوه. وهذا القول قريب من القول الأول.

وقال جماعة من المفسرين: نزلت هذه الآية في أمر القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح إلى الشام كما كان يصلي، ثم حوَّلت القبلة فصلى الظهر - وقيل العصر - إلى مكة، فقالت الأحبار لتبائعهم وللعرب: آمنوا بالذي أنزل في أول النهار واكفروا بهذه القبلة الأخيرة.

والعامل في قوله: «وَجَنَّةٌ الْهَارِ» - على هذا التأويل - قوله: «أَنْزَلَ»، والضمير في قوله: «ءَاخِرُهُ» يحتمل

أن يعود على النهار أو يعود على «الَّذِي أَنْزَلَ». و«يَرْجِعُونَ» - فسي هذا التأويل - معناه: عن مكة إلى قبلتنا التي هي الشام، كذلك قال قائل هذا التأويل. و«وَجَنَّةٌ الْهَارِ» أوله الذي يواجه منه، تشبيهاً بوجه الإنسان، وكذلك تقول: صدر النهار وغرة العام والشهر، ومنه قول النبي عليه السلام: «أَقْلَسَتْهُ فِي غُرَّةِ الْإِسْلَامِ؟» ومن هذا قول الربيع بن زياد العبسي:

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ
فَلِيَاثٍ يَسْتَوْتَنَا بِوَجْهِ نَهَارٍ
يجد النساء حوايسراً يندبهن
قد قُتُنَّ قَبْلَ تَبْلُجِ الْأَسْحَارِ
يقول هذا في مالك بن زهير بن جذيمة العبسي وكانوا قد أخذوا بشاره، وكان القتل عندهم لا يُنَاح عليه ولا يندب إلا بعد أخذ ثاره. فالمعنى: مَنْ سَرَّه مصابنا فيه فلينظر إلى ما يدله على أننا قد أدركنا ثاره، فيكمد لذلك ويغتم، ومن استعارة الوجه قولهم: فعلت كذا على وجه الدهر، أي في القديم.

وذكر الله تعالى عن هذه الطائفة من أهل الكتاب أنهم قالوا: «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ بَيْنَكُمْ» ولا خلاف بين أهل التأويل أن هذا القول هو من كلام الطائفة.

واختلف الناس في قوله تعالى: «أَنْ يُؤَفِّكَ أَكْثَرُ نَقْلٍ مَّا أُوتِيتُمْ أَوْ بِمَآزِرُهُ» - فقال مجاهد وغيره من أهل التأويل: الكلام كله من قول الطائفة لأتباعهم، وقوله تعالى: «قُلْ إِنَّ أَوْلَىٰ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ» اعتراض بين الكلامين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والكلام على هذا التأويل يحتمل معاني أحدها: ولا تصدقوا تصديقاً صحيحاً وتؤمنوا إلا لمن جاء بمثل دينكم كراهة أو مخافة أو حذاراً أن يؤتى أحد من النبوة والكرامة مثل ما أوتيتهم، وحذاراً أن يحاجوكم بتصديقهم إياهم عند ربكم إذا لم تستمروا عليه. وهذا القول على هذا المعنى ثمره الحسد والكفر، مع المعرفة بصحة نبوة محمد ﷺ.

ويحتمل أن يكون التقدير، «ألا يؤتى» فحذفت «لا» لدلالة الكلام، ويحتمل الكلام أن يكون معناه: ولا تصدقوا وتؤمنوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم إلا لمن تبع دينكم وجاء بمثله وعاضداً له، فإن ذلك لا يؤتاه غيركم، «أو بهائمهم عند ربكم» بمعنى: إلا أن يحاجوكم، كما تقول: أنا لا أتركك أو تقتضيني حقي. وهذا القول على هذا المعنى ثمره التكذيب بمحمد ﷺ على اعتقاد منهم أن النبوة لا تكون إلا في بني إسرائيل.

ويحتمل الكلام أن يكون معناه: ولا تؤمنوا بمحمد وتقرؤا بنبوته إذ قد علمتم صحتها إلا لليهود الذين هم منكم، «أن يؤتاه أحد مثلاً ما أوتيتهم» صفة لحال محمد، فالمعنى: تستروا بإقراركم أن قد أوتي أحد مثل ما أوتيتهم، أو فإنهم - يعنون العرب - يحاجوكم بالإقرار عند ربكم.

قال أبو علي: و«تؤمنوا» تعدى بالباء المقدره في قوله: «أن يؤتاه» كما تعدى أول الآية في قوله:

﴿وَالَّذِينَ أُزِلُّوا﴾. واللام في قوله: ﴿لَمَنْ تَبِعَ﴾ لا يسهل أن تعلق بـ«تؤمنوا» وأنت قد أوصلته بالباء فتعلق بالفعل جازين، كما لا يستقيم أن تعديه إلى مفعولين إذا كان لا يتعدى إلا إلى واحد. وإنما يحمل أمر هذه اللام على المعنى، والمعنى: لا تقرؤا بأن الله يؤتي أحداً مثل ما أوتيتهم إلا لمن، فهذا كما تقول: أقررت لزيد بألف، فتكون اللام متعلقة بالمعنى ولا تكون زائدة على حد «إن كُثِرَ لِلرَّيَّا تَعْرِيفُ» ولا تتعلق على حد المفعول. قال أبو علي: وقد تعدى «أَمَّنْ» باللام في قوله: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُؤْمِنٍ إِلَّا دَرْيَةٌ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّنْ لَكُمْ﴾ وقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. و«أحد» إنما دخل في هذا الكلام بسبب النفي الواقع في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ كما دخلت «من» في قوله: ﴿فَمَا يُوَدُّ الذُّبُكُ كَثُرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الشُّرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فكما دخلت «من» في صلة «أَنْ يُنَزَّلَ» لأنه مفعول النفي اللاحق لأول الكلام، فكذلك دخل «أحد» في صلة «أَنْ» في قوله: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ﴾ لدخول النفي في أول الكلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لأن أحداً الذي فيه الشياخ لا يجيء في واجب من الكلام، لأنه لا يفيد معنى.

وقرأ ابن كثير وحده بين السبعة: «أَنْ يُؤْتَى» بالمد على جهة الاستفهام الذي هو تقرير. وفسر أبو

علي قراءة ابن كثير على أن الكلام كله من قول الطائفة، إلا الاعتراض الذي هو: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَيْتُ هَذَى اللَّهِ﴾ فإنه لا يختلف أنه من قول الله تعالى لمحمد ﷺ قال: فلا يجوز مع الاستفهام أن يحمل: «أَنْ يُؤْتَى» على ما قبله من الفعل، لأن الاستفهام قاطع، فيجوز أن تكون «أَنْ» في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف تقديره: تصدقون به أو تعترفون أو تذكرونه لغيركم، ونحو هذا مما يدل عليه الكلام، ويكون «بِهَاجَرُ» - على هذا - معطوفاً على «أَنْ يُؤْتَى». قال أبو علي: ويجوز أن يكون موضع «أَنْ» منصوباً، فيكون المعنى: أنشعون أو أنذكرون «أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مَثَلُ مَا أُوتِيْتُمْ» ويكون ذلك بمعنى قوله تعالى عنهم: ﴿أُحَدِّثُكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، فعلى كلا الوجهين معنى الآية توبيخ من الأحبار للاتباع على تصديقهم بأن محمداً نبي مبعوث، ويكون قوله تعالى: ﴿أَوْ بِهَاجَرُ﴾ في تأويل نصب «أَنْ» أي: أو تريدون أن يحاجوكم؟ قال أبو علي: و«أحد» على قراءة ابن كثير هو الذي يدل على الكثرة، وقد منع الاستفهام القاطع من أن يشفع لدخوله النفي الذي في أول الكلام، فلم يبق إلا أن يقدَّر أنه «أحد» الذي في قولك: «أحد وعشرون»، وهو يقع في الإيجاب لأنه بمعنى واحد، وجمع ضميره في قوله: ﴿أَوْ بِهَاجَرُ﴾ جمعاً على المعنى، إذ لـ«أحد» المراد بمثل النبوة اتباع، فهو في معنى الكثرة. قال أبو علي:

وهذا موضع ينبغي أن ترجح فيه قراءة غير ابن كثير على قراءة ابن كثير، لأن الأسماء المفردة ليس بالمستمر أن تدل على الكثرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إلا أن «أحدا» في مثل النبوة يدل عليها من حيث يقتضي الأتباع.

وقرأ الأعمش وشعيب بن أبي حمزة: «إِنْ يُؤْتَى» بكسر الهمزة بمعنى: لم يعط أحد مثل ما أعطيت من الكرامة، وهذه القراءة يحتمل أن يكون الكلام خطاباً من الطائفة القائلة، ويكون قولها: «أَوْ بِهَاجِرٍ» بمعنى: أو فليحاجوكم. وهذا على التصميم على أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتي، ويحتمل أن تكون بمعنى: إلا أن يحاجوكم، وهذا على تجويز أن يؤتى أحد ذلك إذا قامت الحجة له، فهذا ترتيب التفسير والقراءات على قول من قال: الكلام كله من قول الطائفة.

وقال السدي وغيره: الكلام كله من قوله: «قُلْ إِنْ أَلْهَنَّا هَذَا اللَّهَ...» إلى آخر الآية، هو مما أُمِرَ به محمد عليه السلام أن يقوله لأمته. وحكي الزجاج وغيره أن المعنى: قل إن الهدى هو هذا الهدى، لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. وحكي عن بعض النحويين أن المعنى: «أَلَا يُؤْتَى أحد»، وحذفت «لا» لأن في الكلام دليلاً عليها، كما في قوله تعالى: «يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا» أي ألا تضلوا. وحكي عن أبي العباس المبرد: لا تحذف «لا» وإنما المعنى: كراهة أن تضلوا، وكذلك هنا: كراهة أن يؤتى أحد مثل ما

أوتيتم، أي ممن خالف دين الإسلام، لأن الله لا يهدي من هو كاذب كفار، فهدى الله بعيد من غير المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتبعد من هذا القول قراءة ابن كثير بالاستفهام والمد، وتُحْمَلُ عليه قراءة الأعمش وابن أبي حمزة: «إِنْ يُؤْتَى» بكسر الالف، كأنه عليه السلام يخبر أمته أن الله لا يعطي أحداً ولا أعطى فيما سلف مثل ما أعطى أمة محمد عليه السلام من كونها وسطاً، ويكون قوله تعالى: «أَوْ بِهَاجِرٍ» - على هذه المعاني التي ترتبت في قول السدي - يحتمل معنيين:

أحدهما: أو فليحاجوكم عند ربكم، يعني اليهود، فالمعنى: لم يعط أحد مثل حظكم وإلا فليحاجوكم من ادعى سوى ذلك.

والمعنى الثاني: أن يكون قوله: «أَوْ بِهَاجِرٍ» بمعنى التقرير والإزراء باليهود، كأنه قال: أو هل لهم أن يحاجوكم أو يخاصموكم فيما وهبكم الله وفصلكم به؟

وقوله: «هَذَا اللَّهُ» على جميع ما تقدم خبر «إِنْ»؛ وقال قتادة والربيع: الكلام من قوله: «قُلْ إِنْ أَلْهَنَّا هَذَا اللَّهَ» إلى آخر الآية، هو مما أمر به محمد عليه السلام أن يقوله للطائفة التي قالت: «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا بِمَنْ نَحْنُ بَيْنَ يَدَيْكُمْ»، وتتفق مع هذا القول قراءة ابن كثير بالاستفهام والمد، وتقدير الخبر المحذوف «أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ يَنْتَلِ مَا أُوْتِيتُمْ»: «حسدتم وكفرتكم»، ويكون قوله: «أَوْ

بِهَاجِرٍ» محمولاً على المعنى، كأنه قال: أنحدسون أو تكفرون لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم؟ أو يحاجوكم على ما أوتوه فإنه يغلبونكم بالحجة.

وأما على قراءة غير ابن كثير بغير المد فيحتمل ذلك أن يكون بمعنى التقرير بغير حرف استفهام، وذلك هو الظاهر من لفظ قتادة فإنه قال: يقول: لما أنزل الله كتاباً مثل كتابكم وبعث نبياً مثل نبيكم حسدتموهم على ذلك. ويحتمل أن يكون قوله: «أَنْ يُؤْتَى» بدلاً من قوله: «هَذَا اللَّهُ» ويكون المعنى: قل إن الهدى هدى الله، وهو أن يؤتى أحد كالذي جاءنا نحن. ويكون قوله: «أَوْ بِهَاجِرٍ» بمعنى: أو فليحاجوكم، فإنه يغلبونكم. ويحتمل قوله: «أَنْ يُؤْتَى» خبر «إِنْ» ويكون قوله: «هَذَا اللَّهُ» بدلاً من «أَلْهَنَّا»، وهذا في المعنى قريب من الذي قبله. وقال ابن جريج: قوله تعالى: «أَنْ يُؤْتَى» هو من قول محمد ﷺ لليهود، وتم الكلام في قوله: «أُوْتِيتُمْ»؛ وقوله تعالى: «أَوْ بِهَاجِرٍ» متصل بقول الطائفة: «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا بِمَنْ نَحْنُ بَيْنَ يَدَيْكُمْ»، وهذا القول يفسر معانيه ما تقدم في قول غيره من التقسيم والله المستعان.

وقرأ ابن مسعود: «أَنْ يُحَاجُّوَكُمْ» بدل «أَوْ» وهذه القراءة تلتئم مع بعض المعاني التي تقدمت ولا تلتئم مع بعضها.

وقوله: «عِنْدَ رَبِّكُمْ» يجيء في بعض المعاني على معنى «عند ربكم في الآخرة»، ويجيء في بعضها على معنى «عند كتب ربكم والعلم الذي

جعل في العباد، فأضاف ذلك إلى الربّ تشریفاً، وكان المعنى: أو يحاجوكم عند الحق.

وقرأ الحسن: ﴿إِنْ يُؤْتِي أَحَدٌ﴾، بكسر الهمزة والتاء، على إسناد الفعل إلى ﴿أَحَدٌ﴾ والمعنى: إن إنعام الله لا يشبهه إنعام أحد من خلقه. وأظهر ما في هذه القراءة أن يكون خطاباً من محمد عليه السلام لأمته، والمفعول محذوف تقديره: إن يؤتي أحد أحدًا.

٧٣ - ٧٤ تفسير قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ أَلْقَيْتُ بِكَ أَكْثَرًا﴾ إلى قوله: ﴿الْظُّلُمُ﴾ تكذيب لليهود في قولهم: «نبوة موسى مؤبدة، ولن يؤتي الله أحداً مثل ما أتى بني إسرائيل من النبوة والشرف»، وسائر ما في الآية من لفظة «وايغ» وغير ذلك قد تقدم نظيره.

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب أنهم قسمان في الأمانة، ومقصد الآية ذم الخونة منهم، والتفنيذ لرأيهم وكذبهم على الله في استحلالهم أموال العرب. وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿يَيْمَنَةٌ﴾ بناء وياء في الحرفين وكذلك: ﴿يَيْمَنًا﴾ في يوسف، قال أبو عمرو الداني: وهي لغة تميم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما أراه إلا لغة قرشية، وهي كسر نون الجماعة كَيْسْتَعَيْنَ، وألف المتكلم كقول ابن عمر: لا إخاله، وتاء المخاطب كهذه الآية، ولا يكسرون الياء في الغائب، وبها قرأ أبي كعب في: ﴿يَيْمَنًا﴾ وابن مسعود

والأشهب العقيلي وابن وثاب. وقد تقدم القول في القنطار في صدر السورة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُؤَيِّدُ إِلَيْكَ﴾ بكسر الهاء التي هي ضمير القنطار، وكذلك في الأخرى التي هي ضمير الدينار، واتفق أبو عمرو وحمزة وعاصم والأعمش على إسكان الهاء، وكذلك كل ما أشبهه في القرآن، نحو: ﴿نُضِلُّهُ جَهَنَّمَ﴾ و﴿نُؤْتِيهِ﴾ و﴿نُؤَلِّهِ﴾ إلا حرفاً حكي عن أبي عمرو أنه كسره، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَيْدُ إِلَيْهِمْ﴾. قال أبو إسحاق: وهذا الإسكان الذي روي عن هؤلاء غلط بين لأن الهاء لا ينبغي أن تجزم، وإذا لم تجزم فلا يجوز أن تسكن في الوصل. وأما أبو عمرو فأراه كان يختلس الكسرة فغلط عليه، كما غلط عليه في ﴿بارئكم﴾ وقد حكى عنه سيبويه - وهو ضابط لمثل هذا - أنه يكسر كسراً خفيفاً.

والقنطار في هذه الآية: مثال للمال الكثير يدخل فيه أكثر من القنطار وأقل، وأما الدينار فيحتمل أن يكون كذلك، مثلاً لما قل، ويحتمل أن يريد طبقة لا تخون إلا في دينار فما زاد، ولم يعن لذكر الخائنين في أقل إذ هم طغام خثالة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُمَتَّ﴾ بضم الدال، وقرأ ابن وثاب والأعمش وأبو عبد الرحمن السلمي وابن أبي ليلى والفياض بن غزوان وغيرهم: ﴿يُمَتَّ﴾ و﴿يُمَتَّمُ﴾ بكسر الدال في جميع القرآن، قال أبو إسحاق: هو من قولهم: يُمَتَّ تَدَام مثل يُمَتَّ

تنأم، وهي لغة. ودام معناه: ثبت على حال ما، والتدويم على الشيء الاستدارة حول الشيء، ومنه قول ذي الرمة:

والشمس حيرى لها في الجو تَدْوِيمُ
والدوام: الدوار يأخذ في رأس الإنسان فيرى الأشياء تدور له، وتدويم الطائر في السماء، وهو ثبوته إذا صف واستدار، والماء الدائم وغيره هو الذي كأنه يستدير حول مركزه.

وقوله: ﴿قَالَيْدًا﴾ يحتمل معنيين، قال الزجاج وقتادة ومجاهد: معناه: قائماً على اقتضاء دينك؛ يريدون بأنواع الاقتضاء من الحفز والمرافعة إلى الحاكم، فعلى هذا التأويل لا تراعى هيئة هذا الدائم، بل اللفظة من قيام المرء على أشغاله، أي اجتهاده فيها. وقال السدي وغيره: ﴿قَالَيْدًا﴾ في هذه الآية معناه: قائماً على رأسه، على الهيئة المعروفة، وتلك نهاية الحفز، لأن معنى ذلك أنه في صدر شغل آخر يريد أن يستقبله. وذهب إلى هذا التأويل جماعة من الفقهاء وانتزعوا من الآيات جواز السجن، لأن الذي يقوم عليه غريمه فهو يمتنع من تصرفاته في غير القضاء، ولا فرق بين المنع من التصرفات وبين السجن.

وهذه الآية وما بعدها نزلت فيما روي بسبب أن جماعة من العرب كانت لهم ديون في ذم قوم من أهل الكتاب، فلما أسلم أولئك العرب قالت لهم اليهود: نحن لا نؤذي

إليكم شيئاً حين فارقتم دينكم الذي كنتم عليه، فنزلت الآية في ذلك. وروي أن بني إسرائيل كانوا يعتقدون استحلال أموال العرب لكونهم أهل أوثان، فلما جاء الإسلام وأسلم من أسلم من العرب بقي اليهود فيهم على ذلك المعتقد، فنزلت الآية حامية من ذلك. وقال رسول الله ﷺ: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية فهو تحت قدمي، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر».

(٧٥) - (٧٧) تفسير قوله عز وجل:

الإشارة بـ «ذلك» إلى كونهم لا يؤدون الأمانة في دينار فما فوقه، على أحد التأويلين، والضمير في: «قَالُوا» يعني به ليف بني إسرائيل، لأنهم كانوا يقولون: نحن أهل الكتاب، والعرب أميون أصحاب أوثان، فأموالهم لنا حلال متى قدرنا على شيء منها لا حجة علينا في ذلك ولا سبيل لمعترض وناقد إلينا في ذلك. والأميون: القوم الذين لا يكتبون لأنهم لا يحسنون الكتابة، وقد مر في سورة البقرة اشتقاق اللفظ.

واستعارة السبيل هنا في الحجة هو على نحو قول حميد بن ثور:

وهل أنا إن عللت نفسي بسرحة من السرح موجود عليّ طريق؟

وقوله تعالى: «قَالُوا لَكِ مَا عَلَيْنَا مِنْ سَبِيلٍ» هو من هذا المعنى، وهو

كثير في القرآن وكلام العرب. وروي أن رجلاً قال لابن عباس: إنا نمر في الغزو بأموال أهل الذمة فنأخذ منها الشاة والدجاجة ونحوها قال: وتقولون ماذا؟ قال نقول: ليس علينا

بأس، فقال ابن عباس: هذا كما قال أهل الكتاب: «لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِ سَبِيلٌ» إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم.

وقوله تعالى: «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» ذم لبني إسرائيل بأنهم يكذبون على الله تعالى في غير ما شيء، وهم علماء بمواضع الصدق لو قصدوها، ومن أخطر ذلك أمر محمد ﷺ، هذا قول جماعة من المتأولين. وروي عن السدي وابن جريج وغيرهما أن طائفة من أهل الكتاب ادعت أن في التوراة إحلال الله لهم أموال الأميين كذباً منها وهي عالمة بكذبها في ذلك، وقالوا: والإشارة بهذه الآية إلى ذلك الكذب المخصوص في هذا الفصل.

ثم رد الله تعالى في صدر قولهم: «لَيْسَ عَلَيْنَا» بقوله: «بَلْ كُنَّا» أي: عليهم سبيل وحجة وتباعة، ثم أخبر على جهة الشرط أن من أوفى بالعهد واتقى عقوبة الله في نقضه، فإنه محبوب عند الله. وتقول العرب: وفى بالعهد، وأوفى به بمعنى، وأوفى هي لغة الحجاز، وفسر الطبري وغيره على أن الضمير في قوله: «يَعْتَهُدُ» عائد على الله تعالى. وقال بعض المفسرين: هو عائد على «مَنْ». والقولان يرجعان إلى معنى واحد، لأن أمر الله تعالى بالوفاء مقترن بعهد كل إنسان، وقال ابن عباس: «أَتَقَرُّ» في هذه الآية، معناه: اتقى الشرك، ثم خرج جواب الشرط على تعميم المتقين تشريفاً للتقوى وحضاً عليها.

وقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ... الآية»، وعيد لمن فعل هذه الأفاعيل إلى يوم القيامة، وهي آية يدخل فيها الكفر فما دونه من جحد الحقوق، وختر الموائيق. وكل أحد يأخذ من وعيد الآية على قدر جريمته.

واختلف المفسرون في سبب نزولها؛ فقال عكرمة: نزلت في أجبار اليهود، أبي رافع وكنانة بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، تركوا عهد الله في التوراة للمكاسب والرياسة التي كانوا بسبيلها. وروي أنها نزلت بسبب خصومة الأشعث بن قيس مع رجل من اليهود في أرض، فوجبت اليمين على اليهودي فقال الأشعث: إذن يحلف يا رسول الله ويذهب بمالي، فنزلت الآية. وروي أن الأشعث بن قيس اختصم في أرض مع رجل من قريته فوجبت اليمين على الأشعث، وكان في الحقيقة مبطلاً قد غصب تلك الأرض في جاهليته فنزلت الآية، فنكل الأشعث عن اليمين، وتحرج وأعطى الأرض وزاد من عنده أرضاً أخرى.

وروي أن الآية نزلت بسبب خصومة لغير الأشعث بن قيس؛ وقال الشعبي: نزلت الآية في رجل أقام سلعة في السوق من أول النهار، فلما كان في آخره جاءه رجل فساومه فحلف حاثاً لقد منعها في أول النهار من كذا وكذا ولولا المساء ما باعها، فنزلت الآية بسببه، وقال سعيد بن المسيب: اليمين الفاجرة من الكباثر، ثم تلا هذه الآية؛ وقال ابن مسعود:

الآخرة، و﴿آلِيَهُ﴾ فاعيل بمعنى مفعول، فالمعنى، مؤلم.

٧٨ - ٧٩ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿يَنْهَهُمْ﴾ عائد على أهل الكتاب؛ والفريق: الجماعة من الناس، هي مأخوذة من فرق إذا فصل وأبان شيئاً عن شيء. و﴿يَلُونُ﴾

معناه: يحرفون ويتحيلون بتبديل المعاني من جهة اشتباه الألفاظ واشترائها وتشعب التأويلات فيها، ومثال ذلك قولهم: ﴿يَمِينًا وَعَصِيْنَا وَاتَّعَى عَيْزَ سَمِيعٍ﴾ ونحو ذلك، وليس التبديل المحض بلي، وحقيقة اللي في الشيايب والحبال ونحوها: فتحلها وإراغتها، ومنه لي العنتق، ثم استعمل ذلك في الحجج والخصومات والمجادلات تشبيهاً بتلك الإراغة التي في الأجرام، فمنه قولهم: خصم لوى، ومنه قول الشاعر:

فلو كان في ليلي شذى من خصومة
للويت أعناق الخصوم الملاويا

وقال الآخر:

ألفيتني لوى بعيد المستمر

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَلُونُ﴾ مضارع لوى، على وزن فَعَلَ بتخفيف العين، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح: ﴿يَلُونُ﴾ بتشديد الواو وفتح اللام من لوى، على وزن فَعَلَ بتشديد العين، وهو

تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية. وقرأ حميد: ﴿يَلُونُ﴾ بضم اللام وسكون الواو، وهي في الأصل: ﴿يَلُونُ﴾ مثل قراءة الجماعة، فحزمت الواو المضمومة لأنها عرفها في بعض اللغات، فجاء - يلونون - فنقلت ضمة الهمزة إلى اللام فجاء ﴿يلون﴾. والكتاب في هذا الموضع: التوراة، وضمير الفاعل في قوله: ﴿يَنْهَهُمْ﴾ هو للمسلمين.

وقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ نفى أن يكون منزلاً كما ادّعوا، وهو من عند الله بالخلق والاختراع والإيجاد، ومنهم بالتكسب، ولم تعن الآية إلا لمعنى التنزيل فبطل تعلق القدرية بظاهر قوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. وقد تقدم نظير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَكْلُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ﴾ معناه: لأحد من الناس؛ والبشر: اسم جنس يقع للكثير والواحد، ولا مفرد له من لفظه، وهذا الكلام لفظه النفي التام كقول أبي بكر رضي الله عنه: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ؛ وإنما يعلم مبلغها من النفي بقرينة الكلام الذي هي فيه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِقَتَيْنِ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَكُ أَنْ تُتَيَّرَ شَرَكًا﴾ فهذا متبَع عقلاً، وأما آيتنا هذه فإن النفي فيها على الكمال لأنها تقطع أن الله تعالى لا يؤتي النبوة للكذبة والمدعين. و﴿الْكَتَابِ﴾

وَلَا يَنْهَهُمْ لَفِيضًا يَلُونُ الْكِتَابَ بِالسُّنَنُ وَالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوَفِّيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَيْنِ يَمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَيَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْتِينَ بِمِثْلِهِ وَلِتُنصِرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضُكُمْ وَأَخِذْتُمْ عَلَى ذَلِكَكُمْ يُصِرُّ قَالُوا أَأَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ قَوْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ قَالُوا لَيْتَكُمُ هُمُ الْفَاعِلُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ لَوْ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

كما نرى ونحن مع نبينا أن من الذنب الذي لا يغفر يمين الصبر، إذا فجر فيها صاحبها، وقد جعل الله الأيمان في هذه الألفاظ مشترة فهي مشونة أيضاً. والخلاق: الحظ والنصيب والقدر، وهو مستعمل في المستحبات.

وقال الطبري: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ معناه: بما يسرهم، وقال غيره: نفى تعالى أن يكلمهم جملة لأنه يكلم عباده المؤمنين المتقين. وقال قوم من العلماء: وهي عبارة عن الغضب؛ المعنى: لا يحفل بهم ولا يرضى عنهم. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: يطهرهم من الذنوب وأدرانها.

والآخر: ينمي أعمالهم، فهي تنمية لهم، والوجهان منفيان عنهم في

في هذه الآية اسم جنس، ﴿وَالْفَكْرُ﴾ بمعنى: الحكمة، ومنه قول النبي عليه السلام: «إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمًا»، و﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ معطية تعظيم الذنب في القول، بعد مهلة من هذا الإنعام.

وقوله: ﴿عِبَادًا﴾ هو جمع عبد، ومن جموعه عبيد وعبدي. وقال بعض اللغويين: هذه الجموع بمعنى، وقال قوم: العباد لله، والعبيد والعبدي للبشر، وقال قوم: العبدي، إنما يقال في العبيد بني العبيد، وكأنه بناء مبالغة تقتضي الإغراق في العبودية. والذي استقرت في لفظة العباد: أنه جمع عبد متى سبقت اللفظة في مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة دون أن يفترون بها معنى التحقير وتصغير الشأن؛ وانظر قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾، ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، ﴿يَمِيزُ الْإِنْسَانَ أَسْرَفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وقول عيسى في معنى الشفاعة والتعريض لرحمة الله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ فنوه بهم. وقال بعض اللغويين: إن نصارى الحيرة وهم عرب لما أطاعوا كسرى ودخلوا تحت أمره سمتهم العرب العباد فلم ينته بهم إلى اسم العبيد. وقال قوم: بل هم قوم من العرب من قبائل شتى اجتمعوا وتنصروا وسموا أنفسهم العباد كأنه انتساب إلى عبادة الله. وأما العبيد فيستعمل في تحقير، ومنه قول امرئ القيس:

قولاً لدوداً عبيد العصي
ما غركم بالأسد الباسل؟

ومنه قول حمزة بن عبدالمطلب: «وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟» ومنه قول الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ لأنه مكان تشفيق وإعلام بقلّة انتصارهم ومقدرتهم، وأنه تعالى ليس بظلام لهم في ذلك. ولما كانت لفظة العباد تقتضي الطاعة لم تقع هنا، ولذلك أنس بها في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَبِيدَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾. فهذا النوع من النظر يسلك به سبل العجائب في ميز فصاحة القرآن العزيز على الطريقة العربية السليمة.

ومعنى قوله: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّيَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ اعبدوني واجعلوني إلهاً.

واختلف المفسرون إلى من هي الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ﴾ فقال النقاش وغيره: الإشارة إلى عيسى عليه السلام، والآية رادة على النصارى الذين قالوا: عيسى إله، وادعوا أن عبادته هي شرعه ومستندة إلى أوامره. وقال ابن عباس والربيع وابن جريج وجماعة من المفسرين: بل الإشارة إلى محمد عليه السلام. وسبب نزول الآية: أن أبا رافع القرظي قال للنبي ﷺ حين اجتمعت الأحزاب من يهود والوفد من نصارى نجران: يا محمد إنما تريد أن نعبدك ونتخذك إلهاً كما عبادت النصارى عيسى، فقال الرئيس من نصارى نجران: أؤذلك تريد يا محمد وإليه تدعون؟ فقال النبي ﷺ: «معاذ الله، ما بذلك أمرت، ولا إليه دهوت» فنزلت الآية في ذلك. قال بعض العلماء: أرادت الأحزاب أن تلزم هذا القول

محمداً ﷺ، لما تلا عليهم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾، وإنما معنى الآية: فاتبعوني فيما أدعوكم إليه من طاعة الله، فحرفوها بتأويلهم، وهذا من نوع ليهم الكتاب بالسنتهم.

وقرأ جمهور القراء: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ بالنصب، وروى شبل عن ابن كثير، ومحجوب عن أبي عمرو: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ برفع اللام، وهذا على القطع وإضمار مبتدأ، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿عِبَادًا لِّيَ﴾ بتحريك الياء مفتوحة.

٧٩ - ٨١ تفسير قوله عز وجل: المعنى: ولكن يقول: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّيَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وهو جمع رباني.

واختلف النحاة في هذه النسبة، فقال قوم: هو منسوب إلى الرب من حيث هو عالم علمه، العامل بطاعته، المعلم للناس ما أمر به؛ وزيدت الألف والنون مبالغة كما قالوا: لحياني وشعراني في النسبة إلى اللحية والشعر. وقال قوم: الرباني منسوب إلى الربان وهو معلم الناس وعالمهم السائس لأمرهم، مأخوذ من رب يرب إذا أصلح وربى، وزيدت فيه هذه النون كما زيدت في غضبان وعطشان، ثم نسب إليه رباني.

واختلف العلماء في صفة من يستحق أن يقال له: رباني، فقال أبو رزين: الرباني: الحكيم العالم، وقال مجاهد: الرباني: الفقيه، وقال قتادة وغيره: الرباني: العالم الجليل، وقال ابن عباس: هو الحكيم الفقيه، وقال الضحاك: هو الفقيه العالم، وقال ابن زيد:

الرباني: والي الأمر، يرب الناس أي يصلحهم. فالربانيون: الولاة والأخبار والعلماء؛ وقال مجاهد: الرباني: فوق الحبر لأن الحبر هو العالم، والرباني هو الذي جمع إلى العلم والفقه البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمر الرعية وما يصلحهم في دينهم ودنياهم، وفي البخاري: الرباني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره. فجملة ما يقال في الرباني أنه العالم بالرب والشرع، المصيب في التقدير من الأقوال والأفعال التي يحاولها في الناس.

وقوله: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ﴾ معناه: بسبب كونكم عالمين دارسين، ﴿فَمَا﴾ مصدرية، ولا يجوز أن تكون موصولة، لأن العائد الذي كان يلزم لم يكن بد أن يتضمنه ﴿كُنْتُمْ﴾ لأن كان قد استوفت خبرها ظاهراً وهو: ﴿تُمَلِّمُونَ﴾، وكذلك: ﴿تُمَلِّمُونَ﴾ قد استوفى مفعوله وهو ﴿أَلَكُتِبَ﴾ ظاهراً، فلم يبق إلا أن ﴿فَمَا﴾ مصدرية، إذ لا يمكن عائد، و: ﴿تُمَلِّمُونَ﴾ بمعنى تعرفون، فهي متعدية إلى مفعول واحد.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بسكون العين وتخفيف اللام، وقرأ عاصم وابن عامر وحزمة والكسائي: ﴿تُمَلِّمُونَ﴾ مثقلاً، بضم التاء وكسر اللام، وهذا على تعدية الفعل بالتضعيف، والمفعول الثاني على هذه القراءة محذوف، تقديره: تعلمون الناس الكتاب. والقراءتان متقاربتا المعنى، وقد رجحت قراءة التخفيف بتخفيفهم ﴿تَدْرُسُونَ﴾،

وبأن العلم هو العلة التي توجب للموفق من الناس أن يكون ربانياً، وليس التعليم شرطاً في ذلك، ورجحت الأخرى بأن التعليم يتضمن العلم، والعلم لا يتضمن التعليم، فتجيء قراءة التثني أبلغ في المدح. ومن حيث العالم بحال من يعلم، فالعلم كأنه في ضمن العلم. وقراءة التخفيف عندي أرجح.

وقرأ مجاهد والحسن: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بفتح التاء والعين وشذ اللام المفتوحة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿كُنْتُمْ﴾ بضم الراء، من دَرَسَ إذا دُرِسَ قراءة الكتاب وكرره، وقرأ أبو حية: ﴿تَدْرُسُونَ﴾ بكسر الراء، وهذا على أنه يقال في مضارع درس، يدرس ويدرس، وروي عن أبي حية أنه قرأ: ﴿تَدْرُسُونَ﴾، بضم التاء وكسر الراء وشدها، بمعنى: تدرسون غيركم. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ برفع الراء، وكان أبو عمرو يختلس حركة الراء تخفيفاً، وقرأ عاصم وابن عامر وحزمة: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ نصباً، ولا خلاف في الراء من قوله: ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ إلا اختلاس أبي عمرو، فمن رفع قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾، فهو على القطع. قال سيبويه: المعنى: ولا يأمركم الله؛ وقال ابن جريج وغيره: المعنى: ولا يأمركم هذا البشر الذي أوتي هذه النعم، وهو محمد ﷺ، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وَلَنْ يَأْمُرَكُمْ﴾ فهذه قراءة تدل على القطع. وأما قراءة من نصب الراء فهي عطف على قوله: ﴿أَنْ يُؤَيِّنَ﴾

والمعنى: ولا له أن يأمركم، قاله أبو علي وغيره. وقال الطبري: قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ - بالنصب - معطوف على قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾؛ وهذا خطأ لا يلتزم به المعنى، والأرباب في هذه الآية بمعنى الآلهة. وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ﴾ تقرير على هذا المعنى الظاهر فساداً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ آلِ نَبِيِّنَ﴾... الآية، المعنى: واذكر يا محمد إذ، ويحتمل أن يكون أخذ هذا الميثاق حين أخرج بني آدم من ظهر آدم نسماً، ويحتمل أن يكون هذا الأخذ على كل نبي في زمنه ووقت بعثه، ثم جمع اللفظ في حكاية الحال في هذه الآية، والمعنى: إن الله تعالى أخذ ميثاق كل نبي بأنه يلتزم هو ومن آمن به الإيمان بمن أتى بعده من الرسل الظاهرة براهينهم والنصرة له.

واختلف المفسرون في العبارة عن مقتضى ألفاظ هذه الآية؛ فقال مجاهد والربيع: إنما أخذ ميثاق أهل الكتاب لا ميثاق النبيين، وفي مصحف أبي بن كعب وابن مسعود: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قال مجاهد: هكذا هو القرآن، وإثبات ﴿آلِ نَبِيِّنَ﴾ خطأ من الكتاب. وهذا لفظ مردود بإجماع الصحابة على مصحف عثمان رضي الله عنه. وقال ابن عباس رضي الله عنه: إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم، فهو أخذ لميثاق الجميع. وقال طاوس: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم

بعضاً. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما بعث الله نبياً - آدم فمن بعده - إلا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره بأخذه على قومه، ثم تلا هذه الآية، وقاله السدي؛ وروي عن طاوس أنه قال: صدر الآية أخذ الميثاق على النبيين، وقوله: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾ مخاطبة لأهل الكتاب بأخذ الميثاق عليهم - حكاه الطبري، وهو قول يفسده إعراب الآية. وهذه الأقوال كلها ترجع إلى ما قاله علي بن أبي طالب وابن عباس، لأن الأخذ على الأنبياء أخذ على الأمم.

وقرأ حمزة وغيره سوى السبعة: ﴿لَمَّا﴾ بكسر اللام، وهي لام الجر، والتقدير: لأجل ما آتيناكم، إذ أنتم القادة والرؤوس، ومن كان بهذه الحال فهو الذي يؤخذ ميثاقه. و﴿مَّا﴾ في هذه القراءة بمعنى الذي الموصولة، والعائد إليها من الصلة تقديره: آتيناكموه، و﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس. وقوله: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾... الآية، جملة معطوفة على الصلة، ولا بد في هذه الجملة من ضمير يعود على الموصول، فتقديره عند سيبويه: رسول به مصدق لما معكم، وحذف تخفيفاً كما حذف الذي في الصلة بعينها لطول الكلام، كما قال تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا؟﴾ والحذف من الصلات كثير جميل، وأما أبو الحسن الأخفش فإن قوله تعالى: ﴿لَمَّا مَكَّمْ﴾ هو العائد عنده على الموصول، إذ هو في المعنى

بمنزلة الضمير الذي قدر سيبويه، وكذلك قال الأخفش في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لأن المعنى: لا يضيع أجرهم، إذ المحسنون هم من يتقي ويصبر، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وكذلك ما ضارح هذه الآيات. وسيبويه رحمه الله لا يرى أن يضع المظهر موقع المضمّر، كما يراه أبو الحسن. والسلام في: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ هي اللام المتعلقة للقسم الذي تضمنه أخذ الميثاق، وفصل بين القسم والمقسم عليه بالجاء والمجرور، وذلك جائز.

وقرأ سائر السبعة ﴿لَمَّا﴾ بفتح اللام، وذلك يتخرج على وجهين: أحدهما: أن تكون ﴿مَّا﴾ موصولة في موضع رفع بالابتداء، واللام لام الابتداء، وهي متعلقة لما أجري مجرى القسم من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ﴾، وخبر الابتداء قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾، و﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ متعلق بقسم محذوف، والمعنى: والله لتؤمنن؛ هكذا قال أبو علي الفارسي، وفيه من جهة المعنى نظر إذا تأملت على أي شيء وقع التحليف، لكنه متوجه بأن الحلف يقع مرتين تأكيداً، فتأمل. والعائد الذي في الصلة، والعائد الذي في الجملة المعطوفة على الصلة هنا في هذه القراءة هما على حد ما ذكرناهما في قراءة حمزة، أما أن هذا التأويل يقتضي عائداً ثالثاً من الخبر الذي هو

﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ فهو قوله تعالى: ﴿بِهِ﴾، فالهاء من ﴿بِهِ﴾ عائدة على ﴿مَّا﴾، ولا يجوز أن تعود على ﴿رَسُولٌ﴾ فيبقى الموصول حيثنذ غير عائدة عليه من خبره ذكر.

والوجه الثاني الذي تخرج عليه قراءة القراء ﴿لَمَّا﴾ بفتح اللام، هو أن تكون ﴿مَّا﴾ للجزاء شرطاً، فتكون في موضع نصب بالفعل الذي بعدها وهو مجزوم، و﴿جَاءَكُمْ﴾ معطوف في موضع جزم، واللام الداخلة على ﴿مَّا﴾ ليست المتلقية للقسم، ولكنها الموطئة المؤذنة بمجيء لام القسم فهي بمنزلة اللام في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ لأنها مؤذنة بمجيء المتلقية للقسم في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِمْ﴾، وكذلك هذه مؤذنة بمجيء المتلقية للقسم في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِمْ﴾، وهذه اللام الداخلة على: ﴿إِنْ﴾ لا يعتمد القسم عليها، فلذلك جاز حذفها تارة وإثباتها تارة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قال الزجاج: لأن قولك: والله لئن جئتني لأكرمك، إنما حلف على فعلك، لا أن الشرط معلق به، فلذلك دخلت اللام على الشرط، و﴿مَّا﴾ في هذا الوجه من كونها جزءاً لا تحتاج إلى عائدة لأنها مفعولة والمفعول لا يحتاج إلى عائدة ذكر. والضمير في قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِمْ﴾ عائدة على ﴿رَسُولٌ﴾، وكذلك هو على قراءة من كسر اللام، وأما الضمير في قوله: ﴿وَلَتَنْصُرُنَّ﴾ فلا

يحتمل بوجه إلا العمود على ﴿رَسُولٌ﴾، قال أبو علي في الإغفال: وجزء الشرط محذوف بدلالة قوله: ﴿لَتُؤْمِنَنَّ﴾ عليه. قال سيبويه: سألت - يعني الخليل - عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّمَا أَنبِئُكُمْ﴾ فقال: ﴿مَا﴾ هنا بمنزلة الذي ودخلتها اللام كما دخلت على ﴿إِنْ﴾ حين قلت: لنن فعلت لأفعلن، ثم استمر يفسر وجه الجزاء؛ قال أبو علي: أراد الخليل بقوله: هي بمنزلة الذي أنها اسم كما أن الذي اسم ولم يرد أنها موصولة كالذي، وإنما فرّ من أن تكون ﴿مَا﴾ حرفاً كما جاءت حرفاً في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَلَامَنَا لَيُؤَيِّدُكُمْ رَبُّكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِنْ كُنَّ﴾ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، والله المستعان.

وحكى المهدوي ومكي عن سيبويه والخليل: إن خبر الابتداء فيمن جعل ﴿مَا﴾ ابتداء على قراءة من فتح اللام هو في قوله: ﴿مِنْ صَحْبٍ وَجِهَةٍ﴾ ولا أعرف من أين حكياه لأنه مفسد لمعنى الآية لا يليق بسيبويه والخليل؛ وإنما الخبر في قوله: ﴿لَتُؤْمِنَنَّ﴾ كما قال أبو علي الفارسي ومن جرى مجراه كالزجاج وغيره.

وقرأ الحسن: ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ بفتح اللام وشد الميم، قال أبو إسحاق: أي لَمَّا آتَاكُمْ الكتاب والحكمة أخذ الميثاق، وتكون اللام تزول إلى الجزاء، كما تقول: لَمَّا جِئْتَنِي أكرمك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر أن (لَمَّا) هذه هي الظرفية،

أي: لما كنتم بهذه الحال رؤساء الناس وأماثلهم أخذ عليكم الميثاق، إذ على القادة يؤخذ، فيجيء هذا المعنى كالمعنى في قراءة حمزة.

وذهب ابن جني في ﴿لَمَّا﴾ في هذه الآية إلى أن أصلها «لَمَنَ مَا»، وزيدت «مَن» في الواجب على مذهب الأخفش، ثم أدغمت، كما يجب في مثل هذا، فجاء (لَمَمَّا)، فتثقل اجتماع ثلاث ميمات فحذفت الميم الأولى فبقى «لَمَّا». وتفسر هذه القراءة على هذا الترجيح المحلق تفسير ﴿لَمَّا﴾ بفتح الميم مخففة، وقد تقدم. وقرأ نافع وحده: ﴿آتَيْنَاكُمْ﴾ بالنون، وقرأ الباقون: ﴿أَنبِئُكُمْ﴾ بالياء، و﴿رَسُولٌ﴾ في هذه الآية اسم جنس، وقال كثير من المفسرين: الإشارة بذلك إلى محمد ﷺ، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿مُصَدِّقًا﴾ بالنصب على الحال.

٢٨١ - ٢٨٢ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية هي وصف توقيف الأنبياء على إقرارهم بهذا الميثاق والتزامهم له وأخذ عهد الله فيه، وذلك يحتمل موطن القسم، ويحتمل أن يراد بهذه العبارة الجامعة وصف ما فعل مع كل نبي في زمنه. ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾ في هذه الآية عبارة عما تحضّل لهم من إتياء الكتاب والحكمة، فمن حيث أخذ عليهم أخذوا هم أيضاً؛ وقال الطبري: أخذتم في هذه الآية معناه: قبلتم، والإصر: العهد، لا تفسير له في هذا الموضع إلا ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَأَشْهَدُوا﴾ يحتل معنيين:

أحدهما: فاشهدوا على أممكم

المؤمنين بكم، وعلى أنفسكم بالتزام هذا العهد، هذا قول الطبري وجماعة.

والمعنى الثاني: بينوا الأمر عند أممكم واشهدوا به. وشهادة الله تعالى على هذا التأويل وهي التي في قوله: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ هي إعطاء المعجزات وإقرار نبوتهم، هذا قول الزجاج وغيره، فتأمل؛ القول الأول هو إيداع الشهادة واستحفاظها، والقول الثاني هو الأمر بأدائها. وحكم الله تعالى بالفسق على من تولّى من الأمم بعد هذا الميثاق، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره. ويحتمل أن يريد بعد الشهادة عند الأمم بهذا الميثاق على أن قوله: ﴿فَأَشْهَدُوا﴾ أمر بالأداء.

وقرأ أبو عمرو: ﴿يَبْقُوتُ﴾ بالياء مفتوحة، و﴿تُرْجِعُونُ﴾ بالياء مضمومة، وقرأ عاصم: ﴿يَبْقُوتُ﴾ و﴿يُرْجِعُونُ﴾ بالياء معجمة من تحت فيهما، وقرأ الباقون بالياء فيهما. ووجه هذه القراءات لا تخفى بأدنى تأمل.

و﴿يَبْقُونُ﴾ معناه: تطلبون. و﴿أَسَلَّمُ﴾ في هذه الآية بمعنى: استسلم عند جمهور المفسرين، و﴿مَنْ﴾ في هذه الآية تعم الملائكة والثلثين.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿مَوْعَاً وَكَرَّهًا﴾؛ فقال مجاهد: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، فالمعنى أن إقرار كل كافر بالصانع هو إسلام كرهاً. فهذا عموم في لفظ

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَأِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لِلْمُتَسَلِّمِينَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ
دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾
كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا
أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَّمَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَكُوتَ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يُخَفِّفُ
عَنَّهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ يُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
كَافِرُونَ فَلَنْ يَفُتَّلَ مِن أَحَدِهِمْ وِيلٌ لِّلْأَرْضِ ذَهَابًا وَلَوْ
أَفْتَدَىٰ بِهِنَّ أُولَٰئِكَ لَهُمُ عَذَابُ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾

القسم الذي هو الكره إنما هو في أهل الأرض خاصة، والتوقيف بقوله: ﴿أَفْتَدَى﴾ إنما هو لمعاصري محمد ﷺ من الأحرار والكفار. وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿أصري﴾ بضم الألف، وهي لغة.

٨٤ - ٨٥ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قل يا محمد أنت وأمتك: آمنا بالله وما أنزل علينا، وهو القرآن وأمر محمد ﷺ؛ والإنزال على نبي الأمة إنزالاً عليها، وقدم إسماعيل لسببه، وسائر الآية بين.

ثم حكم تعالى في قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ﴾... الآية، بأنه لا يقبل من آدمي ديناً غير دين الإسلام، وهو الذي وافق في معتقده دين كل من سُمي من الأنبياء، وهو الحنيفية السمحة.

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية قال أهل الملل للنبي ﷺ: قد أسلمنا قبلك ونحن المسلمون، فقال الله له: فحجَّهم يا محمد وأنزل عليه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ فحج المسلمون وقعد الكفار.

وأسند الطبري عن ابن عباس أنه قال: نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجِيسِينَ وَالنَّصَارَى وَالْيَهُودَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُخْرَجُونَ﴾ فأنزل الله بعدها: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ

الآية، لأنه لا يبقى من لا يسلم على هذا التأويل، و﴿أَسْلَمَ﴾ فيه بمعنى استسلم، وقال بمثل هذا القول أبو العالية رفيع، وعبارته رحمه الله: كل آدمي فقد أقر على نفسه بأن الله حي وأنا أعبد، فمن أشرك في عبادته فهذا الذي أسلم كرهاً، ومن أخلص عباس: بل إسلام الكاره منهم كان حين أخذ الميثاق. وروي عن مجاهد أنه قال: الكره في هذه الآية هو بسجود ظل الكافر، فيسجد المؤمن طوعاً ويسجد ظل الكافر وهو كاره. وقال الشعبي: الآية عبارة عن استقادة جميع البشر لله وإذعانهم لقدرته وإن نسب بعضهم الألوهية إلى غيره، وذلك هو الذي يسجد كرهاً؛ وهذا هو قول مجاهد وأبي العالية المتقدم وإن اختلفت العبارات. وقال الحسن بن أبي الحسن: معنى الآية أنه أسلم قوم طوعاً، وأسلم قوم خوف السيف. وقال مطر الوراق: أسلمت الملائكة طوعاً، وكذلك الأنصار وبنو سليم وعبد القيس، وأسلم سائر الناس كرهاً حذر القتال والسيف. وهذا قول الإسلام فيه هو الذي في ضمنه الإيمان، والآية ظاهرها العموم ومعناها الخصوص، إذ من أهل الأرض من لم يُسَلِّمْ طوعاً ولا كرهاً على هذا الحد. وقال قتادة: الإسلام كرهاً هو إسلام الكافر عند الموت والمعاناة حيث لا يتفع. ويلزم على هذا أن كل كافر يفعل ذلك، وهذا غير موجود إلا في أفراد، والمعنى في هذه الآية يفهم كل ناظر أن هذا

يُسَلِّمُ... الآية. فهذه إشارة إلى نسخ.

وقوله: ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ متعلق بمقدر، تقديره: خاسر في الآخرة، لأن الألف واللام في الخاسرين في معنى الموصول. وقال بعض المفسرين: إن قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ﴾... الآية، نزلت في الحارث بن سويد، ولم يذكر ذلك الطبري.

٨٤ - ٨٥ تفسير قوله عز وجل: قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات من قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾ في الحارث بن سويد الأنصاري، كان مسلماً ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ قال: فتزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾... الآيات إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾،

فأرسل إليه قومه فأسلم. وقال مجاهد: حمل الآيات إليه رجل من قومه فقرأها عليه، فقال له الحارث: إنك والله لما علمت لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة. قال: فرجع الحارث فأسلم وحسن إسلامه. وقال السدي: نسخ الله تعالى بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ قوله: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهمُ أَنْ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾. وفي هذه العبارة تجوز كثير، وليس هذا بموضع نسخ.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في أبي عامر الراهب والحارث بن سويد بن الصامت ووحوش بن الأسلت في اثني عشر رجلاً رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقرش ثم كتبوا إلى أهلهم: هل لنا من توبة؟ فنزلت هذه الآيات. وقال ابن عباس أيضاً والحسن بن أبي الحسن: إن هذه الآيات نزلت في اليهود والنصارى، شهدوا بنعت الرسول ﷺ وأمنوا به، فلما جاء من العرب حسدوه، وكفروا به، ورجح الطبري هذا القول، وقال النقاش: نزلت هذه الآيات في طعيمة بن أبيرق. وكل من ذكر فالفاظ الآية تعته.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾ سؤال عن حال، لكنه سؤال توقيف على جهة الاستبعاد للأمر، كما قال عليه السلام: «كيف تفلح أمة أذنت وجة نبيها؟» فالمعنى: إنهم لشدة هذه الجرائم يبعد أن يهديهم الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوا﴾ عطف على ﴿كَذَّبُوا﴾ بحكم اللفظ،

والمعنى مفهوم أن الشهادة قبل الكفر، والواو لا ترتب. وقال قوم: معنى قوله: ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾: بعد أن آمنوا، فقوله: ﴿وَشَهِدُوا﴾ عطف على هذا التقدير.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ عموم معناه الخصوص فيمن حتم كفره وموافاته عليه، ويحتمل أن يريد الإخبار عن أن الظالم في ظلمه ليس على هدى من الله، فتجيء الآية عامة تامة العموم. واللعنة: الإبعاد وعدم الرحمة والعطف، وذلك مع قرينة الكفر زعيم بتخليدهم في النار، ولعنة الملائكة: قول: ﴿وَالنَّاسِ﴾: بنو آدم، ويظهر من كلام أبي علي الفارسي في بعض تعاليقه أن الجن يدخلون في لفظة الناس، وأنشد على ذلك:

فقلتُ إلى الطعام فقال منهم
أناسٌ نحسدُ الإنسانَ الطعاما
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والذي يظهر أن لفظة (الناس) إذا جاءت مطلقة فإنما هي في كلام العرب بنو آدم لا غير، فإذا جاءت مقيدة بالجن فذلك على طريقة الاستعارة، إذ هي جماعة كجماعة، وكذلك: ﴿يَسْأَلُ مِنَ الْجِنِّ﴾ وكذلك: ﴿نَقَرَ مِنَ الْجِنِّ﴾، ولفظة النفر أقرب إلى الاشتراك من رجال وناس، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ قاضٍ بتباين الصنفين.

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إما أن يكون لمعنى الخصوص في المؤمنين سماهم الناس إذ هم المعول عليه، وإما أن يريد أنهم في

الآخرة يلعنهم المؤمنون ويلعن بعضهم بعضاً، فيجئ من هذا في كل شخص منهم أن لعنه جميع الناس، وإما أن يريد أن هذه اللعنة تقع في الدنيا من جميع الناس على من هذه صفته. وكل من هذه صفته - وقد أغواه الشيطان - يلعن صاحب الصفات ولا يشعر من نفسه أنه متصف بها، فيجئ من هذا أنهم يلعنهم جميع الناس في الدنيا حتى إنهم ليلعنون أنفسهم، لكن على غير تعيين.

والضمير في قوله: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ قال الطبري: يعود على عقوبة الله التي يتضمنها معنى اللعنة. وقال قوم من المفسرين: الضمير عائد على اللعنة. وقرائن الآية تقضي أن هذه اللعنة مخلدة لهم في جهنم، فالضمير عائد على النار، وإن كان لم يجز لها ذكر، لأن المعنى يفهمها في هذا الموضع، كما يفهم قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أنها الأرض. وقد قال بعض الخراسانيين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذِيرٌ مَنْ يَنْشَأُ﴾: إن الضمير عائد على النار.

و﴿يُنْظَرُونَ﴾ نسي هذه الآية، بمعنى: يُؤخرون، ولا راحة إلا في التخفيف أو التأخير فهما مرتفعان عنهم، ولا يجوز أن يكون ﴿يُنْظَرُونَ﴾ هنا من نظر العين إلا على توجيه غير فصيح لا يليق بكتاب الله تعالى.

وقوله عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناء متصل يبين ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْغِ دِينَكَ﴾ والتوبة: الرجوع،

والإصلاح عام في القول والعمل.
وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾
وعد؛ وقرأ الحسن بن أبي الحسن:
﴿وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ﴾.

﴿٩٠﴾ - ﴿٩١﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون في كيف يترتب
كفر بعد إيمان، ثم زيادة كفر، فقال
الحسن وقتادة وغيرهما: الآية في
اليهود، كفروا بعيسى بعد الإيمان
بموسى ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ؛
وفي هذا القول اضطراب، لأن الذي
كفر بعيسى بعد الإيمان بموسى ليس
بالذي كفر بمحمد ﷺ، فالآية على
هذا التأويل تخلط الأسلاف
بالمخاطبين.

وقال أبو العالية رفيع: الآية في
اليهود، كفروا بمحمد ﷺ بعد
إيمانهم بصفاته وإقرارهم أنها في
التوراة، ثم ازدادوا كفراً بالذنوب
التي أصابوها في خلاف النبي ﷺ،
من الافتراء والبهت والسعي على
الإسلام وغير ذلك. وعلى هذا
الترتيب يدخل في الآية المرتدون
اللاحقون بقرش وغيرهم.

وقال مجاهد: معنى قوله: ﴿ثُمَّ
أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ أي تموا على كفرهم
وبلغوا الموت به. فيدخل في هذا
القول اليهود والمرتدون. وقال
السدي نحوه.

ثم أخبر تعالى أن توبة هؤلاء لن
تقبل، وقد قررت الشريعة أن توبة
كل كافر تقبل، سواء كفر بعد إيمان
وازداد كفراً، أو كان كافراً من أول
أمره، فلا بد في هذه الآية من
تخصيص تُحْمَلُ عليه ويصح به نفي

قبول التوبة، فقال الحسن وقتادة
ومجاهد والسدي: نفي قبول توبتهم
مختص بوقت الحشرجة والفرغرة
والمعانية، فالمعنى: لن تقبل توبتهم
عند المعانية؛ وقال أبو العالية: معنى
الآية: لن تقبل توبتهم من تلك
الذنوب التي أصابوها مع إقامتهم
على الكفر بمحمد ﷺ، فإنهم كانوا
يقولون في بعض الأحيان: نحن
نتوب من هذه الأفعال وهم مقيمون
على كفرهم، فأخبر الله تعالى أنه لا
يقبل تلك التوبة.

وتحتمل الآية عندي أن تكون إشارة
إلى قوم بأعيانهم من المرتدين
ختم الله عليهم بالكفر، وجعل ذلك
جزاء لجريمتهم ونكايتهم في الدين،
وهم الذين أشار إليهم بقوله: ﴿كَيْفَ
يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا﴾ فأخبر عنهم أنهم لا
تكون لهم توبة فيتصور قبولها،
فتجيء الآية بمنزلة قول الشاعر:

على لاحبٍ لا يُهْتَدَى بمَناره

.....

أي: قد جعلهم الله من سخطه في
حيزٍ من لا تقبل له توبة إذ ليست
لهم، فهم لا محالة يموتون على
الكفر. ولذلك بين حكم الذين
يموتون كفاراً بعقب الآية، فبانت
منزلة هؤلاء، فكانه أخبر عن هؤلاء
المعنيين أنهم يموتون كفاراً، ثم أخبر
الناس عن حكم من يموت كافراً.
﴿وَالسَّالُّونَ﴾ المخطئون الطريق القويم
في الأقوال والأفعال. وقرأ عكرمة:
﴿لَنْ تُقْبَلَ﴾ بنون العظمة ﴿تُوبَتِهِمْ﴾
بنصب التاء.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ

كُفَّارٌ﴾... الآية، جزم للحكم على
كل موافٍ على الكفر إلى يوم
القيامة.

وقرأ عكرمة: ﴿فَلَنْ تُقْبَلَ﴾ بنون
العظمة ﴿مِلَّةِ الْأَرْضِ﴾ بالنصب،
والجاء: ما شحن به الوعاء، فهو
بكسر الميم: الاسم، وفتحتها:
المصدر، تقول ملأت الشيء أملاًه
ملئاً، والمِلَّةُ: اسم ما ملأت به.
وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وأبو
السمال: (مِل) دون همزة، ورويت
عن نافع: ﴿وَهَبًا﴾ نصب على
التمييز. وقرأ ابن أبي عجلة: ﴿ذَهَبًا﴾
لو افتدى به دون واو.

واختلف الناس في هذه الآية في
قوله: ﴿وَلَوْ أَقْنَنَّا﴾؛ فقال الطبري:
هي متعلقة بمحذوف في آخر الكلام
دل عليه دخول الواو، كما دخلت
في قوله: ﴿وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾
لمتروك من الكلام، تقديره: وليكون
من المؤمنين أربناء ملكوت السموات
والأرض؛ وفي هذا التمثيل نظر
فتأمله. وقال الزجاج: المعنى: لن
يقبل من أحدهم إنفاقه وتقرباته في
الدنيا ولو أنفق ملء الأرض ذهباً ولو
افتدى به أيضاً في الآخرة لم يقبل
منه، قال: فأعلم أنه لا يشبههم على
أعمالهم من الخير، ولا يقبل منهم
الافتداء من العذاب؛ وهذا قول
حسن. وقال قوم: الواو زائدة،
وهذا قول مردود. ويحتمل أن يكون
المعنى نفي القبول جملة على كل
الوجوه، ثم خص من تلك الوجوه
أليقها وأحراها بالقبول، كما تقول:
أنا لا أفعل لك كذا بوجه ولو رغبت
إلي؛ وباقي الآية وعيد بين.

يشتهي أكل السكر باللوز فكان يشتري ذلك ويتصدق به ويتلو الآية. وإذا تأملت جميع الطاعات وجدتها إنفاقاً مما يحب الإنسان، إما من ماله، وإما من صحته، وإما من دته وترفيه، وهذه كلها محبوبات. وسأل رجل أبا ذر الغفاري رضي الله عنه، أي الأعمال أفضل؟ فقال: الصلاة عماد الإسلام، والجهد سنام العمل، والصدقة شيء عجيب، فقال له الرجل: أراك تركت شيئاً وهو أوفقها في نفسي: الصيام، فقال أبو ذر: قربة، وليس هناك، ثم تلا: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ... الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَلِئِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ شرط وجواب فيه وعد، أي: عليهم مجاز به وإن قل.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ... الآية، إخبار بمغيب عن محمد ﷺ وجميع الأميين لا يعلمه إلا الله وعلماء أهل الكتاب.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن معنى الآية: الرد على اليهود في قولهم في كل ما حرموه على أنفسهم من الأشياء: إنها محرمة عليهم بأمر الله في التوراة، فأكذبهم الله بهذه الآية، وأخبر أن جميع الطعام كان حلاً لهم إلا ما حرم إسرائيل على نفسه خاصة ولم يرد به ولده، فلما استئثوا هم به جاءت التوراة بتحريم ذلك عليهم، وليس من التوراة شيء من الزوائد التي يدعون أن الله حرمها، وإلى هذا تنحو ألفاظ السدي، قال: إن الله تعالى حرم ذلك عليهم في التوراة عقوبة

البر: الجنة؛ وهذا تفسير بالمعنى، وإنما الخاص باللفظة أنه ما يفعله البر من أفعال الخير، فتحتمل الآية أن يريد: لن تنالوا بر الله تعالى بكم، أي رحمته ولطفه، ويحتمل أن يريد: لن تنالوا درجة الكمال من فعل البر حتى تكونوا أبراراً إلا بالإنفاق المنضاف إلى سائر أعمالكم.

وبسبب نزول هذه الآية تصدق أبو طلحة بحائطه، المسمى بيرحا، وتصدق زيد بن حارثة بفرس كان يحبها، فأعطاهما

رسول الله ﷺ أسامة ابنه، فكان زيدا شق عليه فقال له النبي: «أما إن الله قد قبل صدقتك». وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يشتري له جارية من سبي جلولاة وقت فتح مدائن كسرى على يدي سعد بن أبي وقاص، فسقيت إليه وأحبها فدعا بها يوماً وقال: إن الله يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَاكُمْ﴾ فاعتقها. فهذا كله حمل للآية على أن قوله تعالى: ﴿وَمَا حُبَبْنَاكُمْ﴾ أي: من رغائب الأموال يُضَنُّ بها، ويتفسر بقول النبي ﷺ: «خير الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى... الحديث. وذهب قوم من العلماء إلى أن ما يحب من المطعومات على قدر الاشتناء يدخل في الآية، فكان عبدالله بن عمر

لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَاكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَلِئِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُتُبَ صَدُوقِكُمْ ﴿٩٣﴾ مِمَّنْ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَى سَبِيلٍ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عَوَاجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَنْ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تُطِيعُوا قُرْبَانِ الَّذِينَ آمَنُوا وَتُؤْتُوا الْكُتُبَ يَرْدُوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَكُونُوا

٩٢ - ٩٣ تفسير قوله عز وجل:

ذهب بعض الناس إلى أن يصل معاني هذه الآيات بعضها ببعض، من حيث أخبر تعالى أنه لا يقبل من الموافى على الكفر مرة الأرض ذهاباً، وقد بان أنه يقبل من المؤمن القليل والكثير، فحُضَّ على الإنفاق من المحبوب المرغوب فيه، ثم ذكر تقرب إسرائيل عليه السلام بتحريم ما كان يحب على نفسه، ليدل تعالى على أن جميع التقربات تدخل بالمعنى في جملة الإنفاق من المحبوب. وفسر جمهور المفسرين هذه الآيات على أنها معانٍ منحازة، نظمها الفصاحة المعجزة أجمل نظم.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا... الآية، خطاب لجميع المؤمنين؛ وقال السدي وعمر بن ميمون:

لاستئنائهم في تحريم شيء إنما فعله يعقوب خاصة لنفسه، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فَيُظْلَمُونَ أَلَّا بَرَأَ اللَّهُ مَا كَانُوا يَحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر في لفظة الظلم أنها مختصة بتحريم ونحوه، يدل على ذلك أن العقوبة وقعت بذلك النوع.

وذهب قوم من العلماء إلى أن معنى الآية: الرد على قوم من اليهود قالوا: إن ما نحرمه الآن على أنفسنا من الأشياء التي لم تذكر في التوراة كان علينا حراماً في ملة أبينا إبراهيم، فأكذبهم الله وأخبر أن الطعام كله كان حلالاً لهم قبل التوراة إلا ما حرم إسرائيل في خاصته، ثم جاءت التوراة بتحريم ما نصت عليه، وبقيت هذه الزوائد في حيز افتراءهم وكذبهم؛ وإلى هذا تنحو ألفاظ ابن عباس رضي الله عنه، وترجم الطبري في تفسير هذه الآية بتراجم، وأدخل تحتها أقوالاً توافق تراجمه، وحمل ألفاظ الضحاك أن الاستثناء منقطع وكان المعنى: كل الطعام كان حلالاً لهم قبل نزول التوراة وبعد نزولها، وهذا شيء لم يقله الضحاك ولا يحتمله لفظه، لكنه في نفسه كلام متخرج على أن يجعل ﴿كَانَ﴾ لا تخص الماضي من الزمان، بل تكون بمنزلة التي في قولك: «وَكَانَ اللَّيْلُ غُفُوراً رَحِيماً»؛ والمعنى: إلا ما حرم إسرائيل على نفسه فحرم عليهم في التوراة لا هذه الزوائد التي افتروها، فيرجع المعنى إلى القول الأول الذي حكيناه. وحمل الطبري قول الضحاك أن

معناه: لكن إسرائيل حرم على نفسه خاصة ولم يحرم الله على بني إسرائيل في تورا ولا غيرها. وهذا تحميل يرد عليه قوله تعالى: ﴿حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وقوله ﷺ: «حرمت عليهم الشحوم» إلى غير ذلك من الشواهد. وقوله تعالى: ﴿حَلَالاً﴾ ومعناه: حلالاً، و﴿حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هو يعقوب. وانتزع من هذه الآية أن للأنبياء أن يحرموا باجتهادهم على أنفسهم ما اقتضاه النظر لمصلحة أو قرينة أو زهد، ومن هذا على جهة المصلحة تحريم النبي ﷺ جاريته على نفسه، فعاتبه الله تعالى في ذلك ولم يعاتب يعقوب، فقول: إن ذلك لحق آدمي ترتب في نازلة نبينا محمد ﷺ، وقيل: إن هذا تحريم تقرب وزهد، وتحريم الجارية تحريم غضب ومصلحة نفوس.

واختلف الناس في الشيء الذي حرمه يعقوب على نفسه؛ فقال يوسف بن مالهك: جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال له: إنه جعل امرأته عليه حراماً، فقال ابن عباس: إنها ليست عليك بحرام، فقال الأعرابي: ولم والله تعالى يقول في كتابه: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ لِلزَّكَّاءِ عَلَى نَفْسِهِ﴾؟ فضحك ابن عباس وقال: وما يدريك ما حرم إسرائيل؟ ثم أقبل على القوم يحدثهم فقال: إن إسرائيل عرضت له الأنساء فأضنته فجعل لله إن شفاها من ذلك ألا يطعم عرقاً، قال: فلذلك اليهود تنزع العروق من اللحم، وقال بمثل هذا القول قتادة وأبو مجلز وغيرهم.

وقال ابن عباس والحسن بن أبي

الحسن وعبدالله بن كثير ومجاهد أيضاً: إن الذي حرم إسرائيل هو لحوم الإبل والبانها، ولم يختلف فيما علمت أن سبب التحريم هو من مرض أصابه، فجعل تحريم ذلك شكراً لله تعالى إن شفي. وقيل: هو وجع عرق النساء. وفي حديث عن النبي ﷺ أن عصابة من بني إسرائيل قالوا له: يا محمد ما الذي حرم إسرائيل على نفسه؟ فقال لهم: «أشددكم بالله هل تعلمون أن يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر الله نذراً إن عافاه الله من سقمه ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل والبانها؟ قالوا: اللهم نعم».

وظاهر الأحاديث والتفاسير في هذا الأمر أن يعقوب عليه السلام حرم لحوم الإبل والبانها - وهو يحبها - تقرباً إلى الله بذلك، إذ ترك الترفه والتنعم من القرب، وهذا هو الزهد في الدنيا، وإليه نحا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: «إياكم وهذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر» ومن ذلك قول أبي حازم الزاهد، وقد مر بسوق الفاكة فرأى محاسنها فقال: موعدك الجنة إن شاء الله، وحرم يعقوب عليه السلام أيضاً العروق، لكن بغضاً لها لما كان امتحن بها، وهذا شيء يعتري نفوس البشر في غير ما شيء، وليس في تحريم العروق قرينة فيما يظهر، والله أعلم. وقد روي عن ابن عباس أن يعقوب حرم العروق ولحوم الإبل.

وأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يأمرهم

بالإتيان بالتوراة، حتى يبين منها كيف الأمر، المعنى: فإنه أيها اليهود، كما أنزل الله عليّ لا كما تدعون أنتم؛ قال الزجاج: وفي هذا تعجيزٌ لهم وإقامة الحجة عليهم، وهي كقصّة المباهلة مع نصارى نجران.

﴿٩٤﴾ - ﴿٩٦﴾ تفسير قوله عزّ وجل:

قوله: ﴿فَنَسِيَ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ تحتل الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ أن تكون إلى ثلاثة أشياء:

أحدها: أن تكون إلى التلاوة إذ مضى بيّان المذهب وقيام الحجة، أي: فمن كذب منا على الله تعالى أو نسب إلى كتب الله ما ليس فيها فهو ظالم، واضع الشيء في غير موضعه.

والآخر: أن تكون الإشارة إلى استقرار التحريم في التوراة، لأن معنى الآية: كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، ثم حرّمته التوراة عليهم عقوبة لهم، فمن افترى على الله الكذب وزاد في المحرمات فهو الظالم.

والثالث: أن تكون الإشارة إلى الحال بعد تحريم إسرائيل على نفسه وقبل نزول التوراة، أي: من تسنن ببيعقوب وشرع ذلك دون إذن من الله، ومن حرم شيئاً ونسبه إلى ملة إبراهيم فهو الظالم. ويؤيد هذا الاحتمال الأخير قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَزِ الْأَيُّوتِ هَآؤُلَا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ فنصّ على أنه كان لهم ظلم في معنى التحليل والتحريم،

وكانوا يشذّون فشذّ الله عليهم، كما فعلوا في أمر البقرة. وبخلاف هذه السيرة جاء الإسلام في قوله ﷺ: «يسروا ولا تمسروا»، وقوله: «دين الله يسر» وقوله: «بعثت بالحنيفية السمحة».

ثم أمر الله تعالى نبيه أن يصدع بالخلاف والجدال مع الأخبار بقوله: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي: الأمر كما وصف لا كما تكذبون أنتم، فإن كنتم تعتزون بإبراهيم فاتبعوا ملته على ما ذكر الله.

وقرأ أبان بن تغلب: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ بإدغام اللام في الصاد، وكذلك: ﴿قُلْ سِيرُوا﴾ قرأها بإدغام اللام في السين. قال أبو الفتح: علة جواز ذلك فشوّ هذين الحرفين في الفم وانتشار الصدى المنبث عنهما، فقاربتا بذلك مخرج اللام، فجاز إدغامهما فيهما. وقرأ جمهور الناس: ﴿وُضِعَ﴾ على بناء الفعل للمفعول على معنى: وضعه الله، فالآية على هذا ابتداء معنى منقطع من الكلام الأول. وقرأ عكرمة: ﴿وُضِعَ﴾ بفتح الواو والضاد، فيحتمل أن يريد: وضع الله، فيكون المعنى منقطعاً كما هو في قراءة الجمهور. ويحتمل أن يريد وضع إبراهيم عليه السلام، فيكون المعنى متصلاً بالذي قبله، وتكون هذه الآية استدعاء لهم إلى ملته في الحج وغيره على ما روى عكرمة أنه لما نزلت: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾... الآية، قال اليهود: نحن على الإسلام، فقرئت: ﴿وَرَلَّ عَلَى النَّاسِ جُنْحُ اللَّيْلِ﴾ قيل له: أحجّهم

يا محمد إن كانوا على ملة إبراهيم التي هي الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويؤيد هذا التأويل ما قال أبو ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، فيظهر من هذا أنهما من وضع إبراهيم جميعاً، ويضعف ما قال الزجاج من أن بيت المقدس من بناء سليمان بن داود، اللهم إلا أن يكون جدّه، وأين مدّة سليمان من مدة إبراهيم؟ ولا مرية في أن إبراهيم وضع بيت مكة، وإنما الخلاف هل وُضِعَ بدءاً أو وُضِعَ تجديد؟

واختلف المفسرون في معنى هذه «الأولية» التي في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ﴾؛ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: معنى قوله: إِنَّ أَوَّلَ بيت وُضِعَ مباركاً وهدى هذا البيت الذي بمكة، وقد كانت قبله بيوت لم توضع وضعه من البركة والهدى. وقال قوم: بل هو أول بيت خلق الله تعالى ومن تحته دُجِيت الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورويت في هذا أقاصيص من نزول آدم به من الجنة ومن تحديد حدّ ما بين خلقه ودحو الأرض، ونحو ما قال الزجاج من أنه البيت المعمور، أسانيداً ضعافاً فلذلك تركتها. وعلى هذا القول يجيء رفع إبراهيم القواعد تجديدياً؛ وقال قتادة: ذكر لنا أن البيت أمبط مع آدم ورفع وقت الطوفان.

واختلف الناس في ﴿بَكَّة﴾؛ فقال الضحاك وجماعة من العلماء: بكّة: هي مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأنّ هذا من إبدال الباء بالميم، على لغة مازن وغيرهم.

وقال ابن جبير وابن شهاب وجماعة كثيرة من العلماء: مكّة: الحرم كله، وبكّة: مزدحم الناس حيث يتباكون، وهو المسجد وما حول البيت. وقال مالك في سماع ابن القاسم من العتبية: بكّة: موضع البيت، ومكّة: غيره من المواضع؛ قال ابن القاسم: يريد القرية. قال الطبري: ما خرج عن موضع الطواف فهو مكّة لا بكّة. وقال قوم: بكّة: ما بين الجليلين، ومكّة: الحرم كله.

و﴿مَبَارَكًا﴾ نصب على الحال، والعامل فيه على قول علي بن أبي طالب إنه أول بيت وضع بهذه الحال - قوله: ﴿وُضِعَ﴾، والعامل فيه على القول الآخر - الفعل الذي تتعلق به باء الجر في قوله: ﴿بِكَكَّة﴾ تقديره: استقرّ ببكّة مباركاً. وفي وصف البيت بهديّ مجازية بليغة، لأنه مقوّم مصلح، فهو مرشد، وفيه إرشاد، فجاء قوله: ﴿وَهْدًى﴾ بمعنى: وذا هدى، ويحتمل أن يكون هدىً في هذه الآية بمعنى الدعاء، أي من حيث دعي العالمون إليه.

﴿٩٧﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ:

الضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ عائذ على البيت، وساغ ذلك مع كون الآيات خارجة عنه لأن البيت إنما وضع بحرمة، وجميع فضائله فهي فيه وإن لم تكن داخل جدرانه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالجمع، وقرأ أبي بن كعب وعمر وابن عباس: ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ على الأفراد، قال الطبري: يريد علامة واحدة؛ المقام وحده، وحكي ذلك عن مجاهد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يريد بالآية اسم الجنس فيقرب من معنى القراءة الأولى.

واختلفت عبارة المفسرين عن الآيات البينات؛ فقال ابن عباس: من الآيات المقام، يريد الحجر المعروف والمشعر وغير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يدل على أن قراءته ﴿آيَةً﴾ بالأفراد إنما يراد بها اسم الجنس.

وقال الحسن بن أبي الحسن: الآيات البينات مقام إبراهيم، وأن من دخله كان آمناً. وقال مجاهد: المقام الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ كلام آخر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فرفع ﴿مَقَامًا﴾ على قول الحسن ومجاهد - على البذل من ﴿آيَاتٍ﴾، أو على خبر ابتداء تقديره: هن مقام إبراهيم، وعلى قول ابن عباس ومن نحا نحوه - هو مرتفع بالابتداء وخبره محذوف مقدر تقديره: منهن مقام إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمترجح عندي أن المقام وأمن الداخل جعلاً مثلاً مما في حرم الله من الآيات، وخَصّاً بالذكر لعظمهما، وأنهما تقوم بهما الحجة على الكفار، إذ هم المدركون لهاتين الآيتين بحواسهم. ومن آيات الحرم

والبيت التي تقوم بها الحجة على الكفار أمرُ الفيل، ورمي طير الله عنه بحجارة السجيل، وذلك أمر لم تختلف كافة العرب في نقله وصحته إلى أن أنزله الله في كتابه. ومن آياته كفّ الجابرة عنه على وجه الدهر.

ومن آياته الحجز الأسود وما روي فيه أنه من الجنة، وما أشربت قلوب العالم من تعظيمه قبل الإسلام. ومن آياته حجر المقام، وذلك أنه قام عليه إبراهيم عليه السلام وقت رفعه القواعد من البيت لما طال البناء، فكلماً علا الجدار ارتفع الحجر به في الهواء، فما زال يبني وهو قائم عليه وإسماعيل يناوله الحجارة والطين حتى أكمل الجدار، ثم إن الله تعالى لما أراد إبقاء ذلك آية للعالمين لئّن الحجر، ففرقت فيه قدما إبراهيم عليه السلام كأنها في طين، فذلك الأثر العظيم باق في الحجر إلى اليوم. وقد نقلت كافة العرب ذلك في الجاهلية على مرور الأعصار، وقال أبو طالب:

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ
عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلٍ
فَمَا حَفِظَ أَنْ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ نَازِعٍ
فِي هَذَا الْقَوْلِ. ومن آياته البينات زمزم في تبعها لهاجر بهمز جبريل عليه السلام الأرض بعقبه، وفي حفر عبدالمطلب لها آخراً بعد ذنورها بتلك الرؤيا المشهورة، وبما نبع من الماء تحت خفّ ناقتة في سفره، إلى متافرة قريش ومخاصمتها في أمر زمزم، ذكر ذلك ابن إسحاق مستوعباً، ومن آيات البيت نَفْعُ ماء زمزم لما شُرِبَ له، وأنه يعظم ماؤها

في الموسم ويكثر كثرة خارقة للعادة في الآبار. ومن آياته: الأمانة الثابتة فيه على قديم الدهر، وأن العرب كانت يغير بعضها على بعض وَيَنْتَخِطُ النَّاسُ بِالْقَتْلِ وَأَخَذِ الْأَمْوَالِ وَأَنْوَاعِ الظُّلْمِ إِلَّا فِي الْحَرَمِ؛ وَتَرْكِبُ عَلَى هَذَا أَمْرُ الْحَيَوَانِ فِيهِ وَسَلَامَةُ الشَّجَرِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ لِلْبَرَكَةِ الَّتِي خَصَّهُ اللَّهُ بِهَا، والدعوة من الخليل عليه السلام في قوله: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَةً﴾. وإذعان نفوس العرب وغيرهم قاطبة لتوقير هذه البقعة دون نأه ولا زاجر آية عظمى تقوم بها الحجة، وهي التي فسرت بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾.

ومن آياته كونه بواد غير ذي زرع والأرزاق من كل قطر تجيء إليه عن قرب وعن بعد. ومن آياته ما ذكر ابن القاسم العتقي رحمه الله، قال في النوادر وغيرها: سمعت أن الحرم يعرف بأن لا يجيء سيل من الحل فيدخل الحرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا - والله أعلم - لأن الله تعالى جعله ربوة أو في حكمها ليكون أصولاً له، والحرم - فيما حكى ابن أبي زيد في الحج الثاني من النوادر - مما يلي المدينة نحواً من أربعة أميال إلى منتهى التنعيم، ومما يلي العراق نحو ثمانية أميال إلى مكان يقال له المقطع، ومما يلي عرفة تسعة أميال، ومما يلي طريق اليمن سبعة أميال إلى موضع يقال له أضاة، ومما يلي جدة عشرة أميال إلى منتهى الحديدية. قال مالك في العتبية: والحديدية في الحرم.

ومن آياته فيما ذكر مكي وغيره أن الطير لا تعلقه، وإن علاه طائر فإنما ذلك لمرض به، فهو يستشفى بالبيت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله عندي ضعيف، والطير تعابن تعلقه، وقد علت العقاب التي أخذت الحية المشرفة على جداره، وتلك كانت من آياته.

ومن آياته فيما ذكر الناس قديماً وحديثاً أنه إذا عمه المطر من جوانبه الأربع في العام الواحد أخضبت آفاق الأرض، وإن لم يصب جانباً منه لم يخضب ذلك الأفق الذي يليه ذلك العام.

واختلف الناس في مقام إبراهيم؛ فقال الجمهور: هو الحجر المعروف، وقال قوم: البيت كله مقام إبراهيم لأنه بناء وقام في جميع أقطاره، وقال قوم من العلماء: مكة كلها مقام إبراهيم، وقال قوم: الحرم كله مقام إبراهيم. والضمير في قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾ عائذ على الحرم في قول من قال: مقام إبراهيم هو الحرم، وعائذ على البيت في قول الجمهور، إذ لم يتقدم ذكر لغيره، إلا أن المعنى يفهم منه أن من دخل الحرم فهو في الأمن، إذ الحرم جزء من البيت، إذ هو بسببه وبحرمته.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿كَانَ آيَةً﴾؛ فقال الحسن وقتادة وعطاء ومجاهد وغيرهم: هذه وصف حال كانت في الجاهلية أن الذي يجز جريرة ثم يدخل الحرم فإنه كان لا يتناول ولا يطلب، فأما في الإسلام وأمن جميع الأقطار فإن

الحرم لا يمتنع من حد من حدود الله: من سرق فيه قطع، ومن زنى رجم، ومن قتل قتل. واستحسن كثير ممن قال هذا القول أن يخرج من وجب عليه القتل إلى الجبل فيقتل هنالك. وقال ابن عباس رضي الله عنه: من أحدث حدثاً ثم استجار بالبيت فهو آمن، وإن الأمر في الإسلام على ما كان في الجاهلية، والإسلام زاد البيت شرفاً وتوقيراً، فلا يعرض أحد بمكة لقاتل وليه، إلا أنه يجب على المسلمين ألا يبايعوا ذلك الجاني ولا يكلموه ولا يؤوه حتى يتبرم فيخرج من الحرم فيقام عليه الحد. وقال بمثل هذا عبيد بن عمير والشعبي وعطاء بن أبي رباح والسدي وغيرهم؛ إلا أن أكثرهم قالوا هذا فيمن يقتل خارج الحرم ثم يعود بالحرم، فأما من يقتل في الحرم فإنه يقام عليه الحد في الحرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا تؤمل أمر هذا الذي لا يكلم ولا يبايع، فليس بآمن.

وقال يحيى بن جعدة: معنى الآية: ومن دخل البيت كان آمناً من النار. وحكى النقاش عن بعض العباد قال: كنت أطوف حول الكعبة ليلاً فقلت: يا رب إنك قلت: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ فمن ماذا هو آمن يا رب؟ فسمعت مكملاً يكلمني وهو يقول: من النار، فنظرت وتأملت فما كان في المكان أحد.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾... الآية، هو فرض الحج في كتاب الله بإجماع. وقال مالك

رحمه الله: الحج كله في كتاب الله، فأما الصلاة والزكاة فهي من مجمله الذي فسره النبي عليه السلام، والحج من دعائم الإسلام التي بني عليها حسب الحديث، وشروط وجوبه خمسة: البلوغ، والعقل، والحرية، والإسلام، واستطاعة السبيل. والحج في اللغة: القصد، لكنه في بيت الله مخصص بأعمال وأقوال.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿حَجَّ الْبَيْتِ﴾ بكسر الحاء، وقرأ الباقر: ﴿حَجَّ الْبَيْتِ﴾ بفتحها. قال سيبويه: حَجَّ حَجًّا مثل ذَكَرَ ذِكْرًا، قال أبو علي: فَجَجَ على هذا مصدر، وقال سيبويه أيضاً: قالوا غزاة فأرادوا عمل وجه واحد كما قيل جتة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: - بكسر الحاء، يريدون عمل سنة واحدة - ولم يجيئوا به على الأصل لكنه اسم له. قال أبو علي: قوله: «لم يجيئوا به على الأصل» يريد على الفتح الذي هو الدفعة من الفعل، ولكن كسروه فجعلوه اسماً لهذا المعنى، كما أن غزاة كذلك، ولم تجيء فيه الغزوة وكان القياس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأكثر ما التزم كسر الحاء في قولهم ذو الحجة، وأما قولهم: حَجَّةُ الرودع ونحوه فإنها على الأصل. وقال الزجاج وغيره: الحَجَّ - بفتح الحاء - المصدر، وبكسرها اسم العمل. وقال الطبري: هما لغتان: الكسر لغة نجد، والفتح لغة أهل العالية.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: ﴿مَنْ﴾ في موضع خفض بدل من ﴿أَلْتَأَسَّ﴾ وهو يدل البعض من الكل. وقال الكسائي وغيره: هي شرط في موضع رفع بالابتداء، والجواب محذوف تقديره: فعليه الحج؛ ويدل عليه عطف الشرط الآخر بعده في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ وقال بعض البصريين: ﴿مَنْ﴾ رفع على أنه فاعل بالمصدر الذي هو ﴿حَجَّ الْبَيْتِ﴾ ويكون المصدر مضافاً إلى المفعول.

واختلف الناس في حال مستطيع السبيل كيف هي؟ فقال عمر بن الخطاب وابن عباس وعطاء وسعيد بن جببر: هي حال الذي يجد زاداً وراحلة. وروى الطبري عن الحسن من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزي أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية فقال له رجل: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: «الزاد والراحلة». وأسند الطبري إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً وراحلة فلم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً». وروى عبدالرزاق وسفيان عن إبراهيم بن يزيد الخوزي عن محمد بن عباد بن جعفر عن ابن عمر قال: قام رجل إلى النبي عليه السلام، فقال: ما السبيل؟ قال: «الزاد والراحلة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وضعف قوم هذا الحديث لأن إبراهيم بن يزيد الخوزي تكلم فيه ابن معين وغيره، والحديث مستغن عن طريق إبراهيم، وقال بعض

البغداديين: هذا الحديث مشير إلى أن الحج لا يجب شيئاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي أقول: إن هذا الحديث إنما خرج على الغالب من أحوال الناس وهو البعد عن مكة واستصعاب المشي على القدم كثيراً، فأما القريب الدار فلا يدخل في الحديث، لأن القرب أغناه عن زاد وراحلة. وأما الذي يستطيع المشي من الأقطار البعيدة، فالراحلة عنده بالمعنى والقوة التي وهب. وقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ وكذلك أيضاً معنى الحديث: الزاد والراحلة إن لم يكن له عذر في بدنه، من مرض أو خوف على أقسامه أو استحقاق بأجرة أو دين وهو يحاول الأداء، ويطمع فيه بتصرفه في مال بين يديه، وأما العديم فله أن يحج إذا تكلف واستطاع، فمقصود الحديث أن يتحدد موضع الوجوب على البعيد الدار، وأما المشاء وأصحاب الأعداء فكثير منهم من يتكلف السفر وإن كان الحج غير واجب عليه، ثم يؤديه ذلك التكلف إلى موضع يجب فيه الحج عليه، وهذه مبالغة في طلب الأجر ونيله، إن شاء الله تعالى.

وذهبت فرقة من العلماء إلى أن قوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ كلام عام لا يتفسر بزاد وراحلة ولا غير ذلك، بل إذا كان مستطيعاً غير شاق على نفسه فقد وجب عليه الحج، قال ذلك ابن الزبير والضحاك. وقال الحسن: من وجد شيئاً يبلغه فقد استطاع إليه سبيلاً.

وقال عكرمة: استطاعة السبيل: الصحة. وقال ابن عباس: من ملك ثلاثمائة درهم فهو السبيل إليه. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه - في سماع أشهب من العتبية، وفي كتاب محمد، وقد قيل له: أتقول إن السبيل الزاد والراحلة؟ - فقال: لا والله، قد يجد زاداً وراحلة ولا يقدر على مسير، وآخر يقدر أن يمشي راجلاً، ورب صغير أجلد من كبير، فلا صفة في هذا أبين مما قاله الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أنبل كلام؛ وجميع ما حكي عن العلماء لا يخالف بعضه بعضاً، الزاد والراحلة على الأغلب من أمر الناس في البعد، وأنهم أصحاب غير مستطيعين للمشي على الأقدام، والاستطاعة - متى تحصلت - عامة في ذلك وغيره، فإذا فرضنا رجلاً مستطيعاً للسفر ماشياً معتاداً لذلك، وهو ممن يسأل الناس في إقامته ويعيش من خدمتهم وسؤالهم، ووجد صحابة، فالحج عليه واجب دون زاد ولا راحلة. وهذه من الأمور التي يتصرف فيها فقه الحال. وكان الشافعي يقول: الاستطاعة على وجهين؛ بنفسه أولاً، فمن منعه مرض أو عذر وله مال فعلية أن يجعل من يحج عنه وهو مستطيع لذلك.

واختلف الناس، هل وجوب الحج على الفور أو على التراخي؟ على قولين، ولمالك رحمه الله مسائل تقتضي القولين، قال في «المجموعة» فيمن أراد الحج ومنعه أبواه: لا

يعتجل عليهما في حجة الفريضة وليستأذنهما العام والعامين، فهذا على التراخي. وقال في كتاب ابن المواز: لا يحج أحد إلا بإذن أبيه إلا الفريضة، فليخرج وليدعهما، فهذا على الفور. وقال مالك في المرأة يموت عنها زوجها فتريد الخروج إلى الحج: لا تخرج في أيام عدتها، قال الشيخ أبو الحسن اللخمي: فجعله على التراخي. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا استقراء فيه نظر.

واختلف قول مالك رحمه الله فيمن يخرج إلى الحج على أن يسأل الناس جائباً وذاهباً، ممن ليست تلك عادته في إقامته - فروى عنه ابن وهب أنه قال: لا بأس بذلك، قيل له: فإن مات في الطريق؟ قال: حسابه على الله. وروى عنه ابن القاسم أنه قال: لا أرى للذين لا يجدون ما ينفقون أن يخرجوا إلى الحج والغزو ويسألون، وإنني لأكره ذلك، لقول الله سبحانه: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَقْتَرُونَ حَرَجٌ﴾. قال ابن القاسم: وكره مالك أن يحج النساء في البحر لأنها كشفة، وكره أن يحج أحد في البحر إلا مثل أهل الأندلس الذين لا يجدون منه بداً، وقال في كتاب محمد وغيره: قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَیْبٍ﴾ ولا أسمع للبحر ذكراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأنيس من مالك رحمه الله بسقوط لفظة البحر، وليس تقتضي

الآية سقوط البحر، وسيأتي تفسير ذلك في موضعه إن شاء الله، وقد قال رسول الله ﷺ: «ناس من أمتي عرضوا علي ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة، يركبون ثبج هذا البحر الأخضر غزاةً في سبيل الله».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا فرق بين الغزو والحج.

واختلف في حج النساء ماشيات مع القدرة على ذلك، فقال في «المدونة» في المرأة تنذر مشياً فتمشي وتعجز في بعض الطريق: إنها تمود ثانية؛ قال: والرجال والنساء في ذلك سواء، فعلى هذا يجب الحج إذا كانت قادرة على المشي، لأن حجة الفريضة أكد من النذر. وقال في كتاب محمد: لا أرى على المرأة الحج ماشية وإن قويت عليه، لأن مشيهن عورة، إلا أن يكون المكان القريب من مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ينظر بفقهاء الحال إلى راحة أو متجالة.

ولا حج على المرأة إلا إذا كان معها ذو محرم، واختلف إذا عدته - هل يجب الحج بما هو في معناه من نساء ثقات يصطحبن في القافلة، أو رجال ثقات؟ فقال الحسن البصري وإبراهيم النخعي وابن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو حنيفة وأصحابه: المحرم من السبيل، ولا حج عليها إلا مع ذي محرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وقوف مع لفظ الحديث. وقال مالك: تخرج مع جماعة

نساء، وقال الشافعي: تخرج مع حرة ثقة مسلمة، وقال ابن سيرين: تخرج مع رجل ثقة من المسلمين، وقال الأوزاعي: تخرج مع قوم عدول وتتخذ مسلماً تصعد عليه وتنزل ولا يقرنها رجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الأقوال راعت معنى الحديث. وجمهور الأمة على أن للمرأة أن تحج الفريضة وإن كره زوجها، وليس له منعها. واضطرب قول الشافعي في ذلك.

واختلف الناس في وجوب الحج مع وجود المكوس والغرامة؛ فقال سفيان الثوري: إذا كان المكس ولو درهماً سقط فرض الحج عن الناس. وقال عبد الوهاب: إذا كانت الغرامة كثيرةً مجحفة سقط الفرض، فظاهر هذا أنها إذا كانت كثيرةً غير مجحفة لسعة الحال أن الفرض لا يسقط، وعلى هذا المنزع جماعة أهل العلم وعليه مضت الأعصار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه نبذة من فقه الاستطاعة، وليس هذا الجمع بموضع لتقصي ذلك، والله المستعان.

والسبيل: تذكر وتؤنث، والأغلب الألفصح التأنيث، قال الله تعالى: ﴿تَبَوَّءْنَا عِوَجًا﴾ وقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾؛ ومن التذكير قول كعب بن مالك:

قضى يوم بدر أن تلاقي معشراً بغوا، وسبيل البغي بالناس جائز والضمير في: ﴿إِلَيْهِ﴾ عائذ على البيت، ويحتمل أن يعود على الحج.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ غَلِيظٌ﴾ قال ابن عباس: المعنى: من زعم أن الحج ليس بفرض عليه، وقال مثله الضحاک وعطاء وعمران القطان والحسن ومجاهد. وروي عن النبي عليه السلام أنه قرأ الآية، فقال له رجل من هذيل: يا رسول الله من تركه كفر، فقال له النبي ﷺ: «من تركه لا يخاف عقوبته، ومن حجه لا يرجو ثوابه فهو ذلك». وقال بمعنى هذا الحديث ابن عباس ومجاهد أيضاً. وهذا والذي قبل يرجع إلى كفر الجحد والخروج عن الملة. وقال ابن عمر وجماعة من العلماء: معنى الآية: من كفر بالله واليوم الآخر، وهذا قريب من الأول. وقال ابن زيد: معنى الآية: من كفر بهذه الآيات التي في البيت، وقال السدي وجماعة من أهل العلم: معنى الآية: ومن كفر بأن وجد ما يحج به ثم لم يحج، قال السدي: من كان بهذه الحال فهو كافر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا كفر معصية، كقوله عليه السلام: «من ترك الصلاة فقد كفر» وقوله: «لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض» على أظهر احتمالات هذا الحديث. ويبين أن من أنعم الله عليه بمال وصحة ولم يحج فقد كفر النعمة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿غَفُورٌ غَلِيظٌ﴾ الوعيد لمن كفر. والقصد بالكلام: فإن الله غني عنهم، ولكن عمم اللفظ ليبرع المعنى، وينبه الفكر على قدرة الله وسلطانه

واستغنائه من جميع الوجوه حتى ليس به افتقار إلى شيء، لا رب سواه.

﴿٩٨﴾ - ﴿٩٩﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآيات توبيخ لليهود المعاصرين لمحمد ﷺ.

و﴿الكتاب﴾: التوراة، وجعلهم أهله بحسب زعمهم ونسبهم، وإلا فأهله على الحقيقة هم المؤمنون، و﴿آيات الله﴾: يحتمل أن يريد بها القرآن، ويحتمل أن يراد بالآيات العلامات الظاهرة على يدي محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد محض: أي يجازيكم به ويعاقبكم. قال الطبري: هاتان الآيتان قوله: ﴿قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ وما بعدهما إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، نزلت بسبب رجل من يهود حاول الإغراء بين الأوس والخزرج، قال ابن إسحاق: حدثني الثقة عن زيد بن أسلم، قال: مر شاس بن قيس اليهودي - وكان شياً قد عسا في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، وهم في مجلس يتحدثون، فغاطه ما رأى من جماعتهم، وصلاخ ذات بينهم، بعد ما كان بينهم من العداوة فقال: قد اجتمع ملا بني قيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود، فقال: اعمد إليهم واجلس معهم وذكرهم يوم بعث، وما كان قبله من

تطلبون لها العوج، أي الاعوجاج والانتفاد، تقول العرب: ابغني كذا بألف موصولة، بمعنى اطلبه لي، فإذا أرادوا أعني على طلبه واطلبه معي، قطعوا الألف مفتوحة. وقيل: إِنَّ ﴿تَبْغُونَ﴾ هنا، من البغي الذي هو التعدي، أي: تبغون عليها، ويكون ﴿عَرَبًا﴾ - على هذا التأويل - نصبه على الحال من الضمير في ﴿تَبْغُونَ﴾ أي: عوجاً منكم وعدم استقامة.

والعوج بكسر العين ما كان في الأمور والحجج غير الأجرام، والعوج بفتح العين ما كان في الأجرام كالجدار والعصا ونحو ذلك، قال ابن قتيبة: والأرض خاصة من الأجرام يقال فيها: عوج بكسر العين، ومنه قول الله تعالى: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِرَابًا وَلَا أَفْئًا ۚ﴾. قال بعض اللغويين: هما لغتان بمعنى واحد. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ يريد جمع شاهد، على ما في التوراة من صفة محمد وصدقه، وباقي الآية وعيد.

﴿١٠٠﴾ - ﴿١٠١﴾ تفسير قوله عز وجل: الخطاب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عام في المؤمنين، والإشارة بذلك وقت نزوله إلى الأوس والخزرج بسبب نائرة شاس بن قيس. والفريق: الجماعة من الناس، والمراد بها هنا الأحزاب والرؤوس، و﴿رُدُّكُمْ﴾ معناه: بالإضلال والتشكيك والمخادعة وإظهار الغش في معرض النصح.

ثم وقف المؤمنين على هذا الأمر المستبعد المستشنع الذي يريده بهم

الشیطان، فألقوا السلاح وبكرو وعانق بعضهم بعضاً من الأوس والخزرج، وانصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، فأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع هذه الآيات. وقال الحسن وقتادة والسدي: إن هذه الآيات نزلت في أحبار اليهود الذين كانوا يصدون المسلمين عن الإسلام، بأن يقولوا لهم، إن محمداً ليس بالموصوف في كتابنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا شك في وقوع هذين السبين وما شاكلهما من أفعال اليهود وأقوالهم، فنزلت الآيات في جميع ذلك.

وصد: معناه: أعرض عن الشيء وانصرف عنه، وهو فعل يقف ويتعدى بلفظ واحد، تقول: صددت عن كذا، وصددت غيري عنه، فالذي في هذه الآية هو الفعل المتعدي، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿تَصُدُّونَ﴾، بضم التاء وكسر الصاد، وهذا هو الفعل الواقف، نقل بالهمزة فعدي. و﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾ في هذه الآية هو الإسلام الذي هو طريق إلى رضى الله وجنته، و﴿مَنْ﴾ مفعولة بـ﴿تَصُدُّونَ﴾، والضمير في ﴿تَبْغُونَهَا﴾ عائد على السبيل، ومعنى ﴿تَبْغُونَ﴾ على ما فسر الزجاج والطبري وغيرهما: تطلبون، فالمعنى:

وَكَيْفَ تَصُدُّونَ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ عَلَيْنَا مَا آتَىٰ اللَّهُ مِنْ فَتْنَةٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا وَيُخَوِّذُ الْإِنَّمَاءَ أَتَمْنَوْنَ أَنَّ اللَّهَ حَقٌّ تَقَالِبُ وَلَا تَمُؤْنُ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۚ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۚ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَهْتَدُونَ مِنَ الْمُتَنكِرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۚ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۚ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۚ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدُّ ظُلُمًا لِّلْعَالَمِينَ ۚ

أيام حربهم، وأنشدتهم ما قالوه من الشعر في ذلك، ففعل الفتى، فتكلم القوم عند ذلك فتفاخروا وتنازعوا، حتى تواتب رجالان من الحيين على الركب: أوس بن قيطي، أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس، وجبار بن صخر من الخزرج، فتقالوا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتُم والله رددناها جذعة، فغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة، يريدون الحرية، فخرجوا إليها، وتحاور الناس على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، فقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدو عوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ وعظمهم فعرف القوم أنها نزعة من

اليهود، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ﴾ بهذه الأحوال الموصوفة؟ و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب على الحال، كما هي في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَخْبِكُمْ﴾ والمعنى أجاهلين؟ أمستخفين؟ أمرتدين؟ ونحو هذا من التقدير؛ والواو في قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ عاطفة جملة كلام على جملة كلام، ولا يجوز أن تكون «كيف» في هذه الآية كما هي في قولك: «كيف تفعل كذا؟» وأنت تسأل عن شيء ثابت الوقوع متحصله، لأنه كان يلزم أن يكون كفر المؤمنين مقررًا مثبت الوقوع. وتأمل معنى «كيف» إذا وليها فعل، ومعناها إذا وليها اسم. وقرأ جمهور الناس: ﴿تَتَلَّى﴾ بالتاء من فوق، وقرأ الحسن: ﴿يُتْلَى﴾ بالياء إذ الآيات هي القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَنَيْسُكُمْ﴾ هي ظرفية الحضور والمشاهدة لشخصه عليه السلام، وهو في أمته إلى يوم القيامة بأقواله وأثاره، و﴿يَنْتَعِمُ﴾ معناه: يتمسك ويستدري، وعصم الشيء إذا منع وحمي، ومنه قوله: ﴿يَعْصِي مِرْكَ الْمَاءِ﴾ والعصم: الأسباب التي يمت بها، ويعتصم من الخيبة في الغرض المطلوب، وقال الأعشى:

إلى المرء قيس أطيل الشرى
وأخذ من كل حي عُصْم
وتصرف اللفظة كثير جداً، وباقى الآية بين، والله المستعان.

١٠٢ - ١٠٣ تفسير قوله عز وجل:
الخطاب بهذه الآية يعم جميع

المؤمنين، والمقصود به وقت نزولها الأوس والخزرج الذين شجر بينهم بسعاية شاس بن قيس ما شجر.

وثقاة: مصدر وزنه فُعلة، أصله تقية، وقد تقدم قوله: ﴿لَا أَنْ تَشْتُوا مِنْهُمْ ثَمَنًا﴾، ويصح أن تكون الثقة في هذه الآية جمع فاعل وإن كان لم يتصرف منه فيكون كرماء ورام، أو يكون جمع تقي إذ فعيل وفاعل بمنزلة، والمعنى على هذا: اتقوا الله كما يحق أن يكون مثقوه المختصون به، ولذلك أضيفوا إلى ضمير الله تعالى.

واختلف العلماء في قوله: ﴿حَقَّ تَقَالِيدُ﴾، فقالت فرقة: نزلت الآية على عموم لفظها، وألزمت الأمة أن تتقي الله غاية التقوى حتى لا يقع إخلال في شيء من الأشياء، ثم إن الله نسخ ذلك عن الأمة بقوله تعالى: ﴿فَأَقْزُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ويقولون: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعًا﴾ قال ذلك قتادة والسدي والربيع بن أنس وابن زيد وغيرهم.

وقالت جماعة من أهل العلم: لا نسخ في شيء من هذا، وهذه الآيات متفقات، فمعنى هذه: اتقوا الله حق ثقاته فيما استطعتم، وذلك أن ﴿حَقَّ تَقَالِيدُ﴾ هو بحسب أوامره ونواهيه، وقد جعل تعالى الذين يصرأ، وهذا هو القول الصحيح، وألا يعصي ابن آدم جملة لا في صغيرة ولا في كبيرة وألا يفتر في العبادة؛ أمر متعذر في جملة البشر، ولو كلف الله هذا لكان تكليف ما لا يطاق، ولم يلتزم ذلك أحد في تأويل هذه الآية، وإنما عبروا في تفسير هذه الآية بأن قال

ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿حَقَّ تَقَالِيدُ﴾: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، وكذلك عبر الربيع بن خثيم وقاتة والحسن. وقال ابن عباس رضي الله عنه: معنى قوله تعالى: ﴿أَقْزُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَالِيدُ﴾: جاهدوا في الله حق جهاده، ولا نسخ في الآية. وقال طائوس في معنى قوله تعالى: ﴿أَقْزُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَالِيدُ﴾: يقول تعالى: إن لم تقوه ولم تستطيعوا ذلك فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ معناه: دوموا على الإسلام حتى يوافيكم الموت وأنتم عليه. وهكذا هو وجه الأمر في المعنى، وجاءت العبارة على هذا النظم الرائق الوجيز، ونظيره ما حكى سيبويه من قولهم: لا أرينك هاهنا، وإنما المراد: لا تكن هنا فتكون رؤيتي لك. و﴿مُسْلِمُونَ﴾ في هذه الآية: هو المعنى الجامع في التصديق والأعمال، وهو الذين عند الله وهو الذي بني على خمس.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ معناه: تمنعوا وتحصنوا به، فقد يكون الاعتصام بالتمسك باليد، وبارتقاء القنن، وبغير ذلك مما هو منعة، ومنه الأعصم في الجبل، ومنه عصمة النكاح، والحبل في هذه الآية مستعار، لما كان السبب الذي يعتصم به صلة ممتدة بين العاصم والمعصوم ونسبة بينهما شبه ذلك بالحبل الذي شأنه أن يصل شيئاً بشيء، وتسمى العهود والمواثيق حبلاً، ومنه قول الأعشى:

وَإِذَا تَجَازَوْهَا حَبَالُ قَبِيلَةٍ
أَخَذْتُ مِنَ الْأَدْنَى إِلَيْكَ حَبَالَهَا
ومنه قول الآخر:

إِنِّي بِحَبْلِكَ وَاصِلٌ حَبْلِي

ومنه قول الله تعالى: ﴿لَا يَحْبِلُ يَنْ
اللَّهُ وَحَبْلُ يَنْ النَّاسِ﴾.

واختلفت عبارة المفسرين في
المراد في هذه الآية بحبل الله؛ فقال
ابن مسعود: حبل الله: الجماعة.
وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ
أنه قال: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقُوا
عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنْ أُمِّي
سَتَفْتَرِقُ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً
كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً» قال: فقيل:
يا رسول الله، وما هذه الواحدة؟
قال: فقبض يده وقال: «الْجَمَاعَةُ»
وقرأ: ﴿وَأَتَّخِصُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾.

وقال ابن مسعود في خطبة: عليكم
بالطاعة والجماعة فإنها حبل الله
الذي أمر به. وقال قتادة رحمه الله:
حبل الله الذي أمر بالاعتصام به: هو
القرآن. وقال السدي: حبل الله:
كتاب الله، وقاله أيضاً ابن مسعود
والضحاك. وروى أبو سعيد الخدري
أن رسول الله ﷺ قال: «كُتِبَ اللَّهُ
هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى
الْأَرْضِ». وقال أبو العالية: حبل الله
في هذه الآية: هو الإخلاص في
التوحيد. وقال ابن زيد: حبل الله:
الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقيل غير هذا مما هو كله قريب
بعضه من بعض.

وقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ حال من
الضمير في قوله: ﴿وَأَعْتَصَمُوا﴾،

فالمعنى: كونوا في اعتصامكم
مجتمعين، ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ يريد التفرق
الذي لا يأتي معه الائتلاف على
الجهاد وحماية الدين وكلمة الله
تعالى. وهذا هو الافتراق بالفتن
والافتراق في العقائد، وأما الافتراق
في مسائل الفروع والفقه فليس يدخل
في هذه الآية. بل ذلك هو الذي قال
فيه رسول الله ﷺ: «خِلَافُ أُمِّي
رَحْمَةٌ» وقد اختلف الصحابة في
الفروع أشد اختلاف، وهم يد واحدة
على كل كافر. وأما الفتنة على
علي بن أبي طالب رضي الله عنه
فمن التفرق المنهني عنه، أما إن
التأويل هو الذي أدخل في ذلك أكثر
من دخله من الصحابة رضي الله عن
جميعهم.

﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

هذه الآية تدل على أن الخطاب
بهذه الآية إنما هو للأوس والخزرج،
وذلك أن العرب - وإن كان هذا
اللفظ يصلح في جميعها - فإنها لم
تكن في وقت نزول هذه الآية
اجتمعت على الإسلام ولا تألفت
قلوبها، وإنما كانت في قصة
شاس بن قيس في صدر الهجرة،
وحينئذ نزلت هذه الآية، فهي في
الأوس والخزرج، كانت بينهم عداوة
وحروب، منها يوم بعث وغيره،
وكانت تلك الحروب والعداوة قد
دامت بين الحيين مائة وعشرين سنة،
حتى رفعها الله بالإسلام، فجاء النفر
السته من الأنصار إلى مكة حجاجاً،
فعرض رسول الله ﷺ نفسه عليهم،
وتلا عليهم القرآن كما كان يصنع مع
قبائل العرب، فأمنوا به، وأراد

الخروج معهم فقالوا: يا رسول الله،
إن قدمت بلادنا على ما بيننا من
العداوة والحرب خفنا ألا يتم ما
نريده منك، ولكن نمضي نحن
ونشيع أمرك ونداخل الناس،
وموعدا وإياك العام المقبل، فمضوا
وفعلوا. وجاءت الأنصار في العام
التالي، فكانت العقبة الثانية وكانوا
اثني عشر رجلاً، فيهم خمسة من
السته الأولين، ثم جاؤوا من العام
الثالث فكانت بيعة العقبة الكبرى،
حضرها سبعون وفيهم اثنا عشر
نقيباً؛ ووصف هذه القصة مستوعب
في سيرة ابن هشام.

ويسر الله تعالى الأنصار للإسلام
بوجهين:

أحدهما: أن بني إسرائيل كانوا
مجاورين لهم وكانوا يقولون لمن
يتعدونه من العرب: بيعت لنا نبي
الآن تقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما
رأى النفر من الأنصار محمداً ﷺ،
قال بعضهم لبعض: هذا والله النبي
الذي تذكره بنو إسرائيل فلا تُسْبَقَنَّ
إليه.

والوجه الآخر: الحرب التي كانت
ضرتهم وأفتت سراتهم، فرجوا أن
يجمع الله به كلمتهم كالذي كان،
فعدد الله تعالى عليهم نعمته في
تأليفهم بعد العداوة، وذكرهم بها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بَيْعَتُكُمْ﴾ عبارة
عن الاستمرار وإن كانت اللفظة
مخصوصة بوقت ما. وإنما خُصَّت
هذه اللفظة بهذا المعنى من حيث
هي مبدأ النهار، وفيها مبدأ الأعمال،
فالحال التي يحسها المرء من نفسه
فيها هي حاله التي يستمر عليها يومه

في الأغلب، ومنه قول الربيع بن ضبع:

أصبح لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا والإخوان: جمع أخ، ويجمع إخوة، وهذان أشهر الجمع فيه، على أن سيبويه رحمه الله يرى أن إخوة اسم جمع، وليس ببناء جمع لأن فعلاً لا يجمع على فعلة، قال بعض الناس: الأخ في الدين يجمع إخواناً، والأخ في النسب يجمع إخوة: هكذا كثر استعمالهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وفيه ﴿أَزْوَاجٌ يُخْرَجُونَ﴾ فالصحيح أنهما يقالان في النسب، ويقالان في الدين.

والشفا: حرف كل جرم له مهوى، كالحفرة والبئر والسقف والجدار ونحوه، ويضاف في الاستعمال إلى الأعلى كقوله: ﴿شَفَا جُرَيْبٍ﴾ وإلى الأسفل كقوله: ﴿شَفَا حُفْرَةَ﴾، ويشئ شفوان. فشبه تعالى كفرهم الذي كانوا عليه وحربهم المُنذِية من الموت بالشفا، لأنهم كانوا يسقطون في جهنم دأباً فانقذهم الله بالإسلام، والضمير في ﴿يَنْهَاكُمُ﴾ عائد على النار أو على الحفرة، والعود على الأقرب أحسن، وقال بعض الناس - حكاه الطبري -: إن الضمير عائد على الشفا، وأنت الضمير من حيث كان الشفا مضافاً إلى مؤنث، فالآية كقول جرير:

رأت مر السنين أخذن مني كما أخذ السرايز من الهلال إلى غير ذلك من الأمثلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس الأمر كما ذكر، والآية لا يحتاج فيها إلى هذه الصناعة، إلا لو لم تجد معاداً للضمير إلا الشفا، وأما ومعنا لفظ مؤنث يعود الضمير عليه وبعضه المعنى المتكلم فيه، فلا يحتاج إلى تلك الصناعة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ إشارة إلى ما بين في هذه الآيات، أي: فكذلك يبين لكم غيرها. وقوله: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ فِي حَقِّ الْبَشَرِ﴾ أي: من تأمل منكم الحال رجا الانتهاء.

﴿١٠٤﴾ - ﴿١٠٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الحسن والزهري وأبو عبد الرحمن وعيسى بن عمر وأبو حيوة: ﴿وَلَتَكُنَّ﴾ بكسر اللام على الأصل، إذ أصلها الكسر، وكذلك قرؤوا لام الأمر في جميع القرآن.

قال الضحاك والطبري وغيرهما: أمر المؤمنون أن تكون منهم جماعة بهذه الصفة، فهم خاصة أصحاب الرسول، وهم خاصة الرواة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا القول ﴿مِنْ﴾ للتبعية. وأمر الله الأمة بأن يكون منها علماء يفعلون هذه الأفعال على وجوها ويحفظون قوانينها على الكمال، ويكون سائر الأمة متبعين لأولئك، إذ هذه الأفعال لا تكون إلا بعلم واسع، وقد علم تعالى أن الكل لا يكون عالماً. وذهب الزجاج وغير واحد من المفسرين إلى أن المعنى: ولتكونوا كلكم أمة يدعون، ﴿وَمِنْ﴾ لبيان الجنس قال: ومثله من

كتاب الله: ﴿فَأَجْتَبَيْنَاهُ آلِيَيْنَا مِنْ آلِ دَاوُدَ﴾، ومثله من الشعر قول القائل:

أخو رغائب يُعطيها ويسألها يابى الظلامة منه النوفل الزُفْرُ قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية على هذا التأويل إنما هي عندي بمنزلة قولك: ليكن منك رجل صالح، ففيها المعنى الذي يسميه النحويون «التجريد». وانظر أن المعنى الذي هو ابتداء الغاية يدخلها، وكذلك يدخل قوله تعالى: ﴿مِنْ آلِ دَاوُدَ﴾ ولا تجده يدخل قول الشاعر: «منه النوفل الزفر»، ولا تجده يدخل في «من» التي هي صريح بيان الجنس، كقولك: ثوب من خز، وخاتم من فضة، بل هذه يعارضها معنى التبعية. ومعنى الآية على هذا التأويل: أمر الأمة بأن يكونوا يدعون جميع العالم إلى الخير، الكفار إلى الإسلام، والعصاة إلى الطاعة، ويكون كل واحد من هذه الأمور على منزلته من العلم والقدرة.

قال أهل العلم: وفرض الله بهذه الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية إذا قام به قائم سقط عن الغير، وللزوم الأمر بالمعروف شروط، منها أن يكون بمعروف لا بتخرق، فقد قال ﷺ: «من كان أمراً بمعروف، فليكن أمره ذلك بمعروف» ومنها ألا يخاف الأمر أذى يصيبه، فإن فعل مع ذلك فهو أعظم لأجره، وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ

فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة، وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم: هي اليد، وفرض سائر الناس رفعه إلى الحكام الولاة بعد النهي عنه قولاً، وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إن رأى نازلة بديهة من المنكر كالسلب والزنى ونحوه فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة، ويحسن لكل مؤمن أن يحتمل في تغيير المنكر وإن ناله بعض الأذى. ويؤيد هذا المنزع أن في قراءة عثمان بن عفان وابن مسعود وابن الزبير: «يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَسْتَعِينُونَ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ» فهذا وإن كان لم يثبت في المصحف، ففيه إشارة إلى التعرض لما يصيب عَقِيبُ الأمر والنهي، كما هي في قوله تعالى: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ»، وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَمْتَدَّيْتُمْ» معناه: إذا لم يقبل منكم ولم تقدرُوا على تغيير منكر. وقال بعض العلماء: المعروف: التوحيد، والمنكر: الكفر، والآية نزلت في الجهاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا محالة أن التوحيد والكفر هما رأس الأمرين، ولكن ما نزل عن قدر

التوحيد والكفر يدخل في الآية ولا بد.

﴿الْمُتَلَحُّونَ﴾ الظافرون ببغيتهم، وهذا وعد كريم.

ثم نهى الله تعالى هذه الأمة عن أن يكونوا كالمتفرقين من الأمم. واختلفت عبارة المفسرين في المشار إليهم، فقال ابن عباس: هي إشارة إلى كل من افترق في الأمم في الدين فأهلكهم الافتراق، وقال الحسن: هي إشارة إلى اليهود والنصارى، وقال الزجاج: يحتمل أن تكون الإشارة أيضاً إلى فرق اليهود وفرق النصارى، ومجيء البينات هو بيعث الرسل وإنزال الكتب، وأسند الفعل دون علامة إلى البينات من حيث نزلت منزلة البيان، ومن حيث لا حقيقة لثانيها، وباقي الآية وعيد.

وقوله: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني أنه أعظم من سواء، ويتفاضل هذان العوضان بأن أحدهما يتخلله فتور، وأما الجزء الفرد من هذا وذلك فسواء، هذا تحرير مذهب أصحابنا الأصوليين رحمهم الله.

﴿١٠٦﴾ - ﴿١٠٧﴾ تفسير قوله عز وجل: والعامل في قوله: ﴿يَوْمَ﴾ الفعل الذي تتعلق به اللام في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال الزجاج: تقديره: ويثبت لهم عذاب عظيم؛ وقال قوم: العامل فيه: عظيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك ضعيف من جهة المعنى، لأنه يقتضي أن عظم العذاب في ذلك اليوم، ولا يجوز أن يكون العامل قوله: ﴿عَذَابٌ﴾ لأنه مصدر قد وصف.

وبياض الوجوه: عبارة عن إشراقها واستنارتها وبشرها برحمة الله، قاله الزجاج وغيره. ويحتمل عندي أن يكون ذلك من آثار الوضوء كما قال ﷺ: «أَنْتُمْ الْفَرُّ الْمَحْجَلُونَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ». وأما سواد الوجوه: فقال المفسرون: هو عبارة عن اريدادها وإظلامها بغم العذاب. ويحتمل أن يكون ذلك تسويداً ينزله الله بهم على جهة التشويه والتمثيل بهم، على نحو حشرهم زرقاً وهذه أقبح طلعة، ومن ذلك قول بشار:

وللبخيل على أمواله عِلْلٌ
زُرُقُ الْعَبِيّ عَلَيْهَا أَوْجَةٌ سَوْدُ
وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿يَبْيِضُ وَتَسْوَدُ﴾ بكسر التاء، وقرأ الزهري: ﴿تَبْيَاضُ وَجُوهٌ، وَتَسْوَادُ وَجُوهٌ﴾ باللف، وهي لغة.

ولما كان صدر هذه الآية إخباراً عن حال لا تخص أحداً معيناً بديء بذكر البياض لشرفه، وأنه الحالة المثلى، فلما فهم المعنى وتعين له الكفار والمؤمنون، بديء بذكر الذين اسودت وجوههم للاهتمام بالتحذير من حالهم.

وقوله تعالى: ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ تقرير وتوبيخ متعلق بمحذوف تقديره: فيقال لهم: أكفرتهم؟ وفي هذا المحذوف هو جواب (أما)، وهذا هو فحوى الخطاب، وهو أن يكون في الكلام شيء مقدر لا يستغني المعنى عنه، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ عَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾ المعنى: فأفطر فعدة.

وقوله تعالى: ﴿يَتَدَبَّرُوا عَمَلَكُمْ﴾

الخوارج وهو قول واحد،
و(ما) في قوله: ﴿يَمَّا
كُنْتُمْ﴾ مصدرية؛ وقوله
تعالى: ﴿فَنِي رَحْمَةُ اللَّهِ﴾
أي في النعيم الذي هو
موجب رحمة الله، وقوله
بعد ذلك: ﴿فَمِنْ فِيهَا﴾
تأكيد بجملتين، إذ كان
الكلام يقوم دونها.

عز وجل: ﴿وَلَا يَسْتَوِي السَّاجِدُ وَالْمُؤْمِنُ﴾ - تفسير قوله

الإشارة بـ ﴿يَمَّا﴾ إلى
هذه الآيات المتقدمة
المتضمنة تعذيب الكفار
وتنعيم المؤمنين، ولما
كان فيها ذكر التعذيب
أخبر تعالى أنه لا يريد أن

يقع منه ظلم لأحد من العباد، وإذا
لم يرد ذلك فلا يوجد البتة، لأنه لا
يقع من شيء إلا ما يريد تعالى.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه:
بالإخبار الحق، ويحتمل أن يكون
المعنى: نلتوها عليك مضمنة
الأفاعيل التي هي حق في أنفسها،
من كرامة قوم، وتعذيب آخرين.
وقرأ أبو نهيك: ﴿يَتْلُوها﴾ بالياء،
وجاء الإعلام بأنه تعالى لا يريد ظلماً
في حكمه، فإذا لا يرجد.

ولما كان للذهن أن يقف هنا في
الوجه الذي به خص الله قوماً بعملٍ
يرحمهم من أجله، وآخرين بعملٍ
يعذبهم عليه، ذكر تعالى الحجة
القاطعة في ملكه جميع المخلوقات،
وأن الحق لا يُعْتَرَضُ عليه، وذلك
في قوله: ﴿وَلَيْكَ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ﴾ الآية، وقال: ﴿مَا﴾ ولم

يقتضي أن لهؤلاء الموقفين إيماناً
متقدماً، فاختلف أهل التأويل في
تعيينهم؛ فقال أبي بن كعب:
الموقفين جميع الكفار، والإيمان
الذي قيل لهم بسببه: ﴿بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ﴾ هو الإيمان الذي أقروا به
يوم قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قَالُوا
بَلَىٰ. وقال أكثر المتأولين: إنما عني
بالتوقيف في هذه الآية أهل القبلة من
هذه الأمة، ثم اختلفوا؛ فقال
الحسن: الآية في المنافقين، يؤمنون
بألسنتهم ويكفرون بقلوبهم، فيقال
لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ أي ذلك
الإيمان بألسنتهم. وقال السدي: هي
فيمن كفر من أهل القبلة حين
اقتتلوا، وقال أبو أمامة: الآية في
الخوارج، وقال قتادة: الآية في أهل
الردة، ومنه الحديث: «ليردن على
الحوض رجالاً من أصحابي حتى إذا
رفعوا إليّ اختلجوا فأقول: أصيحابي
أصيحابي، فيقال: إنك لا تدري ما
أحدثوا بعدك، فأقول: فسحقاً
فسحقاً، وفي بعض طرقه:
«فأناديهم: أَلَا هَلُمُّ، أَلَا هَلُمُّ». وذكر
النحاس قولاً: إن الآية في اليهود،
وذلك أنهم آمنوا بصفة محمد
واستفتحوا به، فلما جاءهم من
غيرهم كفروا، فهذا كفر بعد إيمان،
وروي عن مالك أنه قال: الآية في
أهل الأهواء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
إن كان هذا ففي المختلجين منهم
القائلين ما هو كفر، وروي حديث
أن الآية في القدرية وقال أبو أمامة:
سمعنا من رسول الله ﷺ: أنها في
الحرورية، وقد تقدم عنه أنها في

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ
أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ
وَآكَرَهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ لَنْ يَضُرَّكُمْ وَلَا أَذَىٰ
وَلَنْ يَغْتَابَكُمْ بُلُوكُمْ الْأَذَىٰ الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللَّهِ وَجِبِلَّ مِنَ النَّاسِ
عَلَيْهِمُ الذَّلِيلُ أَنْ مَأْفُوقًا إِلَّا جِبِلَّ مِنَ اللَّهِ وَجِبِلَّ مِنَ النَّاسِ
وَيَأْتِي وَيَعْصِبُ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ
حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿لَيْسُوا سَوَاءً
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ الْيَلِيِّ
وَهُمْ سَاجِدُونَ يُؤْمِنُونَ وَاللَّهُ وَالْيَوْمَ الْآخِرُ
وَيَا مَعْرُوفٍ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُسْرِعُونَ
فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا
مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ

يقول: ﴿مَنْ﴾ من حيث هي جمل
وأجناس، وذكر الطبري أن بعض
البصريين نظر قوله تعالى: ﴿وَالِ
اللَّهُ﴾ فأظهر الاسم، ولم يقل إليه
بقول الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء
نُغْصَ الموتُ ذا الغنى والفقير
وما جرى مجراه، وقاله الزجاج،
وحكى أن العرب تفعل ذلك إرادة
تفخيم الكلام والتنبية على عظم
المعنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والآية تشبه البيت في قصد فخامة
النظم، وتفارقه من حيث الآية
جملتان مفترقتان في المعنى، فلو
تكررت جمل كثيرة على هذا الحد
لحسن فيها كلها إظهار الاسم،
وليس التعرض بالضمير في ذلك
بعرف، وأما البيت وما أشبهه

فالضمير فيه هو العرف، إذ الكلام في معنى واحد، ولا يجوز إظهار الاسم إلا في المعاني الفخمة في النفوس التي يؤمن فيها اللبس على السامع.

وقرأ بعض السبعة: «تَرْجِعُ الْأُمُورُ» بفتح التاء على بناء الفعل للفاعل، وقد تقدم ذكر ذلك.

واختلف المتأولون في معنى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»؛ فقال عمر بن الخطاب: هذه لأولنا، ولا تكون لآخرنا، وقال عكرمة: نزلت في ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد ومن شاكلهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا كله قول واحد، مقتضاه أن الآية نزلت في الصحابة، قيل لهم: كنتم خير أمة، فالإشارة بقوله: «أُمَّةٌ» إلى أمة محمد معينة، فإن هؤلاء هم خيرها.

وقال الحسن بن أبي الحسن وجماعة من أهل العلم: معنى الآية: خطاب الأمة بأنهم خير أمة أخرجت للناس، فلغة «أُمَّةٌ»، على هذا التأويل اسم جنس، كأنه قيل لهم: كنتم خير الأمم، ويؤيد هذا التأويل كونهم شهداء على الناس، وقول النسبي ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ»... الحديث. وروى بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: أن

رسول الله ﷺ قال يوماً وهو مسند ظهره إلى الكعبة: «نَحْنُ نَكْمَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعِينَ أَمَةً نَحْنُ آخِرُهَا وَخَيْرُهَا» قال مجاهد: معنى الآية: كنتم خير الناس، وقال الحسن: نحن آخرها وأكرمها على الله تعالى، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: معنى الآية: كنتم للناس خير الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فدأمة على هذا التأويل: اسم جنس، قال أبو هريرة: يجيئون بالكفار في السلاسل فيدخلونهم في الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يبعث نبي إلى الأمة كافة إلا محمد ﷺ، فهو وأمته يدعون إلى الإيمان ويقاثلون العالم عليه، فهم خير الناس للناس، وليس يلزم على هذا التأويل أنهم أفضل الأمم من نفس لفظ الآية، لكن يعلم هذا من لفظ آخر، وهي كقوله ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ أُمِّي بِأُمِّي أَبُو بَكْرٍ» فليس يقتضي هذا اللفظ أن أبا بكر أرف الناس على الإطلاق من مؤمن وكافر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والرافة المفروضة على الإطلاق ليست بجارية مع الشرع كما يجب.

وأما قوله: «كُنْتُمْ» على صيغة الماضي، فإنها التي بمعنى الدوام، كما قال: «وَكَانَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ رَجِيماً»، إلى غير هذا من الأمثلة، وقال قوم: المعنى كنتم في علم الله، وقيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: فيما أخبر به الأمم قديماً عنكم. و«خَيْرٌ» على هذه الأقوال كلها خبر كان، ويحتمل أن تكون «كَانَ» التامة، ويكون

«خَيْرٌ أُمَّةٌ» نصباً على الحال، وهذا يتجه على بعض التأويلات التي ذكرناها دون بعض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الخيرية التي فرضها الله لهذه الأمة إنما يأخذ بحظه منها من عمل هذه الشروط من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

وقوله: «تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ» وما بعده أحوال في موضع نصب.

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب على جهة التوبيخ المقرون بالنصح أنهم لو آمنوا لنجوا أنفسهم من عذاب الله. وجاءت لفظة «خَيْرٌ» في هذه الآية وهي صيغة تفضيل، ولا مشاركة بين كفرهم وإيمانهم في الخير، وإنما جاز ذلك لما في لفظة «خير» من الشيعاء وتشعب الوجوه، وكذلك هي لفظة أفضل وأحب وما جرى مجراهما. وقد بين هذا المعنى في غير هذا الموضع بأوعب من هذا.

وقوله تعالى: «يُنْهَكُمُ الْمُؤْمِنُونَ» تنبيه على حال عبدالله بن سلام وأخيه وثعلبة بن سعية وغيرهم ممن آمن. ثم حكم الله على أكثرهم بالفسق في كفره لأنهم حُرِّفُوا وبَدَّلُوا وعاندوا بعد معرفتهم بحقيقة أمر محمد ﷺ، فهم كفار فسقة في الكفر قد جمعوا المذمتين.

تفسير قوله عز وجل: «وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَصْرِفَكُمْ عَنْ أَزْدِكُمْ﴾» معناه: لن يصيبكم منهم ضرر في الأبدان ولا في الأموال، وإنما هو أذى بالآلسة، فالاستثناء متصل. وقال الحسن وقتادة

وغيرهما: الأذى هو تحريفهم أمر محمد ﷺ وتكذيبهم إياه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتَنَقَّصُهم المؤمنين وطَعَنُهم عليهم جملةً وأفراداً، وهذا كله عظيم مقلق ويسببه استحقوا القتل والإجلاء وضرب الجزية. لكن أراد الله تعالى بهذه الآية أن يلحظهم المؤمنون بعين الاحتقار حتى لا يصدروا أحداً عن دينه، ولا يَشْغَلُوهُ عن عبادة ربِّه، وهكذا هي فصاحة العرب، ومن هذا المعنى في التحقير قول ثمامة بن أثال: «يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن شئت المال فصل منه ما شئت» فقلوه: «ذا دم» روي بالذال منقوطة، وبالذال غير منقوطة، فدم بفتح الذال ويكسرهما أراد بها الذمام، وأما بالذال غير منقوطة، فيحتمل أنه أراد التعظيم لأمر نفسه، وذلك بأحد وجهين: إما أن يريد الوعيد، أي تقتل ذا دم مطلوب بشاره له حماة فاحذر عاقبة ذلك، وإما أن يريد تقتل ملكاً يُشْتَقَى بدمه، كما كانت العرب تعتقد في دماء الملوك، فهذا استعطاف لا وعيد، أي: لا ينبغي لك أن تفسد مثلي، وهذا كما استعطف الأشعث بن قيس أبا بكر رضي الله عنه بهذا المعنى، ويحتمل كلام ثمامة أنه أراد تحقير أمر نفسه وليذهب عن نفس رسول الله ﷺ المسرة بنيل مثل هذا الأمر العظيم، ويجري ذلك مجرى قول أبي جهل لعبدالله بن مسعود: وهل أعمد من رجل قتلتموه؟ ومثله قول الأسير لعمر بن عبدالعزيز، حين قال له:

لأقتلنك، قال: إن ذلك لا ينقص من عدد الخزر شيئاً، فكان ثمامة أراد: إن تقتلني تقتل حيواناً حقيراً شأنه، كما يقتل كل ذي دم فما بالك تفعل ذلك وتدع الإنعام علي؟ فالآية تنظر إلى هذا المعنى من جهة أنه حقر عند المؤمنين ما هو عظيم في نفسه تنبيهاً لهم.

وأخبر الله تعالى في قوله: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ...﴾ الآية، بخبر غيب صححه الوجود، فهي من آيات محمد ﷺ، وفائدة الخبر هي في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُمْرُوتُ﴾، أي: لا تكون حربهم معكم سجالاتاً، وخض الأديار بالذكر دون الظاهر تخسباً للفرار، وهكذا هو حيث تصرف.

وقوله: ﴿مُحَرِّتٌ﴾ معناه: أثبتت بشدة وإلزام مؤكد، وهذا وصف حال تقررت على اليهود في أقطار الأرض قبل مجيء الإسلام، قال الحسن: جاء الإسلام وإن المجوس لتجبيهم الجزية، وما كانت لهم عزة ومنعة إلا يثرب وخيبر وتلك الأرض فأزالها الله بالإسلام، ولم تبق لهم راية أصلاً في الأرض. و﴿أَذَلَّةٌ﴾ فعلة من الذل، و﴿تُفَقَّرُ﴾ معناه: أخذوا وهم بحال المذنب المستحق الإهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا تُنقِصُهم فِي الْحَرْبِ﴾. و﴿وَأَقْتُلُوهم حَيْثُ يَفْتَنُوهم﴾ واللفظة مأخوذة من الثقافة، ومنه قول الشاعر:

تدعو ثقيفاً وقد عضَّ الحديدُ بها
عضَّ الثَّقَافِ على صُمِّ الأنابيبِ
وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ﴾ استثناء منقطع، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا

حَبْلًا﴾ لأن بادي الرأي يعطي أن له أن يقتل خطأ، وأن الحبل من الله ومن الناس يزيل ضرب الذلة، وليس الأمر كذلك، وإنما الكلام محذوف يدرکه فهم السامع الناظر في الأمر، وتقديره في آيتنا: فلا نجاة من الموت إلا بحبل.

وقوله تعالى: ﴿مُحَرِّتٌ عَلَيْهِمُ الْذِلَّةَ﴾ أي: ما يُفَقَّرُ، كانه بالمعنى: هلكوا واستوصلوا، فلذلك حسن أن يجيء بعدها: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ﴾. وقرب فهم ذلك للسامع. قال الزجاج: المعنى: مُحَرِّتٌ عليهم الذلة إلا أنهم يعتصمون بالعهد إذا أعطوه، والحبل: العهد، شبه به لأنه يصل قوماً يقوم كما يفعل الحبل في الأجرام.

و﴿وَأَذَلُّوهم﴾ معناه: مضوا متحملين لهذا الحكم، وغضب الله عليهم بما دلت عليه هذه الأمور التي أوقع بهم. وأفعال بني إسرائيل على وجه الدهر من التعنت والعصيان توجب الغضب، فلذلك خُصُّوا به، والنصارى إنما ضلوا فقط. و﴿المسكنة﴾: التذل والضعف، وهي حالة الطوائف الملتصين لللقمة وللقميتين الضارح المفاقر لحالة التعفف والتعزز به، فليس أحد من اليهود وإن كان غنياً إلا وهو بهذه الحال.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الغضب وضرب الذلة والمسكنة، فعاقبهم الله على كفرهم وقتلهم الأنبياء بذلك، و﴿أَيَّتِ اللَّهُ﴾ يحتمل أن يراد بها المتلوة، ويحتمل أن يريد العبر التي عرضت عليهم. وقوله:

﴿بَيِّنَ حَقَّ﴾ تأكيد ومبالغة وقطع لما عسى أن يكون في وهم إنسان ممكناً بوجه ما.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ حمله المفسرون على أن الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الشيء الذي أشير إليه بـ ﴿ذَلِكَ﴾ الأول، قاله الطبري والزجاج وغيرهما. والذي أقول: إن الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ الأخير إنما هي إلى كفرهم وقتلهم، وذلك أن الله تعالى استدرجهم فعاقبهم على العصيان والاعتداء بالمصير إلى الكفر وقتل الأنبياء، وهو الذي يقول أهل العلم: إن الله تعالى يعاقب على المعصية بالإيقاع في معصية، ويجازي على الطاعة بالتوفيق إلى طاعة، وذلك موجود في الناس إذا تأمل. وعصيان بني إسرائيل واعتداؤهم في السبت وغيره متقرر في غير ما موضع من كتاب الله. وقال قتادة رحمه الله عندما فسر هذه الآية: اجتنبوا المعصية والعدوان فإن بها أهلك من كان قبلكم من الناس.

﴿١١٣﴾ - ﴿١١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما مضت الضمائر في الكفر والقتل والعصيان والاعتداء عامة في جميع أهل الكتاب، عَقَّبَ تعالى ذلك بتخصيص الذين هم على خير وإيمان، وذلك أن أهل الكتاب لم يزُلْ فيهم من هو على استقامة، فمنهم من مات قبل أن يدرك الشرائع فذلك من الصالحين، ومنهم من أدرك الإسلام فدخل فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا النظر أن جميع اليهود على عَوَج من وقت عيسى، وتجيء الآية إشارة إلى من أسلم فقط، أو يكون اليهود في معنى الأمة القائمة إلى وقت عيسى، ثم ينتقل الحكم في النصاري، ولفظ ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعم الجميع، والضمير في: ﴿لَيْسُوا﴾ لمن تقدم ذكره في قوله: ﴿يَنْتَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُكُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وما قال أبو عبيدة من أن الآية نظرية قول العرب: «أكلوني البراغيث» خطأ مردود، وكذلك أيضاً ما حكى عن الفراء أن ﴿أُمَّةً﴾ مرتفعة بـ ﴿سَوَاءً﴾ على أنها فاعلة كأنه قال: لا تستوي أمة كذا، وأن في آخر الكلام محذوفاً معادلاً تقديره: وأمة كافرة، فأغنى القسم الأول عن ذكرها ودل عليه، كما قال أبو ذؤيب:

عصيتُ إليها القلبُ إنني لأمرها
سميعٌ فما أدري أُرشدُ طلباها؟
المعنى: أم غي، فاقصر لدلالة ما ذكر عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما الوجه أن الضمير في: ﴿لَيْسُوا﴾ يراد به من تقدم ذكره، و﴿سَوَاءً﴾ خبر ليس، و﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ مجرور فيه خبر مقدم، و﴿أُمَّةً﴾ رفع بالابتداء.

قال ابن عباس رضي الله عنه: لما أسلم عبدالله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من اليهود معهم: قال الكفار من أحبار اليهود: ما آمن بمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا خياراً ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله تعالى

في ذلك: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾... الآية، وقال مثله قتادة وابن جريج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو أصح التأويلات. وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: معنى الآية: ليس اليهود وأمة محمد سواء، وقاله السدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فمن حيث تقدم ذكر هذه الأمة في قوله: ﴿كُنتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ﴾ وذكر أيضاً اليهود قال الله لنبيه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، والكتاب على هذا جنس كتب الله، وليس بالمعهود من التوراة والإنجيل فقط. والمعنى: من أهل الكتاب وهم أهل القرآن أمة قائمة.

اختلفت عبارة المفسرين في قوله: ﴿قَائِمَةً﴾ فقال مجاهد: معناه: عادلة، وقال قتادة والربيع وابن عباس: معناه: قائمة على كتاب الله وحدوده مهتدية، وقال السدي: القائمة المطيعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله يرجع إلى معنى واحد من الاعتدال على أمر الله، ومنه قيل للدنانير أو الدراهم الوازنة: قائمة، وهذه الآية تحتل هذا المعنى وألاً تنظر اللفظة إلى هيئة الأشخاص وقت تلاوة آيات الله. ويحتمل أن يراد بـ ﴿قَائِمَةً﴾ وصف حال التالين في آناء الليل، ومن كانت هذه حاله فلا محالة أنه معتدل على أمر الله. وهذه الآية في هذين الاحتمالين مثل ما تقدم في قوله: ﴿إِلَّا مَا دُمَّتْ عَيْنُو قَائِمَةً﴾.

و﴿يَتَلَوْنَ﴾ معناه: يسردون،

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في هذه الآية هي: كُتِبَ، والآتاء: الساعات، واحدها: إنِّي بكسر الهمزة وسكون النون. ويقال فيه: أتى بفتح الهمزة، ويقال: إنِّي بكسر الهمزة وفتح النون والقصر، ويقال فيه: أتى بفتح الهمزة، ويقال: إنَّو بكسر الهمزة وسكون النون وبواو مضمومة. ومنه قول الهذلي:

حَلَوُ ومرُّ كعطفِ القَدْحِ مرُّهُ
في كلِّ إنِّي قضاء الليل ينتعل
وحكمُ هذه الآية لا يتفق في كلِّ
شخص شخص بأن يكون كلُّ
واحد يصلي جميعَ ساعات الليل،
وإنما يقوم هذا الحكم من جماعة
الامة، إذ بعض الناس يقوم أول
الليل، وبعضهم آخره، وبعضهم
بعد هجعة ثم يعود إلى نومه،
فيأتي من مجموع ذلك في المدن
والجماعات عبارة آتاء الليل بالقيام،
وهكذا كان صدرُ هذه الامة،
وعرف الناس القيام في أول الثلث
الآخر من الليل أو قبله بشيء،
وحينئذ كان يقوم الأكثر، والقيامُ
طولَ الليل قليلاً، وقد كان في
الصالحين من يلتزمه، وقد ذكر الله
تعالى القصد من ذلك في سورة
المنزل، وقيام الليل لقراءة العلم
المبتغى به وجهُ الله داخل في هذه
الآية، وهو أفضل من التفتل لمن
يُزجى انتفاع المسلمين بعلمه.

وأما عبارة المفسرين في ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فقال الربيع وقتادة وغيرهما: آتاء الليل: ساعات الليل، وقال عبدالله بن كثير: سمعنا العرب تقول: آتاء الليل: ساعات الليل،

وقال السدي: آتاء الليل: جوف الليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قلق. أما إن جوف الليل جزء من الآتاء.

وقال ابن مسعود: نزلت هذه الآية بسبب أن النبي ﷺ احتبس عنا ليلة عن صلاة العتمة وكان عند بعض نسائه فلم يأت حتى مضى ليل، فجاء ومنا المصلي ومنا المضطجع، فقال: «أبشروا فإنه ليس أحد من أهل الكتاب يصلي هذه الصلاة، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾... الآية، فالمراد بقوله: ﴿يَتْلُونَ﴾ يَأْتُونَ ﷻ صلاة العشاء. وروى سفيان الثوري عن منصور أنه قال: بلغني أن هذه الآية نزلت في المصلين بين العشاءين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ يَسْجُدُونَ﴾، ذهب بعض الناس إلى أن السجود هنا عبارة عن الصلاة، سماها بجزء شريف منها كما تسمى في كثير من المواضع ركوعاً، فهي على هذا جملة في موضع الحال، كأنه قال: يتلون آيات الله آتاء الليل مصلين. وذهب الطبري وغيره إلى أنها جملة مقطوعة من الكلام الأول، أخبر عنهم أنهم أيضاً أهل سجد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحسن هذا من جهة أن التلاوة آتاء الليل قد يعتقد السامع أن ذلك في غير الصلاة، وأيضاً فالقيام في قراءة العلم يخرج من الآية على التأويل الأول، ويثبت فيها على هذا الثاني، ف﴿هم يسجدون﴾ على هذا نعت

عُدَّ بواو العطف، كما تقول: جاءني زيد الكريم والعاقل.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: يصدقون، وفي الإيمان باليوم الآخر إيمان بالأنبياء. لأنه من جائزات العقل التي أثبتتها السمع من الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسِّرْهُ لَكُمْ﴾ وصف بأنهم متى دُعُوا إلى خير من نصر مظلوم وإغاثة مكروب وجبر مهيض وعبادة الله أجابوا، ومنه فعلُ مالك رضي الله عنه في ركعتي المسجد، وقال: دعوتني إلى خير فأجبت إليه. ومما يدخل في ضمن قوله تعالى: ﴿وَلْيَسِّرْهُ لَكُمْ﴾ أن يكون المرء مغتنماً للخمس قبل الخمس كما قال النبي ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل مماتك، وغناك قبل فقرك»، فيكون متى أراد أن يصنع خيراً بادر إليه ولم يسوف نفسه بالأمل، فهذه أيضاً مسارعة في الخيرات. وذكر بعض الناس قال: دخلت مع بعض الصالحين في مركب فقلت له: ما تقول أصلحك الله في الصوم في السفر؟ فقال لي: إنها المبادرة يا ابن أخي، قال المحدث: فجاءني والله بجواب ليس من أجوبة الفقهاء.

ثم وصف الله تعالى من تحصلت له هذه الصفات بأنه من جملة الصالحين، ﴿وَمِنْ﴾ يحسن أن تكون للتبعيض، ويحسن أن تكون لبيان الجنس.

الآخر، ودلّ المذكوران على المتروكين، وهذه غاية البلاغة والإيجاز، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْآزِيِّ يَتَعُوقُ يَمًا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً﴾.

وقرأ عبدالرحمن بن هرمز الأعرج ﴿تُفْقُونَ﴾ بالتاء على معنى قل لهم يا محمد، و﴿مَثَلُ﴾ رفع بالابتداء، وخبره في محذوف به تتعلق الكاف من قوله: ﴿كَمَثَلِ﴾، و﴿مَا﴾ - بمعنى الذي، وجمهور المفسرين على أن ﴿يُفْقُونَ﴾ يراد به الأموال التي كانوا يفقونها في التحث وفي عداوة رسول الله ﷺ، وكان ذلك عندهم قرية، وقال السدي: ﴿يُفْقُونَ﴾ معناه: من أقوالهم التي يبتنون ضدها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، لأنه يقتضي أن الآية في المنافقين، والآية إنما هي في كفار يعلنون مثل ما يبتنون، وذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿يُفْقُونَ﴾ يراد به أعمالهم من الكفر ونحوه، أي هي كالريح التي فيها صرّ، فبتل كل ما لهم من صلة رحم وتحث بعثق ونحوه، كما تبطل الريح الزرع، وهذا قول حسن لولا بُعْد الاستعارة في الإنفاق.

والصرّ: البرد الشديد المحرق لكل ما يهبّ عليه، وهو معروف، قال ابن عباس وجمهور المفسرين: الصرّ: البرد، وتسميه العرب: الضرب، وذهب الزجاج وغيره إلى أن اللفظة من التصويت، من قولهم: صرّ الشيء، ومنه الريح الصرصر،

ثم عقب تعالى ذكر هذا الصنف الصالح بذكر حال الكفار لبيان الفرق، وخصّ الله تعالى الأموال والأولاد بالذكر لوجوه: منها أنها زينة الحياة الدنيا وعظم ما تجري إليه الآمال، ومنها أنها أقصى النصرة بالإنسان وأيسرها، ومنها أن الكفار المكذبين بالآخرة لا همة لهم إلا فيها وهي عندهم غاية المرء وبها كانوا يفخرون على المؤمنين، فذكر الله أن هذين اللذين هما بهذه الأوصاف لا غناء فيهما من عقاب الله في الآخرة،

فإذا لم تغن هذه غيرها من الأمور البعيدة أخرى ألا يغني.

وقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ إضافة تخصيص ما تقتضي ثبوت ذلك لهم ودوامه.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُفْقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾... الآية، معناه: المثال القائم في النفوس من إنفاقهم الذي يعدونه قرية وحسبة وتحشأ، ومن حبطه يوم القيامة وكونه هباءً منثوراً وذهابه، كالمثال القائم في النفوس من زرع قوم نبث واخضرّ وقويّ الأمل فيه فهبث عليه ريح فيها صرّ محرق فأهلكته، فوقع التشبيه بين شيئين وشيئين، ذكر الله عز وجل أحد الشيئين المشبهين وترك ذكر الآخر، ثم ذكر أحد الشيئين المشبه بهما - وليس الذي يوازي المذكور الأول - وترك ذكر

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ تُنْفِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أُولَدَهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٥﴾ مَثَلُ مَا يُفْقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٦﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا يَظَانَةً مِنَ دُونِكُمْ لَا يَأْتِ لَوْ تَكُنْمْ حَبَالًا وَدُّوْا مَا عَمِلْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ مُعَقِلُونَ ﴿١١٧﴾ هَئَانَتْ أُولَاءَ مُجِبُّونَهُمْ وَلَا يُجِيبُونَكُمْ وَقَوْمُونَ يَكْتُمُونَ كُذِّبُوا وَإِذَا الْقَوْمُ قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَهْدَكُمْ الْأَسْمِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا يَعْلَمُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١١٨﴾ إِنْ تَقَسَّسْكُمْ حَسَنَةً تَسْأَلُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةً يَبْغُوا بِهَا وَإِنْ تَصِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَسْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١١٩﴾ وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ نَبِئِ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدِ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٠﴾

٦٥

١١٥ - ١١٧ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر: ﴿تَفْعَلُوا﴾ و﴿تُكْفَرُوا﴾ بالتاء، على مخاطبة هذه الأمة، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالياء فيهما على مشابهة ما تقدم من: ﴿يُفْقُونَ﴾ و﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وما بعدهما، وكان أبو عمرو يقرأ بالوجهين.

و﴿تُكْفَرُوا﴾ معناه: يغطي دونكم فلا تشابون عليه، من هذا قول النبي ﷺ: «ومن أزلت إليه نعمة فليذكرها فإن ذكرها فقد شكرها، فإن لم يفعل فقد كفرها».

ومنه قول الشاعر:

.....
والكفر مَخْبِئَةٌ لِنَفْسِ الْمَنَعَمِ
وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْتَكِبِ﴾ وعد ووعد.

قال الزجاج: فالصّر: صوت النار التي في الريح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الصّر: هو نفس جهنم الذي في الزمهرير يحرق نحواً مما تحرق النار.

والحرث: شامل للزروع والثمار، لأن الجميع مما يصدر عن إثارة الأرض وهي حقيقة الحرث، ومنه الحديث: «لا زكاة إلا في عين أو حرث أو ماشية».

وقال عز وجل: ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فما بال هذا التخصيص والمثل صحيح، وإن كان الحرث لمن لم يظلم نفسه؟ فالجواب أن ظلم النفس في هذه الآية تأوله جمهور المفسرين بأنه ظلم بمعاصي الله، فعلى هذا وقع التشبيه بحرث من هذه صفة، إذ عقوبته أرجى، وأخذة الله له أشد، والنقمة إليه أسرع وفيه أقوى، كما روي: «في جوف العير» وغيره. وأيضاً فمن أهل العلم من يرى أن كل مصائب الدنيا فإنما هي بمعاصي العبيد، ويتوزع ذلك من غير ما آية في القرآن، فيستقيم على قوله: إن كل حرث تحرقه ريح فإنما هو لمن ظلم نفسه. وذهب بعض الناس ونحا إليه المهدي إلى أن قوله تعالى: ﴿حَرَّتْ قَوَرُ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ معناه: زرعوا في غير أوان الزراعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وينبغي أن يقال في هذا: ظلموا أنفسهم بأن وضعوا أفعال الفلاحة غير موضعها من وقت أو هيئة عمل، ويخص هؤلاء بالذكر لأن الحرق فيما جرى هذا المجرى أوعب وأشد.

تمكناً، وهذا المتزع يشبهه من جهة ما قول امرئ القيس:

وسالفة كسحوق الليث
إن أضرم فيها الغوي السعز
فخصص الغوي لأنه يلقي النار في النخلة الخضراء الحسنة التي لا ينبغي أن تحرق، فتطفئ النار عن نفسها رطوبتها بعد أن تتشذب وتسد، فيجيء الشبه حسناً. والرشيذ لا يضر النار إلا فيما ييس وأسحق فهو يذهب ولا يبقى منه ما يشبه به.

والضمير في: ﴿ظَلَمَهُمْ﴾ للكفار الذين تقدم ضميرهم في: ﴿يُنْفِقُونَ﴾، وليس هو للقوم ذوي الحرث لأنهم لم يذكروا لبردة عليهم ولا لبيان ظلمهم، وأيضاً فقوله: ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يدل على فعل الحال في حاضرين.

تفسير قوله عز وجل: ﴿يُنْفِقُونَ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية عن أن يتخذوا من الكفار واليهود أخلاء يأمنون بهم في الباطن من أمورهم، ويفاوضونهم في الآراء، ويستقيمون إليهم.

وقوله: ﴿يَنْ دُونَكُمْ﴾ يعني: من دون المؤمنين، ولفظة «دون» تقتضي فيما أضيف إليه أنه معدوم من القصة التي فيها الكلام، فشبّه الأخلاء بما يلي بطن الإنسان من ثوبه، ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: «ما من خليفة ولا ذي إمرة إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله».

وقوله: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ حَيَالًا﴾ معناه:

لا يقصرون لكم فيما فيه الفساد عليكم، تقول: ما ألوث في كذا، أي: ما قصرت بل اجتهدت، ومنه قول زهير:

جرى بعدهم قومٌ لكي يلحقوهم
فلم يلحقوا ولم يُلِمُوا ولم يألُوا
أي لم يقصروا. والخبل والخبال: الفساد.

وقال ابن عباس: كان رجال من المؤمنين يواصلون رجالاً من اليهود للجوار والحلف الذي كان بينهم في الجاهلية، فنزلت الآية في ذلك. وقال أيضاً ابن عباس وقتادة والربيع والسدي: نزلت في المنافقين، نهى الله المؤمنين عنهم. وروى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تستضيئوا بنار المشركين، ولا تنقشوا في خواتيمكم عربياً»، فسره ابن أبي الحسن فقال: أراد عليه السلام: لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم، ولا تنقشوا في خواتيمكم «محمداً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويدخل في هذه الآية استكتاب أهل الذمة وتصريفهم في البيع والشراء والاستئمان إليهم. وروي أن أبا موسى الأشعري استكتب ذمياً فكتب إليه عمر يعثفه، وتلا عليه هذه الآية. وقيل لعمر: إن هاهنا رجلاً من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال: إذا اتخذ بطانة من دون المؤمنين.

و«ما» في قوله: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ مصدرية. فالمعنى: ودوا عنكم، والعنت: المشقة والمكروه يلقاه

المرء، وعقبة عنوت: أي شاقة؛ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ﴾ أَلَمَّتْ: معناه: المشقة إما في الزنى وإما في ملك الأرب. قال السدي: معناه: ودوا ما ضللتم، وقال ابن جريج: المعنى: ودوا أن تعتنوا في دينكم، ويقال: غَيَّثَ الرجل يَعْنُ بكسر النون في الماضي.

وقوله تعالى: ﴿فَدَّ بَدَنَ الْبَغَضَاءِ بَيْنَ أَقْرَبِهِمْ﴾ يعني بالأقوال، فهم فوق المستر الذي تبدو البغضاء في عينيه. وخَصَّ تعالى الأقواء بالذكر دون الألسنة إشارة إلى تَشَدُّقِهِم وثرثرتهم في أقوالهم هذه، ويشبه هذا الذي قلناه ما في الحديث أن رسول الله ﷺ نهى أن يتشحى الرجل في عرض أخيه، معناه: أن يفتح فاه به، يقال: شحا الحمار فاه بالهنيق، وشحا اللجام في الفرس، والنهي في أن يأخذ أحد عرض أخيه همساً راتب، فذكر التشحي إنما هو إشارة إلى التشدق والانبساط.

وقوله: ﴿وَمَا تُخْنِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ إعلام بأنهم يبطنون من البغضاء أكثر مما يظهرون بأفواههم، وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿فَدَّ بَدَا الْبَغَضَاءُ﴾ بتذكير الفعل، لما كانت البغضاء بمعنى البغض.

ثم قال تعالى للمؤمنين: ﴿فَدَّ بَيْنًا لَكُمْ الْأَيْبَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تُقُولُونَ﴾ تحذيراً وتنبيهاً، وقد علم تعالى أنهم عقلاء، ولكن هذا مرٌّ للنفوس كما تقول: إن كنت رجلاً فافعل كذا وكذا.

﴿١١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

تقدم إعراب نظير هذه الآية وقراءتها في قوله تعالى آنفاً: ﴿هَكَأُنْتُمْ

هَكَأُنْتُمْ حَاجِبَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾، والضمير في: ﴿يُخَوِّفُهُمْ﴾ لمنافقي اليهود الذين تقدم ذكرهم في قوله: ﴿يُطَائِنُ بَيْنَ دُونِكُمْ﴾، والضمير في هذه الآية اسم للجنس، أي: تؤمنون بجميع الكتب وهم لا يؤمنون بقراءتكم. وإنما وقف الله تعالى المؤمنين بهذه الآية على هذه الأحوال الموجبة لبغض المؤمنين لمنافقي اليهود واطراحهم إياهم، فمن تلك الأحوال أنهم لا يحبون المؤمنين، وأنهم يكفرون بكتابهم، وأنهم ينافقون عليهم ويستخفون بهم ويغتاطون ويتربصون الدوائر عليهم.

وقوله تعالى: ﴿عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْآيَاتِ﴾ عبارة عن شدة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه، ومنه قول أبي طالب:

يَعَصُّونَ غَيْظاً خَلَقْنَا بِالْأَنَامِلِ
ومنه قول الآخر:

وقد شهدت قيس فما كان نصرها
فتيبة إلا عَصَّها بالأباهم
وهذا العَصُّ هو بالأسنان، وهي هيئة في بدن الإنسان تتبع هيئة النفس الغائظة، كما أن عَصَّ اليد على اليد يتبع هيئة النفس النادمة المتلطفة على فائت قريب الفتوت، وكما أن قرع السن هيئة النفس النادمة فقط، إلى غير ذلك من عَصِّ الحصى والخط في الأرض للمهموم ونحوه، ويكتب هذا العَصُّ بالضاد، ويكتب عَصَّ الزمان بالظاء المشالة، وواحد الأنامل أنملة بضم الميم، ويقال: بفتحها، والضم أشهر، ولا نظير

لهذا الاسم في بنائه إلا أشد، وله نظائر في الجموع.

وقوله: ﴿يُتَوَكَّلُونَ بِالْكِتَابِ كَذِباً﴾ يقتضي أن الآية في منافقي اليهود لا في منافقي العرب، ويعترضها أن منافقي اليهود لم يُخَفِّظْ عنهم أنهم كانوا يؤمنون في الظاهر إيماناً مطلقاً ويكفرون في الباطن كما كان المنافقون من العرب يفعلون، إلا ما روي من أمر زيد بن الصيث القينقاعي، فلم يبق إلا أن قولهم: ﴿هَآمْنَا﴾ معناه: صدقنا أنه نبي مبعوث إليكم، أي: فكونوا على دينكم ونحن أولياؤكم وإخوانكم لا نضر لكم إلا المودة، ولهذا كان بعض المؤمنين يتخذهم بطانة، وهذا منزع قد خُفِّظَ أن كثيراً من اليهود كان يذهب إليه، ويدل على هذا التأويل أن المعادل لقولهم: (آمنا) عض الأنامل من الغيظ، وليس هو ما يقتضي الارتداد كما هو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شُيُوبِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾، بل هو ما يقتضي البغض وعدم المودة. وكان أبو الجوزاء إذا تلا هذه الآية قال: هم الإباضة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الصفة ترتب في أهل البدع من الناس إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مُؤْمِنُوا بِمَا يُنْذِرُكُمْ﴾، قال فيه الطبري وكثير من المفسرين: هو دعاء عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا يتجه أن يدعى عليهم بهذا مواجهة وغير مواجهة، وقال قوم: بل أمر النبي ﷺ وأمنه أن يواجهوهم بهذا. فعلى هذا زال معنى الدعاء

وبقي معنى التقريع والإغاظه، ويجري المعنى مع قول مسافر بن أبي عمرو:

ونسمى في أرومتنا
ونسفا عين من حسدا
وينظر إلى هذا المعنى في قوله:
﴿مُؤْتُوا بِعَيْتِكُمْ﴾ قوله تعالى:
﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾
وعيد يواجهون به على هذا التأويل
الآخر في: ﴿مُؤْتُوا بِعَيْتِكُمْ﴾، وهو
إخبار مجرد لمحمد ﷺ في تأويل
الدعاء في: ﴿مُؤْتُوا بِعَيْتِكُمْ﴾،
و﴿ذات الصدور﴾: ما تنطوي عليه،
والإشارة هنا إلى المعتقدات، ومن
هذا قول أبي بكر الصديق
رضي الله عنه: «إنما هو ذو بطن
بنت خارجة»، ومنه قولهم: «الذئب
مغبوط بذئ بطنه»، والذات: لفظ
مشترك في معان لا يدخل منها في
هذه الآية إلا ما ذكرناه.

﴿١٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

الحسنة والسيئة في هذه الآية لفظ
عام في كل ما يحسن ويسوء، وما
ذكر المفسرون من الخصب والجذب
 واجتماع المؤمنين ودخول الفرقة
بينهم وغير ذلك من الأقوال فإنما
هي أمثلة وليس ذلك باختلاف،
وذكر تعالى المس في الحسنة ليعين
أن بآدنى طرود الحسنة تقع المساءة
بنفوس هؤلاء المبغضين، ثم عادل
ذلك بالسيئة بلفظ الإصابة وهي عبارة
عن التمكن، لأن الشيء المصيب
لشيء فهو متمكن منه أو فيه، فدل
هذا المنزع البليغ على شدة العداوة،

إذ هو حقد لا يذهب عند الشدائد،
بل يفرحون بنزول الشدائد
بالمؤمنين، وهكذا هي عداوة الحسد
في الأغلب، ولا سيما في مثل هذا
الأمر الجسيم الذي هو ملاك الدنيا
والآخرة، وقد قال الشاعر:

كل العداوة قد ترجى إزالتها
إلا عداوة من عاداك من حسد
ولما قرر تعالى هذا الحال لهؤلاء
المذكورين، وأوجبت الآية أن
يعتقدهم المؤمنون بهذه الصفة، جاء
قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَمَيَّزُوا وَتَتَّقُوا لَا
يُمَيِّرُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا تَسْلِيَةً
لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَقْوِيَةٌ لِنَفْسِهِمْ، وَشَرَطَ
ذلك بالصبر والتقوى.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع:
﴿لَا يُمَيِّرُكُمْ﴾ بكسر الضاد وجزم
الراء، وهو من ضار يضير بمعنى:
ضر يضمر وهي لغة فصيحة، وحكى
الكسائي: ضار يضور، ولم يقرأ
على هذه اللغة. وبين ضار يضير في
كتاب الله ﴿لَا ضَيْرَ﴾، ومنه قول
أبي ذؤيب الهذلي:

ف قيل: تَحْمِلُ فوق طوقك إنها
مُطَبَّقَةٌ مَنْ يَأْتِيهَا لا يضيرها
يصف مدينة، والمعنى: فليس
يضيرها، وفي هذا النفي المقدّر
بالفاء هو جواب الشرط. ومن اللفظ
قول توبة بن الحمير:

وقال أناس لا يضيرك نأيها
بلى كل ما شَفَّ النفوس يضيرها
وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة
والكسائي: ﴿لَا يُمَيِّرُكُمْ﴾ بضم
الضاد والراء والتشديد في الراء،
وهذا من ضر يضمر، وروي عن

حمزة مثل قراءة أبي عمرو. وأما
إعراب هذه القراءة فجزم، وضمت
الراء للالتقاء، وهو اختيار سيبويه في
مثل هذا إتباعاً لضمة الضاد، ويجوز
فتح الراء وكسرها مع إرادة الجزم،
فأما الكسر فلا أعرفها قراءة، وعبرة
الزجاج في هذا متجوز فيها، إذ يظهر
من درج كلامه أنها قراءة، وأما فتح
الراء من قوله: ﴿لَا يُمَيِّرُكُمْ﴾ فقرأ
به عاصم فيما رواه أبو زيد عن
المفضل عنه، ويجوز أيضاً أن يكون
إعراب قوله: ﴿لَا يُمَيِّرُكُمْ﴾ رفعاً
إما على تقدير: فليس يضركم، على
نحو ما تقدم في بيت أبي ذؤيب،
وإما على نية التقدم على: ﴿وَلَنْ
تَمَيَّزُوا﴾ كما قال:

يا أقرعُ بن حابس يا أقرعُ
إنك إن يُضْرِعَ أخوك تُضْرِعُ
المراد إنك تصرع. وقرأ أبي بن
كعب: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ براءين،
وذلك على فك الإدغام، وهي لغة
أهل الحجاز، وعليها قوله تعالى في
الآية: ﴿لَنْ يَمَسُّكُمْ﴾، ولغة سائر
العرب الإدغام في مثل هذا كله.
والكيد: الاحتيال بالأباطيل، وقوله
تعالى: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ إنما هي
تسمية العقوبة باسم الذنب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا
يَمْلِكُونَ حِيْطٌ﴾ وعيد، والمعنى:
محيط جزاؤه وعقابه بالقدرة
والسلطان. وقرأ الحسن: ﴿يَمَّا
تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء، وهذا إما على تعدد
المؤمنين في اتخاذ هؤلاء بطانة، وإما
على تعدد هؤلاء المنافقين بتقدير:
قل لهم يا محمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

اِذْ هَمَّتْ طَافِئَتَانِ مِنْكُمْ اَنْ تَفْسَلَا وَاللّٰهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢١﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّٰهُ بِدُرُودِهِ اِذْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ اَلْفٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اَنْ يَكْفِيَكُمْ اَنْ يُبَدِّدَ رِبَّكُمْ بِكَلْفَةِ الْاَلْفِ مِنَ الْمُكَلَّفَةِ مُزْلَيْنِ ﴿١٢٢﴾ اِنَّ نَصْرَنا وَتَنْصُرُوْا وَتَقْتُلُوْا وَاَنْتُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ هٰذَا يُمِدُّوْكُمْ رِبَّكُمْ بِخَمْسَةِ الْاَلْفِ مِنَ الْمُكَلَّفَةِ مُسَوِّمِيْنَ ﴿١٢٣﴾ وَمَا جَعَلَ اللّٰهُ لَآ بُشْرَى لَكُمْ وَلَسَطَمَ قُلُوْبَكُمْ يَوْمَنا اَنْ تَنْصُرُوْا اِلَّا مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ الْعَزِيْزِ الْحَكِيْمِ ﴿١٢٤﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا اَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوْا خَائِبِيْنَ ﴿١٢٥﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْاَمْرِ شَيْءٌ اَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ اَوْ يَعَذِّبَهُمْ فَاِنَّهُمْ لَفِيْ سَكْوَةٍ ﴿١٢٦﴾ وَاللّٰهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللّٰهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿١٢٧﴾ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لَا تَأْكُلُوْا الرِّبَا اَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ﴿١٢٨﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِيْ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ ﴿١٢٩﴾ وَاَطِيعُوا اللّٰهَ وَالرَّسُوْلَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ ﴿١٣٠﴾

١٦

١٢١ - تفسير قوله عز وجل:

ذهب الطبري رحمه الله إلى أن هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من الآيات، والظاهر أنها استقبال أمر آخر. لأن تلك مقاومة في شأن منافقي اليهود، وهذا ابتداء عتب المؤمنين في أمر أخذ، فالعامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مضمر تقديره: واذكر. وقال الحسن: هذا الغدو المذكور في هذه الآية لتبوء المؤمنين الذي كان في غزوة الأحزاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وخالفه الناس. والجمهور على أن ذلك كان في غزوة أحد، وفيها نزلت هذه الآيات كلها. وكان من أمر غزوة أحد أن المشركين اجتمعوا في ثلاثة آلاف رجل، وقصدوا المدينة ليأخذوا بشأهم في يوم بدر، فنزلوا عند أحد يوم الأربعاء الثاني عشر من شوال سنة

ثلاث من الهجرة، على رأس أحد وثلاثين شهراً من الهجرة، وأقاموا هنالك يوم الخميس، ورسول الله ﷺ بالمدينة يدبر وينتظر أمر الله تعالى، فلما كان في صبيحة يوم الجمعة جمع رسول الله ﷺ الناس واستشارهم، وأخبرهم أنه كان رأى في منامه بقرة تذيب وتلأ في ذباب سيفه، وأنه يدخل يده في درع حصينة، وأنه تأولها المدينة، وقال لهم: «أرى ألا نخرج إلى هؤلاء الكفار»، فقال له عبدالله بن أبي ابن سلول: أقم يا

رسول الله ولا تخرج إليهم بالناس، فإن هم أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن انصرفوا مضوا خائبين، وإن جاؤنا إلى المدينة قاتلناهم في الأفنية، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من الآطام، فوالله ما حاربنا قط عدواً في هذه المدينة إلا غلبناه، ولا خرجنا منها إلى عدو إلا غلبنا، فوافق هذه الرأي رأي رسول الله ﷺ ورأي جماعة من المهاجرين والأنصار. وقال قوم من صلحاء المؤمنين ممن كان فاته بدر: يا رسول الله، اخرج بنا إلى عدونا، وشجعوا الناس ودعوا إلى الحرب، فقام رسول الله ﷺ فصلّى بالناس صلاة الجمعة وقد جشمه هؤلاء الداعون إلى الحرب، فدخل إثر صلاته بيته ولبس سلاحه، فندم أولئك القوم وقالوا: أكرهنا رسول الله ﷺ، فلما خرج عليهم النبي ﷺ في سلاحه

قالوا: يا رسول الله أقم إن شئت، فإنا لا نريد أن نُكرهَكَ، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس سلاحه أن يضعها حتى يقاتل».

ثم خرج بالناس، وسار حتى قرب من عسكر المشركين هناك، وبات تلك الليلة، وقد غضب عبدالله بن أبي ابن سلول وقال: أطاعهم وعصاني. فلما كان في صبيحة يوم السبت اعتزم رسول الله ﷺ على السير إلى مناجزة المشركين، فنهض وهو في ألف رجل، فانخرل عنه عند ذلك عبدالله بن أبي ابن سلول بثلاثمائة من الناس، من متافق ومتبع، وقالوا: نظن أنكم لا تلقون قتالاً، ومضى رسول الله ﷺ في سبعمائة. فهبط عند ذلك بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج بالانصراف، وراوا كثافة المشركين وقلة المسلمين، وكادوا أن يجبنوا ويفشلوا فعصمهم الله تعالى، وذمر بعضهم بعضاً، ونهضوا مع النبي ﷺ، فمضى رسول الله ﷺ حتى أطل على المشركين، فتصاف الناس. وكان رسول الله ﷺ قد أمر على الرماة عبدالله بن جبير وكانوا خمسين رجلاً، وجعلهم يحمون الجبل وراء المسلمين، وأسند هو إلى الجبل، فلما أضربت الحرب انكشف المشركون وانهزموا، وجعل نساء المشركين تبدو خلاخلهن وهن يسندن في صفح جبل، فلما رأى الرماة ذلك قالوا: الغنيمة الغنيمة أيها المسلمون. وكان رسول الله ﷺ قال لهم: «لا ترحوا من هنا ولو رأيتمونا تتخطفنا الطير» فقال لهم عبدالله بن

جبير وقوم منهم: اتقوا الله واثبتوا كما أمركم نبيكم، فَعَصَوْا وَخَالَفُوا وزالوا متبعين، وكان خالد بن الوليد قد تجرد في جريدة خيل وجاء من خلف المسلمين حيث كان الرماة، فحمل على الناس، ووقع التخاذل وصيح في المسلمين من مقدمتهم ومن ساقتهم، وصرخ صارخ: قُتِلَ محمد، فتخاذل الناس واستشهد من المسلمين نيفٌ على سبعين. قال مكي: قال مالك رحمه الله: قتل من المهاجرين يوم أحد أربعة، ومن الأنصار سبعون، وتحيز رسول الله ﷺ في أعلى الجبل وتجاوز الناس.

هذا مختصر من القصة يتركب عليه تفسير الآية، وأمر أخذ بطوله وما تخلله من الأفعال والأقوال مستوعب في كتب السير، وليس هذا التعليق مما يقتضي ذكره.

وحكى مكي عن السدي ما يظهر منه أن القتال كان يوم الجمعة، وحكى عنه الطبري أن نزول أبي سفيان بأحد كان في الثالث من شوال، وذلك كله ضعيف، وقال النقاش: وقعة أحد في الحادي عشر من شوال، وذلك خطأ. قال الطبري وغيره: فَعَصَوْا رسول الله ﷺ يوم الجمعة إلى التدبير مع الناس واستشارتهم هو الذي عبر عنه بقوله تعالى: ﴿تَبَوَّأَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا سيما أن غدو النبي ﷺ إنما كان ورأيه ألا يخرج الناس، فكان لا يشك في نفسه أن يقسم أقطار المدينة على قبائل الأنصار.

وقال غير الطبري: بل نهوض النبي ﷺ يوم الجمعة بعد الصلاة هو غدوه، ويؤا المؤمنون في وقت حضور القتال، وقيل: ذلك في ليلته، وسماء غدواً إذ كان قد اعتزم التدبير والشروع في الأمر من وقت الغدو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا سيما أن صلاة الجمعة ربما كانت قبل الزوال، حسبما وردت بذلك أحاديث، فيجيء لفظ الغدو متمكناً. وقيل: إن الغدو المذكور هو غدوة يوم السبت إلى القتال، ومن حيث لم يكن في تلك الليلة موافقاً للغدو فهو كأنه كان في أهله، ويؤا المسلمين بأمره الرماة وغير ذلك من تدبيره مصافف الناس، و﴿تَبَوَّأَ﴾ معناه: تعين لهم مقاعد يتمكنون فيها ويشتون، تقول: تبوأ مكان كذا إذا حللته حلولاً متمكناً ثبت فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿نَدْبُوا مِنْ آلِجَنَّةِ حَيْثُ نَشَأُوا﴾ ومنه قول النبي ﷺ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، ومنه قول الشاعر:

كم صاحب لي صالح
بؤائنه بسدي لحدا
ومنه قول الأعشى:

وما بؤا الرحمن بيتك منزلاً
بشرقي أجياد الصفا والمحرم
وقوله تعالى: ﴿مَقْعَدٌ﴾ جمع مقعد، وهو مكان القعود، وهذا بمنزلة قولك: مواقف، ولكن لفظة القعود أدل على الثبوت، ولا سيما أن الرماة إنما كانوا قعوداً، وكذلك

كانت صفوف المسلمين أولاً، والمبارزة والسرعان يجولون.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: ما تقول ويقال لك وقت المشاورة وغيره؛ و﴿إِذْ﴾ الثانية بدل من الأولى، و﴿مَتَّ﴾ معناه: أرادت ولم تفعل، والفشل في هذا الموضع: هو الجبن الذي كاد يلحق بني سلمة وبني حارثة، والفشل في البدن: هو الإعياء والتبليغ، والفشل في الرأي: هو العجز والحيرة وفساد العزم، وقال جابر بن عبد الله: ما ودنا أنها لم تنزل، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَبِشْيَاءٍ﴾.

وقوله: ﴿وَعَلَّ اللَّهُ فَلَيتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أمر في ضمنه التفتيط للمؤمنين بمثل ما فعله بنو حارثة وبنو سلمة من المسير مع النبي ﷺ. وقرأ عبد الله بن مسعود: ﴿تَبَوَّأُوا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بلام الجر، وقرأ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمْ﴾ على معنى الطائفتين لا على اللفظ.

١٢٣ - ١٢٤ تفسير قوله عز وجل:

لما أمر الله تعالى بالتوكل عليه، ذكر بأمر بدر الذي كان ثمرة التوكل على الله والثقة به، فمن قال من المفسرين إن قول النبي ﷺ للمؤمنين: ﴿أَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ كان في غزوة بدر، فيجيء التذكير بأمر بدر وبأمر الملائكة وقتالهم فيه مع المؤمنين محرضاً على الجِدِّ والتوكل على الله، ومن قال: إن قول النبي ﷺ: ﴿أَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾... الآية إنما كان في غزوة أحد، كان قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ اعتراضاً بين الكلام

جميلاً. والنصرُ بيدر هو المشهور الذي قتل فيه صناديد قريش، وعلى ذلك اليوم اتبنى الإسلام، وكانت بدر يوم سبعة عشر من رمضان يوم جمعة لثمانية عشر شهراً من الهجرة. وبدر: ماء هنالك سُمي به الموضع. وقال الشعبي: كان ذلك الماء لرجل من جهينة يسمى بدرأ فيه سُمي. قال الواقدي: فذكرت هذا لعبدالله بن جعفر ومحمد بن صالح فأنكراه وقالوا: بأي شيء سميت الصفراء والجار وغير ذلك من المواضع؟ قال: وذكرت ذلك ليحيى بن النعمان الغفاري فقال: سمعت شيوخاً من بني غفار يقولون: هو ماؤنا ومنزلنا وما ملكه أحد قط يقال له بدر، وما هو من بلاد جهينة إنما هي بلاد غفار، قال الواقدي: فهذا المعروف عندنا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ معناه: قليلون، وذلك أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلاً، وكان عدوهم ما بين التسعمائة والالف، وأذلة: جمع ذليل، واسم الذل في هذا الموضع مستعار ولم يكونوا في أنفسهم إلا أعزة، ولكن نسبتهم إلى عدوهم وإلى جميع الكفار في أقطار الأرض تقتضي عند التأمل ذلتهم، وأنهم مغلوبون، وقد قال النبي ﷺ في ذلك اليوم: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد»، وهذه الاستعارة هي كاستعارة الكذب في قوله في الموطأ: كذب كعب، وكقوله: كذب أبو محمد، وكاستعارة المسكنة لأصحاب السفينة على بعض الأقوال، إذ كانت

مسكنتهم بالنسبة إلى الملك القادر الغاصب.

ثم أمر تعالى المؤمنين بالتقوى، ورَجَّاهم في الإنعام الذي يوجب الشكر، ويحتمل أن يكون المعنى: اتقوا الله عسى أن تكون تقواكم شكراً على النعمة في نصره بيدر.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾، العامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مضمر، ويحتمل أن يكون العامل: ﴿نَصَرَكُمْ﴾ وهذا على قول الجمهور: إن هذا القول من النبي ﷺ كان بيدر، قال الشعبي والحسن بن أبي الحسن وغيرهما: إن هذا كان بيدر، قال الشعبي: بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر بن حسل المحاربي محارب فهر قد جاء في مدد المشركين، فغَمَّ ذلك المؤمنين، فقال النبي ﷺ للمؤمنين عن أمر الله تعالى هذه المقالة، فصر المؤمنين واتقوا، وهزم المشركون، وبلغت الهزيمة كرزاً ومن معه فانصرفوا ولم يأتوا من فورهم، ولم يمدَّ المؤمنون بالملائكة، وكانت الملائكة بعد ذلك تحضر حروب النبي ﷺ مدداً، وهي تحضر حروب المسلمين إلى يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وخالف الناس الشعبي في هذه المقالة، وتظاهرت الروايات بأنَّ الملائكة حضرت بدرأ وقاتلت، ومن ذلك قول أبي أسيد مالك بن ربيعة: لو كنت معكم الآن بيدر ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أتمارى. ومنه حديث الغفاري وابن عمه اللذين سمعا من الصحابة: أقدم

حيزوم، فانكشف قتاعُ قلب أحدهما فمات مكانه وتماسك الآخر. وقال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام إلا يوم بدر، وكانوا يكونون في سائر الأيام عدداً ومدداً لا يضرّيون. ومن ذلك قول أبي سفيان بن الحارث لأبي لهب: ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلون ويأسرون، وعلى ذلك فوالله ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلّقي بين السماء والأرض ما ثلّقي شيئاً ولا يقوم لها شيء. ومن ذلك أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصاري أحد بني سلمة أسر يوم بدر العباس بن عبدالمطلب، وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً، وكان العباس رجلاً طويلاً جسيماً، فقال النبي ﷺ: «لقد أعانك عليه ملك كريم». . . الحديث بجملته. وقد قال بعض الصحابة: كنت يوم بدر أتبع رجلاً من المشركين لأضربه بسيفي فلما دنوت منه وقع رأسه قبل أن يصل سيفي إليه فعلمت أن ملكاً قتله.

وقال قتادة بن دعامة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف من الملائكة، قال الطبري: وقال آخرون: إن الله وعد المؤمنين يوم بدر أن يمدهم في حروبهم كلها إن صبروا واتقوا، فلم يفعلوا ذلك إلا في يوم الأحزاب، فأمدهم حين حاصروا قريظة، ثم أدخل تحت هذه الترجمة عن عبدالله بن أبي أوفى أنه قال: حاصرنا قريظة مدة فلم يفتح علينا فرجعنا، فبينما رسول الله ﷺ قد دعا بغسل يريد أن يغسل رأسه، إذ

جاء جبريل عليه السلام فقال: وضعت أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها، فلف رسول الله ﷺ رأسه بخرقه ولم يغسله، ونادى فينا فقمنا كآلئين متعبين، حتى أتينا قريظة والنضير، فيومئذ أمدنا الله بالملائكة بثلاثة آلاف، وفتح لنا فتحاً سيراً، فانقلبنا بنعمة من الله وفضل.

وقال عكرمة: كان الوعد يوم بدر، فلم يصبروا يوم أحد ولا اتقوا، فلم يمدوا ولو مدوا لم يهزموا.

وقال الضحاك: كان هذا الوعد والمقالة للمؤمنين يوم أحد، ففرّ الناس وولوا مدبرين، فلم يمدهم الله، وإنما مدوا يوم بدر بألف من الملائكة مردفين.

وقال ابن زيد: قال المسلمون لرسول الله ﷺ يوم أحد وهم ينتظرون المشركين: يا رسول الله، أليس يمدنا الله كما أمدنا يوم بدر؟ فقال لهم النبي ﷺ: ﴿أَنْ يَكُونَكُمْ﴾... الآية، وإنما أمدهم يوم بدر بألف؛ قال ابن زيد: فلم يصبروا.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَكُونَكُمْ﴾ تقرير على اعتقادهم الكفاية في هذا العدد من الملائكة، ومن حيث كان الأمر بيناً في نفسه أن الملائكة كافية بادر المتكلم إلى الجواب ليبني ما يستأنف من قوله عليه فقال: ﴿بَكَلٍّ﴾ وهي جواب المقررين. وهذا يحسن في الأمور البينة التي لا محيد في جوابها، ونحوه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَىٰ أَكْبَرُ شَهَدَةٍ قُلِ اللَّهُ﴾ وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿أَلَا يَكْفِيكُمْ﴾، وقد مضى القول في الإمداد في سورة

البقرة في قوله: ﴿وَيَسْتَكْفُرُ﴾.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ﴾ يقف على الهاء، وكذلك: ﴿بِخَمْسَةِ آلَافٍ﴾، ووجه هذه القراءة ضعيف، لأن المضاف والمضاف إليه يقتضيان الاتصال، إذ هما كالاسم الواحد، وإنما الثاني كمالٌ للأول، والهاء إنما هي أمانة وقف، فيقلق الوقف في موضع إنما هو للاتصال، لكن قد جاء نحو هذا للعرب في مواضع، فمن ذلك ما حكاه الفراء أنهم يقولون: أكلت لحماً شاه، يريدون لحماً شاهاً فمطلوا الفتحة حتى نشأت عنها ألف، كما قالوا في الوقف: قالوا، يريدون: قال، ثم مطلوا الفتحة في القوافي ونحوها من مواضع الروية والتثيت، ومن ذلك في الشعر قول الشاعر:

ينباع من ذفري غضوب جسر
.....

يريد: ينبع، فمطل، ومنه قول الآخر:

أقول إذ خَرْتُ على الكلكال

يا ناقستا ما جُلْتُ من مجال

يريد: على الكلكل، فمطل، ومنه

قول الآخر:

فأنت من الغوائل حين ترمي

ومن دم الرجال بمنسزاج

يريد بمنسزح، قال أبو الفتح: فإذا

جاز أن يعترض هذا التماذي بين أثناء

الكلمة الواحدة، جاز التماذي والثاني

بين المضاف والمضاف إليه إذ هما

في الحقيقة اثنان.

وقرأ ابن عامر وحده: ﴿مُنْزَلِينَ﴾

بفتح النون والزاي مشددة، وقرأ

الباقون: ﴿مُنْزَلِينَ﴾ بسكون النون وفتح الزاي مخففة، وقرأ ابن أبي عبة: ﴿مُنْزَلِينَ﴾ بفتح النون وكسر الزاي مشددة معناها: يُنْزَلُونَ النصر، وحكى النحاس قراءة ولم ينسبها: ﴿مُنْزَلِينَ﴾ بسكون النون وكسر الزاي خفيفة، وفسرها بأنهم ينزلون النصر. و﴿بَكَلٍّ﴾ جواب النفي الذي في ﴿أَنْ﴾ وقد تقدم معناه.

ثم ذكر تعالى الشرط الذي معه يقع الإمداد وهو الصبر، والتقى. والفور: النهوض المسرع إلى الشيء مأخوذ من فور القدر والماء ونحوه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَارَ كَتُّورٌ﴾ فالمعنى: ويأتوكم في نهضتكم هذه. قال ابن عباس: ﴿فَرَيْنَ قَوْرِهِمْ هَذَا﴾ معناه: من سفرهم هذا، قال الحسن والسدي: معناه: من وجههم هذا، وقاله قتادة. وقال مجاهد وعكرمة وأبو صالح مولى أم هانئ: من غضبهم هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير لا يخص اللفظة، قد يكون الفور لغضب ولطمع ولرغبة في أجر، ومنه الفور في الحج والوضوء.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير وعاصم: ﴿سَّوِيَيْنَ﴾، بكسر الواو، وقرأ الباقون: ﴿مُسَوِّينَ﴾، بفتح الواو، فأما من قرأ بفتح الواو فمعناه: مُعْلَمِينَ بعلامات، قال أبو زيد الأنصاري: السومة: العلامة تكون على الشاة وغيرها يجعل عليها لون يخالف لونها لتعرف، وروي أن الملائكة أعلمت يومئذ بعمائم بيض، حكاه المهدوي عن الزجاج، إلا

جبريل عليه السلام فإنه كان بعمامة صفراء على مثال عمامة الزبير بن العوام، وقاله ابن إسحاق. وقال مجاهد: كانت خيلهم مجزوزة الأذنان والأعراف معلمة النواصي والأذنان بالصوف والعهن؛ وقال الربيع: كانت سيماهم أنهم كانوا على خيل بلق، وقال عباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير: نزلت الملائكة في سيما الزبير عليهم عمائم صفر، وقال ذلك عروة وعبد الله ابنا الزبير. وقال عبد الله: كانت ملائكة صفراء فاعتم الزبير بها.

ومن قرأ: ﴿مُسْؤِمِينَ﴾ بكسر الواو، فيحتمل من المعنى مثل ما تقدم، أي: هم قد أعلموا أنفسهم بعلامة وأعلموا خيلهم، ورجح الطبري وغيره هذه القراءة بأن النبي ﷺ قال للمسلمين يوم بدر: «سُومُوا فإِنَّ الملائكة قد سُوِّت» فهم على هذا مُسُومُونَ، وقال كثير من أهل التفسير: إن معنى ﴿مُسْؤِمِينَ﴾ بكسر الواو أي هم قد سُومُوا خيلهم أي: أعطوها سُومَهَا من الجري والقتال والإحضار فهي سائمة، ومنه سائمة الماشية، لأنها تركت وسومها من الرعي، وذكر المهدوي هذا المعنى في ﴿مُسْؤِمِينَ﴾ بفتح الواو أي: أرسلوا وسومهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو قلق، وقد قاله ابن فورك أيضاً. ﴿١٢٦﴾ - ﴿١٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في: ﴿جَمَلَهُ اللَّهُ﴾ عائد على الإنزال والإمداد، والبشرى مصدر، واللام في: ﴿وَلَقَدْ لَبِثْنَا﴾ متعلقة بفعل مضمر يدل عليه

﴿جَمَلَهُ﴾. ومعنى الآية: وما كان هذا الإمداد إلا لتستبشروا به وتطمئن به قلوبكم وتروا حفاية الله بكم، وإلا فالكثرة لا تغني شيئاً إلا أن ينصر الله.

وقوله: ﴿وَمَا أَلْقَرُ﴾ يريد للمؤمنين، وكذلك أيضاً هي الإدالة للكفارة من عند الله، واللام في قوله: ﴿لَيَقْطَعُ﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَمَا أَلْقَرُ إِلَّا بَيْنَ عِندِ اللَّهِ﴾، وعلى هذا لا يكون قطع الطرف مختصاً بيوم، اللهم إلا أن تكون الألف واللام في ﴿أَلْقَرُ﴾ للعهد، وقيل: العامل فيه ﴿وَلَقَدْ نَزَرَكُمُ﴾، حكاه ابن فورك وهو قلق، لأن قوله: ﴿أَوْ يَكِيدُكَ اللّامُ فِي قِطْعِهِ﴾ متعلقة بـ ﴿جَمَلَهُ﴾، فيكون قطع الطَّرَفِ إشارة إلى من قتل بيدر على ما قال الحسن وابن إسحاق وغيرهما، أو إلى من قتل بأحد على ما قال السدي، وقتل من المشركين بيدر سبعون، وقتل منهم يوم أحد اثنان وعشرون رجلاً. وقال السدي: قتل منهم ثمانية عشر، والأول أصح.

والطرف: الفريق، ومتى قتل المسلمون كفاراً في حرب فقد قطعوا طرفاً، لأنه الذي وليهم من الكفار، فكان جميع الكفار رقعةً وهؤلاء المقتولون طرفٌ منها أي حاشية. ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿لَيَقْطَعُ طَرَفًا﴾ بمنزلة: لَيَقْطَعُ دَابِرًا.

وقوله: ﴿أَوْ يَكِيدُكَ اللّامُ﴾ معناه: أو يخزيهم، والكيد: الصرع للبدن، وقال النقاش وغيره: التاء بَدَلٌ من دال كَيْتِه، أصلها كَيْتِه أي: فعل به

ما يؤذي كبده، وإذا نصر الله على أمة كافرة فلا بد من أحد هذين الوجهين، إما أن يقتل منهم وإما أن يخيو، فذلك نوع من الهزم.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ توقيف على أن الأمر كله لله، وهذا التوقيف يقتضي أنه كان بسبب من جهة النبي ﷺ. وروي في ذلك أنه لما هُزِمَ أصحابه، وَشُجَّ في وجهه حتى دخلت بعض خَلْقِ الدرع في خده، وكسرت رباعيته، وارثت بالحجارة حتى صُرَّعَ لجنبه، تحيز عن الملحمة، وجعل يمسحُ الدَّم من وجهه ويقول: «لا يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم» هذا لفظ الحديث من طريق أنس بن مالك، وفي بعض الطرق: «وكيف يفلح؟» وفي بعضها أن سالماً مولى أبي حذيفة كان يغسل الدَّم عن وجه رسول الله ﷺ، قال: فأفاق وهو يقول: «كيف يقوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله؟» فنزلت الآية بسبب هذه المقالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان النبي ﷺ لحقه في تلك الحال يأسٌ من فلاح كفار قريش، فمالت نفسه إلى أن يستأصلهم الله ويربِّح منهم، فروي أنه دعا عليهم أو استأذن في أن يدعو عليهم، وروي ابن عمر وغيره: أنه دعا على أبي سفيان والحارث بن هشام وصفوان بن أمية باللعنة، إلى غير هذا من معناه، فقيل له بسبب ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: عواقب الأمور بيد الله، فامض أنت لشأنك ودم على الدعاء إلى ربك. قال الطبري وغيره من المفسرين:

قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على ﴿يَكْتُوبُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقولوه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعتراض أثناء الكلام، وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ معناه: فيسلمون، وقوله: ﴿أَوْ يَعْذِبُهُمْ﴾ معناه: في الآخرة بأن يوافوا على الكفر. قال الطبري وغيره: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ بمعنى حتى يتوب، أو إلى أن يتوب، فيجيء بمنزلة قولك: لا أفارقك أو تقضيني حقي، وكما تقول: لا يتم هذا الأمر أو يجيء فلان، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ليس باعترض على هذا التأويل، وإنما المعنى الإخبار لمحمد عليه السلام أنه ليس يتحصل له من أمر هؤلاء الكفار شيء يؤمله إلا أن يتوب الله عليهم فيسلموا، فيرى محمد عليه السلام أحد أمتيهم فيهم، أو يعذبهم الله بقتل في الدنيا، أو بنار في الآخرة أو بهما، فيرى محمد ﷺ الأمل الآخر. وعلى هذا التأويل فليس في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ردع كما هو في التأويل الأول، وذلك التأويل الأول أقوى.

وقرأ أبي بن كعب: ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ ﴿أَوْ يَعْذِبُ﴾ برفع الباء فيهما، المعنى: أو هو يتوب.

ثم قرر تعالى ظلم هؤلاء الكفار، ثم أكد معنى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ بالقول العام، وذكر الحجة الساطعة في ذلك وهي ملكة الأشياء، إذ ذلك مقتضى أن يفعل بحق ملكه ما شاء، لا اعتراض عليه ولا معقب لحكمه، وذكر أن الغفران

والتعذيب إنما هو بمشيئته وحسب السابق في علمه، ثم رجا في آخر ذلك تأنيساً للنفوس وجلباً لها إلى طاعته، وذلك كله في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذَكِيٌّ﴾.

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى جملة العالم فلذلك حسنت ﴿مَا﴾؛ وما ذكر في هذه الآية من أن هذه الآية ناسخة لدعاء النبي ﷺ على المشركين كلام ضعيف كله، وليس هذا من مواضع النسخ والمنسوخ.

﴿١٣١﴾ - ﴿١٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا النهي عن أكل الربا اعترض أثناء قصة أحد، ولا أحفظ سبباً في ذلك مروياً. والربا: الزيادة، وقد تقدم ذكر مثل هذه الآية وأحكام الربا في سورة البقرة.

وقوله: ﴿أَمْثَلًا﴾ نصب في موضع الحال، ومعناه: الربا الذي كانت العرب تضعف فيه الدين، فكان الطالب يقول: أتقضي أم تزيي؟ وقوله: ﴿مُضَكَّمَةً﴾ إشارة إلى تكرار التضعيف عاماً بعد عام كما كانوا يصنعون، فدلّت هذه العبارة المؤكدة على شناعة فعلهم وقبحه، ولذلك ذكرت حال التضعيف خاصة. وقد حرم الله جميع أنواع الربا، فهذا هو مفهوم الخطاب، إذ السكوت عنه في الربا في حكم المذكور، وأيضاً فإن الربا يدخل جميع أنواعه التضعيف والزيادة على وجوه مختلفة من العين أو من التأخير ونحوه.

والنار في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَكْثَرُ﴾ هي

اسم الجنس، ويحتمل أن تكون للعهد، ثم ذكر أنها أعدت للكافرين، أي أنهم هم المقصود والمراد الأول، وقد يدخلها سواهم من العصاة، فشنع أمر النار بذكر الكفر، وحسن للمؤمن أن يحذرهما ويبعد بطاعة الله عنها، وهذا كما قال في الجنة: ﴿أَعَدَّتْ لِلشَّيْقِينَ﴾ أي أنهم هم المقصود، وإن كان يدخلها غيرهم من صبي ومجنون ونحوه ممن لا يكلف ولا يوصف بتقوى، هذا مذهب أهل العلم في هذه الآية.

وحكى الماوردي وغيره عن قوم أنهم ذهبوا إلى أن أكلة الربا إنما توعدهم الله بنار الكفرة، إذ النار سبع طبقات، العليا منها وهي جهنم للعصاة، والخمس للكفار، والدرك الأسفل للمنافقين، قالوا: فأكلة الربا إنما يعذبون يوم القيامة بنار الكفرة لا بنار العصاة، وبذلك توعّدوا، فالألف واللام على هذا في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَكْثَرُ﴾ إنما هي للعهد.

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله، والطاعة هي موافقة الأمر الجاري عند المأمور مع مراد الأمر، وقال رسول الله ﷺ: فمن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني.

وقال محمد بن إسحاق: إن هذه الآية من قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ هي ابتداء المعاتبة في أمر أحد، وانتهزام من فرّ وزوال الرماة عن مراكزهم.

ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿فَاسْتَعِظُوا الْعَذْرَةَ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ مَنَعَرُوا﴾

معناه: سارعوا بالتقوى

والطاعة والتقرب إلى

ربكم إلى حال يغفر الله

لكم فيها، أي: يستر

ذنوبكم بعفوه عنها وإزالة

حكمها، ويدخلكم جنته.

قال أنس بن مالك

ومكحول في تفسير

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَنَعَرَةٍ﴾

معناه: إلى تكبيرة الإحرام

مع الإمام.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: وهذا مقال

حسنٌ يحتذى عليه في كل

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَنَعَرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ يُفْقُونَ
فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْمُفَافِينَ
عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا
فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى
مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاءُ مَنَعَرَةٍ
مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ خَيْرَى مِنْ هَٰئِهِمَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَيَعْمَ أَجْرُ الْمُحْسِلِينَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَاسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ
هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ
وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
إِنْ يَسْأَلْكُمْ فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ فَبَشِّرْهُ
وَلَئِكَ الْآيَاتُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ

٦٧

﴿١٣٣﴾ - تفسير قوله عز وجل:

قرأ نافع وابن عامر: ﴿سَارِعُوا﴾

بغير واو، وكذلك هي في مصاحف

أهل المدينة وأهل الشام، وقرأ باقي

السبعة بالواو، قال أبو علي: كلا

المرين شائع مستقيم، فمن قرأ

بالواو فلأنه عطف الجملة على

الجملة، ومن ترك الواو فلأن

الجملة الثانية ملتبسة بالأولى مستغنية

بذلك عن العطف بالواو. وأمال

الكسائي ألف من قوله:

﴿سَارِعُوا﴾ ومن قوله: ﴿وَيُسْرِعُونَ

فِي الْعَذْرَةِ﴾ و﴿سَارِعٌ لَّمْ فِي الْخَيْرِ﴾

في كل ذلك؛ قال أبو علي:

والإمالة هنا حسنة لوقوع الراء

المكسورة بعدها.

والمسارعة: المبادرة، وهي مفاعلة

إذ الناس كأن كل واحد يسرع ليصل

قبل غيره، فبينهم في ذلك مفاعلة،

قال: تُقَرَّرُ السموات والأرضون

بعضها ببعض كما يبسط الثوب،

فذلك عرض الجنة ولا يعلم طولها

إلا الله. وفي الحديث عن

النبي ﷺ: «إن بين المصراعين من

أبواب الجنة مسيرة أربعين سنة،

وسياتي عليها يوم يزدهم الناس فيها

كما تزدهم الإبل إذا وردت خُصْماً

ظُماً، وفي الحديث عنه ﷺ: «إن

في الجنة شجرة يسير الراكب المجذ

في ظلها مائة عام لا يقطعها»، فهذا

كله يقوي قول ابن عباس، وهو قول

الجمهور: إن الجنة أكبر من هذه

المخلوقات المذكورة، وهي ممتدة

عن السماء حيث شاء الله تعالى،

وذلك لا يُنْكَرُ، فإن في حديث النبي

عليه السلام: «ما السموات السبع

والأرضون السبع في الكرسي إلا

كدرهم ألقى في فلاة من الأرض،

وما الكرسي في العرش إلا كحلقة

في فلاة الأرض».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذه مخلوقات أعظم بكثير جداً من

السموات والأرض، وقدرة الله تعالى

أعظم من ذلك كله.

وروى يعلى بن أبي مرة قال: لقيت

التنوخى رسول هرقل إلى

رسول الله ﷺ بحمص، شيخاً كبيراً

قد فند فقال: قدمت على النبي ﷺ

بكتاب هرقل، فنال الصحيفة رجلاً

عن يساره فقلت: من صاحبكم الذي

يقرأ؟ قالوا: معاوية، فإذا كتاب

هرقل: إنك كتبت إلي تدعوني إلى

جنة عرضها السموات والأرض

أعِدَّتْ للمتقين، فأين النار؟ فقال

رسول الله ﷺ: «سبحان الله، فأين

طاعة.

وقوله تعالى: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ

وَالْأَرْضُ﴾ تقديره: كعرض السموات

والأرض، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا

خَلَقَكُمْ وَلَا بِمَنِّكُمْ إِلَّا كَفَنِينَ

وَجِدٍّ﴾ أي كخلق نفس واحدة

ويعتبرها، فجاء هذا الاقتضاب المفهوم

الفصيح، ومنه قول الشاعر:

حَسِبْتُ بُغَامَ راحِلَتِي عَنَّا قَا

وما هي وَتَبَّ غَيْرِكَ بِالْعَنَاقِ

ومنه قول الآخر:

كَانَ غَدِيرُهُمْ بِجَنُوبِ سَيْلِي

نَعَامٌ قَاتِي فِي بَلَدِ قِفَارِ

التقدير: صوت عَنَّا قِي وغدير نعام.

وأما معنى قوله تعالى: ﴿عَرْضُهَا

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فاختلف العلماء

في ذلك على ثلاثة مذاهب؛ فروي

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه

الليل إذا جاء النهار؟»، وروى قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: جاء رجلان من اليهود من نجران إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال أحدهما: تقولون جنة عرضها السموات والأرض، أين تكون النار؟ فقال عمر رضي الله عنه: أرايت النهار إذا جاء أين يكون الليل؟ والليل إذا جاء أين يكون النهار؟ فقال اليهودي: إنه لمثلها في التوراة، فقال له صاحبه: لم أخبرته؟ دعه إنه بكلّ موطن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه الآثار كلها هي في طريق واحد، من أن قدرة الله تتسع لهذا كله، وخصّ العرض بالذكر لأنه يدل متى ذُكر على الطول، والطول إذا ذكر لا يدل على قُدْر العرض، بل قد يكون الطويل يسير العرض كالخيوط ونحوه؛ ومن ذلك قول العرب: بلاد عريضة، وفلاة عريضة.

وقال قوم: قوله تعالى: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ معناه: كعرض السموات والأرض، كما هي طباقاً، لا بأن تقرر كبسط الثياب، فالجنة في السماء، وعرضها كعرضها وعرض ما وراءها من الأرضين إلى السابعة، وهذه الدلالة على العظم أغنت عن ذكر الطول.

وقال قوم: الكلام جارٍ على مقطع العرب من الاستعارة، فلما كانت الجنة من الاتساع والانفاسح في غاية قصوى، حسنت العبارة عنها بعرضها السموات والأرض، كما تقول لرجل: هذا بحرٌ، ولشخص كبير من

الحيوان: هذا جبلٌ، ولم تقصد الآية تحديد العرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجلب مكى هذا القول غير ملخص، وأدخل حجة عليه قول العرب: أرض عريضة. وليس قولهم: أرض عريضة مثل قوله: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ إلا في دلالة ذكر العرض على الطول فقط، وكذلك فعل النقاش؛ وروى أن النبي ﷺ قال للفارين يوم أحد: «لقد ذهبتُم فيها عريضة» وقال ابن فورك: الجنة في السماء، ويزاد فيها يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا متعلق لمنذر بن سعيد وغيره ممن قال: إن الجنة لم تخلق بعد، وكذلك النار، وهو قول ضعيف، وجمهور العلماء على أنها قد خلقتا، وهو ظاهر كتاب الله تعالى في قوله: ﴿أَعَدَّتْ لِلشَّقَوِيْنَ﴾ و﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ﴾ وغير ذلك؛ وهو نص في الأحاديث كحديث الإسراء وغيره مما يقتضي أن ثَمَّ جنة قد خلقت. وأما من يقول: يزداد فيهما فلا ترد عليه الأحاديث، لكنه يحتاج إلى سند يقطع العذر.

و﴿أَعَدَّتْ﴾ معناه: يسرت وانتظروا بها. ثم وصف تعالى المتقين الذين أعدت لهم الجنة بقوله: ﴿الَّذِينَ يُتَّقُونَ...﴾ الآية، وظاهر هذه الآية أنها مدحٌ لفعل المندوب إليه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالْقَصْرَاءِ﴾ معناه: في العسر واليسر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

إذ الأغلب أن مع اليسر النشاط وسرور النفس، ومع العسر الكراهية وضر النفس.

وكظم الغيظ: رُدُّه في الجوف إذا كاد أن يخرج من كثرته، فضببطه ومنعه كَظْمٌ له، والكَظْمُ: السير الذي يُشَدُّ به فم الزق والقربة، وكظم البعير جرثته: إذا رُدَّها في جوفه، وقد يقال لحبسه الجرثرة قبل أن يرسلها إلى فيه: كَظْمٌ، حكاه الزجاج، فقال: كظم البعير والناقاة إذا لم يجترأ، ومنه قول الراعي:

فَأَفْضَنَ بَعْدَ كُظْمِهِمْ بِجِرَّةٍ
مَنْ ذِي الْأَبَاطِحِ إِذْ زَعَيْنَ حَقِيلاً
والغيظ: أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان، ولذلك فسر بعض الناس الغيظ بالغضب، وليس تحرير الأمر كذلك، بل الغيظ فعل النفس لا يظهر على الجوارح، والغضب حال بها معه ظهور في الجوارح وفعلٌ ما ولا بد، ولهذا جاز إسناد الغضب إلى الله تعالى، إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم، ولا يُسَنَدُ إليه تعالى غيظ، وخلط ابن فورك في هذه اللفظة.

ووردت في كظم الغيظ وَمَلِكُ النفس عند الغضب أحاديث، وذلك من أعظم العبادة وجهاد النفس، ومنه قوله عليه السلام: «ليس الشديد بالصُّرْعَةِ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»، ومنه قول النبي عليه السلام: «ما من جرعة يتجرعها العبد خيرٌ له وأعظم أجراً من جرعة غيظ في الله»، وروى أبو هريرة أن النبي عليه السلام قال: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاده، ملأه الله

أَمَنًا وَلِيْمَانَةً، والعفو عن الناس من أجل ضروب فعل الخير، وهذا حيث يجوز للإنسان ألا يعفو، وحيث يتجه حقه. وقال أبو العالية: ﴿وَالْمَافِيْنَ عَنِ النَّاسِ﴾ يريد عن المماليك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا حسن على جهة المثال، إذ هم الخدمة، فهم المذنبون كثيراً، والقدرة عليهم متيسرة، وإنفاذ العقوبة سهل، فلذلك مثل هذا المفسر به.

وذكر تعالى بعد ذلك أنه يحب المحسنين، فعم هذه الوجوه وسواها من البر، وهذا يدل على أن الآية في المندوب إليه، ألا ترى إلى سؤال جبريل عليه السلام فقال: «ما الإيمان؟» ثم قال: «ما الإسلام؟» فذكر له رسول الله ﷺ المفروضات، ثم قال له: «ما الإحسان؟» قال: أن تعبد الله كأنك تراه... الحديث.

﴿١٣٥﴾ - ﴿١٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل: ذكر الله تعالى في هذه الآية صنفاً دون الصنف الأول، فالحقهم بهم برحمته ومنه، فهؤلاء هم التوابون. وروي في سبب هاتين الآيتين: أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا حين كان المذنب منهم يصيح وعقوبته مكتوبة على باب داره، فأنزل الله هذه الآية توسعة ورحمة وعوضاً من ذلك الفعل ببني إسرائيل. وروي أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية. وروى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال: «ما من عبد يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ويصلي ركعتين ويستغفر إلا غفر له».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ عطف جملة ناس على جملة أخرى، وليس ﴿الَّذِينَ﴾ بنعت كرر معه واو العطف، لأن تلك الطبقة الأولى تنزه عن الوقوع في الفواحش، والفاحشة هنا: صفة لمحذوف أقيمت الصفة مقامه، التقدير: فعلوا فعلة فاحشة، وهو لفظ يعم جميع المعاصي، وقد كثر اختصاصه بالزنى، حتى فسر السدي هذه الآية بالزنى، وقال جابر بن عبد الله لما قرأها: زنى القوم ورب الكعبة؛ وقال إبراهيم النخعي: الفاحشة من الظلم، والظلم من الفاحشة، وقال قوم: الفاحشة في هذه الآية إشارة إلى الكبائر، وظلم النفس إشارة إلى الصغائر.

﴿وَذَكِّرُوا لِلَّهِ﴾ معناه: بالخوف من عقابه والحياء منه، إذ هو المنعم المتطول؛ ومن هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «رحم الله صهيياً لو لم يخف الله لم يعصه». واستغفروا معناه: طلبوا الغفران، واللام معناها: لأجل ذنوبهم، ثم اعترض أثناء الكلام قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾، اعترضاً مرققاً للنفس، داعياً إلى الله، مرجعاً في عفوّه إذا رجع إليه، وجاء اسم الله مرفوعاً بعد الاستثناء والكلام موجب حملاً على المعنى، إذ هو بمعنى: وما يغفر الذنوب إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ الإصرار معناه: اعتزام الدوام على

الأمر وترك الإقلاع عنه، ومنه صر الدنانير أي: الربط عليها، ومنه قول أبي السمال تعنب العدوي: علم الله أنها مني صري، يريد: عزيمة، فالإصرار اعتزام البقاء على الذنب، ومنه قول النبي عليه السلام: «لا توبة مع إصرار» وقال أيضاً: «ما أصر من استغفر».

واختلفت عبارة المفسرين في الإصرار؛ فقال قتادة: هو الذي يمضي قدماً في الذنب لا تنهيه مخافة الله، وقال الحسن: إتيان العبد الذنب هو الإصرار حتى يموت، وقال مجاهد: ﴿لَمْ يُصِرُّوا﴾ معناه: لم يمسؤوا، وقال السدي: الإصرار: هو ترك الاستغفار والسكوت عنه مع الذنب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْلَمُونَ﴾ قال السدي: معناه: وهم يعلمون أنهم قد أذنبوا، وقال ابن إسحاق: معناه: وهم يعلمون بما حرمت عليهم، وقال آخرون: معناه: وهم يعلمون أن باب التوبة مفتوح لهم، وقيل: المعنى: وهم يعلمون أنني أعاقب على الإصرار.

ثم شرك تعالى الطوائفيتين المذكورتين في قوله: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُكُمْ...﴾ الآية، وهذه تؤذن بأن الله تعالى أوجب على نفسه بهذا الخبر الصادق قبول توبة التائب، وليس يجب عليه تعالى من جهة العقل شيء، بل هو بحكم الملك لا معقب لأمره.

وقوله: ﴿وَيَعْمَ أَجْرُ الْكَيْلَيْنِ﴾ بمنزلة قوله: ونعم الأجر، لأن نعم ويشن تطلب الأجناس المعرفة أو ما

أضيف إليها، وليست هذه الآية بمنزلة قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ﴾ لأن المثل هنا أضيف إلى معهود لا إلى جنس، فلذلك قدره أبو علي: ساء المثل مثل القوم، ويحتمل أن يكون مثل القوم مرتفعاً بـ «ساء» ولا يضر شيء.

﴿١٣٧﴾ - ﴿١٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل: الخطاب بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ للمؤمنين. والمعنى: لا يذهب بكم أن ظهر الكفار المكذبون عليكم بأحد، فإن العاقبة للمتقين، وقديماً أدال الله المكذبين على المؤمنين، ولكن انظروا كيف هلك المكذبون بعد ذلك، فكذلك تكون عاقبة هؤلاء. وقال النقاش: الخطاب بعد ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ للكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك قلق. وخلت معناه: مضت وسلفت.

قال الزجاج: التقدير: أهل سنن، والسنن: الطرائق من السير والشرائع والملك والفتن ونحو ذلك، وسنة الإنسان: الشيء الذي يعمل ويواليه، ومن ذلك قول خالد الهذلي لأبي ذؤيب:

فلا تجزعن من سنة أنت سيرتها
فأول راض سنة من يسيرها

وقال سليمان بن قته:
وإن الألى بالطفف من آل هاشم
تأسوا فاستوا للكرام التأسيا

وقال لبيد:
من معشر سئت لهم آباؤهم
ولكل قوم سنة وإمامها
وقال ابن زيد: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ معناه: أمثال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير لا يخص اللفظة.

وقال تعالى: ﴿فَيَسِّرُوا﴾ وهذا الأمر ينشك بالإخبار دون السير لأن الإخبار إنما يكون ممن سار وعاین، إذ هو مما يُذكر بحاسة البصر وعن ذلك ينتقل خبره، فأحالهم الله تعالى على الوجه الأكمل. وقوله: ﴿فَانظُرُوا﴾، هو عند الجمهور من نظر العين، وقال قوم: هو بالفكر.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيِّنٌ لِلنَّاسِ﴾ قال الحسن: الإشارة إلى القرآن، وقال قتادة في تفسير الآية: هو هذا القرآن جعله الله بياناً للناس عامة وهدى وموعظة للمتقين خاصة، وقال بمثله ابن جريج والربيع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كونه بياناً للناس ظاهر، وهو في ذاته أيضاً هدى منصوب وموعظة، لكن من عمي بالكفر وضل وقسا قلبه لا يحسن أن يضاف إليه القرآن، وتحسن إضافته إلى المتقين الذين منهم نفع وإياهم هدى، وقال ابن إسحاق والطبري وجماعة: الإشارة بـ (هذا) إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾... الآية، قال ابن إسحاق: المعنى: هذا تفسير للناس إن قبلوه، قال الشعبي: المعنى: هذا بيان للناس من العمى.

ثم نهى عز وجل المؤمنين عن الوهن لما أصابهم بأحد، والحزن على من فقد وعلى مذمة الهزيمة، وأتسهم بأنهم الأعدون أصحاب العاقبة، والوهن والوهن: الضعف واللين والبلى، ومنه ﴿وَمَنْ أَلْغَمُوا﴾ ومنه قول زهير:

.....
فأصبح الحبل منها واهناً خَلْقاً
ومن كرم الخلق ألا يهن الإنسان
في حربه وخصامه، ولا يلين إذا كان محققاً، وأن يتقصى جميع قدرته ولا يضرع ولو مات، وإنما يحسن اللين في السلم والرضى، ومنه قول النبي ﷺ: «المؤمن هين لين» و«المؤمنون هينون لينون»، ومنه قول الشاعر:

لعمرك ما إن أبو مالك
برأه ولا بضعيف قواه
إذا سدت سدت مطواعة
ومهما وكلت إليه كفاه
وفي هذا الأسلوب الذي ذكرته يجري قول النابغة:

ومن عصاك فعاقبه معاقبة
تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد
إلا لمثلك أو من أنت سابقه
سبق الجواد إذا استولى على الأمد
وفيه يجري قول العرب: «إذا لم تغلب فاخلب»، على من تأوله من المخلب، أي حارب ولو بالأظافر، وهذا هو فعل عبدالله بن طارق وهو من أصحاب عاصم بن عدي حين نزح يده من القرآن وقاتل حتى قتل، وفعل المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح في يوم بشر معونة. ومن رآه من معنى الخلب والخلابة الذي هو الخديعة والمكر فهو رأي دهاة العرب، وليس برأي جمهورها، ومنه فعل عمرو بن سعيد الأسدي مع عبدالله بن مروان عند قتله إياه، والأمثلة في ذلك كثيرة، وأيضاً فليس المكر

والخديعة بذل محض، ولذلك رآه بعضهم.

وأما قولهم: «إذا عَزَّ أخوك فَهِنْ»، فالرواية الصحيحة المعنى فيه بكسر الهاء بمعنى: لَنْ واضعف ضَعْفَ المطواع. وأما الرواية بضم الهاء فهي أمرٌ بالهوان، وما أعرف ذلك في شيء من مقاطع العرب، وأما الشرع فقد قال عليه السلام: «لا ينبغي لمؤمن أن يُذِلَّ نفسه»، ورأيت لعاصم أن المثل على ضم الهاء إنما هو من الهون الذي هو الفرق وليس من الهوان.

وقال منذر بن سعيد: يجب بهذه الآية ألا يواذع العدو ما كانت للمسلمين قوة، فإن كانوا في قطر ما على غير ذلك فينظر الإمام لهم بالأصلح.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَلَعَلَّوْنَ﴾ إخبارٌ بعلو كلمة الإسلام؛ هذا قول الجمهور وظاهر اللفظ، وقاله ابن إسحاق، وروي عن ابن عباس وابن جريج: إنما قال الله لهم ذلك بسبب علوهم في الجبل، وذلك أن رسول الله ﷺ حين انحاز في نفر يسير من أصحابه إلى الجبل، فبينما هو كذلك إذ علا خالد بن الوليد عليهم الجبل فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا يعلوونا» ثم قام وقام من معه فقاتل أصحابه وقاتل حينئذ عمر بن الخطاب حتى أزالوا المشركين عن رأس الجبل، وصعد رسول الله ﷺ وأصحابه فيه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ أَلَعَلَّوْنَ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يتعلق الشرط بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ فيكون المقصد هز النفوس وإقامتها، ويحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَلَعَلَّوْنَ﴾ فيكون الشرط على بابه دون تجوز، ويترتب من ذلك الطعن على من نجم نفاقه في ذلك اليوم، وعلى من تأود إيمانه واضطرب يقينه: ألا لا يتحصل الوعد إلا بالإيمان، فالزموه.

ثم قال تعالى تسلياً للمؤمنين: ﴿إِنْ يَمْسِكُكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾، والأسوة منسلة للبشر، ومنه قول الخنساء:

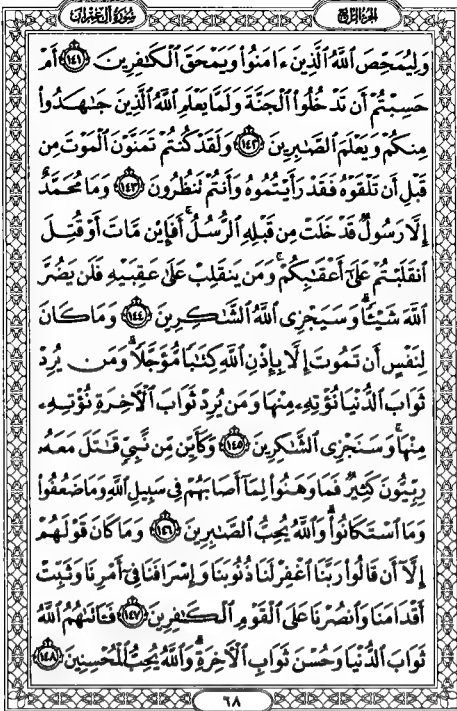
ولولا كثرة الباكين حولي
على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن
أعزّي النفس عنه بالتأسي
والسلو بالتأسي هو النفع الذي يجره إلى نفسه الشاهد المحدود، فلذلك رُدَّتْ شهادته فيما حُدَّ فيه وإن تاب وحسنت حاله. والقَرْح: القتل والجراح، قاله مجاهد والحسن والربيع وقتادة وغيرهم.

والمعنى: إن مسكم في أخذٍ فقد مس كفار قريش بيدٍ بأيديكم.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص: ﴿قَرْحٌ﴾ بفتح القاف، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿قَرْحٌ﴾ بضم القاف، وكلهم سَكَنَ الراء، قال أبو علي: هما لفتان كالضَّعْف والضَّعْف والكَرْه والكَرْه، والفتح أولى، لأنها لغة أهل الحجاز والأخذ بها أوجب لأن القرآن عليها نزل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذه القراءات لا يُظَنُّ إلا أنها مروية عن النبي ﷺ، وجميعها عارض جبريل عليه السلام مع طول السنين توسعة على هذه الأمة، وتكملة للسبعة الأحرف حسب ما بيناه في صدر هذا التعليق، وعلى هذا لا يقال: هذه أولى من جهة نزول القرآن بها، وإن رجحت قراءة فبوجه غير وجه النزول. قال أبو الحسن الأخفش: القَرْح والقَرْح مصدران بمعنى واحد، ومن قال: القَرْح بالفتح الجراحات بأعيانها، والقَرْح بضم القاف ألم الجراحات؛ قُبِلَ منه إذا أتى برواية، لأن هذا مما لا يعلم بقياس، وقال بهذا التفسير الطبري.

وقرأ الأعمش: ﴿إِنْ تَمَسَّنْكُمْ﴾ بالتاء من فوق، ﴿قَرْوَحٌ﴾ بالجمع، ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾. وقرأ محمد بن السميع اليماني ﴿قَرْحٌ﴾ بفتح القاف والراء؛ قال أبو الفتح: هي لغة في القرح كالشَّل والشَّلَل والطَّرْد والطَّرْد، هذا مذهب البصريين، وليس هذا عندهم من تأثير حرف الحلق، وأنا أميل في هذا إلى قول أصحابنا البغداديين في أن لحرف الحلق في مثل هذا أثراً معتمداً، وقد سمعت بعض بني عقيل يقول: نَحَوَه بفتح الحاء، يريد نَحَوَه، ولو كانت الكلمة مَبْنِيَّة على فتح الحاء لأَعْلَتِ الواو كعصاة وقناة، وسمعت غيره يقول: أنا مَحْمُوم بفتح الحاء. قال ابن جني: ولا قرابة بيني وبين البصريين ولكنها بيني وبين الحق والحمد لله.



ثم أخبر تعالى أن إدالته الكفار على المؤمنين إنما هي ليمحّص المؤمنين، وأن إدالة المؤمنين على الكفار إنما هي لمحقّ الكفار، هذا مقتضى ألفاظ الآية. وقد قال ابن عباس وغيره: جعل الله الدولة لرسوله يوم بدر، وعليه يوم أحد. وذهب كثير من أهل العلم إلى العبارة عن إدالة المؤمنين بالنصر، وعن إدالة الكفار بالإدالة، وروي في ذلك عن النبي ﷺ حديث: «إنهم يدالون كما تنصرون».

١٤٠ - ١٤١ تفسير قوله عز وجل: أخبر تعالى على جهة التسلية أن الأيام على قديم الدهر وغايه أيضاً إنما جعلها دولاً بين البشر، أي: فلا تنكروا أن يدال عليكم الكفار. وقال تعالى: «نداولها» فهي مفاعلة من جهة واحدة، وإنما ساغ ذلك لأن المداولة منه تعالى هي بين شيئين، فلما كان ذاك الفريقان يتداولان حسن ذلك، والدولة بضم الدال: المصدر، والدولة بفتح الدال: الفعلة الواحدة من ذلك، فلذلك يقال: في دولة فلان لأنها مرة في الدهر، وسمع بعض العرب الاتحاح قارئاً يقرأ هذه الآية، فقال: إنما هو «وتلك الأيام نداولها بين العرب»، فقليل له: إنما هو «بين الناس» فقال: إنما الله، ذهب ملك العرب ورب الكعبة.

وقوله تعالى: «وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا» دخلت الواو لتؤذن أن اللام متعلقة بمقدّر في آخر الكلام، تقديره: وليعلم الله الذين آمنوا فعل ذلك. وقوله تعالى: «وَلْيَعْلَمَ» معناه: ليظهر في الوجود إيمان الذين قد علم أزل أنهم يؤمنون، وليساق علمهم إيمانهم ووجودهم، وإلا فقد علمهم في الأزل، وعلمه تعالى لا يطرأ عليه التغير، ونحو هذا: أن يضرب حاكم أحداً ثم يبين سبب الضرب ويقول: فعلت هذا التبيين لأضرب مستحقاً، معناه: ليظهر أن فعلي وافق استحقاقه.

وقوله تعالى: «وَيَتَجَدَّ مِنْكُمْ شُكَّةٌ»، معناه: أهل فوز في سبيله حسبما ورد في فضائل الشهيد.

والتمحيص: التنقية. قال الخليل: التحميص من العيب، يقال: تمحّص الحبل إذا زال عنه بكثرة مرّو على اليد زفيره وأملس، هكذا ساق الزجاج اللفظة (الحبل) ورواها النقاش «محص الجمل»: إذا زال عنه وبرّه وأملس، وقال حنيف الحناتم وقد ورد ماء يقال له: طوّيلع: إنك لمحصّ الرشاء، بعيد المستقى، مَطْلٌ على الأعداء، فالمعنى: إنه لبعده يملس حبله بطول الجز ومرّ الأيدي.

فمعنى الآية: إن الله يمحّص المؤمنين إذا أدال عليهم بأنه ينقي المستشعدين من ذنوبهم، وينقي الأحياء من منافقيهم إذ يميزهم، وإنه يمحّص الكافرين إذا نصر عليهم، أي: ينتقصهم، والمحق: الذهاب شيئاً شيئاً، ومنه محاق القمر.

١٤٢ - ١٤٣ تفسير قوله عز وجل: «أَمْ» هي بمعنى الإضراب عن الكلام الأول والترك له، وفيها لازم معنى الاستفهام، فلذلك قدرها سيبويه بـ «بَلْ» وألف الاستفهام. «وَحَبِثْتُ» معناه: ظننتم؛ وهذه الآية وما بعدها تزيغ وغث لطوائف المؤمنين الذين وقعت منهم الهفوات المشهورة في يوم أحد.

وقوله: «وَلَمَّا بَلَغَ» نفي مؤكد وهو معادل لقول القائل: قد كان كذا، فلما أكد هذا الخبر الموجب بقدر أكد النفي المعادل له بلأ، وإذا قال القائل: كان هذا، فمعادله: لم يكن دون تأكيد في الوجهين، قاله سيبويه.

وقرأ جمهور الناس: بكسر الميم للالتقاء في قوله: «وَلَمَّا بَلَغَ»، وقرأ يحيى بن وثاب وإبراهيم النخعي:

﴿وَلَمَّا يَغْلَمْ﴾ بفتح الميم إبتاعاً لفتححة اللام، وقرأ الجمهور ﴿وَيَغْلَمْ﴾ على النصب بإضمار «أن» عند البصريين، وبواو الصرف عند الكوفيين. وروي عن أبي عمرو ابن العلاء أنه قرأ: ﴿وَيَغْلَمْ﴾ بالرفع على استئناف الفعل، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ويحيى بن يعمر أبو حيوه وعمرو بن عبيد: ﴿وَيَغْلَمْ﴾ بكسر الميم جزماً معطوفاً على قوله: ﴿وَكَلَّمَ بَيِّنًا﴾.

ثم خاطب تعالى المؤمنين بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾، والسبب في ذلك أن رسول الله ﷺ خرج في غزوة بدر يريد غير قريش مبادراً فلم يُوعِبِ الناس معه، إذ كان الظن أنه لا يلقى حرباً، فلما قضى الله ببدْرِ ما قضى وفاز حاضروها بالمنزلة الرفيعة؛ كان المتخلفون من المؤمنين عنها يتمنون حضور قتال الكفار مع النبي ﷺ ليكون منهم في ذلك غَنَاءٌ يُلْجِقُهُمْ عند ربهم وبنبيهم بمنزلة أهل بدر، ولأنس بن النضر في ذلك كلام محفوظ، فلما جاء أمر أحد وحضر القتال لم يَضُدُّ كُلُّ المؤمنين، فعاتبهم الله بهذه الآية، وألزمهم تعالى تمنى الموت من حيث تمنوا لقاء الرجال بالحديد ومضاربتهم به، وهي حال في ضمنها في الأغلب الموت، ولا يتمناها إلا من طابت نفسه بالموت، فصار الموت كأنه الممتنى، وإلا ففسد قتل المشرك للمسلم لا يجوز أن يُتمنى من حيث هو قتل، وإنما تُتمنى لواقعه من الشهادة والتنعيم.

وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ

تَلْقَوْهُ﴾، وقرأ الزهري وإبراهيم النخعي: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلَاقَوْهُ﴾، وهذه والأولى في المعنى سواء من حيث «لقي» معناه يتضمن أنه من اثنين وإن لم يكن على وزن فاعل، وقرأ مجاهد: ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ بضم اللام وترك الإضافة، وجعل ﴿أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ بدلاً من الموت.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمْوُ﴾ يريد رأيتم أسبابه، وهي الحرب المشتعلة والرجال بأيديهم السيوف، وهذا كما قال عمير بن وهب يوم بدر: رأيت البلايا تحمل المنايا. قال الحارث بن هشام:

ووجدت ريح الموت من تلقائهم
في مأزق والخيل لم تتبدد
يريد لقرب الأمر، ونحو هذا قول عامر بن فهيرة:

لقد رأيت الموت قبل ذوقه
يريد لما اشدت به المرض.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿فَلَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ يحتل ثلاثة معان:

أحدها: التأكيد للرؤية وإخراجها من الاشتراك الذي بين رؤية القلب ورؤية العين في اللفظ.

والآخر: أن يكون المعنى: وأنتم تنظرون في أسباب النجاة والفرار وفي أمر محمد عليه السلام هل قُتِلَ أم لا؟ وذلك كله نقض لما كنتم عاهدتم الله عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحكى مكى وغيره عن قوم أنهم قالوا: المعنى: وأنتم تنظرون إلى محمد، وهذا قول ضعيف، إلا أن

ينحى به إلى هذا القول الذي ذكرته أنه النظر في أمره هل قتل؟ والاضطراب بحسب ذلك.

والمعنى الثالث: أن يكون قد وقفهم على تمنيتهم ومعاهدتهم، وعلى أنهم رأوا الذي تمنوا، ثم قال على جهة التوبيخ والعتب: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ في فعلكم الآن بعد انقضاء الحرب هل فوَيْتُمْ أم خالفتم؟ كأنه قال: وأنتم حسباء أنفسكم، فتأملوا قبيح فعلكم، وفي هذا التوبيخ على هذا الوجه ضرب جميل من الإبقاء والصون والاستدعاء. قال ابن فورك: المعنى: وأنتم تتأملون الحال في ذلك وتفكرون فيها كيف هي؟ وهذا نحو ما تقدم.

﴿١٤٤﴾ - ﴿١٤٥﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا استمرار في عتابهم وإقامة حجة الله عليهم، المعنى: إن محمداً ﷺ رسول كسائر الرسل، وقد بلغ كما بلغوا، ولزمكم أيها المؤمنون العمل بمضمّن الرسالة، وليست حياة الرسول وبقاؤه بين أظهركم شرطاً في ذلك، لأن الرسول يموت كما مات الرسل قبله. و﴿عَلَّكُ﴾ معناه: مضت وسلفت، وصارت إلى الخلاء من الأرض.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَرْسُلَ﴾ بالتعريف، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿رُسُلَ﴾ دون تعريف، وهي قراءة حطان بن عبد الله، فوجه الأولى تفخيم ذكر الرسل والتنويه بهم على مقتضى حالهم من الله تعالى، ووجه الثانية أنه موضع تفسير لأمر النبي عليه السلام في معنى

الحياة، ومكان تسوية بينه وبين البشر في ذلك فَيَجِيءُ تنكير ﴿الرُّسُلُ﴾ جارياً في مضمار هذا الاقتصاد به ﷺ، وهكذا يفعل في مواضع الاقتصاد بالشيء، فمنه قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِمَنِ عِبَادُ الشُّكُورِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْنٌ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ إلى غير ذلك من الأمثلة. ذكر ذلك أبو الفتح، والقراءة بتعريف الرسل أوجه في الكلام.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ...﴾ الآية، دخلت ألف الاستفهام على جملة الكلام على الحد الذي يخبر به ملتزمه، لأن أقبح الأحوال أن يقولوا: إن مات محمد أو قتل انقلبنا، فلما كان فعلهم ينحو هذا المنحى وقفوا على الحد الذي به يقع الإخبار. وقال كثير من المفسرين: ألف الاستفهام دخلت في غير موضعها، لأن الغرض إنما هو: تنقلبون على أعقابكم إن مات محمد؛ فالسؤال إنما هو عن جواب الشرط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبذلك النظر الذي قدمته يبين وجه فصاحة الألف على الشرط، وذلك شبيه بدخول ألف التقريب في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاؤُكُمْ﴾ ونحوه من الكلام، كأنك أدخلت التقرير على ما ألزمت المخاطب أنه يقوله. والانقلاب على العقب يقتضي التولي عن المنقلب عنه. ثم تواعد تعالى المنقلب على عقبه بقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا﴾ لأن المعنى: فإنما يضر نفسه وإياها يوبق. ثم وعد الشاكرين وهم الذين

صدقوا وصبروا ولم ينقلب منهم أحد على عقبه بل مضى على دينه قدماً حتى مات، فمنهم سعد بن الربيع وتقتضي بذلك وصيته إلى الأنصار، ومنهم أنس بن النضر، ومنهم الأنصاري الذي ذكر الطبري عنه يستد أنه مر عليه رجل من المهاجرين والأنصاري يتشخط في دمه، فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل، فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فإنه قد بلغ، فقاتلوا على دينكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهؤلاء أصحاب النازلة يومئذ صدق فعلهم قولهم، ثم يدخل في الآية الشاكرون إلى يوم القيامة. قال ابن إسحاق: معنى ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: من أطاعه وعمل بأمره. وذكر الطبري بسند عن علي بن أبي طالب وذكره غيره: أنه قال في تفسير هذه الآية: الشاكرون: الشابتون على دينهم، أبو بكر وأصحابه، وكان يقول: أبو بكر أمير الشاكرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الإشارة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنما هي إلى صلع أبي بكر رضي الله عنه بهذه الآية في يوم موت النبي عليه السلام وثبوته في ذلك الموطن، وثبوته في أمر الردة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما قبض وشاع موته، هاج المنافقون وتكلموا وهموا بالاجتماع والمكاشفة، فأوقع الله تعالى في نفس عمر رضي الله عنه أن النبي لم يُقبض، فقام بخطبته المشهورة

المخوفة للمنافقين برجوع النبي عليه السلام، ففت ذلك في أعضاد المنافقين وتفرقت كلمتهم، ثم جاء أبو بكر بعد أن نظر إلى النبي عليه السلام فسمع كلام عمر فقال له: اسكت، فاستمر عمر في كلامه فتشهد أبو بكر فأصغى الناس إليه، فقال: أما بعد فإنه من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ وتلا الآية كلها، فبكى الناس ولم يبق أحد إلا قرأ الآية كأن الناس ما سمعوها قبل ذلك اليوم، قالت عائشة رضي الله عنها في البخاري: فنفخ الله بخطبة عمر ثم بخطبة أبي بكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا من المواطن التي ظهر فيها شكر أبي بكر وشكر الناس بسببه.

ثم أخبر تعالى عن النفوس أنها إنما تموت بأجل مكتوب محتوم واحد عند الله تعالى، أي: فالجين لا يزيد فيه، والشجاعة والإقدام لا تنقص منه، وفي هذه الآية تقوية النفوس للجهاد، قال ابن فورك: وفيه تسلية ما في موت النبي عليه السلام، والعبارة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ قد تجيء فيما هو ممكن قريب نحو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ. وقد تقع في الممتنع عقلاً نحو قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبَيِّنُوا شَجَرَةً﴾ فهي عبارة لا صيغة لها ولا تتضمن نهياً كما يقول بعض المفسرين، وإنما

بفهم قدر معناها من قرائن الكلام الذي تجيء العبارة فيه.

و«نفس» في هذه الآية: اسم الجنس، والإذن: التمكين من الشيء مع العلم بالشيء المأذون فيه، فإن انضاف إلى ذلك قول فهو الأمر. وقوله: ﴿كَتَبْنَا﴾ نصب على التمييز، و«تَوْجَلَّا» صفة. وهذه الآية رادة على المعتزلة في قولهم بالأجلين. وأما الانفصال عن تعلقهم بقوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ونحو هذا من الآيات؛ فسيجيء في مواضعه إن شاء الله تعالى.

﴿١٤٥﴾ - ﴿١٤٦﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿تَوَّيَّعْتُمْ مِّنْهَا﴾ مشروط بالمشيئة، أي نوت من شئنا منها ما قُدِّرَ له، بَيَّنَّ ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْمَلَاحَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِإِنْ تُرِيدَ﴾، وقرينة الكلام تقتضي أنه لا يؤتى شيئاً من الآخرة، لأن من كانت نيته من عمله مقصورة على طلب الدنيا فلا نصيب له في الآخرة، والأعمال بالنيات، وقرينة الكلام في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ تَوَّيَّعْ مِّنْهَا﴾ لا تمنع أن يؤتى نصيباً من الدنيا.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَوَّيَّعْ﴾ و«تَوَّيَّعَ» كلها بنون العظمة، وقرأ الأعمش بالياء في الثلاثة، وذلك على حذف الفاعل لدلالة الكلام عليه. قال ابن فورك في قول الله تعالى: ﴿وَسَتَجِدُ الشُّكْرَ﴾ إشارة إلى أنه ينعمهم بنعيم الدنيا لا أنهم يقصرون على الآخرة. ثم ضرب تعالى المثل للمؤمنين

بمن سلف من صالح الأمم الذين لم يُشْنَم عن دينهم قتل الكفار لأنبيائهم فقال: ﴿وَكَايِنَ مِّنْ نَّبِيٍّ﴾... الآية، وفي (كأين) أربع لغات: ﴿كَأَيْنَ﴾ على وزن كَتَيْن بفتح العين، و«وكاين» على وزن كاعن، و«كأين» على وزن كَعَيْن بسكون العين، و«كِلَان» على وزن كَعِن بكسر العين؛ وأكثر ما استعملت العرب في أشعارها التي على وزن كاعن، فمن ذلك قول الشاعر:

وكائن ردذنا عنكم من مُدْجِجٍ
يجيء أمام القوم يزدي مقشعا

وقال جرير:

وكائن بالأباطح من صديقي
يراني لو أصبغت هو المصايبا

وقال آخر:

وكائن ترى من صامت لك معجب
زيادته أو نقصه في التكلم

وقد جاء في اللغة التي ذكرتها أولاً قول الشاعر:

كأين في المعاشير من أناس
أخوهم فوقهم وهم كرام

وهذه اللغة هي أصل هذه اللفظة، لأنها كاف التشبيه دخلت على «أي» كما دخلت على «ذا» في قولك: فلان كذا وكذا، وكما دخلت على «أن» في قولك: كأن زيداً أسد، لكن بقي لها معنى التشبيه في كان، وزال عنها ذلك في كذا وكذا، وفي كاتين، وصرفت العرب كاتين في معنى «كم» التي هي للتكثير، وكثر استعمالهم للفظه حتى لعب فيها لسان العرب على اللغات الأربع التي ذكرت، وهذا كما لعب في قولهم: لعمري

حتى قالوا: رعملي، وكما قالوا: أطيّب وأيطب، وكما قالوا: طبيخ في بطيخ، فعولمت الكاف وأي معاملة ما هو شيء واحد. فأما اعتلال لغة من قال: (كائن) على وزن فاعل؛ فإنهم أخذوا الأصل الذي هو (كأين) فحذفوا الياء قبل الهزمة ونقلت حركة كل واحد منهما إلى آخرتها، فجاء (كَيَّا) على وزن كَيَّع، فحذفوا الياء الثانية المفتوحة تخفيفاً، كما حذفوا الياء من مَيَّت وهَيَّن وَلَيَّن فقالوا، مَيَّت وهَيَّن وَلَيَّن، وكما حذفوا الياء الثانية من «أي» تخفيفاً، ومنه قول الفرزدق بن غالب التميمي:

تنظرت نصراً والسماكين أيهما
علي من الغيث استهلّت مواطره

فجاء (كَيَّا) على وزن كَيَّع، فأبدلت هذه الياء الساكنة ألفاً مراعاةً للفتحة التي قبلها، كما قالوا: في يُوْجَل ياجل، وكما أبدلوا الياء ألفاً في (طاي)، وكما أبدلت في (آية) عند سيبويه، إذ أصلها عنده (آيَة) على وزن فغلة بسكون العين، فجاء (كاء) ثم كتب هذا التنوين نوناً في المصحف؛ فأما قياس اللغة فحذفه في الوقف؛ فكما يقولون: مررت بزيد فكذلك يقولون: (كايي)، ووقف عليه أبو عمرو (كاي) بياء دون نون، وكذلك روى سورة بن المبارك عن الكسائي، ووقف سائر القراء بإثبات النون مراعاة لخط المصحف. قال أبو علي: ولو قيل إنه لما تُصَرَّف في الكلمة بالقلب صارت بمنزلة النون التي من نفس الكلمة وصارت بمنزلة لام فاعل

فأقرت في الوقف، لكان قولاً، ويقوّي ذلك أنهم لما حذفوا الكلام من قولهم: إملاً، جعلوها بالحذف ككلمة واحدة، فأجازوا الإمالة في ألف «لا» كما تجوز في التي من نفس الكلمة في الأسماء والأفعال، فيوقف على (كأين) بالنون ولا يوقف على النون إذا لم تقلب، كما لا تميل الألف من «لا» إذا لم يحذف فعلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبهذه اللغة التي فيها هذا القلب قرأ ابن كثير وحده، وقرأ سائر السبعة باللغة التي هي الأصل، وذهب يونس بن حبيب في (كأين) إلى أنه فاعل من الكون، وقوله مردود، إذ يلزم عنه إعراب الكلمة ولم يعربها أحد من العرب. وأما اللغة التي هي (كأين) على وزن (كَمَيْن) فهي قراءة ابن محيصن والأشهب العقيلي، وتعليل هذه اللغة أنه علل الأصل الذي هو (كأين) بالتعليل لمقدم، فلما جاء (كياً) على وزن كيع، ترك هؤلاء إبدال الياء الساكنة ألفاً كما تقدم في التعليل الأول، وقلبوا الكلمة فجعلوها (كأين) على وزن كعين، وحسن هذا من وجهين:

أحدهما: أن التلعب والتصرف في هذه الكلمة مهيء.

والثاني: أنهم راجعوا الأصل الذي هو تقديم الهمزة على الياء. وأما اللغة التي هي (كإن) على وزن (كَيْن) فهي قراءة ابن محيصن أيضاً، حكاهما عنه أبو عمرو الداني، وقرأها الحسن بن أبي الحسن إلا أنه سهل

الهمزة ياء فقرأ (كي) في جميع القرآن، وتعليل هذه اللغة أنهم حذفوا الألف من (كائن) الممدودة على وزن كاعن بعد ذلك التصرف كله تخفيفاً، وهذا كما قالوا: أم والله، يريدون: أما، وكما قالوا على لسان الضب:

لا ائـــــــهـــــــي أن أــــردا
إلا عــــراداً عــــردا
وَصِلِيَاناً بــــردا
وَعَكْكَامُتــــبــــدا
أرادوا: عارداً وبارداً، فحذفوا تخفيفاً، وهذا كثير في كلامهم، و(كأين) في هذه الآية في موضع رفع بالابتداء، وهي بمنزلة «كم»؛ ومعناها تعطي في الأغلب التكثير.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: «قُتِلَ» بضم القاف وكسر التاء مخففة، وقرأ الباقيون: «قَتَلَ» مَمَّ، بالفتح بين القاف والتاء، وقرأ قتادة: «قُتِلَ» بضم القاف وكسر التاء مشدودة على التكثير.

وقوله تعالى: «قُتِلَ» قال فيه جماعة من المفسرين منهم الطبري: إنه مستند إلى ضمير «نبي»، والمعنى عندهم: أن النبي قتل. قال ابن عباس في قوله: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ» النبي يقتل؛ فكيف لا يخان، وإذا كان هذا فـ«رَبِّيُّونَ» مرتفع بالظرف بلا خلاف.

وقوله تعالى: «مَمَّ رَبِّيُّونَ» على هذا التأويل يجوز أن يكون صفة لـ«نبي»، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير الذي أسند إليه «قُتِلَ»، فإن جعلته صفة أضمرت للمبتدأ الذي

هو «كأين» خبراً تقديره في آخر الكلام: مضى أو ذهب أو فقد «مَمَّ وَهَتْوَ»، وإن جعلت مَعَهُ «رَبِّيُّونَ» حالاً من الضمير فخير المبتدأ في قوله: «قُتِلَ»، وإذا جعلته صفة فالضمير في «مَمَّ» عائد على «نبي»، وإذا جعلته حالاً فالضمير في «مَمَّ» عائد على الضمير ذي الحال، وعلى كلا الوجهين من الصفة والحال فـ«مَمَّ رَبِّيُّونَ» متعلق في الأصل بمحذوف، وليس متعلقاً بـ«قُتِلَ». وقال الحسن بن أبي الحسن وجماعة معه: إن «قُتِلَ» إنما هو مستند إلى قوله: «رَبِّيُّونَ» وهم المقتولون، قال الحسن وسعيد بن جبير: لم يقتل نبي في حرب قط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا القول يتعلق قوله: «مَمَّ» بـ«قُتِلَ»، وهذه الجملة: «قتل معه ربيون» هي خبر الابتداء. ويتصور في قراءة من قرأ «قَتَلَ» جميع ما ذكرته من التقديرات في قراءة «قُتِلَ». وأما قراءة قتادة «قُتِلَ» فقال أبو الفتح: لا يحسن أن يُسند الفعل إلا إلى الربيين، لما فيه من معنى التكثير الذي لا يجوز أن يُستعمل في قتل شخص واحد، فإن قيل: يستند إلى «نبي» مراعاة لمعنى «كم»؛ فالجواب أن اللفظ قد مشى على جهة الإفراد في قوله: «نَبِيٍّ»، ودل الضمير المفرد في «مَمَّ» على أن المراد إنما هو التمثيل بواحد واحد، فخرج الكلام على معنى «كم»، قال أبو الفتح: وهذه القراءة تقوّي قول من قال من

السبعة: إن ﴿قُتِلَ﴾ بتخفيف التاء أو ﴿قَتَلَ﴾ إنما يستند إلى الربيين . ورجح الطبري استناد ﴿قُتِلَ﴾ إلى النبي بدلالة نازلة محمد ﷺ، وذلك أن المؤمنين إنما تخاذلوا لما قيل: قتل محمد، فضرب المثل بنبي قُتِلَ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا لم يستند الفعل إلى ﴿قُتِلَ﴾ فإنما يجيء معنى الآية: تثبيت المؤمنين بعد من قتل منهم فقط، وترجيح الطبري حسن، ويؤيد ذلك ما تقدم من قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ قَاتٌ أَوْ قُتِلَ﴾، وحجة من قرأ: ﴿قَتَلَ﴾ أنها أعم في المدح لأنه يدخل فيها من قتل ومن بقي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحسن عندي على هذه القراءة إسناد الفعل إلى الربيين، وعلى قراءة ﴿قُتِلَ﴾ إسناده إلى ﴿نَبِيِّ﴾ .

وأجمع السبعة وجماعة من الناس على كسر الراء من ﴿رَبِّيُونُ﴾، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن مسعود وابن عباس وعكرمة والحسن وأبو رجاء وعمرو بن عبيد وعطاء بن السائب: ﴿رَبِّيُونُ﴾ بضم الراء، وروى قتادة عن ابن عباس: ﴿رَبِّيُونُ﴾ بفتح الراء، قال ابن جني: الفتح في الراء لغة تميم، وكلها لغات. واختلف الناس في معنى ﴿رَبِّيُونُ﴾؛ فقال ابن مسعود: الربيون: الألوف من الناس والجمع الكثير، وقال ابن عباس: ربيون: جموع كثيرة، وقاله الحسن وقاتدة وعكرمة. ولقول عبدالله بن مسعود

وابن عباس: «إنهم الألوف»؛ قال بعض المفسرين: هم عشرة آلاف فصاعداً، أخذ ذلك من بناء الجمع الكثير في قولهما: هم الألوف، وهذا في الربيين أنهم الجماعات الكثيرة هو من الرتبة بكسر الراء وهي الجماعة الكثيرة، قاله يونس بن حبيب، وقال: إن قوله تعالى: ﴿قُتِلَ﴾ معه ربيون منسوبون إليها، قال قطرب: جماعة العلماء على قول يونس، وقال الزجاج: يقال: إن الرتبة عشرة آلاف، وروي عن ابن عباس وعن الحسن بن أبي الحسن وغيرهما أنهم قالوا: ﴿رَبِّيُونُ﴾ معناه: علماء، وقال الحسن: فقهاء علماء، قال أيضاً: علماء صُبر، وهذا القول هو على النسبة إلى الرّب، إما لأنهم مطيعون له، أو من حيث هم علماء بما شرع، ويقوي هذا القول في قراءة من قرأ ﴿رَبِّيُونُ﴾ بفتح الراء، وأما في ضم الراء وكسرها فيجاء على تغيير النسب، كما قالوا في النسبة إلى الحرم: جَرَمِي بكسر الحاء، وإلى البصرة، بِضْرِي بكسر الباء، وفي هذا نظر، وقال ابن زيد: الرّبانيون: الولاة، والرّبيون: الرعية الأتباع للولاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كان هذا من حيث هم مربوبون .

وقال النقاش: اشتقاق (رَبِّي) من: ربا الشيء يربو إذا كثر، فسمي بذلك الكثير العلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف .

وقال مكّي: رَبِّي بكسر الراء منسوب إلى الرّب، لكن كسرت راؤه إتباعاً للكسرة والياء اللتين بعد الراء، وروي بضم الراء كذلك لكنهم ضموها كما قيل: دُهرِي بضم الدال في النسب إلى الدهر .

وقرأ جمهور الناس: ﴿قَتَا وَهَتَا﴾ بفتح الهاء، وقرأ الأعمش والحسن وأبو السمال: ﴿وَهِنَا﴾ بكسر الهاء، وهما لغتان بمعنى، يقال: وَهِنَ بكسر الهاء يُوَهِّنُ، وَوَهَنَ بفتح الهاء يَهِنُ. وقرأ عكرمة وأبو السمال أيضاً: ﴿وَهِنَا﴾ بإسكان الهاء، وهذا على طلب الخفة كما قالوا في نعم ويش إلى غير ذلك من الأمثلة، وقد تقدم معنى الوهن في قوله آنفاً: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾. والضمير في قوله: ﴿قَتَا وَهَتَا﴾ عائد على جميع الرّبيين في قول من أسند ﴿قُتِلَ﴾ إلى ﴿نَبِيِّ﴾، ومن أسنده إلى (الرّبيين) قال في هذا الضمير: إنه يعود على من بقي منهم، إذ المعنى يفهم نفسه .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعُوا﴾ معناه: لم يكتسبوا من العجز والإلقاء باليد ما ينبيء عن ضعفهم .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اسْتَكَاؤُهُ﴾ ذهب طائفة من النحاة إلى أنه من السكون فوزنه افتعلوا استكنوا، فمطلت فتحة الكاف فحدث من مَظْلُها أَلَفٌ. وذهب طائفة إلى أنه مأخوذ من كان يكون، فوزنه على هذا الاشتقاق استفعلوا أصله استكونوا، نقلت حركة الواو إلى الكاف وقلبت أَلَفًا، كما فعلوا في

قولك: استعانوا واستقاموا، والمعنى: إنهم لم يضعفوا ولا كانوا قريباً من ذلك، كما تقول: ما فعلت كذا ولا كدت، فتحذف لأن الكلام يدل على أن المراد: وما كدت أن أفعل، ومحبة الله تعالى للصابرين ما يظهر عليهم من نصره وتعيمه.

(١٤٧) - (١٤٨) تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية في ذكر الرئيين، أي: هذا كان قولهم، لا ما قاله بعضهم يا أصحاب محمد، من قول من قال: نأخذ أماناً من أبي سفيان، ومن قول من قال: نرجع إلى ديننا الأول، ومن قول من فر، فلا شك أن قوله مناسب لفعله ولو بعض المناسبة، إلى غير ذلك مما اقتضته تلك الحال من الأقوال.

وقرأ السبعة وجمهور الناس: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ بالنصب، ويكون الاسم فيما بعد ﴿إِلَّا﴾، وقرأ جماعة من القراء ﴿قَوْلُهُمْ﴾ بالرفع وجعلوا الخبر فيما بعد ﴿إِلَّا﴾، وروى ذلك حماد بن سلمة عن ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، ذكره المهدوي.

واستغفار هؤلاء القوم الممدوحين في هذا الموطن ينحو إلى أنهم رأوا أن ما نزل من مصائب الدنيا إنما هو بذنوب من البشر، كما نزلت قصة أحد بعصيان من عصا.

وقوله تعالى: ﴿ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ عبارتان عن معنى قريب بعضه من بعض، جاء ذلك للتأكيد ولتعلم مناحي الذنوب، وكذلك فسر ابن عباس وغيره. وقال الضحاك:

الذنوب عام، والإسراف في الأمر أريد به الكبائر خاصة.

وقوله: ﴿وَكَيْتَ أَفْدَأَمَكَا﴾ يحتمل أن يجري مع ما قبله من معنى الاستغفار، فيكون المعنى: اجعلنا دائبين على طاعتك والإيمان بك، وتشببت القدم على هذا استعارة، ويحتمل أن يكون في معنى ما بعده من قوله: ﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْرِ الْكَثِيرِ﴾ فيراد ثبوت القدم حقيقة في مواقف الحرب؛ قال ابن فورك: في هذا الدعاء رد

على القدرية، لقولهم: إن الله لا يخلق أفعال العبد، ولو كان ذلك لم يسع أن يدعى فيما لا يفعله.

و﴿تَوَابَ الدُّنْيَا﴾ في هذه الآية: الظهور على عدوهم، قاله ابن إسحاق وقتادة وغيرهما، وقال ابن جريج: الظفر والغنيمة، وفسر بهذا جماعة من المؤلفين في التفسير، قال النقاش: ليس إلا الظفر والغلبة فقط، لأن الغنيمة لم تحل إلا لهذه الأمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا اعتراض صحيح.

﴿وَحَسَنَ تَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ الجنة بلا خلاف، وعبر بلفظة ﴿حَسَنَ﴾ زيادة في الترغيب وباقي الآية بين.

(١٤٩) - (١٥٠) تفسير قوله عز وجل:

الإشارة بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

يَتَّخِذُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُكُمْ عَلَىٰ أَغْصَانِكُمْ فَتَقْلُبُوا خَسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا وَلَهُمْ أَلَاءُ نَارِ وَلَا يُنْصَرُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَمَرَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتَيْتُكُمْ عَمَّا تَمَيَّرُ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

إلى المنافقين الذين جبنوا المسلمين وقالوا في أمر أحد: لو كان محمد نبياً لم يهزم، والذين قالوا: قد قتل محمد فلنرجع إلى ديننا الأول، إلى نحو هذه الأقوال، ثم اللفظ يقتضي كل كافر كان في ذلك الوقت ويكون إلى يوم القيامة، نهى الله المؤمنين عن طاعتهم. و﴿بَلِ﴾ ترك للكلام الأول ودخول في غيره.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ على الابتداء والخبر، وهذا تشبيت، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿بَلِ اللَّهُ﴾ بالنصب على معنى: بل أطيعوا الله.

وقوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي﴾ استعارة، إذ حقيقة الإلقاء إنما هي في الأجرام، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ ونحوه قول الفرزدق:

هما نفثا في في من فَمَوِيهما
على النابح العاوي أشد رجام
وقرأ جمهور الناس: ﴿سَنَلْقَى﴾
بنون العظيمة، وقرأ أيوب
السختياني: ﴿سَنَلْقَى﴾ بالياء على
معنى «هو»، وقرأ ابن عامر
والكسائي: ﴿الرَّعْبُ﴾ بضم العين
حيث وقع، وقرأ الباقر: ﴿الرَّعْبُ﴾ بسكون العين. وهذا
كقولهم: عُتِقَ وَعُتِقَ، وكلاهما حسن
فصيح.

وسبب هذه الآية: أنه لما ارتحل
أبو سفيان بالكفار بعث
رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب
وقال: انظر القوم، فإن كانوا قد
جنبوا الخيل وركبوا الإبل فهم
متشمرون إلى مكة، وإن كانوا على
الخيال فهم عامدون إلى المدينة،
فمضى علي فرآهم قد جنبوا الخيل
فأخبر رسول الله ﷺ، فسر
المسلمون. ثم رجع رسول الله ﷺ
إلى المدينة فتجهز واتبع المشركين
يربهم الجَلَد، فبلغ حمراء الأسد؛
وإن أبا سفيان قال له كفار قريش:
أحين قتلناهم وهزمناهم ولم يبق إلا
الفل والطريد ننصرف عنهم؟ ارجع
بنا إليهم حتى نستأصلهم فغزموا على
ذلك، وكان معبد بن أبي معبد
الخراعي قد جاء إلى رسول الله ﷺ
وهو على كفره، إلا أن خزاعة كلها
كانت تميل إلى رسول الله ﷺ،
فقال له: والله يا محمد لقد ساءنا ما
أصابك؛ ولوددنا أنك لم تُرْزَأ في
أصحابك. فلما سمع رسول الله ﷺ
والناس بما عزم عليه قريش من
الانصراف اشتد ذلك عليهم،

فسخر الله ذلك الرجل معبد بن أبي
معبد، وألقى بسببه الرعب في قلوب
الكفار، وذلك أنه لما سمع الخبر
ركب حتى لحق بأبي سفيان
بالروحاء، وقريش قد أجمعوا الرجعة
إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فلما
رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك
يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في
أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله
قط يتحرقون عليكم، قد اجتمع إليه
من كان تخلف عنه، وندموا على ما
صنعوا، قال: وبلك، ما تقول؟
قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى
ترى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد
أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل
بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك،
والله لقد حملني ما رأيت على أن
قلت فيه شعراً، قال: وما قلت؟
قال: قلت:

كادت تُهْذ من الأصوات راحلتي
إذ سالت الأرض بالجرد الأبايل
تُرْدي بأُسْدٍ كرام لا تنابله
عند اللقاء ولا يبل معازيل
فظلتُ عدواً أظُنُّ الأرض مائلة
لما سَمَوُا برئيس غير مخذول
إلى آخر الشعر، فوقع الرعب في
قلوب الكفار. وقال صفوان بن
أمية: لا ترجعوا فإني أرى أنه
سيكون للقوم قتالٌ غير الذي كان،
فنزلت هذه الآية في هذا الإلقاء،
وهي - بعد - متناولة كل كافر،
ويجري معها قول النبي عليه السلام:
«فُصِرَتْ بالرعب مسيرة شهر»،
ويظهر أن هذه الفضيلة إنما أعلم
عليه السلام بها بعد هذه الأحوال
كلها حين امتد ظل الإسلام. قال

بعض أهل العلم: إنه لما أمر الله
المؤمن بالصبر، ووعد النصر،
وأخبره أن الرعب مُلْقَى في قلوب
الكفار، نقص الرعب من كل كافر
جزءاً مع زيادة شجاعة المؤمن إذ قد
وعد النصر، فلذلك كلف المؤمن
الوقوف للكافرين.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَتْرَكُوا﴾
هذه باء السبب، والمعنى: إن
المشرك بالله نفسه مقسمة في الدنيا،
وليس له بالله تعالى ثقة، فهو يكره
الموت ويستشعر الرعب منه،
والسلطان: الحجة والبرهان، ثم
أخبر تعالى بعاقبة الكفار في الآخرة،
والمأوى: مَفْعَل من أويت إلى
المكان إذا دخلته وسكنت فيه،
والمشوى، مَفْعَل من: ثويت،
والتقدير: وبش مشوى الظالمين
هي.

﴿١٥٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

جاءت المخاطبة في هذه الآيات
بجمع ضمير المؤمنين، وإن كانت
الأمور التي عاتبهم الله تعالى عليها
لم يقع فيها جميعهم، ولذلك وجوه
من الفصاحة: منها وعظ الجميع
وزجره، إذ مَنْ لم يفعل مُعَدَّ أن
يفعل إن لم يزجر، ومنها الستر
والإبقاء على من فعل، وكان
رسول الله ﷺ قد وعد المؤمنين
النصر يومئذ على خبر الله تعالى إن
صبروا وجدوا، فصدق الله الوعد
أولاً، وذلك أن رسول الله ﷺ
صاف المؤمنين يومئذ ورتب الرماة
على ما قد ذكرناه في صدر تفسير
هذه الآيات في قصة أحد، فبارز

علي بن أبي طالب أبا سعد بن أبي طلحة وهو صاحب لواء المشركين، وحمل الزبير وأبو دجانة فهزما عسكر المشركين، ونهض رسول الله ﷺ بالناس، فأبلى حمزة بن عبدالمطلب وعاصم بن أبي الأقلح، وانهزم المشركون وقتل منهم اثنان وعشرون رجلاً، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحْسَبُوهُمْ بَاذِلِينَ﴾. والخس: القتل الذريع، يقال: حسهم إذا استأصلهم قتلاً، وحس البرد النبات، وقال رؤية:

إذا شَكُونَا سَنَةَ حُسُوسَا
تَأْكُلُ بَعْدَ الْأَخْضَرِ الْيَبِيسَا
قال بعض الناس: هو مأخوذ من الحاسة، والمعنى في حس: أفسد الحواس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف. والإذن: التمكين مع العلم بالممكن منه.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ يحتمل أن تكون ﴿حَتَّىٰ﴾ غاية مجردة، كأنه قال: إلى أن فشلتُم، ويقوي هذا أن ﴿إِذَا﴾ بمعنى «إِذْ» لأن الأمر قد كان تقضى، وإنما هي حكاية حال، فتستغني ﴿إِذَا﴾ على هذا النظر عن جواب، والأظهر الأقوى أن ﴿إِذَا﴾ على بابها تحتاج إلى الجواب، وتكون ﴿حَتَّىٰ﴾ كأنها حرف ابتداء على نحو دخولها على الجمل.

واختلف النحاة في جواب ﴿إِذَا﴾، فذهبت فرقة إلى أن الجواب قوله: ﴿تَنْزَعْتُمْ﴾، والواو زائدة، وحكى المهدي عن أبي علي أنه قال:

الجواب قوله: ﴿مَرَكَّتْكُمْ﴾ و﴿ثُمَّ﴾ زائدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول لا يشبه نظر أبي علي. ومذهب سيويه والخليل وفرسان الصناعة أن الجواب محذوف مقدر يدل عليه المعنى، تقديره: انهزمتم ونحوه. والفشل: استشعار العجز وترك الجد، وهذا مما فعله يومئذ قوم. والتنازع هو الذي وقع بين الرماة، فقال بعضهم: الغنيمة الغنيمة، ألحقونا بالمسلمين، وقال بعضهم: بل ثبت كما أمرنا. و﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ عبارة عن ذهاب مَنْ ذَهَبَ من الرماة حتى تمكن خالد بن الوليد من غرة المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْ بَعْدَ مَا أَرْسَلْنَا مَا نُجِيبُ﴾ يعني من هزم القوم، قال الزبير بن العوام: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هاربات ما دون أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب وخلوا ظهورنا للخليل، فأتينا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْكُمْ مِّنْ يُرِيدُ الذَّنْبَ﴾ إخبار عن الذين حرصوا على الغنيمة وكان المال همهم، قاله ابن عباس وسائر المفسرين. وقال عبدالله بن مسعود: ما كنت أرى أن أحداً من

أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد: ﴿وَيَنْكُمْ مِّنْ يُرِيدُ الذَّنْبَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْكُمْ مِّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ إخبار عن ثبوت من ثبت من الرماة مع عبدالله بن جبير امتثالاً للأمر حتى قتلوا، ويدخل في هذا أنس بن النضر وكل من جد ولم يضطرب من المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿يَنْتَلِكُمْ﴾ معناه: لِيُثْرِلَ بكم ذلك البلاء من القتل والتمحيص.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ إعلام بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل، وهذا تحذير، والمعنى: ولقد عفا عنكم بأن لم يستأصلوكم، فهو بمنزلة: ولقد أبقي عليكم، ويحتمل أن يكون إخباراً بأنه عفا عن ذنوبهم في قصة أحد، فيكون بمنزلة العفو المذكور بعد، وبالتفسير الأول قال ابن جريج وابن إسحاق وجماعة من المفسرين، وقال الحسن بن أبي الحسن: قتل منهم سبعون، وقتل عم النبي عليه السلام، وشُجَّ في وجهه وكُسِرَتْ رباعيته، وإنما العفو أن لم يستأصلهم، هؤلاء مع رسول الله ﷺ وفي سبيل الله غضاب الله، يقتلون أعداء الله، نهوا عن شيء فضيعوه، فوالله ما تركوا حتى غموا بهذا الغم، فأفسق الفاسقين اليوم يجترؤ كل كبيرة، ويركب كل داهية، ويسحب عليها ثيابه، ويزعم أن لا بأس عليه، فسوف يعلم.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو عبد الرحمن واليزيدي ومجاهد وقناة: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾، بفتح التاء والعين، من صعد إذا علا، والمعنى بهذا صعود من صعد في الجبل، والقراءة الأولى أكثر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ مبالغة في صفة الانهزام، وهو كما قال دريد: وهل يرد المنهزم شيء؟ وهذا أشد من قول امرئ القيس:

.....
أخو الجهد لا يلوي على من تعذراً
وقرأ ابن محيصن وابن كثير في رواية شبل: ﴿إِذْ يُصْعِدُونَ وَلَا يَلُودُونَ﴾ بالياء فيهما على ذكر تَلُودُونَ بهمز الواو المضمومة، وهذه لغة، وقرأ بعضهم: ﴿وَلَا تَلُونُ﴾ بضم اللام وواو واحدة، وهي قراءة متركبة على لغة من همز الواو المضمومة، ثم نقلت حركة الهزمة إلى اللام وحذفت إحدى الواوين الساكنتين، وقرأ الأعمش وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿تَلُونُ﴾ بضم التاء، من ألوى وهي لغة، وقرأ حميد بن قيس: ﴿على أحد﴾ بضم الألف والحاء، يريد الجبل، والمعنى بذلك رسول الله عليه السلام، لأنه كان على الجبل، والقراءة الشهيرة أقوى لأن النبي ﷺ

لم يكن على الجبل إلا بعدما فرّ الناس عنه، وهذه الحال من إصعادهم إنما كانت وهو يدعوهم، وروي أنه كان ينادي: «إليّ عباد الله»، والناس يفرون. وفي قوله تعالى: ﴿فِي أُخْرَىٰكُمْ﴾ مدح للنبي عليه السلام، فإن ذلك هو موقف الأبطال في أعقاب الناس، ومنه قول الزبير بن باطا: ما فعل مقدمتنا إذ حملنا وحاميتنا إذ فرنا. وكذلك كان رسول الله ﷺ أشجع الناس، ومنه قول سلمة بن الأكوع: كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله ﷺ. وقوله تعالى: ﴿فَأَنبَأَكُمْ﴾ مغناه: جازاكم على صنيعكم، وسمى الغم ثوباً على معنى أنه القائم في هذه النازلة مقام الثواب، وهذا كقوله:

.....
تحبة بينهم ضربٌ وجيع وكقول الآخر:
أخاف زياداً أن يكونَ عطاؤه
أداهم سوداً أو تُحَذَّرَجَةُ سُفْرَا
فجعل القيود والسيّاط عطاءً ومحدرة: بمعنى مدحرجة.
واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَتَرَوْنَ﴾؛ فقال قوم: المعنى: أثابكم غمّاً بسبب الغم الذي أدخلتموه على رسول الله ﷺ وسائر المؤمنين، بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالباء على هذا باء السبب.
وقال قوم: المعنى أثابكم غمّاً بالغم الذي أوقع على أيديكم بالكفار يوم بدر.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَّاصِيَةً فَمَنَّ اللَّهُ بِكُمْ وَطَافِيَةً قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِّنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ قَدْ لَانَ الْأَمْرُ كَلَّا اللَّهُ يَخْفَوْنَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كُنَّا لِنَأْمِنَ الْأَمْرَ شَيْءٌ مَا أَفْلَحْنَا هَهُنَا قُلْ لَّوْكُمْ فِي بَيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْضَ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٤﴾ تِلْكَ آيَاتُ الَّذِينَ لَا يَتَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لَا خَافُ مِنْهُمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَّوْكَانُوا عِندَنَا مَا تَدَّعَوْا مَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُبَيِّتُ وَاللَّهُ يَمَّا تَمْلُونُ بِصِيرٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَٰكِنْ قُتِلَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتَرِّمٌ لِّمَغْرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٦﴾

١٥٣ - ١٥٤ تفسير قوله عز وجل:

العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله: ﴿عَمَّا﴾.
وقرأ جمهور الناس: ﴿تُصْعِدُونَ﴾ بضم التاء وكسر العين من أصعد: ومعناه: ذهب في الأرض، وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ في الوادي﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصعيد وجه الأرض، وصعدة اسم من أسماء الأرض، فأصعد معناه: دخل في الصعيد، كما أن أصبح دخل في الصباح إلى غير ذلك. والعرب تقول: أصعدنا من مكة وغيرها، إذا استقبلوا سفراً بعيداً. وأنشد أبو عبيدة لحادي الإبل:

قد كنت تبكين على الإصعاد
فالآن صرخت وصاح الحادي

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالباء على هذا باء معادلة، كما قال أبو سفيان: يؤمّ بيوم بدر والحرب سجال. وقالت جماعة كثيرة من المتأولين: المعنى أثابكم غمّاً على غم، أو غمّاً مع غم، وهذه باء الجر المجرد.

واختلفوا في ترتيب هذين الغمين فقال قتادة ومجاهد: الغمّ الأول: أن سمعوا: ألا إن محمداً قد قتل، والثاني: القتل والجراح الواقعة فيهم. وقال الربيع وقاتة أيضاً بعكس هذا الترتيب، وقال السدي ومجاهد أيضاً وغيرهما: بل الغمّ الأول هو قتلهم وجراحهم وكلّ ما جرى في ذلك المأزق، والغم الثاني هو إشراف أبي سفيان على النبي ومن كان معه. وذلك أن رسول الله ﷺ طفق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى قوم من أصحابه قد علوا صخرة في صفح الجبل فمشى نحوهم، فاهوى إليه رجل بسهم ليرميه فقال: أنا رسول الله، ففرحوا بذلك، وفرح هو عليه السلام إذ رأى من أصحابه الامتناع، ثم أخذوا يتأسفون على ما فاتهم من الظفر، وعلى من مات من أصحابهم، فبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم أبو سفيان من علو في خيل كثيرة، فسوا ما نزل بهم أولاً، وأهمهم أمر أبي سفيان، فقال رسول الله عليه السلام: «ليس لهم أن يعملونا، اللهم إن تقتل هذه المصابة لا تعبد» ثم ندب أصحابه فرمهم بالحجارة، وأغنى عمر بن الخطاب حتى أنزلوهم.

واختلفت الروايات في هذه القصة من هزيمة أحد اختلافاً كثيراً، وذلك أن الأمر هو، فكلّ أحد وصف ما رأى وسمع، قال كعب بن مالك: أول من ميّز رسول الله ﷺ أنا، رأيت عينيه تزهرا تحت المغفر. وزوي أن الخيل المستعلية إنما كانت حملة خالد بن الوليد، وأن أبا سفيان إنما دنا والنبي عليه السلام في عرعة الجبل. ولأبي سفيان في ذلك الموقف قول كثير، ولعمر معه مراجعة محفوظة اختصرتها إذ لا تخص الآية.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ معناه: من الغنمة، ﴿وَلَا مَا أَصْبَحَكُمْ﴾ معناه: من القتل والجرح وذل الانهزام وما نيل من نبيكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واللام من قوله: ﴿لِكَيْلَا﴾ متعلقة بـ «أثابكم»، المعنى: لتعلموا أن ما وقع بكم إنما هو بجنايتكم، فأنتم آذيتم أنفسكم، وعادة البشر أن جاني الذنب يصبر للعقوبة، وأكثر قلق المعاقب وحزنه إنما هو مع ظنه البراءة بنفسه. وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَّا تَمْكُونُ﴾ توعده.

ثم ذكر الله تعالى أمر النعاس الذي أثنى به المؤمنين فغشي أهل الإخلاص، وذلك أنه لما ارتحل أبو سفيان من موضع الحرب، قال النبي ﷺ لعلي بحضرة أصحابه المتحيزين في تلك الساعة إليه: «اذهب فأنظر إلى القوم، فإن جنبوا الخيل فهم ناهضون إلى مكة، وإن كانوا على خيلهم فهم عامدون إلى

المدينة، فاتقوا الله واصبروا» ووطنهم على القتال. فمضي علي ثم رجع فأخبر أنهم جنبوا الخيل وقعدوا على أنقالهم عجلاً، فأين الموقنون المصدقون رسول الله ﷺ، وألقى الله عليهم النعاس، وبقي المنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يصدقون، بل كان ظنهم أن أبا سفيان يؤم المدينة ولا بد، فلم يقع على أحد منهم نوم، وإنما كان همهم في أحوالهم الدنياوية. قال أبو طلحة: لقد نمت في ذلك اليوم حتى سقط سيفي من يدي مراراً. وقال الزبير بن العوام: لقد رفعت رأسي يوم أحد من النوم فجعلت أنظر إلى أصحاب النبي ﷺ، فما منهم أحد إلا وهو يميل تحت حجبته. وقال ابن مسعود: نعسنا يوم أحد والنعاس في الحرب أمانة من الله، والنعاس في الصلاة من الشيطان.

وقرأ جمهور الناس ﴿أَمَنَةً﴾ بفتح الميم، وقرأ ابن محيصن والنخعي ﴿أَمَنَةً﴾ يسكون الميم، وهما بمعنى الأمن، وفتح الميم أفصح، وقوله: ﴿شَأْسًا﴾ بدل. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر: ﴿يَشْتَنِي﴾ بالياء حملاً على لفظ النعاس بإسناد الفعل إلى الضمير البدل، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تَغْشَى﴾ بالتاء حملاً على لفظ ﴿أَمَنَةً﴾ بإسناد الفعل إلى ضمير المبدل منه. والواو في قوله تعالى: ﴿وَطَافَتْهُ قَدَّ أَهْمَتُهُمْ﴾ هي واو الحال كما تقول: جئت وزيد قائم. قاله سيبويه وغيره، قال الزجاج: وجائز أن يكون خبر قوله:

﴿وَطَائِفَةٌ﴾ قوله: ﴿يَطُوتُونَ﴾ ويكون ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ﴾ صفة للطائفة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ ذهب أكثر المفسرين قتادة والربيع وابن إسحاق وغيرهم إلى أن اللفظة من الهم الذي هو بمعنى الغم والحزن، والمعنى: إن نفوسهم المريضة وظنونهم السيئة قد جلبت إليهم الهم خوف القتل وذهاب الأموال، تقول العرب: أهتمني الشيء إذا جلب الهم. وذكر بعض المفسرين أن اللفظة من قولك: هم بالشيء يهم إذا أراد فعله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى: أهتمهم أنفسهم المكاشفة ونبذ الدين، وهذا قول من قال: قد قتل محمد فلنرجع إلى ديننا الأول، ونحو هذا من الأقوال.

﴿١٥٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَطُوتُونَ بِاللَّهِ عِزَّ الْحَقِّ طَنِ الْجَهَنَّمَ يُقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَيْكُمْ مَضَاجِعُهُمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

قوله تعالى: ﴿عِزَّ الْحَقِّ﴾ معناه: يظنون أن الإسلام ليس بحق وأن أمر محمد عليه السلام يضمحل ويذهب.

وقوله: ﴿طَنِ الْجَهَنَّمَ﴾ ذهب جمهور الناس إلى أن المراد مدة الجاهلية القديمة قبل الإسلام، وهذا كما قال: ﴿جَمْعَ الْجَهَنَّمَ﴾

﴿وَبَرَجَ الْجَهَنَّمَ﴾، وكما تقول: شعر الجاهلية، وكما قال ابن عباس: سمعت أبي في الجاهلية يقول: اسقنا كأساً دهاقاً. وذهب بعض المفسرين إلى أنه أراد في هذه الآية: ظن الفرقة الجاهلية، والإشارة إلى أبي سفيان ومن معه، والأمر محتمل، وقد نحا هذا المنحى قتادة والطبري.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ حكاية كلام قالوه. قال قتادة وابن جريج: قيل لعبد الله بن أبي ابن سلول: قتل بنو الخزرج، فقال: وهل لنا من الأمر من شيء؟ يريد أن الرأي ليس لنا، ولو كان لنا منه شيء لسمع من رأينا فلم يخرج فلم يُقتل أحد منا، وهذا منهم قول بأجلين، وكان كلامهم يحتمل الكفر والنفاق، على معنى: ليس لنا من أمر الله شيء، ولا نحن على حق في اتباع محمد، ذكره المهدوي وابن فورك، لكن يُضَعِّفُ ذلك أن الرد عليهم إنما جاء على أن كلامهم في معنى سوء الرأي في الخروج، وأنه لو لم يخرج لم يقتل أحد.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ اعتراض أثناء الكلام فصيح.

وقرأ جمهور القراء: ﴿كَلَّهْ﴾، بالنصب على تأكيد الأمر، لأن (كله) بمعنى أجمع، وقرأ أبو عمرو بن العلاء: ﴿كله﴾ برفع (كل) على الابتداء والخبر، ورجح الناس قراءة الجمهور لأن التأكيد أملك بلفظة (كل).

وقوله تعالى: ﴿يَخْفَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ﴾ يحتمل أن يكون

إخباراً عن تسترهم بمثل هذه الأقوال التي ليست بمحض كفر، بل هي جهالة، ويحتمل أن يكون إخباراً عما يخفونه من الكفر الذي لا يقدرون أن يظهره منه أكثر من هذه النزعات، وأخبر تعالى عنهم على الجملة دون تعيين، وهذه كانت سنته في المناققين، لا إله إلا هو.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ هي مقالة سمعت من مُعْتَبِ بن قشير المغموص عليه بالنفاق. وقال الزبير بن العوام فيما أسند الطبري عنه: والله لكانني أسمع قول معتب بن قشير أخي بني عمرو بن عوف، والتعاس يغشائي، ما أسمعهم إلا كالحلم حين قال: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكلام معتب يحتمل من المعنى ما احتمل كلام عبد الله بن أبي، ومعتب هذا ممن شهد بدرأ، ذكر ذلك ابن إسحاق وغيره، وقال ابن عبد البر: إنه شهد العقبة، وذلك وهم، والصحيح أنه لم يشهد عقبة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾... الآية، رد على الأقوال، وإعلام بأن أجل كل امرئ إنما هو واحد، فمن لم يقتل فهو يموت لذلك الأجل على الوجه الذي قدر الله تعالى، وإذا قُتِلَ فذلك هو الذي كان في سابق الأزل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ بضم الباء، وقرأ بعض القراء - وهي بعض طرق السبعة -: ﴿فِي بِيُوتِكُمْ﴾ بكسر الباء، وقرأ جمهور الناس:

﴿لَبَّرَ﴾ بفتح الراء والباء على معنى: صاروا في البراز من الأرض، وقرأ أبو حيو: ﴿بُزَزَ﴾ بضم الباء وكسر الراء وشدها، وقرأ جمهور الناس: ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ أي: كتب عليهم في قضاء الله وتقديره، وقرأ الحسن والزهري: ﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾، وتحتمل هذه القراءة معنى الاستغناء عن المنافقين، أي: لو تخلفتم أنتم لبرز المؤمنون الموقنون المطيعون في القتال المكتوب عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَبْتَغِيَنَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَيِّصَنَّ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾... الآية: السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَيَبْتَغِيَنَّ﴾ متعلقة بفعل متأخر تقديره: وليبتلي وليمحص فعل هذه الأمور الواقعة، والابتلاء هنا هو الاختبار، والتمحيص: تخليص الشيء من غيره، والمعنى: ليختبره فيعلمه علماً مساوفاً لوجوده وقد كان متقدراً قبل وجود الابتلاء أزلاً، و﴿ذات الصدور﴾: ما تنطوي عليه من المعتقدات، هذا هو المراد في هذه الآية.

﴿١٥٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون في المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آتَتْ الْجَمْعَانِ﴾؛ فقال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المراد بها جميع من تولى ذلك اليوم عن العدو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد على جميع أنحاء التولي الذي لم يكن تحرفاً لقتال.

وأسند الطبري رحمه الله قال: خطب عمر رضي الله عنه يوم

الجمعة فقرأ ﴿آل عمران﴾. وكان يعجبه إذا خطب أن يقرأها، فلما انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آتَتْ الْجَمْعَانِ﴾ قال: لما كان يوم أخذ هزمننا ففررت حتى صعدت الجبل، فلقد رأيتني أنزو كأنني أروى، والناس يقولون: قُتِلَ محمد، فقلت: لا أجد أحداً يقول: قتل محمد إلا قتلته، حتى اجتمعنا على الجبل، فنزلت هذه الآية كلها. قال قتادة: هذه الآية في كل من فر بتخويف الشيطان وخذعه، وعفا الله عنهم هذه الزلة. قال ابن فورك: لم يبق مع النبي يومئذ إلا ثلاثة عشر رجلاً، أبو بكر، وعلي، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وسائرهم من الأنصار، أبو طلحة وغيره. وقال السدي وغيره: إنه لما انصرف المسلمون عن حملة المشركين عليهم سعد قوم الجبل، وفر آخرون حتى أتوا المدينة، فذكر الله في هذه الآية الذين فروا إلى المدينة خاصة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: جعل الفراء إلى الجبل تحيزاً إلى فئة.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآية فيمن فر من المؤمنين فراراً كثيراً، منهم رافع بن المعلى، وأبو حذيفة بن عتبة، ورجل آخر، قال ابن إسحاق: فر عثمان بن عفان وعقبة بن عثمان وأخوه سعد، ورجلان من الأنصار زُرقيان، حتى بلغوا الجَلْعَبَ - جبل بناحية المدينة مما يلي الأعوص - فأقاموا به ثلاثة أيام، ثم رجعوا إلى

رسول الله ﷺ، فقال لهم: لقد ذهبتم فيها عريضة. قال ابن زيد: فلا أدري هل عفا عن هذه الطائفة خاصة أم عن المؤمنين جميعاً؟

واستزل معناه: طلب منهم أن يزلوا، لأن ذلك هو مقتضى وسوسته وتخويفه. وقوله تعالى: ﴿يَمَغِضُ مَا كَسَبُوا﴾ ظاهره عند جمهور المفسرين أنه كانت لهم ذنوب عاقبهم الله عليها بتمكين الشيطان من استزلالهم، وبخلق ما اكتسبوه أيضاً هم من الفرار، وذهب الزجاج وغيره إلى أن المعنى: إن الشيطان ذكّرهم بذنوب لهم متقدمة، فكرهوا الموت قبل التوبة منها والإقلاع عنها، قال المهدوي: بما اكتسبوا من حب الغنيمة والحرص على الحياة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل لفظ الآية أن تكون الإشارة في قوله: ﴿يَمَغِضُ مَا كَسَبُوا﴾ إلى هذه العبرة، أي: كان للشيطان في هذا الفعل الذي اكتسبوه استزلال لهم، فهو شريك في بعضه.

ثم أخبر تعالى بعفوه عنهم، فتأوله جمهور العلماء على حط التبعة في الدنيا والآخرة، وكذلك تأوله عثمان بن عفان في حديثه مع عبيد الله بن عدي بن الخيار، وكذلك تأوله ابن عمر في حديثه مع الرجل العراقي، وقال ابن جريج: معنى الآية: عفا الله عنهم إذ لم يعاقبهم، والفرار من الزحف كبيرة من الكبائر بإجماع فيما علمت، وعدها رسول الله ﷺ في الموبقات مع الشرك وقتل النفس وغيرها.

﴿١٥٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

نهى الله تعالى المؤمنين عن الكون مثل الكفار والمنافقين في هذا المعتمد الفاسد، الذي هو أن من سافر في تجارة ونحوها ومن قاتل قَتِيلَ لو قعد في بيته لعاش ولم يمِت في ذلك الوقت الذي عَرَضَ فيه نفسه للسفر أو للقتال، وهذا هو معتقد المعتزلة في القول بالأجلين، وهو نحو منه.

وقوله تعالى: ﴿لَا خَوَافَ﴾ هي أخوة نسب، لأن قتلى أُخِدَ كانوا من الأنصار، أكثرهم من الخرج، ولم يكن فيهم من المهاجرين إلا أربعة، وصرح بهذه المقالة - فيما ذكر السدي ومجاهد وغيرهما - عبدالله بن أبي المنافق وأصحابه، وقيل: بل قالها جميع المنافقين، ودخلت ﴿إِذَا﴾ في هذه الآية وهي حرف استقبال من حيث ﴿الذين﴾ اسم فيه إيهام يعم من قال في الماضي ومن يقول في المستقبل، ومن حيث هذه النازلة تتصور في مستقبل الزمان، ويَطْرُقُ النهي للمؤمنين فيها، فوضعت ﴿إِذَا﴾ لتدل على اطراد الأمر في مستقبل الزمان، وهذه فائدة وضع المستقبل موضع الماضي، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَيْكَ دَارَ السَّلَامِ﴾ إلى نحوها من الآيات، وكما قالت:

وفينا نبي يعلم ما في غد

كما أن فائدة وضعهم الماضي موضع المستقبل للدلالة على ثبوت الأمر، لأن صيغة الماضي متحركة الوقوع، فمن ذلك قول الشاعر:

وَإِنِّي لَأَتِيكُمْ تَشْكُرَ مَا مَضَى
من الأمر واستيجاب ما كان في غد
ومنه قول الربيع:

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السِّلَاحَ وَلَا
أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا
والضرب في الأرض: الإبعاد في السير، ومنه: ضرب الدهر ضرباته، إذا بعدت المدة. وضرب الأرض: هو الذهاب فيها لحاجة الإنسان خاصة بسقوط (في)، وقال السدي وغيره في هذه الآية: الضرب في الأرض: السير في التجارة؛ وقال ابن إسحاق وغيره: بل هو السير في جميع طاعات الله ورسوله، والضرب في الأرض يعم القولين. و﴿عَزَى﴾: جمع غاز، وزنه - فُعِلَ - بضم الفاء وشد العين المفتوحة، كشاهد وشهد وقاتل وقول، وينشد بيت رؤية:

فَالآنَ قَدْ نَهْنَهْنِي تَنْهَيْهِ
وَأَوَّلُ حِلْمٍ لَيْسَ بِالسَّسْفِ
وَقَوْلٌ إِلَّا دَوْ فَلَادَوْ

يريد إن لم تنب الآن فلا تنوب أبداً، وهو مثل معناه: إن لم يكن كذا فلا يكون كذا، وقد روي: وقولهم إلا دَوْ فلا دَوْ، قال سيبويه وغيره: لا يدخل ﴿عَزَى﴾ الجر ولا الرفع. وقرأته عامة القراء بتشديد الزاي، وقرأ الحسن بن أبي الحسن والزهري: ﴿عَزَى﴾ مخففة الزاي، وجهه إما أن يريد غزاةً، فحذف الهاء إخلاداً إلى لغة من يقول: ﴿عَزَى﴾ بالتشديد، وهذا الحرف كثير في كلامهم، ومنه قول الشاعر يمدح الكسائي:

أبَى الذَّمَّ أَخْلَاقُ الْكُسَائِيِّ وَانْتَهَى
به المجد أخلاق الأبر السوابق
يريد الأبوة جمع أب، كما أن العمومة جمع عم، والبنوة جمع ابن، وقد قالوا: ابن وبنو. وتحتمل قراءتهما أن تكون تخفيفاً للزاي من (عَزَى)، ونظيره قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿وَكُذِّبُوا بِآيَاتِنَا كِذْباً﴾ في قول من قال: إنه تخفيف، وقد قيل: إنه مصدر جرى على غير المصدر، وقرأ الحسن: ﴿وَمَا قَتَلُوا﴾ مشددة التاء.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً﴾ قال مجاهد: معناه: يحزنهم قوله ولا ينفعهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى هذا المعتقد الذي لهم، جعل الله ذلك حسرة، لأن الذي يتيقن أن كل موت وقيل فبأجل سابق، يجد برد اليأس والتسليم لله تعالى على قلبه، والذي يعتقد أن حميمه لو قعد في بيته لم يمِت يتحسر ويتلهف. وعلى هذا التأويل مشى المتأولون، وهو أظهر ما في الآية.

وقال قوم: الإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى انتهاء المؤمنين ومخالفتهم الكافرين في هذا المعتقد، فيكون خلافهم لهم حسرة في قلوبهم. وقال قوم: الإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى نفس نهى الله تعالى عن الكون مثل الكافرين في هذا المعتقد، لأنهم إذا وأوا أن الله تعالى قد وسمهم بمعتقد وأمر بخلافهم كان ذلك حسرة في قلوبهم. ويحتمل عندي أن تكون الإشارة إلى النهي والانهاء معاً،

وَلَكِنْ مَتَّعْتُمْ أَفْئَتَكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥٧﴾
 وَلَكِنْ مَتَّعْتُمْ أَفْئَتَكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥٨﴾
 وَلَكِنْ مَتَّعْتُمْ أَفْئَتَكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥٩﴾

٧١

بضم الميم في جميع القرآن، وروى أبو بكر عن عاصم ضم الميم في جميع القرآن، وروى عنه حفص ضم الميم في هذين الموضعين: ﴿أَوْ مُتَّعْتُمْ﴾ و﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتُمْ﴾ فقط، وكسر الميم حيث ما وقعت في جميع القرآن. قال أبو علي: ضم الميم هو الأشهر والأقرب، ثم تموت مثل: قُلْتُ تَقُولُ وَطُفْتُ تَطُوفُ، والكسر شاذ في القياس وإن كان قد استعمل كثيراً، وليس كما شذ قياساً واستعمالاً كشذوذ اليجدع ونحوه،

ونظير يمت تموت بكسر الميم: فضيل بكسر الضاد يفضل في الصحيح وأنشدوا:

ذكرت ابن عباس بباب ابن عامر وما مر من عمري ذكرت وما فضيل وقوله تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةً﴾ رفع بالابتداء ﴿وَرَحْمَةً﴾ عطف على المغفرة و﴿خَيْرٌ﴾ خبر الابتداء، والمعنى: المغفرة والرحمة اللاحقة عن القتل أو الموت في سبيل الله خير، فجاء لفظ المغفرة غير معرف إشارةً بليغة إلى أن أيسر جزء منها خير من الدنيا، وأنه كافٍ في فوز العبد المؤمن، وتحتل الآيات أن يكون قوله: ﴿لَمَغْفِرَةً﴾ إشارةً إلى القتل أو الموت في سبيل الله، سمي ذلك مغفرةً ورحمةً إذ هما مقترنان به، ويجيء التقدير: لذلك مغفرة ورحمة، وترتفع المغفرة على خبر

فتأمله. والحسرة: التلهف على الشيء والغم به.

ثم أخبر تعالى خبراً جزماً أنه الذي يحيي ويميت بقضاء حتم، لا كما يعتقد هؤلاء. وقرأ ابن كثير وحمة والكسائي: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ بالياء، فهذا وعيد للمنافقين، وقرأ الباقون: ﴿تَمَلُّونَ﴾ بالتاء على مخاطبة المؤمنين، فهذا توكيد للنهي في قوله: ﴿لَا تَكُونُوا﴾، ووعد لمن خالفه، ووعد لمن امتثله.

١٥٧ - ١٥٩ تفسير قوله عز وجل:

اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ﴾ هي المؤذنة بمجيء القسم، واللام في قوله: ﴿لَمَغْفِرَةً﴾ هي المتعلقة للقسم، والتقدير: واللَّهُ لَمَغْفِرَةٍ.

وترتب الموت قبل القتل في قوله: ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ مراعاة لرتبة الضرب في الأرض والغزو، فقدم الموت الذي هو بإزاء المتقدم الذكر، وهو الضرب، وقدم القتل في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ﴾ لأنه ابتداء إخبار، فقدم الأشرف الأهم، والمعنى: أو متم في سبيل الله، فوقع أجركم على الله، ثم قدم الموت في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ لأنها آية وعظ بالآخرة والحشر، وآية تزهيد في الدنيا والحياة. والموت المذكور فيها هو موث على الإطلاق في السبيل وفي المنزل وكيف كان، فقدم لعمومه وأنه الأغلب في الناس من القتل.

وقرأ نافع وحمة والكسائي: ﴿مِثْمٌ﴾ بكسر الميم و﴿مِثْنَا﴾ و﴿مِثٌ﴾ بالكسر في جميع القرآن، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر:

الابتداء المقدر، وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾ صفة لخبر الابتداء.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَجْمَعُونَ﴾ بالتاء على المخاطبة وهي أشكل بالكلام، وقرأ قوم منهم عاصم فيما روى عنه حفص: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ بالياء، والمعنى: مما يجمعه المنافقون وغيرهم.

ثم ذكر تعالى الحشر إليه، وأنه غاية لكل أحد قتل أو مات. وفي الآية تحقيق لأمر الدنيا وحض على طلب الشهادة، أي: إذا كان الحشر في كلا الأمرين فالمضي إليه في حال الشهادة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَ رَبُّكَ﴾ معناه: فبرحمة من الله و﴿مَا﴾ قد جرد عنها معنى النفي، ودخلت للتأكيد، وليست بزايدة على الإطلاق لا معنى لها، وأطلق عليها سبويه

اسم الزيادة من حيث زال عملها، وهذه بمنزلة قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ يَبْتَغِهِمْ﴾ قال الزجاج: الباء بإجماع من النحويين صلة وفيها معنى التأكيد. ومعنى هذه الآية: التفرغ لجميع من أخل يوم أحد بمركزه، أي: كانوا يستحقون الملام منك، ولأتلين لهم، ولكن رحم الله جميعكم، أنت يا محمد بأن جعلك الله على خلق عظيم، وبعثك لتمم محاسن الأخلاق، ومم بأن ليئك الله لهم، وجعلت بهذه الصفات لما علم تعالى في ذلك من صلاحهم، وأنت لو كنت فقط غليظ القلب لانفضوا من حولك وتفرقوا عنك.

واللفظ: الجافي في منطقته ومقاطعه، وفي صفة النبي عليه السلام في الكتب المنزلة: ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب في الأسواق، وقال الجواري لعمر بن الخطاب: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله... الحديث، وفظاظة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما كانت مستعملة منه آلة لمعضد الحق والشدة في الدين، والفظاظة: الجفوة في المعاشرة قولاً وفعلًا، ومنه قول الشاعر:

أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ
وكنث أخشى عليها من أذى الكلم
وغلظ القلب: عبارة عن تجهم الوجه وقلة الانفعال في الرغائب وقلة الإشفاق والرحمة، ومن ذلك قول الشاعر:

يُبْكِي عَلَيْنَا وَلَا نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ
لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادَ مَنْ الْإِسْلَامِ

والانفضاض: افتراق الجموع، ومنه فض الخاتم.

﴿١٥٩﴾ - ﴿١٦٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى رسوله بهذه الأوامر التي هي بتدرج بليغ، وذلك أنه أمره بأن يعفو عليه السلام عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعة وحق، فإذا صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر لهم فيما الله عليهم من تبعة، فإذا صاروا في هذه الدرجة كانوا أهلاً للاستشارة في الأمور.

والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَتَرْتُمُ شُرَكَائِي إِلَهُاتِهِمْ﴾ وقال النبي ﷺ: «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار» وقال عليه السلام: «المستشار مؤتمن».

وصفة المستشار في الأحكام أن يكون عالماً ديناً، وقل ما يكون ذلك إلا في عاقل، فقد قال الحسن بن أبي الحسن: ما كمل دين امرئ لم يكمل عقله. وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلاً مجرباً وإذا في المستشار. والشورى بركة، وقد جعل عمر بن الخطاب الخلافة - وهي أعظم النوازل - شورى. وقال الحسن: والله ما تشاور قوم بينهم إلا هدامهم الله لأفضل ما بحضرتهم. وكان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه، وقد قال في غزوة بدر: «أشيروا علي أيها الناس»، في اليوم الذي تكلم فيه المقداد ثم سعد بن عباد. ومشاورته عليه السلام إنما هي في أمور

الحروب والبعوث ونحوه من أشخاص النوازل، وأما في حلال أو حرام أو حد فتلك قوانين شرع ﴿فَمَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، وكان الآية نزلت مؤنسة للمؤمنين، إذ كان تغلبهم على الرأي في قصة أحد يقتضي أن يعاقبوا بالأبشار في المستأنف.

وقرأ ابن عباس: ﴿وَشَاوَرْتُمْ فِي بَغْضِ الْأُمُورِ﴾. وقراءة الجمهور إنما هي باسم الجنس الذي للبعض ولللكل، ولا محالة أن اللفظ خاص بما ليس من تحليل وتحريم، والشورى مبنية على اختلاف الآراء، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف ويتحيز، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلاً على الله، إذ هي غاية الاجتهاد المطلوب منه، وبهذا أمر تعالى نبيه في هذه الآية.

وقرأ جابر بن زيد وأبو نهيك وجعفر بن محمد وعكرمة: ﴿عَزَمْتُ﴾ بضم التاء، سمي الله تعالى إرشاده وتسديده عزماً منه، وهذا في المعنى نحو قوله تعالى: ﴿لَتَحْكُمَ بَيْنَ الْتَّائِينَ بِمَا أَرْكَأَ اللَّهُ﴾، ونحو قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾، فجعل تعالى هزمه المشركين بحنين وتشوية وجوههم رمية، إذ كان ذلك متصلاً برمي محمد ﷺ بالحصباء. وقد قالت أم سلمة: ثم عزم الله لي. والتوكل على الله تعالى من فروض الإيمان وفصوله، ولكنه مقترن بالجد في الطاعة والتشمير والحزامة بغاية الجهد، وليس الإلقاء باليد وما أشبهه

بتوكل، وإنما هو كما قال عليه السلام: «قيدها وتوكل».

ثم ثبت تعالى المؤمنين بقوله: ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي: فالزموا الأمور التي أمركم بها ووعدكم النصر معها.

والخذل: هو الترك في مواطن الاحتياج إلى التارك، وأصله من خذل الأطباء، وبهذا قيل لها: خاذل إذا تركتها أمها، وهذا على النسب أي: ذات خذل لأن المتروكة هي الخاذل بمعنى مخذولة.

وقوله تعالى: ﴿فَنَ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ﴾ تقدير جوابه: لا من، والضمير في ﴿بَعْدِي﴾ يحتمل العودة على المكتوبة، ويحتمل العودة على الخذل الذي تضمنه قوله: ﴿وَلَنْ يَخْذَلَ لَكُمْ﴾.

﴿١٦١﴾ - ﴿١٦٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

تقدم القول في صيغة: وما كان لكذا أن يكون كذا، في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿يَقُولُ﴾ بفتح الياء وضم الغين، وبها قرأ ابن مسعود وجماعة من العلماء. وقرأ باقي السبعة: ﴿أَنْ يُقَالَ﴾ بضم الياء وفتح الغين، وبها قرأ ابن مسعود وجماعة من العلماء. واللفظة: بمعنى الخيانة في خفاء، قال بعض اللغويين: هي مأخوذة من الغلل وهو الماء الجاري في أصول الشجر والدوح، قال أبو علي: تقول العرب: أغل الرجل يُغَلُّ إغلالاً: إذا خان ولم يؤد الأمانة، ومنه قول النمر بن تولب:

جزى الله عني جُمرة ابنة نوفل

جزاء مُغِلٍّ بالأمانة كاذب قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال شريح: ليس على المستعير غير المغل ضمان. قال أبو علي: وتقول في الغل الذي هو الضغن: غلٌ يُغَلُّ بكسر الغين. ويقولون في الغلول من الغنمية: غلٌ يُغَلُّ بضم الغين. والحجة لمن قرأ يُقَالُ أن ما جاء من هذا النحو في التنزيل أسند الفعل فيه إلى الفاعل على نحو: ﴿وَمَا كَانَتْ تَأْتِيكُمُ النَّفْسُ مِنَ اللَّهِ بِإِذْنٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يُظْلِمَكُمْ عَلَى الشَّيْءِ﴾ ولا يكاد يجيء: ما كان زيد ليُضْرَبَ فيسند الفعل فيه إلى المفعول به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا الاحتجاج نظر.

وروي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿يُقَالُ﴾ بضم الغين، فقيل له: إن ابن مسعود قرأ ﴿يُقَالُ﴾ بفتح الغين، فقال ابن عباس: بلى والله وَيُقْتَلُ.

واختلف المفسرون في السبب الذي أوجب أن ينفي الله تعالى عن النبي أن يكون غالاً على هذه القراءة - التي هي بفتح الياء وضم الغين - فقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم: نزلت بسبب قطيفة حمراء فُقِدَتْ من المغانم يوم بدر، فقال بعض من كان مع النبي ﷺ: ولعل رسول الله أخذها، فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قيل: كانت هذه المقالة من مؤمنين

لم يظنوا أن في ذلك حرجاً، وقيل: كانت من منافقين، وقد روي أن المفقود إنما كان سيفاً. قال النقاش: ويقال: إنما نزلت لأن الرماة قالوا يوم أحد: الغنمية الغنمية أيها الناس، إنما نخشى أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له، فلما ذكروا ذلك للنبي ﷺ، قال: «خشيت أن تغفل؟» ونزلت هذه الآية. وقال الضحاك: بل السبب أن رسول الله ﷺ بعث طلائع في بعض غزواته ثم غنم قبل مجيئهم، فقسم للناس ولم يقسم للطلائع، فأنزل الله تعالى عليه عتاباً: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ﴾ أي: يقسم لبعض ويترك بعضاً، وروي نحو هذا القول عن ابن عباس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتجه على هذا أن تكون الآية إعلاماً بعدل رسول الله ﷺ وقسمه للغانم، ورداً على الأعراب الذين صاحوا به: اقسم علينا غنائمنا يا محمد، وازدحموا حتى اضطروه إلى السمرة التي أخذت رداءه، ونحا إليه الزجاج. وقال ابن إسحاق: الآية إنما نزلت إعلاماً بأن النبي عليه السلام لم يكتم شيئاً مما أمر بتبليغه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان الآية على هذا في قصة أحد، لما نزل عليه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ إلى غير ذلك مما استحسونه بعد إساءتهم من العفو عنهم ونحوه، وبالجملة فهو تأويل ضعيف، وكان يجب أن يكون - ﴿يُقَالُ﴾ بضم الياء وكسر الغين، لأنه من الإغلال في الأمانة. وأما قراءة من قرأ: ﴿أَنْ يُقَالُ﴾ بضم الياء وفتح الغين،

فمعناها عند جمهور من أهل العلم: أن ليس لأحد أن يغُلَّهُ، أي يخونه في الغنيمة. فالآية في معنى نهى الناس عن الغلول في المغنم والتوعد عليه. وخَصَّ النبي بالذكر وإن كان ذلك محظوراً مع الأمراء لشنعة الحال مع النبي ﷺ، لأن المعاصي تعظم مع حضرته لتعَيَّن توقيره، والولاء وإنما هم عن أمر النبي ﷺ فلهم حظهم من التوقيع. وقال بعض الناس: معنى ﴿أَنْ يَغُلَّ﴾ أن يوجد غللاً، كما تقول: أحدث الرجل وجدته محموداً، فهذه القراءة - علي هذا التأويل - ترجع إلى معنى ﴿يَغُلَّ﴾ بفتح الياء وضم الغين، وقال أبو علي الفارسي: معنى ﴿يَغُلَّ﴾ بضم الياء وفتح الغين يقال له: غللت وينسب إلى ذلك، كما تقول أسقيته، إذا قلت: سقاك الله، كما قال ذو الرمة:

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أُبْتُهُ
تَكَلَّمْنِي أَحْجَاؤُهُ وَمَلَاعِبُهُ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل موثّر للنبي عليه السلام. ونحوه في الكلام: أكفرت الرجل إذا نسبته إلى الكفر، وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا أكل سمناً حتى يحيا الناس من أول ما يحيون»، أي يدخلون في الحيا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وعيد لمن يغُل من الغنيمة، أو في زكاته فيجحدتها ويمسكها، فالفضيحة يوم القيامة بأن يأتي على رؤوس الأشهاد بالشيء الذي غُلَّ في الدنيا. وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ خطب

فقال: «ألا عسى رجلٌ منكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله أغنني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك» ثم ذكر ذلك عليه السلام في بقرة لها خوارٌ، وجملٌ له رغاء، وفرس له حمحة. وروى نحو هذا الحديث ابن عباس، قال النبي ﷺ: «لا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء...» الحديث بطوله. وروى نحوه أبو حميد الساعدي وعمر بن الخطاب وعبدالله بن أنيس. وقال رسول الله ﷺ: «أدوا الخياط والمخيط» فقام رجل فجاء بشراك أو شراكين، فقال رسول الله ﷺ: «شراك أو شراكان من نار»، وقال في مدغم: «إن الشملة التي غُلَّ من المغنم يوم خيبر لتشتعل عليه ناراً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الفضيحة التي يوقع الله بالغال هي نظيرة الفضيحة التي توقع بالغادر؛ في أن يُنْصَبَ له لواء بغدرته حسب قوله عليه السلام، وجعل الله هذه المعاقبات حسبما يعهده البشر ويفهمونه، ألا ترى إلى قول الحادرة: أَسْمِي وَيَحْكُ هَلْ سَمِعْتَ بِغَدْرَةِ رُفِعَ اللِّوَاءُ لَنَا بِهَا فِي الْمَجْمَعِ وكانت العرب ترفع للغادر لواء، وكذلك يطاف بالجاني مع جنائته. وقد تقدم القول في نظير: ﴿ثُمَّ نُؤْتِ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا نَبُذَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَنْ يَاءَ...﴾ الآية، توقيف على تباين المنزلتين وافتراق الحاليتين،

والرضوان: مصدر، وقرأه عاصم - فيما روي عنه - بضم الراء، وقرأ جميعهم بكسرهما، وحكى أبو عمرو الداني عن الأعمش أنه قرأها بكسر الراء وضم الضاد، وهذا كله بمعنى واحد مصدر من الرضى. والمعنى: اتبعوا الطاعة الكفيلة برضوان الله، ففي الكلام حذف مضاف.

و﴿يَاءَ يَسْخَطُ﴾ معناه: مضى متحملاً له، والسخط: صفة فعل، وقد تردد متى لحظ فيها معنى الإرادة. وقال الضحاک: إن هذه الآية مشيرة إلى أن من لم يغُل واتقى فله الرضوان، وإلى أن مَنْ غُلَّ وعصى فله السخط. وقال غيره: هي مشيرة إلى أن من استشهد بأحد فله الرضوان، وإلى المنافقين الراجعين عن النبي ﷺ فلهم السخط، وباقي الآية بين.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتُ﴾؛ من المراد بذلك؟ فقال ابن إسحاق وغيره: المراد بذلك الجمعان المذكوران، أهل الرضوان وأصحاب السخط، أي: لكل صنف منهم تباين في نفسه في منازل الجنة، وفي أطباق النار أيضاً. وقال مجاهد والسدي ما ظاهره: إن المراد بقوله: ﴿هُمْ﴾ إنما هو لمتبعي الرضوان، أي: لهم درجات كريمة عند ربهم، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: هم ذوو درجات، والدرجات: المنازل بعضها أعلى من بعض في المسافة أو في التكرمة، أو في العذاب. وقرأ إبراهيم النخعي: ﴿هُمْ دَرَجَاتُ﴾ بالإفراد. وباقي الآية وعيد ووعد.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فِإِذْ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَّالُوا فَيَقُولُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَّالُوا فَيَقُولُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْادَعُوا قَالُوا لَوْ عَلِمْنَا لَوْلَا لَمْ نَكُنْ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قَتَلُوا قُلَّ فَأَدْرَأَ عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلَمَوْتًا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُمُورًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَسَيُحْيِيهِم بِالْإِيمَانِ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿يَسْتَشِيرُونَ﴾ يَسْتَشِيرُونَ بِعَمَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَمْزَ عَظِيمٍ الَّذِينَ قَالُوا لَهُمْ إِنَّا لَمَّا سَأَلْنَاكُمْ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَرَّادَهُمْ يَمَنَّا وَقَالُوا أَحْسَبْنَا اللَّهَ وَيَعْمَ الْوَكِيلَ

٧٢

قبلوا الفداء يوم بدر، وذلك أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما فرغت هزيمة المشركين ببدر جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله قد كره ما يصنع قومك في أخذ الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: أن يقدموا الأسارى فتضرب أعناقهم، أو يأخذوا الفداء على أن يقتل من أصحابك عدة هؤلاء الأسارى. فدعا رسول الله ﷺ الناس فذكر ذلك لهم فقالوا: يا رسول الله، عشاثرنا وإخواننا، بل نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره، قال: فقتل منهم يوم أُحُد سبعون رجلاً.

﴿١٦٦﴾ - ﴿١٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ للمؤمنين، والجمعان هما

جملة على جملة دخلت عليها ألف التقرير على معنى إلزام المؤمنين هذه المقالة في هذه الحال. والمصيبة التي نالت المؤمنين هي قصة أحد وقتل سبعين منهم. واختلف في الجثثين اللذين أصاب المؤمنين؛ فقال قتادة والربيع وابن عباس وجمهور المتأولين: ذلك في يوم بدر، قتل المؤمنون من كفار قريش سبعين وأسرنا سبعين، وقال الزجاج: أحد المثلين: هو قتل السبعين يوم بدر، والثاني: هو قتل اثنين

وعشرين من الكفار يوم أحد، فهو قتل بقتل. ولا مدخل للأسرى في هذه الآية، هذا معنى كلامه، لأن أسارى بدر أسروا ثم فدوا، فلا مماثلة بين حالهم وبين قتل سبعين من المؤمنين. و﴿أَنَّ﴾ معناها: كيف؟ ومن أين؟ ثم أمر نبيه عليه السلام أن يقول لهم: هو من عند أنفسكم.

واختلف الناس كيف هو من عند أنفسهم ولأي سبب؟ فقال الجمهور من المفسرين: لأنهم خالفوا رسول الله ﷺ في الرأي حين رأى أن يقيم بالمدينة ويترك كفار قريش بشر المحبس، فأبوا إلا الخروج حتى جرت القصة. وقالت طائفة: قوله تعالى: ﴿يَنْ عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ﴾ إشارة إلى عصيان الرماة وتسيبهم الهزيمة على المؤمنين. وقال الحسن وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: بل ذلك لما

﴿١٦٦﴾ - ﴿١٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل: اللام في ﴿لَقَدْ﴾ لام القسم، و﴿مَنْ﴾ في هذه الآية معناه تطول وتفضل، وقد يقال: مَنْ بمعنى كدر معروف بالذكر، فهي لفظة مشتركة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ معناه: في الجنس واللسان والمجاورة، فكونه من الجنس يوجب الأنس به وقلة الاستيحاش منه، وكونه بلسانهم يوجب حسن التفهيم وقرب الفهم، وكونه جاراً وريبياً يوجب التصديق والطمانية، إذ قد خبروه وعرفوا صدقه وأمانته، فبعث رسول الله ﷺ في نفس قومه، وكذلك الرسل. قال النقاش: ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسولاً الله ﷺ من قبل أمهاته إلا بني تغلب لنصرانيتهم. والآيات في هذه الآية تحتل أن يراة بها القرآن وتحتل أن يراة بها العلامات، والأول أظهر.

﴿يَرْزُقُهُمْ﴾ معناه: يطهرهم من دنس الكفر والمعاصي. قال بعض المفسرين: معناه: يأخذ منهم الزكاة، وهذا ضعيف. و﴿الْكِتَابُ﴾: القرآن، و﴿الْحِكْمَةُ﴾: السنة المتعلمة من لسانه عليه السلام. ثم ذكر حالتهم الأولى من الضلال ليظهر الفرق بتجاور الضدين، و﴿قَبْلَ﴾: لفظة مبنية لما تضمنت الإضافة، فأشبهت الحروف في تضمين المعاني فبنيت.

ثم وقف تعالى المؤمنين على الخطأ في قلقهم للمصيبة التي نزلت بهم، وإعراضهم عما نزل بالكفار، وعرفهم أن ذلك لسبب أنفسهم. والواو في قوله: ﴿أَوْ لَكُنَّا﴾ عطف

عسكر النبي ﷺ وعسكر قريش يوم أحد، ودخلت الفاء في قوله: ﴿فَيَاذَنَّا﴾ رابطة مشددة، وذلك للإيهام الذي في ﴿مَا﴾ فأشبهه الكلام الشرط، وهذا كما قال سيويه: الذي قام فله درهمان، فيحسن دخول الفاء إذا كان القيام سبب الإعطاء، وكذلك ترتيب هذه الآية، فالمعنى إنما هو: وما أذن الله فيه فهو الذي أصاب، لكن قدّم الأهم في نفوسهم والأقرب إلى حسهم. والاذن: التمكين من الشيء مع العلم به.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَنَّ﴾ معناه: ليكون العلم مع وجود المؤمنين والمنافقين، أي مساوقين للعلم الذي لم يزل ولا يزال. واللام في قوله: ﴿لِيَعْلَمَنَّ﴾ معلقة بفعل مقدر في آخر الكلام، والإشارة بقوله: ﴿ثَانِفًا﴾ وقيل: ﴿ثَمَّ﴾ هي إلى عبدالله بن أبي وأصحابه الذين انصرفوا معه عن النبي ﷺ يوم أحد، وذلك أنه كان من رأي عبدالله بن أبي ألا يخرج إلى كفار قريش، فلما خرج رسول الله ﷺ بالناس على الوجه الذي قد ذكرناه، قال عبدالله بن أبي: أطاعهم وعصاني، فانخزل بنحو ثلث الناس، فمشى في أثرهم عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري أبو جابر بن عبدالله بن حرام فقال لهم: اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم، وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، أو نحو هذا من القول، فقال له ابن أبي: ما أرى أن يكون قتال، ولو علمنا أن يكون قتال لكتنا معكم. فلما ينس منهم عبدالله قال: اذهبوا أعداء الله، فسئغني الله رسوله

عنكم، ومضى مع النبي ﷺ فاستشهد.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾؛ فقال السدي وابن جريج وغيرهم: معناه: كثرُوا السواد وإن لم تقاتلوا، فيندفع القوم لكثرتكم، وقال أبو عون الأنصاري: معناه: رابطوا، وهذا قريب من الأول، ولا محالة أن المرابط مدافع، لأنه لولا مكان المرابطين في الثغور لجاءها العدو، والمكثر للسواد مدافع. وقال أنس بن مالك: رأيت يوم القادسية عبدالله بن أم مكتوم الأعمى، وعليه درع يجز أطرافها ويده راية سوداء، فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرَكَ؟ قال: بلى، ولكني أكثر المسلمين بنفسي، وروي أنه قال: فكيف بسواي في سبيل الله. وذهب بعض المفسرين إلى أن قول عبدالله بن عمرو: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ إنما هو استدعاء للقتال حمية، لأنه دعاهم إلى القتال في سبيل الله، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا، فلما رأى أنهم ليسوا أهل ذلك، عرض عليهم الوجه الذي يحشمهم ويبعث الأنفة، أي: أو قاتلوا دفاعاً عن الحوزة، ألا ترى أن قرمان قال: والله ما قاتلت إلا على أحساب قومي، وألا ترى أن بعض الأنصار قال يوم أحد، لما رأى قريشاً قد أرسلت الظهر في زرع قناة قال: أترعى زرع بني قيلة ولما نضارب؟ وكان النبي ﷺ قد أمر ألا يقاتل أحد حتى يأمره بالقتال، وكان عبدالله بن عمرو بن حرام دعاهم إلى هذا

الأمر العربي الخارج عن الدين والقتال في سبيل الله.

وذهب جمهور المفسرين إلى أن قوله: ﴿أَقْرَبُ﴾ مأخوذ من القرب ضد البعد، وسَدَّتِ اللام في قوله: ﴿لِلْكَفَرِ﴾ و﴿لِلْإِيمَانِ﴾ مسددة إلى. وحكى النقاش أن قوله: ﴿أَقْرَبُ﴾ مأخوذ من القَرَب - بفتح القاف والراء - وهو الطلب، والقارب طالب الماء، وليلة القَرَب ليلة الزود، فاللفظة بمعنى الطلب، واللام متمكنة على هذا القول. وقوله: ﴿يَأْتُوهُمْ﴾ تأكيد، مثل: ﴿يَبْتَغِي بِمَحَاجِرٍ﴾.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يريد ما يُظهرون من الكلمة الحاققة لدمائهم، ثم فضحهم تعالى بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ أي: من الكفر وعداوة الدين، وفي الكلام توعدهم لهم.

﴿الَّذِينَ﴾ - ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ﴾ المتقدم، وإخوانهم: المقتولون من الخزرج، وهي أخوة نسب ومجاورة. وقوله: ﴿لِلْإِخْوَانِهِمْ﴾ معناه: لأجل إخوانهم، وفي شأن إخوانهم، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لِلْإِخْوَانِهِمْ﴾ للأحياء من المنافقين، ويكون الضمير في: ﴿أَطَاعُوا﴾ هو للمقتولين. وقوله: ﴿وَقَدُوا﴾ جملة في موضع الحال وهي حال معترضة أثناء الكلام. وقوله: ﴿ثَوَّ أَطَاعُوا﴾ يريد في ألا يخرجوا إلى قريش.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿مَا قُتِلُوا﴾، بشد التاء، وهذا هو القول بالأجلين، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَأَدْرَأُ﴾... الآية،

والدرة: الدفع، ومنه قول دغفل النسابة:

صادف درة السيل درءاً يدفعه والعبء لا تعرفه أو ترزقه

ولزوم هذه الحجة هو أنكم القائلون: إن التوقي واستعمال النظر يدفع الموت، فتوقوا وانظروا في الذي يغشاكم منه حتف أنوفكم، فادفعوه إن كان قولكم صدقاً، أي: إنما هي آجال مضرية عند الله.

وقرأ جمهور القراء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء مخاطبة للنبي عليه السلام، وقرأ حميد بن قيس: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء على ذكر الغائب، ورويت عن ابن عامر، وذكرها أبو عمرو، وكأن الفاعل مقدر: ولا يحسبن أحد أو حاسب. وأرى هذه القراءة بضم الباء، فالمعنى: ولا يحسب الناس، ويحسبن معناه: يظنن. وقرأ الحسن: ﴿الَّذِينَ قُتِلُوا﴾، بشذ التاء، وابن عامر من السبعة. وروي عن عاصم أنه قرأ: ﴿الَّذِينَ قَاتَلُوا﴾ بألف بين القاف والتاء.

وأخبر الله تعالى في هذه الآية عن الشهداء أنهم في الجنة يرزقون، هذا موضع الفائدة، ولا محالة أنهم ماتوا وأن أجسادهم في الشراب، وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين، وفضلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل، حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم. قال الحسن بن أبي الحسن: ما زال ابن آدم يتحمد حتى صار حياً لا يموت بالشهادة في سبيل الله. فقوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ مقدمة لقوله: ﴿يَرْزُقُونَ﴾ إذ لا يُرْزَقُ إلا

حي، وهذا كما تقول لمن ذم رجلاً: بل هو رجل فاضل، فتجيء باسم الجنس الذي تركب عليه الوصف بالفضل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ بالرفع على خبر ابتداء مضمر، أي: هم أحياء، وقرأ ابن أبي عبله: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ بالنصب؛ قال الزجاج: ويجوز النصب على معنى بل أحسبهم أحياء، قال أبو علي في الأغفال: ذلك لا يجوز لأن الأمر يقين فلا يجوز أن يؤمر فيه بمحسبة، ولا يصح أن يضمر له فعل المحسبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فوجه قراءة ابن أبي عبله أن تضرر فعلاً غير المحسبة: أَعْتَقِدُهُمْ أَوْ أَجْعَلُهُمْ، وذلك ضعيف إذ لا دلالة في الكلام على ما يضرر.

وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: عند كرامة ربهم، لأن (عند) تقتضي غاية القرب، ولذلك لم تصغر، قاله سيبويه، وورد عن النبي ﷺ أنه قال: «أرواح الشهداء على نهر يباب الجنة يقال له بارق، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وحشياً». وروي عنه عليه السلام أنه قال: «أرواح الشهداء في جواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه طبقات وأحوال مختلفة، يجمعها أنهم يرزقون. وقال عليه السلام: «إنما نسمة المؤمن من طير تعلق في ثمار الجنة» ويروى «يعلق»

بفتح اللام وبالياء. والحديث معناه في الشهداء خاصة، لأن أرواح المؤمنين غير الشهداء إنما ترى مقاعدها من الجنة دون أن تدخلها، وأيضاً فإنها لا ترزق. وتعلق معناه: تصيب العلقة من الطعام، وفتح اللام هو من التعلق، وقد رواه الفراء في إصابة العلقة، وروي أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يطلع إلى الشهداء فيقول: يا عبادي ما تشتهون فأزيدكم؟ فيقولون: يا ربنا لا فوق ما أعطيتنا، هذه الجنة نأكل منها حيث نشاء، لكننا نريد أن تردنا إلى الدنيا فنقاتل في سبيلك فنقتل مرة أخرى، فيقول تعالى: قد سبق أنكم لا تردون». وروي أن النبي ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ألا أبشرك يا جابر؟» قال جابر: قلت: بلى يا رسول الله، قال: «إن أباك حيث أصيب بأحد، أحياء الله ثم قال: ما تحب يا عبدالله بن عمرو أن أفعل بك؟ قال: يا رب أحب أن تردني إلى الدنيا فأقاتل فيك فأقتل مرة أخرى» وقال قتادة رحمه الله: ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: ليتنا نعلم ما فعل إخواننا الذين أصيبوا بأحد، فنزلت هذه الآية. وقال محمد بن قيس بن مخزومة في حديث: «إن الشهداء قالوا: يا ربنا، ألا رسول يخبر نبينا عنا بما أعطيتنا؟ فقال الله تعالى: أنا رسولكم، فنزل جبريل بهذه الآيات».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكشرت هذه الأحاديث في هذا المعنى واختلفت الروايات، وجميع

يحتمل أن تكون ﴿الَّذِينَ﴾ صفة للمؤمنين على قراءة من كسر الألف من (إن)، والأظهر أن ﴿الَّذِينَ﴾ ابتداء وخبره في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾... الآية. فهذه الجملة هي خبر الابتداء الأول.

والمستجيبون لله والرسول هم الذين خرجوا مع النبي ﷺ إلى حمراء الأسد في طلب قريش والتظاهر لهم؛ وذلك أنه لما كان في يوم الأحد وهو الثاني من يوم أحد نادى رسول الله ﷺ في الناس باتباع المشركين، وقال: «لا يخرج من معنا إلا من شاهدنا بالأمس» وكانت بالناس جراحة وقرح عظيم، ولكن تجلدوا ونهض معه مائتا رجل من المؤمنين حتى بلغ حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة، وأقام بها ثلاثة أيام، وجرت قصة معبد بن أبي معبد التي ذكرناها، ومرت قريش، وانصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، فأنزل الله تعالى في شأن أولئك المستجيبين هذه الآية، ومدحهم لصبرهم.

وروي أنه خرج في الناس أخوان وبهما جراحة شديدة وكان أحدهما قد ضعف، فكان أخوه يحمله بحمله عقيباً ويمشي هو عقيباً. ورغب جابر بن عبد الله إلى النبي ﷺ في الخروج معه فأذن له، وأخبرهم تعالى أن الأجر العظيم قد تحصل لهم بهذه الفعل، وقال رسول الله ﷺ: «إنها غزوة».

﴿١٧١﴾ - ﴿١٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ﴾ صفة للمحسنين المذكورين. وهذا القول هو الذي قاله الركب من عبد القيس لرسول الله ﷺ وأصحابه حين

يحزنون. وذهب فريق من العلماء - وأشار إليه الزجاج وابن فورك - إلى أن الإشارة في قوله: ﴿الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا﴾ إلى جميع المؤمنين، أي: لم يلحقوا بهم في فضل الشهادة، لكن الشهداء لما عاينوا ثواب الله وقع اليقين بأن دين الإسلام هو الحق الذي يشيب الله عليه، فهم فرحون لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون للمؤمنين بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. و﴿الَّذِينَ﴾ مفعول من أجله،

التقدير: بأن لا خوف، ويجوز أن يكون في موضع خفض بدل اشتمال.

ثم أكد تعالى استبشارهم بقوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ﴾، ثم بين تعالى بقوله: ﴿وَفَضْلٍ﴾ فوق إدخاله إياهم الجنة الذي هو فضل منه لا بعمل أحد، وأما النعمة في الجنة والدرجات فقد أخبر أنها على قدر الأعمال.

وقرأ الكسائي وجماعة من أهل العلم: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ بكسر الألف من (إن)، وقرأ باقي السبعة وجمهور العلماء: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ بفتح الألف، فمن قرأ بالفتح فذلك داخل فيما يُستبشر به، المعنى: بنعمة وبأن الله، ومن قرأ بالكسر فهو إخبار مستأنف. وقرأ عبدالله: ﴿وَفَضْلٍ وَاللَّهُ لَا يَضِغُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾

فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَسْتَسْأَلِ سَوْءَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٧١﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْرِغُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنَبَضْرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنَبَضْرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ وَلَا يَحْزَنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِ لَهُمْ لِرَدِّ أَرْسَالِنَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٥﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ لِيُدْرِيَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيْ مِنْ رُّسُلِهِ مَنْ يَّشَاءُ فَاتَّبِعُونَا اللَّهَ وَرُسُلَهُ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ وَاسْتَعُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ وَلَا يَحْزَنْ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنْتُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لِّمَنْ بَلَّ هُوَ سَرَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَحْمِلُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مَبْذُرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٧٧﴾

٧٣

ذلك جائز على ما اقتضته من هذه المعاني.

وقوله تعالى: ﴿وَجَبَّ﴾ نصب في موضع الحال، وهو من الفرج بمعنى السرور. والفضل في هذه الآية: التعميم المذكور.

﴿١٧١﴾ - ﴿١٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ معناه: يسرون ويفرحون، وليست استفعل في هذا الموضع بمعنى طلب البشارة، بل هي بمعنى: استغنى الله، واستمجد المرخ والعفار، وذهب قتادة والربيع وابن جريج وغيرهم إلى أن هذا الاستبشار إنما هو بأنهم يقولون: إخواننا الذين تركناهم خلفنا في الدنيا يقاتلون في سبيل الله مع نبيهم فيشهدون فينالون من الكرامة مثل ما نحن فيه فيسرون لهم بذلك، إذ يُخلصون لا خوف عليهم ولا هم

حملهم أبو سفيان ذلك، وقد ذكرته قبل، فالتاس الأول ركب عبد القيس والناس الثاني عسكر قريش.

وقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾، أي: ثبوتاً واستعداداً، فزيادة الإيمان في هذا هي في الأعمال.

وأطلق العلماء عبارة: إن الإيمان يزيد وينقص، والعقيدة في هذا أن نفس الإيمان الذي هو تصديق واحد بشيء ما، إنما هو معنى فرد لا تدخله زيادة إذا حصل، ولا يبقى منه شيء إذا زال، فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقص في متعلقاته دون ذاته، فذهب بعض العلماء إلى أنه يقال: يزيد وينقص من حيث تزيد الأعمال الصادرة عنه وتنقص، لا سيما أن كثيراً من العلماء يوقعون اسم الإيمان على الطاعات؛ وذهب قوم إلى أن الزيادة في الإيمان إنما هي بتزول الفروض والأخبار في مدة النبي ﷺ، وفي المعرفة بها بعد الجاهل غابر الدهر، وهذا إنما هو زيادة إيمان إلى إيمان، فالقول فيه أن الإيمان يزيد وينقص قول مجازي، ولا يتصور النقص فيه على هذا الحد، وإنما يتصور الانقص بالإضافة إلى من علم. وذهب قوم من العلماء إلى أن زيادة الإيمان ونقصه إنما هي من طريقي الأدلة، فتزيد الأدلة عند واحد، فيقال في ذلك: إنها زيادة في الإيمان، وهذا كما يقال في الكسوة، إنها زيادة في الإنسان. وذهب أبو المعالي في «الإرشاد»: إلى أن زيادة الإيمان ونقصانه إنما هو بسبب ثبوت المعتقد وتعاوره دائباً، قال: وذلك أن

الإيمان عرض وهو لا يثبت زمانين فهو للنبي ﷺ وللصلحاء متعاقب متوال، وللناسق والغافل غير متوال، يصحبه حيناً ويفارقه حيناً في الفترة، فذلك الآخر أكثر إيماناً، فهذه هي الزيادة والنقص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول نظر.

وقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ لا يتصور أن يكون من جهة الأدلة، ويتصور في الآية الجهات الآخر الثلاث. وروي أنه لما أخبر الوفد من عبد القيس رسول الله ﷺ بما حملهم أبو سفيان، وأنه ينصرف إليهم بالناس ليستأصلهم، وأخبر بذلك أيضاً أعرابي، شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»، فقالوها، واستمرت عزائمهم على الصبر، ودفع الله عنهم كل سوء، وألقى الرعب في قلوب الكفار فمروا.

وقوله تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ يريد في السلامة والظهور في اتباع العدو وحماية الحوزة، وبفضل في الأجر الذي حازوه والفخر الذي تجلّلوه. وباقي الآية بين قد مضت نظائره.

هذا هو تفسير الجمهور لهذه الآية، وأنها في غزوة أحد في الخرجة إلى حمراء الأسد، وشذ مجاهد رحمه الله فقال: إن هذه الآية من قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ إلى قوله: ﴿فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ إنما نزلت في خروج النبي عليه السلام إلى بدر الصغرى، وذلك أنه خرج لميعاد أبي

سفيان في أحد إذ قال: موعداً بدر من العام المقبل، فقال النبي عليه السلام: «قولوا نعم» فخرج رسول الله قبل بدر وكان بها سوق عظيم، فأعطى رسول الله ﷺ أصحابه دراهم، وقرب من بدر فجاءه نعيم بن مسعود الأشجعي فأخبره أن قريشاً قد اجتمعت وأقبلت لحربه هي ومن انضاف إليها، فأشفق المسلمون من ذلك لكنهم قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، وصمموا حتى أتوا بدرأ فلم يجدوا عدواً، ووجدوا السوق فاشتروا بدراهمهم أدماً وتجارة، وانقلبوا ولم يلقوا كيداً وريحوا في تجارتهم، فذلك قوله تعالى: ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي فضل في تلك التجارة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب ما قاله الجمهور: إن الآية نزلت في غزوة حمراء الأسد، وما قال ابن قتيبة وغيره من أن لفظة «الناس» تقع على رجل واحد من هذه الآية، فقول ضعيف.

(١٧٥) - (١٧٦) تفسير قوله عز وجل: مقتضى «إنما» في اللغة الحصر، هذا منزع المتكلم بها من العرب. ثم إذا نظر عقلاً - وهذا هو نظر الأصوليين - فهي تصلح للحصر وللتأكيد الذي يستعار له لفظ الحصر، وهي في هذه الآية حاصرة، والإشارة بـ«ذَلِكَ» إلى جميع ما جرى من أخبار الركب العبدية عن رسالة أبي سفيان، ومن تحميل أبي سفيان ذلك الكلام، ومن جزع من جزع من ذلك الخبر من مؤمن أو متردد.

و﴿ذَلِكُمْ﴾ في الإعراب ابتداء، و﴿الْفَيْتَنُ﴾ مبتدأ آخر، و﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ خبر عن الشيطان، والجملة خبر الابتداء الأول، وهذا الإعراب خير في تناسق المعنى من أن يكون ﴿الْفَيْتَنُ﴾ خبر ﴿ذَلِكُمْ﴾ لأنه يجيء في المعنى استعارة بعيدة. و﴿يُخَوِّفُ﴾ فعل يتعدى إلى مفعولين، لكن يجوز الاقتصار على أحدهما إذ الآخر مفهوم من بنية هذا الفعل، لأنك إذا قلت: خوفت زيدا، فمعلوم ضرورة أنك خوفته شيئا حقه أن يخاف.

وقرأ جمهور الناس ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ فقال قوم: المعنى: يخوفكم أيها المؤمنون أوليائه الذين هم كفار قريش، فحذف المفعول الأول، وقال قوم: المعنى يخوف المنافقين ومن في قلبه مرض، وهم أولياؤه، فإذا لا يعمل فيكم أيها المؤمنون تخوفه، إذ لستم بأوليائه، والمعنى: يخوفهم كفار قريش، فحذف هنا المفعول الثاني واقتصر على الأول. وقرأ ابن عباس فيما حكى أبو عمرو الداني: ﴿يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ﴾ المعنى: يخوفكم قريش ومن معهم، وذلك بإضلال الشيطان لهم، وذلك كله مضمحل، وبذلك قرأ النخعي. وحكى أبو الفتح ابن جني عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ﴾ فهذه قراءة ظهر فيها المفعولان، وفسرت قراءة الجماعة: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ﴾.

والضمير في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾

لكفار قريش وغيرهم من أولياء الشيطان، حقر الله شأنهم وقوى نفوس المؤمنين عليهم، وأمرهم بخوفه هو تعالى وامتنال أمره من الصبر والجلد، ثم قرر بقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كما تقول: إن كنت رجلاً فافعل كذا.

وقرأ نافع وحده: ﴿يُحْزِنُكَ﴾ بضم الياء من أحزن، وكذلك قرأ في جميع القرآن، إلا في سورة الأنبياء: ﴿لَا يُحْزِنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ فإنه فتح الياء، وقرأ الباقون: ﴿يُحْزِنُكَ﴾ بفتح الياء، من قولك: حزنت بفتح الرجل. قال سيبويه: يقال: حزن الرجل وفتن إذا أصابه الحزن والفتنة. وحزنته وفتنته، إذا جعلت فيه وعنده حزناً وفتنة، كما تقول: دهنت وكحلت، إذا جعلت دهناً وكحلاً، وأحزنته وأفتنته إذا جعلته حزيناً وفاتناً، كما تقول: أدخلته وأسمنت، هذا معنى قول سيبويه.

والمسارعة في الكفر هي المبادرة إلى أقواله وأفعاله والنجد في ذلك. وقرأ الحز النحوي ﴿يُسْرِعُونَ﴾ في كل القرآن، وقراءة الجماعة أبلغ، لأن من يسارع غيره أشد اجتهاداً من الذي يسرع وحده، ولذلك قالوا: «كل مجر بالخلاء يسر». وسمى الله نبيه بهذه الآية عن حال المنافقين والمجاهدين إذ كلهم مسارع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَصْرَوْا اللَّهَ شَيْئاً﴾ خبر في ضمنه وعيد لهم، أي: إنما يضررون أنفسهم. والحظ إذا لم يقيد فإنما يستعمل في الخير، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُرٌّ حَقْلٍ عَظِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ أطلق عليهم الشراء من حيث كانوا متمكنين من قبول هذا، فجاء أخذهم للواحد وتركهم للآخر كأنه ترك لما قد أخذ وحصل، إذ كانوا ممكنين منه، ولمالك رحمه الله متعلق بهذه الآية في مسألة شراء ما تختلف أحاد جتسه مما لا يجوز التفاضل فيه، في أن منع الشراء على أن يختار المتاع، وبقي الآية وعيد كالمقدم.

(١٧٨) (١٧٩)

﴿ثَلِي﴾ معناه: نهمل ونمد في العمر، والملاوة: المدة من الدهر، والملوان الليل والنهار، وتقول: ملأك الله النعمة أي: منحكها عمراً طويلاً.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: ﴿يُخْسِبُنَ﴾ بالياء من أسفل وكسر السين وفتح الياء، وقرأ ابن عامر كذلك إلا في السين فإنه فتحها، وقرأ حمزة - ﴿تُخْسِبُنَ﴾ بالياء من فوق وفتح السين، وقرأ عاصم والكسائي كل ما في هذه السورة بالياء من فوق إلا حرفين: قوله: ﴿وَلَا يَخْسِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في هذه الآية، وبعدها ﴿وَلَا يَخْسِبُ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾. فأما من قرأ ﴿وَلَا يَخْسِبُنَ﴾ بالياء من أسفل فإن ﴿الَّذِينَ﴾ فاعل، وقوله: ﴿إِنَّا ثَلِي لَمْ خَيْرٌ﴾ بفتح الألف من ﴿إِنَّا﴾ ساء مسد مفعولي «حسب»، وذلك أن «حسب» وما جرى مجراها تتعدى إلى مفعولين أو إلى مفعول يسد مسد مفعولين، وذلك إذا جرى في صلة ما تتعدى إليه ذكر الحديث والمحدث عنه. قال أبو علي: وكسر

«إِنْ» في قول من قرأ: ﴿يُحْسِبَنَّ﴾
بالباء لا ينبغي، وقد قرئ فيما حكاه
غير أحمد بن موسى وفي غير
السبع، ووجه ذلك أن «إِنْ» يتلقى
بها القسم كما يتلقى بلام الابتداء،
ويدخلان على الابتداء والخبر، أعني
«اللام» و«إِنْ» فعلق عن ﴿إِنَّمَا﴾ عمل
الحسبان كما تعلق عن اللام في
قولك: حسبت لزيد قائم، فيعلق
الفعل عن العمل لفظاً، وأما بالمعنى
فما بعد «إِنْ» أو «اللام» ففي موضع
مفعولي حسب، و﴿مَا﴾ يحتمل أن
تكون بمعنى الذي، ففي ﴿تَنبِي﴾
عائد مستكن، ويحتمل أن تكون
مصدرية فلا تحتاج إلى تقدير عائد.
وأما من قرأ ﴿وَلَا تُحْسِبَنَّ﴾ بالتاء من
فوق فـ ﴿الَّذِينَ﴾ مفعول أول
للحسبان. قال أبو علي: وينبغي أن
تكون الألف من ﴿إِنَّمَا﴾ مكسورة في
هذه القراءة، وتكون «إِنْ» وما دخلت
عليه في موضع المفعول الثاني
لـ ﴿تُحْسِبَنَّ﴾، ولا يجوز فتح الألف
من ﴿إِنَّمَا﴾ لأنها تكون المفعول
الثاني، والمفعول الثاني في هذا
الباب هو المفعول الأول بالمعنى،
والإملاء لا يكون إياهم. قال مكي
في مشكله: ما علمت أحداً قرأ:
﴿تُحْسِبَنَّ﴾ بالتاء من فوق وكسر
الألف من ﴿إِنَّمَا﴾. وجوز الزجاج
هذه القراءة ﴿تُحْسِبَنَّ﴾ بالتاء و
﴿إِنَّمَا﴾ بفتح الألف، وظاهر كلامه
أنها تنصب ﴿خَيْرًا﴾ قال: وقد قرأ
بها خلق كثير وساق عليها مثلاً قول
الشاعر:

فما كان قيسٌ مُلكه مُلكٌ واحدٍ

بنصب مُلك الثاني على أن الأول
بدل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فكذلك يكون ﴿إِنَّمَا تَنبِي﴾ بدلاً من
﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كقوله تعالى:
﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ إِلَّا الشَّيْءَ أَنْ أَذْكُرَكُمْ﴾
وقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى
الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ ويكون ﴿خَيْرٌ﴾
المفعول الثاني.

قال أبو علي: لم يقرأ هذه القراءة
أحد، وقد سألت أحمد بن موسى
عنها فزعم أنه لم يقرأ بها أحد.
ويظهر من كلام أبي علي أن أبا
إسحاق إنما جوز المسألة مع قراءة
﴿خَيْرٌ﴾ بالرفع، وأبو علي أعلم
لمشاهدته أبا إسحاق. وذكر قوم أن
هذه القراءة تجوز على حذف مضاف
تقديره: ولا تحسبن شأن الذين
كفروا إنما نملي لهم، فهذا كقوله
تعالى: ﴿وَنَسِىَ الْفَرْيَةَ﴾ وغير ذلك.
ويذهب الأستاذ أبو الحسن بن
البادش: إلى أنها تجوز على بدل
﴿أَنْ﴾ من ﴿الَّذِينَ﴾ وحذف المفعول
الثاني لحسب، إذ الكلام يدل عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والمسألة جائزة إذ المعنى: لا
تحسبن إملأنا للذين كفروا خيراً
لهم، أو نحو هذا.

ومعنى هذه الآية: الرد على الكفار
في قولهم: إن كوننا ظاهرين ممولين
أصحة دليل على رضى الله بحالنا
واستقامة طريقتنا عنده، فأخبر الله أن
ذلك التأخير والإمهال إنما هو إملاء
واستدراج، ليكتسبوا الآثام، وقال
عبد الله بن مسعود: ما من نفس برّة
ولا فاجرة إلا والموت خير لها، أما

البرّة فلتسرع إلى رحمة الله، وقرأ
﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِفِينَ﴾، وأما
الفاجرة فلثلاً تزداد إثماً، وقرأ هذه
الآية. ووصف العذاب بالمهين
معناه: التخسيس لهم، فقد يعذب
من لا يهان، وذلك إذا اعتقدت إقالة
عثرته يوماً ما.

واختلف المفسرون في معنى قوله
تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ
الْمُؤْمِنِينَ﴾... الآية؛ فقال مجاهد
وابن جريج وابن إسحاق وغيرهم:
الخطاب للمؤمنين، والمعنى: ما
كان الله ليدع المؤمنين مختلطين
بالمنافقين مشكلاً أمرهم، يجري
المنافق مجرى المؤمن، ولكن ميز
بعضهم من بعض، بما ظهر من
هؤلاء وهؤلاء في أخذ من الأفعال
والأقوال. وقال قتادة والسدي:
الخطاب للكفار، والمعنى: حتى
يميز المؤمنين من الكافرين بالإيمان
والهجرة. وقال السدي وغيره: قال
الكفار في بعض جدلهم: أنت يا
محمد تزعم في الرجل منا أنه من
أهل النار، وأنه إذا اتبعك من أهل
الجنة، فكيف يصح هذا؟ ولكن
أخبرنا بمن يؤمن منا وبمن يبقى على
كفره، فنزلت الآية، ف قيل لهم:
لا بد من التمييز، وما كان الله
ليطلعكم على الغيب فيمن يؤمن ولا
فيمن يبقى كافراً، ولكن هذا رسول
مجتبي فآمنوا به. فإن آمنتم نجوتهم
وكان لكم أجر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وأما مجاهد وابن جريج وأهل القول
الأول، فقولهم في تأويل قوله
تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى

والأحاديث في مثل هذا من منع الزكاة واكتناز المال كثيرة صحيحة. قال ابن عباس: الآية إنما نزلت في أهل الكتاب وبخلهم ببيان ما علمهم الله من أمر محمد ﷺ، وقال ذلك مجاهد وجماعة من أهل التفسير.

وقوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ على هذا التأويل معناه: سيحملون عقاب ما بخلوا به فهو من الطاقة كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ﴾ وليس من التطويق. قال إبراهيم النخعي: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ سيجعل لهم يوم القيامة طوق من نار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يجري مع التأويل الأول الذي ذكرته للسدي وغيره.

وقال مجاهد: معنى ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾: سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يضطرب مع قوله: إن البخل هو بالعلم الذي تفضل الله عليهم بأن علمهم إياه.

وإعراب قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ رفع في قراءة من قرأ: ﴿يَبْخُلُونَ﴾ بالياء من أسفل، والمفعول الأول مقدر بعد الصلة تقديره: ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم من فضله بخلهم هو خيراً، والمفعول الثاني ﴿خَيْرًا﴾، و﴿هو﴾ فاصلة وهي العماد عند الكوفيين، ودلّ قوله: ﴿يَبْخُلُونَ﴾ على هذا البخل المقدر كما دلّ السفيه على السفه في قول الشاعر:

وليس ميّزت بمنقول من ميّزت، بدليل أن ميّزت لا يتعدى إلى مفعولين وإنما يتعدى إلى مفعول واحد كيّزت، كما أن «القيت» ليس بمنقول من «لقي» إنما هو بمعنى أسقط.

والغيب هنا: ما غاب عن البشر مما هو في علم الله من الحوادث التي تحدث، ومن الأسرار التي في قلوب المنافقين، ومن الأقوال التي يقولونها إذا غابوا عن الناس. قال الزجاج وغيره: روي أن بعض الكفار قال: لم لا

يكون جميعنا أنبياء؟ فنزلت هذه الآية. و﴿يَبْخُلُونَ﴾ يختار ويصطفي، وهي من جيت الماء والمال، وباقى الآية بين، والله المستعان.

﴿١٨٠﴾ - تفسير قوله عز وجل: القراءات في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ كالتي تقدمت آنفاً في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سواء.

قال السدي وجماعة من المتأولين: الآية نزلت في البخل بالمال والإنفاق في سبيل الله وأداء الزكاة المفروضة ونحو ذلك. قالوا: ومعنى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا يَخْلُقُوا﴾ هو الذي ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله عن فضل ما عنده فيبخل به عليه إلا خرج له يوم القيامة شجاع أقرع من النار يتلطمط حتى يطوقه».

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَوَّيرٌ وَمَحْ أَغْنِيَاءُ سَكَتُكُمْ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأُنبيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُكُمْ دُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٧٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بَقَرًا يَكُ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨١﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءَهُ وَبِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٢﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتٌّ مَعُومٍ ﴿١٨٣﴾ تَسْتَبْشِرُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسْتُمْ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْنَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٤﴾

الْكَيْبِ، إنه في أمر أحد، أي: ما كان الله ليطلعكم على أنكم تهزمون، فكيف تكونون ونحو هذا. وأيضاً فما كان ليطلعكم على المنافقين تصريحاً بهم وتسمية لهم، ولكن هذا بقرائن أفعالهم وأقوالهم في مثل هذا الموطن.

و﴿حَتَّى﴾ في قوله: ﴿حَتَّى يَبْيَرَّ﴾ غاية مجردة، لأن الكلام قبلها معناه: الله يخلص ما بينكم بابتلائه وامتحانه حتى يميز.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم: ﴿حَتَّى يَبْيَرَّ﴾ بفتح الياء وكسر الميم وتخفيف الياء، وكذلك ﴿يَلْيَرَّ﴾، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿حَتَّى يَمَيِّزَ﴾ و﴿يَلْمِيْزَ﴾ الله بضم الياء والتشديد. قال يعقوب بن السكيت: ميّزت وميّزت لغتان بمعنى واحد. قال أبو علي:

إذا نُهِيَ السَّفِيهُ جَرَى إِلَيْهِ
وخالَفَ، والسفیه إلى خلافٍ
فالمعنى جرى إلى السفه، وأما من
قرأ ﴿تُحْسِنُ﴾ بالتاء من فوق ففي
الكلام حذف مضاف هو المفعول
الأول، تقديره: ولا تحسن يا محمد
بخل الذين يبخلون خيراً لهم. قال
الزجاج: وهي مثل ﴿وَسَلِّ
الْفَرِيكُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَبْرُثُ
الْكَامَنُونَ﴾ خطاب على ما يفعله
البشر دال على فناء الجميع، وأنه لا
يبقى مالك إلا الله تعالى، وإن كان
ملكه تعالى على كل شيء لم يزل.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿وَاللَّهُ
بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ بالياء من أسفل على
ذكر الذين يبخلون ويطوقون، وقرأ
الباقون بالتاء من فوق، وذلك على
الرجوع من الغيبة إلى المخاطبة لأنه
قد تقدم: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا وَتَوَلَّوْا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَخِجَ اللَّهُ...﴾
الآية، قال ابن عباس: نزلت بسبب
فنحاص اليهودي وذلك أن
رسول الله ﷺ بعث أبا بكر الصديق
رضي الله عنه إلى بيت المدراس
ليدعوهم فوجد فيه جماعة من اليهود
قد اجتمعوا على فنحاص - وهو
حبرهم - فقال أبو بكر له: يا
فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك
لتعلم أن محمداً رسول الله قد
جاءكم بالحق من عند الله تجدونه
مكتوباً عندكم في التوراة، فقال
فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا
إلى الله من حاجة، وإنه إلينا لفقير،
وإنا عنه لأغنياء، ولو كان غنياً لما
استقرضنا أموالنا كما يزعم

صاحبكم، في كلام طويل غضب
أبو بكر منه، فرفع يده فلطم وجه
فنحاص وسبه وهم يقتله، ثم منعه
من ذلك أن رسول الله ﷺ قال له:
﴿لَا تُخْذِلْ شَيْئاً حَتَّى تَنْصَرِفَ إِلَيَّ﴾
ثم ذهب فنحاص إلى النبي ﷺ
فشكا فعل أبي بكر، فقال النبي ﷺ
لأبي بكر: ﴿مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا
صَنَعْتَ؟﴾ فنزلت الآية في ذلك.

وقال قتادة: نزلت الآية في
حيي بن أخطب، وذلك أنه لما
نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا﴾ قال: يستقرضنا ربنا؟ إنما
يستقرض الفقير الغني. وقال
الحسن بن أبي الحسن ومعر وقاتدة
أيضاً وغيرهم: لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا
الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾
الآية، قالت اليهود: إنما يستقرض
الفقير من الغني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا محالة أن هذا قول صدر أولاً
عن فنحاص وحيي وأشباههما من
الأخبار ثم تناولها اليهود، وهو قول
يغلط به الأتباع ومن لا علم عنده
بمقاصد الكلام، وهذا تحريف اليهود
للتأويل على نحو ما صنعوا في
توراتهم.

وقوله تعالى: ﴿قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾
دال على أنهم جماعة.

﴿١٨٢﴾ - ﴿١٨٣﴾ تفسير قوله عز وجل:
قرأ حمزة وحده: ﴿سَيُكْتَبُ﴾ بالياء
من أسفل على بناء الفعل للمفعول:
﴿وَقُتِلَهُمْ﴾ برفع اللام عطفاً على
المفعول الذي لم يسم فاعله، و:
﴿يَقُولُ﴾ بالياء من أسفل، وقرأ
الباقون بنون الجمع، فإما أنها نون

العظمة، وإما هي للملائكة، و﴿مَا﴾
على هذه القراءة مفعولة بها،
و﴿وَقُتِلَهُمْ﴾ بنصب اللام عطفاً على
﴿مَا﴾، و﴿وَقُولُ﴾ بالنون على نحو
﴿سَيُكْتَبُ﴾. والمعنى في هاتين
القراءتين قريب بعضه من بعض، قال
الكسائي: وفي قراءة عبدالله بن
مسعود: ﴿وَيُقَالُ فَوْقُوا﴾. وقال أبو
معاذ النحوي في حرف ابن مسعود:
﴿سَيُكْتَبُ مَا يَقُولُونَ﴾ و﴿يُقَالُ لَهُمْ
فَوْقُوا﴾. وقرأ طلحة بن مصرف:
﴿سَيُكْتَبُ مَا يَقُولُونَ﴾، وحكى أبو
عمرو عنه أيضاً أنه قرأ: ﴿سَيُكْتَبُ﴾
بناء مرفوعة ﴿مَا قَالُوا﴾ بمعنى:
سكتب مقاتلهم.

وهذه الآية وعيد لهم، أي:
سيحصى عليهم قولهم. والكتب فيما
حكى كثير من العلماء هو في صحف
تقيده الملائكة فيها، وتلك الصحف
المكتوبة هي التي توزن، وفيها
يخلق الله الثقل والخفة بحسب
العمل المكتوب فيها. وذهب قوم
إلى أن الكتب عبارة عن الإحصاء
وعدم الإهمال، فعبر عن ذلك بما
تفهم العرب منه غاية الضبط
والتقييد. فمعنى الآية: إن أقوال
هؤلاء تكتب وأعمالهم، ويتصل
ذلك بأفعال آبائهم من قتل الأنبياء
بغير حق ونحوه، ثم يقال لجميعهم:
﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وخلطت
الآية الآباء مع الأبناء في الضمائر،
إذ الآباء هم الذين طُرِقُوا لأبنائهم
الكفر وإذ الأبناء راضون بأفعال الآباء
متبعون لهم.

والذوق مع العذاب مستعار، عبارة
عن المباشرة، إذ الذوق من أبلغ

أنواعها وحاسته مميزة جداً، والحريق معناه: المُحْرِقُ فِعْلٌ بمعنى مُفْعِلٌ، وقيل؛ الحريق طبقة من طبقات جهنم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَمَّا فَدَمْتُمُ الْأَيُّكُمْ﴾ توبيخٌ وتوقيفٌ داخل فيما يقال لهم يوم القيامة، ويحتمل أن يكون خطاباً لمعاصري النبي ﷺ يوم نزول الآية، ونسب هذا التقديم إلى اليد إذ هي الكاسبة للأعمال في غالب أمر الإنسان، فأضيف كل كسب إليها، ثم بين تعالى أنه يفعل هذا بعدل منه فيهم ووضع الشيء موضعه، والتقدير: وبـ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾، وجمع «عبداً» في هذه الآية على عبيد، لأنه مكان تشفيق وتنجية من ظلم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عِندَ إِلَٰهِنَا﴾ صفة راجعة إلى قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ تَفَرَّى﴾. وقال الزجاج: ﴿الَّذِينَ﴾ صفة للعبيد، وهذا مفسد للمعنى والرصف، وهذه المقالة قالتها أحرارٌ يهود مدافعةً لأمر النبي ﷺ، أي أنك لا تأتي بنار فنحن قد عهد إلينا ألا نؤمن لك. و﴿عِندَهُ﴾ معناه: أمر، والعهد: أخص من الأمر، وذلك أنه في كل ما يتناول أمره ويبقى في غابر الزمان، وتعدى (أمن) في هذه الآية باللام والباء في ضمن ذلك. و﴿قربان﴾ مصدر سمي به الشيء الذي يقرب كالرهن، وكان أمر القربان حكماً قديماً في الأنبياء، ألا ترى أن ابني آدم قربا قرباناً، وذلك أنهم كانوا إذا أرادوا معرفة قبول الله تعالى لصدقة إنسان أو عمله أو

صدق قوله، اقرب قرباناً: شاةً أو بقرة ذبيحة أو بعض ذلك، وجعله في مكان للهواء وانتظر به ساعة، فتنزل نار من السماء فتحرق ذلك الشيء، فهذه علامة القبول، وإذا لم تنزل النار فليس ذلك العمل بمقبول، ثم كان هذا الحكم في أنبياء بني إسرائيل. وكانت هذه النار أيضاً تنزل لأموال الغنائم فتحرقها، حتى أُجْلِبَ الغنائم لمحمد ﷺ حسب الحديث.

وروي عن عيسى بن عمر أنه كان يقرأ: ﴿بِقُرْبَانٍ﴾ بضم الراء، وذلك على الإتيان لضمّة القاف وليست بلغة، لأنه ليس في الكلام فعلان بضم الفاء والعين، وقد حكى سيويه: السُّلْطَانُ بضم اللام، وقال: إن ذلك على الإتيان.

﴿١٨٣﴾ - ﴿١٨٤﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا ردٌ عليهم في مقاتلتهم وتبيين لإبطالهم، أي: قد جاءكم رسل بالآيات الباهرة البينة، وفي جملتها ما قلتم من أمر القربان فلم تقاتلتموهم يا بني إسرائيل؟ المعنى: بل هذا منكم تعلل وتعنت، ولو أتيتكم بالقربان لتعللتم بغير ذلك، والاقتراح لا غاية له، ولا يجاب كل مقترح، ولم يجب الله مقترحاً إلا وقد أراد تعذيبه وألاً يمهل، كقوم صالح وغيرهم، وكذلك قيل لمحمد في اقتراح قریش فأبى، وقال: «بل أَدْعُوهُمْ وَأَعَالِجُهُمْ» ثم انس تعالى نبيه بالأسوة والقذوة فيمن تقدم من الأنبياء أي: فلا يعظم عليك ذلك.

وقرأ ابن عامر: ﴿وَالزُّبُرُ﴾ بإعادة باء الجر، وسقوطها على قراءة

الجمهور متجهه، لأن الواو شرت ﴿الزُّبُرُ﴾ في الباء الأولى فاستغنى عن إعادة الباء، وإعادتها أيضاً مُتَّجِهَةٌ لأجل التأكيد، وكذلك ثبتت في مصاحف أهل الشام، وروي أيضاً عن ابن عامر إعادة الباء في قوله: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

﴿وَالزُّبُرُ﴾: الكتاب المكتوب يقال: زبرت الكتاب إذا كتبت، وزبرته إذا قرأته، والشاهد لأنه الكتاب قول امرئ القيس:

لمن طلل أبصرته فشجاني
كخط زبورٍ في عسيب يمانٍ؟
وقال الزجاج: زبرت: كتبت، وزبرت بالذال: قرأت، و﴿الْمُنِيرِ﴾: وزنه مُفْعَلٌ من النور، أي سطع نوره.

﴿١٨٥﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا خبر واعظ فيه تسليّة للنبي عليه السلام ولأمنه عن أمر الدنيا وأهلها، ووعد في الآخرة، فبالفكرة في الموت يهون أمر الكفار وتكذيبهم، والمعنى: كل نفس مخلوقة حية، والذوق هنا: استعارة، و﴿وَالْكَافَّةِ﴾ حاصرة على التوفية التي هي على الكمال، لأن من قضي له بالجنة فهو ما لم يدخلها غير مؤقّى. وخص تعالى ذكر الأجور لشرفها وإشارة إلى معرفته لمحمد ﷺ وأمنه، ولا محالة أن المعنى: إن يوم القيامة تقع فيه الأجور وتوفية العقاب. و﴿زُجِرَ﴾ معناه: أبعد، والمكان الزحزح: البعيد. و﴿فَذَرُوه﴾ نجا من خطره وخوفه، و﴿الْأَثَرُ﴾ الخدع والترجية بالباطل، والحية الدنيا وكل ما فيها من الأموال فهي

متاع قليل تخدع المرء وتمنيه الأباطيل.

وعلى هذا فسر الآية جمهور من المفسرين: قال عبدالرحمن بن سابط: متاع الغرور كزاد الراعي يزود الكف من التمر أو الشيء من الدقيق يشرب عليه اللبن، قال الطبري: ذهب إلى أن متاع الدنيا قليل لا يكفي من تمتع به ولا يبلغه سفره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والغرور في هذا المعنى مستعمل في كلام العرب، ومنه قولهم في المثل: «عش ولا تغش»، أي: لا تجتريء بما لا يكفيك.

وقال عكرمة: «مَتَاعُ الْغُرُورِ»: القوارير، أي: لا بد لها من الانكسار والفساد، فكذاك أمر الحياة الدنيا كله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تشبيه من عكرمة.

وقرأ عبدالله بن عمير «الغُرُورُ» بفتح الغين، وقرأ أبو حيوة والأعمش: «ذائقة» بالتشوين «الموت» بالنصب، وقال النبي ﷺ: «الموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها» ثم تلا هذه الآية؟.

١٨٦ - ١٨٧ تفسير قوله عز وجل:

هذا الخطاب للنبي عليه السلام وأمه، والمعنى: لتختبرن ولتمتحنن في أموالكم بالمصائب والأرزاء، وبالإلفاق في سبيل الله، وفي سائر تكاليف الشرع، والابتلاء في الأنفس بالموت والأمراض، وفقد الأحبة بالموت.

واختلف المفسرون في سبب قوله

تعالى: «وَلَسْتُمْ مِنْ آلِيهِ أُولَئِكَ أَلْتَبِئْتُمْ بِهِمْ» فقال عكرمة وغيره: السبب في ذلك أقوال فنحاص: إن الله فقير ونحن أغنياء، وقوله: «يَدُ اللَّهِ مَتْلُوءَةٌ» إلى غير ذلك. وقال الزهري وغيره: نزلت هذه الآية بسبب كعب بن الأشرف، فإنه كان يهجو النبي ﷺ وأصحابه، ويشبب بنساء المسلمين، حتى بعث إليه رسول الله ﷺ من قتله القتلة المشهورة في السير.

والأذى: اسم جامع في معنى الضرر، وهو هنا

يشمل أقوالهم فيما يخص النبي ﷺ وأصحابه من سبهم وأقوالهم في جهة الله تعالى وأنبيائه. وندب الله تعالى عباده إلى الصبر والتقوى، وأخبر أنه من عزم الأمور، أي من أشدها وأحسنها. والعزم: إمضاء الأمر المرؤى المنقح، وليس ركوب الأمر دون روية عزمًا إلا على مقطع المشيحين من فتاك العرب كما قال: إذا هم ألقى بين عينيه عزمه

ونكب عن ذكر الحوادث جانباً وقال النقاش: العزم والحزم بمعنى واحد، الحاء مبدلة من العين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خطأ. والحزم: جودة النظر في الأمر وتنقيحه والحذر من الخطأ فيه، والعزم: قصد الإمضاء، والله تعالى يقول: «وَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ فِي الْآخِرِ فَإِذَا عَزَمْتَ» فالمشاورة وما كان في معناها

سورة آل عمران

١٨٦

وَلَا تَحْكُمُوا بِهِمْ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرُوا بِهِمْ مِمَّا قَلِيلًا فَيَتَنَبَّهُوا عَلَيْهِمْ وَأَقْبِلُوا أَوْ تَاجِرُوا بِهِمْ إِنَّهُمْ مُكْرِمُونَ ﴿١٨٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُونَ الْفَتْحَ وَيَسْتَخِفُّونَ الْأَرْضَ وَالْأَسْمَاطَ أَنَّ الْأَرْضَ وَالْأَسْمَاطَ لِلَّهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴿١٨٧﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ مُتَبَلِّسٌ فِيمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٨٨﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ مُتَبَلِّسٌ فِيمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٨٩﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ مُتَبَلِّسٌ فِيمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩٠﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ مُتَبَلِّسٌ فِيمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩١﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ مُتَبَلِّسٌ فِيمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩٢﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ مُتَبَلِّسٌ فِيمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ مُتَبَلِّسٌ فِيمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩٤﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ مُتَبَلِّسٌ فِيمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ مُتَبَلِّسٌ فِيمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩٦﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ مُتَبَلِّسٌ فِيمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩٧﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ مُتَبَلِّسٌ فِيمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩٨﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ مُتَبَلِّسٌ فِيمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩٩﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ مُتَبَلِّسٌ فِيمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٠٠﴾

٧٥

هو الحزم، والعرب تقول: قد أحزم ولو أعزم.

وقوله تعالى: «وَلَا تَحْكُمُوا بِهِمْ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرُوا بِهِمْ مِمَّا قَلِيلًا فَيَتَنَبَّهُوا عَلَيْهِمْ وَأَقْبِلُوا أَوْ تَاجِرُوا بِهِمْ»... الآية، توبيخ لمعاصري النبي ﷺ، ثم هو مع ذلك خبر عام لهم ولغيرهم. والعامل في «إِذْ» فعل مقدر تقديره: اذكر، وأخذ هذا الميثاق هو على أسنة الأنبياء أمة بعد أمة. وقال ابن عباس والسدي وابن جريج: الآية في اليهود خاصة، أخذ الله عليهم الميثاق في أمر محمد فكتموه ونبدوه.

قال مسلم البططين: سأل الحجاج بن يوسف جلساءه عن تفسير هذه الآية فقام رجل إلى سعيد بن جبيرة فسأله فقال له: نزلت في يهود، أخذ الميثاق عليهم في أمر محمد فكتموه. وروي عن ابن

عباس أنه قرأ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ فيجيء قوله: ﴿فَتَبَدُّوهُ﴾ عائداً على الناس الذين بيّن الأنبياء لهم. وقال قوم من المفسرين: الآية في اليهود والنصارى. وقال جمهور من العلماء: الآية عامة في كل من علّمه الله علماً، وعلماء هذه الأمة داخلون في هذا الميثاق، وقد قال رسول الله ﷺ: «من سُئِلَ عن علم فكتمه، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» وقد قال أبو هريرة: إني لأحدثكم حديثاً، ولولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه، ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْحِكْمِ﴾.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ ولا يَكْتُمُونَهُ بالياء من أسفل فيهما، وقرأ الباقون عن حفص وعاصم بالتاء من فوق فيهما، وكلا القراءتين متجه، والضمير في الفعلين عائداً على الكتاب. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿لَتُبَيِّنُونَهُ﴾ دون النون الثقيلة، وقد لا تلزم هذه النون لأم القسم، قاله سيبويه. والنبذ: الطرح. وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى أَطْرَاحَهُ﴾ استعارة لما يبالغ في اظهاره، ومنه: ﴿وَأَعْلَنُوهُ وَرَأَى كَمَ ظَهْرِيَّ﴾، ومنه قول الفرزدق:

تَمِيمٌ بِنٌ مَرٌّ لَا تَكُونُنْ حَاجَتِي
بِظَهْرِ فَلَا يَعْبا عَلَيَّ جَوَابُهَا
ومنه بالمعنى قول النبي ﷺ: «لا تجعلوني كقدح الراكب» أراد عليه السلام: لا تجعلوا ذكري وطاعتي خلف أظهركم، وهو موضع

القدح، ومنه قول حسان:

.....

كما نيط خَلْفَ الرَّابِكِ الْقَدْحُ الْفَرْدُ
والتشبيه بالقدح إنما هو في هيئته لا في معناه، لأن الراكب يحتاجه، ومحلّه من محلات الراكب جليل. والضمن القليل: هو مكسب الدنيا. وباقي الآية بيّن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر في هذه الآية أنها نزلت في اليهود، وهم المعينون، ثم إن كل كاتم من هذه الأمة يأخذ بحظه من هذه المذمة ويتصف بها.

﴿١٨٩﴾ - ﴿١٩٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المفسرون في المراد بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾؛ فقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وابن زيد وجماعة: الآية نزلت في المنافقين، وذلك أنهم كانوا إذا خرج النبي ﷺ للفرز تخلفوا عنه، فإذا جاء اعتذروا إليه وقالوا: كانت لنا أشغال ونحو هذا، فيظهر رسول الله ﷺ القبول ويستغفر لهم، ففضحهم الله تعالى بهذه الآية، فكانوا يفرحون بما يأتونه ويفعلونه من التخلف والاعتذار، ويحبون أن يقال لهم: إنهم في حكم المجاهدين، لكن العذر جسيم.

وقالت جماعة كثيرة من المفسرين: إنما نزلت الآية في أهل الكتاب أحرار اليهود، ثم اختلفوا فيما هو الذي أتوه وكيف أحبوا المحمّدة؟ فقال ابن عباس رضي الله عنه: أتوا إضلال أتباعهم عن الإيمان بمحمد، وفرحوا بذلك لدوام رياستهم الدنيوية، وأحبوا أن يقال عنهم:

إنهم علماء بكتاب الله ومتقدم رسالاته. وقال ابن عباس أيضاً والضحاك السدي: أتوا أنهم تعافدوا وتكاتبوا من كل قطر بالارتباط إلى تكذيب محمد ﷺ والدفع في صدر نبوته، وأحبوا أن يقال عنهم: إنهم أهل صلاة وصيام وعبادة، وقالوا هم ذلك عن أنفسهم. وقال مجاهد: فرحوا بإعجاب أتباعهم بتبديلهم تأويل التوراة، وأحبوا حمدهم إياهم على ذلك، وهم في الحقيقة لم يفعلوا شيئاً نافعاً ولا صحيحاً بل الحق أبلج.

وقال سعيد بن جبیر: الآية في اليهود، فرحوا بما أعطى الله آل إبراهيم من النبوة والكتاب، فهم يقولون: نحن على طريقهم، ويحبون أن يحمّدوا بذلك وهم ليسوا على طريقهم. وقراءة سعيد بن جبیر: ﴿أَوْتُوا﴾ بمعنى أعطوا بضم الهمزة والتاء، وعلى قراءته يستقيم المعنى الذي قال.

وقال ابن عباس أيضاً: إن الآية نزلت في قوم سألهم النبي عليه السلام عن شيء فكتموه الحق وقالوا له غير ذلك، وفرحوا بما فعلوا وأحبوا أن يحمّدوا بما أجابوا، وظنوا أن ذلك قد قنع به واعتقدت صحته.

وقال قتادة: إن الآية في يهود خيبر، نافقوا على النبي ﷺ والمؤمنين مرة، وقالوا: نحن معكم وعلى رأيكم ورد لك، وهم يعتقدون خلاف ذلك، فأحبوا الحمد على ما أظهروا وفرحوا بذلك.

وقال الزجاج: نزلت الآية في قوم من اليهود، دخلوا على النبي ﷺ

وكلموه في أشياء ثم خرجوا، فقالوا لمن لقوا من المسلمين: إن النبي أخبرهم بأشياء قد عرفوها فحمدهم المسلمون على ذلك وطعموا بإسلامهم، وكانوا قد أبطنوا خلاف ما أظهروا للمسلمين وتمادوا على كفرهم، فنزلت الآية فيهم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَوْتُوا﴾ بمعنى فعلوا، كما تقول أتيث أمر كذا، وقرأ مروان بن الحكم وإبراهيم النخعي: ﴿آتُوا﴾ بالمد، بمعنى: أعطوا بفتح الهمزة والطاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي قراءة تستقيم على بعض المعاني التي تقدمت.

وقرأ سعيد بن جبير وأبو عبد الرحمن السلمي: ﴿أَوْتُوا﴾ بمعنى أعطوا، وقد تقدمت مع معناها. وقرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿لَا يَخْسِبُنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ ﴿فَلَا يَخْسِبُهُمْ﴾ بالياء من تحت فيهما وبكسر السين ويرفع الباء في (يخسبُهُم) قال أبو علي: ﴿الَّذِينَ﴾ رفع بأنه فاعل (يخسب)، ولم تقع (يخسبن) على شيء، وقد تجيء هذه الأفعال لغواً لا في حكم الجمل المفيدة نحو قول الشاعر:

وما خلث أبقي بيننا من موذٍ
عراض المذاكي المُسَيِّفَاتِ القَلَايِصَا
وقال الخليل: العرب تقول: ما رأيته يقول ذاك إلا زيد، وما ظننته يقول ذلك إلا زيد، فنتجه القراءة بكون قوله: ﴿فَلَا يَخْسِبُهُمْ﴾ بدلاً من الأول، وقد عدي إلى مفعوليه وهما: الضمير وقوله: ﴿يَمَّا زَكَّرَ﴾ فاستغنى بذلك عن تعدية الأول

إليهما كما استغنى في قول الشاعر: بأي كتاب أو بأية سنة ترى حبهيم عاراً علي وتحسب؟

فاستغنى بتعدية أحد الفعلين عن تعدية الآخر. والفاء في قوله: ﴿فَلَا يَخْسِبُهُمْ﴾ زائدة، ولذلك حسن البديل، إذ لا يتمكن أن تكون فاء عطف ولا فاء جزاء، فلم يبق إلا أن تكون زائدة لا يقبح وجودها بين البديل والمبدل منه، وقوله على هذه القراءة: ﴿فَلَا يَخْسِبُهُمْ﴾ فيه تعدى فعل الفاعل إلى ضمير نفسه، نحو: ظننتني أخاه، ورأيتني الليلة عند الكعبة، ووجدتني وجعت من الإصغاء، وذلك أن هذه الأفعال وما كان في معناها لما كانت تدخل على الابتداء والخبر أشبهت إن وأخواتها، فكما تقول: إني ذاهب، فكذلك تقول: ظننتني ذاهباً، ولو قلت: أظن نفسي أفعل كذا لم يحسن كما يحسن: أظنتني فاعلاً.

وقرأ نافع وابن عامر: ﴿لَا يَخْسِبُنَّ الَّذِينَ﴾ بالياء من تحت وفتح الباء، وكسر نافع السين وفتحها ابن عامر. ﴿فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ﴾ بالياء من فوق وفتح الباء، والمفعولان اللذان يقتضيهما قوله: ﴿لَا يَحْسِبُنَّ الَّذِينَ﴾ محذوفان لدلالة ما ذكر بعده، والكلام في ذلك كما تقدم في قراءة ابن كثير، إلا أنه لا يجوز في هذا البديل الذي ذكر في قراءة ابن كثير وأبي عمرو لاختلاف الفعلين واختلاف فعليهما. وقرأ حمزة: ﴿لَا تَخْسِبُنَّ﴾ بالياء من فوق وكسر السين، ﴿فَلَا تَخْسِبْنَهُمْ﴾ بالياء من فوق وكسر السين وفتح الباء، ف﴿الَّذِينَ﴾ على هذه القراءة -

مفعول أول ﴿تَخْسِبُنَّ﴾، والمفعول الثاني محذوف لدلالة ما يجيء بعد عليه، كما قيل آنفاً في المفعولين. وحسن تكرار الفعل في قوله: ﴿فَلَا تَخْسِبْنَهُمْ﴾ لطول الكلام، وهي عادة العرب وذلك تقريب لذهن المخاطب. وقرأ الضحاك بن مزاحم: ﴿فَلَا تَخْسِبْنَهُمْ﴾ بالياء من فوق وفتح السين وضم الباء.

والمفازة: مَفْعَلَةٌ من فاز يفوز إذا نجا فهي بمعنى منجاة، وسمي موضع المخاف مفازة على جهة التفاضل، قاله الأصمعي، وقيل: لأنها موضع تفويض ومظنة هلاك، تقول العرب: فوز الرجل إذا مات، قال ثعلب: حكيت لابن الأعرابي قول الأصمعي فقال: أخطأ، قال لي أبو المكارم: إنما سميت مفازة لأن من قطعها فاز، وقال الأصمعي: سمي اللديغ سليماً تفاؤلاً، قال ابن الأعرابي: بل لأنه مستسلم لما أصابه.

وبعد أن نهى أن يحسبوا ناجين أخبر أن لهم عذاباً، ثم استفتح القول بذكر قدرة الله تعالى وملكه فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية، قال بعض المفسرين: الآية رد على الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَفِرَّ وَنَحْنُ أَفْزَيْنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قال القاضي ابن الطيب وغيره: ظاهره العموم ومعناه الخصوص؛ لأن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على المحالات، و(شيء) هو الموجود في مقتضى كلام العرب.

ثم دلّ تعالى على مواضع النظر والعبرة، حيث يقع الاستدلال على الصانع بوجود السموات والأرضين، والمخلوقات دال على العلم، ومحال أن يكون موجود عالم مريد غير حي، فثبت بالنظر في هذه الآية عظم الصفات.

﴿وَخَلَقْنَاهُ أَلَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾: هو تعاقبهما، إذ جعلهما الله خلفه، ويدخل تحت لفظة الاختلاف: كونهما يقصر هذا ويطول الآخر وبالعكس، ويدخل في ذلك اختلافهما بالنور والظلام. والآيات: العلامات. و﴿الْأَلْبَسَ﴾ في هذه الآية: هي ألباب التكليف لا ألباب التجربة، لأن كل من له علوم ضرورية يدركها فإنه يعلم ضرورة ما قلناه من صفات الله تعالى.

﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خفض صفة ﴿لِأُولِي الْأَلْبَسِ﴾، وهذا وصف ظاهره استعمال التحميد والتهليل والتكبير ونحوه من ذكر الله، وأن يحصر القلب اللسان، وذلك من أعظم وجوه العبادات، والأحاديث في ذلك كثيرة. وابن آدم منتقل في هذه الثلاث الهيات لا يخلو في غالب أمره منها فكانها تحصر زمنه، وكذلك جرت عاتشة رضي الله عنها إلى حصر الزمن في قولها: كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه، فدخل في ذلك كونه على الخلاء وغير ذلك.

وذهب جماعة من المفسرين إلى أن قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ إنما هو عبارة عن الصلاة، أي: لا

يضيعونها، ففي حال العذر يصلونها قعوداً وعلى جنوبهم، قال بعضهم: وهي كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ...﴾ الآية، هذا على تأويل من تأول هنالك: ﴿قَضَيْتُمُ﴾ بمعنى: أدبتم، لأن بعض الناس يقول: ﴿قَضَيْتُمُ﴾ هنالك بمعنى: فرغتم منها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإذا كانت هذه الآية في الصلاة ففقهها أن الإنسان يصلي قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، ظاهر المدونة متربعا. وروي عن مالك وبعض أصحابه أنه يصلي كما يجلس بين السجدين، فإن لم يستطع القعود صلى على جنبه أو ظهره على التخيير، هذا مذهب المدونة. وحكى ابن حبيب عن ابن القاسم: يصلي على ظهره فإن لم يستطع فعلى جنبه الأيمن، ثم على الأيسر. وفي كتاب ابن المواز: يصلي على جنبه الأيمن، وإلا فعلى الأيسر، وإلا فعلى الظهر. وقال سحنون: يصلي على الأيمن كما يجعل في لحدّه، وإلا فعلى ظهره، وإلا فعلى الأيسر.

وحسن عطف قوله: ﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ على قوله: ﴿وَيَسْمَعُوا وَتُعْذِرُوا﴾ لأنه في معنى مضطجعين. ثم عطف على هذه العبادة التي هي ذكر الله باللسان أو الصلاة فرضها ومندوبها بعبادة أخرى عظيمة، وهي الفكرة في قدرة الله تعالى ومخلوقاته، والعبر التي بث:

وفى كل شيء له آية تذلّ على أنه واحد

ومزّ النبي ﷺ على قوم يتفكرون في الله فقال: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره، وهذا هو قصد الآية ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقد قال بعض العلماء: المتفكر في ذات الله تعالى كالناظر في عين الشمس، لأنه تعالى ليس كمثله شيء، وإنما التفكير وانسباط الذهن في المخلوقات، وفي مخاوف الآخرة. قال رسول الله ﷺ: «لا عبادة كتفكير» وقال الحسن بن أبي الحسن: الفكرة مرآة المؤمن، ينظر فيها إلى حسناته وسيئاته. وقال ابن عباس وأبو الدرداء: فكرة ساعة خير من قيام ليلة. وقال سري السقطي: فكرة ساعة خير من عبادة سنة، ما هو إلا أن تحل أطناب خيمنتك فتجعلها في الآخرة. وأخذ أبو سليمان الداراني قدح الماء ليتوضأ لصلاة الليل وعنده ضيف، فرآه لما أدخل إصبعه في أذن القدح أقام كذلك مفكراً حتى طلع الفجر، فقال له: ما هذا يا أبا سليمان؟ فقال: إني لما طرحت إصبعي في أذن القدح تذكرت قول الله جلّ وتعالى: ﴿إِذْ الْأَغْلَظُ فِي أَصْنَفِهِمْ وَالْكَاسِلُ﴾ ففكرت في حالي، وكيف أنلقى الغل إن طرح في عني يوم القيامة، فما زلت في ذلك حتى أصبحت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه نهاية الخوف، وخير الأمور أوساطها. وليس علماء الأمة الذين هم الحجة على هذا المنهاج، وقراءة علم كتاب الله ومعاني سنة رسول الله ﷺ لمن يفهم ويرجي

نفعه أفضل من هذا، لكن يحسن ألا تخلو البلاد من مثل هذا.

وحدثني أبي رضي الله عنه عن بعض علماء المشرق قال: كنت باثناً في مسجد الإقدام بمصر، فصليت العتمة فرأيت رجلاً قد اضطجع في كساء له مسجى بكسائه حتى أصبح، وصلينا نحن تلك الليلة وسهرنا، فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة فصلى مع الناس، فاستعظمت جراته في الصلاة بغير وضوء، فلما فرغت الصلاة خرج فتبعته لأعظه، فلما دنوت منه سمعته يشند:

منسحق الجسم غائب حاضر
منتبئ القلب صامت ذاكز
منقبض في الغيوب منبسط
كذلك من كان عارفاً ذاكراً
يببئ في ليله أخاف فكر
فهو مدى الليل قائم ساهر
قال: فعلمت أنه ممن يعبد بالفكرة وانصرفت عنه.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ معناه: يقولون: ربنا على النداء، ﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾، يريد لغير غاية منصوبة؛ بل خلقته وخلقت البشر لينظر فيه فتَوَخَّدَ وتعبد، فمن فعل ذلك نَعَمْتَهُ ومن ضلَّ عن ذلك عُدْبَتَهُ لكفره وقوليه عليك ما لا يليق بك. ولهذا المعنى الذي تعطيه قوة اللفظ حسن قولهم: ﴿سُبْحَنَكَ﴾، أي تنزيهاً لك عما يقول المبطلون. وحسن قولهم: ﴿فَبَيْنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ إذ نحن المسبحون المنزهون لك الموحدون. وقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ استجارة

واستعاذة، أي: فلا تفعل بنا ذلك، ولا تجعلنا ممن يعمل عملها. والخزي: الفضيحة المخجلة الهادمة لقدر المرء، خَزِيَ الرجل يخزي خزيًا إذا افتضح، وخزاية إذا استحيى، الفعل واحد والمصدر مختلف.

وقال أنس بن مالك والحسن بن أبي الحسن وابن جريج وغيرهم: وهذه إشارة إلى من يخلد في النار، ومن يخرج منها بالشفاعة والإيمان فليس بمخزي. وقال جابر بن عبد الله وغيره: كل من دخل النار فهو مخزي وإن خرج منها، وإن في دون ذلك لخزياً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أما إنه خزي دون خزي، وليس خزي من يخرج منها بفضيحة هادمة لقدره، وإنما الخزي التام للكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ﴾ هو من قول الداعين، وبذلك يتسق وصف الآية.

﴿١٩٣﴾ - ﴿١٩٤﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآيات حكاية عن أولي الألباب أنهم يقولون: ربنا ربنا. قال أبو الدرداء: يرحم الله المؤمنين ما زالوا يقولون: ربنا ربنا حتى استجيب لهم.

واختلف المتأولون في المنادي، فقال ابن جريج وابن زيد وغيرهما: المنادي محمد ﷺ، وقال محمد بن كعب القرظي: المنادي كتاب الله وليس كلهم رأى النبي ﷺ وسمعه. ولما كانت ﴿يُنَادِي﴾ بمنزلة يدعو،

حسن وصولها باللام بمعنى إلى الإيمان.

وقوله: ﴿أَن مَّائِثًا﴾ ﴿أَن﴾ مفسرة لا موضع لها من الإعراب. وغفران الذنوب وتكفير السيئات أمر قريب بعضه من بعض، لكنه كرر للتأكيد، ولأنها مناج من الستر، وإزالة حكم الذنب بعد حصوله، و﴿الْأَبْرَارِ﴾ جمع بَرٍّ، أصله: برر على وزن فعل، أدغمت الراء في الراء، وقيل: هو جمع باز كصاحب وأصحاب، والمعنى: توفنا معهم في كل أحكامهم وأفعالهم.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَهَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ معناه: على السنة رسلك، وقرأ الأعمش: ﴿رُسُلِكَ﴾ بسكون السين. وطلبوا من الله تعالى إنجاز الوعد، وهو تعالى من لا يجوز عليه خلفه من حيث في طلبه الرغبة أن يكونوا ممن يستحقه، فالطلبية والتخوف إنما هو في جهنم لا في جهة الله تعالى، لأن هذا الدعاء إنما هو في الدنيا، فمعنى قول المرء: اللهم أنجز لي وعدك، إنما معناه: اجعلني ممن يستحق إنجاز الوعد، وقيل: معنى دعائهم الاستعجال مع ثقتهم بأن الوعد منجز. وقال الطبري وغيره: معنى الآية ما وعدتنا على السنة رسلك من النصر على الأعداء فكان الدعوة إنما هي في حكم الدنيا.

وقولهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، فهذا وعده تعالى وهو دال على أن الخزي إنما هو مع الخلود.

فقال له رسول الله ﷺ: «أنت طردتني كل مطرد؟ إنكاراً عليه. ومن ذلك قول كعب بن زهير:

في عصبية من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كُشِفَ

عند اللقاء ولا يميل معازيلُ
وقرأ نافع وعاصم وأبو عمرو:
﴿وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ بتخفيف التاء وضم
القاف، ومعنى هذه القراءة بين، وقرأ
ابن كثير: ﴿وَوَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا﴾ بتشديد
التاء وهي في المعنى كالأولى في
المبالغة في القتل، وقرأ حمزة
والكسائي: ﴿وَوَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا﴾ بيدان
بالفعل المبني للمفعول به، وكذلك
اختلافهم في سورة التوبة، غير أن
ابن كثير وابن عامر يشددان في
التوبة.

ومعنى قراءة حمزة هذه: ألا تعطي
الوَأَرْتَبَةَ لأن المعطوف بالواو يجوز
أن يكون أولاً في المعنى، وليس
كذلك العطف بالفاء، ويجوز أن
يكون المعنى: وقتلوا وقتل باقيهم،
فتشبه الآية قوله تعالى: ﴿تَوَّابًا وَكَفَّارًا﴾
﴿لَا يَأْتِيهِمْ﴾ على تأويل من رأى أن
القتل وقع بالربيعين.

وقرأ عمر بن عبد العزيز
رضي الله عنه: ﴿وَوَقَاتِلُوا﴾ بفتح
القاف والتاء من غير ألف،
﴿وَوَقَاتِلُوا﴾ بضم القاف وكسر التاء
خفيفة، وهي قراءة حسنة المعنى
مستوفية للفضلين على الترتيب
المتعارف. وقرأ محارب بن دثار:
﴿وَوَقَاتِلُوا﴾ بفتح القاف ﴿وَوَقَاتِلُوا﴾،
وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿وَقَاتِلُوا﴾
بضم القاف وشد التاء ﴿وَوَقَاتِلُوا﴾،

وقوله: ﴿بَيْنَ ذَكْرٍ﴾ تبين
لجنس العامل، وقال
قوم: ﴿مِنْ﴾ زائدة لتقدم
النفي من الكلام.

وقوله تعالى: ﴿بِمَقْعَدِمْ﴾
مِنْ بَعْضٍ يعني في الأجر
وتقبل العمل، أي: أن
الرجال والنساء في ذلك
على حد واحد. ويبين
تعالى حال المهاجرين،
ثم الآية بعد تنسحب على
كل من أودى في الله
تعالى، ومهاجر أيضاً
إلى الله تعالى، وإن كان
اسم الهجرة وفضلها
الخاص بها قد انقطع بعد
الفتح فالمعنى باق إلى يوم
القيامة، وذلك أن الذي يهجر وطنه
وقرأته في الله كان الوطن والقرابة
يهجرونه أيضاً فهي مهاجرة.

وقوله تالي: ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾
عبارة إلزام ذنب للكفار، وذلك أن
المهاجرين إنما أخرجهم سوء العشرة
وقبيح الأفعال فخرجوا باختيارهم،
فإذا جاء الكلام في مضمار إلزام
الذنب للكفار قيل: ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾
﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ إلى غير ذلك من الأمثلة.
وإذا جاء الكلام في مضمار الفخر
والقوة على الأعداء تمسك بالوجه
الآخر من أنهم خرجوا برأيهم، فمن
ذلك إنكار النبي ﷺ على أبي
سفيان بن الحارث حين أنشده:

..... ورذني

إلى الله من طردت كل مطرد

فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَيْ لَا أَرْضِعُ عَمَلَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ
ذِكْرٍ أَوْ أَنْتُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَلَّيْنِ هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّتُ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ وَأَبَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾
لَا يَغْرِبُ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتُ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
نَزَّلْنَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنْ مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا
أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْفَعُونَ بِعِبَادِهِ اللَّهُ ثَمَنًا
قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبَرُوا
وَصَابَرُوا وَرَاطَبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

﴿١٩٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿استجاب﴾ استفعل بمعنى
أجاب، فليس استفعل على باب
من طلب الشيء بل هو كما قال
الشاعر:

وداع دعا يا مَنْ يجيبُ إلى الندى
فلم يستجبه عند ذلك مجيب
أي لم يجبه. وقوله: ﴿أَنْ﴾ يجوز
أن تكون «أن» مفسرة، ويمكن أن
تكون بمعنى (أي)، وقرأ عيسى بن
عمر: ﴿إِنِّي﴾ بكسرة الهمزة. وهذه
آية وعد من الله تعالى، أي: هذا
فعله مع الذين يتصفون بما ذكر.
وروي أن أم سلمة رضي الله عنها
قالت: يا رسول الله، قد ذكر الله
تعالى الرجال في الهجرة ولم يذكر
النساء في شيء من ذلك، فنزلت
الآية، ونزلت آيات في معناها فيها
ذكر النساء.

وهذه يدخلها إما رفض رتبة الواو، وإما أنه قاتل من بقي. واللام في قوله: ﴿لَا تُكْفِرَنَّ﴾ لام القسم. و﴿تَوَّابًا﴾ مصدر مؤكد مثل قوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ و﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾. وباقى الآية يَبْنِ.

﴿١٩٦﴾ - ﴿١٩٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

نزلت ﴿لَا يَغْرَنَك﴾ في هذه الآية منزلة: لا تظن أن حال الكفار حسنة فتتهم لذلك، وذلك أن المغتر فارخ بالشئ الذي يغتر به، فالكفار مغترون بتقلبهم، والمؤمنون مهتمون به، لكنه ربما يقع في نفس مؤمن أن هذا الإملاء للكفار إنما هو لخير لهم، فيجيء هذا جنوحاً إلى حالهم ونوعاً من الاغترار فلذلك حسنت ﴿لَا يَغْرَنَك﴾. ونظيره قول عمر لحفصة: لا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى رسول الله ﷺ، المعنى: لا تغتري بما يتم لتلك من الإدلال فتقعي فيه فيطلقك النبي ﷺ. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته، وللکفار في ذلك حظ، أي: لا يغرنهم تقلبهم.

وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب: ﴿لَا يَغْرَنُكَ﴾ بسكون النون خفيفة، وكذلك ﴿لَا يُصَدِّنُكَ﴾ و﴿لَا يُصَدِّنُكُمْ﴾ و﴿لَا يَضُرُّنَّكُمْ﴾، وشبهه.

والتقلب: التصرف في التجارات والأرباح والحروب وسائر الآمال. ثم أخبر تعالى عن قلة ذلك المتاع، لأنه منقضى سائر إلى ذل وقُلْ وعذاب.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿لَكِرُنَّ الَّذِينَ﴾ بشد النون، وعلى أن (الذين) في موضوع نصب اسماً (للكرن).

و﴿تَزَلَّ﴾: معناه تكرمة ونصبه على المصدر المؤكد. وقرأ الحسن و﴿تَزَلَّ﴾ ساكنة الزاي.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ﴾ يحتمل أن يريد: خير مما هؤلاء فيه من التقلب والتنعم، ويحتمل أن يريد: خير مما هم فيه في الدنيا. وإلى هذا ذهب ابن مسعود، فإنه قال: ما من مؤمن ولا كافر إلا والموت خير له، أما الكافر فلتلا يزداد إثماً، وأما المؤمن فلأن ما عند الله خير للأبرار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». فقال القاضي ابن الطيب: هذا إنما هو بالإضافة إلى ما يصير إليه كل واحد منهما في الآخرة، فالدنيا على المؤمن المنعم سجن بالإضافة إلى الجنة، والدنيا للكافر الفقير المضيق عليه في حاله وصحته جنة بالإضافة إلى جهنم. وقيل: المعنى أنها سجن المؤمن لأنها موضع تعبها في الطاعات وصومه وقيامه، فهو فيها كالمتعنت المنكل، ويتنظر الثواب في الأخرى التي هي جنته؛ والدنيا جنة الكافر لأنها موضع ثوابه على ما عسى أن يعمل من خير، وليس ينتظر في الآخرة ثواباً، فهذه جنته، وهذا القول عندي كال تفسير والشرح للأول.

﴿١٩٦﴾ - ﴿١٩٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون فيمن عني بهذه الآية؛ فقال جابر بن عبد الله وابن جريج وقتادة وغيرهم: نزلت بسبب أصحمة النجاشي سلطان الحبشة، وذلك أنه كان مؤمناً بالله وبمحمد ﷺ، فلما مات عرف بذلك رسول الله ﷺ في ذلك اليوم، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أخرجوا فصلوا على أخ لكم» فصلّى عليه رسول الله ﷺ بالناس، فكبر أربعاً. وفي بعض الحديث: أنه كشف لرسول الله ﷺ عن نعشه في الساعة التي قرب منها للدفن، فكان يراه من موضعه بالمدينة، فلما صلى عليه النبي ﷺ قال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علع نصراني لم يره قط، فنزلت هذه الآية. وكان أصحمة النجاشي نصرانياً، وأصحمة تفسيره بالعربية: عطية، قاله سفيان بن عيينة وغيره. وروي أن المنافقين قالوا بعد ذلك: فإنه لم يصل للقبلة فنزلت: ﴿وَلِلَّهِ الشَّرِيفُ وَالْقَرِيبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. وقال قوم: نزلت في عبد الله بن سلام، وقال ابن زيد ومجاهد: نزلت في جميع من آمن من أهل الكتاب.

و﴿خَشِيعِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿تَوَّابِينَ﴾، وورد ﴿خَشِيعِينَ﴾ على المعنى في ﴿مِنْ﴾ لأنه جمع، لا على لفظ ﴿مِنْ﴾ لأنه أفراد.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَشْكُرُونَ يَتَابَتِ اللَّهُ تَمَنَّا قَلِيلًا﴾ مدح لهم وذم لسائر كفار أهل الكتاب لتبديلهم

بأهلهم الذين يعتمرون ويكتسبون هنالك، فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمراطين.

وقوله: ﴿لَقَدْ تَلَّحُّونَ﴾ ترجّ في حقّ البشر.

كمل تفسير سورة آل عمران والحمد لله على ذلك كثيراً

(٤) تفسير سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

هذه السورة مدنية إلا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن طلحة وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قال النقاش: وقيل: نزلت السورة عند هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد قال بعض الناس: إن قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ حيث وقع إنما هو مكى، فيشبه أن يكون صدر هذه السورة مكياً، وما نزل بعد الهجرة فإنما هو مدني وإن نزل في مكة أو في سفر من أسفار النبي عليه السلام، وقال النحاس: هذه السورة مكية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا خلاف أن فيها ما نزل بالمدينة، وفي البخاري: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾، ذكرها في تفسير سورة

عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾... الآية.

وقال أبو سلمة بن عبدالرحمن: هذه الآية في انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن في زمن رسول الله ﷺ غزو يرباط فيه، واحتج بحديث علي بن أبي طالب وجابر بن عبدالله وأبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يحطّ الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الصحيح هو أن الرباط هو الملازمة في سبيل الله، أصلها من ربط الخيل، ثم سمي كل ملازم لثغر من ثغور الإسلام مرابطاً، فارساً كان أو راجلاً، واللفظة مأخوذة من الربط، قول النبي ﷺ: «فذلكم الرباط»، إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله، إذ انتظار الصلاة إنما هو سبيل من السبل المنجية، والرباط اللغوي هو الأول، وهذا كقوله: «ليس الشديد بالصرعة» وكقوله: «ليس المسكين بهذا الطواف» إلى غير ذلك من الأمثلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمرابط في سبيل الله عند الفقهاء هو الذي يشخص إلى ثغر من الثغور ليرابط مدة ما، قاله ابن المراز ورواه. فأما سكان الثغور دائماً

وإيثارهم كسب الدنيا الذي هو ثمن قليل على آخرتهم وعلى آيات الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قيل: معناه: سريع الإتيان بيوم القيامة، وهو يوم الحساب، فالحساب إذاً سريع، إذ كل آت قريب. وقال قوم: سريع الحساب أي: إحصاء أعمال العباد وأجورهم وأنامهم، إذ ذلك كله في عمله لا يحتاج فيه إلى عدّ وروية ونظر، كما يحتاج البشر.

ثم ختم الله تعالى السورة بهذه الوصية التي جمعت الظهور في الدنيا على الأعداء، والفوز بنعيم الآخرة، فحفض على الصبر على الطاعات وعن الشهوات، وأمر بالمصابرة فقيل: معناه: مصابرة الأعداء، قاله زيد بن أسلم. وقيل: معناه: مصابرة وعد الله في النصر، قاله محمد بن كعب القرظي، أي: لا تساموا وانتظروا الفرج، وقد قال رسول الله ﷺ: «انتظار الفرج بالصبر عبادة».

وكذلك اختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿وَرَابِطُوا﴾؛ فقال جمهور الأمة: معناه: رابطوا أعداءكم الخيل، أي: ارتبطوها كما يرتبطها أعداؤكم، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾... الآية.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة، وقد كتب إليه يذكر جموع الروم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما نزل بعبد مؤمن شدة، جعل الله بعدها فرجاً، ولن يغلب

ضلع، فإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها قال بعضهم: معنى ﴿مِنْهَا﴾: مِنْ جِنْسِهَا، واللفظ يتناول المعنيين، أو يكون لحمها وجواهرها من ضلعه، ونفسها من جنس نفسه.

﴿وَبَيْنَ﴾ معناه: نشر، كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّ الْفَرَاشَ﴾ أي: المتشتر. وحصره ذريتها إلى نوعين: الرجال والنساء مقتض أن الخنثى ليس بنوع، وأنه وإن فرضناه مشكل الظاهر عندنا، فله

حقيقة ترده إلى أحد هذين النوعين. وفي تكرار الأمر بالاتقاء تأكيد وتنبيه لنفوس المأمورين.

﴿الَّذِي﴾ في موضع نصب على النعت، و﴿نَسَاءُ لَوْ﴾ معناه: تتعاطفون به، فيقول أحدهم: أسألك بالله أن تفعل كذا، وما أشبهه؛ وقالت طائفة: معناه: تتسألون به حقوقكم وتجعلونه مقطوعاً لها، وأصله: تتسألون، فأبدلت التاء الثانية سيناً وأدغمت في السين، وهذه قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو، بخلاف عنه. وقرأ الباقيون: ﴿نَسَاءُ لَوْ﴾ بسين مخففة، وذلك لأنهم حذفوا التاء الثانية تخفيفاً، فهذه تاء تتفاعلون تدغم في لغة وتحذف في أخرى لاجتماع حروف متقاربة. قال أبو علي: وإذا اجتمعت المتقاربة خففت بالحذف والإدغام والإبدال كما قالوا: طَسْتُ، فأبدلوا

«براءة» من رواية البراء بن عازب. وفي البخاري عن عائشة أنها قالت: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ، تعني قد بنى بها. ﴿نَفْسِ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾

﴿يَا﴾ حرف نداء، و﴿أَيُّ﴾ منادى مفرد، و﴿هَآ﴾ تنبيه، و﴿الَّذِي﴾ نعت لأي، أو صلة على مذهب أبي الحسن الأخفش. والرُّبُّ: المالك. وفي الآية تنبيه على الصانع وعلى افتتاح الوجود، وفيها حض على التواصل لحرمة هذا النسب وإن بعد، وقال: ﴿وَيَذَرُ﴾ على تأنيث لفظ النفس، وهذا كقول الشاعر:

أبوك خليفة ولدته أخرى
وأنت خليفة ذاك الكمال

وقرأ ابن أبي عبله: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدٍ﴾ بغير هاء، وهذا على مراعاة المعنى، إذ المراد بالنفس: آدم ﷺ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما.

والخلق في الآية: بمعنى الاختراع، ويعني بقوله: ﴿وَرَوْحَهَا﴾ حواء، والزوج في كلام العرب: امرأة الرجل، ويقال زوجة، ومنه بيت أبي فراس:

وإن الذي يسعى ليُفسد زوجتي
كساعٍ إلى أسدٍ شرٍ يستبيلها
وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ قال ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة: إن الله تعالى خلق آدم وحشاً في الجنة وحده، ثم نام فانتزع الله أحد أضلاعه الفُصْطِرَى من شماله، وقيل: من يمينه، فخلق منه حواء، ويعضد هذا القول الحديث الصحيح في قوله عليه السلام: «إن المرأة خلقت من

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهُ وَكَثَّرَ مِنْهَا رِجَالًا وَنِسَاءً وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَأَوَلَيْتُمْ أَزْوَاجَكُمْ وَلَاحِقَ الْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ نَقِيبًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي النِّسَاءِ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنْ وَكَلْتُمْ وَلَكُمْ فِي خِفَتِمْ أَلا تَعْلَمُوا فَوَاحِشَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا ﴿٣﴾ وَأَوَلَيْتُمْ النِّسَاءَ صَدَقْتِهِنَّ ذَهَبًا فَإِنْ طَلَبَ لَكُمْ مِنْ عَن يَدَيْهِنَّ تَفَسَّاهُنَّ فَكُلُوهُنَّ حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا تُؤْثِرُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ إِلَىٰ جِئْتُمُ اللَّهَ لَكُمْ فِيمَا أَرَزْتُمُوهُنَّ فِيهَا وَأَكْسُمُوهُنَّ وَقُولُوا لَهُنَّ مَعْرُوفًا ﴿٤﴾ وَأَوَلَيْتُمُ النِّسَاءَ حُورًا إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنَّهُنَّ مِنْكُمْ نِسَاءً فَاذْهَبُوا إِلَىٰهِنَّ أَمْوَالَهُنَّ وَلَا تَكُونُوا إِسْرَافًا زِدُوا أَنْ يَكُونُوا وَمَنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَيْسَ بِمُعْرُوفٍ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِنَّ أَمْوَالَهُنَّ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ وَكُنَّ بِأَلْسِنَةٍ حَسِينَا ﴿٥﴾

من السين الواحدة تاء، إذ الأصل طس، قال العجاج:

لَوْ عَرَضْتُ لِأَيُّبُ لِي قَسْرٌ
أَشَعْتُ فِي هَيْكَلِهِ مُنْدَسْرٌ
حَنْ إِلَيْهَا كَحْنِينَ الطُّسْ
وقرأ ابن مسعود: ﴿تَسْلُون﴾ خفيفة بغير ألف، ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ نصب على العطف على موضع ﴿بِهِ﴾، لأن موضع نصب، والأظهر أنه نُصِبَ بإضمار فعل تقديره: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وهذه قراءة السبعة إلا حمزة، وعليها فسر ابن عباس وغيره. وقرأ عبدالله بن يزيد ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالرفع، وذلك على الابتداء والخبر مقدر، تقديره: والأرحام أهل أن توصل، وقرأ حمزة وجماعة من العلماء: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالخفض عطفاً على الضمير، والمعنى عندهم: إنها يتساءل بها كما

يقول الرجل: أسألك بالله وبالحرم، هكذا فسرها الحسن وإبراهيم النخعي ومجاهد. وهذه القراءة عند رؤساء نحويي البصرة لا تجوز، لأنه لا يجوز عندهم أن يعطفَ ظاهرٌ على مضمَرٍ مخفوض، قال الزجاج عن المازني: لأن المعطوف والمعطوف عليه شريكان يحلُّ كلُّ منهما محلَّ صاحبه، فكما لا يجوز: مررت بزيد وبك، فكذلك لا يجوز مررت بك وزيد. وأما سيبويه فهي عنده قبيحة لا تجوز إلا في الشعر، كما قال: فالיום قد بثَّ تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والأيام من عجب وكما قال:

نَعَلْتُ في مثلِ السواري سِيوفَنَا
وما بينها والكعبِ غَوَظُ نَفَائِفُ
واستسهلها بعض النحويين، قال أبو علي: ذلك ضعيف في القياس. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: المضمَر المخفوض لا ينفصل فهو كحرف من الكلمة، ولا يعطف على حرف، ويردُّ عندي هذه القراءة من المعنى وجهان:

أحدهما: أن ذكر (الأرحام) فيما يتساءل به لا معنى له في الحضر على تقوى الله، ولا فائدة فيه أكثر من الإخبار بأن الأرحام يتساءل بها، وهذا تفرق في معنى الكلام وغضُّ من فصاحته، وإنما الفصاحة في أن يكون لِذِكْرِ الأرحام فائدة مستقلة.

والوجه الثاني: أن في ذكرها على ذلك تقريراً للتساؤل بها والقسم بحرمتها، والحديث الصحيح يرد ذلك في قوله عليه السلام: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»،

وقالت طائفة: إنما خفض ﴿وَالْأَرْحَامُ﴾ على جهة القسم من الله على ما اختص به لا إله إلا هو من القسم بمخلوقاته، ويكون المقسم عليه فيما بعد من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، وهذا كلام يأباه نظم الكلام وسرده، وإن كان المعنى يخرج به.

و﴿كَانَ﴾ في هذه الآية ليست لتحديد الماضي فقط، بل المعنى: كان وهو يكون. والرقيب: بناء لاسم الفاعل من رقب يرقب إذا أخذ النظر بالبصر أو بالبصرة إلى أمر ما ليتحققه على ما هو عليه، ويقترب بذلك حفظ ومشاهدة وعلم بالحاصل عن الرقبة. وفي قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ضرب من الوعيد، ولم يقل: «لكم» للاشتراك الذي كان يدخل من أنه يرقب لهم ما يصنع غيرهم. ومما ذكرناه قبل للذي يرقب خروج السهم من ربابة الضريب في القداح: رقيب، لأنه يرقب ذلك، ومنه قول أبي داود:

كَمَقَاعِدِ الرَقَبَاءِ لِلضُّفْدِ
رَبَاءِ أَيْدِيهِمْ نَوَاهِدُ
① - ② تفسير قوله عز وجل:

اليتامى: جمع يتيم ويتيمة، واليتيم في كلام العرب: من فقد الأب قبل البلوغ، وقال النبي ﷺ: «لا يثم بعد بلوغ»، وهو في البهيمة فقد الأم في حال الصغر، وحكي: اليتيم في الإنسان من جهة الأم.

وقال ابن زيد: هذه المخاطبة هي لمن كانت عادته من العرب ألا يورث الصغير من الأولاد مع الكبير، فقبل لهم: ورثوهم أموالهم، ولا

تركوا أيها الكبار حظوظكم حلالاً طيباً وتأخذوا الكل ظلماً حراماً خبيثاً، فيجيء فعلكم ذلك تبديلاً. وقالت طائفة: هذه المخاطبة هي لأوصياء الأيتام، والمعنى: إذا بلغوا وأونس منهم الرشد. وسامهم يتامى وهم قد بلغوا استصحاباً للحالة الأولى التي قد ثبتت لهم من اليتيم.

﴿وَلَا تَبْدُلُوا﴾ قيل: المراد: ما كان بعضهم يفعل من أن يبدل الشاة السميئة من مال اليتيم بالهزيلة من ماله، والدرهم الطيب بالزائف من ماله، قال سعيد بن المسيب والزهري والسدي والضحاك. وقيل: المراد بذلك: لا تأكلوا أموالهم خبيثاً، وتدعوا أموالكم طيباً. وقيل: معناه: لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله، قاله مجاهد وأبو صالح. والخبيث والطيب: إنما هو هنا بالتحليل والتحريم.

وروي عن ابن محيصن أنه قرأ: ﴿تَبْدُلُوا﴾ بإدغام التاء، وجاز في ذلك الجمع بين ساكنين، لأن أحدهما حرف مد ولين يشبه الحركة.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ استوى الأيتام في النهي عن أكل أموالهم، كانوا ورثة ممنوعين من الميراث أو مخجوبين، والآية نص في قصد مال اليتيم بالأكل والتمول على جميع وجوه. وروي عن مجاهد أنه قال: الآية ناهية عن الخلط في الإنفاق، فإن العرب كانت تخلط نفقتها بنفقة أيتامها فنهوا عن ذلك، ثم نسخ منه النهي بقوله:

﴿وَإِنْ تَحَايَوْتُمْ فَأَعِزُّوهُمْ﴾ وقد تقدم ذكر هذا في سورة البقرة، وقال ابن فورك عن الحسن: إنه تأول الناس من هذه الآية النهي عن الخلط فاجتنبوه من قبل أنفسهم، فخفف عنهم في آية البقرة، وقالت طائفة من المتأخرين: ﴿إِنَّ﴾ بمعنى «مع»، وهذا غير جيد. وروي عن مجاهد أن معنى الآية: ولا تأكلوا أموالهم مع أموالكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تقريب للمعنى، لأنه أراد أن الحرف بمعنى الآخر.

وقال الحدائق: ﴿إِنَّ﴾ هي على بابها وهي تتضمن الإضافة، التقدير: لا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم في الأكل، كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من ينضاف إلى الله في نصرتي؟

والضمير في: ﴿إِنَّ﴾ عائد على الأكل الذي تضمنه الفعل الظاهر، والحووب: الإثم، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما، تقول: حاب الرجل يحوب حوباً وحاباً إذا أثم، قال أمية بن الأسكر:

وإن مهاجرين تكسّفاه
غداة إذ لقد خطشنا وحابا

وقرأ الحسن: ﴿حَوْباً﴾ بفتح الحاء، وهي لغة بني تميم، وقيل: هو بفتح الحاء المصدر ويضمها الاسم. وتحوب الرجل إذا ألقى الحوب عن نفسه، وكذلك تحثت وتأثم وتحرج، فإن هذه الأربعة بخلاف «تفعل» كله، لأن تفعل معناه: الدخول في الشيء، كتعبّد وتكسّب وما أشبهه، ويلحق بهذه

الأربعة تفكّهون، في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا فَظَنَنْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تطرحون الفكاهة عن أنفسكم، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّا لَمَعْرِضُونَ﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُورُونَ ﴿﴾ أي: يقولون ذلك. وقوله: ﴿كَيِّدًا﴾ نص على أن أكل مال اليتيم من الكبائر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا خِفَتُمْ أَلَّا يُقَبِّطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قال أبو عبيدة: خفتم هنا بمعنى: أيقنتم، واستشهد بقول الشاعر:

فقلّت لهم خافوا بالأيّ مُدَجِّجٍ

وما قاله غير صحيح، ولا يكون الخوف بمعنى اليقين بوجه وإنما هو من أفعال التوقع، إلا أنه قد يميل الظن فيه إلى إحدى الجهتين. وأما أن يصلّ إلى حدّ اليقين فلا. و﴿تَقْبِطُوا﴾ معناه: تعدلوا، يقال: أقسط الرجل إذا عدل، وقسط إذا جار، وقرأ ابن وثاب والنخعي: ﴿أَلَّا تُقْبِطُوا﴾ بفتح التاء من «قسط» على تقدير زيادة «لا» كأنه قال: وإن خفتم أن تجوروا.

واختلف في تأويل الآية؛ فقالت عائشة رضي الله عنها: نزلت في أولياء اليتامى الذين يعجبهم جمال ولياتهم، فيريدون أن يبخسوهن في المهر لمكان ولايتهم عليهن، فقيل لهم: أقسطوا في مهورهن، فمن خاف ألا يقسط فليتزوج ما طاب له من الأجنيبات اللواتي يكايسن في حقوقهن، وقاله ربيعة.

وقال عكرمة: نزلت في قریش، وذلك أن الرجل منهم كان يتزوج

العشر وأكثر وأقل، فإذا ضاق ماله مال على مال يتيمة فتزوج منه، فقيل لهم: إن خفتم عجز أموالكم حتى تجوروا في اليتامى فاقصروا.

وقال سعيد بن جبیر والسدي وقتادة وابن عباس: إن العرب كانت تخرج في أموال اليتامى، ولا تخرج في العدل بين النساء، كانوا يتزوجون العشر وأكثر، فنزلت الآية في ذلك، أي: كما تخافون ألا تقسطوا في اليتامى، فكذلك فتخرجوا في النساء، وانكحوا على هذا الحد الذي يبعد الجور عنه.

وقال مجاهد: إنما الآية تحذير من الزنى وزجر عنه، أي: كما تخرجون في مال اليتامى فكذلك فتخرجوا من الزنى، وانكحوا على ما حُدّ لكم. قال الحسن وأبو مالك وسعيد بن جبیر: ما طاب معناه: ما حل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن المحرمات من النساء كثير.

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿مَنْ طَابَ﴾ على ذكر من يعقل، وحكى بعض الناس أن ﴿مَنْ﴾ في هذه الآية ظرفية، أي ما دتمتم تستحسنون النكاح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا المنزع ضعف. وقال: ﴿مَنْ﴾ ولم يقل: ﴿مَنْ﴾ لأنه لم يرد تعيين من يعقل، وإنما أراد النوع الذي هو الطيب من جهة التحليل، فكأنه قال: فانكحوا الطيب. وهذا الأمر هو نذب لقوم وإباحة لآخرين بحسب قرائن المرء، والنكاح في الجملة والأغلب مندوب إليه، قال

عليه السلام: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج».

و﴿مَثْنً وَثُتً﴾: موضعها من الإعراب نصب على البدل مما طاب، وهي تكرات لا تنصرف لأنها معدولة وصفة، كذا قال أبو علي، وقال غيره: هي معدولة في اللفظ وفي المعنى، وأيضاً فإنها معدولة وجمع، وأيضاً فإنها معدولة مؤنثة، قال الطبري: هي معارف لأنها لا تدخلها الألف واللام، وخطأ الزجاج هذا القول، وهي معدولة عن اثنين وثلاثة وأربعة، إلا أنها مضمنة تكرار العدد إلى غاية المعداد، وأنشد الزجاج لشاعر:

وَلَكُنَّمَا أَهْلِي بِوَادِ أَنْيَسُهُ
ذَنَابٌ تَبْنَى النَّاسَ مَثْنً وَتَوْحَدُ
فإنما معناه: اثنين اثنين، وواحد واحد، وكذلك قولك: جاء الرجال مثنى وثلاث، فإنما معناه: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة.

وقرأ يحيى بن وثاب وإبراهيم النخعي: ﴿وَرَبَّعٌ﴾ ساقطة الألف، وتلك لغة مقصدها التخفيف كما قال الشاعر: على لسان الضب:

لَا أَشْتَهِي أَنْ أُرْدَا
إِلَّا عَرَاداً عَرَاداً
وَصِلِيَّاناً بِرْدَا
وَعُنْكَشَامُتِيْدَا
يريد: بارداً.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَمْلِكُوا فُتُوحَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قال الضحاك وغيره: المعنى: ألا تعدلوا في الميل والمحبة والجماع والعشرة بين الأربع أو الثلاث أو الاثنين، ويتوجه على قول من قال: إنها

نزلت فيمن يخاف أن ينفق مَالُ الْيَتَامَى في نكاحاته أن يكون المعنى: ألا تعدلوا في نكاح الأربع والثلاث حتى تنفقوا فيه أموال يتاماكم، أي: فتزوجوا واحدة بأموالكم، أو تَسْرُوا منها.

ونصب ﴿وَاحِدَةً﴾ بإضمار فعل تقديره: فانكحوا واحدة. وقرأ عبدالرحمن بن هرمز والحسن: ﴿فوَاحِدَةً﴾ بالرفع على الابتداء، وتقدير الخبر: فواحدة كافية أو ما أشبهه، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو.

و﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يريد به الإمام، والمعنى: إن خاف ألا يعدل في عشرة واحدة فما ملكت يمينه. وأسند الملك إلى اليمين إذ هي صفة مدح، واليمين مخصوصة بالمحاسن لتمكنها، ألا ترى أنها المنفقة، كما قال عليه السلام: «حتى لا تعلم شعله ما تنفق يمينه» وهي المعاهدة المبيعة، وبها سميت الآلية يميناً، وهي الملتقية لكتاب النجاة ولرايات المجد، وقد نهى عليه السلام عن استعمالها في الاستنجاء وأمر المرء بالأكمل بها.

﴿٢﴾ - ﴿٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَذَنٌ﴾ أقرب، وهو من الدنو، وموضع ﴿أَنْ﴾ من الإعراب نصب بإسقاط الخافض، والناصب أريحية الفعل الذي في ﴿أَذَنٌ﴾، التقدير: ذلك أدنى إلى ألا تقولوا. و﴿تَتَوَلَّوْا﴾ معناه: تملوا، قاله ابن عباس وقتادة والربيع بن أنس وأبو مالك والسدي وغيرهم، يقال: عال الرجل يعمل:

إذا مال وجار، ومنه قول أبي طالب في شعره في النبي ﷺ:

بميزان قِسْطٍ لَا يَخْسُ شَعِيرَةً
وَوَازَنَ صَدِيقِي وَزَنَهُ غَيْرُ عَائِلٍ
يريد غير مائل. ومنه قول عثمان لأهل الكوفة حين كتب إليهم: إني لستُ بميزان لا أعول. ويروي بيت أبي طالب: له شاهد من نفسه غير عائل، وعال يعيل، معناه: افتقر فصار عالاً. وقالت فرقة منهم زيد بن أسلم وابن زيد والشافعي: معناه: ذلك أدنى ألا يكثروا عيالكم. وحكى ابن الأعرابي أن العرب تقول: عال الرجل يعمل إذا كثر عياله، وقدم في هذا الزجاج وغيره، بأن الله قد أباح كثرة السراي، وفي ذلك تكثير العيال، فكيف يكون أقرب إلى ألا يكثروا؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القدر غير صحيح، لأن السراي إنما هن مَالٌ يُتَصَرَّفُ فِيهِ بالبيع، وإنما العيال الفادح الحرائر ذوات الحقوق الواجبة.

وقوله: ﴿وَمَا تَوَلَّى الْيَتَامَى صُلَحَاتٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة وابن جريج: إن الخطاب في هذه الآية للأزواج، أمرهم الله أن يتبرعوا بإعطاء المهور نحلة منهم لأزواجهم. وقال أبو صالح: الخطاب لأولياء النساء، لأن عادة بعض العرب كانت أن يأكل ولي المرأة مهرها، فرفع الله ذلك بالإسلام وأمر بأن يدفع ذلك إليهن. وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه: زعم حضرمي أن المراد بالآية المتشاغرون الذين كانوا يتزوجون

امراً بأخرى، فأمرُوا أَنْ يَضْرِبُوا المهور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية تتناول هذه الفرق الثلاث.

وقرأ جمهور الناس والسبعة: ﴿صَدَقْتَيْنِ﴾ بفتح الصاد وضم الدال، وقرأ موسى بن الزبير وابن أبي عبيدة وفياض بن غزوان وغيرهم: ﴿صُدَقَاتِهِنَّ﴾ بضم الصاد والدال، وقرأ قتادة وغيره: ﴿صُدَقَاتِهِنَّ﴾ بضم الصاد وسكون الدال، وقرأ ابن وثاب والنخعي: ﴿صُدَقْتِهِنَّ﴾ بالإفراد وضم الصاد وضم الدال. والإفراد من هذا كله: صَدَقَةٌ، وَصُدُقَةٌ.

و﴿عَلَّةٌ﴾: معناه: نحلة منكم لهن، أي: عطية، وقيل: التقدير: من الله عز وجل لهن، وذلك لأن الله جعل الصداق على الرجال ولم يجعل على النساء شيئاً، وقيل: نحلة معناه: شرعة، مأخوذ من النحل تقول: فلان ينتحل دين كذا، وهذا يحسن مع كون الخطاب للأولياء، ويتجه مع سواه، ونصبها على أنها من الأزواج بإضمار فعل من لفظها، تقديره: انحلوهم نحلة، ويجوز أن يعمل الفعل الظاهر وإن كان من غير اللفظ لأنه مناسب للنحلة في المعنى، ونصبها على أنها من الله عز وجل بإضمار فعل مقدر من اللفظ، لا يصح غير ذلك، وعلى أنها شريعة هي أيضاً من الله.

وقوله: ﴿فَإِنْ طَلِّقَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوْهُنَّ حَتَّىٰ يَذَرَنَّاهُ﴾ الخطاب حسيماً تقدم من الاختلاف في الأزواج والأولياء، والمعنى: إن وهبن غير

مُكْرَهَاتٍ طَيِّبَةً نفوسهن. والضمير في: ﴿مِنْهُ﴾ راجع على الصداق، وكذلك قال عكرمة وغيره، أو على الإيتاء. وقال حضرمي: سبب الآية أن قوماً تخرجوا أن يرجع إليهم شيء مما دفعوا إلى الزوجات. ﴿نَفْسًا﴾ نصب على التمييز، ولا يجوز تقدمه على العامل عند سيبويه إلا في ضرورة شعر مع تصرف العامل، وأجازه غيره في الكلام. ومنه قول الشاعر:

.....

وما كان نَفْسًا بالفراق تطيب (ومن): تتضمن الجنس هاهنا، ولذلك يجوز أن تهب المهر كله، ولو وقفت (من) على التبعض لما جاز ذلك. وقرئ: ﴿هِنِيئًا مَرِيئًا﴾ دون همز، وهي قراءة الحسن بن أبي الحسن والزهري. قال الطبري: ومن هناه البعير أن يعطي الشفاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف؛ وإنما قال اللغويون: الطعام الهنيء هو السائغ المستحسن الحميد المغيبة، وكذلك المريء، قال اللغويون: يقولون: هنائي الطعام ومرأني على الإتياع، فإذا أفردوا قالوا: أمرأني على وزن أفعّل. قال أبو علي: وهذا كما جاء في الحديث: «ارجعن مأزورات غير مأجورات»، فإنما اعتلت الراو من موزورات إتياعاً للفظ مأجورات، فكذلك مرأني إتياعاً لهنائني. ودخل رجل على علقمة وهو يأكل شيئاً مما وهبته امرأته من مهرها، فقال له: كل من الهنيء المريء، قال سيبويه: هينئاً مريئاً صفتان نصبرهما نُصْبٌ

المصادر المدعو بالفعل غير المستعمل إظهاره، المختزل للدلالة التي في الكلام عليه، كأنهم قالوا: ثبت ذلك هينئاً مريئاً.

وقوله: ﴿وَلَا تُؤْثِرُوا الْمَنَافَةَ﴾... الآية، اختلف المتأولون في المراد بالسفهاء؛ فقال ابن مسعود والسدي والضحاك والحسن وغيرهم: نزلت في ولد الرجل الصغار وامرأته، وقال سعيد بن جبير: نزلت في المُنْجُورِينَ السفهاء، وقال مجاهد: نزلت في النساء خاصة، وروي عن عبدالله بن عمر أنه مرّت به امرأة لها شارة فقال لها: ﴿وَلَا تُؤْثِرُوا الْمَنَافَةَ أَمْوَالَكُمْ﴾... الآية. وقال أبو موسى الأشعري والطبري وغيرهما: نزلت في كل من اقتضى الصفة التي شرط الله من السفه كان من كان، وقول من خُصّها بالنساء يضعف من جهة الجمع، فإن العرب إنما تجمع فعيلة على فاعل أو فاعلات.

وقوله: ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ يريد أموال المخاطبين، هذا قول أبي موسى الأشعري وابن عباس والحسن وقتادة. وقال سعيد بن جبير: يريد أموال السفهاء، وأضافها إلى المخاطبين تفيطاً بالأموال، أي: هي لهم إذا احتاجوا، كأموالكم التي بقي أعضائكم، وتصونكم وتعظم أقداركم، ومن مثل هذا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وما جرى مجراه.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن والنخعي: ﴿الْأَلَاثِي﴾، والأموال جمع لما لا يعقل، فالأصوب فيه قراءة الجماعة.

و﴿يَمَنًا﴾ جمع قيمة كريمة وديم،

ولكن شُدَّتْ في الرد إلى الياء كما شذ قولهم: جِيَاد في جمع جواد، وكما قالت بنو ضبة: طويل وطِيَال، ونحو هذا، وَقَوْمًا وقَوَامًا وقياما معناه: ثباتًا في صلاح الحال ودوامًا في ذلك، وقرأ نافع وابن عامر: ﴿قِيمًا﴾ بغير ألف، وروي أن أبا عمرو فتح القاف من قوله: (قَوَامًا وقِيَامًا) كان أصله قِيَامًا، فردت كسرة القاف الواو ياءً للتناسب. ذكرها ابن مجاهد ولم ينسبها، وهي قراءة أبي عمرو والحسن، وقرأ الباكون: ﴿قَيْنًا﴾ وقرأت طائفة: ﴿قَوَامًا﴾.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَاهُمْ فِيهَا وَأَكْسَوْهُمْ﴾ قيل: معناه: فيمن يلزم الرجل نفقته وكسوته من زوجه وبنيه الأصاغر، وقيل: في المحجورين من أموالهم، و: ﴿مَمْرُوقًا﴾ قيل: معناه: ادعوا لهم: بارك الله فيكم وحاطكم وصنع لكم، وقيل: معناه: عدوهم وعدا حسنا، أي: إن رشدتم دفعنا إليكم أموالكم، ومعنى اللفظة: كُلُّ كلام تعرفه النفوس وتأنس إليه ويقتضيه الشرع.

﴿١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة للجميع، والمعنى يخلص التلبس بهذا الأمر للأوصياء، والابتلاء: الاختبار، و﴿بَلَّغُوا إِلَيْكُمْ﴾ معناه: بلغوا مبلغ الرجال بحلم وحِيش أو ما يوازيه، ومعناه: جربوا عقولهم وقرائحهم وتصرفهم، و﴿أَنْتُمْ﴾، معناه: علمتم وشعرتم وخبرتم، كما قال الشاعر:

أَنْتَ نَبَأَةٌ وَأَفْزَعُهَا الْقَتَا
صُ عَصْرًا وَقَدْ دَنَا الْإِمْسَاءُ

وقرأ ابن مسعود: ﴿أَخْسَنُمْ﴾ بالحاء وسكون السين على مثال فعلتم، وقرأ أبو عبد الرحمن وأبو السمال وابن مسعود وعيسى الثقفي: ﴿رَشْدًا﴾ بفتح الراء والشين، والمعنى واحد. ومالك رحمه الله يرى الشرطين: البلوغ والرشد المختبر، وحينئذ يدفع المال؛ وأبو حنيفة يرى أن يدفع المال بالشرط الواحد ما لم يحتفظ له سلفة كما أبيحت التسرية بالشرط الواحد، وكتاب الله قد قيدها بعدم الطول وخوف العنت، إلى غير ذلك من الأمثلة، كاليمين والحنث اللذين بعدهما تجب الكفارة، ولكنها تجوز قبل الحنث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتمثيل عندي في دفع المال بنوازل الشرطين غير صحيح، وذلك أن البلوغ لم تسقه الآية سياق الشرط، ولكنها حالة الغالب على بني آدم أن تلتزم عقولهم فيها، فهو الوقت الذي لا يعتبر شرط الرشد إلا فيه، فقال: إذ بلغ ذلك الوقت فليُنظر إلى الشرط وهو الرشد حينئذ، وفصاحة الكلام تدل على ذلك، لأن التوقيف بالبلوغ جاء «بإذا» والمشروط جاء «بإن» التي هي قاعدة حروف الشرط، و«إذا» ليست بحرف شرط لحصول ما بعدها، وأجاز سيويه أن يجازى بها في الشعر، وقال: فعلوا ذلك مضطرين، وإنما جوزي بها لأنها تحتاج إلى جواب، ولأنها يليها الفعل مظهراً أو مضمراً. واحتج الخليل على منع شرطيتها بحصول ما بعدها، ألا ترى أنك تقول: أجيئك

إذا احمر البسر، ولا تقول: إن احمر البسر. وقال الحسن وقتادة: الرشد في العقل والدين، وقال ابن عباس: بل في العقل وتدبير المال لا غير، وهو قول ابن القاسم في مذهبه. والرواية الأخرى: إنه في العقل والدين؛ مروية عن مالك. وقالت فرقة: دفع الوصي المال إلى المحجور يفترق إلى أن يرفعه إلى السلطان ويثبت عنده رشده، أو يكون ممن يأمنه الحاكم في مثل ذلك. وقالت فرقة: ذلك موكل إلى اجتهاد الوصي دون أن يحتاج إلى رفعه إلى السلطان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب في أوصياء زمننا ألا يستغنى عن رفعه إلى السلطان وثبوت الرشد عنده، لما حُفظ من تواطؤ الأوصياء على أن يرشد الوصي ويبرأ المحجور لسفاهة وقلة تحصيله في ذلك الوقت.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾... الآية، نهي من الله تعالى للأوصياء عن أكل أموال اليتامى بغير الواجب المباح لهم؛ والإشراف: الإفراط في الفعل، والسرف: الخطأ في مواضع الإنفاق، ومنه قول الشاعر:

.....
ما في عطائهم مَنْ ولا سرف
أي: لا يخطئون مواضع العطاء. ﴿وَيَذَرَا﴾: معناه: مبادرة كبرهيم، أي: أن الوصي يستغنى مال محجوره فيأكل ويقول: أبادر كبره لثلاث يرشد ويأخذ ماله، قاله ابن عباس وغيره. و﴿أَنْ يَكْبَرُوا﴾ نصب بـ﴿يبداروا﴾، ويجوز أن يكون التقدير: مخافة أن.

وقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾... الآية، يقال: عَفَّ الرجل عن الشيء واستعَفَّ: إذا أمسك، فأمر الغني بالإمساك عن مال اليتيم، وأباح الله للوصي الفقير أن يأكل من مال يتيمة بالمعروف.

واختلف العلماء في حدِّ المعروف؛ فقال عمر بن الخطاب وابن عباس وعبيدة وابن جبير والشعبي ومجاهد وأبو العالية: إن ذلك القرض، أن يتسلف من مال يتيمة ويقضي إذا أيسر، ولا يتسلف أكثر من حاجته.

وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة والسدي وعطاء: روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إني نزلت من مال الله منزلةً والي اليتيم، إن استغنييت استعففت، وإن احتججت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت.

وروي عن إبراهيم وعطاء وغيرهما أنه لا قضاء على الوصي الفقير فيما أكل بالمعروف، قال الحسن: هي طعمة من الله له، وذلك أن يأكل ما يقيمه أكلاً بأطراف الأصابع، ولا يكتسي منه بوجه، وقال إبراهيم النخعي ومكحول: يأكل ما يقيمه ويكتسي ما يستر عورته، ولا يلبس الكتان والحلل.

وقال ابن عباس وأبو العالية والحسن والشعبي: إنما يأكل الوصي بالمعروف إذا شرب من اللبن وأكل من الثمر، بما يهنا الجربى، ويليط الحوض، ويجذ الثمر، وما شابهه.

وقالت فرقة: المعروف أن يكون له أجر بقدر عمله وخدمته.

وقال الحسن بن حي: إن كان وصي أب فله الأكل بالمعروف، وإن كان وصي حاكم فلا سبيل له إلى المال بوجه.

وقال ابن عباس والنخعي: المراد أن يأكل الوصي بالمعروف من ماله حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم.

وقال ربيعة بن أبي عبد الرحمن: المراد اليتامى في الحالين، أي: من كان منهم غنياً فليعف بماله، ومن كان فقيراً فليقتصر عليه بالمعروف والاقتصاد.

وقوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ﴾... الآية أمر من الله بالتحرز والحزم، وهذا هو الأصل في الإشهاد في المدفوعات كلها، إذا كان حبسها أولاً معروفاً. وقالت فرقة: الإشهاد هاهنا فرض، وقالت فرقة: هو نذب إلى الحزم، وروى عمر بن الخطاب وابن جبير أن هذا دفع ما يستقرضه الوصي الفقير إذا أيسر، واللفظ يعم هذا وسواه. والحسب هنا: المحسب، أي: هو كافٍ من الشهود، هكذا قال الطبري، والأظهر أن ﴿حَيًّا﴾ معناه: حاسباً أعمالكم ومجازياً بها، ففي هذا وعيد لكل جاحد حق.

٧ - ٩ تفسير قوله عز وجل: سمي الله عز وجل الأب والداً لأن الولد منه ومن الوالدة، كما قال الشاعر:

لِرَجَالٍ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ٧ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٨ وَلَا تَحْشَ الْيَتِيمَ الَّذِي لَوَزَعُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ٩ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ١٠ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْهُمَا الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ رُوحِي بَهَا أَوْ دِيْنُهَا أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ لَوْ نَفَعْنَا فَرِيضَتَكَ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١

٧٨

بحيث يعتش الغراب البائض

لأن البيض من الأنثى والذكر. قال قتادة وعكرمة وابن زيد: وسبب هذه الآية أن العرب كان منها من لا يورث النساء ويقول: لا يرث إلا من طاعن بالرمح وقاتل بالسيف، فنزلت هذه الآية.

قال عكرمة: سببها خبر أم كحلة، مات زوجها وهو أوس بن سويد وترك لها بتاً فذهب عم بنها إلى ألا ترث، فذهبت إلى النبي ﷺ، فقال العم: هي يا رسول الله لا تقاتل، ولا تحمل كلاً، ويكسب عليها، ولا تكسب، واسم العم ثعلبة فيما ذكر.

و﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ نصب على الحال، كذا قال مكِّي، وإنما هو اسم نصب كما ينصب المصدر في موضع الحال، تقديره: فرضاً، ولذلك جاز نصبه، كما تقول: لك

علي كذا وكذا حقاً واجباً، ولولا معنى المصدر الذي فيه ما جاز في الاسم الذي ليس بمصدر هذا النصب، وكان حقه الرفع.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقَيْسَمَةُ﴾... الآية، اختلف المتأولون فيمن خطب بهذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها مخاطبة للوارثين، والمعنى: إذا حضر قسمتكم لمال موروثكم هذه الأصناف الثلاثة، فارزقوهم منه، ثم اختلف قائلو هذا القول؛ فقال سعيد بن المسيب وأبو مالك والضحاك وابن عباس فيما حكى عنه المهدوي: نسخ ذلك بآية الموارث. وكانت هذه قسمة قبل الموارث، فأعطى الله بعد ذلك كل ذي حق حقه، وجعلت الوصية للذين يحزنون ولا يرثون. وقال ابن عباس والشعبي ومجاهد وابن جبير: ذلك محكم لم ينسخ. وقال ابن جبير: وقد ضيع الناس هذه الآية، قال الحسن: ولكن الناس شحوا، وامتل ذلك جماعة من التابعين: عروة بن الزبير وغيره، وأمر به أبو موسى الأشعري.

واختلف القائلون بإحكامها؛ فقالت فرقة: ذلك على جهة الفرض والوجوب أن يعطي الورثة لهذه الأصناف ما تفرغ وطابت به نفوسهم كالماعون والثوب الخلق، وما خفت كالتابوت، وما تعذر قسمه. وقال ابن جبير والحسن: ذلك على جهة النذب، فمن تركه فلا حرج عليه.

واختلف في هذا القول إذا كان الوارث صغيراً لا يتصرف في ماله؛ فقال سعيد بن جبير وغيره: هذا

على وجه المعروف فقط، يقوله ولي الوارث دون عطاء ينفذ، وقالت فرقة: بل يعطي ولي الوارث الصغير من مال محجوره بقدر ما يرى.

والقول الثاني - فيمن خطب بها - أن الخطاب للمحتضرين الذين يقسمون أموالهم بالوصية، فالمعنى: إذا حضركم الموت أيها المؤمنون، وقسمتم أموالكم بالوصية، وحضركم من لا يرث من ذي القرابة واليتامى فارزقوهم منه، قال ابن عباس وسعيد بن المسيب وابن زيد: كانوا يقولون للوصي: فلان يقسم ماله، ومعنى ﴿حَصَرَ﴾: شهد، إلا أن الصفة بالضعف واليتم والمسكنة تقضي أن ذلك هو علة الرزق، فحيث وجدت رزقوا وإن لم يحضروا القسمة، و﴿أُولَئِكَ﴾: اسم جمع لا واحد له من لفظه، ولا يكون إلا مضافاً للإبهام الذي فيه، وربما كان واحده من غير لفظه «ذو». واليتم: الانفراد، واليتيم: الفرد، وكذلك سمي من فقد أباه يتيماً لانفراده، ورأى عبيدة ومحمد بن سيرين أن الرزق في هذه الآية أن يُصنع لهم طعام يأكلونه، وفعل ذلك: ذبحا شاة من التركة.

والضمير في قوله: ﴿فَارْزُقُوهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿لَهُمْ﴾ عائذ على الأصناف الثلاثة، وغير ذلك من تفريق عود الضميرين - كما ذهب إليه الطبري - تحكّم؛ والقول المعروف كل ما يؤنس به من دعاء أو عذوة أو غير ذلك.

وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ جزم بلام الأمر، ولا يجوز إضمار هذه اللام

عند سبويه قياساً على حروف الجر إلا في ضرورة شعر، ومنه قول الشاعر:

محمدٌ تفدى نفسك كل نفس
إذا ما خفت من أمر تبالا
وقرأ أبو حيوه وعيسى بن عمر
والحسن والزهري: بكسر لامات الأمر في هذه الآية.

وقد تقدم الكلام على لفظ ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ في سورة آل عمران. ومفعول (يخشى) محذوف لدلالة الكلام عليه، وخشّ حذفه من حيث يتقدر فيه التخويف بالله تعالى، والتخويف بالعاقبة في الدنيا، فينظر كل متأول بحسب الأهم في نفسه.

وقرأ أبو عبد الرحمن وأبو حيوه والزهري وابن محيصن وعائشة: ﴿ضُعْفَاءُ﴾ بالمد وضم الضاد، وروي عن ابن محيصن: ﴿ضُعْفَاءُ﴾ بضم الضاد والعين وتنوين الفاء، وأمال حمزة ﴿ضُعْفَاءُ﴾، وأمال ﴿خَافُوا﴾، والسداعي إلى إمالة ﴿خَافُوا﴾ الكسرة التي في الماضي في قولك: خفت، ليدل عليها. و﴿خَافُوا﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ تقديره: لو تركوا لخافوا، ويجوز حذف اللام في جواب ﴿لَوْ﴾، تقول: لو قام زيد لقام عمرو، ولو قام زيد قام عمرو.

واختلف من المراد بهذه الآية؟ فقال ابن عباس وقتادة والسدي وابن جبير والضحاك ومجاهد: المراد من حضر ميتاً حين يوصي فيقول له: قدم لنفسك وأعط فلان وفلانة، ويؤدي الورثة بذلك، فكان الآية تقول لهم: كما كنتم تخشون على ورثتكم وذريتكم بغدكم، فكذاك

فَاخْشَوْا عَلَى وَرَثَةٍ غَيْرِكُمْ وَذَرِيَّتِهِ،
ولا تحملوه على تبذير ماله وتركهم
عالة. وقال مقسم وحضرمي: نزلت
في عكس ذلك، وهو أن يقول
للمحتضر: أمسك على ورثتك،
وأبق لبولذك، وينهاه عن الوصية
فيضّر بذلك ذوي القربى وكلّ من
يستحق أن يوصى له، فقليل لهم:
كما كنتم تخشون على ذريّتكم
وتسرون بأن يحسن إليهم، فكذا
فسدوا القول في جهة المساكين
واليتامى، واتقوا الله في ضرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذان القولان لا يطرّد واحد منهما
في كلّ الناس، بل الناس صنفان:
يصلح لأحدهما القول الواحد،
وللآخر القول الثاني، وذلك أن
الرجل إذا ترك ورثةً مستقلّين
بأنفهم أغنياء حسن أن يُنذَبَ إلى
الوصية، ويحمل على أن يُقدّم
لنفسه، وإذا ترك ورثةً ضعفاء مقلّين
حسن أن يندب إلى الترك لهم
والاحتياط، فإن أجره في قضد ذلك
كأجره في المساكين، فالمرعى
إنما هو الضعف، فيجب أن يمال
معه.

وقال ابن عباس أيضاً: المراد بالآية
وَلَا الْإِيْتَامَ، فالمعنى: أحسنوا
إليهم، وسدّدوا القول لهم،
واتقوا الله في أكل أموالهم كما
تخافون على ذريّتكم أن يفعل بهم
خلاف ذلك.

وقالت فرقة: بل المراد جميع
الناس، فالمعنى: أمرهم باتقاء الله
في الإيتام وأولاد الناس وإن لم
يكونوا في حجورهم، وأن يسدّدوا

لهم القول كما يريد كل أحد أن يفعل
بولده بعده.

ومن هذا ما حكاه الشيباني قال:
كنا على قسطنطينية في عسكر
مسلمة بن عبد الملك، فجلسنا يوماً
في جماعة من أهل العلم فيهم
الدّيلمى، فتذكروا ما يكون من
أحوال آخر الزمان، فقلت له: يا أبا
بسر، وذو ألا يكون لي ولد، فقال
لي: ما عليك، ما من نسمة
قضى الله بخروجها من رجل إلا
خرجت أحبّ أو كره، ولكن إن
أردت أن تأمن عليهم فاتّق الله في
غيرهم، ثم تلا هذه الآية. والسديد:
معناه: المصيب للحق، ومنه قول
الشاعر:

أَعْلَمُهُ الرَّمَايَةُ كُلَّ يَوْمٍ
فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
معناه: لما وافق الأغراض التي
يرمي إليها.

١١ - تفسير قوله عز وجل:
قال ابن زيد: نزلت في الكفار
الذين كانوا لا يؤرثون النساء
والصغار، ويأكلون أموالهم. وقال
أكثر الناس: نزلت في الأوصياء
الذين يأكلون ما لم يبيح لهم من مال
اليتيم. وهي تتناول كلّ أكل وإن لم
يكن وصياً. وسمي أخذ المال على
كل وجهه أكلاً لما كان المقصود
هو الأكل، وبه أكثر الإتلاف
للأشياء. وفي نفيه على البطون من
الفصاحة تبيين نقصهم، والتشنيع
عليهم بضدّ مكارم الأخلاق، من
التهافت بسبب البطن، وهو أنقص
الأسباب والأمها حتى يدخلوا تحت
الوعيد بالنار.

و﴿عَلَّامًا﴾ معناه: ما جاوز المعروف
مع فقر الوصي، وقال بعض الناس:
المعنى: إنه لما يؤول أكلهم للأموال
إلى دخولهم النار قيل: يأكلون النار.
وقالت طائفة: بل هي حقيقة أنهم
يَطْعُمُونَ النار، وفي ذلك أحاديث،
منها حديث أبي سعيد الخدري قال:
حدثنا النبي ﷺ عن ليلة أسرى به
قال: «رَأَيْتُ أَقْوَاماً لَهُمْ مَشَافِرُ
كَمَشَافِرِ الْإِبِلِ، وَقَدْ وَكَّلَ بِهِمْ مِنْ
يَأْخُذُ بِمَشَافِرِهِمْ ثُمَّ يَجْعَلُ فِي
أَفْوَاهِهِمْ صَخْرًا مِنْ نَارٍ يَخْرُجُ مِنْ
أَسَافِلِهِمْ، قُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ مَنْ
هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ
الْيَتَامَى ظُلْمًا».

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَسَيُصْلَوْنَ﴾
على إسناد الفعل إليهم، وقرأ ابن
عامر بضم الياء، واختلف عن
عاصم، وقرأ أبو حيوة:
﴿وَسَيُصْلَوْنَ﴾ على بناء الفعل
للمفعول، بضم الياء وفتح الصاد
وشد اللام على التثنية، وقرأ ابن
أبي عبلة: ﴿وَسَيُصْلَوْنَ﴾ بضم الياء
واللام، وهي ضعيفة، والأول
أصوب، لأنه كذلك جاء في القرآن
في قوله: ﴿لَا يَسْلَوْنَ إِلَّا الْأَنْثَى﴾
وفي قوله: ﴿سَالِيَ الْجَنِينِ﴾، والصلا
هو التسخين بقرب النار أو
بمباشرتها، ومنه قول الحارث بن
عباد:

لَمْ أَكُنْ مِنْ جَنَاتِهَا عِلْمَ الدُّ
عُ، وَإِنِّي بِحَرِّهَا الْيَوْمَ صَالٍ
والمحترق الذي يذهب به الحرق ليس
بصال إلا في بدء أمره، وأهل جهنم
لا تذهبهم فهم فيها صالون؛
والسعر: الجمر المشتعل.

وهذه آية من آيات الوعيد، والذي يعتقد أهل السنة أن ذلك نافذ على بعض العصاة، لشلا يقع الخبر بخلاف مخبره، ساقط بالمشيئة عن بعضهم، وتلخيص الكلام في المسألة: إن الوعد في الخير، والوعيد في الشر، هذا عرفهما إذا أطلقا، وقد يستعمل الوعد في الشر مقيداً به، كما قال تعالى: ﴿أَلَنَارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. فقالت المعتزلة: آيات الوعد كلها في التائبين والطائعين، وآيات الوعد في المشركين والعصاة بالكبائر - وقال بعضهم: وبالصغائر - وقالت المرجئة: آيات الوعد كلها فيمن اتصف بالإيمان الذي هو التصديق، كان من كان من عاص أو طائع. وقلنا أهل السنة والجماعة: آيات الوعد في المؤمنين الطائعين ومن حازته المشيئة من العصاة، وآيات الوعيد في المشركين ومن حازة الإنفاذ من العصاة، والآية الحاكمة بما قلناه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. فإنا قالت المعتزلة: لمن يشاء يعني التائبين، رد عليهم بأن الفائدة في التفضيل كانت تنفسد، إذ الشرك أيضاً يُغْفَرُ للتائب، وهذا قاطع بحكم قوله: ﴿لَنْ يَنْصُرَكَ بِئِنَّكَ﴾ ثم مغفوراً له وغير مغفور، واستقام المذهب السني.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِرُكُمْ﴾ يتضمن الفرض والوجوب، كما تتضمنه لفظة «أمر» كيف تصرفت، وأما صيغة الأمر من غير اللفظة ففيها الخلاف الذي سيأتي موضعه إن شاء الله،

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ﴾.

وقيل: نزلت هذه الآية بسبب بنات سعد بن الربيع، وقال السدي: نزلت بسبب بنات عبدالرحمن بن ثابت أخي حسان بن ثابت، وقيل: بسبب جابر بن عبدالله، إذ عاده رسول الله ﷺ في مرضه، قال جابر بن عبدالله: وذكر أن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون إلا من لاقى الحروب وقاتل العدو، فنزلت الآيات تبيناً أن لكل أنثى وصغير حظ. وروي عن ابن عباس أن نزول ذلك كان من أجل أن المال كان للولد، والوصية للوالدين، فنسخ ذلك بهذه الآيات.

﴿وَيُذَلِّ﴾ مرتفع بالابتداء أو بالصفة، تقديره: حظ مثل حظ. وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ أَنْ لِلذَّكَرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْ يَسَاءُ﴾... الآية. الأولاد لفظ يجمع الذكران والإناث، فلما أراد بهذه الآية أن يخص الإناث بذكر حكمهن أثن الفعل للمعنى، ولو اتبع لفظ الأولاد لقيل: كانوا، واسم كان مضمراً، وقال بعض نحوي البصرة: تقديره: وإن كن المتروكات نساء.

وقوله: ﴿فَوَقَّ الْأَنْثَتَيْنِ﴾ معناه: اثنتين فما فوقهما، تقتضي ذلك قوة الكلام، وأما الوقوف مع اللفظ فيسقط معه النص على الاثنتين، ويثبت الثلثان لهما بالإجماع الذي مرت عليه الأمصار والأعصار، ولم يحفظ فيه خلاف، إلا ما روي عن

عبدالله بن عباس أنه يرى لهما النصف. ويثبت أيضاً ذلك لهما بالقياس على الأختين المنصوص عليهما، ويثبت ذلك لهما بالحديث السدي ذكره الترمذي أن رسول الله ﷺ قضى للابنتين بالثلثين، ومن قال: ﴿فَوَقَّ زائدة واحتج بقوله تعالى: ﴿فَوَقَّ الْأَنْثَتَيْنِ﴾ يريد: اضربوا منهم الأعناق؛ فقله خطأ لأن الظروف وجميع الأسماء لا يجوز في كلام العرب أن تراد لغير معنى، ولأن قوله: ﴿فَوَقَّ الْأَنْثَتَيْنِ﴾ هو الفصحح وليست ﴿فَوَقَّ﴾ زائدة بل هي محكمة المعنى لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام في المفصل دون الدماغ، كما قال دريد بن الصمة: اخفض عن الدماغ وارفع عن العظم، فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال.

وقد احتج لأخذهما الثلثين بغير هذا، وكله معارض، قال إسماعيل القاضي: إذا كانت البنت تأخذ مع أخيها الثلث إذا انفرد، فأحرى أن تأخذ ذلك مع أختها؛ قال غيره: وكما كان حكم الاثنتين فما فوقهما من الإخوة للام واحداً، فكذلك البنات.

وقال النحاس: لغة أهل الحجاز وبني أسد: الثلث والرُّبُع إلى العشر، وقد قرأ الحسن ذلك كله بإسكان الأوسط، وقرأه الأعرج. ومذهب الزجاج أنها لغة واحدة، وأن سكون العين تخفيف.

وإذا أخذ بنات الصلب الثلثين، فلا شيء بعد ذلك لبنات الابن، إلا أن يكون معهن أخ لهن، أو ابن أخ،

فبرد عليهن، وعبد الله بن مسعود لا يرى لهن شيئاً وإن كان الأخ أو ابن الأخ، ويرى المال كله للذكر وحده دونهن.

﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ السبعة سوى نافع: ﴿وَجِدْهُ﴾ بالنصب على خبر «كان»؛ وقرأ نافع: ﴿وَاجِدَةً﴾ بالرفع على أن كان بمعنى وقع وحضر؛ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿النَّصْفُ﴾ بضم النون، وكذلك قرأه علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت في جميع القرآن.

وقوله: ﴿وَلَدٌ﴾ يريد ذكراً أو أنثى، واحداً أو جماعة، للصلب أو لوليد ذكر، فإن ذلك كيف وقع يجعل فرض الأب السدس، وإن أخذ النصف في ميراثه فإنما يأخذه بالتعصيب.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَكَ وَلَدٌ...﴾ الآية، المعنى: فإن لم يكن له ولد، ولا ولدٌ ولِدٌ، ذكراً كان أو أنثى. وقوله: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ تقتضي قوة الكلام أنهما منفردان عن جميع أهل السهام من ولد وغيره، فعلى هذا يكون قوله: ﴿وَوَرِثَهُ﴾ حكماً لهما بالمال، فإذا ذكر وحده بعد ذلك نصيب أحدهما أخذ النصيب الآخر، كما تقول لرجلين: هذا المال بينكما، ثم تقول لأحدهما: أنت يا فلان لك منه الثلث، فقد حددت للآخر منه الثلثين بنص كلامك

وعلى أن فريضتهما خلت من

الولد وغيره يجيء قول أكثر الناس: إن للأم مع الانفراد الثلث من المال كله، فإن كان معهما زوج كان للأم السدس، وهو الثلث بالإضافة إلى الأب. وعلى أن الفريضة خلت من الولد فقط يجيء قول شريح وابن عباس: إن الفريضة إذا خلت من الولد أخذت الأم الثلث من المال كله مع الزوج، وكان ما بقي للأب، ويجيء على هذا قوله: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ منفردين أو مع غيرهما.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فَلِأُمِّهِ﴾ بكسر الهمزة، وهي لغة حكاها سيبويه، وكذلك كسر الهمزة من قوله: ﴿فِي بُطُونِ إِمَائِكُمْ﴾، و﴿فِي إِمَائِهِ﴾ و﴿فِي إِمِ الْكِتَابِ﴾، وهذا كله إذا وصلاً اتباعاً للكسرة أو الياء التي قبل الهمزة. وقرأ الباقر كل هذا بضم الهمزة، وكسر همزة الميم من ﴿إِمَائِكُمْ﴾ اتباعاً لكسر الهمزة، ومتى لم يكن وصل وياء أو كسرة فالضم باتفاق.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ الإخوة يحطون الأم إلى السدس ولا يأخذونه، أشقاء كانوا أو للأب أو للأم، وقال من لا يُعده قوله إلا في الشذوذ: إنهم يحطون ويأخذون ما يحطون لأنفسهم مع الأب، روي عن ابن عباس، وروي عنه خلافه مثل قول السدس الذي يحجبون الأم عنه، قال قتادة: وإنما أخذ الأب دونهم، لأنه يموتهم، ويولي نكاحهم، والنفقة عليهم، هذا في الأغلب،

ومجمعون على أن أخوين فصاعداً يحجبون الأم عنه، إلا ما روي عن عبد الله بن عباس: أن الأخوين في حكم الواحد، ولا يحجب الأم أقل من ثلاثة. واستدل الجميع بأن أقل الجمع اثنان، لأن التثنية جمع شيء إلى مثله، فالمعنى يقتضي أنها جمع، وذكر المفسرون أن العرب قد تأتي بلفظ الجمع وهي تريد التثنية، كما قال تعالى: ﴿وَوَارِثُ وَسَلَتَيْنِ إِذْ يَخْصِمَانِ فِي الْغُرَى إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْرِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾، وكقوله في آية الخصم: ﴿إِذْ تَوَرَّأَ الْيَحْرَبُ إِذْ دَخَلُوا﴾ وكقوله: ﴿وَاطْرَافَ النَّهَارِ﴾ واحتجوا بهذا كله في أن الإخوة يدخل تحت الأخوان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآيات كلها لا حجة فيها عندي على هذه الآية، لأنه قد تبين في كل آية منها بالنص أن المراد اثنان، فسأخ التجوز بأن يؤتى بلفظ الجمع بعد ذلك، إذ معك في الأولى ﴿يَخْصِمَانِ﴾، وفي الثانية ﴿إِنَّ هَذَا أَجْنَى﴾، وأيضاً فالحكم قد يضاف إلى الحاكم والخصوم، وقد يتصور مع الخصم غيرهما فهم جماعة، وأما ﴿النَّهَارِ﴾ في الآية الثالثة فالآلف واللام فيه للجنس فإنما أراد طرفي كل يوم، وأما إذا ورد لفظ الجمع ولم يقترب به ما يبين المراد فإنما يحمل على الجمع، ولا يحمل على التثنية، لأن اللفظ مالك للمعنى، وللبنية حق. وذكر

سورة النساء

النساء

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ تَرَكْنَ
لَهُنَّ وَلَدًا فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا
تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ
وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ
فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَتُنَّ
مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ
رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُنَّ رِجْلٌ
وَجِلٌّ بَيْنَهُمَا الشُّدُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ
فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا
أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ
(١١) ذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَطِغِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)
وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَّقِ اللَّهَ حُدُودَهُ يَدْخُلْهُ
نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٣)

٧٩

بعض من احتج لقول عبد الله بن عباس: إِنْ بناء التثنية يدل على الجنس والعدد كبناء الإفراد، وبناء الجمع يدل على الجنس ولا يدل على العدد، فلا يصح أن يدخل هذا على هذا.

وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿يُوصِي﴾ بإسناد الفعل إلى الموروث، إذ قد تقدم له ذكر، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿يُوصِي﴾ بفتح الصاد بينية الفعل للمفعول الذي لم يُسم فاعله، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿يُوصِي﴾ بفتح الصاد وتشديدها، وكل هذا في الموضعين، وقرأ حفص عن عاصم في الأولى بالفتح، وفي الثانية بالكسر.

وهذه الآية إنما قصد بها تقديم هذين الفعلين على الميراث، ولم

يقصد بها ترتيبهما في أنفسهما، ولذلك تقدمت الوصية في اللفظ، والذين مقدم على الوصية بإجماع، والذي أقول في هذا: إنه قدم الوصية إذ هي أقل لزوماً من الدين، اهتماماً بها وندباً إليها، كما قال تعالى: ﴿لَا يَأْدُرُكُمْ صِغَرُ وَلَا كِبَرُ﴾، وأيضاً قدمها من جهة أنها مضمنها الوصية التي هي كاللزام يكون لكل ميت، إذ قد حضّ الشرع عليها، وآخر الذين لشذوذه، وأنه قد يكون ولا يكون، فبدأ بذكر الذي لا بد منه، ثم

عطف بالذي قد يقع أحياناً، ويقوي هذا كون العطف بأو، ولو كان الذين راتباً لكان العطف بالواو، وقدمت الوصية أيضاً إذ هي حظّ مساكين وضعاف، وأخّر الذين إذ هو حظّ غريم يطلبه بقوة، وهو صاحب حق له فيه، كما قال عليه السلام: «إِنْ لَصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا». وأجمع العلماء على أنه ليس لأحد أن يوصي بأكثر من الثلث، واستحبّ كثير منهم ألاّ يبلغ الثلث، وأن يغضّ الناس إلى الربع.

(١١) - تفسير قوله عزّ وجل:

﴿وَمَا أَتَاكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَلَا تَأْخُذْ بِهِ﴾ رفع بالابتداء، والخبر مضمّر تقديره: هم المقسوم عليهم وهم المعطون، وهذا عرض للحكمة في ذلك، وتأنيس للعرب الذين كانوا يورثون على غير هذه

الصفة، ﴿لَا تَذَرُونَ﴾ عامل في الجملة بالمعنى ومعلّق عن العمل في اللفظ بحسب المعمول فيه، إذ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، ﴿تَتَمَّأَ﴾ قال مجاهد والسدي وابن سيرين: معناه: في الدنيا، أي: إذا اضطر إلى إنفاقهم للحاجة، نحا إليه الزجاج، وقد ينفقون دون اضطرار، وقال ابن عباس والحسن: في الآخرة، أي: بشفاعة الفاضل للمفضول، وقال ابن زيد: فيهما، واللفظ يقتضي ذلك، ﴿وَرِيَّةٌ﴾ نصب على المصدر المؤكد، إذ معنى ﴿يُوصِيكُمْ﴾ يفرض عليكم. قال مكّي وغيره: هي حال مؤكدة، وذلك ضعيف. والعامل ذلك ضعيف. والعامل هي الناقصة، قال سيبويه: لما رأوا علماً وحكمة قيل لهم: إِنْ الله لم يزل هكذا، وصيغة «كَانَ» لا تعطي إلا الماضي، ومن المعنى بعد يعلم أن الله تعالى كان كذلك، وهو يكون، لا من لفظ الآية، وقال قوم: «كَانَ» بمعنى وجد ووقع، و﴿عَلِيَّامًا﴾ حال، وفي هذا ضعف، ومن قال: «كَانَ» زائدة فقوله خطأ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ...﴾ الآية، الخطاب للرجال، والولد هاهنا: بنو الصلب وبنو ذكورهم وإن سفلوا، ذكراً وإناثاً، واحداً فما زاد، هذا بإجماع من العلماء.

(١٢) تفسير قوله عزّ وجل:

والولد في هذه الآية كما تقدم في

الآية التي قبلها، و﴿أَلْتُنُّهُ﴾ للزوجة أو للزوجات من فيه مشتركات بإجماع، ويلحق العول فرض الزوج والزوجة، كما يلحق سائر الفرائض المسمأة، إلا عند ابن عباس، فإنه قال: يعطيان فرضهما بغير عول. والكلالة: مأخوذة من تكلل النسب، أي: أحاط، لأن الرجل إذا لم يترك والدًا ولا ولدًا فقد انقطع طرفاه، وبقي أن يرثه من يتكلله نسبه، أي: يحيط به من نواحيه كالإكليل، وكالنبات إذا أحاط بالشيء، ومنه: روض مُكَلَّلٌ بالزهر، والإكليل: منزل القمر يحيط به فيه كواكب، ومن الكلالة قول الشاعر:

فإن أبا المرء أحمى له
ومولى الكلالة لا يغضب
فالأب والابن هما عمودا النسب
وسائر القرابة يكللون. وقال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن عباس وسليم بن عبيد وقتادة والحكم وابن زيد والزهرى وأبو إسحاق السبيعي: الكلالة: خلو الميت عن الولد والوالد، وهذا هو الصحيح. وقالت طائفة: هي خلو الميت من الولد فقط، وروي ذلك عن أبي بكر الصديق وعن عمر، ثم رجعا عنه، وروي عن ابن عباس، وذلك مستقراً من قوله في الإخوة مع الوالدين: إنهم يحيطون الأم ويأخذون ما يحيطونها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هكذا حكى الطبري، ويلزم على قول

ابن عباس إذ ورثهم بأن الفريضة كلالة أن يعطيهم الثلث بالنص. وقالت طائفة - منهم الحكم بن عتيبة -: الكلالة: الخلو من الوالد، وهذان القولان ضعيفان، لأن من بقي والده أو ولده فهو موروث بجزم نسب لا بتكليل. واجمعت الآن الأمة على أن الإخوة لا يرثون مع ابن ولا مع أب، وعلى هذا مضت الأمصار والأعصار. وقرأ جمهور الناس: ﴿يُورَثُ﴾ بفتح الراء، وقرأ الأعمش وأبو رجاء: ﴿يُورِثُ﴾ بكسر الراء وتشديدها. قال أبو الفتح ابن جني: وقرأ الحسن: ﴿يُورِثُ﴾ من أورث، وعيسى: ﴿يُورِثُ﴾ بشد الراء من ورث، والمفعولان على كلتا القراءتين محذوفان، التقدير: يورث وارثه ماله ﴿كَلَّلَهُ﴾، ونصب ﴿كَلَّلَهُ﴾ على الحال.

واختلفوا في الكلالة فيما وقعت عليه في هذه الآية، فقال عمر وابن عباس: الكلالة: الميت الموروث إذا لم يكن له أب، ونصبها على خير كان، وقال ابن زيد: الكلالة: الوارثة بجملتها، الميت والأحياء كلهم كلالة، ونصبها على الحال أو على النعت لمصدر محذوف تقديره: وراثة كلالة، ويصح على هذا أن تكون ﴿كَانَ﴾ تامة بمعنى وقع، ويصح أن تكون ناقصة وخبرها ﴿يُورِثُ﴾، وقال عطاء: الكلالة: المال، ونصب على المفعول الثاني. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والاشتقاق في معنى الكلالة يفسد تسمية المال بها.

وقالت طائفة: الكلالة: الورثة، وهذا

يستقيم على قراءة ﴿يُورِثُ﴾ بكسر الراء، فينصب كلالة على المفعول. واحتج هؤلاء بحديث جابر بن عبد الله، إذ عاده رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنما يرثني كلالة أفأوصي بمالي كله؟ وحكى بعضهم أن تكون (الكلالة) الورثة، ونصبها على خبر كان، وذلك بحذف مضاف، تقديره: ذا كلالة، ويستقيم سائر التأويلات على كسر الراء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ﴾... الآية، الضمير في ﴿لَهُ﴾ عائذ على الرجل، واكتفى بإعادته عليه دون المرأة، إذ المعنى فيهما واحد، والحكم قد ضبطه العطف الأول، وأصل أخت: أخوة، كما أصل بنت: بنية، فضم أول أخت إذ المحذوف منها واو، وكسر أول بنت إذ المحذوف ياء، وهذا الحذف والتعليل على غير قياس.

وأجمع العلماء على أن الإخوة في هذه الآية الإخوة لأم، لأن حكمهم منصوص في هذه الآية على صفة، وحكم سائر الإخوة مخالف له، وهو الذي في كلالة آخر السورة.

وقرأ سعد بن أبي وقاص: ﴿وَلَهُ أُخٌ أَوْ أُخْتُ لِأُمِّهِ﴾.

الأنثى والذكر في هذه النازلة سواء، وشركتهم في الثلث متساوية وإن كثرُوا، هذا إجماع، فإن ماتت امرأة وتركزت زوجاً وأماً وإخوة أشقاء، فللزوجة: النصف، وللأم: السدس، وما بقي: فللإخوة، فإن كانوا لأم فقط، فلهم الثلث، فإن تركت الميتة زوجاً وأماً وآخرين لأم وإخوة لأب وأم، فهذه الحمارية،

النساء

سورة النساء

وَأَلَيَّ يَأْتِيكَ الْفِتْنَةُ مِنْ بَيْنَايَكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا
عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي
الْأَيْمُونِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا
(١٣) وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَقَاذُوهمَا فَاَنْ تَابَا
وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا
(١٤) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّرُوءَ بِجَهْلَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٥) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ الْمَسَاقَاتِ حَقًّا إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ
قَالَ إِنِّي تَبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَقُلُوبِ
أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ الْإِلْسَاءِ (١٦) يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَمُوتُنَّ
لِيَذِبْنَ عَنْ يَمِينٍ بَعْضُ مَا أَتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفِتْنَةٍ
مُتَّفِقَةً وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّحِ
أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٧)

٨٠

﴿يُؤْمِرُكُمْ﴾، وقيل: هو
نصب على الخروج من
قوله: ﴿فَلِكُلِّ رَجُلٍ
يَتَّهِمُ السُّدُسُ﴾. أو من
قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي
الْثُلُثِ﴾، ويصح أن يعمل
﴿مُضَكَّرًا﴾ في ﴿وَصِيَّةٍ﴾،
والمعنى أن يقع الضرر بها
وبسببها فأوقع عليها
تجوزاً. وقرأ الحسن بن
أبي الحسن: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ
وَصِيَّةٍ﴾ بالإضافة، كما
تقول: شجاع حرب،
ومذرة حرب، وبضعة
المتجرّد، في قول
طرفة بن العبد، والمعنى
على ما ذكرناه من التجوز
في اللفظ لصحة المعنى.

وقال ابن عباس: الضرار في الوصية
من الكبائر، رواه عن النبي ﷺ،
وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ
قال: «من ضار في وصية ألقاه الله
تعالى في وادٍ في جهنم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ووجوه المضارة كثيرة لا تنحصر،
وكلها ممنوعة: يقر بحق ليس عليه،
ويوصي بأكثر من ثلثه، أو لوارثه، أو
بالثلث فراراً عن وارث محتاج، وغير
ذلك. ومشهور مذهب مالك وابن
القاسم أن الموصي لا يعد فعله مضارة
ما دام في الثلث، فإن ضار الورثة في
ثلثه مضى ذلك، وفي المذهب قول:
إن المضارة تُرَدُّ وإن كانت في الثلث،
إذا عَلِمَتْ بإقرار أو قرينة، ويؤيد هذا
قوله تعالى: ﴿مَنْ خَافَ مِنْ مُؤْمِرٍ جَنَفًا
أَوْ إِنْكَاسًا فَاصْلَحْ بَيْنَهُمْ﴾... الآية.

وقوله: ﴿يَتْلُكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾...
الآية. ﴿يَتْلُكَ﴾ إشارة إلى القسمة
المتقدمة في الموارث، والحد:
الحجز المانع لأمر ما أن يدخل على
غيره أو يدخل عليه غيره، ومن هذا
قولهم للبواب: حدّاد لأنه يمنع،
ومنه إحداد المرأة وهو امتناعها عن
الزينة، هذا هو الحد في هذه الآية.
وقوله: ﴿مَنْ تَحْتَهَا﴾ يريد من تحت
بنائها وأشجارها الذي من أجله سميت
جنة، لأن أنهار الجنة إنما هي على
وجه أرضها في غير أخاديد.

وحكى الطبري: إن الحدود عند
السدي هنا شروط الله، وعند ابن
عباس: طاعة الله، وعند بعضهم:
سنة الله، وعند بعضهم: فرائض الله،
وهذا كله معنى واحد وبعبارة مختلفة.

و﴿خَالِدِينَ﴾ قال الزجاج: هي حالة
على التقدير، أي: مقدرين خالدين
فيها، وجمع ﴿خَالِدِينَ﴾ على معنى
«مَنْ» بعد أن تقدم الأفراد مراعاة
للفظ «مَنْ»، وعكس هذا لا يجوز.
وقوله: ﴿وَمَنْ يَخُونِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ﴾... الآية، قرأ نافع وابن
عامر: ﴿يُدْخِلُهُ﴾ بنون العظمة، وقرأ
الباقون: ﴿يُدْخِلُهُ﴾ بالياء فيهما
جميعاً، وهذه آيتا وعد ووعيد،
وتقدم الإيجاز في ذلك، ورجى الله
تعالى على التزام هذه الحدود في
قسمة الميراث، وتوعد على العصيان
فيها بحسب إنكار العرب لهذه
القسمة، وقد كلف فيها النبي ﷺ
عينه بن حصن وغيره.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:
قوله: ﴿وَأَلَيَّ﴾: اسم جمع
«أَلَيْ»، وتجمع أيضاً على اللواتي،

قال قوم فيها: للإخوة للأُم: الثلث،
ولا شيء للإخوة الأشقاء، كما لو
مات رجل وخلف أخوين أُم، كما لو
وخلف مائة أخ لأب وأُم، فإنه يعطى
الأخوان الثلث، والمائة الثلثين،
فيفضلون بالثلث عليهم، وقال قوم:
الأُم واحدة وهب أباهم كان حماراً،
وأشركوا بينهم في الثلث، وسموها
أيضاً: المشتركة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا تستقيم هذه المسألة أن لو كان
الميت رجلاً، لأنه يبقى للأشقاء،
ومتى بقي لهم شيء فليس لهم إلا ما
بقي، والثلث للإخوة للأُم.

﴿١٥﴾ - ﴿١٦﴾ تفسير قوله عز وجل:
﴿غَيْرَ مُضَكَّرٍ﴾ نصب على
الحال، والعامل ﴿يُؤْمِرُكُمْ﴾،
و﴿وَصِيَّةٍ﴾ نصب على المصدر في
موضع الحال، والعامل

بالمعنى، والآية الثانية هي في الرجل والمرأة البكرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا القول تام إلا أن لفظ الآية يخلق عنه، وقد رجحه الطبري. وقرأ ابن مسعود: ﴿وَالَّذِينَ يَفْعَلُونَهُ مِنْكُمْ﴾.

وأجمع العلماء على أن هاتين الآيتين منسوختان بآية الجلد في سورة النور، قاله الحسن ومجاهد وغيرهما، إلا من قال: إن الأذى والتعيير باقي مع الجلد لأنهما لا يتعارضان بل يتحملان على شخص واحد. وأما الحبس فممنسوخ بإجماع. وآية الجلد عامة في الزناة محصنهم وغير محصنهم، وكذلك عممه رسول الله ﷺ في حديث حطان بن عبد الله الرقاشي الذي ذكرته آنفاً، وإن كان في صحيح مسلم فهو خبر آحاد. ثم ورد بالخبر المتواتر أن رسول الله ﷺ رجم ولم يجلد، فمن قال: إن السنة المتواترة تنسخ القرآن، جعل رجم الرسول دون جلد ناسخاً لجلد الثيب، وهذا الذي عليه الأئمة؛ أن السنة المتواترة تنسخ القرآن، إذ هما جميعاً وحي من الله، ويوجبان جميعاً العلم والعمل، وإنما اختلفا في أن السنة نَقَصَ منها الإعجاز، وصَحَّ ذلك عن النبي ﷺ في خبر ماعز، وفي حديث الغامدية، وفي حديث المرأة التي بعث إليها أنيس. ومن قال: إن السنة المتواترة لا تنسخ القرآن قال: إنما يكون حكم القرآن موقناً، ثم تأتي السنة مستأنفة من غير أن تتناول نسخاً.

المُبْهَمَات. قال أبو علي: حذفت الباء تخفيفاً إذ قد أُمِرَ من اللبس في ﴿اللَّذَانِ﴾؛ لأن النون لا تنحذف، ونون الثنية في الأسماء المتمكنة قد تنحذف مع الإضافة في رحيك ومصطفيا القوم، فلو حذفت الباء لاشتبه المفرد بالاثنيين، وقرأ ابن كثير: ﴿اللَّذَانِ﴾ بشد النون، وتلك عوض من الباء المحذوفة، وكذلك قرأ: ﴿هَذَانِ﴾ و﴿فَذَانِكَ﴾، و﴿هَاتَيْنِ﴾، بالتشديد في جميعها، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي: بتخفيف جميع ذلك، وشدد أبو عمرو ﴿فَذَانِكَ﴾ وحدها ولم يشدد غيرها. ﴿وَالَّذَانِ﴾ رفع بالابتداء، وقيل: على معنى: فيما يتلى عليكم اللذان. واختلف في الأذى، فقال عبادة والسدي: هو التعيير والتوبيخ، وقالت فرقة: هو السب والجفاء دون تعيير، وقال ابن عباس: هو النيل باللسان واليد وضرب النعال وما أشبهه.

قال مجاهد وغيره: الآية الأولى في النساء عامة لهن، محصنات وغير محصنات، والآية الثانية في الرجال، وبين بلفظ الثنية صنفى الرجال ممن أحصن وممن لم يحصن، فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة الرجال الأذى، وهذا قول يقتضيه اللفظ، ويستوفي نص الكلام أصناف الزناة عليه، ويؤيده من جهة اللفظ قوله في الأولى: ﴿مِنْكُمْ﴾، وقوله في الثانية: ﴿مِنْكُمْ﴾، وقال السدي وقتادة وغيرهما: الآية الأولى في النساء المحصنات، يريد: ويدخل معهن من أحصن من الرجال

ويقال: اللاتي بالياء، و﴿الْفَاحِشَةُ﴾ في هذا الموضع: الزنى وكل معصية فاحشة، لكن ألف واللام هنا للعهد، وقرأ ابن مسعود: ﴿بِالْفَاحِشَةِ﴾ ببناء الجر، وقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ إضافة في معنى الإسلام، لأن الكافرة قد تكون من نساء المسلمين بنسب، ولا يلحقها هذا الحكم، وجعل الله الشهادة على الزنى خاصة لا تتم إلا بأربعة شهداء تغليظاً على المدعي وسترأ على العباد، وقال قوم: ذلك ليترتب شاهدان على كل واحد من الزانين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف. وكانت هذه أول عقوبات الزناة: الإمساك في البيوت. قال عبادة بن الصامت والحسن ومجاهد: حتى تُسَيِّخَ بالأذى الذي بعده، ثم تُسَيِّخَ ذلك بآية النور وبالرجم في الثيب. وقالت فرقة: بل كان الأذى هو الأول، ثم نسخ بالإمساك، ولكن التلاوة أخرجت وقدمت، ذكره ابن قُورُك. و﴿سَيِّئاً﴾ معناه: مخرجاً بأمر من أوامر الشرع، وروى حطان بن عبد الله الرقاشي عن عمران بن حصين أنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فنزل عليه الوحي، ثم أفلح عنه ووجهه محمر، فقال: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهَنَ سَبِيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم﴾.

﴿وَالَّذَانِ﴾ تشنية «الذي»، وكان القياس أن يقال: اللذان كرحيان قال سيويه: حذفت الباء ليفرق بين الأسماء المتمكنة وبين الأسماء

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تخيل لا يستقيم لأننا نجد السنة ترفع بحكمها ما استقر من حكم القرآن على حدّ النسخ، ولا يرد ذلك نظر، ولا ينخرم منه أصل. أما إن هذه النازلة بعينها يتوجه عندي أن يقال فيها: إن الناسخ لحكم الجلد هو القرآن المتفق على رفع لفظه وبقاء حكمه، في قوله تعالى: ﴿الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زُنِيَ فَأَرْجُمُوهَا بِلُتَّةٍ﴾، وهذا نص في الرجم، وقد قرره عمر على المنبر بمحضر الصحابة، وذكر أنهم قرؤوه على عهد النبي ﷺ، والحديث بكماله في مسلم. وأيضاً فيعضد أن ذلك من القرآن قول رسول الله ﷺ للذي قال له: فاقض بيننا يا رسول الله بكتاب الله، فقال له النبي ﷺ: «لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ» ثم أمر أنيساً برجم المرأة إن هي اعترفت، فدلّ هذا الظاهر على أن الرجم كان في القرآن، وأجمعت الأمة على رفع لفظه. وهاتان الآيتان أعني الجلد والرجم لو لم يقع بيان من الرسول لم يجب أن تنسخ إحداهما الأخرى، إذ يسوغ اجتماعهما على شخص واحد، وحديث عبادة المتقدم يقوي جمعهما، وقد أخذ به علي رضي الله عنه في شراحة: جلدها ثم رجمها، وقال: أجلدها بكتاب الله وأرجمها بسنة رسول الله ﷺ، وبه قال الحسن وإسحاق بن راهويه، ولكن لما بين الرسول برجمه دون جلد كان فعله بمثابة قوله مع هذه الآية: انفوا ولا تجلدوا، فيكون القرآن هو الناسخ والسنة هي المبينة؛

ويصح أن نعرض من ينسخ بالسنة في هذه النازلة فنقول: الناسخ من شروطه أن يستقل في البيان بنفسه، وإذا لم يستقل فليس بناسخ، وآية الرجم بعد أن يُسَلَّم ثبوتها لا تستقل في النسخ بنفسها، بل تنبني مع الجلد وتجتمع، كما تضمن حديث عبادة بن الصامت، لكن إسقاط الرسول الجلد هو الناسخ، لأن فعله في ذلك هو بمنزلة قوله: لا تجلدوا الشيب، وأما البكر فلا خلاف أنه يجلد، واختلف في نفيه؛ فقال الخلفاء الأربعة وابن عمر ومالك والشافعي وجماعة: لا نفي اليوم، وقالت جماعة: ينفي، وقيل: نفيه سجنه، ولا تنفي المرأة ولا العبد، هذا مذهب مالك وجماعة من العلماء.

وقوله: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ كانت هذه العقوبة من الإمساك والأذى إرادة أن يتوب الزناة، وهو الرجوع عن الزنى والإصرار عليه، فأمر الله تعالى المؤمنين إذا تاب الزانيان وأصلحا في سائر أعمالهما أن يُكْفَ عنهما الأذى، وجاء الأمر بهذا الكف الذي هو ﴿أَعْرِضُوا﴾. وفي قوة اللفظ غض من الزناة وإن تابوا، لأن تركهم إنما هو إعراض، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْفَاحِشَاتِ﴾ وليس الإعراض في الآيتين أمراً بهجرة، ولكنها متاركة مُعْرَض، وفي ذلك احتقار لهم بحسب المعصية المتقدمة، وبحسب الجهالة في الآية الأخرى، والله تعالى تَوَّابٌ، أي: راجع بعباده عن المعاصي إلى تركها ولزوم الطاعة.

﴿٧٧﴾ - ﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا﴾ حاصرة، وهو مقصد المتكلم بها أبداً، فقد تصادف من المعنى ما يقتضي العقل فيه الحصر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ﴾، وقد تصادف من المعنى ما لا يقتضي العقل فيه الحصر، كقوله: إِنَّمَا الشجاع عنترة، فيبقى الحصر في مقصد المادح، ويتحصل من ذلك لكل سامع تحقيق هذه الصفة للموصوف بمبالغة.

وهذه الآية مما يوجب النظر فيها أنها حاصرة للتوبة، وهي في عرف الشرع: الرجوع من شر إلى خير، وحدّ التوبة: الندم على فارتطاف، من حيث هو معصية الله عز وجل، وإن كان الندم من حيث أضُرَّ ذلك الفعل في بدن أو ملك فليس بتوبة، فإن كان ذلك الفعل مما يمكن هذا التادم فعله في المستقبل فمن شروط التوبة العزم على ترك ذلك الفعل في المستقبل، وإلا فثم إصرار لا توبة معه، وإن كان ذلك الفعل لا يمكنه، مثل أن يتوب من الزنى فيجب بأثر ذلك ونحو ذلك، فهذا لا يحتاج إلى شرط العزم على الترك. والتوبة فرض على المؤمنين بإجماع الأمة، والإجماع هي القرينة التي حمل بها قوله تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ على الوجوب، وتصح التوبة من ذنب مع الإقامة على غيره من غير نوعه، خلافاً للمعتزلة في قولهم: لا يكون تائباً من أقام على ذنب، وتصح التوبة وإن نقضها التائب في ثاني حال بمعاودة الذنب، فإن التوبة الأولى طاعة قد انقضت وصحّت،

وهو محتاج بعد موافقة الذنب إلى توبة أخرى مستأنفة، والإيمان للكافر ليس نفس توبته، وإنما توبته ندمه على سالف كفره.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: على فضل الله ورحمته لعباده، وهذا نحو قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» ثم سكنت قليلاً، ثم قال: «يا معاذ أتدري ما حق العباد على الله؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أن يدخلهم الجنة»، فهذا كله إنما معناه: ما حقهم على فضل الله ورحمته، والعقيدة أنه لا يجب على الله تعالى شيء عقلاً، لكن إخباره تعالى عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء سمعاً، فمن ذلك تخليد الكفار في النار، ومن ذلك قبول إيمان الكافر، والتوبة لا يجب قبولها على الله تعالى عقلاً، فأما السمع فظاهره قبول توبة التائب؛ قال أبو المعالي وغيره: فهذه الظواهر إنما تعطي غلبة ظن لا قطعاً على الله بقبوله التوبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد خولف أبو المعالي وغيره في هذا المعنى. فإذا فرضنا رجلاً قد تاب توبة نصوحاً تامة الشروط، فقول أبي المعالي: يغلب على الظن قبول توبته، وقال غيره: يقطع على الله تعالى بقبول توبته، كما أخبر عن نفسه عز وجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكان أبي رحمة الله عليه يميل إلى هذا القول ويرجح، وبه أقول، والله تعالى أرحم بعباده من أن ينخرم في هذا التائب المفروض معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَذَى يَفْعَلُ الْتَّوْبَةُ عَنْ عِبَادِهِ﴾. وقوله: ﴿وَلَا لِفَقَارٍ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾. والسوء في هذه الآية يعم الكفر والمعاصي.

وقوله تعالى: ﴿يَهْتَكِرُ﴾ معناه: بسفاهة وقلة تحصيل أدى إلى المعصية، وليس المعنى أن تكون الجهالة أن ذلك الفعل معصية، لأن المتعمد للذنوب كان يخرج من التوبة، وهذا فاسد إجماعاً. وبما ذكرته في الجهالة قال أصحاب رسول الله ﷺ، ذكر ذلك عنهم أبو العالية، وقال قتادة: اجتمع أصحاب النبي ﷺ على أن كل معصية فهي بجهالة، عمداً كانت أو جهلاً، وقال به ابن عباس ومجاهد والسدي، وروى عن مجاهد والضحاك أنهما قالوا: الجهالة هنا العمد، وقال عكرمة: أمور الدنيا كلها جهالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد الخاصة بها الخارجية عن طاعة الله. وهذا المعنى عندي جار مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لِلتَّوْبَةِ أَذًى لِّمَنْ تَابَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَمَلٌ﴾. وقد تأول قوم قول عكرمة بأنه للذين يعملون السوء في الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكان الجهالة اسم للحياة الدنيا، وهذا عندي ضعيف، وقيل: ﴿يَهْتَكِرُ﴾، أي: لا يعلم كنه العقوبة، وهذا أيضاً ضعيف، ذكره ابن فورك وزد عليه.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾؛ فقال ابن عباس والسدي: معنى ذلك: قبل المرض والموت، وقال أبو مجلز ومحمد بن قيس والضحاك وعكرمة وابن زيد وغيرهم: معنى ذلك: قبل المعايضة للملائكة والسوق، وأن يغلب المرء على نفسه. وروى أبو قلابة: «إن الله تعالى لما خلق آدم فرأه إبليس أجوف، ثم جرى له ما جرى ولعين وأنظر، قال: وَعِزَّتِكَ لَا بَرَحَ مِنْ قَبْلِهِ مَا دَامَ فِيهِ الرُّوحُ، فقال الله تعالى: وعزتي لا أحجب عنه التوبة ما دام فيه الروح».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فابن عباس رضي الله عنه ذكر أحسن أوقات التوبة، والجمهور حدوا آخر وقتها. وقال إبراهيم النخعي: كان يقال: التوبة مبسوطة لأحدكم ما لم يؤخذ بكظمه. وروى بشير بن كعب والحسن أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ويغلب على عقله».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن الرجاء فيه باق، ويصح منه الندم والمعزم على ترك الفعل في المستأنف، فإذا غلب تعذرت التوبة لعدم الندم والعزم على الترك.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ إنما معناه: من قريب إلى وقت الذنب، ومدة الحياة كلها قريب، والمبادر في الصحة أفضل وأحق لأمله من العمل الصالح، والبعد كل البعد الموت، ومنه قول مالك بن الربيع:

.....

وَأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا؟

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: بمن يتوب وييسره هو للتوبة، حكيماً فيما ينفذه من ذلك، وفي تأخير من يؤخر حتى يهلك.

ثم نفى بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ...﴾ الآية أن يدخل في حكم التائبين من حضره موته وصار في حيز اليأس، وحضور الموت هو غاية كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق، فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان، وبهذا قال ابن عباس وابن زيد وجماعة المفسرين.

وقال الربيع: الآية الأولى قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ هي في المؤمنين، والآية الثانية قوله: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ...﴾ الآية أنزلت في المسلمين ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ. وَنَقَرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ففتحتم أولاً يغفر للكافر وأرجأ المؤمنين إلى مشيئته، لم يشهم من المغفرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وطعن بعض الناس في هذا القول بأن الآية خبر، والأخبار لا تنسخ. وهذا غير لازم، لأن الآية لفظها الخبر، ومعناها تقرير حكم شرعي، فهي نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَوُّهُ يُكَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ ونحو قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَأْتُوا بَأْتَيْنِ﴾ وإنما يضعف القول بالنسخ من حيث تنبني الآيات ولا يحتاج إلى تقرير نسخ، لأن هذه الآية لم تنسخ أن يغفر للعاصي الذي لم يتب من قريب، فنحتاج أن نقول: إن قوله:

﴿وَنَقَرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ نسخها، وإنما نفت هذه الآية أن يكون تائباً من لم يتب إلا مع حضور الموت. فالعقيدة عندي في هذه الآيات: أن من تاب من قريب فله حكم التائب فيغلب الظن عليه أنه ينعم ولا يعذب، هذا مذهب أبي المعالي وغيره، وقال غيرهم: بل هو مغفور له قطعاً لإخبار الله تعالى بذلك، وأبو المعالي يجعل تلك الأخبار ظواهر مشروطة بالمشيئة، ومن لم يتب حتى حضره الموت فليس في حكم التائبين، فإن كان كافراً فهو يخلد، وإن كان مؤمناً فهو عاص في المشيئة، لكن يغلب الخوف عليه، ويقوى الظن في تعذبه، ويقطع من جهة السمع أن من هذه الصنفين من يغفر الله تعالى له تفضلاً منه ولا يعذبه. وأعلم الله تعالى أيضاً أن الذين يموتون وهم كفار فلا مستعتب لهم ولا توبة في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَتَعَذَّنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، إن كان الإشارة إلى الذين يموتون وهم كفار فقط، فالعذاب عذاب خلود، وإن كانت الإشارة إليهم وإلى من ينفذ عليه الوعيد، ممن لا يتوب إلا مع حضور الموت من العصاة فهو في جهة هؤلاء عذاب ولا خلود معه، ﴿وَأَعَذَّنَا﴾ معناه: يسرناه وأحضرناه، وظاهر هذه الآية أن النار مخلوقة بعد.

﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَحِجُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا نِسَاءَ كُرْبَاءَ﴾؛ فقال ابن عباس: كانوا في

الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته من أهلها، إن شأوا تزوجها أحدهم، وإن شأوا زوجها من غيرهم، وإن شأوا منعوها الزواج، فنزلت الآية في ذلك، قال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لما توفي أبو قيس ابن الأسلت، أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان لهم ذلك في الجاهلية، فنزلت الآية في ذلك، ذكر النقاش أن اسم ولد أبي قيس: محسن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة مع التراخي، ألا ترى أن أبا عمرو بن أمية خلف على امرأة أبيه بعد موته، فولدت من أبي عمرو مسافراً وأبا معيط وكان لها من أمية أبو العيص وغيره، فكان بنو أمية إخوة مسافر وأبي معيط وأعمامهما. وقال بمثل هذا القول الذي حكيت عن ابن عباس: عكرمة والحسن البصري وأبو مجلز، قال عكرمة: نزلت في كبيشة بنت معن الأنصارية، توفي عنها أبو قيس ابن الأسلت، وقال مجاهد: كان الابن الأكبر أحق بامرأة أبيه إذا لم يكن ولدًا، وقال السدي: كان ولي الميت إذا سبق فالق على امرأة الميت ثوبه فهو أحق بها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها كانت أحق بنفسها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والروايات في هذا كثيرة بحسب السير الجاهلية، ولا منفعة في ذكر جميع ذلك، إذ قد أذهب الله بقوله: ﴿لَا يَحِجُّ لَكُمْ﴾، ومعنى الآية على

هذا القول: لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالمال، يورثن عن الرجال الموتى كما يورث المال، والمتلبس بالخطاب أولياء الموتى، وقال بعض المتأولين: معنى الآية: لا يحل لكم غُضْلُ النساء اللواتي أنتم أولياء لهنّ وإمساكهن دون تزويج حتى يمتن فتورث أموالهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا القول فالموروث مالها لا هي، وروي نحو هذا عن ابن عباس وغيره. والمتلبس بالخطاب أولياء النساء وأزواجهن إذا حبسوهن مع سوء العشرة طماعة أَنْ يَرْتُوهُنَّ.

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير: ﴿كَرِهًا﴾ بفتح الكاف حيث وقع في النساء وسورة التوبة وفي الأحقاف، وقرأ حمزة والكسائي جميع ذلك بضم الكاف، وقرأ عاصم وابن عامر في النساء والتوبة بفتح الكاف، وفي الأحقاف في الموضعين بضمها، والكَرْهُ والكَرْهُ لغتان كالضَّعْف والضَّعْف، والفَقْرُ والفَقْرُ، قاله أبو علي. وقال الفراء: هو بضم الكاف: المشقة وبفتحها: إكراه غير، وقاله ابن قتيبة.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْضُوا﴾... الآية؛ فقال ابن عباس وغيره: هي أيضاً في أولئك الأولياء الذين كانوا يرثون المرأة لأنهم كانوا يتزوجونها إذا كانت جميلة، ويمسكونها حتى تموت إذا كانت دميمة، وقال نحوه الحسن وعكرمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويسجيء في قوله: ﴿يَتَيَّمَّمُونَ﴾

خلط، أي: ما آتاها الرجال قبل، فهي كقوله: ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وغير ذلك، وقال ابن عباس أيضاً: هي في الأزواج: في الرجل يمسك المرأة ويسيء عشرتها حتى تفندي منه، فذلك لا يحل له، وقال مثله قتادة، وقال ابن البيلماني: الفصل الأول من الآية هو في أمر الجاهلية، والثاني في العضل هو في أهل الإسلام في حبس الزوجة ضراً للمفدية. وقال ابن مسعود: معنى الآية: لا ترثوا النساء كفعل الجاهلية، ولا تعضلوهن في الإسلام، وقال نحو هذا القبول السدي والضحاك، وقال السدي: هذه الآية خطاب للأولياء، كالعضل المنهي عنه في سورة البقرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قلق، إلا أن يكون العضل من ولي وارث، فهو يؤمل موتها، وإن كان غير وارث فبأي شيء يذهب؟ وقال ابن زيد: هذا العضل المنهي عنه في هذه الآية هو من سير الجاهلية في قريش بمكة، إذا لم يتوافق الزوجان طلقها على ألا تتزوج إلا بإذنه، ويُشْهَدُ عليها بذلك، فإذا خطبت فإن أعطته ورشته وإلا عضل، ففي هذا نزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي أقول: إن العضل في اللغة: الحبس في شدة ومضرة، والمنع من الفرج في ذلك، فمن ذلك قولهم: أعضلت الدجاجة وعضلت إذا صعب عليها وضع البيضة، ومنه أعضل الداء إذا لجج ولم يبرأ، ومنه داء عضال، ومشى عرف الفقهاء على أن

العضل من الأولياء في حبس النساء عن التزويج، وهو في اللغة أعم من هذا حسبما ذكرت، يقع من ولي ومن زوج، وأقوى ما في هذه الأقوال المتقدمة أن المراد الأزواج، ودليل ذلك قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ لِلْوَلِيِّ حَبْسُهَا حَتَّى يَذْهَبَ بِمَالِهَا إجماعاً من الأمة، وإنما ذلك للزوج على ما سنبين بعد إن شاء الله. وكذلك قوله: ﴿وَعَاثِرُوهُنَّ يَلْتَمِزُوهُنَّ﴾ إلى آخر الآية يظهر منه تقوية ما ذكرته، وإن كان ذلك يحتمل أن يكون أمراً منقطعاً من الأول يُخَصُّ به الأزواج. وأما العضل فمنهي عنه كل من يتصور في نازلة عاضلاً، ومتى صحَّ في ولي أنه عاضل نظر القاضي في أمر المرأة وزوجها ولم يلتفت، إلا الأب في بناته، فإنه إن كان في أمره إشكال فلا يُعْتَرَضُ قولاً واحداً، وإن صحَّ عضله ففيه قولان في مذهب مالك: أحدهما أنه كسائر الأولياء، يزوج القاضي من شاء التزويج من بناته وطلبه، والقول الآخر أنه لا يعرض له.

ويحتمل قوله: ﴿وَلَا تَقْضُوا﴾ أن يكون جزءاً، فتكون الواو عاطفة جملة كلام مقطوعة من الأولى، ويحتمل أن يكون ﴿تَقْضُوا﴾ نصباً عطفاً على ﴿يَرْتُوهُنَّ﴾ فتكون الواو مشركة عاطفة فعل على فعل.

وقرأ ابن مسعود: ﴿وَلَا أَنْ تَقْضُوا﴾ فهذه القراءة تقوي احتمال النصب، وأن العضل مما لا يحل بالنص، وعلى تأويل الجزم هو نهى معرض لطلب القرائن في

هذه الآية هو الذي يختص الزوج بإرادته.

واختلف العلماء: إذا كان الزوجان يريدان الفراق، وكان منهما نشوز وسوء عشرة، فقال مالك رحمه الله: للزوج أن يأخذ منها إذا سببت الفراق، ولا يراعي تسببه هو، وقالت جماعة من العلماء: لا يجوز له أخذ المال إلا أن تنفرد هي بالنشوز ويظلمه في ذلك. وقال بعض الناس: يخرج في هذه الآية جواز المغالاة بالمهور، لأن الله تعالى قد مثل بفنطار، ولا يمثل تعالى إلا بمباح.

وخطب عمر بن الخطاب فقال: ألا لا تغالوا بمهور نسائكم، فإن الرجل يُغالي حتى يكون ذلك في قلبه عداوة للمرأة، يقول: تجشمت إليك علق القربة أو عرق القربة، فيروى أن امرأة كلمته من وراء الناس فقالت: كيف هذا؟ والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنْتُمْ بِأَعْيُنِنَا إِنْ كُنْتُمْ إِلاَّ فَاطِرِينَ عَمْرٍ﴾ ثم قال: كل الناس أفقه منك يا عمر. ويروى أنه قال: امرأة أصابت ورجل أخطأ، والله المستعان، وترك الإنكار.

وقال قوم: لا تعطى الآية جواز المغالاة بالمهور لأن التمثيل جاء على جهة المبالغة، كأنه قال: وآتيت هذا القدر العظيم الذي لا يؤتیه أحد، وهذا كقوله عليه السلام: «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة» فمعلوم أنه لا يكون مسجد كمفحص، وقد قال النبي عليه السلام لابن أبي خذرد - وقد جاء يستعينه في مهره - فسأله

عن المهر فقال: مائتين، فغضب رسول الله ﷺ وقال: «كأنكم تقطعون الذهب والفضة من عرض الحرة أو جبل»... الحديث فاستقرأ بعض الناس من هذا منع المغالاة بالمهور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا يلزم، لأن هذا أحوج نفسه إلى الاستعانة والسؤال، وذلك مكروه باتفاق، وإنما المغالاة المختلف فيها مع الغنى وسعة المال، وقرأ ابن محيصن بوصل ألف «أخذاً» وهي لغة تحذف على جهة التخفيف. ومنه قول الشاعر:

.....

وتسمع من تحت العجاج لها أزملا
وقول الآخر:

إن لم أقاتل فاليسوني بُزقفاً
وقد تقدم القول في قدر القنطار في سورة آل عمران، وقرأ أبو السمال: «منه شيئاً» بفتح الباء والتنوين، وهي قراءة أبي جعفر. والبهتان: في موضع الحال، ومعناه: مبتهناً محيراً لشئته وقبح الأحداث والفعل في.

ثم وعظ تعالى عباده مذكراً لهم بالمودة التي بين الزوجين الموجبة لحياطة مال المرأة، إذ قد أخذ منها العوض عما أعطيتها، ﴿وَكَيْفَ﴾ في موضع نصب على الحال؛ وأفضى معناه: باشر وجاوز أقصى المجاوزة، ومنه قول الشاعر:

بلى وثأى أفضى إلى كل كُتْبَةٍ
بدا سَيْرُهَا من ظاهرٍ بعد باطن
وفي المثل: «الناس قَوْضَى فضاء»، أي: مختلطون يباشر أمر بعضهم بعضاً، وتقول: أفضت الحال إلى

كذا أي: صارت إليه. وقال ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم: الإفضاء في هذه الآية: الجماع، قال ابن عباس: ولكن الله كريم يكتي.

واختلف الناس في المراد بالميثاق الغليظ؛ فقال الحسن وابن سيرين وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم: هو قوله تعالى: ﴿فَأَسْكَاكَ يَمْزُوجٍ أَوْ تَتَرَجَّعُ إِلَيْكَ﴾، وقال مجاهد وابن زيد: الميثاق الغليظ: عقدة النكاح، وقول الرجل: نكحت وملكت النكاح ونحوه، فهذه التي بها تُستحل الفروج. وقال عكرمة والربيع: الميثاق الغليظ يفسره قول النبي ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عوان عندكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلام الله»، وقال قوم: الميثاق الغليظ: الولد.

ومن شاذ الأقوال في هذه الآية أن بكر بن عبدالله المزني قال: لا يجوز أن يؤخذ من المختلعة قليل ولا كثير، وإن كانت هي المريدة للطلاق، ومنها أن ابن زيد قال: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُبَيِّنَا مَخْدَوَةَ اللَّهِ﴾... الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس في شيء من هذه الآيات ناسخ ولا منسوخ، وكلها ينبنى بعضها مع بعض.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية مخاطبة للمؤمنين من العرب في مدة نزول الآية، ومعنى الآية والتحريم الذي بعدها مستقر على المؤمنين أجمع. وسبب الآية

أن العرب كان منهم قبائل قد اعتادت أن يخلف الرجل على امرأة أبيه، على ما ذكرناه من أمر أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، ومن ذلك خبر أبي قيس ابن الأسلت، ومن ذلك صفوان بن أمية بن خلف، تزوج بعد أبيه فاختة بنت الأسود بن المطلب بن أسد، وكانت امرأة أبيه، قتل عنها، ومن ذلك منظور بن زبآن، خلف على مُلَيْكَةَ بنت خارجة، وكانت عند أبيه زبآن بن سيار، إلى كثير من هذا. وقد كان في العرب من تزوج ابنته، وهو حاجب بن زرارة، تمجّس وفعل هذه الفعلة، ذكر ذلك النضر بن شميل في كتاب المثالب، فنهى الله المؤمنين عما كان عليه آبائهم من هذه السير. وقال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فزلت هذه الآية في ذلك.

واختلف المتأولون في مقتضى ألفاظ الآية؛ فقال فرقة: قوله: ﴿مَا نَكَحَ﴾ يراد به النساء، أي: لا تنكحوا النساء اللواتي نكح آبائكم، وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ معناه: لكن ما قد سلف فدعوه، وقال بعضهم: المعنى: لكن ما قد سلف فهو معفو عنكم لمن كان واقعه، فكانه قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْعَلُوا حَاشَا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ﴿مَا﴾ على هذا القول واقعة على من يعقل من حيث هؤلاء النساء صنف من أصناف يعقل، و﴿مَا﴾ تقع للأصناف والأوصاف مما يعقل. وقالت فرقة: قوله: ﴿مَا نَكَحَ﴾ يراد به فعل الآباء،

أي: لا تنكحوا كما نكح آبائكم من عقودهم الفاسدة، وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ معناه: إلا ما تقدم منكم ووقع من تلك العقود الفاسدة فمباح لكم الإقامة عليه في الإسلام، إذا كان مما يُقَدَّر عليه من جهة القرابة، ويجوزة الشرع إن لو ابتدئ نكاحه في الإسلام على سنته، وقيل: معنى ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: فهو معفو عنكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: و﴿مَا﴾ على هذا مصدرية، وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِلَّا مَنْ تَابَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك حكاه أبو عمرو الداني.

وقال ابن زيد: معنى الآية: النهي عن أن يطأ الرجل امرأة وطئها الآباء، إلا ما قد سلف من الآباء في الجاهلية من الزنى، لا على وجه المناكحة، فذلك جائز لكم زواجهم في الإسلام، لأن ذلك الزنى كان فاحشاً، قال ابن زيد: فزاد في هذه الآية المقت.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل هذه الآية: كل امرأة تزوجها أبوك أو ابنك دخل أو لم يدخل فهي عليك حرام. و﴿كَانَ﴾ في هذه الآية تقتضي الماضي والمستقبل، وقال المبرد: هي زائدة، وذلك خطأ يرذ عليه وجود الخبر منصوباً؛ والمقت: البغض والاحتقار بسبب رذيلة يفعلها، فسمى تعالى هذا النكاح مقتاً إذ هو ذا مقت يلحق فاعله. وقال أبو عبيدة وغيره: كانت العرب تسمي الولد

الذي يجيء من زوج الوالد المقتي، وقوله: ﴿وَسَاءَ سَيِّلاً﴾ أي: بشس الطريق والمنهج لمن يسلكه، إذ عاقبه إلى عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ... الآية﴾، حكم حرم الله به سبعاً من النسب، وستاً من بين رضاع وصهر، وألحقت السنة المتواترة سابعة، وذلك الجمع بين المرأة وعمتها، ومضى عليه الإجماع، وروي عن ابن عباس أنه قال: حرم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، وتلا هذه الآية، وقال عمرو بن سالم مولى الأنصار مثل ذلك، وجعل السابعة قوله تعالى: ﴿وَاللَّعْنَةُ عَلَى الْإِنْسَاءِ﴾. وتحريم الأمهات عام في كل حال لا يتخصص بوجه من الوجوه، ويسميه أهل العلم «المبهم» أي لا باب فيه، ولا طريق إليه لانسداد التحريم وقوته، وكذلك تحريم البنات والأخوات، فالأم كل من ولدت المرأة وإن علت، والبنات كل من ولدها وإن سفلت، جمعه وإياها صلب أو بطن، والعمة أخت الأب، والخالة أخت الأم، كذلك فيهما العموم والإيهام، وكذلك عمة الأب وخالته، وعمة الأم وخالتها، وكذلك عمة العمة، وأما خالة العمة فينظر، فإن كانت العمة أخت أب لأم أو لأب وأم فلا تحل خالة العمة، لأنها أخت الجدة، وإن كانت العمة إنما هي أخت أب لأب فقط فخالتها أجنبية من بني أخيها، تحل للرجال، ويجمع بينها وبين النساء؛ وكذلك عمة الخالة ينظر، فإن كانت الخالة

أخت أم لأب، فعمتها حرام، لأنها أخت جد، وإن كانت الخالة أخت أم لأم فقط فعمتها أجنبية من بني أختها، وكذلك في بنات الأخ وبنات الأخت العموم والإبهام، سواء كانت الأخوة أشقاء، أو لأب أو لأم.

وقرأ أبو حيوة: ﴿مِنْ الرُّضَاعَةِ﴾ بكسر الراء، والرضاع يحرم ما يحرم النسب، والمرضعة أم، وما تقدم من أولادها وتأخر إخوة، وفحل اللبن أب، وما تقدم من أولاده وتأخر إخوة. وقرأ ابن مسعود: ﴿اللَّيْ﴾ بكسر الياء، وقرأ ابن هرمز: ﴿وَأُمّهَاتِكُمُ الَّتِي﴾ بالإفراد، كأنه من جهة الإبهام مع الواحد والجماعة.

واختلف الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأُمّهَاتُكُمُ الَّتِي﴾؛ فقال جمهور أهل العلم: هي تامة العموم فيمن دخل بها أو لم يدخل، فبالعقد على الابنة حرمت الأم، وهذا مذهب جملة الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار، وروي عن علي بن أبي طالب أنه قيل له في رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها أيتزوج أمها؟ قال: نعم، هي بمنزلة الربية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد أن قوله تعالى: ﴿مِنْ الرُّضَاعَةِ﴾ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ شرط في هذه وفي الربية، وروي نحوه عن ابن عباس، وروي عنه كقول الجمهور. وروي عن زيد بن ثابت أنه كان يقول: إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، وإن طلقها قبل أن يدخل بها، فإن شاء فعل. وقال مجاهد: الدخول مراد في

النازلتين، وقول جمهور الناس مخالف لهذا القول. وروي في ذلك عن زيد بن ثابت أنه قال: ﴿وَأُمّهَاتُكُمُ الَّتِي﴾ مبهمة، وإنما الشرط في الربات. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أكان ابن عباس يقرأ: ﴿وَأُمّهَاتُكُمُ الَّتِي﴾ دخلتم بهن؟ فقال: لا تترا، قال حجاج: قلت لابن جريج: ما تترا؟ قال: كأنه قال: لا لا. ويرد هذا القول من جهة الإعراب أن المجرورين إذا اختلفا لم يكن نعتهما واحداً، ومعناه: إذا اختلفا في العامل، وهذه الآية قد اختلف فيها جنس العامل.

﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

الرَّبِيبَةُ: بنت امرأة الرجل من غيره، سميت بذلك لأنه يربّيها في حجره فهي مربوبته. وربية: فعيلة بمعنى مفعولة، وقوله تعالى: ﴿الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ ذكر الأغلب في هذه الأمور، إذ هي حالة الربية في الأكثر، وهي محرمة وإن كانت في غير الحجر، لأنها في حكم أنها في الحجر، إلا ما روي عن علي أنه قال: تحل إذا لم تكن في الحجر وإن دخل بالأم، إذا كانت بعبدة عنه، ويقال: حَجَرَ بكسر الحاء وفتحها، وهو مُقَدَّم ثوب الإنسان وما بين يديه منه في حال اللبس، ثم استعملت اللفظة في الحفظ والستر، لأن اللبس إنما يحفظ طفلاً وما أشبه بذلك الموضع من الثوب.

واختلف العلماء في معنى قوله: ﴿دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾؛ فقال ابن عباس وطاوس وابن دينار: الدخول في هذا الموضع: الجماع، فإن طلق الرجل

بعد البناء وقبل الوطء فإن ابنتها له حلال. وقال جمهور من العلماء منهم مالك بن أنس وعطاء بن أبي رباح وغيرهم: إن التجريد والتقبيل والمضاجعة وجميع أنواع التلذذ يُحَرِّمُ الابنة كما يحرمها الوطء؛ والحلائل: جمع حليلة، وهي الزوجة، لأنها تحل مع الرجل حيث حل، فهي فعيلة بمعنى فاعلة. وذهب الزجاج وقوم إلى أنها من لفظة الحلال، فهي حليلة بمعنى محللة. وقوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ تخصيص ليخرج عنه كل من كانت العرب تتباهى ممن ليس للصلب، وكان عندهم أمراً كثيراً قوي الحكم.

قال عطاء بن أبي رباح: يُتَخَذُ - والله أعلم - أنها نزلت في محمد عليه السلام حين تزوج امرأة زيد بن حارثة، فقال المشركون: قد تزوج امرأة ابنه، فنزلت الآية.

وحرمت حليلة الابن من الرضاع وإن لم يكن للصلب بالإجماع المستند إلى قوله ﷺ: ﴿يُحْرَمُ مِنَ الرُّضَاعَةِ ما يُحْرَمُ مِنَ النِّسْبِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لفظ يعم الجمع بنكاح وبملك يمين، وأجمعت الأمة على منع جمعهما بنكاح، وأما بملك يمين فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: أحلتها آية، وحرمتها آية. فأما أنا في خاصة نفسي فلا أرى الجمع بينهما حسناً. وروي نحو هذا عن ابن عباس، ذكره ابن المنذر، وذكر أن إسحاق بن راهويه حرم الجمع

وفي الباب بعينه قول آخر: إن النكاح لا ينعقد. وقال أشهب في كتاب الاستبراء: عقد النكاح في الواحدة تحريم لفرج المملوكة.

وثبت عن النبي ﷺ أنه نهى أن يجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، وأجمعت الأمة على ذلك؛ وقد رأى بعض العلماء أن هذا الحديث ناسخ لعموم قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ لَّكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾، وذلك الحديث من المتواتر، وكذلك قوله عليه السلام: «يحرم من الرضاة ما يحرم من النسب» قيل أيضاً: إنه ناسخ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء منقطع، معناه: لكن ما قد سلف من ذلك ووقع وأزاله الإسلام فإن الله يغفره، والإسلام يجبه.

تفسير قوله تعالى:

قوله عز وجل: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ عطف على المحرمات قبل. والتحصن: الثمنع، يقال: حصن المكان: إذا امتنع، ومنه الحصن، وحصنت المرأة: امتنعت بوجه من وجوه الامتناع، وأحصنت نفسها، وأحصنها غيرها. والإحصان تستعمله العرب في أربعة أشياء، وعلى ذلك تصرف اللفظة في كتاب الله عز وجل: فتستعمله في الزواج، لأن ملك الزوجة مئنة وحفظ. ويستعملون الإحصان في الحرية، لأن الإمام كان عرفهن في الجاهلية الزنى، والحررة بخلاف ذلك، ألا ترى إلى قول هند بنت عتبة للنبي عليه الصلاة والسلام حين بايعته: «وهل تزني الحررة؟»، فالحررة مئنة

من ملكه، يبيع أو عتق أو بأن يزوجها. قال ابن المنذر: وفيها قول ثان لقتادة، وهو أنه إن كان يسطاً واحدة وأراد وطء الأخرى فإنه ينوي تحريم الأولى على نفسه وألا يقربها، ثم يمسك عنها حتى يستبرئ الأولى المحرمة، ثم يغشى الثانية.

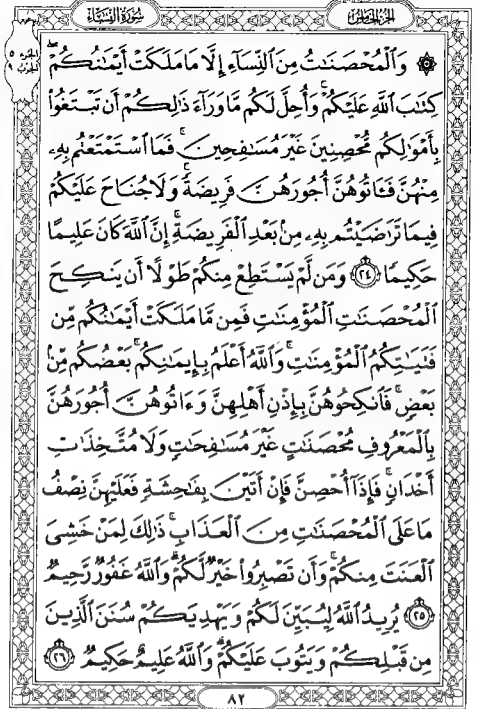
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومذهب مالك رحمه الله: إذا كان أختان عند رجل بملك، فله أن يوطئ أيتها شاء، والكف

عن الأخرى موكول إلى أمانته، فإن أراد وطء الأخرى فيلزمه أن يحرم على نفسه فرج الأولى بفعل يفعل، من إخراج عن الملك أو تزويج أو عتق إلى أجل أو إعدام طويل، فإن كان يوطئ إحداها ثم وثب على الأخرى دون أن يحرم الأولى وقف عنهما، ولم يجز له قرب إحداها حتى يحرم الأخرى، ولم يبق ذلك إلى أمانته، لأنه متهم فيمن قد وطئ، ولم يكن قبل متهماً إذ كان لم يوطئ إلا الواحدة. وإن كانت عند رجل أمة يوطئها ثم تزوج أختها، ففيها في المذهب ثلاثة أقوال: في النكاح الثالث من المدونة أنه يوقف عنهما إذا وقع عقد النكاح حتى يحرم إحداها مع كراهيته لهذا النكاح، إذ هو عقد في موضع لا يجوز فيه الوطء، وذلك مكروه إلا في الحيض، لأنه أمر غالب كثير،

بينهما بالوطء، وأن جمهور أهل العلم كرهوا ذلك، وجعل مالكا فيمن كرهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا خلاف في جواز جمعهما في الملك، وكذلك الأم وبنتها، ويجيء من قول إسحاق أن يرجم الجامع بينهما بالوطء، وتستقر الكراهية من قول مالك: إنه إذا وطئ واحدة ثم وطئ أخرى وقف عنهما حتى يحرم إحداها، فلم يلزمه حداً.

واختلف العلماء بعد القول بالمنع من الجمع بينهما بالوطء، إذا كان يوطئ واحدة ثم أراد أن يوطئ الأخرى؛ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عمر والحسن البصري والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق: لا يجوز له وطء الثانية حتى يحرم فرج الأخرى بإخراجها



وحفظ. ويستعملون الإحصان في الإسلام لأنه حافظ، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: «الإيمان قَيْدُ الْفَتَكِ».

ومنه قول الهذلي:

قَلَيْسَ كَعَهْدِ الدارِ يا أُمَّ مَالِكٍ
ولكنْ أَحاطَتْ بالرقابِ السَّلايلُ
ومنه قول الشاعر:

قالَتْ هَلُمَّ إلى الحديثِ فقلْتُ لا
يَأْبَى عَلَيْكَ اللهَ والإسلامُ
ومنه قول سُحَيْمٍ:

.....
كفى الشُّبِّ والإسلامُ لِلْمَرْءِ ناهياً
ومنه قول أبي حَبَّة:

رَمَني وبِشْرُ الله بَني وبَنيها
فإن أحدَ الأقوالِ في السُّرِّ أنه أراد
به الإسلام.

ويستعملون الإحصان في العفة، لأنه إذا ارتبط بها إنسان وظَهَرَتْ على شخصٍ ما وتخلَّق بها فهي مَنَعَةٌ وحفظ.

وحيشا وقعت اللفظة في القرآن فلا تجدها تخرج عن هذه المعاني، لكنها قد تقوى فيها بعض هذه المعاني دون بعض بحسب موضع وموضع، وسيأتي بيان ذلك في أماكنه إن شاء الله.

فقوله في هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ - قال ابن عباس: وأبو قُلابة، وابن زيد، ومكحول، والزهرى، وأبو سعيد الخدري: هن ذوات الأزواج، أي: هن محرمات إلا ما ملكت اليمين بالسبي من أرض الحرب، فإنَّ تلكَ حلالٌ لِلَّذِي تقع في سهمه وإن كان لها زوج.

وروى أبو سعيد الخدري (أن الآية نزلت بسبب أنَّ رسول الله ﷺ بعث جيشاً إلى أوطاس، فلقوا عدواً، وأصابوا سبياً لهنَّ أزواج من المشركين، فتأنَّم المسلمون منْ غِشْيَانِهِنَّ، فنزلت الآية مرخصة).

وقال عبدالله بن مسعود، وسعيد بن المسيب، والحسن بن أبي الحسن، وأبي بن كعب، وجابر بن عبدالله، وابن عباس أيضاً: معنى المحصنات: ذوات الأزواج، فهنَّ حرامٌ إلا أن يشتري الرجلُ الأمةَ ذات الزوج، فإنَّ بَيْعَهَا طلاقها، وهبتها طلاقها، والصدقة بها طلاقها، وأن تُعتق طلاقها، وأن تُورث طلاقها، وتطليق الزوج طلاقها. وقال ابن مسعود: إذا بيعت الأمة ولها زوج فالمشتري أحق ببيعها. ومذهب مالك والشافعي وجمهور العلماء أن انتقال الملك في الأمة لا يكون طلاقاً، ولا طلاق لها إلا الطلاق.

وقال قوم: المحصنات - في هذه الآية -: العفاف، أي: كلُّ النساءِ حرامٌ، وَلَبَسَهُنَّ اسم الإحصان إذ الشرائع في أنفسها تقتضي ذلك. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ - قالوا: معناه: بنكاح أو شراء، كلُّ ذلك تحت ملك اليمين. قال بهذا القول أبو العالية، وعبيدة السلماني، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، ورواه عبيدة عن عمر رضي الله عنه. وقال ابن عباس: الْمُحْصَنَاتُ: العفاف من المسلمين ومن أهل الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبهذا التأويل يرجع معنى الآية إلى تحريم الزنى.

وأَسَدُ الطبري عن عروة أنه قال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾: من الحرائر، ويكون ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ معناه: بنكاح. هذا على اتصال الاستثناء، وإن أُريد الإمام فيكون الاستثناء منقطعاً.

وَرَوَى عن أبي سعيد الخدري أنه قال: كان نساءً يأتينا مهاجرات، ثم يهاجر أزواجهن، فَمُنِعْنَاهُنَّ بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾. الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قولٌ يرجع إلى ما قد ذكر من الأقوال.

وأَسَدُ الطبري أنَّ رجلاً قال لسعيد بن جبيرة: أما رأيت ابن عباس حين سُئِلَ عن هذه الآية ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ مِنَ النِّسَاءِ؟ فلم يقل فيها شيئاً؟ فقال سعيد: كان ابن عباس لا يعلمها، وأَسَدُ أيضاً عن مجاهد أنه قال: لو أعلم من يفسر لي هذه الآية لضربت إليه أجساد الإبل. قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ إلى قوله: ﴿حَكِيمًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا أدري كيف نسب هذا القول إلى ابن عباس؟ ولا كيف انتهى مجاهد إلى هذا القول؟

وَرَوَى عن ابن شهاب أنه سُئِلَ عن هذه الآية ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فقال: يُرَوَى أنه حرم في هذه الآية ذوات الأزواج والعفاف من حرائر ومملوكات، ولم يحل شيئاً من ذلك إلا بالنكاح أو الشراء والتملك، وهذا قول حسن، عمم لفظ الإحصان، ولفظ ملك اليمين، وعلى هذا

التأويل يتخرج عندي قول مالك في الموطأ، فإنه قال: هُنَّ ذوات الأزواج، وذلك راجع إلى أن الله حرَّم الزنى، ففسر الإحصان بالزواج، ثم عاد عليه بالعدة.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحزمة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ بفتح الصاد في كل القرآن، وقرأ الكسائي كذلك في هذا الموضع وحده. وقرأ سائر ما في القرآن: ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾ بكسر الصاد، و﴿محصنات﴾ كذلك. ورؤي عن علقمة أنه قرأ جميع ما في القرآن بكسر الصاد، ففتح الصاد هو على معنى: أحصنهن غيرهن من زوج أو إسلام أو عفة أو حرية. وكسر الصاد هو على معنى: أنهن أحصن أنفسهن بهذه الوجوه أو ببعضها.

وقرأ يزيد بن قطيب: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ بضم الصاد، وهذا على إتباع الضمة الضمة. وقرأ جمهور الناس: ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ وذلك نصب على المصدر المؤكد.

وقرأ أبو حية، ومحمد بن السميع اليماني: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ على الفعل الماضي المسند إلى اسم الله تعالى.

وقال عبيدة السلماني وغيره: قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ إشارة إلى ما ثبت في القرآن من قوله: ﴿مَتَى وَكُنْتُمْ ذُرِّيَّةً﴾. وفي هذا بعد، والأظهر أن قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ إنما هو إشارة إلى التحريم الحاجز بين الناس وبين ما كانت العرب تفعله.

واختلفت عبارة المفسرين في قوله

تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾. فقال السدي: المعنى: وأحل لكم ما دون الخمس، أن تبتغوا بأموالكم على وجه النكاح، وقال نحوه عبيدة السلماني. وقال عطاء وغيره: المعنى: وأحل لكم ما وراء من حرَّم من سائر القرابة فهنَّ حلالٌ لكم تزويجهن. وقال قتادة: المعنى: وأحل لكم ما وراء ذلكم من الإماء. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولفظ الآية يعم جميع هذه الأقوال.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمر، وابن عامر: ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ﴾ بفتح الألف والحاء، وهذه مناسبة لقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾، إذ المعنى: كتب الله ذلك كتاباً، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وَأَحْلَلْ﴾ بضم الهمزة وكسر الحاء، وهذه مناسبة لقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾.

والوراء في هذه الآية: ما يعتبر أمره بعد اعتبار المحرمات، فهن وراء أولئك بهذا الوجه، و﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ لفظ يجمع التزوج والشراء، و﴿أَنْ﴾ في موضع نصب، وعلى قراءة حمزة في موضع رفع، ويحتمل النصب بإسقاط الباء.

و﴿مُحْصِنَاتٍ﴾ معناه: متعافين، أي: تُحصنون أنفسكم بذلك ﴿غَيْرَ مُسْتَوْبِحِينَ﴾، أي: غير زناة، والسفاح: الزنى، وهو مأخوذ من: سفح الماء، أي: صبّه وسيلانه، ولزم هذا الاسم الزنى، ومنه قول النبي ﷺ حين سمع الدُّقَّاف في عرس: «هذا النكاح لا السفاح ولا نكاح السر». واختلف المفسرون في معنى قوله:

﴿فَمَا اسْتَسْتَنْمُ بِهِ مِنْهُنَّ فَتَأْوُنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ رِبْضَةً﴾. فقال ابن عباس: ومجاهد، والحسن، وابن زيد، وغيرهم: المعنى: فإذا استمتعتم بالزوجة، ووقع الوطء ولو مرة فقد وجب إعطاء الأجر، وهو المهر كله، ولفظة ﴿فَمَا﴾ تعطي أن يسير الوطء يجب إتياء الأجر.

ورؤي عن ابن عباس أيضاً، ومجاهد، والسدي، وغيرهم: أن الآية في نكاح المتعة، وقرأ ابن عباس، وأبي بن كعب، وسعيد ابن جبير: ﴿فَمَا اسْتَسْتَنْمُ بِهِ مِنْهُنَّ فَتَأْوُنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾، وقال ابن عباس لأبي نضرة: «هكذا أنزلها الله عز وجل».

وروى الحكم بن عتيبة أن علياً رضي الله عنه قال: «لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى الأشقي».

وقد كانت المتعة في صدر الإسلام، ثم نهى عنها النبي عليه الصلاة والسلام، وقال ابن المسيب: نسختها آية الميراث، إذ كانت المتعة لا ميراث فيها. وقيل: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾. وقالت عائشة رضي الله عنها: نسخها قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إلا على أزواجهم، ولا زوجية مع الأجل ورفع الطلاق والعدة والميراث. وكانت: أن يتزوج الرجل المرأة بشاهدين وإذن الزوجي إلى أجل مُسمًى، وعلى ألا ميراث بينهما، ويعطيهما ما اتفقا عليه، فإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل، وتستبرئ رحمها لأن الولد لا حق

فيه بلا شك، فإن لم تحمل حلت لغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي كتاب النحاس: في هذا خطأ فاحش في اللفظ، يوهم أن الولد لا يلحق في نكاح المتعة. وحكى المهدوي عن ابن المسيب أن نكاح المتعة كان بلا ولي ولا شهود، وفيما حكاه ضعف.

و ﴿فَرِيضَةً﴾ نصب على المصدر في موضع الحال.

واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية - فقال القائلون بأن الآية المتقدمة أمر بإيتاء مهر النساء إذا دخل بهن: إن هذه إشارة إلى ما يترضى به من حط أو تأخير بعد استقرار الفريضة، فإن ذلك الذي يكون على وجه الرضا جائز ماض. وقال القائلون بأن الآية المتقدمة هي أمر المتعة: إن الإشارة بهذه إلى أن ما تراضيا عليه من زيادة في مدة المتعة، وزيادة في الأجر جائز سائغ.

وباقى الآية بين.

تفسير قوله تعالى:

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والسدي، وابن زيد، ومالك بن أنس في «المدونة»: الطُول هنا: السعة في المال. وقال ربيعة، وإبراهيم النخعي: الطُول هنا: الجَلَد والصبر لمن أحب أمةً وهَوِيَهَا حتى صار لذلك لا يستطيع أن يتزوج غيرها، فإن له أن يتزوج الأمة إذا لم يملك هواه، وإن كان يجد سعة في المال لنكاح حرة، ثم يكون قوله تعالى: ﴿لِمَنْ حَاشَى

أَلَمَنَّتْ﴾ على هذا التأويل بياناً في صفة عدم الجَلَد، وعلى التأويل الآخر يكون تزوج الأمة معلقاً بشرطين: عدم السعة في المال، وخوف العنت، فلا يصح إلا باجتماعهما. وهذا هو نص مذهب مالك في «المدونة» من رواية ابن نافع، وابن القاسم، وابن وهب، وابن زياد: إن الحُرَّ لا يتزوج الأمة على حالٍ إلا ألا يجد سعة في المال لمهر حُرَّة، وأن يخشى العنت مع ذلك.

وقال مالك في كتاب محمد: إذا وجد المهر ولكنه لا يقدر على النفقة فإنه لا يجوز له أن يتزوج أمة.

وقال أصبغ: ذلك جائز، إذ نفقة الأمة على أهلها إذا لم يَضُمَّها إليه. وقال مطرّف، وابن الماجشون: لا يحل للحُرَّ أن ينكح أمة، ولا يقرَّ إن وقع، إلا أن يجتمع الشرطان كما قال الله تعالى، وقاله أصبغ، قال: وقد كان ابن القاسم يذكر أنه سمع مالكا يقول: نكاح الأمة حلال في كتاب الله عز وجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو في «المدونة».

وقال سحنون في غيرها: ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَّتَى يَنْكِحُوا وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾، وقاله ابن مزين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس في الآية ما يلزم منه تحليل الأمة لحُرٍّ دون الشرطين. وقال مالك: في «المدونة»: ليست الحرة بطول تمنع من نكاح الأمة إذا لم يجد سعةً لأخرى وخاف العنت.

وقال في كتاب محمد ما يقتضي أن الحرة بمثابة الطُول. قال الشيخ أبو الحسن اللُّخمي: وهو ظاهر القرآن، وزوي نحو هذا عن ابن حبيب، وقاله أبو حنيفة، فمقتضى هذا أن من عنده حُرَّة فلا يجوز له نكاح أمة وإن عدم السَّعة وخاف العنت، لأنه طالب شهوة وعنده امرأة، وقال به الطبري، واحتج له. و ﴿طَوَلًا﴾ يصح في إعرابه أن يكون مفعولاً بالاستطاعة، و ﴿أَنْ يَنْكِحَ﴾ في موضع نصب بدل مِنْ قوله: ﴿طَوَلًا﴾، أو في موضع نصب بتقدير: لأن ينكح. وفي هذا نظر.

ويصح أن يكون ﴿طَوَلًا﴾ نصباً على المصدر، والعامل فيه الاستطاعة، لأنها بمعنى يتقارب، و ﴿أَنْ يَنْكِحَ﴾ - على هذا - مفعول بالاستطاعة أو بالمصدر، تقول: طال الرجل طَوَلًا - بفتح الطاء - إذا تفضل ووجد واتسع عرفة. وطَوَلًا - بضم الطاء في ضد القَصْر.

و ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ - في هذا الموضع -: الحرائر، يدل على ذلك التقسيم بينهن وبين الإماء، وقالت فرقة: معناه: العفاف، وهو ضعيف لأن الإماء يَقَعْنَ تحته، وقد تقدم الذكر للقراءة في المحصنات، و ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ صفة، فأما من يقول في الرجل يجد طَوَلًا لحرة كتابية لا لمؤمنة: إنه يمتنع عن نكاح الإماء - فهي صفة غير مشترطة، وإنما جاءت لأنها مقصد النكاح، إذ الأمة مؤمنة، وهذا هو المذهب المالكي، نص عليه ابن الماجشون في الواضحة، ومن قال في الرجل لا يجد طَوَلًا إلا

الكتابية: إنه يتزوج الأمة إن شاء - فصفة المؤمنات عنده في الآية مشترطة في إباحة نكاح الإمام، والمسألة مختلف فيها حسبما ذكرناها.

و﴿مَلِكٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يصح أن تكون مصدرية، تقديره: فمن ملك أيمانكم، ويصح أن يراد بها النوع المملوك، فهي واقعة عليه.

والفتاة وإن كانت واقعة في اللغة على الشابة أياً كانت فعرفها في الإمام، وفتى كذلك، وهذه المخاطبات بالكاف والميم عامة، أي: منكم الناكحون، ومنكم المالكون، لأن الرجل ينكح فتاة نفسه، وهذا التوسع في اللغة كثير.

والمؤمنات - في هذا الموضع - صفة مشترطة عند مالك وجمهور أصحابه، لأنهم يقولون: لا يجوز زواج أمة غير مسلمة بوجه. وقالت طائفة من أهل العلم منهم أصحاب الرأي: نكاح الأمة الكتابية جائز، وقوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ على جهة الوجه الفاضل، واحتجوا بالقياس على الحرائر، وذلك أنه لما لم يمنع قوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ في الحرائر من نكاح الكتابيات الحرائر، فكذلك لا يمنع قوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ في الإمام من نكاح الكتابيات الإمام. وقال أشهب في «المدونة»: جائز للعبد المسلم أن يتزوج أمة كتابية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالمنع عنده أن يفضل الزوج في الحرية والدين معاً.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ﴾ معناه: إن الله أعلم ببواطن الأمور، ولكم ظواهرها، فإذا كانت الفتاة ظاهرها الإيمان فنكاحها صحيح، وعلم باطنها إلى الله، وإنما هذا لئلا يستريب متحيز بإيمان بعض الإمام، كالقريبة عهد بالسبا، أو كالخرساء، وما أشبه. وفي اللفظ أيضاً تنبيه على أنه ربما كان إيمان أمة أفضل من إيمان بعض الحرائر، أي: فلا تعجبوا بمعنى الحرية.

وقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ - قالت طائفة: هو رفع على الابتداء والخبر، والمقصد بهذا الكلام، أي أنكم أيها الناس سواء بنو الحرائر وبنو الإمام، أكرمكم عند الله أتقاكم، فهذه توطئة لنفوس العرب التي كانت تستهجن ولد الأمة، فلما جاء الشرع أعلموا مع ذلك أن ذلك التهجين لا معنى له، وقال الطبري: هو رفع بفعل تقديره: فليتكح مما ملكت أيمانكم بعضكم من بعض، فعلى هذا في الكلام تقديم وتأخير، وهذا قول ضعيف.

﴿٥٠﴾ تفسير قوله تعالى:

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ معناه: بولاية أربابهن المالكين، وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ أَجُورُهُنَّ﴾ يعني: مهورهن، قاله ابن زيد وغيره، و﴿بِالْعُرُوفِ﴾ معناه: بالشرع والسنة، وهذا يقتضي أنهن أحق بمهورهن من السادة، وهو مذهب مالك، قال في كتاب الرهون:

ليس للسيد أن يأخذ مهر أمته ويدعها بلا جهاز - قال سحنون في كتاب «المدونة»: كيف هذا وهو لا يبوئها معها بيتاً؟ وقال بعض الفقهاء: معنى ما في «المدونة»: أنه بشرط الثبوت، فعلى هذا لا يكون قول سحنون خلافاً.

و﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ وما بعده: حال، فالظاهر أنه بمعنى عفيفات، إذ غير ذلك من وجوه الإحصان بعيد إلا «مسلمات» فإنه يقرب، والعامل في الحال «فَأَنكِحُوهُنَّ»، ويحتمل أن يكون «فَأَنكِحُوهُنَّ يَأْذِنَ أَهْلِيهِنَّ» كلاماً تاماً ثم استأنف: «وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُرْؤَجَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ» فيكون العامل: «وَأَتَوْهُنَّ»، ويكون معنى الإحصان: التزويج.

والمسافحات من الزواني: المبتذلات اللواتي هن سوق للزنى. ومتخذات الأخذان: هن المستترات اللواتي يصخبن واحداً واحداً ويزنين خفية. وهذان كانا نوعين في زنى الجاهلية، قاله ابن عباس، وعامر الشعبي، والضحاك، وغيرهم، وأيضاً فهو تقسيم عقلي لا يعطي الوجود، إلا أن تكون الزانية: إما لا ترد يد لأمس، وإما أن تختص من تقصير عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِيَ﴾ الآية - قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «أُحْصِيَ» على بناء الفعل للمفعول، وقرأ حمزة، والكسائي على بناء الفعل الفاعل، واختلف عن عاصم، فوجه الكلام

أن تكون القراءة الأولى بالتزويج، والثانية بالإسلام أو غيره مما هو من فعلهن، ولكن يدخل كل معنى منهما على الآخر. واختلف المتأولون فيما هو الإحصان هنا - فقال الجمهور: هو الإسلام، فإذا زنت الأمة المسلمة حُذت نصف حد الحرية، وإسلامها هو إحصانها الذي في الآية، وقالت فرقة: إحصانها الذي في الآية هو التزويج لحر، فإذا زنت الأمة المسلمة التي لم تتزوج فلا حد عليها، قال، سعيد بن جبير، والحسن، وقتادة. وقالت فرقة: الإحصان في الآية: التزوج، إلا أن الحد واجب على الأمة المسلمة بالسنة، وهي الحديث الصحيح في مسلم والبخاري (أنه قيل: يا رسول الله، الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ فأوجب عليها الحد).

قال الزهري: فالمتزوجة محدودة بالقرآن، والمسلمة غير المتزوجة محدودة بالحديث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الحديث والسؤال من الصحابة يقتضي أنهم فهموا من القرآن أن معنى ﴿أَحْصَيْنَ﴾: تزوجسن، وجواب النبي ﷺ على ذلك يقتضي تقرير المعنى، ومن أراد أن يضعف قول من قال: «إنه الإسلام» - بأن الصفة لهن بالإيمان قد تقدمت وتقررت - فذلك غير لازم لأنه جائز أن يقطع في الكلام ويزيد، فإذا كن على هذه الحالة المتقدمة من الإيمان فإن أتيين بفاحشة فعليهن، وذلك سائغ صحيح.

والفاحشة هنا: الزنى بقرينة إلزام الحد، و﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾ - في هذه الآية

:- الحرائر، إذ هي الصفة المشروطة في الحد الكامل، والرجم لا يتنصف، فلم يرد في الآية بإجماع، ثم اختلف - فقال ابن عباس والجمهور: على الأمة نصف المائة لا غير ذلك، وقال الطبري وجماعة من التابعين: على الأمة نصف المائة ونصف المدة، وهي نفي ستة أشهر، والإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى نكاح الأمة.

والعنت في اللغة: المشقة. وقالت طائفة: المقصد به ما هنا الزنى، قاله مجاهد، وقال ابن

عباس: ما أزلحفت نكاح الأمة عن الزنى إلا قريباً، قال: والعنت: الزنى، وقاله عطية العوفي، والضحاك، وقالت طائفة: الإثم، وقالت طائفة: الحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية تحتل ذلك كله، وكل ما يعنت عاجلاً وآجلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصِدُّوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعني عن نكاح الإماء. قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، والسدي، وابن عباس رضي الله عنهما، وهذا ندب إلى الترك، وعلمته ما يؤدي إليه نكاح الإماء من استرقاق الولد ومهنتهن. وهذه الجملة ابتداء وخبر تقديره: وصبركم خير لكم. ﴿وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ﴾ أي: لمن فعل وتزوج.

٢٦ - ٢٨ تفسير قوله تعالى:

اختلف النحاة في اللام من قوله:

سورة النساء

سورة النساء

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُبَيِّلُوا مِيزًا عَظِيمًا ﴿٢٦﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَيْعَةً عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا وَظَلَمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيُ عَلَيْهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٩﴾ إِنْ تَجَدَّبُوا كِبَارًا مَأْنَهُنَّ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا مَا نَهَى اللَّهُ بِهِ، بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ لَزِجَالٍ نَصِيبٌ وَمِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣١﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٢﴾

٨٣

﴿يُسَبِّحْنَ﴾ - فمذهب سيبويه - رحمه الله :- أن التقدير: لأن يبين، والمفعول مضمَر، تقديره: يريد الله هذا، فإن كان لام الجر، أو لام كي فلا بد فيهما من تقدير (أن) لأنهما لا يدخلان إلا على الأسماء. وقال الفراء والكوفيون: اللام نفسها بمنزلة (أن) - وهو ضعيف. ونظير هذه اللام قول الشاعر:

أريد لأتسى ذكرها...

وقال بعض النحاة: إرادتي لأتسى. ﴿رَبِّدِكُمْ﴾ بمعنى: يرشدكم، لا يتوجه غير ذلك بقرينة السُنن. والسُنن: الطرق ووجوه الأمور وأنهاؤها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر من قوة هذا الكلام أن شرعنا في المشروعات كشرعة من قبلنا،

وليس ذلك كذلك، وإنما هذه الهداية في أحد أمرين: إما في أنا خطبنا في كل قصة نهياً وأمرأ، كما خطبوا هم أيضاً في قصصهم، وشرع لنا كما شرع لهم، فهدينا سُنَنهم في ذلك وإن اختلفت أحكامنا وأحكامهم، والأمر الثاني أن هدينا سُنَنهم في أن أطعنا وسمعنا كما سمعوا وأطاعوا، فوقع التماثل من هذه الجهة.

والذين من قبلنا: هم المؤمنون في كل شريعة، وتوبة الله على عبده هي رجوعه به عن المعاصي إلى الطاعات، وتوفيقه له. و﴿عَلِيمٌ﴾ هنا بحسب ما تقدم من سُنَن الشرائع وموضوع المصالح، و﴿حَكِيمٌ﴾ أي: مصيب بالأشياء مواضعها بحسب الحكمة والإنقان.

وتكرار إرادة الله التوبة على عباده تقوية للإخبار الأول، وليس المقصد في هذه الآية إلا الإخبار عن إرادة الذين يتبعون الشهوات، فقدمت إرادة الله توطئة مظهرة لفساد إرادة متبوعي الشهوات، واختلف المتأولون في متبوعي الشهوات - فقال مجاهد: هم الزناة، وقال السدي: هم اليهود والنصارى، وقالت فرقة: هم اليهود خاصة، لأنهم أرادوا أن يتبعهم المسلمون في نكاح الأخوات من الأب، وقال ابن زيد: ذلك على العموم في هؤلاء، وفي كل متبع شهوة، ورجحه الطبري.

وقرأ الجمهور: ﴿يُرِيدُ﴾ بسكون الياء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿مَيْلًا﴾ بفتح الياء. وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ

عَنْكُمْ﴾ - المقصد الظاهر بهذه الآية أنها في تخفيف الله تعالى ترك نكاح الإمام بإباحة ذلك، وأن إخباره عن ضعف الإنسان إنما هو في باب النساء، أي: لما علمنا ضَعْفَكُمْ عن الصبر عن النساء خففنا عنكم بإباحة الإمام، وكذلك قال مجاهد، وابن زيد، وطاوس. وقال طاوس: ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ثم بعد هذا المقصد تخرج الآية في مخرج التفضل، لأنها تتناول كل ما خفف الله تعالى عن عباده، وجعله الدين يسراً، ويقع الإخبار عن ضعف الإنسان عاماً حسباً هو في نفسه ضعيف يستميله هواه في الأغلب. و﴿الْإِنْسَانُ﴾ رفع على ما لم يُسَمَّ فاعله، و﴿ضَعِيفًا﴾ حال.

وقرأ ابن عباس، ومجاهد: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ على بناء الفعل للفاعل، و﴿ضَعِيفًا﴾ حال أيضاً على هذه القراءة، ويصح أن يكن ﴿خَلَقَ﴾ بمعنى جَعَلَ فيكسبها ذلك قوة التعدي إلى مفعولين، فيكون قوله: ﴿ضَعِيفًا﴾ مفعولاً ثانياً.

٢٩ - ٣٠ تفسير قوله تعالى: هذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن إن كانت تجارة فكلوها.

وقرأ المدنيون، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو: ﴿تجارة﴾ بالرفع على تمام (كان)، وأنها بمعنى: وقّع. وقرأت فرقة هي الكوفيون: حمزة، وعاصم، والكسائي: ﴿بِحِكْمَةٍ﴾ بالنصب على نقصان

(كان). وهو اختيار أبي عبيد.

وهما قولان قويان: إلا أن تمام (كان) يرجع عند بعض، لأنها صلة ل﴿أَنَّ﴾ فهي محطوفة عن درجتها إذا كانت سليمة من صلة وغيرها، وهذا ترجيح ليس بالقوي، ولكنه حسن، و﴿أَنَّ﴾ في موضع نصب. ومن نصب ﴿بِحِكْمَةٍ﴾ جعل اسم (كان) مضمرأ تقديره: الأموال أموال تجارة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، أو يكون التقدير: إلا أن تكون التجارة تجارة، ومثل ذلك قول الشاعر:

.....

إذا كان يوماً ذا كواكب أشنأ أي: إذا كان اليوم يوماً، والاستثناء منقطع في كل تقدير، وفي قراءة الرفع. فأكل الأموال بالتجارة جائز بإجماع الأمة، والجمهور على جواز الغبن في التجارة، مثال ذلك: أن يبيع الرجل ياقوتة بدرهم وهي تساوي مائة، فذلك جائز، ويعضده حديث النبي ﷺ: «لا يبيع حاضر لباد»، لأنه إنما أراد بذلك أن يبيع البادي باجتهاده، ولا يمنع الحاضر الحاضر من رزق الله في غبنه. وقالت فرقة: الغبن إذا تجاوز الثلث مردود، وإنما أبيح منه المتقارب المتعارف في التجارات، وأما المتفاحش الفادح فلا، وقاله ابن وهب من أصحاب مالك رحمه الله.

و﴿عَنْ رَأْيٍ﴾ معناه: عن رضا، إلا أنها جاءت من المفاعلة، إذ التجارة من اثنين، واختلف أهل العلم في التراضي - فقال طائفة: تمامه وجزمه بافتراق الأبدان بعد

عقدة البيع، أو بأن يقول أحدهما لصاحبه: اختر، فيقول: قد اخترت، وذلك بعد العقدة أيضاً، فينجزم حينئذ، هذا هو قول الشافعي وجماعة من الصحابة، وحجته حديث النبي ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا إلا بيع الخيار»، وهو حديث ابن عمر، وأبي هريرة، ورأبهما - وهما الراويان - أنه افتراق الأبدان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والفرق لا يكون حقيقة إلا بالأبدان، لأنه من صفات الجواهر.

وقال مالك، وأبو حنيفة رحمه الله: تمام التراضي أن يعقد البيع بالألسنة فتنجزم العقدة بذلك ويرتفع الخيار، وقالوا في الحديث المتقدم: إنه التفرق بالقول، واحتج بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَكُنِ اللَّهُ كُفْلًا مِّنْ سَعَتِهِ﴾، فهذه فرقة بالقول لأنها بالطلاق.

قال من احتج للشافعي: بل هي فرقة بالأبدان، بدليل تشية الضمير. والطلاق لا حظ للمرأة فيه، وإنما حظها في فرقة البدن التي هي ثمرة الطلاق، قال الشافعي: ولو كان معنى قوله: ﴿يَتَفَرَّقَا﴾ بالقول الذي هو العقد لبطلت الفائدة في قوله: «البيعان بالخيار»، لأنه لا يشك في أن كل ذي سلعة مخير ما لم يعقد، فجاء الإخبار لا طائل فيه.

قال من احتج لمالك: إنما القصد في الحديث الإخبار عن وجوب ثبوت العقد، فجاء قوله: «البيعان بالخيار» توطئة لذلك، وإن كانت التوطئة معلومة فإنها تهيب النفس

لاستشعار ثبوت العقد ولزومها.

واستدل الشافعي بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يسم الرجل على سوم أخيه، ولا يبيع الرجل على بيع أخيه» فجعلها مرتبتين، لأن حالة البيعين بعد العقد قبل التفرق تقتضي أن يُفسد مُفسد بزيادة في السلعة فيختار رُبها حل الصفقة الأولى، فنهى النبي ﷺ عن ذلك الإفساد، ألا ترى أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه»، فهي في درجة: «لا يسم»، ولم يقل: «لا ينكح على نكاح أخيه» لأنه لا درجة بعد عقد النكاح تقتضي تخيراً بإجماع من الأمة.

قال من يحتج لمالك رحمه الله: قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يسم» «ولا يبيع» هي درجة واحدة كلها قبل العقد، وقال: «لا يبيع» تجزؤاً في «لا يسم» - إذ ماله إلى البيع، فهي جميعاً بمنزلة قوله: «لا يخطب» - والعقد الجازم فيهما جميعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله في الحديث: «إلا يبيع الخيار» معناه عند المالكيين: المتساومان بالخيار ما لم يعقدا، فإذا عقدا بطل الخيار، إلا في بيع الخيار الذي عقد من أوله على خيار مدة ما، فإنه لا يبطل الخيار فيه.

ومعناه عند الشافعيين: المتبايعان - بعد عقدهما - مخيران ما داما في مجلسهما، إلا يبيعاً يقول فيه أحدهما لصاحبه: اختر، فيختار، فإن الخيار ينقطع بينهما وإن لم يتفرقا، فإن فرض بيع خيار فالمعنى: إلا بيع

الخيار فإنه يبقى الخيار بعد التفرق بالأبدان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ - قرأ الحسن: ﴿وَلَا تُقْتَلُوا﴾ على الكثير، فأجمع المتأولون أن المقصد بهذه الآية النهي عن أن يقتل بعض الناس بعضها، ثم لفظها يتناول أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه للقتل، أو بأن يحملها على غرر ربما مات منه، فهذا كله يتناول النهي، وقد احتج عمرو بن العاص بهذه الآية حين امتنع من الاغتسال بالماء البارد خوفاً على نفسه منه، فقرر رسول الله ﷺ احتجاجه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْعَلْ ذَلِكْ عُدُوًّا وَظُلْمًا﴾، اختلف المتأولون في المشار إليه بـ «ذلِكَ» - فقال عطاء: «ذلِكَ» عائد على القتل، لأنه أقرب مذكور. وقالت فرقة: «ذلِكَ» عائد على أكل المال بالباطل وقتل النفس، لأن النهي عنهما جاء مُتَّسِقاً مسروداً، ثم ورد الوعيد حسب النهي. وقالت فرقة: «ذلِكَ» عائد على كل ما نهى عنه من القضايا من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْعَلْ ذَلِكْ﴾. وقال الطبري: «ذلِكَ» عائد على ما نهى عنه من آخر وعيد، وذلك قوله تعالى: ﴿يَكَايِهَا الذَّيْنِ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا﴾، لأن كل ما نهى عنه من أول السورة قُرِنَ به وعيد إلا من قوله: ﴿يَكَايِهَا الذَّيْنِ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا﴾ فإنه والنواهي بعده لا وعيد معها إلا قوله: ﴿وَمَن يَقْعَلْ ذَلِكْ عُدُوًّا وَظُلْمًا﴾.

والعدوان: تجاوز الحد. و ﴿تُضْلِيهِ﴾ معناه: نُجِسُهُ حرَّها كما تعرض الشاة المَضْلِيَّة، أي: نحرقه بها.

وقرأ الأعمش والنخعي: ﴿تُضْلِيهِ﴾ بفتح النون، وقراءة الجمهور بضم النون على نقل صلي بالهمز، وقراءة هذين على لغة من يقول: ضليته ناراً بمعنى: أصليته، وحكى الزجاج أنها قد قرئت: ﴿تُضْلِيهِ﴾ بفتح الصاد وشد اللام المكسورة، ويسير ذلك على الله عز وجل، لأن حجته بالغة وحكمه لا معقب له.

﴿٣١﴾ تفسير قوله تعالى:

﴿تَجْتَنِبُوا﴾ معناه: تدعون جانباً، وقرأ ابن مسعود، وابن جبير: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبِيرَ﴾، وقرأ المفضل عن عاصم ﴿يَكْفُرَ﴾، ﴿وَيَذْخِلْكُمْ﴾ على علامة الغائب، وقرأ الباقون بالنون، والقراءتان حستان، وقرأ ابن عباس: ﴿عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ بزيادة (من)، وقرأ السبعة سوى نافع: ﴿مَذْخَلًا﴾ بضم الميم، وقرأ نافع: ﴿مَذْخَلًا﴾ بالفتح، وقد رواه أيضاً أبو بكر عن عاصم ها هنا، وفي الحج، ولم يختلف في سورة بني إسرائيل في ﴿مَذْخَلٍ﴾، ﴿تَخْرُجُ صِدْقٍ﴾ أنهما بضم الميم.

قال أبو علي: ﴿مَذْخَلًا﴾ بالفتح - يحتمل أن يكون مصدرًا، والعامل فيه فعل يدل عليه الظاهر، التقدير: ويدخلكم فتدخلون مَذْخَلًا، ويحتمل أن يكون مكاناً فيعمل فيه الفعل الظاهر، وكذلك يحتمل ﴿مَذْخَلًا﴾ بضم الميم للوجهين، وإذا لم يعمل الفعل الظاهر فمعموله الثاني

محذوف، تقديره: ويدخلكم الجنة. واختلف أهل العلم في الكبائر - فقال علي بن أبي طالب: «هي سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف، والتعزُّب بعد الهجرة». وقال عبيد بن عمير: «الكبائر سبع، في كل واحدة منها آية في كتاب الله عز وجل».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر كقول علي، وجعل الآية في التعزُّب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ الآية. ووقع في البخاري - في كتاب الحدود، في باب رمي المحصنات: «اتَّقُوا السَّعْيَ الموقوفات، الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المُحْصَنَاتِ الغافلات المؤمنات». وقال عبدالله بن عمر: «هي تسع، الإشراك بالله، والقتل، والفرار، والقذف، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وإلحاد في المسجد الحرام، والذي يستسحر، وبكاء الوالدين من العقوق». قال عبدالله بن مسعود، وإبراهيم النخعي: هي في جميع ما نُهي عنه من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها، وهي: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا﴾. وقال عبدالله بن مسعود: «هي أربع أيضاً: الإشراك بالله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله». وروي أيضاً عن ابن مسعود: «هي ثلاث: القنوط، واليأس، والأمن

المتقدمة». وقال ابن عباس أيضاً، وغيره: «الكبائر: كل ما ورد عليه وعيد بنار، أو عذاب، أو لعنة، أو ما أشبه ذلك». وقالت فرقة من الأصوليين: هي في هذا الموضع أنواع الشرك التي لا تصلح معها الأعمال، وقال رجل لابن عباس: أخبرني عن الكبائر السبع، فقال: «هي إلى السبعين أقرب». وقال ابن عباس: «كل ما نهى الله عنه فهو كبير»، فهنا يدخل الزنى، وشرب الخمر، والزور، والغيبة، وغير ذلك مما قد نُص عليه في أحاديث لم يُقصد الحصر للكبائر بها، بل ذُكر بعضها مثلاً، وعلى هذا القول أئمة الكلام: القاضي، وأبو المعالي، وغيرهما، قالوا: وإنما قيل: صغيرة، بالإضافة إلى أكبر منها، وهي في نفسها كبيرة من حيث المعصية بالجميع واحد.

وهذه الآية يتعاضد معها حديث رسول الله ﷺ في كتاب الوضوء من مسلم (عن عثمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمرٍ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت بكبيرة، وذلك الدهر كله»).

واختلف العلماء في هذه المسألة - فجماعة من الفقهاء وأهل الحديث يرون أن الرجل إذا اجتنب الكبائر، وامتنل الفرائض كفرت صفاته كالنظر وشبهه قطعاً بظاهر هذه الآية، وظاهر الحديث. وأما الأصوليون فقالوا: لا يجب على القطع تكفير

الصغائر باجتناب الكبائر، وإنما يحمل ذلك على غلبه الظن وقوة الرجاء، والمشية ثابتة، ودل على ذلك أنه لو قطعنا لمجتنب الكبائر وممثل الفرائض بتكفير صغائره قطعاً لكانت له في حكم المباح الذي يقطع بأنه لا تباعة فيه، وذلك نقض لعري الشريعة، ومحمل الكبائر عند الأصوليين في هذه الآية أجناس الكفر، والآية التي قيدت الحكم فترد إليها هذه المطلقات كلها قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

و ﴿كَرِيمًا﴾ يقتضي كرم الفضيلة ونفي العيوب، كما تقول: ثوب كريم، وكريم المخذ. وهذه آية رجاء، روي عن عبدالله بن مسعود أنه قال: خمس آيات من سورة النساء هي أحب إلي من الدنيا جميعاً - قوله: ﴿إِنْ تَحِبَّبُوا﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ سَوْءًا أَرَّ يَطْلُبْ﴾ الآية، وقوله أيضاً: ﴿يُعَذِّبُهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ الآية.

تفسير قوله تعالى:

سبب الآية أن النساء قلن: ليتنا استوتينا مع الرجال في الميراث، وشركناهم في الغزو، وروي أن أم سلمة قالت ذلك أو نحوه، وقال الرجال: ليت لنا في الآخرة حظاً زائداً على النساء، كما لنا عليهن في الدنيا، فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن في تمنيهم هذا تحكماً على الشريعة، وتطرفاً إلى الدفع في صدر

حكم الله، فهذا نهى عن كل تمنٍّ لخلاف حكم شرعي، ويدخل في النهي أن يتمنى الرجل حال الآخر من دين أو دنيا، على أن يذهب ما عند الآخر، إذ هذا هو الحسد بعينه، وقد كره بعض العلماء أن يتمنى أحد حال رجل ينصبه في فكره وإن لم يتمن زوال حاله، هذا في نعم الدنيا، وأما في الأعمال الصالحة فذلك هو الحسن، وأما إذا تمنى المرء على الله من غير أن يقرن أمنته بشيء مما قدمنا فذلك جائز، وذلك موجود في حديث النبي ﷺ في قوله: «وَيَذُتْ أَنْ أَقْتُلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أَحْيَا فَأُقْتَلَ»، وفي غير موضع، ولقوله تعالى: ﴿وَسَلُّوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ الآية - قال قتادة: معناه: من الميراث، لأن العرب كانت لا تورث النساء. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف، ولفظه الاكتساب ترد عليه رداً يئناً، ولكنه يتركب على قول النساء: ليتنا ساوينا الرجال في الميراث، فكأنه قيل بسببهن: لا تتمنوا هذا فلكل نصيبه، وقالت فرقة: معناه: من الأجر والحسنات، فكأنه قيل للناس: لا تتمنوا في أمر خلاف ما حكم الله به، لاختيار ترونها أنتم، فإن الله قد جعل لكل أحد نصيباً من الأجر والفضل بحسب اكتسابه فيما شرع له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول هو الواضح بين الأعم. وقالت فرقة: معناه: لا تتمنوا خلاف ما حد الله في تفضيله، فإنه تعالى قد

جعل لكل أحد مكاسب تختص به، فهي نصيبه، قد جعل الجهاد والإنفاق وسغي المعيشة وحمل الكلف كالأحكام والإمارة والحسبة وغير ذلك للرجال، وجعل الحمل ومشقته وحسن الثبيل وحفظ غيب الزوج وخدمة البيوت للنساء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كالقول الذي قبله، إلا أنه فارقه بتقسيم الأعمال. وفي تعليقه النصيب بالاكتساب حصصاً على العمل، وتنبه على كسب الخير.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿وَأَسْأَلُوا﴾ بالهمز وسكون السين، وقرأ الكسائي وابن كثير: ﴿وَسَلُّوا﴾ ألقيا حركة الهمزة على السين، وهذا حيث وقعت اللفظة إلا في قوله: ﴿وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ فإنهم أجمعوا على الهمز فيه، قال سعيد بن جبيرة، وليث بن أبي سليم: هذا في العبادات، والذين، وأعمال البر، ليس في فضل الدنيا. وقال الجمهور: ذلك على العموم، وهو الذي يقتضيه اللفظ، وقوله: ﴿وَسَلُّوا﴾ يقتضي مفعولاً ثانياً، فهو - عند بعض النحويين - في قوله: ﴿بَيْنَ فَضْلِهِ﴾، التقدير: وأسألوا الله فضله، وسيبويه لا يجيز هذا لأن فيه حذف (من) في الواجب، والمفعول عنده مضمّر تقديره: وأسألوا الله الجنة، أو كثيراً، أو حظاً من فضله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأصح، ويحسن عندي أن يُقدّر المفعول: أمانيتكم، إذ ما تقدم يحسن هذا التقدير.

وقوله: ﴿يَكُنْ شَيْءٌ عَلَيْكُمْ﴾

عقدت أيمانكم حلفهم أو ذمتهم،
وقرأ حمزة - في رواية علي بن كيشة
عنه -: ﴿عَقَدْتُ﴾ مشددة القاف.

واختلف المتأولون في من المراد بـ
﴿الَّذِينَ﴾ - فقال الحسن، وابن
عباس، وابن جبير، وقتادة،
وغيرهم: هم الأحلاف، فإن العرب
كانت تتوارث بالحلف، فشدد الله
ذلك بهذه الآية، ثم نسخ بآية
الأنفال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَيْنَهُمْ أَوْلَىٰ
بِمَعْنَى فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، وقال ابن
عباس أيضاً: هم الذين كان
رسول الله ﷺ آخى بينهم، فإنهم
كانوا يتوارثون بهذه الآية حتى نسخ
ذلك بما تقدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ورود لابن عباس أن المهاجرين كانوا
يرثون الأنصار دون ذوي رحمهم،
للأخوة التي آخى رسول الله ﷺ
بينهم فنزلت الآية في ذلك ناسخة،
وبقي إيتاء النصيب من النصر
والمعونة أو من المال على جهة
الندب في الوصية.

وقال سعيد بن المسيب: هم الأنباء
الذين كانوا يَتَّبِعُونَ، والنصيب الذي
أمر الناس بإيتائه هو الوصية لا الميراث.
وقال ابن عباس أيضاً: هم
الأحلاف إلا أن النصيب هو المؤازرة
في الحق، والنصر، والوفاء
بالحلف، لا الميراث.

وروي عن الحسن أنها في قوم
يوصى لهم فيموت الموصى له قبل
نفوذ الوصية وجوبها، فأمر الموصى
أن يؤديها إلى ورثة الموصى له.

ولفظه المعاقدة والأيمان ترجح أن
المراد: الأحلاف، لأن ما ذكر من

والصديق، والحليف،
والمعتق، والمعتق،
والوارث، والعبد فيما
حكى ابن سيدة، ويحسن
هنا من هذا الاشتراك:
الورثة، لأنها تصلح على
تأويل: ولكل أحد، وعلى
تأويل: ولكل شيء،
وبذلك فُسِّر قتادة،
والسدي، وابن عباس،
وغيرهم أن الموالى:
العصبة والورثة. قال ابن
زيد: لما أسلمت العجم
سُئِلُوا موالى استعارة
وتشبيهاً، وذلك في
قول الله تعالى: ﴿لَنْ لَمْ
تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانَكُمْ فِي

الَّذِينَ وَمَوْلَاكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقد سُمِّي قوم من العجم ببني العم.
و﴿يَتَا﴾ متعلقة بشيء، تقديره:
ولكل شيء مما ترك الوالدان
والأقربون جعلنا ورثة، وهي متعلقة -
على تأويل: ولكل أحد - بفعل
مضمر تقديره: ولكل أحد جعلنا
موالى يرثون مما ترك الوالدان
والأقربون، ويحتمل - على هذا - أن
تتعلق (من) بـ ﴿مَوْلَايَ﴾. وقوله:
﴿وَالَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء، والخبر في
قوله: ﴿فَتَأْتُوهُمْ﴾.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمر،
وابن عامر: ﴿عَاقَدْتُ﴾ على
المفاعلة، أي: أيمان هؤلاء عاقدت
أولئك، وقرأ عاصم، وحمزة،
والكسائي: ﴿عَقَدْتُ﴾ بتخفيف
القاف على حذف مفعول تقديره:

الرِّجَالُ قَوْمُوتٍ عَلَى النَّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ
عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالَّذِينَ لَحِثُ
قَتِينَتٌ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي نَخَافُونَ
شُرُوهُمْ فَيعْظُوهُمْ وَهُمْ هَجَرُوهُمْ فِي الْمَصَاحِبِ
وَأَصْرُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ
بَنِيهَا فَأَبْعَثُوا حُكَّامًا مِنْ أَهْلِهِ وَحُكَّامًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ
يُرِيدُوا إِصْلَاحًا يَفِقَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ
ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ
وَأَنْتِ السَّبِيلُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ
كَانَ مُخْتَالًا فَتُورًا الَّذِينَ يَتَحَلَّوْنَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْإِخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَادُوا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا

معناه: إن علم الله قد أوجب
الإصابة والإنقاذ والإحكام، فلا
تعارضوا بتمن ولا غيره، وهذه الآية
تقتضي أن الله يعلم الأشياء،
والمعقودات توجب أنه يعلم المعدومات
الجائز وقوعها وإن لم تكن أشياء،
والآية لا تناقض ذلك، بل وقفت
على بعض معلوماته وأمسكت عن
بعض.

﴿٣٣﴾ - تفسير قوله تعالى:
(كُلُّ) إنما تستعمل مضافةً ظَهَرَ
المضاف إليه أو تقدر، فهي بمثابة:
(قَبْلُ وَبَعْدُ) ولذلك أجاز بعض
النحاة: مرزئ بكل - على حدِّ (قبل
وبعد)، فالمقدر هنا على قول فرقة:
ولكل أحد - وعلى قول فرقة: ولكل
شيء، يعني: التركة.

والمولى - في كلام العرب - لفظه
يشارك فيها: القريب والقاربة،

غير الأحلاف ليس في جميعه معاقدة ولا أيمان.

و ﴿شَهِيدًا﴾ معناه: إن الله شهيد بينكم على المعاقدة والصلة، فأؤفوا بالعهد بحسب ذلك مراقبة ورهبة.

وقوله تعالى: ﴿الزَّيَالُ قَوْمٌ﴾ الآية - قَوْمٌ: قَال، بناءً مبالغته، وهو من القيام على الشيء، والاستبداد بالنظر فيه، وحفظه بالاجتهاد، فقيام الرجال على النساء هو على هذا الحد، وتعليل ذلك بالفضيلة والنفقة يقتضي أن للرجال عليهم استيلاء وملكا له.

قال ابن عباس: الرجال أمراء على النساء، وعلى هذا قال أهل التأويل، و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿يَمَا فَكَلَ اللَّهُ﴾ مصدريه، ولذلك استغنت عن العائد، وكذلك: ﴿وَيَمَا أَنْفَقُوا﴾، والفضيلة: هي الغزو، وكمال الدين، والعقل، وما أشبهه، والإنفاق: هو المهر، والنفقة المستمرة على الزوجات.

وقيل: سبب هذه الآية أن سعد بن الربيع لطم زوجه حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، فجاءت مع أبيها إلى رسول الله ﷺ، فأمر أن تلطمه كما لطمها، فنزلت الآية مبيحة للرجال تأديب نسايتهم، فدعاهم رسول الله ﷺ، ونقض الحكم الأول، وقال: «أردت شيئا وما أردت الله خيرا»، وفي طريق آخر: «أردت شيئا وأرد الله غيره»، وقيل: إن في هذا الحكم المردود نزلت: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، وقيل: سببها قول أم سلمة المتقدم، أي: لما

تمنى النساء درجة الرجال عرفن وجه الفضيلة.

والصلاح في قوله: ﴿وَالْمُتَلَبِّثَاتُ﴾ هو الصلاح في الدين. و ﴿وَتَزَيَّنَّتْ﴾ معناه: مطيحات، والقنوت: الطاعة، ومعناه: لأزواجهن، أو لله في أزواجهن، وغير ذلك. وقال الزجاج: إنها الصلاة، وهذا هنا بعيد.

و ﴿لَلْغَيْبِ﴾ معناه: كل ما غاب عن علم زوجها مما استرته، وذلك يعم حال غيب الزوج وحال حضوره، وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «خَيْرُ النِّسَاءِ امْرَأَةٌ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهَا سَرْتُكَ، وَإِذَا أَمَرْتُهَا أَطَاعَتْكَ، وَإِذَا غَبْتَ عَنْهَا حَفِظْتُكَ فِي مَالِكَ وَفِي نَفْسِهَا»، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية.

وفي مصحف ابن مسعود: «فالصالح قَوَانِثُ حَوَافِظُ»، وهذا بناء يختص بالموثث، وقال ابن جني: «والتكسير أشبه لفظاً بالمعنى، إذ هو يعطي الكثرة وهي المقصود هنا».

و ﴿يَمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ - الجمهور على رفع اسم الله بإسناد الفعل إليه، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿اللَّهُ﴾ بالنصب على إعمال: ﴿حَفِظَ﴾، أما قراءة الرفع ف [مَا] مصدريه تقديره: يحفظ الله، ويصح أن تكون بمعنى (الذي)، ويكون العائد الذي في [حَفِظَ] ضمير نصب، ويكون المعنى: إما حفظ الله ورعايته التي لا يتم أمر دونها، وإما أوامره ونواهيها للنساء، فكأنها حفظه، فمعناه: أن النساء يحفظن بإرادته وقدرته - وأما قراءة ابن القعقاع ﴿يَمَا﴾

حَفِظَ اللَّهُ﴾ فالأولى أن تكون [مَا] بمعنى (الذي)، وفي [حَفِظَ] ضمير مرفوع، والمعنى: حافظات للغيب بطاعة وخوف وبر ودين حَفِظْنَ الله في أوامره حين امْتَثَلْنَها. وقيل: يصح أن تكون [مَا] مصدرية على أن تقدير الكلام: بما حفظن الله، وينحذف الضمير، وفي حذفه تبح لا يجوز إلا في الشعر كما قال:

.....
فَإِنَّ الْحَوَادِثَ أَوْذَى بِهَا
يريد: أو دين، والمعنى: يحفظن الله في أمره حين امتثلنه، وقال ابن جني: الكلام على حذف مضاف تقديره: بما حفظ دين الله، أو أمر الله. وفي مصحف ابن مسعود: «بما حفظ الله فأصلحوا إليهن».

و﴿وَالَّتِي﴾ في موضع رفع بالابتداء، والخبر ﴿يُؤْطَرَفُ﴾، ويصح أن تكون في موضع نصب بفعل مضمّر تقديره: وعطوا اللواتي تخافون نشوزهن، كقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ على قراءة من قرأها بالنصب، قال سيبويه: النصب القياس، إلا أن الرفع أكثر في كلامهم، وحكي عن سيبويه أن تقدير الآية عنده: وفيما يتلى عليكم اللاتي. قالت فرقة: معنى ﴿تَحَاوَنَ﴾: تعلمون وتَتَقَرَّبُونَ، وذهبوا في ذلك إلى أن وقوع النشوز هو الذي يوجب الرعظ، واحتجوا في جواز وقوع الخوف بمعنى اليقين بقول أبي مخجن:

وَلَا تَذْفُقُنِّي بِالْقَلَاةِ فَلَئِنِّي
أَخَافُ إِذَا مَا مِثُّ أَلَا أَدُوقُهَا
وقالت فرقة: الخوف - ها هنا - على بابه في التوقع، لأن الرعظ وما

بعده إنما هو في دوام ما ظهر من مبادئ ما يتخوف.

والنشوز: أن تتعوج المرأة، وترتفع في خلقها، وتستعلي على زوجها وهو من نشز الأرض، يقال: ناشز، وناشص، ومنه بيت الأعشى:

تَجَلَّلَهَا شَيْخٌ عِشَاءً فَأَصْبَحَتْ
قُضَاعِيَةً تَأْتِي الْكَوَاهِنَ نَائِصًا
و ﴿يُظَوِّرُونَ﴾ معناه: ذكروهن أمر الله، واستدعوهن إلى ما يجب عليهن بكتاب الله وسنة نبيه، وقرأ إبراهيم النخعي: ﴿فِي الْمَضْجَعِ﴾، وهو واحد يدل على الجمع.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿وَأَفْجُرُونَهُنَّ﴾ - فقالت فرقة: معناه: جَنَّبُوا جَمَاعَهُنَّ، وجعلوا ﴿فِي﴾ للوعاء على بابها دون حذف، قال ابن عباس: يضاجعها ويوليها ظهره ولا يجامعها، وقال مجاهد: جَنَّبُوا مضاجعتن، فيتقدر على هذا القول حذف تقديره: واهجروهن برفض المضاجع، أو بترك المضاجع، وقال سعيد بن جبير: هي هجرة الكلام، أي: لا تكلموهن، وأعرضوا عنهن، فيقدر حذف تقديره: واهجروهن في سبب المضاجع حتى يراجفنها، وقال ابن عباس أيضاً: معناه: وقلوا لهن هجراً من القول، أي: إغلاظاً حتى يراجعن المضاجع، وهذا لا يصح تصرفه إلا على من حكى: هجر وأهجر بمعنى واحد وقال الطبري: معناه: اربطوهن بالهजार كما يربط البعير به، وهو حبل يُشد به البعير، فهي في معنى: اضربوهن ونحوها، ورُجِحَ الطبري منزعه هذا، وقدح في سائر

الآقوال، وفي كلامه كله في هذا الموضع نظر.

والضرب في هذه الآية هو ضرب الأدب غير المبرح وهو الذي لا يكسر عظماً، ولا يشين جارحة، وقال النبي ﷺ: «اضربوا النساء إذا عصيكنم في معروف ضرباً غير مبرح»، وقال عطاء: قلت لابن عباس: ما الضرب غير المبرح؟ قال: بالشراك ونحوه، وروي عن ابن شهاب أنه قال: لا قصاص بين الرجل وامرأته إلا في النفس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تجاوز، قال غيره: إلا في النفس والجراح، وهذه العظة والهجرة والضرب مراتب، إن وقعت الطاعة عند إحداها لم يتعد إلى سائرهما.

و ﴿يَتَوَّأْنَ﴾ معناه: تطلبوا، و ﴿سَبِيلًا﴾ أي: إلى الأذى، وهو التعنيت والتعسف بقول أو فعل، وهذا نهي عن ظلمهن بغير واجب بعد تقدير الفضل عليهن، والتمكين من أدبهن، وحسن معه الاتصاف بالملؤ والكبر، أي: قدره فوق كل قدر، ويده بالقدرة فوق كل يد، فلا يستعلي أحد على امرأته، فالله بالمرصاد، وينظر هذا إلى حديث ابن مسعود: فصرفت وجهي فإذا رسول الله ﷺ يقول: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا العبد».

﴿٣٥﴾ تفسير قوله تعالى:

قَسَمْتُ هَذِهِ الْآيَةَ النِّسَاءَ تَقْسِيمًا عَقْلِيًّا، لأنها إما طاعة، وإما ناشزة، والنشز: إما من يرجع إلى الطوعية، وإما من يحتاج إلى الحكمين.

واختلف المتأولون أيضاً في الخوف - ها هنا - حسب ما تقدم، ولا يبعث الحكماء إلا مع شدة الخوف. والشقاق: مصدر شاق يشاق، وأجري (البين) مجرى الأسماء، وأزيل عنه الظرفية إذ هو بمعنى: حالهما وعشرتهما وصحبتهما، وهذا من الإيجاز الذي يدل فيه الظاهر على المقدر.

واختلف - من المأمور بالبعثة؟ فقيل: الحاكم، فإذا أعضل على الحاكم أمر الزوجين، وتعاذت عنه الحجج، واقتربت الشبه، واغتم الإنفاذ على أحدهما بعث حكمين من الأهل ليباشرا الأمر، وخص الأهل لأنهم مظنة العلم بباطن الأمر، ومظنة الإشفاق بسبب القرابة. وقيل: المخاطب الزوجان، وإليهما تقديم الحكمين، وهذا في مذهب مالك، والأول لريبعة وغيره.

واختلف الناس في المقدار الذي ينظر فيه الحكماء - فقال الطبري: قالت فرقة: لا ينظر الحكماء إلا فيما وكلهما به الزوجان، وصرحا بتقديمهما عليه، ترجم بهذا ثم أدخل عن علي غيره، وقال الحسن ابن أبي الحسن، وغيره: ينظر الحكماء في الإصلاح، وفي الأخذ والعطاء، إلا في الفرقة، فإنها ليست إليهما، وقالت فرقة: ينظر الحكماء في كل شيء، ويحملان على الظالم، ويُمضيان ما رأياه من بقاء أو فراق، وهذا هو مذهب مالك والجمهور من العلماء، وهو قول علي بن أبي طالب في «المدونة» وغيرها، وتأول الزجاج عليه ذلك، وأنه وكل

الْحَكَمَيْنِ عَلَى الْفِرْقَةِ، وَأَنَّهَا لِلْإِمَامِ،
وذلك وهم من أبي إسحق.

واختلف المتأولون في من المراد
بقوله: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾؟ فقال
مجاهد، وغيره: المراد الحكمان،
أي: إذا نصحا وقصدا الخير بورك
في وساطتهما، وقالت فرقة: المراد
الزوجان، والأول أظهر، وكذلك
الضمير في ﴿يَتَّبِعُهُمَا﴾ يحتمل
الأميرين، والأظهر أنه للزوجين،
والإتصاف بعليم خبير يشبه ما ذكر
من إرادة الإصلاح.

﴿٣٦﴾ تفسير قوله تعالى:

(الواو) لعطف جملة الكلام على
جملة غيرها، والعبادة: التذلل
بالطاعة، ومنه: طريق معبد، وبعبارة
معبد إذا كانا معلمين، و﴿إِسْكَانًا﴾
نصب على المصدر، والعامل فعل
مضمر تقديره: وأحسنوا بالوالدين
إحساناً، وما ذكر الطبري من أنه
نصب بالإغراء خطأ، والقيام بحقوق
الوالدين اللازمة لهما من التوقير
والصون والإنفاق - إذا احتاجا -
واجب، وسائر ذلك من وجوه البر،
والألطاف، وحسن القول، والتصنع
لهما مندوب إليه مؤكد فيه، وهو البر
الذي تُفَضَّلُ فيه الأم على الأب،
(حسب قوله عليه الصلاة والسلام
للذي قال له: من أبر؟ قال:
«أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال:
«أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «أَبَاكَ»،
ثم الأقرب فالأقرب)، وفي رواية:
«ثم أدناك أدناك». وقرأ ابن أبي
عبد: ﴿إِحْسَانًا﴾ بالرفع.

وذو القربى: هو القريب النسب من

قَبْلِ الْأَبِ وَالْأُمِّ، وهذا من الأمر
بصلة الرحم وحفظها، و﴿الَّتَيْنِ﴾:
جمع يتيم، وهو فاقد الأب قبل
البلوغ، وإن ورد في كلام العرب يتم
من قَبْلِ الْأُمِّ فهو مجاز واستعارة،
﴿وَالسَّكِينِ﴾: المفتقرون من
المسلمين الذين تحل لهم الزكاة،
وجاءوا بالسؤال.

واختلف في معنى ﴿وَالْجَارِ ذِي
الْقُرْبَى﴾ وفي معنى ﴿الْجُنُبِ﴾ - فقال
ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة،
 وغيرهم: الجار ذو القربى هو الجار
القريب النسب، والجار الجنب هو
الجار الأجنيبي الذي لا قرابة بينك
وبينه، وقال نوف الشامي: الجار ذو
القربى هو الجار المسلم، والجار
الجنب هو الجار اليهودي أو
النصراني، فهي عنده قرابة الإسلام،
وأجنيبة الكفر، وقالت فرقة: الجار ذو
القربى هو الجار القريب المسكن
منك، والجار الجنب هو البعيد
المسكن منك، وكأن هذا القول منتزع
من الحديث. (قالت عائشة: يا
رسول الله، إن لي جارين، فألى أيهما
أهدي؟ قال: «إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ يَا أُمَّ»).

واختلف الناس في حد الجيرة -
فقال الأوزاعي: أربعون داراً من كل
ناحية جيرة، وقالت فرقة: من سمع
إقامة الصلاة فهو جار ذلك المسجد،
ويقدر ذلك في الدور، وقالت فرقة:
من ساكن رجلاً في محلة أو مدينة
فهو جاره. والمجاورة مراتب بعضها
ألصق من بعض، أدناها الزوج، كما
قال الأعشى:

أَيَا جِسَارَتِي بِسِينِي ...

وبعد ذلك الجيرة الخُلط، ومنه
قول الشاعر:

سَائِلٌ مُجَاوِرٌ جَزَمَ هَلْ جَنَيْتَ لَهَا
خَرِباً تُفَرِّقُ بَيْنَ الْجِيرَةِ الْخُلْطِ
وحكى الطبري عن ميمون بن
مهران أن الجار ذا القربى أريد به
جار القريب، وهذا خطأ في اللسان،
لأنه جمع - على تأويله - بين الآف
والسلام والإضافة، وكأن وجه
الكلام: وجار ذي القربى.

وقرأ أبو حيو: وابن أبي عبيدة:
﴿وَالْجَارَ ذَا الْقُرْبَى﴾ بنصب
﴿وَالْجَارِ﴾، وحكى مكّي عن ابن
وهب أنه قال عن بعض الصحابة في
الجار الجنب: إنها زوجة الرجل.
وروى المفضل عن عاصم أنه قرأ:
﴿وَالْجَارَ الْجُنُبِ﴾ بفتح الجيم
وسكون النون.

و﴿الْجُنُبِ﴾ في هذه الآية معناه:
البعيد، والجنابة: البعد، ومنه قول
الشاعر وهو الأعشى:

أَتَيْتُ حُرَيْشاً زَائِراً عَنْ جَنَابَةٍ
فَكَانَ حُرَيْشٌ عَنْ عَطَائِي جَامِداً
ومنه قول الآخر، وهو علقمة بن
عبد:

فَلَا تَحْرَمْنِي نَائِلاً عَنْ جَنَابَةٍ
فَلِإِنِّي أَسْرُؤُ وَسَطُ الْقَبَابِ غَرِيبُ
وهو من الاجتناب، وهو أن يُتْرَكَ
الشيء جانباً، وسئل أعرابي عن
الجار الجنب فقال: هو الذي يجيء
فيحل حيث تقع عينك عليه، قال أبو
علي: جُنُبٌ: صفة كناية أُجِدُّ،
ومشية سُبُحٌ، وَجُنُبُ التَّطَهُّرِ مأخوذ
من الجُنُب.

وقال ابن عباس، وابن جبيرة،

من التوعد، وخص هاتين الصفتين هنا إذ مقتضاهما العجب والزهو، وذلك هو الحامل على الإخلال بالأصناف الذين تقدم أمر الله بالإحسان إليهم. ولكل صنف نوع من الإحسان يختص به، ولا يعوق عن الإحسان إليهم إلا العجب أو البخل. فلذلك نفى الله محبته عن المعجبين والباخلين على أحد التأويلين حسبما نذكره الآن بعد هذا، وقال أبو رجاء الهروي: لا تجده سبيء الملكة إلا وجدته مختلاً فخوراً، ولا عاقاً إلا وجدته جباراً شقياً، والفخر: عد المناقب تطاولاً بذلك.

(٣٧) - (٣٩) تفسير قوله تعالى:

قالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب بدل من ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ كَانَ مُحْتَاكاً فَخَوَّاهُ﴾، ومعناه - على هذا -: يبخلون بأموالهم، ﴿وَيَاْمُرُونَ النَّاسَ﴾ يعني: إخوانهم، ومن هو مَظْلُوء طاعتهم بالبخل بالأموال، فلا تنفق في شيء من وجوه الإحسان إلى من ذكره ﴿وَيَكْسُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، يعني: من الرزق والمال، فيجيء - على هذا - أن الباخلين مُنْفِيَةٌ عنهم محبة الله، والآية إذاً في المؤمنين، فالمعنى: أحسنوا أيها المؤمنون إلى من سُمي، فإن الله لا يحب مَنْ فيه الإخلال المانعة من الإحسان إليهم من المؤمنين، وأما الكافرون فإنه أعد لهم ﴿عَذَاباً مُهِيناً﴾، ففصل توعد المؤمنين من توعد الكافرين بأن جعل الأول عدم المحبة، والثاني عذاباً مهيناً.

المسافر على ظهر طريقه، وسُمي ابنه للزومه له، كما قيل: ابن ماءٍ للطائر الملازم للماء، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: لا يدخل الجنة ابن زنى، أي: ملازمه الذي يستحق بالمثابة عليه أن ينسب إليه، وذكر الطبري أن مجاهداً فسره بأنه المار عليك في سفره، وأن قتادة - وغيره - فسره بأنه الضيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله قول واحد.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يريد العبيد الأرقاء، ونسب المالك إلى اليمين إذ هي في المعتاد جارحة البطش والتغلب والتملك، فأضيفت هذه المعاني - وإن لم تكن بها - إليها تجوزاً، والعبيد موصى بهم في غير ما حديث يطول ذكرها، ويغني عن ذلك اشتهاؤها.

ومعنى ﴿لَا يُحِبُّ﴾ - في هذه الآية -: لا تظهر عليه آثار نعمه في الآخرة، لا آثار حُمدِه في الدنيا، فهي المحبة التي هي صفة فعل، أَبْغَدَهَا عَنْ صِفَةِ الْخِيَلَاءِ والفخر، يقال: خال الرجل يخول خولاً إذا تكبر وأعجب بنفسه، وأنشد الطبري:

فَإِنْ كُنْتَ سَيِّدَنَا سُدَّتْنَا
وَإِنْ كُنْتَ لِلْخَالِ فَادْقَبْ فَخَلْ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونفي المحبة عن هذه صفة ضرب

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً ﴿٣٩﴾ إِنْ لَا اللَّهُ يَظْلِمُ مِمَّا رَزَقَهُمْ وَلَا يُدْرِكُونَ تِلْكَ حَسَنَةٌ يَصْنَعُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَاكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَعْصُوا الرُّسُولَ لَوْ سَمِعْتُمْ إِلَّا أَرْضًا وَلَا يَكُونُ لِلَّهِ حَاجِدًا ﴿٤٢﴾ يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنَاكًا لِأَعْيُنِ سَبِيلٍ حَتَّى تَنْتَبِهُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيْمِمُوا أَحَدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَبْذُلُوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

وقتادة، ومجاهد، والضحاك: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ هو: الرفيق في السفر، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وابن أبي ليلى، وإبراهيم النخعي: الصاحب بالجانب: الزوجة، قال ابن زيد: هو الرجل يعترك ويُلِمُّ بك لتنفعه، وأسند الطبري (أن رسول الله ﷺ كان معه رجل من أصحابه وهما على راحلتين، فدخل رسول الله ﷺ غيضة فقطع قضيبين أحدهما معوج، وخرج فأعطى صاحبه القويم، وحبس هو المعوج، فقال له الرجل: كنت يا رسول الله ﷺ أحق بهذا، فقال له: يا فلان، إن كل صاحب يصحب آخر فإنه مسؤول عن صحبته ولو ساعة من نهار).

وقال المفسرون: ابن السبيل: هو

وقالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع بالابتداء، والخبر محذوف، تقديره - بعد قوله: ﴿مِنْ فَصْلِهِ﴾ -: مُعَذَّبُونَ، أو مجازون، أو نحوه. وقال الزجاج: الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا﴾ دَرَوْا وَإِنْ تِلْكَ حَسَنَةٌ يُفْعَلُهَا، وفي هذا تَكَلُّفٌ مَّا، والآية على هذا كله في كفار.

وقد روي أنها نزلت في أحبار اليهود بالمدينة، فإنهم بخلوا بالإعلام بصفة محمد عليه الصلاة والسلام، وبما عندهم من العلم في ذلك، وأمروا الناس بالبخل على جهتين: بأن قالوا لأتباعهم وعوامهم: اجحدوا أمر محمد وابخلوا به، وبأن قالوا للأنصار، لم تنفقوا أموالكم على هؤلاء المهاجرين فتفتقروا؟ ونحو هذا مروى عن مجاهد، وحضرمي، وابن زيد، وابن عباس.

وحقيقة البخل: منع ما في اليد، والشح: هو البخل الذي تقترون به الرغبة فيما في أيدي الناس، وكتمان الفضل هو - على هذا -: كتمان العلم، والتوعد بالعذاب المهيئ لهم.

وقرأ عيسى بن عمر، والحسن: ﴿بِالْبُخْلِ﴾ بضم الباء والخاء، وقرأ الجمهور بضم الباء وسكون الخاء، وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي «الحديد»: ﴿بِالْبُخْلِ﴾ بفتح الباء والخاء، وقرأ ابن الزبير، و قتادة، وجماعة بفتح الباء وسكون الخاء، وهي كلها لغات.

﴿وَأَعَدَدْنَا﴾ معناه: يَسِّرْنَا وَأَعَدَدْنَا

وأحضرنا، والعنيد: الحاضر. والمُهيين: الذين يقترون به خزي وذل. وهو أنكى وأشدُّ على المعذب.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ الآية - قال الطبري: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خفض عطف على ﴿الْكُفْرِيِّينَ﴾، ويصح أن يكون في موضع رفع عطفاً على ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ على تأويل من رآه مقطوعاً ورأى الخبر محذوفاً، وقال: إنها نزلت في اليهود. ويصح أن يكون في موضع رفع على العطف وحذف الخبر، وتقديره - بعد ﴿الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ -: مُعَذَّبُونَ. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في اليهود، قال الطبري: وهذا ضعيف، لأنه نفى عن هذه الصفة الإيمان بالله واليوم الآخر، واليهود ليسوا كذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقول مجاهد متجه على المبالغة والإلزام، إذ إيمانهم باليوم الآخر كلا إيمان، من حيث لا يتفهم.

وقال الجمهور: نزلت في المنافقين، وهذا هو الصحيح، وإنفاقهم: هو ما كانوا يعطون من زكاة، وينفقون في السفر مع رسول الله ﷺ رياءً ودفعاً عن أنفسهم، لا إيماناً بالله، ولا حياءً في دينه. و ﴿رِئَاءَ﴾ نصب على الحال من الضمير في ﴿يُنْفِقُونَ﴾، والفاعل: ﴿يُنْفِقُونَ﴾، ويكون قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ في الصلاة، لأن الحال لا تفرق إذا كانت مما هو في الصلاة، وحكى المهدوي أن الحال تصح أن تكون من ﴿الَّذِينَ﴾ فعلى

هذا يكون ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ مقطوعاً ليس من الصلاة، والأول أصح، وما حكى المهدوي ضعيف، ويحتمل أن يكون ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ في موضع الحال، أي: غير مؤمنين، فتكون الواو واو الحال.

والقرين: فاعيل بمعنى فاعل، من المقارنة، وهي: الملازمة والاصطحاب، وهي - ها هنا - مقارنة مع خُلطة وتواد، والإنسان كله يقارنه الشيطان، ولكن الموفق عاص له، ومنه قيل لما يُلْزَمُ مِنَ الْإِبْلِ والبقر: قرينان. وقيل للحبل الذي يُشْدَانُ به: قَرَن، قال الشاعر:

كَمْ دَخِلَ رَأْيِي لَمْ يَذْنِهِ أَحَدٌ
بَيْنَ الْقَرِينَيْنِ حَتَّى لَزَّهُ الْقَرْنُ
فالمعنى: ومن يكن الشيطان له مصاحباً وملازماً، أو شك أن يطيعه فتسوأ عاقبته، و ﴿قَرِينًا﴾ نصب على التمييز، والفاعل لـ ﴿سَاءَ﴾ مضمراً، تقديره: ساء القرين قريناً، على حدِّ (بشس)، وقرن الطبري هذه الآية بقوله تعالى: ﴿يَسَّسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، وذلك مردود، لأن ﴿بَدَلًا﴾ حال، وفي هذا نظر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ - [ما] رفع بالابتداء، و ﴿ذَا﴾ صلة، و ﴿عليهم﴾ خبر الابتداء، والتقدير: وأي شيء عليهم؟ ويصح أن تكون [ما] اسماً بانفرادها. و ﴿ذَا﴾ بمعنى الذي ابتداءً وخبر، وجواب [لوا] في قوله: ﴿مَاذَا﴾ فهو جواب مقدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكأن هذا الكلام يقتضي أن الإيمان متعلق بقدرتهم، ومن فعلهم. ولا

يقال لأحد: «ما عليك لو فعلت». إلا فيما هو مقدور له. وهذه شبهة للمعتزلة، والانفصال عنها أن المطلوب إنما هو تكسبهم واجتهادهم وإقبالهم على الإيمان، وأما الاختراع فالله المنفرد به، وفي هذا الكلام تفجع ما عليهم، واستدعاء جميل يقتضي حيطة وإشفاقاً.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾ إخبار يتضمن وعيداً، وينبه على سوء تواطئهم، أي: لا ينفعهم كتم مع علم الله تعالى بهم.

﴿يُثْقَلُ﴾ تفسير قوله تعالى:

﴿يُثْقَلُ﴾ مفعال من الثقل، والذرة: الصغيرة الحمراء من النمل، وهي أصغر ما يكون إذا مر عليها حول، لأنها تصغر وتجري كما تفعل الأنفى: تقول العرب: أفعى جارية، وهي أشدها، وقال امرؤ القيس:

مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطُّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحَوَّلٌ
مِنَ الذَّرَفِ فَوْقَ الْأَثْبِ مِنْهَا لَأَتَرَا
فالمحلول: الذي أتى عليه الحول، وقال حسان:

لَوْ يَدْبُ الْحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذُّرِّ
رُ عَلَيْهَا لَأَتَدَبَّشَهَا الْكُلُومُ
وعبر عن الذرة يزيد بن هارون بأنها دودة حمراء، وهي عبارة فاسدة، وروي عن ابن عباس: الذرة: رأس النملة، وقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ و﴿يُثْقَلُ﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿يَظْلِمُ﴾، والأول مضمَر، التقدير: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَلَا يَتَعَدَّى إِلَّا إِلَى مَفْعُولٍ

واحد، وإنما عُدِّي هنا إلى مفعولين بأن يقدر في معنى ما يتعدى إلى مفعولين، كأنه قال: إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْقُصُ، أَوْ لَا يَنْخُسُ، أَوْ لَا يَغْضِبُ، ويصح أن يكون نصب ﴿يُثْقَلُ﴾ على أنه بيان وصفة لمقدار الظلم المنفي، فيجيء - على هذا - نعتاً لمصدر محذوف، التقدير: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ ظِلْماً مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، كما تقول: إِنَّ الْأَمِيرَ لَا يَظْلِمُ قَلِيلاً وَلَا كَثِيراً، أي: لا يظلم ظلماً قليلاً ولا كثيراً، فعلى هذا وقف ﴿يَظْلِمُ﴾ على مفعول واحد، وقال قتادة عن نفسه - ورواه عن بعض العلماء -: «لأنَّ تفضل حسناتي سيئاتي بمِثْقَالِ ذَرَّةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعاً». وحذفت النون [تَكُنْ] لكثرة الاستعمال، وشبهها خفة بحروف المدِّ واللين.

وقرأ جمهور السبعة ﴿حَسَنَةً﴾ بالنصب على نقصان (كان)، واسمها مضمَر تقديره: وَإِنْ تَكِ زَنَةَ الذَّرَّةِ حَسَنَةً، وقرأ نافع وابن كثير ﴿حَسَنَةً﴾ بالرفع على تمام (كان). التقدير: وَإِنْ تَقَعِ حَسَنَةً، أَوْ تَوَجَّدِ حَسَنَةً، و﴿يُضْعِفُهَا﴾ جواب الشرط، وقرأ ابن كثير، وابن عامر: ﴿يُضْعِفُهَا﴾ مُشَدَّدَةُ الْعَيْنِ بِغَيْرِ أَلْفٍ، قال أبو علي: المعنى فيهما واحد، وهما لغتان، وقرأ الحسن: ﴿يُضْعِفُهَا﴾ بسكون الضاد وتخفيف العين. ومضاعفة الشيء في كلام العرب: زيادة مثله إليه، فإذا قلت: (ضَعُفْتُ)، فقد أتيت ببنية التكثير، وإذا كانت صيغة الفعل دون التكثير تقتضي الطي مرتين فبناء التكثير

يقتضي أكثر من المرتين إلى أقصى تريد من العدد، وإذا قلت: (ضَاعَفْتُ) فليس بِبِنْيَةٍ تكثير، ولكنه فعل صيغته دالة على الطي مرتين فما زاد. هذه أصول هذا الباب على مذهب الخليل وسيبويه، وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب المجاز أن (ضَاعَفْتُ) يقتضي مراراً كثيرة. و (ضَعُفْتُ) يقتضي مرتين، وقال مثله الطبري، ومنه نقل، ويدلُّ على تقارب الأمر في المعنى ما قرئ به في قوله. ﴿يُضْعِفُهَا كَذِبًا أَضْمَاقًا كَثِيرَةً﴾، فإنه قرئ: ﴿يُضَاعِفُهَا﴾، و ﴿يُضْعِفُهَا﴾، وما قرئ به في قوله تعالى: ﴿يُضْعِفُ لَهَا أَلْمَذَابَ ضِعْفَيْنِ﴾، فإنه قرئ: ﴿يُضْعِفُ لَهَا أَلْمَذَابَ ضِعْفَيْنِ﴾.

وقال بعض المتأولين: هذه الآية خص بها المهاجرون، لأن الله أعلم في كتابه أن الحسنة لكل مؤمن مضاعفة عشر مرار، وأعلم في هذه أنها مضاعفة مراراً كثيرة جداً حسب ما روى أبو هريرة من أنها تضاعف ألفي ألف مرة، وروى غيره من أنها تضاعف ألف ألف مرة، ولا يستقيم أن يتضاد الخبران، فهذه مخصوصة للمهاجرين السابقين حسبما روى عبدالله بن عمر: (أنها لما نزلت: ﴿بَيْنَ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثَرَاتِهَا﴾ في الناس كافة، قال رجل: فما للمهاجرين؟ فقال: ما هو أعظم من هذا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ﴾ الآية). فخصوا بهذا كما خصت نفقة سبيل الله بتضعيف سبعائة مرة، ولا يقع تضاد في الخبر.

وقال بعضهم: بل وعد بذلك

جميع المؤمنين، وروى في ذلك أحاديث وهي: (إن الله عز وجل يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فينادي: هذا فلان بن فلان، فمن كان له عنده حق فليقم، قال: فيحب الإنسان أن لو كان له يومئذ الحق على أبيه وابنه، فيأتي كل من له حق فيأخذ من حسناته حتى يقع الانتصاف، ولا يبقى له إلا وزن الذرة، فيقول الله تعالى: أضعفوها لعملي، واذهبوا به إلى الجنة)، وهذا يجمع معاني ما روي مما لم نذكره.

والآية تعم المؤمنين والكافرين - فأما المؤمنون فيجازون في الآخرة على مشاقيل الذر فما زاد، وأما الكافرون فما يفعلون من خير فتقع المكافأة عليه بنعم الدنيا، ويجيئون يوم القيامة ولا حسنة لهم.

و ﴿لَذَنَّبُوا﴾ معناه: من عنده، قال سيبويه: ولدن: هي لابتداء الغاية فهي تناسب أحد مواضع (من)، ولذلك ألتأما، ودخلت (من) عليها.

والأجر العظيم: الجنة، قاله ابن مسعود، وسعيد بن جبير، وابن زيد، والله إذا مَنَّ بتفضيله بلغ بعبده الغاية.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله تعالى:

تقدم في الآية قبلها الإعلام بتحقيق الأحكام يوم القيامة، فحسن - بعد ذلك - التنبيه على الحالة التي يحضر ذلك فيها، ويَجاء فيها بالشهداء على الأمم. ومعنى الآية: إن الله يأتي بالأنبياء شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب، ومعنى الأمة - في هذه الآية - غير المعنى المتعارف في إضافة الأمم إلى

الأنبياء، فإن المتعارف أن تريد بأمة محمد عليه الصلاة والسلام جميع من آمن به، وكذلك في كل نبي، وهي هنا: جميع من بعث إليه. من آمن منهم ومن كفر. وكذلك قال الأولون: إن الإشارة بـ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إلى كفار قريش وغيرهم من الكفار، وإنما خص كفار قريش بالذكر لأن وطأة الوعيد أشد عليهم منها على غيرهم.

و ﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب مفعول مقدم بفعل تقديره في آخر الآية: ترى حالهم، أو يكونون، أو نحوه، وقال مكي في الهداية: ﴿جَنَّاتٍ﴾ عامل في ﴿كَيْفَ﴾، وهذا خطأ.

وروي (أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه). وكذلك ذرفت عيناه عليه الصلاة والسلام حين قرأها عليه عبدالله بن مسعود في الحديث المشهور، وما ذكره الطبري من شهادة أمة محمد بتبليغ الرسل، وما جرى في معنى ذلك من القصص الذي ذكر مكي كسؤال اللوح المحفوظ، ثم إسرافيل، ثم جبريل، ثم الأنبياء - فليست هذه آيته، وإنما آيته: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف، ويصح أن يكون نصب - يوم - في هذا الموضع على الظرف، على أنه معرب من الأسماء غير المتمكنة، ويصح أن يكون نصبه على أنه مبني على النصب مع الأسماء غير المتمكنة، والود إنما هو في ذلك اليوم.

وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿تَسْوَى﴾

على إدغام التاء الثانية من (تَسْوَى)، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تَسْوَى﴾ بتخفيف السين وتشديد الواو، على حذف التاء الثانية المذكورة، وهما بمعنى واحد، واختلف فيه - فقالت فرقة: تنشق الأرض فيحصلون فيها، ثم تسوى هي في نفسها عليهم وبهم، وقالت فرقة: معناه: لو تسوى هي معهم في أن يكونوا تراباً كآبائهم، فجاء اللفظ على أن الأرض هي المسوية معهم، والمعنى إنما هو أنهم يستون مع الأرض، ففي اللفظ قلب يخرج على نحو اللغة التي حكاه سيبويه: أدخلت القلنسوة في رأسي، وأدخلت فمي في الحجر، وما جرى مجراه، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو: ﴿تَسْوَى﴾ على بناء الفعل للمفعول الذي لم يسم فاعله، فيكون الله تعالى يفعل ذلك على حسب المعنيين المتقدمين. قال أبو علي: إمالة الفتحة إلى الكسرة، والألف إلى الياء في: ﴿تَسْوَى﴾ حسنة.

قالت طائفة: معنى الآية أن الكفار لما يرون من الهول وشدة المخاوف يودون أن تسوى بهم الأرض فلا ينالهم ذلك الخوف، ثم استأنف الكلام فأخبر أنهم لا يكتفون حديثاً لنطق جوارحهم بذلك، حين يقول بعضهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فيقول الله: كذبتهم، ثم يُنطق جوارحهم فلا تكتم حديثاً، وهذا قول ابن عباس، وقال فيه: إن الله إذا جمع الأولين والآخرين ظن بعض الكفار أن الإنكار يُنجي فقالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فيقول الله:

كذبتم، ثم يُنطق جوارحهم فلا تكتب حديثاً، وهكذا فتح ابن عباس على سائل أشكل عليه الأمر. وقالت طائفة مثل القول الأول إلا أنها قالت: إنما استأنف الكلام بقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ليخبر عن أن الكتم لا ينفع وإن كتموا، لأن الله تعالى يعلم جميع أسرارهم وأحاديثهم، فمعنى ذلك: وليس ذلك المقام الهائل مقاماً ينفع فيه الكتم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الفرق بين هذين القولين أن الأول يقتضي أن الكتم لا ينفع بوجه، والآخر يقتضي أن الكتم لا ينفع وقع أو لم يقع، كما تقول: هذا مجلس لا يقال فيه باطل، وأنت تريد: لا ينتفع به ولا يستمع إليه. قالت طائفة: الكلام كله متصل، ومعناه: يود الذين كفروا لو تسوى به الأرض، ويؤدّون ألا يكتُموا الله حديثاً، وودهم لذلك إنما هو ندم على كذبهم حين قالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقالت طائفة: هي مواطن وفروق. وقالت طائفة: معنى الآية: يؤدّ الذين كفروا أن تُسوى بهم الأرض، وأنهم لم يكتُموا الله حديثاً، وهذا على جهة الندم على الكذب أيضاً، كما تقول: وددت أن أعزم كذا، ولا يكون كذا على جهة الفداء، أي: يفدون كتمانهم بأن تسوى بهم الأرض.

والرسول - في هذه الآية -: للجنس، شرف بالذكر، وهو مفرد دلّ على الجمع، وقرأ أبو السمال، وبحيى بن يغمز: ﴿وَعَصُوا

الرُّسُولَ﴾ بكسر الواو من: ﴿عَصُوا﴾.

تفسير قوله تعالى:

سبب التهي عن قرب الصلاة في حال سُكْر: أن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ شربت الخمر عند أحدهم قبل التحريم، فيهم أبو بكر، وعمر، وعلي، وعبدالرحمن بن عوف، فحضرت الصلاة فتقدمهم علي بن أبي طالب فقرأ: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾ فخلط فيها بأن قال: «أعبد ما تعبدون، وأنتم عابدون ما أعبد»، فنزلت الآية، وروي أن المصلي عبدالرحمن بن عوف.

وجمهور المفسرين على أن المراد سُكْر الخمر، إلا الضحاك فإنه قال: إنما المراد سكر النوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

والخطاب لجميع الأئمة الصاحين، أما السكران - إذا عدم الميز لسكره - فليس بمخاطب في ذلك الوقت، وإنما هو مخاطب إذا صحا بامثال ما يجب عليه، وبتكفير ما ضاع في وقت سكره من الأحكام التي تقرر تكليفه إياها قبل السكر، وليس في هذا تكليف ما لا يطاق على ما ذهب إليه بعض الناس.

وقرأت فرقة: ﴿سَكَارَى﴾ جمع: سَكَرَان، وقرأت فرقة: ﴿سُكْرَى﴾ بفتح السين، على مثال: فُعْلَى، وقرأ الأعمش: ﴿سُكْرَى﴾ بضم السين وسكون الكاف على مثال: فُعْلَى، وقرأ النخعي: ﴿سُكْرَى﴾ بفتح السين، قال أبو الفتح: هو تكسير (سكران) على (سكرى)، كما قالوا:

رُؤْيَى نِيَامًا، وكقولهم: هَلَكَى وَمَيَدَى في جمع: هَالِك، ومائد، ويحتمل أن يكون صفة لمؤنثة واحدة، كأن المعنى: وأنتم جماعة سُكْرَى. وأما ﴿سُكْرَى﴾ بضم السين فصفة لواحدة، كَحُبْلَى، والسُّكْرَى: انسداد الفهم، ومنه: سكرت الماء إذا سددت طريقه.

وقالت طائفة: الصلاة - هنا - العبادة المعروفة حسب السبب في نزول الآية. وقالت طائفة: الصلاة - هنا - المراد بها موضع الصلاة والصلاة معاً، لأنهم كانوا حينئذ لا يأتون المسجد إلا للصلاة، ولا يصلُّون إلا مجتمعين، فكانا متلازمين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما احتج إلى هذا الخلاف بحسب ما يأتي في: (عابري السبل).

ويظهر من قوله: ﴿حَقًّا تَكْتُمُونَ﴾ أن السكران لا يعلم ما يقول، ولذلك قال عثمان بن عفان رضي الله عنه وغيره: إن السكران لا يلزمه طلاقه، فأسقط عنه أحكام القول، لهذا، ولقول النبي ﷺ لِلَّذِي أَقْرَ بِالزَّنى: (أسكران أنت؟) فمعناه أنه لو كان سكران لم يلزمه الإقرار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبين طلاق السكران وإقراره بالزنى فرق، وذلك أن الطلاق، والإقرار بالمال، والقذف، وما أشبه هذا يتعلق به حقوق الغير من الآدميين، فيتهم السكران إن ادعى أنه لم يعلم، ويحكم عليه حكم العالِم، والإقرار بالزنى إنما هو حقٌّ لله تعالى فإذا ادعى فيه بعد الصُّحُو أنه كان غير

عالم دين، وأما أحكام الجنائيات فهي كلها لازمة للسكران.

﴿وَأَنْتُمْ شُرَكَاءُ﴾ ابتداء وخبر، جملة في موضع الحال، وحكي عن ابن فورك أنه قال: معنى الآية النهي عن السكر، أي: لا يكن منكم سكر فيقع قرب الصلاة، إذ المرء مدعو إلى الصلاة دأباً، والظاهر أن الأمر ليس كذلك، وقد روي أن الصحابة - بعد هذه الآية - كانوا يشربون ويقللون إثر الصبح وإثر العتمة، ولا تدخل عليهم صلاة إلا وهم صاحون.

وقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على موضع هذه الجملة المنصوبة، والجُنُب: هو غير الطاهر من إنزال أو مجاوزة ختان، هذا قول جمهور الأمة، وروي عن بعض الصحابة: لا غسل إلا على من أنزل، وهو من الجنابة وهي البعد كأنه جانب الطهر، أو من الجُنُب كأنه ضائع ومن بجنبه جنباً، وقرأ فرقة: ﴿جُنُبًا﴾ بإسكان النون.

و ﴿عَاكِرِي سَبِيلٍ﴾ هو من العبور، أي: الخطور والجواز، ومنه: عبر السفينة النهر، ومنه: ناقة غُبُر السَّيْرِ والفلاة والمهاجرة، أي تعبرها بسرعة السَّيْرِ، قال الشاعر وهي امرأة:

عَيْرَانَةٌ سُرُحُ الْيَدَيْنِ شِمْلَةٌ
غُبُرُ الْهَوَاجِرِ كَالْهَرْفِ الْخَاضِبِ

وقال علي بن أبي طالب: وابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والحكم، وغيرهم: عابر السبيل: هو المسافر، فلا يصح لأحد أن يقرب الصلاة وهو جنب إلا بعد

الغتسال إلا المسافر فإنه يَتَيَمَّمُ. وقال ابن عباس أيضاً، وابن مسعود، وعكرمة، والنخعي، وغيرهم: عابر السبيل: الخاطر في المسجد، وهو المقصود في الآية، وهذا يحتاج إلى ما تقدم من أن القول بأن الصلاة هي المسجد والمصلى، وروي بعضهم أن سبب نزول الآية (أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَتْ أَبْوَابُ دُورِهِمْ شَارِعَةً فِي الْمَسْجِدِ، فَإِذَا أَصَابَتْ أَحَدَهُمُ الْجَنَابَةُ اضْطُرَّ إِلَى الْمُرُورِ فِي الْمَسْجِدِ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ)، ثم نزلت: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْتَبَةً﴾ إلى آخر الآية بسبب عدم الصحابة الماء في غزوة «الْمُرَيْسِيعِ» حين أقاموا على التماس العقدة، هكذا قال الجمهور.

وقال النخعي: نزلت في قوم أصابتهم جراح ثم أجنبوا، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية، ذكر النقاش أن ذلك نزل بعبد الرحمن بن عوف، والمريض المقصود في هذه الآية هو الحضري، والذي يصح له التيمم هو الذي يخاف الموت لبرد الماء وللعلة به، وهذا يَتَيَمَّمُ بإجماع، إلا ما روي عن عطاء: أنه يتطهر وإن مات. والذي يخاف حدوث علة على علة، أو زيادة علة، والذي يخاف بطله براء، فهؤلاء يَتَيَمَّمُونَ بإجماع من المذهب فيما حفظت، والأسباب التي لا يجد المريض بها الماء هي:

إما عدم المناول، وإما خوف ما ذكرناه. وقال داود: كل من انطلق عليه اسم المريض فجاز له التيمم، وهذا قول خُلف، وإنما هو عند علماء الأمة المجذور، والمحسوب

والعلل المخوف عليها من الماء. والمسافر - في هذه الآية -: هو الغائب عن الحضرة، كان السفر مما تقصر فيه الصلاة أو لا تقصر، هذا مذهب مالك وجمهور الفقهاء، وقال الشافعي - في كتاب الأسراف -: وقال قوم: لا يَتَيَمَّمُ إلا في سفر يجوز فيه التقصير، وهذا ضعيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك قالت فرقة: لا يَتَيَمَّمُ في سفر معصية، وهذا أيضاً ضعيف. والأسباب التي لا يجد بها المسافر الماء هي: إما عدمه جملة، وإما خوف فوات الرفيق بسبب طلبه، وإما خوف على الرحل بسبب طلبه، وإما خوف سباح أو إذاية عليه.

واختلف في وقت إيقاعه التيمم - فقال الشافعي: في أول الوقت، وقال أبو حنيفة، وغيره: في آخر الوقت. وفرق مالك بين اليأس والعالم الطامع بإدراكه في الوقت، والجاهل بأمره جملة، وقال إسحق بن راهويه: لا يلزم المسافر طلب الماء إلا بين يديه وحوله، وقالت طائفة: يخرج من طلبه العَلَوَتَيْنِ ونحوهما، وفي مذهب مالك يمشي في طلبه ثلاثة أميال، وقال الشافعي: يمشي في طلبه ما لم يخف فوات رفيق، أو فوات الوقت. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن.

وأصل «الْعَلَايَةِ» ما انخفض من الأرض، وكانت العرب تقصد بقضاء حاجتها ذلك الصنف من المواضع، حتى كثر استعماله في قضاء الحاجة وصار عرفه، وقرأ قتادة، والزهري:

﴿مِنْ أَلْفَيْطٍ﴾ ساكنة الياء من غير ألف، قال ابن جنى: هو محذوف من فيعل، عين هذه الكلمة وار، وهذا اللفظ يجمع بالمعنى جميع الأحداث الناقضة للطهارة الصغرى، واختلف الناس في حصرها، وأنبل ما أعتقد في ذلك أن أنواع الأحداث ثلاثة: ما خرج من السبيلين معتاداً، وما أذهب العقل، واللمس. هذا على مذهب مالك، وعلى مذهب أبي حنيفة: ما خرج من النجاسات من الجسد، ولا يراعى المخرج ولا غيره، ولا يُعدّ اللمس فيها، وعلى مذهب الشافعي: ما خرج من السبيلين، ولا يراعى الاعتباد، والإجماع من الأحداث على تسعة: أربعة من الذكر وهي: البول، والمني، والودي، والمذي، وواحد من فرج المرأة وهو: دم الحيض، واثنان من الدبر وهما: الريح والغائط. وذهب العقل كالجنون، والإغماء، والنوم الثقيل - فهذه تنقض الطهارة الصغرى إجماعاً، وغير ذلك كاللمس، والدود يخرج من الدبر، وما أشبهه - مختلف فيه.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿لَتَسْمُ﴾، وهي في اللغة لفظة قد تقع لللمس الذي هو الجماع، وفي اللمس الذي هو جس اليد، والقبلة، ونحوه، إذ في جميع ذلك لَمَسَ. واختلف أهل العلم في موقعها هنا - فمالك رحمه الله يقول: اللفظة هنا على أتم عمومها تقتضي الوجهين، فالمُلامس باليد يتيمم، لأن اللمس نقض وضوءه.

وقالت طائفة: هي هنا مُخصصة للَمَسِ اليد، والجُنب لا ذُكر له إلا مع الماء، ولا سبيل له إلى التيمم، وإنما يغتسل الجُنب أو يدع الصلاة حتى يجد الماء، روي هذا القول عن عمر رضي الله عنه، وعن عبدالله بن مسعود وغيرهما. وقال أبو حنيفة: هي هنا مخصصة للَمَسِ الذي هو الجماع، فالجُنب يتيمم، واللامس باليد لم يجر له ذكر فليس يحدّث، ولا هو ناقض لوضوءه، فإذا قُبِلَ الرجل امرأته للذة لم ينتقض وضوءه. ومالك رحمه الله يرى أن اللمس ينتقض إذا كان للذة، ولا إذا ينقض إذا لم يقصد به اللذة، ولا إذا كان لابنة أو لأم، والشافعي رحمه الله يُعمم لفظة النساء، فإذا لمس الرجل عنده أمه أو ابنته على أي وجه كان انتقض وضوءه.

وعدم وجود الماء يترتب للمريض وللمسافر حسبما ذكرناه، ويترتب للمصحح الحاضر بالغلاء الذي يعم جميع الأصناف، واختلف فيه - فقال الحسن: يشتري الرجل الماء بماله كله ويبقى عديماً، وهذا قول ضعيف لأن دين الله يُسر، كما قال ﷺ، ويريد بنا اليسر، ولم يجعل علينا في الدين من حرج. وقالت طائفة: يشتري ما لم يزد على القيمة الثلث فصاعداً، وقالت طائفة: يشتري قيمة الدرهم بالدرهمين والثلاثة، ونحو هذا. وهذا كله في مذهب مالك رحمه الله، وقيل لأشهب: أتشتري القرية بعشرة دراهم؟ فقال: ما أرى ذلك على الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقدر هذه المسألة إنما هو بحسب غنى المشتري وحاجته، والوجه عندي أن يشتري ما لم يؤذ غلاؤه. ويترتب أيضاً عدم الماء للصحيح الحاضر بأن يُسجن أو يربط، وهذا هو الذي يقال فيه: إنه لم يجد ماء ولا تراباً كما ترجم البخاري، ففيه أربعة أقوال - فقال مالك، وابن نافع: لا يُصلي ولا يعيد، وقال ابن القاسم: يصلي ويعيد، وقال أشهب: يُصلي ولا يعيد، وقال أصبغ: لا يُصلي ويقضي. وإذا خاف الحضري فوات الوقت إن تناول الماء فَلِمَالِكِ رحمه الله قولان في «المدونة»: إنه يتيمم ولا يعيد، وقال: إنه يعيد، وفي الواضحة وغيرها عنه أنه يتناول الماء ويغتسل وإن طلعت الشمس، وعلى القول بأنه يتيمم ولا يعيد إذا بقي من الوقت شيء بقدر ما كان يتوضأ ويصلي ركعة، فقليل: يعيد، وقيل: لا يعيد.

ومعنى قوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾: اقصداوا، ومنه قول امرئ القيس: تَيَمَّمَتِ الْعَيْنُ الَّتِي عِنْدَ ضَارِجٍ يَفِيءُ عَلَيْهَا الظِّلُّ عَرْمَضَهَا طَائِيٍ ومنه قول أعشى بني ثعلبة: تَيَمَّمْتُ قَيْساً وَكَمْ دُونُهُ مِنْ الْأَرْضِ مِنْ مَهْمَةٍ ذِي شَرْزٍ ثم غلب هذا الاسم في الشرع على العبادة المعروفة.

والصعيد في اللغة: وجه الأرض، قاله الخليل وغيره، ومنه قول ذي الرمة:

كَأَنَّهُ بِالضُّحَى تَرْمِي الصَّعِيدَ بِهِ دَبَابَةٌ فِي عِظَامِ الرَّأْسِ خَرَطُومُ

واختلف الفقهاء فيه من أجل تقييد الآية إياه بالطيب - قالت طائفة: يتيمم بوجه الأرض، تراباً كان أو رملاً أو حجارة أو معدناً أو سبخة، وجعلت الطيب بمعنى: الطاهر، وهذا مذهب مالك، وقالت طائفة منهم: الطيب بمعنى: الحلال، هذا في هذا الموضع قلقي، وقال الشافعي وطائفة: الطيب بمعنى: المُثَبِّت، كما قال جل ذكره: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ﴾، فيجيء (الصعيد) على هذا: التراب، وهذه الطائفة لا تجيز التيمم بغير ذلك مما ذكرناه، فمكان الإجماع، أن يتيمم الرجل في تراب منبت طاهر غير منقول ولا مغصوب، وكان الإجماع في المنع: أن يتيمم الرجل على الذهب الصرّف، أو الفضة والياقوت والزمرد، أو الأطعمة كالخبز واللحم وغيرهما، أو على النجاسات، واختلف في غير هذا كالمعادن - فأجيز وهو مذهب مالك، ومُنْع وهو مذهب الشافعي، وأشار أبو الحسن اللخمي إلى أن الخلاف فيه موجود في المذهب، وأما الملح فأجيز في المذهب المعدني والجامد، ومُنْعاً، وأجيز المعدني، ومنع الجامد. والثلج في «المدونة» جواز، ولمالك في غيرها منعه، وذكر النقاش عن ابن علية وابن كيسان أنهم أجازا التيمم بالمسك والزعفران.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خطأ بحث من جهات.

وأما التراب المنقول في طبق وغيره - فجمهور المذهب جواز التيمم به، وفي المذهب المنع، وهو في غير

المذهب أكثر، وأما ما طيخ كالأجر والجص ففيه من المذهب قولان: الإجازة والمنع، وفي التيمم على الجدار خلاف، وأما التيمم على النبات والعود فاختلف فيه في مذهب مالك - فالجمهور على منع التيمم على العود، وفي مختصر الوّار: أنه جائز، وحكى الطبري في لفظة (الصعيد) اختلافاً - أنها الأرض الملساء، وأنها الأرض المستوية، وأن الصعيد: التراب، وأنه: وجه الأرض.

وترتيب القرآن الوجه قبل اليدين، وبه قال الجمهور، ووقع في حديث عمار في البخاري في بعض الطرق تقديم اليدين، وقاله بعض أهل العلم قياساً على تنكيس الوضوء، وتراعى في الوجه حدوده المعلومة في الوضوء، فالجمهور على أن استيعابه بالمسح في التيمم واجب، ويتبعه كما يصنع بالماء، وألا يقصد ترك شيء منه، وأجاز بعضهم ألا يتتبع كالغضوض في الخُفّين، وما بين الأصابع في اليدين، وهو في المذهب قول محمد بن مسلمة. ومذهب مالك في «المدونة» أن التيمم بضربتين، وقال ابن الجهم: التيمم واحدة، وقال مالك في كتاب «محمد»: إن تيمم بضربة أجزأه، وقال غيره في المذهب: يعيد في الوقت، وقال ابن نافع: يعيد أبداً، وقال مالك في «المدونة» يبدأ بأصابع اليسرى على أصابع اليمنى، ثم يمر كذلك إلى المرفق، ثم يلوي بالكف اليسرى على باطن الذراع الأيمن حتى يصل إلى الكوع، ثم يفعل

باليمنى على اليسرى كذلك. فظاهر هذا الكلام أنه يستغني عن مسح الكف بالأخرى، ووجهه أنهما في الإمرار على الذراع ماسحة مسحاً، قال ابن حبيب: يمر بعد ذلك على كفيه، فهذا مع تحكيم ظاهر «المدونة» خلاف. قال اللخمي: في كلام المدونة يريد: ثم يمسح كفه بالأخرى، فيجيء على تأويل أبي الحسن كلام ابن حبيب تفسيراً، وقالت طائفة: يبدأ بالشمال كما في «المدونة»، فإذا وصل على باطن الذراع إلى الرسغ مشى على الكف، ثم كذلك باليمنى في اليسرى. ووجه هذا القول ألا يترك من عضو بعد التلبس به موضعاً، ثم يحتاج إلى العودة إليه بعد غيره. وقالت طائفة: يتناول بالتراب كما يتناول بالماء في صورة الإمرار دون رتبة، وقال مالك في «المدونة»: يمسح يديه إلى المرفقين، فإن مسح إلى الكوعين أعاد في الوقت، وقال ابن نافع: يعيد أبداً، قال غيرهما: في المذهب: يمسح إلى الكوعين، وهذا قول مكحول وجماعة من العلماء، وفي غير المذهب يمسح الكفين فقط، وفي ذلك حديث عن عمار بن ياسر، وهو قول الشعبي، وقال ابن شهاب: يمسح إلى الآباط، (وذكر الطبري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لعائشة رضي الله عنها حين نزلت آية التيمم: إنك لمباركة، نزلت فيك رخصة، فضرينا ضربة لوجوهنا، وضربة بأيدينا إلى المناكب والآباط) وفي مصنف أبي داود عن الأعمش

في موالة، أو ما أشبه ذلك، وهذا بين في ألفاظها، فمن ذلك: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا﴾، أي: تدعوا الصراب في اجتنباهم، وتحسبهم غير أعداء، والله أعلم بهم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ خبر في ضمنه التحذير منهم، و﴿بِاللَّهِ﴾ في قوله: ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ﴾ في موضع رفع بتقدير زيادة الخافض، وفائدة زيادته تبين معنى الأمر في لفظ الخبر، أي: اكتفوا بالله، فالباء تدل على المراد من ذلك، ﴿وَيَا﴾ فصيلاً و﴿نَصِيرًا﴾ كذلك، من الولاية والنصر.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ الَّذِينَ هَآؤُا﴾ قال بعض المتأولين: ﴿بَيْنَ﴾ راجعة على ﴿الَّذِينَ﴾ الأولى، فهي - على هذا - متعلقة ب﴿تَرَى﴾. وقالت طائفة: هي متعلقة ب﴿نَصِيرًا﴾، والمعنى: ينصركم من الذين هادوا، فعلى هذين التأويلين لا يوقف في قوله: ﴿نَصِيرًا﴾، وقالت فرقة: هي لا ابتداء الكلام، وفيه إضمار تقديره: يُحَرِّقُونَ، هذا مذهب أبي علي، ونظيره قول الشاعر:

كَانَتْ مِنْ جَمَالِ أَبِي أَقْنِشٍ
يُقَنَّقَعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشَنْ
وقال الفراء وغيره: تقديره: (مَنْ)، ومثله قول ذي الرمة:

قَطَّلُوا وَمِنْهُمْ دَمْعُهُ سَابِقٌ لَهُ
وَأَخْرَيْشَنِي دَمْعَةُ الْعَيْنِ بِالنِّدِ
فعلى هذا التأويل يوقف في قوله: ﴿نَصِيرًا﴾، وقول سيبويه أصوب، لأن إضمار الموصول ثقيل، وإضمار الموصوف أسهل.

رؤية القلب، وهي علم بالشيء. وقال قوم: معناه: ألم تعلم. وقال آخرون: ألم تخبر، وهذا كله يتقارب. والرؤية بالقلب تصل بحرف الجر، وبغير حرف الجر. والمراد ب﴿الَّذِينَ﴾: اليهود، قاله قتادة وغيره، ثم اللفظ يتناول معهم النصاري، وقال ابن عباس: نزلت في رفاعه بن يزيد بن التابوت اليهودي.

و﴿أَوْثُوا﴾: أعطوا، والنصيب: الحظ، والكتاب: التوراة والإنجيل، وإنما جعل المعطي نصيباً في حق كل واحد منفرد لأنه لا يحصر علم الكتاب واحد بوجه.

و﴿يَشْرِكُونَ﴾ عبارة عن إشارهم الكفر وتركهم الإيمان، فكأنه أخذ وإعطاء، هذا قول جماعة. وقالت فرقة: أراد الذين كانوا يعطون أموالهم للأخبار على إقامة شرعهم، فهذا شراء على وجهه على هذا التأويل.

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ معناه: أن تكفروا، وقرأ السُّخَّعي: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا﴾ بالتاء منقوطة من فوق في ﴿تُرِيدُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية وما بعده تقتضي توبيخاً للمؤمنين على استنامة قوم منهم إلى أخبار اليهود في سؤال عن دين، أو

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكُنْ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكُنْ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٤﴾
مِنَ الَّذِينَ هَآؤُا يُحَرِّقُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنُقُولُونَ
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّا بِأَسْنِينِهِمْ
وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَنَبِّغْ لَكُمْ اللَّهُ إِلَهُكُمْ فَلَا تُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٥﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ إِيمَانُهَا نَزَّلْنَا
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ أَقْرَدَ هَآ
عَلَى أَذْيَارِهَا أَوْ لَنَعْنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَحْسَبَ السَّبْتَ وَكَانَ أَمْرُ
اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لِمَن يَشْرِكْ بِهِ وَمَن يَغْفِرْ لِمَا دُونَ
ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا
﴿٤٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ رَبُّونَا فَهُمْ عَلَىٰ عَظِيمَةٍ
وَلَا يَبْظَلُمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٨﴾ انْظُرْ كَيْفَ يَقْضُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَلِمَ
وَكَفَىٰ بِهِمْ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٤٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَلْطَفُوا بِاللَّهِ الْكِتَابَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥٠﴾

٨٦

(أن رسول الله ﷺ مسح إلى أنصاف ذارعيه)، ولم يقل بهذا الحديث أحد من العلماء فيما حفظت، وما حكى الداودي من أن الكوعين فرض، والمرافق سنة والآباط فضيلة - فكلام لا يعضده قياس ولا دليل، وإنما عثم قوم لفظة اليد فأوجبوه من المنكب، وقاس قوم على الوضوء فأوجبوه من المرافق، وهنا وقف جمهور الأمة، ووقف قوم مع الحديث في الكوعين، وقيس أيضاً على القطع، إذ هو حكم شرعي وتطهير، كما هذا تطهير، ووقف آخرون مع حديث عمار في الكفين، واختلف المذهب في تحريك الخاتم، وتخليل الأصابع على قولين: يجب، ولا يجب.

٤٤ - ٤٦ تفسير قوله تعالى:

الرؤية في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ من

و ﴿مَادُوا﴾ مأخوذ من هاد إذا تاب، أو من يهود بن يعقوب، وغيره التعريب، أو من التهود، وهو: الرويد من المشي واللّين في القول. ذكر هذه كلها الخليل، وقد تقدم شرحها وبيانها في سورة البقرة.

وتحريف الكلم على وجهين: إما بتغيير اللفظ، وقد فعلوا ذلك في الأقل - وإما بتغيير التأويل، وقد فعلوا ذلك في الأكثر، وإليه ذهب الطبري، وهذا كله في التوراة على قول الجمهور، وقالت طائفة: هو كلم القرآن، وقال مكي: كلام النبي محمد عليه الصلاة والسلام، فلا يكون التحريف على هذا إلا في التأويل. وقرأ النّحعي: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلَامَ﴾ بالألف.

ومن جعل [من] متعلقة بـ ﴿نَصِيرًا﴾ جعل ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ في موضع الحال، ومن جعلها منقطعة جعل ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ صفة.

وقوله تعالى عنهم: ﴿يَتَمَنَّاءَ وَعَصَيْنَا﴾ عبارة عن عتوهم في كفرهم وطفغانهم فيه.

و ﴿سَمِعَ﴾ لا يتصرف إلا من (أسمع)، و ﴿غَيْرُ مُسْمِعٍ﴾ يتخرج فيه معنيان: أحدهما: غير مأمور وغير صاغر، كأنه قال: غير أن تسمع مأموراً بذلك، والآخر: على وجه الدعاء، أي: لا سمعت، كما تقول: امض غير مصيب، وغير ذلك، فكانت اليهود إذا خاطبت النبي بـ (غَيْرُ مُسْمِعٍ) أرادت في الباطن الدعاء عليه، وأرت ظاهراً أنها تريد

تعظيمه، قال نحوه ابن عباس، وغيره، وكذلك ﴿زَعَنَّا﴾ كانوا يريدون منه في نفوسهم معنى الرعونة، وحكى مكي معنى رعاية الماشية، ويظهرون منه معنى المراعاة، فهذا معنى ليّ اللسان، فقال الزجاج: كان يريدون: اجعل اسمك لكلامنا مرعى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا جفاء لا يخاطب به نبي، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَزَعَنَّا﴾ - ومن قال: ﴿غَيْرُ مُسْمِعٍ﴾: غير مقبول منك فإنه لا يساعده التصريف، وقد حكاه الطبري عن الحسن، ومجاهد. و ﴿لِيًّا﴾ أصله لؤياً، قلبت الواو ياءً وأدغمت، و ﴿وَلَمَّا فِي الَّذِينَ﴾ أي: توهيناً له، وإظهاراً للاستخفاف به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا اللّي باللسان إلى خلاف ما في القلب موجود حتى الآن في بني إسرائيل، ويحفظ منه عصرنا أمثلة، إلا أنه لا يليق ذكرها بهذا الكتاب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ الآية، المعنى: لو أنهم آمنوا وسمعوا وأطاعوا، واختلف المتأولون في قوله: ﴿وَانظُرْنَا﴾ - فقال مجاهد، وعكرمة، وغيرهما: معناه: انتظرونا، بمعنى: افهمنا وتمهل علينا حتى نفهم عنك، ونعي قولك، وهذا كما قال الحطّبة:

وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ إِسَاءَةً صَادِرَةً لِلْخَمْسِ طَالَ بِهَا مَنْحِي وَتَشَاسِي وَقال فرقة: انظر معناه: انظر إلينا

فكأنه استدعاء اهتبالٍ وتَحَفٍّ، ومنه قول ابن الرقيات:

ظَاهِرَاتُ الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ يَنْظُرُ
نَ كَمَا تَنْظُرُ الْأَرَاكُ الظُّبَاءُ
و ﴿أَقَوْمٌ﴾ معناه: أعدل وأصوب.

واللعة: الإبعاد، فمعناه: أبعدهم من الهدى، و ﴿قَلِيلًا﴾ نعت، إما لإيمان، وإما لإنفر أو قوم، والمعنى مختلف - فمن عبر بالقلّة عن الإيمان قال: إما هي عبارة عن عَدَمِهِ على ما حكى سيويه من قولهم: «أرض قلما تنبت كذا»، وهي لا تُنبِتُهُ جملة، وإما قلل الإيمان لما قلّت الأشياء التي آمنوا بها فلم ينفعهم ذلك، وذلك أنهم كانوا يؤمنون بالتوحيد ويكفرون بمحمد وبجميع أوامر شريعته ونواهيها، ومن عبر بالقلّة عن النفر قال: لا يؤمن منهم إلا قليل كعبدالله بن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهما، وإذا قدرت الكلام: نفراً قليلاً، فهو نصب في موضع الحال.

١٧ - ١٨ تفسير قوله تعالى:

هذا خطاب لليهود والنصارى، و ﴿لِيَّا مَعَكُمْ﴾ معناه: من شرع وملة، لا لما كان معهم من مُبْدَلٍ ومُغَيَّرٍ.

والطامس: الدائر المُغَيَّرُ الأعلام، كما قال ذو الرمة:

مِنْ كُلِّ نَضَاجَةِ الدُّفْرِ إِذَا عَرِقَتْ
عُرْضَتُهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُوْلُ
ومن ذلك قيل للأعمى المسدودة عيناه: أعمى مطموس. وقالت طائفة: طَمَسُ الوجوه هنا: أن تعفى آثار الحواس فيه، وتزال الخلقة منها فترجع كسائر الأعضاء في الخلو من أعضاء الحواس،

فيكون الرُّدُّ على الأدبار في هذا الموضع بالمعنى، أي: خُلِّوه من الحواس دبراً لكونه عامراً بها، وقال ابن عباس، وعطية العوفي: طمس الوجوه أن تُزال العينان خاصة منها، وترد العينان في القفا، فيكون ذلك رداً على الدبر، ويمشي القهقري. وحكى الطبري عن فرقة أن طمس الوجوه أن تتغير أعلامها وتصير منابت للشعر، فذلك هو الرد على الدبر، وردُّ على هذا القول الطبري. وقال مالك رحمه الله: كان أول إسلام كعب أنه مرَّ برجل من الليل وهو يقرأ هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أَزْوَاجُهَا الْكَنَازَ بَامْوَئٍ يَأْمُرُكَ أَنْ تَكُونَ مَعَهُمْ﴾ فوضع كفيه على وجهه، ورجع القهقري إلى بيته، فأسلم مكانه وقال: والله لقد خفت ألا أبلغ بيتي حتى يطمس وجهي. وقال مجاهد، والحسن، والسدي، والضحاك: ذلك تجوز، وإنما المراد به وجوه الهدى والرشد، وطمسها: حتم الإضلال والصد عنها والتضيير إلى الكفر، وهو الرُّدُّ على الأدبار. وقال ابن زيد: الوجوه: هي أوطانهم وسكناهم في بلادهم التي خرجوا إليها، وطمسها: إخراجهم منها، والرد على الأدبار: هو رجوعهم إلى الشام من حيث أتوا أولاً.

و ﴿أَصْحَابُ الْغَنَابَةِ﴾ هم أهل أيلة الذين اعتدوا في السبت في الصيد حسبما تقدم، وكانت لعنتهم أن يُسَخَّروا خنازير وقردة، قاله قتادة، والحسن، والسدي.

و ﴿أَمَرَ اللَّهُ﴾ في هذا الموضع: واحد الأمور، دال على جنسها، لا واحد الأوامر، فهي عبارة عن المخلوقات كالعذاب والمحنة هنا، أو ما اقتضاه كل موضع مما يختص به.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية. هذه مسألة الوعد والوعيد، وتلخيص الكلام فيها أن يقال: الناس أربعة أصناف: كافر مات على كفره فهذا مخلد في النار بإجماع، ومؤمن محسن لم يذنب قط ومات على ذلك، فهذا في الجنة محتوم عليه حسب الخبر من الله تعالى بإجماع، وتائب مات على توبته، فهو عند أهل السنة وجمهور فقهاء الأمة لاحق بالمؤمن المحسن، إلا أن قانون المتكلمين أنه في المشيئة، ومذنب مات قبل توبته، فهذا موضع الخلاف - فقالت المرجئة: هو في الجنة بإيمانه، ولا تضره سيئاته، وبنوا هذه المقالة على أن جعلوا آيات الوعيد كلها مخصصة في الكفار، وآيات الوعد عامة في المؤمنين، تقيهم وعاصيهم. وقالت المعتزلة: إذا كان صاحب كبيرة فهو في النار ولا بد. وقالت الخوارج: إذا كان صاحب كبيرة أو صغيرة فهو في النار مخلد، ولا إيمان له، لأنهم يرون كل الذنوب كبائر، وبنوا هذه المقالة على أن جعلوا آيات الوعد كلها مخصصة في المؤمن المحسن الذي لم يعص قط، والمؤمن التائب، وجعلوا آيات الوعيد عامة في العصاة كفاراً أو مؤمنين وقال أهل

السنة والحق: آيات الوعد ظاهرة العموم، وآيات الوعيد ظاهرة العموم، ولا يصح نفوذ كلها لوجهه بسبب تعارضها، كقوله تعالى: ﴿لَا يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَهُمْ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْسُغْ بِرَأْسِهِ مَاءً ذَرًّا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ وهذه الآية هي الحاكمة ببيان ما تعارض من آيات، فلا بد أن نقول: إن آيات الوعد لفظها لفظ عموم، والمراد بها الخصوص في المؤمن المحسن، وفي التائب، وفيمن سبق في علمه تعالى العفو عنه دون تعذيب من العصاة، وإن آيات الوعيد لفظها لفظ عموم، والمراد بها الخصوص في الكفرة، وفيمن سبق في علمه تعالى أنه يعذبه من العصاة، ونحكم بقولنا: «هذه الآية» النص في موضع النزاع، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فإنها جَلَّتْ الشُّكُّ، وردت على الطائفتين: المرجئة، والمعتزلة، وذلك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فصل مجمع عليه، وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ فصل قاطع بالمعتزلة، راد على قولهم رداً لا محيد عنه، ولو وقفنا في هذا الموضع من الكلام لصح قول المرجئة، فجاء قوله: ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ رَاداً عَلَيْهِمْ، موجِباً أن غُفِرَ ما دون الشرك إنما هو لغيرهم دون قوم، بخلاف ما زعموه من أنه مغفور لكل مؤمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورامت المعتزلة أن ترد هذه الآية إلى

قولها بأن قالوا: ﴿مَنْ يَشَآءُ﴾: هو التائب، وما أرادوه فاسد، لأن فائدة التقسيم في الآية كانت تبطل، إذ التائب من الشرك يُغفر له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورامت المرجئة أن ترد الآية إلى قولها بأن قالوا: ﴿لِمَنْ يَشَآءُ﴾: معناه: يشاء أن يؤمن، لا يشاء أن يغفر له، فالمشيئة معلقة بالإيمان ممن يؤمن، لا بغفران الله لمن يغفر له، ويُرد ذلك بأن الآية تقتضي - على هذا التأويل - أن قوله: ﴿وَيَغْفِرْ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ عام في كافر ومؤمن، فإذا خص المؤمنين بقوله: ﴿لِمَنْ يَشَآءُ﴾، وجب أن الكافرين لا يُغفر لهم ما دون ذلك، ويجازون به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك - وإن كان مما قد قيل - فهو مما لم يقصد بالآية على تأويل أحد من العلماء، ويُرد على هذا المنزاع بطول التقسيم، لأن الشرك مغفور أيضاً لمن شاء الله أن يؤمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن آيات الوعيد التي احتج بها المعتزلة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مَوْمِئَةً مُتَعَدَّةً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ حَبْلًا فِيهَا وَعَصَبٌ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَسَنَةٌ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، والآية مخرجة عنهم لوجوه منها: أن الأصح في تأويل قوله تعالى: ﴿مُتَعَدَّةً﴾ ما قاله ابن عباس: إنه أراد: مستجلاً، وإذا استحَل أحد ما حَرَّمَ الله عليه فقد كفر، ويدل على ما قال ابن عباس أنا

نجد الله تعالى في أمر القتل إذا ذكر القصاص لم يذكر الوعيد، وإذا ذكر الوعيد بالنار لم يذكر القصاص، فيظهر أن القصاص للقاتل المؤمن العاصي، والوعيد للكافر، ومنها من جهة أخرى أن الخلود - إذا لم يقرن بقوله: ﴿أَبَدًا﴾ - فجائز أن يراد به الزمن المتطول، إذ ذلك معهود في كلام العرب، ألا ترى أنهم يحيون الملوك بخلد الله ملكك؟ ومن ذلك قول امرئ القيس:

وَهَلْ يَحْسُنُ إِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ
قَلِيلُ الْهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالٍ؟
وقال عبدالله بن عمرو: لما نزلت: ﴿قُلْ يَكْبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ قال بعض أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام: والشرك يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَآءُ﴾.

ولما حُت على أنه لا يغفر الشرك ذكر قبح موضعه، وقدره في الذنوب. والفرية: أشد مراتب الكذب قبحاً، وهو الاختلاف للعصية.

١٩ - ٢٠ تفسير قوله تعالى:

هذا لفظ عام في ظاهره، ولم يختلف أحد من المتأولين في أن

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ مَجْدَ لَهُ نَصِيرٌ ﴿٤٩﴾
أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلَكِ فَإِذَا لَا يُؤْمِنُونَ النَّاسُ نَقِيرًا ﴿٥٠﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥١﴾
فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِمْ وَبِعِزَّتِهِمْ مَنْ صَدَعَهُ وَكَفَى بِهِمْ سَعِيرًا ﴿٥٢﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَصَلَّيْتُ جُلُودَهُمْ بَلَدْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٣﴾
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا فِي آرَافٍ مُطَهَّرَةٍ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٤﴾
إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ لَبِظِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾
بَصِيرًا ﴿٥٦﴾ تَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٧﴾

٨٧

المراد اليهود، واختلف في المعنى الذي زكوا أنفسهم - فقال قتادة، والحسن: ذلك قولهم: ﴿نَحْنُ آبَتُوكُمْ﴾، وقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾. وقال الضحاك، والسدي: ذلك قولهم: لا ذنوب لنا، وما فعلناه نهاراً غُفر ليلاً، وما فعلناه ليلاً غُفر نهاراً، ونحن كالأطفال في عدم الذنوب، وقال مجاهد، وأبو مالك، وعكرمة: تقديمهم أولادهم الصغار للصلاة لأنهم لا ذنوب لهم.

قال المؤلف:

وهذا يبعد من مقصد الآية، وقال ابن عباس: ذلك قولهم: أبناؤنا الذين ماتوا يشفعون لنا، ويزكوننا، وقال عبدالله بن مسعود: ذلك ثناء بعضهم على بعض، ومدحهم لهم، وتركيتهم لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فتقتضي هذه الآية الغض من المزكي لنفسه بلسانه، والإعلام بأن الزاكي المزكى من حسنت أفعاله، وزكاه الله عز وجل، والضمير في: ﴿يَزْكُو﴾ عائد على المذكورين ممن زكى نفسه، أو ممن يُزكّيه الله تعالى، وغير هذين الصنفين علم أن الله تعالى لا يظلمهم من غير هذه الآية. وقرأت طائفة: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالتاء على الخطاب.

والفتيل: هو ما قتل، فهو فعيل بمعنى مفعول، وقال ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وغيرهم: الفتيل: الخيط الذي في شق نواة التمرة، وقال ابن عباس، وأبو مالك، والسدي: هو ما خرج من بين إصبعك أو فكك إذا قتلتهما، وهذا كله يرجع إلى الكناية عن تحقير الشيء وتصغيره، وأن الله لا يظلمه، ولا شيء دونه في الصغر، فكيف بما فوقه. ونصبه على مفعول ثانٍ بـ ﴿يُظْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ﴾ الآية، بين أن تزكيتهم أنفسهم كانت بالباطل والكذب، ويقوي أن تزكية كانت بقولهم: ﴿لَحْنُ أَبْنَاءِ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ إذ الافتراء في هذه المقالة أمكن.

و ﴿كَيْفَ﴾ يصح أن يكون في موضع نصب بـ ﴿يَقْتَرُونَ﴾، ويصح أن يكون في موضع رفع بالابتداء، والخبر في قوله: ﴿يَقْتَرُونَ﴾.

و ﴿وَكُنْ بِهٖ إِتْمَانًا تَنِيَّتًا﴾ خبر في مضمته تعجب وتعجب من الأمر، ولذلك دخلت الباء لتدل على معنى

الأمر بالتعجب، وأن يكفي لهم بهذا الكذب إثمًا، ولا يطلب لهم غيره، إذ هو موبق ومهلك، و ﴿إِتْمَانًا﴾ نصب على التمييز.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾ الآية. ظاهرها يعم اليهود والنصارى، ولكن أجمع المتأولون على أن المراد بها طائفة من اليهود، والقصاص يبين ذلك، واختلف في الجبت والطاغوت - فقال عكرمة

وغیره: هما في هذا الموضع صنمان كانا لقريش، وذلك أن كعب بن الأشرف وجماعة معه وردوا مكة محرضين على قتال رسول الله ﷺ، فقالت لهم قريش: إنكم أهل الكتاب، ومحمد صاحب كتاب، ونحن لا نأمنكم أن تكونوا معه إلا أن تسجدوا لهذين الصنمين اللذين لنا، ففعلوا، ففي ذلك نزلت هذه الآية. وقال ابن عباس: الجبت هنا: حُبِّي بن أخطب، والطاغوت: كعب بن الأشرف، فالمراد على هذه الآية القوم الذين كانوا معهما من بني إسرائيل لإيمانهم بهما، وأتباعهم لهما، وقال ابن عباس: الجبت: الأصنام، والطاغوت: القوم المترجمون عن الأصنام، الذين يضلون الناس بتعليمهم إياهم عبادة الأصنام، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، وقاله مجاهد والشعبي، وقال زيد بن أسلم، الجبت: الساحر، والطاغوت: الشيطان، وقال سعيد بن جبیر، ورفیع: الجبت: الساحر، والطاغوت:

الكاهن. وقال قتادة: الجبت: الشيطان، والطاغوت: الكاهن. وقال سعيد بن جبیر أيضاً: الجبت: الكاهن، والطاغوت: الشيطان، وقال ابن سيرين: الجبت: الكاهن، والطاغوت: الساحر، وقال مجاهد في كتاب الطبري: الجبت: كعب بن الأشرف، والطاغوت: الشيطان كان في صورة إنسان. قال ابن عطية:

فمجموع هذا يقتضي أن الجبت والطاغوت هو كل ما عُبد وأُطيع من دون الله تعالى، وكذلك قال مالك رحمه الله: الطاغوت: كل ما عُبد من دون الله تعالى، وذكر بعض الناس أن الجبت هو من لغة الحبشة. وقال قطرب: الجبت: أصله الجبس، وهو الثقل الذي لا خير عنده، وأما الطاغوت فهو مَنْ طَغَى، أصله طَغَوْتُ، وزنه فعلوت، وتأوّه زائدة، قلب فرُدْ فعلوت، أصله طوغوت، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية - سببها (أن قريشاً قالت لكعب بن الأشرف حين ورد مكة: أنت سيدنا وسيد قومك، إنا قوم ننحدر الكوماء، ونقري الضيف، ونصل الرحم، ونسقي الحجيح، ونعبد آلهتنا التي وجدنا آبائنا يعبدون، وهذا الصنوبر المنبت من قومه، قد قطع الرحم، فمن أهدى نحن أو هو؟ فقال كعب: أنتم أهدى منه، وأقوم ديناً، فنزلت هذه الآية)، قاله ابن عباس. وحكى السدي أن أبا سفيان خاطب كعباً بهذه المقالة،

فالضمير في ﴿يَقُولُونَ﴾ عائد على كعب على ما تقدم، أو على الجماعة من بني إسرائيل التي كانت مع كعب، لأنها قالت بقوله في جميع ذلك على ما ذكر بعض المتأولين.

و ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في هذه الآية هم قريش، والإشارة بـ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إليهم، و ﴿أَهْدَأُ﴾: وزنه أفعِل، وهو للتفضيل، و ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: هم النبي عليه الصلاة والسلام وأمنه، و ﴿سَيِّئًا﴾: نصب على التمييز.

وقالت فرقة: بل المراد في الآية من بني إسرائيل هو حَبِيئ بن أخطب، وهو المقصود من أول الآيات، والمشار إليه بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ هم المراد من بني إسرائيل، فمن قال: كانوا جماعة فذلك مستقيم لفظاً ومعنى، ومن قال: هو كعب أو حَبِيئ فعبر عنه بلفظ الجمع لأنه كان متبوعاً، وكان قوله مقترناً بقول جماعة.

و ﴿لَتَنَزَّلَنَّ﴾ معناه: أبعدهم من خيره وَمَقَتَّنَهُمْ، ومن يفعل الله ذلك به ويخذه فلا ناصر له من المخلوقين، وإن نصرته طائفة فأنصرتها كلاً نُصْرَةً، إذ لا تغني عنه شيئاً.

﴿٥٣﴾ - ﴿٥٤﴾ تفسير قوله تعالى:

عرف ﴿أَمْ﴾ أن تعطف بعد استفهام متقدم، كقولك: أقام زيد أم عمرو؟ فإذا وردت ولم يتقدمها استفهام - فمذهب سيبويه أنه مُضْمَنَةٌ معنى الإضراب عن الكلام الأول والقطع عنه، وهي مُضْمَنَةٌ - مع ذلك - معنى الاستفهام، فهي بمعنى (بل) مع ألف الاستفهام، كقول العرب: إنها لإبل

أم شاء؟ فالتقدير عند سيبويه: إنها لإبل بل أي شاء؟ وكذلك هذا الموضع، تقديره: بل أَلَهُمْ نصيب من المُلْك؟ وقد حُكي عن بعض النحويين أن (أم) يُستفهم بها ابتداء دون تقدم استفهام، حكاه ابن قتيبة في المشكل، وهذا غير مشهور للعرب، وقال بعض المفسرين: [أم] بمعنى (بل)، ولم يذكروا الألف اللازمة، فأوجبوا - على هذا - حصول المُلْك للمذكورين في الآية، والتزموا ذلك وفسروا عليه، فالمعنى عندهم: بل هم ملوك أهل دُنْيَا وَعُثْرٍ وَتَنْعَمَ لا يبغيون غيره، فهم بخلاء به، حريصون على ألا يكون ظهور لسواهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى على الأرجح - الذي هو مذهب سيبويه والحدائق - أنه استفهام على معنى الإنكار، أي: أَلَهُمْ مُلْك؟ فإذا لو كان لَبَيَّحُوا.

وقرأ ابن مسعود: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُوا﴾ بخير نون على إعمال (إذا)، والمصحف على إلغائها، والوجهان جائزان، وإن كانت صدرًا من أجل دخول الفاء عليها.

والنكير: أعرف ما فيه أنها النكتة التي في ظهر النواة من الثمرة، ومن هنالك تنبت، وهو قول الجمهور، وقالت فرقة: هي النقطة التي في بطن النواة، وروي عن ابن عباس أنه قال: هو نقر الإنسان بإصبعه، وهذا كله يجمعه أنه كناية عن الغاية في الحقارة والقلة على مجاز العرب واستعارتها، و [إذا] في هذه الآية مُلَغَاةٌ لدخول فاء العطف عليها،

ويجوز إعمالها، والإلغاء أفصح، وذلك أنها إذا تقدمت أعملت قولاً واحداً، فإذا دخل عليها وهي متقدمة فاء أو واو جاز إعمالها والإلغاء أفصح، وهي لغة القرآن، وتكتب (إذا) بالنون وبالألف، فالنون هو الأصل، كَعَنَ وَمَنَ، وجاز كتبها بالألف لصحة الوقوف عليها فأثبتت نون التنوين، ولا يصح الوقوف على (عن) و (من).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ الآية - ﴿أَمْ﴾ هذه على بابها، لأن الاستفهام الذي في تقديرنا: «بل لهم» - قد تقدمها.

واختلف المتأولون في المراد بـ ﴿النَّاسِ﴾ في هذا الموضع - فقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والسدي، والضحاك: هو النبي عليه الصلاة والسلام، والفضل: النبوة فقط، والمعنى: فَلَيْمَ يَحْصُونَهُ بالحسد ولا يحسدون آل إبراهيم في جميع ما أتيناهم من هذا وغيره من الملك؟ وقال ابن عباس، والسدي أيضاً: هو النبي ﷺ، والفضل: ما أبيح له من النساء فقط، وسبب الآية عندهم أن اليهود قالت لكفار العرب: انظروا إلى هذا الذي يقول: إنه بعث بالتواضع، وإنه لا يملأ بطنه طعاماً، ليس همه إلا في النساء، ونحو هذا، فنزلت الآية، والمعنى: فَلَيْمَ يَحْصُونَهُ بالحسد ولا يحسدون آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟ يعني سليمان وداود عليهما الصلاة والسلام، في أنهما أعطيا النبوة والكتاب، وأعطيا - مع ذلك - مُلْكًا عَظِيمًا في أمر النساء، وهو ما روي

أنه كان لسليمان سبعمائة امرأة، وثلاثمائة سُرَيَّة، ونحو هذا من الأخبار الواردة في ذلك، فالْمَلِكُ في هذا القول إباحة النساء كأنه المقصود أولاً بالذكر. وقال قتادة: الناس في هذا الموضع: العرب، حسدتها بنو إسرائيل في أن كان النبي عليه الصلاة والسلام منها، والفضل على هذا التأويل: هو محمد عليه الصلاة والسلام، فالمعنى: لِمَ يَحْسُدُونَ العرب على هذا النبي ﷺ، وقد أوتي آل إبراهيم ﷺ، وهم أسلافهم - أنبياء وكتباً كالتوراة والزبور، وحكمة وهي الفهم في الدين - وما يكون من الهدى مما لم ينص عليه الكتاب. وروي عن ابن عباس أنه قال: نحن الناس. يريد قريشاً.

و ﴿تَلَكَّا عَظِيمًا﴾ أي: ملك سليمان، قاله ابن عباس، وقال مجاهد: الملك العظيم في الآية هو النبوة، وقال همام بن الحارث، وأبو سلمة: هو التأيد بالملكمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأصوب أنه ملك سليمان، أو أمر النساء في التأويل المتقدم.

وقوله تعالى: ﴿قَبْنَهُمْ مِّنْ أَمَرٍ يَدِي﴾ الآية، اختلف المتأولون في عود الضمير من ﴿يَدِي﴾ - فقال الجمهور: هو عائد على القرآن الذي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَا تَرَكْنَا مَبَدَّحًا لِّمَا مَكَرْتُمْ يَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْغَىٰ وَجُوهًا﴾ فأعلم الله أن منهم من آمن كما أمر، فلذلك ارتفع الوعيد بالطمس ولم يقع، وصَدُّ قَوْمٌ ثبت الوعيد عليهم في الآخرة بقوله: ﴿وَكُنَّا بِجَهَنَّمَ سَاجِدِينَ﴾، وقالت فرقة: الضمير عائد

على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وحكى مكي في ذلك قصصاً ليست بالثابتة، وقالت فرقة: هو عائد على الفضل الذي آتاه الله النبي عليه الصلاة والسلام، أو العرب على ما تقدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قرأت فرقة: ﴿صُدُّ صُدُّ﴾ بضم الصاد، على بناء الفعل للمفعول، و ﴿سَاجِدِينَ﴾ معناه: احتراقاً وتلهباً، والسعير: شدة توقد النار، فهذا كناية عن شدة العذاب والعقوبة.

٥٦ - ٥٧ تفسير قوله تعالى:

تقدم في الآيات وصف المردة من بني إسرائيل، وذكر أفعالهم وذنوبهم، ثم جاء بالوعيد النص لهم بلفظ جلي عام لهم ولغيرهم ممن فعل فعلهم من الكفر، والقراءة المشهورة: ﴿نُصْلِيهِمْ﴾ بضم النون، من: أَصْلَيْتُ، ومعناه: قريت من النار. وألغيت فيها، وهو معنى صَلَّيْتُ بتشديد اللام، وقرأ حميد ﴿نُصْلِيهِمْ﴾ من: صَلَّيْتُ، ومعناه: شويت، ومنه الحديث: (أنتي رسول الله ﷺ بشاة مُصْلِيَّة) أي: مشوية، وكذا وقع تصريف الفعل في العين وغيره، وقرأ سلام، ويعقوب: ﴿نُصْلِيهِمْ﴾ بضم الهاء.

واختلف المتأولون في معنى تبديل الجلود - فقالت فرقة: تبديل عليهم جلود غيرها، إذ نفوسهم هي المعذبة، والجلود لا تألم في ذاتها، فإنها تبدل ليدقوا تجديد العذاب. وقالت فرقة: تبديل الجلود هو إعادة ذلك الجلد بعينه الذي كان في

الدنيا، تأكله النار ويعيده الله دأباً لتجدد العذاب، وإنما سماه تبديلاً، لأن أوصافه تتغير ثم يعاد، كما تقول: «بدل من خاتمي هذا خاتماً». وهي فضته بعينها، فالبديل إنما وقع في تغيير الصفات، وقال ابن عمر: كلما احترقت جلودهم بدلوا جلوداً بيضاء كالقراطيس، وقال الحسن بن أبي الحسن: تبدل عليهم في اليوم سبعين ألف مرة، وقالت فرقة: الجلود في هذا الموضع سراويل القطران، سماها جلوداً للزومها فصارت كالجلود، وهي تبدل دأباً عافانا الله من عذابه برحمته، جكاه الطبري.

وحسن الاتصاف بعد هذه المقدمات بالعزة والإحكام، لأن الله لا يغالبه مغالب إلا غلبه الله، ولا يفعل شيئاً إلا بحكمة وإصابة، لا إله إلا هو تبارك وتعالى.

ولما ذكر الله وعيد الكفار عقَّب بوعيد المؤمنين بالجنة على الإيمان والأعمال الصالحة، وقرأ ابن وثاب: ﴿سَيُدْخِلُهُمْ﴾ بالياء، وكذلك ﴿يُدْخِلُهُمْ﴾ بعد ذلك. وقد تقدم القول في معنى ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ في سورة البقرة، و ﴿مُطَهَّرَةً﴾ معناه: من الريب والأقذار التي هي معهودات في الدنيا، و ﴿ظِلِيلًا﴾ معناه عند بعضهم: بقي الحر والبرد، ويصح أن يريد أنه ظل لا يستحيل ولا ينتقل، كما يفعل ظل الدنيا، فأكد بقوله: ﴿ظِلِيلًا﴾ لذلك، ويصح أن يصفه بظليل لامتداده، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن في الجنة شجرة يسير

الراكب الجواد المضمر في ظلها مائة سنة ما يقطعها.

٥٨ - ٥٩ تفسير قوله تعالى:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وزيد بن أسلم، وشهر بن حوشب، وابن زيد، هذا خطاب لولاء المسلمين خاصة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهو للنبي عليه الصلاة والسلام وأمرائه، ثم يتناول من بعدهم. وقال ابن جريج وغيره: ذلك خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام خاصة في أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العَبْدَرِي، ومن ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، فطلبه العباس بن عبدالمطلب لتنضاف له السدانة إلى السَّقَابِيَّة، فدخل رسول الله ﷺ الكعبة فكسر ما كان فيها من الأوثان، وأخرج مقام إبراهيم، ونزل عليه جبريل بهذه الآية، قال عمر بن الخطاب: وخرج رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية، وما كنت سمعتها قبل منه، فدعا عثمان وشيبة فقال لهما: «خذاهما خالدة نالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم»، وحكى مكي أن شيبة أراد ألا يدفع المفتاح، ثم دفعه وقال للنبي عليه الصلاة والسلام: خذه بأمانة الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واختلف الرواة في بعض ألفاظ هذا الخبر زيادة ونقصاناً، إلا أنه المعنى بعينه، وقال ابن عباس: الآية في الولاية بأن يعطوا النساء في النشوز ونحوه، ويردوهن إلى الأزواج،

والأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس، ومع أن سببها ما ذكرناه فهي تتناول الولاية فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال، ورد الظلمات وعدل الحكومات وغيره، وتتناولهم ومن دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات، وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما ونحوه، والصلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات أمانات لله تعالى، وقال ابن عباس: لم يرخص لموسر ولا لمعسر أن يمسك الأمانة.

و «يَتَى» أصله: نَعِمَ مَا، سكنت الأولى وأدغمت في الثانية، وحركت العين لالتقاء الساكنين، وخصت بالكسر إتباعاً للنون، و (ما) المردفة على (نعم) إنما هي مهيئة لاتصال الفعل بها، كما هي في (ربما) و (يَمَا) في قوله: «وكان رسول الله ﷺ مما يحرك شفتيه» وكقول الشاعر:

وإنما نضرب الكبش ضربة
على رأسه تُلقِي اللسان من ألقم
ونحوه، وفي هذا هي بمنزلة (ربما)، وهي لها مخالفة في المعنى، لأن (ربما) معناها التقليل، و (مما) معناها التكثير، ومع أن (ما) موطئة فهي بمعنى (الذي)، وما وطأت إلا وهي اسم، ولكن القصد إنما هو لما يليها من المعنى الذي في الفعل.

وحسن الاتصاف بعد هذه المقدمات بالسمع والبصر لأنها في الشاهد محصلات ما يفعل المأمور فيما أمر به.

وقوله عز وجل: ﴿يَتَى الَّذِينَ آمَنُوا لِيُطِيعُوا اللَّهَ﴾ - لما تقدم إلى الولاية في الآية المتقدمة، تقدم في هذه إلى الرعية، فأمر بطاعته عز وجل، وهي: امتثال أوامره ونواهي، وطاعة رسوله، وطاعة الأمراء على قول الجمهور: أبي هريرة، وابن عباس، وابن زيد، وغيرهم، وقال جابر بن عبد الله، ومجاهد، وجماعة: أولو الأمر: أهل القرآن والعلم، فالأمر - على هذا التأويل - إشارة إلى القرآن والشرعة، أي: أولي هذا الأمر وهذا الشأن، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال: الإشارة هنا بأولي الأمر إلى أصحاب محمد ﷺ خاصة، وحكى عن عكرمة أنها إشارة إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما خاصة، وفي هذا التخصيص بُغِد. وحكى بعض من قال «إنهم الأمراء»: أنها نزلت في أمراء رسول الله ﷺ، وكان السبب أن رسول الله ﷺ بعث سرية فيها عمار بن ياسر، وأميرها خالد بن الوليد، فقصدا قوماً من العرب، فأتاهم نذير فهربوا تحت الليل، وجاء منهم رجل إلى عسكر خالد، فدخل إلى عمار فقال: يا أبا اليقظان، إن قومي قد فرّوا، وإني قد أسلمت، فإن كان ينفعني إسلامي بقيت، وإلا فررت، فقال له عمار: هو ينفعك فأقم، فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد سوى الرجل المذكور، فأخذه وأخذ ماله، فجاء عمار فقال: خَلَّ عن الرجل فإنه قد أسلم، وإنه في أمان مني، فقال خالد: وأنت تجير؟ فاستبأ وارتفعاً إلى رسول الله ﷺ فأجاز أمان

أنهم يؤمنون هو ممّا قويت فيه شبهة الإبطال لسوء أفعالهم، حتى صححها الخبر من الله تعالى عنهم، ومن هذا قول النبي ﷺ: «بئس مطية الرجل زعموا»، وقد قال الأعشى:

وَبُئِثْتُ قَيْسًا وَلَسْتُ أَبْلُهُ
كَمَا زَعَمُوا خَيْرَ أَهْلِ الْيَمَنِ
فقال الممدوح: وما هو إلا الزعم وحرمة، وإذا قال سيويه: «زعم الخليل» فإنما يستعملها فيما انفرد الخليل به، وكان أقوى رتب (زعم) أن تبقى معها عهدة الخبر على المخبر. و«أن» معمولة لـ «يُزَعَمُونَ».

وقال عامر الشعبي وغيره: نزلت الآية في منافق اسمه بشر، خاصم رجلاً من اليهود، فدعاه اليهودي إلى المسلمين لعلمه أنهم لا يرتشون، وكان هو يدعو اليهودي إلى اليهود لعلمه أنهم يرتشون، فاتفقا بعد ذلك على أن أتيا كاهناً كان بالمدينة فرضياه، فنزلت هذه الآية فيهما وفي صنيعهما.

فالذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل على محمد هم المنافقون، والذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل من قبله هم اليهود، وكان قد أمر في كتابه بالكفر بالطاغوت، و«الْكَاغُوتُ» - هنا - الكاهن المذكور، فهذا تأنيب للصنفين، وقال ابن عباس: الطاغوت هنا: هو كعب بن الأشرف، وهو الذي تراضيا به، فعلى هذا إنما يؤنب صنف المنافقين وحده، وهم الذين آمنوا بما

وأمرؤكم، ومعنى التنازع أن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويذهبها.

والرّد إلى الله: هو النظر في كتابه العزيز، والرّد إلى الرسول: هو سؤاله في حياته، والنظر في سنته بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، هذا قول مجاهد، والأعمش، وقتادة، والسدي، وهو الصحيح، وقال قوم: معناه: قولوا: الله ورسوله أعلم، فهذا هو الرّد.

وفي قوله: «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» بعض وعيد، لأن فيه جزاء المسيء العاتي، وخاطبهم بـ «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ» وهم قد كانوا آمنوا على جهة التقدير، ليتأكد الإلزام.

و«تَأْوِيلًا» معناه: مآلاً، على قول جماعة. وقال مجاهد: أحسن جزاء. قال قتادة، والسدي، وابن زيد: المعنى: أحسن عاقبة. وقالت فرقة: المعنى: إن الله ورسوله أحسن نظراً وتأولاً منكم إذا انفردتم بتأولكم.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله تعالى:

تقول العرب: زعم فلان كذا في الأمر الذي يضعف فيه التحقيق، وتتقوى فيه شبهة الإبطال، فغاية درجة الزعم إذا قوي أن يكون مظلوناً. يقال: زُعم بفتح الزاي، وهو المصدر، وزُعم بضمها، وهو الاسم، وكذلك زُعم المنافقين

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدِ امْرَأُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿١٢﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿١٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٥﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١٦﴾

عمار، ونهاه أن يجير الثانية على أمير، واستبأ عند رسول الله ﷺ، فقال خالد: يا رسول الله، أتترك هذا العبد الأجحد يسبني؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا خالد، لا تسب عماراً، فإنه من سب عماراً سبه الله، ومن أبغض عماراً أبغضه الله، ومن لعن عماراً لعنه الله»، فغضب عمار فقام فذهب، ف تبعه خالد حتى اعتذر إليه، فتراضيا، فأنزل الله عز وجل قوله: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَيْدِيَهُمْ»، وطاعة الرسول هي: اتباع سنته، قاله عطاء وغيره، وقال ابن زيد: معنى الآية: وأطيعوا الرسول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد: ومُثَّتْ بعد موته.

﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ﴾ - المعنى: فإن تنازعتم فيما بينكم، أو أنتم

أنزل على محمد، وبما أنزل من قبله بزعمهم، لأن اليهود لم يؤمروا في شرعهم بالكفر بالأخبار، وكعب منهم. وذكر النقاش أن كعباً هذا أصله من طييء وتهود. وقال مجاهد: نزلت في مؤمن ويهودي، وقالت فرقة: نزلت في يهوديين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان بعيدان من الاستقامة على ألفاظ الآية، وقال السدي: نزلت في المنافقين من قريظة والنضير، وذلك أنهم تفاخروا بسبب تكافؤ دمائهم، إذ كانت النضير في الجاهلية تدي من قتل، وتستفيد إذا قتلت قريظة منهم، فأبت قريظة لما جاء الإسلام، وطلبوا المنافرة، فدعا المؤمنون منهم إلى النبي ﷺ، ودعا المنافقون إلى أبي بردة الكاهن، فنزلت الآية فيهم. وحكى الزجاج أن المنافق المتقدم الذكر أو غيره اختصم عند النبي ﷺ ففضى في أمره، فخرج وقال لخصمه: لا أرضى بحكمه، فذهب إلى أبي بكر ففضى بينهما، فقال المنافق: لا أرضى، فذهب إلى عمر فوصفا له جميع ما فعلا، فقال لهما: اصبرا حتى أقضي حاجة في منزلي ثم أخرج فأحكم بينكما، فدخل وأخذ سيفه وخرج، فضرب المنافق حتى برد، وقال: هذا حكمي فيمن لم يرض بحكم رسول الله ﷺ، فنزلت الآية، وقال الحسن: احتكم المنافقون بالقداح التي يضرب بها عند الأوثان فنزلت الآية.

و ﴿يُحْلِلُهُمْ﴾ معناه: يتلفهم، وجاء

﴿حَلَّلَا﴾ على غير المصدر، تقديره: يفضلون ضللاً، و ﴿يَعِيدُ﴾ عبارة عن عظم الضلال وتمكنه حتى يبعد الرجوع عنه والاهتداء معه.

وقرأ الجمهور: ﴿تَمَالَوْا﴾ بفتح اللام، وقرأ الحسن فيما روى عنه قتادة ﴿تَمَالَوْا﴾ بضمة، وجهها أن لام الفعل من (تعاليت) حذفت تخفيفاً، وضمت اللام التي هي عين الفعل، وذلك لوقوع واو الجمع بعدها، كقولك: تقدموا وتأخروا، وهي لفظة مأخوذة من العلو، لما استعملت في دعاء الإنسان وجلبه وأشخاصه، سبقت من العلو تحسناً للأدب، كما تقول: ارتفع إلى الحق، ونحوه.

و ﴿رَأَيْتَ﴾ هي رؤية عين لمن صد من المنافقين مجاهرة وتصريحاً، وهي رؤية قلب لمن صد منهم مكرراً وتخاباً ومسارقة حتى لا يعلم ذلك منه إلا بالتأويل عليه والقرائن الصادرة عنه، فإذا كانت رؤية عين ف ﴿يَصُدُّونَ﴾ في موضع نصب على الحال، وإذا كانت رؤية قلب ف ﴿يَصُدُّونَ﴾ نصب على المفعول الثاني.

و ﴿صُدُّوْا﴾ مصدر عند بعض النحاة من (صد)، وليس عند الخليل بمصدر منه، والمصدر عنده: (صدّاً)، وإنما ذلك لأن فعولاً إنما هو مصدر للأفعال غير المتعدية، كجلس جلوساً، وقعد قعوداً، و (صدّ) فعل متعدّ بنفسه مرة كما قال: ﴿فَصَدَّعْنَاهُ عَنِ السَّبِيلِ﴾، ومرة بحرف الجر كقوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ

صُدُّوْا﴾، وغيره، فمصدره (صدّ) و (صُدُّود) اسم.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله تعالى:

قالت فرقة: هي في المنافقين الذين احتكموا حسب ما تقدم، فالمعنى: فكيف بهم إذا عاقبهم الله بهذه الذنوب بنقمة منه؟ ثم حلفوا إن أردنا بالاحتكام إلى الطاغوت إلا توفيق الحكم وتقريبه دون مر الحكم وتقصي الحق. وقالت فرقة: هي في المنافقين الذين طلبوا دم الذي قتله عمر، فالمعنى: فكيف بهم إذا أصابتهم مصيبة في قتل قريبهم ومثله من نقم الله تعالى؟ ثم إنهم حلفوا ما أرادوا بطلب دمه إلا إحساناً وحقاً، نحا إليه الزجاج. وموضع ﴿كَيْفَ﴾ نصب بفعل تقديره: فكيف تراهم؟ ونحوه، ويصح أن يكون موضعها رفعاً، تقديره: فكيف صنعهم؟ وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَكْتُمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب المنافقين المتقدم ذكرهم وتوعدهم، أي: فهو مجازيهم بما يعلم.

و ﴿أَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ يعنني عن معاقبتهم، وعن شغل البال بهم، وعن قبول أيمانهم الكاذبة في قوله: ﴿يَحْلِفُونَ﴾، ليس بالإعراض الذي هو القطيعة والهجر، فإن قوله: ﴿وَعَظَّمَهُمْ﴾ يمنع من ذلك، و ﴿وَعَظَّمَهُمْ﴾ معناه بالتخويف من عذاب الله وغيره من المواعظ.

والقول البليغ اختلف فيه - فقيل: هو الزجر والردع والكفّ بالبلاغة من القول، وقيل: هو التوعد بالقتل إن استدأموا حالة النفاق، قاله الحسن، وهذا أبلغ ما يكون في نفوسهم.

الأولى، وكان يصح إسقاط الأولى ويبقى معنى النفي، ويذهب معنى الاهتمام.

و ﴿شَجَرًا﴾ معناه: اختلط والتف من أمورهم، وهو من الشجر، شبيه بالتفاف الأغصان، وكذلك الشجير الذي امتزجت مودته بمودة صاحبه، وقرأ أبو السمال: ﴿شَجَرًا﴾ بإسكان الجيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأظنه فر من توالي الحركات، وليس بالقوي ليخف الفتحة.

و ﴿يُحْكِمُونَكَ﴾ نصب بـ ﴿حَيٍّ﴾ لأنها هنا غاية مجردة، و ﴿يُحْدُوا﴾ عطف عليه، والجرج: الضيق والتكلف والمشقة. قال مجاهد: حرجاً: شكاً، وقوله: ﴿تَسْلِمًا﴾ مصدر مؤكد منبىء على التحقيق في التسليم، لأن العرب إنما تردف الفعل بالمصدر إذا أرادت أن الفعل وقع حقيقة، كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَسْلِيمًا﴾، وقد تجيء به مبالغة وإن لم يقع، ومنه:

وَعَجَّتْ عَجِيجًا مِنْ جُدَامِ الْمَطَارِفِ
وقال مجاهد وغيره: المراد بهذه الآية من تقدم ذكره ممن أراد التحاكم إلى الطاغوت، وفيهم نزلت، ورجح الطبري هذا لأنه أشبه بسبق الآية. وقالت طائفة: نزلت في رجل خاصم الزبير بن العوام في السقي بماء الحرة، فقال لهما رسول الله ﷺ: «استق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك»، فغضب ذلك الرجل وقال: أن كان ابن عمك؟ فغضب رسول الله ﷺ.

رسول إلا ليطاع بأمر الله بطاعته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى التعليقين فالكلام عام اللفظ خاص المعنى، لأننا نقطع أن الله تبارك وتعالى قد أراد من بعض خلقه ألا يطيعوا، ولذلك خرجت طائفة معنى الإذن إلى العلم، وطائفة خرجته إلى الإرشاد لقوم دون قوم، وهذا تخريج حسن، لأن الله إذا علم من أحد أنه يؤمن، ووفقه لذلك فكأنه أذن له فيه، وحقيقة الإذن: التمكين مع العلم.

بقدر ما مكن منه. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية - معناه: بالمعصية والنفاق ونقصها حظها من الإيمان، و ﴿فَأَسْتَنْزَرُوا اللَّهَ﴾ معناه: طلبوا مغفرته، وتابوا إليه، و ﴿تَوَابًا﴾ معناه: راجعاً بعباده.

١٥ - ١٧ تفسير قوله تعالى: قال الطبري: قوله: ﴿فَلَا رُدُّ عَلَى مَا تَقْدِمُ﴾، تقديره: فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، ثم استأنف القسم بقوله: ﴿وَرَبِّكَ لَا يَوْمُنُوتَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال غيره: إنما قدم ﴿لَا﴾ على القسم اهتماماً بالنفي، وإظهاراً لقوته، ثم كررها بعده تأكيداً للثبوت بالنفي، وكان يصح إسقاط ﴿لَا﴾ الثانية، ويبقى أكثر الاهتمام بتقديم

وَلَوْ أَنَّا كُنْتُمْ عَلَيْنَهُمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا وَعَدُوا غَدَوْا بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيئًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا لَا تِنَّتَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦﴾ وَلَهْدَتْهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رِزْقًا ﴿١٨﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلْمًا ﴿١٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا نَجَاتٍ أَوْ يَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مَكَرْتُمْ لَن يُغْتَرَبَنَّ فَإِنْ أَصَبْتُمْ مَعْصِيَةَ اللَّهِ فَدَأْبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٢١﴾ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْسَ لِي بِكُمْ مَعَهُمْ قَافُورٌ قُورًا عَظِيمًا ﴿٢٢﴾ فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُغْتَرَبَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٣﴾

والبلاغة مأخوذة من بلوغ المراد بالقول، وحكي عن مجاهد أن قوله: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿مَعْصِيَةً﴾ وهو مؤخر بمعنى التقديم، وهذا ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تنبيه على جلالة الرسل، أي: فأنت يا محمد منهم، تجب طاعتك، وتتعين إجابة الدعوة إليك، و ﴿يُطَاعَ﴾ نصب بلام (كي)، و ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ معناه: بأمر الله، وحسنت العبارة بالإذن، إذ بنفس الإرسال تجب طاعته وإن لم ينص أمر بذلك، ويصح تعلق الباء من قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، والمعنى: وما أرسلنا بأمر الله، أي: بشريعته وعبادته من رسول إلا ليطاع، والأظهر تعلقها بـ ﴿يُطَاعَ﴾ والمعنى: وما أرسلنا من

واستوعب للزبير حقه فقال: «احبس يا زبير الماء حتى يبلغ الجدر، ثم أرسل الماء»، فنزلت الآية. واختلف أهل هذا القول في الرجل - فقال قوم: هو رجل من الأنصار من أهل بدر، وقال مكّي وغيره: هو حاطب بن أبي بلتعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح الذي وقع في البخاري أنه رجل من الأنصار، وأن الزبير قال: فما أحسب أن هذه الآية نزلت إلا في ذلك، وقالت طائفة: لما قتل عمر الرجل المنافق الذي لم يرض بحكم النبي ﷺ بلغ ذلك النبي ﷺ وعظم عليه، وقال: «ما كنت أظن أن عمر يجترئ على قتل رجل مؤمن»، فنزلت الآية نافية لإيمان ذلك الرجل الراد لحكم النبي عليه الصلاة والسلام، مقيمة عذر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قتله.

و «كَبَبْنَا» معناه: فرضنا، و «أَقْتَلُوا أَنْفُسَكُمْ» معناه: ليقتل بعضهم بعضاً، وقد تقدم نظيره في البقرة، وضم النون من [أَنْ] وكسرها جائز، وكذلك الواو من «أَوْ أَخْرَجُوا»، وبضمها قرأ ابن عامر، ونافع، وابن كثير، والكسائي، ويكسرها قرأ حمزة وعاصم، وكسر أبو عمرو النون وضم الواو، و «قَلِيلًا» رفع على البدل من الضمير في «فَقُولُوا»، وقرأ ابن عامر وحده بالنصب: «إِلَّا قَلِيلًا»، وذلك جائز، أجرى النفي مجرى الإيجاب.

وسبب الآية على ما حكى أن اليهود قالوا - لما لم يرض المنافق

بحكم النبي عليه الصلاة والسلام -: ما رأينا أسخف من هؤلاء، يؤمنون بمحمد ويتبعونه، ويطؤون عقبه، ثم لا يرضون بحكمه، ونحن قد أمرنا بقتل أنفسنا ففعلنا، وبلغ القتل فينا سبعين ألفاً، فقال ثابت بن قيس: لو كتب ذلك علينا لفعلناه، فنزلت الآية معلمة حال أولئك المنافقين، وأنه لو كتب ذلك على الأمة لم يفعلوه، وما كان يفعله إلا قليل مؤمنون محققون، كثابت وغيره، وكذلك روي أن رسول الله ﷺ قال: «ثابت ابن قيس، وعمار، وابن مسعود من القليل»، وشركهم في ضمير «وَنَفْسُهُمْ» لما كان المنافقون والمؤمنون مشتركين في دعوة الإسلام وظواهر الشريعة. وقال أبو إسحق السبيعي: لما نزلت: «وَلَوْ أَنَا كُنَبْنَا عَلَيْكُمْ» الآية، قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إن من أمتي رجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي». وذكر مكّي أن الرجل هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وذكر النقاش أنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذكر عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: لو كتب علينا لبدأت بنفسي وبأهل بيتي.

وقوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا» أي: لو أن هؤلاء المنافقين اتعظوا وأنابوا لكان خيراً لهم.

و «تَلَيَّنَّا» معناه: يقيناً وتصديقاً ونحو هذا، أي: يشتهم الله.

ثم ذكر تعالى ما كان يمن به عليهم من تفضله بالأجر، ووضفه إياه

بالعظم مقتض ما لا يحصله بشر من النعيم المقيم. والصرط المستقيم: الإيمان المؤدي إلى الجنة. وجاء ترتيب هذه الآية كذا، ومعلوم أن الهداية قبل إعطاء الأجر لأن المقصد إنما هو تعديد ما كان الله ينعم به عليهم دون ترتيب، فالمعنى: ولهديناهم قبل حتى يكونوا ممن يؤتى الأجر.

لما ذكر الله الأمر الذي لو فعلوه لأنعم عليهم ذكر بعد ذلك ثواب من يفعله، وهذه الآية تفسير قوله تعالى: «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»، وقالت طائفة: إنما نزلت هذه الآية لما قال عبدالله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري الذي أرى الأذان: يا رسول الله، إذا مكّ ومتنا كنت في عليين فلا نراك ولا نجتمع بك، وذكر حزنه على ذلك فنزلت هذه الآية، وحكى مكّي عن عبدالله هذا أنه لما مات النبي ﷺ قال: اللهم أعينني حتى لا أرى شيئاً بعده، فعمي، وذكر أن جماعة من الأنصار قالت ذلك أو نحوه، حكاه الطبري عن ابن جرير، وقادة، والسدي.

ومعنى «مع الذين أنعم الله عليهم»: أنهم في دار واحدة، ومتنعم واحد، وكل من فيها قد رزق الرضا بحاله، وذهب عنه أن يعتقد أنه مفضل، وإن كنا نحن قد علمنا من الشريعة أن أهل الجنة تختلف مراتبهم على قدر أعمالهم، وعلى قدر فضل الله على من شاء.

والصديق: فيعمل من الصدق،

وقيل: من الصدقة، وروي عن النبي عليه الصلاة والسلام: «الصديقون المصدقون».

والشهداء: المقتولون في سبيل الله، هم المخصوصون بفضل الميتة، وهم الذين فرق الشرع حكمهم في ترك الغسل والصلاة، لأنهم أكرم من أن يشفع لهم، وسُموا بذلك لأن الله شهد لهم بالجنة، وقيل: لأنهم شهدوا الله بالحق في موتهم ابتغاء مرضاته، ولكن لفظ الشهداء في هذه الآية يعم أنواع الشهداء.

و «رَفِيقًا» موحد في معنى الجمع، كما قال: «ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا». ونصبه على التمييز، وقيل: على الحال، والأول أصوب، وقرأ أبو السمال: «وَحَسَنٌ» بسكون السين، وذلك مثل: «شَجَرٌ يَبْنُهُمْ».

وقوله تعالى: «ذَلِكَ أَلْفُضْلُ مِنَ اللَّهِ» رد على تقدير معترض يقول: وما الذي يوجب استواء أهل الطاعة والظلمين في الآخرة والفرق بينهم في الدنيا بَيْنٌ؟ فذكر الله أن ذلك بفضل لا بسوجب عليه، والإشارة بـ «ذَلِكَ» إلى كون المطيعين مع المنعم عليهم، وأيضاً فلا تقرر الاستواء، بل هم معهم في دار والمنازل متباينة.

ثم قال: «وَكُنِّيَ بِاللَّهِ عَلَيْهِمَا» وفيها معنى أن يقول: فسلموا فعل الله وتفضله من الاعتراض عليه، واكتفوا بعلمه في ذلك وغيره، ولذلك أدخلت الباء على اسم الله، لتدل على الأمر الذي في قوله: «وَكُنِّيَ».

٧١ - ٧٢ تفسير قوله تعالى: هذا خطاب للمخلصين من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، وأمر لهم بجهاد الكفار، والخروج في سبيل الله، وحماية الشرع.

و «خُذُوا حِذْرَكُمْ» معناه: احزموا واستعدوا بأنواع الاستعداد، فهنا يدخل أخذ السلاح وغيره، و «أَنْزِرُوا» معناه: اخرجوا مُجَدِّين مصممين، يقال: نفر الرجل ينفر - بكسر الفاء - نفيراً، ونفرت الدابة تنفر - بضم الفاء - نفوراً. و «ثَبَاتٍ» معناه: جماعات متفرقات، فهي كناية عن السرايا.

و «جَوِيحًا» معناه: الجيش الكثيف مع النبي ﷺ، هكذا قال ابن عباس وغيره.

والثَبَّة: حكي أنها فوق العشرة من الرجال، وزنها فُعْلَةٌ بفتح العين، أصلها: ثَبَوَةٌ، وقيل: ثَبِيَّة، حذف لامها بعد أن تحركت وانقلبت ألفاً حذفاً غير مقيس، ولذلك جمعت: ثَبَوْنَ بالواو والنون عوضاً عن المحذوف، وكسر أولها في الجمع دلالة على خروجها عن بابها لأن بابها أن تجمع بالتاء أبداً، فيقال: ثَبَاتٍ، وتصغر: ثَبِيَّة، أصلها: ثَبِيَّوَةٌ، أما ثَبَّة الحوض - وهي وسطه الذي يشوب الماء إليه - فالمحذوف منها العين، وأصلها: ثَبَوَةٌ وتصغيرها: ثَبَوِيَّة، وهي من: ثاب يشوب، وكذلك قال أبو علي الفارسي في بيت أبي ذؤيب:

فَلَمَّا جَلَاها بِالْإِيامِ تَحَيَّرَتْ
ثَبَاتًا عَلَيْهَا ذُلُّها وَكُثْبَانُها
إنه اسم مفرد ليس بالجمع، سبق

على الأصل، لأن أصل ثَبَّة: ثَبَوَةٌ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً، فساقها أبو ذؤيب في هذه الحال.

وقوله تعالى: «وَلَيْنَ يَنْكُرَ» - [إِنْ] إيجاب، والخطاب لجماعة المؤمنين، والمراد بـ [مِنْ] المنافقين، وعبر عنهم بـ «يَنْكُرُ» إذ هم في عداد المؤمنين ومنتحلون دعوتهم، واللام الداخلة على [مِنْ] لام التأكيد دخلت على اسم [إِنْ] لما كان الخبر متقدماً في المجرور، وذلك مهيج، في كلامهم، كقولك: «إِنْ في الدار لزيداً»، واللام الداخلة على [يُبْطِطُنَ] لام قَسَم عند الجمهور، تقديره: «وإِنْ منكم لمن - والله - ليبططن»، وقيل: هي لام تأكيد، ويبططن معناه: يبطيء غيره، أي: يثبطه ويحمله على التخلف عن مغازي رسول الله ﷺ، وقرأ مجاهد: «لَيُبْطِطُنَ» بالتخفيف في الطاء. و «مُصِيبَةٌ» يعني من قتل واستشهاد، وإنما هي مصيبة بحسب اعتقاد المنافقين ونظرهم الفاسد، أو على أن الموت كله مصيبة كما شاء الله تعالى، وإنما الشهادة في الحقيقة نعمة لحسن مآلها، و «شَهِيدًا» معناه: مشاهداً، فالمعنى: إن المنافق يسرُّه غيبه إذا كانت شدة، وذلك يدل على أن تخلفه إنما هو فزع من القتال، وتكول عن الجهاد.

وقوله تعالى: «وَلَيْنَ آمَنَ بَكُم فَضَّلَ مِنْ اللَّهِ» الآية، المعنى: ولئن ظفرتم وغنمتم وكل ذلك من فضل الله ندم المنافق أن لم يحضر ويصب

الغنيمة، وقال: ﴿يَلَيْسَ لِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَوْفِرَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ متمنياً شيئاً قد كان عاهد أن يفعله ثم غدر في عهده، لأن المؤمن إنما يتمنى مثل هذا إذا كان المانع له من الحضور عذراً واضحاً، وأمرأ لا قدرة له معه، فهو يتأسف بعد ذلك على فوات الخير، والمنافق يعاطي المؤمنين المودة، ويعاهد على التزام كلف الإسلام ثم يتخلف نفاقاً وشكاً وكفراً بالله ورسوله، ثم يتمنى عندما يكشف الغيب الظفر للمؤمنين، فعلى هذا يجيء قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ التفاتةً بليغة، واعتراضاً بين القائل والمقول بلفظ يظهر زيادةً في قبح فعلهم، وحكى الطبري عن قتادة وابن جريج أنهما كانا يتأولان قول المنافق: ﴿يَلَيْسَ لِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ على معنى الحسد منه للمؤمنين في نيل رغبة.

وقرأ الحسن: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بضم اللام على معنى [مَنْ]، وضم اللام يدل على الواو المحذوفة.

ويدل مجموع هاتين الآيتين على أن
خارج المنافقين إنما كان يقصد
الغنيمة، ومتخلفهم إنما كان يقصد
الشك وتريص الدوائر بالمؤمنين.

و ﴿كَانَ﴾ مضمنة معنى التشبيه، ولكنها ليست كالثقيلة في الحاجة إلى الاسم والخبر، وإنما تجيء بعدها الجمل. وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية حفص: ﴿كَانَ﴾ بقاء، وقرأ غيرهما: ﴿يَكُنْ﴾ بياء، وذلك حسن للفصل الواقع بين الفعل والفاعل.

وقوله: ﴿فَافُوزٌ﴾ نصب بالفاء في جواب التمني، وقرأ الحسن، ويزيد

النحوي: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ بالرفع على القطع والاستئناف، التقدير: فَأَنزَلْنَا أَنزُولًا، قال روح: لم يجعل لَلَيْتَ جواباً، وقال الزجاج: إن قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ يَتَنَبَّأُ﴾ وَيَتَنَبَّأُ مَوْدَّةٌ ﴿مَوْخَرٌ﴾ وإنما موضعه: ﴿وَإِن أَصْبَحْتُمْ مُّصْبِحَةً﴾.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: وهذا ضعيف
لأنه يفسد فصاحة الكلام.

٧٤ - ٧٥ تفسیر قوله
تعالیٰ:

هذا أمر من الله عز وجل
للمؤمنين الذين وصفهم
بـ"الجهاد في سبيل الله".

و ﴿يَشْرُونَ﴾ معناه: يبيعون في هذا الموضع، وإن جاء في مواضع: يشترّون، فالمعنى ها هنا يدل على أنه بمعنى: يبيعون.

ثم وصف الله تعالى ثواب المقاتل في سبيل الله، فذكر غايته حالته، واكتفى بالغايتين عما بينهما، وذلك أن غاية المغلوب في القتال أن يُقْتَلَ، وغاية الذي يُقْتَلَ وَيُغْتَم أن يتصف بأنه غالب على الإطلاق. والأجر العظيم: الجنة، وقالت فرقة: بسكون لام الأمر، **﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾** وقرأت فرقة: **﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾** بكسرها، وقرأ محارب بن دينار: **﴿فَيُقَاتِلْ أَوْ يُغْلِبْ﴾** على بناء الفعلين للفاعل، وقرأ الجمهور: **﴿يُؤْتِيهِ﴾** بالنون، وقرأ الأعمش وطلحة بن مُصَرِّف: **﴿فَسَوْفَ يُؤْتِيهِ﴾** بالياء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ اللام

وَمَا كُورَ لَا يَقْنُتُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْضَعِّفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن دُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن دُنْكَ
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يَقْنُتُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يَقْنُتُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَتَقْتُلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ قُتِلُوا أَلَيْسَ لَكُمُ
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فِرَاقُ
مِنْهُمْ يُخَشِعُونَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا بِرَبِّنَا
كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَى لَمُنْعُ الدُّنْيَا
قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظلمون فَبَيَّلَا ﴿٧٧﴾ آيِنَسَا
تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي مَرْجٍ شَدِيدٍ وَإِن تَصْهِمُ
حَسَنَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِن تَصْهِمُ سَيِّئَةً يَقُولُوا
هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ إِنَّمَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الْوَدْعِ مَا أَصَابَكُمْ مِنَ
سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

متعلقة بما يتعلق بالمستضعفين عنه في معنى الفعل، تقديره: وأي شيء موجود أو كائن أو نحو ذلك لكم؟ و﴿لَا تُكَلِّمُون﴾ في موضع نصب على الحال تقديره: تاركين، أو مضيعين. وقوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِينَ﴾ عطف على اسم الله تعالى، أي: وفي سبيل المستضعفين، وقيل: عطف على السبيل، أي: وفي المستضعفين لاستفادهم، ويعني بالمستضعفين من كان بمكة من المؤمنين تحت إزال كفرة قريش وأذاهم لا يستطيعون خروجاً، ولا يطيب لهم - على الأذى - إقامة، وفي هؤلاء كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أنج سلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين».

﴿وَالْوَلَدَيْنِ﴾ بَابُهُ أَنْ يَكُونَ جَمْعُ

وليد، وقد يكون جمع ولد، كَوَزَل وِوزْلان، فهي على الوجهين عبارة عن الصبيان، والقرية - ها هنا - مكة بإجماع من المتأولين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية تتناول المؤمنين والأسرى وحواضر الشرك إلى يوم القيامة، ووحيد الظالم لأنه موضع اتخاذ الفعل، ألا ترى أن الفعل إنما تقديره: الذي ظلم أهلها، ولما لم يكن للمستضعفين حيلة إلا الدعاء دعوا في الاستقاذ، وفيما يوالئهم من معونة الله تعالى، وما ينصرهم على أولئك الظلمة من فتح الله تبارك وتعالى.

(٧٦) - (٧٧) تفسير قوله تعالى:

هذه الآية تقتضي تقوية قلوب المؤمنين وتحريضهم، و ﴿الْمُكُوفُونَ﴾ كل ما عبد وأتبع من دون الله، وتدل قرينة ذكر الشيطان بعد ذلك على أن المراد بالطاغوت هنا الشيطان، وإعلامه تعالى بضعف كيد الشيطان تقوية لقلوب المؤمنين، وتجرئة لهم على مقارعة الكيد الضعيف فإن العزم والحزم الذي يكون على حقائق الإيمان يكسره ويهده، ودخلت ﴿كَانَ﴾ دالة على لزوم الصفة.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ، اخْتَلَفُوا بَيْنَكُمْ فِي أَمْرٍ هَذَا، بَلَّغُوا إِلَيْنَا أَمْرَكُمْ﴾ - فقال ابن عباس وغيره: كان عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والمقداد بن عمرو الكندي، وجماعة سواهم قد أنفوا من الذل بمكة قبل الهجرة، وسألوا رسول الله ﷺ أن

يُبَيِّحَ لَهُمْ مَقَاتِلَةَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَفِّ الْأَيْدِي، وَأَلَّا يَفْعَلُوا، فَلَمَّا كَانَ بِالْمَدِينَةِ وَفُرضَ الْقِتَالُ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى بَعْضِهِمْ، وَصَعِبَ مَوْقِعُهُ، وَلَحَقَهُمْ مَا يَلْحَقُ الْبَشَرَ مِنَ الْخَوْفِ وَالْكَعْ عَنْ مَقَارَعَةِ الْعَدُوِّ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِيهِمْ.

وقال قوم: كان كثير من العرب قد استحسنا الدخول في دين محمد عليه الصلاة والسلام على فرائضه التي كانت قبل القتال من الصلاة والزكاة ونحوها، والمواذعة وكف الأيدي، فلما نزل القتال شق ذلك عليهم، وجزعوا له، فنزلت الآية فيهم وقال مجاهد، وابن عباس أيضاً: إنما الآية حكاية عن اليهود أنهم فعلوا ذلك مع نبيهم في وقته، فمعنى الحكاية عنهم تقبيح فعلهم، ونهي المؤمنين عن فعل مثله، وقالت فرقة: المراد بالآية المنافقون من أهل المدينة - عبدالله بن أبي وأمثاله، وذلك أنهم كانوا قد سكتوا على الكره إلى فرائض الإسلام مع الدعة وعدم القتال، فلما نزل القتال شق عليهم وصعب عليهم صعوبة شديدة، إذ كانوا مكذبين بالشواب، ذكره المهدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَيُحَسِّنُ هَذَا الْقَوْلُ أَنَّ ذَكَرَ الْمُنَافِقِينَ يَطْرُدُ فِيْمَا بَعْدَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

ومعنى ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾: أَمْسَكُوا عَنِ الْقِتَالِ. والفريق: الطائفة من الناس، كأنه فارق غيره، وقوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يعني أنهم كانوا يخافون الله في جهة الموت، لأنهم لا يخشون الموت إلا منه،

فلما كتب عليهم قتال الناس رأوا أنهم يموتون بأيديهم، فخشوهم في جهة الموت كما كانوا يخشون الله. وقال الحسن: قوله: ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يدل على أنها في المؤمنين، وهي خشية خوف لا خشية مخافة، ويحتمل أن يكون المعنى: يخشون الناس على حد خشية المؤمنين الله عز وجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ترجيح لا قطع.

وقوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ قالت فرقة: ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو، وفرقة: هي بمعنى بل، وفرقة: هي للتخيير، وفرقة: على بابها في الشك في حق المخاطب، وفرقة: هي على جهة الإيهام على المخاطب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد شرحت هذه الأقوال كلها في سورة البقرة في قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ لأن الموضعين سواء.

وقولهم: ﴿لَوْ كُنْتُمْ عَلَيْنَا لَأُنْذِرَكُمْ؟﴾ رد في صدر أوامر الله تعالى، وقلة استسلام، والأجل القريب يعنون به موتهم على فرشهم، هكذا قال المفسرون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يحسن إذا كانت الآية في اليهود أو المنافقين، وأما إذا كانت في طائفة من الصحابة فإنما طلبوا التأخر إلى وقت ظهور الإسلام وكثرة عددهم.

(٧٨) - (٧٩) تفسير قوله تعالى:

المعنى: قل يا محمد لهؤلاء: متاع الدنيا، أي: الاستمتاع بالحياة فيها الذي حرصتم عليه، وأشفقتم من

فقدته - قليل، لأنه فإن زائل،
والآخرة التي هي نعيم مؤبد خير
لمن أطاع الله واتقاه في امتثال
لأوامره على المحاب والمكاره.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر،
وعاصم: ﴿تُظْلَمُونَ﴾ بالتاء على
الخطاب، وقرأ ابن كثير، وحزمة،
والكسائي: ﴿يُظْلَمُونَ﴾ بالياء على
ترك المخاطبة وذكر الغائب.

والفتيل: الخيط في شق نواة
التمر، وقد تقدم القول فيه.

و ﴿أَيُّنَا تَكُونُوا يَذْرُكُكُمْ أَلَمْ تَوْ﴾
جزاء وجوابه، وهكذا قراءة
الجمهور، وقرأ طلحة بن سليمان:
﴿يَذْرُكُكُمْ﴾ بضم الكافين ورفع
الفعل. قال أبو الفتح: ذلك على
تقدير دخول الفاء كأنه قال:
فيدرككم الموت، وهي قراءة
ضعيفة. وهذا إخبار من الله يتضمن
تحقير الدنيا، وأنه لا منجي من الفناء
والتنقل.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿فِي
بُيُوتٍ﴾ - فالأكثر والأصح أنه أراد
البروج والحصون التي في الأرض
المنية، لأنها غاية البشر في التحصن
والمنعة، فمثل الله لهم بها، قال
قتادة: المعنى: في قصور محصنة،
وقال ابن جريج، والجمهور، وقال
السدي: هي بروج في سماء الدنيا
منية، وحكى مكي هذا القول عن
مالك، وأنه قال: ألا ترى إلى قوله:
﴿وَأَنكَلَهُ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، وحكى
النفاس عن ابن عباس إنه قال: ﴿فِي
بُيُوتٍ مُّشِيدَةٍ﴾ معناه: في قصور من
حديد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا لا يعطيه اللفظ، وإنما البروج في
القرآن إذا وردت مقترنة بذكر السماء
بروج المنازل للقمر وغيره، على ما
سمتها العرب وعرفتها. ويرج معناه:
ظهر، ومنه البروج، أي: المطولة
الظاهرة، ومنه تبرج المرأة.

و ﴿مُشِيدَةٍ﴾ قال الزجاج وغيره:
معناه: مرفوعة مطولة، لأن «شاد»
الرجل البناء إذا صنعه بالشيد، وهو
الجص، و «أشادة» و «شيد» إذا رفعه
وعلاه، ومنه «أشاد الرجل ذكر
الرجل» إذا رفعه، وقالت طائفة:
﴿مُشِيدَةٍ﴾ معناه: محسنة بالشيد،
وذلك عندهم أن «شاد الرجل»
معناه: جصص بالشيد، وشيد معناه:
كرر ذلك الفعل، فهي للمبالغة، كما
تقول: «كسرت العود مرة»، و
«كسرت في مواضع منه كثيرة مراراً»،
و «خرثت الثوب وخرقته» إذا كان
الخرق منه في مواضع كثيرة، فعلى
هذا يصح أن تقول: «شاد الرجل
الجدار مرة»، و «شيد الرجل
الجدار» إذا أردت المبالغة، لأن
التشييد منه وقع في مواضع كثيرة،
ومن هذا المعنى قول الشاعر:

شاده مَرَمراً وجَلَّله كَلْـ
سافلٍ لَطِيفٍ في ذُراه وكُور
والهَاء والميم في قوله: ﴿وَيُن
تُصِيتُهُمْ﴾ رد على الذين قيل لهم:
﴿كُفُوا أَيْدِيَكُمْ﴾، وهذا يدل على أنهم
المنافقون، لأن المؤمنين لا تليق بهم
هذه المقالة، ولأن اليهود لم يكونوا
للنبي عليه الصلاة والسلام تحت
أمر، فتصيبهم بسببه أسوأ، ومعنى
الآية: وإن تصب هؤلاء المنافقين

حسنة من هزم عدو، أو غنيمة، أو
غير ذلك رأوا أن ذلك بالاتفاق من
صنع الله، لا أنه ببركة اتباعك
والإيمان بك، وإن تصيبهم سيئة،
أي: هزيمة، أو شدة جوع، وغير
ذلك، قالوا: هذه بسببك لسوء
تدبيرك، كذا قال ابن زيد، وقيل:
لشؤمك علينا، قاله الزجاج وغيره.

وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ إعلام
من الله تعالى أن الخير والشر
والحسنة والسيئة خلق له ومن عنده،
لا رب غيره، ولا خالق ولا مخترع
سواه، فالمعنى: قل يا محمد
لهؤلاء: ليس الأمر كما زعمتم من
عندي، ولا من عند غيري، بل هو
كله من عند الله، قال قتادة: النعم
والمصائب من عند الله، قال ابن
زيد: النصر والهزيمة، قال ابن
عباس: السيئة والحسنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا كله شيء واحد.

ثم ويخهم بالاستفهام عن علة
جهلهم، وقلة فهمهم وتحصيلهم لما
يخبرون به من الحقائق، والفقه في
اللغة: الفهم، وأوقفته الشريعة على
الفهم في الدين وأموره، وغلب عليه
بعد الاستعمال في علم المسائل
الإحكامية. والبلاغة في الاستفهام
عن قلة فقههم بينة، لأنك إذا
استفهمت عن علة أمر ما فقد تضمن
كلامك إيجاب ذلك الأمر تضمناً
لطيفاً بليغاً.

ووقف أبو عمرو، والكسائي على
قوله: ﴿هَكَأَ﴾، ووقف الباقون على
اللام في قوله: ﴿فَمَالٌ﴾ اتباعاً للخط،
ومنعه قوم جملة، لأنه حرف جر فهي

الإنسان بإذنايه، وهي من الله بالخلق والاختراع.

وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَمِنْ نَفْسِكَ﴾ وأنا قضيتها عليك، وقرأ بها ابن عباس، وحكى أبو عمرو أنها في مصحف ابن مسعود: ﴿وَأَنَا كَتَبْتُهَا﴾، وروي أن أنبياً وابن مسعود قرأ: ﴿وَأَنَا قَدَرْتُهَا عَلَيْكَ﴾.

وَيُعْضَدُ هذا التأويل أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام معناها: إنما يصيب ابن آدم من مصائب فإنما هي عقوبة

ذنبه، ومن ذلك (أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما نزلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ جزع، فقال له رسول الله ﷺ: «أَلَسْتَ تَمْرُضُ؟ أَلَسْتَ تَسْقُمُ؟ أَلَسْتَ تَغْتَمُّ؟»، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «ما يصيب الرجل خدشة عود، ولا عشرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر». ففي ذلك بيان أن تلك كلها مجازاة على ما يقع من الإنسان.

وقالت طائفة: معنى الآية كمعنى التي قبلها في قوله: ﴿وَمِنْ نَفْسِكَ﴾ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَلْ يَمُنُّ مِنْ عَذَابِكَ عَلَى تقدير حذف (يقولون)، فتقديره: «فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، يقولون: ما أصابك من حسنة، ويحيي القطع على هذا القول من قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾».

وقالت طائفة: بل القطع في الآية من أولها، والآية مضمّنة الإخبار أن الحسنه من الله وبفضله، وتقدير ما بعده: وما أصابك من سيئة فجزن نفسك على جهة الإنكار والتقريب، فعلى هذه المقالة ألف الاستفهام محذوفة من الكلام، وحكى هذا القول المهدوي. و﴿رَسُولًا﴾ نصب على الحال، وهي حال تتضمن معنى التأكيد في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾، ثم تلاه بقوله: ﴿وَكُنْ لِلَّهِ شَهِيدًا﴾ توعّد للكفرة، وتهديد تقتضيه قوة الكلام، لأن المعنى: شهيداً على من كذبه، والمعنى أن الرسول إنما يأمر وينهى بياناً من الله وتبليغاً، فإنما هي أوامر الله ونواهيه.

وقالت فرقة: سبب هذه الآية أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحْبَبَنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ» فاعترضت اليهود عليه في هذه المقالة، وقالوا: هذا محمد يأمر بعبادة الله وحده، وهو في هذا القول مدّع للربوبية، فنزلت هذه الآية تصديقاً للرسول عليه الصلاة والسلام، وتبييناً لصورة التعلق بينه وبين فضل الله تعالى.

و﴿تَوَلَّى﴾ معناه: أعرض، وأصل تولى في المعنى أن يتعدى بحرف فنقول: تولى فلان عن الإيمان، وتولى إلى الإيمان، لأن اللفظة تتضمن إقبالاً وإدباراً، لكن الاستعمال غلب عليها في كلام العرب على الإعراض والإدبار، حتى استغنى فيها عن ذكر الحرف الذي يتضمنه.

و﴿حَفِظًا﴾ يحتمل معنيين - أي:

مَنْ يَطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ اطَّاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى مِمَّا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٧٩﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَدُوا مِنْ عِنْدِكَ بَدَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨٠﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرِيقَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُوجَدُوا فِيهِ أَعْمَلًا كَثِيرًا ﴿٨١﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفُتِنْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٢﴾ فَقُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ الْإِنْفُسَ وَرِضَى الْمُؤْمِنِينَ عِىَ اللَّهِ أَنْ يَكْفَ بِأَسْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَاسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٣﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيبًا ﴿٨٤﴾ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِحِجَابٍ فَقِجُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٥﴾

بعض المجرور، وهذا كله بحسب ضرورة وانقطاع النفس، وأما أن يختار أحد الوقف فيما ذكرناه ابتداء فلا.

٧٩ - ٨١ تفسير قوله تعالى:

قالت فرقة: ﴿مِمَّا﴾ شرطية، ودخلت ﴿مِنْ﴾ بعدها لأن الشرط ليس بواجب فأشبهه النفي الذي تدخله (من). وقالت فرقة: ﴿مِمَّا﴾ بمعنى (الذي) و﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس، لأن المصيب للإنسان أشياء كثيرة، حسنة وسيئة، ورخاء وشدة، وغير ذلك، والخطاب للنبي ﷺ. وغيره داخل في المعنى، وقيل: الخطاب للمرء على الجملة.

ومعنى هذه الآية عند ابن عباس، وقتادة، والحسن، والربيع، وابن زيد، وأبي صالح، وغيرهم: القطع واستثنا الإخبار من الله تعالى بأن الحسنه منه وبفضله، والسيئة من

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإن عرضت لأحد شبهة، وظن اختلافاً في شيء من كتاب الله، فالواجب أن يهتم نظره، ويسأل من هو أعلم منه.

وذهب الزجاج إلى أن معنى الآية: لوجدوا فيما نخبرك به مما يبيتون اختلافاً، أي: فإذا تخبرهم به على حد ما يقع فذلك دليل أنه من عند الله غيب من الغيوب، هذا معنى قوله، وقد بينه ابن قُورق، والمهدوي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ الآية، قال جمهور المفسرين: الآية في المنافقين حسبما تقدم من ذكرهم، والآية نازلة في سرايا رسول الله ﷺ وبعوثه، والمعنى: إن المنافقين كانوا يشربون إلى سماع ما يسوء النبي ﷺ في سراياه، فإذا طرأت لهم شبهة أمن للمسلمين أو فتح عليهم حقروها وصغروا شأنها، وأذاعوا بذلك التصغير والتحقير، وإذا طرأت لهم شبهة خوف للمسلمين أو مصيبة عظموها، وأذاعوا ذلك التعظيم، و﴿أَذَاعُوا يَدٌ﴾ معناه: أفسوه، وهو فعل يتعدى بحرف جر، وبنفسه أحياناً، تقول: أذعت كذا، وأذعت به، ومنه قول أبي الأسود:

أذاعوا به في الناس حتى كأنه
بِعَلِيَّاءَ نَارٍ أَوْ قَدْثٍ بِشَقُوبٍ
وقالت فرقة: الآية نازلة في المنافقين، وفي من ضعف جلده عن الإيمان من المؤمنين وقُلت تجربته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإما أن يكون ذلك في أمر السرايا

يكتبه عنده حسب كتب الحفظه حتى يقع الجزاء، وإما يكتبه في كتابه إليك، أي: ينزله في القرآن ويعلم بها، قال هذا القول الزجاج. والأمر بالإعراض إنما هو عن معاقبتهم ومجازاتهم، وأما استمرار دعوتهم وعظمتهم فلازم، قال الضحاك: معنى ﴿أَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾: لا تُخبر بأسمائهم، وهذا أيضاً قبل نزول القتال على ما تقدم، ثم أمر الله تعالى بالتوكل عليه والتمسك بعروته الوثقى ثقة بإنجاز وعده في النصر، والوكيل: القائم بالأمر، المصلح لما يُخاف من فسادها، وليس ما غلب عليه الاستعمال في (الوكيل) في عصرنا بأصل في كلام العرب، وهي لفظة رفيعة وضعها الاستعمال العامي كالعريف والقيب وغيره.

٨٢ - ٨٣ تفسير قوله تعالى:

المعنى: هؤلاء المنافقون، الطاعنون عليك، الدافعون بغير برهان في صدر نبوتك ألا يرجعون إلى النصفة. وينظرون موضع الحجة، ويتدبرون كلام الله تعالى فتظهر لهم براهينه، وتلوح أدلته؟

والتدبر: النظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء، هذا كله يقتضيه قوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ﴾. وهذا أمر بالنظر والاستدلال. ثم عرف تعالى بمواقع الحجة، أي: لو كان من كلام البشر لدخله ما في كلام البشر من القصور، وظهر فيه التناقض والتنافي الذي لا يمكن جمعه، إذ ذلك موجود في كلام البشر، والقرآن منزله عنه، إذ هو كلام المحيط بكل شيء علماً.

ليحفظهم حتى لا يقعوا في الكفر والمعاصي ونحوه، أو: ليحفظ مساوئهم وذنوبهم ويحسبها عليهم. وهذه الآية تقتضي الإعراض عن تولي والترك له، وهي قبل نزول القتال، وإنما كانت توطئة ورفقاً من الله تعالى حتى يستحكم أمر الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَوَلَّوْا طَاعَةً﴾ الآية، نزلت في المنافقين باتفاق من المفسرين، المعنى: يقولون لك يا محمد: أملك طاعة، فإذا خرجوا من عندك اجتمعوا ليلاً وقالوا غير ما أظهروا لك، و﴿يَبْتَغِي﴾ معناه: فَعَلَّ ليلاً، فإما أخذ من (بات)، وإما من (البيت) لأن ملتزم بالليل، وفيه الأسرار التي يُخاف شياعها، ومن ذلك قول الشاعر:

أَتَوْنِي فَلَمْ أَرْضَ مَا بَيْتُوا
وكانوا أتوني بأمر تُكْر
ومنه قول الثمر بن تولب:

هَبْتُ لَتَغْدِلَنِي بَلِيلِ اسْمَعِي
سَهْلاً تُبَيِّنُكَ الْمَلَامَةَ فَاهْجِعِي
المعنى: وتقول لي: اسمع، وزيدت الباء إشباعاً لتصريح القافية، كقول امرئ القيس:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي
.....

وقوله: بأمثل. وقرأ جمهور القراء: ﴿يَبْتَغِي﴾ بتحريك التاء، وقرأ أبو عمرو، وحمزة بإدغامها في الطاء، وقرأ ابن مسعود: ﴿يَبْتَغِيَّتْ﴾ منهم يا محمد. و﴿تَوَلَّوْا﴾ يحتمل أن يكون معناه: تقول أنت يا محمد، ويحتمل تقول هي لك. و﴿يَكْتَسِبُ﴾ معناه على وجهين: إما

فإنهم كانوا يسمعون أقوال المنافقين فيقولونها مع من قالها، ويذيعونها مع من أذاعها، وهم غير متثبتين من صحتها، وهذا هو الدال على قلة تجربتهم، وإما أن يكون ذلك في سائر الأمور الواقعة، كالذي قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه جاء وقوم في المسجد يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساء، قال: فدخلت على عائشة، فقلت: يا ابنة أبي بكر بلغ من أمرك أن تؤذي رسول الله ﷺ فقالت: يا ابن الخطاب، عليك بعبيتك، قال: فدخلت على حفصة، فقلت: يا حفصة، قد علمت أن رسول الله ﷺ لم يكن يحبك، ولولا أنا لطلقك، فجعلت تبكي، قال: فخرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ وهو في غرفة له، ورياح مولاه جالس على أسكفة الغرفة، فقلت: يا رباح، استأذن لي على رسول الله، فنظر إلى الغرفة، ثم نظر إليّ وسكت، فقلت: يا رباح، استأذن لي على رسول الله، فلعله يظن أنني جئت من أجل حفصة، والله لو أمرني أن أضرب عنقها لضربته، فنظر ثم أشار إليّ بيده أن ادخل، فدخلت وإذا رسول الله ﷺ مضطجع على حصير، وقد أثر في جنبه، وإذا ليس في غرفته إلا قبضة من شعير، وقبضة من قَرظ، وإذا أفبقان معلقان، فبكيت، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟» فقلت: يا رسول الله، أنت صفوة الله من خلقه ورسوله، وليس لك من الدنيا إلا هذا،

وكسرى وقيصر في الأشجار والأنهار، فقال: «ها هنا أنت يا عمر؟ أما ترضي أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» فقلت: بلى، ثم جعلت أحدثه حتى تهلل وابتسم، فقلت: يا رسول الله، إنهم ادعوا أنك طلقت نساءك، فقال: «لا»، فقلت: أتأذن لي أن أعرف الناس؟ فقال: «افعل إن شئت». قال: فقامت على باب المسجد فقلت: ألا إن رسول الله ﷺ لم يطلق نساء، فأنزل الله في هذه القصة: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾. الآية، وأنا الذي استنبطه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ﴾ الآية. المعنى: لو أمسكوا عن الخوض، واستقصوا الأمور من قبل الرسول، أو أولي الأمر - وهم الأمراء - قاله السدي، وابن زيد، وقيل: أهل العلم، قاله الحسن، وقتادة، وغيرهما، والمعنى يقتضيهما معاً. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ طلابه من أولي الأمر، والبحث عنه وهم مستنبطوه كما يستنبط الماء وهو: النبط، أي: الماء المستخرج من الأرض، ومنه قول الشاعر:

قريب ثراه ما ينال عدوه
له نبطاً أبى الهوان قطوب
وهذا التأويل جارٍ مع قول عمر رضي الله عنه: أنا استنبطته ببحني وسؤالي. وتحتمل الآية أن يكون المعنى: لعلمه المسؤولين المستنبطون فأخبروا بعلمهم، وقرأ أبو السمال: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بسكون اللام، وذلك مثل: ﴿شَجَرَ يَنْهَمُ﴾

والضمير: في ﴿رَدُّوهُ﴾ على الأمر، وفي: ﴿يَنْهَمُ﴾ يحتمل أن يعود على الرسول وأولي الأمر، ويحتمل أن يعود على الجماعة كلها، أي: لعلمه البحثة من الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضَّلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ الآية، هذا الخطاب لجميع المؤمنين باتفاق من المتأولين، والمعنى: ولولا هداية الله وإرشاده لكم بالإيمان - وذلك فضل منه ورحمة - لَكُنْتُمْ على كفركم، وذلك هو اتباع الشيطان. وحكى الزجاج: لولا فضل الله في هذا القرآن ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

واختلف المتأولون في الاستثناء بقول: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ - مِمُّهُ؟ فقال ابن عباس، وابن زيد: ذلك مستثنى من قوله: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ - ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ ورجحه الطبري، وقال قتادة: ذلك مستثنى من قوله: ﴿يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ إلا قليلاً، وقالت فرقة: ذلك مستثنى من قوله: ﴿لَا تَلْبِغُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلاً﴾، على سرد الكلام دون تقرير تقديم، ثم اختلفت هذه الفرقة - فقال الضحاك: إن الله هدى الكل منهم إلى الإيمان، فكان منهم من تمكّن فيه حتى لم يخطر له قط خاطر شك، ولا عنت له شبهة ارتياب، فذلك هو القليل، وسائر من أسلم من العرب لم يخل من الخواطر، فلولا فضل الله بتجديد الهداية لهم لضلوا واتباعوا الشيطان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا معنى قول الضحاك، ويجيء الفضل معيناً، أي: رسالة محمد

عليه الصلاة والسلام والقرآن، لأن الكل إنما هدي بفضل الله على الإطلاق، وقال قوم: المخاطب بقوله: ﴿أَتَيْتُمْ﴾ جميع المؤمنين، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إشارة إلى من كان قبل الإسلام غير متبع الشيطان على ملّة إبراهيم، كورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وغيرهما. وقال قوم: الاستثناء إنما هو من الاتباع، أي: لا تبتغم الشيطان كلكم إلا قليلاً من الأمور كنتم لا تتبعونه فيها، وقال قوم: قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ عبارة عن العدم، يريدون: لا تبتغم الشيطان كلكم، وهذا الأخير قول قلق، وليس يشبه ما حكى سيويه من قولهم: «أرض قلما تنبت كذا» بمعنى: لا تثبت، لأن اقتران القلة بالاستثناء يقتضي حصولها، ولكن قد ذكره الطبري.

٨٤ - ٨٦ تفسير قوله تعالى:

هذا أمر في ظاهر اللفظ للنبي عليه الصلاة والسلام وحده، لكن لم نجد قط في خبر أن القتال فرض على النبي ﷺ دون الأمة مدة ما، فالمعنى - والله أعلم - أنه خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام في اللفظ، وهو مثال ما يقال لكل واحد في خاصة نفسه، أي: أنت يا محمد وكل واحد من أمتك القول له: ﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، ولهذا ينبغي لكل مؤمن أن يستشعر أن يجاهد ولو وحده، ومن ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: «والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي»، وقول أبي بكر رضي الله عنه وقت الرعدة: «ولو خالفتني يميني لجاهدتها شمالي».

وخلط قوم في تعلق الفاء في قوله: ﴿فَقَتِّلْ﴾ بما فيه بُعد، والوجه أنها عاطفة جملة كلام على جملة، وهي دالة على اطراح غير ما أمر به، ثم خص النبي عليه الصلاة والسلام بالأمر بالتحريض، أي: حث المؤمنين على القيام بالفرض الواجب عليهم.

و ﴿عَنَى﴾ إذا وردت من الله تعالى - فقال عكرمة وغيره: إنها واجبة، لأنها من البشر متوقعة مرجوة، ففضل الله تعالى يوجب وجوبها، وفي هذا وعد للمؤمنين بغلبتهم للكفرة، ثم قوى - بعد ذلك - قلوبهم بأن عرفهم شدة بأس الله، وأنه أقدر على الكفرة، وأشد تنكيلاً لهم، والتنكيل: الأخذ بأنواع العذاب وترديده عليهم.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً﴾ الآية. أصل الشفاعة والشفعة ونحوها من: الشفع، وهو الزوج في العدد، لأن الشافع ثاب لوثر المذنب، والشفيع ثاب لوثر المشتري.

واختلف في الآية المتأولون - فقال الطبري: المعنى: من يشفع وتر الإسلام بالمعونة للمسلمين، أو من يشفع وتر الكفر بالمعونة على الإسلام، ودل على هذا التأويل ما تقدم من أمر القتال، وقال مجاهد، والحسن، وابن زيد، وغيرهم: هي في شفاعات الناس بينهم في حوائجهم، فمن يشفع لينفع فله نصيب، ومن يشفع ليلضر فله كفل، وقال الحسن وغيره: الشفاعة الحسنة هي في البر والطاعة، والسيئة هي في المعاصي. وهذا كله

قريب بعضه من بعض.

والكفل: النصيب، ويستعمل في النصيب من الخير ومن الشر، وفي كتاب الله تعالى: ﴿يُؤْتِيكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾.

و ﴿ثَقِيْنَا﴾ معناه: قديراً، ومنه قول الشاعر وهو الزبير بن عبدالمطلب:

وذي ضغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ
وكنْتُ على مَسَاءَتِهِ مُقْبِتًا

أي: قديراً، وعبر عنه ابن عباس ومجاهد: بحفيظ وشهيد.

وعبدالله بن كثير: بأنه الواصب القيم بالأمر، وهذا كله يتقارب، ومنه قول رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقبض»، على من رواها هكذا، أي: من هو تحت قدرته وفي قبضته من عيال وغيره، وذهب مقاتل بن حيان إلى أنه الذي يقوت كل حيوان، وهذا على أن يقال: أقات بمعنى قات، وعلى هذا يجيء قوله عليه الصلاة والسلام: «من يقبض» من: أقات، وقد حكى الكسائي: أقات يقبض، فأما قول الشاعر:

لَيْتَ شَعْرِي وَأَشْعُرُنْ إِذَا مَا
قَرَّبُوها مَطْوِيَّةً ودَعِيَتْ
أَلَيْسَ الْفَضْلُ أَمْ عَلَيَّ إِذَا حُورُ
سَبْتُ؟ إِنِّي على الحسابِ مُقْبِتُ
فقال فيه الطبري: إنه من غير هذا المعنى المتقدم، وأنه بمعنى: موقوف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يضعفه أن يكون بناء فاعل بمعنى بناء مفعول. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ﴾ الآية، التحية وزنها تفعله من: حيي، وهذا هو الأغلب من مصدر فعل المعتل،

هذه الصفة إذ معنى الآية في أن يزيد الإنسان أو ينقص أو يوفي قدر ما يجي به.

﴿٨٧﴾ - ﴿٨٨﴾ تفسير قوله تعالى:

لما تقدم الإنذار والتحذير الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ تلاه مقرباً له الإعلام بصفة الربوبية وحال الوجدانية، والإعلام بالحشر والبعث من القبور للشواب والعقاب، إعلاماً بقسم، والمقسم به تقديره: وهو، أو: وحقه، أو: وعظمت ﴿لِيَجْزِيَكُمْ﴾. والجمع هنا: الحشر، فلذلك حسنت بعده ﴿إِنَّ﴾، أي: إليه السوق والحشر، و ﴿الْفَيْكَةِ﴾ أصلها: القيام، ولما كان قيام الحشر من أذل الحال وأضعفها إلى أشد الأحوال وأعظمها لحقته هاء المبالغة.

و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ تبرية هي وما بعدها بمثابة الابتداء تطلب الخبر، ومعناه: لا ريب فيه في نفسه وحقيقة أمره، وإن ارتاب فيه الكفرة فغير ضائر.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ظاهره الاستفهام، ومعناه: تقرير الخبر، تقديره: لا أحد أصدق من الله تعالى، لأن دخول الكذب في حديث البشر إنما علته الخوف والرجاء، أو سوء السجية، وهذه منفية في حق الله تعالى وتقدست أسماؤه، والصدق في حقيقته أن يكون ما يجري على لسان المخبر موافقاً لما في قلبه وللأمر المخبر عنه في وجوده، و ﴿حَدِيثًا﴾ نصب على التمييز.

نقص المسلم من النهاية فحيوا بأحسن، وإن انتهى فردوا، وقالت فرقة: إنما معنى الآية تخيير الراد، فإذا قال البادي: السلام عليك، فللراد أن يقول: وعليك السلام، فقط، وهذا هو الرد، وله أن يقول: وعليك السلام ورحمة الله، وهذا هو التحية بأحسن منها، وقال ابن عباس وغيره: المراد بالآية: إذا حُيِّتُم بتحية فإن كانت من مؤمن فحيوا بأحسن منها، وإن كانت من كافر فردوا على ما قال رسول الله ﷺ أن يقال

لهم: «وعليكم»، وروي عن ابن عمر، وابن عباس، وغيرهما: انتهى السلام إلى البركة، وجمهور أهل العلم على ألا يُبْذَأ أهل الكتاب بسلام، فإن سلم أحد ساهياً أو جاهلاً فينبغي أن يستقبله سلامه، وشذ قوم في إباحة ابتدائهم، والأول أصوب، لأن به يتصور إذلالهم، وقال ابن عباس: كل من سلم عليك من خلق الله فرد عليه وإن كان مجوسياً، وقال عطاء: الآية في المؤمنين خاصة، ومن سلم من غيرهم قيل له: عليك، كما في الحديث. وأكثر أهل العلم على أن الابتداء بالسلام سنة مؤكدة، ورده فريضة، لأنه حق من الحقوق، قاله الحسن بن أبي الحسن، وغيره.

و ﴿حَسِيبًا﴾ معناه: حفيظاً، وهو فعيل من الحساب، وحسنت ها هنا

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْزِيَكُمْ فِي يَوْمٍ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٩﴾ وَذَوُلُوا تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يَهْجُرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعُدُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا تُصَيِّرُوا كَلِمَةً إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رِيقٌ أَوْ جَاءَتْكُمْ حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُغْلَبُوا قَوْمُهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلِّ مَادَّةٍ وَإِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلُوكُمْ وَلَقُوا الْوَيْلَ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَلْيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾

وروي عن مالك أن هذه الآية في تسميت العاطس، وفيه ضعف، لأنه ليس في الكلام على ذلك دلالة، أما الرُّدُّ على المشمت فمما يدخل بالقياس في معنى رد التحية وهذا هو منحى مالك رحمه الله إن صَحَّ ذلك عنه، والله أعلم.

واختلف المتأولون - فقالت فرقة: التحية أن يقول الرجل: سلام عليك، فيجب على الآخر أن يقول عليك السلام ورحمة الله، فإن قال البادي: السلام عليك ورحمة الله، قال الراد: عليك السلام ورحمة الله وبركاته، فإن قال البادي: السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقد انتهى، ولم يبق للراد أن يحيي بأحسن منها، فها هنا يقع الرد المذكور في الآية، فالمعنى عند أهل هذه القالة: إذا حُيِّتُم بتحية فإن

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي اللَّتَائِفِ﴾ الآية، الخطاب للمؤمنين، وهذا ظاهره استفهام، والمقصود منه التوبيخ، واختلف المتأولون في: من المراد بالمنافقين؟ - فقال ابن عباس: هم قوم كانوا بمكة فكتبوا إلى أصحاب النبي ﷺ بالمدينة أنهم قد آمنوا وتركوا الهجرة، وأقاموا بين أظهر الكفار، ثم سافر قوم منهم إلى الشام فأعطتهم قريش بضاعات، وقالوا لهم: إنكم لا تخافون أصحاب محمد، لأنكم تخذعونهم بإظهار الإيمان لهم، فاتصل خبرهم بالمدينة، فاختلف المؤمنون فيهم، فقالت طائفة: نخرج إلى أعداء الله المنافقين، وقالت طائفة: بل هم مؤمنون لا سبيل لنا إليهم فنزلت الآية، وقال مجاهد: بل نزلت في قوم جاءوا إلى المدينة من مكة، فأظهروا الإسلام، ثم قالوا: لنا بضاعات بمكة فأنصرفوا إليها، وأبطنوا الكفر، فاختلف فيهم أصحاب النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان يعضدهما ما في آخر الآية في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَهْجُرُوا﴾.

وقال زيد بن ثابت: نزلت في المنافقين الذين رجعوا عن رسول الله ﷺ يوم أحد، عبدالله بن أبي وأصحابه، لأن أصحاب النبي ﷺ اختلفوا فيهم.

وقال السدي: بل نزلت في قوم منافقين كانوا بالمدينة فطلبوا الخروج عنها نفاقاً وكفرًا، وقالوا: اجتوبناها، وقال ابن زيد: إنما نزلت في

المنافقين الذين تكلموا في حديث الإفك، لأن الصحابة اختلفوا فيهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الاختلاف في هذه النازلة كان بين أسيد بن حضير، وسعد بن عباد حسيما وقع في البخاري، وكان لكل واحد أتباع من المؤمنين على قوله، وكل من قال في هذه الآية إنها في من كان بالمدينة يرُدُّ عليه قوله: ﴿حَتَّىٰ يَهْجُرُوا﴾ لكنهم يخرجون المهاجرة إلى هجر ما نهى الله عنه، وترك الخلاف والنفاق، كما قال عليه الصلاة والسلام: «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

و ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ معناه: فرقتين، ونصبهما على الحال، كما تقول: مالك قائماً، هذا مذهب البصريين، وقال الكوفيون: نصبه ما يتضمنه ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ من الفعل، والتقدير: ما لكم كنتم فتيين، أو صرتم، وهذا الفعل المقدر ينصب عندهم النكرة والمعرفة، كما تقول: مالك الشاتم لزيد، وخطأ هذا القول الزجاج، لأن المعرفة لا تكون حالاً.

و ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ معناه: رجعهم في كفرهم وضلالهم، والركس: الرجيع، ومنه حديث النبي عليه الصلاة والسلام في الاستنجاء: «فأخذ الحجرين، وألقى الروثة وقال: إنها ركس»، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فأركسوا في حميم النار إنيهم
كانوا عصاة وقالوا الإفك والزورا
وحكى النضر بن شميل،
والكسائي، ركس وأركس بمعنى واحد، أي: رجعهم، ومن قال من

المتأولين: أهلهم، أو أضلهم فإنما هي بالمعنى، لأن ذلك كله يتضمنه ردُّهم إلى الكفر.

و ﴿يَمَّا كُتِبُوا﴾ معناه: بما اجترحوا من الكفر والنفاق، أي أن كفرهم بخلق من الله واختراع، ويتكسب منهم، وقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ استفهام معناه الإبعاد واليأس مما أرادوه، والمعنى: أتريدون أيها المؤمنون القائلون بأن أولئك المنافقين مؤمنون أن تسموا بالهدى من قد يشره الله للضلالة وحشمتها عليه. ثم أخبر تعالى أنه ﴿مَنْ يُضِلِّي﴾ فلا سبيل إلى إصلاحه ولا إلى إرشاده.

﴿٨٩﴾ تفسير قوله تعالى:

الضمير في ﴿وَوَدَّ﴾ عائد على المنافقين، وهذا كشف من الله ليخبر معتقدهم، وتحذير للمؤمنين منهم، والمعنى: تمنوا كفركم، وهي غاية المصائب بكم، وهذا الود منهم يحتمل أن يكون عن حسد منهم لهم على ما يرون للمؤمنين من ظهور في الدنيا فتجري الآية: مع ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم، ويحتمل أمر المنافقين أن يكون أنهم رأوا المؤمنين على غير شيء فودوا رجوعهم إلى عبادة الأصنام، والأول أظهر.

وقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا﴾ الآية، هذا نهي عن موالاتهم حتى يهاجروا، لأن الهجرة في سبيل الله تتضمن الإيمان، و ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ معناه: في طريق مرضاة الله، لأن سبيل الله كثيرة، وهي طاعته كلها، المعنى:

فإن أعرضوا عن الهجرة وتولوا عن الإيمان فخذوهم، وهذا أمرٌ بالحمل عليهم، ومجاهرتهم بالقتال.

﴿٩٠﴾ تفسير قوله تعالى:

كان هذا الحكم في أول الإسلام قبل أن يستحكم أمر الطاعة من الناس، فكان رسول الله ﷺ قد هادن من العرب قبائل، كرهط هلال بن عويسم الأسلمي، وسراقة بن مالك بن جعشم، وخزيمة بن عامر بن عبد مناف، فقضت هذه الآية بأنه من وصل من المشركين الذين لا عهد بينهم وبين النبي ﷺ إلى هؤلاء أهل العهد، فدخل في عدادهم وفعل من الموادة، فلا سبيل عليه. قال عكرمة، والسدي، وابن زيد: ثم لما تقوى الإسلام وكثر ناصره نسخت هذه والتي بعدها بما في سورة براءة، وقال أبو عبيدة، وغيره: ﴿يَمْلِكُونَ﴾ - في هذا الموضع - معناه: يتسبون، ومنه قول الأعشى: إذا اتَّصَلْتُ قَالَتْ لِبَكْرِ بْنِ وائِلٍ وَبَكْرٌ سَبَتْهَا وَالْأَنْوَفُ رَوَاغُمُ يَرِيدُ: إذا انتسبت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير صحيح، قال الطبري: قال رسول الله ﷺ قريشاً وهم قرابة السابقين إلى الإسلام يقضي بأن قرابة من له ميثاق أجدر بأن تقاتل، فإن قيل: إن النبي عليه الصلاة والسلام لم يُقاتل قريشاً إلا بعد نسخ هذه الآية، قيل: التواريخ تقضي بخلاف ذلك، لأن الناسخ لهذه الآية هي سورة براءة، ونزلت بعد فتح مكة، وإسلام جميع قريش.

وقوله تعالى: ﴿أَزَّجَاكُمْ﴾ عطف على: ﴿يَمْلِكُونَ﴾، ويحتمل أن يكون على قوله: ﴿يَبْنِيكُمْ وَيَبْنِيكُمْ﴾، والمعنى في العطفين مختلف، وهذا أيضاً حكم كان قبل أن يستحكم أمر الإسلام، فكان المشرك إذا اعتزل القتال، وجاء إلى دار الإسلام مسالماً كارماً لقتال قومه مع المسلمين، ولقتال المسلمين مع قومه - لا سبيل عليه، وهذه نُسخَت أيضاً بما في براءة.

و ﴿حَصِرَتْ﴾: ضاقت وحرجت، ومنه الحصر في القول، وهو: ضيق الكلام على المتكلم. وقرأ الحسن، وقتادة: ﴿حَصِيرَةٌ﴾، كذا قال الطبري، وحكى ذلك المهدوي عن عاصم من رواية حفص، وحكى عن الحسن أنه قرأ: ﴿حَصِيرَاتٍ﴾، وفي مصحف أبي سقط: ﴿أَزَّجَاكُمْ﴾ و ﴿حَصِرَتْ﴾ عند جمهور النحويين في موضع نصب على الحال بتقدير: قد حَصِرَتْ.

قال، القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يصح الفعل الماضي إذا كان في موضع الحال، والداعي إليه أن يفرق بين تقدير الحال وبين خبر مُسْتَأْنَفٍ، كقولك: «جاء زيد ركب الفرس»، فإن أردت بقولك: «ركب الفرس»، خبراً آخر عن زيد لم تحتج إلى تقدير (قد)، وإن أردت به الحال من اليد قدرته بـ (قد)، قال الزجاج: ﴿حَصِرَتْ﴾: خبر بعد خبر، وقال المبرد: ﴿حَصِرَتْ﴾: دعاء عليهم.

قال، القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال بعض المفسرين: لا يصح هنا

الدعاء، لأنه يقتضي الدعاء عليهم بالألأ يقاتلوا قومهم، وذلك فاسد.

قال المؤلف:

وقول المبرد يخرج على أن الدعاء عليهم بالألأ يقاتلوا المسلمين تعجيز لهم، والدعاء عليهم بالألأ يقاتلوا قومهم تحقير لهم، أي: هم أقل وأحق، ويستغنى عنهم، كما تقول إذا أردت هذا المعنى: لا جعل الله فلاناً علي ولا معي أيضاً، بمعنى: أستغني عنه وأستقلّ دونه.

واللام في قوله: ﴿سَلَّطَهُمْ﴾ جواب ﴿أَزَّ﴾، وفي قوله: ﴿فَلَقَتْلُوهُمْ﴾ لام المحاذاة والازدواج، لأنها بمثابة الأولى، لو لم تكن الأولى كنت تقول: لو شاء الله لقاتلوكم، والمعنى تقرير المؤمنين على مقدار النعمة وصرفها، أي: لو شاء الله لقوّاهم وجراًهم عليكم، فإذا قد أنعم عليكم بالهدنة فاقبلوها وأطيعوا فيها. وقرأت طائفة: ﴿فَلَقَتْلُوهُمْ﴾، وقرأ الجحدري، والحسن: ﴿فَلَقَتْلُوهُمْ﴾ بتشديد التاء، والمعنى: ﴿فَلَمَّا أَتَقَرَّوْكُمْ﴾ أي: هادنوكم وتآزركوكم في القتل. و ﴿أَتَيْتُمْ﴾ هنا: الصلح، قاله الربيع، ومنه قول الطرماح بن حكيم:

وذاك أن تميماً غادرت سَلَمَاً
للأسد كلَّ حَصَانٍ رَغْنَةِ الكبد
قال الربيع: السلم ها هنا: الصلح، وكذا قرأته عامة القراء، وقرأ الجحدري: ﴿السُّلْمُ﴾ بسكون اللام، وقرأ الحسن: ﴿السُّلْمُ﴾ بكسر السين وسكون اللام، فمعنى جملة هذه الآية: خذوا المنافقين الكافرين واقتلوهم حيث وجدتموهم، إلا من

وقوله: ﴿إِلَ الْفَنَةِ﴾
معناه: إلى الاختبار،
حكى أنهم كانوا يرجعون
إلى قورمهم فيقال
لأحدهم: ربي الخنفساء،
وربي العود، وربي
العقرب، ونحوه،
فيقولها، ومعنى ﴿أَرْكُسُوا﴾
رجعوا رجع ضلالة، أي:
أهلكوا في الاختبار بما
واقعوه من الكفر. وقرأ
عبدالله بن مسعود:
﴿رُكُسُوا﴾ بضم الراء من
غير ألف، وحكاه عنه أبو
الفتح بشد الكاف على
التضعيف، والخلاف في
﴿الْيَسْرِ﴾ حسبما تقدم.

دخل منهم في عداد من بينكم وبينه
ميثاق، والتزم مهادنتكم، أو من
جاءكم وقد كره قتالكم وقتال قومه،
وهذا بفضل الله عليكم ودفاعه
عنكم، لأنه لو شاء لسلط هؤلاء
الذين هم بهذه الصفة من المتاركة
عليكم فلقاتلوكم، فإن اعتزلوكم،
أي: إذا وقع هذا فلم يُقاتلوكم فلا
سبيل لكم عليهم.

وهذا الذي في سورة «الممتحنة»
من قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمُ اللَّهُ عَنِ
الَّذِينَ لَمْ يَغْيِلْكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُكُم مِّنْ
دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، منسوخ بما في
سورة «براءة»، قاله قتادة، وابن زيد،
وغيرهما.

﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى﴾

لما وصف الله تعالى فيما تقدم
صفة المحقين في المتاركة، المُجْدِّين
في إلقاء السُّلَم - ثبته على طائفة
مخادعة مبطلّة مبطنة كانوا يريدون
الإقامة في مواضعهم مع أهلهم،
يقولون لهم: نحن معكم وعلى
دينكم، ويقولون أيضاً للمسلمين إذا
وفدوا وأرسلوا: نحن معكم وعلى
دينكم خبيثة منهم وخديعة. قيل:
كانت أسد وغطفان بهذه الصفة،
وقيل: نزلت في نعيم بن مسعود
الأشجعي، كان ينقل بين النبي ﷺ
والكفار الأخبار، وقيل: نزلت
في قوم يجيئون من مكة إلى
النبي عليه الصلاة والسلام رياء،
يظهرون الإسلام، ثم يرجعون إلى
قريش فيكفرون، ففضح الله تعالى
هؤلاء، وأعلم أنهم على غير صفة
من تقدم.

وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحَرَّرَ رَقَبَةً مُّؤْمِنَةً وَدِيَّةً مُّسَلَّمَةً إِلَى
أَهْلِيهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحَرَّرَ رَقَبَةً مُّؤْمِنَةً وَإِنْ كَانَتْ
مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَّةً مُّسَلَّمَةً
إِلَى أَهْلِهِ وَتَحَرَّرَ رَقَبَةً مُّؤْمِنَةً فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
فَدِيَّةً شَهْرَيْنِ مُّتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩١﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٢﴾ يَأَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيِّبُوا وَلَا تَقُولُوا
لِمَنْ آتَيْنَا إِلَيْنَا السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْعُوثُ
عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَائِدُ كَثِيرَةٌ
كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٣﴾

٩٣

حكم الذين لا سبيل عليهم، ولكنهم
بهذه العبارة تحت القتل إن لم
يعتزلوا.

و ﴿تَفْتَنُونَهُمْ﴾ مأخوذ من الشفاف،
أي: ظفرتهم بهم مغلوبين متمكناً
منهم، والسلطان: الحجة. قال
عكرمة: حيثما وقع السلطان في
كتاب الله تعالى فهو الحجة.

﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى﴾

قال جمهور المفسرين: معنى
الآية: وما كان في إذن الله، وفي
أمره للمؤمن أن يقتل مؤمناً بوجه،
ثم استثنى استثناء منقطعاً ليس من
الأول، وهو الذي تكون فيه (إلا)
بمعنى (لكن)، والتقدير: لكن الخطأ
قد يقع، وهذا كقول الشاعر:

أَمْسَى سَقَامَ خَلَاءٍ لَا أَبْنِسُ بِهِ
إِلَّا السَّبَاعَ وَمَرَّ الرِّيحَ بِالْعَرَفِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية حُضَّ على قتل هؤلاء
المخادعين إذا لم يرجعوا عن حالهم
إلى حال الآخرين المعتزلين الملقين
للسلم.

قال القاضي أبو محمد عبدالحق
رحمه الله: وتأمل فصاحة الكلام في
أن سياقه في الصيغة المتقدمة قبل
هذه سياق إيجاب الاعتزال، وإيجاب
إلقاء السُّلَم، ونفي المقاتلة إذا كانوا
مُحَقِّقِينَ فِي ذَلِكَ مُعْتَقِدِينَ لَهُ، وسياقه
في هذه الصيغة المتأخرة سياق نفي
الاعتزال، ونفي إلقاء السلم إذا كانوا
مبطلين فيه مخادعين، والحكم سواء
على السياقين، لأن الذين لم
يجعل الله عليهم سبيلاً لو لم يعتزلوا
لكان حكمهم حكم هؤلاء الذين
جعل عليهم سلطان مبين، وكذلك
هؤلاء الذين عليهم السلطان إذ لم
يعتزلوا، لو اعتزلوا لكان حكمهم

سُقَام: اسم واد، والغَرْف: شجر يدبغ بلحائه. وكما قال جرير: من البيض لم تظعن بعيداً ولم تطأ على الأرض إلا ذَيْلٌ مِرْطٌ مَرَحْلٌ وفي هذا الشاهد نظر.

ويتجه في معنى الآية وجه آخر، وهو أن تقدر ﴿كَأَنَّ﴾ بمعنى: استقر ووجد، كأنه قال: وما وجد ولا تقرر ولا ساغ لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ، إذ هو مغلوب فيه أحياناً، فيجزي الاستثناء - على هذا - غير منقطع، وتتضمن الآية - على هذا - إعظام العمد ويشاعة شأنه، كما تقول: ما كان لك يا فلان أن تتكلم بهذا إلا ناسياً، إعظاماً للعمد والقصد مع حظر الكلام به ألبتة.

وقرأ الزهري ﴿خطأ﴾ مقصوراً غير مهموز، وقرأ الحسن والأعمش مهموزاً ممدوداً.

وقال مجاهد، وعكرمة: نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة المخزومي حين قتل الحارث بن يزيد بن نبيشة، وذلك أنه كان يعذبه بمكة، ثم أسلم الحارث وجاء مهاجراً، فلقيه عياش بالحرّة، فظنه على كفره فقتله، ثم جاء فأخبر النبي عليه الصلاة والسلام فشق ذلك عليه، ونزلت الآية، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿قم فحرر﴾.

وقال أبو زيد: نزلت في رجل قتله أبو الدرداء، كان يرعى غنماً وهو يتشهد، فقتله وساق غنمه إلى رسول الله ﷺ، ونزلت الآية.

وقيل: نزلت في أبي حذيفة اليماني حين قتل خطأ يوم أحد، وقيل غير هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا﴾ الآية. بين الله تعالى في هذه الآية حكم المؤمن إذا قتل المؤمن خطأ، وحقيقة الخطأ ألا يقصده بالقتل، ووجوه الخطأ كثيرة لا تحصى، يربطها عدم القصد، قال ابن عباس، والحسن، والشعمي، والتخعي، وقتادة، وغيرهم: الرقبة المؤمنة هي الكبيرة التي قد صلّت وعقلت الإيمان، ولا يجزئ في ذلك الصغير، وقال عطاء بن أبي رباح: يجزئ الصغير المولود بين مسلمين، وقال جماعة منهم مالك بن أنس: يجزئ كل من يحكم له بحكم الإسلام في الصلاة عليه إن مات ودفن، قال مالك: ومن صلى وصام أحب إلي، وأجمع أهل العلم على أن الناقص النقصان الكثير كقطع اليدين، أو الرجلين، أو الأعمى لا يجزئ فيما حفظت، فإن كان النقصان يسيراً تتفق له مَعَهُ المعيشة والتحرف كالعرج ونحوه فيه قولان.

و ﴿مُسْلَمَةً﴾ معناه: مؤداة مدفوعة، وهي على العاقلة فيما جاز ثلث الدية، و ﴿إِلَّا أَنْ يَصُدَّقُوا﴾ يريد أولياء القتيل. وقرأ أبي بن كعب: ﴿يَتَصَدَّقُوا﴾، وقرأ الحسن، وأبو عبد الرحمن، وعبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿تَصَدَّقُوا﴾ بالتاء على المخاطبة للحاضر، وقرأ تَبِيح الغزني ﴿تَصَدَّقُوا﴾ بالتاء وتخفيف الصاد.

والدية: مائة من الإبل على أهل الإبل عند قوم، وعند آخرين: على الناس كلهم، إلا ألا يجد الإبل أهل الذهب والفضة، فحينئذ ينتقلون إلى

الذهب والفضة، يعطون منها قيمة الإبل في وقت النازلة بالغة ما بلغت، واختلف في المائة من الإبل - فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هي مربعة، ثلاثون حقة، وثلاثون جذعة، وعشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون. وقال عبدالله بن مسعود: مخمسة، عشرون حقة، وعشرون جذعة، وعشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون، وعشرون ابن لبون ذكراً، ولبغض الفقهاء غير هذا الترتيب، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه «وغيره» يرى الدية من البقر مائتي بقرة، ومن الغنم ألفي شاة، ومن الحُلل مائة حُلّة، وورد بذلك حديث عن النبي ﷺ في مصنف أبي داود. والحُلّة: ثوبان من نوع واحد في كلام العرب، وكانت في ذلك الزمن صفة تقاوم المائة من الإبل فمضى القول على ذلك، وأما الذهب فهي ألف دينار، قررهما عمر رضي الله عنه، ومشى الناس عليها، وأما الفضة فقررها عمر رضي الله عنه اثني عشر ألفاً، وبه قال مالك، وجماعة تقول: عشرة آلاف درهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ الآية، المعنى عند ابن عباس، وقتادة، والسدي، وإبراهيم، وعكرمة، وغيرهم: فإن كان هذا المقتول خطأ رجلاً مؤمناً قد آمن وبقي في قومه وهم كفرة عدو لكم - فلا دية فيه، وإنما كفارته تحرير الرقبة، والسبب عندهم في نزولها أن جيوش رسول الله ﷺ كانت تمر بقبائل الكفار فربما قُتل من قد آمن

شيء، وإنما القتل عنده ما ذكره الله تعالى عمداً وخطأ لا غير، والقتل بالسم عنده عمد وإن قال: ما أردت إلا سكره.

وقوله: ﴿تَجْرَأُونَ بِهِ﴾ تقديره عند أهل السنة: فجزاؤه إن جازاه بذلك، أي: هو أهل ذلك ومستحقه لعظم ذنبه، ونص على هذا أبو مجلز، وأبو صالح، وغيرهما، وهذا مبني على القول بالمشيئة في جميع العصاة، قاتل وغيره، وذهبت المعتزلة إلى عموم هذه الآية، وأنها مخصصة بعمومها لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِئِنْ يَشَاءُ﴾. وتوركو في ذلك على ما روي عن زيد بن ثابت أنه قال: نزلت الشديدة بعد الهينة، يريد نزلت ﴿وَمَنْ يَشَأْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ بعد ﴿وَيَقْتُلُونَ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِئِنْ يَشَاءُ﴾، فهم يريدون أن ذلك الوعيد نافذ حتماً على كل قاتل يقتل مؤمناً، ويرويه عموماً ماضياً لوجهه، مخصصاً للعموم في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِئِنْ يَشَاءُ﴾ كأنه قال: إلا من قتل عمداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأهل الحق يقولون لهم: هذا العموم منكر غير ماضٍ لوجهه من جهتين: إحداهما ما أنتم معنا مجمعون عليه من الرجل الذي يشهد عليه، أو يُقر بالقتل عمداً، ويأتي السلطان أو الأولياء فيقام عليه الحد، ويقتل قوداً، فهذا غير متبع في الآخرة، والوعيد غير نافذ عليه إجماعاً متركباً على الحديث الصحيح من طريق عبادة بن الصامت: (أنه من عوقب في الدنيا فهو كفارة له)، وهذا نقض

فقال أبو حنيفة وغيره: دية كدية المسلم، وروي ذلك عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال مالك وأصحابه: دية على نصف دية المسلم، وقال الشافعي، وأبو ثور: دية على ثلث دية المسلم.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ لَمْ يَحْذَرَ﴾ الآية، يريد عند الجمهور: فمن لم يجد العتق، ولا اتسع ماله له فيجزيه صيام شهرين متتابعين في الأيام لا يتخللها فطر، وقال مكي عن الشعبي: صيام الشهرين يجزى عن الدية والعتق لمن لم يجدهما، وهذا القول وهم، لأن الدية إنما هي على العاقلة وليست على القاتل، والطبري حكى القول عن مسروق.

و ﴿تَوْبَةً﴾ نصب على المصدر، ومعناه: رجوعاً بكم إلى التيسير والتسهيل.

﴿٩٣﴾ تفسير قوله تعالى:

المتعمد في لغة العرب: القاصد إلى الشيء، واختلف العلماء في صفة المتعمد في القتل - فقال عطاء، وإبراهيم النخعي، وغيرهما: هو من قتل بحديدة كالسيف أو الخنجر وسنان الرمح ونحو ذلك من المشحوذ المعد للقطع، أو بما يعلم أن فيه الموت من ثقل الحجارة ونحوه، وقالت فرقة: المتعمد: كل من قتل، بحديدة كان القتل أو بحجر أو بعصا أو بغير ذلك، وهذا قول الجمهور، وهو الأصح، ورأى الشافعي وغيره أن القتل بغير الحديد المشحوذ هو شبه العمد، ورأوا فيه تغليب الدية، ومالك رحمه الله لا يرى شبه العمد، ولا يقول به في

ولم يهاجر، أو من قد هاجر ثم رجع إلى قومه فيقتل في حملات الحرب على أنه من الكفار، فنزلت الآية، وتسقط الدية عند قاتلي هذه المقالة لوجهين: أولهما أن أولياء القتيل كفار فلا يصح أن تدفع الدية إليهم يتقوون بها، والآخر أن حرمة هذا الذي آمن ولم يهاجر قليلة، فلا دية فيه، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾. وقالت فرقة: بل الوجه في سقوط الدية أن الأولياء كفار فقط، فسواء كان القتيل خطأ بين أظهر المسلمين أو بين قومه لم يهاجر، أو هاجر ثم رجع إلى قومه - فكفارته التحرير، ولا دية فيه، لأنه لا يصح دفعها إلى الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقائل المقالة الأولى يقول: إن قُتل المؤمن في بلد المسلمين وقومه في حرب ففيه الدية لبيت المال والكفارة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ المعنى عند الحسن، وجابر بن زيد، وإبراهيم، وغيرهم: وإن كان هذا المقتول خطأ مؤمناً من قوم معاهدين لكم، فعهدهم يوجب أنهم أحق بدية صاحبهم، فكفارته التحرير وأداء الدية، وقرأ الحسن: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ وهو مؤمن. - وقال ابن عباس، والشعبي، وإبراهيم أيضاً: المقتول من أهل العهد خطأ لا يبالي كان مؤمناً أو كافراً على عهد قومه - فيه الدية كدية المسلم، والتحرير. واختلف على هذا في دية المعاهد -

للعوم، والجهة الأخرى أن لفظ هذه الآية ليس بلفظ عموم، بل لفظ مشترك يقع كثيراً للخصوص، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، وليس حكام المؤمنين إذا حكموا بغير الحق في أمر بكفرة بوجه، وكقول الشاعر:

وَمَنْ لَا يَدُّ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ
يُهْذَمُ، وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ
وهذا إنما معناه الخصوص، لأنه ليس كل من لا يظلم يظلم، فهذه جهة أخرى تدل على أن العموم غير مترتب، وما احتجوا به من قول زيد بن ثابت فليس كما ذكره، وإنما أراد زيد أن هذه الآية نزلت بعد سورة (الفرقان)، ومراده بالليظة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الآية، وإن كان المهدي قد حكى عنه أنه قال: أنزلت الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا﴾ بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَمْيُزُ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ﴾ بأربعة أشهر، فإذا دخله التخصيص فالوجه أن هذه الآية مخصوصة في الكافر يقتل المؤمن، إما على ما روي أنها نزلت في شأن مقيس بن صبابه حين قتل أخاه هشام بن صبابه رجل من الأنصار فأخذ له رسول الله ﷺ الدية، ثم بعثه مع رجل من فهر بعد ذلك في أمر ما، فعدا عليه مقيس فقتله، ورجع إلى مكة مرتداً، وجعل ينشد:

قَتَلْتُ بِهِ فَهْرًا وَحَمَلْتُ عَقْلَهُ
سَرَاةَ بَنِي النُّجَارِ أَزْيَابَ فَارِعَ
حَلَلْتُ بِهِ وَثَرِي وَأَدْرَكْتُ ثَوْرِي
وَكُنْتُ إِلَى الْأَوَّثَانِ أَوَّلَ رَاجِعَ

فقال رسول الله ﷺ: «لَا أُوْمِنُهُ فِي حُلٍّ وَلَا فِي حَرَمٍ»، وأمر بقتله يوم فتح مكة وهو متعلق بالكعبة، وإما أن يكون على ما حكى عن ابن عباس أنه قال: «مُتَعَدِّيًا» معناه: مستحلاً لقتله، فهذا يؤول أيضاً على الكفر، وفي المؤمن الذي قد سبق في علم الله أنه يعذبه بمعصيته على ما قدمناه من تأويل فجزاؤه - إن جازاه - ويكون قوله: «حَكْلًا» إذا كانت في المؤمن بمعنى باقي مدة طويلة على نحو دعائهم للملوك بالتخليد ونحو ذلك، ويدل على هذا سقوط قوله: - أبداً - فإن التأبيد لا يقرن بالخلود إلا في ذكر الكفار.

واختلف العلماء في قبول توبة القاتل - فجماعة على أن لا تقبل توبته، وروي ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر، وكان ابن عباس يقول: «الشُّرْكُ وَالْقَتْلُ مَبْهَمَانِ، مَنْ مَاتَ عَلَيْهِمَا خُلِدَ»، وكان يقول: «هذه الآية مدنية نسخت الآية التي في الفرقان، إذ الفرقان مكية»، والجمهور على قبول توبته، وروي عن بعض العلماء أنهم كانوا يقصدون الإغلاظ والتخويف أحياناً فيطلقون: «لا تُقبل توبة القاتل»، منهم ابن شهاب، كان إذا سأله من يفهم منه أنه قد قتل قال له: «توبتك مقبولة»، وإذا سأله من لم يفعل قال له: «لا توبة للقاتل»، ومنهم ابن عباس، وقع عنه في تفسير عبد بن حميد أن رجلاً سأله: «ألق القاتل توبة؟» فقال له: «لا توبة للقاتل، وجزاؤه جهنم»، فلما مضى السائل قال له أصحابه: «ما هكذا كنا نعرفك

تقول إلا أن للقاتل توبة»، فقال لهم: «إنني رأيته مغضباً، وأظنه يريد أن يقتل»، فقاموا فطلبوه وسألوا عنه فإذا هو كذلك، وذكره هبة الله في كتاب «الناسخ والمنسوخ» له: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وقال: «هذا إجماع الناس إلا ابن عباس، وابن عمر، فإنهما قالا: هي محكمة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفيما قاله هبة الله نظر، لأنه موضع عموم وتخصيص، لا موضع نسخ، وإنما ركب كلامه على اختلاف الناس في قبوله توبة القاتل، والله أعلم.

﴿٩٤﴾ تفسير قوله تعالى:

تقول العرب: «ضربت في الأرض» إذا سرت لتجارة أو غزو أو غيره مقترنة بـ (في)، وتقول: «ضربت الأرض» دون (في) إذا قصدت قضاء حاجة الإنسان، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يخرج الرجلان يضربان الغائط يتحدثان كاشفين عن فرجهما فإن الله يعمت على ذلك».

وسبب هذه الآية أن سرية من سرايا رسول الله ﷺ لقيت رجلاً له جمل ومتيع، وقيل: غنمة، فسلم على القوم وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فحمل عليه أحدهم فقتله، فشق ذلك على رسول الله، ونزلت الآية فيه.

واختلف المفسرون في تعيين القاتل والمقتول في هذه النازلة - فالذي عليه الأكثر، وهو في سيرة ابن إسحق، وفي مصنف أبي داود، وغيرهما: أن القاتل: مُحَلِّم بن

جثامة، والمقتول: عامر بن الأصبط. والحديث بكماله في «المصنف» لأبي داود، وفي السير، وفي الاستيعاب، وقالت فرقة: القاتل: أسامة بن زيد، والمقتول: مزداس بن نهيك الغطفاني، وقالت فرقة: القاتل: أبو قتادة، وقالت فرقة: القاتل: غالب الليثي، والمقتول: مرداس، وقالت فرقة: القاتل: أبو الدرداء، ولا خلاف أن الذي لفظته الأرض هو مُحْلَم بن جثامة.

وقرأ جمهور السبعة «فَيَبْتِئُوا»، وقرأ حمزة والكسائي: «فَتَقْتَبِئُوا» بالثاء مثلثة في الموضعين، وفي الحجرات. وقال قوم: (تَبْتِئُوا) أبلغ وأشد من (تَقْتَبِئُوا)، لأن المتيثبت قد لا يتبين، وقال أبو عبيد: هما متقاربان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح ما قال أبو عبيد، لأن تبين الرجل لا يقتضي أن الشيء بان له، بل يقتضي محاولة اليقين، كما أن تَبَّتْ تقتضي محاولة اليقين، فهما سواء.

وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، وابن كثير في بعض طرقه: «إِلَيْكُمْ» بتشديد السين وفتحته وفتح اللام، ومعناه: الاستسلام، أي: ألقى بيده واستسلم لكم، وأظهر دعوتكم، وقرأ بقية السبعة: «السَّلام»، يقول: سلم ذلك المقتول على السرية، لأن سلامه بتحية الإسلام مؤذن بطاعته وانقياده، ويحتمل أن يراد به الانحياز والترك، قال الأخفش: يقال: «فلان سلام» إذا

كان لا يخالط أحداً، وروي في بعض طرق عاصم: «السَّلم» بكسر السين وشده وسكون اللام، وهو الصلح، والمعنى المراد بهذه الثلاثة يتقارب. وقرأ الجحدري: «السَّلم» بفتح السين وسكون اللام.

والعَرَض: هو المتبع والجميل، أو الغنيمة التي كانت للرجل المقتول.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وأبو حمزة، واليماني: «لَسْتُ مُؤْمِنًا» بفتح الميم، أي: لسنا نؤمنك في نفسك، وقوله

تعالى: «فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَائِدُ كَثِيرَةٌ» عدة بما يأتي به الله على وجهه، ومن جلّه دون ارتكاب محظور، أي: فلا تتهاوتوا.

واختلف المتأولون في قوله: «كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ» - فقال سعيد بن جبير: معناه: كنتم مستخفين من قومكم بإسلامكم، خائفين منهم على أنفسكم، فمن الله عليكم بإعزاز دينكم، وإظهار شريعتكم. فهو الآن كذلك، كل واحد منهم خائف من قومه، متربص أن يصل إليكم، فلم يصلح إذا وصل أن تقتلوه حتى تبينوا أمره، وقال ابن زيد: كذلك كنتم كفرة، فمن الله عليكم بأن أسلمتم، فلا تنكروا أن يكون هو كافراً ثم يسلم لحينه حين لفيكم، فيجب أن يثبت في أمره. ويحتمل أن يكون المعنى إشارة بـ

لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَائِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسِرَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَائِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتِي فِيهِ وَمَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنْ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِبِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَارِجُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَكُم مَأْدُونَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ جِلْدَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ قَالُوا لَيْتَكُم عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوُتُّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا صَرَفْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلْيَسْأَلُوا جُنَاحَ أَنْ تَقْرِضُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ أَنْ تَكُونُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ يَفْقَهُمْ قُلُوبُهُمْ ﴿١٠١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٠٢﴾

﴿ذَلِكَ﴾ إلى القتل قبل الثبت، أي: على هذه الحال كنتم في جاهليتكم لا تثبتون، حتى جاء الله بالإسلام، ومن عليكم، ثم وكّد تبارك وتعالى الوصية باللبين، وأعلم أنه خير بما يعمله العباد، وذلك منه خبر يتضمن تحذيراً منه تعالى، لأن المعنى أن الله كان بما تعملون خبيراً، فاحفظوا نفوسكم، وجنبوها الزلل الموبق بكم.

﴿٩٥﴾ - ﴿٩٦﴾ تفسير قوله تعالى:

في قوله «لَا يَسْتَوِي» إيهام على السامع هو أبلغ من تحديد المنزلة التي بين المجاهد والقاعد، فالتأمل يمشي مع فكرته، ولا يزال يتخيل الدرجات بينهما.

و «الْقَائِدُونَ» عبارة عن المتخلفين، إذ القعود هيئة من لا يتحرك إلى الأمر المقعود عنه في الأغلب.

واحتج بهذه الآية المُنْظَهِرة لفضل المال من قال: إن الغنى أفضل من الفقر، وإن متعلقه بها لبين. وفسر الناس الآية على أن تكملة التفضيل فيها بالدرجة، ثم بالدرجات إنما هو مبالغة وتأكيد وبيان، وقال ابن جريج: الفضل بدرجة هو على القاعدين من أهل العذر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأنهم مع المؤمنين بنياتهم، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة تبوك: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ رَجَالاً مَا قُطِعْنَا وادياً، وَلَا سَلَكُنَا جَبَلًا وَلَا طَرِيقًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا، حَسْبُهمُ الْعَذْر»، قال ابن جرير: والتفضيل بالأجر العظيم والدرجات هو على القاعدين من غير أهل العذر. و«الْحَسْبُ»: الجَنَّةُ: وهي التي وَعَدَهَا الْمُؤْمِنُونَ، وكذلك قال السدي، وغيره.

وقال ابن محيريز: الدرجات هي درجات في الجنة، ما بين الدرجتين حضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة، وقال بهذا القول الطبري ورجحه. وقال ابن زيد: الدرجات في الآية هي السبع المذكورات في سورة (براءة)، فهي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَأْتِيهِمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا يَخْصَعُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآيات، فذكر فيها الموطىء الغاظ للكفار، والثيل من العدو، والنفقة الصغيرة والكبيرة، وقطع الأودية والمسافات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ودرجات الجهاد لو حُصرت أكثر من

على الحال، وأما كسر الراء فعلى الصفة من «الْمُؤَيَّنِّ».

وروي من غير طريق أن الآية نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الْقَرْرَةِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾، فجاء ابن أم مكتوم حين سمعها فقال: يا رسول الله، هل من رخصة فإني ضريب البصر؟ فنزلت عند ذلك: ﴿غَيْرُ أُولِي الْقَرْرَةِ﴾، قال الفلقان بن عاصم: كنا قعوداً عند النبي ﷺ، فأنزل عليه، وكان إذا أوحى إليه دام بصره مفتوحة عيناه، وفرغ سمعه وبصره لما يأتيه من الله، وكنا نعرف ذلك في وجهه، فلما فرغ قال للكاتب: «اكتب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الْقَرْرَةِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾» إلى آخر الآية، قال: فقام الأعمى فقال: يا رسول الله، ما ذنبنا؟ قال: فأنزل الله على رسوله، فقلنا للأعمى: إنه ينزل عليه، فخاف أن ينزل فيه شيء فبقي قائماً مكانه يقول: «أتوب إلى رسول الله» حتى فرغ رسول الله ﷺ، فقال للكاتب: «اكتب ﴿غَيْرُ أُولِي الْقَرْرَةِ﴾»، وأولو الضرر هم أهل الأعذار إذ قد أضرت بهم حتى منعتهم الجهاد، قاله ابن عباس وغيره.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ هي الغاية في كمال الجهاد، ولما كان أهل الديوان متملكين بذلك العطاء، يصرفون في الشدائد، وتروعهم البعث والأوامر - قال بعض العلماء: هم أعظم أجراً من المتطوع، لسكون جأشه، ونعمة باله في الصوائف الكبار ونحوها.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمة: «غَيْرُ أُولِي الْقَرْرَةِ» برفع الراء من «غَيْرٍ»، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي: «غَيْرٍ» بالنصب، واختلف عن عاصم، فروي عنه الرفع والنصب، وقرأ الأعمش، وأبو حيو: «غَيْرٍ» بكسر الراء، فمن رفع جعل «غَيْرٍ» صفة للقاعدين عند سيوبه، كما هي عنده صفة في قوله تعالى: «غَيْرِ الْمُنْصَرِّفِينَ» بجر «غَيْرٍ» صفة، ومثله قول لبيد:

وَإِذَا جُوزِيَتْ قَرْضًا فَاجْزِهِ
إِنَّمَا يَجْزِي الْفَتَى غَيْرَ الْجَمَلِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كذا ذكره أبو علي، وروى: «ليس الجملة». ومن قرأ بنصب الراء جعله استثناء من (القاعدين)، قال أبو الحسن: ويقوي ذلك أنها نزلت بعدها على طريق الاستثناء والاستدراك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد يتحصل الاستدراك بتخصيص القاعدين بالصفة، قال الزجاج: يجوز أيضاً في قراءة الرفع أن يكون على جهة الاستثناء، كأنه قال: لا يستوي القاعدون والمجاهدون إلا أولو الضرر فإنهم يساؤون المجاهدين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مردود، لأن أولي الضرر لا يساؤون المجاهدين، وغايتهم أن خرجوا من التوبيخ والمذمة التي لزموا القاعدين من غير عذر، قال: ويجوز في قراءة نصب الراء أن يكون

هذه، لكن يجمعها بذل النفس والمال، والاعتماد بالبدن والمال في أن تكون كلمة الله هي العليا، ولا شك أن بحسب مراتب الأعمال ودرجاتها تكون مراتب الجنة ودرجاتها، فالأقوال كلها متقاربة، وباقى الآية وغد كريم وتأنيس.

ونصب ﴿وَرَجَعْنِي﴾ إما على البدل من الأجر، وإما على إضمار فعل على أن تكون تأكيداً للأجر، كما تقول: «لك علي ألف درهم عرفاً»، كأنك قلت: أعرفها عرفاً.

﴿٩٧﴾ - ﴿٩٨﴾ تفسير قوله تعالى:

المراد بهذه الآية إلى قوله: ﴿مَصِيبًا﴾ جماعة من أهل مكة، كانوا قد أسلموا، وأظهروا للنبي ﷺ الإيمان به، فلما هاجر رسول الله ﷺ أقاموا مع قومهم، وثن منهم جماعة فافتتوا، فلما كان أمر بدر خرج منهم قوم مع الكفار فقتلوا ببدر فنزلت الآية فيهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان قوم من أهل مكة قد أسلموا، وكانوا يَسْتَحْفُونَ بِإِسْلَامِهِمْ، فأخرجهم المشركون يوم بدر، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكبرها فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُم لَكُنُكَمُ﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية ألا غدر لهم، فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ

مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، فكتب إليهم المسلمون بذلك، فخرجوا ويثسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَهِدُوا وَصَرُّوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُوْرٌ رَجِيْعٌ﴾، فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً، فخرجوا فلحقهم المشركون فقاتلهم حتى نجا من نجا وقُتل من قُتل. وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في خمسة قتلوا ببدر، وهم: قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو المعاصي بن منبه ابن الحجاج، وعلي بن أمية بن خلف. قال النقاش: في أناس سواهم أسلموا ثم خرجوا إلى بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: غرُّ هؤلاء دينهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان العباس ممن خرج مع الكفار لكنه نجا وأسر، وكان من المطعمين في نغير بدر، قال السدي: لما أسر العباس، وعقيل، ونفيل، قال رسول الله ﷺ للعباس: «أفد نفسك وابن أخيك»، فقال له العباس: يا رسول الله، ألم نصل قبلك ونشهد شهادتك؟ قال: «يا عباس، إنكم خاصمتهم فخصمتهم»، ثم تلا عليه هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا﴾، قال السدي: فيوم نزلت من هذه الآية كان من أسلم ولم يهاجر فهو كافر حتى يهاجر، إلا

من لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا الذي قاله السدي نظير، والذي يجري مع الأصول أن من مات من أولئك بعد أن قبل الفتنة وارثه فهو كافر، ومأواه جهنم على جهة الخلود، وهذا هو ظاهر أمر تلك الجماعة، وإن فرضنا فيهم من مات مؤمناً وأكره على الخروج، أو مات بمكة فإنما هو عاصٍ في ترك الهجرة، مأواه جهنم على جهة العصيان دون خلود، لكن لما لم يتعين أحد أنه مات على الإيمان لم يسغ ذكرهم في الصحابة، ولم يُعَدَّ بما كان عرف منهم قبل، ولا حجة للمعتزلة في شيء من أمر هؤلاء على تكفيرهم بالمعاصي، وأما العباس فقد ذكر ابن عبد البر رحمه الله أنه أسلم قبل بدر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من لقي العباس فلا يقتله فإنما أخرج كرهاً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر أنه إنما أسلم مأسوراً حين ذكر له النبي ﷺ أمر المال الذي ترك عند أم الفضل، وذكر أنه أسلم في عام خيبر، وكان يكتب إلى رسول الله ﷺ بأخبار المشركين، وكان يُحب أن يهاجر، فكتب إليه رسول الله ﷺ: «أن امكث بمكة فمما لك بها أنفع لنا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لكن عامله رسول الله ﷺ حين أسر على ظاهر أمره.

وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّهُمْ﴾ يحتمل أن يكون فعلاً ماضياً لم يستند بعلامة تأنيث، إذ تأنيث لفظ الملائكة غير حقيقي، ويحتمل أن يكون فعلاً مستقبلاً على معنى: تتوفاهم، فحذفت إحدى التاءين، ويكون في العبارة إشارة إلى ما يأتي من هذا المعنى في المستقبل بعد نزول الآية، وقرأ إبراهيم: ﴿تَوَفَاهُمْ﴾ بضم التاء، قال أبو الفتح: كأنهم يدفنون إلى الملائكة ويحتسبون عليهم، و ﴿تَوَفَّهُمْ﴾ بفتح التاء معناه: تُقْبَض أرواحهم، وحكى ابن فورك عن الحسن أن المعنى: تحشرهم إلى النار.

و ﴿ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ نصب على الحال، أي: ظالمها بترك الهجرة، قال الزجاج: حذفت النون من (ظالمين) تخفيفاً، كقوله تعالى: ﴿بَنِيَّ الْكَافِرِينَ﴾، وقول الملائكة: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ تقرير وتوبيخ، وقول هؤلاء: ﴿كَلَّا مَسْجُوعِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ اعتذار غير صحيح، إذ كانوا يستطيعون الجحيل، ويهتدون السبيل، ثم وقفنهم الملائكة على ذنوبهم بقولهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَبَيْعَةً؟﴾ والأرض في قول هؤلاء: هي أرض مكة خاصة، وأرض الله: هي الأرض بالإطلاق، والمراد: ﴿فَتَهَاجِرُوا فِيهَا إِلَى مَوْضِعِ الْأَمْنِ؟﴾ وهذه المقالة إنما هي بعد توفي الملائكة لأرواح هؤلاء، وهي دالة على أنهم ماتوا مسلمين، وإلا فلو ماتوا كافرين لم يُقَلْ لهم شيء من هذا، وإنما أُضْرِبَ عن ذكرهم في الصحابة لشدة ما واقعوه، ولعدم

تعيين أحد منهم بالإيمان، ولا احتمال رده. وتوعدهم الله تعالى بأن مأواهم جهنم، ثم استثنى منهم من كان استضعافه على حقيقة: من زَمَنَ الرجال، وضعة النساء والوالدان، كعباش بن أبي ربيعة، والوليد بن هشام، وغيرهما، قال ابن عباس: «كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، هِيَ مِنَ النِّسَاءِ، وَأَنَا مِنَ الْوُلَدَانِ»، والحيلة: لفظ عام لأسباب أنواع التخلص، والسبيل: سبيل المدينة فيما ذكر مجاهد، والسدي، وغيرهما، والصواب أنه عام في جميع السبل.

ثم رَجَى الله تعالى هؤلاء بالمعفو عنهم و ﴿عَسَى﴾ من الله واجبة، كما أنها دالة على ثقل الأمر المعفو عنه. قال الحسن: (عسى) من الله واجبة، قال غيره: هي بمنزلة الوعد، إذ ليس يخبر بـ (عسى) عن شك ولا توقع، وهذا يرجع إلى الوجوب، قال آخرون: هي علي مَعْتَقَدَ البشر، أي: ظنكم بمن هذه حاله ترجي عفو الله تعالى عنه.

والمُرَاعَمُ: الْمُتَحَوِّلُ والمذهب، كذا قال ابن عباس، والضحاك، والربيع، وغيرهم، ومنه قول النابغة الجعدي:

كَطَوْدٍ يُلَادُ بِأَرْكَانِهِ
عَزِيزِ الْمُرَاعَمِ وَالْمَذْهَبِ

وقول الآخر:

إِلَى بَلَدٍ غَيْرِ دَانِي الْمَحَلِّ
بَعِيدِ الْمُرَاعَمِ وَالْمُضْطَرَّبِ

وقال مجاهد: المرغام: الْمُتَزَخَّرُ عما يكره، وقال ابن زيد: المرغام:

المهاجر، وقال السدي: المرغام: المبتغي المعيشة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله تفسير بالمعنى، فأما الخاص باللفظة فإن المرغام: موضع المراغمة، وهو أن يرغم كل واحد من المتنازعين أنف صاحبه بأن يغلبه على مراده، فكفار قريش أرغموا أنوف المحبوسين بمكة، فلو هاجر منهم مهاجر في أرض الله لأرغم أنوف قريش بحصوله في منعة منهم، فتلك المَنَعَةُ هي موضع المراغمة، وكذلك الطود الذي ذكره النابغة، من صعد فيه أمام طالب له وتوقل فقد أرغم أنف ذلك الطالب، وقرأ بُيُح، والجراح، والحسن بن عمران: ﴿مُرُغَمًا﴾ بفتح الميم وسكون الراء دون ألف. قال أبو الفتح: هذا إنما هو على حذف الزوائد من (رغام)، والجماعة على (مُرَاعَم).

وقال ابن عباس، والربيع، والضحاك، وغيرهم: السعة هنا: هي السعة في الرزق، وقال قتادة: المعنى: سعة من الضلالة إلى الهدى، ومن العيلة إلى الغنى. وقال مالك: السعة سعة البلاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمشبه لفصاحة العرب أن يُريد سعة الأرض، وكثرة المعاقل، وبذلك تكون السعة في الرزق، واتساع الصدر لهوموم وفكره وغير ذلك من وجوه الفرح، ونحو هذا المعنى قول الشاعر:

لَكَانَ لِي مُضْطَرَّبٌ وَاسِعٌ
فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّوْلِ وَالْعَرْضِ

ومنه قول الآخر:

وكنث إذا خليل رام قَطْعِي
وجدت وراي مُنْفَسِحاً عَرِيضاً

وهذا المعنى ظاهر من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ اللَّهُ وَرِثَةً﴾، وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: الآية تعطي أن كل مسلم ينبغي أن يخرج من البلاد التي تغير فيها السنن، ويعمل فيها بغير الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ﴾ الآية، حكم باق في الجهاد والمشي إلى الصلاة والحج ونحوه، أما إنه لا يقال: إن بنفس خروجه ونيته حصل في مرتبة الذي قضى ذلك الفرض أو العبادة في الجملة، ولكن يقال: وقع له بذلك أجر عظيم، وروي أن هذه الآية نزلت بسبب رجل من كثانة، وقيل: من خزاعة من بني ليث، وقيل: في جُلْدَع لما سمع قول الله عز وجل: ﴿لَا يَسْتَبِيحُونَ جِلَّةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ قال: إني لذو مال وعبيد - وكان مريضاً - فقال: أَخْرِجُونِي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأُخْرِجَ فِي سَرِير فَأُدْرِكَهُ الْمَوْتُ بِالتَّعْمِيمِ، فنزلت الآية بسببه، واختلف في اسمه - فحكى الطبري عن ابن جبير أنه ضَمْرَةُ بن العيص، أو العيص بن ضَمْرَةَ بن زَيْنَاع، وحكى عن السدي أنه ضَمْرَةُ بن جُنْدَب، وحكى عن عكرمة أنه جُنْدَب بن ضَمْرَةَ الجُدْجِي، وحكى عن ابن جبير أيضاً أنه ضَمْرَةُ بن بغيض الذي من بني ليث، وحكى أبو عمر بن عبد البر أنه ضَمْرَةُ بن العيص، وحكى المهدوي أنه ضَمْرَةُ بن نُعَيْم، وقيل: ضَمْرَةُ بن خُزَاعَةَ.

وقرأت الجماعة: ﴿ثُمَّ يَذْكُرُ الْكَوْثَ﴾ بالجزم عطفاً على ﴿يَخْرُجُ﴾، وقرأ طلحة بن سليمان، وإبراهيم النخعي فيما ذكره أو عمرو: ﴿ثُمَّ يَذْكُرُهُ﴾ برفع الكاف، قال أبو الفتح: هذا رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: ثم هو يذكره الموت، فعطف الجملة من المبتدأ والخبر على الفعل المجزوم بفاعله، فهما إذن جملة، فكأنه عطف جملة على جملة، وعلى هذا حمل يونس بن حبيب قول الأعشى:

إِنْ تَرْكَبُوا فِرْكَوْبَ الْخَبِيلِ عَادَتْكُمُ
أَوْ تَسْزُلُونُ فَلِئَالٍ مَحْشَرٌ نَزَلُ
المراد: وأنتم تنزلون. وعليه قول الآخر:

إِنْ تُذْنِبُوا ثُمَّ يَأْتِينِي بِقِيَّتِكُمْ
فَمَا عَلَيَّ بِذَنْبٍ عِنْدَكُمْ فَوْتُ
المعنى: ثم أنتم تأتيني، وهذا أوجه من أن يحمله على قول الآخر: أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تُسْمِي

وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وقتادة، وثبيح، والجراح: ﴿ثُمَّ يَذْكُرُهُ﴾ بنصب الكاف على إضمار (أَنْ) كقول الأعشى:

لَنَا قَضَبَةٌ لَا يَنْزِلُ الدُّلُّ وَسَطُهَا
وَيَأْوِي إِلَيْهَا الْمُسْتَجِيرُ فَيُنْصَمَا
أراد: فأن يُعَصَمَ، قال أبو الفتح: وهذا ليس بالسهل، وإنما بابه الشعر

سورة النساء

سورة النساء

وإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا بِأَسْلِحَتِهِمْ فِذَا سَجَدُوا فَلَيْسَ كَوْنُوا مِنْ دَرَجَاتِكُمْ وَلَكِن تَكُونُ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا بِأَسْلِحَتِهِمْ وَذَٰلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَفْقَهُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِنَتَكُمْ فَيُجِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَوَئِلَهُمْ وَجَدُّهُ وَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ يَكُفُّ أَدَىٰ مَنْ مَطَرٌ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠١﴾ فِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فِذَا أَقَامْتُمْ أَنْتُمْ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَلَا تَهِنُوا فِي تِلْكَ الْقُرُونِ أَنْ تَكُونُوا تَالِمُونَ فَلْيُحَرِّمْ يَأْمُرُكُمْ كَمَا تَأْمُرُونَ وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنِ لِلْعَابِدِينَ خَصِمًا ﴿١٠٣﴾

٩٥

لا القرآن، وأنشد ابن زيد:

سَأْتُرُكَ مَسْزِلِي لِبَنِي ثَمِيمٍ
وَأَلْحَقَ بِالْحِجَارِ قَاسِئَ رِيحَا
والآية أقوى من هذا لتقدم الشرط قبل المعطوف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن هذه الآية رأى بعض العلماء أن من مات من المسلمين وقد خرج غازياً فله سهمه من الغنيمة، قاسوا ذلك على الأجر، وقد تقدم معنى الهجرة فيما سلف، و [وَقَعَ] عبارة عن الثبوت وقوة اللزوم، كذلك هي (وَجَبَ)، لأن الوقوع والوجوب نزول في الأجرام بقوة، فشبه لازم المعاني بذلك، وباقي الآية بين.

﴿١٠١﴾ - ﴿١٠٣﴾ تفسير قوله تعالى:

﴿حَرِّمَتْ﴾ معناه: سافرت، فأهل الظاهر يرون القصر في كل سفر يخرج عن الحاضرة، وهي من حيث

تؤتي الجمعة، وهذا قول ضعيف، واختلف العلماء في حد المسافة التي تقصر فيها الصلاة - فقال مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن راهوية: تقصر الصلاة في أربعة بُرُد، وذلك ثمانية وأربعون ميلاً، وحجتهم أحاديث رويت في ذلك عن ابن عمر، وابن عباس، وقال الحسن، والزهري: تقصر الصلاة في مسيرة يومين، ولم يذكر أَمْيَالاً، وروي هذا القول عن مالك، وروي عنه أيضاً: تقصر الصلاة في يوم وليلة، وهذه الأقوال الثلاثة تتقارب في المعنى، وروي عن ابن عباس، وابن عمر أن الصلاة تقصر في مسيرة اليوم التام، وقصر ابن عمر في ثلاثين ميلاً، وعن مالك في «العتبية» فيمن خرج إلى ضيعته على مسيرة خمسة وأربعين ميلاً، قال: يقصر، وعن ابن القاسم في «العتبية»: إن قَصَرَ في ستة وثلاثين فلا إعادة عليه، وقال يحيى بن عمر: يعيد أبدأ، وقال ابن عبدالحكم: في الوقت، وقال ابن مسعود، وسفيان، والثوري، وأبو حنيفة، ومحمد بن الحسن: من سافر مسيرة ثلاث قصر، قال أبو حنيفة: ثلاثة أيام ولياليها سِرَ الإبل ومشى الأقدام، وروي عن أنس بن مالك أنه قصر في خمسة عشر ميلاً، قال الأوزاعي: عامة العلماء في القصر في مسيرة اليوم التام، وبه نأخذ.

واختلف الناس في نوع السفر الذي تقصر فيه الصلاة، فأجمع الناس على الجهاد، والحج، والعمرة، وما ضارعهما من صلة الرحم، وإحياء

نفس. واختلف الناس فيما سوى ذلك - فالجمهور على جواز القصر في السفر المباح، كالتجارة ونحوها، وروي عن ابن مسعود أنه قال: لا تقصر الصلاة إلا في حج أو جهاد، وقال عطاء: لا تقصر الصلاة إلا في سفر طاعة وسبيل من سبل الخير، وقد روي عن عطاء أنها تقصر في كل المباح، والجمهور من العلماء على أنه لا قصر في سفر المعصية، كالبغي، وقاطع الطريق، وما في معناهما، وروي عن الأوزاعي وأبي حنيفة إباحة القصر في جميع ذلك، وجمهور العلماء على أن المسافر لا يقصر حتى يخرج من بيوت القرية، وحينئذ هو ضارب في الأرض، وهو قول مالك في «المدونة» وابن حبيب وجماعة المذهب، قال ابن القاسم في «المدونة»: ولم يجد لنا مالك في القرب حداً، وروي عن مالك: إذا كانت قرية يجمع أهلها فلا يقصر حتى يجاوزها بثلاثة أميال، وإلى ذلك في الرجوع، وإن كانت لا يجمع أهلها قصر إذا جاوز بساتينها، وروي عن الحارث بن أبي ربيعة أنه أراد سفرأ فصلى بهم ركعتين في منزله، وفيهم الأسود بن يزيد، وغير واحد من أصحاب ابن مسعود، وبه قال عطاء بن أبي رباح، وسليمان بن موسى، وروي عن مجاهد أنه قال: لا يقصر المسافر يومه الأول حتى الليل، وهو شاذ، وقد ثبت (أن النبي ﷺ صلى الظهر بالمدينة أربعاً، والعصر بذي الحليفة ركعتين)، وليس بينهما ثلث يوم.

ويظهر من قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ

عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا﴾ أن القصر مباح، أو مخير فيه، وقد روى ابن وهب عن مالك أن المسافر مخير، وقاله الأبهري، وعليه حذاق المذهب. وقال مالك في «المبسوط»: القصر سُنة. وهذا هو جمهور المذهب، وعليه جواب «المدونة» بالإعادة في الوقت لمن أتم في سفره. وقال محمد بن سحنون، وإسماعيل القاضي: القصر فرض، وبه قال حماد بن أبي سليمان، وروي نحوه عن عمر بن عبد العزيز، وروي عن ابن عباس أنه قال: من صلى في السفر أربعاً فهو كمن صلى في الحضر ركعتين، وحكى ابن المنذر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم عليه الصلاة والسلام، وقد خاب من افتري، ويؤيد هذا قول عائشة رضي الله عنها: (فرضت الصلاة ركعتين في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر).

واختلف العلماء في معنى قوله: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا﴾ - فذهب جماعة من العلماء إلى أنه القصر إلى اثنتين من أربع، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ، فقالوا: إنا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، ثم انقطع الكلام، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي عليه الصلاة والسلام، فصلى الظهر، فقال

المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، فهلا شددتم عليهم، فقال قائل منهم: إن لهم أخرى في أثرها، فأنزل الله تعالى بين الصلاتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر صلاة الخوف.

وذكر الطبري في سرد هذه المقالة حديث يعلى بن أمية، قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ وقد أمن الناس، فقال: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدق تصديق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته». قال الطبري: وهذا كله قول حسن، إلا أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ تُؤْذَنُ بَانْقِطَاعِ مَا بَعْدَهَا مَا قَبْلَهَا، فليس يترتب من لفظ الآية إلا أن القصر مشروط بالخوف. وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بسقوط ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾، وثبتت في مصحف عثمان رضي الله عنه. وذهبت جماعة أخرى إلى أن هذه الآية إنما هي مبيحة القصر في السفر للخائف من العدو، فمن كان آمناً فلا قصر له، وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول في السفر: «أَتِمُّوا صلاتكم»، فقالوا: إن رسول الله ﷺ كان يقصر، فقالت: إنه كان في حرب، وكان يخاف، وهل أنتم تخافون؟ وقال عطاء: كان يتم الصلاة من أصحاب رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها، وسعد بن أبي وقاص، وأتم عثمان بن عفان رضي الله عنه،

ولكن علل ذلك بعلل غير هذه، وكذلك علل إتمام عائشة رضي الله عنها أيضاً بغير هذا وقال آخرون: القصر المباح في هذه الآية إنما هو قصر الركعتين إلى ركعة، والركعتان في السفر إنما هي تمام، وقصرها أن تصير ركعة، قال السدي: إذا صليت في السفر ركعتين فهو تمام، والقصر لا يحل إلا أن يخاف، فهذه الآية مبيحة أن تصلي كل طائفة ركعة لا تزيد عليها شيئاً، ويكون للإمام ركعتان، وروي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: ركعتان في السفر تمام غير قصر، إنما القصر في صلاة المخافة، يصلي الإمام بطائفة ركعة، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، وهؤلاء إلى مكان هؤلاء، فيصلون بهم ركعة، فتكون للإمام ركعتان، ولهم ركعة ركعة. وقال نحو هذا سعيد بن جبير، وجابر بن عبد الله، وكعب من أصحاب النبي ﷺ، وفعله حذيفة بطبرستان، وقد سأله الأمير سعيد بن العاصي ذلك، وروي ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كذلك في غزوة ذي قرد ركعة بكل طائفة، ولم يقضوا، وقال مجاهد عن ابن عباس: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة، وروي جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ صلى كذلك بأصحابه يوم حارب خصفه وبني ثعلبة، وروي أبو هريرة أن النبي ﷺ صلى كذلك بين ضحجان وعسفان.

وقال آخرون: هذه الآية مبيحة

القصر من حدود الصلاة وهيئتها عند المسايقة واشتعال الحرب، فأبيح لمن هذه حاله أن يصلي إيماء برأسه، ويصلي ركعة واحدة حيث توجه، إلى تكبيرتين، إلى تكبيرة، على ما تقدم من أقوال العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾، ورجح الطبري هذا القول، وقال: إنه يعادله قوله: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فَائِزُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: بحدودها وهيئتها الكاملة.

وقرأ الجمهور: ﴿تَقْصِرُوا﴾ بفتح التاء وضم الصاد، وروى الضبي عن أصحابه: ﴿تَقْصِرُوا﴾ بضم التاء وكسر الصاد وسكون القاف، وقرأ الزهري: ﴿تَقْصِرُوا﴾ بضم التاء وفتح القاف وكسر الصاد وشدها.

و ﴿يَفْتِنَكُمُ﴾ معناه: يمتحنكم بالحمل عليكم وإشغال نفوسكم في صلاتكم، ونحو هذا قول صاحب الحائط، لقد أصابني في مالي هذا فتنة، وأصل الفتنة الاختبار بالشدائد، وإلى هذا المعنى ترجع كيف تصرفت.

وعُدُو: وصف يجري على الواحد والجماعة، ومبين: مفعول من أبان. المعنى: قد جلدوا في عداوتكم، وراموكم كل مرام.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ﴾ الآية، قال جمهور الأمة: الآية خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو يتناول الأمراء بعده إلى يوم القيامة، وقال أبو يوسف وإسماعيل بن علية: الآية خصوص للنبي ﷺ، لأن الصلاة بإمامة النبي عليه الصلاة والسلام لا عوض عنها،

وغيره من الأمراء منه العوض، فيصلي الناس بإمامين، طائفة بعد طائفة، ولا يحتاج إلى غير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك جمهور العلماء على أن صلاة الخوف تُصلى في الحضر إذا نزل الخوف، وقال قوم: لا صلاة خوف في حُضر، وقاله في المذهب: عبد الملك بن الماجشون، وقال الطبري: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمْ﴾ معناه: حدودها وهيئتها، ولم تقصر على ما أُبَيح قبلُ في حال المسابقة.

وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ تَمَكَّ﴾ أمر بالانقسام، أي: وسائرهم وجاء العدو حذراً وتوقع حملته.

وأعظم الروايات والأحاديث أن صلاة الخوف إنما نزلت الرخصة فيها في غزوة ذات الرِّقَاع، وهي غزوة محارب خصفة، وفي بعض الروايات أنها نزلت في ناحية عُشْفَانَ وَضُجْنَانَ، والعدو: خيل قريش عليها خالد بن الوليد، واختلف - من المأمور بأخذ الأسلحة هنا؟ فقيل: الطائفة المصلية، وقيل: بل الحارسة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولفظ الآية يتناول الكل، ولكن سلاح المصلين ما خف، واختلف الآثار في هيئة النبي ﷺ بأصحابه صلاة الخوف، وبحسب ذلك اختلف الفقهاء.

فروى يزيد بن رومان، عن صالح بن خوات، عن سهل بن أبي حثمة أنه صلى مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف يوم «ذات الرقاع»، فصُفَّت طائفة معه، وطائفة وجاء

العدو، فصلّى بالذين معه ركعة، ثم ثبت قائماً، وأتموا ثم انصرفوا فصفاً وجاء العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلّى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالساً، وأتموا لأنفسهم، ثم سلّم بهم. وروى القاسم بن محمد، عن صالح بن خوات، عن سهل هذا الحديث بعينه، إلا أنه روى أن النبي ﷺ حين صلى بالطائفة الأخيرة ركعة سلم، ثم قضت هي بعد سلامه، وبهذا الحديث أخذ مالك رحمه الله في صلاة الخوف، كان أولاً يميل إلى رواية يزيد بن رومان، ثم رجع إلى رواية القاسم بن محمد بن أبي بكر.

وروى مجاهد، وغيره، عن أبي عياش الزُّرْقِي واسمه زيد بن الصّامت - على خلاف فيه - أن النبي ﷺ صلى صلاة الخوف بعُشْفَانَ والعدو في قبلته، قال: فصلّى بنا النبي ﷺ الظُّهر، فقال المشركون: لقد كانوا على حالٍ لو أصبنا غُرَّتْهم، فقالوا: تأتي الآن عليهم صلاة هي أحبُّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل عليه السلام بين الظهر والعصر بهذه الآيات، وأخبره خبرهم، ثم قام رسول الله ﷺ فصف العسكر خلفه صفين، ثم كبر فكبروا جميعاً، ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه، والآخرين قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا سجد الآخرون في مكانهم، ثم تقدموا إلى مصاف المتقدمين، وتأخر المتقدمون إلى مصاف المتأخرين،

ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ فسجد الصف الذي يليه، فلما رفع سجد الآخرون، ثم سلم فسلموا جميعاً، ثم انصرفوا، قال عبد الرزاق بن همام في مصنفه: وروى الثوري عن هشام مثل هذا، إلا أنه قال: ينكُص الصف المتقدم القهقري حين يرفعون رؤوسهم من السجود، ويتقدم الآخرون فيسجدون في مصاف الأولين، قال عبد الرزاق، عن معمر، عن خلاد بن عبد الرحمن، عن مجاهد، قال: لم يصل النبي ﷺ صلاة الخوف إلا مرتين، مرة بذات الرقاع من أرض بني سليم، ومرة بعُشْفَانَ والمشركون يَضُجُّنَ بينهم وبين القبلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر اختلاف الروايات عن النبي ﷺ يقتضي أنه صلى صلاة الخوف في غير هذين الموطنين. وذكر ابن عباس أنه كان في غزوة ذي قَرْد صلاة خوف.

وروى عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ صلى بإحدى الطائفتين ركعة، والطائفة الأخرى مواجهة العدو، ثم انصرفوا وقاموا في مقام أصحابهم مقبلين على العدو. وجاء أولئك فصلّى بهم النبي ﷺ ركعة، ثم سلّم، ثم قضى هؤلاء ركعة، وهؤلاء ركعة في حين واحد، وبهذه الصفة في صلاة الخوف أخذ أشهب رحمه الله، ومشى على الأصل في ألا يقضي أحد قبل زوال حكم الإمام، فكَذلك لا يبنّي، ذكر هذا عن أشهب جماعة

منهم: ابن عبد البر، وابن يونس، وغيرهما. وحكى اللخمي عنه أن مذهبه أن يُصلي الإمام بطائفة ركعة، ثم ينصرفون تجاه العدو، وتأتي الأخرى فيصلّي بهم ركعة، ثم يسلم، وتقوم التي معه تقضي، فإذا فرغوا منه صاروا تجاه العدو، وقضت الأخرى، وهذه سنة رُويت عن ابن مسعود، ورجح ابن عبد البر القول بما روي عن ابن عمر، وروى أن سهل بن أبي حثمة قد روي عنه مثل ما روي عن ابن عمر سواء، وروى حذيفة حين حكى صلاة النبي عليه الصلاة والسلام في الخوف أنه صلى بكل طائفة ركعة، ولم يقض أحد من الطائفتين شيئاً زائداً على ركعة، وذكر ابن عبد البر، وغيره، عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ صلى بكل طائفة ركعتين ركعتين، فكانت لرسول الله ﷺ أربع، ولكل رجل ركعتان، وبهذه كان يُفتي الحسن بن أبي الحسن، وهو قول يجيزه كل من أجاز اختلاف نية الإمام والمأموم في الصلاة.

وقال أصحاب الرأي: إذا كانت صلاة المغرب افتتح الإمام الصلاة ومعه طائفة، وطائفة بإزاء العدو، فيصلّي بالتي معه ركعتين، ثم يصيرون إلى إزاء العدو، وتأتي الأخرى فيدخلون مع الإمام، فيصلّي بهم ركعة، ثم يسلم وحده، ثم يقومون إلى إزاء العدو، وتأتي الطائفة التي صلّت مع الإمام الركعتين إلى مقامهم الأول في

الصلاة، فيقضون ركعة وسجدتين وحداناً ويسلمون، ثم يجيئون إلى إزاء العدو، وتنصرف الطائفة الأخرى إلى مقام الصلاة، فيقضون ركعتين بقراءة وحداناً ويسلمون، وكملت صلاتهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا طرد قول أصحاب الرأي في سائر الصلوات.

وسأل مروان بن الحكم أبا هريرة: هل صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف؟ قال أبو هريرة: نعم، قال مروان: متى؟ قال أبو هريرة: عام غزوة نجد، قام رسول الله ﷺ إلى صلاة العصر، فقامت معه طائفة، وطائفة أخرى مقابل العدو وظهورهم إلى القبلة، فكبر رسول الله، وكبروا جميعاً، الذين معه والذين بإزاء العدو، ثم ركع رسول الله، وركع معه الذين معه، وسجدوا كذلك، ثم قام رسول الله ﷺ، فصارت الطائفة التي كانت معه إلى إزاء العدو، وأقبلت الطائفة التي كانت بإزاء العدو، فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قائم كما هو، ثم قاموا فركع رسول الله ﷺ ركعة أخرى، وركعوا معه، وسجد فسجدوا معه، ثم أقبلت الطائفة التي كانت بإزاء العدو فركعوا وسجدوا، ورسول الله ﷺ قاعد، ثم كان السلام فسلم رسول الله ﷺ وسلموا جميعاً.

وأسند أبو داود في مصنفه عن

عائشة رضي الله عنها صفة في صلاة النبي ﷺ صلاة الخوف تقرب مما روي عن أبي هريرة، وتخالفها في أشياء، إلا أنها صفة في ألفاظها تداع وتناقض، فلذلك اختصرتها.

ومجموع ما ذكرنا في صلاة الخوف من لدن قول أبي يوسف، وابن علية أحد عشر قولاً مع صلاة الخوف لكونها خاصة للنبي ﷺ، وعشر صفات على القول الشهير بأنها باقية للأمر.

﴿تفسير قوله تعالى:﴾

الضمير في: ﴿سَجَدُوا﴾ للطائفة المصلية، والمعنى: فإذا سجدوا معك الركعة الأولى فلينصرفوا، هذا على بعض الهيئات المروية، وقيل: المعنى: فإذا سجدوا ركعة القضاء، وهذا على هيئة سهل بن أبي حثمة.

والضمير في قوله: ﴿فَلْيَكُونُوا﴾ يحتمل أن يكون للذين سجدوا، ويحتمل أن يكون للطائفة القائمة أولاً بإزاء العدو، ويجيء الكلام وصاءً في حال الحذر والحرب.

وقرأ الحسن، وابن أبي إسحق: ﴿فَلْيَتَّقِمُوا﴾ بكسر اللام، وقرأ الجمهور: ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ﴾ بالتاء، وقرأ أبو حنيفة: ﴿وَلَتَأْتِ﴾ بالياء.

وقوله تعالى: ﴿وَدَا الَّذِيْنَ كَفَرُوا﴾ الآية إخبار عن معتقد القوم، وتحذير من الغفلة، لئلا ينال العدو أمله، وأسليحة: جمع سلاح. وفي قوله تعالى: ﴿مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ بناء مبالغه،

قضاء المناسك بذكر الله، فهو ذكر باللسان.

وزهد قوم إلى أن ﴿قَصَيْتُمْ﴾ بمعنى: فعلتم، أي: إذا تلبستم بالصلاة فلتكن على هذه الهيئات بحسب الضرورات: المرض وغيره، وبحسب هذه الآية رتب ابن المواز صلاة المريض فقال: يُصَلِّي قاعداً، فإن لم يطق فعلى جنبه الأيمن، فإن لم يطق فعلى الأيسر، فإن لم يطق فعلى الظهر. ومذهب مالك في «المدونة» التخيير، لأنه قال: فعلى

جنبه أو ظهره، وحكى ابن حبيب عن ابن القاسم أنه قال: يستدعى بالظهر ثم بالجنب، قال ابن حبيب: هو وهم، قال اللخمي: وليس بوهم، بل هو أحكم في استخدام القبلة. وقال سحنون: يصلي على جنبه الأيمن كما يجعل في قبره، فإن لم يقدر فعلى ظهره.

والطمأنينة في الآية: سكون النفس من الخوف، وقال بعض المتأولين: المعنى: فإذا رجعت من سفركم إلى الحضر فأقيموا تامة أربعة.

وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مُّؤْتَىٰ﴾ معناه: منجماً في أوقات، هذا ظاهر اللفظ، وروي عن ابن عباس: أن المعنى: فرضاً مفروضاً، فهما لفظان بمعنى واحد، كُرر مبالغة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهَيَّؤْا فِي آيَعَاءِ الْقَوْمِ﴾ يبين أن القضاء المشار إليه

قبل إنما هو قضاء صلاة الخوف، و ﴿تَهَيَّؤْا﴾ معناه: تلبسوا تضعفوا، حبل واهن: أي ضعيف، ومنه: وهن العظم، و ﴿آيَعَاءِ الْقَوْمِ﴾: طلبهم. وقرأ عبدالرحمن الأعرج: ﴿أَنْ تَكُونُوا﴾ بفتح الألف، وقرأ يحيى بن وثاب، ومنصور بن المعتمر: ﴿يَتَلَمُّونَ﴾ في الثلاثة، وهي لغة، وهذا تشجيع لنفوس المؤمنين، وتحفيز لأمر الكفرة، ومن نحو هذا المعنى قول الشاعر:

القوم أمشألكم لهم شعر
في الرأس لا يُشْرون إن قُتلوا
ثم تأكد التشجيع بقوله تعالى: ﴿وَرَجُوعٌ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾. وهذا برهان بين. ينبغي بحسبه أن تقوى نفوس المؤمنين. وباقي الآية بين.

١٠٣ - ١٠٧ تفسير قوله تعالى:

في هذه الآية تشريف للنبي ﷺ، وتفويض إليه، وتقويم أيضاً على الجادة في الحكم، وتأنيب ما على قبول ما رفع إليه في أمر بني أبيرق بسرعة.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَرْثَكَ اللَّهُ﴾ معناه: على قوانين الشرع، إما بوحي ونص، أو بنظر جار على سنن الوحي، وقد تضمن الله تعالى لأتبيائه العصمة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلظَّالِمِينَ خَصِيماً﴾ واستغفر الله إني الله كان عفواً رجيماً ﴿﴾ سببها باتفاق من المتأولين أمر بني أبيرق، وكانوا إخوة: بشر، وشيتر، ومبشر، وكان بشير رجلاً منافقاً يهجو أصحاب النبي ﷺ، وينحل الشعر غيره، فكان المسلمون يقولون: والله

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنْ كَانَ عَفْوَاً رَجِيماً ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَحْمِلُوا عَنِ الَّذِينَ يَحْتَمِلُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنْ كَانَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ حَوَاتِماً أَيْماً ﴿١٠٤﴾ يَسْتَخَفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ﴿١٠٥﴾ هَذَا تَهْوَاءُ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِّلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿١٠٦﴾ وَمَنْ يَمَلْ سَوْءاً أَوْ يظلم نفسه ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يُجِدْ اللَّهَ عَفْوَاً رَجِيماً ﴿١٠٧﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٠٨﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴿١٠٩﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِؤْكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴿١١٠﴾

أي: مستأصلة لا يحتاج معها إلى ثانية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية ترخيص، قال ابن عباس: نزلت بسبب عبدالرحمن بن عوف، كان مريضاً فوضع سلاح فعنفه الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنهم تلقوا الأمر بأخذ السلاح على الوجوب، فرخص الله تعالى في هاتين الحالتين، وينقاس عليهما كل عذر يحدث في ذلك الوقت.

ثم قرأ الله نفوس المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾.

١١٢ - ١١٣ تفسير قوله تعالى:

ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا الذكر المأمور به إنما هو إثر صلاة الخوف، على حد ما أمروا عند

ما هو إلا شعر الخبيث، فقال شعراً يتصل فيه، فمنه قوله:

أَفَكُلَّمَا قَالَ الرَّجُلُ قَصِيْدَةً نُجِلْتُ وَقَالُوا ابْنُ الْأَبْيَرِ قَالَهَا؟

قال قتادة بن النعمان: وكان بنو أبيرق أهل فاقة، فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من دُزْمَك الشام، فجعله في مشربة له، وفي المشربة درعان له وسيفان، فعدي على المشربة من الليل، فنقبت وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا بن أخي، تعلم أنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا، وذهب بطعامنا وسلاحنا، فقال: فتحسنا في الدار وسألنا، فقبل لنا. قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نراه إلا على بعض طعامكم، قال: وقد كان بنو أبيرق قالوا - ونحن نسأل -: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل، رجل منا له صلاح وإسلام، فسمع ذلك لبيد، فاخترط سيفه، ثم أتى بني أبيرق فقال: والله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبئن هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فوالله ما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا بن أخي، لو أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بهذه القصة، فأنتبه عليه الصلاة والسلام فقصصتها عليه، فقال: أنظر في ذلك، فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: أسير بن عروة فكلموه في ذلك، واجتمع إليه ناس من أهل الدار، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان

وعمه عمداً إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة عن غير بينة، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته. فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح فرميتهم بالسرقة عن غير بينة، قال: فرجعت وقد وددت أن أخرج عن بعض مالي، ولم أكلمه، فأتيت عمي فقال: ما صنعت؟ فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ فقال: الله المستعان، فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ الآيات، فالخائنون: بنو أبيرق، والبريء المرمي: لبيد بن سهل، والطائفة التي همت: أسير وأصحابه.

وقال قتادة، وغير واحد من المتأولين: هذه القصة إنما كان صاحبها طعمة بن أبيرق، ويقال فيه طُعَيْمَة، وقال السدي: القصة في طعمة بن أبيرق ولكن بأن استودعه يهودي درعاً. فجحدته إياها، وخانه فيها، وطرحها في دار أبي مُلَيْك الأنصاري، وأراد أن يرميه بسرقتها لما افتضح، وأبو مُلَيْك هو البريء المشار إليه، وقال عكرمة: سرق طعمة بن أبيرق درعاً من مشربة، ورمى بسرقتها رجلاً من اليهود يقال له: زيد بن السمين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجملة هذا يستدير على أن قوم طعمة أتوا النبي ﷺ وكلموه في أن يذب عن طعمة، ويرفع الدعوة عنه، ودفعوا هم عنه، ومنهم من يعلم أنه سرق، فكانت هذه معصية من مؤمنهم، وخلق مقصود من

مناققيهم، فعصم الله رسوله من ذلك، ونبه على مقالة قتادة بن النعمان بقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلخَائِنِينَ خَصِيْمًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وطعمة بن أبيرق صرح بعد ذلك بالارتداد، وهرب إلى مكة، ونزل على سلافة، فرماها حسان بن ثابت بشعر، فأخذت رحل طعمة ورمته به في الأبطح، وقالت: اخرج عنا، أهديت إليّ شعر حسان، فروي أن نزل على الحجاج بن علاط وسرقه فطرده، وروي أنه نقب حائط بيت ليسرقه فانهدم الحائط عليه فقتله، وروي أنه اتبع قوماً من العرب فسرقهم فقتلوه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ ذهب الطبري إلى أن المعنى: استغفر الله من ذنبك في خصامك للخائنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ليس بذنب، لأن النبي ﷺ إنما دافع عن الظاهر، وهو يعتقد براءتهم، والمعنى: استغفر للمذنبين من أمثلك، والمتخاصمين في الباطل، لا أن تكون ذا جدال عنهم، فهذا حدك، ومحلك من الناس أن تسمع من المتداعيين، وتقضي بنحو ما تسمع، وتستغفر للمذنب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ عَنِ الْأَئْيَمَةِ يُحَاوِنُ أُنْفُسَهُمْ﴾ لفظ عام يندرج طيه أصحاب النازلة، ويتقرر به توبيخهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّافًا أَثِمًا﴾ رفق وإيقاظ، فإن الخوان هو الذي تتكرر منه الخيانة،

والأنثى هو الذي يقصدها، فيخرج من هذا التشديد الساقط مرة واحدة، ونحو ذلك مما يجيء من الخيانة من غير قصد أو على غفلة، واختيان الأنفس هو بما يعود عليها من الإثم والعقوبة في الدنيا والآخرة.

﴿١٠٨﴾ - ﴿١١٣﴾ تفسير قوله تعالى:

الضمير: في ﴿يَسْتَحْفُونَ﴾ للصف المرتكب للمعاصي مستترين بذلك عن الناس، مباهتين لهم، واندراج في طي هذا العموم ودخل تحت هذه الأنحاء أهل الخيانة في النازلة المذكورة، وأهل التعصب لهم والتدبير في خدع النبي ﷺ والثلبس عليه. ويحتمل أن يكون الضمير لأهل النازلة، ويدخل في معنى هذا التوبيخ كل من فعل نحو فعلهم.

ومعنى ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ بالإحاطة والعلم والقدرة. و ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ يدبرون ليلاً، انطلقت العبارة على كل استمرار بهذا، إذ الليل مظنة الاستتار والاختفاء. قال الطبري: وزعم بعض الطائين أن التثبيت في لغتهم: التبذل، وأنشد للأسود بن عامر بن حوین الطائي:

وَبَيْتٌ قَوْلِي عِنْدَ الْمَلِكِ
لِي قَاتِلُكَ اللَّهُ عَبْدًا كَنُودًا
وقال أبو زيد: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ معناه: يؤلفون، ويحتمل أن تكون اللفظة مأخوذة من البيت، أي: يستسرون في تدبيرهم بالجدران.

وقوله تعالى: ﴿هَكَأَنَّهُ هُوَ﴾ قد تقدمت وجوه القراءات فيه في سورة آل عمران، والخطاب بهذه الآية للقوم الذين يتعصبون لأهل الرب والمعاصي، ويندرج في هذا العموم

أهل النازلة، ويحتمل أن يكون الخطاب لأهل التعصب في هذه النازلة، وهو الأظهر عندي بحكم التأكيد بـ ﴿هُوَ﴾ وهي إشارة إلى حاضرين. وقد تقدم إعراب مثل هذه الآية في سورة آل عمران.

والمجادلة: المدافعة بالقول، وهي من قُتِلَ الكلام وليه، إذ الجدل: القتل، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُجَادِلْ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وعيد محض، أي أن الله يعلم حقيقة الأمر، فلا يمكن أن يلبس عليه بجادل ولا بغيره، كما فعلتم بالنبي ﷺ، إذ هو بشر يقضي على نحو ما يسمع.

ولما تمكن هذا الوعيد، وقضت العقول بألا مجادل لله، ولا وكيل يقوم بأمر العصاة عنده - عقب ذلك هذا الرجاء العظيم، والمهل المنفسح بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سُوءَ﴾ الآية، وقوله: ﴿أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ﴾ منحى من عمل السوء وهما بمعنى واحد يكرر باختلاف لفظ مبالغة، واستغفار الله تعالى مع التحقيق في ذلك توبة.

وقوله: ﴿يَعِجِدُ اللَّهُ﴾ استعارة، لما كانت الرحمة والغفران مُعَدَّةً للمستغفرين التائبين كانوا كالواجدين لمطلوب، وكأن التوبة ورود على رحمة الله، وقرب من الله، وقال عبدالله بن مسعود يوماً في مجلسه: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح وقد كتبت كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البول شيئاً من ثيابه قرضه بالمقراض، فقال رجل من القوم: لقد أتى الله بني إسرائيل خيراً. فقال عبدالله: ما

أتاكم الله خير مما أتاهم، جعل لكم الماء طهوراً، وقال: ﴿وَمَنْ يَمَلْ سُوءَ أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ﴾ الآية، وهذه آية وعد بشرط المشيئة على ما تقتضيه عقيدة أهل السنة، وفضل الله مرجو، وهو المستعان.

﴿١١٣﴾ - ﴿١١٣﴾ تفسير قوله تعالى:

تقدم القول في معنى الكسب، والإثم: الحكم اللاحق على المعصية، ونسبة المرء إلى العقوبة فيها، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَكْتِئِبُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: إياها يُردي، وبها يُحل المكروه.

وقوله تعالى: ﴿خَطِيئَةٌ أَوْ إِنَّمَا﴾ ذهب بعض الناس إلى أنهما لفظان بمعنى، كرر لاختلاف اللفظ، وقال الطبري: إنما فرق بين الخطيئة والإثم أن الخطيئة تكون عن عمد، وعن غير عمد، والإثم لا يكون إلا عن عمد. وهذه الآية لفظها عام، ويندرج تحت ذلك العموم ويتجه أهل النازلة المذكورة، وبريء النازلة - قيل: هو لبيد بن سهل، وقيل: هو زيد بن السمين اليهودي، وقيل: أبو مليك الأنصاري. وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ أَخْتَلَّ﴾ تشبيه، إذ الذنوب ثقل ووزر، فهي كالمحمولات. و ﴿بُهْتَانًا﴾ معناه: كذباً على البري، ومنه قول النبي ﷺ: «إِذَا قُلْتَ فِي أَخِيكَ مَا فِيهِ مِمَّا يَكْرَهُ سَمَاعُهُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، فَإِنْ قُلْتَ مَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ». فَرَمَى البري بهتاً له، ونفس الخطيئة والإثم إثم مبين، ومعصية هذا الرامي معصيتان.

ثم وقف الله تعالى نبيه على هذا، وعصمته له، وأنها بفضل من الله

ورحمة، وقوله: ﴿كُنْتَ﴾ معناه: لجعلته همها وشغلها حتى تنفذه، وهذا يدل على أن الألفاظ عامة في غير أهل النازلة، وإلا فأهل التعصب لبني أبيرق قد وقع مهمهم وثبت، وإنما المعنى: ولولا عصمة الله لك لكان في الناس من يشتغل بإضلالك، ويَجْعَلُهُ هَمَّ نفسه، أي: كما فعل هؤلاء، لكن العصمة تبطل كيد الجميع فيبقى الضلال في حيزهم.

ثم ضَمَّنَ وعد الله تعالى أنهم لا يضره شيئا، وقرر عليه نعمه لديه، من إنزال الكتاب المثلَّو، والحكمة التي بعضها خوطب به، وبعضها جعلت له سجية ملكها، وقريحة يعمل عنها، وينظر بين الناس بها، لا ينطق عن الهوى، ويهذين علمه ما لم يكن يعلم، وياقي الآية يَبْنِ.

﴿١١٤﴾ - ﴿١١٥﴾ تفسير قوله تعالى:

الضمير في ﴿تَجَوَّبَهُمْ﴾ عائد على الناس أجمع، وجاءت هذه الآيات عامة تناول، وفي عمومها يندرج أصحاب النازلة، وهذا من الفصاحة والإيجاز المضمن الماضي والمغاير في عبارة واحدة.

والنجوى: المسارة، مصدر، وقد تسمى به الجماعة، كما يقال: قوم عدلٌ ورضا، وتحتمل اللفظة في هذه الآية أن تكون الجماعة، وأن تكون المصدر نفسه، فإن قدرناها الجماعة فالاستثناء متصل، كأنه قال: لا خير في كثير من جماعاتهم المنفردة المتسارة إلا مَنْ. وإن قدرنا اللفظة المصدر نفسه فكأنه قال: لا خير في كثير من تناجيهم، فالاستثناء منقطع

بحكم اللفظ، ويقدر اتصاله علي حذف مضاف، كأنه قال: إلا نجوى مَنْ. قال بعض المفسرين: النجوى: كلام الجماعة المنفردة كان ذلك سرا أو جهرا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: انفراد الجماعة من الاستسار، والغرض المقصود أن النجوى ليست بمقصورة على الهمس في الأذن ونحوه.

والمعروف: لفظ يعم الصدقة والإصلاح، ولكن خصا بالذكر اهتماما بهما،

إذ هما عظيمَا العناء في مصالح العباد، ثم وعد الله تعالى بالأجر العظيم على فعل هذه الخيرات بنية وقصد لرضا الله تعالى. و﴿آيَتِكَ﴾ نصب على المصدر. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، والكسائي: ﴿فَسَوْفَ تُوَفِّيهِ﴾ بالنون، وقرأ أبو عمرو، وحزمة ﴿يُؤْتِيهِ﴾ بالياء، والقراءتان حستان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ الآية. لفظ عام نزل بسبب طعمة بن أبيرق؛ لأنه ارتد وسار إلى مكة، فاندراج الإنحاء عليه في طي هذا العموم المتناول لمن اتصف بهذه الصفات إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿مَا تَوَلَّى﴾ وعيد بأن يترك مع فاسد اختياره في تولي الطاغوت، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿يُؤْلَهُ﴾ و﴿يُضْلِهِ﴾ بالياء فيها.

ثم أوجب تعالى أنه لا يغفر أن

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٧﴾ تفسير قوله تعالى:

الضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ عائد على من تقدم ذكره من الكفرة في قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾، و﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى (ما)، و﴿يَدْعُونَ﴾ عبارة مغنية موجزة في معنى: يعيدون، ويتخذون آلهة. وقرأ أبو رجاء العطاردي: ﴿إِنْ تَدْعُونَ﴾ بالياء، فقال أبو مالك، والسدي، وغيرهما: ذلك لأن العرب كانت تسمي أصنامها بأسماء مؤنثة، كالكلات، والعزى، ومناة، ونائلة.

وقد مضى تفسير مثل هذه الآية وما يتصل بها من المعتقد. والبعد في صفة الضلال مقتض بَعْدُ الرجوع إلى المحجة البيضاء وتعلُّده وإن بقي غير مستحيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويردُّ على هذا أنها كانت تسمى

فقال فرقة: هو الشيطان المقترن بكل صنم، فكانه موحد باللفظ جفع بالمعنى، لأن الواحد يدل على الجنس، وقال الجمهور: المراد إبليس، وهذا هو الصواب، لأن سائر المقالة به تليق، و ﴿مُرِيدًا﴾ معناه: عاتياً صلياً في غوايته، وهو فعيل من: مَرَدَ إذا عَتَا وَعَلَا في انحرافه وتجرده للشرب والغواية.

وأصل اللُّغْن: الإبعاد، وهو في العرف: إبعاد مقترن بسخط وغضب، ويحتمل أن يكون ﴿لُغْنَةً﴾ صفة الشيطان، ويحتمل أن يكون خبراً عنه، والمعنى يتقارب على الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿وَوَالَّذِينَ لَا يَخْشَوْنَ﴾ الآية، التقدير: وقال الشيطان، والمعنى: لَأَسْتَخْلِصَنَّهُمْ لغوايتي، وَلَا أُخْصِنُهُمْ بإضلائي، وهم الكفرة والعصاة.

والمفروض: معناه - في هذا الموضع -: المنحاز، وهو مأخوذ من الفرض، وهو الحزب في العود وغيره، ويحتمل أن يريد: واجباً أن آتخذ، وبعث النار: هو نصيب إبليس.

﴿١١٩﴾ - ﴿١٢٢﴾ تفسير قوله تعالى:

قوله: ﴿وَلَا يَخْلُصُهُمْ﴾ معناه: أصرفهم عن طريق الهدى، و ﴿وَلَا يَخْلُصُهُمْ﴾ لَأَسْؤُلُنَّ لَهُمْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا ينحصر إلى نوع واحد من الأمانة، لأن كل واحد في نفسه إنما تمنيه بقدر نسبته وقرائن حاله، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَقُولُ لِمَنْ يَرْكَبُ وَلَا

مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَوْثَانًا»، وقرأ ابن عباس فيما روى عنه أبو صالح: ﴿إِلَّا أَثْنًا﴾ يريد: وثناً، فأبدل الهمزة واواً. وهو جمع جمع على ما حكى بعض الناس، كأنه جمع وثناً على وثان، كَجَمَلٍ وجمال، ثم جمع وثناً على وثن، كَرِهَانٍ وُرْهَن، وكيئال ومثل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خطأ، لأن فعلاً في جمع فعل إنما هو للتكثير، والجمع الذي هو للتكثير لا يُجمع، إنما تُجمع جموع

التقليل، والصواب أن تقول: وثُنٌ جمع وثن دون واسطة كأشد وأسد. قال أبو عمرو: وبهذا قرأ ابن عمر، وسعيد بن المسيب، ومسلم بن جندب، وعطاء. وروي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿إِلَّا وَثْنًا﴾ بفتح الواو والثاء على أفراد اسم الجنس، وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿وُثْنًا﴾ بضم الواو والثاء، وقرأت فرقة: ﴿إِلَّا وَثْنًا﴾، وقرأت فرقة: ﴿إِلَّا أَثْنًا﴾ بسكون الثاء، وقرأ النبي ﷺ: ﴿إِلَّا أَثْنًا﴾ بتقديم الثون، وهو جمع أثيث، كغدير وغُدر ونحو ذلك، وحكى الطبري أنه جمع إثناث، كَثْمَارٍ وَثْمَرٍ. وحكى هذه القراءة عن النبي ﷺ أبو عمر الداني، قال: وقرأ بها ابن عباس، وأبو حيوة، الحسن.

واختلف في المعنى بالشيطان -

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١١٩﴾ أَلَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَحِثْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَيْسَ وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٠﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى هُوَ مُؤَيَّنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢١﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخَبِّرًا ﴿١٢٣﴾ وَسَتَقْفُونَكَ فِي النَّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتَحُكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يَكُنْ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي تَسْمِي النَّسَاءِ أَلَّتِي لَا تَوْثُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَبَّعُونَ أَنْ تَكْبُوهُنَّ وَالْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنَ الْوُلَدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ عَلِيمًا ﴿١٢٤﴾

١١٩

بأسماء مذكرة كثيرة. وقال الضحاك وغيره: المراد: ما كانت العرب تعتقده من تأنيث الملائكة وعبادتهم إياها، فقبل لهم هذا على جهة إقامة الحجة من فاسد قولهم. وقال ابن عباس، والحسن، وقتادة: المراد: الخشب والحجارة وهي مؤنثات لا تعقل، فيخبر عنها كما يخبر عن المؤنث من الأشياء، فيجئ قوله: ﴿إِلَّا إِنْثًا﴾ عبارة عن الجمادات، وقيل: إنما هذا لأن العرب كانت تسمي الصنم أنثى فتقول: أنثى بني فلان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على اختلافه يقضي بتعبييرهم بالتأنيث، وأن التأنيث نقص وخساسة بالإضافة إلى التذكير. وقيل: معنى ﴿إِنْثًا﴾: أوثاناً. وفي مصحف عائشة رضي الله عنها: «إِنْ يَدْعُونَ

يذكر الله: تغن، فإن لم يحسن قال له: تمن، واللامات كلها للسم.

والبَثْكُ: القطع، وكثر الفعل إذ القطع كثير على أنحاء مختلفة، وإنما كنى سبحانه وتعالى عن البحيرة والسائبة ونحوه مما كانوا يشبثون فيه حكماً بسبب ألهمهم، وبغير ذلك. وقرأ أبو عمرو ابن العلاء: ﴿وَلَا أَمْرُهُمْ﴾ بغير ألف، وقرأ أبي: ﴿وَأُضِلُّهُمْ وَأَمْنُهُمْ وَأَمْرُهُمْ﴾.

واختلف في معنى تغيير خلق الله - فقال ابن عباس، وإبراهيم، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغيرهم: أراد: يغيرون دين الله، وذهبوا في ذلك إلى الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿فَظَرَّتْ أَلَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، أي:

لدين الله. والتبديل يقع موضعه التغيير، وإن كان التغيير أعم منه.

وقالت فرقة: تغيير خلق الله هو أن الله تعالى خلق الشمس والنهار

والحجارة وغيرها من المخلوقات ليعتبر بها ويتنفع بها، فغيرها الكفار

بأن جعلوا آلهة معبودة، وقال ابن عباس أيضاً، وأنس، وعكرمة، وأبو

صالح: من تغيير خلق الله الإخصاء، والآية إشارة إلى إخصاء

البهائم وما شاكله، فهي عندهم أشياء ممنوعة، ورخص في إخصاء البهائم

جماعة إذا قصدت به المنفعة، إما السمن أو غيره، وخصها عمر بن

عبد العزيز في الخيل. وقال ابن مسعود، والحسن: هي إشارة إلى

الوشم وما جرى مجراه من التثنع

للحُسن، فمن ذلك الحديث: ﴿لَقَدْ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْوَاشِمَاتِ

والموشومات، والمتشمصات، والمتفلجات المغيرات خلق الله،

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿لَقَدْ

وَمَلَكَ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ كُلَّ تَغْيِيرٍ ضَارٌّ فَهُوَ فِي الْآيَةِ، وَكُلُّ تَغْيِيرٍ نَافِعٌ فَهُوَ مَبَاحٌ.

ولما ذكر الله تعالى عَثُوَ الشَّيْطَانُ وَمَا تَوَعَّدَ بِهِ مِنْ بَثِّ مَكْرِهِ، حَذَّرَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ، بِأَنْ شَرَطَ لِمَنْ

يَتَّخِذُهُ وَلِيًّا جِزَاءَ الْخُسْرَانِ، وَتَصَوَّرَ الْخُسْرَانُ إِنَّمَا هُوَ بِأَنْ أَخَذَ هَذَا

الْمَتَّخِذُ حِظَّ الشَّيْطَانِ، فَكَأَنَّهُ أُعْطِيَ حِظَّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ، وَتَرَكَ مِنْ أَجَلِهِ.

وقوله تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ﴾، يَعِدُّهُمْ بِأَبَاطِيلِهِ مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ، وَأَنْ لَا يَبْعَثَ وَلَا يُعَاقِبَ وَنَحْوَ ذَلِكَ،

لِكُلِّ أَحَدٍ مَا يَلِيْقُ بِحَالِهِ، وَيَمْنِيهِمْ كَذَلِكَ، ثُمَّ ابْتَدَأَ تَعَالَى الْخَبَرَ عَنْ حَقِيقَةِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعِدُّهُمْ

أَلَسَّيْلَانِ إِلَّا زُرْعَةً﴾.

ثم أخبر تعالى بمصير المتخذين الشيطان ولياً، وتوعدهم بأن مأواهم

جهنم، لا يدافعونها بحيلة، ولا يعدلون عنها ولا ينحرفون ولا

يتروغون، والمحيص: مفعول من: حاص إذا راغ ونفر، ومنه قول

الشاعر: وَلَمْ أَدْرِ إِنْ جِئْنَا مِنَ الْمَوْتِ حَيْصَةً كَمِ الْعُمُرِ بَاقِي الْمَوْتِ مُتَطَاوِلُ

ومنه الحديث: ﴿فَحَاصُوا حَيْصَةً حَمْرُ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ﴾، وجاض

(بالجيم والضاد المنقوطة) إذا راغ بنفور، ولغة القرآن الحاء والصاد غير

منقوطة.

ولما أخبر تعالى عن الكفار الذين يتخذون الشيطان ولياً، وأعلم بنفور

وعد الشيطان لهم، وأعلم بصيور أمرهم، وأنه إلى جهنم، فاقترض

ذلك كله التحذير - أعقب ذلك - عز وجل - بالترغيب في ذكر حالة

المؤمنين، وأعلم بصيور أمرهم، وأنه إلى النعيم المقيم، وأعلم بصحة

وعده تعالى لهم، ثم قرر ذلك بالتوقيف عليه في قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾. والقيل والقول

واحد. ونصبه على التمييز. وقرأت فرقة: ﴿سَيَذَلُّهُمْ﴾ بالنون.

وقرأت فرقة: ﴿سَيَذَلُّهُمْ﴾ بالياء، و﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ نصب على المصدر، و﴿حَقًّا﴾ مصدر أيضاً مؤكِّد لما

قبله. ﴿١٢٣﴾ - ﴿١٢٤﴾ تفسير قوله تعالى:

اسم ﴿لَيْسَ﴾ مضمر، والأمانى: جمع أمنية، وزنها أفعولة، وهي:

ما يشتتها المرأة ويطمع نفسه فيه، وتجمع على فعاليل فتجتمع ياءاً،

فلذلك تدغم إحداها في الأخرى فتجئ مُشَدَّدَةٌ وهي قراءة الجمهور،

وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو جعفر بن القعقاع، وشيبة بن نصاح،

والحكم، والأعرج: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ ساكنة الياء، وكذلك في

الثانية، قال الفراء: هذا جمع على فعاليل كما يقال: قراير وقراقر إلى

غير ذلك. واختلف الناس فيمن المخاطب بهذه الآية؟ فقال ابن عباس:

والضحاك، وأبو صالح، ومسروق، وقتادة، والسدي، وغيرهم:

المخاطب لأمة محمد ﷺ، قال

بعضهم: سبب الآية أن المؤمنين اختلفوا مع قوم من أهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: ديننا أقدم من دينكم وأفضل، ونبينا قبل نبيكم، فنحن أفضل منكم، وقال المؤمنون: كتابنا يقضي على الكتب، ونبينا خاتم النبيين، أو نحو هذا من المحاوراة، فنزلة الآية، وقال مجاهد وابن زيد: بل الخطاب لكفار قريش، وذلك أنهم قالوا: لن نبعث، ولا نعذب، وإنما هي حياتنا الدنيا، لنا فيها النعيم ثم لا عذاب، وقالت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، إلى نحو هذا من الأقوال، كقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾، فرد الله تعالى على الفريقين بقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، ثم ابتداء الخبر الصادق بقوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا بِحَسَبِ لَفْظِهِ﴾، وجاء هذا اللفظ عاماً في كل سوء فاندرج تحت عموميه الفريقان المذكوران.

واختلف المتأولون في تعميم لفظ هذا الخبر - فقال الحسن بن أبي الحسن: هذه الآية في الكافر، وقرأ: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾، قال: والآية يعني بها الكفار، ولا يعني بها أهل الصلاة، وقال: والله ما جازى الله أحداً بالخير والشر إلا عذبه، ولكنه يغفر ذنوب المؤمنين، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا بِحَسَبِ لَفْظِهِ﴾ يعني بذلك اليهود والنصارى والمجوس وكفار العرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا تخصيص للفظ الآية، ورأي

هؤلاء أن الكافر يجزى على كل سوء يعمل، وأن المؤمن قد وعده الله تكفير سيئاته. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا﴾ معناه: مَنْ يَكْ مُشْرِكًا، والسوء هنا: الشرك، فهو تخصيص لعموم اللفظ من جهة أخرى، لأن أولئك خَصُّصُوا لَفْظَ [مَنْ]، وهذان خَصُّصَا لَفْظَ (السوء). وقال جمهور الناس: لفظ الآية عام، والكافر والمؤمن مجازى بالسوء يعمل، فأما مجازاة الكافر فالنار، لأن كفره أوبقه، وأما المؤمن فبنكبات الدنيا. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لما نزلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا بِحَسَبِ لَفْظِهِ﴾ يا رسول الله - ما أشد هذه الآية، فقال: «يا أبا بكر، أما تحزن؟ أما تمرض؟ أما تصيبك اللأواء؟ فهذا بذلك»، وقال عطاء بن أبي رباح: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر: جاءت قاصمة الظهر، فقال النبي ﷺ: «إنما هي المصيبات في الدنيا». وقالت بمثل هذا التأويل عائشة رضي الله عنها، وقال أبي بن كعب - وسأله الربيع بن زياد عن معنى الآية وكأنه خافها - فقال له أبي: ما كنت أظنك إلا أفاقه مما أرى، ما يصيب الرجل خدش ولا غيره إلا بذنب، وما يغفر الله عنه أكثر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالمعقبة في هذا أن الكافر مجازى، والمؤمن يجازى في الدنيا غالباً، فمن بقي له سوء إلى الآخرة فهو في المشيئة، يغفر الله لمن يشاء، ويجازى من يشاء.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا يَجِدْ﴾ بالجزم عطفاً على: ﴿يَجْزَى﴾، وروى ابن بكار عن ابن عامر: ﴿وَلَا يَجْزَى﴾ بالرفع على القطع، وقوله: ﴿وَيَنْ دُونَ اللَّهِ﴾ لفظة تقتضي عدم المذكور بعدها من النازلة، ويفسرهما بعض المفسرين بـ (غير)، وهو تفسير لا يطرد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ دخلت ﴿وَمَنْ﴾ للتبعية، إذ الصالحات على الكمال مما لا يطيقه البشر، ففي هذا رفق بالعباد، لكن في هذا البعض الفرائض، وما أمكن من المندوب إليه، ثم قيد الأمر بالإيمان إذ لا ينفع عمل دونه، وحكى الطبري عن قوم أن [مِنْ] زائدة، وضعفه كما هو ضعيف. وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ بفتح الباء وضم الخاء، وكذلك حيث جاء من القرآن، وروى مثل هذا عن عاصم، وقرأ أبو عمرو في هذه الآية، وفي (مريم) و (الملائكة)، وفي (المؤمنين): ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بضم الباء وفتح الخاء، وقرأ بفتح الباء من ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

والنفير: النكتة التي في ظهر نواة التمرة، ومنه تنبت، وروى عاصم: النفير ما تنقره بإصبعك، وهذا كله مثال للحقير اليسير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهنا كمل الرد على أهل الأمانى والإخبار بحقيقة الأمر.

ثم أخبر تعالى إخباراً موافقاً على أنه لا أحسن ديناً ممن أسلم

وجهه الله، أي: أخلص مقصده وتوجّهه، وأحسن في أعماله، واتبع الحنيفية التي هي ملة إبراهيم، إمام العالم، وقدوة أهل الأديان، ثم لما ذكر الله تعالى إبراهيم بأنه الذي يجب اتباعه شرفه بذكر الخلّة، وإبراهيم عليه السلام خليلاً إذ كان خلوصه وعبادته واجتهاده على الغاية التي يجري إليها المحب المبالغ، وكان لطف الله به، ورحمته ونصرته له، بحسب ذلك.

وذهب قوم إلى أن إبراهيم سُمي خليلاً من الخلّة، بفتح الخاء أي: لأنه أنزل خلّته وفاقته بالله تعالى، وقال قوم: سُمي خليلاً لأنه - فيما روي في الحديث - جاء من عند خليل كان له بمصر، وقد حرّمه الميرة التي قصد لها، فلما قرب من منزله ملأ غرارتيه رملاً ليتأنس بذلك صبيته، فلما دخل منزله نام كلالاً وهماً، فقامت امرأته وفتحت الغرارة فوجدت أحسن ما يكون من الحواري، فعجنت منه، فلما انتبه قال: ما هذا؟ قالت: من الدقيق الذي سقت من عند خليلك المصري: فقال: بل هو من عند خليلي الله تعالى، فسمي بذلك خليلاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا ضعف، ولا تقتضي هذه القصة أن يُسمّى بذلك اسماً غالباً، وإنما هو شيء شرفه الله به، كما شرف محمداً ﷺ، فقد صح في كتاب مسلم وغيره: أن الله اتخذهُ خليلاً.

(١٢٦) - (١٢٧) تفسير قوله تعالى:

ذكر الله عز وجل سعة مملكه، وإحاطته بكل شيء عقب ذكر الدين

وتبيين الجادة منه - ترغيباً في طاعة الله، والانقطاع إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَسَتَقُولُونَ﴾، نزلت بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن في الموارث وغير ذلك، فأمر الله نبيه أن يقول لهن: ﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، أي: يُبين لكم حكم ما سألتن عنه. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْتَلِ عَلَيْكُمْ﴾، يحتمل عطفاً على الضمير في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: ويُفتيكم فيما يُنتلى عليكم، قاله محمد بن أبي موسى، وقال: أفاتهم الله فيما سألوا عنه، وفيما لم يسألوا عنه، ويضعف هذا التأويل ما فيه من العطف على الضمير المخفوض بغير إعادة حرف الخفض. ويحتمل أن تكون ﴿وَمَا﴾ في موضع رفع عطفاً على اسم الله عز وجل، أي: ويُفتيكم ما يُنتلى عليكم في الكتاب، يعني القرآن، والإشارة بهذا إلى ما تقدم من الآيات في أمر النساء، وهو قوله تعالى في صدر السورة ﴿وَلَا تَقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الآية، قالت عائشة رضي الله عنها: نزلت هذه الآية أولاً، ثم سأل ناس بعدها رسول الله ﷺ عن أمر النساء فنزلت: ﴿وَسَتَقُولُونَ فِي النِّسَاءِ﴾، أي: يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يَنْتَلِ عَلَيْكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ التي لا تؤتونهنّ ما كتب لهنّ، معناه النهي عما كانت العرب تفعله من ضمّ اليتيمة الجميلة الغنية بدون ما تستحقه من المهر، ومن عضل

الدميمة الفقيرة أبداً، والدميمة الغنية حتى تموت فيرثها العاضل، ونحو هذا مما يقصد به الولي منفعة نفسه، لا نفع اليتيمة، والذي كتب الله لهنّ: هو توفية ما تستحقه من مهر، وإلحاقها بأقربائها.

وقرأ أبو عبد الله المدني: ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ بياءين، قال أبو الفتح: والقول في هذه القراءة أنه أراد (أيامى) فقلت الهمزة ياء، كما قُلبت في قولهم: «باهلة بن يعصر»، وإنما هو «ابن أعصر» لأنه إنما يُسمى بقوله:

أُبَيِّئُ إِنْ أَبَاكَ غَيْرَ لَوْنُهُ
كُرَّ اللَّيَالِي وَاخْتِلَافُ الْأَعْصُرِ
وكما قُلبت الياء همزة في قولهم: «قطع الله أذه»، يريدون: «يذه»، وأيامى: جمع أيّم، أصله: أيّيم، فقلبت اللام موضع العين فجاء: أيّامي، ثم أبدلت من الكسرة فتحة، ومن الياء ألف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يشبه أن الداعي إلى هذا استثقال الضمة على الياء، قال أبو الفتح: ولو قال قائل: كُسُرَ أَيّم على أيّمي على وزن سكرى وقتلى من حيث الأيؤمة بليّة تدخل كرهاً، ثم كُسُرَ أيّمي على أيّامي - لكان وجهاً حسناً.

وقوله تعالى: ﴿وَرَغَبُونَ﴾، إن كانت الجارية غنية جميلة فالرغبة في نكاحها، وإن كانت بالعكس فالرغبة عن نكاحها. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ الناس بالدرجة الفضلى في هذا المعنى، فكان إذا سأل الولي

على الصبر على الأثرة. فهذا كله مباح.

واختلف المفسرون في سبب الآية - فقال ابن عباس، وجماعة معه: نزلت في النبي ﷺ وسودة بنت زمعة، حدث الطبري بسند عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: لا تطلقني، واحبسي مع نسائك، ولا تقسم لي، ففعل، فنزلت: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ضُيُورًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الآية، وفي المصنفات أن سودة لما كبرت وهبت يومها لعائشة، وهذا نحو الأول، وقال سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وعبيدة السلماني، وغيرهم: نزلت الآية بسبب رافع بن خديج، وخولة بنت محمد بن مسلمة، وذلك أنه خلا من سنها فتزوج عليها شابة، فأثر الشابة فلم تصبر هي فطلقها طليقة، ثم ترجعا فعاد فأثر الشابة فلم تصبر هي فطلقها أخرى، فلما بقي من العدة يسير قال لها: إن شئت راجعتك وصبرت على الأثرة، وإن شئت تركتك حتى يخلو أجلك، قالت: بل راجعني وأصبر، فراجعها فأثر الشابة فلم تصبر، فقال: إنما هي واحدة، فإما أن تقري على ما تريد من الأثرة وإلا طلقتك، فقررت، فهذا هو الصلح الذي أنزل الله فيه: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ الآية.

وقال مجاهد: نزلت الآية بسبب أبي السنابل بن بعكك وامراته.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿يَصْالِحًا﴾ بفتح الباء وشد الصاد وألف بعدها، وأصلها:

تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَّا إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ﴾ مما ذكر في مال اليتيم، والقسط: العدل، وباقى الآية وعد على فعل الخير بالجزاء الجميل بين.

١٢٨ - ١٢٩ تفسير قوله تعالى:

هذه الآية حكم من الله تعالى في أمر المرأة التي تكون ذات سن ودمامة، أو نحو ذلك مما يرغب زوجها عنها، فيذهب الزوج إلى طلاقها، أو إلى إيثار شابة عليها، ونحو هذا مما يقصد به صلاح

نفسه، ولا يضرها هي ضرراً يلزمه إياها، بل يعرض عليها الفُرقة، أو الصبر على الأثرة، فتريد هي بقاء العصمة، فهذه التي أباح الله تعالى بينهما الصلح، ورفع الجناح فيه، إذ الجناح في كل صلح يكون عن ضرر من الزوج يفعلُه حتى تعالجه، وأباح الله تعالى الصلح مع الخوف، وظهور علامات النشوز أو الإعراض، وهو - مع وقوعها - مباح أيضاً.

والنشوز: الارتفاع بالنفس عن رتبة حُسن العشرة. والإعراض: أخف من النشوز.

وأنواع الصلح كلها مباحة في هذه النازلة - أن يعطى الزوج على أن تصبر هي، أو تعطى هي على ألا يؤثر الزوج، أو على أن يؤثر ويتمسك بالعصمة، أو يقع الصلح

وَأِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ضُيُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَوِيلُوا كَلَّ الْأَمَلِ قَدْ زَوَّيْنَاهَا كَالْمُغْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَفْرَقَا فَمَا عَيْنَ اللَّهِ كَلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَبِعَاكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَكَافِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا جَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنَّ يَسَاءَ بُدْءَ هَبْطِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بَخَائِرِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَفْصَحَ اللَّهُ تَوَابَ الَّذِينَ أَلَا خَيْرَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

عن وليته فقيل: هي غنية جميلة، قال له: اطلب لها من هو خير منك وأعود عليها بالنفع. وإذا قيل له: هي دميمة فقيرة قال له: أنت أولى بها بالستر عليها من غيرك.

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّامِعِينَ مِنْ آلِ لَدُنَّ﴾ عطف على: ﴿يَتَنَبَّئُونَ﴾، والذي تلي في المستضعفين من الولدان هو قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُكَ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾، وذلك أن العرب كانت لا تورث الصبيّة ولا الصبي الصغير، وكان الكبير ينفرد بالمال، وكانوا يقولون: إنما يرث المال من يحمي الحوزة، ويرد الغنيمة، ويُقاتل عن الحرم، ففرض الله لكل أحد حقه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ تَقُومُوا لِلنَّاسِ بِإِلْقَاسٍ﴾ عطف أيضاً على ما تقدم، والذي تلي في هذا المعنى هو قوله

تَقْبِيهِ»، فقد أثبت أن لكل نفس شحاً، وقول النبي ﷺ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ»، وهذا ما لم يُرد به واحداً بعينه، وليس يجمل أن يقال هنا: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ بَخِيلٍ».

وقوله تعالى: «وَأَنْ تُحْسِنُوا» نذب إلى الإحسان في تحسين العشرة، وحمل أخلاق الزوجة، والصبر على ما يكره من حالها، وتمكن النذب إلى الإحسان من حيث للزوج أن يشح فلا يحسن. «وَتَتَّقُوا» معناه: تتقوا الله في وصيته بالنساء، إذ هن عوان عند الأزواج حسبما فسره النبي ﷺ بقوله: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم».

وقوله تعالى: «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَقْدُلُوا بَيْنَ يَدَيْ إِنْ سَأَلْتُمْ» معناه: العدل التام على الإطلاق، المستوي في الأفعال والأقوال والمحبة والجماع وغير ذلك، وكان رسول الله ﷺ يقيس بين نسائه، ثم يقول: «اللَّهُمَّ هذا فعلي فيما أملكه، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»، يعني ميله بقلبه. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «اللهم قلبي فلا أملك، وأما ما سوى ذلك فأرجو أن أعدل». وروي أن هذه الآية نزلت في النبي ﷺ وميله بقلبه إلى عائشة رضي الله عنها، فوصف الله تعالى حالة البشر، وأنهم بحكم الخلقة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعض الأزواج دون بعض، ونشاطهم إليهن، وبشرهم معهن، ثم نهى عن الميل كل الميل، وهو أن

وقوله تعالى: «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ» لفظ عام مطلق يقتضي أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الطلاق، ويندرج تحت هذا العموم أن صلح الزوجين - على ما ذكرنا - خير من الفُرقة.

وقوله تعالى: «وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ» معذرة عن عبده تعالى، أي: لا بد للإنسان بحكم خلقته وجبليته من أن يشح على إرادته حتى يحمل صاحبه على بعض ما يكره، وخصص المفسرون هذه اللفظة - هنا - فقال ابن جبير: هو شح المرأة بالنفقة من زوجها وبقسمة لها أيامها، وقال ابن زيد: الشح هنا منه ومنها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أحسن، فإن الغالب على المرأة الشح بنصيبها من زوجها، والناهب على الزوج الشح بنصيبه من الشابة.

والشح: الضبط على المعتقدات والإرادات، والههم والأموال ونحو ذلك، فما أفرط منها ففيه بعض المذمة، وهو الذي قال تعالى فيه: «وَمَنْ يُوَقِّ شَيْئاً نَفْسِهِ»، وما صار إلى حيز منع الحقوق الشرعية أو التي تقتضيها المروءة فهو البخل، وهي رذيلة، ولكنها قد تكون في المؤمن، ومنه الحديث: (قيل: يا رسول الله، أياكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم»)، وأما الشح ففي كل أحد لكن لا يُفْرِط إلا على الدين، وبذلك على أن الشح في كل أحد قوله تعالى: «وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ»، وقوله: «شَحَّ

يتصلحا، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: «يُضْلِحًا» بضم الياء وسكون الصاد دون ألف، وقرأ عبيدة السلماني: «يُضَالِحًا» بضم الياء من المفاعلة. وقرأ الجحدري، وعثمان البتي: «يُضْلِحًا» بفتح الياء وشد الصاد، أصلها: يُضْطَلِحًا. قال أبو الفتح: أبدل الطاء صاداً، ثم أدغم فيها الصاد التي هي فاء فصارت: يُضْلِحًا، وقرأ الأعمش: «إِنْ أَضَالِحًا». وكذلك هي في قراءة ابن مسعود.

وقوله: «صُلْحًا» ليس الصلح مصدراً على واحد من هذه الأفعال التي قرئ بها، فالذي يحتمل أن يكون اسماً كالعطاء مع أعطيت، والكرامة مع أكرمت، فمن قرأ «يُضْلِحًا» كان تعدية إلى الصلح كَتَعْدِيَةٍ إِلَى الْأَسْمَاءِ، كما تقول: أصلحت ثوباً، ومن قرأ: «يُضَالِحًا» من تفاعل، وعُرف تفاعل أنه لا يتعدى، فوجهه أن تفاعل قد جاء متعدياً في نحو قول ذي الرمة:

وَمِنْ جُرْدَةِ غُفْلٍ بَسَاطٍ تَحَاسَنَتْ
بِهَا الْوُشْيُ قَرَأَتْ الرِّيَّاحُ وَخَوَرَهَا
ويجوز أن يكون الصلح مصدراً حذف زوائده كما قال:

.....
وَأِنْ تَهْلِكْ فَذَلِكَ كَانَ قَدْرِي
أي: تقديري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا كلام أبي علي، على أن القدر مصدر جارٍ على أن قَدَرْتُ الأمر بمعنى قَدَرْتُ بالتشديد.

يفعل فعلاً يقصده من التفضيل وهو
يقدر ألا يفعله، فهذا هو كل الميل
وإن كان في أمرٍ حقير، فكأن
الكلام: ولا تميلوا النوع الذي هو
كل الميل، وهو المقصود من قول
أو فعل.

وقوله تعالى: ﴿تَذَرُوهَا
كَالْمُتَلَقِّهِ﴾ أي: لا هي أيم ولا ذات
زوج، وهذا تشبيه بالشيء المعلق من
شيء، لأنه لا على الأرض استقرار،
ولا على ما علق منه الحمل، وهذا
مطرّد في قولهم في المثل: «أرض
من المزكّب بالتعليق»، وفي عرف
النحويين في تعليق الفعل، ومنه في
حديث أم زرع قول المرأة: (زوجي
العشيق، إن أنطق أطلق، وإن أسكت
أعلق).

وقرأ أبي بن كعب: ﴿تَذَرُوهَا
كَالْمَسْجُوتَةِ﴾، وقرأ عبدالله بن
مسعود: ﴿تَذَرُوهَا كَأَنَّهَا مُعَلَّقَةٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَصْلِحُوا
وَتَتَّقُوا﴾ أي: وإن تلتزموا بما
يلزمكم من العدل فيما تملكون،
﴿فَإِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ لما
لا تملكونه، متجاوزاً عنه، وقال
الطبري: معنى الآية: غفوراً لما
سلف منكم من الميل كل الميل قبل
نزول الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فعلى هذا فهي مغفرة مُخَصَّصة لقوم
بأعيانهم، واقعوا المحذور في مدة
النبي ﷺ.

وجاء في التسي قبل: ﴿وَلَا
تُحْسِنُوا﴾ وفي هذه: ﴿وَلَا تَصْلِحُوا﴾
لأن الأول في مندوب إليه، وهذه

في لازم، لأن الرجل له هناك ألا
يُحسن، وأن يشح ويصالح بما
يرضيه، وفي هذه ليس له
ألا يصلح، بل يلزمه العدل فيما
يملك.

﴿١٣٢﴾ - ﴿١٣٣﴾ تفسير قوله تعالى:

الضمير في قوله: ﴿يَتَفَرَّقَا﴾
للزوجين اللذين تقدم ذكرهما، أي:
إن شح كل واحد منهما فلم يتصالحا
لكنهما تفرقا بطلاق، فإن الله تعالى
يُغني كل واحد منهما عن صاحبه
بفضله ولطائف صنعه، في المال
والعشرة والسعة وجود المرادات
والتمكن منها. وذهب بعض الفقهاء
المالكيين إلى أن التفرق في هذه
الآية هو بالقول، إذ الطلاق قول،
واحتج بهذه على قول النبي ﷺ:
«البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»، إذ
مذهب مالك في الحديث أنه التفرق
بالقول لا بالبدن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا حجة في هذه الآية، لأن
إخبارها إنما هو عن افتراقهما
بالأبدان، وتراخي المدة بزوال
العصمة، والإغناء إنما يقع في ثاني
حال، ولو كانت الفرقة في
الآية الطلاق لما كان للمرأة فيها
نصيب يوجب ظهور ضميرها في
الفعل، وهذه بُدئة من المعارضة في
المسألة، والواسع معناه: الذي عنده
خزائن كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَا فِي السَّكُونِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تنبيه على موضع
الرجاء لهذين المفتقرين، ثم جاء بعد
ذلك قوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تنبيهاً على
استغنائهما عن العباد، ومقدمة للخبر
بكونه ﴿غَنِيًّا حَمِيدًا﴾. ثم جاء بعد
ذلك قوله: ﴿وَلَا مَا فِي السَّكُونِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ مقدمة
للعويد، فهذه وجوه تكرار هذا الخبر
الواحد ثلاث مرات متقاربة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ لفظ عام
لكل من أوتي كتاباً، فإن وصية الله
عباده بالتقوى لم تزل منذ أوجدتهم.
والوكيل: القائم بالأمر، المنفذ فيها
ما رآه.

وقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾
مخاطبة للحاضرين من العرب،
وتوقيف للسامعين لتحضر أذهانهم،
وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يريد: من
نوعكم، وروي عن أبي هريرة أنه
لما نزلت هذه الآية ضرب
رسول الله ﷺ بيده على كتف
سلمان الفارسي وقال: هم قوم هذا.
وتحتمل ألفاظ الآية أن تكون وعيداً
لجميع بني آدم، ويكون الآخرون من
غير نوعهم كما قد روي أنه كان في
الأرض ملائكة يعبدون الله قبل بني
آدم، وقدرة الله تعالى على ما ذكر
تقضي بها العقول ببدائنها. وقال
الطبري: هذا الوعيد والتوبيخ هو
للقوم الذين شفعوا في طعمة بن
أبريق، وخاصموا عنه في أمر خيافته
في الدرع والدقيق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا تأويل بعيد، واللفظ إنما يظهر
حُسن رصفه بعمومه وانسحابه على
العالم جملة، أو العالم الحاضر.

۱۳۳ - ۱۳۴ تفسیر قوله تعالیٰ:

أي: من كان لا مراد له إلا في ثواب الدنيا، ولا يعتقد أن ثم سواه، فليس هو كما ظن، بل عند الله ثواب الدارين، فمن قصد الآخرة أعطاه الله من ثواب الدنيا، وأعطاه قصده، ومن قصد الدنيا فقط أعطاه من الدنيا ما قدر له، وكان له في الآخرة العذاب، والله تعالى سميع للأقوال، بصير بالأعمال والنيات.

ثم خاطب تعالى المؤمنين بقوله: ﴿كُونُوا قَوَّيِينَ﴾ الآية، وهذا بناء مبالغة، أي: ليتكرر منكم القيام ﴿وَالْقِسْطَ﴾، وهو العدل، وقوله: ﴿شَهَادَةً﴾ نصب على خبر بعد الخبر، والحال فيه ضعيفة في المعنى، لأنها تخصيص القيام بالقسط إلى معنى الشهادة فقط، وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ المعنى: لذات الله، ولوجهه ولمرضاته. وقوله: ﴿وَكُونُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿شَهَادَةً﴾. هذا هو الظاهر الذي فسر عليه الناس، وإن هذه الشهادة المذكورة هي في الحقوق.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿شَهَادَةٌ لِلَّهِ﴾ معناه: بالوحدانية، ويتعلق بقوله: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ بـ ﴿قَوَّيْنِ بِالْأَيْدِي﴾، والتأويل الأول آتين.

وشهادة المرء على نفسه: إقراره
بالحقائق وقوله الحق في كل أمر،
وقيامه بالقسط عليها كذلك، ثم ذكر
الوالدين لوجوب برهما وعظم
قدرهما، ثم ثنى بالأقربين إذ هم
مظنة المودة والتعصب، فجاء
الأجنبي من الناس أخرى أن يُقام
بالقسط ويُشهد عليه، وهذه الآية إنما

تضمنت الشهادة على
القرابة، فلا معنى للتفقه
منها في الشهادة لهم كما
فعل بعض المفسرين، ولا
خلاف بين أهل العلم في
صحة أحكام هذه الآية.

وقوله تعالى: **يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ**
أَعْلَمُ بِمَا يَكُنُ معناه: إن يكن
 المشهود عليه غنياً فلا
 يبرأ من لغناه، ولا يخاف
 منه، وإن يكن فقيراً فلا
 يبرأ من إشفاقاً عليه،
 فإن الله تعالى أولى
 بالنعيم وأهل الحالين.
 والفقير اسماً
 لجنس، فلذلك ثني

الضمير في قوله: ﴿يَهْمًا﴾ وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿فَالله أَوْلَىٰ﴾ على الجمع، وقال الطبري: نثني الضمير لأن المعنى: فالله أولى بهذين المعنيين، غنى الغني، وفقر الفقير، أي: وهو أنظر فيهما، وقد حدّ حدوداً، وجعل لكل ذي حق حقه. وقال قوم: [أَوْ] بمعنى (الواو)، وفي هذا ضعف.

وذكر السدي أن هذه الآية نزلت في النبي ﷺ: اختصم إليه غني وفقير، فكان في ضلع الفقير، علماً منه أن الغني أحرى أن يظلم الفقير، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط بين الغني والفقير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
وارتبط هذا الأمر على ما قال
النبي ﷺ : « فاقضي له على نحو ما
أسمع » ، أما إنه قد أبيح للحاكم أن

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيَةً أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ نَعَزْضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٠٨﴾ إِنَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا نُعْذِرُكُمْ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا ثُمَّ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِهِمْ سَبِيلًا ﴿١٠٩﴾ بَشِّرِ الْمُتَوَقِّينَ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَمِ يَتَّبِعُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعًا ﴿١١١﴾ هُوَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ إِذَا جُمِعَ عَلَيْهِمُ آيَاتُ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَرِيبٍ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهَا ﴿١١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَوَقِّينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١١٣﴾

يكون في ضلع الضعيف بأن يعتد له المقالات، ويشد على عضده، ويقول له: قل حجتك مُدلاً، وينبهه تنبيهاً لا يفت في عضد الآخر، ولا يكون تعليم خصام، هكذا هي الرواية عن أنسب وغيره. وذكر الطبري أن هذه الآية هي بسبب نازلة طعمة بن أبيرق، وقيام من قام في أمره بغير القسط.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ﴾
 تَهَيَّيْنِ، واتباع الهوى مُرَدُّ مَهْلِكٌ.
 وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقْدُلُوا﴾ يُحْتَمَلُ
 أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: مخافة أَنْ تَقْدُلُوا،
 وَيَكُونَ الْعَدْلُ هُنَا بِمَعْنَى: العدول
 عَنِ الْحَقِّ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ:
 محبة أَنْ تَقْدُلُوا، وَيَكُونَ الْعَدْلُ
 بِمَعْنَى: الْقِسْطُ، كَأَنَّهُ قَالَ: انتهوا
 خَوْفَ أَنْ تَجْرُرُوا، أَوْ: محبة أَنْ
 تَقْسُطُوا، فَإِنْ جَعَلْتَ الْعَامِلَ:

﴿تَتَّبِعُوا﴾ فيحتمل أن يكون المعنى: محبة أن تجوروا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْوُوا أَوْ تُرَضُّوا﴾ قال ابن عباس: هو في الخصمين يجلسان بين يدي القاضي، فيكون لئى القاضي وإعراضه لأحدهما على الآخر، فاللوي - على هذا -: مطل الكلام وجزه حتى يفوت فصل القضاء وإنفاذه للذي يميل القاضي عليه، وقد شاهدت بعض القضاة يفعلون ذلك، والله حبيب الكل. وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، وغيرهم: هي في الشاهد، يلوي الشهادة بلسانه ويحرفها، فلا يقول الحق فيها، أو يعرض عن أداء الحق فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولفظ الآية يعم القضاء والشهادة والتوسط بين الناس، وكل إنسان مأخوذ بأن يعدل، والخصوم مطلوبون بعدل ما في القضاء فتأمل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَلَوُّوا﴾ بواوين، من: لوى يلوي على حسب ما فسرناه، وقرأ حمزة، وابن عامر، وجماعة في الشاذ: ﴿وَلَا تَلَوُّوا﴾ بضم اللام وواو واحدة، وذلك يحتمل أن يكون أصله: (تَلَوُّوا) على القراءة الأولى، مُهِزَّتِ الواو المضمومة كما همزت في (أَدَوُّوا)، وألقيت حركتها على اللام التي هي فاء (لوى)، ثم حذفت لاجتماع ساكنين. ويحتمل أن تكون [تَلَوُّوا] من قولك: ولي الرجل الأمر، فيكون في الطرف الآخر من ﴿تُرَضُّوا﴾، كأنه قال تعالى للشهود

وغيرهم: وإن وليتم الأمر أو أعرضتم عنه فالله تعالى خبير بفعلكم ومقصدكم فيه، فالولاية والإعراض طرفان، واللوي والإعراض في طريق واحد، وباقي الآية وعيد.

﴿١٣٦﴾ تفسير قوله تعالى:

اختلف الناس فيمن خوطب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ - فقالت فرقة: الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى من أهل الكتابين، أي: يا مَنْ قد آمن بنبي من الأنبياء آمين بمحمد عليه الصلاة والسلام، ورجح الطبري هذا القول. وقيل: الخطاب للمؤمنين على معنى: ليكن إيمانكم هكذا على الكمال والتوفية بالله تعالى، وبمحمد عليه الصلاة والسلام، وبالقرآن وسائر الكتب المنزلة، ومضمن هذا الأمر الثبوت والدوام. وقيل: الخطاب للمنافقين، أي: يا أيها الذين أظهرُوا الإيمان بألسنتهم، لكن إيمانكم حقيقة على هذه الصورة.

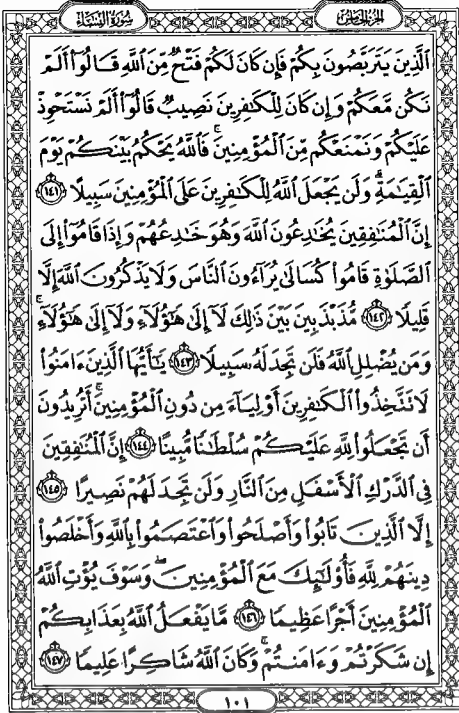
وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر: ﴿تُرْزَلُ﴾ بضم النون وكسر الزاي المشددة على ما لم يُسَمَّ فاعله، وكذلك قرؤوا: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ بضم الهمزة وكسر الزاي على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقرأ الباقون: ﴿نَزَّلَ﴾ و ﴿أَنْزَلَ﴾ بفتح النون والزاي ويفتح الهمزة في [أَنْزَلَ] على إسناد الفعل إلى الله تعالى، وروي عن عاصم مثل قراءة أبي عمرو. والكتاب المذكور أولاً هو القرآن، والمذكور ثانياً هو اسم جنس لكل ما نزل من الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ﴾ إلى

آخر الآية وعيد وخبر مُضمنة تحذير المؤمنين من حالة الكفر.

واختلف المتأولون في المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ - فقالت طائفة منهم قتادة وأبو العالية: الآية في اليهود والنصارى، آمنت اليهود بموسى والتوراة ثم كفروا، وآمنت النصارى بعيسى والإنجيل ثم كفروا، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ، ورجح الطبري هذا القول، وقال الحسن بن أبي الحسن: الآية في الطائفة من أهل الكتاب التي قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَّهَ النَّهَارَ وَآكُفُّوا أَعْيُنَكُمْ﴾، وقال مجاهد، وابن زيد: الآية في المنافقين، فإن منهم من كان يؤمن ثم يكفر، ثم يؤمن ثم يكفر، يتردد في ذلك، فنزلت هذه الآية فيمن ازداد كفراً بأن تَمَّ على نفاقه حتى مات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو القول المترجح، وقول الحسن بن أبي الحسن جيد محتمل، وقول قتادة وأبي العالية وهو الذي رجح الطبري قول ضعيف، تدفعه ألفاظ الآية. وذلك أن الآية إنما هي في طائفة يتصف كل واحد منها بهذه الصفة من التردد بين الكفر والإيمان، ثم يزداد كفراً بالموافاة، واليهود والنصارى لم يترتب في واحد منهم إلا إيمان واحد وكفر واحد، وإنما يُتَخَيَّلُ فيهم الإيمان والكفر مع تلفيق الطوائف التي لم تتلاحق في زمان واحد، وليس هذا مقصد الآية. وإنما توجد هذه الصفة في شخص من المنافقين، لأن الرجل الواحد



المؤمنين، وجعل العاقبة للمتقين. والعزة أصلها: الشدة والقوة، ومنه: الأرض السَّزَّازُ، أي: الصلبة، ومنه: عَزَنِي، أي: غلبني بشدته، واستعَزَّ المرض إذا قوي، إلى غير هذا من تصاريف اللفظة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ مخاطبة لجميع من أظهر الإيمان من محقق ومُناق، لأنه إذا أظهر الإيمان فقد لزمه أن يحتث لأوامر كتاب الله تعالى، والإشارة بهذه الآية إلى قوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي مَائِنَا فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ إلى نحو هذا من الآيات.

وقرأ جمهور الناس: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بضم النون وكسر الزاي المشددة، قال الطبري: وقرأ بعض الكوفيين: ﴿نَزَّلَ﴾ بفتح النون والزاي المشددة، على معنى: نزل الله، وقرأ أبو حنيفة، وحَمِيد: ﴿نَزَّلَ﴾ بفتح النون والزاي خفيفة، وقرأ إبراهيم النخعي: ﴿أَنْزَلَ﴾ بآلف على بناء الفعل للمفعول، والكتاب - في هذا الموضع -: القرآن.

وفي هذه الآية دليل قوي على وجوب تجنب أهل البدع وأهل المعاصي، وألا يُجَالَسُوا، وقد روي عن عمر بن عبدالعزيز أنه أخذ قوماً يشربون الخمر، فقبل له عن أحد الحاضرين: «إِنَّه صائم» فحمل عليه

منهم يؤمن ثم يكفر، ثم يوافي على الكفر، وتأمل قوله تعالى: ﴿لَنْ يَكُنِيَ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَكُمْ﴾ فإنها عبارة تقتضي أن هؤلاء محتوم عليهم من أول أمرهم، ولذلك ترددوا، وليست هذه العبارة مثل أن يقول: «لا يغفر الله لهم»، بل هي أشد. وهي مشيرة إلى استدراج مَنْ هذه حاله وإهلاكه، وهي عبارة تقتضي لسامعه أن يتنبه ويراجع قبل نفوذ الحتم عليه، وأن يكون من هؤلاء، وكل من كفر كفراً واحداً ووافى عليه فقد قال الله تعالى: «إِنَّه لا يغفر له»، ولم يقل: «لم يكن الله ليغفر له»، فتأمل الفرق بين العبارتين فإنه من دقيق غرائب الفصاحة التي في كتاب الله تعالى، كأن قوله: ﴿لَنْ يَكُنِيَ اللَّهُ﴾ حُكْمٌ قد تقرر عليهم في الدنيا وهم أحياء.

١٣٨ - ١٣٩ تفسير قوله تعالى:

في هذه الآية دليل ما على أن التي قبلها إنما هي في المنافقين كما ترجع أنفأ، وجاءت البشارة هنا مصرحاً بقيدها، فلذلك حسن استعمالها في المكروه، ومتى جاءت مُطْلَقَةً فإنما عرفها في المحبوب.

ثم نصَّ تعالى من صفة المنافقين على أشدها ضرراً على المؤمنين، وهي موالاتهم الكفار وإطراحهم المؤمنين، ونبه على فساد ذلك ليدعه من عسى أن يقع في نوع منه من المؤمنين غفلة أو جهالة أو مسامحة.

ثم وقف تعالى على جهة التوبيخ على مقصدهم في ذلك أهو طلب العزة والاستكثار بهم؟ أي: ليس الأمر كذلك، بل العزة كلها لله، يؤتيها من يشاء، وقد وعد بها

الأدب، وقرأ هذه الآية: ﴿لَنْ يَكُنِيَ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَكُمْ﴾، وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات، ولكنه إلزام شبه بالمعنى كقول الشاعر:

عَنِ الْغَزْوِ لَا تَسْأَلُ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمَقَارَنِ يَقْتَدِي
ثم توعد تعالى المنافقين والكافرين بجمعهم في جهنم، فتأكد بذلك التهيؤ والحذر من مجالستهم وخلطتهم.

١٤٠ - ١٤١ تفسير قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ﴾ صفة للمنافقين، و﴿يَرَبُّونَ﴾ معناه: ينتظرون دور الدوائر عليكم، فإن كان فتح للمؤمنين ادعوا فيه النصيب بحكم ما يظهرونه من الإيمان، وإن كان للكافرين نيل من المؤمنين ادعوا فيه النصيب بحكم ما يبطنون من موالات الكفار، وهذا حال المنافقين.

و ﴿تَسْتَوِدُّ﴾ معناه: تغلب على أمركم، ونحو طمكم ونحني أمركم، ومنه قول العجاج في صفة نور وبقر:

يَحُودُّهُمْ وَلَهُ حُودِي

أي يغلبهن على أمرهن، ويغلب الثيران عليهن، ويروى: «يحوزهن» بالزاي. ومن اللفظة قول لبيد في صفة غير وأثن:

إِذَا اجْتَمَعَتْ وَأُخُوذَ جَانِبَيْهَا

وَأُزْدَقَا عَلَى عُوجِ طِوَالِ
أَحْوَذِ جَانِبَيْهَا: قهرها وغلب عليها. وقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَوِدُّ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ معناه: غلب عليهم، وشذ هذا الفعل في أن لم تَعْلَ واوه، بل استعملت على الأصل.

وقرأ أبي بن كعب: ﴿وَمَتَّعْنَاكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقرأ ابن أبي عتبة: ﴿وَنَمَتَّعَكُمْ﴾ بفتح العين على الصرف.

ثم سأل وأنس المؤمنين بما وعدهم به في قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ يَتَخَمَّ يَتَخَمَّ يَوْمَ الْيَقِينَةِ﴾ أي: وبينهم، وينصفكم من جميعهم، ولقوله: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. وقال يُسَيِّعُ الْحَضْرَمِي: كنت عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، أرايت قول الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ كيف ذلك وهم يقاتلوننا ويظهرون علينا أحياناً؟ فقال علي رضي الله عنه: معنى ذلك: يوم القيامة يكون الحكم، وبهذا قال جميع أهل التأويل.

والسبيل: الحجة والغلبة، ومخادعة

المنافقين هي لأولياء الله تعالى، إذ يظنونهم غير أولياء، ففي الكلام حذف المضاف، والزام ذنب اقتضته أفعالهم وإن كانت ثباتهم لم تقتضه، لأنه لا يقصد أحد من البشر مخادعة الله تعالى.

وقوله: ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أي: منزل الخداع بهم، وهذه عبارة عن عقوبة سألها باسم الذنب، فعقوبتهم في الدنيا ذلهم وخوفهم وغم قلوبهم، وفي الآخرة عذاب جهنم، وقال السدي، وابن جريج، والحسن، وغيرهم من المفسرين: إن هذا الخدع هو أن الله تعالى يعطي لهذه الأمة يوم القيامة نوراً لكل إنسان مؤمن أو منافق، فيفرح المنافقون، ويظنون أنهم قد نجوا، فإذا جاءوا إلى الصراط طفئة نور كل منافق، ونهض المؤمنون بذلك، فذلك قول المنافقين: ﴿أَنظُرُونَا نَقْشِ مِنْ نُورِكُمْ﴾، وذلك هو الخدع الذي يجري على المنافقين. وقرأ مسلمة بن عبد الله النحوي: ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ بإسكان العين، وذلك على التخفيف.

ثم ذكر تعالى كسلهم في القيام إلى الصلاة، وتلك حال كل من يعمل العمل كارهاً غير معتقد فيه الصواب تقية أو مصانعة، وقرأ ابن هرمز الأعرج: ﴿كَسَالِي﴾ بفتح الكاف، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَزَوُّونَ﴾ بهمز مضمومة مشددة بين الراء والواو دون ألف، وهي تعدية (رأى) بالتضعيف، وهي أقوى في المعنى من [يَزَاوُونَ] لأن معناها: يحملون الناس على أن يَزَوْهُمْ، ويتظاهرون لهم بالصلاة

وهم يظنون النفاق. وتقليله ذكرهم يحتمل وجهين، قال الحسن: قل لأنه كان لغير الله، فهذا وجه، والثاني أنه قليل بالنسبة إلى خوضهم في الباطل وقولهم الزور والكفر.

و ﴿مُذَبِّبِينَ﴾ معناه: مضطربين لا يشبتون على حال، والتذبذب: الاضطراب بخجل أو خوف أو إسراع في مشي أو نحوه، ومنه قول النابغة:

تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ
ومنه قول الآخر:

خِيَالٌ لَأَمْ السُّلُسَبِيلِ وَدُونَهَا
مَسِيرَةٌ شَهْرٌ لِلْبُرِيدِ الْمُتَذَبَذَبِ
بكسر الذال الثانية، قال أبو الفتح: أي: المهتز، القلق، الذي لا يثبت ولا يتمهل، فهؤلاء المنافقون مترددون بين الكفر والمؤمنين ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هَؤُلَاءُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هَؤُلَاءُ﴾. كما قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين»، فالإشارة بذلك إلى حالي الكفر والإيمان، وأشار إليه وإن لم يتقدم ذكر لظهور تضمن الكلام له، كما جاء: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَّتَ بِالنَّجَابِ﴾ و ﴿كُلٌّ مِّنْ عَنِيَّا قَانٍ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مُذَبِّبِينَ﴾ بفتح الذال الأولى والثانية، وقرأ ابن عباس، وعمرو بن فائد: ﴿مُذَبِّبِينَ﴾ بكسر الذال الثانية، وقرأ أبي بن كعب: ﴿مُتَذَبِّبِينَ﴾ بالتاء وكسر الذال الثانية، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿مُذَبِّبِينَ﴾ بفتح الميم والذالين. وهي قراءة مردودة.

وقوله تعالى: ﴿قَلْبٌ يَّحْدِلُ سَبِيلًا﴾ معناه: سبيل هدى ولا رشاد.

﴿١٤٤﴾ - ﴿١٤٥﴾ تفسير قوله تعالى:

خطابه تعالى للمؤمنين يدخل فيه بحكم الظاهر المنافقون المظهرون للإيمان. ففي اللفظ رفق بهم، وهم المراد بقوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا بِإِذْنِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ سُكُنتَانِ تَيْنِ﴾، لأن التوقيف إنما هو لمن أَلَمَّ بشيء من الفعل المؤدي إلى هذه الحال. والمؤمنون المخلصون ما أَلَمُوا قط بشيء من ذلك، ويقوي هذا المنزع قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤَيِّنُ﴾، أي: والمؤمنون العارفون المخلصون غيب عن هذه الموالاة، وهذا لا يقال للمؤمنين المخلصين، بل المعنى: يأيها الذين أظهروا الإيمان، والتزموا لوازمه.

والسلطان: الحجة، وهي لفظة تؤنث وتذكر، والتذكير أشهر، وهي لغة القرآن حيث وقع، والسلطان إذا سُمي به صاحب الأمر فهو على حذف مضاف والتقدير: ذو السلطان، أي: ذو الحجة على الناس، إذ هو مدبرهم والنظر في منافعهم.

ثم أخبر تعالى عن المنافقين أنهم في الدرك الأسفل من نار جهنم، وهي أدراك بعضها فوق بعض سبعة، طبقة على طبقة، أعلاها هي جهنم، وقد يسمى جميعها باسم الطبقة العليا، فالمنافقون الذين يظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر هم في أسفل طبقة من النار، لأنهم أسوأ غوائل من الكفار، وأشد تمكناً من أذى المسلمين.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿فِي الدَّرَكِ﴾ مفتوحة الراء، وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثاب: ﴿فِي الدَّرَكِ﴾ بسكون الراء، واختلف عن عاصم،

فروى عنه الفتح والسكون، وهما لغتان، قال أبو علي: كالشَّمْع والشُّع، ونحوه. وروى عن أبي هريرة، وعن عبدالله بن مسعود، وغيرهما أنهم قالوا: المنافقون في الدرك الأسفل من النار في توابيت من النار تقفل عليهم، والنصير: بناء مبالغة من النصر.

ثم استثنى عز وجل الثانيين من المنافقين، ومن شروط التائب أن يصلح في قوله وفعله، ويعتصم بالله، أي: يجعله منتهى وملجأ، ويخلص دينه لله تعالى،

وإلا فليس بتائب، وقال حذيفة بن اليمان بحضرة عبدالله بن مسعود: «والله ليدخلن الجنة قوم كانوا منافقين»، فقال عبدالله بن مسعود: «وما علمك بذلك؟» فغضب حذيفة وتنحى، فلما تفرقوا مَرَّ به علقمة فدعاه وقال: أما إن صاحبكم يعلم الذي قلت، ثم تلا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَمَرُوا﴾ الآية، وأخبر الله تعالى أنهم مع المؤمنين في رحمة الله، وفي منازل الجنة، ثم وعد المؤمنين الأجر العظيم.

وحذفت الباء من [يُؤَيِّنُ] في المصحف تخفيفاً، قال الزجاج: لسكونها وسكون اللام في ﴿أَنَّهُ﴾، كما حذفت من قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّارُ﴾، وكذلك: ﴿سَنَعُ الزَّيْبَةَ﴾، وأمثال هذا كثير، والأجر العظيم: التخليد في الجنة.

﴿١٤٤﴾ لَيُحِبُّ اللَّهُ الْجَهَنَّمَ بِسُوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴿١٤٥﴾ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ خُفِّفُوا أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٦﴾ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكَفِّرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٤٧﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٤٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا ﴿١٤٩﴾ يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَهُمْ ذَلِكَ فَقَالُوا إِنَّ اللَّهَ جَهْرًا فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمَتِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا آلَ الْعِجْلِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلَيْسَتْ فَعَفُوًّا نَاعَنَ ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٠﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥١﴾

١٠٢

ثم قال تعالى للمنافقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ هُمْ يَحْكُمُونَ بَيْنَكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا عَلِيمًا﴾، أي: أي منفعة له في ذلك أو حاجة؟ والشكر على الحقيقة لا يكون إلا مقترناً بالإيمان، لكنه ذكر الإيمان تأكيداً وتنبيهاً على جلالة موقعه، ثم وعد الله تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَاحِجًا عَلِيمًا﴾ أي: يتقبل أقل شيء من العمل ويُعْجِبُهُ، فذلك شكر منه لعباده، والشكور من البهائم الذي يأكل قليلاً ويظهر به بدنه، والعرب تقول في مثل: «أشكر من بَرَوْقَةٍ»، لأنها - يقال - تُخْصِرُ وتنْصُرُ بظل السحاب دون مطر، وفي قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ تحذير وندب إلى الإخلاص.

﴿١٤٨﴾ - ﴿١٤٩﴾ تفسير قوله تعالى:

المحبة في الشاهد إرادة يقترب بها استحسان وميل واعتقاد، فتكون

الأفعال الظاهرة من المحب بحسب ذلك، والجهر بالسوء من القول لا يكون من الله تعالى فيه شيء من ذلك، أما إنه يريد وقوع الواقع منه ولا يحبه هو في نفسه.

والجهر: كشف الشيء، ومنه الجَهْرَةُ في قول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً﴾، ومنه قولهم: «جهرت البئر» إذا حفرت حتى أخرجت ماءها. واختلفت القراءة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾، وقراءة جمهور الناس بضم الظاء وكسر اللام، وقرأ ابن أبي إسحق، وزيد بن أسلم، والضحاك بن مزاحم، وابن عباس، وابن جبير، وعطاء بن السائب، وعبد الأعلى بن عبد الله بن مسلم بن يسار، ومسلم بن يسار، وغيرهم: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ بفتح الظاء واللام، واختلف المتأولون على القراءة بضم الظاء - فقالت فرقة: المعنى: لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول إلا من ظلم فلا يكره له الجهر به، ثم اختلفت هذه الفرقة في كيفية الجهر بالسوء، وما هو المباح من ذلك؟ - فقال الحسن: هو الرجل يظلم الرجل، فلا يدع عليه، ولكن ليقول: اللهم أعني عليه، اللهم استخرج لي حقي، اللهم خل بيني وبين ما يريد من ظلمي، وقال ابن عباس وغيره: المباح لمن ظلم أن يدعو على من ظلمه، وإن صبر فهو أحسن له، وقال مجاهد وغيره: هو في الضيف المحول رحله، فإنه يجهر للذي لم يكرمه بالسوء من القول،

فقد رخص له أن يقول فيه، وفي هذا نزلت الآية، ومقتضاها ذكر الظلم وتبيين الظلّامة في ضيافة وغيرها، وقال ابن عباس، والسدي: لا بأس لمن ظلم أن ينتصر ممن ظلمه بمثل ظلمه، ويجهر له بالسوء من القول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه الأقوال على أربع مراتب:

قول الحسن - دعاء في المدافعة، وتلك أقل منازل السوء من القول.

وقول ابن عباس - الدعاء على الظالم بإطلاق في نوع الدعاء.

وقول مجاهد - ذكر الظلّامة والظلم.

وقول السدي - الانتصار بما يوازي الظلّامة.

وقال ابن المستنير: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ معناه: إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول كفراً أو نحوه، فذلك مباح، والآية في الإكراه.

واختلف المتأولون على القراءة بفتح الظاء واللام - فقال ابن زيد: المعنى: إلا من ظلم في قول أو فعل فاجهروا له بالسوء من القول في معنى النهي عن فعله والتوبيخ والرد عليه، قال: وذلك أنه لما أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم في الدرك الأسفل من النار، كان ذلك جهراً بالسوء من القول، ثم قال لهم بعد ذلك: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِمَذْذِئِكُمْ﴾ الآية، على معنى التأنيس والاستدعاء إلى الشكر والإيمان، ثم

قال للمؤمنين: لا يحب الله أن يجهر بالسوء من القول إلا لمن ظلم في إقامته على النفاق، فإنه يقال له: أَلَسْتَ المنافق الكافر الذي لك في الآخرة الدرك الأسفل؟ ونحو هذا من الأقوال. وقال قوم: معنى الكلام: لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول، ثم استثنى استثناءً منقطعاً، تقديره: لكن من ظلم فهو يجهر بالسوء وهو ظالم في ذلك.

وإعراب ﴿مَنْ﴾ يحتمل في بعض هذه التأويلات النصب، ويحتمل الرفع على البدل من (أحد) المقدر، وسميع عليم: صفتان لاقتان بالجهر بالسوء وبالظلم أيضاً، فإنه يعلمه ويجازى عليه.

ولما ذكر تعالى عذر المظلوم في أن يجهر بالسوء لظالمه أتبع ذلك عرض إبداء الخير وإخفائه، والعفو عن السوء، وعَدَّ عليه بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ وعَدَّ إخفاءه تقتضيه البلاغة، ورغب في العفو إذ ذكر أنها صفته مع القدرة على الانتقام، ففي هذه الألفاظ اليسيرة معان كثيرة لمن تأملها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ إلى آخر الآية نزل في اليهود والنصارى، لأنهم في كفرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام كأنهم قد كفروا بجميع الرسل، وكفروهم بالرسل كفر بالله، وفرقوا بين الله ورسله في أنهم قالوا: نحن نؤمن بالله ولا نؤمن بفلان وفلان من الأنبياء، وقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضِ

وَنَكْفُرُ بِتَعْنٍ قِيلَ: معناه: من الأنبياء، وقيل: هو تصديق بعضهم لمحمد في أنه نبي، لكن ليس إلى بني إسرائيل، ونحو هذا من تفرقاتهم التي كانت تعتأ وروغاناً، وقوله: ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: بين الإيمان والإسلام والكفر الصريح المجلح، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم الكافرون حقاً، لثلا يظن أحد أن ذلك القدر الذي عندهم من الإيمان ينفعهم. وباقي الآية وعيد.

﴿١٥٢﴾ - ﴿١٥٣﴾ تفسير قوله تعالى:

لما ذكر الله تعالى أن المغرقين بين الرسل هم الكافرون حقاً، عقب ذلك بذكر المؤمنين بالله ورسله جميعاً، وهم المؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام، ليصرح بوعده هؤلاء كما صرح بوعده أولئك، فبين الفرق بين المنزلتين، وقرأ بعض السبعة: ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾ بالباء، أي: يؤتيهم الله، وقرأ الأكثر: ﴿سَوْفَ تُؤْتِيهِمْ﴾ بالنون، منهم ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو.

واختلف المتأولون في كيفية سؤال أهل الكتاب لمحمد عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليهم كتاباً من السماء - فقال السدي: قالت اليهود: يا محمد، إن كنت صادقاً فجيء بكتاب من السماء كما جاء موسى بكتاب، وقال محمد بن كعب القرظي: قد جاء موسى بالوحي فيها الشوارة فجيء أنت بالوحي فيها كتابك، وقال قتادة: بل سألوهم أن يأتي بكتاب خاص لليهود، يأمرهم فيه بالإيمان بمحمد، وقال ابن

جريج: قالت اليهود: يا محمد: لن نتابعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان وإلى فلان أنك رسول الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقول ابن جريج يقتضي أن سؤالهم كان على نحو سؤال عبدالله بن أبي أمية المخزومي القرشي.

ثم قال تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ على جهة التسلية لمحمد عليه الصلاة والسلام، وعرض الأسوة، وفي الكلام متروك يدل عليه المذكور، تقديره: فلا نبال يا محمد عن سؤالهم وتشططهم فإنها عادتهم، فقد سألو موسى أكبر من ذلك. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَكْبَرَ﴾ بالباء المنقوطة بواحدة، وقرأ الحسن: ﴿أَكْثَرَ﴾ بالثاء المثناة. وجمهور المتأولين على أن ﴿جَهَنَّمَ﴾ معمول لـ ﴿أَرْنَا﴾ أي: حتى نراه جهاراً، أي: عياناً رؤياً منكشفة بيئة، وروي عن ابن عباس أنه كان يرى أن ﴿جَهَنَّمَ﴾ معمول لـ ﴿قَالُوا﴾، أي: قالوا جهنم منهم وتصريحاً: ﴿أَرْنَا اللَّهَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأهل السنة معتقدون أن هؤلاء لم يسألوا محالاً عقلاً، لكنه محال من جهة الشرع، إذ قد أخبر الله تعالى على ألسنة أنبيائه أنه لا يرى في هذه الحياة الدنيا، والرؤية في الآخرة ثابتة عن النبي صلوات الله وسلامه عليه بالخبر المتواتر، وهي جائزة عقلاً دون تحديد ولا تكييف ولا تحييز، كما هو تعالى معلوم لا

كالمعلومات، كذلك هو مرئي لا كالمرئيات، هذه حجة أهل السنة وقولهم، ولقد حدثني أبي رضي الله عنه، عن أبي عبدالله النحوي أنه كان يقول عند تدريس هذه المسألة: مثال العلم بالله خَلَقَ لِحَى المعتزلة في إنكارهم الرؤية، والجملة التي قالت: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ هي التي مضت مع موسى لحضور المناجاة، وقد تقدم قصصها في سورة البقرة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّاعِقَةَ﴾ وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي، وإبراهيم النخعي: ﴿الصَّعْقَةَ﴾، والمعنى يتقارب، إذ ذلك كله عبارة عن الوقع الشديد من الصوت يصيب الإنسان بشدته وهوله خمود وركود حواس، وظلمهم هو تَعَثَّتْهُمْ وسؤالهم ما ليس لهم أن يسألوه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ تَرْتِيبَ فِي الْإِخْبَارِ لَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، التقدير: ثم قد كان من أمرهم أن اتخذوا العجل، وذلك أن اتخاذ العجل كان عند أمر المضي للمناجاة، فلم يكن الذين صُعِقُوا ممن اتخذوا العجل، لكن الذين اتخذوه كانوا قد جاءتهم البينات في أمر إجازة البحر، وأمر العصا، وغرق فرعون، وغيره ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَعَقَوْا عَنْ ذَلِكَ﴾ يعني بما امتحنهم به من القتل لأنفسهم، ثم وقع العفو عن الباقي منهم، والسلطان: الحجة.

يدخلوا باب المدينة
سجداً، وهو نوع من
سجدة الشكر التي قد
فعلها كثير من العلماء،
ورويت عن النبي ﷺ،
وإن كان مالك بن أنس
رحمه الله لا يراها.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ
لَا تَقْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي:
على الحيتان وفي سائر
الأعمال، وهؤلاء كانوا
بأئيلة من ساحل البحر،
فأمروا بالسكون عن كل
شغل في يوم السبت فلم
يفعلوا، بل اصطادوا
وتصرفوا، وقد تقدم
قصص ذلك، وأخذ الله

تعالى منهم الميثاق الغليظ هو على
لسان موسى وهارون وغيرهما من
الأنبياء، أي: بأنهم يأخذون التوراة
بقوة ويعملون بجميع ما فيها،
ويوصلونه إلى أبنائهم، ويؤدون
الأمانة فيه.

وقوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمُ﴾ الآية،
إخبار عن أشياء واقعوها هي في
الضد مما أمروا به، وذلك أن
الميثاق الذي رفع الطور من أجله
نقضوه، والإيمان الذي تضمنه
﴿ادْخُلُوا الْبَابَ مُخْلِجِينَ﴾، إذ ذلك
التواضع إنما هو ثمرة الإيمان
والإخبات جعلوا بدله كفرهم
بآيات الله، وقولهم: «حبة في شعرة
وحنطة في شعيرة»، ونحو ذلك مما
هو استخفاف بأمر الله وكفر به،
وكذلك أمروا بالاعتدوا في السبت،
وفي ضمن ذلك الطاعة وسماع

الأمر، فجعلوا بدل ذلك الانتهاء إلى
انتهاك أعظم حرمة، وهي قتل
الأنبياء، وكذلك أخذ الميثاق الغليظ
منهم تضمن فهمهم بقدر ما التزموه،
فجعلوا بدل ذلك تجاهلهم.
وقولهم: ﴿قُلُونَا غُلُظٌ﴾ أي: هي في
حجب وغلب، فهي لا تفهم،
وأخبر الله تعالى أن ذلك كله عن
طبع منه على قلوبهم، وأنهم كذبة
فيما يدعون من قلة الفهم.

وقرأ نافع: ﴿تَعْتَدُوا﴾ بسكون العين
وشد الدال المضمومة، وروى عنه
ورش: ﴿تَعْتَدُوا﴾ بفتح العين وشد
الدال المضمومة، وقرأ الباقون: ﴿لَا
تَقْدُوا﴾ ساكنة العين خفيفة الدال
مضمومة، وقرأ الأعمش، والحسن:
﴿لَا تَعْتَدُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فِيمَا﴾، (ما) زائدة
مؤكدة، التقدير: فنقضهم، وحذف
جواب هذا الكلام بليغ متروك مع
ذهن السامع، تقديره: لعناهم
وأذللناهم، وحثنا على الموافين
منهم الخلود في جهنم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَكْفُرِهِمْ﴾ أي:
في أمر عيسى عليه السلام، ﴿وَقَوْلِهِمْ
عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ يعني رميهم
إيائها بالزنى مع رؤيتهم الآية في كلام
عيسى في المهد، وإلا قلولاً الآية
لكانوا في قولهم جارين على حكم
البشر في إنكار حمل من غير ذكر.
والبهتان: مصدر، من قولك: بهتته
إذا قابله بأمرٍ مُبْهت يحار معه
الذهن، وهو رمي بباطل.

(١٥٧) - (١٥٨) تفسير قوله تعالى:

هذه الآية والتي قبلها عدد الله
تعالى فيها أقوال بني إسرائيل

فِيمَا نَقَضَهُمْ يَنْقُضُهُمْ وَكَفَرَهُمْ بَيَّانَتْ اللَّهُ وَقِيلَهُمْ لَا أَنْبِيَاءَ
يَعْبُدُونَ وَقَوْلُهُمْ قُلُونَا غُلُظٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ
بُهْتَنًا عَظِيمًا وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا النَّاسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
أَخْلَفُوا بِهٖ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظُّلُمِ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
وَإِنَّ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ وَبِئْسَ
الْفِتْنَةُ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا فَيُظْهِرُ مَنِ الذِّبِّ هَادُوا
حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
كَثِيرًا وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هَوَّاهُ عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ آمَالُ النَّاسِ
بِالْبَطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا لَنَكُونَ
الْأَرْسَاقُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُتَّبِعِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا

(١٥٧) - (١٥٨) تفسير قوله تعالى:

﴿الظُّلُمُ﴾: الجبل اسم جنس، هذا
قول. وقيل: الطور: كل جبل غير
منبت، وبالشام جبل قد عرف
بالطور، ولزمه الاسم، وهو طور
سيناء، وليس بالمرفوع على بني
إسرائيل، لأن رفع الجبل كان فيما
يلي فحسب التيه من جهة ديار مصر،
وهم ناهضون مع موسى عليه
السلام، وقد تقدم في سورة البقرة
قصص رفع الطور. وقوله:
﴿يَسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: بسبب ميثاقهم أن
يعطوه في أخذ الكتاب بقوة، والعمل
بما فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا
الْبَابَ مُخْلِجِينَ﴾ هو باب بيت المقدس
المعروف بباب حطة، أمروا أن
يتواضعوا شكراً لله تعالى على الفتح
الذي منحهم في تلك البلاد، وأن

وأفعالهم على اختلاف الأزمان، وتعاقب القرون، فاجتمع من ذلك توبيخ خلفهم المعاصرين لمحمد ﷺ، وبيان الحجة في أن وجبت لهم اللعنة، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، فهذه الطائفة التي قالت: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾ غير الذين نقضوا الميثاق في الطور، وغير الذين اتخذوا العجل. وقول بني إسرائيل إنما هو إلى قوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾. وقوله عز وجل: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ إنما هو إخبار من الله تعالى بصفة لعيسى وهي الرسالة، على جهة إظهار ذنب هؤلاء المقربين بالقتل، ولزمهم الذنب وهم لم يقتلوا عيسى لأنهم صلبوا ذلك الشخص على أنه عيسى، وعلى أن عيسى كذاب ليس برسول، ولكن لزمهم الذنب من حيث اعتقدوا أن قتلهم وقع في عيسى فكأنهم قتلوه، وإذا كانوا قتلوه فليس يرفع الذنب عنهم اعتقادهم أنه غير رسول، كما أن قريشاً في تكذيبها رسول الله ﷺ لا ينفعهم فيه اعتقادهم أنه كذاب، بل جازاهم الله على حقيقة الأمر في نفسه، ثم أخبر تعالى أن بني إسرائيل ما قتلوا عيسى ولا صلبوه، ﴿وَلَكِنَّ شَيْئاً مُّثَمَّرًا﴾، واختلفت الرواة في هذه القصة وكيفيتها اختلافاً شديداً أنا أختصر عيونه، إذ ليس في جميعه شيء يقطع بصحته، لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ في شيء، وليس لنا متعلق في ترجيح شيء منه إلا ألفاظ كتاب الله. فالذي لا نشك فيه أن عيسى عليه السلام كان يسبح في الأرض، ويدعو إلى الله، وكانت بنو

إسرائيل تطلبه، وملكهم في ذلك الزمان يجعل عليه الجعائل، وكان عيسى عليه السلام قد انضوى إليه الحواريون يسرون معه حيث سار، فلما كان في بعض الأوقات شعر الملك بأمر عيسى عليه السلام، فروي أن أحد الحواريين أرشى عليه فقبل الرُشوة ودل على مكانه فأحيط به، ثم ندم ذلك الحواري وخنق نفسه، وزوي أن رجلاً من اليهود جعل له جُغل فما زال ينقر عليه حتى دل على مكانه، فلما أحس عيسى عليه السلام وأصحابه بتلاحق الطالبين بهم دخلوا بيتاً بمرأى من بني إسرائيل، فروي أنهم عدوهم ثلاثة عشر، وروي ثمانية عشر، وحُصروا ليلاً، فروي أن عيسى عليه السلام فرق الحواريين عن نفسه تلك الليلة، ووجههم إلى الآفاق، وبقي هو ورجل معه، فرفع عيسى وألقي شبهه على الرجل، فصلب ذلك الرجل، وروي أن الشبه أُلقي على اليهودي الذي دل عليه فصلب، وروي أن عيسى عليه السلام لما أحيط بهم قال لأصحابه: أيكم يلقي شبهي عليه فيقتل ويخلص هؤلاء وهو رفيقي في الجنة؟ فقال سرجس: أنا، وألقي عليه شبه عيسى، وروي أن شبه عيسى عليه السلام أُلقي على الجماعة كلها، فلما أخرجهم بنو إسرائيل نقص واحد من العدة، فأخذوا واحداً ممن أُلقي عليه الشبه حسب الروايات التي ذكرتها، فصلب ذلك الشخص، وروي أن الملك والمتنولين لم يخف عليهم أمر رفع عيسى عليه

السلام لما رأوا أمر نقصان العدد واختلاط الأمر، فصلب ذلك الشخص، وأبعد الناس عن خشبته أياماً حتى تغير ولم تثبت له صفة، وحينئذ دنا الناس منه، ومضى الحواريون يحدثون بالآفاق أن عيسى صلب، فهذا أيضاً يدل على أنه فرقه وهو في البيت، أو على أن الشبه أُلقي على الكل، وروي أن هذه القصة كلها لم يكن فيها إلقاء شبه شخص عيسى على أحد، وإنما المعنى: ولكن شبه لهم، أي: شبه عليهم الملك الممخور ليستديم ملكه، وذلك أنه لما نقص واحد من الجماعة وفقد عيسى عمد إلى أحدهم، وبطش بصلبه، وفرق الناس عنه وقال: هذا عيسى قد صلب وانحل أمره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يعني: اختلاف المحاولين لأخذه، لأنهم حين فقدوا واحداً من العدد، وتحدثت برفع عيسى اضطربوا واختلفوا. وعلى رواية من روى أنه أُلقي شبه يوشك أنه بقي في ذلك الشبه مواضع للاختلاف، لكن أجمعوا على صلب واحد على غير ثقة ولا يقين أيهم هو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فاليقين الذي صح فيه نقل الكافة عن حواسها هو أن شخصاً صلب، وأما هل هو عيسى أم لا؟ فليس هو من علم الحواس، فلذلك لم ينفع في ذلك نقل كافة اليهود والنصارى، ونفى الله عنهم أن يكون لهم في أمره علم على ما هو به.

ثم استثنى اتباع الظن، وهو استثناء

﴿١٦١﴾ - ﴿١٦٢﴾ تفسير قوله تعالى:

قوله تعالى: ﴿يُظَلِّرُ﴾ عطف على قوله: ﴿فَيَمَّا تَقَضَّيْتُمْ﴾، كأنه قال: فَيَنْقَضِ عَنْهُمْ لَعْنَاهُمْ وَأَوْجِبْنَا عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ. فَيُظَلِّمُ مِنْهُمْ حُرْمًا عَلَيْهِمُ الْمَطَاعِمَ. وجعل الله هذه العقوبة الدنيوية إزاء ظلم بني إسرائيل في تعنتهم وسائر أخلاقهم الذميمة. والطيبات هنا هي الشحوم وبعض الذبائح والطيور والحيات وغير ذلك، وقرأ ابن عباس: ﴿طَيِّبَاتٍ كَأَنَّهُ أَجْلَتْ لَهُنَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، يحتمل أن يريد صدهم ذاتهم، ويحتمل أن يريد صدهم غيرهم، وإلى هذا ذهب الطبري، وقال: هو جردهم أمر محمد ﷺ، فإنهم صدوا بذلك جمعا عظيما من الناس عن سبيل الله، ﴿وَأَنذَرُوهُمُ الزَّلَّاتِ﴾ هو الدرهم بدرهمين إلى أجل ونحو ذلك مما هو مفسدة، وقد نهوا عنه فشرعوه لأنفسهم واستمروا عليه، من ذلك، ومن كراه العين ونحوه. وأكل أموال الناس بالباطل: هو الرشا، ثم استثنى الله تعالى من بني إسرائيل الراسخين في علم التوراة الذين قد تحققوا أمر محمد عليه الصلاة والسلام وعلاماته، وهم: عبدالله بن سلام، ومخيريق، ومن جرى مجراهما، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على «الراسخين» وما أنزل إلى محمد عليه الصلاة والسلام: هو القرآن، والذي أنزل من قبله: هو التوراة والإنجيل.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾، وكيف خالف إعرابها

إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، اختلف المتأولون في معنى الآية - فقال ابن عباس، وأبو مالك، والحسن بن أبي الحسن، وغيرهم: الضمير في ﴿مَوْتِهِ﴾ راجع إلى عيسى، والمعنى: إنه لا يبقى من أهل الكتاب أحد إذا نزل عيسى إلى الأرض إلا يؤمن بعيسى كما يؤمن سائر البشر، وترجع الأديان كلها واحداً، وقال مجاهد، وابن عباس أيضاً، وغيرهما: الضمير في ﴿بِهِ﴾ لعيسى، وفي ﴿مَوْتِهِ﴾ للكتابي الذي تضمنه قوله: ﴿وَلَا يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، التقدير: وإن من أهل الكتاب أحد، قالوا: وليس يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى روح الله، ويعلم أنه نبي، ولكن عند المعاينة للموت، فهو إيمان لا ينفعه، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند المعاينة، وقال هذا القول عكرمة، والضحاك، والحسن بن أبي الحسن أيضاً، وقال عكرمة أيضاً: الضمير في ﴿بِهِ﴾ لمحمد عليه الصلاة والسلام، وفي ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ للكتابي، قال: وليس يخرج يهودي ولا نصراني من الدنيا حتى يؤمن بمحمد، ولو غرق أو سقط عليه جدار فإنه يؤمن في ذلك الوقت، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِمْ﴾ ففي هذه القراءة تقوية لعود الضمير على الكتابي، وقرأ الفياض بن غزوان: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بتشديد [إِن]، والضمير المستتر في [يكون] هو لعيسى عليه السلام في جُلْ الأقوال، ولمحمد عليه الصلاة والسلام في قول عكرمة.

متصل، إذ الظن والعلم يضمهما جنس أنهما من معتقدات النفس، وقد يقول الظان على طريق التجوز: علمي في هذا الأمر أنه كذا، وهو يعني ظنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾، اختلف المتأولون في عود الضمير من ﴿قَتَلُوهُ﴾ - فقالت فرقة: هو عائد على الظن، كما تقول: قتل هذا الأمر علماً، فالمعنى: وما صح ظنهم عندهم ولا تحقُّقهُ يقيناً، هذا قول ابن عباس، والسدي، وجماعة، وقال قوم: الضمير عائد على عيسى عليه السلام، أخبر أنهم لم يقتلوه يقيناً فيصح لهم الإصفاق، ويثبت نقل كافتهم. ومضمن الكلام أنهم ما قتلوه في الحقيقة جملة واحدة، لا يقيناً ولا شكاً، ولكن لما حصلت في ذلك الدعوى صار قتله عندهم مشكوكاً فيه، وقال قوم من أهل اللسان: الكلام تام في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾. و ﴿يَقِينًا﴾ مصدر مؤكد للنفي في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، المعنى: يخبركم يقيناً، أو يقص عليكم يقيناً، أو أيقنوا بذلك يقيناً.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا﴾ يعني: إلى سمائه وكرامته، وعيسى عليه السلام حي في السماء الثانية على ما تضمنته حديث الإسراء في ذكر ابن الخالة عيسى ويحيى، ذكره البخاري في حديث المعراج وذكره غيره، وهو هنالك مقيم حتى ينزله الله لقتل الدجال، وليملأ الأرض عدلاً، ويحيي فيها أربعين سنة، ثم يموت كما يموت البشر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، والمعنى: ويؤمنون بالمقيمين الصلاة وهم الملائكة، وقال بعضهم: بل من تقدم من الأنبياء، قالوا: ثم رجع بقوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ﴾، فعطف على قوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ﴾. وقال قوم: ﴿وَالْمُؤْتُونَ﴾ عطف على ﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾، والمراد بهم المؤمنون بمحمد، أي: يؤمن الراسخون بهم وبما هم عليه، ويكون قوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ﴾ أي: وهم المؤتون، وقال قوم: ﴿وَالْمُؤْتُونَ﴾ عطف على

إعراب ما تقدم وتأخر - فقال أبان بن عثمان بن عفان، وعائشة رضي الله عنها: ذلك من خطب كاتب المصحف، وروي أنها في مصحف أبي بن كعب: ﴿وَالْمُقِيمُونَ﴾، وقد روي أنها فيه ﴿وَالْمُؤْتِينَ﴾ كما هي في مصحف عثمان رضي الله عنه، قال الفراء: وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَالْمُقِيمُونَ﴾، وكذلك روى غصمة عن الأعمش، وكذلك قرأ سعيد بن جبير، وكذا قرأ عمرو بن عبيد الجحدري، وعيسى بن عمر، ومالك بن دينار، وكذلك روى يونس، وهارون عن أبي عمرو. وقال آخرون: ليس ذلك من خطب الكاتب، ولا خطأ في المصحف، وإنما هذا من قطع النعوت إذا كثرت على النصب بـ (أعني)، والرفع بعد ذلك بـ (هم)، وذهب إلى هذا المعنى بعض نحوي الكوفة والبصرة، وحكي عن سيويه: أنه قطع على المدح، وخبر ﴿لَكِنَّ﴾ ﴿بِؤْمُونٍ﴾، لأن المدح لا يكون إلا بعد تمام الجملة الأولى، وهذا كقول خرق بنت هفان:

لَا يَبْعُدُنْ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ
سُمُّ الْفُضَاءِ وَأَقْسُ الْجُزْرِ
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُغْتَرِكٍ
وَالطَّيِّبُونَ مَعَايِدَ الْأَزْرِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد فُرق بين البيت والآية بحرف العطف الذي في الآية، فإنه يمنع عند بعضهم تقدير الفعل، وفي هذا نظر.

وقال قوم: قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتِينَ﴾ ليس بعطف على قوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ﴾، ولكن على - ما - في

الضمير في ﴿فِيهِمْ﴾، وقال آخرون: بل على الكاف في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ ويعني الأنبياء، وقرأت فرقة: ﴿سَيُؤْتِيهِمْ﴾ بالنون، وقرأت فرقة: ﴿سَيُؤْتِيهِمْ﴾ بالياء.

﴿١٦٣﴾ - ﴿١٦٤﴾ تفسير قوله تعالى:

رُوي عن عبدالله بن عباس أن سبب هذه الآية أن سَكِينًا الحِبر، وعَدِيَّ بن زيد قالوا: يا محمد، ما نعلم أن الله أنزل على بشر شيئاً بعد موسى، ولا أوحى إليه، فنزلت هذه الآية تكذيباً لقولهما.

وقال محمد بن كعب القرظي: لما أنزل الله: ﴿يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى آخر الآيات، فتلث عليهم، وسمعوا الخبر بأعمالهم الخبيثة قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، ولا على موسى، ولا على عيسى،

﴿١٦٣﴾ ﴿١٦٤﴾ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ. وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَكَرِيَّا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِتَلَاذِبُوا كُنُوزَ الدُّنْيَا عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا لَطَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ تَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا أَخْبِرَاكُمْ وَإِنْ تَكَفَّرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

١٠٤

وجحدوا جميع ذلك، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيٍّ مِنْ مَوْءُودٍ﴾.

والوحي: الإلقاء المعنى في خفاء، وعرفه في الأنبياء بواسطة جبريل عليه السلام، وذلك هو المراد بقوله: ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا﴾ أي: بِمَلَكٍ ينزل من عند الله، ونوح: أول الرسل في الأرض إلى أمة كافرة، وصرف نوح مع العجمة والتعريف لخفته، وإبراهيم عليه السلام: هو الخليل، وإسماعيل عليه السلام: ابنه الأكبر، وهو الذبيح في قول المحققين، وهو أبو العرب، وإسحق: ابنه الأصغر، ويعقوب: هو ولد إسحق، وهو إسرائيل، والأسباط: بنو يعقوب، يوسف وإخوته، وعيسى: هو المسيح، وأيوب: هو المبتلى الصابر،

ويونس: هو ابن متى، وروى ابن جُمَاز عن نافع: «يونس» - بكسر النون - وقرأ ابن وثاب، والثخمي بفتحها، وهي كلها لغات، وهارون: هو ابن عمران، وسليمان: هو النبي الملك، وداود: أبوه. وقرأ جمهور الناس: «زبوراً» بفتح الزاي، وهو اسم كتاب داود تخصيصاً، وكل كتاب في اللغة فهو زبورٌ من حيث تقول: زَبُرْتُ الكتاب إذا كَتَبْتَهُ. وقرأ حمزةٌ وحده «زُيُورا» بضم الزاي، قال أبو علي: يحتمل أن يكون جمع: زُبُرٌ، أوقع على المزبور اسم الزبر كما قالوا: ضَرَبَ الأمير، ونَسَجَ اليمَن، وكما سُمِّي المكتوب كتاباً، ويحتمل أن يكون جمع زبور على حذف الزيادة، كما قالوا: ظريف وظروف، وكَرْوَان وكِرْوَان، وَوَرْشَان وِوَرْشَان، ونحو ذلك مما يجمع بحذف الزيادة، ويُقَوَّى هذا الوجه أن التكسير مثل التصغير، وقد اطرده هذا المعنى في تصغير الترخيم نحو: أزهر وزهير، وحارث وحرث، وثابت وتُبَيْت، فالجمع مثله في القياس وإن كان أقل منه في الاستعمال.

وقوله تعالى: «وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ» الآية. نصب «رُسُلًا» على المعنى، لأن المعنى: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ كما أَرْسَلْنَا نُوحًا، ويحتمل أن ينصب «رُسُلًا» بفعل مضمر، تقديره: أَرْسَلْنَا رُسُلًا، لأن الرد على اليهود إنما هو في إنكارهم إرسال الرسل والمراد الوحي، وفي حرف أبي بن كعب: «ورسل» في الموضعين بالرفع على تقدير: هم رسل، و

«قَصَصْنَاهُمْ» معناه: ذكرنا أسماءهم وأخبارهم، وقوله تعالى: «وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ» يقتضي كثرة الأنبياء دون تحديد بَعْدٍ، وقد قال تعالى: «وَلَنْ يَنْ أُمَّةً إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ»، وقال تعالى: «وَرُؤُوسًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا»، وما يذكر من عدد الأنبياء فغير صحيح، والله أعلم بعدتهم صلى الله عليهم.

وقوله تعالى: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا» إخبارٌ بخاصة موسى، وأن الله تعالى شرفه بكلامه، ثم أكَّد تعالى الفعل بالمصدر، وذلك مبني في الأغلب عن تحقيق الفعل ووقوعه، وأنه خارج عن وجوه المجاز والاستعارة، لا يجوز أن تقول العرب: امتلأ الحوض وقال قطني قولاً، فإنما تؤكد بالمصادر الحقائق، ومما شذ قول هند بنت النعمان بن بشير:

وَعَجَّتْ عَجِيجاً مِنْ جُدَامِ الْمَطَارِفِ
وكلام الله للنبي موسى عليه السلام دون تكييف ولا تحديد ولا تجويز حدوث ولا حروف ولا أصوات، والذي عليه الراسخون في العلم أن الكلام هو المعنى القائم في النفس، ويخلق الله لموسى أو جبريل إدراكاً من جهة السمع يتحصل به الكلام، كما أن الله تعالى موجود لا كالموجودات معلوم لا كالمعلومات، فكذلك كلامه لا كالكلام، وما روي عن كعب الأبحار، وعن محمد بن كعب القرظي ونحوهما من أن الذي سمع موسى كان كأشد ما يسمع من الصواعق، وفي رواية أخرى كالرعد

الساكن، فذلك كله غير مرضي عند الأصوليين.

وقرأ جمهور الأمة: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى» بالرفع في اسم الله، وقرأ يحيى بن وثاب، وإبراهيم الثخمي: «وَكَلَّمَ اللَّهُ» بالنصب على أن موسى هو المكلم، وهي قراءة ضعيفة من جهة الاشتهار، لكنها مخرجة من عدة تأويلات.

١٦٥ - ١٦٩ تفسير قوله تعالى: «رُسُلًا» بدلاً من الأول قبل: و «مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ» حالان، أي: يبشرون بالجنة من آمن وأطاع، وينذرون بالنار من كفر وعصى، وأراد الله تعالى أن يقطع بالرسول احتجاج من يقول: لو بُعث إلي لآمنت، والله تعالى عزيز، لا يغالبه شيء، ولا حجة لأحد عليه، وهو - مع ذلك - حكيم، تصدر أفعاله عن حكمه، فلذلك قطع الحجة، فالرسل حكمة منه تعالى.

وقوله تعالى: «لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ» الآية: سببها قول اليهود: «مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ»، وقال بعضهم لمحمد عليه الصلاة والسلام: ما نعلم يا محمد أن الله أرسل إليك ولا أنزل عليك شيئاً. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والجراح الحكمي: «لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ» بِشَدَّ النون ونصب المكتوبة على اسم [لكن].

وقوله تعالى: «أَنْزَلْنَاهُ بِرِسَالَةٍ»، هذه الآية من أقوى متعلقات أهل السنة في إثبات علم الله تعالى خلافاً للمعتزلة في أنهم يقولون: عالم بلا علم، والمعنى - عند أهل السنة -:

أنزله وهو يعلم إنزاله ونزوله، ومذهب المعتزلة في هذه الآية أنه أنزله مقترناً بعلمه، أي: فيه علمه من غيوب وأوامر ونحو ذلك، فالعلم عبارة عن المعلومات التي في القرآن، كما هو في قول الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، معناه: من علم الله الذي بث في عباده. وقرأ الجمهور: ﴿أُنْزِلَ﴾ على بناء الفعل للمفاعِل، وقرأ الحسن: ﴿أُنْزِلَ﴾ بضم الهمزة على بنائه للمفعول.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ كَذِبٌ يُشْهَدُونَ﴾ تقوية لأمر محمد عليه الصلاة والسلام، ورد على اليهود، قال قتادة: شهود والله غير متهمة، وقوله تعالى: ﴿وَكُنْ لِلَّهِ شَهِيداً﴾، تقديره: وكفى الله شهيداً، لكن دخلت الباء لتدل على أن المراد: اكْتَفُوا بالله.

ثم أخبر تعالى عن الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله أنهم قد بعدوا عن الحق، وضلوا ضلالاً بعيداً، لا يقرب رجوعهم عنه، ولا تخلصهم منه، وقرأ عكرمة، وابن هرمز: ﴿وَصُدُّوا﴾ بضم الصاد.

ثم أخبر تعالى عن الكافرين الظالمين في أن وضعوا الشيء في غير موضعه، وهو الكفر بالله، والله تعالى يستوجب منهم غير ذلك لنعمه الظاهرة والباطنة، إنهم بحيث لم يكن الله تعالى ليغفر لهم، وهذه العبارة أقوى من الإخبار المجرد أنه لا يغفر، ومثال ذلك أنك إذا قلت: «أنا لا أبيع هذا الشيء» فهم منك الاغتباط به، فإذا قلت: «أنا ما كنت

لأبيع هذا الشيء»، فلا غتباط منك أكثر، هذا هو المفهوم من هذه العبارة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقاً إِلَى طَرِيقِ جَهَنَّمَ﴾، هذه هداية الطرق، وليست بالإرشاد على الإطلاق، وباقي الآية بيّن، يتضمن تحقير أمر الكفار، وأنهم لا يبالهم الله بالة، كما ورد في الحديث: **يلهب الصالحون، الأول فالأول، حتى تبقى حثالة كحثالة الثمر، لا يبالهم الله بالة،** المعنى: إذ هم كفار في آخر الزمان، وعليهم تقوم الساعة.

١٧٠ - ١٧١ تفسير قوله تعالى:

المخاطبة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مخاطبة لجميع الناس، والسورة مدنية، فهذا مما خطب به جميع الناس بعد الهجرة، لأن الآية دعاء إلى الشرع، ولو كانت في أمر من أوامر الأحكام ونحوها لكانت - يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا - والرسول في هذه الآية: محمد ﷺ، والحق: هو شرعُه.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ لَكُمْ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره: اثثوا خيراً لكم، أو حوزوا خيراً لكم، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا﴾ وقوله: ﴿فَاتَّقُوا﴾ - بعد ذلك - أمر بترك الشيء والدخول في غيره، فذلك حسنت صفة التفضيل التي هي (خير)، هذا مذهب سيويه في نصب (خير)، ونظيره من الشعر قول عمر بن أبي ربيعة:

يَتَأَهَّلُ الْكَتِبُ لَا تَتَلَوْنِي دِينَكُمْ وَلَا تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ
وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّمَّا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧٠﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ
الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُ اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ
إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧١﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَيُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ
اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمًا وَلَا
يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٢﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ
فَدَجَاءَ كَمْ بُرْهِنَ مِنْ رَبِّكَمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٣﴾
فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعَصَوْا بُيُوتَهُمْ فَسَيَدْخُلُهُمْ
فِي رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٤﴾

١٠٥

فَوَاعِدِيهِ سَرَحَتِي مَالِكٍ
أَوِ الرَّئِي بَيْنَهُمَا أَسْهَلَا
أي: يأت أسهل، وقال أبو عبيدة:
التقدير: يكن الإيمان خيراً والانتهاة
خيراً، فنصبه على خبر كان، وقال
الفراء: التقدير: فآمنوا إيماناً خيراً
لكم، فنصبه على النعت لمصدر
محذوف.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا خبر
بالاستغناء، وأن ضرر الكفر إنما هو
نازل بهم، والله تعالى العلم
والحكمة.

ثم خاطب تعالى أهل الكتاب من
النصارى بأن يَدْعُوا الْعُلُوَّ، وهو
تجاوز الحد، ومنه غلاء السعر،
ومنه غلوة السهم. وقوله تعالى:
﴿فِي دِينِكُمْ﴾ فإنما معناه: في
الدين الذي أنتم مطلوبون به، فكأنه

اسم جنس، وأضافه إليهم بياناً أنهم مأخوذون به، وليست الإشارة إلى دينهم المضلل، ولا أمروا بالثبوت عليه دون غلو، وإنما أمروا بترك الغلو في دين الله على الإطلاق، وأن يُوحَدُوا، ولا يقولوا على الله إلا الحق، وإذا سلخوا ما أمروا به فذلك سائقهم إلى الإسلام.

ثم بيّن تعالى أمر المسيح، وأنه رسول الله وكلمته، أي: مُكوّن عن كلمته التي هي: كن. وقوله: ﴿أَلْقْنَاهَا﴾ عبارة عن إيجاد هذا الحادث في مريم، وقال الطبري: ﴿وَكَلَّمْنَاهُ﴾ أَلْقْنَاهَا يريد البشارة التي بعث المَلَكُ بها إليها. وقوله تعالى: ﴿وَنُوحٍ يَمَتُّهُ﴾، أي: من جملة مخلوقاته، فـ ﴿من﴾ لابتداء الغاية إذا حقق النظر فيها، وقال الطبري: ﴿وَنُوحٍ يَمَتُّهُ﴾ أي: نفخة منه، إذ هي من جبريل بأمره، وأنشد بيت ذي الرُّمة:

فَقُلْتُ لَهُ اضْمُمْهَا إِلَيْكَ وَأَخِيهَا
بِزَوْجِكَ وَأَفْتَنَّهُ لَهَا قِيَّةً قَبْرًا
يصف سقط النار، وقال أبي بن كعب: روح عيسى من أرواح الله التي خلقها واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قَالُوا بَلَى، فبعثه الله إلى مريم فدخل فيها، ثم أمرهم بالإيمان بالله ورسله، أي: الذين من جملتهم عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لَنَنْصَرُّ﴾ المعنى: الله ثالث ثلاثة، فحذف الابتداء والمضاف، كذا قدر أبو علي، ويحتمل أن يكون المُقَدَّر: المعبود ثلاثة، أو الإله ثلاثة، أو الآلهة ثلاثة، أو الأقانيم ثلاثة،

وكيفما تشعب اختلاف عبارات النصارى فإنه يختلف بحسب ذلك التقدير، وقد تقدم القول في معنى ﴿أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

﴿١٧١﴾ - تفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصرة، اقتضى ذلك العقل في المعنى المتكلم فيه، وليست صيغة (إنما) تقتضي الحصر، ولكنها تصلح للحصر وللمبالغة في الصفة وإن لم يكن حصر، نحو: إنما الشجاع عنتره، وغير ذلك، وـ ﴿سُبْحَنَكَ﴾ معناه: تنزيهاً له وتعظيماً عن أن يكون له ولد كما تزعمون أنتم أيها النصارى في أمر عيسى، إذ نقلتم أبوة الحنّانة والرّافة إلى أبوة النسل، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿إِنْ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ بكسر الالف من [إن] وهي نافية بمعنى: ما يكون له ولد، وقوله تعالى: ﴿لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية: إخبار يستغرق عبودية عيسى وغير ذلك من الأمور.

ثم برأ تعالى جهة المسيح عليه السلام من أقوالهم، وخلّصه للذي يليق به فقال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ﴾ الآية، والاستنكاف إبادة بأنفة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ زيادة في الحجة، وتقريب من الأذهان، أي: ولا هؤلاء الذين هم في أعلى درجات المخلوقين لا يستنكفون عن ذلك، فكيف سواهم؟ وفي هذه الآية الدليل الواضح على تفضيل الملائكة على الأنبياء.

ثم أخبر تعالى عن استنكاف، أي: يأنف عن عبادة الله ويستكبر بأنه سيناله الحشر يوم القيامة، والرّد

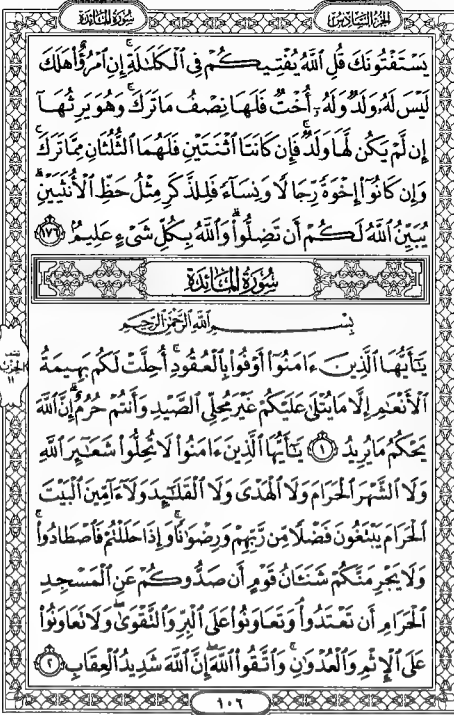
إلى الله، وقوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ عبارة وعيد. وقرأ جمهور الناس: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ بنون الجماعة. ﴿فَنُؤْفِيهِمْ﴾ ﴿وَنُزِيدُهُمْ﴾ ﴿فَنَقْلُبُهُمْ﴾ كلها بالنون. قال أبو الفتح: وقرأ مسّلمة: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ ﴿فَنُقَلِّبُهُمْ﴾ بسكون الراء والياء على التخفيف.

وبيّن الله تعالى أمر المحشورين فأخبر عن المؤمنين العاملين بالصالحات أنه يوفيههم أجورهم حتى لا يبخس أحداً قليلاً أو كثيراً، وأنه يزيدهم من فضله، وتحتمل هذه الزيادة أن تكون المخبر عنها في أن الحسنة بعشر إلى سبعمائة ضعف، ويحتمل أن يكون التضعيف الذي هو غير مُضَرَّدٍ مَحْسُوبٍ، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿١٧٢﴾ - تفسير قوله تعالى:

هذا وعيد للمستنكفين الذين يَدْعُونَ عبادة الله أنفَةً وتكبّراً، وهذا الاستنكاف إنما يكون من الكفار عن اتباع الأنبياء، وما جرى مجراه، كفعل حُيَيِّ بن أخطب وأخيه أبي ياسر بمحمد عليه الصلاة والسلام، وكفعل أبي جهل وغيره، وإلا، فإذا فرضت أحداً من البشر عرف الله تعالى فمحال أن تجده يكفر به تكبراً عليه، والعناد المجوز إنما يسوق إليه الاستكبار عن البشر، ومع تقارب المنازل في ظن المتكبر.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية، إشارة إلى محمد رسول الله ﷺ، والبرهان:



في صدر السورة، وأن المترجح أنها الوراثة التي خلست من: أب وابن وابنة، ولم يكن فيها عمود نسب، لا عال ولا سافل، وبقي فيها من يتكفل، أي: يُحيط من الجوانب كما يُحيط الإكليل. وكان أمر الكلالة عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه مشكلاً فقال: «ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء مراجعتي إياه في الكلالة، ولوددت أن رسول ﷺ لم يمت حتى يبينها». وقال على المنبر: «ثلاث لو بينها رسول الله ﷺ لكان

أحب إلي من الدنيا: الجد والكلالة، والخلافة، وأبواب من الربا». وروي عنه رضي الله عنه أنه كتب فيها كتاباً فمكث يستخير الله فيه ويقول: «اللهم إن علمت فيه خيراً فأفضه». فلما طعن دعا بالكتاب فمُحى، فلم يدر أحد ما كان فيه. وروى الأعمش عن إبراهيم وسائر شيوخه قال: ذكروا أن عمر رضي الله عنه قال: «لأن أكون أعلم الكلالة أحب إلي من جزية قصور الشام». وقال طارق بن شهاب: أخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتفاً، وجمع أصحاب النبي ﷺ ثم قال: «لأقضي في الكلالة قضاء تحدث به النساء في خدورها»، فخرجت عليهم حية من البيت فتفرقوا، فقال عمر: «لو أراد الله أن يتم هذا الأمر لأتمه». وقال معدان بن أبي طلحة: خطب

الحجة النيرة الواضحة التي تعطي اليقين التام، والمعنى: قد جاءكم مقترناً بمحمد برهان من الله تعالى على صحة ما يدعوكم إليه، وفساد ما أنتم عليه من الشغل، وقوله تعالى: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ تُورًا مُبِينًا» يعني القرآن، فيه بيان كل شيء، وهو الواعظ الزاجر، الناهي الأمر.

ثم وعد تبارك وتعالى المؤمنين بالله المتعصمين به. والضمير في «به» يحتمل أن يعود على الله تعالى، ويحتمل أن يعود على القرآن الذي تضمنه قوله تعالى: «تُورًا مُبِينًا»، والاعتصام به: التمسك بسببه، وطلب النجاة والمنعة به، فهو يعصم كما تعصم المعافل، وهذا قد فسره قول النبي ﷺ: «القرآن حبل الله المتين، من تمسك به عصم». والفضل: الجنة ونعيمها، «وَبَيِّنَ» معناه: إلى الفضل، وهذه هداية طريق الجنان، كما قال تعالى: «سَيَبِيْرٌ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ» لأن هداية الإرشاد قد تقدمت وتحصلت حين آمنوا بالله تعالى، واعتصموا بكتابه. و«مِرْطًا» نصب بإضمار فعل يدل عليه «بَيِّنَ» تقديره: فيعرفهم، ويحتمل أن ينتصب كالمفعول الثاني إذ «بَيِّنَ» في معنى: يعرفهم، ويحتمل أن ينتصب على ظرفية ما، ويحتمل أن يكون حالاً من الضمير في «إِلَيْهِ»، وقيل: من «فَضَّلَ». والصراط: الطريق، وقد تقدم تفسيره غير مرة.



تفسير قوله تعالى:

تقدم القول في تفسير «الْكَلَالَةِ»

عمر رضي الله عنه الناس يوم جمعة فقال: «إني والله ما أدع بعدي شيئاً هو أهم إلي من أمر الكلالة، وقد سألت عنها رسول الله ﷺ فما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيها، حتى طعن في نحري وقال: «تكفيك آية الصيف التي أنزلت في آخر سورة النساء، فإن أحش فسأقضي فيها بقضية لا يختلف معها اثنان ممن يقرأ القرآن».

وسئل عقبه بن عامر عن الكلالة فقال: ألا تعجبون لهذا يسألني عن الكلالة، وما أعضل بأصحاب رسول الله ﷺ شيء ما أعضلت بهم الكلالة؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فظاهر كلام عمر رضي الله عنه أن آية الصيف هي هذه. وروى أبو سلمة عن النبي ﷺ أنه سُئل عن الكلالة فقال:

«أَلَمْ تَسْمَعْ الْآيَةَ الَّتِي أَنْزَلْتُ فِي الصَّيْفِ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا هو الظاهر، لأن البراء بن عازب قال: آخر آية أنزلت على النبي ﷺ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُبَيِّنُ لَكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾، وقال كثير من الصحابة: هي آخر ما نزل، وقال جابر بن عبد الله: نزلت بسببي، عاذني رسول الله ﷺ وأنا مريض، فقلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ وكان لي تسع أخوات، ولم يكن لي والد ولا ولد: فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله رسول الله ﷺ: «تكفيك منها آية الصيْف» بيان فيه كفاية وجلاء، ولا أدري ما الذي أشكل منها على الفاروق رضوان الله عليه إلا أن تكون دلالة اللفظ لم تطرد له، أن كان استعمال قريش لها قليلاً، ولا محالة أن دلالة اللفظ اضطربت على كثير من الناس، ولذلك قال بعضهم: الكلاله: الميت نفسه، وقال آخرون: الكلاله: المال، إلى غير ذلك من الخلاف. وإذا لم يكن في الفريضة والد ولا ولد وترك الميت أختاً فلها النصف فرضاً مسمى بهذه الآية، فإن ترك الميت بنتاً وأختاً فللبنت النصف، وللأخت النصف بالتعصيب لا بالفرض المسمى. ولعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس في هذه المسألة خلاف للناس، وذكر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبته: (أَلَا إِنَّ آيَةَ أَوَّلِ سُورَةِ النَّسَاءِ

أَنْزَلَهَا اللَّهُ فِي الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ، وَالْآيَةَ الثَّانِيَةَ أَنْزَلَهَا اللَّهُ فِي الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ وَالْإِخْوَةِ مِنَ الْأُمِّ، وَالْآيَةَ الَّتِي خَتَمَ بِهَا سُورَةَ النَّسَاءِ أَنْزَلَهَا فِي الْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ مِنَ الْأَبِّ وَالْأُمِّ، وَالْآيَةَ الَّتِي خَتَمَ بِهَا سُورَةَ الْأَنْفَالِ أَنْزَلَهَا اللَّهُ فِي أَوْلِي الْأَرْحَامِ).

وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿قُلْ إِنَّ﴾، وللذكر مثل حظ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَصِلُوا﴾ معناه: كراهة أن تصلوا، وخَذَرُ أَنْ تَصِلُوا، فالتقدير: لئلا تصلوا، ومنه قول القطامي في صفة ناقة:

رَأَيْتُ مَا يَرَى الْبُصْرَاءُ مِنْهَا
فَأَلَيْتُ مَا عَلَيْنَهَا أَنْ تُبَاعَا
وكان عمر رضي الله عنه إذا قرأ: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَصِلُوا﴾ قال: اللهم من بينت له الكلاله فلم تبيّن لي.

تم بحمد الله تفسير سورة النساء

(٥) تفسير سورة المائدة

هذه السورة مدنية بإجماع، وروي أنها نزلت عند منصرف رسول الله ﷺ من الحديبية، وذكر النقاش عن أبي سلمة أنه قال: لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية قال: «يا علي، أشعرت أنه نزلت علي سورة المائدة، ونعمت الفائدة». قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي لا يشبه كلام النبي ﷺ. ومن هذه السورة ما نزل في حجة الوداع، ومنها ما نزل عام الفتح،

وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ﴾ الآية، وكل ما نزل من القرآن بعد هجرة النبي ﷺ فهو مدني، سواء ما نزل بالمدينة، أو في سفر من الأسفار، أو بمكة، وإنما يرسم بالمكي ما نزل قبل الهجرة، وروي أن النبي ﷺ قال: «سورة المائدة تدعى في ملكوت الله المنقذة، تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب».

١ - ٢ تفسير قوله تعالى:

قال علقمة: كل ما في القرآن ﴿يَكْفِيكَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو مدني، وقد تقدم القول في مثل هذا، ويقال: وَفَى وَأَوْفَى بمعنى واحد، وأمر الله تعالى المؤمنين عامة بالوفاء بالعقود، وهي: الرُّبُوطُ في القول، كان ذلك تعاهد على بر، أو في عقدة نكاح أو بيع أو غيره، ولفظ المؤمنين يعم مؤمني أهل الكتاب، إذ بينهم وبين الله عقد في أداء الأمانة فيما في كتابهم من أمر محمد ﷺ، ولفظ ﴿يَالْمُؤْمِنُونَ﴾ يعم عقود الجاهلية المبينة على بر، مثل دفع الظلم ونحوه، وأما في سائر تعاقدهم على الظلم والغارات فقد هدمه الإسلام، فإنما بمعنى الآية: أمر جمع المؤمنين بالوفاء على عقد جارٍ على رسم الشريعة، وفسر الناس لفظ العقود بالعهود. وذكر بعضهم من العقود أشياء على جهة المثال، فمن ذلك قول قتادة: ﴿أَوْفُوا يَالْمُؤْمِنُونَ﴾ معناه: بعهد الجاهلية، روي لنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أوفوا بعقد الجاهلية، ولا تحدثوا عقداً في الإسلام».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفقه هذا الحديث أن عقد الجاهلية كان يخص المتعاقدين، إذ كان الجمهور على ظلم وضلال، والإسلام قد ربط الجميع، وجعل المؤمنين إخوة، فالذي يريد أن يختص به المتعاقدان قد ربطهما إليه الشرع مع غيرهم من المسلمين، اللهم إلا أن يكون التعاقد على دفع نازلة من نوازل الظلمات فيلزم في الإسلام التعاقد على دفع ذلك والوفاء بذلك العهد، وإما عهد خاص لما عسى أن يقع، يختص المتعاقدون بالنظر فيه والمنفعة، كما كان في الجاهلية، فلا يكون ذلك في الإسلام.

قال الطبري: وذكر أن فُرَاتَ بْنَ حَيَّانَ الْعَجَلِيَّ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ حَلْفِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: «لَعَلَّكَ تَسْأَلُ عَنْ حَلْفِ لَحْمٍ وَتَيْمٍ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَالَ: لَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أَوْفُوا بِالْمُعْثُودِ» معناه: «بما أحلَّ الله وبما حرم، وبما فرض وبما خدَّ في جميع الأشياء». قاله مجاهد وغيره.

وقال محمد بن كعب القرظي، وابن زيد، وغيرهما: العقود في الآية: هي كل ما ربطه المرء على نفسه من بيع أو نكاح أو غيره.

وقال ابن زيد، وعبدالله بن عبيدة: العقود خمس: عقدة الإيمان، وعقدة النكاح، وعقدة العهد، وعقدة البيع، وعقدة الحلف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تنحصر إلى أقل من خمس.

وقال ابن جريج: قوله تعالى: «أَوْفُوا بِالْمُعْثُودِ» قال: هي العقود التي أخذها الله على أهل الكتاب أن يعملوا بما جاءهم. وقال ابن شهاب: قرأت كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لعمر بن حزم حين بعثه إلى نجران، وفي صدره: (هذا بيان من الله ورسوله، «يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْمُعْثُودِ» فكتب الآيات منها إلى قوله: «إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ»).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأصوب ما يقال في تفسير هذه الآية أن تُعْتَمَ ألفاظها بغاية ما تتناول، فيعمم لفظ المؤمنين جملة، في مظهر الإيمان - إن لم يُبْطِنه - وفي المؤمنين حقيقة. ويُعْتَمَ لفظ العقود في كل ربط بقول موافق للحق والشرع. ومن لفظ العقد قول الحطية:

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لِحَبَارِهِمْ شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا قَوْقَهُ الْكَرْبَا وقوله تعالى: «أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِيْمَةً الْآتَمَرِ» خطاب لكل من التزم الإيمان على وجهه وكماله، وكانت للعرب سنن في الأنعام من السائبة والبحيرة والحام وغير ذلك، فنزلت هذه الآية رافعة لجميع ذلك.

واختلف في معنى «بِهِيْمَةِ الْآتَمَرِ» - فقال السدي، والربيع، وقتادة، والضحاك: هي الأنعام كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه قال: أحلت لكم الأنعام، فأضاف الجنس إلى أخص منه، وقال الحسن: «بِهِيْمَةِ الْآتَمَرِ»: الإبل والبقر والغنم، وروي عن عبدالله بن

عمر رضي الله عنهما أنه قال: «بِهِيْمَةُ الْآتَمَرِ» الأجنَّة التي تخرج عند الذبح للأمهات، فهي تؤكل دون ذكاة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الأجنَّة من بهيمة الأنعام، قال الطبري: وقال قوم: «بِهِيْمَةُ الْآتَمَرِ» وخشها، كالظباء وبقر الوحش والحمر وغير ذلك، وذكره غير الطبري عن الضحاك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن، وذلك أن الأنعام هي الثمانية الأزواج، وما انضاف إليها من سائر الحيوان يقال له أنعام بمجموعه معها، وكأن المفترس من الحيوان كالأسد وكل ذي ناب قد خرج عن حد الأنعام فصار له نظر ما، فبهيمة الأنعام هي الراعي من ذوات الأربع، وهذه - على ما قيل - إضافة الشيء إلى نفسه، كدار الآخرة، ومسجد الجامع، وما هي عندي إلا إضافة الشيء إلى جنسه، وصرح القرآن بتحليلها، واتفقت الآية وقول النبي عليه الصلاة والسلام: «كل ذي ناب من السباع حرام»، ويؤيد هذا المتنزع الاستثناءان بعد، إذ أحدهما استثنى فيه أشخاص نالتها صفات ما، وتلك الصفات واقعات كثيراً في الراعي من الحيوان، والثاني استثنى فيه حال للمخاطبين وهي الإحرام والحرم، والصيد لا يكون إلا من غير الثمانية الأزواج، فترتب الاستثناءان في الرعي من ذوات الأربع. والبهيمة في كلام العرب: ما أبهم من جهة نقص النطق والفهم، ومنه: باب مبهم، وحائط مبهم، وليل بهيم،

وَيُهَمِّمَةُ لِلشَّجَاعِ الَّذِي لَا يُذْرى مِنْ
أَيْنَ يُؤْتَى لَهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾
استثناء مما تلي في قوله تعالى:
﴿حَرِّمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَيْسَتْهُ وَأَلَدُهُمْ وَكَمْ
الْخَبِيرِ﴾ الآية. و ﴿مَا﴾ في موضع
نصب على أصل الاستثناء، وأجاز
بعض الكوفيين أن تكون في موضع
رفع على البدل، وعلى أن تكون
﴿إِلَّا﴾ عاطفة، وذلك لا يجوز عند
البصريين إلا من نكرة أو ما قاربها
من أسماء الأجناس، نحو قولك:
جاء الرجال إلا زيد، كأنك قلت:
غير زيد بالرفع.

وقوله: ﴿غَيْرَ يُحْيِي أَلَيْسَ﴾ نصب
﴿غَيْرَ﴾ على الحال من الكاف
والميم في قوله: ﴿أَجَلْتُ لَكُمْ﴾،
وقرأ ابن أبي عبله ﴿غَيْرَ﴾ بالرفع،
ووجهها الصفة للضمير في: ﴿يَتْلُو﴾
لأن ﴿غَيْرَ يُحْيِي أَلَيْسَ﴾ هو في المعنى
بمنزلة: «غير مستحل إذا كان
صيده»، أو يخرج على الصفة لـ
﴿يَهَيِّمُ﴾ على مراعاة معنى الكلام
كما ذكرت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقد خلط الناس في هذا الموضع في
نصب ﴿غَيْرَ﴾ وقدروا فيها تقديمات
وتأخيرات، وذلك كله غير مرضي،
لأن الكلام على اطراد ممتنع
استثناء بعد استثناء.

و ﴿حَرَّمَ﴾ جمع حرام، وهو
المُحَرَّم، ومنه قول الشاعر:
فَقُلْتُ لَهَا فِيمَا إِلَيْكَ فَبَأْسِي
حَرَامٌ وَإِنِّي بَعْدَ ذَلِكَ لَسِبْتُ
أي: مُلِّبٌ. وقرأ الحسن،
وإبراهيم، ويحيى بن وثاب:

﴿حَزَمَ﴾ يسكون الراء، قال أبو
الحسن: هذه لغة تميمية، يقولون في
رُسُل: رُسُلٌ، وفي كُتُب: كُتُبٌ،
ونحوه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ تقوية
لهذه الأحكام الشرعية المخالفة
لمعهود أحكام العرب، أي: فأنت
أيها السامع لنسخ تلك العهود التي
عهدت تَبَّه، فإن الله الذي هو مالك
الكل يحكم ما يريد، لا معقب
لحكمه.

وهذه الآية مما تلوح فصاحتها
وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل
ذي بَصَرٍ بالكلام، ولمن عنده أدنى
إبصار، فإنها تضمنت خمسة أحكام:
الأمر بالفؤاء بالعقود، وتحليل بهمية
الأنعام، واستثناء ما تلي بعد،
واستثناء حال الإحرام فيما يصاد،
وما يقتضيه معنى الآية من إباحة
الصيْد لمن ليس بمُحَرَّم. وحكى
النقَّاش أن أصحاب الكندي قالوا
للكندي: أيها الحكيم، اعمل لنا مثل
هذا القرآن، فقال: نعم أعمل مثل
بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج
فقال: والله ما أقدر عليه، ولا يطيق
هذا أحد، إني فتحت المصحف
فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا
هو قد أمر بالفؤاء، ونهى عن
النكث، وحلل تحيلاً عاماً، ثم
استثنى استثناء بعد استثناء، ثم أخبر
عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا
يستطيع أن يأتي أحد بهذا إلا في
أجلاد.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَحِلُّوا سَعَتَكُمْ أَلَا﴾ خطابٌ للمؤمنين
حقاً ألا يتعدوا حدود الله في أمر من

الأمر، والشعائر: جمع شعيرة،
أي: قد أشعر الله أنها حده وطاعته،
فهي بمعنى: معالم الله، واختلفت
عبارة المفسرين في المقصود من
الشعائر الذي بسببه نزل هذا العموم
في الشعائر - فقال السدي ﴿سَعَاتِرِ
اللَّهِ﴾: حرم الله، قال ابن عباس
رضي الله عنهما: ﴿سَعَاتِرِ اللَّهِ﴾:
مناسك الحج، وكان المشركون
يُحْجُونَ ويعتَمرون ويُهْدُونَ وينحرون
ويعظمون مشاعر الحج، فأراد
المسلمون أن يغيروا عليهم فقال الله
تعالى: ﴿لَا تَحِلُّوا سَعَتَكُمْ أَلَا﴾، وقال
ابن عباس أيضاً: ﴿سَعَاتِرِ اللَّهِ﴾ واحد
تحريمه في الإحرام، وقال عطاء بن
أبي رباح [شعائر الله]: جميع ما أمر
به أو نهى عنه، وهذا هو القول
الراجح الذي تقدم، وقال ابن
الكلبي: كان عامة العرب لا يعدون
الصفا والمروة من الشعائر، وكانت
قريش لا تقف بعرفات، فنهوا بهذه
الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا اتَّخَذُوا الْحَرَامَ﴾
اسم مفرد يدل على الجنس في
جميع الأشهر الحرم، وهي كما قال
النبي ﷺ: «ذو القعدة، وذو الحجة،
والمحرم، ورجب مضر الذي بين
جمادى وشعبان»، وإنما أضيف إلى
مضر لأنها كانت تختص بتحريمه،
وتزِيل فيه السلاح، وتنزع الأسنة من
الرماح، وتسميه: مُنْصِلُ الأسنة،
وتسميه: الأَصَم، من حيث كان لا
يُسمع فيه صوت سلاح، وكانت
العرب مجمعة على: ذي القعدة،
وذي الحجة، والمحرم، وكانت
تطول عليها الحرمة، وتمتنع من

الغارات ثلاث أشهر، فلذلك اتخذت النسبي، وهو أن يحل لها ذلك المتكلم نعيم بن ثعلبة وغيره المحرم ويحرم بدله صفراً، فنهى الله عن ذلك بهذه الآية، ويقول: ﴿إِنَّمَا الْكُفْرُ فِي الْكَفَرِ﴾، وجعل المحرم أول شهور السنة من حيث كان الحج والموسم غاية العام وثمرته، فبذلك يكمل، ثم يستأنف عام آخر، ولذلك - والله أعلم - دون به عمر بن الخطاب رضي الله عنه الدواوين، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا أَتَشَهَّرُ لَكُمْ﴾، أي: لا تحلوهم بقتال ولا غارة ولا تبديل، فإن تبديله استحلل لحرمته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر عندي أن الشهر الحرام أريد به رجب ليشتهر أمره، لأنه إنما كان مختصاً بقرش، ثم فشا في مضر، ومما يدل على هذا قول عوف بن الأحوص:

وشهر بني أمية والهدايا
إذا حبست مضر جها الدماء
قال أبو عبيدة: أراد رجباً، لأنه شهر كانت مشايخ قرش تعظمه، فنسبه إلى بني أمية، ذكر هذا الأخفش في «المفضليات»، وقد قال الطبري: المراد في هذه الآية رجب مضر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فوجه هذا التخصيص هو كما قد ذكرت أن الله تعالى شدد أمر هذا الشهر إذ كانت العرب غير مجمعة عليه. وقال عكرمة: المراد في هذه الآية ذو القعدة من حيث كان أولها، وقولنا فيها (أول) تقريب وتجاوز، إن

الشهور دائرة، فالأول إنما يترتب بحسب نازلة أو قرينة ما مختصة بقوم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبَسُوا الْحَرَامَ﴾ - أما الهدي فلا خلاف أنه ما أهدي من النعم إلى بيت الله وقصدت به القرية، فأمر الله ألا يستحل ويغار عليه. واختلف الناس في القلائد - فحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن القلائد هي الهدي المقلد، وأن الهدي يسمى هدياً ما لم يقلد، فكأنه قال: ولا الهدي الذي لم يقلد المقلد منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الذي قال الطبري تحامل على ألفاظ ابن عباس رضي الله عنهما، وليس يلزم من كلام ابن عباس رضي الله عنهما أن الهدي إنما يقال لما لم يقلد، وإنما يقتضي أن الله نهى عن استحلال الهدي جملة، ثم ذكر المقلد منه تأكيداً ومبالغة في التنبيه على الحرمة في التقليد، وقال جمهور الناس: الهدي عام في أنواع ما أهدي قرية، والقلائد ما كان الناس يتقلدونه أمانة لهم، قال قتادة: كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من السمر قلادة فلم يعرض له أحد بسوء، إذ كانت تلك علامة إحرامه وحجه، وقال عطاء وغيره: بل كان الناس إذا خرجوا من الحرم في حوائج لهم تقلدوا من شجر الحرم ومن لحائه، فيدل ذلك على أنهم من أهل الحرم أو من حجاجه، فيأمنون بذلك، فنهى الله تعالى عن استحلال من تحرم بشيء من هذه المعاني، وقال

مجاهد وعطاء: بل الآية نهى للمؤمنين عن أن يستحلوا أخذ القلائد من شجر الحرم كما كان أهل الجاهلية يفعلون، وقاله الربيع بن أنس عن مطرف بن الشخير وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْتِينَ آلِيَتَ الْكُرَامِ﴾ معناه: ولا تحلوهم فتغيروا عليهم، ونهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية عن أن يعمدوا للكفار القاصدين البيت الحرام على جهة التعبد والقرية. وكل ما في هذه الآية من نهى عن مشرك، أو مراعاة حرمة له بقلادة، أو أم البيت ونحوه، فهو كله منسوخ بأية السيف في قوله تعالى: ﴿فَأَقْضُوا الشَّرِكَانَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُنَّ﴾.

وروي أن هذه الآية نزلت بسبب الخطم بن هند البكري أخي بني ضبيعة بن ثعلبة، وذلك أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان»، فجاء الخطم فخلف خيله خارجة من المدينة، ودخل على رسول الله ﷺ، فلما عرض رسول الله ﷺ عليه الإسلام ودعاه إلى الله قال: انظروا لعلي أسلم، وأرى في أمرك غلظة، ولي من أشاورة، فخرج، فقال النبي ﷺ: «لقد دخل بوجه كافر، وخرج بعقب غادر». فمر بسرح من سرح المدينة فساقه وانطلق به وهو يقول:

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطْمٍ
لَيْسَ بِرَاعِي إِسْلٍ وَلَا عَنَمٍ
وَلَا بِجَرَّارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَضَمٍ
بَاتُوا نِيَاماً وَابْنُ هِنْدٍ لَمْ يَنْمِ

في حرم البشر حسنة في فصاحة القول، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ذَاوُاْءُ﴾ صيغة أمر، ومعناه الإباحة بإجماع من الناس.

واختلف العلماء في صيغة (افعل) إذا وردت ولم يقترن بها بيان واضح في أحد المحتملات - فقال الفقهاء: هي على الوجوب حتى يدل الدليل على غير ذلك، وقال المتكلمون: هي على الوقف حتى تطلب القرينة، ولن يُعْرَى أمر من قرينة، وقال قوم: هي على الإباحة حتى يدل الدليل، وقال قوم: هي على النذب حتى يدل الدليل، وقول الفقهاء أخوطةا، وقول المتكلمين أقيسها، وغير ذلك ضعيف. ولفظه (افعل) قد تجيء للوجوب كقوله: ﴿أَقْبِسُوا السَّكَّوَةَ﴾، وقد تجيء للنذب كقوله: ﴿وَأَفْكَوْاْ أَخْبَرَ﴾، وقد تجيء للإباحة كقوله: ﴿فَأَمَّا ذَاوُاْءُ﴾ و ﴿وَأَنْتَعَوْاْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، و ﴿فَأَنْتَشِرُواْ فِي الْأَرْضِ﴾، ويحتمل الابتغاء من فضل الله أن يكون ندباً، وقد تجيء للوعيد كقول: ﴿أَعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾، وقد تجيء للتعجيز كقوله: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً﴾.

وقرأ أبو واقد، والجراح، وتُنْبِج، والحسن بن عمران: ﴿فَأَصْطَادُواْ﴾ بكسر الفاء، وهي قراءة مشككة، ومن توجيهها أن يكون راعي كسر ألف الوصل إذا بدأت فقلت: اصطادوا - فكسر الفاء مراعاةً وتذكراً لكسر ألف الوصل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ معناه: ولا يكسبنكم، ويجزم الرجل معناه: كسب، ويتعدى إلى

مسلم حاج فهو مُحْكَم، وكل ما كان منها في الكفار فهو منسوخ، وقرأ ابن مسعود وأصحابه: ﴿وَلَا آمِي السَّبِيْتِ﴾ بالإضافة إلى البيت.

وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ فَضْلاً مِنْ رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾ قال فيه جمهور المفسرين: معناه: يتبعون الفضل في الأرباح في التجارة، ويتبعون - مع ذلك - رضوانه في ظنهم وطمعهم. وقال قوم: إنما الفضل والرضوان في الآية في معنى واحد، وهو رضا الله وفضله

بالرجاء والجزاء، فمن العرب من كان يعتقد جزاء بعد الموت، وأكثرهم إنما كانوا يرجون الجزاء والرضوان في الدنيا والكسب وكثرة الأولاد، ويتقربون رجاء الزيادة في هذه المعاني، وقرأ الأعمش: ﴿وَرِضْوَاناً﴾ بضم الراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية استتلاف من الله تعالى للعرب، ولطف بهم، لتبسط النفوس، ويتداخل الناس، ويردون الموسم فيسمعون القرآن، ويدخل الإيمان في قلوبهم، وتقرب عندهم الحجة كالذي كان، وهذه الآية نزلت عام الفتح، ونسخ الله تعالى ذلك كله بعد عام سنة تسع إذ حج أبو بكر ونودي الناس بسورة براءة.

٢ - ٣ تفسير قوله تعالى: جاءت إباحة الصيد عقب التشدد

حَرَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَيْتَهُ وَاللَّهُمَّ وَاللَّهُمَّ الْخَزِيرَ وَمَا أَهْلُ الْغَيْرِ اللَّهُ بِهِ. وَالْمَنْخِقَةَ وَالْمَوْفُوذَةَ وَالْمَرْوِيَّةَ وَالنَّطِيطَةَ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذَبَحَ عَلَى النَّصْبِ وَأَنْ تَسْقِسُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَ لَكُمْ فَسَقُ الْيَوْمَ يَسُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاحْشَوْهُمْ الْيَوْمَ أَكَلَتْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنْ أَضْطَرَّنِي مَخْصَصَةً غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥ يَسْتَلُوكَ مَاذَا أَجَلَ لَهُمْ قُلْ أَجَلُ لَكُمْ الطَّبِيتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَيِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَذَكُرُوا أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٦ الْيَوْمَ أَجَلَ لَكُمْ الطَّبِيتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حُلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حُلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مَخْزِيٍّ أَحَدَانِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِبْرَهِيمَ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرِينَ الْخَسِرِينَ ٧

بَاتَ يُقَاسِمُهَا غُلَامٌ كَالزُّلْمِ خَذَلَجَ السَّاقِينَ خَفَاقَ الْقَدَمِ ثم أقبل الحُطَم من عام قابل حاجاً، وساق هدياً، فأراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، وخفت إليه ناس من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، فنزلت هذه الآية. قال ابن جريج: هذه الآية نهى عن الحجاج أن تُقطع سبلهم، ونزلت الآية بسبب الحُطَم، فذكره نحوه، وقال ابن زيد: نزلت الآية عام الفتح ورسول الله ﷺ بمكة، جاء أناس من المشركين يُحْجُونَ ويعتَمرون، فقال المسلمون: يا رسول الله، إنما هؤلاء مشركون، فلن ندعهم إلا أن نغير عليهم، فنزل القرآن: ﴿وَلَا تَأْيِينَ أَلَيْتَ الْحَرَامَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكل ما فيه هذه الآية مما يتصور في

مفعولين، كما يتعدى كسب، وفي الحديث: «وتكسب المعدوم». قال أبو علي: وأجرم بالآلف عرفه الكسب في الخطايا والذنوب، وقال الكسائي: جَزَمَ وأجرم لفتان بمعنى واحد، أي: كسب. وقال قوم: ﴿يَجْرِمُكُمْ﴾ معناه: يحق لكم، كما أن ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ كُفَّارَكُمْ﴾ معناه: حق لهم أن لهم النار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَجْرِمُكُمْ﴾ معناه: يَحْمِلُنْكُمْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه كلها أقوال تتقارب بالمعنى، فالتفسير الذي يخص اللفظة هو معنى الكسب، ومنه قول الشاعر:

جَرِيْمَةٌ نَاهَضَ فِي رَأْسِ يَبِيْتِ
تَرَى لِعِظَامِ مَا جَمَعَتْ ضَلِيْبًا
معناه: كاسِبُ قوت ناهض.

ويقال: فلان جريمة قومه، إذا كان الكاسِب لهم، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: ﴿يُجْرِمُكُمْ﴾ بضم الياء، والمعنى أيضاً: لا يكسبكم، وأما قول الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ طَعْنَةً
جَرَمَتْ فَرَاةً بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا

فمعناه: كسبت فزارة بعدها الغضب، وقد فسر بغير هذا مما قريب منه.

وقوله تعالى: ﴿شَتَّانُ قَوْمٍ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: ﴿شَتَّانُ﴾ متحركة النون، وقرأ ابن عامر: ﴿شَتَّانَ﴾ ساكنة النون، واختلف عن عاصم ونافع، يقال: شَتَّانُ الرجل شَتْنًا (بفتح الشين)، وشَتْنَانًا (بفتح النون)، وشَتْنَانًا (بسكون النون)، والفتح

أكثر، كل ذلك إذا أبغضته، قال سيبويه: كل ما كان من المصادر على (فَعْلَان) بفتح العين لم يتعد فعله إلا أن يشد شيء كالشَتْنَان، وإنما عدي (شَتْنَانُ) من حيث كان بمعنى أبغضت، كما عدي (الرُّفْتُ) إلal من حيث كان بمعنى (الإفضاء).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فأما من قرأ: ﴿شَتَّانُ﴾ بفتح النون فالأظهر فيه أنه مصدر، كأنه قال: لا يكسبكم بغض قوم من أجل أن صدوكم عدواناً عليهم وظلماً لهم، والمصادر على هذا الوزن كثيرة: كالنَزَوَان، والخَلِيَان، والطَوَفَان، والجَرَيَان، وغيره، ويحتمل الشَتْنَان بفتح النون أن يكون وصفاً فيجيء المعنى: ولا يكسبكم ببغض قوم أو ببغض قوم عدواناً.

ومما جاء على هذا الوزن صفة قولهم: «حمار قطوان»، إذا لم يكن سهل السير، وقولهم: «عدو وضمان» أي: ثقيل كعدو الشيخ ونحوه، إلى غير هذا مما ليس في الكثرة كالمصادر، ومنه ما أنشده أبو زيد:

وَقَبْلُك مَا هَابَ الرُّجَالُ ظِلَامَتِي
وَقَفَّاتٌ عَيْنَ الْأَشْوَسِ الْأَبْيَانِ
بفتح الباء، وأما من قرأ: ﴿شَتَّانُ﴾ بسكون النون فيحتمل أن يكون مصدراً، وقد جاء المصدر على هذا الوزن في قولهم: لويته دينه لزياناً، وقول الأحوص:

.....

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ ذُو الشَّنَانِ وَقَدْ شَدَا
إنما هو تخفيف من (شَتْنَان) الذي هو مصدر بسكون النون، لأنه حذف

الهمزة وألقى حركتها على الساكن، هذا هو التخفيف القياسي، قال أبو علي: من زعم أن (فَعْلَان) إذا سُكِنَتْ عينه لم يكن مصدراً فقد أخطأ، وتحتمل القراءة بسكون النون أن تكون وصفاً، فقد حكي: رجل شَتْنَان وامرأة شَتْنَانَة، وقياس هذا أنه من فعل غير متعد، وقد يشتق من لفظ واحد فعل متعد وفعل واقف، فيكون المعنى: ولا يكسبكم بغض قوم أو ببغض قوم عدواناً، وإذا قدرت اللفظة مصدراً فهو مصدر مضاف إلى المفعول، ومما جاء وصفاً على فَعْلَان ما حكاه سيبويه من قولهم: خصمان، ومن ذلك قولهم: ندمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومنه رحمان.

وهذه الآية نزلت عام الفتح حين أراد المؤمنون أن يستطيلوا على قريش وألفافها من القبائل المتظاهرين على صدر رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية، وذلك سنة ست من الهجرة، فحصلت بذلك بغضة في قلوب المؤمنين وحسيكة للكفار، فقيل للمؤمنين عام الفتح وهو سنة ثمان: لا يحملنكم ذلك البغض أو أولئك البغضاء من أجل أن صدوكم على أن تعتدوا عليهم، إذ لله فيهم إرادة خير، وفي علمه أن منهم من يؤمن كالذي كان. وحكى المهدوي عن قوم أنها نزلت عام الحديبية لأنه لما صد المسلمون عن البيت مر بهم قوم من أهل نجد يريدون البيت فقالوا: نصد هؤلاء كما صدونا، فنزلت الآية.

وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿إِنْ صَدُّوكُمْ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ الباقون: ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ بفتح الهمزة إشارة إلى الصد الذي وقع، وهذه قراءة الجمهور، وهي أمكن في المعنى، وكسر الهمزة معناه: إن وقع مثل ذلك في المستقبل.

وقرأ ابن مسعود: ﴿إِنْ يَصُدُّوكُمْ﴾، وهذه تؤيد قراءة أبي عمرو وابن كثير. ثم أمر الله تعالى الجميع بالتعاون على البر والتقوى، قال قوم: هما لفظان بمعنى، وكرر باختلاف تأكيداً ومبالغة، إذ كل بر تقوى، وكل تقوى بر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا تسامح ما، والعرف في دلالة هذين اللفظين أن البر يتناول الواجب والمندوب إليه، والتقوى رعاية الواجب، فإن جعل أحدهما بدل الآخر فَيَتَجَوَّزُ، ثم نهى تعالى عن التعاون على الإثم، وهو الحكم اللاحق عن الجرائم وعن العدوان، وهو ظلم الناس، ثم أمر بالتقوى، وتوعد توعداً مجعلاً بشدة العقاب. وروي أن هذه الآية نزلت نهياً عن الطلب بدخول الجاهلية، إذ أراد قوم من المؤمنين ذلك، قاله مجاهد، وقد قتل بذلك حليف لأبي سفيان من هذيل.

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَبْتَةُ﴾ الآية تعديد لما يتلى على الأمة مما استثنى من بهيمة الأنعام، والميتة: كل حيوان له نفس سائلة خرجت نفسه من جسده على غير طريق الذكاة المشروع، سوى الحوت والجراد، على أن الجراد قد

رأى كثير من العلماء أنه لا بد من فعل فيها يجري مجرى الذكاة، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَلْيَبْتَةُ﴾ بسكون الياء، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿الْمَيْتَةُ﴾ بالتشديد في الياء، قال الزجاج: هما بمعنى واحد، وقال قوم من أهل اللسان: الميت بسكون الياء: ما قد مات، والميت يقال لما قد مات ولما لم يموت وهو حي بغد، ولا يقال له: ميت بالتخفيف، وردّ الزجاج هذا القول، واستشهد على ردّه بقول الشاعر:

لَيْسَ مِنْ مَاتَ فَاسْتَرَحَ بِمَيْتٍ
إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيْتٌ الْأَحْيَاءُ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والبيت يحتمل أن يتأول شاهداً عليه لا له، وقد تأول قوم «استراح» في هذا البيت بمعنى: اكتسب راحة، إذ قائله جاهلي لا يرى في الموت راحة.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِمَّ﴾ معناه: المسفوح، لأنه بهذا تقييد الدم في غير هذه الآية، فيرد المطلق إلى المقيد، وأجمعت الأمة على تحليل الدم المخالط للحم، وعلى تحليل الطحال ونحوه، وكانت الجاهلية تستبيح الدم، ومنه قولهم: «لَمْ يُحْزَمَ مَنْ قُصِدَ لَهُ»، و «الْعِلْوُ»: دم ووبر يأكلونه في الأزمان.

﴿وَلَكُمْ الْخَنزِيرُ﴾ مقتض لشحمه بإجماع، واختلف في استعمال شعره وجلده بعد الدباغ فأجيز ومنع، وكل شيء من الخنزير حرام بإجماع، جلدًا كان أو عظماً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَ لَيْعٍ لِّلَّهِ﴾ يعني ما ذبح لغير الله تعالى،

وقصد به صنم أو بشر من الناس، كما كانت العرب تفعل، وكذلك النصراني، وعادة الذابح أن يُسمى مقصوده ويصيح به، فذلك إهلاله، ومنه استهلال المولود إذا صاح عند الولادة، ومنه إهلال الهلال، أي: الصباح بأمره عند رؤيته، ومن الإهلال قول ابن أحمر:

يُهْلُ بِالْفَرْقِدِ رُكْبَانُهَا
كَمَا يَهْلُ الرَّاكِبُ الْمُغْتَبِرُ
وقوله تعالى: ﴿وَاللَّخِيْفَةُ﴾ معناه: التي تموت خفياً، وهو جنس الثَّئِثِ سواء فعل بها ذلك آدمي أو اتفق لها ذلك في حجر أو شجرة أو بحبل أو نحوه، وهذا بإجماع، وقد ذكر قتادة أن الجاهلية كانوا يخنقون الشاة وغيرها، فإذا ماتت أكلوها، وذكر نحوه ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التي تُرمى أو تضرب بعضاً أو يحجر أو نحوه، وكأنها التي تحذف به، وقال الفرزدق:

شُعَارَةٌ تَقْدُ الْفَصِيلَ بِرَجْلَيْهَا
فَطَّارَةٌ لِّقَوَادِمِ الْأُبْكَارِ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التي تضرب بالخشب حتى يوقدها فتتموت، وقال قتادة: كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك ويأكلونها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن اللفظة قول معاوية: «وَأُمَّا ابْنُ عَمْرِو فَرَجَلَ قَدْ وَقَذَهُ الْوَرَعُ، وكفى أمره ونزوته». وقال الضحاك: «كانوا يضربون الأنعام بالخشب لإلهتهم حتى يقتلونها فيأكلونها»، وقال أبو عبد الله الصنابحي: «ليس الموقوذة إلا في مالك، وليس في الصيد وقيد».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعند مالك وغيره من الفقهاء في الصيد ما حكمه حكم الوقيد، وهو نص في قول النسبي رحمه الله في المعراض: «وَإِذَا أَصَابَ بِعَرْضِهِ فَلَا تَأْكُلُ فَإِنَّهُ وَقِيدٌ».

«وَالْمَرْدِيَّةُ» هي التي تتردى من العلو إلى السفلى فتموت، كان ذلك من جبل أو في بئر ونحوه، وهي متفعلة من الردى وهو الهلاك، وكانت الجاهلية تأكل المتردي، ولم تكن العرب تعتقد ميتة إلا ما مات بالوجع ونحو ذلك دون سبب يعرف، فأما هذه الأسباب فكانت عندها كالذكاة، فحصر الشرع الذكاة في صفة مخصوصة، وبقيت هذه كلها ميتة.

«وَالنَّطِيحَةُ» فعيلة بمعنى مفعولة، وهي الشاة تنطحها أخرى أو غير ذلك فتموت، وتأول قوم النطيحة بمعنى الناطحة، لأن الشاتين قد تتناطحان فتموتان، وقال قوم: لو ذكر الشاة لقليل: والشاة النطيح، كما يقال: كف خضيب، ولحية دهين. فلما لم تُذكر ألحقت الهاء لثلا يشكل الأمر، أذكر أم يديد أم مؤثأ؟ قال ابن عباس، والسدي، وقتادة، والضحاك: النطيحة: الشاة تناطح الشاة فتموتان، أو الشاة تنطحها البقر والغنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكل ما مات ضغطاً فهو نطيح، وقرأ أبو ميسرة: «وَالْمَنْطُوحَةُ».

وقوله: «وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ» يريد كل ما افترسه ذو ناب وأظفار من الحيوان كالأسد والنمر والثعلب

والذئب والضبع ونحوه، هذه كلها سباع، ومن العرب من يوقف اسم السبع على الأسد، وكان العرب إذا أخذ السبع شاة فقتلها ثم خلصت منه أكلوها، وكذلك إن أكل بعضها، قاله قتادة وغيره. وقرأ الحسن، والفياض، وطلحة بن سليمان، وأبو حنيفة: «وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ» بسكون الباء، وهي لغة أهل نجد، وقرأ بذلك عاصم في رواية أبي بكر عنه، وقرأ عبدالله بن مسعود: «وَأَكِيلَةُ السَّبُعِ»، وقرأ عبدالله بن عباس: «وَأَكِيلُ السَّبُعِ».

واختلف العلماء في قوله تعالى: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» - فقال ابن عباس، والحسن بن أبي الحسن، وعلي بن أبي طالب، وقتادة، وإبراهيم التيمي، وطاوس، وعبيد بن عمير، والضحاك، وابن زيد، وجمهور العلماء: الاستثناء هو من هذه المذكورات، فما أدرك منها يطرف بعين، أو يمصع برجل، أو يحرك ذنباً، وبالجملية ما يتحقق أنه لم يُفَضْ نفسه بل له حياة، فإنه يذكي على سنة الذكاة ويؤكل، وما فاضت نفسه فهو في حكم الميتة بالوجع ونحوه على ما كانت الجاهلية تعتقده. وقال مالك رحمه الله مرة بهذا القول، وقال أيضاً - وهو المشهور عنه وعن أصحابه من أهل المدينة -: إن قوله تعالى: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» معناه: من هذه المذكورات في وقت تصح فيه ذكاتها، وهو ما لم تنفذ مقاتلتها ويتحقق أنها لا تعيش، ومتى صارت في هذا الحد فهي في حكم الميتة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقال بعض المفسرين: إن الاستثناء في قول الجمهور متصل، وفي قول مالك منقطع، لأن المعنى عنده: لكن ما ذكيتم مما تجوز تذكيته فكلوه، حتى قال بعضهم: إن المعنى: إلا ما ذكيتم من غير هذه فكلوه، وفي هذا عندي نظر، بل الاستثناء على قول مالك متصل، لكنه يخالف في الحال التي تصح فيها ذكاة هذه المذكورات، وقال الطبري: إن الاستثناء عند مالك من التحريم لا من المحرمات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذه العبارة تجوز كثير، وحيثما يلتزم المعنى.

والذكاة في كلام العرب: الذبح، قاله ثعلب، قال ابن سيدة: والعرب تقول: «ذكاة الجنين ذكاة أمه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إنما هو حديث. وذكى الحيوان ذبحه، ومنه قول الشاعر:

- يَذْكِيهَا الْأَسْلَن -

ومما احتج به المالكيون قول مالك «إن ما تيقن أنه يموت من هذه الحوادث فهو في حكم الميتة» - أنه لو لم تحرم هذه التي قد تيقن موتها إلا بأن تموت لكان ذكر الميتة أولاً يُغني عنها، فمن حجة المخالف أن قال: إنما ذكرت بسبب أن العرب كانت تعتقد أن هذه الحوادث كالذكاة فلو لم يذكر لها غير الميتة لظنت أنها ميتة الرجوع حسب ما كانت هي عليه.

٣ - تفسير قوله تعالى: قوله: «وَمَا ذُبِحَ» عطف على

المحرمات المذكورات، و﴿أَنْصَبَ﴾ جمعٌ، واحده: نصاب، وقيل: هو اسم مفرد، وجمعه: أنصاب، وهي حجارة تُنصب، كان منها حول الكعبة ثلاثمائة وستون، وكان أهل الجاهلية يُعظمونها ويذبحون عليها لآلهتهم ولها أيضاً، وتلطخ بالدماء، وتوضع عليها اللحم قطعاً قطعاً ليأكل الناس، قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: النَّصْب حجارة كان أهل الجاهلية يذبحون عليها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ويهلون عليها، قال ابن جُرَيْج: النَّصْب ليست بأصنام، الصُّم يصور وينقش، وهذه الحجارة تنصب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد كانت للعرب في بلادها أنصاب حجارة يعبدونها، ويحكون فيها أنصاب مكة، ومنها الحجر المسمى بسعد وغيره، قال ابن جريج: كانت العرب تذبح بمكة، وينضحون بالدم ما أقبل من البيت، ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة، فلما جاء الإسلام قال المسلمون لرسول الله ﷺ: نحن أحق أن نعظم هذا البيت بهذه الأفعال، فكان رسول الله ﷺ لم يكره ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لَوِثْمَهَا وَلَا يَمَآؤُهَا﴾، ونزلت: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: المعنى والنية فيها تعظيم النصب، قال مجاهد: وكان أهل مكة يبدلون ما شاءوا من تلك الحجارة إذا وجدوا أعجب إليهم منها، قال ابن زيد: ما ذُبِحَ على النصب وما أُهْلَ

به لغير الله شيء واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ما ذبح على النصب جزء مما أُهْلَ به لغير الله، لكن خص بالذكر بعد جنسه لشهرة الأمر، وشرف الموضع، وتعظيم النفوس له، وقد يقال للصنم أيضاً نُصْب لأنه يُنصب، وروي أن الحسن بن أبي الحسن قرأ: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ﴾ بفتح النون وسكون الصاد، وقال: على الصنم. وقرأ طلحة بن مُصروف: ﴿عَلَى النَّصْبِ﴾ بضم النون وسكون الصاد، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿على النَّصْبِ﴾، بفتح النون والصاد، وروي عنه أنه قرأ بضم النون والصاد كقراءة الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْقِيُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ حُرِّمَ به تعالى طلب القسم وهو النصيب، أو القَسْم - بفتح القاف - وهو المصدر بالأزلام. وهي سهام واحدها: زَلَم - بضم الزاي ويفتحها - وأزلام العرب ثلاثة أنواع: منها الثلاثة التي كان يتخذها كل إنسان لنفسه، على أحدها أفعل، والآخر لا تفعل، والثالث مهمل لا شيء عليه فيجعلها في خريطة معه، فإذا أراد فعل شيء أدخل يده - وهي متشابهة - فأخرج أحدهما واثمر وانتهى بحسب ما يخرج له، وإن خرج القدح الذي لا شيء فيه أعاد الضرب، وهذه هي التي ضرب بها سراقه بن مالك بن جعشم حين اتبع النبي ﷺ وقت الهجرة.

والنوع الثاني سبعة قداح كانت عند هبل في جوف الكعبة، فيها أحكام العرب وما يدور بين الناس من

النوازل، في أحدها: العقل في أمور الديات، وفي آخر: منكم، وفي آخر: من غيركم، وفي آخر: ملصق، وفي سائرهما: أحكام المياه وغير ذلك، وهي التي ضرب بها على بني عبدالمطلب، إذ كان نذر هو نحر أحدهم إذا كملوا عشرة، وهو الحديث الطويل الذي في سير ابن إسحق، وهذه السبعة أيضاً متخذة عند كل كاهن من كهان العرب وحكامهم على نحو ما كانت في الكعبة عند هبل.

والنوع الثالث هو قداح الميسر، وهي عشرة، سبعة منها فيها خطوط لها بعددها حظوظ، وثلاثة أغفال، وكانوا يضربون بها مقامرة، ففيها لهو للطلابين ولعب، وكان عقلاؤهم يقصدون بها إطعام المساكين والمُعْدَم في زمن الشتاء وكَلَب البرد وتُعْذَر التَّحَرُّف، وكان من العرب من يستقسم بها لنفسه طلب الكسب والمغامرة، وقد شرحت أمرها بأوعب من هذا في سورة البقرة في تفسير الميسر. فالاستقسام بهذا كله هو طلب القَسْم والنصيب، وهو من أكل المال بالباطل، وهو حرام، وكل مقامرة بحمام أو ببرد أو بشرط نج أو بغير ذلك من هذه الألعاب فهو استقسام بما هو في معنى الأزلام حرام كله.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ يَنْتَقِ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام، والفسق: الخروج من مكان محتو جامع، يقال: فسقت الرطبة: خرجت من قشرها، والفأرة من جحرها، واستعملت اللفظة في الشرع فيمن يخرج من احتواء الأمر الشرعي وإحاطته.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَبِّئُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ معناه عند ابن عباس رضي الله عنهما: من أن ترجعوا إلى دينهم، وقاله السدي وعطاء، وظاهر أمر النبي ﷺ وأصحابه وظهور دينه يقتضي أن يأس الكفار عن الرجوع إلى دينهم قد كان وقع منذ زمان، وإنما هذا اليأس عندي من اضمحلال أمر الإسلام وفساد جمعه، لأن هذا أمر كان يترجاه من بقي من الكفار، ألا ترى إلى قول أخي صفوان بن أمية في يوم هوازن حين انكشف المسلمون وظنها هزيمة: ألا بطل السحر اليوم، إلى غير هذا من الأمثلة، وهذه الآية نزلت في أثر حجة الوداع، وقيل: في يوم عرفة ولم يكن المشركون يومئذ إلا في حِزِّ القلة، ولم يحضر الموسم منهم بشر، وفي ذلك اليوم انمحي أمر الشرك من مشاعر الحج، ويحتمل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ﴾ أن يكون إشارة إلى اليوم بعينه، لا سيما في قول الجمهور - عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره - أنها نزلت في عشية عرفة يوم الجمعة ورسول الله ﷺ في الموقف على ناقته، وليس في الموسم مشرك، ويحتمل أن يكون إشارة إلى الزمن والوقت، أي: في الأوان يشن الذين كفروا من دينكم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعم مشركي العرب وغيرهم من الروم والفرس وغير ذلك، وهذا يقوِّي أن اليأس من انحلال أمر الإسلام وذهاب شوكته، ويقوِّي أن الإشارة باليوم إنما هي إلى الأوان الذي فاتحته يوم عرفة، ولا مشرك بالموسم، ويعضد هذا قوله تعالى:

﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ فإنما نهى المؤمنين عن خشية جميع أنواع الكفار، وأمر بخشيته تعالى التي هي رأس كل عبادة كما قال ﷺ، ومفتاح كل خير، وروي عن أبي عمرو أنه قرأ ﴿يَبِيسَ﴾ بغير همزة، وهي قراءة أبي جعفر.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ تحتل الإشارة باليوم ما قد ذكرناه، وهذا الإكمال عند الجمهور هو الإظهار واستيعاب عظم الفرائض والتحليل والتحرير. قالوا: وقد نزل بعد ذلك قرآن كثير، ونزلت آية الرِّبَا، ونزلت آية الكلاله، إلى غير ذلك. وإنما كمل عظم الدين وأمر الحج أن حجوا وليس معهم مشرك، وقال ابن عباس، والسدي: هو إكمال تام، ولم ينزل على النبي ﷺ بعد ذلك اليوم تحليل ولا تحريم ولا فرض، وحكى الطبري عن بعض من قال هذا القول أن رسول الله ﷺ لم يعيش بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أنه عاش عليه الصلاة والسلام أكثر بأيام يسيرة، وروي أن هذه الآية لما نزلت في يوم الحج الأكبر، وقرأها رسول الله ﷺ بكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فنقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟» فقال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، فقال له النبي ﷺ: «صدقت».

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له يهودي: آية في

كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر يهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال له عمر رضي الله عنه: آية آية هي؟ فقال له: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فقال له عمر رضي الله عنه: قد علمنا ذلك اليوم، نزلت على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة يوم الجمعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ففي ذلك اليوم عيدان لأهل الإسلام إلى يوم القيامة.

وقال داود بن أبي هند للشعبي: إن اليهود تقول: كيف لم تحفظ العرب هذا اليوم الذي كمل الله لها دينها فيه؟ فقال الشعبي: أو ما حفظته؟ قال داود: فقلت: أي يوم هو؟ قال: يوم عرفة.

وقال عيسى بن جارية الأنصاري: كنا جلوساً في الديوان، فقال لنا نصراني مثل ما قال اليهودي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فما أجابه منا أحد، فلقيت محمد بن كعب القرظي فأخبرته، فقال: هلاً! أجبتهم، قال عمر بن الخطاب: أنزلت على النبي ﷺ وهو واقف على الجبل يوم عرفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر عكرمة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: نزلت سورة المائدة بالمدينة يوم الاثنين، وقال الربيع بن أنس: نزلت سورة المائدة في مسير رسول الله ﷺ إلى حجة الوداع، وهذا كله يقتضي أن السورة مدنية بعد الهجرة، وإتمام النعمة هو في: ظهور الإسلام، ونور العقائد، وإكمال الدين، وسعة الأحوال وغير

ذلك مما انتظمت هذه الملة الحنيفية، إلى دخول الجنة والخلود في رحمة الله، هذه كلها نعم الله المتmente قَبَلْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، يحتمل الرضا في هذا الموضع أن يكون بمعنى الإرادة، ويحتمل أن يكون صفة فعل عبارة عن إظهار الله إياه، لأن الرضا من الصفات المترددة بين صفات الذات وصفات الأفعال، والله تعالى قد أراد لنا الإسلام ورضيه لنا، وثم أشياء يريد الله تعالى وقوعها ولا يرضاها، والإسلام في هذه الآية هو الذي في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُوَ فِي شِئْءٍ كَثِيرٍ مِّنَ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ وَالشُّعْبِ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضَلَّ فِي تَحْقِيقِهِ﴾ يعني: مَنْ دعت ضرورة إلى أكل الميتة وسائر المحرمات، وسئل رسول الله ﷺ: متى تحل الميتة؟ فقال: «إذا لم تصطبحوها، ولم تغتبقوها، ولم تحتفتوها بها بقلًا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا مبثال في حال عدم المأكول حتى يؤدي ذلك إلى ذهاب القوة والحياة.

وقرأ ابن محيصن: ﴿فَمَنْ أَطْرُ﴾ بإدغام الضاد في الطاء، وليس بالقياس، ولكن العرب استعملته في ألفاظ قليلة استعمالاً كثيراً. وقد تقدم القول في أحكام الاضطرار في نظير هذه الآية في سورة البقرة.

والمخمصة: المجاعة التي تخمض فيها البطون، أي: تضمض،

والخَمَص: ضمور البطن، فالخلقة منه حسنة في النساء، ومنه يقال: خُمَصَانَةٌ، وبطن خَمِص، ومنه أخمص القدم، ويستعمل ذلك كثيراً في الجوع والغرث، ومنه قول الأعشى:

تَبَيَّنُوا فِي الْمَشْتَى مَلَأَ بَطُونُكُمْ
وَجَارَاتُكُمْ غَرَّتْ بَيْشَنَ خَمَائِصًا
أي: منطويات على الجوع قد أضمر بطونهن.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفِي لِإِثْمِهِ﴾ هو بمعنى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَاوٍ﴾، وقد تقدم تفسيره وفقهه في سورة البقرة، والجنف: الميل، وقرأ أبو عبد الرحمن، ويحيى بن وثاب، وإبراهيم النخعي: ﴿غَيْرَ مُتَجَنِّفٍ﴾ دون ألف، وهي أبلغ في المعنى من متجانف، لأن شد العين يقتضي مبالغة وتوغلاً في المعنى وثبوتاً لحكمه، وتفاعل إنما هي محاكاة الشيء والتقرب منه، ألا ترى إذا قلت: تمايل الغصن، فإن ذلك يقتضي تأوذاً ومقاربة ميل، وإذا قلت: تميل فقد ثبت حكم الميل، كذلك: تصاوون وتصوون، وتغافل وتغفل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نائب مناب «فلا حرج عليه»، إلى ما يتضمن من زيادة الوعد وترجيبة النفوس، وفي الكلام محذوف يدل عليه المذكور، تقديره: فأكل من تلك المحرمات المذكورات.

وسبب نزول قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أن جبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ، فوجد في البيت كلباً فلم يدخل، فقال له

النبي ﷺ: «ادخل»، فقال: أنا لا أدخل بيتاً فيه كلب، فأمر رسول الله ﷺ بقتل الكلاب فقتلت حتى بلغت العوالي، فجاء عاصم بن عدي، وسعد بن خيثمة، وعويم بن ساعدة فقالوا: يا رسول الله: ماذا يحل لنا من هذه الكلاب؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وروى هذا السبب أبو رافع مولى النبي ﷺ، وهو كان المتولي لقتل الكلاب، وحكاه أيضاً عكرمة، ومحمد بن كعب القرظي موقوفاً عليهما، وظاهر الآية أن سائلاً سأل عما أحل للناس من المطاعم، لأن قوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ ليس الجواب عما يحل لنا من اتخاذ الكلاب، اللهم إلا أن يكون هذا من إجابة السائل بأكثر مما سأل عنه، وهذا موجود كثيراً من النبي ﷺ، كجوابه في لباس المخرم وغير ذلك، وهو ﷺ مبين الشرع، فإنما يجاب ماداً إطناب التعليم لأتمه.

والطيبيات: الحلال، هذا هو المعنى عند مالك وغيره، ولا يراعى مسئلاً كان أم لا، وقال الشافعي: الطيبيات: الحلال المسئلذ، وكل مستقذر كالوزغ والخنافس وغيرها فهي من الخبائث حرام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُ مِثْلَ الْبُحَارِ﴾ تقديره: وصيد ما علمتم، أو فاتخاذ ما علمتم، وأعلى مراتب التعليم أن يشلى الحيوان فينشلي، ويدعى فيجيب، ويزجر بعد ظفره بالصيد فينجزر، وأن يكون لا يأكل من صيده، فإذا كان كلب بهيماً الصفات ولم يكن أسود بهيماً

فأجمعت الأمة على صحة الصيد به بشرط أن يكون تعليم مسلم، ويصيد به مسلم، هنا انعقد الإجماع، فإذا انخرم شيء مما ذكرنا دخل الخلاف، فإن كان الذي يصاد به غير كلب كالفهد وما أشبهه، وكالبازي والصقر ونحوهما من الطير، فجمهور الأمة على أن كل ما صاد بعد تعليم فهو جازح، أي: كاسب، يقال: جرح فلان واجترح إذا كسب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّارِ﴾، أي: كسبتم من حسنة وسيئة، وكان ابن عمر يقول: إنما يصاد بالكلاب، فأما ما صيد به من البزاة وغيرها من الطير فما أدركت ذكاته فذكه فهو حلال لك، وإلا فلا تطعمه، هكذا حكى ابن المنذر، قال: وسئل أبو جعفر عن البازي والصقر، أيحل صيده؟ قال: لا، إلا أن تدرك ذكاته، قال: واستثنى قوم البزاة فجوزوا صيدها لحديث عدي بن حاتم، قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي فقال: «إذا أمسك عليك فكل». وقال الضحاك والسدي: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ لِبَنَاتِكُمْ مِّمَّا كَتَبْتُ﴾ هي الكلاب خاصة، فإن كان الكلب أسود بهيماً فكفرة صيده الحسن بن أبي الحسن، وقتادة، وإبراهيم التخمي، وقال أحمد بن حنبل: ما أعرف أحداً يرخص فيه إذا كان بهيماً، وبه قال ابن راهويه، فأما عوام أهل العلم بالمدينة والكوفة فيرون جواز صيد كل كلب معلّم.

وأما أكل الكلب من الصيد، فقال ابن عباس، وأبو هريرة، والشعبي،

وإبراهيم التخمي، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وقتادة، وعكرمة، والشافعي، وأحمد، وإسحق، وأبو ثور، والنعمان وأصحابه: لا يؤكل ما بقي، لأنه إنما أمسك على نفسه، ولم يمسك على ربه، ويعضد هذا القول قول النبي ﷺ لعدي بن حاتم في الكلب المعلم: «وإذا أكل فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه»، وتأول هؤلاء قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: الإمساك التام، ومتى أكل فلم يمسك على الصائد. وقال سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، وأبو هريرة أيضاً، وسلمان الفارسي، رضي الله عنهم: إذا أكل الجارح أكل ما بقي وإن لم تبق إلا بضعة، وهذا قول مالك وجميع أصحابه فيما علمت، وتأولوا قول الله تعالى: ﴿مِمَّا أَمْسَكْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ على عموم الإمساك، فمتى حصل إمساك ولو في بضعة خلأ أكلها، وروي عن التخمي، وأصحاب الرأي، والثوري، وحمام بن أبي سليمان: أنهم رخصوا فيما أكل البازي منه، خاصة في البازي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه لا يمكن فيه أكثر من ذلك، لأن حدّ تعليمه أن يدعى فيجب، وأن يشرب من دم الصيد فجمهور الناس على أن ذلك الصيد يؤكل، وقال عطاء: ليس شرب الدم بأكل، وكثره أكل ذلك الصيد الشعبي، وسفيان الثوري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس في الحيوان شيء يقبل التعليم التام إلا الكلب شاذاً.

وأكثرها يأكل من الصيد، ولذلك لم ير مالك ذلك من شروط التعليم، وأما الطير فقال ربيعة: ما أجاب منها إذا دعي فهو المعلم الضاري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن أكثر الحيوان بطبيعته ينشلي، وقال أصحاب أبي حنيفة: إذا صاد الكلب وأمسك ثلاث مرات ولأه فقد حصل منه التعليم، قاله ابن المنذر: وكان النعمان لا يحدد في ذلك عدداً، وقال غيرهم: إذا فعل ذلك مرة واحدة فقد حصل معلماً، وإذا كان الكلب تعليم يهودي أو نصراني فكفرة الصيّد به الحسن البصري، فأما كلب المجوسي وبازؤه وصقره فكفرة الصيد بها جابر بن عبدالله، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وإبراهيم التخمي، والثوري، وإسحق بن راهويه - ومالك رحمه الله، والشافعي، وأبو حنيفة، وأصحابهم على إباحة الصيد بكلابهم إذا كان الصائد مسلماً، قالوا: وذلك مثل شفرته، وأما إذا كان الصائد من أهل الكتاب فجمهور الأمة على جواز صيده غير مالك رحمه الله، فإنه لم يجوز صيد اليهودي والنصراني، وفرّق بين ذلك وبين ذبيحته، وتلا قول الله تعالى: ﴿تَنَالَهُ يَدِيكُمْ وَمِمَّا كَرِهَ﴾ قال: فلم يذكر الله بهذا اليهود ولا النصراني، وقال ابن وهب، وأشهب: صيد اليهودي والنصراني حلال كذبيحته، وفي كتاب محمد: لا يجوز صيد الصابي ولا ذبيحته، وهم قوم بين اليهود

والنصارى لا دين لهم، وأما إذا كان الصائد مجوسياً فمنع من أكل صيده مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأصحابهم، وعطاء، وابن جبير، والنخعي، والليث بن سعد، وجمهور الناس، وقال أبو ثور فيها قولين: أحدهما كقول هؤلاء، والآخر أن المجوس أهل كتاب، وأن صيدهم جائز.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَمَا عَلَّمَهُ﴾ بفتح العين واللام، وقرأ ابن عباس، ومحمد بن الحنفية: ﴿عَلَّمَهُ﴾ بضم العين وكسر اللام، أي: أمر الجوارح والصيد بها.

والجوارح: الكواسب على ما تقدم، وحكى ابن المنذر عن قوم أنهم قالوا: الجوارح مأخوذ من الجراح، أي: الحيوان الذي له ناب وظفر أو مخلب يجرح به صيده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف، أهل اللغة على خلافه. وقرأ جمهور الناس: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بفتح الكاف وشد اللام، والمكَلَّب: معلم الكلاب ومُضَرِّبها، ويقال لمن يعلم غير كلب: مُكَلَّب، لأنه يرد ذلك الحيوان كالكلب. وقرأ الحسن، وأبو زيد: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بسكون الكاف وتخفيف اللام ومعناه: أصحاب كلاب، يقال: أنشئ الرجل: كثرت ماشيته، وأكلب: كثرت كلابه. وقال بعض المفسرين: المكَلَّب بفتح الكاف وشد اللام: صاحب الكلاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا بمحرر.

وقوله تعالى: ﴿تَلَوْنَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمْ

الله﴾ أي: تعلمونهن من الحيلة في الاصطياد والثأني لتحصيل الحيوان، وهذا جزء مما علمه الله الإنسان فـ [من] للتبعض، ويحتمل أن تكون لا ابتداءً للغاية، وأنت الضمير في ﴿تَلَوْنَهُنَّ﴾ مراعاة للفظ الجوارح، إذ هو جمع جارحة.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل أن يريد: مما أسكن فلم يأكلن منه شيئاً، ويحتمل أن يريد: مما أسكن وإن أكلن بعض الصيد، وبحسب هذا الاحتمال اختلف العلماء في جواز أكل الصيد إذا أكل منه الجراح، وقد تقدم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا أَنَّمَا لَلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أمر بالتسمية عند الإرسال على الصيد، وفقه الصيد والذبح في معنى التسمية واحد، فقال بعض العلماء: هذا الأمر على الوجوب، ومتى ترك المرسل أو الذابح التسمية عمداً أو نسياناً لم تؤكل، ومن رويت عنه كراهية ما لم يسم عليه الله نسياناً الشعبي، وابن سيرين، ونافع، وأبو ثور. ورأى بعض العلماء هذا الأمر بالتسمية على الندب، وإلى ذلك بنحو أشهب في قوله: إن ترك التسمية مستخفاً لم تؤكل، وإن تركها عمداً لا يدري قدر ذلك ولكنه غير متهاون بأمر الشريعة فإنها تؤكل. ومذهب مالك وجمهور أهل العلم أن التسمية واجبة مع الذكر، ساقطة من النسيان، فمن تركها عمداً فقد أفسد الذبيحة، والصيد، ومن تركها ناسياً سُمي عند الأكل وكانت

الذبيحة جائزة. واستحب أكثر أهل العلم ألا يذكر في التسمية غير الله تعالى، وأن لفظها: بسم الله والله أكبر، وقال قوم: إن صلى مع ذلك على النبي ﷺ فجائز.

ثم أمر تعالى بالتقوى على الجملة، والإشارة القريبة هي إلى ما تضمنته هذه الآيات من الأوامر، وسرعة الحساب هي من حيث أنه تبارك وتعالى قد أحاط بكل شيء علماً، فلا يحتاج إلى محاولة عد، وبحاسب جميع الخلائق دفعة واحدة، وتحتمل الآية أن تكون وعيداً بيوم القيامة كأنه قال: إن حساب الله لكم سريع إتيانه إذ يوم القيامة قريب، ويحتمل أن يريد الحساب المجازاة فكأنه توعد في الدنيا بمجازاة سريعة قريبة إن لم يتقوا الله.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ﴾ إشارة إلى الزمن والأوان، والخطاب للمؤمنين، وتقدم القول في ﴿الطَيِّبَاتُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالطَّعَامُ الَّذِي دُونَهُ لَكَلْبٍ﴾ ابتداءً وخبر، و﴿لَكَلْبٍ﴾ معناه: حلال، والطعام في هذه الآية: الذبائح، كذا قال أهل التفسير: وذلك أن الطعام الذي لا محاولة فيه كاللَبْز والفاكهة ونحوه لا يضر فيه ويحرم عينه تملك أحد. والطعام الذي تقع فيه محاولة على ضربين: فمنه ما محاولته صنعة لا تعلق للدين بها كخبز الدقيق وتعصير الزيت ونحوه، فهذا إن تجنب من الذمي فعلى جهة التقزز، والضرب الثاني التي هي محتاجة إلى الدين

والثنية، فإذا كان القياس ألا تجوز ذبائحهم - كما تقول: إنهم لا صلاة لهم ولا صوم ولا عبادة مقبولة - رخص الله تبارك وتعالى في ذبائحهم على هذه الأمة، وأخرجها بالنص على القياس.

ثم إن العلماء اختلفوا في لفظ [طَعَام] - فقال الجمهور: وهي الذبيحة، كلها، وتذكية الذمي عاملة لنا في كل الذبيحة ما حل له منها وما حرم عليه، لأنه مُذَكٌّ، وقالت جماعة من أهل العلم: إنما أحل لنا طعامهم من الذبيحة - أي الحلال لهم - لأن ما لا يحل لهم لا تعمل فيه تذكيتهم، فمنعت هذه الطائفة الطَّرفِيف والشحوم المحضة من ذبائح أهل الكتاب، وهذا الخلاف موجود في مذهب مالك رحمه الله.

واختلف العلماء في لفظة [أَوْثُوا] - فقالت فرقة: إنما أحلت لنا ذبائح بني إسرائيل والنصارى الصرحاء الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل، فمنعت هذه الفرقة ذبائح نصارى بني تغلب من العرب، وذبائح كل دخيل في هذين الدينين، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ينهى عن ذبائح نصارى بني تغلب ويقول: لأنهم لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا ليس بنهي عن ذبائح النصارى المحققين منهم، وقال جمهور الأمة: ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وابن المسيب، والشعبي، وعطاء، وابن شهاب، والحكم، وحماد، وقتادة، ومالك رحمه الله،

وغيرهم: إن ذبيحة كل نصراني حلال سواء كان من بني تغلب أو غيرهم، وكذلك اليهود، وتأولوا قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ فَيَنْتَحِلْ مِنْهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾ أي: ذبائحكم، فهذه رخصة للمسلمين لأهل الكتاب، لما كان الأمر يقتضي أن شيئاً قد تشرعنا فيه بالتذكية ينبغي لنا أن نحمله منهم، ورخص الله تعالى في ذلك رفعاً للمشقة بحسب التجاوز.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّعَنَ﴾ عطف على الطعام المحلل. والإحصان في كلام العرب وفي تصريف الشرع مأخوذ من المنعة، ومنه الحصن، وهو مترتب بأربعة أشياء: الإسلام والعفة والنكاح والحرية، فيمتنع في هذا الموضع أن يكون الإسلام لأنه قد نص أنهن من أهل الكتاب، ويمتنع أن يكون النكاح لأن ذات الزوج لا تحل، ولم يبق إلا الحرية والعفة فاللفظة تحتلها. واختلف أهل العلم بحسب هذا الاحتمال - فقال مالك رحمه الله، ومجاهد، وعمر بن الخطاب، وجماعة من أهل العلم: المحصنات في هذه الآية: الحرائر، فمنعوا نكاح الأئمة الكتابية، وقالت جماعة من أهل العلم: المحصنات في هذه الآية: العفاف، منهم مجاهد أيضاً، والشعبي، وغيرهم، فجوزوا نكاح الأمة الكتابية، وبه قال سفيان، والسدي، وقال الشعبي: إحصان الذمية ألا تزني وأن تغتسل من الجنابة، وقال أبو ميسرة: مملوكات

أهل الكتاب بمنزلة حرائرن العفاف منهن حلالاً نكاحهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومنع بعض العلماء زواج غير العفيفة بهذه الآية، وقال الحسن بن أبي الحسن: إذا أطلع الرجل من امرأته على فاحشة فليفارقه، وفرق ابن عباس رضي الله عنهما بين نساء أهل الحرب ونساء أهل الذمة فقال: من أهل الكتاب من يحل لنا وهم كل من أعطى الجزية، ومنهم من لا يحل لنا وهم أهل الحرب. وكبره مالك رحمه الله نكاح نساء أهل الحرب مخافة ضياع الولد أو تغيير دينه.

والأجور في هذه الآية: المهور، وانتزع أهل العلم من لفظة [آتَيْتُمُوهُنَّ] أنه لا ينبغي أن يدخل زوج بزوجه إلا بعد أن يبذل من المهر ما يستحلها به، ومن جوز أن يدخل دون أن يبذل ذلك فرأى أنه بحكم الارتباط والالتزام في حكم المؤتي.

و ﴿تُحْصِنِينَ﴾ معناه: متزوجين على الشئ، والإحصان - في هذا الموضع - هو بالنكاح، والمسافح: المزاني، والسفاح: الزنى، والمسافحة هي المرأة التي لا ترد يد لأمس، وتزني مع كل أحد، وهن أصحاب الرايات في الجاهلية، والمخاذنة: أن يكون الزانيان قد وقف كل واحد نفسه على صاحبه، وقد تقدم نظير هذه الآية، وفُسر بأوعب من هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ يحتمل أن يكون المعنى على أن الكفر هو بنفسي الإيمان، وفي هذا

المصطلق، وفيها كان هبوب الريح فيما روي، وفيها كان قول عبدالله بن أبي ابن سلول: «لئن رجعنا إلى المدينة» القصة بطولها، وفيها وقع حديث الإفك.

ولما كانت محاولة الصلاة في الأغلب إنما هي بقيام جاءت العبارة: «إِذَا قُمْتُمْ». واختلف الناس في القرينة التي أريدت مع قوله: «إِذَا قُمْتُمْ». فقالت طائفة: هذا لفظ عام في كل قيام، سواء كان المرء على طهور أو محدثاً، فإنه

ينبغي له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ، وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يفعل ذلك ويقرأ الآية، وروي نحوه عن عكرمة، وقال ابن سيرين: كان الخلفاء يتوضؤون لكل صلاة، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توضأ وضوءاً فيه تجوز، ثم قال: هذا وضوء من لم يحدث. وقال عبدالله بن حنظلة بن أبي عامر القسيلي: إن النبي ﷺ أمر بالوضوء عند كل صلاة فشق ذلك عليه فأمر بالسواك ورفع عنه الوضوء إلا من حدث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكان كثير من الصحابة منهم ابن عمر وغيره يتوضؤون لكل صلاة انتداباً إلى فضيلة، وكذلك كان رسول الله ﷺ يفعل، ثم جمع بين

صلاتين بوضوء واحد في حديث سويد بن النعمان، وفي غير موطن، إلى أن جمع يوم الفتح بين الصلوات الخمس بوضوء واحد، إرادة البيان لأمره. وروي ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات» وقال: إنما رغبت في هذا. وقالت فرقة: نزلت هذه الآية رخصة لرسول الله ﷺ، لأنه كان لا يعمل عملاً إلا وهو على وضوء، ولا يكلم أحداً، ولا يرد سلاماً، إلى غير ذلك، فأعلمه الله بهذه الآية أن الوضوء إنما هو عند القيام إلى الصلاة فقط دون سائر الأعمال، قال ذلك علقمة بن الفغواء، وهو من الصحابة وكان دليل رسول الله ﷺ إلى تبوك، وقال زيد بن أسلم، والسدي: معنى الآية: إذا قمت إلى الصلاة من المضاجع، يعني النوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقصد بهذا التأويل أن يعم الأحداث بالذكر، ولا سيما النوم الذي هو مختلف فيه، هل في نفسه حدث، وفي الآية على هذا التأويل تقديم وتأخير، تقديره: «يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ» من النوم، «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ» يعني الملامسة الصغرى، «فَأَعْبِلُوا» - فتمت أحكام المحدث حدثاً أصغر، ثم قال: «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا» فهذا حكم نوع آخر، ثم قال للنوعين جميعاً: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْجَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا»، وقال بهذا

يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْجَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثْقَلَةَ الذَّرَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ يَوْمَ تَكُونُ الْأَشْجَارُ أَذْهَبَةً قَلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدُاتِ الصُّدُورِ ۝٧ يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩

مجاز واستعارة، لأن الإيمان لا يتصور كفر به، إنما الكفر بالأمور التي حقها أن يقع الإيمان بها، وباقي الآية بين.

٦ تفسير قوله عز وجل:

لا يختلف أن هذه الآية هي التي قالت عائشة رضي الله عنها فيها: «نزلت آية التيمم»، وهي آية الوضوء، لكن من حيث كان الوضوء متقراً عندهم مستعملاً فكان الآية لم تزدهم فيه إلا تلاوته، وإنما أعطتهم الفائدة والرخصة في التيمم. واستدل على حصول الوضوء بقول عائشة رضي الله عنها: «فأقام رسول الله ﷺ بالناس وليسوا على ماءٍ وليس معهم ماء». وآية النساء إما نزلت معها أو بعدها ببسیر، وكانت قصة التيمم في سفر رسول الله ﷺ في غزوة المُرَيسِيع، وهي غزوة بني

التأويل محمد بن مسلمة من أصحاب مالك رحمه الله وغيره.

وقال جمهور أهل العلم: معنى الآية: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ «مُحْدِثِينَ»، وليس في الآية على هذا تقديم ولا تأخير، بل يترتب في الآية حكم واجد الماء إلى قوله: ﴿فَاغْسِلُوا﴾، ودخلت الملامسة الصغرى في قوله: «مُحْدِثِينَ»، ثم ذكر بعد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنْهُمْ مَبْغِضًا﴾ إلى آخر الآية حكم عادم الماء من النوعين جميعاً، وكانت الملامسة هي الجماع ولا بد، ليدكر الجُنُب العادم للماء كما ذكر الواجد. وهذا هو تأويل الشافعي وغيره، وعليه تجيء أقوال الصحابة كسعد بن أبي وقاص، وابن عباس، وأبي موسى، وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾، الغسل في اللغة: إيجاب الماء في المغسول مع إمرار شيء عليه كاليد، أو ما قام مقامها، وهو يتفاضل بحسب الانغمار في الماء أو التقليل منه، وغسل الوجه في الوضوء هو بنقل الماء إليه وإمرار اليد عليه، والوجه: ما واجه الناظر وقابله، وحده في الطول منابت الشعر فوق الجبهة إلى آخر الذقن، وعبر بعض الناس: إلى ما قابل آخر الذقن، وقيل: بل حده فيها آخر الشعر. واختلف العلماء في تخليل اللحية على قولين: روي تخليلها عن النبي ﷺ من حديث أنس، ذكره الطبري، واختلف في حده عرضاً - فهو في المرأة والأمرد من الأذن إلى الأذن، وفي ذي اللحية ثلاثة أقوال -

فقيل: من الشعر إلى الشعر - يعني شعر العارضين، وقيل: من الأذن إلى الأذن، ويدخل البياض الذي بين العارض والأذن في الوجه، وقيل: يغسل ذلك البياض استحباباً، واختلف في الأذنين - فقيل: هما من الرأس، وقال الزهري: من الوجه، وقيل: هما عضو قائم بنفسه ليس من الوجه ولا من الرأس، وقيل: ما أقبل منهما من الوجه، وما أدبر فهو من الرأس. واختلف في المضمضة والاستنشاق - فجمهور الأمة يرونها سنة، ولا يدخل هذان الباطنان عندهم في الوجه، وقال مجاهد: الاستنشاق شطر الوضوء، وقال حماد بن أبي سليمان، وقتادة، وعطاء، والزهري، وابن أبي ليلى، وابن راهويه: من ترك المضمضة والاستنشاق في الوضوء أعاد الصلاة، وقال أحمد: يعيد من ترك الاستنشاق، ولا يعيد من ترك المضمضة، والناس كلهم على أن داخل العينين لا يلزم غسله إلا ما روي عن عبدالله بن عمر أنه كان ينضح الماء في عينيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيِّدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾. اليد في اللغة تقع على العضو الذي هو من المنكب إلى أطراف الأصابع، ولذلك كان أبو هريرة يغسل جميعه في الوضوء أحياناً ليطلق الغرة، وحّد الله موضع الغسل منه بقوله: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، يقال في واحد: مِرْفَقٌ وَمِرْفَقٌ، وكسر الميم وفتح الفاء أشهر، واختلف العلماء هل تدخل المرافق في الغسل أم لا؟ فقالت طائفة: لا

تدخل، لأن (إِلَى) غاية تحول بين ما قبلها وما بعدها، وقالت طائفة: تدخل المرافق في الغسل، لأن ما بعد (إِلَى) إذا كان من نوع ما قبلها فهو داخل، ومثل أبو العباس المبرد في ذلك بأن تقول: اشتريت الفدان إلى حاشيته، أو بأن تقول: اشتريت الفدان إلى الدار، ويقول: ﴿أَيُّوْا أَيْتَامَ إِلَى الْيَتَامَى﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحرير العبارة في هذا المعنى أن يقال: إذا كان ما بعد (إِلَى) ليس مما قبلها، فالحدّ أول المذكور بعدها، وإذا كان ما بعدها من جملة ما قبلها فالاحتياط يعطي أن الحدّ آخر المذكور بعدها، ولذلك يترجح دخول المرفقين في الغسل، والروايتان محفوظتان عن مالك ابن أنس رضي الله عنه، روى عنه أشهب أن المرفقين غير داخلين في الحد، وروى عنه أنهما داخلان.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ المسح أن يمر على الشيء بشيء مبلول بالماء. وسُنَّة مسح الرأس أن يؤخذ ماء باليدين ثم يرسل، ثم يمسح الرأس بما تعلق باليدين. واختلف في مسح الرأس في مواضع منها هيئة المسح - فقالت طائفة منها مالك، والشافعي، وجماعة من الصحابة والتابعين: يبدأ بمقدم رأسه، ثم يذهب بهما إلى قفاه، ثم يردهما إلى مقدمه، وقالت فرقة: يبدأ من مؤخر الرأس حتى يجيء إلى المقدم ثم يرد إلى المؤخر، وقالت فرقة: يبدأ من وسط الرأس فيجيء يديه نحو الوجه، ثم

يرد فيصيب باطن الشعر، فإذا انتهى إلى وسط الرأس أمرَ يديه كذلك على ظاهر شعر مؤخّر الرأس، ثم يرد فيصيب باطنه ويقف عند وسط الرأس، وقالت فرقة: يمسح رأسه من هنا وهنا على غير نظام ولا مبدأ محدود حتى يعمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله قول بالعموم. واختلف في ردّ اليدين على شعر الرأس، هل هو فرض أم سنة، وقيل: هو فرض. ومن مواضع الخلاف في مسح الرأس قُدِّرَ ما يمسح - فقالت جماعة: الواجب من مسح الرأس عمومه، ثم اختلفوا في الهيئات على ما ذكرناه. وقال محمد بن مسلمة: إنَّ مَسَحَ ثَلَاثِي الرُّأْسِ وَتَرَكَ الثُّلُثَ أَجْزَاءً، وقال أبو الفَرَج المالكى - وروى عن مالك -: إنه إن مسح الثلث أجزاً لأنه كثير في أمور من الشرع، وقال أشهب: إنَّ مَسَحَ النَّاصِيَةِ أَجْزَاءً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكلٌّ مَن أَحْفَظَ عَنْهُ إِجْزَاءً بَعْضُ الرُّأْسِ فَإِنَّهُ يَرَى ذَلِكَ الْبَعْضَ مِنْ مَقْدَمِ الرُّأْسِ، وذلك أنه قد روي في ذلك أحاديث في بعضها ذكر الناصية، وفي بعضها ذكر مقدم الرأس، إلا ما روي عن إبراهيم، والشعبي، قالوا: أي نواحي رأسك مسحت أجزأك. وكان سلمة بن الأكوع يمسح مقدم رأسه، وروي عن ابن عمر أنه مسح اليافوخ فقط. وقال أصحاب الرأي: إن مسح بثلاث أصابع أجزأه، وإن كان الممسوح أقل مما يمر عليه ثلاث

أصابع لم يجزىء. وقال قوم: يجزىء من مسح الرأس أن يمسح مسحة بإصبع واحدة، وقال الحسن بن أبي الحسن: إن لم تصب المرأة إلا شعرة واحدة أجزأها، وحكى الطبري وغيره عن سفيان الثوري أن الرجل إذا مسح شعرة واحدة أجزأه.

ومن مواضع الخلاف في مسح الرأس، ما العضو الذي يمسح به؟ - فالإجماع على استحسان المسح باليدين جميعاً، وعلى الإجزاء إن مسح بواحدة. واختلف في من مسح بإصبع واحدة حتى عمّ ما يرى أنه يجزئه من الرأس، فالمشهور أن ذلك يجزىء، وقيل: لا يجزىء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويترجح أنه لا يجزىء لأنه خروج عن سنة المسح وكأنه لعب، إلا أن يكون ذلك عن ضرورة مرض فينبغي ألا يختلف في الإجزاء.

ومن مواضع الخلاف عدد المسحات - فالجمهور على مرة واحدة، ويجزىء ذلك عند الشافعي وثلاث أحب إليه، وروي عن ابن سيرين أنه مسح رأسه مرتين، وروي عن أنس أنه قال: يمسح الرأس ثلاثاً، وقاله سعيد بن جبير، وعطاء، وميسرة.

والباء في قوله: ﴿رُءُوسِكُمْ﴾ مؤكدة زائدة عند من يرى عموم الرأس، والمعنى عنده: وامسحوا رؤوسكم، وهي للإلحاق المحض عند من يرى إجزاء بعض الرأس كأن المعنى: أوجدوا مسحاً برؤوسكم، فمن مسح شعرة فقد فعل ذلك، ثم اتبعوا في

المقادير التي حدوها آثاراً وأقيسة بحسب اجتهاد العلماء رحمهم الله.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة: ﴿وَأَرْجُلُكُمْ﴾ خفضاً، وقرأ نافع وابن عامر، والكسائي: ﴿وَأَرْجُلُكُمْ﴾ نصباً، وروى أبو بكر عن عاصم الخفض، وروى عنه حفص النصب، وقرأ الحسن، والأعمش: ﴿وَأَرْجُلُكُمْ﴾ بالرفع، المعنى: فاغسلوها، وزويت عن نافع. وبحسب هذا اختلاف الصحابة والتابعين، فكل من قرأ بالنصب جعل العامل ﴿اغسلوها﴾، وبنى على أن الفرض في الرجلين الغسل بالماء دون المسح، وهذا هو مذهب الجمهور، وعليه فعل النبي ﷺ، وهو اللازم من قوله ﷺ وقد رأى قوماً يتوضؤون وأعقابهم تلوح، فنادى بأعلى صوته: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ».

ومن قرأ بالخفض جعل العامل أقرب العاملين، واختلفوا - فقالت فرقة منهم: الفرض في الرجلين المسح لا الغسل، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الوضوء غسلتان ومسحتان»، وروي أن الحجاج خطب بالأهواز فذكر الوضوء فقال: «اغسلوا وجوهكم وأيديكم، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، وإنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما»، فسمع ذلك أنس بن مالك فقال: «صدق الله وكذب الحجاج» قال الله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا رُءُوسَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾، قال: وكان

أنس إذا مسح رجله بلهما، وروي أيضاً عن أنس أنه قال: «نزل القرآن بالمسح، والسُّنَّة بالغسل»، وكان عكرمة يمسح على رجله وليس في الرجلين غسل، إنما نزل فيهما المسح، وقال الشعبي: «نزل جبريل بالمسح»، ثم قال: «ألا ترى أن التيمم يمسح فيه ما كان غَسْلاً، ويلغي ما كان مسحاً؟»، وروي عن أبي جعفر أنه قال: «امسح على رأسك وقدميك»، وقال قتادة: «افترض الله غَسْلَتَيْنِ وَمَسْحَتَيْنِ». وكلُّ من ذكرنا فقراءته: «وَأَرْجُلَيْكُمْ» بكسر اللام، وبذلك قرأ علقمة، والأعمش، والضحاك، وغيرهم، وذكرهم الطبري تحت ترجمة القول بالمسح.

وذهب قوم ممن يقرأ بكسر اللام إلى أن المسح في الرجلين هو الغسل، وروي عن أبي زيد أن العرب تسمي الغسل الخفيف مسحاً، ويقولون: «تَمَسَّحْتُ لِلصَّلَاةِ» بمعنى: غَسَلْتُ أَعْضَائِي، وقال أبو عبيدة، وغيره في تفسير قوله تعالى: «فَكَفَيْتُمْ مَسْحًا»: إنه الضرب، ويقال: مسح علاوته إذا ضربه، قال أبو علي: فهذا يقوي أن المراد بـمسح الرجلين الغسل. ومن الدليل على أن مسح الرجلين يراد به الغسل أن الحد قد وقع فيهما بإلى كما وقع في الأيدي وهو مغسولة، ولم يقع في الممسوح حد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعترض هذا التأويل بترك الحد في الوجه، فكان الوضوء مغسولين حد أحدهما، وممسوحين حد أحدهما.

وقال الطبري رحمه الله: إن مسح الرجلين هو بوصول الماء إليهما، ثم يمسح بيديه بعد ذلك فيكون المرأة غاسلاً ماسحاً. ولذلك كره أكثر العلماء للمتوضيء أن يدخل رجله في الماء دون أن يمر يديه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد جوز ذلك قوم منهم الحسن البصري وبعض فقهاء الأمصار، وجمهور الأمة من الصحابة والتابعين على أن الفرض في الرجلين الغسل وأن المسح لا يجزئ، وروي ذلك عن الضحاك وهو يقرأ بكسر اللام. والكلام في قوله: «إِلَى الْكَعْبَيْنِ» كما تقدم في قوله: «إِلَى الْأَرْفَاقِ»، واختلف اللغويون في (الكعبين) - فالجمهور على أنهما العظامان الناثان في جنبي الرجل، وهذان هما حد الوضوء بالإجماع فيما علمت. واختلف، هل يدخلان في الغسل أم لا كما تقدم في المرفق وقال قوم: الكعب: هو العظم الناتئ في وجه القدم حيث يجتمع شراك النعل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا أعلم أحداً جعل حد الوضوء إلى هذا، ولكن عبد الوهاب في التلقين جاء في ذلك بلفظ فيه تخليط وإبهام. قال الشافعي رحمه الله: لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين هما العظامان في مجمع مفصل الساق. وروي الطبري عن يونس عن أشهب عن مالك قال: الكعبان اللذان يجب الوضوء إليهما هما العظامان المتصقان بالساق المحاذيان للعقب، وليس الكعب بالظاهر في وجه القدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر ذلك من الآية، من قوله في الأيدي: «إِلَى الْأَرْفَاقِ»، أي: في كل يد مرفق، ولو كان كذلك في الأرجل ل قيل: «إِلَى الْكَعُوبِ» فلما كان في كل رجل كعبان خصا بالذكر.

وألفاظ الآية تقتضي الموالاة بين الأعضاء، واختلف العلماء في ذلك - فقال ابن أبي سلمة، وابن وهب: ذلك من فروض الوضوء في الذكر والنسيان، وقال ابن عبد الحكم: ليس بفرض مع الذكر، وقال مالك: هو فرض مع الذكر ساقط مع النسيان.

وكذلك تتضمن ألفاظ الآية الترتيب، واختلف فيه - فقال الأبهري: الترتيب سنة، وظاهر المذهب أن التنكيس للناسي مجزئ، واختلف في العائد فقيل: يجزئ ويرتب في المستقبل، وقال أبو بكر القاضي وغيره: لا يجزئ لأنه عابث.

وقوله تعالى: «وَلَنْ كُنْتُمْ جُنُبًا». الجُنُب مأخوذ من الجُنْب، لأنه يمس جنبه جنب امرأة في الأغلب، ومن المجاورة والقرب قيل: «والجار الجُنْب»، ويحتمل الجُنْب أن يكون من البعد، إذ البعد يسمى جنباً، ومنه تجنب الشيء إذا بعدت عنه، فكانه جانب الطهارة. وعلى هذا يحتمل أن يكون «الجار الجُنْب» هو البعيد الجوار، ويكون مقابلاً للخاص بالجنب.

و «فَأَطَهَّرُوا» أمرٌ بالاغتسال بالماء، ولذلك رأى عمر بن

بالحنيفية السمحة، وجاء لفظ الآية على العموم والشيء المذكور بقرب هو أمر التيمم والرخصة فيه وزوال الحرج في تحمل الماء أبداً، ولذلك قال أسيد: «ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر».

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ يُطَهِّرَكُمْ﴾ الآية إعلام بما لا يوازي بشكر من عظيم تفضله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا كُنْتُمْ تَرَجُّ فِي حَقِّ الْبَشَرِ، وَقَرَأَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَبِّبِ: «يُطَهِّرَكُمْ» بسكون الطاء وتخفيف الهاء.

٧ - تفسير قوله عز وجل:

الخطاب بقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ إلى آخر الآية هو للمؤمنين بمحمد ﷺ، و﴿يَعْمَلُ اللَّهُ﴾ اسم جنس يجمع الإسلام، وجمع الكلمة، وعزة الحياة، وغنى المال، وحسن المآل، هذه كلها نعم هذه الملة، والميثاق المذكور هو ما وقع للنبي ﷺ في بيعات العقبة وبيعة الرضوان، وكل موطن قال الناس فيه: سمعنا وأطعنا، هذا هو قول ابن عباس، والسدي، وجماعة من المفسرين، وقال مجاهد: الميثاق المذكور هو المأخوذ على النسم حين استخرجوا من ظهر آدم، والقول الأول أرجح وأليق بنمط الكلام.

ثم أمر تعالى المؤمنين بالقيام دأباً متكرراً بالقسط وهو العدل، وقد تقدم نظير هذا في سورة النساء، وتقدم في صدر هذه السورة نظير قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ﴾، وباقى الآية بين متكرر، والله المعين.

٨ - تفسير قوله عز وجل:

هذه آية وعد للمؤمنين بستر الذنوب

وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ الإرادة: صفة ذات، وجاء الفعل مستقبلاً مراعاة للحوادث التي تظهر عن الإرادة، فإنها تجيء مؤتلفة، من تطهير المؤمنين وإتمام النعم عليهم، وتعدية (أراد) وما تصرف منه بهذه اللام عرف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

أريد لأتسى ذكركم فكانت
تمثل لي ليلي بكل سبيل
قال سيبويه: وسألته

رحمه الله عن هذا فقال:

المعنى: إرادتي لأتسى، ومن ذلك قول قيس بن سعد:

أزدت لي كَيْمًا يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّهَا
سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُفُودُ شُهُودُ
ويحتمل أن يكون في الكلام مفعول محذوف تتعلق به اللام، وما قال الخليل لسيبويه أخضر وأحسن. ويعترض هذا الاحتمال في المفعول المحذوف بأن [مين] تصوير زائدة في الواجب، وينفصل بأن قوة النفي الذي في صدر الكلام يشفع لزيادة [مين] وإن لم يكن النفي واقعاً على الفعل على الحرج، ولهذا نظرنا.

والحرج: الضيق، والحرجة: الشجر الملتف المتضائق، ومنه قيل يوم بدر في أبي جهل: إنه كان في مثل الخرج من الرماح، ويجري مع معنى هذه الآية قول النبي ﷺ: «بُعِثْتُ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ يَتَأَيَّمُوا لَدُنَّ النَّارِ ۖ وَمَاتُوا وَهُمْ فِيهَا قَدْ كَانَتْ آيَاتُهُمْ ۚ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ فِيمَا نَقُضُهُمْ عَلَيْهِمْ لَعْنُتُكُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۖ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝

١٠٩

الخطاب رضي الله عنه، وابن مسعود، وغيرهما أن الجنب لا يقيم البتة، بل يدع الصلاة حتى يجد الماء، وقال جمهور الناس: بل هذه العبارة هي لواجد الماء، وقد ذكر الجنب أيضاً بغد في أحكام عادم الماء بقوله تعالى: ﴿أَوْ لَكُنْتُمْ آلِ نِسَاءٍ﴾، إذ الملامسة هنا الجماع. والظهور بالماء صفته أن يعم الجسد بالماء وتمر اليد مع ذلك عليه، هذا هو مشهور المذهب، وروى محمد بن مروان الظاهري، وغيره، عن مالك أنه يجزئ في غسل الجنابة أن ينغمس الرجل في الماء دون تدلك، وقد تقدم في سورة النساء تفسير قوله عز وجل: ﴿وَرَأَى كُنْتُمْ مَرْجُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ مِنَّهُ﴾، وقراءة من قرأ: ﴿مِنْ أَلْفَيْتٍ﴾.

عليه وبالجنة، فهي الأجر العظيم، و ﴿وَعَدَ﴾ بتعدى إلى مفعولين ويجوز الاقتصاد على أحدهما، وكذلك هو في هذه الآية، فالمفعول الثاني مقدر، يفسره ويدل عليه قوله: ﴿لَكُمْ مَغْفِرَةٌ﴾، ثم عقب تعالى بذكر حال الكفار لبيان الفرق.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب للنبي ﷺ وأمه، والنعمة هي العاملة في ﴿إِذَا﴾، وهي نعمة مخصوصة، وهم الرجل بالشيء إذا أراد فعله، ومنه قول الشاعر:

هَلْ يَنْفَعُكَ الْيَوْمَ إِنْ هَمَّ بِهَمْ
كثرة ما تُوصِي وتُعْقَدُ الرِّثْمُ؟
ومنه قول الآخر:

هَمَّتْ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكَذْتُ وَلَيْتَنِي
تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَالُهُ

واختلف الناس في سبب هذه الآية، وما النازلة التي وقع فيها الهم ببسط اليد والكف من الله تعالى؟ - فقال الجمهور: إن سبب هذه الآية أنه لما قتل أهل بئر معونة نجا من القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل آخر معه. فلقيا بقرب المدينة رجلين من سليم قد كان أخذا عهداً من النبي ﷺ وانصرفا، فسألها عمرو: ميمن أنتما؟ فانتسبا إلى بني عامر رهط عامر بن الطفيل، وهو كان الجاني على المسلمين في بئر معونة، فقتلها عمرو وصاحبه، وأتيا بسلبهما النبي ﷺ، فقال: «لقد قتلتما قتيلين، لأديتھما»، ثم شرع رسول الله ﷺ في جمع الدية، فذهب يوماً إلى بني النضير يستعينهم في الدية، ومعه أبو بكر وعمر وعلي، فكلّمهم فقالوا: نعم يا أبا

القاسم، انزل حتى نصنع لك طعاماً وننظر في معونتك، فنزل رسول الله ﷺ في ظل جدار، فتأمروا بينهم في قتله، وقالوا: ما ظفرتم بمحمد قط أقرب مراماً منه اليوم، فقال بعضهم لبعض: من رجل يظهر على الحائط فيصب عليه حجراً يشدخه؟ فانتدب لذلك عمرو ابن جحاش فيما روي، وجاء جبريل عليه السلام فأخبر النبي ﷺ، فقام رسول الله ﷺ من المكان وتوجه إلى المدينة، ونزلت الآية في ذلك. وفي الخبر زوائد لا تخص الآية، وقد ذكره ابن إسحق وغيره، وهذا القول يترجح بما يأتي بعد من الآيات في وصف غدر بني إسرائيل ونقضهم المواثيق.

وقالت جماعة من العلماء: سبب الآية فعل الأعرابي في غزوة «ذات الرقاع»، وهي غزوة النبي ﷺ بني محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان، وذلك أنه نزل بوادي كثير العضاء، فتفرق الناس في الظلال، وترك النبي ﷺ شجرة ظلييلة، فعلق سيفه بها ونام، فجاء رجل من محارب فاخترط السيف فانتبه النبي ﷺ والسيف صلت في يده، فقال للنبي ﷺ: أتخافني؟ فقال: «لا». فقال له: ومن يمنعك مني؟ فقال: «الله»، فثام السيف في غمده وجلس. وفي البخاري أن النبي ﷺ دعا الناس فاجتمعوا وهو جالس عند النبي ﷺ ولم يعاقبه، وذكر الواقدي، وابن حاتم عن أبيه أنه أسلم، وذكر قوم أنه ضرب برأسه في ساق الشجرة حتى مات، فنزلت

الآية بسبب ذلك، وفي البخاري في غزوة «ذات الرقاع» أن اسم الرجل غَزَزْتُ بن الحارث - بالَغَيْنِ منقوطة، وحكى بعض الناس أن اسمه دُعُور بن الحارث.

وحكى الطبري أن الآية نزلت بسبب قوم من اليهود أرادوا قتل النبي ﷺ في طعام، فأشعره الله بذلك، ثم أدخل الطبري تحت هذه الترجمة عن ابن عباس خلاف ما ترجم به من أن قوماً من اليهود صنعوا للنبي ﷺ وأصحابه طعاماً ليقتلوه إذا أتى الطعام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيشبه أن ابن عباس رضي الله عنهما إنما وصف قصة بني النضير المتقدمة.

وقال قتادة: سبب الآية ما همت به محارب وبنو ثعلبة يوم ذات الرقاع من الحمل على المسلمين في صلاة العصر، فأشعره الله تبارك وتعالى بذلك، ونزلت صلاة الخوف، فذلك كف أيديهم عن المسلمين.

وحكى ابن قُورق عن الحسن بن أبي الحسن أن الآية نزلت بسبب أن قريشاً بعثت إلى النبي ﷺ رجلاً ليغتاله ويقتله، فأطلعه الله تبارك وتعالى على ذلك وكفاه شره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمحفوظ في هذا هو نهوض عمير بن وهب لهذا المعنى بعد اتفاهه على ذلك مع صفوان بن أمية، والحديث بكماله في سير ابن هشام.

وذكر قوم من المفسرين - وأشار

إليه الزجاج - أن الآية نزلت في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَسَّرَ الْإِيمَانَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ فكأنه تبارك وتعالى عدّد على المؤمنين يَعمَه في أن أظهرهم، وكفّ بذلك أيدي الكفار عنهم التي كانوا هموا ببسطها إلى المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحسن - على هذا القول - أن تكون الآية نزلت عقب غزوة الخندق وحين هزم الله الأحزاب، وكفى الله المؤمنين القتال، وباقى الآية أمر بالتقوى والتوكل.

تفسير قوله عز وجل:

هذه الآيات المتضمنة الخبر عن نقضهم موثيق الله تعالى تقوي أن الآية المتقدمة في كف الأيدي إنما كانت في أمر بني النضير، واختلف المفسرون في كيفية بعثة هؤلاء النقباء، بعد الإجماع على أن النقيب كبير القوم القائم بأمرهم التي ينقب عنها وعن مصالحهم فيها، والثقاب: الرجل العظيم الذي هو في الناس كلهم على هذه الطريقة، ومنه قيل في عمر رضي الله عنه: إنه كان لثقاباً، فالنقباء: الضمان، واحدهم: نقيب، وهو شاهد القوم وضمينهم، وقال قوم: النقباء: الأمناء على قومهم، وهذا كله قريب بعضه من بعض، والنقيب أكبر مكانة من العريف، قال قتادة رحمه الله، وغيره: هؤلاء النقباء قوم من كل سبط تكفل كل واحد بسبطه بأن يؤمنوا ويتقوا الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونحو هذا كان النقباء ليلة بيعة العقبة مع محمد ﷺ، وهي العقبة الثالثة، بايع فيها سبعون رجلاً وامرأتان، فاختار رسول الله ﷺ من السبعين اثني عشر رجلاً وسماهم النقباء، وقال الربيع، والسدي، وغيرهما: إنما بعث النقباء من بني إسرائيل أمناء على الاطلاع على الجبارين والسبر لقوتهم ومنعتهم، فساروا حتى لقيهم رجل من الجبارين فأخذهم جميعاً فجعلهم في حجزته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: في قصص طويل ضعيف مقتضاه أنهم اطلعوا من الجبارين على قوة عظيمة، وظنوا أنهم لا يقبل لهم بهم، فتعاقدوا بينهم على أن يخفوا ذلك عن بني إسرائيل، وأن يعلموا به موسى عليه السلام ليرى فيه أمر ربّه، فلما انصرفوا إلى بني إسرائيل خان منهم عشرة فعرفوا قراياتهم، ومن وثقوه على سرهم، ففشا الخبر حتى اعوج أمر بني إسرائيل، وقالوا: ﴿فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا كَاهِنَاتٌ﴾.

وأسند الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: النقباء من بني إسرائيل بعثهم موسى عليه السلام لينظروا إلى مدينة الجبارين، فذهبوا ونظروا فجاؤوا بحجة من فاكهتهم وفر رجل، فقالوا: اقدروا قدر قوة قوم هذه فاكهتهم، فكان ذلك سبب فتنة بني إسرائيل ونكولهم.

وذكر النقاش أن معنى قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾

أي: ملكاً، وأن الآية تعدد نعمة الله عليهم في أن بعث لإصلاحهم هذا العدد من الملوك، قال: فما وفي منهم إلا خمسة: داود عليه السلام، وابنه سليمان عليه السلام، وطالوت، وحزقيا، وابنه، وكفر السبعة وبدلوا وقتلوا الأنبياء، وخرج خلال الاثني عشر اثنان وثلاثون جباراً كلهم يأخذ الملك بالسيف ويعيث فيهم، والضمير في: ﴿مَمَكُم﴾ لبني إسرائيل جميعاً، ولهم كانت هذه المقالة، وقال الربيع: بل الضمير للاثني عشر، ولهم كانت هذه المقالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول أرجح، و﴿مَمَكُم﴾ معناه: بنصري وحياطي وتأبيدي، واللام في قوله: ﴿كَيْنَ﴾ هي المؤذنة بمجيء لام القسم، ولام القسم هي قوله: ﴿لَأَكْثَرُنَّ﴾، والدليل على أن هذه اللام إنما هي مؤذنة أنها قد يستغنى عنها أحياناً، ويتم الكلام دونها، ولو كانت لام القسم لن يترتب ذلك.

وإقامة الصلاة: توفية شروطها، والزكاة هنا: شيء من المال كان مفروضاً فيما قال بعض المفسرين، ويحتمل أن يكون المعنى: وأعطيت من أنفسكم كل ما فيه زكاة لكم حسبما ندبتهم إليه، وقدم هذه على الإيمان تشريعاً للصلاة والزكاة، وإذ قد علم وتقرر أنه لا ينفع عمل إلا بإيمان، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿يُؤْمِلِي﴾ ساكنة السين في كل القرآن.

﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ معناه: وقُرِّزْتُمُوهم وعظمتُمُوهم ونصرتُمُوهم، ومنه قول الشاعر:

وَكَمْ مِنْ مَّاجِدٍ لَهُمْ كَرِيمٌ
وَمِنْ أَيْتٍ يُعَزِّرُ فِي السُّدِيِّ
وقرأ عاصم الجحدري:
﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ خفيفة الزاي حيث وقع، وقرأ في سورة الفتح:
﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ بفتح التاء وسكون العين وضم الزاي. وقد تقدم في سورة البقرة تفسير الإقراض. وتكفيّر السَّيِّئَاتِ: تَغْطِيئُهَا بِالمحو والإذهاب، فهي استعارة، و﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وسطه، ومنه: ﴿سَوَاءَ الْجَبِينِ﴾، ومنه قول الأعرابي: «قد انقطع سوائي»، وأوساط الطرق: هي المعظم اللاحب منها، وسائر ما في الآية بين، والله المستعان.

﴿١٣﴾ تفسير قوله تعالى:

يحتمل أن تكون [ما] زائدة، والتقدير: فينقضهم، ويحتمل أن تكون اسماً نكرة أبدل منه النقص على بدل المعرفة من النكرة، التقدير: فيفعل هو نقضهم للميثاق، وهذا هو المعنى في هذا التأويل، وقد تقدم في (النساء) نظير هذا، و﴿لَعَنَهُمْ﴾ معناه: أبعدناهم من الخير أجمعه.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر:
﴿قَسِيَّةٌ﴾ بالألف، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿قَسِيَّةٌ﴾ دون ألف، وزنها: فعيلة، فحجة الأولى قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِّلْقَسِيَّةِ قُلُوبُهُمْ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ وَبَدَّ

ذَلِكَ﴾، والقسوة: غَلَطَ القلب، ونبوه عن الرقة والموعظة، وصلاته حتى لا يتفعل لخير. ومن قرأ ﴿قَسِيَّةٌ﴾ فهو من هذا المعنى: فعيلة بمعنى فاعلة، كشاهد وشهيد، وغير ذلك من الأمثلة، وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: [قَسِيَّةٌ] ليست من معنى القسوة، وإنما هي كالقسي من الدراهم، وهي التي خالطها غش وتدليس، فكذا القلوب، لم تصف للإيمان، بل خالطها الكفر والفساد، ومن ذلك قول أبي زيد:

لَهَا صَوَاهِلُ فِي ضَمِّ السَّلَامِ كَمَا
صَاحَ الْقَسِيَّاتُ فِي أَيْدِي الصَّيَارِفِ
ومنه قول الآخر:

فَمَا زُوْدَانِي غَيْرَ سَخَقِ عِمَامَةٍ
وَخُمْسِيٍّ مِنْهَا قَسِيٍّ وَزَائِفٍ
قال أبو علي: هذه اللفظة معربة، وليست بأصل في كلام العرب.

واختلف العلماء في معنى قوله: ﴿يَحْرَقُونَ أَلْكَامَهُمْ﴾ - فقال قومٌ منهم ابن عباس: تحريفهم هو بالتأويل، ولا قدرة لهم على تبديل الألفاظ في التوراة، ولا يتمكن لهم ذلك، ويدل على ذلك بقاء آية الرجم واحتياجهم إلى أن يضع القارئ يده عليها، وقالت فرقة: بل حرفوا الكلم وبدلوه أيضاً، وفعلوا الأمرين جميعاً بحسب ما أمكنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وألفاظ القرآن تحتمل المعنيين، فقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ أَلْكَامَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الآية تقتضي التبديل، ولا شك أنهم فعلوا الأمرين.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَلْكَامَهُ﴾ بفتح الكاف وكسر اللام، وقرأ أبو عبد الرحمن، وإبراهيم النخعي: ﴿الكَلَامُ﴾ بالألف، وقرأ أبو رجاء: ﴿الكِلْمُ﴾ بكسر الكاف وسكون اللام.

وقوله تعالى: ﴿وَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ نص على سوء فعلهم بأنفسهم، أي: قد كان لهم حظ عظيم فيما ذكروا به فنسوه وتركوه. ثم أخبر تبارك وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أنه لا يزال في مؤتلف الزمان يطلع على خاتنة منهم وغائلة وأمور فاسدة، واختلف الناس في معنى: ﴿خَائِنَةٌ﴾ في هذا الموضع - فقالت فرقة: خاتنة: مصدر كالعاقبة، وكقوله تعالى: ﴿فَأَلْبَسُوا بِالْعَائِدَةِ﴾ فالمعنى: على خيانة، وقال آخرون: معناه: على فرقة خاتنة، فهي اسم فاعل صفة المؤنث، وقال آخرون: المعنى: على خائن، فزيدت البهائم للمبالغة كعلامة ونسابة، ومنه قول الشاعر:

حَدَّثْتُ نَفْسَكَ بِالْوَفَاءِ وَلَمْ تُكُنْ
لِلْعَذْرِ خَائِنَةً مُبِيلَ الْإِضْبَعِ
وقرأ الأعمش: ﴿عَلَى خِيَانَةٍ مِنْهُمْ﴾، ثم استثنى تبارك وتعالى منهم القليل، فيحتمل أن يكون الاستثناء في الأشخاص، ويحتمل أن يكون في الأفعال.

وقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَتْهُمْ وَاصْفَحَتْ﴾ منسوخ بما في (براءة) من الأمر بقتالهم حتى يؤدوا الجزية، وبإتي الآية وعد على الإحسان.

معناه: ويترك كثيراً لا يفضحكم فيه إبقاء عليكم، وهذا المتروك هو في معنى افتخارهم ووصفهم أيام الله قبلهم، ونحو ذلك مما لا يتعين في ملة الإسلام فضحهم فيه وتكذيبهم، والفاعل في ﴿وَيَقُولُوا﴾ هو محمد ﷺ، ويحتمل أن يستند الفعل إلى الله تبارك وتعالى، وإذا كان العفو من النبي عليه الصلاة والسلام فبأمر ربه، وإذا كان من الله تبارك وتعالى فعلى لسان نبيه عليه الصلاة والسلام، والاحتمالان قريب بعضهما من بعض.

١٥ - ١٧ تفسير قوله عز وجل:

قوله عز وجل: ﴿تُورِ وَكِتَبَ ثُبُوتٍ﴾ يحتمل أن يريد محمداً ﷺ والقرآن، وهذا هو ظاهر الألفاظ، ويحتمل أن يريد موسى عليه السلام والتوراة، أي: ولو أثبتتموها حق الاتباع لآمنتم بمحمد عليه الصلاة والسلام، إذ هي امرأة بذلك، مبشرة به. وقرأ عبيد بن عمير، والزهري، وسلام، وحמיד، ومسلم بن جندب: ﴿يَهُ اللهُ﴾ بضم الهاء حيث وقع مثله.

و ﴿أُتْبِعَ رِضْوَانُكُمْ﴾ معناه: بالتكسب والنية والإقبال عليه، والسبل الطُّرُق، والقراءة في ﴿رِضْوَانٍ﴾ بضم الراء ويكسرهما، وهما لغتان، وقد تقدم ذكر ذلك، وقرأ ابن شهاب والحسن بن أبي الحسن: ﴿سُبُلٍ﴾ ساكنة الباء و ﴿الْأَسْلَمَ﴾ في هذه الآية يحتمل أن يكون اسماً من أسماء الله تبارك وتعالى، فالمعنى: طرق الله تعالى التي أمر بها عباده وشرعها لهم،

يحتمل أن يعود على اليهود والنصارى، لأن العداوة بينهم موجودة ومستمرة، ويحتمل أن يعود على النصارى فقط، لأنها أمة متقاتلة بينها الفتن إلى يوم القيامة، ثم توعدهم تبارك وتعالى بعقاب الآخرة، إذ إنباؤهم بصنعهم إنما هو تقدير وتوبيخ مُتَقَدِّمٌ للعذاب، إذ ضنعهم كفر يوجب الخلود في النار.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْخَذَ الْكِتَابَ﴾ لفظ يعم اليهود والنصارى، ولكن نوازل الإخفاء كالرجم وغيره إنما حفظت لليهود، لأنهم كانوا مجاوري رسول الله ﷺ في مهاجره. وقال محمد بن كعب القرظي: أول ما نزل من هذه السورة هاتان الآيتان في شأن اليهود والنصارى، ثم نزل سائر السورة بعرفة في حجة الوداع.

وقوله تعالى: ﴿رَسُولُكُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ، وفي الآية الدلالة على صحة نبوته، لأن إعلامه بخفي ما في كتبهم وهو أُمِّي لا يقرأ ولا يصحب القراءة دليل على أن ذلك إنما يأتيه من عند الله تبارك وتعالى.

وأشهر النوازل التي أخفوها فأظهرها الله على لسان نبيه أمر الرجم، وحديث مشهور. ومن ذلك صفات محمد ﷺ إلى غير ذلك. و ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: من التوراة. وقوله: ﴿وَيَقُولُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُوكَ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾ يَتَأْخَذَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا تَخْتَفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْمَلُونَ عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٦﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يُخَلِّقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨﴾

١٥ - ١٨ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَمِنَ﴾ متعلقة بـ ﴿أَخَذْنَا﴾، التقدير: وأخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَمِنَ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿عَاجِلَ يَوْمِهِمْ﴾، ويكون قوله: ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ ابتداءً خبر عنهم، والأول أرجح، وعلق كونهم نصارى بقولهم ودعواهم من حيث هو اسم شرعي يقتضي نصر دين الله، وسموا به أنفسهم دون استحقاق ولا مشابهة بين فعلهم وقولهم، فجاءت هذه العبارة موبخة لهم مزحزحة عن طريق نصر دين الله وأنبئائه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ﴾ معناه: أثبتناها بينهم وألصقناها، والإغراء مأخوذ من الإغراء الذي يلصق به، والضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾

ويحتمل أن يكون مصدراً كالسلامة، فالمعنى: طرق النجاة والسلامة من النار. وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُهُمْ﴾ يعني المثبعين الرضوان، فالضمير على معنى ﴿يَنْ﴾ لا على لفظها، والظلمات: الكفر، والنور: الإيمان. وقوله تعالى: ﴿يَاذِيكُ﴾ أي يمكنهم من أقوال الإيمان وأفعاله، ويعلم فعلهم لذلك والتزامهم إياه، فهذا هو حد الإذن: العلم بالشيء والتمكين منه، وقد تقدم شرحه في سورة البقرة، والصراط المستقيم: هو دين الله وتوحيده وما تركب عليه من شرعه.

ثم أخبر تعالى بكفر النصارى القائلين بأن الله هو المسيح، وهذه فرقة من النصارى، وكل فرقهم على اختلاف أقوالهم يجعل للمسيح عليه السلام حظاً من الألوهية. وقد تقدم القول في لفظ المسيح في سورة آل عمران.

ثم ردّ عليهم تعالى قوله لنبيّه: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لا مالك ولا راد لإرادة الله تعالى في المسيح ولا في غيره، فهذا مما تقضي العقول معه أن من تنفذ الإرادة فيه ليس بإله، ثم قرر تبارك وتعالى ملكه في السموات والأرض وما بينهما فحصل المسيح عليه السلام أقل أجزاء ملك الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إشارة إلى خلقه المسيح في رحم مريم من غير والد، بل اختراعاً كآدم عليه السلام، وقد تقدم في آل عمران الفرق بين قوله تعالى في قصة زكريا: ﴿يَفْعَلْ مَا يَشَاءُ﴾ وفي قصة مريم: ﴿يَخْلُقْ مَا

يَشَاءُ﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم معناه الخصوص في ما عدا الذات والصفات والمحالات، والشيء في اللغة: هو الموجود.

﴿١٨﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

في الكلام لف وإيجاز يحال المستمع على تفرقه بذنه، وذلك أن ظاهر اللفظ يقتضي أن جميع اليهود والنصارى يقولون عن جميعهم: «نُحْنُ أبناء الله وأحبّاءه» وليس الأمر كذلك، بل كل فرقة

تقول خاصة: «نُحْنُ أبناء الله وأحبّاءه»، والنبوة في قولهم هذا بنوة الحنان والرأفة، وذكروا أن الله تعالى أوحى إلى بني إسرائيل أن أول أولادي بكري، فضلّوا بذلك، وقالوا: «نُحْنُ أبناء الله وأحبّاءه»، ولو صحّ ما روّوا لكان بكراً في التشريف أو النبوة ونحوه. وأحبّاء: جمع حبيب، وكانت هذه المقالة منهم عندما دعاهم النبي ﷺ إلى الإيمان به، وخوّفهم العذاب، فقالوا: «نحن لا نخاف ما تقول، لأننا أبناء الله وأحبّاءه»، وذكر ذلك ابن عباس رضي الله عنهما، وقد كانوا قالوا للنبي ﷺ في غير ما موطن: نحن ندخل النار فنقيم بها أربعين يوماً، ثم تخلصوننا فيها، فردّ الله عليهم بقولهم، فقال لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قَوْلَهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَعْزُبُ عَنْ رَبِّهِ نَظَرٌ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قُرْآنٍ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآمَنَكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ بِذِكْرٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَقَوْمُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى الْأَذْيَارِ فَنُقَلِّبُ أَفْئُسِيَكُمْ فَتَكُونُوا كَالْعِجَابِ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا سَحَنَ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢١﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَارْجِعْهُمَا عَلَيْهِمُ وَعَلَى اللَّهِ فَعُولُونَ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾

١١١

يُذُنُوكُمْ﴾ أي: لو كانت منزلتكم فوق منازل البشر لما عذبكم، وأنتم قد أقررتم أنه يعذبكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن التعذيب هو بنار الآخرة، وقد تحتمل الآية أن يكون المراد ما كان الله تعالى يعذبهم به في الدنيا، وذلك أن بني إسرائيل كانوا إذا أصاب الرجل منهم خطيئة أصبح مكتوباً على بابه ذكر ذنبه وذكر عقوبته، فينفذ ذلك عليه، فهذا تعذيب في الدنيا على الذنوب ينافي أنهم أبناء وأحبّاء.

ثم ترك الكلام الأول، وأضرب عنه غير مفسد له، ودخل في غيره من تقرير كونهم بشراً كسائر الناس والخلق، أكرمهم أنقام، يهدي من يشاء للإيمان فيغفر له، ويورط من يشاء في الكفر فيعذبه، وله ملك

السموات والأرض وما بينهما، فله بحق المُلْك أن يفعل ما شاء، لا معقب لحكمه، وإليه مصير العالم بالحشر والمعاد.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَخَذَ الْكُتُبَ﴾ خطاباً لليهود والنصارى، والرسول في قوله: ﴿رَسُولَنَا﴾ محمد ﷺ، وقوله: ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي: على انقطاع من مجيئهم مدة ما، والفترة: سكون بعد حركة في جرم، ويستعار ذلك في المعاني، وقد قال النبي ﷺ: «لكل عمل شِوَّةٌ، ولكل شِوَّة فترة»، وقال الشاعر:

وَإِنِّي لَشَعْرُونِي لِذِكْرِكَ فَتْرَةٌ

.....

معناه سكون بعد اضطراب.

واختلف الناس في قدر الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد ﷺ عليهما. فقال قتادة: خمسمائة عام وستون عاماً، وقال الضحاك: أربعمائة سنة وبضع وثلاثون سنة، وفي الصحيح أن الفترة بينهما ستمائة سنة، وهذه الآية نزلت بسبب قول اليهود: ما أنزل الله على بشر بعد موسى من شيء، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ مفعول من أجله، المعنى: حذار أن تقولوا محتجين يوم القيامة: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ وقامت الحجة عليكم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الهادي والمضل، والمنعم والمعذب، لا رب غيره.

(٢٠) - (٢١) تفسير قوله تعالى:

المعنى: واذكر لهم يا محمد على جهة إعلامهم بغير كتبهم ليتحققوا نبوتك، وينتظم في ذلك نعم الله

عليهم، وتلقَّيهم تلك النعم بالكفر وقلة الطاعة والإنابة.

وقرأ ابن محيصن: ﴿يَا قَوْمُ﴾ بالرفع، وكذلك حيث وقع في القرآن، وروي ذلك عن ابن كثير، و ﴿يُسْمِعُ اللَّهُ﴾ هنا اسم الجنس، ثم عدَّد عيون تلك النعم. والأنبياء الذين جعل فيهم أمرهم مشهور من لدن إسرائيل إلى زمان عيسى عليه السلام، والأنبياء حاطة ومنقذون من النار، وشرف في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ يحتمل معاني - أحدها: أن يعدد عليهم مُلْك مَنْ مَلَكَ من بني إسرائيل، لأن الملوك شرف في الدنيا، وحاطة من نوائبها. والمعنى الآخر: أن يريد: استنقاذكم من القبط الذين كانوا يستخدمونكم فصرتم أحراراً تملكون ولا تملكون، فهم ملوك بهذا الوجه، وينحو هذا فسر السدي وغيره، وقال قتادة: إنما قال: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ لأننا كنا نتحدث أنهم أول من خدمه أحد من بني آدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، لأن القبط كانوا يستخدمون بني إسرائيل، وظاهر أمر بني آدم أن بعضهم كان يُسخَّر بعضاً مذ تناسلوا وكثروا، وإنما اختلفت الأمم في معنى التملك فقط. وقال عبدالله بن عمرو بن العاص، والحسن بن أبي الحسن، وجماعة من أهل العلم: من كان له مسكن وامرأة وخادم فهو مَلِك، وقيل: مَنْ له مسكن لا يدخلون عليه فيه إلا بإذن فهو مَلِك.

وقوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَاكَ مَّا تَمْ يُؤْتِي أَكْدًا يَزِيدُ الْمَلَكِينَ﴾ قال فيه أبو مالك، وسعيد بن جبير: الخطاب لأمة محمد ﷺ، وهذا ضعيف، وقال جمهور المفسرين: الخطاب هو من موسى عليه السلام لقومه، ثم اختلف المفسرون - ما الذي أوتوا ولم يؤت أحد مثله؟ فقال مجاهد: المن والسلوى والحجر والغمام، وقال غيره: كثرة الأنبياء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا في كثرة الأنبياء - فالعالمون على العموم والإطلاق، وعلى القول بأن المؤتى هو آيات موسى فالعالمون مقيدون بالزمان الذي كانوا فيه، لأن أمة محمد قد أوتيت من آيات محمد عليه الصلاة والسلام أكثر من ذلك، فقد ظل رسول الله ﷺ بغمامة قبل مبعثه، وكلمته الحجارة والبهائم، وأقبلت إليه الشجرة، وحنَّ الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه، وشيع كثير من الناس من قليل الطعام ببركته، وانشق له القمر، وعاد العود سيفاً، ورجع الحجر المعترض في الخندق رملًا مهيلًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه المقالة من موسى توطئة لنفوسهم حتى يتعزز ويأخذ الأمر بدخول أرض الجبارين بقوة، وينفذ في ذلك نفوذ من أعزه الله ورفع شأنه، و ﴿الْمُقَدَّسَةَ﴾ معناه: المطهرة، وقال مجاهد: المباركة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والبركة تطهير من القحوط والجوع ونحوه، واختلف الناس في تعيينها -

فقال ابن عباس، ومجاهد: هي الطور وما حوله، وقال قتادة: هي الشام، وقال ابن زيد: هي أريحاء، وقاله السدي، وابن عباس أيضاً، وقال قوم: هي الغوطة وفلسطين وبعض الأردن، قال الطبري: ولا يختلف أنها بين الفرات وعريش مصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتظاهرت الروايات أن دمشق هي قاعدة الجبارين.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْكَ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ معناه: التي كتب الله في قضائه وقدره أنها لكم ترثونها وتسكنونها مالكين لها، ولكن فَتَنَّاكُمْ في دخولها بغرض قتال من فيها عليكم تمحيصاً وتجربة، ثم حذرهم موسى عليه السلام الارتداد على الأدبار، وذلك الرجوع القهقري، ويحتمل أن يكون تولية الدبر والرجوع في الطريق الذي جيء منه. والخاسر: الذي قد نقص حظه.

ثم ذكر عز وجل عن بني إسرائيل أنهم تعثتوا ونكصوا، فقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، والجبار: فقال من الجبر، كأنه لقوته وعشمه وبطشه يجبر الناس على إرادته، والنخلة الجبارة: العالية التي لا تثال بيد، وكان من خبر الجبارين أنهم كانوا أهل قوة، فلما بعث موسى الاثني عشر نقيباً مطلقين على أمر الجبارين وأحوالهم، رأوا لهم قوة وبطشاً، وتخللوا أن لا طاقة لهم بهم، فجاءوا بني إسرائيل، ونقضوا العهد بأن أخبروهم بحال الجبارين حسبما قدمناه في ذكر بعث النقيب، ولم يف

منهم إلا يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، ثم إن بني إسرائيل كعوا وجبنوا وقالوا: كوننا عبيداً للقط أسهل من قتال هؤلاء، وهم كثير منهم أن يقدموا رجلاً على أنفسهم ويصير بهم إلى أرض مصر مَرْتَدِّينَ على الأعقاب، ونسوا أن الله تعالى إذا أيد الضعيف غلب القوي، وأخبروا موسى عليه السلام أنهم لن يدخلوا الأرض ما دام الجبارون فيها، وطلبوا منه أن يخرج الله الجبارين بجند من عنده، وحينئذ يدخل بنو إسرائيل.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن عباس، وسعيد بن جببر، ومجاهد: ﴿يَخَافُونَ﴾ بضم الياء، وقرأ الجمهور: ﴿يَخَافُونَ﴾ بفتح الياء، وقال أكثر المفسرين: الرجلان يوشع بن نون وهو ابن أخت موسى، وكالب بن يوقنا، ويقال فيه: كلاب، ويقال: كالوث بشاء مثله، ويقال في اسم أبيه: قافيا، وهو صهر موسى على أخته، قال الطبري: اسم زوجته مريم بنت عمران، ومعنى ﴿يَخَافُونَ﴾ أي: الله. وأنعم عليهما بالإيمان الصحيح وربط الجأش والشبوت في الحق، وقال قوم: المعنى: يخافون العدو، لكن أنعم الله عليهما بالإيمان والثبوت مع خوفهما، ويقوي التأويل الأول أن في قراءة ابن مسعود: ﴿قال رجلان من

قَالُوا يَنْتَهُمُوسَى إِنْ أَنْ نَدْخَلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَازْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُمَا قَدْ كَذَبُوا ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ وَأَنْتَ عَلَيْنَهُمُ نَبَأُنِي ۖ آدَمُ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٦﴾ لَيْنَ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِسَاطِئِي يَدَيْكَ لِأَنَّكَ لَا تَقْتُلُ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يَبْرُؤُ سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يَتُوبُ إِلَىٰ أَعْرَجَتِ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُرَٰى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٠﴾

١١٢

الذين يخافون الله أنعم عليهما، وأما من قرأ بضم الياء فلقراءته ثلاثة معان - أحدهما: ما روي من أن الرجلين كانا من الجبارين أمنا بموسى واتباعه، فكانا من القوم الذين يخافون، لكن أنعم الله عليهما بالإيمان بموسى، فقالا: نحن أعلم بقومنا. والمعنى الثاني: أنهم يوشع وكالوث، لكنهما من الذين يُوقرون ويُسمع كلامهم ويُهابون لتقويهم وفضلهم، فهم يخافون بهذا الوجه، والمعنى الثالث: أن يكون الفعل من أخاف، والمعنى: من الذين يخافون بأوامر الله ونواهيه ووعيده وزجره، فيكون ذلك مدحاً لهم على نحو المدح في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلْعَقْوَى﴾، وقوله تعالى: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ صفة للرجلين.

والباب: هو باب مدينة الجبارين فيما ذكر المفسرون، والمعنى: اجتهدوا وكافحوا حتى تدخلوا الباب. وقوله: ﴿فَأَنزَلْنَاكُمْ عَلَىٰ غُلُوجٍ﴾ ظن منهم ورجاء وقياس، أي: أنكم بذلك تفتنون في أعضادهم، ويقع الرعب في قلوبهم فتغلبونهم، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿عَلَيْهِمَا وَيَلْكُم اذْخُلُوا﴾، وقولهما: ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ يقتضي أنهما استرابا بإيمانهم حين رأياهم يعصون الرسول، ويجبنون مع وعد الله تعالى لهم بالنصر.

ثم إن بني إسرائيل لجؤا في عصيانهم، وسمعوا من العشرة النقباء الجواسيس الذين خوفهم أمر الجبارين، ووصفوا لهم قوة الجبارين وعظم خلقهم، فصمموا على خلاف أمر الله تعالى: ﴿قَالُوا يَكُونُ مِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتْلًا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وهذه عبارة تقتضي كفراً، وذهب بعض الناس إلى أن المعنى: اذهب أنت وربك يُعينك، وأن الكلام معصية لا كفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقولهم: ﴿فَقَتْلًا﴾ يقطع بهذا التأويل، وذكر النقاش عن بعض المفسرين أن المراد بالرب (هنا) هارون، لأنه كان أسس من موسى، وكان معظماً في بني إسرائيل، محبباً لسعة خلقه ورحب صدره، فكانهم قالوا: اذهب أنت وكبيرك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل بعيد، وهارون إنما كان وزيراً لموسى وتابعاً له في معنى

الرسالة، ولكنه تأويل يخلص بني إسرائيل من الكفر. وذكر الطبري عن قتادة أنه قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ لما عزم على قتال قريش في عام الحديبية جمع العسكر وكلم الناس في ذلك، فقال له المقداد بن الأسود: لسا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتْلًا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ لكننا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، وذكر النقاش أن الأنصار قالت هذه المقالة للنبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجميع هذا وهم، غلط قتادة رحمه الله في وقت النازلة، وغلط النقاش في قائل المقالة، والكلام إنما وقع في غزوة بدر حين نزل رسول الله ﷺ فإيران فكلم الناس وقال لهم: أشيروا علي أيها الناس، فقال له المقداد في كلام طويل، ذكر ذلك ابن إسحق وغيره، ثم تكلم من الأنصار سعد بن معاذ بنحو هذا المعنى، ولكن سبقه المقداد إلى التمثيل بالآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتمثيل المقداد بها وتقرير النبي ﷺ لذلك يقتضي أن الرب إنما أريد به الله تعالى، ويؤنس أيضاً في إيمان بني إسرائيل، لأن المقداد قد قال: اذهب أنت وربك فقاتلا، وليس لكلامه معنى إلا أن الله تعالى يُعينك، ويقاقل معك ملائكته ونصره، فعسى أن بني إسرائيل أرادت ذلك، أي: اذهب أنت، ويخرجهم الله بنصره وقدرته من

المدينة، وحينئذ ندخلها، لكن قبحت عبارتهم لاقتران النكول بها، وحسنت عبارة المقداد لاقتران الطاعة والإقدام بها.

ولما سمع موسى عليه السلام قولهم، ورأى عصيانهم، تبرأ إلى الله تعالى منهم، وقال داعياً عليهم: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ يعني هارون، وقوله: ﴿وَأَخِي﴾ يحتمل أن يكون إعرابه رفعا إما على الابتداء والتقدير: وأخي لا يملك إلا نفسه، وإما على العطف على الضمير الذي في ﴿أَمْلِكُ﴾، تقديره: لا أملك أنا، ويحتمل أن يكون إعرابه نصبا على العطف على: ﴿نَفْسِي﴾، وذلك لأن هارون كان يطيع موسى، فلذلك أخبر أنه يملكه. وقرأ الحسن: ﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ بفتح الياء فيهما، وقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا بِينَا دَعَاءَ حَرْجٍ﴾ قال السدي: هي عجلة عجلها موسى عليه السلام، وقال ابن عباس، والضحاك، وغيرهما: المعنى: افصل بيننا وبينهم بحكم وافتح، فالمعنى: احكم بحكم يفرق هذا الاختلاف ويُلْمُ الشعث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا التأويل فليس من الدعاء عجلة. وقال قوم: المعنى: فافرق بيننا وبينهم في الآخرة حتى تكون منزلة المطيع مفارقة لمنزلة العاصي الفاسق، ويحتمل الدعاء أن يكون معناه: فرق بيننا وبينهم، بمعنى أن يقول: ﴿فَقَدْنَا وجوههم، وَفَرَّقْنَا بيننا وبينهم حتى لا نشقى بفسقهم﴾، وبهذا الوجه تجيء العجلة في

الدعاء، وقرأ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ:
﴿فَأَفْرِقْ﴾ بكسر الراء.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ﴾ المعنى:
قال الله، وأضمر الفاعل في هذه
الأفعال كلها إيجازاً لدلالة معنى
الكلام على المراد. وحُزِمَ الله تعالى
على جميع بني إسرائيل دخول تلك
المدينة أربعين سنة، وتركهم خلالها
يتيهون في الأرض، أي: في أرض
تلك النازلة، وهو فحص التيه، وهو
- على ما يحكى - طول ثمانين ميلاً
في عرض ستة فراسخ، وهو ما بين
مصر والشام، ويروى أنه اتفق أن
مات كل من كان قال: ﴿إِنَّا لَنَ
نَدْخُلُهَا أَبَدًا﴾ ولم يدخل المدينة أحدٌ
من ذلك الجيل إلا يوشع وكالوث،
ويروى أن هارون عليه السلام مات
في فحص التيه في خلال هذه
المدة، ولم يختلف في هذا، وروي
أن موسى عليه السلام مات فيه بعد
هارون بشمانية أعوام، وقيل: بستة
أشهر ونصف، وأن يوشع نبيء بعد
كمال الأربعين سنة، وخرج ببني
إسرائيل وقاتل الجبارين وفتح
المدينة، وفي تلك الحرب وقفت له
الشمس ساعة حتى استمر هزم
الجبارين. وروي أن موسى عليه
السلام عاش حتى كملت الأربعون،
وخرج بالناس وحارب الجبارين
ويوشع وكالب على مقدمته، وأنه
فتح المدينة وقتل بيده عوج بن
عناق، يقال: كان في طول موسى
عشرة أذرع، وفي طول عصاه عشرة
أذرع، وترامى من الأرض في السماء
عشرة أذرع، وحينئذ لحق كعب
عوج فضربه بعصاه في كعبه فخر

صريعاً، ويروى أن عوجاً اقتلع
صخرة ليطرحها على عسكر بني
إسرائيل فبعث الله هدهداً بحجر
الماس فأداره على الصخرة فتقورت
ودخلت في عنق عوج، وضربه
موسى فمات، وحكى الطبري أن
طول عوج ثمانمائة ذراع، وحكى
عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه
قال: لَمَّا خَرَّ كَانَ جَسَراً عَلَى النَّيْلِ
سَنَةً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والنيل ليس في تلك الأقطار، وهذا
كله ضعيف، والله أعلم، وحكى
الزجاج عن قوم أن موسى وهارون
لم يكونا في التيه، والعامل في
﴿أَرْبَعِينَ﴾ يحتمل أن يكون
﴿مُحَرَّمَةً﴾، أي: حرمت عليهم
أربعين سنة، ويتيهون في الأرض
هذه المدة ثم تفتح عليهم، أدرك
ذلك من أدركه، ومات قبله من
مات. وخَطَأُ أَبُو إِسْحَقَ أَنْ يَكُونَ
العامل ﴿مُحَرَّمَةً﴾، وذلك منه
تحامل. ويحتمل أن يكون العامل
﴿يتيهون﴾ مضمرأ يدل عليه
﴿يَتِيَهُونَ﴾ المتأخر، ويكون قوله:
﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ﴾ إخباراً مستمراً تلقوا
منه أن المخاطبين لا يدخلونها أبداً،
وأنهم - مع ذلك - يتيهون في الأرض
أربعين سنة يموت فيها من مات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والخطاب على هذا التأويل أصعب
موقفاً وأحضر بأساً، وروي أن من
كان قد جاوز عشرين سنة لم يعش
إلى الخروج من التيه، وأن من كانوا
دون العشرين عاشوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأنه لم يعش المكلفون، أشار إلى
ذلك الزجاج.

والتيه: الذهاب في الأرض إلى غير
قصد معلوم، ويروى أن بني إسرائيل
كانوا يرحلون بالليل ويسبرون ليلهم
أجمع في تحليق ونحوه من التردد
وقلة استقامة السير، حتى إذا أصبحوا
وجدوا جُمِلَتهم في الموضع الذي
كانوا فيه أول الليل، قال مجاهد
وغیره: كانوا يسبرون النهار أحياناً
والليل أحياناً فيمسون حيث
أصبحوا، ويصبحون حيث أمسوا،
وذلك في مقدار ستة فراسخ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويحتمل أن يكون تيههم بافتراق
الكلمة وقلة اجتماع الرأي، وأن الله
تعالى رماهم بالاختلاف، وعلموا
أنها قد حرمت عليهم أربعين سنة
فتفرقت منازلهم في ذلك الفحص،
وأقاموا ينتقلون من موضع إلى
موضع على غير نظام واجتماع، حتى
كملت هذه المدة وأذن الله
بخروجهم، وهذا تيه ممكن محتمل
على عرف البشر، والآخر الذي ذكر
مجاهد إنما هو خرق عادة وعجب
من قدرة الله تعالى.

وفي ذلك التيه ظلل عليهم الغمام،
ورزقوا المن والسلوى إلى غير ذلك
مما روي من ملابسهم، وقد مضى
ذلك في سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
الَّذِينَ﴾ معناه: فلا تحزن، يقال:
أسى الرجل يأسى أسى إذا حزن،
ومنه قول امرئ القيس:

وُقُوفاً بِهَا صَخْبِي عَلَى مَطْيَهُمْ
يقولون لا تهلك أسى وتَجَمَّل

ومنه قول مَتَّم بن نُورَة:

قَفَلْتُ لَهُمْ إِنَّ الْأَسَى يَبْعَثُ الْأَسَى
دَعُونِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكٍ
والخطاب بهذه الآية لموسى عليه
السلام، قال ابن عباس رضي الله
عنهما: ندم موسى على دعائه على
قومه، وحزن عليهم، فقال له الله
تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ﴾. وقال قوم من
المفسرين: الخطاب بهذه الألفاظ
لمحمد ﷺ، ويراد بالفاسقين
معاصروه، أي: هذه أفعال أسلافهم
فلا تحزن أنت بسبب أفعالهم الخبيثة
ورذمهم عليك، فإنها سجية خبيثة
موروثة عندهم.

﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَتَلَّ﴾ معناه: اسرد وأسمعهم
إياه، وهذه من علوم الكتب الأول
التي لا تعلق لمحمد ﷺ بها إلا من
طريق الوحي، فهو من دلائل نبوته،
والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ظاهر أمره أنه
يُرَادُّ به بنو إسرائيل لوجهين: أحدهما
أن المحاوره فيما تقدم إنما هي في
شأنهم، وإقامة الحجج عليهم بسبب
همهم ببسط اليد إلى محمد ﷺ،
والثاني أن عَلمَ نبيِّ ابْنِي آدَمَ إنما هو
عندهم، وفي غامض كتبهم، وعليهم
تقوم الحجة في إيراده. والنبأ:
الخبر، وابنا آدم: هما في قول
جمهور المفسرين لصلبه، وهما
قائيل وهابيل، وقال الحسن بن أبي
الحسن البصري: ابنا آدم ليسا
لصلبه، ولم تكن القرايين إلا في بني
إسرائيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا وهم، وكيف يجهل صورة

الدفن أحد من بني إسرائيل حتى
يقندي بالغراب؟ والصحيح قول
الجمهور، وروي أن تقربيهما
للقربان إنما كان تحنناً وتطوعاً،
وكان قاييل صاحب زرع، فعمد إلى
أرذل ما عنده وأدناه فقربه، وكان
هابيل صاحب غنم، فعمد إلى
أفضل كباشه فقربه، وكانت العادة
حينئذ أن يقرب المقرب قربانه ويقوم
يصلي ويسجد، فإن نزلت نار
وأكلت القربان فذلك دليل للقبول،
وإلا كان تركه دليل عدم القبول،
فلما قرب هذان كما ذكرنا، فنزلت
النار فأخذت كبش هابيل فرفعته
وسترته عن العيون، وترك زرع
قاييل، قال سعيد بن جبير: فكان
ذلك الكبش يرتع في الجبّة حتى
أهبط إلى إبراهيم في فداء ابنه، قال
سائقوا هذا القصص: فحسد قاييل
هابيل، وقاله له: أتمشي على
الأرض يراك الناس أفضل مني؟
وكان قاييل أسنّ ولد آدم، وروي أن
آدم سافر إلى مكة ليرى الكعبة،
وترك قاييل وصياً على بنيّه، فجرت
هذه القصة في غيبته، وروت جماعة
من المفسرين - منهم ابن مسعود -
أن سبب هذا التقرب أن حواء كانت
تلد في كل بطن ذكراً وأنثى، فكان
الذكر يزوج أنثى البطن الآخر، ولا
تحل له أخته توأمته، فولدت مع
قاييل أخت جميلة، ومع هابيل
أخت ليست كذلك، فلما أراد آدم
تزوجها قال قاييل: أنا أحق بأختي،
فأمره آدم فلم يأتمر، فاتفقوا على
التقريب، وروي أن آدم حضر ذلك،
فتقبل قربان هابيل، ووجب أن يأخذ

أخت قاييل، فحينئذ قال له:
﴿لَا تَنْتَفِكْ﴾، وقول هابيل: ﴿إِنَّمَا
يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ كلام قبله
محذوف تقديره: ولم تقتلني وأنا لم
أجن شيئاً ولا ذنب لي في قبول
قرباني؟ أما إني أتقيه وكنت عليّ
لأحب الخلق و﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وإجماع أهل السُنّة في معنى هذه
الألفاظ أنها اتقاء الشرك، فمن اتقاء
وهو موحد فأعماله التي تُصدّق فيها
نيته مقبولة، وأما المتقي للشرك
والمعاصي فله الدرجة العليا من
القبول والحتم بالرحمة، علم ذلك
بإخبار الله تعالى، لا أن ذلك يجب
على الله تعالى عقلاً، وقال عدي بن
ثابت وغيره: قُرْبَانُ متقي هذه الأمة
الصلاة.

واختلف الناس، لم قال هابيل:
﴿مَا أَنَا بِبَاطِلٍ يُدَى إِلَيْكَ لَا تَقْلُكْ؟﴾
فقال مجاهد: كان الفرض عليهم
حينئذ ألا يسلم أحد سيفاً، وألا
يمتنع من أريد قتله، وقال
عبدالله بن عمرو، وجمهور الناس:
كان هابيل أشد قوة من قاييل ولكنه
تخرج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا هو الأظهر، ومن هنا يقوى أن
قاييل إنما هو عاص لا كافر، لأنه لو
كان كافراً لم يكن للتحرج وجه،
وإنما وجه التّحرج في هذا أن
المتحرج يأبى أن يُقاتل موحداً،
ويرضى بأن يُظلم لِيُجَازَى في
الآخرة، ونحو هذا فعل عثمان بن
عفان رضي الله عنه.

وقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبْنِيٰ بَيْنَكَ وَبَيْنَكَ﴾ الآية، ليست هذه بإرادة محبة وشهوة، وإنما هو تَخْيِيرٌ فِي شَرْطَيْنِ، كما تقول العرب: فِي الشَّرْطِ خِيَارٌ، فالمعنى: إِنْ قَتَلْتَنِي وَسَبَقَ بِذَلِكَ قَدْرَ فَاخْتِيَارِي أَنْ أَكُونَ مَظْلُومًا سَيَنْتَصِرُ اللَّهُ لِي فِي الْآخِرَةِ. وَ ﴿نَبْنِيٰ﴾ معناه: تَمْضِي مَتَحَمَلًا، وقوله: ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَكَ﴾ قيل: معناه: بِإِثْمٍ قَتَلِي وَسَائِرِ أَثَامِكَ الَّتِي أَوْجِبَتْ أَلَّا يَقْبَلَ مِنْكَ، وقيل: المعنى: بِإِثْمٍ قَتَلِي وَإِثْمِكَ فِي الْعَدَاءِ عَلَيَّ، إِذْ هُوَ فِي الْعَدَاءِ وَإِرَادَةِ الْقَتْلِ أَثْمٌ وَلَوْ لَمْ يَنْفِذِ الْقَتْلَ. وقيل: المعنى: بِإِثْمِي إِنْ لَوْ قَاتَلْتِكَ وَقَتَلْتِكَ وَإِثْمَ نَفْسِكَ فِي قَاتَلِي وَقَتَلِي.

قال القاضي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا هُوَ الْإِثْمُ الَّذِي يَقْتَضِيهِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بَسَفَيْنَهُمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بِالْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ». فَكَأَن هَابِيلَ أَرَادَ: إِنِّي لَسْتُ بِحَرِيصٍ عَلَى قَتْلِكَ، فَالْإِثْمُ الَّذِي كَانَ يُلْحِقَنِي لَوْ كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِكَ أُرِيدُ أَنْ تَحْمِلَهُ أَنْتَ مَعَ إِثْمِكَ فِي قَتْلِي، وقيل: المعنى: بِإِثْمِي الَّذِي يَخْتَصُّ لِي فِيمَا فَرَطَ لِي، أَي: يُوْخِذُ مِنْ سَيِّئَاتِي فَيَطْرَحُ عَلَيْكَ بِسَبَبِ ظُلْمِكَ لِي، وَتَبَوُّءِ بِإِثْمِكَ فِي قَتْلِي، وَهَذَا تَأْوِيلُ بَعْضِهِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «يُؤْتَى بِالظَّالِمِ وَالْمَظْلُومِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوْخِذُ مِنْ حَسَنَاتِ الظَّالِمِ فَيَزَادُ فِي حَسَنَاتِ الْمَظْلُومِ حَتَّى يَنْتَصِفَ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ

حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ الْمَظْلُومِ فَطَرَحَ عَلَيْهِ».

وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاؤُ الْفَٰكِلَيْنِ﴾ يحتمل أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ هَابِيلَ لِأَخِيهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ إِخْبَارًا مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ.

﴿٣٠﴾ - ﴿٣١﴾ تفسير قوله عز وجل: قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ والمعنى: أَنَّ الْقَتْلَ فِي ذَاتِهِ مُسْتَعَصِبٌ عَظِيمٌ عَلَى النَّفْسِ، فَدَرَسَتْ هَذِهِ النَّفْسُ لِلْجَوَاجِزِ الْأَثَامَةَ بِالسُّوءِ طَائِعًا مُنْقَادًا حَتَّى وَاقَعَهُ صَاحِبُ هَذِهِ النَّفْسِ. وَقَرَأَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ، وَالْجَرَّاحُ، وَالْحَسَنُ بْنُ عِمْرَانَ، وَأَبُو وَاقِدٍ: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ والمعنى: كَأَنَّ الْقَتْلَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ بِسَبَبِ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ الَّذِي أَصَابَ قَابِيلَ، وَكَأَنَّ النَّفْسَ تَأْبَى ذَلِكَ وَيَصْعَبُ عَلَيْهَا، وَكُلَّ جِهَةٍ تَرِيدُ أَنْ تَطِيعَهَا الْآخَرَى، إِلَى أَنْ تَفَاقَمَ الْأَمْرُ، وَطَاوَعَتِ النَّفْسُ الْقَتْلَ فَوَاقَعَتْهُ، وَرَوَى أَنَّهُ التَّمَسُّ الْغَيْرَةُ فِي قَتْلِهِ حَتَّى وَجَدَهُ نَائِمًا فِي غَنَمِهِ فَشَدَخَ رَأْسَهُ بِحَجَرٍ، وَرَوَى أَنَّهُ جَهْلٌ كَيْفَ يَقْتُلُهُ، فَجَاءَ إِبْلِيسُ بِطَائِرٍ أَوْ حَيَوَانٍ غَيْرِهِ فَجَعَلَ يَشْدَخُ رَأْسَهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ لِيَقْتَدِيَ بِهِ قَابِيلَ فَفَعَلَ، وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا انْصَرَفَ قَابِيلُ إِلَى آدَمَ قَالَ لَهُ: أَيْنَ هَابِيلُ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي كَأَنَّكَ وَكَلْتَنِي بِحِفْظِهِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَفَعَلْتَهَا؟ وَاللَّهِ إِنْ دَمَهُ لِنَادِيَنِي مِنَ الْأَرْضِ، اللَّهُمَّ الْعَنِ أَرْضًا شَرِبَتْ دَمَ هَابِيلَ، فَرَوَى أَنَّهُ مِنْ حَيْثُذَ مَا شَرِبَتْ أَرْضٌ دَمًا، ثُمَّ إِنْ آدَمَ ﷺ بَقِيَ مِائَةَ عَامٍ لَمْ يَبْتَسِمَ حَتَّى جَاءَ

مَلِكٌ فَقَالَ لَهُ: حَيَّاكَ اللَّهُ يَا آدَمَ وَبَيَّاكَ، فَقَالَ آدَمُ: مَا بَيَّاكَ؟ قَالَ: اضْحَكْ، وَيُرْوَى أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ حَيْثُذَ:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْنَهَا
فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مُغْبِرٌ قَبِيحٌ
تَغْيِيرُ كُلِّ ذِي طَنَمٍ وَلَوْنٌ
وَقُلْ بِشَاشَةِ الْوَجْهِ الْمَلِيحِ
هَكَذَا هُوَ الشَّعْرُ بِنَصَبِ (بِشَاشَةِ)
وَكَفِ التَّنْوِينِ.

وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: عَلِقَتْ إِحْدَى رَجُلِي الْقَاتِلِ بِسَاقِهَا إِلَى فَخْذِهَا مِنْ يَوْمِئِذٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَوَجَّهَ إِلَى الشَّمْسِ حَيْثُ مَا دَارَتْ، عَلَيْهِ فِي الصَّيْفِ حَظِيرَةٌ مِنْ نَارٍ، وَعَلَيْهِ فِي الشِّتَاءِ حَظِيرَةٌ مِنْ ثَلْجٍ.

قال القاضي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَإِنْ صَحَّ هَذَا فَهُوَ مِنْ خُسْرَانِهِ الَّذِي تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، وَمِنْ خُسْرَانِهِ مَا رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا لَنَجِدُ ابْنَ آدَمَ الْقَاتِلَ يَقَاسِمُ أَهْلَ النَّارِ قِسْمَةً صَحِيحَةَ الْعَذَابِ، عَلَيْهِ شَطْرُ عَذَابِهِمْ»، وَمِنْ خُسْرَانِهِ مَا ثَبَتَ وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كَفْلٌ مِنْهَا»، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ عبارة عن جميع أوقاته، أَقِيمْ بَعْضَ الزَّمَنِ مَقَامَ كُلِّهِ، وَخَصَّ الصَّبَاحَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ بَدَايَةُ النَّهَارِ وَالْإِنْبِعَاطُ إِلَى الْأُمُورِ، وَمَطْيَةُ النَّشَاطِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الرَّبِيعِ بْنِ ضَبْعٍ:

طلحة بن مصرف، والفياض بن غزوان: ﴿قَاوَارِي﴾ بسكون الياء، وهي لغة لتوالي الحركات.

ولما رأى قابيل فعل الغراب تنبه على ما يجب أن يصنع بأخيه، ورأى قصور نفسه وجهل البشر بالأمور، فقال: ﴿يَوَيْلَيْيَ أَعْجَزْتُ﴾ الآية، واحتقر نفسه، ولذلك ندم، وقرأ الجمهور: ﴿يَوَيْلَيْيَ﴾ والأصل: يا وَيْلَيْيَ، لكن من العرب من يبدل من الياء ألفاً ويفتح الياء لذلك، فيقولون: يا وَيْلَيْيَ ويا غلاماً، وَيَقِفُ بعضهم على هاء السكت فيقول: يا وَيْلَتَا. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿يَا وَيْلَيْيَ﴾. ونداء الويلة هو على معنى: احضري فهذا أوانك، وهذا هو الباب في قوله: ﴿يَحْضَرُهُ﴾، وفي قولهم: يا عجباً وما جرى مجراه من نداء هذه الأمور التي لا تعقل وهي معان. وقرأ الجمهور: ﴿أَعْجَزْتُ﴾ بفتح الجيم، وقرأ ابن مسعود، والحسن، والفياض، وطلحة بن سليمان: ﴿أَعْجِزْتُ﴾ بكسر الجيم، وهي لغة.

ثم إن قابيل وارى أخاه، وندم على ما كان منه من معصية الله في قتله حيث لا ينفع الندم، واختلف العلماء في قابيل - هل هو من الكفار أو من العصاة؟ والظاهر أنه من العصاة، وروي عن النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ لَكُمْ ابْنِي آدَمَ مَثَلًا، فَخَذُوا مِنْ خَيْرِهَا وَدَعَوْا الشَّرَّ﴾.

﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:﴾

جمهور الناس على أن قوله: ﴿يَنْزِلُ أَجَلُ ذَلِكَ﴾ متعلق بقوله: ﴿كَبَبْنَا﴾، أي: بسبب هذه النازلة، ومن جرأها

إنما بعث غراباً واحداً فجعل يبيحث ويلقي التراب على هابيل.

وظاهر هذه الآية أن هابيل هو أول ميت من بني آدم، ولذلك جهلت سنة المواراة، وكذلك حكى الطبري عن ابن إسحق عن بعض أهل العلم بما في الكتب الأول.

و ﴿يَبْحَثُ﴾ معناه: يفتش التراب بمقارنه وبثيره، ومن هذا سميت سورة (براءة) - البحوث - لأنها فتشت عن المنافقين، ومن ذلك قول الشاعر:

إِنَّ النَّاسَ عَطُونِي تَغَطِّيْتُ عَنْهُمْ
وَإِنْ يَحْثُونِي كَانَ فِيهِمْ مَبَاحِثُ
وفي مثل: لا تكن كالباحث عن الشفرة.

والضمير في قوله: ﴿سَوَاءَ أَخِي﴾ يحتمل أن يعود على قابيل، ويراد بالأخ هابيل، ويحتمل أن يعود على الغراب الباحث، ويراد بالأخ الغراب الميت، والأول أشهر في التأويل، والسوأة: العورة، وخصت بالذكر مع أن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمام بها، ولأن سترها أوكد، ويحتمل أن يراد بالسوأة هذه الحالة التي تسوء الناظر بمجموعها، وأضيفت إلى المقتول من حيث نزلت به النازلة لا على جهة الغَضِّ منه، بل الغَضِّ لاحقاً للقاتل، وهو الذي أتى بالسوأة، وقرأ الجمهور: ﴿قَاوَارِي﴾ بنصب الياء، وقرأ

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَبَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا نَفْسًا بَغِيرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسُ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَ تَهُمُّرُسُنَا بِالْكِتَابِ تُدْرِكُ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمْ يُسْرِفُوا ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْتَقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَهَ الْوَسِيلَةَ وَجْهَهُ وَأَفِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَوَسَّلهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ عَذَابَ يَوْمٍ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابُ الْبُيُوتِ

أَصْبَحْتُ لَا أَخُولُ السَّلَاحَ . . . البيت. ومنه قول سعد بن أبي وقاص: «ثم أَصْبَحْتُ بنو أسد تعزرنى على الإسلام» إلى غير ذلك من استعمال العرب لما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُخَبِّرَهُ كَيْفَ يُؤَارَى سَوَاءَ أَخِي﴾، روي في معناه أن قابيل جعل أخاه في جراب، ومشى به يحمله في عنقه مائة عام، وقيل: سنة واحدة، وقيل: بل أصبح في ثاني يوم قتله يطلب إخفاء أمر أخيه، فلم يدر ما يصنع به، فبعث الله غراباً حياً إلى غراب ميت، فجعل يبيحث في الأرض ويلقي التراب على الغراب الميت. وروي أن الله تعالى بعث غرابين فاقتلا حتى قتل أحدهما الآخر، ثم جعل القاتل يبيحث ويوارى الميت، وروي أن الله تعالى

كتبنا. وقال قوم: بل هو متعلق بقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾، أي: ندم من أجل ما وقع، والوقف - على هذا - على ﴿ذَلِكَ﴾، والناس على أن الوقف ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾.

ويقال: أجل الأمر أجلاً وأجلاً، إذا جناه وجزه، ومنه قول خوات:

وأهلي خباء صالح ذات بينهم
قد احتربوا في عاجل أنا أجله

ويقال: فعلت ذلك من أجلك بفتح الهمزة، ومن إجلتك بكسرهما. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿وَمِنَ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ بوصل الألف وكسر النون قبلها، وهذا على أن ألقى حركة الهمزة على النون، كما قالوا: «كم ابلك؟» بكسر الميم ووصل الألف، و «من إبراهيم» بكسر النون.

و ﴿كُتِبَ﴾ معناه: كُتِبَ بأمرنا في كتب منزلة عليهم تضمنت فرض ذلك، وخص الله تعالى بني إسرائيل بالذكر وقد تقدمتهم أمم كان قتل النفس فيهم محظور لوجهين: أحدهما فيما روي أن بني إسرائيل أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل النفس في كتاب، وغلظ الأمر عليهم بحسب طغيانهم وسفكهم الدماء، والآخر لتلوح مذمتهم في أن كتب عليهم هذا، وهم مع ذلك لا يراعون ولا يتتهون، بل هموا بقتل النبي ﷺ ظلماً، فحُصروا بالذكر لحضورهم مخالفين لما كتب عليهم.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِ نَفْسٍ﴾ معناه: بغير أن تقتل نفساً تستحق القتل، وقد حُرِّمَ الله تعالى نفس المؤمن إلا بإحدى ثلاث خصال: كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل

نفس ظلماً وتعدياً. وهنا يندرج المحارب. والفساد في الأرض يَجْمَعُ الزنى والارتداد والحراية. وقرأ الحسن: ﴿أَوْ فساداً في الأرض﴾ بنصب الفساد على فعل محذوف، وتقديره: أو أتى فساداً، أو أحدث فساداً، وحذف الفعل الناصب لدلالة الكلام عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَبِيحاً﴾ اضطرب لفظ المفسرين في ترتيب هذا التشبيه - فروي عن ابن عباس أنه قال: المعنى: من قتل نبياً أو إماماً عدل فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياء بأن شدَّ عضده ونَصَرَه فكأنما أحياء الناس جميعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول لا تعطيه الألفاظ.

وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: المعنى: مَنْ قتل نفساً واحدة وانتهك حرمتها فهو يثلَّ مَنْ قتل الناس جميعاً، ومن ترك قتل نفس واحدة، وصان حرمتها، واستحيا من أن يقتلها، فهو كمن أحياء الناس جميعاً.

وقال عبدالله بن عباس أيضاً: المعنى: فكأنما قتل الناس جميعاً عند المقتول، ومن أحياء واستنقذها من هلكة فكأنما أحياء الناس جميعاً عند المُسْتَنقَذ.

وقال ابن عباس أيضاً وغيره: المعنى: من قتل نفساً فأوبق نفسه فكأنه قتل الناس جميعاً، إذ يُضَلَّى النار بذلك، ومن سلم من قتلها فكأنه سلم من قتل الناس جميعاً.

وقال مجاهد: الذي يقتل النفس المؤمنة متعمداً جعل الله جزاءه جهنم، وغضب عليه، ولقنه، وأعدَّ له عذاباً عظيماً، يقول: لو قتل الناس جميعاً لم يزد على ذلك. ومن لم يقتل أحداً فقد حيي الناس منه.

وقال ابن زيد: المعنى أن من قتل نفساً فيلزمه من القود والقصاص ما يلزم مَنْ قتل الناس جميعاً، قال: ومن أحياءها، أي: من عفا عمن وجب له قتله، وقاله الحسن أيضاً، أي: هو العفو بعد القدرة، وقال مجاهد: ومن أحياءها، أنقذها من حرق وغرق.

وقال قوم: لما كان المؤمنون كلهم يطلبون القاتل كان كمن قتل الناس جميعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول متداع، ولم يتخلص التشبيه إلى طرف في شيء من هذه الأقوال، والذي أقول: إن الشبه بين قاتل النفس وقاتل الكل لا يطرد من جميع الجهات، لكن الشبه قد تحصل من ثلاث جهات: إحداها القود فإنه واحد، والثانية الوعيد، فقد توعد الله قاتل النفس بالخلود في النار، وتلك غاية العذاب، فإن فرضناه يخرج من النار بغد بسبب التوحيد فكذلك قاتل الجميع إن لو اتفق ذلك، والثالثة انتهاك الحرمة، فإن نفساً واحدة في ذلك وجميع الأنفس سواء، والمنتهاك في واحدة ملحوظ بعين منتهاك الجميع، ومثال ذلك: رجلان حلفا على شجرتين ألا يطعما من ثمرهما شيئاً، فطعم أحدهما واحدة من ثمر شجرتة،

وطعم الآخر ثمر شجرته كله، فقد استويا في الحنث.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ فيه تجوز. لأنها عبارة عن الترك والإنقاذ، وإلا فالإحياء حقيقة الذي هو الاختراع وإنما هو الله تعالى. وإنما هذا الإحياء بمنزلة قول نمرود: «أنا أحيي»، سُمي الترك إحياء، ومحبي نفس كمحبي الجميع في حفظ الحرمة واستحقاق الحمد.

ثم أخبر الله تعالى عن بني إسرائيل أنهم جاءتهم الرسل من الله بالبينات في هذا وفي سواه، ثم لم يزل الكثير منهم بعد ذلك في كل عصر يُسرفون ويتجاوزون الحدود، وفي هذه الآية إشارة إلى فعل اليهود في مهمهم بقتل النبي ﷺ وغيره، إلى سائر ذلك من أعمالهم.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل: اقتضى المعنى في هذه الآية كون ﴿إِنَّمَا﴾ حاصرة الحصر الشام، واختلف الناس في سبب هذه الآية - فروي عن ابن عباس، والضحاك أنها نزلت بسبب قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فنقضوا العهد وقطعوا السبل وأفسدوا في الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن تكون نازلة بني قريظة حين هموا بقتل النبي ﷺ، وقال عكرمة والحسن: نزلت الآية في المشركين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا ضعف، لأن توبة المشرك نافعة بعد القدرة عليه وعلى كل حال، وقال أنس بن مالك، وجري بن عبد الله، وسعيد بن جبير،

وعروة بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وغيرهم: إن الآية نزلت في قوم من عُكُلٍ وعُرَيْنَةٍ قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا، ثم إنهم مرضوا واستوخموا المدينة، فأمرهم النبي ﷺ أن يكونوا في لقاح الصدقة، وقال: «اشربوا من ألبانها وأبوالها»، فخرجوا فيها، فلما صَحُّوا قتلوا الرعاء واستاقوا الإبل، فجاء الصريخ فأخبر بذلك النبي ﷺ، فأمر فنودي في الناس: يا خيل الله اركبي، فركب رسول الله ﷺ على أثرهم فأخذوا، وقال جرير بن عبد الله: فبعثني رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين، حتى إذا أدركناهم وقد أشرفوا على ديارهم، فجئنا بهم النبي ﷺ، قال جمع الرواة: فقطع رسول الله ﷺ أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسمر أعينهم، ويروى: وسمل، وتركهم في جانب الحرّة يستسقون فلا يسقون، وفي حديث جرير: فكانوا يقولون: الماء، ويقول رسول الله ﷺ: «النار». وفي بعض الروايات عن أنس أن رسول الله ﷺ أحرقهم بالنار بعد ما قتلهم، قال أبو قلابة: هؤلاء كفروا وقتلوا وأخذوا الأموال وحاربوا الله ورسوله، وحكى الطبري عن بعض أهل العلم أن هذه الآية نسخت فعل النبي ﷺ بالمرنئين، ووقفت الأمر على هذه الحدود، وقال بعضهم: وجعلها الله عتاباً لنيي ﷺ على سمل الأعين، وحكى عن جماعة من أهل العلم أن هذه الآية ليست بناسخة لذلك الفعل، لأن ذلك وقع في المرتدين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لا سيما وفي بعض الطرق أنهم سملوا أعين الرعاء، قالوا: وهذه الآية هي في المحارب المؤمن، وحكى الطبري عن السدي أن النبي ﷺ لم يسمّل أعين العرنين، وإنما أراد ذلك فنزلت الآية ناهية عن ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف تخالفه الروايات المتظاهرة.

ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم هذه الآية مترتب في المحاربين من أهل الإسلام، واختلفوا فيمن هو الذي يستحق اسم الحرابة - فقال مالك بن أنس رحمه الله: المحارب عندنا من حمل على الناس السلاح في مصر أو برية فكابرهم عن أنفسهم وأموالهم دون نائرة ولا دخل ولا عداوة، وقال بهذا القول جماعة من أهل العلم، وقال أبو حنيفة وأصحابه، وجماعة من أهل العلم: لا يكون المحارب إلا القاطع على الناس في خارج الأمصار، فأما في المصر فلا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريدون أن القاطع في المصر يلزمه حد ما أجتزح من قتل أو سرقة أو غصب ونحو ذلك. والحرابة رُتّب أدناها إخافة الطريق فقط، لكنها توجب صفة الحرابة، ثم بعد ذلك يأخذ المال مع الإخافة. ثم بعد ذلك أن يقتل مع الإخافة، ثم بعد ذلك يجمع ذلك كله. فقال مالك رحمه الله وجماعة من العلماء: في أي رتبة كان المحارب من هذه الرتب فالإمام مخير فيه في أن يعاقبه

بما رأى من هذه العقوبات، واستحسن أن يأخذ في الذي لم يقتل بأيسر العقوبات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لا سيما إن كانت زلة ولم يكن صاحب شرور معروفة، وأما إن قتل فلا بد من قتله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، وأبو مجلز، وقتادة، وغيرهم من العلماء: بل لكل رتبة من الحرابة رتبة من العقاب، فمن أخاف الطريق فقط فعقوبته النفي، ومن أخذ المال ولم يقتل فعقوبته القطع من خلاف، ومن قتل دون أن أخذ مال فعقوبته القتل، ومن جمع الكل قتل وصلب، وحجة هذا القول أن الحرابة لا تخرج عن الإيمان، ودم المؤمن حرام إلا بإحدى ثلاث: ارتداد أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس، فالمحارب إذا لم يقتل فلا سبيل إلى قتله، وقد روي عن ابن عباس، والحسن أيضاً، وسعيد بن المسيب، وغيرهم مثل قول مالك: إن الإمام مخير، ومن حجة هذا القول أن ما كان في القرآن [أو - أو] فإنه للتخير، كقوله تعالى: ﴿فَيَذَرُ مِنْ بَينِ يَدَيْهِ أَوْ صَدَقَهُ أَوْ كُفِّرْ﴾، وكآية كفارة اليمين، وآية جزاء الصيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورجح الطبري القول الآخر، وهو أحوط للمفتي ولذم المحارب، وقول مالك أسد للذريعة، وأحفظ للناس والطرق، والمخيف في حكم القاتل، ومع ذلك فمالك يرى فيه الأخذ بأيسر العقوبات استحساناً، وذكر الطبري عن أنس بن مالك أنه

قال: سأل رسول الله جبريل عليه السلام عن الحكم في المحارب فقال: «من أخاف السبيل وأخذ المال فاقطع يده للأخذ، ورجله للإخافة، ومن قتل فاقطعه، ومن جمع ذلك فاصليه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبقي النفي للمخيف فقط.

وقوله تعالى: ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾ تغليظ جعل ارتكاب نهيه محاربة، وقيل: التقدير: يحاربون عباد الله، ففي الكلام حذف مضاف.

وقوله تعالى: ﴿وَسَعَوْا فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ تبيين للحرابة، أي: ويسعون بحرابتهم، ويحتمل أن يكون المعنى: ويسعون فساداً متضافاً إلى الحرابة، والرباط إلى هذه الحدود إنما هو الحرابة.

وقرأ الجمهور: ﴿يُقْتَلُونَ - يُصَلَّبُونَ﴾ - تُقَطَّعُ بالتثنية في هذه الأفعال للمبالغة والتكثير، والتكثير هنا إنما هو من جهة عدد الذي يوقع بهم، كالتذبيح في بني إسرائيل في قراءة مَنْ تُقَتَّلُ: ﴿يُقَتَّلُونَ﴾، وقرأ الحسن، ومجاهد، وابن محيصن: ﴿يُقْتَلُوا - يُصَلَّبُوا - تُقَطَّعُ﴾ بالتخفيف في الأفعال الثلاثة.

وأما قتل المحارب فبالسيف ضربة العنق، وأما صلبه فجمهور من العلماء على أنه يقتل ثم يصلب نكالاً لغيره، وهذا قول الشافعي. وجمهور من العلماء على أنه يصلب حياً ويقتل بالطعن على الخشبة، وروي هذا عن مالك، وهو الأظهر من الآية، وهو الأنكى في النكال، وأما القطع: فاليد اليمنى من الرسغ،

والرجل الشمال من المفصل. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقطع اليد من الأصابع، ويُبقي الكف، والرجل من نصف القدم، ويُبقي المقب.

واختلف العلماء في النفي. فقال السدي: هو أن يطلب أبداً بالخيل والرجل حتى يؤخذ فيقام عليه حد الله، أو يخرج من دار الإسلام، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه قال: نفيه أن يطلب، وقاله أنس بن مالك، وروي ذلك عن الليث ومالك بن أنس، غير أن مالكا قال: لا يضطر مسلم إلى دخول دار الشرك، وقال سعيد بن جبير: النفي من دار الإسلام إلى دار الشرك، وقالت طائفة من العلماء منهم عمر بن عبدالعزيز: النفي في المحاربين أن ينفوا من بلد إلى غيره مما هو قاص بعيد، وقال الشافعي بنفيه من عمله، وقال أبو الزناد: كان النفي قديماً إلى ذللك وباضع، وهما من أقصى اليمين، وقال أبو حنيفة، وأصحابه، وجماعة: النفي في المحاربين السجن، فذلك إخراجهم من الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن الأرض في هذه الآية هي أرض النازلة، وقد جُنب الناس قديماً الأرض التي أصابوا فيها الذنوب، ومنه حديث الذي ناء بصدرة نحو الأرض المقدسة، وينبغي للإمام إن كان هذا المحارب المنفي مخوف الجانب يُظن أنه يعود إلى حرافة وإفساد أن يسجنه في البلد الذي يغرب إليه، وإن كان غير مخوف

عوقب، وعذاب الآخرة لمن سلم في الدنيا، ويجري هذا الذنب مجرى غيره، وهذا الوعيد مشروط بالإفناء بالمشيئة، أما إن الخوف يغلب عليهم بحسب الوعد وعظم الذنب، والخزي في هذه الآية: الفضيحة والذل والمقت.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ استثنى عز وجل التائب قبل أن يقدر عليه، وأخبر بسقوط حقوق الله عنه بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

عَزُوزٌ رَّحِيمٌ﴾. واختلف الناس في معنى الآية - فقال قتادة، والزهري في كتاب «الأشراف»: ذلك لأهل الشرك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: من حيث رأيا الوعيد بعد العقاب، وهذا ضعيف، والعلماء على أن الآية في المؤمنين، وأن المحارب إذا تاب قبل القدرة عليه فقد سقط عنه حكم الحاربة، ولا نظر للإمام فيه إلا كما ينظر في سائر المسلمين، فإن طلبه أحد بدم نظر فيه وأقاد منه إذا كان الطالب ولياً، وكذلك يتبع بما وجد عنده من مال الغير وبقيمة ما استهلك من الأموال، هذا قول مالك، والشافعي، وأصحاب الرأي، ذكره ابن المنذر، وقال قوم من الصحابة والتابعين: إنه لا يطلب من المال إلا بما وجد عنده بعينه، وأما ما

استهلك فلا يطلب به، وذكر الطبري ذلك عن مالك من رواية الوليد بن مسلم عنه، وهو الظاهر من فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه بحارثة بن بدر الغداني، فإنه كان محارباً ثم تاب قبل القدرة عليه، فكتب له بسقوط الأموال والدم كتاباً منشوراً، وحكى الطبري عن عروة بن الزبير أنه قال: لا تقبل توبة المحارب، ولو قبلت لاجترأوا وكان فساد كثير، ولكن لو فر إلى العدو ثم جاء تائباً لم أر عليه عقوبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لا أدري، هل أراد ارتد أم لا. وقال الأوزاعي نحوه إلا أنه قال: إذا لحق بدار الحرب فارتد عن الإسلام أو بقي عليه ثم جاء تائباً من قبل أن يقدر عليه، قبلت توبته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح من هذا كله مذهب الفقهاء الذي قرزته آتفاً، أن حكم الحاربة يسقط، ويبقى كسائر المسلمين، واختلف إذا كان المال أقل مما يقطع فيه السارق - فقال مالك: ذلك كالكثير، وقال الشافعي وأصحاب الرأي: لا يقطع من المحاربين إلا من أخذ ما يقطع فيه السارق.

(٣٥) - (٣٧) تفسير قوله عز وجل: هذه الآية وعظ من الله تعالى بعقب ذكر العقوبات النازلة بالمحاربين، وهذا من أبلغ الوعظ، لأنه يراد على النفوس وهي خائفة وجللة، وعادة البشر إذا رأى وسمع أمراً مُنتجِجاً ببشيع المكاره - أن يرق ويخشع، فجاء الوعظ في هذه الحال. ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكُمْ

يُرِيدُونَ أَن يُخَرِّجُوا مِنَ الدَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَاسْتَعْتَبُوا لِلْكُذِبِ سَمْعُورَ بْنَ لَقُومٍ ؕ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْفَظُونَ الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنَّا أَوْثَقْنَا هَذَا فَخَذُّوهُ وَإِن لَّمْ تَوَقُّوه فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُمْ أَلَّهُ سَيِّئٌ أَوْ لَيْسَ بِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِمْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خَيْرٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

الجانب ترك مسرحاً، وهذا هو صريح مذهب مالك: أن يغرب ويسجن حيث يغرب، وهذا هو الأغلب في أنه مخوف، ورجحه الطبري، وهو الواضح لأن نفيه من أرض النازلة أو الإسلام هو نص الآية، وسجنه بغد بحسب الخوف منه، فإذا تاب وفهم حاله سرح.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءٌ﴾ إشارة إلى هذه الحدود التي توقع بهم. وغلظ الله الوعيد في ذنب الحاربة بأن أخبر أن لهم في الآخرة عذاباً عظيماً مع العقوبة في الدنيا، وهذا خارج عن المعاصي الذي في حديث عبادة بن الصامت في قول النبي ﷺ: «فمن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون الخزي لمن

و﴿الْوَسِيلَةَ﴾ القرية وسبب التَّجْحُّج في المراد، ومن ذلك قول عنترة لامرأته:

إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمُ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ
أَنْ يَأْخُذُوا بِكَ تَكْخُلِي وَتَخْضَبِي
وأما الوسيلة المطلوبة لمحمد ﷺ فهي أيضاً من هذا، لأن الدعاء له بالوسيلة والفضيلة إنما هو أن يؤتاهما في الدنيا، ويتصف بهما، ويكون ثمرة ذلك في الآخرة التشفيق في المقام المحمود، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

إِذَا غَمَلُ الْوَاشُونَ عُدْنَا لِمَوْصِلِنَا
وعاد الثَّصَافِي بَيْنَنَا وَالْوَسَائِلُ
أنشده الطبري.

وقوله تعالى: ﴿وَجَنِّدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ خصَّ الجهاد بالذكر لوجهين: أحدهما نبأته في أعمال البرِّ، وأنه قاعدة الإسلام، وقد دخل بالمعنى في قوله: ﴿وَأَبْتَعُوا لِآلِهِ الْوَسِيلَةَ﴾، ولكن خصَّه تشريفاً، والوجه الآخر أنها العبادة التي تصلح لكل منهي عن المحاربة، وهو مُعَدُّ لها من حاله وسينه وقوته وشيئة نفسه، فليس بينه وبين أن ينقلب إلى الجهاد إلا توفيق الله تعالى.
واللام في قوله: ﴿يَلْفَتُوا﴾ لام (كي).

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَقْبَلُ﴾ بضم الناء والقاف على ما لم يسم فاعله، وقرأ يزيد بن قتيب: ﴿تَقْبَلُ﴾ بفتحها على معنى: ما تقبل الله.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ﴾ إخبار عن أنهم يتمنون هذا في قلوبهم، وفي غير ما آية أنهم ينطقون عن هذه الإرادة. وقال الحسن بن أبي

الحسن: إذا فارت بهم النار قربوا من حاشيتها فحينئذ يريدون الخروج، ويطمعون به، وذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ النَّارِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تأول قوم هذه الإرادة أنها بمعنى (يَكَاذِبُونَ) على هذا القصص الذي حكى الحسن، وهذا لا ينبغي أن يُتَأَوَّلَ إلا فيما لا تتأتى معه الإرادة الحقيقية، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَّ﴾، وأما في إرادة بني آدم فلا، إلا على تجوز كثير.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُخْرِجُوا﴾ بفتح الباء وضم الراء. وقرأ يحيى بن وثاب، وإبراهيم السُّخَمي: ﴿يُخْرِجُوا﴾ بضم الباء وفتح الراء.

وأخبر تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم ليسوا بخارجين من النار، بل عذابهم فيها مقيم متأبداً، وحكى الطبري عن نافع بن الأزرق الخارجي أنه قال لابن عباس: يا أعمى البصر، أعمى القلب، تزعم أن قوماً يخرجون من النار وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾؟ فقال له ابن عباس: ويحك، اقرأ ما فوقها، هذه الآية في الكفار.

﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأ جمهور القراء: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ بالرفع. وقرأ عيسى بن عمر، وإبراهيم بن أبي عبلة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ بالنصب. قال سيبويه رحمه الله: الوجه في كلام العرب النصب، كما تقول: زيدا اضربه، ولكن أبت العامة إلا الرفع. يعني عامة القراء وجلهم. قال سيبويه: الرفع في هذا وفي قوله:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾، وفي قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيْنَهَا مِنْكُمْ﴾ هو على معنى: فيما فرض عليكم.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَقْطَعُوا﴾ ردَّت المستقبل غير مستقبل، لأن قوله: «فيما فرض عليكم السارق» جملة حقها وظاهرها الاستقلال، لكن المعنى المقصود ليس إلا في قوله: ﴿فَأَقْطَعُوا﴾ فهذه الفاء هي التي ربطت الكلام الثاني بالأول، وأظهرت الأول هنا غير مستقل. وقال أبو العباس المبرد، وهو قول جماعة من البصريين: أختار أن يكون ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ رفعاً بالابتداء، لأن القصد ليس إلى واحد بعينه، فليس هو مثل قولك: «زيداً فاضربه»، إنما هو كقولك: «من سرق فاقطع يده»، قال الزجاج: هو المختار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أنزل سيبويه النوع السارق منزلة الشخص المعين، وقرأ عبدالله بن مسعود، وإبراهيم السُّخَمي: ﴿وَالسَّارِقُونَ وَالسَّارِقَاتُ فَأَقْطَعُوا أَيْمَانَهُمْ﴾، وقال الخفاف: وجدت في مصحف أبي بن كعب: «والسُّرُق والسُّرُوق» هكذا ضبطاً، بضم السين المشددة وفتح الراء المشددة فيها، هكذا ضبطهما أبو عمرو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن يكون هذا تصحيحاً من الضابط، لأن قراءة الجماعة إذا كتب [السَّارِقُ] بغير ألف وافقت في الخط هذه.

وأخذ ملك الغير يتنوع بحسب قرائته، فمنه الغصب، وقرينته عِلْمُ

المغصوب منه وقت الغضب، أو عِلْمُ مُشَاهِدٍ غَيْرِهِ. ومنه: الخيانة، وقرينتها أن الخائن قد طرق إلى المال بتصرفٍ ما، ومنه: السَّرقة، وقرائنها أن يؤخذ مال لم يطرق إليه على غير عِلْمٍ من المسروق ماله، وفي خفاءٍ من جميع الناس فيما يرى السارق، وهذا هو الذي يجب عليه القطع وحده من بين أخذة الأموال لخبث هذا المنزِع، وَقَلَّةُ العذر فيه. وأحاط الله تعالى البشر على لسان نبيه بأن القطع لا يكون إلا بقرائن: منها الإخراج من حرز، ومنها القدر المسروق على اختلاف أهل العلم فيه، ومنها أن يعلم السارق بتحرير السرقَة، وأن تكون السرقَة فيما يَجُلُ مِلْكُهُ، فلفظ [السَّارِق] في الآية عموم معناه الخصوص.

فأما القدر المسروق - فقالت طائفة: لا قطع إلا في ربع دينار فصاعداً، قال به عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي، وعائشة، وعمر بن عبدالعزيز، والأوزاعي، والليث، والشافعي، وأبو ثور، رضي الله عنهم وفيه حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «القطع في ربع دينار فصاعداً»، وقال مالك رحمه الله: تقطع اليد في ربع دينار أو في ثلاثة دراهم، فإن سرق درهمين - وهي ربع دينار - لانحطاط الصرف لم يقطع، وكذلك العروض لا يقطع فيها إلا أن تبلغ ثلاثة دراهم قُلَّ الصرف أو كثر، وقال إسحق بن راهويه، وأحمد بن حنبل: إن كانت قيمة السلعة ربع دينار أو ثلاثة دراهم قطع فيهما قُلَّ الصرف أو كثر، وفي

القطع قول رابع وهو أن لا قطع إلا في خمسة دراهم أو قيمتها، روي هذا عن عمر، وبه قال سليمان بن يسار، وابن أبي ليلى، وابن شبرمة، ومنه قول أنس بن مالك: «قَطَعَ أَبُو بكر في مجن قيمته خمسة دراهم». قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا حجة في هذا على أن الخمسة حدٌ.

وقال أبو حنيفة وأصحابه، وعطاء: لا قطع في أقل من عشرة دراهم، وقال أبو هريرة: وأبو سعيد الخدري: لا تقطع اليد في أقل من أربعة دراهم، وقال عثمان البتي: تقطع اليد في درهم فما فوقه، وحكى الطبري أن عبداً بن الزبير قطع في درهم، وروي عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال: تقطع اليد في كل ما له قيمة قُلَّ أو كثر على ظاهر الآية، وقد حكى الطبري نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول أهل الظاهر، وقول الخوارج. وروي عن الحسن أيضاً أنه قال: تذاكرنا القطع في كم يكون على عهد زياد فانفق رأينا على درهمين، وأكثر العلماء على أن التوبة لا تُسقط عن السارق القطع، وروي عن الشافعي أنه إذا تاب قبل أن يقدر عليه وتمتد إليه يد الأحكام فإن القطع يسقط عنه قياساً على المحارب، وجمهور الناس على أن القطع لا يكون إلا على من أخرج من حرز. وقال الحسن بن أبي الحسن: إذا جمع الثياب في البيت قطع وإن لم يخرجها.

وقوله تعالى: «فَأَقْطَعُوا آيِدِيَهُمَا»

جمع الأيدي من حيث كان لكل سارق يمين واحدة وهي المعروضة للقطع في السرقة أولاً، فجاءت للسارق أيدٍ وللسارق أيد، فكانه قال: اقطعوا أيمن النوعين، فالثنية في الضمير إنما هي للنوعين. قال الزجاج عن بعض النحويين: إنما جعلت ثنية ما في الإنسان منه واحد جمعاً كقوله: «وَصَنَّتْ قُلُوبَكُمْ» لِأَن أَكْثَرَ أَعْضَائِهِ فِيهِ مِنْهُ اثْنَانِ، فَجُعِلَ مَا كَانَ فِيهِ الْوَاحِدُ عَلَى مِثَالِ ذَلِكَ، قَالَ أَبُو إِسْحَقَ: وَحَقِيقَةُ هَذَا الْبَابِ أَنَّ مَا كَانَ فِي الشَّيْءِ مِنْهُ وَاحِدٌ لَمْ يُشْرُ وَلُفِظَ بِهِ عَلَى لَفْظِ الْجَمْعِ لِأَنَّ الْإِضَافَةَ تَبِينُهُ، فَإِذَا قُلْتُ: أَشْبَعَتْ بَطُونَهُمَا - عِلْمٌ أَنَّ لِلْأُتَيْنِ بَطْنَيْنِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنهم كرهوا تثنيتين في كلمة.

واختلف العلماء في ترتيب القطع، فمذهب مالك رحمه الله، وجمهور الناس أن تقطع اليمين من يدي السارق، ثم - إن عاد - قطعت رجله اليسرى، ثم - إن عاد - قطعت يده اليسرى، ثم - إن عاد - قطعت رجله اليمنى، ثم إن سرق عَزُرَ وحبس، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والزهري، وحماد بن أبي سليمان، وأحمد بن حنبل: تقطع يده اليمنى، ثم - إن سرق - قطعت رجله اليسرى، ثم - إن سرق - عَزُرَ وحبس، وروي عن عطاء بن أبي رباح: لا تقطع في السرقة إلا اليد اليمنى فقط، ثم - إن سرق - عَزُرَ وحبس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تمسك بظاهر الآية، والقول

شاذ، فيلزم - على ظاهر الآية - أن تقطع اليد ثم اليد، ومذهب جمهور الفقهاء أن القطع في اليد من الرسغ، وفي الرجل من المرفق، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن القطع في اليد من الأصابع، وفي الرجل من نصف القدم.

وقوله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا﴾ نصبه على المصدر، وقال الزجاج: مفعول لأجله، وكذلك: ﴿تَكْلًا مِنْ اللَّهِ﴾. والثكال: العذاب، والتكُّل: القيد. وسائر معنى الآية بيّن، وفيه عن بعض الأعراب حكاية.

(٣٩) - (٤١) تفسير قوله عز وجل:

المعنى عند جمهور أهل العلم أن من تاب من السرقة فندم على ما مضى، وأقلع في المستأنف، وأصلح - يَرُدُّ الظَّلَامَةَ إِنْ أَمَكَه ذَلِكَ، وَإِلَّا فَبِإِنْفَاقِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وأصلح أيضاً في سائر أعماله، وارتفع إلى فوق، فإن الله يتوب عليه، ويذهب عنه حكم السرقة فيما بينه وبين الله تعالى، وهو في المشيئة مرجو له الوعد، وليس تسقط عنه التوبة حكم الدنيا من القطع إن اعترف أو شهد عليه. وقال مجاهد: التوبة والإصلاح هي أن يقام عليه الحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تشديد، وقد جعل الله للخروج من الذنوب بابين، أحدهما الحد، والآخر التوبة. وقال الشافعي: إذا تاب السارق، وقَبِلَ أن يتلبس الحاكم بأخذه فتوبته ترفع عنه حكم القطع قياساً على توبة المحارب.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَلَمَّ﴾ الآية توقيف وتنبية على العلّة الموجبة لإنفاذ هذه

الأوامر في المحاربين والسرقة، والإخبار بهذا التعذيب لقوم والتوبة على آخرين، وهي يُلَكُّهُ تَعَالَى لجميع الأشياء، فهو بحق الملك، لا معقب لحكمه، ولا معترض عليه.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ﴾ الآية تسليّة للنبي ﷺ، وتقوية لنفسه بسبب ما كان يلقي من طوائف المنافقين وبني إسرائيل، والمعنى: قد وعدناك النصر والظهور عليهم، فلا يحزنك ما يقع منهم خلال بقائهم.

وقرأ بعض القراء: ﴿يَحْزَنُكَ﴾ بفتح الياء وضم الزاي، تقول العرب: «حَزَنَ الرجل» بكسر الزاي، و«حَزْنَتُهُ» بفتحها. وقرأ بعض القراء: ﴿يُحْزِنُكَ﴾ بضم الياء وكسر الزاي، لأن من العرب من يقول: «أحزنت الرجل» بمعنى: حَزْنَتُهُ، وجعلته ذا حُزْنٍ. وقرأ الناس: ﴿يُسْرِعُونَ﴾، وقرأ الحر النحوي: ﴿يُسْرِعُونَ﴾ دون ألف، ومعنى المسارعة في الكفر: البدار إلى نصره وإقامة حججه، والسعي في إطفاء الإسلام به.

واختلف المفسرون في ترتيب معنى الآية، وفيمن المراد بقوله: ﴿يَأْتُوهُمْ﴾، وفي سبب نزول الآية - فأما سببها فروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وابن عباس رضي الله عنهما، وجماعة أنهم قالوا: نزلت هذه الآيات بسبب الرجم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك أن يهودياً زنى بيهودية، وكان في التوراة رجم الزناة، وكان بنو

إسرائيل قد غيروا ذلك، وردّوه جُلْداً وتحميم وجوه، لأنهم لم يقيموا الرجم على أشرفهم، وأقاموه على صفارهم في القدر، فاستقبحوا ذلك، وأحدثوا حكماً سوا فيه بين الشريف والمشروف، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة زنى رجل من اليهود بامرأة، فروي أن ذلك كان بالمدينة، وروي أنه كان في غير المدينة في يهود الحجاز، وبعثوا إلى يهود المدينة، وإلى حلفائهم من المنافقين أن يسألوا رسول الله ﷺ عن النازلة، وطمعوا بذلك أن يوافقهم على الجلد والتحميم فيشد أمرهم بذلك، فلما سئل رسول الله ﷺ عن ذلك نهض في جملة من أصحابه إلى بيت البذر، فجمع الأخبار هنالك، وسألهم عما في التوراة، فقالوا: إنا لا نجد فيها الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِيهَا الرِّجْمَ، فَانْشُرُوها»، فنشرت، ووضع أحدهم يده على آية الرجم، فقال عبدالله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا آية الرجم، فحكم رسول الله ﷺ بالرجم وأنفذه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا الحديث اختلاف ألفاظ وروايات كثيرة، منها أنه روي أن رسول الله ﷺ مرّ على يهودي ويهودية زنيا وقد جُلدا وحُما، فقال: «هكذا شرعكم يا معشر يهود؟» فقالوا: نعم، فقال: «لا»، ثم مشى إلى بيت المدراس وفضحهم، وحكم في ذنبك بالرجم، وقال: «لأكونن أول من

أحيا حكم التوراة حين أماتوه. وروي أن الزائنين لم يكونوا بالمدينة، وأن يهود فذلك هم الذين قالوا لليهود المدينة: استفتوا محمداً، فإن أفتاكم بما نحن عليه من الجلد والتجنية فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم، قاله الشعبي وغيره، وقال قتادة بن دعامة وغيره: سبب الآية وذكر اليهود أن بني النضير كانوا غزوا بني قريظة، فكان النضري إذا قتله قرظي قتل به، وإذا قتل نضري قرظياً أعطى الدية. وقيل: كانت دية القرظي على نصف دية النضري، فلما جاء النبي ﷺ المدينة طلبت قريظة الاستواء، إذ هم أبناء عم يرجعان إلى جد، وطلبت الحكومة إلى رسول الله ﷺ، فقالت النضير بعضها لبعض: إن حكم بما كنا عليه فخذوه وإلا فاحذروا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه النوازل كلها وقعت، ووقع غيرها مما يضارعها ويحسن أن يكون سبباً لفضيحة اليهود في تحريفهم الكلم وتحرشهم بالدين، والروايات في هذا كثيرة ومختلفة.

وقد وقع في بعض الطرق في حديث أبي هريرة أنه قال في قصة الرجم: «فقام رسول الله ﷺ إلى بيت يذراسهم وقمنا معه»، وهذا يقتضي أن الأمر كان في آخر مدة النبي ﷺ، لأن أبا هريرة أسلم عام خير في آخر سنة ست من الهجرة، وقد كانت النضير أجليت وقريظ وقريش قتلت، واليهود بالمدينة لا شيء، فكيف كان لهم بيت يذراس في ذلك الوقت؟ أو إن كان لهم بيت على حال ذلة فهل كان النبي ﷺ

يحتاج - مع ظهور دينه - إلى حاجتهم تلك الحاجة؟ وظاهر حديث بيت المدراس أنه كان في صدر الهجرة، اللهم إلا أن يكون ذلك من النبي ﷺ مع عزة كلمته من حيث أراد أن يخرج حكمهم من أيدي أخبارهم بالحجة عليهم من كتابهم، فلذلك مشى إلى بيت يذراسهم مع قدرته عليهم، وهذا عندي يبعد، لأنهم لم يكونوا ذلك الوقت يخرؤونه، ولا كانت له حال يسأل عنها ﷺ.

وأما اختلاف الناس فيمن المراد بقوله: «الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَاهِهِمْ وَكَرُّوا قُلُوبَهُمْ» - فقال السدي: نزلت في رجل من الأنصار زعموا أنه أبو لبابة بن عبد المنذر أشارت إليه قريظة يوم حصرهم: ما الأمر؟ وعلام نزل من الحكم؟ فأشار إلى حلقه بمعنى أنه الذبح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وأبو لبابة من فضلاء الصحابة، وهو وإن كان أشار بتلك الإشارة فلأنه قال: «فوالله ما زالت قدماي حتى علمت أنني خنت الله ورسوله»، ثم جاء إلى مسجد النبي ﷺ، فربط نفسه بسارية من سواري المسجد، وأقسم ألا يبرح كذلك حتى يتوب الله عليه، ويرضى رسول الله ﷺ عنه، فإنما كانت تلك الإشارة منه زلة حمله عليها إشفاقاً ما على قوم كانت بينه وبينهم مودة ومشاركة قديمة، رضي الله عنه وعن جميع الصحابة.

وقال الشعبي وغيره: نزلت الآية

في قوم من اليهود أرادوا سؤال النبي ﷺ في أمر رجل منهم قتل آخر، فكلفوا السؤال رجلاً من المسلمين وقالوا: إن أفتى بالدية قبلنا قوله، وإن أفتى بالقتل لم نقبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نحو ما تقدم عن قتادة في أمر قتل النضير وقريظة.

وقال عبد الله بن كثير، ومجاهد، وغيرهما: قوله تعالى: «مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَاهِهِمْ وَكَرُّوا قُلُوبَهُمْ» يراد به المنافقون، وقوله بعد ذلك: «سَتَجِدُونَ لِلْكَذِبِ سَعْتُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ» يراد به اليهود.

وأما ترتيب معنى الآية بحسب هذه الأقوال:

فيحتمل أن يكون المعنى: يأبها الرسول لا يحزنك المسارعون في الكفر من المنافقين واليهود، ويكون قوله: «سَتَجِدُونَ» خبر ابتداء مضمرة.

ويحتمل أن يكون المعنى: لا يحزنك المسارعون في الكفر من اليهود، ووصفهم بأنهم «قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَاهِهِمْ وَكَرُّوا قُلُوبَهُمْ» إلزاماً منه لهم من حيث حرفوا توراتهم وبدلوا أحكامها. فهم يقولون بأقواهم: نحن مؤمنون بالتوراة وبموسى، وقلوبهم غير مؤمنة، من حيث بدلوها، وحججوا ما فيها من نبوة محمد ﷺ وغير ذلك مما هو كفر منهم. ويؤيد هذا التأويل قوله بعد هذا: «وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ»، ويجيء - على هذا التأويل - قوله: «وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا» كأنه قال: «ومنه»، لكن صرح بذكر اليهود من

حيث الطائفة السماعية غير الطائفة التي تبدل التوراة على علم منها.

وقرأ جمهور الناس: ﴿سَتُون﴾، وقرأ النحاس: ﴿سَمَاعِينَ﴾، ووجهها عندي نصب على الذم على ترتيب من يقول: لا يحزنك المسارعون من هؤلاء سماعين، وأما المعنى في قوله: ﴿سَتُون﴾ للكذب فيحتمل أن يكون صفة للمنافقين ولبنی إسرائيل، لأن جميعهم يسمع الكذب بعضهم من بعض ويقبلونه، ولذلك جاءت عبارة سماعهم في صيغة المبالغة، إذ المراد أنهم يقبلون ويستزيدون من ذلك المسموع، وقوله تعالى: ﴿لِلْكَذِبِ﴾ يحتمل أن يريد: سماعون للكذب، ويحتمل أن يريد: سماعون منك أقوالك من أجل أن يكونوا عليك، وينقلوا حديثك، ويزيدوا مع الكلمة أضعافها كذباً. وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر: ﴿لِلْكَذِبِ﴾ بكسر الكاف وسكون الهمزة. والذال.

وقوله تعالى: ﴿سَتُون لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ يحتمل أن يريد: يسمعون منهم، وذكر الطبري عن جابر أن المراد بالقوم الآخرين يهود فذك، وقيل: يهود خيبر، وقيل: أهل الزانين، وقيل: أهل الخصام في القتل والدية. وهؤلاء القوم الآخرون هم الموصوفون بأنهم لم يأتوا النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون بمعنى: ﴿سَتُون لِقَوْمٍ﴾ بمعنى جواسيس مُسترقين للكلام لينقلوه لقوم آخرين، وهذا مما يمكن أن يتصف به المنافقون ويهود المدينة.

وقيل لسفيان بن عيينة: هل جرى للجاسوس ذكر في كتاب الله عز وجل؟ فقال: نعم، وتلا هذه الآية: ﴿سَتُون لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

٤١ - ٤٢ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس: ﴿الكذب﴾ بفتح الكاف وكسر اللام، وقرأ بعض الناس: ﴿الكلم﴾ بكسر الكاف وسكون اللام، وهي لغة ضعيفة في (كلمة).

وقوله تعالى: ﴿يَحْمُرُونَ أَلْسِنَهُمْ﴾ صفة لليهود فيما

حرفوا من التوراة، إذ ذاك أخطر أمر حرفوا فيه، ويحتمل أن يكون صفة لهم وللمنافقين فيما يحرفون من الأقوال عند كذبهم، لأن مبادئ كذبهم لا بُدَّ أن تكون من أشياء قيلت أو فعلت، وهذا هو الكذب المُزَيَّن الذي يُقَرَّبُ قبوله. وأما الكذب الذي لا يُزَفَّدُ بمبدأ فقليل الأثر في النفوس.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: من بعد أن وضع مواضعه وقصدت به وجوهه القويمة، والإشارة بهذا قيل: هي إلى التخميم والجَلْد في الزنى. وقيل: هي إلى قبول الدية في أمر القتل، وقيل: إلى إبقاء عزة النضير على قريظة، وهذا بحسب الخلاف المتقدم في الآية.

ثم قال تعالى لِيُنَبِّهَ عَلَى جَهَةِ قَطْع الرِّجَاءِ فِيهِمْ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ فِتْنَتَهُ

سَتُون لِكُذِبِ أَكْثَرُونَ لِلشَّحْتِ فَإِنْ جَاءَكَ مِنْ قَوْمٍ بِبَيِّنَةٍ أَوْ عَرِضَ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَصُورُكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤١﴾ وَكَيفَ يَحْكُمُكَ وَعِنْدَهُ التَّوْرَةُ فِيهَا حَكَمُ اللَّهِ تُعْرَضُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّزِينَونَ وَالْأَخْبَارُ يَمَاسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَسْتَفْتُوا عَنِّي شَيْئًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٣﴾ وَكَيْفَ عَالِمِينَ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالْفَيْسِ وَالْعَيْنَ بِالْمَعِينِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ بِفَصَاصٍ فَمَنْ نَصَدَّكَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٤﴾

فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، أي: لا تتبع نفسك أمرهم، والفتنة هنا: المحنة بالكفر والتعذيب في الآخرة، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم الذين سبق لهم في علم الله ألا يطهر قلوبهم، وأن يكونوا مُدْتَسِينَ بالكفر، ثم قرر تعالى لهم الخزي في الدنيا، والمعنى: بالذلة والمسكنة التي انضربت عليهم في أقطار الأرض، وفي كل أمة، وقرر لهم العذاب في الآخرة بكفرهم.

وقوله: ﴿سَتُون لِكُذِبِ﴾، إن كان الأول في بني إسرائيل فهذا تكرار تأكيد ومبالغة، وإن كان الأول في المنافقين فهذا خبر أيضاً عن بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُونَ لِلشَّحْتِ﴾ فقالون بناء مبالغة، أي: يتكرر أكلهم له ويكثر. والشح: كل ما لا يحل

كسبه من المال. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحزمة: ﴿أَشْحَتٌ﴾ ساكنة الحاء خفيفة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿السُّحْتُ﴾ مضمومة الحاء مثقلة، وروي عن خارجة بن مصعب عن نافع: ﴿السُّحْتُ﴾ بكسر السين وسكون الحاء، واللفظة مأخوذة من قولهم: سَحَتَ وَأَسْحَتَ: إذا استأصل وأذهب، فمن الثلاثي قوله تعالى: ﴿فَيَسْجُرْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾. ومن الرباعي قول الفرزدق:

... إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجْلَفَ
وَالسُّحْتِ وَالسُّحْتِ - بضم السين
وتخفيف الحاء وتثقيفها: لغتان في اسم الشيء المسحوت. والسُّحْتُ - بفتح السين وسكون الحاء: المصدر، سُمِّيَ به المسحوت، كما سُمِّيَ المصيد صيداً في قوله عز وجل: ﴿لَا تَقْتُلُوا الْفَيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾، وكما سمي المرهون رهناً، وهذا كثير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فسمي المال الحرام سحاً لأنه يذهب وتستأصله النوب، كما قال عليه السلام: «من جمع مالاً من مهاوش أذهب الله في نهابر»، وقال مكي: سمي المال الحرام سحاً لأنه يذهب من حيث يسحت الطاعات، أي: يذهب بها قليلاً قليلاً، وقال المهدوي: من حيث يسحت أديانهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مردود، لأن السيئات لا تحيط الحسنات، اللهم إلا أن يقدر أنه

يشغل عن الطاعات، فهو سحتها من حيث لا تعمل، وأما طاعةٌ حاصلة فلا يقال هذا فيها، وقال المهدوي: سمي أجر الحجاج سحاً لأنه يسحت مِرْوَةَ أَخْذِهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أشبه.

قال الطبري: أصل السحت كَلْبُ الجوع، يقال: فلان مسحوت المعدة إذا كان لا يُلْقَى أبداً إلا جائعاً يذهب ما في معدته، فكان الذي يرتشي به من الشره مثل ما بالجائع أبداً لا يشبع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك بأن الرشوة تسحت، فالمعنى هو كما قدمناه، وفي عبارة الطبري بعض اضطراب، لأن مسحوت المعدة هو مأخوذ من الاستئصال والذهاب، وليس كَلْبُ الغرث أصلاً للسحت. والسحت الذي عني أن اليهود يأكلونه هو الرشاش في الأحكام، والأوقاف التي تؤكل ويُرفد أكلها بقول الأباطيل وخدع العامة ونحو هذا.

وقال أبو هريرة، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: مَهَرُ البغي سُحْتٌ، وَغُسْبُ الفج سُحْتٌ، وَكُسْبُ الْحَجَّامِ سُحْتٌ، وَثَمَنُ الْكَلْبِ وَالْخمر سحت. وقال ابن مسعود: السحت أن يهدي لك من قد أعنته في حاجته أو حقه فَتَقْبَلُ، قيل لعبدالله: ما كنا نَعُدُّ السحت إلا الرشوة في الحكم، قال: ذلك الكفر، وقد روي عن ابن مسعود، وجماعة كثيرة أن السحت هو الرشوة في الحكم، وروي عن النبي ﷺ أنه

قال: «كل لحم بُتت من سحت فالتار أولى به»، قيل: يا رسول الله، ما السحت؟ قال: «الرشوة في الحكم». قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكل ما ذكر في معنى السحت فهو أمثلة، ومن أعظمها الرشوة في الحكم، والأجرة على قتل النفس، وهو لفظ يعم كل كسب لا يحل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَاعْحَمِّ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ - تخيير للنبي ﷺ، ولحكام أمته بعده في أن يحكم بينهم إذا تراضوا في نوازلهم. وقال عكرمة، والحسن: هذا التخيير منسوخ بقوله: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَرْزَلَهُ﴾. وقال ابن عباس، ومجاهد: نُسخ من (المائدة) آيتان، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْلُبُ﴾، نسختها آية السيف، وقوله: ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، نسختها: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَرْزَلَهُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال كثير من العلماء: هي محكمة، وتخيير الحكام باق، وهذا هو الأظهر إن شاء الله.

وفقه هذه الآية أن الأمة فيما علمت مجمعة على أن حاكم المسلمين يحكم بين أهل الذمة في التظالم، ويتسلط عليهم في تغييره، وينقر عن صورته كيف وقع فيغير ذلك، ومن التظالم حبس السلع المبيعة، وغضب المال، وغير ذلك. فأما نوازل الأحكام التي لا ظلم فيها من أحدهم للآخر، وإنما هي دعاوي محتملة، وطلب ما يحل وما لا يحل، وطلب المخرج من الإثم في الآخرة، فهذه هي التي الحاكم فيها

مُخَيَّرٌ، وإذا رضي به الخصمان فلا بد مع ذلك من رضی الأساقفة أو الأُخبار، قاله ابن القاسم في العتبية. قال: وأما إن رضي الأساقفة دون الخصمين، أو الخصمان دون الأساقفة، فليس له أن يحكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وانظر إن رضي الأساقفة لأشكال النوازل عندهم دون أن يرضى الخصمان، فإنها تحتل الخلاف، وانظر إذا رضي الخصمان ولم يقع من الأُخبار تَكْيِزٌ فَحْكَمَ الحاكم، ثم أراد الأُخبار رد ذلك الحكم، وهل تستوي النوازل في هذا، كالرجم في زانيتين، والقضاء في مال يصير من أحدهما إلى الآخر؟ وانظر إذا رضي الخصمان هل على الحاكم أن يستعلم ما عند الأُخبار، أو يقنع بأن لم تقع منهم معارضة؟ ومالك رحمه الله يستحب لحاكم المسلمين الإعراض عنهم وتركهم إلى دينهم. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءَكَوْكَ﴾ يعني أهل نازلة الزانيتين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ثم الآية بعد تتناول سائر النوازل، والله أعلم.

﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

أَمَّنَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَهُ ﷺ مِنْ ضَرَرِهِمْ إِذَا أَعْرَضَ عَنْهُمْ، وَحَقَّرَ فِي ذَلِكَ شَأْنَهُمْ، وَالْمَعْنَى: إِنَّكَ مَنْصُورٌ ظَاهِرُ الْأَمْرِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَهَذَا نَحْوُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ أي: اخترت أن تحكم بينهم في

نازلة ما، ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل، يقال: أَقْسَطَ الرَّجُلُ: إِذَا عَدَلَ وَحَكَمَ بِالْحَقِّ، وَقَسَطَ: إِذَا جَارَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وَمُحِبَّةُ اللَّهِ لِلْمَقْسُطِينَ مَا يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ.

ثم ذكر الله تعالى بعد تحكيمهم للنبي ﷺ بالإخلاص منهم، وبين بالقياس الصحيح أنهم لا يحكمونه إلا رغبة في ميله في هواهم، وانحطاطه في شهواتهم، وذلك أنه قال: ﴿وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ﴾ بَيِّنَةٌ صَادِقَةٌ وَهُمْ قَدْ خَالَفُوا حُكْمَ الْكِتَابِ الَّذِي يَصْدُقُونَ بِهِ، وَبَيِّنَةٌ الْآيَةِ بِهِ، وَتَوَلَّوْا عَنْ حُكْمِ اللَّهِ فِيهِمَا؟ فَأَنْتَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُونَ بِكَ، وَلَا يَصْدُقُونَكَ، أُخْرَى: بِأَنْ يَخَالَفُوا حُكْمَكَ. وقوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: مَنْ بَعْدَ حُكْمِ اللَّهِ فِي التَّوْرَةِ فِي الرَّجْمِ، وَمَا أَتْبَعَهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي خَالَفُوا فِيهَا أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي بِالتَّوْرَةِ وَبِمُوسَى، وَهَذَا إِتْرَامٌ لَهُمْ، لِأَنَّ مِنْ خَالَفَ حُكْمَ كِتَابِ اللَّهِ فَدَعَاوَهُ الْإِيمَانَ بِهِ قَلْفَةً. وهذه الآية تَقْوِي أَنْ قَوْلُهُ فِي صَدْرِ الْآيَةِ: ﴿مَنْ أَلَّيْتُ قَالُوا مَأْمَنًا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَنَّهُ يَرَادُ بِهِ الْيَهُودَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ﴾ الْآيَةَ - قَالَ قَتَادَةُ: ذَكَرْنَا لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ - لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ -: «نَحْنُ الْيَوْمَ نَحْكُمُ عَلَى الْيَهُودِ وَعَلَى مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ وَالْهَدَى: الْإِرْشَادُ فِي الْمَعْتَقَدِ وَالشَّرَائِعِ، وَالنُّورُ: مَا يَسْتَضَاءُ بِهِ مِنْ أَوَامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا، وَ

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ هُمْ مَنْ بُعِثَ مِنْ لَدُنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ إِلَى مَدَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، هَذَانِ طَرَفَا هَذِهِ الْجَمَاعَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ مَعْنَاهُ: أَخْلَصُوا وَجُوهَهُمْ وَمَقَاصِدَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ متعلق بـ ﴿يَحْكُمُ﴾، أي: يَحْكُمُونَ بِمَقْتَضَى التَّوْرَةِ لِابْنِي إِسْرَائِيلَ وَعَلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالرَّيْبِيِّنَ﴾ عَطَفَ عَلَى ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾، أي: وَيَحْكُمُ بِهِمَا الرِّبَائِيُّونَ، وَهُمْ الْعُلَمَاءُ. وَفِي الْبُخَارِيِّ قَالَ: الرَّبَّانِيُّ: الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصَغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ. وَقِيلَ: الرَّبَّانِيُّ: مَنْسُوبٌ إِلَى الرَّبِّ، أَي: عِنْدَهُ الْعِلْمُ بِهِ وَبِدِينِهِ، وَزِيدَتِ النُّونُ فِي (رَبَّانِي) مَبَالِغَةً، كَمَا قَالُوا: مَنْظَرَانِي، وَمُخْبَرَانِي، وَفِي الْعَظِيمِ الرِّقْبَةُ: رَقَبَانِي. وَالْأُخْبَارُ أَيْضًا: الْعُلَمَاءُ، وَاحِدُهُمْ جِبْرٌ بِكَسْرِ الْحَاءِ، وَيُقَالُ: بَفَتْحِهَا، وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُ الْفَتْحِ فِيهِ لِلْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَبْرِ الَّذِي يَكْتُبُ بِهِ. وَقَالَ السُّدِّي: الْمُرَادُ - هُنَا - بِالرَّبَّانِيِّينَ وَالْأُخْبَارِ الَّذِي يَحْكُمُونَ بِالتَّوْرَةِ: ابْنَا صُورِيَا، كَانَ أَحَدُهُمْ رَبَّانِيًّا، وَالْآخَرُ حَبْرًا، وَكَانَا قَدْ أُعْطِيَ النَّبِيُّ ﷺ عَهْدًا أَلَّا يَسْأَلَهُمَا عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ التَّوْرَةِ إِلَّا أَخْبَرَاهُ بِهِ، فَسَأَلَهُمَا عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ فَأَخْبَرَاهُ بِهِ عَلَى وَجْهِهِ، فَنُزِلَتِ الْآيَةُ مُشِيرَةً إِلَيْهِمَا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَفِي هَذَا نَظَرٌ، وَالرَّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ أَنَّ ابْنَيْ صُورِيَا وَغَيْرَهُمْ جَحَدُوا أَمْرَ الرَّجْمِ، وَفَضَحَهُمْ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، وَإِنَّمَا اللَّفْظُ عَامٌ فِي كُلِّ حَبْرٍ

مستقيم فيما مضى من الزمان. وأما في مدة محمد ﷺ فلو وجد لأسلم، فلم يَسْمُ حبراً ولا رباناً.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا اسْتُحْفِظُوا﴾ أي: بسبب استحفاظ الله تعالى إياهم أمر التوراة، وأخذ العهد عليهم في العمل والقول بها، وعرفهم ما فيها فصاروا شهداء عليه. وهؤلاء ضيعوا لما استُحفظوا حتى تبدلت التوراة، والقرآن بخلاف هذا لقوله تعالى: ﴿وَأِنَّا لَمُحْفِظُونَ﴾، والحمد لله، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِذُوا بِحَكَايَةِ مَا قِيلَ لِعُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، نهى عن جميع المكاسب الخبيثة بالعلم، والتحيل للدنيا بالدين، وهذا المعنى بعينه يتناول علماء هذه الأمة وحكامها، ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ﴾ إلى آخر الآية خطاباً لأمة محمد ﷺ.

واختلف العلماء في المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ :-

فقال جماعة: المراد اليهود - [الكافرين - والظالمين - والفاسقين] وروى في هذا حديث عن النبي ﷺ من طريق البراء ابن عازب.

وقالت جماعة عظيمة من أهل العلم: الآية متناولة كل من لم يحكم بما أنزل الله، ولكنه في أمراء هذه الأمة كفر معصية لا يخرجهم عن الإيمان.

وقيل لحذيفة بن اليمان: أنزلت هذه الآية في بني إسرائيل؟ فقال: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن

كان لكم كل حلوة، ولهم كل مرّة، لتسلكن طريقهم قدر الشراك.

وقال الشعبي: نزلت: [الكافرون] في المسلمين، و [الظالمون] في اليهود، و [الفاسقون] في النصارى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا أعلم لهذا التخصيص وجهاً، إلا إذا صح فيه حديث عن النبي ﷺ، إلا أنه راعى من ذكر مع كل خير من هذه الثلاثة، فلا يترتب له ما ذكر في المسلمين إلا على أنهم خطبوا بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ﴾.

وقال إبراهيم الشّخمي: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل، ثم رضي لهذه الأمة بها.

﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

الكتب في هذه الآية هو حقيقة كتب في الألواح، وهو بالمعنى كتب فرض وإلزام. والضمير في ﴿عليهم﴾ لبني إسرائيل، وفي ﴿فيها﴾ للتوراة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمر، وابن عامر: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ بنصب [النفس] على اسم [أن]، وعطف ما بعد ذلك منصوباً على [النفس]، ويرفعون ﴿والجروح﴾ قِصاصاً على أنها جملة مقطوعة. وقرأ نافع وحزمة، وعاصم بنصب ذلك كله، و ﴿قِصاصاً﴾ خبر [أن]، وروى الواقدي عن نافع أنه رفع ﴿والجروح﴾، وقرأ الكسائي ﴿أن النفس بالنفس﴾ نصباً، ورفع ما بعد ذلك، فمن نصب ﴿وَاللَّيْلِ﴾ جعل عطف الواو مشركاً في عمل [أن]، ولم يقطع الكلام ممّا قبله، ومن رفع ﴿وَالْعَيْنِ﴾ فيتمثل ذلك من الإعراب أن يكون قطع ممّا قبل، وصار

عطف الواو عطف جملة كلام، لا عطف تشريك في عامل، ويحتمل أن تكون الواو عاطفة على المعنى، لأن معنى قوله: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ قلنا لهم: النفس بالنفس، ومثله: لما كان المعنى في قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ بِأَكْرَابٍ وَأَبْرَارٍ وَكَانَ مِنَ مَعِينٍ ﴿...﴾ يُمْتَحَنُونَ كَأْساً مِنْ مَعِينٍ - عطف ﴿وحوراً عيناً﴾ على ذلك، وهذا على قراءة، ﴿وحوراً عيناً﴾ بالنصب - ويحتمل أن يعطف قوله: ﴿وَالْعَيْنِ﴾ على الذكر المستتر في الطرق الذي هو الخير، وإن لم يؤكد المعطوف عليه بالضمير المنفصل كما أكد في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ بَرَكْتُمْ هُوَ وَرَبُّهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُ﴾، وقد جاء مثله غير مؤكد في قوله تعالى: ﴿مَا أَثْرَكْنَا وَلَا أَبَاؤُنَا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليسبويه رحمه الله في هذه الآية أن العطف ساغ دون توكيد بضمير منفصل، لأن الكلام طال [لا] في قوله ﴿وَلَا أَبَاؤُنَا﴾، فكانت [لا] عوضاً من التوكيد، كما طال الكلام في قولهم: «حضر القاضي اليوم امرأة»، قال أبو علي: وهذا يستقيم أن يكون عوضاً إذا وقع قبل حرف العطف، فهناك يكون عوضاً من الضمير الواقع قبل حرف العطف، فأما إذا وقع بعد حرف العطف فلا يَسُدُّ مَسَدَ الضمير، ألا ترى أنك لو قلت: «حضر امرأة القاضي اليوم» لم يُغْنِ طول الكلام في غير الموضع الذي ينبغي أن يقع فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكلام سيبويه متجه على النظر النحوي، وإن كان الطول قبل حرف العطف أم، فإنه بعد حرف العطف مؤثر، لا سيما في هذه الآية، لأن [لا] ربطت المعنى، إذ قد تقدمها نفي، ونفت هي أيضاً عن الآباء، فتمكن العطف. قال أبو علي: ومن رفع ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ فقطعه مما قبله، فإن ذلك يحتمل هذه الوجوه الثلاثة التي احتملها رفع ﴿وَالْعَيْنُ﴾. ويجوز أن يُستأنف: ﴿وَالْجُرُوحُ﴾ ليس على أنه مما كُتب عليهم في التوراة، ولكن على استئناف إيجاب وابتهاء شريعة، ويُقَوَّى أنه من المكتوب عليهم نَصَبٌ من نصبه. وَرَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿أَنِ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾ بتخفيف [أَن] ورفع [النفس]، ثم رفع ما بعدها إلى آخر الآية، وقرأ أبي بن كعب بنصب ﴿النفس﴾ وما بعدها، ثم قرأ: ﴿وَأَن الْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ بزيادة (أَن) الخفيفة، ورفع [الجروح].

ومعنى هذه الآية الخبر بأن الله تعالى كتب فرضاً على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً فيجب في ذلك أخذ نفسه، ثم هذه الأعضاء المذكورة كذلك، ثم استمر هذا الحكم في هذه الأمة بما عُلِمَ من شَرَعِ النبي ﷺ وأحكامه، ومضى عليه إجماع الناس.

وذهب قوم من العلماء إلى تعميم قوله: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾ فقتلوا الحر بالعبد، والمسلم بالذمي، والجمهور على أنه عموم يراد به الخصوص في المتماثلين، وهذا مذهب مالك، وفيه

الحديث عن النبي ﷺ: «لَا يَقْتُلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»، وقال ابن عباس رضي الله عنه: رَخَّصَ الله لهذه الأمة ووسع عليها بالدية، ولم يجعل لبني إسرائيل دية فيما نزل على موسى وكتب عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذه الآية بيان لفساد فعل بني إسرائيل في تعزز بعضهم على بعض، وكون بني النضير على الضعف في الدية من بني قريظة، أو على ألا يقاد بينهم، بل يُقَنع بالدية، ففضحهم الله بهذه الآية، وأعلم أنهم خالفوا كتابهم. وحكى الطبري عن ابن عباس: كان بين حَيَّيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ قِتَالٌ فَصَارَتْ بَيْنَهُمْ قَتْلَى، وَكَانَ لِأَحَدِهِمَا طَوْلٌ عَلَى الْآخَرِ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَجَعَلَ الْحَرْ بِالْحَرْ، وَالْعَبْدَ بِالْعَبْدِ، قَالَ الثَّوْرِيُّ: وَبَلَّغَنِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: ثُمَّ نَسَخَهَا النَّفْسُ بِالنَّفْسِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ هو عموم يراد به الخصوص في جراح القود، وهي التي لا يخاف منها على النفس. وأما ما خيف منه كالمأومة وكسر الفخذ ونحو ذلك فلا قصاص فيها، والقصاص مأخوذ من قَصَّ الأثر، وهو اتباعه، فكان الجاني يُقْتَصص أثره، وَيُتَّبَع فيما سئمه، فَيُقْتَل كما قتل.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ يحتمل ثلاثة معانٍ - أحدها: أن تكون [مَنْ] للمجرور أو ولي القتل، ويعود الضمير في

قوله: ﴿لَّهُ﴾ عليه أيضاً، ويكون المعنى: إن من تصدق بجرحه أو ذم وليه فعفا عن حقه في ذلك، فإن ذلك العفو كفارة له عن ذنوبه، ويعظم الله أجره بذلك ويكفر عنه، وقال بهذا التأويل عبدالله بن عمر، وجابر بن زيد، وأبو الدرداء، وذكر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَابُ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ فِيهِبِهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ دَرَجَةً، وَحُطَّ عَنْهُ خَطِيئَتُهُ». وذكر مكى حديثاً من طريق الشعبي أنه يحط من ذنوبه بقدر ما عفا من الدية، والله أعلم، وقال به أيضاً قتادة، والحسن.

والمعنى الثاني أن تكون [مَنْ] للمجرور أو ولي القتل، والضمير في ﴿لَّهُ﴾ يعود على الجارح أو القاتل إذا تصدق المجرور على الجارح بجرحه وصفح عنه، فذلك العفو كفارة للجارح عن ذلك الذنب، فكما أن القصاص كفارة، فكذلك العفو كفارة، وأما أجر العافي فعلى الله تعالى، وعاد الضمير على مَنْ لم يتقدم له ذكر لأن المعنى يقتضيه، قال بهذا التأويل ابن عباس، وأبو إسحق السبيعي، ومجاهد، وإبراهيم، وعامر الشعبي، وزيد بن أسلم.

والمعنى الثالث أن تكون [مَنْ] للجارح أو القاتل، والضمير في ﴿لَّهُ﴾ يعود عليه أيضاً، والمعنى: إذا جنى جان فجهل وخفي أمره، فتصدق هو بأن عُرِفَ بذلك ومكَّن الحق من نفسه فذلك الفعل كفارة لذنبيه، وذهب القائلون بهذا التأويل إلى الاحتجاج بأن مجاهد قال: إذا

وفي هذا قلق من جهة اتساق المعاني.

وقرأ الناس: ﴿وَهْدَىٰ وَمَوْعِظَةً﴾ بالثُضْب، وذلك عطف على «مصدق»، وقرأ الضحاك: ﴿وَهْدَىٰ وَمَوْعِظَةً﴾ بالرفع، وذلك متجه، وخص المتقون بالذكر لأنهم المقصود به في علم الله، وإن كان الجميع يُدعى وتوعظ، ولكن ذلك على غير المتقين عمى وحيرة.

وقرأ أبي بن كعب: ﴿وَأَنْ لِيُخَيِّكُمْ﴾ بزيادة «أَنْ»، وقرأ حمزة: ﴿وَلِيُخَيِّكُمْ﴾ بكسر اللام وفتح الميم على لام (كي) ونصب الفعل بها، والمعنى: وآتيناه الإنجيل ليتضمن الهدى والنور والتصديق ليحكم أهلُه بما أنزل الله فيه، وقرأ باقي السبعة: ﴿وَلِيُخَيِّكُمْ﴾ بسكون اللام التي هي لام الأمر، وجزم الفعل، ومعنى أمره لهم بالحكم أي: هكذا يجب عليهم، وحسن عقب ذلك التوقيف على وعيد من خالف ما أنزل الله، ومن القراء من يكسر لام الأمر ويجزم الفعل، وقد تقدم نظير هذه الآية، وتقريره هذه الصفات لمن لم يحكم بما أنزل الله هو على جهة التأكيد، وأصوب ما يقال فيها أنها نعم كل مؤمن وكل كافر، فيجيء كل ذلك في الكافر على أتم وجوهه، وفي المؤمن على معنى كفر المعصية وظلمها ونفسها.

وأخبر تعالى بَعْدُ بنزول هذا القرآن، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل أن يريد: مضمناً للحقائق من الأمور، فكأنه نزل بها، ويحتمل أن يريد أنه أنزله بأن حق ذلك، لا أنه وجب

وقد تقدم القول على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الآية. وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿وَمَنْ يَتَصَدَّقْ بِهِ فَإِنَّهُ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾.

٤٦ - ٤٧ تفسير قوله عز وجل:

فَقَيْنَا تَشْبِيه، كأن مجيء عيسى كان في قفاء مجيء النبيين وذهابهم، والضمير في «آئتهم» للنبيين المذكورين في قوله: ﴿يَحْكُمُ بِمَا آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ﴾ و«مُصَدِّقًا» حال مؤكدة، و«الْزُورَةَ» بين يدي

عيسى لأنها جاءت قبله كما أن رسول الله ﷺ بين يدي الساعة. وقد تقدم القول في هذا المعنى في غير موضع.

و«الْإِنْجِيلَ» اسم أعجمي ذهب به مذهب الاشتقاق، من نَجَل إذا استخرج وأظهر، والناس على قراءته بكسر الهمزة إلا الحسن بن أبي الحسن فإنه قرأ «الْأَنْجِيلَ» بفتح الهمزة، وقد تقدم القول على ذلك في أول سورة آل عمران.

والهدى: الإرشاد والدعاء إلى توحيد الله وإحياء أحكامه. والنور: ما فيه مما يستضاء به، و«مُصَدِّقًا» حال مؤكدة معطوفة علي موضع الجملة التي هي: ﴿بِهِ هُدًى﴾ فإنها جملة في موضع الحال، وقال مكي وغيره: «مُصَدِّقًا» معطوف على الأول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وَقَيْنَا عَلَيْهِمْ آتَيْنَاهُمْ بَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآمَنَّا بِهِ أَنْ يَحْمِلَ فِيهِ هَذِي وَنُورَ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهَذِي وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاعْتَدِ لَهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ أَنْ يُبَيِّنَهُمْ يَبْغِضُ ذُنُوبَهُمْ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحَكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

١١٦

أصاب رجل رجلاً ولم يعلم المصاب من أصابه فاعترف له المصيبُ فهو كفارة للمصيب، وروي أن عروة بن الزبير أصاب عين إنسان عند الركن وهم يستلمون، فلم يدر المصاب من أصابه، فقال له: عروة: أنا أصبتك، وأنا عروة بن الزبير، فإن كان بعينك بأس فأنا بها. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وانظر أن «تَصَدَّقَ» - على هذا التأويل - يحتمل أن يكون من الصدقة، ومن الصدق.

وذكر مكي بن أبي طالب أن قوماً تأولوا الآية أن المعنى: والجروح قصاص، فمن أعطى دية الجرح وتصدق بذلك فهو كفارة له إذا رضيت منه وقبلت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل قلق.

على الله، ولكن حق في نفسه، وأنزله تعالى صلاحاً لعباده، وقوله: ﴿يَنْ أَلِكْتَبِ﴾ يريد من الكتب المنزل، فهو اسم جنس، واختلفت عبارة المفسرين في معنى مُهَيِّمٍ - فقال ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾: شاهداً، وقال أيضاً: مؤتمناً، وقال ابن زيد: معناه: مصدقاً، وقال الحسن بن أبي الحسن: أميناً، وحكى الزجاج: قريباً، ولفظة المهيم من هذه الألفاظ، لأن المهيم على الشيء هو المعنى بأمرة، الشاهد على حقائقه، الحافظ لحاصله، فلا يدخل فيه ما ليس منه، والله تبارك وتعالى هو المهيم على مخلوقاته وعباده، والوصي مُهَيِّمٌ على محجوريه وأموالهم، والرئيس مهيم على رعيته وأحوالهم، والقرآن جعله الله مهيماً على الكتب يشهد بما فيها من الحقائق، وعلى ما نسبته المحرفون إليها فيصحح الحقائق ويبطل التحريف، وهذا هو شاهد ومصدق ومؤتمن وأمين، ومهيم: بناء اسم فاعل، قال أبو عبيدة: ولم يجيء في كلام العرب على هذا البناء إلا أربعة أحرف، وهي: مُسَيِّطَر، ومُتَبَيَّنَر، ومُهَيِّم، ومُجَيِّم، وذكر أبو القاسم الزجاج - في شرحه لصدر أدب الكتاب - ومُتَبَيَّنَر، يقال: يُتَبَيَّنَر الرجل إذا سار من الحجاز إلى الشام، ومن أَقَى إلى أَقَى، ويُتَبَيَّنَر أيضاً: لعب التَّبَيَّنَر، وهي لعبة يلعب بها الصبيان، وقال مجاهد: قوله تعالى: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيَّ﴾ يعني محمداً ﷺ هو مؤتمن على القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وغلط الطبري رحمه الله في هذه اللفظة على مجاهد، فإنه فسر تأويله على قراءة الناس: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾ بكسر الميم الثانية فبعد التأويل، ومجاهد رحمه الله إنما يقرأ هو وابن محيصن: ﴿مُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ بفتح الميم الثانية، فهو بناء اسم المفعول، وهو حال من الكتاب معطوفة على قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾، وعلى هذا يتجه أن المؤتمن عليه هو محمد ﷺ، و﴿عَلَيَّ﴾ في موضع رفع على تقدير أنها مفعول لم يُسم فاعله، هذا على قراءة مجاهد، وكذلك مشى مكّي رحمه الله وتوغل في طريق الطبري في هذا الموضع، قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد رحمه الله: مُهَيِّمٌ أصله: مؤتمن - من أمين - أبدلت همزته هاء، كما قالوا: أرقت السماء وهرقته، قال الزجاج: وهذا حسن على طريق العربية، وهو موافق لما جاء في التفسير من أن معنى مهيم: مؤتمن. وحكى ابن قتيبة هذا الذي قاله المبرد في بعض كتبه، فحكى النقاش أن ذلك بلغ ثعلباً فقال: «إن ما قال ابن قتيبة رديء»، وقال: هذا باطل، والثوب على القرآن شديد، وهو ما سمع الحديث من قوي ولا ضعيف، وإنما جمع الكتب. انتهى كلام ثعلب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقال من مهيم: هَيَّيْن الرجل على الشيء، إذا حفظه وحاطه وصار قائماً عليه أميناً، ويحتمل أن يكون

﴿مُصَدِّقًا - وَمُهَيِّمًا﴾ حالين من الكاف في ﴿إِلَيْكَ﴾، ولا يخص ذلك قراءة مجاهد وحده كما زعم مكّي.

قال بعض العلماء: هذه ناسخة لقول: ﴿وَإِذْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾، وقد تقدم ذكر ذلك. وقال الجمهور: إنه ليس بنسخ، وإن المعنى: فإن اخترت أن تحكم فاحكم بينهم بما أنزل الله.

ثم حذر تعالى نبيه من اتباع أهوائهم، أي: شهواتهم وإرادتهم التي هي هوى ورسول للنفس، والنفس أمارة بالسوء، فهوها مُرِد لا محالة، وحسن هنا دخول (عن) في قوله: ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ لما كان الكلام بمعنى: لا تنصرف أو لا ترحز بحسب أهوائهم عما جاءك.

واختلف المتأولون في معنى قوله عز وجل: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ - فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقتادة، وجمهور المتكلمين: المعنى: لكل أمة منكم جعلنا شريعة ومنهاجاً، أي: لليهود شريعة ومنهاج، وللنصارى كذلك، وللمسلمين كذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندهم في الأحكام، وأما في المعتقد فالدين واحد لجميع العالم، توحيد وإيمان بالبعث وتصديق للرسول، وقد ذكر الله تعالى في كتابه عدداً من الأنبياء شراعتهم مختلفة، ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهَدْيِهِمْ أَتَقْدِرُ﴾، فهذا عن العلماء في المعتقدات فقط، فأما في الشرائع فهذه الآية هي القاضية فيها: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتأويل الأول عليه الناس - ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿لِكُلِّ جَمْعًا مِنْكُمْ شَرْعَةٌ وَمِنْهَا أَجْمَعُ﴾ الأسم كما قدمنا، ويحتمل أن يكون المراد الأنبياء لا سيما وقد تقدم ذكرهم وذكر ما أنزل عليهم، وتجيء الآية مع هذا الاحتمال في الأنبياء تنبيهاً لمحمد ﷺ أي: فاحفظ شرعتك ومنهاجك لئلا يستزلك اليهود وغيرهم في شيء منه.

والمستأولون على أن الشريعة والمنهاج في هذه الآية لفظان بمعنى واحد، وذلك أن الشريعة والشريعة هي: الطريق إلى الماء وغيره مما يورد كثيراً، فمن ذلك قول الشاعر:

وفي الشرائع من جلائل مقتنص
بالي الثياب خوف في الصوت مندوب
أراد في الطرق إلى الماء، ومنها: الشارع، وهي سكك المدن، ومنه قول الناس: وفيها يشرع الباب. والمنهاج أيضاً: الطريق، ومنه قول الشاعر:

مَنْ يَكْ ذَا شَكِّ فَهَذَا نَهْجُ
مَاءِ زَوَاةٍ وَطَرِيقُ نَهْجُ
أراد: واضحاً، والمنهاج بناء مبالغة في ذلك، وقال ابن عباس وغيره: ﴿يَنْزِعَهُ وَيَنْهَاجَهُ﴾ معناه: سبيلاً وسنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل لفظ الآية أن يريد بالشريعة الأحكام، وبالمنهاج: المعتقد. أي: وهو واحد في جميعكم، وفي هذا الاحتمال بُغِد. والقراء على ﴿يَنْزِعَهُ﴾ بكسر الشين، وقرأ إبراهيم

الشَّخْعِي، ويحيى بن وثاب: ﴿شُرْعَةٌ﴾ بفتح الشين.

ثم أخبر تعالى بأنه لو شاء لجعل العالم أمة واحدة، ولكنه لم يشأ لأنه أراد اختبارهم وابتلاهم فيما آتاهم من الكتب والشرائع، كذا قال ابن جريج وغيره، فليس لهم إلا أن يجتدوا في امتثال الأوامر، وهو استباق الخيرات، فلذلك أمرهم بأحسن الأشياء عاقبة لهم.

ثم حثهم تعالى بالموعظة والتذكير بالمعاد في قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَبِيلاً﴾، والمعنى: فالبدار البدار. وقوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ يَمًا كَثَرًا فِيهِ تَخَلَّدُونَ﴾ معناه: يظهر الشواب والعقاب فتُخَبَّرُونَ به إخبار إيقاع، وإلا فقد نبأ الله في الدنيا بالحق فيما اختلفت الأمم فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية بارعة الفصاحة، جمعت المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة، وكل كتاب الله كذلك، إلا أننا بقصور أفهامنا يبين في بعض لنا أكثر مما يبين في بعض.

١١١ - ١١٢ تفسير قوله عز وجل: ﴿وَأَنْ أَعْتَكُمُ﴾ معطوف على ﴿الْكِتَابِ﴾ في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾. وقال مكِّي: هو معطوف على ﴿الْحَقِّ﴾ في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾. والوجهان حسنان. ويقرأ بضم النون من ﴿أَنْ أَحْكُمُ﴾ مراعاة للضمة في عين الفعل المضارع، ويقرأ بكسرها على القانون في التثنية الساكنين.

وهذه الآية ناسخة عند قوم للتخيير الذي في قوله: ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾،

وقد تقدم ذكر ذلك، ثم نهاه تعالى عن اتباع أهواء بني إسرائيل إذ هي مُضِلَّة، والهوى في الأغلب إنما يجيء عبارة عما لا خير فيه، وقد يجيء أحياناً بما فيه خير، ومن ذلك قول عمر بن الخطاب في قصة رأيته ورأي أبي بكر في أسر بدر: «فهو رسول الله ﷺ رأي أبي بكر رضي الله عنه»، ومنه قول عمر بن عبدالعزيز وقد قيل له: ما ألد الأنبياء عندك؟ قال: حق وافق هوى، والهوى مقصور ووزنه فعل، ويجمع على أهواء، والهواء ممدود، ويجمع على أهوية.

ثم حذر تبارك وتعالى من جهتهم أن يفتنوه، أي: يصرفوه بامتحانهم وابتلاهم عن شيء مما أنزل الله عليه من الأحكام، لأنهم كانوا يريدون أن يخذعوا النبي ﷺ، فقالوا له مراراً: احكم لنا في نازلة كذا وكذا وتبعك على دينك.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ قبله محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر، تقديره: لا تتبع واحذر، فإن حكموك مع ذلك واستقاموا فنيحاً ذلك، وإن تولوا فاعلم، ويحسن أن يقدر هذا المحذوف المعادل بعد قوله: ﴿لَتَنفِيثُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ﴾ الآية وعد للنبي ﷺ فيهم، وقد أنجزه بقصة بني قينقاع، وقصة قريظة والنضير، وإجلاء عمر أهل خيبر وفدك وغيرهم، وخصص تعالى إصابتهم ببعض الذنوب دون كلها لأن هذا الوعيد إنما هو في الدنيا، وذنوبهم فيها نوعان: نوع يخصهم كشر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَيَتَّبِعُهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيَةً ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنْهُمْ لَكُمْ حُرْطٌ أَعْمَلْتُمْ فَاصْبِرُوا خَسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَكَايَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ يُسُوفُ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّامَةً ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُبْسِطُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ ﴿٥٦﴾ يَكَايَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ دِينًا وَلَوْ بَايَعُواكُمْ أَوْ أَوْفُوا الْكُفْرَ بَيْنَ قَبِيلِكُمْ وَالْكَفَارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ تَوَفِّيْنَ ﴿٥٧﴾

١١٧

رَسُولًا ﴿٥١﴾. وكما تقول: «مررت بالذي أكرمت». ويحذف أقل من ذلك من الصفة، وحذفه من الخبر قبيح كما جاء في بيت أبي النجم، ويتجه بيته بوجهين - أحدهما: أنه ليس في صدر قوله ألف استفهام يطلب الفعل كما هي في قوله تعالى: ﴿أَنفَحَكُمْ﴾، والثاني أن في البيت عوضاً من الهاء المحذوفة، وذلك حرف الإطلاق، أعني الياء في (أصنعي)، فتضعف قراءة من قرأ: ﴿أَنفَحَكُمْ﴾ بالرفع، لأن الفعل بغد لا ضمير فيه ولا عوض من

الضمير، وألف الاستفهام - التي تطلب الفعل ويختار معها النصب وإن لفظ بالضمير - حاضرة، وإنما تنجبه القراءة على أن يكون التقدير: «أفحكم الجاهلية حكم ييغون؟» فلا تجعل ﴿يَبْغُونَ﴾ خبراً، بل تجعله صفة لخبر محذوف وموصوف. ونظيره قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾، تقديره: قوم يحرفون، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه، ومثله قول الشاعر:

وما الذَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا
أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَنِي الْعَيْشَ أَكْذَحُ
وقرأ سليمان بن مهران: ﴿أَنفَحَكُمْ﴾ بفتح الحاء والكاف والميم، وهو اسم جنس، وجاز إضافة اسم الجنس على نحو قولهم: منعت العراق قفيزها ويزهمها، ومصر إردبها، وله نظائر.

الخمر ورباهم ورشاهم ونحو ذلك، ونوع يتعدى إلى النبي والمؤمنين، كعمالتهم للكفار وأقوالهم في الدين، فهذا النوع هو الذي يوجد إليهم السبيل، وبه هلكوا، وبه توعدهم الله في الدنيا، فلذلك خصص البعض دون الكل، وإنما يعذبون بالكل في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ إشارة إليهم لكن جاءت العبارة تعمهم وغيرهم ليتنبه سواهم ممن كان على فسق و نفاق وتول عن النبي عليه الصلاة والسلام فيرى أنه تحت الوعيد، واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿أَنفَحَكُمْ بِالْهَيْلَةِ يَبْغُونَ﴾ - فقرأ الجمهور بنصب الميم على إعمال فعل ما يلي ألف الاستفهام يَبْغُو هذا الظاهر بغد، وقرأ يحيى بن وثاب، والسلمي، وأبو رجاء، والأعرج: ﴿أَنفَحَكُمْ﴾ برفع الميم، قال ابن مجاهد: وهي خطأ، قال أبو الفتح: ليس كذلك، ولكنه وجبة غيرة أقوى منه، وقد جاء في الشعر، قال أبو النجم:

قَدْ أَضْبَحْتُ أُمَّ الْخِيَارِ تَدْعِي
عَلَيَّ ذَنْبًا كُلَّهُ لَمْ أَضْغِ
يرفع كل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهكذا الرواية، وبها يتم المعنى الصحيح، لأنه أراد التبرؤ من جميع الذنب، ولو نصب (كل) لكان ظاهر قوله أنه صنع بعضه، وهذا هو حذف الضمير من الخبر، وهو قبيح، التقدير: ييغونه، ولم أصنعه، وإنما يحذف الضمير كثيراً من الصلة كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا الَّذِي بَكَتَ اللَّهُ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأنه قال: أفحكم الجاهلية ييغون؟ إشارة إلى الكهان الذين كانوا يأخذون الحلوان، ويحكمون بحسبه وبحسب الشهوات، ثم ترجع هذه القراءة بالمعنى إلى الأولى، لأن التقدير: أفحكم حُكَّام الجاهلية. وقرأ ابن عامر: ﴿يَبْغُونَ﴾ بالتاء على الخطاب لهم، أي: قل لهم. وباقى السبعة: ﴿يَبْغُونَ﴾ بالياء من تحت، وييغون معناه: يطلبون ويريدون.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ تقرير: أي: لا أحد أحسن منه حكماً تبارك وتعالى، وحسن دخول اللام في قوله: ﴿لَقَرَّوْهُ﴾ من حيث المعنى بين ذلك ويظهر لقوم يوقنون.

(٥١) - (٥٧) تفسير قوله عز وجل:

نهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية عن اتخاذا اليهود والنصارى أولياء في

إلى موالينا من اليهود، وتسمى هذه الأمور دوائر على قديم الزمان من حيث الليل والنهار في دوران، فكان الحديث يدور بدورانها حتى ينزل فيمن نزل، ومنه قول الله تعالى: ﴿ذَٰبِرَةٌ لِّلشُّوْءِ﴾، و ﴿وَيَرْبِضُ بِكَرِّ الدَّوَابِّ﴾، ومنه قول الشاعر:

وَالذُّفْرُ بِالْإِنْسَانِ دَوَارِي

.....

وقول الآخر:

.....

وَيَغْلَمُ أَنَّ الثَّائِبَاتِ تَدُورُ

وقول الآخر:

يَرُدُّ عَنْكَ الْقَدَرُ الْمَقْدُورَا

وَدَائِرَاتِ الدُّفْرِ أَنْ تَدُورَا

وبعضه قول النبي ﷺ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفعل عبدالله بن أبي في هذه النازلة لم يكن ظاهره مغالبة رسول الله ﷺ، ولو فعل ذلك لحاربه رسول الله ﷺ، وإنما كان يظهر للنبي ﷺ أن يستبقيهم لنصرة محمد ولأن ذلك هو الرأي، وقوله: «إني امرؤ أخشى الدوائر» أي: من العرب وممن يحارب المدينة وأهلها، وكان يبطن في ذلك كله التحرز من النبي والمؤمنين والفَتْ في أعضادهم، وذلك هو الذي أسرَّ هو في نفسه ومن معه على نفاقه ممن يفتضح بعضهم إلى بعض.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَسَى اللَّهُ﴾ مخاطبة للنبي ﷺ وللمؤمنين ووعده لهم، و (عسى) من الله واجبة، واختلف المتأولون في معنى [الفتح] في هذه الآية - فقال قتادة: يعني به

القضاء في هذه النوازل، والفتاح: القاضي، فكان هذا الوعد هو مما نزل ببني قينقاع بعد ذلك وبقرينة والنضير، وقال السدي: يعني به فتح مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر الفتح في هذه الآية ظهور رسول الله ﷺ وعلو كلمته، أي: فيبدو الاستغناء عن اليهود، ويرى المنافق أن الله لم يوجد سبيلاً إلى ما كان يؤمل فيهم من المعونة على أمر محمد ﷺ والدفع في صدر نبوته، فيندم حينئذ على ما حصل فيه من محاذة الشرع، وتجلل ثوب المقت من الله تعالى ومن رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين كالذي وقع وظهر بنذ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَتْرَمِنْ عِنْدِي﴾ قال السدي: المراد ضرب الجزية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر أن هذا التقسيم إنما هو لأن الفتح الموعود به هو ما يتركب على سعي النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ويسببه جدهم وعملهم، فوعد الله تعالى إما بمقتضى تلك الأفعال، وإما بأمر من عنده يهلك أعداء الشرع، هو أيضاً فتح لا يقع للبشر فيه تسيب.

وقوله تعالى: ﴿فَيَضْحَكُوا﴾ معناه: يكونون كذلك طول دهرهم، وخصَّ الإصباح بالذكر لأن الإنسان في ليله مُتَفَكِّرٌ مُتَسَتِّرٌ، فعند الصباح يرى بالحالة التي اقتضتها فكره أو أمراضه ونحو ذلك، ومنه قول الشاعر:

أَضْبَحْتُ لَا أَخْبِلُ السَّلَاحَ

إلى غير هذا من الأمثلة.

والذي أسرَّوه هو ما ذكرناه من التمرس بالنبي ﷺ، وإعداد اليهود للشورة عليه يوماً ما، وقرأ ابن الزهري: «فَيُضْحِكُ الْفُسَّاقُ عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ».

﴿٥٣﴾ - ﴿٥٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف القراء في هذه الآية - فقرأ ابن كثير، وابن عامر، ونافع: ﴿يَقُولُ﴾ بغير واو عطف وبرفع اللام، وكذلك ثبت في مصاحف المدينة ومكة، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: ﴿وَيَقُولُ﴾ بإثبات الواو، وكذلك ثبت في مصاحف الكوفيين، وقال الطبري: كذلك هي في مصاحفنا، مصاحف أهل الشرق، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿وَيَقُولُ﴾ بإثبات الواو ويصحب اللام، قال أبو علي: وروى علي بن نصر عن أبي عمرو النصب والرفع في اللام، فأما قراءة ابن كثير ونافع فمتعاضدة مع قراءة حمزة والكسائي، لأن الواو ليست عاطفة مفرد على مفرد مُشْرَكة في العامل، وإنما هي عاطفة جملة على جملة وواصلة بينها، والجملتان متصلتان بغير واو، إذ في الجملة الثانية ذكر من الجملة المعطوف عليها، إذا الذين يسارعون وقالوا نخشى ويصبحون نادمين هم الذين قيل فيهم: ﴿أَقُولَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، فلما كانت الجملتان هكذا حسن العطف بالواو وبغير الواو، كما أن قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّآيَهُمْ كَذِبُهُمْ وَفُؤُورٌ حَسْبُ سَادِمُهُمْ كَذِبُهُمْ﴾ لما كان في كل واحدة من الجملتين ذكر ما تقدم اكتفى بذلك عن الواو،

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَحْصَىٰ النَّارُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ولو دخلت الواو ف قيل: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كان حسناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولكن براعة الفصاحة في الإيجاز، ويدل على حسن دخول الواو قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةَ وَفَاتِنُهُمْ كَذِبًا﴾. فحذف الواو من قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كحذفها من هذه الآية، وإلحاقها في قوله: ﴿وَفَاتِنُهُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا القول من المؤمنين إنما هو إذا جاء الفتح وحصلت ندامة المنافقين، وفصحهم الله تعالى، فحينئذ يقول المؤمن: ﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، وتحتل الآية أن تكون حكاية لقول المؤمنين في وقت قول الذين في قلوبهم مرض: ﴿تَغْتَابُ آبٌ ثُيَيَّبًا دَائِرَةً﴾، وعند أفعالهم ما فعلوا في حكاية بني قينقاع، فظهر فيها سرهم، وفهم منهم أن تمسكهم بهم إنما هو إرصاد الله ولرسوله، فمقتهم النبي والمؤمنون، وترك النبي ﷺ بني قينقاع لعبدالله بن أبي رغبة في المصلحة والألفة، وبحكم إظهار عباده أن ذلك هو الرأي من نفسه، وأن الدوائر التي يخاف إنما هي ما يخرب المدينة، وعلم المؤمنون وكل فطن أن عباده في ذلك بخلاف ما أبدى، فصار ذلك موطنًا يحسن أن يقول فيه المؤمنون: ﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

وأما قراءة أبي عمرو: ﴿وَيَقُولُ﴾

بنصب اللام فلا يتجه معها أن يكون قول المؤمنين إلا عند الفتح وظهور ندامة المنافقين وفضحتهم، لأن الواو عاطفة فعل على فعل مشتركة في العامل، وتوجه عطف (ويقول) مطرد على ثلاثة أوجه - أحدها: على المعنى، وذلك أن قوله: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ إنما المعنى فيه: فعسى أن يأتي الله بالفتح بعطف قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ على ﴿يَأْتِيَ﴾ اعتماداً على المعنى، وإلا فلا يجوز أن يقال: عسى الله أن يقول المؤمنون، وهكذا قوله تعالى: ﴿تَوَلَّى لَخَزْنَتِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَكُنُي﴾، لما كان المعنى: أخرني إلى أجل قريب. أصدق، وخيل ﴿أَكُنُ﴾ على الجزم الذي يقتضيه المعنى في قوله: ﴿فَأَصْدَقَ﴾، والوجه الثاني: أن يكون قوله: ﴿أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ بدلاً من اسم الله عز وجل، كما أبدل من الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكَرَ﴾، ثم يعطف ﴿وَيَقُولُ﴾ على: ﴿أَن يَأْتِيَ﴾ لأنه حينئذ كأنك قلت: عسى أن يأتي، والوجه الثالث: أن يعطف قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ على ﴿فَيَمَيِّضُوا﴾ إذ هو فعل منصوب بالفاء في جواب التمني، إذ قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَمَيِّضَ﴾ وترج في حق البشر، وفي هذا الوجه نظر، وكذلك عندي في منعهم جواز: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَقُولَ المؤمنون﴾ نظر، إذ الله تعالى يصيرهم يقولون بنصره وإظهار دينه، فينبغي أن يجوز ذلك اعتماداً على المعنى.

وقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ إِنِّيهِمْ﴾

نصب ﴿جَهَنَّمَ﴾ على المصدر المؤكد، والمعنى: أهولاء المقسمون باجتهاد منهم في الإيمان ﴿إِنِّيهِمْ لَمَعَمُ﴾ ثم قد ظهر الآن منهم من موالة اليهود وخذل الشريعة ما يكذب إيمانهم. ويحتمل أن يكون من قول المؤمنين على جهة الإخبار بما حصل في اعتقادهم إذ رأوا المنافقين في هذه الأحوال، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْشَابُهُمْ﴾ على جهة الدعاء، إما من الله تعالى عليهم، وإما من المؤمنين، وحبط العمل: إذا بطل بعد أن كان حاصلًا، وقد يقال: حبط في عمل الكفار وإن كان لم يتحصل على جهة التشبيه، وقرأ جمهور الناس: ﴿حَبِطَتْ﴾ بكسر الباء، وقرأ أبو واقد، والجراح: بفتح الباء، وهي لغة.

وقوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْذَلْهُ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ الآية، قال فيها الحسن بن أبي الحسن، ومحمد بن كعب القرظي، والضحاك، و قتادة: نزلت الآية خطاباً للمؤمنين عامة إلى يوم القيامة، والإشارة بالقوم الذين يأتي الله بهم إلى أبي بكر الصديق وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة، وقال هذا القول ابن جريج وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى الآية عندي: إن الله وعد هذه الأمة أن من ارتد منها فإنه يجيء بقوم ينصرون الدين، ويغنون عن المرتدين. فكان أبو بكر وأصحابه ممن صدق فيهم الخبر في ذلك العصر، وكذلك هو عندي أمر علي

مع الخوارج، وروى أبو موسى الأشعري أنه لما نزلت هذه الآية قرأها النبي ﷺ وقال: «هم قوم هذا»، يعني أبا موسى الأشعري، وقال هذا القول عياض، وقال شريح بن عبيد: لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنا وقومي هم يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكنهم قوم هذا»، وأشار إلى أبي موسى، وقال مجاهد، ومحمد بن كعب أيضاً: الإشارة إلى أهل اليمن، وقاله شهر بن حوشب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله عندي قول واحد، لأن أهل اليمن هم قوم أبي موسى، ومعنى الآية على هذا القول مخاطبة جميع من حضر عصر النبي ﷺ على معنى التنبيه لهم والعتاب والتوعد، وقال السدي: الإشارة بالقوم إلى الأنصار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن يكون قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ آلَ الْيَتِيمِ أََمْوَالُهُمْ﴾ خطاباً للمؤمنين الحاضرين يعم مؤمنهم ومنافقهم، لأن المنافقين كانوا يظهرون الإيمان، والإشارة بالارتداد إلى المنافقين، والمعنى: إن من نافق وارتد فإن المحققين من الأنصار يحمون الشريعة ويسد الله بهم كل ثلم، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وحزمة، والكسائي، وعاصم: ﴿يَتَنَنَّى﴾ بإدغام الدال في الدال، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿يَزِيدُ﴾ بترك الإدغام، وهذه لغة أهل الحجاز مكة وما جاورها، والإدغام لغة تميم.

وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: متذللين من قبل أنفسهم غير متكبرين، وهذا قوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، وكقوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمن هين لين». وفي قراءة ابن مسعود: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ غُلْظَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ عُثْمَةَ لِأَيْمِهِ﴾ إشارة إلى الرد على المنافقين في أنهم كانوا يعتذرون بملامة الأخلاق والمعارف من الكفار ويراعون أمرهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَتَنُ اللَّهِ﴾ الإشارة بـ «ذلك» إلى كون القوم يحبون الله ويحبهم، وقد تقدم القول غير مرة في معنى محبة الله للعبد وأنها إظهار النعم المنبئة عن رضا وإباسة إياها، و «رَسِيعٌ» معناه: ذو سعة فيما يملك ويعطي وينعم.

٥٥ - ٥٧ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية للقوم الذين قيل لهم: ﴿لَا تَتَّبِعُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَةَ أَوْلِيَّةَ﴾، و «إِنَّمَا» في هذه الآية حاصرة، يعطي ذلك المعنى، و «وَلَكُمْ» اسم جنس، وقرأ ابن مسعود: ﴿إِنَّمَا مَوْلَاكُمْ الله﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: وَمَنْ آمَنَ مِنَ النَّاسِ حَقِيقَةً لَا نِفَاقًا، وهم الذين «يُتَّبِعُونَ الْيَهُودَ» المفروضة بجميع شروطها، و «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ»، وهي هنا لفظ عام للزكاة المفروضة وللتطوع بالصدقة ولكل أفعال البر، إذ هي تنمية للحسنات مطهرة للمرء من دنس الذنوب، فالمؤمنون يؤتون من ذلك كل بقدر

استطاعته، وقرأ ابن مسعود: ﴿آمَنُوا وَالَّذِينَ يَقِيمُونَ﴾ بواو.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ ذِكْرٌ﴾ جملة معطوفة، ومعناها وصفهم بتكثير الصلاة، وخص الركوع بالذكر لكونه من أعظم أركان الصلاة، وهو هيئة تواضع فعبر به عن جميع الصلاة، كما قال: ﴿وَالرُّكُوعُ الشُّجُودُ﴾ وهي عبارة عن المصلين، وهذا قول جمهور المفسرين، ولكن اتفق أن علي بن أبي طالب أعطى صدقة وهو راکع، قال السدي: هذه الآية في جميع المؤمنين، ولكن علي بن أبي طالب مر به سائل وهو راکع في المسجد فأعطاه خاتمه، وروي في ذلك أن النبي ﷺ خرج من بيته وقد نزلت عليه الآية فوجد مسكيناً فقال له: «هل أعطاك أحد شيئاً؟» فقال: نعم، أعطاني ذلك الرجل الذي يصلي خاتماً من فضة، وأعطانيه وهو راکع، فنظر النبي ﷺ فإذا الرجل الذي أشار إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ففسال النبي ﷺ: «الله أكبر»، وتلا الآية على الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال مجاهد: نزلت الآية في علي بن أبي طالب، تصدق وهو راکع، وفي هذا القول نظر، والصحيح ما قدمناه من تأويل الجمهور، وقد قيل لأبي جعفر: نزلت هذه الآية في علي. فقال: علي من المؤمنين. والواو - على هذا القول - في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ واو الحال. وقال قوم: نزلت الآية من أولها بسبب عبادة بن الصامت وتبرئه

استهزاء أهل الكتاب في لفظ هذه الآية، وثبت استهزاء المنافقين في قولهم لشياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾. ومن قرأ ﴿وَالْكَافَرُ﴾ بالنصب حمل على الفعل الذي هو: ﴿لَا تَنَجَّحُوا﴾، ويخرج الكفار من أن يَتَضَمَّنَ لفظ هذه الآية استهزاءهم، وقرأ أبي بن كعب: ﴿ومن الكفار﴾ بزيادة «من»، فهذه تؤيد قراءة الخفض، وكذلك في قراءة ابن مسعود: ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

وفرت الآية بين الكفار وبين الذين أوتوا الكتاب من حيث الغالب في اسم الكفار أن يقع على المشركين بالله إشراك عبادة أوثان، لأنهم أبعد شأواً في الكفر، وقد قال تعالى: ﴿يَجِدِ الْكَافِرَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ففرق بينهم إرادة البيان والجميع كفار، وكان هذا لأن عبادة الأوثان هم كفار من كل جهة، وهذه الفرق تلحق بهم في حكم الكفر وتخالفهم في رتب، فأهل الكتاب يؤمنون بالله وبعض الأنبياء، والمنافقون يؤمنون بالستهم.

ثم أمر تعالى بتقواه، ونبه النفوس بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي حق مؤمنين.

٥٨ - ٦٠ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَاَذَبْتُمْ﴾ الآية إنحاء على اليهود، وتبيين لسوء فعلهم، فإنهم كانوا إذا سمعوا قيام المؤمنين إلى الصلاة قال بعضهم لبعض: قد قاموا لا قاموا، إلى غير هذا من الألفاظ التي يستخفون بها في وقت الأذان وغيره، وكل ما ذكر

وكانت تحارب في أمر الإفك فهلكت فيمن هلك.

ثم نهى الله تعالى المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، فوسمهم بوسم يحمل النفوس على تجنبهم، وذلك اتخاذهم دين المؤمنين هزواً ولعباً، والهزء: السخرية والازدراء، وبقراً:

﴿هَزُواً﴾ بضم الزاي والهمز، و ﴿هَزُواً﴾ بسكون الزاي والهمز، ويوقف عليه ﴿هَزَاءً﴾ بتشديد الزاي المفتوحة،

و ﴿هَزُواً﴾ بضم الزاي وتنوين الواو، و ﴿هَزَاءً﴾ بزاي مفتوحة منونة. ثم بيّن تعالى جنس هؤلاء أنهم من أهل الكتاب: اليهود والنصارى.

واختلف القراء في إعراب: ﴿الْكَافَرُ﴾ - فقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم، وحمره: ﴿وَالْكَافَرُ﴾ نصباً، وقرأ أبو عمرو، والكسائي: ﴿وَالْكَافَرُ﴾ خفضاً، وروى حسين الجعفي عن أبي عمرو النصب، قال أبو علي: حجة من قرأ بالخفض حمل الكلام على أقرب العاملين، وهي لغة التنزيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويدخل الكفار على قراءة الخفض فيمن اتخذ دين المؤمنين هزواً، وقد ثبت استهزاء الكفار في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا السُّتَهْزَؤُونَ﴾، وثبت

وَإِذَا تَاَذَبْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ أَغْلَوْا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ وَمَا لَكُمْ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُ فَتَسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِمُشْرِقِينَ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْقَةَ وَالْخَافِرَ وَعَبْدَ الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفَرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِإِذْنِ اللَّهِ أَغْرَبْنَا مَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ رَأَيْتُمْ كَيْفَ آتَيْنَاهُمْ بَشِيرًا فِي الْآيَةِ وَالْعُدُونِ وَأَكْثَلَهُمُ الشُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّسُولُ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمْ إِلَّا تَدْرَأُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَبِذَلِكَ عِزَّةٌ كَثِيرَةٌ بَصُرُونَا ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بِلَيْدِهِ مَبْسُوطَتَانِ يُفَقِّحْ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَبِذَلِكَ عِزَّةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفِينَا وَكُفِّرَا وَفَتِنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْعَصَّةَ إِنِّي يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَلِمَةٌ أَوْفَدُونَا وَإِنَّا لَآلِحَرْبٍ أَطْعَمَاهَا اللَّهُ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

١١٨

من بني قينقاع. وقال ابن الكلبي: نزلت بسبب قوم أسلموا من أهل الكتاب، فجاءوا فقالوا: يا رسول الله، بيوتنا بعيدة، ولا متحدث لنا إلا مسجدك، وقد أقسم قومنا ألا يخالطونا ولا يوالونا، فنزلت الآية مؤنسة لهم.

ثم أخبر تعالى أن من يتول الله ورسوله والمؤمنين فإنه غالب كل من ناوأه، وجاءت العبارة عامة - ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُوَ أَكْثَرُ يُؤَيِّدُ﴾ اختصاراً لأن المتولي هو من حزب الله، وحزب الله غالب، فهذا الذي تولى الله ورسوله والمؤمنين غالب، و﴿وَمَنْ﴾ يراد بها الجنس لا مفرد بعينه، والحزب: الصاغية، والمنتمون إلى صاحب الحزب والمعاونون فيما يحزب، ومنه قول عائشة رضي الله عنها في حمنة

من ذلك فهو مثال. وقد ذكر السدي أنه كان رجل من النصارى بالمدينة، فكان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله قال: حرق الله الكاذب، فما زال كذلك حتى سقط مصباح في بيته ليلة فأحرقه واحترق النصراني لعنه الله.

ثم ذكر تعالى أن فعلهم هذا إنما هو لعدم عقولهم، وإنما عدموها إذ لم تتصرف كما ينبغي لها فكانها لم توجد.

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول لأهل الكتاب: ﴿هَلْ تَنْقُتُونَ؟﴾ ومعناه: هل تعدون علينا ذنباً أو نقيصة؟ يقال: نَقَمَ - بفتح القاف - ينقِم - بكسرها - وعلى هذه اللغة قراءة الجمهور، ويقال: - نَقَمَ بكسر القاف - ينقِم - بفتحها - وعلى هذه اللغة قرأ أبو حيو، وابن أبي عبله، وأبو البرزخسَم والثَّخَمي. وهذه الآية من المحاوراة البليغة الوجيزة، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾، ونظير هذا الغرض في الاستثناء قول النابغة:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ
بِهِمْ قُلُوبٌ مِنْ قِرَاعِ الْكِتَابِ
وقرأ الجمهور: ﴿أَنْزَلَ﴾ بضم الهمزة، وكذلك في الثاني، وقرأ أبو نُهَيْك: ﴿أَنْزَلَ﴾ بفتح الهمزة والزاي فيهما.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ هو عند أكثر المتأولين معطوف على قوله: ﴿أَنَّ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ فاسقين فيما نقموا، وهذا لا يتجه معناه، وروي عن الحسن بن أبي

الحسن أنه قال في ذلك: يَفْسُقُهم نقموا علينا الإيمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الكلام صحيح في نفسه لكنه غير مغن في تقويم معنى الألفاظ، وإنما يتجه على أن يكون معنى المحاوراة: هل تنقمون منا إلا عموم هذه الحال من أننا مؤمنون وأنتم فاسقون؟ ويكون: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ مما قرره المخاطب لهم، وهذا كما تقول لمن تخصصه: هل تنقم علي إلا أن صدقت أنا وكذبت أنت؟ وهو لا يقر بأنه كاذب ولا ينقم ذلك، لكن معنى كلامك: هل تنقم إلا مجموع هذه الحال؟ وقال بعض المتأولين: قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ مَعْطُوفٌ عَلَى [مَا] كَأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِلَّا أَنَّهُ مَا نَقَمَ﴾ ويكتبه ويأن أكثركم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مستقيم المعنى، لأن إيمان المؤمنين بأن أهل الكتاب المستمرين على الكفر بمحمد فسقة هو مما ينقمونه، وذكر تعالى الأكثر منهم من حيث بينهم من آمن ومن اهتدى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ - قرأ الجمهور بفتح النون وشد الباء، وقرأ ابن وثاب، والثَّخَمي: ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾ يسكون النون وتخفيف الباء من (أَنْبَأَ)، وقرأ الناس: ﴿مُؤْتِيَةٌ﴾ بضم الثاء وسكون الواو، وقرأ ابن بريدة، والأعرج، ونبيح، وابن عمران: ﴿مُؤْتِيَةٌ﴾ بسكون الثاء، وفتح الواو، وقال أبو الفتح: هذا مما خرج عن أصله شاذ عن نظائره، ومثله قول العرب: «الفاكهة مقوذة إلى الأذى» بسكون القاف وفتح الواو،

والقياس: مثابة ومقادة وأما، مؤتية بضم الثاء فأصلها مؤتية وزنها مَفْعَلَةٌ بضم العين، نقلت حركة الواو إلى الشاء، وكانت قبل مشؤوبة مثل مقولة، والمعنى في القراءتين: مرجعاً عند الله، أي: في الحشر يوم القيامة، تقول العرب: ثاب يثوب إذا رجع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لَنَا﴾.

ومشى المفسرون في هذه الآية على أن الذين أمر أن يقول لهم: ﴿قُلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ هم اليهود والكفار المتخذون ديننا هزواً ولعباً، قال ذلك الطبري وتويع عليه، ولم يسند في ذلك إلى متقدم شيئاً، والآية تحتل أن يكون القول للمؤمنين، أي: قل يا محمد للمؤمنين: هل أنبئكم بشراً من حال هؤلاء الفاسقين في وقت الرجوع إلى الله، أولئك أسلافهم الذين لعنهم الله وغضب عليهم، فتكون الإشارة به ﴿ذَلِكَ﴾ إلى حالهم من كون أكثرهم فاسقين، وتحتل الآية أن يكون القول للحاضرين من بني إسرائيل، وتكون الإشارة به ﴿ذَلِكَ﴾ إلى حال الحاضرين من كون أكثرهم فاسقين، ويكون قوله: ﴿سَرَّ - وَأَصْلُ﴾ صفة تفضيل بين شيئين لهما اشتراك في الشر والضلال.

وتحتل الآية أن يكون القول للحاضرين من بين إسرائيل، والإشارة به ﴿ذَلِكَ﴾ إلى إيمان المؤمنين وجميع حالهم، ويؤججه التفضيل به ﴿سَرَّ - وَأَصْلُ﴾ على أن الاشتراك في الشر والضلال هو في معتقد اليهود، فأما في الحقيقة فلا

شراً ولا ضلال عند المؤمنين؛ ولا شركة لهم في ذلك مع اليهود والكفار، ويكون على هذا الاحتمال قوله: ﴿مَنْ لَّمَنَّهُ اللَّهُ﴾ الآية يراد به جميع بني إسرائيل - الأسلاف والأخلاف، لأن الخلف يذم ويُعير بمذمات السلف إذا كان الخلف غير مراجع ولا ذام لما كان عليه سلفه، فهو في حكمه. وفي قراءة أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود: ﴿مَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَجَعَلَهُمْ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ﴾، واللعة: الإبعاد عن الخير.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ﴾ هي بمعنى: صيّر، وقال أبو علي في كتاب الحجة: هي بمعنى خلق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه منه رَجْمُهُ الله نَزْعُهُ اعتزالية، لأن قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ تقديره: ومن عبد الطاغوت، والمعتزلة لا ترى أن الله يصير أحداً عابداً طاغوت، وقد تقدم قصص مسخهم قردة في سورة البقرة، وأما مسخهم خنازير فروي أن ذلك كان بسبب امرأة كانت مؤمنة من بني إسرائيل، وكفر ملك منهم في مدينة من مدنها وكفر معه أهل مملكته، فدعت المرأة قوماً إلى نُصرة الدين فأجابوها، فخرجت بهم قَهْرُوماً، ثم فعلت ذلك ثانية وثالثة وفي كل مرة يَهْزَمُ جمعها، فيشتت ويانت مهمومة، فلما أصبح رأت أهل تلك المدينة يسعون في نواحيها خنازير فقالت: الآن أعلم أن الله أعز دينه وأثر دينه، قال عمرو بن كثير بن أفلح مولى أبي أيوب الأنصاري: ما

كان مسخ بني إسرائيل إلا على يدي تلك المرأة.

وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ تقديره: ومن عبد الطاغوت، وذلك عطف على قوله: ﴿مَنْ لَّمَنَّهُ اللَّهُ﴾، أو معمول له ﴿وَجَعَلَ﴾، وفي هذا يقول أبو علي: إن جعل بمعنى خلق.

واختلف القراءة في هذا الحرف - فقرأ حمزة وحده: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ بفتح العين وضم الباء وكسر التاء من ﴿الطَّاغُوتَ﴾، وذلك أن ﴿عَبَدَ﴾ لفظ مبالغة كيْقُظُ ونُدُسُ، فهو لفظ مفرد يراد به الجنس ويُني بناء الصفات، لأن عَبَدَ في الأصل صفة وأن كان استعمل استعمال الأسماء، وذلك لا يُخرجه عن حُكْمِ الصفة، فلذلك لم يمتنع أن يُبنى منه بناء الصفات، وقرأ بهذه القراءة الأعمش، ويحيى بن وثاب، ومنه قول الشاعر:

أَبْنِي لُبَيْسِي إِنْ أَمَكُمُ
أُمَّةٌ وَإِنْ أَبَاكُمُ عَبِيدُ
ذكره الطبري وغيره بضم الباء، وقرأ الباقون: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ بفتح العين والباء وإعماله في ﴿الطَّاغُوتَ﴾، وقد تقدم ذكره، وقرأ أبي بن كعب: ﴿عَبَدُوا الطَّاغُوتَ﴾ على إسناد الفعل الماضي إلى ضمير جمع، وقرأ ابن مسعود فيما روى عبد الغفار عن علقمة عنه: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ بفتح العين وضم الباء ورفع التاء من ﴿الطَّاغُوتَ﴾، وذلك على أن يصير له أن [عَبَدَ] كالخلق والأمر المعتاد المعروف، فهي في معنى: فَعَّه وشَرَّفَ وظَرَّفَ. وقرأ ابن

عباس، وإبراهيم بن أبي عبلة: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ بفتح العين والباء وكسر التاء من ﴿الطَّاغُوتَ﴾، وذلك على أن المراد «عبدة الطاغوت»، وحذفت الهاء تخفيفاً، ومثله قول الراجز:

قَامَ وَلَا هَا فَسَقَوْهُ صَرَخَداً
أراد: ولأثها فحذف تخفيفاً. وقرأ الحسن بن أبي الحسن في رواية عباد عنه: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ بفتح العين وسكون الباء وكسر التاء من ﴿الطَّاغُوتَ﴾، وهذا على أنه اسم جنس مفرد يراد به جمع، وروي عن الحسن من غير طريق عباد أنه قرأ بفتح العين والبدال وسكون الباء ونصب التاء من ﴿الطَّاغُوتَ﴾، وهذه تنجيه على وجهين - أحدهما أنه أراد: «وَعَبَدُوا الطَّاغُوتَ» فحذف التنوين كما حذف في قول الشاعر:

وَلَا ذَا كِبَرَ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلًا
والوجه الآخر أن يريد: «عَبَدَ» الذي هو فعل ماضٍ، وسكن عين الباء على نحو ما هي عين الفعل مسكنة في قول الشاعر:

وَمَا كُلُّ مَغْيُونٍ وَلَوْ سَلَفَ صَفْقُهُ

فإن اللام من «سلف» مسكنة، ونحو هذا قول أبي السَّمَال: ﴿وَلَيُونَا بِمَا قَالُوا﴾. فهذه قراءات العين فيها مفتوحة.

وقرأ أبو واقد الأعرابي في رواية العباس بن الفضل عنه: ﴿وَعَبَادَ الطَّاغُوتَ﴾ بضم العين وشد الباء المفتوحة وألف بعدها وفتح الدال

وكسر التاء من ﴿أَلْقَلْتُوْهُ﴾. وذلك جمع عابد. وقرأ عون العُقَيْلي فيما روى عنه العباس بن الفضل أيضاً: ﴿وَعَابِدُ الطَّاغُوتِ﴾ على وزن فاعل، والدال مرفوعة. قال أبو عمرو: تقديره: وهم عابد الطاغوت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهو اسم جنس. وروى عكرمة عن ابن عباس: ﴿وَعَابِدُوا الطَّاغُوتِ﴾ بضمير جمع، وقد قال بعض الرواة في هذه الأخيرة إنها تجوز لا قراءة. وقرأ ابن بُزَيْدَةَ: ﴿وَعَابِدُ الطَّاغُوتِ﴾ بفتح العين والدال وكسر الباء والتاء. وقرأ بعض البصريين: ﴿وَعِبَادُ الطَّاغُوتِ﴾ بكسر العين وفتح الباء والدال وألف بينهما وكسر التاء. قال أبو الفتح: فيحتمل أن يكون ذلك جمع (عابد) كقائم وقيام، وصائم وصيام، وقد يجوز أن يكون جمع (عبد). وقلما يأتي (عباد) مضافاً إلى غير الله، وأنشد سيويه:

أَتُوْعِدُنِي بِقَوْمِكَ يَا بَنَ حَنْجَلٍ
أَشَابَاتِ يُخَالِسُونَ الْعِبَادَا
قال أبو الفتح: يريد «عباد آدم» عليه السلام، ولو أراد «عباد الله» فليس ذلك شيء يسب به أحد، وجميع الخلق عباد الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التعليق بآدم ﷺ شاذٌ بعيد، والاعتراض فيه باق، وليس هذا مما يُتَخِيلُ أن الشاعر قصده، وإنما أراد «العبيد» فساقته القافية إلى «العباد»، إذ يقال ذلك لمن تملك ملكة ما وقد ذكر أن عرب الحيرة من العراق إنما سموا العباد لأنهم دخلوا في طاعة كسرى فدانته مملكته.

وذكر الطبري عن بريدة الأسلمي أنه كان يقرأ: ﴿وَعَابِدُ الشَّيْطَانِ﴾ بفتح العين والدال وكسر الباء وألف قبلها، وذكر «الشيطان» بدل «الطاغوت» فهذه قراءات فيها ألف. وقرأ ابن عباس فيما روى عنه عكرمة، وقرأها مجاهد، ويحيى بن وثاب: ﴿وَعَبْدُ الطَّاغُوتِ﴾ بضم العين والباء وفتح الدال وكسر التاء، وذلك جمع «عبد» كزمن وزمن وسقف وسقف، وقال أحمد بن يحيى ثعلب: هو جمع «عابد» كشارفٍ وشرف، ومنه قول الفينة: أَلَا يَا حَنْزَلَةَ لَلشَّرَفِ السَّوَاءِ
وَمَنْ مَعَقَلَاتٍ بِالْفِئَاءِ
وقال أبو الحسن الأخفش: هو جمع «عبد»، وأنشد:

أَنْسِبُ الْعَبْدَ إِلَى آبَائِهِ
أَسْوَدَ الْجِلْدَةِ مِنْ قَوْمِ عُبْدِ
وقرأ الأعمش وغيره: ﴿وَعَبْدُ الطَّاغُوتِ﴾ بضم العين وشد الباء المفتوحة وفتح الدال وكسر التاء، وذلك على جمع «عابد» كضارب وضرب، وقرأ إبراهيم النخعي. وأبو جعفر بن الققعاق، والأعمش في رواية هارون: ﴿وَعَبْدُ الطَّاغُوتِ﴾ بضم العين وكسر الباء وفتح الدال وضم التاء، كما تقول: ضرب زيد، وضعف الطبري هذه القراءة وهي متجهة. وروى عن عبدالله بن مسعود أنه قرأ: ﴿وَعَبْدَتِ الطَّاغُوتِ﴾ كما تقول: «ضربت المرأة»، وروى علقمة عن عبدالله بن مسعود: ﴿وَعَبْدُ الطَّاغُوتِ﴾ بضم العين وفتح الباء والدال وكسر التاء، وهذه أيضاً بناءً مبالغة اسم مفرد يراد

به هنا الجمع بُنِيَ كَحَطَمَ وَلَبَّدَ، وروى عكرمة عن ابن عباس: ﴿وَعَبْدُ الطَّاغُوتِ﴾ على وزن فَعْلٌ بضم الفاء وشد العين المفتوحة وفتح اللام ونصب التاء، وهذه تتخرج على أنه أراد: «وعبد» منوناً ثم حذف التنوين للالتقاء، كما قال: ولا ذاكِرُ الله - وقد تقدم نظيره.

الطاغوت: كل ما عُبد من دون الله من وثن أو آدمي يرضى ذلك أو شيطان، وقد استوعبت تفسيره في سورة البقرة. ومكان: يحتمل أن يريد في الآخرة، فالمكان على وجهه، أي: المحل، إذ محلهم جهنم. وأن يريد في الدنيا فهي استعارة للمكانة والحالة.

و ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: وسطه، ومنه قول العرب: «قمت حتى انقطع سوائي»، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، وخط الاستقامة في السبل إنما هو متمكن غاية التمكن في الأوساط، فلذلك خص السواء بالذكر، ومن لفظ السواء قيل: خط الاستواء.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿جَكَوْكُمْ﴾ لليهود المعاصرين لمحمد ﷺ، وخاصة للمنافقين منهم، نص على ذلك ابن عباس، وقتادة، والسدي.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم دخلوا وهو كفار، وخرجوا كذلك، لم تنفعهم الموعظة، ولا نفع فيهم التذكير، وقوله: ﴿وَهُمْ﴾ تخلص من احتمال العبادة أن يدخل قوم بالكفر ثم يؤمنوا، ويخرج قوم وهم كفرة، فكان ينطبق على الجميع:

«وقد دخلوا بالكفر وقد خرجوا به»، فأزال الاحتمال قوله تعالى: ﴿وَمِمَّ قَدْ خَرَجُوا بِكُمْ﴾، أي: هم بأعينهم، ثم فضحهم الله تعالى بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَغْلَرُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي: من الكفر.

وقوله تعالى لنبيه: ﴿وَرَكَّ﴾، يحتمل أن يكون من رؤية البصر، ويحتمل من رؤية القلب ويكون المفعول الشانسي، ﴿يُسْكِرُونَ﴾، وعلى الاحتمال الأول ﴿يُسْكِرُونَ﴾ حال، و ﴿فِي الْآثَرِ﴾ معناه: في موجبات الإثم، إذ الإثم إنما هو الحكم المعلق بصاحب المعصية والنسبة التي يصير إليها إذا وقع الذنب، وهو من هؤلاء كُفِّرْهُمْ، و﴿وَاللَّذِينَ﴾ مصدر من: عَذَّ الرجل إذا ظلم وتجاوز الحد، و﴿أَشْحَتٌ﴾ هو الرُّشَا وسائر مكسبهم الخبيث، واللام في ﴿لَيْتَسَ﴾ لام قَسَم، وقرأ أبو حيوة: ﴿وَالْعِذْوَانِ﴾ بكسر العين.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ تخصيص في ضمنه توبيخ لهم إذ تركوا اللازم، قال الطبري: كل العلماء يقولون: ما في القرآن آية هي أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية ولا أخوف عليهم منها. وقال الضحاك بن مزاحم: ما في القرآن آية أخوف عندي منها، إنا لا نثني، وقال نحو هذا ابن عباس. وقرأ الجراح، وأبو واقد: ﴿الرِّبَّانِيُّونَ﴾ بكسر الراء، واحدهم: رِبِّي، إما منسوب إلى علم الرب، وإما من تربية الناس بصغار العلم قبل كباره، وزيدت النون في نسبته مبالغة كشعراني ومنطرائي ومخبراني، وقال

الحسن: الرِّبَّاني: عالم الإنجيل، والحبر: عالم التوراة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله في الرباني شاذ بعيد.

﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ واحدهم حَبْرٌ بكسر الحاء وفتحها، وهم العلماء الذين لا يعنون لإصلاح الناس ولا يكلفون ذلك، والرباني هو العالم المدبر المصلح، وقوله تعالى: ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمُ﴾ ظاهر أن الإثم هنا يراد به الكفر، ويحتمل أن يراد به سائر أقوالهم المنكرة في النبي ﷺ والمؤمنين، وقرأ ابن عباس: ﴿بِشْنٍ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بغير لام قَسَم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه الآية تعديد كبيرة من أقوالهم وكفرهم، أي: فمن يقول هذه العظيمة فلا يُسْتَنَكِر عليه أن ينافق عليك يا محمد، ويسعى في رد أمر الله الذي أوحاه إليك. وقال ابن عباس

وجماعة من المتأولين: معنى قولهم التبخيل، وذلك أنهم لحقتهم سنة وجهد فقالوا هذه العبارة يعنون بها أن الله بخل عليهم بالرزق والتوسعة، وهذا المعنى يشبه ما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْ يَدَكَ مَلُولَةً إِلَىٰ نَفْسِكَ﴾، فإنما المراد: لا تبخل، ومنه قول النبي ﷺ: «مثل البخيل والمتصدق» الحديث، وذكر الطبري والنقاش أن هذه الآية نزلت في فنحاص اليهودي وأنه قالها، وقال الحسن بن أبي الحسن: قولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَلُولَةٌ﴾، إما يريدون عن عذابهم، فهي - على هذا - في معنى قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّونُهُ﴾،

وقال السدي: أرادوا بذلك أن يده مغلوله حتى يرد علينا ملكنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأنهم عنوا أن قوته تعالى نقصت، ولذلك غلبوا على ملكهم، وظاهر مذهب اليهود لعنهم الله في هذه المقالة التجسيم، وكذلك يعطي كثير من أقوالهم.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً، ويصح على كلا الاحتمالين أن يكون ذلك في الدنيا، وأن يراد به الآخرة، وإذا كان خبراً عن الدنيا فالمعنى: غلت أيديهم عن الخير والإنفاق في سبيل الله ونحوه، وإذا كان خبراً عن الآخرة فالمعنى: غُلَّتْ في نار جهنم، أي: حتم هذا عليهم ونفذ به القضاء، كما حتمت عليهم اللعنة بقولهم هذا وبما جرى مجراه، وقرأ أبو السمال: ﴿وَلُغِنُوا﴾ بسكون العين، وذلك قصد للتخفيف لا سيما هنا للهبوط من ضمة إلى كسرة.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ العقيدة في هذا المعنى نفى التشبيه عن الله تعالى، وأنه ليس بجسم ولا جارحة، ولا يُشَبَّه ولا يُكْتَفَى ولا يتحيز في جهة كالجواهر ولا تحله الحوادث، تعالى عما يقول المبطلون.

ثم اختلف العلماء فيما ينبغي أن يعتقد في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾، وقوله: ﴿يَكِيدُ﴾، ﴿عَمِلَتْ أَيْدِيَانِ﴾، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، و﴿وَلَفَضَحَ عَلَيَّ عَيْتِي﴾، و﴿تَجَرَىٰ بِأَعْيُنِنَا﴾، و﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، ونحو هذا.

فقال فريق من العلماء، منهم

الشعبي، وابن المسيب، وسفيان: يُؤمن بهذه الأشياء، وتقرأ كما نصها الله، ولا يعن لتفسيرها، ولا يشق النظر فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول يضطرب، لأن القائلين به يجمعون على أنها ليست على ظاهرها في كلام العرب، فإذا فعلوا هذا فقد نظروا، وصار السكوت على الأمر بعد هذا مما يوهم العوام ويؤيه الجهلة.

وقال جمهور الأمة: بل نفسر هذه الأمور على قوانين اللغة ومجاز الاستعارة وغير ذلك من أفانين كلام العرب، فقالوا في العين والأعين: إنها عبارة عن العلم والإدراك، كما يقال: فلان من فلان بمرأى ومسمع، إذا كان يعنى بأموره وإن كان غائباً عنه. وقالوا في الوجه: إنه عبارة عن الذات وصفاتها، وقالوا في اليد واليمين والأيدي: إنها تأتي مرة بمعنى القدرة، كما تقول العزب: لا يد لي بكذا، ومرة بمعنى النعمة، كما يقال: لفلان عند فلان يد، وتكون بمعنى الملك، كما تقول: يد فلان على أرضه. وهذه المعاني إذا وردت عن الله تبارك وتعالى عبر عنها باليد أو الأيدي أو اليدين استعمالاً لفصاحة العرب، ولما في ذلك من الإيجاز، وهذا مذهب أبي المعالي والحقاق.

وقال قوم من العلماء منهم القاضي ابن الطيب: هذه كلها صفات زائدة على الذات، ثابتة لله دون أن يكون في ذلك تشبيه ولا تحديد، وذكر هذا الطبري وغيره.

وقال ابن عباس في هذه الآية: يده: نعمته.

ثم اختلفت عبارة الناس في تعيين النعمتين - فقيل: نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، وقيل: النعمة الظاهرة والنعمة الباطنة، وقيل: نعمة المطر ونعمة النبات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَايُكَ مَبْسُوطَتَانِ﴾ عبارة عن إنعامه على الجملة، وعبر عنه بيدين جزئياً على طريقة العرب في قولهم: فلان ينفق بكلى يديه، ومنه قول الشاعر وهو الأعشى:

يَدَاكَ يَدَا مَجِيدٍ فَكُفْ مُفِيدَةً
وَكُفْ إِذَا مَا ضُرَّ بِالمَالِ تُشْفِقُ
ويؤيد أن اليدين هنا بمعنى الإنعام قرينة الإنفاق. قال أبو عمرو الداني: وقرأ أبو عبدالله: ﴿بَلْ يَدَايُكَ مَبْسُوطَتَانِ﴾، يقال: يد بسطة أي: مطلقة، وروي عنه: «بسطان».

وقوله تعالى: ﴿وَلِكَيْذَرَكُ كَيْدُكَ يَنْتَهُمَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ إعلام لمحمد ﷺ، فإن هؤلاء اليهود من العتو والبعد عن الحق بحيث إذا سمعوا هذه الأسرار التي لهم والأقوال التي لا يعلمها غيرهم تنزل عليك طغوا وكفروا، وكان تؤلهم أن يؤمنوا، إذ يعلمون أنك لا تعرفها إلا من قبل الله، لكنهم من العتو بحيث يزيدهم ذلك طغياناً، وخص تعالى ذكر الكثير إذ فيهم من آمن بالله ومن لا يطغي كل الطغيان.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْنَتَا يَنْتَهُمُ النَّدْوَةَ وَالنَّصْلَةَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾، فهي قصص يعطف

بعضها على بعض، والعداوة أخص من البغضاء لأن كل عدو فهو يبغض، وقد يبغض من ليس بعدو، وكان العداوة شيء مشتهر يكون عن عمل وحرب، والبغضاء قد لا تجاوز النفوس، وقد ألقى الله الأمرين على بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا أَقْدُوا نَارًا لِلْعَرْبِ أَطْفَاةَ اللَّهِ﴾ استعارة بليغة تُشْبِهُ عن فض جموعهم وتشتيت آرائهم وتفريق كلمتهم. و الآية تحتمل أن تكون إخباراً عن حال أسلافهم، أي: منذ عصوا وعتوا وقد الله ملكتهم رماهم بهذه الأمور، فهم لا ترتفع لهم راية إلى يوم القيامة، ولا يقاتلون جميعاً إلا في قرى محصنة. هذا قول الربيع والسدي وغيرهما. وقال مجاهد: معنى الآية: كلما أقْدُوا نَاراً لحرب محمد أطفأها الله، فالآية على هذا تبشير لمحمد ﷺ والمؤمنين، وإشارة إلى حاضريه من اليهود.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ معنى السعي في هذه الآية: العمل والفعل، وقد يجيء السعي بمعنى الانتقال على القدم، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وإن كان مالك رحمه الله قد قال في الموطأ: إن السعي في قوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إنه العمل والفعل، ولكن غيره من أهل العلم جعله على الأقدام، وهو الظاهر بقريضة ضيق الوقت وبالتعدي بآلى، ويؤيده قراءة عمر بن الخطاب: ﴿فَانْمُصُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَجِبُ

مجاهد: المقتصدة: مسلمة أهل الكتاب قديماً وحديثاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا يخرج قول الطبري، ولا يقول في عيسى إنه عبد رسول إلا مسلم، وقال ابن زيد: هم أهل طاعة الله من أهل الكتاب، وهذا هو المترجح، وقد ذكر الزواج أنه يعني بالمقتصدة الطوائف التي لم تناصب الأنبياء مناصبة المتهتكين المجاهرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما يتوجه أن توصف بالاقتصاد بالإضافة إلى المتمردة، كما يقال في أبي البحري بن هشام: إنه مقتصد بالإضافة إلى أبي جهل بن هشام لعنه الله. ثم وصف تعالى الكثير منهم بسوء العمل عموماً، وذهب الطبري إلى أن ذلك في تكذيبهم الأنبياء، وكفر اليهود بعيسى والجميع من أهل الكتابين بمحمد ﷺ.

و ﴿هَآءِ﴾ في هذه الآية هي المتصرفة، كما تقول: ساء الأمر يسوء، وقد تستعمل (ساء) استعمال (نعم وبش)، كقوله عز وجل: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾، فتلك غير هذه، يحتاج في هذه التي في قوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ من الإضمار والتقدير إلى ما يحتاج في (نعم وبش)، وفي هذا نظر.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

هذه الآية أمر من الله لرسوله بالتبليغ على الاستفاء والكمال، لأنه قد كان بلغ، فإنما أمر في هذه الآية بألا يتوقف عن شيء مخافة أحد،

﴿وَالْإِنْجِيلُ﴾ يقتضي دخول النصارى في لفظ أهل الكتاب في هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ معناه من وحي وسُنَّ على السنة الأنبياء.

واختلف المفسرون في معنى ﴿وَمِنْ قَوْمِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ - فقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي: المعنى: لأعطتهم السماء مطرها وبركتها، والأرض نباتها بفضل الله تعالى، وحكى الطبري والزجاج وغيرهما أن الكلام استعارة ومبالغة

في التوسعة، كما يقال: فلان قد عمه الخير من قرنه إلى قدمه، وذكر النقاش أن المعنى: لأكلوا من فوقهم، أي: من رزق الجنة، ومن تحت أرجلهم، أي: من رزق الدنيا إذ هو من نبات الأرض.

قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ معناه: معتدلة، والقصد والاقتصاد: الاعتدال والرفق والتوسط الحسن في الأقوال والأفعال. قال الطبري: معنى الآية: إن من بني إسرائيل من هو مقتصد في عيسى عليه السلام، يقولون: هو عبدالله ورسوله وروح منه، والأكثر منهم غلا فيه، فقال بعضهم: هو إله، وعلى هذا مشى الروم ومن دخل بأخرة في ملة عيسى عليه السلام، وقال بعضهم وهم الأكثر من بني إسرائيل: هو آدمي لغير رشدة، فكفر الطرفان. وقال

وَأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَتَقَوَّلَ الْكَفَرَانَعِيَّ سَيِّئِهِمْ وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّتِ النَّعِيرِ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٥﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنْ أَلَّفَهُ الْبِدَى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾ قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى يُفِيضُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِيْدَكُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَجِلَ صَلَاحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَدْ جَاءَهُمْ هُدًى وَرُسُلًا يَهْتَدُونَ لَآتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٦٩﴾

الْمُفْسِدِينَ، أي: لا يظهر عليهم من أفعاله في الدنيا والآخرة ما يقتضي المحبة.

٦٥ - ٦٨ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية تحتل أن يراد بها معاصروا محمد ﷺ، والأظهر أنه يراد بها الأسلاف، والمعاصرون داخلون في هذه الأحوال بالمعنى، والغرض الإخبار عن أولئك الذين أطفأ الله نيرانهم وأذلهم بمعاصيهم، لو آمنوا بالله وكتابه، واتقوا في امتثال أوامره ونواهيه لكُفِّرَتْ سيئاتهم، أي: سُتِرَتْ وأذهبت، ولأدخلوا الجنة.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ﴾ أي: أظهروا أحكامها، فهي كإقامة السوق وإقامة الصلاة، وذلك كله تشبيه بالقائم من الناس، إذ هي أظهر هيئات المرء. وقوله تعالى:

وذلك أن رسالته ﷺ تضمنت الطعن على أنواع الكفرة، وبيان فساد حالهم، فكان يلقي منهم عتاً، وربما خافهم أحياناً قبل نزول هذه الآية، فقال الله له: ﴿يَلَيْفَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: كاملاً مُتَمَمّاً، ثم توعدته تعالى بقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي: إنك إن تركت شيئاً فكأنما قد تركت الكل، وصار ما بلغت غير معتد به، فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ معناه: «وإن لم تستوف» ونحو هذا قول الشاعر:

سُئِلْتُ فَلَمْ تُنْعَمْ وَلَمْ تُعْطِ نَائِلًا
فَسَيِّئَانِ لَا دُمْ عَلَيْكَ وَلَا حَمْدُ
أي: ولم تعط ما يُعد نائلاً، وإلا فيتكاذب البيت.

وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي: ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ على الأفراد، وقرأوا في الأنعام ﴿حَيْثُ يَجْمَعُ رِيسَالَتَهُ﴾ على الجمع، وكذلك في الأعراف ﴿يُرْسَلُونَ﴾، وقرأ ابن كثير في المواضع الثلاثة بإفراد الرسالة، وقرأ نافع ﴿وَسَالَاتِهِ﴾ بالجمع، وكذلك في الأنعام، وأفرد في الأعراف، وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر بجمع الرسالة في المواضع الثلاثة، وروى حفص عن عاصم الأفراد في العقود والأنعام، والجمع في الأعراف. فمن أفرد (الرسالة) فلأن الشرع كله شيء واحد وجملة بعضها من بعض، ومن جمع فمن حيث الشرع معان كثيرة وورد دُعاً في أزمان مختلفة، وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: من زعم أن محمداً كتم شيئاً من الوحي فقد أعظم الفرية، والله تعالى يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ الآية. وقال عبدالله بن شقيق: (كان رسول الله ﷺ يعتقه أصحابه يحرسونه فلما نزلت: ﴿وَأَلَلَّهُ بِقِصَّتِكَ مِنَ الْأَثَانِ﴾ خرج فقال: «يا أيها الناس الحقوا بملاحقكم فإن الله قد عصمني»). وقال محمد بن كعب القرظي: نزلت: ﴿وَأَلَلَّهُ بِقِصَّتِكَ مِنَ الْأَثَانِ﴾ بسبب الأعرابي الذي اخترط سيف النبي ﷺ ليقتله به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هو غورث بن الحارث، والقصة في غزوة ذات الرقاع، وقال ابن جريج: كان رسول الله ﷺ يهاب قريشاً، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَأَلَلَّهُ بِقِصَّتِكَ مِنَ الْأَثَانِ﴾ استلقى وقال: من شاء فليخذلني، مرتين أو ثلاثاً.

و ﴿بِقِصَّتِكَ﴾ معناه: يحفظك ويجعل عليك وقاية، ومنه قوله تعالى: ﴿بِقِصَّتِي مِنَ الْمَاءِ﴾، ومنه قول الشاعر:

فَقُلْتُ عَلَيْكُمْ مَا لِكَا إِنْ مَا لِكَا
سَيَقِصُّكُمْ إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ عَاصِمٌ
وهذه العصمة التي في الآية هي من المخاوف التي يمكن أن توقف عن شيء من التبليغ كالقتل والأسر والأذى في الجسم ونحوه، وأما أقوال الكفار ونحوها فليست في الآية.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إما على الخصوص فيمن سبق في علم الله أنه لا يؤمن، وإما على العموم على أن لا هداية في الكفر، ولا يهدي الله الكافر في سبل كفره.

ثم أمر تعالى نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام أن يقول لأهل الكتاب الحاضرين معه ﴿لَسْتُمْ عَلَى

شَيْءٍ﴾ أي: على شيء مستقيم حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وفي إقامة هذين الإيمان بمحمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني به القرآن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، ثم أخبر تعالى نبيه أنه سيطفي كثير منهم بسبب نبوة محمد ﷺ، ويزيده نزول القرآن والشرع كفراً وحسداً، ثم سلاهم عنهم وحفرهم بقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا تحزن إذا لم يؤمنوا. ولا تُبالِ بهم، والأسى: الحزن. يقال: أسيى الرجل يأسي أسى إذا حزن، ومنه قول الراجز:

وَأَحْبَبْتُ غَيْنَاهُ مِنْ قَرْطِ الْأَسَى
وأسند الطبري إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رسول الله ﷺ رافع بن جارية، وسلام بن مشكم، ومالك بن الصيف، ورافع بن خزيمة فقالوا: يا محمد، ألسنت تزعم أنك على ملّة إبراهيم وأنت تؤمن بالتوراة وبنبوة موسى، وأن جميع ذلك حق؟ قال: بلى، ولكنكم أحدثتم وغيرتم وكنتمتم، فقالوا: إنا نأخذ بما في أيدينا فإنه الحق، ولا نصدّقك ولا نشعك، فنزلت الآية بسبب ذلك: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْكِتَابُ﴾ الآية.

٣٩ - ٧٠ تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ﴾ لفظ عام لكل مؤمن من ملّة محمد ومن غيرها من الملل، فكان ألفاظ الآية حصر بها الناس كلهم، وبينت الطوائف على اختلافها. وهذا تأويل جمهور المفسرين، وقال الزجاج: المراد

هادوا، وقيل: (إِنْ) بمعنى (نعم)، وما بعدها مرفوع بالابتداء، وروي عن بعضهم أنه قرأ: ﴿وَالصَّابِغُونَ﴾ بالهمزة. واتصال هذه الآية بالتي قبلها هو أن قيل لهم: ليس الحق في نفسه على ما تزعمون من أنكم أبناء الله وأجباؤه، بل لستم على شيء مستقيم حتى تؤمنوا وتقيموا الكتب المنزلة، ثم استأنف الإخبار عن الحق في نفسه بأنه من آمن في كل العالم فهو الفائز الذي لا خوف عليه.

وقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية استئناف خبر بفعل أوائلهم، وما نقضوا من العهود واجتروا من الجرائم، أي: «إِنْ الْعَصَا مِنَ الْعَصِيَّةِ». وهؤلاء يا محمد من أولئك، فليس قبيح فعلهم ببدع.

و ﴿كَلِمَاتٍ﴾ ظرف والعامل فيه: ﴿كَذِبُوا﴾ و ﴿يَقْتُلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَمَّا لَا تَهْتَفُتُ أَنْفُسُهُمْ﴾ يقتضي أن هواهم كان غير الحق، وهو ظاهر هوى النفس متى أطلق، فمتى قُيد بالخير ساغ ذلك، ومنه قول عمر رضي الله عنه في قصة أسارى بدر: فهو ي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر رضي الله عنه، ولم يهو ما قلت أنا. وقوله تعالى: ﴿رَبِّمَا كَذَبُوا﴾ معناه: كذبوه فقط، يريد: الفريق من الرسل، ولم يقتلوه، وفريقاً من الرسل كذبوه، وقتلوه فاكتفى بذكر القتل إذ هو يستغرق التكذيب.

(٧١) - (٧٢) تفسير قوله عز وجل:

المعنى في هذه الآية: وظن هؤلاء الكفرة والعصاة من بني إسرائيل ألا

كعب، وسعيد بن جبير، والجحدري: ﴿الصَّابِغِينَ﴾، وهذه قراءة بيّنة الإعراب، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، والزهري: ﴿والصابِغُونَ﴾ بكسر الباء وضم الياء دون همز، وقد تقدم في سورة البقرة.

وأما قراءة الجمهور: ﴿وَالصَّابِغُونَ﴾ فمذهب سيبويه والخليل ونحاة البصرة أنه من المقدم الذي معناه التأخير، وهو المراد به، كأنه قال: (إِنْ) الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر

وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابِغون والتصارى كذلك، وأنشد الزجاج نظيراً في ذلك:

وإلا فاعلُموا أننا وأنتم بُناة ما بقينا في شقاق
فقوله: «وأنتم» مقدم في اللفظ مؤخر في المعنى، أي: وأنتم كذلك.

وحكى الزجاج عن الكسائي والفراء أنهما قالاً: ﴿وَالصَّابِغُونَ﴾ عطف على ﴿الَّذِينَ﴾، إذ الأصل في ﴿الَّذِينَ﴾ الرفع، وإذ نصب (إِنْ) ضعيف. وخطأ الزجاج هذا القول وقال: (إِنْ) أقوى النواصب، وحكى أيضاً عن الكسائي أنه قال: ﴿وَالصَّابِغُونَ﴾ عطف على الضمير في ﴿هَادُوا﴾ والتقدير: «هادوا هم والصابِغون» وهذا قول يردّه المعنى: لأنه يقتضي أن الصابِغين

وَصَبَّغُوا الْآثَرُوتَ فَتَنَهُ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ يَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّا يُضِلُّهُمُ الْغِبَّةُ الْأُولَى الْأَلَهُ وَجِدُوا إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُوا لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ شَفُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُتِيَ صِدْقُهُ كَأَنَّا بَأْسُ كَلَانَ أَطْعَامٍ أَنْظَرَكَيْتُ بَيْنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرْنَا أَنْ يُؤْفِكُوكَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المنافقون، فالمعنى: إن الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكان ألفاظ الآية عدت الطوائف التي يمكن أن تنتقل إلى الإيمان، ثم نفى عنهم الخوف والحزن بشرط انتغالهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وعلى التأويل الأول يكون قوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ في حيز المؤمنين، بمعنى: ثبت واستمر، وقد تقدم تفسير: ﴿هَادُوا﴾ وتفسير ﴿وَالصَّابِغِينَ﴾ وتفسير ﴿الْمَسْكُونِ﴾ في سورة البقرة.

واختلف القراء في إعراب «الصابِغين» في هذه الآية - فقرأ الجمهور: ﴿وَالصَّابِغُونَ﴾ بالرفع، وعليه مصاحف الأمصار والقراء السبعة، وقرأ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعائشة رضي الله عنها، وأبي بن

يكون من الله ابتلاء لهم وأخذ في الدنيا وتمحيص فلجؤا في شهواتهم، وعموا فيها إذ لم يتبصروا الحق شبهوا بالعمى، وصموا إذ لم يسمعه شبهوا بالصمم، ونحو هذا قول النبي ﷺ: «حُبُّك الشيء يعمي ويصم».

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ - قالت جماعة من المفسرين: هذه التوبة هي ردهم إلى بيت المقدس بعد الإخراج الأول ورده ملكهم وحالهم، ثم عموا وصموا بعد ذلك حتى أخرجوا الخرجة الثانية، ولم ينجبروا أبداً. وقالت جماعة: ثم تاب الله عليهم ببعث عيسى عليه السلام إليهم. وقالت جماعة: توبته تعالى عليهم بعث محمد عليه الصلاة والسلام، وخص بهذا المعنى كثيراً منهم لأن منهم قليلاً قد آمن. ثم توعدهم بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَمْشَوْنَ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿أَلَا تَكُونُ﴾ بنصب النون، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَنْ لَا تَكُونُ﴾ برفع النون، ولم يختلفوا في رفع ﴿فَإِنَّهُ﴾ لأن (كان) هنا هي التامة، فوجه قراءة النصب أن تكون [أَنْ] هي الخفيفة الناصبة، ووجه قراءة الرفع أن تكون المخففة من الثقيلة، وحسن دخولها لأن (لا) قد وطأت أن يليها الفعل، وقامت مقام الضمير المحذوف عوضاً منه، ولا بُدَّ في مثل هذا من عوض، مثل قولك: علمت أن قد يقوم زيد، وقوله عز وجل: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكَ نَجْنَجٌ﴾، وقولك: علمت أن سوف يقوم زيد،

وأنا لا تكونُ فتنة. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ حسن فيه ألا يكون عوض لأن (ليس) ليس بفعل حقيقي، والأفعال ثلاثة ضروب: ضربٌ يجري مجرى تيقنت، نحو علمتُ ودريت، فهذا الضرب تليه (أن) الثقيلة التي تناسبه في الشبوت وحصول الوقوع، وضرب في الضد من ذلك، نحو طمعتُ ورجوت وخفت، هو مصرح بأن لم يقع، فهذا الضرب تليه (أن) الخفيفة إذ هي تناسبه، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغَيِّرَ لِي﴾، و﴿تَخَافُونَ أَنْ يَنْخَلْعَ عَنْكُمُ الْعَصَى﴾، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُبَيِّنَ لَكُمْ اللَّهُ شَيْئاً﴾، و﴿فَخَيَّبْنَا أَنْ يُرَافِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، و﴿وَأَنفَقْتُمْ أَنْ تُفِيدُوا﴾ ونحو هذا، وضرب ثالث ينجذب إلى الأول مرة وإلى الثاني أحياناً نحو ظننت وحسبت وزعمت، فيجري مجرى أرجو وأطمع من حيث الظن والزعم والمحسبة أمور غير ثابتة ولا مستقرة، وقد تنزل منزلة العلم من حيث يستعمل استعماله كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتْلُونَ آيَاتِهِمْ مُّلتَفُوا رَبَّهُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي لَنَسْتُ أَنْ لِيُؤْتِيَنِيَ حِسَابِي﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿عَمُوا وَمَكُوا﴾ بفتح العين والصاد، وقرأ ابن وثاب، والسُّخمي: ﴿عَمُوا وَصَمُوا﴾ بضم العين والميم مخففة، ويضم الصاد، وهذا هو على أن تجري مجرى: زُكِم الرجل وأزكمه الله، ولا يقال: زكمه الله ولا حَمَهُ الله. فكذلك يجيء هذا: عُمي الرجل وأعماه غيره، وُصِم وأصمه غيره، ولا يقال: عميته ولا صمته.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: رجع بهم إلى الطاعة والحق، ومن فصاحة اللفظ استناد هذا الفعل الشريف إلى الله تعالى، واستناد العمى والصمم للذين هما عبارة عن الضلال إليهم.

وقوله تعالى: ﴿كَثِيرٌ﴾ يرتفع من إحدى ثلاث جهات - إما على البدل من الواو في قوله: ﴿عَمُوا وَمَكُوا﴾، وإما على جمع الفعل وإن تقدم على لغة من قال: «أكلوني البراغيث»، وإما على أن يكون ﴿كَثِيرٌ﴾ خبر ابتداءٍ مضمر.

ثم أخبر تعالى إخباراً مؤكداً بلام القسم عن كفر القائلين: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ»، وهذا قول اليعقوبية من النصارى، ثم أخبر تعالى عن قول المسيح لهم وتبليغه كيف كان، فقال: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَى لِي بُيُوتٌ لِشُرَكَائِي﴾، وهذه المعاني قول المسيح بألفاظ لغته، وهي بعينها موجودة في تبليغ محمد ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، إلى غير ذلك من الآيات، وأخبرهم عيسى عليه السلام أن الله تعالى هو ربُّهم وفضلوا هم وكفروا بسبب ما رأوا على يديه من الآيات.

والمأوى هو المحل الذي يسكنه المرء ويرجع إليه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يحتمل أن يكون من قول عيسى عليه السلام لبني إسرائيل، ويحتمل أن يكون إخباراً مستأنفاً لمحمد ﷺ، وقد تقدم القول في تفسير لفظة (المسيح) في سورة آل عمران.

وغيرهم، ولا تكون هنالك نبوة،
فكذلك أمر مريم.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّا يَكْلَلِينَ
الْفَلَاحَ﴾ تنبيه على نقص البشرية
وعلى حال من الاحتياج إلى الغذاء
تنتفي معه الألوهية، وذكر مكى،
والمهدوي، وغيرهما أنها عبارة عن
الاحتياج إلى الغائط، وهو قول بشع
ولا ضرورة تدفع إليه حتى يقصد هذا
المعنى بالذكر، وإنما هي عبارة عن
الاحتياج إلى التغذية، ولا محالة أن
الناظر إذا تأمل بذمه لواحق التغذية
وجد ذلك وغيره.

ثم أمر تعالى محمداً ﷺ - وفي
الضمن أمته - بالنظر في ضلال هؤلاء
القوم ويعددهم عن سنن الحق، وأن
الآيات تُبَيِّن لهم وتُبَيِّر في غاية
الوضوح، ثم هم بعد ذلك
يُضْرَفُونَ، أي: تصرفهم دواعيهم
ويزيلهم تكسبهم عن الحق.

و ﴿كَيِّنَ﴾ في هذه الآية ليست
سؤالاً عن حال، لكنها عبارة عن
حال شأنها أن يُسأل عنها بكيف،
وهذا كقولك: كن كيف شئت فأنت
صديق.

و ﴿أَيَّ﴾ معناها: من أي جهة، قال
سيويه: معناها: كيف؟ ومن أين؟

و ﴿يُؤَكِّدُونَ﴾ معناها: يصرفون،
ومنه قوله عز وجل: ﴿يُؤَكِّدُ عَنْهُ مِنَ
أُفْكٍ﴾، والأرض المأفوكه: التي
صرفت عن أن ينالها المطر، والمطر
في الحقيقة هو المصروف، ولكن
قيل: أرض مأفوكه لما كانت مأفوكه
عنها.

(٧٣) - (٧٤) تفسير قوله عز وجل:
أمر الله تعالى نبيه أن يوقفهم على

الخالق المبتدع المتصف
بالصفات العلى، تعالى
عما يقول المبطلون.
ثم توعد تبارك وتعالى
هؤلاء القائلين هذه
العظيمة بِمَسِّ العذاب،
وذلك وعيد بعذاب الدنيا
من القتل والسبي،
وبعذاب الآخرة بعدد، لا
يفلت منه أحد منهم.

ثم رفق جل وعلا بهم
بتحضيضه إياهم على التوبة
وطلب المغفرة، ثم وصف
نفسه بالغفران والرحمة
استجلاباً للتائبين وتأنيساً
لهم ليكونوا على ثقة من
الانتفاع بتوبتهم.

ثم أخبر تعالى عن حقيقة أمر
المسيح وأنه رسول بشر كالرسل
المتقدمة قبله. و ﴿خَلَقَ﴾ معناه:
مضت وتقدمت في الخلاء من
الأرض، وقرأ حطبان بن عبدالله
الرقاشسي: ﴿قَدْ خَلَقَ مِنْ قَبْلِهِ
الرُّسُلَ﴾ بتكثير الرسل، وكذلك
قرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ وقد مضى القول على
وجه هذه القراءة هناك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدْ صِدِّيقَهُ﴾
صفة ببناء مبالغة من الصدق،
ويحتمل أن يكون من التصديق، وبه
سُمي أبو بكر الصديق رضي الله عنه
لتصديقه، وهذه الصفة لمريم تدفع
قول من قال: هي نبيّة، وقد يوجد
في صحيح الحديث قصص قوم
كلمتهم ملائكة في غير ما فن كقصّة
الثلاثة، الأقرع والأعمى والأبرص

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ
وَلَاتَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا
كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٣﴾ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ يَهُودٍ أَسْرَفُوا عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى
ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٤﴾
كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ
مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٥﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ
يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ
أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾
وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا تَزُولُ إِلَيْهِ
مَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسَقُونَ ﴿٧٧﴾
أَلَمْ تَجِدْ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَنْ تَجِدَ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ
آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ
فَيَسْبِيحُونَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٨﴾

(٧٣) - (٧٤) تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية إخبار مؤكد كالذي قبله،
وهو عن هذه الفرقة الناطقة بالتثليث،
وهي - فيما يقال - الملكية، وهم فرق
من النسطورية وغيرهم، ولا معنى
لذكر أقوالهم في كتاب تفسير، إنما
الحق أنهم على اختلاف أحوالهم كفار
من حيث جعلوا في الإلهية عدداً،
ومن حيث جعلوا لعيسى عليه السلام
حكماً إلهياً.

وقوله تعالى: ﴿ثَالِثٌ ثَلَاثَةً﴾ لا
يجوز فيه إلا الإضافة وخفض
﴿ثَلَاثَةً﴾، لأن المعنى: أحد ثلاثة،
فإن قلت: زيد ثالث اثنين، أو رابع
ثلاثة جاز لك أن تضيف كما تقدم،
وجاز ألا تضيف وتنصب ثلاثة على
معنى: زيد يربع ثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا
إِلَٰهُ وَحْدٌ﴾ خبر صادق بالحق، وهو

عبادتهم شخصاً من البشر لا يملك أن يضرهم ولا أن ينفعهم.

و ﴿يَنْ دُونِ﴾ و «دُونُ فُلَانٍ» وما جاء من هذه اللفظة فإنما تُضاف إلى من ليس في النازلة التي فيها القول، وتفسيرها بـ (غير) أمر غير مطرد.

والضَّر - بفتح الضاد - المصدر، والضَّر - بضمها - الاسم، وهو عدم الخير.

و ﴿السَّمِيعُ﴾ إشارة إلى تحصيل أقوالهم، و ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتهم، وقال بعض المفسرين: هاتان الصفتان منبّهتان على قصور البشر، أي: والله تعالى هو السميع العليم بالإطلاق لا عيسى ولا غيره، وهم يَقِرُّون أن عيسى قد كان مُدَّة لا يسمع ولا يعلم، وقال نحوه مكي.

ثم أمر تعالى نبيه محمداً أن ينهاهم عن الغلو في دينهم، والغلو: تجاوز الحد، غلا السهم: إذا تجاوز الغرض المقصود واستوفى سوره من الاطراد، وتلك المسافة هي غلوته، وكما كان قوله: ﴿لَا تَقْلُوبُوا﴾

بمعنى: لا تقولوا ولا تلتزموا نصب (غير)، وليس معنى هذه الآية: جنبوا من دينكم الذي أنتم عليه الغلو، وإنما معناه: ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ الذي ينبغي أن يكون دينكم، لأن كل إنسان فهو مطلوب بالدين الحق، وحرى أن يتبعه ويلتزمه، وهذه المخاطبة هي للنصارى الذين غلو في عيسى عليه السلام، والقوم الذين نهى النصارى عن اتباع أهوائهم بنو إسرائيل، ومعنى الآية: لا تتبعوا أنتم أهواءكم كما اتبع أولئك أهواءهم، فالمعنى: لا تتبعوا طرائقهم، والذي

دعا إلى هذا التأويل أن النصارى في غلوهم ليسوا على هوى بني إسرائيل، هم بالضد في الأقوال، وإنما اجتمعوا في اتباع نوع الهوى، فالآية بمنزلة قولك لمن تلومه على عوج: هذه طريقة فلان: تمثله بأخر قد اعوج نوعاً آخر من الاعوجاج وإن اختلفت نوازله.

ووصف تعالى اليهود بأنهم ضلوا قديماً وأضلوا كثيراً من أتباعهم، ثم أكد الأمر بتكرار قوله تعالى: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وذهب بعض المتأولين إلى أن المعنى: يأهل الكتاب من النصارى لا تتبعوا أهواء هؤلاء اليهود الذين ضلوا من قبل، أي: ضل أسلافهم وهم قبل مجيء محمد عليه الصلاة والسلام، وأضلوا كثيراً من المنافقين، وضلوا عن سواء السبيل الآن بعد وضوح الحق.

وقوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية، قد تقرر في غير موضع من القرآن ما جرى في مدة موسى عليه السلام من كفر بعضهم وعتوهم، وكذلك أمرهم مع محمد عليه الصلاة والسلام كان مشاهداً في وقت نزول القرآن، فخصت هذه الآية داود وعيسى عليهما السلام إعلاماً بأنهم لعنوا في الكتب الأربعة، وأنهم قد لعنوا على لسان غير موسى عليه السلام ومحمد عليه الصلاة والسلام.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لعنوا بكل لسان، لعنوا على عهد موسى عليه السلام في التوراة، وعلى عهد داود عليه السلام في

الزبور، وعلى عهد عيسى عليه السلام في الإنجيل، وعلى عهد محمد ﷺ في القرآن.

وروى ابن جريج أنه اقترن بلعنتم على لسان داود عليه السلام أن مسخوا خنازير، وذلك أن داود عليه السلام مرَّ على نفر وهم في بيت، فقال: من في البيت؟ قالوا: خنازير، على معنى الانحجاب، قال: اللهم اجعلهم خنازير، فكانوا خنازير، ثم دعا عيسى عليه السلام على من افترى عليه على أن يكونوا قردة، فكانوا قردة. وقال مجاهد وقتادة: بل مسخوا في زمن داود عليه السلام قردة، وفي زمن عيسى عليه السلام خنازير، وحكى الزجاج نحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر المسخ ليس مما تعطيه ألفاظ الآية، وإنما تعطي ألفاظ الآية أنهم لعنهم الله وأبعدهم من رحمته، وأعلم بذلك العباد المؤمنين على لسان داود النبي في زمنه، وعلى لسان عيسى في زمنه، وروي عن ابن عباس أنه قال: لعن على لسان داود أصحاب السبت، وعلى لسان عيسى الذين كفروا بالمائدة.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى لعنتهم، وباقي الآية بين.

﴿٧٩﴾ - ﴿٨١﴾ تفسير قوله عز وجل: ذم الله تعالى هذه الفرقة الملعونة بأنهم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ قَعْلِهِمْ﴾ أي أنهم كانوا يتجاهرون بالمعاصي، وإن نهى ناه فعن غير جد. بل كانوا لا يمتنع الممسك عن مواصلة المعاصي ومواكفته وخلطته، وروى ابن مسعود

وقال حذاق أهل العلم:
ليس من شروط الناهي أن
يكون سليماً من المعصية،
بل ينهى العصاة بعضهم
بعضاً. وقال بعض
الأصوليين: فرض على
الذين يتعاطون الكؤوس
أن ينهى بعضهم بعضاً،
واستدل قائل هذه المقالة
بهذه الآية، لأن قوله:
﴿يَسْتَأْذِنُونَ﴾ و ﴿فَعَلَوْهُ﴾
يقتضي اشتراكهم في
الفعل، وذهب على ترك
التناهي.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ مَا
كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ السلام
لام قَسَم، وجعل الزَّجَاج
[ما] مصدرية، وقال: التقدير: لبس
شيئاً فعلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وفي هذا نظر. وقال غيره: [ما]
نكرة موصوفة، التقدير: لبس الشيء
الذي كانوا يفعلون فعلاً.

وقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿كَثِيرًا﴾
يحتمل أن يكون رؤية
قلب، وعلى هذا فيحتمل أن يريد:
من الأسلاف المذكورين، أي: ترى
الآن إذا أخبرناك، ويحتمل أن يريد:
من معاصري محمد ﷺ، لأنه كان
يرى ذلك من أمورهم ودلائل
حالهم، ويحتمل أن تكون رؤية
عين، فلا يريد إلا معاصري
محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ مَثَرُ
أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: قدمته لآخره
واجترحته، ثم فسر ذلك قوله

وإِذَا سَمِعُوا أَنزَلَ إِلَى الرُّسُلِ رِزْقًا أَعْيَنَهُمْ نَقِيضُ مِمَّا
الَّذِينَ مَعَهُمْ وَأَمَّا الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكُنْ بِمَعِ
الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَنْذَرَهُمُ
اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَكْذِبُوا
بِتَابِعَاتِهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٥﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٦﴾ وَكُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ هَلَكَ حَظٌّ مِنْ
وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَ مِنْكُمْ نَفْسَهُمْ ﴿٨٧﴾ لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ
بِالْعُقُوبَةِ إِنَّمَا يَأْخُذُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ لَا تَأْمِنُونَ
فَكَفَرْتُمْ إِنَّكُمْ لَعِنَةٌ مُسْكِرَةٌ مِنَ أَوْسَطِ مَا تَطَّعُونَ
أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسْوَتَهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رِقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا
أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٨﴾

١٢٢

قال: (قال رسول الله ﷺ: «إن
الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى
أخاه على ذنب نهاه عنه تعزيراً، فإذا
كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن
يكون خليطه وأكيله») فلما رأى الله
ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم
على بعض، ولعنهم على لسان نبيهم
داود وعيسى عليهما السلام، قال ابن
مسعود: وكان رسول الله ﷺ متكأ
فجلس وقال: «لا والله حتى تأخذوا
على يدي الظالم فتأطروه على الحق
أطراً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والإجماع على أن النهي عن المنكر
واجب لمن أطاقه ونهى بمعروف
وأمن الضرر عليه وعلى المسلمين،
فإن تعذر على أحد النهي لشيء من
هذه الوجوه ففرض عليه الإنكار بقلبه
وَأَلَّا يخالط ذا المنكر.

تعالى: ﴿أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾،
فإن ﴿سَخَطَ﴾ في موضع رفع بدل
من [ما] ويحتمل أن يكون التقدير:
هو أن سخط الله عليهم، وقال
الزجاج: [أن] في موضع نصب على
تقدير: بأن سخط الله عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾ إن كان
المراد الأسلاف فالنبي داود وعيسى
عليهما السلام، وإن كان المراد
معاصري محمد فالنبي محمد عليه
الصلاة والسلام، و ﴿الَّذِينَ﴾
كفروا هم عبدة الأوثان، وخص
الكثير منهم بالفسق إذ منهم قليل من
آمن.

وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله
تعالى: ﴿كَثِيرًا﴾ كثير كثير،
كلام منقطع من ذكر بني إسرائيل،
وأنه يعني به المنافقون، وقال مجاهد
رحمه الله: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ﴾
الآية، يعني بها المنافقون.

السلام - (٨٢) تفسير قوله عز وجل:
السلام في قوله: ﴿تَتَجَدَّدُنَّ﴾ لام
الابتداء، وقال الزجاج: هي لام
قَسَم، ودخلت هذه النون الثقيلة
لتفصل بين الحال والاستقبال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا خبر مطلق منسحب على الزمن
كله، وهكذا هو الأمر حتى الآن،
وذلك أن اليهود مَرَّتُوا على تكذيب
الأنبياء وقتلهم، ودرَبُوا العُشْرَ
والمعاصي، وَمَرَّدُوا على استشعار
اللغة وَضَرْبِ الذلة والمسكنة، فهم
قد لَحَجَّتْ عداوتهم، وَكَثُرَ
حسدهم، فهم أشد الناس عداوةً
للمؤمنين، وكذلك المشركون عِبْدَةُ
الأوثان من العرب، والنيران من

المجوس، لأنَّ الإيمانَ إِيَّاهم كَفَرُ، وعروشهم ثُلٌّ وَيَبْنُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ، فلم يَبْنُ لَهُمْ بَقِيَّةٌ، فعداوتُهُمْ شديدة.

والنصارى أهل الكتاب يقضي لهم شرعنا بأن أول أمرهم صحيح لولا أنهم ضلوا، فهم يعتقدون أنهم لم يضلوا، وأن هذه الجملة لم تنسخ شرعهم، ويُعظمون من أهل الإسلام من استشعروا منهم صحة دين، ويستهيئون من فهموا منه الفسق، فهم إذا حاربوا فإنما حزنهم أنفةً وكسب لا أن شرعهم يأخذهم بذلك، وإذا سالموا فسلمهم صافٍ، ويُعين على هذا أنهم أمة شريفة الخلق، لهم الوفاء والخلال الأربع التي ذكر عمرو بن العاص في صحيح مسلم، وتأمل أن النبي ﷺ سُرَّ حين غلبت الروم فارس، وذلك لكونهم أهل كتاب، ولم يرد عليه الصلاة والسلام أن يستمر ظهور الروم، وإنما سُرَّ بغلبة أهل كتاب لأهل عبادة النار، وانضاف إلى ذلك أن غلب العدو الأصغر وانحصرت شوكة العدو الأكبر المخوف على الإسلام.

واليهود - لعنهم الله - ليسوا على شيء من هذا الخلق، بل شأنتهم الخُبث والئِي بالأسنة، وفي خلال إحسانك إلى اليهودي يبغيك هو الغوائل إلا الشاذ القليل منهم ممن عسى أن تخصص بأدب وأمر غيرهم ما علم أولاً.

ولم يصف الله تعالى النصارى بأنهم أهل ود، وإنما وصفهم بأنهم أقرب من اليهود والمشركين، فهو

قرب مودة بالنسبة إلى متاعدين.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَكَ﴾ إشارة إلى أن المعاصرين لمحمد ﷺ من النصارى ليسوا على حقيقة النصرانية، بل كونهم نصارى قول منهم وزعم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكَ وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ بِهِمْ بِلَاحُظَةٍ﴾ معناه: ذلك بأن منهم أهل خشية وانقطاع إلى الله وعبادته وإن لم يكونوا على هدى، فهم يميلون إلى أهل العبادة والخشية، وليس عند اليهود ولا كانوا قط أهل ديارات وصوامع وانقطاع عن الدنيا، بل هم مُعَظَّمُونَ لها، متطاولون في البنیان وأُمُور الدنيا حتى كأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يرى فيهم زاهد.

ويقال: قَسَّ بفتح القاف وبكسرها وقَسَّس، وهو اسم أعجمي عرب، والقَسَّس في كلام العرب: النعمة، وليس من هذا.

وأما الرهبان فجمع راهب، وهذه تسمية عربية، والرَّهْبُ: الخوف، ومن الشواهد على أن الرهبان جُمْعُ قول الشاعر:

رُهْبَانٌ مَذِينٌ لَوْ رَأَوْكَ تَسَرَّلُوا

وَالْعَصْمُ مِنْ شَعَفِ الْعُقُولِ الْفَائِزُ
وقد قيل: الرهبان اسم مفرد، والدليل عليه قول الشاعر:

لَوْ عَايَنْتَ رُهْبَانًا ذَبَرَ فِي الْقُلُلِ

تَحَدَّرَ الرُّهْبَانُ يَخْشَى وَتَزَلَّ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويروى: وَيَزَلُّ بالياء من الزلل، وهذه الرواية أبلغ في معنى غلبة هذه المرأة على ذهن هذا الراهب.

ووصف الله تعالى النصارى بأنهم لا

يستكبرون، وهذا بين موجود فيهم حتى الآن، واليهودي متى وجد غروراً طغى وتكبر، وإنما أذلهم الله وأضرعتهم الحمى، وداسهم لكلل الشريعة، ودين الإسلام أعلاه الله.

وذكر سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن عباس أن هذه الآية نزلت بسبب وفد بعثهم النجاشي إلى رسول الله ﷺ ليرؤه ويعرفوا حاله، فقرأ للنبي ﷺ عليهم القرآن فبكوا وآمنوا ورجعوا إلى النجاشي فأمن ولم يزل مؤمناً حتى مات فصلى عليه النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وروي أن نَعَشَ النَجَاشِي كُشِفَ للنبي ﷺ فكان يراه من موضعه بالمدينة، وجاء الخبر بعد مدة أن النجاشي دفن في اليوم الذي صلى فيه النبي ﷺ، وذكر السدي أنهم كانوا اثني عشر، سبعة قسيسين وخمسة رهباناً. وقال أبو صالح: كانوا سبعة وستين رجلاً، وقال سعيد بن جبير: كانوا سبعين، عليهم ثياب الصوف، وكلهم صاحب صومعة، اختارهم النجاشي الخير فالخير، وذكر السدي أن النجاشي خرج مهاجراً فمات في الطريق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لم يذكره أحد من العلماء بالسيرة.

وقال قتادة: نزلت هذه الآيات في قوم كانوا مؤمنين ثم آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفرق الطبري بين هذين القولين وهما واحد.

وروي سلمان الفارسي عن النبي ﷺ: «ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ صِدِّيقِينَ وَرُفَهَاءًا».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ الرَّسُولَ رَكَعَ أَغْبَيْنَهُمُ﴾ الآية، الضمير في ﴿سَمِعُوا﴾ ظاهره العموم، ومعناه الخصوص فيمن آمن من هؤلاء القادمين من أرض الحبشة، إذ هم عرفوا الحق وقالوا: آمنا، وليس كل النصراني يفعل ذلك، وصدر الآية في قُرب المودة عام فيهم، ولا يتوجه أن يكون صدر الآية خاصاً فيمن آمن، لأن من آمن فهو من الذين آمنوا وليس يقال فيه: ﴿قَالُوا إِنَّا نَصَدَّقُكَ﴾، ولا يقال في مؤمنين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلَيْن﴾، ولا يقال: «إنهم أقرب مودة»، بل من آمن فهو أهل مودة محضة، فإنما وقع التخصيص من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾، وجاء الضمير عاماً إذ قد تُحمد الجماعة بفعل واحد منها، وفي هذا استدعاء للنصارى ولطف من الله تعالى بهم، ولقد يوجد فيض الدموع غالباً فيهم وإن لم يؤمنوا.

وروي أن وفداً من نجران قدم على أبي بكر الصديق في شيء من أمورهم، فأمر من يقرأ القرآن بحضرتهم، فبكوا بكاء شديداً، فقال أبو بكر: هكذا كنا ولكن قست القلوب.

وروي أن راهباً من رهبان ديارات الشام نظر إلى أصحاب النبي ﷺ ورأى عبادتهم وجدّهم في قتال عدوهم فعجب من حالهم وبكى وقال: ما كان الذين تُشروا بالمشاير

على دين عيسى بأصبر من هؤلاء ولا أجَد في دينهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالقوم الذين وُصفوا بأنهم عرفوا الحق هم الذين بعثهم النجاشي ليروا النبي ﷺ ويسمعوا ما عنده، فلما رأوه قرأ عليهم القرآن، وهو المراد بقوله: ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ الرَّسُولُ﴾ فاضت أعينهم بالدمع من خشية القلوب.

والرؤية في الآية رؤية العين، و ﴿تَبَيَّنَ حَالُ مَنْ﴾ (الأعين)، و ﴿يَقُولُونَ حَالٌ أَيْضاً﴾ و ﴿ءَامَنَّا﴾ معناه: صدقنا أن هذا رسولك، والمسموع كتابك. والشاهدون: محمد وأمه. قال ابن عباس، وابن جريج، وغيرهما.

وقال الطبري: لو قال قائل: معنى ذلك: مع الشاهدين بتوحيديك من جميع العالم من تقدم ومن تأخر لكان ذلك صواباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا معنى قول الطبري، وهو كلام صحيح، وكان ابن عباس رضي الله عنهما خصص أمة محمد عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية.

٨٧ - ٨٨ تفسير قوله عز وجل: قولهم: ﴿وَمَا لَنَا﴾ توقيف لأنفسهم، أو محاجة لمن عارضهم من الكفار بأن قال لهم: آمنتم وعجلتم، فقالوا: وأي شيء يصدنا عن الإيمان وقد لاح الصواب وجاء الحق المنير؟ ﴿وَمَا لَنَا﴾ ابتداء وخبر و ﴿لَا تُؤْمِنُ﴾ في موضع الحال، ولكنها حال هي المقصد وفيها الفائدة، كما تقول: «جاء زيد راكباً»

وأنت قد سُئِلت: «هل جاء ماشياً أو راكباً؟»

وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا رُسُلًا﴾.

﴿وَقَطَعَ﴾ تقديره: ونحن نطمع، فالواو عاطفة جملة على الجملة، لا عاطفة فعل على فعل، والقوم الصالحون: محمد وأصحابه، قاله ابن زيد وغيره من المفسرين.

ثم ذكر الله تعالى ما أنابهم به من النعيم على إيمانهم وإحسانهم.

ثم ذكر حال الكافرين المكذبين وأنهم قرناء الجحيم، والمعنى قد علم من غير ما آية من كتاب الله أنه اقتران لازم دائم أبدي.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا طَيِّبَاتٌ مِمَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية.

قال أبو مالك، وعكرمة، والنخعي، وأبو قلابة، وقتادة، والسدي، وعبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وغيرهم: إنها نزلت بسبب جماعة من أصحاب النبي ﷺ بلغت منهم المواعظ وخوف الله إلى أن حُرِّم بعضهم النساء، وبعضهم النوم بالليل والطيب، وهم بعضهم بالاختصاص، وكان منهم علي بن أبي طالب، وعثمان بن مظعون. قال عكرمة:

ومنهم ابن مسعود، والمقداد، وسالم مولى أبي حذيفة. وقال قتادة: رفضوا النساء واللحم وأرادوا أن يتخذوا الصوامع، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أخذوا الشُّفار ليقطعوا مذكرهم، وطول السدي في قصة الحولاء امرأة عثمان بن مظعون مع أزواج النبي ﷺ وإخبارها بأنه لم

يلم بها، فلما أعلم رسول الله ﷺ بحالهم قال: «أَنَا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتِي النِّسَاءَ، وَأَنَالَ الطَّيِّبَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سِتْنِي فَلَيْسَ مِنِّي».

قال الطبري: وكان فيما يتلى: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سِتْنِكَ فَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِكَ، وَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».

وقال ابن زيد: سبب هذه الآية أن عبد الله بن رواحة ضاف ضيف، فانقلب ابن رواحة وضيفه لم يتعش، فقال لزوجه: ما عشيته؟ قالت: كان الطعام قليلاً فانتظرتك، فقال: حَبَسْتُ ضَيْفِي مِنْ أَجْلِي، طَعَامُكَ عَلَيَّ حَرَامٌ إِنْ ذُقْتَهُ، فَقَالَتْ هِيَ: وَهُوَ عَلَيَّ حَرَامٌ إِنْ ذُقْتَهُ إِنْ لَمْ تَذُقْهُ، وَقَالَ الضَّيْفُ: وَهُوَ عَلَيَّ حَرَامٌ إِنْ ذُقْتَهُ إِنْ لَمْ تَذُقْهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ ابْنُ رَوَاحَةَ قَالَ: قَرَّبِي طَعَامَكَ، كُلُوا بِاسْمِ اللَّهِ، فَأَكَلُوا جَمِيعاً، ثُمَّ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَحْسَنْتَ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

وأُسْنَدُ الطَّبْرِيِّ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِسَبَبِ رَجُلٍ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي إِذَا أَصَبْتُ مِنَ اللَّحْمِ انْتَشَرَتْ وَأَخَذَتْنِي شَهَوَتِي فَحَرَمْتُ اللَّحْمَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والطبقات في هذه الآية: الْمُسْتَلْذَاتُ، بِدَلِيلِ إِضَافَتِهَا إِلَى «مَنَا أَحَلَّ»، وبقرينة ما ذكر من سبب الآية.

واختلف المتأولون في معنى قوله: «وَلَا تَسْتَدُوا» - فقال السدي،

وعكرمة، وغيرهما: هو نهي عن هذه الأمور المذكورة من تحريم ما أحلَّ الله وشرع ما لم يأذن به، فقوله: «وَلَا تَسْتَدُوا» تأكيد لقوله: «وَلَا تَحَرِّمُوا»، وقال الحسن بن أبي الحسن: المعنى: ولا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله، فالنهيان على هذا تَضَمُّنَا الطرفين فكأنه قال: لا تشددوا فتحرموا حلالاً، ولا تترخصوا فتحلوا حراماً. وقد تقدم القول في معنى: «لَا يُجِبُ التَّمَنُّيْتُ» غير مرة.

﴿٨٨﴾ - ﴿٨٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿كُلُوا﴾ في هذه الآية عبارة عن: تمتعوا بالأكل والشرب واللباس والركوب ونحو ذلك، وخص الأكل بالذكر لأنه أعظم المقصود وأخص الانتفاعات بالإنسان.

والرزق عند أهل السنة: ما صح الانتفاع به، وقالت المعتزلة: الرزق: كل ما صح تملكه، والحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، ويرد عليهم بأنه يلزمهم أن أكل الحرام ليس بمرزوق من الله تعالى، وقد خرج بعض النبلاء أن الحرام رزق من قوله تعالى: «كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ» قال: فذكر المغفرة مشيراً إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام، ورد أبو المعالي في الإرشاد على المعتزلة بأنهم إذا قالوا: الرزق ما تملك فيلزمهم أن ما ملك فهو الرزق، وملك الله تعالى للأشياء لا يصح أن يقال فيه: إنه رزق له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الذي ألزم غير لازم فتأمل. وباقى الآية بين.

وقد تقدم القول في سورة البقرة في نظير قوله تعالى: «لَا يُوَافِقُكُمْ اللَّهُ بِاللَّهُوَ فِي آيَاتِهِمْ». وقوله تعالى: «وَمَا عَقَدْتُمُ الْآيَاتِينَ» معناه: شذذتم.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: «عَقَدْتُمْ» مُشَدَّدة القاف، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - وحمزة، والكسائي: «عَقَدْتُمْ» خفيفة القاف، وقرأ ابن عامر: «عَاقَدْتُمْ» بألف على وزن فاعلتهم.

قال أبو علي: من شدد القاف احتمل أمرين: أحدهما أن يكون لتكثير الفعل لأنه خاطب جماعة، والآخر أن يكون (عقد) مثل (ضعف) لا يراد به التكثير، كما أن ضاعف لا يراد به فعل من اثنين، ومن قرأ «عَقَدْتُمْ» فخفف القاف جاز أن يراد به الكثير من الفعل والقليل. وعقد اليمين كمقد الحبل والعهد، وقال الحطية:

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لِبَجَارِهِمْ
شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكَرْبَا
ومن قرأ «عَاقَدْتُمْ» فيحتمل ضربين: أحدهما أن يكون كطارقت النعل، وعاقبت اللص، والآخر أن يراد به فاعلت الذي يقتضي فاعلين كأن المعنى: يؤاخذكم بما عقدتم عليه الأيمان، ويُعَدِّي (عَاقِد) بـ (عَلَى) لما هو في معنى (عاهد)، قال الله تعالى: «وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ»، وهذا كما عُديت «نَادَيْتُمْ إِلَى الْكَافَّةِ» بـ (إِلَى)، وبابها أن تقول: ناديت زيدا، «وَنَدَيْتُمْ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ» لكن لما كانت بمعنى: دعوت إلى كذا كقوله

تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ عُدَّتْ (نادى) بـ (إلى)، ثم يتسع في قوله تعالى: «عاقدمت عليه الأيمان» فيحذف الجار ويصل الفعل إلى المفعول، ثم يحذف من الصلة الضمير الذي يعود على الموصول، وتقديره: «يؤاخذكم بما عقدتموه الأيمان» كما حذف من قوله تعالى: ﴿قَاتِلْهُمْ يَوْمَ أُوتِرَ﴾.

والأيمان: جمع يمين وهي الآية، سميت يميناً لما كان عرفهم أن يصفقوا بأيمان بعضهم على بعض عند الآية. وقوله تعالى: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ﴾ معناه: فالشيء الساتر على إثم الحنث في اليمين إطعام، والضمير على الصناعة التحوية عائد على [مَن]، وتحتمل [مَن] في هذا الموضع أن تكون بمعنى الذي، وتحتمل أن تكون مصدرية وهو عائد مع المعنى الذي ذكرناه على إثم الحنث، ولم يجز له ذكر صريح ولكن المعنى يقتضيه.

و ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ معناه: إشباعهم مرة، قال الحسن بن أبي الحسن: إن جمعتهم أشبعهم إشباعاً واحدة، وإن أعطاهم أعطاهم مكوكاً مكوكاً، وحكم هؤلاء ألا يتكرر واحد منهم في كفارة يمين واحدة، وسواء أطعموا أفراداً أو جماعة في حين واحد، ولا يجوز في شيء من ذلك ذنبي وإن أطعم صبي فيعطى حظ كبير، ولا يجوز أن يطعم عبد ولا ذو رحم تلزم نفقته، فإن كان ممن لا تلزم المكفر نفقته فقد قال مالك: لا يعجبني أن يطعمه، ولكن إن فعل وكان فقيراً أجزأه، ولا يجوز

أن يطعم منها غني، وإن أطعم جهلاً بغناه ففي «المدونة» وغير كتاب أنه لا يجزىء، وفي «الأسدية» أنه يجزىء.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿يَنْ أَوْسَطَ﴾ - فرأى مالك رحمه الله وجماعة معه هذا التوسط في القدر، ورأى ذلك جماعة في الصنف، والوجه أن يعم بلفظ الوسط القدر والصنف، فرأى مالك أن يطعم المسكين بالمدينة مذاً بمد النبي ﷺ، وذلك رطل وثلاث من الدقيق وهذا لضيق المعيشة بالمدينة، ورأى في غيرها أن يتوسع، ولذلك استحسّن الغداء والعشاء، وأفتى ابن وهب بمصر بمد ونصف، وأشهد بمد وثلاث، قال ابن المواز: ومد وثلاث وسط من عيش أهل الأمصار في الغداء والعشاء، قال ابن حبيب: ولا يجزىء الخبز قفاراً، ولكن بإدام زيت أو لبن أو لحم أو نحوه، وفي شرح ابن مزين أن الخبز القفار يجزىء، ورأى من يقول: «إن التوسط في الصنف» إنما هو في الصنف أن يكون الرجل المكفر يتجنب أدنى ما يأكل الناس في البلد، وينحط عن الأعلى، ويكفر بالوسط من ذلك، ومذهب «المدونة» أن يراعي المكفر عيش البلد، وفي كتاب ابن المواز أن المراعى عيشه في أهله الخاص به.

وكأن الآية - على التأويل الأول - معناها: من أوسط ما تطعمون أيها الناس أهليكم في الجملة من مدينة أو صقع، وعلى التأويل الثاني معناها: من أوسط ما يطعم شخص

أهله. وقرأ الجمهور: ﴿أَهْلِيكُمْ﴾ وهو جمع أهل على السلامة، وقرأ جعفر بن محمد: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾، وهذا جمع مكسر، قال أبو الفتح: أהל بمنزلة: لَيَالٍ كَأَن وَاحِدَهَا: أَهْلَاتٌ وَلِيَالَتٌ، والعرب تقول: أَهْلٌ وَأَهْلَةٌ، ومنه قول الشاعر:

وَأَهْلَةٌ وَذَقْدٌ تَبْرَيْتُ وَذُهُمُ

ويقال: ليلةً وليلاه، وأنشد ابن الأعرابي:

فِي كُلِّ مَا يَوْمَ كُلِّ لَيْلَةٍ
حَتَّى يَقُولَ مَنْ رَأَى إِذْ رَأَى
يَا وَنَحَهُ مَنْ جَمَلَ مَا أَشْقَاهُ

وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ بكسر الكاف، يراد به كسوة الثياب. وقرأ سعيد بن المسيب، وأبو عبد الرحمن، وإبراهيم النخعي: ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ بضم الكاف. وقرأ سعيد بن جبير، ومحمد بن السميع اليماني ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ من الأسوة، قال أبو الفتح: كأنه قال: أو بما يكفي مثلهم، فهو على حذف مضاف بتقدير: أو ككفاية أسوتهم. قال: وإن شئت جعلت الأسوة هي الكفاية فلم تحتج إلى حذف مضاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، والقراءة مخالفة لخط المصحف، ومعناها على خلاف ما تأول أهل العلم من أن الحانث في اليمين بالله مخير في الإطعام أو الكسوة أو العتق، والعلماء على أن العتق أفضل ذلك، ثم الكسوة، ثم الإطعام، وبدأ الله تعالى عباده

بالأيسر فالأيسر، ورُبْ مُدَّةٌ ومسغبة يكون فيها الإطعام أفضل من العتق، لكن ذلك شاذ وغير معهود، والحكم للأغلب.

اختلف العلماء في حد الكسوة - فراعى قوم نفس اللفظة، فإذا كان الحائث المكفر كاسياً والمسكين مكسواً حصل الإجزاء، وهذه رتبة تتحصل بثوب واحد، أي ثوب كان بعد إجماع الناس على أن القلنسوة بانفرادها لا تُجزئ في كفارة اليمين. قال مجاهد: يجرى في كفارة اليمين ثوب واحد فما زاد، وقال الحسن: الكسوة: ثوب لكل مسكين، وقاله طاوس، وقال منصور: الكسوة: ثوب قميص أو رداء أو إزار، وقاله أبو جعفر، وعطاء، وابن عباس، وقال: وقد تجزئ العباءة في الكفارة، وكذلك الشملة، وقال الحسن بن أبي الحسن: تجزئ العمامة في كفارة اليمين، وقال مجاهد: يجرى كل شيء إلا الثُّبَانُ وُزِي عن سلمان رضي الله عنه أنه قال: «نعم الثوب الثُّبَان»، أسنده الطبري، وقال الحكم بن عتبة: تجزئ عمامة يلف بها رأسه. وراعى قوم معهود الزني والكسوة المتعارفة، فقال بعضهم: لا يجرى الثوب الواحد إلا إذا كان جامعاً مما قد يَتَزَيَّأ به كالكساء والملحفة، قال إبراهيم النخعي: يجرى الثوب الجامع، وليس القميص والدرع والخمار ثوباً جامعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قد يكون القميص الكامل جامعاً

وزياً، وقال بعضهم: الكسوة في الكفارة: إزار وقميص ورداء، قاله ابن عمر رضي الله عنهما، وروي عن الحسن، وابن سيرين، وأبي موسى الأشعري أن الكسوة في الكفارة ثوبان لكل مسكين، وعلّق مالك رحمه الله الحكم بما يجرى في الصلاة، وهذا أحسن نظر، فقال: يجرى في الرجل ثوب واحد، وقال ابن حبيب: يكسى قميصاً أو إزاراً يبلغ أن يلتفت به مشتملاً، وكلام ابن حبيب تفسير، قال مالك: تكسى المرأة درعاً وخماراً، وقال ابن القاسم في «العتبة»: وإن كسا صغير الإناث فدرع وخمار كالكبيرة، والكفارة واحدة لا ينقص منها لصغير، قال عنه ابن المواز: ولا تعجنى كسوة المراضع بحال، فأما من أمر بالصلاة فيكسوه قميصاً ويجزئه، قال ابن المواز من رأيه: بل كسوة رجل كبير وإلا لم يجرى، قال أشهب: تعطى الأنثى إذا لم تبلغ الصلاة ثوب رجل ويجزئ، وقاله ابن الماجشون.

قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ التحرير: الإخراج من الرق، ويستعمل في الأسر والمشقات وتعب الدنيا ونحوها، فمنه قوله تعالى عن أم مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي من شغوب الدنيا، ومن ذلك قول الفرزدق:

أَبْنِي عُدَانَةً إِنْسِي حُرُزْتُكُمْ
فَوَهَبْتُكُمْ لِعَطِيَّةِ بْنِ جَعَالٍ
أَي حررتكم من الهجاء، وخصّ الرقبة من الإنسان إذ هو العضو الذي فيه يكون الغل والتوثق غالباً من

الحيوان، فهو موضع الملك فأضيف التحرير إليها.

واختلف الناس في صفة المغتق في الكفارة كيف ينبغي أن يكون؟ فقالت جماعة من العلماء: هذه رقبة مطلقة لم تقيد بإيمان فيجوز في كفارة اليمين عتق الكافر، وهذا مذهب الطبري وجماعة من العلماء، وقالت فرقة: كل مطلق في القرآن من هذا فهو راجع إلى المقيد في عتق الرقبة في القتل الخطأ، فلا يجرى في شيء من الكفارات كافر، وهذا قول مالك رحمه الله وجماعة معه، وقال مالك رحمه الله: لا يجرى أعمى ولا أبرص ولا مجنون، وقاله ابن شهاب وجماعة، وفي الأعور قولان في المذهب، وكذلك في الأصم وفي الخصي، وفي العلماء من رأى أن جميع هذا يجرى، وفُرّق النخعي فجوز عتق من يعمل أشغاله وخدمته، ومنع عتق من لا يعمل كالأعمى والمقعّد والأشل البدين، قال مالك رحمه الله: والأعجمي عندي يُجرى من قصر النفقة، وغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ، قال سحنون: يريد بعد أن يجيب إلى الإسلام، فإن كان الأعجمي لم يُجب إلا أنه ممن يُجبر على الإسلام كالكبير من المجوس والصغير من الحريين الكتائبين فقال ابن القاسم: يجرى عتقه وإن لم يسلم، وقال أشهب: لا يُجرى حتى يسلم، ولا يجرى عند مالك من فيه شعبة حرية كالمدير وأم الولد ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿فَنَ لَّمْ يَجِدْ﴾ معناه: لم يجد في ملكه أحد هذه الثلاثة من

فكان بقي منها في نفوس كثير من المؤمنين .

فأما الخمر فكانت لم تحرم بعد، وأما الخمر ففيه قمار ولذة للفاغ من النفوس ونفع أيضاً بوجه ما، وأما الأنصاب وهي حجارة يذكون عندها لفضل يعتقده فيها، وقيل: هي الأنصاب المعبودة كانوا يذبحون لها وعندها في الجاهلية، فإن كانت المرادة في هذه الآية الحجارة التي يذبح عندها فقط فذلك لأنه كان في نفس ضعة المؤمنين شيء من تعظيم تلك الحجارة، وهذا كما قالت امرأة الطفيل بن عمرو الدوسي لزوجها: أتخاف على الصبية من ذي الشرى شيئاً؟ و«ذو الشرى» صنم لدوس . وإن كانت المرادة في هذه الآية الأصنام فإنما قرنت بهذه الأمور لئيبين النقص في هذه إذ تُقرن بالأصنام، ولا يتأول أنه بقي في نفس مؤمن شيء من تعظيم الأصنام والتلبس بها حتى يقال له: اجتنبه . وأما الأزلام فهي الثلاثة التي كان أكثر الناس يتخذونها، في أحدها لا، وفي الآخر نعم، والآخر غفل، وهي التي حبست سراقه بن مالك بن جعشم حين اتبع النبي ﷺ في وقت الهجرة، فكانوا يعظمونها، وبقي منها في بعض النفوس شيء، ومن هذا القبيل هو الزجر بالطير، وأخذ الفأل في الكتب ونحوه مما يصنعه الناس اليوم، وقد يقال لسهام الميسر أزلام، والزلّم: السهم، وكان من الأزلام أيضاً ما يكون عند الكهان، وكان منها سهام عند الأصنام وهي التي ضرب بها على عبدالله بن

يخاف الجوع، أو يكون في بلد لا يعطف عليه فيه . وقال سعيد بن جبير: إن لم يكن له إلا ثلاثة دراهم أطعم، وقال قتادة: إذا لم يكن له إلا قدر ما يكفر به صام، وقال الحسن بن أبي الحسن: إذا كان له درهمان أطعم، وقال الطبري: وقال آخرون: جائز لمن لم تكن عنده مائتا درهم أن يصوم وهو ممن لا يجحد، وقال آخرون: جائز لمن لم يكن عنده فضل على رأس ماله الذي يتصرف به في معاشه أن يصوم .

وقرأ أبي بن كعب: «فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مَّتَابِعَاتٍ»، وكذلك عبدالله بن مسعود، وإبراهيم النخعي، وقال بذلك جماعة من العلماء منهم مجاهد وغيره، وقال مالك رحمه الله وغيره: إن تابع فحسب وإن فرّق أجزاء .

وقوله تعالى: «ذَلِكَ كَثْرَةُ أَيَّامِكُمْ» إشارة إلى ما ذكر من الأشياء الثلاثة .

وقوله تعالى: «إِذَا حَلَقْتُمْ» معناه: ثم أردتم الحنث أو وقعتم فيه، وباقى الآية وصاة وتوقيف على النعمة والإيمان .

٩٠ - ٩١ تفسير قوله عز وجل: الخطاب للمؤمنين جميعاً لأن هذه الأسماء شهوات وعادات قد تلبس بها في الجاهلية وغلبت على النفوس،

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا الْفَرُّ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْزِهِمْ لَعَلَّكُمْ تَتْلَحُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا رِزْقُ الشَّيْطَانِ زَيْلٌ مِّنْ بَيْنِكُمْ الْعَدْوَةُ وَالْبَغْضَاءُ فِي الْحَرَمِ وَالْمَيْسِرُ وَيَصِدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحِدُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رُسُلِنَا الْبَلَّغُ الْبَيِّنُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا اللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْيَاسِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْأَلُكُمْ اللَّهُ فِي شَيْءٍ مِّنَ الصَّدَقَاتِ ثَلَاثًا: أَيْدِيَكُمْ وَرِمَاحَكُمْ لَعَلَّ اللَّهَ مِن جَافِلٍ بِالْفَيْسِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْبَلُوا الصَّدَقَاتِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَبَّلَهَا مِنكُمْ مُّتَعِدًا فَبَرَاءٌ مِّمَّنْ قَبَّلَهَا فَتِلْكَ أَعْيُنُ النَّاسِ يَحْكُمُونَ بِهَا وَأَعْدِلُوا بَيْنَكُمْ هَذَا يَتْلَىٰ الْكُتُبُ أَوْ كَثْرَةُ طَعَامٍ مَّسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِّذِكْرِ رَبِّكَ وَبِالْأَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

الإطعام أو الكسوة أو عتق الرقبة . واختلف العلماء في حد هذا العادم الوجد حتى يصبح له الصيام - فقال الشافعي رحمه الله وجماعة من العلماء: إذا كان المكفر لا يملك إلا قوته وقوت عياله يومه وليلته فله أن يصوم، فإن كان عنده زائد على ذلك ما يطعم عشرة مساكين لزمه الإطعام، وهذا أيضاً هو مذهب مالك وأصحابه، قاله مالك في «المدونة»: لا يُجزئه الصيام وهو يقدر على أحد الوجوه الثلاثة، وروي عن ابن القاسم أن من تفضل له نفقة يوم فإنه لا يصوم، وقال ابن المواز: ولا يصوم الحانث حتى لا يجد إلا قوته أو يكون في بلد لا يعطف عليه فيه، وقال ابن القاسم في كتاب ابن مزين: إن كان لكانث فضل عن قوت يومه أطعم إلا أن

عبدالمطلب أبي النبي ﷺ، وكان عند قريش في الكعبة أزالام فيها أحكام ذكرها ابن إسحق وغيره فأخبر الله تعالى أن هذه الأشياء رجس، قال ابن زيد: الرجس: الشر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كل مكروه ذميم، وقد يقال للعذاب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: رجس: سخط، وقد يقال للثمن وللعدرة والأفذار رجس، والرجز: العذاب لا غير، والرئس: العدرة لا غير، والرجس يقال للأميرين، وأمر الله تعالى باجتناب هذه الأمور، واقتربت بصيغة الأمر في قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا﴾ نصوص الأحاديث وإجماع الأمة، فحصل الاجتناب في رتبة التحريم، فبهذا حرمت الخمر بظاهر القرآن ونص الحديث وإجماع الأمة، وقد تقدم تفسير لفظة الخمر ومعناها وتفسير الميسر في سورة البقرة، وتقدم تفسير الأنصاب والاستقام بالأزالام في صدر هذه السورة.

واختلف الناس في سبب نزول هذه الآيات. فقال أبو ميسرة: نزلت بسبب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه ذكر للنبي ﷺ عيوب الخمر وما ينزل بالناس من أجلها، ودعا إلى الله في تحريمها، وقال: اللهم بين لنا فيها بياناً شافياً، فنزلت هذه الآيات، فقال عمر: انتهينا انتهينا، وقال مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه سعد قال: صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا فشربنا الخمر حتى انتشينا، فتفاخرت الأنصار وقريش، فقال كل

فريق: نحن خير منكم، فأخذ رجل من الأنصار لحي جمل فضرب به أنف سعد ففزره، فكان سعد أفزر الأنف، قال سعد: ففي نزلت هذه الآية إلى آخرها.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل تحريم الخمر في قبيلتين من الأنصار، شربوا حتى إذا ثملوا عربدوا، فلما صحو جعل كل واحد منهم يرى الأثر بوجهه ولحيته وجسده فيقول: هذا فعل بي فلان، فحدث بينهم في ذلك ضغائن، فنزلت هذه الآيات في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأمر الخمر إنما كان بتدرج ونوازل كثيرة، منها قصة حمزة حين جب الأسنة، وقال للنبي ﷺ: وهل أنتم إلا عبيد أبي؟ ومنها قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صلاة المغرب: قل يا أيها الكافرون، أعبد ما تعبدون، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الصَّالِكِينَ وَاتَّبِعُوا سُبُلَكُمْ﴾ الآية، ثم لم تزل النوازل تخرب الناس بسببها حتى نزلت هذه الآية، فحرمت بالمدينة وخمر العنب فيها قليل، إنما كانت خمرهم من خمسة أشياء: من العسل ومن التمر ومن الزبيب ومن الحنطة ومن الشعير، والأمة مجمعة على تحريم القليل والكثير من خمر العنب التي لم تمسها نار ولا خالطها شيء، وأكثر الأمة على أن ما أسكر كثيرة فقليله حرام، ولأبي حنيفة وبعض فقهاء الكوفة إباحة ما لا يسكر مما يسكر كثيره من غير خمر العنب، وهو مذهب مردود، وقد خرج قوم

تحريم الخمر من وصفها بـ ﴿يَسْرُ﴾، وقد وصف تبارك وتعالى في آية أخرى الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير بأنها رجس، فيجوز من ذلك أن كل رجس حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر.

والاجتناب أن يجعل الشيء جانباً أو ناحية.

ثم أعلم تبارك وتعالى أن الشيطان إنما يريد أن تقع العداوة بسبب الخمر وما يعتري عليها بين المؤمنين، وبسبب الميسر إذ كانوا يتقارون على الأموال والأهل، حتى ربما بقي المغمور حزيناً فقيراً فتحدث من ذلك ضغائن وعداوة، فإن لم يصل الأمر إلى حد العداوة كانت بغضاء، ولا تحسن عاقبة قوم متباغضين، ولذلك قال النبي ﷺ: ﴿لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً﴾، وباجتماع النفوس والكلمة يحمي الدين ويجهاد العدو. والبغضاء تنقض عرى الدين وتهدم عماد الحماية، وكذلك أيضاً يريد الشيطان أن يصد المؤمنين عن ذكر الله وعن الصلاة ويشغلهم عنها بشهوات، فالخمر والميسر والقمار كله من أعظم آلاته في ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أُنْتَبِهُونَ﴾ وعيد في ضمن التوقيف زائد على معنى (انتهاوا).

ولما كان في الكلام معنى (انتهاوا) حسن أن يعطف عليه ﴿وَأَطِيعُوا﴾، وكرر ﴿أَطِيعُوا﴾ في ذكر الرسول تأكيداً، ثم حذر تعالى من مخالفة

الأمر، وتوعد مَنْ تَوَلَّى بعدذاب الآخرة، أي: إنما على الرسول أن يبلغ، وعلى المرسل أن يعاقب أو يثيب بحسب ما يُعصى أو يطاع.

٩٣ - ٩٤ تفسير قوله عز وجل:

سبب هذه الآية فيما قال ابن عباس، والبراء بن عازب، وأنس بن مالك أنه لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة: يا رسول الله، كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر؟ ونحو هذا من القول، فنزلت هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نظير سؤالهم عن مات على القبلة الأولى، ونزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ يُسْتَكْتَمَ﴾، ولما كان أمر القبلة خطيراً ومعلماً من معالم الدين تخيل قوم نقص من فاته، وكذلك لما حصلت الخمر والميسر في هذا الحد العظيم من الذم أشفق قوم وتخلوا نقص من مات على هذه المذمات، فأعلم تبارك وتعالى عباده أن الذم والجُناح إنما يلحق من جهة المعاصي، وأولئك الذين ماتوا قبل التحريم لم يعصوا في ارتكاب محرم بعد، بل كانت هذه الأشياء مكروهة لم يُنص عليها بالتحريم، والشرع هو الذي قبّحها وحسّن تجنبها، والجُناح: الإثم والحرَج، وهو كله الحكم الذي يتصف به فاعل المعصية، والنسبة التي تترتب للمعاصي.

و ﴿يَمِينًا﴾ معناه: ذاقوا فصاعداً في رتب الأكل والشرب، وقد يُستعار للنوم وغيره، وحقيقته في حاسة الذوق.

والتكرار في قوله: ﴿أَتَقَوَّأُ﴾ يقتضي في كل واحدة زيادة على التي قبلها، وفي ذلك مبالغة في هذه الصفات لهم، وذهب بعض المفسرين إلى أن يعين المراد بهذا التكرار - فقال قوم: الرتبة الأولى: هي اتقاء الشرك والكبائر، والإيمان على كماله وعمل الصالحات.

والرتبة الثانية: هي الثبوت والدوام على الحالة المذكورة.

والرتبة الثالثة: هي الانتهاء في التقوى إلى امتثال ما ليس بفرض من النوافل في الصلاة والصدقة وغير ذلك. وهو الإحسان.

وقال قوم: الرتبة الأولى لماضي الزمن، والثانية للحال، والثالثة للاستقبال.

وقال قوم: الاتقاء الأول هو في الشرك والتزام الشرع، والثاني في الكبائر، والثالث في الصغائر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليست هذه الآية وفقاً على من عمل الصالحات كلها واتقى كل التقوى، بل هي لكل مؤمن وإن كان عاصياً أحياناً إذا كان قد عمل من هذه الخصال الممدوحة ما استحق به أن يوصف بأنه مؤمن عامل للصالحات، مُثَقِّ في غالب أمره، محسن، فليس على هذا الصنف جُناح فيما طعم مما لم يحرم عليه.

وقد تناول هذه الآية قدامة بن مظعون الجُحَحي من الصحابة رضي الله عنه، وهو ممن هاجر إلى أرض الحبشة مع أخويه عثمان وعبدالله، ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا، وعُمرَ، وكان ختن عمر بن

الخطاب خال عبدالله وحفصة، ولأه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على البحرين، ثم عَزَلَهُ لأن الجارود سيد عبد القيس قدم على عمر بن الخطاب فشهد عليه بشرب الخمر، فقال له عمر: ومن يشهد معك؟ فقال: أبو هريرة، فجاء أبو هريرة فقال له عمر رضي الله عنه: بم تشهد؟ قال: لم أراه يشرب، ولكن رأيته سكران يقيء، فقال له عمر: لقد تنطعت في الشهادة، ثم كتب عمر إلى قدامة أن يقدم عليه فقدم، فقال الجارود لعمر: أتم على هذا كتاب الله، فقال له عمر رضي الله عنه: أخصم أنت أم شهيد؟ قال: بل شهيد، قال: قد أدبت شهادتك، فصمت الجارود، ثم غدا على عمر فقال: أقم على قدامة كتاب الله، فقال له عمر: ما أراك إلا خصماً، وما شهد معك إلا رجل واحد، فقال الجارود: إني أنشدك الله، قال عمر: لتمسكن لسانك أو لأسوءُك، فقال الجارود: ما هذا والله يا عمر بالحق أن يشرب ابن عمك الخمر وتسوءني، فقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن كنت تشك في شهادتنا فأرسل إلى ابنة الوليد فسلها، وهي امرأة قدامة، فبعث عمر إلى هند بنت الوليد ينشدها الله، فأقامت الشهادة على زوجها، فقال عمر لقدامة: إني حاذك فقال: لو شربتُ كما يقولون لم يكن لك أن تحدني، قال عمر: لم؟ قال: لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ الآية، فقال له عمر

فمن خاف الله انتهى عن الصيد من ذات نفسه، وقد خفي له لو صاد، ثم توعد تعالى من اعتدى بعد هذا النهي الذي يأتي وهو الذي أراد بقوله: ﴿يَبْلُوكُمْ﴾ وأشار إليه قوله: ﴿ذَلِكَ﴾. والعذاب الأليم هو عذاب الآخرة.

﴿٩٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب لجميع المؤمنين، وهذا النهي هو الابتداء الذي أعلم به قوله قبل: ﴿يَبْلُوكُمْ﴾، والصيد مصدر عومل معاملة الأسماء فأوقع على الحيوان المصيد، ولفظ الصيد هنا عام، ومعناه الخصوص فيما عدا الحيوان الذي أباح رسول الله ﷺ قتله في الحرم، ثبت عنه ﷺ أنه قال: «خَمْسُ فَوَاسِقٍ يَقْتُلْنَ فِي الْحَرَمِ: الْغُرَابُ وَالْحِدَاةُ وَالْفَأْرَةُ وَالْعَقُورُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»، ووقف مع ظاهر هذا الحديث سفيان الثوري، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحق بن راهويه فلم يبيحوا للمحرم قتل شيء سوى ما ذكر، وقاس مالك رحمه الله على الكلب العقور كل ما كلب على الناس وعقرهم، ورآه داخلاً في اللفظ فقال: للمحرم أن يقتل الأسد والنمر والفهد والذئب وكل السباع العادية مبتدئاً بها، فأما الهر والثعلب والضبع فلا يقتلها المحرم، وإن قتلها قَدْماً، وقال أصحاب الرأي: إن بدأ السبع المحرم فله أن يقتله، وإن ابتدأه المحرم فعليه قيمته، وقال مجاهد: والثعبي لا يقتل المحرم من السباع إلا ما عدا عليه، وقال ابن عمر: ما حل بك من السباع فحل

فصيد بعض هذه الأحوال بعض الصيد على العموم، ويجوز أن تكون لبيان الجنس، قال الزجاج: وهذا كما تقول: لأمتحننك بشيء من الرزق، وكما قال تعالى: ﴿فَأَجْتَبَيْنَا الرِّجْسَ مِنَ الْآفَاقِينَ﴾. وقسوله: ﴿يَبْلُوكُمْ﴾ يقتضي تبعيضاً ما، وقد قال كثير من الفقهاء: إن الباء في قوله تعالى: ﴿وَأَمْسِكُوا بُرُءُكُمْ﴾ أعطت تبعيضاً ما.

وقرأ ابن وثاب، والنخعي: ﴿يَنَالُهُ﴾ بالياء منقوطة من تحت، وقال مجاهد: الأيدي تنال الفراخ والبيض وما لا يستطيع أن يفر، والرماح تنال كبار الصيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن الله تعالى خص الأيدي بالذكر لأنها عظم المتصرف في الاصطياد، وهي آلة الآلات، وفيها تدخل الجوارح والحالات وما عمل باليد من فخاخ وشباك، وخص الرماح بالذكر لأنها عظم ما يجرح به الصيد، وفيها يدخل السهم ونحوه، واحتج بعض الناس على أن الصيد للأخذ لا للمشير بهذه الآية، لأن المشير لم تنل يده ولا رماحه بعد شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُ﴾ معناه: ليستمر علمه عليه وهو موجود، إذ عَلِّمَ تعالى ذلك في الأزل. وقرأ الزهري: ﴿لِيُعَلِّمَ اللَّهُ﴾ بضم الياء وكسر اللام، أي: ليُعَلِّمَ عباده.

و ﴿بِالْيَمِينِ﴾ قال الطبري: معناه: في الدنيا حيث لا يرى العبد ربه فهو غائب عنه، والظاهر أن المعنى: بالغيب من الناس، أي في الخلوة،

رضي الله عنه: أخطأت التأويل، إنك إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم عليك، ثم حذره عمر، وكان مريضاً، فقال له قوم من الصحابة: لا نرى أن تجلده ما دام مريضاً، فأصبح يوماً وقد عزم على جلده، فقال لأصحابه: ما ترون في جلد قدامة؟ قالوا: لا نرى ذلك ما دام وجعاً، فقال عمر: لأن يلقى الله وهو تحت السياط أحب إلي من أن ألقاه وهو في عنقي، وأمر بقدامة فجلد، فغاضب قدامة عمر وهجره إلى أن حج عمر وحج معه قدامة مغاضباً له فلما كان عمر رضي الله عنه بالسقيا نام ثم استيقظ فقال: عَجَّلُوا عَلَيَّ بقدامة، فقد أتاني آت في النوم فقال: سالِمٌ قدامة فإنه أخوك، فبعث في قدامة فأبى أن يأتي، فقال عمر: جُرُّوه إن أبي، فلما جاء كلمه عمر واستغفر له فاصطلحا، قال أيوب بن أبي تيممة: لم يحد أحد من أهل بدر في الخمر غيره.

وقوله تعالى: ﴿يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِئِنَّ مِنْ أَلْعَلِيِّ﴾ أي: ليختبرنكم ليرى طاعتكم من معصيتكم، وصبركم من عجزكم عن الصيد، وكان الصيد أحد معاش العرب العاربة، وشائعاً عند الجميع منهم مستعملاً جداً، فابتلاهم الله فيه مع الإحرام أو الحرم كما ابتلى بني إسرائيل في آلا يتعدوا في السبت.

و ﴿يَنْ﴾ يحتمل أن تكون للتبعيض فالمعنى: من صيد البر دون البحر، ذهب إليه الطبري وغيره، ويحتمل أن يكون التبعيض في حالة الحرم إذ قد يزول الإحرام ويُفارق الحرم،

به، وأما فراخ السبع الصغار قبل أن تفرس، فقال مالك في «المدونة»: لا ينبغي للمحرم قتلها، قال أشهب في كتاب «محمد»: فإن فعل فعليه الجزاء، وقال أيضاً أشهب، وابن القاسم: لا جزاء عليه، وثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أمر المحرمين بقتل الحيات، وأجمع الناس على إباحة قتلها، وثبت عن عمر رضي الله عنه إباحة قتل الزنبرور لأنه في حكم العقرب، وقال مالك: يطعم قاتله شيئاً، وكذلك قال مالك فيمن قتل البرغوث والذباب والنمل ونحوه، وقال أصحاب الرأي: لا شيء على قاتل هذه كلها. وأما سباع الطير فقال مالك: لا يقتلها المحرم وإن فعل قَدْ، وقال ابن القاسم في كتاب «محمد»: وأحب إلي ألا يقتل الغراب والحدأة حتى يؤذيه، ولكن إن فعل فلا شيء عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذوات السموم كلها في حكم الحية كالأفعى والرثيلا، وما عدا ما ذكرناه فهو مما نهى الله عن قتله في الحرمة بالبلد أو بالحال، وفرض الجزاء على من قتله.

و «حَرَمَ» جمع حَرَام، وهو الذي يدخل في الحَرَم أو في الإحرام. وحَرَام يقال للذكر والأنثى والثنين والجميع.

واختلف العلماء في معنى قوله: «مُتَعَمِّدًا» - فقال مجاهد، وابن جريج، والحسن، وابن زيد: معناه: متعمداً لقتله ناسياً لإحرامه، فهذا هو الذي يُكْفَرُ، وكذلك الخطأ المحض يُكْفَرُ، وأما إن قتله متعمداً ذاكراً

لإحرامه فهذا أَجْلٌ وأعظم من أن يُكْفَرُ، وقال مجاهد: قد حل ولا رخصة له، وقال ابن جريج، وحكي المهدوي وغيره أنه بطل حُجُّه، وقال ابن زيد: هذا يوكل إلى نعمة الله، وقال جماعة من أهل العلم منهم ابن عباس، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، والزهرري، وطاوس، وغيرهم: المتعمد هو القاصد للقتل للذاكر لإحرامه، وهو يُكْفَرُ، وكذلك الناس والقاتل خطأ يُكْفَران، قال الزهري: نزل القرآن بالعمد، وجرت السنة في قتله خطأ أنهما يكفران، وقال بعض الناس: لا يلزم القاتل خطأ كفارة.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا» بإضافة الجزاء إلى «يُتَلَّ» وخفض «يُتَلَّ». وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: «فَجَزَاءٌ» بالرفع «مِثْلُ» بالرفع أيضاً، فأما القراءة الأولى ومعناها: فَعَلَيْهِ جزاء مثل ما قتل، أي قضاؤه وغرمه، ودخلت لفظة (مثل) هنا كما تقول: «أنا أكرم مثلك» وأنت تقصد بقولك: «أنا أكرمك»، ونظير هذا قوله تعالى: «أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ»، التقدير: كمن هو في الظلمات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل قوله تعالى: «فَجَزَاءٌ مِثْلُ» أن يكون المعنى: فعلية أن يجزى مثل ما، ثم وقعت الإضافة إلى المثل الذي يجزي به اتساعاً.

وأما القراءة الثانية فمعناها: فالواجب عليه، أو فاللازم له جزاء

مثل ما، و «يُتَلَّ» على هذه القراءة صفة ل «جَزَاءٍ»، أي: فجزاء مماثل. وقوله تعالى: «مِنْ أَثَمِهِ» صفة ل «جَزَاءٍ» على القراءةتين كلتيهما.

وقرأ عبدالله بن مسعود: «فَجَزَاؤُهُ مِثْلُ مَا» بإظهار هاءٍ يحتمل أن تعود على الصيد أو على الصائد القاتل، وقرأ أبو عبدالرحمن: «فَجَزَاءٌ» بالرفع والتثنية «مِثْلُ مَا» بالنصب، وقال أبو الفتح: «مِثْلُ» منصوبة بنفس الجزاء، أي: فعلية أن يجزى مثل ما قتل.

واختلف العلماء في هذه المماثلة، كيف تكون؟

فذهب الجمهور إلى أن الحَكَمَيْنِ ينظران إلى مثل الحيوان المقتول في الخلقة وعِظَمُ المرأى فيجعلون ذلك من الثََّمِّ جزاءه، قال الضحاك بن مزاحم، والسدي، وجماعة من الفقهاء: في الثََّمِّ وحمار الوحش ونحوه بَدَنَةً، وفي الرِّعْل والأيل ونحوه بقرة، وفي الظبي ونحوه كبش، وفي الأرنب ونحوه ثنية من الغنم، وفي اليربوع حَمَلٌ صغير، وما كان من جرادة ونحوها ففيها قبضة طعام، وما كان من طير فيقوم ثمنها طعاماً فإن شاء تصدق به، وإن شاء صام لكل صاع يوماً، وإن أصاب بيض نعام فإنه يحمل الفحل على عدد ما أصاب من بكاراة الإبل، فما نتج منها أهدها إلى البيت، وما فسد منها فلا شيء عليه فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حكم عمر رضي الله عنه على قبيصة بن جابر في الظبي بشاة، وحكم هو وعبدالرحمن بن عوف،

قال قبيصة: فقلت له: يا أمير المؤمنين، إن أمره أهون من أن تدعو من يحكم معك، قال: فضررتني بالدرة حتى سابقتُهُ عدواً ثم قال: أقتلت الصيد وأنت محرم ثم تغمض الفتوى؟ وهذه القصة في «الموطأ» بغير هذه الألفاظ، وكذلك روي أنها نزلت بصاحب لقبیصة، وقبيصة هو راويها فيهما، والله أعلم، وأما الأرنب واليربوع ونحوهما فالحكم فيهما عند مالك أن يقوم طعاماً فإن شاء تصدق به، وإن شاء صام بدل كل مُدٍّ يوماً، وكذلك عنده الصيام في كفارة الجزاء إنما هو كله يومٌ بدل مُدٍّ وعند قوم: بَدَلُ صاع، وعند قوم: بَدَلُ مُدَّيْنِ. وفي حمام الحرم عند مالك شاة في الحمامة، وفي الحمام غيره حكومة وليس كحمام الحرم، وأما بيض النعم وسائر الطير ففي البيضة عند مالك عُشْرُ ثَمَنِ امَّة، قال ابن القاسم: وسواء كان فيها فرخ أم لم يكن ما لم يستهل الفرخ صارخاً بعد الكسر، فإن استهل فيه الجزاء كاملاً جزاء كبير ذلك الطير، قال ابن المواز: بحكومة عدلين، وقال ابن وهب: إن كان في بيضة النعامة فما دونها فرخ فعُشْرُ ثَمَنِ امَّة، وإن لم يكن فصيام يوم أو مُدٌّ لكل مسكين.

وذهبت فرقة من أهل العلم منهم النُّخعي، وغيره إلى أن الممائلة إنما هي في القيمة، يُقَوِّمُ الصيد المقتول ثم يشتري بقيمته نَدَهُ من النعم ثم يهدي، ورد الطبري وغيره على هذا القول.

والنَّعَم: لفظ يقع على الإبل والبقر

والغنم إذا اجتمعت هذه الأصناف، فإذا انفرد كل صنف لم يُقَلَّ نَعَمٌ إلا للإبل وحدها، وقرأ الحسن: ﴿مِنَ النَّعَمِ﴾ بسكون العين وهي لغة، والجزاء إنما يجب بقتل الصيد لا بنفس أخذه بحكم لفظ الآية، وذلك في «المدونة» ظاهر من مسألة الذي اصطاد طائراً فنتف ريشه ثم حبسه حتى نسل ريشه فطار، قال: لا جزاء عليه، وقصر القرآن هذه النازلة على حَكَمَيْنِ عدلين عالمين بِحُكْمِ النازلة وبالتقدير فيها، وحكم عمر وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وأمر أبا جرير البجلي أن يأتي رجلين من العدول ليحكمما عليه في عنز من الظباء أصابها، قال: فأتيت عبدالرحمن وسعداً فحكمما عليّ نيساً أعفر، ودعا ابنُ عمر ابنَ صفوان ليحكم معه في جزاء، وعلى هذا جمهور الناس وفقهاء الأمصار.

وقال ابن وهب رحمه الله في «العتبية»: من السُّنَّة أن يُخَيَّرَ الحَكَمَانِ من أصاب الصيد كما خيَّره الله في أن يُخرج هدياً بالغ الكعبة، أو كفارة طعام مساكين، أو عدل ذلك صياماً، فإن اختار الهدى حكمما عليه بما يريانه نظيراً لما أصاب ما بينهما وبين أن يكون عدل ذلك شاة لأنها أدنى الهدى، فما لم يبلغ شاة حكمما فيه بالطعام، ثم خير في أن يطعمه أو يصوم مكان كل مُدٍّ يوماً، وكذلك قال مالك في «المدونة»: إذا أراد المصيب أن يطعم أو يصوم وإن كان لما أصاب نظير من النعم فإنه يقوم صيده طعاماً

لا دراهم، قال: وإن قوموه دراهم واشترى بها طعام لرجوت أن يكون واسعاً. والأول أصوب، فإن شاء أطعمه وإلا صام مكانه لكل مُدٍّ يوماً. وإن زاد ذلك على شهرين أو ثلاثة. وقال يحيى بن عمر من أصحابنا: إنما يُقال: كم من رجل يشبع من هذا الصيد؟ فيعرف العدد، ثم يُقدَّر كم من الطعام يشبع هذا العدد؟ فإن شاء أخرج ذلك الطعام، وإن شاء صام عدد أمداده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن احتاط فيه، لأنه قد تكون قيمة الصيد من الطعام ذليلة، فبهذا النظر يكثر الإطعام، ومن أهل العلم من يرى ألا يتجاوز في صيام الجزاء شهران، قالوا: لأنها أعلى الكفارات بالصيام.

وقوله تعالى: ﴿مَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ يقتضي هذا اللفظ أن يُشخص بهذا الهدى حتى يبلغ، وذكرت الكعبة لأنها أم الحرم ورأس الحُرْمَةِ، والحرم كله مَنَحَر لهذا الهدى، فما وقف به بعرفة من هذا الجزاء فينحر بمعنى، وما لم يوقف به فينحر بمكة وفي سائر بقاع الحرم بشرط أن يدخل من الجبل، لا بد أن يجمع فيه بين جِلٍّ وَحَرَمٍ حتى يكون بالغاً الكعبة.

وقرأ عبدالرحمن الأعرج: ﴿هَدْيًا بِالْغِ الْكَعْبَةِ﴾ بكسر الدال وتشديد الياء. و﴿مَدْيًا﴾ نصب على الحال من الضمير في [يؤا]، وقيل: على المصدر، و﴿بَلِغَ﴾ نكرة في الحقيقة، لم تزل الإضافة عنه الشيعاء، فتقديره: «بالغا الكعبة» حذف تنوينه

تخفيفاً، وقرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَوْ كَفَّرَةٌ﴾ منوناً ﴿طَعَامُ سَكِينٍ﴾ برفع [طَعَامُ] وإضافته إلى جمع المساكين. وقرأ نافع، وابن عامر برفع الكفارة دون تنوين، وخفض الإطعام على الإضافة، و﴿سَكِينٍ﴾ بالجمع، قال أبو علي: إعراب ﴿طَعَامٍ﴾ في قراءة من رفعه أنه عطف بيان، لأن الطعام هو الكفارة، ولم يضاف الكفارة لأنها ليست للطعام، إنما هي لقتل الصيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الكلام كله مبني على أن الكفارة هي الطعام، وفي هذا نظر، لأن الكفارة هي تغطية الذنب بإعطاء الطعام، فالكفارة غير الطعام لكنها به، فينتجه في رفع الطعام البدل المحض، وتنتجه قراءة من أضاف الكفارة إلى الطعام على أنها إضافة تخصيص، إذ كفارة هذا القتل قد تكون كفارة هدي، أو كفارة طعام، أو كفارة صيام. وقرأ الأعرج وعيسى بن عمر: ﴿أَوْ كَفَّرَةٌ﴾ بالرفع والتنوين، ﴿طَعَامُ﴾ بالرفع دون تنوين ﴿سَكِينٍ﴾ على الأفراد، وهو اسم جنس.

وقال مالك رحمه الله وجماعة من العلماء: القاتل مُخَيَّر في الرتب الثلاثة وإن كان غنياً، وهذا عندهم مقتضى ﴿أَوْ﴾. وقال ابن عباس وجماعة: لا ينتقل المكفر من الهدي إلى الطعام إلا إذا لم يجد هدياً، وكذلك لا يصوم إلا إذا لم يجد ما يطعم، وقاله إبراهيم النخعي، وحمام بن أبي سليمان، قالوا:

والمعنى: أو كفارة طعام إن لم يجد الهدي.

ومالك رحمه الله - وجماعة معه - يرى أن المقوم إنما هو الصيد المقتول، يقوم بالطعام كما تقدم، وقال العراقيون: إنما يقوم الجزاء طعاماً، فمن قتل ظلياً قوم الظبي عند مالك، وقوم عدله من الكباش أو غير ذلك عند أبي حنيفة وغيره. وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من الثَّغْم، فإن وجد جزاءه ذبحه فتصدق به، وإن لم يجد قُومَ الجزاء دراهم، ثم قُومت الدراهم حنطة، ثم صام مكان كل نصف صاع يوماً، قال: وإنما أريد بذكر الطعام تبيين أمر الصوم، ومن يجد طعاماً فإنما يجد جزاء، وأسند أيضاً عن السدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعترض هذا القول بظاهر لفظ الآية فإنه ينافره، والهدي لا يكون إلا في الحرم كما ذكرنا قبل.

واختلف الناس في الطعام - فقال جماعة من العلماء: الإطعام والصيام حيث شاء المكفر من البلاد، وقال عطاء بن أبي رباح وغيره: الهدي والإطعام بمكة، والصوم حيث شئت.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾، قرأ الجمهور بفتح العين، ومعناه: نظير الشيء بالموازنة والمقدار المعنوي. وقرأ ابن عباس، وطلحة بن مصرف، والجحدري: ﴿أَوْ عَدْلُ﴾ بكسر العين، قال أبو عمرو الداني: ورواه ابن عباس

رضي الله عنهما عن النبي ﷺ. وقال بعض الناس: العَدْلُ بالفتح: قدر الشيء من غير جنسه، وعَدْلُهُ بالكسر قدره من جنسه، نسبها مكى إلى الكسائي وهو وهم، والصحيح عن الكسائي أنهما لغتان في المثل، وهذه المنسوبة عبارة معترضة، وإنما مقصد قائلها أن العدل بالكسر قدر الشيء موازنة على الحقيقة كعدلي البعير، وعَدْلُهُ: قدره من شيء آخر موازنة معنوية، كما يقال في ثمن فرس: هذا عدله من الذهب، ولا ينتجه هنا كسر العين فيما حفظت. والإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ في قوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ﴾ يحتمل أن تكون إلى الطعام، وعلى هذا انبنى قول من قال من الفقهاء: الأيام التي تصام هي على عدد الأمداد أو الأصواع أو أنصافها حسب الخلاف الذي قد ذكرته في ذلك. ويحتمل أن تكون الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الصيد المقتول، وعلى هذا انبنى قول من قال من العلماء: الصوم في قتل الصيد إنما هو على قدر المقتول، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قتل المحرم ظلياً فعليه شاة تذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، وإن قتل أليلاً فعليه بقرة، فإن لم يجد فإطعام عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً، وإن قتل نعاماً أو حمار وحش فعليه بَذَنَة، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تقدم لابن عباس رضي الله

أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَافَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعْلَمُونَ إِلَهُهُ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَفَّةَ أَلَيْتَ الْحَرَامِ فِيمَا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدِ ذَلِكَ لِتَسْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَسْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْأَبْلَغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا لِي الْآبَسَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَتَّخِذُ الْزُّبُرُ مَأْمِنًا لَا تَسْتَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدِلْ لَكُمْ تَسْوِكُمْ وَإِنْ تُسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ إِلَيْكُمْ فَبِئْسَ مَا كَفَرْتُمْ أَنْ تُبْدِلْ لَكُمْ عَفَا اللَّهَ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذَلِكَ هُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

فإنه يكفر في كل مرة، فأما المتعمد العالم بإحرامه فإنه يكفر أول مرة، وعفا الله عن ذنبه مع التكفير، فإن عاد ثانية فلا يحكم عليه، ويقال له: ينتقم الله منك، كما قال الله، وقال بهذا القول شريح القاضي، وإبراهيم التخعي، ومجاهد. وقال سعيد بن جبير: رخص في قتل الصيد مرة فمن عاد لم يدعه الله حتى ينتقم منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول منه رضي الله عنه وعظ بالآية، وهو - مع ذلك - يرى أن يحكم عليه في العودة ويكفر، لكنه خشي مع ذلك بقاء النعمة.

وقال ابن زيد: معنى الآية: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنَّا سَلَفًا﴾ لكم أيها المؤمنون من قتل هذا الصيد قبل هذا النهي والتحريم، قال: وأما من عاد فقتل الصيد وهو عالم بالحرمة متعمد للقتل فهذا لا يحكم عليه، وهو موكل إلى نعمة الله، ومعنى قوله: ﴿مُنْعِدًا﴾ في صدر الآية أي: متعمداً للقتل ناسياً للحرمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تقدم ذكر هذا الفصل.

قال الطبري: وقال قوم: هذه الآية مخصوصة في شخص بعينه، وأسند إلى زيد بن المعلّى أن رجلاً أصاب صيداً وهو محرم فتجوز له عنه، ثم عاد فأرسل الله عليه ناراً فأحرقته،

عنهما قول غير هذا أنفأ حكاها عنه الطبري مسندين، ولا ينكر أن يكون له في هيئة التكفير قولان. وقال سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدَلْ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قال: يصوم ثلاثة أيام إلى عشرة.

وقوله تعالى: ﴿لِيَذُقَ وَبَالَ أَنفَرِهِ﴾، الذوق هنا مستعار كما قال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ وكما قال: ﴿فَأَذْفَأَهَا اللَّهُ لِيَأْسَ الْجُرْعُ﴾، وكما قال أبو سفيان: ﴿ذُقْ عَقْبُ﴾، وحقيقة الذوق إنما هي في حاسة اللسان، وهي في هذا كله مستعارة فيما بوشر بالنفس، والوبال: سوء العاقبة، والمرعى الويل هو الذي يتأذى به بعد أكله، وعبر بـ ﴿أَنفَرِهِ﴾ عن جميع حاله من قتل وتكفير وحكم عليه ومضي ماله أو تعب بالصيام.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنَّا سَلَفًا﴾ - فقال عطاء بن أبي رباح وجماعة معه: معناه: عفا الله عما سلف في جاهليتك من قتل الصيد في الحرمة، ومن عاد الآن في الإسلام فإن كان مُسْتَجِلًّا فينتقم الله منه في الآخرة ويكفر في ظاهر الحكم، وإن كان عاصياً فالنقمة هي في إلزام الكفارة فقط، قالوا: وكلما عاد المحرم فهو مكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويخاف المتورعون أن تبقى النقمة مع التكفير، وهذا هو قول الفقهاء مالك ونظائره وأصحابه رحمهم الله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المخرم إذا قتل مراراً ناسياً لإحرامه

فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْقَادٍ﴾ تنبيه على صفتين تقتضي خوف من له بصيرة، ومن خاف ازدرج، ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: «من خاف أذْلَج، ومن أذْلَج بلغ المنزل».

﴿٩٦﴾ - ﴿٩٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا حكم بتحليل صيد البحر، وهو كل ما صيد من حيثانه، وهذا التحليل هو للمحرم وللحلال، والصيد هنا أيضاً يراد به المصيد، وأضيف إلى البحر لما كان منه بسبب. والبحر: الماء الكثير ملحاً كان أو عذباً، وكل نهر كبير بحر.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ - قال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما،

وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم: هو ما قذف به وما طفا عليه، لأن ذلك طعام لا صيد، وسأل رجل ابن عمر عن حيتان طرحها البحر فنهاه عنها، ثم قرأ المصحف فقال لنافع: الحقه فمره بأكلها فإنها طعام البحر، وهذا التأويل ينظر إلى قول النبي ﷺ: «هو الطهور ماؤه، الحِلُّ مَيْتَتُهُ»، وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإبراهيم الثخعي وجماعة: طعامه كل ما ملح منه وبقي، وتلك صنائع تدخله فترده طعاماً، وإنما الصيد الغريض، وقال قوم: طعامه يُلحُّه الذي يتعقد من مائه وسائر ما فيه من نبات ونحوه. وكره قوم خنزير الماء. وقال مالك رحمه الله: أنتم تقولون خنزير، ومذهبه إباحته.

وقول أبي بكر وعمر هو أرجح الأقوال، وهو مذهب مالك.

وقرأ ابن عباس، وعبدالله بن الحارث: «وَطَعْمُهُ» بضم الطاء وسكون العين دون ألف، و«مَتَعًا» نصب على المصدر، والمعنى: متعمكم به متاعاً تنتفعون به وتأندمون. و«لَكُمْ» يريد حاضري البحر ومُؤَدَّنُهُ، «وَلِلَّسَيَّارَةِ» المسافرين، وقال مجاهد: أهل القرى هم المخاطبون، والسيارة: أهل الأمصار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه يريد أهل قرى البحر، وأن السيارة من أهل الأمصار غير تلك القرى يجلبونه إلى الأمصار.

واختلف العلماء في مقتضى قوله: «وَرَحِمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ مَا دُمَّتْ حُرُمًا»

- فتلقاه بعضهم على العموم من جميع جهاته فقالوا: إن المجرم لا يحل له أن يصيد، ولا أن يأمر بصيد، ولا أن يأكل صيداً صيد من أجله ولا من غير أجله، ولحم الصيد بأي وجه كان حرام على المخرم.

وروي أن عثمان حج، وحج علي بن أبي طالب، فأتي عثمان بلحم صيد صاده حلال فأكل منه، ولم يأكل علي، فقال عثمان: والله ما صدنا ولا أمرنا ولا أشرنا، فقال علي: «وَرَحِمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ مَا دُمَّتْ حُرُمًا». وروي أن عثمان استعمل على العروض أبا سفيان بن الحارث فصاد يعاقب فجعلها في حظيرة فمر به عثمان بن عفان رضي الله عنه فطبخهن وقدمهن إليه، وجاء علي بن أبي طالب فنهاهم عن الأكل، وذكر نحو ما تقدم، قال: ثم لما كانوا بمكة أتى عثمان فقيل له: هل لك في علي؟ أهدي له تصفيف حمار فهو يأكل منه، فأرسل إليه عثمان يسأله عن أكل التصفيف، وقال له: «أما أنت فتأكل، وأما نحن فتنهانا»، فقال له علي: «إنه صيد عام أول وأنا حلال فليس علي بأكله بأس، وصيد ذلك - يعني اليعاقب - وأنا محرم وذبحن وأنا حرام». وروي مثل قول علي عن ابن عباس، وابن عمر، وطاوس، وسعيد بن جبير.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يرى بأساً للمخرم أن يأكل لحم الصيد الذي صاده الحلال لحلال مثله ولنفسه، وسئل أبو هريرة عن هذه النازلة فأفتى

بالإباحة، ثم أخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له: لو أفتيت بغير هذا لأوجعت رأسك بهذه الدرة، وسأل أبو الشعثاء ابن عمر رضي الله عنهما عن هذه المسألة فقال له: كان عمر يأكله، قال: قلت: فأنت؟ قال: كان عمر خيراً مني، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما صيد أو ذبح وأنت حلال فهو لك حلال، وما صيد أو ذبح وأنت حرام فهو عليك حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مثل قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وروي عطاء عن كعب قال: أقبلت في ناس محرمين فوجدنا لحم حمار وحشي فسألوني عن أكله فأفتيتهم بأكله، فقدمنا على عمر فأخبروه بذلك فقال: قد أمرته عليكم حتى ترجعوا، وقال بمثل قول عمر بن الخطاب عثمان بن عفان رضي الله عنهما، والزيبر بن العوام، وهو الصحيح لأن النبي ﷺ أكل من الحمار الذي صاده أبو قتادة وهو حلال والنبي عليه الصلاة والسلام محرم.

قال الطبري: وقال آخرون: إنما حرم على المحرم أن يصيد، فأما أن يشتري الصيد من مالك له فيذبحه فيأكله فذلك غير مُحَرَّم، ثم ذكر أن أبا سلمة بن عبد الرحمن اشترى قطاً وهو بالعرج فأكله فعاب ذلك عليه الناس.

ومالك رحمه الله يُجيز للمحرم أن يأكل ما صاده الحلال وذبحه إذا كان

لم يصد من أجل المُحْرَم، فإن صيد من أجله فلا يأكله، وكذلك قال الشافعي، ثم اختلفا إن أكل، فقال مالك: عليه الجزاء، وقال الشافعي: لا جزاء عليه.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَحَرَّمَ﴾ بفتح الحاء والراء مشددة. ﴿صَيْدٌ﴾ بنصب الدال، ﴿مَا دُمْتُمْ حَرَمًا﴾ بفتح الحاء، المعنى: وحرم الله عليكم. و ﴿حَرَمًا﴾ يقع للجميع والواحد كرضى وما أشبهه، والمعنى: ما دمتم محرمين، فيه بالمعنى كقراءة الجماعة بضم الحاء والراء.

ولا يختلف في أن ما لا زوال له من الماء أنه صيد بحر، وفيما لا زوال له من البر أنه صيد برّ، واختلف فيما يكون في أحدهما وقد يعيش ويحيا في الآخر - فقال مالك رحمه الله، وأبو مجلز، وعطاء، وسعيد بن جبير، وغيرهم: كل ما يعيش في البرّ وله فيه حياة فهو من صيد البرّ إن قتله المُحْرَم وداه، وذكر أبو مجلز في ذلك الضفادع والسلاحف والسرطان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن هذه أنواع لا زوال لها من الماء فيه لا محالة من صيد البحر، وعلى هذا خرج جواب مالك في الضفادع في «المدونة» فإنه قال: الضفادع من صيد البحر، وروي عن عطاء بن أبي رباح خلاف ما ذكرناه، وهو أنه راعى أكثر عيش الحيوان، سئل عن ابن الماء أصيد برّ أم صيد بحر؟ فقال: حيث يكون أكثر فهو منه، وحيث يفرخ فهو منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب في ابن ماء أنه صيد برّ طائر يرضى ويأكل الحب.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تشديد وتنبيه عقب هذا التحليل والتحريم، ثم ذكر تعالى بأمر الحشر والقيامة مبالغة في التحذير.

ولما بان في هذه الآيات تعظيم الحرّم والحُرمة بالإحرام من أجل الكعبة، وأنها بيت الله وعنصر هذه الفضائل ذكر تعالى في قوله سبحانه: ﴿جَعَلَ اللَّهُ﴾ الآية ما سنّه في الناس وهداهم إليه وحمل عليه الجاهلية الجهلاء من التزامهم أن الكعبة قوام، والهدي قوام، والقلائد قوام، أي أمر يقوم للناس بالتأمين وحل الحرب كما يفعل الملوك الذين هم قوام العالم، فلما كانت تلك الأمة لا يملك لها جعل الله هذه الأشياء كالملك لها، وأعلم تعالى أن التزام الناس لذلك هو مما شرعه وارتضاه، ويدل على مقدار هذه الأمور في نفوسهم أن النبي عليه الصلاة والسلام لما بعثت إليه قريش زمن الحديبية الحُليّس، فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام قال: هذا رجل يعظم الحرمة فالقوة باليدن مشعرة، فلما رآها الحليس عظم ذلك عليه وقال: ما ينبغي أن يُصد هؤلاء ورجع عن رسالتهم.

و ﴿جَعَلَ﴾ في هذه الآية بمعنى صيّر، و ﴿الْكَعْبَةِ﴾ بيت مكة، وسمي كعبة لتربيعة، قال أهل اللغة: كل بيت مربع فهو مكعب وكعبة، ومنه قول الأسود بن يَغْفَر:

أهل الخورنق والسدير وبَارِق
والبَيْتِ ذِي الْكَعْبَاتِ مِنْ سِنْدَادٍ
قالوا: كانت فيه بيوت مربعة، وفي كتاب سير ابن إسحق أنه كان في خثعم بيت يسمونه كعبة اليمانية. وقال قوم: سميت كعبة لنتوتها ونشوزها على الأرض، ومنه: كَتَبَ ثدي الجارية، ومنه: كَتَبَ القدم، ومنه: كموب القناة.

و ﴿قِيَمًا﴾ معناه: أمر يقوم للناس بالأمانة والمنافع كما المليك قوام الرعية وقيامهم، يقال ذلك بالياء كالصيام ونحوه، وذلك لخفة الياء فتستعمل أشياء من ذوات الواو بها، وقد يستعمل القوام على الأصل، قال الراجز:

قِوَامٌ دُنْيَا وَقِوَامٌ دِينٍ
وذهب بعض المتأولين إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ أي: موضع وجوب قيام بالمناسك والتعبادات وضبط النفوس في الشهر الحرام، ومع الهدي والقلائد.

وقرأ ابن عامر وحده: ﴿قِيَمًا﴾ دون ألف، وهذا إما على أنه مصدر كالشَّبَع ونحوه، وأعل فلم يجر مجرى عوض وحول من حيث أعل فعله، وقد تُعلّ الجموع لاعتلال الأحاد، فأحرى أن تُعلّ المصادر لاعتلال أفعالها، ويحتمل ﴿قِيَمًا﴾ أن تحذف الألف وهي مُراد، وحكم هذا أن يجيء في شعر وغير سعة. وقرأ الجحدري: ﴿قِيَمًا﴾ بفتح القاف وشد الياء المكسورة.

و ﴿الشَّهْرُ﴾ هنا اسم جنس، والمراد الأشهر الثلاثة بإجماع من العرب، وشهر مُضَر وهو رجب الأصم، سمي

بذلك لأنه كان لا يُسمع فيه صوت الحديد، وسموه مُنْصِلَ الأَسنة لأنهم كانوا ينزعون فيه أسنة الرماح، وهو شهر قريش، وله يقول عوف بن الأخوص:

وَشَهْرَ بَنِي أُمَيَّةَ وَالْهَدَايَا
إِذَا سَيَقَتْ مُضْرَجُهَا الدَّمَاءُ
وَسَمَاءُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
شَهْرُ اللَّهِ، أي: شهر آل الله، وكان يقال لأهل الحرم: آل الله، ويحتمل أن يسمى شهر الله لأن الله سئله وشده إذ كان كثير من العرب لا يراه.

وأما الهدى فكان أماناً لمن يسوقه لأنه يعلم أنه في عبادة لم يأت لحرب، وأما القلائد فكذلك كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلد من لحاء السمر أو غيره شيئاً فكان ذلك أماناً له، وكان الأمر في نفوسهم عظيماً مكنه الله حتى كانوا لا يقدر من ليس بمحرم أن يتقلد شيئاً خوفاً من الله، وكذلك إذا انصرفوا تقلدوا من شجر الحرم.

وقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ لفظ عام، وقال بعض المفسرين: أراد العرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا وجه لهذا التخصيص. وقال سعيد بن جبير: جعل الله هذه الأمور للناس وهم لا يرجون جنة ولا يخافون ناراً، ثم شدد ذلك بالإسلام.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى أن جعل هذه الأمور قياماً، والمعنى: فعل ذلك لتعلموا أن الله تعالى يعلم تفاصيل أمور السموات

والأرض، ويعلم مصالحهم أيها الناس قبل وبعد، فانظروا لطفه بالعباد على حال كفرهم.

وقوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ شَيْءٌ عَلَيْهِ﴾ عام عموماً تاماً في الجزئيات ودقائق الموجودات، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا تَسْغُطُ مِنْ رَدَقَةٍ إِلَّا بِمَلَكَةٍ﴾ والقول بغير هذا إلحاد في الدين وكفر.

ثم خوف تعالى عباده ورجاهم بقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ الآية، وهكذا هو الأمر في نفسه حري أن يكون العبد خائفاً عاملاً بحسب الخوف متقياً متأسناً بحسب الرجاء.

﴿١٠١﴾ - ﴿١٠٢﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلٌ﴾ إخبار للمؤمنين، فلا يتصور أن يقال: هي آية مودعة منسوخة بآيات القتال، بل هذه حال من آمن وشهد شهادة الحق، فإنه إذ قد عصم من الرسول ماله ودمه فليس على الرسول في جهته أكثر من التبليغ، والله تعالى - بعد ذلك - يعلم ما ينطوي عليه صدره، وهو المجازي - بحسب ذلك - ثواباً أو عقاباً.

والبلاغ مصدر من: بلغ يبلغ، والآية معناها الوعيد للمؤمنين إن انحرفوا ولم يمتثلوا ما بلغ إليهم.

وقوله: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي﴾ الآية، لفظ عام في جميع الأمور يتصور في المكاسب وعدد الناس والمعارف من العلوم ونحوها، فالخبث من هذا كله لا يفلح ولا ينبج ولا تخسن له عاقبة، والطيب ولو قل نافع جميل العاقبة. وينظر إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي كَلَّمْتُ بِحُجْرٍ نَائِجٍ﴾

يَاذُنِي رَيْبٌ وَالَّذِي خَبْتُ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾، والخبث هو الفساد الباطن في الأشياء حتى يظن بها الصلاح، والطيب وهو بخلاف ذلك، وهكذا هو الخبث في الإنسان، وقد يراد بلفظة خبيث في الإنسان فساد نسبه، فهذا لفظ يلزم قائله - على هذا القصد - الحد.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّوَلَّى الْآلِثِينَ﴾ تنبيه على لزوم الطيب في المعتقد والعمل، وخص أولي الأبواب بالذكر لأنهم المتقدمون في ميز هذه الأمور، والذين لا ينبغي لهم إهمالها مع ألبابهم وإدراكهم، وكان الإشارة بهذه الأبواب إلى لب التجربة الذي يزيد على لب التكليف بالحنكة والفتنة المستنبطة والنظر البعيد.

وقوله تعالى: ﴿يَتَّأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ الآية، اختلف الرواة في سببها - فقالت فرقة منهم أنس بن مالك وغيره: نزلت بسبب سؤال عبدالله بن حذافة السهمي، (وذلك أن رسول الله ﷺ صعد المنبر مغضباً فقال: «لا تسألوني اليوم عن شيء إلا أخبرتكم به»، فقام رجل فقال: أين أنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «في النار»، فقام عبدالله بن حذافة السهمي وكان يطمعن في نسبه فقال: من أبي؟ فقال: «أبوك حذافة»).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي الحديث مما لم يذكر الطبري: (فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: «أبوك سالم مولى أبي شيبة»، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجثا

على ركبتيه وقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، ومحمد نبياً، نعوذ بالله من الفتن، ويكى الناس من غضب رسول الله ﷺ، ونزلت هذه الآية بسبب هذه الأسئلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وصعود رسول الله ﷺ المنبر مغضباً إنما كان بسبب سؤالات الأعراب والجهال والمنافقين، فكان منهم من يقول: أين ناقتي؟ وآخر يقول: ما الذي ألقى في سفري هذا؟ ونحو هذا مما هو جهالة أو استخفاف وتعنيت.

وقال علي بن أبي طالب، وأبو هريرة، وأبو أمامة الباهلي، وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين - في لفظهم اختلاف والمعنى واحد - : (خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: «أيها الناس، كتب عليكم الحج»، وقرأ عليهم: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قال علي رضي الله عنه: فقالوا: يا رسول الله، أفى كل عام؟ فسكت، فأعادوا، قال: «لا، ولو قلت نعم لوجبت»، وقال أبو هريرة: فقال عكاشة بن محصن، وقال مرة: فقال محصن الأسدي، وقال غيره: فقام رجل من بني أسد، وقال بعضهم: فقام أعرابي فقال: يا رسول الله، أفى كل عام؟ فسكت رسول الله ﷺ، ثم قال: «من السائل؟» ف قيل: فلان، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لم تطيقوه، ولو تركتموه لهلكتم» فنزلت هذه الآية بسبب ذلك.

ويُقوي هذا حديث سعد بن أبي

وقاص أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «إن أعظم المسلمين على المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته».

وروي عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية بسبب قوم سألوا عن البحيرة والسائبة والوصيلة ونحو هذا من أحكام الجاهلية، وقاله سعيد بن جبير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وروي أنه لما بين الله تعالى في هذه الآيات أمر الكعبة والهذي والقلائد، وأعلم أن حُرمتها هو الذي جعلها، إذ هي أمور نافعة قديمة من لدن عهد إبراهيم عليه السلام - ذهب ناسٌ من العرب إلى السؤال عن سائر أحكام الجاهلية ليروا هل تلتحق بتلك أم لا، إذ كانوا قد اعتقدوا الجميع سنة لا يفرقون بين ما هو من عند الله وما هو من تلقاء الشيطان والمُغْتَرِبِينَ لِدِينِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَام كَعَمْرُو بْنِ لُحَيٍّ وَغَيْرِهِ، وفي عمرو بن لُحَيٍّ قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُهُ يَجْرُ قُضْبُهُ فِي النَّارِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر من الروايات أن رسول الله ﷺ أَلَحَّتْ عَلَيْهِ الْأَعْرَابُ وَالْجَهَالُ بِأَنْوَاعِ مِنَ السُّؤَالَاتِ حَسْبَمَا ذَكَرْنَاهُ، فَزَجَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ.

و «أَشْيَاءٌ»: اسم جمع لشيء، أصله عند الخليل وسيبويه شيئاء مثل قَتْلَاءَ قَلْبَتِ إِلَى لَفْعَاءِ لِيُقْلَ اجْتِمَاعِ الهمزتين، وقال أبو حاتم: أشياء وزنها أفعال وهو جمع شيء وترك

الصرف فيه سماع، وقال الكسائي: لم ينصرف أشياء لشبه آخرها بآخر حمراء وكثرة استعمالها، والعرب تقول: أشياء كما تقول: حمراوات، ويلزم على هذا ألا ينصرف (أسماء) لأنهم يقولون: أسماءوات، وقال الأخفش: أشياء أصلها أشياء على وزن أفعلاء، استثقل اجتماع الهمزتين فأبدلت الأولى ياء لانكسار ما قبلها ثم حذفت الياء استخفافاً، ويلزم على هذا أن يكون واحد الأشياء شيئاً مثل هَيْنَ وَأَهْوَنَاءَ.

وقرأ جمهور الناس: «إِنْ تَبُدُّ» بضم التاء وفتح الدال وبناء الفعل للمفعول، وقرأ مجاهد: «إِنْ تَبُدُّ» بفتح التاء وضم الدال على بناء الفعل للفاعل، وقرأ الشَّغْبِي: «إِنْ يَبُدُّ لَكُمْ» بالياء من أسفل مفتوحة والدال مضمومة «يَسْؤُوكُمْ» بالياء من أسفل، أي: يُبْدَهُ الله لكم.

وقوله تعالى: «وَرَأَى النَّاسَ يَفْعَلُونَ آيَاتِهِ» قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: لا تسألوا عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مساءة لكم، إما لتكليف شرعي يلزمكم، وإما لخبر يسوء، كما قيل للذي قال: أين أنا؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء وابتدأكم بركم بأمر فحينئذ إن سألتم عن تفصيله وبيانه يَبَيِّنْ لَكُمْ وَأُبْدِي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالضمير في قوله: «عَنْهَا» عائد على نوعها، لا على الأولى التي نهى عن السؤال عنها.

وقال أبو ثعلبة الخشني رضي الله

وهذا المعنى إنما يقال لمن سأل النبي عليه الصلاة والسلام: أين ناقتي؟ وكما قال له الأعرابي: ما في بطن ناقتي هذه؟ فأما من سأل عن الحج: أفي كل عام هو؟ فلا يفسر قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ الآية بهذا ولا مثله، بل بأن الأمم قديماً طلبت التعمق في الدين من أنبيائها، ثم لم تَفِّ بما كلفت.

﴿١٠٣﴾ - ﴿١٠٤﴾ تفسير قوله عز وجل: لما سأل قوم عن هذه الأحكام التي كانت في الجاهلية هل تلحق بحكم الله في تعظيم الكعبة والحرم، أخبر تعالى في هذه الآية أنه لم يجعل شيئاً منها ولا سنه لعباده، والمعنى: ولكن الكفار فعلوا ذلك، إذ أكابرههم ورؤساؤهم كعمرو بن لُحَيٍّ وغيره يفترون على الله الكذب، ويقولون: هذه قرية إلى الله وأمر يرضيه، وأكثرهم - يعني الأتباع - لا يعقلون، بل يتبعون هذه الأمور تقليداً وضلالاً بغير حجة.

و ﴿جَعَلَ﴾ في هذه الآية لا يتجه أن تكون بمعنى: خلق الله، لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء كلها، ولا هي بمعنى: صيّر، لعدم المفعول الثاني، وإنما هي بمعنى: ما سنّ ولا شرع، فتعدت تعدّي هذا الذي هي بمعنى: إلى مفعول واحد.

والبحيرة: فعيلة بمعنى مفعولة، وَيَخْر: شَقٌّ، كانوا إذا أنتجت الناقة عشرة بطون شقوا أذننها نصفين طولاً، فهي مبحورة، وتركت ترعى وترُد الماء ولا ينتفع منها بشيء، ويحرم لحمها إذا ماتت على النساء ويحل للرجال، وقال ابن عباس

ولم يعرف بها، وهذه اللفظة التي هي [عفا] تؤيد أن (الأشياء) التي هي في تكليفات الشرع. وينظر إلى ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الله قد عفا لكم عن صدقة الخيل».

و ﴿عَفُوٌّ خَلِيمٌ﴾ صفتان تناسب العفو وترك المباحشة، والسماحة في الأمور.

وقرأ عامة الناس: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ بفتح السين، وقرأ إبراهيم النخعي: ﴿قَدْ سَالَهَا﴾ بكسر السين، والمراد بهذه القراءة

الإمالة، وذلك على لغة من قال: سِلْتُ تسال، وخكى عن العرب: «هما يتساولان» فهذا يعطي أن هذه اللغة هي من الواو لا من الهمزة، فالإمالة إنما أريدت وساغ ذلك لانكسار ما قبل اللام في (سِلْتُ) كما جاءت الإمالة في (خاف) لمجيء الكسرة في خاء (جفت).

ومعنى الآية أن هذه السؤالات التي هي تعنيتات وطلب شطط واقتراحات ومباحثات، قد سألتها قبلكم الأمم ثم كفروا بها. قال الطبري: كقوم صالح في سؤالهم الناقة، وكبني إسرائيل في سؤالهم المائدة، وقال السدي: كسؤال قريش أن يجعل الله لهم الصفا ذهباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما يتجه في قريش مثلاً سؤالهم آية، فلما شق لهم القمر كفروا،

وَأَذِيقُوا لَهُمْ نَعْمًا لَوْلَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرُّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلُّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ فَمَنْ جَعَلَكُمْ جُمُعًا فَمُبْتَلًى بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ نَحْسُوهمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِدَعْمَانَا وَلَوْ كَانَ فَاَرْقُنْ وَلَا تَنْكُرْ لَهُمَا شَهَادَةُ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَلَمِينَ ﴿١٠٥﴾ فَإِنْ عَرَضَ عَنْهُمَا اسْتَحْقَاقًا لِمَا فَتَاخَرْنَ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَیْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ أَذَقَهُ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُونَ أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَأَنْفَعُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٧﴾

عنه: إن الله فرض فرائض فلا تضعيها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وعفا من غير نسيانٍ عن أشياء فلا تبحتوا عنها.

وكان عبيد بن عمير يقول: إن الله أحلّ وحرم، فما أحلّ فاستجلوا، وما حرم فاجتنبوا، وترك بين ذلك أشياء لم يحلّها ولم يحرمها، فذلك عفو من الله عفا، ثم يتلو هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ سَأَلْتُمُو عَنَّا جِئَ بِكُمْ آفَافًا﴾ بَدَلْ لَكُمْ أَنْ يكون في معنى الوعيد، كأنه قال: لا تسألوا، وإن سألتكم لقيتم عبة ذلك وصعوبته، لأنكم تتكلفون وتستعجلون علم ما يسوؤكم كالذي قيل له: إنه في النار. وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ تركها

رضي الله عنهما: كانوا يفعلون ذلك بها إذا أنتجت خمسة بطون، وقال مسروق: إذا ولدت خمساً أو سبعا شقوا أذنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر مما يروى في هذا أن العرب كانت تختلف في المبلغ الذي تبحر عنده أذان النوق، فلكل سئة، وهي كلها ضلال، قال ابن سيدة: ويقال: البحيرة هي التي خلّيت بلا راع، ويقال للناقة الغزيرة بحيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أرى أن البحيرة تصلح وتسمن ويغزر لبنها فتشبه الغزيرات بالبحر، وعلى هذا يحيى قول ابن مفضل:

فيه من الأخرج المرتاع قرقرة
هذّر الديامي وسط الهجمة البحر
فلنما يريد النوق العظام وإن لم
تكن مشقة الأذان.

وروى الشعبي، عن أبي الأحوص، عن أبيه قال: (دخلت على النبي ﷺ فقال لي: «أرأيت إيلك؟ ألسنتها مسلمة أذانها، فتأخذ موسى فتقطع أذانها، فتقول: هذه بحر، وتقطع جلودها فتقول: هذه صرم، فتحرّمها عليك وعلى أهلِكَ؟ قال: نعم، قال: «فإن ما أتاك الله لك حلّ، وساعد الله أشد، وموسى الله أخذ».

والسائبة: هي الناقة التي تُسبب للآلهة، والناقة أيضاً إذا تابعت ثنتي عشرة إنثاء ليس فيهن ذكر سببت. وقال رسول الله ﷺ: «لأنكم بن الجون الخزاعي: «يا أكثم، رأيت عمرو بن لحي بن قنعة بن خندق يجزّ قصبه في النار، فما رأيت أشبه

به منك»، قال أكثم: أضرني شبهه يا رسول الله؟ قال: «لا، إنك مؤمن وإنه كافر، هو أول من غير دين إسماعيل عليه السلام، ونصب الأوثان، وسب السواائب، وكانت السواائب أيضاً في العرب كالقربة عند المرض يُبرأ منه، والقُدوم من السفر، وإذا نزل بأحدهم أمر يشكر الله عليه تقرب بأن يُسبب ناقة فلا ينتفع منها بلبن ولا ظهر ولا غيره. يرون ذلك كعشق بني آدم، ذكره السدي وغيره، وكانت العرب تعتقد أن من عرّض لهذه النوق فأخذها أو انتفع منها بشيء فإنه تلحقه عقوبة من الله.

والوصيلة: قال أكثر الناس: إن الوصيلة في الغنم. قالوا: إذا ولدت الشاة ثلاثة بطون أو خمسة فإن كان آخرها جذياً ذبحوه لبيت الآلهة، وإن كانت عناقاً استخيوها، وإن كان جذي وعنقاً استخيوها وقالوا: هذه العناق وصلت أخاها فمنعته من أن يُذبح، وعلى أن الوصيلة في الغنم جاءت الروايات عن أكثر الناس. وروى عن سعيد بن المسيب أن الوصيلة من الإبل - كانت الناقة إذا ابتكرت بأنثى ثم ثنت بأخرى قالوا: وصلت أنثيين، فكانوا يجدعونها لطواغيتهن أو يذبحونها، شك الطبري في إحدى اللفظتين.

وأما الحامي فإنه الفحل في الإبل إذا ضرب في الإبل عشر سنين، وقيل: إذا ولد من ولد ولده قالوا: حمى ظهره فسبّوه لم يركب ولا سخر في شيء، قال علقمة لمن سأله في هذه الأشياء: ما تريد إلى شيء

كان من عمل أهل الجاهلية وقد ذهب؟ وقال نحوه ابن زيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجملة ما يظهر من هذه الأمور أن الله تعالى قد جعل هذه الأنعام رفقا لعباده، ونعمة عُدّها عليهم، ومنفعة بالغة، فكان أهل الجاهلية يقطعون طريق الانتفاع، ويذهبون نعمة الله فيها، ويزيلون المصلحة التي للعباد في تلك الإبل. وبهذا فارقنا هذه الأمور الأحباس والأوقاف، فإن المالك الذي له أن يهب ويتصدق له أن يصرف المنفعة في أي طريق من البر، ولم يسد الطريق إليها جملة كما فعل بالبحيرة والسائبة.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تجوز الأحباس والأوقاف، وقاسوا على البحيرة والسائبة، والفرق بين، ولو عُد رجل إلى ضيعة له فقال: هذه تكون حبساً لا يُخْتنى ثمرها، ولا تُزْرَع أرضها، ولا يُتَنَفَّع منها بنفع لجاز أن يشبه هذا بالبحيرة والسائبة. وأما الحبس البين طريقه واستمرار الانتفاع به فليس من هذا، وحسبك بأن النبي عليه الصلاة والسلام قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في مال له: (اجعله حبساً لا يباع أصله)، وحسب أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، وقد تقدم أن المفتريين هم المتبدعون، وأن الذين لا يعقلون هم الأتباع، وكذلك نص الشعبي وغيره، وهو الذي تعطيه الآية، وقال محمد بن أبي موسى: الذين كفروا

وافتروا هم أهل الكتاب، والذين لا يعقلون هم أهل الأوثان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير من انتزع ألفاظ آخر الآية عما تقدمها وارتبط بها من المعنى، وعما تأخر أيضاً من قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، والأول من التأويلين أرجح.

والضمير في قوله: ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ عائد على الكفار المستنئين بهذه الأشياء، و﴿تَمَازَوْا﴾ نداء بين، هذا أصله، ثم استعمل حيث البرّ وحيث ضده، و﴿إِلَى مَا أُنزِلَ اللَّهُ﴾ يعني القرآن الذي فيه التحريم الصحيح، و﴿حَسَبْنَا﴾ معناه: كفانا، وقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آبَاؤُكُمْ﴾ ألف التوقيف دخلت على واو العطف، كأنهم عطفوا بهذه الجملة على الأولى والتزموا شنيع القول، فإنما التوقيف توبيخ لهم كأنهم يقولون بعده: نعم ولو كانوا كذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَضَيْتُمْ﴾، اختلف الناس في تأويل هذه الآية - فقال أبو أمية الشعباني: سألت أبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «اتتمروا بالمعروف، وانهموا عن المنكر، فإذا رأيت دنيا مؤثرة، وشخاً مطاعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك، وفر عوامهم فإن وراءكم أياماً أجر العامل فيها كأجر خمسين منكم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو التأويل الذي لا نظر لأحد معه، لأنه مستوف للصلاح، صادر

عن النبي عليه الصلاة والسلام.

ويظهر من كلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه بَلَّغَهُ أن بعض الناس تأوّل الآية أنها لا يلزم معها أمر بمعروف ولا نهى عن منكر، فصعد المنبر فقال: أيها الناس، لا تغتروا بقول الله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ فيقول أحدكم: عليّ نفسي، والله لتأمرنوا بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فَلْيَسُوْثُكُمْ سوء العذاب.

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ليس هذا بزمان هذه الآية، قولوا الحق ما قبل منكم، فإذا رد عليكم فعليكم أنفسكم.

وقيل لابن عمر في بعض أوقات الفتن: لو تركت القول في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فقال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «اليسبلغ الشاهد الغائب»، ونحن شهدنا فيلزمنا أن نبلغكم، وسيأتي زمان إذا قيل فيه الحق لم يقبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجملة ما عليه أهل العلم في هذا أن الأمر بالمعروف متعين متى رجي القبول، أو رجي رد المظالم ولو بعنف ما لم يخف المرء ضرراً يلحقه في خاصته، أو فتنة يدخلها على المسلمين، إما بشق عصا، وإما بضرر يلحق طائفة من الناس، فإذا خيف هذا فعليكم أنفسكم بحكم واجب أن يوقف عنده.

وقال سعيد بن جبير: معنى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ فالتزموا شرعكم بما فيه من جهاد وأمر بمعروف وغيره، ولا

يضرركم ضلال أهل الكتاب إذا اهتديتم.

وقال ابن زيد: معنى الآية: يأيتها الذين آمنوا من أبناء أولئك الذين بحروا البحيرة وسيبوا السوائب عليكم أنفسكم في الاستقامة على الدين، ولا يضرركم ضلال الأسلاف إذا اهتديتم، قال: وكان الرجل إذا أسلم قال له الكفار: سقّيت آبائك وضللتهم وفعلت وفعلت، فنزلت الآية بسبب ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يقل أحد - فيما علمت - إنها آية مودة للكفار، وكذلك لا ينبغي أن يعارض بها شيء مما أمر الله به في غير ما آية، من القيام بالقسط والأمر بالمعروف، قال المهدوي: وقد قيل: هي منسوخة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف ولا يعلم قائله.

وقال بعض الناس: نزلت بسبب ارتداد بعض المؤمنين وافتتانهم، كابن أبي سرح وغيره، فقليل للمؤمنين: لا يضرركم ضلالهم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بضم الضاد وشد الراء المضمومة، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بضم الضاد وسكون الراء، وقرأ إبراهيم: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بكسر الضاد، وهي كلها لغات بمعنى: ضرّ يضرّ، وضار يضرور ويضير.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية. تذكير بالحرر وما بعده، وذلك مُسَلَّ عن أمور الدنيا ومكروها ومحبوبها. وروي عن

بعض الصالحين أنه قال: ما من يوم إلا يجيء الشيطان فيقول: ما تأكل؟ وما تلبس؟ وأين تسكن؟ فأقول له: أكل الموت، وألبس الكفن، وأسكن القبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فمن فكر في مرجعه إلى الله فهذه حاله.

﴿١٠٦﴾ - ﴿١٠٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال مكي بن أبي طالب رضي الله عنه: هذه الآيات عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن، إعراباً ومعنى وحكماً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كلام من لم يقع له التلج في تفسيرها، وذلك بين من كتابه رحمه الله، وبه نستعين.

لا نعلم خلافاً أن سبب هذه الآية أن تميم الداري، وعدي بن بداء كانا نصرانيَّين سافرا إلى المدينة يريدان الشام لتجارتهما، قال الواقدي: وهما أخوان، وقدم المدينة أيضاً ابن أبي مارية مولى عمرو بن العاص يريد الشام تاجراً، فخرجوا رفقة، فمضى ابن أبي مارية في الطريق، قال الواقدي: فكتب وصية بيده ودسها في متاعه، وأوصى إلى تميم وعدي أن يوديا رَحْلَهُ، فأتيا بعد مدة المدينة برحله فدفعاه، ووجد أولياؤه من بني سهم وصيته مكتوبة، ففقدوا أشياء قد كتبها فسألوهما عنها فقالا: ما ندري، هذا الذي قبضناه له، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية الأولى، فاستحلفهما رسول الله ﷺ بعد العصر، فبقي

الأمر مدة ثم عثر بمكة من متاعه على إناء عظيم من فضة مَحْوَص بالذهب، فقبل لمن وُجد عنده: من أين صار لكم هذا الإناء؟ فقالوا: ابتعناه من تميم الداري وعدي بن بداء، فارتفع في الأمر إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فنزلت الآية الأخرى، فأمر رسول الله ﷺ رجلين من أولياء الميت أن يحلفا. قال الواقدي: فحلف عبدالله بن عمرو بن العاص، والمطلب بن أبي وداعة، واستحفا.

وروى ابن عباس عن تميم الداري أنه قال: برىء الناس من هذه الآيات غيري وغير عدي بن بداء، وذكر القصة، إلا أنه قال: وكان معه جام فضة يريد به الملك، فأخذته أنا وعدي، فبعناه بألف وقسمنا ثمنه، فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، وأذيت إليهم خمسمائة، فوثبوا إلى عدي فأتوا به رسول الله ﷺ، وحلف عمرو بن العاص ورجل آخر معه، ونزعت من عدي خمسمائة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: تختلف ألفاظ هذه القصة في الدواوين، وما ذكرته هو عمود الأمر، ولم يصح لعدي ضجة فيما علمت ولا ثبت إسلامه، وقد صنفه في الصحابة بعض المتأخرين، وضعف أمره، ولا وجه عندي لذكره في الصحابة.

وأما معنى الآية من أولها إلى آخرها فهو أن الله تعالى أخبر المؤمنين أن حكمه في الشهادة على الموصي إذا

حضره الموت أن تكون شهادة عدلين، فإن كان في سفر - وهو الضرب في الأرض - ولم يكن معه من المؤمنين أحد فليشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكفر، فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا ولا بدلا، وأن ما شهدا به حق ما كتما فيه شهادة الله، وحكم بشهادتهما، فإن عثر - بعد ذلك - على أنهما كذبا أو خانا ونحو هذا مما هو إثم حلف رجلان من أولياء الموصي في السفر وغرم الشاهدان ما ظهر عليهما. هذا معنى الآية على مذهب أبي موسى الأشعري، وسعيد بن المسيب، ويحيى بن يغمر، وسعيد بن جبير، وأبي مجلز، وإبراهيم، وشريح، وعبيدة السلماني، وابن سيرين، ومجاهد، وابن عباس، وغيرهم، يقولون: معنى قوله: ﴿مَنْكُم﴾ من المؤمنين، ومعنى ﴿بَيْنَ غَيْرِكُمْ﴾ من الكفار، قال بعضهم: وذلك أن الآية نزلت ولا مؤمن إلا بالمدينة، وكانوا يسافرون في التجارة صحبة أهل الكتاب وعبيدة الأوثان وأنواع الكفرة.

واختلفت هذه الجماعة المذكورة - فمذهب أبي موسى الأشعري وشريح وغيرهما أن الآية مُحْكَمَةٌ، وأسند الطبري إلى الشعبي أن رجلاً حضرته المنية بدقوقا، ولم يجد أحداً من المؤمنين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدموا الكوفة، فأتيا أبا موسى الأشعري فأخبراه وقدما بتركته، فقال أبو موسى الأشعري: هذا أمر لم يكن

بعد الذي كان في مدة النبي عليه الصلاة والسلام، ثم أحلفهما بعد صلاة العصر، وأمضى شهادتهما.

وأَسَد الطبري عن شريح أنه كان لا يجيز شهادة النصراني واليهودي على مسلم إلا في الوصية ولا تجوز أيضاً في الوصية إلا إذا كانوا في سفر.

ومذهب جماعة ممن ذكر أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوْقَ عَذَابِ مَنَكُم﴾ وبما استند إليه إجماع جمهور الناس على أن شهادة الكافر لا تجوز.

وتأول جماعة من أهل العلم الآية على غير هذا كله، قال الحسن بن أبي الحسن: وقوله تعالى: ﴿وَمَنكُم﴾ يريد من عشيرتكم وقربانكم، وقوله: ﴿أَوْ مَلَائِكَةٍ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ يريد من غير القرابة والعشيرة، وقال بهذا عكرمة مولى ابن عباس، وابن شهاب، قالوا: أمر الله بإشهاد عدلين من القرابة إذ هم ألحن بحال الوصية وأدرى بصورة العدل فيها، فإن كان الأمر في سفر ولم تحضر قرابة أشهد أجنيباً، فإذا شهدا فإن لم يقع ارتياب مضت الشهادة، وإن ارتياب أنهما مالا بالوصية إلى أحد أو زادا أو نقصا خلّفا بعد صلاة العصر ومضت شهادتهما، فإن عُثِر بعد ذلك على تبديل منهما واستحقاق إثم خلّف وليّان من القرابة، وبطلت شهادة الأولين.

وقال بعض الناس: الآية منسوخة، ولا يحلف شاهد، ويذكر هذا عن مالك بن أنس، والشافعي، وكافة الفقهاء.

وذكر الطبري رحمه الله أن هذا

التخالف الذي في الآية إنما هو بحسب التداعي، وذلك أن الشاهدين الأولين إنما يحلفان إذا ارتيب، وإذا ارتيب فقد ترتبت عليهما دعوى فتلزهما اليمين، لكن هذا الارتياب إنما يكون في خيانة منهما. فإن عُثِر بعد ذلك على أنهما استحقا إثمًا نظر، فإن كان الأمر بيننا غرماً دون يمين ولتين، وإن كان بشاهد واحد أو بدلائل تقتضي خيانتها أو ما أشبه ذلك مما هو كالشاهد حمل على الظالم وحلف المدعيان مع ما قام لهما من شاهد أو دليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا هو الاختلاف في معنى الآية وصورة حكمها.

ولنرجع الآن إلى الإعراب والكلام على لفظة لفظة من الآية، ولنقص القول المفيد، لأن الناس خلطوا في تفسير هذه الآية تخليطاً شديداً، وذكر ذلك والرّد عليه يطول، وفي تبیین الحق الذي تتلقاه الأذهان بالقبول مقنع، والله المستعان.

قوله: ﴿شَهَدَةُ بَيْنَكُمْ﴾، قال قوم: الشهادة هنا بمعنى الحضور، وقال الطبري: الشهادة بمعنى اليمين، وليست بالتي تؤدّى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف، والصواب أنها الشهادة التي تحفظ لثؤدى. ورفعها بالابتداء والخبر في قوله: ﴿أَتَيْنَاكَ﴾.

قال أبو علي: التقدير: شهادة بينكم في صاياكم شهادة اثنين، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وقدره غيره أولاً، كأنه قال: «مقيم شهادة بينكم اثنان».

وأضيفت الشهادة إلى (بين) اتساعاً في الظرف بأن يعامل معاملته الأسماء، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَعَ بَيْنَكُمْ﴾.

وقرأ الأعرج، والشعي، والحسن: ﴿شَهَادَةُ﴾ بالتنوين ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالنصب، وإعراب هذه القراءة على نحو إعراب قراءة السبعة. وروي عن الأعرج، وأبي حنيفة: ﴿شَهَادَةُ﴾ بالنصب والتنوين ﴿بَيْنَكُمْ﴾ نصباً، قال أبو الفتح: التقدير: «ليقم شهادة بينكم اثنان».

وقوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ معناه: إذا قرب الحضور، وإلا فإذا حضر الموت لم يشهد ميت، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، وكقوله: ﴿إِذَا طَلَعْتَ الْيَسَاءَ فَسَاقُوهُنَّ﴾، وهذا كثير، والعامل في ﴿إِذَا﴾ المصدر الذي هو ﴿شَهَدَةُ﴾، وهذا على أن تجعل ﴿إِذَا﴾ بمنزلة (حين) لا تحتاج إلى جواب، ولك أن تجعل ﴿إِذَا﴾ في هذه الآية المحتاجة إلى جواب لكن استغني عن جوابها بما تقدم في قوله: ﴿شَهَدَةُ بَيْنَكُمْ﴾ إذ المعنى: إذا حضر أحدكم الموت فينبغي أن يشهد.

وقوله: ﴿حِينَ الْوَيْسَةِ﴾ ظرف زمان والعامل فيه ﴿حَضَرَ﴾، وإن شئت جعلته بدلاً من ﴿إِذَا﴾، قال أبو علي: ولك أن تعلقه بـ ﴿الْمَوْتُ﴾، ولا يجوز أن تعمل فيه ﴿شَهَدَةُ﴾ لأنها إذا عملت في ظرف من الزمان لم تعمل في ظرف آخر منه.

وقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ صفة لقوله ﴿أَتَيْنَاكَ﴾، و ﴿وَمَنكُم﴾ صفة أيضاً بعد صفة.

فكذلك إذا حبستموهما أنسما.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ شرط لا يتوجه تحليف الشاهدين إلا به، ومتى لم يقع ارتياب ولا اختلاف فلا يمين، أما إنه يظهر من حكم أبي موسى تحليف الذميين أنه باليمين تكمل شهادتهما وتنفذ الوصية لأهلها وإن لم يرتب. وهذه الرية - عند من لا يرى الآية منسوخة - تترتب في الخيانة وفي الاتهام بالميل إلى بعض الموصى لهم دون بعض، وتقع مع ذلك اليمين عنده، وأما من يرى الآية منسوخة فلا يقع تحليف إلا بأن يكون الارتياب في خيانة، أو تعدد بوجه من وجوه التعدي، فيكون التحليف عنده بحسب الدعوى على منكر لا على أنه تكميل للشهادة.

والضمير في قول الحالفين: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِنَّ شَيْئًا﴾ عائد على القسم، ويحتمل أن يعود على اسم الله تبارك وتعالى، قال أبو علي: يعود على تحريف الشهادة. وقوله: ﴿لَا نَشْتَرِي﴾ جواب ما يقتضيه قوله: ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ لأن القسم ونحوه يتلقى بما تتلقى به الإيمان، وتقدير ﴿بِهِنَّ شَيْئًا﴾ أي: ذا ثمن، لأن الثمن لا يشتري، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ معناه: ذا ثمن. ولا يجوز أن يكون ﴿نَشْتَرِي﴾ في هذه الآية بمعنى نبيع، لأن المعنى يبطله، وإن كان ذلك موجوداً في اللغة في غير هذا الموضع.

وخص ذا القربى بالذكر لأن العرف ميل الناس إلى قرباتهم، واستسهلهم في جنب نفعهم ما لا يستسهل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْتُمْ شُهَدَاءَ

وقوله تعالى: ﴿مِنْ عَمَلِكُمْ﴾ صفة لـ ﴿مَآخِرَانِ﴾، و ﴿مَرَّتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: سافرتم للتجارة، تقول: ضربت في الأرض أي: سافرت للتجارة، وضربت الأرض: ذهبت فيها لقضاء حاجة الإنسان، وهذا السفر كان كالذي يمكن أن يعدم فيه المؤمنون مؤمنين، فلذلك خص بالذكر، لأن سفر الجهاد لا يكاد يعدم فيه مؤمنين.

قال أبو علي: قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ صفة لـ ﴿مَآخِرَانِ﴾، واعترض بين الموصوف والصفة بقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا إِلَى التَّوْبَةِ﴾، وأفاد الاعتراض أن العدول إلى آخرين من غير الملة أو القرابة حسب اختلاف العلماء في ذلك إنما يكون مع ضرورة السفر وحلول الموت فيه، واستغني عن جواب [إِنْ] لما تقدم من قوله: ﴿أَوْ مَآخِرَانِ مِنْ عَمَلِكُمْ﴾.

وقال جمهور العلماء: الصلاة هنا صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس، وقد ذكره النبي ﷺ فيمن حلف على سلعة، وأمر باللعان فيه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما هي بعد صلاة الذميين، وأما العصر فلا حرمة لها عندهما.

والفاء في قوله: ﴿فَيَقْسِمَانِ﴾ عاطفة جملة على جملة، لأن المعنى تم في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ الْمَلَكُوتِ﴾، قال أبو علي: وإن شئت لم تقدر الفاء عاطفة جملة على جملة، ولكن تجعله جزاء كقول ذي الرمة:

وإنسان عني يخبر الماء تارة
فَيَبْدُو وتارات يَجْمُ فَيَغْرُقُ
تقديره عندهم: إذا حَسَرَ بدا،

الله أضاف ﴿شَهَادَةً﴾ إليه تعالى من حيث هو الأمر بإقامتها الناهي عن كتمانها. وقرأ الحسن والشعبي: ﴿وَلَا تَكُنْتُمْ﴾ بجزم الميم، وقرأ علي بن أبي طالب، ونعيم بن ميسرة، والشعبي - بخلاف عنه -: ﴿شَهَادَةً﴾ بالتنوين ﴿اللَّهُ﴾ نصب بـ ﴿تَكُنْتُمْ﴾، كأن الكلام: ﴿وَلَا نَكُنُّمُ الله شهادة﴾. قال الزهراوي: ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿وَلَا نَكُنُّمُ شهادة والله﴾ ثم حذفت الواو ونصب الفعل إيجازاً، وروى يحيى بن آدم عن أبي بكر بن عياش: ﴿شَهَادَةً﴾ ﴿اللَّهُ﴾ بقطع الألف دون مدّ وخفض الهاء، ورويت أيضاً عن الشعبي وغيره أنه كان يقف على الهاء من (الشهادة) بالسكون، ثم يقطع الألف المكتوبة من غير مدّ كما تقدم، وروي عنه أنه كان يقرأ ﴿الله﴾ بمدّ ألف الاستفهام في الوجهين، أعني بسكون الهاء من (الشهادة) وتحريكها منونة منصوبة، ورويت هذه التي هي تنوين (الشهادة) ومدّ ألف الاستفهام بعد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال أبو الفتح: أما تسكين هاء ﴿شَهَادَةً﴾ والوقف عليها واستئناف القسم فوجه حسن، لأن استئناف القسم في أول الكلام أوقر له وأشد هيبه أن يدرج في عرض القول. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعبد الله بن حبيب، والحسن البصري - فيما ذكر أبو عمرو الداني -: ﴿شهادة﴾ بالنصب والتنوين ﴿الله﴾ بالمد في همزة الاستفهام التي هي عوض من حرف القسم [آنا] بمد ألف الاستفهام أيضاً دخلت لتوقيف أو تقرير لنفوس

المقسمين، أو لمن خاطبوه. وقرأ ابن مُخَيَّمِينَ: ﴿إِلْمِلَايَمِينَ﴾ بالإدغام.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عُرِضَ﴾ استعارة لما يُوقَع على علمه بعد خفائه اتفاقاً وبعد أن لم يُرج ولم يُقصد، وهذا كما يقال: على الخبر سقطت، ووقعت على كذا، قال أبو علي: والإثم هنا: اسم الشيء المأخوذ، لأن أخذه يأخذه آثم فسمي إثمًا كما سُمي ما يؤخذ بغير حق مَظْلَمَةً، قال سيبويه: المظلمة اسم ما أخذ منك، وكذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يظهر هنا أن الإثم على بابه وهو الحكم اللاحق لهما والنسبة التي يتحصلان فيها بعد موافقتهما لتحريف الشهادة أو لأخذ ما ليس لهما أو نحو ذلك.

و﴿أَسْتَحَقَّ﴾ معناه: استوجباه من الله وكانا أهلاً له، فهذا استحقاق على بابه، إنه استيجاب حقيقة، ولو كان الإثم الشيء المأخوذ لم يقل فيه استحقا لأنهما ظلما وخانا فيه، فإنما استحقا منزلة السوء وحكم العصيان، وذلك هو الإثم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَأَخَذَنَّ﴾ أي: فإذا عُثِرَ على فسادهما فالأوليان باليمين وإقامة القضية آخرا من القوم الذين هم ولاء الميت، واستحق عليهم حظهم أو ظهورهم أو مالهم أو ما شئت من هذه التقديرات.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ مضمومة الثاء، ﴿الْأُولَيْنِ﴾ على التثنية لـ (أولي)، وروى قُرة عن ابن كثير: ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ بفتح الثاء ﴿الْأُولَيْنِ﴾

على التثنية، وكذلك روى حفص عن عاصم، وقرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ بضم التاء ﴿الْأُولَيْنِ﴾ على جمع (أول)، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ بفتح التاء ﴿الْأُولَانِ﴾ على تثنية (أول)، وقرأ ابن سيرين ﴿الْأُولَيْنِ﴾ على تثنية (أول)، ونصبهما على تقدير: الأولين فالأولين في الرتبة والقربى.

قال أبو علي في قراءة ابن كثير ومن معه: لا يخلوا ارتفاع ﴿الْأُولَيْنِ﴾ من أن يكون على الابتداء وقد أُخِر، فكأنه في التقدير: «والأوليان بأمر الميت آخرا ن يقومان» فيجيء الكلام كقولهم: «تميمي أنا»، أو يكون خبر ابتداء محذوف كأنه: «فآخرا ن يقومان مقامهما هما الأوليان»، أو يكون بدلاً من الضمير الذي في ﴿يُؤْمَانِ﴾، أو يكون مسنداً إلى ﴿أَسْتَحَقَّ﴾، وأجاز أبو الحسن فيه شيئاً آخر وهو أن يكون ﴿الْأُولَيْنِ﴾ صفة لـ ﴿تَأَخَذَنَّ﴾ لأنه لما وصف خصص، فوصف من أجل الاختصاص الذي صار له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ثم قال أبو علي بعد كلامه هذا: فأما ما يُسند إليه ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ فلا يخلو من أن يكون: الأنصبة، أو الوصية، أو الإثم. وسمي المأخوذ إثمًا كما يقال لما يؤخذ من المظلوم: مَظْلَمَةً، ولذلك جاز أن يستند إليه ﴿أَسْتَحَقَّ﴾، ثم قال بعد كلام: فإن قلت: هل يجوز أن يُسند ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ إلى ﴿الْأُولِيَانِ﴾؟ فالقول أن ذلك لا يجوز، لأن المستحق إنما يكون

الوصية أو شيئاً منها، وأما الأوليان بالميت فلا يجوز أن يستحقا فيسند ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ إليهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا الكلام نظر، ويجوز عندي أن يسند ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ إلى ﴿الْأُولَيْنِ﴾، وذلك أن أبا علي حمل لفظة الاستحقاق على أنه حقيقي فلم يُجوزَه إلا حيث يصح الاستحقاق الحقيقي في النازلة، وإنما يُسْتَحَق حقيقة التَّصِيب ونحوه، ولفظة الاستحقاق في الآية إنما هي استعارة وليست بمعنى «استحقا إثمًا» فإن الاستحقاق هنا حقيقة، وفي قوله ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ مستعار، لأنه لا وجه لهذا الاستحقاق إلا الغلبة على الحال بحكم انفراد هذا الميت وعدمه لقربته أو لأهل دينه، فـ ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ هنا كما تقول لظالم يظلمك: هذا قد استحق عليّ مالي أو منزلي بظلمه، فَتُسَبِّهُهُ بالمستحق حقيقة، إذ قد تسور تسوره وتملك تملكه، وكذلك يقال: فلان قد استحق زمنه شغل كذا إذا كان الأمر قد غلبه على أوقاته، وهكذا هي ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ في الآية على كل حال وإن أُسندت إلى الأنصبة ونحوه، لأن قوله ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ صلة لـ ﴿الَّذِينَ﴾ واقع على الصنف المناقض للشاهدين الجائرين، فالشاهدان ما استحقا قط في هذه النازلة شيئاً حقيقة استحقاق، وإنما تسورا تسور المستحق، فلنا أن نقدر ﴿الْأُولَيْنِ﴾ ابتداءً وقد أُخِر، فيسند ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ - على هذا - إلى المال أو التصيب ونحوه على جهة الاستعارة،

يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ يَقُولُ مَاذَا أَجْتَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا بِئِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٨﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ إِنِّي مَرِّمُكَ أَذْكُرُ نَعْمَ عَلَيَّكَ وَعَلَىٰ وَلَدِكَ إِذْ أَبَدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَيْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ أَخْلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْيٍ فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْيٍ وَتُفَرِّقُ الْأَكْصَىٰ وَالْأَبْرَصَ بِأَذْيٍ وَإِذْ تُخَوِّجُ الْمَوْتَىٰ بِأَذْيٍ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ رَايِلَ بْنَ يَثْنَتَ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٠٩﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَارِثِيِّ أَنْ آمِنُوا بِ رُسُولِي قَالُوا لَوْ آمَنَّا وَأَشْهَدْنَا لَأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١٠﴾ إِذْ قَالَ الْحَارِثِيُّ لِيَعْقُوبَ إِنِّي مَرِّمُ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُزِيلَ عَلَيْنَا مَا بَدَأَ مِنَ السَّمَاءِ قَالُوا أَتَقُولُ اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَقْطِعَ مِنْ قُلُوبِنَا وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ صَدَقْتَنَا وَكَوْنُ عَلَيْهِمُ الْشَّاهِدِينَ ﴿١١٢﴾

استحق عليهم القيام، والصواب من التأويلين أن الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على ﴿الَّذِينَ﴾، و﴿الَّذِينَ﴾ رفع — [استحق] وذلك متخرج على ثلاثة معان:

أحدها أن يكون المراد من الذين استحق عليهم ما لهم وتركتهم شاهدا الزور، فسُمي شاهدي الزور أوليين من حيث جعلتهما الحال الأولى كذلك، أي صيرهم عديم الناس أولى بهذا الميت وتركتهم فجارا فيها.

والمعنى الثاني أن يكون المراد من الجماعة الذين حق عليهم أن يكون منهم الأوليان، فاستحق بمعنى: حق ووجب، كما تقول: هذا بناء قد استحق بمعنى حق، كمعجب واستعجب ونحوه.

والمعنى الثالث أن يجعل [استحق] بمعنى سعى واستوجب، فكان الكلام: فأخران من القوم الذين حضر أوليان منهم فاستحقا عليهم حقهم، أي: استحقا لهم وسعيا فيه واستوجباه بأيمانهما وقرباهما، ونحو هذا المعنى الذي يعطيه التعدي بـ (على) قول الشاعر:

أَسْعَى عَلَى حَيِّ بَنِي مَالِكٍ
كُلَّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي
وكذلك في الحديث: «كنت أرعى عليهم الغنم» في بعض طرق حديث الثلاثة الذين ذكر أحدهم برّه بأبويه حين انحطت عليهم الصخرة.

وكذلك إذا كان ﴿الَّذِينَ﴾ خبر ابتداء، وكذلك على البدل من الضمير في ﴿يَقُولَانِ﴾، وعلى الصفة على مذهب أبي الحسن، ولنا أن نقدر الكلام بمعنى: من الجماعة التي غابت وكان حقها والمبتغى أن يحضر وليها، فلما غابت وانفرد هذا الموصي استحققت هذه الحال - وهذان الشاهدان من غير أهل الدين - الولاية وأمر الأوليين على هذه الجماعة، ثم بني الفعل للمفعول على هذا المعنى إيجازاً. ويقوي هذا الغرض أن تعدي الفعل بـ ﴿عَلَى﴾ لما كان باقتدار وحمل هيئته الحال، ولا يقال: استحق منه أو فيه إلا في الاستحقاق الحقيقي على وجهه، وأما استحق عليه فيقال في الحُمل والغلبة والاستحقاق المستعار. والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على كل حال في هذه القراءة على الجماعة التي تناقض شاهدي الزور الآمين، ويحتمل أن يعود على الصنف الذين منهم شاهد الزور على ما بُيِّنَ الآن إن شاء الله في غير هذه القراءة.

وأما رواية قُتْرَةَ عن ابن كثير «استحق» بفتح التاء فيحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ ابتداء أو خبر ابتداء، ويكون المعنى: من الجمع أو القبيل الذي استحق القضية على هذا الصنف الشاهد بالزور، والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على صنف شاهدي الزور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا التأويل تحويم وتحليق وصنعة في ﴿الَّذِينَ﴾، وعليه ينبغي كلام أبي علي في كتاب الحجة، ويحتمل أن يكون المعنى: من الذين

وأما قراءة حمزة فمعناها: من القوم الذين استحق عليهم أمرهم، أي: غلبوا عليه، ثم وصفهم بأنهم أولون، أي: في الذكر في هذه الآية، وذلك في قوله: ﴿أَتَيْنَاكَ دَا عَدْلٍ يَنْكُرُ﴾، ثم بعد ذلك قال: ﴿وَأَوَّلَ الْآخَرِينَ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُفْتَسِحَانِ بِاللَّهِ﴾ يعني الآخرين الذين يقومون مقام شاهدي التحريف، وقولهما: ﴿لَشَهِدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهِدَتِهِمَا﴾ أي: لما أخبرنا نحن به وذكرناه من نص القضية أحق مما ذكرناه أولاً وحرفنا فيه، ﴿وَمَا أَفْتَدَيْنَا﴾ نحن في قولنا هذا ولا زدنا على الحد. وقولهما: ﴿إِنَّا إِذَا كُنَّا أَظْلَمِينَ﴾ تبر في صيغة الاستعظام والاستقبح للظلم، والظلم وضع الشيء في غير موضعه.

الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ هي إلى جميع

ما حذَّ الله قبل من حبس الشاهدين من بعد الصلاة لِلْيَمِينِ، ثم إن عثر على جورهما رُدَّت اليمين وعُزِّمًا، فذلك كله يقرب اعتدال هذا الصنف فيما عسى أن ينزل من النوازل، لأنهم يخافون التحليف المغلظ بعقب الصلاة، ثم يخافون الفضيحة وردَّ اليمين. هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما.

ويظهر من كلام السدي أن الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إنما هي إلى الحبس من بعد الصلاة فقط، ثم يجيء قوله تعالى: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ إِلَيْهِمْ بِإِزَاءِ﴾ فَإِنَّ عَثَرَ الآية.

وجمع الضمير في ﴿يَأْتَاكَ﴾ و ﴿يَخَافَاكَ﴾ إذ المراد صنف ونوع من الناس، و ﴿أَنْ﴾ في هذه الآية على تأويل السدي بمنزلة قولك: فتجيئي يا زيد أو تُسخطني، كأنك تريد: وإلا أسخطتني، فكذلك معنى الآية: ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها وإلا خافوا ردَّ الأيمان، وأما على مذهب ابن عباس رضي الله عنهما فالمعنى: ذلك الحكم كله أقرب إلى أن يأتوا، وأقرب إلى أن يخافوا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ وَجْهَيْهَا﴾ معناه: على جهتها القويمة التي لم تبدل ولا حُرِّفَتْ.

ثم أمر تعالى بالتقوى التي هي الاعتصام بالله، وبالسَّمْع لهذه الأوامر المُنجية، وأُخبر أنه لا يهدي القوم الفاسقين من حيث هم فاسقون، وإلا فهو تعالى يهديهم إذا تابوا، ويحتمل أن يكون لفظ ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ عامًّا والمراد الخصوص فيمن لا يتوب.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلَ﴾ ذهب قوم من المفسرين إلى أن العامل في ﴿يَوْمَ﴾ ما تقدم من قوله: ﴿لَا يَهْدِي﴾، وذلك ضعيف. ورصف الآية وبراعتها إنما هو أن يكون هذا الكلام مستأنفًا والعامل مقدراً، إما: اذكروا، وإما: تذكروا، وإما: احذروا ونحو هذا مما حسن اختصاره لعلم السامع.

والإشارة بهذا اليوم إلى يوم القيامة، وخصَّ الرسل بالذكر لأنهم قادة الخلق، وفي ضمن جَمْعهم جمع الخلائق، وهم المكلمون أولاً.

و﴿مَاذَا أُجِئْتُمْ﴾ معناه: ماذا أجابت به الأمم من إيمان أو كفر وطاعة أو عصيان؟ وهذا السؤال للأنبياء الرسل إنما هو لتقوم الحجة على الأمم. وببديء حسابهم على الواضح المستبين لكل مفطور.

واختلف الناس في معنى قولهم عليهم السلام: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ - فقال الطبري: ذهلوا عن الجواب لهول المطلع، وذكر عن الحسن أنه قال: لا علم لنا من هول ذلك اليوم، وعن السدي: نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول فقالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلاً آخر شهدوا على قومهم، وعن مجاهد أنه قال: يفزعون فيقولون: لا علم لنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وضعف بعض الناس هذا المنزع بقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ﴾، والأنبياء في أشد أهوال يوم القيامة وحالة جواز الصراط يقولون: سلم، سلم، وحالهم أعظم وفضل الله عليهم أكثر من أن تذهل

عقولهم حتى يقولوا ما ليس بحق في نفسه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معنى الآية: لا علم لنا إلا علماً أنت أعلم به منا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا حسن، كأن المعنى: لا علم لنا يكفي وينتهي إلى الغاية.

وقال ابن جريج: معنى ﴿مَاذَا أُجِئْتُمْ﴾: ماذا عملوا بعدكم؟ وماذا أحدثوا؟ فلذلك قالوا: لا علم لنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا معنى حسن في نفسه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْفُتُورِ﴾، لكن لفظة ﴿أُجِئْتُمْ﴾ لا تساعد قول ابن جريج إلا على كره، وقول ابن عباس أصوب هذه المناحي، لأنه يتخرج على التسليم لله تعالى وردَّ الأمر إليه، إذ قوله: ﴿مَاذَا أُجِئْتُمْ﴾ لا علم عندهم في جوابه إلا بما شوفوها به مدة حياتهم، وينقصهم ما في قلوب المشافهين من نفاق ونحوه، وكذلك ينقصهم ما كان يغدّم من أمتهم، والله تعالى يعلم جميع ذلك على التفصيل والكمال، فرأوا التسليم له والخضوع لعلمه المحيط.

وقرأ أبو حيوة: ﴿مَاذَا أُجِئْتُمْ﴾ بفتح الهمزة.

﴿١١٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

يحتمل أن يكون العامل في ﴿إِذْ﴾ فعلاً مضمراً تقديره: اذكر يا محمد إذ جنتهم بالبينات، و ﴿قَالَ﴾ هنا بمعنى: يقول، لأن ظاهر هذا القول أنه في القيامة تقدمة لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾، وذلك كله إحكام

لتوبيخ الذين يتحصلون كافرين بالله في ادعائهم ألوهية عيسى.

ويحتمل أن تكون ﴿إِذْ﴾ بدلاً من قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ﴾.

ونعمة الله على عيسى هي بالنبوة وسائر ما ذكر وما علم مما لا يحصى، وعددت عليه النعمة على أمة إذ هي نعمة صائرة إليه وبسببه كانت.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَيَّدْتُكَ﴾ بتشديد الياء، وقرأ مجاهد، وابن محيصن: ﴿أَيَّدْتُكَ﴾ على وزن فاعلتك، ويظهر أن الأصل في القراءة تين ﴿أَيَّدْتُكَ﴾ على وزن أفعلتك ثم اختلف الإعلال، والمعنى فيهما: قوّيتك من الأيد، وقال عبدالمطلب:

الحمد لله الأعز الأكرم
أَيَّدْنَا يَوْمَ زُحُوفِ الْأَشْرَمِ
وروح القدس هو جبريل عليه السلام، وقوله: ﴿فِي الْهَيْدِ﴾ حال، كأنه قال: صغيراً، ﴿وَكَهْلًا﴾ حال أيضاً معطوفة على الأول، ومثله قوله تعالى: ﴿دَعَا لِحَبِيئِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ والكهولة من الأربعين إلى الخمسين، وقيل: هي من ثلاثة وثلاثين، و﴿الْكِتَابِ﴾ في هذه الآية: مصدر كتب يكتب، أي: علمتك الخط، ويحتمل أن يريد اسم جنس في صحف إبراهيم وغير ذلك، ثم خص بعد ذلك التوراة والإنجيل بالذكر تشريفاً. ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ هي الفهم والإدراك في أمور الشرع، وقد وهب الله الأنبياء منها ما هم به مختصون معصومون لا ينطقون عن هوى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ﴾ في هذه الآية حيثما تكررت فهي عطف على الأولى التي عملت فيها ﴿يَتَّبِعُ﴾. ﴿تَخْلُقُ﴾ معناه: تقدر وتُهيء تقديرأ مستوياً متقناً، ومنه قول الشاعر:
وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ
خُسِّ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي
أي: يُهيء ويقدر لعمل ويكمل ثم لا يفعل، ومنه قول الآخر:

مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَقْرُ
لَ فَحِيلَتِي فِيهِ قَلِيلَةٌ
وكان عيسى عليه السلام يصور من الطين أمثال الخفافيش ثم ينفخ فيها أمام الناس فتحيا وتطير بإذن الله، وقد تقدم هذا القصص في «آل عمران».

وقرأ جمهور الناس: ﴿كَهَيْئَةِ﴾ بالهمز، وهو مصدر من قولهم: هاء الشيء يهأ إذا ثبت واستقر على أمر حسن. وقال اللحياني: ويقال: يهيهي. وقرأ الزهري: ﴿كَهَيْئَةِ﴾ بتشديد الياء من غير همز، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿كَهَيْئَةِ الطائر﴾. والإذن في هذه الآية كيف تكرر معناه: التمكين مع العلم بما يصنع وما يقصد من دعاء الناس إلى الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ هو النفخ المعروف من البشر، وإنما جعل الله الأمر هكذا ليظهر تلبس عيسى بالمعجزة وظهورها منه، وهذا كطرح موسى عليه السلام العصا، وكإيراد محمد ﷺ القرآن، وهذا أحد شروط المعجزات، وقوله: ﴿فِيهَا﴾ بضمير مؤنث مع مجيء ذلك في «آل عمران»: ﴿فَتَنْفُخُ﴾

فِيهَا﴾ بضمير مذكر موضع قد اضطرب المفسرون فيه. قال مكي: هو في (آل عمران) عائد على الطائر وفي المائدة عائد على الهيئة. قال: ويصح عكس هذا. وقال غيره: الضمير المذكر عائد على الطين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يصح عود هذا الضمير لا على الطير ولا على الطين ولا على الهيئة، لأن الطين أو الطائر الذي يجيء الطين على هيئته لا نفخ فيه البتة، وكذلك لا نفخ في هيئته الخاصة بجسده وهي المذكورة في الآية، وكذلك الطين المذكور في الآية إنما هو الطين العام، ولا نفخ في ذلك، وإنما النفخ في الصور المخصوصة منه التي رتبها يد عيسى عليه السلام، فالوجه أن يقال في عود الضمير المؤنث إنه عائد على ما تقتضيه الآية ضرورة، وذلك أن قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ يقتضي صوراً أو أجساماً أو أشكالاً، وكذلك الضمير المذكر يعود على المخلوق الذي تقتضيه ﴿تَخْلُقُ﴾. ولك أن تعيده على ما تدل عليه الكاف من معنى المثل، لأن المعنى: وإذ تخلق من الطين مثل هيئة. ولك أن تعيد الضمير على الكاف نفسه فيمن يجوز أن يكون اسماً في غير الشعر، وتكون الكاف في موضع نصف صفة للمصدر المراد، تقديره: وإذ تخلق خلقاً من الطين كهية الطير.

وقرأ عبدالله بن عباس: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَتَنْفُخُهَا فَيَكُونُ﴾، وقرأ الجمهور ﴿فَتَكُونُ﴾ بالتاء من فوق،

وقرأ عيسى بن عمر: ﴿فِيهَا فَيَكُونُ﴾
بالياء من تحت، وقرأ نافع وحده:
﴿فَتَكُونُ طَائِرًا﴾، وقرأ الباقون:
﴿طَيْرًا﴾ بغير ألف، والقراءتان
مستفيضتان في الناس، فالطير: جمع
طائر، كساجر وتجر، وصاحب
وصخب، وراكب وركب. والطائر:
اسم مفرد، والمعنى على قراءة نافع:
فتكون كل قطعة من تلك المخلوقات
طائراً.

قال أبو علي: ولو قال قائل: إن
الطائر قد يكون جمعاً كالحامل
والباقر فيكون على هذا معنى
القراءتين واحداً لكان قياساً، ويقوي
ذلك ما حكاه أبو الحسن من قولهم:
طائرة، فيكون من باب: شعيرة
وشعير، وتمرة وتمر.

وقد تقدم في الأكمه والأبرص،
وفي قصص إحيائه الموتى في
(آل عمران)، و﴿تُخْفِجُ الْمَوْتَى﴾
معناه: من قبورهم وكف بني
إسرائيل عنه عليه السلام هو رفعه
حين أحاطوا به في البيت مع
الحواريين، ومن أول ما منعه الله
منهم هو الكف إلى تلك النازلة
الآخرة، فهناك ظهر عظم الكف،
والبيئات: هي معجزاته وإنجيله
وجميع ما جاء به.

وقرأ ابن كثير وعاصم هنا وفي
(هود والصف): ﴿إِلَّا يَخِرُّ﴾ بغير
ألف، وقرأ حمزة والكسائي في
المواضع الأربعة: ﴿ساحر﴾ بألف،
فمن قرأ ﴿سحراً﴾ جعل الإشارة إلى
البيئات والحديث وما جاء به، ومن
قرأ ﴿ساحراً﴾ جعل الإشارة إلى
الشخص إذ هو ذو سحر عندهم،

وهذا مُطَرَّد في القرآن كله حيثما ورد
هذا الخلاف.

﴿١١٢﴾ - ﴿١١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ هو من
جملة تعديد النعمة على عيسى، و
﴿أَوْحَيْتُ﴾ في هذا الموضع إما أن
يكون وحي إلهام أو وحي أمر، كما
قال الشاعر:

.....
أَوْحَى لَهَا الْفَرَارِ فَاسْتَقَرَّتْ
وبالجملة فهو إلقاء معنى في خفاء
أوصله تعالى إلى نفوسهم كيف
شاء.

والرسول - في هذه الآية - عيسى
عليه السلام، وقول الحواريين:
﴿وَأَشْهَدُ﴾ يحتمل أن يكون مخاطبة
منهم لله تعالى، ويحتمل أن يكون
لعيسى عليه السلام، وقد تقدم تفسير
لفظة [الحواريين] في آل عمران.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾
الآية، اعتراض أثناء وصف حال
قول الله لعيسى يوم القيامة، مضمن
الاعتراض إخبار محمد عليه الصلاة
والسلام وأمته بنازلة الحواريين في
المائدة، إذ هي مثال نافع لكل أمة
مع نبئها يقتدى بمحاسنه ويزدجر عما
ينقد منه من طلب الآيات ونحوه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ
رَبُّكَ﴾ بالياء ورفع الباء من ﴿رَبُّكَ﴾
، وهي قراءة السبعة حاشا
الكسائي، وهذا ليس لأنهم شكوا في
قدرة الله على هذا الأمر، لكنه
بمعنى: هل يفعل تعالى هذا؟ وهل
تقع منه إجابة له؟ وهذا كما قال
لعبدالله بن زيد: هل تستطيع أن
تربني كيف كان رسول الله ﷺ

يتوضأ؟ فالمعنى: هل يخف عليك؟
وهل تفعله؟ أما إن في اللفظة بشاعة
بسببها قال عيسى: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ إِنْ
كُنْتُمْ تَوَّعِينَ﴾، وبسببها مال فريق
من الصحابة وغيرهم إلى غير هذه
القراءة، فقرأ علي بن أبي طالب،
ومعاذ بن جبل، وابن عباس،
وعائشة، وسعيد بن جبير
رضي الله عنهم أجمعين: ﴿هَلْ
يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بالتاء ونصب الباء
من [ربك]، والمعنى: هل تستطيع
أن تسأل ربك؟ قالت عائشة
رضي الله عنها: كان الحواريون
أعرف بالله من أن يقولوا: ﴿هَلْ
يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
نزهتهم عائشة رضي الله عنها عن
بشاعة اللفظ، وإلا فليس يلزمهم منه
جهل بالله تعالى على ما قد تبين
أنفاً، وبمثل هذه القراءة قرأ الكسائي
وزاد أنه أدغم اللام في التاء، قال أبو
علي: وذلك حسن، و﴿أَنْ﴾ في
قوله: ﴿أَنْ يُزِيلَ﴾ على هذه القراءة
متعلقة بالمصدر المحذوف الذي
هو: سؤال، و﴿أَنْ﴾ مفعول به، إذ
هو في حكم المذكور في اللفظ وإن
كان محذوفاً منه إذ لا يتم المعنى إلا
به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقد يمكن أن يستغنى عن تقدير
(سؤال) على أن يكون المعنى: هل
تستطيع أن ينزل ربك بدعائك أو
بأثرتك عنده ونحو هذا؟ فيردك
المعنى ولا بد إلى مقدر يدل عليه ما
ذكر من اللفظ.

والمائدة فاعلة من (ماد) إذا تَحَرَّكَ،

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ
تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ
خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكُمْ فَأَمَّا جَعْفَرُ بْنُ
مِنْكُمْ فَأَيُّ عَذِيبَةٍ عَذَابًا لَا أَعَذِبُهُمْ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾
وَأَذْ قَالَ اللَّهُ لِيُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي
وَأَهْلِي الْهَيْئَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي
نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا
قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرَنِي بِهِ أَتِيَهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْ أَنَا بَرٌّ
وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبُ
عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تَعْلَمَ بِهِمْ عَذَابُكَ
وَلَنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَبِئْسَ أَنْتَ الْمُرْسِلُ لَعَلَّكُمْ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ
يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ وَرِضْوَانُهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾
لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

١٢٧

الضرورة والمشاهدة أن قد صدقنا فلا تعترضنا الشبهة التي تعرض في علم الاستدلال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبهذا يترجح قول من قال: كان هذا قبل علمهم بآياته. ويدل أيضاً على ذلك أن وحي الله إليهم ﴿أَنْ أَيْتُوا﴾ إنما كان في صدر الأمر وعند ذلك قالوا هذه المقالة ثم آمنوا ورأوا الآيات واستمروا وصدوا، وهلك من كفر. وقرأ سعيد بن جبيرة: ﴿وَتَعْلَمُ﴾ بالياء مضمومة على ما لم يُسَمِّ فاعله.

وقوله: ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ معناه: من الشاهدين بهذه الآية، الناقلين لها إلى غيرنا، الداعين إلى هذا الشرع بسببها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وروي أن الذي نحا بهم هذا المنحى من الاقتراح هو أن عيسى عليه السلام قال لهم مرة: هل لكم في صيام ثلاثين يوماً لله، ثم إن سألتهم حاجة قضاها؟ فلما صاموها قالوا: يا معلم الخير، إن حق من عمل عملاً أن يطعم، فهل يستطيع ريك؟ فأرادوا أن تكون المائدة عيد ذلك الصوم.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذكر الله تعالى عن عيسى أنه أجابهم إلى دعاء الله في أمر المائدة، فروي أنه لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويكي ويدعو.

هذا قول الزجاج، أو من (ماد) إذا ماز وأطعم كما قال رؤية:

تَهْدَى رُؤُوسُ الْمُتَرْفِينَ الْأَنْدَادِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَنَادِ أَي الذي يُسْتَطْعَم ويُتَمَاد منه.

وقول عيسى عليه السلام: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تقرير لهم، كما تقول: افعل كذا وكذا إن كنت رجلاً، ولا خلاف أحفظه في أن الحواريين كانوا مؤمنين، وهذا هو ظاهر الآية.

وقال قوم: قال الحواريون هذه المقالة في صدر الأمر قبل علمهم بأنه يُبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى.

ويظهر من قوله عليه السلام: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ﴾ إنكار لقولهم ذلك وذلك على قراءة من قرأ: ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ بالياء من أسفل متوجه على أمرين: أحدهما بشاعة اللفظ، والآخر إنكار طلب الآيات والتعرض إلى سخط الله بها، والنبوات ليست مبنية على أن تتعنت، وأما على القراءة الأخرى فلم ينكر عليهم إلا الاقتراح وقلة طمأنينتهم إلى ما قد ظهر من آياته، فلما خاطبهم عليه السلام بهذه المقالة صرحوا بالمذاهب التي حملتهم على طلب المائدة فقالوا: نريد أن نأكل منها فنشرف على العالم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن هذا الأكل ليس الغرض منه شبع البطن.

﴿وَتَقْلِبُنَّ قُلُوبَنَا﴾ معناه: يسكن فكرنا في أمرك بالمعانية لأمر نازل من السماء بأعيننا، ﴿وَتَعْلَمُ﴾ علم

و ﴿اللَّهُمَّ﴾ عند سيئويه أصلها: يا الله، فجعلت اليمين بدلاً من (يا) و ﴿رَبَّنَا﴾ منادى آخر، ولا يكون صفة لأن (اللَّهُم) يجري مجرى الأصوات من أجل ما لحقه من التغير.

وقرأ الجمهور: ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ على الصفة للمائدة، وقرأ ابن مسعود والأعمش: ﴿تَكُنْ لَنَا﴾ على جواب ﴿أَنْزِلْ﴾.

والعيد: المجتمع واليوم المشهود، وعرفه أن يقال فيما يستدير بالسنة أو بالشهر والجمعة ونحوه، وهو من: عاد يعود، فأصله الوار، ولكن لزمته الياء من أجل كسرة العين.

وقرأ جمهور الناس: ﴿لَاؤَلَانَا وَآخِرَانَا﴾، وقرأ زيد بن ثابت، وابن محيصن، والجحدري: ﴿لَاؤَلَانَا وَآخِرَانَا﴾. واختلف المتأولون في

معنى ذلك - فقال السدي، وقتادة، وابن جريج، وسفيان: ﴿لَاؤَلَيْنَا﴾ معناه: لأوّل الأمة ثم لمن بعدهم حتى لاخرهم يتخذون ذلك اليوم عيداً، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المعنى: يكون مجتمعاً لجميعنا أوّلنا وآخرنا، قال: وأكل من المائدة حين وضعت أوّل الناس كما أكل آخرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالعيد - على هذا - لا يراد به المستدير.

وقوله: ﴿وَأَيَّةٌ مِنْكَ﴾ أي: علامة على صدقي وتشريفي، فأجاب الله دعوة عيسى وقال: ﴿إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ثم شرط عليهم شرطه المتعارف في الأمم أنه من كفر بعد آية الاقتراح عُدّب أشد عذاب.

وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم: ﴿إِنِّي مُنْزِلُهَا﴾ بفتح النون وشد الزاي، وقرأ الباقر: ﴿مُنْزِلُهَا﴾ بسكون النون، والقراءتان متجهتان، نزل وأنزل بمعنى واحد، وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف: ﴿قال الله إِنِّي سَأَنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.

واختلف الناس في نزول المائدة - فقال الحسن بن أبي الحسن، ومجاهد: إنهم لما سمعوا الشرط في تعذيب من كفر استغفوها فلم تنزل، قال مجاهد: فهو مثل ضربه الله تعالى للناس لثلاً يسألوا هذه الآيات، وقال جمهور المفسرين: نزلت المائدة، ثم اختلفت الروايات في كيفية ذلك - فروى الشعبي عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: نزلت المائدة خبزاً وسمكاً، وقال عطية:

المائدة سمكة فيها طعم كل طعام، قال ابن عباس: نزل خوان عليه خبز وسمك يأكلون منه أينما نزلوا إذا شأوا، وقاله وهب بن منبه، قال إسحق بن عبيد الله: نزلت المائدة عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات، قال: فسرق منها بعضهم فرفعت، وقال عمار بن ياسر: سألو عيسى عليه السلام مائدة يكون عليها طعام لا ينفد، فقيل لهم: فإنها مقيمة لكم ما لم تخبثوا أو تخونوا فإن فعلتم عذبتم، قال: فما مضى يوم حتى خبثوا وخانوا فمسخوا قردة وخنازير، وقال ابن عباس في المائدة أيضاً: كان طعام ينزل عليهم حيثما نزلوا، وقال عمار بن ياسر: نزلت المائدة عليها ثمار من ثمار الجنة، وقال ميسرة: كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليها الأيدي بكل طعام إلا اللحم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكثر الناس في قصص هذه المائدة بما رأيت اختصاره لعدم سنده، وقال قوم: لا يصح ألا تنزل المائدة لأن الله تعالى أخبر أنه منزلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير لازم لأن الخبر مقرون بشرط يتضمنه قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَدِّ مِنْكُمْ﴾، وسائغ ما قال الحسن، أما إن الجمهور على أنها نزلت وكفرت جماعة منهم فمسخهم الله خنازير، قاله قتادة وغيره، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أشد الناس عذاباً يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة، والمنافقون، وآل فرعون، ويذكر أن شمعون رأس

الحواريين قال لعيسى عليه السلام حين رأى طعام المائدة: يا روح الله، أمن طعام الدنيا هو أم من طعام الآخرة؟ قال عيسى عليه السلام: «ألم ينهكم الله عن هذه السؤالات؟ هذا طعام ليس من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة، بل هو القدرة الغالبة، قال الله له: كن فكان»، وروي أنه كان على المائدة بقول سوى الثوم والكراث والبصل، وقيل: كان عليها زيتون وتمر وحب ورم.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٧﴾ تفسير قوله عز وجل: اختلف المفسرون في وقت وقوع هذا القول - فقال السدي وغيره: لما رفع الله عيسى عليه السلام إليه قالت النصارى ما قالت، وزعموا أن عيسى أمرهم بذلك، فسأله تعالى حينئذ عن قولهم فقال: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيجيء ﴿قَالَ﴾ على هذا متمكنة في الماضي، ويجيء قوله آخراً: ﴿وَأَن تَقْرَأَهُمْ﴾ أي بالتوبة من الكفرة، لأن هذا قاله عيسى عليه السلام وهم أحياء في الدنيا.

وقال ابن عباس، وقتادة، وجمهور الناس: هذا القول من الله إنما هو في يوم القيامة، يقوله الله له على رؤوس الخلائق، فيرى الكفار تَبْرِيَهُ منهم، ويعلمون أن ما كانوا فيه باطل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: و﴿قَالَ﴾ - على هذا التأويل - بمعنى: يقول. ونزول الماضي موضع المستقبل دلالة على كون الأمر وثبوته، وقوله آخراً: ﴿وَأَن

تَقَرَّرَ لَهُمْ ﴿١١٨﴾ معناه: إن عذبت العالم كله فبحقك، وإن غفرت وسبق ذلك في علمك فلائك أهل لذلك، لا معقب لحكمك ولا منازع لك. وليس المعنى أنه لا بد من أن تفعل أحد هذين الأمرين، بل قال هذا القول مع علمه بأن الله لا يغفر أن يشرك به، وفائدة هذا التوقيف على قول من قال إنه في يوم القيامة ظهور الذنب على الكفرة في عبادة عيسى، وهو توقيف له يتبين منه بيان ضلال الضالين.

و ﴿سُبْحَنَكَ﴾ معناه: تنزيهاً لك عن أن يقال هذا وينطق به.

وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ﴾ الآية نفى يعضده دليل العقل، فهذا ممنوع عقلاً أن يكون لبشر محدث أن يدعي الألوهية، وقد تجيء هذه الصيغة فيما لا ينبغي ولا يحسن مع إمكانه، ومنه قول الصديق رضي الله عنه: «ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ». ثم قال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُ فَقَدْ عَلِمْتُ﴾ فوق الله عيسى عليه السلام لهذه الحجة البالغة. وقوله: ﴿تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ بإحاطة الله به، وخص النفس بالذكر لأنها مظنة الكتم والانطواء على المعلومات، والمعنى: إن الله يعلم ما في نفس عيسى ويعلم كل أمره بما عسى ألا يكون في نفسه، وقوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ معناه: ولا أعلم ما عندك من المعلومات وما أحطت به. وذكر النفس هنا مقابلة لفظية في اللسان العربي يقتضيها الإيجاز، وهذا ينظر من طرف خفي إلى قوله:

﴿وَمَكْرُورًا وَمَكْرَ أَلَلِّهِ﴾، ﴿اللَّهُ يَتَّخِذُ يَوْمَئِذٍ﴾، فتسمية العقوبة باسم الذنب إنما قاد إليها طلب المقابلة اللفظية، إذ هي من فصيح الكلام وبارع العبارة، ثم أقر عليه السلام الله تعالى بأنه علام الغيوب، والمعنى: ولا علم لي أنا بغيب فكيف تكون لي الألوهية؟ ثم أخبر عما صنع في الدنيا وقال في تبليغه، وهو أنه لم يتعد أمر الله في أن أمرهم بعبادته وأقر بربوبيته، و [أَنْ] في قوله: ﴿إِنْ أَتَّبَعُوا اللَّهَ﴾ مفسرة لا موضع لها من الإعراب، ويصح أن تكون بدلاً من [مَا]، ويصح أن تكون في موضع خفض على تقدير: بأن اعبدوا الله، ويصح أن تكون بدلاً من الضمير في [به].

ثم أخبر عليه السلام أنه كان شهيداً ما دام فيهم في الدنيا. ف [مَا] ظرفية.

وقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي: قبضتني إليك بالرفع والتصيير في السماء، والرقيب: الحافظ المراعي.

﴿١١٩﴾ - ﴿١٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية - على قول من قال: «إن توقيف عيسى عليه السلام كان إثر رفعه» - مستقيمة المعنى، لأنه قال عنهم هذه المقالة وهم أحياء في الدنيا وهو لا يدري على ما يوافون.

وهي - على قول من قال: «إن التوقيف هو يوم القيامة» - بمعنى: إن سبقت لهم كلمة العذاب كما سبقت فهم عبادك تصنع بحق الملك ما شئت لا اعتراض عليك، ﴿وَأَنْ تَقَرَّرَ لَهُمْ﴾ بتوبة كما غفرت لغيرهم فإنك أنت العزيز في قدرتك، الحكيم في أفعالك، لا تعارض على حال،

فكأنه قال: إن يكن لك في الناس معذبون فهم عبادك، وإن يكن مغفور لهم فعزتك وحكمتك تقتضي هذا كله.

وهذا عندي هو القول الأرجح ويتقوى بما بعده، وذلك أن عيسى عليه السلام لما قرر أن الله تعالى له أن يفعل في عباده ما يشاء من تعذيب ومغفرة أظهر الله لعباده ما كانت الأنبياء تخبرهم به كأنه يقول: هذا أمر قد فرغ منه، وقد خلص للرحمة من خلص، وللعذاب من خلص، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ فدخل تحت هذه العبارة كل مؤمن بالله تعالى، وكل ما كان أتقى فهو أدخل في العبارة، ثم جاءت هذه العبارة مشيرة إلى عيسى في حاله تلك وصدقه فيما قال فحصل له بذلك في الموقف شرف عظيم وإن كان اللفظ يعمله وسواه، وذكر تعالى ما أعد لهم برحمته وطوله إلى قوله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقرأ نافع وحده: ﴿هَذَا يَوْمٌ﴾ بنصب «يوم»، وقرأ الباقون بالرفع على خبر المبتدأ الذي هو «هَذَا» و «يَوْمٌ» مضاف إلى «يَنْفَعُ»، والمبتدأ والخبر في موضع نصب بأنه مفعول القول، إذ القول يعمل في الجمل، وأما قراءة نافع فتحتمل وجهين: أحدهما أن يكون «يومٌ» ظرفاً للقول، كأن التقدير: قال الله هذا القصص أو الخبر يومٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي معنى يزيل رصف الآية وبهاء اللفظ.

والمعنى الثاني أن يكون ما بعد

يَعْمَلُونَ أَنَّهُ مَزَلَّ مِنْ رَبِّكَ، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ بِعُرُوفِهِمْ﴾.

وقال الكلبي: الأنعام كلها مكية إلا آيتين نزلتا بالمدينة في فنخاص اليهودي، وهي: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ مع ما يرتبط بهذه الآية، وذلك أن فنخاصاً قال: «ما أنزل الله على بشر من شيء».

وقال ابن عباس: نزلت سورة الأنعام وحولها سبعون ألف ملك لهم رُجُلٌ يَخَارُونَ بالسيح.

وقال كعب: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى ﴿يَبْدُلُوكَ﴾، وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقيل: خاتمتها ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَئًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ﴾ إلى ﴿تَكْبِيرًا﴾.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الأنعام من نجائب القرآن.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من قرأ سورة الأنعام فقد انتهى في رضى ربه.

❶ - ❷ تفسير قوله عز وجل:

هذا تصريح بأن الله تعالى هو الذي يستحق الحمد بأجمعه، لأن الألف واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ لاستغراق الجنس، فهو تعالى له الأوصاف السنية، والعلم والقدرة والإحاطة والإنعام، فهو أهل للمحامد على ضروبها، وله الحمد الذي يستغرق الشكر المختص بأنه على النعم.

لأن الماضي الذي في البيت مبني، والمضارع الذي في الآية معرب.

وقرأ الحسن بن العباس الشامي: ﴿هَذَا يَوْمٌ﴾ بالرفع والتنوين.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ تُكُلُّ السَّمَكَاتِ﴾ الآية - يحتمل أن يكون مما يقال يوم القيامة، ويحتمل أنه مقطوع من ذلك مخاطب به محمد ﷺ وأمته. وعلى الوجهين ففيه عضد ما قال عيسى: «إن تعذب الناس فإنهم عبادك» على ما تقدم من تأويل الجمهور.

كامل تفسير سورة المائدة والله المستعان وهو حسي ونعم الوكيل

(٦) تفسير سورة الأنعام

قيل: هي كلها مكية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت بمكة ليلاً جملةً إلا ست آيات وهي: ﴿قُلْ تَكَلَّأُوا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرُؤُا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ النَّارِ وَالْكَافِرَةُ يَأْبَسُوكَ آبِدِيهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ

﴿قَالَ﴾ حكاية عما قبلها من قوله لعيسى إشارة إليه، وخبر ﴿هَذَا﴾ محذوف إيجازاً، وكأن التقدير: قال الله هذا المقصص يقع أو يحدث يوم ينفع الصادقين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والخطاب - على هذا - لمحمد عليه الصلاة والسلام وأمته، وهذا أشبه من الذي قبله، والبارع المتوجه قراءة الجماعة.

قال أبو علي: ولا يجوز أن تكون ﴿يوم﴾ في موضع رفع على قراءة نافع لأن هذا الفعل الذي أضيف إليه معرب، وإنما يكتسى البناء من المضاف إليه إذا كان المضاف إليه مبنياً نحو: ﴿مِنْ عَذَابٍ يَبْعَثُ﴾، ولا يشبه قول الشاعر:

عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا
وَقُلْتُ: أَلَمْ أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعٌ؟



ولما ورد هذا الإخبار تبعه ذكر أوصافه الموجبة للحمد وهي الخلق للسموات والأرض قوام الناس وأرزاقهم. و ﴿وَالْأَرْضَ﴾ هنا للجنس، فإفرادها في اللفظ بمنزلة جمعها.

والبادي من هذا الترتيب أن السماء خلقت من قبل الأرض، وقد حكاه الطبري عن قتادة، وليس كذلك لأن الواو لا ترتب المعاني، والذي ينبغي من مجموع أي القرآن أن الله تعالى خلق الأرض ولم يذبحها، ثم استوى إلى السماء فخلقها، ثم دحا الأرض بعد ذلك.

و﴿جَعَلَ﴾ ها هنا بمعنى خَلَقَ، لا يجوز غير ذلك، وتأمل لم خصت السموات والأرض بـ ﴿خَلَقَ﴾ والظلمات والنور بـ ﴿جَعَلَ﴾؟ وقال الطبري: ﴿جَعَلَ﴾ هذه هي التي تتصرف في طرق الكلام كما تقول: جَعَلْتُ أَعْمَلُ كَذَا، فكأنه قال: وجعل إظلامها وإنارتها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير جيد لأن (جَعَلَ) إذا كانت على هذا النحو فلا بد أن يرتبط معها فعل آخر كما يرتبط في أفعال المقاربة، كقولك: «كاد زيد يموت» «وجعل زيد يجيء ويذهب»، وأما إذا لم يرتبط معها فعل فلا يصح أن تكون تلك التي ذكر الطبري.

وقال السدي، وكتادة، والجمهور من المفسرين: الظلمات: الليل، والنور: النهار. وقالت فرقة: الظلمات: الكفر، والنور: الإيمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير جيد لأنه إخراج لفظ بين في اللغة عن ظاهره الحقيقي إلى باطن لغير ضرورة، وهذا هو طريق اللغز الذي برى القرآن منه، والنور أيضاً هنا للجنس فإفراده بمشابه جمعه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ دالة على قبح فعل الذين كفروا، لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض وغيرهما قد تقرر، وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد هذا كله عدلوا بربهم، فهذا كما تقول: يا فلان، أعطيتك وأكرمتك وأحسنيت إليك ثم تشمتني؟ أي: بعد مهلة من وقوع هذا كله، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه به (ثم).

و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في هذا الموضع هم كل من عبد شيئاً سوى الله، قال قتادة: هم أهل الشرك خاصة، ومن خصص من المفسرين في ذلك بعضاً دون بعض فلم يصب، إلا أن السابق من حال النبي ﷺ أن الإشارة إلى عبدة الأوثان لمجاورتهم له، ولفظ الآية أيضاً يشير إلى المانوية، ويقال: المائنيّة العابدين للنور، القائلين: إن الخير من فعل النور، وإن الشر من فعل الظلام، وقول ابن أبيزي: «إن المراد أهل الكتاب» بعيد.

و﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ معناه: يسوون ويمثلون، وعدل الشيء قرينه ومثله، والمانوية مجوس، وورد في مصنف أبي داود حديث وهو: «القدورية مجوس هذه الأمة»، ومعناه

الإغلاظ عليهم والذم لهم في تشبيههم بالمجوس، وموضع الشبه هو أن المجوس تقول: الأفعال خيرها خلق النور، وشرها خلق الظلمة، فجعلوا خالقاً غير الله، والقدورية تقول: الإنسان يخلق أفعاله، فجعلوا خالقاً غير الله تعالى عن قولهم، وذهب أبو المعالي إلى أن التشبيه بالمجوس إنما هو لقول القدورية: إن الخير من الله، وإن الشر ليس منه ولا يريد، وإنما قلنا في الحديث: «إنه تغليظ» لأنه قد صرح أنهم من الأمة، ولو جعلهم مجوساً حقيقة لم يصفهم إلى الأمة، وهذا كله إن لو صح الحديث، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ الآية، قال مجاهد، وكتادة، والضحاك، وغيرهم: المعنى: خلق آدم من طين، والبشر من آدم فلذلك قال: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾. وحكى المهدوي عن فرقة أنها قالت: بل المعنى أن النطفة التي يخلق منها الإنسان أصلها من طين ثم يقبلها الله نطفة، وذكره مكي والزهرائي. والقول الأول أليق بالشرعية، لأن القول الثاني إنما يترتب على قول من يقول بأن الطين يرجع بعد التولد والاستحالات الكثيرة نطفة، وذلك مردود عند الأصوليين.

واختلف المفسرون في هذين الأجلين - فقال الحسن بن أبي الحسن، وكتادة، والضحاك: ﴿أَجَلٌ﴾ أجل الإنسان من لدن ولادته إلى موته، و (الأجل المسمى عنده) من وقت موته إلى حشره،

ووصفه بـ (مُسْمًى) عنده لأنه استأثر بعلم وقت القيامة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَجَلًا﴾ الدنيا و﴿أَجَلًا مُّسْمًى﴾ الآخرة، وقال مجاهد: ﴿أَجَلًا﴾ الآخرة، و﴿أَجَلًا مُّسْمًى﴾ الدنيا، بعكس الذي قبله، وقال ابن عباس أيضاً: ﴿أَجَلًا﴾ وفاة الإنسان بالنوم، و﴿أَجَلًا مُّسْمًى﴾ وفاته بالموت، وقال ابن زيد: الأجل الأول هو في وقت أخذ الميثاق على بني آدم حين استخرجهم من ظهر آدم، وبقي أجل واحد مسمى في هذه الحياة الدنيا. وحكى المهدوي عن فرقة: ﴿أَجَلًا﴾ ما عرف الناس من آجال الأهلة والسنين والكوائن، و﴿أَجَلًا مُّسْمًى﴾ قيام الساعة، وحكى أيضاً عن فرقة: ﴿أَجَلًا﴾ مسمى: ما عرفناه من أنه لا نبي بعد محمد ﷺ، و﴿أَجَلًا مُّسْمًى﴾ الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وينبغي أن تتأمل لفظة ﴿فَقَعْتُ﴾ في هذه الآية فإنها تحتل معنيين، فإن جعلت بمعنى: قَدَّر وكتب، ورجعت إلى سابق علمه وقدره فنقول: إن ذلك ولا بد قبل خلقه آدم من طين، وتخرج ﴿ثُمَّ﴾ من معهودها في ترتيب زَمَنِي وقوع الْقَضِيَّتَيْنِ، ويبقى لها ترتيب زَمَنِي الإخبار عنه، كأنه قال: أخبركم أنه خلقكم من طين ثم أخبركم أنه قضى أجلاً، وإن جعلت ﴿فَقَعْتُ﴾ بمعنى: أوجد وأظهر، ويرجع ذلك إلى صفة فعل فيصح أن يكون خلق آدم من طين قبل إظهار هذا الأجل وإبدائه،

وتكون ﴿ثُمَّ﴾ على بابها في ترتيب زَمَنِي وقوع الْقَضِيَّتَيْنِ.

و﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ معناه: تشكُّون، والمزِيَّة: الشك.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ على نحو قوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَذُكَّرُونَ﴾ في التوبيخ على سوء الفعل بعد مهلة من وضوح الحجج.

⑤ - ③ تفسير قوله عز وجل:

قاعدة الكلام في هذه الآية أن حلول الله تعالى في الأماكن مستحيل، وكذلك مماثته للأجرام أو محاذاته لها أو تحيُّره في جهة لا متنازع جواز ذلك عليه تبارك وتعالى، فإذا تقرر هذا فيبين أن قوله تعالى: ﴿وَقَوَّ اللَّهُ فِي السَّمَكَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ ليس على حد قولنا: «زيد في الدار» بل هو على وجه من التأويل آخر، قالت فرقة: ذلك على تقدير صفة محذوفة من اللفظ ثابتة في المعنى، كأنه قال: وهو الله المعبود في السموات وفي الأرض، وعبر بعضهم بأن قَدَّر: هو الله المدبِّر للأمر في السموات وفي الأرض، وقال الزجاج: ﴿فِي﴾ متعلقة بما تضمنه اسم الله تعالى من المعاني، كما يقال: «أمير المؤمنين الخليفة في المشرق والمغرب».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي أفضل الأقوال وأكثرها إحرازاً لفصاحة اللفظ وجزالة المعنى، وإيضاحه أنه أراد أن يدل على خلقه وإيثار قدرته وإحاطته واستيلائه ونحو هذه الصفات فجمع

هذه كلها في قوله: ﴿وَقَوَّ اللَّهُ﴾ أي: الذي له هذه كلها في السموات وفي الأرض، كأنه قال: وهو الخالق الرازق المحيي المحيط في السموات وفي الأرض، كما تقول: زيد السلطان في الشام والعراق، فلو قصدت ذات زيد لقلت محالاً، وإذا كان مقصد قولك: زيد الأمر الناهي الناقض المبرم الذي يعزل ويولي في الشام والعراق فأقمت (السلطان) مقام هذه الآية أقام لفظة [الله] مقام تلك الصفات المذكورة.

وقالت فرقة: ﴿وَقَوَّ اللَّهُ﴾ ابتداء وخبر تم الكلام عنده، ثم استأنف، وتعلق قوله: ﴿فِي السَّمَكَاتِ﴾ بمفعول ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾، كأنه قال: وهو الله يعلم سرِّكم وجهركم في السموات وفي الأرض، فلا يجوز - مع هذا التعلق - أن يكون [هو] ضمير أمر وشأن لأنه يرفع [الله] بالابتداء، و﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ في موضع الخبر، وقد فُرق ﴿فِي السَّمَكَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ بين الابتداء والخبر، وهو ظرف غريب من الجملة، ويلزم قائل هذه المقالة أن تكون المخاطبة بالكاف في قوله: ﴿يَتَذَكَّرُونَ وَجْهَكُمْ وَخَبْرَكُمْ﴾ لجميع المخلوقين الإنس والملائكة، لأن الإنس لا سر ولا جهر لهم في السماء، فترتيب الكلام على هذا القول: «هو الله يعلم يا جميع المخلوقين سرِّكم وجهركم في السموات وفي الأرض».

وقالت فرقة: ﴿وَقَوَّ﴾ ضمير الأمر والشأن، و﴿اللَّهُ فِي السَّمَكَاتِ﴾ ابتداء

وخبر تم الكلام عنده، ثم ابتداء، كأنه قال: «ويعلم في الأرض سرهم وجهركم»، وهذا القول إذ قد تخلص من لزوم مخاطبة الملائكة فهو مُخْلَصٌ من شبهة الكون في السماء بتقدير حذف (المعبود) أو (المدبر) على ما تقدم، وقوله تعالى: ﴿يَرْكَبُكُمْ وَيَهْرِكُمْ وَيَتَكَبَّرُكُمْ﴾ خبر في ضمنه تحذيرٌ وزجرٌ، و ﴿تَكْبِيرُونَ﴾ لفظ عامٌ لجميع الاعتقادات والأفعال والأقوال.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ﴾ الآية. [مَا] نافية و [مِنْ] الأولى هي الزائدة التي تدخل على الأجناس بعد النفي، فكأنها تستغرق الجنس، و [مِنْ] الثانية للتبعية، والآية: العلامة والدلالة والحجة، وقد تقدم القول في وزنها في صدر الكتاب، وتضمنت هذه الآية مذمة هؤلاء الذين يعدلون بالله سواه بأنهم يُعرضون عن كل آية ترد عليهم، ثم اقتضت الفاء في قوله: ﴿فَقَدْ﴾ أن إعراضهم عن الآيات قد أعقب أن كذبوا بالحق وهو محمد عليه الصلاة والسلام وما جاء به، ثم توعدهم بأن يأتيهم عقاب استهزائهم، [مَا] بمعنى الذي، ويصح أن تكون مصدرية، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: يأتيهم مضمن أنباء القرآن الذي كانوا به يستهزئون، وإن جعلت [مَا] مصدرية فالتقدير: يأتيهم نبأ كونهم مستهزئين، أي: عقاب يُخَبَّرُونَ أنه على ذلك الاستهزاء، وهذه العقوبات التي تُؤْعَدُّوا بها تعم عقوبات الدنيا كيدر وغيرها وعقوبات الآخرة.

① تفسير قوله عز وجل:

هذا خَصُّ على العبرة، والرؤية هنا رؤية القلب، و ﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

والقرن: الأمة المقترنة في مدة من الزمان، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «خير الناس قرني» الحديث. واختلف الناس في مدة القرن - كم هي؟ أنها مائة سنة ويرجع ذلك الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ فَإِنْ عَلَى رَأْسِ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهَرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ» قال ابن عمر رضي الله عنهما: يريد أنها تخريم ذلك القرن، وروي أن رسول الله ﷺ قال لعبدالله بن بشر: «تعيش قرناً» فعاش مائة سنة.

وقيل: القرن ثمانون سنة، وقيل: سبعون، وقيل: ستون، وتمسك هؤلاء بالمعترك، وحكى النقاش أربعين، وذكر الزهراوي في ذلك أنه عن النبي ﷺ، وحكى النقاش أيضاً ثلاثين، وحكى عشرين، وحكى ثمانية عشر. وهذا كله ضعيف، وهذه طبقات وليست بقرون، إنما القرن أن يكون وفاة الأشياخ ثم ولادة الأطفال، ويظهر ذلك من قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْنَا مِنْ بَدْرِهِ قُرْآنًا آخِرِينَ﴾، وإلى مراعاة الطبقات وانقراض الناس بنها أشار ابن الماجشون في «الواضحة» في تجويز شهادة السماع في تقادم خمسة عشر عاماً فصاعداً، وقيل: القرن الزمن

نفسه، وهو على حذف مضاف تقديره: «من أهل قرن»، والضمير في ﴿تَكْبَرُكُمْ﴾ عائد على القرن، والمخاطبة في ﴿كَمْ﴾ هي للمؤمنين ولجميع المعاصرين لهم من سائر الناس، فكأنه قال: ما لم نمكن يأهل هذا العصر لكم، فهذا أُبَيَّن ما فيه، ويحتمل أن يقدر في الآية معنى القول لهؤلاء الكفرة، كأنه قال: يا محمد قل لهم: ﴿إِنَّمَا يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قُرُونٍ مَكَتَتْهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تَكُنْ لَكُمْزُ﴾، وإذا أخبرت أنك قلت لغائب أو قيل له أو أمرت أن يقال فلك في فصيح كلام العرب أن تحكي الألفاظ المقولة بعينها فتجيء بلفظ المخاطبة، ولك أن تأتي بالمعنى في الألفاظ بذكر غائب دون مخاطبة.

والسماء: المطر، ومنه قول الشاعر:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ
رَعِيْنَاءُ وَإِنْ كَانُوا غَضَاباً
و ﴿يَذْرَأُكَ﴾ بناء تكثير كمذكار ومثلاث، ومعناه: يدر عليهم بحسب المنفعة، لأن الآية إنما سياقها تعديد النعم، وإلا فظاهرها يحتمل النعمة ويحتمل الإهلاك، وتحتمل الآية أن تُراد السماء المعروفة على تقدير: وأرسلنا مطر السماء لأن ﴿يَذْرَأُكَ﴾ لا يوصف به إلا المطر.

وقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ معناه: فَعَصَوْا وكفروا فأهلكناهم.

﴿وَأَنشَأْنَا﴾ اخترعنا وخلقنا، وجمع ﴿آخِرِينَ﴾ حملاً على معنى القرن.

لجعلناه ولا بُدَّ في خلق رجل لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته، وقاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومما يؤيد هذا المعنى الحديث الوارد عن الرجلين اللذين صعدا على الجبل يوم بدر ليريا ما يكون في حرب النبي عليه الصلاة والسلام للمشركين فسمعا حسن الملائكة وقائلاً يقول في السماء: «أقدم حيزوم» فمات أحدهما لهول ذلك، فكيف برؤية ملك في خلقته؟ ولا يُعارض هذا برؤية النبي عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام وغيره في صورهم لأن النبي عليه الصلاة والسلام أعطي قوة غير هذه كلها ﷺ.

﴿وَلَلْبَسَاءُ﴾ أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون به على أنفسهم وعلى ضعفهم، أي: لفضلنا لهم في ذلك ملبساً يُطْرَق لهم إلى أن يلبسوا به، وذلك لا يحسن. ويحتمل الكلام مقصداً آخر، أي: للبسنا نحن عليهم كما يلبسون على ضعفهم، فكنا ننهاهم عن التلبس ونفعله بهم، ويقال: لبس الرجل الأمر يلبسه لبساً إذا خلطه. وقرأ ابن محيصن: ﴿وَلَبْسَاءُ﴾ بفتح اللام وشد الباء.

وذكر بعض الناس في هذه الآية أنها نزلت في أهل الكتاب، وسياق الكلام ومعانيه يقتضي أنها في كفار العرب.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرئ: ﴿وَلَقَدْ﴾ بضم الدال للضمه بعد الساكن الذي بعد الدال، وقرئ

كنت أصدقك، ثم أسلم بعد ذلك عبدالله وقتل شهيداً في الطائف.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَةً﴾ حكاية عن تشطط من العرب بأن طلب أن ينزل ملك يصدق محمداً في نبوته، ويعلم عن الله عز وجل أنه حق، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، وقال مجاهد: معناه: لقامت القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف. وقال قتادة، والسدي،

وابن عباس رضي الله عنهما: في الكلام حذف تقديره: ولَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا فكذبوا به لقضي الأمر بعدايبهم ولم يُنْظَرُوا حسبما سلف في كل أمة اقترحت بآية وكذبت بعد أن أظهرت إليها، وهذا قول حسن.

وقالت فرقة: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: لماتوا من هول رؤية الملك في صورته، ويؤيد هذا التأويل ما بعده من قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ فإن أهل التأويل مجمعون على أن ذلك لأنهم لم يكونوا يطبقون رؤية الملك في صورته، فالأولى في قوله: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: لماتوا من هول رؤيته.

و ﴿يُنْظَرُونَ﴾ معناه: يُؤْخَرُونَ، والنظرة: التأخير.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ الآية - المعنى: إنا لو جعلناه ملكاً

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَشِرْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَحَقَّ بِالَّذِينَ كَذَبُوا أَنْ يَنْزِلَ إِلَيْهِمْ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِشَيْءٍ مِنْهُ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِمَنْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُفْرَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ لِلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ وَلَوْ مَا سَكَنَ فِي الْآيِلِ وَالْأَنْهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ الْغِنَى وَالْإِفْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطِمْ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنْ أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْدَدُ وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ قُلْ إِنْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾ مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَ مَزِيدٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْيُمِينُ ﴿١٨﴾ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَعِيرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَهُوَ الْغَاثُ رُفُوقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٢٠﴾

﴿٧﴾ - ﴿٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما أخبر عنهم عز وجل بأنهم كذبوا بكل ما جاءهم من آية تبع ذلك إخبار فيه مبالغة مضمنة أنه لو جاءهم أشنع مما جاء لكذبوا أيضاً، والمعنى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا﴾ بمرأى منهم ﴿عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ أي كلاماً مكتوباً ﴿فِي فُرْطَاسٍ﴾، أي في صحيفة، ويقال: فُرطاس بضم الفاف، ﴿فَلَسَوْهُ﴾ يريد أنهم بالغوا في مئزهِ وتقليبه ليرفع كل ارتياب لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم وقالوا: هذا سحر مبین.

ويشبه أن سبب هذه الآية اقتراح عبدالله بن أبي أمية وتعثته إذ قال للنبي ﷺ: «لا أومن لك حتى تصعد إلى السماء ثم تنزل بكتاب فيه: من رب العزة إلى عبدالله بن أمية، يأمرني بتصديقك، وما أراني مع هذا

بكسر الدال على عرف الالتقاء. وهذه تسلية للنبي ﷺ بالأسوة في الرسل، وتقوية لنفسه على محاجة المشركين، وإخبار يتضمن وعيد مكذبيه والمستهزئين.

و ﴿تَكَانَ﴾ معناه: نزل وأحاط، وهي مخصوصة في الشر، يقال: حاق بحيق حيقاً، ومنه قول الشاعر: فَأَوْطَأَ جُرْدَ الْخَيْلِ عَقْرَ دِيَارِهِمْ وَحَاقَ بِهِمْ مِنْ بَأْسِ ضَبَّةٍ حَائِقُ وقال قوم: أصل حاق: حق فبدلت القاف الواحدة كما بدلت النون في: تظننت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

و ﴿تَا﴾ في قوله: ﴿مَا كَانُوا﴾ يصح أن تكون بمعنى الذي، ويصح أن تكون مع الفعل بتأويل المصدر كأنه قال: استهزأهم. وهذه كناية عن العقوبة كما تهدد إنساناً فتقول: سيلحقك عملك، والمعنى: عاقبه. و ﴿سَخِرُوا﴾ معناه: استهزؤوا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا﴾ الآية حض على الاعتبار بآثار من مضى بمن فعل فعلهم، وقال: ﴿كَانَ﴾ ولم يقل: (كانت) لأن تأنيث العاقبة ليس بحقيقي، وهي بمعنى الآخِر والمآل.

ومعنى الآية: سيروا وتلقوا ممن سار، لأن تحصيل العبرة بآثار من مضى إنما يستند إلى جس العين.

﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال بعض أهل التأويل: في الكلام حذف تقديره: ﴿قُلْ لَيْنَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ فَإِذَا تَحِيرُوا وَلَمْ يَجِيبُوا﴾ ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾. وقالت فرقة:

المعنى أنه أمر بهذا السؤال فكأنهم لما لم يجيبوا ولا تيقنوا سألوا فقل له: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾. والصحيح أن الله عز وجل أمر محمداً عليه الصلاة والسلام بقطعهم بهذه الحجة الساطعة والبرهان القطعي الذي لا مدافعة فيه عندهم ولا عند أحد ليعتقد هذا المعتقد الذي بينه وبينهم ثم يتركب احتجاجه عليه، وجاء ذلك في لفظ استفهام وتقرير في قوله: ﴿قُلْ لَيْنَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. والوجه في المحاجة إذا سأل الإنسان خصمه بأمر لا يدافعه الخصم فيه أن يسبقه بعد التقرير إليه مبادرة إلى الحجة، كما تقول لمن تريد غلبته بآية تحتج بها عليه: كيف قال الله في كذا؟ ثم تسبقه أنت إلى الآية فتنتصبها عليه، فكأن النبي ﷺ قال لهم: يأيها الكافرون العادلون بربهم لمن ما في السموات والأرض؟ ثم سبقهم فقال: لله، أي: لا مدافعة في هذا عندهم ولا عند أحد.

ثم ابتدأ يخبر عنه تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ معناه: قضاه وأنفذها، وفي هذا المعنى أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام تتضمن كتب الرحمة، ومعلوم من غير ما موضع من الشريعة أن ذلك للمؤمنين في الآخرة وجميع الناس في الدنيا، منها: «إن الله تعالى خلق مائة رحمة فوضع منها واحدة في الأرض، فيها تعاطف البهائم، وترفع الفرس رجلها لثلاث نطاً ولدها، وبها تعاطف الطير والحيتان، وعنده تسع وتسعون رحمة، فإذا كان يوم القيامة

صير تلك الرحمة مع التسعة والتسعين وبثها في عباد».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فما أشقى من لم تسعه هذه الرحمات، نعمنا الله بفضل منه.

ومنها حديث آخر: «إن الله عز وجل كتب عنده كتاباً فهو عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي» ويروي «نالت غضبي» ومعناه: سبقت، وأنشد عليه ثابت بن قاسم:

أَبْنِي كُلِّيبَ إِنْ عَمِيَا اللَّذَا نَالَا الْمُلُوكَ وَكُنَّا الْأَعْلَالَا

ويتضمن هذا الإخبار عن الله تعالى بأنه كتب الرحمة تأنيث الكفار ونفي بأسهم من رحمة الله إذا تابوا، وأن باب توبتهم مفتوح. قال الزجاج: الرحمة هنا إمهال الكفار وتعميرهم ليتوبوا، وحكى المهدوي أن جماعة من النحويين قالت: إن ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ هو تفسير الرحمة، تقديره: «أن يجمعكم» فيكون ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ في موضع نصب على البذل من ﴿الرَّحْمَةِ﴾، وهو مثل قوله: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِي لِيَسْجُنَّ﴾ حَقَّ جِنَّ ﴿الْمَعْنَى: «أن يسجنوه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يلزم على هذا القول أن تدخل النون الثقيلة في الإيجاب وهو مردود، وإنما تدخل في الأمر والنهي وباختصاص من الواجب في القسم.

وقالت فرقة (وهو الأظهر): إن اللام لام قسم والكلام مستأنف، ويتخرج ذلك في: ﴿لِيَسْجُنَّ﴾.

وقالت فرقة: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (في).

وقيل: على بابها غاية، وهو الأرجح.

و ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أي: هو في نفسه وذاته لا رب فيه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمُ﴾ الآية... قسيل: إن ﴿الَّذِينَ﴾ منادى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو فاسد لأن حرف النداء لا يسقط مع المبهمات.

وقيل: هو نعت ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين تقدم ذكرهم. وقيل: هو بدل من الضمير في ﴿يَجْمَعَنَّكُمْ﴾، قال المبرد: ذلك لا يجوز كما لا يجوز: «مررت بك زيد».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله في الآية: ﴿يَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مخالف لهذا المثال، لأن الفائدة في البدل مترتبة من الثاني، وإذا قلت: «مررت بك زيد» فلا فائدة في الثاني، وقوله: ﴿يَجْمَعَنَّكُمْ﴾ يصلح لمخاطبة الناس كافة فيفيدنا ﴿الَّذِينَ﴾ من الضمير أنهم هم المختصون بالخطاب هنا، وخصوا على جهة الوعيد، ويتضح فيها الوعيد إذا جعلنا (اللام) للقسمة وهو القول الصحيح، ويجيء هذا بدل البعض من الكل.

وقال الزجاج: ﴿الَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا قول حسن، والفاء في قوله: ﴿فَهُمْ﴾ جواب على القول بأن ﴿الَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء لأن معنى الشرط حاصل تقديره: «من خسر نفسه فهو لا يؤمن».

وعلى القول بأن ﴿الَّذِينَ﴾ بدل

من الضمير هي عاطفة جملة على جملة، و ﴿خَسِرُوا﴾ معناه: غبنوا أنفسهم بأن وجب عليها عذاب الله وسخطه، ومنه قول الشاعر:

لا يأخذ الرشوة في حُجْمِهِ
ولا يُبالي غَبْنِ الحَايِرِ

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَأْكُلْ﴾

الآية. ﴿وَلَمْ﴾ عطف على قوله: ﴿لِلَّهِ﴾، واللام للملك، و [مَا] بمعنى: الذي، و ﴿سَكَنَ﴾ هي من السكنى ونحوه، أي: ما ثبت وتقرر، قاله السدي وغيره. وقالت فرقة: هو من السكون، وقال بعضهم: لأن الساكن من الأشياء أكثر من المتحرك إلى غير هذا من القول الذي هو تخطيط، والمقصد في الآية عموم كل شيء، وذلك لا يترتب إلا أن يكون ﴿سَكَنَ﴾ بمعنى: استقر وثبت، وإلا فالمتحرك من الأشياء المخلوقات أكثر من المساكن، ألا ترى إلى الفلك والشمس والقمر والنجوم السابحة والملائكة وأنواع الحيوان، والليل والنهار حاصران للزمان.

﴿وَهُوَ السَّيِّئُ الْكَلِيمُ﴾ هاتان صفتان تليقان بتمط الآية من قبل أن ما ذكر من قبل من الأقوال الرديئة عن الكفرة العادلين هو سميع لها، عليهم بمواقعها، مجاز عليها، ففي الضمير وعيد.

﴿١٤﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: قال الطبري وغيره: أمر أن يقول هذه المقالة للكفرة الذين دعوه إلى عبادة أوثانهم، فتجيء الآية - على هذا - جواباً لكلامهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل يحتاج إلى سند في أن هذا نزل جواباً، وإلا فظاهر الآية لا يتضمنه، والفصح هو أنه لما قرر معهم أن الله تعالى: ﴿لَمْ يَأْكُلْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿وَلَمْ يَأْكُلْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، وأنه ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أمر أن يقول لهم على جهة التوبيخ والتوقيف: أغير هذا الذي هذه صفاته أتخذ ولياً؟ بمعنى أن هذا خطأ لو فعلته بيتن، وتُعطي قوة الكلام أن من فعله من سائر الناس بين الخطأ، و ﴿أَحْذَرُ﴾ عامل في قوله: ﴿أَغْيَرُ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَيْكَ﴾ تقدم أحد المفعولين.

والولي لفظ عام لمعبود وغير ذلك من الأسباب الواصلة بين العبد وربّه. ثم أخذ في صفات الله تعالى فقال: ﴿فَاطِرُ﴾ بخفض الراء نعت لله تعالى، وفطر معناه: ابتدع وخلق وأنشأ، وفطر أيضاً في اللغة: شق، ومنه: ﴿هَلْ رَأَى مِنْ قُطْرٍ﴾ أي: من شقوق، ومن هذا انقطاع السماء، وفي هذه الجهة يتمكن قولهم: «فطر ناب البعير» إذا خرج لأنه يشق اللثة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنتُ أعرف معنى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ﴾ حتى اختصم إليّ أعربيان في بشر فقال أحدهما: أنا فطرناها، أي: اخترعتها وأنشأناها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فحمله ابن عباس على هذه الجهة، ويصح حمله على الجهة الأخرى أنه شق الأرض والبشر حين احتفرها. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿فَاطِرُ﴾ برفع الراء على خبر ابتداء مضمر، أو على الابتداء.

و ﴿يُطْعَمُ وَلَا يَظْمَرُ﴾ المقصود به: يَرْزُقُ ولا يَرْزُقُ، وخَصَّ الإطعام من أنواع الرزق لِمَسْ الحاجة إليه وشهرته واختصاصه بالإنسان. وقرأ يمان العماني، وابن أبي عبيدة: ﴿يُطْعَمُ﴾ بضم الياء وكسر العين في الثاني مثل الأول، يعني الوثن أنه لا يُطْعِم. وقرأ مجاهد، وسعيد بن جببر، والأعمش، وأبو حيوة، وعمرو بن عبيد، وأبو عمرو بن العلاء في رواية عنه في الثاني: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ بفتح الياء على مستقبل (طعيم)، فهي صفة تتضمن التبرية، أي: لا يأكل ولا يشبه المخلوقين.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِيْهِ أُمِرْتُ...﴾ إلى ﴿عَصِيٍّ﴾ قال المفسرون: المعنى: أول من أسلم من هذه الأمة وبهذه الشريعة، ولا يتضمن الكلام إلا ذلك، قالت طائفة: في الكلام حذف تقديره: وقيل لي: ولا تكن من المشركين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتلخيص الكلام في هذا أنه عليه الصلاة والسلام أمر فليل له: «كن أول من أسلم ولا تكونن من المشركين»، فلما أُمِرَ في الآية أن يقول ما أمر به جاء بعض ذلك على المعنى ويعضه باللفظ بعينه. ولفظة ﴿عَصِيٍّ﴾ عامة في أنواع المعاصي، ولكنها هنا إنما تشير إلى الشرك الذي نُهي عنه. واليوم العظيم هو يوم القيامة.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿مَنْ يَضْرِبُ عَنْهُ﴾ بضم الياء وفتح الراء، والمفعول الذي أسند إليه الفعل هو

الضمير العائد على العذاب، فهو مُقَدَّر. وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم أيضاً: ﴿مَنْ يَضْرِبُ عَنْهُ﴾ فيسند الفعل إلى الضمير العائد إلى ﴿رَبِّكَ﴾ ويعمل في ضمير العذاب المذكور أنفاً لكنه مفعول محذوف، وحكي أنه ظهر في قراءة عبدالله وهي: ﴿مَنْ يَضْرِبُ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾، وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿مَنْ يَضْرِبُ عَنْهُ اللَّهُ عَنْهُ﴾ وقيل: إنها لَمَنْ يَضْرِبُ عَنْهُ، قال أبو علي: وحذف هذا الضمير لا يَخْسُنُ كما يَخْسُنُ حذف الضمير من الصلة كقوله عز وجل: ﴿أَمَلْنَا إِلَى بَعْثِكُ اللَّهُ رَسُولًا﴾، وكقوله: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ معناه: بعثه، واصطفاهم - فَحَسُنَ هذا للطول كما علله سيبويه، ولا يَحْسُنُ هذا لعدم الصلة، قال بعض الناس: القراءة بفتح الياء من ﴿يَضْرِبُ﴾ أحسن لأنه يناسب ﴿فَقَدْ رَجِمَهُ﴾، وكأن الأولى على القراءة الأخرى ﴿فَقَدْ رَجِمَهُ﴾ ليتناسب الفعلان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا توجيه لفظي تعلقه خفيف، وأما بالمعنى فالقراءتان واحد، ورجح قوم قراءة ضَمَّ الياء لأنها أقل إضماماً، وأشار أبو علي إلى تحسن القراءة بفتح الياء بما ذكرناه، وأما مكي بن أبي طالب رحمه الله فتخط في كتاب «الهداية» في ترجيح القراءة بفتح الياء، ومثل في احتجاجه بأمثلة فاسدة، والله ولي التوفيق.

و (رَجِمَ) عامل في الضمير المتصل وهو ضمير ﴿مَنْ﴾ ومستند إلى الضمير العائد إلى ﴿رَبِّكَ﴾، وقوله:

﴿وَذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى صرف العذاب وإلى الرحمة والفوز والنجاة.

﴿٧﴾ - ﴿٨﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿يُنَبِّئُكَ﴾ معناه: يُصَبِّحُكَ وَيُنَكِّلُكَ، وحقيقة المس هي بتلاقي جسمين، فكأن الإنسان والضّر يتماثلان.

والضّر بضم الضاد: سوء الحال في الجسم وغيره. والضّر بفتح الضاد: ضد النفع - وناب الضّر في هذه الآية مناب الشر - وإن كان الشر أعم منه - فقابل الخير، وهذا من الفصاحة عدول عن قانون التكلف والصنعة، فإن باب التكلف وترصيع الكلام أن يكون الشيء مقترناً بالذي يختص به بنوع من أنواع الاختصاص موافقة أو مضادة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ فجعل الجوع مع العري وبابه أن يكون مع الظم، ومنه قول امرئ القيس:

كَأَنِّي لَمْ أَزَكِّبْ جَوَاداً لِّلْذَةِ
وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالٍ
وَلَمْ أَسْبِلِ الرُّقَّ الرُّوِّيَّ وَلَمْ أَقُلْ
لِخَبْلِي كَرِي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ
وهذا كثير.

قال السدي: الضّر ها هنا: المرض، والخير: العافية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مثال، ومعنى الآية الإخبار عن أن الأشياء كلها بيد الله، إن ضر فلا كاشف لضره غيره، وإن أصاب بخير فكذلك أيضاً لا راد له

بناء الفعل للمفعول ﴿الْقُرْآنُ﴾ رفعاً. ﴿لَا تُذَكِّرْكُمْ﴾ معناه: لأخوفكم به العقاب والآخرة، و ﴿وَمَنْ﴾ عطف على الكاف والميم في قوله: ﴿لَا تُذَكِّرْكُمْ﴾، و ﴿بَلِّغْ﴾ معناه - على قول الجمهور - بلاغ القرآن، أي: لا تُذَكِّرْكُمْ وأنذر من بلغه، ففي ﴿بَلِّغْ﴾ ضمير محذوف لأنه صلة ﴿وَمَنْ﴾ فحذف الطول الكلام، وقالت فرقة: ومن بلغ الحلم، ففي ﴿بَلِّغْ﴾ - على هذا التأويل - ضمير مقدر راجع إلى ﴿وَمَنْ﴾.

وروي في معنى التأويل الأول أحاديث منها أن النبي ﷺ قال: «يَأْيُهَا النَّاسُ، بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، فَإِنَّهُ مِنْ بَلِّغَ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ بَلِّغَهُ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى أَخَذَهُ أَوْ تَرَكَهُ» ونحو هذا من الأحاديث كقوله: «مَنْ بَلِّغَهُ هَذَا الْقُرْآنَ فَأَنَا نَذِيرُهُ».

وقرأت فرقة: ﴿أَيُّكُمْ﴾ بزيادة ألف بين الهمزة الأولى والثانية المُسهَّلة عاملة بعد هذا التسهيل المعاملة قبل التسهيل، وقرأت فرقة: ﴿أَيُّكُمْ﴾ بهمزتين الثانية مُسهَّلة دون ألف بينهما، وقرأت فرقة: ﴿أَيُّكُمْ﴾ استثقلت اجتماع الهمزتين فزادت ألفاً بين الهمزتين، وقرأت فرقة: ﴿إِنَّكُمْ﴾ بالإيجاب دون تقدير.

وهذه الآية مقصدها التوبيخ وتسفيه الرأي.

و ﴿أَخْرَجَ﴾ صلة لـ ﴿إِلَهِةَ﴾، وصفة جمع ما لا يعقل تجري في الأفراد مجرى الواحدة المؤنثة كقوله: ﴿مَنَارِبٌ أُخْرَى﴾، وكذلك مخاطبة جمع ما لا يعقل كقوله: ﴿يَجِئَالُ أَوَّي مَكَّمْ﴾ ونحو هذا.

ولما كانت هذه الآلهة حجارة وعيداناً أُجريت هذا المجرى.

ثم أمره الله تعالى بالتَّبَرُّي من شهادتهم، والإعلان بالتوحيد لله تبارك وتعالى، والتَّبَرُّي من إشراكهم. ﴿وَلَا تَنْتَهِ﴾ إيجاب ألحق فيه النون التي تلحق الفعل لتبقى حركته عند اتصال الضمير به في قولك: «ضربني» ونحوه.

وظاهر الآية أنها في عبدة الأصنام، وذكر الطبري أنه قد ورد من وجه لم تثبت صحته أنها نزلت في قوم من اليهود، وأسند إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء النحام بن زيد، وفردم بن كعب، وبحري بن عمرو فقالوا: يا محمد ما تعلم مع الله إلهاً غيره؟ فقال لهم: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، بذلك أمرت». فنزلت الآية فيهم.

١٠ - ١١ تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء، وخبره ﴿يَتَرَفُّونَ﴾، و ﴿الْكِتَابَ﴾ معناه: التوراة والإنجيل، وهو لفظ مفرد يدل على الجنس، والضمير في ﴿يَتَرَفُّونَ﴾ عائد - في بعض الأقوال - على التوحيد لقرب قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ﴾، وهذا استشهاد في ذلك على كفر قريش والعرب بأهل الكتاب. و ﴿الَّذِينَ حَسِبُوا﴾ - على هذا التأويل - منقطع مرفوع بالابتداء وليس من صفة ﴿الَّذِينَ﴾ الأولى، لأنه لا يصح أن يُستشهد بأهل الكتاب ويُذَمُّونَ في آية واحدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد يصح ذلك لاختلاف ما استشهد فيه بهم وما ذموا فيه، وأنَّ الذَّمَّ

والاستشهاد ليسا من جهة واحدة. وقال قتادة، والسدي، وابن جريج: الضمير عائد في ﴿يَتَرَفُّونَ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام ورسالته، وذلك على ما في قوله: ﴿وَأَوْحَى إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ لِأَتَذَكِّرْكَ﴾ فكأنه قال: «وأهل الكتاب يعرفون ذلك من إنذاري والوحي إلي». وتأول هذا التأويل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يدل على ذلك قوله لعبد الله بن سلام: إن الله أنزل على نبيه بمكة أنكم تعرفونه كما تعرفون أبناءكم، فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: نعم أعرفه بالصفة التي وصفه الله في التوراة فلا أشك فيه، وأما ابني فلا أدري ما أحدثت أمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتأول ابن سلام رضي الله عنه المعرفة بالابن تحقق صحة نسبه، وغرض الآية إنما هو الوقوف على صورته فلا يخطئ الأب فيها.

وقالت فرقة: الضمير في ﴿يَتَرَفُّونَ﴾ عائد على القرآن المذكور قبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن نعيد الضمير على هذه كلها دون اختصاص كأنه وصف أشياء كثيرة ثم قال: «أهل الكتاب يعرفونه» أي: ما قلنا وما قصصنا.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ حَسِبُوا﴾ الآية... يصح أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ نعتاً تابعاً لـ ﴿الَّذِينَ﴾ قبله، والفاء في قوله: ﴿فَهُمْ﴾ عاطفة جملة على جملة، وهذا يحسن على تأويل من رأى في الآية قبلها أن أهل الكتاب

مَتَّعُون مَذْمُومُونَ لَا مُسْتَشْهَد بِهِمْ .
ويصح أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ رفعاً
بالاتداء على استئناف الكلام،
وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، والفاء
على هذا جواب، و ﴿خَيْرُوا﴾
معناه: غيروها، وقد تقدم.

وروي أن كل عبد له منزل في
الجنة ومنزل في النار، فالمؤمنون
ينزلون منازل أهل الكفر في الجنة،
والكافرون ينزلون منازل أهل الجنة
في النار، فهذا هو الخسارة بيّنة
والريح للآخرين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾
الآية... ﴿وَمَنْ﴾ استفهام مضمنة
التوقيف والتقرير، أي: لا أحد أظلم
ممن افترى. و ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ معناه:
اخترق، والمكذب بالآيات مفتر
كذاب، ولكنهما منحيان من الكفر
فلذلك نصا مفسرين.

والآيات: العلامات والمعجزات
ونحو ذلك، ثم أوجب أنه لا يفلح
الظالمون، والفلّاح: بلوغ الأمل
والإرادة والنجاح، ومنه قول عبيد:

أَفْلِحَ بِمَا شِئْتُ فَقَدْ يُبْلَغُ بِالضُّدِّ
خُفٍ، وَقَدْ يُخْلَعُ الْأَرِيبُ

٢٢ ٢٣ تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾
كلام تام معناه: لا يفلحون جملة ثم
استأنف فقال: واذكر يوم نحشرهم،
وقال الطبري: المعنى: لا يفلح
الظالمون اليوم في الدنيا ﴿وَيَوْمَ
نَحْشُرُهُمْ﴾ عطفاً على الظرف المقدر،
والكلام متصل.

وقرأت طائفة: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ و
﴿نَقُولُ﴾ بالنون، وقرأ حميد
ويعقوب فيهما بالياء، وقرأ عاصم

هنا وفي (يونس) قبل الثلاثين
﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ و ﴿نَقُولُ﴾ بالنون، وقرأ
في باقي القرآن بالياء. وقرأ أبو هريرة
﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بكسر الشين، فيجيء
الفعل - على هذا - حَشَرٌ يَحْشُرُ
وَيَحْشُرُ. وأضاف الشركاء إليهم لأنه
لا شركة لهم في الحقيقة بين الأصنام
وبين شيء، وإنما وقع عليها اسم
الشريك بمجرد تسمية الكفرة
فأضيف إليهم لهذه النسبة.

و ﴿تَزْعُمُونَ﴾ معناه: تدعون
أنهم لله، والزعم: القول الأميل إلى
الباطل والكذب في أكثر كلامهم،
وقد يقال: زعم بمعنى: ذكر دون
ميل إلى الكذب، وعلى هذا الحد
يقول سيبويه، زعم الخليل، ولكن
ذلك إنما يستعمل في الشيء الغريب
الذي تبقى عهده على قائله.

وقوله تعالى: ﴿تَدْرَأُ تَكُنْ فَتَنْتَهُمُ﴾
إِلَّا أَنْ قَالُوا الآية - قرأ ابن كثير في
رواية شبل عنه، وعاصم في رواية
حفص، وابن عامر: ﴿تَكُنْ فَتَنْتَهُمُ﴾
برفع الفتنة، و ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ في
موضع نصب على الخبر، التقدير:
إِلَّا قَوْلُهُمْ. وهذا مستقيم لأنه أتت
العلامة في الفعل حين أسنده إلى
مؤنث وهي الفتنة. وقرأ نافع، وأبو
عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر،
وابن كثير أيضاً: ﴿تَكُنْ فَتَنْتَهُمُ﴾
بنصب الفتنة، واسم كان: ﴿أَنْ قَالُوا﴾
وفي هذه القراءة تأنيث ﴿أَنْ قَالُوا﴾،
وساغ ذلك من حيث الفتنة مؤنثة في
المعنى، قال أبو علي: وهذا كقوله
تعالى: ﴿فَلَمَّا عَشَرَ أَتَتْهُنَّ﴾ فَأَتَتْ
الأمثال لما كانت الحسنات بالمعنى،
وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿يَكُنْ﴾

بالياء ﴿فَتَنْتَهُمُ﴾ بالنصب واسم كان
﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ وهذا مستقيم لأنه
ذكر علامة الفعل حين أسنده إلى
مذكر. قال الزهراوي: وقرأت فرقة:
﴿يَكُنْ فَتَنْتَهُمُ﴾ برفع الفتنة، وفي
هذه القراءة إسناد فعل مذكر إلى
مؤنث، وجاء ذلك بالمعنى لأن الفتنة
بمعنى الاختبار أو المودة في الشيء
والإعجاب. وقرأ أبي بن كعب،
وابن مسعود، والأعمش: ﴿وَمَا كَانَ
فَتَنْتَهُمُ﴾، وقرأ طلحة بن مصرف:
﴿ثُمَّ كَانَ فَتَنْتَهُمُ﴾. والفتنة في كلام
العرب لفظة مشتركة تقال بمعنى حب
الشيء والإعجاب به كما تقول:
فتنت بكذا، وتحتمل الآية هنا هذا
المعنى، أي: لم يكن حبهم للأصنام
وإعجابهم بها واتباعهم لها لما سئلوا
عنها ووقفوا على عجزها إلا التبري
منها والإنكار لها. وهذا توبيخ لهم
كما تقول لرجل يدعي مودة آخر ثم
انحرف عنه وعاداه: يا فلان، لم
تكن مودتك لفلان إلا أن شتمته
وعاديته، ويقال: الفتنة في كلام
العرب بمعنى الاختبار كما قال عز
وجل لموسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ
فُتُونًا﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا
سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا﴾، وتحتمل الآية ها هنا
هذا المعنى لأن سؤلهم عن الشركاء
وتوقيفهم اختبار، فالمعنى: ثم لم
يكن اختبارنا لهم - إذ لم يفد ولا
أثمر - إلا إنكارهم الإشراك، وتجيء
الفتنة في اللغة على معان غير هذين
لا مدخل لها في الآية، ومن قال:
«إن أصل الفتنة الاختبار، ومن فتنت
الذهب في النار، ثم يُستعار بعد
ذلك في غير ذلك» - فقد أخطأ لأن

الاسم لا يحكم عليه بمعنى الاستعارة حتى يقطع باستحالة حقيقته في الموضع الذي استعير له، كقول ذي الرمة:

وَلَقَّ الثُّرَيَّا فِي مُلَاةٍ بِهِ الْفَجْرُ
ونحوه. والفتنة لا يستحيل أن تكون حقيقة في كل موضع قيلت عليه.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿وَاللَّهُ رِيَّتَا﴾ خفض على النعت لاسم الله، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿رِيَّتَا﴾ نصب على النداء، ويجوز فيه تقدير المدح. وقرأ عكرمة، وسلام بن مسكين: ﴿وَاللَّهُ رِيَّتَا﴾ برفع الاسمين وهذا على تقدير تقديم وتأخير كأنهم قالوا: «ما كنا مشركين والله ربنا». و﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ معناه جحود إشراكهم في الدنيا، فروي أنهم إذا رأوا إخراج من في النار من أهل الإيمان ضجوا فيوقفون ويقال لهم: «أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ؟» فينكرون طماعية منهم أن يفعل بهم ما فعل بأهل الإيمان. وأتى رجل ابن عباس فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَاللَّهُ رِيَّتَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وفي أخرى: ﴿وَلَا يَكُونُونَ اللَّهُ حَديقًا﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن قالوا: تعالوا فلنجد، وقالوا: «ما كنا مشركين» فختم الله على أفواههم وتكلمت جوارحهم فلا يكتُمون الله حديثاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعبر بعض المفسرين عن الفتنة هنا بأن قالوا معذرتهم، قاله قتادة، وقال

آخرون: كلامهم، قاله الضحاك، وقيل غير هذا مما هو في ضمن ما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا﴾ الآية... الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام، والنظر نظر القلب، وقال: ﴿كَذَبُوا﴾ في أمر لم يقع إذ هي حكاية يوم القيامة فلا إشكال في استعمال الماضي فيها موضع المستقبل، ويفيدنا استعمال الماضي تحقيقاً لما في الفعل وإثباتاً له، وهذا مهيج في اللغة، ومنه قول الربيع بن ضبع الفزاري:

أَصْبَحْتُ لَا أَخْجِلُ السَّلَاحَ وَلَا
أُمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا
يريد: إن يفر.

﴿وَصَدَّ عَنْهُمْ﴾ معناه: ذهب افتراؤهم في الدنيا وكذبهم بادعائهم لله تبارك وتعالى الشركاء. ﴿وَمِنْهُمْ﴾ في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ عائد على الكفار الذين تضمنهم قبل قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيَّاتًا﴾، وأفسرد ﴿يَتَّبِعُ﴾ وهو فعل جماعة حملاً على لفظ ﴿مِنْ﴾ و﴿أَكِنَّةٌ﴾ جمع كنان وهو الغطاء الجامع، ومنه كنانة السهام والكن، ومنه قوله تعالى: ﴿بَيْضٌ مُكْنُونٌ﴾، ومنه قول الشاعر:

إِذَا مَا انْتَضَوْهَا فِي الرَّوْعَى مِنْ أَكِنَّةٍ
حَسِبْتُ بَرْقَ النَّعْيِ هَاجَتْ غَيُومُهَا
وَقَالَ وَأَفْعَلَةٌ مَهِيحٌ فِي كَلَامِهِمْ.
و﴿أَنْ يَفْقَهُوْا﴾ نصب على المفعول من أجله، أي: كراهية أن يفقهوه، وقيل: المعنى: ألا يفقهوه، ويلزم هذا القول إضمار حرف النفي. و﴿يَفْقَهُوْا﴾ معناه: يفهموه، ويقال:

فقه الرجل بكسر القاف إذا فهم الشيء، وفقه بضمها إذا صار فقيهاً له ملكة، وفقه إذا غلب في الفقه غيره.

والتَّوَفَّرَ: الثقل في السمع، يقال: وَفَّرَتْ أذنه وَوَفَّرَتْ بكسر القاف وفتحها، ومنه قول الشاعر:

وَكَلَامَ سَيِّئٍ قَدْ وَفَّرَتْ
أَذْنِي مَثْنٍ وَمَا بِي مِنْ صَمَمٍ
وقد سمع: أذن موقورة، فالفعل على هذا وَفَّرَتْ. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿وَقَرَأَ﴾ بكسر الواو كأنه ذهب إلى أن أذانهم وقرت بالضم كما تقرر الدابة من الحمل، وهي قراءة شاذة، وهذا عبارة عما جعل الله في نفوس هؤلاء القوم من الغلظ والبعد عن قبول الخير، لا أنهم لم يكونوا سامعين لأقواله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَرَوْا كَلًّا أَبَدًا﴾ الآية... الرؤية هنا رؤية العين، يريد كانشقاق القمر وشبهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومقصد هذه الآية أنهم في أعجز درجة وحاولوا رد الحق بالدعوى المجردة، والواو في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ واو الحال، والباب أن يصرح معها بقدر، وقد تجيء أحياناً مقدرة، وإيضاح ذلك أنه تعالى قال: ومن هؤلاء الكفرة من يستمعك وهو من الغباوة في حد قلبه في كنان، وأذنه صماء، وهو يرى الآيات فلا يؤمن بها، ولكنه مع بلوغه الغاية من هذا القصور إذا جاء للمجادلة قابل بدعوى مجردة.

والمجادلة: المقابلة في الاحتجاج، مأخوذ من الجدل، و﴿هَذَا﴾ في

قولهم إشارة إلى القرآن، والأساطير: جمع أسطار، كأقوال وأقاريل ونحوه، وأنسطار: جمع سطر أو سطر، وقيل: الأساطير: جمع إسطار وهي الثرعات، وقيل: جمع أسطورة كأعجوبة وأضحوة، وقيل: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه كعابيد وشمايط، والمعنى: أخبار الأولين وأقاصيصهم وأحاديثهم التي تسطر وتحكى ولا تحقق كالتواريخ، وإنما شبهها الكفار بأحاديث النضر بن الحارث وأبي عبدالله بن أبي أمية عن رستم والسندباد، ومجادلة الكفار كانت مرادتهم نور الله بأفواههم المبطله، وقد ذكر الطبري عن ابن عباس أنه مثل من ذلك قولهم: إنكم أيها المتبعون محمداً تأكلون ما قتلتم بذبحكهم ولا تأكلون ما قتل الله، ونحو هذا من التخليط الذي لا تتركب منه حجة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا جدال في حكم، والذي في الآية إنما هو جدال في مدافعة القرآن، فلا تتفسر الآية عندي بأمر الذبح.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ عائذ على المذكورين قبل. والضمير في ﴿عَنْهُمْ﴾ قال قتادة، ومجاهد: يعود على القرآن المتقدم ذكره في قوله: ﴿أَنْ يَقْنَهُوا﴾. وقال ابن عباس، وابن الحنفية، والضحاك: هو عائذ على محمد عليه الصلاة والسلام، والمعنى أنهم ينهون غيرهم ويبعدون هم بأنفسهم، والتأي: البعد.

﴿إِنْ يَهْلِكُونَ﴾ معناه: ما يهلكون إلا أنفسهم بالكفر الذي يدخلهم جهنم، وقال ابن عباس أيضاً، والقاسم، وحبيب بن أبي ثابت، وعطاء بن دينار، المراد بقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أبو طالب ومن كان معه على حماية رسول الله ﷺ وعلى الدوام في الكفر، والمعنى: وهم ينهون عنه من يريد إذايته، ويتأون عنه بإيمانهم واتباعهم، فهم يفعلون الشيء وخلافه. ويُقلق هذا القول ردُّ قوله: ﴿وَهُمْ﴾ على جماعة الكفار المتقدم ذكرها، لأن جميعهم لم يكن ينهى عن إذاية النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتخرج ذلك ويحسن على أن تقدر القصد ذكر ما ينهى على فريق من الجماعة التي هي كلها مُجمِعة على الكفر، فخرجت العبارة عن فريق من الجماعة بلفظ يعم الجماعة لأن التوبيخ على هذه الصورة أغلظ عليهم، كما تقول إذا شئت على جماعة فيها زناة وسرقة وشربة خمر: هؤلاء يزنون ويسرقون ويشربون الخمر، وحقيقة كلامك أن بعضهم يفعل هذا وبعضهم يفعل هذا، فكأنه قال: من هؤلاء الكفرة من يستمع وهم ينهون عن إذايته ولا يؤمنون به، أي: منهم من يفعل ذلك.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ معناه: ما يعلمون علم حس، وهو مأخوذ من الشعار الذي يلي بدن الإنسان، والشعار مأخوذ من الشعر، ونفْيُ الشعور مذمة باللغة إذ البهائم تشعر وتُحس، فإذا قلت: «فلان لا يشعر» فقد نفيت

عنه العلم النفي العام الذي يقتضي أنه لا يعلم ولا المحسوسات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقرأ الحسن: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾. أَلْقَيْت حركة الهمزة على النون على التسهيل القياسي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَقُولُ عَلَىٰ الْعَرْسِ﴾ الآية. المخاطبة فيه لمحمد ﷺ، وجواب [لَوْ] محذوف تقديره في آخر هذه الآية: لرأيت هؤلاء أو مشقات أو نحو هذا، وحذف جوابها في مثل هذا أبلغ لأن المخاطب يترك مع غاية تخيله.

ووقعت ﴿إِذْ﴾ في موقع (إذا) التي هي لما يُستقبل، وجاز ذلك لأن الأمر المتيقن وقوعه يُعبر عنه كما يعبر عن الماضي الوقوع. و﴿وَيَنْهَوْنَ﴾ معناه: حبسوا، ولفظ هذا الفعل متعدياً وغير متعد سواء، تقول: وقفْتُ أنا ووقفْتُ غيري. وقال الزهراوي: وقد فُرّق بينهما بالمصدر، ففي المتعدي: وقفْتُ ووقفاً، وفي غير المتعدي: وقفت ووقفاً، قال أبو عمرو بن العلاء: لم أسمع في شيء من كلام العرب أوقفْتُ فلاناً، إلا أنني لقيت رجلاً واقفاً فقلت له: ما أوقفك ها هنا؟ لكان عندي حسناً، ويحتمل قوله: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَلَىٰ الْعَرْسِ﴾ أن يكون: دخلوها، فكان وقوفهم عليها أي فيها، قاله الطبري، ويحتمل أن يكون: أشرفوا عليها وعانوها.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وعاصم في رواية أبي بكر رضي الله عنه: ﴿وَلَا نُكْذِبُ﴾ «ونكون» بالرفع في

بَلْ يَدَّاهُمْ بَمَا كَانُوا يَحْكُمُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَلَهُمْ لَكُذُوبٌ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَى رِجْلِهِمْ قَالَ أَيْسَ هَذَا
يَا أَحَقُّ قَالُوا لَئِنْ دَرِينَا قَالَ فُدُّوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿٣٠﴾ فَدَخِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ حَتَّى إِذْ جَاءَهُمُ السَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا أَنْصِرْ لَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا أَسَاءَ مَا يَرْبُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا
لُغْوٌ وَلَهُوَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْلَمُونَ
﴿٣٢﴾ مَدَّعَيْنَهُمُ اللَّهُ لِيَحْكُمَ ذَلِكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ
وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ
رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُهُمْ عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأُوذُوا إِخْوَتَهُمْ صَبْرًا
وَلَا مَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّائِ الْمُرْسَلِينَ
﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَرِهَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ
نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا إِلَى السَّمَاءِ فَتُنَزِّلَهُمْ عَلَيْهِمْ نَارًا وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْخَالِفِينَ ﴿٣٥﴾

١٣١

بنصب الفعلين، وذلك
كما تنصب الفاء في
جواب التمني، فالزأؤ في
ذلك والفاء بمنزلة، وهذا
على تقدير ذكر مصدر
الفعل الأول، كأنهم
قالوا: يا ليتنا كان لنا ردُّ
وعدمُ تكذيب وكونُ من
المؤمنين. وقرأ ابن عامر
في رواية هشام بن عمار
عن أصحابه عن ابن
عامر: ﴿وَلَا نَكْذِبُ﴾
بالرفع ﴿وَتَكُونُ﴾ بالنصب.
ويتوجه ذلك - على ما
تقدم - في مصحف
عبدالله بن مسعود: ﴿يَا
لَيْتِنَا نُرَدُّ فَلَا نَكْذِبُ بآيَاتِ

كلها، وذلك على نيّة الاستئناف
والقطع في قوله: ﴿وَلَا نَكْذِبُ﴾
﴿وَتَكُونُ﴾ أي: يا ليتنا نُرَدُّ، ونحن
على كل حال لا نَكْذِبُ ونكونُ،
فأخبروا عن أنفسهم بهذا، ولهذا
الإخبار صح تكذيبهم بعد هذا،
ورجّح هذا سيبويه ومثله بقولك:
دعني ولا أعودُ، أي: وأنا لا أعود
على كل حال، ويُخَرِّج ذلك على
قول آخر وهو أن يكون: ﴿وَلَا
نَكْذِبُ﴾ ﴿وَتَكُونُ﴾ داخلًا في التمني
على حدّ ما دخلت فيه ﴿نُرَدُّ﴾،
كأنهم قالوا: يا ليتنا نُرَدُّ، وليتنا لا
نَكْذِبُ، وليتنا نكونُ، ويعترض هذا
التأويل بأن من تمنى شيئًا لا يقال:
إنه كاذب، وإنما يُكْذِبُ من أخبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وينفصل عن هذا الاعتراض بأن
يكون قوله: ﴿وَلَهُمْ لَكُذُوبٌ﴾ حكاية
عن حالهم في الدنيا كلامًا مقطوعاً
عما قبله، وبوجه آخر وهو أن
التمنّي إذا كانت سجيته وطريقته
مخالفة لما تمنى بعيدة منه يصح أن
يقال له: كذبت على تجوز، وذلك
أن من تمنّى شيئاً فتمنّيه يتضمن
إخباراً أن تلك الأمنية تصلح له
ويصلح لها، فيقع التكذيب في ذلك
الإخبار الذي يتضمنه التمني، ومثال
ذلك أن يقول رجلٌ شرير: ليتني
أحجُّ وأجاهد وأقوم الليل، فجائز أن
يقال لهذا على تجوز: كذبت، أي
أنت لا تصلح لهذا ولا يصلح لك.

وروي عن أبي عمرو أنه أدغم باء
﴿نَكْذِبُ﴾ في الباء التي بعدها، وقرأ
ابن عامر، وحزمة وعاصم في رواية
حفص: ﴿وَلَا نَكْذِبُ﴾ ﴿وَتَكُونُ﴾

مضى، وإنما يصح التكذيب الذي
ذكرناه قبل هذا على تجوز في تمنى
المستقبلات.

﴿٢٨﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:
الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ عائذ على من
ذكر في قوله: ﴿وَتَكُونُ﴾ و ﴿قَالُوا﴾،
وهذا الكلام يتضمن أنهم كانوا
يخفون شيئاً ما في الدنيا فظهر لهم
يوم القيامة، أو ظهر لهم وبأله
وعاقبته، فحذف المضاف وأقيم
المضاف إليه مقامه. وحكى
الزهراوي عن فرقة أنها قالت: الآية
في المنافقين لأنهم كانوا يخفون
الكفر فبدا لهم وبأله يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وتقلق العبارة على هذا التأويل لأنه
قال: ﴿وَتَكُونُ﴾ يريد جماعة كفار، ثم
قال: ﴿بَدَّاهُمْ﴾ يريد المنافقين من
هؤلاء الكفار، والكلام لا يعطي هذا

رَبَّنَا وَتَكُونُ﴾ بالتاء، وفي قراءة
أبي بن كعب: ﴿يَا لَيْتِنَا نُرَدُّ فَلَا
نَكْذِبُ بآيَاتِ رَبَّنَا أَبَدًا وَنَكُونُ﴾،
وحكى أبو عمرو أن قراءة أبي:
﴿بآيَاتِ رَبَّنَا وَنَحْنُ نَكُونُ﴾.

وقوله: ﴿نُرَدُّ﴾ في هذه الأقوال
كلها معناه: إلى الدنيا، وحكى
الطبري تأويلاً آخر وهو: يا ليتنا نرد
إلى الآخرة، أي: نبعث نوقف على
النار التي وقفنا عليها مكذبين، ليت
ذلك ونحن في حالة لا نكذب
ونكون، فالمعنى: يا ليتنا نوقف هذا
الوقوف غير مكذبين بآيات ربنا
كاثنين من المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا التأويل يضعف من غير وجه،
ويبطله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا
لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾، ولا يصح أيضاً
التكذيب في هذا التمني لأنه تمنى ما

إلا على تحامل. قال الزهراوي: وقيل: إن الكفار كانوا إذا وعظهم النبي ﷺ خافوا وأخفوا ذلك الخوف لثلاث يشعر به أتباعهم فظهر لهم ذلك يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يكون مقصد الآية الإخبار عن هول ما لقوه والتعظيم لما شقوا به، فعبّر عن ذلك بأنهم ظهرت لهم مستوراتهم في الدنيا من معاص وغير ذلك. فكيف الظن - على هذا - بما كانوا يعلنون من كفر ونحوه؟ وينظر إلى هذا التأويل قوله تعالى في تعظيم شأن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَكُنُ أَتْرَابًا﴾. ويصح أن يقد الشيء الذي كانوا يخفونه في الدنيا نبوة محمد ﷺ وأقواله، وذلك أنهم كانوا يخفون ذلك في الدنيا بأن يحرقوه عند من يرد عليهم، ويصفوه بغير صفته، ويتلفوا الناس على الطرق فيقولون لهم: هو ساحر، هو يفرق بين الأقارب، يريدون بذلك إخفاء أمره وإبطاله، فمعنى هذه الآية على هذا: بل بدا لهم يوم القيامة أمرك وصدقك وتحذيرك وإخبارك بعقاب من كفر الذي كانوا يخفونه في الدنيا، ويكون الإخفاء على ما وصفناه.

وقال الزجاج: المعنى: ظهر للذين اتبعوا العتوة، ما كان العتوة يخفون من البعث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالضميران على هذا ليسا لشيء واحد، وحكى المهدوي عن الحسن نحو هذا. وقرأ يحيى بن وثاب، والتخمي،

الأمش: ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ بكسر الراء على نقل حركة الدال من (رُودُوا) إليها.

وقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ إخبار عن أمر لا يكون كيف كان يوجد، وهذا النوع مما استأثر الله بعلمه، فإن أعلم بشيء منه علم وإلا لم يتكلم فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ إما أن يكون متصلاً بالكلام ويكون التكذيب في إخبارهم على معنى أن الأمر في نفسه بخلاف ما قصدوا لأنهم قصدوا الكذب، أو يكون التكذيب في التمني على التجوز الذي ذكرناه. وإما أن يكون منقطعاً إخباراً مستأنفاً عما هم عليه في وقت مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام، والأول أصوب.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ الآية... هذا - على تأويل الجمهور - ابتداء كلام وإخبار عنهم بهذه المقالة، ويحسن مع هذا أن يكون قوله قبل: ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ مستأنفاً مقطوعاً خبراً عن حالهم في الدنيا التي من قولهم فيها: «إن هي إلا حياتنا الدنيا» وغير ذلك، و«إن» نافية، ومعنى الآية التكذيب بالحشر والعودة إلى الله، وقال ابن زيد: قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ معطوف على قوله: ﴿لَعَادُوا﴾ أي: لعادوا لما نهوا عنه من الكفر وقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتوقيف الله لهم في الآية بعدها على البعث والإشارة إليه في قوله:

﴿أَنَّىٰ نَحْنُ هَٰذَا إِلَّا نَحْنُ﴾ يرُدُّ على هذا التأويل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا﴾ الآية... بمعنى: ولو ترى إذ وقعوا كما تقدم أنفاً من حذف جواب [لوا]، وقوله: ﴿عَلَىٰ رَيْبٍ﴾ معناه: على حُكمه وأمره، ففي الكلام ولا بُدَّ حذف مضاف. وقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى البعث الذي كذبوا به في الدنيا، و«بَئِشَ» هي التي تقتضي الإقرار بما استفهم عنه منفيّاً ولا تقتضي نفيه وجحده، و«نَعَمْ» تصلح للإقرار به، كما ورد ذلك في قول الأنصار للنبي عليه الصلاة والسلام حين عاتبهم في الحظيرة عقب غزوة حنين، وتصلح أيضاً «نَعَمْ» لجحده فلذلك لا تستعمل، وأما قول الزجاج وغيره: إنها إنما تقتضي جحده، وإنهم لو قالوا: (نَعَمْ) عند قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ لكفروا فقول خطأ، والله المستعان. وقولهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إيمان ولكنه حين لا ينفع، وقوله: ﴿دُوقُوا﴾ استعارة بليغة، والمعنى: باشروه مباشرة الذائق إذ هي من أشد المباشرات.

تفسير قوله عز وجل:

هذا استئناف إخبار عن خسارة المكذبين يتضمن تعظيم المصاب الذي حلَّ بهم، وتستعمل الخسارة في مثل هذا لأنه من أخذ الكفر وأتبعه فكأنه قد أعطى الإيمان وأطرحه، فأشبهت صفقة أخذ وإعطاء.

والإشارة بهذه الآية إلى الذين قالوا: «إنما هي حياتنا الدنيا»، وقوله: ﴿يَلْبَسَ اللَّهُ﴾ معناه: بالرجوع

إليه وإلى أحكامه وقدرته، كما تقول: لَقِيَ فلان أعماله، أي لقي عواقبها ومآلها. و ﴿الْآتَاءُ﴾: يوم القيامة، وأدخل عليها تعريف العهد دون تقدم ذكرها لشهرتها واستقرارها في النفوس وذبوع أمرها، وأيضاً فقد تضمنها قوله تعالى: ﴿يَلْقَاءُ اللَّهَ﴾.

و ﴿بَنَّةٌ﴾ معناه: فجأة، تقول: بغتني الأمر أي فجأني، ومنه قول الشاعر:

ولكنهم تابوا ولم أخش بنَّةً
وأقطع شنيء حين يفجؤك البغت
ونصبها على المصدر في موضع الحال، كما تقول: «فتلته صبراً»، ولا يجوز سبويه القياس عليه، لا تقول: «جاء فلان سرعة» ونحوه.

ونداء «الحسرة» على تعظيم الأمر وتشنيعه، قال سيبويه: وكان الذي ينادي الحسرة أو العجب أو السرور أو الويل يقول: اقربي أو احضري فهذا وقتك وزمنك، وفي ذلك تعظيم للأمر على نفس المتكلم وعلى سامعه إن كان ثم سامع، وهذا التعظيم على النفس والسماع هو المقصود بنداء الجمادات كقولك: يا دار، ويا ربّ، وفي نداء ما لا يعقل كقولهم: يا جمل، ونحو هذا.

و ﴿كُرْطًا﴾ معناه: قصرنا مع القدرة على ترك التقصير، وهذه حقيقة التفريط، والضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائد على الساعة، أي: في التقدمة لها، وهذا قول الحسن، وقال الطبري: يعود على الصفة التي يتضمنها ذكر الخسارة في أول الآية، ويحتمل أن يعود الضمير على الدنيا إذ المعنى يقتضيها وتجيء الظرفية

أمكن بمنزلة: زيد في الدار، وعوّذه على الساعة إنما معناه في أمورها والاستعداد لها بمنزلة: زيد في العلم مشغل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحِيقُونَ آَوَارَهُمْ﴾ الآية... الواو واو الحال. والآوار: جمع وُزْر بكسر الواو وهو الثقل من الذنوب، تقول منه: وَزَّرَ يَزِرُ إذا حمل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا زُرُّ وَارِدٌ وَزَّرَ أُخْرَى﴾، وتقول: وَزَّرَ الرجل فهو مَزُور، قال أبو عبيدة: والعامّة تقول: مأزور، وأما إذا اقترن ذلك بمأجور فإن العرب تقول: مأزور، وقد قال النبي ﷺ: لِنِسَاءٍ لَقِيَهُنَّ مَقْبَلَاتٌ مِنَ الْمَقَابِرِ: «ارجعن مأزورات غير مأجورات»، قال أبو علي وغيره: فهذا للإتباع اللفظي، والوُزْر هنا تجوز وتشبيه بثقل الأحمال، وقوى التشبيه بأن جعله على الظهور إذ هي في العادة موضع حمل الأثقال، ومن قال إنه من الوُزْر وهو الجبل الذي يُلْتَجأ إليه - ومنه الوزير وهو المعين - فهي مقالة غير بينة. وقال الطبري وغيره: هذا على جهة الحقيقة. وَزَّوًا في ذلك خبراً أن المؤمن يلقاه عمله في أحسن صورة وأفرحها فيسلم عليه ويقول له: طالما ركبك في الدنيا وأجهذتك فاركبنني اليوم، قال: فيحمله تمثال العمل، وأن الكافر يلقاه عمله في أقبح صورة وأنتنها فيشتمه ويقول: أنا عملك الخبيث، طالما ركبني في الدنيا بشهواتك فأنا أركبك اليوم، قال: فيحمل تمثال عمله وأوزاره على ظهره.

وقوله تعالى: ﴿آَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾

إخبار عن سوء ما يأتون مُضْمَنَ التعظيم لذلك والإشادة به، وهذا كقول النبي ﷺ: «آَلَا فَلْيَبْلُغِ الشاهد الغائب» وقوله: «آَلَا هل بلغت؟»، فإنما أراد الإشادة والتشديد، وهذا كله يتضمنه ﴿آَلَا﴾، وأما ﴿سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ فهو خبر مجرد كقول الشاعر:

رضيت خطئة خسف غير طائلة
فساء هذا رضى يا قيس غيلانا
و ﴿سَاءَ﴾ فعل ماض، و ﴿مَا﴾ فاعلة به كما تقول: «ساءني أمر كذا»، ويحتمل أن تجري ﴿سَاءَ﴾ هنا مجرى (بئس) ويقدر لها ما قد يقدر لبئس إذ قد جاء في كتاب الله: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ﴾.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا ابتداء خبر عن حال الدنيا، والمعنى: إنها إذا كانت فانية منقضية لا طائل لها أشبهت اللعب واللهو الذي لا طائل له إذا انقضى.

وقرأ السُّنَّةُ من القراء: ﴿وَلَدَانِ﴾ بلامين، و ﴿وَلَدَانِ﴾ نعت للدنار، وقرأ ابن عامر وحده: ﴿وَلَدَانِ﴾ بلام واحدة، وكذلك وقع في مصاحف الشام بإضافة الدار إلى الآخرة، وهذا نحو: مسجد الجامع، أي: مسجد اليوم الجامع، فذلك هذا: ولدان الحياة الآخرة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿يَغْفِلُونَ﴾ على إرادة الغائب. وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿مَقِيلُونَ﴾ على إرادة المخاطبين، وكذلك في الأعراف وفي آخر يوسف، ووافقه أبو بكر في آخر

يوسف، فأما ﴿أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ في ﴿يَسَّ﴾ فقرأه نافع وابن ذكوان بناءً والباقون بياءً.

وهذه الآية تتضمن الرد على قولهم: «إن هي إلا حياتنا الدنيا» وهو المقصود بها، ويصح أن يكون قوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ على معنى: فقل لهم يا محمد: إذ الحال على هذه الصفة أفلا تعلمون؟

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَلَّه﴾ الآية... (قد) الملازم للفعل حرف يجيء مع التوقع إما عند المتكلم وإما عند السامع أو مقدراً عنده، فإذا كان الفعل خالصاً للاستقبال كان التوقع من المتكلم كقولك: قد يقوم زيد، وقد ينزل المطر في شهر كذا، وإذا كان الفعل ماضياً أو فعل حال بمعنى الماضي مثل آيتنا هذه فإن التوقع ليس من المتكلم بل المتكلم موجب ما أخبر به، وإنما كان التوقع ليس من المتكلم بل المتكلم موجب ما أخبر به، وإنما كان التوقع عند السامع فيخبره المتكلم بأحد المتوقعين. و ﴿نَلَّه﴾ تتضمن - إذا كانت من الله تعالى - استمرار العلم وقدمه، فهي تَعْمُ الماضي والحال والاستقبال، ودخلت (أَنَّ) للمبالغة في التأكيـد.

وقرأ نافع وحده: ﴿لَيُخْزِنَنَّكَ﴾ من (أُخْزِنَ)، وقرأ الباقون: ﴿لَيُخْزِنَنَّكَ﴾ من (خُزِنَ الرجل)، وقرأ أبو رجاء: ﴿لَيُخْزِنَنَّكَ﴾ بكسر اللام والزاي وجزم النون، وقرأ الأعشى: ﴿أَنَّهُ﴾ بفتح الهمزة ﴿يُخْزِنَنَّكَ﴾ بغير لام، قال أبو علي الفارسي: تقول العرب: خُزِنَ الرجل بكس الزاي يَخْزِنُ خَزْناً وخُزِنَ، وخَزِنَتْهُ أنا.

وحكي عن الخليل أن قولهم: (خَزِنَتْهُ) ليس هو تغيير (خَزِنَ) على نحو (دَخَلَ وأدْخَلَتْ)، ولكنه بمعنى: جعلت فيه خُزْناً، كما تقول: كَحَلَّتْهُ ودَقَعْتُهُ، قال الخليل: ولو أردت تغيير (خَزِنَ) لقلت: (أَخْزِنَتْهُ)، وحكى أبو زيد الأنصاري في كتاب «خبايا» عن العرب: «أَخْزِنْتُ الرجل»، قال أبو علي: و (خَزِنْتُ) الرجل أكثر استعمالاً عندهم من (أَخْزِنْتُ)، فمن قرأ: ﴿لَيُخْزِنَنَّكَ﴾ بضم الياء فهو على القياس في التغيير، ومن قرأ: ﴿لَيُخْزِنَنَّكَ﴾ بفتح الياء وضم الزاي فهو على كثرة الاستعمال.

و ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ لفظ يعمُ جميع أقوالهم التي تتضمن الرد على النبي ﷺ والدفع في صدر نبوته، كقول بعضهم: إنه كذاب، مفتر، ساحر، وقول بعضهم: إنه مجنون مسحور، وقول بعضهم: له رُئي من الجن، ونحو هذا.

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وحَمْزَةُ: ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ بتشديد الذال وفتح الكاف، وقرأها ابن عباس ورَدَّها على قارئ عليه: ﴿يَكْذِبُونَكَ﴾ بضم الياء وقال: إنهم كانوا يسمونه الأمين، وقرأ نافع، والكسائي بسكون الكاف وتخفيف الذال، وقرأها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهما قراءتان مشهورتان صحيحتان، واختلف المتأولون في معانها - فقال فرقة: هما بمعنى واحد كما تقول: سَقَيْتُ وَأَسْقَيْتُ وَقُلْتُ وَأَقْلُتُ وَكَثَرْتُ

وَأَثَرْتُ، وحكى الكسائي أن العرب تقول: «كَذَّبْتُ الرجل» إذا نسبت الكذب إليه، و «أَكْذَبْتُهُ» إذا نسبت الكذب إلى ما جاء به دون أن تنسبه إليه، وتقول العرب أيضاً: «أَكْذَبْتُ الرجل» إذا وجدته كاذباً، كما تقول: «أَخْمدْتُهُ» إذا وجدته محموداً، فالمعنى على قراءة من قرأ: ﴿يَكْذِبُونَكَ﴾ بتشديد الذال، أي: لا تحزن فإنهم لا يَكْذِبُونَكَ تكذيباً يضررك، إذ لست بكاذب في حقيقتك، فتكذيبهم كلا تكذيب، ويحتمل أن يريد: «فإنهم لا يَكْذِبُونَكَ» على جهة الإخبار عنهم أنهم لا يَكْذِبُونَ وأنهم يعلمون صدقه ونبوته، ولكنهم يجحدون عناداً منهم وظلماً، والآية على هذا لا تتناول جميع الكفار، بل تخص الطائفة التي حكي عنها أنها كانت تقول: إنا لنعلم أن محمداً صادق ولكن إذا أئنا به فُضِّلْنَا بنو هاشم بالنبوة فنحن لا نؤمن به أبداً، ورويت هذه المقالة عن أبي جهل ومن جرى مجراه، وحكى النقاش أن الآية نزلت في الحارث بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف، فإنه كان يكذب في العلانية ويصدق في السُر ويقول: نخاف أن تتخطفنا العرب ونحن أكلة رأس، والمعنى على قراءة من قرأ: ﴿يَكْذِبُونَكَ﴾ بتخفيف الذال يحتمل ما ذكرناه أولاً في ﴿يَكْذِبُونَكَ﴾ أي: لا يجدونك كاذباً في حقيقتك، ويحتمل هذين الوجهين اللذين ذكرت في ﴿يَكْذِبُونَكَ﴾ بشد الذال.

وآيات الله: علاماته وشواهد نبيه محمد ﷺ، و ﴿يَحْمَدُونَ﴾ حقيقته

في كلام العرب: الإنكار بعد معرفة، وهو ضد الإقرار، ومعناه - على تأويل من رأى الآية في المعاندين - مترتب على حقيقته، وهو قول قتادة والسدي وغيرهما، وعلى قول من رأى أن الآية في الكفار قاطبة دون تخصيص أهل العناد يكون في اللفظة تجوز، وذلك أنهم لما أنكروا نبوته وراموا تكذيبه بالدعوى التي لا تعضدها حجة عثر عن إنكارهم بأقبح وجوه الإنكار وهو الجحد تغليظاً عليهم وتقبيحاً لفعلهم، إذ معجزاته وآياته نيرة يلزم كل مفطور أن يعلمها ويقر بها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجميع ما في هذه التأويلات من نفي التكذيب إنما هو عن اعتقادهم وأما أقوالهم جميعهم فمكذبة إما له وإما للذي جاء به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكفر العناد جائز الوقوع بمقتضى النظر، وظواهر القرآن تعطيه كقوله: ﴿وَمَكَّدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ﴾ وغيرها، وذهب بعض المتكلمين إلى المنع من جوازه، وذهبوا إلى أن المعرفة تقتضي الإيمان والجحد يقتضي الكفر ولا سبيل إلى اجتماعهما، وتأولوا ظواهر القرآن فقالوا في قوله تعالى: ﴿وَمَكَّدُوا بِهَا﴾: إنها في أحكام التوراة التي بدلوها كآية الرجم وغيرها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ودفع ما يتصور ويُغفل من جواز كفر العناد على هذه الطريقة صعب، أما إن كفر العناد من العارف بالله والثبوة بعيد لأنه لا داعية لكفر العناد إلا

الحسد، ومن عرف الله والثبوة وأن محمداً يجيئه ملك من السماء فلا سبيل إلى بقاء الحسد مع ذلك، أما إنه جائز فقد رأى أبو جهل على رأس النبي ﷺ فحلاً عظيماً من الإبل قد هم بأبي جهل ولكنه كفر مع ذلك، وأسند الطبري أن جبريل عليه السلام وجد النبي عليه الصلاة والسلام حزينا فسأله فقال: «كذبني هؤلاء»، فقال: «إنهم لا يكذبونك، بل يعلمون أنك صادق ولكن الظالمين بآيات الله يجهلون»، والذي عندي في كفر حُتَي بن أخطب ومن جرى مجراه أنهم كانوا يرون صفات النبي ﷺ ويعرفونها أو أكثرها، ثم يرون من آياته زائداً على ما عندهم فيتعلقون في مغالطة أنفسهم بكل شبهة بأضعف سبب، وتتخالج ظنونهم فيقولون مرة: هو ذاك، ومرة: عساه ليسه، ثم ينضاف إلى هذا حسدهم وفقدتهم الرياسة فيتزيد ويتمكن إعراضهم وكفرهم فهم على هذا، وإن عرفوا أشياء وعاندوا فيها فقد قطعوا في ذلك بأنفسهم عن الوصول إلى غاية المعرفة ويقوا في ظلمة الجهل، فهم جاهرون بأشياء معاندون في أشياء غيرها، وأنا استبعد العناد مع المعرفة التامة.

﴿٣٤﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية تضمنت عرض الأسوة التي ينبغي الاقتداء بها على محمد رسول الله ﷺ وترجيته أن يأتيه مثل ما أتاهم من النصر إن امتثل ما امتثلوه من الصبر.

قال الضحّاك وابن جريج: عزى الله بهذه الآية نبيه ﷺ، وزوي

عن ابن عامر أنه قرأ: ﴿وَأُذُوا﴾ بغير واو بعد الهمزة. ثم قوي ذلك الرجاء بقوله: ﴿وَلَا يَمِيلُ لِكَيْفَتِ اللَّهِ﴾ أي: لا راؤ لأمره وكلماته السابقة بما يكون، ولا مكذب لما أخبر به، فكأن المعنى: فاصبر كما صبروا وانتظر ما يأتي وثق بهذا الإخبار فإنه لا مبدل له، فالقصد هنا هذا الخبر وجاء اللفظ عاماً لجميع كلمات الله السابقة، وأما كلام الله عز وجل في التوراة والإنجيل فمذهب ابن عباس رضي الله عنهما أنه لا مبدل لها وإنما حرفها اليهود بالتأويل لا ببدل حروف وألفاظ، وجوز كثير من العلماء أن يكونوا بدلوها الألفاظ لأنهم استخفطوها، وهو الأظهر، وأما القرآن فإن الله تضمن حفظه فلا يجوز فيه التبديل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَرِئَا لَكُمْ لِكُفُوتُونَ﴾ وقال في أولئك: ﴿يَمَّا اسْتُخِفُّوا مِنْ كَيْفَتِ اللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّائِ الرُّسُلِ﴾ أي فيما أنزلناه وقصصناه عليك ما يقضي هذا الذي أخبرناك به، وفاعل ﴿جَاءَكَ﴾ مضمر على ما ذهب إليه الطبري والرماني تقديره: ولقد جاءك نبأ أو أنباء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب عندي في المعنى أن يقرر: جلاء أو بيان.

وقال أبو علي الفارسي: قوله: ﴿مِنْ نَبِيِّائِ الرُّسُلِ﴾ في موضع رفع بـ (جاء) ودخل حرف الجر على الفاعل، وهذا على مذهب الأخفش في تجويزه دخول (من) في الواجب، ووجه قول الرماني أن (من) لا تزداد في الواجب.

وهذه الآية تُرَدُّ على القدرية المغرضة الذين يقولون: إن القدرة لا تقتضي أن يؤمن الكافر وإن ما يأتيه الإنسان من جميع أفعاله لا خلق لله فيه، تعالى الله عن قولهم.

و ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يحتمل في ألا يعلم أن الله لو شاء لجمعهم، ويحتمل في أن تهتم بوجود كفرهم الذي قدره وأراد، وتذهب بك نفسك إلى ما لم يقدره الله تعالى.

ويظهر تباين ما بين قوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وبين قوله لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وقد تقرر أن محمداً ﷺ أفضل الأنبياء، قال مكي والمهدي: الخطاب بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ للنبي عليه الصلاة والسلام والمراد به أمته، وهذا ضعيف لا يقتضيه اللفظ، وقال قوم: وقُر نوح لِسُنِّه وشيئته، وقال قوم: جاء الحمل أشد على محمد ﷺ لقربه من الله تعالى ومكانته عنده كما يُحْمَلُ الْمُعَاقِبُ على قريبه أكثر من حملة على الأجانب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والوجه القوي عندي في الآية هو أن ذلك لم يجيء بحسب الثبوت، وإنما جاء بحسب الأمرين اللذين وقع النهي عنهما والعتاب فيهما، ويُنْهَى أن الأمر الذي نُهي عنه محمد ﷺ أكبر قدراً وأخطر واقعة من الأمر الذي واقعه نوح ﷺ.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا من النُّطْ المتقدم في التسلية، أي: لا تحفل بمن أعرض فإنما

بحق ملكه فلا تكونن من الجاهلين في أن تأسف وتحزن على أمر أَرَادَهُ الله وأمضاه وَعَلِمَ المصلحة فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أسلوب معنى الآية.

واسم ﴿كَانَ﴾ يصح أن يكون الأمر والشأن، و ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ خبرها، ويصح أن يكون ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ هو اسم ﴿كَانَ﴾ ويقدر في ﴿كَبُرَ﴾ ضمير، وتكون ﴿كَبُرَ﴾ في موضع الخبر، والأول من الوجوهين أَقْبَسُ.

والنق: السرب في الأرض، ومنه نافقاء البربوع، والسُّلْم: الشيء الذي يُصعد عليه ويرتقى، ويمكن أن يشتق اسمه من السلامة لأنه سببها، وجمعه: سلاليم، ومنه قول الشاعر:

لَا يَخْجِزُ الْمَرْءُ أَحْجَاءَ الْبِلَادِ وَلَا

ثُبْنِي لَهُ فِي السَّمَوَاتِ السَّلَالِيمُ

و ﴿فَتَأْتِيهِمْ بَيِّنَاتٌ﴾ أي: بعلامة، ويريد إما في فعلك ذلك، أي: تكون

الآية نفس دخولك في الأرض أو ارتقائك في السماء، وإما أن تأتيتهم

بالآية من إحدى الجهتين، وحذف جواب الشرط قبل في قوله: ﴿كَانَ

أَسْتَغْفَرَ﴾ إيجازاً لفهم السامع به، تقديره: فافعل أو فدونك كما تقدم.

و ﴿لَجَمْعُهُمْ﴾ يحتمل إما بأن

يخلقهم مؤمنين، وإما بأن يكسبهم

الإيمان بعد كفرهم بأن يشرح

صدورهم، و ﴿الْمَدَى﴾: الإرشاد،

﴿إِنَّمَا اسْتَغِيبَ الَّذِينَ يَرْجُونَ يَوْمَهُمُ الْمَوْقُ بِعَمَلِهِمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَرْجَعُونَ﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا ذَاتُوا فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَهْرٌ يَعْصِمُ عَنْ مَخَافَةِ اللَّهِ إِلَّا أَمْرٌ أَنَا لَكُمْ مَافُوتَانِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ لِي رَحْمَةٌ يُخْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُوكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَتَانَكُمْ أَلَمْ تَكُنْ أَغْيَرَهُ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا فَتَحْنَا كُفُوكُمْ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَخَذْنَا مِنْهُمُ بِالْعَاقِبَةِ وَأَلْهَمْنَا قُلُوبَهُمْ بَظُنُونِمْ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا شَاءَ مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعُوا أَوْفَوْا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الآية. آية فيها إلزام الحجة للنبي ﷺ وتقسيم الأحوال عليه حتى يتبين أن لا وجه إلا الصبر والمضي لأمر الله تعالى، والمعنى: إن كنت تعظم تكذيبهم وكفرهم على نفسك وتلتزم الحزن عليه فإن كنت تقدر على دخول سرب في أعماق الأرض أو على ارتقاء سلم إلى السماء فدونك وشأنك به، أي أنك لا تقدر على شيء من هذا، ولا بد لك من التزام الصبر واحتمال المشقة ومعارضتهم بالآيات التي نصبها الله تبارك وتعالى للناظرين المتأملين، إذ هو - لا إله إلا هو - لم يُرَد أن يجمعهم على الهدى، وإنما أراد أن ينصب من الآيات ما يهتدي بالنظر فيه قوم ويضل آخرون، إذ خلقهم على الفطرة وهدى السبيل وسبقت رحمته غضبه، وله ذلك كله

يستجيب لداعي الإيمان الذين يقيمون الآيات ويتلقون البراهين بالقبول، فعبر عن ذلك كله بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ إذ هو طريق العلم بالنبوة والآيات المعجزة، وهذه لفظة تستعملها الصوفية، إذا بلغت الموعظة من أحد مبلغاً شافياً قالوا: سمع.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرِيدُ الْكُفَّارِ فَعَبْرَ عَنْهُمْ بِضَدِّ مَا عَبْرَ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ، وبالصفة التي تشبه حالهم في العمى عن نور الله تبارك وتعالى والصَّغْمُ عن وعي كلماته، قاله مجاهد، وقتادة، والحسن.

و ﴿يَعْتَمِدُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ يحتمل معنيين - قال الحسن: معناه: يبعثهم الله بأن يؤمنوا حين يوقفهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فتجيء الاستعارة في هذا التأويل في الوجهين: في تسميتهم موتى وفي تسمية إيمانهم وهدايتهم بعثاً، والواو على هذا مشرقة في العامل عطف ﴿وَالَّذِينَ يَرِيدُ الْكُفَّارِ﴾ على ﴿وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾. وكان معنى الآية: إنما يستجيب الذين يرشدون حين يسمعون فيؤمنون، والكفار حين يرشدهم الله بمشيئته، فلا تتأسف أنت ولا تستعجل ما لم يقدر. وقرأ الحسن: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾ فتناست الآية. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَالَّذِينَ يَرِيدُ الْكُفَّارِ﴾ أي هم بمثابة الموتى حين لا يرون هدى ولا يسمعون فيسعون، و ﴿يَعْتَمِدُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: يحشرهم يوم القيامة، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾ أي إلى سطوته وعقابه يرجعون،

وقرأت هذه الطائفة ﴿يَرْجَعُونَ﴾ بياء، والواو على هذا عاطفة جملة كلام على جملة، و ﴿وَالَّذِينَ يَرِيدُ الْكُفَّارِ﴾ مبتدأ و ﴿يَعْتَمِدُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ خبره، فكأن معنى الآية: إنما يستجيب الذين يسمعون فيؤمنون، والكفار سيبعثهم الله ويردهم إلى عقابه، فالآية على هذا متضمنة الوعيد للكفار، والعائد على ﴿وَالَّذِينَ يَرِيدُ الْكُفَّارِ﴾ هو الضمير في ﴿يَسْمَعُونَ﴾.

والضمير في ﴿قَالُوا﴾ عائد على الكفار، و ﴿وَلَوْلَا﴾ تحضيض بمعنى: هلاً، قال الشاعر:

تَعْدُونَ عَقْرَ الثَّيْبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ
بَنِي ضَوْطَرَى لَوْلَا الْكَيْفِ الْمُقْتَمَا
ومعنى الآية: هلاً أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام بيان واضح لا يقع معه توقف من أحد كملك يشهد له أو كنز أو غير ذلك من تشططهم المحفوظ في هذا، فأمر عليه الصلاة والسلام بالرد عليهم بأن الله عز وجل له القدرة على إنزال تلك الآية ﴿وَلَكِنْ أَكْفَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها لو نزلت ولم يؤمنوا لعلجوا بالعذاب، ويحتمل ﴿وَلَكِنْ أَكْفَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله تعالى إنما جعل المصلحة في آيات معرضة للنظر والتأمل ليهتدي قوم ويضل آخرون.

وقوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ دَابَّةٍ﴾ الآية - المعنى في هذه الآية التنبيه على آيات الله الموجودة في أنواع مخلوقاته، أي: قل لهم: إن الله قادر على أن ينزل آية إلا أنكم لا تعلمون وجه الحكمة في ألا ينزل آية مجهزة وإنما يحيل على الآيات المنصوبة لمن فكر واعتبر كالدواب

والطير التي قد حصرت جميع الحيوان، وهي أمم أي جماعات مماثلة للناس في الخلق والرزق والحياة والموت والحشر، ويحتمل أن يريد بالمماثلة أنها في كونها أمماً لا غير، كما تريد بقولك: «مررت برجل مثلك» أي في أنه رجل، ويصح في غير ذلك من الأوصاف إلا أن الفائدة في هذه الآية إنما تقع بأن تكون المماثلة في أوصاف غير كونها أمماً، قال الطبري وغيره: والمماثلة في أنها يهتبل بأعمالها وتحاسب ويقص لبعضها من بعض على ما روي في الأحاديث، أي: فإذا كان يفعل هذا بالبهائم فأنتم أخرى إذ أنتم مكلفون عقلاء، وروى أبو ذر أنه انتطحت عنزان بحضرة النبي ﷺ فقال: «أتعلمون فيم انتطحتن؟» قلنا: لا، قال: «فإن الله يعلم وسيقضي بينهما». وقد قال مكي في: المماثلة في أنها تعرف الله تعالى وتعبده، وهذا قول خلف.

و ﴿دَابَّةٍ﴾ وزنها: فاعلة، وهي صفة وضعت موضع الاسم كما قالوا: الأعرج والأبرق، وأزيل منه معنى الصفة، وليست بالصفة الغالبة في قولنا: العباس والحارث، لأن معنى الصفة باق في الصفة الغالبة. وقرأ طائفة: ﴿وَلَا طَيْرٍ﴾ عطفاً على اللفظ، وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: ﴿وَلَا طَائِرٍ﴾ بالرفع عطفاً على المعنى، وقرأت فرقة: ﴿وَلَا طَيْرٍ﴾ وهو جمع طائر.

وقوله: ﴿يَجْعَلُ﴾ تأكيد وبيان وإزالة للاستعارة المتعاهدة في اللفظة، فقد يقال: طائر السعد

والنحس. وقال تعالى: ﴿الزَّيْنَةُ طَكِرُوْهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أي: عمله، ويقال: «طار لفلان طائر كذا» أي سهمه في المقتسمات، فقولوه تعالى: ﴿يَحَاجُّوْهُ إِخْرَاجَ لِلطَّائِرِ عَنْ هَذَا كَلَهُ.

وقرأ علقمة، وابن هرمز: «قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ» بتخفيف الراء، والمعنى واحد، وقال النقاش: «قَرَطْنَا» مخففة: أخرنا، كما قالوا: «قَرَطَ الله عنك المرض» أي أزاله، والأول أصوب، والتفريط: التقصير في الشيء مع القدرة على ترك التقصير. و «الْكِتَابِ»: القرآن، وهو الذي يقتضيه نظام المعنى في هذه الآيات، وقيل: اللوح المحفوظ. و «بَيْنَ شَيْءٍ» - على هذا القول - عام في جميع الأشياء، وعلى القول بأنه قرآن خاص: في الأشياء التي فيها منافع للمخاطبين وطرائق هدايتهم. و «يُحْشَرُونَ» قالت فرقة: حشر البهائم: موتها. وقالت فرقة: حشرها: بعثها. واحتجوا بالأحاديث المضمنة أن الله تعالى يقتص للجناء من القرآن، إنما هي كناية عن العدل وليست بحقيقة، فهو قول مردود ينحو إلى القول بالرموز ونحوها.

٣٩ - تفسير قوله عز وجل:

كأنه قال: وما من دابة ولا طائر ولا شيء إلا وفيه آية منصوبة على وحدانية الله تبارك وتعالى، ولكن الذين كذبوا صم ويكحم لا يتلقون ذلك ولا يقبلونه. وظاهر الآية أنها تعم كل مكذب، وقال النقاش: نزلت في عبد الدار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ثم انسحبت على سواهم.

ثم بين أن ذلك حكم من الله عز وجل بمشيئته في خلقه فقال مبتدئاً للكلام: «مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ» شرط وجوابه، وقوله: «فِي الظُّلُمَاتِ» ينوب عن (غمي)، و «فِي الظُّلُمَاتِ» أمول عبارة وأنصح وأوقع في النفس. والصرط: الطريق الواضح.

وقوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ» ابتداء احتجاج على الكفار الجاعلين لله شركاء، والمعنى: أرايتم إذا خفتم عذاب الله أو خفتم هلاكاً أو خفتم الساعة أتدعون أصنامكم وتلجؤون إليها في كشف ذلك إن كنتم صادقين في قولكم: إنها آلهة؟ بل تدعون الله الخالق الرزاق فيكشف ما خفتموه إن شاء وتنسون أصنامكم أي تتركونهم، فعبّر عن الترك بأعظم وجوهه الذي هو مع الترك ذهول وإغفال، فكيف يجعل إلهاً من هذه حاله في الشدائد والأزمات؟

وقرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة: «أَرَأَيْتُمْ» بألف مهموزة على الأصل، لأن الهمزة عين الفعل، وقرأ نافع بتخفيف الهمزة بين بين على عرف التخفيف وقياسه، وروي عنه أنه قرأها بألف ساكنة وحذف الهمزة، وهذا تخفيف على غير قياس، والكافي في (أرايتك زيدا، وأرايتكم) ليست باسم، وإنما هي مجردة للخطاب كما هي في (ذلك) و (أبصرك زيدا) ونحوه، ويدل على ذلك أن (أريت) بمعنى العلم إنما تدخل في الابتداء والخبر، فالأول

من مفعوليهما هو الثاني بعينه، والكاف في (أرايتك زيدا) ليست المفعول الثاني كقوله تعالى: «أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ»، فإذا لم تكن اسماً صح أنها مجردة للخطاب، وإذا تجردت للخطاب صح أن التاء ليست للخطاب كما هي في (أنت)، لأن علامتي خطاب لا تجتمع على كلمة، كما لا تجتمع علامتا تأنيث ولا علامتا استفهام، فلما تجردت التاء من الخطاب وبقيت علامة الفاعل فقط استغني عن إظهار تغيير الجمع فيها والتأنيث لظهور ذلك في الكلام. وبقيت التاء على حد واحد في الإفراد والتثنية والجمع والتأنيث، وروي عن بعض بني كلاب أنه قال: «أتعلمك كان أحد أشعر من ذي الرمة؟» فهذه الكاف صلة في الخطاب.

و «أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ» معناه: أناكم خوفه وأماراته وأوائله مثل الجذب والبأساء والأمراض ونحوها التي يخاف منها الهلاك، ويدعو إلى هذا التأويل أنا لو قدرنا إتيان العذاب وحلوله لم يترتب أن يقول - بعد ذلك -: «فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ» لأن ما قد صح حلوله ومضى على البشر لا يصح كشفه، ويحتمل أن يراد ب «الْكَاشِفِ» في هذه الآية ساعة موت الإنسان.

وقوله تعالى: «بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ» الآية - المعنى: بل لا ملجأ لكم إلا الله، وأصنامكم مطرحة منسية، و [ما] بمعنى الذي تدعون إليه من أجله، ويصح أن تكون [ما] ظرفية، ويصح أن تكون مصدرية على حذف

فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّينَ ﴿٤٢﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَحَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ
 مِنْ إِلَهٍ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ تُصَرِّفُونَ الْآيَاتِ
 ثُمَّ يَصْدُقُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْزَلْنَا عَذَابَ اللَّهِ
 بِفِتْنَةٍ أَوْ جَهَرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَمَا
 رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ
 فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ
 عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ
 إِن أَنْشَأَ لَكُمْ مَوْجِدًا إِلَى قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ
 أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا
 إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ دُونُهُ وَلِيٍّ وَلَا يُفَعِّلُ لَهُمْ شَيْئًا
 وَلَا تَقْظِرْ أَيْدِيكَ عَنْهُمْ بِغَدُودٍ وَأَلْعَاشٍ يُرِيدُونَ
 وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
 عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَقْظِرْ أَيْدِيكَ عَنْهُمْ فَتَنْكُرُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٨﴾

١٣٣

أَخَذَتْهُمْ بَفْتَةٍ. وقال محمد بن
 النضر الحارثي: أمهل هؤلاء القوم
 عشرين سنة، وروى عقبة بن عامر أن
 النبي ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ اللَّهَ يُعْطِي
 الْعِبَادَ مَا يَشَاءُونَ عَلَى مَعَاصِيهِمْ فَذَلِكَ
 اسْتِدْرَاجٌ»، ثم تلا ﴿تَلَسَّسُوا﴾ الآية
 كلها.

و ﴿أَخَذَتْهُمْ﴾ - في هذا الموضع -
 معناه: استأصلناهم وسطونا بهم، و
 ﴿بَفْتَةٍ﴾ معناه: فجأة، والعامل فيه
 ﴿أَخَذَتْهُمْ﴾، وهو مصدر في موضع
 الحال لا يقاس عليه عند سيبويه،
 والمُبْتَلِس: الحزين الباهت اليأس من
 الخير الذي لا يُحِيرُ جواباً لشدة ما
 نزل به من سوء الحال.

وقوله تعالى: ﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْرِ﴾
 الآية. الدابر: آخر الأمر الذي يَذْبُرُهُ
 أي: يأتي من خلفه، ومنه قول
 الشاعر:

الكفار وضرب المثل
 لهم. و ﴿لَوْ لَا﴾ تحضيض
 وهي التي تلي الفعل
 بمعنى (هلاً)، وهذا على
 جهة المعاتبة لمذنب
 غائب، وإظهار سوء فعله
 مع تحسر ما عليه،
 والمعنى: إذ جاءهم أوائل
 البأس وعلاماته وهو تردد
 البأساء والضراء. و
 ﴿تَلَسَّسَ﴾ معناه: صلبت
 وهي عبارة عن الكفر،
 ونسب التزيين إلى
 الشيطان وقد قال تعالى
 في آية أخرى: ﴿كَذَلِكَ
 زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ لأن
 تسبب الشيطان ووسوسته

تجلب حسن الكفر في قلوبهم،
 وذلك المجلوب الله يخلقه، فإن
 تُسب إلى الله تعالى فبأنه خالقه،
 وإلى الشيطان فبأنه سببه.

وقوله تعالى: ﴿تَلَسَّسُوا﴾
 الآية... عبّر عن الترك بالنسيان إذا
 بلغ وجوه الترك الذي يكون معه
 نسيان، وزوال المتروك عن الذهن،
 وقرأ ابن عامر فيما روي عنه:
 ﴿فَتَحَنَّنَا﴾ بتشديد التاء، و ﴿كُلِّ
 نَفْسٍ﴾ معناه: مما كان سُدَّ عليهم
 بالبأساء والضراء من النعم الدنيوية،
 فهو عموم معناه خصوص. و ﴿فَرَحُوا﴾
 معناه: بطروا وأشروا وأعجبوا وظنوا
 أن ذلك لا يبسب، وأنه دال على
 رضى الله عنهم وهو استدراج من الله
 تبارك وتعالى، وقد روي عن بعض
 العلماء أنه قال: «رحم الله عبداً تدبر
 هذه الآية ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾

في الكلام، قال الزجاج: هو مثل:
 ﴿وَتَسَلَّى الْفَرِيَّةَ﴾، والضمير في
 ﴿إِلَيْهِ﴾ يحتمل أن يعود إلى الله
 تعالى بتقدير: فيكشف ما تدعون فيه
 إلى الله تعالى، ويحتمل أن يعود
 على [ما] بتقدير: فيكشف ما تدعون
 إليه، و ﴿إِنْ شَاءَ﴾ استثناء، لأن
 المحنة إذا أظلت عليهم فدعوا إليه
 في كشفها وصرفها فهو - لا إله إلا
 هو - كاشف إن شاء ومصيب إن
 شاء، لا يجب عليه شيء. وتقدم
 معنى: ﴿وَتَسَلَّى﴾. و ﴿إِيَّاهُ﴾ اسم
 مضمَر أُجْرِي مجرى المظهرات في
 أنه يضاف أبداً، وقيل: هو مبهم،
 وليس بالقوي لأن الأسماء المبهمة
 مُضْمَنَةُ الإشارة إلى حاضر نحو: ذاك
 وتلك وهؤلاء، و (إِيَّاهُ) ليس فيه
 معنى الإشارة.

٤٢ - ٤٣ تفسير قوله عز وجل:

في الكلام حذف يدل عليه الظاهر
 تقديره: فكذبوا فأخذناهم، ومعناه:
 لازمناهم وتابعتناهم الشيء بعد
 الشيء. والبأساء: المصائب في
 الأموال، والضراء: في الأبدان، هذا
 قول الأكثر، وقيل: قد يوضع كل
 واحد بدل الآخر، ويؤدب الله عباده
 بالبأساء والضراء، ومن هنالك أدب
 العباد نفوسهم بالبأساء في تفريق
 المال والضراء في الحمل على البدن
 في جوع وعري.

والترجي في ﴿لَمَلَّ﴾ في هذا
 الموضع إنما هو على معتقد البشر،
 أي: لو رأى أحد ذلك لرجا
 تضرعهم بسببه، والتضرع: التذلل
 والاستكانة، وفي المثل: «إِنْ الْحَمَى
 أَضْرَعَتْني لَكَ» ومعنى الآية توعد

فَأُفْلِكُوا بِعَذَابٍ خِصٍّ دَابِرُهُمْ
فَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ دَفْعاً وَلَا انْتَصَرُوا
وقول الآخر:

وقد زعمت غلباً بغيض وَلَفُهَا
بِأَنِّي وَحِيدٌ قَدْ تَقَطَّعَ ذَابِرِي
وهذه كناية عن استئصال شأفتهم
ومحو آثارهم كأنهم وردوا العذاب
حتى ورد آخرهم الذي ذُبرهم، وقرأ
عكرمة: ﴿فَقَطَّعَ﴾ بفتح القاف الطاء
﴿ذَابِرَ﴾ بالنصب.

وَحَسَّنَ الحمد عقب هذه الآية
لجمال الأفعال المتقدمة في أن أرسل
الرسول، وتَلَطَّفَ في الأخذ بالبأساء
والضراء ليتضرع إليه فيرحم ويُنعم،
وقطع في آخر الأمر دابر الظلمة،
وذلك حَسَّنَ في نفسه ونعمة على
المؤمنين فحُسِّنَ الحمد يعقب هذه
الأفعال، ويحمد الله ينبغي أن يختم
كل فعل وكل مقالة لا رب غيره.

﴿٤٦﴾ - ﴿٤٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء احتجاج على الكفار، و
﴿أَخَذَ اللَّهُ﴾ معناه: أذهب وانتزعه
بقدرته، ووَحَّدَ السمع لأنه مصدر
مفرد يدل على جمع، والضمير في
﴿يَوْمَ﴾ عائد على المأخوذ، وقيل:
على السمع، وقيل: على الهدى
الذي يتضمنه المعنى، وقرأ الأعرج
وغيره: ﴿يَوْمَ أَتَقَطَّرُ﴾ بضم الهاء،
ورواها المسيبي، وأبو وقرة عن
نافع، و﴿يَصْدِفُونَ﴾ معناه: يعرضون
وينفرون، ومنه قول الشاعر:

إِذَا ذَكَرْتَ حَدِيثاً قُلْنَا أَحْسَنُهُ
وَمَنْ عَنْ كُلِّ سُوءٍ يُتَقَى صَدْفُ
قال النقاش: في الآية دليل على
تفضيل السمع على البصر لنقدمه
هنا، ثم احتج لذلك بقوله: ﴿إِنَّا

يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وبغير ذلك.
والاستفهام في قوله: ﴿مِنْ إِلَهِ﴾
معناه التوقيف، أي: ليس ثمة إله
سواه فما بال تعلقكم بالأصنام
وتمسككم بها وهي لا تدفع ضرراً
ولا تأتي خيراً؟ وتصريف الآيات هو
نُصِبَ العِبَر ومجيء آيات القرآن
بالإنذار والإعذار والبشارة ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾
الآية، وعيد وتهديد. و﴿بَنَّةٌ﴾
معناه: لا يتقدم عندكم منها علم، و
﴿جَهَنَّةٌ﴾ معناه: تبدو لكم مخايله
ومبادهيه ثم تتوالى حتى تنزل. قال
الحسن بن أبي الحسن: ﴿بَنَّةٌ﴾
فسجأة، و﴿جَهَنَّةٌ﴾ نهاراً، قال
مجاهد: ﴿بَنَّةٌ﴾ فجأة أمينين، و
﴿جَهَنَّةٌ﴾ وهم ينظرون.

وقرأ ابن مُحَيِّصٍ: ﴿هَلْ يَهْلِكُ﴾
على بناء الفعل للفاعل، والمعنى:
هل تهلكون إلا أنتم لأن الظلم قد
تبين في حيزكم. و﴿هَلْ﴾ ظاهرها
الاستفهام ومعناها التسوية المضمنة
لنفي، ولا تكون التسوية بها إلا في
النفي، وتكون بالألف في نفي وفي
إيجاب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُرِيدُ الْمُرْسَلِينَ﴾
الآية. المعنى: إنما نرسل الأنبياء
المخصوصين بالرسالة ليبشروا
بإِنْعَامنا ورحمتنا لمن آمن، وينذروا
بعذابنا وعقابنا من كذب وكفر ولسنا
نرسلهم ليقترح عليهم الآيات
ويتابعوا شذوذ كل متعسف متعمق.
ثم وعد من سلك طريق البشارة فآمن
وأصلح في امتثال الطاعات، وأوعد
الذي سلك طريق النذارة فكذب
بآيات الله وفسق أي: خرج عن

الحُدُ في كفرانه وعصيانه، وقال ابن
زيد: «كل فسق في القرآن فمعناه
الكذب»، ذكره عنه الطبري مسنداً،
و﴿يَسْمَعُونَ﴾ أي: يباشروهم ويلصق
بهم. وقرأ الحسن والأعمش
﴿الْعَذَابَ بِمَا﴾ بإدغام الباء في الباء،
ورويت عن أبي عمرو، وقرأ
يحيى بن وثاب والأعمش:
﴿يَفْسِقُونَ﴾ بكسر السين، وهي لغة.
﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا من الرذ على القائلين: «لولا
أنزل عليه آية» والطالبين أن ينزل
ملك أو تكون له جنة أو أكثر أو نحو
هذا، والمعنى: لسئ بهذه الصفات
فيلزمني أن أجيبكم باقتراحاتكم.

وقوله: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ
اللَّهِ وَلَا أَقْلَمُ الْكَيْبِ﴾ يحتمل معنيين
أظهرهما: أنه يريد أنه بشر لا شيء
عنده من خزائن الله ولا من قدرته
ولا يعلم شيئاً مما غيب عنه،
والآخر: أنه ليس بإله، فكأنه قال:
لا أقول لكم إني أنصف بأوصاف إله
في أن عندي خزائنه وأنني أعلم
الغيب. وهذا هو قول الطبري.

وتعطي قوة اللفظ في هذه الآية أن
الملك أفضل من البشر، وليس ذلك
بلازم في هذا الموضع، وإنما الذي
يلزم منه أن الملك أعظم موقعاً في
نفوسهم وأقرب إلى الله، والتفضيل
يعطيه المعنى عطاء خفياً، وهو ظاهر
من آيات آخر، وهي مسألة خلاف.

و﴿يَا يُوحَى﴾ يريد القرآن وسائر ما
سيأتي به الملك، أي: وفي ذلك
عِبَرٌ وآية لمن تأمل ونظر.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ هَلْ يَسْتَوِي﴾
الآية. أي: قل لهم: إنه لا يستوي

الناظر المفكر في الآيات مع
المُعرض الكافر المهمل للنظر،
فالأعمى والبصير مثالان للمؤمن
والكافر، أي: ففكروا أنتم وانظروا،
وجاء الأمر بالفكرة في عبارة العرض
والتحصيل.

﴿وَأَنْذِرْ﴾ عطف على ﴿قُلْ﴾،
والنبي عليه الصلاة والسلام مأمور
بإنذار جميع الخلائق، وإنما وقع
التخصيص هنا بحسب المعنى الذي
قصد، وذلك أن فيما تقدم من
الآيات نوعاً من اليأس في الأغلب
عن هؤلاء الكفرة الذين قد قال فيهم
أَيْضاً: ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فكأنه قيل له هنا: قل
لهؤلاء الكفرة المعرضين كذا ودعهم
ورأيهم لأنفسهم، وأنذر بالقرآن
هؤلاء الآخرين الذين هم مظنة
الإيمان وأهل الانتفاع، ولم يرد أنه
لا ينذر سواهم، بل الإنذار العام
ثابت مستقر، والضمير في ﴿يَذَرُ﴾
عائد على ﴿مَا يُوحَى﴾، و
﴿يَخَافُونَ﴾ على بابها في الخوف،
أي الذين يخافون ما تحققوه من أن
يحشروا ويستعدون لذلك، ورب
متحقق لشيء مخوف وهو - لِقَلَّةُ
النظر والحزم - لا يخافه ولا يستعدُّ
له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقال الطبري: وقيل: ﴿يَخَافُونَ﴾
هنا بمعنى يعلمون، وهذا غير لازم،
وقوله: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُنْسَبَوا إِلَيَّ
رَبِّهِمْ﴾ يعم بنفس اللفظ كل مؤمن
بالبعث من مسلم ويهودي ونصراني.
وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِي وَلِيٌّ وَلَا
شَافِعٌ﴾ يحتمل معنيين - فإن جعلناه

داخلًا في الخوف كان في موضع نصب على الحال، أي: يخافون أن يحشروا في حال من لا ولي له ولا شفيع، فهي مختصة بالمؤمنين المسلمين لأن اليهود والنصارى يزعمون أن لهم شفعاء وأنهم أبناء الله ونحو هذا من الأباطيل، وإن جعلنا قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَكِيلٌ وَلَا شَفِيعٌ﴾ إخباراً من الله عن صفة الحال يومئذ فهي عامة للمسلمين وأهل الكتاب، و﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ترج على حسب ما يرى البشر ويعطيه نظرهم.

٥٢ - ٥٣ تفسیر قوله عز وجل:

المُرَاد بِـ ﴿الَّذِينَ﴾ ضَعْفَةُ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ فِي أُمُور الدُّنْيَا: بِلَالٍ وَعِمَارُ وَابْنُ أُمِّ عَبْدِ وَمُرْتَدُ الْغَنَوِيِّ وَخُبَابُ وَصَهْبُ وَصَبِيحُ وَذُو الشَّامِلِينَ وَالْمَقْدَادُ وَنَحْوُهُمْ.

وسبب الآية أن الكفار قال بعضهم للنبي ﷺ: نحن لشرفنا وأقدارنا لا يمكننا أن نختلط بهؤلاء، فلو طردتهم لأتبعناك وجالسناك، ورد في ذلك حديث عن ابن مسعود. وقيل: إنما قال هذه المقالة أبو طالب على جهة النصح للنبي ﷺ، قال له: لو أزلت هؤلاء لأتبعك أشراف قومك. وروي أن ملاً قريش اجتمعوا إلى أبي طالب في ذلك، وظاهر الأمر أنهم أرادوا بذلك الخديعة، فصوب هذا الرأي من أبي طالب عمر بن

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِثْلُ اللَّهِ
عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ لِيَسْأَلَهُ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَإِذَا
جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كُنْتُمْ
رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا
يَجْهَدْ لِمُوتٍ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحْ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾
وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَنْبِيَاءَ وَلَنَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾
قُلْ إِنِّي نَبِيٌّ أَنْعَبُدَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْتُمْ
أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا مَا أَنْتُمْ مِنَ الْمُتَهِمِينَ ﴿٤١﴾
قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عَزَدِي مَأ
تَسْجَعُولُونَ ﴿٤٢﴾ إِنْ أَلَّيْتُكُمْ إِلَّا لِلَّهِ يَفْضُلُ الْحَقَّ وَمَوْصِيئُ
الْفَاضِلِينَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْجَعُولُونَ بِهِ لَفَضَيْتُ
الْأُمَرَاءَ مِنْكُمْ وَبَيَّنَّكُمْ اللَّهُ أَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَعِنْدَ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ وَاعْلَمْ مَا فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَقْطَعُ مِنْ رِزْقٍ لَّا يَعْلَمُهَا وَلَا جَبَرُ
فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾

الخطاب رضي الله عنه وغيره من المؤمنين فنزلت الآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
إن بعض الكفار إنما طلب أن يؤخر
هؤلاء عن الصف الأول في الصلاة،
ويكونون هم موضعهم ويؤمنون إذا
طرد هؤلاء من الصف الأول فنزلت
الآية. أسند الطبري إلى خباب بن
الأرت أن الأقرع بن حابس ومن
شابهه من أشراف العرب قالوا
للنبي ﷺ: اجعل لنا منك مجلساً لا
يخالطنا فيه العبد الحلفاء، واكتب لنا
كتاباً فهمُ النبي ﷺ بذلك فنزلت
الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا تأويل بعيد في نزول الآية، لأن
الآية مكية وهؤلاء الأشراف لم يفدوا
إلا في المدينة. وقد يمكن أن يقع
هذا القول منهم، ولكنه إن كان وقع

فبعد نزول الآية بمددة اللهم إلا أن تكون الآية مدنية، قال خباب رضي الله عنه: ثم نزلت ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِإِيمَانِكَ فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، فكانا تأتي فيقول لنا: (سلام عليكم) ونقعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله: ﴿وَأَسِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية، فكان يقعد معنا، فإذا بلغ الوقت الذي يقوم فيه قمنا وتركناه حتى يقوم.

و ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورَةِ وَالْعِشْيَةِ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن: المراد به صلاة مكة التي كانت مرتين في اليوم بكرة وعشيا. وقيل: بل قوله: ﴿بِالْقُدُورَةِ وَالْعِشْيَةِ﴾ عبارة عن استمرار الفعل وأن الزمن معمور به، كما تقول: الحمد لله بكرة وأصيلاً، فإنما تريد الحمد لله في كل وقت، والمراد - على هذا التأويل - قبل: هو الصلوات الخمس، قاله ابن عباس وإبراهيم، وقيل: الدعاء وذكر الله واللفظة على وجهها. وقال بعض القصاص: إنه الاجتماع إليهم غدوة وعشيا، فأنكر ذلك ابن المسيب، وعبدالرحمن بن أبي عمرة وغيرهما وقالوا: إنما الآية في الصلوات في الجماعة. وقيل: قراءة القرآن وتعلمه، قاله أبو جعفر، ذكره الطبري، وقيل: العبادة، قاله الضحاك.

وقرأ أبو عبدالرحمن، ومالك بن دينار، والحسن، ونصر بن عاصم، وابن عامر: ﴿بِالْقُدُورَةِ وَالْعِشْيَةِ﴾، وروي عن أبي عبدالرحمن ﴿بِالْقُدُورِ﴾ بغير هاء، وقرأ ابن أبي

عبله: ﴿بِالْقُدُورَاتِ وَالْعِشْيَاتِ﴾ بألف فيهما على الجمع. وغدوة: معرفة لأنها جعلت علماً لوقت من ذلك اليوم بعينه، وجاز إدخال الألف واللام عليها كما حكى أبو زيد: «لقيته فينة» غير مصروف، و «الفينة» بعد الفينة» فألحقوا لام المعرفة ما استعمل معرفة، وحملوا على ما حكاه الخليل أنه يقال: «لقيته اليوم غدوة» منونا، ولأن فيها مع تعيين اليوم إمكان تقدير معنى الشيع، ذكره أبو علي الفارسي.

و ﴿رَجَّهْ﴾ - في هذا الموضع - معناه: جهة التزلف إليه، كما تقول: «خرج فلان في وجه كذا»، أي: في مقصد وجهة.

و ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ معناه: لم تكلف شيئاً غير دعائهم فتقدم أنت وتؤخر، ويظهر أن يكون الضمير في ﴿حِسَابِهِمْ﴾ و ﴿عَلَيْهِمْ﴾ للكفار الذين أرادوا طرد المؤمنين، أي: ما عليك منهم آمنوا أو كفروا فتطرد هؤلاء رعيّاً لذلك، والضمير في ﴿تَنْظُرُهُمْ﴾ عائد على الضعفة من المؤمنين. ويؤيد هذا التأويل أن ما بعد الفاء أبداً سبب ما قبلها، وذلك لا يبين إذا كانت الضمائر كلها للمؤمنين وحكى الطبري أن الحساب هنا إنما هو في رزق الدنيا، أي: لا ترزقهم ولا يرزقونك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا تجيء الضمائر كلها للمؤمنين، وذكره المهدوي، وذكر عن الحسن أنه من حساب عملهم كما قال الجمهور، و ﴿مِنْ﴾ الأولى

للتبعية والثانية زائدة مؤكدة، وقوله: ﴿تَنْظُرُهُمْ﴾ جواب النفي في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿تَنْظُرُكَ﴾ جواب النهي في قوله: ﴿وَلَا تَنْظُرُوا﴾. و ﴿مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ معناه: الذين يضعون الشيء غير موضعه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية. ﴿تَكْفُرُ﴾ - في هذه الآية - معناه: ابتلينا، فابتلاء المؤمنين بالمشركين هو ما يلحقون منهم من الأذى، وابتلاء المشركين بالمؤمنين هو أن يرى الرجل الشريف من المشركين قوماً لا شرف لهم قد عظمهم هذا الدين وجعل لهم عند نبيّه قدراً ومنزلة. والإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما ذكر من طلبهم أن يطرد الضعفة، و ﴿يَتَوَلَّوْا﴾ معناه: ليصير بحكم القدر أمرهم إلى أن يقولوا، فهي لام الصيرورة كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي رَسُولٌ لَكُمْ لَهْزُ عَدُوِّكُمْ وَخَزَاةٌ أَيْ: ليصير ماله أن يكن لهم عدواً، وقول المشركين - على هذا التأويل -: ﴿أَهْزَلَاءَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَاتٍ﴾ هو على جهة الاستخفاف والهزاء، ويحتمل الكلام معنى آخر وهو أن تكون اللام في ﴿يَتَوَلَّوْا﴾ على بابها في لام (كي)، وتكون المقالة منهم استفهاماً لأنفسهم ومباحثة لها، وتكون سبب إيمان من سبق إيمانه منهم، فمعنى الآية - على هذا التأويل -: وكذلك ابتلينا أشرف الكفار بضعفاء المؤمنين ليتعجبوا في نفوسهم من ذلك، ويكون سبب نظر لمن هدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتأويل الأول أسبق، والثاني يتخرج، و﴿يَرْجُ﴾ على كلا التأويلين إنما هي على معتقد المؤمنين، أي: هؤلاء من الله عليهم بزعمهم أن دينهم ميتة.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي: يأبى المستحقون أو المتعجبون - على التأويل الآخر - ليس الأمر أمر استخفاف ولا تعجب، فالله أعلم بمن يشكر نعمته، وبالمواضع التي ينبغي أن يوضع فيها فجأة إعلامهم بذلك في لفظ التقدير، إذ ذلك بين لا تمكنهم فيه معاندة.

٥٤ - ٥٥ تفسير قوله عز وجل:

قال جمهور المفسرين: ﴿الَّذِينَ﴾ يراد بهم القوم الذين كانوا عرض طردهم فنهى الله عز وجل عن طردهم، وشفع ذلك بأن أمر بأن يسلم النبي ﷺ عليهم ويؤنسهم.

وقال عكرمة، وعبد الرحمن بن زيد: ﴿الَّذِينَ﴾ يراد بهم القوم من المؤمنين الذين صوبوا رأي أبي طالب في طرد الضعفة فأمر الله نبيه أن يسلم عليهم ويؤنسهم أن الله يغفر لهم مع توبتهم من ذلك السوء وغيره.

وأسند الطبري عن ما هان أنه قال: نزلت الآية في قوم من المؤمنين استفتوا النبي ﷺ في ذنوب سلفت منهم فنزلت الآية بسببهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي - على هذا - تعم جميع المؤمنين دون أن تشير إلى فرقة. وقال الفضيل بن عياض: قال قوم

للنبي ﷺ: إنا قد أصبنا ذنوباً فاستغفر لنا. فأعرض عنهم، فنزلت الآية.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعظم آيات القرآن وأيضاً علامات النبوة كلها. و﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ ابتداء، والتقدير: سلام ثابت أو واجب عليكم، والمعنى: أئمة لكم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، وقيل: المعنى: إن الله يسلم عليكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا معنى لا يقتضيه لفظ الآية حكاة المهدوي. ولفظه لفظ الخبر ومعناه الدعاء، وهذا من المواضع التي جاز فيها الابتداء بالشكوة إذ قد تخصصت، و﴿كَيْفَ﴾ بمعنى أوجب، والله تعالى لا يجب عليه شيء عقلاً إلا إذا أعلمنا أنه قد حتم بشيء ما فذلك الشيء واجب. وفي: أين هذا الكتاب؟ اختلاف - قيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: في كتاب غيره لقوله عليه الصلاة والسلام في صحيح البخاري: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَتَبَ كِتَاباً فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

وقرأ عاصم، وابن عامر: ﴿أَنَّهُ﴾ يفتح الهمزة في الأولى والثانية، ف﴿أَنَّهُ﴾ الأولى بدل من ﴿الرَّحْمَةِ﴾ و﴿أَنَّهُ﴾ الثانية خبر ابتداء مضمر تقديره: فأمره أنه غفور رحيم، هذا مذهب سيبويه. وقال أبو حاتم: ﴿فَإِنَّهُ﴾ ابتداء، ولا يجوز هذا عند سيبويه، وقال النحاس: هي عطف على الأولى وتكرير لها لطول الكلام، قال أبو علي: ذلك لا يجوز

لأن [مَنْ] لا يخلو أن تكون موصولة بمعنى الذي فتحتاج إلى خبر، أو تكون شرطية فتحتاج إلى جواب، وإذا جعلنا ﴿فَإِنَّهُ﴾ تكريراً للأولى عطفاً عليها بقي المبتدأ بلا خبر، أو الشرط بلا جواب، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿إِنَّهُ﴾ بكسر الهمزة في الأولى والثانية، وهذا على جهة التفسير لـ ﴿الرَّحْمَةِ﴾ في الأولى والقطع فيها، وفي الثانية - إما في موضع الخبر أو موضع جواب الشرط، وحكم ما بعد الفاء إنما هو الابتداء، وقرأ نافع بفتح الأولى وكسر الثانية، وهذا على أن أبدل من ﴿الرَّحْمَةِ﴾ واستأنف بعد الفاء، وقرأت فرقة بكسر الأولى وفتح الثانية، حكاة الزهراوي عن الأعرج، وأظنه وهماً لأن سيبويه حكاة عن الأعرج مثل قراءة نافع، وقال أبو عمرو الداني: قراءة الأعرج ضد قراءة نافع.

والجهالة - في هذا الموضع - تعظم التي تضاد العلم والتي تشبه بها، وذلك أن المتعمد لفعل الشيء الذي قد نهى عنه تشمل معصيته تلك جهالة، إذ قد فعل ما يفعله الذي لم يتقدم له علم. قال مجاهد: «من الجهالة ألا يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته أن يركب الأمر». ومن هذا الذي لا يضاد العلم قول النبي ﷺ في استعاذته: «أَنْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»، ومنه قول الشاعر:

أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا
فَنَجْهَلُ قَوْقُ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ
والجهالة المشبهة ليست بعذر في الشرع جملة، والجهالة الحقيقية

يعذر بها في بعض ما يخف من الذنوب، ولا يعذر بها في كبيرة.

والتوبة: الرجوع، وصحتها مشروطة باستدامة الإصلاح بعدها في الشيء الذي تيب منه.

والإشارة بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم من النهي عن طرد المؤمنين وبيان فساد منزع العارضين لذلك.

وتفصيل الآيات: تبينها وشرحها وإظهارها، واللام في قوله: ﴿وَلَتَسْتَبِينَ﴾ متعلقة بفعل مضمّر تقديره: «ولتستبين سبيل المجرمين فصلناها».

وقرأ نافع: ﴿وَلَيَسْتَبِينَ﴾ بالياء أي النبي ﷺ «سبيل» بالنصب، حكاة مكّي في «المشكل» له، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿وَلَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ برفع (السبيل) وتأتيها، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر، وحمزة، والكسائي: ﴿وَلَيَسْتَبِينَ سَبِيلَ﴾ برفع (السبيل) وتذكيرها، وعرب الحجاز تؤنث (السبيل)، وتميم وأهل نجد يذكرونها. خص سبيل المجرمين لأنهم الذين أثاروا ما تقدم من الأقوال، وهم أهم في هذا الموضع لأنها آيات ردة عليهم، وأيضاً فتبين سبيلهم يتضمن بيان سبيل المؤمنين، وتأول ابن زيد أن قوله: ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني به الأمرين بطرد الضعفة.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يجاهرهم بالثبيري مما هم فيه، و﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ هو بتأويل المصدر، والتقدير: «عن عبادة»، ثم حذف

الجار فتسلط الفعل، ثم وضع ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ موضع المصدر. وعبر عن الأصنام بـ ﴿الَّذِينَ﴾ على زعم الكفار حين أنزلوها منزلة من يعقل، و﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تعبدون، ويحتمل أن يريد: تدعون في أموركم، وذلك في معنى العبادة واعتقادها آلهة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿قَدْ مَكَتَ﴾ بفتح اللام، وقرأ يحيى بن وثاب، وأبو عبد الرحمن السلمي، وطلحة بن مصرف: ﴿ضَلَلْتُ﴾ بكسرهما، وهما لغتان، و[إذا] في هذا الموضع متوسطة وما بعدها معتمد على ما قبلها، فهي غير عاملة إلا أنها تتضمن معنى الشرط فهي بتقدير: «إن فعلت ذلك». و﴿أَمْوَءًا﴾ جمع هوى وهو الإرادة والمحبة في المرديات من الأمور، هذا غالب استعمال الهوى، وقد تقدم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ الآية. هذه الآية تمام في إيضاح مبانيته لهم، والمعنى: «قل إني على أمر بَيِّن»، فحذف الموصوف ثم دخلت هاء المبالغة كقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ عَلَىٰ قَبِيهِ بَيِّنَةٌ﴾، ويصح أن تكون الهاء في ﴿بَيِّنَةٌ﴾ مجردة للتأنيث، وتكون بمعنى البيان كما قال: ﴿وَرَبِّي مَن حَكَّمَ عَنِّي بَيِّنَةً﴾، والمراد بالآية: إني أيها المكذبون في اعتقادي و يقيني وما حصل في نفسي من العلم على بيّنة من ربي. ﴿وَكَذَّبْتُ يَدِي﴾ الضمير في ﴿يَدِي﴾ عائذ على (يَبِّن) في تقدير هاء المبالغة، أو على

البيان التي هي (بيّنة) بمعناه في التأويل الآخر، أو على الرب، وقيل: على القرآن وهو وإن لم يتقدم له ذكر جلي فإنه بعض البيان الذي منه حصل الاعتقاد واليقين للنبي عليه الصلاة والسلام فيصح عود الضمير عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وللنبي عليه الصلاة والسلام أمور أخر غير القرآن وقع له العلم أيضاً من جهتها، كتكليم الحجاره له، ورؤيته للملك قبل الوحي، وغير ذلك.

وقال بعض المفسرين: الضمير في ﴿يَدِي﴾ عائذ على «مَا» والمراد بها الآيات المقترحة على ما قال بعض المفسرين، وقيل: المراد بها العذاب، وهذا يترجح بوجهين: أحدهما من جهة المعنى وذلك أن قوله: ﴿وَكَذَّبْتُ يَدِي﴾ يتضمن أنكم واقعتما ما تستوجبون به العذاب إلا أنه ليس عندي، والآخر من جهة اللفظ وهو الاستعجال الذي لم يأت في القرآن استعجالهم إلا للعذاب، لأن اقتراحهم بالآيات لم يكن باستعجال. وقوله: ﴿إِن أَلْعَمُكُمْ إِلَّا بِنَبَأٍ﴾ أي القضاء والإنفاذ، ﴿بَعْضُ الْحَقِّ﴾ أي يخبر به. والمعنى:

يقص القصص الحق. وهذه قراءة ابن كثير، وعاصم، ونافع، وابن عباس. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، «يَقْضُ الْحَقُّ» أي: ينفذه. وترجح هذه القراءة بقوله: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الفصل مناسب للقضاء، وقد جاء أيضاً الفصل

والتفصيل مع القصص. وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْفَاصِلِينَ﴾، قال أبو عمرو الداني: وقرأ عبدالله، وأبي، ويحيى بن وثاب، وإبراهيم النخعي، وطلحة، والأعمش: ﴿يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ بزيادة باء الجر، وقرأ مجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَوْ أَنَّ عِنْدِي﴾ الآية. المعنى: لو كان عندي الآيات المقترحة، أو العذاب - على التأويل الآخر - لَقَضِي الأمر، أي لَوَقَعَ الانفصال، ثم النزاع لظهور الآية المقترحة، أو لنزول العذاب، بحسب التأويلين. وحكى الزهراوي أن المعنى: لقامت القيامة، ورواه النقاش عن عكرمة، وقال بعض الناس: معنى ﴿لَقَضِي الْأَمْرُ﴾ أي: لَنُجِيعَ الْمَوْتُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف جداً، لأن قائله سمع هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْمَسَرَّةِ إِذْ فَضِيَ الْأَمْرُ﴾ ودُجِبَ الموت هنا لائق فنقله إلى هذا الموضع دون شبه، وأسند الطبري في هذا القول إلى ابن جريج غير مقيد بهذه السورة، والظن بابن جريج أنه إنما فسّر الذي في يوم الحسرة، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ يتضمن الوعيد والتهديد.

٥٩ - ٦٠ تفسير قوله عز وجل:

﴿مَنَافِعُ﴾ جمع مِفْتَاح، وهذه استعارة عبارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل في الشاهد

بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان، ولو كان جمع مِفْتَاح لقال: مفاتيح. ويظهر أيضاً أن (مَنَافِع) جمع مَفْتَح بفتح الميم، أي مواضع تفتح عن المعنيات، ويؤيد هذا قول السدي وغيره: ﴿مَنَافِعُ الْقَلْبِ﴾ خزائن الغيب، فأما مِفْتَاح بالكسر فهو بمعنى مفتاح، قال الزهراوي: ومِفْتَاح أَفْصَح، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الإشارة بـ ﴿مَنَافِعُ الْقَلْبِ﴾ هي إلى الخمسة التي في آخر لقمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ

عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية، لأنها نعم جميع الأشياء التي لم توجد بعد، ثم قوى البيان بقوله: ﴿وَرَبُّكَ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ تنبيهاً على أعظم المخلوقات المجاورة للبشر. وقوله: ﴿مِنْ رَزَقِكِ﴾ على حقيقته في ورق النبات، و [مِنْ] زائدة، و ﴿إِلَّا يَمْلِكُهَا﴾ يريد: على الإطلاق وقبل السقوط ومعه وبعده، ﴿وَلَا حَبْرٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَذْيَانِ﴾ يريد: في أشد حالات التغيب. وهذا كله وإن كان داخلاً في قوله: ﴿وَعِنْدُ مَنَافِعِ الْقَلْبِ﴾ عند من رآها في الخمس وغيرها فيه البيان والإيضاح والتنبيه على مواضع العبر، أي: إذا كانت هذه المحقورات معلومة فغيرها من الجلائل أخرى. ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ عطف على اللَّفْظ، وقرأ الحسن، وعبدالله بن أبي إسحق:

سورة الأنعام

سورة الأنعام

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنْفِخُ بِنَفْسِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الْغَافِقُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦٠﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَمَرُ الْحُسَيْنِ ﴿٦١﴾ قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الدُّرَى الَّذِي تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لِّئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٢﴾ قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ فِي كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلِ هُوَ الْغَافِقُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِعْرًا وَيُؤَيِّدَ بَعْضُكُم بِأَسْ بَعْضٍ أَتُفَكِّرُونَ ﴿٦٤﴾ أَفَلَا تَنْظُرُونَ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِآيَاتِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلِ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسَفَّرٌ وَسَوْفَ يُعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي خِلَافِنَا فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَرِيبٍ وَمَا يُبَلِّغُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾

١٣٥

﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ بالرفع عطفاً على الموضع في ﴿وَرَزَقَهُ﴾ لأن التقدير: «وما تسقط ورقة»، و ﴿إِلَّا فِي كَثِيرٍ مِّنْهُنَّ﴾ قيل: يعني كتاباً على الحقيقة، ووجه الفائدة فيه امتحان ما يكتبه الحفظة، وذلك أنه روي أن الحفظة يرفعون ما كتبوه ويعارضونه بهذا الكتاب المشار إليه ليتحققوا صحة ما كتبوه. وقيل: المراد بقوله: ﴿إِلَّا فِي كَثِيرٍ﴾ علم الله عز وجل المحيط بكل شيء. وحكى النقاش عن جعفر بن محمد قولاً: إن الورقة يراد بها السقط من أولاد بني آدم، والحببة يراد بها الذي ليس بسقط، والرطب يراد به الحي، واليابس يراد به الميت. وهذا قول جار على طريقة الرموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد رضي الله عنه، ولا ينبغي أن يلتفت إليه.

الإمالة، وقرأ الأعمش: ﴿يَتَوَفَّاهُ رُسُلُنَا﴾ بزيادة ياء في أوله، والتذكير.

وقوله تعالى: ﴿رُسُلَنَا﴾ يريد به على ما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما وجميع أهل التأويل ملائكة مقترنين بملك الموت يعاونونه ويأترون له.

وقرأ جمهور الناس: ﴿لَا يَفْرُطُونَ﴾ بالتشديد، وقرأ الأعرج: ﴿يَفْرُطُونَ﴾ بالتخفيف، ومعناه: يجاوزون الحد مما أمروا به، قال أبو الفتح: فكما أن المعنى في قراءة العامة: لا يُقْصِرُونَ، فكذلك هو في هذه: لا يزيدون على ما أمروا به.

ورجع اللفظ في قوله: ﴿رُدُّوْا﴾ من الخطاب إلى الغيبة، والضمير في ﴿رُدُّوْا﴾ عائد على المتقدم ذكرهم، ويظهر أن يعود على العباد فهو إعلام برؤ الكل، وجاءت المخاطبة بالكاف في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ تقريباً للموعظة من نفوس السامعين. و ﴿مَوْلَهُمْ﴾ لفظ عام لأنواع الولاية التي تكون بين الله، وبين عبده من الرزق والنصرة والمحاسبة والملك وغير ذلك، وقوله: ﴿الْحَقُّ﴾ نعت لـ ﴿مَوْلَهُمْ﴾ ومعناه: الذي ليس بباطل ولا مجازي. وقرأ الحسن بن أبي الحسن، والأعمش: ﴿الْحَقُّ﴾ بالنصب، وهو على المدح، ويصح على المصدر. ﴿أَلَا لَهُ الْكُفُومُ﴾ ابتداء كلام مضمونه التنبيه وهز نفس السامع، و ﴿الْكُفُومُ﴾ تعريفه للجنس، أي: جميع أنواع التصرفات في العباد، و ﴿أَسْرَعَ الْحَسْبِ﴾ متوجه على أن الله عز وجل حسابه لعبده

والمراد بالأجل آجال بني آدم، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يريد بالبعث والنشور، ﴿ثُمَّ يَبْلُغُكُمْ﴾ أي: يعلمكم إعلام توقيف ومحاسبة.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿الْقَاهِرُ﴾ إن أخذ صفة فعل، أي مظهر القهر بالصواعق والرياح والعذاب فيصح أن يجعل ﴿قَوَّ﴾ ظرفية للجهة، لأن هذه الأشياء إنما تعاهدها العباد من فوقهم، وإن أخذ ﴿الْقَاهِرُ﴾ صفة ذات بمعنى القدرة والاستعلاء فـ ﴿قَوَّ﴾ لا يجوز أن تكون للجهة، وإنما هي لعلو القدر والشأن، على حد ما تقول: «الباقوت فوق الحديد».

﴿ذُرِّيَّةٌ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: يبشهم فيكم، و ﴿حَفَظَةً﴾ جمع حافظ، مثل كاتب وكتبة، والمراد بذلك الملائكة الموكلون بكتب الأعمال، وروي أنهم الملائكة الذين قال فيهم النبي ﷺ: «تتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار»، وقاله السدي وقتادة. وقال بعض المفسرين: «حفظه يحفظون الإنسان من كل شيء حتى يأتي أجله». والأول أظهر. وكلهم غير حمزة قرأ: ﴿تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا﴾ على تأنيث لفظ الجمع، كقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، وقرأ حمزة: ﴿تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا﴾، وحجته أن التأنيث غير حقيقي، وظاهر الفعل أنه ماض كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَتَوَفَّاهُ﴾، ويحتمل أن يكون بمعنى: تتوفاه، فتكون العلامة مؤنثة، وأمال حمزة من حيث خط المصحف بغير ألف، فكانها إنما كتبت على

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاهُ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ﴾ الآية، فيها إيضاح الآيات المنصوبة للنظر، وفيها ضرب مثل للبعث من القبور، إن هذا أيضاً إمامة وبعث على نحو ما.

والتوفي هو استيفاء عدد، قال الشاعر:

إِنَّ بَنِي الْأَذْرَمِ لَيُسَوُّوْا مِنْ أَخَذَ
وَلَا تَوَفَّاهُمْ قُرَيْشٌ فِي الْغَدِّ
وصارت اللفظة عرفاً في الموت، وهي في النوم على بعض التجوز.

و ﴿جَرَحَهُ﴾ معناه: كسبتم، ومنه جوارح الصيد أي كواسبه، ومنه جوارح البدن لأنها كواسب للنفس. ويحتمل أن يكون ﴿جَرَحَهُ﴾ هنا من الجرح، كأن الذنب جرح في الدين، والعرب تقول: «جرح اللسان كجرح اليد»، وروي عن ابن مسعود أو سلمان - شك ابن دينار - أنه قال: «إن هذه الذنوب جراحات فمنها شؤى ومنها مقتلة، ألا وإن الشرك مقتلة».

و ﴿يَبْلُغُكُمْ﴾ يريد الإيقاظ، ففي ﴿يَلِغْ﴾ عائد على النهار، قال مجاهد، وقتادة، والسدي، وذكر النوم مع الليل واليقظة مع النهار بحسب الأغلب وإن كان النوم يقع بالنهار واليقظة بالليل فنادر. ويحتمل أن يعود الضمير على التوفي، أي: يوقظكم في التوفي، أي: في خلاله وتضاعيفه، قاله عبدالله بن كثير. وقيل: يعود على الليل، وهذا قلق في اللفظ، وهو في المعنى نحو من الذي قبله.

وقرأ طلحة بن مصرف، وأبو رجاء: ﴿لِيَقْضِيَ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾،

ثم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققكم به أنتم تشركون.

﴿١٥﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا إخبار يتضمن الوعيد، والأظهر من نسق الآيات أن هذا الخطاب للكفار الذين تقدم ذكرهم، وهو مذهب الطبري، وقال أبي بن كعب، وأبو العالية، وجماعة معهما: هي للمؤمنين وهم المراد، قال أبي بن كعب: هي أربع خلال وكلهن عذاب وكلهن واقع قبل يوم القيامة، فمضت اثنتان بعد رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، لبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض، واثنتان واقعتان لا محالة - الخسف والرجم، وقال الحسن بن أبي الحسن: بعضها للكفار وبعضها للمؤمنين، وهذا الاختلاف إنما هو بحسب ما يظهر من أن الآية تتناول معانيها المشركين والمؤمنين.

وروي من حديث جابر وخالد الخزاعي أن رسول الله ﷺ لما نزلت: ﴿أَنْ يَبْتَغِيَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ قَوْلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، فلما نزلت: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، فلما نزلت: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيَرْزِقَ بَعْضَكُمْ بِأَسْبَغٍ﴾ قال: «هذه أهون»، أو «هذه أيسر»، فاحتج بهذا من قال إنها نزلت في المؤمنين. قال الطبري: وغير ممتنع أن يكون النبي ﷺ تعود لأمرته من هذه الأشياء التي توعد بها الكفار، وهون الثالثة لأنها بالمعنى هي التي دعا بها فمنع حسب حديث الموطأ وغيره، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنها أسوأ الثلاث،

﴿نَصْرًا﴾ نصب على المصدر والعامل فيه ﴿تَدْعُونَ﴾، والتضرع صفة بادية على الإنسان، ﴿وَحَقِيقَةً﴾ معناه: الاختفاء والسر، فكأن نسق القول: تدعونه جهراً ورسراً، هذه العبارة بمعان زائدة.

وقرأ الجميع غير عاصم: ﴿وَحَقِيقَةً﴾ بضم الخاء، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر رضي الله عنه: ﴿وَحَقِيقَةً﴾ بكسر الخاء، وقرأ الأعمش: ﴿وَحَقِيقَةً﴾ من الخوف، وقرأ الحجازيون وأمل الشام: ﴿أَنْجَبْتَنَا﴾، وقرأ الكوفيون: ﴿أَنْجَبْنَا﴾ على ذكر الغائب، وأمال حمزة، والكسائي الجيم. و﴿يَنْزِلُ﴾ أي: على الحقيقة، والشكر على الحقيقة يتضمن الإيمان، وحكى الطبري في قوله: ﴿فَلَمَنْتَ﴾ أنه ضلال الطريق في الظلمات ونحوه، وحكى السدي أنه ظلام الليل والغيم والبحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التخصيص كله لا وجه له، وإنما هو لفظ عام لأنواع الشدائد في المعنى، وخص لفظ الظلمات بالذكر لما تقرر في النفوس من هول الظلمة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ يَجْعَلُ سَبْقَ فِي الْمَجَادَلَةِ إِلَى الْجَوَابِ، إِذْ لَا مَحِيدَ عَنْهُ، وَدَيْنَ كُلِّ كَرِيرٍ﴾ لفظ عام أيضاً ليتضح العموم الذي في الظلمات، ويصح أن يتأول من قوله: ﴿دَيْنَ كُلِّ كَرِيرٍ﴾ تخصيص الظلمات قبل، ونص عليها لهولها. وعطف في هذا الموضع بد (ثم) للمهلة التي تبين قبح فعلهم، أي:

صادر عن علمه بهم فلا يحتاج في ذلك إلى إعداد ولا تكلف، سبحانه لا رب غيره، وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد في حالة واحدة؟ قال: كما يرزقهم في حال واحدة في الدنيا.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا تماد في توبيخ العادلين بالله الأوثان، وتوقيفهم على سوء الفعل في عبادتهم الأصنام، وتركهم الذي يُنَجِّي من المهلكات، ويلجأ إليه في الشدائد.

و﴿مَنْ﴾ استفهام رفع بالابتداء، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿مَنْ يَنْجِيكُمْ﴾ ﴿قُلْ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ﴾ بتشديد الجيم وفتح النون، وقرأ أبو عمرو في رواية علي بن نصر عنه، وحميد بن قيس، ويعقوب: ﴿يُنْجِيكُمْ﴾ بتخفيف الجيم وسكون النون، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر بالتشديد في الأولى والتخفيف في الثانية فجمعوا بين التعدية بالألف والتعدية بالتضعيف، كما جاء ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿قَهْلَ الْكَافِرِينَ أَتَاهُمْ رُؤُوسًا﴾.

و﴿ظُلُمَتِ اللَّيْلِ وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ يراد به شدائدها، فهو لفظ عام يستغرق ما كان من الشدائد بظلمة حقيقية وما كان بغير ظلمة، والعرب تقول: عام أسود، ويوم مظلم، ويوم ذو كواكب، ونحو هذا يريدون به الشدة، قال قتادة: المعنى: من كُرب البر والبحر، وقاله الزجاج، و﴿تَدْعُونَ﴾ في موضع الحال، و

﴿قَوْمُكَ﴾، ويحتمل أن يعود الضمير على الوعيد الذي تضمنته الآية، ونحا إليه الطبري، وقرأ ابن أبي عجلة: «وَكَذَّبْتَ بِهِ قَوْمُكَ» بزيادة تاء، و «يُوكِّلُ» معناه: بمدفوع إلى أخذكم بالإيمان والهدى، والوكيل بمعنى الحفيظ، وهذا كان قبل نزول الجهاد والأمر بالقتال ثم نسخ، وقيل: لا نسخ في هذا إذ هو خبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والنسخ فيه متوجه لأن اللازم من اللفظ ليس الآن، وليس فيه أنه لا يكون في المستأنف، وقوله: «يَكِلُ بَلَرُ تُسَقَّرُ» أي غاية يعرف عندها صدقه من كذبه، «وَسَوْفَ تَقْلُبُونَ» تهديد محض ووعيد.

﴿٦٨﴾ - ﴿٦٩﴾ تفسير قوله عز وجل: لفظ هذا الخطاب محرر للنبي ﷺ وحده، واختلف في معناه - فقيل: إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الصحيح، لأن علة النهي وهي سماع الخوض في آيات الله تشملهم وإياه، وقيل: بل المعنى أيضاً أريد به النبي ﷺ وحده، لأن قيامه عن المشركين كان يشق عليهم، وفراقه لهم على مغاضبة، ولم يكن المؤمنون عندهم كذلك، فأمر النبي ﷺ أن يتأبذهم بالقيام عنهم إذا استهزؤا وخاضوا ليتأدبوا بذلك، ويدعوا الخوض والاستهزاء، وهذا التأويل يتركب على كلام ابن جرير يرحمه الله.

والخوض أصله في الماء ثم

بعضها لبعض، واللبس: الخلط، وقال المفسرون: هو افتراق الأهواء والقتال بين الأمة. وقرأ أبو عبدالله المدني «يُلْبِسُكُمْ» بضم الياء من: أَلْبَسَ، فهو على هذه استعارة من اللباس، فالمعنى: أو يلبسكم الفتنة شيعاً، و «شَيْعاً» منصوب على الحال. وقد قال الشاعر:

لَيْسَتْ أَنَسَاءٌ فَأَقْتَنِيَهُنَّ

.....

فهذه عبارة عن الخلطة والمقاساة واللباس القتل وما أشبهه من المكاره.

﴿وَيَذِيقُ﴾ استعارة إذ هي

من أجل حواس الاختبار، وهي استعارة مستعملة في كثير من كلام العرب وفي القرآن، وقرأ الأعمش: «وَتُلَيِّقُ» بنون الجماعة، وهي نون العظمة في جهة الله عز وجل، وتقول: أَذَقْتُ فلاناً العلقم، تريد كراهة شيء صنعت به، ونحو هذا.

وفي قوله: «أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ» الآية استرجاع لهم، وإن كان لفظها لفظ تعجب للنبي ﷺ فمضمونها أن هذه الآيات والدلائل إنما هي لاستصرافهم عن طريق غيهم، والفقه: الفهم.

والضمير في «يُذِيقُ» عائد على القرآن الذي فيه جاء تصريف الآيات، قاله السدي، وهذا هو الظاهر، وقيل: يعود على النبي ﷺ، وهذا بعيد لقرب مخاطبته بعد ذلك بالكاف في قوله:

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٨﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَغَرَضَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَكَرِهُوا أَنْ يُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وِئَاءٌ وَلَا يُنْفِخُ وَإِنْ تَدْعُ كُلَّ عِدْلٍ لَأُتَوَّخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُتْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٩﴾ قُلْ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ وَلَا تَرْدُوا عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى امْتَثِلْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَرْسِلْ لِنَسْلِكَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧١﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٧٢﴾

١٣٦

وهذا عندي على جهة الإغلاظ في الموعظة، والحق أنها أيسرها كما قال عليه الصلاة والسلام.

و «يُنْفِخُ نَفْسٌ» أي ينفخ في نفوسهم لفظ عام للمنطيقين على الإنسان، وقال السدي عن أبي مالك: «يُنْفِخُ نَفْسٌ» الرجم و «يُنْفِخُ نَفْسٌ» الخسف، وقاله سعيد بن جببر، ومجاهد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «يُنْفِخُ نَفْسٌ» ولاية الجور، و «يُنْفِخُ نَفْسٌ» سفلة السوء وخدمة السوء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه كلها أمثلة لا أنها هي المقصود، إذ هي وغيرها من القحوط والغرق وغير ذلك داخل في عموم اللفظ.

و «يُلْبِسُكُمْ» - على قراءة السُّنَّة - معناه: يخلطكم «شَيْعاً» فرقاً يتشيع

يستعمل بعد في غمرات الأشياء التي هي مجاهل تشبيهاً بغمرات الماء.

﴿وَلَمَّا﴾ شرط، وتلزمها النون الثقيلة في الأغلب، وقد لا تلزم كما قال: **إِنَّمَا يُصِيبُكَ عَذَابٌ فِي مُتَاوِةٍ**

إلى غير ذلك من الأمثلة. وقرأ ابن عامر وحده **﴿يُنْسِيَنَّكَ﴾** بتشديد السين وفتح النون، والمعنى واحد إلا أن التشديد أكثر مبالغة.

والذكرى والذكر واحد في المعنى وإنما هو تأنيث لفظي، ووصفهم هنا بـ **﴿الظَّالِمِينَ﴾** متمكن لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه، و **﴿أَعْرَضَ﴾** في هذه الآية بمعنى المفارقة على حقيقة الإعراض وأكمل وجوهه، ويدل على ذلك **﴿فَلَا تَقْعُدْ﴾**.

وقوله تعالى: **﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ﴾** الآية، المراد بـ **﴿الَّذِينَ﴾** هم المؤمنون، والضمير في **﴿حِسَابِهِمْ﴾** عائد على **﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾**، ومن قال إن المؤمنين داخلون في قوله: **﴿فَأَعْرَضَ﴾** قال: إن النبي ﷺ داخل في هذا القصد بـ **﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾**، والمعنى عندهم على ما روي أن المؤمنين قالوا لما نزلت: **﴿فَلَا تَقْعُدُوا﴾** معهم إذا كنا لا نقرب المشركين ولا نسمع أقوالهم فما يمكننا طواف ولا قضاء عبادة في الحرم فنزلت لذلك **﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾**.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالإباحة في هذا هي في القدر الذي يحتاج إليه من التصرف بين المشركين في عبادة ونحوها، وقال بعض من يقول: **﴿إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ﴾**

داخل في **﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾** وإن المؤمنين داخلون في الخطاب الأول: هذه الآية الأخيرة ليست بإباحة بوجه، وإنما معناها: لا تقعدوا معهم ولا تقربوهم حتى تسمعوا استهزاءهم وخوضهم، وليس نهيكهم عن القعود لأن عليكم شيئاً من حسابهم وإنما هو ذكرى **﴿لَكُمْ﴾**، ويحتمل المعنى أن يكون **﴿لَهُمْ﴾** لعلهم إذا جانبتموهم يتقون بالإمساك عن الاستهزاء، وأما من قال: **﴿إِنَّ الْخَطَابَ الْأَوَّلَ هُوَ مَجْرَدٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ﴾** لثقل مفارقتة مغضباً على الكفار فإنه قال في هذه الآية الثانية: إنها مختصة بالمؤمنين، ومعناها الإباحة، فكأنه قال: فلا تقعد معهم يا محمد، وأما المؤمنون فلا شيء عليهم من حسابهم فإن قعدوا فليذكروهم لعلهم يتقون الله في ترك ما هم فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول أشار إليه النقاش ولم يوضحه، وفيه عندي نظر، وقال قائل هذه المقالة: إن هذه الإباحة للمؤمنين نسخت بآية النساء قوله تبارك وتعالى: **﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا بَعِثْتُمْ مَائِدَةَ إِلَى كُفْرٍ يَأْكُلُهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوشُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾**، وكذلك أيضاً من قال: **﴿إِنَّ الْإِبَاحَةَ كَانَتْ بِحَسَبِ الْعِبَادَاتِ﴾** يقول: إن هذه الآية التي في النساء ناسخة لذلك إذ هي مدنية، والإشارة بقوله: **﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾** إليها بنفسها فتأمل، وإلا فيجب أن يكون الناسخ غيرها. و **﴿ذَكَرْنَا﴾** - على هذا القول - يحتمل أن يكون: ذكرهم ذكرى،

ويحتمل: ولكن أعرضوا متى أعرضتم في غير وقت العبادة ذكرى، و **﴿ذَكَرْنَا﴾** - على كل قول - يحتمل أن تكون في موضع نصب بإضمار فعل، أو رفع بإضمار مبتدأ. وينبغي للمؤمن أن يمثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأهل الجدل والخوض فيه، وحكى الطبري عن أبي جعفر أنه قال: لا تُجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله.

﴿٧٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا أمر بالمشاركة، وكان ذلك بحسب قلة أتباع الإسلام حينئذ. قال قتادة: ثم نسخ ذلك وما جرى مجراه بالقتال. وقال مجاهد: الآية إنما هي للتهديد والوعيد فهي كقوله تعالى: **﴿ذَرِكُمْ وَمَنْ حَقَّ وَجْهُكَ﴾**، وليس فيها نسخ لأنها متضمنة خبراً وهو التهديد. وقوله: **﴿لَمَّا دَلَّوْا﴾** يريد: إذ يعتقدون أن لا بعث فهم يتصرفون بشهواتهم تصرف اللاعب اللاهي، **﴿وَعَرَّيْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾** أي: خدعتهم، من الغرور وهو الإطعام بما لا يتحصل، فاغثروا بنعم الله وورقه وإمهاله، وطمعهم ذلك فيما لا يتحصل من رحمته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتخرج في **﴿وَعَرَّيْتَهُمُ﴾** هنا وجه آخر من العَرَّ بفتح الغين، أي: ملأت أفواههم وأشبعتهم، ومنه قول الشاعر:

وَلَمَّا التَّقَيْنَا بِالْحُلَيْبَةِ عَرَّنِي بِمَغْرُوفِهِ حَتَّى خَرَجْتُ أَفْوَقَ وَمِنْهُ: غَرَّ الطائر فرخه، ولا يتجه

هذا المعنى في تفسير غُرٍّ في كل موضع.

وأضاف الدين إليهم على معنى أنهم جعلوا اللعب واللهو ديناً، ويحتمل أن يكون المعنى: اتخذوا دينهم الذي كان ينبغي لهم لعباً ولهواً. والضمير في ﴿يَوْمَ﴾ عائد على الدين، وقيل: على القرآن.

و ﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾ في موضع المفعول، أي: لثلاث تبسل، أو كراهية أن تبسل، ومعناه: تسلم، قال الحسن وعكرمة، وقال قتادة: تُخْبَسُ وتُرْتَهَنُ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تُفْضَحُ، وقال الكلبي وابن زيد: تُجْزَى. وهذه كلها متقاربة بالمعنى، ومنه قول الشُّقْرِي:

هُنَالِكَ لَا أَرْجُو حَيَاةَ تَسْرُنِي
سَمِيرَ اللَّيَالِي مُبْسَلًا بِالْجِرَاطِ
وقال بعض الناس: هو مأخوذ من البَسْل، أي من الحرام كما قال الشاعر:

بَكَرَتْ تَلَوْمُكَ بَغْدَ وَهْنٍ فِي الثَّدْيِ
بَسْلٌ عَلَيْكَ مَلَاحِظِي وَعِشَابِي
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد.

و ﴿نَفْسٌ﴾ تدل على الجنس، ومعنى الآية: وذكر بالقرآن والدين وادع إليه لثلاث تبسل نفس التارك للإيمان بما كسبت من الكفر وآثرته من رفض الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ في موضع الحال، و ﴿وَمِنْ﴾ لابتداء الغاية، ويجوز أن تكون زائدة، و ﴿دُونِ﴾ ظرف مكان، وهي لفظة تقال باشتراك، وهي - في هذه

الآية - الدالة على زوال من أضيفت إليه من نازلة القول، كما في المثل: ﴿وَأَمِرٌ دُونَ عِيْدَةِ الدَّوْمِ﴾.

والولي والشفيع هما طريقا الحماية والغوث في جميع الأمور، ﴿وَلَنْ تَعْدَلَ كُفْرًا عَدْلِي﴾ أي: وإن تعط كل فدية وإن عظمت فتجعلها عدلاً لها لا يقبل منها، وحكى الطبري عن قائل أن المعنى: وإن تعدل من العدل المضاد للجور، ورد عليه وضعفه بالإجماع على أن توبة الكافر مقبولة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يلزم هذا الرد لأن الأمر إنما هو يوم القيامة ولا تقبل فيه توبة ولا عمل، والقول نص لأبي عبيدة. والعدل في اللغة معادل الشيء من غير جنسه، وقيل: العدل بالكسر: المثل، والعدل بالفتح: القيمة، و ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الجنس المدلول عليه بقوله: ﴿تُبْسَلُ نَفْسٌ﴾ و ﴿أُبْسِلُوا﴾ معناه: أسلموا بما اجترحوه من الكفر. والحميم: الماء الحار، ومنه الحمام والحمّة، ومنه قول أبي ذؤيب:

.....

إِلَّا الْحَمِيمَ فَإِنَّهُ يَتَبَصَّعُ
و ﴿أَلَيْسَ﴾ فعيل بمعنى مُفْعِل، أي: مؤلم.

﴿٧١﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قل في احتجاجك: أنطيع رأيكم في أن ندعو من دون الله؟ والدعاء يعم العبادة وغيرها، لأن من جعل شيئاً موضع دعائه فإنَّه يعبد وعليه يتكل. ﴿مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ يعنى الأصنام، إذ هي

جمادات: حجارة وخشب ونحوه. وضرر الأصنام في الدين لا يفهمه الكفار فلذلك قال: ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إنما الضرر الذي يفهمونه من نزول المكاره الدنيوية.

﴿وَوَرَدُ عَلَى أَغْلَابِنَا﴾ تشبيهه، وذلك أن المردود على العقب وهو أن يكون الإنسان يمشي قُدماً - وهي المشية الجيدة - فريد يمشي القهقري - وهي المشية الدنية - فاستعمل المثل بها فيمن رجع من خير إلى شر، ووقعت في هذه الآية في تمثيل الراجع من الهدى إلى عبادة الأصنام. و ﴿هَذَانَا﴾ بمعنى أرشدنا. قال الطبري وغيره: الرد على العقب يستعمل فيمن أمل أمراً فخاب أمله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول قلبي.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنِّي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ الآية. الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف تقديره: رداً كَرَدَ الذي و ﴿اسْتَهْوَتْهُ﴾ استفعلته بمعنى استدعت هواه وأمالته، قال أبو عبيدة: ويحتمل هَوِيَّه وهو جده وركوب رأسه في النزوع إليهم، والهوي من هوى يهوي، يستعمل في السقوط من علو إلى أسفل، ومنه قول الشاعر:

هَوَى ابْنِ مَنْ ذَرَى شَرَفٍ
فَزَلْتُ رَجُلَهُ وَتَدَهُ

وهذا المعنى لا مدخل له في هذه الآية إلا أن تتأول اللفظة بمعنى: ألغته الشياطين في هوة، وقد ذهب إليه أبو علي وقال: هو بمعنى أهوى كما أن استزل بمعنى أزل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتحرير أن العرب تقول: هوى، وأهواه غيره، واستهواه بمعنى طلب منه أن يهوي هو، أو طلب منه أن يهوى شيئاً. ويستعمل الهوى أيضاً في ركوب الرأس في النزوع إلى الشيء، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ نَفْسِكَ أَتَّائِدَ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾، ومنه قول شاعر الجن: تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَنْبِيءِي الْهُدَى مَا مُؤْمِنُ الْجِنِّ كَأَنْجَابِهَا وهذا المعنى هو الذي يليق بالآية.

وقرأ الجمهور من الناس: ﴿أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ وقرأ الحسن: ﴿أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾، قال بعض الناس: هو لحن. وليس كذلك هو شاذٌ قبيح، وإنما هو محمول على قولهم: سنون وأرضون إلا أن هذه في جمع مسلم وشياطين في جمع مكسر فهذا موضع الشذوذ، وقرأ حمزة: ﴿أَسْتَهْوَاهُ الشَّيَاطِينُ﴾ وأمال ﴿أَسْتَهْوَاهُ﴾، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والأعمش، وطلحة: ﴿أَسْتَهْوَاهِ الشَّيْطَانُ﴾ بالياء وإفراد ﴿الشَّيْطَانُ﴾، وذكر الكسائي أنها كذلك في مصحف ابن مسعود.

وقوله: ﴿فِي الْأَنْزِلِ﴾ يحكم بأن ﴿أَسْتَهْوَتْهُ﴾ إنما هو بمعنى استدعت هويته الذي هو الجد في النزوع، و ﴿حَبْرَانِ﴾ في موضع الحال، ومؤنثه (حبري) فهو لا ينصرف في معرفة ولا نكرة، ومعناه: ضالاً متحيراً، وهو حال من الضمير في ﴿أَسْتَهْوَتْهُ﴾، والعامل فيه ﴿أَسْتَهْوَتْهُ﴾، ويجوز أن يكون من ﴿الَّذِي﴾ والعامل فيه المقدر بعد

الكاف، وقوله: ﴿أَسْتَهْوَتْهُ﴾ يقتضي أنه كان على طريق فاستدعته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فسياق هذا المثل كأنه قال: أ يصلح أن يكون بعد الهدى نعبد الأصنام فيكون ذلك منا ارتداداً على العقب فيكون كرجل على طريق واضح فاستهوته عنه الشياطين فخرج عنه إلى دعوتهم فبقي حائراً؟ وقوله: ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ يحتمل أن يريد: له أصحاب على الطريق الذي خرج منه، فيشبه بالأصحاب - على هذا - المؤمنون الذين يدعون من ارتد إلى الرجوع إلى الهدى، وهذا تأويل مجاهد، وابن عباس. ويحتمل أن يريد: له أصحاب أي من الشياطين الدعاة لا يدعونه إلى الهدى بزعمهم وإنما يوهمونهم، فيشبه بالأصحاب - على هذا - الكفرة الذين يثبتون من ارتد عن الإسلام على ارتداده، وروي هذا التأويل عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً.

و ﴿أَتَيْنَا﴾ من الإتيان بمعنى المجيء، وفي مصحف عبدالله إلى الهدى بينا، وهذه تؤيد تأويل من تأول ﴿الْمَكْدَى﴾ حقيقة إخباراً من الله تبارك وتعالى، وحكى مكي وغيره أن المراد بـ ﴿الَّذِي﴾ في هذه الآية عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، وبالأصحاب أبوه وأمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأن في الصحيح أن عائشة رضي الله عنها لما سمعت قول القائل: إن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِيُؤَدِّيهِ أَفِي لَكُمَا﴾ نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر قالت:

(كذبوا ما نزل فينا من القرآن شيء إلا برأيتي).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حدثني أبي رضي الله عنه قال: سمعتُ الفقيه الإمام أبا عبدالله المعروف بالنحوي المجاور بمكة يقول: من نازع أحداً من الملاحدة فإنما ينبغي أن يرد عليه وينازعه بالقرآن والحديث، فيكون كمن يدعو إلى الهدى بقوله: ﴿أَتَيْنَا﴾، ومن ينازعهم بالجدل ويخلق عليهم به فكأنه بعد عن الطريق الواضح أكثر ليرد هذا الزايغ فهو يخاف عليه أن يضل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا انتزاع حسن جداً.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ الآية. من قال: «إن الأصحاب هم من الشياطين المستهزين، وتأول ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ بزعمهم» قال: إن قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ ردٌ عليهم في زعمهم، فليس ما زعموه صحيحاً، وليس بهدى، بل هو في نفسه كفر وضلال، وإنما الهدى هدى الله، وهو الإيمان. ومن قال: «إن الأصحاب هم على الطريق المدعو إليها، وإن المؤمنين الداعين للمرتدين شبهوا بهم، وإن الهدى هو هدى على حقيقته، يجيء على قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ بمعنى: إن دعاء الأصحاب وإن كان إلى هدى فليس نفس دعائهم تقع الهداية، وإنما يهتدي بذلك الدعاء من هداه الله تعالى بهداه.

﴿وَأُتْرْنَا لِلْسَّلَامِ﴾ السلام لام كي، ومع (أن) مقدرة، ويقدر مفعول لـ ﴿أَمْرًا﴾ مضمّر تقديره، وأمرنا

بالإخلاص أو بالإيمان ونحو هذا، فتقدير الجملة كلها: «وأمرنا بالإخلاص لأن نُسلم»، ومذهب سيبويه في هذا أن «لِئْسَلِمَ» هو موضع المفعول، وأن قولك: «أمرت لأقوم»، و «أمرت أن أقوم» يجريان سواء، ومثله قول الشاعر: أزدت لأتسى ذكرها..

إلى غير ذلك من الأمثلة، و «لِئْسَلِمَ» يعم الدين والاستسلام.

﴿٧٢﴾ - ﴿٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل: «وَأَنْ أَقِيمُوا» يتجه أن يكون بتأويل «وإقامة» فهو عطف على المفعول المقدر في «أَتَرَبَّاءُ»، وقيل: بل هو معطوف على قوله: «لِئْسَلِمَ» تقديره: لأن نسلم وأن أقيموا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول الزجاج، واللفظ يمانعه، وذلك أن قوله: «لَأَنْ نُسَلِّمَ» معرب، وقوله: «لَأَنْ أَقِيمُوا» مبني، وعطف المبني على المعرب لا يجوز، لأن العطف يقتضي التشريك في العامل، اللهم إلا أن تجعل العطف في (أن) وحدها، وذلك قلق، وإنما يتخرج على أن يقدر قوله: «وَأَنْ أَقِيمُوا» بمعنى: لنقيم، ثم خرجت بلفظ الأمر لما في ذلك من جزالة اللفظ فجاز العطف على أن تلغي حكم اللفظ وتعمل على المعنى. ويشبه هذا من جهة ما حكاه يونس عن العرب: «ادخلوا الأول فالأول» برفع لفظ (الأول)، فإنما هو بأن يقدر: (ادخلوا) بمعنى: ليدخل الأول وإلا فليس يجوز إلا: ادخلوا الأول فالأول بالنصب. وقال الزجاج

أيضاً: يحتمل أن يكون «وَأَنْ أَقِيمُوا» معطوفاً على «أَتَرَبَّاءُ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفيه بُعْد.

والضمير في قوله: «وَأَتَقَوْا» عائذ على «رَبِّ الْعَالَمِينَ»، «وَهُوَ» ابتداء وما بعده خبره، وهو لفظ خبر يتضمن التنبيه والتخويف.

وقوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ» الآية. «خَلَقَ» ابتدع وأخرج من العدم إلى الوجود، و «يَالْحَقُّ» أي: لم يخلقها باطلاً لغير معنى، بل لمعان مفيدة ولحقائق بيّنة، منها ما يحسه البشر من الاستدلال بها على الصانع ونزول الأرزاق وغير ذلك، وقيل: المعنى: بأن حق له أن يفعل ذلك، وقيل: «يَالْحَقُّ» معناه: بكلامه في قوله للمخلوقات «كُنْ» وفي قوله: «إِنِّي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحرير القول أن المخلوقات إنما إيجادها بالقدرة لا بالكلام، واقتران «كُنْ» بحالة إيجاد المخلوق فائدته إظهار العزّة والعظمة ونفوذ الأوامر وإعلان القصد، ومثال ذلك في الشاهد أن يضرب إنسان شيئاً فيكسره ويقول في حال الكسر بلسانه: انكسر، فإن ذلك إنفاذ عزم وإظهار قصد، والله المثل الأعلى، لا تشبيه ولا حرف ولا صوت ولا تغيير، أمره واحد كلمح بالبصر، فكأن معنى الآية على هذا القول: وهو الذي خلق السموات والأرض بقوله كن المقترنة بالقدرة التي بها يقع إيجاد المخلوق بعد عدمه، فعبر عن ذلك بالحق.

«وَيَوْمَ يَقُولُ» نصب على الظرف، وهو متعلق بمعمول فعل مضمر تقديره: «واذكر الخلق والإعادة يوم». وتحتمل الآية مع هذا أن يكون معناها: واذكر الإعادة يوم يقول الله للأجساد: كن معادة، ثم يحتمل أن يتم الكلام هنا ثم يبدأ بإخبار أنه يكون قوله الحق الذي كان في الدنيا إخباراً بالإعادة، ويحتمل أن يكون تمام الكلام في قوله: «يُنَكَّرُونَ»، ويكون «قَوْلَهُ الْحَقُّ» ابتداء وخبر، أو على الاحتمال الذي قبله، ف «قَوْلُهُ» فاعل، قال الزجاج: قوله: «وَيَوْمَ» معطوف على الضمير من قوله: «وَأَتَقَوْا»، فالتقدير هنا على هذا القول: «واتقوا العقاب أو الأهوال والشدائد يوم»، وقيل: إن الكلام معطوف على قوله: «خَلَقَ» أَلَسَمَرَاتٍ، والتقدير - على هذا: «وهو الذي خلق السموات والأرض والمعادات إلى الحشر يوم»، ولا يجوز أن تعمل هذه الأفعال - لا تقديره: اذكر، ولا: اتقوا، ولا: خلق - في «يَوْمَ» لأن أسماء الزمان إذا بنيت مع الأفعال فلا يجوز أن تنصب إلا على الظرف، ولا يجوز أن يتعلّق «يَوْمَ» بقوله: «قَوْلَهُ الْحَقُّ» لأن المصدر لا يعمل فيما تقدمه، وقد أطلق قوم أن العامل: اذكر أو خلق. ويحتمل أن يريد ب «يَقُولُ» معنى الماضي كأنه قال: «وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق يوم يقول - بمعنى قال لها: كن». ف «يَوْمَ» ظرف معطوف على موضع قوله: «أَلَحَقُّ» إذ هو في موضع نصب، ويجيء تمام الكلام

المعوج أو المخطيء، ولا تبقى فيه الصفة بهذا الحال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف. وقيل: نصبه على الحال كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه وهو في حال عوج وخطأ، وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وغيرهم بضم الراء على النداء، ويصح - مع هذا - أن يكون (آزر) اسم أب إبراهيم، ويصح أن يكون بمعنى المعوج والمخطيء. وقال الضحاك: (آزر) بمعنى: شيء، ولا يصح - مع هذه القراءة أن يكون (آزر) صفة، وفي مصحف أبي رضي الله عنه: ﴿يَا آزَرَ﴾ بثبوت حرف النداء ﴿اتَّخَذْتُ أَصْنَامًا﴾ بالفعل الماضي. وقرأ ابن عباس فيما روي عنه أيضاً: ﴿أَزْرًا تَتَّخِذُ؟﴾ بألف الاستفهام وفتح الهمزة من (آزرًا) وسكون الزاي ونصب الراء وتوينها وإسقاط ألف الاستفهام من ﴿أَتَتَّخِذُ؟﴾ ومعنى هذه القراءة: أعْضُدْ وقوة ومظاهرة على الله تعالى تتخذ، وهو من نحو قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ بِهٖ أَرْزَى﴾، وقرأ أبو إسماعيل - رجلٌ من أهل الشام - بكسر الهمزة من هذا الترتيب، ذكرها أبو الفتح، ومعناها أنها مبدلة من واو كوسادة وإسادة، فكأنه قال: أَوْزَرًا ومأثماً تتخذ أصناماً؟ ونصبه - على هذا - بفعل مضمر، ورويت أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقرأ الأعمش: ﴿إِزْرًا تَتَّخِذُ﴾ بكسر الهمزة وسكون الزاي دون ألف توقيف. و﴿أَصْنَامًا إِلَهًا﴾ مفعولان.

وذكر أن (آزر) أب إبراهيم كان نجاراً محسناً ومهندساً، وكان تُمرود يتعلق بالهندسة والنجوم فحظي عنده (آزر) لذلك، وكان على خطة عمل الأصنام، تُعمل بأمره وتدبيره، ويطبع هو في الصنم بختم معلوم عندها، وحينئذ يعبد ذلك الصنم، فلما نشأ ابنه إبراهيم على الصفة التي تأتي بعد كان أبوه يكلفه بيعها، فكان إبراهيم ينادي عليها: من يشتري ما يضره ولا ينفعه؟ ويستخف بها ويجعلها في الماء منكوسة ويقول: اشربي، فلما شهر أمره بذلك وأخذ في الدعاء إلى الله تعالى قال لأبيه هذه المقالة.

و ﴿أَرْكَ﴾ - في هذا الموضع - يشترك فيها البصر والقلب، لأنها رؤية قلب ومعرفته وهي مترتبة على رؤية بصر. و ﴿تُبَيِّنُ﴾ بمعنى: واضح ظاهر، وهو من: أبان الشيء إذا ظهر، ليس بالفعل المتعدي المنقول من: بَانَ بَيِّن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يكون المنقول، ويكون المفعول مقدراً تقديره: في ضلال مبين كفركم. وقيل: كان آزر رجلاً من أهل كوثا من سواد الكوفة، قال النقاش، وبها وُلد إبراهيم عليه السلام، وقيل: كان من أهل خُرَّان.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ رُئِيَٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَرْضِ﴾، الآية المتقدمة تقضي بهداية إبراهيم عليه السلام، والإشارة هنا بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ هي إلى تلك الهداية، أي: وكما هديناه إلى الدعاء إلى الله وإنكار الكفر أرناهم ملكوت. و ﴿رُئِيَٰ﴾ لفظها

الاستقبال ومعناه الماضي، وحكى المهدوي أن المعنى: وكما هديناك يا محمد فكذلك تُري إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد إذ اللفظ لا يعطيه، و ﴿رُئِيَٰ﴾ هنا متعدية إلى مفعولين لا غير، فهي إما من رؤية البصر، وإما من (أرى) التي بمعنى عرف، ولو كانت من (أرى) بمعنى أعلم وجعلنا أعلم منقولة من علم التي تتعدى إلى مفعولين لوجب أن تتعدى (أرى) إلى ثلاثة مفاعيل، وليس كذلك، ولا يصح أن يقال: إن الثالث محذوف، لأنه لا يجوز حذفه إذ هو الخبر في الجملة التي يدخل عليها علمت في هذا الموضع، وإنما هي من علم بمعنى عرف، ثم نقلت الهمزة فتعدت إلى مفعولين، ثم جعلت (أرى) بمنزلتها في هذه الحال.

وهذه الرؤية - قيل: رؤية البصر، وروي في ذلك أن الله عز وجل فرَجَ لإبراهيم السموات والأرضين حتى رأى ببصره الملكوت الأعلى والملكوت الأسفل، فإن صح هذا المنقول ففيه تخصيص لإبراهيم عليه السلام بما لم يدرکه غيره قبله ولا بعده، وهذا هو قول مجاهد، قال: تفرجت له السموات والأرضون فرأى مكانه في الجنة، وبه قال سعيد بن جبیر، وسلمان الفارسي. وقيل: هي رؤية بصر في ظاهر الملكوت وقع له معها من الاعتبار ورؤية القلب بما لم يقع لأحد من أهل زمنه الذين بعث إليهم، قاله ابن عباس وغيره، ففي هذا تخصيص ما على جهة التقييد بأهل زمنه، وقيل:

هي رؤية قلب رأى بها ملكوت السموات والأرض بفكرته ونظره، وذلك لا بد متركب على ما تقدم من رؤيته ببصره وإدراكه في الجملة بحواسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان الأخيران يناسبان الآية، لأن الغاية التي نصبت له إنما هي أن يؤمن ويكون من جملة موقنين كثرة، والإشارة لا محالة إلى من قبله من الأنبياء والمؤمنين وبعده، واليقين يقع له ولغيره بالرؤية في ظاهر الملكوت والاستدلال به على الصانع والخالق لا إله إلا هو.

و ﴿مَلَكُوتٌ﴾ بناء مبالغة كَجَبَرُوت وَزَعْبُوت وَزَحْمُوت. وقال عكرمة: هو مَلَكُوتِي باليونانية أو بالنبطية، وقرأ ﴿مَلَكُوتٌ﴾ بالثاء مثلثة، وقرأ أبو السمال: ﴿مَلَكُوتٌ﴾ بإسكان اللام، وهي لغة مَلَكُوت بمعنى: الملك، والعرب تقول: «الفلان ملكوت اليمن» أي: ملكه.

واللام في ﴿يَكُونُ﴾ متعلقة بفعل مؤخر تقديره: «وليكون من الموقنين أريانه»، والموقن: العالم بالشيء علماً لا يمكن أن يطرأ له فيه شك، وقال الضحاك، ومجاهد أيضاً: إن الإشارة ما هنا بملكوت السموات هي إلى الكوكب والشمس والقمر، وهذا راجع ودخل فيما قدمناه من أنها رؤية بصر في ظاهر الملكوت.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير ﴿وَلِكُونُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ قال: جَلَى له الأمور سرها وعلانياتها فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق، فلما جعل يلعب

أصحاب الذنوب قال الله تعالى: إنك لا تستطيع هذا فرّده لا يرى أعمالهم.

﴿٧٦﴾ - ﴿٧٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا﴾ رابطة جملة ما بعدها بما قبلها، وهي ترجع أن المراد بالملكوت هو هذا التفصيل الذي في هذه الآية.

وجزّ الليل: ستر وغطى بظلامه، ويقال: أجزّ، والأول أكثر، ويشبه أن يكون الجزّ والمجزّ والجزّ وهو القبر مشتقة من جزّ إذا ستر.

ولفظ هذه القصة يحتمل أن تكون وقعت له في حال صباه وقبل بلوغه كما ذهب إليه ابن عباس، فإنه قال: رأى كوكباً فعبده. وقال ناس كثير: إن النازلة قبل البلوغ والتكليف، ويحتمل أن تكون وقعت له بعد بلوغه وكونه مكلفاً، وحكى الطبري هذا عن فرقة، وقالت: إنه استفهم على جهة التوقيف بغير ألف، قال: وهذا كقول الشاعر:

رَفُونِي وَقَالُوا يَا حَوِيلُ لِمَ تُرْعُ
فَقُلْتُ وَأَنْكَرْتُ الْوُجُوهَ هُمُ هُمُ
يريد: أهُم هُم؟ وكما قال الآخرة:
لَعَمْرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنْ كُنْتُ دَارِيَا
شُعَيْثُ بْنُ سَهْمٍ أَمْ شُعَيْثُ بْنُ مِثْقَرٍ؟
يريد: أشعيث؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والبيت الأول لا حجة فيه عندي.

وقد حكى أن مُرُود جبار ذلك الزمن رأى منجموه أن مولوداً يولد في سنة كذا في عمله يكون خراب الملك على يديه، فجعل يتبع الحبالى ويوكل بهن حراساً، فمن وضعت أنثى تركت، ومن وضعت

ذكراً حمل إلى الملك فذبحه، وأن أم إبراهيم حملت - وكانت شابة قوية - فسترت حملها، فلما قربت ولادتها بعثت تارخ أباً إبراهيم إلى سفر، وتحيلت لمضيه إليه، ثم خرجت هي إلى غار فولدت فيه إبراهيم، وتركته في الغار وقد هيأت عليه، وكانت تتفقدته فتجده يتغذى بأن يمص أصابعه فيخرج له منها عسل وسمن ونحوهما، وحكي: بل كان يغذوه ملك، وحكي: بل كانت تأتيه بألبان النساء اللاتي ذبح أبنائهن، فشب إبراهيم أضعاف ما يشب غيره، والمليك في خلال ذلك يحس بولادته ويشدد في طلبه، فمكث في الغار عشرة أعوام، وقيل: خمس عشرة سنة، وأنه نظر - أول ما عقل - من الغار فرأى الكوكب وجرت قصة الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجلبت هذه القصص بغاية الاختصار في اللفظ، وقصدت استيفاء المعاني التي تخص الآية، ويضعف عندي أن تكون هذه القصة في الغار لقوله في آخرها: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وهي ألفاظ تقتضي محاجة ورداً على قوم، وحاله في الغار بعيدة عن مثل هذا، اللهم إلا أن يتأول في ذلك أنه قالها بينه وبين نفسه، أي قال في نفسه معنى العبارة عنه: ﴿وَيَقُولُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وهذا كما قال الشاعر:

نَمْ أَنْشَى وَقَالَ فِي التَّفَكِيرِ
إِنَّ الْحَيَاةَ يَوْمَ فِي الْكُرُورِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومع هذا فالمخاطبة تبعده، ولو قال:

«يا قوم إني بريء من الإشراك» لصح هذا التأويل وقوي، فإن قلنا بأنه وقعت له القصة في الغار في حال الصبوة وعدم التكليف على ما ذهب إليه بعض المفسرين ويحتمله اللفظ فذلك ينقسم على وجهين: إما أن يجعل قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ تصميماً واعتقاداً، وهذا باطل لأن التصميم لم يقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وإما أن يجعله تعريضاً للنظر والاستدلال، كأنه قال: هذا المنير البهي ربي إن عضدت ذلك الدلائل، ويجيء إبراهيم عليه السلام كما قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَوَعَدَكَ مَلَأَ فَعْدَى﴾ أي: مهمل المعتقد. وإن قلنا بأن القصة وقعت له في حال كفره وهو مكلف فلا يجوز أن يقول: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ مُصْصِماً ولا معرضاً للنظر، لأنها رتبة جهل أو شك، وهو عليه السلام مُتَزَهٍ معصوم من ذلك كله، فلم يبق إلا أن يقولها على جهة التقرير لقومه والتوبيخ لهم وإقامة الحجة عليهم في عبادة الأصنام، كأنه قال لهم: «أهذا المنير ربي؟» أو ﴿هَذَا رَبِّي﴾ وهو يريد: على زعمكم، كما قال تعالى: ﴿أَبْنِ شُرَكَائِكَ؟ فَإِنَّمَا الْمَعْنَى: على زعمكم. ثم عرض إبراهيم عليهم من حركته وأفوله أمانة الحدوث. وأنه لا يصح أن يكون رباً، ثم في آخر أعظم منه، وأحرى كذلك، ثم في الشمس كذلك، فكأنه يقول: فإذا بان في هذه المنيرات الرفيعة أنها لا تصلح للربوبية فأصنامكم التي هي خشب وحجارة أخرى أن يبين ذلك

فيها، ويُعضد عندي هذا التأويل قوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾. ومثل لهم بهذه الأمور لأنهم كانوا أصحاب علم نجوم ونظر في الأفلاك، وهذا الأمر كله إنما وقع في ليلة واحدة، أي الكوكب - وهو الزهرة في قول قتادة، وقال السدي: هو المشتري - جانحاً للغروب، فلما أفل بزغ القمر وهو أول طلوعه، فسرى الليل أجمع، فلما بزغت الشمس زال ضوء القمر قبلها لانتشار الصباح وخفي نوره ودنا أيضاً من مغربه، فسمى ذلك أفولاً لقربه من الأفول التام على تجوز في التسمية، ثم بزغت الشمس على ذلك، وهذا الترتيب يستقيم في الليلة الخامسة عشرة من الشهر إلى ليلة عشرين، وليس يترتب في ليلة واحدة كما أجمع أهل التفسير إلا في هذه الليالي، وبذلك التجوز في أفول القمر، و (أفل) في كلام العرب معناه: غاب، يقال: أين أفلت عنا يا فلان؟ وقيل: معناه ذهب. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خلاف في عبارة فقط، وقال ذو الرمة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللُّوَاتِي تَقُودُهَا
نُجُومٌ وَلَا بِالْأَفْلَاتِ الدُّوَالِكِ
وقال: ﴿الْأَفْلَاتِ﴾ فجمع بالياء والنون لما قصد قصد الأرباب ونحو ذلك، وعلى هذا يخرج قوله في الشمس: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ فذكر الإشارة إليها لما قصد قصد ربه.

وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية حفص: ﴿رَبِّ﴾ بفتح الراء والهمزة، وقرأ نافع بين الفتح والكسر، وقرأ

عاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بكسرهما، وقرأ أبو عمرو بن العلاء بفتح الراء وكسر الهمزة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ الآية. البزوغ في هذه الأنوار: أول الطلوع، وقد تقدم القول فيما تدعو إليه ألفاظ الآية وكون هذا بالترتيب في ليلة واحدة مع التجوز في أفول القمر، لأن أفوله لو قدرنا مغيبه في المغرب لكان ذلك بعد بزوغ الشمس، وجميع ما قلناه يعطيه الاعتبار.

و ﴿يَبُونِي﴾ يرشدني، وهذا اللفظ يؤيد قول من قال: النازلة في حال الصغر. والقوم الضالون: عبدة المخلوقات كالأصنام وغيرها، وإن كان الضلال أعم من هذا فهذا هو المقصود في هذا الموضع.

٧٨ - ٨٠ تفسير قوله عز وجل:

لما قصد قصد ربه ﴿قَالَ هَذَا﴾ فذكر، أي: هذا المرئي أو المنير ونحو هذا، ﴿فَلَمَّا أَفَلَّتْ﴾ لم يبق شيء يمثل لهم به، فظهرت حاجته وقوي بذلك على متابذتهم والتبري من إشراكهم.

وقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يؤيد قول من قال: النازلة في حال الكبر والتكليف، و ﴿وَجْهَتْ وَجْهِي﴾ أي: أقبلت بقصدي وعبادتي وتوحيدي وإيماني وغير ذلك مما يعمه المعنى المعبر عنه بـ ﴿وَجْهِي﴾. و ﴿فَكَرَّ﴾ معناه: ابتدع في أجرام، و ﴿حَنِيفًا﴾ معناه: مستقيماً، والحنف: الميل في كلام العرب، وأصله في الأشخاص، وهو في

المعاني مستعار، فالمعوج في الأجرام أحنف على الحقيقة، أي مائل، والمستقيم فيها أحنف على تجوز كأنه مال عن كل جهة إلى القوام.

﴿وَحَاجَّهٖ﴾ فاعله من الحجة، قال: أنراجعوني في الحجة في تسويد الله؟ وقرأ قوم: ﴿أَتَحَاجُّونِي﴾ بإظهار النون وهو الأصل، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمره، والكسائي: ﴿أَتَحْتَجُّونِي﴾ بإدغام النون الأولى في الثانية، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿أَتَحَاجُّونِي﴾ بحذف النون الواحدة، فقل: هي الثانية، وقيل: هي الأولى ويدل على ذلك أنها بقيت مكسورة، قال أبو علي الفارسي: لا يجوز أن تحذف الأولى لأنها للإعراب، وإنما حذفت الثانية التي هي نوطنة لياء المتكلم، كما حذفت في (لئني)، وفي قول الشاعر:

.....

يَسُوهُ الْغَالِيَاتِ إِذَا قُلْسُنِي
وكسرت - بعد ذلك - الأولى الباقية لمجاورتها للياء.

﴿وَقَدْ هَدَّيْتُ﴾ أي: أرشدني إلى معرفته وتوحيده، وأمال الكسائي: ﴿هَدَانٍ﴾، والإمالة في ذلك حسنة، وإذا جازت الإمالة في «غزا ودعا» وهما من ذوات الواو فيه في (هدان) التي هي من ذوات الياء أجوز وأحسن، وحكي أن الكفار قالوا لإبراهيم عليه السلام: خف أن نصيبك آلهتنا ببرص أو داء لإذابتك لها وتنفصل، فقال لهم: لست أخاف الذي تشركون به لأنه لا قدرة

لها ولا غناء عندها، و ﴿مَا﴾ في هذا الموضع بمعنى الذي، والضمير في ﴿يَوْمَهُ﴾ يحتمل أن يعود على الله عز وجل، فيكون - على هذا - في قوله: ﴿تَشْرِكُونَ﴾ ضمير عائد على [مَا]، وتقدير الكلام: «ولا أخاف الأصنام التي تشركونها بالله في الربوبية». ويحتمل أن يعود الضمير على ﴿مَا﴾ فلا يحتاج إلى غيره، كأن التقدير: «ما تشركون بسببه».

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ

يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء ليس من الأول، و ﴿شَيْئًا﴾ منصوب بـ ﴿يَشَاءَ﴾، ولما كانت قوة الكلام أنه لا يخاف ضراً استثنى مشيئة ربه تعالى في أن يريده بضر، و ﴿عَلَّامٌ﴾ نصب على التمييز، وهو مصدر بمعنى الفاعل كما تقول العرب: تَضَيَّبَ زيدٌ عرقاً، والمعنى: تصبب عرق زيد، فكذلك المعنى هنا: وسع علم ربي كل شيء، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ توقيف وتنبيه وإظهار لموضع التقصير منهم.

﴿٨١﴾ - ﴿٨٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية إلى ﴿تَمْلِكُونَ﴾ من قول إبراهيم عليه السلام لقومه، وهي حجته القاطعة لهم، والمعنى: وكيف أخاف الأصنام التي لا خطب لها وهي حجارة وخشب إذا أنا نبذتها ولم أعظمها، ولا تخافون

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُبْتَدُونَ ﴿٨١﴾ ذَٰلِكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ شَاءَ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ مِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٣﴾ وَكَرِّمُوا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَثَمَارًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾ وَمِنَ آبَائِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَخْوَاهُمْ وَاجْتَنِبُوا وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٦﴾ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي الْبَرَّ ﴿٨٧﴾ مَن يَشَاءِ مِن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَلَيْهِمْ تَكَالُفُ الْعَمَلِ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنَاجَبْنَا بِالْكِتَابِ وَالْحُكْمِ وَالنُّبُوَّةِ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكُنَّا بِمَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَىٰ قُلُوبَهُمْ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ عَالِيَةً أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

١٢٨

أنتم الله عز وجل وقد أشرتم به في الربوبية أشياء لم ينزل بها عليكم حجة؟ والسلطان: الحجة.

ثم استفهم على جهة التقرير ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ؟﴾ أي: من لم يشرك بالقادر العالم أحق أن يأمن. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية. ﴿الَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء، و ﴿يَلْبِسُوا﴾ معناه: يخلطوا، والظلم - في هذه الآية - الشرك، تظاهرت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ، وعن جماعة من الصحابة أنه لما نزلت هذه الآية أشفق أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: «أَيُّنَا لَمْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ؟» فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا ذَٰلِكَ كَمَا قَالَ لِقَمَان: ﴿إِنَّكَ أَلْتَرِكَ لَظُلْمَ عَظِيمٍ﴾». وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ في المصحف، فلما أتى عليها عظمت

عليه، فلبس رداءه ومرت إلى أبي بن كعب فقال: يا أبا المنذر، وسأله عنها، فقال له: إنه الشُّرك يا أمير المؤمنين، فسُرِّي عن عمر، وجرى لزيد بن صوحان مع سلمان نحو ممّا جرى لعمر مع أبي بن كعب رضي الله عنهم. وقرأ مجاهد: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكِ﴾، وقرأ عكرمة: ﴿يَلْبِسُوا﴾ بضم الياء، و﴿الْأَنَّى﴾ رفع بالابتداء وخبره في المجرور والجملة خبر ﴿أُولَئِكَ﴾، ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي: راشدون.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: المراد بهذه الآية إبراهيم عليه السلام خاصة، وقال عكرمة: نزلت في مهاجري أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام خاصة، وقالت فرقة: هي من قول إبراهيم عليه السلام لقومه، فهي من الحجة التي أوتيها، وقال ابن جريج: هي من قول قوم إبراهيم، ويجيء هذا من الحجة أيضاً أن أفروا بالحق وهم قد ظلموا في الإشراك، وقال ابن إسحق، وابن زيد، وغيرهما: بل ذلك قول من الله عز وجل ابتداء حكم فصل عام لوقت محاجة إبراهيم وغيره، ولكل مؤمن تقدم أو تأخر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو البين الفصيح الذي يرتبط به معنى الآية ويحسن رصفها، وهو خبر من الله تعالى.

و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى هذه الحجة المتقدمة، وهي رفع بالابتداء، و﴿حُجَّتَا﴾ خبره، و﴿ءَاتَيْنَاهَا﴾ في موضع الحال، ويجوز أن تكون

﴿حُجَّتَا﴾ بدلاً من ﴿تِلْكَ﴾، و﴿ءَاتَيْنَاهَا﴾ خبر ﴿تِلْكَ﴾ و﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ مفعول بـ ﴿ءَاتَيْنَاهَا﴾، والضمير مفعول أيضاً بـ ﴿ءَاتَيْنَاهَا﴾ مقدم، و﴿عَلَى﴾ متعلقة بقوله: ﴿حُجَّتَا﴾ وفي ذلك فصل كثير، ويجوز أن تتعلق ﴿عَلَى﴾ بـ ﴿ءَاتَيْنَاهَا﴾ على المعنى، إذ المعنى: أظهرناها لإبراهيم على قومه، ونحو هذا.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ شَأْنٍ﴾ بإضافة الدرجات إلى ﴿مِّنْ شَأْنٍ﴾، وقرأ عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ شَأْنٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهما مأخذان من الكلام، والمعنى المقصود بهما واحد، و﴿دَرَجَاتٍ﴾ على قراءة مَن ثَوْنٌ نصب على الظرفية، ﴿حِكْمٌ عَلَيْهِ﴾ صفتان تليق بهذا الموضع إذ هو موضع مشيئة واختيار فيحتاج ذلك إلى العلم والإحكام. والدرجات أصلها في الأجسام ثم تستعمل في المراتب والمنازل المعنوية.

﴿٨٦﴾ - ﴿٨٧﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا﴾ عطف على ﴿وَأَتَيْنَاهَا﴾، و﴿إِسْحَاقَ﴾ ابنه من سارة، و﴿يَعْقُوبَ﴾ هو ابن إسحاق، و﴿كُلًّا﴾ و﴿ثَوْنًا﴾ منصوبان على المفعول مقدمان على الفعل، وقوله: ﴿مِن قَبْلِ﴾ لقدمه ﷺ، وقوله: ﴿وَمِن دَرَجَاتٍ﴾ المعنى: وهدينا من ذرئته. والضمير في ﴿دَرَجَاتٍ﴾ - قال الزجاج: جائز أن يعود على إبراهيم، ويعترض هذا بذكر لوط

عليه السلام وهو ليس من ذرية إبراهيم عليه السلام، بل هو ابن أخيه، وقيل: ابن أخته، ويتخرج عند من يرى الخال أباً، وقيل: يعود الضمير على نوح، وهذا هو الجيد.

و﴿دَاوُدَ﴾ يقال: هو ابن أيشى ﴿وَسُلَيْمَانَ﴾ ابنه، ﴿وَأَيُّوبَ﴾ هو - فيما يقال - أيوب بن رازح بن عيصور بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام. و﴿يُوسُفَ﴾ هو ابن يعقوب بن إسحاق، ﴿وَيُوسَى وَهَارُونَ﴾ عليهما السلام هما ابنا عمران بن يصر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. ونصب ﴿دَاوُدَ﴾ يحتمل أن يكون بـ ﴿وَهَبْنَا﴾، ويحتمل أن يكون بـ ﴿هَدَيْنَا﴾.

وهذه الأسماء كلها فيها العجمة والتعريف، فهي غير منصرفة، وموسى عند سيبويه وزنه مُفْعَل، فعلى هذا ينصرف في النكرة، وقيل: وزنه فُعْلَى، فعلى، هذا لا ينصرف في معرفة ولا نكرة.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وغمد من الله عز وجل لمن أحسن في عمله، وترغيب في الإحسان، ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ عليه السلام - فيما يقال - هو ابن آذن بن بركتا ﴿وَيَعِيسَى﴾ عليه السلام ابن مريم بنت عمران بن ياشهم بن أموم بن حزقياء، ﴿وَإِسَّا﴾ عليه السلام هو ابن نسمي بن فنحاص بن الميزار بن هارون بن عمران، وروي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إدريس هو إلياس عليه السلام، ورد ذلك الطبري وغيره بأن إدريس هو جد نوح عليه السلام، تظاهرت

بذلك الروايات، وزكرياء قرأته طائفة بالمد، وقرأته طائفة بالقصر زكريا، وقرأ ابن عامر باختلاف عنه. والحسن وقتادة بتسهيل الهمزة من إلياس.

وفي هذه الآية أن عيسى عليه السلام من ذرية نوح أو إبراهيم عليهما السلام بحسب الاختلاف في عود الضمير من ﴿ذُرِّيَّتِهِ﴾ وهو ابن ابنته، وبهذا يستدل في الأحباس على أن ولد البنت من الذرية. ﴿وَأِسْمَاعِيلَ﴾ عليه السلام هو أكبر

ولدي إبراهيم عليه السلام، وهو من هاجر. ﴿وَالْيَسَعَ﴾ قال زيد بن أسلم: هو يوشع بن نون، وقال غيره: هو اليسع بن أخطوب بن المعجوز، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَالْيَسَعَ﴾، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وَالْيَسَعَ﴾ كأن الألف واللام دخلت على فَيْعَل، قال أبو علي الفارسي: فالألف واللام في (اليَسَعَ) زائدة لا تؤثر معنى تعريف، لأنها ليست للمعهد كالرجل والغلام، ولا للجنس كالإنسان والبهائم، ولا صفة غالبية كالعباس والحارث لأن ذلك يلزم عليه أن يكون ﴿وَالْيَسَعَ﴾ فعلاً. وحينئذ يجري صفة، وإذا كان فعلاً وجب أن يلزمه الفاعل، ووجب أن يحكى إذ هي جملة، ولو كان كذلك لم يجز لحاق اللام له، إذ اللام لا تدخل على الفعل، فلم يبق إلا أن تكون الألف واللام زائدة كما هي زائدة في قولهم: «الخمسة عشر درهماً» وفي قول الشاعر:

يا لَيْتَ أُمِّ الْعَمْرِ كَانَتْ صَاحِبِي
بِالْعَيْنِ غَيْرَ مَنْقُوطَةٍ، وفي قوله:

وَجَدْنَا الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ مُبَارَكاً
شَدِيداً بِأَعْيَابِ الْخِلَافَةِ كَاهِلَةً
وأما (اليَسَعَ) فالألف واللام فيه بمنزلتها في الحارث والعباس لأنه من أبنية الصفات، لكنه بمنزلة (اليَسَعَ) في أنه خارج عما عليه الأسماء الأعجمية، إذ لم يجيء فيها شيء هو على هذا الوزن، كما لم يجيء منها شيء فيه لام تعريف، فهما من الأسماء الأعجمية إلا أنهما مخالفان للأسماء الأعجمية فيما ذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما (اليَزِيد) فإنه لما سمي به أزيل منه معنى الفعل وأفردت فيه الاسم، فحصل فيه العلمية، وزيدت فيه الألف واللام لا لتعريف. وقال الطبري: دخلت الألف واللام إبتاعاً للفظ الوليد.

﴿وَيُوشَعَ﴾ هو ابن مثنى، ويقال: يونس ويونس ويونس، وكذلك يوسف ويوسف ويوسف، وبكسر الثون من ﴿يُونُسَ﴾ والسَّين من ﴿يُوسُفَ﴾ قرأ الحسن، وابن مصرف، وابن وثاب، وعيسى بن عمر، والأعمش في جميع القرآن. و ﴿الْمَكِيلَ﴾ معناه: عالمي زمانهم.

(٨٧) - (٩٠) تفسير قوله عز وجل: المعنى: وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعات، فـ ﴿وَرَيْنَ﴾ للتبعية، والمراد من آمن منهم نبياً كان أو غير نبى، ويدخل عيسى عليه السلام في ضمير قوله: ﴿وَرَيْنَ﴾، ولهذا قال محمد بن كعب: الخال أب والخالة أم. ﴿وَأَحْمَسَهُمُ﴾ معناه: تخبرناهم

وأرشدناهم وضمنناهم إلى خاصتنا وأرشدناهم إلى الإيمان والفوز برضى الله تعالى، قال مجاهد: معناه: أخلصناهم.

والذُرِّيَّةُ: الأبناء، وينطلق على جميع البشر ذُرِّيَّةٌ لأنهم أبناء، وقال قوم: الذُرِّيَّةُ تقع على الآباء لقوله تعالى: ﴿وَبَايَعْتُمْ أَنَا حَمَلًا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَاحِ﴾ يراد به نوع البشر.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هَدَى اللَّهُ يَهْدِي﴾ الآية. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى النعمة في قوله: ﴿وَأَحْمَسَهُمُ﴾، وإضافة الهدى إلى الله إضافة ملك. و ﴿حَبِطَ﴾ معناه: تلف وذهب لسوء غلب عليه.

و ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره، و ﴿الْكِتَابُ﴾ يراد به الصحف والتوراة والإنجيل والزبور، و ﴿الْمُكْرَ﴾ يراد به اللب والفطنة والفقه في دين الله، و ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى كفار قريش المعادين لرسول الله ﷺ وإلى كل كفار في ذلك العصر، قاله قتادة، وابن عباس، والسدي، وغيرهم. و ﴿قَوْمًا﴾ يراد به مؤمنو أهل المدينة، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي، وغيرهم: فالآية - على هذا التأويل - وإن كان القصد في نزولها هذين الصنفين فهي تعم الكفرة والمؤمنين إلى يوم القيامة. وقال قتادة أيضاً، والحسن بن أبي الحسن: المراد بالقوم من تقدم ذكره من الأنبياء والمؤمنين، وقال أبو رجاء: المراد الملائكة، والباء في ﴿بِهَآءٍ﴾ متعلقة بقوله: ﴿يَكْفُرُونَ﴾، والباء في ﴿يَكْفُرُونَ﴾ زائدة للتأكيد.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ الآية. الظاهر في الإشارة به ﴿أُولَئِكَ﴾ أنها إلى المذكورين قبل من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين المهديين، ومعنى الاقتداء: اتباع الأثر في القول والفعل والسيرة، وإنما يصح اقتداؤه بجمعهم في العقود والإيمان والتوحيد الذي ليس بينهم فيه اختلاف، وأما أعمال الشرائع فمختلفة، وقد قال عز وجل: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، ويجتمع أن تكون الإشارة به ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَوْمًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك يترتب على بعض التأويلات في المراد بالقوم، ويقلق بعضها.

قال القاضي ابن الباقلاني: واختلف الناس - هل كان رسول الله ﷺ قبل مبعته متعبداً بشرع من كان قبله؟ فقالت طائفة: كان متعبداً، واختلف بشرع من؟ فقالت فرقة: بشرع إبراهيم، وفرقة: بشرع موسى، وفرقة: بشرع عيسى عليهم السلام، وقالت طائفة: بالوقف في ذلك، وقالت طائفة، لم يكن متعبداً بشرع من كان قبله، وهو الذي يترجح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يحمل كلام القاضي على أنه لم يكن متعبداً بشرع من كان قبله في توحيد ولا معتقداً، لأننا نجد شرعنا ينفي أن الكفار الذين كانوا قبل النبي عليه الصلاة والسلام كأبويه وغيرهما في النار، ولا يدخل الله تعالى أحداً في النار إلا بترك ما كلف، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ

بَيَّنَّ رَسُولًا﴾ وغير ذلك. وقاعدة المتكلمين أن العقل لا يوجب ولا يكلف، وإنما يوجب الشرع، فالوجه في هذا أن يقال: إن آدم عليه السلام فمن بعده دعا إلى توحيد الله. دعاء عاماً، واستمر ذلك على العالم، فوجب على آدمي البالغ أن يبحث على الشرع الأمر بتوحيد الله تعالى، وينظر الأدلة المنصوبة على ذلك بحسب إيجاب الشرع النظر فيها، ويؤمن ولا يعبد غير الله، فمن فرضناه لم يجد سبيلاً إلى العلم بشرع أمر بتوحيد الله، وهو مع ذلك لم يكفر ولا عبد صنماً، بل تخلى، فأولئك أهل الفترات الذين أطلق عليهم أهل العلم أنهم في الجنة، وهم بمنزلة الأطفال والمجانين، ومن قصر في النظر والبحث فعبد صنماً وكفر فهذا تارك للواجب عليه مستوجب العقاب بالنار. فالنبي ﷺ قبل المبعث ومن كان معه من الناس وقبله مخاطبون على ألسنة الأنبياء قبل بتوحيد الله عز وجل، وغير مخاطبين بفروع شرائعهم إذ هي مختلفة، وإذ لم يدعهم إليها نبي، وأما بعد مبعث النبي ﷺ فهل هو وأمتة مخاطبون بشرع من تقدم؟ فقالت فرقة: لسنا مخاطبين بشيء من ذلك، وقالت فرقة: نحن مخاطبون بشرع من قبلنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن قال من هذه الطائفة إن محمداً عليه الصلاة والسلام وأمتة مخاطبون بكل شرائع من تقدم على الإطلاق فقد أحوال، لأن أحكام الشرائع تأتي مختلفة، وإنما يتخذون قول من قال

منها: إنا متعبدون بما صح نقله من شرائع من قبلنا ولم تختلف فيه الشرائع، وبالأخر مما اختلفت فيه لأنه الناسخ المتقدم، ويرتكب في صحة نقل ذلك إلى ما وقع في القرآن وفي حديث رسول الله ﷺ من حكاية أحكام سالفة، كقوله تعالى: ﴿وَعَنْ يَدِكَ ضَبًّا فَأَنزِلْ بِهِ﴾ وكقوله: ﴿وَأَقْرِضْ أَلْهَؤُةَ لِلْكَرِيِّ﴾، وكحكاية تزويج شعيب ابنته من موسى عليهما السلام، وكحديث النبي ﷺ في قضية سليمان عليه السلام بين المرأتين في الولد ونحو ذلك.

ولا يقتضي قولهم أكثر من جواز أن يُتَّعَدَ بذلك، وأما وجوب أن يتعبد بغير لازم، ولا تعلق عندي أشبه في ذلك من أن يقال: إن النبي ﷺ شرع لأمتة أن يصلي الناس صلاته إذا ذكرها، ثم مثل في ذلك لا على طريق التعليل بقوله عز وجل لموسى: ﴿وَأَقْرِضْ أَلْهَؤُةَ لِلْكَرِيِّ﴾ فننقل نحن هذا إلى غير ذلك من النوازل ونقول: إنه كما شرع عندنا ذلك المثل في نسيان الصلاة كذلك شرع هذه الأمثلة كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قياس ضعيف، ولو ذكر النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضْ أَلْهَؤُةَ لِلْكَرِيِّ﴾ على جهة التعليل لكانت الحجة به قوية، ولا يصح أن يقال: يصح عندنا نقل ما في الشرائع من جهة من أسلم منهم كعبدالله بن سلام وغيره صحة نقلها، وكذلك ما شرعه الحواريون لا سبيل إلى صحة شرع عيسى عليه السلام له.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن قَبْلِهِ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهَدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَارِيسَ يُبَدُّونَهَا وَنَحْفُونَ كَثِيرًا وَعِلْمُهُمَّ مَا رَتَلُوا أَنسَدُوا أَلْسِنَةً أَلَا أَوَدُّكُمْ قُلْ اللَّهُ تَعَزَّاهُمْ فِي حُوزِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ بِمَارَكٍ مُّصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١١٢﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ أَقْبَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْتُمْ مَا خَوَّاتُكُم وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُعْرَةَ الْكَلْبِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ زَعُمُونَ ﴿١١٤﴾

١٣٩

بتشديد الدال ﴿الله حق قدره﴾ بفتح الدال، وقرأ الجمهور في الأول بالتخفيف وفي الثانية بإسكانه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ الآية. أمره الله تعالى أن يستفهم على جهة التقرير على موضع الحجة، والمراد بالكتاب التوراة. و ﴿نُورًا وَهَدًى﴾ اسمان في موضع الحال بمعنى نيرًا وهاديًا، فإن جعلناه حالاً من ﴿الْكِتَابِ﴾ فالعامل فيه ﴿أُنزِلَ﴾، وإن جعلناه حالاً من الضمير في ﴿بِهِ﴾ فالعامل فيه ﴿جَاءَ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَارِيسَ يُبَدُّونَهَا وَنَحْفُونَ﴾ بالتاء من فوق في الأفعال الثلاثة، فمن رأى أن الاحتجاج على بني إسرائيل استقامت له هذه القراءة، وتناسقت

رجل مخصوص منهم يقال له: مالك بن الصيف، قاله سعيد بن جبير، وقيل: في فنحاص، قاله السدي.

و ﴿قَدَرُوا﴾ هو من توفية القدر والمنزلة، فهي عامة يدخل تحتها من لم يعرف ومن لم يعظم وغير ذلك، غير أن تعليقه بقولهم: «ما أنزل الله» يقضي بأنهم جهلوا ولم يعرفوا الله حق معرفته، إذ أحالوا عليه بعثة الرسل. و ﴿حَقَّ﴾ نصب على المصدر، ومن قال: «إن المراد كفار

العرب» فيجيء الاحتجاج عليهم بقوله: ﴿مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى﴾ احتجاجاً بأمر مشهور منقول بكافة قوم لم تكن العرب مكذبة لهم. ومن قال: «إن المراد بنو إسرائيل» فيجيء الاحتجاج عليهم مستقيماً لأنهم يلتزمون صحة نزول الكتاب على موسى عليه السلام.

وروي أن مالك بن الصيف كان سميناً، فجاء يخاصم النبي ﷺ بزعمه، فقال له رسول الله ﷺ: «أتشكك الله»، ألتست تقرأ فيما أنزل على موسى أن الله يبغض الجبر السمين؟ وقال: «والله ما أنزل الله على بشر من شيء».

والآية على قول من قال: نزلت في قول بني إسرائيل يلزم أن تكون مدنية، وكذلك حكى النقاش أنها مدنية، وقرأ الحسن، وعيسى الشقفي، وغيرهما: ﴿وَمَا قَدَرُوا﴾

وقرأ ابن كثير، وأهل مكة، ونافع، وأبو عمرو، وأهل المدينة، وعاصم: ﴿أَفْتَدَى﴾ بهاء السكت ثابتة في الوصل والوقف، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿أَفْتَدَى﴾ قال: بحذف الهاء في الوصل وإثباتها في الوقف، وهذا هو القياس، وهي تشبه ألف الوصل في أنها تقطع في الابتداء، وتوصل غير مبتدأ بها، فكذلك هذه تثبت في الوقف وتحذف في الوصل، وقرأ ابن عامر: ﴿أَفْتَدِيهِ﴾ بكسر الهاء دون بلوغ الياء، قال ابن مجاهد: وهذا غلط لأنها هاء وقف لا تعرب على حال، قال أبو علي: ووجه ذلك أن تكون ضمير المصدر كأنه قال: «أفند الاقتداء»، وقرأ ابن ذكوان على هذه: ﴿أَفْتَدِيهِ﴾ بإشباع الياء بعد الهاء، وقالت فرقة: إن كسر الهاء إنما هو في هاء السكت، كما قد تسكن هاء الضمير أحياناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، ولا تجوز عليه القراءة بإشباع الياء.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتْلُوكُمْ﴾ الآية. المعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين: لا أسألكم على دعائي إليكم بالقرآن إلى عبادة الله وتوحيده أجرة أستكثر بها وأختص بديناها، إن القرآن إلا موعظة وذكرى ودعاء لجميع العالمين.

﴿١١١﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿قَدَرُوا﴾ و ﴿قَالُوا﴾ يراد به العرب، قاله مجاهد وغيره. وقيل: يراد به بنو إسرائيل، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل:

مع قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَرَّ قَلَّمُوا﴾، ومن رأى أن الاحتجاج على كفار العرب فيضطر في هذه القراءة - إذ لا يمكن رفعها - إلى أن يقول: إنه خرج من مخاطبة قريش في استفهامهم وتقريرهم إلى مخاطبة بني إسرائيل بتوبيخهم وتوبيخ أفعالهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مع بُغْدِه أسهل من دفع القراءة، فكأنه - على هذا التأويل - قال لقريش: من أنزل الكتاب على موسى؟ ثم اعترض على بني إسرائيل فقال لهم خلال الكلام: تجعلونه أنتم يا بني إسرائيل قراطيس. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَاتِيسَ يُبْذَوْنَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ بالياء في الأنفال الثلاثة. فمن رأى الاحتجاج على قريش رآه إخباراً من الله عز وجل بما فعلته اليهود في الكتاب، ويحتمل أن يكون الإخبار بذلك لقريش، أو للنبي ﷺ وحده، وما أخبر به النبي ﷺ في القرآن فأتمته متلفية ذلك.

و ﴿قَرَاتِيسَ﴾ جمع قرطاس، أي بطائق وأوراق، والمعنى: يجعلونه ذا قراطيس من حيث يكتب فيها، وتوبيخهم بالإبداء والإخفاء هو على إخفائهم آيات محمد عليه الصلاة والسلام والإخبار بنبوته وجميع ما عليهم فيه حجة.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَرَّ قَلَّمُوا﴾. قال مجاهد وغيره: هي مخاطبة للعرب، فالمعنى - على هذا - قُضِدَ مِنَّةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بذلك، أي: عَلِّمْتُمْ يا معشر العرب من الهدايات والتوحيد

والإرشاد إلى الحق ما لم تكونوا عالمين به ولا آبأؤكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَرَّ قَلَّمُوا﴾ يصلح - على هذا المعنى - لمخاطبة من انتفع بالتعليم ومن لم ينتفع به، ويصح الامتنان بتعليم الصنفين، وليس من شرط من عُلِّمَ أن يعلم ولا بُدَّ، أما إن التعليم الكامل هو الذي يقع معه التعلم.

وقالت فرقة: بل هي مخاطبة لبني إسرائيل، والمعنى - على هذا - يترتب على وجهين: أحدهما أن يُقصد به الامتنان عليهم وعلى آبائهم بأن عُلِّمُوا من دين الله وهداياته ما لم يكونوا عالمين به، لأن آباء المخاطبين من بني إسرائيل كانوا عُلِّمُوا أيضاً وَعِلِّمَ بعضهم، وليس ذلك في آباء العرب. والوجه الآخر أن يكون المقصد ذمهم، أي: وعُلِّمْتُمْ أنتم وآبأؤكم ما لم تعلموه بعد التعليم ولا انتفعتم به لإعراضكم وضلالكم.

ثم أمره الله تعالى بالمبادرة إلى موضع الحجة، أي قل لهم: الله هو الذي أنزل الكتاب على موسى. ويحتمل أن يكون المعنى: فإن جهلوا أو تحيروا أو سألوا أو نحو هذا فقل: الله. ثم أمره تبارك وتعالى بترك من كفر وأعرض.

وهذه آية منسوخة بآية القتال إن تَوُؤِلَتْ موادة، وقد يحتمل ألا يدخلها النسخ إذا جعلت تتضمن تهديداً ووعيداً مجرداً من موادة. والخوض: الذهاب فيما لا تسير حقائقه، وأصله في الماء ثم يستعمل

في المعاني المُشْكَلَةِ المُتَنَبِّسَةِ، و﴿يَلْمُونَ﴾ في موضع الحال.

﴿٩٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن، و﴿بَرَكَةٍ﴾ صفة له، و﴿مُصَدِّقٌ﴾ كذلك، وحذف التنوين من ﴿مُصَدِّقٌ﴾ للإضافة، وهي إضافة غير محضة لم تتعرف بها ﴿مُصَدِّقٌ﴾، ولذلك ساغ أن يكون وصفاً لنكرة، و﴿الَّذِي﴾ في موضع المفعول، والعامل فيه مصدر، ولا يصلح أن يكون ﴿مُصَدِّقٌ﴾ - مع حذف التنوين منه - يتسلط على ﴿الَّذِي﴾، ويقدر حذف التنوين للالتقاء، وإنما جاء ذلك شاذاً في الشعر في قوله:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُنْتَفِعٍ
ولا ذاكِرِ الله إلا قليلاً
ولا يقاس عليه. و ﴿بَرَكَةٍ يَدْرِي﴾ هي حال التوراة والإنجيل لأن ما تقدم فهو بين يدي ما تأخر. وقالت فرقة: الذي بين يديه القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير صحيح لأن القرآن هو بين يدي القيامة.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَنُنَزِّلَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أي أنت يا محمد، وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿وَلَنُنَزِّلَ﴾ أي القرآن بمواعظه وأوامره: واللام في ﴿لينذر﴾ متعلقة بفعل متأخر تقديره: ولننذر أُمَّ الْقُرَى ومن حولها أنزلناه.

وَأَمَّ الْقُرَى: مكة، سُمِّيت بذلك لوجوه أربعة: منها أنها منشأ الدين والشرع، ومنها ما روي أن الأرض منها دُحِيت، ومنها أنها وسط الأرض، ومنها ما لحق عن الشرع

تخليه. و ﴿الظَّالِمُونَ﴾ لفظ عام لمن واقع ما تقدم ذكره وغير ذلك من أنواع الظلم الذي هو كفر. والغمرات: جمع غمرة وهي المصيبة المبهمة المذهلة، وهي مشبهة بغمرة الماء، ومنه قول الشاعر:

ولا يُنْجِي مِنَ الْغَمَرَاتِ إِلَّا
بَرَكَاءُ الْقِسَالِ أَوْ الْفِرَازِ
﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ملائكة قبض الروح، و ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ كناية عن مذهبها بالمكروه، كما قال تعالى حكاية عن إبني آدم: ﴿لَيْسَ بَسْطَ لَكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾، وهذا المكروه هو لا محالة أوائل عذاب وأماراته، قال ابن عباس: يضربون وجوههم وأدبارهم، وأما البسط لمجرد قبض النفس فإنه يشترك فيه الصالحون والكفرة، وقيل: إن المراد بسط الأيدي في جهنم، والغمرات كذلك، لكنهم لا يُقضى عليهم فيموتوا.

وقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ حكاية لما تقوله الملائكة، والتقدير: «يقولون أخرجوا أنفسكم»، ويحتمل قول الملائكة ذلك أن يريدوا: فأخرجوا أنفسكم من هذه المصائب والمحن وخلصوها إن كان ما زعمتموه حقاً في الدنيا، وفي ذلك توبيخ وتوقيف على سالف فعلهم القبيح، قال الحسن: هذا التوبيخ - على هذا الوجه - هو في جهنم، ويحتمل أن يكون ذلك على معنى الزجر والإهانة، كما يقول الرجل لمن يقهره بنفسه على أمر ما: «افعل كذا» لذلك الأمر الذي يتناوله بنفسه

الظُّلْمَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الَّلَقَّةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَماً فَكَسَرْنَا الْعِظَمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فقال عبدالله بن سعد من تلقاء نفسه: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»، فقال له رسول الله ﷺ: «اكتبها فهكذا أنزلت». فتوهم عبدالله ولحق بمكة مُرْتَدِّاً وقال: أنا أنزل مثل ما أنزل الله. وروي عنه أيضاً أن النبي ﷺ ربما أملى عليه: «والله غفور رحيم» فبدلها هو: «والله سميع عليم» فقال النبي ﷺ: «ذلك سواء»، ونحو هذا. وقال عكرمة: أولها في مسيلمة، والآخر في عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وذكر الزهراوي والمهدوي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث لأنه عارض القرآن بقوله: «والزراعات زرعاً، والمخابزات خبزاً» إلى غير ذلك من السخافات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فخصص المتأولون في هذه الآيات ذكر قوم قد يمكن أن كانوا أسباب نزولها، ثم هي إلى يوم القيامة تتناول من تعرض شيئاً من معانيها كَطَلِيحَةِ الْأَسَدِيِّ، والمختار بن أبي عبيد، وسواهما. وقرأ الجمهور: ﴿سَأَزِلُّ مِثْلَ مَا أُنْزِلُ اللَّهُ﴾ بتخفيف، وقرأ أبو حيرة: ﴿سَأَنْزِلُ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْظَّالِمُونَ﴾ الآية. جواب [لَسَوْ] محذوف تقديره: لرأيت عجباً أو هولاً ونحو هذا. وحذف هذا الجواب أبلغ من نصه، لأن السامع إذا لم ينص له الجواب يترك مع غاية

من أنها قبله كل قرية، فهي - لهذا كله - أم وسائر القرى بنات، وتقدير الآية: لتنذر أهل أم القرى. ﴿وَوَنَزَّلْنَا﴾ يريد أهل سائر الأرض، و ﴿حَوْلًا﴾ ظرف، والفاعل فيه فعل مضر تقديره: ومن استقر حولها.

ثم ابتدأ تعالى مدح قوم وصفهم وأخبر عنهم أنهم يؤمنون بالآخرة والبعث والنشور. وَيُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ ويصدقون بحقيقته، ثم قَوَّى تبارك وتعالى مدحهم بأنهم يحافظون على صلاتهم التي هي قاعدة العبادات وأم الطاعات، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو بكر عن عاصم ﴿صَلَّوْا لَهُمْ﴾ بالجمع، ومن قرأ بالإنفراد فإنه مفرد يدل على الجمع، وإذا انضافت الصلاة إلى ضمير لم تكتب إلا بالآلف ولا تكتب في المصحف بواو إلا إذا لم تنصف إلى ضمير.

٩٣ تفسير قوله عز وجل:

هذه ألفاظ عامة، فكل من واقع شيئاً مما يدخل تحت هذه الألفاظ فهو داخل في الظلم الذي قد عظمه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم. وقال قتادة وغيره: المراد بهذه الآيات مسيلمة والأسود العنسي، وذكروا رؤية النبي ﷺ للسوازين، وقال السدي: المراد بها عبدالله بن سعد بن أبي سرح العامري، وكان يكتب للنبي ﷺ الوحي، وكان أخا عثمان بن عفان رضي الله عنه من الرضاعة، فلما نزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْقَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا

منه على جهة الإهانة وإدخال الرعب عليه.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِيكَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الآية. هذه حكاية عن قول الملائكة للكفرة عند قبض أرواحهم. و ﴿الْهُونُ﴾: الهوان، ومنه قول ذي الإصبع:

إِلَيْكَ عَشِي فَمَا أُمِّي بِرَاعِيَةٍ
تُرْعَى الْمَخَاضُ وَلَا أُغْضِي عَلَى الْهُونِ
وقرأ عبدالله بن مسعود، وعكرمة: ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ بالألف.

وقوله تعالى: ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ عَيْرَ الْحَقِّ﴾ لفظ جامع لكل نوع من الكفر، ولكنه يظهر منه ومن قوله: ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ الإنحاء على من قرب ذكره من هؤلاء الذين ادعوا الوحي، وأن ينزلوا مثل ما أنزل الله، فإنها أفعال بين فيها قول غير الحق على الله، وبين فيها الاستكبار.

﴿٩٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه حكاية عما يقال لهم بعد قبض أرواحهم، فلما عند خروجها من الأجساد، وإما يوم القيامة، كل ذلك محتمل.

و ﴿فَرْدًا﴾ معناه: فرداً فرداً، والألف في آخره ألف تانيث، ومنه قول الشاعر:

تَرَى الثُّعْرَابَ الرُّزُقَ تَحْتَ لَبَانِهِ
فَرَادَى وَمَنْشَى أَضَعَفَتْهَا صَوَاهِلُهُ
وقرأ أبو خيرة: ﴿فَرَادًا﴾ منوناً على وزن فعال وهي لغة تميم، ﴿وَفَرْدًا﴾ قيل: جمع فرد بفتح الراء، وقيل: جمع فرد بإسكان الراء، والمقصود في الآية توقيف الكفار على انفرادهم وقلة النصير

واحتياجهم إلى الله عز وجل بفقد الخول والشفعاء، فيكون قوله تعالى: ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تشبيهاً بالانفراد الأول في وقت الخلقة. ويتوجه معنى آخر وهو: أن يتضمن قوله تعالى: ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ﴾ زيادة معان على الانفراد كأنه قال: ولقد جئتمونا فرادى وبأحوال كذا، والإشارة - على هذا - بقوله تعالى: ﴿كَمَا﴾ هي إلى ما قاله النبي ﷺ في صفة من يُخْشَرُ: «إِنَّهُمْ يَحْشَرُونَ خُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا».

و ﴿خَوْلَتَكُمْ﴾ معناه: أعطيناكم، وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد بيت زهير:

هَذَاكَ إِنْ يُسْتَخْلُوا الْمَالَ يُخْلُوا
وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يُبْسَرُوا يُغْلُوا
و ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ إشارة إلى الدنيا لأنهم يتركون ذلك موجوداً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلْنَا مَكَّتُمْ شُعْمًا﴾، الآية توقيف على الخطأ في عبادة الأصنام وتعظيمها، قال الطبري: وروي أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث لأنه قال: سوف تشفع لي اللات والعزى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن كان من العرب يعتقد أنها تشفع وتقرب إلى الله رُفِئَى ويرى شركتها بهذا الوجه فمخاطبتهم بالآية متمكن، وهكذا كان الأكثر، ومن كان منهم لا يقر بإله غيرها فليس هو في هذه الآية.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالرفع، وقرأ نافع والكسائي: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالنصب، أما

الرفع فعلى وجوه: أولاً أنه الظرف استعمال اسماً وأسند إليه الفعل كما قد استعمالوه اسماً في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ جَبَابٌ﴾، وكقولهم فيما حكى سيبويه: «أحمر بين العينين»، ورجح هذا القول أبو علي الفارسي، والوجه الآخر أن بعض المفسرين منهم الزهراوي والمهدوي وأبو الفتح وسواهم حكوا أن (البين) في اللغة يقال على الافتراق وعلى الوصل، فكأنه قال: لقد تقطع وصلكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا عندي اعتراض لأن ذلك لم يُرَوَّ مسموعاً عن العرب، وإنما انتزع من الآية، والآية محتملة، قال الخليل في العين: «والبين: الوصل» لقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ فَعَلَّ سوق اللفظة بالآية، والآية معرضة لغير ذلك. أما أن أبا الفتح قوى أن البين: الوصل، وقال: «وقد أتقن ذلك بعض المحدثين بقوله: قد أنصف البين من البين». والوجه الثالث من وجوه الرفع أن يكون البين على أصله من الفرقة من: بأن يبين إذا بُدِّد، ويكون في قوله تعالى: ﴿تَقَطَّعَ﴾ تجوز على نحو ما يقال في الأمر البعيد في المسافة: «تقطعت الفجاء بين كذا وكذا» عبارة عن بُعد ذلك. ويكون المقصد: لقد تقطعت المسافة بينكم لطولها، فعبر عن ذلك بالبين الذي هو الفرقة.

وأما وجه قراءة النصب فأن يكون ظرفاً ويكون الفعل مستنداً إلى شيء محذوف وتقديره: لقد تقطع

الاتصال أو الارتباط بينكم، أو نحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وجه واضح، وعليه فسره الناس: مجاهد، والسدي، وغيرهما. ووجه آخر يراه أبو الحسن الأخفش، وهو: أن يكون الفعل مسنداً إلى الظرف ويبقى الظرف على حال نصبه وهو في النية مرفوع، ومثل هذا عنده قوله تعالى: ﴿وَأَنَا مِمَّا الْفَٰلِغُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ﴾.

وقرأ ابن مسعود، ومجاهد، والأعمش: ﴿تَقَطَّعَ مَا بَيْنَكُمْ﴾ بزيادة (ما)، و ﴿وَصَلَّ﴾ معناه: تليف، وذهب، و ﴿مَا كُنْتُمْ تَرْعَوْنَ﴾ يريد دعواهم أنها تشفع وتشارك الله في الألوهية.

٩٥ - ٩٦ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء تنبيه على العبرة والنظر، ويتصل المعنى بما قبله لأن القصد: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ لا هذه الأصنام، وقال مجاهد، وأبو مالك: هذه إشارة إلى الشق الذي في حبة البرّ ونواة التمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والعبرة - على هذا القول - مخصوصة في بعض الحبّ وبعض النوى، وليس لذلك وجه. وقال الضحّاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم: هذه إشارة إلى فعل الله في أن يشق جميع الحبّ عن جميع النبات الذي يكون منه، ويشق النوى عن جميع الأشجار الكائنة عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الظاهر الذي يعطي العبرة التامة، فسبحان الخلاق العليم. وقال الضحّاك: ﴿فَالِقُ﴾ بمعنى

خالق، وقال السدي: وأبو مالك: ﴿يُخْرِجُ الْغُلَىَّ مِنْ النَّبَاتِ الْأَخْضَرِ وَالشَّجَرِ الْأَخْضَرِ مِنَ الْحَبِّ الْيَابِسِ وَالنَّوَى الْيَابِسِ، فكأنه جعل الخضرة والنضارة حياة، واليبس موتاً. ﴿يُخْرِجُ الْغُلَىَّ مِنَ الْحَبِّ﴾ إشارة إلى إخراج اليابس من النبات والشجر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: بل ذلك كله إشارة إلى إخراج النطفة الميتة من الإنسان الحي، وكذلك

سائر الحيوان والطير من البيض والحوث وجميع الحيوان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول أرجح، وإنما تعلق قائلو القول الأول بتناسب تأويلهم مع قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْغُلَىَّ وَالنَّوَى﴾، وهما على هذا التأويل الراجح معنيان متباينان فيهما معتبر.

وقال الحسن: المعنى: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ ابتداء وخبر متضمن التنبيه. ﴿فَالِقُ تُؤَفِّكُونَ﴾ أي: تصرفون وتصدون.

و ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾، أي: شأئه ومظهره، والفلق: الصبح، وقرأ الجمهور: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وعيسى بن عمر، وأبو

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغُلَىَّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْغُلَىَّ مِنَ الْحَبِّ وَالنَّوَى مِنَ الْحَبِّ الْيَابِسِ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ يَتَنَلَّهِ مِنْهَا قِوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزُّيُونُ وَالرُّمَّانُ مُنْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ الْبَرِينَ وَبَنَتِ بَعِيرٌ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكْفِي عِلْمَ ﴿١٠١﴾

رجاء: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ بفتح الهمزة جمع صبح، وقرأت فرقة: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ بحذف التنوين من ﴿فَالِقُ﴾ لالتقاء الساكنين ونصب ﴿الْإِصْبَاحِ﴾ بـ ﴿فَالِقُ﴾ كأنه أراد ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ بتنوين القاف، وهذه قراءة شاذة، وإنما جوّز سيبويه مثل هذا في الشعر، وأشد عليه:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَفْعِبٍ
ولا ذا كسر الله إلا قليلاً
وحكى النحاس عن المبرد جواز ذلك في الكلام. وقرأ أبو حيوة، وإبراهيم النخعي، ويحيى بن وثاب: ﴿فَلَقَّ الْإِصْبَاحِ﴾ بفعل ماض. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَجَاعِلُ اللَّيْلِ﴾، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ﴾، وهذا لما كان ﴿فَالِقُ﴾ بمعنى الماضي فكان اللفظ

«فَلَقَّ الْإِصْبَاحَ وَجَعَلَ»، ويؤيد ذلك نصب «النَّسْرَ وَالْقَرْ»، وقرأ الجمهور: «سَكَا»، وروي عن يعقوب «سَاكِناً»، قال أبو عمرو الداني: ولا يصح ذلك عنه، ونصبه بفعل مضمر إذا قرأنا: «وَيَايِلَ» لأنه بمعنى المضي، وتقدير الفعل المضمّر: «وجاعل الليل يجعله ساكناً»، وهذا مثل قولك: «هذا معطي زيد أمس درهماً»، والذي حكاه أبو علي في هذا أن ينصب بما في الكلام من معنى: (مُعْطِي)، وقرأ أبو حيوة: «وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ» بالخفض عطفاً على لفظ «أَيَّلَ».

و «حُسْبَانًا» جمع حساب، كشبهان في جمع شهاب، أي: تجري بحساب. هذا قول ابن عباس، والسدي، وقتادة، ومجاهد، وقال مجاهد في صحيح البخاري: المراد حسان كحسان الرحي، وهو الدولاب والعود الذي عليه دورانه.

١٧ - ١٨ تفسير قوله عز وجل:

هذه المخاطبة تعم المؤمنين والكافرين، فالحجة بها على الكافرين قائمة، والعبرة بها للمؤمنين ممكنة متعرضة، و «جَعَلَ» هنا بمعنى خلق لدخولها على مفعول واحد، وقد يمكن أن تكون بمعنى صَيَّرَ، ويُقدَّر المفعول الثاني في «لِيَتَذَكَّرَ» لأنه يُقدَّر: «وهو الذي جعل لكم النجوم هداية». و «فِي ظُلُمَاتٍ» هي ها هنا على حقيقتها في ظلمة الليل بقرينة «النُّجُومِ» التي لا تكون إلا بالليل. ويصح أن تكون الظلمات هنا الشدائد في المواضع التي يتفق أن يهتدى فيها بالشمس.

وذكر الله تبارك وتعالى النجوم في ثلاث منافع، وهي قوله تعالى: «وَلَقَدْ رَزَقْنَا النَّسْرَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ»، وقوله تعالى: «وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ»، وقوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْأَلْبَتَرِ». فالواجب أن يعتقد أن ما عدا هذه الوجوه من أهل التأثير باطل واختلاق على الله وكُفْر به.

و «فَمَلَأْنَا» معناه: بَيَّنَّا وَقَسَّمْنَا، و «الْأَيَّاتِ» الدلائل، و «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» تخصيص لهم بالذكر، وتنبيه منهم لتحصيلهم الآيات المفصلة المنصوبة وغيرهم تمر عليهم الآيات وهم معرضون عنها. وقوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَكُمْ مَسَافِرًا وَمُسْتَوْدِعًا»، الآية. الإنشاء: ابتداء فعل الشيء، و «مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ» يريد آدم عليه السلام.

وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي: «مُسْتَوْدِعًا» بفتح القاف على أنه موضع استقرار، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «فَمُسْتَوْدِعًا» بكسر القاف على أنه اسم فاعل، وأجمعوا على فتح الدال من «مُسْتَوْدِعًا» بأن يقدر موضع استيداع، وأن يقدر أيضاً مفعولاً، ولا يصح ذلك في «مُسْتَوْدِعًا» لأن (استقر) لا يتعدى فينبى منه مفعول، أما أنه روى هارون الأعور عن أبي عمرو «مُسْتَوْدِعًا» بكسر الدال، فمن قرأ: «مُسْتَوْدِعًا وَمُسْتَوْدِعًا» على أنها موضع استقرار وموضع استيداع علقها بمجرور تقديره: «فلکم مستقر ومستودع»، ومن قرأ: «فَمُسْتَوْدِعًا

وَمُسْتَوْدِعًا» على اسم الفاعل في «مُسْتَوْدِعًا» واسم المفعول في «مُسْتَوْدِعًا» علقها بمجرور تقديره: «فمنكم مستقر ومستودع»، واضطرب المتأولون في معنى الاستقرار والاستيداع، فقال الجمهور: مستقر في الرحم، ومستودع في ظهور الآباء حتى يقضي الله بخروجهم، وقال ابن عون: مشيت إلى منزل إبراهيم النخعي وهو مريض فقالوا: قد توفي، فأخبرني بعضهم أن عبد الرحمن بن الأسود سأله عن «مُسْتَوْدِعًا وَمُسْتَوْدِعًا» فقال: مستقر في الرحم ومستودع في الصلب، وقال الحسن بن أبي الحسن: مستقر في القبور ومستودع في الدنيا، وقال ابن عباس: المستقر: الأرض، والمستودع عند الرحم، وقال ابن جبير: المستودع في الصلب والمستقر في الآخرة، والذي يقتضيه النظر أن ابن آدم هو مستودع في ظهر أبيه، وليس بمستقر فيه استقراراً مطلقاً لأنه ينتقل لا محالة: ينتقل إلى الرحم، ثم ينتقل إلى الدنيا، ثم ينتقل إلى القبر، ثم ينتقل إلى المحشر، ثم ينتقل إلى الجنة أو النار فيستقر في إحداها استقراراً مطلقاً، وليس فيها مستودع لأنه لا نقلة له بعد، وهو في كل رتبة متوسطة بين هذين الطرفين مستقر بالإضافة إلى التي قبلها، ومستودع بالإضافة إلى التي بعدها، لأن لفظ الوديع يقتضي فيها نقلة ولا بد.

و «يَتَذَكَّرُونَ» معناه: يفهمون، وقد تقدم تفسير مثل هذا آنفاً.

﴿٩٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَسْمَاءٌ﴾ - في هذا الموضع -: السحاب، وكل ما أظلك فهو سماء. و ﴿ثَمَرًا﴾ أصله (ثمرة) تحركت الواو وانفتح ما قبلها فجاء (ماء) فبدلت الهاء بالهمزة ليجلّد الهمزة لأن الألف والهاء ضعيفان مهموسان.

وقوله: ﴿بَنَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ﴾. قال بعض المفسرين: أي مما ينبت، وحسن إطلاق العموم في ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ لأن ذكر النبات قبله قد قيد المقصد، وقال الطبري: المراد بـ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ ما ينمو من جميع الحيوانات والنبات والمعادن وغير ذلك، لأن ذلك كله يتغذى وينمو بنزول الماء من السماء، والضمير في ﴿يَنْتَعِشُ﴾ يعود على النبات، وفي الثاني يعود على الخضضر، و ﴿خَضِرًا﴾ بمعنى أخضر، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «الدنيا خضرة خلوة» بمعنى: خضراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان (خضيراً) إنما يأتي أبداً لمعنى النضارة، وليس للون فيه مدخل، و (أخضر) إنما تمكته في اللون، وهو في النضارة تجوز.

وقوله: ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ يعلم جميع السنابل وما شاكلها كالصنوبر والرمان وغيرها من جميع النبات.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ تقديره: ونخرج من النخل، و ﴿مِنْ لِّبْنِهَا قُنَازٌ﴾ ابتداء خبره مقدم، والجملة في موضع المفعول بـ ﴿تَخْرِجُ﴾، والطلع: أول ما يخرج من النخلة في أكمامه، و ﴿قُنَازٌ﴾ جمع قنؤ وهو البندق بكسر العين وهو

الكباسة، والعرجون: عوده الذي ينتظم الثمر. وقرأ الأعرج ﴿قُنَازٌ﴾ بفتح القاف، وقال أبو الفتح: ينبغي أن يكون اسماً للجمع غير مكسر لأن قُنَازٌ ليس من أمثلة الجمع، قال المهدوي: وروي عن الأعرج ضم القاف، وذلك على أنه جمع قنؤ بضم القاف، قال الفراء: وهي لغة قيس وأهل الحجاز، والكسر أشهر في العرب. وقنؤ يُقْنَى قنوان منصرفة النون. و ﴿ذَاتِيَّةٌ﴾ معناه: قريبة من المتناول، قاله ابن عباس، و البراء بن عازب، والضحاك. وقيل: قريبة بعضها من بعض.

وقرأ الجمهور: ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ بنصب ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ عطفاً على قوله تعالى: ﴿بَنَاتٍ﴾، وقرأ الأعمش، ومحمد بن أبي ليلى، ورويت عن أبي بكر عن عاصم: ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ بالرفع على تقدير: ولكم جنات، أو نحو هذا. وقال الطبري: هو عطف على ﴿قُنَازٌ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله ضعيف.

﴿وَالزَّيْتُونِ وَالْأَمْنِ﴾ بالنصب إجماعاً عطفاً على قوله تعالى: ﴿حَبًّا﴾، و ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ﴾ قال قتادة: معناه: تتشابه في اللون وتباین في الثمر، وقال الطبري: جائز أن تتشابه في الثمر وتباین في الطعم، ويحتمل أن يريد: تتشابه في الطعم وتباین في المنظر، وهذه الأحوال موجودة بالاعتبار في أنواع الثمرات.

وقوله تعالى: ﴿انظُرُوا﴾ هو نظر بصر يترتب عليه فكرة قلب. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن

عامر، وعاصم: ﴿إِنَّ ثَمَرَهُ﴾ بفتح الثاء والميم، وهو جمع ثَمَرَةٍ كبقرة ويقر، وشجرة وشجر، وقرأ يحيى بن وثاب، ومجاهد: ﴿ثَمَرِهِ﴾، قالوا: وهي أصناف المال. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأن المعنى: انظروا إلى الأموال التي تحصل منه، وهي قراءة حمزة والكسائي، قال أبو علي: والأحسن فيه أن يكون جمع ثمرة كخشبة وخشب وأكمة وأكم، ومنه قول الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْخَوَافِرِ
ونظيره في المعتل: لابة ولوب وناق وناق وساحة وسوح، ويجوز أن تكون جمع جمع فنقول: ثَمَرَةٌ وَثَمَارٌ وَثَمَرٌ مثل جمار وخمر. وقرأت فرقة: ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾ بضم الثاء وإسكان الميم كأنها ذهبت إلى طلب الخفة في تسكين الميم. والثمر في اللغة: جنى الشجر وما يطلع، وإن سمي الشجر ثماراً فتجوز.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَبَيْتٍ﴾ بفتح الياء، وهو مصدر يَنْعُ يَنْعُ إذا نَضَجَ، يقال: يَنْعُ وَأَيْنَعُ، وبالنضج فسر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، ومنه قول الحجاج: «إني لأرى رؤوساً قد أَيْنَعَتْ»، ويستعمل يَنْعُ بمعنى: استقل واخضر ناضراً، ومنه قول الشاعر:

فِي قَبَابِ حَوْلِ دَشْكِرَةٍ
حَوْلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنْعَا
وقيل في ﴿وَبَيْتٍ﴾ أنه جمع يانع مثل: تاجر وتجر وراكب وركب، ذكره الطبري، وقرأ ابن محيصن،

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ عِندَ الْبَاطِلِ عَلَى عَمَىٰ، ﴿سُجُنَةً﴾ أَي: تَنَزَّهَ عَنْ وَصْفِهِمُ الْفَاسِدِ الْمُسْتَحِيلِ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَ﴿يَدْعُ﴾ بِمَعْنَى: مُبَدِعٌ وَمَخْتَرَعٌ وَخَالِقٌ، فَهُوَ بِنَاءُ اسْمٍ فَاعِلٌ كَمَا جَاءَ سَمِيعٌ بِمَعْنَى مَسْمُوعٍ. وَ﴿أَنَّى﴾ بِمَعْنَى: كَيْفَ؟ وَمَنْ أَيْنَ؟ فَهِيَ اسْتِفْهَامٌ فِي مَعْنَى التَّوْقِيفِ وَالتَّقْرِيرِ.

وَقَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ: ﴿وَلَمْ تَكُنْ﴾ بِالنِّسْبَةِ عَلَى تَأْنِيثِ عِلَامَةِ الْفِعْلِ، وَقَرَأَ إِبْرَاهِيمُ التَّخْمِي بِالْيَاءِ عَلَى تَذْكِيرِهَا. وَتَذْكِيرُ كَانَ وَأَخَوَاتِهَا مَعَ تَأْنِيثِ اسْمِهَا أَسْهَلُ مِنْ ذَلِكَ فِي سَائِرِ الْأَفْعَالِ، فَقَوْلُكَ: «كَانَ فِي الدَّارِ هُنْدٌ» أَسْوَأُ مِنْ: «قَامَ فِي الدَّارِ هُنْدٌ»، وَحَسَّنَ الْقِرَاءَةُ الْفَصْلَ بِالظَّرْفِ الَّذِي هُوَ الْخَبَرُ، وَيَتَجَهَّ فِي الْقِرَاءَةِ الْمَذْكُورَةِ أَنْ يَكُونَ فِي «يَكُنْ» ضَمِيرُ اسْمِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَكُونَ الْجُمْلَةُ الَّتِي هِيَ: «لَمْ تَكُنْ صَحِيحَةً» خَبَرُ كَانَ، وَيَتَجَهَّ أَنْ يَكُونَ فِي «يَكُنْ» ضَمِيرُ أَمْرٍ وَشَأْنٍ، وَتَكُونَ الْجُمْلَةُ بَعْدَ تَفْسِيرِ لَهَا وَخَبَرًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ رَدٌّ عَلَى الْكُفَّارِ بِقِيَاسِ الْغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّقَ كُلُّ شَيْءٍ﴾ لَفْظٌ عَامٌ لِكُلِّ مَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَ تَحْتَهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَ تَحْتَهُ صِفَاتُ اللَّهِ تَعَالَى وَكَلَامُهُ، فَلَيْسَ هُوَ عَمُومًا مُخَصَّصًا عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ قَوْمٌ، لِأَنَّ الْعَمُومَ الْمَخَصَّصَ هُوَ أَنْ يَتَنَاوَلَ الْعَمُومُ شَيْئًا ثُمَّ يَخْرُجَهُ التَّخْصِصُ، وَهَذَا لَمْ يَتَنَاوَلَ قَطُّ هَذِهِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، وَإِنَّمَا هَذَا بِمَنْزِلَةِ قَوْلِ

ذَكَرَ عَزِيزٌ، وَالنَّصَارَى فِي ذَكَرَ الْمَسِيحِ، وَأَمَّا ذَاكِرُوا الْبَنَاتِ فَالْعَرَبُ الَّذِينَ قَالُوا لِلْمَلَائِكَةِ: بَنَاتُ اللَّهِ، فَكَانَ الضَّمِيرُ فِي «جَعَلُوا» وَ«خَرَقُوا» لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ، إِذَا فَعَلَ بَعْضُهُمْ هَذَا وَيَعْضُهُمْ هَذَا، وَبَنَحُوا هَذَا فَسَّرَ السَّادِي وَابْنُ زَيْدٍ، وَقَرَأَ شُعَيْبُ بْنُ أَبِي حَمْزَةَ: «شُرَكَاءُ الْجِنِّ» بِخَفْضِ النُّونِ، وَقَرَأَ يَزِيدُ بْنُ قُطَيْبٍ، وَأَبُو حَبِيرة «الْجِنِّ» وَ«الْجِنِّ» بِالْخَفْضِ وَالرَّفْعِ عَلَى تَقْدِيرٍ: هُمُ الْجِنُّ.

وَقَرَأَ الْجَمْهُورُ:

﴿وَعَلَّقَهُمْ﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ عَلَى مَعْنَى: وَهُوَ خَلَقَهُمْ، وَفِي مَصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَهُوَ خَلَقَهُمْ»، وَالضَّمِيرُ فِي «خَلَقَهُمْ» يَحْتَمِلُ الْعَوْدَةَ عَلَى الْجَاعِلِينَ، وَيَحْتَمِلُهَا عَلَى الْمَجْعُولِينَ، وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ: «وَوَلَّغَهُمْ» بِسُكُونِ اللَّامِ عَطْفًا عَلَى «أَلْقَيْنَ»، أَي: جَعَلُوا خَلْقَهُمْ الَّذِي يَنْحَوْنَهُ أَصْنَامًا شُرَكَاءَ اللَّهِ.

وَقَرَأَ السَّبْعَةُ سِوَى نَافِعٍ: «وَوَلَّغُوا» بِتَخْفِيفِ الرَّاءِ، وَهُوَ بِمَعْنَى: اخْتَلَقُوا وَافْتَرَوْا، وَقَرَأَ نَافِعٌ: «وَوَلَّغُوا» بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ عَلَى الْمُبَالَغَةِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَمْرٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَوَلَّغُوا» مِنَ التَّحْرِيفِ، كَذَا قَالَ أَبُو الْفَتْحِ، قَالَ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي: قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «وَوَلَّغُوا» خَفِيفَةَ الرَّاءِ، وَابْنُ عَمْرٍو «وَوَلَّغُوا» مُشَدَّدةَ الرَّاءِ.

ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُبْصِرُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ قَدْ جَاءَ بَصَائِرُ مَنْ رَبُّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لِّيَقُولُوا أَدْرَسَتْ وَلَيْسَ لِشَيْءٍ لَّغْوٌ وَلَا يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَرْنَا مَا تَكْفُرُونَ وَمَا كُنَّا لَكُمْ عَلَيْكُمْ بِخَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿وَلَا تَسْأَلُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْأَلُوكَ اللَّهُ عَنْهُ وَبِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ إِنَّ رَبَّهُمْ كَانَ مُبْصِرًا فَالْمُحْسِنِينَ﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُبَشِّرُكُمْ أَنتُمْ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿وَنَقُوبُ أَيْدِيَهُمْ وَأَنْصُرُهُمْ كَمَا نَزَّلَ يُؤْمِنُوا بِآيَةِ أَوَّلِ مَرْوَةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

وَقِتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: «وَوَلَّغَهُمْ» بِضَمِّ الْيَاءِ، أَي نَضَجَهُ، وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَيْلَةَ، وَالْيَمَانِيُّ: «وَوَلَّغَهُمْ»، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيِنٌ﴾ إِيجَابُ تَنْبِيهِهِ وَتَذْكِيرِهِ، وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِهِ.

﴿١٠١﴾ - ﴿١٠٢﴾ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿جَعَلُوا﴾ بِمَعْنَى: صَيَّرُوا وَ«الْجِنِّ» مَفْعُولٌ، وَ«شُرَكَاءُ» مَفْعُولُ ثَانٍ مُقَدَّمٌ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «شُرَكَاءُ» مَفْعُولًا أَوَّلًا، وَ«لِلَّهِ» فِي مَوْضِعِ الْمَفْعُولِ الثَّانِي، وَ«أَلْقَيْنَ» بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: «شُرَكَاءُ». وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشِيرَةٌ إِلَى الْعَادِلِينَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْقَائِلِينَ إِنَّ الْجِنَّ تَعْلَمُ الْغَيْبَ، الْعَابِدِينَ لِلْجِنِّ، وَكَانَتْ طَوَائِفٌ مِنَ الْعَرَبِ تَفْعُلُ ذَلِكَ وَتَسْتَجِيرُ بِجِنِّ الْأَوْدِيَةِ فِي أَسْفَارِهَا، وَنَحْوُ هَذَا.

وَأَمَّا الَّذِينَ خَرَقُوا الْبَيْنَ فَالْيَهُودَ فِي

الإنسان: «قتلت كلَّ فارس وأفحمت كلَّ خصم»، فلم يدخل القاتل قط في هذا العموم الظاهر من لفظه، وأما قوله سبحانه: «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» فهذا عموم على الإطلاق لأن الله عزَّ وجلَّ يعلم كل شيء لا ربَّ غيره ولا معبود سواه.

ولما تقررَت الحُجُجُ وبانت الوجدانية جاء قوله تعالى: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ» الآية، تتضمن تقريراً وحكماً إخلاصاً وأمرأً بالعبادة، وإعلاماً بأنه - فيظن رقيب على كل فعل وقول، وفي هذا الإعلام تخويف وتحذير.

(١٠٣) - (١٠٤) تفسير قوله عز وجل:

أجمع أهل السنة على أن الله تبارك وتعالى يُرَى يوم القيامة، يراه المؤمنون، قاله ابن وهب عن مالك بن أنس رضي الله عنه، والوجه أن يبين جواز ذلك عقلاً ثم يستند إلى ورود السمع بوقوع ذلك الجائز، واختصار تبين ذلك أن يُعتبر بعلمنا بالله عزَّ وجلَّ، فمن حيث جاز أن نعلمه لا في مكان ولا متميزاً ولا متقابلاً ولم يتعلق علمنا بأكثر من الوجود، جاز أن نراه غير مقابل ولا محاذي ولا مكيفاً ولا محدوداً، وكان الإمام أبو عبد الله النحوي يقول: مسألة العلم خَلَقَتْ لِحَى المعتزلة، ثم ورد الشرع بذلك وهو قوله سبحانه وتعالى: «يَوْمَ يُؤْتَى يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِقٌ» وتعددية النظر بإلى إنما هو في كلام العرب لمعنى الرؤية لا معنى الانتظار على ما ذهب إلىه المعتزلة، وذكر هذا المذهب لمالك فقال: «فأين هم عن

قوله تعالى: «كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ»؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقال بدليل الخطاب. ذكره النقاش، ومنه قول النبي ﷺ فيما صُحِّ عنه وتواتر وكثر نقله: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر»، ونحوه من الأحاديث على اختلاف ترتيب ألفاظها.

وذهبت المعتزلة إلى المنع من جواز رؤية الله تعالى يوم القيامة، واستحالة ذلك بآراء مجردة، وتمسكوا بقوله تعالى: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ» وانفصل أهل السنة عن تمسكهم بأن الآية مخصوصة في الدنيا، ورؤية الآخرة ثابتة بأخبارها. وانفصال آخر وهو أن يفرق بين معنى الإدراك ومعنى الرؤية. ونقول: إنه عزَّ وجلَّ تراه الأبصار ولا تدركه وذلك أن الإدراك يتضمن الإحاطة بالشيء والوصول إلى أعماقه وحوزه من جميع جهاته، وذلك كله محال في أوصاف الله عزَّ وجلَّ، والرؤية لا تنفرد إلى أن يحيط الرائي بالمزني ويبلغ غايته، وعلى هذا التأويل يترتب العكس في قوله: «وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» ويحسن معناه. ومثل هذا روي عن ابن عباس، وقتادة، وعطية العوفي، فرقوا بين الرؤية والإدراك. وأما الطبري رحمه الله ففرق بين الرؤية والإدراك، واحتج بقول بني إسرائيل: «إِنَّا لَمَذْكُورُونَ» فقال: إنهم رأوهم ولم يدركوهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله خطأ لأن هذا الإدراك ليس

بإدراك البصر، بل هو مستعار منه أو باشتراك. قال: وقال بعضهم: إن المؤمنين يرون الله تبارك وتعالى بحاسة سادسة تُخلق يوم القيامة، وتبقى هذه الآية في منع الإدراك بالأبصار عامة سليمة، قال: وقال بعضهم: إن هذه الآية مخصوصة في الكافرين، أي أنه لا تدركه أبصارهم لأنهم محجوبون عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الأقوال كلها ضعيفة ودعاوى لا تستند إلى قرآن ولا حديث. و «اللطيف» المتطَّف في خلقه واختراعه وإتقانه، وبخلقه وعباده و «الحقير» المختبر لباطن أمورهم وظاهرها.

والبصائر: جمع بصيرة وهي ما يتفق عن تحصيل العقل للأشياء المنظور فيها بالاعتبار، فكأنه قال: قد جاءكم في القرآن والآيات طرائق إِبْصَارِ الحق والمعنية عليه. والبصيرة للقلب مستعارة من إِبْصَارِ العين، والبصيرة أيضاً هي المُتَعَدِّدُ المُحْصِلُ في قول الشاعر:

راحوا بِبَصَائِرِهِمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ
وبصيرتي يعدو بها عَتْدَ وَآيٍ
وقال بعض الناس في هذا البيت:
البصيرة: طريقة الدم، والشاعر إنما يصف جماعة مَشَوْا به في طلب الدم ففتروا فجعلوا الأمر وراء ظهورهم.

وقوله تعالى: «فَمَنْ أَبْصَرَ» وَمَنْ عَمِيَ» عبارة مستعارة فيمن اهتدى ومن ضلَّ، وقوله سبحانه: «وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» كان في أول الأمر وقبل ظهور الإسلام، ثم بعد ذلك كان رسول الله ﷺ حفيظاً على

العالم آخذاً لهم بالإسلام والسيف.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الآية. الكاف في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿نُفَصِّلُ﴾، أي: ومثل ما بيئنا البصائر وغير ذلك نصرف الآيات، أي نردها ونوضحها، وقرأت طائفة: ﴿وَلْيَقُولُوا فَزَسْتَ﴾ بسكون اللام على جهة الأمر، ويتضمن التوبيخ والوعيد. وقرأ الجمهور: ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ بكسر اللام على أنها لام كي، وهي - على هذا - لام الصيرورة كقوله تعالى: ﴿فَالْفُطُورُ هَالِكٌ فَرُغَتْ لَيْسَ كُنْ لَكُمْ عُدُوًّا وَحَرًّا﴾، أي: لما صار أمرهم إلى ذلك. وقرأ نافع، وعاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿فَزَسْتَ﴾ أي يا محمد درست في الكتب القديمة ما تُجيبنا به، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿فَارَسْتَ﴾ أي أنت يا محمد درست غيرك في هذه الأشياء، أي: قارأته وناظرته، وهي إشارة منهم إلى سلمان وغيره من الأعاجم واليهود، وقرأ ابن عامر وجماعة من غير السبعة: ﴿فَزَسْتَ﴾ بإسناد الفعل الآيات كأنهم أشاروا إلى أنها ترددت على أسماعهم حتى بليت في نفوسهم واثحت، قال أبو علي: واللام في ﴿لْيَقُولُوا﴾ - على هذه القراءة بمعنى: لئلا يقولوا، أي: صرفت الآيات وأحكمت لئلا يقولوا: هذه أساطير قديمة قد بليت وتكررت على الأسماع، واللام في سائر القراءات لام الصيرورة. وقرأت فرقة: ﴿فَارَسْتَ﴾ كأنهم أرادوا: دارسك يا محمد، أي الجماعة

المشار إليها قبل من سلمان واليهود وغيرهم، وقرأت فرقة: ﴿فَزَسْتَ﴾ بضم الراء، وكأنها في معنى ﴿فَزَسْتَ﴾ أي بليت، وقرأ قتادة: ﴿فَزَسْتَ﴾ بضم الدال وكسر الراء، وهي قراءة ابن عباس بخلاف عنه، ورويت عن الحسن، قال أبو الفتح: في ﴿فَزَسْتَ﴾ ضمير ﴿الَّذِينَ﴾، ويحتمل أن يراد: عفيت وتنوسيت، وقرأ أبي بن كعب: ﴿فَزَسَ﴾ وهي في مصحف عبدالله، قال المهدوي: وفي بعض مصاحف عبدالله ﴿فَزَسْنَ﴾، ورويت عن الحسن، وقرأت فرقة: ﴿فَزَسْنَ﴾ بتشديد الراء على المبالغة في ﴿فَزَسْنَ﴾، وهذه الثلاثة الأخيرة مخالفة لخط المصحف.

واللام في قوله تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ وفي قوله سبحانه: ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ متعلقان بفعل متأخر تقديره: صرفناها، وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود: ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ بالتاء على مخاطبة النبي ﷺ، وقرأت فرقة: ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ بياء أي الله تعالى، وذهب بعض الكوفيين إلى أن (لا) مضمرة بعد (أن) المقدرة في قوله تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا﴾، فتقدير الكلام عندهم: «وأن لا يقولوا»، كما أضمرها في قوله تعالى: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَقُولُوا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قلق، ولا يجيز البصريون إضمار (لا) في موضع من المواضع.

تفسير قوله عز وجل: هذان أمران للنبي ﷺ مضمّنهما

الاقتصار على اتباع الوحي وموادة الكفار، وذلك كان في أول الإسلام، ثم نسخ الإعراض عنهم بالقتال والسوق إلى الدين طوعاً أو كرهاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ في ظاهرها ردٌ على المعتزلة القائلين: إنه ليس عند الله لطف يؤمن به الكافر، وأن الكافر والإنسان في الجملة يخلق أفعاله، وهي متضمنة أن إشراكهم وغيره وقف على مشيئة الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ كان في أول الإسلام، وكذلك ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية. مخاطبة للمؤمنين وللنبي ﷺ، وقال ابن عباس: وسبها أن كُفّرَ قريش قالوا لأبي طالب: إما أن ينتهي محمد وأصحابه عن سب ألهتنا والغض منها وإما أن نسب إلهه ونهجوهم فنزلت الآية، وحكمها على كل حال باق في الأمة، فمتى كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبي ﷺ أو الله عز وجل فلا يحل للمسلم أن يسب دينهم ولا صلبانهم ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك أو نحوه، وعبر عن الأصنام - وهي لا تعقل - بـ ﴿الَّذِينَ﴾ وذلك على معتقد الكفرة فيها، وفي هذه الآية ضرب من الموادة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿عَدُوًّا﴾ بفتح العين وسكون الدال نصب على المصدر، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو رجاء، وقتادة،

ويعقوب، وسلام، وعبدالله بن زيد: ﴿عَدُوًّا﴾ بضم العين والدال وتشديد الواو، وهذا أيضاً نصب على المصدر وهو من الاعتداء، وقرأ بعض الكوفيين: ﴿عَدُوًّا﴾ بفتح العين وضم الدال نصب على الحال، أي في حال عداوة الله، وهو لفظ مفرد يدل على الجمع.

وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعْ عَلِيًّا﴾ بيان لمعنى الاعتداء المتقدم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ إشارة إلى ما زَيَّنَ الله لهؤلاء عبدة الأصنام من التمسك بأصنامهم من التمسك بها والدُّب عنها، وتزيين الله عمل الأمم هو ما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير أو الشر والاتباع لطرقه، وتزيين الشيطان هو ما يقذفه في النفوس من الوسوسة وخطوات السوء، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم﴾ يتضمن وعداً جميلاً للمحسنين ووعيداً ثقيلاً للمسيئين.

﴿١٠٩﴾ - ﴿١١٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ عائد على المشركين المتقدم ذكرهم، و﴿جَهَنَّمَ﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه ﴿أَقْسَمُوا﴾ على مذهب سيئويه لأنه في معناه، وعلى مذهب أبي العباس المبرد فعل من لفظه. واللام في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ﴾ لام موطنه للقسم مؤذنة به، وأما اللام المتلقية للقسم فيه في قوله سبحانه: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ﴾. و﴿آيَةً﴾ يريد: علامة.

وحكي أن الكفار لما نزلت: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَظُلَّتْ

أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّيْنِ﴾ ﴿١٠٩﴾ أقسموا حينئذ أنها إن نزلت آمنوا فنزلت هذه الآية، وحكي أنهم اقترحوا أن يعود الصفا ذهباً، وأقسموا على ذلك، فقام رسول الله ﷺ يدعو في ذلك، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له: إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ ذَهَباً فَإِنْ لَمْ يُمْنُوا هَلَكُوا عَنْ آخِرِهِمْ معاجلة كما فعل بالأمم إذ لم تؤمن بالآيات المقترحة، وإن شئت أخروا حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله ﷺ: ﴿بَلْ حَتَّى يَتُوبَ تَائِبِهِمْ﴾ ونزلت هذه الآية. وقرأ ابن مصرف: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ﴾ بفتح الميم والنون وبالنون الخفيفة.

ثم قال تعالى: قل لهم يا محمد على جهة الرذ والتغطية إنما الآيات بيد الله وعنده، ليست عندي ففتتح علي، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ﴾، فاختلف المتأولون فيمن المخاطب بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ؟﴾ ومن المستفهم بـ [مَا] التي يعود عليها الضمير الفاعل في ﴿يَشْعُرْكُمْ﴾ - فقال مجاهد، وابن زيد: المخاطب بذلك الكفار، وقال الفراء وغيره: المخاطب بها المؤمنون، ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ﴾ معناه: وما تعلمكم؟ وما يدريكم؟ وقرأ قوم: ﴿يُشْعِرْكُمْ﴾ بسكون الراء، وهي على التخفيف، وَيُحَسِّنُهَا أَنْ الخروج من كسرة إلى ضمة.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم في رواية داود الإيادي: ﴿إِنَّهَا﴾ بكسر الألف على القطع واستشفاف الإخبار، فمن قرأ: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بالتاء - وهي قراءة ابن عامر وحزمة - استقامت له المخاطبة

أولاً وآخرأ للكفار، ومن قرأ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياء - وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، والكسائي - فيحتمل أن يخاطب أولاً وآخرأ المؤمنين، ويحتمل أن يخاطب بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ﴾ الكفار، ثم يستأنف عنهم للمؤمنين، ومفعول ﴿يَشْعُرْكُمْ﴾ الثاني محذوف ويختلف تقديره بحسب كل تأويل. وقرأ نافع، وعاصم في رواية حفص، وحزمة، والكسائي، وابن عامر: ﴿أَنَّهُا﴾ بفتح الألف، فمنهم من جعلها (أَنْ) التي تدخل على الجمل وتأتي بعد الأفعال - كعلمت وظننت - وأعمل فيها ﴿يَشْعُرْكُمْ﴾. والتزم بعضهم أن [لَا] زائدة في قوله سبحانه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وأن معنى الكلام: ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ﴾ أنها إذا جاءت يؤمنون أو تؤمنون. فزبدت [لَا] كما زبدت في قوله تعالى: ﴿وَحَكَرُمْ عَلَى قَوْمِهِمْ أَفَلَا يَكْفَهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، لأن المعنى: وحرام على قرية مهلكة رجوعهم، وكما جاءت في قول الشاعر:

أَبِي جُودُهُ لَا الْبُخْلُ وَاسْتَعْجَلْتُ بِهِ
نَعَمْ مِنْ قَتْلٍ لَا يَمْنَعُ الْجُودَ قَاتِلُهُ
قال الزجاج: أراد: أبي جودُهُ الْبُخْلُ، وكما جاءت زائدة في قول الشاعر:

أَقْمِنِكَ لَا بَرَقَ كَأَنَّ وَمِيضَهُ
غَابَ تَسْتَمُهُ ضَرَامٌ مَشْقَبٌ
ودعا إلى التزام هذا حفظ المعنى، لأنها لو لم تكن زائدة لعاد الكلام عذراً للكفار وفسد المراد بالآية، وضعف الزجاج وغيره زيادة [لَا] وقال: هذا غلط، ومنهم من جعل

بِالْأَوَّلُونَ﴾ أي بالآيات المقترحة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويرتب على هذا التأويل أن تكون [ما] نافية، ذكر ذلك أبو علي فتأمل. وترجع عنده أيضاً أن تكون [لا] زائدة، وبسط شواهد في ذلك، وحكى بعض المفسرين أن في آخر الآية حذفاً يستغنى به عن زيادة [لا]، وعن تأويلها بمعنى (لعل)، وتقديره عندهم: أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف لا يعضده لفظ الآية ولا يقتضيه.

وتحتمل الآية أن يكون المعنى يتضمن الإخبار أنهم لا يؤمنون وقيل لهم: وما يشعركم بهذه الحقيقة؟ أي: لا سبيل إلى شعوركم بها وهي حق في نفسها وهم لا يؤمنون أن لو جاءت، و [ما] استفهام على هذا التأويل، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبُ أَفْعِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَتُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ﴾. المعنى على ما قالت فرقة: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في النار وفي لهيبها في الآخرة لما لم يؤمنوا في الدنيا، ثم استأنف على هذا: ﴿وَتَذَرُهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ في طغيانهم يعمهون. وقالت فرقة: إنما المراد بالتقلب التحويل عن الحق والهدى والترك في الضلالة

والكفر. ومعنى الآية: إن هؤلاء الذين أقسموا أنهم يؤمنون إن جاءت آية نحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم أن لو جاءت فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا أول مرة بما دعوا إليه من عبادة الله، فأخبر الله تعالى - على هذا التأويل - بصورة فعله بهم.

وقرأ أبو رجاء: ﴿يَذَرُهُمْ﴾ بالياء، ورويت عن عاصم، وقرأ إبراهيم الثخمي: ﴿وَتَقَلَّبُ﴾ و﴿يَذَرُهُمْ﴾ بالياء فيها كناية عن الله تبارك وتعالى. وقرأ أيضاً فيما روي عنه مغيرة: ﴿وَتَقَلَّبُ﴾ بفتح التاء واللام، بمعنى: «وَتَقَلَّبُ أفئدتهم وأبصارهم» بالرفع فيهما، ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياء وحزم الراء.

وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿كَمَا﴾ في هذه الآية إنما هي بمعنى المجازاة، أي: لما لم يؤمنوا أول مرة نجازيهم بأن نقلب أفئدتهم عن الهدى ونطبع على قلوبهم، فكأنه سبحانه قال: ونحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم جزاء لما لم يؤمنوا أول مرة بما دعوا إليه من الشرع.

والضمير في ﴿يَذَرُ﴾ يحتمل أن يعود على الله عز وجل، أو على القرآن، أو على النبي عليه الصلاة والسلام، ﴿وَتَذَرُهُمْ﴾ معناه: نتركهم. وقرأ الأعمش، والهمداني: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياء وحزم الراء على وجه التخفيف. والطغيان: التخبط في الشر والإفراط فيما يتناوله المرء. والعَمَى: التردد والحيرة.

تفسير قوله عز وجل: أخبر الله عز وجل في هذه الآية أنه لو أتى بجميع ما اقترحوه من إنزال الملائكة، وإحياء سلفهم حسبما كان

وَلَوْ أَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ كَتَبْنَاهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَقِيلَ لَهُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا إِنَّا شَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ إِلَّا نِسَاءً وَالْحَسْبُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَيَصْنَعَنَّ اللَّهُ الْفِتْنَةَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَ صِرَافًا وَلَيَفْزَعُنَّ اللَّهُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ أَفَعَيَّرُوا اللَّهَ فَقِيلَ لَهُمْ قَوْلُ اللَّهِ أَتَعْبَثُونَ حُكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٣﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٤﴾ وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَكُمْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَكُونُوا إِلَّا ظَنًّا وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٥﴾ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِنِينَ ﴿١١٦﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِي مُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾

[أَلْهَآ] بمعنى (لعلها)، وحكاها سيبويه عن الخليل، وهو تأويل لا يحتاج معه إلى تقدير زيادة [لا]، وحكى الكسائي أنه كذلك في مصحف أبي بن كعب: ﴿وما أدراكم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون﴾، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

قُلْتُ لِشَيْبَانَ اذْنٌ مِنْ لِقَائِهِ
أَنْ تُخَذِّي الْقَوْمَ مِنْ شِوَائِهِ
فهذه كلها بمعنى (لعل)، وضعف أبو علي هذا بأن التوقع الذي فيه لا يناسب الآية بعد التي حكمت بأنهم لا يؤمنون، وترجع عنده في الآية أن تكون (أَنْ) على بابها، وأن يكون المعنى: قل إنما الآيات عند الله لأنها إذا جاءت لا يؤمنون. فهو لا يأتي بها لإصرارهم على كفرهم، وتكون الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَّ أَنْ تُرِيدَ يَأْتِيَكُمُ الْإِلَٰهَ أَنْ كَذَّبَ

من اقتراح بعضهم أن يحشر قصي وغيره، فيخبر بصدق محمد، أو يجمع عليهم كل شيء يعقل أن يحشر عليهم - ما آمنوا إلا بالمشيئة واللفظ الذي يخلقه الله ويخترعه في نفس من شاء لا رب غيره، وهذا يتضمن الرد على المعتزلة في قولهم بالآيات التي تضطر الكفار إلى الإيمان.

وقال ابن جريج: نزلت هذه الآية في المستهزئين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا يثبت إلا بسند.

وقرأ نافع، وابن عامر، وغيرهما: ﴿قَبْلًا﴾ بكسر القاف وفتح الباء، ومعناه: مواجهة ومعاناة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره. ونصبه على الحال، وقال المبرد: المعنى: ناحية، كما تقول: لي قَبْلٌ فلان دين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فنصبه - على هذا - هو على الظرف، وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي، وغيرهم: ﴿قَبْلًا﴾ بضم القاف والباء، وكذلك قرأ ابن كثير، وأبو عمرو هنا، وقرأ: ﴿الْعَذَابُ قَبْلًا﴾ مكسورة القاف. واختلف في معناه - فقال عبدالله بن زيد، ومجاهد، وابن زيد: قَبْلٌ: جمع قبيل، أي: صنعا صنعا ونوعا نوعا، كما يجمع قضيب على قضب وغيره، وقال الفراء والزجاج: هو جمع قبيل وهو الكفيل، أي: وحشرنا عليهم كل شيء كفلاء بصدق محمد ﷺ، وذكره الفارسي وضعفه، وقال بعضهم: قَبْلٌ بالضم بمعنى قبل

بكسر القاف أي: مواجهة كما تقول: قبل ودبر، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ رَيْنَ قُبُلًا﴾، ومنه قراءة ابن عمر رضي الله عنهما: ﴿لِقَبْلِ عَذِيبَيْنِ﴾ أي لاستقبالها ومواجهتها في الزمن، وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وأبو حية: ﴿قَبْلًا﴾ بضم القاف وسكون الباء وذلك على جهة التخفيف، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿قَبْلًا﴾ بفتح القاف وإسكان الباء، وقرأ أبي، والأعمش: ﴿قَبِيلًا﴾ بفتح القاف وكسر الباء وزيادة ياء. والنصب في هذا كله على الحال.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَبْهَلُونَ﴾ الضمير عائد على الكفار المتقدم ذكرهم، والمعنى: يجهلون أن الآية تقتضي إيمانهم ولا بد، فيقتضي اللفظ أن الأقل لا يجهل، فكان فيهم من يعتقد أن الآية لو جاءت لم يؤمن إلا أن يشاء الله له ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ آيَةً. تتضمن تسليية النبي ﷺ وعرض القدوة عليه، أي أن هذا الذي امتحنت به يا محمد من الأعداء قد امتحن به غيرك من الأنبياء ليبلي الله أولي العزم منهم. و﴿عَذْوًا﴾ مفرد في معنى الجمع، ونصبه على المفعول الأول لـ ﴿جَعَلْنَا﴾، والمفعول الثاني في قوله: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ و﴿شَيْطَانٍ﴾ بدل من قوله سبحانه: ﴿عَذْوًا﴾، ويصح أن يكون المفعول الأول ﴿شَيْطَانٍ﴾ والثاني ﴿عَذْوًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿شَيْطَانٍ الْإِنْسِ

وَالْجِنِّ﴾ يريد به المتمردين من النوعين الذين هم من شيم السوء كالشياطين، وهذا قول جماعة من المفسرين، ويؤيده حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه صلى يوماً فقال له رسول الله ﷺ: «تَعُوذُ يَا أَبَا ذَرٍّ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ»، قال: «وَأَنْ مِنْ الْإِنْسِ لَشَيَاطِينٍ؟ قال: «نعم»، وقال السدي، وعكرمة: المراد بالشياطين الموكلون بالإنس والشياطين الموكلون بمؤمني الجن، وزعموا أن للجن شياطين موكلين بغوايتهم، وأنهم يوحون إلى شياطين الإنس بالشَّرِّ والوسوسة يتعلمها بعضهم من بعض، قالوا: ولا شياطين من الإنس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول لا يستند إلى خبر ولا إلى نظر.

و﴿يُوحِي﴾ معناه: يلقيه في إخفاء كالمنجاة والسرار، و﴿زُخْرَفٌ الْقَوْلِ﴾ معناه: مُحَسَّنُهُ وَمُزَيَّنُهُ بالباطيل، قاله عكرمة ومجاهد. والزخرفة أكثر ذلك إنما تستعمل في الشر والباطل. و﴿عُذْوًا﴾ نصب على المصدر، ومعناه أنهم يغرون به المضللين، ويوهمون لهم أنهم على شيء والأمر بخلاف، والضمير في قوله تعالى: ﴿فَعَلَوْهُ﴾ عائد على اعتقادهم العداوة، ويحتمل على الوحي الذي تضمنته ﴿يُوحِي﴾.

وقوله تعالى: ﴿تَذَرَهُمْ وَمَا بَقَرُوا﴾ لفظ يتضمن الأمر بالموادعة منسوخ بآيات القتال، قال قتادة: كل (دَز) في كتاب الله فهو منسوخ بالقتال، و﴿يَقْرَأُونَ﴾ معناه:

يختلفون ويشتقون وهو من الفرقه تشبيهاً بفَرْي الأديم.

﴿١١٣﴾ - ﴿١١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَلْيَصْنِ لِآلِهِ﴾ معناه: لِتَمِيلَ، يقال: صَنَى يَصْنِي، وأصلها يصني بكسر الغين لكن رُدّه حرف الحلق إلى الفتح، ويقال: صغاً يصغو، وأصغى يصغي، وصغى يصغى.

و ﴿أَفْتَدُ﴾ جمع فؤاد، ويقترفون معناه: يواقعون ويبتزحون، وهي مستعملة أكثر ذلك في الشر والذنوب ونحوه.

والقراءة على كسر اللام في الثلاثة الأفعال على أنها لام كي، فإما أن تكون معطوفة على ﴿عَزَّوَجَلَّ﴾ وإما أن تكون متعلقة بفعل مؤخر تقديره: فعلوا ذلك، أو جعلنا ذلك، فهي لام صيرورة، قاله الزجاج. ولا يحتمل أن تكون هذه اللامات - على هذه القراءة - لام الأمر وضمنها الوعيد وتبقى الباء في ﴿وَلْيَصْنِ﴾ على نحو ما جاء من ذلك في قول الشاعر:

أَلَمْ يَأْتِيكَ.....

إلى غير ذلك مما قد قرئ به، قال أبو الفتح: قرأها الحسن بالتسكين في الثلاثة، وهي لام كي، وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿عَزَّوَجَلَّ﴾، والتقدير: لأجل الغرور ولتصغى، وإسكان هذه اللام شاذ في الاستعمال قوي في القياس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر أن تُحمل قراءة الحسن بسكون اللامات الثلاثة على أنها لام الأمر المضمن الوعيد والتهديد،

والخط على القراءة ﴿ولتضع﴾. ذكر أبو عمرو الداني أن تسكينه في اللامات الثلاثة، وكذلك قال أبو الفتح وذكر أن الحسن إنما يسكن اللامين الثانية والثالثة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك يخالف خط المصحف في ﴿وَلْيَصْنِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتحصل أن تسكن اللام في ﴿وَلْيَصْنِ﴾ على ما ذكرناه في قراءة الجماعة. قال أبو عمرو: وقراءة الحسن إنما هي: ﴿لْيَصْنِ﴾ بكسر الغين، وقراءة إبراهيم السخمي ﴿لْيَصْنِ﴾ بضم الناء وكسر الغين من: أَصْنَى يَصْنِي، وكذلك قرأ الجراح بن عبدالله.

وقوله تعالى: ﴿أَفْتَدُ﴾ نصب بـ ﴿أَبْتَى﴾ و﴿حَكَمًا﴾ نصب على البيان والتمييز. و﴿مُفَصَّلًا﴾ معناه: مُزال الإشكال قد فصلت آياته. وهذه الآية - وإن كان معناها يعم في أن الله لا يبتغي سواه حكماً في كل شيء وفي كل قضية - فإننا نحتاج في وصف الكلام وأتساق المعاني أن ننظر فيما تقدم إلى قضية تكون سبباً إلى قوله تعالى: ﴿أَفْتَدُ اللَّهُ أَبْتَى حَكَمًا﴾؟ فهي - والله أعلم - حُكْمه عليهم بأنهم لا يؤمنون ولو بعث إليهم كل الآيات، وحكمه بأن جعل للأنبياء أعداء من الجن والإنس. و ﴿حَكَمًا﴾ أبلغ من (حاكم) إذ هي صيغة لِلْعَدَلِ مِنَ الْحُكَمَاءِ، و (الحاكم) جارٍ على الفعل، فقد يقال للجائر. و ﴿حَكَمًا﴾ نصب على البيان أو الحال.

وبهذه الآية خاصمت الخوارج علياً رضي الله عنه في تكفيره بالتحكيم، ولا حُجَّة لها لأن الله تعالى حَكَمَ في الصِّيد، وبين الزوجين، فتحكيم المؤمنين من حُكْمه تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكَلَتْهُمْ يَمْكُونَ أَنْتُمْ مَرْكَلٌ مِنْ رَبِّكَ يَأْتِي﴾ يتضمن الاستشهاد بمؤمنهم والطعن والتشبيه على مشركهم وحسدتهم. وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿مُتْرَلٌ﴾ بالتشديد، والباقون بالتخفيف، و ﴿أَكَلَتْ﴾ أولاً هو القرآن، وثانياً اسم جنس التوراة والإنجيل والزبور والصحف. ووصفه أهل الكتاب بالعلم عموم بمعنى الخصوص، وإنما يريد علماءهم وأجبارهم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ تثبيت ومبالغة وطعن على المتمرين.

﴿١١٣﴾ - ﴿١١٤﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿تَتَّ﴾ - في هذا الموضع - بمعنى: استمرت وصحت في الأزل صدقاً وعدلاً، وليس بتمام من نقص، ومثله ما وقع في السيرة من قولهم: «وتم حمزة على إسلامه» في الحديث مع أبي جهل.

والكلمات: ما نزل على عباده، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: كلمت بالإنفراد هنا وفي يونس في الموضعين، وفي حم المؤمن وقرأ نافع، وابن عامر جميع ذلك ﴿كلمات﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو هنا فقط ﴿كلمات﴾ بالجمع، وذهب الطبري إلى أنه القرآن كما يقال: «كلمة فلان» في

قصيدة الشعر والخطبة البليغة..

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي بعيد معترض، وإنما القصد، العبارة عن نفوذ قوله تعالى: ﴿صِدْقًا﴾ فيما تضمنته من خبر، و ﴿وَعَدًا﴾ فيما تضمنته من حكم، وهما مصدران في موضع الحال، وقال الطبري: «نصباً على التمييز»، وهذا غير صواب. و ﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ معناه: في معانيها بأن يبين أحد أن خبره بخلاف ما أخبر به، أو يبين أن أمره لا ينفذ، والمثال من هذا أن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿إِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْوَوْا لَهُ خُرُوجًا إِلَى الْخَالِفِينَ﴾. فقال المنافقون بعد ذلك للنبي ﷺ وللمؤمنين: ﴿دَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ فَلَئِنْ تَتَّبِعُوا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ، أَوْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا مَن يَدْعُوا بِحَدِيثِهِ﴾. لأن مضمّنه الخبر بأن لا يباح لهم خروج، وأما الألفاظ فقد بدلتها بنو إسرائيل وغيرتها، هذا مذهب جماعة من العلماء، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم إنما بدّلوا بالتأويل، والأول أرجح. وفي حرف أبي بن كعب: ﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. المعنى: فامض يا محمد لما أمرت به وأنفذ لرسالتك فإنك إن طع أكثر من في الأرض يضلوك، وذكر سبحانه: ﴿أَكْثَرُ﴾ لأن أهل الأرض حينئذ كان أكثرهم كافرين، ولم يكن المؤمنون إلا قلة.

وقال ابن عباس: الأرض هنا: الدنيا. وحكي أن سبب هذه الآية أن المشركين جادلوا رسول الله ﷺ في أمر الذبائح وقالوا: تأكل ما تقتل وتترك ما قتل الله؟ فنزلت الآية، ووصفهم عز وجل بأنهم إنما يقتلون بظنونهم، ويتبعون تحريضهم، والحزب الحزب والظن، وقرأ جمهور الناس: ﴿يُضِلُّ﴾ بضم الياء، ورواه أحمد بن أبي شريح عن الكسائي. و ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَضِلُّ﴾

في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: «يعلم من». وقيل: في موضع رفع كأنه قال: «أي يضل عن سبيله»، ذكره أبو الفتح وضعفه أبو علي، وقيل: في موضع خفض بإضمار باء الجر كأنه قال: «بمن يضل عن سبيله»، وهذا ضعيف. قال أبو الفتح: هذا هو المراد فحذفت باء الجر ووصل «أَعْلَمُ» بنفسه، قال: ولا يجوز أن يكون «أَعْلَمُ» مضافاً إلى «مَنْ» لأن أفعال التفضيل بعض ما يضاف إليه. وهذه الآية خبر في ضمته وعيد للضالين ووعد للمهتدين.

١١٨ - ١١٩ تفسير قوله عز وجل:

القصص بهذه الآية النهي عما دُبع للنصب وغيرها وعن الميتة وأنواعها، فجاءت العبارة أمراً بما يضاد ما قصد النهي عنه، ولا قصد

سورة الأنعام

سورة الأنعام

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا يَلْبِغُونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٨﴾ وَذَرُوا أَطْلَهِمُ الْإِنْتِمَاءَ وَبَاطِنَهُ الْإِنْتِمَاءَ يَكْسِبُونَ الْإِنْتِمَاءَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١١٩﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ أَسْمًا لِلَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُسَّقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ وَجْهٌ إِلَى أُولِي الْأَيْمَنِ لِيُحْدِثَ لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢٠﴾ أَوْ مَن كَانَ مِيتَةً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا أَمْوَالَهُ يَتَّبِعِي بِسُوءِ النَّاسِ كَمَن مَّشَى فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مَّجْرِمًا يَمْشِي فِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا إِنَّا أَنُؤْمِنُ حَتَّى تَأْتِيَ بِنُورٍ مِّمَّا يُرْسِلُ اللَّهُ أَعْلَمَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

١٤٣

في الآية إلى ما نسي في المؤمن التسمية أو تعمدتها بالترك. وقال عطاء:

هذه الآية أمر بذكر اسم الله على الشراب والطعام والذبح وكل مطعوم، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِنَا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم بأحكامه وأوامره آخذين، فإن الإيمان بهما يتضمن ويقتضي الأخذ بهما والاعتقاد لهما.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ الآية. [ما] استفهام يتضمن التقرير، وتقدير هذا الكلام: وأي شيء لكم في ألا تأكلوا؟ ف [أَنْ] في موضع خفض بتقدير حرف الجر، ويصح أن تكون في موضع نصب على ألا يقدر حرف الجر ويكون الناصب معنى الفعل الذي في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ تقديره: ما

يجعلكم وقد فُضِّل لكم ما حُرِّمَ، أي: وقد بَيَّنَّ لكم الحلال من الحرام وأزيل عنكم اللبس والشك؟

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ على بناء الفعل للمفعول في الفعلين. وقرأ نافع، وحفص عن عاصم: ﴿وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ على بناء الفعل للفاعل في الفعلين. وقرأ أبو بكر عن عاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿وَقَدْ فَضَّلَ﴾ على إسناد الفعل إلى الفاعل ﴿لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ على إسناد الفعل إلى المفعول. وقرأ عطية العوفي: ﴿وَقَدْ فَضَّلَ﴾ على بناء الفعل للفاعل وفتح الصاد وتخفيفها ﴿مَا حُرِّمَ﴾ على بناء الفعل للمفعول. والمعنى: قد فُضِّل الحرام من الحلال وانتزعه بالبينين. و [ما] في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا أَتَيْنَا بِهَذَا كِتَابًا وَبِهِ هُتِفَ﴾ يريد بها: من جميع ما حُرِّمَ كالهيئة وغيرها، وهي في موضع نصب بالاستثناء، والاستثناء منقطع.

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى كَثِيرًا﴾ يريد الكفرة المحاذين المجادلين في المطاعم بما ذكرناه من قولهم: «تأكلون ما تذبحون ولا تأكلون ما ذبح الله؟» وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿لَيُضِلُّوكُمْ﴾ بفتح الياء على معنى إسناد الضلال إليهم في هذه السورة وفي يونس: ﴿رَبَّنَا يُضِلُّوكُمْ﴾ وفي سورة إبراهيم: ﴿أَنذَاكَ لِيُضِلُّوكُمْ﴾ وفي الحج: ﴿ثَانِي عَظِيمٍ لِيُضِلَّ﴾ وفي لقمان: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَبْغِي عَنْهُ﴾ وفي الزمر: ﴿أَنذَاكَ لِيُضِلَّ﴾ وقرأ نافع، وابن عامر كذلك في هذه

وفي يونس. وفي الأربعة التي بعد هذه يَضْمَان الياء على معنى إسناد إضلال غيرهم إليهم، وهذه أبلغ في ذمهم لأن كل مُضِلٍّ ضال، وليس كل ضالٍّ مُضِلًّا. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي في المواضع الستة: ﴿لَيُضِلُّوكُمْ﴾ على معنى إسناد إضلال غيرهم إليهم. ثم بيَّن عز وجل في ضلالهم أنه على أفتح الوجوه، وأنه بالهوى لا بالنظر والتأمل، و ﴿يَبْغِي عَنْهُ﴾ معناه: في غير نظر، فإن لِمَنْ يضل بنظر ما بعض عذر لا ينفع في أنه اجتهد.

ثم توعدهم تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَصِرِينَ﴾.

تفسير قوله عز وجل:

هذا نهى عام من طرفيه لأن الإثم يعم الأحكام والنسب اللاحقة للعصاة عن جميع المعاصي، والظاهر والباطن يستوفيان جميع المعاصي، وقد ذهب المتأولون إلى أن الآية من ذلك في مخصص، فقال السدي: ظاهره الزنى الشهير الذي كانت العرب تفعله، وباطنه اتخاذ الأخدان، وقال سعيد بن جبيرة: الظاهر ما نص الله على تحريمه بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ الآية، والباطن الزنى، وقال ابن زيد: الظاهر التعري، والباطن الزنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد التعري الذي كانت العرب تفعله في طوافها. وقال قوم: الظاهر الأعمال، والباطن المعتقد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا حسن لأنه عام.

ثم توعد تبارك وتعالى كسبة الإثم بالمجازاة على ما اكتسبه من ذلك وتحملوا ثقله، والافتراق: الاكتساب.

تفسير قوله عز وجل:

المقصد بهذه الآية النهي عن الميتة، إذ هي جواب لقول المشركين: «تتركون ما قتل الله»، والنهي أيضاً عما ذبح للأنصاب، ومع ذلك فلفظها يعم ما تركت التسمية عليه من ذبائح الإسلام، وبهذا العموم تعلق محمد بن سيرين، وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، وعبد الله بن عمر، ونافع، وعبد الله بن زيد الخطمي، والشعبي، وغيرهم، فما تركت التسمية عليه نسياناً أو عمداً لم يؤكل، وقالت طائفة عظيمة من أهل العلم: يؤكل ما ذبح ولم يُسَمَّ عليه نسياناً، ولا يؤكل ما لم يُسَمَّ عليه عمداً، وهذا قول الجمهور، وحكى الزهراوي عن مالك بن أنس أنه قال: تؤكل الذبيحة التي تركت التسمية عليها عمداً أو نسياناً، وعن ربيعة أيضاً، قال عبد الوهاب: التسمية سُنَّة فإذا تركها الذابح ناسياً أكلت الذبيحة في قول مالك وأصحابه، وإذا تركها عمداً فقال مالك: لا تؤكل، فحمل بعض أصحابه قوله: «لا تؤكل» على التحريم، وحمله بعضهم على الكراهية، وقال أشهب: تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمداً إلا أن يكون مستخفاً، وقال نحوه الطبري.

وذبائح أهل الكتاب عند جمهور العلماء في حكم ما ذكر اسم الله عليه من حيث لهم دين وشرع، وقال قوم: نسخ من هذه الآية ذبائح أهل الكتاب، قاله عكرمة، والحسن بن أبي الحسن.

والضمير في [إنه] من ﴿وَلَا تُكْرَهُ﴾ عائذ على الأكل الذي تضمنه الفعل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ ويحتمل أن يعود على «ترك الذكر» الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿لَوْ يَكْفُرْ﴾. والفسق: الخروج عن الطاعة، هذا عرفه في الشرع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا الشَّيْطَانُ﴾ الآية، قال عكرمة: عني بالشياطين في هذه الآية مرادة الإنس من مجوس فارس، وذلك أنهم كانوا يوالون قريشاً على عداوة النبي ﷺ فخطبهم مُنْهِيَيْنَ على الحجة التي ذكرناها في أمر الذبائح من قولهم: «تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟» فذلك من مخاطبتهم هو الوحي الذي عني. والأولياء قرائن. والمجادلة: هي تلك الحجة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وعبدالله بن كثير: بل الشياطين: الجن، واللفظة على وجهها، وكفرة الجن أولياء لكفرة قريش، ووحيهم إليهم كان بالوسوسة حتى ألهمهم تلك الحجة، أو على ألسنة الكهان. وقال أبو زميل: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: إن أبا إسحق - يعني المختار - زعم أنه أوحى إليه الليلة، فقال ابن عباس: صدق، فَتَشَرَّتْ، فقال ابن عباس: «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم».

ثم نهى الله تعالى عن طاعتهم بلفظ يتضمن الوعيد، وعرض أصعب مثال في أن يشبه المؤمن بمشرك، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قولاً: إن الذين جادلوا بتلك الحجة هم قوم من اليهود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأن اليهود لا تأكل الميتة، أما إن ذلك يتجه منهم على جهة المغالطة كأنهم يحتجون عن العرب.

١٢٢ - ١٢٣ تفسير قوله عز وجل:

تقدم في هذه الآية السالفة ذكر قوم مؤمنين أمروا بترك ظاهر الإثم وباطنه وغير ذلك، وذكر قوم كافرين يضلون بأهوائهم وغير ذلك، فمثل الله عز وجل في الطائفتين بأن شبه الذين آمنوا بعد كفرهم بأموات أحيوا، هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وغيرهما، وشبه الكافرين وحيرة جهلهم بقوم في ظلمات يترددون فيها ولا يمكنهم الخروج منها، لِيُبَيِّنَ عز وجل الفرق بين الطائفتين والتبؤن بين المنزلتين.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَوْ مِنْ؟﴾ بفتح الواو، فهي ألف استفهام دخلت على واو عطف جملة على جملة، و [مَنْ] بمعنى الذي. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿أَفَمَنْ؟﴾ بالفاء، والمعنى قريب من معنى الواو، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ عاطفة. و ﴿وَرُكَّ﴾ أُنْكِرْ ما يُقَى به الإيمان، و ﴿يَمِشِي بِوَيْهٍ﴾، يراد به جميع التصرف في الأفعال والأقوال. قال أبو علي:

ويحتمل أن يراد النور الذي يؤتاه المؤمنون يوم القيامة، و ﴿فِي النَّاسِ﴾ متعلق بـ ﴿يَمِشِي﴾، ويصح أن يتعلق بـ ﴿كَانَ مَيْتًا﴾. وقوله تعالى: ﴿كَانَ مَيْتًا﴾ بمنزلة «كمن هو»، والكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ رُبَّنَّ﴾ متعلقة بمحذوف يدل ظاهر الكلام عليه، تقديره: «وكما أحيينا المؤمنين وجعلنا لهم نوراً كذلك رُبَّنَّ للكافرين»، ويحتمل أن يتعلق بقوله تعالى: ﴿كَانَ مَيْتًا﴾ أي كهذه الحال هو التزين.

وقرأ نافع وحده: ﴿مَيْتًا﴾ بكسر الياء وشذها. وقرأ الباقون: ﴿كَانَ﴾ بسكون الياء. قال أبو علي: التخفيف كالتشديد، والياء المحذوفة هي الثانية المنقلبة عن واو أعلت بالحذف كما أعلت بالقلب.

وقالت طائفة: إن هذه الألفاظ التي مثل بها وإن كانت تعم كل مؤمن وكل كافر فإنما نزلت في مخصوصين. فقال الضحاك: المؤمن الذي كان ميتاً فأحيى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحكى المهدوي عن بعضهم أنه حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه. وقال عكرمة: عمار بن ياسر رضي الله عنه، وقال الزجاج: جاء في التفسير أنه يعني به النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واتفقوا على أن الذي في الظلمات أبو جهل بن هشام، وإلى حاله وحال أمثاله هي الإشارة والتشبيه بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾، وهذه الآية تتضمن إنذاراً

بفساد حال الكفرة المتقدم ذكرهم لأنه مقتضى حال من تقدمهم من نظائرهم، وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في المستهزئين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني أن التمثيل لهم، و ﴿جَعَلْنَا﴾ في هذه الآية بمعنى صيرنا، فهي تتعدى إلى مفعولين، فالمفعول الأول: ﴿مُجْرِبِيهَا﴾ والثاني: ﴿أَكْبَرِ﴾، وفي الكلام - على هذا - تقديم وتأخير تقديره: وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر، وقدم الأهم، إذ لعله كبرهم أجروا. ويصح أن يكون المفعول الأول: ﴿أَكْبَرِ﴾ و ﴿مُجْرِبِيهَا﴾ مضاف والمفعول الثاني قوله سبحانه: ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ و ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ نصب بلام الصيرورة.

والأكابر جمع أكبر كما الأفاضل جمع أفضل، ويقال: أكابرة كما يقال: أحمر وأحامرة، ومنه قول الشاعر:

إِنَّ الْأَحَامِرَةَ الثَّلَاثَةَ أَتَلَفَتْ مَالِي، وَكُنْتُ بِهِنَّ قَدَمًا مُوَلَعًا
يريد: الخمر واللحم والزعفران. والمكر: التخييل بالباطل والخديعة ونحوهما. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُونَ إِلَّا يَأْتِسِيهِمْ﴾ يريد: لرجوع وبال ذلك عليهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ما يعلمون، وهي لفظة مأخوذة من الشعار وهو الشيء الذي يلي البدن، فكان الذي لا يشعر نفي عنه أن يعلم علم حس، وفي ذلك مبالغة في صفة جهله إذ البهائم تعلم علوم الحس، وأما هذه الآية فإنما نفي فيها الشعور في نازلة مخصوصة.

﴿١٢٤﴾ - ﴿١٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية آية ذم للكفار وتوعد لهم، يقول: وإذا جاءتهم علامة ودليل على صحة الشرع تشططوا وتسحبوا وقالوا: إنما يفلق لنا البحر، إنما يحيي لنا الموتى ونحو ذلك. فرد الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿أَلَمْ نَعْلَمْ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، أي: فيمن اصطفاه وانتخبه لا فيمن كفر وجعل يشطط على الله. قال الزجاج: قال بعضهم: الأبلغ في تصديق الرسل ألا يكونوا قبل المبعث مطاعين في قومهم. و ﴿أَعْلَمُ﴾ معلق العمل والعامل في ﴿حَيْثُ﴾ فعل تقديره: يعلم حيث.

ثم توعد تعالى بأن هؤلاء المجرمين الأكابر في الدنيا سيصيبهم عند الله صَغَارٌ وذُلٌّ. و ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ متعلقة بـ ﴿سَيُصِيبُ﴾، ويصح أن تتعلق بـ ﴿صَغَارٌ﴾ لأنه مصدر، قال الزجاج: التقدير: صغار ثابت عند الله، قال أبو علي: وهو متعلق بـ ﴿صَغَارٌ﴾ دون تقدير (ثابت) ولا شيء غيره.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الآية. [مَنْ] أداة شرط، و ﴿يَشْرَحْ﴾ جواب الشرط، والآية نص في أن الله عز وجل يريد هدى المؤمن وضلال الكافر، وهذا عند جميع أهل السنة بالإرادة القديمة التي هي صفة ذاته تبارك وتعالى.

والهدى في هذه الآية هو خلق الإيمان وتحبيبه وإعداد القلب لقبوله وتحصيله، والهدى لفظة مشتركة تأتي بمعنى الدعاء كقوله عز وجل:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وتأتي بمعنى إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق والأعمال المفضية إليها كقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يُبَدِّلَ أَعْمَلُكُمْ سَيِّئِهِمْ وَيُصْلِحَ بِأَلَمِهِ﴾، وغير ذلك، إلا أنها في هذه الآية، وفي قوله سبحانه: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاطِئُونَ﴾. وفي قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ونحوها لا يتجه حملها إلا على خلق الإيمان واختراعه، إذ الوجوه الأخر من الهدى تدفعها قرائن الكلام مما قبل وبعد.

وقوله تعالى: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ ألفاظ مستعارة ها هنا، إذ الشرح: التوسعة والبسط في الأجسام، وإذا كان الجرم مشروحاً موسعاً كان معداً ليحل فيه، فيشبه توطئة القلب وتنويره وإعداده للقبول بالشرح والتوسيع، وشبه قبوله وتحصيله للإيمان بالحلول في الجسم المشروح، والصدر عبارة عن القلب، وهو المقصود إذ الإيمان من خصاله، وكذلك الإسلام عبارة عن الإيمان إذ الإسلام أعم منه، وإنما المقصود هنا الإيمان فقط بدليل قرينة الشرح والهدى، ولكنه عبر بالإسلام إذ هو أعم. وأدنى الهدى حب الأعمال وامتثال العبادات. وفي ﴿يَشْرَحْ﴾ ضمير عائد على الهدى، قال: وعوده على الله عز وجل أئين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول بأن الضمير عائد على الهدى قول يتركب عليه مذهب القدرية في خلق الأفعال، وينبغي أن يعتقد

ضعفه، وأن الضمير إنما هو عائذ على اسم الله عز وجل فإن هذا يعضده اللفظ والمعنى، وروي عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله، كيف يشرح الصدر؟ قال: «إذا نزل النور في القلب انشرح له الصدر وانفسح»، قالوا: وهل لذلك علامة يا رسول الله؟ قال: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجاني عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل القوة».

والقول في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ كَالْقَوْلِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ فَمَنْ يَضِلُّ﴾. ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ ألفاظ مستعارة تضاد شرح الصدر للإسلام، و﴿يَجْعَلْ﴾ - في هذا الموضع - تكون بمعنى: يحكم له بهذا الحكم، كما تقول: «هذا يجعل البصرة مصرًا»، أي يحكم له بحكمها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المعنى يقرب من: صير، وحكاه أبو علي الفارسي، وقال أيضاً: يصح أن يكون (جَعَلَ) بمعنى سَمَّى كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَلْكَلِيكََّةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ إِنَّشَاءً﴾ أي: سموهم، قال: وهذه الآية تحتمل هذا المعنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الوجه يضعف في هذه الآية.

وقرأ جمهور الناس والسبعة سوى ابن كثير: ﴿ضَيِّقًا﴾ بكسر الياء وتشديدها، وقرأ ابن كثير: ﴿ضَيِّقًا﴾ بسكون الياء، وكذلك قرأ في

الفرقان. قال أبو علي: وهما بمنزلة الميت والميت، قال الطبري: ومنزلة الهين واللين والهنن واللين، قال: ويصح أن يكون الضيق مصدرًا من قولك: ضاق الأمر يضيق ضيقًا وضيقًا، وحكى عن الكسائي أنه قال: الضيق بشد الضاد وكسرها في الأجرام والمعاش، والضيق بفتح الضاد في الأمور والمعاني.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الراء. وقرأ

نافع، وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿حَرَجًا﴾ بكسرها، قال أبو علي: فمن فتح الراء كان وصفًا بالمصدر، كما تقول: رجل قَمَنَ بكذا، وحَزِي بكذا، ودَنَفَ، ومن كسر الراء فهو كَذَيَفَ وقَجِنَ وفَرِقَ، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأها يوماً بفتح الراء فقرأها له بعض الصحابة بكسر الراء فقال: ابغوني رجلاً من كنانة وليكن راعياً وليكن من بني مدلج، فلما جاءه قال له: يا فتى ما الحَرْجَة عندكم؟ قال: الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية، قال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: كأن هذا الضيق الصدر يحاول الصعود في السماء متى حاول

فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِإِسْلَامِهِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٤﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا فَذُكِّرْنَا آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾ هُمْ ذَا السَّلَاطَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَيُهِدِيهِمْ كَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٦﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشِرُ الْخَيْرِ فَدَأَسَتْكَ تَرْثَمِينَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِمَّنْ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمِعْ بَعْضًا يَبْعُضَ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مُؤَنِّدُكُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٧﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٨﴾ يَمْعَشِرُ الْخَيْرِ وَالْإِنْسِ أَلْفَاظُكُمْ رُسُلُكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَرَّيْنَاهُمْ لِحَبْوَةِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٢٩﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣٠﴾

الإيمان أو فكر فيه ويجد صعوبته عليه كصعوبة الصعود في السماء، قال بهذا التأويل ابن جريج، وعطاء الخراساني، والسدي. وقال ابن جبير: المعنى: لا يجد مسلماً إلا صعداً من شدة التضايق.

وقرأ نافع، وأبو عمر، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَصَّعَّدُ﴾ بإدغام التاء من ﴿يَصَّعَّدُ﴾ في الصاد، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر رضي الله عنه: ﴿يَصَّاعِدُ﴾ بإدغام التاء من ﴿يَصَّاعِدُ﴾ ﴿فِي السَّمَاءِ﴾، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿يَصَّعَّدُ﴾، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وابن مصرف: ﴿يَصَّعَّدُ﴾ بزيادة تاء.

و ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ يريد: من سفل إلى علو في الهواء، قال أبو علي: ولم يرد السماء المظلة بعينها، وإنما هو كما قال سيبويه: «والقيود»

الطويل في غير سماء. يريد: في غير ارتفاع صعدا، قال: ومن هذا قوله عز وجل: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبُ وَجْهَهُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي في جهات الجو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على غير من تأول ﴿ثَقَلَبُ الوجه﴾ أنه الدعاء إلى الله عز وجل في الهداية إلى قبلة، فإن مع الدعاء يستقيم أن يقلب وجهه في السماء المظلمة حسب عادة الداعين إذ قد ألبوا مجيء النعم والآلاء من تلك الجهة. وتحتل الآيات أن يكون التشبيه بالصاعد في عقبة كؤود كأنه يصعد بها في الهواء. ويضعد معناه: يعلو. ويضعد معناه: يتكلف من ذلك ما يشق عليه، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما تصعدني شيء كما تصعدني خطبة النكاح إلى غير ذلك من الشواهد، ويصاعد في المعنى مثل يصعد.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الْوَجْهَ﴾ أي: وكما كان هذا كله من الهدى والضلال بإرادة الله عز وجل ومشيشته كذلك يجعل الله الرجس. قال أهل اللغة: الرجس يأتي بمعنى العذاب ويأتي بمعنى النجس، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال: الرجس كل ما لا خير فيه، وقال بعض الكوفيين: الرجس والنجس لغتان بمعنى، و ﴿يَجْعَلُ﴾ في هذا الموضع - يخسن أن تكون بمعنى يُلقي، كما تقول: جعلت متاعك بعضه على بعض، وكما قال عز وجل: ﴿وَيَجْعَلُ الْحَيَاةَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المعنى في ﴿جَعَلَ﴾ حكاه أبو علي الفارسي، ويحسن أن تكون ﴿يَجْعَلُ﴾ - في هذه الآية - بمعنى: يُصَيِّرُ، ويكون المفعول الثاني في ضمن ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كأنه قال سبحانه: «قرين الذين»، أو «لزم الذين» ونحو ذلك.

﴿١٢٦﴾ - ﴿١٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن والشرع الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، قاله ابن عباس، والصراط: الطريق، وإضافة الصراط إلى الرب على جهة أنه من عنده وبأمره، و ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال مؤكدة، وليست كالحال في قولك: جاء زيد راكبًا، بل هذه المؤكدة تتضمن المعنى المقصود.

و ﴿ثَقَلْنَا﴾ معناه: بيئنا وأوضحنا، وقوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ أي للمؤمنين الذين يعدون أنفسهم للنظر ويسلكون طريق الاهتداء، والضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ عائد على القوم المتذكرين، و ﴿السَّلَامُ﴾ يتجه فيه معنيان: أحدهما أن (السلام) اسم من أسماء الله عز وجل فأضاف (الدار) إليه وهي ملكه وخلقه، والثاني أنه المصدر بمعنى السلامة، كما تقول: السلام عليك، وكقوله عز وجل: ﴿وَنَحْنُ فِيهَا سَلَامٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يريد: في الآخرة بعد الحشر، و ﴿وَلِيَهُمْ﴾ أي: ولي الإنعام عليهم، و ﴿يَا كَاوًا يَمْلِكُونَ﴾ أي بسبب ما كانوا يقدمون من الخير، ويفعلون من الطاعة والبر.

﴿١٢٨﴾ - ﴿١٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ﴾ نصب بفعل مضمر تقديره: واذكر يوم، ويحتمل أن يكون العامل: ﴿وَلِيَهُمْ﴾ والعطف على موضع قوله: ﴿يَا كَاوًا﴾، والضمير في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ عائد على الطائفتين: الذين يجعل الله الرجس عليهم وهم جميع الكفار جنًا وإنسًا، والذين لهم دار السلام جنًا وإنسًا، ويدل على ذلك التأكيد العام بقوله تعالى: ﴿حَسْبُكُمْ﴾.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالنون. وكل منجبه.

ثم ذكر عز وجل ما يقال للجن الكفرة، وفي الكلام فعل مضمر يدل عليه ظاهر الكلام تقديره: نقول يا معشر الجن. وقوله تعالى: ﴿قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ معناه: فرطتم، و ﴿وَيَنَ الْإِنْسِ﴾ يريد في إغوائهم وإضلالهم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقال الكفار من الإنس وهم أولياء الجن المؤيخين على جهة الاعتذار عن الجن: ﴿رَبَّنَا اسْتَنْتَعْ بَعْضًا بِبَعْضٍ﴾ أي انتفع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك في وجوه كثيرة: حكى الطبري وغيره أن الإنس كانت تستعيز بالجن في الأودية ومواقع الخوف، وكانت الجن تتعظم على الإنس وتسودها كما يفعل الربى بالكاهن والمجبر والمستجير، إذ كان العربي إذا نزل وادياً ينادي: يا رب الوادي إني أستجير بك هذه الليلة، ثم يرى أن سلامته إنما هي بحفظ جنّي ذلك الوادي، فهذا استمتاع بعضهم ببعض. قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مَعَالِمٌ وَمَأْوَاهُ يَخْلُ عَمَّا يَسْمُونَ ﴿١٣١﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٢﴾ إِنْ مَا تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ فَتَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُنْقَلَبُونَ ﴿١٣٣﴾ قَدْ يَقُولُ أَغْلَوْنَا وَكُنَّا بِكُنُوزِكُمْ لَوَّاعِينَ أَمْ لَكُمْ عَذَابٌ مُّؤَلَّمٌ ﴿١٣٤﴾ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ دَرَجَاتٍ مِمَّا دَرَأَتْ الْكُفْرُ وَالْأَنفُسُ تُصِيبُ أَفْئَالَهُمْ هَذَا اللَّهُ بِرُغْمِهِمْ وَهَذَا الشُّرَكَائِيُّ فَكَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَكَّيْنَا كَثِيرِينَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُذْهِبُوا عَنْهُمْ وَيَسْأَلُوا عَنْهُمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوا فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٧﴾

١٤٥

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وساغ هذا من حيث العبارة بقوله تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ﴾ لا تخص بصيغتها مستقبل الزمان دون غيره، وقال الطبري عن ابن عباس إنه كان يتناول في هذا الاستثناء أنه مبلغ حال هؤلاء في علم الله، ثم أسند إليه أنه قال: إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والإجماع على التخليد الأبدى في الكفار، ولا يصح هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتجه عندي في هذا الاستثناء أن يكون مخاطبة للنبي ﷺ وأمه، وليس مما يقال يوم القيامة، والمستثنى هو من كان من الكفرة يومئذ في علم الله، كأنه لما أخبرهم أنه قال للكفار: ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ﴾ استثنى لهم من يمكن أن يؤمن منهم.

و ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان مناسبتان لهذه الآية، لأن تخليد هؤلاء الكفرة في النار فعل صادر عن حكمة وعلم بمواقع الأشياء.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُكَ﴾. قال قتادة: ﴿نُؤَيِّدُكَ﴾ معناه: نجعل بعضهم ولياً بعض في الكفر والظلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل يؤيده ما تقدم من ذكر

وهذا مثال في الاستمتاع، ولو ثبتت لتبينت له وجوه أخر كلها دنيوية.

وبلوغ الأجل المؤجل - قال السدي: هو الموت الذي انتهى الكل منهم إليه، وقيل: هو الحشر، وقيل: هو الغاية التي انتهى جميعهم إليها من الاستمتاع، كأنهم أشاروا إلى أن ذلك بقدرك وقضائك إذ لكل كتاب أجل. وقرأ الحسن: ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا﴾ بكسر اللام مشددة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ﴾ الآية. إخبار من الله عز وجل عما يقول لهم يوم القيامة إثر كلامهم المتقدم، وجاء الفعل بلفظ الماضي - وهو في الحقيقة مستقبل - لصحة وقوعه، وهذا كثير في القرآن وفصح الكلام. و ﴿مَثْوًى لَكُمْ﴾ أي موضع ثوابكم كمقامكم الذي هو موضع الإقامة. هذا قول الزجاج وغيره، قال أبو علي في «الأغفال»: المثنى عندي مصدر لا موضع له، وذلك لعمله في الحال التي هي «خَلِيدٌ» والموضع ليس فيه معنى فعل فيكون عاملاً، والتقدير: النار ذات ثوابكم، والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ - قالت فرقة: [مَا] بمعنى (مَنْ) فالمراد: إلا من شاء مَنْ آمَن في الدنيا بعد أن كان من هؤلاء الكفرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولما كان هؤلاء صنفاً ساغت في العبارة عنهم [مَا]، وقال الفراء: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (سوى)، والمراد: سوى ما يشاء من زيادة في العذاب، ونحا إليه الزجاج. وقال الطبري: إن المستثنى هي المدة التي بين حشرهم إلى دخولهم النار.

الجن والإنس واستمتاع بعضهم ببعض. وقال قتادة أيضاً: معنى ﴿نُؤَيِّدُكَ﴾: نتبع بعضهم بعضاً في دخول النار، أي نجعل بعضهم يلي بعضاً، وقال ابن زيد: معناه: نسلط بعض الظالمين على بعض ونجعلهم أولياء النعمة منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل لا تؤيده ألفاظ الآية المتقدمة، أما إنه حفظ في استعمال الصحابة والتابعين من ذلك ما روي عن عبدالله بن الزبير لما بلغه أن عبدالملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق صعد المنبر فقال: «إِنَّ فَمَ الذِّبَانِ قَتَلَ لَطِيمَ الشَّيْطَانِ»، ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُكَ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿١٣٦﴾ - ﴿١٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿يَكْمُرُ الْيَزِيدُ وَالْإِسْرَافُ﴾ داخل في القول يوم الحشر، والضمير

في ﴿مَنْكُمْ﴾ قال ابن جريج: عمن بظاهره الطائفتين والمراد الواحدة تَجَوُّزاً، وهذا موجود في كلام العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا النَّوْلُ وَالْمَرْجَاتُ﴾، وذلك إنما يخرج من الأجاج. وقال الضحاك: الضمير عائد على الطائفتين وفي الجَنِّ رسل منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وقال ابن عباس: الضمير عائد على الطائفتين، ولكن رسل الجن هم رسل الإنس، فهم رسل الله بواسطة إذ هم رسلُ رسله، وهم السُّدُر. و﴿يَقْضُونَ﴾ من القصص. وقرأ عبدالرحمن الأعرج: ﴿أَلَمْ تَأْتِكُمْ﴾ بالتاء على تأنيث لفظ الرسل.

وقولهم: «شَهِدْنَا» إقرار منهم بالكفر واعتراف، أي: شهدنا على أنفسنا بالتقصير. وقوله تعالى: ﴿وَعَرَّهِنَّ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ السفانة فصيحة تضمنت أن كفرهم كان بأدم الوجوه لهم وهو الاغترار الذي لا يواقعه عاقل. ويحتمل ﴿وَعَرَّهِنَّ﴾ أن يكون بمعنى: أشبعتهن وأطمعتهن بحوائلهما كما يقال: غرَّ الطائر فرخه. وقوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾ تظهر بينه وبين ما في القرآن من الآيات التي تقتضي إنكار المشركين الإشراك - مناقضة، والجمع بينهما هو إما بأنها طوائف، وإما طائفة واحدة في مواطن شتى، وإما أن يريد سبحانه بقوله هنا: ﴿وَشَهِدُوا عَلَ أَنْفُسِهِمْ﴾ شهادة الأيدي والأرجل والجلود بعد إنكارهم بالألسنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واللفظ ها هنا يبعد من هذا.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ﴾ الآية. ﴿ذَلِكَ﴾ يصح أن يكون في موضع رفع على الابتداء والخبر محذوف تقديره: ذلك الأمر، ويصح أن يكون في موضع نصب بتقدير: فعلنا، و [أَنْ] مفعول من أجله، و ﴿أَتَرَى﴾: الممدن، والمراد أهل القرى، و ﴿يُظْلَمُونَ﴾ يتوجه فيه معنيان: أحدهما أن الله عز وجل لم يهلك الممدن دون نذارة، فيكون ظلماً لهم إذا لم ينذرهم والله ليس بظلام للعبيد، والآخر أن الله عز وجل لم يهلك أهل القرى بظلم إذا ظلموا دون أن ينذرهم، وهذا هو البين القوي، وذكر الطبري رحمه الله التأويلين.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ﴾ الآية إخبار من الله عز وجل أن المؤمنين في الآخرة على درجات من التفاضل بحسب أعمالهم وتفضل الله عليهم، والمشركون أيضاً على درجات من العذاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولكن كل مؤمن قد رضي بما أعطي غاية الرضى.

وقرأت الجماعة سوى ابن عامر: ﴿يَسْكُوتُونَ﴾ على لفظ (كَل)، وقرأ ابن عامر وحده: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ على المخاطبة بالتاء.

﴿١٣٣﴾ - ﴿١٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿أَلَنْتَقَى﴾ صفة ذات لله عز وجل لأنه تبارك وتعالى لا يفترق إلى شيء من جهة من الجهات، ثم ثلثت هذه الصفة بقوله تعالى: ﴿ذُو الْكَرَمَةِ﴾

فأردف الاستغناء بالتفضل، وهذا أجمل تناسب، ثم عقب بهذه الألفاظ المضمنة الوعيد المحذرة من بطش الله عز وجل في التعجيل بذلك، وإما مع المهمل ومروور الجديدين فكذلك عادة الله في الخلق، وأما الاستخلاف فكما أوجد الله تعالى هذا العالم الآدمي بالنشأة من ذرية قوم متقدمين أصلهم آدم عليه السلام.

وقرأت الجماعة: ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ بضم الذال وشد الراء المكسورة، وقرأ زيد بن ثابت بكسر الذال، وكذلك في سورة (آل عمران)، وحكى أبو حاتم عن أبان بن عثمان أنه قرأ: ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ بفتح الذال وتخفيف الراء المكسورة، وحكى عنه أبو الزناد أنه قرأ على المنبر: ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ بفتح الذال وسكون الراء على وزن فُعْلَةٍ، قال: فسأله فقال: أقرأنيها زيد بن ثابت.

و ﴿زَيْنٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿زَيْنٌ ذُرِّيَّةٌ﴾ للتبعيض، وذهب الطبري إلى أنها بمعنى قولك: أخذت من ثوبي ديناراً، بمعنى: عنه وعوضه. و ﴿تُؤَكِّدُونَ﴾ مأخوذ من الوعيد بقريسة: ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ والإشارة إلى هذا الوعيد المتقدم خصوصاً، وأما أن يكون العموم مطلقاً فذلك يتضمن تنفيذ الوعيد، والعقائد ترد ذلك، و ﴿يُتَجَرِّبُونَ﴾ معناه: بناجين هرباً، أي يعجزون طالبهم.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يتوعدهم بقوله: ﴿اعْمَلُوا﴾، أي: فسترون عاقبة عملكم الفاسد، وصيغة «افعل» ها هنا بمعنى الوعيد

والتهديد، و ﴿عَلَىٰ مَكَائِكُمْ﴾ معناه: على حالكم وطريقتكم، وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿عَلَىٰ مَكَائِكُمْ﴾ بجمع المكانة في كل القرآن، وقرأ الجميع بالإفراد في كل القرآن، و ﴿بَنَ﴾ يتوجه أن يكون بمعنى الذي فتكون في موضع نصب به ﴿تَكُونُونَ﴾، ويتوجه أن يكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء، والخبر في قوله تعالى: ﴿تَكُونُونَ لَكُمْ﴾، و ﴿عَبِيدُ الَّذِينَ﴾ أي: مآل الآخرة، ويحتمل أن يراد مآل الدنيا بالنصر والظهور، ففي الآية إعلام بغيب.

ثم جزم الحكم بأنه ﴿لَا يَنْتَظِرُ الْفَلَاحُونَ﴾ أي: لا ينجح سعيهم، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿مَنْ يَكُونُ﴾ بالياء ما هنا وفي القصص على تذكير معنى العاقبة.

﴿١٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿جَعَلُوا﴾ عائد على كفار العرب العادلين بربهم الأوثان الذين تقدم الرّد عليهم من أول السورة.

و ﴿ذَرَأًا﴾ معناه: خلق وأنشأ ويث في الأرض. يقال: ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءاً وذروءاً أي خلقهم وقوله تعالى: ﴿وجعلوا من كذا وكذا نصيباً﴾ يتضمن بقاء نصيب آخر ليس بداخل في حكم الأول، فيثني بقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُهُمْ﴾ و﴿هَذَا لِشُرَكَائِكُمْ﴾، ثم اعترضهم أثناء القول بأن ذلك زعم وتقول، والزعم في كثير كلام العرب أقرب إلى غير اليقين والحق، يقال: زعم بفتح الزاي وبه قرأت الجماعة، وزعم بضمها، وقرأ الكسائي وحده في هذه

الآية، وزعم بكسر الزاي ولا أحفظ أحداً قرأ به.

و ﴿لَمَزَتْ﴾ في هذه الآية يريد به الزرع والأشجار وما يكون من الأرض، وقوله تعالى: ﴿لِشُرَكَائِكَ﴾ يريد به الأصنام والأوثان، وسموهم شركاء على معتقدهم فيهم أنهم يساهمونهم في الخير والشر ويكسبونهم ذلك.

وسبب نزول هذه الآية أن العرب كانت تجعل من غلاتها وزرعها وثمارها ومن أنعامها جزءاً تسميه الله وجزءاً تسميه لأصنامها، وكانت عاداتها التحفي والاهتبال بنصيب الأصنام أكثر منها بنصيب الله إذ كانوا يعتقدون أن الأصنام بها فقر وليس ذلك بالله، فكانوا إذا جمعوا الزرع فهبت الريح فحملت من الذي الله إلى الذي لشركائهم أقروه، وإذا حملت من الذي لشركائهم إلى الله ردوه، وإذا تفجر من سقي ما جعلوا الله في نصيب شركائهم تركوه، وإن بالعكس سدوه وإذا لم يصيبوا في نصيب شركائهم شيئاً قالوا: لا بُدَّ للآلهة من نفقة فيجعلون نصيب الله تعالى في ذلك، قال هذا المعنى ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والسدي، وغيرهم. إنهم كانوا يفعلون هذا ونحوه من الفعل، وكذلك في الأنعام، وكانوا إذا أصابتهم السنة أكلوا نصيب الله وتحاملوا نصيب شركائهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ الآية. قال جمهور المتأولين: إن المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ويقولون سبحانه:

﴿يَصِلُ﴾ ما قدمنا ذكره من حمايتهم نصيب ألتهم في هبوب الريح وغير ذلك، وقال ابن زيد: إنما ذلك في أنهم كانوا إذا ذبحوا لله ذكروا ألتهم على ذلك الذبح، وإذا ذبحوا لألتهم لم يذكروا الله، فكانه قال: «فلا يصل إلى ذكر الله»، وقال: «فهو يصل إلى ذكر شركائهم»، و ﴿مَا﴾ في موضع رفع كأنه قال: «ساء الذي يحكمون»، ولا يتجه عندي أن يجري هنا «ساة» مجرى «نعم وبس»، لأن المفسر هنا مضمّر ولا بد من إظهاره باتفاق من النحاة، وإنما اتجه أن تجري مجرى «بس» في قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ لأن المفسر ظاهر في الكلام.

﴿١٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الكثير في هذه الآية يراد به من كان يثد من مشركي العرب، والشركاء هنا الشياطين الآمرون بذلك المزينون له، والحاملون عليه أيضاً من بني آدم الناقلين له عسراً بعد عصر، إذ كلهم مشتركون في قبح هذا الفعل وتباعته في الآخرة، ومقصد هذه الآية الذم للوأد الإثناء على فعلته.

واختلفت القراءة - فقرأت الجماعة سوى ابن عامر: ﴿وَكَذَلِكَ زُفْتُ﴾ بفتح الزاي ﴿فَقَتَلُ﴾ بالنصب ﴿أَوَّلَ دِيْنِهِمْ﴾ بكسر الدال، ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ وهذه أبين قراءة، وحكى سيبويه أنه قرأت فرقة: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنُ﴾ بضم الزاي ﴿فَقَتَلُ﴾ بالرفع ﴿أَوَّلَ دِيْنِهِمْ﴾ بكسر الدال ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ بالرفع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي قراءة أبي عبد الرحمن السلمي،

الذي ذكره سيبويه هو الصحيح، ومنه قوله عز وجل على قراءة من قرأ: ﴿يَسْجُدْ لَمْ فِيهَا بِالْعَذْوِ وَالْأَصَالِ بِحَالٍ﴾ بفتح الباء المشددة، أي: يسبح رجال.

وقرأ ابن عامر: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ﴾ بضم الزاي ﴿قَتْلٌ﴾ بالرفع ﴿أَوْلَادُهُمْ﴾ بنصب الدال ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ بخفض الشركاء، وهذه قراءة ضعيفة في استعمال العرب، ورؤساء العربية لا يُجيزون الفصل بالظرف في مثل هذا إلا في الشعر

وَقَالُوا هَذِهِ أَمْعَدُ وَحَرَّتْ جِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ مِنْهُمْ وَأَنْعَدُ حَرَمَتْ طَهُورُهَا وَأَنْعَدُ لَا يَكْذُرُونَ أَسْمَاءُ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفْرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْرِي بِهِمْ بِمَكَائِدُ يَقْرُوتُ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كُفِرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ كَانَ مِنْ مَيْتَةٍ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْرِي بِهِمْ وَصَفَهُمْ أَنَّهُ حَكِيمٌ عَلَيْهِ ﴿١٣٩﴾ فَذَخِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتِ مُتَنَسِّجًا وَغَيْرَ مُتَنَسِّجٍ كُلًّا مِنْ نَعِيمٍ إِذَا أَنْعَمُوا أَثَرُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِمْ وَلَا تَشْرَفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنْ الْأَنْعَامِ حُمْلَةٌ وَفَرَسٌ كُلُّوا مِنْ مَآرِزِكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾

قوله:

كما خُطَّ الكتابُ بِكَفٍ يَوْمًا
يهوديٌّ يُقَارِبُ أَوْ يَزِيلُ
فكيف بالمفعول في أنصح الكلام؟
ولكن وجهها - على ضعفها - أنها
وردت شاذة في بيت أنشد أبو
الحسن الأخفش وهو:
فَرَجَجْتُهَا بِسِمَزَجَةٍ
زَجَّ الْقُلُوصِ أَبِي مَزَادَةَ

وفي بيت الطرمح وهو قوله:
يَطْفَنُ بِحُوزِي المراتب لم تُرْغ
بواديه مِنْ قَرْعِ القَيْسِي الكُنَائِنِ
والشركاء - على هذه القراءة - هم
الذين يتأولون وأد بنات الغير، فهم
القاتلون، والصحيح من المعنى أنهم
المزيتون لا القاتلون، وذلك مضمن
قراءة الجماعة.
وقرأ بعض أهل الشام - ورويت عن
ابن عامر -: ﴿زَيْنٌ﴾ بكسر الزاي

والحسن، وأبي عبد الملك قاضي
الجند صاحب ابن عامر، كأنه قال:
زَيْنُهُ شركاؤهم، قال سيبويه: وهذا
كما قال الشاعر:

لِيُبْنِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ
وَمُخْتَبِطٌ بِمَا يُطْيِحُ الطَّوَائِحِ
كأنه قال: يبكي ضارعٌ لخصومة،
وأجاز قطرب أن يكون الشركاء في
هذه القراءة ارتفعوا بالقتل، كأن
المصدر أضيف إلى المفعول، ثم
ذكر بعده الفاعل كأنه قال: أن قتل
أولادهم شركاؤهم، كما تقول:
حَبَّ إِلَى رُكُوبِ الفرسِ زَيْدٌ، أي:
أن ركب زَيْدُ الفرس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والفصيح إذا أضيف مصدرٌ إلى
مفعول ألا يذكر الفاعل، وأيضاً
فالجمهور - في هذه الآية - على أن
الشركاء مزيتون لا قاتلون. والتوجيه

وسكون الياء على الرتبة المتقدمة من
الفصل بالمفعول. وحكى الزهراوي
أنه قرأت فرقة من أهل الشام:
﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ﴾ بضم الزاي ﴿قَتْلٌ﴾
بالرفع ﴿أَوْلَادُهُمْ﴾ بكسر الدال
﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ بالخفض. والشركاء
على هذه القراءة هم الأولاد
المزودون لأنهم شركاء في النسب
والموارث، وكان وصفهم بأنهم
شركاء يتضمن حرمة لهم، وفيها بيان
لفساد الفعل إذ هو قتل من له حرمة.
و ﴿يُزِدُهُمْ﴾ معناه: ليهلكوهم.
من الردى. ﴿وَيَلْبَسُوا﴾ معناه:
ليخلطوا، والجماعة على كسر الباء،
وقرأ إبراهيم النخعي: ﴿وَيَلْبَسُوا﴾
بفتح الباء، قال أبو الفتح: هي
استعارة من اللباس عبارة عن شدة
المخالطة. وهذان الفعلان يؤيدان
أول قراءة في ترتيبنا في قوله تعالى:
﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
أَشْرَكْنَا﴾ يقتضي أن لا شيء إلا
بمشيئة الله عز وجل، رد على من
قال: إن المرء يخلق أفعاله.
وقوله تعالى: ﴿فَذَرْنَهُمْ﴾ وعيد
محض، و ﴿يَقْرُوتُ﴾ معناه:
يختلقون من الكذب في تشريعهم
بذلك واعتقادهم أنها مباحات لهم.

﴿١٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تتضمن تعديد ما شرعوه
لأنفسهم والتزموه على جهة القربة
كذباً منهم على الله وافتراء عليه،
فوصف تعالى أنهم عمدوا إلى بعض
أنعامهم وهي: الإبل والبقر والغنم،
أو الإبل بانفرادها، وأما غيرها إذا
انفرد فلا يقال له أنعام، وإلى بعض

زرورهم وثمارها، وسُمّي ذلك حرثاً إذ عن الحرث يكون، وقالوا: هذه حَبْرٌ، أي: حرام، وقرأ جمهور الناس: ﴿حَبْرٌ﴾ بكسر الحاء وسكون الجيم، وقرأ قتادة، والحسن، والأعرج: ﴿حَبْرٌ﴾ بضم الحاء وسكون الجيم، وقرأ ابن عباس، وأبي، وابن مسعود، وابن الزبير، والأعمش، وعكرمة، وعمرو بن دينار: ﴿حَبْرٌ﴾ بكسر الحاء وتقدير الرائ على الجيم وسكونها. فالأولى والثانية بمعنى: التحجير وهو المنع والتحريم، والأخيرة من الحَبْر وهو التضييق والتحريم.

وكانت هذه الأنعام - على ما قال ابن زيد - مُحَلَّلَةً للرجال مُحَرَّمَةً على النساء، وقيل: كانت وقفاً لمطعم سدنة بيوت الأصنام وخدمتها، حكاه المهدوي، فذلك المراد بقوله تعالى: ﴿مَنْ شَاءَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَرِّعْتَهُمْ﴾ أي بتقوّلهم الذي هو أقرب إلى الباطل منه إلى الحق، وزعمهم هنا في قولهم: حَبْرٌ، وتحريمهم بذلك ما لم يحرم الله تعالى، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿بَرِّعْتَهُمْ﴾ بفتح الزاي والعين، وكذلك في الذي تقدم.

﴿وَأَقْسَمُوا لَا يَتَذَكَّرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾، كانت للعرب سُنَنٌ، إذا فعلت الناقة كذا من جودة النسل والمواصلة بين الإناث ونحوه حَرَمَ ظهرها فلم تركب، وإذا فعل الفحل كذا وكذا حَرَمَ ظهره، فعَدَّدَ الله ذلك على جهة الرَدِّ عليهم إذ شرعوا ذلك برأيهم وكذبهم.

قيل: كانت لهم سُنَّةٌ في أنعام ما أَلَا يُحَجُّ عليها، فكانت تركب في كل وجه إلا في الحج فذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَتَذَكَّرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾، هذا قول جماعة من المفسرين، ويروى ذلك عن أبي وائل. وقالت فرقة: بل ذلك في الذبائح، يريد أنهم جعلوا لألهتهم منها نصيباً لا يذكرون الله على ذبحها. وقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَاءُ﴾ مصدر نصب على المفعول من أجله، أو على إضمار فعل تقديره: يفترون ذلك. و﴿سَجَّيْرُهُمْ﴾ وعيد بمقارضة الآخرة، والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائِدٌ على اسم الله. و﴿يَقْتَدِرُونَ﴾ أي: يكذبون ويختلقون.

﴿١٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تتضمن تعديد مذاهبهم الفاسدة، وكانت سنتهم في بعض الأنعام أن يحرموا ما ولدت على نسائهم ويخصصونه لذكروهم، والهَاءُ في ﴿خَالِصَةً﴾ قيل: هي للمبالغة كما هي في (رواية) وغيرها، وهذا كما تقول: فلان خالصتي، وإن كان باب هاء المبالغة أن تلحق بئاء مبالغة كعلامة ونسابة وبصيرة ونحوه. وقيل: هي لتأنيث الأنعام إذ ما في بطونها أنعام أيضاً. وقيل: هي على تأنيث لفظ [ما] لأن [ما] واقعة في هذا الموضع موقع قولك: جماعة وجملة.

وقرأ جمهور القراء والناس: ﴿خَالِصَةً﴾ بالرفع، وقرأ عبدالله بن مسعود، وابن جبير، وابن أبي عبلة، والأعمش: ﴿خَالِصٌ﴾ دون هاء. ورفع هاتين القراءتين على خبر الابتداء، وقرأ ابن عباس

رضي الله عنهما - بخلاف - والأعرج، وقتادة، وسفيان بن حسين: ﴿خَالِصَةً﴾ بالنصب، وقرأ سعيد بن جبير - فيما ذكر أبو الفتح -: ﴿خَالِصاً﴾، ونصب هاتين القراءتين على أن الحال من الضمير الذي في قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونٍ﴾ وذلك على تقدير الكلام: «وقالوا: ما استقر هو في بطون هذه الأنعام» فحذف الفعل وحمل المجرور الضمير، والحال من الضمير والعامل فيها معنى الاستقرار، قال أبو الفتح: ويصح أن يكون حالاً من [ما] على مذهب أبي الحسن في إجازته تقديم الحال على العامل فيها. وقرأ ابن عباس أيضاً، وأبو حيو، والزهرى: ﴿خَالِصَةً﴾ بإضافة (خالص) إلى ضمير يعود على [ما] ومعناه: ما خلص وخرج حياً، والخبر - على قراءة من نصب ﴿خَالِصَةً﴾ في قوله سبحانه: ﴿لَتَذَكَّرُنَّ﴾، والمعنى المراد بـ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِي بُطُونٍ﴾ قال السدي: هي الأجنّة، وقال ابن عباس، وقتادة، والشعبي: هو اللبن، قال الطبري: واللفظ يعهما.

وقوله تعالى: ﴿وَتَحَرَّمَ﴾ يدل على أن الهاء في ﴿خَالِصَةً﴾ للمبالغة، ولو كانت لتأنيث لقال: ومحرمه. و﴿أَزْوَاجًا﴾ يريد به جماعة النساء التي هي معدة أن تكون أزواجاً، قاله مجاهد. وحكى الطبري عن ابن زيد أن المراد بـ ﴿أَزْوَاجًا﴾ البنات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يبعد تحليقه على المعنى. وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى يَكُنْ مَيْتَةً﴾،

كان من سُنَّتِهِمْ أَنْ مَا خَرَجَ مِنَ الْأَجْنَةِ مَيْتاً مِنْ تِلْكَ الْأَنْعَامِ الْمَوْقُوفَةِ فَهُوَ حَلَالٌ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ جَمِيعاً، وَكَذَلِكَ مَا مَاتَ مِنَ الْأَنْعَامِ الْمَوْقُوفَةِ نَفْسَهَا.

وقرأ ابن كثير: ﴿وَأِنْ يَكُنْ﴾ بالياء **مَيْتَةً** بالرفع، فلم يلحق الفعل علامة التانيث لما كان تانيث الفاعل المسند إليه غير حقيقي، والمعنى: وإن وقع ميتة أو حدث ميتة، وقرأ ابن عامر: ﴿وَأِنْ تَكُنْ﴾ بالتاء **مَيْتَةً** بالرفع، فألحق الفعل علامة التانيث لما كان الفاعل في اللفظ مؤنثاً، وأسند الفعل إلى الميتة كما فعل ابن كثير، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه: ﴿تَكُنْ﴾ بالتاء **مَيْتَةً** بالنصب فأنت وإن كان المتقدم مذكراً لأنه حملة على المعنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالتقدير: وإن تكن النسمة أو نحوها ميتة. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص: ﴿يَكُنْ﴾ بالياء **مَيْتَةً** بالنصب، فذكروا الفعل لأنهم أسندوه إلى ضمير ما تقدم من قوله تعالى: ﴿مَا فِي بُطُونِهِمْ هَذِهِ الْأَنْفُسُ﴾ وهو مذكر، وانتصب الميتة على الخبر. قال أبو عمرو بن العلاء: ويقوي هذه القراءة قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِيهِ﴾ ولم يقل (فيها)، وقرأ يزيد بن القعقاع: ﴿وَأِنْ تَكُنْ مَيْتَةً﴾ بالتشديد، وقرأ عبدالله بن مسعود: ﴿فَهُمْ فِيهِ سِوَاةً﴾.

ثم أعقب تعالى بوعيدهم على ما

وصفوا أنه من القربات إلى الله تعالى وشرعوه من الباطل والإفك، **﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾** أي في عذابهم على ذلك، **﴿عَلِيمٌ﴾** بقليل ما تقولوه من ذلك وكثيره.

﴿١٤٠﴾ - ﴿١٤١﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا لفظ يتضمن التشنيع بقبح فعلهم والتعجب من سوء حالهم في وأدهم البنات وحجرهم الأنعام والحرث. قال عكرمة: وكان الوأد في ربيعة ومضر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان جمهور العرب لا يفعله، ثم إن فاعليه كان منهم من يفعله خوف العيلة والإقتار، وكان منهم من يفعله غيرة مخافة السباء. وقرأ ابن عامر، وابن كثير: **﴿قَتَلُوا﴾** بتشديد التاء على المبالغة، وقرأ الباكون: **﴿قَتَلُوا﴾** بتخفيفها.

و **﴿مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾** هي تلك الأنعام والغلات التي توقف - بغير شرع ولا مثبتة في معاد، بل الافتراء على الله والكذب. و **﴿قَدْ ضَلُّوا﴾** إخبار عنهم بالحيرة، وهو من التعجب بمنزلة قوله تعالى: **﴿قَدْ خَيْرَ﴾**. و **﴿وَمَا كَانُوا﴾** يريد: في هذه الفعل، ويحتمل أن يريد: وما كانوا قبل ضلالهم بهذه الفعلة مهتدين، ولكنهم زادوا بهذه الفعلة ضلالاً.

وقوله تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾** الآية. هذا تنبيه على مواضع الاعتبار، و **﴿أَنْشَأَ﴾** معناه: خلق واخترع، والجَنَّةُ مأخوذة من جن إذا ستر، و **﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾** قال ابن عباس: ذلك في ثمر العنب، ومنها ما عُرِشَ وَسْمُكٌ، ومنها ما لم

يعرِش، وقال السدي: المعروش: هو ما يعترشه بنو آدم من أنواع الشجر، وغير المعروش: ما يحدث في الجبال والصحراء ونحو ذلك. وقيل: المعروش: ما حلق بحائط، وغير المعروش: ما لم يحلق. و **﴿عُتِلَّتْ﴾** نصب على الحال على تقدير حصول الاختلاف في ثمرها لأنها حين الإنشاء لا ثمرة فيها، فهي حال مقدرة تجيء بعد الإنشاء. و **﴿مُنْتَبِهًا﴾** يريد: في المنظر. و **﴿وَضَرَّ مَسْكِيَّةً﴾** في المطعم، قاله ابن جريج وغيره.

وقوله تعالى: **﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾** نفس الإباحة وهو مضمن الإشارة إلى النعمة بذلك، ويُقرأ **﴿مِنْ ثَمَرِهِ﴾** بضم التاء، وقد تقدم. **﴿وَرَأَوْا حَقًّا﴾** يَوْمَ حَصَايَةٍ قالت طائفة من أهل العلم: هي في الزكاة المفروضة، منهم ابن عباس، وأنس بن مالك، والحسن بن أبي الحسن، وطاوس، وجابر بن زيد، وسعيد بن المسيب، وقتادة، ومحمد بن الحنفية، والضحاك، وزيد بن أسلم، وابنه، وقاله مالك بن أنس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول معترض بأن السورة مكية وهذه الآية على قول الجمهور غير مستثناة، وحكى الزجاج أن هذه الآية قبل فيها إنها نزلت بالمدينة، ومعترض أيضاً بأنه لا زكاة فيما ذكر من الرمان وجميع ما هو في معناه.

وقال ابن الحنفية أيضاً، وعطاء، ومجاهد، وغيرهم من أهل العلم: بل قوله تعالى: **﴿وَرَأَوْا حَقًّا﴾** ندب

الخاء والطاء وبالهزمة، قال أبو الفتح: وذلك جمع خطأ من الخطأ، ومن الشاذ قراءة أبي السمال: ﴿خُطْرِي﴾ بالواو دون همزة، وهو جمع خُطوة، وهي ذراع ما بين قدمي الماشية، ثم علل النهي عن ذلك بتقرير عداوة الشيطان لابن آدم.

وقوله تعالى: ﴿ثَمِينَةً﴾ اختلف في نصبها. فقال الأخفش علي بن سليمان: بفعل مضر تقديره: كلوا لحماً ثمانية أزواج، فحذف الفعل والمضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وقيل: نصب على البدل من [ما] في قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، وقيل: نصبت على الحال، وقيل: نصبت على البدل من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ وَفَرَشَا﴾. وهذا أصوب الأقوال وأجراها مع معنى الآية. وقال الكسائي: نُصِبَهَا ﴿أَنْتَا﴾. والزوج: الذكر، والزوج: الأنثى، كل واحد منهم زوج صاحبه، وهي أربعة أنواع فتجيء ثمانية أزواج.

والضأن: جمع ضائنة وضائن، وقرأ طلحة بن مصرف، وعيسى بن عمر، والحسن: ﴿مِنَ الضَّأْنِ﴾ بفتح الهزمة، وقرأ نافع، وعاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿وَمِنَ التَّمْرِ﴾ بسكون العين، وهو جمع ماعز وماعزة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَمِنَ التَّمْرِ﴾ بفتح العين. فضأن ومَعَز كراكب وركب وتاجر وتجر، وضأن ومَعَز كخادم وخدم ونحوه. وقرأ أبان بن عثمان: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ على الابتداء

والخير المقدم، ويقال في جمع ماعز: مَعَزٌ وَمَعَزٌ وَمَعِيزٌ وَمِعْزَى وَمُعْزُوزٌ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَلْكُرِينَ﴾، هذا تقسيم على الكفار حتى يتبين كذبهم على الله، أي: لا بُدَّ أن يكون حُرْمُ الذَّكْرَيْنِ فيلزمكم تحريم جميع الذكور، أو الأنثيين فيلزمكم تحريم جميع الإناث، ﴿أَمَّا أَتَسْكُنُونَ﴾ عَلَيْهِ أَزْهَامُ الْأَنْثِيَيْنِ فيلزمكم تحريم الجميع، وأنتم لم تلتزموا شيئاً مما يوجب هذا التقسيم، وفي هذه

السؤالات تقرير وتوبيخ. ثم أتبع تقريرهم وتوبيخهم بقوله تعالى: ﴿يَتَوْنِي﴾ أخبروني ﴿بِطِلْمٍ﴾ أي من جهة نبوة أو كتاب من كتب الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، و [إِنْ] شرط وجوابه في ﴿يَتَوْنِي﴾، وجاز تقديم جواب هذا الشرط لما كانت [إِنْ] لا يظهر لها عمل في الماضي، ولو كانت ظاهرة العمل لما جاز تقدم الجواب.

﴿تفسير قوله عز وجل:

القول في هذه الآية في المعنى وترتيب التقسيم كالقول المتقدم في قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ التَّمْرِ اثْنَيْنِ﴾، وكأنه قال: أَلْتَسْمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ خِصَائِصَ مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ، فَلَا يَخْلُو تَحْرِيمَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي الذَّكْرَيْنِ أَوْ فِي الْأُنْثِيَيْنِ أَوْ فِيمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثِيَيْنِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَحْرَمْ لَا هَذَا وَلَا هَذَا فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ تَحْرِيمٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاهُ اللَّهَ يَهْدَا﴾. الآية

استفهام على جهة التوبيخ، إذ لم يبق لهم الادعاء المحال والتقول أنهم شاهدوا وصية الله لهم بهذا.

و ﴿شُهَدَاءَ﴾ جمع شهيد، ثم تضمن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ذَكَرَ حال مفتري الكذب على الله وتقرير إفراط ظلمه. وقال السدي: كان الذين سبوا ويحروا يقولون: الله أمرنا بهذا، ثم بين تعالى سوء مقصدهم بالافتراء، لأنه لو افترى أحد فرية على الله لغير معنى لكان ظلماً عظيماً فكيف إذا قصد بها إضلال أمة. وقد يحتمل أن تكون اللام في ﴿يُضِلُّ﴾ لام صيرورة.

ثم جزم الحكم لا رب غيره بأنه لا يهدي القوم الظالمين، أي: لا يرشدهم، وهذا عموم في الظاهر، وقد تبين تخصيصه مما يقتضيه الشرع من أن يهدي ظُلْمَةً كثيرة بالتوبة.

﴿تفسير قوله عز وجل:

هذا أمر من الله عز وجل بأن يشرع للناس جميعاً ويبين عن الله ما أوحى إليه، وهذه الآية نزلت بمكة ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت شيء محرم غير هذه الأشياء، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد في المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والمتريدة والتطيحة. فإن هذه وإن كانت في حكم الميتة فكان في النظر احتمال أن تلحق بالمذكيات لأنها بأسباب وليست ختف الأنف. فلما بين النص إلحاقها بالميتة كان زيادة في المحرمات، ثم نزل النص على رسول الله ﷺ في تحريم الحمر بوحى غير معجز، ويتجريم كل ذي ناب من السباع، فهذه كلها زبادات

في التحريم، ولغظة التحريم إذا وردت على لسان رسول الله ﷺ فإنها صالحة أن تنتهي بالشيء المذكور إلى غاية المنع والحظر، وصالحة بحسب اللغة أن تقف دون الغاية في حيز الكراهية ونحوها، فما اقترنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأولين وأجمع عليه الكل منهم ولم تضطرب فيه ألفاظ الأحاديث وأمضاء الناس على أدلاله وجب بالشرع أن يكون تحريمه قد وصل الغاية من الحظر والمنع، ولحق الخنزير والميتة، وهذه صفة تحريم الخمر. وما اقترنت به قرينة ألفاظ الحديث واختلفت الأمة فيه مع علمهم بالأحاديث كقوله عليه الصلاة والسلام: «كُلْ ذِي نَابِ مِنَ السَّبَاعِ حَرَامٌ» وقد ورد نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، ثم اختلفت الصحابة ومن بعدهم في تحريم ذلك فجاز - لهذه الوجوه - لمن ينظر أن يحمل لفظ التحريم على المنع الذي هو الكراهية ونحوها. وما اقترنت به قرينة التأويل كتحرимه عليه الصلاة والسلام لحوم الحمر الإنسية فتأول بعض الصحابة الحاضرين ذلك لأنها نجس، وتأول بعضهم ذلك لثلا تفنى حمولة الناس، وتأول بعضهم التحريم المحض، وثبت في الأمة الاختلاف في تحريم لحمها فجائز لمن ينظر من العلماء أن يحمل لفظ التحريم بحسب اجتهاده وقياسه على كراهة أو نحوها.

وروي عن ابن عامر أنه قرأ: «فِيمَا أَوْحَى إِلَيَّ» بفتح الهمزة والحاء، وقرأ جمهور الناس: «يَطْعُمُهُ». وقرأ أبو

جعفر محمد بن علي: «يَطْعُمُهُ» بتشديد الطاء وكسر العين. وقرأ محمد بن الحنفية، وعائشة، وأصحاب عبدالله: «طَعْمُهُ» بفعل ماض. وقرأ نافع، والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم: «إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِالْيَاءِ عَلَى تَقْدِيرٍ: إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمَطْعُومَ. وقرأ ابن كثير، وحمزة، وأبو عمرو أيضاً: «إِلَّا أَنْ تَكُونَ» بالتاء من فوق «تَيْتَةً» على تقدير: إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَطْعُومَةَ. وقرأ ابن عامر وحده - وذكرها مكي عن أبي جعفر -: [إِلَّا أَنْ تَكُونَ] بالتاء «مَيْتَةً» بالرفع على أن تجعل «تَكُونَ» بمعنى (تقع)، ويحتاج - على هذه القراءة - أن يعطف «دَمًا» على موضع «أَنْ تَكُونَ» لأنها في موضع نصب بالاستثناء. والمسفوح: الجاري الذي يسيل، وجعل الله سبحانه وتعالى هذا فرقاً بين القليل والكثير، والمسفوح: السائل من الدم والدمع ونحوه، ومنه قول الشاعر - وهو طرفة -:

إِذَا مَا عَادَةَ مِثْلًا نِسَاءً
سَفَحْنَ الدَّمَ مِنْ بَعْدِ الرَّيْنِ
وقول امرئ القيس:

وَأَنْ شِفَائِي عَبْرَةٌ إِنْ سَفَحْتُهَا
وَقَلَّ عِنْدَ رُسْمِ دَارِسٍ مِنْ مُعْوَلٍ
فالدُّمُ المختلط باللحم والدم الخارج من مرق اللحم وما شاكل هذا حلال، والدم غير المسفوح هو هذا وهو معفو عنه، وقيل لأبي مجلز في القدر تعلوها الحمرة من الدم قال: إنما حرم الله المسفوح، وقالت نحوه عائشة وغيرها، وعليه إجماع العلماء، وقيل: الدَّمُ حرام لأنه إذا زایل فقد انسفع.

والرجس: الثن والحرام، ويوصف بذلك الأجرام والمعاني كما قال عليه الصلاة والسلام: «دَعَوْهَا فَإِنَّهَا مُتَنَتَةٌ» الحديث. فكذا قيل في الأزام رجس. والرجس أيضاً: العذاب لغة بمعنى الرجز، وقوله تعالى: «أَوْ يَشْقَى» يريد ذبائحهم التي يختصون بها أصنامهم.

وقوله تعالى: «فَتَنْ أَمْطَرُ» الآية، أباح الله فيها مع الضرورة ركوب المحظور دون بغي، واختلف الناس فيم ذا؟ - فقالت فرقة: دون أن يبني الإنسان في أكله فيأكل فوق ما يقيم رمقه وينتهي إلى حد الشبع وفوقه، وقالت فرقة: بل دون أن يبني في أن يكون سفره في قطع طريق أو قتل نفس، أو يكون تصرفه في معصية، فإن ذلك لا رخصة له، وأما من لم يكن بهذه الأحوال فاضطر فله أن يشبع ويتزود، وهذا مشهور قول مالك بن أنس رحمه الله، وقال بالأول الذي هو الاختصار على سد الرمق عبدالمالك بن حبيب رحمه الله.

وقوله تعالى: «فَلَنْ يَكُونَ غُورٌ رَجِيمٌ» إباحة تعطيه قوة اللفظ.

﴿١٤٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَا حَرَّمَ عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ مَا حَرَّمَ عَلَى الْيَهُودِ لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: إِنْ اللَّهُ لَمْ يَحْرَمْ عَلَيْنَا شَيْئًا، وَإِنَّمَا حَرَّمْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا مَا حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي «هَادُوا» ومعنى تسميتهم يهودا.

و«كُلُّ ذِي ظُفَرٍ» يراد به الإبل والنعام والأوز ونحوه من الحيوان

الذي هو غير منفرج الأصابع وله ظفر. وقال أبو زيد: «المراد الإبل خاصة». وضعف هذا التخصيص. وذكر النقاش عن ثعلب أن كل ما لا يصيد فهو ذو ظفر، وما يصيد فهو ذو مخلب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: «وهذا غير مطرد لأن الأسد ذو ظفر».

وقرأ جمهور الناس: ﴿ظْفَرٌ﴾ بضم الظاء والفاء، وقرأ الحسن والأعرج ﴿ظْفَرٌ﴾ بسكون الفاء، وقرأ أبو السمال قنعن ﴿ظْفَرٌ﴾ بكسر الظاء وسكون الفاء.

وأخبرنا الله عز وجل في هذه الآية بتحريم الشحوم على بني إسرائيل، وهي الشروب، والكلبي وما كان شحماً خالصاً خارجاً عن الاستثناء الذي في الآية.

واختلف العلماء في تحريم ذلك على المسلمين من ذبائح اليهود - فحكى ابن المنذر في «الأشراف» عن مالك وغيره منع أكل الشحم من ذبائح اليهود، وهو ظاهر «المدونة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على القول في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَمَّا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ لَدُنْكَ﴾ بأنه المطعوم من ذبائحهم، وأما ما لا يحل لهم فلا تقع عليه ذكاة بل هو كالدّم في ذبائح المسلمين، وعلى هذا القول يجيء قول مالك رحمه الله في «المدونة» فيما ذبحه اليهودي مما لا يحل لهم كالجمل والأرنب: إنه لا يؤكل.

وروي عن مالك رحمه الله كراهية الشحم من ذبائح أهل الكتاب دون

تحريم، وأباح بعض الناس الشحم من ذبائح أهل الكتاب وذبحهم ما هو عليهم حرام إذا أمرهم بذلك مسلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن يجعل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَمَّا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ لَدُنْكَ﴾ يراد به الذبائح، فمتى وقع الذبح على صفته وقعت الإباحة، وهذا قول ضعيف لأنه جرّد لفظة ﴿مَنْ أَمَّا﴾ من معنى أن تكون «مطعوماً» لأهل الكتاب وخلصها لمعنى «الذبح»، وذلك حرج لا يتوجه.

وأما الطريق فحرمه قوم، وكرهه قوم، وأباحه قوم، وحلله مالك في «المدونة» ثم رجع إلى منعه. وقال ابن حبيب: ما كان محرماً عليهم وعلمنا ذلك من كتابنا فلا يحل لنا من ذبائحهم، وما لم نعلم تحريمه إلا من أقوالهم فهو غير محرم علينا من ذبائحهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَكَتْ ظُهُورُهُمْ﴾ يريد ما اختلط باللحم في الظهر والأجناب نحوه، قال السدي، وأبو صالح: الأليات مما حملت ظهورهما. ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ قال: هو جمع حويّة على وزن فعيلة، فوزن (حَوَايَا) على هذا فعائل كسفينة وسفائن. وقيل: هو جمع حاوية على وزن فاعلة، ف (حَوَايَا) على هذا فواعل كضاربة وضوارب. وقيل: جمع حاويات فوزنها على هذا أيضاً فواعل كقاصعاء وقواصع، وأما الحوايا على الوزن الأول فأصلها حَوَايَا فقلبت الياء الأخيرة ألفاً

فافتحت لذلك الهمزة ثم بدلت ياء، وأما على الوزنين الأخيرين فأصل [حَوَايَا] حَوَاي، وبدلت الواو الثانية همزة. والحويّة: ما تحوى في البطن واستدار وهي المصارين والحشوة ونحوهما. وقال مجاهد، وقتادة، وابن عباس، والسدي، وابن زيد: ﴿الْحَوَايَا﴾: المباعرة، وقال بعضهم: هي المرباط التي تكون فيها الأمعاء وهي بنات اللبن.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِظُهُورِهِمْ﴾ يريد في سائر الشخص.

و ﴿الْحَوَايَا﴾ معطوف على [ما] في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَكَتْ﴾، فهي في موضع نصب عطفاً على المنصوب بالاستثناء. وقال الكسائي: ﴿الْحَوَايَا﴾ معطوف على (الظهور) كأنه قال: إلا ما حملت ظهورهما أو حملت الحوايا، وقال بعض الناس: ﴿الْحَوَايَا﴾ معطوف على (الشحوم).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا تدخل ﴿الْحَوَايَا﴾ في التحريم، وهذا قول لا يعضده اللفظ ولا المعنى بل يدفعانه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾. ﴿ذَلِكَ﴾ في موضع رفع، و ﴿جَزَاءُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ يقتضي أن هذا التحريم إنما كان عقوبة لهم على ذنوبهم وبغيتهم واستعصائهم على الأنبياء، وقوله تعالى: ﴿وَرَبَّنَا لَمَصْدُوقٌ﴾ إخبار يتضمن التعريض بكذبهم في قولهم: «ما حرم الله علينا شيئاً» وإنما اقتدينا بإسرائيل فيما حرم على نفسه، ويتضمن إدحاض قولهم وزّده عليهم.

وَجَلَّ شَاءَ إِشْرَاكِهِمْ، وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى اكْتِسَابِ الْإِشْرَاكِ وَالْمَعَاصِي وَمَجِبَتِهِ وَالِاسْتِغْثَالَ بِهِ، ثُمَّ عَلِقَ الْعِقَابَ وَالشُّوَابَ عَلَى تِلْكَ الْأَشْيَاءِ وَالِاكْتِسَابَاتِ وَهُوَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَزَاءٌ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَيَلْزِمُهُمْ عَلَى احْتِجَاجِهِمْ أَنْ تَكُونَ كُل طَرِيقَةٍ وَكُل نَحْلَةٍ صَوَابًا، إِذْ كُلُّهَا لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَمْ تَكُنْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال بعض المفسرين: إنما هذه المقالة من المشركين على جهة الاستهزاء. وهذا ضعيف.

وتعلقت المعتزلة بهذه الآية فقالت: إن الله قد ذمَّ لهم هذه المقالة، وإنما ذمَّها لأن كفرهم ليس بمشينة الله تعالى، بل هو خلق لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس الأمر على ما قالوا، وإنما ذمَّ الله تعالى ظنَّ المشركين أن ما شاء الله لا يقع عليه عقاب، وأما أنه ذمَّ قولهم: «لولا المشينة لم تكفر»، فلا.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وفي الكلام حذف يدل عليه تناسق الكلام، كأنه قال: سيقول المشركون كذا وكذا، وليس في ذلك حجة لهم، ولا شيء يقتضي تكذيبك، ولكن كذلك كذب

١٤٧ - ١٤٨ تفسير قوله عز وجل:

يريد: فإن كذبوك فيما أخبرت به أن الله حرمه عليهم وقالوا: لم يحرم الله علينا شيئاً، وإنما حرمنا ما حرم إسرائيل على نفسه. قال السدي: وهذه كانت مقالاتهم، فقل يا محمد على جهة التعجب من حالهم والتعظيم لفرزيتهم في تكذيبهم لك مع علمهم بحقيقة ما قلت: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾، إذ لا يعاجلكم بالعقوبة مع شدة جرمكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كما تقول عن رؤية معصية أو أمر مبغى: ما أحلم الله، وأنت تريد: لإمهاله على مثل ذلك. ففي قوله: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ قوة وصفهم بغاية الاجترار وشدة الطغيان.

ثم أعقب هذه المقالة بوعيد في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرُدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوَرِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فكأنه قال: ولا تغتروا أيضاً بسعة رحمته فإن له بأساً لا يردُّ عن المجرمين إما في الدنيا وإما في الآخرة، وهذه الآية وما جانيها من آيات مكة مرتفع حُكْمُهُ بالقتال. وأخبر الله عزَّ وجلَّ نبيه عليه الصلاة والسلام أن المشركين سَيَحْتَجِبُونَ لصواب ما هم عليه من شركهم وتدينهم بتحريم تلك الأشياء بإمهال الله تعالى وتقريره حالهم، وأنه لو شاء غير ذلك لما تركهم على تلك الحال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويبيِّن أن المشركين لا حجة لهم فيما ذكروه لأننا نحن نقول: إن الله عزَّ وجلَّ لو شاء ما أشركوا، ولكنه عزَّ

الذين من قبلهم بنحو هذه الشبهة من ظنهم أن ترك الله لهم دليل على رضاه بحالهم.

وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّى ذَاوَأُ أَبَاسًا﴾ وعيد بيِّن، وليس في الآية ردُّ منصوص على قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، وإنما ترك الردُّ عليهم مقدراً في الكلام لوضوحه وبيانه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَآبَأَ لَكُمْ﴾ معطوف على الضمير المرفوع في ﴿أَشْرَكْنَا﴾، والعطف على الضمير المرفوع لا يردُّه قياس، بخلاف المنصوب، لكن سببويه قد قبح العطف على الضمير المرفوع، ووجه قبحه أنه لما بني الفعل صار كحرف من الفعل فُقِّحَ العطف عليه لشبهه بالحرف، وذلك كقولك: «قمت وزيد»، لأن تأكيد فيه يبين معنى الاسمى ويذهب عنه شبه الحرف،

وحسن عند سيبويه العطف في قوله تعالى: ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا﴾ لما طال الكلام بـ [لَا] فكأن معنى الاسمية اتضح واقتضت [لَا] ما يعطف بعدها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ﴾ الآية. المعنى: قل يا محمد للكفرة: هل عندكم من علم من قبل الله فتبينوه حتى تقوم به الحجة. و ﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ زائدة مؤكدة، وجاءت زيادتها لأن الاستفهام داخل في غير الواجب. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: لا شيء عندكم إلا الظن، وهو أكذب الحديث.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ على المخاطبة، وقرأ إبراهيم النخعي، وابن وثاب: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ بـالياء كحكاية عنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي قراءة شاذة يضعفها قوله تعالى: ﴿وَأَن أَتَّبِعُ﴾، و ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ معناه: تقدرون وتظنون وترجمون.

﴿١٤٩﴾ - ﴿١٥١﴾ تفسير قوله عز وجل:

ثم أعقب تعالى أمره بنبئه ﷺ بتوقيف المشركين على موضع عجزهم بأمره إياه بأن يقول مبيناً مفصلاً: ﴿فَلْيَلْزِمُوا الْفِتْنَةَ﴾ يريد: البالغة غاية المقصد في الأمر الذي يحتج فيه، ثم أعلم بأنه لو شاء لهدى العالم بأسره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية ترد على المعتزلة في قولهم: إن الهداية والإيمان إنما هي من العبد لا من الله، فإن قالوا: معنى ﴿لَهْدَيْكُمْ﴾ لا يضطركم إلى

الهدى فسد ذلك بمعتقدهم أن الإيمان الذي يريده الله من عباده ويشيب عليه ليس الذي يضطر إليه العبد، وإنما هو عندهم الذي يقع من العبد وحده.

و ﴿هَلُمَّ﴾ معناها: هات، وهي حينئذ متعديّة، وقد تكون بمعنى: أقبل فهي حينئذ لا تتعدى، وبعض العرب يجعلها اسماً للفعل كـ (رويدك) فيخاطب بها الواحد والجمع والمذكر والمؤنث على حد واحد، وبعض العرب يجعلها فعلاً فيركب عليها الضمائر فيقول: هلم يا زيد، وهلموا أيها الناس، وهلمني يا هند، ونحو هذا، وذكر اللغتين أبو علي في الأغفال، وقال أبو عبيدة: اللغة الأولى لأهل العالية، واللغة الثانية لأهل نجد، وقال سيبويه والخليل: أصلها: هالتم، وقال بعضهم: أصلها: هالتم وحذفت الألف لالتقاء الساكنين فجاء هلمم، فحذفت من قال أصلها: هالتم، وأدغم من قال أصلها هالتم على غير قياس.

ومعنى هذه الآية: قل هاتوا شهداءكم على تحريم الله ما زعمتم أنه حرمه، ثم قال الله تعالى لنبئه عليه الصلاة والسلام: ﴿إِن شَهِدُوا﴾ أي: فإن افترى لهم أحد وزور شهادة أو خبراً عن نبوة ونحو ذلك فتجنب أنت ذلك ولا تشهد معهم. وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا مَعَهُمْ قَسْوَةَ وَصَفٍ﴾ شهادتهم بنهاية الزور، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَوْلَاءَهُمْ﴾ يريد: لا تنحط في شهوات الكفرة وتوافقهم على أقوالهم، ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عطف نعت على

نعت كما تقول: جاءني زيد الكريم والعاقل، هذا مذهب معظم الناس. وقال النقاش: نزلت في الدهرية من الزنادقة ﴿وَهُمْ يَرْيَبُهُم بِعَدْلُوتٍ﴾ أنداداً يُسوونهم به، وإن كانت في الزنادقة فقدلهم غير هذا.

﴿١٥١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا أمر من الله عز وجل لنبئه ﷺ أن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله بشرع الإسلام المبعوث به إلى الأسود والأحمر.

و ﴿مَقَالًا﴾ معناه: أقبلوا، وأصله من العلو، فكأن الدعاء لما كان أمراً من الداعي استعمل فيه ترفيع المدعو، وتعالى هو مطاوع عالي، إذ تقاعل هو مطاوع فاعل.

و ﴿أَتْلُ﴾ معناه: أسرد وأنص من التلاوة التي هي إتباع بعض الحروف بعضاً، و [مَّا] نصب بقوله تعالى: ﴿أَتْلُ﴾، وهي بمعنى الذي، وقال الزجاج: يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿أَتْلُ﴾ معلقاً عن العمل و [مَّا] نصب بـ ﴿حَرَّمَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قَلْبٌ.

و ﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ يصح أن تكون في موضع رفع بالابتداء والتقدير: الأمر أن، أو: ذلك أن. ويصح أن تكون في موضع نصب على البدل من [مَّا]، قاله مكي وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى يبطله فتأمله.

ويصح أن تكون مفعولاً من أجله، والتقدير: إرادة أن لا تشركوا به شيئاً، إلا أن هذا التقدير يُخرج ﴿أَلَّا

تَشْرِكُوا ﴿ من المتلّو ويجعله سبباً لتلاوة المحرمات.

و ﴿تَشْرِكُوا﴾ يصح أن يكون منصوباً بـ [أَنْ]، ويتوجه أن يكون مجزوماً بالنهي وهو الصحيح في المعنى المقصود. و (أَنْ) قد توصل بما نصبت، وقد توصل بالفعل المجزوم بالأمر والنهي، و ﴿تَشْرِكُوا﴾ عام يراد به كل معبود من دون الله.

و ﴿إِحْسَانًا﴾ نصب على المصدر، وناصبه فعل مضمر من لفظه تقديره: وأحسنوا بالوالدين إحساناً. والمحرمات تنفك من هذه المذكورات بالمعنى وهي: الإشراك والعقوق وقرب الفواحش وقتل النفس.

وقال كعب الأحبار: هذه الآيات مفتتح التوراة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ﴿قُلْ تَكَلَّوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآية. وقال ابن عباس: هذه الآيات هي المحكمات التي ذكرها الله في سورة آل عمران اجتمعت عليها شرائع الخلق ولم تنسخ قط في ملّة، وقد قيل: إنها العشر الكلمات المنزلة على موسى عليه السلام.

وإن اعترض من قال إنّ ﴿تَشْرِكُوا﴾ منصوب بـ [أَنْ] بعطف المجزومات عليه فذلك موجود في كلام العرب، وأنشد الطبري حجة لذلك:

حَجٌّ وَأَوْصَى بِسُلَيْمَى الْأَعْبَدَا
أَنْ لَا تَسْرِى وَلَا تُكَلِّمَ أَحَدَا
وَلَا يَزَلْ شَرَابُهَا مُبَرَّدَا

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ الآية؛ نهى عن عادة العرب في وأد البنات، والولد يعم الذكر والأنثى من البنين. والإملاق:

الفقر وعدم المال. قاله ابن عباس وغيره، يقال: أملت الرجل إذا افقر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن يكون معناه: أملت أي: لم يبق له إلا المَلَق، كما قالوا: أَتَرَبَّ إذا لم يبق له إلا الثراب، وأزمل إذا لم يبق له إلا الرمل. والمَلَق: الحجارة السود واحده: مَلَقَة، وذكر منذر بن سعيد أن الإملاق: الإنفاق، ويقال: أملت ماله بمعنى أنفقه، وذكر أن عليّاً قال لامرأة: أملتني من مالك ما شئت، وذكر النقاش عن

محمد بن نعيم الترمذي أنه السرف في الإنفاق، وحكى أيضاً النقاش عن مؤرّج أنه قال: الإملاق: الجوع بلغة لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نهى عام عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي، و ﴿ظَهَرَ﴾ و ﴿بَطَنَ﴾ حالان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء، وذهب بعض المفسرين إلى أن القصد بهذه الآية أشياء مخصصات، فقال السدي، وابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو زنى الحوانيت الشهير، و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو متخذات الأخدان، وكانوا يستقبحون الشهير وحده فحرم الله الجميع، وقال مجاهد: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو نكاح حلائل الآباء ونحو ذلك، و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو الزنى،

وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ
وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ أَلْفُسٌ لَا تَكْفُفُ نَفْسًا إِلَّا
وَسَعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ قَاعِدُوا أَوْ كُنتُمْ دَا قُرَيْشٍ وَبِعْهُدِ
اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٦﴾
وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿١٥٧﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يَلْقَاءُ
رَبَّهُمْ بِحُجُمَتِهِمْ ﴿١٥٨﴾ وَهَذَا كِتَابٌ مَّبَارَكٌ مُّبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ
وَأَتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٩﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ
عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلَتِ
﴿١٦٠﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَزْلَمْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ
فَقَدْ جَاءَكُمْ يُبَيِّنُ لَكُمْ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَن
أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا فَاسْتَجْرَىٰ الَّذِينَ
يَصْدُقُونَ عَنْ آيَاتِنَا مَوَاهِدَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدُقُونَ ﴿١٦١﴾

١٤٩

إلى غير هذا من تخصيص لا تقوم عليه حجة، بل هو دعوى مجردة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ الآية متضمنة تحريم قتل النفس المسلمة والمعاصلة، ومعنى الآية: ﴿إِلَّا بِالَّتِي﴾ الذي يوجب قتلها، وقد بيّنته الشريعة وهو الكفر بالله وقتل النفس والزنى بعد الإحصان والحراة وما تشعب من ذلك.

و ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه المحرمات، والوصية: الأمر المؤكد المقرر، ومنه قال الشاعر:

أَجِدُكَ لَمْ تُسَمِّعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ
نَبِيِّ الْإِلَهِ حِينَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ترّج بالإضافة إلينا، أي من سمع هذه الوصية ترّجى وقوع أثر العقل بعدها وتميز المنافع والمضار في الدين.

﴿١٥٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا نهى عن القرب الذي يعم

وجوه التصرف، وفيه سد الذريعة، ثم استثنى ما يحسن وهو التثمير والسعي في نمائه، قال مجاهد: التي هي أحسن: التجارة فيه ممن كان من الناظرين له مال يعيش به، فالأحسن - إذا ثمر مال اليتيم - إلا يأخذ منه نفقة ولا أجرة ولا غيرها. ومن كان من الناظرين لا مال له ولا يتفق له نظر إلا بأن يتفق على نفسه من ربح نظره وإلا دعت الضرورة إلى ترك مال اليتيم دون نظر، فالأحسن أن ينظر ويأكل بالمعروف. قاله ابن زيد.

والأشد: جمع شد، وجمع شدة، وهو هنا الحزم والنظر في الأمور وحسن التصرف فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا بالأشد المقرون ببلوغ الأربعين، بل هذا يكون مع صغر السن في ناس كثير، وتلك الأشد هي التجارب والعقل المحنك ولكن قد خلطهما المفسرون، وقال ربيعة، والشعبي، ومالك فيما روي عنه، وأبو حنيفة: بلوغ الأشد: البلوغ مع ألا يثبت سفه، وقال السدي: الأشد: ثلاثون سنة، وقالت فرقة: ثلاثة وثلاثون سنة، وحكى الزجاج عن فرقة: ثماني عشرة سنة وضعفه ورجح البلوغ مع الرشد، وحكى النقاش أن الأشد هنا من خمس عشرة إلى ثلاثين. والفقه ما رجح الزواج وهو قول مالك رحمه الله: الرشد وزوال السفه مع البلوغ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أصلح الأقوال وأليقها بهذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْيَمَانَ﴾ الآية أمر بالاعتدال في الأخذ والإعطاء، والقسط: العدل، وقوله سبحانه: ﴿لَا تَكِلُفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يقتضي أن هذه الأوامر إنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز، لا أنه مطالب بغاية العدل في نفس الشيء المتصرف فيه. قال الطبري: لما كان الذي يعطي ناقصاً يتكلف في ذلك مشقة والذي يعطي زائداً يتكلف أيضاً مثل ذلك؛ رفع الله عز وجل الأمر بالمعادلة حتى لا يتكلف واحد منهما مشقة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ يتضمن الشهادات والأحكام والتوسط بين الناس وغير ذلك، أي: ولو كان ميل الحق على قرايبكم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْهَدُ اللَّهُ﴾ يحتمل أن يراد جميع ما عهده الله إلى عباده، ويحتمل أن يراد به جميع ذلك مع جميع ما انعقد بين إنسانين ويضاف إلى ذلك العهد إلى الله من حيث قد أمر بحفظه والوفاء به. وقوله تعالى: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَرْجُو بَحْسَنَا﴾.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتشديد الذال والكاف جميعاً، وكذلك ﴿يَذَكَّرُونَ﴾ و ﴿يَذَكِّرُ الْإِنْسَانَ﴾ وما جرى من ذلك مشدداً كله، وقرأ نافع، وعاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر كل ذلك بالتشديد إلا قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذَكِّرُ الْإِنْسَانَ﴾ فإنهم خففوها، وروى أبان، وحفص عن عاصم ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ خفيفة الذال في كل

القرآن، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال إذا كان الفعل بالتاء وإذا كان بالياء قرأه بالتشديد، وقرأ حمزة وحده في سورة الفرقان: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ﴾ بسكون الذال وتخفيف الكاف، وقرأ ذلك الكسائي بتشديدهما وفتحهما.

﴿١٥٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

الإشارة هي إلى الشرع الذي جاء به محمد ﷺ بجملته. وقال الطبري: الإشارة هي إلى هذه الوصايا التي تقدمت من قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو: ﴿وَأَنَّ هَذَا﴾ بفتح الهمزة وتشديد النون ﴿صِرَاطِي﴾ ساكن الياء، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وَأَنَّ﴾ بكسر الألف وتشديد النون، وقرأ عبدالله بن أبي إسحق، وابن عامر من السبعة: ﴿وَأَنَّ﴾ بفتح الهمزة وسكون النون ﴿صِرَاطِي﴾ مفتوح الياء، فأما من فتح الألف فالمعنى عنده كأنه قال: «ولأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه»، أي: «اتبعوه لكونه كذا»، وتكون الواو - على هذا - إنما عطفت جملة على جملة، ويصح غير هذا أن يعطف على ﴿أَلَّا تُشْكِرُوا﴾، وكأن المحرم من هذا اتباع السبل والتكيب عن الصراط الأقوم. ومن قرأ بتخفيف النون عطف على قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْكِرُوا﴾، ومذهب سيويه أنها المخففة من الثقيلة، وأن التقدير: «وأنه هذا صراطي». ومن قرأ بكسر الألف وتشديد النون فكأنه استأنف الكلام وقطعه من الأول،

وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وهذا صراطي﴾ بحذف «أن».

وقال ابن مسعود: إن الله جعل طريقاً صراطاً مستقيماً طرفه محمد ﷺ وشرعه، ونهايته الجنة، وتشعب منه طرق، فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار، وقال أيضاً: خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً، فقال: هذا سبيل الله، ثم خط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطوطاً، فقال: هذه سبيل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها، ثم قرأ هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية تغم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلزل ومظنة لسوء المعتقد.

وتقدم القول في ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ وفي قوله: ﴿لَكُمْ﴾، ومن حيث كانت المحرمات الأول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءت العبارة: ﴿لَكُمْ تَقُولُونَ﴾، والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر جاءت العبارة: ﴿لَكُمْ نَذْكُرُونَ﴾، ثم لما كان ركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل وتلك درجة التقوى جاءت العبارة: ﴿لَكُمْ نَنْفَعُونَ﴾.

﴿١٥٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿ثُمَّ﴾ في هذه الآية إنما مهلتها في ترتيب القول الذي أمر به محمد ﷺ، كأنه قال: «ثم مما وصيانه أنا آتينا موسى الكتاب»،

ويدعو إلى ذلك أن موسى عليه السلام متقدم في الزمان على محمد ﷺ وتلاوته ما حرم الله. و﴿الْكِتَابُ﴾: التوراة، و﴿تَمَاماً﴾ نصب على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنَ﴾ مُخْتَلَف في معناه - فقالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ بمعنى: الذين، و﴿أَحْسَنَ﴾ فعل ماض صلة (الذين)، وكأن الكلام: «وآتينا موسى الكتاب تفضلاً على المحسنين من أهل ملته وإتماماً للنعمة عندهم»، هذا تأويل مجاهد، وفي مصحف عبدالله: ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ فهذا يؤيد ذلك التأويل، وقالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ غير موصولة والمعنى: «تَمَاماً عَلَى مَا أَحْسَنَ هُوَ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ وَالِاضْطِلَاعِ بِأَمْرِ نَبِيِّهِ»، يريد موسى عليه السلام، وهذا تأويل الربيع وقتادة، وقالت فرقة: المعنى: ﴿تَمَاماً﴾ أي تفضلاً وإكمالاً على الذي أحسن الله فيه إلى عباده من النبوات والنعيم وغير ذلك، ف﴿الَّذِينَ﴾ أيضاً في هذا التأويل غير موصولة، وهذا تأويل ابن زيد.

وقرأ يحيى بن يعمر، وابن أبي إسحق: ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ بضم النون، فجعلها صفة تفضيل ورفعها على خبر ابتداء مضمرة تقديره: «على الذي هو أحسن». وضعف أبو الفتح هذه القراءة لقبح حذف المبتدأ العائد. وقال بعض نحويي الكوفة: يصح أن يكون ﴿أَحْسَنَ﴾ صفة لـ ﴿الَّذِي﴾ من حيث قارب المعرفة إذ لا تدخله الألف واللام، كما تقول العرب: «مررت

بالذي خير منك»، ولا يجوز «بالذي عالم»، وخطأ الزجاج هذا القول الكوفي، و﴿فَصِيلاً﴾ يريد: بياناً وتقسيماً. و﴿عَلَّمَهُمْ﴾ ترج بالإضافة إلى البشر، و﴿يَلْقَاهُ رَبُّهُمْ﴾ أي بالبعث الذي الإيمان به نهاية تصديق الأنبياء صلوات الله عليهم، إذ لا تلزمه العقول بذواتها، وإنما ثبت بالسمع مع تجويز العقل له.

﴿١٥٧﴾ - ﴿١٥٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن، و﴿بَرَكَةً﴾ وصف بما فيه من التوسعات وإزالة أحكام الجاهلية وتحريماتها، وجمع كلمة العرب وَحْدَةً أيدي متبعية، وفتح الله على المؤمنين به، ومعناه: مُنَّمَى خيره مُكَثَّر، والبركة: الزيادة والنمو. و﴿تَأْتِيَهُمْ﴾ دعاء إلى الدين، ﴿وَأَتَوْا﴾ الأظهر فيه أنه أمر بالتقوى العامة في جميع الأشياء بقرينة قوله تعالى: ﴿لَكُمْ تُحَوِّنُ﴾.

و﴿نَ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنْ تَقُولُوا﴾ في موضع نصب، والعامل فيه ﴿أَنْتُمْ﴾، والتقدير: «وهذا كتاب أنزلناه كراهية أن»، وهذا أصح الأقوال وأضبطها للمعنى المقصود، وقيل: العامل في ﴿نَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَتَوْا﴾ فكأنه قال: «واتقوا أن تقولوا»، وهذا تأويل يتخرج على معنى: واتقوا أن تقولوا كذا لأنه لا حجة لكم فيه، ولكن يعرض فيه قلن لقوله تعالى أثناء ذلك: ﴿لَكُمْ تُحَوِّنُ﴾، وفي التأويل الأول يتسق نظم الآية.

والطائفتان: اليهود والنصارى بإجماع من المتأولين، والدراسة:

الْمَلَكُوتِ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَفْعَلُ نَفْسًا إِنْشَاءً لَوْ تَرَكَتُمْ مَا مَنَّتُمْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسِمَتْ فِي إِيمَانِهِمَا خِيَارًا هَلْ أَنْتُمْ مُنْظَرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنْ أَنْتُمْ تُنْظَرُونَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ الَّذِينَ قَرَعُوا رَبَّهُمْ وَكَانُوا بِشَيْعَا لَسْتُمْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٠﴾ مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلٍ هَذَا وَمِنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَبِأَقِيمَا أَمَلَهُ أَبْرَهُمْ حَيْفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَشْرِكِينَ ﴿١٦٢﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٤﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ رِبَا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٦﴾

١٥٠

عليكم لثلا تقولوا: إنما أنزلت التوراة والإنجيل بغير لساننا على غيرنا، ونحن لم نعرف ذلك، فهذا كتاب بلسانكم ومع رجل منكم.

وقوله تعالى: ﴿أَزْ نَقُولُوا﴾ جملة معطوفة على الجملة الأولى، وهي في غرضها من الاحتجاج على الكفار وقطع تعلقهم في الآخرة بأن الكتب إنما أنزلت على غيرهم، وأنهم غافلون عن الدراسة والنظر في الشرع، وأنهم لو نزل عليهم كتاب لكانوا أسرع إلى الهدى من

الناس كلهم، ف قيل لهم: قد جاءكم بيان من الله وهدى ورحمة.

ولما تقرر أن البينة قد جاءت والحنة قد قامت حسن - بعد ذلك - أن يقع التقرير بقوله تعالى: فَمَنْ أَشَدُّ ظِلْمًا مِمَّنْ كَذَبَ بِهِذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ.

﴿وَمَذَدَقَ﴾ معناه: حاد وراغ وأعرض. وقرأ يحيى بن وثاب، وابن أبي عيلة: ﴿كَذَّبَ﴾ بتخفيف الذال. والجمهور ﴿كَذَّبَ﴾ بتشديد الذال، و ﴿سَجَرَى الَّذِينَ﴾ وعيد، وقرأت فرقة: ﴿يَصْدُقُونَ﴾ بكسر الدال، وقرأت فرقة: ﴿يَصْدُقُونَ﴾ بضم الدال.

﴿تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿يَنْظُرُونَ﴾ هو للطائفة التي قيل لها قبل: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وهم العادلون

بربهم من العرب الذين مضت أكثر آيات السورة في جدالهم، و ﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون. و ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ هنا يراد بها ملائكة الموت الذين يصحبون عزرائيل المخصوص بقبض الأرواح، قاله قتادة ومجاهد وابن جريج. ويحتمل أن يريد الملائكة الذين يتصرفون في قيام الساعة، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ بالياء، وقرأ الباقون: ﴿تَأْتِيَهُمْ﴾ بالتاء من فوق.

وقوله تعالى: ﴿أَزْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ قال الطبري: لموقف الحساب يوم القيامة، وأسند ذلك إلى قتادة وجماعة من المتأولين. وحكى الزجاج أن المراد بقوله تعالى: ﴿أَزْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي العذاب السذي يسلطه الله في الدنيا على من يشاء من عباده كالصبيحات والرجفات والخسف ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا الكلام على تأويل فإنما هو بحذف مضاف تقديره: أمر ربك، أو بطش ربك، أو حساب ربك، وإلا فالإثبات المفهوم من اللغة مستحيل في حق الله تعالى، ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿تَأْتِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْشَسُوا﴾، فهذا إثبات قد وقع وهو على المجاز وحذف المضاف.

وقوله تعالى: ﴿أَزْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾، أما ظاهر اللفظ لو وقفنا معه فيقتضي أنه توعدهم بالشهير الفظيع من أشرار الساعة دون أن يخص من ذلك شرطاً يريد بذلك الإيهام الذي يترك السامع مع أقوى تخيله، لكن لما قال بعد ذلك: ﴿يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ

القراءة والتعلم بها، و ﴿وَأَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ كُنَّا﴾ مخففة من الثقيلة، واللام في قوله تعالى: ﴿تَقْفِلِينَ﴾ لام توكيد. هذا مذهب البصريين، وحكى سيبويه عن بعض العرب أنهم يخففونها ويثبتونها على عملها، ومنه قراءة بعض أهل المدينة: ﴿وَأَنَّ كُنَّا﴾، وأما المشهور فإنها إذا خففت ترجع حروف ابتداء ولا تعمل. وأما على مذهب الكوفيين ف ﴿وَأَنَّ﴾ في هذه الآية بمعنى (ما) النافية، واللام بمعنى (إلا)، فكأنه قال: «وما كنا عن دراستهم إلا غافلين».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: معنى هذه الآية إزالة الحجة عن أيدي قريش وسائر العرب بأنهم لم يكن لهم كتاب، فكأنه قال: وهذا القرآن يا معشر العرب أنزل حجة

ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا ﴿١٥٩﴾ وَيُبَيِّنُ
الآثار الصحاح في البخاري ومسلم
أن الآية التي معها هذا الشرط هي
طلوع الشمس من المغرب قوي أن
الإشارة بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ
رَبِّكَ﴾ إنما هي إلى طلوع الشمس من
مغربها. وقال بهذا التأويل مجاهد
وقتادة والسدي وغيرهم، ويقوي
أيضاً أن تكون الإشارة إلى غرغرة
الإنسان عند الموت أو ما يكون في
منابتها لمن لم يغرغر، ففي الحديث
أن توبة العبد تقبل ما لم يغرغر،
وهذا إجماع لأن من غرغر وعابن
فهو في عداد الموتى، وكون المرء
في هذه الحالة من آيات الله تعالى،
وهذا على من يرى الملائكة
المتصرفين في قيام الساعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فمقصد هذه الآية تهديد الكافرين
بأحوال لا يخلون منها، كأنه قال:
هل ينظرون مع إقامتهم على الكفر
إلا الموت الذي لهم بعده أشد
العذاب، والأخذات المعهودة لله عز
وجل، أو الآيات التي ترفع التوبة
وتعلم بقرب القيامة؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويصح أن يريد بقوله تعالى: ﴿أَوْ
يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ﴾ جميع ما
يقطع بوقوعه من أشراط الساعة، ثم
خصص - بعد ذلك - بقوله تعالى:
﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ﴾ الآية التي
ترفع التوبة معها. وقد بيّنت
الأحاديث أنها طلوع الشمس من
مغربها.

وقرأ زهير الفرزقي: ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾
بالرفع، وهو على الابتداء والخبر في

الجملة التي هي: ﴿لَا يَنْفَعُ﴾ إلى آخر
الآية، والعائد من الجملة محذوف
لطول الكلام، وقرأ ابن سيرين،
وعبدالله بن عمرو، وأبو العالية:
﴿لَا تَنْفَعُ﴾ بناءً، وأنت الإيمان لما
أضيف إلى مؤنث، أو لما نزل منزلة
التوبة، وقال جمهور أهل التأويل
كما تقدم: الآية التي لا تنفع التوبة
من الشرك أو من المعاصي بعدها
هي طلوع الشمس من المغرب.
وروي عن ابن مسعود أنها إحدث
ثلاث، إما طلوع الشمس من
مغربها، وإما خروج الدابة، وإما
خروج يأجوج ومأجوج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا فيه نظر لأن الأحاديث ترويه
وتخصّص الشمس، ورؤي في
الحديث «أن الشمس تجري كل يوم
حتى تسجد تحت العرش وتستأذن
فيؤذن لها في الطلوع من المشرق،
وحتى إذا أراد الله عز وجل سد باب
التوبة أمرها بالطلوع من مغربها».
قال ابن مسعود وغيره عن
النبي ﷺ: «فتطلع هي والقمر
كالبعيرين القرينين»، ويقوي النظر
أيضاً أن الغرغرة هي الآية التي ترفع
معها التوبة.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَسِبَتْ فِي إِيْمَانِهِمَا
خِيبًا﴾ يريد جميع أعمال البر فرضها
ونفلها، وهذا الفصل هو للعصاة
المؤمنين، كما أن قوله تبارك
وتعالى: ﴿لَوْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾
هو للكفار. والآية المشار إليها تقطع
توبة الصنفين. وقرأ أبو هريرة: ﴿أَوْ
كَسِبَتْ فِي إِيْمَانِهَا صَالِحًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلْ أَنْظِرُوا﴾ الآية

يتضمن الوعيد، أي: فسترون من
يقح كلامه ويتضح ما أخبر به.

﴿١٥٩﴾ - ﴿١٦٠﴾ تفسير قوله عز وجل:
قال ابن عباس، والصحابة،
وقتادة: المراد بـ ﴿الَّذِينَ﴾ اليهود
والنصارى، أي: فرقوا دين إبراهيم
الحنيفية. وأضيف الدين إليهم من
حيث كان ينبغي أن يلتزموه إذ هو
دين الله الذي أئزمه العباد، فهو دين
جميع الناس بهذا الوجه. ووصفهم
بالشيع إذ كل طائفة منهم لها فرق
واختلافات، ففي الآية حض لأمة
محمد ﷺ على الائتلاف وقلة
الاختلاف. وقال الأحوص وأم
سلمة زوج النبي ﷺ: الآية في أهل
البدع والأهواء والفتن ومن جرى
مجراهم من أمة محمد عليه الصلاة
والسلام، أي: فرقوا دين الإسلام،
وقرأ علي بن أبي طالب، وحمزة،
والكسائي: ﴿فَارْقُوا﴾ ومعناه:
تركوا، ثم بيّن قوله: ﴿وَكُنَّا شَيْعًا﴾
أنهم فرقوه أيضاً، والشيع: جمع
شيعه وهي الفرقة على مقصد ما
يتشايعون عليه.

وقوله تعالى: ﴿لَسْتَ يَتَّبِعُهُمْ فِي شَيْءٍ﴾
أي: لا تشفع لهم، ولا لهم بك
تعلق، وهذا على الإطلاق في
الكفار، وعلى جهة المبالغة في
العصاة والمتنطعين في الشرع، لأنهم
لهم حظ في تفريق الدين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾
إلى آخر الآية وعيد محض، والقرينة
المتقدمة تقتضي أن ﴿أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾
فيه وعيد، كما أن القرينة في قوله
تعالى: ﴿مَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ
فَاتَّبَعَهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾

تعطي أن في ذلك الأمر رجاء كأنه قال: «وأمره في إقبال وإلى خير».

وقرأ النُّحَعي، والأعمش، وأبو صالح: ﴿فَرَقُوا﴾ بتخفيف الراء، وقال السدي: هذه آية لم يؤمر فيها بقتال وهي منسوخة بالقتال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كلام غير متقن، فإن الآية خبر لا يدخله نسخ، ولكنها تضمنت بالمعنى أمراً بالموادعة فيشبه أن يقال: إن النسخ وقع في ذلك المعنى الذي تقرر في آيات أخر.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ الآية. قال أبو سعيد الخدري، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهما: هذه الآية نزلت في الأعراب الذين آمنوا بعد الهجرة فضاعف الله حسناتهم للحسنة عشر، وكان المهاجرون قد ضوعف لهم، للحسنة سبعائة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل يحتاج إلى سند يقطع العذر.

وقالت فرقة: هذه الآية لجميع الأمة، أي أن الله يضاعف الحسنة بعشرة ثم بعد هذا المضمون قد يزيد ما يشاء، وقد يزيد أيضاً على بعض الأعمال كنفقة الجهاد، وقال ابن مسعود، ومجاهد، والقاسم بن أبي بزة، وغيرهم: الحسنة ها هنا: لا إله إلا الله، والسيئة: الكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه هي الغاية من الطرفين.

وقالت فرقة: ذلك لفظ عام في جميع الحسنات والسيئات، وهذا هو الظاهر. وأنت لفظ العَشْر لأن

الأمثال ها هنا بالمعنى حسنات ويحتمل أن الأمثال أنت لما أضيف إلى مؤنث وهو الضمير، كما قال الشاعر:

مَشِينٌ كَمَا اخْتَزَتْ رِمَاحٌ تَسْفُهُتُ
أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيَّاحِ النَّوَاسِمِ
فَأَنْتَ.

وقرأ الحسن، وسعيد بن جبير، وعيسى بن عمر، والأعمش، ويعقوب: ﴿قُلَّةُ عَشْرٍ﴾ بالتنوين ﴿أَنْثَاهَا﴾ بالرفع.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الْأَحْمَالُ سِتَّةٌ: مُوجِبَةٌ وَمُوجِبَةٌ، وَمُضْعَفَةٌ وَمُضْعَفَةٌ، وَمِثْلٌ وَمِثْلٌ. فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ توجب الجنة، والشرك يوجب النار، ونفقة الجهاد تضعف سبعائة ضعف، والنفقة على الأهل حسنتها بعشرة، والسيئة جزاؤها مثلها، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة مثلها».

وقوله تعالى: ﴿لَا يُلْقُونَ﴾ أي: لا يوضع في جزائهم شيء في غير موضعه، وتقدير الآية: من جاء بالحسنة فله ثواب عشر أمثالها، والمماثلة بين الحسنة والثواب مرتبة إذا تدرجت. وقال الطبري: قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ الآية، يريد: من الذين فرقوا دينهم، أي: من جاء مؤمناً فله الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقصد بالآية إلى العموم في جميع العالم أئبق باللفظ.

﴿١٦١﴾ - ﴿١٦٢﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا أمر من الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام بالإعلان بشريعته ونبذ ما سواها من أضاليلهم،

ووصف الشريعة بما هي عليه من الخُسْنِ والفضل والاستقامة.

و ﴿هَدًى﴾ معناه: أرشدني بخلق الهدى في قلبي. و الربُّ: المالك، ولفظه مصدر، من قولك: ربُّه يربُّه، وإنما هو مثل عدل ورضا في أنه مصدر وصف به، وأصله ذو الرب، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فقيل: الرب. والصراط: الطريق. و ﴿دِينًا﴾ منصوب به ﴿هَدًى﴾ المقدر الذي يدل عليه ﴿هَدًى﴾ الأول، وهذا الضمير إنما يصل وحده دون أن يحتاج إلى إضمار إلى، إذ (هدى) يصل بنفسه إلى مفعوله الثاني وبحرف الجر، فهو فعل متردد، وقيل: نَصَبَ ﴿دِينًا﴾ فعلٌ مضمر تقديره: عرفني ديناً. وقيل: تقديره: فاتبعوا ديناً، أو فالزموا ديناً. وقيل: نصب على البذل من ﴿صِرَاطٍ﴾ على الموضع؛ لأن تقديره: هداني ربي صراطاً مستقيماً. و ﴿يَمِينًا﴾ نعت للدين، ومعناه: مستقيماً معتدلاً.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿قِيَمًا﴾ بفتح القاف وكسر الباء وشدها، وأصله: قِيَوْمٌ عللت كتعليل سِيدٌ ومِيت. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: ﴿يَمِينًا﴾ بكسر القاف وفتح الباء على وزن فِعْلٍ، وكان الأصل أن يجيء فيه (قِيَوْمًا) كعِيُوضٍ وجَوْلٍ إلا أنه شذَّ كشذوذ قولهم: جِاد في جمع جواد وبَيَّرة في جمع نُور.

و ﴿مِلَّةً﴾ بدل من الدين، والمِلَّةُ: الشريعة، و ﴿حَقِيقًا﴾ نصب على الحال من ﴿يَبَيِّنَ﴾ والْحَتَفُ في

كلام العرب: الميل، وقد يكون الميل إلى فساد كحنف الرجل. وكقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسَىٰ خَنَفًا﴾ على قراءة من قرأ بالحاء غير المنقوطة، ونحو ذلك. وقد يكون الحنف إلى الصلاح كقوله عليه الصلاة والسلام: «الحنيفية السمحة»، الدين الحنيف، ونحو ذلك، وقال ابن قتيبة: الحنف: الاستقامة، وإنما سمي الأحنف في الرجل على جهة التفاؤل له. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ نفى للنقيصة عنه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ الآية. أمر من الله عز وجل أن يعلن بأن مقصده في صلاته وطاعته من ذبيحة وغيرها، وتصرفه مدة حياته، وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله عز وجل، وإرادة وجهه وطلب رضاه، وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسى به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل. ويحتمل أن يريد بهذه المقالة أن صلاته ونسكه وحياته وموته بيد الله عز وجل يصرفه في جميع ذلك كيف يشاء، وأنه قد هداه من ذلك إلى صراط مستقيم، ويكون قوله تعالى: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ على هذا التأويل راجعاً إلى قوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لِي﴾ فقط، أو راجعاً إلى القول الأول، وعلى التأويل الأول، يرجع إلى جميع ما ذكر من صلاة وغيرها، أي: أُمِرْتُ بأن أقصد وجه الله عز وجل في ذلك وأن ألتزم العمل. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَسُكِّنِي﴾

بضم السين، وقرأ أبو حيرة، والحسن بإسكان السين، وقالت فرقة: النسك: في هذه الآية الذبائح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَيُحَسِّنُ تخصيص الذبيحة بالذكر في هذه الآية أنها نازلة قد تقدم ذكرها والجدل فيها في السورة، وقالت فرقة: التَّسْكُ في هذه الآية: جميع أعمال الطاعات، من قولك: تَسَكَّ فلان فهو ناسك إذا تعبد.

وقرأ السبعة سوى نافع: ﴿وَمَخَيَّيَ وَسَكَّيَ﴾ بفتح الياء من ﴿وَمَخَيَّيَ﴾ وسكونها من ﴿وَسَكَّيَ﴾، وقرأ نافع وحده: ﴿وَمَخَيَّيَ﴾ بسكون الياء، قال أبو علي الفارسي: وهي شاذة في القياس لأنها جمعت بين ساكنين، وشاذة في الاستعمال، وَجْهُهَا أنه قد سمع من العرب: «التَّقَّتْ حَلَقَتَا الْبَطَانِ»، و«لفلان ثلثا المال»، وروى أبو خنيد عن نافع: ﴿وَمَخَيَّيَ﴾ بكسر الياء، وقرأ ابن أبي إسحق، وعيسى، والجحدري: ﴿وَمَخَيَّيَ﴾، وهذه لغة هذيل، ومنه قول أبي ذؤيب:

سَبَقُوا هَوًى وَاعْتَقُوا إِلَهَؤُهُمْ
فَتَصَرَّعُوا وَلِكُلٍّ جَنبٌ مَضْرُغٌ
وقرأ عيسى بن عمر: ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَخَيَّيَ وَمَمَاتِي﴾ بفتح الياء، وروي ذلك عن عاصم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ النَّاسِينَ﴾ أي: من هذه الأمة، وقال النقاش: من أهل مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى واحد، بل الأول أعم وأحسن. وقرأت فرقة: ﴿وَأَنَا﴾

بإشباع الألف، وجمهور القراء على القراءة ﴿وَأَنَا﴾ دون إشباع، وهذا كله في الوصل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتزك الإشباع أحسن لأنها ألف وقف فإذا اتصل الكلام استغني عنها لا سيما إذا وليتها همزة.

﴿١٦٤﴾ - ﴿١٦٥﴾ تفسير قوله عز وجل: حكى النقاش أنه روي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: ارجع يا محمد إلى ديننا، وابعد آلهمنا، واترك ما أنت عليه، ونحن نتكفل لك بتباعة توقعها في دنياك وآخرتك، فنزلت هذه الآية. وهي استفهام يقتضي التقرير والتوقيف والتوبيخ.

و ﴿أَنْتَ﴾ معناه: أطلب، فكأنه قال: أفبخسن عندكم أن أطلب إلهاً غير الله الذي هو رب كل شيء؟ وما ذكرتهم من كفالتكم لا يتم، لأن الأمر ليس كما تظنون، وإنما كُتِبَ كل نفس من الشر والإثم عليها وحدها، ﴿وَلَا يُزْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل ﴿وَاِزْرَىٰ﴾ أي: حاملة جنل أخرى ونقلها. والوزر أصله الثقل ثم استعمل في الإثم لأنه ينقض الظهر تجوزاً واستعارة، يقال منه: وزر الرجل يزور فهو وازر ووَزَر يزور فهو موزور.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ رَجَعْتُ﴾ تهديد ووعيد ﴿فَيُنَزِّلُكُمْ﴾ أي: فيعلمكم أن العقاب على الاعوجاج تبين لموضع الحق. وقوله: تبارك وتعالى: ﴿يَا كُفَّارُ﴾ فيه تحذير. يريد - على ما حكى بعض المتأولين -: من أمري في قول بعضهم: هو ساحر، وبعضكم: هو

الْفَرْبَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ
إِلَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ
ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ مَدْنِيَّةٌ.

١ - ٢ تفسير قوله عز وجل:
تقدم القول في تفسير الحروف
المقطعة التي في أوائل السور وذكر
اختلاف المتأولين فيها، ويختص هذا
الموضع زائداً على تلك الأقوال بما
قال السدي: إن ﴿الْمَصَّ﴾ هجاء
اسم الله تبارك وتعالى هو المصور،
ويقول زيد بن علي: إن معناه:
أنا الله الفاضل.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾
الآية. قال الفراء وغيره: ﴿كَتَبُ﴾
رفع على الخبر للحروف، كأنه قال:
هذه الحروف كتاب أنزل إليك، وردَّ
الرُّجَاجَ على هذا القول بما لا طائل
فيه. وقال غيره: ﴿كَتَبُ﴾ رفع على
خبر ابتداء مضمّر تقديره: هذا
كتاب، و ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ في موضع
الصفة لـ ﴿كَتَبُ﴾.

ثم نهي النبي ﷺ أَنْ يُبْرَمَ أَوْ
يَسْتَصْحَبَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ أَوْ بِسَبَبِ
مِنْ أَسْبَابِهِ حَرْجاً، ولفظ النهي هو
للحرج ومعناه للنبي عليه الصلاة
والسلام. وأصل الحرج الضيق،
ومنه الْحَرْجَةُ: الشجر الملتف الذي
قد تضايق. والحرج ها هنا يعم
الشك والخوف والهَمُّ وكل ما يضيق
الصدر، وبحسب سبب الحرج يفسر
الْحَرْجُ ها هنا، وتفسيره بالشك قلبي،
والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ عائِدٌ على
الكتاب، أي: بسبب من أسبابه، و
﴿مِنْ﴾ ها هنا لا ابتداء الغاية، وقيل:
يعود على التبليغ الذي يتضمنه معنى
الآية، وقيل: على الإنذار.

ويروي: «أنتم آخرها
وأكرمها على الله».

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ
بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾
لفظ عام في المال والجاه
والقوة وجودة النفوس
والأذهان وغير ذلك، وكل
ذلك إنما هو ليختبر الله
تعالى الخلق فيرى الحسن
من المسيء.

ولما أخبر عز وجل بهذا
ففسح للناس ميدان العمل،
وحضهم على الاستباق إلى
الخير توعد ووعد تخويفاً
منه وترجوة فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ
سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ وسرعة
عقابه إما بأخذاته في الدنيا،
وإما بعقاب الآخرة، وحسن أن
يوصف عقاب الآخرة بـ ﴿سَرِيعٍ﴾ لما
كان متحققاً مضمون الإتيان والوقوع،
فكل أت يحكم عليه بالقرب ويوصف
به، ﴿وَلَا تَكُنْ لِقَوْمٍ رَجِيمٍ﴾ ترجية لمن
أذنب وأراد التوبة، وهذا في كتاب الله
تبارك وتعالى كثير، اقتران الوعيد
بالوعد لطفاً من الله سبحانه وتعالى
بعباده.

كامل تفسير سورة الأنعام والله
المستعان وهو حسي ونعم الوكيل

(٧) تفسير سورة الأعراف

وهي مكية كلها، قاله الضحاك
وغيره. وقال مقاتل: هي مكية إلا
قوله تبارك وتعالى: ﴿وَسَتَلَهُمْ عَن

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصَّ ١ كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ
لِئْتَذَرَيْهِمْ وَذُكِّرُوا لِلْمُؤْمِنِينَ ٢ أَنْتُمْ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ
مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣
وَكَمْ مِّن قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا فَمَا هَا بِأَسْنَابِتِنَا أَوْهُمْ قَالُوا لَوْ
٤ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَابِنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ٥ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ
الْمُرْسَلِينَ ٦ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ عِبَادَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ٧
وَالْوَزْنَ بِمِيزَانٍ الْحَقِّ فَمَن تَقَلَّتْ مُوزِنُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ٨ وَمَن خَفَّتْ مُوزِنُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ٩ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ
فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمُ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ١٠
وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ١١

١٥١

شاعر، وبعضكم: افتراء، وبعضكم:
اكتبه، ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا التأويل يحسن في هذا الموضع
وإن كان اللفظ يعم جميع أنواع
الاختلافات من الأديان والملل
والمذاهب وغير ذلك.

و ﴿خَلَقَ﴾ جمع خليفة، أي:
يخلف بعضكم بعضاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا يتصور في جميع الأمم وسائر
أصناف الناس، لأن من أتى خليفة لمن
مضى، ولكنه يحسن في أمة
محمد ﷺ أن يسمي أهلها بجملتهم
خلائف للأمم، وليس لهم من يخلفهم
لأنهم آخر الأمم وعليهم قيام الساعة.

وروي الحسن بن أبي الحسن أن
النبي ﷺ قال: «توفون سبعين أمة
أنتم خيرها وأكرمها على الله»

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التخصيص كله لا وجه له إذ اللفظ يعم الجهات التي هي من سبب الكتاب ولأجله، وذلك يستغرق التبليغ والإنذار وتعرض المشركين وتكذيب المكذِبين وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرجٌ مِنْهُ﴾ اعتراض في أثناء الكلام، ولذلك قال بعض الناس: إن فيه تقدماً وتأخيراً. وقوله تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ﴾ اللام متعلقة بـ ﴿أُنْزِلَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَذَكَّرَ﴾ معناه: تذكرة وإرشاد، و ﴿ذَكَّرَ﴾ في موضع رفع عطفاً على قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ﴾ فالتقدير: هذه الحروف كتاب وذكرى. وقيل: رفعه على جهة العطف على صفة الكتاب، فالتقدير: هذه الحروف كتاب مثَّل إليكِ وذكرى، فهي عطف على (مُثَّل) داخله في صفة الكتاب. وقيل: ﴿ذَكَّرَ﴾ في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: ﴿لِنُنْذِرَ بِهِ وَتَذَكَّرْ ذِكْرِي لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: نصبها على المصدر. وقيل: ﴿ذَكَّرَ﴾ في موضع خفض عطفاً على قوله تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ﴾ أي: لإنذارك وذكرى.

وقوله تعالى: ﴿أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الآية. قال الطبري وحكاة: التقدير: قال اتبعوا، فحذف القول لدلالة الإنذار المتقدم الذكر عليه. وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿أَتَّبِعُوا﴾ أمر يعم النبي ﷺ وأُمَّته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن يكون أمراً لجميع الناس، اتبعوا ملَّة الإسلام والقرآن.

وقرأ الجحدري: ﴿إِتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ﴾ من الابتغاء، وقرأ مجاهد: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ من الابتغاء أيضاً، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ﴾ يريد كل ما عُبد وأُتبع من دون الله كالأصنام والأحبار والكهان والنار والكواكب وغير ذلك، والضمير في قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ راجع إلى ﴿رَبِّكُمْ﴾، هذا أظهر وجوه وأبيئها، وقيل: يعود على ﴿مَا﴾ من قوله: ﴿أَتَّبِعُوا مَا﴾، وقيل: يعود على الكتاب المتقدم الذكر، و ﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر نصب بفعل مضمر، وقال مكي: هو منصوب بالفعل الذي بعده. قال الفارسي: و ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَذَكَّرُونَ﴾ موصولة بالفعل وهي مصدرية. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتشديد الذال والكاف، وقرأ حمزة والكسائي، وعاصم في رواية حفص: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال وتشديد الكاف، وقرأ ابن عامر: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ بالياء كناية عن غيب، وروي عنه أنه قرأ: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بتاءين على مخاطبة حاضرين.

① - ⑦ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَكَمْ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ، والخبر ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، ويصح أن يكون الخبر في قوله تعالى: ﴿فَبَاءَ مَا﴾، و ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ صفة، ويصح أن تكون في موضع نصب بفعل مقدر بعدها تقديره: وكم أهلكنا من قرية أهلكناها. وقدر الفعل بعدها - وهي خبرية - تشبيهاً لها بالاستفهامية في أن لها في كل

حال صدر الكلام. وقالت فرقة: المراد: وكم من أهل قرية، وحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقام المضاف، وقالت فرقة: إنما عُبِّرَ بالقرية لأنها أعظم في العقوبة إذ أهلك البشر وقريتهم، وقد بين في آخر الآية بقوله سبحانه: ﴿أَوْ هُمْ﴾ أن البشر داخلون في الهلاك، فالآية - على هذا التأويل - تتضمن هلاك القرية وأهلها جميعاً. وعلى التأويل الأول تتضمن هلاك الأهل.

والمراد بالآية التكرير، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ فَجَاءَهُمْ بُأْسُنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَبَاءَ مَا﴾ يقتضي ظاهره أن المجيء بعد الإهلاك وذلك مستحيل، فلم يبق إلا أن يُعَدَّلَ عن ظاهر هذا التعقيب، فقيل: الفاء قد تجيء منزلة الواو ولا تعطي رتبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقيل: عُبِّرَ عن إرادة الإهلاك بالإهلاك، قال مكي في المشكل: مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يحتاج به من قال: الفاء في هذه الآية لتعقيب القول. وقيل: المعنى: أهلكناها بالخذلان وقلة التوفيق فجاءها بأسنا بعد ذلك. وقال الفراء - وحكاة الطبري -: إن الإهلاك هو مجيء البأس ومجيء البأس هو الإهلاك، فلما تلازما لم يبال أيهما قدم في الرتبة. وقيل: إن الفاء لترتيب القول فقط، فكانه أخبر عن

قرى كثيرة أنه أهلها ثم قال: فكان من أمرها مجيء البأس.

و ﴿يَتَنَبَّأُ﴾ نصب على المصدر في موضع الحال، و ﴿قَائِلُونَ﴾ من القائلة، وإنما خص وقتي الدعة والسكون لأن مجيء العذاب فيهما أفضح وأهول لما فيهما من البغت والفجأة، و ﴿أَزَى﴾ في هذا الموضع كما تقول: الناس في فلان صنفان حامد أو ذام، فكأنه قال: جاءهم بأسنا فرقتين بائتين أو قائلين، وهذا هو الذي يسمى اللف، وهو إجمال في اللفظ يفرقه ذهن المخاطب دون كلفة. والبأس: العذاب. وقيل: المراد: أو وهم قائلون، فكره اجتماع حرفي العطف فحذفت الواو، وهذا تكلف لأن معنى اللف باق.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ الآية. تبين في هذه الآية غاية البيان أن المراد في الآية قبلها أهل القرى. والدعوى في كلام العرب لمعنيين: أحدهما: الدعاء، قال الخليل: تقول: اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين، ومنه قوله عز وجل: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ ومنه قول الشاعر:

وإن مذلّت رجلي دَعْوَتِكَ أَشْتَفِي
بِدَعْوَالِكَ مَنْ مَذَلْ بِهَا فَيَهْوُوُ
والثاني الادعاء، قال الطبري: هي في هذا الموضع بمعنى الدعاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتوجه أيضاً أن يكون بمعنى الادعاء، لأن من ناله مكروه أو حزبه حادث فمن شأنه أن يدعو كما ذهب إليه المفسرون في فعل هؤلاء

المذكورين في هذه الآية، ومن شأنه أيضاً أن يدعي معاذير وأشياء تحسن حاله وتقيم حجته في زعمه، فينتجه أن يكون هؤلاء بحال من يدعي معاذير ونحوها، فأخبر الله عنهم أنهم لم تكن لهم دعوى ثم استثنى من غير الأول كأنه قال: لم يكن دعاء أو ادعاء إلا الإقرار والاعتراف، أي: هذا كان بدل الدعاء والادعاء.

وتحتمل الآية أن يكون المعنى: فما آلت دعواهم التي كانت في حال كفرهم إلا إلى اعتراف، ونحو من الآية قول الشاعر:

وَقَدْ شَهِدْتُ قَيْسَ فَمَا كَانَ نَصْرُهُ
فَتَنِيْبَةً إِلَّا عَضُّهَا بِالْأَبْهَامِ
واعترافهم وقولهم إنا كنا ظالمين هو في المدة بين ظهور العذاب إلى إتيانه على أنفسهم، وفي ذلك مهلة بحسب نوع العذاب تتسع لهذه المقالة وغيرها، وروى ابن مسعود عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ما هلك قوم حتى يُغذّروا من أنفسهم»، وفُسر عبد الملك بن ميسرة هذا الحديث بهذه الآية. و ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ واسمها ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾، وقيل بالعكس.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ وعيد من الله عز وجل لجميع العالم، أخبر أنه يسأل الأمم أجمع عما بلغ إليهم عنه وعن جميع أعمالهم، ويسأل النبيين عما بلّغوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد نُفي السؤال في آيات وذلك هو سؤال الاستفهام الحقيقي، وقد أثبت في آيات كهذه الآية وهذا هو سؤال التقرير، فإن الله قد أحاط علماً بكل

ذلك قبل السؤال، فأما الأنبياء والمؤمنون فيعقبهم جوابهم رحمة وكرامة، وأما الكفار ومن نفذ عليه الوعيد من العصاة فيعقبهم جوابهم عذاباً وتوبيخاً، فمن أنكر منهم قص عليه بعلم، وقرأ ابن مسعود: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ نُرْسَلْنَا وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ أي: قلّسُرْدُنْ عَلَيْهِمْ﴾ أعمالهم قصة ﴿يَلْمُ﴾ أي: بحقيقة ويقين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يشبه أن يكون الكلام هنا استعارة إذ كل شيء فيه مقيد. ﴿وَمَا كُنَّا عَنْهُ﴾ أي: ما كنا من لا يعلم جميع تصرفاتهم كالفأب عن الشيء الذي لا يعرف له حالاً.

٨ - ٩ - تفسير قوله عز وجل: ﴿الْوَزْنَ﴾: مصدر وزن يزُن، ورفع بالابتداء، و ﴿الْحَقُّ﴾ خبره. و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف منتصب بـ ﴿الْوَزْنَ﴾، ويصح أن يكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خبر الابتداء، و ﴿الْحَقُّ﴾ نعت لـ ﴿الْوَزْنَ﴾، والتقدير: الوزن الحق ثابت أو ظاهر يومئذ. و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إشارة إلى يوم القيامة والفصل بين الخلائق.

واختلف الناس في معنى الوزن والموازين - فقالت فرقة: إن الله عز وجل أراد أن يعلم عباده أن الحساب والنظر يوم القيامة هو في غاية التحرير ونهاية العدل، فمثل لهم في ذلك بالوزن والميزان إذ لا يعرف

البشر أمراً أكثر تحريراً منه، فاستعير للعدل وتحرير النظر لفظه الوزن والميزان كما استعار ذلك أبو طالب في قوله:

بِمِيزَانٍ قَسِطٍ لَا يَخْسُ شَعِيرَةً
لَهُ حَاكِمٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرٌ عَائِلٌ
وَرُوي هذا القول عن مجاهد والضحاك وغيرهما، وكذلك استعير - على قولهم - الثقل والخفة لكثرة الحسنات وقتلتها.

وقال جمهور الأمة: إن الله عز وجل أراد أن يعرض لعباده يوم القيامة تحرير النظر وغاية العدل بأمر قد عرفوه في الدنيا وعهدته أفهامهم، فميزان القيامة له عمود وكفتان على هيئة موازين الدنيا، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام»، وقالوا: هذا الذي اقتضاه لفظ القرآن ولم يرده نظر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول أصح من الأول من ثلاث جهات - أولها: أن ظواهر كتاب الله عز وجل تقتضيه، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ينطق به، من ذلك قوله لبعض الصحابة - وقد قال له: يا رسول الله، أين أجلك في يوم القيامة؟ - فقال: «اطلبي عند الحوض، فإن لم تجدني فعند الميزان». ولو لم يكن الميزان مرتباً محسوساً لَمَا أحاله رسول الله ﷺ على الطلب عنده، وجهة أخرى أن النظر في الميزان والوزن والثقل والخفة المقترنات بالحساب لا يفسد شيء منه ولا تختل صحته، وإذا كان الأمر كذلك

فَلِمَ نخرج من حقيقة الأمر إلى مجازه دون علّة؟، وجهة ثالثة وهي أن القول في الميزان هو من عقائد الشرع الذي لم يُعرف إلا سماعاً، وإن فتحنا فيه باب المجاز غمرتنا أقوال الملاحدة والزنادقة في أن الميزان والصراط والجنة والنار والحشر ونحو ذلك إنما هي ألفاظ يراد بها غير الظاهر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فينبغي أن يجري في هذه الألفاظ إلى حملها على حقائقها.

وأما الثقل والخفة فإن الآثار تظاهرت بأن صحائف الحسنات والسيئات توضع في كفتي الميزان فيحدث الله في الجهة التي يريد ثقلاً وخفة على نحو إحداثه ذلك في جسم رسول الله ﷺ في وقت نزول الوحي عليه، ففي الصحيح من حديث زيد بن ثابت أنه قال: (كنت أكتب حتى نزلت ﴿عِزُّ أُولَى الْقُرَى﴾ وفخذ رسول الله ﷺ على فخذي حتى كادت أن ترض فخذي)، وفي الحديث (أنه كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته بركت به عجزاً عن حمله للثقل الحادث فيه). ولا بد لنا أن نعلم أن الثقل الحادث مع الحسنات إنما يتعلق بجسم، إذ العرض لا يقوم بعارض، فجاز أن يحدث الثقل في الصحائف وهو أقربها إلى الظن، وجزاء أن يحدث في ذلك من الأجسام المجاورة لتلك الحال، وإلى حدوثه في الصحائف ذهب أبو المعالي، ورويت في خبر الميزان آثار عن صحابة وتابعين في هيئته وطوله وأحواله لم تصح بالإسناد،

فلم نر للإطالة بها وجهاً. وقال الحسن فيما روي عنه: بلغني أن لكل أحد يوم القيامة ميزاناً على حدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مردود والناس على خلافه، وإنما لكل أحد وزن يختص به والميزان واحد، وروى عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿تُنَزَّلُ مَوَازِينُ﴾ أن الموازين الحسنات نفسها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجمع لفظ الموازين إذ في الميزان موزونات كثيرة فكأنه أراد التنبيه عليها بجمعه لفظ الميزان.

و ﴿الْمُؤَلِّحُونَ﴾ في اللغة: المدركون لبغيتهم، الناجحون في طلبهم، ومنه قول عبيد:

أَفْلَحَ بِمَا شِئْتُ فَقَدْ يَبْلُغُ بِالضُّفْ
فَ وَقَدْ يُخْذَعُ الْأَرِيبُ
فأما قول الشاعر:

وَالْمُسْنِي وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَهُ
فقد قيل: إنه بمعنى البقاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والبقاء: بلوغ بغية، فالمعنيان متقاربان، ووزن الله أعمال العباد مع علمه بدقائق الأشياء وجلالها نظير كتبه أعمالهم في صحائفهم واستنساخه ذلك، ونظير استنطاقه جوارحهم بالشهادة عليهم إقامة للحجة وإيضاحاً، فقد تقرر في الشرع أن كلمة التوحيد ترجح ميزان من وزنت في أعماله ولا بُدَّ. فإن قال قائل: كيف تثقل موازين العصاة من المؤمنين بالتوحيد ويصع لهم حكم الفلاح ثم

تدخل طائفة منهم النار وذلك شقاء لا محالة؟ - فقالت طائفة: إنه توزن أعمالهم دون التوحيد فتخف الحسنات فيدخلون النار، ثم عند إخراجهم يوزن التوحيد فتثقل الحسنات فيدخلون الجنة، وأيضاً فمعرفة العاصي أنه غير مخلّد فلاح وإن تقدمه شقاء على جهة التأديب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَفَّ مَوْزِنَةً﴾ الآية. المعنى: من حَفَّت كفة حسناته فشالت. و ﴿خَيْرُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي بالهلاك والخلود في النار وتلك غاية الخسارة. وقوله تعالى: ﴿يَا كَاوُلُ﴾ أي جزاء بذلك، كما تقول: أكرمتك بما أكرمتني، و [ما] في هذا الموضع مصدرية، والآيات هنا: السرايين والأوامر والنواهي، و ﴿يُظْلِمُونَ﴾ أي يضعونها في غير مواضعها بالكفر والتكذيب.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب لجميع الناس، والمراد أن النوع بجملته مُمَكِّن في الأرض، والمعاش: جمع معيشة وهي لفظة تُعْمُ المأكول الذي يعاش به والتحرّف الذي يؤدي إليه. وقرأ الجمهور: ﴿مَعِيشٌ﴾ بكسر الياء دون همز، وقرأ الأعرج وغيره: ﴿مَعِيشٌ﴾ بالهمز كمدائن وسفائن، ورواه خارجة عن نافع، وروي عن ورش: ﴿مَعِيشٌ﴾ بسكون الياء، فمن قرأ: ﴿مَعِيشٌ﴾ بتصحيح الياء فهو الأصوب لأنها جمع مَعِيشَةٍ وزنها مَفْعِلَةٌ. ويحتمل أن تكون مَفْعِلَةٌ بضم العين، قالهما سيبويه، وقال الفراء: مَفْعِلَةٌ بفتح العين، فالياء في معيشة أصلية، وأعلّت لموافقتها الفعل الذي

هو يعيش في الباء أي في المتحرك والساكن، وصُححت معاش في جمع التكسير لزوال الموافقة المذكورة في اللفظ، ولأن التكسير معنى لا يكون في الفعل وإنما تختص به الأسماء، ومن قرأ: ﴿مَعِيشٌ﴾ فَعَلَى التخفيف من (معاش)، ومن قرأ: ﴿مَعِيشٌ﴾ فأعلها فذلك غلط، وأما توجيهه فعلى تشبيه الأصل بالزائد لأن (معيشة) تشبه في اللفظ (صحيفة)، فكما يقال: صحائف قيل: معاش، وإنما همزت ياء (صحائف) ونظائرها مما الياء فيه زائدة لأنها لا أصل لها في الحركة، وإنما وزنها فعيلة ساكنة، فلما اضطر إلى تحريكها في الجمع بُدِّلَتْ بأجلد منها.

و ﴿قَلِيلًا﴾ نصب بـ ﴿تَشْكُرُونَ﴾، ويحتمل أن تكون [ما] زائدة، ويحتمل أن تكون مع الفعل بتأويل المصدر، و ﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: شكراً قليلاً تشكرون. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ الآية. هذه الآية معناها التنبيه على موضع العبرة والتعجب من غريب الصنعة وإسداء النعمة، فبدأ بالخلق الذي هو الإيجاد بعد العدم، ثم بالتصوير في هذه البنية المخصوصة للبشر، وإلا فلم يُعَرَّ المخلوق قط من صورة.

واضطرب الناس في ترتيب هذه الآية لأن ظاهرها يقتضي أن الخلق والتصوير لبني آدم قبل القول للملائكة أن يسجدوا، وقد صححت الشريعة أن الأمر لم يكن كذلك -

فقال فرقة: المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ آدم بنفسه وإن كان الخطاب لبينه، وذلك لما كان سبب وجود بنيه فما فعل فيه صَحَّ مع تجوز أن يقال: إنه فعل في بنيه، وقال مجاهد: المعنى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ في صلب آدم وفي وقت استخراج ذرية آدم من ظهره أمثال الذر في صورة البشر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويرتب في هذين القولين أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ على بابها في الترتيب والمهلة.

وقال عكرمة والأعمش: المراد: خلقناكم في ظهور الآباء وصورناكم في بطون الأمهات. وقال ابن عباس والربيع بن أنس: أنا ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ فآدم، وأما ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ فذريته في بطون الأمهات، وقاله قتادة والضحاك. وقال معمر بن راشد عن بعض أهل العلم: بل ذلك كله في بطون الأمهات من خلق وتصوير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقالت هذه الفرقة: إن ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الإخبار بهذه الجمل لا لترتيب الجمل في نفسها، وقال الأخفش: ﴿ثُمَّ﴾ في هذه الآية بمعنى الواو، وردّ عليه نحوئذ البصرة.

وملائكة: ووزنه إمّا مَفَاعِلَةٌ وإمّا مَفَاعِلَةٌ بحسب الاشتقاق الذي قد مضى ذكره في سورة البقرة. وهنالك ذكرنا هيئة السجود والمراد به، ومعنى إبليس، وكيف كان قبل المعصية، وأما قوله تعالى في هذه الآية: ﴿إِلَّا إِلَيْسَ﴾ فقال الزجاج: هو استثناء ليس من الأول، ولكن إبليس أمر بالسجود بدليل قوله

وقيل في الآية: ليست (لا) زائدة، وإنما المعنى: ما منعك فأحوجك إلى ألا تسجد؟ وقيل: لما كان ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ بمعنى: مَنْ أَمَرَكَ؟ ومن قال لك؟ حَسُنَ أن يقول بعدها: ألا تسجد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجملته هذا أن يقدر في الكلام فعل يخسّن حمل النفي عليه كأنه قال: ما أحوجك أو حملك أو اضطررك؟ وجواب إبليس اللعين ليس عما سئل عنه، ولكنه جاء بكلام يتضمن الجواب

والحجة عليه، فكأنه قال: منعني فضلي إذ أنا خير منه حين خلقتني من نار وخلقته من طين. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا أسجد، وأنا خير منه وأكبر سنأ وأقوى خلقاً، يقول: إن النار أقوى من الطين، وظن إبليس أن النار أفضل من الطين، وليس كذلك، بل هما في درجة واحدة من حيث هما جماد مخلوق، فلما ظن إبليس أن صعود النار وخفتها يقتضي فضلاً على سكّون الطين وبلادته قاس أن ما خلق منها أفضل مما خلق من الطين، فأخطأ قياسه، وذهب عليه أن الروح الذي تُنفخ في آدم ليس من طين. قال الطبري: ذهب عليه ما في النار من الطيش والخفة والاضطراب، وما في الطين من الوقار والأناة والحلم والتثبت.

تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾. وقال غير الزجاج: الاستثناء من الأول، لأننا لو جعلناه منقطعاً على قول من قال: إن إبليس لم يكن من الملائكة لوجب أن إبليس لم يؤمر بالسجود، إلا أن يقول قائل هذه المقالة: إن أمر إبليس كان بوجه آخر غير قوله تعالى: ﴿أَسْجُدُوا﴾ وذلك بين الضعف.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿لِلْمَلَائِكَةِ أَسْجُدُوا﴾ بضم الهاء، وهي قراءة ضعيفة، ووجهها أنه حذف همزة ﴿أَسْجُدُوا﴾ وألقى حركتها على الهاء، وذلك لا يتجه لأنها همزة محذوفة مع الهاء بحركة، أي شيء يلغى، والإلقاء يكون في الوصل.

﴿١٢﴾ - ﴿١٦﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿مَا﴾ استفهام والمقصود به التوبيخ والتقريع، و (لا) في قوله تعالى: ﴿أَلَا﴾ قيل: هي زائدة، والمعنى: ما منعك أن تسجد، وهي ك (لا) في قول الشاعر:

أبى جوده لا البخل فاستعجلت به
نعم من فتى لا يمتنع الجود نائله
وهذا على أحد الأقوال في هذا البيت، فقد قيل: (لا) فيه زائدة، وقال الزجاج: مفعولة، والبخل بدل منها، وحكى الطبري عن يونس عن أبي عمرو بن العلاء أن الرواية فيه: (لا البخل) بخفض اللام، لأن (لا) قد تتضمن جوداً إذا قالها في أمر يمنع الحقوق والبخل عن الواجبات. ومن الآيات التي جاءت (لا) فيها زائدة قول الشاعر:

أفمئتك لا بزق كأن وميضه
غاب تسنمه ضرام مشقب

قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَأَهْطِ مَتَىٰ يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لَا تَقْدِرُ لَمْ يَصْرُطْكَ أَتَسْتَقِيمُ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَنصُرُهُمْ رَبُّنَا أَدْبَارَهُمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَمَنِ يَبْعَثْ مِنْهُمُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَعَادُ أَسْكُنُ أَتَىٰ وَرَدَّكَ الْجَنَّةَ فَكُلْ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ نَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاَسَهُمَا إِلَىٰ لَكُمَا لِيَن تَصْصِيحَ ﴿٢١﴾ فَذَلَّهُمَا بِمُرَدِّ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطُفِقَا بِنَخْسِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا أَنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ تُبِينُ ﴿٢٢﴾

١٥٢

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي كلام الطبري نظر، وروي عن الحسن وابن سيرين أنهما قالَا: أول من قاس إبليس، وما عبّدت الشمس والقمر إلا بالقياس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قال الطبري: يعني القياس الخطأ، ولا دليل من لفظهما عليه، ولا يتأول عليهما إنكار القياس، وإنما خرج كلامهما نهيًا عما كان في زمنهما من مقاييس الخوارج وغيرهم، فأزاد حمل الناس على الجادة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَهْطِ مَتَىٰ﴾ الآية. أمر من الله عز وجل لإبليس بالهبوط في وقت عصيانه في السجود، فيظهر من هذا أنه أهبط أولاً وأخرج من الجنة وصار في السماء لأن الأخبار تظاهرت أنه أغوى آدم وحوّاء من خارج الجنة، ثم أمر آخرًا بالهبوط

من السماء مع آدم وحواء والحية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا كله بحسب ألفاظ القصة والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿مَّا يَكُونُ لَكَ﴾ معناه: فما يصح لك ولا يتم، وليس يقتضي هذا أن التكبر له في غيرها على ما ذهب إليه بعض المعترضين، فقد تضمنت الآية أن الله أخبر إبليس أن الكبرياء لا يتم له ولا يصح في الجنة مع نهيه له ولغيره عن الكبرياء في كل موضع، وأما لو أخذنا ﴿مَّا يَكُونُ﴾ على معنى: فما يحسن وما يجمل كما تقول للرجل: ما كان لك ألا تصل قرابتك لفتى معنى الإغلاظ على إبليس .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ حكم عليه بضد المعصية التي عصى بها وهي الكبرياء، فعوقب بالحمل عليه بخلاف شهوته وأمله، والصغار: الذل، قاله السدي .

ثم سأل إبليس ربّه أن يؤخره إلى يوم البعث، طمع ألا يموت إذ علم أن الموت ينقطع بعد البعث . ومعنى ﴿أَنْظِرْنِي﴾ أخرني . فأعطاه الله النّظرة إلى يوم الوقت المعلوم، فقال أكثر الناس: الوقت المعلوم: هو النفخة الأولى في الصور التي يصعق لها من في السموات ومن في الأرض من المخلوقين، وقالت فرقة: بل أحاله على وقت معلوم عنده عز وجل يريد به يوم موت إبليس وحضور أجله دون أن يعين له ذلك، وإنما تركه في عماء الجهل به ليغمه ذلك ما عاش .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وقال بعض أهل هذه المقالة: إن

إبليس قتلته الملائكة يوم بدر، ورؤوا في ذلك أثراً ضعيفاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : والأول من هذه الأقوال أصح وأشهر في الشرع .

ومعنى ﴿وَمِنَ النَّظَرِينَ﴾: من الطائفة التي تأخرت أعمالها كثيراً حتى جاءت آجالها على اختلاف أوقاتها، فقد عمّ تلك الطائفة إنظار وإن لم يكونوا أحياء مدة الدهر .

وقوله: ﴿فِيمَا﴾ يحتمل أن يريد به القسم كما تقول: فبالله لأفعلن، ويحتمل أن يريد به معنى المجازاة كما تقول: فبإكرامك يا زيد لأكرمك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا أليق المعاني بالقصة .

ويحتمل أن يريد: فمع إغوائك لي ومع ما أنا عليه من سوء الحال لأتجلد وأقعد، ولا يعرض لمعنى المجازاة . ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿فِيمَا﴾ الاستفهام عن السبب في إغوائه، ثم قطع ذلك وابتدأ الإخبار عن قعوده لهم، وبهذا فسر الطبري أثناء لفظه . و ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ قال الجمهور: معناه: أضللتني، من الغي، وعلى هذا المعنى قال محمد بن كعب القرظي - فيما حكى الطبري -: قاتل الله القدرية، لإبليس أعلم بالله منهم، يريد في أنه علم أن الله يهدي ويضل . وقال الحسن: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ لعنتني، وقيل: معناه: خيبتني .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا كله تفسير بأشياء لزم إغواءه . وقالت فرقة: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ معناه:

أهلكتنني، حكى ذلك الطبري، وقال: هو من قولك: غوي الفصيل يَغْوِي غَوًى إذا انقطع عنه اللبن فمات . وأنشد:

مُعْطَفَةُ الْأَثْنَاءِ لَيْسَ فَصِيلُهَا
بِرَازِئِهَا ذَوًّا وَلَا مَيْتَ غَوًى
قال: وقد حكى عن بعض طي: أصبح فلان غاوياً، أي مريضاً .

وقوله: ﴿لَا أَقْدَرُ لِمَ يَرْكَكُ﴾ يريد: على صراطك، وفي صراطك، وحذف كما يفعل في الظروف، ونحوه قول الشاعر:

لِذُنْ بِهَزِّ الْكَفِّ يَغْيِلُ مَثْنُهُ
فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقُ الثَّغْلُ
وقال مجاهد: ﴿يَرْكَكُ السَّيِّمُ﴾ يريد به الحق . وقال عون بن عبدالله: يريد طريق مكة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا تخصيص ضعيف، وإنما المعنى: لأتعرضن لهم في طريق شرعك وعبادتك ومنهج النجاة فلاصدهم عنه، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعْدَ لَا بَنَ آدَمَ بِأَطْرَقِهِ، نَهَاهُ عَنِ الْإِسْلَامِ» وقال: تترك دين آبائك؟ فعصاه فأسلم، فنهاه عن الهجرة وقال: تدع أهلك وبلدك؟ فعصاه فهاجر، فنهاه عن الجهاد وقال: تقتل وتترك ولدك؟ فعصاه فجاهد فله الجنة . الحديث .

(٧) - (٨) تفسير قوله عز وجل: هذا تأكيد من إبليس في أنه يجد في إغواء بني آدم، وهذا لم يكن حتى علم إبليس أن الله يجعل في الأرض خليفة وعلم أنه آدم، وإلا فلا طريق له إلى علم أنسال آدم من ألفاظ هذه الآيات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومقصد هذه الآية أن إبليس أخبر عن نفسه أنه يأتي لإضلال ابن آدم من كل جهة، وعلى كل طريق، يفسد عليه ما أمكنه من معتقده، وينسيه صالح أعمال الآخرة، ويغريه بقبيح أعمال الدنيا، فعبر عن ذلك بالفاظ تقتضي الإحاطة بهم، وفي اللفظ تَجَوُّز، وهذا قول جماعة من المفسرين.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه: أراد بقوله: «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» الآخرة، «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» الدنيا، «وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ» الحق، «وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ» الباطل. وقال ابن عباس أيضاً فيما روي عنه: «مَنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» هي الدنيا، «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» هي الآخرة، «وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ» الحسنات، «وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ» السيئات. وقال مجاهد: «مَنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» «وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ» معناه: حيث يبصرون، «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» «وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ» حيث لا يبصرون.

وقوله: «وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ» أخبر أن سعائته تفعل ذلك ظناً منه وتوهماً في خلقة آدم حين رأى خلقته من أشياء مختلفة، فعلم أنه ستكون لهم شَيْمٌ تقتضي طاعته كالغلل والحسد والشهوات ونحو ذلك، قال ابن عباس، وقتادة: إلا أن إبليس لم يقل إنه يأتي بني آدم من فوقهم ولا جعل الله له سبيلاً إلى أن يحول بينهم وبين رحمة الله وعفوه ومثله. وما ظنَّ إبليس صدقه الله عز وجل، ومنه قوله تعالى: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنْ

الْمُتَزَيِّينَ» فجعل أكثر العالم كفره، وَبَيَّنَّاهُ قول النبي ﷺ في الحديث: «يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة: يا آدم، أخرج بعث النار، فيقول: يا رب وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، وواحد إلى الجنة»، ونحوه مما يخص أمة محمد عليه الصلاة والسلام، «ما أنتم في الأسم إلا كالشجرة البيضاء في الثور الأسود».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله: (كالشجرة) يحتمل أن يريد شجرة واحدة وهو بعيد لأن تناسب الحديث الأول يرده. ويحتمل أن يريد الشجرة التي هي للجنس، والقصد أن يشبههم بثور أسود قد أنبت في خلال سواده شجرة بيضاء، ويحتمل أن يريد اللمعة من الشعر الأبيض وهذا فيه بعد. وقوله: «شَاكِرِينَ» معناه: مؤمنين لأن ابن آدم لا يشكر نعمة الله إلا بأن يؤمن، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

وقوله تعالى: «قَالَ لَنَرَجِ مِنَهَا الضمير في «مِنْهَا» عائد على الجنة، و «مِنْهَا» معناه: معيهاً، يقال: ذامه إذا عابه، ومنه الذام وهو العيب، وفي المثل: «لن تعدم الحسناء ذاماً» أي عيباً، وسهلت فيه الهمزة، ومنه قول قتل حمير: أردت أن تذييه فمدحته، يريد: فمدحته، وحكى الطبري أنه يروى هذا البيت: صَحْبَتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيَّهَا غِشَاوَةٌ فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَعْتُ نَفْسِي أَذِيمَهَا قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والرواية المشهورة ألومها. ومن

المشاهد في اللفظ قول الكمي: وَهُمْ الْأَقْرَبُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَهُمْ الْأَبْعَدُونَ مِنْ كُلِّ ذَمٍّ ومن الشاهد في «مَتَحَوُّرًا» قول الشاعر:

وَدَحَرْتُ بَنِي الْحَصِيبِ إِلَى قُدَيْدٍ
وَقَدْ كَانُوا ذَوِي أَثَرٍ وَفَخْرٍ
وقرأ الزهري، وأبو جعفر، والأعمش في هذه الآية: «مَلُومًا» على التسهيل. و «مَتَحَوُّرًا» معناه: مقصياً مبعداً. وقرأ فرقة: «لَنْ تَمَكَّ» بفتح اللام وهي على هذه لأم القسم المخرجة الكلام من الشك إلى القسم، وقرأ عاصم الجحدري، والأعمش: «لَمَنْ تَبِعَكَ» بكسر اللام، والمعنى: لأجل من تبعك لأملاًن جهنم منكم أجمعين، فأدخله في الوعيد معهم بحكم هذه الكاف في «مَنْكُمْ».

﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل: إذا أمر الإنسان بشيء هو متلبس به فإنما المقصد بذلك أن يستمر على حاله ويتمادى في هيته. وقوله تعالى: لآدم: «أَسْكَنْ» هو من هذا الباب. وأكد الضمير الذي في قوله: «أَسْكَنْ» بقول: «أَنْتَ» وحيث جاز العطف عليه وهو ضمير لا يجوز إظهاره ولا يترتب، والعطف على الضمير الملقوظ به لا يجوز إلا بعد تأكيده كقولك: قمت أنت وزيد، لأن الضمير بمنزلة حرف من الفعل، وهذا الضمير الذي في «أَسْكَنْ» أضعف من الملقوظ به فأحرى ألا يصح العطف عليه إلا بعد التأکید.

وقوله تعالى: «فَكَذَّبَ» هو من (أَكَلَ)، فأصله أَوْكَلَ فحذفت فاء

الفعل لاجتماع المثلين، واستغني عن الأخرى لما تحرّك ما بعدها، وحسن أيضاً حذف فاء الفعل لأنهم استثقلوا الحركة على حرف علة، وهذا باب كل فعل أوله همزة ووزنه فَعَلَ كَأَخَذَ وأمر ونحوه، وكان القياس ألا تحذف فاء الفعل ولكن ورد استعمالهم هكذا.

ويقال: قرب يقرب. و ﴿هَٰذِهِ الشَّجَرَةُ﴾ الظاهر أنه أشار إلى شخص شجرة واحدة من نوع وأرادها، ويحتمل أن يشير إلى شجرة معينة وهو يريد النوع بجملته، وعبر باسم الواحدة كما تقول: أصاب الناس الدينار والدرهم، وأنت تريد النوع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى الاحتمالين فأدم عليه السلام إنما قصد في وقت معصية فعل ما نهى عنه، قاله جمهور المتأولين، وبذلك أغواه إبليس لعنه الله بقوله: إنك لم تَنْهَ إلا لثلاث تخطئ أو تكون ملكاً، فيبطل بهذا قول من قال: إن آدم إنما أخطأ متأولاً بأن ظن النهي متعلقاً بشخص شجرة فأكل من النوع فلم يعذر بالخطأ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك أن القائل إنما يفرض آدم معتقداً أن النهي إنما تعلق بشجرة معينة فكيف يقال له مع هذا الاعتقاد: إنك لم تَنْهَ إلا لثلاث تخطئ، ثم يقصد هو طلب الخلود في ارتكاب غير ما نهى عنه؟ ولا فرق بين أكله ما يعتقد أنه لم يَنْهَ عنه وبين أكله سائر المباحات له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والهاء الأخيرة في ﴿هَٰذِهِ﴾ بدل من

الياء في (هذي) أبدلت في الوقف ثم ثبتت في الوصل هاء حملاً على الوقف، وليس في الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة إلا هذه. وقرأ ابن محيصن: ﴿هَٰذِي الشَّجَرَةُ﴾ على الأصل. وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ﴾ نصب في جواب النهي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتعلق الناس بهذه الآية في مسألة الحظر والإباحة، وذلك أن مسألة الحظر والإباحة تكلم الناس فيها على ضربين: فأما الفقهاء فدعاهم إلى الكلام فيها أنه تنزل نوازل لا توجد منصوصة في كتاب الله عز وجل في سنة نبية ولا في إجماع، ويعتم وجه استقراءها من أحد هذه الثلاثة وقياسها على ما فيها، فيرجع الناظر بعد ذلك ينظر على أي جهة يحملها من الإجازة والمنع، فقال بعضهم: إذا نزل مثل هذا فنحمله على الحظر، ونأخذ فيه بالشدة، ونستبرئ لأنفسنا، إذ الله عز وجل قد بين لنا في كتابه جميع ما يجب بيانه، وأحل ما أراد تحليله، ولم يترك ذكر هذه النازلة إلا عن قصد فاجترأنا نحن عليه لا تقتضيه الشريعة. وقال بعضهم: بل نحملها على الإباحة لأن الله عز وجل قد أكمل لنا ديننا وحرّم علينا ما شاء تحريمه، ولم يهمل النص على نازلة إلا وقد تركها في جملة المباح، وبعيد أن يريد في شيء التحريم ولا يذكره لنا ويدعنا في عمى الجهالة به، فإنما نحملها على الإباحة حتى يطرأ الحظر، وقال بعضهم: بل نحمل ذلك على الوقف أبداً ولا

نحكم فيه بحظر ولا إباحة، بل نطلب فيه النظر والقياس أبداً، وذلك لأننا نجد الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في مواضع، ويقول: ﴿أُجِلْ لَكُمْ﴾ في مواضع، فدل ذلك على أن كل نازلة تحتاج إلى شرع وأمر، إما مخصوصاً بها، وإما مشتملاً عليها وعلى غيرها، ولو كانت الأشياء على الحظر لما قال في شيء: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، ولو كانت على الإباحة لما قال في شيء: ﴿أُجِلْ لَكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أبين الأقوال، ولم يتعرض الفقهاء في هذه المسألة إلى النظر في تحسين العقل وتقييحه، وإنما تمسكوا في أقوالهم هذه بأسباب الشريعة، وذهبوا إلى انتزاع مذاهم منها.

وأما الضرب الثاني من كلام الناس في الحظر والإباحة فإن المعتزلة ومن قال بقولهم: إن العقل يحسن ويقبح - نظروا في المسألة من هذه الجهة فقالوا: نفرض زمناً لا شرع فيه، أو رجلاً نشأ في برية ولم يَحْسُ قط بشرع ولا بأمر ولا بنهي، أو نقدر آدم عليه السلام وقت إهباطه إلى الأرض قد ترك وعقله قبل أن يؤمر ويُنهى. كيف كانت الأشياء عليه؟ أو كيف يقتضي العقل في الزمن والرجل المفروضين؟ فقال بعضهم: الذي يحسن في العقل أن تكون محظورة كلها حتى يرد الإذن باستباحتها، وذلك أن استباحتها تعدّ على ملك الغير، وإذا قُبِحَ ذلك في الشاهد فهو في حق الله أعظم حرمة، وذهب بعض هذه الفرقة إلى استثناء النفس

والحركة من هذا الحظ وقالوا: إن هذه لا يمكن غيرها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويمكن أن يقدر الاضطراب إليها إباحة لها. وقال بعضهم: بل يحسن في العقل أن تكون مباحة إذ التحكم في ملك الغير بوجه لا ضرر عليه فيه كالاستئلال بالجدران ونحوه مباح، فإذا كان هذا في الشاهد جائزاً فهو في عظم قدر الله تعالى ووجوده أجوز، إذ لا ضرر في تصرفنا نحن في ملكه ويتعلق بحقه شيء من ذلك.

وقال أهل الحق والسنة في هذا النحو من النظر: بل الأمر في نفسه على الوقف، ولا يوجب العقل تحسناً ولا تقييحاً بمجرد يدان به، ولا يتجه حكم الحسن والقبیح إلا بالشرع. وقال بعضهم: والعقل لم يخل قط من شرع، فلا معنى للخوض في هذه المسألة ولا لفرض ما لا يقع، وذهبوا إلى الاحتجاج بأن آدم عليه السلام قد توجهت عليه الأوامر والنواهي في الجنة بقوله تعالى له حين جرى الروح في جسده فعطس: قل: الحمد لله يا آدم، ويقول: اسكن وكل ولا تقرب ونحو هذا، وقال القاضي الباقلاني في «التقريب والإرشاد»: إن الفقهاء الذين قالوا بالخطر والإباحة لم يقصدوا الكون مع المعتزلة في غوايتهم، ولكنهم رأوا كلاماً ملقفاً مموهاً فاستحسنوه دون أن يشعروا بما يؤول إليه من الفساد في القول بتحسين العقل وتقييحه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الكلام حمل على فقهاء الشرع واستقصار لهم، والصواب ألا يُظن بهم هذا الخلل، وإنما التمسوا على نوازلهم تعليق حكم الحظر والإباحة من الشرع، وهم مع ذلك لا يحمل عليهم أنهم يدفعون الحق في أن العقل لا يحسن ولا يفتح دون الشرع.

وقد تقدم في البقرة ذكر الاختلاف في الشجرة وتعيينها.

❧ - ❧ تفسير قوله عز وجل: الوسوسة: الحديث في خفاء همساً وسراراً من الصوت، والوسواس: صوت الخلق فشبّه الهمس به، وسمي إلقاء الشيطان في نفس ابن آدم وسوسة إذا هي أبلغ السرار وأخفاء، هذا في حال الشيطان معنا الآن، وأما مع آدم فممكن أن تكون وسوسة بمجاورة خفية، أو بإلقاء في نفس، ومن ذلك قول رؤية:

وَسَوَسَ يَدْعُو جَاهِداً رَبَّ الْفَلَقِ
فهذه عبارة عن كلام خفي، والشيطان يراد به إبليس نفسه. واختلف ثقله القصص في صورة وسوسته، فروي أنه كان يدخل إلى الجنة في فم الحية مُستخفياً بزعمه فيتمكن من الوسوسة، وروي أن آدم وحواء كانا يخرجان خارج الجنة فيتمكن إبليس منهما، وروي أن الله تعالى أقدره على الإلقاء في نفسيهما فأغواهما وهو في الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف يردّه لفظ القرآن.

واللام في قوله تعالى: ﴿يَسِيْرٌ﴾ هي على قول كثير من المؤلفين لام الصيرورة والعاقبة، وهذا بحسب آدم

وحواء، وبحسب إبليس في هذه العقوبة المخصوصة لأنه لم يكن له علم بها فيقصدها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويمكن أن تكون لام يكي على بابها بحسب قصد إبليس إلى حط مرتبتها وإلقائها في العقوبة غير المخصوصة، و﴿مَا وَرَى﴾ معناه: ما ستر، من قولك: وازى يوارى إذا ستر، وظاهر هذا اللفظ أنها مفاعلة من واحد، ويمكن أن تقدر من اثنين لأن الشيء الذي يوارى هو أيضاً من جهة. وقرأ ابن وثاب: ﴿مَا وَرَى﴾ بواو واحدة. وقال قوم: إن هذه اللفظة في هذه الآية مأخوذة من وراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول يوهنه التصريف.

والسواة: الفرج والدبر، ويشبه أن يسمى بذلك لأن منظره يسوء. وقرأ مجاهد والحسن: ﴿مِنْ سَوَاتِمَها﴾ بالإفراد وتسهيل الهمزة وشذ الواء. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وشيبة بن نصاح، والحسن، والزهري: ﴿مِنْ سَوَاتِمَها﴾ بتسهيل الهمزة وتشديد الواو، وحكاها سيويه لغة، قال أبو الفتح: ووجهها حذف الهمزة وإلقاء حركتها على الواو فيقولون: سوة، ومنهم من يشدّ الواو، وقالت طائفة: إن هذه العبارة إنما قصد بها أنها كشفت لهما معانيهما وما يسوؤهما ولم يقصد بها العورة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول كان اللفظ يحتمله إلا أن ذكر خصف الورق يردّه، إلا أن يقدر

بمعنى (الذي) كان قوله تبارك وتعالى: ﴿لَكُمْ﴾ داخلًا في الصلة فلا يجوز تقديمه، وأظن أن أبا علي الفارسي خرج جواز تقديمه وهي بمعنى (الذي)، والظاهر أنه إن جعلت بمعنى (الذي) كانت اللام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ متعلقة بمحذوف تقديره: إني ناصح لكم من الناصحين. وقال أبو العالية في بعض القراءة: «وقاسمهما بالله».

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿قَدَلْنَاهَا بَدْرًا﴾ يريد: فغمرهما بقوله وخدعهما بمكره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه عندي أن يكون هذا استعارة من الرجل يدلّي آخر من هوة بحبل قد أُرْمَ، أو بسبب ضعيف يغتر به، فإذا تدلّي به ثورك عليه انقطع به فهلك، فَيُسَبَّه الذي يُعْرَى بالكلام حتى يصدقه فيقع في مصيبة بالذي يدلّي في هوة بسبب ضعيف.

وعلق حكم العقوبة بالدوق إذ هو أول الأكل وبه يرتكب التهي، وفي آية أخرى: ﴿فَأَكَلَا مِنَّا﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَدَتْ﴾، قيل: تخرقت عنهما ثياب الجنة وملابسها وتطايرت تَبَرِيًّا منهما، وقال وهب بن مُتَيْبَة: كان عليهما نور يستر عورة كل واحد منهما فانقشع بالمعصية ذلك النور، قال ابن عباس وقتادة: كان عليهما ظُفْرُ كاس فلما عصيا تقلص عنهما فبدت سَوَاتُهُمَا وبقي منه على الأصابع قدر ما يتذكران به المعصية فيجددان الندم.

﴿وَمِنَّا﴾ معناه: أخذًا وجعلًا، وهو فعل لا يختص بوقت كِبَات

اللام، ويؤيد هذه القراءة قوله تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال بعض الناس: يخرج من هذه الألفاظ أن الملائكة أفضل من البشر، وهي مسألة اختلفت الناس فيها، وتمسك كل فريق بظواهر من الشريعة، والفضل بيد الله، وقال ابن قُورْك: لا حجة في هذه الآية لأن يحتمل أن يريد ملكين في ألا تكون لهما شهوة في طعام.

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي حلف لهما بالله، وهي مفاعلة إذ قبول المحلوف له وإقباله على معنى اليمين كالقَسَم وتقريره، وإن كان بادي الرأي يعطي أنها من واحد، ومثله قول الهذلي: وَقَاسَمَهُمَا بالله جَهْدًا لَأَتُشْمَ أَلَدُ مِنَ السُّلُوى إذا ما تَشُوْرُهُا وروي في القصص أن آدم قال في جملة اعتذاره: ما ظننت يا رب أن أحداً يحلف حائشاً، فقال بعض العلماء: خدع الشيطان آدم بالله عز وجل فأنخدع، ونحن من خدعنا بالله عز وجل أنخدعنا له، وروي نحوه عن قتادة.

واللام في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ متعلقة بـ ﴿التَّائِبِينَ﴾، فقال بعض الناس، مكى وغيره: ذلك على أن تكون الألف واللام لتعريف الجنس لا بمعنى (الذي)، لأنها إذا كانت

قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّنَ تَقْوًى لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ أَهَيْضًا أَبْقَضُكُمْ لِبَعْضِ عَدُوِّكُمْ فَوَدَّ أَنْ يُدْرِكَهُمُ الْأَرْضُ مُمْسَقًا وَمَنْعَ إِلَى جَنِّ ﴿٢٣﴾ قَالَ فَبِمَا تَحْسَبُونَ فِيهَا تَعْمَدُونَ وَمِمَّا تَحْسَبُونَ ﴿٢٤﴾ بَنَيْنَا أَدَمَ قَدْرًا لَّنَا عَلَيْكُمْ لِيَأْزِلَ سَوْءَ تَكْمُومِكُمْ وَرِشَاءَ لِيَأْسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَابَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ بَنَيْنَا أَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِيَاسِمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَعْمَادِكُمْ فَانْصَرَفَا مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوُهُمَا إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِذْ قَالُوا قَدْ جَاءَنَا وَعْدُ آبَائِنَا إِنَّهُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ فَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسًا وَقَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِمْ ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرُ بِمَا قُلْنَا إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْتِيهِمْ أَفْئِدَتُهُمْ أَنْ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعْمَدُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

الضمير في ﴿عَلَيْهِمَا﴾ عائذ على بدنيهما إذ تمرقت عنهما ثياب الجنة فيصح القول المذكور.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا تَهْكُمَا﴾ الآية، هذا القول الذي حكى عن إبليس يدخله من هذا التأويل ما دخل الوسوسة، فممكن أن يقول هذا مخاطبة وحواراً، وممكن أن يقوله إلقاء في النفس ووحياً.

و ﴿إِلَّا أَنْ﴾ تقديره عند سبويه والبصريين: إلا كراهية أن. وتقديره عند الكوفيين: إلا أن لا، على إضمار (لا).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويُزَجَّج قول البصريين أن إضمار الأسماء أحسن من إضمار الحروف.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَلَكِّي﴾ يفتح اللام، وقرأ ابن عباس، ويحيى بن كثير، والضحاك: ﴿مَلِكَيْنِ﴾ بكسر

عَذُّوْهُنَّ **﴿٢٤﴾** إشارة إلى الآية التي في سورة طه في قوله تعالى: **﴿فَلَا يَخْرُجَنَّ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّ﴾**.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو العهد الذي نسيه آدم على مذهب من يجعل النسيان على بابه، وقرأ أبي بن كعب: **﴿أَلَمْ تَنْهَيْنا عَنْ يَلْكُمَا الشَّجَرَةَ وَقِيلَ لَكُمَا؟﴾** وقولهما: **﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾** اعتراف من آدم وحواء عليهما السلام، وطلب للتوبة والستر والثَّغْمَد بالرحمة، فَطَلَبَ آدم هذا وَطَلَبَ إبليس النظرة، ولم يطلب التوبة فَوُكِّلَ إلى رأيه، قال الضحاك: هذه الآية هي الكلمات التي تَلَقَّى آدم من ربه.

﴿٢٥﴾ - **﴿٢٦﴾** تفسير قوله عز وجل: المخاطبة بقوله تعالى: **﴿أَفِطْرُوا﴾** قال أبو صالح، والسدي، والطبري، وغيرهم: هي لآدم وحواء وإبليس والحية. وقالت فرقة: هي مخاطبة لآدم وذريته وإبليس وذريته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لعدمهم في ذلك الوقت، فإن قيل: خاطبهم وأمرهم بشرط الوجود فذلك يبعد في هذه النازلة لأن الأمر بشرط الوجود إنما يصح إذا ترتب على المأمور بعد وجوده وصحَّ معناه عليه كالصلاة والصوم ونحو ذلك، وأما هنا فإن معنى الهبوط لا يتصور في بني آدم بعد وجودهم، ولا يتعلق بهم من الأمر به شيء، وأما قوله تعالى في آية أخرى: **﴿أَفِطْرًا﴾** فهي مخاطبة لآدم وإبليس بدليل بيانه العداوة بينهم.

حرمت عليك؟ قال: بلى يا رب، ولكن وعزتك ما ظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً، قال: فبِعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كذّاً.

وقوله تعالى: **﴿وَنَادَاهُمَا﴾** الآية، قال الجمهور: إن هذا النداء نداء وحي بواسطة، ويؤيد ذلك أنا نتلقى من الشرع أن موسى عليه السلام هو الذي خصص بين العالم بالكلام، وأيضاً ففي حديث الشفاعة (أن بني آدم المؤمنين يقولون لموسى يوم القيامة: أنت خصصك الله بكلامه واصطفاك برسالته، اذهب فاشفع للناس)، وهذه ظاهره أنه مخصص، وقال فرقة: بل هو نداء تكليم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحجة هذا المذهب أنه وقع في أول ورقة من تاريخ ابن أبي خيثمة أن رسول الله ﷺ سئل عن آدم فقال: **﴿نبي مكلم﴾**، وأيضاً فإن موسى خصص بين البشر الساكنين في الأرض، وأما آدم إذا كان في الجنة فكان في غير رتبة سكان الأرض، فليس في تكليمه ما يُفَسِّد تخصيص موسى عليه السلام، ويؤيد أنه نداء وحي اشتراك حواء فيه، ولم يُزَوَّ قَطْ أن الله عز وجل كلم حواء، ويتأول قوله عليه الصلاة والسلام: **﴿نبي مكلم﴾** أنه بمعنى موصل إليه كلام الله تبارك وتعالى.

وقوله عز وجل: **﴿أَنزَلْنَاهُ﴾** سؤال تقرير يتضمن التوبيخ، وقوله تعالى: **﴿يَلْكُمَا﴾** يؤيد بحسب ظاهر اللفظ أنه إنما أشار إلى شخص شجرة **﴿وَأَقَلَّ لَكُمَا إِنَّ الْغَيْظَانَ لَكُمَا﴾**

وظل، و **﴿يَخْتَصِفَانِ﴾** معناه: يلصقانه ويضممان بعضهما إلى بعض، والمِخْصَفُ: الإشفى، والخصف: ضم الورق بعضه إلى بعض أشبه بالخَزَز منه بالخياطة. وقرأ جمهور الناس: **﴿يَخْتَصِفَانِ﴾** من خَصَفَ، وقرأ عبدالله بن بريدة: **﴿يَخْصِفَانِ﴾** يشد الصاد، وقرأ الزهري: **﴿يَخْصِفَانِ﴾** من أخصف، وقرأ الحسن فيما روي عنه محبوب: **﴿يَخْصِفَانِ﴾** بفتح الياء والخاء وكسر الصاد وشدها، ورويت عن ابن بريدة وعن يعقوب، وأصلها **﴿يَخْتَصِفَانِ﴾**، كما تقول: سمعت الحديث واستمعت. فأدغمت التاء في الصاد ونقلت حركتها إلى الخاء، وكذلك الأصل في القراءة بكسر الخاء بعد هذه، لكن لما سكنت التاء وأدغمت في الصاد اجتمع ساكنان فكسرت الخاء على عرف التقاء الساكنين، وقرأ الحسن، والأعرج، ومجاهد: **﴿يَخْصِفَانِ﴾** بفتح الياء وكسر الخاء وكسر الصاد وشدها، وقد تقدم تعليلها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الورق الذي خصف منه ورق الثين، (وروى أبي عن النبي ﷺ أن آدم عليه السلام كان يمشي في الجنة كأنه نخلة سموق، فلما واقع الممصة وبدت له حاله فرز على وجهه فأخذت شجرة بشعر رأسه يقال إنها الزيتون، فقال لها: أرسليني، فقالت: ما أنا بمرسلتك، فناداه ربه: أمني نقر يا آدم؟ قال: لا يا رب ولكنني استحييتك، قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة منلوحه عما

و ﴿عَدُوًّا﴾ فرد بمعنى الجمع، تقول: قومٌ عدوٌّ وقومٌ صديقٌ، ومنه قول الشاعر:

لَعَنَرِي لَيْثُنْ كَثُثُ عَلَى الثَّأْيِ وَالْغَنَى
بِكُمْ مِثْلُ مَا بَنِي إِنْ كُنْتُمْ لَصْدِيقُ
وعداوة الحيات معروفة، وروى قتادة عن النبي ﷺ: «مَا سَأَلْتُمَاهُ مِنْ حَارِبِنَاهُمْ»، وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «من تركهن فليس منا»، وقالت عائشة رضي الله عنها: «من ترك حيّة خشية من ثأرها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما يعرض في أمرهن حديث الفتى في غزوة الخندق، وقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ جُنًّا بِالْمَدِينَةِ قَدْ أَسْلَمُوا، فَمَنْ رَأَى مِنْ هَذِهِ الْحَيَاتِ شَيْئًا فِي بَيْتِهِ فَلْيُخْرِجْ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَلْيَقْتُلْهُ فَإِنَّمَا هُوَ كَافِرٌ».

وقوله تعالى: «مُسْتَفَرِّجًا» لفظ عام لِيَزْمِنَ الْحَيَاةَ وَلِيَزْمِنَ الْإِقَامَةَ فِي الْقُبُورِ، وَيَزْمِنُ الْحَيَاةَ فَسَرَّ أَبُو الْعَالِيَةِ وَقَالَ: هِيَ كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ رِيشًا﴾، وبالإقامة في القبور فسَرَّ ابن عباس رضي الله عنهما، واللفظ يَجْمَعُهُمَا، فَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَجْمَعْ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ أَخِيَّةً وَأَمْوَاتًا ﴿﴾، وَأَمَّا الْمَتَاعُ فَهُوَ بِحَسَبِ شَخْصٍ شَخْصٍ فِي زَمَنِ الْحَيَاةِ، اللَّهُمَّ إِلَّا عَلَى أَنْ تَقْدِرَ سَكْنَى الْقَبْرِ مَتَاعًا بَوَاحٍ مَا، وَالْمَتَاعُ: التَّمَتُّعُ وَالتَّيْلُ مِنَ الْفَوَائِدِ، وَ﴿إِلَّا يَجِيزُ﴾ هُوَ بِحَسَبِ الْجُمْلَةِ: قِيَامُ السَّاعَةِ، وَبِحَسَبِ مَفْرَدٍ مَفْرَدٍ: بَلُوغُ الْأَجَلِ وَالْمَوْتِ. وَالْجِيزُ فِي

كلام العرب: الوقت غير مُعَيَّن. وَرُوي أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَهْبَطَ بِالْهِنْدِ، وَحَوَاءَ بَجْدَةٍ، وَتَمَنَاهَا بَمَنَى، وَعَرَفَ حَقِيقَةَ أَمْرِهَا بِعَرَفَةَ، وَلَقِيَهَا بِجَمْعٍ، وَأَهْبَطَ إِبْلِيسَ بِمَيْسَانَ، وَقِيلَ: بِالْبَصْرَةِ، وَقِيلَ: بِمِصْرَ - فَبَاضَ فِيهَا وَفَرَّخَ. قَالَ ابْنُ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَبَسَطَ إِبْلِيسَ فِيهَا عَيْقَرِيهِ، وَذَكَرَ صَالِحُ مَوْلَى التَّوْمَةِ قَالَ: فِي بَعْضِ الْكِتَابِ: لَمَّا أَهْبَطَ إِبْلِيسَ قَالَ: رَبِّ أَينَ مَسْكَنِي؟ قَالَ: مَسْكَنُكَ الْحِمَامُ، وَمَجْلِسُكَ الْأَسْوَاقُ، وَلَهْوُكَ الْمَزَامِيرُ، وَطَعَامُكَ مَا لَمْ يَذْكُرْ عَلَيْهِ اسْمِي، وَشَرَابُكَ الْمُسْكِرُ، وَرَسْلُكَ الشَّهَوَاتِ، وَحِبَائِلُكَ النِّسَاءِ. وَأَهْبَطْتَ الْحَيَّةَ بِأَصْبَهَانَ، وَرُوي أَنَّهَا كَانَتْ ذَاتَ قَوَائِمٍ كَالْبَعِيرِ فَعُوقِبَتْ بِأَنْ رُدَّتْ تَسَابَ عَلَى بَطْنِهَا.

وَرُوي أَنَّ آدَمَ لَمَّا أَهْبَطَ إِلَى شَقَاءِ الدُّنْيَا عِلْمَ صِنْعَةِ الْحَدِيدِ، ثُمَّ عِلْمَ الْحَرْثِ فَحَرْثَ وَسْقَى وَحَصَدَ وَذَرَا وَطَحَنَ وَعَجَنَ وَخَبَزَ وَطَبَخَ وَأَكَلَ فَلَمْ يَبْلُغْ إِلَى ذَلِكَ حَتَّى بَلَغَ مِنَ الْجَهْدِ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَرُوي أَنَّ حَوَاءَ قِيلَ لَهَا: يَا حَوَاءُ، كَمَا دَمِيتَ الشَّجَرَةَ تَدْمِينًا فِي كُلِّ شَهْرٍ، وَأَنْتِ لَا تَحْمِلِينَ إِلَّا كَرْهًا وَلَا تَضَعِينَ إِلَّا كَرْهًا، قَالَ: فَرُئْتُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَقِيلَ لَهَا: الرُّئْتُ عَلَيْكَ وَعَلَى وَلَدِكَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذه القصة من الأنبياء كثير، اختصرتها إذ لا تقتضيها اللفظ.

وقوله تعالى: «قَالَ فَيَا حَيَّوْنَ» الآية. حكم من الله عز وجل أمضاه وجعله حتمًا في رقاب العباد، يحْيُونَ

في الأرض ويموتون فيها ويبعثون منها إلى الحشر أحياء، كما أنشأ أول خلق يُعِيدُهُ.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو: «تَخْرُجُونَ» بضم التاء وفتح الراء هنا وفي الروم، وكذلك حيث تكرر إلا في الروم «إِنَّا أَنْتَرُ تَخْرُجُونَ»، وفي سأل سائِلَ «يَوْمَ يَخْرُجُونَ»، فَإِنَّ هَذَيْنِ بَفَتْحِ التَّاءِ وَالْيَاءِ وَضَمِ الرَّاءِ وَلَمْ يَخْتَلَفِ النَّاسُ فِيهِمَا. وَقرأ حمزة، والكسائي في الأعراف: «وَمِنْهَا تَخْرُجُونَ» بفتح التاء وضم الراء، وفتح ابن عامر التاء في الأعراف وضمها في الباقي.

وقوله تعالى: «يَتَّبِعُ آدَمَ» الآية. هذا خطاب لجميع الأمم وقت النبي عليه الصلاة والسلام، والمراد قريش ومن كان من العرب يتعرب في طوافه بالبيت، ذكر النقاش ثقيفاً وخزاعة وبني عامر بن صعصعة وبني مَذْلَجٍ وعامر والحارث ابني عبد مناف فإنها كانت عادتهم رجالاً ونساءً، وذلك غاية العار والعصيان، قال مجاهد: ففهم نزلت هذه الأربع الآيات.

وقوله تعالى: «أَنْزَلْنَا» يحتمل أن يريد التدريج، أي: لما أنزلنا المطر فكان عنه جميع ما يُلبَسُ قال عن اللباس: أنزلنا، وهذا نحو قول الشاعر يصف مطراً:

أَقْبَلَ فِي الْمُسْتَشْنِ مِنْ سَحَابِهِ
أَسْنِمَةً الْأَبَالِ فِي رَبَابِهِ
أي: بالمال، ويحتمل أن يريد: «خَلَقْنَا» فجاءت العبارة بـ «أَنْزَلْنَا» كقوله تعالى: «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ» وقوله تعالى: «وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ نَكَبِيَّةً الْأَنْعَامِ» وأيضاً

فَخَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَفْعَالَهُ إِنَّمَا هِيَ
 مِنْ عَلَوٍ فِي الْقَدْرِ وَالْمَنْزِلَةِ. وَ
 ﴿لِبَاسٍ﴾ عام في جميع ما يُلبَس، وَ
 ﴿يُؤَرَّى﴾ يستر، وفي حرف أبي:
 ﴿سَوَاتِكُمْ وَزِينَةَ وَلِبَاسِ التَّقْوَى﴾،
 وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَلِبَاسُ
 التَّقْوَى خَيْرٌ، ذَلِكَ﴾، ويروى عنه:
 «ذلك»، وسقطت «ذلك» الأولى.
 وقرأ سكن النحوي: ﴿وَلِبُوسُ
 التَّقْوَى﴾ بالواو مرفوعة السين. وقرأ
 الجمهور من الناس: ﴿وَرِيْشًا﴾، وقرأ
 الحسن، وَزُرُّ بْنُ حَبِشٍ، وعاصم
 فيما روى عنه أبو عمرو أيضاً، وابن
 عباس، وأبو عبد الرحمن، ومجاهد،
 وأبو رجاء، وزيد بن علي،
 وعلي بن الحسين، وقتادة:
 ﴿وَرِيْشًا﴾، قال أبو الفتح: وهي
 قراءة النبي ﷺ قال أبو حاتم:
 رواها عنه عثمان بن عفان
 رضي الله عنه، وهما عبارتان عن
 سعة الرزق ورفاهة العيش ووجود
 الملبس والتمتع، وفُسِّرَه قومٌ
 بالأثاث، وفُسِّرَه ابن عباس
 رضي الله عنهما بالمال، وكذلك
 قال السدي والضحاك، وقال ابن
 زيد: الريش: الجمال، وقيل:
 الرياش، جمع ريش، كبير وكبار
 وذئب وذياب ولِصْبٍ وَلِصَابٍ
 وَشُغْبٍ وشُعَابٍ، وقيل: الرياش:
 مصدر من أَرَشَهُ الله يَرِيْشُهُ إِذَا أُنْعِمَ
 عليه، والريش مصدر أيضاً من
 ذلك، وفي الحديث: «وَجَلَّ
 رَأْسُهُ اللهُ مَالاً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 ويشبه أن هذا كله من معنى ريش
 الطائر وريش السهم، إذ هو لباسه

وَسُتْرَتُهُ وَعَوْنُهُ عَلَى النَفُودِ،
 ورأى الله مأخوذ من ذلك، ألا ترى
 أنها تُقَرَنُ بِبَرَى، ومن ذلك قول
 الشاعر:

فَرِشْنِي بِخَيْرٍ طَالَمَا قَدْ بَرِيتَنِي
 وَخَيْرَ الْمَوَالِي مَنْ يَرِيْشُ وَلَا يَبْرِي
 وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي:
 ﴿وَلِبَاسٍ﴾ بالنصب عطفاً على ما
 تقدم، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو،
 وعاصم، وحزمة: ﴿وَلِبَاسٍ﴾ بالرفع -
 ف قيل: هو خير ابتداء مضمّر تقديره:
 وهو لباس، وقيل: هو مبتدأ و
 ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ آخر و ﴿خَيْرٌ﴾ خبر
 ﴿ذَلِكَ﴾ والجملة خبر الأول، وقيل:
 هو مبتدأ و ﴿خَيْرٌ﴾ خبره و ﴿ذَلِكَ﴾
 بدل أو عطف بيان أو صفة، وهذا
 أنبل الأقوال، ذكره أبو علي في
 الحجة.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ
 اللَّهِ﴾ إشارة إلى جميع ما أنزل من
 اللباس والريش، وحكى النقاش أن
 الإشارة إلى ﴿وَلِبَاسِ التَّقْوَى﴾ أي هو
 في العبد آية أي علامة وأماره من الله
 أنه قد رضي عنه ورحمه، و
 ﴿لَعَلَّهُمْ تَرْجَ بِحَسْبِهِمْ وَمَبْلَغِهِمْ مِنْ
 الْمَعْرِفَةِ. وقال ابن جريج: ﴿وَلِبَاسِ
 التَّقْوَى﴾: الإيمان - وقال معبد
 الجهني: هو الحياء، وقال ابن عباس
 رضي الله عنهما: هو العمل
 الصالح، وقال أيضاً: هو السمت
 الحسن في الوجه، وقاله عثمان بن
 عفان رضي الله عنه على المنبر،
 وقال عروة بن الزبير: هو

خشية الله، وقال ابن زيد: هو ستر
 العورة والسمت الحسن في الدنيا،
 وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

﴿وَلِبَاسِ التَّقْوَى﴾: العفة، وقال
 زيد بن علي: ﴿لباس التقوى﴾
 السلاح وآلة الجهاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله
 وهذه كلها مثل وهي من لباس
 التقوى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 وتتصور الصفة التي حكاها أبو علي
 في قوله ذلك لأن الأسماء توصف
 بمعنى الإشارة كما تقول: جاءني
 زيد هذا، كأنك قلت: جاءني زيد
 المشار إليه، فعلى هذا الحد توصف
 الأسماء بالمبهمات، وأما قوله فيه:
 عطف بيان أو بدل، فهما واحد في
 اللفظ، وإنما الفرق بينهما في المعنى
 والمقصد، وذلك أنك تريد في البدل
 كأنك أزلت الأول وأعملت العامل
 في الثاني على نية تكرار العامل،
 وتريد في عطف البيان كأنك أبقيت
 الأول ثم نثيته بعينه في ذكر الثاني،
 وإنما يبين الفرق بين البدل وعطف
 البيان في مسألة النداء إذا قلت: يا
 عبدالله زيد، فالبدل في هذه المسألة
 هو على هذا الحد برفع (زيد) لأنك
 تقدر إزالة (عبدالله) وإضافة (يا) إلى
 (زيد)، ولو عطف عطف البيان
 لقلت: يا عبدالله زيد، لأنك أردت
 بيانه ولم تقدر إزالة الأول، وينشد
 هذا البيت:

إِنِّي وَأَسْطَارِ سَطِرُنْ سَطِرَا
 لَقَائِلُ يَا نَضْرُ نَضْرَا نَضْرَا
 ونصر الأول على عطف البيان
 والثاني على البدل.

٢٧ - ٢٨ تفسير قوله عز وجل:
 هذه المخاطبة لجميع العالم،
 والمقصود بها في ذلك الوقت من

كان يطوف من العرب بالبيت عرياناً، ف قيل: كان ذلك من عادة قريش، وقال قتادة والضحاك: كان ذلك من عادة قبيلة من اليمن، وقيل: كانت العرب تطوف عراة إلا الخمس وهم قريش ومن والاها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الصحيح، لأن قريشاً لما سنوا بعد عام الفيل سنناً عظموا بها حرمتهم كانت هذه في ذلك، فكان العربي إما أن يعيره أحد من الخمس ثوباً فيطوف به، وإما أن يطوف في ثيابه ثم يلقبها، وتمادى الأمر حتى صار عند العرب قُرْبَةً، فكانت العرب تقول: نطوف عراة كما خرجنا من بطون أمهاتنا، ولا نطوف في ثياب قد تدنسنا فيها بالذنوب، ومن طاف في ثيابه فكانت سُنتهم كما ذكرنا أن يرمي تلك الثياب ولا ينتفع بها، وتسمى تلك الثياب اللُّقَى، ومنه قول الشاعر:

كَفَى حَزْناً كَرِيَّ عَلَيْهِ كَأَنَّهُ
لَقِيَ بَيْنَ أَيْدِي الطَّافِئِينَ حَرِيْمُ
وكانت المرأة تطوف عريانة حتى كانت إحداهن تقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ
فَمَا بَدَأَ مِثْلُهُ فَلَا أَجْلُهُ
فنهى الله عز وجل عن جميع ذلك، ونودي بمكة في سنة تسع: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

والفتنة في هذه الآية: الاستهواء والغلبة على النفس، وظاهر قوله تعالى: ﴿لَا يَغْنَصُكُمْ﴾ نهى الشيطان، والمعنى نههم أنفسهم عن الاستماع له والطاعة لأمره كما

قالوا: «لَا أَرَيْتُكَ هَا هُنَا»، فظاهر اللفظ نهى المتكلم نفسه، ومعناه نهى الآخر عن الإقامة بحيث يراه. وأضاف الإخراج في هذه الآية إلى إبليس وذلك تجوز بسبب أنه كان ساعياً في ذلك ومسبباً له، ويقال: أب، وللأم: أبة. وعلى هذا قيل: أبوان. و ﴿يَنْزِعُ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿أَنْزَجُ﴾.

وتقدم الخلاف في اللباس من قول من قال: الأظفار، ومن قال: النور، ومن قال: ثياب الجنة، وقال مجاهد: هي استعارة، وإنما أراد لبسة التقى المنزلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَنْزِكُ﴾ الآية. زيادة في التحذير وإعلام أن الله عز وجل قد مكّن الشيطان من ابن آدم في هذا القدر، وبحسب ذلك يجب أن يكون التحذر بطاعة الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والشيطان موجود قد قررته الشريعة، وهو جسم، ﴿وَقِيلُهُ﴾ يريد: نوعه وصفه وذريته. و ﴿حَيْثُ﴾ مبنية على الضم، ومن العرب من يبينها على الفتح، وذلك لأنها تدل على موضع بعينه، قال الزجاج: ما بعدها صلة لها وليست بمضافة إليه، قال أبو علي: هذا غير مستقيم، وليست (حيث) بموصولة إذ ليس ثم عائد كما في الموصولات، وهي مضافة إلى ما بعدها.

ثم أخبر عز وجل أنه صير الشياطين أولياء، أي صحابة

ومداخلين إلى الكفرة الذين لا إيمان لهم، وذكر الزهراوي أن ﴿جَعَلَ﴾ هنا بمعنى وصف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي نزعة اعتزالية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا﴾ وما بعده داخل في صفة «الذين لا يؤمنون» ليقع التوبيخ بصفة قوم جعلوا مثلاً للمؤثخين إذ أشبه فعلهم فعل الممثل بهم. ويصح أن تكون هذه الآية مقطوعة من التي قبلها ابتداءً إخبار عن كفار العرب.

والفاحشة في هذه الآية - وإن كان اللفظ عاماً - هي كشف العورة عند الطواف، فقد روي عن الزهري أنه قال: في ذلك نزلت هذه الآيات، وقاله ابن عباس ومجاهد، وكان قول بعض الكفار، إن الله أمر بهذه السنن التي لنا وشرعها فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾، ثم وبخهم على كذبهم، ووقفهم على قولهم ما لا علم لهم به ولا رواية لهم فيه، بل هو دعوى واختلاق.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل: تضمن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أقسطوا، ولذلك عطف عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا﴾ حملاً على المعنى. والقسط: العدل والحق، واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ - ف قيل: أراد إلى الكعبة، قاله مجاهد، والسدي، والمقصود - على هذا - شرع القبلة والأمر بالتزامها، وقيل: أراد الأمر بإحضار التَّيَّةِ لله في كل صلاة والقصد نحوه

وابن زيد، وتدخل مع ذلك أيضاً البحيرة والسائبة ونحو ذلك، وقد نص على ذلك قتادة وقال: إن البحيرة وما جانسها هي المراد بقوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ معناه: ولا تُفُتِرُوا، قال أهل التأويل: يريد: ولا تُسرفوا بأن تحرموا على أنفسكم ما لم يحرم الله عز وجل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الحلال سرف، إنما في ارتكاب المعاصي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد: في الحلال القصد، واللفظ يقتضي النهي عن السرف مطلقاً، فمن تلبس بفعل حرام فتأول تلبسه به حصل من المسرفين وتوجه النهي عليه. ومن تلبس بفعل مباح فإن مشى فيه على القصد وأوساط الأمور فحسن، وإن أفرط حتى دخل الضرر حصل أيضاً من المسرفين وتوجه النهي عليه، مثل ذلك أن يُفُتِر إنسان في شراء ثياب ونحوها ويستفد في ذلك جُل ماله، أو يُعطي ماله أجمع ويكابد بعياله الفقر بعد ذلك ونحوه، فالله عز وجل لا يحب شيئاً من هذا، وقد نهت الشريعة عنه، ولذلك وقف النبي ﷺ بالموصي عند الثلث، وقال بعض العلماء: لو حط الناس إلى الربع لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «والثلث كثير»، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة.

وأمر الله عز وجل نبيه عليه الصلاة

والسلام أن يسألهم عن حرم ما أحل الله على جهة التوبيخ والتقرير، وليس يقتضي هذا السؤال جواباً، وإنما المراد منه التوقيف على سوء الفعل. وذكر بعض الناس أن السؤال والجواب جاء في هذه الآية من جهة واحدة وتخيل قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ جواباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نظر فاسد، فليس ذلك بجواب السؤال، ولا يقتضي هذا النوع من الأسئلة جواباً، و﴿رِزْقَ اللَّهِ﴾ هي كل ما اقتضته الشهوة وطلب العلو في الأرض كالمال والبنين، وهي الزينة التي فضل الشرع عليها. وقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ قال الجمهور: يريد المحللات. وقال الشافعي وغيره: يريد: المستلذات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إلا أن ذلك يشترط فيه أن يكون من الحلال، وإنما قاد الشافعي إلى هذا تحريمه المستقذرات كالوزغ وغيرها فإنه يقول: هي من الخبائث محرمة. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾. قرأ نافع وحده: ﴿خَالِصَةً﴾ بالرفع، والباقون: ﴿خَالِصَةً﴾ بالنصب، والآية تتأول على معنيين.

أحدهما: أن يخبر أن هذه الطيبات الموجودات في الدنيا هي خالصة يوم القيامة للمؤمنين في الدنيا، وخلوصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون. فقوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بـ﴿آمَنُوا﴾، وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جبیر فإنه

قال: قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ينتفعون بها في الدنيا ولا يتبعهم إثمها، وقوله: ﴿خَالِصَةً﴾ بالرفع خبر ﴿هِيَ﴾ و﴿لِلَّذِينَ﴾ تبين للخلوص، ويصح أن يكون ﴿خَالِصَةً﴾ خبراً بعد خبر، و﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يريد به وقت الحساب، وقرأ قتادة والكسائي: ﴿قُلْ هِيَ لِمَنْ آمَنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

والمعنى الثاني: هو أن يخبر أن هذه الطيبات الموجودات هي في الحياة الدنيا للذين آمنوا وإن كانت أيضاً لغيرهم معهم، وهي يوم القيامة خالصة لهم، أي لا يشركهم أحد في استعمالها في الآخرة. وهذا قول ابن عباس، والضحاك، والحسن، وقاتدة، والسدي، وابن جريج، وابن زيد. فقوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ - على هذا التأويل - متعلق بالمحذوف المقدر في قوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، و﴿خَالِصَةً﴾ بالرفع خبر بعد خبر، أو خبر ابتداء مقدر تقديره: وهي خالصة يوم القيامة، و﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يراد به استمرار الكون في الجنة. وأما من نصب ﴿خَالِصَةً﴾ فعلى الحال من الذكر الذي في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ والتقدير: هي ثابتة أو مستقرة للذين آمنوا في حال خلوص لهم، والعامل فيها ما في اللام من معنى الفعل في قوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ﴾. وقال أبو علي في «الحجة»: ويصح أن يتعلق قوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بقوله: ﴿حَرَمٌ﴾ ولا يصح أن يتعلق بـ﴿رِزْقَ اللَّهِ﴾ لأنها مصدر قد وصف، ويصح أن يتعلق بقوله تبارك وتعالى:

﴿أَخْرَجَ لِيَادِهِ﴾، ويجوز ذلك وإن فصل بين الصلة والموصول بقوله: ﴿قَدْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن ذلك كلام يشد القصة وليس بأجنبي منها جراً كما جاز في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كُتِبُوا عَلَيْهِتِ الذِّكْرَ أَزْجَرًا سَوَاءٌ يَسْتَعْتَبُ وَيَتَعْتَبُ عَنْهُ﴾، فقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُمْ ذُلَّهُ﴾ معطوف على ﴿كُتِبُوا﴾ داخل في الصلة، والتعلق بـ ﴿أَخْرَجَ﴾ هو قول الأخفش، ويصح أن يتعلق بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كُتِبُوا﴾، ويصح أن يتعلق بقوله تبارك وتعالى: ﴿بَيْنَ الزَّوْجِ﴾، ويصح أن يتعلق بقوله: ﴿وَأَمَّا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الأخير هو أصح الأقوال على التأويل الأول فيما رتبناه هنا، وأما على التأويل الآخر فيضعف معنى الآية هذه المتعلقة التي ذكر أبو علي، وإنما يظهر أن يتعلق بالمحذوف المقدر في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ تقدير الكلام، أي: كما فصلنا هذه الأشياء المتقدمة الذكر فكذلك وعلى تلك الصورة نفصل الآيات، أي نبين الأمارات والعلامات والهدايات لقوم لهم علم ينتفعون به، و ﴿تَفَصَّلَ﴾ معناه: نُقِسم وتبين لأن بيان الأمور المشبهات إنما هو في تقسيمها بالفصول.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل: لما تقدم إنكار ما حرّمه الكفار بآرائهم اتبعه ذكر ما حرّم الله عز وجل وتقديره: و ﴿الْفَوَاحِشُ﴾ ما فحش وشنع،

وأصله من القبح في المنظر، ومنه قول امرئ القيس: وجيد كجيد الريم ليس بفاحش إذا هي نضته ولا يمتعطل ثم استعمل فيما ساء من الخلق وألفاظ الحرج والرفث، ومنه الحديث: «ليس بفاحش» في صفة النبي ﷺ، ومنه قوله لسلمة بن سلامة بن وقش: «أفحشت على الرجل» في حديث السير، ومنه قوله الحزين في كثير عزة:

قَصِيرُ القَمِيصِ فَاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ

وكذلك استعمل فيما شنع وقبح في النفوس، والقبح والحسن في المعاني إنما يتلقى من جهة الشرع، والفاحش كذلك، فقوله تعالى هنا: ﴿الْفَوَاحِشُ﴾ إنما هي إشارة إلى ما نص الشرع على تحرّمه في مواضع أخر، فكل ما حرّمه الشرع فهو فاحش وإن كان العقل لا ينكره كلباس الحرير والذهب للرجال ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يجمع النوع كله، لأنه تقسيم لا يخرج عنه شيء، وهو لفظ عام في جميع الفواحش. وذهب مجاهد إلى تخصيص ذلك بأن قال: ما ظهَرَ: الطواف عرياناً، والبواطن: الزنى، وقيل غير هذا مما يأتي على طريق المثال، و ﴿مَا﴾ بدل من ﴿الْفَوَاحِشِ﴾ وهو بدل بعض من كل، ومجموع القسمين يأتي بدل الشيء من الشيء وهو هو.

والإثم أيضاً لفظ عام لجميع الأفعال والأقوال التي يتعلق بمرتكبها إثم، هذا قول الجمهور، وقال بعض

الناس: هي الخمر، واحتج على ذلك بقول الشاعر:

شَرِبْتُ الْإِثْمَ حَتَّى طَارَ عَقْلِي
.....

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مردود لأن هذه السورة مكية ولم تكن الشريعة بتحريم الخمر إلا بالمدينة بعد أحد لأن جماعة من الصحابة اصطحبوها يوم أحد وماتوا شهداء وهي في أجوافهم، وأيضاً فبيت الشعر يقال: إنه مصنوع مختلق، وإن صح فهو على حذف مضاف، وكان ظاهر القرآن - على هذا القول - أن تحرّم الخمر من قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وهو في هذه الآية قد حرّم فيأتي من هذا أن الخمر إثم مُحَرَّم فالخمر محرمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولكن لا يصح هذا لأن قوله: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ﴾ محتمل أن يراد به أنه يلحق الخمر من فساد العقل والافتراء وقتل النفس وغير ذلك آثام فكأنه قال: في الخمر هذه الآثام، أي: هي بسببها ومعها، وهذه الأشياء مُحَرَّمة لا محالة، وخرجت الخمر من التحريم على هذا ولم يترتب القياس الذي ذهب إليه قائل ما ذكرناه، ويعضد هذا أننا وجدنا الصحابة يشربون الخمر بعد نزول قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ﴾، وفي بعض الأحاديث: فتركها قوم للإثم الذي فيها وشرها قوم للمنافع، وإنما حرمت الخمر بظواهر القرآن ونصوص الأحاديث والإجماع.

والبغي: التعدي وتجاوز الحد،

كان الإنسان مبتدئاً بذلك أو متصراً، فإذا جاوز الحد في الانتصار فهو باغ، وقوله تعالى: ﴿بَيِّنَ الْفَحْشَ﴾

زيادة بيان، وليس يتصور بغير بحق، لأن ما كان يَحَقُّ فلا يُسَمَّى بغياً.

﴿وَأَنْ تَشْكُرُوا لِلَّهِ مَا لَكُمْ بِرِزْقِهِ سُلْطَانٌ﴾ المراد بها الأصنام والأوثان وكل ما عُبِدَ من دون الله، والسلطان: البرهان والحجة. ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه حَرَّمَ البحيرة والسائبة ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أَجَلٌ﴾ الآية، يتضمن الوعيد والتهديد، والمعنى: ولكل أمة، أي: فِرقة وجماعة، (وهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس) أَجَلٌ مؤقت لمجيء العذاب إذا كفروا وخالفوا أمر ربهم، فأنتم أيها الأمة كذلك، قاله الطبري وغيره. وقرأ الحسن: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَالُهُمْ﴾ بالجمع، وهي قراءة ابن سيرين، قال أبو الفتح: هذا هو الأظهر لأن لكل إنسان أَجَلاً. فأما الإفراد فلأنه جنس. وإضافته إلى الجماعة حسنت الإفراد، ومثله قول الشاعر:

.....
فِي خَلْقِكُمْ عَظَمٌ وَقَدْ شَجِينَا
وقوله تعالى: ﴿سَاعَةً﴾ لفظ عَيْنٌ به الجزء القليل من الزمن، والمراد جميع أجزائه، أي: لا يستأخرون ساعة ولا أقل منها ولا أكثر، وهذا نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لِّذَرَّةٍ﴾ فإنما هي عبارة بتمام الجزء فيها مقام الكل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكأنه يظهر بين هذه الآية وبين قوله

تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تعارض، لأن تلك تقتضي الوعد بتأخير إن آمنوا والوعيد بمعجلة إن كفروا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والحق مذهب أهل السنة أن كل أحد إنما هو بأجل واحد لا يتأخر عنه ولا يتقدم، وقوم نوح كان منهم من سبق في علم الله تعالى أنه يكفر فيعاجل، وذلك هو أجله المحتوم، ومنهم من يؤمن فيتأخر إلى أجله المحتوم، وغيب عن نوح تعيين الطائفتين فندب الكل إلى طريق النجاة وهو يعلم أن الطائفة إنما تعاجل أو تؤخر بأجلها، فكأنه يقول: فإن أمتم علمنا أنكم ممن قضى الله له بالإيمان والأجل المؤخر، وإن كفرتم علمنا أنكم ممن قضى له بالأجل المعجل والكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا الحد هو دعاء محمد عليه الصلاة والسلام إلى طريق الجنة وقد علم أن منهم من يكفر فيدخل النار، وكذلك هو أمر الأسير يقال له: إما أن تؤمن فترك وإلا قتلت.

وقوله تعالى: ﴿بَيِّنَ الْفَحْشَ﴾ الآية. الخطاب في هذه الآية لجميع العالم، و (إن) الشرطية دخلت عليها (ما) مؤكدة، ولذلك جاز دخول النون الثقيلة على الفعل، وإذا لم تكن (ما) لم يجز دخول النون الثقيلة. وقرأ أبي بن كعب، والأعرج: ﴿تَأْتِيَنَّكُمْ﴾ على لفظ الرسل، وجاء ﴿يَقْضُونَ﴾ على المعنى، وكان هذا الخطاب لجميع الأمم قديمها وحديثها هو متمكن

لهم ومتحصل منه لحاضري محمد عليه الصلاة والسلام أن هذا حكم الله في العالم منذ أنشأه، و ﴿تَأْتِيَنَّكُمْ﴾ مستقبل وضع موضع ماض ليفهم أن الإتيان باق وقت الخطاب لتقوي الإشارة بصحة النبوة إلى محمد ﷺ، وهذا على مراعاة وقت نزول الآية. وأسند الطبري إلى أبي سيار السلمي قال: إن الله تعالى جعل آدم وذريته في كفة فقال: ﴿بَيِّنَ مَادَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ الآية، قال: ثم نظر إلى الرسل فقال: ﴿يَأْتِيَا الرُّسُلَ كُلُّهُنَّ مِنَ الْفِتَنِ تَوَلَّوْا صُلْبًا إِنِّي يَمَّا تَمْلِكُونَ عَلِيمٌ﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿﴾، ثم بهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا محالة أن هذه المخاطبة في الأزل، وقيل: المراد بالرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: من حيث لا نبي بعده، فكأن المخاطبين هم المراد ببني آدم لا غير، إذ غيرهم لم ينله الخطاب، ذكره النقاش، و ﴿يَقْضُونَ﴾ معناه: يسردون ويوردون، والآيات لفظ جامع لآيات الكتب المنزلة وللعلامات التي تقترب بالأنبياء، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَقَى وَاصْلَحَ﴾ يصح أن تكون (من) شرطية وجوابه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، وهذه الجملة هي في جواب الشرط الأول الذي هو: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ويصح أن تكون (من) في قوله: ﴿فَمَنْ أَتَقَى﴾ موصولة، وكأنه قصد بالكلام تقسيم الناس فجعل القسم الأول ﴿فَمَنْ

أَتَقَنَ، والقسم الثاني: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ﴾، وجاء هذا التقسيم بجملته جواباً للشرط في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ فكأنه قال: إن أتتكم الرسل فالمتقون لا خوف عليهم، والمكذبون أصحاب النار، أي: هذا هو الشمرة وفائدة الرسالة. ﴿فَكَفَرُوا أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: ليس ثم نفع للمفتري ولا غرض دينوي، فالآية تبرية للنبي ﷺ من الافتراء، وتوبيخ للمفتريين من الكفار، و (لا) في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ بمعنى ليس. وقرأ ابن محيصن: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ دون تنوين، ووجهه إما أن يحذف التنوين لكثرة الاستعمال، وإما حملاً على حذفه مع (لا)، وهي تبرية ناصبة، فشبه حالة الرفع في البناء بحالة النصب. وقيل: إن المراد: فلا الخوف، ثم حذفت الألف واللام وبقيت الفاء على حالها لتدل على المحذوف، ونفي الخوف والحزن يعم جميع أنواع مكاره النفس وأنكارها، ويشبه أن يكون الخوف لما يستقبل من الأمور، والحزن لما مضى.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ وَأَسْتَكْبَرُوا﴾ هذه حالتان تعم جميع من يصد عن رسالة الرسول ﷺ، إما أن يكذب بحسب اعتقاده، وإما أن يستكبر فيكذب وإن كان غير مصمم في اعتقاده على التكذيب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نحو الكفر عناداً.

﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية وعيد واستفهام على جهة

التقرير، أي: لا أحد أظلم منه، و ﴿أَفْتَرَى﴾ معناه: اختلق، وهذه وإن كانت متصلة بما قبلها، أي: كيف يجعلون الرسل مفتريين ولا أحد أظلم ممن افتري ولا حظ للرسل إلا أن يُرْحَمَ من اهتدى ويُعَذَّبَ من كفر. فهي أيضاً مشيرة بالمعنى إلى كل مفتر، إلى من تقدم ذكره من الذين قالوا: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بَيِّنَاتٍ﴾ إشارة إلى جميع الكفرة. وقوله تعالى: ﴿وَيَن آَلِ كَتِّبٍ﴾ قال الحسن، والسدي، وأبو صالح: معناه: من المقرر في اللوح المحفوظ، فالكتاب عبارة عن اللوح المحفوظ، وقد تقرر في الشرع أن حظهم فيه العذاب والسخط. وقال ابن عباس: وابن جبير، ومجاهد: قوله: ﴿وَيَن آَلِ كَتِّبٍ﴾ يريد: من الشقاء والسعادة التي كتبت له وعليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويؤيد هذا القول الحديث المشهور الذي يتضمن أن الملك يأتي إذا خلق الجنين في الرحم فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: الكتاب يراد به الذي تكتبه الملائكة من أعمال الخليفة من خير وشر، فينال هؤلاء نصيبهم من ذلك وهو الكفر والمعاصي. وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، والضحاك: ﴿وَيَن آَلِ كَتِّبٍ﴾ يراد به: من القرآن، وحظهم فيه أن وجوههم تسود يوم القيامة، وقال الربيع بن أنس، ومحمد بن كعب، وابن زيد:

المعنى بالنصيب ما سبق لهم في أم الكتاب من رزق وعمر وخير وشر في الدنيا. ورجح الطبري هذا واحتج له بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي: عند انقضاء ذلك، فكأن معنى الآية على هذا التأويل: أولئك يتمتعون ويتصرفون من الدنيا بقدر ما كتب لهم حتى إذا جاءتهم رسلنا لموتهم. وهذا في تأويل جماعة في مجيء الرسل للتوفي، وعلى هذا يترتب ترجيح الطبري الذي تقدم. وقالت فرقة: ﴿رُسُلُنَا﴾ يريد بهم ملائكة العذاب يوم القيامة، و ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ معناه: يستوفونهم عدداً في السوق إلى جهنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويترتب هذا التأويل مع التأويلات المتقدمة في قوله تعالى: ﴿نَمِيتُهُمْ يَن آَلِ كَتِّبٍ﴾ لأن النصيب على تلك التأويلات إنما ينالهم في الآخرة وقد قضى مجيء رسل الموت. وقوله تعالى حكاية عن الرسل: ﴿أَيُّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ استفهام تقرير وتوبيخ وتوقيف على خزي، وهو إشارة إلى الأصنام والأوثان وكل ما عُبد من دون الله، و ﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تعبدون وتؤملون، وقولهم: ﴿سَلُّوا﴾ معناه: هلكوا وتلفوا وفقدوا، ثم ابتدأ الخبر عن المشركين بقوله سبحانه: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾، وهذه الآية وما شاكلها تعارض في الظاهر قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَاللَّهُ رَئِيكَ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، اجتماعهما إما أن يكون في طوائف مختلفة، أو

ولا يسوغ أن يقطعها ارتجالاً فذلك إنما يجيء شاذاً في ضرورة الشعر، وفي الاسم أيضاً، لكنه وقف مثل وقفة المستذكر ثم ابتداءً فقطع، وقرأ مجاهد بقطع الألف وسكون الدال ﴿إِذْ تَرَوْهَا﴾ بفتح الراء ويحذف الألف بعد الدال بمعنى: أدرك بعضهم بعضاً، وقرأ حميد: ﴿أَفَرُكُوا﴾ بضم الهمزة وكسر الراء أي: أدخلوا في أدراكها، وقال مكِّي في قراءة مجاهد: إنها ﴿أَفَرُكُوا﴾ بشد الدال المفتوحة وفتح الراء، قال: وأصله (إِذْ تَرَكُوا) وزنها افتعلوا، وقرأ ابن مسعود والأعمش: ﴿تَذَارَكُوا﴾ ورويت عن أبي عمرو، وقرأ الجمهور: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا﴾ يحذف ألف (إذا) لالتقاء الساكنين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْنَهُنَّ لِأُولِنَهُنَّ﴾ معناه: قالت الأمة الأخيرة التي وجدت ضلالات مقررة وسُنناً كاذبة مستعملة للأولى التي شرعت ذلك وافترت على الله وسلكت سبيل الضلالات ابتداءً: ربنا هؤلاء طرَقوا طرق الضلال وسببوا ضلالتنا فاتهم عذاباً مضاعفاً، أي ثانياً زائداً على عذابنا إذ هم كافرون ومُسَبِّبون لكفرنا، وتقول: ضاعفت كذا إذا جعلته مثل الأول. واللام في قوله تعالى: ﴿لِأُولِنَهُنَّ﴾ كأنها لام سبب، إذ القول إنما هو للرب. ثم قال عز وجل مخبراً لهم: ﴿لِكُلِّ صِنْفٍ﴾ أي: العذاب مشدد على الأولى والآخر ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْكُونَ﴾ أي: المقادير وصور التضعيف، وهذا ردُّ لكلام هؤلاء إذ ليس لهم كرامة فيظهر إسعافهم.

على هذا التعلُّق، أي قد تقدمت ومضى عليها الزمن وعرفها فيما تطاول من الآباد، وقد تستعمل وإن لم يطل الوقت إذ أصلها: فيمن مات من الناس، أي صاروا إلى خلاء من الأرض، وعلى التعليقين الأولين لقوله: ﴿فِي النَّارِ﴾ فإنما ﴿خَلَّتْ﴾ حكاية عن حال الدنيا، أي: أدخلوا في النار في جملة الأمم السالفة لكم في الدنيا الكافرة. وقدم ذكر ﴿الْجَنِّ﴾ لأنهم أعرق في الكفر، وإبليس أصل الضلال والإغواء، وهذه الآية نص في أن كفره الجن في النار، والذي يقتضيه النظر أن مؤمنهم في الجنة لأنهم عقلاء مكلفون مبعوث إليهم آمنوا وصدقوا، وقد بَوَّب البخاري رحمه الله (باب في ذكر الجن وثوابهم وعقابهم)، وذكر عبد الجليل أن مؤمني الجن يكونون تراباً كالبهائم، وذكر في ذلك حديثاً مجهولاً، وما أراه يصح، والله أعلم.

والأخوة في هذه الآية أخوة الملة والشرعية، قال السدي: يتلاعن آخرها وأولها. و ﴿آذَرَكُوا﴾ معناه: تلاحقوا، ووزنه تفاعلوا، أصله: تداركوا أدغم فجلبت ألف الوصل، وقرأ أبو عمرو: ﴿إِذْ تَرَكُوا﴾ بقطع ألف الوصل، قال أبو الفتح: هذا مشكل

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ لَمَّا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ آخَتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جُرْعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُنَّ لِأُولِنَهُنَّ وَلَهُنَّ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَاتَيْنَهُنَّ عَذَابًا مُّضَاعَفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ صِنْفٍ وَلَكِنْ لَا تَقْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولُنَهُنَّ أَخْرِجْنَهُنَّ فَمَا كَانَتْ لِكُرْعَتَيْنِ مِنْ فَضْلِ قَدْ قُوفُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَأَنْفِثَنَّ لَهُمُ آبُورُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يُلَاقُوا فِي سِمَ الْجِلَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوْصِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا أَلاَّ وَسْمَهَا أَوْ لَوْنَهَا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَرْغَبُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ نَجْزِي مَنْ نَجَّيْهِمْ أَلاَّ يَتَذَكَّرُوا لِقَاءَ اللَّهِ الَّذِي هَدَيْنَا سَبِيلَهُنَّ وَمَا كُنَّا لَنَهْدِيَهُمْ لَوْلَا أَنْ هَدَيْنَا اللَّهَ لِقَاءَهُ جَاءَتْ رُسُلًا رَبَّنَا لِمَتَّىٰ يُؤَدُّوا أَنْ يَلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رُسُلُهُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

١٥٥

في أوقات مختلفة يقولون في حال كذا، وفي حال كذا.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه حكاية ما يقول الله لهم يوم القيامة بوساطة ملائكة العذاب، وعبر عن (يقول) بـ ﴿قَالَ﴾ لتحقيق وقوع ذلك وصدق القصة. وهذا كثير.

وقوله تعالى: ﴿فِي أُمُورٍ﴾ متعلق بـ ﴿ادْخُلُوا﴾، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف تقديره: كائنين أو ثابتين في أُمم فيكون في موضع الحال من الضمير في ﴿ادْخُلُوا﴾، وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنى (مع)، وقيل: هي على بابها وهو أصوب. وقوله: ﴿قَدْ خَلَّتْ﴾ صفة لـ ﴿أُمُورٍ﴾، وقوله: ﴿فِي النَّارِ﴾ يصح تعلقه بـ ﴿ادْخُلُوا﴾، ويصح أن يتعلق بـ ﴿أُمُورٍ﴾ أي: في أُمم ثابتة أو مستقرة، ويصح تعلقه بالذكر الذي في ﴿خَلَّتْ﴾، ومعنى ﴿قَدْ خَلَّتْ﴾

وأما المعنى الذي دعوا فيه فظاهر حديث النبي ﷺ أنه حاصل، وأن كل مَنْ سَنَّ كُفْراً أو معصية فعليه كفْل من جهة كل من عمل بذلك بعده، ومنه حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما من داع دها إلى ضلالة إلا كان عليه وزْرُهُ وَوَزُرُ من اتبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً». الحديث. ذكره الليث بن سعد في آخر الجزء الرابع من حديثه، وذكره مالك في الموطأ غير مسند موصل، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «ما تُقْتَلُ نَسَمَةٌ ظَلَمًا إِلَّا كان على بن آدم الأول كِفْلٌ منها»، أما إن هؤلاء عِينُوا في دعائهم الضَّعْف، وقد يكون الكفر أقل أو أكثر. وعن ابن مسعود أن الضعف ها هنا: الأفاعي والحيات.

وقرأ جميع السبعة غير عاصم في رواية أبي بكر رضي الله عنه: ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالتاء، ويحتمل ذلك أن يكون مخاطبة لهذه الأمة الأخيرة متصلة بقوله تبارك وتعالى لهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَافِينَ﴾، ويحتمل أن يكون مخاطبة لمحمد عليه الصلاة والسلام وأمثه، وقرأ عاصم وحده في رواية أبي بكر: ﴿وَلَكِنْ لَا يَغْلَبُونَ﴾، وروى حفص عن عاصم مثل قراءة الجماعة، وهذه مخاطبة لأمة محمد عليه الصلاة والسلام وإخبار عن الأمة الأخيرة التي طلبت أن يشدد العذاب على أولائها، ويحتمل أن يكون خبراً عن الطائفتين حملاً على لفظة (كُل) أي: لا يعلم أحد منهم قدر ما أعد لهم من عذاب الله.

وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِنَّ

لَا تُخْزِيهِنَّ﴾ الآية، المعنى: وقالت الأمة الأولى المتدعة للأمة الأخيرة المثبِّعة: أنتم لا فضل لكم علينا، ولم تزددجروا حين جاءكم النذر والرسول، بل دتمتم في كفركم، وتركتم النظر، واستوت حالنا وحالكم، فذوقوا العذاب باجترامكم. هذا قول السدي وأبو مجلز وغيرهما، فقلوه: ﴿فَذُوقُوا﴾ - على هذا - من كلام الأمة المتقدمة للأمة المتأخرة، وقيل: قوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ هو من كلام الله عز وجل لجميعهم. وقال مجاهد: ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿يَنْفُلُ﴾ أي من التخفيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: معناه أنه لما قال الله عز وجل: ﴿يَكْفُرُ﴾ يَنْفُلُ قال الأولون للآخرين: لم تبلغوا أملاً في أن يكون عذابكم أخف من عذابنا، ولا فضلتكم بالإسعاف والنص عليه.

تفسير قوله عز وجل: هذه الآية عامة في جميع الكفرة قديهم وحديثهم. وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر: ﴿لَا تُنْفَعُ﴾ بضم التاء الأولى وتشديد الثانية، وقرأ أبو عمرو: ﴿تُنْفَعُ﴾ بضم التاء وسكون الفاء وتخفيف الثانية، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يُنْفَعُ﴾ بالياء من أسفل وتخفيف التاء، وقرأ أبو حيوة، وأبو إبراهيم: ﴿يُنْفَعُ﴾ بالياء وفتح الفاء وشد التاء. ومعنى الآية: لا يرتفع لهم عمل ولا روح ولا دعاة فهي عامة في نفي ما يوجب للمؤمنين بالله تعالى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

وذكر الطبري في كيفية قبض روح المؤمن والكافر آثاراً اختصرتها إذ ليست بلازمة في الآية، وليلين أسانيداً أيضاً.

ثم نفى الله عز وجل عنهم دخول الجنة وعلّق كونه بكون محال لا يكون، وهو أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة حيث يدخل الخيط، والجمل كما عهدَ والسّم كما عهد. وقرأ جمهور المسلمين: ﴿الْجَمْلُ﴾ واحد الجمال، وقال الحسن: هو الجمل الذي يقوم باليزيد، ومرة لما أكثروا عليه قال: هو الأشتر وهو الجمل بالفارسية، ومرة قال: هو الجمل ولد الناقة، وقاله ابن مسعود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عبارة تدل على حرج السائل لارتباب السائلين لا شك باللفظة من أجل القراءات المختلفة. وذكر الطبري عن مجاهد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: ﴿حتى يلج الجملُ الأصفر﴾، وقرأ أبو السمال:

﴿الجمل﴾ بسكون الميم، وقرأ ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وابن جبير، والشعبي، ومالك بن الشخير، وأبو رجاء: ﴿الْجَمْلُ﴾ بضم الجيم وتشديد الميم وهو جبل السفينة. وقرأ سالم الأفطس، وابن خیر، وابن عامر أيضاً: ﴿الْجَمْلُ﴾ بتخفيف الميم من (الجمل) وقالوا: هو جبل السفن، وروى الكسائي أن الذي روى تشقيلاً الميم عن ابن عباس رضي الله عنهما كان أعجمياً فشدد الميم لعجمته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لكثرة أصحاب ابن

عباس رضي الله عنهما على القراءة المذكورة، وقرأ سعيد بن جببر فيما روي عنه: ﴿الْجُمْلُ﴾ بضم الجيم وسكون الميم، وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿الْجُمْلُ﴾ بضم الجيم والميم.

والسُّمُّ: الثقب من الإبرة وغيرها، ويقال: سَمَّ وَسُمُّ بفتح السين وكسرها وضمها. وقرأ الجمهور بفتح السين، وقرأ ابن سيرين بضمها، وقرأ أبو حيوه بضمها ويكسرها، وروي عنه الوجهان، والخِيَاطُ والمَخِيْطُ: الإبرة، وقرأ ابن مسعود: ﴿فِي سَمِّ الْمَخِيْطِ﴾ بكسر الميم وسكون الخاء وفتح الياء، وقرأ طلحة: ﴿فِي سَمِّ الْمَخِيْطِ﴾ بفتح الميم، وكذلك أبي على هذه الصفة، وبمثل هذا الحتم وغيره يجزى الكفرة وأهل الجرائم على الله تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ نِهَادٌ﴾ المعنى أن جهنم فراش لهم ومسكن ومضجع يتمهدونه، وهي لهم غواش: جمع غاشية، وهي ما يغشى الإنسان أي يغطيه ويستتره من جهة فوق، قال الضحّاك: المهّاد: الفرّاش، والغواشي: اللحف. ودخل التنوين في (غواش) عند سيبويه لنقصانه عن بناء مفاعل، فلما زال البناء المانع من الصرف بأن حذف الياء حذفاً لا للالتقاء، بل كما حذف من قوله تعالى: ﴿وَأَنبَلِ إِذَا يَتَرَى﴾، ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ ومن قول الشاعر:

.....

..... ثُمَّ لَا يَنْفِرُ

زال الامتناع، وهذا كقولهم: ذُلُّدَلْ بالتنوين وهم يريدون الذلّال لما زال البناء. قال الزجاج: والتنوين في (غواش) عند سيبويه عَوَضٌ من الياء المنقوصة، وردّ أبو علي أن يكون هذا هو مذهب سيبويه، ويجوز الوقف بياء وبغير ياء والاختيار بغير ياء.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية. هذه آية وغد مُخْبِرَةٌ أن جميع المؤمنين هم أصحاب الجنة ولهم الخلد فيها، ثم اعترض أثناء القول بعقب الصفة التي شرطها في المؤمنين باعتراض يخفف الشرط ويرجي في رحمة الله ويُعلم أن دينه يُسر. وهذه الآية نص في أن الشريعة لا يتقرر من تكاليفها شيء لا يطاق. وقد تقدم القول في جواز تكليف ما لا يطاق وفي وقوعه بمُغْنٍ عن الإعادة.

والوُسْعُ معناه: الطاقة، وهو القدر الذي يتسع له قدر البشر.

﴿٤٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا إخبار من الله عز وجل أنه يُنْقِي قلوب ساكني الجنة من الغُلِّ والحقد، وذلك أن صاحب الغُلِّ متعذب به ولا عذاب في الجنة، وورد في الحديث: «الْغُلُّ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ كَمِباركِ الْإِبِلِ قَدْ نَزَعَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا الحديث إذا حُمِلَ على حقيقته أن الله عز وجل يخلق جوهرأ يجعله حيث يرى كمبارك الإبل لأن الْغُلَّ عرض لا يقوم بنفسه، وإن قيل: إن هذه استعارة وعبر عن سقوطه عن

نفوسهم فهذه الألفاظ على جهة التمثيل، كما تقول: فلان إذا دخل على الأمير ترك نخوته بالباب ملقاة، فله وجه، والأول أصوب وأجرى مع الشرع في أشياء كثيرة مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ فَيَذْبَحُ» وغير ذلك، وروى الحسن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾»، وروي عنه أيضاً أنه قال: «فينا والله نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾»، وذكر قتادة أن علياً قال: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو المعنى الصحيح، فإن الآية عامة في أهل الجنة، والغُلُّ: الحقد والإحنة الخفية في النفس، وجمعه: غلال، ومنه الغلول أخذ في خفاء، ومنه الانغلال في الشيء، ومنه المغلُّ بالأمانة، ومنه قول علقمة بن عبدة:

سُلَاطَةٌ كَعَصَا السُّهْدِيِّ غُلٌّ لَهَا
ذُوقِيْنِي، مِنْ نَوَى قُرْآنٍ مَعْجُومٍ
وقوله تعالى: ﴿مِنْ تَحِيْمِ الْأَنْهَارِ﴾ بَيِّنٌ لَأَن مَا كَانَ لاطناً بالأرض فهو تحت ما كان متصباً أخذاً في سماء، و﴿هَدًى﴾ بمعنى أرشدنا، والإشارة بـ﴿هَذَا﴾ تَنْجُهِ أَنْ تَكُونَ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُؤَدِيَةِ إِلَى دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ إِلَى

وَنَادَىٰ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ النَّارَ أَن فَدِّجِدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَبَدَّلَ اللَّهُ وَعْدَهُمْ نَارًا مِّنْ لَّهٗ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا جَبَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَنَدْخُلَهُنَّ وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مِثْلَ الْكَفُورِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَيْلًا وَعَرِثُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَالِیْمٌ نَّفْسَهُمْ كَمَا سَأَلُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿٥١﴾

١٠٦

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كُنْتُمْ تَمَلُّونَ﴾ لا على طريق وجوب ذلك على الله، لكن بقرينة رحمته وتغمده، والأعمال أمانة من الله وطريق وإلى قوة الرجاء، ودخول الجنة إنما هو بمجرد رحمة الله تعالى، والقسم فيها على قدر العمل، و (أورثتم) مشيرة إلى الأقسام. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿أُورِثْتُمَا﴾ وكذلك في الزخرف، وقرأ أبو عمرو، والكسائي وحمزة: ﴿أُورِثْتُمَا﴾ بإدغام التاء في التاء، وكذلك في الزخرف.

﴿٤٤﴾ - ﴿٤٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا إخبار من الله عز وجل عما يكون منهم، وعبر عن معان مستقبله بصيغة ماضية، وهذا حسن فيما تحقق وقوعه، وهذا النداء من أهل الجنة لأهل النار تقريع وتوبيخ وزيادة في الكرب، وهو بأن يشفروا عليهم، ويخلق الإدراك في الأسماع والأبصار. وقرأ جمهور الناس: ﴿سَدَّ﴾ بفتح العين، وقرأ الكسائي: ﴿نَعِمَ﴾ بكسر العين، ورويت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ، وقرأها ابن وثاب، والأعمش، قال الأخفش: هما لغتان، ولم يخك سيبويه الكسر وقال: نعم: عِدَّةٌ وتصديق أي: مرة هذا ومرة هذا. وفي كتاب أبي حاتم

الجنة نفسها، أي: أُرشدنا إلى طرقها، ولكل واحد من الوجهين أمثلة في القرآن. وقرأ ابن عامر وحده: ﴿هَٰذَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ بسقوط الواو من قوله عز وجل: ﴿هَٰذَا كُنَّا﴾، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام، قال أبو علي: وجه سقوط الواو أن الكلام متصل مرتبط بما قبله.

ولما رأوا ما جاءت به الأنبياء عن الله تبارك وتعالى، وعابوا إنجاز المواعيد قالوا: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بِالْحَقِّ﴾، فقضوا بأن ذلك حق قضاء من يَحْسُ، وكانوا في الدنيا يقضون بأن ذلك حق قضاء من يستدل. ﴿وَنُودُوا﴾ أي: قيل لهم بصياح، وهذا النداء من قِبَلِ الله عز وجل، و[أَن] يحتمل أن تكون مفسرة لمعنى النداء بمعنى (أي)، ويحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة وفيها ضمير مستتر تقديره: أنه تلکم الجنة، ونحو هذا قول الأعشى:

في فِتْنَةٍ كَسُيُوفِ الْهَيْدِ قَدْ عَلِمُوا
أَنْ هَالِكُ كُلِّ مَنْ يَخْفَى وَيُتَّعِلُ
تقديره: أنه هالك. ومنه قول الآخر:

أَكَاثِرُهُ وَأَعْلَمُ أَنْ كِلَانَا
على ما ساء صَاحِبُهُ حَرِيصٌ
و ﴿تِلْكَ لَلْفِتْنَةِ﴾ ابتداء وصفة، و ﴿أُورِثْتُمَا﴾ الخبر، و ﴿تِلْكَ﴾ إشارة فيها غيبة، فإنما لأنهم كانوا وعدوا بها في الدنيا فالإشارة إلى تلك، أي: تلکم هذه الجنة وحذفت (هذه)، وإما قبل الدخول، وإما بعد الدخول وهم مجتمعون في موضع منها، فكل غائب عن منزله.

عن الكسائي عن شيخ من ولد الزبير قال: ما كنت أسمع أشياخ قريش يقولون إلا (نعم) بكسر العين، ثم فقدتها بعده. وفيه عن قتادة عن رجل من خشعم: قال: قلت للنبي ﷺ: أنت تزعم أنك نبي؟ قال: (نعم). «بكسر العين»، وفيه عن أبي عثمان النهدي قال: سأل عمر رضي الله عنه عن شيء فقالوا: نعم، فقال عمر: النعم، الإبل والشاء، قالوا: نعم بكسر العين، قال أبو حاتم: وهذه اللغة لا تعرف اليوم بالحرمين.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ مُّؤَذَّنُونَ﴾ الآية. قال أبو علي الفارسي، والطبري، وغيرهما: ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ بمعنى: أعلم معلّم، قال سيبويه: أذنت: إعلام بتصويت، وقرأ ابن كثير في رواية قُنبِل، ونافع، وأبو

عمرو، وعاصم: ﴿أَنْ لَّنْهُ أَتَى﴾
بتخفيف (أَنْ) من الثقيلة ورفع
(اللغة)، وقرأ ابن عامر، وحزمة،
والكسائي، وابن كثير في رواية البري
وشبل: ﴿أَنْ لَّنْهُ﴾ بتشكيل (أَنْ)
ونصب (اللغة)، وكلهم قرأ التي في
النور: ﴿أَنْ لَّنْهُ أَتَى﴾، و﴿وَأَنْ
عَصَبَ أَتَى﴾ بتشديد النون، غير نافع
فإنه قرأهما: ﴿أَنْ لَّنْهُ﴾ و﴿أَنْ
عَصَبَ أَتَى﴾ مخففتين، وروى عصمة
عن الأعمش: ﴿مُؤَذَّنَ بَيْنَهُمْ إِنَّ﴾
بكسر الألف على إضمار قال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
لما كان الأذان قولاً. والظالمون في
هذه الآية: الكافرون.

ثم ابتدأ صفتهم في الدنيا ليكون
علامة أن أهل هذه الصفة هم المراد
يوم القيامة بقوله: ﴿أَنْ لَّنْهُ أَتَى عَلَى
الظَّالِمِينَ﴾، و﴿يَصْدُونَهُ﴾ معناه:
يعرضون، والسبيل: الطريق
والمنهج، ويذكر ويؤث، وتأنيشها
أكثر، ﴿وَيَبْتُونَهُ﴾ معناه: يطلبونها أو
يطلبون لها، فإن قدرت يطلبونها ف
﴿يَعْبُونَهُ﴾ نصب على الحال، ويصح
أن يكون من الضمير العائد على
(السبل)، أي: معوجة، ويصح أن
يكون من ضمير الجماعة في
﴿وَيَبْتُونَهُ﴾ أي: مُغْوَجِّينَ، وإن
قدرت ﴿وَيَبْتُونَهُ﴾: يطلبون لها وهو
ظاهر تأويل الطبري رحمه الله، ف
﴿يَعْبُونَهُ﴾ مفعول (يغنون)، والعيوج
بكسر العين في الأمور والمعاني،
والعيوج بفتح العين في الأجرام
والمنتصبات.

﴿٤٦﴾ - ﴿٤٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَيَبْتُونَهُ﴾

عائد على الجنة والنار، ويحتمل
على الجمعين إذ يتضمنهما قوله
تبارك وتعالى: ﴿وَكَاذِبًا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ
أَصْحَابَ النَّارِ﴾، والحجاب: هو السور
الذي ذكره الله عز وجل في قوله:
﴿فَصَرِّبْ بَيْنَهُمْ سُورًا لَّمْ يَكُنْ﴾ قاله ابن
عباس، وقال مجاهد: الأعراف:
حجاب بين الجنة والنار، وقال ابن
عباس رضي الله عنهما أيضاً: هو تل
بين الجنة والنار، وذكر الزهراوي
حديثاً أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ
أُخِذَ جَبَلٌ يُحْبِنَا وَتُحِبُّهُ، وَإِنَّهُ يَقُومُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَثَلِ بَيْنِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ
يَحْتَسِبُ عَلَيْهِ أَقْوَامٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا
بِسِمَاهُمْ، هُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ
الْجَنَّةِ، ذَكَرَ حَدِيثاً آخَرَ عَنْ
صفوان بن سليم أن النبي ﷺ قال:
«إِنْ أُخِذَ عَلَى رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ
الْجَنَّةِ». والأعراف: جمع عُرْف وهو
المرتفع من الأرض، ومنه قول
الشاعر:

كُلُّ كَنَازٍ لَحْمُهُ زَيْفٌ
كَالْجَبَلِ الْمُؤَفِّي عَلَى الْأَعْرَافِ
ومنه قول الشماخ:

وَطَلْتُ بِأَعْرَافِ تَعَالَى كَأَنَّهَا
رِمَاحٌ نَحَاقًا وَجْهَةَ الرِّيحِ رَاكِزٌ
ومنه عُرْفُ الفرس و عُرْفُ الديك
لِعُلُوِّهِمَا، وقال السدي: سمي
الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يعرفون
الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه عجمة، وإنما المراد بأعراف
ذلك الحجاب أعاليه.

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾. قال أبو
مجلز لاحق بن حميد: هم
الملائكة، ولفظه (رجال) مستعارة

لهم لما كانوا في تماثيل رجال، وهم
ذكور ليسوا بإناث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقد سَمَى الله رجالاً في الجن.

وقال الجمهور: هم رجال من
البشر، ثم اختلفوا - فقال مجاهد: هم
قوم صالحون فقهاء علماء، وحكى
الزهراوي أنهم عدول القيامة الذين
يشهدون على الناس بأعمالهم وهم
في كل أمة، وقاله الزجاج، وقال
قوم: هم أنبياء، وقال المهدوي: هم
الشهداء، وقال شرحبيل بن سعد:
هم المستشهدون في سبيل الله الذين
خرجوا عصاة لآبائهم، وذكر الطبري
في ذلك حديثاً عن النبي ﷺ وأنه
تعادل عقوبتهم واستشهادهم، وقال
ابن مسعود، والشعبي، وحذيفة بن
اليمان، وابن عباس، وابن جبير،
والضحاك: هم قوم استوت حسناتهم
وسيئاتهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقع في مسند خيشمة بن سليمان في
آخر الجزء الخامس عشر حديث عن
جابر بن عبد الله قال: قال
رسول الله ﷺ: «تَوَضَّعَ الْمَوَازِينُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فَتَوَزَّنَ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ،
فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ثَقُلَ
صَوَابُهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ رَجَحَتْ
سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ ثَقُلَ صَوَابُهُ دَخَلَ
النَّارَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ
اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؟ قَالَ: «أُولَئِكَ
أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ لَمْ يَدْخُلُوها وَهَمْ
يَطْمَعُونَ»، وقال حذيفة بن اليمان:
هم قوم أبطأت بهم صفارهم إلى آخر
الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هَٰذِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَافِقُونَ ﴿٤٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا نَارَ يَوْمِهِ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُعْمَةٍ أَنْ نَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدِّدَ فَعْمَلٌ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴿٥٠﴾ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْرَوْنَ ﴿٥١﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ أَنهَارٌ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالنَّهَارُ سَمُومٌ وَالْفَجْرُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَخَفِيفٌ ذُو الْإِسْرَارِ ﴿٥٢﴾ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٣﴾ أَذْعَارُكُمْ تَضَرَّعًا وَخُفْيَةً إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْمُتَذَكِّرِينَ ﴿٥٤﴾ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ تَوَكَّلْ عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بِيَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَلَّتْ سَحَابًا فَأَنزَلْنَا مِنْهُ لِقَدَرٍ مَّائِدًا فَآخَرْنَا بِهٖ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مُنَادٍ مُنَادٍ كَذَٰلِكَ يُخْرِجُ الْوَلَوِّ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٦﴾

١٥٧

فكان الجملة حال من الضمير في ﴿وَنَادَا﴾. وقرأ أبو رقيش النحوي: ﴿لم يدخلوها وهم طامعون﴾، وقرأ إياذ بن لقيط: ﴿وهم ساخطون﴾، وذكر بعض الناس قولاً وهو أن يقدر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَطْمَعُونَ﴾ في موضع الحال من ضمير الجماعة في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، ويكون المعنى: لم يدخلوها في حال طمع بها، بل كانوا في حال يأس وخوف، لكنهم عنهم عفو الله عز وجل. وقال ابن مسعود:

إنما طمع أصحاب الأعراف لأن النور الذي كان في أيديهم لم يُطفأ حين يُطفأ كل ما بأيدي المنافقين.

والضمير في ﴿أَبْصَرْتَهُمْ﴾ عائد على أصحاب الأعراف، فهم يَسْلُمُونَ على أصحاب الجنة، وإذا نظروا في النار وأهلها دعوا الله في التخليص منها، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من العلماء. وقال أبو مجلز: الضمير لأهل الجنة وهم لم يدخلوها بعد. وقوله تعالى: ﴿سُرِّقَتْ﴾ معطية ما هنالك من هول المطلاع. وقوله تعالى: ﴿يَبَايَعُ﴾ يريد من أهل النار، ويحتمل أن يكون هذا النداء وأهل النار في النار، فتكون معرفتهم بعلامات مُعرَّفة بأنهم أولئك الذين عرفوا في الدنيا. ويحتمل أن يكون النداء وهم يُحملون إلى النار، فتكون

واللازم من الآية أن على أعراف ذلك السور - أو على مواضع مرتفعة عن الفريقين حيث شاء الله تعالى - رجالاً من أهل الجنة يتأخر دخولهم ويقع لهم ما وصف من الاعتبار في الفريقين.

﴿يَبْصُرُونَ كُلًّا يَبْصُرُهُمْ﴾ أي بعلامتهم، وهي بياض الوجوه وحسنها في أهل الجنة، وسوداها وقبحها في أهل النار إلى غير ذلك في حيز هؤلاء وحيز هؤلاء. والسِّمَا: العلامة، وهو من وَسَمَ، وفيه قلب، يقال: سِمَا مقصور، وسِماء ممدود، وسِميَّاء بكسر الميم وزيادة ياء، فوزنها عقلاً مع كونها من وسَمَ. وقيل: هي من سَوَمَ إذا علم فوزنها - على هذا - فعلاً. ونادأهم أصحاب الجنة يحتمل أن يكون وأصحاب الجنة لم يدخلوها بعد، فيكون أيضاً قوله: ﴿لَنْ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ يَطْمَعُونَ﴾ محتملاً أن يعني به أهل الجنة، وهو تأويل أبي مجلز إذ جعل أصحاب الأعراف ملائكة، ومحتملاً أن يعني به أهل الأعراف. ويحتمل أن يكون نادأهم أهل الجنة بالسلام وهم قد دخلوها فلا يحتمل حينئذ قوله تعالى: ﴿لَنْ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ يَطْمَعُونَ﴾ إلا أهل الأعراف فقط، وهو تأويل السدي، وقتادة، وابن مسعود، والحسن. وقال: والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا الخير أرادهم لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأظهر الأليق، ولا نظر لأحد مع قول النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَطْمَعُونَ﴾ هي جملة مقطوعة، أخبر أنهم لم يدخلوها وهم طامعون بدخولها.

السِّمَا التي عرفوا بها أنهم أهل النار تسويد الوجوه وتشويه الخلق. وقال أبو مجلز: الملائكة تنادي رجالاً في النار، وقال غيره: بل الآدميون ينادون أهل النار، وقيل: ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا أَفَقُّ﴾ استفهام بمعنى التقرير والتوبيخ، وقيل: ﴿مَّا﴾ نافية، والأول أصوب. و﴿جَمَعَكُمْ﴾ لفظ يعم جميع الأجناد والخول وجمع المال، لأن المراد بالرجال أنهم جبارون ملوك يُقرَّرون يوم القيامة على معنى الإهانة والخزي، و﴿مَّا﴾ الثانية مصدرية. وقرأت فرقة: ﴿تَسْتَكْفِرُونَ﴾ بالشاء مثله من الكثرة.

١٥٨ - ١٥٩ تفسير قوله عز وجل:

قال أبو مجلز: أهل الأعراف هم الملائكة وهم القائلون: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى أهل الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك يجيء قول من قال: أهل الأعراف أنبياء وشهداء.

وقال غيره: أهل الأعراف بشر مذنبون، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْثَلُكُمْ﴾ من كلام ملك بأمر الله عز وجل إشارة إلى أهل الأعراف ومخاطبة لأهل النار، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما. وقال النقاش: لما ويخهم بقولهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَهَنَّمُ﴾ أفسم أهل النار أن أهل الأعراف داخلون النار معهم، فنادتهم الملائكة: ﴿أَمْثَلُكُمْ﴾، ثم نادى أصحاب الأعراف: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾. وقال بعض المتأولين: الإشارة بـ (هؤلاء) إلى أهل الجنة، والمخاطبون هم أهل الأعراف، والذين خاطبوا هم أهل النار، والمعنى: هؤلاء الضعفاء في الدنيا الذين حلفت أن الله لا يعا بهم قيل لهم: ادخلوا الجنة؟ وقد تقدم ما قال النقاش من أن القسَم هو في الآخرة على أهل الأعراف.

وقرأ الحسن، وابن هرمز: ﴿أَدْخِلُوا الْجَنَّةَ﴾ بفتح الألف وكسر الخاء بمعنى: أدخلوا أنفسكم، أو على أن تكون مخاطبة للملائكة، ثم ترجع المخاطبة بغد إلى البشر في ﴿عَلَيْكُمْ﴾. وقرأ عكرمة مولى ابن عباس: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ على الإخبار بفعل ماض. وقرأ طلحة بن مصرف، وابن وثاب، والنخعي: ﴿ادْخِلُوا الْجَنَّةَ﴾ خبر مبني للمفعول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وترتيب كل قراءة من هذه على

الأقوال في المخاطب والمخاطب بقوله تعالى: ﴿أَمْثَلُكُمْ﴾ ممكن بأيسر تناول فاختصرته بإيجازاً، وكذلك ما في الآية من الرجوع من مخاطبة فريق إلى مخاطبة غيره.

وقوله تعالى: ﴿لَا حَوْثَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَشْتَرَ تَحَرُّونَ﴾ معناه: لا تخافون ما يأتي ولا تحزنون على ما فات. وذكر الطبري من طريق حذيفة أن أهل الأعراف يرغبون في الشفاعة فيأتون آدم فيدفعهم إلى نوح، ثم يتدافعهم الأنبياء عليهم السلام حتى يأتوا محمداً ﷺ ليشفع لهم فيشفع فيدخلون الجنة فيلقون في نهر الحياة فيبيضون ويسمون مساكين الجنة. قال سالم مولى أبي حذيفة: ليت أني من أهل الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ الآية. لفظة النداء تتضمن أن أهل النار وقع لهم علم بأن أهل الجنة يسمعون نداءهم، وجائز أن يكون ذلك وهم يرونهم بإدراك يجعله الله لهم على بُعد السفلى من العلو، وجائز أن يكون ذلك وبينهم السور والحجاب المتقدم الذكر، وزوي أن ذلك النداء هو عند اطلاع أهل الجنة عليهم، و ﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ أَقْبَسُوا﴾ مفسرة بمعنى أي، وفاض الماء إذا سال وانما، وأفاضه غيره. وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَمَّا زَكَّيْتُمْ﴾ إشارة إلى الطعام، قال السدي، فيقول لهم أهل الجنة: إن الله حرم طعام الجنة وشرابها على الكافرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأشنع على الكافرين في هذه

المقالة أن يكون بعضهم يرى بعضاً فإنه أخزى وأنكى للنفس، وإجابة أهل الجنة بهذا الحكم هو عن أمر الله تبارك وتعالى. وذكر الزهراوي أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة بالماء» يعني عند الحاجة إليه إذ هو ألد مشروب وأنعشها للنفس، واستسقى الشعبي عند مصعب فقال له: أي الأثرية تحب؟ فقال: أئونها موجوداً وأعزها مفقوداً. فقال مصعب: يا غلام، هات الماء.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَيْلًا﴾ الآية، أضيف الدين إليهم من حيث قبولهم أن يلتزموه، إذ هو دين الله من حيث أمر به، ودين جميع الناس من حيث أمروا به. ﴿وَعَرَّضُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يحتمل أن يكون من كلام أهل الجنة، ويكون ابتداء كلام الله تعالى من قوله: ﴿فَالْيَوْمَ﴾، ويحتمل أن يكون الكلام من أوله من كلام الله عز وجل، ومعنى قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا﴾ أي بالإعراض والاستهزاء لم يدعوهم إلى الإسلام، ﴿وَعَرَّضُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم بزخرفها واعتقادهم أنها الغاية القصوى، ويحتمل أن يكون اللفظ من العَرَّوهم ملء الفم. أي: أشبعتهم وأبهرتهم.

وأما قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَسْهَتُهُمْ﴾ فهو من إخبار الله عز وجل عما يفعل بهم، والنسيان في هذه الآية هو بمعنى الترك، أن تركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة

من المفسرين. قال قتادة: نسوا من الخير ولم ينسوا من الشر، وإن قدر النسيان بمعنى الذهول من الكفرة فهو في جهة ذكر الله تسمية العقوبة باسم الذنب. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا﴾ عطف على [ما] من قوله: ﴿كَفَرُوا﴾، ويحتمل أن تقدّر [ما] الثانية زائدة، ويكون قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا﴾ عطفاً على قوله: ﴿كَفَرُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَحْنَثُ﴾ يكتب الآية، ذكر الإعذار إليهم إثر ذكر ما يفعل بهم، واللام في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ﴾ لام قسم، والضمير في ﴿يَحْنَثُ﴾ لم تقدم ذكره، وقال يحيى بن سلام: تم الكلام في ﴿يَحْنَثُونَ﴾، وهذا الضمير لمكذبي محمد ﷺ ابتداء كلام آخر، والمراد بالكتاب القرآن العزيز.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون اسم جنس في جميع الكتب المنزلة على تأويل من يرى الضمير في ﴿يَحْنَثُ﴾ لمن تقدم ذكره. وقرأ جمهور الناس: ﴿فَقَالَتْ﴾ من تفصيل الآيات وتبيينها، وقرأ ابن محيصن: ﴿فَقَالَتْ﴾ بضاد منقوطة. و ﴿عَلَى﴾ لذلك. وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ مصدران في موضع الحال. ﴿٥٣﴾ - ﴿٥٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون، والتأويل - في هذا الموضع - بمعنى المال والعاقبة، قاله قتادة، ومجاهد، وغيرهما. وقال ابن عباس: ﴿تَأْيِيلُهُ﴾: ماله يوم القيامة. وقال

السدي: ذلك في الدنيا وقعة بدر وغيرها ويوم القيامة أيضاً، والمراد: هل ينتظر هؤلاء الكفار إلا مآل الحال في هذا الدين وما دعوا إليه وما صدوهم عنه، وهم يعتقدون مآله جميلاً لهم، فأخبر الله أن مآله يوم يأتي يقع معه ندمهم، ويقولون تأسفاً على ما فاتهم من الإيمان: لقد صدقت الرسل وجأؤوا بالحق - فالتأويل - على هذا - مأخوذ من آل يؤول. وقال الخطابي: أولت الشيء: رددته إلى أوله، فاللفظة مأخوذة من الأول، حكاه النقاش.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد قيل: أولت معناه: طلبت أول الوجوه والمعاني.

و ﴿نُورٌ﴾ في الآية، يحسن أن يكون النسيان من أول الآية بمعنى الترك، ويُقرؤون بالحق ويستفهمون عن وجوه الخلاص في وقت لا مستعجب لهم فيه. وقرأت فرقة: ﴿أَوْ نُورٌ﴾ برفع الفعل على تقدير: أو هل نرد، وينصب ﴿فَنَعْمَلُ﴾ في جواب هذا الاستفهام الأخير. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿أَوْ نُورٌ فَنَعْمَلُ﴾ بالرفع فيهما على عطف [نَعْمَلُ]، وقرأ ابن أبي إسحق، وأبو حيرة: ﴿أَوْ نُورٌ فَنَعْمَلُ﴾، ونصب (نرد) في هذه القراءة إما على العطف على قوله: ﴿فَيَسْفَعُ﴾، وإما بما حكاه الفراء من أن [أَوْ] تكون بمعنى (حتى) كنحو قول امرئ القيس:

.....
أَوْ نَمُوتُ فَنُفْخَرَا
ويجيء المعنى: إن الشفاعة تكون

في أن يُردوا. ثم أخبر تعالى عن خسارتهم أنفسهم واضمحلال افترائهم على الله وكذبهم في جعل الأصنام آلهة.

وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية. خطاب عام يقتضي التوحيد والحجة عليه بدلائله، والرُّبُّ أصله في اللغة: المصلح من ربِّ يربُّ، وهو يجمع في جهة ذكر الله تبارك وتعالى المالك والسَّيِّد وغير ذلك من استعمالات العرب، ولا يقال: الرُّبُّ مُعَرِّفٌ إلا الله، وإنما يقال في البشر بإضافة، وروى بكار بن الشقير: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ بنصب الهاء، وقوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ حكى الطبري عن مجاهد أن اليوم كآلف سنة، وهذا كله والساعة اليسيرة سواء في قدرة الله تعالى، وأما وجه الحكمة في ذلك فمما انفرد الله عز وجل بعلمه كسائر أحوال الشرائع، وما ذهب إليه من أراد أن يوجه هذا كالمهدوي وغيره تخرُّص. وجاء في التفسير وفي الأحاديث أن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد، وكمملت المخلوقات يوم الجمعة، ثم بقي دون خلق يوم السبت، ومن ذلك اختارته اليهود لراحتها، وعلى هذا توالت تفاسير الطبري وغيره، ولليهود لعنهم الله تبارك وتعالى في هذا كلام سوء تعالى الله عما يصفون.

ووقع حديث في كتاب مسلم بن الحجاج، وفي كتاب «الدلائل» لثابت السرقسطي أن الله تعالى خلق

التربة يوم السبت، وذكره مكي في الهداية.

وقوله تعالى: ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ معناه عند أبي المعالي وغيره من حذاق المتكلمين: الملك والسلطان، وخَصَّ العرش بالذكر تشريفاً له إذ هو أعظم المخلوقات، وقال سفيان الثوري: فَعَلَ فعلاً في العرش سماه استواء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والعرش مخلوق معيّن، جسم ما، هذا الذي قرره الشريعة، وبلغني عن أبي الفضل بن النحوي أنه قال: العرش: مصدر عَرَشَ يعرش عرشاً، والمراد بقوله: ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خروجٌ كثيرٌ عما فهم من العرش في غير ما حديث عن النبي ﷺ. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿يُعْشَىٰ﴾ من أغشى، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر، وحمة، والكسائي: ﴿يُعْشَىٰ﴾ بالتشديد من غشى، وهما طريقتان في تعدية غشى إلى مفعول ثان، وقرأ حميد: ﴿يُعْشَىٰ﴾ بفتح الياء والشين ونصب ﴿أَيْلَ﴾ ورفع ﴿النَّهَارَ﴾، كذا قال أبو الفتح، وقال أبو عمرو الداني برفع ﴿الليل﴾ ونصب ﴿النَّهَارَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأبو الفتح أثبت.

و ﴿حَبِطَ﴾ معناه: سريعاً، و ﴿يَطْلُبُ حَبِطًا﴾ حال من ﴿أَيْلَ﴾ بحسب اللفظ على قراءة الجماعة، ومن ﴿النَّهَارِ﴾ بحسب المعنى، وأما على قراءة حميد فمن ﴿النَّهَارِ﴾ في

الوجهين، ويحتمل أن يكون حالاً منهما، ومثله قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحِيَّةً﴾، فيصح أن يكون ﴿تَحِيَّةً﴾ حالاً منها، وأن يكون حالاً منه، وأن يكون حالاً منهما. و ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ في موضع الحال، وقرأ ابن عامر وحده من السبعة: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِالرَّفْعِ فِي جَمِيعِهَا، ونصب الباقر هذه الحروف كلها، وقرأ أبان بن تغلب: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ بالنصب، ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِالرَّفْعِ.

و ﴿آلَ﴾ استفتاح كلام فاستفتح بهذا في هذا الموضع. هذا الخبر الصادق المرشد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأخذ المفسرون ﴿الْفَلَقَ﴾ بمعنى المخلوقات، أي: هي له كلها وملكه واختراعه، وأخذوا ﴿الْأَمْرَ﴾ مصدراً من أَمَرَ يَأْمُر، وعلى هذا قال النقاش وغيره: إِنَّ الآية تردُّ على القائلين بخلق القرآن لأنه فرق فيها بين المخلوقات وبين الأمر، إذ ﴿الْأَمْرُ﴾ كلامه عز وجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن تؤخذ لفظة ﴿الْفَلَقَ﴾ على المصدر من خلق يخلق خلقاً، أي: له هذه الصفة إذ هو الموجد للأشياء بعد العدم، ويؤخذ ﴿الْأَمْرَ﴾ على أنه واحد الأمور إلا أنه يدل على الجنس فيكون بمنزلة قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتُم مَّاءَ الْوَيْحِ الْمُرْتَجِّ﴾، وبمنزلة قوله تعالى: ﴿وَرَأَى اللَّهُ رُجُوعَ الْأُمُورِ﴾، فإذا أخذت اللفظتان هكذا خرجتا عن مسألة الكلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولما تقدم في الآية ﴿خَلَقَ﴾ و ﴿يَأْمُرُ﴾، تأكد في آخرها أن له الخلق والأمر المصدرين حسب تقدمهما، وكيفما تأولت الآية فالجميع لله، وأسند الطبري إلى النبي ﷺ أنه قال: «من زعم أن الله تبارك وتعالى جعل لأحد من العباد شيئاً من الأمر فقد كفر بما أنزل الله لقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾». قال النقاش: ذكر الله الإنسان في القرآن في ثمانية عشر موضعاً ليس في واحد منها إشارة إلى أنه مخلوق. وقال الشعبي: ﴿الْفَلَقَ﴾ عبارة عن الدنيا، و ﴿الْأَمْرَ﴾ عبارة عن الآخرة، و ﴿تَبَارَكَ﴾ لا يتصرف في كلام العرب، لا يقال منه (يتبارك)، وهذا منصوص عليه لأهل اللسان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلة ذلك أن (تبارك) لما لم يوصف بها غير الله تعالى لم تقتض مستقبلاً، إذ الله قد تبارك في الأزل، وقد غلط بها أبو علي القالي ف قيل له: كيف المستقبل من (تبارك)؟ فقال: (يتبارك)، فوقف على أن العرب لم تقله. والرب: السيد المصلح، و ﴿الْمَكِينُ﴾ جمع عالم.

٥٥ - ٥٦ تفسير قوله عز وجل: هذا أمر بالدعاء وتعبده، ثم قرن عز وجل بالأمر به صفات تحسن معه.

وقوله تعالى: ﴿فَضْرِبْ﴾ معناه: بخشوع واستكانة، والتضرع لفظه تقضي الجهر لأن التضرع إنما يكون

الأرض بعد أن أصلحها الله ببعثة الرسل وتقرير الشرائع ووضوح ملّة محمد ﷺ، وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر.

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتحزن وتأميل لله عز وجل حتى يكون الرجاء والخوف كالجنّاحين للطائر يحملانه في طريق استقامة، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان، وقد قال كثير من العلماء: ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة فإذا جاء الموت غلب الرجاء، وقد رأى كثير من العلماء أن يكون الخوف أغلب على المرء بكثير، وهذا كله احتياط، ومنه تمنى الحسن البصري أن يكون الرجل الذي هو آخر من يدخل الجنة، وتمني سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف لأن مذهبه أنهم مذنبون.

ثم أنس قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، فإنها آية وغد فيها تقييد بقوله: ﴿مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. واختلف الناس في وجه حذف التاء من ﴿قَرِيبٌ﴾ في صفة الرحمة على أقوال منها أنه على جهة النسب، أي: ذات قرب، ومنها أنه لما كان تأنيثها غير حقيقي جرت مجرى: كف خضيب، ولخية دهن، ومنها أنها بمعنى مذكر فذكر الوصف لذلك. واختلف أهل هذا القول في تقدير المذكر الذي هي بدل منه - فقالت فرقة: الغفران والعفو، وقالت فرقة: المطر، وقيل

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَجُبُّ الْفَعْنِ﴾ يريد: في الدعاء وإن كان اللفظ عاماً، فالإشارة، والاعتداء في الدعاء على وجوه، منها الجهر الكثير والصباح كما قال رسول الله ﷺ لقوم - وقد رفعوا أصواتهم بالتكبير -: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً»، ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبي، أو يدعو في محال ونحو هذا من الشطط، ومنها أن يدعو طالباً معصية، وغير ذلك، وفي هذه الأمثلة كفاية. وقرأ ابن أبي عملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُجِبُّ الْمُفْتَلِينَ﴾، والمعتدي هو مجاوز الحد ومرتكب الحظر، وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيه، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: : «سيكون أقيوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. ألفاظ عامة تتضمن كل إفساد قل أو كثر بعد إصلاح قل أو كثر، والقصد بالنهي هو على العموم، وتخصيص شيء دون شيء في هذا تحكّم إلا أن يقال على وجه المثال. قال الضحاك: معناه: لا تُعَوِّزُوا الماء المعين، ولا تقطعوا الشجر المثمر ضرراً، وقد ورد قطع الدينار والدرهم من الفساد في الأرض، وقد قيل: تجارة الحكام من الفساد في الأرض، وقال بعض الناس: المراد: ولا تشركوا في

بإشارات جوارح وهيئات أعضاء تقترب بالطلب. ﴿وُخْفِيَّةٌ﴾ يريد في النفس خاصة، وقد أنشئ الله عز وجل على ذلك في قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ يَدِّأْهُ خَوْفًا﴾ ونحو هذا قول النبي ﷺ: «خَيْرُ الذُّكْرِ الْخَفِيُّ»، والشرعية مقررة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر، وتأول بعض العلماء التضرع والخفية في معنى السر جميعاً، فكان التضرع فعل للقلب، ذكر هذا المعنى الحسن بن أبي الحسن وقال: «لقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عمل يقدر أن يكون سرّاً فيكون جهراً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء فلا يُسمع لهم صوت، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ يَدِّأْهُ خَوْفًا﴾. وقال الزجاج: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ معناه: اعبدوا ربكم، ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي باستكانة واعتقاد ذلك في القلوب.

وقرأ جميع السبعة: ﴿وُخْفِيَّةٌ﴾ بضم الخاء، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر - هنا وفي الأنعام -: ﴿وُخْفِيَّةٌ﴾ بكسرهما، وهما لغتان، وقد قيل: إن خفية بكسر الخاء بمعنى الخوف والرهبة، ويظهر ذلك من كلام أبي علي. وقرأت فرقة: ﴿وُخْفِيَّةٌ﴾ من الخوف، أي: ادعوه باستكانة وخوف، ذكرها ابن سيده في المحكم ولم ينسبها، وقال أبو حاتم: قرأها الأعمش فيما زعموا.

وتتفرق، فيحسن من حيث هي منفصلة الأجزاء متغايرة المهب يسيراً أن يقال لها: رياح، وتوصف بالكثرة، وأما ربح الصرّ والعذاب فهي عاصفة صرّصر جسد واحد، شديدة المرّ، مُهلِكَة بقوتها وبما تحمله أحياناً من الصرّ المحرق، فيُحسنُ من حيث هي شديدة الاتصال أن تُسمى ربحاً مفردة، وكذلك أُنردت الريح في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبَّانِ يَمْ رِيحَ طَبَرٍ﴾ من حيث جري السفن إنما تجري بريح متصلة كأنها شيء واحد فأُنردت لذلك، ووصفت بالطيب لإزالة الاشتراك بينها وبين الريح المكروهة، وكذلك ربح سليمان عليه السلام إنما كانت تجري بأمره أو تعصف في قفوله وهي متصلة. وبعد، فمن قرأ هذه الآية: ﴿الريّح﴾ بالإنفراد فإنما يريد به اسم الجنس، وأيضاً فتقييدها بـ ﴿بُشْراً﴾ يزيل الاشتراك.

والإرسال في الريح هو بمعنى
الإجراء والإطلاق والإسالة، ومنه
الحديث: «فلرسول الله ﷺ أجود
بالخير من الريح المرسلة». والريح
تجمع في القليل: أرواح، وفي
الكثير: رياح، لأن العين من الريح
واو انقلبت في الواحد ياء للكسر
الذي قبلها، وكذلك في الجمع
الكثير، وصحت في القليل لأنه لا
شيء فيه يوجب الإعلال.

وأما «نُشْرًا» بضم النون والشين فيحتمل أن يكون جمع ناشر على النسب، أي ذات نشر من الطي، أو نشور من الحياة، ويحتمل «نُشْرًا»

أن يكون جمع (نُشُور) بفتح النون
وضم الشين، كرسول وُرسل،
وصبور وُصبر، وشكور وشكر،
ويحتمل **﴿نُشْرًا﴾** أن يكون كالمفعول
بمعنى منشور، كركوب بمعنى
مركوب، ويحتمل أن يكون من أبنية
اسم الفاعل لأنها تنشر السحاب،
وأما مثال الأول في قولنا: ناشر
وُنُشر فشاهد وشُهد ونازل وتُرزل،
كما قال الشاعر:

.....
 أَوْ تُنْزِلُونَا فَإِنَّا مَغْشَرٌ نُّزِّلُ
 وَقَاتِلْ وَقَتْلُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعْمَى:

.....
 إِنْ أَلَمَّا إِلَيْكُمْ يَأْكُمْنَا قُتِلَ
 وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: ﴿تُسْأَرُ﴾ بضم النون
 وسكون الشين فإنما خفف الشين من
 قوله: تُسْأَرُ، ومن قرأ: ﴿تُسْأَرُ﴾
 بفتح النون وسكون الشين فهو مصدر
 في موضع الحال من الريح،
 ويحتمل في المعنى أن يراد به النسر
 الذي هو خلاف الطي، وكل بقاء
 الريح بدون هبوب طي، ويحتمل أن
 يكون من التُسْر الذي هو الإحياء كما
 قال الأعشى:

يَا عَجَبًا لِلْمُصَيِّبِ النَّاسِ
وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: ﴿تَنْشُرُ﴾ بفتح النون
والشين - وهي قراءة شاذة - فهو اسم
وهو على النسب، قال أبو الفتح:
أي ذوات نُشِرَ، والتَّنْشُرُ: أن تنتشر
الغنم بالليل فترعى، فشبه السحاب
في انتشاره وعمومه بذلك.

وأما: ﴿بُشْرًا﴾ بضم الباء والشين
فجمع بشير، كَتَذِيرٍ وَتَذَرٍ، و ﴿بُشْرًا﴾
بسكون الشين مخفف منه، و

﴿بُشْرًا﴾ بفتح الباء وسكون الشين مصدر، و ﴿بُشْرًا﴾ مصدر أيضاً في موضع الحال. والرحمة في هذه الآية: المطر، و ﴿يَبِّحُ﴾ أي أمام رحمة وقُدَامِها، وهي هنا استعارة، وهي حقيقة فيما بين يدي الإنسان من الأجرام.

و ﴿أَنْتَلَّتْ﴾ معناه: رَفَعَتْ مِنَ
الْأَرْضِ وَاسْتَقَلَّتْ بِهَا، وَمِنْه الْقِلَّةُ،
وَكَانَ الْمُقِلُّ يَرَى مَا يَرْفَعُ قَلِيلًا إِذَا
قَدَّرَ عَلَيْهِ، وَ ﴿ثَقَالًا﴾ معناه: مِنْ
الْمَاءِ، وَالْعَرَبُ تَصِفُ السَّحَابَ
بِالثَّقَلِ وَالدَّلْحِ، وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسِ بْنِ
الْخَطِيمِ:

بِأَحْسَنِ مِثْلِهَا وَلَا مُؤْزَنَةً
ذُلُوحَ نَكْشَفٍ أَذْجَانُهَا
والريّح تسوق السحاب من ورائها
فهو سوق حقيقة، والضمير في
﴿سُقْنَتُهُ﴾ عائد على السحاب،
واستند الفعل إلى ضمير اسم الله
تعالى من حيث هو إنعام. وصفة
البلد بالموت استعارة بسبب شعثه
وجذوبته وتصويح نباته. وقرأ أبو
عمرو، وعاصم والأعمش: ﴿لِيَبْلُذَ
مَيْتٌ﴾ بسكون الياء، وشدها
الباقون. والضمير في قوله تعالى:
﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ يحتمل أن يعود على
السحاب أي منه، ويحتمل أن يعود
على البلد، ويحتمل أن يعود على
الماء وهو أظهرها.

وقال السدي في تفسير هذه الآية:
 إن الله تعالى يرسل الرياح فتأتي
 بالسحاب من بين الخافقين طرف
 السماء والأرض حيث يلتقيان
 فخرجه من ثَمٍّ، ثُمَّ تنشره فتبسطه
 في السماء، ثم تفتح أبواب السماء

فيسيل الماء على السحاب، ثم تمطر السحاب بعد ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التفصيل لم يثبت عن النبي ﷺ.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْتَوَّٰنَ﴾ يحتمل مقصدين: أحدهما أن يراد: كهذه القدرة العظيمة في إنزال الماء وإخراج الشمرات به من الأرض المجدبة هي القدرة على إحياء الموتى من الأجداث، وهذا مثال لها، ويحتمل أن يراد أن هكذا يصنع بالأموات من نزول المطر عليهم حتى يَخْيَوا به، فيكون الكلام خبيراً لا مثلاً، وهذا التأويل إنما يستند إلى الحديث الذي ذكره الطبري عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى مطر عليهم مَطَرٌ من ماء تحت العرش يقال له: ماء الحيوان - أربعين سنة، فينبثون كما ينبث الزرع، فإذا كملت أجسادهم نفخ فيهم الروح، ثم تلقى عليهم نومة فينامون، فإذا نفخ في الصور ثانية قاموا وهم يجدون طعم النوم، فيقولون: ﴿يَوَدُّلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدًا؟﴾ فيناديهم المنادي: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتًا﴾ آية مُتَّعَمَةٌ للمعنى الأول في الآية قبلها، مُعَرِّفَةٌ بعبادة الله تبارك وتعالى في إنبات الأرضين، فمن أراد أن يجعلها مثلاً لقلب المؤمن وقلب الكافر فذلك كله مرتب، لكن ألفاظ الآية لا تقتضي أن المثال قصد به ذلك، والتمثيل بذلك حكاه

الطبري عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي. وقال النحاس: هو مثال للفهم وللبليد. والطيب هو الجيد التراب الكريم الأرض، وخص بإذن ربّه مدحاً وتشريفاً، وهذا كما تقول لمن تغض عنه: «أنت كما شاء الله»، فهي عبارة تعطي مبالغة في مدح أو ذم، ومن هذا قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَهُ مَا سَكَنَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ على بعض التأويلات. والخبيث هو السباخ ونحوها من رديء الأرض. وقرأ ابن أبي عبله، وأبو حيوة، وعيسى بن عمر: ﴿يُخْرِجُ نَبَاتًا﴾ بضم الباء وكسر الراء ونصب التاء. والتكيد: العسير القليل، ومنه قول الشاعر:

لَا تُنْجِزُ الْوَعْدَ إِنْ وَعَدْتَ وَإِنْ
أَعْطَيْتَ أَغْطَيْتَ نَافِهَا تُكْذِبُ
ونكد الرجل إذا سأل إلحافاً وأخجل، ومنه قول الشاعر:

وَأَعْطِ مَا أَغْطَيْتَهُ طَيْبًا
لَا خَيْرَ فِي الْمُنْكَوِدِ وَالشَّكَاذِ
وقرأ جمهور الناس وجميع السبعة: ﴿تُكْذِبُ﴾ بفتح النون وكسر الكاف، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿تُكْذِبُ﴾ بتخفيف الكاف وفتح النون، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿تُكْذِبُ﴾ بفتح النون والكاف، وقال الزجاج: وهي قراءة أهل المدينة.

﴿كَذَٰلِكَ نَصْرَفُ الْأَنبِيَاءَ﴾ أي: هكذا نبين الأمور. و﴿يَشْكُرُونَ﴾ معناه: يؤمنون بالآءِ الله ويثنون.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: اللام لام القسم، قال الطبري: أقسم الله تبارك وتعالى أنه أرسل نوحاً. وقالت فرقة من المفسرين:

سمي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

قال سيبويه: نوح ولوط وهود أسماء أعجمية إلا أنها حقيقة فلذلك صرفت. وهذه نذارة من نوح لقومه، دعاهم إلى عبادة الله وحده ورفض آلهتهم المسماة: ودأ وسوعاً ويغوث ويعوق وغيرها مما لم يشتهر. وقرأ الكسائي وحده: ﴿غَيْرُهُ﴾ بالكسر من الراء على النعت لـ ﴿إِلَٰهِ﴾، وهي قراءة يحيى بن وثاب، والأعمش، وأبي جعفر، وقرأ الباقر: ﴿غَيْرُهُ﴾ بالرفع، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ خفضاً، وقرأ الباقر: ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ رفعاً، والرفع في قراءة الجماعة هنا على البديل من قوله من ﴿إِلَٰهِ﴾، لأن موضع قوله: ﴿يَنْ إِلَٰهِ﴾ رفع، وهو الذي رجح الفارسي، ويجوز أن يكون نعتاً على الموضع لأن التقدير: ما لكم إله غيره، أو يقدر (غير) بـ (إلا) فيعرب بإعراب ما يقع بعد (إلا)، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿غَيْرُهُ﴾ بنصب الراء على الاستثناء، قال أبو حاتم: وذلك ضعيف من أجل النفي المتقدم. وقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ﴾ يحتمل أن يريد به عذاب الدنيا، ويحتمل أن يريد به عذاب الآخرة.

و﴿الْمَلَكُ﴾ الجماعة الشريفة، قال الطبري: لا امرأة فيهم، وحكاه النقاش عن ثعلب في: الملا، والرُّهْط، والثُّفَر، والقوم. وقيل:

أخبر الله عنهم أنهم بعد تَلَفُفه بهم كذبوه فَأَنجَاهُ اللهُ والمؤمنين به في السفينة، وهي الْفُلُكُ، وَالْفُلُكُ للجمع والمفرد، وليس على حدَّ جُنُبٍ ونحوه، لكن فُلُكُ للواحد كُسِرَ على فُلُك للجمع، فضمة الفاء في الواحد ليست هي في الجمع، وفعل بناء تكسير مثل: أَسَدٌ وأَسَدٌ، ويدل على ذلك قولهم في التثنية: فُلُكَّانَ.

وفي التفسير: إن الذين كانوا مع نوح في السفينة أربعون رجلاً، وقيل: ثمانون، وقيل: عشرة، فهم أولاده: يافث وسام وحام، وفي كثير من كتب الحديث للترمذي وغيره: «إن جميع الخلق الآن من ذرية نوح عليه السلام»، وقال الزهري في كتاب النقاش: وفي القرآن: «ذَرِيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيحتمل أن يكون سائر العشرة أو الأربعين - حسب الخلاف - حَفَدَةَ لنوح ومن ذريته فتجتمع الآية والحديث، ويحتمل أن من كان في السفينة غير بنيه لم ينسل - وقد روي ذلك - وإلا لكان بين الحديث والآية تعارض.

وقوله تعالى: «كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» يقتضي أن نوحاً عليه السلام كانت له آيات ومعجزات، وقوله: «عَمِيرٌ» وزنه فعين وهو جمع عَمٍ وزنه قِع، ويريد عمى البصائر، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نوحاً عليه السلام بعث ابن أربعين سنة، قال

السلام وكل نبي مبعوث إلى الخلق كانت له معجزة تخرق العادة، فمنهم من عرفنا بمعجزته ومنهم من لم يعرف.

وقرأ السبعة سوى أبي عمرو: «أَيُّكُمْ» بشد اللام وفتح الباء، وقرأ أبو عمرو بسكون الباء وتخفيف اللام، وقوله: «وَأَعْلَزَ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ»، وإن كان لفظاً عاماً في كل ما عَلِمَهُ فالمقصود منه هنا المعلومات المخوفات عليهم، لا سيما وهم لم يسمعوا قط بأمة عذبت، فاللفظ مضمن الوعيد.

١٣٦ - ١٣٧ تفسير قوله عز وجل:

هذه ألف استفهام دخلت على الواو العاطفة، والاستفهام هنا بمعنى التقرير والتوبيخ، وعجههم الذي وقع إنما كان على جهة الاستبعاد والاستمحال، هذا هو الظاهر من قصتهم، وقوله تعالى: «عَلَى» قيل: هي بمنعنى (مع)، وقيل: هو على حذف مضاف تقديره: على لسان رجل منكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون المجيء بنفسه في هذا الموضع يصل بـ (عَلَى) إذ كل ما يأتي من الله تبارك وتعالى فله حكم النزول، فكأن «جَاءَكُمْ» معناه: نزل، فحسّن معه أن يقال: «عَلَى نَجِيٍّ»، واللام في «يُنْذِرُكُمْ» لام كي، وقوله تعالى: «وَلَكُمْ» ترجع بحسب حال نوح ومعتقده، لأن هذا الخبر إنما هو من تلقاء نوح عليه السلام.

وقوله تعالى: «فَكَذَّبُوهُ» الآية.

هم مأخوذون من أنهم يملؤون النفس والعين، ويحتمل أن يكون من أنهم إذا تماثلوا على أمر تَمَّ، وقال سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري عند قفول رسول الله ﷺ من غزوة بدر: «إنما قتلنا عجائز ضُلَمَاء»، فقال له النبي ﷺ: «أولئك الضلأ من قريش لو حضرت أفعالهم لاحتقرت فِعْلُك». والضلأ، صفة غالبية وجمعه أُمْلَاء، وليس من باب (رُفِط) وإن كانا اسمين للجمع، لأن (رُفِط) لا واحد له من لفظه، و (ملأ) يوجد من لفظه (مالى). قال أحمد بن يحيى: المالى: الرجل الجليل الذي يملأ العين بجُهرته، فيجيء كعازب وخادم ورائع فإن أسماء جموعها: عَزَبٌ وَخَذَمٌ وَرَوَّحٌ، وإن كانت اللفظة من «تَمَالَا القوم على كذا» فهي مفارقة باب (رُفِط)، ومنه قول علي رضي الله عنه: «ما قتلت عثمان ولا مالاث في دمه»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (المَلُؤُ) بواو، وكذلك هي في مصاحف الشام. وقولهم: «لَوَزْنُكَ» يحتمل أن يُجعل من رؤية البصر، ويحتمل من رؤية القلب وهو الأظهر، و «فِي صَلَليٍّ» أي في إتلاف وجهالة بما تسلك. وقوله لهم جواباً عن هذا: «لَيْسَ بِي صَلَلةٌ» مبالغة في حُسن الأدب والإعراض عن الجفاء منهم، وتناوُل رفيق وسعة صدر حسبما يقتضيه خلق الثبوة، وقوله: «وَلَكِنِّي رَسُولٌ» تعرض لمن يريد النظر والبحث والتأمل في المعجزة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَتُقَدَّر - ولا بد - أن نوحاً عليه

﴿وَأَذْكُرُوا﴾ الآية، تعديد للنعم عليهم. و ﴿خُلَفَاءُ﴾ جمع خليف، كظريف وظرفاء، وخليفة جمعه خلائف، والعرب تقول: خليفة وخليف، وأنشد أبو علي:

فَبِإِنْ يَزُلْ زَائِلٌ يُوجَدُ خَلِيفَتُهُ
وَمَا خَلِيفَ أَبِي وَفِي بِمُزْجُودٍ
قال السدي وابن إسحق: والمعنى:

جعلكم سكان الأرض بعد قوم نوح. وقوله تعالى: ﴿نُوحٌ وَآدَمُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي في الخلقة، والبسطة: الكمال في الطول والعرض، وقيل: زادكم على أهل عصركم، قال الطبري: المعنى: زادكم على قوم نوح، وقاله قتادة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واللفظ يقتضي أن الزيادة هي على جميع العالم، وهو الذي يقتضي ما يذكر عنهم، وروي أن طول الرجل منهم كان مائة ذراع، وطول أقصرهم ستين، ونحو هذا.

والآلاء: جمع إلى على مثال معنى، وأنشد الزجاج:

أَبْيَضُ لَا يَرْحَبُ الْهُزَالُ وَلَا
يَقْطَعُ رَحْمًا وَلَا يَخُونُ إِلَى
وقيل: واحد الآلاء ألى على مثال: قفى، وقيل: واحدها: ألى على مثال: حسا وهي النعمة والمنة. و ﴿تَقْلِحُونَ﴾ معناه: تدركون البغية والآمال.

قال الطبري: وعاد هؤلاء فيما حدث ابن إسحق من ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وكانت مساكنهم الشجر من أرض اليمن وما إلى حضرموت إلى عُمان. وقال السدي: وكانوا بالأحقاف وهي

نصب بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فهو معطوف على (نوح). وهذه أيضاً نذارة من هود عليه السلام لقومه، وتقدم الخلاف في قراءة ﴿غَيْرُ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استعطاف إلى التقى والإيمان.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ الآية، تقدم القول في مثل هذه المقالة أنفاً، والسفاهة: مصدر عبر به عن الحال المهلهلة الرقيقة التي لا ثبات لها ولا جودة، والسفة في الثوب خفة نسجه، ومنه قول

الشاعر:

مَشِينٌ كَمَا افْتَرَتْ رِمَاحٌ تَسْفَهُتُ
أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيَّاحِ السَّوَايِمِ
وقولهم: ﴿لَطَفْتُكَ﴾ هو ظن على بابه لأنهم لم يكن عندهم إلا ظنون وتخرض، وتقدم الخلاف في قراءة: ﴿أَبْلَيْكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَيُّيْنَ﴾ يحتمل أن يريد: على الوحي والذكر النازل من قبيل الله عز وجل، ويحتمل أن يريد أن أمين عليهم وعلى غيبهم وعلى إرادة الخير بهم، والعرب تقول: «فلانٌ لفلانٍ ناصح الجيب أمين الغيب»، ويحتمل أن يريد به: أمين من الأمن، أي: جهتي ذات أمن من الكذب الغش.

٦٦ - ٦٧ تفسير قوله عز وجل:

قد تقدم القول في مثل ﴿أَرْ﴾ عَجَبْتُمْ. والذكر: لفظ عام للمواعظ والأوامر والنواهي. وقوله تعالى:

أَبْلَيْكُمْ رَسَلْتُ رِيَّ وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ أَيْيْنَ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجَبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَنْتَكِبُ لِيَذْرََكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَلَمَّا جَاءَنَا إِمَامُ قَوْمٍ نَافٍ لِمَنِ كُنْتُمْ مِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أَنْتُمْ لَوَيْتُمْ فِي تَأْسَمُوا سَمِعْتُمْوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَجْبَيْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَى نُحُودِ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْفُورُ عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا وَتَأْكُلُوا فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَتَّبِعُوا سُلُوكَ الَّذِينَ كَذَبُوا آيَةَ اللَّهِ ﴿٧٣﴾

١٥٩

ابن الكلبي: بعد آدم بشمانمائة سنة، وجاء بتحريم البنات والأخوات والأمهات والخالات والعمات وقال وهب بن مُثَنَّب: بعث نوح وهو ابن أربعمائة سنة، وقيل: بعث ابن ثلاثمائة سنة، وقيل: ابن خمسين سنة، وروي أنه عمر بعد الغرق ستين سنة، وروي أن الطوفان كان سنة ألف وستمائة سنة من عمره ﷺ، وأتى في حديث الشفاعة وغيره أن نوحاً أول نبي بعث إلى الناس، وأتى أيضاً أن إدريس قبل نوح ومن آبائه، وذلك يجتمع أن تكون بعثة نوح مشتهرة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان، فالمراد أنه أول نبي بعث على هذه الصفة.

٦٥ - ٦٨ تفسير قوله عز وجل:

﴿عَادُ﴾ اسم الحي، و ﴿نَهْلَهُمْ﴾

الرمال، وكانت بلادهم أخصب بلاد فردّها الله صحار، وقال علي بن أبي طالب: إن قبر هود عليه السلام هنالك في كتيب أحمر يخالطه مدرة ذات أراك وسيذر، وكانوا قد فشوا في جميع الأرض، وملكوا كثيراً بقوتهم وعددهم وظلموا الناس، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة، وكانوا أصحاب أوثان منها ما يسمى صداء، ومنها صموداً، ومنها الهبا، فبعث الله إليهم هوداً من أفضلهم وأوسطهم نسباً فدعاهم إلى توحيد الله وإلى ترك الظلم. قال ابن إسحق: لم يأمرهم فيما يذكر بغير ذلك فكذبوه وعتّوا، واستمر ذلك منهم إلى أن أراد الله إنفاذ أمره، فأمسك عنهم المطر ثلاث سنين فشقوا بذلك، وكان الناس في ذلك الزمان إذا همّهم أمر فزعوا إلى المسجد الحرام بمكة فدعوا الله فيه تعظيماً له، مؤمنهم وكافرهم، وأهل مكة يومئذ العماليق وسيدهم رجل يسمى معاوية بن بكر، فاجتمعت عاد على أن تجهز منهم وفداً إلى مكة يستسقون الله لهم، فبعثوا قَيْل بن عَيْر، ولقيم بن هزال، وعقيل بن ضد بن عاد الأكبر، ومرثد بن سعد بن عفير، وكان هذا مؤمناً يكرم إيمانه، وجُلْهمة بن الخيرى في سبعين رجلاً من قومهم، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم، فأنزلهم وأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية، فلما رأى معاوية طول إقامتهم وقد بعثهم عاد

للفلح أشفق على عاد، وكان ابن أختهم كلهدة بنت الخيرى جُلْهمة، وقال: هلك أخوالي، وشقّ عليه أن يأمر أضيافه بالانصراف عنه، فشكا ذلك إلى القينتين، فقالتا له: اصنع شعراً نغني به عسى أن تُنبّههم، فقال:

أَلَا يَا قَيْلُ وَيَحَكَ قُمْ فَهَيِّنْ
لَعَلَّ اللَّهَ يُسْقِيَنَا غَمَامًا
فَيَسْقِي أَرْضَ عَادٍ إِذْ عَادًا
قَدْ أَمْسُوا لَا يُبِينُونَ الْكَلَامَا
مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ فَلَيْسَ تَرْجُو
بِهِ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَلَا الْغُلَامَا
وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ
فَقَدْ أَمْسَتْ نِسَاؤُهُمْ عِيَا
وَأَنَّ الْوَحْشَ يَأْتِيهِمْ جَهَارًا
وَلَا يَخْشَى لِعَادِي سَهَامَا
وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيمَا اشْتَهَيْتُمْ
نَهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمْ الثَّمَامَا
فَقُبِّحَ وَقُدِّمَ مِنْ وَلَدِ قَوْمٍ
وَلَا تُقُوا الشَّجِيئَةَ وَالسَّلَامَا

فغئت به الجرادتان، فلما سمعه القوم قال بعضهم: يا قوم إنما بعثكم قومكم لما حلّ بهم فادخلوا هذا الحرم وادعوا لعلّ الله يغيثهم، فخرجوا لذلك، فقال لهم مرثد بن سعد: إنكم والله ما تُسْقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيكم وأمتتم به سقيتم، وأظهر إيمانه يومئذ فخالفه الوفد، وقالوا معاوية بن بكر وأبيه بكر: احبسنا عنا مرثداً ولا يدخل معنا الحرم فإنه قد أتبع هوداً، ومضوا إلى مكة فاستسقى قَيْل بن عير وقال: يا إلهنا إن كان هود صالحاً فاسقنا فلنا قد هلكنا، فأنشأ الله سحائب ثلاثاً بيضاء

وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السحاب: يا قَيْلُ اختر لنفسك وقومك من هذا السحاب، فقال قَيْل: قد اخترت السواء فإنها أكثرها ماء، فنودي: اخترت رماداً رَمْدًا، لا تبقي من عادٍ أحداً، لا والدأ ولا ولدأ، إلّا جعلتهم مُمْدًا، وساق الله تعالى السحابة السوداء التي اختارها قَيْل إلى عادٍ حتى خرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له: المغيث، فلما رأوها قالوا: هذا عارضٌ مُنْطَرِنَا حتى عرفت أنها ريحٌ امرأةٌ من عادٍ يقال لها: مَهْدَدٌ، فصاحت وصعقت، فلما أفاقت قيل لها: ما رأيت؟ قالت: رأيت ريحاً كشهد النار أمامها رجال يقودونها، فسخرها الله عليهم ثمانية أيام حسوماً وسبع ليال، والحسوم: الدائمة، فلم تدع من عادٍ أحداً إلى هلك، فاعتزل هو ومن معه في حظير ما يصيبه من الريح إلّا ما يلتذ به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قصص وقع في تفسير الطبري مطولاً، وفيه اختلاف، فاقترضت عيون ذلك بحسب الإيجاز، وفي خبرهم أن الريح كانت تدمغهم بالحجارة وترفع الطعينة عليها المرأة حتى تلقى في البحر، وفي خبرهم أن أقوياءهم كان أحدهم يُسَدُّ بنفسه مهبّ الريح حتى تغلبه فتلقيه في البحر فيقوم آخر مكانه حتى هلك الجميع. وقال زيد بن أسلم: بلغني أن ضبعاً ربت أولادها في ججاج عين رجل منهم، وفي خبرهم أن الله بعث - لما هلكت عاد - طيراً - وقيل: أسداً - فنقلت جيفهم حتى

طرحتهم في البحر، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَسْبَحُوا لَا يَزِيدُ إِلَّا مَسْكَنَهُمْ﴾. وفي بعض ما روي من شأنهم أن الريح لم تبعث قط إلا بمكيال إلا يومئذ فإنها تمت على الخزنة فغلبتهم فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَقْصِرْ كَأَيْدِيكَ عَنْ رِجْزِ رَبِّكَ إِنَّكَ عَلَىٰ قُرْبَىٰ مِّنْ عَذَابِهِ﴾، وروي أن هوداً لما هلك عاد نزلت بمن آمن معه إلى مكة فكانوا بها حتى ماتوا، فالله أعلم أي ذلك كان.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَاكَ بِالْبَيِّنَاتِ أَمْ نَجِئُكَ إِلَىٰكَ مِنَ الْغِيظِ﴾. ظاهر قولهم وحده أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا العبادة لله مع إقرارهم بالإله الخالق المبدع، ويحتمل أن يكونوا منكبين لله ويكون قولهم: ﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَنَحْذَرُ﴾ أي على قولك يا هود. والتأويل الأول أظهر فيهم وفي عبادة الأوثان كلهم، ولا يجحد ربوبية الله تعالى من الكفرة إلا من أفرطت غباوته كإبريد بن ربيعة، وإلا من ادعاه لنفسه كفرعون ونمرود، وقولهم: ﴿فَأَيُّهَا﴾ تصميم على التكذيب، واحتقار لأمر النبوة، واستعجال للعقوبة، وتمكن قولهم: ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ لما كان هذا الوعد مصرحاً به في الشر، ولو كان ذكر الوعد مطلقاً لم يجيء إلا في خير.

٧١ - ٧٣ تفسير قوله عز وجل:

أعلمهم بأن القضاء قد نفذ، وحل عليهم الرجز وهو السخط والعذاب، يقال: رجس ورجز بمعنى واحد، قال أبو عمرو بن العلاء، وقال الشاعر: إِذَا سَنَةٌ كَانَتْ بِنَجْدٍ مُّحِيطَةً فَكَانَ عَلَيْهِمْ رَجْسُهَا وَعَذَابُهَا

وقد يأتي الرجز أيضاً بمعنى الثن والقدر، ويقال في الرجيع: رجس وركز، وهذا الرجز هو المستعار للمحرمات، أي ينبغي أن يجتنب كما يجتنب الثن، ونحوه في المعنى قول النبي ﷺ في خبر جهجاه الغفاري وسان بن وبرة الأنصاري حين دعوا بدعوى الجاهلية: (دعوها فإنها مثنة).

وقوله: ﴿أَتَجِدُلُنِي فِي آسَمَاءٍ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ إِنَّمَا يُرِيدُ أَنَّهُمْ يَخَاصِمُونَهُ فِي أَن تَسْمَىٰ آلَهُ، فَالْجِدْلُ إِنَّمَا وَقَعَ فِي التَّسْمِيَاتِ لَا فِي الْمُسَمَّيَاتِ، لكنه ورد في القرآن: ﴿مَا تَسْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ إِنَّمَا يُرِيدُ ذَوَاتِ الْأَصْنَامِ، فالاسم يراد به المسمى نفسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن رأى أن الجدل في هذه الآية إنما وقع في أنفس الأصنام وعبادتها تأول هذا التأويل. والاسم يرد في كلام العرب بمعنى التسمية، وهذا باب الذي استعمله به النحويون، وقد يراد به المسمى ويدل عليه ما قاربه من القول، من ذلك قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرُ﴾ على أن هذا يتأول، ومنه قول لبيد:

إِلَى الْخَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْنَا

على تأويلات في البيت، وقد مضت المسألة في صدر الكتاب. والسلطان: البرهان، وقوله: ﴿فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾ الآية وعيد وتهديد.

والضمير في قوله تعالى: ﴿فَأَجْبِئْتُهُ﴾

عائد على هود، أي أخرجه الله تعالى سالماً ناجياً مع من أتبعه من المؤمنين برحمة الله وفضل، وخرج هود ومن آمن معه حتى نزلوا مكة فأقاموا بها حتى ماتوا. ﴿وَقَطَعْنَا دَارَ﴾ استعارة تستعمل فيمن يستأصل بالهلاك، والداير: الذي يدبر القوم ويأتي خلفهم، فإذا انتهى القطع والاستئصال إلى ذلك لم يبق أحد، وقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ دال على المعجزة وإن لم تتعين لها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ﴾ الآية، هو ثمود بن غاشن بن إرم بن سام بن نوح آخر جدس بن غاشن. وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ﴾ بكسر الدال وتنوينه في جميع القرآن، وصرفه على اسم الحي، وترك صرفه على اسم القبيلة. قاله الزجاج: وقال الله تعالى: ﴿إِلَّا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾. فالمعنى: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم فهو عطف على نوح، والأخوة هنا أخوة القرابة. وقال الزجاج: يحتمل أن تكون أخوة الآدمية وسمي أخاهم لما بعث إليهم وهم قوم عرب، وهو وصالح عريبان، وكذلك إسماعيل وشعيب، كذا قال النقاش، وفي أمر إسماعيل عليه السلام نظر. وصالح عليه السلام هو صالح بن عبيد بن عامر بن إرم بن سام بن نوح، كذا ذكر مكّي، وقال وهب: بعثه الله حين راحق الحلم، ولما هلك قومه ارتحل بمن آمن معه إلى مكة فأقاموا بها حتى ماتوا، فقبورهم بين دار الندوة والحجر.

وقوله: ﴿يَبْتَئِرُ﴾ صفة حذف

الموصوف وأقيمت مقامه، قال سيبويه: وذلك قببح في النكرة أن تحذف وتقام صفتها مقامها، لكن إذا كانت الصفة كثيرة الاستعمال مشتهرة وهي المقصود في الأخبار والأسم زال القبح، كما تقول: «جاءني عبد لبني فلان» وأنت تريد: «جاءني رجل عبد»، لأن عبداً صفة، فكذلك قوله هنا ﴿يَسْتَرْهُ﴾، المعنى: آية أو حجة أو موعظة بيّنة. وقال بعض الناس: إن صالحاً جاء بالناقة من تلقاء نفسه، وقالت فرقة وهي الجمهور: بل كانت مقترحة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أليق بما ورد في الآثار من أمرهم، وروي أن بعضهم قال: يا صالح إن كنت صادقاً فاذع ريك يخرج لنا من هذه الهضبة - وفي بعض الروايات: من هذه الصخرة، لصخرة بالحجر يقال لها الكائبة - ناقةً عسراء قال: فدعا الله فتمخضت تلك الهضبة وتنفضت وانشقت عن ناقة عظيمة. وروي أنها كانت حاملاً فولدت سقياً المشهور، وروي أنه خرج معها فصيلها من الصخرة، وروي أن جملاً من جمال ثمود ضربها فولدت فصيلها المشهور، وقيل: «ناقة الله» تشريفاً لها وتخصيصاً، وهي إضافة خلق إلى خالق. وقال الزجاج: وقيل: إنها ناقة من سائر النوق وجعل الله لها شرباً يوماً ولهم شرب يوم، وكانت الآية في شربها وحلبها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحكى النقاش عن الحسن أنه قال:

هي ناقة اعترضها من إبلهم ولم تكن تحلب، والذي عليه الناس أقوى وأصح من هذا. قال المفسرون وكان حلفاً عظيماً، تأتي إلى الماء بين جبلين فيزحمانها من العظم، وقاسمت ثمود في الماء يوماً بيوم، فكانت ترد يومها فتستوفي ماء بئر همشريا ويحلبونها ما شاؤوا من لبن، ثم تمكث يوماً وترد بعد ذلك غباً، فاستمر ذلك ما شاء الله حتى ملتها ثمود وقالوا: ما نصنع باللبن؟ الماء أحب إلينا منه، وكان سبب الملل فيما روي أنها كانت تصيف في بطن الوادي، وادي الحجر، وتشتو في ظاهره، فكانت مواشيهم تفر منها فتصيف في ظهر الوادي للقيظ وتشتو في باطنه للزمهرير، وفسد لذلك، فتمالؤوا على قتل الناقة، فقال لهم صالح مرة: إن هذا الشهر يولد فيه مولود يكون هلاككم على يديه فولد لعشرة نفر أولاد فذبح تسعة أولادهم وبقي العاشر وهو سالف أبو قدار، فنشأ قدار أحمر أزرق، فكان التسعة إذا رأوه قالوا: لو عاش بنونا كانوا مثل هذا، فأحفظهم أن قتلوا أولادهم بكلام صالح، فأجمعوا على قتله، فخرجوا وكمنوا في غار ليبيته منه، وتقاسموا ﴿لَيَسْتَرْهُ وَأَقْلَهُ نَرُ لَقَوْلُنْ لَوِإِيهِ مَا شَهْدَا مَهْلِكَ أَقْلِهِ﴾ فسقط الغار عليهم فماتوا فهم الرهط التسعة الذين ذكر الله في كتابه، وهم: قدار بن سالف، ومصدع بن مہرّج ضمّاً إلى نفسيهما سبعة نفر وعزموا على عقر الناقة. وروي أن السبب في ذلك أن امرأتين من ثمود من

أعداء صالح جعلتا لقدار ومصدع أنفسهما وأموالهما على أن يعفرا الناقة، وكانتا من أهل الجمال. وقيل: إن قدار شرب الخمر مع قوم فطلبوا ماء يمزجون به الخمر فلم يجدوه لشرب الناقة فعزموا على عقرها حينئذ، فخرجوا وجلسوا على طريقها، وكمّن لها قدار خلف صخرة، فلما دنت رماها بالحربة فسقطت فنحرها، ثم اتبعوا الفصيل فهرب منهم حتى علا ربوة ورغا ثلاث مرات واستغاث فلحقوه وعقروه. وفي بعض الروايات أنهم وجدوا الفصيل في رابية من الأرض فأرادوه فارتفعت به حتى لحقت به في السماء فلم يقدروا عليه، فرغا الفصيل مستغيثاً بالله تبارك وتعالى، فأوحى الله إلى صالح أن مزمهم فَلْيَتَمَتَّعُوا في دارهم ثلاثة أيام. وحكى النقاش عن الحسن أنه قال: إن الله تعالى أنطق الفصيل فنأدى: أين أمي؟ فقال لهم صالح: إن العذاب واقع بكم في الرابع من عقر الناقة، وروي أنها عقرت يوم الأربعاء، وقال لهم صالح: تخمّر وجوهكم غداً وتصفّر في الثاني وتَسود في الثالث وينزل العذاب في الرابع يوم الأحد، فلما ظهرت العلامة التي قيلت لهم أيقنوا واستعدوا ولطخوا أبدانهم بالمن، وحفروا القبور وتحنطوا فأخذتهم الصيحة وخرج صالح ومن آمن معه حتى نزل رملة فلسطين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القصص اقتضته من كثير أورده الطبري رحمه الله رغبة الإيجاز.

أسفل وكسر الحاء، وقرأ أبو مالك بالياء من أسفل وفتح الحاء، وكانوا ينحتون الجبال لطول أعمارهم.

و ﴿تَنْتَفِرُوا﴾ معناه: تفسدوا، يقال: عثا يعني، وعثا يَعتْثُو، وعَثِي يَعتْثِي كَنَسِي يَنْتَسِي وعليها لفظ الآية، وقرأ الأعمش: ﴿تَغْتَفُوا﴾ بكسر التاء، و﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال.

وتقدم القول في ﴿الْمَلَكِ﴾، وقرأ ابن عامر وحده في هذا الموضع: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ﴾ بواو عطف، وهي محذوفة عند الجميع. و ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ هم الأشراف والعظماء الكفرة، و ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ يحتمل أن يكون معناه: طلبوا هيئة لنفوسهم من الكبر، أو يكون بمعنى كبروا، كبرهم المال والجاه وأعظمهم، فيكون - على هذا - كبر واستكبر بمعنى كعجب واستعجب. والأول هو باب استفعل كاستوقد واستترقد. والذين استضعفوا هم العامة والأغفال في الدنيا، وهم أتباع الرسل.

وقولهم: ﴿أَتَمَلُّوكَ﴾ استفهام على معنى الاستهزاء والاستخفاف، فأجاب المؤمنون بالتصديق والصرامة في دين الله فحملت الأنفة الأشراف على مناقضة المؤمنين في مقاتلهم واستمروا على كفرهم.

﴿٧٧﴾ - ﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿فَعَمَّرُوا﴾ يقتضي - بتشريكم جميعاً في الضمير - أن عقر الناقة كان على تماثل منهم وإصفاق، وكذلك روي أن قدراً لم يعقرها حتى كان يستشير الرجال

«أتعرفون ما هذا؟» قالوا: لا، قال: «هذا قبر أبي رُغال الذي هو أبو ثقيف، كان من ثمود فأصاب قومه البلاء وهو بالحرم قَسْلِمٌ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصابهم فدفن هنا وجعل معه غصن من ذهب» قال: «فابتدر القوم بأسياقهم فحفروا حتى أخرجوا الغصن».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الخبر يؤيد ما في السير من أن أبا رُغال هو دليل الفيل وحبيسه إلى مكة، والله أعلم.

﴿٧٦﴾ - ﴿٧٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ معناه: مكنكم، وهي مستعملة في المكان وظروفه، تقول: تبوأ فلان منزلاً حسناً، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَوَّأُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، وقال الأعشى:

فَمَا بَوَّأَ الرَّحْمَنُ بَيْتَكَ مَنَزْلاً
بَشَرْتِي أَجْيَادِ الصُّفَا والمُحَرَّمِ
والْقُصُورِ: جمع قصر، وهي الدور التي قصرت على يقاع من الأرض مخصوصة بخلاف بيوت العمود، وقصرت عن الناس قصراً تاماً.

والتخت: التجر والقشر في الشيء الصلب كالحجر والعود ونحوه. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿وَتَشْحَتُونَ﴾ بفتح الحاء، وقرأ جمهور الناس بكسرها وبالتاء من فوق، وقرأ ابن مصرف بالياء من

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِكُمْ وَتَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ شُهُولِهِمْ قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَوْمًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ الَّتِي تَمُوتُ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ سِدْرَ حَامِثٍ سَلَّ مِنْ رَبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِينَ آمَنُوا كَافِرُونَ ﴿٧٨﴾ فَعَمَّرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا تَدَّعَى إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٩﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٨٠﴾ فَقَوْلَى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمِ لَقَدْ أَتَيْتُمْكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنْ رَبِّي وَصَحَّتْ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٨١﴾ وَلَوْ طِإْذَ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْقَبْضَةَ مَسْبِقَكُمْ يَوْمَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴿٨٢﴾ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْإِنْسَانِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٣﴾

وقال أبو موسى الأشعري: أتيت بلاد ثمود فذرعت صدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبلاد ثمود هي بين الشام والمدينة، وهي التي مر بها رسول الله ﷺ مع المسلمين في غزوة تبوك فقال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، ثم اعتجر بعمامته وأسرع السير ﷺ، وروي أن المسافة التي أهلك الصيحة أهلها هي ثمانية عشر ميلاً، وهي: بلاد الحَجْر ومراتعها الجنب وحسمى إلى وادي القرى وما حوله. وقيل في قدار: إنه ولد زنى من رجل يقال له: ظبيان، وولد على فراش سالف فنسب إليه، ذكره قتادة وغيره. وذكر الطبري أن رسول الله ﷺ مرَّ بقبر فقال:

والنساء والصبيان. فلما أجمعوا تعاطى فَعَقَر. **﴿وَعَوَّأَ﴾** معناه: خشنوا وصلبوا ولم يذعنوا للأمر والشرع وصمموا على تكذيبه واستعجلوا النقمة بقولهم: **﴿أَتَيْنَا بِمَا نَوَدُّ﴾**، وحسن الوعد في هذا الموضع لما تقيد بأنه عذاب. قال أبو حاتم: قرأ عيسى وعاصم: **﴿إِيتِنَا﴾** بهمز وإشباع ضم، وقرأ بتخفيف الهمزة كأنها ياء في اللفظ أبو عمرو والأعمش.

و **﴿الزَّجَنَةَ﴾** ما تؤثره الصيحة أو الطامة التي يرجف بها الإنسان وهو أن يتزعزع ويتحرك ويضطرب ويرتعد، ومنه قول خديجة رضي الله عنها: (فرجع بها رسول الله ﷺ) يرجف فؤاده. ومنه قول الأخطل:

إِذَا تَرَنَّنِي حَنَانِي الشَّيْبُ مِنْ كِبَرٍ
كَالْتَّسْرِ أَرْجُفُ وَالْإِنْسَانُ مَمْدُودٌ
ومنه إرجاف النفوس لكره الأخبار أي تحريكها، وروي أن صيحة ثمود كان فيها من كل شيء هائل الصوت، وكانت مفرطة شقت قلوبهم فجشموا على صدورهم، والجائم اللاطىء بالأرض على صدره مع قبض ساقه كما يرقد الأرنب والطير، فإن جشومها على وجهها، ومنه قول جرير:

عَرَفْتُ الْمُتَنَتَّى وَعَرَفْتُ مِنْهَا
مَطَايَا الْقِدْرِ كَالْجِدِّ الْجُشُومِ

وقال بعض المفسرين: معناه: حَمَأَ محترق كالرماد الجائم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحيث وجد الرماد الجائم في شعر فإنما هو مستعار لهيئة الرماد قبل

هموده وتفرقه، وذهب صاحب هذا القول إلى أن الصيحة اقترن بها صواعق محرقة.

وأخبر الله عز وجل بفعل صالح في توليه عنهم وقت عقربهم الناقة وقولهم: **﴿أَتَيْنَا بِمَا نَوَدُّ﴾**، وذلك قبل نزول العذاب، وكذلك روي أنه عليه الصلاة والسلام خرج من بين أظهرهم قبل نزول العذاب، وهو الذي تقتضيه مخاطبته لهم، وأما لفظ الآية فيحتمل أنه خاطبهم وهم موتى على جهة التفجع عليهم وذكر

حالهم أو غير ذلك كما خاطب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر، قال الطبري: وقيل: لم تهلك أمة ونبيها معها، وروي أنه ارتحل بمن معه حتى جاء مكة فأقام بها حتى مات، ولفظة (التَّوَلَّى) تقتضي اليأس من خيرهم واليقين في إهلاكهم.

وقوله: **﴿لَا تَجِبُونَ التَّوْبَةَ﴾** عبارة عن تغليبهم الشهوات على الرأي، إذ كلام الناصح صعب مضاد لشهوة نفس الذي يُنصح، ولذلك تقول العرب: **﴿أَمَرْتُ مَبْكِيَاتِكَ لَا أَمُرُ مَضْحَكَاتِكَ﴾**.

٨٠ - ٨١ تفسير قوله عز وجل: لوط عليه السلام بعثه الله إلى أمة تستئى سذوم، وروي أنه ابن أخي إبراهيم عليه السلام، ونصبه إماما: **﴿أَرْسَلْنَا﴾** المتقدم في الأنبياء، وإما بفعل مضر تقديره: «واذكر لوطاً»،

وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يظَاهَرُونَ ﴿٨٠﴾ فَأَجْبَنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّتَهُ كَانَتْ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨١﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُعْرِضِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْيَمَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْخَسُونََهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا أَنْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٥﴾

١٦١

واستفهامهم لهم هو على جهة التوقيف والتوبيخ والتشنيع.

و **﴿الْفَجَنَةَ﴾** هنا: إتيان الرجال في الأديار، وروي أنه لم تكن هذه المعصية في أُمم قبلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإن كان لفظ الآية يقتضي هذا فقد كانت الآية تحتل أن يراد بها: ما سبقكم إلى لزومها وتشهيرها، وروي أنهم كانوا يأتي بعضهم بعضاً، وروي أنهم إنما كانوا يأتون الغبراء، قاله الحسن البصري، قال عمرو بن دينار: ما نزا ذكر على ذكر قبل قوم لوط، وحكى النقاش: إن إبليس كان أصل عملهم إذ دعاهم إلى نفسه، وقال بعض العلماء: عامل اللواط كالزاني، وقال مالك رحمه الله وغيره: يُزْجَم - أحسن أو لم يُحصن. وحرقت أبو بكر الصديق

رضي الله عنه رجلاً يسمى الفجأة حين عملَ عملَ قوم لوط.

وقرأ نافع، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الخبر كأنه فسر الفاحشة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم - في رواية أبي بكر، وحزمة: ﴿الَّذِينَ﴾ باستفهام آخر، وهذا لأن الأول استفهام عن أمر مُجمل والثاني عن مفسر. إلا أن حمزة وعاصم قرأ بهزتين ولم يهزم أبو عمرو وابن كثير إلا واحدة.

و ﴿شَهْوَةً﴾ نصب على المصدر من قولك: شهيت الشيء شهية، والمعنى: تدعون الغرض المقصود بالوطء وهو ابتغاء ما كتب الله من الولد وتفردون بالشهوة فقط.

وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ﴾ إضراب عن الإخبار عنهم أو تقريرهم على المعصية وتذكّر لذلك، إلى الحكم عليهم بأنهم قد تجاوزوا الحد وارتكبوا الحظر، والإسراف: الزيادة المفسدة.

وقرأ الجمهور: ﴿جَوَابَ﴾ بالنصب، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ﴿جوابَ﴾ بالرفع، ولم تكن مراجعة قومه باحتجاج منهم ولا بمداغة عقلية، وإنما كانت بكفر وصرامة وخذلان بحث في قولهم: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ وتعليلهم الإخراج بتطهير المخرجين. والضمير عائد على لوط وقومه وإن كان لم يجر لهم ذلك فإن المعنى يقتضيهم. وزوي أنه لم يكن معه غير ابنتيه، وعلى هذا عني في الضمير هو وابنتاه، و ﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه: يتنزهون عن حالنا وعاداتنا، قال

مجاهد: معناه: يتطهرون عن أدبار الرجال والنساء، قال قتادة: عابوهم بغير عيب وذمموهم بغير ذم، والخلاف في أهله حسبما تقدم.

واستثنى الله امرأة لوط من الناجين، وأخبر أنها هلكت. والغابر: الباقي، هذا المشهور في اللغة، ومنه غُبرَ الحيض كما قال أبو كبير الهذلي:

وَمُبَرِّإٍ مِنْ كُلِّ غُبَرٍ حَيْضَةٍ
وَفَسَادٍ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْبِلٍ
وَعُغْبَرِ اللَّبَنِ فِي الضَّرْعِ: بقيته، فقال بعض المفسرين: كانت من الغابرين في العذاب والعقاب، أي: مع الباقين ممن لم ينج، وقال أبو عبيدة معمر: ذكرها الله بأنها كانت ممن أسئ وبقي من عصره إلى عصر غيره فكانت غابرة إلى أن هلكت مع قومها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأن قوله: ﴿إِلَّا أَمْرًا﴾ اكتفي به في أنها لم تُنج ثم ابتداء وصفها بعد ذلك بصفة لا تتعلق بها النجاة ولا الهلكة، والأول أظهر. وقد يجيء (الغابر) بمعنى الماضي، وكذلك حكى أهل اللغة: غُبرَ بمعنى مضى وبمعنى بقي وأما قول الأعشى:

عَضُّ بِمَا أَبْقَى الْمَوَاسِي لَهُ
مَنْ أَمَّهُ فِي الزَّمَنِ الْغَابِرِ
فالظاهر أنه أراد الماضي وذلك بالنسبة إلى وقت الهجاء. ويحتمل أن يريد: في الزمن الباقي وذلك بالنسبة إلى الحين الذي هو غابر بعد الإبقاء. ويحتمل أن يُعَلَّقَ «في الزمن» بـ (عَضُّ) فيكون الغابر: الباقي على الإطلاق، والأول أظهر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الآية نص على إبطار، وتظاهرت الآيات في غير هذه السورة أنه بحجارة، وزوي أن الله عز وجل بعث جبريل فاقتلعها بجناحه وهي ست مدن، - وقيل: خمس، وقيل: أربع - فرفعها حتى سمع أهل السماء نفاق الحمير وصراخ الديكة، ثم عكسها ورذ أعلاها أسفلها وأرسلها إلى الأرض، وتبعثهم الحجارة مع هذا فأهلك من كان منهم في سفر أو خارجاً عن البقع المرفوعة، وقالت امرأة لوط حين سمعت الرجة: واقوما، والتفت فأصابتها صخرة فقتلتها.

٨٥ - ٨٦ تفسير قوله عز وجل: قيل في ﴿مَذْيَكْ﴾ إنه اسم بلد وقطر، وقيل: اسم قبيلة، وقيل: هم من ولد مَذْيَنَ بن إبراهيم الخليل، وروي أن لوط عليه السلام هو جد شعيب لأمه، وقال مكي: كان زوج بنت لوط. ومن رأى (مدین) اسم رجل لم يصرفه لأنه معرفة أعجمي، ومن رآه اسماً للقبيلة أو الأرض فهو أخرى ألا يصرف.

وقوله: ﴿لَنَأْمُ﴾ منصوب بقوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في أول القصص، وهذا يؤيد أن ﴿لوطاً﴾ به انتصب، وأن اللفظ مستمر، وهذه الإخوة في القرابة، وقد تقدم القول في ﴿غَيْرُهُ﴾ و ﴿غَيْرُهُ﴾، والبيئنة إشارة إلى معجزته وإن كان نحن لم يُنص لنا عليها. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿فَدَجَاءَتْكُمْ آيَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مكان (بينة).

وقوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أمر لهم

بالاستقامة في الإعطاء وهو بالمعنى: في الأخذ والإعطاء، وكانت هذه المعصية قد فشلت فيهم في ذلك الزمن وفحشت مع كفرهم الذي نالتهم الرجفة بسببه، و ﴿تَبَخَّسُوا﴾ معناه: تظلموا، ومنه قولهم: «تحسبها حمقاء وهي باخس» أي ظالمة خادعة. و ﴿أَشْبَاهَهُمْ﴾ يريد أموالهم وأمتعتهم مما يكال أو يوزن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقْسِدُوا﴾ لفظ عام لدقيق الفساد وجليله، وكذلك الإصلاح عام، والمفسرون نصوا على أن الإشارة إلى الكفر بالفساد، وإلى النبوات والشرائع بالإصلاح. وقوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي نافع عند الله مكسب فوزه ورضوانه بشرط الإيمان والتوحيد، وإلا فلا ينفع عمل دون إيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا يَكْفُرُ بَصَرُكَ﴾ الآية. قال السدي: هذا نهى عن العشارين والمتقبلين ونحوه من أخذ أموال الناس بالباطل. والصراط: الطريق، وذلك أنهم كانوا يكثر من هذا لأنه من قبيل يخسهم ونقصهم الكيل والوزن. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: هو نهى عن السلب وقطع الطريق وكان ذلك من فعلهم، وروى في ذلك حديثاً عن النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما تقدم قبل من النهي في شأن المال في الموازين والأكيال والبخس يؤيد هذين القولين ويشبههما، وفي هذا كله توعد للناس إن لم يتركوا أموالهم. وقال ابن عباس، ومجاهد،

والسدي أيضاً: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ نهى لهم عما كانوا يفعلونه من رذ الناس عن شعيب، فيتعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه نحو ما كانت قريش تفعله مع رسول الله ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما بعد هذا من ألفاظ الآية يشبه هذا القول.

وقوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنَ آمَنَ﴾ الآية. المعنى: وتفتنون من آمن وتصدونه عن

طريق الهدى وسبيل الله المفضية إلى رحمته. والضمير في ﴿يُرِيدُ﴾ يحتمل أن يعود على اسم الله تبارك وتعالى، وأن يعود على شعيب في قول من رأى أن القعود على الطرق للرد عن شعيب، وأن يعود على السبيل في لغة من يذكر السبيل.

وتقدم القول في مثل قوله تعالى: ﴿وَتَكْفُرُونَهَا عَوِجاً﴾ في صدر السورة. قال أبو عبيدة، والزجاج: كسر العين في المعاني وفتحها في الأجرام.

ثم عدد عليهم نعم الله تبارك وتعالى وأنه كثّرهم بعد قلة، وقيل: أغناهم بعد فقر، فالمعنى - على هذا - إذ كنتم قليلاً قدركم، ثم حذرهم ومثل بمن امتحن من الأمم السابقة.

﴿٨٧﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: وإن كنتم يا قوم قد

﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَعِيبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِثْلِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَتَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَمُنِيرٌ ﴿٨٩﴾ بَعْدَ إِذْ مَجَّسْنَا اللَّهُ مِثْلَهُ لَمَّا كَانَ نَعُودُ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكُّلُنَا إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ذِي قُرَيْشٍ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَرِيقَيْنِ ﴿٩٠﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَمَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا الْخَاسِرُونَ ﴿٩١﴾ فَلَعَنَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثثين ﴿٩٢﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا يَفْتَنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٣﴾ فَنُفِثَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمِ لَقَدْ أَتَيْتُمْكُمْ بِرِجَالٍ مِّن بَيْنِكُمْ أَتَّبِعُكُمْ عَلَى غَيْرِ تَحْقِيقٍ ﴿٩٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاوَةِ وَالضَّرَةِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٥﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلِهَتُنَا الْفِتْنَةُ فَآخَذْنَاهُم مِّنْ بَعْدِ غَتِّهِمْ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٩٦﴾

اختلفتم عليّ، وشعبتكم بكفركم أمري فامنت طائفة وكفرت طائفة فاصبروا أيها الكفرة حتى يأتي حكم الله بيني وبينكم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرُوا﴾ قوة التهديد والوعيد، هذا ظاهر الكلام، وأن المخاطبة بجميع الآية للكفار.

وحكى منذر بن سعيد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الخطاب بقوله: ﴿فَأَصْبِرُوا﴾ للمؤمنين على معنى الوعد لهم، وقال مقاتل بن حيان. قال النقاش: وقال مقاتل بن سليمان: المعنى: فاصبروا يا معشر الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول الجماعة.

﴿٨٨﴾ - ﴿٨٩﴾ تفسير قوله عز وجل: تقدم القول في معنى (المَلَأَ)، وفي معنى الاستكبار. وقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ

بَشَيْبٍ ﴿تَهْدِيدٌ بِالْغَيْبِ. وَالْقِرْيَةُ: الْمَدِينَةُ الْجَامِعَةُ لِلنَّاسِ لِأَنَّهَا تَقَرَّرَتْ أَيْ اجْتَمَعَتْ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي يَمِينَتَنَا﴾ مَعْنَاهُ: أَوْ لَتَصِيرُنَّ. وَ(عَاد) تَجِيءُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى وَجْهَيْنِ، أَحَدُهُمَا: عَادَ الشَّيْءُ إِلَى حَالٍ قَدْ كَانَ فِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَهِيَ - عَلَى هَذِهِ الْجِهَةِ - لَا تَتَعَدَّى، فَإِنْ عُدِّيَتْ فَجُحِرَ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: إِنَّ عَادَتِ الْعَفْرَبُ عُدْنَا لَهَا وَكَانَتِ السُّغْلُ لَهَا حَاضِرَةً وَمِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ:

أَلَا لَيْتَ أَيَّامَ الشُّبَابِ جَدِيدُ
وَعَضْرَأُ تَوَلَّى بِإِغْتَيْنِ يُعُودُ
وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾. وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:
فَلِإِنْ تَكُنَ الْأَيَّامُ أَحْسَنَ مَرَّةٍ
إِلَيَّ فَقَدْ عَادَتْ لِهُنَّ ذُنُوبُ
وَالْوَجْهَ الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى (صَارَ)، وَعَامِلَةٌ عَمَلُهَا، وَلَا تَتَضَمَّنُ أَنَّ الْحَالِ كَانَتْ مُتَقَدِّمَةً، وَمِنْ هَذِهِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

يَلِكُ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانٍ مِنْ لَبَنٍ
شَيْبًا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدَ أَبْوَلَا
وَمِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ:

وَعَادَ رَأْسِي كَالشُّغَامَةِ
وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾، عَلَى أَنَّ هَذِهِ مُحْتَمَلَةٌ، فَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ: ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ﴾ - وَشُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ قَطُّ كَافِرًا - يَقْتَضِي أَنَّهَا بِمَعْنَى صَارَ، وَأَمَّا فِي جِهَةِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ كُفْرِهِمْ فَيَتَرَبَّعُ الْمَعْنَى الْآخَرُ وَيُخْرَجُ عَنْهُ شُعَيْبٌ إِلَّا أَنْ يَرِيدُوا عَوْدَتَهُ إِلَى حَالِ سَكَوَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ توقيفٌ منه لهم على شناعة المعصية، وطلب أن يقرروا بألسنتهم بإكراه المؤمنين بالله على الإخراج ظلماً وغشماً. والظاهر في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ أنه خبر منه، أي: لقد كنا نواقع عظيماً ونفتري على الله الكذب في الرجوع إلى الكفر. ويحتمل أن يكون على جهة القسم الذي هو في صيغة الدعاء، مثل قول الشاعر:

بَقُيْنْتُ وَقُيْرِي.....

وكما تقول: «افتريتُ على الله إن كلمت فلاناً». و(أفترينا) معناه: شققنا بالقول واختلفنا، ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربّه فقد أعظم على الله الفرية». ونجاة شعيب من ملتهم كانت منذ أول أمره، ونجاة من آمن معه كانت بعد موافقة الكفر.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَنْهَأَ اللَّهُ﴾ يحتمل أن يريد: إلا أن يسبق علينا من الله في ذلك سابق سوء وينفذ منه قضاء لا يرد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمؤمنون هم المجوزون لذلك، وشعيب قد عصمته النبوة، وهذا أظهر ما يحتمل القول. ويحتمل أن يريد استثناء ما يمكن أن يتعبد الله تعالى به المؤمنين مما تفعله الكفار من الفُربَات، فلما قال لهم: إنا لا نعود في ملتكم، ثم خشي أن يتعبد الله بشيء من أفعال الكفرة

فيعارض مُلحد بذلك ويقول: هذه عودة إلى ملتنا - استثنى مشيئة الله تبارك وتعالى فيما يمكن أن يتعبد به. ويحتمل أن يريد بذلك معنى الاستبعاد كما تقول: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب وحتى يلج الجمل في سم الخياط - وقد علم امتناع ذلك - فهو إحالة على مستحيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل إنما هو للمعتزلة الذين من مذهبهم أن الكفر والإيمان ليسا بمشيئة من الله تعالى، فلا يترتب هذا التأويل إلا عندهم، وهذا تأويل حكاه المفسرون ولم يشعروا بما فيه، وقيل: إن هذا الاستثناء إنما هو تسرُّ وتأدب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقلق هذا التأويل من جهة استقبال الاستثناء، ولو كان في الكلام «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» قَوِيَّ هذا التأويل.

وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ معناه: وسع علم ربنا كل شيء، كما تقول: تصبب زيد عرقاً، أي: تصبب عرق زيد، و﴿وسع﴾ بمعنى أحاط.

وقوله: (أَفْتَحْ) معناه: احكم، والفاتح والفتاح: القاضي بلغة حمير، وقيل: بلغة مراد، وقال بعضهم:

أَلَا أَبْلِغُ بَنِي عُضْمَ رَسُولًا
قَائِلِي عَنْ فُتَاخَتِكُمْ غَيْبِي
وقال الحسن بن أبي الحسن: إن كل نبي أراد الله هلاك قومه أمره بالدعاء عليهم ثم استجاب له فأهلكهم، وقال ابن عباس

رضي الله عنهما: ما كنت أعرف معنى هذه اللفظة حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها: تعال أفاتحك، أي: أحاكمك.

وقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ استسلام لله وتمسك بلفظه، وذلك يؤيد التأويل الأول في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

﴿٩١﴾ - ﴿٩٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه المقالة قالها المملأ لاتباعهم وسائر الناس الذين يقلدونهم.

﴿الرَّجُفَ﴾: الزلزلة الشديدة التي ينال معها الإنسان اهتزاز وارتعاد واضطراب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن فرقة من قوم شعيب أهلك بالرجفة، وفرقة بالظلة، ويحتمل أن الظلة والرجفة كانتا في حين واحد. وروي أن الله تبارك وتعالى بعث شعيباً إلى أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة، وقيل: هما طافتان، وقيل: واحدة، وكانوا - مع كفرهم - يبخسون الكيل والوزن فدعاهم فكذبوه فجرت بينهم هذه المقالة المتقدمة، فلما عتوا وطالت بهم المدة فتح الله عليهم باباً من أبواب جهنم فأهلكهم الحر من فلم ينفعهم ظل ولا ماء، ثم إنه بعث سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا بزد الريح وطيبها فتنادوا: عليكم الظلة، فلما اجتمعوا تحت الظلة وهي تلك السحابة انطبقت عليهم فأهلكتهم.

قال الطبري: فبلغني أن رجلاً من أهل مدين يقال له عمرو بن جهلاً قال لما رآها:

يَا قَوْمِ إِنَّ شَعِيباً مُرْسَلٌ فَذَرُوا عَنْكُمْ سَجِيرًا وَعِمْرَانِ بْنِ شَدَادٍ إِنَّي أَرَى غَيْمَةً يَا قَوْمِ قَدْ طَلَعَتْ تَدْعُو بِصَوْتٍ عَلَى صَمَاتِهِ الرَّادِي وَإِنَّكُمْ إِنْ تَرَوْا فِيهَا ضَحَاةً غَدِ إِلَّا الرِّقِيمُ يُمَشِّي بَيْنَ أَنْجَادٍ وسمير وعمران: كاهنهم، والرقيم: كلبهم. وروي أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر شعيباً قال: «ذلك خطيب الأنبياء» لقوله لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِسْلَامَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد: ليحسن مراجعته وجميل تطفه.

وحكى الطبري عن أبي عبد الله البجلي أنه قال: أبو جاد، وهوز، وحطي، وكلمن، وسعفض، وقرشت: أسماء ملوك مدين، وكان الملك يوم الظلة (كلمن) فقالت أخته تريه:

كَلَمْنَن قَدْ هُدِرْتُ نِسِي
هُلْكُهُ وَسَطَ الْمَجْلَةِ
سَبَدَ الْقَوْمِ أَتَاهُ النَّارُ
خَتَفَ نَارًا وَسَطَ ظِلَّةٍ
جُعِلَتْ نَاراً عَلَى نَفْسِهِمْ
دَارُهُمْ... كَالْمُضْمَجَلَةِ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه حكاية مظنون بها، والله أعلم. وقد تقدم معنى ﴿جَحِيشِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَنْفَخْ فِيهَا﴾ لفظ فيه الإخبار عن قوة هلاكهم، ونزول النعمة بهم، والتنبيه على العبرة بهم، ونحو هذا قول الشاعر:

كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونَ إِلَى الصَّفَا
.....

﴿يَنْفَخُوا﴾ معناه: يقيموا ويسكنوا. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: و«عَنَيْتُ فِي الْمَكَانِ» إنما يقال في الإقامة التي هي مقترنة بتنعم وعيش رخي، هذا الذي استقرئت من الأشعار التي ذكرت العرب فيها هذه اللفظة، فمن ذلك قول الشاعر:

وَقَدْ نَغَى بِهَا وَتَرَى عُصُورًا
بِهَا يَفْتَدِنَا الْخُرْدُ الْخِذَالَا
ومنه قول الآخر:

وَلَقَدْ يَغَى بِهَا جِبْرَانُكَ آلَ
مُخْسِكُو مَثَلٍ بِعَهْدٍ وَوَصَالٍ
أنشده الطبري، ومنه قول الآخر:

أَلَا حَيَّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَعَانِيَا
.....
ومنه قول مهلهل:

عَنَيْتُ دَارَنَا تَهَامَةً فِي الدُّفْرِ
رَ، وفيها بئوم مَعْدُ خُلُولَا
ويشبه أن تكون اللفظة من الاستغناء. وأما قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَنْ بِالْأَنْفُسِ﴾ ففيه هذا المعنى، لأن المراد: كأن لم تكن ناعمة نضرة مستقلة، ولا توجد - فيما علمت - إلا مقترنة بهذا المعنى، وأما قول الشاعر:

عَنِينَا زَمَانًا بِالتَّصْغُلِكَ وَالْغِنَى
وَكَلَّا سَقَانَاهُ بِكَاسِيهِمَا الدُّفْرُ
فمعناه: استغنينا بذلك ورضيناها، مع أن هذه اللفظة ليست مقترنة بمكان.

وقوله تعالى: ﴿يَقْوَرُ لَقَدْ أَتَقْنَاكُمْ يَسْكَنْتَ رَبِّي﴾ إلى آخر الآية كلام

وهي السراء والنعمة - وهذا بحسب ما عند الناس، وإلا فقد يجيء الأمر كما قال الشاعر:

قَدْ يُنْعِمُ اللَّهُ بِالْبَلَوِّ وَإِنْ عَظُمَتْ
وَيُبْتَلِي اللَّهُ بِعُضِّ الْقَوْمِ بِالنِّعَمِ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إنما يصح مع النظر إلى الدار الآخرة والجزاء فيها، والنعمة المطلقة هي التي لا عقوبة فيها، والبلوى المطلقة هي التي لا ثواب عليها.

(وَحَتَّى عَقَوْنَا) معناه: حتى كثروا، يقال: عفا النبات والريش يعفو - إذا كثر نباته، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وَلِكَيْتَا نُخْضَ السَّيْفِ مِنْهَا
بِأَسْوَقِ عَاقِبَاتِ الشُّخْمِ كَوْمٍ
وعليه قوله ﷺ: «احفوا الشوارب وأعفوا اللحى»، وعفا أيضاً في اللغة بمعنى دَسَّ وتَلَيَّ، فقال بعض الناس: هي من الألفاظ التي تستعمل للضدين، وأما قول زهير:

.....
عَلَى آثَارِ مَنْ دُفِّبَ الْعَفَاءُ
فيحتمل ثلاثة معان: الدعاء بالدزس، والإخبار به، والدعاء بالنمو للنبات، كما يقال: جادته الدِّيمُ وسقته العِهَادُ، ولما بدل الله حالهم بالخير لطفاً بهم فبنوا رأى الخلق بعد ذلك - للكفر الذي هم فيه - أن إصابة الضراء والسراء إنما هي بالاتفاق، وليست بقصد كما يخبر النبي، واعتقدوا أن ما أصابهم من ذلك إنما هو كالاتفاق الذي كان لأبائهم فجعلوه مثلاً، أي: قد أصاب هذا آباءنا فلا ينبغي لنا أن

وهي لغة، كما يقال: إخال وإيمن قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: لا إخاله، وقال ابنه عبدالله بن عبدالله بن عمر في كتاب الحج: لا إيمن، وجميع ذلك في البخاري، وهذه اللغة تطرد في العلامات الثلاث: همزة التكلم ونون الجماعة وتاء المخاطبة. ولا يجوز ذلك في باء الغائب، كذا قال سيبويه، وأما قولهم من (وَجَلْ): يَجَلُّ فلعله من غير هذا الباب.

١١١ - تفسير قوله عز وجل: هذه الآية خبر من الله عز وجل أنه ما بعث نبياً في مدينة - وهي القرية - إلا أخذ أهلها المكذبين له بالبأساء وهي المصائب في الأموال والهموم وعوارض الزمن، والضراء وهي المصائب في البدن كالأمراض ونحوها، هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه وكثير من أهل اللغة، وحكي عن السدي ما يقتضي أن اللفظتين تتدخلان فتقال كل واحدة على المغنيين، و ﴿لَتَلْمِزَنَّ﴾ ترجح بحسب اعتقاد البشر وظنونهم، و﴿يَصْرَعُونَ﴾ أي ينقادون إلى الإيمان. وهكذا قولهم: «الحمى أضرعتي لك».

ثم قال تعالى إنه بعد إنفاذ الحكم في الأولين بدل للخلق مكان السيئة - وهي البأساء والضراء - الحسنات.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٤﴾ أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَتًّا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٥﴾ أَوَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُجًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِّنُوا مَكَرَ اللَّهِ فَلَا يَمُنُّ مَكَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصَابَتْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٩٨﴾ يَلِكُ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطِيعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِن عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٠﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠١﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ فِي رَسُولٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٢﴾

١٦٣

يقتضي أن شعبياً عليه السلام وجد في نفسه لما رأى هلاك قومه حزناً وإشفاقاً إذ كان أمله فيهم غير ذلك، فلما وجد ذلك طلب أن يشير في نفسه سبب التسلّي عنهم والقسوة عليهم، فجعل يعدّد عليهم معاصيهم وإعراضهم الذي استوجبوا به ألا يتأسف عليهم، فذكر أنه بلغ الرسالة ونصّح. والمعنى: فأعرضوا وكذبوا، ثم قال لنفسه لما نظرت في هذا وفكرت فيه: فكيف أسي على هؤلاء الكفرة؟ ويحتمل أن يقول هذه المقالة على نحو قول النبي ﷺ: لأهل قليب بدر، وقال مكي: وسار شعيب بمن معه حتى سكن مكة إلى أن ماتوا بها.

و﴿ءَاسَى﴾ أحزن. وقرأ ابن وثاب، وطلحة بن مصرف، والأعمش: ﴿إيسى﴾ بكسر الهمزة

ننكره، فأخبر الله تعالى أنه أخذ هذه الطوائف التي هذا معتقدها. وقوله: ﴿بَقْتَهُ﴾ أي فجاءه وأخذته أسف ويطشاً للشقاء السابق لهم في قديم علمه. والسرءاء: السرور والخبرة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ معناه: وهم مكذبون لا يتحسسون لشيء منه ولا يستشعرون باستدلال ولا غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَانَسُوا وَأَنفَقُوا﴾ الآية. المعنى في هذه الآية أنهم لو كانوا ممن سبق في علم الله أن يكتسبوا الإيمان والطاعات ويتصافوا بالتقى لتبع ذلك من فضل الله ورحمته وإنعامه ما ذكر من بركات المطر والنبات، ولكنهم لما كانوا ممن سبق كفرهم وتكذيبهم تبع ذلك أخذ الله لهم بسوء ما اجترموا. وكل مقدور، والشواب والعقاب متعلق بكسب البشر، وبسببه أسندت الأفعال إليهم في قوله: ﴿ءَانَسُوا وَأَنفَقُوا﴾ وفي ﴿كَذَّبُوا﴾.

وقرأ السبعة من القراء السبعة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾ بتخفيف التاء، وهي قراءة الناس، وقرأ ابن عامر وحده، وعيسى الثقفي، وأبو عبد الرحمن: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾ بتشديد التاء. وفتح البركات: إنزالها على الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾، ومنه قالت الصوفية: الفتح والبركات: الثمور والزيادات. و ﴿يَتَنَزَّلُ الْمَلَكُ﴾ لجهة المطر والريح والشمس، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ لجهة الإنبات والحفظ لما ينبت، هذا هو الذي يدركه نظر البشر، والله خدام غير ذلك لا يحصى عددهم، وما في علم الله أكبر.

٩٧ - ١٠٠ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية تتضمن وعيداً للكفار المعاصرين لمحمد ﷺ، لأنه لما أخبر عما فعل في الأمم الخالية قال: ومن يؤمن هؤلاء أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك؟ وهذا استفهام على جهة التوقيف.

والبأس: العذاب، و﴿يَتَنَزَّلُ﴾ نصب على الظرف، أي وقت مبيتهم بالليل، ويحتمل أن يكون هذا في موضع الحال.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿أَوْ أَمِينٌ﴾ بسكون الواو وإظهار الهمزتين، وقرأ ورش عن نافع: ﴿أَوْ أَمِينٌ﴾ بفتح الواو وإلقاء حركة الهمزة الثانية عليها، وهذه القراءة في معنى الأولى ولكنها سهلت. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَدَّ﴾ بفتح الواو وإظهار الهمزتين، ومعنى هذه القراءة أنه دخل ألف الاستفهام على حرف العطف، ومعنى القراءة الأولى أنه عطف بـ (أو) والتي هي لأحد الشيتين، والمعنى: أفأمنوا هذا أو هذا؟ كما تقول: «أجاء زيد أو عمرو؟» وليست هذه (أو) التي هي للإضراب عن الأول، كما تقول: «أنا أقوم أو أجلس» وأنت تقصد الإضراب عن القيام والإثبات للجلوس وتقريره، وقولنا: التي هي لأحد الشيتين يعم الإباحة والتخير، كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، أو قولك: جالس الحسن أو جالس ابن سيرين، وقوله: ﴿وَهُمْ﴾ يريد: في غاية الغفلة والإعراض.

و ﴿مَكَّرَ اللَّهُ﴾ هي إضافة

مخلوق إلى خالق، كما تقول: ناقة الله، وبيت الله، والمراد فعل يعاقب به مردة الكفار، وأضيف إلى الله لما كان عقوبة الذنب، فإن العرب تسمي العقوبة - على أي وجه كانت - باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبة، وهذا نص في قوله تعالى: ﴿وَمَكَّرُوا مَكْرَهُ﴾. وهذا الموضع أيضاً، كأن كفرهم بعد الرسالة وظهور دعوة الله مكر وخديعة واستخفاف. وقيل: عومل - في مثل هذا وغيره - اللفظ دون المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِالنَّاسِ﴾ (وإن الله لا يملأ حتى تعلموا) وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَوَّلَ يَدٍ يَدَيَّ لِلَّذِينَ يَرْثُونَ الْأَرْضَ﴾ الآية. هذه ألف تقرير دخلت على واو العطف، و﴿يَهْدِي﴾ معناه: يبين ويوضح، والهدى: الصباح، وأنشدوا على ذلك:

حَتَّى اسْتَبْثْتُ الْهَدَى وَالْبَيْدُ هَاجِمَةٌ
يَسْبِخُنَ فِي الْآلِ غُلْفًا أَوْ يُضْلِلُنَا
ويحتمل أن يكون المبتين الله تعالى، ويحتمل أن يكون المبين قوله: ﴿أَنْ لَّوْ شَاءَ﴾ أي علمهم بذلك. وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد: ﴿يَهْدِي﴾ معناه: يبين، وهذه أيضاً وعيد، أي: ألم يظهر لوارثي الأرض بعد أولئك الذين تقدم ذكرهم وما حل بهم أنا نقدر لو شئنا أن نصيبهم إصابة إهلاك بسبب معاصيهم كما فعل بمن تقدم، وكنا نطبع أي نختم عليها بالشقاوة، وفي هذه العبارة ذكر القوم الذين قصد ذكرهم، وتعيد النعمة عليهم فيما

يريد وصفهم بأنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما قد سبق في علم الله تبارك وتعالى أنهم مكذبون به، فجعل سابق القدر عليهم بمثابة تكذيبهم بأنفسهم لا سيما وقد خرج تكذيبهم إلى الوجود في وقت مجيء الرسل. وذكر هذا التأويل المفسرون وقرنوه بأن الله عز وجل حتم عليهم التكذيب وقت أخذ الميثاق، وهو قول أبي بن كعب رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ الآية. أخبر تعالى أنه لم يجد لأكثرهم ثبوتاً على العهد الذي أخذه على ذرية آدم وقت استخراجهم من ظهره. قاله أبو العالية عن أبي بن كعب. ويحتمل أن يكون الكلام عبارة عن أنهم لم يصرفوا عقولهم في الآيات المنصوية، ولا شكروا نعم الله، ولا قادتهم معجزات الأنبياء، لأن هذه الأمور عهد في رقاب العقلاء كالعهد بنبغي أن يؤتى بها، وأيضاً فمن لدن آدم عليه السلام تقرر العهد الذي هو بمعنى الوصية، وبه فسر الحسن هذه الآية، فيجئ المعنى: وما وجدنا لأكثرهم التزام عهد وقبول وصاة. ذكره المهدوي. ﴿وَمِنْ﴾ في هذه الآية زائدة، إلا أنها تعطي استغراق جنس العهد، ولا تجيء هذه إلا بعد النفي، و﴿وَإِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة عند سيبويه، واللام في قوله: ﴿لَتَنصِقِينَ﴾ للفرق بين (إن) المخففة وغيرها، و﴿وَإِنْ﴾ عند الفراء هي بمعنى (ما)، واللام بمعنى (إلا)، والتقدير عنده: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين.

جاء لكل فريق منهم فكذبوه لأول أمره، ثم استبانت حجته، وظهرت الآيات الدالة على صدقه مع استمرار دعوته، فلجأوا هم في كفرهم، ولم يؤمنوا بما تبين به تكذيبهم من قبل. وكأنه وصفهم - على هذا التأويل - باللجاج في الكفر والصرامة عليه، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾. ويحتمل - في هذا الوجه - أن يكون المعنى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: ما كانوا ليوفقهم الله إلى الإيمان بسبب أنهم كذبوا من قبل فكان تكذيبهم سبباً لأن يمتنعوا الإيمان بعد.

والثاني من الوجوه أن يريد: فما كان آخرهم في الزمن والعصر ليهتدي ويؤمن بما كذب به أولهم في الزمن والعصر، بل كفر كلهم، ومشى بعضهم على سنن بعض في الكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أشار إلى هذا القول النقاش، فكأن الضمير في قوله: ﴿كَانُوا﴾ يختص بالآخرين، والضمير في قوله: ﴿كَذَّبُوا﴾ يختص بالقدماء منهم.

والثالث من الوجوه يحتمل أن يريد: فما كان هؤلاء المذكورون بأجمعهم - لو رُدُّوا إلى الدنيا ومُكِّنوا من العودة - ليؤمنوا بما كذبوا في حال حياتهم ودعاء الرسول لهم، قاله مجاهد وقرنه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾، وهذه أيضاً صفة بليغة في اللجاج والثبوت على الكفر، بل هي غاية في ذلك. والرابع من الوجوه أنه يحتمل أن

ورثوا، والوعظ بحال من سلف من المهلكين. و﴿وَنَطَّبَ﴾ عطف على ﴿أَصْبَنَّا﴾ إذ المراد به الاستقبال، ويحتمل أن يكون ﴿وَنَطَّبَ﴾ منقطعاً إخباراً عن وقوع الطبع لا أنه متوعد به، ويبقى التوعد بالإهلاك الذي هو بعدذاب كالصيحة والغرق ونحوه، وقرأ أبو عمرو: ﴿وَنَطَّبَ عَلَى﴾ بإدغام العين في العين وإشمام الضم، ذكره أبو حاتم.

﴿١٠١﴾ - ﴿١٠٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ﴾ ابتداء، و﴿الْقُرَى﴾ قال قوم: هو نعت والخبر ﴿نَقُصُّ﴾، ويؤيد هذا أن القصد إنما هو الإخبار بالقصص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر عندي أن ﴿الْقُرَى﴾ هي خبر الابتداء، وفي ذلك معنى التعظيم لها ولمهلكها، وهذا كما قيل في ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: إنه ابتداء وخبر. وكما قال ﷺ: «أولئك الملأ» وبقول أبي الصلت:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ.....

.....

وهذا كثير. وكان في اللفظ معنى التحسر على القرى المذكورة، والمعنى: نقص عليك من أنباء الماضين لتبين العبر وتعلم المثلث التي أوقفها الله بالماضين.

ثم ابتدأ الخبر عن جميعهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الكلام يحتمل أربعة وجوه من التأويل: أحدها أن يريد أن الرسول

﴿١٠٣﴾ - ﴿١٠٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَنِيهِمْ﴾ عائد على الأنبياء المتقدم ذكرهم وعلى أممهم، والآيات في هذه الآية - عام في الشنع وغيرها، وقوله تعالى: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ المعنى: فظلموا أنفسهم فيها وبسببها وظلموا أيضاً مظالمها ومتبعي مظهرها. وقيل: لما نزلت ﴿ظَلَمُوا﴾ منزلة (كفروا) و(جحدوا) عديت بالباء، كما قال:

قَدْ قَتَلَ السَّيِّئُ زِيَاداً عَنِّي
فَأَنْزَلَ (قَتَلَ) منزلة (صَرَفَ)، ثم حذر الله تعالى من عاقبة المفسدين الظالمين، وجعلهم مثلاً يتوعد به كفره عصر النبي ﷺ.

وفرعون: اسم كل ملك لمصر في ذلك الزمان، فخطابه موسى عليه السلام بأعظم أسمائه وأحبها إليه إذ كان من الفراعنة كالنمارذة في اليونان وقيصر في الروم وكسرى في فارس والنجاشي في الحبشة. وروي أنه موسى بن عمران بن فاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، وروي أن اسم فرعون موسى عليه السلام الوليد بن مصعب، وقيل: هو فرعون يوسف، وأنه عمر نيفاً وأربعمئة سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن قال إن يوسف المبعوث الذي أشار إليه موسى في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ يَالْقَيْنَ﴾ هو غير يوسف الصديق فليس يحتاج إلى نظر، ومن قال إنه يوسف الصديق فيعارضه ما يظهر من قصة يوسف،

وذلك أنه ملك مصر بعد عزيزها، فكيف يستقيم أن يعيش عزيزها إلى مدة موسى؟ فينفصل أن العزيز ليس بفرعون الملك، إنما كان حاجباً له.

وقرأ نافع وحده ﴿عَلَى﴾ بإضافة (على) إليه، وقرأ الباقون ﴿عَلَى﴾ بسكون الياء، قال الفارسي: معنى هذه القراءة أن (على) وضعت موضع (الباء)، كأنه قال: ﴿حَقِيقٌ بِأَلَا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ كما وضعت (الباء) موضع (على) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ فيتوصل إلى المعنى بهذه وبهذه، وكما تجيء (على) أيضاً بمعنى (عن)، ومنه قول الشاعر في صفة قوسه:

أَرْسِي عَلَيْهَا وَفِي فَرْعٍ أَجْمَعُ
وَفِي ثَلَاثِ أَذْوَاعٍ وَإِصْبَعُ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ﴿حَقِيقٌ﴾ - على هذا - معناه: جدير وخليق، وقال الطبري: قال قوم: ﴿حَقِيقٌ﴾ معناه: حريص فلذلك وصلت بـ﴿عَلَى﴾، وفي هذا القول بُعِدَ، وقال قوم: ﴿حَقِيقٌ﴾ صفة لـ﴿رَسُولٍ﴾، ثم عندها الكلام، و﴿عَلَى﴾ خير مقدم، و﴿أَنْ لَا أَقُولَ﴾ ابتداء تقدم خبره، وإعراب ﴿أَنْ﴾ على قراءة من سكن الياء خفض، وعلى قراءة من فتحها مشددة رفع، وقال الكسائي: في قراءة عبدالله: ﴿حَقِيقٌ بِأَلَا أَقُولَ﴾، وقال أبو

حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ
بِبَنَاتٍ لَكُمْ وَأَرْسِلُ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى أَنْ لَا تَقُولُوا
لَهُمْ جَسَبُ الْيَدَيْنِ نَحْنُ خَيْرُ الْبَشَرِ قَدْ جِئْتُكُمْ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ شُعْبَانٌ مُتَبِينَ وَنَزَّجْ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ
لِلنَّظَرِ قَالُوا الْمَلَأْنَا مِنْ قَوْمِهِ فَرَغُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرُ
عَلِيمٍ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا أَنْتُمْ يَا قَوْمِ
قَالُوا آتِنَاهُ وَأَعَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَبِيرِينَ يَا قَوْمُ
يَكُلْ سِحْرٌ عَظِيمٌ وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَرَعَوْا قَالُوا إِنَّا
لَنَآ لَأَجْرَانِ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَتْ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
لَمِنَ الْمُفْرَقِينَ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّمَا أَنْتَ مُنْقَلَبٌ وَبِمَا أَنْ
تَكُونَ نَحْنُ الْمُلُوكُ قَالُوا أَأَلْقَوْا لِقَاؤَ سَكْرَتَا
أَعْيُنِ النَّاسِ وَأَسْرَهُهُمْ وَجَاءَ وَيَسْعُ عَظِيمٌ
وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ تَوَفَّعَ الْحَقُّ وَيُطْلَعُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَفَلَجُوا
هَذَاكَ وَانْقَلَبُوا صُفْرِينَ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ

عمرو: في قراءة عبدالله: ﴿حَقِيقٌ أَنْ أَقُولَ﴾ وبه قرأ الأعمش. وهذه المخاطبة - إذا تأملت - غاية في التلطف في القول اللين الذي أمر عليه السلام به.

وقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَنَاتٍ لَكُمْ﴾ الآية. البيئنة هنا إشارة إلى جميع آياته، وهي على المعجزة هنا أدل، وهذا من موسى عرض نبوته، ومن فرعون استدعاء خرق العادة الدال على الصدق.

وظاهر الآية وغيرها أن موسى عليه السلام لم تثبت شريعته إلا على بني إسرائيل فقط، ولم يدع فرعون وقومه إلا إلى إرسال بني إسرائيل، وذكره لعله يخشى أو يزكى ويوحد كما يذكر كل كافر، إذ كل نبي داع إلى التوحيد وإن لم يكن آخذاً به ومقاتلاً عليه، وأما أنه دعاه إلى أن

يؤمن ويلتزم جميع الشرع فلم يرد هذا نصاً، والأمر محتمل، وبالجمله فيظهر فرق ما بين بني إسرائيل وبين فرعون والقيبط، ألا ترى أن بقية القبط وهم الأكثر لم يرجع إليهم موسى عليه السلام أبداً ولا عارضهم، وكان القبط مثل عبدة البقر وغيرهم؟ وإنما احتاج إلى محاوره فرعون لتملكه على بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ الآية. روي أن موسى عليه السلام قلق به ويمحاورته، فقال فرعون لأعوانه: خذوه، فألقى موسى العصا فصارت ثعباناً وهمت بفرعون فهرب منها، وقال السدي: إنه أحدث وقال: يا موسى كُفَّه عني فكفَّه، وقال نحوه سعيد بن جبير.

و﴿إِذَا﴾ ظرف مكان في هذا الموضع عند المبرد من حيث كانت خيراً عن جُئته، والصحيح الذي عليه الناس أنها ظرف زمان في كل موضع، ويقال: إن الثعبان وضع أسفل لحيته في الأرض وأغلاهما في شرفات القصر. والثعبان: الحية الذكر، وهو أهول وأجراً، قاله الضحاك، وقال قتادة: صارت حية شعراء ذكراً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غرزت ذنبها في الأرض ورفعت صدرها إلى فرعون. وقوله: ﴿ثِيْنٌ﴾ معناه: لا تخييل فيه، بل هو بين أنه حقيقة، وهو من أبان بمعنى بان، أو من بان بمعنى سلب عن أجزائه. وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ معناه: من جيبه أو كُفَّه حسب الخلاف في

ذلك، وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ بِيَاسَاءَ﴾ قال مجاهد: كاللبن أو أشد بياضاً، وروى أنها كانت تظهر منيرة شفافة كالشمس تأتلق، وكان موسى عليه السلام ذا دم أحمر إلى السواد، ثم كان يرذ يده فترجع إلى لون بدنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهاتان الآيتان عرضهما موسى عليه السلام للمعارضة، ودعا إلى الله تعالى بهما، وخرق العادة بهما، وتحدى الناس إلى الدين بهما، فإذا جعلنا التحدي الدعاء إلى الدين مطلقاً فبهما تحدى، وإذا جعلنا التحدي الدعاء بعد العجز عن معارضة المعجزة وظهور ذلك فتفرد حينئذ العصا بذلك، لأن المعارضة والعجز فيها وقعا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقال: التحدي هو الدعاء إلى الإتيان بمثل المعجزة، فهذا نحو ثالث، وعليه يكون تحدي موسى بالآيتين جميعاً، لأن الظاهر من أمره أنه عرضهما للنظر معاً وإن كان لم ينص على الدعاء إلى الإتيان بمثلهما، وروي عن فرقد السنجي أن فم الحية كان يفتح أربعين ذراعاً. ﴿١١٦﴾ - ﴿١١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الساحر كان عندهم في ذلك الزمن أعلى المراتب وأعظم الرجال، ولكن وصفهم موسى بذلك مع مدافعتهم له عن النبوة ذمٌ عظيم وحط، وذلك قصدوا إن لم يمكنهم أكثر، وقولهم: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ﴾ يعنون بأنه يحكم فيكم بنقل رعيتكم في بني إسرائيل فيفضي ذلك إلى خراب دياركم إذا ذهب الخدمه

والعمرة، وأيضاً فلا محالة أنهم خافوا أن يقاتلهم، وجالت ظنونهم في كل مجال، وقال النقاش: كانوا يأخذون من بني إسرائيل خرجاً كالجزية فرأوا أن ملكهم يذهب بسؤال ذلك. وقوله: ﴿مَّاذَا تَأْمُرُونَ﴾ الظاهر أنه من كلام الملا بعضهم إلى بعض. وقيل: هو من كلام فرعون لهم، وروي كروم عن نافع ﴿تَأْمُرُونَ﴾ بكسر النون، وكذلك في الشعراء. و﴿مَا﴾ استفهام، و﴿ذَا﴾ بمعنى (الذي)، فهما ابتداء وخبر، وفي ﴿تَأْمُرُونَ﴾ ضمير عائد على (الذي) تقديره: تأمرون به، ويجوز أن تجعل ﴿مَاذَا﴾ بمنزلة اسم واحد في موضع نصب ب﴿تَأْمُرُونَ﴾ ولا يضر فيه على هذا. قال الطبري: والسحر مأخوذ من: سَحَرَ المطرُ الأرض إذا جادها حتى يقلب نباتها ويقلعه من أصوله، فهو يسحرها سحراً، والأرض مسحورة. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما سحر المطر الطين إذا أفسده حتى لا يمكن فيه عمل، والسحر: الأخذة التي تأخذ العين حتى ترى الأمر غير ما هو، وربما سحر الذهن، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

وساحرة السراب من السَّوَامِي
تُرْقِصُ فِي تَوَائِيهِهَا الْأَرْوَمِ
أراد أنه يخيل نفسه ماء للعين.

ثم أشار الملا على فرعون بأن يؤخر موسى وهارون ويدع النظر في أمرهما ويجمع السحرة من كل مكان حتى تكون غلبة موسى بحجة واضحة معلومة بينة.

وقرأ ابن كثير: ﴿أَرْجَنَّهُو﴾ بواو بعد

الهاء المضمومة وبالهزم قبل الهاء،
وقرأ أبو عمرو: ﴿أَزْجِفُهُ﴾ بالهزم
دون واو بعدها، وقرأ نافع وحده في
رواية قالون: ﴿أَزْجِوْهُ﴾ بكسر الهاء،
ويحتمل أن يكون المعنى أخره فسهل
الهمزة، ويحتمل أن يكون من الرجا
بمعنى: أطمئنه ورجّحه، قاله المبرد،
وقرأ ورش عن نافع: ﴿أَزْجِهِي﴾ بياء
بعد كسرة الهاء، وقرأ ابن عامر:
﴿أَزْجِفُهُ﴾ بكسر الهاء وبهمزة قبلها.
قال الفارسي: وهذا غلط. وقرأ
عاصم والكسائي: ﴿أَزْجِفُهُ﴾ بضم
الهاء دون همز، وروى أبان عن
عاصم: ﴿أَتَجِئْتُ﴾ بسكون الهاء، وهي
لغة تقف على هاء الكناية إذا تحرك ما
قبلها، ومنه قول الشاعر:

أَتَحَى عَلَيَّ الدُّمُورُ رَجُلًا وَبَدَأَ
يُفْصِمُ لَا يُضْلِحُ إِلَّا أَفْسَدَا
فَيُضْلِحُ الْيَوْمَ وَيُفْسِدُهُ عَدَا
وقال الآخر:

لَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا دَعَا وَلَا شَبَحَ
مَالَ إِلَى أَزْطَاةٍ حَقِيفٍ قَاضِطٍ جَنَحَ
وحكى النقاش أنه لم يكن يجالس
فرعون وَلَدُ غِيَّةٍ وإنما كانوا أشرفاً،
ولذلك أشاروا بالإرجاء ولم يشيروا
بالقتل وقالوا: إن قتلته دَخَلَتْ على
الناس شبهة، ولكن اغلبه بالحجة.
﴿الَّذِينَ﴾ جمع مدينة، وزنها فعيلة
من مَدَن، أو مفعلة من دان يدين،
وعلى هذا يهزم مدائن أو لا يهزم،
﴿حَشِيرَةٍ﴾ معناه: جامعين، قال
المفسرون: وهم الشُّرَط، وقرأ ابن
كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم،
وابن عامر: ﴿يَكْلُ سَحَارَ﴾
حمزة والكسائي: ﴿يَكْلُ سَحَارَ﴾
على بناء المبالغة، وكذلك في سورة

يونس، وأجمعوا على ﴿سَحَارَ﴾ في
سورة الشعراء، وقال قتادة: معنى
الإرجاء الذي أشاروا إليه: السجن
والحبس.
وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ﴾
الآية. هنا محذوفات يقتضيها ظاهر
الكلام، وهي أنه بعث إلى السحرة
وأمرهم بالمجيء. وقال ابن عباس
رضي الله عنهما: إنه بعث غلماناً
فعلموا بالقرآن.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم في
رواية حفص: ﴿إِنَّا لَنَّا لَأَجْرًا﴾ على
جهة الخبر، وقرؤوا في الشعراء:
﴿أَنَّا لَنَّا﴾ ممدودة مفتوحة الألف غير
عاصم فإنه لا يمدّها، قال أبو علي:
ويجوز أن تكون على جهة الاستفهام
وحذف ألفها، وقد قيل ذلك في
قوله: ﴿أَن عَبَدْتُ بَيْنَ إِسْرَءِيلَ﴾، ومنه
قول الشاعر:

أَفْرَحُ أَنْ أَرَزَا الْكَرَامَ.....

وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة،
والكسائي هنا وفي الشعراء: ﴿أَتَيْنُ﴾
بألف الاستفهام قبل ﴿إِن﴾، وقرأت
فرقة: ﴿أَتَيْنُ﴾ بدون مذ، وقرأ أبو
عمرو هنا وفي الشعراء: ﴿أَتَيْنُ﴾.

والأجر هنا: الأجرة، فافترحوها إن
غلبوا، فأنعم فرعون لهم بها وزادهم
المنزلة والجاه، ومعناه: المقربين
مئني. وروي أن السحرة الذين جاؤوا
إلى فرعون كانوا خمسة عشر ألفاً،
قاله ابن إسحق، وقال ابن جريج:
كانوا تسعمائة، وذكر النقاش أنهم
كانوا اثنين وسبعين رجلاً، وقال
عكرمة: كانوا سبعين ألفاً، وقال

محمد بن المنذر: كانوا ثمانين ألفاً،
وقال السدي: ماتني ألف ونيفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه الأقوال ليس لها سند يوقف
عنده، وقال كعب الأحبار: كانوا
اثنين عشر ألفاً، وقال السدي: كانوا
بضعة وثلاثين ألف رجل مع كل
رجل حبل وعصا، وقال أبو ثمامة:
كانوا سبعة عشر ألفاً.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَكُونُ مِنَّا شَقِيقٌ﴾
﴿ثُلَاثٌ﴾ الآية. ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَا
أَن﴾ في موضع نصب، أي: إما أن
تفعل الإلقاء، ويحتمل أن تكون في
موضع رفع، أي: إما هو الإلقاء.
وخير السحرة موسى في أن يتقدم في
الإلقاء أو يتأخر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا فعل المُدِلِّ الواصل بنفسه،
والظاهر أن التقدم في التخيلات
والمخارق والحجج، لأن بديلتها
تمضي بالنفس، فَلْيُظْهِرِ اللَّهُ أَمْرَ نُبُوَّةِ
موسى قَوِيَّ نفسه وبقينه، ووثق
بالحق فأعطاهم التقدم، فنشطوا
وسروا حتى أظهر الله الحق وأبطل
سعيهم.

وقوله تعالى: ﴿سَكَّرُوا أَصْوَاتَهُمْ﴾
﴿ثَانِينَ﴾ نص في أن لهم فعلاً ما
زائداً على ما يحدثونه من التزييف
والآثار في العصا وسائر الأجسام
التي يصرفون فيها صناعتهم.
﴿وَأَسْرَفُوا بِهِنَّ﴾ بمعنى: أذهبوهن،
أي: أفزعهن، فكأن فعلهم اقتضى
واستدعى الرهبة من الناس،
وصف الله تبارك وتعالى سحرهم
بالعظم، ومعنى ذلك: من كثرت،
وزوي أنهم جلبوا ثلاثمائة وستين

الناس: ﴿تَلْقَفُ﴾، وقرأ عاصم في رواية حفص: ﴿تَلْقَفُ﴾ بسكون اللام وفتح القاف، وقرأ ابن كثير في بعض ما روي عنه: ﴿تَلْقَفُ﴾ بتشديد التاء على إدغام التائين من (تتلقف)، وهذه القراءة لا تترتب إلا في الوصل، وأما في الابتداء في الفعل فلا يمكن، وقرأ سعيد بن جبيرة: ﴿تَلْقَمُ﴾ بالميم، أي تبتلع كالقمة.

وروي أن الشعبان استوفى تلك الحبال والعصي أثلاً وأعدمها الله عز وجل، ومد موسى يده إلى فمه فعاد عصاً كما كان، فعلم السحرة حينئذ أن ذلك ليس من عند البشر فخروا سجداً مؤمنين بالله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ الآية. ﴿وَوَقَعَ﴾ معناه: نزل وجذ، و﴿الْحَقُّ﴾ يريد به سطوع البرهان وظهور الإعجاز واستمرار التحدي إلى الدين على جميع العالم. و﴿كَانُوا يَمَكُونُ﴾ لفظ يعم سحر السحرة وسعي فرعون وشيعته. والضمير في قوله: ﴿فَنُفِثُوا﴾ عائد على جميعهم من سحرة ومن سعي فرعون وشيعته، وفي قوله: ﴿وَأَنْقَلَبُوا سَفِيرِينَ﴾ إن قدرنا انقلاب الجمع قبل إيمان السحرة فهم في الضمير، وإن قدرناه بعد إيمانهم فليسوا في الضمير، ولا لحقهم صغار يصفهم الله تبارك وتعالى به لأنهم آمنوا واستشهدوا رضي الله عنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِيرِينَ﴾ الآية - لما رأى السحرة من عظيم القدرة ما تيقنوا به نبوة موسى عليه السلام آمنوا بقلوبهم، وانضاف إلى ذلك

وطال حتى جاز مدينة البحيرة، وقيل: كان الجمع بمصر وأنه طال حتى جاز بذيبة بحر القلزم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول بعيد من الصواب مفرط الإغراق لا ينبغي أن يلتفت إليه، وروي أن السحرة لما ألقوا وألقى موسى عصاه جعلوا يرقون، وجعلت حبالهم وعصيتهم تعظم، وجعلت عصا موسى تعظم حتى سدت الأفق وابتلعت الكل ورجعت بعد ذلك عصاً

فعندها آمن السحرة. وروي أن عصا موسى كانت عصا آدم عليهما السلام، وكانت من الجنة، وقيل: كانت من العين الذي في وسط ورق الريحان، وقيل: كانت غصناً من الخيزر. وقيل: كانت لها شعبتان، وقيل: كانت عصا الأنبياء مختزنة عند شعيب عليه السلام فلما استرعى موسى قال له: اذهب فخذ عصا فذهب إلى البيت فطارت هذه إلى يده، فأمره شعيب بردها وأخذ غيرها ففعل فطارت هي إلى يده، فأخبر بذلك شعيباً فتركها له، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن ملكاً من الملائكة دفع العصا إلى موسى في طريق مدين.

و﴿تَلْقَفُ﴾ معناه: تبتلع وتزدد، و﴿كَانُوا يَكُونُونَ﴾ معناه: ما صوروا فيه إفكهم وكذبهم، وقرأ جمهور

قَالُوا أَمْ آتَيْنَا بِلَيْلٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١١٧﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ أَنَّمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ الْخَرِجُوا مِنَهَا أَهْلُهَا فَسَوْفَ نَعْتَلِمُ ﴿١١٨﴾ لَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصْلِيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٠﴾ وَمَا نَنقِمُ مِنْآلِ أَنْتَ أَمْنَا بِتَأْيِيتِ رَبِّنَا لِنُجَاهَةٍ تَأْتِيَنَا أَوْفَىٰ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوْفَقًا مُّسْلِمِينَ ﴿١٢١﴾ وَقَالَ الْمَلَأِينَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتُمْ مُوسَىٰ وَقَوْمُهُ لَمِطُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقْبِلُ آلَهُكُمْ وَنُنْشِئُ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ قَالُوا أَوْدَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمَنْ يَبْدِي مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٤﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّبْيِ وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّجَرِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٥﴾

١٦٥

بعيراً موقرة بالهبال والعصي فلما ألقوها تحركت وملأت الوادي يركب بعضها بعضاً، فاستهول الناس ذلك واسترهبوا، قال الزجاج: قيل: إنهم جعلوا فيها الزئبق فكانت لا تستقر.

﴿١١٧﴾ - ﴿١٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَنْ﴾ في موضع نصب ب﴿وَأَرْجَبْنَا﴾ أي بأن ألقي، ويحتمل أن تكون مفسرة بمعنى (أي)، فلا يكون لها موضع من الإعراب.

وروي أن موسى عليه السلام لما كان يوم الجمع خرج متكئاً على عصاه ويده في يد أخيه، وقد صُفِّ له السحرة في عدد عظيم حسبما ذكر، فلما ألقوا واسترهبوا أوحى الله تعالى إليه فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، فعظم حتى كان كالجبل، وقيل: إنه طال حتى جاز النيل، وقيل: كان الجمع بالإسكندرية

الاستهوال والاستعظام والفرع من قدرة الله تبارك وتعالى، فخروا سجداً لله تعالى مطارحين، وآمنوا نطقاً بالاستهتيم، وتبنيهم الرب بذكر موسى وهارون زوالاً عن ربوبية فرعون وما كان يتوهم فيه من الجهال من أنه رب الناس، وهارون أخو موسى أسن منه بثلاث سنين.

وقول فرعون: ﴿قَبْلَ أَن آتَاكَ لَكُرٌّ﴾ دليل على وهن أمره، لأنه إنما جعل ذنبهم مفارقة الإذن ولم يجعله نفس الإيمان إلا بشرط. وقرأ عاصم في رواية حفص عنه في كل القرآن: ﴿أَمْسَتْمْ﴾ على الخير، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿أَمْسَتْمْ﴾ بهزة ومدة على الاستفهام، وكذلك في طه والشعراء، وقرئ حمزة والكسائي في الثلاثة مواضع: ﴿أَمْسَتْمْ﴾ بهمزيين الثانية ممدودة، ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم، وقرأ ابن كثير في رواية أبي الإخريط عنه: ﴿وَأَمْسَتْمْ﴾ وهي على ألف الاستفهام إلا أنه سهلها واواً فأجرى المنفصل مجرى المتصل في قولهم (تؤذه) في (تؤده). وقرأ قنبل عن القواس: ﴿وَأَمْسَتْمْ﴾ وهي على القراءة بالهمزتين ﴿أَمْسَتْمْ﴾ إلا أنه سهل ألف الاستفهام واواً، وترك ألف أفعلتم على ما هي عليه.

والضمير في ﴿يَبِ﴾ يحتمل أن يعود على اسم الله تبارك وتعالى، ويحتمل أن يعود على اسم موسى عليه السلام. وعنفهم فرعون على الإيمان قبل إفنه ثم ألزمهم أن هذا كان على اتفاق منهم، وزوي في ذلك عن ابن عباس وابن مسعود

رضي الله عنهم أن موسى عليه السلام اجتمع مع رئيس السحرة واسمعه شمعون، فقال له موسى: أَرَأَيْتَ إِنْ غَلَبْتُكُمْ أَتُؤْمِنُونَ بِي؟ فقال له: نعم، فعلم بذلك فرعون، فلذلك قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُرٌّ مَّكَرْتُوهُ﴾ في الكيدية، ثم قال للسحرة: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَقْطَعَنَّ الْآيَةَ﴾ فرجع فرعون في مقالته هذه إلى الخذلان والغشم وعادة ملوك السوء إذا غلبوا.

وقرأ حميد المكي، وابن محيصن، ومجاهد: ﴿لَأَقْطَعَنَّ﴾ بفتح الهمزة والطاء وإسكان القاف، ﴿وَلَا ضَلْبَيْنِ﴾ بفتح الهمزة وإسكان الصاد وضم السلام، وزوي بكسرهما. و﴿يَنْ جَلْبَيْنِ﴾ معناه: يُعْنَى وَيُسْرَى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر من هذه الآيات أن فرعون توعد، وليس في القرآن نص على أنه أنفذ ذلك وأوقعه، ولكنه زوي أنه صلب بعضهم وقطع. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فرعون أول من صلب وقطع من خلاف، وقال ابن عباس وغيره فيهم: أصبحو سحرة وأمسروا شهداء، وأما التوعد فجميعهم.

﴿١٢٥﴾ - ﴿١٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا تسليم من مؤمني السحرة واتكال على الله ثقة بما عنده.

وقرأ جمهور الناس: ﴿نَيْمٌ﴾ بكسر القاف، وقرأ أبو حيو، وأبو البرهشم، وابن أبي عبلة، والحسن بن أبي الحسن: ﴿تَنْقَمُ﴾ بفتحها، وهما لغتان. قال أبو حاتم: الوجه في القراءة كسر القاف، وكل

العلماء أنشد بيت ابن الرقيات:

مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ . . .

.....

بفتح القاف. ومعناه: وما تعد علينا ذنباً وتؤاخذنا به.

وقولهم: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ معناه: عُمْنَا كما يُعْمُ الماء من أفرغ عليه، وهي هنا استعارة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل، وحكى النقاش عن مقاتل أنه قال: مكث موسى بمصر بعد إيمان السحرة عاماً أو نحوه يريهم الآيات.

وقول ملاي فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ مقالة تتضمن إغراء فرعون بموسى وقومه، وتحريضه على قتلهم أو تغيير ما بهم حتى لا يكون لهم خروج عن دين فرعون. ومعنى ﴿أَتَذَرُ مُوسَى؟﴾ أتركه؟ وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَذَرُ﴾، ونصبه على معنيين: أحدهما أن يقدر: «وَأَنْ يَذَرَ» فهي واو الصرف، فكأنهم قالوا: أئذره وأن يذرك؟ أي: أتركه وتركه؟ والمعنى الآخر أن يعطف على قوله: ﴿يُفْسِدُوا﴾. وقرأ نعيم بن مسيرة، والحسن بخلاف عنه: ﴿وَيَذَرُكَ﴾ بالرفع عطفاً على قولهم: ﴿أَتَذَرُ﴾، وقرأ أنس بن مالك: ﴿وَتَذَرُكَ﴾ بالنون ورفع الفعل على معنى توعد منهم، أو على معنى إخبار أن الأمر يؤول إلى هذا، وقرأ أبي بن كعب، وعبدالله: «في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك»، قال أبو حاتم: وقرأ الأعمش: «وقد تركك وآلهتك»،

وقرأ السبعة وجمهور من العلماء: ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ﴾ على الجمع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على ما روي أن فرعون كان في زمنه للناس آلهة من بقر وأصنام وغير ذلك، وكان فرعون قد شرع ذلك وجعل نفسه الإله الأعلى، فقلوه - على هذا - ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتَعْلَمُونَ﴾ إنما هو بمناسبة بينه وبين سواه من المعبودات. وقيل: إن فرعون كان يعبد حجرًا كان يعلقه في صدره كياقوتة أو نحوها، قال الحسن: كان لفرعون حثانة معلقة في نحره يعبدها ويسجد لها. وقال سليمان التيمي: بلغني أنه كان يعبد البقر، ذكره أبو حاتم.

وقرأ ابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأنس بن مالك رضي الله عنهم أجمعين، وجماعة غيرهم: ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ﴾، أي: وعبادتك والتذلل لك، وزعمت هذه الفرقة أن فرعون لم يُبح عبادة شيء سواه، وأنه في قوله ﴿الْأَعْلَى﴾ إنما أراد: «الأعظم والأكبر» دون مناسبة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان فرعون يُعبد ولا يُعبد.

وقرأ ابن كثير: ﴿سَنَقُولُ﴾ بالتخفيف، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ بالتشديد، وخففهما جميعاً نافع. وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَقُولُونَ﴾ - و﴿سَنَقُولُ﴾ بالتشديد على المبالغة، والمعنى: سنستمر على ما كنا عليه من تعذيبهم وقطعهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ يريد: في المنزلة

والتمكن من الدنيا، و﴿قَاهِرُونَ﴾ يقتضي تحقير أمرهم، أي: هم أقل من أن يهتم بهم.

﴿١٢٨﴾ - ﴿١٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل: لما قال فرعون سنقتل أبناءهم وتوعدهم قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل يثبتهم ويعددهم ما عند الله: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا﴾، وظاهر هذا الكلام كله وعد بغيب فكأن قوته تقتضي أنه من عند الله، وليس في اللفظ شيء من ذلك، و﴿الْأَرْضِ﴾ أرض الدنيا وهو الأظهر، وقيل: المراد هنا أرض الجنة، وأما في الثانية فأرض الدنيا لا غير.

وقرأت فرقة: ﴿يُورِثُهَا﴾ بفتح الراء، وقرأ السبعة: ﴿يُورِثُهَا﴾ ساكنة الواو خفيفة الراء مكسورة، وروى حفص عن عاصم - وهي قراءة الحسن - ﴿يُورِثُهَا﴾ بتشديد الراء على المبالغة. والصبر في هذه الآية يُعَمُّ الانتظار الذي هو عبادة والصبر في المناجرات.

وقولهم: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ يعنون به الذبح الذي كان في المدة التي كان فرعون يتخوف فيها أن يولد المولود الذي يخرب ملكه، والذي من بعد مجيئه يعنون به وعيد فرعون وسائر ما كان خلال تلك المدة من الإخافة لهم. وقال السدي، وابن عباس رضي الله عنهما: إنما قالت بنو إسرائيل هذه المقالة حين اتبعهم فرعون واضطربهم إلى البحر فضاقت صدورهم ورأوا بحراً أمامهم وعدواً كثيفاً وراءهم فقالوا هذه المقالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبالجملة هو كلام يجري مع المعهود من بني إسرائيل من اضطرابهم على أنبيائهم وقلة يقينهم وصبرهم على الدين، واستعطاف موسى لهم بقوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَذَرُكُمْ﴾، ووعدده لهم بالاستخلاف في الأرض يدل على أنه يستدعي نفوساً نافرة، ويقوي هذا الظن في بني إسرائيل سلوكهم هذه السبيل في غير قصة. وحكى النقاش أنهم قالوا ذلك بمصر حين كلفهم فرعون من العمل ما لا يطيقون. وروي أنه كان يكلفهم عمل الطوب ويمنعهم الثمن ليشق عليهم عمله.

وقوله تعالى: ﴿يَنْتَظِرُ كَيْفَ تَأْتِيهِمْ تَنْبِيهِ وَحُضْرٌ عَلَى الْاِسْتِقَامَةِ، وَإِنْ قُدِّرَ هَذَا الْوَعْدُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيُتَخَرَّجُ عَلَيْهِ قَوْلُ الْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ: (عسى) من الله واجبة، وقد استخلفوا في مصر في زمن داود وسليمان، وقد فتحوا بيت المقدس مع يوشع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ الآية. أخبر أنه أخذ آل فرعون في تلك المدة التي كان موسى يدعوه فيها بالسنين وهو: الجدوب والقحوط، وهذه سيرة الله في الأمم، وكذلك فعل بقریش. والسنة وعضة وما جرى مجراها من الأسماء المنقوصة تجمع بالواو والنون ليس على جهة السلامة لكن على جهة العوض مما نقص، وكذلك (أرض) توهموا فيها نقص هاء التأنيث لأنه كان حقها أن تكون (أرضة)، وأما (حرّة وإخرون) فلأن التضعيف أبداً يعتل فتوهموه مثل

النقص، وكسر السين من (سينون وسنين) وزيادة الألف في (إحارين) دليل على أنه ليس بجمع سلامة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقِصَ يَنَ الثَّمَرَاتِ﴾ روي أن النخلة كانت لا تحمل إلا ثمرة واحدة، وقال نحوه رجاء بن حيوة، وأراد الله عز وجل أن ينبؤوا ويزدجروا عما هم عليه من الكفر، إذ أحوال الشدة ترق القلوب وتُرجب فيما عند الله.

﴿١٣٢﴾ - ﴿١٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

كان القصد من إصابتهم بالقحط والنقص في الثمرات أن يُنبؤوا ويرجعوا فإذا بهم قد ضلوا وجعلوها تشاؤماً بموسى، فكانوا إذا اتفق لهم اتفاق حسن في غلات ونحوها قالوا: هذا لنا ويسبينا وعلى الحقيقة لنا، وإذا نالهم ضر قالوا: هذا بسبب موسى وشؤمه، قاله مجاهد وغيره. وقرأ جمهور الناس بالياء وشد الطاء والياء الأخيرة ﴿يَطِيرُوا﴾، وقرأ عيسى بن عمر، وطلحة بن مصرف بالياء وتخفيف الطاء: ﴿تَطِيرُوا﴾، وقرأ مجاهد: ﴿تَشَاءُوا بموسى﴾ بالياء من فوق ويلفظ الشؤم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّا طَبَرَهُمْ﴾ معناه: حظهم ونصيبهم، قاله ابن عباس، وهو مأخوذ من زجر الطير، فسَمي ما عند الله من القدر للإنسان طائراً لما كان الإنسان يعتقد أن كل ما يصيبه إنما هو بحسب ما يراه في الطائر، فهي لفظة مستعارة، وقرأ جمهور الناس: ﴿طَبَرَهُمْ﴾، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿طِيرَهُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ وجميعهم لا يعلم إما لأن القليل عَلِمَ كالرجل

المؤمن وأسبى امرأة فرعون، وإما أن يراد الجميع وتجاوز في العبارة لأجل الإمكان، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله: ﴿طَبَرَهُمْ﴾ لجميع العالم وبيء تخصيص الأكثر على ظاهره، ويحتمل أن يريد: ولكن أكثرهم ليس قريباً أن يعلم لانغمارهم في الجهل، وعلى هذا فيهم قليل معد لأن يعلم لو وفقه الله.

(ومهما) أصلها عند الخليل (ماما) فبدلت الألف الأولى هاء، وقال سيبويه: هي (مه ما)

خلطتا، وهي حرف واحد، وقال غيره: معناها: (مه وما) جزاء، ذكره الزجاج، وهذه الآية تتضمن طغيانهم وعتوهم وقطعهم على أنفسهم بالكفر البحت.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ الآية. قال الأخفش: الطوفان: جمع طوفانة، وهذه عقوبات وأنواع من العذاب بعثها الله عليهم ليزدجروا ويُنبؤوا. والطوفان: مصدر من قولك: طاف يطوف فهو عام في كل شيء يطوف، إلا أن استعمال العرب له كثر في الماء والمطر الشديد، ومنه قول الشاعر:

غَيْرَ الْجَدَّةِ مِنْ آيَاتِهَا
خُرِقَ أَلْرِّيحِ وَطُوفَانُ الْمَطَرِ

ومنه قول أبي النجم:

قَدْ مَدَّ طُوفَانٌ قَبْتُ مَدَدَا
شَهْرًا شَأْسِيْبٍ وَشَهْرًا بَرْدَا

فَإِذَا جَاءَ تَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَبَرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا هُمَانَا تَأْيِيدُهُ مِنْ آيَةِ رَبِّنَا بِمَا فَخَمْنَا لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يُبْسُ أُنْجُ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيُنْزِلَ عَلَيْنَا مَاءً كَمَا نُنْزِلُ عَلَى الْبَرِّ بِآيَاتِهِ يَوْمَ نُفَصِّلُ الْوَعْدَ لَكَ وَلَقَدْ رَسَلْنَا مَعَكَ بُنَى إِبْرَاهِيمَ يَلِيكَ فَلَئِمَّا كَسَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذْ هُمْ يَسْكُثُونَ ﴿١٣٤﴾ فَانْقَسَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٥﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرَ بِهَا الَّذِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَوَدَّعْنَا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٦﴾ وَفَوَّضْنَا قُورَيْشَ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

١٦٦

وقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إن الطوفان في هذه الآية المطر الشديد أصابهم وتوالى عليهم حتى هدم بيوتهم وضيق عليهم. وقيل: طَمَ فيض النيل عليهم، وروي في كيفيته قصص كثير. وقالت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: (إن الطوفان المراد في هذه الآية هو الموت)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في بعض ما روي عنه: هو مصدر معى، غني به شيء أطفاه الله تبارك وتعالى بهم.

والجراد معروف، قال الأخفش: هو جمع جرادة للمذكر والمؤنث، فإن أردت الفصل قلت: رأيت جرادة ذكراً، وروي أن الله عز وجل لما والى عليهم المطر غرقت أرضهم ومنعوا الزراعة، فقالوا: يا موسى ادع في كشف هذا عنا ونحن نؤمن، فدعا

فدفعه الله عنهم فأثبتت الأرض إنباتاً حسناً، فطفغوا وقالوا: ما نود أنَّا لم نمطر، وما هذا إلا إحسان من الله إلينا، فبعث الله حينئذ الجراد فأكل جميع ما أنبتت الأرض، وروى ابن وهب عن مالك أنه روى أنه أكل أبوابهم وأكل الحديد والمسامير، وضيق عليهم غاية التضيق، وترك الله من نباتهم ما يقوم به الرمح فقالوا لموسى: ادع في كشف الجراد ونحن نؤمن، فدعا فكشف فرجعوا إلى كفرهم، ورأوا أن ما أقام رمقهم قد كفاهم، فبعث الله عليهم القمل وهي الذبى صغار الجراد الذي يشب ولا يطير، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: هو الحُمُتان وهو صغار القردان. وقيل: هو البراغيث، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: القمل: السوس الذي يخرج من الحنطة. وقيل: القمل: حيوان صغير جداً أسود، وأنه بأرض مصر حتى الآن، قال حبيب بن أبي ثابت: القمل: الجعلان، وقرأ الحسن: «القمل» بفتح القاف وسكون الميم، فهي - على هذا - بيئة، إذ هو القمل المعروف. وروى أن موسى مشى بعصاه إلى كتيب أهيل فضربه فانتشر كله قملاً في مصر، ثم إنهم قالوا: ادع في كشف هذا فدعا، ورجعوا إلى طغيانهم وكفرهم.

وبعث الله تبارك وتعالى عليهم الضفادع فكانت تدخل في فرشهم وبين ثيابهم، وإذا هم الرجل أن يتكلم وثب الضفدع في فمه. قال ابن جبير: كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، وقال ابن عباس

رضي الله عنهما: كانت الضفادع برية فلما أرسلت على آل فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف أنفسها في القدر وهي تغلي فأثابها الله بحسن طاعتها برزء الماء، فقالوا: ادع في كشف هذا فدعا فكشف فرجعوا إلى كفرهم وعتوهم فبعث الله عليهم الدم فرجع مأوهم الذي يستقونه ويحصل عندهم دماً، فروي أن الرجل منهم كان يستقي من البئر فإذا ارتفع إليه الدلو عاد دماً، وروي أنه كان يستقي القبطي والإسرائيلي بإناء واحد فإذا خرج الماء كان الذي يلي القبطي دماً والذي يلي الإسرائيلي ماءً، إلى نحو هذا وشبهه من العذاب بالدم المنقلب عن الماء، هذا قول جماعة المتأولين. وقال زيد بن أسلم: إنما سلط الله عليهم الرعاف فهذا معنى قوله تعالى: «وَالَّذِينَ».

وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ مُنْكَرَتِ» التفصيل أصله في الأجرام إزالة الاتصال، فهو تفريق شيئين، فإذا استعمل في المعاني فيراد أنه فرق بينها وأزيل اشتراكها وأشكالها، فيجئ من ذلك بيانها، وقالت فرقة من المفسرين: «مُنْكَرَتِ» يراد به مفرقات بالزمن، والمعنى أنه كان العذاب يرتفع ثم يبقون مدة - قيل: شهراً، وقيل: ثمانية أيام - ثم يرد الآخر، فالمراد أن هذه الأنواع من العذاب لم تجيء جملة ولا متصلة. ثم وصفهم الله عز وجل بالاستكبار عن الآيات والإيمان، وبأنهم كان لهم اجترام على الله تبارك وتعالى وعلى عباده.

﴿١٣٤﴾ - ﴿١٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الْزَّيْرُ﴾ العذاب، والظاهر من الآية أن المراد بالرجز العذاب المتقدم الذكر من الطوفان والجراد وغيره، وقال قوم من المفسرين: الإشارة هنا بالرجز إنما هي إلى طاعون أنزله فيهم فمات منهم في ليلة واحدة سبعون ألف قبطي، وروي في ذلك أن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل بأن يذبخوا كبشاً وُضْمُخُوا أبوابهم بالدم ليكون ذلك فرقاً بينهم وبين القبط في نزول العذاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وهذه الأخبار وما شاكلها إنما تؤخذ من كتب بني إسرائيل فلذلك ضعفت، وقولهم: ﴿يَمَّا عَهْدَ﴾ يريدون: بزمانك وماتتلك إليه، فهي تعم جميع الوسائل بين الله تبارك وتعالى وبين موسى من طاعة موسى ونعم من الله تبارك وتعالى. ويحتمل أن يكون ذلك منهم على جهة القسم على موسى، ويحتمل أن يكون المعنى: ادع لنا ربك مانئاً إليه بما عهد إليك، ويحتمل - إن كان شعر أن بين الله تعالى وبين موسى في أمرهم عهد ما - أن تكون الإشارة إليه. والأول أعم وألزم، والآخر يحتاج إلى رواية.

وقولهم: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ أَيَّ بَدْعَاتِكَ لَنُؤْمِنَنَّ﴾ «وَلَنُرْسِلَنَّ» قسم وجوابه، وهذا عهد من فرعون وملئه الذين إليهم الحل والعقد، ولهم ضمير الجمع في قوله: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾.

وَجَزَّاءٌ يَصِيبُ بِإِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى
أَسْنَانِهِمْ فَالْوَيْلُ لِمُوسَى أَجَعَلْنَا لِنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١٣٧﴾ إِنَّ مَثْوَاهُمْ فِيهِ وَبِطِلْ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾ قَالَ أَغَرَّ اللَّهُ أَيْبِيَكُمْ وَلِلَّهِ
وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِذْ أَجَبْتُمْ
مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ
آبَاءُكُمْ وَنِسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ
رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤٠﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً
وَأَتَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَتِمَّ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ إِذَا قَالَ
مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤١﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِثْقَلِنَا وَلَكُمُ
رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ نُنْظِرُ
إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا سَجَدَ
رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا فَلَمَّا أَفَاقَ
قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٢﴾

وقرأ أبو البرهشم، وأبو
حياة: ﴿يَنْكُثُونَ﴾ بكسر
الكاف، والثكث: نقض
ما أبرم، ويستعمل في
الأجسام وفي المعاني،
وقرأ ابن محيصن،
ومجاهد، وابن جبير:
﴿الرُّجْزُ﴾ بضم الراء في
جميع القرآن، قال
أبو حاتم: إلا أن ابن
محيصن كسر حرفين:
﴿رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾، و﴿الرِّجْزِ
فَاتَجِرْ﴾.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: رأما بمعنى
آخر بمثابة الرُّجْز والثثن
الذي يجب التطهر منه.

و﴿الْبَحْرُ﴾ البحر، ومنه قول
ذي الرمة:

دَوْنَهُ وَدَجَى لَيْلٍ كَأَنَّهُمَا
يَمُّ تَرَاطُنْ فِي حَافَاتِهِ الرُّومُ
والباء في قوله: ﴿يَأْتِيَهُمْ﴾ باء
التسبيب، ووصف الكفار بالغفلة -
وهم قد كذبوا وردوا في صدر
الآيات - من حيث غفلوا عما تضمنته
الآيات من الهدى والنجاة، فعن ذلك
غفلوا.

﴿١٣٧﴾ - تفسير قوله عز وجل:
قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانُوا
يُسْتَعْمَلُونَ﴾ كناية عن بني إسرائيل
لاستعباد فرعون لهم، وغلبته
عليهم. وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْرَفٌ
الْأَرْضِ وَمَكْرَهَا﴾ قال الحسن،
وقتادة، وغيرهما: يريد أرض الشام،
وقال أبو جعفر النحاس: «وقيل:
يراد أرض مصر وهو قول الحسن في

وألفاظ هذه الآية تعطي الفرق بين
القبط وبين بني إسرائيل في رسالة
موسى، لأنه لو كان إيمانهم به على
حد إيمان بني إسرائيل لما أرسلوا
بني إسرائيل ولا فارقوا دينهم، بل
كانوا يشاركون فيه بني إسرائيل.
وروي أنه لما انكشف العذاب قال
فرعون لموسى: اذهب ببني إسرائيل
حيث شئت فخالفه بعض ملته فرجع
فنكث. وأخبر الله عز وجل أنه لما
كشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم
الذي أعطوه موسى، و﴿إِذَا﴾ هاهنا
للمفاجأة، و﴿إِنَّ﴾ متعلقة
بـ﴿كَفَنَّا﴾، والأجل يراد به غاية
كل واحد منهم بما يخصه من الهلاك
والموت، هذا اللازم من اللفظ كما
تقول: أخذت كذا إلى وقت، وأنت
لا تريد وقتاً بعينه. وقال يحيى بن
سلام: الأجل هنا: الفرق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وإنما قال هذا القول لأنه رأى
جمهور هذه الطائفة قد اتفق أن
هلك غرقاً فاعتقد أن الإشارة هنا
بالأجل إنما هي إلى الغرق، وهذا
ليس بلازم لأنه لا بد أنه مات منهم
قبل الغرق عالمٌ وهم يمتن آخر
وكشف عنهم العذاب إلى أجل بلغه
ودخل في هذه الآية، فأين الغرق من
هؤلاء؟ وأين هو يمتن بقي بمصر
ولم يغرق؟

وذكر بعض الناس أن معنى
الكلام: فلما كشفنا عنهم الرجز
الموجل إلى أجل هم بالغوه إذا هم
ينكثون، ومحصل هذا التأويل أن
العذاب كان مؤجلاً، والمعنى الأول
أفصح لأنه تضمن توعداً ما.

كتاب النقاش». وقالت فرقة: يريد
الأرض كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا يتجه إما على المجاز لأنه
ملكهم بلاداً كثيرة، وإما على
الحقيقة في أنه ملك ذريتهم، وهو
سليمان بن داود عليهما السلام،
ولكن الذي يليق بمعنى الآية وروي
فيها هو أنه ملك أبناء المستضعفين
بأعيانهم مشارق الأرض ومغاريها
لا سيما بوصفه الأرض بأنها التي
بارك فيها، ولا يتصف بهذه الصفة
وينفرد بها أكثر من غيرها إلا أرض
الشام لما بها من الماء والشجر
والنعم والفوائد.

وحكى الطبري عن قائل لم يسته -
وذكر الزهراوي أنه الفراء - أن
﴿مُسْتَكْرَفٌ الْأَرْضِ وَمَكْرَهَا﴾ نصب
على الظرف، أي: يستضعفون في

مشارك الأرض ومغاريها، وأن قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَيْ بُرْكَتًا فِيهَا﴾ معمول لـ ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾. وضعفه الطبري، وكذلك هو قول غير متجه. و﴿أَلَيْ﴾ في موضع خفض نعت للأرض، ويجوز أن يكون في موضع نصب نعت لـ ﴿مَشْرِقٍ﴾ و﴿مَغَارِبٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْتَ كَلِمَتٌ رَبِّكَ الْخَسِيُّ﴾ أي ما سبق لهم في علمه وكلامه في الأزل من النجاة من عدوهم والظهور عليه، قاله مجاهد، وقال المهدوي: وهي قوله: ﴿وَرِيدٌ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ﴾، وقيل: هي قوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِزُّكُمْ﴾ الآية. وروي عن أبي عمرو: ﴿كلمات﴾.

و﴿يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: معناه: يَبْنُونَ، وعرش البيت: سَقْفُهُ، والعرش: البناء والتنزيد، وقال الحسن: هي في الكروم وما أشبهها، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بكسر الراء، وقرأ الباقون (ابن عامر، وعاصم فيما روي عنه، والحسن، وأبو رجاء، ومجاهد): بضمها، وكذلك في سورة النحل. وهما لغتان. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ و﴿يَعْكُفُونَ﴾ بضم الياء فيهما وفتح العين وتشديد الراء والكاف مكسورتين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورأيت الحسن البصري أنه احتج بقوله تعالى: ﴿وَكَمْتَ كَلِمَتٌ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية على أنه لا ينبغي أن

يُخرج على ملوك سوء، وإنما ينبغي أن يُصبر عليهم فإن الله تعالى يدمرهم، ورأيت لغيره أنه قال: إذا قابل الناس البلاء بمثله وكلهم الله إليه، وإذا قابلوه بالصبر وانتظار الفرج أتى الله بالفرج. وروي هذا القول أيضاً عن الحسن.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَجُوزْنَا﴾، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿وَجُوزْنَا﴾، ذكره أبو حاتم والمهدوي، والمعنى: قطعناه بهم وجزعناه، وهذه الآية ابتداء خبر عنهم، قال النقاش: جاوزوا البحر يوم عاشوراء، وأعطى موسى التوراة يوم النحر القابل، فبين الأمرين أحد عشر شهراً، وروي أن قطعهم كان من ضفة البحر إلى الضفة المتأخرة للأولى، وروي أنه قطع من الضفة إلى موضع آخر منها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فلما أن يكون ذلك بوحي من الله وأمر لينفذ أمره في فرعون وقومه، وهذا هو الظاهر، وإما بحسب اجتهاد موسى في التخلص بأن يكون بين موضعين أوعار وحالات، ووقع في كتاب النقاش أنه نيل مصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خطأ لا تساعد رواية، ولا يحتمله لفظ إلا على تحامل، وإنما هو بحر القلزم. والقوم المشار إليهم في الآية العرب، وقيل: هم الكنعانيون، وقال قتادة وأبو عمرو الجوني: هم قوم من لخم وجذام. والقوم في الكلام: الرجال خاصة، ومنه قول زهير:

وَلَا أَذْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَذْرِي
أَقْسُومُ آلَ جَضْنٍ أَمْ بَسَاءٍ
ومنه قوله عز وجل: ﴿لَا يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾، ﴿وَلَا بَسَاءٌ مِنْ بَسَاءٍ﴾.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿يَعْكُفُونَ﴾ بضم الكاف. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو في رواية عبد الوارث عنه: ﴿يَعْكُفُونَ﴾ بكسرهما، وهما لغتان. والعكوف: الملازمة بالشخص لأمر ما، والإكباب عليه، ومنه الاعتكاف في المساجد، ومنه قول الرازي:

عَكَفَ النَّبِيَّ يَلْعَبُونَ الْقَرْجَا
والأصنام في هذه الآية قيل: كانت بقرأ على الحقيقة، وقال ابن جريج: كانت تماثيل بقر من حجارة وعيدان ونحوه، وذلك كان أول فتنة العجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أنهم استحسنوا ما رأوه من آلهة أولئك القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يُتقرب به إلى الله، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى: اجعل لنا صنماً نفرد بالعبادة ونكفر بربك. فعرفهم موسى عليه السلام أن هذا جهل منهم إذ سألوا أمراً حراماً فيه الإشراك في العبادة، ومنه يتطرق إلى أفراد الأصنام بالعبادة والكفر بالله عز وجل. وعلى هذا الذي قلت يقع التشابه الذي قصه النبي ﷺ في قول أبي واقد الليثي له في غزوة حنين إذ مروا على دوح سدره خضراء

عظيمة: اجعل لنا يا رسول الله ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، وكانت ذات أنواط سزحة لبعض المشركين يعلقون بها أسلحتهم، ولها يوم يجتمعون إليها فيه، فأراد أبو واقد وغيره أن يشرع ذلك رسول الله ﷺ في الإسلام، فرأى رسول الله ﷺ أنها ذريعة إلى عبادة تلك السزحة فأنكره وقال: «الله أكبر، قلتم والله كما قالت بنو إسرائيل: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا كَانَ آلِهَةٌ﴾، لتتبعن سنن من قبلكم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يقصد أبو واقد بمقالته فساداً. وقال بعض الناس: كان ذلك من بني إسرائيل كفراً، ولفظه (الإله) تقتضي ذلك، وهذا محتمل، وما ذكرته أولاً أصح عندي، والله تعالى أعلم.

﴿١٣٩﴾ - ﴿١٤٠﴾ تفسير قوله عز وجل: أعلمهم موسى عن الله عز وجل بفساد حال أولئك القوم ليزول ما استحسنته من حالهم فقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى أولئك القوم، ﴿مُتَّبِعُونَ﴾ أي مهلك مدمر رديء العاقبة، قاله السدي، وابن زيد. والتبار: الهلاك وسوء العقبى، وإناء متبر أي مكسور وكسارته تبر، ومنه تبر الذهب لأنه كساره، وقوله: ﴿ثُمَّ فِيهِ﴾ لفظ يعُمُّ جميع حالهم، ﴿وَيُطْلَقُ﴾ معناه: فاسد ذاهب مضمحل.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَعْيَزَ اللَّهُ﴾ الآية. أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يوقفهم ويقرهم على هذه المقالة، ويحتمل أن يكون القول من تلقائه عليه السلام، و﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾

معناه: أطلب لكم، من بَغَيْتَ الشيء إذا طلبته، و﴿عَيَّرَ﴾ منصوبة بفعل مضمر، هذا هو الظاهر، ويحتمل أن ينتصب على الحال، كأن تقدير الكلام: قال أنبئكم إلهاً غير الله؟ فهي في مكان الصفة، فلما قدمت نصبت على الحال. و﴿الْكَلْبِيتِ﴾ لفظ عام يراد به تخصيص عالم زمانهم، لأن أمة محمد ﷺ أفضل منهم بإجماع، ولقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، اللهم إلا أن يراد بالفضل كثرة الأنبياء منهم فإنهم فضلوا في ذلك على العالمين بالإطلاق.

ثم عدد عليهم في هذه الآية التَّعَمُّ التي يجب من أجلها ألا يكفروا به ولا يرغبوا عبادة غيره. وقرأت فرقة: ﴿نَجِّينَاكُمْ﴾، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ وقد تقدم، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَإِذْ أَنْجَاكُمْ﴾ أي: أنجاكم الله، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام، و﴿يَسْؤُونَكُمْ﴾ معناه: يحملونكم ويكلفونكم، تقول: سامة خطة خسف، ونحو هذا، ومساومة البيع ينظر إلى هذا وأن كل واحد من المتساومين يكلف صاحبه إرادته، ثم فسّر سوء العذاب بقوله: ﴿يُقْتَلُونَ﴾ - ﴿يَسْتَحْيَوْنَ﴾ و﴿يَكْلَأُونَ﴾ - في هذا الموضع - معناه: اختبار وامتحان، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى سوء العذاب، ويحتمل أن يشير إلى التنجية، فكأنه قال: وفي تَنْجِيَّتِكُمْ امتحان لكم واختبار، هل يكون منكم وفاء بحسب النعمة؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتأويل الأول أظهر.

وقالت فرقة: هذه الآيات خاطب بها موسى من حضره من بني إسرائيل. وقال الطبري: بل خاطب بهذه الآية من كان على عهد محمد ﷺ تقريباً لهم بما فعل بأوائهم وبما جازوا به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أظهر وأبين.

﴿١٣٩﴾ - ﴿١٤٠﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأ أبو عمرو، وأبي بن كعب، وأبو رجاء، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿وَوَعَدْنَا﴾، وقد تقدم في البقرة، وأخبر الله تعالى موسى عليه السلام بأن يتبهاً لمناجاته ثلاثين ليلة ثم زاده في الأجل بعد ذلك عشر ليال، فذكر أن موسى عليه السلام أعلم بني إسرائيل بمغيبه ثلاثين ليلة، فلما زاده القشّر في حال مغيبه دون أن تعلم بنو إسرائيل ذلك وجست نفوسهم للزيادة على ما أخبرهم به، فقال لهم السامري: إن موسى قد هلك وليس يرجع وأضلهم بالعجل فأتبعوه، قاله كله ابن جريج. وقيل: بل أخبرهم بمغيبه أربعين، وكذلك أعلمه الله تبارك وتعالى، وهو المراد بهذه الآية، قاله الحسن. وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَصَبَّامُ تَلَوَّى آيَاتِ فِي لُحْجٍ وَبَعِيَّةٍ إِذَا رَجَعْتَ إِلَيْكَ عَتَرَةٌ كَالْمِلَّةِ﴾، وأنهم عدوا الأيام والليالي فلما تم أربعون من الدهر قالوا: قد أخلف موسى فضلوا، قال مجاهد: إن الثلاثين هي شهر ذي القعدة، وإن العشر هي عشر ذي الحجة، وقاله ابن عباس، ومسروق، وروي أن الثلاثين إنما

وعد بأن يصومها ويتبها فيها للمناجاة ويستعد، وأن مدة المناجاة هي العشر، وقيل: بل مدة المناجاة الأربعون، وإقبال موسى على الأمر والتزامه يُحَسِّن لفظ المواعدة، وحيث ورد أن المواعدة أربعون ليلة فذلك إخبارٌ بجملته الأمر، وهو في هذه الآية إخبار بتفصيله كيف وقع. ﴿وَأَرْبَعِينَ﴾ في هذه الآية وما بعدها في موضع الحال، ويصح أن تكون ﴿أَرْبَعِينَ﴾ ظرفاً من حيث هي عدد أزمنة. وفي مصحف أبي بن كعب ﴿وَوَثَّمْنَاهَا﴾ بغير ألف ويشديد الميم، وذكر الزجاج عن بعضهم قال: لما صام ثلاثين يوماً أنكر خلوف فمه فاستاك بعود خروب، فقالت الملائكة: إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فزبدت عليه عشر ليال، و﴿تَلَيَّيْتُ﴾ نصب على تقدير: أجلناه ثلاثين، أو مناجاة ثلاثين، وليست منتصبة على الظرف لأن المواعدة لم تقع في الثلاثين، ثم ردد الأمر بقوله سبحانه: ﴿فَتَمَّ يَمَّتْ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، قيل: ليبين أن العشر لم تكن ساعات، وبالجملته تأكيد وإيضاح.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ﴾ الآية. المعنى: وقال موسى حين أراد المضي للمناجاة والمغيب فيها، و﴿أَخْلَقَ﴾ معناه: كن خليفتي، وهذا استخلاف في حياة كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكل أو موته ولا يقتضي أنه متماد بعد وفاة، فينحل - على هذا - ما تعلق به الإمامية في قولهم: إن النبي ﷺ

استخلف علياً بقوله: «أنت مني كهارون من موسى»، وقال موسى: اخلفني فيترتب على هذا أن علياً خليفة رسول الله ﷺ. وما ذكرناه يحل هذا القياس.

وأمره في هذه الآية بالإصلاح، ثم من الطريق الآخر في ألا يتبع سبيل مفسد. قال ابن جريج: كان من الإصلاح أن يزجر السامري ويغير عليه.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء إلى الموضع الذي حُذِّدَ له، وفي الوقت الذي عُيِّنَ له، وكلمه ربه قال تَمَيَّاً منه: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿أَرِنِي﴾ بكسر الراء، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿أَرِنِي﴾ بسكون الراء.

والمعنى في قوله تعالى: ﴿كَلَّمَ﴾ أي: خلق له إدراكاً سمع به الكلام القائم بالذات القديم الذي هو صفة ذات. وقال ابن عباس، وابن جبير: أدنى الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام حتى سمع صريف الأقدام في اللوح، وكلام الله عز وجل لا يشبه شيئاً من الكلام الذي للمخلوقين ولا في جهة من الجهات، كما هو موجود لا كالموجودات، ومعلوم لا كالمعلومات، كذلك كلامه لا يشبه الكلام الذي فيه علامات الحدوث. والواو عاطفة ﴿كَلَّمَ﴾ على ﴿جَاءَ﴾، ويحتمل أن تكون واو الحال، والأول أئين. وقال وهب بن منبه: كلم الله موسى في ألف مقام، كان يرى نور على وجهه ثلاثة أيام إثر كل مقام، وما قرب موسى النساء

مذ كلمه الله تعالى. وجواب ﴿لَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾، والمعنى أنه لما كلمه وخصه بهذه المرتبة طمحت همته إلى رتبة الرؤية وتشوق إلى ذلك فسأل ربه أن يريه نفسه، قاله السدي، وأبو بكر الهذلي، وقال الربيع: قربناه نجياً حتى سمع صريف الأقدام.

ورؤية الله عز وجل عند الأشعرية وأهل السنة جائزة عقلاً، لأنه من حيث هو موجود تصح رؤيته، قالوا: لأن الرؤية للشيء لا تتعلق بصفة من صفاته أكثر من الوجود، إلا أن الشريعة قررت رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة نصاً، ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر من الشرع، فموسى عليه السلام لم يسأل ربه محالاً وإنما سأل جائزاً.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الآية. ليس بجواب من سأل محالاً، وقد قال تبارك وتعالى لنوح: ﴿فَلَا تَتْلِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّهُ أَطَّلَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْهَاسِلِينَ﴾، فلو سأل موسى محالاً لكان في الكلام زجرٌ ما وتبيين. وقوله عز وجل: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ نص من الله تعالى على منعه الرؤية في الدنيا، و﴿لَنْ﴾ تنفي الفعل المستقبل، ولو بقينا مع هذا النفي بمجرد لقضينا أنه لا يراه موسى أبداً ولا في الآخرة، لكن ورد من جهة أخرى بالحديث المتواتر أن أهل الإيمان يرون الله تعالى يوم القيامة، فموسى عليه السلام أخرى برؤيته. وقال مجاهد وغيره: إن الله عز وجل قال لموسى: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ ولكن سأتلجلى

للجبل الذي هو أقوى منك وأشد
فإن استقر وأطاق الصبر لِهَيْبَتِي
فستمكنك أنت رؤيتي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فعلى هذا إنما جعل الله الجبل مثلاً
وقالت فرقة: إنما المعنى: سأبدي
لك على الجبل فإن استقر لعظمتي
فسوف تراني، وروي في كيفية
وقوف موسى وانتظاره الرؤية قصص
طويل اختصرته لبعده ولكثرة مواضع
الاعتراض فيه.

١٤٣ - ١٤٥ تفسير قوله عز وجل:

قال المتأولون كالقاضي الباقلاني وغيره: «إن الله عز وجل خلق للجبل حياة وحساً وإدراكاً يرى به ثم تجلى له، أي ظهر وبدأ سلطانه، فاندك الجبل لشدة المطلع، فلما رأى موسى ما بالجبل صعق»، وهذا المعنى هو المروي عن ابن عباس. وأسند الطبري عن حماد بن زيد عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ رَئَاهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ كَكَاً﴾ قال: فوضع الإبهام قريباً من خنصره، قال: فساخ الجبل، فقال حميد لثابت: تقول هذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدره وقال: يقول رسول الله ﷺ ويقولوه أنس وأكتمه أنا؟

وقالت فرقة: المعنى: فلما تجلى الله للجبل بقدرته وسلطانه اندك الجبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا التأويل يتمسك به المعتزلة
تمسكاً شديداً لقولهم: إن رؤية الله
عزَّ وجلَّ غير جائزة، وقائله من أهل

السُّتَّةَ إِنَّمَا يَقُولُهُ مَعَ اعْتِقَادِهِ
بِجَوَازِ الرُّؤْيَا، وَلَكِنَّهُ
يَقُولُ: إِنَّهُ أَلْيَقُ بِالْأَفَافِ
الْآيَةِ مِنْ أَنْ تَحْمِلَ الْآيَةَ
أَنَّ الْجَبَلَ خُلِقَ لَهُ إِدْرَاكُ
وَحَيَاةٍ، وَقَالَ الزَّجَاجُ: مِنْ
قَالَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ: «فَلَمَّا
تَجَلَّى أَمْرُ رَبِّهِ» فَقَدْ أَخْطَأَ،
وَلَا يَعْرِفُ أَهْلُ اللُّغَةِ
ذَلِكَ. وَرَدَّ أَبُو عَلِيٍّ فِي
«الْأَغْفَالِ» عَلَيْهِ.

وَالَّذُكُ: الْإِنْسَاقُ
وَالْتَفَّتْ. وَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ،
وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَأَنَسُ بْنُ
مَالِكٍ، وَالْحَسَنُ، وَأَبُو
جَعْفَرٍ، وَشَيْبَةُ، وَمَجَاهِدٌ،
وَابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو،

ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿ذَكَاءٌ﴾. وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عباس، والربيع بن خيثم، وغيرهم: ﴿ذُكَّاءٌ﴾ على وزن حمراء، والدُّكَّاءُ: الناقة التي لا سنام لها، فالمعنى: جعله أرضاً ذكاء تشبيهاً بالناقة. فروي أنه ذهب الجبل برمته، وقيل: ذهب أعلاه وبقي أكثره، وروي أن الجبل تفتت وانسحق حتى صار غباراً تذرره الرياح، وقال سفيان: روي أنه ساخ في الأرض وأفضى إلى البحر الذي تحت الأرضين. قال ابن الكلبي: فهو يهوي فيه إلى يوم القيامة، وروي أنه انكسر ست فرق، فوقعت منها ثلاث بمكة: ثبير، وغار ثور، وحرراء، وثلاث بالمدينة: أحد، وورقان، ورضوى، قاله النقاش. وقال أبو بكر الهذلي: ساخ

قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلْمِي
فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٠٨﴾ وَكُنْتَنَا
لَهْدَىٰ إِلَى الْأَوَّلِينَ مِنْ كُلِّ فُتُوٍّ مَوْعُظَةً وَنَفْصِيلًا لِّكُلِّ
شَيْءٍ وَفَخُذْ هَاقِوَةً وَأَنْشُرْ قَوْمَكَ بِأَخْسِنَهَا سَأُورِيكَ
دَارَ الْفَنَاقِينَ ﴿١٠٩﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّامِي لَا يُؤْمِنُوا
بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا
سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١١٠﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْيُنُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١١١﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَنِيهِمْ
عِبِلًا جَسَدَ الْفُحَّارِ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَمْثَلًا إِلَيْكُم مَّوَدَّعِيهِمْ
سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١١٢﴾ وَلَمَّا سَقَطَ
فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَغْفِرَ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١١٣﴾

في الأرض فلا يظهر إلى يوم
القيامة.

و﴿صِفَاءً﴾ معناه: مغشياً عليه كحال من تصيبه الصعقة وهي الصيحة المفرطة، قال الخليل: وهي الوقع الشديد من صوت الرعد، قاله ابن زيد وجماعة من المفسرين. وقال قتادة: كان موتاً، قال الزجاج: وهو ضعيف، ولفظة ﴿أَنَّا﴾ تقتضي غير هذا، وقوله: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك، كذا فسرهُ النبي ﷺ، وقوله: ﴿بَبْتُ إِلَيْكَ﴾ معناه: من أن أسألك الرؤية في الدنيا وأنت لا تبيحها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
ويحتمل عندي أنه لفظ قاله عليه
السلام لشدة هول ما اطلع، ولم يعن
به التوبة من شيء معين، ولكنه لفظ
يصلح لذلك المقام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يتحرز منه أهل السُّنة أن تكون توبة من سؤال المحال كما زعمت المعتزلة.

وقرأ نافع: ﴿وَأَنَا﴾ بإثبات الألف في الإدراج، قاله الزهراوي، والأولى حذفها في الإدراج، وإثباتها لغة شاذة خارجة عن القياس. وقوله: ﴿أَوَّلٌ﴾ إما أن يريد: من قومه بني إسرائيل، وهو قول ابن عباس ومجاهد، أو من أهل زمانه إن كان الكفر قد طبق الاتفاق، وإما أن يريد أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا، قاله أبو العالية.

ثم إن الله تعالى قرز موسى على آلائه عنده على جهة الإخبار وقطعه بها وأمره بالشكر عليها، وكأنه قال: ولا تتعدها إلى غيرها. واصطفى أصله: اصطفى، وهو افتعل من صفا يصفو انقلب التاء طاءً لمكان الصاد، ومعناه: تخيّرتك وخصصتك، ولا تستعمل إلا في الخير والمنن، لا يقال: اصطفاه لِسُرٍّ، وقوله تعالى: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ عام والمراد الخصوص فيمن شارك موسى في الإرسال، فإن الأنبياء المرسلين كلهم مشاركون له بما هم رسل، والظاهر من الشريعة أن موسى مخصص بالكلام وإن كان قد روي في تكليم الله غيره أشياء بما يشاء، من أعظمها أن رسول الله ﷺ سئل عن آدم فقال: «هو نبي مكلم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إلا أن ذلك قد تزول بأنه كان في الجنة فيتحفظ - على هذا - تخصيص موسى. ويصح أن يكون قوله: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ عموماً مطلقاً في مجموع الدرجتين: الرسالة والكلام. وقرأ

حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿بِرِسَالَتِي﴾ على الجمع، إذ الذي أرسل به ضرروب، وقرأ ابن كثير، ونافع، ﴿بِرِسَالَتِي﴾ على الأفراد الذي يراد به الجمع، وتحل الرسالة هاهنا محل المصدر الذي هو الإرسال. وقرأ جمهور الناس: ﴿رِسَالَتِي﴾، وقرأ أبو رجاء: ﴿بِرِسَالَتِي وَيَكْلِمِي﴾، وقرأ الأعمش: ﴿بِرِسَالَتِي وَيَكْلِمِي﴾، وحكى عنه المهدوي: ﴿وَتَكْلِمِي﴾ على وزن تفعيلي. وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ مَا آتَيْنَكَ وَكَانَ مِنْكَ الشُّكْرُ﴾ تأديب وتفتيح وحمل على جادة السلامة، ومثال لكل أحد في حاله، فإن جميع النعم من عنده بمقدار، وكل الأمور بمراى من الله ومسمع.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ﴾ الآية. الضمير في ﴿لَهُ﴾ عائد على موسى عليه السلام، والألف واللام في ﴿الْأَلْوَابِ﴾ عوض من الضمير الذي يقدر وصلة بين ﴿الْأَلْوَابِ﴾ و(موسى) عليه السلام، تقديره: في ألواح، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الْخِزْيَةَ هِيَ الْتَاوِيلُ﴾ أي: مأواه. وقيل: كانت الألواح اثنين، وقيل: سبعة، وقال مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما: كانت الألواح من زمرّد، وقال ابن جبير: من ياقوت أحمر، وقال أبو العالية أيضاً: من بَرَد، وقال الحسن: من خشب، وقوله: ﴿بَيْنَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لفظه عموم، والمراد به كل شيء ينفع في معنى الشرع ويحتاج إليه في المصلحة، وقوله: ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾

مثله، قال ابن جبير: ما أمروا به ونهوا عنه، وقاله مجاهد، وقال السدي: الحلال والحرام. وقوله: ﴿يَقْوَرُ﴾ معناه: يجذّ وصبر عليها واحتمال لمؤنتها، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والسدي، وقال الربيع بن أنس: ﴿يَقْوَرُ﴾ هنا: بطاعة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشدّ مما أمر به قومه، وخذّ أصله: أُوخذ، حذف الهزمة التي هي فاء الفعل على غير قياس فاستغني عن الأول، وقوله: ﴿يَأْخُذُهَا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما التفضيل، كأنه قال: إذا اعترض فيها مباحان فيأخذون الأحسن منهما كالعفو والقصاص، والصبر والانتصار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا على القول أن أفعال التفضيل لا يقال إلا لما لهما اشتراك في المفضل فيه. وأما على القول الآخر فقد يراد بالأحسن المأمور به بالإضافة للمنهى عنه لأنه أحسن منه، وذلك كالتناسخ بالنسبة للمنسوخ ونحو هذا. وذهب إلى هذا المعنى الطبري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويؤيد هذا التأويل أنه تدخل فيه الفرائض وهي لا تدخل في التأويل الأول، وقد يمكن أن يتصور اشتراك في حُسن من المأمور به والمنهى عنه ولو بحسب الملاذ وشهوات النفس الأمانة. والمعنى الآخر الذي يحتمله قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُهَا﴾ أن يريد (بأحسن) وصف الشريعة بجملتها، فكأنه قال: قد جعلنا لكم شريعة هي

أحسن، كما تقول: «الله أكبر» دون مقايسة، ثم قال: فمرهم يأخذوا بأحسنها الذي شرعناه لهم، وفي هذا التأويل اعتراضات.

وقرأ جمهور الناس: ﴿سَأُورِيكُمْ﴾، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿سَأُورِيكُمْ﴾، قال أبو الفتح: ظاهر هذه القراءة مردود وهو أبو سعيد المأثور فصاحته. فوجهها أن المراد (أريكم) ثم أضيفت ضمة الهمزة ومُطِلَّتْ حتى نشأت عنها واو، ويحسن احتمال الواو في هذا الموضع أنه موضع وعيد وإغلاظ فمكن الصوت فيه. وقرأ قسامة ابن زهير: ﴿سَأُورِيكُمْ﴾، قاله أبو حاتم، ونسبها المهدوي إلى ابن عباس رضي الله عنهما. وثبت الواو في خط المصحف فلذلك أشكل هذا الاختلاف مع أننا لا نتأول إلا أنها مرويات. فأما من قرأها: ﴿سَأُورِيكُمْ﴾ فالمعنى عنده: سأعرض عليكم وأجعلكم تحسبون لتعتبروا حال دار الفاسقين. والرؤية هنا رؤية العينين إلا أن المعنى يتضمن الوعد للمؤمنين والوعيد للفاسقين. ويدل على أنها رؤية العين تعدي فعلها، وقد عُدِي بالهمزة إلى مفعولين، ولو كان من رؤية القلب لتعدي بالهمزة إلى ثلاثة مفاعيل، ولو قال قائل: المفعول الثالث يتضمنه المعنى فهو مقدر، أي: مُدْمِرَةٌ أَوْ خَرِبَةٌ أَوْ مُسْعَرَةٌ - على قول من قال: هي جهنم - قيل له: ولا يُجَوِّزُ حذف هذا المفعول والاقترار بدونه أنها داخلة على المبتدئ والخبر، ولو

جَوِّزَ لكان على قبح في اللسان لا يليق بكتاب الله عز وجل.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومقاتل، وقتادة في كتاب النقاش: دار الفاسقين مصر، والمراد آل فرعون. وقال قتادة أيضاً: دار الفاسقين الشام، والمراد العمالة الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم، وقال مجاهد والحسن: دار الفاسقين جهنم، والمراد الكفرة بموسى عامة، وقال النقاش عن الكلبي: دار الفاسقين دور ثمود وعاد والأمم الخالية، أي: سنقصها عليكم فترونها.

تفسير قوله عز وجل: المعنى: سأمنع وأصد، وقال سفيان بن عيينة: الآيات هنا كل كتاب منزل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالمعنى: عن فهمها وتصديقها. وقال ابن جريج: الآيات: العلامات المنصوبة الدالة على الوجدانية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالمعنى: عن النظر فيها والتفكير والاستدلال بها. واللفظ يعم الوجوهين.

والمتكبرون بغير حق في الأرض هم الكفرة، والمعنى في هذه الآية: سأجعل الصرف عن الآيات عقوبة للمتكبرين على تكبرهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُفْرًا لَا يَقُولُوا﴾ يَبْأُ حَتَمَ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الطائفة التي قدر ألا يؤمنوا. وقراءة الجمهور: ﴿يَرَوْا﴾ بفتح الياء، قرأها ابن كثير، وعاصم، ونافع، وأبو جعفر، وشيبة، وشبل، وابن وثاب،

وطلحة بن مصرف، وسائر السبعة، وقرأها مضمومة الياء مالك بن دينار.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿الرُّشْدُ﴾، وقرأ ابن عامر - في بعض ما روي عنه - وأبو الرهشم: ﴿الرُّشْدُ﴾ بضم الراء والشين، وقرأ حمزة، والكسائي على أن ﴿الرُّشْدُ﴾ بضم الراء وسكون الشين، و﴿الرُّشْدُ﴾ بفتحهما بمعنى واحد، وقال أبو عمرو بن العلاء: الرُّشْدُ بضم الراء: الصلاح في النظر، والرُّشْدُ بفتحهما: الدين، وأما قراءة ابن عامر بضمهما فأتبعت الضمة الضمة.

وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿لَا يَتَّخِذُوهَا﴾ و﴿يَتَّخِذُوهَا﴾ على تأنيث السبيل. والسبيل تَوْثٌ وتَذَكُّرٌ، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الصرف، أي صَرَفْنَا إِيَّاهُمْ وَعَقِبْنَا لَهُمْ هِيَ بكفرهم وتكذيبهم وغفلتهم عن النظر في الآيات والوقوف عند الحجج، ويحتمل أن يكون ﴿ذَلِكَ﴾ خبر ابتداء تقديره: الأمر ذلك، ويحتمل أن يكون في موضع نصب بفعل تقديره: فعلنا ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِكَ الْآخِرَةُ﴾ الآية. هذه الآية مؤكدة للتي قبلها، وسوقها في جملة المكذب به. ولقاء الآخرة لفظ يتضمن تهديداً، أي: هنالك يفتضح لهم حالهم. و﴿حِطَّتْ﴾ معناه: سقطت وفسدت، وأصل الحبط فيما تقدم صلاحه، ولكنه قد يستعمل في الذي كان من أول أمره فاسداً، إذ مآل العاملين واحد.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ استفهام بمعنى التقرير، أي: يستوجبون بسوء فعلهم العقوبة، وساغ أن يستعمل ﴿حَبِطَتْ﴾ هنا إذ كانت أعمالهم في معتقداتهم جارية في طريق صلاح، فكأن الحبط فيها إنما هو بحسب معتقداتهم، وأما بحسب ما هي عليه في أنفسها ففاسدة منذ أول أمرها، ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ: «إِنْ مِمَّا يَنْبَغُ الرِّبْعُ مَا يَقْتُلُ حَبِطًا أَوْ يَلْمُ، أَيْ فساداً لكثرة الأكل بعد الصلاح الذي كان أولاً، وقرأ ابن عباس، وأبو السمال: ﴿حَبِطَتْ﴾ بفتح الباء.

﴿١٤٨﴾ - ﴿١٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

اتَّخَذَ أصله: إِيْتَّخَذَ، وزنه افتعل، من تَجَذَّ. هذا قول أبي علي الفارسي. والضمير في ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ عائذ على موسى، أي بعد مضيه إلى المناجاة، وأضاف الحلبي إلى بني إسرائيل وإن كان مستعاراً من القبط - إذ كانوا قد تملكوه - إما بأن نفلوه كما روي، وحكى يحيى بن سلام عن الحسن أنه قال: استعار بنو إسرائيل حلبي القبط ليوم الزينة، فلما أمر موسى أن يسري بهم ليلاً تعذر عليهم رد العواري، وأيضاً فخشوا أن يفتضح سرهم، ثم إن الله نفلهم إياه، ويحتمل أن يضاف الحلبي إلى بني إسرائيل من حيث تصرف أيديهم فيه بعد غزو آل فرعون.

ويروى أن السامري - واسمه موسى بن ظفر وينسب إلى قرية

تسمى سامرة - قال لهارون حين ذهب موسى إلى المناجاة: يا هارون إن بني إسرائيل قد بددوا الحلبي الذي استعير من القبط وتصرفوا فيه وأنفقوا منه، فلو جمعته حتى يرى موسى فيه رأيه، قال: فجمعهم هارون، فلما اجتمع قال للسامري: أنت أولى الناس بأن يختزن عندك، فأخذه السامري - وكان صائغاً - فصاغ منه صورة عجل، وهو ولد البقرة. ﴿جَسَدًا﴾ أي جثة وجماداً، وقيل: كان جسداً بلا رأس. وهذا تعلق بأن الجسد في اللغة ما عدا الرأس، وقيل: إن الله جعل له لحماً ودماً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأن الآثار في أن موسى بَرَدَهُ بالمبارد تكذب ذلك.

والخوار: صوت البقر، ويروى أن هذا العجل إنما خار مرة واحدة، وذلك بحيلة صناعية من السامري أو بسحر تركب له من قبضة القبضة من أثر الرسول، أو بأن الله أثار العجل لفتن بني إسرائيل. وقرأت فرقة: ﴿لَهُ جُورًا﴾ بالجيم وهو الصياح، قال أبو حاتم: وشدة الصوت. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وأبو عمرو، والحسن، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ بضم الحاء وكسر اللام، وهو جمع حلبي - على مثال ثذني وثذيتي، وأصله: حُلُوي، قلبت الواو ياءً وأدغمت فجاء (حُلُوي) فكسرت اللام لتناسب الياء، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ بكسر الحاء على ما قدمنا

من التعليل، قال أبو حاتم: إلا أنهم كسروا الحاء إتباعاً لكسرة اللام، قال أبو علي: وقوي التغيير الذي دخل على الجمع على هذا التغير الأخير، قال: ومما يؤكد كسر الحاء في هذا النحو من الجمع قولهم: قَبِيٌّ، قال أبو حاتم: وقرأ هكذا يحيى بن وثاب، وطلحة، والأعمش، وأصحاب عبدالله. وقرأ يعقوب الحضرمي: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ بفتح الحاء وسكون اللام، فإما أن يكون مفرداً يراد به الجمع، وإما أن يكون جمع جلبي كَثُفَرَةٍ وَثَمَرٍ. ومعنى الحلبي: ما يُتَجَمَّلُ به من حجارة وذهب وفضة.

ثم بين الله تعالى سوء فطرتهم وقرر فساد اعتقادهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَهُمْ﴾ الآية. وذلك أن الصامت الجمد لا يتصف بالألوهية، والذي لا يرشد إلى خير ولا يكشف غمماً كذلك. والضمير في ﴿اتَّخَذُوا﴾ عائذ على العجل. وقوله: ﴿وَكَاثُرًا﴾ إخبار لنا عن جميع أحوالهم ماضياً وحالاً ومستقبلاً، ويحتمل أن تكون الواو واو حال، وقد مر في سورة البقرة سبب اتخاذ العجل وبسط تلك الحال بما أغنى عن إعادته هنا.

وقرأ جمهور الناس بكسر القاف وضم السين: ﴿سُقِطَ فِتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وقرأت فرقة: ﴿سَقَطَ﴾ بفتح السين والقاف، حكاه الزجاج، وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿أَسْقَطَ﴾ وهي لغة حكاها الطبري بالهمزة المضمومة وسين ساكنة، والعرب تقول لمن كان ساعياً لوجه أو طالباً غاية ما

فعرض له ما غلبه وصدّه عن وجهته وأوقفه موقف العجز عن بغيته، وتيقن أنه قد عجز: سقط في يد فلان، وقال أبو عبيدة: يقال لمن أعدم على أمر وعجز عنه: سقط في يده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والندم عندي عرض يعرض لصاحب هذه الحال، وقد لا يعرض له، فليس الندم بأصل في هذا، أما إن أكثر أصحاب هذه الحال يصحبهم الندم، وكذلك صحب بني إسرائيل المذكورين في الآية، والوجه الذي يصل بين هذه الألفاظ وبين المعنى الذي ذكرناه هو أن السعي أو الصرف أو الدفاع سقط في يد المشار إليه فصار في يده لا يجاوزها ولا يكون له خارجها تأثير. وقال الزجاج: المعنى أن الندم سقط في أيديهم، ويحتمل أن الخسران والخيبة سقط في أيديهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا كله يلزم أن يكون «سَقَطَ» يتعدى، فإن «سَقَطَ» يتضمن مفعولاً وهو هنا المصدر الذي هو الإسقاط، كما يقال: ذهب بزيد، وفي هذا عندي نظر.

وأما قراءة من قرأ: «سَقَطَ» على بناء الفعل للمفاعل، أو «أَسْقَطَ» على التعدية بالهمزة فينبى الاستغناء عن التعدى. ويحتمل أن يقال: «سقط في يديه» على معنى التشبيه بالأسير الذي تكتف يده، فكان صاحب هذه الحال يستأسر، ويقع ظهور الغلبة عليه

في يده، أو كأن المراد سقط بالغلب والقهر في يده، وحدثت عن أبي مروان بن سراج أنه كان يقول: قول العرب «سقط في يده» مما أعيناني معناه، وقال الجرجاني: هذا مما دثر استعماله مثل ما دثر استعمال قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ عَادَاتِهِمُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا الكلام ضعف، والسقاط في كلام العرب كثرة الخطأ والندم عليه، ومنه قول سويد بن أبي كاهل:

كَيْفَ يَرْجُونَ سِقَاطِي بَعْدَمَا
لَقِيَ الرَّأْسَ مَشِيبَ وَضَلَعٍ؟

وقول بني إسرائيل: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ إنما كان بعد رجوع موسى وتغيّره عليهم، ورؤيتهم أنهم قد خرجوا على الدين ووقعوا في الكفر. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، والحسن، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة بن نصاح، ومجاهد وغيرهم: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بالياء في «تَرْحَمْنَا» وإسناد الفعل إلى الرب تعالى، «وَيَرْحَمْنَا» بالياء، وقرأ حمزة، والكسائي، والشعبي، وابن وثاب، والجحدري، وطلحة بن مصرف، والأعمش، وأيوب: «تَرْحَمْنَا رَبُّنَا» بالتاء في «تَرْحَمْنَا» ونصب لفظة «رَبُّنَا» على جهة النداء

وَلَنَارْجِعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَيُّهَا قَالَ فَمَا خَلَ بَنِي
مِنْ بَعْدِي أَصَحُّ لَكُمْ أَمْ يَرْحَمُ وَلَقَىٰ الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ قَالَ أَمِنْ أَمِنْ الْقَوْمِ اسْتَضَعْمُونِي وَكَادُوا
يَقْتُلُونِي فَلَا تَسْتَعِزُّ بِالْأَعْدَاءِ وَلَا تَعْلَنِي مَعَ الْقَوِي
الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي
رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا
الْعَهْدَ مِنَّا ثُمَّ غَضَبْنَا مِنْ رِجْمِهِمْ وَذَلَّلْنَا الْحَيَّةَ الَّتِي
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ
تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَسَأَلُوا رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَلَّهُمْ يَرْحِمُهُمْ
﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي
شَحْنَاهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَتَّقُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخْبَارَ
مُوسَى قَوْمَهُ سَعِيدِينَ رَجُلًا لَمِيقًا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ إِنِّي سَأَلْتُ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَنَا الْكَافِرُ
الْمُشْهَرُّ وَمَتَىٰ أَنِّي إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي
مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

١٦٦

﴿وَتَغْفِرْ﴾ بالتاء من فوق، وفي مصحف أبي ﴿قالوا ربنا لئن لم تَرْحَمْنَا وَتَغْفِرْ لَنَا لَتَكُونُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿١٥١﴾ تفسير قوله عز وجل:

يريد: رجع من المناجاة. ويروى أنه لما قرب من محلة بني إسرائيل سمع أصواتهم فقال: هذه أصوات قوم لا هين، فلما تحقق عكوفهم على عبادة العجل داخله الغضب والأسف وألقى الألواح، قاله ابن إسحاق، وقال الطبري: أخبره الله تعالى قبل رجوعه أنهم قد فتنوا بالعجل فلذلك رجع وهو غاضب، والأسف قد يكون بمعنى الغضب الشديد، وأكثر ما يكون بمعنى الحزن، والمعنيان مترتبان هاهنا، و(ما) المتصلة ب(يسر) مصدرية، هذا قول الكسائي، وفيها اختلاف قد

تقدم في سورة البقرة، أي: بنس خلافتكم لي من بعدي. ويقال: خَلَفَهُ بخير أو بشر إذا فعله بمن ترك من بعده، ويقال: عَجَلَ فلان الأمر إذا سبق فيه، فقوله: ﴿أَعِجَلْتُمْ﴾ معناه: أسأبقتم قضاء ربكم واستعجلتم إتياني قبل الوقت الذي قدر به.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ﴾ الآية. قال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان سبب إلقائه الألواح غضبه على قومه في عبادتهم العجل وغضبه على أخيه في إهمال أمرهم. وقال قتادة - إن صح عنه -: بل كان ذلك لما رأى فيها من فضيلة أمة محمد ﷺ فرغب أن يكون ذلك لأمته، فلما علم أنه لغيرها غضب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ردي لا ينبغي أن يوصف موسى عليه السلام به، والأول هو الصحيح. وبالحكمة فكان في خلق موسى ضيق وذلك مستقر في غير موضع، وروي أنها كانت لوحان وجمع إذ التثنية جَمْعٌ، وروي أنها كانت وقر سبعين بغيراً يُقرأ منها الجزء في سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف مفرط، قاله الربيع بن أنس. وقال ابن عباس: إن موسى لما ألقاها تكسرت فرغ أكثرها الذي فيه تفصيل كل شيء، وبقي الذي في نسخته الهدى والرحمة، وهو الذي أخذ بعد ذلك، وقد تقدّم القول من أي شيء كانت الألواح، وأخذته برأس أخيه ولحيته من الخلق

المذكور، هذا هو ظاهر اللفظ، وروي أن ذلك إنما كان ليُساذه فخشي هارون أن يتوهم الناظر إليهما أنه لغضب فلذلك نهاه ورغب إليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، والأول هو الصحيح لقوله: ﴿فَرَقَتْ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾. وقوله: ﴿إِنَّ أُمَّ﴾ استلطاف برحم الأم إذ هو الصنق القرابات. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿إِنَّ أُمَّ﴾ بفتح الميم، فقال الكوفيون: أصله: ابن أُمّاء - فحذفت تخفيفاً، وقال سيبويه: هما اسمان بنيا على الفتح كاسم واحد لخمسة عشر ونحوها. وقرأ ابن عامر، وعاصم - في رواية أبي بكر - وحمزة، والكسائي: ﴿إِنَّ أُمَّ﴾ بكسر الميم، فكان الأصل: ابن أُمّي فحذفت الياء، إما على حذف حذفهم من: لا أبال، ولا أدبر تخفيفاً، وإما كأنهم جعلوا الأول والآخر اسماً واحداً ثم أضافوا، كقولك: يا أحد عشر أقبلوا. قاله سيبويه، وهذا أقيس من الحذف تخفيفاً، ثم أضافوا إلى ياء المتكلم، ثم حذفت الياء من (أُمّي) على لغة من يقول: يا غلام فيحذفها من المنادى، ولو لم يُقدّر جعل الأول والآخر اسماً واحداً لما صح حذفها، لأن الأم ليست بمناداة.

و﴿اسْتَفْتَوْنِي﴾ معناه: اعتقدوا أنني ضعيف. وقوله: ﴿وَكَاذِبُوا﴾ قاربوا ولم يفعلوا.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَلَا تُثْمِتْ﴾ بضم التاء وكسر الميم ونصب ﴿الْأَعْدَاءَ﴾ وقرأ

مجاهد - فيما حكاه أبو حاتم -: ﴿فَلَا تُثْمِتْ بِي﴾ بفتح التاء من فوق والميم ورفع ﴿الْأَعْدَاءَ﴾. حكاه أبو حاتم، وقرأ مجاهد أيضاً - فيما حكاه أبو الفتح -: ﴿فَلَا تُثْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ﴾ بفتح التاء من فوق والميم ونصب ﴿الْأَعْدَاءَ﴾ هذا على أن يعذى شمت يشمت، وقد روي ذلك. قال أبو الفتح: فلا ثمتت بي أنت يا رب، وجاز هذا كما قال تعالى: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ونحو ذلك. ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلاً نصب به ﴿الْأَعْدَاءَ﴾، كأنه قال: لا ثمتت بي الأعداء كقراءة الجماعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي كلام أبي الفتح هذا تكلف، وحكى المهدي عن ابن محيصن ﴿تُثْمِتْ﴾ بفتح التاء وكسر الميم و﴿الْأَعْدَاءَ﴾ بالنصب. والشماتة: فرحة العدو بمصائب عدوه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْرِ أَعْدَاءَ﴾ يريد عبدة العجل.

(١٥١) - (١٥٢) تفسير قوله عز وجل: استغفر موسى من فعله أخيه، ومن عَجَلْتَهُ في إلقاء الألواح، واستغفر لأخيه من فعله في الصبر لبني إسرائيل، ويمكن أن الاستغفار كان لغير هذا مما لا نعلمه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَنْبِيَاءَ﴾ الآية، مخاطبة من الله تعالى لموسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿سَيَأْتِيكُمْ﴾، ووقع ذلك الثبيل في عهد موسى عليه السلام، والغضب والذلة هو أمرهم بقتل أنفسهم، هذا هو الظاهر. وقال بعض المفسرين: الذلة: الجزية، ووجه هذا القول أن

الغضب والذلة بقيت في عقب هؤلاء المقصودين بها أولاً، وكأن المراد: سينال أعقابهم. وقال ابن جريج: الإشارة في قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ إلى من مات من عبدة العجل قبل التوبة بقتل النفس، وإلى من قرأ فلم يكن حاضراً وقت القتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والغضب - على هذا - والذلة هو عذاب الآخرة، والغضب من الله عز وجل إن أخذ بمعنى الإرادة فهو صفة ذات، وإن أخذ بمعنى العقوبة وإحلال النعمة فهو صفة فعل، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ المراد أولاً أولئك الذين افتروا على الله في عبادة العجل، وتكون قوة اللفظ تعم كل مفتر إلى يوم القيامة، وقد قال سفيان بن عيينة وأبو قلابة وغيرهما: كل صاحب بدعة أو فرية ذليل، واستدلوا بالآية.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الآية. تضمنت هذه الآية الوعد بأن الله عز وجل يغفر للتائبين، والإشارة إلى من تاب من بني إسرائيل، وفي الآية ترتيب الإيمان بعد التوبة، والمعنى في ذلك أنه أراد بقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ أن التوبة نافعة لهم منجية فمتسكوا بها، فهذا إيمان خاص بعد الإيمان على الإطلاق، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ أي وعملوا عمل المؤمنين حتى وافوا على ذلك، ويحتمل أن يريد التأكيد فذكر التوبة والإيمان إذ هما متلازمان، إلا أن التوبة - على هذا - تكون من كفر ولا بد فيجيء ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ - ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ بمعنى واحد،

وهذا لا يترتب في توبة المعاصي، فإن الإيمان متقدم لتلك ولا بد، وهو وتوبة الكفر متلازمان. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ إيجاب ووعد مرج. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ - ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ أن يكون لم تقصد رتبة الفعلين على عرف الواو في أنها لا توجب رتبة، ويكون ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ بمعنى: وهم مؤمنون قبل وبعد. كأنه قال: ومن صفتهم أن آمنوا.

(١٥٤) - (١٥٥) تفسير قوله عز وجل:

معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام لما سكن غضبه أخذ الألواح التي كان ألقى، وقد تقدم ما روي أنه رفع أكثرها أو ذهب في التكسر، وقوله: ﴿سَكَتَ﴾ لفظة مستعارة، شبه خمود الغضب بانقطاع كلام المتكلم وهو سكوت، قال يونس بن حبيب: تقول العرب: «سأل الوادي يومين ثم سكت»، وقال الزجاج وغيره: مصدر قولك: «سَكَتَ الغُضْبُ»: سَكَتَ، ومصدر قولك: «سَكَتَ الرجل»: سُكُوتٌ، وهذا يقتضي أنه فعل على حدة وليس من سكوت الناس، وقيل: إن في المعنى قلباً والمراد: ولما سكت موسى عن الغضب، فهو من باب: أدخلت فمي في الحَجَرِ، وأدخلت القلنسوة في رأسي، وفي هذا أيضاً استعارة، إذ الغضب ليس بتكلم فيوصف بالسكوت، وقرأ معاوية بن قرة: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾، وفي مصحف حفصة: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَلَمَّا صَبَرَ عن موسى الغضبُ﴾. قال النقاش:

وفي مصحف أبي: «ولما اشتق عن موسى الغضب».

وقوله تعالى: ﴿وَفِي شَحَابٍ﴾ معناه: وفيما ينسخ منها ويقرأ، واللام في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ يحتمل وجوهاً - مذهب المبرد أنها تعلق بمصدر كأنه قال: الذين رهبتهم لربهم، ويحتمل أنه لما تقدم المفعول ضعف الفعل فقوي على التعدي باللام، ويحتمل أن يكون المعنى: هم لأجل طاعة ربهم وخوف ربهم يرهبون العقاب والوعيد ونحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُ قَوْمَهُ﴾ الآية. معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام اختار من قومه هذه العدة ليذهب بهم إلى موضع عبادة وإبتال ودعاه ليكون منه ومنهم اعتذار إلى الله عز وجل من خطيئ بني إسرائيل في عبادة العجل وطلب لكمال العفو عن بقي منهم. وزوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن اختيارهم كان بسبب قول بني إسرائيل: إن موسى قتل هارون حين ذهب معه ولم يرجع، فاخترار هؤلاء ليذهبوا فيكلمهم هارون بأنه مات بأجله، وقوله تعالى: ﴿لَمِيقَاتِنَا﴾ يؤيد القول الأول وينافر هذا القول، لأنها تقتضي أن ذلك كان عن توقيت من الله عز وجل وعدة في الوقت والموضع، وتقدير الكلام: «واختار موسى من قومه»، فلما انحذف الخافض تعدى الفعل فنصب، وهذا كثير في كلام العرب.

واختلف العلماء في سبب الرجفة التي حلت بهم - فقيل: كانت عقوبة

وعشرته، فاختار السبعين ليمضوا معه حتى يروا برهان ما قال لهم، فلما وصلوا قال له موسى: يا هارون أفتيت أم مت؟ فناداه من القبر: بل مت - فأخذت القوم الرجفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وروي أنهم ماتوا في رجفتهم هذه، ويحتمل أن كانت كالإغماء ونحوه. والرجفة: الاهتزاز والتقلقل للهول العظيم، فلما رأى موسى ذلك أسف عليهم، وعلم أن أمر بني إسرائيل سيتشعب

عليه إذا لم يأت بالقوم، فجعل يستعطف ربه، أي رب لو أهلكتهم قبل هذه الحال وإيائي لكان أحق علي. وهذا وقت هلاكهم فيه مُفسد علي مؤذي لي. ثم استغفهم على جهة الرغبة والتضرع والتذلل. ويحتمل قوله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي﴾ أن يريد وقت إغصائهم على عبادة العجل، أي وقت عبادتهم - على القول بذلك -، وفي نفسه هو وقت قتله القبطي. أي: فأنت قد سترت وعفوت حينئذ، فكيف الآن إذ رجوعي دونهم فساداً لبني إسرائيل، فمنيح الكلام - على هذا - محض استعطاف، وعلى التأويل الأول منحه الإدلاء بالحجة في صيغة استعطاف، وإذا قلنا: إن سبب الرجفة كان عبادة العجل كان الضمير في قوله: ﴿أَتَهْلِكُنَا﴾ له وللسبعين،

﴿أَتَهْلِكُنَا﴾ إشارة إلى العبد من بني إسرائيل، وكذلك إذا كان سببها قول بني إسرائيل له: قتل هارون. وإذا كان سبب الرجفة طلبهم الرؤية وتشططهم في الدعاء أو عبادتهم بأنفسهم العجل فالضمير في قوله: ﴿أَتَهْلِكُنَا﴾ يريد به نفسه وبني إسرائيل، أي: بالتفرق والكفر والعصيان يكون هلاكهم، ويكون قوله: ﴿أَتَهْلِكُنَا﴾ إشارة إلى السبعين، وروي أن السبعين لم يكن فيهم من زاد على الأربعين ولا من قصر عن العشرين، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنهم أحيوا وجعلوا أنبياء كلهم.

وقالت فرقة: إن موسى عليه السلام لما أعلمه الله عز وجل أن السبعين عبدوا العجل تعجب وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تُشَاءُ﴾ أي: الأمور بيدك تفعل ما تريد، وقيل: إن الله تعالى لما أعلم موسى بعبادة بني إسرائيل العجل وبصفته قال موسى: أي رب ومن أخاره؟ قال: أنا، قال موسى: فأنت أضللتهم، إن هي إلا فتنتك، ويحتمل أن يشير به إلى قولهم: ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهَ﴾ إذ كانت فتنة من الله أوجبت الرجفة، وفي هذه الآية رد على المعتزلة، واغفر معناه: استر.

﴿١٥٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَأَكْتَبُ﴾ معناه: أثبت واقض، والكتب مستعمل فيما يخلد. و﴿حَسَنَةً﴾ لفظ عام في كل ما يحسن في الدنيا من عافية وغنى وطاعة الله تبارك وتعالى وغير ذلك، وحسنة الآخرة الجنة لا حسنة دونها

وَأَكْتَبْتُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَا نَأْتِيكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَمَسَاكِنُهُ لِلَّذِينَ يَقْنُونَ وَيُقْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْفُحْشَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذَا دُعِيَ النَّاسُ لِمَؤْمَرٍ وَعَزَّوهُمْ وَنَصَرُوهُمْ وَأَتَّبِعُوا النَّبِيَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ الْوَكَايَةُ هُمْ الْمُقْبِلُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ بِحَسَنَاتِ الَّتِي لَهُمْ سَلُوكَ الشَّعَائِرَ وَالْأَرْضَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمَتُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَأَتَّبِعُوا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

لهم على سكوتهم وإغصائهم على عبادة العجل. وقيل: كانت على عبادتهم العجل بأنفسهم وخفي ذلك عن موسى في وقت الاختيار حتى أعلمه الله، قاله السدي. وقيل: كانت عقوبة لهم لأنهم لما دنوا وعلموا أن موسى يسمع كلام الله قالوا له: «أرنا ربك» فأخذتهم الرجفة. وقيل: كانت عقوبة لتشططهم في الدعاء بأن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطيه أحداً بعدنا، فأخذتهم الرجفة، وقيل: إنما أخذتهم لما سمعوا كلام هارون وهو ميت، وذلك أن موسى وهارون ذهبا إلى التعبد أو نحوه فمات هارون فدفته موسى وجاء، فقالت بنو إسرائيل: أين هارون؟ فقال: مات. فقالوا: بل أنت قتلته لأنك حسدتنا على حسن خلقه

ولا مرمى وراءها، و﴿هَذَا﴾ بضم الهاء معناه: ثبنا، وقرأ أبو وجزة ﴿هَذَا﴾ بكسر الهاء، ومعناه: حركنا أنفسنا وجذبناها لطاعتك، وهو مأخوذ من هاد يهيد إذا حرك.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ الآية. قال الله عز وجل: إن الرجفة التي أنزلت بالقوم هي عذابي أصيب به من شئت، ثم أخبر عن رحمته، ويحتمل - وهو الأظهر - أن الكلام قصد به الخبر عن عذابه وعن رحمته من أول ما ابتدأ، ويندرج أمر أصحاب الرجفة في عموم قوله: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾. وقرأ الحسن، وطاوس، وعمر بن فائد: ﴿مَنْ أَشَاءُ﴾ من الإساءة، أي من عمل غير صالح. وللمعتزلة بهذه القراءة تعلق من وجهين: أحدهما إنفاذ الوعيد، والآخر خلق المراءى أفعاله، وإن «أساء» لا فعل لله فيه، وهذان التعلقان فيهما احتمال ينفصل عنه كما ينفصل عن سائر الظواهر، إلا أن القراء أطنبوا في التحفظ من هذه القراءة، وقال أبو عمرو الداني: لا تصح هذه القراءة عن الحسن وطاوس، وعمر بن فائد رجل سوء، وذكر أبو حاتم أن سفيان بن عيينة قرأها مرة واستحسنها فقام إليه عبد الرحمن المقرئ وصاح به وأسمعه، فقال سفيان: لم أدر ولم أظن لما يقول أهل البدع، وهذا إفراط من المقربين، وحملهم على ذلك شحهم على الدين وظنهم أن الانفصال عن تعلق المعتزلة متعذر.

ثم وصف الله تبارك وتعالى رحمته

بأنها وسعت كل شيء، فقال بعض العلماء: هو عموم في الرحمة وخصوص في قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾، والمراد من قد سبق في علم الله أن يرحمه دون من سواهم. وقال بعضهم: هو عموم في رحمة الدنيا لأن الكافر والمؤمن والحيوان كله متقلب في رحمة الله الدنياوية. وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في الرحمة وفي الأشياء لأن المراد من قد تقع منه التوبة. وقال نوف البكالي: إن إبليس لما سمع قول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ طمع في رحمة الله، فلما سمع ﴿فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ دُرُودًا﴾ ينس إبليس وبقيت اليهود والنصارى، فلما تمادت الصفة تبين أن المراد أمة محمد ﷺ وينس اليهود والنصارى من الآية، وقال نحوه قتادة.

وقوله تعالى: ﴿فَسَاكُنْهَا﴾ أي أقدرها وأقضيها، وقال نوف البكالي: إن موسى عليه السلام قال: يا رب جعلت وفادتي لأمة محمد ﷺ، وقال نوف البكالي: فاحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم، وقوله: ﴿يَنْقُونَ﴾ في هذه الآية - قالت فرقة معناه: يتقون الشرك، وقالت فرقة: يتقون المعاصي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن قال: «الشرك لا غير» خرج إلى قول المرجئة، ويرد عليه من الآية شرط الأعمال بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، ومن قال:

«المعاصي ولا بُدَّ» خرج إلى قول المعتزلة، والصواب أن تكون اللفظة عامة ولكن ليس بأن نقول: «ولا بُدَّ من اتقاء المعاصي»، بل أن نقول: «مع أن مواقع المعاصي في مشيئة الله تعالى»، ومعنى ﴿يَنْقُونَ﴾: يجعلون بينهم وبين المتقى وقاية وحجاباً، فذكر الله تعالى الرتبة العالية ليشابق السامعون إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الظاهر من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ أنها الزكاة المختصة بالمال، وخصها هنا بالذكر تشريفاً لها، وجعلها مثلاً لجميع الطاعات، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه: وَيُؤْتُونَ الأعمال التي يزكون بها أنفسهم.

﴿١٥٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الألفاظ أخرجت اليهود والنصارى من الاشتراك الذي يظهر في قوله: ﴿فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ﴾، وخلصت هذه العدة لأمة محمد ﷺ. قاله ابن عباس، وابن جبير، وغيرهما. و﴿يَنْقُونَ﴾ معناه: في شرعه ودينه، و﴿الزَّكَاةَ﴾ و﴿النَّيِّ﴾ اسمان لمعتبين، فإن الرسول أخص من النبي، هذا في الآدميين لاشتراك الملك في لفظة الرسول. والنبي مأخوذ من النبأ، وقيل: لما كان طريقاً إلى رحمة الله تبارك وتعالى وسبباً شبه بالنبي الذي هو الطريق، وأنشدوا:

لأَصْبَحَ رَتْماً دَقَّاقَ الْحَصَى
مَكَانَ النَّبِيِّ مِنَ الْكَائِبِ
وأصله الهمز ولكن خفف، كذا قاله سيبويه، وذلك كتخفيفهم خابية

وهي من خبأ، واستعمل تخفيفه حتى قد روي أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنبروا اسمي». وقدم الرسول اهتماماً بمعنى الرسالة عند المخاطبين بالقرآن، وإلا فمعنى النبوة هو المتقدم، وكذلك رد رسول الله ﷺ على البراء بن عازب حين قال: «أمنت بكتابك الذي أنزلت، وبرسولك الذي أرسلت»، فقال له رسول الله ﷺ: «وينبئك الذي أرسلت» ليرتب الكلام كما ترتب الأمر في نفسه، لأنه تبيّن ثم أرسل، وأيضاً ففي العبارة المردودة تكرار الرسالة وهو معنى واحد.

و﴿الْأَنْفُ﴾ بضم الهمزة. قيل: نُسب إلى أم القرى وهي مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واللفظة - على هذا - مختصة بالنبي ﷺ وغير مضمنة معنى عدم الكتابة. وقيل: هو منسوب - لعدم الكتابة والحساب - إلى الأم، أي: هو على حال الصدور عن الأم في عدم الكتابة. وقالت فرقة: هو منسوب إلى الأمة، وهذا أيضاً مضمن عدم الكتابة لأن الأمة بجملتها غير كاتبة حتى تحدث فيها الكتابة كسائر الصنائع. وقرأ بعض القراء فيما ذكر أبو حاتم: «الْأُمِّي» بفتح الهمزة، وهو منسوب إلى الأم وهو القصد، أي لأن هذا النبي مقصد للناس وموضع أم يؤمنونه بأفعالهم وتشرعهم، قال ابن جني: وتحتمل هذه القراءة أن يريد الأممي فغير تغيير النسب.

والضمير في قوله: ﴿يَجِدُونَهُ﴾ لبني إسرائيل، والهاء منه

لمحمد ﷺ، والمراد صفته ونعته. ورُوي أن الله عز وجل قال لموسى: قل لبني إسرائيل: أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم، وأجعلكم تقرأون التوراة عن ظهر قلوبكم. فأخبر موسى بني إسرائيل فقالوا: إنما نريد أن نصلي في الكنائس، وأن تكون السكينة كما كانت في التابوت، وأن لا نقرأ التوراة إلا نظراً، ف قيل لهم: فنكتبها للذين يتقون يعني أمة محمد ﷺ. وروي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما في البخاري وغيره أن في التوراة من صفة محمد ﷺ: (يَأْتِيهَا الشَّيْءُ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَحَرّاً، لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمِيتُكَ الْمَتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفِظٍ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا صَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيْئَةِ السَّيْئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ أَقْبِضَهُ حَتَّى أَقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءُ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَتَقِيمَ بِهِ قُلُوباً غُلْفَاءُ، وَأَذَاناً صَمّاً، وَأَعْيُنًا عَمِيّاً). وفي البخاري: (فتفتح به عيوناً عمياً، وأذناناً صمّاً، وقلوباً غلفاً). ونص كعب الأحبار نحو هذه الألفاظ إلا أنه قال: (قلوباً غلفاً، وأذناناً صموماً) قال الطبري: وهي لغة حميرية، وقد رويت (غلوفيا وصوميا).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأظن هذا وهماً وعجمة.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْعَمْرِوِّ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يحتمل أن يريد ابتداء وصف الله تبارك وتعالى النبي ﷺ، ويحتمل أن نجعله متعلقاً

ب﴿يَجِدُونَهُ﴾ في موضع الحال على تجوز، أي: يجدونه في التوراة أمراً بشرط وجوده، فالمعنى الأول لا يقتضي أنهم علموا من التوراة أنه يأمرهم وينهاهم ويحل ويحرم، والمعنى الثاني يقتضي ذلك، فالمعنى الثاني - على هذا - ذم لهم، ونحا إلى هذا أبو إسحاق الزجاج. وقال أبو علي الفارسي في «الأغفال»: ﴿يَأْمُرُهُم﴾ عندي تفسير لما كتب من ذكره، كما أن قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ مِنْ رَبِّهِ﴾ تفسير للمثل. ولا يجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يَجِدُونَهُ﴾ لأن الضمير للذكر والاسم، والذكر والاسم لا يأمران.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما قدمته من التجوز وشرط الوجود يقرب مما منع منه أبو علي، وانظر. و﴿يَا لَمَعْرُوفٍ﴾ ما عرف بالشرع، وكل معروف من جهة المروءة فهو معروف بالشرع، فقد قال ﷺ: «بعثت لأتمم محاسن الأخلاق»، و﴿الْمُنْكَرُ﴾ مقابلة.

و﴿الطَّيِّبُ﴾ قال فيها بعض المفسرين: إنها إشارة إلى البحيرة ونحوها، ومذهب مالك رحمه الله أنها المحللات، فكأنه وصفها بالطيب إذ هي لفظة تقتضي مدحاً وتشريفاً، وبحسب هذا يقول في ﴿الْحَبِيبِ﴾ إنها المحرمات. وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: الخبائث: هي لحم الخنزير والربا وغيره، وعلى هذا حلل مالك المتقذرات كالحبيات والخنافس والمقارب ونحوها، ومذهب الشافعي

رحمه الله أن الطيبات هي من جهة الطعم إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها لأن عمومها بهذا الوجه من الطعم يقتضي تحليل الخمر والخنزير، بل يراها مختصة فيما حلّله الشرع، ويرى الخبائث لفظاً عاماً في المحرمات بالشرع وفي المتقدرات فيحرم العقارب والخنافس والوزغ وما جرى هذا المجرى، والناس على هذين القولين إلا أن في تعيين الخبائث اختلافاً ليس هذا موضع تقصيه.

وقوله تعالى: ﴿وَبَضْعَ عَنْهُمْ لِمَرْهَمٍ﴾ الآية. ﴿وَبَضْعٌ﴾ كان قياسه أن يكون (يضع) بكسر الضاد لكن رده حرف الحلق إلى فتح الضاد، قال أبو حاتم: وأدغم أبو عمرو ﴿يَضْعُ عَنْهُمْ﴾ العين في العين. وأسمها الرفع وأشبعها أبو جعفر وشيبة ونافع، وقرأ طلحة: ﴿وَيُذْهِبُ عَنْهُمْ إِضْرَهُمْ﴾. والإضر: الثقل، وبه فسر - هنا - قتادة، وابن جبير، ومجاهد. والإضر أيضاً: العهد، وبه فسر ابن عباس، والضحاك، والحسن، وغيرهم. وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال. وحكى أبو حاتم عن ابن جبير قال: الإضر: شدة العبادة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي، والناس: ﴿لِمَرْهَمٍ﴾، وقرأ ابن عامر وحده، وأيوب السخيتاني، ويعلى بن حكيم، وأبو سراج

الهللي، وأبو جعفر: ﴿أَصَارَهُمْ﴾ بالجمع، لما كانت الأعمال كثيرة كانت أثقالها متغايرة، ومن وُحِدَ الإضر فهو مفرد اسم جنس يراد به الجمع، قال أبو حاتم: في كتاب بعض العلماء: «أصرهم» واحد مفتوح الهمزة عن نافع، وعيسى، والزيات، وذلك غلط. وذكرها مكّي عن أبي بكر عن عاصم وقال: هي لغة.

﴿وَالْأَغْلَلُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ عبارة مستعارة أيضاً لتلك الأثقال، كقطع الجلد من أثر البول، وأن لا دية، ولا بُدُّ من قتل القاتل، وترك الأشغال يوم السبت، فإنه رُوي أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلاً يحمل قصاً فضرب عنقه، هذا قول جمهور المفسرين، وهذا مثل قولك: «طَوَّقَ فلانٌ كذا» إذا ألزمه، ومنه قول الشاعر:

اذْهَبْ بِهَا اذْهَبْ بِهَا
طَوَّقْتُهَا طَوَّقَ الْحَمَامَةِ
أي: لزمك عارها.

ومن هذا المعنى قول الهللي: فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِيا أَمْ مَالِكٍ وَلَكِنْ أَحَاطَتْ بِالرَّقَابِ السَّلَاسِلُ وَعَاذَ الْفَتَى كَالْكَهْلِ لَيْسَ بِقَائِلٍ سِوَى الْحَقِّ شَيْئاً فَاسْتَرَحَ الْعَوَاضِلُ يريد أوامر الإسلام ولوازم الإيمان الذي قيد الفتك كما قال ﷺ. وقال ابن زيد: إنما المراد هنا بالأغلال قول الله عز وجل في اليهود: ﴿عَنْكَ أَيْدِيهِمْ﴾، فمن آمن بمحمد ﷺ زالت عنه الدعوة وتغليها.

ثم أخبر تعالى عن حال المؤمنين فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، وَعَزَّرُوهُ

وَصَكَّرُوهُ﴾، وقرأ الجحدري، وسليمان التيمي، وقاتدة، وعيسى: ﴿عَزَّرُوهُ﴾ بالتخفيف، وجمهور الناس على التشديد في الزاي، ومعناه في القراءتين: وقروه. والتعزيز والنصر مشاهدة خاصة للصحابة، واتباع النور يشترك فيه معهم المؤمنون إلى يوم القيامة. والنور كناية عن جملة الشرع. وقوله: ﴿مَعَهُ﴾ فيه حذف مضاف والتقدير: مع بعثه أو نبوته أو نحو هذا، وشبه الشرع والهدى بالنور إذ القلوب تستضيء به كما يستضيء البصر بالنور. و﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ معناه: الفائزون ببغيتهم، وهذا يعم معاني الفلاح فإن من بقي فقد فاز ببغيته.

﴿١٥٨﴾ - ﴿١٥٩﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا أمر من الله عز وجل لنبيه بإشهار الدعوة والحض على الدخول في الشرع، وذلك أنه لما رَجَى الأمة المتبعة للنبي الأمي التي كتب لها رحمته عقب ذلك بدعاء الناس إلى الاتباع الذي تحصل معه تلك المنازل. وهذه الآية خاصة بمحمد ﷺ بين الرسل، فإن محمداً ﷺ بُعث إلى الناس كافة وإلى الجن، قاله الحسن، وتقضيه الأحاديث، وكل نبي إنما بعث إلى فرقة دون العموم، ثم إنه لما أعلن بالرسالة من عند الله تبارك وتعالى أردف بصفة الله التي تقتضي الإذعان له وهي أنه مالك السموات والأرض بالخلق والإبداع والإحياء والإماتة، لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

وقوله تعالى: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ رَشَدًا﴾ الآية. هو للحض على اتباع

الآية. ﴿يَهْدُونَ﴾ معناه:

يرشدون أنفسهم، وهذا الكلام يحتمل أن يريد به وصف المؤمنين المتقين من بني إسرائيل على عهد موسى وما والاها من الزمن، فأخبر أنه كان في بني إسرائيل على عَثْوهم وخلافهم من اهتدى واتقى وعدل، ويحتمل أن يريد الجماعة التي آمنت بمحمد ﷺ من بني إسرائيل على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم، ويحتمل ما روي من أن بني إسرائيل لما تقطعوا مَرَّت أمة منهم واعتزلت ودخلت تحت الأرض فمشت في سرب تحت الأرض سنة ونصف سنة حتى خرجوا وراء الصين، فهم هنالك خلف واد من شهد يقيمون الشرع ويهدون بالحق، قاله السدي وابن جريج، وروي بعضه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا حديث بعيد، وقرأ بعض من الناس: ﴿وَقَطَعْنَهُمْ﴾ بشد الطاء، وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبيدة: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ﴾ بتخفيف الطاء، ورواها أبان عن عاصم، ومعناه: فزقناهم، من القطع، وقرأ جمهور الناس: ﴿عَثْرَةً﴾ بسكون الشين، وهي لغة الحجاز، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وطلحة بن سليمان بخلاف: ﴿عَشْرَةً﴾ بفتح الشين، وقرأت هذه الجماعة أيضاً،

وطلحة بن مصرف، وأبو حيوة: ﴿عَشْرَةً﴾ بكسر الشين، وهي لغة تميم. وقال أبو حاتم: والعجب أن تميمياً يخفون ما كان من هذا الوزن، وأن أهل الحجاز يشبعون، وتناقضوا في هذا الحرف. وقوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل من ﴿اِثْنَيْ عَشَرَ﴾، والتميز الذي بين العدد محذوف مقدر: اثنى عشرة فرقة أو قطعة أسباطاً، وإما أن يزول عن التمييز ويقدر: وقطعناهم فرقاً اثنى عشرة، ثم أبدل ﴿أَسْبَاطًا﴾، والأول أحسن وأبين. ولا يجوز أن يكون ﴿أَسْبَاطًا﴾ تمييزاً لأن التمييز لا يكون إلا مفرداً نكرة، وأيضاً فالسُّبُط مذكر وهو قد عُدَّ مؤنثاً، على أن هذه العلة لو انفردت لمنعت إذ السُّبُط بمعنى الأمة، قال الطبري: وقال بعض الكوفيين: لما كان السُّبُط بمعنى الأمة غلب التأنيث، وهو مثل قول الشاعر:

فَلِنْ كِلَاباً هِذِهِ عَشْرُ أَبْطُنٍ
وَأَنْتَ بَرِيءٌ مِنْ قَبَائِلِهَا الْعَشْرُ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأغفل هذا الكوفي جمع الأسباط وأن ما ذهب إليه إنما كان يجوز لو كان الكلام: اثنى عشرة سبطاً، والسُّبُط في ولد إسحق كالقبيلة في ولد إسماعيل، وقد قال الزجاج وغيره: إن السُّبُط من السُّبُط وهو شجر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما الأظهر فيه أنه عبراني عَرَب.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾

قد تقدم في سورة البقرة أمر الْحَجَرِ والاستسقاء، وأين كان، وأمر

وَقَطَعْنَهُمْ اِثْنَيْ عَشَرَ اسْبَاطًا اٰمَنَّا وَاَوْحَيْنَا اِلٰى مُوسٰى اِذْ اَسْتَسْقٰى قَوْمَهُ اَنْبٰى اَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَاَنْجَسَتْ مِنْهُ اِثْنَا عَشَرَ عَنَابًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ اُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَاَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰى وَالسَّلٰوٰى كُلُوْا مِنْ طَيِّبٰتِ مَا رَزَقْنٰكُمْ وَمَا ظَلَمُوْا وَلٰكِنْ كَانُوْا اَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُوْنَ ﴿١٦٠﴾ وَاِذْ قِيْلَ لَهُمْ اَسْكُنُوْا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوْا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَفَرُّوْا حِطَّةً وَاَدْخُلُوا الْاَبْوَابَ سَجْدًا تَغْفِرُ لَكُمْ خَطِيْئَتَكُمْ سَيَزِيْدُ الْمُحْسِنِيْنَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِيْ قِيْلَ لَهُمْ فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ جُرَاةً مِنْ السَّمَاءِ يَمَآكِنُ اُوْلٰى يَظْلِمُوْنَ ﴿١٦٢﴾ وَسَخَّرْنَا مِنْ غَيْرِكُمْ اِلٰى كَانَتْ حَاضِرَةُ الْاَبْحَرِ اِذْ يَعْذُوْنَ فِي الْمَسْبِطِ اِذْ تَأْتِيْهِمْ جِيَتَانِمْ يَوْمَ سَكَنَتْهُنَّ اَسْرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَسْقُوْنَ لَا تَأْتِيْهِمْ كَذٰلِكَ تَبٰلُوْهُمْ يَمَآكِنُ اُوْلٰى يَسْتَسْقُوْنَ ﴿١٦٣﴾

١٦١

محمد ﷺ، وقوله: ﴿الَّذِي يَبُورُ﴾ يريد: الذي يصدق ﴿بِاللَّهِ وَكَالَيْتِهِ﴾، والكلمات هنا الآيات المنزلة من عنده كالتوراة والإنجيل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَكَلَيْتِهِ﴾ بالجمع، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿كَلِمَتِهِ﴾ بالإفراد الذي يراد به الجمع، وقرأ الأعمش: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾ بدل ﴿وَكَلَيْتِهِ﴾، وقال مجاهد، والسدي: المراد به ﴿وَكَلَيْتِهِ﴾ أو كلمته عيسى ابن مريم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي على طمعكم وبحسب ما ترونه، وقوله: ﴿وَأَتَّبِعُوهُ﴾ لفظ عام يدخل تحته جميع إلزامات الشريعة، جعلنا الله من متبعيه على ما يلزم بمنه ورحمته.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾

التظليل وإنزال المن والسلوى، وذكرنا ذلك بما يغني عن إعادته هنا.

و﴿فَأَنبَجَسَتْ﴾ معناه: انفجرت إلا أن الانبجاس أخف من الانفجار، وقرأ الأعمش، وعيسى الهمداني: ﴿كُلُوا مِن كَلْبَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ﴾ بتوحيد الضمير.

﴿١٦١﴾ - ﴿١٦٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر إذ قيل لهم، والمراد من سلف من بني إسرائيل، وذلك أنهم لما خرجوا من التيه قيل لهم: اسكنوا هذه القرية، والقرية في كلام العرب: المدينة مجتمع المنازل، والإشارة هنا إلى بيت المقدس. قاله الطبري، وقيل: إلى أريحا. و﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: هي ونعمها لكم مباحة.

وقرأ السبعة، والحسن، وأبو رجاء، ومجاهد، وغيرهم: ﴿حِطَّةً﴾ بالرفع، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿حِطَّةً﴾ بالنصب. الرفع على خبر ابتداء تقديره: طلبنا حطة، والنصب على المصدر، أي حط ذنوبنا حطة، وهذا على أن يكلفوا قول لفظة معناها: حطة. وقد قال قوم: كلفوا قولاً حسناً مضمناً الإيمان وشكر الله ليكون حطة لذنوبهم، فالكلام - على هذا - كقولك: قل خيراً. وتوفية هذا مذكور في سورة البقرة.

وقرأ ابن كثير، وعاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿تَغْفِرُ﴾ بالنون ﴿لَكُمْ﴾ خَطِيئَتِكُمْ بالتاء مهموزاً على الجمع. وقرأ أبو عمرو: ﴿تَغْفِرُ﴾ بالنون ﴿لَكُمْ﴾ خَطِيئَتِكُمْ ونحو

«قضاياكم»، وهي قراءة الحسن والأعمش. وقرأ نافع: ﴿تَغْفِرُ﴾ بتاء مضمومة ﴿لَكُمْ﴾ خَطِيئَتِكُمْ بالهمز وضم التاء على الجمع، ورواها محبوب عن أبي عمرو. وقرأ ابن عامر: ﴿تَغْفِرُ﴾ بتاء مضمومة ﴿لَكُمْ﴾ خَطِيئَتِكُمْ واحدة مهموزة مرفوعة، قال أبو حاتم: وقرأها الأعرج وفرقة ﴿تَغْفِرُ﴾ بالتاء وفتحها على معنى أن الحطة تغفر إذ هي سبب الغفران.

و﴿بَدَّلَ﴾ معناه: غير اللفظ دون أن يذهب بجميعة، وأبدل: إذا ذهب به وجاء بلفظ آخر، والإشارة بالقول إلى قول بني إسرائيل: «حبة في شعرة أو حنطة في شعيرة». والرجز الذي أرسل عليهم: طاعون، يقال: مات منه في يوم سبعون ألفاً. وتقدم أيضاً استيعاب تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَّمْتُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآية. قال بعض المتأولين: إن اليهود المعارضين لمحمد ﷺ قالوا: إن بني إسرائيل لم يكن فيهم عصيان ولا معاندة لما أمروا به، فنزلت هذه الآية مويخة لهم ومقررة ما كان من فعل أهل هذه القرية، فسؤالهم إنما كان على جهة التوبيخ، والقرية هنا: مَدْيَن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: أيلة، قاله ابن عباس، وعبدالله بن كثير، وعكرمة، والسدي، والثوري. وقال قتادة: هي «مقنا» بالقاف ساكنة، وقال ابن زيد: هي مقناة ساحل مدين، ويقال فيها مَقْنَى «بالغين مفتوحة ونون مشددة»، وقيل: هي طبرية، قاله الزهري، و﴿حَاضِرَةَ﴾

يحتمل أن يريد معنى الحضور، أي: البحر فيها حاضر، ويحتمل أن يريد معنى الحضارة على جهة التعظيم لها، أي: هي الحاضرة في مدن البحر.

و﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ معناه: يخالفون الشرع، من عدا يعدو. وقرأ شهر بن حوشب، وأبو نهيك: ﴿يَعْدُونَ﴾، قال أبو الفتح: أراد (يعتدون) فأسكن التاء ليدغمها في الدال، ونقل فتحها إلى العين فصار ﴿يَعْدُونَ﴾ بفتح العين وشد الدال المضمومة. والاعتداء منهم في السبت هو نفس العمل والاشتغال كان صيداً أو غيره إلا أنه كان في هذه النازلة بالصيد، وكان الله عز وجل ابتلاهم في أمر الحوت بأن يغيب عنهم سائر الجمعة فإذا كان يوم السبت جاءهم في الماء شارعاً، أي مُقبلاً إليهم مصطفاً، كما تقول: أشرعت الرماح إذا مدت مصطفة، وهذا يمكن أن يقع من الحوت بإرسال من الله كإرسال السحاب، أو بوحي وإلهام كالوحي إلى النحل، أو بإشعار في ذلك اليوم على نحو ما يشعر الله الدواب يوم الجمعة بأمر الساعة حسبما يقتضيه قول النبي ﷺ: «ما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة حتى تطلع الشمس فرقاً من الساعة»، ويحتمل أن يكون ذلك من الحوت شعوراً بالسلامة في ذلك اليوم على نحو شعور حمام الحرم بالسلامة. قال رواة هذا القصص: فيقرب الحوت ويكثر حتى يمكن أخذه باليد، فإذا كان ليلة الأحد غاب بجملته، وقيل: غابت كثرته ولم يبق منه إلا القليل

سورة الأعراف

سورة الأعراف

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَا إِلَهَ مَعَهُمْ قَوْمًا لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ يَنْصُرُوا بَعْثًا مِنْ بَعْثٍ وَهُمْ كَانُوا يُنْفِقُونَ
عَدَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ لِيَكُونُوا لَنَا آلَافٌ مِثْلَهُمْ يَنْفِقُونَ
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ اتَّخِذْنَا لِيَوْمِهِمُ عَمَلًا خَشِيرَةً
وَإِذْ نَادَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِعْدَابُ رَبِّكَ يُبْسِئُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قَالُوا لِمَ لَمْ يَكُنْ فَرْدٌ خَاسِرِينَ
وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُكَ لِبَعْثِنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مِنْ
يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ
الضَّالِّينَ حَتَّى وَفَّيْنَاهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ
وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا
وَإِنْ نَأْتِهِمْ عَرَضٌ وَنَحْنُ بَعْدُوهُ أَلَيْسَ لِرَبِّنَا لَأُخْرَى
أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْأَنْدَادُ الْأُخْرَى
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْ لَا تَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ

١٧٢

إسرائيل ونهت وجاهرت
بالنهي واعتزلت، والعامل
في قوله: ﴿يَوْمَ لَا
يَسْتُرُونَ﴾ قوله: ﴿لَا
تَأْتِيهِمْ﴾ وهو ظرف
مقدم.

وقرأ عمر بن عبدالعزيز:
«جِئْتَانَهُمْ يَوْمَ إِسْبَاتِهِمْ»،
وقرأ نافع، وأبو عمر،
والحسن، وأبو جعفر،
والناس: ﴿يَسْتُرُونَ﴾
بكسر الباء، وقرأ
عيسى بن عمر، وعاصم
بخلاف: ﴿يَسْتُرُونَ﴾
بضمها، وقرأ الحسن بن
أبي الحسن، وعاصم
بخلاف: ﴿يَسْتُرُونَ﴾ من

(أسبت) إذا دخل في السبت.

ومعنى قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ الإشارة
إلى أمر الحوت وفتنتهم به، هذا
على من وقف على ﴿تَأْتِيهِمْ﴾، ومن
وقف على ﴿كَذَلِكَ﴾ فالإشارة إلى
كثرة الحيتان شُرْعاً، أي: فما أتى
منها فهو قليل، و﴿تَبْلُوهُمْ﴾ أي
نمتحنهم لفسقهم وعصيانهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وفي قصص هذه الآية رواية وتطويل
اختصرته واقتصرت منه على ما لا
تفهم ألفاظ الآية إلا به.

﴿١٦٦﴾ - تفسير قوله عز وجل:

قال جمهور المفسرين: إن بني
إسرائيل ائترقت ثلاث فرق: فرقة
عصت وصادت، وفرقة نهت
وجاهرت وتكلمت واعتزلت، وفرقة
اعتزلت ولم تعص ولم تنه. وإن هذه
الفرقة لما رأت مجاهرة النهاية

وطغيان العاصية وعتوها قالت
للنهاية: ﴿لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا﴾ يريدون
العاصية ﴿إِلَّا إِلَهُكُمْ أَوْ مَعِدَّةٌ﴾
على غلبة الظن وما عهد من فعل الله
حينئذ بالأسم العاصية، فقالت
النهاية: موعظتنا معذرة إلى الله، ثم
اخْتُلِفَ بعد هذا فقالت فرقة: إن
الطائفة التي لم تعص ولم تنه هلك
مع العاصية عقوبة على ترك النهي،
قاله ابن عباس، وقال أيضاً: ما
أدري ما فعل بهم. وقالت فرقة: بل
نجت مع النهاية لأنها لم تعص ولا
رضيت. قاله عكرمة والحسن
وغيرهما. وقال ابن الكلبي فيما أسند
عن الطبري: إن بني إسرائيل لم
تفرق إلا على فرقتين: فرقة عصت
وجاهرت، وفرقة نهت وغيبت
واعتزلت، وقالت للعاصية: إن الله
يهلكهم ويعذبهم، فقالت أمة من
العاصيين للناهين - على جهة
الاستهزاء -: لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا قَدْ
عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ يَهْلِكُهُمْ وَمُعَذِّبُهُمْ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والقول الأول أصوب، وتؤيده
الضمائر في قوله: ﴿إِنَّا رَبُّكَ
وَلَعَلَّهُمْ﴾، فهذه المخاطبة تقتضي
مخاطباً ومخاطباً ومكنياً عنه، وقرأ
ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن
عامر، وحمزة، والكسائي:
﴿مَعذِرَةٌ﴾ بالرفع، أي: موعظتنا
معذرة أي إقامة عذر، وقرأ عاصم -
في بعض ما روي عنه - وعيسى بن
عمر، وطلحة بن مصرف:
﴿مَعذِرَةٌ﴾ بالنصب، أي: وعظمتنا
معذرة، قال أبو علي: حجتها أن
سببويه قال: لو قال رجل لرجل:

الذي يتعب صيده، قال قتادة:
ففتنهم ذلك وأضر بهم فطرقوا إلى
المعصية بأن حفرُوا حُفْرًا يخرج إليها
ماء البحر على أخذود، فإذا جاء
الحوت يوم السبت وحصل في
الحفرة ألْقَوْا فِي الْإِخْدُودِ حَجَرًا
فمنعوه الخروج إلى البحر، فإذا كان
الأحد أخذوه، فكان هذا أول
التطرق، وروى أشهب عن مالك
قال: زعم ابن رومان أنهم كانوا
يأخذ الرجل خيطاً ويصنع فيه وهقة
ويلقيها في ذنب الحوت، وفي
الطرف الآخر من الخيط وتد
مضروب، ويتركه كذلك إلى الأحد،
ثم تطرَّق الناس حين رأوا من صنع
هذا لا يَبْتَلَى حَتَّى كَثُرَ صَيْدُ الْحَوْتِ
ومشي به في الأسواق، وأعلن
الفسقة بصيده وقالوا: ذهب حُرمة
السبت، فنهضت فرقة من بني

معذرة إلى الله وإليك من كذا لنصب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الرجل القائل في هذا المثال معتذر عن نفسه وليس كذلك الناهون من بني إسرائيل، فتأمل. ومعنى ﴿مُؤَلِّكُكُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ مُؤَلِّمُكُمْ﴾ في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقتضي الترجي المحض لأنه من قول آدميين.

والضمير في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ لِلْمُغْنِيِّينَ، وَهُوَ تَرْكُ سَمِيِّ نَسِيَانًا إِذْ أَقْوَى مَنَازِلَ التَّرْكِ أَنْ يَنْسِيَ الْمَتْرُوكَ.﴾ (ما) في قوله: ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ بمعنى الذي، ويحتمل أن يراد به الذكر نفسه، ويحتمل أن يراد به ما كان فيه الذكر، والسوء لفظ عام في جميع المعاصي إلا أن الذي يختص هنا بحسب قصص الآية صيد السمك. و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم العصاة، وقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ﴾ معناه: مؤلم موجه شديد.

وقرأ نافع وأهل المدينة - أبو جعفر، وشيبة وغيرهما: ﴿يَيْسُ﴾ بكسر الباء وسكون الياء وكسر السين وتوניה، وهذا على أنه فعل سُمِّيَ به، كقوله ﷺ: «أَنَّهُا كَمَ عَنْ قَبْلِ وَقَالَ»، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿يَيْسُ﴾ كما تقول: يَيْسُ الرجلُ، وضعفها أبو حاتم، قال أبو عمرو: وروي عن الحسن ﴿يَيْسُ﴾ بهمزة بين الباء والسين. وقرأ نافع - فيما يروي عنه خارجة - ﴿يَيْسُ﴾ بفتح الباء وسكون الياء وكسر السين منونة. وروي مالك بن دينار عن نصر بن عاصم ﴿يَيْسُ﴾ على مثل

جَمَلٍ وَجَبَلٍ، وقرأ أبو عبد الرحمن المقرئ: ﴿يَيْسُ﴾ بفتح الباء وهمزة مكسورة وسين منونة على وزن فَعِيلٍ، ومنه قول عبيد الله بن قيس الرقيات:

لَيْسَنِي أَلْقَى رُتْبَةً فِي
خَلْقَةٍ مِنْ غَيْرِ مَا يَيْسُ
قال أبو عمرو الداني: هي قراءة نصر بن عاصم، وطلحة بن مصرف. وروي عن نصر ﴿يَيْسُ﴾ بياء مكسورة من غير همز، قال الزهراوي: وروي عن الأعمش ﴿يَيْسُ﴾ الباء مفتوحة والهمزة مكسورة مشددة والسين مكسورة منونة. وقرأت فرقة: ﴿يَيْسُ﴾ التي قبل إلا فتح السين، ذكرها أبو عمرو الداني عما حكى يعقوب، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ونافع - في رواية أبي قُرَّة عنه - وعاصم - في رواية حفص عنه - ﴿يَيْسُ﴾ بياء بعد الهمزة المكسورة والسين المنونة - على وزن فَعِيلٍ. وهذا وصف بالمصدر كقولهم: «عذير الحي» - والنذير والتكير ونحو ذلك. وهي قراءة الأعرج، ومجاهد، وأهل الحجاز وأبي عبد الرحمن، ونصر بن عاصم، والأعمش، وهي التي رجح أبو حاتم، ومنه قول ذي الإصبع العَدَوَاتِي:

حَنِقَ عَلَيَّ وَلَا أَرَى
لِي مِنْهُمَا شَرًّا بِئْسَا
وقرأ أهل مكة ﴿يَيْسُ﴾ كالأول إلا كسر الباء، على وزن فَعِيلٍ، قال أبو حاتم: هما لغتان، وقرأ عاصم - في

رواية أبي بكر عنه -: ﴿يَيْسُ﴾ بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة، على وزن فَعِيلٍ، ومعناه: شديد، ومنه قول امرئ القيس بن عابس الكندي:

كَلَامًا كَانَ زَيْسًا بَيْسًا
يَضْرِبُ فِي يَوْمِ الْهَيْجِ الْقَوْنَسَا
فهي صفة كَضْبَعَمٍ وَحَيْدَرٍ، وهي قراءة الأعمش، وقرأ عيسى بن عمر، والأعمش - بخلاف عنه - ﴿يَيْسُ﴾ كالتي قبل إلا كسر الهمزة على وزن فَعِيلٍ، وهذا شاذ لأنه لا يوجد فَعِيلٌ في الصحيح، وإنما يوجد في المعتل مثل سَيْدٍ وَمَيْتٍ. وقال الزهراوي: روى نصر بن عاصم: ﴿يَيْسُ﴾ على مثال ﴿مَيْتٍ﴾، وهذا على أنه من البؤس، ولا أصل له في الهمز، قال أبو حاتم: زعم عاصم أن الحسن والأعمش قرأ: ﴿يَيْسُ﴾ الباء مكسورة والهمزة ساكنة والياء مفتوحة على مثال خَذِيمٍ، وضعفها أبو حاتم، وقرأ ابن عامر من السبعة: ﴿يَيْسُ﴾ بكسر الباء وسكون الهمزة وتوניה السين المكسورة، وقرأت فرقة: ﴿يَيْسُ﴾ بفتح الباء وسكون الألف، وقرأ أبو رجاء ﴿يَيْسُ﴾ على وزن فاعِلٍ، وقرأت فرقة: ﴿يَيْسُ﴾ بفتح الباء والياء والسين على وزن فَعَلٍ، وقرأ مالك بن دينار: ﴿يَيْسُ﴾ بفتح الباء والسين وسكون الهمزة على وزن فَعَلٍ غير مصروف، وقرأت فرقة: ﴿يَيْسُ﴾ مصروفًا، وحكى أبو حاتم ﴿يَيْسُ﴾ قال أبو الفتح: هي قراءة نصر بن عاصم، وحكى الزهراوي عن ابن

كثير وأهل مكة «بئس» ويهزم همزاً خفيفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يبين هل الهمزة مكسورة أو ساكنة.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا كَانُوا يَنْشُورُونَ﴾ أي لأجل ذلك وعقوبة عليه.

والغُورُ: الاستعصاء وقلة الطوعية. وقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَ لَمَمٍ﴾ يحتمل أن يكون قولاً بلفظ من مَلَكَ أسمعهم ذلك فكان أذهب في الإغراب والهبوان والإصغار، ويحتمل أن يكون عبارة عن المقدرة المكونة لهم قردة، و«خَيَّيْتُ» مبعدين، كما قال رسول الله ﷺ لابن صياد: «اخشأ»، وكما يقال للكلب: اخشأ، ف«خَيَّيْتُ» خبر بعد خبر، هذا اختيار أبي الفتح، وضعف الصفة، وكذلك هو لأن القصد ليس التشبيه بقردة مبعدات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويجوز أن يكون «خَيَّيْتُ» حالاً من الضمير في «كُونُوا»، والصفة أيضاً متوجهة مع ضعفها، وروى أن الشباب منهم مُسخوا قردة والرجال الكبار مسخوا خنازير، وروى أن مسخهم كان بعد المعصية في صيد الحوت بعامين، وقال ابن الكلبي: إن إهلاكهم كان في زمن داود. وروى أن الناهين قسموا المدينة بينهم وبين العصاة بجدار، فلما أصبحوا ليلة أهلك العصاة لم يفتح باب مدينة العصاة حتى ارتفع النهار، فاستراب الناهون لذلك فطلع أحد الناس على السور فرآهم ممسوخين قردة تتوابع فصاح،

فدخلوا عليهم يعرف الرجل قرابته ويعرف القرد أيضاً كذلك قرابته. وينضمون إلى قرابتهم فيتحسرون، قال الزجاج: وقال قوم: يجوز أن تكون هذه القردة من نسلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتعلق هؤلاء بقول النبي ﷺ: «إن أمة من الأمم فقدت، وما أراها إلا الفأرة إذا قرب لها لبن لم تشرب»، ويقول ﷺ في الضب.

وقصص هذا الأمر أكثر من هذا لكن اختصرته واقتصرت على عيونه.

١٦٧ - ١٦٨ تفسير قوله عز وجل: بئسئ «تَأَذَّتْ» هي التي تقتضي التكسب، من أَدَنَ أي عَلِمَ، وأَدَنَ أي عَلِمَ، مثل كَرَمَ وأكثرَ وتَكَرَّمَ، إلا أن تعلم (وما جرى مجرى هذا الفعل) إذا كان مسنداً إلى اسم الله عز وجل لم يلحقه معنى التكسب الذي يلحق المُخَذَّنَ، وإنما يترتب بمعنى عَلِمَ صفة لا يَتَكَسَّبُ، بل هي قائمة بالذات، وإلى هذا المعنى ينحو الشاعر بقوله:

تَعَلَّمْ أَبَيْتَ السُّلُوفَ
لأنه لم يأمره بالتعلم الذي يقتضي جهالة، وإنما أراد أن يوقفه على قوة علمه، ومنه قول زهير:

تَعَلَّمْ أَنْ شَرَّ النَّاسِ حَيٌّ
يُنَادِي فِي شَعَارِهِمْ يَسَارُ
فمعنى هذه الآية: وإذ علم الله ليعثن عليهم، وتقتضي قوة الكلام أن ذلك العلم منه مقترن بإنفاذ وإمضاء، كما تقول في أمر قد عزمَ عليه غاية العزم: «علم الله لأفعلن كذا»، نحا إليه أبو علي الفارسي، وقال الطبري وغيره:

«تَأَذَّتْ» معناه: أغلَمَ، وهو قلق من جهة التصريف إذ نسبة «تَأَذَّتْ» إلى الفاعل غير نسبة «أَعْلَمَ»، وتبين ذلك من التعدي وغيره، وقال مجاهد: «تَأَذَّتْ» معناه: قال، وروى عنه أن معناه: أمر، وقالت فرقة: معنى «تَأَذَّتْ»: تألَّى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقادهم إلى هذا القول دخول اللام في الجواب، وأما اللفظة فبعيدة عن هذا.

والضمير في «عَلَيْهِمْ» لمن بقي من بني إسرائيل لا للضمير في «لَهُمْ». وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَسْأَلُهُمْ﴾ قال سعيد بن جبير: هي إشارة إلى العذاب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي إشارة إلى محمد ﷺ وأمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح أنها عامة في كل مَنْ حَالُ اليهود معه هذه الحال، و«يَسْأَلُهُمْ» معناه: يكلفهم ويحملهم، و«سَوَّاءُ الْكُتُبِ» الظاهر منه الجزية والإذلال، وقد حتم الله عليهم هذا وحط ملكهم فليس في الأرض راية ليهودي، وقال ابن المسيب: فيستحب أن تتعب اليهود في الجزية، ولقد حدث أن طائفة من الروم أملكَّت في صُقعها فباعَت اليهود المجاورة لهم الساكنة معهم وتملكوهم.

ثم حسن في آخر هذه الآية - لتضمنها الإيقاع بهم والوعيد - أن ينبه على سرعة عقاب الله ويخوف بذلك تخويفاً عاماً لجميع الناس، ثم

رَجَى ذَلِكَ لُطْفًا مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَهُمْ﴾ معناه:

فرفقناهم في الأرض، قال الطبري عن جماعة من المفسرين: ما في الأرض بقعة إلا وفيها معشر من اليهود، والظاهر في المشار إليهم في هذه الآية أنهم الذين بعد سليمان وقت زوال ملكهم، والظاهر أنه قبل مدة عيسى عليه السلام لأنه لم يكن فيهم صالح بعد كفرهم بعيسى ﷺ.

وفي التواريخ في هذا الفصل روايات مضطربة، و﴿الْمُتَلَحِّحُونَ﴾ - و﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ ألفاظ محتملة أن يراد بها صلاح الإيمان، ف﴿دُونَ﴾ بمعنى غير يراد بها الكفرة، وإن أريد بالصلاح العبادة والخير وتوابع الإيمان ف﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ يحتمل أن يكون في مؤمنين.

﴿وَيَبْكُونَهُمْ﴾ معناه: امتحنناهم، والحسنات: الصحة والرخاء ونحو هذا مما هو بحسب رأي ابن آدم ونظيره، والسيئات: مقابلات هذه. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي بحسب رأيكم لو شاهدتم ذلك، والمعنى: لعلهم يرجعون إلى الطاعة ويتوبون من المعصية.

﴿١٦٩﴾ - ﴿١٧٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿خَلَفَ﴾ معناه: حدث خلفهم وبعدهم ﴿خَلَفَ﴾ بإسكان اللام، ويستعمل في الأشهر في الدم، ومنه قول لبيد:

دَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ
وَيَقْبِيتُ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ
وقد يستعمل في المدح، ومنه قول حسان:

لَنَا الْقَدَمُ الْأُولَى إِلَيْكَ وَخَلَفْنَا
لَاؤَلَيْنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعْ

والخلف - بفتح اللام - يستعمل - في الأشهر - في المدح، قال أبو عبيدة، والزجاج: وقد يستعمل في الذم أيضاً، ومنه قول الشاعر:

أَلَا ذَلِكَ الْخَلْفُ الْأَعْوَرُ

وقال مجاهد: المراد بالخلف هاهنا النصارى، وضعفه الطبري. وقرأ الحسن البصري: ﴿وَرُؤُوا الْكِتَابَ﴾ بضم الواو وشد الراء، وقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى﴾ إشارة إلى الرشا والمكاسب الخيثة، والقرض: ما يعرض ويعرض ولا يثبت، و﴿الْأَذَى﴾ إشارة إلى عيش الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ذم لهم باغترارهم، وقولهم: «سيغفر» مع علمهم بما في كتاب الله من الوعيد على المعاصي وإصرارهم عليها وأنهم إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها فهؤلاء عجزوا، كما قال ﷺ: «والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»، وهم مُصِرُّون، وإنما يقول سيغفر لنا من أقبل وندم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَخْذَ عَلَيْهِمُ﴾ الآية. تشديد في لزوم قول الحق على الله في الشرع والأحكام بين الناس، وأن لا تميل الرشا بالحكام إلى الباطل. و﴿الْكِتَابَ﴾ يريد به التوراة، وميثاقها: الشدائد التي فيها في هذا المعنى، وقوله: ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ يمكن أن يريد بذلك قولهم الباطل في حكومة مما يقع بين أيديهم، ويمكن أن يريد قولهم: «سَيُغْفَرُ لَنَا» وهم قد علموا الحق في نهي الله تبارك وتعالى عن ذلك. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَقُولُوا﴾

بياء من تحت، وقرأ الجحدري: ﴿تَقُولُوا﴾ بياء من فوق.

وقوله تعالى: ﴿وَدَرَسُوا﴾ معطوف على قوله: ﴿أَلَمْ يَخْذَ﴾ الآية بمعنى الماضي، ويقدر: أليس قد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه؟ وبهذين الفعلين تقوم الحجة عليهم في قولهم الباطل، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «وَأَذَارَسُوا ما فيه»، وقال الطبري وغيره: قوله: ﴿وَدَرَسُوا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَرُؤُوا الْكِتَابَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر لبعد المعطوف عليه، لأن قوله: ﴿وَدَرَسُوا﴾ يزول منه معنى إقامة الحجة بالتقدير الذي في قوله: ﴿أَلَمْ﴾. ثم وعظ وذكر تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آخَرَهُ حَتَّى وَلَّىٰ يَنْتَوُونَ﴾. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ أبو عمرو وأهل مكة: ﴿يَتَّقِلُونَ﴾ بالياء من أسفل.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾ عطف على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَنْتَوُونَ﴾. وقرأ ابن كثير، ونافع، وحزمة، والكسائي، وعاصم - في رواية حفص - وأبو عمرو، والناس: ﴿يَنْتَسِكُونَ﴾ بفتح الميم وشد السين، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأبو العالية، وعصام وحده - في رواية أبي بكر -: ﴿يَنْتَسِكُونَ﴾ بسكون الميم وتخفيف السين، وكلهم خفف ﴿وَلَا تُنْصِكُوا بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، إلا أبا عمرو فإنه قرأ: ﴿وَلَا تَمْسُكُوا﴾ بفتح الميم وشد السين، وقرأ الأعمش: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَفْسَكُوا﴾ وفي حرف

الدار مثل الظلة فيها أمثال المصاييح، فقال النبي ﷺ: «تلك السكينة نزلت للقرآن». فإن قيل: إذا كان الجبل ظلة فما معنى ﴿كَانَتْ﴾؟ فالجواب أن البشر إنما اعتادوا هذه الأجرام الأرضية ظللاً إذا كانت على عُمُد، فلما كان الجبل على غير عُمُد قيل: ﴿كَانَتْ ظِلَّةً﴾، أي: كأنه على عُمُد.

﴿وَلَطَرًا﴾ قال المفسرون: معناه: أيقنوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس الأمر عندي كذلك، بل هو موضع غلبة الظن مع بقاء الرجاء، وكيف يوقنون بوقوعه وموسى عليه السلام يقول: إن الرمي به إنما هو بشرط أن لا يقبلوا التوراة، والظن إنما يقع ويستعمل في اليقين متى كان ذلك المتيقن لم يخرج إلى الحواس، وقد تبين هذا فيما سلف من هذا الكتاب. ثم قيل لهم في وقت ارتفاع الجبل: ﴿حُدُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ فأخذوها والتزموا جميع ما تضمنته من شدة ورخاء فما وفوا. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾، وقرأ الأعمش - فيما حكى أبو الفتح عنه -: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾. وقوله: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ﴾ على ترجيحهم، وهذا تشدّد في حفظها والتهمم بها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الآية. التقدير: واذكر إذ أخذ ربك، وقوله: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ قال النحاة: هو بدل اشتغال من قوله: ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، وألفاظ هذه الآية تقتضي أن الأخذ كان من بني آدم من ظهورهم، وليس لآدم في الآية ذكر بحسب اللفظة، وتواترت الأحاديث في

الحديث، وقد جاء في القرآن بدل هذه اللفظة في هذه القصة بعينها ﴿ورفعنا﴾، لكن ﴿نَنفَخًا﴾ و﴿قُوَّةً﴾ أعطت الرفع بزيادة قرينة هي أن الجبل اقتلعت الملائكة وأمر الله إياه.

وروي أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة فقال عن الله تعالى: هذا كتاب الله، أتقبلونه بما فيه؟ فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم، قالوا: انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرة

وحدها خفيفة قبلناها، قال: أقبلوها بما فيها. قالوا: لا، فراجعهم موسى فراجعوا ثلاثاً فأوحى الله عز وجل إلى الجبل فانقلع وارتفع فوق رؤوسهم، فقال لهم موسى ﷺ: ألا ترون ما يقول ربي؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل، قال الحسن البصري: فلما رأوا إلى الجبل خرواً كل واحد منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرأوا أن يسقط عليه، فلذلك ليس في الدنيا يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه المسجدة التي رفعت بها عنا العقوبة.

و﴿الظِّلَّةُ﴾: ما أظلم، ومنه ﴿فِي ظُلُمٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾، ومنه ﴿عَذَابٌ يَّوْمِ الظِّلَّةِ﴾، ومنه قول أسيد بن حضير للنبي ﷺ: قرأت البارحة فغشي

وَأِذْ نَفَخْنَا فِي جِبَلٍ مَّوْجَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُمْ وَاعُونَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَّاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَأَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَتَنْزِكُهُ أَوْ تَمْنَحْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا كَاذِبِينَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا وَلِيٌّ لَهُمْ فَتَسِيرُونَ ﴿١٧٨﴾

١٧٣

أبني: ﴿وَالَّذِينَ مَسَكُوا﴾، وهما لغتان بمعنى واحد، قال كعب بن زهير: فَمَا تَمَسَّكَ بِالْعَهْدِ الَّذِي رَعِمَتْ إِلَّا كَمَا تَمَسَّكَ الْمَاءُ الْعَرَابِيلُ أما إن شد السين يجري مع الشعدي بالباء.

﴿١٧١﴾ - ﴿١٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿نَنفَخًا﴾ معناه: اقتلعنا ورفعنا، فكأن الننفخ اقتلاع الشيء، تقول العرب: «نشتت الزبدة من فم القرية»، ومنه قول الشاعر:

وَنَشَفُوا أَخْلَامَنَا الْأَثَاغِيلاً
وَالنَّاتِقُ: الرحم التي تقلع الولد من الرجل. ومنه قول النابغة:

لَمْ يُخَرِّمُوا حَسَنَ الْغِذَاءِ وَأَمَهُمْ
دَحَقَتْ عَلَيْكَ بِنَاتِقِي مِذْكَارٍ
وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بتزويج الأبكار فإنهن أنتن أرحاماً وأطيب أفواء»

تفسير هذه الآية عن النبي ﷺ من طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وغيرهما أن الله عز وجل لما خلق آدم (وفي بعض الروايات: لما أهبط آدم إلى الأرض في دهناء من أرض السند، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وفي بعضها أن ذلك بنعمان وهي عرفة وما يليها، قاله أيضاً ابن عباس رضي الله عنهما وغيره) مسح على ظهره (وفي بعض الروايات يمينه، وفي بعض الروايات ضرب منكبه) فاستخرج منها - أي من المسحة أو الضربة - نسمة بنيه، ففي بعض الروايات كالذر، وفي بعضها كالخردل. وقال محمد بن كعب: إنها الأرواح جعلت لها مثالات، وروى عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس، وجعل الله لهم عقولاً كنملة سليمان عليه السلام، وأخذ عليهم العهد بأنهم ربه وأن لا إله غيره، فأقروا بذلك والتزموه، وأعلمهم أنه سيبعث الرسل إليهم مذكرة وداعية، فشهد بعضهم على بعض»، وقال أبي بن كعب: أشهد عليهم السموات السبع، فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد في ذلك اليوم والمقام، وقال السدي: أعطى الكفار يومئذ العهد كارهين على وجه التقية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذه نخيلة مجموع الروايات المطولة، وكأن ألفاظ هذه الأحاديث

لا تلتئم مع ألفاظ الآية، وقد أكثر الناس في روم الجمع بينهما، فقال قوم: إن الآية مشيرة إلى هذا التناسل الذي في الدنيا، و«أَخَذَ» بمعنى: أوجد على المعهود، وأن (الإشهاد) هو عند بلوغ المكلف وهو قد أعطي الفهم، ونصبت له هذه الصنعة الدالة على الصانع، ونحا إلى هذا المعنى الزجاج، وهو معنى تحتمله الألفاظ، لكن يرد عليه تفسير عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهما الآية بالحديث المذكور، وروايتهما ذلك عن النبي ﷺ.

وطول الجرجاني في هذه المسألة، ومدار كلامه على أن المسح وإخراج الذرية من ظهر آدم حسب الحديث، وقيل في الآية: أَخَذَ من ظهورهم، إذ الإخراج من ظهر آدم الذي هو الأصل إخراج من ظهور بنيه الذين هم الفروع، إذ الفرع والأصل شيء واحد، إلى كلام كثير لا يثبت للنقد.

وقال غيره: إن جميع ما في الحديث من مسح بيمينه وضرب منكبه ونحو هذا إنما هو عبارة عن إيجاد ذلك النسمة منه، واليمين عبارة عن القدرة، أو يكون الماسح ملكاً بأمر الله عز وجل فتضمن الحديث صدر القصة وإيجاد النسمة من آدم، وهذه زيادة على ما في الآية، ثم تضمنت الآية ما جرى بعد هذا من أخذ العهد والنسمة حضور موجودون. وهي تحتمل معنيين: أحدهما أن يكون «أَخَذَ» عاملاً في «عهد» أو «ميثاق» تقدره بعد قوله:

«ذُرِّيَّتَهُمْ»، ويكون قوله: «بَنِي ظُهُورَهُمْ» لبيان جنس البنوة، إذ المراد من الجميع التناسل، ويشركه في لفظة «بَنِي» «آدَمَ» بنوه لصلبه وبنيه بالشفقة والحنان، ويكون قوله: «ذُرِّيَّتَهُمْ» بدلاً من «بَنِي» «آدَمَ». والمعنى الآخر أنه لما كانت كل نسمة هنالك لها نسبة إلى التي هي من ظهرها كان تعيين تلك النسبة أخذاً من الظهر إذ استخرج منه، فهي المستأنف، فالمعنى: وإذ عينوا بهذه النسبة وعرفوا بها، فذلك أخذ ما، و«أَخَذَ» - على هذا - عامل في «ذُرِّيَّتَهُمْ» وليس بمعنى مَسَحَ وأوجد، بل قد تقدم إيجادهم كما تقدم في الحديث المذكور، فالحديث يزيد معنى على الآية وهو ذكر آدم وأول إيجاد النسمة كيف كان.

وقال الطُّرُطُوشِي: إن هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة كما يُلْزَمُ الطلاق من شهود عليه به وهو قد نسيه - إلى غير هذا مما ليس بتفسير ولا من طريقه.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «ذُرِّيَّتَهُمْ» جمع جمع، وقرأ ابن كثير، وعاصم، وحمرزة، والكسائي: «ذُرِّيَّتَهُ»، والإفراد هنا جمع، وقد تقدم القول على لفظ الذرية في سورة آل عمران.

وروي في قصص هذه الآية أن الأنبياء عليهم السلام كانوا بين تلك النسمة، وأن آدم عليه السلام رأى داود فأعجبه، فقال: من هذا؟ فقيل: نبي من ذريتك، فقال: كم عمره؟ فقيل: ستون سنة، فقال: زيدوه من

عمري أربعين سنة فزيدت، قال: وكان عمر آدم ألفاً، فلما أكمل تسعمائة وستين جاء ملك الموت فقال له آدم: بقي لي أربعون سنة، فرجع ملك الموت إلى ربه فأخبره، فقال له: قل له: إنك أعطيتها لابنك داود، فتوفي عليه السلام بعد أن خاصم في الأربعين. قال الضحاك بن مزاحم: من مات صغيراً فهو على العهد الأول، ومن بلغ فقد أخذ العهد الثاني، يعني الذي في هذه الحياة المعقولة الآن. وحكى الزجاج عن قوم أنهم قالوا: إن هذه الآية عبارة عن أن كل نسمة إذا ولدت وبلغت فنظرها في الأدلة المنصوبة عهد عليها في أن تؤمن وتعرف الله. وقد تقدّم ذكر هذا القول، وهو قول ضعيف منكّب عن الأحاديث المأثورة مطّرح لها.

وقوله تعالى: ﴿شَهِدْنَا﴾ يحتمل أن يكون من قول بعض النسم لبعض، أي: شهدنا عليكم لثلاث تقولوا يوم القيامة: غفلنا عن معرفة الله والإيمان به، فتكون مقالة من هؤلاء لهؤلاء، ذكره الطبري، وعلى هذا لا يحسن الوقف على قوله تعالى: ﴿بَلَى﴾. ويحتمل أن يكون قوله سبحانه: ﴿شَهِدْنَا﴾ من قول الملائكة فيحسن الوقف على قوله: ﴿بَلَى﴾. قال السدي: المعنى: قال الله وملائكته: شهدنا، ورواه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ.

وقرأ السبعة غير أبي عمرو: ﴿ثُمَّ تَقُولُوا﴾ على مخاطبة حاضرين، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ على الحكاية عن غائبين، وهي قراءة ابن

عباس رضي الله عنهما، وابن جبير، وابن محيصن، والقراءتان تفسران بحسب المعنيين المذكورين. و﴿ثُمَّ﴾ في موضع نصب على تقدير: مخافة أن.

﴿١٧٣﴾ - ﴿١٧٤﴾ تفسير قوله عز وجل: قال القاضي أبو محمد رحمه الله: المعنى في هذه الآيات أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول مُذكر بما تَضَمَّنَه العهد من توحيد الله وعبادته لكانت لهم حُجَّتَان - إحداهما: كنا غافلين، والأخرى: كنا تَبَعًا لَأَسْلَافِنَا فكيف نهلك والذنب إنما هو لمن طرّق لنا وأضلنا، فوقعت شهادة بعضهم على بعض أو شهادة الملائكة عليهم لسنقطع لهم هذه الحجج، والاختلاف في ﴿تَقُولُوا﴾ أو ﴿يَقُولُوا﴾ بحسب الأول.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَنْبِيَاءَ﴾ تقديره: وكما فعلنا هذه الأمور وأنفذنا هذه المقادير فكذلك نفصل الآيات ونُثَبِّئُهَا لِمَنْ عَاصَرَكَ وَيُعْثِتْ إِلَيْهِ. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على ترجيهم وترجيكم وبحسب نظر البشر ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إلى طاعة الله، ويدخلون في توحيدهم وعبادته. وقرأت فرقة: ﴿يُفْضَلُ﴾ بالياء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. ﴿أَنْتَ﴾ معناه: قُصَّ واسرُد، والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على حاضري محمد ﷺ من الكفار وغيرهم، واختلف المتأولون في الذي أوتي الآيات - فقال عبدالله بن مسعود وغيره: هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى عليه السلام إلى

ملك مدين داعياً إلى الله تعالى وإلى الشريعة، وعَلَّمَهُ من آيات الله ما يمكن أن يدعو به وإليه، فلما وصل رشاه الملك وأعطاه على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ففعل، وفَتَنَ الملك به الناس وأضَلَّهُمْ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو رجل من الكنعانيين الجبارين اسمه بلعم، وقيل: بلعام بن عابر، وقيل: ابن أبر، وقيل غير هذا مما ذُكِرَ تطويل، وكان في جملة الجبارين الذين غزاهم موسى عليه السلام، فلما قرب منهم موسى لجؤوا إلى بلعام وكان صالحاً مستجاب الدعوة، وقيل: كان عنده علم من صحف إبراهيم ونحوها، وقال مجاهد: كان رشح للنبوة وأعطى فرشاه قومه على أن يسكت ففعل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مردود لا يصح عن مجاهد، ومن أعطي النبوة فقد أعطي العصمة ولا بُدَّ، ثبت هذا بالشرع، وقد نص معنى ما قلته أبو المعالي في كتاب الشامل، وقيل: كان يعلم اسم الله الأعظم، قاله ابن عباس أيضاً، وهذا الخلاف في المراد بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا﴾، فقال له قومه: ادع الله تعالى على موسى وعسكره، فقال لهم: وكيف أدعو على نبي مرسل؟ فما زالوا به حتى فتنوه، فخرج حتى أشرف على جبل يرى منه عسكر موسى، وكان قد قال لقومه: لا أفعل حتى أستأمر ربي، ففعل فسكت عنه فأخبرهم، فقالوا له: إن الله لم يدع نهيك إلا وقد

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَنفُسٌ لَا يُسْمِعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّغْنَا أَمْرَهُمْ وَلَٰكِن لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٧٦﴾ وَلَهُ أَلْسِنَةٌ لَّسْتُمْ فَادْعُوهُمْ بِأَذْوَادِهِمْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾ وَبَدَّوْنَهُمْ سِجْرًا مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٨﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٠﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨١﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنٍّ إِنِ هُوَ إِلَّا تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّهِمْ ﴿١٨٢﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْبَرَ إِلَهُهُمْ فَيَأْتِي حَادِثٌ يُدْهِمُهُمْ ﴿١٨٣﴾ مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا حَادِثَ لَهُ وَيُدْرِكُهُمْ فِي طَغْيِهِمْ جَحِيمٌ ﴿١٨٤﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّاعَةُ أِيَّانَ تَصْرَسُهَا أَفَلَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾ أَوَلَمْ يَجْعَلْنَا لَوْلِيًّا إِلَهُهٖ فَأَهْوَيْتَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَاتَأْتِيكَ إِلَّا بَشَعَةٌ مِّنْ سَمَوَاتِكَ كَذَّبَ حَتَّىٰ عَنَّا أَفَلَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٦﴾

١٧٦

مصالح العباد، فدعا بواحدة أن ترجع امرأته أجمل النساء فكان ذلك، فلما رأت نفسها كذلك أبغضته واحتقرته، فدعا عليها ثانية فمسخت كلبة، فشفع لها بنوها عنده فدعا لها الثالثة فعادت كما كانت، ثم انصرفت إلى حالها، فذهبت الدعوات.

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: المشار إليه في الآية أمية بن أبي الصلت، وكان قد أوتي علماً، وروي أنه جاء يريد الإسلام فوصل إلى بدر

بعد الوقعة بيوم أو نحوه فقال: من قتل هؤلاء؟ ف قيل: محمد ﷺ، فقال: لا حاجة لي بدين من قتل هؤلاء، فارتد ورجع وقال: الآن حلت لي الخمر - وكان قد حرّمها على نفسه - فمرّ حتى لحق بقوم من ملوك حمير فنادمهم حتى مات.

و «انسلخ» عبارة عن البراءة منها والانفصال والبعث، كالسلخ من الثياب، والجلد، و«اتّبعه» صيّره تابعاً، كذا قال الطبري إما لضلالة رسمها له، وإما لنفسه، وقرأ الجمهور: «فَاتَّبَعَهُ» بقطع الألف وسكون التاء، وهي راجحة لأنها تتضمن أنه لحقه وصار معه، وكذلك «فَاتَّبَعَهُ يَتَّبَعُونَ»، وقرأ الحسن فيما روى عنه هارون «فَاتَّبَعَهُ» بصلة الألف وشذ التاء، وكذلك طلحة بن مصرف بخلاف،

أراد ذلك، فخرج، فلما أشرف على العسكر جعل يدعو على موسى، فتحول لسانه بالدعاء لموسى والدعاء على قومه، فقالوا له: ما تقول؟ فقال: إني لا أملك إلا هذا وعلم أنه قد أخطأ، فروي أنه قد خرج لسانه على صدره، فقال لقومه: إني قد هلكت ولكن لم يبق لكم إلا العيلة، فأخرجوا النساء إلى عسكر موسى على جهة التجرد وغيره ومروهن ألا تمتنع امرأة من رجل فإنهم إذا زنوا هلكوا، ففعلوا، فخرج النساء فزنى بهن رجال بني إسرائيل، وجاء فنحاص بن العيزار بن هارون فانتظم برمحه امرأة ورجلاً من بني إسرائيل ورفعهما على أعلى الرمح، فوقع في بني إسرائيل الطاعون فمات منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً، ثم ذكر المُنْتَمِيز عن أبيه أن موسى عليه السلام قتل بعد ذلك الرجل المنسلخ من آيات الله، قال المهدوي: روي أنه دعا على موسى ألا يدخل مدينة الجبارين فأجيب، ودعا عليه موسى ﷺ أن ينسى اسم الله الأعظم فأجيب، قال الزجاج: وقيل: إن الإشارة إلى منافقي أهل الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وصواب هذا أن يقال: إلى كفار أهل الكتاب لأنه لم يكن منهم منافق، إنما كانوا مجاهرين، وفي هذه القصة روايات كثيرة اختصرتها لتعذر صحتها، واقتصر منها على ما يخص ألفاظ الآية.

وقالت فرقة: المشار إليه في الآية رجل كان قد أعطي ثلاث دعوات مستجابات فترك أن يدعو بها في

وكذلك الخلاف عن الحسن - على معنى لازمه واتبعه بالإغواء حتى أغواه، و«مِنَ الْقَاوِمِ» أي: من الضالين.

١٧٦ - تفسير قوله عز وجل:

يقول الله عز وجل: «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ» فقالت فرقة: معناه: لأخذناه، كما تقول: «رفع الظالم» إذا هلك، والضمير في «بِهَا» عائد على المعصية في الانسلاخ، وابتدأ وصف حاله بقوله تعالى: «وَلَكِنَّهُ» أَخَذَ لِمَا الْأَرْضِ فهي عبارة عن إمهاله وإملاء الله له. وقال ابن أبي نجيج: «لَرَفَعْنَاهُ» معناه: لتوفينا قبل أن يقع في المعصية ورفعناه عنها، والضمير - على هذا - عائد على الآيات، ثم ابتدأ وصف حاله. وقال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة معه: «لَرَفَعْنَاهُ» أي: لشرفنا وذكره

ورفعنا منزلته لدينا بهذه الآيات التي آتيناه، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فالكلام متصل دُكِرَ فيه السبب الذي من أجله لم يرفع ولم يشرف كما فعل بغيره مِمَّنْ أوتي هُدًى.

و﴿أَخْلَدَ﴾ معناه: لازم وتقاَعَصَ وثَبَّتَ، والمُخْلِدُ: الذي يثبت شبابه فلا يفتشاه الشيب، ومنه الخُلْدُ، ومنه قول زهير:

لِمَنِ الدُّبَارُ غَشِيَتْهَا بِالْفَقْدِ
كَالْوُخْيِ فِي حَجَرِ الْمَسِيلِ الْمُخْلِدِ
وقوله تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾
يحتمل أن يريد: إلى شهواتها ولذاتها وما فيها من الملاذ، قاله السدي وغيره، ويحتمل أن يريد بها العبارة عن الأسفل والأخس، كما يقال: فلان في الحضيض، ويتأيد ذلك من جهة المعنى المعقول، وذلك أن الأرض وما ارتكز فيها هي الدنيا، وكل ما عليها فان، من أخلد إليها فقد حُرِمَ حظ الآخرة الباقية.

وقوله تعالى: ﴿فَتَلَهُ كَمَلٍ أَلْكَلِي﴾ قال السدي وغيره: إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأنه كان يلهث كما يلهث الكلب فُشِبَ به صورة وهيئة، وقال الجمهور: إنما شُبَّه به في أنه كان ضالاً قبل أن يُؤْتَى الآيات، ثم أوتيتها فكان أيضاً ضالاً لم تنفعه الآيات، فهو كالكلب في أنه لا يفارق اللَّهْثَ في حال حمل المشقة عليه وتركه دون حمل عليه، وتحريير المعنى: فالشيء الذي تصوره النفوس من حاله هو كالذي تتصور من حال الكلب، وبهذا التقدير يحسن دخول (الكاف) على

(مَثَل)، وَاللَّهْثُ: تنفُسُ بسرعة وتحرك أعضاء الفم معه وامتداد اللسان، وأكثر ما يغتري ذلك مع الحر والتعب، وهو في الفرس: ضَنْجٌ، وخِلْفَةُ الكلب أنه يلهث على كل حال، وذكر الطبري أن معنى: ﴿إِنْ تَحِيلَ عَلَيْهِ﴾ أي تطرده، وحكاه عن مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك داخل في جملة المشقة التي ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ أي: هذا المثل يا محمد مثل هؤلاء القوم الذين كانوا ضالين قبل أن تأتيتهم بالهدى والرسالة، ثم جنتهم بذلك فبقوا على ضلالتهم ولم يتفعلوا بذلك، فمثلهم كمثل الكلب. وقوله: ﴿فَأَقْصَى الْقَصَصِ﴾ أي: اسرد عليهم ما يعلمون أنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا أهل الكتب الماضية ولست منهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ في ذلك فيؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾، قال الزجاج: التقدير: ساء مثلاً مثل القوم، لأن الذي بعد بش ونعم إنما يتفسر من نوعه، كما تقول: بش رجلاً زيد، ولما انحذف (مثل) أقيم ﴿الْقَوْمِ﴾ مقامه، والرفع في ذلك بالابتداء، والخبر فيما تقدم. وقرأ الجحدري: ﴿سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ ورفع ﴿مَثَلُ﴾ على هذه القراءة بـ﴿سَاءَ﴾، ولا تجري (ساء) مجرى (بش) إلا إذا كان ما بعدها منصوباً، قال أبو عمرو الداني: قرأ الجحدري ﴿مَثَلُ﴾ بكسر الميم ورفع اللام، وقرأ

الأعمش: ﴿مَثَلُ﴾ بفتح الميم والثاء ورفع اللام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خلاف ما ذكر أبو حاتم، فإنه قال: قرأ الجحدري، والأعمش: ﴿سَاءَ مَثَلُ﴾ بالرفع.

وخُتِمَت هذه الآيات - التي تضمنت ضلال أقوام والقول فيه - بأن ذلك كله من عند الله، الهداية منه وبخلقه واختراعه، وكذلك الإضلال، وفي الآية تعجب من حال المذكورين، ومن أفضل فقد حكم عليه بالخسران. والثواب والعقاب متعلق بكَسْبِ ابن آدم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ﴾ خبر من الله تعالى أنه خلق لِسُكْنَى جهنم والاحتراق فيها كثيراً، وفي ضمنه وعيد للكفار. و(ذَرَأَ) معناه: خلق وأوجد مع بئ ونشر. وقالت فرقة: اللام في قوله تعالى: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ هي لام العاقبة، أي: ليكون أمرهم ومآلهم لجهنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ليس بصحيح، ولام العاقبة إنما يتصور إذا كان فعل الفاعل لم يقصد به ما يصير الأمر إليه، وهذه اللام مثل التي في قول الشاعر:

يَا أُمَّ فَرَزُو كَفِي اللَّوْمِ وَاعْتَرَفِي
فَكُلُّ الْوِدْءِ لِلْمُنْتَأَى تَلِدُ
وأما هنا فالفعل قصد به ما يصير الأمر إليه من سُكْنَاهُمْ جهنم، وحكى الطبري عن سعيد بن جبير أنه قال: «أولاد الزنى مما ذرأ الله لِجَهَنَّمَ»، ثم أسند فيه حديثاً من طريق عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿كَذِبُوا﴾ وإن كان ليس بنص في أن الكفار أكثر من المؤمنين فهو ناظر إلى ذلك في قول النبي ﷺ: «قال الله لأدم: أخرج بعث النار، فأخرج من كل ألف تسعة وتسعين وتسعمائة».

﴿١٧٩﴾ - ﴿١٨٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

وَصِفَتْ هَذِهِ الصُّفَّةُ الْكَافِرَةَ الْمَعْرُضَةَ عَنِ النَّظَرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِأَنْ قُلُوبِهِمْ لَا تَفْقَهُ، وَأَعْيُنُهُمْ لَا تَبْصُرُ، وَأَذْنُهُمْ لَا تَسْمَعُ، وَلَيْسَ الْغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ نَفْسِي هَذِهِ الْإِدْرَاكَاتِ عَنْ حَوَاسِهِمْ جَمَلَةً، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ نَفْسِي فِي جِهَةِ مَا كَمَا تَقُولُ: فَلَانِ أَصَمُّ عَنِ الْخَبَرِ، وَمِنْهُ قَوْلُ مُسْكِينِ الدَّارِمِيِّ:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ
حَتَّى يُؤَارِي جَارَتِي السُّنْزُ
وَأَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا
عَفْدًا وَمَا بِالسُّنْعِ مِنْ وَثَرٍ
ومنه قول الآخر:

وَعَوَزَاءِ الْكَلَامِ صَمَفَتْ عَنْهَا
وَلَوْ أَتَى أَشْءًا بِهَا سَمِيعٌ
وَبَادِرَةً وَزَعَتْ السُّفْسُ عَنْهَا
وقد بَقِيَتْ مِنَ الْقَضْبِ الضُّلُوعُ
ومنه قول الآخر في وصاة من يدخل إلى دار ملك:

وَادْخُلْ إِذَا مَا دَخَلْتَ أَعْمَى
وَاخْرُجْ إِذَا مَا خَرَجْتَ أَخْرَسُ
فَكَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَمَّا لَمْ يَنْفَعِهِمُ النَّظَرُ بِالْقَلْبِ وَلَا بِالْعَيْنِ وَلَا مَا سَمِعُوهُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمَوَاعِظِ اسْتَوْجَبُوا الْوَصْفَ بِأَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ وَلَا يَبْصُرُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ، وَفَسَّرَ مُجَاهِدٌ هَذَا بِأَنْ قَالَ: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ،

وَأَعْيُنٌ لَا يَبْصُرُونَ بِهَا الْهَدَى، وَأَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا الْحَقَّ. وَ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره من الكفرة، وشبههم بالأنعام في أن الأنعام لا تفقه قلوبها الأشياء، ولا تعقل المقاييس، وكذلك ما تبصره لا يتحصل لها كما يجب، فكذا ذلك هؤلاء ما يبصرونه ويسمعونه لا يتحصل لهم منه علم على ما هو به حين أبصر وسمع. ثم حكم عليهم بأنهم أضل، لأن الأنعام تلك هي بِئِثْنُهَا وَخَلَقْتُهَا، لَا تَقْصُرُ فِي شَيْءٍ، وَلَا لَهَا سَبِيلٌ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَهَؤُلَاءِ مُعْذُونٌ لِلْفَهْمِ، وَقَدْ خُلِقَتْ لَهُمْ قُوَى يُصَرِّفُونَهَا، وَأَعْطُوا طَرَقًا فِي النَّظَرِ، فَهُمْ - بِغَفْلَتِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ - يَلْحَقُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْأَنْعَامِ، فَهُمْ أَضَلُّ عَلَى هَذَا. ثُمَّ بَيَّنَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الطَّرِيقَ الَّذِي بِهِ صَارُوا أَضَلُّ مِنَ الْأَنْعَامِ وَهُوَ الْغَفْلَةُ وَالْتَقْصِيرُ.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّهِ الْأَسْمَاءُ الْكُسُفِيُّ﴾ الآية. السبب في هذه الآية على ما رُوي أن أبا جهل سمع بعض أصحاب النبي ﷺ يقرأ فيذكر الله في قراءته، ومرة يقرأ فيذكر الرحمن. ونحو هذا فقال: محمد يزعم أن الإله واحد وهو إنما يعبد آلهة كثيرة، فنزلت هذه.

و﴿الْأَسْمَاءُ﴾ هنا بمعنى: التسميات إجماعاً من المتأولين لا يمكن غيره و﴿الْكُسُفِيُّ﴾ مصدر وصف به، ويجوز أن تقدر ﴿الْكُسُفِيُّ﴾ فُغْلَى مؤنثة (أحسن) فأفرد وصف جميع ما لا يعقل، كما قال: ﴿مَنَارِبُ أَخْرَى﴾، وكما قال: ﴿يَجِئَالُ أُرْبَى﴾

مَعَهُ، وهذا كثير. وَحُسْنُ الْأَسْمَاءِ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ بِتَحْسِينِ الشَّرْعِ لِإِطْلَاقِهَا، وَالنَّصُّ عَلَيْهَا، وَانْضَافَ إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّهَا إِنَّمَا تَضَمَّنَتْ مَعَانِي حَسَنًا شَرِيفَةً.

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْأَسْمِ الَّذِي يَقْتَضِي مَدْحًا خَالِصًا وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ شُبْهَةٌ وَلَا اشْتِرَاكٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُنْصَوِّبًا - هَلْ يُطْلَقُ وَيُسَمَّى اللَّهُ بِهِ؟ - فنص ابن الباقلاني على جواز ذلك، ونص أبو الحسن الأشعري على منع ذلك، والفقهاء والجمهور على المنع، وهو الصواب ألا يُسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا بِاسْمٍ قَدْ أُطْلِقَتْهُ الشَّرِيعَةُ وَوَقِفَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا، فَإِنْ هَذِهِ الشَّرِيطَةُ الَّتِي فِي جَوَازِ إِطْلَاقِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَدْحًا خَالِصًا لَا شُبْهَةَ فِيهِ وَلَا اشْتِرَاكٌ أَمْرٌ لَا يَحْسُنُهُ إِلَّا الْأَقْلُ مِنْ أَهْلِ الْعُلُومِ، فَإِذَا أُبِيحَ ذَلِكَ تَسَوَّرَ عَلَيْهِ مَنْ يَظُنُّ بِنَفْسِهِ الْإِحْسَانَ وَهُوَ لَا يَحْسُنُ، فَأَدْخَلَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ مَا لَا يَجُوزُ إِجْمَاعًا.

وَاخْتَلَفَ أَيْضًا فِي الْأَفْعَالِ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَنْتَهِزُهُ بِرَبِّهِ﴾، ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾، ونحو ذلك - هَلْ يُطْلَقُ مِنْهَا اسْمُ الْفَاعِلِ؟ - فقالت فرقة: لَا يُطْلَقُ ذَلِكَ بِوَجْهِهِ، وَجَوَّزَتْ فِرْقَةٌ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ مُقْتَدًا بِسَبَبِهِ، فَيُقَالُ: «اللَّهُ مُسْتَهْزِئٌ بِالْكَافِرِينَ» وَمَاكَزَ بِالَّذِينَ يَمْكُرُونَ بِالَّذِينَ، وَأَمَّا إِطْلَاقُ ذَلِكَ دُونَ تَقْيِيدِ فَمَمْنُوعٌ إِجْمَاعًا. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَقْوَى، وَلَا ضَرُورَةَ تَدْفِعُ إِلَى الْقَوْلِ الثَّانِي لِأَنَّ صِيغَةَ الْفِعْلِ الْوَارِدَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَغْنِي، وَمِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ، وَمِنْهَا مَا

ورد في الحديث وتواتر، وهذا هو الذي ينبغي أن يعتمد عليه. وقد ورد في الترمذي حديث عن أبي هريرة ونص فيه تسعة وتسعين اسماً، وفي بعضها شذوذ، وذلك الحديث ليس بالمتواتر، وإنما المتواتر منه قول النبي ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، ومعنى أحصاها: عدّها وحفظها، وتضمن ذلك الإيمان بها والتعظيم لها والرغبة فيها والعبرة في معانيها، وهذا حديث البخاري، والمتحصل منه أن الله تبارك وتعالى هذه الأسماء مباحاً إطلاقاً. وورد في بعض دعاء النبي ﷺ: «يَا حَنَّانُ يَا مَنَّانُ»، ولم يقع هذان الاسمان في تسمية الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ إباحة بإطلاقها، وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ﴾ قال ابن زيد: معناه: اتركوهم ولا تحاجوهم ولا تعرضوا لهم، فالآية - على هذا - منسوخة بالقتال، وقيل: معناه الوعيد كقوله تبارك وتعالى: ﴿ذَرِي وَمَنْ خَلَقْتُ رَجِدًا﴾، وقوله: ﴿ذَرَفُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبُونَ﴾. ويقال: أَلْحَدَ وَلَحَدَ بمعنى جازَ ومالَ وانحرف، وأَلْحَدَ: أَشْهَرَ، ومنه قول الشاعر:

.....

لَيْسَ الْإِمَامُ بِالشَّحِيحِ الْمُنْجِدِ
قال أبو علي: ولا يكاد يسمع لأحد، وفي القرآن ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْكَافِ﴾، ومنه لحد القبر المائل إلى أحد شقيّه.

وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿يَلْحَدُونَ﴾

بضم الياء وكسر الحاء، وكذلك في النحل والسجدة. وقرأ حمزة الأحرف الثلاثة: ﴿يَلْحَدُونَ﴾ بفتح الياء والحاء، وكذلك ابن وثاب، وطلحة، وعيسى، والأعمش. ومعنى الإلحاد في أسماء الله عز وجل أن يُسَمُّوا اللات نظيراً إلى اسم الله تعالى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والغزّي نظيراً إلى العزيز، قاله مجاهد، ويسمّون الله ربّاً ويسمون أوثانهم أرباباً، ونحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَمَكُونُ﴾ وعيد محض بعذاب الآخرة، وذهب الكسائي إلى الفرق بين أَلْحَدَ وَلَحَدَ، وزعم أن أَلْحَدَ بمعنى مال وانحرف، وَلَحَدَ بمعنى ركن وانضوى، قال الطبري: وكان الكسائي يقرأ جميع ما في القرآن بضم الياء وكسر الحاء إلا التي في النحل فإنه كان يقرؤها بفتح الياء والحاء ويزعم أنها بمعنى الركون، وكذلك ذكر عنه أبو علي.

١٨١ - تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تتضمن الخبر عن قوم مخالفين لمن تقدم ذكرهم في أنهم أهل إيمان واستقامة وهداية. وظاهر لفظ هذه الآية يقتضي كل مؤمن كان من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة. قال النحاس: فلا تخلو الدنيا في وقت من الأوقات من داع يدعو إلى الحق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: سواء بَعْدَ صوته أو كان خاملاً.

وروي عن كثير من المفسرين أنها في أمة محمد ﷺ، وروي في ذلك

حديث رسول الله ﷺ قال: «هذه الآية لكم، وقد تقدم مثلها لقوم موسى».

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الآية وعيد. والإشارة إلى الكفار، و﴿سَيَنْتَلِجُهُمْ﴾ معناه: سنسوقهم شيئاً بعد شيء ودرجة بعد درجة بالنعم عليهم والإمهال لهم حتى يغتروا ويظنوا أنهم لا ينالهم عقاب. وقوله تعالى: ﴿يَنْتَلِجُونَ﴾ معناه: من حيث لا يعلمون أنه استدراج لهم، وهذه عقوبة من الله على التكذيب بالآيات، لما حَتَمَ عليهم بالعذاب أملى لهم ليزدادوا إثماً. وقرأ ابن وثاب، والنخعي: ﴿سَيَنْتَلِجُهُمْ﴾ بالياء.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لِي﴾ معناه: أَوْخِرْ مُلَأَةً من الدهر، أي مُدَّة. وفيها ثلاث لغات: فتح الميم وضمها وكسرهما. وقرأ عبد الحميد عن ابن عامر: ﴿أَنْ كَيْدِي﴾ على معنى: لأجل أن كيدي، وقرأ جمهور الناس وسائر السبعة: ﴿إِنِّي كَيْدِي﴾ على القطع والاستئناف.

و﴿مَنْ﴾ معناه: قوي، قال الشاعر:

لَا لِي عَلَيْنَا وَاجِبٌ لَا نُضِيعُهُ
مَتَّيْنِ قَوَاهُ غَيْرُ مُتَّكِكِ الْخَبْلِ
وروي ابن إسحق في هذا البيت «أمين قواه». وهو من المثن الذي يُحْمَلُ عليه لقوته، ومنه قول الشاعر وهو امرؤ القيس:

لَهَا مَثْنَتَانِ خَطَانَا كَمَا
أَكْبَ عَلَى سَاعِدَيْهِ الثُّبُرِ
وهما جنبتا الظهر، ومنه قول الآخر:

عَذَلْنَ عُدُولَ الْيَأْسِ وَافْتَحَ يَنْتَلَى
أَفَانِينَ مِنْ أَلهُوبٍ شَدَّ مَمَاتِنَ
ومنه قول امرئ القيس:

وَيُخْذِي عَلَى صُمِّ صِلَابٍ مَلَا طِسْ
شَدِيدَاتٍ عَقْدَ لَيْنَاتٍ مِثْلَانِ

ومنه الحديث في غزوة بني
المُضَطَّلَقِ: (قَمَتَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
بِالنَّاسِ) أَي: سار بهم سيراً شديداً
لينقطع الحديث بقول ابن أبي ابن
سلول: «لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ»
الآية.

وقوله تعالى: «أَوَلَمْ يَنْتَكِرُوا مَا
يَصْحَابُهُمْ» الآية. تقرير يقارنه توبيخ
للكفار، والوقف على قوله: «أَوَلَمْ
يَنْتَكِرُوا»، ثم ابتدأ القول بنفي ما
ذكروه: «مَا يَصْحَابُهُمْ مِنْ جِنَّةٍ» أَي
بمحمد ﷺ، ويحتمل أن يكون
المعنى: أولم يتفكروا أنه ما
بصاحبهم من جنة؟

وسبب نزول هذه الآية فيما روي
أن رسول الله ﷺ صعد ليلاً على
الصفا فجعل يدعو قبائل قريش: يا
بني فلان، يا بني فلان، يحذرهم
ويدعوهم إلى الله، فقال بعض
الكفار حين أصبحوا: هذا مجنون
بات يصوت حتى الصباح فنفي الله
عز وجل ما قالوه من ذلك في هذا
الموطن المذكور وفي غيره، فإن
الجنون بعض ما رُمِوه به حتى
أظهر الله نوره، ثم أخبر أنه نذير أي
مُحَذَّر من العذاب، ولفظ النذارة إذا
جاء مطلقاً فإنما هو في الشر، وقد
يستعمل في الخير مقيداً به، ويظهر
من رصف الآية أنها باعثة لهم على
الفكرة في أمر محمد ﷺ، وأنه ليس

به جنة، وكما أحالهم بعد هذه الآية
على النظر ثم بين المنظور فيه كذلك
أحال هنا على الفكرة ثم بين المتفكر
فيه.

وقوله تعالى: «أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي
مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ
مِنْ شَيْءٍ» الآية. هذا أيضاً توبيخ
للكفار وتقدير، والنظر هنا بالقلب
عبرة وفكراً. و«مَلَكُوتُ» بناء عظمة
ومبالغة، وقوله سبحانه: «وَمَا خَلَقَ
اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ» لفظ يعم جميع ما
ينظر فيه ويُستدل به، من الصنعة
الذالة على الصانع، ومن نفس
الإنس وحواشيه ومواضع رزقه.
والشيء واقع على الموجودات.
وقوله: «وَأَنْ عَسَىٰ» عطف على
قوله: «فِي مَلَكُوتٍ». «وَأَنْ» الثانية
في موضع رفع بعسى، والمعنى
توقيفهم على أنه لم يقع لهم نظر في
شيء من هذا، ولا في أنه قربت
آجالهم فماتوا ففات أوان الاستدراك
ووجب عليهم المحذور. ثم وقفهم
بأي حديث أو أمر يقع إيمانهم
وتصديقهم إذا لم يقع بأمر فيه
نجاتهم ودخولهم الجنة؟ ونحو هذا
قول الشاعر:

وَعَنْ أَيِّ نَفْسٍ بَعْدَ نَفْسِي أَقَاتِلُ؟

والضمير في قوله سبحانه:
«يَعَذِّبُهُ» يراد به القرآن، وقيل:
المراد به محمد ﷺ وقضته وأمره
أجمع، وقيل: هو عائد على الأجل
إذ لا عمل بعد الموت.

١٨٦ - ١٨٧ تفسير قوله عز وجل:

هذا شرط وجواب مضمنه اليأس
منهم والمقت لهم، لأن المراد

أن هذا قد نزل بهم وأنهم مثال
لهذا.

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر،
والحسن، وأبو جعفر، والأعرج،
وشيبة، وأبو عبد الرحمن، وقتادة
«وَنَذَرُهُمْ» بالنون ورفع الراء،
وكذلك عاصم في رواية أبي بكر،
وروى عنه حفص «وَيَذَرُهُمْ» بالياء
والرفع، وقرأها أهل مكة، وهذا
على إضمار مبتدأ: «ونحن نذرهم»،
أو على قطع الفعل واستئناف القول.
وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو.
فيما ذكر أبو حاتم - بالياء والجزم،
وقرأها كذلك طلحة بن مصرف،
والأعمش «وَيَذَرُهُمْ» بالياء والجزم
عطفاً على موضع الفاء وما بعدها من
قوله تعالى: «فَكَلاَ هَادِي لُذٍّ» لأنه
موضع جزم، ومثله قول أبي داود:

فَابْلُؤُنِي بِلَيْتِكُمْ لَعَلِّي
أَصَالِحُكُمْ وَأَسْتَدْرِجُ نَوِيَّا
ومنه قول الآخر:

أَتَى سَلَكْتُ فَلَإِنِّي لَكَ كَاثِبٌ
وَعَلَى اثْنَيْفَاصِكَ فِي الْحَيَاةِ وَأَزْدٌ
قال أبو علي: ومثله في الحمل
على الموضع قوله تعالى: «لَوْلَا
أَخَّرَجَ إِلَيَّ أَجَلٌ قَرِيبٌ فَأَسَدَكَ وَأَكُنَّ
مِنَ الصَّالِحِينَ»، لأنك لو لم تلحق
الفاء لقلت (أَصْدَقُ)، وروى خارجة
عن نافع: «وَنَذَرُهُمْ» بالنون
والجزم. والطغيان: الإفراط في
الشيء، وكأنه مستعمل في غير
الصلاح، والعَمَّة: الحيرة.

وقوله تعالى: «يَسْتَلُوكَ عَنِ السَّمَوَاتِ»
الآية. قال قتادة بن دَعَامَةَ: المراد:
يسألك كفار قريش، وذلك أن قريشاً

عَنْهَا الآية، قال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: المعنى: يسألونك عنها كأنك حفي، أي: متحف ومهتبل، وهذا ينحو إلى ما قالت قرش: إنا قرابتك فأخبرنا. وقال مجاهد أيضاً، والضحاك، وابن زيد: معناه: كأنك حفي في المسألة عنها والاشتغال بها حتى حصلت على علمها. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما - فيما ذكر أبو حاتم -: «كأنك حفي بها»، لأن «حَفِيٌّ» معناه: مهتبل مجتهد في السؤال مبالغ في الإقبال على ما يسأل عنه، وقد يجيء (حفي) وصفاً للسؤال، ومنه قول الشاعر:

فَلَمَّا التَّقَيْنَا بَيْنَ السِّيفِ بَيْنَنَا
لِسَائِلَةٍ عَنَّا حَفِيٌّ سَوَّالُهَا
ومن المعنى الأول الذي يجيء فيه (حفي) وصفاً للسائل قول الآخر:

سُؤَالَ حَفِيٍّ عَنْ أَخِيهِ كَأَنَّهُ
يُذَكِّرْتَهُ وَنَسْنَأُ أَوْ مُتَوَائِسُنْ
ثم أمره ثانية بأن يُسَلِّمَ لعلمه تأكيداً للأمر وتهماً به إذ هو من الغيوب الخمسة التي في قوله عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ
الْكَافَّةَ﴾ الآية، وقيل: العلم الأول علم قيامها والثاني علم كُنْهها وحالها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال الطبري: معناه: لا يعلمون أن هذا الأمر لا يعلمه إلا الله، بل يظن أكثرهم أنه مما يعلم البشر.

﴿١٨٨﴾ - ﴿١٨٩﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا أمر في أن يبالغ في الاستسلام ويتجرد من المشاركة في قدرة الله وغيبه، وأن يصف نفسه لهؤلاء

قال أبو الفتح: وزن (آيات) بفتح الهمزة: فعلان، ويكسرهما: فعلان، والنون فيهما زائدة. و﴿مُرْسَهَا﴾ رفع بالابتداء، والخبر «إِيَّانَ»، ومذهب المبرد أن «مُرْسَهَا» مرتفع بإضمار فعل، ومعناه: مثبتها ومتنهاها، مأخوذة من أُرْسِي يُرْسِي. ثم أمر الله عز وجل بالرد إليه والتسليم لعلمه. و﴿يَحْيَا﴾ معناه: يظهرها. والجلاء: البيئة والشهود، وهو مراد زهير بقوله:

يَمِينٌ أَوْ يَفَارُ أَوْ جِلَاءُ
وقوله تعالى: ﴿فَلَنَكُنَّ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ قال السدي، ومعمر عن بعض أهل التأويل: معناه: ثَقُلَ أَنْ تُعْلَمَ ويوقف على حقيقة وقتها. قال الحسن بن أبي الحسن: معناه: ثقلت هيئتها والفرع منها على أهل السموات والأرض، كما تقول: خيف العدو في بلد كذا وكذا، وقال قتادة، وابن جريج: معناه: ثقلت على السموات والأرض أنفسها لِتَقْطُرَ السموات وَتَبْدُلَ الأرض وَتُسْفِ الجبال، ثم أخبر تعالى خبراً يدخل فيه الكل: إنها لا تأتي إلا بغتة، أي فجأة دون أن يتقدم منها علم بوقتها عند أحد من الناس، و﴿بَقَّةٌ﴾ مصدر في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ

قُلْ لَا أَمَّا لِي نَفْسٍ تَعْمَلُ لَاحِظًا لِمَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ
أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ
أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا
فَلَاحَ حَمَلُهَا حَمَلًا خَفِيًّا فَهَمَزَتْ بِهِ فَلَمَّا أَفْلَحَ دَعَا
اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾
فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَفَعَلَى
اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ إِنْشِرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُظَلِّفُونَ
﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى الْهَدْيِ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا دَعَاؤُهُمْ
أَمْ أَنْتُمْ مُصِرُّونَ ﴿١٩٣﴾ إِنْ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
عِبَادُ أَثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَمْ يَأْتِ بِمُتَشَوِّبَاتٍ بِهَا أَمْ لَهُمْ
أَيُّدٌ يَبْسُطُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾

١٧٥

قالت: يا محمد إنا قرابتك فأخبرنا بوقت الساعة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بالآية اليهود، وذلك أن جبل بن أبي قشير، وسمويل بن زيد قالاه: إِنْ كُنْتُ نَبِيًّا فَأَخْبِرْنَا بِوَقْتِ السَّاعَةِ فَإِنَا نَعْرِفُهَا، فَإِنْ صَدَقْتَ أَمْنَا بِكَ.

و﴿السَّاعَةُ﴾: القيامة، موت كل شيء كان حينئذ حياً وبعث الجميع هو كله يقع عليه اسم الساعة واسم القيام. و﴿إِيَّانَ﴾ معناها: متى. وهو سؤال عن زمان، ولتضمنها الوقت بُيِّنَتْ، وقرأ جمهور الناس: ﴿إِيَّانَ﴾ بفتح الهمزة، وقرأ السلمي: ﴿إِيَّانَ﴾ بكسر الهمزة، وشبه أن يكون أصلها «أَيَّيَّيَّ» وهي مبنية على الفتح. وقال الشاعر:

إِيَّانَ تَقْضِي حَاجَتِي إِيَّانَا
أَمَا تَرَى لِيُغْلِيهَا إِيَّانَا؟

السائلين بصفة من كان بها فهو حرّياً
ألا يعلم غيباً ولا يدعيه، فأخبر أنه
لا يملك من منافع نفسه ومضارها إلا
ما سئى الله له وشاء ويُسّر، وهذا
الاستثناء منقطع، وأخبر أنه لو كان
يعلم الغيب لعمل بحسب ما يأتي
ولا استعداد لكل شيء استعداداً من يعلم
قدر ما يستعد له، وهذا لفظ عام في
كل شيء، وقد خصص الناس هذا
فقال ابن جريج، ومجاهد: لو كنت
أعلم أجلي لاستكثرت من العمل
الصالح، وقالت فرقة: أوقات النصر
لتوخيئتها، وحكى مكى عن ابن
عباس رضي الله عنهما أن معنى ﴿لو﴾
كنت أعلم، السنة المجدبة لأعددت
لها من المخصبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وألفاظ الآية تعم هذا وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا سَنِي﴾ يحتمل
وجهين وبكليهما قيل. أحدهما: أن
﴿مَا﴾ معطوفة على قوله:
﴿لَسْتُ كَثُرْتُ﴾ أي: وَلَمَّا مَسَّنِي
السوء. والثاني أن يكون الكلام
مقطوعاً تمّ في قوله: ﴿لَسْتُ كَثُرْتُ بِنِ
الْخَيْرِ﴾ وابتدأ يخبر بنفي السوء عنه
وهو الجنون الذي رموه به. قال
المؤرّج السدوسي: السوء: الجنون
بلغة هذيل. ثم أخبر بجُملة ما هو
عليه من النذارة والبشارة. و﴿لَقَوِي
يَوْمَئِذٍ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما:
أن يريد أنه نذير ويشير لقوم يُطلب
منهم الإيمان ويُذعون إليه وهؤلاء
الناس أجمع، والثاني: أن يخبر أنه
نذير ويتم الكلام، ثم يبتدئ يخبر
أنه يشير للمؤمنين به، ففي هذا وعد
لَمَنْ حصل إيمانه.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن
نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الآية. قال جمهور
المفسرين: المراد بالنفس الواحدة
آدم عليه السلام، ويقولون تعالى:
﴿وَجَعَلْنَا مِنْهَا رَوْحَهَا﴾ وقوله:
﴿يُنْثَى﴾ يريد: ما تقدم ذكره من أن
آدم نام فاستخرجت قصرى أصلعه
وخلقت منها حواء وقوله تعالى:
﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: لِيَأْتِس
ويطمئن، وكان هذا كله في الجنة.

ثم ابتدأ بحالة أخرى هي في الدنيا
بعد هبوطهما فقال: ﴿فَلَمَّا تَشُنَّهَا﴾
أي: غشيها، وهي كناية عن
الجماع، والحمل الخفيف هو المني
الذي تحمله المرأة في فرجها. وقرأ
جمهور الناس: ﴿حَمَلًا﴾ بفتح
الحاء، وقرأ حماد بن سلمة عن ابن
كثير: ﴿جَمَلًا﴾ بكسر الحاء. وقوله
تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: استمرت
به، قال أيوب: سألت الحسن عن
قوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ فقال: لو
كنت امرأ عريباً لعرفت ما هي، إنما
المعنى: فاستمرت به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقدّره قوم على القلب كأن المراد:
فاستمر بها، كما تقول: أدخلت
القلنسوة في رأسي، وقرأ يحيى بن
يَعْمَر، وابن عباس رضي الله عنهما -
فيما ذكر النقاش -: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾
بتخفيف الراء، ومعناه: فشكت فيما
أصابها هل هو حَمَلٌ أو مرض ونحو
هذا. وقرأ ابن عباس: ﴿فَاسْتَمَرَّتْ
بِهِ﴾، وقرأ ابن مسعود: ﴿فَاسْتَمَرَّتْ
بِحَمْلِهَا﴾، وقرأ عبدالله بن عمرو بن
العاص: ﴿فَمَارَتْ بِهِ﴾ ومعناه: أي
جاءت به وذهبت وتصرفت كما

تقول: مارت الريح موراً. و﴿ثَنَّتْ﴾
دخلت في الثقل، كما تقول: أصبح
وأمسى، أي: صارت ذات ثقل،
كما تقول: أثمر الرجل وألبن إذا
صار ذا ثمر ولبن. والضمير في
﴿عَوًا﴾ يعود على آدم وحواء.

وروي في قصص هذه الآية أن
حواء لما حملت أول حمل لها لم
تدر ما هو، وهذا يقوي قراءة من قرأ
﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ بتخفيف الراء،
فجزعت لذلك فوجد إبليس إليها
السييل، فقال لها: ما يدريك ما في
جوفك؟ ولعله خنزير أو حية أو
بهيمة في الجملة. وما يدريك من
أين يخرج؟ أَيْشَقُّ له بطنك فتموتين
أو من فمك أو من أنفك؟ ولكن إن
أطعنتي وسميته عبدالحارث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
«والحارث اسم إبليس» فسأخلصه
لك وأجعله بشراً مثلك، وإن أنت لم
تفعلي قتلتك، قال: فأخبرت
حواء آدم فقال لها: ذلك صاحبنا
الذي أغوانا في الجنة، لا نطيعه،
فلما ولدت سميته عبدالله، فمات
الغلام، ويروى أن الله سلط إبليس
على قتله، فحملت بآخر ففعل بها
مثل ذلك، فحملت بالثالث، فلما
ولدت أغوانا إبليس فسمياه
عبدالحارث حرصاً على حياته، فهذا
هو الشرك الذي جعل الله، أي في
التسمية فقط.

و﴿صَلِيمًا﴾ قال الحسن: معناه:
غلاماً. وقال ابن عباس
رضي الله عنهما - وهو الأطهر -:
بشراً سوياً سليماً. ونصبه على
المفعول الثاني، وفي «المشكل»

لمكي أنه نعت لمصدر أي: أتيا صالحاً. وقال قوم: إن المعنى في هذه الآية التبيين عن حال الكافرين، فعُدَّ النعم التي تعم الكافرين وغيرهم من الناس، ثم قرن ذلك بفعل المشركين السيئ فقامت عليهم الحجة ووجب العقاب، وذلك أنه قال مخاطباً لجميع الناس: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا ذَوِّجَهُمْ﴾ يريد آدم وحواء، أي: واستمرت حالكم واحداً كذلك، فهذه نعمة تخص كل أحد بجزء منها، ثم جاء قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَخَسَّسْنَاهُمْ﴾ إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً، أي هكذا يفعلون، فإذا آتاهم الله الولد صالحاً سليماً كما أَرَادَهُ صرفاه عن الفطرة إلى الشرك، فهذا فعل المشركين الذي قامت الحجة فيه باقترانه مع النعمة العامة. وقال الحسن بن أبي الحسن - فيما حكى عنه الطبري -: معنى الآية: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إشارة إلى الروح الذي ينفخ في كل أحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أي: خلقكم من جنس واحد وجعل الإنث منهُ، ثم جاء قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَخَسَّسْنَاهُمْ﴾ إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً على ما تقدّم من الترتيب في القول الذي قبله.

(١٩٠) - (١٩٣) تفسير قوله عز وجل:

يقال: إن الآية المتقدمة هي في آدم وحواء، وإن الضمير في قوله: ﴿فَلَمَّا تَخَسَّسْنَاهُمْ﴾ عائد عليهما، ويقال: إن

الشرك الذي جعله هو في الطاعة، أي أطاعا إبليس في التسمية بعبد الحارث، لكنهما كانا في غير ذلك مطيعين لله، وأسند الطبري في ذلك حديثاً من طريق سمرة بن جندب. ويحتمل أن يكون الشرك في أن جعلاً عبوديته بالاسم لغيره. وقال الطبري والسدي في قوله تعالى: ﴿فَتَنَزَّلَ اللَّهُ عَنَّا يُفَرِّقُونَ﴾: إنه كلام منفصل ليس من الأول، وإن خبر آدم وحواء تم في قوله: ﴿فَلَمَّا تَخَسَّسْنَاهُمْ﴾، وإن هذا كلام يراد به مشركو العرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تحكم لا يساعده اللفظ، ويُنَجَّه أن يقال: تعالى الله عن ذلك اليسير المتهوم من الشرك في عبودية الاسم، ويبقى الكلام في جهة أبوين آدم وحواء عليهما السلام. وجاء الضمير في ﴿يُفَرِّقُونَ﴾ ضمير جمع لأن إبليس مُذَبَّرٌ معهما تسمية الولد عبد الحارث. ومن قال: «إن الآية المتقدمة إنما الغرض منها تعديد النعمة في الأزواج وفي تسهيل النسل والولادة ثم ذكر سوء فعل المشركين بعقب ذلك» قال في الآية الأخيرة: إنها على ذلك الأسلوب، وإن قوله تعالى: ﴿فَتَنَزَّلَ اللَّهُ عَنَّا يُفَرِّقُونَ﴾ المراد بالضمير فيه: المشركون، والمعنى في هذه الآية: فلما أتى الله هذين الإنسانين صالحاً أي سليماً ذهباً به إلى الكفر، وجعل الله فيه شركاء، وأخرجاه عن الفطرة. ولفتة الشرك تقتضي نصيبين، فالمعنى: وجعل الله فيه

ذا شرك، لأن إبليس أو أصنام المشركين هي المفعولة، والأصل أن الكل لله تعالى. وبهذا حلّ الزجاج اعتراض من قال: ينبغي أن يكون الكلام: «جعلاً لغيره شركاً».

وقرأ نافع، وعاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿شُرَكَاءُ﴾ بكسر الشين وسكون الراء على المصدر، وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما، وأبي جعفر، وشيبة، وعكرمة، ومجاهد، وعاصم، وأبان بن ثعلب. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم ﴿شُرَكَاءُ﴾ على الجمع، وهي بَيِّنَةٌ على هذا التأويل الأخير، وقلقة على قول من يقول: «إن الآية الأولى في آدم وحواء»، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً أَشْرَكْنَا فِيهِ﴾، وذكر الطبري في قصص آدم وحواء وإبليس في التسمية بعبد الحارث، وفي صورة مخاطبتهم أشياء طويلة لا يقتضي الاختصار ذكرها.

وقرأ نافع، والحسن، وأبو جعفر، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿عَنَّا يُفَرِّقُونَ أَفْرِقُونَ﴾ بالياء من تحت فيهما. وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿عَمَّا يُفَرِّقُونَ﴾ بالياء من فوق، ﴿أَفْرِقُونَ مَا لَا يُخْلُقُ﴾ الآية، وروى بعض من قال: «إن الآيات في آدم وحواء» أن إبليس جاء إلى آدم وقد مات له ولد اسمه عبدالله فقال: إن شئت أن يعيشت لك الولد فسمّه عبد شمس، فولد له ولد فسمّه كذلك، وإياه عنى بقوله:

﴿يَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾. ﴿وَهُمْ يُخْلُقُونَ﴾ - على هذا - عائد على آدم وحواء والابن المسمى عبد شمس. ومن قال بالقول الآخر قال: إن هذه في مشركي الكفار الذين يشركون الأصنام في العبادة، وإياها أراد بقوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾، وعبر عنها بـ﴿هُمْ﴾ كأنها تعقل على اعتقاد الكفار فيها وبحسب أسمائها. و﴿يَخْلُقُونَ﴾ معناه: يُنحِتُونَ ويصنعون. ويحتمل - على قراءة ﴿يَشْرِكُونَ﴾ بالياء من تحت - أن يكون المعنى: وهؤلاء المشركون يُخلَقون. أي: كان يجب أن يعتبروا بأنهم مخلوقون فيجعلون إلههم خالقهم لا من لا يخلق شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الآية. هذه تُخَرِّجُ على تأويل من قال: «إن المراد آدم وحواء والشمس» على ما تقدم، ولكن بقلق وتعسف من المتأول في المعنى. وإنما تُنَسَّقُ هذه الآيات ويروق نظمها ويتناصر معناها على التأويل الآخر، والمعنى: ولا ينصرون أنفسهم من أمر الله وإرادته، ومن لا يدفع عن نفسه فأحرى ألا يدفع عن غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ هَٰذِهِ﴾ الآية. من قال: «إن الآيات في آدم عليه السلام» قال: إن هذه مخاطبة للنبي ﷺ وأمره مستأنفة في أمر الكفار المعاصرين للنبي ﷺ، ولهم الهاء والميم من ﴿تَدْعُوهُمْ﴾، ومن قال بالقول الآخر قال: إن هذه مخاطبة للمؤمنين والكفار على قراءة من قرأ ﴿يَشْرِكُونَ﴾ بالياء من تحت،

وللكفار فقط على قراءة من قرأ بالياء من فوق على جهة التوقيف، أي: إن هذه حال الأصنام معكم إن دعوتهم لم يجيبوكم، إذ ليس لهم حواس ولا إدراكات.

وقرأ نافع وحده: ﴿لَا يَسْتَجِيبُكُمْ﴾ بسكون التاء وفتح الباء، وقرأ الباقون: ﴿لَا يَسْتَجِيبُكُمْ﴾ بشد التاء المفتوحة وكسر الباء، والمعنى واحد.

وفي قوله تعالى: ﴿أَدْعَوْهُمْ أَنَّمْ أُنشَأْ عَظْفَ الْأَسْمِ عَلَى الْفَعْلِ، إِذِ التَّقْدِيرُ: أَمْ صَمْتُمْ. وَمِثْلُ هَٰذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ:

سَوَاءٌ عَلَيْكَ الْتَفَرُّ أَمْ بِثَ لَيْلَةٍ
بِأَهْلِ الْقِيَابِ مِنْ تَمِيرِ بْنِ عَامِرٍ

﴿١٩٤﴾ - ﴿١٩٥﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿قِرَاءُ جَمْهُورِ النَّاسِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثَالُكُمْ﴾ بتثقيب ﴿إِنَّ﴾ ورفع ﴿عِبَادُ﴾، وهي مخاطبة للكفار في تحقير شأن أصنامهم عندهم، أي: إن هذه الأصنام مخلوقة محدثة إذ هي أجسام وأجرام فهي متعبدة أي متملكة. وقال مقاتل: إن المراد بهذه الآية طائفة من العرب من خزاعة كانت تعبد الملائكة فأعلمهم الله أنهم عباد أمثالهم لا آلهة. وقرأ سعيد بن جبیر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثَالُكُمْ﴾ بتخفيف النون من ﴿إِنَّ﴾ على أن تكون بمعنى (ما) وينصب قوله:

﴿إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿وَأَن تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ هَٰذِهِ لَا تَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ خُذِ الْعَوَاذَ مِنَ الْغُرُوبِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿وَأَمَّا زَعَنُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَا نَحْبِيئُهَا قُلْ إِنَّمَا أَنبِئُكُمْ بِمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَٰذِي وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ وَلَهُ يُسْجُدُ السُّجُودُ﴾

﴿عِبَادًا﴾ و﴿أَثَالُكُمْ﴾، والمعنى بهذه القراءة تحقير شأن الأصنام ونفي مماثلتهم للبشر، بل هم أقل وأحقر إذ هم جمادات لا تفهم ولا تعقل، وسيبويه يرى عن ﴿إِنَّ﴾ إذا كانت بمعنى (ما) فإنها تضعف عن رتبة (ما) فيبقى الخبر مرفوعاً وتكون هي داخلة على الابتداء والخبر لا تنصبه، فكان الوجه عنده في هذه القراءة: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثَالُكُمْ. وأبو العباس المبرد يجيز أن تعمل عمل (ما) في نصب الخبر. وزعم الكسائي أن ﴿إِنَّ﴾ بمعنى (ما) لا تجيء إلا بعدها (إِلَّا) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُوبٍ﴾. ثم بين تعالى الحجة بقوله: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ أي: فاخبروا فإن لم يستجيبوا فهم كما وصفنا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْزِلْ﴾ الآية.

الغرض من هذه الآية: أَلَهُمْ حَوَاسُ الْحَيِّ وَأَوْصَافُهُ؟ فإِذَا قَالُوا: «لَا» حكموا بأنها جمادات، فجاءت هذه التفصيلات لذلك المجلد الذي أريد التقرير عليه، فإذا وقع الإقرار بتفصيلات القضية لزم الإقرار بعمومها وكان بيانها أقوى ولم تقم بها استرابة. قال الزهراوي: المعنى: أنتم أفضل منهم بهذه الجوارح النافعة فكيف تعبدونهم؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَتَقْوَى بهذا التأويل قراءة سعيد بن جبير، إذ تقتضي أَنَّ الأوثان ليست عبادة كالبشر.

وقوله في الآية: «أَمْ» إضراب لكل واحدة عن الجملة المتقدمة لها، وليست (أَمْ) المعادلة للآلف في قولك: «أعندك زيد أم عمرو؟» لأن المعادلة إنما هي في السؤال عن شيئين أحدهما حاصل، فإذا وقع التقدير على شيئين كلاهما منفي (أَمْ) إضراب عن الجملة الأولى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي فرق معنوي، وأما من جهة اللفظ والصناعة النحوية فهي هي.

وقرأ نافع، والحسن، والأعرج «يَنْطُشُونَ» بكسر الطاء، وقرأ نافع أيضاً، وأبو جعفر، وشيبة: «يَنْطُشُونَ» بضمها.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يعجزهم بقوله: «قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ» أي استنجدوهم واستنفدوهم إلى إضراري وكيدي ولا تؤخروني، والمعنى: فإن كانوا آلهة فسيظهر فعلهم، وسنأهم شركاءهم من حيث

لهم نسبة إليهم بتسميتهم إياهم آلهة وشركاء الله.

وقرأ أبو عمرو، ونافع: «يَكِيدُونِي» بإثبات الياء في الوصل، وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وحزمة والكسائي: «يَكِيدُونَ» بحذف الياء في الوصل والوقف. قال أبو علي: إذا أشبه الكلام المتفصل أو كان منفصلاً أشبه القافية، وهم يحذفون الياء في القافية كثيراً، وقد التزموا ذلك، كما قال الأعشى:

قَهْلٌ يَمْنَعُنِي اِزْتِيَادِي الْبِلَا
دَمَنَ حَذَرِ الْمَوْتِ أَنْ يَأْتِيَنِي
وقد حذفوا الياء التي هي لام الأمر كما قال الأعشى:

يَلْمَسُ الْأَخْلَاصَ فِي مَثَرِلِهِ
يَسْذِيهِ كَالْيَهُودِي الْمُضَلِّ
وقوله تعالى: «فَلَا تُنْظَرُونَ» أي لا تؤخرون، ومنه قوله تعالى: «فَتَنْظَرُونَ» إلَّا مَيَّسَرَةً.

وقوله تعالى: «إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ» الآية. لما أحالهم على الاستنجاد بآلهتهم في ضربه وأراهم أن الله هو القادر على كل شيء لا تلك - عقب ذلك بالاستناد إلى الله والتوكل عليه والإعلام بأنه وليه وناصره، وقرأ جمهور الناس والقراءة: «إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ» بياء مكسورة مشددة وأخرى مفتوحة، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه: «إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ» بياء واحدة مشددة ورفع «اللَّهُ». قال أبو علي:

لا تخلو هذه القراءة من أن تدغم الياء التي هي لام الفعل في ياء الإضافة، أو تحذف الياء التي هي لام الفعل وتدغم ياء فعيل في ياء الإضافة، ولا يجوز أن تدغم الياء

التي هي لام الفعل في ياء الإضافة لأنه إذا فعل ذلك انفك الإدغام الأول، فليس إلا أنه حذف لام الفعل وأدغم ياء فعيل في ياء الإضافة.

وقرأ ابن مسعود: «الَّذِي تَزَلَّ الكتاب بالحقِّ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ»، وقرأ الجحدري - فيما ذكر أبو عمرو الداني -: «إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ» على الإضافة. وفسر ذلك بأن المراد جبريل ﷺ، وذكر القراءة غير منسوبة أبو حاتم وضعفها، وإن كانت ألفاظ هذه الآية ثلاثم هذا المعنى وتصلح له فإن ما قبلها وما بعدها يدفع ذلك.

(١٩٧) - (١٩٨) تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله: «وَمِنْ دُونِهِ» عائد على اسم الله تعالى، وهذا الضمير مصرح بما ذكرناه من ضعف قراءة من قرأ: «إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ» على أنه جبريل ﷺ، وهذه الآية أيضاً بيان لحال تلك الأصنام وفسادها وعجزها عن نصره أنفسها فضلاً عن غيرها.

وقوله تعالى: «وَأَنْ تَدْعُوهُمْ» الآية. قالت فرقة: المخاطبة للنبي ﷺ وأمته، والهاء والميم في قوله: «تَدْعُوهُمْ» للكفار، ووصفهم بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون إذ لم يتحصل لهم عن النظر والاستماع فائدة ولا حصلوا منه بطائل، قاله السدي ومجاهد. وقال الطبري: المراد بالضمير المذكور الأصنام وَوَصَفَهُم بالنظر كناية عن المحاذاة والمقابلة وما فيها من تخيل النظر كما تقول: دار فلان تنظر إلى دار

فلان، ومعنى الآية على هذا تبيين جمودية الأصنام وصغر شأنها. وذهب بعض المعتزلة إلى الاحتجاج بهذه الآية على أن العباد ينظرون إلى ربهم ولا يرونه، ولا حجة لهم في الآية لأن النظر في الأصنام مجاز محض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما تكرر القول في هذا وترددت الآيات فيه لأن أمر الأصنام وتعظيمها كان متمكناً في نفوس العرب في ذلك الزمن ومستولياً على عقولها فأوجب القول في ذلك لطفاً من الله تعالى بهم.

وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْقَوْلَ﴾ الآية. وصية من الله عز وجل لنبيه ﷺ تعم جميع أمته، وأمر بجميع مكارم الأخلاق. وقال الجمهور في قوله سبحانه: ﴿خُذِ الْقَوْلَ﴾: إن معناه: اقبل من الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما أتى عنواً دون تكلف، فالعفو هنا: الفضل والصفو الذي تهيأ دون تحرج، قاله عبدالله بن الزبير في مصنف البخاري، وقاله مجاهد وعروة، ومنه قول حاتم الطائي:

خُذِي الْعَفْوَ مَنِّي تَسْتَيْدِي مَوَدَّتِي
وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوَرَّتِي حِينَ أَغْضَبُ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك، والسدي: هذه الآية في الأموال، وقيل: هي قبل فرض الزكاة، أمر بها رسول الله ﷺ أن يأخذ ما سهل من أموال الناس. و(عفاً) أي: فضل وزاد، من قولهم: عفا النبات والشعر، أي كثر، ثم نزلت الزكاة وحدودها فنسخت هذه

الآية، وذكر مكي عن مجاهد أن ﴿خُذِ الْقَوْلَ﴾ معناه: خذ الزكاة المفروضة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا شاذ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ﴾ معناه: بكل ما عرفته النفوس مما لا ترؤده الشريعة، وروي أن النبي ﷺ قال لجبريل: «ما هذا العرف الذي أمر به؟ قال: لا أدري حتى أسأل العالم، فرجع إلى ربه فسأله، ثم جاءه فقال له: يا محمد، هو أن تُغْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا نصب غايات، والمراد: فما دون هذا من فعل الخير. وقرأ عيسى الشفسي - فيما ذكر أبو حاتم - ﴿بِالْعُرْفِ﴾ بضم الراء، والعرف والعرف بمعنى: المعروف.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ حكّم مترتب محكم مستمر في الناس ما بقوا، هذا قول الجمهور من العلماء، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْقَوْلَ﴾ إلى ﴿الْجَاهِلِينَ﴾: إنما أمر النبي ﷺ بذلك مداراة لكفار قريش، ثم نسخ ذلك بآية السيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحديث الحرّ بن قيس حين أدخل عمره عيينة بن حصن على عمر رضي الله عنه دليل على أنها محكمة مستمرة، لأن الحرّ احتج بها على عمر رضي الله عنه فقررها ووقف عندها.

وقوله تعالى: ﴿وَلِمَا يَنْزَعُكَ مِنْ

النَّيِّطَانِ نَزْعٌ﴾ وصية من الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ تعم أمته رجلاً رجلاً. والنزع: حركة فيها فساد، وقلماً تستعمل إلا في فعل الشيطان لأن حركته مسرعة مفسدة، ومنه قول النبي ﷺ: «لا يشر أحدكم على أخيه بالسلاح، لا ينزع الشيطان في يده».

فالمعنى في هذه الآية: فلما تُلْمَنُ بِكَ لَمَّةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ. ونزع الشيطان عام في الغضب وتحسين المعاصي واكتساب الغوائل وغير ذلك، وفي مصنف الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنْ لِلْمَلَكِ لَمَّةٌ، وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهاتان اللَّمَّتَانِ هما الخواطر من الخير والشر، و﴿سَمِيعٌ﴾ في هذه الآية يصلح مع الاستعاذة، ويصلح أيضاً مع ما يقول الكفار فيه من الأقاويل فيغضبه الشيطان لذلك، و﴿عَلِيمٌ﴾ كذلك، وبهذه الآية تعلق ابن القاسم في قوله: «إن الاستعاذة عند القراءة: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

﴿١٢٣﴾ - تفسير قوله عز وجل: ﴿أَتَقْوَا﴾ هنا عامة في اتقاء الشرك واتقاء المعاصي بدليل أن اللفظة إنما جاءت في مدح لهم، فلا وجه لقصرها على اتقاء الشرك وحده، وأيضاً فالمتقي العائد قد يمسه طائف من الشيطان إذ ليست العصمة إلا للأنبياء عليهم السلام.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمة: ﴿طَلِيفٌ﴾. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿طَلِيفٌ﴾.

وقرأ سعيد بن جبير: ﴿طَيْفٌ﴾، واللفظة إما من طاف يطوف، وإما من طاف يطيف بفتح الياء، وهي ثابتة عن العرب، وأنشد أبو عبيدة في ذلك:

أَتَى أَلَمَ بِكَ الْحَيَالُ يَطِيفُ
وَمَطَائِفُهُ لَكَ ذُكْرَةٌ وَشُعُوفُ
فَـطَـيْفٌ اسم فاعل كقائل من قال يقول، وبائع من باع يبيع. ﴿وَطَيْفٌ﴾ اسم فاعل أيضاً كميئت من مات، أو كتيبعت ولتين من باع يبيع ولان يلين. وطيف يكون مخففاً من طيف كميئت من ميئت، وإذا قدرنا اللفظة من طاف يطيف فطيف مصدر، وإلى هذا مال أبو علي الفارسي، وجعل الطائف كالخاطر والطيف كالخطرة، وقال الكسائي: الطيف اللثم، والطائف ما طاف حول الإنسان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكيف هذا وقد قال الأعشى:

وَتَضِيحُ مِنْ غَبِ السَّوَى وَكَأَنَّمَا
أَلَمَ بِهَا مِنْ طَائِفِ الْجَنِّ أَوْلَتْ
ومعنى الآية: إذا متهم غضب وزين الشيطان معه ما لا ينبغي. وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ إشارة إلى الاستعاذة بالمأمور بها قبل، وإلى ما لله عز وجل من الأوامر والنواهي في النازلة التي يقع تعرض الشيطان فيها. وقرأ ابن الزبير: ﴿مِنْ الشَّيْطَانِ تَأْمَلُوا﴾ وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿إِذَا طَافَ مِنْ الشَّيْطَانِ طَائِفٌ تَأْمَلُوا﴾، وقال النبي ﷺ: ﴿إِنَّ الْغَضَبَ جَنْدٌ مِنْ جَنْدِ الْجَنِّ، أَمَا تَرَوْنَ حُمْرَةَ الْعَيْنِ وَانْتِفَاحَ الْمَرْوِقِ؟ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَالْأَرْضُ

الْأَرْضُ، وقوله: ﴿يُخَيَّرُونَ﴾ من البصيرة، أي: فإذا هم قد تبينوا الحق ومالوا إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُخَوِّثَهُمْ بِمَذُوبِهِمْ فِي آلَتِي﴾ الآية. في هذه الضمائر احتمالات، قال الزجاج: هذه الآيات متصلة في المعنى بقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَمْ نَمَرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصُدُّونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر.

وقال الجمهور: إن الآية مقررة في موضعها إلا أن الضمير في قوله: ﴿وَلِيُخَوِّثَهُمْ﴾ عائد على الشياطين، والضمير في قوله: ﴿يَمُدُّوهُمْ﴾ عائد على الكفار وهم المراد بالإخوان، والشيطان في الآية قبل هذه للجنس فلذلك عاد عليهم هاهنا ضمير جمع، فالتقدير على هذا التأويل: وإخوان للشياطين يمدونهم الشياطين في الغي، وقال قتادة: إن الضميرين في الهاء والميم للكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فتجيء الآية على هذا معادلة للتي قبلها، أي: إن المتقين حالهم كذا وكذا، وهؤلاء الكفار يمددهم إخوانهم من الشياطين ثم لا يقصرون.

وقوله: ﴿فِي آلَتِي﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿يَمُدُّوهُمْ﴾، وعليه يترتب التأويل الذي ذكرنا أولاً عن الجمهور، ويحتمل أن يتعلق بالإخوان، فعلى هذا يحتمل أن يعود الضميران على الكفار كما ذكرناه عن قتادة، ويحتمل أن يعود جميعاً على الشياطين، ويكون المعنى: وإخوان

الشياطين في الغي بخلاف الإخوة في الله يمدون الشياطين، أي بطاعتهم لهم وقبولهم منهم، ولا يترتب هذا التأويل على أن يتعلق ﴿فِي آلَتِي﴾ بالإمداد، لأن الإنس لا يغيثون الشياطين، والمراد بهذه الآية وصف حالة الكفار مع الشياطين كما وصف حالة المتقين معهم من قبل.

وقرأ جميع السبعة غير نافع: ﴿يَمُدُّوهُمْ﴾ من مَدَدْتُ. وقرأ نافع وحده: ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ بضم الياء من أَمَدَدْتُ، فقال أبو عبيدة وغيره: مد الشيء إذا كانت الزيادة من جنسه، وأمدّه إذا كانت من شيء آخر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير مطرد. وقال الجمهور: هما بمعنى واحد إلا أن المستعمل في المحبوب (أمد)، فمنه قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا يُدِثُّهُمُ يَوْمَ مِنْ مَالٍ وَزِينٍ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ﴾، وقوله: ﴿أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ﴾، والمستعمل في المكروه (مد)، فمنه قوله تعالى: ﴿وَيَسُدُّهُمْ فِي طَلْفَيْنِهِمْ﴾ ومد الشيطان للكفرة في الغي هو التزيين لهم والإغواء المتتابع. فمن قرأ في هذه الآية ﴿يَمُدُّوهُمْ﴾ بضم الميم فهو على المنهاج المستعمل، ومن قرأ ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ فهو مقيد بقوله: ﴿فِي آلَتِي﴾، كما يجوز أن تفيد البشارة فتقول: «بشركه بشر». وقرأ الجحدري ﴿يُمَادُونَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ عائد على الجميع، أي: هؤلاء لا يقصرون في الطاعة للشياطين والكفر بالله عز وجل. وقرأ جمهور الناس ﴿يُقْصِرُونَ﴾ من أقصر، وقرأ ابن أبي

عبلة، وعيسى بن عمر: **﴿يَقْضُرُونَ﴾** من قَصَرَ.

وقوله تعالى: **﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ﴾**. سببها فيما روي أن الوحي كان يتأخر على النبي ﷺ أحياناً، فكان الكفار يقولون: «هَلَا اجْتَنَبْتَهَا»، ومعنى اللفظة في كلام العرب: تخيرتها واصطفيتها. وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، وغيرهم: المراد بهذه اللفظة: «هَلَا اخترتها واختلفتها من قَبْلِكَ ومن عند نفسك»، والمعنى: إذ كلامك كله كذلك على ما كانت قریش تزعمه. وقال ابن عباس أيضاً والضحاك: المراد: «هَلَا تَلَقَّيْتَهَا من الله وتخيرتها عليه، إذ تزعم أنك نبي وأن منزلتك عنده منزلة الرسالة»، فأمره الله عز وجل أن يجيب بالتسليم لله تعالى، وأن الأمر في الوحي إليه ينزله متى شاء لا معقب لحكمه في ذلك فقال: **﴿قَدْ لِمَا أَنْتُمْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّي﴾**، ثم أشار بقوله: **﴿هَذَا﴾** إلى القرآن، ثم وصفه بأنه **﴿بَصَائِرُ﴾** أي علامات هدى وأنوار تضيء القلوب. وقالت فرقة: المعنى: هذا ذو بصائر. ويصح الكلام دون أن يُقَدَّر حذف مضاف لأن المشار إليه به **﴿هَذَا﴾** إنما هو سُور وآيات وحكم، وجازت الإشارة إليه به **﴿هَذَا﴾** من حيث اسمه مذكر، وجاز وصفه به **﴿بَصَائِرُ﴾** من حيث هو سُور وآيات.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لهؤلاء خاصة. قال الطبري: وأما من لا يؤمن فهو عليه عَمَى عقوبة من الله تعالى.

٢٠٤ - ٢٠٦ تفسير قوله عز وجل:

ذكر الطبري وغيره أن سبب هذه الآية هو أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا بمكة يتكلمون في المكتوبة بحوائجهم، ويصيحون عند آيات الرحمة والعذاب، ويقول أحدهم إذا أتاهم: صليتم؟ وكم بقي؟ فيُخبرونه، ونحو هذا، فنزلت الآية أمراً لهم بالاستماع والإنصات في الصلاة وأما قول من قال: «إنها في الخطبة» فضعيف لأن الآية مكية والخطبة لم تكن إلا بعد هجرة النبي ﷺ من مكة، وكذلك ما ذكره الزهراوي من أنها نزلت بسبب فتى من الأنصار كان يقرأ في الصلاة والنبي ﷺ يقرأ. فأما الاستماع والإنصات عن الكلام في الصلاة فإجماع، وأما الإمساك والإنصات عن القراءة فقالت فرقة: يمسك المأموم عن القراءة جملة قرأ الإمام جهراً أو سراً، وقالت فرقة: يقرأ المأموم إذا أسر الإمام ويُمسك إذا جهر. وقالت فرقة: يمسك المأموم في جهر الإمام عن قراءة السورة ويقرأ فاتحة الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومع هذا القول أحاديث صحاح عن النبي ﷺ، فهذه الآية واجبة الحكم في الصلاة أن ينصت عن الحديث وما عدا القراءة. واجبة الحكم أيضاً في الخطبة من السُّنة لا من هذه الآية، ويجب من الآية الإنصات إذا قرئ الخطيب القرآن أثناء الخطبة، وحكم هذه الآية في غير الصلاة على النذب، أعني في نفس الإنصات والاستماع إذا سمع الإنسان قراءة

كتاب الله عز وجل، وأما ما تتضمنه الألفاظ وتعطيه من توقير القرآن وتعظيمه فواجب في كل حالة. والإنصات: السكوت، و**﴿لَمَلَكُمْ﴾** على ترجي البشر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم نستوعب اختلاف العلماء في القراءة خلف الإمام إذ ألفاظ الآية لا تعرض لذلك، لكن لما عن ذلك في ذكر السبب ذكرنا منه نبذة.

وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أنه قال في قوله عز وجل: **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾** قال: الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول جمع فيه ما أوجبه هذه الآية وغيرها من السُّنة في الإنصات، قال الزجاج: ويجوز أن يكون **﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾**: اعملوا بما فيه ولا تتجاوزوه.

وقوله تعالى: **﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾** الآية. مخاطبة للنبي ﷺ تعم جميع أمته. وهو أمر من الله عز وجل بتسبيحه وذكره وتقديسه والثناء عليه بمحامده. والجمهور على أن الذكر لا يكون في النفس ولا يراعى إلا بحركة اللسان، ويدل على ذلك من هذه الآية قوله: **﴿وَدُونَكَ أَكْثَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾** فهذه مرتبة السر والمخافة باللفظ.

و**﴿تَسْمَعًا﴾** معناه: تذلاً وخُضوعاً. و**﴿خِيفَةً﴾** أصلها: خَوْفٌ، بدلت الواو ياء لأجل الكسرة التي تقدمتها. وقوله: **﴿بِالْقُدْرَةِ وَالْكَامَالِ﴾** معناه:

وهذه الآية نزلت في قصة وقعت بمكة، ويمكن أن تنزل الآية في ذلك بالمدينة، ولا خلاف في هذه السورة أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه.

تفسير قوله عز وجل:

الثَّغْل والثَّقْل والنافلة في كلام العرب: الزيادة على الواجب، وسميت الغنيمة نفلًا لأنها زيادة على القيام بالجهد وحماية الدين والدعاء إلى الله عز وجل، ومنه قول لبيد:

إِنْ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفْلٌ

أي خير غنيمة، وقول عترة:

إِنَّا إِذَا أَحْمَرُ الْوَعْيِ نَزَمِي الْقَنَا
وَنِعْفٌ عِنْدَ مَقَاسِمِ الْأَنْفَالِ

والسؤال في كلام العرب يجيء لاقتضاء معنى في نفس المسؤول، وقد يجيء لاقتضاء مال أو نحوه، والأكثر في هذه الآية أن السؤال إنما هو عن حكم الأنفال فهو من الضرب الأول، وقالت فرقة: إنما سألوه الأنفال نفسها أن يعطيهم إياها، واحتجوا في ذلك بقراءة سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن مسعود، وعلي بن الحسين، وأبي جعفر محمد بن علي، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد، وطلحة بن مصرف، وعكرمة، والضحاك، وعطاء: «يسألونك الأنفال»، وقالوا في قراءة من قرأ «عَنِ» إنها بمعنى (من)، فهذا الضرب الثاني من السؤال.

واختلف الناس في المراد بالأنفال في هذه الآية. فقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك،

«الَّذِينَ» يريد

الملائكة، وقوله: «عِنْدَ»

إنما يريد في المنزلة

والتشريف والقرب في

المكانة لا في المكان،

فهم بذلك عنده. ثم

وصف تعالى حالهم من

تواضعهم وإدمانهم للعبادة

والتسبيح والسجود. وفي

الحديث: «أُطِيتَ السَّمَاءُ

وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَنْتَبِطَّ، مَا فِيهَا

مَوْضِعٌ شَبِيرٌ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ

قَائِمٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ،

وهذا موضع سجدة، قال

الثَّخُمِي في كتاب النقاش:

إِنْ شِئْتَ رَكَعْتَ وَإِنْ شِئْتَ

سَجَدْتَ.

كملت سورة الأعراف بتوفيق
من الله والحمد لله رب العالمين

(٨) سورة الأنفال

مدنية

وآياتها خمس وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى

آله وأصحابه أجمعين.

تفسير سورة «الأنفال» على بركة الله

هي مدنية كلها، كذا قال أكثر

الناس، وقال مقاتل: هي مدنية غير

آية واحدة وهي قوله تعالى: «وَإِذْ

يَنْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الآية كلها،

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْتَوُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَلَٰذِ يُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِ إِنَّهَا لَكُمْ وَنُودُوتٌ أَنْ عَزَّ ذَاتُ الشَّوْكَهٖ تَكُونُ لَكُمْ وَرَبُّكَ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكُلِّ مَنٍّ وَيُقِطَّ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلِتُزْكَرَ الْعَمَلُوتُ ﴿٨﴾

١٧٧

دأباً وفي كل يوم وفي أطراف النهار، وقالت فرقة: هذه الآية كانت في صلاة المسلمين قبل فرض الصلوات الخمس، وقال قتادة: «الْعُدُو: الصبح، والأصال: صلاة العصر». والأصال: جمع أصل، والأصل: جمع أصيل وهو العشي. وقيل: الأصال: جمع أصيل دون توسط كأيما جمع يمين، وأصال أيضاً جمع أصايل فهو جمع الجمع. وقرأ أبو مجلز: «والإيصال» مصدراً كالإصباح والإمساء، ومعناه: إذا دخلت في الأصيل، وفي الطبري: قال أبو وائل لغلامه: هل أصلنا بعد؟ «وَلَا تَكُن مِّنَ الْفَتِيلِينَ» تنبيه.

ولمّا قال الله عز وجل: «وَلَا تَكُن مِّنَ الْفَتِيلِينَ» جعل بعد ذلك مثلاً من اجتهد الملائكة ليعث على الجِد في طاعة الله عز وجل. وقوله:

وقتادة، وعطاء، وابن زيد: هي الغنائم مجملة. قالوا: وذلك أن سبب الآية ما جرى يوم بدر، وهو أن أصحاب رسول الله ﷺ افترقوا يوم بدر ثلاث فرق: فرقة أقامت مع رسول الله ﷺ في العريش الذي صنع له وحمته وأنسته، وفرقة أطاحت بعسكر العدو وأسلامهم لما انكشفوا، وفرقة اتبعوا العدو فقتلوا وأسروا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الطبري: وكان رسول الله ﷺ قد حرض الناس قبل ذلك فقال: «من قتل قتيلاً أو أسر أسيراً فله كذا وله كذا»، فسارع الشبان وبقي الشيوخ عند الرايات، فلما انجلت الحرب واجتمع الناس رأت كل فرقة الفضل لنفسها، وقالت: نحن أولى بالمغنم، وساءت أخلاقهم في ذلك، فنزلت الآية بأن الغنائم لله وللرسول فكفوا، فقسمه حينئذ رسول الله ﷺ على السواء.

وأسند الطبري وغيره عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عبادة ابن الصامت عن الأنفال فقال: فينا أهل بدر نزلت حين اختلفنا وساءت أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ، وقسمه عليه الصلاة والسلام عن بوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد: عن سواء، فكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله ﷺ وصلاح ذات البين.

ومما جرى أيضاً يوم بدر فقيل إنه سبب ما أسنده الطبري عن سعد بن

أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير، وقتلت سعيد بن العاصي وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكشيعة، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هذا السيف قد شفى الله به من المشركين فأعطنيه، فقال: «ليس هذا لي ولا لك فاطرحه في القُبُض» فطرحته، فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي، قال: فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت عليه سورة الأنفال، فقال: «اذهب فخذ سيفك فإنك سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فهو لك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي بعض طرق هذا الحديث: قال سعد: فقلت لما قال لي: «فضعه في القُبُض»: «إني أخاف أن تُعطيه من لم يبل بلائي، قال: فإذا رسول الله ﷺ خلفي، قال: فقلت: أخاف أن يكون نزل في شيء، فقال: «إن السيف قد صار لي» فأعطانيه، ونزلت: ﴿يَسْتَلْزِمُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾. وأسند الطبري أيضاً عن أبي أسيد مالك بن ربيعة قال: أصبت سيف ابن عائد يوم بدر، وكان يسمى المزنيان، فلما أمر رسول الله ﷺ أن يردوا ما في أيديهم من النفل أقبلت به فألقيته في النفل، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئاً يسأله، فرأه الأرقم المخزومي فسأله رسول الله ﷺ فأعطاه إياه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيجيء من مجموع هذه الآثار أن نفوس أهل بدر تنافرت، ووقع فيها

ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثرة، لا سيما من أبلي، فأنزل الله عز وجل الآية فرضي المسلمون وسلموا، فأصلح الله ذات بينهم ورد عليهم غنائمهم. وقال بعض أهل هذا التأويل «عكرمة ومجاهد»: كان هذا الحكم من الله لرفع الشغب، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرًا غَنِيًّا مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية. وقال ابن زيد: لم يقع في الآية نسخ، وإنما أخبر أن الغنائم لله من حيث هي ملكه ورزقه، وللرسول من حيث هو مُمَيَّن بها أحكام الله والصادع بها ليقع التسليم فيها من الناس، وحكم القسمة نازل خلال ذلك، ولا شك في أن الغنائم وغيرها والدنيا بأسرها هي لله وللرسول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال ابن عباس أيضاً: الأنفال في الآية: ما يعطيه الإمام لمن رآه من سيف أو فرس أو نحوه، وهذا أيضاً يحسن مع الآية ومع ما ذكرناه من آثار يوم بدر، وقال علي بن صالح، وابن جني، والحسن فيما حكى المهدوي: الأنفال في الآية: ما تجيء به السرايا خاصة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول بعيد عن الآية غير ملتزم مع الأسباب المذكورة، بل يجيء خارجاً عن يوم بدر، وقال مجاهد: الأنفال في الآية: الخمس، قال المهاجرون: لم يخرج منا هذا الخمس فقال الله تعالى: هو الله وللرسول، وهذا أيضاً قول قليل التناسب مع الآية. وقال ابن عباس، وعطاء أيضاً: الأنفال في الآية: ما

شدُّ من أموال المشركين إلى المسلمين كالفرس العائر والعبد الأبق وهو للنبي ﷺ يصنع فيه ما يشاء، وقال ابن عباس أيضاً: الأنفال في الآية: ما أُصيب من أموال المشركين بعد قسمة الغنيمة وهو لله ورسوله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان لا تخرج بهما الآية عن الأسباب التي رويت في يوم بدر، ولا تختص الآية بيوم بدر على هذا. وكأن هاتين المقاتلتين إنما هما فيما ناله الجيش دون قتال وبعد تمام الحرب وارتفاع الخوف.

وأولى هذه الأقوال وأوضحها القول الأول الذي تظاهرت الروايات بأسبابه، وناسبه الوقت الذي نزلت الآية فيه. وحكى النقاش عن الشعبي أنه قال: الأنفال: الأسارى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إنما هو على جهة المثال فيعني كل ما يُغنم.

ويحسن في تفسير هذه الآية أن نذكر شيئاً من اختلاف العلماء في تنفيل الإمام لمن رآه من أهل النجدة والغنائ، وما يجوز من ذلك وما يمتنع، وما لهم في السلب من الاختلاف. فقالت فرقة: لا نفل بعد النبي ﷺ، وقال الجمهور: النفل باق إلى يوم القيامة، ينفل إمام الجيش ما رآه لِمَن رآه لكن بحسب الاجتهاد والمصلحة للمسلمين ليحضر الناس على النجدة، وينشطهم إلى مكافحة العدو والاجتهاد في الحرب، ثم اختلفوا فقال ابن القاسم عن مالك في «المدونة»: إنما ينفل الإمام من

الخُمس لا من جملة الغنيمة، وينفل في أول المغنم وفي آخره بحسب اجتهاده، وقالت فرقة: إنما ينفل الإمام قبل القتال، وأما إذا جمعت الغنائم فلا نفل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إنما يكون - على هذا القول - بأن يقول الإمام: من قتل قتيلاً فله كذا أو كذا، أو يقول لِسِرَّةٍ: إن وصلتكم إلى موضع كذا فلكم كذا. وقال الشافعي وابن حنبل: لا نفل إلا بعد الغنيمة قبل التخميس. وقال إبراهيم التَّخَمِي: ينفل الإمام متى شاء قبل التخميس. وقال أنس بن مالك، ورجاء بن خنوة، ومكحول، والقاسم، وجماعة منهم الأوزاعي، وأحمد، وإسحق، وعدي بن عدي: لا نفل إلا بعد إخراج الخمس، ثم ينفل الإمام من أربعة الأخماس، ثم يقسم الباقي بين الناس. وقال ابن المسيب: إنما ينفل الإمام من خمس الخمس. وقال مالك رحمه الله: لا يجوز أن يقول الأمير: من هدم كذا من الحصن فله كذا، ومن بلغ إلى كذا فله كذا، ولا أحب لأحد أن يسفك دماً على مثل هذا. قال سُخْنُون: فإن نزل ذلك لزمه فإنه مبايعه. وقال مالك رحمه الله: لا يجوز أن يقول الإمام لِسِرَّةٍ: ما أخذتم فلكم ثلثه، قال سُخْنُون: يريد ابتداءً، فإن نزل مضى ولهم أنصباؤهم في الباقي. وقال سُخْنُون: إذا قال الإمام لِسِرَّةٍ: ما أخذتم فلا خُمس عليكم فيه، فهذا لا يجوز، فإن نزل رددته لأن هذا حكم شاذ لا يجوز ولا يمضي، ويستحب - على

مذهب مالك - إن نفل الإمام - أن ينفل ما يظهر كالعمامة والفرس والسيف. وقد منع بعض العلماء أن ينفل ذهباً أو فضة أو لؤلؤاً أو نحو هذا. وقال بعضهم: النفل جائز من كل شيء.

وأما السلب فقال مالك رحمه الله: الأسلاب من المغنم تقسم على جميع الجيش إلا أن يشرط الإمام، وقاله غيره. وقال الليث، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وأبو ثور، وأبو عبيد، وابن المنذر: السلب حق للقاتل بحكم النبي ﷺ، قال الشافعي، وأحمد، وأبو عبيد، وابن المنذر: قاله الإمام أو لم يقله. وقال مالك: إذا قال الإمام: «من قتل قتيلاً فله سلبه» فذلك لازم، ولكنه على قدر اجتهاد الإمام وبسبب الأحوال والضيقات واستصراخ الأنجاد، وقال الشافعي، وابن حنبل: تخرج الأسلاب من الغنيمة ثم تخمس بعد ذلك وتعطى الأسلاب للقتلة. وقال إسحق بن راهويه: إن كان السلب يسيراً فهو للقاتل، وإن كان كثيراً خُمس، وفعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع البراء بن مالك حين بارز المرزبان فقتله فكانت قيمة منقطته وسوازيه ثلاثين ألفاً، فخمس ذلك، وروي في ذلك حديث عن النبي ﷺ هو حديث عوف بن مالك في مصنف أبي داود. وقال مكحول: السلب مغنم وفيه الخُمس. وروي نحوه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد: يُخَمَس على القاتل وحده.

وقال جمهور الفقهاء: لا يعطى القاتل السِّلْب إلا أن يقيم البيئة على قتله، قال أكثرهم: ويجزي شاهد واحد بحكم حديث أبي قتادة، وقال الأوزاعي: يعطاه بمجرد دعواه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقال الشافعي: لا يعطى القاتل إلا إذا كان قتيله مقبلاً مبارزاً مضحياً، وأما من قتل منهزماً فلا، وقال أبو ثور، وابن المنذر صاحب «الأشراف»: للقاتل السِّلْب منهزماً كان القتيل أو غير منهزم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أصح لحديث سلمة بن الأكوع في أتباعه ربيعة الكفار في غزوة حنين وأخذه بخطام بعيره وقتله إياه وهو هارب، فأعطاه رسول الله ﷺ سَلْبَه. وقال أحمد بن حنبل: لا يكون السِّلْب للقاتل إلا في المبارزة فقط.

واختلفوا في السِّلْب. فأما السلاح وكل ما يحتاج للقتال فلا أحفظ فيه خلافاً أنه من السِّلْب، وفرسه إن قاتل عليه وضرع عنه. وقال أحمد بن حنبل في الفرس: ليس من السِّلْب. وكذلك إن كان في هِمْيَانِهِ أو مِطْقَتَيْهِ دنائير أو جوهر أو نحو هذا مما يعده فلا أحفظ خلافاً أنه ليس من السِّلْب. واختلف فيما يَتَرْتِزَن به للحرب وَيَهْوَل به فيها كالنَّج والسوارين والأقراط والمناطق المثقلة بالذهب والأحجار، فقال الأوزاعي: ذلك كله من السِّلْب، وقالت فرقة: ليس من السِّلْب، وهذا مروى عن

سُحْنُون رحمه الله إلا المنطقة فإنها عنده من السِّلْب. قال ابن حبيب في «الواضحة»: والسواران من السِّلْب، وتردّد الشافعي - هل هذه كلها من السِّلْب أم لا؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا قال الإمام: «من قتل قتيلاً فله سَلْبَه» فقتل ذِمِّي قتيلاً فالمشهور ألا شيء له، وعلى قول أشهب: «يُرضخ لأهل الذمة من الغنيمة» يلزم أن يُعطى السِّلْب. وإن قتل الإمام بيده بعد هذه المقالة قتيلاً فله سَلْبَه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما الصفي فكان خالصاً للنبي ﷺ.

وقوله عز وجل: ﴿فَأَتَوْا اللَّهَ﴾ معناها في الكلام: اجعل بينك وبين المحذور وقاية، وقوله: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ تصريح بأنه شجر بينهم اختلاف، ومالت النفوس إلى التشاخ، و﴿ذَاتَ﴾ - في هذا الموضع - يراد بها نفس الشيء وحقيقته.

والذي يفهم من ﴿بَيْنَكُمْ﴾ هو معنى يعم جميع الوُصُل والالتحامات والمودات، وذات ذلك هي المأمور بإصلاحها، أي: نفسه وعيئه، فحض الله عز وجل على إصلاح تلك الأجزاء، فإذا صلحت تلك حصل إصلاح ما يعمها وهو البين الذي لهم، وقد تستعمل لفظة (الذات) على أنها لزيمة ما تضاف إليه وإن لم تكن عينه أو نفسه، وذلك في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ ذَاتُ الصُّدُورِ﴾، و﴿ذَاتُ التَّوَكُّةِ﴾ فإنها هاهنا مؤنثة قولهم: «الذنب مغبوط بذئ بطنيه»، وقول أبي بكر رضي الله عنه: «إنما هو ذو بطن

بنت خارجة». ويحتمل «ذات البين» أن تكون هذه، وقد تقال (الذات) أيضاً بمعنى آخر وإن كان يقرب من هذا وهو قولهم: «فعلت كذا ذات يوم»، ومنه قول الشاعر:

لا ينبج الكلب فيها غير واحدة
ذات العشاء ولا تسري أفاعيها
وذكر الطبري عن بعضهم أنه قال: ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحال التي لَبِنْتُمْ، كما «ذات العشاء»: الساعة التي فيها العشاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورجحه الطبري، وهو قول بين الانتقاض. وقال الزجاج: البين هاهنا: الوُصْل، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا كله نظر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لفظ عام، وسببه الأمر بالوقوف عند ما يتفذه رسول الله ﷺ في الغنائم، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ أي كاملي الإيمان، كما تقول لرجل: «إن كنت رجلاً فافعل كذا» أي: إن كنت كامل الرجولة، وجواب الشرط في قوله المتقدم ﴿وَأَطِيعُوا﴾، ومذهب أبي العباس أن الجواب محذوف متأخر يدل عليه المتقدم تقديره: إن كنتم مؤمنين أطيعوا، ومذهبه في هذا ألا يتقدم الجواب الشرط.

① - ② تفسير قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا﴾ لفظ لا تفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع، ويصلح مع ذلك للخضر، فإذا دخل في قصة وساعد معناها على الانحصار صح ذلك

وترتب كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ﴾ وغير ذلك من الأمثلة، وإذا كانت القصة لا تتأني للانحصار بقيت ﴿إِنَّمَا﴾ للمبالغة والتأكيد فقط، كقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الربا في النسيئة»، وكقولهم: «إنما الشجاع عنترة، وأما من قال: «إنما هي لبيان الموصوف» فهي عبارة فاترة، إذ بيان الموصوف يكون في مجرد الإخبار دون ﴿إِنَّمَا﴾. وقوله سبحانه هاهنا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ ظاهرها أنها للمبالغة والتأكيد فقط، أي: الكاملون.

﴿وَجَلَّتْ﴾ معناه: فزعت ورقت وخافت، وبهذه المعاني فسر العلماء. وقرأ ابن مسعود: ﴿فَرَّقَتْ﴾، وقرأ أبي بن كعب: ﴿فَرَّعَتْ﴾. يقال: وجَلَّ يُوْجَلُّ ويَجَلُّ ويَجَلُّ - وهي شاذة - ويَجَلُّ بكسر الياء الأولى، ووجه هذه أنهم لما أبدلوا الواو ياء لم يكن لذلك وجه قياس فكسروا الياء الأولى ليجيء بدل الواو ياء العلة - حكى هذه اللغات الأربع سيبويه رحمه الله.

﴿وَجَلَّتْ﴾ معناه: سُردت وفُرئت. والآيات هنا: القرآن المثَلُ. وزيادة الإيمان على وجوه كلها خارج عن نفس التصديق، منها أن المؤمن إذا كان لم يسمع حكماً من أحكام الله في القرآن فنزل على النبي ﷺ فسمعه فآمن به زاد إيماناً إلى سائر ما قد آمن به، إذ لكل حكم تصديق خاص به، وهذا يترتب فيمن بلغه ما لم يكن عنده من الشرع إلى يوم القيامة، وتترتب زيادة الإيمان بزيادة

الدلائل، ولهذا قال مالك: الإيمان يزيد ولا ينقص، وتترتب بزيادة الأعمال البرّة على قول من يرى لفظة الإيمان واقعة على التصديق والطاعات، وهؤلاء يقولون: يزيد وينقص.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى رَزِيْقِهِ يَتَوَكَّلْنَ﴾ عبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة إذا اعتبرت وعمل بحسبها في أن يمثل الإنسان ما أمر به ويبلغ في ذلك أقصى جهده دون عجز، ويتنظر بعد ما تكفل له به من نصر أو رزق أو غيره.

وهذه أوصاف جميلة وصف الله بها فضلاء المؤمنين فجعلها غاية للأمة ليستبق إليها الأفاضل، ثم أتبع ذلك عذمهم ووسمهم بإقامة الصلاة، ومدحهم بها حضاً على ذلك.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقَاتُونَ﴾ قال جماعة من المفسرين: هي الزكاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما حملهم على ذلك اقتران الكلام بإقامة الصلاة وإلا فهو لفظ عام في الزكاة ونوافل الخير وصيلات المستحقين، ولفظ ابن عباس رضي الله عنهما في هذا المعنى محتمل.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ يريد: كل المؤمنين، و﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد، كذا نص عليه سيبويه، وهو المصدر غير المتنقل. والعامل فيه أحق ذلك حَقًّا، وقوله: ﴿دَرَجَاتٍ﴾ ظاهراً - وهو قول الجمهور - أن المراد مراتب الجنة

ومنازلها، ودرجاتها على قدر أعمالهم. وحكى الطبري عن مجاهد أنها درجات أعمال الدنيا. وقوله: ﴿وَرَزَقْنَا كَرِيْمًا﴾ يريد به مآكل الجنة ومشاربها، و﴿كَرِيْمًا﴾ صفة تقتضي رفع المذام كقولك: ثوب كريم وحسب كريم.

⑤ - ⑥ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في الشيء الذي تتعلق به الكاف من قوله: ﴿كَمَا﴾ حسبما نبين من الأقوال التي أنا ذاكرها بعد بحول الله، والذي يلتزم به المعنى ويحسن سرد الألفاظ قولان، وأنا أبدأ بهما:

قال الفراء: التقدير: «امض لأمرك في الخنائم ونفل من شئت وإن كرهوا، كما أخرجك ربك»، هذا نص قوله في «هداية مكّي»، والعبارة بقوله: «امض لأمرك ونفل من شئت» غير مُحَرَّرة، وتحرير هذا المعنى عندي أن يقال: إن هذه الكاف شَبَّهت هذه القصة التي هي إخراجها من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال، كأنهم سألوا عن النفل وتشاجروا فأخرج الله ذلك عنهم فكانت في ذلك الخيرة، فتشاجروهم في النفل بمثابة كراهيتهم هنا للخروج، وحُكِمَ الله في النفل بأنه الله وللمرسل دونهم هو بمثابة إخراجها نبيه ﷺ من بيته، ثم كانت الخيرة في القصتين فيما صنع الله، وعلى هذا التأويل يمكن أن يكون قوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ كلاماً مستأنفاً يراد به الكفار، أي: يجادلونك في شريعة

الإسلام من بعد ما تبين الحق فيها كأنما يساقون إلى الموت في الدعاء إلى الإيمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الذي ذكرت من أن ﴿يَجِدُوكُمْ﴾ في الكفار - منصوص.

والقول الثاني: قال مجاهد والكسائي وغيرهما: المعنى في هذه الآية: كما أخرجك ربك من بيتك على كراهية من فريق منهم كذلك يجادلونك في قتال كفار مكة ويؤدون غير ذات الشوكة من بعدما تبين لهم أنك إنما تفعل ما أمرت به لا ما يريدون هم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتقدير - على هذا التأويل -: يجادلونك في الحق مجادلة ككراهمتهم إخراج ربك إياك من بيتك، فالمجادلة - على هذا التأويل - بمثابة الكراهية، وكذلك وقع التشبيه في المعنى، وقائل هذه المقالة يقول: إن المجادلين هم المؤمنون وقائل المقالة الأولى يقول: إن المجادلين هم المشركون، فهذان قولان مطردان يتم بهما المعنى ويحسن رصف اللفظ.

وقال الأخفش: الكاف نعت ﴿حَقًّا﴾ والتقدير: هم المؤمنون حقاً كما أخرجك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى على هذا التأويل كما تراه لا يتناسق.

وقيل: الكاف في موضع رفع. والتقدير: «كما أخرجك ربك فاتقوا الله»، كأنه ابتداء وخبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا المعنى وضعه هذا المفسر وليس من ألفاظ الآية في ورد ولا صدر.

وقال أبو عبيدة: هو قسم، أي: «لهم درجات ومغفرة ورزق كريم كما أخرجك». بتقدير: والذي أخرجك، فالكاف في معنى الواو و﴿مَا﴾ بمعنى الذي.

وقال الزجاج: الكاف في موضع نصب، والتقدير: «الأنفال ثابتة لك ثباتاً كما أخرجك ربك».

وقيل: الكاف في موضع رفع. والتقدير: «لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم هذا وعد حق كما أخرجك».

وقيل: المعنى: «وأصلحوا ذات بينكم ذلك خير لكم كما أخرجك»، والكاف نعت لإخبر ابتداءً محذوف. وقيل: التقدير: «قل الأنفال لله والرسول كما أخرجك»، وهذا نحو أول قول ذكرته.

وقال عكرمة: التقدير: «وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين كما أخرجك ربك»، أي: الطاعة خير لكم كما كان إخراجك خيراً لكم.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِكَ﴾ يريد: من المدينة يثرب، قاله جمهور المفسرين. وقال ابن بكير: المعنى: كما أخرجك من مكة وقت الهجرة، وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بُيِّنَ﴾ بضم الباء من غير تاء. والضمير في قوله: ﴿يَجِدُوكُمْ﴾ قيل: هو للمؤمنين، وقيل: للمشركين، فمن قال «للمؤمنين» جعل الحق قتال

مشركي قريش، ومن قال «للمشركين» جعل الحق شريعة الإسلام. وقوله: ﴿إِلَى الْوَيْتِ﴾ أي: في سوقهم إلى القتال على أن المجادلين المؤمنون، وفي دعائهم إلى الشرع على أنهم المشركون. وقوله: ﴿وَيُفْتِنُ يَنْظُرُونَ﴾ حال تزيد في فزع السؤق وتقتضي شدة حاله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَبْعُدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الظَّلَافَتَيْنِ أَنَهَا لَكُمْ﴾ الآية. في هذه الآية قصص حسن أنا أختصره إذ هو مستوعب في كتاب سيرة رسول الله ﷺ لابن هشام، واختصاره أن رسول الله ﷺ لما بلغه - وقيل: أوحى إليه - أن أبا سفيان بن حرب قد أقبل من الشام بالعمير التي فيها تجارة قريش وأموالها قال لأصحابه: إن غير قريش قد عنت لكم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها، قال: فابتعث بمن معه من خف، وثقل قوم وكرهوا الخروج، وأسرع رسول الله ﷺ لا يلوي على من تعذر، ولا ينتظر من غاب ظهره، فسار في ثلاثمائة وثلاثة عشر من أصحابه بين مهاجري وأنصاري، وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله ﷺ لا يلقي حرباً فلم يكثروا استعدادهم، وكان أبو سفيان في خلال ذلك يستقصي ويحذر، فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ بعث ضَمَضَم بن عمرو الغفاري إلى مكة يستنفر أهلها، ففعل ضَمَضَم، فخرج أهل مكة في ألف رجل أو نحو ذلك، فلما بلغ رسول الله ﷺ خروجهم أوحى الله تعالى إليه وخياً غير ملتو يعده إحدى الطائفتين،

تكون ﴿يَادْغَامُ التَّاءِ فِي التَّاءِ﴾. ومعنى الآية: وتودون العير وتأتون قتال الكفار.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ﴾ الآية، المعنى: ويريد الله أن يظهر الإسلام ويُعلي دعوة الشرع. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع - بخلاف عنهم - ﴿يَكْلِمُهُ﴾ على الأفراد الذي يراد به الجمع، والمعنى في قوله: ﴿يَكْلِمُهُ﴾ إما أن يريد: بأوامره للملائكة والنُصرة لجميع ما يظهر الإسلام، وإما أن يريد: بكلماته التي سبقت في الأزل، والمعنى قريب.

والدابر: الذي يدبر القوم، أي: يأتي في آخرهم، فإذا قطع فقد أتى على آخرهم بشرط أن يبدأ الإهلاك من أولهم، وهي عبارة في كل من أتى الهلاك عليه.

﴿٨﴾ - ﴿٩﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: ليظهر ما يجب إظهاره وهو الإسلام ﴿وَيُبَيِّنُ الْبَاطِلَ﴾ أي الكفر ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ أي: وكراهيتهم واقعة، فهي جملة في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَفِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الآية. ﴿إِذْ﴾ متعلقة بفعل تقديره: واذكر إذ، وهو الفعل الأول الذي عمل في قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾، وقال الطبري: هي متعلقة بـ ﴿يُحْيِي﴾ و﴿يُبَيِّنُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يعمل فيها ﴿يَعِدُكُمْ﴾ فإن الوعد كان في وقت الاستغاثة، وقرأ أبو عمرو بإدغام الذال في التاء، واستحسنها أبو حاتم. و﴿تَسْتَفِيثُونَ﴾ معناه: تطلبون، وليس يبين من

المقداد الكندي فقال: لا نقول لك يا رسول الله اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون، ولكن نقول: إنا معكما مقاتلون، والله لو أردت بنا برك الغماد - قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي مدينة بالحشبة - لقاتلنا معك من دونها، فسُر رسول الله ﷺ بكلامه ودعا له بخير، ثم قال: أشيروا علي أيها الناس، فكلّمه سعد بن معاذ - وقيل: سعد بن عبادة -.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: «ويمكن أنهما جميعاً تكلماً في ذلك اليوم»، فقال: يا رسول الله، كأنك تريدنا معشر الأنصار؟ فقال النبي ﷺ: «أجل»، فقال: إنا آمنا بك واتبعناك فامض لأمر الله، فوالله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، فقال النبي ﷺ: «امضوا على بركة الله، فكأنني أنظر إلى مصارع القوم»، فالتفوا وكانت وقعت بدر.

وقرأ مسلمة بن محارب: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمْ﴾ بجزم الدال، قال أبو الفتح: ذلك لتوالي الحركات، وقرأ ابن محيصن: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الْأَلْفَيْنِ﴾ بوصل الألف من ﴿إِحْدَى﴾ وصلة الهاء بالحاء.

و﴿الشُّوْكَ﴾ عبارة عن السلاح والحدة، ومنه قول الأعور: «إِنْ الْعَرْفَجُ قَدْ أَذْبَى». وقرأ أبو عمرو - فيما حكى أبو حاتم - «الشُّوْكَ»

إِذْ تَسْتَفِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدِّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّينَ ﴿٨﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَآبِشْرَىٰ وَلَاطِمِينَ فِيهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا تَصَرُّوا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٩﴾ إِذْ يَغْشَىٰ كُفْرًا تَلْفَافًا أَمْتَةً مِّنْهُ وَيَزِيلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُفْرًا بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١٠﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فُوقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَمَا يَسِّرْكُمُ اللَّهُ شَيْئًا مِنَ الْعَمَلِ إِنَّكُمْ فُتِنْتُمْ وَأَنْتُمْ لَلكَافِرِينَ ﴿١٢﴾ عَذَابُ النَّارِ ﴿١٣﴾ يَكَايُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَلَقَّوهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَخَفَوْهُمُ الْأَذْكَارَ ﴿١٤﴾ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُمْ لَا مُتَحَرِّفَ لَكُمْ وَلَا مُتَحَذِّرًا إِلَيْكُمْ فَتَوَقَّذْ بَاءَ يَعْصِبُ مِنْهُ اللَّهُ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْأَصِيرُ ﴿١٥﴾

١٧٨

نعرف رسول الله ﷺ أصحابه بذلك فسروا وودوا أن تكون لهم العير التي لا قتال معها، فلما علم أبو سفيان بقرب رسول الله ﷺ أخذ طريق الساحل وأبعد وفات، ولم يبق إلا لقاء أهل مكة، وأشار بعض الكفار على بعض بالانصراف وقالوا: غيرنا قد نجت فلننصرف، فحرّش أبو جهل ولجّ حتى كان أمر الواقعة، وقال بعض المؤمنين: نحن لم نخرج لقتال ولم نستعد له، فجمع رسول الله ﷺ أصحابه وهو بواد يُسمّى ذفران وقال: «أشيروا علي أيها الناس» فقام أبو بكر رضي الله عنه وتكلم فأحسن وحرّض على لقاء العدو، فأعاد رسول الله ﷺ الاستشارة، فقام عمر رضي الله عنه بمثل ذلك فأعاد رسول الله ﷺ الاستشارة، فتكلم

ألفاظ هذه الآية أن المؤمنين علموا قبل القتال بكون الملائكة معهم، فإن ﴿استجاب﴾ يمكن أن يقع في غيبه تعالى، وقد روي أنهم علموا بذلك قبل القتال، ومعنى التأنيس وتقوية القلوب يقتضي ذلك، وقرأ جمهور الناس ﴿إِنِّي﴾ بفتح الألف، وقرأ أبو عمرو - في بعض ما روي عنه - وعيسى بن محمد - بخلاف عنه - ﴿إِنِّي﴾ بكسر الألف، أي: قال إني، و﴿مُؤْمِنُكُمْ﴾ أي مكشركم ومقويكم، من أمددت، وقرأ جمهور الناس ﴿يَأْتِي﴾، وقرأ عاصم الجحدري ﴿بِأَلْفٍ﴾، على مثل فُلُس وأفْلُس فهي جمع (ألف)، والإشارة بها إلى الآلاف المذكورة في آل عمران، وقرأ عاصم الجحدري أيضاً ﴿بِأَلْفٍ﴾.

و﴿مُؤْمِنُكُمْ﴾ معناه: متبعين، ويحتمل أن يراد بالمردفين، المؤمنين، أي أردفوا بالملائكة، ف﴿مُؤْمِنُكُمْ﴾ - على هذا - حال من الضمير في قوله: ﴿مُؤْمِنُكُمْ﴾. ويحتمل أن يراد به: الملائكة، أي أردف بعضهم ببعض. وهذه القراءة بفتح الدال، وهي قراءة نافع وجماعة من أهل المدينة وغيرهم. وقرأ سائر السبعة غير نافع بكسر الدال، وهي قراءة الحسن، ومجاهد، والمعنى فيها: تابع بعضهم بعضاً، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «خلف كل ملك ملك»، وهذا معنى التابع، يقال: ردف وأردف إذا اتبع وجاء بعد الشيء. ويحتمل أن يراد: مُردفين المؤمنين. ويحتمل أن يراد: مردفين بعضهم بعضاً، ومن قال:

﴿مُؤْمِنُكُمْ﴾ بمعنى أن كل ملك أردف ملكاً وراءه، فقول ضعيف لم يأت بمقتضاه رواية. وقرأ رجل من أهل مكة - رواه عنه الخليل - ﴿مُؤْمِنُكُمْ﴾ بفتح الراء وكسر الدال وشدها، وروي عن الخليل أيضاً أنها بضم الراء وكالتى قبلها في غير ذلك. وقرأ بعض الناس بكسر الراء ومثلها في غير ذلك، حكى ذلك أبو عمرو عن سيبويه، وحكاها أبو حاتم قال: كأنه أراد: «مرتدين» فأدغم وأتبع الحركة، ويحسن مع هذه القراءة كسر الميم ولا أحفظه قراءة. وأنشد الطبري شاهداً على أن (أردف) بمعنى: «جاء تابعا» قول الشاعر:

إِذَا الْجَوْزَاءُ أَزْدَقَتْهُ الثُّرَيَّا
ظَنَنْتُ بِأَلْ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا
والثريا تطلع قبل الجوزاء.

وروي في الأشهر أن الملائكة قاتلت يوم بدر، واختلف - في غيره - من شاهد رسول الله ﷺ، وقيل: لم تقاتل يوم بدر وإنما وقفت وحضرت، وهذا ضعيف. وحكى الطبري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: نزل جبريل في ألف ملك على ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر رضي الله عنه، ونزل ميكائيل في ألف ملك في الميسرة وأنا فيها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانا في خمسمائة وخمسمائة، وقال الزجاج: قال بعضهم: إن الملائكة خمسة آلاف، وقال بعضهم: تسعة آلاف، وفي هذا المعنى أحاديث هي مستوعبة في كتاب السير.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ الآية. الضمير في ﴿جَعَلَهُ﴾ عائد على الوعد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي أمكن الأقوال من جهة المعنى. وقال الزجاج: «الضمير عائد على المُؤْمَدِّد»، ويحتمل أن يعود على الإمداد، وهذا يحسن مع قول من يقول: إن الملائكة لم تقاتل، وإنما آتست بحضورها مع المسلمين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي ضعيف تردُّه الأحاديث الواردة بقتال الملائكة، وما رأى من ذلك أصحاب النبي ﷺ كابن مسعود رضي الله عنه وغيره.

ويحتمل أن يعود على «الإرداف» وهو قول الطبري، وهذا أيضاً يجري مجرى القول الذي قبله، ويحتمل أن يعود على «الألف»، وهذا أيضاً كذلك لأن البشرى بالشيء إنما هي ما لم يقع بعد. والبشرى: مصدر من بشرت، والطمأنينة: السكون والاستقرار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَلْمَزُ إِلَّا بَيْنَ عِنْدِ اللَّهِ﴾ توقيف على أن الأمر كله لله، وأن تكسب المرء لا يغني إذا لم يساعده القدر وإن كان مُطالباً بالجد، كما ظاهر رسول الله ﷺ بين دُرْعَيْنَ.

وهذه القصة كلها - من قصة الكفار وغلبة المؤمنين لهم - تليق بها من صفات الله عز وجل العزة والحكمة إذا تُؤمِّل ذلك.

(١١) - (١٢) تفسير قوله عز وجل: العامل في ﴿إِذَا﴾ هو العامل الذي

عمل في قوله: ﴿وَرَاةَ يَدَيْكُمْ﴾ بتقدير تكراره، لأن الاشتراك في العامل الأول نفسه لا يكون إلا بحرف عطف، وإنما القصد أن يُعَدَّد نِعْمَةُ تبارك وتعالى على المؤمنين في يوم بدر فقال: «واذكروا إذ فعلنا بكم كذا». وقال الطبري: «العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مع احتماله فيه ضعف، ولو جعل العامل في ﴿إِذْ﴾ شيئاً قريباً مما قبلها لكان الأولى في ذلك أن يعمل في ﴿إِذْ﴾ ﴿حَكِيمٌ﴾، لأن إلقاء النعاس عليهم وجعله أمانة حَكَمَةً من الله عز وجل.

وقرأ نافع: ﴿يُفْشِكُمْ﴾ بضم الباء وسكون الغين. وهي قراءة الأعرج، وأبي حفص، وابن نصاح. وقرأ عاصم، وحزمة، وابن عامر، والكسائي: ﴿يُشْشِكُمْ﴾ بفتح الغين وشد الشين المكسورة، وهي قراءة عروة بن الزبير، وأبي رجاء، والحسن، وعكرمة، وغيرهم. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿يُفْشَاكُمْ﴾ بفتح الباء وألف بعد الشين، وهي قراءة مجاهد، وابن محيصن، وأهل مكة ﴿النعاس﴾ بالرفع. وحجة من قرأ ﴿يُفْشَاكُمْ﴾ إجماعهم في آية (أُحِد) على ﴿يَشْنُ طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾، وحجة من قرأ ﴿يُفْشِكُمْ﴾ أن يجيء الكلام متسقاً مع ﴿وَنَزَلَ﴾. ومعنى ﴿يُشْشِكُمْ﴾: يغطيكم به ويفرغه عليكم، وهذه استعارة.

والنعاس: أخف النوم، وهو الذي قد يصيب الإنسان وهو واقف أو ماش، ويُنص على ذلك قصص هذه

الآية أنهم إنما كان بهم خفق في الرؤوس، وقول النبي ﷺ: «إذا نعس أحدكم في صلاته...»، وينص على ذلك قول الشاعر:

وَسَنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرْتَقْتُ
فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِسَائِمٍ
وقوله: ﴿أَمَنَةٌ﴾ مصدر من أمن الرجل يأمن أمناً وأمانةً، والهاء فيها لتأنيث المصدر كما هي في المساءة والمشقة، وقرأ ابن محيصن: ﴿أَمَنَةٌ﴾ بسكون الميم، وروي عن عبدالله بن مسعود أنه قال: «النعاس عند حضور القتال علامة أمن من العدو، وهو من الله، وهو في الصلاة من الشيطان».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا طريقه الوحي فهو لا محالة إنما يسنده.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَلَ عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ﴾ تعديد أيضاً لهذه النعمة في المطر، فقال بعض المفسرين - وحكاها الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقاله الزجاج -: إن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه، وبقي المؤمنون لا ماء لهم، فوجست نفوسهم وعطشوا وأجبنوا وصلوا كذلك، فقال بعضهم في نفوسهم - بإلقاء الشيطان إليهم -: نزعنا أولياء الله وفينا رسول الله ﷺ وحالنا هذه والمشركون على الماء، فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأودية، فشرب الناس وتطهروا وسقوا الظهور، وتدنست السبخة التي كانت بينهم وبين المشركين حتى

ثبتت فيها أقدام المسلمين وقت القتال، وكانت قبل المطر تسوخ فيها الأرجل، فلما نزل الطش تلبذت، قالوا: فهذا معنى قوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ أي من الجنابة ﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾ أي عذابه لكم بوساوسه المتقدمة الذكر. والرجز: العذاب، وقرأ أبو العالية: ﴿رِجْسٌ﴾ بالسين، أي وساوسه التي تمت وتنفذ، وقرأ ابن محيصن: ﴿رِجْزٌ﴾ بضم الراء، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿وَيَذْهَبَ﴾ بجزم الباء. ﴿وَلِيُطَهِّرَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي بتنشيطها وإزالة الكسل عنها وتشجيعها على العدو، ومنه قولهم: «رابط الجأش»، أي ثابت النفس عند جأشها في الحرب، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأُودَادَ﴾ أي في الرملة الدهسة التي كان المشي فيها صعباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح من القول - وهو الذي في السيرة لابن إسحق وغيرها - أن المؤمنين سبقوا إلى الماء ببدر، وفي هذا وقع كلام حباب بن المنذر الأنصاري حين نزل رسول الله ﷺ على أول ماء، فقال له حباب: (أبوخي يا رسول الله هو المنزل فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو عندك الرأي والمكيدة؟) الحديث المستوعب في السيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولكن نزول المطر كان قبل وصولهم إلى الماء، وذلك أن القوم من المؤمنين لحقتهم في سفرهم الجنابات وعدموا الماء قريب بدر فصلوا كذلك، فوقع في نفوسهم ذلك، ووسوس الشيطان لهم في

ذلك مع تخفيفه لهم من كثرة العدو وقتلهم، وهذا قبل الترائي بالأعين، وأيضاً فكانت بينهم وبين ماء بدر مسافة طويلة من رمل دهبٍ لئِن تسوخ فيه الأرجل، وكانوا يتوقعون أن يسبقهم الكفار إلى ماء بدر فتحرضوا هم أن يسبقوهم إليه، فأَنزل الله تلك المطرة فسالت الأودية فَاغتسلوا وطهرهم الله فذهب رجس الشيطان، ودمت الطريق وتلبدت تلك الرملة فسهل المشي فيها وأمكنهم الإسراع حتى سبقوا إلى الماء، ووقع في السيرة أن ما أصاب المشركين من ذلك المطر بعينه صعب عليهم طريقهم، فسُرُّ المؤمنون وتَبَيَّنُوا من فعل الله بهم قُصْدُ المعونة لهم فطابت نفوسهم واجتمعت وتشجعت، فذلك الرَبْطُ على قلوبهم وتثبيت الأقدام منهم على الرملة اللينة، فأمكنهم لحاق الماء قبل المشركين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا أحد ما يحتمله قوله تعالى: ﴿وَبَيَّنَّا يَدِ الْأَقْدَامِ﴾، والضمير في ﴿يَدِ﴾ على هذا الاحتمال عائد على الماء، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿يَدِ﴾ على ربط القلوب، فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب، ويَبَيَّنُ أن الرَبْاطَ الجأشَ يثبت قدمه عند مكافحة الهول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونزول الماء كان في الزمن قبل تغشية النعاس، ولم يترتب ذلك في الآية إذ القصد فيها تعديد النعم فقط، وحكى أبو الفتح أن الشعبي

قرأ: ﴿وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ سَاكِتٌ الْأَلْفُ﴾ ﴿يُطَهِّرُكُمْ بِهِ﴾ قال: وهي بمعنى: الذي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف. وقرأ ابن المسيب: ﴿يُطَهِّرُكُمْ﴾ بسكون الطاء.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الآية. العامل في ﴿إِذْ﴾ العامل الأول على ما تقدم فيما قبلها، ولو قدرناه قريباً لكان قوله تعالى: ﴿وَبَيَّنَّا﴾ على تأويل عود الضمير على الربط، وأما على عوده على الماء فيقلق أن تعمل ﴿وَبَيَّنَّا﴾ في ﴿إِذْ﴾.

ووحى الله إلى الملائكة إما بإلهام أو بإرسال بعض إلى بعض. وقرأ عيسى بن عمر - بخلاف عنه - ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بكسر الألف على استئناف إيجاد القصة، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الألف على أنها معمولة لـ ﴿يُوحِي﴾، ووجه الكسر أن الوحي في معنى القول.

وقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنَّا﴾ يحتمل أن يكون بالقتال معهم على ما روي. ويحتمل بالحضور في حيزهم والتأنيس لهم بذلك، ويحتمل أن يريد: فَبَيَّنَّوْهُمُ بأقوال مؤنسة مقوية للقلب، وروي في ذلك أن بعض الملائكة كان في صورة آدميين، فكان أحدهم يقول للذي يليه من المؤمنين: لقد بلغني أن الكفار قالوا: «لئن حمل المسلمون علينا لننكشيفن»، ويقول آخر: ما أرى الغلبة والظفر إلّا لنا، ويقول آخر: أقدم يا فلان، ونحو هذا من الأقوال المثبتة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أيضاً أن يكون التثبيت الذي أمر به ما يلقى الملك في قلب الإنسان يلمته من توهم الظفر واحتقار الكفار، ويجري عليه من خواطر تشجيعه، ويقوي هذا التأويل مطابقة قوله تعالى: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾، وإن كان إلقاء الرعب يطابق التثبيت على أي صورة كان التثبيت، ولكنه أشبه بهذا إذ هما من جنس واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا التأويل يجيء قوله تعالى: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾ مخاطبة للملائكة، ثم يجيء قوله سبحانه: ﴿فَأَضَرُّوا قُلُوبَ الْأَعْيَانِ﴾ لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر عن صورة الحال، كما تقول - إذا وصفت حرباً - لمن تخاطبه: «لقينا القوم وهزمناهم، فاضرب بسيفك حيث شئت واقتل وخذ أسيرك»، أي هذه كانت صفة الحال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون ﴿سَأَلْتِي﴾ إلى آخر الآية خبراً يخاطب به المؤمنين عما يفعله في الكفار في المستقبل كما فعله في الماضي، ثم أمر بضرب الرقاب والبنان تشجيعاً لهم وحضاً على نُصرة الدين. وقرأ الأعرج ﴿الرَّعْبَ﴾ بضم العين، والناس على تسكينها.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿قُلُوبِ الْأَعْيَانِ﴾ - فقال الأخفش: ﴿قُلُوبُ﴾ زيادة، وحكاها الطبري عن عطية أن المعنى: فاضربوا الأعناق، وقال غيره: هي بمعنى: على، وقال

عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: هي على بابها وأراد الرؤوس إذ هي فوق الأعناق. وقال المبرد: وفي هذا إباحة ضرب الكافر في الوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل أنبلها.

ويحتمل عندي أن يريد بقوله: «فَوْقَ الْأَعْنَاقِ» وصف أبلغ ضربات العنق وأحكمها، وهي الضربة التي تكون فوق عظم العنق ودون عظم الرأس، في المفصل. وينظر إلى هذا المعنى قول دُرَيْد ابن الصُّعْة الجشمي لابن الدُّعْنَةِ السُّلَمي حين قال له: «خذ سيفي وأزفع عن العظم واخفض عن الدماغ فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال»، ومثله قول الشاعر:

جَعَلْتُ السَّيْفَ بَيْنَ الْجَيْدِ مِنْهُ
وَبَيْنَ أَسِيلِ خَيْلِهِ عِذَارًا
فيجيء على هذا «فَوْقَ الْأَعْنَاقِ» متمكناً. وقال ابن قتيبة: «فَوْقَ» في هذه الآية بمعنى: دون. وهذا خطأ بين، وإنما دخل عليه اللبس من قوله تعالى: «مَا بَوْصُهُ كَمَا فَوْقَهَا» أي: فما دونها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليست «فَوْقَ» هنا بمعنى دون، وإنما المراد: فما فوقها في القِلَّة والصغر، فأشبه المعنى دون. والبنان: قالت فرقة: هي المفاصل حيث كانت من الأعضاء، فالمعنى على هذا: «واضربوا منهم في كل موضع». وقالت فرقة: البنان: الأصابع، وهذا هو القول الصحيح، فعلى هذا التأويل - وإن كان الضرب

في كل موضع مباحاً - فإنما قصد أبلغ المواضع لأن المقاتل إذا قطع بنانه استأسر ولم ينتفع بشيء من أعضائه في مكافحة وقاتل.

٣٧ - ٣٨ تفسير قوله عز وجل:

هذا الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنون داخلون فيه بالمعنى، والضمير في «إِنَّهُمْ» عائد على الذين كفروا، و«سَأَوْا» معناه: خالفوا ونابدوا وقطعوا، وهو مأخوذ من الشَّق وهو القطع والفصل بين شيئين، وهذه مفاعلة، فكأن الله لما شرع شرعاً وأمر بأوامر وكذبوا هم وصدّوا تباعد ما بينهم وانفصل وأنشَق، والشَّق مأخوذ من هذا لأنه مع شِقِّه الآخر تباعداً وانفصلاً. وعبر المفسرون عن قوله تعالى: «سَأَوْا» أي: صاروا في شق غير شِقِّه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وإن كان معناه صحيحاً فتحريز الاشتقاق إنما هو ما ذكرناه، والمثال الأول إنما هو الشَّق بفتح الشين، وأجمعوا على الإظهار في «يُسَاقِقُ» اتباعاً لخط المصحف. وقوله: «فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» جواب الشرط تضمن وعيداً وتهديداً.

وقوله تعالى: «ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ» المخاطبة للكفار، أي: ذلکم الضرب والقتل وما أوقع الله بهم يوم بدر، فكأنه قال: الأمر ذلکم فذوقوه، وكذا فسره سيبويه. وقال بعضهم: يحتمل أن يكون «ذَلِكُمْ» في موضع نصب، كقوله: «زيداً فاضربه». وقرأ جمهور الناس: «وَأَنْتَ» بفتح الألف، فإما على تقدير: «وَحْتَمَ أَنْ»، فيقدر على

ابتداءً محذوف يكون «أَنْ» خبره، وإمّا على تقدير «واعلموا أَنْ» فهي - على هذا - في موضع نصب. وروى سليمان عن الحسن بن أبي الحسن: «وَإِنْ» على القطع والاستئناف.

وقوله تعالى: «يَكَايِدُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَافًا» الآية. «زَحَافًا» يراد به: مُتَقَابِلِي الصُّفُوف والأشخاص، أي: يزحف بعضهم إلى بعض، وأصل الزحف الاندفاع على الآلية ثم سمي كل ماش إلى آخر في الحرب رويداً زاحفاً، إذ في مشيته من التماهل والتباطؤ ما في مشي الزاحف، ومن الزحف الذي هو الاندفاع قولهم لنار العرفج وما جرى مجراه في سرعة الانتقاد: نار الزُحُفَيْن. ومن التباطؤ في المشي قول الشاعر:

كَأَنَّهُنَّ بِأَيْدِي الْقَوْمِ فِي كَبَدٍ
طَيَّرَ تَكْشُفَ عَنْ جَوْنٍ مَزَاحِفٍ
ومنه قول الفرزدق:

عَلَى عَمَائِمِنَا ثُلُقَى، وَأَزْخُلْنَا
عَلَى زَوَاحِفٍ تُزْجِيهَا مُحَاسِيرُ

ومنه قول الآخر:

لِمَنْ الطَّعَائِنُ سَيَرُهُنَّ تَزْخُفُ

.....

ومن التزخُّف بمعنى التَّدافع قول الهذلي:

كَأَنَّ مَزَاحِفَ الْحَيَاتِ فِيهِ
قَبِيلُ الصُّبْحِ آتَارُ السَّيَاطِ
وأمر الله عز وجل في هذه الآية ألا يُؤْلِي المؤمنون أمام الكفار، وهذا الأمر مقيد بالشريطة المنصوصة في مثلي المؤمنين، فإذا لَقِيتُ فِتَّةً من المؤمنين فِتَّةً هي ضِعْفُ الْمُؤْمِنَةِ من

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَرِيمٌ
الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَغِيثُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ
وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدُوں تَقْتُلُوهُمْ
فَنُفِثَكُمْ سِيفًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَأَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَتَوَلَّوْا
تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُورُ الَّذِينَ
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهِ
تَحْشُرُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتَقَرَّفَنَّهُ لَا تَفْهَمُونَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

١٧١

أخرى، وليس في الآية نسخ، وأما يوم أحد فإنما فر الناس من أكثر من ضعفهم، ومع ذلك غفوا لكون رسول الله ﷺ فيهم وفرارهم عنه، وأما يوم حنين فكذلك من فر إنما انكشف أمام الكثرة، ويحتمل أن غفر الله عن فر يوم أحد كان عفواً عن كبيرة.

﴿مُتَحَرِّفًا لِّقَالٍ﴾ يراد به الذي يرى أن فعله ذلك أنكى للعدو وأعود عليه بالشر، ونصبه على الحال، وكذلك نصب ﴿مُتَحَرِّفًا﴾. وأما الاستثناء

فهو من المؤمنين الذين يتضمنهم ﴿وَمَنْ﴾، وقال قوم: الاستثناء هو من أنواع التولي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولو كان كذلك لوجب أن يكون: ﴿إِلَّا تَخَرُّفًا وَتَحْيِرًا﴾.

والفئة - ها هنا -: الجماعة من الناس الحاضرة للحرب. هذا على قول الجمهور في أن الفرار من الزحف كبيرة، وأما على القول الآخر فتكون (الفئة): المدينة والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا، روي هذا القول عن عمر رضي الله عنه، وأنه قال: أنا فتكم أيها المسلمون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا منه على جهة الحيلة على المؤمنين إذ كانوا في ذلك الزمن يشتون لأضعافهم مراراً، وفي مُسنَد ابن أبي شيبه من طريق عبد الله بن عمر أن

المشركين فالفرض ألا يفروا أمامهم، فالفرار هناك كبيرة موبقة بظواهر القرآن والحديث وإجماع الأمة، والذي يُراعى العَدُّ حسب ما في كتاب الله عز وجل، وهذا قول جمهور الأمة، وقالت فرقة منهم ابن الماجشون في «الواضحة»: يراعى أيضاً الضعف والقوة والغدة، فيجوز - على قولهم - أن يفر مائة فارس إذا علموا أن عند المشركين من الغدة والنجدة والبسالة ضعف ما عندهم، وأمام أقل أو أكثر بحسب ذلك، وأما على قول الجمهور فلا يحل فرار مائة إلا أمام ما زاد على مائتين.

والعبارة بالذُبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة لأنها تبشعة على الفارز دائماً له، وقرأ الجمهور: ﴿ذُبْرَةٌ﴾ بضم الباء، وقرأ الحسن ابن أبي الحسن: ﴿ذُبْرَةٌ﴾ بسكون الباء.

واختلف المتأولون في المشار إليه بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ - فقالت فرقة: الإشارة إلى يوم بدر وما وُليته، وفي ذلك اليوم وقع الوعيد بالغضب على من فر، ونسخ - بعد ذلك - حُكْم الآية بآية الضعف وبقي الفرار من الزحف ليس بكبيرة، وقد فر الناس يوم أحد فعفا الله عنهم، وقال الله فيهم يوم حنين: ﴿ثُمَّ وَكُنْتُمْ تُدْرِكُونَ﴾ ولم يقع على ذلك تعنيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال الجمهور من الأمة: الإشارة بـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إلى يوم اللقاء الذي يتضمنه قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ﴾، وحُكْم الآية باق إلى يوم القيامة بشرط الضعف الذي بيّنه الله تعالى في آية

النبى ﷺ قال لجماعة فرّت في سريّة من سراياه: «أَنَا فِئَةُ الْمُسْلِمِينَ» حين قدموا عليه. وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اتقوا «السَّبْعَ الموبقات»، وعدّد فيها الفِرَارَ من الزحف.

﴿بَكَّة﴾ بمعنى نهض متحملاً للثقل المذكور في الكلام غضباً كان أو نحوه، والغضب من صفات الله عز وجل إذا أخذ بمعنى الإرادة فهي صفة ذات، وإذا أخذ بمعنى إظهار أفعال الغاضب على العبد فهي صفة فعل، وهذا المعنى أشبه بهذه الآية، والمأوى: الموضع الذي يأوي إليه الإنسان.

١٧ - ١٨ - تفسير قوله عز وجل: هذه مخاطبة للمؤمنين أعلم الله بها أن القتل من المؤمنين ليسوا هم

مستبدين بالقتل بالإقدار عليه، والخلق والاختراع في جميع حالات القتال إنما هي لله تعالى ليس للقاتل فيها شيء، وإنما يشاركه بتكسبه وقصده. وهذه الألفاظ ترد على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم.

وسبب هذه الآية - فيما روي - أن أصحاب رسول الله ﷺ لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل فقال: قتل كذا وفعل كذا، فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك فنزلت الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ يراد به ما كان رسول الله ﷺ فعله يومئذ، وذلك أنه أخذ قبضات من حصى وتراب فرمى بها في وجوه القوم وتلقاهم ثلاث مرات فانهمزوا عند آخر رمية. ويروى أنه قال يوم بدر: **فشاهت الوجوه**. وهذه الفعلية أيضاً كانت يوم حنين بلا خلاف، وروي أن التراب الذي رمى به لم يبق كافر إلا دخل في عينيه منه شيء، وروى أنه رمى بثلاثة أحجار فكانت الهزيمة مع الحجر الثالث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيحتمل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ ما قلناه في قوله سبحانه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ وذلك منصوص في الطبري وغيره، وهو خارج عن كلام العرب على معنى: وما رميت الرمي الكافي إذ رميت، ونحو قول العباس بن مرداس:

.....

فلم أعط شيئاً ولم أمتنع

أي: لم أعط شيئاً مرضياً. ويحتمل أن يريد: وما رميت العرب في قلوبهم إذ رميت حصياتك، ولكن الله رماه، وهذا منصوص في المهدوي وغيره.

ويحتمل أن يريد: وما أغنيت إذ رميت حصياتك، ولكن الله رمى، أي أعانك وأظفرك، والعرب تقول في الدعاء: رمى الله لك، أي أعانك وصنع لك، وحكى هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز. وقرأت فرقة: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ بتشديد النون، وفرقة: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ بتخفيفها ورفع الهاء من **الله**.

و**لَيْلِي** أي: ليسيبهم بلاء حسن، فظاهر وصفه بالحسن يقتضي أنه أراد الغنيمة والظفر والعزة، وقيل: أراد الشهادة لمن استشهد يوم بدر وهم أربعة عشر، منهم عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، ومهجع مولى عمر رضي الله عنه، ومعاذ وعمرو ابنا عفراء، وغيرهم. **إِنَّ اللَّهَ يَبْجِعُ** لاستغنائكم **عَلَيْمٌ** بوجه الحكمة في جميع أفعاله لا إله إلا هو.

وحكى الطبري أن المراد بقوله سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ رمي رسول الله ﷺ الحربة على أبي بن خلف يوم أحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأن الآية نزلت عقب بدر، وعلى هذا تكون أجنية مما قبلها وما بعدها وذلك بعيد. وحكى أيضاً أن المراد السهم الذي رمى به رسول الله ﷺ في حصن خيبر فصار في الهواء حتى أصاب ابن أبي

الحقيق فقتله وهو على فراشه. وهذا فاسد، وخير فتحها أبعد من أحد بكثير، والصحيح في قتل ابن أبي الحقيق غير هذا. فهذان القولان ضعيفان لما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قتل الله ورميه إياهم، وموضع **ذَلِكُمْ** من الإعراب رفع. قال سيبويه: التقدير: الأمر ذلكم، وقال بعض النحويين: يجوز أن يكون في موضع نصب بتقدير فعل، **وَأَنَّ** معطوف على **ذَلِكُمْ**، ويجوز أن يكون خبر ابتداء مقدر تقديره: وختم سابق وثابت ونحو هذا. وقرأت فرقة: **وَأَنَّ** بكسر الهمزة على القطع والاستئناف. **وَمُؤْمِنٌ** معناه: مُضْعِف مُبْطِل، يقال: وهن الشيء، مثل: وعد يعد. ويقال: وهن مثل: ولي يلي. **وَقَسْرِيءٌ** قسراً وهناً لِمَا أَصَابَهُمْ بكسر الهاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: **مُؤْمِنٌ كَيْدٌ** من أوهن، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: **مُؤْمِنٌ كَيْدٌ** من وهن. وقرأ حفص عن عاصم: **مُؤْمِنٌ كَيْدٌ** بكسر الدال والإضافة، وذكر الزجاج أن فيها أربعة أوجه، فذكر هذه القراءات الثلاث، وزاد **مُؤْمِنٌ كَيْدٌ** بتشديد الهاء والإضافة إلا أنه لم ينص على أنها قراءة.

(١٩) - (٢١) تفسير قوله عز وجل:

قال بعض المتأولين: هذه الآية مخاطبة للمؤمنين الحاضرين يوم بدر، قال الله لهم: **إِنْ تَسْتَفِئُوا** فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وهو الحكم

بينكم وبين الكافرين، فقد جاءكم وقد حكم الله لكم، ﴿وَإِنْ تَنَهَّوْا﴾ عما فعلتم من الكلام في أمر الغنائم وما شجر بينكم فيها، وعن تفاخركم بأفعالكم من قتل وغيره ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَدُّوْا﴾ لهذه الأفعال ﴿تَعُدُّ﴾ لتوبيخكم. ثم أعلمهم أن الفتنة - وهي الجماعة - لا تغني وإن كثرت إلا بنصر الله تعالى ومعاونته، ثم آتسهم بقوله وإيجابه أنه مع المؤمنين.

وقال أكثر المتأولين: هذه الآية مخاطبة للكفار أهل مكة، وذلك أنه روي أن أبا جهل كان يدعو أبدأ في محافل قريش ويقول: «اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف فأهلكه واجعله المغلوب». يريد محمداً ﷺ وإياهم. وروي أن قريشاً لما عزموا على الخروج إلى حماية العير تعلقوا بأستار الكعبة واستفتحوا، وروي أن أبا جهل قال صبيحة يوم بدر: «اللهم انصر أحب الفتيين إليك، وأظهر خير الدينين عندك، اللهم أقطعنا للرحم فأجئنا الغداة، ونحو هذا»، فقال لهم الله: إن تطلبوا الفتح أي كما ترونه عليكم لا لكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا توبيخ. ثم قال لهم: وإن تنهوا عن كفركم وغيكم فهو خير لكم، ثم أخبرهم أنهم إن عادوا للاستفتاح عاد بمثل الوقعة يوم بدر عليهم، ثم أعلمهم أن فتنتهم لا تغني شيئاً وإن كانت كثيرة، ثم أعلمهم أنه مع المؤمنين.

وقالت فرقة من المتأولين: قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَتَدَّ جَاءَكُمْ﴾

أَلَفَتْحٌ، هي مخاطبة للمؤمنين، وسائر الآية مخاطبة للمشركين، كأنه قال: وأنتم أيها الكفار ﴿إِنْ تَنَهَّوْا﴾ فهو خير لكم.

وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ بكسر الهمزة على القطع، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص: ﴿وَأَنَّ﴾ بفتح الألف، فيما أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداء محذوف، وإما في موضع نصب بإضمار فعل، وما ذكره الطبري من أن التقدير: «لكثرتها ولأن الله مع المؤمنين» محتمل المعنى، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ وَاللَّهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا يقول قراءة من كسر الألف من ﴿إِنْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية. الخطاب للمؤمنين المصدقين، جدد عليهم الأمر بطاعة الله والرسول، ونهوا عن الثؤلي عنه، وهذا قول الجمهور. ويكون هذا متناصراً مع قول من يقول: «إن الخطاب بقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَنَهَّوْا﴾ هو للمؤمنين»، فيجيء الكلام من نمط واحد في معناه، وأما على قول من يقول: «إن الخطاب بـ (إِنْ تَنَهَّوْا) هي للكفار» فيرى أن هذه الآية إنما نزلت بسبب اختلافهم في النفل، ومجادلتهم في الحق، وكراهيتهم خروج رسول الله ﷺ، وتفاخرهم بقتل الكفار والنكابة فيهم. وقالت فرقة: الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين، والمعنى: يأيها الذين آمنوا بالآستهم فقط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا - وإن كان محتملاً على بُعد - فهو ضعيف جداً لأجل أن الله وصف من خاطب في هذه الآية بالإيمان، والإيمان: التصديق. والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء. وقيل: إن الخطاب لبني إسرائيل، وهذا أجبي من الآية.

و﴿تَوَلَّوْا﴾ أصله: تتولوا، لأن تفعل دخلت عليه تاء المخاطبة بالفعل المستقبل فحذفت الواحدة، والمحذوفة هي تاء تفعل، والباقية هي تاء العلامة، لأن الحاجة إليها هنا أمس لبقى الفعل مستقبلاً. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ يريد: دعاءه لكم بالقرآن والمواظع والآيات.

وقوله: ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا﴾ يريد الكفار، فيما من قريش لقولهم: ﴿سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا يَثَلْ هَذَا﴾، وإما الكفار على الإطلاق الذين يقولون: سمعنا القرآن وعلمنا أنه سحر أو شعر وأساطير بحسب اختلافهم، ثم أخبر الله عنهم خبراً نفى به أنهم سمعوا أي: فهموا ووعوا، لأنه لا خلاف أنهم كانوا يسمعون التلاوة بأذانهم ولكن صدورهم مطبقة لم يشرحها الله عز وجل لتلقي معاني القرآن والإيمان به.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل: المقصود بهذه الآية أن يبين أن هذه الصنيفة العاتية من الكفار هي شر الناس عند الله عز وجل، وأنها أحسن المنازل لديه، وعبر بالدواب ليتأكد ذمهم وليفضل عليهم الكلب

العقور والخنزير ونحوهما من السبع والخمس الفواسق وغيرها. والدواب: كل ما دب فهو يعض الحيوان بجملته. وقوله تعالى: ﴿أَلْقُمُ آبَكُمْ﴾ عبارة عما في قلوبهم وقلة انشراح صدورهم وإدراك عقولهم، فلذلك وصفهم بالصمم والبكم وسلب العقل. وروي أن هذه الآية نزلت في طائفة من بني عبد الدار، وظاهرها العموم فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بهذه الأوصاف، ثم أخبر تعالى بأن عدم سمعهم وهداهم إنما هو بما علمه الله منهم وسبق من قضائه عليهم فخرج ذلك في عبارة بليغة في ذمهم في قوله سبحانه ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾، والمراد: لأسمعهم إسماع تفهيم وهدى. ثم ابتداء عز وجل الخبر عنهم بما هم عليه من خنثيه عليهم بالكفر فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فُهِمَ بِمَا هُمْ كَافِرُونَ لَآتَوْا أَدْبَارًا وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: المعنى بهذه الآية المنافقون، وضعفه الطبري، وكذلك هو ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية. هذا خطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف، و﴿اسْتَجِيبُوا﴾ بمعنى أجيبوا، ولكن عرف الكلام أن يتعدى (استجاب) بلام ويتعدى (أجاب) دون لام، وقد يجيء تعدي (استجاب) بغير لام، والشاهد قول الشاعر:

وَدَاعَ دَعَا يَمَنْ يُجِيبُ إِلَى الْتَدَى
فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ
وقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال مجاهد والجمهور: المعنى: للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه، وهذا إحياء مستعار، لأنه من موت الكفر والجهل، وقيل: للإسلام، وهذا نحو الأول ويضعف من جهة أن من آمن لا يقال له: ادخل في الإسلام. وقيل: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ معناه: للحرب وجهاد العدو، وهو يُخَيَّ بالعهدة والغلبة والظفر، فسُمِّي ذلك حياة، كما تقول: حَيِّثُ حال فلان إذا ارتفعت، ويُخَيَّ أيضاً كما يُخَيَّ الإسلام والطاعة وغير ذلك بأنه يؤدي إلى الحياة الدائمة في الآخرة. وقال النقاش: المراد: إذا دعاكم للشهادة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه صلة حياة الدنيا بحياة الآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾. يحتمل وجوهاً - منها أنه لما أمرهم بالاستجابة في الطاعة حضهم على المبادرة والاستعجال فقال: وَاغْلُمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ بِالموت والقبض، أي: فبادروا بالطاعات. ويلتزم مع هذا التأويل قوله: ﴿وَأَنََّّهُ إِلَهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي: فبادروا بالطاعات وتزودوها ليوم الحشر. ومنها أن يقصد بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ إعلامهم أن قدرة الله وإحاطته وعلمه والجة بين المرء وقلبه حاصلة هناك حائلة بينه وبين قلبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأن هذا المعنى يحض على المراقبة والخوف لله المطلع على الضمائر، ويشبه - على هذا التأويل - هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، حكى هذا التأويل عن قتادة.

ويحتمل أن يريد تخويلهم إن لم يمثلوا الطاعات ويستجيبوا لله وللرسول بما حل بالكفار الذين أرادهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فُهِمَ بِمَا هُمْ كَافِرُونَ لَآتَوْا أَدْبَارًا وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لأن حتمه عليهم بأنهم لو سمعوا وفهموا لم ينتفعوا يقتضي أنه قد كان حال بينهم وبين قلوبهم، فكأنه قال للمؤمنين في هذه الأخرى: استجيبوا لله وللرسول ولا تأمنا إن لم تفعلوا أن ينزل بكم ما نزل بالكفار من الحول بينهم وبين قلوبهم، فنبه على ما جرى على الكفار بأبلغ عبارة وأعلقها بالنفس.

ومنها أن يكون المعنى ترجية لهم بأن الله يبدل الخوف الذي في قلوبهم من كثرة العدو فيجعله جرأة وقوة، ويضد ذلك للكفار، فإن الله هو مقلب القلوب كما كان في قسم النبي ﷺ، قال بعض الناس: ومنه: لا حول ولا قوة إلا بالله، أي: لا حول على معصية ولا قوة على طاعة إلا بالله.

وقال المفسرون في ذلك أقوالاً هي أجنبية من ألفاظ الآية حكاهما الطبري - منها أن الله يحول بين المؤمن والكافر، وبين الكفر والإيمان، ونحو هذا.

وقرأ ابن أبي إسحق: ﴿يُنِزُّ الْعِزَّةَ﴾ بكسر الميم، ذكره أبو حاتم، قال أبو الفتح: وقرأ الحسن والزبيدي:

﴿بَيْنَ الْمَرْءِ﴾ بفتح الميم وشد الراء
المكسورة.

و﴿تَحْتَرُونَ﴾ أي: تبعثون يوم القيامة. وروي من طريق مالك بن أنس والنسائي أن رسول الله ﷺ دعا أبي بن كعب وهو في الصلاة فلم يجب وأسرع في بقية صلاته، فلما جاءه قال له رسول الله ﷺ: «أَمَا سَمِعْتَ فِيمَا أَوْحَى إِلَيَّ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟» فقال أبي: لا جرم يا رسول الله، لا تدعونني أبداً إلا أجبته. الحديث بطوله واختلاف ألفاظه. وفي البخاري ومسلم أن ذلك وقع مع أبي سعيد بن المَعْلَى، وروي أنه وقع نحوه مع حذيفة بن اليمان في غزوة الخندق.

٢٩ - ٢٦ تفسیر قوله عز وجل:

هذه الآية تحتل تأويلات. أَسْبَقُهَا إِلَى النَّفْسِ أَنْ يَرِيدَ اللَّهُ أَنْ يُحْذِرَ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ فِتْنَةٍ إِنْ أَصَابَتْ لَمْ تَخْصِ الظُّلْمَةَ فَقَطْ، بَلْ تَصِيبُ الْكُلَّ مِنْ ظَالِمٍ وَبَرٍّ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ تَأَوَّلَ فِيهَا الزَّبِيرُ بْنُ الْعَوَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّهُ قَالَ يَوْمَ الْجُمْلَةِ: «وَمَا عَلِمْتُ أَنَا أُرْدَأُ بِهَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا الْيَوْمَ، وَمَا كُنْتُ أَظْنُهَا إِلَّا فِيمَنْ خَوَّطَبَ بِهَا ذَلِكَ الْوَقْتُ»، وَكَذَلِكَ تَأَوَّلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، فَإِنَّهُ قَالَ: «هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَلِيٍّ وَعِمَارٍ وَطَلْحَةَ وَالزَّبِيرَ»، وَكَذَلِكَ تَأَوَّلَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَإِنَّهُ قَالَ: «أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأَيُّ يَقْرَءُوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ فَيَعْمَهُمُ الْعَذَابُ»، وَيُبَيِّنُهُ الْقُتَيْبِيُّ فِيمَا ذَكَرَهُ مَكِّي عَنْهُ بَيَانًا شَافِئًا.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: فيجىء قوله:

﴿لَا تُصِيبُ﴾ - على هذا التأويل - صفة للفتنة، فكان الواجب - إذا قدرنا ذلك - أن يكون اللفظ: (لا تُصِيب)، وتلطف لدخول النون الثقيلة في الخبر عن الفتنة، فقال الزجاج: زعم بعض النحويين أن الكلام جزاء فيه طرق من النهي، قال: ومثله قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا مَنَازِلَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ﴾، فالمعنى: إن تدخلوا لا يحطمنكم، فكذاك هذا: إن تتقوا لا تصيبن. وقال

قوم: هو خبر بمعنى الجزاء فلذلك
أمكن دخول النون. وقال المهدوي:
وقيل: هو جواب قَسَمَ مقدر تقديره:
«واتقوا فتنة والله لا تُصيبين»،
ودخلت النون مع (لا) حملاً على
دخولها مع اللام فقط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وفي هذا القول تكبره ، لأن جواب لقسم إذا دخلته (لا) أو كان منفياً في جملة لم تدخل النون ، وإذا كان موجباً دخلته اللام والنون الشديدة **حقوقك** : «والله لا يقوم زيد ، والله لا يقوم زيد» هذا هو قانون الباب ، ولكن معنى هذه الآية يستقيم مع التكبر الذي ذكرناه .

والتأويل الآخر في الآية هو أن يكون قوله تعالى: «وَأَتَّقُوا فَتَنَهُ» خطاباً عاماً لجميع المؤمنين مستقلاً بنفسه ثم الكلام عنده ثم ابتدأ نهي

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَتَاكُمْ قَبِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
أَن يَخْطِفَكُمْ أَلَانًا فَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّكُمْ بِنُظُرِهِ رِزْقٌ
مِّنَ اللَّيْلِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥١﴾ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَخَوْفُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخَوْفُوا أَمْنَهُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٥٢﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا آمُرُكُمْ بِهِ ۖ وَأُولَئِكَ مِنْهُ وَأَنَّ اللَّهَ
عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٥٣﴾ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخَوْفُوا
اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ النَّصِيرِينَ ﴿٥٥﴾ وَإِذْ أَنْتَ عَلَىٰ سِنَاءٍ مِّنَ
الْجَبَلِ فَأَنْذَرْتَهُمْ سَوَاءًا وَلَقَدْ نَفْسًا مِّثْلَ هَذِهِ ۚ هَذَا لَأَن
أَسْطُرَهُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٦﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ
هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ فَأَنْطِرْ عَلَيْنَا جَارَهِهُ مِنَ السَّمَاءِ
أَوْ أَتِنَا بِمَدَادٍ أَلَسِيرٍ ﴿٥٧﴾ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ
وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٥٨﴾

18.

الظلمة خاصة عن التعرض للظلم
فصيصهم الفتنة خاصة، وأخرج النهي
على جهة المخاطبة للفتنة فهو نهي
محول، والعرب تفعل مثل هذا كما
قالوا: «لا أريدك ها هنا»، يريدون:
لا تقم ها هنا فتقع مني رؤيتك، ولم
يريدوا نهي الإنسان الراثي نفسه،
فكذلك المراد في الآية: لا يقع من
ظلمتكم ظلم فتقع من الفتنة
إصابتهم، نحا إليه الزجاج، وهو
قول أبي العباس المبرد، وحكاه
النقاش عن الفراء، ونهي الظلمة ها
هنا بلفظ مخاطبة الجمع كما تقول
لقوم: «لا يفعل سفهاؤكم كذا وكذا»
وأنت إنما تريد نهي السفهاء فقط.

و«خَاصَّةٌ» نعت لمصدر محذوف
تقديره: إصابة خاصة، فهي نصب
على الحال لما انحذف المصدر،
وهي من الضمير في «تُصِيبَنَّ»،

وهذا الفعل هو العامل. ويحتمل أن تكون ﴿عَاصَةً﴾ حالاً من الضمير في ﴿ظَلَمُوا﴾ ولا يحتاج إلى تقدير مصدر محذوف. والأول أمكن في المعنى.

وقرأ علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وأبو جعفر محمد بن علي، والربيع بن أنس، وأبو العالية، وابن جهماز: ﴿لَتُصِيبَنَّ﴾ باللام على جواب قسم. والمعنى على هذا وعيد الظلمة فقط. قال أبو الفتح: يحتمل أن يراد بهذه القراءة: «لا تصيبَنَّ» فحذف الألف من (لا) تخفيفاً واكتفاء بالحركة، كما قالوا: «أم والله»، ويحتمل أن يراد بقراءة الجماعة: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾: «لَتُصِيبَنَّ» فمطلت حركة اللام فحدثت عنها ألف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تنطع في التحميل، وحكى النقاش هذه القراءة عن الزبير بن العوام، وهذا خلاف لما حكى الطبري وغيره من تأويل الزبير رضي الله عنه في الآية. وحكى النقاش عن ابن مسعود أنه قرأ: «وَأَنْتُمْ أَفْتَنُ أَنْ تُصِيبَ».

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وعيد يلتزم مع تأويل الزبير والحسن التاماً حسناً، ويلتزم مع سائر التأويلات بوجوه مختلفة.

وروي عن علي بن سليمان الأخفش أن قوله تعالى: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ هي على معنى الدعاء، ذكره الزهراوي.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قِلِيلٌ﴾ الآية، هذه آية تتضمن تعديد

نعم الله على المؤمنين، و﴿إِذْ﴾ ظرف لمعمول ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ تقديره: «واذكروا حالكم الكائنة أو الثابتة إذ أنتم قليل»، ولا يجوز أن تكون ﴿إِذْ﴾ ظرفاً للذكر، وإنما يعمل الذكر في ﴿إِذْ﴾ لو قدرناها مفعولة. واختلف الناس في الحال المشار إليه بهذه الآية - فقالت فرقة وهي الأكثر: هي حال مكة في وقت بدء الإسلام، والناس الذين يخاف تخطفهم: كفار مكة، والمأوى - على هذا التأويل -: المدينة والأنصار، والتأييد بالنصر: وقعة بدر وما أنجز معها في وقتها، والطيات: الغنائم وسائر ما فتح الله عليهم به. وقالت فرقة: الحال المشار إليها هي حال رسول الله ﷺ وأصحابه في غزوة بدر، والناس الذين يخاف تخطفهم - على هذا -: عسكر مكة وسائر القبائل المجاورة، فإن رسول الله ﷺ كان يتخوف من بعضهم، والمأوى - على هذا - والتأييد بالنصر هو الإمداد بالملائكة والتغليب على العدو. والطيات: الغنيمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان يناسبان وقت نزول الآية لأنها نزلت عقب بدر.

وقال وهب بن منبه، وقائدة: الحال المشار إليها هي حال العرب قاطبة، فإنها كانت أعزى الناس أجساماً وأجوعهم بطوناً وأقلهم رجالاً ونعماً، والناس الذين يخاف تخطفهم - على هذا التأويل -: فارس والروم، والمأوى - على هذا - هو النبوة والشريعة، والتأييد بالنصر هو فتح

البلاد وغلبة الملوك، والطيات هي نعم المأكّل والمشارب والملابس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل يرده أن العرب كانت في وقت نزول هذه الآية كافرة إلا القليل، ولم تترتب الأحوال التي ذكرها هذا المتأول، وإنما كان يمكن أن يخاطب العرب بهذه الآية في آخر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإن تمثل أحد بهذه الآية لحالة العرب فتمثلته صحيح، وأما أن يكون حالة العرب هي سبب الآية فبعد لما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿لَمَلَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ترجّح بحسب البشر متعلق بقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾.

(٧٧) - (٧٨) تفسير قوله عز وجل:

هذا خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، وهو يجمع أنواع الخيانات كلها قليلها وكثيرها. قال الزهراوي: والمعنى: لا تخونوا بغلول الغنائم، وقال الزهراوي، وعبدالله بن أبي قتادة: سبب نزولها أمر أبي لبابة، وذلك أنه أشار لبني قُرَيْظَةَ - حين سَفَر إليهم - إلى حلقه، يريد بذلك إعلامهم أنه ليس عند رسول الله ﷺ إلا الذبح، أي: فلا تنزلوا، ثم ندم وربط نفسه بسارية من سواري المسجد حتى تاب الله عليه. الحديث المشهور. وحكى الطبري أنه أقام سبعة أيام لا يذوق شيئاً حتى تيب عليه، وحكى أنه كان لأبي لبابة عندهم مال وأولاد فلذلك نزلت: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَنْزَلَكُمْ وَوَلَدَكُمْ﴾.

وقال عطاء بن أبي رباح عن جابر

بن عبدالله: سببها أن رجلاً من المنافقين كتب إلى أبي سفيان بن حرب بخبر من أخبار رسول الله ﷺ فنزلت الآية، فقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ معناه: أظهروا الإيمان، ويحتمل أن يخاطب المؤمنين حقاً ألا يفعلوا فعل ذلك المنافق.

وحكى الطبري عن المغيرة بن شعبة أنه قال: أنزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يشبه أن يمثل بالآية في قتل عثمان رحمه الله، فقد كانت خيانة لله وللرسول والأمانات. والخيانة: التَنَقُّصُ للشيء باختفاء، وهي مستعملة في أن يفعل الإنسان خلاف ما ينبغي من حفظ أمر ما، مالا كان أو سراً أو غير ذلك، والخيانة لله تعالى هي في تنقص أوامره في سرّ، وخيانة الرسول تنقص ما استحفظ، وخيانات الأمانات هي تنقصها وإسقاطها، والأمانة حال للإنسان يؤمن بها على ما استحفظ، فقد أوثمن على دينه وعبادته وحقوق الغير. وقيل: المعنى: وتخونوا ذوي أماناتكم، وأظن الفارسي أبا علي حكاه. ﴿وَأَن تَنَزَّاهُ عَنْهُ﴾ يريد أن ذلك لا يضر منه إلا ما كان عن تعمد.

وقوله تعالى: ﴿فَنَشْءُ﴾ يريد: محنة واختباراً وابتلاء ليرى كيف العمل في جميع ذلك. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يريد فوز الآخرة، فلا تدعوا حظكم منه للحيلة على أموالكم وأبنائكم فإن المدخور للآخرة أعظم قدراً من مكاسب الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَخَوَّنُوا﴾ قال الطبري: يحتمل أن يكون داخلًا في النهي كأنه قال: «لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم»، فمكانه على هذا جزم، ويحتمل أن يكون المعنى: «لا تخونوا الله والرسول فذلك خيانة لأماناتكم»، فموضعه على هذا نصب على تقدير: «وأن تخونوا أماناتكم»، قال الشاعر:

لَا تُنْهَ عَنْ خُلُقِي وَتَأْتِي مِثْلَهُ
عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ
وقرأ مجاهد، وأبو عمرو بن العلاء - فيما روي عنه أيضاً - ﴿وَتَخَوَّنُوا أَمَانَتَكُمْ﴾ على أفراد الأمانة.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ الآية، وعد للمؤمنين بشرط الاتقاء والطاعة له، ﴿وَيَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ معناه: فرقاً بين حقكم وباطل من ينازعكم، أي بالثبوت والتأييد عليهم، والفرقان مصدر من فرق بين الشيئين حال بينهما أو خالف حكمهما، ومنه قوله: ﴿يَوْمَ أَفْرَقْنَا﴾. وعبر قتادة وبعض المفسرين عن الفرقان هاهنا بالنجاة، وقال السدي، ومجاهد: معناه: مخرجاً ونحو هذا مما يعمه ما ذكرناه، وقد يوجد للعرب استعمال الفرقان كما ذكر المفسرون، فمن ذلك قول مزرد بن ضِرَار:

بَادِرِ الْأَفْقَ أَنْ يَغِيبَ فَلَمَّا
أَظْلَمَ اللَّيْلُ لَمْ يَجِدْ فُرْقَانًا
وقال الآخر:

مَا لَكَ مِنْ طُولِ الْأَسَى فُرْقَانُ
بَعْدَ قَطْبَيْنِ رَحَلُوا وَبَاسُوا

وقال الآخر:

وَكَيْفَ أَرْجِي الْخُلْدَ وَالْمَوْتَ طَالِبِي
وَمَالِي مِنْ كَأْسِ الْمَنِيَّةِ فُرْقَانُ
وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. يشبه أن يكون قوله: ﴿وَإِذْ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿إِذْ أَنشَرَ لَيْلٌ﴾، وهذا تذكير بحال مكة وضيقها مع الكفرة وجميل صنع الله تعالى في جميعها. ويحتمل أن يكون ابتداء كلام، وهذا كله على أن الآية مدنية كسائر السورة، وهذا هو الصواب، وحكى الطبري عن عكرمة ومجاهد أن هذه الآية مكية، وحكى عن ابن زيد أنها نزلت عقب كفاية الله رسوله المستهزين بما أحله بكل واحد منهم، الحديث المشهور، ويحتمل عندي قول عكرمة ومجاهد: «هذه مكية» أن أشارا إلى القصة لا إلى الآية.

والمكر: المختلة والتداهي، تقول: «فلان يمكر بفلان» إذا كان يستدرجه ويسوقه إلى هوة وهو يظهر جميلاً وتُسْتَرُّ بما يريد، ويقال: أصل المكر القتل، قاله ابن فورك، فكان الماكر بالإنسان يقاتله حتى يوقعه، ومن المكر الذي هو القتل قولهم للجارية المعتدلة للحم: مكورة، فمكر قريش بالنبي ﷺ كان تديبرهم ما يسوقه، وسعيهم في فساد حاله وإطفاء نوره، وتدبير قريش على رسول الله ﷺ هذه الخصال الثلاث لم يزل قديماً من لدن ظهوره، لكن إعلانهم لا يسمى مكرًا، وما استسروا به هو المكر، وقد ذكر الطبري أن أبا طالب قال للنبي ﷺ: يا محمد، ماذا يدبر فيك

قومك؟ قال: «يريدون أن أقتل أو أسجن أو أخرج» قال أبو طالب: من أعلمك هذا؟ قال: «ربي» قال: إن ربك لربٌ صدق فاستوص به خيراً، فقال النبي ﷺ: «بل هو يا حم يستوصي بي خيراً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المكر الذي ذكره الله في الآية هو بإجماع من المفسرين إشارة إلى اجتماع قريش في دار الندوة بمحضر إبليس في صورة شيخ نجدى على ما نص ابن إسحق في سيره. الحديث بطوله، وهو الذي كان خروج النبي ﷺ من مكة بسببه، ولا خلاف أن ذلك كان بعد موت أبي طالب، ففي القصة أن أبا جهل قال: الرأي أن نأخذ من كل بطن في قريش فتى قوياً جلدأ فيجتمعون، ثم يأخذ كل واحد منهم سيفاً ويأتون محمداً في مضجعه فيضربونه ضربة رجل واحد، فلا يقدر بنو هاشم على قتال قريش بأسرها، فيأخذون العقل ونستريح منه، فقال النجدي: صدق الفتى، هذا الرأي لا أرى غيره، فافترقوا على ذلك، فأخبر الله بذلك نبيه ﷺ، وأذن له في الخروج إلى المدينة، فخرج رسول الله ﷺ من ليلته، وقال لعلي بن أبي طالب: التفت في بردي الحضرمي واضطجع في مضجعي فإنه لا يضرك شيء، ففعل علي، وجاء فتيان قريش فجعلوا يرصدون الشخص ويتظنون قيامه فيثرون به، فلما قام رأوا علياً فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، وفي السير أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم في طريقه

فطمس الله عيونهم عنه، وجعل على رأس كل واحد منهم تراباً ومضى لوجهه، فجاءهم رجل فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً، قال: إني رأيته الآن جائياً من ناحيتكم وهو لا محالة وضع التراب على رؤوسكم، فمد كل واحد يده إلى رأسه، وجأؤوا إلى مضجع النبي ﷺ فوجدوا علياً، فركبوا ورائه حينئذ كل صعب وذلول وهو بالغار. ومعنى «لِيُثْبِتُوكَ»: ليسجنوك فتثبت، قاله السدي، وعطاء، وابن أبي كثير. وقال ابن عباس، ومجاهد: معناه: لِيُوثِقُوكَ. وقال الطبري: وقال آخرون: المعنى: ليسحروك.

وقرأ يحيى بن وثاب فيما ذكر أبو عمرو الداني: «لِيُثْبِتُوكَ»، وهذه أيضاً تعدية بالتضعيف، وحكى النقاش عن يحيى بن وثاب أنه قرأ: «لِيُثْبِتُوكَ» من البيات، وهذا أخذ مع القتل فيضعف من هذه الجهة، وقال أبو حاتم: معنى «لِيُثْبِتُوكَ» أي بالجراحة، كما يقال: أثبتته الجراحة وحكاه النقاش عن أهل اللغة ولم يُسم أحدًا.

وقوله تعالى: «وَيَسْكَرُ اللَّهُ» معناه: يفعل أفعالاً منها تعذيب لهم، ومنها ما هو إبطال لمكرهم ورد له ودفع في صدره حتى لا ينجح، فسمي ذلك كله باسم الذنب الذي جاء ذلك من أجله، ولا يحسن في هذا المعنى إلا هذا، وأما أن ينضاف المكر إلى الله عز وجل على ما يفهم منه في اللغة فغير جائز أن يقال، وقد ذكر ابن قُورق في هذا ما يقرب من

هذا الذي ضعفناه، وإنما قولنا: «ويمكر الله» كما تقول في رجل شتم الأمير فقتله الأمير: هذا هو الشتم، فتسمى العقوبة باسم الذنب، وقوله سبحانه: «خَيْرَ الْمَكْرِيْنَ» أي: أقدرهم وأعزهم جانباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذه الجهة - أغني القدرة والعزة - يقع التفضيل، لأن مكر الكفار لهم قُدرة ما، فوقع التفضيل لمشاركتهم بها، وأما من جهة الصلاح الذي فيما يعلمه الله تعالى فلا مشاركة للكفار بصلاح، فيتعذر التفضيل على مذهب سيويه والبصريين إلا على ما قد بيناه في ألفاظ العموم مثل: خير وأحب ونحو هذا، إذ لا يخلو من اشتراك ولو على معتقد من فرقة أو أحد.

٢١ - ٢٢ تفسير قوله عز وجل: الضمير في «عليهم» عائد على الكفار، والآيات هنا: آيات القرآن خاصة بقريظة قوله: «تَتَلَقَّ»، و«وَقَدْ سَكُنَّا» يريد: وقد سمعنا هذا المتلو لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مثله، وقد سمعنا نظيره، على ما زوي أن النضر سمع أحاديث أهل الحيرة من العبادة فلو نشاء لقلنا مثله من القصص والأنبياء، فإن هذه إنما هي أساطير من قد تقدم، أي قصصهم المكتوبة المسطورة. وأساطير: جمع أسطورة، ويحتمل أن يكون جمع أسطار، ولا يكون جمع أسطر كما قال الطبري، لأنه كان يجيء أساطير بدون ياء، هذا هو قانون الباب، وقد شد منه شيء كصيرف، قالوا في جمعه: صياريف. والذي تواترت به الروايات عن ابن جُرَيْج، والسدي،

وَمَا لَهُمْ لَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُمْ إِنْ أُولَآئِهِمْ إِلَّا الْمُتَفَقُونَ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٥﴾ لَيْسَ لِلَّهِ الْخَبِيرِ مِنَ الظَّالِمِينَ وَبَعَثَ الْخَبِيرَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُوهُمْ جُوعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٦﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٧﴾ وَقَدْ بَلَّوْهُمْ حَقًّا لَا تُكُونُ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا اللَّهُ وَلِقَاءُ اللَّهِ أَنْتَهُوا فَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٨﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ ثُمَّ نَسُوا اللَّهَ وَرَحْمَتَهُ فَهُمْ الْخَسِرُونَ ﴿٣٩﴾

١٨١

المقالة هو التضر بن الحارث الذي تقدم ذكره، وفيه نزلت هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وترتب أن يقول التضر بن الحارث مقالة وينسبها القرآن إلى جميعهم لأن التضر كان فيهم موسوماً بالثبيل والفهم مسكوناً إلى قوله، فكان إذا قال قولاً قاله منهم كثير واتبعوه عليه حسبما يفعله الناس أبداً بعلمائهم وفقهائهم. والمشار إليه به «هَذَا» هو القرآن وشرع محمد ﷺ، والذي حملهم على هذه المقالة هو

الحسد، وذلك أنهم استبعدوا أن يكرم الله عليهم محمداً ﷺ هذه الكرامة، وعميت بصائرهم عن الهدى، وصمموا على أن هذا ليس بحق فقالوا هذه المقالة، كما يقول الإنسان لأمر قد تحقق يزعمه أنه لم يكن: «إِنْ كَانَ كَذَا وَكَذَا فَعَمَلُ اللَّهِ بِي وَضَعٌ». وحكى ابن فورك أن هذه المقالة خرجت مخرج العناد مع علمهم بأنه حق، وكذلك ألزم أهل اليمن معاوية بن أبي سفيان القصة المشهورة في باب الأجوبة. وحكاها الطبري عن محمد بن قيس، وي زيد بن رومان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد من التأويل، ولا يقول هذا على جهة العناد عاقل. ويجوز في العربية رفع «الْحَقِّ» على أنه خير «هُوَ»، والجملة خبر كان، قال

وابن جبير أن الذي قال هذه المقالة هو التضر بن الحارث، وذلك أنه كان كثير السفر إلى فارس والجزيرة، فكان قد سمع من قصص الرهبان والأنجيل، وسمع من أخبار رستم واسبنديار، فلما سمع القرآن ورأى فيه من أخبار الأنبياء والأمم قال: لو شئت لقلت مثل هذا، وكان التضر من مَرْدَةِ قريش النائلين من رسول الله ﷺ، وقتله رسول الله ﷺ صبراً بالصفرَاءِ مُتَّصِرَةً من بدر في وضع يقال له: الأثيل، وكان أسره المقداد، فلما أسر رسول الله ﷺ بضرب عنقه قال المقداد: أسيري يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا عَلِمْتُمْ» ثم أعاد المقداد مقالته حتى قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَهْنِ الْمُقَدَّادَ مِنْ فَضْلِكَ» فقال المقداد: هذا الذي أردت، فبضرب عنق التضر.

وحكى الطبري عن سعيد بن جبيرة أن رسول الله ﷺ قَتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا ثَلَاثَةَ نَفَرٍ: الْمُطْعَمَ بْنَ عَدِيٍّ، وَالتُّضَرَ بْنَ الْحَارِثِ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وهم عظيم في خبر الْمُطْعَمِ، فقد كان مات قبل يوم بدر، وفيه قال النبي ﷺ: «لَوْ كَانَ الْمُطْعَمُ حَيًّا وَكَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ الثُّلَاثَةِ لَرَكَّبْتُهُمْ لَهُ» يعني أسرى بدر.

وقوله تعالى: «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ» الآية. روي عن مجاهد، وابن جبير، وعطاء، والسدي أن قاتل هذه

الرُّجَاج: ولا أعلم أحداً قرأ بهذا الجائز، وقراءة الناس إنما هي ينصب «الْحَقَّ» على أن يكون خبر كان، ويكون «هُوَ» فصلاً، فهو حينئذ اسم وفيه معنى الإعلام بأن الذي بعده خبر وليس بصفة، (وأنظر) إنما يستعمل في المكروه، (ومطر) في الرحمة. كذا قال أبو عبيدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعارض هذا قوله سبحانه: «هَذَا عَارِضٌ مُّطِيرٌ» لأنهم ظنوها سحابة رحمة. وقولهم: «بَيْنَ السَّمَاءِ وَمِبَالِغَةِ وَإِغْرَاقٍ».

وهذان النوعان اللذان اقترحوهما هما السالفان في الأمم، عافانا الله وعافا عنا ولا أضلنا بمئة ومئة.

٣٣ - ٣٤ تفسير قوله عز وجل: قالت فرقة: نزلت هذه الآية كلها بمكة، وقالت فرقة: نزلت كلها بعد

وقعة بدر حكاية عما مضى، وقال ابن أبيزي: نزل قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ بمكة إثر قولهم: ﴿أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ آخِرٍ﴾، ونزل قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ عند خروج النبي ﷺ عن مكة في طريقه إلى المدينة وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون، ونزل قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ إلى آخر الآية بعد بدر عند ظهور العذاب عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأجمع المتأولون على أن معنى قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أن الله عز وجل لم يعذب قط أمة ونبيها بين أظهرها، فما كان ليعذب هذه وأنت فيهم، بل كرامتك لديه أعظم، قال - أراه عن أبي زيد -: سمعت من العرب من يقول: «ما كان الله ليعذبهم» بفتح اللام، وهي لغة غير معروفة ولا مستعملة في القرآن.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وابن أبيزي، وأبو مالك، والضحاك ما مقتضاه: إن الضمير في قوله: ﴿مُعَذِّبُهُمْ﴾ يعود على كفار مكة، والضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ عائد على المؤمنين الذين بقوا بعد رسول الله ﷺ بمكة، أي: وما كان الله ليعذب الكفار والمؤمنون بينهم يستغفرون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويدفع في صدر هذا القول أن المؤمنين الذين رد الضمير عليهم لم

يجر لهم ذكر. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ما مقتضاه أن يقال: الضميران عائدان على الكفار، وذلك أنهم كانوا يقولون في دعائهم: غفرانك، ويقولون: لبيك لا شريك لك، ونحو هذا مما هو دعاء واستغفار، فجعله الله أمانة من عذاب الدنيا، وعلى هذا تركب قول أبي موسى الأشعري، وابن عباس: إن الله جعل من عذاب الدنيا أمانتين، كون النبي ﷺ مع الناس، والاستغفار، فارتفعت الواحدة وبقي الاستغفار إلى يوم القيامة، وقال قتادة: الضمير للكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ جملة في موضع الحال إن لو كانت، فالمعنى: وما كان الله معذبهم وهم بحال توبة واستغفار من كفرهم إن لو وقع ذلك منهم، واختاره الطبري، ثم حسن الزجر والتوقيف - بعد هذا - بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾.

وقال الزجاج ما معناه: إن الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ عائد على الكفار، والمراد به من سبق له في علم الله أن يسلم ويستغفر، فالمعنى: وما كان الله ليعذب الكفار وفيهم من يستغفر ويؤمن في ثاني حال، وحكاية الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال مجاهد في كتاب الزهراوي: المراد بقوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ذرية المشركين يومئذ الذين سبق لهم في علم الله أن يكونوا مؤمنين، فالمعنى: وما كان الله ليعذبهم وذريتهم يستغفرون ويؤمنون، فنسب

الاستغفار إليهم إذ ذريتهم منهم، وذكره مكي ولم ينسبه.

وفي الطبري عن فرقة أن معنى ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾: يُصَلُّونَ، وعن أخرى: يُسَلِّمُونَ، ونحو هذا من الأقوال التي تتقارب مع قول قتادة.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ توعده بعذاب الدنيا، فتقديره: وما يُغْلِمُهُمْ أو يُذْرِبُهُمْ ونحو هذا من الأفعال التي توجب أن تكون ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب، وقال الطبري: تقديره: وما يمنهم من أن يعذبوا، والظاهر في قوله: ﴿وَمَا﴾ أنها استفهام على جهة التقرير والتوبيخ والسؤال، وهذا أفصح في القول وأقطع لهم في الحجة. ويصح أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، ويكون القول إخباراً، أي: وليس لهم ألا يعذبوا وهم يصدون.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ على التأويلين جملة في موضع الحال، و﴿يَصُدُّونَ﴾ في هذا الموضع معناه: يمنعون غيرهم، فهو متعد كما قال:

صَدَدْتُ الْكَأْسَ عَنَّا أَمْ عَمْرٍو

وقد يجيء (صد) غير متعد، كما أشهد أبو علي:

صَدَدْتُ حُلَيْدَةَ عَنَّا مَا تُكَلِّمُنَا

والضمير في قوله سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ لَهُمْ﴾ عائد على الله عز وجل من قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾، أو على المسجد الحرام، كل ذلك جيد، روي الأخير عن الحسن، والضمير الآخر تابع للأول.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناه: لا يعلمون أنهم ليسوا بأوليائه، بل يظنون أنهم أولياؤه. وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ ونحن نجد كلهم بهذه الصفة لفظ خارج إما على أن تقول: إنه لفظ خصوص أريد به العموم، وهذا كثير في كلام العرب، ومنه حكى سيبويه قولهم: «قُلْ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ»، وهم يريدون: لا يقوله أحد. وإما أن تقول: إنه أراد بقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أن يعلم ويشعر أن بينهم وفي خلاصهم قوماً قد جنحوا إلى الإيمان، ووقع لهم علم وإن كان ظاهرهم الكفر فاستثناهم من الجميع بقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، وكذلك كانت حال مكة وأهلها، فقد كان فيهم العباس، وأم الفضل وغيرهما.

وحكى الطبري عن عكرمة: قال الحسن بن أبي الحسن: إن قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ ناسخ لقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْرِقُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر لأنه خبر لا يدخله نسخ.

تفسير قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ قرأ الجمهور: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ بالرفع ﴿عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا مَكَاةً﴾ بالنصب ﴿وَتَصَدَّقَتْ﴾ كذلك. وروي عن عاصم أنه قرأ ﴿صَلَاتُهُمْ﴾ بالنصب ﴿إِلَّا مَكَاةً وَتَصَدَّقَتْ﴾ بالرفع، ورويت عن سليمان الأعمش بخلاف عنه فيما حكى أبو حاتم، وذكر أبو علي عن الأعمش أنه قال في قراءة عاصم: أفان لحن عاصم

تلحن أنت؟ قال أبو الفتح: وقد روي الحرف كذلك عن أبان بن تغلب، قال قوم: وهذه القراءة خطأ لأنه جعل الاسم نكرة والخبر معرفة، قال أبو حاتم: فإن قيل: «إن (المكاة والتصدية) اسم جنس واسم الجنس مَعْرُوفٌ وَمُنْكَرٌ واحد في التعريف» قيل: إن استعماله هكذا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر، كما قال حسان:

كَأَنَّ مَسِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ
يَكُونُ مِزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ
ولا يقاس على ذلك.

فأما أبو الفتح فوجه هذه القراءة بما ذكرناه من تعريف اسم الجنس، وبعد ذلك يرجح قراءة الناس.

قال أبو علي الفارسي: وإنما ذهب من ذهب إلى هذه القراءة لما رأى أن (الصلاة) مؤنثة، ورأى الفعل المسند إليها ليس فيه علامة تأنيث فأراد تعليقه بمذكر وهو (المكاة)، وأخطأ في ذلك، فإن العرب تعلق الفعل لا علامة فيه بالمؤنث، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُكَ ظَلَمًا﴾، وقوله سبحانه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مُكْرِمِهِمْ﴾، و﴿كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، ونحو هذا مما أسند فيه الفعل دون علامة إلى المؤنث.

والمكاة على وزن الفعل: الصَّفِير، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والجمهور، فقد يكون بالفم، وقد يكون بالأصابع والكف في الفم، قال مجاهد، وأبو سلمة بن عبد الرحمن: وقد يشارك

الأنف، يقال: مَكَأَ يَمْكُو إذا صَفَرَ، ومنه قول عترة:

وَحَلِيلَ غَائِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَدِّلاً
تَمْكُو قَرِيصَتُهُ كَشِدْقِي الْأَعْلَمُ
ومنه قول الشاعر:

فَكَأَمَّا يَمْكُو بِأَعْصَمٍ عَاقِلٍ
.....

يصف رجلاً فَرَّ له حيوان، ومنه قول الطرمح:

فَنَحَا لِأَوَّلَاهَا بِطَغْنَةٍ مُحْفِظٍ
تَمْكُو جَوَائِبُهَا مِنَ الْإِنْهَارِ
ومكت است الدابة إذا صَفَرَتْ، يقال: ولا تمكو إلا است مكشوفة، ومن هذا قيل للإست: مَكْوَةٌ، قال أبو علي: فالهمزة فيه منقلبة عن واو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن هذا قيل للطائر: المَكَاة، لأنه يَمْكُو أي يَصْفُر في تغريده، ووزنه فُعَال بِشَدِّ الْعَيْنِ كَحُطَافٍ، والأصوات في الأكثر تجيء على فُعَال بتخفيف العين كالْبَكَاة والصُرَاخ والدُعَاء والجُورَار والتَّبَاخ ونحوه. وروى عن قتادة أن المَكَاة صوت الأيدي، وذلك ضعيف. وروى عن أبي عمرو أنه قرأ ﴿إِلَّا مَكَاةً﴾ بالقصر.

والتَّصْدِيَةُ عبر عنها أكثر الناس بأنها التصفيق. وقاتدة بأنها الضجيج والصياح، وسعيد بن جببر بأنها الصَّدُّ والمنع. ومن قال «إنها التصفيق» قال: «إنما كان للمنع عن ذكر الله ومعارضة لقراءة رسول الله ﷺ للقرآن». والتَّصْدِيَةُ يمكن أن تكون من صَدَى يُصْدَى إذا

صَوْتُ، والصدى: الصوت، ومنه قول الطُّرَّاح يصف الأروية:

لَهَا كُلُّمَا رِيَعَتْ صَدَاةً وَزَحْدَةً
بِمَضْرَانٍ أَعْلَى ابْتَنَى شَمَامِ الْبَوَائِنِ
فيلتئم - على هذا الاشتقاق - قول من قال: هو التصفيق، وقول من قال: الضجيج، ولا يلتئم عليه قول من قال: هو الصَّدُّ والمنع إلا أن يُجعل التصويت إنما يقصد به المنع، ففسر اللفظ بالمقصود لا بما يخصه من معناه.

ويمكن أن تكون التصدية من صَدَّ يَصُدُّ، استعمل الفعل مضاعفاً للمبالغة والتكثير لا لِيُعْذَى فُقِيل: صَدَّدَ، وذلك أن الفعل الذي يتعدى إذا ضَعَفَ فإنما يَضَعَفُ للتكثير، إذ التعذّي حاصل قبل التضعيف وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّقَ الْأَوْبَ﴾، والذي يَضَعَفُ لِيُعْذَى هو كقولهم: عَلَّمَ وَغَرَّمَ، فإذا قلنا في صَدَّدَ: ففَعَّلَ في الصحيح يجيء مصدره في الأكثر على تفعيل، وفي الأقل على تَفْعِيلَةٍ، مثل كَمَّلَ تكميلاً وتَكْمِيلَةً وغير ذلك، بخلاف المعتل فإنه يجيء في الأكثر على تَفْعِيلَةٍ، مثل عَزَّى تَغْزِيَةً، وفي الشاذ على تَفْعِيلٍ مثل قول الشاعر:

بَاتَ يُنْزِي دُلُوءَهُ تَنْزِيًّا

.....
وإذا كان فَعَّلَ في الصحيح يتسق فيه الجِثْلان رُقُضَ فيه تفعلة مثل قولنا: تَصُدِّي، وَصَيْرَ إلى تفعيل لتحول الياء بين المثليين كتخفيف وتشديد، فلما سلكوا في مصدر صَدَّدَ المثلَّك المرفوض أصلح ذلك بأن أبدل أحد الجِثْلين ياءً كبذلهم

في: تَطَيَّيْتُ ونحوه، فجاء: تَصُدِّي، فعلى هذا الاشتقاق يلتئم قول من قال: التَّصُدِّي: الصَّدُّ عن البيت والمنع.

ويمكن أن تكون التَّصُدِّي من: صَدَّ يَصُدُّ - بكسر الصاد في المستقبل - إذا ضَجَّ، وَيُبْدَل أيضاً على هذا أحد المِثْلَيْن، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْلُكَ مِثْلُ مِثْلِهِ﴾ بكسر الصاد، ذكره النحاس.

وذهب أكثر المفسرين إلى أن المكاء والتَّصُدِّي إنما أحدهما الكفار عند مبعث رسول الله ﷺ لتقطع عليه وعلى المؤمنين قراءة صلواتهم، ويخلط عليهم، فكان المصلي إذا قام يقرأ من المؤمنين اكتنفه من الكفار عن يمينه وشماله من يمْكُو وَيُصَدِّي حتى تختلط عليه قراءته، فلما نفى الله ولايتهم للبيت أمكن أن يعترض معترض بأن يقول: وكيف لا نكون أولياءه ونحن نسكنه ونصلي عنده؟ فقطع الله هذا الاعتراض بأن قال: «وما كان صلواتهم إلا المكاء والتَّصُدِّي»، وهذا كما يقول الرجل: أنا أفعل الخير، فيقال له: ما فعلك الخير إلا أن تشرب الخمر وتقتل، أي: هذه عادتك وغايته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي مرَّ بي من أمر العرب في غير ما ديوان أن المكاء والتَّصُدِّي كان من فعل العرب قديماً قبل الإسلام على جهة التقرب به والتَّشَرُّع، ورأيت عن بعض أقوياء العرب أنه كان يمْكُو على الصفا فيسمع من جبل حراء وبينهما أربعة

أميال. وعلى هذا يستقيم تعبيرهم وتَنَقُّصهم بأن شرعهم وصلاتهم وعبادتهم لم تكن رهبة ولا رغبة، إنما كانت مُكَاءً وَتَصُدِّيًة من نوع اللعب، ولكنهم كانوا يتزايدون فيها وقت النبي ﷺ ليشغلوه وأُمتَه عن القراءة والصلاة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ وَفَّيْنَاكَ الْغَدَّابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ إشارة إلى عذابهم ببدر بالسيف، قاله ابن جرير، والحسن، والضحاك، فيلزم من هذا أن هذه الآية الأخيرة نزلت بعد بدر ولا بُدَّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأشبه أن الكل نزل بعد بدر حكاية عما مضى. والله ولي التوفيق برحمته.

تفسير قوله عز وجل:

قال بعض الرواة، منهم ابن أبيزيد، وابن جبير، والسدي، ومجاهد: سبب نزول هذه الآية أن أبا سفيان أنفق في غزوة أحد على الأحابيش وغيرهم أربعين أوقية من الذهب أو نحو هذا، وأن الآية نزلت في ذلك. وقال ابن شهاب، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ: إنه لما قُتل من قُتل ببدر اجتمع أبناؤهم وقرابتهم وقالوا لمن خلص ماله في العير: إن محمداً قد نال منا ما ترون، ولكن أعيوننا بهذا المال الذي كان سبب الوقعة، فلعلنا أن ننال منه ثأراً، ففعلوا فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى القولين فإنما أنفق المال في غزوة أحد، فأخبر الله تعالى في هذه الآية خبراً لفظه عام في الكفار، والإشارة به إلى مخصوصين أنهم ينفقون أموالهم يقصدون بذلك الصدقة عن سبيل الله والدفع في صدر الإسلام، ثم أخبر خبراً يخص المشار إليهم أنهم ينفقونها ثم تكون عليهم حسرة، إذ لا تتم لهم إرادة ويذهب المال باطلاً، والحسرة: التلهف على الفائت، ويحتمل أن تكون الحسرة في يوم القيامة والأول أظهر وإن كانت حسرة القيامة راتبة عليهم، وهذا من إخبار القرآن بالغيوب لأنه أخبر بما يكون قبل أن يكون، فكان كما أخبر، قال ابن سلام: بين الله عز وجل أنهم يغلبون قبل أن يقاتلوا بسنة، حكاه الزهراوي.

ثم أخبر تعالى عن الكافرين أنهم يجمعون إلى جهنم، والحشر: جمع الناس والبهائم إلى غير ذلك مما يجمع ويخضر، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَحَرِّثْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ ثَوْبٍ قَبْلًا﴾، ومنه في التفسير أن السلوى طائر كانت الجنوب تحشره على بني إسرائيل، والقوم الذين جلتهم أبو سفيان وأنفق المال عليهم هم الأحابيش من كنانة، ولهم يقول كعب بن مالك:

وَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطُهُ
أَحَابِيشٌ مِنْهُمْ حَابِرٌ وَمُقْتَعٌ
ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيبُهُ
ثَلَاثُ مِائِينَ إِنْ كُثِرْنَ فَأَذْبَعُ
وقال الضحاك وغيره: إن هذه الآية نزلت في نفقة المشركين الخارجين

إلى بدر الذين كانوا يذبسون يوماً عشراً ويوماً تسعاً من الإبل، وحكى نحو هذا النقاش.

﴿٧٧﴾ - ﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿قَرَأْ أَبْنِ عَمْرٍو، وَأَبْنِ عَامِرَ: ﴿لِيَبَيِّنَ﴾ بفتح الياء وكسر الميم، وهي قراءة الأعرج، وأبي جعفر، وشيبة بن نصاح، وشبل، وأبي عبد الرحمن، والحسن، وعكرمة، ومالك بن دينار. تقول: ميزت الشيء، والعرب تقول: ميزته فلم يميز لي، حكاه يعقوب، وفي شاذ القراءة: ﴿وَانْمَاؤُوا الْيَوْمَ﴾، وأنشد أبو زيد: لَمَّا نَسَى اللَّهُ عَنِّي شَرَّ دَعْوَتِهِ وَانْمَزْتُ لَا مُنْشَأَ ذُفْرًا وَلَا وَجْلاً وَهُوَ مطاوع: ماز.

وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿لِيَبَيِّنَ﴾ بضم الياء وفتح الميم وشد الياء، وهي قراءة قتادة، وطلحة بن مصرف، والأعمش، والحسن أيضاً، وعيسى البصري، تقول: ميزت أميز إذا فرقت بين شيئين فصاعداً، وفي القرآن ﴿تَمَيِّزْ بَيْنَ أَقْصَادٍ﴾ فهو مطاوع مَيَّزَ ومعناه: تنفصل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والسدي: المعنى بالمعنى بالكفار، وبالمعنى المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واللام - على هذا التأويل - من قوله: ﴿لِيَبَيِّنَ﴾ متعلقة بـ ﴿يَحْشُرُونَ﴾، والمعنى أن الله يحشر الكافرين إلى جهنم ليميز الكافرين من المؤمنين بأن يجمع الكافرين جميعاً فيلقهم في جهنم. ثم أخبر عنهم أنهم هم الخاسرون،

أي الذين خابت سعايتهم وثبت أيديهم وصاروا إلى النار. وقال ابن سلام، والزجاج: المعنى بالخبيث المال الذي أنفقه المشركون في الصدقة عن سبيل الله، والطيب هو ما أنفقه المؤمنون في سبيل الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واللام - على هذا التأويل - من قوله: ﴿لِيَبَيِّنَ﴾ متعلقة بـ ﴿يَحْشُرُونَ﴾، والمعنى أن الكفار ينفقون أموالهم فتكون عليهم حسرة ثم يغلبون مع نفقتها، وذلك ليميز الله الفرق بين الخبيث والطيب فيدخل أهل الخبيث وينصر أهل الطيب، وقوله تعالى: - على هذا التأويل -: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ مترتب على ما روي عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يخرج من الأموال ما كان صدقة أو قربة يوم القيامة، ثم يأمر بسائر ذلك فيلقى في النار». وحكى الزهراوي عن الحسن أن الكفار يعذبون بذلك المال، فهي كقوله تعالى: ﴿تَكُونُ بِهَا جِثَاءَهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، وقاله الزجاج، وعلى التأويلين فقوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَزَكِّهُمْ جَمِيعًا﴾ إنما هو عبارة عن جمع ذلك وضمه وتأليف أشنائه وتكافئه بالاجتماع.

و(يَزَكِّيهِ) في كلام العرب: يكتفه، ومنه: ﴿سَكَّابٌ زَرَكُومٌ﴾ وركام، ومنه قول ذي الرمة:

رُحٌ بِالزَّمَامِ وَجُوزُ اللَّيْلِ مَزَكُومٌ
وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ

بمعنى يُلقني، قاله أبو علي. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ - على هذا التأويل - يُرادُ به المنافقون من الكفار، ولفظة الخسارة تليق بهم من جهة المال ويغير ذلك من الجهات.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. أمر من الله عز وجل لِنبيه ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى الذي تضمنته ألفاظ قوله: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وسواء قاله النبي ﷺ في هذه العبارة أو غيرها، ولو كان الكلام كما ذكر الكسائي أنه في مصحف ابن مسعود: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَكُمْ﴾ لما تأدت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها، هذا بحسب ما تقتضيه الألفاظ. وقوله: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ يريد به: عن الكفر ولا بُدَّ، والحامل على ذلك جواب الشرط بـ ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لِمُنتَهٍ عن الكفر. وقوله: ﴿وَإِنْ يَعُدُّوكُمْ﴾ يريد به: إلى القتال، لأن لفظة (عاد يعود) إذا جاءت مطلقة فإنها تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان الإنسان عليها ثم تنقل عنها، ولسنا نجد في هذه الآية لهؤلاء الكفار حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال، ولا يصح أن يُتأول: ﴿وَإِنْ يَعُدُّوا﴾ إلى الكفر لأنهم لم ينفصلوا عنه، وإنما قلنا في (عاد): ﴿إِذَا كَانَتْ مَطْلُوقَةً﴾ لأنها قد تجيء في كلام العرب داخلة على الابتداء والخبر بمنزلة (صار)، وذلك كما تقول: «عاد زيد ملكاً» تريد: صار، ومنه قول أبي الصلت:

بِئْسَ الْمَكَارِمُ لَا قُعْبَانٍ مِنْ لَبَنِ شَيْبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا
وهذه لا تتضمن الرجوع لحالة قد كان العائد عليها قَبْلُ، لكنها مُقَيَّدَةٌ بخبرها لا يجوز الاقتصار بدونه، فحُكِمَ حُكْمُ (صار).

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله حين صد في وجه نبيِّه، ويَمُنُّ هلك في يوم بدر بسيف الإسلام والشُّرْع، والمعنى: فقد رأيتُم بديرٍ وسمعتُم عن الأمم ما حلَّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتخويف عليهم بيوم بدر أشدُّ، إذ هي القرية منهم والمُعَايَنَةُ عندهم، وعليها نصُّ ابن إسحق، والسدي.

وقوله تعالى: ﴿وَقَتْلُكُمْ حَتَّى لَا تَكُونُوا فِتْنَةً﴾ الآية. أمر من الله عز وجل قَرَضَ به على المؤمنين أن يقاتلوا الكفار، والفتنة: قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناها: الشُّرْك، وقال ابن إسحق: معناها: حتى لا يُفْتَن أحد عن دينه كما كانت قريش تفعل بمكة بمن أسلم كيلاً وغيره، وهو مقتضى قول عروة بن الزبير في جوابه لعبد الملك بن مروان حين سأله عن خروج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾ أي: لا يُشْرِك معه صنم ولا وَثَن، ولا يُعْبَد غيره. وقال قتادة: حتى تستويق كلمة الإخلاص «لا إله إلا الله».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه المعاني تتلازم كلها، وقال الحسن: حتى لا يكون بلاء، وهذا يلزم عليه القتال - في فتن المسلمين - الفتنه الباغية، وعلى سائر ما ذكرناه من الأقوال يكون المعتزل في فسحة، وعلى هذا جاء قول عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «أما نحن فقد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وأما أنت وأصحابك فتريدون أن نقاتل حتى تكون فتنة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فمذهب ابن عمر أن الفتنة: الشُّرْك في هذه الآية، وهو الظاهر، وفسر هذه الآية قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله». ومن قال: المعنى حتى لا يكون شرك فالآية عنده يراد بها الخصوص فيمن لا تُقبل منه جزية، قال ابن سلام: وهي في مشركي العرب.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَنْتَهُوا﴾ أي عن الكفر فإن الله بصير بعملهم مُجَازٍ عليه، عنده ثوابه وجميل المقارضة عليه، وقرأ يعقوب بن إسحق، وسلام بن سليمان: ﴿يَمَّا تَغْمُلُونَ﴾ بالباء، أي في قتالكم وجِدْكم وجلاذكم عن دينه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ الآية، معادل لقوله: ﴿وَإِنْ أَنْتَهُوا﴾، والمعنى: فإن انتهوا عن الكفر فالله مجازيهم - أو مجازيكم على قراءة «تَغْمُلُونَ» -، وإن تولوا فاعلموا أن الله ينصركم عليهم، وهذا وعد محض بالنصر والظفر، أي: فجدُّوا.

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن
كُنْتُمْ أَمْنًا مِّنْ اللَّهِ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ
يَوْمَ الْفَتْحِ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ فِتْنٍ وَفَيْدِيرُ ﴿١٥﴾ إِذْ
أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الَّذِينَ هُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْقَصُوفِ وَالرَّكِبِ
أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خَلْفَ لَكُمْ فِي الْعِيعَةِ
وَلَكِنْ لِّيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَاتٍ مَّفْعُولًا لِّهَٰلِكَ مَن
هَلَكَ عَنْ بَيْتِهِ وَيَجِيءُ مِنْ حَيْثُ عَنْ بَيْتِهِ وَابْنُ اللَّهِ
لَسَمِعَ عَلَيْهِ ﴿١٦﴾ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكُمْ قَبِيلًا
وَلَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ كَثِيرًا لَّفَتَيْتُمْ وَلَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ
وَلَكِنْ اللَّهُ سَلَّمَ لَكُمْ عَلَيْهِ بِذَاتِ الْأُصْدُرِ ﴿١٧﴾ لَوَإِ
يُرِيكُمْهُمْ إِذْ تَقِفُونَ فِي أَعْيُنِكُمْ قَبِيلًا وَيَقُولُ لَكُمْ
فِي أَعْيُنِهِمْ لِّيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَاتٍ مَّفْعُولًا وَابْنُ اللَّهِ
تُرْجِعُ الْأُمُورَ ﴿١٨﴾ يَأْتِيهَا الْوَيْلُ مَأْمُورًا إِذَا لَقِيتُمْ فُتً
فَاتَّبِعُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ لَكُمْ تَقْلِيحُونَ ﴿١٩﴾

١٨٢

وهذه الآية التي في الأنفال
ناسخة لقوله في سورة
الحشر: ﴿مَّا أَفَاهُ اللَّهُ عَلَى
رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾
وذلك أن تلك كانت
الحُكْم أولًا، ثم
أعطى الله أهلها الخمس
فقط، وجعل الأربعة
الأخماس في المقاتلين.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: وهذا قول
ضعيف نص العلماء على
ضعفه، وأن لا وجه له من
جهات: منها أن هذه
السورة نزلت قبل سورة
الحشر، هذه ببذر، وتلك
في بني النضير وقرى

عرينة. ولأن الآيتين متفقتان وحكم
الخمس وحكم تلك الآية واحد لأنها
نزلت في بني النضير حين جلوا
وهربوا، وأهل فدك حين دعوا إلى
صلح ونال المسلمين ما لهم دون
إيجاف. وحكى ابن المنذر عن
الشافعي أن في الفيء الخمس، وأنه
كان في قرى عرينة زمن النبي ﷺ،
وأن أربعة أخماسها كان للرسول ﷺ
خاصة دون المسلمين يضعها حيث
يشاء. وقال أبو عبيدة: «هذه الآية
ناسخة لقوله تعالى في أول السورة:
﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية، ولم
يخمس رسول الله ﷺ غنائم بدر
فنسخ حكمه في ترك التخميس بهذه
الآية».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويظهر من قول علي بن أبي طالب
رضي الله عنه في البخاري: «كانت

والمولى هاهنا: المولى والمعين.
والمولى في اللغة على معانٍ هذا هو
الذي يليق بهذا الموضع منها،
والمولى الذي هو السيد المقترن
بالعبد يعم المؤمنين والمشركون.

﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:
موضع ﴿أَنْ﴾ الثانية رفع،
والتقدير: «فحكمه أَنْ»، فهي في
موضع رفع خبر الابتداء. والغنيمة
في الغلة ما يناله الرجل أو الجماعة
بسعي، من ذلك قول الشاعر:
وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الْأَقَاقِ حَتَّى
رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ
وقال آخر:

مُطْعِمُ الْغَنَمِ يَوْمَ الْغَنَمِ مُطْعِمُهُ
أَتَى تَوَجُّهَ وَالْمَخْرُومُ مَخْرُومُ
ومنه قول النبي ﷺ في الرهن: «له
غَنَمُهُ وعليه مخرجه» وقوله: «الصيام
في الشتاء هو الغنيمة الباردة».
فالشيء الذي يناله المسلمون من
عدوهم بالسعي وإيجاف الخيل
والركاب: غنيمة، ولزم هذا الاسم
هذا المعنى حتى صار عرفاً له.

والفيء مأخوذ من «فَاء يَفِيءُ» إذا
رجع، وهو كل ما دخل على
المسلمين من غير حرب ولا إيجاف
كَخَرَجِ الْأَرْضِ، وجزية الجماجم،
وخمس الغنيمة، ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والزكوات أيضاً مالٌ على جدته،
أحكامه منفردة دون أحكام هذين،
قال سفيان الثوري، وعطاء بن
السائب: «الغنيمة: ما أخذ عثرة،
والفيء: ما أخذ صلحاً». وهذا
قريب مما بيَّناه. وقال قتادة: «الفيء»
والغنيمة شيء واحد فيهما الخمس،

لي شارف من نصيبي من المغنم
ببدر، وشارف أعطانيها
رسول الله ﷺ من الخمس حينئذ
أن غنيمة بدر خمست، فإن كان ذلك
فسد قول أبي عبيدة. ويحتمل أن
يكون الخمس الذي ذكره علي بن
أبي طالب من إحدى الغزوات التي
كانت بين بدر وأحد، فقد كانت
غزوة بني سليم، وغزوة السوق،
وغزوة ذي أَمْر، وغزوة بُخْران، ولم
يحفظ فيها قتال ولكن يمكن أن
غنمت غنائم. والله أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿يَنْ
شَيْءٍ﴾ ظاهره عام ومعناه الخصوص،
فأما النَّاسُ والمتاع والأطفال والنساء
وما لا يؤكل لحمه من الحيوان
ويصح تملكه فليس للإمام في جميع
ذلك ما كثر منه وما قل كالخيطة
والمخيطة إلا أن يأخذ الخمس ويقسم

الباقى في أهل الجيش، وأما الأرض فقال فيها مالك: يُقَسِّمُهَا الإمام إن رأى ذلك صواباً كما فعل النبي ﷺ بخيبر، ولا يُقَسِّمُهَا إن أذاه اجتهداه إلى ذلك كما فعل عمر رضي الله عنه بأرض مصر وسواد الكوفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن فعل عمر رضي الله عنه ليس بمخالف لفعل النبي ﷺ، إذ ليست النازلة واحدة بحسب قرائن الوقتين وحاجة الصحابة وقتلتهم، وهذا كله انعكس في زمان عمر رضي الله عنه، وأما الرجال ومن شارف البلوغ من الصبيان فالإمام - عند مالك وجهور العلماء - مُخَيَّرٌ فيهم على خمسة أوجه، منها: القتل، وهو مُسْتَحْسَنٌ في أهل الشجاعة والنكاية، ومنها: الفداء، وهو مُسْتَحْسَنٌ في ذي المنصب الذي ليس بشجاع ولا يُخَافُ منه رأي ولا مكيدة لانتفاع المسلمين بالمال الذي يؤخذ منه، ومنها: السِّنْ، وهو مُسْتَحْسَنٌ فيمن يرجى أن يحنو على أسرى المسلمين ونحو ذلك من القرائن، ومنها الاسترقاق، ومنها: ضرب الجزية والترك في الذمة. وأما الطعام والغنم ونحوهما مما يؤكل فهو مباح في بلد العدو يأكله الناس فما بقي كان في المغنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما أربعة أخماس ما غنم فيقسمه الإمام على الجيش، ولا يختص بهذه الآية ذكر القسمة فأنا أختصره هنا، وأما الخمس فاختلف العلماء فيه.

قال مالك رحمه الله: الرأي فيه للإمام يلحقه بيت الفراء، ويعطي من ذلك البيت لقراءة رسول الله ﷺ ما رآه، كما يعطي منه اليتامى والمساكين وغيرهم، وإنما ذكر من ذكر على وجه التنبيه عليهم لأنهم من أهم من يدفع إليه. قال الزجاج محتجاً لمالك: قال الله تعالى: ﴿يَتْلُوكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَلِلْآلِئِينَ وَالْآقِرِينَ وَالْيَتَامَى وَالسَّكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ﴾، وللإمام بإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك.

وقالت فرقة: كان الخمس يُقَسَّمُ على ستة أقسام: قسم لله وهو مردود على فقراء المسلمين أو على بيت الله، وقسم للنبي ﷺ، وقسم لقرباته، وقسم لسائر من سمي، حكى القول منذر بن سعيد، ورُدَّ عليه، قال أبو العالية الرياحي: كان النبي ﷺ يقبض من خمس الغنيمة قُبْضَةً فيجعلها للكعبة، فذلك لله، ثم يقسم الباقي على خمسة، قسم له، وقسم لسائر من سمي.

وقال الحسن بن محمد، وابن عباس، وإبراهيم النخعي، وقاتدة، والشافعي: قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلَّهِ حُكْمٌ﴾ استفتاح كلام كما يقول الرجل لعبده: «قد أعثقتك الله وأعتقتك» على جهة التبرك وتفخيم الأمر، والدنيا كلها لله، وقسم الله وقسم الرسول واحد، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقسم الخمس على خمسة أقسام كما تقدّم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً فيما روى عنه الطبري: الخمس

مقسوم على أربعة أقسام، وسهم الرسول ﷺ لقرباته وليس لله ولا للرسول شيء.

وقالت فرقة: قسم الرسول ﷺ بعد موته مردود على أهل الخمس، القرباة وغيرها. وقالت فرقة: هو مردود على الجيش أصحاب الأربعة الأخماس، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يلي الإمام منهم سهم الله ورسوله. وقالت فرقة: هو موقوف لشراء العُدَد والكِرَاع في سبيل الله.

وقال إبراهيم النخعي: وهذا الذي اختاره أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيه.

وقال أصحاب الرأي: الخمس بعد النبي ﷺ مقسوم ثلاثة أقسام: قسم لليتامى، وقسم للمساكين، وقسم لابن السبيل، ورسول الله ﷺ لم يورث فسقط سهمه وسهم ذوي القربى، وحجتهم فيه منع أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم لذوي القربى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يثبت المنع، بل عورض بنو هاشم بأن قريشاً قُزِي، وقيل: لم يكن في مدة أبي بكر رضي الله عنه مغنم.

وقال الشافعي: يعطى أهل الخمس منه ولا بُدَّ ويُفَضَّلُ الإمام أهل الحاجة ولكن لا يحرم صنفاً منهم حرماناً تاماً. وقول مالك رحمه الله: إن للإمام أن يعطي الأحوج وإن حرم الغير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان رسول الله ﷺ مخصصاً من

الغنيمة بثلاثة أشياء، كان له خمس الخمس، وكان له سهم رجل في سائر الأربعة الأخماس، وكان له صفي يأخذه قبل القسمة، دابة أو سيف أو جارية، ولا صفي لأحد بعده بإجماع إلا ما قال أبو ثور من أن الصفي باق للإمام، وهو قول معدود في شواذ الأقوال.

وذو القربى: قرابة رسول الله ﷺ، فقال علي ابن الحسين، وعبدالله بن الحسن، وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم: «هم بنو هاشم فقط»، قال مجاهد: كان آل محمد ﷺ لا تحل لهم الصدقة فجعل لهم خمس الخمس، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولكن أبي ذلك علينا قَوْمًا وقالوا: «قريش كلها قري». وقال الشافعي رحمه الله: «هم بنو هاشم وبنو المطلب فقط».

وقال رسول الله ﷺ لعثمان بن عفان، وجبير بن مطعم في وقت قسمه سهم ذوي القربى من خيبر على بني هاشم وبنو المطلب: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، ما فارقونا في جاهلية ولا في إسلام».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كانوا مع بني هاشم في الشعب. وقالت فرقة: قريش كلها قري، وروي عن علي بن الحسين، وعبدالله بن محمد بن علي رضي الله عنهم أنهما قالا: «الآية كلها في قريش»، والمراد يتامى قريش ومساكنها.

وقالت فرقة: سهم القرابة بعد النبي ﷺ موقوف على قرابته، وقد

بعثه إليهم عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، إلى بني هاشم وبنو المطلب فقط. وقالت فرقة: هو لقرابة الإمام القائم بالأمر، وقال قتادة: كان سهم ذوي القربى طُفْعَةً لرسول الله ﷺ ما كان حياً، فلما توفي جعل لولي الأمر بعده، وقاله الحسن بن أبي الحسن البصري. وحكى الطبري أيضاً عن الحسن أنه قال: اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة النبي ﷺ، فقال قوم: سهم النبي ﷺ للخليفة، وقال قوم: سهم النبي ﷺ لقرابة النبي ﷺ، وقال قوم: سهم القرابة لقرابة الخليفة، فاجتمع رأيهم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعُدَّة، فكان على ذلك مدة أبي بكر رضي الله عنه. قال غير الحسن: وعمر.

واليتامى: الذين فقدوا آباءهم من الصبيان، واليتيم في بني آدم من قبل الآباء، وفي البهائم من قبل الأمهات. والمسكين: الذين لا شيء لهم، وهو مأخوذ من السكون وقلة الحراك. وابن السبيل: الرجل المجتاز الذي قد احتاج في سفر، وسواء كان غنياً في بلده أو فقيراً فإنه ابن السبيل، يُسَمَّى بذلك إما لأن السبيل تبرزه فكانها تلده، وإما لملازمته السبيل كما قالوا: ابن ماء وأخو سفر، ومنه قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة ابن زنى»، وقد تقدّم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد اقتضيت فقه هذه الآية حسب الاختصار، والله المستعان.

و«مَا» في قوله تعالى: ﴿مَا غَنِمْتُمْ﴾ بمعنى الذي، وفي قوله: ﴿غَنِمْتُمْ﴾ ضمير يعود عليها، وحكي عن الفراء أنه جَوَزَ أن تكون «مَا» شرطية بتقدير: «أنه ما»، وحذف هذا الضمير لا يجوز عند سيبويه إلا في الشعر، ومنه:

إِنْ مَنْ يَدْخُلُ الْكَنِيسَةَ يَوْمًا

وقرأ الجمهور: ﴿فَأَنْ يَلَهُ﴾ بفتح الهمزة، وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم، وحسين عن أبي عمرو: ﴿فَإِنْ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ الحسن: ﴿خُنْهُ﴾ بسكون الميم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ﴾ الآية، قال الزجاج عن فرقة: المعنى: فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم، ف«إِنْ» متعلقة بهذا الوعد، وقال أيضاً عن فرقة: إنها متعلقة بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الصحيح لأن قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ يتضمن الأمر بانقياد وتسليم لأمر الله في الغنائم، فعلق «إِنْ» بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ على هذا المعنى، أي: إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة. وقوله: ﴿وَمَا آتَيْنَا﴾ عطف على قوله: ﴿بِاللَّهِ﴾، والمشار إلي به «مَا» هو النصر والظهور الذي أنزله الله تبارك وتعالى يوم بدر على نبيه وأصحابه، أي: إن كنتم مؤمنين بالله وبهذه الآيات والعظامم الباهرة التي أنزلت يوم بدر، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى قرآن نزل يوم بدر أو في

قصة يوم بدر على تكبره في هذا التأويل الأخير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون المعنى: واعلموا أنما غنمتم يوم الفرقان يوم التقى الجمعان فإن خمسة لكذا أو كذا إن كنتم آمنتم، أي: فانقادوا لذلك وسلموا، وهذا تأويل حسن في المعنى. ويعترض فيه الفصل بين الظرف وما تعلق به بهذه الجملة الكثيرة من الكلام.

﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ معناه: يوم الفرق بين الحق والباطل بإعزاز الإسلام وإذلال الشرك. والفرقان: مصدر من فَرَّقَ يَفْرِقُ. والجمعان: يريد جمع المسلمين وجمع الكفار، وهو يوم الواقعة التي قُتل فيها صناديد قريش ببدر، ولا خلاف في ذلك، وعليه نص ابن عباس، ومجاهد، ومقسم، والحسن بن علي، وقتادة، وغيرهم، وكانت يوم الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة، هذا قول جمهور الناس، وقال أبو صالح: يتسع عشرة، وشك في ذلك عروة بن الزبير وقال: لتسع عشرة أو لسبع عشرة. والصحيح ما عليه الجمهور.

وقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعضد أن قوله: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ يراد به النصر والظفر، أي الآيات والعظائم من غلبة القليل الكثير، وذلك بقدرة الله تعالى الذي هو على كل شيء قدير.

﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله: ﴿الَّتَقَى﴾، والعدوة: شفير الوادي وحزفه الذي

يتعذر المشي فيه، بمنزلة رجا البئر، لأنها عدت ما في الوادي من ماء ونحوه أن يتجاوز الوادي، أي منته، ومنه قول الشاعر:

عَدْتَنِي عَنْ زِيَارَتِكَ الْعَوَادي
وحالت دونها حزب زَبُون
ولأنها ما عدا الوادي، أي جاوزته، وتسمى الضفة والفضاء المسابير للوادي عُدوة للمجاورة، وهذه هي العُدوة التي في الآية.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَالْعُدُوَّةُ﴾ بضم العين، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿يَالْعِدُوَّةُ﴾ بكسر العين، وهما لغتان، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وقتادة، وعمرو: ﴿يَالْعُدُوَّةُ﴾ بفتح العين، ويمكن أن تكون تسمية بالمصدر، قال أبو الفتح: الذي في هذا أنها لغة ثالثة كقولهم في اللبن: رَغْوَةٌ ورَغْوَةٌ ورَغْوَةٌ، وروى الكسائي: كلمته بخضرة فلان وخضرته وحضرته، إلى سائر نظائر ذكر أبو الفتح كثيراً منها.

وقوله تعالى: ﴿الْأُدْيَا﴾ و﴿الْفُصَيْنِ﴾ إنما هو بالإضافة إلى المدينة، وفي حرف ابن مسعود: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوَّةِ الْعُلْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوَّةِ السُّفْلَى﴾، ووادي بدر أخذ بين الشرق والقبلة منحرف إلى البحر الذي هو قريب من ذلك الصُّقْع، والمدينة من الوادي من موضع الواقعة منه في الشرق، وبينهما مرحلتان، حدثني أبي أنه رأى هذه المواضع على ما وصفت. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «بدر بين

مكة والمدينة»، والدنيا من الدنوة، والقُصوى من القُصو وهو البعد، وكان القياس أن تكون القُصيا لكنه من الشاذ، وقال الخليل في «العَيْن»: «شَدَّتْ لفظتان هما القصوى والفتوى، وكان القياس فيهما بالياء كالدينا والعليا».

﴿وَالرَّكْبُ﴾ بإجماع من المفسرين: غير أبي سفيان، ولا يقال «رُكْبٌ» إلا لركاب الإبل، وهو من أسماء الجمع، وقد يجمع «راكب» عليه كصاحب وضُحْبٍ وتاجر وتُجْر، ولا يقال «رُكْبٌ» لما كثر جداً من الجموع. وقال القتيبي: «الرُكْبُ: العشرة ونحوها»، وهذا غير جيد لأن النبي ﷺ قد قال: «والثلاثة رُكْبٌ». وقوله: ﴿أَسْفَلَ﴾ في موضع خفض تقديره: «في مكان أسفل»، كذا قال سيبويه، قال أبو حاتم: «نصب أسفل على الظرف»، ويجوز «الركب أسفل» على معنى: وموضع الركب أسفل، أو الركب مستقر أسفل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان الركب ومُدْبِر أمره أبو سفيان قد نكَب عن بدر حين نلِزَ بالنبي ﷺ، وأخذ سيف البحر فهو أسفل بالإضافة إلى أعلى الوادي من حيث يأتي، وقال مجاهد في كتاب الطبري: أقبل أبو سفيان وأصحابه بالشام تجاراً لم يشعروا بأصحاب بدر، ولم يشعر أصحاب (محمد ﷺ) بكفار قريش، ولا كفار قريش بمحمد ﷺ وأصحابه حتى التقوا على الماء ببدر، من يسقي لهم كلهم، فاقْتَتَلُوا فغلبهم أصحاب محمد ﷺ فأسروهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا تعقب. وكان من هذه الفرق شعور بين من الوقوف على القصة بكمالها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَاتِ﴾، قال الطبري وغيره: لتواعدتم على الاجتماع ثم علمتم كثرتهم وقلتكم لخالفتم ولم تجتمعوا معهم. وقال المهدوي: المعنى: أي لاختلفتم بالقواطع والعوارض القاطعة بالناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أنبل وأصح وإيضاحه أن المقصد من الآية تبيين نعمه الله تبارك وتعالى وقدرته في قصة بدر وتيسيره ما يسر من ذلك، والمعنى: إذ هيأ الله لكم هذه الحال، ولو تواعدتم لاختلفتم إلا مع تيسير الله الذي تم ذلك، وهذا كما تقول لصاحبك في أمر سئاه الله دون تعب كثير: لو يئتنا على هذا وسعينا فيه لم يتم هكذا. ثم بين تعالى أن ذلك كان بلطف الله عز وجل ليقضي أمراً، أي ليُنْفِذَ ويُظهر أمراً قد قدره في الأزل مفعولاً لكم بشرط وجودكم في وقت وجودكم، وذلك كله معلوم عنده.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنذَرْتُكُمْ عَنِ الْيَتِيمِ﴾، قال الطبري: المعنى: ليُقتل من قتل من كفار قريش وغيرهم ببيان من الله وإعذار بالرسالة، وبحيا أيضاً ويعيش من عاش عن بيان منه أيضاً وإعذار لا حجة لأحد عليه، فالهلاك والحياة - على هذا التأويل - حقيقتان. وقال ابن إسحق وغيره: معنى ﴿إِنِّي أَنذَرْتُكُمْ﴾، ﴿وَيَتِيمٍ﴾ أي ليؤمن،

فالهلاك والحياة - على هذا - مستعارتان، والمعنى أن الله تعالى جعل قصة بدر عبرة وآية ليؤمن من آمن عن وضوح وبيان، ويكفر أيضاً من كفر عن مثل ذلك.

وقرأ الناس: ﴿إِنِّي أَنذَرْتُكُمْ﴾ بكسر اللام الثانية، وقرأ الأعمش: ﴿إِنِّي أَنذَرْتُكُمْ﴾ بفتح اللام، ورواه عصفه عن أبي بكر عن عاصم. واليئة صفة، أي قضية يئة، واللام الأولى في قوله: ﴿إِنِّي أَنذَرْتُكُمْ﴾ رُد على اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ﴾.

وقرأ ابن كثير - في رواية قبل - وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم - في رواية حفص -: ﴿مَنْ حَمَلْ﴾ بياء واحدة مشددة، وقرأ نافع، وابن كثير - في رواية البري - وعاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿مَنْ حَمَلْ﴾ بإظهار الياءين وكسر الأولى وفتح الثانية. فمن قرأ ﴿حَمَلْ﴾: فلأن الياء قد لزمته الحركة فصار الفعل يلزوم الحركة لها مشبهاً بالصحيح مثل عضّ وشمّ ونحوه، ألا ترى أن حذف الياء من (جوار) في الجزر والرفع لا يطرد في حال النصب إذ قلت: «رأيت جواردي» لمشابقتها بالحركة سائر الحروف الصالح، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْأَرْثَىٰ﴾، وعلى نحو ﴿حَمَلْ﴾ جاء قول الشاعر:

عَبُوا بِأَنْسَرِهِمْ كَمَا
عَيَتْ بِبَيْضَتِهَا الْحَمَامَةُ

ومنه قول لبيد:

سَأَلْتَنِي جَارَتِي عَنْ أُمْتِي
وَإِذَا مَا عَيَّ ذُو اللَّبِّ سَأَلْ

وقول المتلمس:

هَذَا أَوَّانُ الْعِرْضِ حَيُّ دُبَابُهُ
زَنَابِيرُهُ وَالْأَزْرَقُ الْمُتَلَمَّسُ
ويروى: جُنْ دُبَابُهُ.

قال أبو علي وغيره: هذا أن كل موضع تلزم الحركة فيه بقاء مستقبله فالإدغام في ماضيه جائز، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ بَنِي النَّوْثِ﴾ لا يجوز الإدغام فيه لأن حركة النصب غير لازمة؟ ألا ترى أنها تزول في الرفع وتذهب في الجزم؟ ولا يلتفت إلى ما أنشد بعضهم لأنه بيت مجهول:

وَكَأَنَّهَا بَيْنَ النِّسَاءِ سَبِيكَةٌ
تَمْشِي لِسُدَّةٍ بَيْنَهَا قَشْمِي
قال أبو علي: وأما قراءة من قرأ: ﴿حَمَلْ﴾ فبين ولم يُذْغِم، فإن سبويه قال: أخبرنا بهذه اللغة يونس، قال: وسمعنا بعض العرب يقول: «أخياء»، قال أبو حاتم: القراءة إظهار الياءين والإدغام حسن، فاقراً كيف تعلمت فإن اللغتين مشهورتان في كلام العرب، والخط في ياء واحدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذه اللفظة استوعب أبو علي القول فيما تصرف من (حي) كالحني الذي هو مصدر منه وغيره.

﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل: قال المهدوي: ﴿إِذْ﴾ نصب بتقدير: واذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أو بدل من ﴿إِذْ﴾ المتقدمة، وهو أحسن. وتظاهرت الروايات أن هذه الآية نزلت في رؤيا رآها رسول الله ﷺ، رأى فيها عدد الكفار قليلاً فأخبر بذلك أصحابه فقويت نفوسهم،

الأخرى فوق الخلل في التخمين والحزر الذي يستعمله الناس في هذا التجسس كل طائفة على الأخرى وتتسبب أسباب الحرب، وزوي في هذا عن عبدالله بن مسعود أنه قال: لقد قلت ذلك اليوم لرجل إلى جنبي: أنتظهم سبعين؟ قال: بل هم مائة. قال: فلما هزمناهم أسرنا منهم رجلاً قتلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويرد على هذا المعنى في التقليل ما روي أن رسول الله ﷺ حين سأل عما ينحرون كل يوم فأخبر أنهم يوماً عشراً ويوماً تسعاً قال: هم ما بين التسعمائة إلى الألف، فإما أن عبدالله ومن جرى مجراه لم يعلم بمقالة رسول الله ﷺ، وإما أن نفرض التقليل الذي في الآية تقليل القدر والمهابة والمنزلة من النجدة. وتقدم القول في مثل قوله تعالى: ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، والأمر المفعول المذكور في الآيتين هو القصة بأجمعها، وذهب بعض الناس إلى أنهما المعنيين من معاني القصة، والعموم أولى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ اللَّهُ رَجِيعُ الْأُمُورِ﴾ تنبيهه على أن الحول بأجمعه لله تبارك وتعالى، وأن كل أمر قلته وإليه. وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر، والأعمش: ﴿تَرْجِعُ﴾ بفتح التاء وكسر الجيم، قال أبو حاتم: وهي قراءة عامة الناس. وقرأ الأعرج، وابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وغيرهم: ﴿تَرْجِعُ﴾ بضم التاء وفتح الجيم.

(٤٧) - (٤٥) تفسير قوله عز وجل:

هذا أمر فيه داعية إلى النصر وسبب

بخلاف ما علم؟ والظاهر أنه رآهم في نومه قليلاً قذرهم وحالهم وبأسهم مهزومين مصروعين، ويحتمل أنه رآهم قليلاً عددهم فكان تأويل رؤياه انهزامهم، فالقلة والكثرة على الظاهر مستعارة في غير العدد، كما قالوا: «المرء كثير بأخيه» إلى غير ذلك من الأمثلة. والفشل: الخور عن الأمر إما بعد التلبس وإما بعد العزم على التلبس. و«وتنزعنكم» أي: لتخالفتن، و«في الأمر» يريد: في اللقاء والحرب. و«سكنكم» لفظ

يغم كل متخوف اتصل بالأمر أو عرض في وجهه فسلم الله من ذلك كله، وعبر بعض الناس بأن قال: سلم لكم أمركم ونحو هذا مما يندرج فيما ذكرناه، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِ يَدَاتُ السُّدُورِ﴾ أي: بإيمانكم وكفركم فيجازي بحسب ذلك.

وقرأ الجمهور من الناس: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَكَنٌ﴾ بشد النون ونصب المكتوبة، وقرأت فرقة: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ برفع المكتوبة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّمِيقُمْ﴾ الآية. ﴿وَإِذْ﴾ عطف على الأولى، وهذه الرؤية هي في اللحظة بإجماع، وهي الرؤية التي كانت حين التقوا ووقعت العين على العين، والمعنى أن الله تعالى لما أراد من إنفاذ قضائه في نُصرة الإسلام وإظهاره قُلل كل طائفة في عيون

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْزِعُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَفَّسُوا مِنْ يَدَيْهِمْ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَمَعُمُونَ مُحِيطٌ ﴿٧٧﴾ وَإِذْ دَرَأَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ وَقَالَ لَأَعْلَبَنَّ لَكُمْ يَوْمَ مَكَّةَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَ آيَاتِ الْفِتَنِ تَوَدَّ عَلَى عَبَسَ وَوَقَالَ لِي بَرَى مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّهُ هَذِهِ وَهُمْ يَتْلُونَ ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَابْتَغِ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٨٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لَئِيمٍ ﴿٨١﴾ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٨٢﴾

١٨٣

وحَصروا على اللقاء، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿فِي مَنَائِكَ﴾، أي في نومك، قاله مجاهد وغيره.

وروي عن الحسن أن معنى قوله: ﴿فِي مَنَائِكَ﴾ أي في عينك إذ هي موضع النوم، وعلى هذا التأويل تكون الرؤية في اللحظة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول ضعيف، وعليه فسر النقاش وذكره عن المازني. والضمير على التأويلين من قوله: ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾ عائد على الكفار من أهل مكة، ومما يضعف ما روي عن الحسن أن معنى هذه الآية يتكرر في التي بعدها لأن النبي ﷺ مخاطب في الثانية أيضاً، وقد تظاهرت الرواية أن النبي ﷺ انتبه وقال لأصحابه: «أبشروا فلقد نظرت إلى مصارع القوم» ونحو هذا، وقد كان علم أنهم ما بين التسعمائة إلى الألف، فكيف يراهم ببصره

العز، وهي وصية من الله متوجهة بسبب التقيد الذي في آية الضعف. ويجري مع معنى الآية قول النبي ﷺ: «لَا تَتَمَتَّنُوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَانْبِتُوا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهكذا ينبغي أن يكون المسلم في ولاية الإمارة والقضاء لا يطلب ولا يتمنى، فإن ابتلي صبر على إقامة الحق.

والفتنة: الجماعة، أصلها فتنة وهي من قَاتَرْتُ أي جمعت. ثم أمر الله تعالى بإكثار ذكره هنالك إذ هو عصمة المستنجد ووزر المستمين، قال قتادة: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون، عند الضراب بالسيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا ذكر خفي لأن رفع الأصوات في موطن القتال رديء مكروه إذا كان ألفاظاً، فأما إن كان من الجميع عند الحملة فحسن فات في عضد العدو. وقال قيس بن عباد: كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصوت عند ثلاث: عند قراءة القرآن، وعند الجنائز، والقتال. وقال النبي ﷺ: «اطلبوا إجابة الدعاء عند القتال، وإقامة الصلاة، ونزول الغيث»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يكره التلثم عند القتال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولهذا - والله أعلم - تيمّن المرابطون بطرحه عند القتال على ضمانتهم به. و«تَلْبِثُونَ»: تنالون بُغْيَتَكُمْ

وتبليغون آمالككم، وهذا مثل قول لبيد:

أَلْبَحَ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بِالضَّعْفِ
وَقَدْ يُخْذَعُ الْأَرِيبُ
وقوله تعالى: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» الآية. استمرار على الوصية والأخذ على أيديهم في اختلافهم في أمر بدر وتنازعهم. و«تَفْشَلُوا» نصب بالفاء في جواب التهي، قال أبو حاتم في كتاب إبراهيم: «تَفْشَلُوا» بكسر الشين، وهذا غير معروف. وقرأ جمهور الناس: «وَيَذْهَبْ» بالتاء من فوق ونصب الباء، وقرأ مُبَيَّرَةٌ عن حفص عن عاصم: «وَيَذْهَبْ» بالتاء وجزم الباء، وقرأ عيسى بن عمر: «وَيَذْهَبْ» بالياء من تحت ويجزم «يَذْهَبْ»، وقرأ أبو حيوة: «وَيَذْهَبْ» بالياء من تحت ونصب الباء، ورواها أبان، وعصمة عن عاصم. والجمهور على أن الريح هنا مستعارة والمراد بها النصر والقوة، كما تقول: «الريح لفلان» إذا كان غالباً في أمر، ومن هذا المعنى قول الشاعر وهو عبيد بن الأبرص:

كَمَا حَمَيْتَكَ يَوْمَ الثُّغْبِ مِنْ شَطِيطِ
وَالْفُضْلِ لِلْقُرْمِ مِنْ رِيحٍ وَمِنْ عَدَدٍ
وقال مجاهد: الريح: النصر والقوة، وذهبت ريح أصحاب محمد ﷺ حين نازعوه يوم أحد. وقال زيد بن علي: «وَيَذْهَبْ رِيحَكُمْ»

معناه: الرعب من قلوب عدوكم. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا حسن بشرط أن يعلم العدو بالتنازع، وإذا لم يعلم فالذاهب قوة

المتنازعين فينهزمون، وقال شاعر الأنصار:

قَدْ عَوَدْتُهُمْ طَبَاهِمَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ
رِيحُ الْقِتَالِ وَأَسْلَابُ الَّذِينَ لَقُوا
ومن استعارة الريح قول الآخر: إِذَا هَبَّتْ رِيَاكُ فَاعْتَنِيْنَهَا فَإِنَّ لِكُلِّ عَاصِفَةٍ سَكُونٌ وهذا كثير مستعمل. وقال ابن زيد وغيره: الريح على بابها، وروي أن النصر لم يكن قط إلا بريح تهب فتضرب في وجوه الكفار، واستند بعضهم في هذه المقالة إلى قوله ﷺ: «فَنَصَرْتُ بِالضَّبَا» وقال الحكم: «وَيَذْهَبْ رِيحَكُمْ» يعني الضبا إذ بها نصر محمد ﷺ وأمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إنما كان في غزوة الخندق خاصة، وقوله: «وَأَصْبِرُوا» إلى آخر الآية تنعيم في الوصية وعدة مؤنة. وقوله تعالى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ» الآية. آية تتضمن الطعن على المشار إليهم وهم كفار قريش، وخُزَجَ ذلك على طريق النهي عن سلوك سبيلهم، والإشارة هي إلى كفار قريش بإجماع. والبَطَرُ: الأشر وعُظْمُ النعمة والشغل بالمرح فيها عن شكرها، والرِّيَاءُ: المباهاة والتصنع بما يراه غيرك، وهو فَعَالٌ من: رَأَى يُرَائِي، سَهَلْتُ همزته، وروي أن أبا سفيان لما أحس أنه تجاوز بغيره الخوف من النبي ﷺ وأصحابه بعث إلى قريش فقال: «إن الله قد سلم غيركم التي خرجتم إلى نصرتها فارجعوا سالمين قد بلغتكم مرادكم»، فأتى رأي الجماعة على ذلك، فقال

أبو جهل: «والله لا نفعل حتى نأتي بدرأ - وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب لها يوم موسم - فننحر عليها الإبل، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، ويسمع بنا العرب، ويهابنا الناس».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَرِثَةً﴾. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «اللهم إن قريشاً أقبلت بفخرها وخيلائها تحاذك وتكذب رسولك، اللهم فأجنها الغداة»، وقال محمد بن كعب القرظي: خرجت قريش بالقيان والدفوف.

وقوله تعالى: ﴿يَسْذَرُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي غيرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأنهم أحرقوا بذلك من أن يقتصر صدهم على أنفسهم. وقوله: ﴿وَأَلَّهُ يَمَّا يَمْلُونَ مُحِيطٌ﴾ آية تتضمن الوعيد والتهديد لمن بقي من الكفار، ونفوذ القدر فيمن مضى بالقتل.

(٤٨) - (٤٩) تفسير قوله عز وجل:

التقدير: واذكروا إذ، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ عائذ على الكفار، والشيطان: إبليس نفسه. وحكى المهدوي وغيره أن التزيين في هذه الآية وما بعده من الأقوال هو بالوسوسة والمحادثة في النفوس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويضعف هذا القول أن قوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ ليس مما يلقي بالوسوسة. وقال الجمهور في ذلك بما روي وتظاهر أن إبليس جاء كفار قريش، ففي السير لابن هشام أنه جاءهم بمكة، وفي غيرها أنه جاءهم

ومهم في طريقهم إلى بدر وقد لحقهم خوف من بني بكر وكنانة لحروب كانت بينهم، فجاءهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم وهو سيد من ساداتهم، وقال لهم: «إني جارٌ لكم، ولن تخافوا من قومي وهم لكم أصوان على مقصدكم، ولن يغلبكم أحد»، فسروا عند ذلك ومضوا ليطيئهم، وقال لهم: «أنتم تقتلون عن دين الآباء ولن تعدموا نصراً»، فروي أنه لما التقى الجمعان كانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما رأى الملائكة نكص على عقبيه، فقال له الحارث: أتفر يا سراق؟ فلم يلو عليه، ويروي أنه قال له ما تضمنت الآية. وروي أن عُمير بن وهب - أو الحارث بن هشام - قال له: أين يا سراق؟ فلم يلو ودفع في صدر الحارث وذهب فوقعت الهزيمة، فحدث أن سراقه فرّ بالناس فبلغ ذلك سراقه بن مالك فأتى مكة فقال لهم: «والله ما علمت بشيء من أمركم حتى بلغتني هزيمتكم، ولا رأيتمكم ولا كنت معكم».

وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه، رأيته في صورة رجل من بني مدلج، فقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ﴾ الآية.

و﴿الْيَوْمَ﴾ ظرف والعامل فيه معنى نفى الغلبة، ويحتمل أن يكون العامل متعلق ﴿لَكُمْ﴾، وممتنع أن يعمل ﴿غَالِبَ﴾ لأنه كان يلزم أن يكون: (لا غالباً).

وقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ معناه: فأنتم في ذمتي وحمايتي. و﴿تَرَكَتْ﴾: تفاعلت من الرؤية، أي رأى هؤلاء هؤلاء. وقرأ الأعمش، وعيسى بن عمر: ﴿تَرَأْتْ﴾ مقصورة، وحكى أبو حاتم عن الأعمش أنه أمال والراء مرققة ثم رجع عن ذلك.

وقوله: ﴿نَكَّصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ﴾ معناه: رجع من حيث جاء، وأصل النكوص في اللغة: الرجوع القهقري، قال زهير:

هُمْ يَضْرِبُونَ حَيْكَ النَّيْضِ إِذْ لَجَعُوا
لَا يَنْكَبُونَ إِذَا مَا اسْتَلْجَمُوا وَخُمُوا
كذا أنشد الطبري، وفي رواية الأصمعي: استلأموا، وبذلك فسر الطبري هذه الآية، وفي ذلك بُعد، وإنما رجوعه في هذه الآية مُشَبَّه بالنكوص الحقيقي، وقال اللغويون: النكوص: الإحجام عن الشيء، يقال: أراد أمراً ثم نكص عنه، وقال تَابِطٌ شراً:

لَيْسَ النُّكُوصُ عَلَى الْأَذْيَارِ مَكْرَمَةً
إِنَّ الْمَكَارِمَ إِقْدَامٌ عَلَى الْأَسَلِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فليس هاهنا قهقري، بل هو فرار، وقال مؤرج: نكص هي رجع بلغة سليم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَقَبَيْهِ﴾ يبين أنه إنما أراد الانهزام والرجوع في ضد إقباله. وقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ هو خذلانه لهم وانفصاله عنهم، وقوله: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يريد الملائكة، وهو الخيث إنما شرط أن لا غالب من الناس فلما رأى

الملائكة وخرق العادة خاف وفزّ. وفي الموطأ وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «ما زُني الشيطان في يوم أكل ولا أحقر ولا أصغر منه في يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رأى يوم بدر» قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: «رأى الملائكة يزُغها جبريل»، وقال الحسن: رأى إبليس جبريل عليه السلام يقود فرسه بين يدي النبي ﷺ وهو معتجر ببردة وفي يده اللجام.

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ قيل: إن هذه معذرة كاذبة ولم تلحقه قط مخافة، قاله قتادة، وابن الكلبي. وقال الزجاج وغيره: بل خاف مما رأى من الأمر وقوله، وأنه يومه الذي أنظر إليه، ويقوي هذا أنه رأى خرق العادة ونزول الملائكة للحرب.

وحكى الطبري بسنده أنه لما انهزم المشركون يوم بدر حين رمى رسول الله ﷺ بقبضة من التراب وجوه الكفار أقبل جبريل ﷺ إلى إبليس، فلما رآه إبليس وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولّى مدبراً، فقال له الرجل: أي سراقه تزعم أنك لنا جارا؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية، ثم ذهب.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَكُونُ الْمُتَفَقُّونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ الآية. العامل في ﴿إِنَّ﴾ ﴿زَيْنٌ﴾ أو ﴿نَكْصٌ﴾ لأن ذلك الموقف كان ظرفاً لهذه الأمور كلها، وقال المفسرون: إن هؤلاء الموصوفين بالنفاق ومرض القلوب إنما هم من

أهل عسكر الكفار لما أشرفوا على المسلمين ورأوا قتلهم وقلة عددهم قالوا مشيرين إلى المسلمين: ﴿عَزَّ هَؤُلَاءَ دِينُهُمْ﴾، أي: اغتروا فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والنفاق أخص من مرض القلب، لأن مرض القلب يطلق على الكافر وعلى من اعترضته شبهة وعلى من بينهما، وكنى بالقلوب عن الاعتقادات إذ القلوب محلها، وزوي في نحو هذا التأويل عن الشعبي أن قوماً ممن كان الإسلام داخل قلوبهم خرجوا مع المشركين إلى بدر، منهم من أخره، ومنهم من داجى وداهن، فلما أشرفوا على المسلمين ورأوا قتلهم ارتابوا واعتقدوا أنهم مغلوبون فقالوا: ﴿عَزَّ هَؤُلَاءَ دِينُهُمْ﴾، قال مجاهد:

منهم قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود، وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن منه بن الحجاج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يذكر أحد ممن شهد بدرًا بنفاق إلا ما ظهر بعد ذلك من معتب بن قشير أخى عمرو بن عوف فإنه القائل يوم أحد: ﴿لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا﴾، وقد يحتمل أن يكون منافق المدينة لما وصلهم خروج قريش في قوة عظيمة قالوا عن المسلمين هذه المقالة، فأخبر الله بها نبيه في هذه الآية.

ثم أخبر الله عز وجل بأن من توكل على الله واستند إليه فإن عزة الله

تبارك وتعالى وحكمته كفيلة بنصره وشدّ أعضاده، وخرجت العبارة عن هذا المعنى بأوجز لفظ وأبلغ.

٥٠ - ٥١ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تتضمن التعجب مما حلّ بالكفار يوم بدر، قاله مجاهد وغيره، وفي ذلك وعيد لمن بقي منهم، وحذف جواب ﴿لَوْ﴾ إبهام بليغ.

وقرأ جمهور السبعة والناس: ﴿يَتَوَقَّى﴾ بالياء فأسند فعل فيه علامة التذكير إلى مؤنث في اللفظ، وساغ ذلك إذ التأنيث غير حقيقي، وارتفعت ﴿الْمَلَكَةُ﴾ بـ ﴿يَتَوَقَّى﴾، وقال بعض من قرأ هذه القراءة: إن المعنى: إذ يتوقى الله الذين كفروا، و﴿الْمَلَكَةُ﴾ رفع بالابتداء، و﴿يَتَرَبَّصُّونَ﴾ خبره، والجملة في موضع الحال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويضعف هذا التأويل سقوط واو الحال، فإنها في الأغلب تلزم مثل هذا. وقرأ ابن عامر من السبعة، والأعرج: ﴿تَتَوَقَّى﴾ بالتاء على الإسناد إلى لفظ ﴿الْمَلَكَةُ﴾، و﴿يَتَرَبَّصُّونَ﴾ في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْبَرْهُمْ﴾ قال جمهور المفسرين: يريد أشباههم، ولكن الله كريم يكني، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد ظهورهم وما أدبر منهم، ومعنى هذا أن الملائكة كانت تلحقهم في حال الإدبار فتضرب أدبارهم، فأما في حال الإقبال فبيّن تمكن ضرب الوجوه. وروى الحسن أن رجلاً قال: يا رسول الله، رأيت في ظهر

يكفروا وأهلكوا مراراً بل لكل أمة مرة واحدة، ويحتمل أن يكون المراد: كعادة الله فيهم، فأضاف العادة إليهم إذ لهم نسبة إليها كما يضاف المصدر إلى الفاعل وإلى المفعول. والكاف من قوله: ﴿كَذَّابٌ﴾ يجوز أن تتعلق بقوله: ﴿رَدُّوهُنَّ﴾، وفيه بُعد، والكاف على هذا في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، ويجوز أن تتعلق بقوله: ﴿قَدَّمْتُ أَيُّيَكُمْ﴾ وموضعها أيضاً - على هذا - نصب كما تقدم، ويجوز أن يكون معنى الكلام: الأمر مثل دأب آل فرعون، فتكون الكاف في موضع خبر الابتداء. وقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ معناه: أهلكهم وأتى عليهم، بقرينة قوله: ﴿يُدُّوهُنَّ﴾، ثم ابتدأ الإخبار بقوة الله تبارك وتعالى وشدة عقابه.

٥٣ - ٥٦ تفسير قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ﴾ في موضع رفع على خبر الابتداء تقديره عند سبويه: الأمر ذلك. ويحتمل أن يكون التقدير: وجب ذلك، والباء بآء السبب. وقوله: ﴿لَمْ يَكْ مُعِيرًا﴾ جزم به ﴿لَمْ﴾ وجزمه بحذف النون، والأصل: (يكون) فإذا دخلت (لم) جاء: (لم يكن)، ثم قالوا: (لم يك) كأنهم قصدوا التخفيف فتوهموا دخول (لم) على (يكن) فحذفت النون للجزم، وحسن ذلك فيها لمشابتها حروف اللين التي تحذف للجزم، كما قالوا: «لم أبال» ثم قالوا: «لم أبال» فتوهموا دخول (لم) على (أبال).

ومعنى هذه الآية الإخبار بأن الله عز وجل إذا أنعم على قوم نعمة فإنه

ويصح أن تكون في موضع خفض عطفاً على (ما) في قوله سبحانه: ﴿يَمَّا قَدَّمْتُ﴾، وقال مكِّي، والزهراري: ويصح أن تكون في موضع نصب بإسقاط الباء، وتقديره: «بأن»، فلما حذفت الباء حصلت في موضع نصب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير مشجبه ولا بين إلا أن تنصب بإضمار فعل.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ﴾ قال فرعون: الآية. الدأب: العادة في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس:

كَدَأِيكَ مِنْ أَمِّ الْخُوَيْرِثِ قَبْلَهَا
وَجَارَتْهَا أَمُّ الرِّبَابِ بِمَأْسَلِ
ويروى: كدينك، ومنه قول خراش بن زهير العامري:

فَمَا زَالَ ذَاكَ الدَّأْبُ حَتَّى تَخَاذَلَتْ
هَوَازُنُ وَازْقَضَتْ سَلِيمٌ وَعَايِرُ
وهو مأخوذ من: «دأب على العمل» إذا لزمه، ومنه قوله ﷺ لصاحب الجمل الذي هش إليه وأقبل نحوه وقد ذل ودمعت عيناه: «إنه شكا إلي أنك تجيعة وتلدئبه»، فكان العادة ذؤوب ما. وقال جابر بن زيد، وعامر الشعبي، ومجاهد، وعطاء: المعنى: كسُنَّ آل فرعون، ويحتمل أن يراد: كعادة آل فرعون وغيرهم، فتكون عادة الأمم بجملتها لا على انفراد أمة، إذ آل فرعون لم

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُعِيرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى فِرْعَوْنَ وَهُوَ بِمَا أَنْفَسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابٌ أَلْ فِرْعَوْنُ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَرْفَأْنَاهُ أَلْ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ نَقَضُوا عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَمَا تَتَّقُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَإِنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسِنَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاسْبِقُوا إِلَيْهِمْ لِيُخْرِجُوهُمْ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَابِ الْخَيْلِ تُرْهِمُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَأَسْتَفِيقُوا مِنْ قُنُوفِ سَيْدِلِ اللَّهِ يَوْمَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جُنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْزِعْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

أبى جهل مثل الشراك، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك ضرب الملائكة». وعبر بجمع الملائكة وملك الموت واحد إذ له على ذلك أعوان من الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿رَدُّوهُنَّ عَذَابَ الْخَرْبِ﴾ قيل: كانوا يقولون للكفار حينئذ هذا اللفظ فحذف (يقولون) اختصاراً، وقيل: معناه: وحالهم أن يقال لهم هذا. والحريق: فاعيل من الحرق.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَمَّا قَدَّمْتُ أَيُّيَكُمْ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة في وقت توفيتهم لهم على الصورة المذكورة، ويحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً تقرّيعاً من الله عز وجل للكافرين حينئذ وميتهم، ﴿وَأَنَّ﴾ يصح أن تكون في موضع رفع على تقدير: والحكم أن،

بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكديرها حتى يجيء ذلك منهم بأن يغيروا حالهم التي تراء وتحسن منهم، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم غير الله نعمته عليهم بنقمتهم منهم، ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد ﷺ، فكفروا وغيروا ما كان يجب أن يكونوا عليه فغير الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار، وأحل بهم عقوبته.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْ عَظَفَ عَلَى الْأُولَى، وَ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي لِكُلِّ وَيَكُلُّ مَا يَقَعُ مِنَ النَّاسِ فِي تَغْيِيرِ مَا بَأَنفُسِهِمْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ سُرٌّ وَلَا جَهْرٌ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ ۖ﴾ (٥٧) الآية. الكاف من ﴿كَذَّابٌ﴾ في هذه الآية متعلقة بقوله: ﴿حَقٌّ بَيِّنٌ﴾، وهذا التكرير هو لمعنى ليس للأول، إذ الأول دأب في أن هلكوا لما كفروا، وهذا الثاني دأب في أن لم يغير نعمتهم حتى غيروا ما بأنفسهم، وقد ذكرنا متعلقات الكاف في الآية الأولى، والإشارة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنْفِرُونَ﴾ إلى قوم هود، وصالح، ونوح، وشعيب، وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَرَّ الدَّوَابِّ﴾ إلى ﴿يَتَّقُونَ﴾، المعنى المقصود تفضيل الدواب الذميمة كالخنزير والكلب المقور على الكافرين الذين حتم عليهم بأنهم لا يؤمنون، وهذا الذي يقتضيه اللفظ، وأما الكافر الذي يؤمن فيما يستأنفه من عمره

فليس بشر الدواب. وقوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدَتْ بَيْنَهُمْ﴾ يحتمل أن يريد أن الموصوفين بـ﴿سَرَّ الدَّوَابِّ﴾ هم الذين لا يؤمنون المعاهدون من الكفار، فكانوا سر الدواب على هذا بثلاثة أوصاف: الكفر، والموافاة عليه، والمعامدة مع النقض. و﴿الَّذِينَ﴾ - على هذا - بدل البعض من الكل. ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدَتْ﴾ الذين الأولى، فتكون بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة، والمعنى - على هذا -: الذين عاهدت فرقة أو طائفة منهم، ثم ابتداء يصف حال المعاهدين منهم بقوله: ﴿ثُمَّ يَنْفُتُونَ عَاهَدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾، والمعامدة في هذه الآية: المسالمة وترك الحرب.

وأجمع المتأولون أن الآية نزلت في بني قريظة، وهي بعد تميم كل من اتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة. ومن قال: «إن المراد بـ﴿الَّذِينَ﴾ الناس» فقول لا يستوفي المذمة، ولا مرية في أن (الدواب) تعم الناس وسائر الحيوان، وفي تعميم اللفظة في هذه الآية استيفاء المذمة، وقوله: ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ يقتضي أن الغدر قد كان وقع منهم، وتكرر ذلك.

وحديث قريظة هو أنهم عاهدوا رسول الله ﷺ على ألا يحاربوه ولا يعينوا عليه عدوًا من غيرهم، فلما اجتمعت الأحزاب على النبي ﷺ بالمدينة غلب على ظن بني قريظة أن النبي ﷺ مغلوب ومستأصل، وخذع حيي بن أخطب النضري كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة

وعهدهم، فغدروا والوا قريشاً وأمدوهم بالسلاح والأدراع، فلما انجلت تلك الحال عن النبي ﷺ أمره الله بالخروج إليهم وحربهم، فاستنزلوا وضربت أعناقهم بحكم سعد بن معاذ، واستيعاب القصة في سير ابن هشام، وإنما اقتضت منها ما يخص تفسير الآية.

٥٧ - ٥٨ تفسير قوله عز وجل: دخلت النون مع ﴿إِمَّا﴾ تأكيداً، ولتفرق بينها وبين ﴿إِمَّا﴾ التي هي حرف انفصال في قولك: جاءني إما زيد وإما عمرو. و﴿تَنَقَّطَهُمْ﴾ معناه: تأسرهم وتحصلهم في ثقافك، أو تلقاهم بحال ضعف تقدر عليهم فيها وتغلبهم، وهذا لازم من اللفظ لقوله: ﴿فِي الْحَرْبِ﴾، وقيل: ثَقِفَ: أخذ بسرعة، ومن ذلك قولهم: رجل ثَقِفَ لَيْفَ. وقال بعض الناس: معناه: تُصَادِقُهُمْ، إلى نحو هذا من الأقوال التي لا ترتبط في المعنى، وذلك أن المصَادَفَ قد يُغْلَبُ فيمكن التشريد به وقد لا يُغْلَبُ. والثَّقَافُ في اللغة: ما تُشَدُّ به القناة ونحوها، ومنه قول الشاعر:

إِنْ قَتَانِي لَسَبْعٌ مَا يُؤَيِّسُهَا
عَضُّ الثَّقَافِ وَلَا دُفْنٌ وَلَا نَارُ

وقال آخر: تَدْعُو ثَقِينًا وَقَدْ عَضَّ الْحَدِيدُ بِهَا
عَضُّ الثَّقَافِ عَلَى صَمِّ الْأَنْبَابِ
وقوله تعالى: ﴿فَتَرَدُّ﴾ معناه: طرُد وخوف وأبعده عن مثل فعلهم، والشريد: المبعذ عن وطن أو نحوه، والمعنى: بفعل تفعله بهم من قتل أو نحوه يكون تخويفاً لمن خلفهم، أي

لَمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ بِمِثْلِ مَا أَتَوْا بِهِ،
وسواء كان معاصراً لهم أم لا.

وما تقدم الشيء فهو بين يديه، وما
تأخر عنه فهو خلفه، فمعنى الآية:
فإن أسرت هؤلاء الناقضين في
حربك لهم فافعل بهم من النعمة ما
يكون تشريداً لمن يأتي خلفهم في
مثل طريقتهم، والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾
عائد على الفرقة المُشْرَدَّة. وقال ابن
عباس رضي الله عنهما: المعنى:
نكل بهم من خلفهم. وقالت فرقة:
«شُرْدُ بهم» معناه: سَمِعَ بهم، حكاها
الزهراوي عن أبي عبيدة، والمعنى
مقارب لأن التسميع بهم في ضمن
ما فسرناه أولاً، وفي مصحف
عبدالله: ﴿فَشُرْدُ﴾ بالذال منقوطة،
وهي قراءة الأعمش، ولم يحفظ
(شُرْد) في لغة العرب، ولا وجه لها
إلا أن تكون الذال المنقوطة تُبدل من
الذال كما قالوا: لحم خراذيل
وخراذيل. وقرأ أبو حيوة - وحكاها
المهدوي عن الأعمش بخلاف
عنه -: ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بكسر الميم
من قوله: ﴿مِنْ﴾ وخفض الفاء من
قوله: ﴿خَلْفِهِمْ﴾. والترجي في
قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بحسب البشر،
و﴿يَذْكُرُونَ﴾ معناه: يَعْتَظُونَ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُونَ﴾
الآية. قال أكثر المؤلفين في
التفسير: إن هذه الآية هي في بني
قريظة، وحكاها الطبري عن مجاهد،
والذي يظهر من ألفاظ القرآن أنَّ أمر
بني قريظة قد انقضى عند قوله
تعالى: ﴿فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾، ثم
ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية بأمره
بما يصنعه في المستقبل مع من

يخاف منه خيانة إلى سالف الدهر،
وبنو قريظة لم يكونوا في حد من
تخاف خيائته فترتب فيهم هذه الآية،
وإنما كانت خيائتهم ظاهرة مشتهرة،
فهذه الآية هي عندي فيمن يستقبل
حاله من سائر الناس غير بني قريظة،
وخوف الخيانة أن تبدو جنادُ الشر
من قبل المعاهدين، وتتصل عنهم
أقوال، وتُحَسَّن من تلقائهم مبادئ
الغدر، فتلك المبادئ معلومة،
والخيانة التي هي غايتهم مخوفة لا
مُتَيَقِّنة، وحينئذ ينبذ إليهم على
سواء، فإن التزموا السلم على ما
يجب وإلا حاربوا. وبنو قريظة نبذوا
العهد مرتين، وقال يحيى بن سلام:
«تَخَاف» في هذه الآية بمعنى: تعلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وليس كذلك. وقوله تعالى:
﴿خِيَانَةً﴾ يقتضي حصول عهد، لأن
من ليس بينك وبينه عهد فليست
محاربتك لك خيانة، فأمر الله تبارك
وتعالى نبيه محمداً ﷺ إذا أحسن من
أهل عهد ما ذكرنا وخاف خيائتهم أن
يلقي إليهم عهدهم، وهو التُّبْد،
ومفعول قوله: ﴿فَأَيِّذُ﴾ محذوف
تقديره: فانبذ إليهم عهدهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وتقتضي قوة هذا اللفظ الحضُّ على
حربهم ومناجزتهم إن لم يستقيموا.
وقوله: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ قيل: معناه:
حتى يكون الأمر في بيانه والعلم به
على سواءٍ منك ومنهم، فتكونون فيه
- أي في استعمار الحرب - سواء،
وقيل: معنى قوله: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ على
معدلة، أي: فذلك هو العدل
والاستواء في الحق، وقال

المهدوي: معناه: جهراً لا سراً.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا نحو الأول. وقال الوليد بن
مسلم: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ معناه: على
مَهْل، كما قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ
الْمُشْرِكِينَ﴾ فَيَسْبَحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ
أَشْهُرٍ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
واللغة تأبى هذا القول. وذكر الفراء
أن المعنى: انبذ إليهم على اعتدال
وسواءٍ من الأمر، أي: بين لهم على
قدر ما ظهر منهم، لا تفرط ولا تفجأ
بحرب، بل افعل بهم مثلاً فعلوا
بك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
يعني موازنة ومقايسة. وقوله تعالى:
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَافِِينَ﴾ يحتمل أن
يكون طعنًا على الخائنين من الذين
عاهدتهم النبي ﷺ، ويحتمل أن
يريد: فانبذ إليهم على سواءٍ حتى
تبعد عن الخيانة فإن الله لا يحب
الخائنين، فيكون النبذ - على هذا
التأويل - لأجل أن الله لا يحب
الخائنين.

والسَّوَاءُ في كلام العرب قد يكون
بمعنى العدل والمعدلة، ومنه قوله
تعالى: ﴿إِلَّا كَلِمَاتٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ﴾، ومنه قول الرازي:

فَأَضْرِبْ وَجْهَ الْعُدَّةِ الْأَعْدَاءِ
حَتَّى يُجِيبُوكَ إِلَى السَّوَاءِ
وقد يكون بمعنى الوسط، ومنه
قوله تعالى: ﴿فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾،
ومنه قول حسان بن ثابت:

يَا وَنَحْ أَنْصَارِ الثُّبَيْ وَرَهْطِهِ
بَعْدَ الْمُغَيْبِ فِي سَوَاءِ الْمُلْحَدِ

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾، قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، والكسائي: ﴿وَلَا تَخْسِبَنَّ﴾ بالناء مخاطبة للنبي ﷺ، وبكسر السين - غير عاصم فإنها فتحها - و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مفعول أول، و﴿سَبَقُوا﴾ مفعول ثان، والمعنى: فاتوا بأنفسهم وأنجوها، ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بكسر ألف ﴿إِنْ﴾ على القطع والابتداء، و﴿يُعْجِزُونَ﴾ معناه: يُقْلِثُونَ ويُعْجِزُونَ طالبهم، فهو مُعَذِّى (عجز) بالهمزة، تقول: عجز زيد وأعجزه غيره وعجزه أيضاً. قال سويد:

وأعجزنا أبو ليلى طُفَيْلٍ
صحيح الجلد من أثر السلاح
وروي أن الآية نزلت فيمن أفلت
من الكفار في حرب النبي ﷺ،
كقريش في بدر وغيرهم، فالمعنى:
لا تظنهم ناجين بل هم مدركون،
وقيل: معناه: لا يُعْجِزُونَ في الدنيا،
وقيل: المراد: في الآخرة.

قال أبو حاتم: وقرأ مجاهد، وابن كثير، وشبل: ﴿وَلَا تَخْسِبَنَّ﴾ بكسر الشاء. وقرأ الأعرج، وعاصم، وخالد بن إلياس: ﴿تَخْسِبَنَّ﴾ بفتح التاء من فوق وافتح السين. وقرأ الأعمش: ﴿وَلَا يَحْسَبُ﴾ بفتح السين والياء من تحت وحذف النون. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وأبو عبد الرحمن، وابن محيصن، وعيسى: ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ﴾ بياء من تحت وسين مكسورة ونون مشددة. وقرأ حفص عن عاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء على

الكناية عن الغائب وافتح السين، فإما أن يكون في الفعل ضمير النبي ﷺ، أو يكون التقدير: ولا يَحْسِبَنَّ أحد، ويكون قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مفعولاً أولاً، و﴿سَبَقُوا﴾ مفعولاً ثانياً، وإما أن يكون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم الفاعلون، ويكون المفعول الأول مضمراً، و﴿سَبَقُوا﴾ مفعولاً ثانياً، وتقدير هذا الوجه: ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا، وإما أن يكون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هو الفاعل وتُضمَر (أن) فيكون التقدير: ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا، وتُشَدُّ (أن) سبقوا مَسَدُ المفعولين. قال الفارسي: ويكون هذا كما تأوله سيبويه في قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ تَأْمُرُكَ أَغْنَى﴾، فالتقدير: «أَنْ أَغْنَى».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ونحوه قول الشاعر:

أَلَا أَيُّهَا الرَّاكِبُ أَخْضَرُ الْوَعَى
.....

قال أبو علي: وقد حذف (أن) وهي مع صلتها في موضع الفاعل، وأنشد أحمد بن يحيى في ذلك:
وَمَارِعَاتُ الْإِسِيرِ بِشُرْطَةِ
وعهدي به قِينَا يَسِيرُ بِكَبِيرِ
وقرأ ابن عامر وحده من السبعة:
﴿أَنْتُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بفتح الألف من ﴿أَنْتُمْ﴾، ووجهه أن يقدر بمعنى: لأنهم لا يعجزون، أي: لا تحسبن عليهم النجاة لأنهم لا ينجون، وقرأ الجمهور: ﴿يُعْجِزُونَ﴾ بسكون العين، وقرأ بعض الناس فيما ذكر أبو حاتم: ﴿يُعْجِزُونَ﴾ بفتح العين وشَدَّ الجيم، وقرأ ابن محيصن:

﴿يُعْجِزُونَ﴾ بكسر النون، ومنحاهما ﴿يُعْجِزُونِي﴾ بإلحاق الضمير، قال الزجاج: الاختيار فتح النون، ويجوز كسرهما على أن المعنى: «إنهم لا يُعْجِزُونِي»، وتحذف النون الأولى لاجتماع النونين، كما قال الشاعر:

تَرَاهُ كَالثُّغَامِ يُعَلُّ بِسُكَا
يُسُوهُ الْفَالِيَاتُ إِذَا قَلَيْنِي
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
البيت لعمرو بن معديكرب. وقال أبو الحسن الأخفش في قول مُتَمِّم بن نُؤَيْرَةَ:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَلَا مُحَالَةَ أَنْتَنِي
لِلْحَادِثَاتِ، فَهَلْ تَرِنِي أَجْزَعُ؟
هذا يجوز على الاضطرار، فقال قوم: حذَفَ النون الأولى وحذَفُهَا لَا يجوز لأنها موضع الإعراب، وقال أبو العباس المَبْرَدُ: أرى فيما كان مثل هذا حذَفَ الثانية، وهكذا كان يقول في بيت عمرو بن معد يكرب.

وفي مصحف عبدالله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْهُمْ سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾، قال أبو عمرو الداني:

بالياء من تحت وبغير نون في (بحسب).
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وذكرها الطبري بثون.
(٦٠) - (٦١) تفسير قوله عز وجل:
المخاطبة في هذه الآية لجميع المؤمنين، والضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ عائد على الذين ينبذ إليهم العهد، أو على الذين لا يعجزون على تأويل من تأول ذلك في الدنيا، ويحتمل أن يعود على جميع الكفار المأمور بحزبهم في ذلك الوقت ثم

و﴿تَرْهَبُونَ﴾ معناه: تُفزعون وتُخَوِّفون، والرَّهبة: الخوف، قال طفيل الغنوي:

وَيْلٌ أَمْ حَيٍّ دَفَعْتُمْ فِي نُحُورِهِمْ
بَنِي كِلَابٍ غَدَاةَ الرُّغْبِ وَالرُّهْبِ
ومنه رَاهِبُ النَّصَارَى، يقال: رَهَبَ إِذَا خَافَ، فـ﴿تَرْهَبُونَ﴾ معدى بالهزمة.

وقرأ الحسن، ويعقوب: ﴿تَرْهَبُونَ﴾ بفتح الراء وشد الهاء معدى بالتضعيف، ورويت عن أبي عمرو بن العلاء، قال أبو حاتم: وزعم عمرو أن الحسن قرأ: ﴿يُرْهَبُونَ﴾ بالياء من تحت وخفها، فهو على هذا تعدى بالتضعيف، وقرأ ابن عباس، وعكرمة: ﴿تُخَزَّوْنَ بِهِ عَذْوُ اللَّهِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ذكرها الطبري تفسيراً لا قراءة، وأثبتها أبو عمرو الداني قراءة.

وقوله تعالى: ﴿عَذْوُ اللَّهِ وَعَذْوُكُمْ﴾ ذكر الصفتين وإن كانت متقاربة إذ هي متغايرة المعنى، وبذكرهما يتقوى الظم وتتضح وجوه بُغْضنا لهن. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿عَذْوُ اللَّهِ﴾ بتنوين ﴿عَذْوُ﴾ وبلاد في المكتوبة، والمراد بهاتين الصفتين من قُرْبٍ وصاقبٍ من الكفار وكانت عداوته متحركة بَعْدُ، ويجوز أن يراد بهما جميع الكفار، ويبين هذا من اختلافهم في قوله: ﴿وَالْآخِرِينَ﴾ بـ دُونِهِم الآية، قال مجاهد: الإشارة بقوله: ﴿وَالْآخِرِينَ﴾ إلى قريظة، وقال السدي: إلى أهل فارس، وقال ابن زيد: الإشارة إلى المنافقين، وقالت فرقة: الإشارة إلى الجن، وقالت

الآخر، ولما كانت السهام من أنجع ما يُتَعَاطَى في الحرب وأنكاه في العدو وأقربه تناولاً للأرواح خصها رسول الله ﷺ بالذكر والتنبيه عليها، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ الثَّلَاثَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ، صَانِعَهُ، وَالَّذِي يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ، وَالَّذِي يَرْمِي بِهِ»، وقال عمرو بن عبسة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَصَابَ الْعَدُوَّ أَوْ أَخْطَأَ فَهُوَ كَعَتَقَ رَقَبَةً»، وقال رسول الله ﷺ: «ارْمُوا وَارْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا».

ورباط الخيل جمع رِبْطٍ كَكَلْبٍ وكَلَابٍ، ولا يكثر ربطها إلا وهي كثيرة، ويجوز أن يكون الرِّبَاطُ مصدرًا من رَبَطَ، كصاح صياحاً ونحوه، لأن مصادر الثلاثي غير المزيد لا تنفاس، وإن جعلناه مصدرًا من رابط فكأن ارتباط الخيل واتخاذها يفعل كل واحد لفعل آخر له فيربط المؤمنون بعضهم بعضاً، فإذا ربط كل واحد منهم فرساً لأجل صاحبه فقد حصل بينهم رباط، وذلك الذي حُضَّ في الآية عليه، وقد قال ﷺ: «مَنْ ارْتَبَطَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ كَالْبَاسِطِ يَدَهُ بِالْصَّدَقَةِ لَا يَقْبِضُهَا»، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وقرأ الحسن، وعمرو بن دينار، وأبو حيوة: ﴿وَمِنْ رِبْطٍ﴾ بضم الراء والباء، وهو جمع رباط ككتاب وكُتِّبَ، كذا نصّه المفسرون، وفي جمعه وهو مصدر غير مختلف نظر.

استمرت الآية في الأمة عامة، إذ الأمر قد توجّه بحرب جميع الكفار.

وقال عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: القوة: دُكُور الخيل، والرِّبَاط: الإناث. وهذا قول ضعيف، وقالت فرقة: القُوَّة: الرُّمِي، واحتجت بحديث عقبة بن عامر أن الرسول ﷺ قال: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرُّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرُّمِيَّ»، وقال السدي: القوة: السلاح، وذهب الطبري إلى عموم اللفظة، وذكر عن مجاهد أنه روي يتجهز وعنده جُؤَالِقُ فقال: هذا من القوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الصواب، والخيلُ والمركوبُ في الجملة والمحمولُ عليه من الحيوان والسلاحُ كله والملابسُ الباهية والآلاتُ والنفقاتُ كُلُّهَا داخلَةٌ في القوة، وأمر المسلمون بإعداد ما استطاعوا من ذلك، ولما كانت الخيل هي أصل الحروب وأوزارها والتي عُقد الخير في نواصيها، وهي أقوى القوى وحصون الفرسان خَصَّهَا الله بالذكر تشريفاً، على نحو قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَرَسُولَهُ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، وَعَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿فَتَكُونُ رِجْلٌ وَرِثَانٌ﴾، وهذا كثير، ونحوه قول رسول الله ﷺ: «جَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهْرًا»، هذا في البخاري وغيره، وقال في صحيح مسلم: «جَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَتَرَابِهَا طَهْرًا» فذكر التراب على جهة التحفي به، إذ هو أعظم أجزاء الأرض مع دخوله في عموم الحديث

فرقة: هم كل عدو للمسلمين غير الفرقة التي أمر النبي ﷺ أَنْ يُشْرَدَ بهم من خلفهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الخلاف إنما ينبغي أن يترتب على ما يتوجه من المعنى في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْلُوبُهُمْ﴾، فإذا حملنا قوله: ﴿لَا تَقْلُوبُهُمْ﴾ على عمومهم، ونفينا علم المؤمنين بهذه الفرقة المشار إليها جملة واحدة، وكان العلم بمعنى المعرفة لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد لم يثبت من الخلاف في قوله: ﴿وَالْآخَرِينَ﴾ إلا قول من قال: «الإشارة إلى المنافقين»، وقول من قال: «الإشارة إلى الجن»، وإذا جعلنا قوله: ﴿لَا تَقْلُوبُهُمْ﴾ مجازاً بيناً أو نحو هذا مما نفيد به نفي العلم عنهم خُسُنت الأتوال، وكان العلم متعدياً إلى مفعولين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الوجه أشبه عندي، ورجح الطبري أن الإشارة إلى الجن، وأسند في ذلك ما روي من أن سهيل الخيل ينفر الجن، وأن الشيطان لا يدخل داراً فيها فرس للجهاد، ونحو هذا، وفيه - على احتماله - نظر، وكان الأهم في هذه الآيات أن يبرز معناها في كل ما يقوي المسلمين على عدوهم من الإنس وهم المحاربون والذين يدافعون على الكفر، ورهبتهم من المسلمين هي النافعة للإسلام وأهله، ورهبة الجن وفزعهم لا غناء له في ظهور الإسلام، وهو أجنبي جداً، والأولى أن يتأول أن المسلمين إذا ظهروا

وعزوا هابهم من جاورهم من العدو المحارب لهم، فإذا اتصلت حالهم تلك بمن بعد من الكفار داخلته الهبة وإن لم يقصد المسلمون إرهابهم، فأولئك هم الآخرون. ويحسن أن يقدر قوله: ﴿لَا تَقْلُوبُهُمْ﴾ بمعنى: «لا تعلمونهم فازعين راهبين ولا تظنون ذلك بهم، والله تعالى يعلمهم بتلك الحالة»، ويحسن أيضاً أن تكون الإشارة إلى المنافقين على جهة الطعن عليهم، والتنبيه على سوء حالهم، وليستربب بنفسه كل من يعلم منها نفاقاً إذا سمع الآية، ولقزعهم وزعتهم غناء كثير في ظهور الإسلام وعُلُوّه.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ بمنزلة قولك: دون أن يكون هؤلاء، «دون» في كلام العرب و«من دون» يقتضي عدم المذكور بعدها من النازلة التي فيها القول، ومنه المثل: «وَأَمْرٌ دُونَ عُيْنَةِ الْوَدَمِ».

ثم تفضل تبارك وتعالى بعبارة المؤمنين على إنفاقهم في سبيل الله بأن النفقة لا بُدَّ أَنْ تُؤْفَى، أي أن تجازى وثاب عليها. ولزوم هذا هو في الآخرة، وقد يمكن أن يجازي الله تعالى بعض المؤمنين في الدنيا مجازاة مضاعفة إلى مجازاة الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى جَنَحًا لِلسَّيِّمِ فَاجْتَنَحَ لَهَا﴾ الآية. الضمير في «جَنَحًا» هو للذين نبذ إليهم على سواء، وجَنَحَ الرجل إلى الأمر إذا مال إليه وأعطى يده فيه، ومنه قيل للأضلاع: جوانح لأنها مالت على الخشوة، وللخباء: جناح، وجنحت

الإبل إذا مالت أعناقها في السير، وقال ذو الرُّمَّة:

إذا مات فوق الرُّخْلِ أَخْبَيْتُ رُوحَهُ
بِذِكْرِكَ وَالْعَيْسُ الْمَرَابِيلُ جُنْحُ
وَجَنَحَ اللَّيْلِ إِذَا أَقْبَلَ وَأَمَالَ أَطْنَابَهُ
على الأرض، ومنه قول النابغة:
جَوَانِحُ قَدْ أَيَقُنْ أَنْ قَبِيلَهُ
إذا ما التَقَى الْجُمُعَانِ أَوَّلَ غَالِبٍ
أي موائل، وقال لبيد:

جُنُوحُ الْهَالِكِي عَلَى يَدَيْهِ
مُكَبَّأٌ يَجْتَلِي ثَقَبَ الثُّصَالِ
وقرأ جمهور الناس: ﴿لِلسَّيِّمِ﴾
بفتح السين وشدها، وقرأ عاصم في
رواية أبي بكر: ﴿لِلسَّلْمِ﴾ بكسرهما
وشدها، وهما لغتان في المسالمة.

ويقال أيضاً: (السَّلْم) بفتح السين واللام، ولا أحفظها قراءة. وقرأ جمهور الناس: ﴿فَاجْتَنَحَ﴾ بفتح النون، وهي لغة تميم، وقرأ الأشهب العقيلي: ﴿فَاجْتَنَحَ﴾ بضم النون وهي لغة قيس، قال أبو الفتح: وهذه القراءة هي القياس، لأنَّ قُلَّ إذا كان غير متعد فمستقبله يفعل بضم العين أقيس، فقد يقعد أقيس من جلس يجلس. وعاد الضمير في ﴿لَهَا﴾ مؤنثاً إذ السَّلْم بمعنى المسالمة والهدنة، وقيل: السَّلْم مؤنثة كالحرب، ذكره النحاس. وقال أبو حاتم: يَذْكُرُ السَّلْم.

وقال قتادة، والحسن بن أبي الحسن، وعكرمة، وابن زيد: هذه الآية منسوخة بآيات القتال في (براعة).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد يحتمل ألا يترتب نسخها بها بأن يُعْنَى بهذه من تجوز مصالحته،

المهاجرين والأنصار وجعل التأليف
 ما كان بين جميعهم من التحاب حتى
 تكون ألفة الأوس والخزرج جزءاً من
 ذلك نَسَأَ ذلك. وكل ناكف في الله
 فتابع لذلك الناكف الكائن في صدر
 الإسلام، وقد روى سهل بن سعد
 عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن
 مألَف، لا خير فيمن لا يألف ولا
 يؤلف».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والتشابه هو سبب الألفة، فمن كان
من أهل الخير أليف أشباهه وأليفوه.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَبِّبْ
 اللَّهُ وَرَيْنَ أَتْبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾.
 قال النقاش: نزلت هذه الآية بالبديء
 في غزوة بدر قبل القتال، وحكي عن
 ابن عباس رضي الله عنهما أنها
 نزلت في الأوس والخزرج خاصة،
 قال: ويقال: إنها نزلت حين أسلم
 عمر رضي الله عنه وكمل المسلمون
 أربعين، قاله ابن عمر، وأنس، فهي
 - على هذا - مكية.

﴿حَسْبُكَ﴾ في كلام العرب
(وَشَرْعُكَ) بمعنى: كافيك
وَيَكْفِيكَ، والمحسب: الكافي.
وقالت فرقة: معنى
هذه الآية: يَكْفِيكَ الله
وَيَكْفِيكَ من أتبعك من المؤمنين،
﴿مَنْ﴾ - في هذا التأويل -
رفع عطفًا على اسم الله عز وجل،
وقال عامر الشعبي، وابن زيد:
معنى الآية: حسبك الله
وحسب من أتبعك من المؤمنين،
﴿مَنْ﴾ - في هذا التأويل -
في موضع نصب عطفًا على
موضع الكاف، لأن موضعها
نصب على المعنى لِـ (يَكْفِيكَ)
التي سدت ﴿حَسْبُكَ﴾ مسدًا،
ويصح أن تكون

يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ ﴿١٠٠﴾ يريد:
بأن يظهرها له السلم
ويبطنوا الغدر والخيانة،
أي فاجنح وما عليك من
نياتهم الفاسدة. ﴿فَإِنَّ
حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي كافيك
ومعطيك نصرة وإظهاراً،
وهذا وعد محض.
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ معناه: قواك،
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يريد:
بالأنصار بقرينة قوله:
﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ لَّهُمْ﴾
الآية، وهذه إشارة إلى
العداوة التي كانت بين
الأوس والخزرج في
حروب بعاث، فألف الله
تعالى قلوبهم على

الإسلام، وردّهم متحابين في الله،
وعددت هذه النعمة تأنيساً
لمحمد ﷺ، أي: كما لطف بك
ربك أولاً فكذا يفعل آخراً.

وقال ابن مسعود: نزلت هذه الآية في المتحابين في الله، وقال مجاهد: إذا تراءى المتحابان فتصافحا وتضاحكا تحدثت خطاياهم، فقال له عَبْدَةُ بن أَبِي لَبابة: إن هذا ليسير، فقال له: لا تغفل ذلك، فإن الله يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ﴾، قال عَبْدَةُ: فعرفت أنه أفقه مني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
وهذا كله تَمَثُّلٌ حَسَنٌ بالآية ، لا أن
الآية نزلت في ذلك ، بل تظاهرت
أقوال المفسرين أنها في الأوس
والخزرج كما ذكرنا ، ولو ذهب
ذاهب إلى عموم المؤمنين في

وَأَنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوا فَرَأَى حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْذَكَ
بَصْرَهُمْ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ وَأَلْفَ يَوْمٍ قُلُوبُهُمْ لَوْ أَصَفَتْ
مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ يَوْمَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٧﴾ يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَسْبَكَ
اللَّهُ وَمِنْ أَتَعَلَّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَرِصٌ
الْمُؤْمِنُونَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ
يَعْلَمُوا مَا تَتَى وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَعْلَمُوا الْقِسْمَ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣٩﴾ الْفَرَقُ خَفَفَ
اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أُنْ فِيكُمْ ضَعْفًا إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ
صَابِرَةٌ يَعْلَمُوا مَا تَتَى وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَعْلَمُوا الْفَرَقَ
يَا بَنِي اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٠﴾ مَا كَانَتْ لِي أَنْ يَكُونَ
لَهُمْ أَسْرَى حَتَّى تَخْرُجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤١﴾ لَوْلَا كُتِبَ مِنْ
اللَّهُ سَبَقَ لِمَسْئَلِكُمْ فِيمَا أَعَدْتُمْ عِبَادَ عَظِيمٍ ﴿٤٢﴾ فَكَلِمَاتُ
غِيَمَتُمْ حُلُلًا طَيِّبًا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٣﴾

وتبقى تلك التي في (براءة) في عبدة الأوثان، وإلى هذا ذهب الطبري، وقول الجماعة صحيح أيضاً إذ كان الجنوح إلى سلم العرب مستقراً في صدر الإسلام فَتَسَخَّتْ ذَلِكَ آيَةٌ (براءة) ونبذت إليهم عهودهم، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا الْاَعْلَانِ اِلَّا السَّيِّئَاتِ اَلَّذِينَ يَرْمُونَكَ بِالْاِثْمِ وَنَادُوا اِلَى السَّلَ ۖ اٰتِىْهُمُ الْاَعْلَانِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا قول بعيد من أن يقوله ابن
عباس رضي الله عنهما، لأن الآيتين
مدنيّتان. وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾
أمر في ضمنه وعيد.

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَرَأَىٰ

﴿مَنْ﴾ في موضع خفضٍ بتقدير محذوف كأنه قال: وحسب، وهذا كقول الشاعر:

أَكْلُ امْرِئٍ تَحْسَبِينَ أَمْرًا
وَنَارِ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارًا؟
التقدير: «وكلَّ نارًا»، وهذا الوجه من حذف المضاف مكرره، بابه ضرورة الشعر، ويروى البيت «ونارًا»، ومن نحو هذا قول الشاعر: إِذَا كَانَتْ الْهَيْجَاءُ وَانْشَقَّتِ الْعَصَا فَحَسْبُكَ وَالضُّحَاكُ سَيْفٌ مُهَيَّئٌ يَرَوِي «الضُّحَاكُ» مرفوعاً، و«الضُّحَاكُ» منصوباً، و«الضُّحَاكُ» مخفوضاً، فالرفع عطف على قوله: «سَيْفٌ» بنية التأخير، كما قال الشاعر:

.....
عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ السَّلَامُ
ويكون «الضُّحَاكُ» - على هذا - محسباً للمخاطب. والنصب عطف على موضع الكاف من قوله: «حَسْبُكَ»، والمُهَيَّئُ - على هذا - محسب للمخاطب، و«الضُّحَاكُ» على تقدير محذوف، كأنه قال: «فحسبك وحسب الضُّحَاكُ».

﴿٦٥﴾ - ﴿٦٦﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿حَرِصٌ﴾ معناه: حُثْمٌ وَحُضْمٌ. قال النقاش: وقرئت ﴿حَرِصٌ﴾ بالصاد غير منقوطة، والمعنى متقارب، والحارص - الذي هو القريب من الهلاك - لفظة مبيّنة لهذه ليست منها في شيء. وقالت فرقة من المفسرين: المعنى: حَرِصٌ على القتال حتى يبين لك فيمن تركه أنه حَرِصٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول غير ملتزم ولا لازم من اللفظ، ونحا إليه الزجاج. والقتال مفترض على المؤمنين بغير هذه الآية، وإنما تضمنت هذه الآية أمر النبي ﷺ بتحريضهم على أمر قد وجب عليهم من غير هذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ إلى آخر الآية في لفظ خبر ضمنه وعد بشرط، لأن قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ عَشْرُونَ صَبْرُونَ﴾ بمنزلة أن يقال: إِنْ يَصْبِرُ مِنْكُمْ عَشْرُونَ يَغْلِبُوا، وفي ضمنه الأمر بالصبر، وكسرت العين من ﴿عَشْرُونَ﴾ لأن نسبة عشرين من عشرة نسبة اثنين من واحد، فكما جاء أول اثنين مكسوراً كسرت العين من عشرين، ثم اطرده في جُمُوع أجزاء العشرة، فالمفتوح كأربعة وخمسة وسبعة فُتِحَ أول جمعه، والمكسور كعِشَّة وَتِسْعَةٍ كُسِرَ أول جمعه، هذا قول سيبويه، وذهب غيره إلى أن (عشرين) جمع عشر الإبل، وهو ورودها للتسع، فلما كان في عشرة وعشرة عِشْرٌ وَعِشْرٌ ويومان من الثالث جمع ذلك على عشرين. كما قال امرؤ القيس:

.....
ثَلَاثِينَ شَهْرًا فِي ثَلَاثَةِ أَخْوَالٍ
لَمَا كَانَ فِي الثَّلَاثِينَ حَوْلٌ وَحَوْلٌ
وبعض الثالث وتظاهرت الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من الصحابة بأن ثبوت الواحد للعشرة كان فرضاً من الله عز وجل على المؤمنين، ثم لما شق ذلك عليهم حط الفرض إلى ثبوت الواحد للاثنتين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو النسخ، لأنه رفع حكم مستقر بحكم آخر شرعي، وفي ضمنه التخفيف إذ هذا من نسخ الأثقل بالأخف، وذهب بعض الناس إلى أن ثبوت الواحد للعشرة إنما كان على جهة نذب المؤمنين إليه، ثم حط ذلك حين ثقل عليهم إلى ثبوت الواحد للاثنتين، وروي أيضاً هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال كثير من المفسرين: وهذا تخفيف لا نسخ إذ لم يستقر لفرض العشرة حكم شرعي، قال مكِّي: وإنما هو كتخفيف الفطر في السفر وهو لو صام لم يَأْثُمَ وأجزأه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، ولا يمتنع كون المنسوخ مباحاً من أن يقال: نسخ، واعتبر ذلك في صدقة النجوى، وهذه الآية التخفيف فيها نسخ للثبوت للعشرة، وسواء كان الثبوت للعشرة فرضاً أو ندباً هو حكم شرعي على كل حال، وقد ذكر القاضي ابن الطيب أن الحكم إذا نُسخَ بعضه أو بعض أوصافه أو غير عدده فجائز أن يقال له: نسخ، لأنه حينئذ ليس بالأول، وهو غيره، وذكر في ذلك خلافاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يظهر في ذلك أن النسخ إنما يقال حينئذ على الحكم الأول مقيداً لا بإطلاق، واعتبر ذلك في نسخ الصلاة إلى بيت المقدس.

وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ يَأْتِي﴾

الموضعين بياء على تذكير العلامة، ورواها خارجة عن نافع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بحسب المعنى، لأن الكائن في تلك المائة إنما هم رجال، فذلك في الحمل على المعنى كقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَهُ يَلْسَظْ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، إذ أمثالها حسنة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿إِنْ تُكُنْ مِنْكُمْ مِائَةً﴾ بالتاء في الموضعين على تأنيث العلامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بحسب اللفظ والمقصد، كأنه أراد: إن تكن فرقة عددها مائة. وقرأ أبو عمرو بالياء في صدر الآية، وبالتاء في آخرها، ذهب في الأولى إلى مراعاة ﴿يَقْلِبُوا﴾، وفي الثانية إلى مراعاة ﴿صَابِرَةٌ﴾، قال أبو حاتم: وقرأ الأعرج ﴿إِنْ تُكُنْ﴾ بالتاء من فوق ﴿مِنْكُمْ﴾ عشرون صابرون وجعلها كلها على التاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إلا قوله تعالى: ﴿وَأِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ﴾ فإنه لا خلاف في الباء من تحت. وقوله: ﴿لَا يَقْفَهُونَ﴾ معناه: لا يفهمون مرادهم ولا مقصد قتالهم، ولا يريدون به إلا الغلبة الدنياوية. فهم يخافون الموت إذا صبر لهم، ومن يقاتل ليغلب أو يستشهد فيصير إلى الجنة أثبت قدماً لا محالة.

وروي المفضل عن عاصم: ﴿وَعَلِيمٌ﴾ بضم العين وكسر اللام على البناء للمفعول. وقرأ ابن كثير،

ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وابن عمرو، والحسن، والأعرج، وابن القعقاع، وقتادة، وابن أبي إسحق: ﴿ضَعْفًا﴾ بضم الضاد وسكون العين. وقرأ عاصم، وحمزة، وشيبة، وطلحة: ﴿ضَعْفًا﴾ بفتح الضاد وسكون العين، وكذلك اختلافهم في سورة الروم. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿ضَعْفًا﴾ بضم الضاد والعين، ذكره النقاش، وهي مصادر بمعنى واحد، قال أبو حاتم: من ضم الضاد جاز له ضم العين، وهي لغة، وحكى سيبويه الضعف والضَّعْف لغتان بمنزلة الفقر والفقر، حكى الزهراوي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: ضم الضاد لغة أهل الحجاز، وفتحها لغة تميم، ولا فرق بينهما في المعنى. وقال الثعالبي في كتاب «فقه اللغة» له: الضَّعْف بفتح الضاد في العقل والرأي، والضَّعْف بضمها في الجسم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ترده القراءة، وذكره أبو غالب بن التبان غير منسوب. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع أيضاً ﴿ضَعْفًا﴾ بالجمع كظريف وظرفاء، وحكاه النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ لفظ خبر في ضمنه وعدٌ وحضٌ على الصبر، ويُلاحظ منه وعيدٌ لمن لم يصبر بأنه يُغلب.

﴿٦٧﴾ - ﴿٦٨﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية تتضمن - عندي - معاتبه من الله عز وجل لأصحاب

نبيه ﷺ، والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي أسرى قبل الإثخان، والإخبار هو لهم، ولذلك استمر الخطاب به ﴿يُذَكِّرُ﴾، والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ولا أراد قط عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب، وجاء ذكر النبي ﷺ في الآية مشيراً إلى دخوله ﷺ في العتب حين لم يثب عنه ذلك حين رآه من العرش وأنكره سعد بن معاذ، ولكنه ﷺ شغله بثُ الأمر وظهور النصر فترك النهي عن الاستبقاء، ولذلك بكى ﷺ وأبو بكر حين نزلت هذه الآية، ومز كثير من المفسرين على أن هذا التوبيخ إنما كان بسبب إشارة من أشار على النبي ﷺ بأخذ الفدية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما جمع أسرى بدر استشار فيهم أصحابه، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله هم قرابتك، ولعل الله أن يهديهم بغد إلى الإسلام، ففادهم واستبقهم ويتقوى المسلمون بأموالهم، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يا رسول الله، بل نضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر، وقال عبدالله بن رواحة: بل نجعلهم في وإد كثير الحطب ثم نضرمه عليهم ناراً، وقد كان سعد بن معاذ قال وهو مع رسول الله ﷺ في العرش وقد رأى الأسر: لقد كان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال: فأخذ رسول الله ﷺ يقول

فُحِذَ المضاف وأُقيِمَ المضاف إليه
مقامه، وقرأ ابن جَماز: ﴿الْآخِرَةُ﴾
بالخفض على تقدير المضاف،
وينظر ذلك لقول الشاعر:

أَكُلْ أَمْرِيءَ تَخَسِبِينَ أَمْرًا
وَنَارٍ تَوْقُدُ بِاللَّيْلِ نَارًا؟
على تقدير: وكلُّ نَارٍ.

وذكر الطبري وغيره أن رسول الله ﷺ قال للناس: إن شئتم أخذتم فداء الأسرى ويقتل منكم في الحرب سبعون على عددهم، وإن شئتم قُتلوا وسليمتُم، فقالوا: نأخذ المال ويستشهد منا سبعون. وذكر عبد بن حميد بسنده أن جبريل نزل على النبي ﷺ بتخيير الناس هكذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وعلى الروایتین فالأمر في هذا
التخيير من عند الله فإنه إعلَامٌ
ببیب، وإذا خُيروا فكيف يقع التويخ
بغذ بقوله تعالى: ﴿لَسَّكُمَ فِيمَا أَخَذْتُمُ
عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ والذي أقول في هذا:
إن العُتْبَ لأصحاب النبي ﷺ بقوله
تعالى: ﴿وَمَا كَأَنَّ لِي فِيهِ﴾ إلى قوله:
﴿عَظِيمٌ﴾ إنما هو على استبقاء الرجال
وقت الهزيمة رغبة في أخذ المال
منهم، وجميع العُتْبَ إذا نظر فإنما
هو للناس، وهناك كان عمر
رضي الله عنه يقتل ويحض على
القتل ولا يرى الاستبقاء، وحينئذ قال
سعد بن معاذ: الإثنان أحب إليَّ
من استبقاء الرجال، ولذلك جعلهما
رسول الله ﷺ ناجيتين من عذاب إن
لو نزل، ومما يدل على حرص
بعضهم على المال قول المقداد حين

﴿لَيْفٍ﴾، وقرأ أبو عمرو بن العلاء وحده: ﴿أَنْ تَكُونُ﴾ على تأنيث العلامة مراعاة للفظ الأسرى، وقرأ ﴿بِأَقْيَسِ السَّبْعَةِ وَجُمْهُورِ النَّاسِ﴾: ﴿أَنْ يَكُونُ﴾ بتذكير العلامة مراعاة لمنع الأسرى، وقرأ جمهور الناس والسبعة: ﴿أَنْتَرَى﴾، وقرأ بعض الناس: ﴿أَنْتَارَى﴾، ورواهما المعفضل عن عاصم، وهي قراءة أبي جعفر.

والقياس والباب أن يجمع أسيرٌ
على أسرى، وكذلك كل فعيل
بمعنى مفعول، وشبهه به فعيلٌ وإن لم
يكن بمعنى مفعول كمرضى ومزوى
إذا كانت أيضاً أشياء سبيل الإنسان
أن يجبر عليها وتأتيه غلبة فهو فيها
بمنزلة المفعول، وأما جمعه على
أسارى فشيبه بكسالى جمع كسلان،
وجمع أيضاً كسلان على كسلى
تشبيهاً بأسرى في جمع أسير، قال
سيبويه: وهما شاذان، وقال
الزجاج: أسارى جمع أسرى، فهو
جمع الجمع.

وقرأ جمهور الناس: **﴿يُفْخِخْ﴾**
بسكون الشاء، وقرأ أبو جعفر،
ويحيى بن يَمْرُ، ويحيى بن وثاب:
﴿يُفْخِخْنَ﴾ بفتح الشاء وشد الخاء،
ومعناه في الوجهين: يبالغ في القتل،
والإثخان إنما يكون في القتل
والجراحة وما كان منها.

ثم أمدَّ مخاطبةً أصحاب النبي ﷺ فقال: ﴿يُذَيِّبُكَ عَرَضٌ أَلْتَأْتِي﴾ أي: ما لها الذي يعرض ويعرض، والمراد ما أخذ من الأسرى من الأموال، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي عمل الآخرة،

أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَالٌ إِلَيْهِ،
فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَخْبِرَةً أَنَّ الْأَوَّلَى
وَالْأَخْيَبَ عَلَى سَائِرِ الْكُفَّارِ كَانَ قَتْلُ
أَسْرَى بَدْرٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ
وَالْمُسْلِمُونَ قَلِيلٌ، فَلَمَّا كَثُرُوا وَاشْتَدَّ
سُلْطَانُهُمْ نَزَلَ فِي الْأَمْرِ: ﴿فَلَمَّا مَتَّ
بَدُّ وَلَمَّا فِدَاءٌ﴾، وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ
أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا تَكَلَّمَ أَصْحَابُهُ
فِي الْأَسْرَى بِمَا ذَكَرَ دَخَلَ وَلَمْ
يُجِبْهُمْ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ
تَعَالَى يُنَلِّينَ قُلُوبَ رِجَالٍ وَيَشْدُدُّ
قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنْ
الْحِجَارَةِ، وَإِنْ مِثْلُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ مِثْلُ
إِبْرَاهِيمَ قَالَ: ﴿مَنْ يَعْصِي فَإِنَّهُ مِنِّي
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَوْرٌ رَجِيمٌ﴾،
وَمِثْلُ عِيسَى قَالَ: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَهُمْ
عِبَادَةٌ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفِيرُ
الْحَكِيمُ﴾»، وَمِثْلُكَ يَا عُمَرُ مِثْلُ
نُوحٍ قَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ
مِنْ الْكَافِرِينَ ذَبَابًا﴾، وَمِثْلُ مُوسَى
قَالَ: ﴿رَبَّنَا أَطِيسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ
وَأَشُدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَبْرُؤَ
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، ثُمَّ قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتُمْ الْيَوْمَ فَلَا
يُفْلِتُنْ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا بِفِدْيَةٍ أَوْ
ضَرْبِ عِقٍّ» وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ قَالَ
عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَهَوِيَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ
يَهْرَ مَا قُلْتُ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه حجة على ذكر «الهوى» في
الصلاح.

وَقَرَأَتْ فِرْقَةٌ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾
مَعْرِفًا، وَقَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ:

أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة بن أبي معيط: «أسيري يا رسول الله»، وقول مصعب بن عمير للذي يأسر أخاه: «شد يدك عليه فإن له أمأ موسرة»، إلى غير ذلك من قصصهم. فلما تحصل الأسرى وسبقوا إلى المدينة وأنفذ رسول الله ﷺ القتل في النضر وعقبة، والمن في أبي عزة وغيره، وجعل يرتي في سائرهم نزل التخيير من الله تعالى، فاستشار رسول الله ﷺ حينئذ، فمر عمر رضي الله عنه على أول رأييه في القتل، ورأى أبو بكر رضي الله عنه المصلحة في قوة المسلمين بمال الفداء، ومال رسول الله ﷺ إلى رأي أبي بكر رضي الله عنه، وكلا الرأيين اجتهد بعد تخيير، فلم ينزل على شيء من هذا عتب، وذكر المفسرون أن الآية نزلت بسبب هذه المشورة والآراء، وذلك معترض بما ذكرته، وكذلك ذكروا في هذه الآيات تحليل المغنم لهذه الأمة، ولا أقول ذلك، لأن حكم الله بتحليل المغنم لهذه الأمة قد كان تقدم قبل بدر، وذلك في السرية التي قُتل فيها عمرو بن الحضرمي، وإنما المبتدع في بدر استبقاء الرجال لأجل المال، والذي من الله به فيها إلحاق فدية الكافر بالمغنم التي قد تقدم تحليلها.

ووجه ما قال المفسرون أن الناس خيروا في أمرين أحدهما غير جيد على جهة الاختيار لهم، فاخثاروا المفضل فوق عتب، ولم يكن تخييراً في مستويين، وهذا كما أتى

رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بإناءين فاختر الفاضل.

و«عزير حكيم» صفتان من قبل الآية لأن بالعزة والحكمة يتم مراده على الكمال والتوفية. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون، والأسارى هم الموثقون ربطاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب، وقد ذكره أيضاً أبو الحسن الأفش وقال: العرب لا تعرف هذا وكلاهما عندهم سواء.

وقوله تعالى: «لَوْلَا كُنْتُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْآيَةِ». قالت فرقة: الكتاب السابق هو القرآن، والمعنى: لولا الكتاب الذي سبق فأمنتم به وصدقتم لمحكم العذاب لأخذكم هذه المفاداة. وقال سعيد بن جبير، ومجاهد، والحسن أيضاً، وابن زيد: الكتاب السابق هو مغفرة الله لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم أو تأخر. وقال الحسن، وابن عباس، وأبو هريرة، وغيرهم: الكتاب هو ما قد كان الله قضاة في الأزل من إحلال الغنائم والفداء لمحمد ﷺ وأمنته، وكانت في سائر الأمم محرمة. وقالت فرقة: الكتاب السابق هو عفو الله عنهم في هذا الذنب مَعْتِنًا. وقالت فرقة: الكتاب السابق هو أن الله عز وجل قضى ألا يعاقب أحداً بذنب أتاه بجهالة، وهذا قول ضعيف تعارضه مواضع من الشريعة. وذكر الطبري عن محمد بن علي بن حسين بن

علي بن أبي طالب أن الكتاب السابق هو ألا يعذب أحداً بذنب إلا بعد النهي عنه، ولم يكونوا نهوا بغد. وقالت فرقة: الكتاب السابق هو ما قضاة الله من محو الصغائر باجتناّب الكبائر. وذهب الطبري إلى دخول هذه المعاني كلها تحت اللفظ وأنه يُعْمَهَا، وتُكَبَّ عن تخصيص معنى دون معنى.

والسلام في «لَسَكُمْ» جواب «لَوْلَا»، و«كُنْتُ» رفع بالابتداء والخبر محذوف، وهكذا حال الاسم الذي بعد (لولا)، وتقديره عند سيبويه: لولا كتاب سابق من الله تدارككم، و«ما» من قوله تعالى: «فِيمَا» يراد بها إما الأسرى وإما الفداء، وهي موصولة. وفي «أَخَذْتُمْ» ضمير عائد عليها، ويحتمل أن تكون مصدرية فلا تحتاج إلى العائد، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «لو نزل في هذا الأمر عذاب لتبجأ منه عمر بن الخطاب»، وفي حديث آخر: «وسعد بن معاذ»، وذلك أن رأيهما كان أن يقتل الأسرى.

وقوله تعالى: «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ»، الآية. نص على إباحة المال الذي أخذ من الأسرى وإلحاق له بالغنمة التي كان تقدم تحليلها. وقوله: «حَلَالًا طَيِّبًا» حالان من «ما» في قوله: «فِيمَا»، ويصح أن يكونا من الضمير الذي في «غَنِمْتُمْ». ويحتمل أن يكون «حَلَالًا» مفعولاً به «كُلُوا». «وَأَتَقُوا اللَّهَ» معناه: في التسرع حسب إرادة البشر وشهوته في نازلة أخرى. وجاء قوله:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ اعتراضاً فصيحاً في أثناء الكلام، لأن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ هو متصل بالمعنى بقوله: ﴿كُلُّوْا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا حَلَالًا﴾.

﴿٧٠﴾ - ﴿٧١﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي أن الأسرى ببدر أعلموا رسول الله ﷺ أنهم لهم ميل إلى الإسلام، وأنهم يؤملونه، وأنهم إن فدوا ورجعوا إلى قومهم التزموا جلهم إلى الإسلام وسَمَوْا في ذلك، ونحو هذا الغرض، ففي ذلك نزلت هذه الآية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الأسرى في هذه الآية عباس وأصحابه، قالوا للنبي ﷺ: أمانا بما جئت به ونشهد أنك لرسول الله، لَنُتَّصَحَّحَنَّ لك على قومنا فنزلت هذه الآية.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَرْبُحُ﴾، وقرأ أبو عمرو وحده من السبعة: ﴿مِنْ الْأَسَارِيِّ﴾، وهي قراءة أبي جعفر، وقتادة، ونصر بن عاصم، وابن أبي إسحق، واختلف عن الحسن بن أبي الحسن، وعن الجحدري، وقرأ ابن محيصن: ﴿مِنْ لَسْرَى﴾ بالإدغام، ومعنى الكلام: إن كان هذا عن جد منكم وعلم الله من نفوسكم الخير والإسلام سيجبر عليكم أفضل مما أعطيتكم فدية، وسيغفر لكم جميع ما اجترحتموه، وقرأ الأعمش: ﴿يُثْبِتُكُمْ خَيْرًا﴾. وقرأ جمهور الناس: ﴿أُخِذَ﴾ بضم الهمزة وكسر الخاء، وقرأ شعبة بن نصاح، وأبو حيوة ﴿أُخِذَ﴾ بفتحهما.

وروي أن أسرى بدر افتدوا بأربعين

أوقية أربعين أوقية إلا العباس فإنه افتدي بمائة أوقية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأوقية أربعون درهماً، وقال قتادة: فادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف، وقال عبيدة السلماني: كان فداء أسرى بدر بمائة أوقية، والأوقية أربعون درهماً، ومن الدنانير ستة، وروي أن العباس بن عبدالمطلب قال: في وفي أصحابي نزلت هذه الآية، وقال حين أعطاه رسول الله ﷺ

من مال البحرين ما قدر أن يُقْبَلَ: هذا خير مما أخذ مني، وأنا أرجو أن يغفر الله لي. وأسند الطبري أيضاً إلى العباس أنه قال: في نزلت حين أعلمت رسول الله ﷺ بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقية التي أخذت مني قبل المفادة فأبى وقال: (ذلك فيء) فأبدلني الله من ذلك عشرين عبداً كلهم تاجر بمالي، وروي عن العباس أنه قال: ما أود أن هذه الآية لم تنزل ولي الدنيا بأجمعها، وذلك أن الله قد آتاني خيراً مما أخذ مني، وأنا أرجو أن يغفر لي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ﴾ الآية. قول أمير أن يقوله للأسرى ويورد معناه عليهم، والمعنى: إن أخلصوا فعل بهم كذا، وإن أبطنوا خيانة ما زعموا أن يؤتمنوا عليه من العهد فلا يسرهم

يَتَأْتِي النَّبِيَّ قُلُوبُ مَنْ فِي أَيْدِيكُمْ يَرْبُحُ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَوَلَّوْنَ أُولِيَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولِيَاءَهُمْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا أَمَّا لَكُمْ فِي وَلِيِّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَضَعُّوكُمْ فِي الَّذِينَ قَالْتُمْ كُمْ النَّصْرُ لِأَعْلَى قَوْمٍ يَنْتَكُمُ وَيَنْتَكُمُ وَاللَّهُ يَمُنُّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ لَا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ فَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَوَلَّوْنَ أُولِيَاءَهُمْ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَاوُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمَنُوا مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

١٨٦

ذلك ولا يسكنوا إليه، فإن الله بالمرصاد لهم، الذي خانوه من قبل بكفرهم وتركهم النظر في آياته، وهو قد بينها لهم إدراكاً يحصلونها به، فصار ذلك كعهد متقرر، فجعل جزاءهم على خيانتهم إياه أن مكن منهم المؤمنين، وجعلهم أسرى في أيديهم.

وقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان مناسبتان، أي عليم بما يطنونه من إخلاص أو خيانة، حكيم فيما يجازيهم به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما تفسير هذه الآية بقصة عبدالله بن أبي سرح فينبغي أن يُحَرَّرَ، فإن جُلبت قصة عبدالله بن أبي سرح على أنها مثال كما يمكن أن تجلب أمثلة في عصرنا من ذلك فحسن، وإن

جُلِبَت على أن الآية نزلت في ذلك فخطأ، لأن ابن أبي سرح إنما تبين أمره في يوم فتح مكة، وهذه الآية نزلت عقيب بدر.

﴿٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

مقصد هذه الآية وما بعدها تبيين منازل المهاجرين والأنصار والمؤمنين الذين لم يهاجروا والكفار والمهاجرين بعد الحديبية، وذكر نسب بعضهم من بعض، فقدم أولاً ذكر المهاجرين وهم أصل الإسلام، وانظر تقديم عمر رضي الله عنه لهم في الاستشارة، وهاجر معناه: هجر أهله وقرباته ومجروه، و﴿جَاهِدُوا﴾ معناه: أجهدوا أنفسهم في حرب من أجهد نفسه في حربهم. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَتَرْتَبُوا﴾ هم الأنصار، وآوى معناه: هبأ مأوى وهو الملجأ والجزء، فحكم الله على هاتين الطائفتين بأن بعضهم أولياء بعض، فقال كثير من المفسرين: هذه الموالاة هي المؤازرة والمعاونة واتصال الأيدي، وعليه فسر الطبري الآية، وهذا الذي قالوا لازم من دلالة اللفظ. وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وكثير منهم: إن هذه الموالاة هي في الميراث، وذلك أن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار، وكانت بين الأنصار أخوة النسب، وكانت أيضاً بين بعض المهاجرين، فكان المهاجري إذا مات ولم يكن له بالمدينة مهاجري ورثه أخوه الأنصاري، وإن كان له ولي مسلم لم يهاجر، فكان المسلم الذي لم يهاجر لا ولاية بينه وبين قريبه المهاجري فلا يرثه، قال ابن زيد:

واستمر أمرهم كذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بعد ذلك لما لم تكن هجرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فذهبت هذه الفرقة إلى أن هذا هو مقصد الآية. ومن ذهب إلى أنها من التآزر والتعاون فإنما يحمل نفي الله تعالى ولايتهم عن المسلمين على أنها صفة الحال، لا أن الله حكم بأن لا ولاية بين المهاجرين وبينهم جملة، وذلك أن حالهم إذا كانوا متباعدي الأقطار تقتضي أن بعضهم إن حَزَبَهُمْ حازب لا يجد الآخر ولا ينتفع به، فعلى هذه الجهة نفى الولاية، وعلى التأويلين ففي الآية حض للأعراب على الهجرة، قاله الحسن بن أبي الحسن. ومن رأى الولاية في الموارثة فهو حكم من الله الولاية في الموارثة، قالوا: ونسخ ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ الآية.

وقرأ جمهور السبعة والناس: ﴿وَلَا يَتَّبِعُهُمْ﴾ بفتح الواو، ر ﴿وَالْوَلَايَةُ﴾ أيضاً بفتح الواو، وقرأ الكسائي: ﴿وَلَا يَتَّبِعُهُمْ﴾ بفتح الواو، و﴿الْوَلَايَةُ﴾ بكسر الواو، وقرأ الأعمش، وابن وثاب: ﴿وَلَا يَتَّبِعُهُمْ﴾ و﴿الْوَلَايَةُ﴾ بكسر الواو، وهي قراءة حمزة، قال أبو علي: والفتح أجود لأنها في الدين، قال أبو الحسن الأخفش: «والكسر فيها لغة»، وليست بذلك، ولحن الأصمعي الأعمش، وأخطأ عليه لأنها إذا كانت لغة فلم يلحن.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: لا سيما ولا يُظن به إلا أنه رواها، قال أبو عبيدة: الولاية بالكسر هي من وليت الأمر إليه فهي في السلطان، والولاية هي في المولى، يقال: مولى بين الولاية بفتح الواو.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَنصَرْتُمْهُمْ﴾ يعني: إن استدعى هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا نصركم على قوم من الكفرة فواجب عليكم نصرهم، إلا إن استنصروكم على قوم كفار قد عاهدتموهم أنتم وواثقتموهم على ترك الحرب فلا تنصروهم عليهم، لأن ذلك غدر ونقض للميثاق وترك لحفظ العهد والوفاء به، والقراءة: ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ برفع الراء، ويجوز ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ على الإغراء، ولا أحفظه قراءة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَلَّهِ يَمَّا تَمَلُّونَ﴾ على مخاطبة المؤمنين، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والأعرج: ﴿يَمَّا يَغْمُلُونَ﴾ بالياء على ذكر الغائب.

﴿٧٣﴾ - ﴿٧٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا حكم بأن الكفار ولايتهم واحدة، وذلك بجمع الموارثة والمعاونة والنصرة، وهذه العبارة ترغيب وإقامة للنفوس، كما تقول لمن تريد أن يستضلع: «عدوك مجتهد»، أي: فاجتهد أنت.

وحكى الطبري في تفسير هذه الآية عن قتادة أنه قال: أبى الله أن يقبل

إيمان من آمن ولم يهاجر، وذلك في صدر الإسلام، وذلك أيضاً مذكور مستوعب في تفسير قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَلَاحُ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَرِيعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧٢﴾

والذي يظهر من الشرع أن حكم المؤمن التارك للهجرة مع علمه بوجوبها حكم العصاة لا حكم الكافر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَلَاحُ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ إنما هي فيمن قتل مع الكفار، وفيهم قال رسول الله ﷺ: «أنا بريء من مسلم أقام بين المشركين لا تراءى ناراهما» الحديث على اختلاف ألفاظه، وقول قتادة إنما هو فيمن كان يقوم متربصاً يقول: مَنْ غَلَبَ كنت معه، وكذلك ذكر في كتاب الطبري والكتشي.

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ﴾ قيل: هو عائد على الموارثة والتزامها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا تقع الفتنة عنه إلا عن بُعد وبوساطة كثيرة، وقيل: هو عائد على المؤازرة والمعاونة واتصال الأيدي، وهذا تقع الفتنة عنه عن قُرب فهو أكد من الأول، ويظهر أيضاً عوده على حفظ العهد والميثاق الذي يتضمنه قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ﴾ وهذا إن لم يفعل فهو الفتنة نفسها، ويظهر أن يعود الضمير على النصر للمسلمين

المنتصرين في الدين، ويجوز أن يعود الضمير مجملاً على جميع ما ذكر.

والفتنة: المحنة بالحرب وما أنجز معها من الغارات والجلاء والأسر. والفساد الكبير: ظهور الشرك. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَنَصْرًا﴾ بالباء المنقوطة بواحدة، وقرأ أبو موسى الحجازي عن الكسائي بالشاء المنقوطة مثلثة، وروى أبو حاتم المديني أن رسول الله ﷺ قرأ: «وفساد عريض»، وقرأت فرقة: «والذين كفروا بعضهم أولى ببعض».

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ﴾ الآية. آية تضمنت تخصيص المهاجرين والأنصار وتشريفهم بهذا الوصف العظيم. و«حقاً» نصب على المصدر المؤكد لما قبله، ووُصفُ الرزق بالكريم معناه أنه لا يستحيل نجواً، والمراد به طعام الجنة، كذا ذكره الطبري وغيره، ولازم اللفظ نفي المذمات عنه، وما ذكره فهو في ضمن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ يريد به: من بُعد الحديبية وبيعة الرضوان، وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقل رتبة من الهجرة قبل ذلك، وكان يقال لها: الهجرة الثانية، لأن الحرب وضعت أوزارها نحو عامين، ثم كان فتح مكة، وبه قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»، وقال الطبري: المعنى: من بُعد ما بينت لكم حكم الولاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكان الحاجز بين الهجرتين نزول الآية، فأخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآية بأنهم من الأولين في المؤازرة وسائر أحكام الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَجَهَدُوا مَعَكُمْ﴾ لفظ يقتضي أنهم تبع لا صدر، وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ يَنْفَكُ عَنْكُمْ﴾ كذلك، ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: «مؤلى القوم منهم»، «وابن أخت القوم منهم».

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ﴾ آخر السورة. قال من تقدم ذكره: هي في الموارث، وهي ناسخة للحكم المتقدم ذكره من أن يرث المهاجري الأنصاري، ووجب بهذه الآية الأخيرة أن يرث الرجل قريبه وإن لم يكن مهاجراً معه. وقالت فرقة منها مالك بن أنس رحمه الله: إن الآية ليست في الموارث، وهذا فرار عن تورث الخال والعمة ونحو ذلك. وقالت فرقة: هي في الموارث إلا أنها نُسخت بآية الموارث المبيّنة.

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ معناه: القرآن، أي ذلك مثبت في كتاب الله، وقيل: المعنى: في كتاب الله السابق في اللوح المحفوظ، و«عَلَيْكُمْ» صفة مناسبة لنفوذ هذه الأحكام.

كمل تفسير سورة الأنفال بتوفيق من الله والحمد لله رب العالمين

في مدة عثمان رضي الله عنه اختلفوا في الأنفال وبراءة، هل هما سورة واحدة أو هما سورتان؟ فتركوا فصلاً بينهما مراعاة لقول من قال: هما سورتان، ولم يكتبوا ﴿يَسِّرْهُ اللَّهُ وَيُخَيِّرْهُ﴾ مراعاة لقول من قال منهم: هما واحدة، ف رضي جميعهم بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول يضعفه النظر أن يختلف في كتاب الله هكذا. وروي عن أبي بن كعب أنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بوضع ﴿يَسِّرْهُ اللَّهُ وَيُخَيِّرْهُ﴾ في أول كل سورة، ولم يأمرنا في هذه بشيء، فلذلك لم نضعه نحن. وروي عن مالك أنه قال: بلغنا أنها كانت نحو سورة البقرة ثم نسخ ورفع كثير منها وفيه البسمة، فلم يروا بغد أن يضعوه في غير موضعه.

وسورة براءة من آخر ما نزل على النبي ﷺ، وحكى عمران بن حدير أن أعرابياً سمع سورة براءة فقال: أظن هذه من آخر ما أنزل الله على رسوله، ف قيل له: لم تقول ذلك؟ فقال: أرى أشياء تنقض وعهدها تنبذ.

١ - ٢ تفسير قوله عز وجل: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ رفع على خبر ابتداء مضمّر تقديره: هذه الآيات براءة، ويصح أن ترتفع بالابتداء والخبر في قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾، وجاز الابتداء بالنكرة لأنها موصوفة فتعرفت تعريفاً ما، وجاز الإخبار عنها، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ بالنصب على تقدير: الزموا براءة، فيها معنى

«ومنهم، ومنهم» حتى ظن أنه لا يبقى أحد، وقال حذيفة: هي سورة العذاب، قال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا ندعوها المُقَشَّقَةُ، قال الحارث بن يزيد: كانت تدعى المبعثرة، ويقال لها المشيرة، ويقال لها البحوث.

وقال أبو مالك الغفاري: أول آية نزلت من براءة ﴿اتَّبِعُوا حَقّاً وَتَقَالاً﴾، وقال سعيد بن جبيرة: كانت براءة مثل سورة البقرة في الطول.

واختلف - لم سقط سطر

﴿يَسِّرْهُ اللَّهُ وَيُخَيِّرْهُ﴾ من أولها - فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: أشبهت معانيها معاني الأنفال، وكاننا تدعيان القرينتين في زمن رسول الله ﷺ، فلذلك قرئت بينهما، ولم أكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ﴾، ووضعناها في السبع الطول. وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَسِّرْهُ اللَّهُ وَيُخَيِّرْهُ﴾ أمان وبشارة، وبراءة: نزلت بالسيف ونيد العهد، فلذلك لم تبدأ بالأمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعزى هذا القول للمُبَرِّد وهو لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهذا كما يبدأ المخاطب الغاضب: «أما بعد» دون تقرّظ ولا افتتاح بتبجيل، وروي أن كتبة المصحف



(٩) - سورة التوبة مدنية

وآياتها تسع وعشرون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

تفسير سورة براءة على بركة الله

هذه السورة مدنية إلا آيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخرها، وتسمى سورة التوبة، قاله ابن وغيره، وتسمى الفاضحة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وتسمى الحافرة لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما زال ينزل:

الإغراء. و﴿بِرَّاءَةٍ﴾ معناها: تخلُّص وتبرُّؤ من العهد التي بينكم وبين الكفار البادين بالنقض، تقول: برئت إليك من كذا، فبرئ الله تعالى ورسوله بهذه الآية إلى الكفار من تلك العهد التي كانت ونقضها الكفار. وقرأ أهل نجران: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ بكسر النون.

وهذه الآية حُكِمَ من الله عز وجل بتقض العهود والموادعات التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين طوائف المشركين الذين ظهر منهم أو تُحَسَّن مِن جَهَنَّمِ نقض، ولما كان عهد رسول الله ﷺ لازماً لأمته حسن أن يقول: ﴿عَهْدُكُمْ﴾، قال ابن إسحق وغيره من العلماء: كانت العرب قد واثقها رسول الله ﷺ عهداً عاماً على ألا يُصد أحد عن البيت الحرام، ونحو ذلك من الموادعات، فَنُقِضَ ذلك بهذه الآية، وأجل لجميعهم أربعة، فمن كان له مع النبي ﷺ عهد خاص وبقي منه أقل من الأربعة الأشهر بلغ به تمامها، ومن كان أمدّه أكثر من أربعة أشهر أتم له عهده، إلا إن كان ممن تحس منه نقض فإنه قصر على أربعة أشهر، ومن لم يكن له عهد خاص فرضت له الأربعة الأشهر يسبح فيها في الأرض، أي يذهب مسرّحاً آمناً كالسَّيْح من الماء وهو الجاري المنبسط، ومنه قول طرفة بن العبد:

لَوْ خِفْتُ هَذَا مِنْكَ مَا نِلْتُنِي
حَتَّى تَرَى خَيْلاً أَمَامِي تَسِيحُ
وهذا يُنبئ عن أن رسول الله ﷺ استشعر من الكفار نقضاً وترتباً به

إلا من الطائفة المستثناة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أول الأشهر الأربعة شوال وحينئذ نزلت الآية، وانقضأوها عند انسلاخ الأشهر الحرم، وهو انقضاء الحرم بعد يوم الأذان بخمسين يوماً، فكأن أجل من له عهد أربعة أشهر من يوم نزول الآية، وأجل سائر المشركين خمسون ليلة من يوم الأذان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: اعترض هذا بأن الأجل لا يلزم إلا من يوم سُمِعَ، ويحتمل أن البراءة قد كانت سُمِعَت من أول شوال، ثم كرر إشهارها مع الأذان يوم الحج الأكبر، وقال السدي وغيره: بل أولها يوم الأذان وآخرها العشرون من ربيع الآخر، وهي الحُرْم، استعير لها الاسم بهذه الحرمة والأمن الخاص الذي رسمه الله وألزمه فيها، وهي أجل الجميع ممن له عهد وتحس منه نقض، وممن لا عهد له.

وقال الضحاك وغيره من العلماء: كان من العرب من لا عهد بينه وبين رسول الله ﷺ جملة، وكان منهم من بينه وبينهم عهد وتَحَسَّن منهم النقض، وكان منهم من بينه وبينهم عهد ولم ينقضوا، فقولته تعالى: ﴿فَتَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هو أجل ضربه لمن كان بينه وبينهم عهد وتَحَسَّن منهم نقضه، وأول هذا الأجل يوم الأذان، وآخره انقضاء العشر الأول من ربيع الآخر، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ هو حُكْم مبين للأول حُكْم به في المشركين الذين لا عهد لهم بالنبوة، فجاء أجل تأمينهم

خمسین يوماً، أولها يوم الأذان وآخرها انقضاء الحرم، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ يريد به الذين لهم عهد ولم ينقضوا ولا تُحَسَّن منهم نقض، وهم - فيما روي - بنو ضمرة من كنانة، عاهد لهم المحسر بن خويلد وكان بقي من عهدهم يوم الأذان تسعة أشهر.

وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما أجل الله أربعة أشهر من كان عهده ينصرم عند انقضائها أو قبله، والمعنى: فقل لهم يا محمد: سيحوا. وأما من كان له عهد يتمادي بعد الأربعة الأشهر فهم الذين أمر الله لهم بالوفاء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ عِزٌّ مُّجْتَرِيٌّ﴾ معناه: واعلموا أنكم لا تغلبون الله ولا تعجزونه هرباً من عقابه، ثم أعلمهم بحُكْمه بخزي الكافرين، وذلك حُكْم إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ الآية. ﴿وَأَذِّنْ﴾ معناه: إعلام وإشهار، و﴿النَّاسِ﴾ هاهنا: عام في جميع الخلق، و﴿يَوْمٍ﴾ منصوب على الظرف، والعامل فيه ﴿وَأَذِّنْ﴾ وإن كان قد وصف فإن رائحة الفعل باقية، وهي عاملة في الظرف، وقيل: لا يجوز ذلك إذ قد وُصف المصدر فزالت عنه قوة الفعل ويصح أن يعمل فيه فعل مضمّر تقتضيه الألفاظ، وقيل: العامل فيه صفة الأذان، وقيل: العامل فيه ﴿يُحْزَى﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد.

ويوم الحج الأكبر - قال عمر، وابن عمر، وابن المسيب، وغيرهم: هو يوم عرفة، وقال به علي رضي الله عنه، وزوي عنه أيضاً أنه يوم النحر، وروي ذلك عن أبي هريرة وجماعة. وروي ذلك عن النبي ﷺ، وقال منذر بن سعيد وغيره: كان الناس يوم عرفة مفترقين إذ كانت الحمس تقف بالمزدلفة. وكان الجمع يوم النحر بمعنى، فلذلك كانوا يسمونه «الحج الأكبر» أي: من الأصغر الذي هم فيه مفترقون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا زال في حجة أبي بكر رضي الله عنه لأنه لم يقف أحد بالمزدلفة، وقد ذكر المهدي أن الحمس ومن اتبعها وقفوا بالمزدلفة في حجة أبي بكر رضي الله عنه، والذي تظاهرت به الأحاديث في هذا المعنى أن علياً رضي الله عنه أذن بتلك الآية يوم عرفة إثر خطبة أبي بكر، ثم رأى أنه لم يعلم الناس بالإسراع فتنبعهم بالأذان بها يوم النحر، وفي ذلك اليوم بعث معه أبو بكر من يُعينه بالأذان بها كأبي هريرة رضي الله عنه وغيره، وتبعوا بها أيضاً أسواق العرب كذي المجاز وغيره، فمن هنا يرجح قول سفيان: إن «يوم» في هذه الآية بمعنى «أيام»، وبسبب ذلك قالت طائفة: يوم الحج الأكبر: عرفة حيث وقع أول الأذان، وقالت طائفة أخرى: هو يوم النحر حيث وقع إكمال الأذان، واحتجوا أيضاً بأنه من فاته الوقوف يوم عرفة فإنه يجزيه الوقوف ليلة النحر، فليس

يوم عرفة - على هذا - يوم الحج الأكبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا حجة في هذا.

وقال سفيان بن عُيَيْنَةَ: المراد أيام الحج كلها كما تقول: «يوم صفيان، ويوم الجمل»، تريد جميع أيامه. وقال مجاهد: يوم الحج الأكبر: أيام منى كلها ومجامع المشركين حيث كانوا بذئ المجاز، وعكاظ، ومجنة، حين نودي فيهم ألا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كما قال عثمان لعمر رضي الله عنهما حين عرض عليه زواج حفصة رضي الله عنها: إني قد رأيت ألا أتزوج يومي هذا، وكما ذكر سيوبه أنك تقول لرجل: ما شغلك اليوم؟ وأنت تريد: في أيامك هذه.

واختلف، لم يُوصف بالأكبر؟ فقال الحسن بن أبي الحسن، وعبد الله بن الحارث بن نوفل: لأنه حج ذلك العام المسلمون والمشركون وصادف أيضاً عيد اليهود والنصارى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف أن يصفه الله تعالى في كتابه بالكبر لهذا، وقال الحسن أيضاً: إنما سُمِّيَ أكبر لأنه حج فيه أبو بكر رضي الله عنه ونبذت فيه العهد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو القول الذي يشبه نظره الحسن، وبيانه أن ذلك اليوم كان المفتتح بالحق وإمارة الإسلام بتقديم

رسول الله ﷺ، ونبذت فيه اليهود، وعز في الدين وذُلَّ الشرك، ولم يكن ذلك في عام ثمان حين ولي رسول الله ﷺ الحج عثاب بن أبييد، بل كان أمر العرب على أوله، فكل حج بعد حج أبي بكر رضي الله عنه فمتركب عليه، فحقه لهذا أن يُسمَى أكبر. وقال عطاء بن أبي رباح، وغيره: الحج الأكبر بالإضافة إلى الحج الأصغر وهي العمرة. وقال الشعبي: بالإضافة إلى العمرة في رمضان فإنها الحج الأصغر، وقال مجاهد: الحج الأكبر: القرآن، والأصغر: الأفراد، وهذا ليس من الآية في شيء، وقد تقدّم ما ذكره منذر بن سعيد، ويتجه أن يوصف بالأكبر على جهة المدح لا بالإضافة إلى أصغر معين، بل يكون المعنى: الأكبر من سائر الأيام، فتأمل.

واختصار ما تحتاج إليه هذه الآية على ما ذكر مجاهد وغيره من صور تلك الحال أن رسول الله ﷺ افتتح مكة سنة ثمان، فاستعمل عليها عثاب بن أبييد، وقضى أمر حنين والطائف وانصرف إلى المدينة فأقام بها حتى خرج إلى تبوك، ثم انصرف من تبوك في رمضان سنة تسع فأراد الحج، ثم نظر في أن المشركين يحجون في تلك السنة ويطوفون عراة فقال: لا أريد أن أرى ذلك، فأمر أبا بكر رضي الله عنه على الحج بالناس وأنفذه، ثم أتبعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه على ناقته العضياء، وأمره أن يؤذن في الناس بأربعة أشياء وهي: (لا يحج بعد

العام مشرك، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة - وفي بعض الروايات: ولا يدخل الجنة كافر - ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته. وفي بعض الروايات: ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجله أربعة أشهر يسبح فيها، فإذا انقضت فإن الله بريء من المشركين ورسوله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأقول: إنهم كانوا يتادون بهذا كله، فهذا للذين لهم عهد وتحسن منهم نقضه، والإبقاء إلى المدة لمن لم يخبر منه نقض. وذكر الطبري أن العرب قالت يومئذ: نحن نبرأ من عهدك وعهد ابن عمك إلا من الطعن والضرب، فلام بعضهم بعضاً وقالوا: ما تصنعون وقد أسلمت قريش؟ فأسلموا كلهم ولم يسبح أحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحينئذ دخل الناس في دين الله أفواجا، وكان رسول الله ﷺ قد أمر علياً أن يقرأ على الناس الأربعين آية صدر سورة براءة، وقيل: ثلاثين، وقيل: عشرين، وفي بعض الروايات: عشر آيات. وفي بعضها، تسع آيات، ذكرها النقاش. وقال سليمان بن موسى الشامي: ذلك ثمان وعشرون آية، فلحق علي أبا بكر رضي الله عنهما في الطريق، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أمير أو مأمور؟ فقال: بل مأمور، فنهضا حتى بلغا الموسم، فلما خطب أبو بكر رضي الله عنه بعرفة

قال: قم يا علي فأذ رسالة رسول الله ﷺ، فقام علي رضي الله عنه ففعل، قال: ثم وقع في نفسي أن جميع الناس لم يشاهدوا خطبة أبي بكر فجعلت أتبع الفساطيط يوم النحر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ﴾ بفتح الألف على تقدير: بأن الله. وقرأ الحسن، والأعرج: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بكسر الألف على القطع، إذ الأذان في معنى القول. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بالرفع على الابتداء وحذف الخبر، وتقديره: ورسوله بريء منهم، هذا وهو عند شيخنا الفقيه الأستاذ أبي الحسن بن الباذه رحمه الله معنى العطف على الموضع، أي تؤنس بالجملة الأولى التي هي ابتداء وخبر فعطفت عليها هذه الجملة، وقيل: هو معطوف على موضع المكتوبة قبل دخول ﴿إِنَّ﴾ التي لا تغير معنى الابتداء بل تؤكد، وإذ قد قرئت بالكسر، لأنه لا يعطف على موضع (أَنْ) بالفتح، وانظر فإنه مختلف في جوازه، لأن حكم (أَنْ) رفع حكم الابتداء إلا في هذا الموضع وما أشبهه، وهذا قول أبي العباس، وأبي علي رحمهما الله. ومذهب الأستاذ على مقتضى كلام سيويه ألا موضع لما دخلت عليه (أَنْ) إذ هو معرب قد ظهر فيه عمل العامل، ولأنه لا فرق بين (أَنْ) و(لَيْت) و(لَعَلَّ)، والإجماع على ألا موضع لما دخلت عليه هذه. وقيل: هو عطف على الضمير المرفوع الذي في ﴿بَرِيءٌ﴾، وحسن ذلك أن المجرور قام مقام

التوكيد، كما قامت ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾. وقرأ ابن أبي إسحق، وعيسى بن عمر: ﴿رسوله﴾ بالنصب عطفاً على لفظ المكتوبة. وبهذه الآية امتحن معاوية أبا الأسود حتى وضع النحو إذ جعل قارئاً يقرأ بخفض ﴿وَرَسُولُهُ﴾.

والمعنى في هذه الآية: بريء من عهودهم وأديانهم براءة عامة تقتضي المحاربة وإعمال السيف.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَبْتَغُوا﴾ أي: عن الكفر. ووعدهم مع شرط التوبة وتوعدهم مع شرط التولي، وجاز أن تدخل البشارة في المكروه لما جاء مصرحاً به مرفوع الإشكال.

① - ② تفسير قوله عز وجل: هذا هو الاستثناء الذي تقدم ذكره في المشركين الذين بقي من عهدهم تسعة أشهر وكانوا قد وفوا بالعهد على ما يجب، وقال قتادة: هم قريش الذين عاهدوا زمن الحديبية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مردود بإسلام قريش في الفتح قبل الأذان بهذا كله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَدِينِهِمْ﴾: إلى الأربعة الأشهر التي في الآية. وقرأ الجمهور: ﴿يَنْقُضُوكُمْ﴾ بالصاد غير منقوطة، وقرأ عطاء بن يسار، وعكرمة، وابن السمين: ﴿يَنْقُضُوكُمْ﴾ بالضاد، من النقض، وهي متمكنة مع العمد. ولكنها قلقة في تعديها إلى الضمير. ويحسن ذلك أن النقض نقض وفاء وحق للمعاهد، وكذلك تعذى ﴿أَتِمُّوا﴾

الصواب. وقوله: ﴿خَذُوهُمْ﴾
معناه: الأسر، وقوله: ﴿كُلُّ
مَرَصِدٍ﴾ معناه: في مواضع الغيرة
حيث يُرصدون، وقال النابغة:

أَعَاذِلْ إِنْ الْجَهْلَ مِنْ لَذَّةِ الْفَتَى
وَإِنْ الْمَنَابِلَ لِلْكُفُوسِ بِمَرَصِدٍ
وَنُصِبَ ﴿كُلُّ﴾ عَلَى الظَرْفِ،
وهو اختيار الزجاج، أو بإسقاط
الخافض، التقدير: في كل مرصد،
أو على كل مرصد، وحكى سيويه:
ضَرِبَ الظَّهْرَ وَالْبَطْنَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَابُوا﴾ يريد:
من الكفر، فهي متضمنة الإيمان، ثم
قرن بها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة
تنبيهاً على مكان الصلاة والزكاة من
الشعر. وقوله: ﴿تَحَلَّوْا سَبِيلَهُمْ﴾
تأمن.

وقال أنس بن مالك: هذا هو
دين الله الذي جاءت به الرسل، وهو
من آخر ما نزل قبل اختلاف
الأهواء، وفيه قال النبي ﷺ: «من
فارق الدنيا مخلصاً لله تعالى مطيعاً له
لقى الله وهو عنه راضٍ»، ثم وعد
بالمغفرة في صيغة الخبر عن أوصافه
تعالى.

٦ - ٧ تفسير قوله عز وجل:
أمر رسول الله ﷺ في هذه الآية -
بعد الأمر بقتال المشركين - بأن
يكون متى طَلَبَ مشرك عهداً يأمن به
حتى يسمع القرآن ويرى حال
الإسلام أَنْ يَغْطِيَهُ ذَلِكَ، وهي
الإجارة من الجوار. ثم أمر بتبليغه
المأمن إذا لم يرض بالإسلام ولم
يُهدِ إليه. وقال الحسن: هي محكمة
سنة إلى يوم القيامة، وقاله مجاهد.
وقال الضحاك، والسدي: هذا

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقِلُوا
الْمُشْرِكِينَ﴾ أمر بقتال
المشركين فخرج الأمر
بذلك بلفظ ﴿فَاتَّقِلُوا﴾ على
جهة التشجيع وتقوية
النفس، أي: هكذا يكون
أمركم معهم، وهذه الآية
نسخت كل موادة في
القرآن أو مهادنة وما جرى
مجرى ذلك، وهي على
ما ذكر مائة آية وأربع
عشرة آية، وقال
الضحاك، والسدي
وعطاء: هذه الآية
منسوخة بقوله تعالى:
﴿إِنَّمَا مَتَا بَعْدُ وَإِنَّمَا يَدَاكَ﴾،
وقالوا: لا يجوز قتل أسير

البتة صبراً، إما أَنْ يُمَنَّ عليه وإِذَا أَنْ
يُفَادَى، وقال قتادة، ومجاهد،
وغيرهما: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَتَا بَعْدُ
وَإِنَّمَا يَدَاكَ﴾ منسوخ بهذه الآية،
وقالوا: لا يجوز المُنُّ على أسير ولا
مفاداته، ولا شيء إلا القتل، وقال
ابن زيد: هما محكمتان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولم يفسر أكثر من هذا، وقوله هو
الصواب، والآيتان لا يشبه معنى
واحدة معنى الأخرى، وذلك أَنَّ هذه
الآية قوله تعالى: ﴿فَاتَّقِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾
﴿وَحَذَرُوا وَخَضَعُوا﴾ أفعال إنما تتمثل
مع المحارب المرسل المناضل،
وليس للأسير فيها ذكر ولا حكم،
وإذا أخذ الكافر خرج عن درجات
هذه الآية وانتقل إلى حكم الآية
الأخرى، وتلك الآية لا مدخل فيها
لغير الأسير، فقول ابن زيد هو

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
رُسُلِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا
اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ
﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا تَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا
وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَتْسِفُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَأُ أَيْتَابِ اللَّهِ فَكُنَّا قَلِيلًا فَفَصَدُوا
عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ
فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِذُوا مِنْكُمْ
فِي الدِّينِ وَتَفَصِّلِ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ
أَيْمَنْتُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا
أَيْمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا يَأْمَنُ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْا
﴿١٢﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا كُنْتُمْ أَتَيْتُمُوهُمْ وَهَمَّوْا
بِإِخْرَاجِ الرُّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ وَأُولَئِكَ مَرَّةٌ
أَخْشَوْهُمْ فَاَللَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

١٨٨

بِالْكَ﴾ لما كان العهد في معنى ما
يؤدى وبراً منه وكأنهم ينقضون
العهد. و﴿يُظَاهِرُوا﴾ معناه:
يعاونوا، فالظهر: المُعين، وأصله
من الظهر، كأن هذا يسند ظهره إلى
الآخر، والآخر كذلك، وقوله: ﴿إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ تنبيه على أَنَّ الوفاء
بالعهد من التقوى.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ
الْحُرْمَ﴾ الآية. الانسلاخ: خروج
الشيء عن الشيء المتلبس به،
كانسلاخ الشاة عن الجلد والرجل
عن الشياح، ومنه قوله تعالى:
﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّبَاَ﴾، فشبه انصرام
الأشهر بأسمائها وأحكامها من الزمن
بذلك. وقد تقدّم القول فيمن يجعل
له انقضاء الأشهر الحُرْمَ أجلاً، وما
المعنى بالأشهر الحُرْمَ بما أغنى عن
إعادته.

منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَأَقْضُوا﴾
الْمُشْرِكِينَ. وقال غيرهما: هذه الآية
إنما كان حكمها مدة الأربعة أشهر
التي ضربت لهم أجلاً.

وقوله سبحانه: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَمَ اللَّهِ﴾ يعني القرآن، وهي إضافة صفة
إلى موصوف، لا إضافة خلق إلى
خالق، والمعنى: وَيَقْضُوا أَحْكَامَهُ
وَأَمْرَهُ ونَوَاهِيَهُ، فذكر السماع
بالأذان إذ هو الطريق إلى الفهم،
وقد يجيء السماع في كلام العرب
مستعملاً بمعنى الفهم، كما تقول
لمن خاطبته فلم يقل منك: «أنت لم
تسمع قولي»، تريد: لم تفهمه،
وذلك في كتاب الله تعالى في عدة
مواضع. و﴿أَحَدٌ﴾ في هذه الآية
مرتفع بفعل يفسره قوله تعالى:
﴿أَسْتَجَارَكَ﴾، ويضعف فيه الابتداء
لولاية الفعل لـ ﴿لَنْ﴾. وقوله تعالى:
﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى هذا اللطف في
الإجارة والإسماع وتبليغ المأمن.
و﴿يَمْلَأُونَ﴾ نفى علمهم بمراشدهم
في اتباع محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بَكُونُ
لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية. لفظ
استفهام وهو على جهة التعجب
والاستبعاد، أي: على أي وجه
يكون للمشركين عهد وهم قد نقضوا
وجاهاوا بالتعدي؟ ثم استثنى من
عموم المشركين القوم الذين عاهدوا
عند المسجد الحرام، أي: في ناحيته
وجهته. وقال ابن عباس
رضي الله عنهما فيما روي عنه:
المعنى بهذا قريش. وقال السدي:
المعنى بنو جذيمة من الدليل. وقال
ابن إسحق: هي قبائل بني بكر،

كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة
التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين
قريش، فلم يكن نقض إلا قريش
وبنو الدليل من بني بكر، فأمر
المسلمون بإتمام العهد لمن لم يكن
نقض. وقال قوم: المعنى خزاعة،
قاله مجاهد، وهو مردود بإسلام
خزاعة عام الفتح، وقال بعض من
قال إنهم قريش: إن هذه الآية نزلت
فلم يستقيموا، بل نقضوا فنزل
تأجيلهم أربعة أشهر بعد ذلك،
وحكى الطبري هذا القول عن ابن
زيد، وهو ضعيف متناقض، لأن
قريشاً وقت الأذان بالأربعة أشهر
لم يكن منهم إلا مسلم، وذلك بعد
فتح مكة بسنة، وكذلك خزاعة، قاله
الطبري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَّقِينَ﴾ يريد به الموفين بالعهد من
المؤمنين، فلذلك جاء بلفظ معرف
للوفاء بالعهد متضمن للإيمان.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
بعد ﴿كَيْفَ﴾ في هذه الآية فعل
مقدر ولا بُدَّ، يدل عليه ما تقدم،
فيحسن أن يُقَدَّر: «كيف يكون لهم
عهد؟» ونحوه قول الشاعر:

وَحَبْرُ ثَمَانِي أَمَّا الْمَوْتُ فِي الْقُرَى
فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةً وَكثِيبًا؟
وفي ﴿كَيْفَ﴾ هنا تأكيد للاستيعاب
الذي في الأولى، و﴿لَا يَرْجُوا﴾
معناه: لا يراعوا ولا يحافظوا،
وأصل الارتقاب بالبصر، ومنه
الرقيب في المسير وغيره، ثم قيل
لكل من حافظ على شيء ورعاه:
راقبه وارتقبه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إِلَّا﴾، وقرأ

عكرمة مولى ابن عباس
رضي الله عنهما بياء بعد همزة
خفيفة اللام: ﴿إِيلاً﴾، وقرأت فرقة:
﴿أَلَا﴾ بفتح الهمزة. فأما من قرأ:
﴿إِلَّا﴾ فيجوز أن يراد به الله
عز وجل، قاله مجاهد، وأبو مجلز،
وهو اسمه بالسريانية وعُزْب، ومن
ذلك قول أبي بكر الصديق
رضي الله عنه حين سمع كلام
مسيلمة، فقال: هذا كلام لم يخرج
من إل. ويجوز أن يراد به العهد،
والعرب تقول للعهد والجلف
والجوار ونحو هذه المعاني: إلًا،
ومنه قول أبي جهل:

لِإِلٍّ عَلَيْنَا وَاجِبٌ لَا نُضِيفُهُ
مَتَيْنَ قُوَّةٍ غَيْرُ مُتَشَكِّبِ الْحَبْلِ
ويجوز أن يراد به القرابة، فإنها في
لغة العرب يقال لها: إل، ومنه قول
ابن مقبل:

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلُفُوا
قَطَطُوا الْإِلَّ وَأَغْرَأَقَ الرُّجْمُ
أنشده أبو عبيدة على القرابة،
وظاهره أنه في العهود، ومنه قول
حسان:

لَعَنُوكَ إِنْ إِلَكَ مِنْ قُرَيْشٍ
كَإِلِّ السَّقْبِ مِنْ زَالِ السُّعَامِ
وأما من قرأ: ﴿أَلَا﴾ بفتح الهمزة
فهو مصدر من فعل الال الذي هو
العهد، ومن قرأ: ﴿إِيلاً﴾ فيجوز أن
يراد به الله عز وجل، فإنه يقال: إل
وإيل، وفي البخاري: قال الله:
جِبْرِ، وميك، وسراف: عِبْدُ
السريانية، وإيل: اللّه عز وجل،
ويجوز أن يريد: ﴿إِلَّا﴾ المتقدم
فأبدل من أحد المثلين بياء، كما
فعلوا ذلك في قولهم: أمّا وأئما،

ومنه قول سعد بن قرط يهجو أمه:
يَا لَيْتَمَا أُمُّنَا شَالَتْ نَعَامَتَهَا
أَيْمًا إِلَى جَنَّةٍ أَيْمًا إِلَى نَارٍ
ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:
رَأَتْ رَجُلًا أَيْمًا إِذَا الشَّمْسُ عَارِضَتْ
فَيُضْحَى وَأَمَّا بِالْعَيْشِيِّ فَيُخْصَرُ
وقال الآخر:

لَا تُفِيدُوا أَبَالَكُمْ
إِنَّمَا لَنَا إِنَّمَا لَكُمْ
قال أبو الفتح: ويجوز أن يكون
مأخوذاً من آل يؤول إذا ساس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كما
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:
«قَدْ أُنَا وَإِلِيلٌ عَلَيْنَا»، فكان المعنى -
على هذا: لا يرقبون فيكم سياسة ولا
مدارة ولا ذمة، وقلبت الواو ياء
لسكونها والكسرة قبلها.

والذمة أيضاً بمعنى المتاب والجلف
والجوار، ونحوه قول الأصمعي:
«الذمة كل ما يجب أن يحفظ
ويحصى»، فمن رأى في (الإل) أنه
العهد جعلهما لفظتين مختلفتين لمعنى
واحد أو متقارب، ومن رأى (الإل)
لغير ذلك فهما لفظان لمعنيين.

و«وَيَأْتِي قُلُوبُهُمْ» معناه: تأبى أن
تدعن لما يقولونه بالأسنة، وأبى يأبى
شاذ، لا يحفظ فعل يفعل بفتح العين
في الماضي والمستقبل، وقد حكي
ركن يركن. وقوله: «وَأَكْثَرُهُمْ» يريد
به الكل، أو يريد استثناء من قضى له
بالإيمان، كل ذلك محتمل.

وقوله تعالى: «أَشْتَرَوْا بِكَيْبَتِ اللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا» الآية. اللازم من ألفاظ
هذه الآية أن هذه الطائفة الكافرة
الموصوفة بما تقدم لما تركت
آيات الله ودينه وآثرت الكفر وحالها

في بلادها، كل ذلك كالشراء والبيع
لما كان تركاً لما قد مكُنوا منه وأخذاً
لما يمكن نبذه، وهذه نزعة مالك
رحمه الله في منع اختيار المشتري
فيما تختلف آحاد جنسه ولا يجوز
التفاضل فيه. وقد تقدم ذكر ذلك في
سورة البقرة. وقوله: «فَصَدُّوا عَنْ
سَبِيلِهِ» يريد: صدوا أنفسهم
وغيرهم، ثم حكم عليهم بأن عملهم
سبى، و«أَشْتَرَوْا» في هذه الآية - إذ
لم يذكر مفعولها - يحتمل أن تكون
مضمنة كبش، فأما إذا قلت:
«سأني فعل زيد» فليس بتضمين
بوجه، وإن قدرت في هذه الآية
مفعولاً زال التضمين.

وروي أن أبا سفيان بن حرب جمع
بعض العرب على طعام، وندبهم
إلى وجه من وجوه النقض فأجابوا
إلى ذلك فنزلت الآية، وقال بعض
الناس: هذه في اليهود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا القول وإن كانت ألفاظ هذه
الآية تقتضيه فما قبلها وما بعدها يرده
ويتبرأ منه، ويختل أسلوب القول به.
وقوله تعالى: «لَا يَرْفِقُونَ» الآية.
وصف لهذه الطائفة المشتريه يضعف
ما ذهب إليه من قال إن قوله:
«أَشْتَرَوْا بِكَيْبَتِ اللَّهِ» هو في اليهود،
وقوله تعالى: «فِي مُؤْمِنٍ» إعلام بأن
عداوتهم إنما هي بحسب الإيمان
فقط. وقوله أولاً: «فِيكُمْ» كان
يحتمل أن يظن ظان أن ذلك للإحن
التي وقعت فزال هذا الاحتمال
بقوله: «فِي مُؤْمِنٍ»، ثم وصفهم
بالاعتداء والبداءة بالنقض للمعهد
والتعمق في الباطن.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
﴿تَاوَبُوا﴾: رجعوا عن حالهم،
والتوبة منهم تتضمن الإيمان، ثم
قرن تعالى بإيمانهم إقامة الصلاة
وإيتاء الزكاة، قال ابن عباس
رضي الله عنهما: حرمت هذه الآية
دماء أهل القبلة، وقال ابن زيد:
قرن الله الصلاة بالزكاة ولم يرض
بإحداهما دون الأخرى.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وعلى هذا مر أبو بكر رضي الله عنه
وقت الردة.

والأخوة في الدين هي أخوة
الإسلام، وجمع الأخ منها: إخوان،
وجمعه من النسب: إخوة قاله بعض
اللغويين، وقد قيل: إن الأخ من
النسب يجمع على إخوان أيضاً،
وذلك ظاهر من قوله تعالى: «وَلَا
عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ أَوْ
بُيُوتَ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتَ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ
بُيُوتَ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتَ أَخَوَاتِكُمْ»،
وبين ذلك قوله تعالى في آخر الآية:
«أَوْ صَدِيقَكُمْ»، وكذلك قوله في
هذه السورة: «فَقَدْ لَانَ كَانَ آبَاؤُكُمْ
وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ» الآية.
فأما الأخ من التوادف في كتاب الله:
«لَنَا أَلْفُؤُونَ إِخْوَةً». وقال
أبو هريرة في البخاري: «كان إخواني
من المهاجرين يشغلهم الصفق
بالأسواق»، فيصح من هذا كله أن
الأخ يجمع إخوة وإخواناً سواء كان
من نسب أو مودة. وتفصيل الآيات:
بيانها وإيضاحها.

وقوله تعالى: «وَلَنْ نَّكَفِّرَ عَنْهُمْ»
الآية. النكت: النقض، وأصله في كل
ما قبل ثم حُل، فهي في الإيمان

والعهد مستعارة، وقوله: ﴿وَلَعَلَّآ فِي
دِينِكُمْ﴾ أي بالاستنفاص والحرب
وغير ذلك مما يفعله لمشرك، وهذه
استعارة، ومنه قول النبي ﷺ حين أمر
أسامة: «إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ
طَعَّمْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ» الحديث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
ويليق هنا ذكر شيء من طعن الذمي
في الدين، فالمشهور من مذهب
مالك رحمه الله أنه إذا فعل شيئاً من
ذلك مثل تكذيب الشريعة وسب
النبي ﷺ ونحوه قُتِل، وقيل: إذا
كفر وأعلن بما هو معهود من مُعتقده
وكُفِّره أذْب على الإعلان وترك، وإذا
كفر بما ليس من معهود كفره كالسب
ونحوه قُتِل، وقال أبو حنيفة في
هذا: إنه يُسْتَأَب، واختلف إذا سب
الذمي النبي ﷺ ثم أسلم تقية القتل،
فالمشهور من المذهب أنه يُترك،
وقد قال ﷺ: «الإسلام يَجِبُ ما
قبله» وفي «العتبية» أنه يقتل ولا
يكون أحسن حالاً من المسلم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَنَلَوُا أَيَّ رُؤُوسِهِمْ وَأَعْيَانِهِمُ الَّذِينَ يَقُودُونَ النَّاسَ إِلَيْهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: المراد بهذا أبو جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وغيرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا - إن لم يتأول أنه ذكرهم على جهة المثال - ضعيف، لأن الآية نزلت بعد بدر بكثير، وروي عن حذيفة أنه قال: لم يجيء هؤلاء بغد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
يريد : لم ينقضوا فهم يحيون أبداً
ويقاتلون ، وأصوب ما في هذا أن
يقال : إنه لا يُعنى بها مُعَيَّن ، وإنما

وقع الأمر بقتال أئمة
النكاثين بالعهد من الكفرة
إلى يوم القيامة دون
تعيين، واقتضت حال
كفار العرب ومحاربي
رسول الله ﷺ أن تكون
الإشارة إليهم أولاً بقوله:
﴿أَيُّمَةُ الْكُفَرِ﴾، وهم
حصلوا حيثنذ تحت اللفظة
إذ الذي يتولى قتال
النبي ﷺ والدفع في صدر
شريعتهم هو إمام من يكفر
بذلك الشرع إلى يوم
القيامة، ثم تأتي في كل
جيل من الكفار أئمة
خاصة بجيل جيل.

وقرأ نافع، وابن كثير،
وأبو عمرو: ﴿أَيْمَةَ﴾ بهمهمزة
وبعدها ياء مكسورة. وقد
نافع مدُّ الهمزة، وروى عنه
أويس ﴿أَيْمَةً﴾ بهمزتين،
﴿أَيْمَةَ﴾ وزنها أَفْعِلَةٌ جَدَّةٌ
كعمامٍ وأغيدة، نقلت حمزة
إلى الهمزة التي هي فاءُ
وَأَذْغَمَتِ الميم في الميمِ
وقلبت الهمزة ياءً لانه
ولا اجتماع همزتين من كلمتين
وقرأ عاصم، وابن عامر،
والكسائي ﴿أَيْمَةً﴾ والتعالي
إلا أنهم لم يقلبوا الهمزة
المُسَبَّيْ عن نافع: ﴿أَيْمَةً﴾
ممدودة، وقرأ هشام عن
بمَدَّةٍ بين الهمزتين.

وقرأ الناس الجَم الغفير: ﴿لَا أَيْتَنَ لَهُمْ﴾ على جمع يمين، وليس المراد نفى الأَيْتَانِ جملة، وإنما المعنى: لا

قَاتِلُوهُمْ يَعِدُ بِهِمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيُسْفُكُ دُورَهُمْ قَوْمٌ مُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾ وَيَذْهَبُ
عِظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٦﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا أَنْ لَمْ يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
مَعَكُمْ وَأَنْتُمْ تَخْلَوْنَ دُونَ اللَّهِ وَلَا رَسُولَهُ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ
وَلِجَمَةِ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
أَنْ يَقْرَأُوا مُسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ
أُولَئِكَ حِطَّتْ عَنْهُمْ فِي النَّارِ وَهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٨﴾
لَمَّا يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمْرِ بَالِغٍ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَأْ لِلَّهِ فَتَقَى
أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُنْتَدِينَ ﴿١٩﴾ أَجَعَلْتُمْ سِفَايَةَ
الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَتَّبِعُونَ عِندَ اللَّهِ وَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَالِمُونَ ﴿٢١﴾

أَيْمَانُ لَهُمْ يُؤَقَىٰ بِهَا وَبَيَّرَ، وهذا المعنى يشبه الآية. وقرأ الحسن، وعطاء، وابن عامر وحده من السبعة: ﴿لَا إِيمَانَ لَهُمْ﴾ وهذا يحتمل وجهين، أحدهما: لا تصديق، قال أبو علي: وهذا غير قوي لأنه تكرير، وذلك أنه وصف أئمة الكفر بأنهم لا إيمان لهم، فالوجه في كسر الألف أنه مصدر من آمنه إيماناً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْهَىٰ النَّاسَ عَنْ زِينَتِهِمْ وَأَعْلَىٰ مِنْهَا الذِّمَّةُ﴾، فالمعنى أنهم لا يؤمنون كما يؤمن أهل الذمة الكتابيون، إذ المشركون لم يكن لهم إلا الإسلام أو السيف. قال أبو حاتم: فسر الحسن قراءته: لا إسلام لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والتركيز الذي فرّ أبو علي منه متجه
لأنه بيان المبهم الذي يوجب قتلهم.
﴿١٣﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:
قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

عرض وتحضيض، وقوله: ﴿وَهَكَوْا﴾ بإخراج الرُّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَذْكَ مَرَّةً قال الحسن بن أبي الحسن: المراد: من المدينة، وهذا يستقيم كغزوة أحد والأحزاب وغيرهما، وقال السدي: المراد: من مكة، فهذا على أن يكون المعنى: هموا وفعلوا، أو على أن يقال: هموا بإخراجه بأيديهم فلم يصلوا إلى ذلك، بل خرج بأمر الله عز وجل، وهذا يجري مع إنكار النبي ﷺ على أبي سفيان بن الحارث قوله:

وَرَزَنِي لَلْهِ مِنْ
طَرَدْتُ كُلَّ مُطَرَّدٍ
ولا ينسب الإخراج إليهم إلا إذا كان الكلام في طريق تذنيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْرَأْ أَفْوَاهُ بِمَا أَكْثَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿بَيْنَ قَرَيْكَ أَلَيَّْ أَخْرَجْتُكَ﴾، والأول على أن ما فعلوا به من أسباب الإخراج هو الإخراج.

وقوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قيل: يراد أفعالهم بمكة بالنبي ﷺ وبالمؤمنين، وقال مجاهد، يراد به ما بدأت به قريش من معونة بني بكر حلفائهم على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، فكان هذا بدء النقص، وقال الطبري: يعني فعلهم يوم بدر. وقوله: ﴿أَخْشَوْهُمْ﴾ استفهام على معنى التقرير والتوبيخ، وقوله: ﴿فَاللَّهُ﴾ مرتفع بالابتداء، و﴿أَخْشَوْهُمْ﴾ خبره، و﴿أَنْ تَخْشَوْهُمْ﴾ بدل من اسم الله، بدل اشتغال، أو في موضع نصب على إسقاط خافض تقديره: بأن تخشوه، ويجوز أن يكون ﴿اللَّهُ﴾

ابتداء، و﴿أَخْشَوْهُمْ﴾ ابتداء ثان، و﴿أَنْ تَخْشَوْهُمْ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأول، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ كما تقول: افعل كذا إن كنت رجلاً، أي: رجلاً كاملاً، فهذا معناه: إن كنتم مؤمنين كاملي الإيمان، لأن إيمانهم كان قد استقر.

وقوله تعالى: ﴿فَتَلَوُّهُمُ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ الآية. قررت الآيات قبلها أفعال الكفرة، ثم حَضُّض على القتال مقترناً بذنوبهم لتنبعث الحمية مع ذلك، ثم جزم الأمر بقتالهم في هذه الآية مقترناً بوعده وكيد يتضمن النصرة عليهم والظفر بهم، وقوله: ﴿يَعَذِّبُهُمُ﴾ معناه: بالقتل والأسر وذلك كله عذاب، ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾ معناه: يذلهم على ذنوبهم، يقال: خَزَى الرجل يخزي خزياً إذا ذل من حيث وقع في عار، وأخزاه غيره، وخَزِي يَخْزِي خزاية إذا استحيا. وأما قوله: ﴿وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الكلام يحتمل أن يريد جماعة المؤمنين، لأن كل ما يهد من الكفر هو شفاء من هم صدور المؤمنين، ويحتمل أن يريد تخصيص قوم من المؤمنين، وروي أنهم خزاعة، قاله مجاهد والسدي، ووجه تخصيصهم أنهم الذين نقض فيهم العهد ونالتهم الحرب، وكان يومئذ في خزاعة مؤمنون كثير، ويقضي ذلك قول الخزاعي المستنصر بالنبي ﷺ:

.....
ثُمَّتْ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يدا

وفي آخر الرجز يقول:

.....
وَقُتِلُونَا رُكْعاً وَسُجْداً
وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ على إسناد الفعل إلى الله عز وجل. وقرأت فرقة: ﴿وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ على إسناد الفعل إلى الغيظ. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيُتَوَّبُ﴾ بالرفع على القطع مما قبله، والمعنى أن الآية استأنفت الخبر بأنه قد يتوب على بعض هؤلاء الكفرة الذين أمر بقتالهم، قال أبو الفتح: وهذا أمر موجود سواء قوتلوا أو لم يقاتلوا، فلا وجه لإدخال التوبة في جواب الشرط الذي في ﴿فَتَلَوُّهُمُ﴾ على قراءة النصب، وإنما الوجه الرفع على الاستئناف والقطع. وقرأ الأعرج، وابن أبي إسحق، وعيسى الثقفي، وعمرو بن عبيد، وأبو عمرو - فيما روي عنه -: ﴿وَيُتَوَّبُ﴾ بالنصب على تقدير: «وأن يتوب»، ويتوجه ذلك عندي إذا ذهبت إلى أن التوبة إنما يراد بها هنا أن قتل الكافرين والجهاد في سبيل الله هو توبة لكم أيها المؤمنون وكمال لإيمانكم، فتدخل التوبة - على هذا في شرط القتال. و﴿عَلَيْكُمْ حِكْمٌ﴾ صفتان نسبتُهُمَا إلى الآية واضحة.

١٦ - تفسير قوله عز وجل: ﴿أَرْ﴾ في هذه الآية ليست المعادلة، وإنما هي المتوسط في الكلام، وهي عند سيبويه التي تتضمن إضراباً عن اللفظ الأول لا معناه، واستفهاماً، فهي تُشَدُّ مَسْدُ «بَلْ وَأَلْفَ اسْتِفْهَامٍ»، وهي التي في

قولهم: «إِنَّهَا لِإِبْلِمْ أَمْ شَاءَ»، التقدير: بل أي شيء؟ وقوله: «أَنْ تَتَزَكَّوْا» يَسُدُّ عند سبويه مَسَدَ مفعولي (حَسِبَ). وقال المبرد: «أَنْ» وما بعدها مفعول أول، والثاني محذوف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأن تقديره: مُهْمَلِينَ، أو سُدِّي، ونحو ذلك.

وقوله تعالى: «وَلَمَّا» هي (ما) دخلت على (لم) وفيها مبالغة، ومعنى الآية: أظننتم أن تتركوا دون اختبار وامتحان؟ فـ «وَلَمَّا» في هذه الآية بمنزلة قول الشاعر:

بَأْيَدِي رَجَالٍ لَمْ يَشِيمُوا سِيُوفَهُمْ
وَلَمْ تَكُنْشِرِ الْقَتْلَى بِهَا حِينَ سَلَبَ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمراد بقوله: «وَلَمَّا بَقَرُ» لما يعلم ذلك موجوداً كما علمه أولاً بشرط الوجود، ولما يظهر فعلكم واكتسابكم الذي يقع عليه الثواب والعقاب، ففي العبارة تجوز، وإلا فحتم أنه قد علم الله في الأزل الذين وصفهم بهذه الصفة مشروطاً وجودهم، وليس يحدث له علم تبارك وتعالى عن ذلك.

«وَلِيَبَيِّنَ» معناه: بطلانة ودخيلة، قال عبادة بن صَفْوَانَ الثَّوْرِي:

وَلَا يَجُهِمُ فِي كُلِّ مَبْدِيٍّ وَمَخْضِرٍ
إِلَى كُلِّ مَنْ يُزْجَى وَمَنْ يُتَخَوَّفُ
وهو مأخوذ من الولوج، فالمعنى: أمراً باطناً مما ينكره الحق.

وهذه الآية مخاطبة للمؤمنين معناها أنه لا بد من اختبارهم، فهي كقوله

تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْمَسْجِدَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ»، وكقوله: «وَالْعَرَّةُ» أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا «آمَنَّا» وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ. وفي هذه الآية طعن على المنافقين الذين اتخذوا الولايع لا سيما عندما فُرض القتال. وقرأ جمهور الناس: «وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَكْمُلُونَ» بالتاء على المخاطبة، وقرأ الحسن، ويعقوب - في رواية رئيس - وسلام بالياء على الحكاية عن الغائب.

وقوله تعالى: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ» الآية. معناه: ما كان للمشركين بحق الواجب أن يعمرُوا، وهذا هو الذي نفى الله عز وجل، وإلا فقد عمروا مساجده قديماً وحديثاً وتغلباً وظُلماً. وقرأ حماد بن أبي سلمة عن ابن كثير، والجحدري: «مَسْجِدَ اللَّهِ» بالإفراد في الموضوعين. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، والأعرج، وشيبة، وأبو جعفر، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: «مَسْجِدَ» بالجمع في الموضوعين، وقرأ ابن كثير أيضاً، وأبو عمرو: «مَسْجِدَ» بالإفراد في هذا الموضوع الأول، و«مَسْجِدَ» بالجمع في الثاني، كأنه ذكر أولاً الذي فيه النازلة ذلك الوقت، ثم عمم المساجد ثانياً في الحكم الثابت ما بقيت الدنيا، ولفظ الجمع يقتضي عموم المساجد كلها، ويحتمل أن يراد به المسجد الحرام في الموضوعين وحده على أن يقدر كل موضع سجود فيه مسجداً ثم

يُجمع، ولفظ الإفراد في الموضوعين يقتضي خصوص المسجد الحرام وحده، ويحتمل أن يراد به الجنس فيعم المساجد كلها، ولا يمنع من ذلك إضافته كما ذهب إليه من لا بصر له، وقال أبو علي: الثاني في هذه القراءة يراد به الأول وسائر المساجد كلها حكمها حكم المسجد الحرام.

وقوله تعالى: «شَهِيدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ» إشارة إلى حالهم، إذ أقوالهم وأفعالهم تقتضي الإقرار بالكفر والتحلي به، وقيل: الإشارة إلى قولهم في التلبية: «إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك» ونحو ذلك، وحكى الطبري عن السدي أنه قال: الإشارة إلى أن النصراني كان يقول: أنا نصراني، واليهودي كذلك، والوثني يقول: «أنا مشرك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لم يحفظ. ثم حكم الله عليهم بأن أعمالهم قد خَبِطَتْ، أي: بطلت، ولا أحفظها تستعمل إلا في السعي والعمل، ويشبه أن يكون من الحبط وهو داء قاتل يأخذ السائمة إذا رَعَتْ وبيلاً، وهو الذي في قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ مِمَّا بَنِيَتِ الرَّبِيعَ مَا يَقْتُلُ حَبْطاً أَوْ يَلِمْ» الحديث.

١٨ - ١٩ تفسير قوله عز وجل: المعنى في هذه الآية: إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجد الله بالحق لهم والواجب، ولفظ هذه الآية الخبر وفي ضمنها أمر المؤمنين بعمارة المساجد، وقد قال بعض السلف: إذا رأيتم الرجل يعمر المساجد فحسبوا به الظن،

وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»، وقد تقدم القول في قراءة «سَجْدَ». وقوله: «وَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ» يتضمن الإيمان بالرسول إذ لا يتلقى ذلك إلا منه، وقوله: «وَرَدَّ يَخْشَى إِلَّا اللَّهَ» حذف الألف من (يخشى) للجزم، قال سيبويه: «واعلم أن الأخير إذا كان يسكن في الرفع حذف في الجزم لئلا يكون الجزم بمنزلة الرفع»، ويريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، وهذه مرتبة العدل بين الناس، ولا محالة أن الإنسان يخشى غيره ويخشى المحاذير الدنيوية، ويشفي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه، و«عَسَى» من الله واجبة حيثما وقعت في القرآن، ولم يَرُجَّ الله بالاعتداء إلا من حصل في هذه المرتبة العظيمة من العدالة، ففي هذا حُصِّلَ بليغ على التقوى.

وقرأ الجمهور: «أَجْمَلْتُمْ سَقَاةً» لِحَاجَةِ رَمَاةِ السَّجْدِ لِرَأْيِهِ، وقرأ ابن الزبير، وأبو وجزة، ومحمد بن علي، وأبو جعفر القاري: «أَجْمَلْتُمْ سَقَاةَ الْحَاجِّ وَعِمْرَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»، وقرأها كذلك ابن جبير إلا أنه نصب «المسجد» على إرادة التنوين في «عِمْرَةَ». وقرأ الضحاك، وأبو وجزة، وأبو جعفر القاري «سَقَاةً» بضم السين، و«عِمْرَةَ» فأما من قرأ «سَقَاةً» و«رَمَاةً» ففي الكلام عنده محذوف إما في

أوله وإما في آخره، فإما أن يُقَدَّر: أجمَلْتُم أَمَل سَقَاة، وإما أن يُقَدَّر: كفعل من آمن بالله. وأما من قرأ: «سَقَاةً» و«عِمْرَةَ» فنمط قراءته مستو. وأما قراءة الضحاك فجمع ساقٍ إلا أنه ضم أوله، كما قالوا: عرق وعراق وطرير وطرور، وكان قياسه أن يقال: سَقَاة وإن أثبت كما أثبت من الجموع (حجارة) وغيره.

وسقاية الحاج كانت في بني هاشم، وكان العباس يتولاها، قال الحسن: ولما نزلت هذه الآية قال العباس: ما أراني إلا أترك السقاية، فقال النبي ﷺ: «أَكْبِهْمَا هَلِيهَا فَإِنَّمَا لَكُمْ بَيْعُهَا». وعمارة المسجد، قيل: هي حفظه من الظلم فيه أو يقال مُبْعَرَأ، وكان ذلك إلى العباس. وقيل: هي السدانة لخدمة البيت خاصة، وكانت في بني عبد الدار، وكان يتولاها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة - واسم أبي طلحة عبدالله بن عبد العزى بن عبد الدار - وشيبة بن عثمان بن أبي طلحة المذكور. هذان هما اللذان دفع إليهما رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة في ثاني يوم الفتح بعد أن طلبه العباس وعلي رضي الله عنهما، وقال ﷺ لعثمان وشيبة: «يوم وفاء ويزر، مخلوها مخلدة ثلاثة لا ينازعكموها إلا ظالم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني السدانة. واختلف الناس في سبب نزول هذه الآية - فقبل: إن كفار قريش قالوا

للبيهود: إنا نسقي الحجاج ونعمر البيت، أفتنح أفضل أم محمد ﷺ ودينه؟ فقالت لهم أحبار اليهود: بل أنتم، فنزلت الآية في ذلك. وقيل: إن الكفار افتخروا بهذه الآية فنزلت الآية في ذلك. وأسند الطبري إلى النعمان بن بشير أنه قال: كنت عند منبر النبي ﷺ في نفر من أصحابه، فقال أحدهم: ما أتمنى بعد الإسلام إلا أن أكون ساقى الحجاج، وقال الآخر: إلا أن أكون خادم البيت وعامره، وقال الثالث: إلا أن أكون مجاهداً في سبيل الله، فسمعهم عمر بن الخطاب فقال: اسكتوا حتى أدخل على النبي ﷺ فأستفتيه، فدخل فاستفتاه، فنزلت الآية في ذلك. وقال ابن عباس، والضحاك: إن المسلمين عيروا أسرى بدر بالكفر، فقال العباس: بل نحن سقاة الحاج وعمرة البيت، فنزلت الآية في ذلك، وقال مجاهد: أبيعوا بالهجرة فقال العباس: أنا أسقي الحاج، وقال عثمان بن طلحة: أنا حاجب للكعبة فلا نهجر، فنزلت «أَجْمَلْتُمْ سَقَاةَ الْحَاجِّ» إلى قوله: «حَقَّ يَأْتِي اللَّهَ بِأَمْرِهِ»، قال مجاهد: وهذا كله قبل فتح مكة. وقال محمد بن كعب: إن العباس، وعلياً، وعثمان بن طلحة تفاخروا، فقال العباس: أنا ساقى الحاج، وقال عثمان: أنا عامر البيت ولو شئت بث فيه، وقال علي: أنا صاحب جهاد الكفار مع النبي ﷺ، والذي آمنت وهاجرت قديماً، فنزلت الآية في ذلك.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما حكم الله تعالى في الآية المتقدمة بأن الصنفين لا يستويان بين ذلك في هذه الآية الأخيرة وأوضحه، فعُدَّ الإيمان، والهجرة، والجهاد بالمال والنفس، وحكم أن أهل هذه الخصال أعظم درجة عند الله من جميع الخلق، ثم حكم لهم بالفوز برحمته ورضوانه، والفوز: بلوغ البُغْيَة، إما في نيل رغبة، أو نجاة من مهلكة. وينظر إلى معنى هذه الآية الحديث الذي جاء «دعوا لي أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدكم ولا يُصِيفه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن أصحاب هذه الخصال على سيوفهم اتبى الإسلام، وهم ردُّوا الناس إلى الشرع.

وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ الآية. هذه آية وعد. وقراءة الناس: ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ بضم الباء وكسر الشين المشددة. وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف، وحמיד بن هلال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ بفتح الباء وسكون الباء وضم الشين خفيفة. وأسند الطبري إلى جابر بن عبد الله أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَهْطَيْتُكُمْ أَفْضَلَ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: رِضْوَانِي»، وفي البخاري في كتاب السنة منه: «فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا».

وقرأ الجمهور: «وَرِضْوَانٌ» بكسر الراء، وقرأ عاصم، وعمره: «وَرِضْوَانٌ» بضم الراء، وقرأ

الأعمش بضم الراء والضاد جميعاً، قال أبو حاتم: لا يجوز هذا.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ﴾ الآية. ظاهر هذه المخاطبة أنها لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة، وزَوَتْ فرقة أن هذه الآية إنما نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفر، فالمخاطبة - على هذا - إنما هي للمؤمنين الذين كانوا في مكة وغيرها من بلاد العرب، خطبوا بالآيَاتِ

والإخوة فيكونون لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفرة. ولم يذكر الأبناء في هذه الآية إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التبع للأباء. و(الإخوان) في هذه الآية جمع أخ النسب. وكذلك هي في قوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتَ إِخْوَانِكُمْ﴾.

وقرأ عيسى بن عمر: «أَنْ أَسْتَحْبُوا» بفتح الألف من «أَنْ»، وقرأ الجمهور: «إِنْ» بكسر الألف على الشرط، و«أَسْتَحْبُوا» متضمنة معنى: فَضَلُوا وَأَتَرُوا، ولذلك تعدت بـ«عَلَى».

ثم حكم الله تعالى بأن مَنْ والا هم وأتبعهم في أغراضهم فإنه ظالم، أي واضح للشيء غير موضعه، وهذا ظلم المعصية لا ظلم الكفر.

﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تقوي مذهب من رأى أن

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَّعَتْ لَهُمْ فِيهَا نِعَمٌ مُبِينَةٌ ﴿٢٠﴾ خَلِيدٌ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢١﴾ يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحْبُوا لَكَ فَرَعَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتُ تَبْتَاعُونَ كَسَادًا هُمْ وَمَسْكَنُهُمْ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُدْرِكُ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٣﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾

١٩٠

هذه والتي قبلها إنما مقصودها الحض على الهجرة، وفي ضمن قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وعيد بين. وقوله: ﴿يَأْتِيَا﴾ قال الحسن: الإشارة إلى عذاب أو عقوبة من الله، وقال مجاهد: الإشارة إلى فتح مكة، والمعنى: فإذا جاء الله بأمره فلم تُسَلِّفُوا ما يكون لكم به أجر ومكانة في الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر الأبناء في الآية لما جَلَبَتْ ذَكَرَهُمُ المحبة، والأبناء صدر في المحبة، وليسوا كذلك في أن يتبعهم آبائهم في آرائهم كما في الآية المتقدمة. وقرأ جمهور الناس: «وَيَشِيرُكُمْ»، وقرأ عاصم وحده بخلاف عنه، وأبو رجاء، وأبو عبد الرحمن، وعصمة: «وَعَشِيرَاتُكُمْ»، وحسن هذا الجمع

قال حين رأى جملة اثني عشر ألفاً: ﴿لَنْ نَغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ﴾، ورؤي أن رجلاً من أصحابه قالها فأراد الله إظهار العجز فظهر حين فر الناس. ثم عطف القدر بنصره.

وقوله تعالى: ﴿وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، أي: بقدر ما هي رَحْبَةٌ واسعة لشدة الحال وصعوبتها، ف﴿مَا﴾ مصدرية. وقوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُذْرِبًا﴾ يريد فرار الناس عن النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واختصار هذه القصة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة وكان في عشرة آلاف من أصحابه وانضاف إليه ألفان من الطلقاء فصار في اثني عشر ألفاً سمع بذلك كفار العرب فشق عليهم، فجمعت له هوازن وألفائهما وعليهم مالك بن عوف النصري، وثقيف وعليهم عبد ياليل بن عمرو، وانضاف إليهم أخلاط من الناس حتى كانوا ثلاثين ألفاً، فخرج إليهم رسول الله ﷺ حتى اجتمعوا بِحُثَيْنَ، فلما تَصَافَّ الناس حمل المشركون من جوانب الوادي فانهزم المسلمون، قال قتادة: ويقال: إن الطلقاء من أهل مكة فروا وقصدوا إلقاء الهزيمة في المسلمين، وكان رسول الله ﷺ على بغلة شهباء، وقال أبو عبد الرحمن الفهري: كنت مع النبي ﷺ يومئذ، وكان على فرس قد اكتنفه العباس عمه وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وبين يديه أيمن بن أم أيمن - وثم قُتل رحمه الله - فلما رأى رسول الله ﷺ شدة الحال نزل عن

تسمعي الحن؟ قال: نعم، في هذا الحرف، وذكر له رفع ﴿أَحَبَّ﴾ ففاه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك خارج في العربية على أن يضمر في كان الأمر والشأن، ولم يُقرأ بذلك. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ عموم لفظ يراد به الخصوص فيمن يوافي على فسقه، أو عموم مطلق على أنه لا هداية من حيث الفسق.

تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة لجميع المؤمنين، يعذد الله نعمه عليهم. ﴿مَوَاطِنَ﴾ جمع موطن بكسر الطاء، والموطن: موضع الإقامة أو الحلول لأنه أول الإقامة، والمَوَاطِن المشار إليها بدر، والخنديق، والنضير، وقريظة، ولم يصرف ﴿مَوَاطِنَ﴾ لأنه جمع ونهاية جمع. ﴿وَيَوْمَ﴾ عطف على موضع قوله: ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾ أو على لفظه بتقدير: ﴿وفي يوم﴾، فأنحذف حرف الخفض. ﴿وَحُثَيْنَ﴾ وإد بين مكة والطائف قريب من ذي المجاز، وصُرف حين أريد به الموضع والمكان، ولو أريد به البقعة لم يصرف، كما قال الشاعر:

نَصَرُوا نَيْبَهُمْ وَشَدُّوا أَرْزَهُ
بِحُثَيْنَ يَوْمَ تَوَاكَلِ الْأَبْطَالِ
وقوله تعالى: ﴿إِذْ أُنْجِيتُمْ كَدُّنَكُمْ﴾، روي أن رسول الله ﷺ

شَرَّيْتُوهُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَءُوا الْمُسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَاهِمَهُ هَكَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ فَتَلَوْنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيَ أُنِ اللَّهُ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَتَلَاهُمُ اللَّهُ أَنْفَ يُؤْفِكُونَ ﴿٢٨﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَهَنَهُمْ أَرْكَبًا بَيْنَ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٩﴾

إذ لكل أحد عشيرة تختص به، ويُحسن الأفراد أن أبا الحسن الأخفش قال: إنما تجمع العرب «عشائر» ولا تكاد تقول «عشيرات». ﴿أَفْوَاهِهِمْ﴾ معناه: اكتسبتموها، وأصل الاقتراف والمقارفة: مقارنة الشيء. ﴿وَجَعَلَهُمْ تَحِشُونَ كَسَادَهَا﴾ بيِّن في أنواع المال، وقال ابن المبارك: الإشارة إلى البنات اللواتي لا يتزوجن ولا يوجد لهن خاطب ﴿وَمَسْكِنَ﴾ جمع مسكن بفتح الكاف، مفعِل من السَكْنَى، وما كان من هذا معتل الفاء فإنما يأتي على مفعِل بكسر العين كموعِد وموطين، والمساكن: القصور والدور، و﴿أَحَبَّ﴾ خبر «كَانَ»، وكان الحجاج بن يوسف يقرؤها «أَحَبَّ» بالرفع، وله في ذلك خبر مع يحيى بن يَعْمَر، سأله الحجاج: هل

بغلته إلى الأرض - قاله البراء بن عازب - واستنصر الله عز وجل فأخذ قبضة من تراب وحصى فرمى بها وجوه الكفار وقال: «شاهت الوجوه»، وقال أبو عبد الرحمن: تناول من فرسه فأخذ قبضة التراب، ونزلت الملائكة لنصره، ونادى رسول الله ﷺ: «يا للأَنْصار»، وأمر رسول الله ﷺ العباس أن ينادي: أين أصحاب الشجرة؟ أين أصحاب سورة البقرة؟ فرجع الناس غُفْقاً واحداً وانهمز المشركون، قال يَغْلَى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم عن آبائهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا دخل في عينيه من ذلك التراب. واستيعاب هذه القصة في كتاب السير.

وظاهر كلام النحاس أن رسول الله ﷺ كان في أربعة عشر ألفاً، وهذا غلط.

وقوله: «مُنِيرِينَ» نصب علي الحال المؤكدة كقوله: «وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا»، والمؤكدة هي التي يدل ما قبلها عليها كدلالة التولي على الإِدبار.

وقوله تعالى: «ثُمَّ أَرْزَلْنَا اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمُ» الآية. «ثُمَّ» هاهنا على بابها من الترتيب. والسكينة: النصر الذي سكنت إليه ومعه النفوس والحال. والإشارة بالمؤمنين إلى الأنصار على ما زوي، وذلك أن رسول الله ﷺ نادى في ذلك اليوم: «يا معشر الأنصار»، فانصرفوا وهم ردوا الهزيمة. والجنود: الملائكة والرعب. قال أبو حاجر يزيد ابن عامر: «كان في أجوافنا مثل ضربة

الحجر في الطست من الرعب». وعذاب الذين كفروا هو القتل الذي استحر فيهم والأسر الذي تمكن في ذراريهم، وكان مالك بن عوف التُّصْرِي قد أخرج الناس بالعيال والذُراري ليقاتلوا عليها فخطأه في ذلك دُرَيْد بن الصِّمَّة وقال لمالك بن عوف: راعي ضأن، وهل يرُدُّ المنهزم شيء؟ وفي ذلك اليوم قُتل دُرَيْد بن الصِّمَّة القتلة المشهورة، قتله ربيعة بن رُفَيْع بن أُمَيَّان السلمي، ويقال له ابن الدُّعْنَة.

وقوله تعالى: «ثُمَّ يَرْوِ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» إعلام بأن من أسلم وتاب من الكفار الذين نجوا ذلك اليوم فإنهم مقبولون مسلمون موعودون بالخفران والرحمة.

﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال قتادة، ومغمر بن راشد، وغيرهما: صفة المشرك بالنجس إنما كانت لأنه جُئِب، إذ غسله من الجنابة ليس بغسل. وقال ابن عباس وغيره: بل معنى الشرك هو الذي نجسه كنجاسة الخمر، قال الحسن البصري: من صافح مشركاً فليتوضأ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فمن قال: «بسبب الجنابة» أوجب الغسل على من يُسلم من المشركين، ومن قال بالقول الآخر لم يوجب الغسل، والمذهب كله على القول بإيجاب الغسل إلا ابن عبد الحكم فإنه قال: ليس بواجب.

وقرأ أبو حيوة: «يُجَسَّن» بكسر النون وسكون الجيم.

ونص الله تعالى في هذه الآية على المشركين وعلى المسجد الحرام، ففاس مالك رحمه الله وغيره جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم على المشركين، وقاس سائر المساجد على المسجد الحرام، ومنع من دخول الجميع في جميع المساجد، وكذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله، ونزع في كتابه بهذه الآية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: «فِي بُيُوتٍ أُذُنَ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ»، وقال الشافعي: هي عامة في الكفار خاصة في المسجد الحرام، فأباح دخول اليهود والنصارى والثنيين في سائر المساجد، ومن حُجَّته حديث رُبِط ثُمَامَةُ بن أَنَال، وقال أبو حنيفة: هي خاصة في عبدة الأوثان وفي المسجد الحرام، فأباح دخول اليهود والنصارى في المسجد الحرام وغيره، ودخول عبدة الأوثان في سائر المساجد، وقال عطاء: وصف المسجد الحرام ومنع القُرْب يقتضي منعهم من جميع الحرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوة قوله: «فَلَا يَقْرَبُوا» تقتضي أمر المسلمين بمنعهم، وقال جابر بن عبد الله، وقاتدة: لا يقرب المسجد الحرام مشرك إلا أن يكون صاحب جزية أو عبداً لمسلم، وعبدة الأوثان مشركون بإجماع. واختلف في أهل الكتاب - فمذهب عبد الله بن عمر وغيره أنهم مشركون، وقال جمهور أهل العلم: ليسوا بمشركين، وفائدة هذا الخلاف تَبَيَّن في فقه مناكحتهم وذبائحهم وغير ذلك.

وقوله تعالى: «يَمْدُ عَامِهِمْ هَكَذَا»

يريد: بعد عام تسع من الهجرة، وهو عام حُجَّ فيه أبو بكر بالناس وأذن عليٌّ بسورة براءة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً﴾ قال عمرو بن قائد: المعنى: ولِإِذْ خِفْتُمْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عَجْمَةٌ، والمعنى بارجُ بـ ﴿إِنْ﴾، وكان المسلمون لُثْمًا - مُنْعُ المشركون من الموسم وهم كانوا يجلبون الأطعمة والتجارات - قَذَفَ الشيطان في نفوسهم الخوف من الفقر، وقالوا: من أين نعيش؟ فوعدهم الله بأن يُغْنِيَهُمْ من فضله، قال الضحاك: ففتح عليهم باب أخذ الجزية من أهل الذُّمَّة بقوله: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُؤْتِمُّكَ سَيْرُهُمْ﴾. وقال عكرمة: أغناهم بإدراار المطر عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأسلمت العرب فتمادى حُجُّهم وتَجَرُّهم وأغنى الله من فضله بالجهاد والظهور على الأمم.

والعِيْلَةُ: الفقر، يقال: عال الرجل يعيل عيلةً إذا افتقر، قال الشاعر:

وَمَا يَذْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ

وَمَا يَذْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعْصِلُ

وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن

مسعود: ﴿عَائِلَةً﴾ وهو مصدر

كالقائلة من قال يقل، وكالعاقبة

والعافية، ويحتمل أن تكون نعتاً

لمحذوف تقديره: «حالا عائلة»،

وحكى الطبري أنه يقال: «عال

يعول» إذا افتقر.

﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

تضمنت هذه الآية قتال أهل الكتاب

من اليهود والنصارى حتى يقتلوا أو يُؤْذُوا الجزية، قال مجاهد: وعند نزول هذه الآية أخذ رسول الله ﷺ في غزو الروم، ومشى نحو تبوك، ومن جعل أهل الكتاب مشركين فهذه الآية عنده ناسخة بما فيها من أخذ الجزية لقوله تبارك وتعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، ونفى عنهم الإيمان بالله وباليوم الآخر من حيث تركوا شرع الإسلام الذي يجب عليهم الدخول فيه، فصار جميع ما لهم في الله عز وجل وفي البعث من تخيلات واعتقادات لا معنى لها، إذ تلقوها من غير طريقها، وأيضاً فلم تكن اعتقاداتهم مستقيمة، لأنهم تشعبوا وقالوا: عزيز ابن الله، والله ثالث ثلاثة، وغير ذلك. ولهم أيضاً في البعث آراء كثيرة، كشراء منازل الجنة من الرهبان، وقول اليهود في النار: نكون فيها أياماً بقَدْر، ونحو ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فبين ونص على مخالفتهم لمحمد ﷺ، وأما قوله: ﴿وَلَا يَذِثُونَ﴾ فمعناه: ولا يطيعون ويمتشلون، ومنه قول عائشة رضي الله عنها: ما عقلتُ أبوي إلا

وهما يدينان الدين، والدين في اللغة

لفظة مشتركة، وهي هاهنا:

الشرعية، وهي مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَسْتَلِفُونَ﴾، وأما

قوله: ﴿يَزِنُ الَّذِينَ أُوْتَوا الْكِتَابَ﴾

فنص في بني إسرائيل وفي الروم،

وأجمع الناس على ذلك. وأما

المجوس فقال ابن المنذر: لا أعلم

خلافاً في أن الجزية تؤخذ منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «سئوا

بهم سنة أهل الكتاب»، فقال كثير

من العلماء: معنى ذلك في أخذ

الجزية منهم، وليسوا أهل كتاب، فعلى هذا لم يتعد التشبيه إلى ذبائهم ومناكحهم، وهذا هو الذي ذكره ابن حبيب في «الواضحة».

وقال بعض العلماء: معناه: سئوا

بهم سنة أهل الكتاب إذ هم أهل

كتاب، فعلى هذا يتجه التشبيه في

ذبائهم وغيرها، والأول هو قول

مالك وجمهور أصحابه، وروي أنه

قد كان بعث في المجوس نبي اسمه

زرادشت، وأما مجوس العرب فقال

ابن وهب: لا تقبل منهم جزية

ولا بد من القتال أو الإسلام، وقال

سحنون، وابن القاسم، وأشهب:

تؤخذ الجزية من مجوس العرب

والأُمم كلها، وأما عُبْدَةُ الأوثان من

العرب فلم يستثن الله فيهم جزية،

ولا بقي منهم على الأرض بشر،

وقال ابن حبيب: وإنما لهم القتال أو

الإسلام، وهو قول أبي حنيفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويوجد لابن القاسم أن الجزية تؤخذ

منهم، وذلك أيضاً في «التفريع» لابن

الجلاب، وهو احتمال لا نص. وأما

أهل الكتاب من العرب فذهب مالك

رحمه الله إلى أن الجزية تؤخذ

منهم، وأشار إلى المنع من ذلك

أبو حنيفة. وأما السامرة والصابئة

فالجمهور على أنهم من اليهود

والنصارى تؤخذ منهم الجزية وتؤكل

ذبائحهم، وقالت فرقة: لا تؤكل

ذبائحهم وعلى هذا لا تؤخذ الجزية

منهم، ومنع بعضهم الذبيحة مع

إباحة أخذ الجزية منهم. وأما عبدة الأوثان والنيران وغير ذلك فجمهور العلماء على قبول الجزية منهم، وهو قول مالك في «المدونة»، وقال الشافعي، وأبو ثور: «لا تؤخذ الجزية إلا من اليهود والنصارى والمجوس فقط». ومذهب مالك رحمه الله أن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال البالغين الأحرار العقلاء، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة، ولا تضرب على الصبيان والنساء والمجانين، ولا تضرب على رهبان الديارات والصوامع المنقطعين، قال مالك في «الواضحة»: «وأما إن كانت قد ضربت عليهم ثم انقطعوا بعد ذلك فلا تسقط عنهم»، وأما رهبان الكنائس فتضرب عليهم، واختلف في الشيخ الفاني، ومن راعى أن علّتها الإذلال أمضاها في الجميع، وقال النقاش: «العقوبة الشرعية تكون في الأموال والأبدان، فالجزية من عقوبات الأموال».

وأما قدرها فذهب مالك رحمه الله وكثير من أهل العلم إلى ما فرضه عمر رضي الله عنه، وذلك أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الفضة، وفرض عمر رضي الله عنه ضيافة وأرزاقاً وكسوة، قال مالك في «الواضحة»: «ويحط ذلك عنهم اليوم لما حدث عليهم من اللوازم»، فهذا أحد ما ذكر عن عمر، وبه أخذ مالك.. قال سفيان الثوري: «رويت عن عمر ضرائب مختلفة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأظن ذلك بحسب اجتهاده

رضي الله عنه في يسرهم وعُسْرهم. وقال الشافعي، وغيره: قدر الجزية ديناراً على الرأس، ودليل ذلك أمر رسول الله ﷺ معاذاً بذلك، وأخذه جزية اليمن كذلك أو قيمته معافراً، وهي ثياب. وقال كثير من أهل العلم: ليس لذلك في الشرع حدٌ محدود، وإنما ذلك إلى اجتهاد الإمام في كل وقت، وبحسب قوم قوم. هذا كله في العثوة، وأما الصلح فهو ما صولحو عليه من قليل أو كثير، واختلف في المذهب في العبد الذي يعتقه الذمي أو المسلم، هل يلزمه جزية أم لا؟ وقال ابن القاسم: لا ينقص أحد من أربعة دنانير كان فقيراً أو غنياً، وقال أصبغ: يحط الفقير بقدر ما يرى من حاله، وقال ابن الماجشون: لا يؤخذ من الفقير شيء.

والجزية وزنٌ فغلة من جَزَى يجزي إذا كافأ عَمَّا أسدي إليه، فكأنهم أعطوها جزاءً ما منحوا من الأمن، وهي كالقعدة والجلسة، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مِنْ
أَنْتَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى
وقوله تعالى: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ يحتمل تأويلات، منها أن يريد سوق الذمي لها بيده لا مع رسولٍ ليكون في ذلك إذلالٌ له، ومنها أن يريد: عن نعمة منكم قبَلْهم في قبولها منهم وتأمينهم، واليَدُ في اللغة: النعمة والصنع الجميل. ومنها أن يريد: عن قوة منكم عليهم وقهر لا تبقى لهم معه راية ولا معقل، واليد في كلام العرب: القوة، يقال: فلان ذو

يد، ويقال: ليس لي بكذا وكذا يدٌ، أي: قوة. ومنها أن يريد: أن ينقدوها ولا يؤخروها، كما تقول: بعته يدأً يَيْدُ. ومنها أن يريد: عن استسلام منهم وانقياد، على نحو قولهم: «ألقي فلان يَيْدَهُ» إذا عجز واستسلم.

وقوله: ﴿وَمِمَّنْ سَاغِرُونَ﴾ لفظ يعُمُّ وجوهاً لا تنحصر لكثرتها، ذُكر منها - عن عكرمة - أن يكون قابضها جالساً والدافع من أهل الذمة قائم، وهذا ونحوه دأج إلى صغارهم.

﴿٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل: الذي كثر في كُتُب أهل العلم أن فرقة من اليهود تقول هذه المقالة، وزوي أنه لم يقلها إلا فنحاص. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قالها أربعة من أحبارهم، سلام بن مشكَم، وثُعْمَان بن أبي أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصَّيْف، وقال النقاش: لم يبق يهودي يقولها بل انقروا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإذا قالها واحد فينبغي أن يلزم الجماعة شناعة المقالة لأجل نباهة القائل فيهم، وأقوال النبهاء أبداً مشهورة في الناس يحتج بها، فمن هنا صح أن تقول الجماعة قول نَبِيَّهَا.

وقرأ عاصم، والكسائي: ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ بتنوين ﴿عُزَيْرُ﴾ والمعنى أن (ابناً) - على هذا - خبر ابتداء عن ﴿عُزَيْرُ﴾، وهذا هو أصح المذاهب لأنه المعنى المنعني عليهم. و﴿عُزَيْرُ﴾ - ونحوه - ينصرف عجباً كان أو عربياً، وقرأ ابن كثير،

ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: **«عَزَّزَ ابْنُ اللَّهِ»** دون تنوين **«عَزَّزَ»**، فقال بعضهم: **«أَبْنُ»** خبر عن **«عَزَّزَ»**، وإنما حذف التنوين من **«عزير»** لاجتماع الساكنين، ونحوه قراءة من قرأ: **«أَخَذَ اللَّهُ الصُّمْدَ»**، قال أبو علي: وهو كثير في الشعر، وأنشد الطبري في ذلك:

لَتَجِدَنِي بِالْأَمِيرِ بَرًّا
وبالْقَتَاةِ مَذْعَسًا مَكْرًا
إِذَا عَطِيفُ السُّلَيْمِيِّ قَرًّا

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالألف - على هذه القراءة والتأويل - ثابتة في **«أَبْنُ»**، وقال بعضهم: **«أَبْنُ»** صفة لـ **«عَزَّزَ»** كما تقول: **«زَيْدٌ بَنُ عَمْرٍو»**، وجعلت الصفة والموصوف بمنزلة اسم واحد، وحذف التنوين إذا جاء الساكنان كأنهما التقيا من كلمة واحدة، والمعنى: **«عَزَّزَ ابْنُ اللَّهِ مَعْبُودَنَا وَإِلَهَنَا، أَوْ الْمَعْنَى: مَعْبُودَنَا أَوْ إِلَهَنَا عَزَّزَ ابْنُ اللَّهِ»**.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقياس هذه القراءة والتأويل أن يحذف الألف من **«أَبْنُ»** لكنها ثبتت في خط المصحف، فيتدرج من هذا كله أن قراءة التنوين في **«عَزَّزَ»** أقواها.

وحكى الطبري وغيره أن بني إسرائيل أصابتهم فتن وبلاء - وقيل مرض - وأذهب الله عنهم التوراة في ذلك ونسوها، وكان علماءهم قد دفنوها أول ما أحسوا بذلك البلاء، فلما طالت المدة فقدت التوراة جملة فحفظها الله عزيزاً كرامة منه له،

فقال لبني إسرائيل: إن الله قد حفظني التوراة فجعلوا يدرسونها من عنده، ثم إن التوراة المدفونة وجدت فإذا هي مساوية لما كان **«عَزَّزَ»** يدرس، فضلوا عن ذلك وقالوا: إن هذا لم يتهياً إلا وهو ابن الله. وظاهر قول النصارى المسيح ابن الله أنها بُنُوَّةُ النسل كما قالت العرب في الملائكة، وكذلك يقتضي قول الضحاك والطبري وغيرهما، وهذا أشنع في الكفر، قال أبو المعالي: أطبقت النصارى على أن المسيح إله وأنه ابن الإله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقال: إن بعضهم يعتقدونها بُنُوَّةُ حُؤُورِ رحمة، وهذا المعنى أيضاً لا يحل أن تطلق البنوة عليه، وهو كُفْرٌ لمكان الإشكال الذي يدخل من جهة التناسل، وكذلك كفر اليهود في قولهم: **«عَزَّزَ ابْنُ اللَّهِ»**، وقولهم: نحن أبناء الله، وإنما توجد في كلام العرب استعارة البنوة عبارة عن نِسَبٍ وملازماتٍ تكون بين الأشياء إذا لم يُشكَلِ الأمر وكان أمر النسل من الاستحالة، ومن ذلك قول عبد الملك بن مروان: «وقد رَبَّنَا الحَرْبَ وَرَبَّنَاها، فنحن بنوها وهي أمتنا، يريد الملازمة، ومن ذلك قول حُرَيْثُ بن محصن:

بَنُو الْمَجْدِ لَمْ تَقْعُدْ بِهِمْ أُمَّهَاتِهِمْ
وَأَبَاؤُهُمْ أَبْنَاءُ صِدْقٍ فَاتَّجَبُوا
ومن ذلك: **«ابْنُ نَعَشٍ»**، وابن ماء، وابن السبيل، ونحو ذلك، ومنه قول الشاعر:

وَالْأَرْضُ تُخَمِّلُنَا وَكَانَتْ أَمْنَا

ومنه أحد التأويلات في قوله ﷺ:

«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ابْنُ زَنَى» أي ملازمه، والتأويل الآخر: لا يدخلها مُشْكَلُ الْأَمْرِ، والتأويلان في قول النصارى: المسيح ابن الله كما تقدّم من الصفة والخبر إلا أن شغب التنوين ارتفع هاهنا، و**«عَزَّزَ نَبِيٌّ»** من أنبياء بني إسرائيل.

وقوله تعالى: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ»** يتضمن معنيين، أحدهما: إلزامهم المقالة بالتأكيد في ذلك كما قال: **«يَكُونُونَ أَكْثَرُ»**، وكقوله: **«وَلَا تَكْفُرُوا بِاللَّهِ»**، والمعنى الثاني في قوله سبحانه: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ»** أي هو ساذج لا حجة عليه ولا برهان، غاية بيانه أن يقال بالأقواء قولاً مجرداً نفس دعوى.

و**«يَتَّبِعُونَ»** قراءة الجماعة، ومعناه: يحاكون ويأرون ويمثلون. وقرأ عاصم وحده من السبعة، وطلحة بن مصرف **«يُضَاهَوْنَ»** بالهمز على أنه من (ضاهأ)، وهي لغة ثقيف بمعنى (ضاهأ).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن قال إن هذا مأخوذ من قولهم: «امرأة ضهياء» - وهي التي لا تحيض، وقيل: التي لا تدي لها، سُميت بذلك لشبهها بالرجال - فقله خطأ، قاله أبو علي، لأن الهمزة في (ضاهأ) أصلية، وفي (ضهياء) زائدة كحمرأة، وإن كان الضمير في **«يَتَّبِعُونَ»** لليهود والنصارى جميعاً فالإشارة بقوله: **«الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ»** هي إمّا لمشركي العرب إذ قالوا: «الملائكة بنات الله»، وهم أول كافر، وهو قول الضحاك، وإما لأُمَمٍ سالفة قبلهما، وإما للمصدر

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله

عز وجل:

واحد الأبحار جنر بكسر
الحاء، ويقال خبر بفتح
الحاء، والأول أفصح ومنه
مداد الحبر، والحبر
بالفتح: العالم، وقال
يونس ابن حبيب: لم
أسمعه إلا بكسر الحاء،
وقال الفراء: سمعت فتح
الحاء وكسرها في العالم،
وقال ابن السكيت: الجبر
بالكسر: المداد، والخبر
بالفتح: العالم. والرهبان:
جمع راهب وهو
الخائف، من الرهبة،
وسماهم أرباباً وهم لا

يعبدونهم ولكن من حيث تلقوا
الحلال والحرام من جبهتهم وهو أمر
لا يتلقى إلا من جهة الله عز وجل،
ونحو هذا قال ابن عباس،
وحذيفة بن اليمان، وأبو العالية.
وحكى الطبري أن عدي بن حاتم
قال: جثت رسول الله ﷺ وفي
عني صليب ذهب، فقال: يا عدي
اطرح هذا الصليب من عنقك،
فسمعته يقرأ: ﴿تَحْذَرُوا أَخْبَارَهُمْ
وَرَبُّكُمْهُمْ أَرْكَبَا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾
فقلت: يا رسول الله وكيف ولم
نعبدكم؟ فقال: «أليس تستحلون ما
أحلوا وتحرمون ما حرموا؟» قلت:
نعم، قال: «فذاك». «وَالنَّسِيجِ»
عطف على الأخبار والرهبان،
و«سُبْحَنَهُ» نصب على المصدر
والعامل فيه فعل من المعنى لأنه
ليس من لفظ (سبحان) فعل،

الأول من كفر اليهود والنصارى،
ويكون «يُسَبِّحُونَ» لمعاصري
محمد ﷺ. وإن كان الضمير في
«يُسَبِّحُونَ» للنصارى فقط كانت
الإشارة بـ«الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ»
إلى اليهود، وعلى هذا فسر الطبري،
وحكاه الزهراوي عن قتادة.

وقوله تعالى: «فَنَلَهُمُ اللَّهُ»
دعاء عليهم عام لأنواع الشر،
ومعلوم أن من قاتله الله فهو
المغلوب المقتول، وحكى الطبري
عن ابن عباس رضي الله عنهما أن
المعنى: لعنهم الله. و«أَنْتَ
يُؤْتِكُونَ» مقصده: أتى توجها
وأتى ذمها، ويذل مكان هذا الفعل
المقصود فعل سوء يحل بهم، وذلك
فصيح في الكلام كما تقول:
«لعن الله الكافر أتى هلك» كأنك
تحتم عليه بهلاك، وكأنه حتم عليهم
في هذه الآية بأنهم يؤفكون،
ومعناه: يحرمون ويصرفون عن
الخير، والأرض المأفوكة التي لم
يصبها مطر، قال أبو عبيدة:
«يُؤْتِكُونَ» معناه: يحدون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
يريد: من قولك «رجلٌ محدود» أي:
محروم لا يصيب خيراً، وكأنه من
الإفك الذي هو الكذب، فكان
المأفوك هو الذي تكذبه أراجيه فلا
يلقى خيراً. ويحتمل أن يكون قوله
تعالى: «أَنْتَ يُؤْتِكُونَ» ابتداء
تقرير، أي: بأي سبب ومن أي جهة
يصرفون عن الحق بعدما تبين لهم؟

و«قاتل» في هذه الآية بمعنى
(قتل)، وهي مفاعلة من واحد،
وهذا كله بين.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهُمْ وَيَتْلَوْا
أَنْ يُسَمُّوا نُورَهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣١﴾ هُوَ الَّذِي
أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَا كُونُ
أَمْوَالِ الْكَاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُمْسِكُونَهَا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ نَحْشِي
عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكُونُ فِيهَا حِجَابُهُمْ وَجُودُهُمْ
وَيُظْهِرُهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ عَذَابَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ
شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ يَخْلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ
أَنْفُسَكُمْ وَقِيلُوا لِلْمُشْرِكِينَ كُلًّا كَمَا
يَقُولُونَ لَكُمْ كَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

١٩٢

والتقدير: أنزله تنزيهاً، فمعنى
«سُبْحَنَهُ»: تنزيهاً له، واحتج من
يقول إن أهل الكتاب مشركون بقوله
تعالى: «عَمَّا يُشْرِكُونَ»، والغير
يقول: إن اتخاذ هؤلاء الأرباب
ضرب من الإشراك، وقد يقال في
المراثي: إنه أشرك، وفي ذلك آثار.

وقوله تعالى: «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا
نُورَ اللَّهِ» الآية. نور الله في هذه
الآية: هداه الصادر عن القرآن
والشرع المثبت في قلوب الناس،
فمن حيث سماه نوراً سُمي محاولة
إفساده والصد في وجهه إطفاء.
وقالت فرقة: النور: القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا معنى لتخصيص شيء مما يدخل
تحت المقصود بالنور. وقوله:
«يَأْتُوهُمْ» عبارة عن قلة حيلتهم
وضعفها، أخبر عنهم أنهم يحاولون

مقاومة أمر جسيم بسعي ضعيف فكان الإطفاء بنفخ الأفواه، ويحتمل أن يراد: بأقوال لا برهان عليها فهي لا تجاوز الأفواه إلى فهم سامع. وقوله: ﴿وَيَأْتِكُمْ﴾ إيجاب يقع بعده أحياناً (إلا) وذلك لوقوعه هو موقع الفعل المنفي، لأن التقدير: ولا يريد الله إلا أن يتم نوره، وقال الفراء: «هو إيجاب فيه طرف من النفي»، ورد الزجاج على هذه العبارة وبيانه ما قلناه.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الآية. ﴿رَسُولُهُ﴾ يراد به محمد ﷺ، وقوله: ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ إشارة إلى الإسلام والجملة بجمعها وهي الحنيفية، وقوله: ﴿يُظْهِرُ﴾ قال أبو هريرة، وأبو جعفر محمد بن علي، وجابر بن عبد الله ما معناه: إن الضمير عائذ على الدين، وإظهاره عند نزول عيسى ابن مريم وكون الأديان كلها راجعة إلى دين الإسلام، فذلك إظهاره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكان هذه الفرقة رأت الإظهار على أتم وجوهه، أي: حتى لا يبقى معه دين آخر. وقالت فرقة: ﴿يُظْهِرُ عَلَى الَّذِينَ﴾ أي ليجعله أعلاها وأظهرها، وإن كان معه غيره كان دونه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا لا يحتاج إلى نزول عيسى، بل كان هذا في صدر الأمة وهو حتى الآن إن شاء الله. وقالت فرقة: الضمير عائذ على الرسول، ومعنى

﴿يُظْهِرُ﴾ ليطلعه ويعلمه الشرائع كلها والحلال والحرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل وإن كان جائزاً صحيحاً فالآخر أبرع منه وأليق بنظام الآية وأجبرى مع كراهية المشركين، وحُصَّ المشركون هنا بالذكر لما كانت كراهية مختصة بظهور دين محمد ﷺ، فذكر العظم والأول ممن كرهه وصد فيه، وذكر الكافرون في الآية قبل لأنها كراهية إتمام نور الله في قديم الدهر وفي باقيه فعلم الكفرة من لدن خلق الدنيا إلى انقراضها إذ قد وقعت الكراهية والإتمام مراراً كثيرة.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

المراد بهذه الآية بيان نقائص المذكورين، ونهي المؤمنين عن تلك النقائص مترتب ضمن ذلك، واللام في ﴿يَأْكُلُونَ﴾ لام تأكيد، وصورة هذا الأكل هي أنهم يأخذون أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبيع وغير ذلك مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله، وهم خلال ذلك يختصمون تلك الأموال كالذي ذكره سلمان في كتاب السير عن الراهب الذي استخرج كنزه، وقيل: كانوا يأخذون منهم من غلاتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع، وقيل: كانوا يرتشون في الأحكام، ونحو ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿بِالْبَيْتِ﴾ يعم كل ذلك، وقوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾ الأشبه هنا أن يكون معدى، أي: يصدون

غيرهم، وهذا الترجيح إنما هو لنباهة منازلهم في قومهم، و(صد) يستعمل واقفاً ومتجاوزاً، ومنه قول الشاعر:

صَدَّزَتْ أَلْكَاسَ عَنَّا أُمُّ عَمْرِو
وَكَانَ أَلْكَاسُ مَجْرَاهَا أَلْيَمِينَا
﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾: الإسلام وشرعية محمد عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن يريد: ويصدون عن سبيل الله في أكلهم الأموال بالباطل، والأول أرجح. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ ابتداء وخبره ﴿يَكْفُرُونَ﴾، ويجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ معطوفاً على الضمير في قوله: ﴿يَأْكُلُونَ﴾ على نظر في ذلك لأن الضمير لم يؤكد، وأسند أبو حاتم إلى علباء بن أحمد أنه قال: لما مر عثمان بكتب المصحف أراد أن ينقص الواو من قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ فأبى ذلك أبي بن كعب وقال: «تلحقها أو لأضعن سيفي على عاتقي» فألحقها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى إرادة عثمان يجري قول معاوية: إن الآية في أهل الكتاب، وخالفه أبو ذر فقال: بل هي فينا، فشكاه إلى عثمان فاستدعاه من الشام ثم أخرجه إلى الربيعة، والذي يظهر من الألفاظ أنه لما ذكر بعض الأحبار والرهبان الآكلين المال بالباطل ذكر بعد ذلك مقولة نقص الكانزين المانعين حق المال.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ بغير واو، و﴿يَكْفُرُونَ﴾ معناه: يجمعون ويحفظون في الأوعية. ومنه قول المنخل الهذلي:

لَا ذَرَّةَ ذَرِّيٍّ إِنَّ أَطْعَمْتُ جَائِعَهُمْ
قِرْفَ الْخَنِي وَعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُوزٌ
أي محفوظ في أوعيته، وليس من
شروط الكنز الدفن لكن كثر في
حفظه المال أن يدفنوه حتى تعرف
في المدفون اسم الكنز، ومن اللفظة
قولهم: «رَجُلٌ مُكْتَنِزُ الْخَلْقِ» أي
مجتمع، ومنه قول الراجز:

عَلَى شَدِيدٍ لَخْمُهُ كِنَازٌ
بَاتَ يُنْزِنِي عَلَى أَوْفَازٍ
والتَّوَعَّدَ فِي الْكَنْزِ إِنَّمَا وَقَعَ عَلَى
مَنْعِ الْحَقُوقِ مِنْهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ كَثِيرٌ
مِنَ الْعُلَمَاءِ: الْكَنْزُ هُوَ الْمَالُ الَّذِي لَا
تُؤَدَّى زَكَاتُهُ وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ
الْأَرْضِ، وَأَمَّا الْمَدْفُونُ إِذَا أُخْرِجَتْ
زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ كَمَا قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَا أُدْبِتَ زَكَاتُهُ
فَلَيْسَ بِكَنْزٍ»، وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ مَشْهُورَةٌ
عَنْ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،
وَرَوَى هَذَا الْقَوْلَ عَنْ عِكْرَمَةَ،
وَالشَّعْبِيِّ، وَالسَّيِّدِيِّ، وَمَالِكٍ،
وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ
أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَرْبَعَةٌ
آلَافُ دِرْهَمٍ فَمَا دُونَهَا نَفَقَةٌ، وَمَا زَادَ
عَلَيْهَا فَهُوَ كَنْزٌ وَإِنْ أُدْبِتَ زَكَاتُهُ»،
وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ وَجُمَاعَةٌ مَعَهُ: «مَا فَضَّلَ
مِنْ مَالِ الرَّجُلِ عَنْ حَاجَةِ نَفْسِهِ فَهُوَ
كَنْزٌ»، وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ يَقْتَضِيَانِ أَنَّ
الذَّمَّ فِي حِسِّ الْمَالِ لَا فِي مَنَعِ زَكَاتِهِ
فَقَطْ، وَلَكِنْ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ:
«حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ» فَآتَى فَرَضَ
الزَّكَاةِ عَلَى هَذَا كَلَمًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
كأن مضمن الآية: «لا تجمعوا مالا
فتعذبوا»، فنسخه التقرير الذي في

قوله: «حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ» والضمير في
قوله: «يُتَّقَوْنَهَا» يجوز أن يعود
على الأموال والكنوز التي يتضمنها
المعنى، ويجوز أن يعود على الذهب
والفضة إذ هما أنواع، وقيل: عاد
على الفضة واكتفي بضمير واحد عن
ضمير الآخر إذ أفهمه المعنى، وهذا
نحو قول الشاعر:

نَحْنُ بِمَا عِشْنَا وَأَنْتَ بِمَا
عِشْنَا رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلَفٌ
ونحو قول حسان:

إِنْ شَرَخَ الشُّبَابُ وَالشُّعْرُ الْأَنْدَ
وَدَ مَا لَمْ يُعَاصِ كَانَ جُنُونًا
وسيبويه يكره هذا في الكلام، وقد
شبه كثير من المفسرين هذه الآية
بقوله تعالى: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا
انْفَضُّوا إِلَيْهَا»، وهي لا تشبهها لأن
«أَرْزَ» قد فصلت التجارة عن اللهو
وحسنت عود الضمير على أحدهما
دون الآخر.

والذهب يؤنث ويذكر والتأنيث
أشهر، وروى أن أصحاب النبي ﷺ
قالوا: قد ذم الله كسب الذهب
والفضة، فلو علمنا أي المال خير
حتى نكسبه، فقال عمر
رضي الله عنه: أنا أسأل لكم
رسول الله ﷺ عن ذلك فسأله فقال:
«لِسَانُ ذَاكِرٍ، وَقَلْبُ شَاكِرٍ»، وَرَوَى أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ: «تَبًّا
لِلذَّهَبِ تَبًّا لِلْفِضَّةِ»، فَحِينَئِذٍ أَشْفَقَ
أَصْحَابُهُ وَقَالُوا مَا تَقْدَمُ.

والنساء في قوله: «نَنْتَرِضُهُ»
جواب لما في قوله: «وَالَّذِينَ» من
معنى الشرط، وجاءت البشارة مع
العذاب لما وقع التصريح بالعذاب،

وذلك أن البشارة تقيد بالخير والشر
فإذا أطلقت لم تحمل إلا على الخير
فقط، وقيل: بل هي أبدا للخير
فمتى قُتِلَتْ بِشَرٌّ فَإِنَّمَا الْمَعْنَى: أَتَمَّ
لَهُمْ مَقَامَ الْبِشَارَةِ عَذَابًا أَلِيمًا، وَهَذَا
نَحْوُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَحَيْلٌ قَدْ دَلَّغَتْ لَهَا بِحَيْلٍ
تَحِيَّةَ بَيْتِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيْعٌ
وقوله تعالى: «يَوْمَ يَخْتَى عَلَيْهَا»
الآية. «يَوْمَ» ظرف والعامل فيه
«أَيُّدٌ». وقرأ جمهور الناس:
«يَخْتَى» بالياء بمعنى: تُحْمَى
الوقود، وقرأ الحسن بن أبي
الحسن: «تُخْمَى» بالتاء من فوق
بمعنى: تُخْمَى النار، والضمير في
«عَلَيْهَا» عائد على الكنوز أو الأموال
حسبما تقدم. وقرأ قوم «جِبَاهُهُمْ»
بالإدغام وأسموها الضم، حكاه أبو
حاتم.

ووردت أحاديث كثيرة في معنى
هذه الآية من الوعيد لكنها مُفسَّرة في
منع الزكاة فقط لا في كسب المال
الحلال وحفظه، ويؤيد ذلك حال
الصحابة وأموالهم رضي الله عنهم،
فمن تلك الأحاديث قوله ﷺ: «مَنْ
تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا لَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثْلُ لَهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعًا أَقْرَعَ» الحديث،
وَأَسْنَدُ الطَّبْرِيِّ قَالَ: كَانَ نُغْلُ سَيْفِ
أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ فِضَّةٍ فَفَنَاهَا أَبُو ذَرٍّ
وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ
صَفْرَاءَ أَوْ بَيْضَاءَ كَوِي بِهَا»، وَأَسْنَدُ
إِلَى أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: (مَاتَ
رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ فَوُجِدَ فِي بَرْدَتِهِ
دِينَارٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَةً» ثُمَّ
مَاتَ آخَرُ فَوُجِدَ لَهُ دِينَارَانِ فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْتَانِ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إما لأنهما كانا يعيشان من الصدقات وعندهما الثَّبر، وإما لأن هذا كان في صدر الإسلام ثم قرّر الشرع ضبط المال وأداء حقه، ولو كان ضبط المال ممنوعاً لكان حقه أن يخرج كله لا زكاته فقط، وليس في الأمة من يُلْزَم هذا.

وقوله: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ إشارة إلى المال الذي يَكُوى به، ويحتمل أن يكون إلى الفعل النازل بهم، أي: هذا جزاء ما كنزتم، وقال ابن مسعود: والله لا يمس دينار ديناراً، بل يمد الجلد حتى يَكُوى بكل دينار وبكل درهم، وقال الأحنف بن قيس: دخلت مسجد المدينة وإذا رجل خشن الهيئة زُتُّها يطوف في الخلق وهو يقول: بَشِّرْ أصحاب الكنوز بكِّي في جباههم وجنوبهم وظهورهم، ثم انطلق يتذمّر وهو يقول: وما عسى تصنع في قريش.

تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية - والتي بعدها - تتضمن ما كانت العرب شرعته في جاهليتها من تحريم شهور الحلّ، وتحليل شهور الحرمة، وإذا نُصّ ما كانت العرب تفعله تبين معنى الآيات. فالذي تظاهرت به الروايات وتَبَيَّنَتْ من مجموع ما ذكر الناس أن العرب كانت لا تعيش لأكثرها إلا من الغارات وإعمال سلاحها، فكانوا إذا توالّت عليهم حرمة ذي القعدة وذو الحجة والمحرم صعب عليهم وأملقوا، وكان بنو قُحَيْم من كنانة أهل دين في العرب وتَمَسَّك بشرع إبراهيم عليه السلام، فانتدب منهم

القَلَمْس وهو حذيفة بن عبد قُحَيْم فنسأ الشهور للعرب، ثم خلفه على ذلك ابنه عباد بن حذيفة، ثم خلف ابنه قلع بن عباد، ثم خلفه ابنه أمية بن قلع، ثم خلفه ابنه عوف بن أمية، ثم خلفه ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف، وعليه قام الإسلام، وذكر الطبري وغيره أن الأمر كان في عدوان قبل بني مالك بن كنانة، وكانت صورة فعلهم أن العرب كانت إذا فرغت من حجّها جاء إليهم من شاء منهم مجتمعين فقالوا: أنسنا شهراً، أي: أخر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر، فيحلّ لهم المحرم فيغيّرون فيه ويعيشون، ثم يلتزمون حرمة صفر ليوافقوا عدة الأشهر الأربعة، قال مجاهد: ويسمون ذلك الصفر المحرم، ثم يسمون ربيعاً الأول صفرأ وربيعاً الآخر ربيعاً الأول، وهكذا في سائر الشهور يستقبلون سنتهم من المحرم الموضوع لهم فيسقط على هذا حكم المحرم الذي حلّ لهم، وتجيء السنة من ثلاثة عشر شهراً أولها المحرم المحلّل ثم المحرم الذي هو في الحقيقة صفر ثم استقبال السنة كما ذكرنا، ففي هذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ أي: ليست ثلاثة عشر شهراً. قال الطبري: حدثني ابن وكيع عن عمران بن عُيَيْتَة بن حصين عن أبي مالك قال: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، قال مجاهد: ثم كانوا يحجون في كل شهر عامين ولاء ثم بعد ذلك يُبَدِّلون فيحجون عامين

ولاء، ثم كذلك حتى جاءت حجة أبي بكر رضي الله عنه في ذي القعدة حقيقة وهم يسمونه ذا الحجة، ثم حج رسول الله ﷺ سنة عشر في ذي الحجة حقيقة، فذلك قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان»، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب في حجة الوداع فساق الحديث فقال فيه: «أولهن رجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويجيء في أكثر الكتب أنهم كانوا يجعلون حرمة المحرم في صفر ويُسكت عن تمام القصة، والذي ذكرناه هو بيانها، وأما كون المحرم أول السنة العربية، وكان حقه - إذ التاريخ من الهجرة - أن يكون أول السنة في ربيع الأول، فإن ذلك فيما يروى لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دَوَّن ديوان المسلمين وجعل تاريخه المحرم إذ قبله انقضاء الموسم والحج فكان الحج خاتمة للسنة، واعتد بعام الهجرة وإن كان قد نقص من أوله شيء، ولما كانت سنة العرب هلالية بدأ العام من أول شهر، ولم يكن في الثاني عشر من ربيع الذي هو يوم دخول النبي ﷺ المدينة، ولا كان عند تمام الحج لأنه في كسر شهر. وأما الأربعة

الْحُرْمُ فهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم ورجب. ومعنى قول النبي ﷺ: «ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» قصد التفريق بينه وبين ما كانت تفعله قبائل ربيعة بأسرها، فإنها كانت تجعل رجبها رمضان وتحرمه ابتداءً منها، وكانت قريش ومن تابعها في ذلك من قبائل مضر على الحق، فقرّر رسول الله ﷺ ذلك ونسبه إلى مضر إذ كان حكمه وتحريمه إنما كان من قِبَل قريش، وفي المفضليات لبعض شعراء الجاهلية:

وشهر بني أمية والهدايا

البيت. قال الأصمعي: يريد رجباً. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «إثنا عشر شهراً» بسكون العين، وذلك تخفيف لتوالي الحركات، وذلك قرأ: «أحد عشر» و«تسعة عشر».

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي فيما كتبه وأثبتته في اللوح المحفوظ أو غيره، فهي صفة فعل مثل خلقه ورزقه وليست بمعنى قضائه وتقديره، لأن تلك هي قبل خلق السموات والأرض، والكتاب الذي هو المصدر هو العامل في ﴿يَوْمَ﴾، و﴿فِي﴾ من قوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ متعلقة بـ«مُسْتَقَرَّةً» أو ثابتة، ونحوه، ويقلق أن يكون الكتاب: القرآن في هذا الموضع، وتأمل، ولا يتعلق ﴿فِي﴾ بـ«عِدَّةٍ» للترفة بين الصلة والموصول بخبر ﴿إِنَّ﴾. وقوله: ﴿يَنْهَا أَرْبَعَةً حُرْمًا﴾ نص على تفضيل هذه الأربعة وتشريفها، قال قتادة: «اصطفى الله من الملائكة

والبشر رسلاً، ومن الشهور المحترم ورمضان، ومن البقع المساجد، ومن الأيام الجمعة، ومن الليالي ليلة القدر، ومن الكلام ذكره، فينبغي أن يُعَظَّم ما عَظَّم الله».

وقوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْزَمَ﴾ قالت فرقة: معناه: الحساب المستقيم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما حكى المهدوي: معناه: القضاء المستقيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأصوب عندي أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ هاهنا على أشهر وجوه، أي: ذلك الشرع والطاعة لله، ﴿الَّذِينَ﴾ أي: القائم المستقيم، وهو من «قام يقوم» بمنزلة «سَيِّد» من «ساد يسود»، وأصله قِيَوْمٌ. وقوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ الضمير عائد على «الاثنا عشر شهراً» أي: لا تظلموا أنفسكم بالمعاصي في الزمن كله، وقال قتادة: الضمير عائد على «الأربعة الأشهر»، ونهى عن الظلم فيها تشريفاً لها بالتخصيص والذكر وإن كان منهياً عنه في كل الزمن، وزعم النحاة أن العرب تكني عما دون العشرة من الشهور: «فيهن»، وعما فوق العشرة: «فيها»، وروي عن الكسائي أنه قال: إني لأتعجب من فعل العرب هذا، وكذلك يقولون فيما دون العشرة من الليالي: «خَلَوْنَ»، وفيما فوقها: «خَلَتْ». وقال الحسن: معنى «فيهن» أي يسبهن ومن جزاهن في أن تُحِلُّوا حرامها وتبدلوه بما لا حرمة له، وحكى المهدوي أنه قيل: «لا تظلموا فيهن أنفسكم بالقتال» ثم

نسخ بفرض القتال في كل زمن، قال سعيد بن المسيب في كتاب الطبري: كان رسول الله ﷺ يحرم القتال في الأشهر الحرم بما أنزل الله في ذلك حتى نزلت براءة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وَكُنِيزُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ معناه: فيهن فأحرى في غيرهن، وقوله: ﴿كَأَنَّهُ﴾ معناه: جميعاً، وهو مصدر في موضع الحال، قال الطبري: كالعاقبة والعافية، فهو - على هذا - كما تقول: خاصة وعامة، ويظهر أيضاً أنه من كف يكف، أي جماعة تكف من عارضها، وكذلك تقول: الكافة، أي تكف من خالفها، فاللفظة - على هذا - اسم فاعل. وقال بعض الناس: معناه: يكف بعضهم بعضاً عن التخلف، وما قدمناه أعم وأحسن، وقال بعض الناس: كان الفرض بهذه الآية قد توجه على الأعيان ثم نسخ ذلك بغد وجعل فرض كفاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الذي قالوه لم يعلم قط من شرع النبي ﷺ أنه ألزم الأمة جميعاً الثغر، وإنما معنى الآية الحض على قتالهم والتحزب عليهم وجمع الكلمة، ثم قيدها بقوله سبحانه: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾، فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم، وأما الجهاد الذي يندب إليه فإنما هو فرض على الكفاية إذا قام به بعض الأمة سقط عن الغير.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ خبر في ضمنه أمر بالتقوى ووعد عليها بالنصر والتأييد.

وقال الآخر:

نَسُوا الشُّهُورَ بِهَا وَكَانُوا أَهْلَهَا
مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْعِزُّ لَمْ يَنْتَحِلْ

ومنه قول جِذِلَ الطَّعَانُ:

وَقَدْ عَلِمْتُ مَعْدُ أَنْ قَوْمِي

كَرَامَ النَّاسِ إِنَّ لَهُمْ كِرَامًا

فَأَيُّ النَّاسِ فَاتُونَا بِوَثْرِ؟

وَأَيُّ النَّاسِ لَمْ تَغْلِكْ لِحَامًا؟

أَلَسْنَا النَّاسِيَيْنَ عَلَى مَعْدُ

شهور الجِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامًا؟

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو،

وعاصم، وابن عامر: ﴿يُضِلُّ﴾ بفتح

الياء وكسر الضاد، وقرأ ابن مسعود،

والحسن، ومجاهد، وقتادة،

وعمر بن ميمون: ﴿يُضِلُّ﴾ بضم

الياء وكسر الضاد، فإِذَا على معنى:

يُضِلُّ الله، وإِذَا على معنى: يُضِلُّ به

الذين كفروا أتباعهم، ف﴿الَّذِينَ﴾

في التأويل الأول في موضع نصب،

وفي الثاني في موضع رفع، وقرأ

عاصم أيضاً، وحزمة، والكسائي،

وابن مسعود - فيما روي عنه -:

﴿يُضِلُّ﴾ بضم الياء وفتح الضاد على

المفعول الذي لم يُسم فاعله، ويؤيد

ذلك قوله تعالى: ﴿زَيْنٌ﴾ للتناسب

في اللفظ، وقرأ أبو رجاء: ﴿يُضِلُّ﴾

من ضَلَّ يَضِلُّ، على وزن فَعَلَ بكسر

العين يَفْعَلُ بفتحها، وهما لغتان،

يقال: ضَلَّ يَضِلُّ وضَلَّ يَضِلُّ والوزن

الذي ذكرناه يفرق بينهما، وكذلك

يروى قول النبي ﷺ: «حَتَّى يَضِلُّ

الرجل أَنْ يَدْرِي كَمْ صَلَّى» بفتح

الضاد وكسرها.

وقوله تعالى: ﴿يُحْيِيهِمْ عَامًا

وَيُحْيِيهِمْ عَامًا﴾ معناه: عاماً من

الأعوام، وليس يريد أن تلك كانت

المؤخَّر زيادة، والمؤخَّر

الشهر، ولا يكون الشهر

زيادة في الكفر.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: وقال أبو

حاتم: هو فعيل بمعنى

مفعول، ويفصل عن إلزام

أبي علي بأن يُقَدَّر

مضاف، كأن المعنى: إنما

إنشاء النسيء، وقال

الطبري: هو من معنى

الزيادة، أي زيادتهم في

الأسهر، وقال أبو وائل:

كان «النسيء» رجلاً من

بني كنانة.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: وهذا ضعيف.

وأما «النسيء» فهو الأول بعينه

خفت الهمزة، وقيل: قلبت الهمزة

ياء وأدغمت الياء في الياء، وأما

«النسء» فهو مصدر من نَسَأَ إِذَا

أَخَّرَ، وأما «النسيء» فقيل: تخفيف

همزة «النسء»، وذلك على غير

قياس، وقال الطبري: هو مصدر من

نَسِيَ يَنْسِي إِذَا تَرَكَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والنسيء هو فعل العرب في تأخيرهم

الحرمة، وقوله تعالى: ﴿زِيَادَةُ فِي

الْكُفْرِ﴾ أي: جَارٍ مَعَ كُفْرِهِمْ

بالله، وخلاف منهم للحق، فالكفر

متكرر بهذا الفعل الذي هو باطلٌ في

نفسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومما وجد في أشعارها من هذا

المعنى قول بعضهم:

وَمَا مُنْسِيءُ الشُّهُرِ الْقُلَمْسُ

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
يُحْيِيهِمْ عَامًا وَيُخَرِّمُهُمْ عَامًا يُؤَاطُونَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
فِيهِمْ لَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ نَزَلَ لَهُمْ سُوَّةُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا مَا لَوْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِيهِمْ
إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيهِمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ
فَمَا مَنَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾
لَا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَلِيلٌ ﴿٣٩﴾ لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا خَرَبَهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَأْتِيهِ إِذَا هُمَا فِي الْكَارِ إِذَا
يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ
اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ لِكَلِمَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْفُتْلَ
وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْفَتْكُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ مُبِينٌ ﴿٤٠﴾

﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿النَّسِيءُ﴾ على وزن فعيل مصدر

بمعنى التأخير، تقول العرب:

أَنَسَأَ الله في أجلك ونَسَأَ في

أجلك، ومنه قول النبي ﷺ: «مَنْ

سَرَّهُ النَّسَاءُ فِي الْأَجْلِ وَالسَّعَةِ فِي

الرِّزْقِ فَلْيَبْصِلْ رَحِمَهُ»، وهذه قراءة

الجمهور والسبعة، وقرأ ابن كثير

فيما روي عنه وقوم معه في الشاذ:

﴿النسيء﴾ مشددة الياء، وقرأ فيما

روى عنه جعفر بن محمد،

والزهري: «النسيء»، وقرأ أيضاً

فيما روي عنه: «النسء» على

وزن «النسع»، وقرأت فرقة

«النسيء». فأما «النسيء» بالمد

والهمز فقال أبو علي: هو مصدرٌ

مثل النكير والتذير وعذير الحي،

ولا يجوز أن يكون فعلاً بمعنى

مفعول لأنه يكون المعنى: إنما

مداولة في الشهر بعينه، عام حلال و عام حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تأول بعض الناس القصة أنهم كانوا إذا شق عليهم توالي الأشهر الحرم أحل لهم المحرم وحرّم عليهم صفر بدلاً منه، ثم مشت الشهور مستقيمة على أسمائها الممهودة، فإذا كان من قابل حرم المحرم على حقه وأحل صفر، ومشت الشهور مستقيمة، ورأت هذه الطائفة أن هذه كانت حالة القوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي قدمناه قبل أليق باللفاظ والآيات، وقد بينه مجاهد، وأبو مالك، وهو مقتضى قول النبي ﷺ: «إن الزمان قد استدار» مع أن الأمر كله قد تقضى، والله أعلم أي ذلك كان.

وقوله: ﴿يَوَاطُّوْا﴾ معناه: ليوافقوا، والمواطأة: الموافقة، تواطأ الرجلان على كذا إذا اتفقا عليه، ومعنى ﴿يَوَاطُّوْا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ﴾: ليحفظوا في كل عام أربعة أشهر في العدد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فأزالوا الفضيلة التي خصّ الله بها الأشهر الحرم وحدها، بمثابة أن يفطر أحد رمضان ويصوم شهراً من السنة بغير مرض أو سفر، وقوله: ﴿زَيْنَ﴾ يحتمل هذا التزيين أن يضاف إلى الله عز وجل والمراد به خلقه لكفرهم وإقرارهم عليه وتحييه لهم، ويحتمل أن يضاف إلى مغويهم ومضلهم من الإنس والجن، ثم أخبر تعالى أنه لا يهديهم ولا يرشدهم،

وهو عموم معناه الخصوص في الموافقين أو عموم مطلق لكن لا هداية من حيث هم كفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر أبو علي البغدادى في أمر النسيء أنه كان إذا صدر الناس من (منى) قام رجل يقال له نعيم بن ثعلبة فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا يرذ لي قضاء، فيقولون: أنسنا شهراً، أي أخر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واسم نعيم لم يعرف في هذا، وما أرى ذلك إلا كما حكى النقاش من بني فُقيّم، كانوا يسمون القلامس وأحدهم قَلَمَس، وكانوا يفتنون العرب في الموسم، يقوم كبيرهم في الحجر، ويقوم آخر عند الباب، ويقوم آخر عند الركن فيفتنون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهم على هذا عِدَّة، منهم نعيم وصفوان ومنهم ذُرَيَّة القَلَمَس حذيفة وغيرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال رسول الله ﷺ: «لا غلوى ولا هامة ولا صفر»، فقال بعض الناس: إنه يريد بقوله: «ولا صفر» هذا النسيء، وقيل غير ذلك.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية هي بلا اختلاف نازلة عتاباً على تخلف من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، غزا فيها الروم في عشرين ألفاً بين راكب وراجل، وتخلف عنه قبائل من الناس ورجال

من المؤمنين كثير ومنافقون، فالعتاب في هذه الآية هو للقبائل وللمؤمنين الذين كانوا بالمدينة، وخص الثلاثة: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية بذلك التذنب الشديد بحسب مكانهم من الصحبة إذ هم من أهل بدر ومن يقتدى بهم، وكان تخلفهم لغير علة كما يأتي.

وقوله: ﴿مَّا لَكُمْ﴾ استفهام بمعنى التقرير والتوبيخ، وقوله: ﴿ذِيْلَ﴾ يريد النبي ﷺ إلا أن صرفه الفعل لا يُسمّى فاعله يقتضي غلاظاً ومخاشنة ما.

والثُّر هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث، يقال في ابن آدم: نُفِر إلى الأمر ينْفِر نفيراً ونُفُراً، ويقال في الدابة: نفرت تنفّر بضم الفاء نُفُوراً، وقوله: ﴿أَنَّا قَلَّتُمْ﴾ أصله تثاقلتم، أدغمت التاء في التاء فاحتجج إلى ألف الوصل، كما قال: ﴿فَأَذَرْتُمْ﴾ وكما تقول: «أزّين»، وكما قال الشاعر:

ثولي الضجيج إذا ما استأفها خصبراً
عذّب المذاق إذا ما أتابع القبيل
وقرأ الأعمش - فيما حكى
المهدي وغيره -: ﴿تَثَاقَلْتُمْ﴾ على الأصل، وذكرها أبو حاتم «تثاقلتم» بتاءين ثم ثاء مثلية، وقال: هي خطأ أو غلط، وصوّب ﴿تَثَاقَلْتُمْ﴾ بتاء واحدة وثاء مثلية إن لو قرئ بها، وقوله: ﴿أَنَّا قَلَّتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ عبارة عن تخلفهم ونكولهم وتركهم، الغزو لسكنى ديارهم والتزام نخلهم وظلالهم، وهو نحو من: أخذ إلى الأرض. وقوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ﴾ تقرير يقول: أرضيتم نزر الدنيا على خضير

الآخرة وحفظها الأسعد؟ ثم أخبر فقال: إن الدنيا بالإضافة إلى الآخرة قليل نزر، فتعطي قوة الكلام التعجب من ضلال من يرضى النزر بدل الكثير الباقي.

وقوله: ﴿إِلَّا تَتُوبُوا﴾ الآية. ﴿إِلَّا تَتُوبُوا يُعَذِّبُكُمْ﴾ شرط وجواب، وقوله: ﴿يُعَذِّبُكُمْ﴾ لفظ عام يدخل تحته أنواع عذاب الدنيا والآخرة، والتهديد بعمومه أشد تخويفاً، وقالت فرقة: يريد: يُعَذِّبُكُمْ بِإِمْسَاكِ المطر عنكم، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: استنفر رسول الله ﷺ قبيلة من القبائل فقعدت فأمسك الله عنها المطر وعذبها به، و«أليم» بمعنى مؤلم، بمنزلة قول عمرو بن معديكرب:

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ

وقوله: ﴿وَيَسْتَبِيلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ توعّد بأن يبدل لرسول الله ﷺ قوماً لا يقعدون عند استنفاره إياهم، والضمير في قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ عائد على الله عز وجل، أي: لا ينقص ذلك من عزّه وعِزِّ دينه، ويحتمل أن يعود على النبي ﷺ، وهو أليق. «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» أي: على كل شيء مقدور، وتبديلهم منه ليس بمحال ممتنع.

﴿٤٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا أيضاً شرط وجواب، والجواب في الفاء من قوله: ﴿فَقَدْ﴾ وفيما بعدها، قال النقاش: هذه أول آية نزلت من سورة براءة، ومعنى الآية: إنكم إن تركتم نصره فالله متكفل به

إذ قد نصره في موضع القلة والانفراد وكثرة العدو، فنصره إياه اليوم أخرى منه حينئذ. وقوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يريد: فعلوا من الأفاعيل ما أذى إلى خروجه، وأسند الإخراج إليهم إذ المقصود تذنيبهم، ولما كان مقصد أبي سفيان بن الحارث الفخر في قوله: «مَنْ طَرَدْتُ كُلَّ مُطْرِدٍ» لم يقرره النبي ﷺ. والإشارة إلى خروج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة وفي صحبته أبو بكر رضي الله عنه، واختصار القصة أن رسول الله ﷺ كان ينتظر أمر الله عز وجل في الهجرة من مكة، وكان أبو بكر رضي الله عنه حين ترك ذمة ابن الدغنة قد أراد الخروج من مكة فقال له رسول الله ﷺ: «اصبر فلعل الله أن يسهل في الصحبة»، فلما أذن الله لرسوله ﷺ في الخروج تجهز من دار أبي بكر وخرجا فبقيا في الغار الذي في جبل ثور في غربي مكة ثلاث ليال، وخرج المشركون في أثرهم حتى انتهوا إلى الغار، فطمس عليهم الأثر، وقال أبو بكر للنبي ﷺ: «لو نظر أحدهم إلى قدمه لرأنا»، فقال له النبي ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» ويروى أن العنكبوت نسجت على باب الغار، ويروى أن الحمامة عششت عند باب الغار، ويروى أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يجعل ثماماً في باب الغار فتحيله المشركون نابتاً وصرفهم الله عنه، ووقع في «الدلائل» في حديث النبي ﷺ أنه نبتت على باب الغار «رأفة» أمرها الله بذلك في الحين، قال الأصمعي:

جمعها «رأء» وهي من نبات السهل. وروي أن أبا بكر رضي الله عنه لما دخل الغار خرق رداءه فسد به كواء الغار لئلا يكون فيها حيوان يؤذي النبي ﷺ، وروي أنه بقيت فيه واحدة فسدّها برجله فوقى الله تعالى، وكان يروح عليهما باللبن عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه.

وقوله: ﴿ثَلَاثَ أَثْنَيْنِ﴾ معناه: أحد اثنين، وهذا كثالث ثلاثة ورابع أربعة، فإذا اختلف اللفظ فقلت: «رابع ثلاثة» فالمعنى: صير الثلاثة بنفسه أربعة، وقرأ جمهور الناس: ﴿ثَلَاثَ أَثْنَيْنِ﴾ بنصب الياء من «ثلاث»، قال أبو حاتم: لا يعرف غير هذا، وقرأت فرقة: «ثانين اثنتين» بسكون الياء من «ثاني»، قال أبو الفتح: حكاه أبو عمرو بن العلاء، ووجه أنه سكن الياء تشبيهاً لها بالالف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه كقراءة: ﴿مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ وكقول جرير:

هُوَ الْخَلِيفَةُ فَارَضُوا مَا رَضِيَ لَكُمْ
مَاضِي الْعَزِيمَةِ مَا فِي حُكْمِهِ جَنْفٌ
وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه، وروي أن أبا بكر الصديق قال يوماً وهو على المنبر: أياكم يحفظ سورة التوبة؟ فقال رجل: أنا، فقال: اقرأ، فقرأ فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ يَكُونُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنَ إِنَّ اللَّهَ مَنَّانٌ﴾ بكى وقال: أنا واللّه صاحبه. وقال الليث: ما صحب الأنبياء مثل أبي بكر الصديق، وقال سفيان بن عيينة: خرج أبو بكر رضي الله عنه

بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أقول: بل خرج منها كل من شاهد غزوة تبوك ولم يتخلف، وإنما المعاتبة لمن تخلف فقط، أما إن هذه الآية منوهة بأبي بكر حاكمه بتقدمه وسابقته في الإسلام رضي الله عنه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَنَّكَ﴾ يريد به النصر والإنجاء واللفظ، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ الآية. قال حبيب بن أبي ثابت: الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على أبي بكر لأن النبي ﷺ لم يزل ساكن النفس ثقة بالله عز وجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول من لم ير السكينة إلا سكون النفس والجأش. وقال جمهور الناس: الضمير عائد على النبي ﷺ، وهذا أقوى، والسكينة عندي إنما هي ما ينزل الله على أنبيائه من الحياطة لهم والخصائص التي لا تصلح إلا لهم، كقوله تعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ لِّرَبِّكَمْ﴾، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ إلى آخر الآية يراد به ما صنعه الله لنبيه ﷺ في وقت تبوك من الظهور والفتوح، لا أن تكون هذه الآية تختص بقصة الغار والنجاة إلى المدينة، فعلى هذا تكون الجنود الملائكة النازلين ببدر وحُتَيْن، ومن رأى أن الآية مختصة بتلك القصة قال: الجنود: ملائكة بشره بالنجاة وبأن الكفار لا ينجح لهم سعي، وفي مصحف حفصة

رضي الله عنها: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِمَا وَأَيَّدَهُمَا﴾، وقرأ مجاهد: ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ بالفتحة، والجمهور: ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ بشد الياء.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ يريد بإدحارها ودحسها وإذلالها، ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْفُتْحَى﴾ قيل: يريد: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، وقيل: الشرع بأسره. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَكَلِمَةُ﴾ بالرفع على الابتداء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن،

يعقوب: ﴿وَكَلِمَةُ﴾ بالنصب على تقدير: «وجعل كلمة»، قال الأعمش: ورأيت في مصحف أنس ابن مالك المنسوب إلى أبي بن كعب «وجعل كلمته هي العليا».

١١١ - ١١٢ تفسير قوله عز وجل: هذا أمر من الله تعالى لأمة محمد ﷺ بالتغير إلى الغزو، فقال بعض الناس: هذا أمر عام لجميع المؤمنين فغير عنه بالفرض على الأعيان في تلك المدة، ثم نسخه الله عز وجل بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا﴾، روي ذلك عن الحسن وعكرمة. وقال جُلُ الناس: بل هذا حض، والأمر في نفسه موقوف على فرض الكفاية، ولم يقصد بالآية فرضه على الأعيان.

وأما قوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فنصب على الحال من الضمير في قوله:

﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ١١١
لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْكُمُ الشُّغْفُ وَرَمَيْتُمْ أَفْئِدَتِكُمْ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا مَخْرَجًا مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ١١٢
عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكِ الْفَرِيقُ صَادِقُوا وَكَاذِبُونَ ١١٣
لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يَذُوبُونَ وَاللَّهُ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ الشَّقِينِ ١١٤
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَاوَاتُ قُلُوبِهِمْ هُمْ فِي رِيحِهِمْ يَرُدُّونَ ١١٥
وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَدُنْهُمْ وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ أَيْعَانَهُمْ فَتَبَطَّوهُمْ وَقِيلَ لأَقْمِدُوا مَعَ الْفَاجِرِينَ ١١٦
لَوْ خَرَجُوا فِئَكُمُ لَأُفْتِنَ وَيُكْذَّبُ عَنْكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ١١٧

١١٤

﴿أَنفِرُوا﴾، ومعنى الخفة والثقل هنا مستعار لمن يمكنه السفر بسهولة ومن يمكنه بصعوبة، وأما من لا يمكنه كالغني ونحوهم فخارج عن هذا، وروي أن ابن أم مكتوم جاء إلى النبي ﷺ فقال: أعلي أن أنفر؟ فقال له: «نعم» حتى نزلت: ﴿يَتَن عَلَى الْأَعْيُنِ حَرَجٌ﴾، وذكر الناس من معاني الخفة والثقل أشياء لا وجه لتخصيص بعضها دون بعض، بل هي وجوه متفقة، فقيل: الخفيف: الغني، والثقل: الفقير، قاله مجاهد، وقيل: الخفيف: الشاب، والثقل: الشيخ، قاله الحسن وجماعة، وقيل: الخفيف: النشط، والثقل: الكاسل، قاله ابن عباس وقتادة، وقيل: المشغول ومن لا شغل له، قاله الحكم بن عيينة وزيد بن علي، وقيل: الذي له

ضيعة هو الثقل ومن لا ضيعة له هو الخفيف، قاله ابن زيد، وقيل: الشجاع هو الخفيف، والجبان هو الثقيل، حكاه النقاش، وقيل: الراجل هو الثقيل والفراس هو الخفيف، قاله الأوزاعي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان الوجهان الآخران ينعكسان وقد قيل ذلك ولكنه بحسب وطأتهم على العدو، فالشجاع هو الثقيل وكذلك الفارس، والجبان هو الخفيف وكذلك الراجل، وكذلك ينعكس الفقير والغني فيكون الغني هو الثقيل بمعنى صاحب الشغل، ومعنى هذا أن الناس أمروا جملة، وهذه الأقوال إنما هي على معنى المثال في الثقل والخفة، وقال أبو طلحة: ما سمع الله عذر أحد، وخرج إلى الشام فجاهد حتى مات، وقال أبو أيوب: ما أجدني أبداً إلا ثقيلاً أو خفيفاً، وروي أن بعض الناس رأى في غزوات الشام رجلاً سقط حاجباه على عينيه من الكبر فقال له: يا عم، إن الله قد عذرك، فقال: يا ابن أخي إنا قد أمرنا بالنفر خفافاً وثقالاً، وأسند الطبري عمن رأى المقداد ابن الأسود بحمص وهو على تابوت صراف وقد فضل على التابوت من سمنه وهو يتجهز للغزو، فقال له: لقد عذرك الله، فقال: أتت علينا سورة البعوث ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وروي: سورة البعوث.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَسِيلَةِ﴾ وصف لأكمل ما يكون من الجهاد وأنفعه عند الله تعالى، فحضر على

أكمل الأوصاف، وقدمت الأموال في الذكر إذ هي أول مصرف وقت التجهيز، فرتب الأمر كما هو في نفسه، ثم أخبر أن ذلك لهم خير للفوز برضى الله وغلبة العدو وورثة الأرض، وفي قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَكُونُونَ﴾ تنبيه وهز للنفوس.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ الآية. ظاهر هذه الآية وما يحفظ من قصة تبوك أن الله لما أمر رسوله بغزو الروم ندب الناس، وكان ذلك في شدة من الحر وطيب من الشمار والظلال، فنفر المؤمنون، واعتذر منهم لا محالة فريق لا سيما من القبائل المجاورة للمدينة، ويدل على ذلك قوله تعالى في أول هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا الْبُيُوتُ مَائِسًا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ لأن هذا الخطاب ليس للمنافقين خاصة، بل هو عام، واعتذر المنافقون بأعذار كاذبة، وكانوا بسبيل كسل مفرط وقصد للتخلف، وكانت أعذار المؤمنين حقيقة ولكنهم تركوا الأولى من التحامل، فنزل ما سلف من الآيات في عتاب المؤمنين، ثم ابتدأ من هذه الآية ذكر المنافقين وكشف ضمائرهم، فيقول: لو كان هذا الغزو لقرض أي لمال وغنيمة تنال قريباً بسفر قاصد يسير لبادروا إليه، لا لوجه الله ولا لظهور كلمته، ﴿وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ في غزو الروم، أي المسافة الطويلة. وذكر أبو عبيدة أن أعرابياً قدم البصرة وكان قد حمل حمالة فعجز عنها، وكان معه ابن له يسمى الأحوص،

فبادر الأحوص أباه بالقول فقال: إنا من تعلمون، وإنا سبيل، وجئنا من شقة، ونطلب في حق، وتثبطونا ويجزيكم الله. فتبأ أبوه ليخطب فقال له: «يا، إياك، إني قد كفيتك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يا: تنبيه، وإياك: نهى. وقرأ عيسى بن عمر: «الشُّقَّةُ» بكسر الشين، وقرأ الأعرج: «بعيدت» بكسر العين، وحكى أبو حاتم أنها لغة بني تميم في اللفظتين.

وقوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ يريد المنافقين، وهذا إخبار غيب، وقوله: ﴿يَبْلُغُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يريد عند تخلفهم مجاهرة وكفرهم، فكانهم يوجبون على أنفسهم الحنم بعذاب الله. ثم أخبر أن الله الذي هو أعدل الشاهدين يعلم كذبهم، وأنهم كانوا يستطيعون الخروج ولكنهم تركوه كفراً ونفاقاً، وهذا كله في الجملة لا بتعيين شخص، ولو عُنِ لقتل بالشرع.

وقرأ الأعمش على جهة التشبيه بواو ضمير الجماعة: ﴿لَوْ أَنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ بضم الواو، ذكره ابن جني، ومثله بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَتَوْا النَّبِيَّةَ﴾، ﴿تَتَنَبَّأُوا الْمَوْتَ﴾، و﴿أَشْرَوْا الضَّلَالَةَ﴾ وما أشبهه.

﴿١٢﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية في صنف مبالغ في النفاق واستأذنوا دون اعتذار، منهم عبدالله بن أبي، والجعد بن قيس، ورفاعة بن التابوت، ومن اتبعهم، فقال بعضهم: ائذن لي ولا تفتني

وقال بعضهم: ائذن لنا في الإقامة، فأذن لهم رسول الله ﷺ استبقاءً منه عليهم، وأخذاً بالأسهل من الأمور، وتوكلاً على الله. وقال مجاهد: قال بعضهم: نستأذنه فإن أذن لنا في القعود قعدنا وإلا قعدنا، فنزلت الآية في ذلك. وقالت فرقة: إن رسول الله ﷺ أذن لهم دون أن يؤمر بذلك فغفني عنه ما يلحق من هذا، وقدم ذكر العفو قبل العقاب إكراماً له ﷺ، وقال عمرو بن ميمون الأودي: إن رسول الله ﷺ صدم برأيه في قصتين دون أن يؤمر فيهما بشيء. هذه وأمر أسارى بدر، فعاتبه الله فيهما. وقالت فرقة: بل قوله سبحانه في هذه الآية: ﴿عَمَّا أَثَرَ﴾ استفتاح كلام، كما تقول: أصلحك الله، وأعزك الله، ولم يكن منه ﷺ ذنب يُعفى عنه، لأن صورة الاستغفار وقبول الأعذار مصروفة إلى اجتهاده، وأما قوله سبحانه: ﴿لَمْ أَذَنْ﴾ فهي على معنى التقرير.

وقوله: ﴿الَّذِينَ صَدَّقُوا﴾ يريد: في استئذانك وأنت لو لم تأذن لهم خرجوا معك، وقوله: ﴿وَتَقَلَّرَ الْكَذِبِينَ﴾ يريد: في أنهم استأذنوك يظهر لك أنهم يقفون عند حدك وهم كذبة قد عزموا على العصيان أذنت لهم أو لم تأذن. وقال الطبري: معناه: حتى تعلم الصادقين في أن لهم عذراً والكافرين في ألا عذر لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا التأويل يختلط المعتذرون، وقد قدمنا أن فيهم مؤمنين كالمستأذنين وهم لا يؤمنون

بالله واليوم الآخر، والأول أصوب، والله أعلم. وأدخل الطبري أيضاً في تفسير هذه الآية عن قتادة أن هذه الآية نزلت بعدها الآية الأخرى في سورة النور ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِيُغِيصَ سَائِبِهِمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غلط لأن آية النور نزلت سنة أربع من الهجرة في غزوة الخندق في استئذان بعض المؤمنين رسول الله ﷺ في بعض شأنهم في بيوتهم في بعض الأوقات، فأباح الله له أن يأذن، فتباينت الآيتان في الوقت والمعنى.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ الآية. نفى عن المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ في التخلف دون عذر كما فعل الصنف المذكور من المنافقين.

وقوله: ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ يحتمل أن تكون ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب على معنى: لا يستأذنون في التخلف كراهية أن يجاهدوا، قال سيبويه: ويحتمل أن تكون في موضع خفض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: على معنى: لا يحتاجون إلى أن يستأذنوا في أن يجاهدوا، بل يمضون قدماً، أي: فهم أخرى ألا يستأذنوا في التخلف. ثم أخبر بعلمه تعالى بالمتقين وفي ذلك تعبير للمنافقين وطعن عليهم بين.

١٥ - ٤٧ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تنص على أن المستأذنين إنما هم مخلصون للنفاق، ﴿وَأَزَابَتْ

قُلُوبُهُمْ﴾ معناه: شكّت، والربيب نحو الشك، و﴿يَسْتَرْذُونَ﴾ أي: يتحiron ولا يتجه لهم هدى، ومن هذه الآية نزاع أهل الكلام في حدّ الشك إلى أنه تردّد بين أمرين، والصواب في حده أنه توقف بين أمرين. والتردد في الآية إنما هو في ريب هؤلاء المنافقين، إذ كانوا تخطر لهم صحة أمر النبي ﷺ أحياناً، وأنه غير صحيح أحياناً، ولم يكونوا شاكين طالبين للحق لأنه كان يتضح لهم لو طلبوه، بل كانوا مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كالشاة العائرة بين الغنمين، وأيضاً فبين الشك والريب فرق ما، وحقيقة الريب إنما هو الأمر يستريب به الناظر فيخلط عليه عقيدته، وربما أدى إلى شك وحيرة، وربما أدى إلى علم النازلة التي هو فيها، ألا ترى أن قول الهذلي:

كَأَنِّي أَرْنَتْهُ بِرَيْبٍ
لا يتجه أن يفسر بشك.

قال الطبري: وكان جماعة من أهل العلم يرون أن هاتين الآيتين منسوختان بالآية التي ذكرنا في سورة النور. وأسند عن الحسن وعكرمة أنهما قالاً في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَدُّونَ﴾: منسوخة بآية النور: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غلط وقد تقدّم ذكره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا

أَلْخُرُجُ ﴿الآية، حجة على المنافقين، أي: ولو أرادوا الخروج بنياتهم لنظروا في ذلك واستعدوا له قبل كونه. والعُدَّة: ما يُعَدُّ للأمر ويُرَوَّى له من الأشياء.

وقرأ جمهور الناس: ﴿عُدَّةٌ﴾ بِضَمِّ العين وتاء تأنيث، وقرأ محمد بن عبد الملك بن مروان وابنه معاوية بن محمد: ﴿عُدَّةٌ﴾ بِضَمِّ العين وهاء إضمار، يريد: ﴿عُدَّتْهُ﴾ فحذف تاء التأنيث لما أضاف، كما قال: ﴿وَأَقَامَ الصلاةَ﴾، يريد: ﴿واقامة الصلاة﴾، هذا قول الفراء، وضغفه أبو الفتح وقال: إنما حذف تاء التأنيث وجعل هاء الضمير عوضاً منها، وقال أبو حاتم: هو جمع (عُدَّة) على (عُدَّة) كثرة ويزر وذرّة وذرّ، والوجه فيه عُدَد ولكن لا يوافق خط المصحف. وقرأ عاصم فيما روى عنه أبان، ويزر بن حبيش: ﴿عُدَّةٌ﴾ بكسر العين وهاء إضمار، وهو عندي اسم لما يُعَدُّ كالذئب والقِتْل، لأن العدو سُمِّي قِتْلاً إذ حقه أن يقتل، هذا في معتقد العرب حين سمته.

وانبعاثهم: نفوذهم لهذه الغزوة، والتثبيط: التكيل وكسر العزم، وقوله: ﴿وَقِيلَ﴾ يحتمل أن يكون حكاية عن الله تعالى، أي: قال الله تبارك وتعالى في سابق قضائه: ﴿أَقْمِدُوا مَعَ الْفُقُودِينَ﴾، ويحتمل أن يكون حكاية عنهم، أي: كانت هذه مقالة بعضهم لبعض، إما لفظاً وإما معنى فحكى في هذه الألفاظ التي تقتضي لهم مذمة إذ القاعدون النساء والأطفال، ويحتمل أن يكون عبارة عن إذن محمد ﷺ لهم في

القيود، أي: لما كره الله خروجهم يستر أن قلت لهم: ﴿أَقْمِدُوا مَعَ الْفُقُودِينَ﴾، والقيود هنا عبارة عن التخلف والتراخي كما هو في قول الشاعر:

.....
وافعذ فلنك أنت الطاعم الكاسي
وليس للمهينة في هذا كله مدخل،
وكراهية الله انبعاثهم رفق بالمؤمنين.
وقوله تعالى: ﴿لو خرجوا فيكم﴾ الآية... خبر بأنهم لو خرجوا لكان خروجهم مضرة، وقوله: ﴿إِلَّا حَيْثُ﴾ استثناء من غير الأول، وهذا قول من قدر أنه لم يكن في عسكر رسول الله ﷺ خيال فيزيد المنافقون فيه، فكأن المعنى: ما زادوكم قوة ولا شدة لكن خيالاً، ويحتمل أن يكون الاستثناء غير منقطع، وذلك أن عسكر رسول الله ﷺ في غزوة تبوك كان فيه منافقون كثير ولهم لا محالة خيال، فلو خرج هؤلاء لأتأموا مع الخارجين فزاد الخيال. والخيال: الفساد في الأشياء المؤتلفة الملتحمة كالمواد وبعض الأجرام، ومنه قول الشاعر:

يا بُنَيَّ لُبْنَي لَسْتُ مَا يَبِيدُ
إِلَّا يَدَا مَخْبُولَةِ الْعُضْدِ
وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿مَا زَادَكُمْ﴾ بغير واو.
وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَا رَضُوا﴾ ومعناه: لأسرعوا السير، و﴿وَلَا لَكُمْ﴾ معناه: فيما بينكم من هنا إلى هنا لسد الموضع الخلّة بين الرجلين. والإيضاع: سرعة السير، وقال الزجاج: ﴿وَلَا لَكُمْ﴾ معناه: فيما يخل بكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وماذا يقول في قوله تعالى: ﴿فَبَاسُوا خِلَالَ الذِّيَابِ﴾، وقرأ مجاهد فيما حكى النقاش عنه: ﴿وَلَا رَضُوا﴾، وهو بمعنى الإسراع، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَافِثُ يَوْضُونَ﴾، وحكي عن الزبير أنه قرأ: ﴿وَلَا رَضُوا﴾، قال أبو الفتح: هذه من «رَضَّ البعير» إذا أسرع في مشيه رفضاً ورفضاً، ومنه قول حسان بن ثابت:

بِرْجَاجَةٍ رَفَضَتْ بِمَا فِي قَفْرِهَا
رَفَضَ الْقُلُوصِ بِرَاجِبٍ مُسْتَعْجِلٍ
ووقعت «وَلَا أَوْضَعُوا» بألف بعد «لا» في المصحف، وكذلك وقعت في قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾، قيل: وذلك لخشونة هجاء الأولين. قال الزجاج: وإنما وقعوا في ذلك لأن الفتحة في العبرانية وكثير من الألسنة تكتب ألفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن تمطل حركة اللام فيحدث ألف بين اللام والهمزة التي من «أوضع».

وقوله تعالى: ﴿يَعْتُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون لكم الفتنة، وقوله: ﴿وَرَبِّكُمْ سَعَوْنَ﴾ قال سفيان بن عيينة، والحسن، ومجاهد، وابن زيد: معناه: جواسيس يستمعون الأخبار وينقلونها إليهم، ورجّحه الطبري. وقال النقاش: بناء المبالغة يضعف هذا القول. وقال جمهور المفسرين: معناه: وفيكم مطيعون سامعون لهم. وقوله: ﴿وَأَنَّهُ عَيِّمٌ بِاللَّائِينَ﴾ توعدهم ولعن كان من المؤمنين على هذه الصفة.

﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

في هذه الآية تحقير لهم، وذلك أنه أخبر أنهم قديماً سعوا على الإسلام فأبطل الله سعيهم، ومعنى قوله: ﴿مِنْ بَيْتٍ﴾ ما كان من حالهم من وقت هجرة رسول الله ﷺ ورجوعهم عنه في أحد وغيرها، ومعنى ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ دبروها ظهراً لبطن. ونظروا في نواحيها وأقسامها، وسعوا بكل حيلة. وقرأ مسلمة بن محارب: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ﴾ بالتخفيف في اللام، و﴿أَمَرُ اللَّهِ﴾: الإسلام ودعوته.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنَّ لِي﴾ نزلت في الجذ بن قيس، وذكر أن رسول الله ﷺ لما أمر بالغزو إلى بلاد الروم حرّض الناس فقال للجذ بن قيس: «هل لك العام في جلاذ بني الأصفر؟»، وقال له وللناس: «اغزوا تغنموا بنات الأصفر»، فقال له الجذ بن قيس: ائذن لي في التخلف ولا تغنني بذكر بنات الأصفر، فقد علم قومي أنني لا أتمالك عن النساء إذا رأيتهن. وذكر ابن إسحق نحو هذا من القول الذي فيه فتور كثير وتخلف في الاعتذار. وأسند الطبري أن رسول الله ﷺ قال: «اغزوا تبوك تغنموا بنات الأصفر» فقال الجذ: ائذن لي ولا تغنني بالنساء، وهذا منزع غير الأول إذا نظر، وهو أشبه بالنفاق والمحادة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الجذ قال: «ولكنني أعينك بمالي»، وتأول بعض الناس قوله: ﴿وَلَا تَغْنِيَّ﴾ أي: لا تصعب علي حتى أحتاج إلى مواقة

معصيتك ومخالفتك، فسهل أنت علي ودعني غير مجلج. وهذا تأويل حسن واقف مع اللفظ، لكن نطاهر ما روي من ذكر بنات الأصفر، وذلك معترض في هذا التأويل. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿وَلَا تَغْنِيَّ﴾ بضم الناء الأولى، قال أبو حاتم: هي لغة بني تميم، والأصفر هو الروم بن عيصو بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وكان أصفر اللون فيقال للروم: بنو الأصفر، ومن ذلك قول أبي

سفيان: «أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر»، ومنه قول الشاعر:

ويؤ الأصفر الكرام ملوك الروم
لم ينبق منهم مذكور
وذكر النقاش والمهدوي أن الأصفر رجل من الحبشة وقع ببلاد الروم فتزوج وأنسل بنات لهن جمال، وهذا ضعيف. وقوله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي في الذي أظهروا الفرار منه بما تبين لك وللمؤمنين من نفاقهم، وصح عندكم من كفرهم، وفسد ما بينكم وبينهم. و﴿سَقَطُوا﴾ عبارة مثبتة عن تمكن وقوعهم، ومنه: «على الخير سقطت»، ثم قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ وهذا توسع شديد لهم، أي: هي مآلهم ومصيرهم كيفما تقلبوا في الدنيا

لَقَدْ أَسْعَوْا لِلْفِتْنَةِ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
حَسَبَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنَّ لِي وَلَا تَغْنِيَّ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ
سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾
﴿٥٠﴾ إِنَّ نَافِثَةَ هِمْ حَسَنَةً دَسَّوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَكَانُوا
وَهُمْ قَرِحُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ
اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
﴿٥٣﴾ قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا أَلَا اخَذَ الْحَسَنَاتِ وَعَنْ
نَرَبِّكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ
أَوْ يَأْتِيَكُمُ الْقَارِعَةُ أَوْ آمَنَّا بِكُمْ مُتْرَكِينَ ﴿٥٤﴾ قُلْ
أَفَعُوقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَلِ مِنْكُمْ لَكُمْ كُنْتُمْ
قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ نَفَقَتَهُمْ
أَلَا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ
وَلَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَلَا يَخَافُونَ اللَّهَ وَلَهُمْ كَذِبُونَ ﴿٥٦﴾

فإليها يرجعون، فهي محيطية بهذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ﴾ الآية. أخبر تعالى عن معتقدهم وما هم عليه، والحسنة هنا بحسب الغزوة هي الغنيمة والظفر، والمصيبة الهزم والخيبة، واللفظ عام - بعد ذلك - في كل محبوب ومكروه. ومعنى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ أي قد حزمنا نحن في تخلفنا ونظرنا لأنفسنا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَكَ﴾ الآية. أمر الله عز وجل نبيه في هذه الآية أن يرد على المنافقين ويفسد عليهم فرحهم بأن يعلمهم أن الشيء الذي يعتقدونه مصيبة ليس كما اعتقدوه، بل الجميع مما قد كتبه الله عز وجل للمؤمنين، فلما أن يكون ظفراً وسروراً في الدنيا وإما أن يكون

ذخراً للآخرة. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿قُلْ هَلْ يُصِيبُنَا﴾ ذكره أبو حاتم. وعند ابن جني: وقرأ طلحة بن مصرف، وأعين قاضي الري: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا﴾ بشد الياء الثانية وكسرهما، كذا ذكره أبو الفتح وشرح ذلك، وهو وهم، والله أعلم. قال أبو حاتم: قال عمرو بن شفيق: سمعت أعين قاضي الري يقرأ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا﴾ النون مشددة، قال أبو حاتم: ولا يجوز ذلك لأن النون لا تدخل مع «لن»، ولو كانت لطلحة بن مصرف لجازت لأنها مع «هل»، قال الله عز وجل: ﴿هَلْ بِذِهِنَّ كَيْدٌ مَا يَعِظُ﴾. وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ يحتتمل أن يريد ما قضى وقدر، ويحتتمل أن يريد ما كتب الله في قرآننا وأنزل علينا من أننا إما أن نظفر بعدونا وإما أن نستشهد فندخل الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الاحتمال يرجع إلى الأول، وقد ذكرهما الزجاج.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّ اللَّهُ فَلْيَنْوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ معناه: مع سعيهم وجدهم إذ لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا قول أكثر العلماء، وهو الصحيح، والذي فعله رسول الله ﷺ مدة عمره، ومنه مظهرته بين درّعين، وتخبط الناس في معنى التوكل في الرزق، فالأظهر والأصح أن الرجل الذي يمكنه التحرف والحلال المضح الذي لا تدخله كراهية ينبغي له أن يمثل منه ما يصونه ويحملة مثل الاحتطاب ونحوه. وقد قرن الله تبارك وتعالى الرزق بالتسبب، ومنه

قوله تعالى: ﴿وَمَرْئِي إِلَيْكَ بِحُجْجِ الْفَخْلَةِ شَقِطَ عَلَيْكَ رُبُّكَ جَبِيًّا﴾ ومنه قول النبي ﷺ في الطير: ﴿تَغْدُو خِمَاصاً... الحديث، ومنه قوله ﷺ: ﴿قَبِيْهَا وَتَوَكَّلْ﴾، وذهب بعض الناس إلى أن الرجل القوي الجلد إذا بلغ من التوكل إلى أن يدخل غاراً أو بيتاً يُجهل أمره فيه، ويبقى في ذكر الله متوكلاً يقول: إن كان بقي لي رزق فسيأتي الله به، وإن كان رزقي قد تَمَّ مِثْ - إن ذلك حسنٌ بالغ عند قوم. وحدثني أبي رضي الله عنه أنه كان في الحرم رجل ملازم يُخرج من جيبه المرة بعد المرة بطاقة ينظر فيها ثم يصرفها ويبقى على حاله حتى مات في ذلك الموضع، فقرأت البطاقة فإذا فيها مكتوب: ﴿وَأَمْسِرْ لِمَكْرٍ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الطريقة لا يراها جلُّ أهل العلم، بل ينبغي أن يسعى الرجل لقدر القوت سعياً جميلاً لا يواقع فيه شبهة، فإن تعذر عليه ذلك وخرج إلى حد الاضطراب فحينئذ إن تسامح في السؤال وأكل الميتة وما أمكنه من ذلك فهو له مباح، وإن صبر واحتسب نفسه كان في أعلى رتبة عند قوم. ومن الناس من يرى أنَّ فرضاً عليه إبقاء رمقه. وأما من يختار الإلقاء باليد - والسعي ممكن - فما كان هذا قط من خلق الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا العلماء، والله سبحانه الموفق للصواب، ومن حُجِّج من يقول بالتوكل حديث النبي ﷺ في قوله:

«يدخل الجنة سبعون ألفاً من أمتي بلا حساب، وهم الذين لا يَرْقُونَ ولا يَسْتَرْقُونَ ولا يكتوون ولا يتطببون، وعلى ربهم يتوكلون»، وفي هذا الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لِعُكَّاشَةَ بن محصن أن يكون منهم، فقيل: ذلك لأنه عرف منه معداً أنه لذلك، وقال للآخر: سبقك بها عكاشة، وبردت الدعوة، فقيل: ذلك لأنه كان منافقاً، وقيل: بل عرف منه أنه لا يصلح لهذه الدرجة من التوكل.

﴿٥٢﴾ - ﴿٥٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

فالمعنى في هذه الآية الرذ على المنافقين في معتقدهم في المؤمنين، وإزالة ظنهم أن المؤمنين تنزل بهم مصائب، والإعلام بأنها حسنى كيف تصرفت.

﴿تَرْصُدُونَ﴾ معناه: تنتظرون، والحُسْنَيَانِ: الشهادة والطُّفْرُ، وقرأ ابن محبصن: ﴿إِلَّا أَخَذَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ بوصل ألف ﴿إِخَذَى﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه لغة وليست بالقياس، وهذا نحو قول الشاعر:

يا بالمُغْبِرَةِ رَبِّ أَمْرِ مُغْضِلِ

وقول الآخر:

إِنْ لَمْ أَقَاتِلْ فَأَلْبِسْنِي بُرْعًا

وقوله: ﴿يَعَذَابُ مِثِّ عِنْدِهِ﴾ يريد الموت بإحداث الأسف، ويحتتمل أن يكون توعداً بعذاب الآخرة، وقوله: ﴿أَوْ يَأْيِيَّتَا﴾ يريد القتل. وقيل: ﴿يَعَذَابُ مِثِّ عِنْدِهِ﴾ يريد أنواع المصاعب والقوارع. وقوله: ﴿فَتَرَصَّوْا لَنَا﴾

مَعَكُمْ مُتَرَضُّونَ ﴿٥٤﴾ وعيد وتهديد.
وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ سببها أن الجد بن قيس حين قال: «اذن لي ولا تفتني» قال: «إني أعيئك بما» فنزلت هذه الآية فيه، وهي عامة بعده. والطَّوعُ والكَرْهُ يعمان كل إنفاق. وقرأ ابن وثاب، والأعمش: ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ بضم الكاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتصل هنا ذكر أفعال الكافر إذا كانت براء كصلة القرابة وجبر الكسير وإغاة المظلوم، هل ينتفع بها أم لا؟ فاختصار القول في ذلك أن في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن ثواب الكافر على أفعاله البرة هو في الطعمة يطعمهما» ونحو ذلك، فهذا مُقنع لا يحتاج معه إلى نظر، وأما أن ينتفع بها في الآخرة فلا دليل، ذلك أن عائشة أم المؤمنين قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله، أ رأيت عبدالله بن جُدعان، أينفعه ما كان يطعم ويصنع من خير؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين». ودليل آخر في قول عمر رضي الله عنه لابنه: «ذاك العاصي بن وائل لا جزاء الله خيراً»، وكان هذا القول بعد موت العاصي، الحديث بطوله، ودليل ثالث في حديث حكيم بن حزام على أحد الثَّائِلِينَ، أعني في قول النبي ﷺ: «أسلمت على ما سلف لك من خير»، ولا حجة في أمر أبي طالب وكونه في ضحضاح من نار لأن ذلك إنما هو بشفاعته محمد ﷺ، وبأنه وجده في غمرة من النار فأخرجه،

ولو فرضنا أن ذلك بأعماله لم يحتج إلى شفاعته.
وأما أفعال الكافر القبيحة فإنها تزيد في عذابه، وبذلك تفاضلهم في عذاب جهنم.
وقوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا﴾ أمر في ضمنه جزاء، وهذا مستمر في كل أمر معه جواب، فالتقدير: «إن تنفقوا لن يتقبل منكم»، وأما إذا عُرِيَ الأمر من جواب فليس يصبه تضمن الشرط.
﴿٥٦﴾ - ﴿٥٦﴾ تفسير قوله

عَزَّ وَجَلَّ:

يحتمل أن يكون معنى الآية: وما منعهم الله أن تقبل إلا لأجل أنهم كفروا بالله، ف﴿أَنْ﴾ الأولى - على هذا - في وضع خفض نصبها الفعل حين زال الخافض، و﴿أَنْ﴾ الثانية في موضع نصب مفعول من أجله. ويحتمل أن يكون المعنى: وما منعهم الله قبول نفقاتهم إلا لأجل كفرهم، فالأولى - على هذا - في المعنى: وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم، فالثانية في موضع رفع فاعلة.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم: ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي، ونافع - فيما روي عنه -: ﴿أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾، بالياء، وقرأ الأعرج بخلاف عنه: ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ

فَلَا تُجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَإِيمَانُكُمْ وَمَاهُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْشَرُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَخْتِذُونَ مَلَائِكَةً أَوْ مَغْدَرَةً أَوْ مُدَاخِلَةً لَأُولُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يُخْلِفُونَ ﴿٥٧﴾ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَزِدْكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَظْطَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلُوفَةُ فَلَوْ لَهُمْ فِي الرِّقَابِ وَالْعَدَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ ذُنَّ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

نَفَقَتُهُمْ﴾ بالياء من فوق وإفراد النفقة، وقرأ الأعمش: ﴿أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ صَدَقَاتُهُمْ﴾، وقرأت فرقة ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾ بالنون ونصب النفقة.

و﴿كَسَالَى﴾: جمع «كسلان». و«كسلان» إذا كانت مؤنثة «كسلى» لا ينصرف بوجه، وإن كانت مؤنثة «كسلانة» فهو ينصرف في النكرة.

ثم أخبر عنهم تبارك وتعالى أنهم لا ينفقون نفقة إلا على كراهية، إذ لا يقصدون بها وجه الله ولا محبة المؤمنين، فلم يبق إلا فقد المال وهو من مكارههم لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ الآية. حَقَّرَ هذا اللفظ شأن المنافقين وعَلَّلَ إعطاء الله لهم الأموال والأولاد بإرادته تعذيبهم بها،

واختلف في وجه التعذيب، فقال قتادة: في الكلام تقديم وتأخير، فالمعنى: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وقال الحسن: الوجه في التعذيب أنه بما ألزمهم فيها من أداء الزكاة والنفقة في سبيل الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالضمير في قوله: ﴿يَا﴾ عائد - في هذا القول - على الأموال فقط. وقال ابن زيد وغيره: التعذيب هو مصائب الدنيا، ورزاياهم هي لهم عذاب إذ لا يؤجرون عليها، وهذا القول وإن كان يستغرق قول الحسن فإن قول الحسن يتقوى تخصيصه بأن تعذيبهم بإلزام الشريعة أعظم من تعذيبهم بسائر الرزايا، وذلك لاقتران الدلة والغلبة بأوامر الشريعة لهم.

وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ يحتمل أن يريد: ويموتون على الكفر، ويحتمل أن يريد: وتزهق أنفسهم من شدة التعذيب الذي ينالهم. وقوله: ﴿وَقُتِلَ كُفْرُهُمْ﴾ جملة في موضع الحال على التأويل الأول، وليس يلزم ذلك على التأويل الثاني.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْلُلُونَ﴾ الآية. أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم يحلّفون أنهم من المؤمنين في الدين والشريعة، ثم أخبر تعالى عنهم - على الجملة لا على التعيين - أنهم ليسوا من المؤمنين، وإنما هم يفترون منهم فيظهرون الإيمان وهم يبيتون النفاق، والفرق: الخوف، والفرقة: الجبان، وفي المثل: ﴿فَرَّقَ خَيْرٌ مِنْ حُبَيْنِ﴾.

﴿٥٧﴾ - ﴿٥٨﴾ تفسير قوله عز وجل: الْمَلَجَأُ: من لجأ يلجأ إذا أوى واعتصم. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ بفتح الميم، وقرأ سعيد بن عبد الرحمن بن عوف: ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ بضم الميم، وهي الغيران في أعراض الجبال، ففتح الميم من: «غار الشيء» إذا دخل، كما تقول: «غارت العين» إذا دخلت في الحجاج، وضم الميم من: «أغار الشيء غيرة» إذا أدخله، فهذا وجه من اشتقاق اللفظة. وقيل: إن العرب تقول: «غار الرجل وأغار» بمعنى واحد، أي دخل. قال الزجاج: إذا دخل الغور، فيحتمل أن تكون اللفظة أيضاً من هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح في قراءة ضم الميم أن تكون من قولهم: «حبل مغار» أي مفتول، ثم يستعار ذلك في الأمر المحكم المبرم فيجيء التأويل على هذا: لو يجدون غصرة أو أمورا مرتبطة مشددة تعصمهم منكم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَدَخَلًا لَوْلَا إِلَهُهُ﴾. وقرأ جمهور الناس: ﴿مَدَخَلًا﴾ أصله مُفْتَعَل، وهو بناء تأكيد ومبالغة، ومعناه: الشرب والثَّق في الأرض. وبما ذكرناه في «الملجأ والمغارات والمدخل» فسر ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الزجاج: المدخل معناه: قوم يدخلونهم في جملتهم. وقرأ مسلمة بن محارب، والحسن، وابن أبي إسحق، وابن محيصن، وابن كثير بخلاف عنه: ﴿أَوْ مَدَخَلًا﴾ فهذا من دخل، وقرأ قتادة، وعيسى بن

عمر، والأعمش: ﴿أَوْ مَدَخَلًا﴾ بتشديدهما، وقرأ أبي بن كعب: ﴿مُدَخَلًا﴾ بنون، قال أبو الفتح: هذا كقول الشاعر:

.....

وَلَا يَذِي فِي حَمِيَّتِ السُّنَنِ تَنْدَخِلُ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقال أبو حاتم: قراءة أبي بن كعب: ﴿مُدَخَلًا﴾ بناء مفتوحة، وروي عن الأعمش، وعيسى: ﴿مُدَخَلًا﴾ بضم الميم فهو من أدخل. وقرأ الناس: ﴿لَوْلَا﴾، وقرأ جَدُّ أبي عبيدة بن قمرل: ﴿لَوَالُوا﴾ من الموالاة، وأنكرها سعيد بن مسلم وقال: أظنّها: ﴿لَوَالُوا﴾ بمعنى «لَجُّوا». وقرأ جمهور الناس: ﴿يَجْمَعُونَ﴾، ومعناه: يسرعون مصممين غير متئين، ومنه قول مهلهل:

لَقَدْ جَمَعْتُ جَمَاحاً فِي دِمَائِهِمْ
حَتَّى رَأَيْتُ ذَوِي أَحْسَابِهِمْ خَمَدُوا
وقرأ أنس بن مالك: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ ومعناه: يهربون، ومنه قولهم في حديث الرّجُم: «قُلْنَا أَذْلَقْنَاهُ الْحِجَارَةَ جَمْعاً».

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْعَنُكَ﴾ الآية. الضمير في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ عائد على المنافقين، وأسند الطبري إلى أبي سعيد الخدري أنه قال: جاء ابن ذي الحُوَيْرِصَةَ التميمي ورسول الله ﷺ يقسم قسماً فقال: «اعدل يا محمد» الحديث المشهور بطوله، وفيه: قال أبو سعيد: فنزلت في ذلك ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْعَنُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾. وروى داود بن أبي عاصم أن النبي ﷺ أتى بصدقة فقسمها ووراء رجل من الأنصار

فقال: «ما هذا بالعدل» فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه نزعة منافق، وكذلك روي من غير طريق أن الآية نزلت بسبب كلام المنافقين إذ لم يعطوا بحسب شطط آمالهم.

و﴿يَلْمِزُكَ﴾ معناه: يعيبك ويأخذ منك في الغيبة، ومنه قول الشاعر: إِذَا لَقَيْتُكَ تُبْدِي لِي مَكَاشِرَةً وَإِنْ أَغِيبُ فَأَنْتَ الْهَامِزُ اللَّيْمُزُ ومنه قول رؤبة:

.....

فِي ظِلِّ عَصْرِي بِاطْلِي وَلَمْزِي والهمز أيضاً في نحو ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَلَّغْ لِكُلِّ هُمْزٍ لَنَزَةٍ﴾، وقيل لبعض العرب: أنهمز الفأرة؟ فقال: إنها تهمزها الهرة، قال أبو علي: فجعل الأكل همزاً، وهذه استعارة كما استعار حسان بن ثابت الغرث في قوله:

.....

وَتَضْبِغُ غَزْزِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ تركيباً على استعارة الأكل في الغيبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يجعل الأعرابي الهمز الأكل، وإنما أراد ضربها إياها بالناب والظفر. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ بكسر الميم، وقرأ ابن كثير فيما روى عنه حماد بن سلمة ﴿يَلْمِزُكَ﴾ بضم الميم، وهي قراءة أهل مكة وقراءة الحسن، وأبي رجاء، وغيرهم. وقرأ الأعمش: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ وروى أيضاً حماد بن سلمة عن ابن كثير: ﴿يَلْمِزُكَ﴾،

وهي مفاعلة من واحد لأنه فعل لم يقع من النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية. وصف للحال التي ينبغي أن يكون عليها المستقيمون. يقول تعالى: «ولو أن هؤلاء المنافقين رضوا قسمة الله الرزق لهم وما أعطاهم على يدي رسوله، ورجوا أنفسهم فضل الله ورسوله، وأتروا بالرغبة إلى الله، لكان خيراً لهم وأفضل مما هم فيه». وحذف الجواب من الآية لدلالة ظاهر الكلام عليه، وذلك من فصيح الكلام وإيجازه.

﴿٦٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصرة تقتضي وقوف الصدقات على الثمانية الأصناف، وإنما اختلف في صورة القسمة - فقال مالك وغيره: ذلك على قدر اجتهاد الإمام وبحسب أهل الحاجة، وقال الشافعي رحمه الله: هي ثمانية أقسام على ثمانية أصناف لا يخل بواحد منها إلا أن المؤلفه انقطعوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقول صاحب هذا القول: إنه لا يجزي المتصدق والقاسم من كل صنف أقل من ثلاثة.

وأما الفقير والمسكين - فقال الأصمعي، وغيره: الفقير أبلغ فاقة، وقال غيرهم: المسكين أبلغ فاقة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا طريق إلى هذا الاختلاف ولا إلى الترجيح إلا النظر في شواهد القرآن، والنظر في كلام العرب وأشعارها، فمن حجة الأولين قول الله

عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمَّا السَّائِغَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ واعترض هذا الشاهد بوجوه منها: أن يكون سماعهم مساكين بالإضافة إلى الغاصب وإن كانوا أغنياء على جهة الشفاعة، كما تقول في جماعة: «تظلم مساكين لا حيلة لهم»، وربما كانوا مياسير. ومنها أنه قرئ: ﴿لِمَسَاكِينٍ﴾ بشد السين بمعنى: دباغين يعملون المسوك، قاله النقاش وغيره. ومنها أن تكون إضافتها إليهم ليست بالإضافة بملك، بل لما كانوا عاملين بها، فهي كما تقول: سرج الفرس، وباب الدار. ومن حجة الآخرين قول الراعي:

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ خَلْوَتُهُ وَفَقُّ الْعِيَالِ فَلَمْ يَشْرِكْ لَهُ سَبْدٌ وقد اعترض هذا الشاهد بأنه إنما سناه فقيراً بعد أن صار لا حلوبة له، وإنما ذكر الحلوبة بأنها كانت، وهذا اعتراض يردّه معنى القصيدة ومقصد الشاعر بأنه إنما يصف سعاية أتت على مال الحي بأجمعه فقال: أما الفقير فاستوصل ماله فكيف بالغني مع هذه الحالة؟ وذهب من يقول إن المسكين أبلغ فاقة إلى أنه مشتق من السكون، وأن الفقير مشتق من فقار الظهر كأنه أصيب فقاره. وذهب من يقول إن الفقير أبلغ فاقة إلى أنه مشتق من فقرت البئر إذا نزعت جميع ما فيها، وأن المسكين من السكن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومع هذا الاختلاف فإنهما صنفان يعمهما الإقلال والفاقة، فينبغي أن نبحث عن الوجه الذي من أجله

جعلهما الله اثنين والمعنى فيهما واحد، وقد اضطرب الناس في هذا، فقال الضحاك بن مزاحم: الفقراء هم من المهاجرين، والمساكين من لم يهاجر، وقال النخعي نحوه، قال سفيان: لا يعطى فقراء الأعراب منها شيئاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمساكين: السائل يعطى في المدينة وغيرها، وهذا القول هو حكاية الحال وقت نزول الآية. وأما منذ زالت الهجرة فاستوى الناس، وتعطى الزكاة لكل متصف بفقير، وقال عكرمة: الفقراء من المسلمين، والمساكين من أهل الذمة، ولا تقولوا لفقراء المسلمين: مساكين، وقال الشافعي في كتاب ابن المنذر: الفقير: من لا مال له ولا حرفة سائلاً كان أو متعافياً، والمساكين: الذي له حرفة أو مال ولكن لا يغيثه ذلك سائلاً كان أو غير سائل، وقال قتادة بن دعامة: الفقير: الزمير المحتاج، والمساكين: الصحيح المحتاج، وقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والزهري، وابن زيد، وجابر بن زيد، ومحمد بن مسلمة: المساكين: الذين يسمعون ويسألون، والفقراء هم الذين يتصاؤون، وهذا القول الأخير - إذا لخص وحُرر - أحسن ما يقال في هذا. وتحريره أن الفقير هو الذي لا مال له إلا أنه لم يذل ولا بذل وجهه، وذلك إما لتعفف مفرط وإما ليُلْمَ تكون له كالحلوبة وما أشبهها، والمساكين هو الذي يقتنر بقره تذلل وخضوع وسؤال، فهذه هي

المسكنة، فعلى هذا كل مسكين فقير وليس كل فقير مسكيناً، ويُقَرَّى هذا أن الله تعالى قد وصف بني إسرائيل بالمسكنة وقرنها بالذلة مع غناهم، وإذا تأملت ما قلناه بان أنهما صنفان موجودان في المسلمين، ويُقَرَّى هذا قوله تبارك وتعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْبَبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْأَلُونَكَ مَتَرًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنكُمُ الْغَنَى﴾، وقيل لأعرابي: أفقير أنت؟ فقال: إني والله مسكين، وقال النبي ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطَّوَّاف الذي تروُّه اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين هو الذي لا يجد غنى يغيثه، ولا يُفْطِن له فَيُتَصَدَّقَ عليه، اقرؤوا إن شئتم ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْشَاءً﴾»، فدلَّ هذا الحديث على أن المسكين في اللغة هو الطَّوَّاف، وجرى تنبيه النبي ﷺ في هذا الحديث على المتصاؤون مَجْرَى تقديم الفقراء في الآية لمعنى الاهتمام، إذ هم بحيث إن لم يُتَهَمَمَ بهم هلكوا، والمساكين يُلْمَح ويُذَكَّر بنفسه.

وأما العامل فهو الرجل الذي يستنيه الإمام في السعي على الناس وجمع صدقاتهم، وكل من يصرف من عون لا يستغني عنه فهو من العاملين لأنه يحشر الناس على الساعي، وقال الضحاك: للعاملين ثمن ما عملوا على قسمة القرآن، وقال الجمهور: لهم قدر تعبهم ومؤنته، قاله مالك، والشافعي في كتاب ابن المنذر، فإن تجاوز ذلك ثمن الصدقة فاختلف - فقيل: يتم

لهم ذلك من سائر الأنصبا، وقيل: بل يتم لهم ذلك من خمس الغنمة. واختلف إذا عمل في الصدقات هاشمي - فقيل: يعطى منها عُملته، وقيل: بل يعطاها من الخمس، ولا يجوز للعامل قبول الهدية والمصانعة ممن يسعى عليه، وإن فعل ذلك رُدَّ في بيت المال كما فعل النبي ﷺ بابن النُشْبَةِ حين استعمله على الصدقة فقال: «هذا لكم وهذا أهدى إلي»، فقال النبي ﷺ: «هلا قعدت في بيت أبيك وأمك حتى تعلم ما يهدي لك؟»، وأخذ الجميع منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتأمل عمالة الساعي هل يأخذها قبل العمل أو بعده؟ وهل هي إجارة أو هي جعل؟ وهل العمل معلوم أو هو يَتَّبِع وإنما يعرف قدره بعد الفراغ؟ وأما المؤلفة قلوبهم فكانوا صنفين: مسلمين وكافرين مُسَائِرِينَ، قال يحيى بن كثير: كان منهم أبو سفيان بن حرب بن أمية، والحارث بن هشام، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعيينة، والأقرع، ومالك بن عوف، والعباس بن مرداس، والعلاء بن جارية الثقفي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأكثر هؤلاء من الطلقاء الذين ظاهر أمرهم يوم الفتح الكفر، ثم بقوا مُظْهِرِينَ الإسلام حتى وثقه الاستتلاف في أكثرهم، واستتلافهم إنما كان لِجُلْبِ إلى الإسلام منفعة أو تُدْفَع عنه مَضَرَّة. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والحسن،

والشمعي، وجماعة من أهل العلم: انقطع هذا الصنف بعزة الإسلام وظهوره، وهذا مشهور مذهب مالك رحمه الله. قال عبد الوهاب: إن احتيج إليهم في بعض الأوقات أعطوا من الصدقة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقول عمر رضي الله عنه - عندي - إنما هو لمُعَيَّنِينَ، فإنه قال لأبي سفيان حين أراد أخذ عطائه القديم: «إنما تأخذ كرجل من المسلمين، فإن الله قد أغنى عنك وعن ضربائك»، يريد: في الاستئلاف، وأما أن ينكر عمر الاستئلاف جملة وفي ثغور الإسلام لمعيد. وقال كثير من أهل العلم: المؤلفة قلوبهم موجودون إلى يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا تأملت الثغور وجدت فيها الحاجة إلى الاستئلاف. وقال الزهري: المؤلفة: من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد: لتبسط نفسه ويحبب دين الإسلام إليه.

وأما الرقاب فقال ابن عباس، والحسن، ومالك، وغيرهم: هو ابتداء العتق وعون المكاتب بما يأتي على حريته، واختلف هل يعان بها المكاتب في أثناء نجومه بالمنع والإباحة، واختلف على القول بإباحة ذلك إن عجز، فقيل: يترد ذلك من عند التئيد، وقيل: يمضي لأنه كان يوم دفعه بوجه مسترتب. قال الشافعي: معنى «وَرَقَابِ» في المكاتبين، ولا يبتدأ منها عتق عبد،

وقاله الليث، وإبراهيم النخعي، وابن جبير، وذلك أن هذه الأصناف إنما تُعْطَى إما لمنفعة المسلمين أو لحاجة في أنفسهم، والعبد ليس له واحدة من هاتين العلتين، والمكاتب قد صار من ذي الحاجة. وقال الزهري: سهم الرقاب نصفان، نصف للمكاتبين ونصف يعطى منه رقاب مسلمون بمن صلى، ويفدى منه أسارى المسلمين. ومنع ذلك غيره.

وأما الغارم فهو رجل يركبه دين في غير معصية ولا سعة، قال العلماء: فهذا يؤذى عنه دينه وإن كانت له عروض تُقِيم رَمَقَهُ وتكفي عياله، وكذلك الرجل يتحمل بحمالة في دياب أو إصلاح بين القبائل، ونحو هذا، وهو أحد الخمسة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «لَا تَحْمِلُ الصَّدَقَةَ لِفَنِي إِلَّا لَخِمْسَةِ، لِعَامِلٍ عَلَيْهَا، أَوْ حَارِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ رَجُلٍ تَحْمِلُ بِحِمَالَةٍ، أَوْ مِنْ أَهْدَيْتَ لَهُ، أَوْ مِنْ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد سقط المؤلفة من هذا الحديث، ولا يؤدي من الصدقة دين ميت، ولا يعطى منها من عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله، وإنما الغارم من عليه دين يسجن فيه، وفيه قيل في مذهبنا وغيره: يؤذى فدين الميت من الصدقات، قاله أبو ثور.

وأما في سبيل الله فهو المجاهد، يجوز أن يأخذ من الصدقة لينفقها في غزوه وإن كان غنياً، قال ابن حبيب: ولا يُعْطَى منها الحاج إلا أن يكون فقيراً فيعطى لفقره، وقال ابن

عباس، وابن عمر، وأحمد، وإسحق: يعطى منها الحاج وإن كان غنياً، والحج سبيل الله، ولا يعطى منها في بناء مسجد ولا قنطرة ولا شراء مصحف ونحو هذا.

وأما ابن السبيل فهو الرجل في الغربة والسفر يُغْدِم، فإنه يعطى من الزكاة وإن كان غنياً في بلده، وسبي المسافرين ابن سبيل لملازمته السبيل، كما يقال للطائر: «ابن ماء» لملازمته له، ومنه عندي قولهم: «ابن جلا»، وقد قيل فيه غير هذا، ومنه قولهم: «بنو الحرب وبنو المجد».

ولا يعطى بنو هاشم من الصدقة المفروضة، قال ابن الماجشون، ومطرف، وأصبغ، وابن حبيب: ولا من التطوع، ولا يعطى مواليتهم لأن مولى القوم منهم. وقال ابن القاسم: يعطى بنو هاشم من صدقة التطوع ويعطى مواليتهم من الصدقتين، ومن سأل الصدقة وقال إنه فقير؟ فقالت فرقة: يعطى دون أن يكلف بيتة على فقره، بخلاف حقوق الأدميين يُدْعَى معها الفقر فإنه يُكَلَّفُ البيئة لأنها حقوق الناس يؤخذ لها بالأحوط، وأيضاً فالتناس إذا تعلق بهم حقوق لأدميين محمولون على الغنى حتى يثبت العدم، ويظهر ذلك من قوله تعالى: «وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ»، أي إن وَكَّعَ كُيُطْطِي هذا أن الأصل الغنى، فإن وقع ذو عسرة فنظرة.

وقالت فرقة: الرجل الصحيح الذي لا يعلم فقره لا يعطى إلا أن يعلم فقره. وأما إن ادعى أنه غارم أو مكاتب أو ابن سبيل أو في سبيل الله أو نحو ذلك مما لم يعلم منه فلا

يُغْطَى إِلَّا بَيْتَهُ قَوْلاً واحداً، وقد قيل في الغارم: تباع عروضه وجميع ما يملك ثم يعطى بالفقر. ويُغْطَى الرجل قرابته الفقراء، وهم أحق من غيرهم، فإن كان قريبه غائباً في موضع تقصر إليه الصلاة فجاره الفقير أولى، وإن كان في غيبة لا تقصر إليه الصلاة فقبل: هو أولى من الجار الفقير، وقيل: الجار أولى، ويُعْطَى الرجل قرابته الذين لا تلزمه نفقتهم، وتعطى المرأة زوجها، وقال بعض الناس: ما لم ينفق ذلك عليها، ويعطى الرجل زوجته إذا كانت من الغارمين، واختلف في ولاء الذي يُغْتَنَى من الصدقة - فقال مالك: ولاؤه لجماعة المسلمين، وقال أبو عبيد: ولاؤه للمُغْتَنَى، وقال عبيد الله بن الحسن: يجعل ماله في بيت الصدقات، وقال الحسن، وأحمد، وإسحق: ويعتق من ماله رقاب. وإذا كان لرجل على مُغْتَسِر دين، فقبل: يتركه له ويقطع ذلك من صدقته، وقيل: لا يجوز ذلك جملة، وقيل: إن كان ممن لو رفعه للحاكم أمكن أن يؤديه جاز ذلك، وإلا لم يجز لأنه قد توفي.

وأما السبيل فهو الذي قدمنا ذكره، يُغْطَى الرجل الغازي وإن كان غنياً، وقال أصحاب الرأي: لا يُعْطَى الغازي في سبيل الله إلا أن يكون منقطعاً به. قال ابن المنذر: وهذا خلاف ظاهر القرآن وحديث رسول الله ﷺ، أما القرآن فقولته تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وأما الحديث فقولته: «إِلَّا لخمسة، لعامل عليها، أو غار في سبيل الله». وأما

صورة التفريق - فقال مالك وغيره: على قدر الحاجة ونظر الإمام، يضعها في أي صنف رأى، وكذلك المتصدق، قاله حذيفة بن اليمان، وسعيد بن جببر، وإبراهيم، وأبو العالية. قال الطبري: وقال بعض المتأخرين: إذا قسم المتصدق قسم في ستة أصناف، لأنه ليس ثم عامل، ولأن المؤلف قد انقطعوا، فإن قسم الإمام ففي سبعة أصناف. وقال الشافعي، وعكرمة، والزهري: هي ثمانية أقسام لثمانية أصناف لا يخل بواحد منها، واحتج الشافعي، بقول رسول الله ﷺ للرجل الذي سأله: «إن الله تعالى لم يرخص في الصدقات بقسم نبي ولا غيره حتى قسمها بنفسه فجعلها ثمانية أقسام لثمانية أصناف، فإن كنت واحداً منها أعطيتك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والحديث في مصنف أبي داود. وقال أبو ثور: إذا قسمها الإمام لم يخل بصنف منها، وإن أعطى الرجل صدقته صنفاً دون صنف أجزأه ذلك. وقال النخعي: إذا كان المال كثيراً قُسِمَ على الأصناف كلها، وإذا كان قليلاً أعطاه صنفاً واحداً. وقالت فرقة من العلماء: من له خمسون درهماً فلا يعطى من الزكاة، وقال الحسن، وأبو عبيد: لا يعطى من له أوقية وهي أربعون درهماً، قال الحسن: وهو غني. وقال الشافعي: قد يكون الرجل الذي لا قدر له غنياً بالدرهم مع سفيه وتحيله، وقد يكون الرجل له القدر والعيال ضعيف النفس والحيلة فلا تغنيه آلاف. وقال

أبو حنيفة: لا يأخذ الصدقة من له مائتا درهم، ومن كان له أقل فلا بأس أن يأخذ، قال سفيان الثوري: لا يُدْفَعُ إلى أحد من الزكاة أكثر من خمسين درهماً إلا أن يكون غارماً، وقال أصحاب الرأي: إن أعطي ألفاً وهو محتاج أجزأ ذلك. وقال أبو ثور: يعطى من الصدقة حتى يغنى ويحول عنه اسم المسكنة، ولا بأس أن يعطى الفقير الألف وأكثر من ذلك. وقال ابن المنذر: أجمع أكثر من يُحفظ عنه من أهل العلم أن لِمَنْ له دار وخادم لا يستغني عنهما أن يأخذ من الزكاة، وللمعطي أن يعطيه. وقال مالك: إن لم يكن في ثمن الدار أو الخادم فضلة عمن يحتاج إليه منهما جاز له الأخذ، وإلا لم يجز. وأما الرجل يعطي الآخر يظنه فقيراً فإذا هو غني، فإنه إن كان تعود ذلك أخذها منه، فإن فاتت نُظِرَ، فإن كان الأخذ غنياً وأخذها مع علمه بأنها لا تحل له ضمنها على كل وجه، وإن كان لم يُغْزَ بل اعتقد أنها تجوز له، أو لم يتحقق مقصد المعطي نُظِرَ، فإن كان لبسها أو أكلها ضمنها، وإن كانت تلفت لم يضمن. واختلف في إجزائها عن المتصدق - فقال الحسن، وأبو عبيدة: تجزيه، وقال الثوري، وغيره: لا تجزيه. وأهل بلد الصدقة أحق بها إلا أن تفضل فضلة فتنتقل إلى غيرها بحسب نُظَرِ الإمام، قال ابن حبيب في «الواضحة»: أما المؤلفات فانقطع سهمهم، وأما سبيل الله فلا بأس أن يعطي الإمام الغزاة إذا قل الغنيء في بيت المال.

أَرَادُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾ أَنَّهُ يَسْمَعُ مِنَّا مَعَاذِيرَنَا وَتَنْصَلُنَا وَيَقْبَلُهُ، أَي: فَنَحْنُ لَا نَبَالِي عَنْ أَذَاهُ، وَلَا الْوَقْعُ فِيهِ إِذْ هُوَ سَمَاعٌ لِكُلِّ مَا يُقَالُ مِنْ اعْتِذَارٍ وَنَحْوِهِ، فَهَذَا تَنْقُصُ بِقَلَّةِ الْحِزَامَةِ وَالْإِنْخِلَاعِ، وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَجَمَاعَةٍ مَعَهُ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾ أَنَّهُ يَسْمَعُ كُلِّ مَا يُنْقَلُ إِلَيْهِ عَنَّا وَيَصْنَعُ إِلَيْهِ وَيَقْبَلُهُ، فَهَذَا تَشْكُكُ مِنْهُ وَوَصَفَ بِأَنَّهُ تَسْوِغٌ عِنْدَهُ الْأَبَاطِيلَ وَالْمَنَامُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الشرط فيه نظر، قال ابن حبيب: وينبغي للإمام أن يأمر السعاة بتفريقها بالمواضع التي جُيِّت منها، ولا يحمل منها شيء إلى الإمام إلا أن يرى ذلك لحاجة أو فاقة نزلت بقوم. قاله مالك. ومن له مزرعة أو شيء في ثمنه إذا باعه ما يغنيه لم يجز له أخذ الصدقة. وهذه جُمْلَةٌ من فقه الآية كافية على شرطنا في الإيجاز، والله الموفق برحمته.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةٌ يَرْزُقُكَ اللَّهُ﴾ أَي مُوجِبَةٌ مُحَدَّدَةٌ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْفَرَضِ فِي الشَّيْءِ بِمَعْنَى الْحِزِّ وَالْقَطْعِ لثَبُوتِ ذَلِكَ وَدَوَامِهِ شَبَهَ مَا يَفْرَضُ مِنَ الْأَحْكَامِ. وَنَصَبَ ﴿فَرِيضَةٌ﴾ عَلَى الْمَصْدَرِ، ثُمَّ وَصَفَ نَفْسَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِصِفَتَيْنِ مُنَاسِبَتَيْنِ لِحُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ لِأَنَّهُ صَدَرَ عَنْ عِلْمٍ مِنْهُ بِخَلْقِهِ، وَحِكْمَةٍ مِنْهُ فِي الْقِسْمَةِ بَيْنَهُمْ.

(٦١) - (٦٣) تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَرِزْقُهُمْ﴾ عائد على المنافقين، و﴿يُؤْذُونَ﴾ لفظ يعم جميع ما كانوا يفعلونه ويقولونه في جهة رسول الله ﷺ من الأذى، وخص - بعد ذلك - مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾، وَرَوَى أَنَّ قَاتِلَ هَذِهِ اللَّفْظَةِ هُوَ نَبْتُ بْنُ الْحَارِثِ وَكَانَ مِنْ مَرَدَّةِ الْمُنَافِقِينَ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الشَّيْطَانِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَبْتِ بْنِ الْحَارِثِ»، وَكَانَ نَائِرَ الرَّأْسِ، مَتَفَشَ الشَّعْرُ، أَحْمَرُ الْعَيْنَيْنِ، أَسْفَعَ الْخَدَيْنِ، مَشْوَاهًا. وَرَوَى عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَمَجَاهِدٍ أَنَّهُمَا تَأَوَّلَا أَنَّهُمْ

يُخْفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِرُضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُكَادِرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَفُتُّ كُنُوزَ جَهَنَّمَ خِلَافِهَا ذَلِكَ الْخَبْرُ الْعَظِيمُ ﴿٦٢﴾ يُحَذِّرُ الْمُتَّقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا رَبَّكَ اللَّهُ خَرِجَ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لِيَقُولُوا إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآلِإِثْمِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَعْذِرُوا فَوَكَدْكُمْ عُذْرًا بَلْ يَسْتَكْبِرُونَ تَقَعُّ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٥﴾ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقُونَ الَّذِينَ كَانُوا يَاسْأَلُونَ عَنِ الْمُعْرِفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٦﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٧﴾

ومنه قول الآخر:

ضَمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا دُكِرَتْ بِهِ وَإِنْ دُكِرَتْ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذُنُوا وَقَرَأَ نَافِعُ: ﴿أُذُنٌ﴾ بِسُكُونِ الذَّالِ فِيهِمَا، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ: ﴿أُذُنٌ﴾ بِضَمِّ الذَّالِ فِيهِمَا، وَكُلُّهُمَا قَرَأَ بِالإِضَافَةِ إِلَى ﴿خَيْرٍ﴾، إِلَّا مَا رَوَى عَنْ عَاصِمٍ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ، وَمَجَاهِدٌ، وَعِيسَى - بِخِلَافٍ - قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ بَرَفَعُ ﴿خَيْرٍ﴾ وَتَنْوِينِ الْحَسَنِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، أَي: مِنْ يَقْبَلُ مَعَاذِيرَكُمْ خَيْرَ لَكُمْ، وَرَوَيْتَ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ عَنْ عَاصِمٍ، وَمَعْنَى ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ﴾ عَلَى الْإِضَافَةِ، أَي سَمَاعُ خَيْرٍ وَحَقٌّ.

و﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ مَعْنَاهُ: يَصْدُقُ بِاللَّهِ ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: وَيَصْدُقُ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّامُ زَائِدَةٌ كَمَا

وَمَعْنَى ﴿أُذُنٌ﴾: سَمَاعٌ، وَيُسَمَّى الرَّجُلُ السَّمَاعُ لِكُلِّ قَوْلٍ أُذُنًا إِذْ كَثُرَ مِنْهُ اسْتَعْمَلُ الْأُذُنَ، فَهَذِهِ تَسْمِيَةُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ إِذَا كَانَ مِنْهُ بِسَبَبٍ، كَمَا يُقَالُ لِلرَّيْبَةِ: عَيْنٌ، وَكَمَا يُقَالُ لِلْسَمِيَةِ مِنَ الْإِبِلِ الَّتِي قَدْ بَزَلَ نَابُهَا: نَابٌ، وَقِيلَ: مَعْنَى الْكَلَامِ: ذُو أُذُنٍ، أَي: ذُو سَمَاعٍ، وَقِيلَ: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أُذُنٌ﴾ مُشْتَقٌّ مِنْ قَوْلِهِمْ: «إِذْنٌ لِلشَّيْءِ» إِذَا اسْتَمَعَ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ وَهُوَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ:

أَيُّهَا الْقَلْبُ تَعَلَّلْ بِدَدَنْ
إِنَّ هَمِّي فِي سَمَاعٍ وَأَذُنْ
وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لَشَيْءٍ كِإِذْنِهِ لِنَبِيِّ يَتَغْنَى بِالْقُرْآنِ»، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ:

فِي سَمَاعٍ يَأْذُنُ الشَّيْخُ لَهُ
وَحَدِيثٌ مِثْلُ مَا ذِي مُشَارِ

هي في قوله سبحانه: ﴿وَرَفَّ لَكُمْ﴾، وقال المبرد: هي متعلقة بمصدر مقدر من الفعل كأنه قال: وإيمانه للمؤمنين، أي تصديقه، ويقال: «أمنت لك» بمعنى صدقتك، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعندي أن هذه التي معها اللام في ضمنها باء، فالمعنى: ويصدق للمؤمنين بما يخبرونه به، وكذلك: وما أنت بمؤمن لنا بما نقوله لك. والله المستعان.

وقرأ جميع السبعة إلا حمزة: ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالرفع عطفاً على ﴿أَنْتَ﴾، وقرأ حمزة وحده: ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالخفض عطفاً على ﴿حَتَّى﴾، وهي قراءة أبي بن كعب، وعبدالله، والأعمش، وخصص الرحمة للذين آمنوا إذ هم الذين نجوا بالرسول وفازوا به، ثم أوجب تبارك وتعالى للذين يؤذون رسول الله العذاب الأليم وحتم عليهم به.

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُفُونَكَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ الآية. ظاهره هذه الآية أن المراد بها جميع المنافقين الذين يحلفون لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بأنهم منهم في الدين، وأنهم معهم في كل أمر وكل حزب، وهم في ذلك يبتغون النفاق ويتربصون الدوائر. وهذا قول جماعة من أهل التأويل. وقد روت فرقة أنها نزلت بسبب رجل من المنافقين قال: «إن كان ما يقول محمد حقاً فأنا شر من الحمر»، فبلغ قوله رسول الله ﷺ فدعاه ووقف على قوله ووبخه،

فحلف مجتهداً أنه ما فعل، فنزلت الآية في ذلك. وقوله: ﴿وَاللَّهُ﴾. مذهب سيبويه أنهما جملتان حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها، والتقدير عنده: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه، وهذا كقول الشاعر:

نَحْنُ بِمَا عِندَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِندَ
مَدَّ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ
ومذهب المبرد أن في الكلام تقديمًا وتأخيراً، وتقديره: والله أحق أن يرضوه ورسوله. قال: وكانوا يكرهون أن يجمع الرسول مع الله في ضمير، حكاه النقاش عنه، وليس هذا بشيء. وفي مصنف أبي داود أن النبي ﷺ قال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى» فجمع في ضمير وقوله ﷺ في الحديث الآخر: «بئس الخطيب أنت» إنما ذلك لأنه وقف على (ومن يعصهما) فأدخل العاصي في الرشد. وقيل: الضمير في ﴿يُؤْذِنُ﴾ عائد على المذكور كما قال رؤية:

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَتَلَقَّ
كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلُّعُ الْبَهَقِ
وقوله: ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: على قولهم ودعواهم. وقوله: ﴿أَلَمْ يَكْلُمُوا﴾ الآية. قوله: ﴿أَلَمْ﴾ تقرير ووعيد، وفي مصنف أبي بن كعب ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ على خطاب النبي ﷺ، وهو وعيد لهم. وقرأ الأعرج، والحسن: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ بالتاء، و﴿يَكَادِدُ﴾ معناه: يخالف ويشاق، وهو أن يعطي هذا حذّه لهذا وهذا حذّه لهذا، وقال الزجاج: هو أن يكون هذا في حدّ وهذا في

حدّ. وقوله: ﴿فَأَن﴾ مذهب سيبويه أنها بدل من الأولى، وهذا معترض بأن الشيء لا يبدل منه حتى يستوفى، والأولى في هذا الموضع لم يأت خبرها بعد إذ لم يتم جواب الشرط، وتلك الجملة هي الخبر، وأيضاً فإن الفاء تمنع البدل، وأيضاً فهي في معنى آخر غير الأول فيقلق البدل، وإذا تُلِطِفَ للبدل فهو بدل الاشتمال، وقال غير سيبويه: هي جردة لتأكيد الأولى، وقالت فرقة من النحاة: هي في موضع خبر ابتداء تقديره: «فواجب أن له»، وقيل: المعنى: «فله أن له»، وقالت فرقة: هي ابتداء والخبر مضمّر تقديره: «فإن له نار جهنم واجب»، وهذا مردود لأن الابتداء بـ(أَنْ) لا يجوز مع إضمار الخبر، قاله المبرد، وحكي عن أبي علي الفارسي قول يقرب معناه من معنى القول الثالث من هذه التي ذكرنا لا أقف الآن على لفظه. وجميع القراء على فتح ﴿أَنْ﴾ الثانية، وحكى الطبري عن بعض نحويي البصرة أنه اختار في قراءتها كسر الألف، وذكر أبو عمرو الداني أنها قراءة ابن أبي عبلة، ووجهه في العربية قوي لأن الفاء تقتضي القطع والاستثنا، ولأنه يصلح في موضعها الاسم ويصلح الفعل، وإذا كانت كذلك وجب كسرها.

٣٦٦ - ٣٦٧ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ﴾ خبر عن حال قلوبهم، وحذرهم إنما هو أن تتلى سورة، ومعتقدهم - هل تنزل أم لا - ليس بنص في الآية لكنه ظاهر، فإن حمل على مقتضى نفاقهم

واعتقادهم أن ذلك ليس من عند الله فوجه بين، وإن قيل: إنهم يعتقدون نزول ذلك من عند الله وهم يتناقضون مع ذلك فهذا كفر عناد. وقال الزجاج وبعض من ذهب إلى التحرز من هذا الاحتمال: معنى ﴿يَحْذَرُ﴾: الأمر وإن كان لفظه لفظ الخبر، كأنه يقول: لِيَحْذَرُ.

وقرأ أبو عمرو وجماعة معه: ﴿أَنْ تَنْزِلَ﴾ ساكنة النون خفيفة الزاي، وقرأ بفتح النون مشددة الزاي الحسن، والأعرج، وعاصم، والأعمش، وعيسى. و﴿أَنْ﴾ من قوله: ﴿أَنْ تَنْزِلَ﴾ مذهب سيبويه أن ﴿يَحْذَرُ﴾ عامل فيها فهي مفعولة، وقال غيره: (حذر) إنما هي من هيئات النفس التي لا تعدى، مثل (فزع)، وإنما التقدير: يحذر المنافقون من أن تنزل عليهم سورة.

وقوله تعالى: ﴿أَسْتَهْزِئُ﴾ لفظه الأمر ومعناه التهديد، ثم ابتدأ الإخبار عن أنه يخرج لهم إلى حيز الوجود ما يحذرونه، وفعل ذلك تبارك وتعالى في سورة براءة فهي تسمى الفاضحة لأنها فضحت المنافقين. وقال الطبري: كان المنافقون إذا عابوا رسول الله ﷺ وذكروا شيئاً من أمره قالوا: «لعل الله لا يفشي سرنا»، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يقتضي كفر العناد الذي قلناه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾ الآية. نزلت - على ما ذكر جماعة من المفسرين - في ودعة بن ثابت، وذلك أنه مع قوم من المنافقين كانوا

يسيرون في غزوة تبوك، فقال بعضهم لبعض: هذا يريد أن يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بني الأصفر، هيهات هيهات. فوقفهم رسول الله ﷺ على ذلك وقال لهم: قلتم كذا وكذا، فقالوا: «إنما كنا نخوض ونلعب»، يريدون: كنا غير مُجِدِّين. وذكر ابن إسحق أن قوماً منهم تقدموا النبي ﷺ، فقال بعضهم: كأنكم والله غداً في الحبال أسرى لبني الأصفر، إلى نحو هذا من القول، فقال النبي ﷺ: «أفرك القوم فقد احترقوا، وأخبرهم بما قالوا»، ونزلت الآية. وروي أن ودعة ابن ثابت المذكور قال في جماعة من المنافقين: ما رأييت كفرائنا هؤلاء، لا أرغب بطوناً ولا أكثر كذباً ولا أجبن عند اللقاء، فعنفهم رسول الله ﷺ على هذه المقالة فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، ثم أمره بتقريرهم: ﴿أَلَيْسَ لِرَسُولِي وَرَسُولِي كُفْرٌ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، وفي ضمن هذا التقرير وعيد، وذكر الطبري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: رأييت قائل هذه المقالة ودعة متعلقاً بِحَقَبِ ناقة رسول الله ﷺ يماشىها تنكبه وهو يقول: «إنما كنا نخوض ونلعب»، والنبي ﷺ يقول: ﴿أَلَيْسَ لِرَسُولِي وَرَسُولِي كُفْرٌ تَسْتَهْزِئُونَ﴾؟ وذكر النقاش أن هذا المتعلق كان عبدالله بن أبي ابن سلول، وذلك خطأ لأنه لم يشهد تبوك.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَسْتَدْرِئُ﴾ الآية. المعنى: قل لهم يا محمد: «لا تعتذروا» على جهة التوبيخ، كأنه

قال: لا تفعلوا ما لا ينفع، ثم حكم عليهم بالكفر فقال: قل لهم: ﴿كَذَّبْتُمْ بَعْدَ إِسْتِغْنَائِكُمْ﴾ الذي زعمتموه ونطقتم به. وقوله: ﴿عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ يريد - فيما ذكر المفسرون - رجلاً واحداً، قيل اسمه مخش بن حُمَيْر، قاله ابن إسحق، وقال ابن هشام، ومقاتل: مخشي، وقال خليفة بن خياط في تاريخه: مُخَاشِن بن حُمَيْر، وذكر ابن عبدالبر: مُخَاشِن الحميري، وذكر جميعهم أنه استشهد باليمامة، وكان قد تاب وتسمى عبدالرحمن، فدعا الله أن يستشهد ويجهل أمره فكان ذلك باليمامة، ولم يوجد جسده، وذكر أيضاً ابن عبد البر: مخشي بن حُمَيْر بضم الحاء وفتح الميم وسكون الياء، ولم يتقن القصة. وكان مخشي مع المنافقين الذين قالوا: «إنما كنا نخوض ونلعب»، فقيل: كان منافقاً ثم تاب توبة صحيحة، وقيل: كان مسلماً مخلصاً إلا أنه سمع كلام المنافقين فضحك لهم ولم ينكر عليهم فعفا الله عنه في كلا الوجهين، ثم أوجب العذاب لباقي المنافقين الذين قالوا ما تقدم.

وقرأ جميع السبعة سوى عاصم: ﴿إِنْ يُغْفَرْ عَنْ طَائِفَةٍ﴾ بالياء ﴿تُعَذَّبُ﴾ بالياء، وقرأ الجحدري: ﴿إِنْ يُغْفَرْ﴾ بالياء المفتوحة على تقدير: إن يغف الله، ﴿يُعَذَّبُ﴾ الله، ﴿طَائِفَةٍ﴾ بالنصب. وقرأ عاصم، وزيد بن ثابت، وأبو عبدالرحمن: ﴿إِنْ تُغْفَرُ﴾ بالنون ﴿شَذِبْتُ﴾ بنون الجميع أيضاً، وقرأ

وعداً كما وعد الذين من قبلكم، فهو متعلق بـ ﴿وَعَدَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا قلق، ثم قال: كانوا أشد منكم وأعظم فعصوا فأهلكوا، فأنتم أخرى بالإهلاك لمعصيتكم وضعفكم.

والخلاق: الحظ من القدر والدين وجميع حال المرء، وخلاق المرء: الشيء الذي هو به خليق، والمعنى: عجلوا حظهم في دنياهم وتركوا باب الآخرة فاتبعتموهم أنتم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأورد الطبري في تفسير هذه الآية قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، وما شاكل هذا الحديث مما يقتضي اتباع أمة محمد ﷺ لسائر الأمم، وهو معنى لا يليق بالآية جداً، إذ هي مخاطبة لمنافقين كفار أعمالهم حابطة، والحديث مخاطبة لموحدتين يتبعون سنن من مضى في أفعال دنياوية لا تخرج عن الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَحُضُّنَا كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي: خلطتم كالذي خلطوا، وهو مستعار من الخوض في المائعات، ولا يستعمل إلا في الباطل لأن التصرف في الحقائق إنما هو على ترتيب ونظام، وأمور الباطل إنما هي خوض، ومنه قول النبي ﷺ: «رب متخوض في مال الله له النار يوم القيامة».

ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فيحتمل أن يراد بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ القوم الذين

عز وجل. والقَبْضُ هو عن الصدقة وفعل الخير، وقوله تعالى: ﴿سَأُوا اللَّهَ فَتَسَيِّمُوا﴾ أي: تركوه حين تركوا نبيه وشيعته فتركهم حين لم يهدم ولا كفاهم عذاب النار، وإنما يُعتبر بالنسيان عن الترك مبالغة إذ أبلغ وجوه الترك الوجه الذي يقترب به نسيان، وعلى هذا يجيء ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، ﴿وَلَا تَسْأُوا نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، ثم حكم عليهم عز وجل بالفسق وهو فسوق الكفر المقتضي للخلود في النار. وكان

قتادة يقول: ﴿فَتَسَيِّمُوا﴾ أي: من الخير ولم ينسهم من الشر.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ الآية. لما قيد الوعد بالتصريح بالشر صرح ذلك وحسن وإن كانت آية وعيد مخض، والكفار في هذه الآية: المغفلون، وقوله: ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾، أي كافيتهم وكافية جرمهم وكفرهم نكالاً وجزاء، فلو تمنى أحد لهم عذاباً لكان ذلك عنده حسناً لهم. ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ معناه: أبعدهم عن رحمته، و﴿عَذَابٌ مُّؤَسَّسٌ﴾ معناه: مؤبد لا نقلة له.

وقوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية. أمر الله نبيه أن يخاطب بها المنافقين فيقول لهم: كالذين من قبلكم، والمعنى: أنتم كالذين، أو مثلكم مثل الذين من قبلكم، وقال الزجاج: المعنى:

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأُولَئِكَ فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ فَأَسْتَمْتَعُمْ بِخُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ وَخُضُّنَا كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ ﴿٦٧﴾ أَلَا يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤَفَّفُ كَيْفَ أَنْتُمْ رَسُولُهُمْ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَأُولَئِكَ سَنَرْحَمُهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ حَسَنًا بِحَسَنَاتِهِمْ فِي جَنَّاتٍ عَذْيٍ الْأَنْهَارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَذْيٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٩﴾

مجاهد: «إِنْ تُغْفَ» بالتاء المضمومة على تقدير: إِنْ تُغْفَ هذه الذنوب «تُعَذَّبُ» بالتاء أيضاً.

﴿٦٧﴾ - ﴿٦٩﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا ابتداء إخبار عنهم وحكم من الله تعالى بما تضمنته الآية. فقله سبحانه: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» يريد: في الحكم والمنزلة من الكفر، وهذا نحو قولهم: «الأذن من الرأس» يريدون: في حكم المسح، وإلا فمعلوم أنهما من الرأس، ولما تقدم من قبل: «وَمَا هُمْ بِتَنَكَّرٍ حَسَنَ» هذا الإخبار.

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ يريد: بالكفر وعبادة غير الله، وسائر ذلك من الآية لأن المنافقين الذين نزلت هذه الآيات فيهم لم يكونوا أهل قدرة ولا أفعال ظاهرة وذلك بسبب ظهور الإسلام وكلمة الله

وصفهم بالشدة وكثرة الأموال والاستمتاع بالخلق، والمعنى: وأنتم أيضاً يعتریکم بإعراضكم عن الحق، ويحتمل أن يريد ﴿أُولَئِكَ﴾ المنافقين المعاصرين لمحمد ﷺ، ويكون الخطاب لمحمد ﷺ، وفي ذلك خروج من خطاب إلى خطاب غير الأول. وحبط العمل وما جرى مجراه يَحْبُطُ حَبْطًا إِذَا بَطَلَ بعد التعب، وحبط البطن حَبْطًا بفتح الباء، وهو داء في البطن، ومنه قول النبي ﷺ: «إِنَّ مِمَّا يُنْتِثِ الرِّبْعُ مَا يَقْتُلُ حَبْطًا أَوْ يُلْهِمُ». وقوله: في ﴿الَّذِينَ﴾ معناه - إذا كان في المنافقين - ما يصيبهم في الدنيا من مقت المؤمنين وفساد أعمالهم وفي الآخرة بألا تنفع ولا يقع عليها جزاء، ويُقَوِّى أَنْ الْإِشَارَةَ بِ﴿أُولَئِكَ﴾ إِلَى الْمُنَافِقِينَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ فتأمل.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

يقول عز وجل لَنَبِيِّنَا ﷺ: أَلَمْ يَأْتِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ خَبْرُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتِي عَصَتْ اللَّهَ بِتَكْذِيبِ رُسُلِهِ فَأَهْلَكُهَا؟ وعاد وثمود قبيلتان. وقوم إبراهيم: نمرود وأصحابه وتباع دولته. وأصحاب مدين: قوم شعيب، والمؤتفكات: أهل القرى الأربعة، وقيل: السبعة الذين بُعث إليهم لوط ﷺ، ومعنى المؤتفكات: المنصرفات والمنقلبات. أفكت فانتفكت لأنه جعل أعاليها أسافلها، وقد جاءت في القرآن الكريم مفردة تدل على الجمع، ومن هذه اللفظة قول عمران بن حطان:

بمَنطِقِ مُسْتَنبِينَ غَيْرِ مُلْتَبِسٍ بِهِ اللَّسَانُ وَأَتَى غَيْرَ مُؤْتَفِكَ أَيْ: غير منقلب منصرف مضطرب، ومنه يقال للريح: مؤتفكة لِتَصْرُفُهَا، ومنه: ﴿أَلَمْ يُوَفِّكَوْا﴾، والإفك: صرف القول من الحق إلى الكذب. والضمير في قوله: ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ عائد على هذه الأمم المذكورة، وقيل: على المؤتفكات خاصة، وجعل لهم رسلاً وإنما كان نبئهم واحداً لأنه كان يرسل إلى كل قرية رسولاً داعياً، فهم رسل رسول الله، ذكره الطبري، والتأويل الأول في عود الضمير على جميع الأمم أبين. وقوله: ﴿يَالَيْسَتْ﴾ يريد: بالمعجزات، وهي بيّنة في نفسها بالإضافة إلى الحق لا بالإضافة إلى المكذبين بها.

ولما فرغ من ذكر المنافقين بالأشياء التي ينبغي أن تصرف عن النفاق وتنهى عنه عقب ذلك بذكر المؤمنين بالأشياء التي تُرغَّب في الإيمان وتُنشَطُ إليه تَلَطُّفاً منه تبارك وتعالى بعباده لا ربَّ غيره، وذكرت هنا الولاية إذ لا ولاية بين المنافقين، ولا شفاعة لهم، ولا يدعو بعضهم لبعض، وكأن المراد هنا الولاية في الله خاصة. وقوله: ﴿يَالْمَعْرُوفِ﴾ يريد: بعبادة الله وتوحيده وكل ما اتبع ذلك، وقوله: ﴿عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يريد عبادة الأوثان وكل ما اتبع ذلك. وذكر الطبري عن أبي العالية أنه قال: كل ما ذكر الله في القرآن من الأمر بالمعروف فهو دعاء من الشُّرك إلى الإسلام، وكل ما ذكر من النهي عن المنكر فهو النهي عن عبادة

الأوثان والشياطين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ هي الصلوات الخمس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبحسب هذا تكون الزكاة المفروضة، والمدح عندي بالنوافل أبلغ، إذ من يقيم النوافل أخرى بإقامة الفرض. وقوله: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ جامع للمندوبات، والسين في قوله: ﴿سَمِعْتَهُمْ﴾ مدخل في الوعد مهلة لتكون النفوس تنعم برجائه. وفضله تعالى زعيم بالإنجاز.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. وعده في هذه الآية صريح نص في الخير، وقوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ إما من تحت أشجارها، وإما من تحت عُليَّاتها، وإما من تحت مجالسها بالإضافة إلى هذا، كما تقول في دارين متجاورتين ومتساويتي المكان: هذه تحت هذه. وذكر الطبري في قوله تعالى: ﴿وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ﴾ عن الحسن أنه قال: سألت عنها عمران بن الحصين وأبا هريرة فقالا: على الخبير سَقَطَتْ، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: «قَصَصْنِي فِي الْجَنَّةِ مِنَ اللَّوْلُؤِ، فِيهِ سَبْعُونَ دَاراً مِنْ يَاقُوتَةِ حُمْرَاءَ، فِي كُلِّ دَارٍ سَبْعُونَ بَيْتاً مِنْ زَمْرَدَةٍ خَضِرَاءَ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ سَرِيرَةً، وَنَحْوُ هَذَا مِمَّا يَشْبِهُ هَذِهِ الْأَلْفَافُ أَوْ يَقْرُبُ مِنْهَا فَاخْتَصَرْتُهَا طَلِباً لِلإِيجَازِ. وأما قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ عَتِيقٍ﴾ فمعناه: في جنات إقامة وثبوت، يقال: عَدَنَ الشَّيْءُ فِي

بل كان كل مغموص عليه إذا وقف ادعى الإسلام، فكان في تركهم إبقاءً وحيطة للإسلام، ومخافة أن تنفر العرب إذا سمعت أن محمداً ﷺ يقتل من يظهر الإسلام، وقد أوعيت هذا المعنى في صدر سورة البقرة، ومذهب الطبري أن النبي ﷺ كان يعرفهم ويستترهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَغْلَطُ عَلَيْهِمْ﴾ فلفظة عامة تنصرف في الأفعال والأقوال واللمحظات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا أَلْقَبُ﴾، ومنه قول النسوة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ، ومعنى الغلظ: خشونة الجانب، فهي ضد قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِإِنِّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم خبرت الآية المؤمنين عليهم في عقب الأمر بإخباره أنهم في جهنم، والمعنى: هم أهل لجميع ما أمرت أن تفعل بهم. والمأوى: حيث يأوي الإنسان ويستقر.

وقوله تعالى: ﴿يَمْلِكُونَ بِإِلَهِ مَا قَالُوا﴾ الآية. هذه الآية نزلت في الجلّاس بن سويد بن الصامت، وذلك لأنه كان يأتي من قباء ومعه ابن امرأته غُمَيْر بن سعد - فيما قال ابن إسحاق - وقال عُرْوَةُ: اسمه مصعب، وقال غيره: وهما على حمارين، وكان رسول الله ﷺ قد سمى قوماً ممن اتهمهم بالنفاق وقال: «إنهم رجس»، فقال الجلّاسُ للذي كان يسير معه: والله ما هؤلاء الذين سمى محمد إلا كبراًؤنا وسادتنا، ولئن كان ما يقول

محمد حقاً لنحن شرٌّ من حُمَيْرنا هذه، فقال له ربيبه أو الرجل الآخر: والله إنه لحق، وإنك لشرٌّ من حمارك، ثم خشي الرجل أن يلحقه في دينه درك فخرج وأخبر رسول الله ﷺ بالقصة، فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام في أثر الجلّاس فقرّره فحلف بالله ما قال، فنزلت هذه الآية. والإشارة بكلمة الكفر إلى قوله: «إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا فَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحُمَيْرِ» لأنّ التكذيب في قوة هذا الكلام. قال مجاهد: وكان الجلّاس لما قال له صاحبه: «إني سأخبر رسول الله ﷺ بقولك هذا» همّ بقتله ثم لم يفعل عجزاً عن ذلك، فإلى هذا هي الإشارة بقوله: ﴿وَكَمْؤًا يَمَّا لَزَّ يَتَالُؤًا﴾. وقال قتادة بن دعامة: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول، وذلك أن سنان بن وبرة الأنصاري والجهجاه الغفاري كسع أحدهما رجل الآخر في غزوة المريسيع، فتناورا، فصاح جهجاه بالمهاجرين وصاح سنان بالأنصار فثار الناس فهذن رسول الله ﷺ الأمر، فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: ما أرى هؤلاء إلا قد تداعوا علينا، ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول: سَمْنٌ كُلْبُكَ يَأْكُلُكَ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فوقفه فحلف أنه لم يقل ذلك، فنزلت الآية مكذبة له، والإشارة بكلمة الكفر إلى تمثيله: سَمْنٌ كُلْبُكَ يَأْكُلُكَ، قال قتادة: والإشارة

بـ﴿وَكَمْؤًا﴾ إلى قوله: «لئن رجعنا إلى المدينة». وقال الحسن: هم المنافقون من إظهار الشرك ومكابرة النبي ﷺ بما لم ينالوا، وقال تبارك وتعالى: ﴿بَدَّ إِسْلَامِيهِمْ﴾ ولم يقل: «بعد إيمانهم» لأن ذلك لم يتجاوز ألسنتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ﴾ معناه أن رسول الله ﷺ أنفذ لعبد الله بن أبي ابن سلول دية كانت قد تعطلت له، ذكر عكرمة أنها كانت اثني عشر ألفاً، وقيل: بل كانت للجلّاس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بحسب الخلاف المتقدم فيمن نزلت الآية من أولها، وتقدم اختلاف القراءة في ﴿نَقَمُوا﴾ في سورة الأعراف، وقرأها أبو حنيفة وابن أبي عبيدة بكسر القاف، وهي لغة، وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ﴾ استثناء من غير الأول، كما قال النابغة:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُؤْفَاهُمْ
يَهْنُ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَثَائِبِ
فَكَانَ الْكَلَامُ: وما نقموا إلا ما حقه أن يشكر.

وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿وَكَمْؤًا يَمَّا لَزَّ يَتَالُؤًا﴾: إنها نزلت في قوم من قريش أرادوا قتل رسول الله ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا يناسب الآية. وقالت فرقة: إن الجلّاس هو الذي همّ بقتل رسول الله ﷺ، وهذا يشبه الآية إلا أنه غير قوي السند، وحكى الزجاج أن اثني عشر من المنافقين هموا بذلك فأطلع الله عليهم، وذكر

رسول الله ﷺ في إغنائهم من حيث كثر أموالهم من الغنائم، فرسول الله ﷺ سبب في ذلك، وعلى هذا الحد قال رسول الله ﷺ: «كُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِِي». ثم فتح عزَّ وجلَّ لهم باب التوبة رفقا بهم ولطفاً في قوله: «فَإِنْ يَتُوبَا بِكَ خَيْرًا لَّكُمْ»، وروي أن الجلّاس تاب من النفاق فقال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَرَكَ لِي بَابَ التَّوْبَةِ»، فاعترف وأخلص وحسنت توبته. والعذاب الأليم اللاحق بهم في الدنيا هو المقت والخوف والهجنة عند المؤمنين.

(٧٥) (٧٨) تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري، وقال الحسن: وفي معتب بن قشير معه، واختصار ما ذكره الطبري وغيره من أمره أنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعل لي مالا فإنني لو كنت ذا مال لقضيت حقوقه وفعلت فيه الخير، فراه رسول الله ﷺ وقال: «قَلِيلٌ يُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تَطِيقُهُ»، فعاود فقال له النبي ﷺ: «أَلَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ رَسُولِ اللَّهِ، لَوْ دُعِيتُ أَنْ تَسِيرَ الْجِبَالُ مَعِيَ ذَهَاباً لَسَارَتْ؟»، فسأعاده عليه حتى دعا له رسول الله ﷺ بذلك، فاتخذ غنماً فمت كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة فتنحى عنها، وكثرت غنمه فكان لا يصلي إلا الجمعة، ثم كثرت حتى تنحى بعيداً ونجم نفاقه، ونزل خلال ذلك فرض الزكاة على رسول الله ﷺ فبعث مصدقين بكتابه في أخذ زكاة الغنم، فلما بلغوا ثعلبة

وقرأ الكتاب قال: هذه أخت الجزية، ثم قال لهم: دعوني حتى أرى رأيي، فلما أتوا رسول الله ﷺ وأخبروه قال: «وَيْبَحَ ثُعْلَبَةُ» ثلاثاً، ونزلت الآية فيه، وحضر القصة قريب لثعلبة فخرج إليه فقال: أدرك أمرك فقد نزل فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى رسول الله ﷺ فرغب أن يؤدي زكاته فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَلَّا أَخَذَ زَكَاتِكَ»، فبقي كذلك حتى توفي رسول الله ﷺ، ثم ورد ثعلبة على أبي بكر، ثم على عمر، ثم على عثمان يرغب إلى كل واحد منهم أن يأخذ منه الزكاة، فكلهم رد ذلك وأباه اقتداء برسول الله ﷺ، فبقي ثعلبة كذلك حتى هلك في مدة عثمان.

وفي قوله تعالى: «فَاعْتَبِهِمْ» نص المعاقبة على الذنب بما هو أشد منه، وقوله: «إِنْ يَوْرَ يَلْقَوْنَهُ» يقتضي موافاتهم على النفاق، ولذلك لم يقبل الخلفاء رضي الله عنهم رجوع ثعلبة لشهادة القرآن عليه بالموافاة، ولولا الاحتمال في أنه نفاق معصية لوجب قتله.

وقرأ الأعمش: «لَتَصَدَّقَنَّ» بالنون الثقيلة مثل الجماعة، «وَلَتَكُونَنَّ» خفيفة النون.

والضمير الذي في قوله: «فَاعْتَبِهِمْ» يعود على الله عز وجل، ويحتمل أن يعود على البخل المضمّن في الآية، ويضعف ذلك الضمير في «يَلْقَوْنَهُ»، وقوله: «يَمَافَا فِي قُلُوبِهِمْ» يحتمل أن يكون نفاق كفر ويكون تقرير ثعلبة بعد هذا

النص والإبقاء عليه لمكان إظهاره الإسلام وتعلقه بما فيه احتمال، ويحتمل أن يكون قوله: «يَمَافَا» يريد به نفاق معصية وقلة استقامة فيكون تقريره صحيحاً، ويكون ترك في أول الزكاة عقاباً له ونكالا، وهذا نحو ما روي أن عاملاً كتب إلى عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أن فلاناً يمنع الزكاة، فكتب إليه أن دعه واجعل عقوبته ألا يؤدي الزكاة مع المسلمين، يريد: لما يلحقه من المقت في ذلك.

وقرأ الحسن، والأعرج، وأبو عمرو، وعاصم، ونافع، وسائرهم: «يَكْذِبُونَ» خفيفة، وقرأ أبو رجاء: «يَكْذِبُونَ» مشددة.

وذكر الطبري في هذه الآية ما يناسبها من حديث رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مَنَافِقًا خَالِصًا، إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»، وفي حديث آخر: «وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» ونحو هذا من الأحاديث. ويظهر من مذهب البخاري وغيره من أهل العلم أن هذه الخلال الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة. وروي أن عمرو بن العاص لما احتضر قال: «زَوْجُوا فَلَانًا فَإِنِّي قَدْ وَعَدْتُهُ، لَا أَلْقَى اللَّهَ بِثَلْثِ النِّفَاقِ»، وهذا ظاهر كلام الحسن بن أبي الحسن، وقال عطاء بن أبي رباح: «قَدْ فَعَلَ هَذِهِ الْخِلَالَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ وَلَمْ يَكُونُوا مَنَافِقِينَ، بَلْ كَانُوا أَنْبِيَاءَ»، وهذه الأحاديث إنما هي في المنافقين في عصر النبي ﷺ، الذين شهد الله

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِإِلَهِهِمْ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلَسَوْكَوْا كَثِيرًا جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ إِنْ رَجَعْتَ إِلَى ظُلَمٍ مِّنْهُنَّ فَتَسْتَدْثِقْ لَكَ الْخُرُوجُ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُفْعِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَضِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَّتَابَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَرْعِهِمْ إِنَّهُمْ كَثَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاؤُهُمْ فَتَسْقُوتُ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْبُجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِ بَنِي آدَمَ الَّذِينَ تَزَهَّقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ أَمْرًا بِأَلَا تَجَاهِدُوا وَجِهْتُمْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولَا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَلْعَيْنِ ﴿٨٦﴾

٢٠٠

وقرأ الحسن، وأبو رجاء، ويعقوب، وابن كثير - فيما زوي عنه - ﴿يَلْمُزُونَ﴾ بضم الميم. و﴿الْمَطْوَعِينَ﴾ لفظة عموم في كل متصدق، والمراد به الخصوص فيمن تصدق بكثير، دل على ذلك قوله عطفاً على ﴿الْمَطْوَعِينَ﴾: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ ولو كان «الذين لا يجدون» قد دخلوا في «المطووعين» لما ساغ عطف الشيء على نفسه، وهذا قول أبي علي الفارسي في قوله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَرَسُولِهِ وَمِيكَدًا﴾ فإنه قال: المراد بالملائكة من عدا هذين، وكذلك قال في قوله تعالى: ﴿يَمَّا فَكَّكُم وَغَلَّ زَيَّاتٌ﴾، وفي هذا كله نظر، لأن التكرار لقصد التشريف يسوغ هذا مع تجوز العرب في كلامها. وأصل «المطووعين» المطووعين، فأبدلت التاء طاءً وأدغم. وأما المتصدق بكثير الذي كان سبباً للآية فأكثر الروايات أنه عبدالرحمن بن عوف، تصدق بأربعة آلاف وأمسك مثلها، فقال له النبي ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أنفقت». وقيل هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه تصدق بنصف ماله، وقيل: عاصم بن عدي، تصدق بمائة وثنى، وأما المتصدق بقليل فهو أبو عقيل حنّاب الأراشي، تصدق

عليهم، وهذه الخصال في سائر الأمة معاصٍ لا نفاق، وذكر الطبري أن الحسن رجع إلى هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا محالة أنها كانت مع التوحيد والإيمان بمحمد ﷺ معاصٍ، ولكنها من قبيل النفاق اللغوي، وذكر الطبري عن فرقة أنها قالت: كان العهد الذي عاهد الله عليه هؤلاء المنافقون شيئاً نؤوه في أنفسهم ولم يتكلموا به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا فيه نظر.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ الآية. لفظ تعلق به من قال في الآية المتقدمة: إن العهد كان من المنافقين بالثبوت لا بالقول. وقرأ الجمهور: ﴿يَعْلَمُوا﴾ بالياء من تحت، وقرأ أبو عبدالرحمن، والحسن: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ بالتاء من فوق، وهذه الآية تناسب حالهم، وذلك أنها تضمنت إحاطة علم الله بهم وحضره لهم، وفيها توبيخهم على ما كانوا عليه من التحدث في نفوسهم من الاجتماع على ثلب الإسلام، وراحة بعضهم مع بعض في جهة النبي ﷺ وشرعه، فهي تعم المنافقين أجمع. وقائل المقالة المذكورة ذهب إلى أنها تختص بالفرقة التي عاهدت.

﴿٧٩﴾ - ﴿٨٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ﴾ رد على الضمائر في قوله: ﴿يَكْفُرُونَ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾، وقوله: ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾. و﴿يَلْمُزُونَ﴾ معناه: ينالون بالسنتهم. وقرأ السبعة: ﴿يَلْمُزُونَ﴾ بكسر الميم،

بصاع من تمر وقال: يا رسول الله، جرت البارحة بالحرير وأخذت صاعين تركت أحدهما لعيالي وأتيت بالآخر صدقة، فقال المنافقون: الله غني عن صدقة هذا، وقال بعضهم: إن الله غني عن صاع أبي عقيل. وقيل: إن الذي لَمَزَ في القليل أبو خيشمة. قاله كعب بن مالك صاحب النبي ﷺ، وتصدق عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف، وقيل: بأربعمائة أوقية من فضة، وقيل: أقل من هذا، فقال المنافقون: ما هذا إلا رياء فنزلت الآية في هذا كله.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ معناه: يستهزئون ويستجفون، وهو معطوف على ﴿يَلْمُزُونَ﴾، واعترض ذلك بأن المعطوف على الصلة فهو من الصلة، وقد دخل بين هذا المعطوف والمعطوف عليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا

يَجِدُونَ»، وهذا لا يلزم، لأن قوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ معمول للذي عمل في ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ فهو بمنزلة قوله: «جاءني الذي ضرب زيداً وعمراً فقتلهما». وقوله: ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ تسمية العقوبة باسم الذنب، وهي عبارة عما حلَّ بهم من المقت والذل في نفوسهم، وقوله: ﴿وَكَمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معناه: مؤلم، وهي آية وعيد محض.

وقرأ جمهور الناس: ﴿جَهْدُهُمْ﴾ بضم الجيم، وقرأ الأعرج وجماعة معه: ﴿جَهْدُهُمْ﴾ بالفتح، وقيل: هما بمعنى واحد، قاله أبو عبيدة، وقيل: هما لمعنيين، الضم في المال والفتح في تعب الجسم، ونحوه عن الشعبي.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ يصح أن يكون خبر ابتداءٍ تقديره: هم الذين، ويصح أن يكون ابتداءً وخبره ﴿سَخَّرَ﴾، وفي ﴿سَخَّرَ﴾ معنى الدعاء عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً مجرداً عن الدعاء، ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ صفة جارية على ما قبل كما ذكرت أول الترجمة.

وقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ يحتمل معنيين، أحدهما أن يكون لفظ أمر ومعناه الشرط بمعنى: إن استغفرت أو لم تستغفر لن يغفر الله لهم، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْتُمْ عَاثُونَ أَوْ كَرِهْنَا لَنْ يُغْفَلَ مِنْكُمْ﴾، وبمنزلة قول الشاعر:

أَسِيْبِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ
لَدَيْنَا وَلَا مَفْلِيَةٌ إِنْ تَقَلَّبْتَ
وإلى هذا المعنى ذهب الطبري

وغيره في معنى الآية، والمعنى الثاني الذي يحتمله اللفظ أن يكون تخبيراً، كأنه قال له: إن شئت فاستغفر، وإن شئت لا تستغفر، ثم أعلمه أنه لا يغفر لهم وإن استغفر سبعين مرة، وهذا هو الصحيح لقول رسول الله ﷺ وتبينه ذلك، وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعه بعد نزول هذه الآية يستغفر لهم فقال: يا رسول الله، أتستغفر للمشركين وقد أعلمك الله أنه لا يغفر لهم، فقال له: «يا عمر إن الله قد خيرني فاخترت، ولو علمت أنني إذا زدت على السبعين يغفر لهم لزدت»، ونحو هذا من مقابلة عمر في وقت إرادة النبي ﷺ الصلاة على عبدالله بن أبي ابن سلول، وظاهر صلاته عليه أن كفره لم يكن يقيناً عنده، ومحال أن يصلي على كافر، ولكنه راعى ظواهره من الإقرار، ووكل سريره إلى الله عز وجل، وعلى هذا كان ستر المنافقين من أجل عدم التعيين بالكفر. وفي هذه الألفاظ التي لرسول الله ﷺ رفض إلزام دليل الخطاب، وذلك أن دليل الخطاب يقتضي أن الزيادة على السبعين يُغفر معها، فقال رسول الله ﷺ: «ولو علمت» فجعل ذلك مما لا يعلمه ومما ينبغي أن يتعلم ويطلب علمه من الله عز وجل، ففي هذا حجة عظيمة للقول برفض دليل الخطاب، وإذا ترتب - كما قلنا - التخيير في هذه الآية صح أن ذلك التخيير هو الذي نُسخ بقوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿سَاءَ مَا كَذَبَ اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ

يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ولمالك رحمه الله مسائل تقتضي القول بدليل الخطاب، منها قوله: «إن المدرك للشهد وحده لا تلزمه أحكام الإمام لأن النبي ﷺ قال: «من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة»، فاقترض دليل الخطاب أن من لم يدرك ركعة فليس بمدرك، وله مسائل تقتضي رفض دليل الخطاب، منها قول النبي ﷺ: «وفي سائمة الغنم الزكاة»، فدليل الخطاب أن لا زكاة في غير السائمة، ومالك يرى الزكاة في غير السائمة، ومنها أن الله عز وجل يقول في الصيد: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعِدًّا﴾، فقال مالك: حكم المخطيء والمتعمد سواء، ودليل الخطاب يقتضي غير هذا، وأما تمثيله بالسبعين دون غيرها من الأعداد فلأنه عدد كثيراً ما يجيء غايةً ومقنعاً في الكثرة، ألا ترى إلى القوم الذين اختارهم موسى، وإلى أصحاب العقبة. وقد قال بعض اللغويين: إن التصريف الذي يكون من السين والباء والعين فهو شديد الأمر، ومن ذلك السبعة فإنها عدد مقنع، هي في السموات وفي الأرض وفي خلق الإنسان وفي رزقه وفي أعضائه التي بها يطيع الله وبها يعصيه، وبها ترتب أبواب جهنم فيما ذكر بعض الناس، وهي: عيناه وأذناه ولسانه ويطنه وفرجه ويداه ورجلاه، وفي سهام الميسر وفي الأقاليم وغير ذلك، ومن ذلك السبع والعبوس والعنيس ونحو هذا من القول.

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى امتناع

الغفران، وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ إما من حيث هم فاسقون، وإما أنه لفظ عموم يراد به الخصوص فيمن يوافي على كفره.

(٨١) - (٨٢) تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تتضمن وصف حالهم على جهة التوبيخ لهم وفي ضمنها وعيد، وقوله: ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ لفظ يقتضي تحقيرهم وأنهم الذين أبعدهم الله من رضاه، وهذا أمكن في هذا من أن يقال: «المخلفون»، ولم يفرح إلا منافق، فخرج من ذلك الثلاثة وأصحاب المذر، ومقتد: مصدر بمعنى القعود، ومثله:

مَنْ كَانَ مُشْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ

وقوله: ﴿خَلِيفٌ﴾ معناه: بعد، وأنشد أبو عبيدة في ذلك:

عَقَبَ الرَّبِيعُ خِلَافَهُمْ فَكَأَنَّمَا
نَشَطَ السَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرًا

يريد: بعدهم، ومنه قول الشاعر:

فَقُلْ لِلَّذِي يَبْقَى خِلَافَ الَّذِي مَضَى
تَأْتِبُ لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكَأَنَّ قَدِ
وقال الطبري: هو مصدر خَالَفَ يُخَالِفُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا هو مفعول له، والمعنى: فرح المخلفون بمقعدهم لخلاف رسول الله ﷺ، أو مصدر، ونصبه في القول الأول كأنه على الظرف. وكرهاتهم لما ذكر هي شح إذ لا يؤمنون بالثواب في سبيل الله، فهم يضيئون بالدنيا. وقولهم: ﴿لَا تَنفَرُوا فِي الْحَرِّ﴾ كان لأن غزوة تبوك كانت في وقت شدة الحر وطيب شمار

والظلال، قاله ابن عباس، وكعب بن مالك، والناس، فأقيمت عليهم الحجة بأن قيل لهم: فإذا كنتم تجزعون من حر القيظ فنار جهنم التي هي أشد أخرى أن تجزعوا منها لو فهمتهم، وقرأ ابن عباس، وأبو حنيفة: ﴿خَلَفَ﴾، وذكرها يعقوب ولم ينسبها، وقرئ: ﴿خُلِفَ﴾ بضم الخاء، ويقوي قول الطبري «إن لفظه الخلاف هي مصدر من خَالَفَ» ما تظاهرت به الروايات من أن رسول الله ﷺ أمرهم بالنفر فعصوا وخالفوا وقعدوا مستأذنين، وقال محمد بن كعب: قال: «لَا تَنفَرُوا فِي الْحَرِّ» رجل من بني سلمة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رجل: يا رسول الله، الحر شديد فلا تنفر في الحر. قال النقاش: وفي قراءة عبدالله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بدل ﴿يَنْفَرُونَ﴾.

وقال ابن عباس، وأبو رزين، والربيع بن خيثم، وقتادة، وابن زيد: قوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ إشارة إلى مدة العُمر في الدنيا، وقوله: ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ إشارة إلى تأبيد الخلود في النار، فجاء بلفظ الأمر ومعناه الخبر عن حالهم، ويحتم أن يكون صفة حالهم، أي: هم لما هم عليه من الخطر مع الله وسوء الحال بحيث ينبغي أن يكون ضحكهم قليلاً وبكاؤهم من أجل ذلك كثيراً، وهذا يقتضي أن يكون وقت الضحك والبكاء في الدنيا على نحو قوله ﷺ لأمتة: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتكم كثيراً ولضحككم قليلاً»، وروي أن رسول الله ﷺ لما قال هذا الكلام

أوحى الله إليه: «يا محمد لا تقنط عبادي».

وقوله: ﴿جَزَاءً﴾ متعلق بالمعنى الذي تقديره: وليبكو كثيراً إذ هم مُعَذَّبُونَ جزاء، وقوله: ﴿بِكَيْبُونَ﴾ نص في أن التكسب هو الذي يتعلق به الثواب والعقاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ الآية. (رجع) يستوي مجاوزه وغير مجاوزه، وقوله تعالى: ﴿إِنْ﴾ مبينة أن النبي ﷺ لا يعلم بمستقبلات أمره من أجل وسواه. وأيضاً فيحتمل أن يموتوا هم قبل رجوعه. وأمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بأن يقول لهم: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ﴾ هو عقوبة لهم، وإظهار لدناءة منزلتهم وسوء حالهم. وهذا هو المقصود في قصة ثعلبة بن حاطب التي تقدمت في الامتناع من أخذ صدقته، ولا خزي أعظم من أن يكون إنسان قد رفضه الشرع ورده كالجمل الأجرب. وقوله: ﴿إِلَى طَائِفَةٍ﴾ يقتضي عندي أن المراد رؤوسهم والمتبوعون، وعليها وقع التشديد بأنها لا تخرج ولا تقاتل عدواً، وكرر معنى قتال العدو لأنه عظيم الجهاد وموضع بارقة السيوف التي تحتها الجنة، ولولا تخصيص الطائفة لكان الكلام: «فإن رجعت الله إليهم». ويشبه أن تكون هذه الطائفة قد حُتم عليها بالموافاة على النفاق، وعُتِنوا للنبي ﷺ، وإلا فكيف يترتب ألا يصلي على موتاهم إن لم يعينهم الله. وقوله: ﴿وَمَا تَأْوُواهُمْ﴾ نص في موافاتهم، ومما يؤيد هذا ما روي أن النبي ﷺ عيّنهم

ريقه وألبسه قميصه)، وروي في ذلك أن عبدالله بن أبي بعث إلى رسول الله ﷺ في مرضه ورغب إليه أن يستغفر له وأن يصلي عليه. وروي أن ابنه عبدالله بن عبدالله جاء رسول الله ﷺ بعد موت أبيه فرغب في ذلك وفي أن يكسوه قميصه الذي يلي بدنه، ففعل، فلما جاء رسول الله ﷺ ليصلي عليه قام إليه عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، أتصلي عليه وقد نهاك الله عن الاستغفار لهم؟ وجعل يعدد أفعال عبدالله، فقال له رسول الله ﷺ: «أخبر عني يا عمر فإنني خيّر، ولو أعلم أنني إن زدت على السبعين غفر له لذت»، وفي حديث آخر: «إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً، وإنني لأرجو أن يسلم بفعلتي هذا ألف رجل من قومي»، كذا في بعض الروايات، يريد: من منافقي العرب، والصحيح أنه قال: «رجال من قومه»، فسكت عمر، وصلى رسول الله ﷺ على عبدالله، ثم نزلت هذه الآية بعد ذلك، وصلى عليه رسول الله ﷺ لموضع إظهاره الإيمان، ومحال أن يصلي عليه وهو يتحقق كفره، ويغد هذا - والله أعلم - عُيْن له من لا يصلي عليه، ووقع في معاني أبي إسحق وفي بعض كتب التفسير: فأسلم وتاب بهذه الفعلة من رسول الله ﷺ والرغبة من عبدالله ألف رجل من الخزرج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، قاله من لم يعرف عذة الأنصار.

مردود، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الرجال، وقال الطبري: يحتمل قوله: «مع الخلفين» أن يريد: مع الفاسدين، فيكون ذلك مأخوذاً من: خَلَف الشيء إذا فسد، ومنه: خُلوف فم الصائم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل مقحم، والأول أفصح وأجرى على اللفظة. وقرأ مالك بن دينار، وعكرمة: «مع الخلفين» وهو مقصور من «الخالفين»، كما قال: «عرداً وبردأ»

يريد: عارداً وبارداً، وكما قال الآخر:

مِثْلُ الثَّقَا لَبْدُهُ بَزْدُ الظَّلَلِ
يريد: الظلال.

٨٧ - ٨٤ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية نزلت في شأن عبدالله بن أبي ابن سلول وصلاة رسول الله ﷺ عليه. روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ لما تقدّم ليصلي عليه جاء جبريل عليه السلام، فجذبه بثوبه وتلا عليه هذه الآية، فأنصرف رسول الله ﷺ ولم يصل عليه. وتظاهرت الروايات أن رسول الله ﷺ صلى عليه، وأن الآية نزلت بعد ذلك، وفي كتاب الجنائز من البخاري من حديث جابر قال: (أتى رسول الله ﷺ عبدالله بن أبي بعدما أدخل حفرته فأمر به فأخرج ووضعه على ركبته ونفس عليه من

رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لِكُلِّ الرُّسُولِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَهْدُوا بِأَمْرِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُجْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوْلَوْا وَأَعْيَيْتُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمَاحَرَانَا أَلْيَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٩٣﴾

لحذيفة بن اليمان، وكانت الصحابة إذا رأوا حذيفة تأخر عن الصلاة على جنازة رجل تأخروا هم عنها. وروي عن حذيفة أنه قال يوماً: بقي من المنافقين كذا وكذا، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنشدك الله أنا منهم؟ فقال: لا، والله لا أمنت منها أحداً بعدك.

وقرأ جمهور الناس: «معي» بسكون الياء في الموضعين، وقرأ عاصم - فيما قال الفضل -: «معي» بحركة الياء في الموضعين، وقوله: «أول» هو بالإضافة إلى وقت الاستئذان.

والخالفون: جميع من تخلف من نساء وصبيان وأهل عذر، غلب المذكور فجمع بالياء والنون وإن كان ثم نساء، وهو جمع خالف. وقال قتادة: الخالفون: النساء، وهذا

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ الآية. تقدم تفسير مثل هذه الآية. والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته إذ هو - بإجماع - ممن لا تفتنه زخارف الدنيا. ويحتمل أن يكون معنى الآية: «ولا تعجبك أيها الإنسان»، والمراد الجنس، ووجه تكريرها تأكيد هذا المعنى وإيضاحه، لأن الناس كان يفتنون بصلاح حال المنافقين في دنياهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ الآية. العامل في ﴿وَإِذَا﴾: ﴿أَسْتَنْذَكُ﴾، والسورة المشار إليها هي براءة فيما قال بعضهم، ويحتمل أن تكون إلى كل سورة فيها الأمر بالإيمان والجهاد مع الرسول ﷺ، وسورة القرآن أجمع على ترك همزها في الاستعمال، واختلف هل أصلها الهمز أم لا؟ فقيل: أصلها الهمز، فهي من أسأرا إذا بقيت له قطعة من الشيء، فالسورة: قطعة من القرآن، وقيل: أصلها ألا تُهمز فهي كسورة البناء، وهي ما نبني منه شيئاً بعد شيء، فهي الرتبة بعد الرتبة، ومن هذا قول النابتة:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَغْطَاكَ سُورَةً
تَرَى كُلَّ مَلَكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَّبُ؟
وقد مضى هذا كله مستوعباً في صدر هذا الكتاب.

﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ ءَامِنُوا﴾، يحتمل أن تكون مفسرة بمعنى أي، فهي - على هذا - لا موضع لها، ويحتمل أن يكون التقدير: بأن، فهي في موضع نصب. ﴿الظَّالِمِينَ﴾ في هذه الآية: المال، قاله ابن عباس، وابن إسحق، وغيرهما. والإشارة بهذه الآية إلى الجذ بن قيس،

وعبدالله بن أبي، ومعتب بن قشير، ونظرائهم. والقاعدون: الزماني وأهل العذر في الجملة ومن ترك لضبط المدينة لأن ذلك عذر. وقوله تعالى: ﴿رَشُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ الآية. تفرغ وإظهار شناعة كما يقال على وجه التغيير: رضيت يا فلان كذا؟ ﴿الْخَوَالِفِ﴾: النساء، جمع خالفة، هذا قول جمهور المفسرين، وقال أبو جعفر النحاس: يقال للرجل الذي لا خير فيه: خالفة، فهذا جمعه بحسب اللفظ، والمراد أخسة الناس وأخلافهم. وقال النضر بن شميل في كتاب النقاش: الخوالف: من لا خير فيه، وقالت فرقة: الخوالف جمع خالف فهو جار مجرى فوارس ونواكس وهوالك. و﴿طَبَعَ﴾ في هذه الآية مستعار، ولما كان الطبع على الصوان والكتاب مانعاً منه وحافظاً عليه شبه القلب الذي غشيه الكفر والضلال حتى منع الإيمان والهدى منه بالصوان المطبوع عليه، ومن هذا استعارة الغفل والكنان للقلب، و﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ معناه: لا يفهمون.

﴿٨٨﴾ - ﴿٩٠﴾ تفسير قوله عز وجل: الأكثر في ﴿لَنْ﴾ أن تجيء بعد نفي، وهو هنا في المعنى، وذلك أن الآية السالفة معناها أن المنافقين لم يجاهدوا فَحَسَنَ بعدها: ﴿لَنْ كُنَّا أَرْسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَهْدُوا﴾. والخيرات جمع خيرة، وهو المستحسن من كل شيء، وكثر استعماله في النساء، فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿فِيَن خَيْرٌ لَّكَ﴾، ومن ذلك قول الشاعر، أنشده الطبري: وَلَقَدْ طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرِّبَلَاتِ رَبَلَاتٍ هَشِدْ خَيْرَةَ الْمَلِكَاتِ

﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: الذين أدركوا بغيتهم من الجنة، والفلاح أي بمعنى إدراك البغية كقول لبيد: أَفْلَحَ بِمَا شِئْتُ فَقَدْ يُبْلَغُ بِالضُّغْ
فِي وَقَدْ يُسْخَدُغُ الْأَرْسَبُ
وقد يأتي بمعنى البقاء كقول الشاعر:

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهَمُومِ سَعَةٌ
وَالْمُسْنَى وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَهُ
أَي: لا بقاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبلوغ البغية يعم لفظة الفلاح حيث وقعت فتأمله.

﴿أَنْذَ﴾ معناه: يسر وهياً، وقوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ يريد: من تحت مبانيها وأعاليتها، و﴿الْفُوزَ﴾ حصول الإنسان على أمله وظفره ببغيته، ومن ذلك فوز سيهام الأسار.

وقوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا الْمُعْذِرُونَ﴾ الآية. اختلف المتأولون في هؤلاء الذين جاؤوا - هل كانوا مؤمنين أو كافرين؟ فقال ابن عباس وقوم معه منهم مجاهد: كانوا مؤمنين وكانت أعذارهم صادقة، وقرأ: ﴿وَجَاءَ الْمُعْذِرُونَ﴾ بسكون العين، وهي قراءة الضحاك، وحמיד الأعرج، وأبي صالح، وعيسى بن هلال. وقرأ بعض قائل هذه المقالة: ﴿الْمُعْذِرُونَ﴾ بشد الذال، قالوا: وأصله «المعتذرون» فقلت التاء ذالاً وأدغمت، ويحتمل «المعتذرون» في هذا القول مغنيين، أحدهما: المعتذرون بأعذار حق، والآخر أن يكون: الذين قد بلغوا عذرهم من الاجتهاد في طلب الغزو معك فلم يقدروا، فيكون مثل قول لبيد:

عليه. والقول منصوِّصٌ ووجهه بين والله المعين. وقال ابن إسحق: المعتذرون نفر من بني غفار، منهم خفاف بن إيماء بن رخصة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يقتضي أنهم مؤمنون.

﴿٩١﴾ - ﴿٩٢﴾ تفسير قوله عز وجل: يقول تعالى: ليس على أهل الأعداء الصحيحة من ضعف أبدان أو مرض أو زمانة أو عدم نفقة - إثم. والحرَجُ: الإثم. وقوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا﴾ يريد: بنياتهم وأقوالهم سراً وجهراً. وقرأ أبو حية: ﴿نَصَحُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بغير لام وينصب الهاء من المكتوبة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ الآية. في لائمة تُناط بهم أو تذنيب أو عقوبة. ثم أكد الرجاء بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «والله لأهل الإساءة غفور رحيم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على جهة التفسير أشبه منه على جهة التلاوة لخلافه المصحف.

واختلف فيمن المراد بقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ لَا يَحْدُرُونَ مَا يُفْعَلُونَ﴾.

فقال فرقة: نزلت في بني مُقرن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وينو مُقرن ستة إخوة صحبوا النبي ﷺ، وليس في الصحابة ستة إخوة غيرهم، وقيل: كانوا سبعة. وقيل: نزلت في عبدالله بن مُعقل المزني، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ﴾ الآية. اختلف فيمن نزلت هذه الآية. فقيل: نزلت في عزياض بن سارية، وقيل: نزلت في عبدالله بن

ومن ينك حولا كايلاً فقد اغتدر وقال قتادة وفرقة معه: بل الذين جاؤوا كفرة، وقولهم وعذرهم كذب، وكل هذه الفرقة قرأ: ﴿الْمُعْذِرُونَ﴾ بشد الذال، فمنهم من قال: أصله المعتذرون، نقلت حركة التاء إلى العين وأدغمت التاء في الذال، والمعنى: معذرون بكذب. ومنهم من قال: هو من التعذير، أي الذين يعذرون الغزو ويدفعون في وجه الشرع، فالآية إلى آخرها - في هذا القول - إنما وصفت صفاتاً واحداً في الكفر ينقسم إلى أعرابي وحضري، وعلى القول الأول وصفت صنفين مؤمناً وكافراً. قال أبو حاتم: وقال بعضهم: سألت مسلمة فقال: «المُعْذِرُونَ» بشد العين والذال، قال أبو حاتم: أراد: المعتذرين، والتاء لا تدغم في العين لبعد المخارج، وهي غلط منه أو عليه. قال أبو عمرو: وقرأ سعيد بن جبير: «المُعْذِرُونَ» بزيادة تاء، وقرأ الحسن - بخلاف عنه - وأبو عمرو، ونافع، والناس: ﴿كَذَّبُوا﴾ بتخفيف الذال، وقرأ الحسن - وهو المشهور عنه - وأبي بن كعب، ونوح، وإسماعيل: ﴿كَذَّبُوا﴾ بتشديد الذال، والمنى: لم يصدقوه تعالى ولا رسوله وردوا عليه أمره، ثم توعد - في آخر الآية - الكافرين بعذاب أليم، فيحتمل أن يريد في الدنيا بالقتل والأسر، ويحتمل أن يريد في الآخرة بالنار.

وقوله: ﴿يَنْهَهُمْ﴾ يريد أن المعتذرين كانوا مؤمنين، ويرجحه بعض الترجيح فتأمل، وضعف الطبري قول من قال إن «المُعْذِرِينَ» من التعذير وأنحى

مُعَقَّل، وقيل: في عائذ بن عمرو، وقيل: في أبي موسى الأشعري ورهطه، وقيل: في بني مُقرن، وعلى هذا جمهور المفسرين، وقيل: نزلت في سبعة نفر من بطون شتى، فهم البكاؤون، وهم سالم بن عُصير من بني عمرو بن عوف، وخزيم بن عمرو من بني واقف، وأبو ليلى عبدالرحمن بن كعب من بني مازن ابن النجار، وسليمان بن صخر من بني المغل، وأبو رُعَيْلة عبدالرحمن بن زيد من بني حارثة، وهو الذي تصدق بعرضه فقبل الله منه، وعمرو بن عَتَمَة من بني سلمة، وعائذ بن عمرو المُزَنِي، وقيل: عبدالله بن عمرو المزني، قال هذا كله محمد بن كعب القرظي. وقال مجاهد: البكاؤون هم بنو بكر من مزينة.

ومعنى قوله: ﴿لِيَحْمِلَهُمْ﴾ أي على ظهر يركب ويحمل عليه الأثاث، وقال بعض الناس: إنما استحملوه النعال، ذكره النقاش عن الحسن ابن صالح، وهذا بعيد شاذ.

والعامل في ﴿إِذَا﴾ يحتمل أن يكون: ﴿قُلْتَ﴾ ويكون قوله: ﴿تَوَلَّوْا﴾ مقطوعاً، ويحتمل أن يكون العامل: ﴿تَوَلَّوْا﴾ ويكون تقدير الكلام: فقلت، أو يكون قوله: ﴿قُلْتَ لَا أَحِذُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ بمنزلة: وجدوك في هذه الحال. وفي الكلام اختصار وإيجاز ولا بُدَّ يدل ظاهر الكلام على ما اختصر منه. وقال الجرجاني في «النظم» له: إن قوله ﴿قُلْتَ﴾ في حكم المعطوف تقديره: وقلت. و﴿حَرَكَ﴾ نصب على المصدر، وقرأ معقل بن هارون: ﴿لِيَحْمِلَهُمْ﴾ بنون الجماعة.

﴿٩٣﴾ - ﴿٩٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله في هذه الآية «إِنَّمَا» ليس بحصر، وإنما هي للمبالغة فيما يريد تقريره على نحو قولك: «إِنَّمَا الشجاع عنتره»، ويقضي بذلك أنا نجد «السبيل» في الشرع على غير هذه الفرق «موجوداً»، والسبيل قد توصل بعلَى وبإلى فتقول: لا سبيل على فلان، ولا سبيل إلى فلان، غير أن وصولها بعلَى يقتضي أحياناً ضعف المتوصل إليه وقلة منتهه، فلذلك حسنت في هذه الآية، وليس ذلك في «إلى»، ألا ترى أنك تقول: «فلان لا سبيل له إلى الأمر ولا إلى طاعة الله»، ولا يحسن في شبه هذا «علَى»، والسبيل - في هذه الآية - سبيل العاقبة. وهذه الآية نزلت في المنافقين المتقدم ذكرهم: عبدالله بن أبي، والجذ بن قيس، ومعتب، وغيرهم، وقد تقدم نظير تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ الآية. هذه المخاطبة للنبي ﷺ، واشترك معه المسلمون في بعض لأن المنافقين كانوا يعتذرون أيضاً إلى المؤمنين، ولأن إنباء الله أيضاً تحصل للمؤمنين. وقوله: ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ يريد: من غزوة تبوك. وقوله: ﴿أَن تُوَيْنَ لَكُمْ﴾ معناه: لن نصدقكم، ولكن لفظة «تُوَيْنَ» تتصل بلام أحياناً كما تقدم في قوله: ﴿يَتَوَيْنَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، و «تَبَأً» - في هذه الآية - قيل: هي بمعنى عُرِفَ لا تحتاج إلى أكثر من مفعولين، فالضمير مفعول أول، وقوله: ﴿يُنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ مفعول ثان على مذهب

أبي الحسن في زيادة (من) في الواجب، فالتقدير: قد نبأنا الله أخباركم، وهو على مذهب سيبويه نعت لمحذوف هو المفعول الثاني تقديره: قد نبأنا الله جليّة من أخباركم. وقيل: [تَبَأً] بمعنى أعلم يحتاج إلى ثلاثة مفاعيل، فالضمير واحد، و «يُنْ أَخْبَارِكُمْ» ثانٍ حسب ما تقدم من القولين، والثالث محذوف يدل الكلام عليه تقديره: قد نبأنا الله من إخباركم كذباً، أو نحوه، وحذف هذا المفعول مع

الدلالة عليه جائز بخلاف الاختصار، وذلك أن الاختصار إنما يجوز إذاً على المفعول الأول ويسقط الاثنان إذ هما الابتداء والخبر، وإما على الاثنين الأخيرين ويسقط الأول، وأما أن يقتصر على المفعولين الأولين ويسقط الثالث دون دلالة عليه فذلك لا يجوز، ويجوز حذفه مع الدلالة عليه.

والإشارة بقوله سبحانه: ﴿قَدْ نَبَأْنَا إِلَهُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يُنْ أَخْبَارِكُمْ﴾، ونحو هذا. وقوله: ﴿يُنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ تواعد معناه: وسيراه في حال وجوده ويقع الجزاء منه عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وقوله: ﴿يُنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ يريد البعث من القبور، والغيب والشهادة يَغْمَان جميع الأشياء،

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُونَ أَن تُوَيْنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا إِلَهُكُمْ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْ أَخْبَارِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُنَّ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٤﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُنَّ عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا إِلَهُ رَبِّ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٥﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا تَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٦﴾ وَبِالْأَعْرَابِ مِنْ يَتَّخِذُ مَأْوِيَةً مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا يَرْغَبُ بِمَدَنِيٍّ أَلَيْسَ بِهِم مَّا يَنْفِقُ قَوْمِيكَ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَاتِ الرَّسُولِ إِلَّا أَلْهَافًا فَرِيَةً لَهُمْ سَيَذَرُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٧﴾

٢٠٢

وقوله: ﴿يُنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ معناه التخويف ممن لا تخفى عليه خافية.

﴿٩٥﴾ - ﴿٩٦﴾ تفسير قوله عز وجل: قيل: إن هذه الآية من أول ما نزل في شأن المنافقين في غزوة تبوك، وذلك أن بعض المنافقين اعتذروا إلى النبي ﷺ واستأذنوه في القعود قبل مسيره فأذن لهم، فخرجوا من عنده وقال أحدهم: والله ما هو إلا شحمة لأول أكل، فلما خرج رسول الله ﷺ نزل فيهم القرآن، فانصرف رجل من القوم فقال للمنافقين في مجلس منهم: والله لقد نزل على محمد ﷺ فيكم قرآن، فقالوا له: وما ذلك؟ فقال: لا أحفظ إلا أني سمعت وصفكم فيه بالرجس، فقال لهم مخشى: والله لو دُثْتُ أن أجلد بأئة جلدة ولا أكون معكم، فخرج حتى لحق

برسول الله ﷺ، فقال له: ما جاء بك؟ فقال: وَجْهَ رسول الله ﷺ تشفعه الريح وأنا في الكفن، فروي أنه ممن تاب.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أَمَرْنَا بانتهازمهم وعقوبتهم بالإعراض والوصم بالنفاق، وهذا مع إجمال لا مع تعيين مصرح من الله ولا من رسوله، بل كان لكل واحد منهم ميدان المغالطة مبسوطاً، وقوله: ﴿يَسْئَلُ أَي تَنْتَ وَقَدَّرَ، وناهيك بهذا الوصف محطة دنيوية، ثم عطف بمحطة الآخرة فقال: ﴿وَمَا أُنْهَتْ جَهَنَّمَ أَي مسكنهم. ثم جعل ذلك جزاءً بتكسبهم المعاصي والكفر مع أن ذلك مما قدره الله وقضاه لا رب غيره ولا معبود سواه.

وأسند الطبري عن كعب بن مالك أنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك جلس للناس فجاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكّل سرائرهم إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾. هذه الآية والتي قبلها مخاطبة للمؤمنين مع الرسول ﷺ، والمعنى: يحلفون لكم مبطلين ومقصدهم أن ترضوا لا أنهم يفعلون ذلك لوجه الله ولا للبر.

وقوله: ﴿فَإِنْ تَرَضَوْا﴾ إلى آخر الآية شرط يتضمن النهي عن الرضى عنهم، وحكم هذه الآية يستمر في كل مغموص عليه ببدعة ونحوها، فإن المؤمن ينبغي أن يبغضه ولا

يرضى عنه لسبب من أسباب الدنيا. وقوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الآية. [الأعراب] لفظة عامة، ومعناها الخصوص فيمن استثناه الله عز وجل، وهذا معلوم بالوجود كيف كان الأمر، وإنما انطلق عليهم هذا الوصف بسبب بُعدهم عن الحواضر ومواضع العلم والأحكام والشرع، وهذه الآية إنما نزلت في منافقين كانوا في البوادي، ولا محالة أن خوفهم هناك أقل من خوف منافقي المدينة، فألستهم لذلك مطلقة، ونفاقهم أنجم.

وأسند الطبري أن زيد بن صوحان كان يحدث أصحابه بالعلم وعنده أعرابي، وكان زيد قد أصيبت يده اليسرى يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني وإن يدك لتريني، قال زيد: وما يريك من يدي وهي الشمال؟ فقال الأعرابي: والله ما أدري أَلْيَمِينٍ تَقْطَعُونَ أَمَ الشمال؟ فقال زيد: صدق الله، ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾. و ﴿وَأَجْدَرُ﴾ معناه: أخرى وأقمن، والحدود هنا: السنن والأحكام ومعاليم الشريعة.

﴿٩٨﴾ - ﴿٩٩﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا نص في المنافقين منهم، ومعنى ﴿يَتَخَذُوا﴾ في هذه الآيات أي: يجعل مقصده ولا ينوي فيه غير ذلك، وأصل المغرم الدين، ومنه تعوذ رسول الله ﷺ من المغرم والمأثم، ولكن كثر استعمال المغرم فيما يؤديه الإنسان مما لا يلزمه

بحق، وفي اللفظ معنى اللزوم، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ عَذَابُكَ كَانَ عَذَابًا﴾ أي: مكروهاً لازماً. و ﴿الدَّائِرَةُ﴾: المصائب التي لا مخلص للإنسان منها فهي تحيط به كما تحيط الدائرة، وقد يحتمل أن تشتق من دور الزمان والمعنى: ينتظر بكم ما تأتي به الأيام وتدور به. ثم قال على جهة الدعاء: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾، وكل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله عز وجل فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء، لأن الله لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَلَيْلٍ لِيَكُلَّ حَمَزُهُ لُحْمًا﴾ و ﴿وَلَيْلٍ لِلطَّافِقِينَ﴾، فهي كلها أحكام تامة تضمنها خبره تبارك وتعالى. وقرأ الجمهور من السبعة وغيرهم: ﴿دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ بفتح السين، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن بخلاف عنه، وعاصم والأعمش بخلاف عنهما: ﴿دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ بضم السين، واختلف عن ابن كثير، وقيل: الفتح المصدر والضم الاسم، واختلف الناس فيهما وهو اختلاف يقرب بعضه من بعض، والفتح في السين يقتضي وصف الدائرة بأنها سيئة، وقال أبو علي: معنى (الدائرة) يقتضي معنى (السوء) فإنما هي إضافة بيان وتأکید، كما قالوا: «شمس النهار» و«لحيا رأسه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يقال: «رجل سوء» إلا بفتح السين، هذا قول أكثرهم، وقد حكى: «رجل سوء» بضم السين، وقد قال الشاعر:

وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ سَاعَ نَحْنُ مُتَمَلِّمِينَ سَعَدَ لَهُمْ مَرْبَعَيْنِ أُولَئِكَ يَرْدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٢﴾ خَلَدَ مِنْ أَمْرِهِمْ صَدَقَ لَهُ تَطَهَّرَهُمْ وَتَزَكَّيَهُمْ بِمَا وَصَّلَ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْكَافُ الْأَرْحَمُ ﴿١١٤﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا بِمَا رَأَيْتُمُ اللَّهَ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسِرُّوا كُنْزَكُمْ إِلَىٰ عَالِي الْغَيْبِ وَاللَّهِ يَعْلَمُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١٥﴾ وَآخَرُونَ مَرْجُونَ لَأَمْزِ اللَّهُ أَمَانَةً لَهُمْ وَلِإِمَامَتِهِ عَلَيْهِمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٦﴾

٢٠٣

إلى أن انقطعت الهجرة لكان قولاً يقتضيه اللفظ، وتكون ﴿وَمِنْ﴾ لبيان الجنس، و ﴿الَّذِينَ﴾ في هذه الآية عطف على قوله: ﴿وَالسَّيِّئُونَ﴾ وقرأ عمر بن الخطاب، والحسن بن أبي الحسن، وسعيد، ويعقوب بن طلحة، وعيسى الكوفي: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ برفع الراء عطفاً على ﴿وَالسَّيِّئُونَ﴾، وكذلك ينعطف على كلتا القراءتين قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ جعل الاتباع عديلاً للأنصار. وأسند الطبري أن زيد بن ثابت سمعه فراه فبعث عمر رضي الله عنه في أبي بن كعب فسأله فقال أبي بن كعب: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ فقال عمر رضي الله عنه: ما كنا نرى إلا أنا قد

في رَحْمَتِهِ ﴿الآيَةَ﴾. وروي أن هذه الآية نزلت في بني مُقَرَّن من مَزِينة. وقاله مجاهد. وأسند الطبري إلى عبد الرحمن بن مغفل بن مُقَرَّن أنه قال: كنا عشرة ولد مُقَرَّن فنزلت فينا: ﴿وَمِنْ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية. قال قتادة: هذه ثبينة الله تعالى من الأعراب، و ﴿يَتَجَدَّدُ﴾ في هذه الآية أيضاً هي بمعنى: يجعله مقصداً، والمعنى: ينوي بنفسته في سبيل الله القُرْبَةَ عند الله عزَّ وجلَّ واستغنام دعاء الرسول ﷺ، ففي دعائه لهم خير الآخرة في النجاة من النار، وخير الدنيا في أرزاقهم ومنح الله لهم، ف ﴿صَلَّوْا﴾ على هذا عطف على ﴿فَرَّغَتْ﴾. ويحتمل أن يكون عطفاً على ﴿مَا يُقِيْنُ﴾، أي: ويتخذ بالأعمال الصالحة صلوات الرسول قُرْبَةً، والأول أئين.

و ﴿فَرَّغَتْ﴾ جمع قُرْبَةٍ أو قُرْبَةٍ بسكون الراء وضمتها، وهما لغتان، والصلاة في هذه الآية: الدعاء إجماعاً، وقال بعض العلماء: الصلاة من الله رحمة، ومن النبي والملائكة دعاء، ومن الناس عبادة. والضمير في قوله: ﴿إِنَّا﴾ يحتمل أن يعود على النفقة، وهذا في انعطاف الصلوات على القُرْبَات، ويحتمل أن يعود على الصلوات، وهذا في انعطافه على ﴿مَا يُقِيْنُ﴾. وقرأ نافع: ﴿قُرْبَةٍ﴾ بضم الراء، واختلف عنه وعن عاصم والأعمش، وقرأ الباقون: ﴿قُرْبَةٍ﴾ بسكون الراء، ولم يختلف في ﴿فَرَّغَتْ﴾. ثم وعد تبارك وتعالى بقوله: ﴿سَيَدْعُهُمُ اللَّهُ﴾

سويد بن مقرن وبينهم لأن هذا هو الذي في مشهور دواوين أهل العلم.

﴿١١٠﴾ - ﴿١١٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال أبو موسى الأشعري، وابن المسيب، وابن سيرين، وقتادة: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ﴾: مَنْ صَلَّى القبلتين. وقال عطاء: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ﴾: من شهد بدرًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحولت القبلة قبل بدر بشهرين.

وقال عامر بن شراحيل الشعبي: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ﴾: من أدرك بيعة الرضوان. ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ يريد سائر الصحابة، ويدخل في هذا اللفظ التابعون وسائر الأمة لكن بشريطة الإحسان، وقد لزم هذا الاسم الطبقة التي رأت مَنْ رَأَى النبي ﷺ، ولو قال قائل: إن السابقين الأولين هم جميع من هاجر

رفعنا رفعة لا ينالها معنا أحد، فقال أبي: إن مصداق هذا في كتاب الله في أول سورة الجمعة: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَنَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، وفي سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا﴾، وفي سورة الأنفال في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجْهَهُمْ عَنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ لَنَا عَذَابٌ﴾، فرجع عمر إلى قول أبي، ونبّهت هذه الآية من التابعين وهم الذين أدركوا أصحاب رسول الله ﷺ، كما نبّه من ذكرهم قوله ﷺ: «اللَّهُم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» فتأمله.

وقرأ ابن كثير: ﴿مِنْ تَحْتِهَا الْأَثَارُ﴾، وقرأ الباقون: ﴿تَحْتِهَا بِإِسْقَاطِ [مِنْ]﴾، ومعنى هذه الآية: الحكم بالرضا عنهم بإدخالهم الجنة وغفر ذنوبهم، والحكم برضاهم عنه في شكرهم وحمدهم على نعمه وإيمانهم به وطاعتهم له، جعلنا الله من الفائزين برحمته ومنه.

وقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الآية. مخاطبة للنبي ﷺ شرك معه في بعضها أمته، والإشارة بقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ إلى جهينة ومزينة وأسلم وغفار وعصية ولخيان وغيرهم من القبائل المجاورة للمدينة، فأخبر الله عن منافقيهم، وتقدير الآية: «ومن أمل المدينة قوم أو منافقون»، هذا أحسن ما حمله اللفظ. و «مَرَدُّ» قال أبو عبيدة: معناه: مَرَنُوا عليه ولجؤا فيه، وقيل غير هذا مما هو قريب منه، وقال ابن زيد: أقاموا

عليه لم يتوبوا كما تاب الآخرون. والظاهر من معنى اللفظ أن التمرد في الشيء أو المردود عليه إنما هو اللجاج والاستهتار به والغتو على الزاجر وركوب الرأس في ذلك، وهو مستعمل في الشر لا في الخير، من ذلك قولهم: شيطان مارذ ومريد، ومن هذا سميت مراد لأنها تمردت، وقال بعض الناس: يقال: «تمرد الرجل في أمر كذا» إذا تجرد له، وهو من قولهم: «شجرة مرداء» إذا لم يكن عليها ورق، ومنه: «مَرَدٌ مُرَدٌّ»، ومنه قولهم: «تمرد مارذ وعز الأبلق»، ومنه الأمر الذي لا ليخة له، فمعنى «مَرَدُّ» في هذه الآية: لجؤا فيه واستهتروا به وعتوا على زاجرهم. ثم نفى عز وجل علم نبيه بهم على الثعنين، وأسند الطبري عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ تَحْنُ تَعْلَمُهُمْ﴾ قال: فما بال أقوام يتكلفون علم الناس، فلان في الجنة، وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري، أنت لغمري بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الرسل، قال نبي الله ﷺ: ﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، وقال نبي الله ﷺ: ﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾، وقال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ تَحْنُ تَعْلَمُهُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿سَعَىٰ لَهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. وفي مصحف أنس بن مالك

رضي الله عنه: ﴿سَعَىٰ لَهُمْ﴾ بالياء، والكلام - على القراءتين - وعيد، واللفظ يقتضي ثلاثة مواطن من العذاب، ولا خلاف بين المتأولين أن العذاب العظيم الذي يُرَدُّونَ إليه هو عذاب الآخرة، وأكثر الناس أن العذاب المتوسط هو عذاب القبر، واختلف في عذاب المرة الأولى فقال مجاهد وغيره: هو عذابهم بالقتل والجوع، وهذا بعيد لأن منهم من لم يصبه هذا، وقال ابن عباس أيضاً: عذابهم هو بإقامة حدود الشرع عليهم مع كراهيتهم فيه، وقال ابن إسحاق: عذابهم هو هُتْمُهم بظهور الإسلام وعلو كلمته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - وهو الأشهر عنه -: عذابهم هو فضيحتهم ووصمهم بالنفاق، وروي في هذا التأويل أن رسول الله ﷺ خطب يوم الجمعة فنذد بالمنافقين وصرح وقال: «أخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق، وأخرج أنت يا فلان، وأخرج أنت يا فلان» حتى أخرج جماعة منهم، فرأهم عمر يخرجون من المسجد وهو مقبل إلى الجمعة، فظن أن الناس انتشروا وأن الجمعة فاتته فاختبأ منهم حياءً، ثم وصل إلى المسجد فرأى أن الصلاة لم تُقْضَ وفهم الأمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويفعل النبي ﷺ هذا بهم هو على جهة التأديب اجتهداً منه فيهم، ولم يسلخهم ذلك من الإسلام وإنما هو كما يُخْرِجُ العصاة والمتهمون، ولا عذاب أعظم من هذا. وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يتكلم فيهم

على الإجمال دون تعيين، فهذا أيضاً من العذاب. وقال قتادة وغيره: العذاب الأول هي علة وأداة أخبر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أنه يصيبهم بها، وأسند الطبري في ذلك عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسرَّ إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من المنافقين، وقال: ستة منهم تكفيهم الذبيلة، سراج من نار جهنم تأخذ في كتف أحدهم حتى تفضي إلى صدره، وستة يموتون موتاً، ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل ممن يُظن أنه منهم نظر إلى حذيفة، فإن صلى صلى عمر عليه وإلا ترك، وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لحذيفة: أنشدك بالله، أينهم أنا؟ قال: لا، والله ولا أؤمن منها أحداً بعدك. وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿سَعَدَ بِهِمْ مَّرْتَانٍ﴾: أما عذاب الدنيا فالأموال والأولاد، لكل صنف عذاب فهو مرتان، وقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَا تُحِبَّكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وقال ابن زيد أيضاً: المراتان هي في الدنيا، الأولى: القتل والجوع والمصائب، والثانية: الموت إذ هو للكفار عذاب. وقال الحسن: الأولى هي أخذ الزكاة من أموالهم، والعذاب العظيم هو جميع ما بعد الموت، وأظن الزجاج أشار إليه.

﴿١٠٢﴾ - تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ومن هذه الطوائف آخرون اعترفوا بذنوبهم. واختلف في تأويل

هذه الآية فقال ابن عباس - فيما روي عنه - وأبو عثمان: هي في الأعراب، وهي عامة في الأمة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة، فهي آية ترج على هذا، وأسند الطبري هذا عن حجاج ابن أبي زئب قال: سمعت أبا عثمان يقول: ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله: ﴿وَالْآخِرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾، وقال قتادة: بل نزلت هذه الآية في أبي لبابة الأنصاري خاصة في شأنه مع بني قريظة، وذلك أنه كلمهم في النزول على حكم الله ورسوله، وأشار هو لهم إلى حلقه يريد أن النبي ﷺ يذبحهم إن نزلوا، فلما افتضح تاب وندم وربط نفسه في سارية من سواري المسجد، وأقسم ألا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت، فمكث كذلك حتى عفا الله عنه ونزلت هذه الآية، وأمر رسول الله ﷺ بحله، ذكر هذا القول الطبري عن مجاهد، وذكره ابن إسحاق في كتاب السير أوعب وأقن.

وقالت فرقة عظيمة: بل نزلت هذه الآية في شأن المتخلفين عن غزوة تبوك، فكان «عملهم السيئ» التخلف بإجماع من أهل هذه المقالة، واختلفوا في «الصالح»؛ فقال الطبري وغيره: الاعتراف والتوبة والندم، وقالت فرقة: بل «الصالح» غزوهم فيما سلف من غزو النبي ﷺ، ثم اختلف أهل هذه المقالة في عدد القوم الذين عُنوا بهذه الآية؛ فقال ابن عباس

رضي الله عنهما: كانوا عشرة رهط ربط منهم أنفسهم سبعة، وبقي الثلاثة الذين خلفوا دون ربط المذكورين بعد هذا، وقال زيد بن أسلم: كانوا ثمانية منهم كرم، ومرداس، وأبو قيس، وأبو لبابة. وقال قتادة: كانوا سبعة، وقال ابن عباس أيضاً وفرقة: كانوا خمسة، وكلهم قال: كان فيهم أبو لبابة، وذكر قتادة فيهم الجُد بن قيس، وهو - فيما أعلم - وفم لأن الجُد لم تَزُو له توبة، وأما قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرُونَ﴾ فهو بمعنى «بآخر» وهما متقاربان. ﴿وَعَسَى﴾ من الله واجبة.

وروي في خبر الذين ربطوا أنفسهم أن رسول الله ﷺ لما دخل المسجد فرأهم قال: «ما بال هؤلاء؟» ف قيل له: إنهم تابوا وأقسموا ألا ينحلوا حتى يحلهم رسول الله ﷺ. ويعذرهم، فقال رسول الله ﷺ: «وَأَنَا وَاللَّهِ لَا أَحْلَهُمْ وَلَا أَعْذِرُهُمْ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَنِي اللَّهُ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ تَخْلَفُوا عَنِّي وَتَرَكُوا جِهَادَ الْكُفَّارِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ».

وقوله تعالى: ﴿حُذِّرْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَ﴾ الآية. روي أن أبا لبابة والجماعة الثابتة التي ربطت أنفسها وهي المقصودة بقوله سبحانه: ﴿حَاطُوا عَلَا صَليماً وَآخِرَ سَيِّئَةٍ﴾ جاءت رسول الله ﷺ لما تيب عليها فقالت: يا رسول الله، إنا نريد أن نتصدق بأموالنا زيادة في توبتنا، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أعرض لأموالكم إلا بأمر من الله»، فتركهم حتى نزلت هذه الآية، فهم المراد بهم، فروي أن رسول الله ﷺ أخذ

رضي الله عنهما: ﴿سَكَنَ لَهُمُ﴾: رحمة لهم، وقال قتادة: ﴿سَكَنَ لَهُمُ﴾ أي وقار لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما معناه أن من يدعو له النبي ﷺ فإنه تطيب نفسه ويقوى رجاؤه، ويروى أنه قد صحت وسيلته إلى الله تبارك وتعالى، وهذا بين.

﴿١٠٤﴾ - ﴿١٠٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ على ذكر الغائب، وقرأ الحسن بن أبي الحسن - بخلاف عنه -: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ على معنى: قل لهم يا محمد ألم تعلموا؟ وكذلك هي في مصحف أبي بن كعب بالتاء من فوق، والضمير في ﴿يَعْلَمُوا﴾ قال ابن زيد: يراد به الذين لم يتوبوا من المتخلفين، وذلك أنه لما تيب على بعضهم قال الغير: ما هذه الخاصة التي خُص بها هؤلاء؟ فنزلت هذه الآية. ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿يَعْلَمُوا﴾ يراد به الذين لم يتوبوا من المتخلفين، وذلك أنه لما تيب على بعضهم قال الغير: ما هذه الخاصة التي خُص بها هؤلاء؟ فنزلت هذه الآية. ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿يَعْلَمُوا﴾ يراد به الذين تابوا وربطوا أنفسهم.

وقوله: ﴿هُوَ﴾ تأكيد لانفراد الله بهذه الأمور وتحقيق ذلك، لأنه لو قال: «أَنَّ الله يقبل التوبة» لاحتمل ذلك أن يكون قبول رسوله قبولاً منه، فبيّنت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبي ولا ملك، وقوله: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ معناه: يأمر بها ويُشْرِعُها كما تقول: أخذ السلطان

ذلك يتقدر: «خذ من أموالهم صدقة مطهرة ومزكيا بها»، وهذا فاسد المعنى، ولو لم يكن في الكلام واو عطف جاز. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ بسكون الطاء. وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ معناه: ادع لهم فإن في دعائك لهم سكوناً لأنفسهم وطمأنينة ووقاراً، فهذه عبارة عن صلاح المعتقد. وحكى مكي، والنحاس، وغيرهما أنه قيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَكْثَرِ مَنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وهم بعيد، وذلك أن تلك في المنافقين الذين لهم حكم الكافرين، وهذه في التائبين من التخلف الذين لهم حكم المؤمنين، فلا تناسخ بين الآيتين.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، ونافع، وابن عامر: ﴿إِنَّ صَلَوَاتِكَ﴾ بالجمع، وكذلك في (هود) وفي (المؤمنين)، وقرأ حفص عن عاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿إِنَّ صَلَوَاتِكَ﴾ بالإنفراد، وكذلك قرأ حمزة والكسائي في (هود) وفي (المؤمنين)، وقرأ عاصم في (المؤمنين) وحدها جمعاً، ولم يختلفوا في سورة (الأنعام) و﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ وهو مصدر أفردته فرقة وجمعه فرقة.

وقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ﴾ أي لدعائك، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي بمن يهدي ويتوب عليه وغير ذلك مما تقتضيه هاتان الصفتان. وروى أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية فعل ما أمر به من الدعاء والاستغفار لهم، وقال ابن عباس

ثلث أموالهم مراعاة لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، فهذا هو الذي تظاهرت به أقوال المتأولين، ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

وقالت جماعة من الفقهاء: المراد بهذه الآية الزكاة المفروضة، فقوله - على هذا -: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ضميره لجميع الناس، وهو عموم يراد به الخصوص إذ يخرج من الأموال الأنواع التي لا زكاة فيها كالثياب والرباع ونحوه، والضمير الذي في ﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ أيضاً كذلك عموم يراد به خصوص إذ يخرج منه العبيد وسواهم، وقوله: ﴿صَدَقَهُ﴾ مجمل يحتاج إلى تفسير، وهذا يقتضي أن الإمام يتولى أخذ الصدقات وينظر فيها، و﴿مِنْ﴾ في هذه الآية للتبعض، هذا أقوى وجوهاً.

وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أحسن ما يحتمل أن تكون هذه الأفعال مسندة إلى ضمير النبي ﷺ، ويحتمل أن تكون في موضع الحال من الضمير في ﴿خُذْ﴾، ويحتمل أن تكون من صفة الصدقة، وهذا مترجح بحسب رفع الفعل، ويكون قوله: ﴿بِهَا﴾ أي بنفسها، أي: يقع تطهيرهم من ذنوبهم بها، ويحتمل أن تكون ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ صفة للصدقة و﴿تُزَكِّيهِمْ﴾ مسنداً إلى النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون حالاً من الصدقة، وذلك ضعيف لأنها حال من نكرة، وحكى مكي أن يكون ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من صفة الصدقة وقوله: ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ حالاً من الضمير في ﴿خُذْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مردود لمكان واو العطف، لأن

من الناس كذا، إذا حملهم على أدائه، وقال الزجاج: معناه: ويقبل الصدقات، وقد وردت أحاديث في أخذ الله صدقة من عبدة، منها قوله ﷺ الذي رواه عبدالله بن أبي قتادة المحاربي عن ابن مسعود عنه: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ وَقَعَتْ فِي يَدِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ السَّائِلِ»، ومنه قوله الذي رواه أبو هريرة: «إِنَّ الصَّدَقَةَ تَكُونُ قَدْرَ اللَّقْمَةِ يَأْخُذُهَا اللَّهُ بِمِيزَانِهِ فَيُرِيهَا لِأَحَدِكُمْ كَمَا يُرِيهِ أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ أَوْ فَصِيلُهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ». وغير هذا من الأحاديث التي هي عبارة عن القبول والتحفى بصدقة العبد، فقد يحتمل أَنْ تُخْرَجَ لفظة ﴿وَرَأَاهُ﴾ على هذا.

ويتعلق بهذه الآية القول في قبول التوبة، وتلخيص ذلك أَنْ قبول التوبة من الكفر يقطع به عن الله عَزَّ وَجَلَّ إجماعاً، وهذه نازلة هذه الآية، وهذه الفرقة الناجية من النفاق تائبة من كفر، وأما قبول التوبة من المعاصي فيقطع بَأَنَّ الله تعالى يقبل من طائفة من الأمة توبتهم، واختلف؛ هل تقبل توبة الجميع؟ وأما إذا عين إنسان تائب فيرجى قبول توبته ولا يقطع بها على الله. وأما إذا فرضنا تائباً غير معين صحيح التوبة، فهل يقطع على الله بقبول توبته أم لا؟ فَاخْتَلَفَ؛ فقالت فرقة فيها الفقهاء والمحدثون - وهو كان مذهب أبي رضي الله عنه -: يقطع على الله بقبول توبته لأنه تعالى أخبر بذلك عن نفسه، وعلى هذا يلزم أَنْ تقبل توبة جميع التائبين. وذهب أبو المعالي وغيره من الأئمة إلى أَنْ ذلك

لا يقطع به على الله تعالى، بل يقوى فيه الرجاء، ومن حجتهم أَنَّ الإنسان إذا قال في الجملة: إني أغفر لمن ظلمني، ثم جاء من قد سبَّه وأذاه، فله تعقب حقه، وبالعفوان لقوم يصدق وعده ولا يلزمه العفوان لكل ظالم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونحو هذا من القول، والقول الأول أرجح، والله الموفق للصواب.

وقوله تعالى: ﴿عَنْ

عِبَادِهِ﴾ هي بمعنى «من»، وكثيراً ما يتوصل في موضع واحد بهذه وهذه، تقول: لا صدقة إلا عن غنى، ومن غنى، وفعل فلان ذلك من أشربه وبطره، وعن أشربه وبطره. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَسْأَلُوا﴾ تقرير، والمعنى: حق لهم أَنْ يعلموا، وقوله: ﴿وَكُلٌّ أَفْعَلُوا﴾ الآية. صيغة أمر مضمناها الوعيد، وقال الطبري: المراد بها الذين اعتزلوا من المتخلفين وتابوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أَنَّ المراد بها الذين اعتزلوا ولم يتوبوا، وهم المتوعدون، وهم الذين في ضمير قوله: ﴿أَلَمْ يَسْأَلُوا﴾ إلا على الاحتمال الثاني من أَنَّ الآيات كلها في الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. ومعنى ﴿سَيَرَى اللَّهُ﴾ أي موجوداً متعرضاً للجزاء عليه بخير أو شر، وأما الرسول

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرُّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَرِصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَادْنَا إِلَّا أَتِيَهُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٦﴾ لَا تَقْعُ فِيهِ أَيْدٍ الْمَسْجِدِ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَنْظَهُرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴿١٠٧﴾ أَفَمَنْ أَسْسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسْسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْئِي هَاسٍ فَأَتَاهُمُ فِي تَارِحَتِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ لَا يَسْأَلُ بَنِيهِمْ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٩﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ وَيُؤْمِنُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فَيُؤْتُونَ وَلَا يُغَيِّرُ الْقُرْآنَ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٠﴾

والمؤمنون فرويتهم رؤية حقيقية لا تجوز، وقال ابن المبارك: رؤية المؤمنين هي شهادتهم على المراء بعد موته، وهي ثناؤهم عند الجنائز. وقال الحسن ما معناه أنهم حذروا من فراسة المؤمن التي قال فيها النبي ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ».

وقوله تعالى: ﴿وَسَرَّدُونَ إِلَىٰ عَلَىٰ الْغَيْبِ وَالْشَّهَادَةِ فَيَشْكُرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يريد البعث من القبور، ومعنى الغيب والشهادة: ما غاب وما شوه، وهي حالتان تعم كل شيء، وقوله: ﴿فَيَشْكُرُكُمْ﴾ عبارة عن حضور الأعمال وإظهارها للجزاء عليها، وهذا وعيد.

﴿١٠٦﴾ - ﴿١٠٧﴾ تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ: قوله تعالى: ﴿وَالْآخَرُونَ﴾ عطف على قوله أولاً: ﴿وَالْآخَرُونَ﴾، وقرأ

نافع، والأعرج، وابن نصاح، وأبو جعفر، وطلحة، والحسن، وأهل الحجاز: ﴿مَرْجُونَ﴾ من أرجى يُرْجَى دون همز، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وأهل البصرة: ﴿مَرْجُوتُونَ﴾ من أرجأ يرجىء بالهمز، واختلف عن عاصم، وهما لغتان، ومعناها التأخير، ومنه المرجئة لأنهم أخرّوا الأعمال، أي أخرّوا حكمها ومرتبها. وأنكر المبرد ترك الهمز في معنى التأخير، وليس كما قال.

والمراد بهذه الآية - فيما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن إسحاق - الثلاثة الذين خلفوا، وهم هلال بن أمية الواقفي، ومراة بن الربيع، وكعب بن مالك، ونزلت هذه الآية قبل التوبة عليهم، وقيل: إنها نزلت في غيرهم من المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنائهم مسجد الضرار، وعلى هذا يكون ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ بإسقاط واو العطف بدلاً من ﴿مُؤَخَّرُونَ﴾ أو خبر ابتداء تقديرهم: هم الذين، فالآية - على هذا - فيها ترج لهم واستدعاء إلى الإيمان والتوبة. و﴿عَلَيْهِمْ﴾ معناه: بمن يهدي إلى الرشd، و﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفذه من تنعيم من شاء وتعذيب من شاء لا رب غيره ولا معبود سواه.

وقرأ عاصم، وعوام القراء، والناس في كل قطر إلا بالمدينة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ وقرأ أهل المدينة، نافع، وأبو جعفر، وشيبة، وغيرهم: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ بإسقاط الواو، وكذلك هي في مصحفهم، قاله أبو

حاتم، وقال الزهراوي: هي قراءة ابن عامر، وهي في مصاحف أهل الشام بغير واو. فأما من قرأ بالواو فذلك عطف على قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾ أي: ومنهم الذين اتخذوا، وأما من قرأ بإسقاطها فرفع الذين بالابتداء، واختلف في الخبر؛ فقيل: الخبر: ﴿لَا تَقَعُ فِيهِ أَبَدًا﴾، قاله الكسائي: ويتجه بإضمار إما في أول الآية وإما في آخرها بتقدير: لا تقم في مسجدهم، وقيل: الخبر: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَتُهُمْ﴾، قاله النحاس، وهذا أفصح، وقد ذكرت كون ﴿الَّذِينَ﴾ بدلاً من ﴿مُؤَخَّرُونَ﴾ آنفاً. وقال المهدوي: الخبر محذوف تقديره: «مُعَذِّبُونَ» أو نحوه.

وأما الجماعة المرادة «بالذين اتخذوا» فهم منافقو بني غنم بن عوف، وبني سالم بن عوف، وأسند الطبري عن ابن إسحاق عن الزهري وغيره أنه قال: أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وقد كان أصحاب مسجد الضرار أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليله المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: «إني على جناح سفر وحال شغل، ولو قدما إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه»، فلما أقبل ونزل بذي أوان نزل عليه القرآن في شأن مسجد الضرار، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم، ومغن بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي فقال:

«انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقا»، فانطلقا مسرعين ففعلوا وحرّقا بنار في سعف، وذكر النقاش أن رسول الله ﷺ بعث لهدمه وتحريقه عمار بن ياسر، ووحشياً مولى المطعم بن عدي، وكان بانوه اثني عشر رجلاً: خذام بن خالد ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب، ومُعْتَب بن قُشير، وأبو حبيبة بن الأزعر وعباد بن حُنيف أخو سهل بن حُنيف، وجارية بن عمرو، وابناه: مُجَمَع بن جارية وهو كان إمامهم، وحلف لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في خلافته أنه لم يشعر بأمرهم، وزيد بن جارية، ونبثل بن الحارث، ويخرج من بني ضبيعة، ويجاد بن عثمان، ووديعة بن ثابت، ويخرج منهم هو الذي حلف لرسول الله ﷺ: ما أردت إلا الحسنى والتوسعة علينا وعلى من عجز أو ضعف عن المسير إلى مسجد قباء.

وقرأ ابن أبي عبله: ﴿مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخُسَى﴾.

والآية تقتضي شرح شيء من أمر هذه المساجد، فروي أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة وقت الهجرة بنى مسجداً في بني عمرو بن عوف، وهو مسجد قباء، وقيل: وجده مبنياً قبل وروده، وقيل: وجده موضع صلاة فيه، وتشرف القوم بذلك فحسدوه من حينئذ رجال من بني عمهم من بني غنم بن عوف وبني سالم بن عوف، فكان فيهم نفاق، وكان موضع مسجد قباء

مربطاً لحمار امرأة من الأنصار اسمها لية، فكان المنافقون يقولون: والله لا نصبر على الصلاة في مرتبط حمار لية ونحو هذا من الأقوال، وكان أبو عامر عبد عمرو المعروف بالراهب منهم، وكانت أمه من الروم، فكان يتعبد في الجاهلية فسمي الراهب، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، وكان سيدياً نظيفاً وقريباً من عبدالله بن أبي ابن سلول فلما جاء الله تبارك وتعالى بالإسلام نافق ولم يزل مجاهراً بذلك فسماه رسول الله ﷺ الفاسق، ثم خرج في جماعة من المنافقين فحزب على رسول الله ﷺ الأحزاب، فلما ردهم الله يغيظهم أقام أبو عامر بمكة مظهراً لعداوته، فلما فتح الله مكة هرب إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف خرج هارباً إلى الشام يريد قيصر مستنصراً به على رسول الله ﷺ، وكتب إلى قومه المنافقين منهم أن ابنوا مسجداً مقاومةً لمسجد قباء وتحقيراً له، فإني سأتي بجيش من الروم أخرج به محمداً وأصحابه من المدينة، فبتوة وقالوا: سيأتي أبو عامر ويصلي فيه ويتخذة معبداً ويُسَر به، ثم إن أبا عامر هلك عند قيصر. ونزل القرآن في أمر مسجد الضرار، فذلك قوله تعالى: ﴿وَرَاكَدًا لَمَن حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني أبا عامر وقولهم: «سيأتي أبو عامر». وقرأ الأعمش: ﴿لِلَّذِينَ حَارَبُوا اللَّهَ﴾، وقوله: ﴿يَرَاكَ﴾ أي داعية للخصار بين جماعتين، فلذلك قال: ﴿يَرَاكَ﴾، وهو في الأصل مصدر ما يكون من

اثنين وإن كان المصدر الملازم لذلك مُفاعلة كما قال سيبويه. ونصب (ضِرَار) وما بعده على المصدر في موضع الحال، ويجوز أن يكون على المفعول من أجله، وقوله: ﴿يَرَاكَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد: بين الجماعة التي كانت تصلي في مسجد قباء، فإن من جاوز مسجدهم كانوا يصرفونه إليه وذلك داعية إلى صرفه عن الإيمان. وقيل: أراد بقوله: ﴿يَرَاكَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جماعة مسجد رسول الله ﷺ، وهذا بحسب الخلاف في المسجد المؤسس على التقوى، وسيأتي ذلك. قال النقاش: يلزم من هذا ألا يُصَلَّى في كنيسة ونحوها لأنها بنيت على شر من هذا كله، وقد قيل في هذا: ﴿لَا تَقْرَأُ فِيهِ أَبَدًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفقه غير قوي.

والإرصاد: الإعداد والتهيئة، والذي حارب الله ورسوله: أبو عامر الفاسق، وقوله: ﴿يَرَاكَ﴾ يريد: في غزوة الأحزاب وغيرها، والحالف المراد في قوله: ﴿وَلِيَّائِهِمْ﴾ هو بخزج ومن حلف من أصحابه، وكُسِرَت الألف من قوله: ﴿يَرَاكَ﴾ لأن الشهادة في معنى القول.

وأسند الطبري عن شقيق أنه جاء ليصلي في مسجد بني غاضرة فوجد الصلاة قد فاتته، فقيل له: إن مسجد بني فلان لم يصل فيه بعد فقال: لا أحب أن أصلي فيه فإنه بُني على ضرار، وكل مسجد بُني ضراراً ورياءً وشُمعة فهو في حكم مسجد

الضرار، وروي أن مسجد الضرار لما هدم وأحرق اتخذ مزبلة ترمى فيه الأثذار والقمامات.

﴿١٠٨﴾ - ﴿١٠٩﴾ تفسير قوله عز وجل: روي أن رسول الله ﷺ لما نزلت: ﴿لَا تَقْرَأُ فِيهِ أَبَدًا﴾ كان لا يمر بالطريق التي فيها المسجد، وهذا النهي إنما هو لأن البائنين لمسجد الضرار قد كانوا خادعوا رسول الله ﷺ وقالوا: بنينا مسجداً للضرورات والسييل الحائل بيننا وبين قومنا فنريد أن تصلي لنا فيه وتدعو بالبركة، فهَمَّ رسول الله ﷺ بالمشي معهم إلى ذلك، واستدعى قميصه لينهض فنزلت الآية: ﴿لَا تَقْرَأُ فِيهِ أَبَدًا﴾. وقوله: ﴿لَتَسْجُدَ﴾ قيل: إن اللام لام قَسَم، وقيل: هي لام الابتداء كما تقول: لَنَزِيدَ أحسن الناس فعلاً، وهي مقتضية تأكيداً.

وقال ابن عباس، وفرقة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم: المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى: هو مسجد قباء، وروي عن عمر، وأبي سعيد، وزيد بن ثابت أنه مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، ويليق القول الأول بالقصة، إلا أن القول الثاني روي عن رسول الله ﷺ، ولا نظر مع الحديث، وأسند الطبري في ذلك عن أبي سعيد الخدري أنه قال: اختلف رجل من بني خدره ورجل من بني عمرو بن عوف فقال الخدري: هو مسجد الرسول ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأثبا رسول الله ﷺ فسألاه فقال: «هو

مسجدي هذا، وفي الآخر خير كثير إلى كثير من الآثار في هذا عن أبي بن كعب، وسهل بن سعد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومسجد رسول الله ﷺ كان في بقعته نخل وقبور مشركين وميرد ليتيمين كانا في حجر أسعد بن زرارة، وبناء رسول الله ﷺ ثلاث مرات: الأولى بالسَّمِيط وهي لبنة أمام لبنة، والثانية بالصعيدة، وهي لبنة ونصف في عرض الحائط، والثالثة بالأنثى والذكر، وهي لبنتان تعرض عليهما لبنتان، وكان في طوله سبعون ذراعاً، وكان عُمدُه النخل، وكان عريشاً يكشف المطر، وعرض على رسول الله ﷺ بنيانه ورفع فقال: «لا، بل يكون عريشاً كعريش أخي موسى كان إذا قام ضرب رأسه في سقفه»، وكان رسول الله ﷺ ينقل فيه اللبن على صدره، ويقال إن أول من وضع في أساسه حجراً رسول الله ﷺ، ثم وضع أبو بكر حجراً، ثم وضع عمر حجراً، ثم وضع عثمان حجراً، ثم رمى الناس بالحجارة فشفاءً بذلك بعض الصحابة في أنها الخلافة فصَدَّقَ فأله.

وقوله: «مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ» قيل: معناه: منذ أول يوم، وقيل: معناه: من تأسيس أول يوم، وإنما دعا إلى هذا الاختلاف أنَّ من أصول النحويين أنَّ (من) لا تُجر بها الأزمان وإنما تُجر الأزمان بمنذ، تقول: ما رأيته منذ يومين أو سنة أو يوم، ولا تقول: من شهر ولا من سنة، ولا من يوم، فإذا وقعت (من) في الكلام وهي تلي

زماناً فيقدر مضمراً يليق أن تجره (من) كقول الشاعر:

لِمَنِ الدِّينَارُ كَقُتْنَةِ الْحَجَرِ
أَقْوَمَ مِنْ جَجَجٍ وَمِنْ دَهْرٍ؟
و «مِنْ شَهْرٍ» رواية، فقدروه: «مِنْ مَرْجَجٍ وَمِنْ مَرْجٍ دَهْرٍ»، ولما كان قوله تعالى: «أَوَّلُ يَوْمٍ» يوماً وهو اسم زمان احتاجوا فيه إلى تقدير «مِنْ تَأْسِيسٍ»، ويحسن عندي أن يُستغنى في هذه الآية عن تقدير، وأن تكون (من) تجر لفظة [أَوَّلَ] لأنها بمعنى البداية، كأنه قال: من مبتدئ الأيام، وهي - هنا - تقوم مقام «الْمَرْ» في البيت المتقدم، وهي كما تقول: «جئت من قبلك ومن بعدك» وأنت لا تدل بهاتين اللفظتين إلا على الزمن، وقد حُكي لي هذا الذي اخترته عن بعض أئمة النحو.

ومعنى «أَنْ تَقُومَ فَيَوْمٌ» أي بصلاتك وعبادتك. وقرأ جمهور الناس: «أَنْ تَقُومَ فَيَوْمٌ فَيَوْمٌ يَجَالُ» بكسر الهاء، وقرأ عبدالله ابن زيد: «أَنْ تَقُومَ فَيَوْمٌ فَيَوْمٌ» بضم الهاء الثانية على الأصل، ويَحْسَنُه تَجَبُّبُ تكرار لفظ واحد، وقال قتادة وغيره: الضمير عائذ على مسجد الرسول ﷺ، والرجال: جماعة الأنصار.

وروي أن رسول الله ﷺ قال لهم: «يا معشر الأنصار إني رأيت الله أثنى عليكم بالطهور فماذا تفعلون؟» فقالوا: يا رسول الله: إنا رأينا جيراننا من اليهود يتطهرون بالماء، (قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريدون الاستنجاء بالماء) ففعلنا نحن ذلك، فلما جاء الإسلام لم ندعه،

فقال رسول الله ﷺ: «فلا تدعوه أبداً».

وقال عبدالله بن سلام وغيره ما معناه: إن الضمير عائذ على مسجد قباء، والمراد بنو عمرو بن عوف، وروي أن رسول الله ﷺ إنما قال المقالة المتقدمة لبني عمرو بن عوف، والأول أكثر. واختلف أهل العلم في الأفضل بين الاستنجاء بالماء أو بالحجارة، فقيل هذا وقيل هذا، ورأت فرقة من أهل العلم الجمع بينهما، فينقى بالحجارة ثم يتبع بالماء، وحدثني أبي رضي الله عنه أنه بلغه أن بعض علماء القيروان كانوا يتخذون في مَوَاضِعَاتِهِمْ أحجاراً في تراب ينقون بها ثم يستنجون بالماء أخذاً بهذا القول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما يتصور الخلاف في البلاد التي يمكن فيها أن تنقى الحجارة. وابن حبيب لا يجيز الاستنجاء بالحجارة حيث يوجد الماء، وهو قول شذ في.

وقرأ جمهور الناس: «يَطْهَرُوا»، وقرأ طلحة بن مصرف، والأعمش: «يَطْهَرُوا» بالإدغام، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الْمُطَهَّرِينَ» بالتاء، وأسند الطبري عن عطاء أنه قال: أحدث قوم من أهل قباء الاستنجاء بالماء فنزلت الآية فيهم، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «منهم عويم بن ساعدة» ولم يسم أحداً منهم غير عويم.

وقوله تعالى: «أَقَمْنَا اسْتِسْ بِكُنْ» الآية. استفهام بمعنى

تقرير. وقرأ نافع، وابن عامر، وجماعة: ﴿أُسُسٌ بُنِيَانُهُ﴾ على بناء [أُسُسٍ] للمفعول ورفع [بُنِيَانٍ] فيهما، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمرزة، والكسائي، وجماعة: ﴿أَسْسٌ بُيُكُنُهُ﴾ على بناء الفعل للفاعل ونصب [بُنِيَانٍ] فيهما، وقرأ عمارة بن ضبا - رواه يعقوب - الأول على بناء الفعل للمفعول والثاني على بئانه للفاعل. والآية تتضمن معادلة بين شيئين، فإما بين البنائين وإما بين البانين، فالمعادلة الأولى هي بتقدير: «أبناء من أسس؟». وقرأ نصر بن علي - ورويت عن نصر بن عاصم -: ﴿أَقْمَسُ أَسْ بُنِيَانِهِ﴾ على إضافة «أَسْ» إلى البنيان، وقرأ نصر بن عاصم، وأبو حيوة أيضاً: ﴿أَسَاسٌ بُنِيَانِهِ﴾، وقرأ نصر بن عاصم أيضاً: ﴿أُسُسٌ بُنِيَانِهِ﴾ على وزن (فَعْل) بضم الفاء والعين، وهو جمع أساس كقَدَالٍ وقُدْلٍ، حكى ذلك أبو الفتح، وذكر أبو حاتم أن هذه القراءة لنصر إنما هي: ﴿أُسُسٌ﴾ بهمزة مفتوحة وسين مفتوحة وسين مضمومة، وعلى الحكايين فالإضافة إلى البنيان، وقرأ نصر بن علي أيضاً: ﴿أَسَاسٌ﴾ على جمع «أَسْ»، والبنيان مصدر، يقال: بني يبنى بناءً وبُنِيَاناً كالقُفْرَانِ والطُّغْيَانِ فسمي به المبني مثل الخلق إذا أردت به المخلوق، وقيل: هو جمعٌ واحدٌ بُنِيَانَةٌ، وأنشد في ذلك أبو علي:

كُبْنِيَانَةِ الْقَارِي مَوْضِعُ رَجُلِهَا
وَأَتَارِ يُسْعِيهَا مِنَ الدَّفِّ أَتْلُقُ
وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿عَلَى تَقْوَى﴾، وقرأ

عيسى بن عمر: ﴿عَلَى تَقْوَى﴾ بتنوين الواو، حكى هذه القراءة سيويه وردها الناس، قال أبو الفتح: قياسها أن تكون الألف للإلحاق كأرطى ونحوه. وأما المراد بالبنيان الذي أسس على التقوى والرضوان فهو - في ظاهر اللفظ وقول الجمهور - المسجد المذكور قبل، ويطرد فيه الخلاف المتقدم، وروي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: المراد بالمسجد المؤسس على التقوى هو مسجد رسول الله ﷺ، والمراد بأنه أسس على تقوى من الله ورضوان هو مسجد قباء، وأما البنيان الذي أسس على شفا جرف هار فهو مسجد الضرار بإجماع.

والشفا: الحاشية والشفير، والجُرف: الحفير حول البئر ونحوه مما جرفته السيول والثدوة والبلى، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وجماعة: ﴿جُرْفٍ﴾ بضم الراء، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمرزة، وجماعة: ﴿جُرفٌ﴾ بسكون الراء، واختلف عن عاصم، وهما لغتان، وقيل: الأصل بضم الراء وتخفيفها بعد ذلك مستعمل. و﴿هَارٍ﴾ معناه: متهدم مُنهال، من هَارَ يهَرُ، ويقال: هَارَ يهَرُ ويهَارُ، وأصله: هَارٍ أو هاور، فقيل: قلبت راؤه قبل حرف العلة فجاء هَارِوُ أو هَارِي، فصنع به ما صنع بِقَاضٍ وغَارِ، وعلى هذا يقال في حال النصب: هَارِيًا، ومثله «في يوم راح» أصله: رائح، ومثله «شاكى السلاح» أصله: شاتك، ومثله قول العجاج:

لَا تَبِ بِهِ الْأَشَاءُ وَالْعُبْرِي
أصله: لا يَبِ، ومثله قول الشاعر:

خَفَضُوا أَيْسَتْهُمْ فَكُلُّ نَاعٍ
على أحد الوجهين، فإنه يحتمل أنه من «نَعَى ينعى» والمراد أنهم يقولون: «يا ثارات فلان»، ويحتمل أن يريد: «فكُلُّهم نَائِعٌ» أي عاطش كما قال عُمَيْرُ بْنُ شَيْمٍ:

... وَالْأَسَلُ السَّيَاعَا
وقيل في ﴿هَارٍ﴾: إن حرف علته حُذِفَ حذفاً، فعلى هذا يجري بوجوه الإعراب فتقول: هذا جُرفٌ هَارٍ، ورأيت جُرفاً هَاراً، ومررت بجُرفٍ هَارٍ. واختلف القراءة في إمالة ﴿هَارٍ﴾ و﴿قَاتِلَاهُ﴾.

وتأسيس البناء على تقوى إما هو بِحُسْنِ النية فيه وقصد وجه الله تبارك وتعالى وإظهار شرعه، كما صنع في مسجد النبي ﷺ وفي مسجد قباء. والتأسيس على شفا جرف هار إنما هو بفساد النية وقصد الرياء والتفريق بين المؤمنين، فهذه تشبيهات صحيحة بارعة. و﴿عَيْرٍ﴾ في هذه الآية تفضيل، ولا شركة بين الأمرين في خير إلا في معتقد باني مسجد الضرار، فيَحْسَبُ ذلك المعتقد صح التفضيل.

وقوله تعالى: ﴿قَاتِلَاهُ يَدِي فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الظاهر منه ومما صح من خبرهم وهزم رسول الله ﷺ مسجدهم أنه خارج مخرج المثل، أي: مثل هؤلاء المضارين من المنافقين في قصدهم معصية الله

وحصولهم من ذلك على سخطه كمن ينهار بنيانه في نار جهنم، ثم اقتضب الكلام اقتضاباً يدل عليه ظاهره. وقيل: بل ذلك حقيقة وإن ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنم، قاله قتادة وابن جريج. وروي عن جابر بن عبدالله وغيره أنه قال: رأيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله ﷺ، وروي في بعض الكتب أن رسول الله ﷺ رآه حين انهار حتى بلغ الأرض السابعة ففرغ لذلك رسول الله ﷺ، وروي أنهم لم يصلوا فيه أكثر من ثلاثة أيام، أكملوه يوم الجمعة وصلوا فيه يوم الجمعة وليلة السبت وانهار يوم الاثنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله بإسناد لين، وما قدمناه أصوب وأصح، وكذلك بقي أمره والصلاة فيه من قبل سفر رسول الله ﷺ إلى تبوك إلى أن قفل منها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ طعن على هؤلاء المنافقين وإشارة إليهم. والمعنى: لا يهديهم من حيث هم ظالمون، أو يكون المراد الخصوص فيمن يوافي على ظلمه، وأسند الطبري عن خلف بن ياسين أنه قال: رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله في القرآن فرأيت فيه مكاناً يخرج منه الدخان، وذلك في زمن أبي جعفر المنصور. وروي شبيه بهذا أو نحوه عن ابن جريج، أسنده الطبري.

﴿١١٠﴾ - ﴿١١١﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿يَبْنِيهِمْ﴾ عائد على

المنافقين البائنين للمسجد ومن شاركهم في غرضهم، وقوله: ﴿الَّذِي بَرَّأ﴾ تأكيد وتصريح بأمر المسجد ورفع للإشكال. والرؤية: الشك، وقد يُسمى رؤيةً فساداً المعتقد واضطرابه والاعتراض في الشيء والتخبط فيه والحزازة من أجله وإن لم يكن شكاً، فقد يرتاب من لا يشك، ولكنها في مُتَعَاد اللغة تجري مع الشك. ومعنى الرؤية - في هذه الآية - أمر يعم الغيظ والحنق ويعم اعتقاد صواب فعلهم ونحو هذا مما يؤدي كله إلى الرؤية في الإسلام، فمقصد الكلام: لا يزال هذا البنيان الذي هدم لهم يُبقي في قلوبهم حزازة وأثر سوء، وبالشك فسر ابن عباس رضي الله عنهما الرؤية هنا، وفسرها السدي بالكفر، وقيل له: أَتَكْفُرُ مجمع بن جارية؟ قال: لا ولكنها حزازة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومُجْتَمَعُ رحمه الله قد أقسم لعمر رضي الله عنه أنه ما علم باطن القوم ولا قصد سوءاً، والآية إنما عنت من أبطن سوءاً، فليس مجمع منهم. ويحتمل أن يكون المعنى: لا يزالون مرببين بسبب بنائهم الذي اتضح فيه نفاقهم، وجملة هذا أن الرؤية في الآية تعم معاني كثيرة يأخذ كل منافق منها بحسب قدره من النفاق.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بضم التاء وبناء الفعل للمفعول، وقرأ ابن عامر، وحزمة، وعاصم - بخلاف عنه -: ﴿إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ﴾ بفتح التاء على أنها فاعلة، وقرأ

الحسن بن أبي الحسن، ومجاهد، وقاتدة: ﴿إِلَى أَنْ تَقْطَعَ﴾ على معنى: إلى أن يموتوا، وقرأ بعضهم: ﴿إِلَى أَنْ تَقْطَعَ﴾، وقرأ أبو حية: ﴿إِلَّا أَنْ يُقْطَعَ﴾ بالياء مضمومة وكسر الطاء ونصب القلوب، أي: بالقتل، وأما على القراءة الأولى ف قيل: بالموت، قاله ابن عباس، وقاتدة، وابن زيد وغيرهم. وقيل: بالتوبة، وليس هذا بالظاهر إلا أن يُتَأَوَّل: أو يتوبوا توبة نصوحة يكون معها من الندم والحسرة على الذنب ما يقطع القلوب همًا وفكرة، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَلَوْ قُطِعَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وكذلك قرأها أصحابه وحكاها أبو عمرو: ﴿وَلِنْ قُطِعَتْ﴾ بتخفيف الطاء، وفي مصحف أبي: ﴿حَتَّى الْمَمَاتِ﴾، وفيه: ﴿حَتَّى تَقْطَعَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية. هذه الآية نزلت في البيعة الثالثة وهي بيعة العقبة الكبرى، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين، وكان أصغرهم سنًا عقبة بن عمرو، وذلك أنهم اجتمعوا مع رسول الله ﷺ عند العقبة فقالوا: اشترط لك ولربك، والمتكلم بذلك عبدالله بن رواحة، فاشترط رسول الله ﷺ حمايته مما يحمون منه أنفسهم، واشترط لربه التزام الشريعة وقاتل الأحمر والأسود في الدفع عن الحوزة، فقالوا: ما لنا على ذلك؟ قال: الجنة، فقالوا: نعم، ربح البيع لا نقيل ولا نقال، وفي بعض الروايات: ولا نستقيل، فنزلت الآية في ذلك، ثم الآية - بعد ذلك - عامة في كل من جاهد في

العلماء والشرع أنها أوصاف الكلمة من المؤمنين ذكرها الله تعالى ليستبق إليها أهل التوحيد حتى يكونوا في أعلى رتبة، والآية الأولى مستقلة بنفسها، يقع تحت تلك المباينة كل موحد قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا وإن لم يتصف بهذه الصفات التي في هذه الآية الثانية أو بأكثرها. وقالت فرقة: بل هذه الأوصاف جاءت على جهة الشرط، والآيتان مرتبطتان فلا يدخل في المباينة إلا المؤمنون الذين هم على هذه الأوصاف ويبدلون أنفسهم في سبيل الله. وأسند الطبري في ذلك عن الضحاك بن مزاحم أن رجلاً سأله عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَشَدُّ عَذَابًا﴾ الآية، وقال الرجل: ألا أحمل على المشركين فأقتل حتى أقتل؟ فقال الضحاك: ويسلك، أين الشرط: ﴿التَّائِبِينَ﴾ المَكِيدُونَ الآية؟ وهذا القول تحريج وتضييق والله أعلم، والأول أصوب، والشهادة ماحية لكل ذنب إلا لمظالم العباد، وقد روي أن الله تعالى يحمل عن الشهيد مظالم العباد ويجازيهم عنه، حَسَمَ الله لنا بالحنى.

وقالت فرقة: إن رفع التائبين إنما هو على الابتداء وما بعده صفة إلا قوله: ﴿الْأَمِيرُونَ﴾ فإنه خبر الابتداء، كأنه قال: هم الأمرون، وهذا حسن إلا أن معنى الآية ينفصل من معنى التي قبلها، وذلك قلق فتأمل. وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿التَّائِبِينَ الْعَابِدِينَ﴾ إلى آخرها، ولذلك وجهان: أحدهما: الصفة

للمؤمنين على اتباع اللفظ، والآخر: النصب على المدح.

و ﴿التَّائِبِينَ﴾ يعم الرجوع من الشر إلى الخير كان ذلك من كفر أو معصية، والرجوع من حالة إلى ما هي أحسن منها وإن لم تكن الأولى شراً بل خيراً، وهكذا كانت توبة النبي ﷺ واستغفاره سبعين مرة في اليوم، والثائب هو المُقْلَع عن الذنب العازم على التمادي على الإقلاع النادم على ما سلف، والثائب عن ذنب يسمى تائباً وإن أقام على غيره إلا أن يكون من نوعه فليس بتائب، والتوبة ونقضها دائباً خيراً من الإصرار، ومن تاب ثم نقض ووافى على النقص فإن ذنوبه الأولى تبقى عليه لأن توبته منها علم الله أنها منقوضة، يحتمل الأمر غير ذلك، والله أعلم.

وقال الحسن في تفسير الآية: ﴿التَّائِبِينَ﴾ معناه: من الشرك.

و ﴿الْمَكِيدُونَ﴾ لفظ يعم القيام بعبادة الله تبارك وتعالى والتزام شرعه وملازمة ذلك والمشاركة عليه والدوام، والعابد هو المحسن الذي فسر رسول الله ﷺ في قوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، وبأدنى عبادة يؤديها المرء المسلم يقع عليه اسم عابد ويحصل في أدنى رتبة، وعلى قدر زيادته في العبادة يحصل الوصف.

و ﴿الْمُذَكِّرُونَ﴾ معناه: الذاكرون الله بأوصافه الحسنى في كل حال وعلى السراء والضراء، وحمده لأنه أهل لذلك، وهو أعم من الشكر إذ الشكر إنما هو على النعم الخاصة بالشاكر.

و ﴿الْمُتَكَبِّرُونَ﴾ معناه: الصائمون، وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «سباحة هذه الأمة الصيام»، أسنده الطبري، وروي أنه من كلام النبي ﷺ، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةُ سَبَاحِينَ مُشَاطِينَ فِي الْأَفَاقِ يَبْلَغُونِي صَلَاةَ أُمَّتِي عَلَيَّ»، ويروى الحديث «صَبَّاحِينَ» بالصاد من الصَّبَاح، والسياحة في الأرض مأخوذ من السَّيْح وهو الماء الجاري على الأرض إلى غير غاية، وقال بعض الناس - وهو في كتاب النقاش -: «الْمُتَكَبِّرُونَ» هم الجائلون بأفكارهم في قدرة الله وملكوته، وهذا قول حسن، وهي من أفضل العبادات، ومن ذلك قول معاذ بن جبل رضي الله عنه: «اقعد بنا نؤمن ساعة»، ويروى أن بعض العباد أخذ القدح ليتوضأ لصلاة الليل، فأدخل إصبعه في أذن القدح وجعل يفكر حتى طلع الفجر، فقيل له في ذلك فقال: أدخلت إصبعي في أذن القدح فتذكرت قول الله تعالى: ﴿إِذْ الْأَعْمَلُ فِي أَغْشَقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾، وفكرت كيف أتلقى الغُلَّ وبقيت في ذلك ليلي أجمع.

و ﴿الْمُزَكِّينَ﴾ المصلون الصلوات الخمس، كذا قال أهل العلم، ولكن لا يختلف في أن من يكثر من التوافل هو أدخل في الاسم وأغرق في الانصاف.

وقوله: ﴿الْمُزَكِّينَ﴾ هو أمر وَكَالَهُمْ عَنِ الشُّكْرِ هو أمر فُرض على أمة محمد ﷺ بالجملة، ثم يفرق الناس فيه مع التعيين، فأما ولاية الأمر والرؤساء فهو فرض

عليهم في كل حال، وأما سائر الناس فهو فرض عليهم بشروط، منها: ألا تلحقه مضرة، وأن يعلم أن قوله يُسمع ويُعمل به ونحو هذا، ثم من تحمل بعد في ذات الله مشقة فهو أعظم أجراً، وأسند الطبري عن بعض العلماء أنه قال: حيثما ذكر الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو الأمر بالإسلام والنهي عن الكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا شك أنه يتناول هذا وهو أخرى أن يتناول ما دونه فتعميم اللفظ أولى. وأما هذه الواو التي في قوله: ﴿وَالْكَاثِرُونَ﴾ ولم يتقدم في واحدة من الصفات قبل، فقليل: معناها الربط بين هاتين الصفتين وهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ هما من غير قبيل الصفات الأول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن الأول فيما يخص المرء، وهاتان فيما بينه وبين غيره، ووجب الربط بينهما لتلازمهما وتناسبهما، وقيل: هي زائدة، وهذا قول ضعيف لا معنى له، وقيل: هي واو الثمانية، لأن هذه الصفة جاءت ثامنة في الرتبة، ومن هذا قوله تعالى في أبواب الجنة: ﴿وَوُضِعَتْ أَبْوَابُهَا﴾، وقوله: ﴿وَنُكِّلَتْ لَهُمْ فِيهَا﴾، ومن هذا قوله: ﴿فَتَبَيَّنَ الْأَكْثَرُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: على أن هذه تعترض حتى لا يلزم أن تكون واو ثمانية لأنها فرقت بين فصلين يعمان بمجموعهما جميع النساء ولا يصح أن يكون ﴿فَتَبَيَّنَ وَأَكْثَرُ﴾ فهي فاصلة ضرورة، وواو

الثمانية قد ذكرها ابن خالويه في مناظرته لأبي علي الفارسي في معنى قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وأنكرها أبو علي، وحدثني أبي رضي الله عنه عن الأستاذ النحوي أبي عبد الله الكفيف المالقي - وكان قد استوطن غرناطة وأقرأ فيها في مدة ابن جبوس - أنه قال: «هي لغة فصيحة لبعض العرب، من شأنهم أن يقولوا إذا عدُّوا: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، تسعة، عشرة، فهكذا هي لغتهم، ومتى ما جاء في كلامهم أمر ثمانية أدخلوا الواو».

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُتَّقُونَ﴾ لفظ عام تحته إلزام الشريعة والانتهاء عما نهى الله عنه في كل شيء وفي كل فن، وقوله: ﴿وَوُضِعَتْ أَبْوَابُهَا﴾ قيل: هو لفظ عام أمر به النبي ﷺ أن يبشر أمته جميعاً بالخير من الله، وقيل: بل هذه الألفاظ خاصة لمن لم يغز، أي: لما تقدم في الآية وعد المجاهدين وفضلهم أمر أن يبشر سائر الناس ممن لم يغز بأن الإيمان مخلص من النار، والحمد لله رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَتْ لِلنَّارِ﴾ الآية. يقتضي التأنيب ومنع الاستغفار للمشركين مع اليأس عن إيمانهم، إمّا بموافاتهم على الكفر وموتهم، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العاص بن وائل: «لا جزاء الله خيراً»، وإما بنص من الله تعالى على أحد كآبي لهب وغيره فيمتنع الاستغفار له وهو حي.

واختلف المفسرون في سبب هذه الآية؛ فقال الجمهور - ومداره على ابن المسيب وعمرو بن دينار -: نزلت في شأن أبي طالب، وذلك أن رسول الله ﷺ دخل عليه حين احتضر ووعظه وقال: «أي عم، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله تعالى»، وكان بالحضرة أبو جهل وعبد الله بن أمية، فقالا له: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فقال أبو طالب: يا محمد، والله لولا أنني أخاف أن يُعتبر بها ولدي من بعدي لأقررت بها عينك، ثم قال: أنا على ملة عبدالمطلب، ومات على ذلك، إذ لم يسمع منه النبي ﷺ ما قال للعباس، فنزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك»، فكان يستغفر له حتى نزلت هذه الآية فترك رسول الله ﷺ الاستغفار لأبي طالب، وروي أن المؤمنين لما رأوا رسول الله ﷺ يستغفر لأبي طالب جعلوا يستغفرون لموتاهم، فلذلك دخلوا في التأنيب والنهي، والآية - على هذا - ناسخة لفعل النبي ﷺ إذ أفعاله في حكم الشرع المستقر.

وقال فضيل بن عطية وغيره: إن رسول الله ﷺ لما فتح مكة أتى قبر أمه فوقف عليه حتى سحنت عليه الشمس، وجعل يرغب في أن يؤذن له في الاستغفار لهم فلم يؤذن له، فأخبر أصحابه أنه أذن له في زيارة قبرها ومنع أن يستغفر لها، فما رُئي باكياً أكثر من يومئذ، ونزلت الآية في ذلك، وقالت فرقة: إنما نزلت بسبب

قول النبي ﷺ في المنافقين: «والله لأزیدن على السبعين»، وقال ابن عباس، وقتادة، وغيرهما: إنما نزلت الآية بسبب جماعة من المؤمنين قالوا: نستغفر لموتانا كما استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه فنزلت الآية في ذلك، وعلى كل حال ففي ورود النهي عن الاستغفار للمشركين موضع اعتراض بقصة إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه، فنزل رفع الاعتراض في الآية التي بعدها.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَتَدَبَّرْ مَا بَيَّنَّ﴾ يريد: من بعد الموت على الكفر، فحيثئذ تبين أنهم أصحاب الجحيم، أي سكانها وعمرتها، والاستغفار للمشرِك الحي جائز إذ يرجى إسلامه، ومن هذا قول أبي هريرة رضي الله عنه: «رحم الله رجلاً استغفر لأبي هريرة وأمه»، قيل له: ولأبيه، قال: لا إن أبي مات كافراً، وقال عطاء بن أبي رباح: الآية في النهي عن الصلاة على المشرِكين، والاستغفار لها هنا يراد به الصلاة.

﴿١١٤﴾ - ﴿١١٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: لا حجة أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم الخليل لأبيه فإن ذلك لم يكن إلا عن موعدة، واختلف في ذلك؛ فقيل: عن موعدة من إبراهيم في أن يستغفر لأبيه، وذلك قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَيَّانًا﴾، وقيل: عن موعدة من أبيه له في أنه سيؤمن، فكان إبراهيم قد قوي طمعه في إيمانه فحمله على الاستغفار له حتى نهي عنه، وقرأ طلحة: ﴿وَمَا

يَسْتَغْفِرُ إِبْرَاهِيمُ﴾، وروي عنه: ﴿وَمَا اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ﴾. و ﴿مَوْعِدَةً﴾ مفعلة من الوعد، وأما تبيُّنه أنه عدو لله؛ فقيل: بموت آزر على الكفر، وقيل: ذلك بأنه نهي عنه وهو حي. وقال سعيد بن جبیر: ذلك كله يوم القيامة، وذلك أن في الحديث أن إبراهيم عليه السلام يلقاه فيعرفه ويتذكر قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ فيقول له: إلزم حقوقي فلن أدعك اليوم لشيء، فيلزمه حتى يأتي الصراط فيلنفت إليه فإذا هو قد مسخ ضِعْبَانِ أَثَدْر، فَيَبْتَزُّ مِنْهُ حَيْثُذ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وربط أمر الاستغفار بالآخرة ضعيف. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ثناء من الله تعالى على إبراهيم، والأوَّاه، قال ابن مسعود: هو الذَّعَاء، وقيل: هو الداعي بتضرع، وقيل: هو الموقن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: هو الرحيم، قاله ابن مسعود أيضاً، وقيل: هو المؤمن الثَّوَاب، وقيل: هو المُسَبِّح، وقيل: هو الكثير الذكر لله عز وجل، وقيل: هو الثَّلاَثُ للقرآن، وقيل: هو الذي يقول من خوفه لله عز وجل أبداً: أوَّاه ويكثر ذلك. وروي أن أبا ذر سمع رجلاً يكسر ذلك في طوافه فشكاه إلى رسول الله ﷺ فقال: «ذَهَبَ قَائِنُهُ أَوَّاه»، والثَّوَاهُ: التفجع الذي يكسر حتى ينطق الإنسان معه بأوَّه، قال المؤلف: ويقال: أوَّه، فمن الأول قول رسول الله ﷺ لبلال في بيع أو شراء أنكره عليه: «أَوَّه»، ذلك الرِّبَا بعينه، ومن الثاني قول الشاعر:

فَأَوَّهَ لِذِكْرَاهَا إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا
وَمَنْ يَبْغِدُ أَرْضَ بَيْنَنَا وَسَمَاءَ
ومن هذا المعنى قول المُثَقَّب الغنَّدي:

إِذَا مَا قُفْتُ أَزْهَلَهَا بِلِيلِ
تَأَوَّهَ أَمَّةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ
ويروي: أَمَّة، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «أَوَّهٌ لِأَفْرَاحِ مُحَمَّدٍ». و ﴿حَلِيمٌ﴾ معناه: صابر محتمل عظيم العقل، والحلم: العقل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ الآية. معناه التأنيس للمؤمنين، وقيل: إن بعضهم خاف على نفسه من الاستغفار للمشرِكين دون أمر من الله تبارك وتعالى فنزلت الآية مؤنسة، أي: ما كان الله - بعد أن هدى إلى الإسلام وأنقذ من النار - ليحبط ذلك ويضلَّ أهله لمواقعتهم ذنباً لم يتقدم منه نهي عنه، فأما إذا بين لهم ما يتقون من الأمور ويتجنبون من الأشياء فحيثئذ من واقع - بعد النهي - استوجب العقوبة. وقيل: إن هذه الآية إنما نزلت بسبب قوم من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا غيباً فحولت القبلة فصلوا - قبل أن يصلهم ذلك - إلى بيت المقدس، وآخرين شربوا الخمر بعد تحريمها قبل أن يصل إليهم، فخافوا على أنفسهم وتكلموا في ذلك فنزلت الآية، والقول الأول أصوب وأليق بالآية.

وذهب الطبري إلى أن قوله سبحانه: ﴿يَتَّبِعِي وَيُبَيِّتُ﴾ إشارة إلى أنه يجب أيها المؤمنون ألا تجزعوا من عدو وإن كثر، ولا تهابوا أحداً، فإن الموت المخوف والحياة

وَمَنْ أَتْلَفَنَ الْذِينَ خَلَقُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِأَرْحَبَتِهَا وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٧﴾ يَأْتِيهَا الْذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٨﴾ مَا كَانَ لِلْأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَخْلُقُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطَأًا يَسْخَرُونَ الْأَعْمَارُ وَلَا يَأْتُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٩﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَرْبِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٠﴾ وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِائَتَةٌ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢١﴾

٢٠٦

اللغة أنه لما قل من الزمن كالقطعة من النهار.

ألا ترى قوله ﷺ في رواح يوم الجمعة في الساعة الأولى وفي الثانية الحديث، فهي هنا تجوز، ويمكن أن يريد بقوله: ﴿فِي سَاعَةِ الْمُسَرَّةِ﴾

الساعة التي وقع فيها عزمهم وانقيادهم لتحمل المشقة إذ السفرة كلها تتبع لتلك الساعة وبها وفيها يقع الأجر على الله وترتبط النية، فمن اعتزم على الغزو وهو مفترس فقد أتبع في ساعة العسرة، ولو اتفق أن يطرأ لهم غني

في سائر سفرتهم لما اختل كونهم متبعين في ساعة عسرة، والعسرة: الشدة وضيق الحال والعدم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا كَانَ دُرُّ عُثْرَةٍ﴾، وهذا هو جيش العسرة الذي قال رسول الله ﷺ فيه: «من جهّز جيش العسرة فله الجنة»، فجهّزه عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف جمل وألف دينار، وروي أن رسول الله ﷺ قلب الدنانير في يده وقال: «وما على عثمان ما عمل بعد هذا؟»، وجاء أيضاً رجل من الأنصار بسبعمائة وثنق من تمر، وقال مجاهد، وقتادة: إن العسرة بلغت بهم في تلك الغزوة - وهي غزوة تبوك - إلى أن قسموا التمرة بين رجلين، ثم كان النفر يأخذون التمرة الواحدة فيمضغها أحدهم ويشرب عليها الماء

المحبوبة إنما هما بيد الله تبارك وتعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى الذي قال صحيح في نفسه، ولكن قوله: «إِنَّ الْقَصْدَ بِالْآيَةِ إِنَّمَا هُوَ لِهَذَا» قول يبعد، والظاهر في الآية إنما هو لما نص في الآية المتقدمة نعمته وفضله على عبده في أنه متى من عليهم بهداية فضله أسبغ من أن يصرفهم ويضلهم قبل أن تقع منهم معصية ومخالفة أمر؛ أتبع ذلك بأوصاف فيها تمجيد الله عز وجل وتعظيمه ويغث النفوس على إيمان شكره والإقرار بعبوديته. ﴿١١٧﴾ - ﴿١٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:

التوبة من الله رجوعه بعبده من حالة إلى أرفع منها، فقد تكون في الأكثر رجوعاً من حالة المعصية إلى حالة الطاعة، وقد تكون رجوعاً من حالة طاعة إلى أكمل منها، وهذه توبته في هذه الآية على النبي ﷺ لأنه رجع به من حاله قبل تحصيل الغزوة وأجرها وتحمل مشقاتها إلى حاله بعد ذلك كله. وأما توبته على المهاجرين والأنصار فحالها معرضة لأن تكون من تقصير إلى طاعة وجد في الغزو ونصرة الدين، وأما توبته على الفريق الذي كاد أن يزيغ فرجوع من حالة محطوطة إلى غفران ورضا.

و ﴿أَتَتَّبِعُونَ﴾ معناه: دخلوا في أمره واتباعه ولم يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، وقوله سبحانه: ﴿فِي سَاعَةِ الْمُسَرَّةِ﴾ يريد: في وقت العسرة، فأنزّل الساعة منزلة المدة والوقت والزمن وإن كان عرف الساعة في

ثم يفعل كلهم بها ذلك. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وأصابهم في بعضها عطش شديد حتى جعلوا ينحرون الإبل ويشربون ما في كروشها من الماء ويعصرون الفرث، حتى استسقى لهم رسول الله ﷺ فرفع يديه يدعو، فما رجعهما حتى انسكبت سحابة فشربوا وادّخروا ثم ارتحلوا فإذا السحابة لم تخرج عن العسكر، وحينئذ قال رجل من المنافقين: وهل هذه إلا سحابة مرّت؟ وكانت الغزوة في شدة الحر، وكان الناس كثيراً فقلّ الظهر فجاءتهم العسرة من جهات. ووصل رسول الله ﷺ إلى أوائل بلد العدو فصالحه أهل أذرج وأيلة وغيرهما على الجزية ونحوها، وانصرف.

وأما الزئج الذي كادت قلوب فريق منهم أن تواقعه فقبل: همت فرقة

بالانصراف لما لقوا من المشقة والعسرة، قاله الحسن. وقيل: زيفها إنما كان يظنون لها ساءت في معنى عزم رسول الله ﷺ على تلك الغزوة لما رأته من شدة العسرة وقلة الوفر وبعد المشقة وقوة العدو المقصود.

وقرأ جمهور السبعة، وأبو بكر عن عاصم: ﴿تَزِيغٌ﴾ بالتاء من فوق على لفظ القلوب، وروي عن أبي عمرو أنه كان يدغم الدال في التاء، وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم، والأعمش، والجحدري: ﴿تَزِيغٌ﴾ بالياء على معنى جَمْعُ القلوب، وقرأ ابن مسعود: ﴿مَنْ يَغْدِي مَا زَاغَتْ قُلُوبُ فَرِيقٍ﴾، وقرأ أبي بن كعب: ﴿مَنْ يَغْدِي مَا كَادَتْ تَزِيغٌ﴾.

وأما ﴿كَادَ﴾ فيحتمل أن يرتفع بها ثلاثة أشياء، أولها وأقواها: القصة والشأن، هذا مذهب سيبويه، وترتفع «القلوب» - على هذا - بـ ﴿تَزِيغٌ﴾. والثاني: أن يرتفع بها ما يقتضيه ذكر المهاجرين والأنصار أولاً، ويقدر ذلك: «القوم»، فكانه قال: من بعد ما كاد القوم تزيغ قلوب فريق منهم. والثالث: أن يرتفع بها «القلوب» ويكون في قوله: ﴿تَزِيغٌ﴾ ضمير القلوب، وجاز ذلك تشبيهاً بكان في قوله تعالى: ﴿وَكَاكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وأيضاً فلأن هذا التقديم للخبر يراد به التأخير، وشبهت (كاد) بـ (كان) لِزُومِ الخبر لها، قال أبو علي: ولا يجوز ذلك في (عسى).

ثم أخبر عز وجل أنه تاب أيضاً على هذا الفريق وراجع به، وأنس بإعلامه للأمة بأنه رؤوف رحيم.

والثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية الواقفي، ومُرارة بن الربيع العامري، ويقال: ابن ربيعة، ويقال: ابن ربيعي. وقد خرج حديثهم بكماله البخاري ومسلم، وهو في السير، فلذلك اختصرنا سوقه. وهم الذين تقدم فيهم:

﴿وَكَاكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ومعنى ﴿خُلُفُوا﴾: أَخْرُوا وَتَرَكْ أَمْرَهُمْ وَلَمْ تَقْبَلْ مِنْهُمْ مَعْذِرَةً وَلَا رَدَّتْ عَلَيْهِمْ، فَكَانَهُمْ خُلُفُوا عَنِ الْمُعْتَذِرِينَ، وقيل: معنى ﴿خُلُفُوا﴾ أَي عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، قَالَه قَتَادَةُ، وَهَذَا ضَعِيفٌ وَقَدْ رَدَّه كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ نَفْسَهُ وَقَالَ: معنى ﴿خُلُفُوا﴾: تَرَكُوا عَنْ قَبْلِ الْعَذْرِ، وَلَيْسَ بِتَخْلُفْنَا عَنْ الْغَزْوِ، وَيُقَرِّى ذَلِكَ جَعْلُهُ ﴿حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ غَايَةَ التَّخْلُفِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ تَخْلِيفِهِمْ عَنْ الْغَزْوِ، وَإِنَّمَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ عَنْ تَخْلِيفِهِمْ عَنْ قَبُولِ الْعَذْرِ.

وقرأ الجمهور: ﴿خُلُفُوا﴾ بضم الخاءِ وشذ اللام المسكورة، وقرأ عكرمة بن هارون المخزومي، ويزر بن حبيش، وعمرو بن عبيد، وأبو عمرو أيضاً: ﴿خُلُفُوا﴾ بفتح الخاءِ واللام غير مشددة، وقرأ أبو مالك: ﴿خُلِيفُوا﴾ بضم الخاءِ وتخفيف اللام المكسورة، وقرأ أبو جعفر محمد بن علي، وعلي بن الحسين، وجعفر بن محمد، وأبو عبد الرحمن: ﴿خَالَفُوا﴾، والمعنى قريب من التي قبلها، وقال أبو جعفر: ولو خلفوا لم يكن لهم ذنب، وقرأ الأعمش: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الْمُخْلَفِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا رَجَبْتُ﴾ معناه: برحبها، كأنه قال: على ما هي في نفسها رغبة، فـ [ما] مصدرية، ﴿وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ استعارة لأن الهم والغم ملأها، ﴿وَكَلُفُوا﴾ في الآية بمعنى: أيقنوا وحصل علماً لهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾، لما كان هذا القول في تعديد نعمه بدأ في تربيته بالجهة التي هي عن الله عز وجل ليكون ذلك مُتَّبِعاً عَلَى تَلْقَى النعمة من عنده لا رب غيره، ولو كان القول في تعديد ذنب لكان الابتداء بالجهة التي هي عن المذنب كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ليكون هذا أشد تقريراً للذنب عليهم، وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومُعْجَزَاتِهِ. وبيان هذه الآية ومواقع ألفاظها إنما يكمل مع مطالعة حديث الثلاثة الذين خُلُفُوا في الكتب التي ذكرنا، وإنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك لأن الشرع يُطَالِبُهُمْ مِنَ الْجِدِّ فِيهِ بِحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ مِنْهُ وَتَقَدُّمِهِمْ فِيهِ، إِذْ هُمْ أَسْوَأُ وَحِجَّةٌ لِلْمُنَافِقِينَ وَالطَّاعِنِينَ، إِذْ كَانَ كَعْبٌ مِنْ أَهْلِ الْعَقْبَةِ وَصَاحِبِهَا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، وَفِي هَذَا مَا يَقْتَضِي أَنَّ الرَّجُلَ الْعَالِمَ وَالْمُقْتَدِي بِهِ أَقْلَ عَذْرَاءٍ فِي السَّقُوطِ مِنْ سِوَاهُ. وكتب الأوزاعي رحمه الله إلى المنصور أبي جعفر في آخر رسالة: «واعلم أن قرباتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حق الله عليك إلا عظماً، ولا طاعته إلا وجوباً، ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلا إنكاراً والسلام». ولقد

أحسن القاضي التنوخي في قوله:

وَالْعَيْبُ يَغْلُقُ بِالْكَبِيرِ كَبِيرُ

وفي بعض طرق حديث الثلاثة أن رسول الله ﷺ كان ليلة نزول توبتهم في بيت أم سلمة، وكانت لهم صالحة، فقال لها رسول الله ﷺ: «يا أم سلمة، تيب على كعب بن مالك وصاحبيه»، فقالت: يا رسول الله ألا أبعث إليهم؟ فقال: «إِذَا يَحْطَمُكُمُ النَّاسُ سَائِرَ اللَّيْلَةِ فَيَمْنَعُوكُمُ النَّوْمَ».

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين، فجاء هذا الأمر اعتراضاً في أثناء الكلام إذ عُرِ في القصة ما يجب التنبيه على امتثاله، وقال ابن جريج وغيره: الصدق في هذه الآية هو صدق الحديث، وقال نافع، والضحاك ما معناه: إن اللفظ أعظم من صدق الحديث، وهو بمعنى الصحة في الدين والتمكن في الخير، كما تقول العرب: «عَوَّدَ صَدُقٌ وَرَجُلٌ صَدُقٌ». وقالت هذه الفرقة: كانوا مع محمد ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وأخيار المهاجرين الذين صدقوا الله في الإسلام. و﴿مَعَ﴾ في هذه الآية تقتضي الصحبة في الحال والمشاركة في الوصف المقتضي للمدح، وقرأ ابن مسعود، وابن عباس: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، ورويت عن النبي ﷺ، وكان ابن مسعود يتأول في صدق الحديث، وروي عنه أنه

قال: الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

١٢٠ - تفسير قوله عز وجل:

هذه معاتبة للمؤمنين من أهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها على التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوه، وقوة الكلام تعطي الأمر بصحبته إلى توجيه غارياً وبذل النفوس دونه، واختلف المتأولون، فقال قتادة: كان هذا الإلزام خاصاً مع النبي ﷺ ووجوب النفر إلى الغزو إذا خرج هو بنفسه، ولم يبق هذا الحكم في غيره من الخلفاء، وقال زيد بن أسلم: كان هذا الأمر والإلزام في قلة الإسلام والاحتياج إلى اتصال الأيدي ثم نسخ عند قوة الإسلام بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْكُفْرَةُ يَنْفِرُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله في الانبعاث إلى غزو العدو على الدخول في الإسلام، وأما إذا أَلَمَّ العدو بجهة فمتعين على كل أحد القيام بذبه ومكافحته.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْجُوا أَنفُسِهِمْ﴾ فمعناه ألا يتحمل رسول الله ﷺ مشقة وجود بنفسه في سبيل الله فيقع منهم شخ على أنفسهم ويكتفون عما دخل هو فيه، ثم ذكر تعالى لِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ التَّخْلُفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ الآية. والنصب: التعب، ومنه قول النابغة:

كَلِمَتِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةً نَاصِبٍ

أي: ذي نَصَبٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِيتْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾.

والمخمصة: مفقلة من خموص البطن وهو ضموره، واستعير ذلك لحالة الجوع إذ الخموص ملازم له، ومن ذلك قول الأعشى:

تَبِيتُونَ فِي الْمَشْتَى مِلَاءً بَطُونُكُمْ
وجارائكم غَزَى بَيْتَنَ خَمَائِصًا
ومنه: «أَخْمَصَ الْقَدَمُ»، والخُفْصَانَةُ مِنَ النِّسَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَطُورُكَ مَوَظِنًا﴾ أي: ولا ينتهون من الأرض منتهى مؤذياً للكفار، وذلك هو الغائط، ومنه في «المدونة»: «كنا لا نتوضأ من مَوَظِيءٍ» من قول ابن مسعود. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْكُلُونَ مِنْ عَذُوِّ ثِيْلًا﴾ لفظ عام لقليل ما يصنعه المؤمنون بالكفرة من أخذ مالٍ أو إيراد هوانٍ وكثيره، والثِيْلُ: مصدر نال ينال، وليس من قولهم: نلث أنوله نولاً ونولاً، وقيل: هو منه وبدلت الواو ياءً لخفتها هنا، وهذا ضعيف، والطبري قد ذكر نحوه وضعفه وقال: ليس ذلك المعروف من كلام العرب. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُثْقِرُونَ﴾ الآية. قدم الصغبرة للاهتمام، أي: إذا كتبت الصغيرة فالكبيرة أخرى، والوادي: ما بين الجبلين كان فيه ماء أو لم يكن، وجمعه أودية، وليس في كلام العرب فاعِلٌ وأفعِلَةٌ إلا في هذا الحرف وحده، وفي الحديث: «ما ازداد قوم من أهلهم في سبيل الله بعداً إلا ازدادوا من الله قرباً».

في قوله: ﴿يَسْتَفْهَرُوا﴾ عائد أيضاً - على هذا التأويل - على الطائفة المتخلفة مع النبي ﷺ، وهو على القول الأول في ترتيبنا هذا عائد على الطائفة النافرة، وكذلك يترتب عوده مع بعض الأقوال على هذه، ومع بعضها على هذه.

والجمهور على أن التفقه إنما هو بمشاهدة رسول الله ﷺ وصحبته. وقالت فرقة: يُشبه أن يكون التفقه في الغزو في السرايا لما يرون من نُصرة الله لدينه وإظهاره العدد القليل من المؤمنين على الكثير من الكافرين وعلمهم بذلك صحة دين الإسلام ومكانته من الله تعالى، ورجحه الطبري وقواه، والآخر أيضاً قوي. والضمير في قوله سبحانه: ﴿وَلْيَسْتَفْهَرُوا﴾ عائد على المتفقهين بحسب الخلاف، والإنذار عام للكفر والمعاصي والحذر منها أيضاً كذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قِيلُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا قِيلُوا لِلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ الآية. قيل: هذه الآية نزلت قبل الأمر بقتال الكفار كافة فهي من التدرج الذي كان في أول الإسلام. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول يضعفه أن هذه الآية من آخر ما نزل. وقالت فرقة: إنما كان رسول الله ﷺ رُماً تجاوز قوماً من الكفار غازياً قوماً آخرين أبعد منهم، فأمر الله تعالى بغزو الأدنى فالأدنى إلى المدينة، وقالت فرقة: الآية مبينة صورة القتال كافة، وهي مترتبة مع الأمر بقتال الكفار كافة، ومعناها أن الله تعالى أمر فيها المؤمنين أن

لذلك مطردة الألفاظ متصلة المعنى من قوله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُونَ﴾. بين في آخر الآية العموم الذي في أولها إذ هو معرض أن يتأول فيه ألا يتخلف بشر. والتفقه هو من النافرين، والإنذار هو منهم، والضمير في ﴿رَجَعُوا﴾ لهم أيضاً. وقالت فرقة: هذه الآية ليست في معنى الغزو، وإنما سببها أن قبائل العرب لما دعا رسول الله ﷺ على مضر

بالمنين أصابتهم مجاعة وشدة، فنفروا إلى المدينة لمعنى المعاش فكادوا أن يفسدوها، وكان أكثرهم غير صحيح الإيمان وإنما أضرمه الجوع، فنزلت الآية في ذلك فقال: وما كان من صفته الإيمان لينفر مثل هذا النفير، أي: ليس هؤلاء المؤمنين. وقال ابن عباس ما معناه: إن هذه الآية مختصة بالبعوث والسرايا، والآية المتقدمة ثابتة الحكم مع خروج رسول الله ﷺ في الغزو، وهذه ثابتة الحكم مع تخلفه، أي: يجب إذا تخلف ألا ينفر الناس كافة فيبقى هو منفرداً، وإنما ينبغي أن تنفر طائفة وتبقى طائفة لتفقه هذه الباقية في الدين وينذروا النافرين إذا رجع النافرون إليهم. وقالت فرقة: هذه الآية ناسخة لكل ما ورد من إلزام الكافة النفير والقتال، والضمير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قِيلُوا لِلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْسَرُ الَّذِي نَزَّلَهُ هَٰذَا مِنَّا فَأَمَّا الَّذِي يَلِينُ فَمِنْهُمْ إِنِنَّا بِهِ مُبْتَلَوْنَ وَلَهُمْ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَلَا يَزِيدُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ شَيْئًا إِنَّهُمْ كَفَرُوا قَدْ كَفَرُوا ﴿١٢٤﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ آلِهِ ثُمَّ أَصْرَقُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٥﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٧﴾

٢٠٧

فالت فرقة: سبب هذا الآية أن المؤمنين الذين كانوا بالبادية سكاناً ومبعوثين لتعليم الشرع لما سمعوا قول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ أهمهم ذلك، فنفروا إلى المدينة إلى رسول الله ﷺ خشية أن يكونوا مذنبين في التخلف عن الغزو، فنزلت هذه الآية في نفرهم ذلك. وقالت فرقة: إن المنافقين لما نزلت الآيات في المتخلفين قالوا: هلك أهل البوادي، فنزلت هذه الآية مقبمة لعذر أهل البوادي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيجيء قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ﴾ عموماً في اللفظ والمراد به في المعنى الجمهور والأكثر، وتجيء هذه الآية مبينة

يقاتل كل فريق منهم الجنس الذي يصاقبه من الكفرة، وهذا هو القتال لكلمة الله ورد الناس إلى الإسلام، وأما إذا مال العدو إلى صقع من أصقاع المسلمين ففرض على من اتصل به من المسلمين كفاية عدو ذلك الصقع وإن بعدت الدار ونأت البلاد، وقال قاتلوا هذه المقالة: نزلت الآية مشيرة إلى قتال الروم بالشام لأنهم كانوا يومئذ العدو الذي يلي ويقرب، إذ كانت العرب قد عمها الإسلام وكانت العراق بعيدة، ثم لما اتسع نطاق الإسلام توجه الفرض في قتال الفُرس والدُّيلم وغيرهما من الأمم، وسأل ابن عمر رضي الله عنهما رجل عن قتال الدُّيلم فقال: عليك بالروم، وقال الحسن: هم الروم والدُّيلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني في زمنه ذلك، وقاله علي بن الحسين. وقال ابن زيد: المراد بهذه الآية وقت نزولها: العرب، فلما فرغ منهم نزلت في الروم وغيرهم: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّى يَبْطُغُوا الْجِرْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ ذَاكِرُونَ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿غَلْظَةً﴾ بكسر الغين، وقرأ المفضل عن عاصم، والأعمش: ﴿غُلْظَةً﴾ بفتحها، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبان بن ثعلب، وابن أبي عيلة: ﴿غُلْظَةً﴾ بضمها، وهي قراءة أبي خنوة، ورواها المفضل عن عاصم أيضاً، قال أبو حاتم: رويت الوجوه الثلاثة عن أبي عمرو، وفي هاتين القراءتين شذوذ، وهي لغات.

ومعنى الكلام: وليجدوا فيكم خشونة وبأساً، وذلك مقصود به القتال، ومنه: «العذاب الغليظ»، و﴿غَلِظَ الْقَلْبُ﴾، و﴿غَلَاظُ شِدَادٍ﴾ في صفة الزبانية، و﴿غَلْظَتْ عَلَيْنَا كُذْيَةٌ﴾ في حفر الخندق إلى غير ذلك.

ثم وعد تعالى في آخر الآية، وحض على التقوى التي هي ملاك الدين والدنيا وبها يلقي العدو، وقد قال بعض الصحابة: «إنما تقاتلون الناس بأعمالكم». وأهلها هم المجدون في طريق الحق، فوعد تعالى أنه مع أهل التقوى، ومن كان الله معه فلن يُغلب.

﴿١٢٤﴾ - ﴿١٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية نزلت في شأن المنافقين، والضمير في قوله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُهُمُ﴾ عائد على المنافقين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ يحتمل أن يكون لمنافقين مثلهم، ويحتمل أن يكون لقوم من قرابتهم من المؤمنين يستنيمون إليهم، ويثقون بسترهم عليهم، ويطمعون في ردهم إلى النفاق. ومعنى ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ الاستخفاف والتحقير لشأن السورة كما تقول: أي غريب في هذا؟ أو أي دليل؟

ثم ابتدأ عز وجل الرد عليهم والحكم بما يهدم لبهم فأخبر أن المؤمنين قد زادتهم إيماناً، وأنهم يستبشرون من ألفاظها ومعانيها برحمة الله ورضوانه. والزيادة في الإيمان موضع تخبط الناس وتطويل، وتلخيص القول فيه أن الإيمان الذي هو نفس التصديق ليس

مما يقبل الزيادة والنقص في نفسه، وإنما تقع الزيادة في المصدق به، فإذا نزلت سورة من الله تبارك وتعالى حدث للمؤمنين بها تصديق خاص لم يكن قبل، فتصدقهم بما تضمنته السورة من أخبار وأمر ونهي أمر زائد على الذي كان عندهم قبل، فهذا وجه من زيادة الإيمان، ووجه آخر أن السورة ربما تضمنت دليلاً أو تنبيهاً عليه فيكون المؤمن قد عرف الله بعدة أدلة، فإذا نزلت السورة زادت في أدلته، وهذه أيضاً جهة أخرى من الزيادة، وكلها خارجة عن نفس التصديق إذا حصل تاماً، فإنه ليس يبقى فيه موضع زيادة، ووجه آخر من وجوه الزيادة أن الرجل ربما عارضه شك يسير أو لاحت له شبهة مشبهة فإذا نزلت السورة ارتفعت تلك الشبهة واستراح منها، فهذا أيضاً زيادة في الإيمان إذ يرتقي اعتقاده عن مرتبة معارضة تلك الشبهة إلى الخلوص منها، وأما على قول من يُسمي الطاعات إيماناً - وذلك مجاز عند أهل السنة - فتترتب الزيادة بالسورة، إذ تتضمن أوامر ونواهي وأحكاماً، وهذا حكم من يتعلم العلم في معنى زيادة الإيمان ونقصانه إلى يوم القيامة، فإن تعلم الإنسان العلم بمنزلة نزول سورة القرآن.

و ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم المنافقون، وهذا تشبيه، وذلك أن السالم المعتقد المنشرح الصدر بالإيمان يشبه الصحيح، والفساد المعتقد يشبه المريض، ففي العبارة مجاز فصيح لأن المرض والصحة

إنما هي خاصة في الأعضاء، فهي في المعتقدات مجاز، والرجس في هذه الآية عبارة عن حالهم التي جمعت معنى الرجس في اللغة، وذلك أن الرجس في اللغة يجيء بمعنى القذر، ويجيء بمعنى العذاب، وحال هؤلاء المنافقين هي قذر وهي عذاب عاجل كفيل بآجل، وزيادة الرجس إلى الرجس هي عمهم في الكفر وخطبهم في الضلال، يعاقبهم الله على الكفر والإعراض بالختم على قلوبهم والختم بالنار عليهم، وإذا كفروا بسورة فقد زاد كفرهم فذلك زيادة رجس إلى رجسهم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ الآية. قرأ الجمهور: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بالياء على معنى: ألا يرى المنافقون. وقرأ حمزة: ﴿أَوَلَا تَرَوْنَ﴾ بالتاء على معنى: ألا ترون أيها المؤمنون، فهذا تنبيه للمؤمنين. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، والأعمش: ﴿أَوَلَا تَرَوْنَ﴾ أي أنت يا محمد، وروي عن الأعمش أيضاً: ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا﴾، وذكر عنه أبو حاتم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾. وقال مجاهد: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ معناه: يُخْتَبَرُونَ بالسنة والجوع، وحكى عنه النقاش أنه قال: مرضة أو مرضتين، وقال الحسن بن أبي الحسن، وقتادة: معناه: يُخْتَبَرُونَ بالأمر بالجهاد، والذي يظهر مما قبل الآية ومما بعدها أن الفتنة والاختبار إنما هي بكشف الله تعالى أسرارهم وإفشائه عقائدهم، فهذا هو الاختبار الذي تقوم عليه الحجة برؤيته وترك التوبة،

وأما الجهاد أو الجوع فلا يترتب منهما ما ذكرناه، فمعنى الآية على هذا: أفلا يزدجر هؤلاء الذين تفضح سرائرهم كل سنة مرة أو مرتين بحسب واحد واحد، ويعلمون أن ذلك من عند الله فيتوبون ويتذكرون وعد الله ووعيده، وأما الاختبار بالمرض فهو في المؤمنين، وقد كان الحسن ينشد:

أَفِي كُلِّ عَامٍ مَرَضَةٌ ثُمَّ نَفْثَةٌ
فَحَتَّى مَتَى حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى؟
وقالت فرقة: المعنى: يفتنون بما يشيعه المشركون على رسول الله ﷺ من الأكاذيب، فكان الذين في قلوبهم مرض يفتنون في ذلك، وحكى الطبري هذا القول عن حذيفة وهو غريب من المعنى.

﴿١٢٧﴾ - ﴿١٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ الضمير في قوله سبحانه: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ عائد على المنافقين، والمعنى: وإذا ما أنزلت سورة فيها فضيحة أسرارهم نظر بعضهم إلى بعض على جهة التقرير، يفهم من تلك النظرة التقرير، هل معكم من ينقل عنكم؟ هل يراكم من أحد حين تدبرون أموركم؟ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْصَرُوا﴾ معناه: عن طريق الاهتداء، وذلك أنهم حينما بين لهم كشف أسرارهم والإعلام بمغيبات أمورهم يقع لهم لا محالة تعجب وتوقف نظر، فلو اهتموا لكان ذلك الوقت مظنة ذلك، فهم إذ يصممون على الكفر ويرتبكون فيه كأنهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنة للنظر الصحيح والاهتداء، وابتدأ بالفعل المسند إليهم إذ هو تعديد ذنب على ما قد بيّناه. وقوله: ﴿مَرَّكَ اللَّهُ﴾

قُلُوبِهِمْ﴾ يحتمل أن يكون دعاء عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً، أي استوجبوا ذلك ﴿يَأْتَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون عن الله ولا عن رسوله. وأسند الطبري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿لَا تَقُولُوا: انصرفنا عن الصلاة، فإن قوماً انصرفوا فصرف الله قلوبهم، ولكن قولوا: قضينا الصلاة﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا النظر الذي في هذه الآية إنما هو إيماء، وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال: ﴿نَظَرَ﴾ في هذه الآية في موضع (قال).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ مخاطبة للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك، إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة وشرفوا به غابر الأيام. وقال الزجاج: هي مخاطبة لجميع العالم، والمعنى: لقد جاءكم رسول من البشر، والأول أصوب. وقوله: ﴿يَزِنُ أُنْفُسَكُمْ﴾ يقتضي مدحاً لنسب النبي ﷺ وأنه من صميم العرب وأشرفها، وينظر إلى هذا المعنى قوله ﷺ: ﴿إِن اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قَرِيشاً مِنْ كِنَانَةٍ، وَاصْطَفَى بَنِي هَاشِمٍ مِنْ قَرِيشَ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «إِنِّي مِنْ نِكَاحٍ وَلَسْتُ مِنْ سِفَاحٍ، مَعْنَاهُ أَنَّ نَسَبَهُ ﷺ إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنِ النَّسْلُ فِيهِ إِلَّا مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ زَنَى. وَقرأ عبدالله بن قُسيط المكي: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ بفتح الفاء من النفاسة، ورويت عن النبي ﷺ وعن فاطمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الرَّتْلَاءُ أَيَّتُهَا الْكِتَابُ الْحَكِيمُ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
 أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كِتَابًا مِنْ أَنْبَاءِ الْآثَانِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا
 أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عَنْهُمْ ② قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا
 لَسِحْرٌ مُبِينٌ ③ إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْءٍ
 إِلَّا أَمْرٌ بَعْدَ إِذٍ ④ ذَلِكَ كُنْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا
 تَذَكَّرُونَ ⑤ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ
 يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيُخَيِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فِي الْفَسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
 أَلِيمٌ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ⑥ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ
 ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ عَاقِلٌ لِيَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
 وَالْحَسَابُ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ
 لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⑦ إِنَّ فِي سَخِرَافِ النَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
 اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ ⑧

ثابت، «ووقع في البخاري: أو أبي خزيمه»، فلما جاء بهما تذكرهما كثير من الصحابة، وقد كان زيد يعرفهما ولذلك قال: «فقدت آيتين من آخر سورة التوبة». ولو لم يعرفهما لم يدر هل فقد شيئاً أم لا، فإنما ثبت الآيتان بالإجماع لا بخزيمة وحده، وأسند الطبري في كتابه قال: كان عمر لا يثبت آية في المصحف إلا أن يشهد عليها رجلان، فلما جاء خزيمة بهاتين الآيتين قال: والله لا أسأل عليهما بيئة أبداً فإنه هكذا كان ⑧.

رضي الله عنها، وذكر أبو عمرو أن ابن عباس رضي الله عنهما رواها عن النبي ﷺ.

وقوله: ﴿مَا عَنَّمُ﴾ معناه: عَنَّمُكُمْ، فـ [ما] مصدرية، وهي ابتداء، و﴿عَنَّمُ﴾ خبر مقدم، ويجوز أن يكون ﴿مَا عَنَّمُ﴾ فاعلاً بـ ﴿عَنَّمُ﴾ و﴿عَنَّمُ﴾ صفة للرسول ﷺ، وهذا أصوب من الأول. والعنت: المشقة، وهي هنا لفظة عامة، أي: ما شق عليكم من كفر وضلال بسبب الحق، ومن قتل أو إسار وامتحان بسبب الحق واعتقادكم أيضاً معه. وقال قتادة: المعنى: عنت مؤمنكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتعميم عنت الجميع أوجه.

وقوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ يريد: على إيمانكم وهداكم، وقوله: ﴿رَوْفٌ﴾ معناه: مبالغ في الشفقة، قال أبو عبيدة: الرأفة أرق الرحمة، وقرأ ﴿رَوْفٌ﴾ دون مذ الأعمش، وأهل الكوفة، وأبو عمرو.

ثم خاطب النبي ﷺ بعد تقريره عليهم هذه النعمة فقال: ﴿فَلَنْ تَوَلَّوْا﴾ يا محمد، أي أعرضوا بعد هذه الحال المتقررة التي من الله تبارك وتعالى عليهم بها ﴿فَنَقُلْ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ معناه: وأعمالك بحسب قولك من التفويض إلى الله والتوكل عليه والجد في قتالهم. وليست بآية موادة لأنها من آخر ما نزل، وخُصص العرش بالذكر إذ هو أعظم المخلوقات. وقرأ ابن محيصن: ﴿الْعَظِيمُ﴾ برفع الميم صفة للرب، ورويت عن ابن كثير.

وهاتان الآيتان لم توجدا حين جمع المصحف إلا في حفظ خزيمة بن

تفسير سورة يونس عليه السلام

هذه السورة هي مكية، قال مقاتل: إلا آيتين وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ نزلت بالمدينة، وقال الكلبي: هي مكية إلا قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ نزلت في اليهود بالمدينة. وقالت فرقة: نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة وبأقياها بالمدينة.

① - ⑧ تفسير قوله عز وجل:

تقدم في أول سورة البقرة ذكر الاختلاف في فواتح السور، وتلك الأقوال كلها تترتب هنا، وفي هذا

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني صفة النبي ﷺ التي تضمنتها الآية، وهذا - والله أعلم - قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مدة أبي بكر رضي الله عنه حين الجمع الأول، وحينئذ فقدت الآيتان، ولم يجمع من القرآن شيء في خلافة عمر رضي الله عنه. وخزيمة بن ثابت هو المعروف بلذي الشهادتين، وعرف بذلك لأن رسول الله ﷺ أمضى شهادته وحده في ابتياع فرس وحكم بها لنفسه ﷺ، وهذا خصوص لرسول الله ﷺ. وذكر النقاش عن أبي بن كعب أنه قال: أقرب القرآن عهداً بالله تعالى هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر السورة.

انتهى بعون الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة التوبة والحمد لله رب العالمين

الموضع قول يختص به، قال ابن عباس، وسالم بن عبدالله، وابن جبير، والشعمي: ﴿لَرَّ﴾ و﴿حَدَّ﴾ و﴿تَّ﴾ هو (الرُّخْمَنُ) قطع اللفظ في أوائل هذه السور. واختلف عن نافع في إمالة الراء، والقياس ألا تمال. وكذلك اختلف القراءة، وعلة من أمال الراء أن يدل بذلك على أنها اسم للحرف وليست بحرف في نفسها وإنما الحرف (ر).

وقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَ﴾ قيل: هو بمعنى: (هذه)، وقد يشبه أن يتصل المعنى بـ ﴿ثَلَاثَ﴾ دون أن نقدرها بدل غيرها، والنظر في هذه اللفظة إنما يتركب على الخلاف في فواتح السور فتدبره. و﴿الْكَتَبَ﴾ قال مجاهد، وقتادة: المراد به التوراة والإنجيل، وقال مجاهد أيضاً وغيره: المراد به القرآن، وهو الأظهر، و﴿الْحَكِيمَ﴾ فعيل بمعنى مُخَكِّم، كما قال تعالى: ﴿هَذَا مَا لَدَيْ عَيْنَيْكَ﴾، أي: مُعْتَد مُعَد، ويمكن أن يكون ﴿حَكِيمٌ﴾ بمعنى: ذو حكمة فهو على النسب، قال الطبري: «فهو مثل أليم بمعنى مؤلم»، ثم قال: هو الذي أحكمه ويثبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فساق قولين على أنهما واحد.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية. قال ابن عباس، وابن جريج، وغيرهما: نسبت هذه الآية أن قرشاً استبعدوا أن يبعث الله رسولاً من البشر. وقال الزجاج: إنما عجبوا من إخباره أنهم يُبعثون من القبور، إذ النذارة والبشارة تتضمنان ذلك، وكثر كلامهم في ذلك حتى قال بعضهم:

أما وجد الله من يبعث إلا يتيم أبي طالب؟ ونحو هذا من الأقاويل التي اختصرتها لشهرتها، فنزلت الآية. وقوله: ﴿أَكَانَ﴾ تقرير، والمراد ﴿النَّاسِ﴾: قائلوا هذه المقالة. و﴿عَجَبًا﴾ خبر (كَانَ)، واسمها: ﴿أَنَ أَوْحِيَّتَ﴾، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾، وجعل الخبر في قوله سبحانه: ﴿أَنَ أَوْحِيَّتَ﴾، والأول أصوب لأن الاسم معرفة والخبر نكرة وهذا القلب لا يصح ولا يجيء إلا شاذاً، ومنه قول حسان:

يَكُونُ مِرْاجِحَهَا عَسْلٌ وَمَاءٌ
ولفظة العجب هنا ليست بمعنى التعجب فقط، بل معناه: أوصل إنكارهم وتعجبهم إلى التشكيب؟ وقرأت فرقة: ﴿إِلَى زَيْلٍ﴾ بسكون الجيم. ثم فسر الوحي وقسمه على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين. والقدم - هنا -: ما قُدِّم. واختلف في المراد بها ها هنا؛ فقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، وابن زيد: هي الأعمال الصالحة من العبادات، وقال الحسن بن أبي الحسن، وقتادة: هي شفاعة محمد الله ﷺ، وقال زيد بن أسلم، وغيره: هي المصيبة بمحمد ﷺ في موته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، وغيره: هي السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ، وهذا أليق الأقوال بالآية، ومن هذه اللفظة قول حسان: لَنَا الْقَدَمُ الْعُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلَفْنَا لِأَوْلَانِي طَاعَةَ اللَّهِ تَسَابُعُ

وقول ذي الرمة:

لَكُمْ قَدَمٌ لَا يَشْكُرُ النَّاسُ أَنَّهَا
مع الحسب العالي طمئت على البحر ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ في صفة جهنم: «حتى يضع الجبار فيها قدمه فتنقول: قَطَّ قَطَّ أَي ما قدم لها من خلقه، هذا على أن (الجبار) اسم الله تبارك وتعالى، ومن جعله اسم جنس كأنه أراد الجبارين من بني آدم، فالقدم على هذا التأويل: الجارحة. والصدق في هذه الآية بمعنى الصلاح، كما تقول: رجلٌ صدقٌ ورجلٌ سؤو. وقوله سبحانه: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ يحتمل أن يكون تفسيراً لقوله: «أَكَانَ وَخِينًا إِلَى بشر عجباً؟» قال الكافرون عنه كذا وكذا؟ وذهب الطبري إلى أن في الكلام حذفاً يدل الظاهر عليه، تقديره: فلما أُنذِرَ وبُشِّرَ قال الكافرون كذا وكذا. وقرأ الجمهور الناس، وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن عامر: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وقرأ مسروق بن الأجدع، وابن جبير، والباقون من السبعة، وابن مسعود، وأبو زرّين، ومجاهد، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، وعيسى بن عمر - بخلاف، وابن محيصن، وابن كثير - بخلاف عنه -: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاجِرٌ﴾، والمعنى متقارب. وفي مصحف أبي: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وقولهم في الإنذار والبشارة سحرٌ إنما هو بسبب أنه فرق بذلك كلمتهم وحال بين القريب وقريبه فأشبه بذلك ما يفعله الساحر فظنوه من ذلك الباب.

﴿٣﴾ - ﴿٤﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا ابتداء دعاء إلى عبادة الله عز وجل وإعلام بصفاته، والخطاب بها

لجميع الناس، ﴿وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ هو على ما تقرر أن الله عز وجل خلق الأرض ثم استوى إلى السماء وهي دخان فخلقها ثم دحا الأرض بعد ذلك وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قيل: هي من أيام الآخرة، وقال الجمهور - وهو الصواب -: بل من أيام الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك في التقدير، لأن الشمس وجريها لم يتقدم حينئذ، وقول النبي ﷺ في خلق الله المخلوقات: ﴿إِنَّ اللَّهَ ابْتَدَأَ يَوْمَ الْأَحَدِ كَذَا وَيَوْمَ كَذَا﴾ إنما هو على أن نقدر ذلك الزمان ونعكس إليه التجربة من حين ابتداء ترتيب اليوم واللييلة. والمشهور أن الله ابتداء الخلق يوم الأحد، ووقع في بعض الأحاديث في كتاب مسلم، وفي الدلائل أن البدأة وقعت يوم السبت، وذكر بعض الناس أن الحكمة في خلق الله تبارك وتعالى هذه الأشياء في مدة محدودة ممتدة وفي القدرة أن يقول كن فيكون إنما هو ليعلم عباده التوادة والتماهل في الأمور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مما لا يوصل إلى تعليله، وعلى هذا هي الأجنة في البطون وخلق الثمار وغير ذلك، والله عز وجل قد جعل لكل شيء قدراً وهو أعلم بوجه الحكمة في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْوَرْدِ﴾ قد تقدم القوم فيه في ﴿لَتَمَنَّ﴾. وقوله: ﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ﴾ يصح أن يريد (بالأمر) اسم الجنس من الأمور، ويحتمل أن يريد الأمر

الذي هو مصدر أمر يأمر أمرأ، وتديره لا إله إلا هو الإنفاذ لأنه قد أحاط بكل شيء علماً. وقال مجاهد: ﴿يَذِيرُ الْأَمْرَ﴾ معناه: يقضيه وحده.

وقوله تعالى: ﴿مَّا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ بَعَثْنَا﴾ رد على العرب في اعتقادها أن الأصنام تشفع لها، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى الله تبارك وتعالى، أي هذا الذي صفاته فاعبدوه، ثم قرأهم على هذه الآيات والجبر فقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فيكون التذكُّر سبباً للاعتدال.

واختصار القول في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْوَرْدِ﴾ أن يكون استوى بقره وغلخته، وإما أن يكون ﴿اسْتَوَى﴾ بمعنى استولى - إن صحت اللفظة في اللسان، فقد قيل في قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق
من غير سيف ودم مَهْزاق
إنه بيت مصنوع - وإما أن يكون قُتِلَ فِغْلاً في العرش سماه استوى. واستيعاب القول قد تقدم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَهِكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية - آية إنباء بالبعث من القبور، وهي من الأمور التي جوزها العقل وأثبت وقوعها الشرع. وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضمير في ﴿تَرْجِعُكُمْ﴾، ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ نصب على المصدر، وكذلك قوله: ﴿حَقًّا﴾، وقال أبو الفتح: ﴿حَقًّا﴾ نعت.

وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّهُ﴾ بكسر الألف على القطع والاستئناف، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، والأعمش، وسهل بن شعيب،

وعبدالله: ﴿أَنَّهُ﴾ بفتح الألف، وموضعها نصب على تقدير: أحق أنه، وقال الفراء: موضعها رفع على تقدير: يحق أنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يجوز عندي أن يكون ﴿أَنَّهُ﴾ بدلاً من قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾، قال أبو الفتح: إن شئت قدرت: لأنه يبدأ الخلق، أي: فمن في قدرته فهذا هو غني عن إخلاف الوعد، وإن شئت قدرته: وعد الله حقاً أنه، ولا يعمل فيه المصدر الذي هو ﴿وَعَدَ﴾ لأنه قد وُصف فأذن ذلك بتمامه وقطع عمله. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿حَقًّا﴾ بالرفع، فهو ابتداء وخبره ﴿أَنَّهُ﴾، وقوله: ﴿يَذِيرُ الْخَلْقَ﴾ يريد النشأة الأولى، والإعادة هي البعث من القبور، وقرأ طلحة: ﴿يُبْذِرُ الْخَلْقَ﴾ بضم الياء وكسر الدال.

وقوله: ﴿يَجْزِي﴾ هي لام كي، والمعنى أن الإعادة إنما هي ليَقْعُ الجزاء على الأعمال، وقوله: ﴿يُنْقِصُ﴾ أي بالعدل في رحمتهم وحسن جزائهم، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ابتداءً، والحميم: الحار المسخن، وهو فاعل بمعنى مفعول، ومنه الحمام والحمه، ومنه قول العرقش:

في كل يؤم لها مقطرة
وكبأة مَعْدَةٌ وحميم
وحميم النار - فيما ذكر عن رسول الله ﷺ - إذا أدناه الكافر من فيه تساقطت فروة رأسه، وهو كما وصفه الله تعالى: ﴿شَرُّ الْوُجُوِّ﴾.

⑤ - ⑥ تفسير قوله عز وجل: هذا استمرار على وصف آيات الله

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلَّكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي للفائدة لا ليلجب والإهمال، فهي إذاً بحق أن تكون كما هي.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم في رواية حفص: ﴿يَقُولُ الْذَّيْبُ﴾، وقرأ ابن كثير أيضاً، وعاصم، والباقون، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وأهل مكة، والحسن، والأعمش: ﴿نَفْضُلُ﴾ بنون العظمة.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَمْلِكُونَ﴾ إنما خصهم لأن نفع التفصيل فيهم ظهر وعليهم أضاء وإن كان التفصيل إنما وقع مجعلاً للكل مُعْذراً ليحصله الجميع. وقرأ جمهور السبعة، وقد رويت عن ابن كثير: ﴿ضِيَاءُ﴾ وقرأ ابن كثير وحده فيما روي أيضاً عنه: ﴿ضِيَاءُ﴾ بهمزتين، وأصله ضياء فقلبت فجاءت (ضِيَاءاً)، فقلبت الياء همزة لوقوعها بين ألفين. قال أبو علي: وهي غلط.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنزَلْتُ إِلَيْكَ وَالْقُرْآنَ﴾ الآية. آية اعتبار وتنبيه، ولقطة (الاختلاف) تعم تعاقب الليل والنهار وكونهما خلفه وما يتعاورانه من الزيادة والنقص وغير ذلك من لواحق سير الشمس وبحسب أقطار الأرض، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لفظ عام لجميع المخلوقات، والآيات: العلامات والدلائل، وخصص القوم المتقين تشريعاً لهم إذ الاعتبار فيهم يقع، ونسبتهم إلى هذه الأشياء المنظور فيها أفضل من نسبة من لم يهتد ولا اتقى.

قال أبو عبيدة، وتابعه القتيبي

لا تبقى معها ظلمة، فمعنى الآية: إن الله تبارك وتعالى قد جعل هداه في الكفر كالنور في الظلام فيهتدي قوم ويضل آخرون، ولو جعله كالضياء لوجب ألا يضل أحد، وبقي الضياء على هذا الانفصال أبلغ في الشروق كما اقتضت آيتنا هذه، والله عز وجل هو ضياء السموات والأرض ونورها وقبومها. ويحتمل أن يعترض هذا الانفصال، والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ رُذِّقُوا مَنَازِلَ﴾ يريد البروج المذكورة في غير هذه

الآية. وأما الضمير الذي رذّه على القمر وقد تقدم ذكر الشمس معه فيحتمل أن يريد بالضمير القمر وحده لأنه هو المراعى في معرفة عدد السنين والحساب عند العرب، لكنه اجتزأ بذكر الواحد كما قال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْا﴾، وكما قال الشاعر:

رمانى بذئبٍ كثث منه وإليدي
بريشاً، ومن أجلى الطوبى رمانى
قال الزجاج: وكما قال الآخر:

نحن بما عندنا وأنت بما
عندك راضٍ والرأي مُخْتَلِفٌ
وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ المعنى:

قدر هذين الثَّيَرَيْنِ منازل لكي تعلموا بها عدد السنين والحساب رفقا بكم، ورفعا للالتباس في معاشكم وتَجَرِّكُمْ وإجارتكم وغير ذلك مما يضطر فيه إلى معرفة التواريخ.

إِنَّ الْذَّيْبَ لَا يَرْجُو لِقَاءَ نَارٍ وَرُشُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالْذَّيْبُ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ أَلْأَرْضُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الْذَّيْبَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِآيَاتِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ لِأَنَّهُمْ فِي جَنَّاتٍ الْغَيْرِ ﴿٩﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْنُ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا عَنْهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَدَّرَ الْذَّيْبُ لَا يَرْجُو لِقَاءَ نَارٍ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنَّةٍ أَوْ قَاعٍ أَوْ قَالُوا فَلَمَّا كُشِفْنَا عَنْهُ ضُرُّهُ مَرَّكَانَ لِمَ نَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّ كَذَلِكَ زَيِّنَ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

والتنبيه على صنعة الدالة على الصانع، وهذه الآية تقتضي أن الضياء أعظم من النور وأبهى بحسب الشمس والقمر، ويلحقها هنا اعتراض وهو أننا وجدنا الله تعالى شبهه هذه ولطفه بخلقه بالنور فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وهذا يقتضي أن النور أعظم هذه الأشياء وأبلغها في الشروق، وإلا فلم ترك التشبيه الأعلى الذي هو الضياء وعدل إلى الأقل الذي هو النور؟ فالجواب عن هذا الانفصال أن تقول: إن لفظة النور أحكم وأبلغ في قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وذلك أنه تعالى شبهه هذه ولطفه الذي نصبه لقوم يهتدون وآخرين يضلون معه بالنور الذي هو أبداً موجود في الليل وأثناء الظلام، ولو شبهه بالضياء لوجب ألا يضل أحد إذ كان الهدى يكون مثل الشمس التي

وغيره: ﴿يَرْجُونَ﴾ في هذه الآية بمعنى يخافون، واحتجوا ببيت أبي ذؤيب:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا
وَحَالَفَهَا فِي بَيْتِ ثُوبٍ عَوَاسِلٍ
وحكى المهدوي عن بعض أهل اللغة - قال ابن سيده: هو الفراء -:
إِنْ لَفْظَةُ الرَّجَاءِ إِذَا جَاءَتْ مَنْفِيَةً فَإِنَّهَا
تَكُونُ بِمَعْنَى الْخَوْفِ وَحَكَى عَنْ
بَعْضِهِمْ: إِنَّهَا تَكُونُ بِمَعْنَاهَا فِي كُلِّ
مَوْضِعٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ قَرَائِنٌ مَا قَبْلَهُ وَمَا
بَعْدَهُ، فَكُلَى هَذَا التَّأْوِيلَ مَعْنَى الْآيَةِ:
﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَخَافُونَ لِقَاءَنَا﴾. وقال
ابن زيد: هذه الآية في الكفار،
وقال بعض أهل العلم: الرجاء في
هذه الآية على بابيه، وذلك أن
الكافر المكذب بالبعث ليس يرجو
رحمة الله في الآخرة، ولا يحسن
ظناً بأنه يلقي الله، ولا له في الآخرة
أمل، فإنه لو كان له فيها أمل لقارنه
لا محالة خوف، وهذه الحال من
الخوف المقارن هي الفائدة من
النجاة، والذي أقول: إن الرجاء في
كل موضع على بابيه، وإن بيت
الهدلي معناه: لم يرج فقد لَسَعَهَا
فهو يبني عليه ويصبر إذ يعلم أنه لا
بُدَّ منه.

وقوله تعالى: ﴿وَرَوْضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾
يريد: كانت آخر همهم ومنتهى
غرضهم، وأسد الطبري عن قتادة أنه
قال في تفسير هذه الآية: «إذا شئت
رأيت هذا الموصوف، صاحب دنيا،
لها يغضب، ولها يرضى، ولها
يفرح، ولها يهتم ويحزن». فكأن
قتادة صورها في العصاة، ولا يترتب
ذلك إلا مع تأول الرجاء على بابيه،

إذ قد يكون العاصي المُجْلَحُ
مستوحشاً من آخرته، فأما على
التأويل الأول فمن لا يخاف لقاء الله
فهو كافر، وقوله: ﴿وَأَطِئُوا﴾
تكميل في معنى القناعة بها والرفض
لغيرها، لأن الطمأنينة بالشيء هي
زوال التحرك إلى غيره. وقوله:
﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَابَائِنَا غُفْلُونَ﴾
يحتمل أن يكون ابتداء إشارة إلى
فرقة أخرى من الكفار، وهؤلاء -
على هذا التأويل - أضل صفة لأنهم
ليسوا أهل دنيا بل أهل غفلة فقط،
ثم حتم عليهم بالنار، وجعلها
مأواهم، وهو حيث يأوي الإنسان
ويستقر، ثم جعل ذلك بسبب كسبهم
واجتراحهم، وفي هذه اللفظة ردٌّ
على الجبرية ونص على تعلق العقاب
بالتكسب الذي للإنسان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾
الآية. لما قرّر تبارك وتعالى حالة
الفرقة الهالكة عَقِبَ ذلك بذكر حالة
الفرقة الناجية ليتضح الطريقتان ويرى
الناظر فرق ما بين الهدى والضلال،
وهذا كله لطف منه بعباده. وقوله:
﴿يَهْدِيهِمْ﴾ لا يترتب أن يكون معناه:
يرشدهم إلى الإيمان، لأنه قد قرره
مؤمنين، فإنما الهدى في هذه الآية
على أحد وجهين، إما أن يريد أنه
يديمهم ويشبهم، كما قال: ﴿يَأْتِيهَا﴾
الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُونَ فَإِنَّمَا مَعْنَاهُ:
اثبتوا، وإما أن يريد به: يرشدهم إلى
طرق الجنان في الآخرة. وقوله:
﴿يُؤَيِّنُهُمْ﴾ يحتمل أن يريد: بسبب
إيمانهم ويكون ذلك مقابلاً لقوله
قَبْلَ: ﴿مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾، ويحتمل أن يكون

الإيمان هو نفس الهدى، أي:
يهديهم إلى طريق الجنة بنور
إيمانهم. قال مجاهد: يكون لهم
إيمانهم نوراً يمشون به، وتركب هذا
التأويل على ما روي عن النبي ﷺ:
«إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا قَامَ مِنْ قَبْرِه
لِلْحَشْرِ تَمَثَّلَ لَهُ رَجُلٌ جَمِيلُ الْوَجْهِ
طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، فيقول: من أنت؟
فيقول: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فيقوده
إلى الجنة» وبعكس هذا في الكافر،
ونحو هذا مما أسنده الطبري وغيره.
وقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾
يريد: من تحت عِلِّيَّاتهم وغرفهم،
وليس التحت الذي هو بالمسامة،
بل يكون إلى ناحية من الإنسان، كما
قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ مِنْ تَحْتِكَ
سُرُجًا﴾، وكما قال حكاية عن
فرعون: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِي﴾.

وقوله تعالى: ﴿دَعَوْهُمْ﴾ الآية.
الدعوى بمعنى الدعاء، يقال: دعا
الرجل وأدعى بمعنى واحد، قاله
سيبويه. و﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ تقدس
وتسبيح وتنزيه لجلاله عن كل ما لا
يليق به، وقال علي بن أبي طالب
رضي الله عنه في ذلك: «هي
كلمات رضيها تعالى لنفسه»، وقال
طلحة بن عبيد الله: قلت: يا
رسول الله، ما معنى «سبحان الله»؟
فقال: «معناها تنزيه الله من السوء»،
وقد تقدم ذكر خلاف النحاة في
﴿اللَّهُمَّ﴾، وحكي عن بعض
المفسرين أنهم رأوا أن هذه الكلمة
إنما يقولها المؤمن في الجنة عندما
يشتهي الطعام، فإنه إذا رأى طائراً أو
غير ذلك قال: «سبحانك اللهم»

فنزلت تلك الإرادة بين يديه فوق ما اشتهى. رواه ابن جريج، وسفيان بن عيينة.

وقوله: ﴿وَيَحْيِيَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يريد: تسليم بعضهم على بعض، والتحية مأخوذة من تمنى الحياة للإنسان والدعاء بها، يقال: حيّاه يُحيّيه، ومنه قول زهير بن جناب:

مَنْ كُلُّ مَا نَالِ السَّفْسَى
قَدْ نَلَّاهُ إِلَّا الثَّحِيَّةَ

يريد دعاء الناس للملوك بالحياة، وقد سُمّي الملوك تحية بهذا التدرج، ومنه قول عمرو بن معديكرب:

أَزُورُ أَبَا قَابُوسَ حَتَّى
أُنْبِخَ عَلَى تَحِيَّتِهِ بِجُنْدِي
أراد: على مملكته. وقال بعض العلماء: ﴿وَيَحْيِيَهُمْ﴾ يريد تسليم الله عز وجل، والسلام مأخوذ من السلامة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَاخُذُ دَعْوَاهُمْ﴾ يريد: وخاتمة دعواهم في كل موطن وكلامهم شكر الله تعالى وحمده على سابغ نعمه، وكانت بدايتهم بالتنزيه والتعظيم. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنْ لَّمْ يَسْأَلِ اللَّهُ﴾ وهي عند سيبويه (أَنْ) المخففة من الثقيلة، وقرأ ابن محيصن، وبلال بن أبي بردة، ويعقوب، وأبو حيوة: ﴿أَنْ لِّلْحَمْدِ لِلَّهِ﴾، وهي - على الوجهين - رفع على خبر الابتداء، قال أبو الفتح: هذه القراءة تدل على أن قراءة الجماعة هي (أَنْ) المخففة من الثقيلة بمنزلة قول الأعشى:

فِي فِتْنَةٍ كَسِيفٍ الْهَيْدِ قَدْ عَلِمُوا
أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَخْفَى وَيَنْتَعِلُ

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال مجاهد: «نزلت في دعاء الرجل على نفسه أو ماله أو ولده ونحو هذا، فأخبر الله تعالى أنه لو فعل مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابتهم إلى الخير لأهلكهم، ثم حذف بعد ذلك من القول جملة يتضمنها الظاهر تقديرها: ولا يفعل ذلك ولكن يذر الذين لا يرجون، فاقترض القول وتوصل إلى هذا المعنى بقوله سبحانه: ﴿فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، فتأمل هذا التقدير تجده صحيحاً. و«اسْتَعْجَلَهُمْ» نصب على المصدر، والتقدير: مثل استعجالهم، وقيل: التقدير: تعجيلاً مثل استعجالهم، وهذا قريب من الأول. وقيل: إن هذه الآية نزلت في قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَكَ مِنَ السَّمَاءِ﴾، وقيل: نزلت في قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا بِمَا وَعَدْنَا﴾ وما جرى مجراه.

وقرأ جمهور القراء: ﴿لَقَضَى﴾ على بناء الفعل للمفعول ورفع (الأجل)، وقرأ ابن عامر وحده، وعوف، وعيسى بن عمر، ويعقوب: ﴿لَقَضَى﴾ على بناء الفعل للفاعل ونصب (الأجل)، وقرأ الأعمش: ﴿لَقَضَيْنَا﴾، والأجل - في هذا الموضع - أجل الموت، ومعنى (قضى) في هذه الآية: أكمل وفرغ، ومنه قول أبي ذؤيب:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاؤُهُمَا
دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبْعُ

وأشد أبو علي في هذا المعنى: قضيتُ أموراً ثم غادرتُ بعدها فوائح في أكسامها لم تفتق وتعدى (قضى) في هذه الآية بإلى لما كان بمعنى: فرغ، وفرغ يتعدى بإلى وباللام، فمن ذلك قول جرير: الآن فقد فرغت إلى تميم فصرت على جماعتها عذاباً ومن الآخر قوله عز وجل: ﴿سَتَرُ لَكُمْ أَنَّهُ الْفَلَاكُ﴾. وقرأ الأعمش: ﴿فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، و«يَرْجُونَ» في هذا الموضع على بابها، والمراد الذين لا يؤمنون بالبعث فهم لا يرجون لقاء الله، والرجاء مقترن أبداً بخوف، والطغيان: الغلو في الأمر وتجاوز الحد، والعمة: الخطب في ضلال، فهذه الآية نزلت ذاقة لخلق ذميم هو في الناس، يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة فيحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في الشَّرِّ، فلو عجل لهم لهلكوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَسَ الْإِنْسَانُ لِقَاتِهِ﴾ الآية. هذه الآية أيضاً عتاب على سوء الخلق من بعض الناس، ومضمنه النهي عن مثل هذا، والأمر بالتسليم إلى الله تعالى والضراعة إليه في كل حال، والعلم بأن الخير والشر منه لا رب غيره. وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ في موضع حال، كأنه قال: مضطجعا، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿الْإِنْسَانِ﴾، والعامل فيه ﴿مَسَ﴾، ويجوز أن يكون حالاً من ضمير الفاعل في ﴿دَعَا﴾ والعامل فيه (دعا) وهما معنيان متباينان.

وَأَذَانُ عَلَىٰ هِمْءٍ آيَاتُنَا نَبِّئَتْ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بَشَرٌ مِّثْلُ آبَاءِنَا أَوْ يُدْعَىٰ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُنْذِرَ الْمُؤْمِنِينَ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُقَالُ لِقَاءُ رَبِّكَ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ مَنْ أَظْلَمُ مِنْ أَقْرَبِكَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ وَتَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتُمُوهُ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سَخِرْتُمْ بِهِ فَعَمَلِكُمْ فِي السَّمَاءِ وَمَا كَانُ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فَاخْلَعُوا وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي بَيْنَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْكُمْ وَتَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٨﴾

٢١٠

جعلنا خلفاء لينظر كيف عملنا فأروا الله حسن أعمالكم في السر والعلانية، وكان أيضاً يقول: «قد استخلفت يا ابن الخطاب فانظر كيف تعمل»، وأحياناً كان يقول: «قد استخلفت يا ابن أم عمر».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ أَنبَاءُنَا﴾ الآية. هذه الآية نزلت في قريش لأن بعض كفارهم قال هذه المقالة على معنى: ساهلنا يا محمد واجعل هذا الكلام الذي هو من قبيلك على

اختيارنا، وأحل ما حرّمته وحرّم ما حلّلته ليكون أمرنا حينئذ واحداً وكلمتنا متصلة. فذم الله هذه الصنعة وذكرهم بأنهم يقولون هذا للآيات البينات، ووصفهم بأنهم لا يؤمنون بالبعث، ثم أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يرد عليهم بالحق الواضح، وأن يستسلم ويتبع حكم الله تعالى ويعلم بخوفه ربه. واليوم العظيم: يوم القيامة.

﴿١٧﴾ - تفسير قوله عز وجل: هذه من كمال الحجة، أي: هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي، وإنما هو من عند الله، ولو شاء الله ما بعثني به ولا تلوته عليكم ولا أعلمتكم به. و﴿أدرككم﴾ بمعنى: أعلمكم، يقال: دريت بالأمر وأدريت غيري. وهذه قراءة الجمهور، وقرأ ابن كثير في بعض ما

﴿الضرر﴾ لفظ عام لجميع الأمراض والزيات في النفس والمال والأحبة، هذا قول اللغويين، وقيل: هو مختص بزيات البدن: الهزال والمرض، وقوله: ﴿مر﴾ يقتضي أن نزولها في الكفار ثم هي بعد تتناول كل من دخل تحت معناها من كافر أو عاص، فمعنى الآية: مر في إشراكه بالله وقلة توكله عليه. وقوله: ﴿زنا﴾ إن قدرناه من الله تبارك وتعالى فهو خلقه الكفر لهم واختراعه في أنفسهم صحبة أعمالهم الفاسدة ومثابرتهم عليها، وإن قدرنا ذلك من الشيطان فهو بمعنى الوسوسة والمخادعة، ولفظة التزيين قد جاءت في القرآن بهذين المعنيين مرة من فعل الله تعالى، ومرة من فعل الشياطين.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية وعيد للكفار وضرب أمثال لهم، أي: كما فعل هؤلاء ففعلكم كذلك يفعل بكم ما فعل بهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَاوُؤُا يُؤْمِنُونَ﴾ إخبار عن قسوة قلوبهم وشدة كفرهم، وقرأ جمهور السبعة، وغيرهم: ﴿تَجَزَى﴾ بنون الجماعة، وفرقة: ﴿يجزى﴾ بالياء على معنى: يسجزي الله. و﴿عَلَيْكُمْ﴾ جمع خليفة. وقوله: ﴿لِنَنْظُرَ﴾ معناه: لنبين في الوجود ما علمناه أولاً، لكن جرى القول على طريق الإيجاز والفصاحة. وقرأ يحيى بن الحارث وقال: رأيتها في الإمام - مصحف عثمان -: ﴿لِنَنْظُرَ﴾ بإدغام النون في الظاء. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن الله تعالى إنما

روي عنه: ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ وهي لام تأكيد دخلت على (أدري)، والمعنى - على هذا - ولأعلمكم به من غير طريقي، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، وابن سيرين، وأبو رجاء، والحسن: ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾، وقرأ ابن عباس أيضاً وشهر بن حوشب: ﴿وَلَا أَنْزَلْتُكُمْ بِهِ﴾، وخرج الفراء قراءة ابن عباس والحسن على لغة لبعض العرب منها قولهم: «لَبَأْتُ» بمعنى «لَبِثْتُ»، ومنها قول امرأة منهم: «رَبَأْتُ زوجي بأبيات»، أي: رثيت، وقال أبو الفتح: إنما هي (أدركتم) قلبت الياء ألفاً لافتتاح ما قبلها. وروينا عن قطرب: إن لغة عقيل في أعطيتك: أعطأتك، قال أبو حاتم: قلبت الياء ألفاً كما هي في لغة بني الحارث بن كعب: «السلام علاك».

وابن القعقاع، وشيبة، وحמיד، وطلحة، والأعمش. وقرأ ابن كثير ونافع هنا وفي النمل فقط: ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بالتاء على مخاطبة الحاضر. وقرأ حمزة، والكسائي الخمسة الأحرف بالتاء، وهي قراءة أبي عبد الرحمن.

❶ - ❷ تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: المراد آدم، كان أمة وحده، ثم اختلف الناس بعد، وفي أمر بنيه. وقالت فرقة: المراد نسم بنيه إذ استخرجهم الله من ظهره وأشهدهم على أنفسهم. وقالت فرقة: المراد آدم وبنيه من لدن نزوله إلى قتل أحد ابنيه الآخر. وقالت فرقة: المراد: وما كان الناس إلا أمة واحدة في الضلالة والجهل بالله، فاختلّفوا فرقاً في ذلك بحسب الجهالة. ويحتمل أن يكون المعنى: كان الناس صنفاً واحداً مُعْتَدَاً للاهتداء. واستيفاء القول في هذا متقدم في سورة البقرة في قوله سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو جعفر، ونافع، وشيبة، وأبو عمرو: ﴿لَقَدْ بَيَّنَّاهُمْ﴾ بضم القاف وكسر الضاد، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿لَقَضَى﴾ بفتحهما على الفعل الماضي.

وقوله: ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ بَيْنَ رَبِّكَ﴾ يريد قضاءه وتقديره لبني آدم بالأجل المؤقتة. ويحتمل أن يريد الكلمة في أمر القيامة وأن العقاب والثواب إنما يكون حينئذ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ

بيانها، وذلك أعظم جرم على الله، وأكثر استشراف إلى عذابه، ثم قرر أنه لا يفلح أهل الجرم، و﴿يَلْعَلْ﴾ معناه: يظفر ببيغته.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَذَكَّرُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ الآية. الضمير في ﴿وَيَتَذَكَّرُ﴾ عائد على الكفار من قريش الذين تقدمت محاورتهم، و﴿مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ هي الأصنام، وقولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ مذهب النبلاء منهم، فأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقررهم ويوتخهم: أهم يعلمون الله بأنبياء من السموات والأرض لا يعلمها هو؟ وذكر ﴿الْشُّفَعَاتِ﴾ لأن من العرب من يعبد الملائكة والشعري. وبحسب هذا حسن أن يقول: ﴿هَؤُلَاءِ﴾، وقيل: ذلك على تجويز في الأصنام التي لا تعقل، وفي التوقيف على هذا أعظم غلبة لهم، ولا يمكنهم إلا أن يقولوا: لا نفعل ولا نقدر، وذلك لهم لازم من قولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾.

و﴿سُبْحَنَكَ﴾ استئناف تنزيه لله عز وجل. وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر هنا: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالياء على الغيبة، وفي حرفين في النحل، وحرف في الروم، وحرف في النمل، وذكر أبو حاتم أنه قرأها كذلك نافع، والحسن، والأعرج،

وَأَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ عَذَابٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرَفَةٌ ۚ إِنَّا إِنَّمَا قُلْنَا اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَكْرَهُونَ ﴿١٩﴾ هُوَ الَّذِي يُسَوِّدُ فِي الرِّبِّ وَالْبَحْرِ حَرًّا إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَبَقَ فِيهِ الْفُلُ وَفَرَحُوا بِهَا حَالَةً تَهَارِبُ عَصِيفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُنْجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا أَغْمَتْهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِعِيرِ الْهَيْجَاءِ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثَمَرَ الْإِسْمَاءِ جَعَلَكُمْ فِتْنَةً يَمْكُرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطَرَى أَهْلَهَا أَنْهَبَ أَهْلُهَا قَدِرُوكَ عَلَيْهَا أَنْفُسَهُمْ نَالِيًا أَوْ نُفَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَاصِيًا كَأَن لَّمْ تَغْرَبْ بِالْأَنْفُسِ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ لِقَاءَ الْفَوْرِ بِفُكْرِهِمْ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٣﴾

٢١١

ثم قال: ﴿فَكَذَّبْتَ بِكَ فِيكُمْ عُمَرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي الأربعين سنة قبل بعثته عليه السلام، ويريد: لم تجربوني في كذب ولا تكلمت في شيء من هذا، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أن من كان على هذه الصفة لا يصح منه كذب بعد أن كل عمره وتقاصر أمله واشتدت حنكته وخوفه لربه، وقرأ الجمهور بالبيان في ﴿لَيْتَ﴾، وقرأ أبو عمرو: ﴿لَيْتَ﴾ بإدغام التاء في التاء.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية. جاء في هذه الآية التوقيف على عظم جرم المفترى على الله بعد تقدم التنصل من ذلك، قيل: فأتسق القول واضطردت فصاحته، وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام وتقرير، أي: لا أحد أظلم ﴿يَمْنِي أَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ يُمْسِكُ كَذِبًا يَبْتَئِنُهُ﴾ بعد

عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ. الآية. يريدون بقولهم: ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ آية تضطر الناس إلى الإيمان، وهذا النوع من الآيات لم يأت بها نبي قط، ولا هي معجزات اضطرارية، وإنما هي معرضة للنظر ليهتدي قوم ويضل آخرون. وقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، لا يطلع على غيبه أحد. وقوله: ﴿فَانظُرُوا﴾ وعيد وقد صدقه الله تبارك وتعالى بنصرته محمداً ﷺ، قال الطبري: في بدر وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ الآية. المراد بالناس في هذه الآية الكفار، وهي بعدُ تتناول من العصاة من لا يؤدي شكر الله تبارك وتعالى عند زوال المكروه عنه، ولا يرتدع بذلك عن معاصيه، وذلك في الناس كثير. والرحمة هنا بعد الضراء كالمنطر بعد القحط والأمن بعد الخوف والصحة بعد المرض ونحو هذا مما لا ينحصر. والمكرو: الاستهزاء والطعن عليها من الكفار وإطراح الشكر والخوف من العصاة، ووصف مكر الله بالسرعة وإن كان الاستدراج بمهلهم لأنه مَتَّيْنٌ به وواقع لا محالة، وكل آت قريب. قال أبو حاتم: قرأ الناس: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ بضم السين، وخفف السين الحسن، وابن أبي الحسن، وأبو عمرو.

ويقال: [أَسْرَعَ] من: سرع، ولا يكون من: أَسْرَعَ يُسْرِعُ، حكى ذلك أبو علي، قال: ولو كان من أَسْرَعَ لكان شاذاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد قال رسول الله ﷺ في نار جهنم: ﴿لَهِيَ أَسْوَدُ مِنَ الْقَارِ﴾ وما حفظ للنبي ﷺ فليس بشاذ.

وقرأ الحسن، والأعرج، ونافع، وقتادة، ومجاهد: ﴿تَشْكُرُونَ﴾ بناءً على المخاطبة، وهي قراءة أهل مكة، وشبل، وأبي عمرو، وعيسى، وطلحة، وعاصم، والأعمش، والجحدري، وأيوب ابن المتوكل، وقرأ الحسن، وقتادة، ومجاهد ورويت أيضاً عن نافع، والأعرج ﴿يَمْكُرُونَ﴾ على الغيبة. قال أبو حاتم: قال أيوب ابن المتوكل: «في مصحف أبي: يأبها الناس إن الله أسرع مكرًا وإن رسله لديكم يكتبون ما تمكرون».

﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تتضمن تعديد النعمة فيما هي الحال بسبيله من ركوب البحر. وركوبه وقت حُسْنِ الظن به للجهاد والحج مُتَّفَقٌ على جوازه، وكذلك لضرورة المعاش بالصيد فيه أو لتصرف التجار، وأما ركوبه لطلب الغنى والاستكثار فمكروه عند الأكثر. وغاية مُبَيِّحُهُ أن يقول: وتركه أحسن، وأما ركوبه في ارتجاجه فمكروه ممنوع، وفي الحديث: «من ركب البحر في ارتجاجه فقد برئت منه الذمة»، وقال النبي ﷺ: «البحر لا أركبه أبداً».

وقرأ جمهور القراء من السبعة وغيرهم: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾، قال أبو علي: وهو تضعيف مبالغة لا تضعيف تغذية، لأن العرب تقول: سرت الرجل وسيرته، ومنه قول الهزلي:

فَلَا تُخْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سَيَّرْتَهَا فَأَوَّلُ رَاضٍ سُنَّةٌ مِنْ يَسِيرِهَا قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا البيت اعتراض حتى لا يكون شاهداً في هذا، وهو أن يجعل الضمير كالظرف، كما تقول: «سرت الطريق»، وهذه قراءة الجمهور من (سَيَّرَ)، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود وفي مصحف أبي شَيْخ. وقال عوف بن أبي جميلة: قد كان يُقرأ: ﴿يُسْشَرُكُمْ﴾ فغيرها الحجاج بن يوسف ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾، قال سفيان بن أبي الزعل: كانوا يقرؤون: ﴿يُسْشَرُكُمْ﴾ فنظروا في مصحف ابن عفان رضي الله عنه فوجدوها ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ فأول من كتبها كذلك الحجاج. وقرأ ابن كثير في بعض طرقه: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ من أسار، وقرأ ابن عامر وحده من السبعة: ﴿يُسْشَرُكُمْ﴾ بفتح الياء وضم الشين، من الشَّر والَبَث، وهي قراءة زيد بن ثابت، والحسن، وأبي العالية، وأبي جعفر، وعبدالله بن جبيرة بن جعفر، وأبي عبد الرحمن، وشيبة، وروي عن الحسن أنه قرأ: ﴿يُسْشَرُكُمْ﴾ بضم الياء وكسر الشين وقال: هي قراءة عبدالله، قال أبو حاتم: أظنه غلط.

و ﴿الْفُلُكِ﴾: جمع (فُلُكٍ)، وليس باسم واحد للجميع والفرد، ولكنه فُعْلٌ جُمِعَ على فُعْلٍ، ومما يدل على ذلك قولهم: (فُلُكَان) في الثنية، وقراءة أبي الدرداء وأم الدرداء: ﴿فِي الْفُلُكِي﴾ على وزن فُعْلَيْ يبياء نَسَب، لقولهم: أشقري ودؤاري في دور الدهر، وكقول الصَّلْتَان:

أَنَا الصُّلْتَانِي ...

وقوله: ﴿وَجَرَيْنَ﴾ علامة قليل العدد، وقوله: ﴿يَوْمَ﴾ خروج من الحضور إلى الغيبة، وحسن ذلك لأن قوله: ﴿كُنْتُ فِي أَلْكَ﴾ هو بالمعنى المعقول: حتى إذا حصل بعضكم في السفن، والريح إذا أفردت فعزفها أن تستعمل في العذاب والمكروه، لكنها لا يحسن في البحر أن تكون إلا واحدة لا نشراً، فقيدت المفردة بالطيب فخرجت عن ذلك العرف وبرع المعنى. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿جَاءَتْهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، والعاصف: الشديدة من الريح، يقال: عَصَفَتِ الرِّيحُ، وقوله: ﴿وَطَلَوْا﴾ على باب في الظن، لكنه ظن غالب مفزع بحسب أنه في محذور، وقوله: ﴿دَعَوْا اللَّهَ﴾ أي: نسوا الأصنام والشركاء وجردوا الدعاء لله، وذكر الطبري في ذلك عن بعض العلماء حكاية قول العجم: «ها شراها» ومعناه: يا حي يا قيوم، قال الطبري: جواب قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُ فِي أَلْكَ وَجَرَيْنَ﴾: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، وجواب قوله: ﴿وَطَلَوْا أَنَّهُمْ خِيطٌ بِهَدْمٍ﴾: ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾.

﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَبْغُوتُ﴾: أي يفسدون ويكفرون، والبغي: التعدي والأعمال الفاسدة، وأكد ذلك بقوله: ﴿يَبْغِي أَلْحَقُ﴾، ثم ابتداء بالزجر وذم البغي في أوجز لفظ. وقوله: ﴿مَنْعُ الْكَيْدِ﴾ رفع،

وهذه قراءة الجمهور، وذلك على خبر الابتداء، والابتداء ﴿بَنِيكُمْ﴾، ويصح أن يرتفع ﴿مَنْعُ﴾ على خبر ابتداء مضمّر تقديره: ذلك متاع، أو هو متاع وخبر البغي قوله: ﴿عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾. وقرأ حفص عن عاصم، وهارون عن ابن كثير، وابن أبي إسحاق: ﴿مَنْعًا﴾ بالنصب، وهو مصدر في موضع الحال من البغي، وخبر البغي - على هذا - محذوف تقديره: مذموم أو مكروه أو نحو هذا، ولا يجوز أن يكون الخبر قوله: ﴿عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ لأنه كان يحول بين المصدر وما عمل فيه بأجنبي، ويصح أن ينتصب ﴿مَنْعًا﴾ بفعل مضمّر تقديره: تمتعون متاع الحياة الدنيا. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿مَنْعًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بالنصب فيهما، ومعنى الآية: إنما بنىكم وإفسادكم مضر لكم وهو في حال الدنيا ثم تلقون عقابه في الآخرة، قال سفيان بن عيينة: ﴿إِنَّمَا بَنِيكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَنَعَ الْكَيْدِ الدُّنْيَا﴾ أي: تعجل لكم عقوبته في الحياة الدنيا، وعلى هذا قالوا: البغي يصرع أهله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقالوا: الباغي مصروع لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَغَىٰ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾، ولقول النبي ﷺ: «ما من ذنب أسرع عقوبة من بغي». وقرأت فرقة: ﴿فَنَبِّئْكُمْ﴾ على ضمير المعظم المتكلم، وقرأت فرقة: ﴿فَنَبِّئْكُمْ﴾ على ضمير الغائب، والمراد الله عز وجل.

﴿٢٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: إنما مثل تفاخر الحياة

الدنيا وزيتها بالمال والبنين إذ يصير ذلك إلى الفناء كقطر نزل من السماء فاختلط. ووقف هنا بعض القراء على معنى: فاختلط الماء بالأرض، ثم استأنف: ﴿يَوْمَ تَأْتِي الْأَرْضُ﴾ على الابتداء والخبر المقدم، ويحتمل - على هذا - أن يعود الضمير في ﴿يَوْمَ﴾ على الماء أو على الاختلاط الذي يتضمنه القول. ووصلت فرقة فرغ (النبات) على ذلك بقول: ﴿تُخْطَلُ﴾، أي: اختلط النبات بعضه ببعض بسبب الماء. وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْكُلُ النَّاسُ الزُّرُوعَ وَالْأَشْجَارَ وَنَحْوَ ذَلِكَ﴾، وقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ﴾ يريد سائر العشب المرعي.

و ﴿عَذَابِ الْأَرْضِ﴾ لفظة كثرت في مثل هذا، كقوله: ﴿عَذَابُ زِينَتِكَ﴾. والزخرف: التزيين بالألوان، وقد يجيء الزخرف بمعنى الذهب إذ الذهب منه. وقرأ مروان بن الحكم، وأبو جعفر، والسبعة، وشيبة، ومجاهد، والجمهور: ﴿وَأَزَيَّنَّتْ﴾، أصله: تَزَيَّنَّتْ، سكنت التاء لثدغم فاحتيج إلى ألف وصل. وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وأبي بن كعب: ﴿وَوَزَيَّنَّتْ﴾ وهذه أصل قراءة الجمهور، وقرأ الحسن، وأبو العالية، والشعبي، وقتادة، ونصر بن عاصم، وعيسى: ﴿وَأَزَيَّنَّتْ﴾ على معنى: حضرت زينتها كما تقول: أحصد الزرع، و ﴿وَأَزَيَّنَّتْ﴾ على مثال: أَفَعَلْتُ، وقال عوف بن أبي جميلة: كان أشياخنا يقرؤونها: ﴿وَأَزَيَّنَّتْ﴾ النون شديدة وألف ساكنة قبلها. وهي قراءة أبي عثمان الهندي، وقرأت فرقة: ﴿وَأَزَيَّنَّتْ﴾،

وهي لغة منها قول الشاعر:

إذا ما الهَوادي بالعَبِيطِ اخمأزت
وقرأت فرقة: ﴿وَأَزَلَيْتَ﴾،
والمعنى في هذا كله: ظهرت
زيئتها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾
على بابها، والضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾
عائد على الأرض، والمراد ما فيها
من نعمة ونبات، وهذا الكلام فيه
تشبيه جملة أمر الحياة الدنيا بهذه
الجملة الموصوفة أحوالها، و﴿عَنْ﴾
غاية، وهي حرف ابتداء لدخولها
على ﴿إِذَا﴾، ومعناها متصل إلى
قوله: ﴿فَنَدَّرْتُمْ عَلَيْهَا﴾، ومن بعد
ذلك بدأ الجواب، والأمر الآتي

واحد الأمور كالريح والضَّر والسموم
ونحو ذلك، وتقسيمه ليلاً أو نهاراً
تنبيه على الخوف وارتفاع الأمن في
كل وقت. و﴿حَصِيدًا﴾ فعل بمعنى
مفعول، وعبر بحصيد عن التالف
الهالك من النبات وإن لم يهلك
بحصاد إذ الحكم فيهما واحد، وكان
الآفة حصده قبل أوانه. وقوله:
﴿كَانَ لَمْ تَنْتَ﴾ أي: كأن لم تنعم
ولم تنضر ولم تغر بغضارتها. وقرأ
قتادة: ﴿يَغْنُ﴾ بالياء من تحت،
يعني الحصيد، وقرأ مروان: ﴿كَأَنَّ
لَمْ تَنْتَ﴾ بتاءين مثل تَنْفَعَلُ،
والمغاني: المنازل المعمورة، ومنه
قول الشاعر:

وقد نَغْنَى بِهَا وَتَرَى عُصُوراً
بِهَا يَفْتَدُنَا الْخُرَّةُ الْجِدَالَا
وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿كَانَ
لَمْ تَنْتَ بِالْأَنْسِ﴾ وما كنا لِنُهْلِكَهَا إِلَّا
بِذُنُوبِ أَهْلِهَا ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْأَنْبِيَاءَ﴾

رواها عنه ابن عباس
رضي الله عنهما. وقيل:
إن فيه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُهْلِكَهَا إِلَّا بِذُنُوبِ
أَهْلِهَا﴾، وقرأ أبو
الدرداء: ﴿لِقَوْمٍ
يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ومعنى الآية التحذير من
الاغترار بالدنيا إذ هي
معرضة للتلف وأن يصيبها
ما أصاب هذه الأرض
المذكورة بموت أو غيره
من رزايا الدنيا، وخض
المتفكرين بالذكر تشريفاً
للمنزلة، وليتقن التسابق
إلى هذه الرتبة.

١٥ - ١٦ - تفسير قوله
عز وجل:

نُصِّتَ هذه الآية أن الدعاء على
الشرع عام في كل بشر، والهداية
التي هي الإرشاد مختصة بمن قُدِّرَ
إيمانه. و﴿أَلَسْتُمْ﴾، قيل: هو
اسم الله عز وجل، فالمعنى: يدعو
إلى داره التي هي الجنة. وإضافتها
إليه إضافة ملك إلى مالك. فقيل:
السلام: بمعنى السلامة، أي: من
دخلها ظفر بالسلامة وأمن الفناء
والآفات، وهذه الآية رادة على
المعتزلة.

وقد وردت في دعوة الله تعالى
عباده أحاديث منها رؤيا النبي ﷺ
جبريل وميكائيل، ومثلاً دعوة الله،
ومحمداً عليه الصلاة والسلام
الداعي، والملة المدعو إليها،
والجنة التي هي ثمرة الغفران بالمأدبة
يدعو إليها ملك إلى منزله. وذكر

الَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنَاسِقَةٍ زِيَادَةً وَلَا يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ
وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ
كَسَبُوا الشَّيْئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَنْتَلِهَا وَرَهَقَهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنْ
اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانُوا أَغْشَيْتِ وَجُوهَهُمْ قِطْعَانِ اللَّيْلِ مَظْلَمًا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلِمْنَا
بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾ فَكُنْ بِاللَّهِ
شَهِيدًا إِنَّا وَبَيْنَكُمْ إِنَّ كُنَّا عَنِ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ ﴿١٨﴾
هُنَالِكَ نَبْلُو كُلَّ نَفْسٍ مَّا أَتَتْ وَرَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ
الْحَقُّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ
مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ
الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ
فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٠﴾ فَذَكَرَ اللَّهُ لَكُمْ أَهْلَكُمْ
فَمَا ذَا أَبَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ ﴿٢١﴾ كَذَلِكَ
حَقَّقْتُ لَكُمْ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾

قتادة في كلامه على هذه الآية: ذكر
لنا أن في التوراة مكتوباً: «يا باغي
الخير هلم، يا باغي الشر انته».

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنَاسِقَةٍ
زِيَادَةً﴾ الآية. قالت فرقة وهي
الجمهور: الحُسنى: الجنة،
والزيادة: النظر إلى وجه الله عز
وجل، وروي في ذلك حديث عن
النبي ﷺ، رواه ضُهب، وروي هذا
القول عن أبي بكر الصديق،
وحذيفة، وأبي موسى الأشعري،
وعامر بن سعد، وعبدالرحمن بن
أبي ليلى. وروي عن علي بن أبي
طالب رضي الله عنه أنه قال:
الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة.
وقالت فرقة: الحُسنى: هي الحسنة،
والزيادة: هي تضعيف الحسنات إلى
سبعمائة فدونها حسبما روي في نص
الحديث وتفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ

يَعْتَمِدُ لِمَنْ يَشَاءُ»، وهذا قول بعضه النظر، ولولا عظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول، وطريق ترجيحه أن الآية تتضمن اقتراناً بين ذكر أعمال الحسنات وأعمال السيئات، فوصف المحسنين بأن لهم - على إحسانهم - حُسْنِي وزيادة من جنسها، ووصف المسيئين بأن لهم بالسيئة مثلها، فتعادل الكلامان. وعبر عن الحسنات بالحسنى مبالغة إذ هي عشرة. وقال الطبري: الحُسْنِي عام في كل حُسْنِي فهي تعم جميع ما قيل، ووعد الله في جميعها بالزيادة، ويؤيد ذلك أيضاً قوله: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ»، ولو كان معنى الحُسْنِي الجئة لكان في القول تكرير بالمعنى، على أن هذا ينفصل عنه بأنه وصف المحسنين بأن لهم الجنة وأنهم لا يرمق وجوههم قتر ولا ذلة، ثم قال: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ» على جهة المدح لهم، أي: أولئك مستحقوها وأصحابها حقاً وباستيجاب.

و «يَرْهَقُ» معناه: يغشى مع ذلة وتضييق، والْقَتْرُ: الغبار المسود، ومنه قول الشاعر:

مُسْتَوْجٌ بِرَدَائِ الْمُلْكِ يَشْبَعُهُ
مَوْجٌ تَرَى وَسْطَهُ الرَّاياتِ وَالْقَتْرَا
وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر، والأعمش، وأبو رجاء: «قَتْرَ» بسكون التاء.

وقوله: «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ» الآية. اختلف النحويون في رفع [جَزَاءٍ] بم هو؟ فقالت فرقة: التقدير: «لهم جزاء سيئة بمثلها»،

وقالت فرقة: التقدير: «جزاء سيئة مثلها».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتوجه أن يكون رفع الجزاء على المبتدأ، وخبره في «الَّذِينَ»، لأن «وَالَّذِينَ» معطوف على قوله: «وَالَّذِينَ أَحْسَنُوا» فكأنه قال: «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جزاء سيئة بمثلها»، وعلى الوجه الآخر فقوله: «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ» رفع بالابتداء، وتعم السيئات ها هنا الكفر والمعاصي، فمثل سيئة الكفر التخليد في النار، ومثل سيئة المعاصي مصروف إلى مشيئة الله تبارك وتعالى.

والعاصم: المنجي والمجير، ومنه قوله تعالى: «إِلَى جَبَلٍ يَخْسِفُ مِنْ الْمَاءِ»، و «أَفْشَيْتَ»: كُشِيت، ومنه الغشاوة، والقِطْعُ: جمع قِطْعَةٍ. وقرأ ابن كثير: «قِطْعًا» بسكون الطاء، وقرأ الباقون بفتح الطاء، والقِطْعُ: الجزء من الليل، ومنه قوله تعالى: «فَأَنشَأَ بِأَهْلِكَ يَقِطْعُ مِنَ اللَّيْلِ»، وهذا يراد به الجزء من زمان الليل، وفي هذه الآية يراد الجزء من سواده. و «مُظْلِمًا» نعت لِقِطْعٍ، ويجوز أن يكون حالاً من الذكر الذي في قوله: «يَنَاقِلُ»، فإذا كان نعتاً فكان حقه أن يكون قبل الجملة، ولكن قد يجيء بعدها، وتقدير الجملة: «قِطْعًا استقر من الليل مظلماً» على نحو قوله تبارك وتعالى: «وَمَكَدًا كُنْتُ أَزْلَنُهُ مِبْرَاكًا». ومن قرأ: «قِطْعًا» جمع قِطْعَةٍ فنصب [مُظْلِمًا] على الحال من الليل، والعامل في الحال [مِنْ] إذ هي العامل في ذي الحال. وقرأ

أبي بن كعب: «كَانَمَا يَغْشَى وجوههم قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمٌ». وقرأ ابن أبي عبة: «قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمٌ» بتحريك الطاء في «قِطْع».

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، والحسن، وشيبة، وغيرهم: «تَحْشُرُهُمْ» بالنون. وقرأت فرقة: «يَحْشُرُهُمْ» بالياء. والضمير في «تَحْشُرُهُمْ» عائد على جميع الناس محسنين ومسيئين، و «مَكَانَكُمْ» نصب على تقدير: لازموا مكانكم، وذلك مقترن بحال شدة وخزي، و «مَكَانَكُمْ» في هذا الموضع من أسماء الأفعال إذ معناه: قفوا واسكنوا، وهذا خبر من الله تعالى عن حالة تكون لِقَبْدَةِ الأوثان يوم القيامة، يؤمرون بالإقامة في موقف الخزي مع أصنامهم، ثم يُنْطِقُ الله الأصنام بالتبري منهم. وقوله: «وَشَرَكَاؤُكُمْ» أي الذين تزعمون أنتم شركاء الله، فأضافهم إليهم لأن كونهم شركاء إنما هو بزعم هؤلاء. وقوله: «فَرِيقًا بَيْنَهُمْ» معناه: فرقنا في الحجة والمذهب وهو من زلت الشيء عن الشيء أزيله، وهو تضعيف مبالغة لا تعدية. وكون مصدر زَيْلٍ تزيلاً يدل على أن زل إنما هو فعل لا فيعمل لأن مصدره كان يجيء على فيعلة. وقرأت فرقة: «فَرِيقًا»، وروي عن النبي ﷺ أن الكفار إذا رأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب قيل لهم: اتبعوا ما كنتم تعبدون، فيقولون: كنا نعبد هؤلاء، فتقول الأصنام: والله ما كنا نسمع ولا نعقل، وما كنتم إيانا

تعبدون، فيقولون: والله لإياكم كنا نعبد، فتقول الآلهة: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر هذه الآية أن محاورتهم إنما هي مع الأصنام دون الملائكة وعيسى ابن مريم بدليل القول لهم: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾، ودون فرعون ومن عبد من الجن بدليل قولهم: ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾، وهؤلاء لم يغفلوا قط عن عبادة من عبدهم، و﴿أَنْتُمْ﴾ رفع بالابتداء، والخبر: موبخون أو مُهانون، ويجوز أن يكون ﴿أَنْتُمْ﴾ تأكيداً للضمير الذي في الفعل المقدر الذي هو «قفوا» أو نحوه.

و﴿شَهِيدًا﴾ نصب على التمييز، وقيل: على الحال. و﴿إِنْ﴾ هذه عند سيويه هي مخففة موحدة حرف ابتداء، ولزمتها اللام فرقاً بينها وبين (إِنْ) النافية، وقال الفراء: (إِنْ) بمعنى (ما)، واللام بمعنى (إِلَّا). و﴿مُتَالِكًا﴾ نصب على الظرف. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿تَلَوًا﴾ بالباء بواحدة بمعنى: تختبر. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿تَتَلَوُا﴾ بالتاء بنقطتين من فوق بمعنى: تتنَّبَعُ، أي تطلب وتتبع ما أسلفت من أعمالها، ويصح أن يكون بمعنى: تقرأ كتبها التي ترفع إليها. وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿وَرَدُّوْا﴾ بكسر السراء، وقرأ الجمهور: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ أي رُدُّوْا إلى عقاب مالكمم وشديد بأسه، فهو مولاكم في الملك والإحاطة لا في الرحمة والنصر ونحوه.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا توقيف وتوبيخ واحتجاج لا محيد عن التزامه. و﴿بَيْنَ السَّمَاءِ يَرِيدُ: بالمطر، و﴿وَالْأَرْضِ﴾ يَرِيدُ: بالنبات ونحو ذلك، و﴿يَتْلُكُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَرُ﴾ لفظ يعم جملة الإنسان ومعظمه حتى أن ما عداهما تبع، و﴿يُخْرِجُ الْغَيَّ مِنَ الْغَيْبِ﴾ الجنين من النطفة، والطائر من البيضة، والنبات من الأرض، إذ له نمو شبيه بالحياة، و﴿وَيُخْرِجُ الْغَيْبَ مِنَ الْغَيْبِ﴾ مثل البيضة من الطائر ونحو ذلك، وقد تقدم فيما سلف إيجاب القول في هذه المعاني. وتدبير الأمر عام لهذا وغيره من جميع الأشياء، وذلك استقامة الأمور كلها عن إرادته عز وجل، وليس تدبيره يفكر ولا روية وتغيرات، تعالى عن ذلك، بل علمه محيط كامل دائم. ﴿تَسْتَلُؤْنَ اللَّهَ﴾ لا مندوحة لهم عن ذلك، ولا تمكنهم المباشرة بسواه، فإذا أقروا بذلك ﴿فَقُلْ أَتَلْقَوْنَ فِي افْتِرَائِكُمْ وَجَعَلَكُمْ الْأَصْنَامَ آلِهَةً﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ الآية. يقول: فهذا الذي هذه صفاته ربكم الحق، أي المستوجب للعبادة والألوهية، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق، وعبرة القرآن في سوق هذه المعاني تفوت كل تفسير براعة وإيجازاً وإيضاحاً، وحكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله، وكذلك هو الأمر في نظائرها وهي مسائل الأصول التي الحق فيها في

طرف واحد، لأن الكلام فيها إنما هو في تقرير وجود ذات كيف هي، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال الله فيها: ﴿لِكُلِّ جَمَلًا مِنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاءَ﴾، وقال النبي ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات»، والحق في هذه في الطرفين لأن المتعبدين إنما يُعبدوا بالاجتهاد لا بالتعيين في كل نازلة، ويدلك على أن الحق في الطرفين اختلاف الشرائع بتحليل وتحريم في شيء واحد، والكلام في مسائل الفروع إنما هو في أحكام طارئة على وجود ذات متفردة لا يختلف فيها، وإنما يختلف في الأحكام المتعلقة بالمشروع. وقوله: ﴿فَأَنْ تَقْرُؤُونَ﴾ تقرير، كما قال: ﴿فَأَنْ تَذَكَّرُونَ﴾. ثم قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ أَيْ: كما كانت صفات الله كما وصف، وعبادته واجبة كما تقر، وانصراف هؤلاء كما قدر عليهم وتكسبوا - كذلك حَقَّتْ.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي هنا وفي آخر السورة: ﴿كَلِمَةً﴾ على الأفراد الذي يراد به الجمع، كما يقال للقصيدة: كلمة. فعبّر عن وعيد الله بكلمته. وقرأ نافع، وابن عامر في الموضعين المذكورين: ﴿كَلِمَاتٍ﴾، وهي قراءة أبي جعفر، وشيبة بن نصاح.

وهذه الآية إخبار أن في الكفار من حتم الله بكفره وقضى بتخليده. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ بكسر الألف.

رواية أبي بكر: ﴿يَهْدِي﴾ بكسر الياء والهاء وشذ الدال، وهذا أيضاً إتياع. وقال مجاهد: الله يهدي من الأوثان وغيرها ما شاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقرأ يحيى بن الحارث الزماري: ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ بفتح الهاء وشذ الدال. ووقف القراءة على: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُ﴾. ثم يبدأ: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُ﴾ إخبار عن فساد طرائقهم وضعف نظرم وأنه ظن، ثم بين منزلة الظن من المعارف ويغده عن الحق. والظن - في هذه الآية - على بابه في أنه معتقد أحد جائزين لكن ثم ميل إلى أحدهما دون حجة تبطل الآخر. وجواز ما اعتقده هؤلاء إنما هو بزعمهم لا في نفسه، بل ظنهم محال في ذاته. والحق أيضاً على بابه في أنه معرفة المعلوم على ما هو به، وبهذه الشروط لا يغني الظن من الحق شيئاً. وأما في طريق الأحكام التي تتعبد الناس بظواهرها فيغني الظن في تلك الحقائق ويصرف من طريق إلى طريق. والشهادة إنما هي مظنونة، وكذلك التهم في الشهادات تغني، وليس المراد في هذه الآية هذا النمط. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَقُولُونَ﴾، وقرأ عبدالله بن مسعود: ﴿تَقُولُونَ﴾ بالثاء على مخاطبة الحاضر.

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا نفي قول من قال من قريش: «إن محمداً ﷺ يفتري القرآن وينسبه إلى الله تعالى» وعبر عن ذلك بهذه

وصفها بأوصاف من يعقل، وذلك مجاز وموجود في كثير من القرآن، ذكر ذلك أبو علي الفارسي، والذي أقول: إن قراءة حمزة والكسائي تحتل أن يكون المعنى: «أمن لا يهدي أحداً إلا أن يهدي ذلك الأحد بهداية من عند الله»، وأما على غيرها من القراءات التي متقضاها: «أمن لا يهتدي إلا أن يهتدي» فينتجه المعنى على ما تقدم لأبي علي الفارسي، وفيه تجوز كثير. وقال بعضهم: هي عبارة عن أنها لا تنتقل إلا

أن تنتقل. ويحتمل أن يكون ما ذكر الله تعالى من تسبيح الجمادات هو اعتقادها، ويحتمل أن يكون الاستثناء في اعتقادها إلى منكرة الكفار يوم القيامة حسبما مضى في هذه السورة.

وقراءة حمزة والكسائي هي ﴿يَهْدِي﴾ بفتح الياء وسكون الهاء. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وشيبة، والأعرج، وأبو جعفر: ﴿يَهْدِي﴾ بسكون الهاء وتشديد الدال. وقرأ ابن كثير، وابن عامر: ﴿يَهْدِي﴾ بفتح الياء والهاء، وهذه أفصح القراءات، نقلت حركة تاء (يَهْدِي) إلى الهاء وأدغمت التاء في الدال، وهذه رواية ورش عن نافع. وقرأ عاصم في رواية حفص: ﴿يَهْدِي﴾ بفتح الياء وكسر الهاء وشذ الدال، أتبع الكسرة الكسرة. وقرأ عاصم في

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِدُّهُمُ اللَّهُ سَبْدًا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِدُّهُمُ اللَّهُ تَوْفِيقًا ۖ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَتَمَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنَبِّعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي ۚ لَا أَنْ يَهْدِيَ فَالْكَرِيفَ تَحْكُمُونَ ۝ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُ هَرَّ لَا ظُلْمًا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأَنزِلُوا سُورَةَ مثله وادعوا من استطعتم من دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ أَتَيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاظْهَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ ۝ وَهُمْ مِنْ دُونِ يَوْمِ يَوْمِهِمْ مَن لَا يُؤْمِنُ بِمُورِكْ كَأَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ۝ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ رَتُّونَ مِمَّا آعَمَلُ وَتَأْتِرُونَ مِمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَهُمْ مِنْ سَمْعُونَ إِلَيْكَ فَأَنْتَ شَهِيدٌ لِمَا كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ۝

٢١٣

﴿٣٤﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا توقيف أيضاً على قصور الأصنام وعجزها، وتنبيه على قدرة الله عز وجل، وبذء الخلق يريد به إنشاء الإنسان في أول أمره، وإعادته هي البعث من القبور. و﴿تَوْفِيقًا﴾ معناه: تصرفون وتحرمون، تقول العرب: «أرض مأفوكة» إذا لم يصبها مطر فهي بمعنى الخيبة والتلف، كما قال: ﴿وَالْمُؤَفِّكَةُ أَهْوَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي﴾ الآية. ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ يريد به: يبين طرق الصواب ويدعو إلى العدل ويفصح بالآيات ونحو هذا. ووصف الأصنام بأنها لا تهتدي إلا أن تهتدي، ونحن نجدها لا تهتدي وإن هُديت، فوجه ذلك أنه عامل - في العبارة عنها - معاملتهم في

الألفاظ التي تتضمن تشنيع قولهم وإعظام الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾، وكما قال حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿مَا يَكُونُ لِحَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، وغير هذا مما يعطي المعنى والقرائن والبراهين استحالة.

و ﴿يَتَرَكَا﴾ معناه: يُخْلَقُ وَيُنْشَأُ، وكأن المرأة يفرجه من حديثه أي يقطعه وَيُسَمُّهُ بِسْمَةٍ، فهو مشتق من (فرئت) إذا قطعت لإصلاح. و ﴿تَصْدِيقٌ﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه فعل مضمَر، وقال الزجاج: هو خبر كان مضمرة، والتقدير: ولكن كان تصديق الذي بين يديه. وقوله: ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يريد التوراة والإنجيل، والذي بين اليد هو المتقدم للشيء، وقالت فرقة في هذه الآية: إن الذي بين يديه هي أشرطة الساعة وما يأتي من الأمور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خطأ، والأمر بالعكس، كتاب الله تبارك وتعالى بين يدي تلك، أما أن الزجاج تحفظ فقال: «الضمير يعود على الأشرطة والتقدير: ولكن تصديق الذي بين يدي القرآن» فهذا أيضاً قُلْتُ، وقيام البرهان على قرش حينئذ إنما كان في أن يصدق القرآن ما في التوراة والإنجيل مع أن الآتي بالقرآن ممن يقطعون أنه لم يطالع تلك الكتب ولا هي في بلده ولا في قومه. وتفصيل الكتاب هو تبيينه. و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يريد: هو في نفسه على هذه الحالة، وإن ارتاب مبطل فذلك لا يلتفت إليه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾

الآية. ﴿أَمْ﴾ هذه ليست بالمعادلة لألف الاستفهام التي في قولك: أريدُ قام أم عمرو؟ وإنما هي التي تنوسط الكلام. ومذهب سيبويه أنها بمنزلة «الألف» و «بَلْ» لأنها تتضمن استفهاماً وإضراباً عما تقدم. وهي كقولهم: «إنها لإبل أم شاء؟» وقالت فرقة في ﴿أَمْ﴾ هذه: هي بمنزلة ألف الاستفهام. ثم عَجَزَهم في قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، والسورة مأخوذة من «سورة البناء»، وهي من القرآن هذه القطعة التي لها مبدأ وختم. والتحدي في هذه الآية وقع بجهتي الإعجاز اللتين في القرآن. إحداهما: النظم والرصف والإيجاز والجزالة، كل ذلك في التعريف بالحقائق، والأخرى: المعاني من الغيب لما مضى ولما يستقبل. وحين تحداهم بعشر مفتريات تحداهم بالنظم وحده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا قول جماعة من المتكلمين، وفيه عندي نظر، وكيف يجيء التحدي بمماثلة في الغيوب رداً على قولهم: «افتراه؟» وما وقع التحدي في الآيتين: - هذه وآية العشر السور - إلا بالنظم والرصف والإيجاز في التعريف بالحقائق، وما أَلْزَمُوا قط إتياناً بغيب، لأن التَّحْدِي بالإعلام بالغيب كقوله: ﴿وَهُمْ يَرْتَبِعُونَ غَيْبَهُمْ سَبْعِينَ لَيْلًا﴾، وكقوله: ﴿لَتَنَلَحْنَ السَّجْدَ الْحَرَامَ﴾، ونحو ذلك من غيوب القرآن؛ فيبين أن البشر مقصّر عن ذلك، وأما التحدي بالنظم فَيَبِّين أيضاً أن البشر مقصّر عن نظم القرآن إذ الله تعالى قد أحاط بكل شيء

علماً، فإذا قدر الله اللفظة في القرآن علم بالإحاطة اللَّفْظَةَ التي هي أَلْيَقُ بها في جميع كلام العرب في المعنى المقصود حتى كمل القرآن على هذا النظام، الأولى فالأولى، والبشر - مع أن يفرض أفصح العالم - محفوف بنسيان وجهل بالألفاظ والحق، وبغلط وآفات بشرية. فمحال أن يمشي في اختياره على الأولى فالأولى. ونحن نجد العربي ينقح قصيدته - وهي الخَوَلِيَّاتُ - يبدل فيها ويقدم ويؤخر، ثم يدفع تلك القصيدة إلى أفصح منه فيزيد في التنقيح. ومذهب أهل الصرفة مكسور بهذا الدليل، فما كان قط في العالم إلا من فيه تقصير سوى من يوحى إليه الله تعالى، وميزت فصحاء العرب هذا القدر من القرآن وأذعن له لصحة فطرتها وخلوص سليقتها، وأنهم يعرف بعضهم كلام بعض ويميزه من غيره، كفعل الفرزدق في أبيات جرير، والجارية في شعر الأعشى، وقول الأعرابي عَزَّجَكُم، فقطع، ونحو ذلك مما إذا تُشَبَّعَ بان. والقدر المعجز من القرآن ما جمع الجهتين: اطراد النظم والسرد، وتحصيل المعاني وتركيب الكثير منها في اللفظ القليل، فأما مثل قوله تعالى: ﴿مُدَّعَاكَانِ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ نَفَرْ﴾ فلا يصح التحدي بالإتيان بمثله، لكن بانتظامه واتصاله يقع العجز عنه.

وقوله: ﴿يَتْلُوهُ﴾ صفة للسورة، والضمير عائد على القرآن المتقدم الذكر، كأنه قال: فأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِ القرآن، أي في معانيه وألفاظه.

بمعنى المال ونحوه، وليس تأنيهاً بحقيقي.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ الآية. الضمير في ﴿يُنْهَمُ﴾ عائد على قريش، ولهذا الكلام معنيان: قالت فرقة: معناه: من هؤلاء القوم من سيؤمن في المستقبل، ومنهم من حتم الله أنه لا يؤمن به أبداً. وقالت فرقة: معناه: من هؤلاء القوم من هو مؤمن بهذا الرسول إلا أنه يكتم إيمانه وعلمه بأن نبوة محمد ﷺ وإعجاز القرآن حق، حفظاً لرياسته أو خوفاً من قومه، كالفتية الذين خرجوا إلى بدر مع الكفار فقتلوا فنزل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيَّ كُفَّارًا ظَالِمِينَ أَنْهَبُوا﴾، وكالعباس ونحو هذا، ومنهم من ليس بمؤمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفائدة الآية على هذا التأويل التفريق لكلمة الكفار، وإضعاف نفوسهم، وأن يكون بعضهم على وجل من بعض. وفي قوله: ﴿وَرَبَّكَ أَفْهَرُ بِالْمُنْكَرِ﴾ تهديد ووعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ آية مناجزة لهم ومشاركة، وفي ضمنها وعيده وتهديد، وهذه الآية نحو قوله: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخر السورة. وقال كثير من المفسرين منهج ابن زيد: هذه الآية منسوخة بالقتال لأن هذه مكية، وهذا صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾. جمع ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى ﴿مَنْ﴾ لا على لفظها، ومعنى الآية: ومن هؤلاء الكفار من يستمع إلى ما يأتي به من القرآن بأذنه، ولكن حين

أنه مفتري، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَيْهِ﴾، وهذا اللفظ يحتمل معنيين، أحدهما: أن يريد به الوعيد الذي توعدهم الله عز وجل على الكفر، و﴿تَأْيِيدُهُ﴾ على هذا يراد به ما يؤول إليه أمره، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْيِيدُهُ﴾، والآية بجملتها - على هذا التأويل - تتضمن وعيداً. والمعنى الثاني: أنه أراد: بل كذبوا بهذا القرآن العظيم المُنْبِئ بالغيوب الذي لم تتقدم لهم به معرفة، ولا أحاطوا بعلم غيوبه وحسن نظمه،

ولا جاءهم تفسير ذلك وبيانه. و﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يريد من سلف من أُمم الأنبياء. قال الزجاج: ﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب على خبر ﴿كَانَ﴾، ولا يجوز أن يعمل فيها ﴿أَنْتُمْ﴾ لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا قانون النحويين لأنهم عاملوا (كيف) في كل مكان معاملة الاستفهام المحض في قولك: «كيف زيد؟» ولو (كَيْفَ) تصرفات غير هذا، تحل محل المصدر الذي هو «كيفية» وتخلع معنى الاستفهام، ويحتمل هذا أن يكون منها، ومن تصرفاتها قولهم: «كن كيف شئت»، وانظر قول البخاري: «كيف كان بدء الوحي»، فإنه لم يستفهم. وذكر الفعل المسند إلى «العاقبة» لما كانت

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ رَبُّكَ إِلَىٰ آلَاءِهِمْ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خُسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا رِسَكُ بَعْضِ الَّذِي يَدْعُونَ وَتُفَنَّاكَ فَإِنَّمَا أَنتَ مُجْمَعَةٌ مِّنْ اللَّهِ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ ﴿٤٣﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٤﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عِدَابِي بِشَاءَ أَوْ هَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُونَ مِنَ الْعَذَابِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ أَنزَلْنَاهَا مَاقَامَةً مِّنْ دُونِهَا فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْغُلَّةِ هَلْ لَّكُمْ مَجْرُورٌ إِلَّا يَمَانُكُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَ ﴿٤٩﴾ أَحَقُّ هُوَ قَوْلِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٠﴾

وخلطت فِرَقٌ في قوله: ﴿يُنْهَمُ﴾ من جهة اللسان، كقول الطبري: ذلك على المعنى، ولو كان على اللفظ لقال: «مثلها»، وهذا وهم بين لا يحتاج إليه. وقرأ عمرو بن فائد: ﴿يُسُورَةُ يُنْهَمُ﴾ على الإضافة، قال أبو الفتح: التقدير: بسورة كلام مثله، قال أبو حاتم: أمر عبد الله الأسود أن يسأل عمر رضي الله عنه عن إضافة (سورة) أو تنوينها، فقال له عمر: كيف شئت.

وقوله: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَقْتُمْ﴾ إحالة على شركائهم وجنهم وغير ذلك، وهو كقوله في الآية الأخرى: ﴿لَا يَأْتُونَ بِثَبَاتٍ﴾، ولو كانت بعضهم لبعض ظاهراً، أي معيناً، وهذا أشد إقامة لنفوسهم وأصح تعجيزاً لهم.

٣٩ - ٤٣ تفسير قوله عز وجل: المعنى: ليس الأمر كما قالوا في

لا يؤمن ولا يحصل فكأنه لا يسمع، ثم قال على وجه التسلية للنبي ﷺ: أفأنت يا محمد تريد أن تسمع الصم؟ أي: لا تكثر بذلك، وقوله: ﴿وَكُلُّ كَاذِبٌ لَا يَتَّقُونَ﴾ معناه: ولو كانوا في أشد حالات الأصم، لأن الأصم الذي لا يسمع شيئاً بحال فذلك لا يكون في الأغلب إلا مع فساد العقل والدماغ، فلا سبيل أن يعقل حجة ولا دليلاً أبداً. و﴿وَكُلُّ﴾ هذه بمعنى (إن)، وهذا توقيف للنبي ﷺ؛ أي: ألزم نفسك هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُهُمُ بَظَرٌ﴾ الآية. هي نحو الأولى في المعنى، وجاء ﴿بَظَرٌ﴾ على لفظ ﴿مَنْ﴾، وإذا جاء الفعل على لفظها فجائز أن يعطف عليه آخر على المعنى، وإذا جاء أولاً على معناها فلا يجوز أن يعطف عليه آخر على اللفظ، لأن الكلام يلبس حينئذ. وهذه الآية نحو الأولى في المعنى كأنه قال: ومنهم من ينظر إليك ببصره، لكنه لا يعتبر ولا ينظر ببصيرته، فهو لذلك كالأعمى، فهون ذلك عليك، أفتريد أن تهدي العمي والهداية أجمع بيد الله عز وجل؟ (٤٤) - (٤٥) تفسير قوله عز وجل:

قرأت فرقة: ﴿وَلَيْكِنِ النَّاسُ﴾ بتخفيف ﴿وَلَيْكِنِ﴾ ورفع ﴿النَّاسُ﴾، وقرأت فرقة: ﴿وَلَيْكِنِ﴾، بالتشديد ونصب ﴿النَّاسُ﴾، وظلم الناس لأنفسهم إنما هو بالتكسب منهم الذي يقارن اختراع الله تعالى لأفعالهم. وعرف (لكن) إذا كان قبلها واو أن تشقل، وإذا عرّيت من الواو أن تخفف، وقد ينخرم هذا. وقال

الكوفيون: قد تدخل اللام في خبر (لكن) المشددة على حد دخولها في (إن)، ومنع ذلك البصريون.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الآية، وعيد بالحشر وخزيهم فيه وتعارفهم في التلازم بعضهم لبعض. و﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف، ونصبه يصح بفعل مضمر تقدير: واذكر يوم، ويصح أن ينتصب بالفعل الذي يتضمنه قوله: ﴿كَانَ لَوْ يَلْتَمِثُونَ إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾، ويصح نصبه بـ ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾، والكاف من قوله: ﴿كَانَ﴾ يصح أن تكون في معنى الصفة لليوم، ويصح أن تكون في موضع نعت للمصدر كأنه قال: ويوم نحشرهم حشراً كأن لم يلبثوا، ويصح أن يكون قوله: ﴿كَانَ لَوْ يَلْتَمِثُونَ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾. وخصص النهار بالذكر لأن ساعاته وقسمته معروفة بيئة للجميع، فكأن هؤلاء متحققون قلة ما لبثوا، إذ كل أمد طويل إذا انقضى فهو واليسير سواء. وأما قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ فيحتمل أن يكون معادلة لقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾، كأنه أخبر أنهم يوم الحشر يتعارفون، وهذا التعارف على جهة التلازم والخزي من بعضهم لبعض. ويحتمل أن يكون من موضع الحال من الضمير في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ ويكون معنى التعارف كالذي قبله. ويحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يَلْتَمِثُونَ﴾ ويكون التعارف في الدنيا، ويجيء معنى الآية: ويوم نحشرهم للقيامة فتقطع المعرفة بينهم والأسباب، ويصير تعارفهم في الدنيا كساعة من النهار لا قدر لها، ونحو

هذا المعنى فسر الطبري، وقرأ السبعة وجمهور الناس: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بالنون، وقرأ الأعمش فيما روي عنه: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَيْرَ الَّذِينَ﴾ إلى آخرها. حكم على المكذبين بالخسارة، وفي اللفظ إغلاظ على المحشورين من إظهار لما هم عليه من الغرر مع الله تعالى، وهذا على أن الكلام إخبار من الله تبارك وتعالى، وقيل: إنه من كلام المحشورين على جهة التوبيخ لأنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رُتِّبَ﴾ الآية. ﴿وَلَمَّا﴾ شرط، وجوابه ﴿فَلَمَّا رُتِّبَ﴾ والرؤية في قوله: ﴿رُتِّبَ﴾ رؤية بصر، وقد عدي الفعل بالهمزة فلذلك تعدى إلى مفعولين: أحدهما (الكاف)، والآخر (بعض). والإشارة بقوله: ﴿تَبَعَ الَّذِينَ﴾ إلى عقوبة الله لهم في بدر وغيرها، ومعنى هذه الآية الوعيد بالرجوع إلى الله تعالى، أي: إن أريناك عقوبتهم أولم نركها، فهم على كل حال راجعون إلينا إلى الحساب والعذاب، ثم مع ذلك فالله شهيد من أول تكليفهم على جميع أعمالهم، فـ ﴿لَمَّا﴾ هنا لترتيب الإخبار لا لترتيب القصص في أنفسها، و﴿وَلَمَّا﴾ هي (إن) زيدت عليها (ما)، ولأجلها جاز دخول النون الثقيلة، ولو كانت (إن) وحدها لم يجز.

(٤٧) - (٤٨) تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رُتِّبَ﴾ إخبار مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّمَ النَّبِيَّ فِيهَا فَجِئَ سَلَامٌ خَرَّتْهَا أَلَمَ يَأْكُرُ نَذِيرًا قَالُوا

بَلَىٰ، وقال مجاهد وغيره: المعنى: فإذا جاءهم رسولهم يوم القيامة للشهادة عليهم صُيِّرَ قوم للجنة وقوم للنار، فذلك القضاء بينهم بالقسط، وقيل: المعنى: فإذا جاء رسولهم في الدنيا وبعث صاروا من حتم الله بالعذاب لقوم والمغفرة لآخرين لغاياتهم، فذلك قضاء بينهم بالقسط. وقرن بعض المتأولين هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وذلك يتفق إما بأن نجعل ﴿مُعَذِّبِينَ﴾ في الآخرة، وإما بأن نجعل القضاء بينهم في الدنيا بحيث يصح اشتباه الآيتين.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ إلى قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَ﴾. الضمير في ﴿رَبِّقُولُونَ﴾ يراد به الكفار، وسؤالهم عن الوعد تحديد بزعمهم في الحجة، أي: هذا الذي ثوَعَدْنَا حَدِّثْ لَنَا فِيهِ وَقْتَهُ لنعلم الصدق في ذلك من الكذب، وقال بعض المفسرين: قولهم هذا على جهة الاستخفاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا يظهر من اللفظة.

ثم أمره تعالى أن يقول لهم: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، المعنى: قل لهم يا محمد ردًا للحجة: إني لا أملك لنفسي ضرًا ولا نفعًا من دون الله، ولا أنا إلا في قبضة سلطانه ويضمن الحاجة إلى لطفه، فإذا كنت هكذا، فأحرى ألا أعرف غيبه ولا أنعطى شيئاً من أمره، ولكن لكل أمة أجل انفرد الله تبارك وتعالى بعلم حده ووقته، فإذا جاء ذلك الأجل في موت أو هلاك أمة لم يتأخروا ساعة ولا أمكنهم

التقدم عن حد الله عز وجل. وقرأ ابن سيرين: ﴿أَجَالَهُمْ﴾ بالجمع.

﴿٥١﴾ - ﴿٥٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قل: يأتونها الكافرون المستعجلون عذاب الله عز وجل ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابٌ﴾ ليلاً وقت المبيت - يقال: بَيْتَ الْقَوْمِ القوم إذا طرَقوهم ليلاً بحرب أو نحوها - ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ مِنْهُ مَتَاعٌ أَوْ بِهِ طَاقَةٌ﴾ فماذا تستعجلون منه وأنتم لا قِبَلَ لَكُمْ به! و (مَا) ابتداء، (ذَا) خبره، ويصح أن تكون ﴿مَاذَا﴾ بمنزلة اسم واحد في موضع رفع بالابتداء وخبره الجملة التي بعده، وضعف هذا أبو علي وقال: إنما يجوز ذلك على تقدير إضمار في ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ وحذفه كما قال:

... كُنْ لَهُ لَمْ أَضْنَعُ
و «زيد ضربت»، قال: ويصح أن تكون ﴿مَاذَا﴾ في حال نصب لـ ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾. والضمير في ﴿يُنَادُوا﴾ يحتمل أن يعود على الله عز وجل، ويحتمل أن يعود على العذاب.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا رَقَعْتُمْ﴾ الآية. عطف بقوله: ﴿أَنْتُمْ﴾ جملة القول على ما تقدم، ثم أدخل على الجميع ألف التقرير، ومعنى الآية: إذا وقع العذاب وعانيتموه أنتم به حينئذ، وذلك غير نافعكم، بل جوابكم الآن، وقد كنتم تستعجلونه مكذبين به. وقرأ طلحة ابن مصرف: ﴿أَنْتُمْ﴾ بفتح التاء، وقال الطبري في قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ﴾ بضم الشاء: معناه: هنالك، وقال: ليست (ثُمَّ) هذه التي تأتي بمعنى العطف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى صحيح على أنها (ثُمَّ) المعروفة، ولكن إطباقه على لفظ التنزيل هو كما قلنا، وما ادعاه الطبري غير معروف. و ﴿أَنْتُمْ﴾ أصله عند بعض النحاة (أَنْ) فعل ماض دخلت عليه الألف واللام على حذوها في قوله:

... الْجَمَارِ الَّتِي تَبْجَدُ
ولم يتعرف بذلك كل التعريف، ولكنها لفظة مضمنة معنى حرف التعريف ولذلك بُنِيَتْ على الفتح لتضمنها معنى الحرف، ولوقوعها موقع المبهم، لأن معناها: «هذا الوقت»، وقرأ الأعمش، وأبو عمرو، وعاصم، والجمهور: ﴿أَنْتُمْ﴾ بالمد والاستفهام على حد التوبيخ، وكذلك ﴿أَنْتُمْ﴾ وَقَدْ عَصَيْتُمْ، وقرأها باستفهام بغير مد طلحة والأعرج.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الآية. هو الوعيد الأعظم بالخلود لأهل الظلم الأخص الذي هو ظلم الكفر لا ظلم المعصية. وقوله: ﴿هَذِهِ ثَجَرُونَ﴾ توقيف وتوبيخ. ونصت هذه الآية على أن الجزاء في الآخرة هو على تكسب العبد.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ معناه: يستخبرونك، وهي - على هذا - تتعدى إلى مفعولين: أحدهما الكاف، والآخر في الابتداء والخبر. وقيل: هي بمعنى يستعلمونك، فهي - على هذا - تحتاج إلى مفاعيل ثلاثة: أحدها الكاف، والابتداء والخبر سد مسد المفعولين.

و ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ قيل: الإشارة إلى

وَلَوْ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرَأُ
الْعَذَابَ لِمَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُتِحَ بَيْنَهُمُ الْقَسِطُ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْآنَ
وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ
وَالْيَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَشَفَاعَةٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ دَلَّكَ فَمَن بَعُدَ حُجَّتُهُمْ فَمَا
يُجْعَلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ
فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَلَا إِنَّكُمْ أَعْمَلُوهُ
تَقْوًى ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنْ أَلَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا كُوفٍ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ الْغَاثُ وَالْغَابِثُ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرِ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

يُخْبِي مِنَ النطفة،
﴿وَيُمِيتُ﴾ بالأجل، ثم
يجعل المرجع إليه بالحشر
يوم القيامة. وفي قوة هذه
الآيات ما يستدعي الإيمان
وإجابة دعوة الله عز وجل،
وقرأ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالتاء من
فوق الأعرج، وأبو عمرو،
وعاصم، ونافع، والناس.
وقرأ عيسى بن عمر
﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالياء من
تحت. واختلف عن
الحسن.

﴿٥٧﴾ - ﴿٥٨﴾ تفسير قوله
عز وجل:

هذه آية خطب بها جميع

العالم، والموعظة: القرآن
لأن الوعظ إنما هو بقول يأمر
بالمعروف وينهى ويرفق ويوعد
ويعد، وهذه صفة الكتاب العزيز،
وقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْغَمْرَ﴾ يريد: لم
يختلفها محمد ﷺ ولا غيره، بل هي
من عند الله عز وجل، ﴿وَمَا فِي
الْصُّدُورِ﴾ يريد به الجهل والعُتُو عن
النظر في آيات الله تبارك وتعالى ونحو
هذا مما يدافع الإيمان. وجعله موعظة
بحسب الناس جميعاً، وجعله هُدى
ورحمة بحسب المؤمنين فقط، وهذا
تفسير صحيح المعنى إذا تَوَاضَعُ بَانَ
وجهه.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ
وَبِرَحْمَتِهِ﴾ الباء متعلقة بمحذوف
استغني عن ذكره يدل عليه قوله:
﴿وَهَدَى رَحْمَةً﴾. قال بعض
المتأولين وهو هلال بن يساف،
وقتادة، والحسن، وابن عباس

الشرع والقرآن، وقيل: إلى الوعيد،
وهو الأظهر، وقرأ الأعشى: ﴿الْحَقُّ
هُوَ﴾ بِمَدَّةٍ ويلازم التعريف. وقوله:
﴿إِي﴾ هي لفظة تتقدم القسم، وهو
بمعنى (نعم)، ويجيء بعدها حرف
القسم وقد لا يجيء، تقول: إِي
وربي وإِي ربي، و﴿مُتَجَرِّبِينَ﴾ معناه:
مُفْتَلَتِينَ، وهذا الفعل أصله تعدي
(عجز) لكن كثر فيه حذف المفعول
حتى قالت العرب: «أَعَجَزَ فلان» إذا
ذهب في الأرض فلم يُقَدَّر عليه.

﴿٥٤﴾ - ﴿٥٥﴾ تفسير قوله عز وجل:
هذا إخبارٌ للكفار في سياق
إخبارهم بأن ذلك الوعد حق.
﴿وَأَسْرَأُ﴾ لفظة تجيء بمعنى:
أَخْفَؤُا، وهي حينئذ من السر،
وتجيء بمعنى: أظهِروا، وهي حينئذ
من أسارى الوجه. قال الطبري:
المعنى: وأخفى رؤساء هؤلاء الكفار
الندامة عن سفلتهم ووضعائهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
بل هو عام في جميعهم.
و ﴿أَلَا﴾ استفتاح وتنبيه، ثم
أوجب أن جميع ما في السموات
والأرض ملك لله تبارك وتعالى، قال
الطبري: يقول: فليس لهذا الكافر
يومئذ شيء يقتدي به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وربط الآيتين هكذا يتجه على بعد،
وليس هذا من فصيح المقاصد.
وقوله: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾
قيد بالأكثر لأن بعض الناس يؤمن
فهم يعلمون حقيقة وعد الله تعالى،
وأكثرهم لا يعلمون فهم لأجل ذلك
يكذبون.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ يَحْيِي﴾ يريد:

رضي الله عنهما: (الفضل):
الإسلام، و(الرحمة): القرآن، وقال
أبو سعيد الخدري: (الفضل):
القرآن، و(الرحمة): أن جعلهم من
أهله، وقال زيد بن أسلم،
والضحاك: (الفضل): القرآن،
و(الرحمة): الإسلام، وقالت فرقة:
(الفضل): محمد ﷺ، و(الرحمة):
القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا وجه عندي لشيء من هذا
التخصيص إلا أن يستند منه شيء إلى
النبي ﷺ، وإنما الذي يقتضيه اللفظ
ويلزم منه أن الفضل هو هداية الله
تعالى إلى دينه، والتوفيق إلى اتباع
شريعته والرحمة هي عفوه وسكنى
جنته التي جعلها جزاءً على التَّشَرُّع
بالإسلام والإيمان به. ومعنى الآية:
قل يا محمد لجميع الناس:

ليس من أفعال الآخرة، بل ينبغي أن يغلب على الإنسان حزنه على ذنبه وخوفه لربه. وقوله: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَحْمَرُّ﴾ يريد: من مال الدنيا وحطامها الفاني المؤذي في الآخرة. ﴿٥٩﴾ - ﴿٦٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه المخاطبة لكفار العرب الذين جعلوا البحائر والسواحب والنصيب من الحرث والأنعام وغير ذلك مما لم يأذن الله به، وإنما اختلقوه بأمرهم. وقوله تعالى: ﴿أَنْزِلْ﴾ لفظة فيها تجوز، وإنزال الرزق إما أن يكون في ضمن إنزال المطر بالمال أو نزول الأمر به الذي هو ظهور الأثر في المخلوق منه المخترع، ثم أمر الله نبيه بتوقيفهم على أحد القسمين، وهم لا يمكنهم ادعاء إذن الله في ذلك، فلم يبق إلا أنهم افتروه، وهذه الآية نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَخِرْ مِنْ حَرَمٍ رَّبَّكَ اللَّهُ الْبَاقِ أَخْرَجَ لِيُكَذِّبُوا﴾، ذكر ذلك الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ آية وعيد. لما تحقق عليهم بتقسيم الآية التي قبلها أنهم مفترون على الله عظم في هذه الآية جرم الافتراء، أي: ظنهم في غاية الرداة بحسب سوء أفعالهم، ثم ثنى بإيجاب الفضل على الناس في الإمهال لهم مع الافتراء والعصيان، والإمهال داعية إلى التوبة والإنابة. ثم استدرج ذكر من لا يرى حق الإمهال ولا يشكره ولا يبادر فيه على جهة الذم لهم، والآية بعد هذا تنم جميع فضل الله وجميع تقصير الخلق في شكره لا رب غيره.

﴿٦١﴾ - ﴿٦٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قصد الآية وصف إحاطة الله بكل

ذكر الغائب، ورويت عن الحسن بالتاء من فوق فيهما. وقرأ أبو التياح، وأبو جعفر، وقتادة - بخلاف عنهم - وابن عامر بالياء في الأولى وبالتاء في الآخرة، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وجماعة من السلف، ورويت عن النبي ﷺ بالياء في الأولى وبالتاء في الآخرة، ورويت عن أبي التياح. وإذا تأملت وجوه ذلك بانت على منهج الفصيح من كلام العرب، ولذلك كثر الخلاف من كل قارئ، وفي مصحف

أبي بن كعب: ﴿فَبِذَلِكَ فَافْرَحُوا﴾، وأما من قرأ: ﴿فَلْتَفَرَّحُوا﴾ فأدخل اللام في أمر المخاطب فذلك على لغة قليلة، حكى ذلك أبو علي في الحجة، وقال أبو حاتم وغيره: الأصل في كل أمر إدخال اللام إذا كان النهي بحرف، فكذا الأمر إذا كان أمراً لغائب بلام، قال أبو الفتح: إلا أن العرب رفضت إدخال اللام في أمر المخاطب لكثرة ترده. وقرأ أبو التياح، والحسن بكسر اللام من ﴿فَلْتَفَرَّحُوا﴾، فإن قيل: كيف أمر الله بالفرح في هذه الآية وقد ورد ذم في قوله: ﴿لَنْفِرَ فَوْرٌ﴾، وفي قوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، قيل: إن الفرحة إذا ورد مقيداً في خير فليس بمذموم، وكذلك هو في هذه الآية، وإذا ورد مقيداً في شر أو مطلقاً لحقه ذم إذ

الآيات أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿٥٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٠﴾ لَّهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦١﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُنَّ إِنَّ آيَةَ اللَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٢﴾ الْآيَاتُ لِلَّهِ مِنَ السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ وَمَا يَشِيعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءُ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٣﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَتَ لِقَوْرٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٤﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبُ لَا يَفْعَلُ خَيْرٌ ﴿٦٦﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَّ إِنَّا نَأْتِيهِمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾

٢١٦

بفضل الله وبرحمته فليقع الفرح منكم، لا بأمر الدنيا وما يجمع من حطامها، فالمؤمنون يقال لهم: ﴿فَلْتَفَرَّحُوا﴾، وهم مُتَلَبِّسُونَ بعلة الفرحة وسببه، ومُحْضِلُونَ لفضل الله منتظرون الرحمة. والكافرون يقال لهم: بفضل الله وبرحمته فلتفرحوا، على معنى أن لو اتفق لكم، أو لو سعدتم بالهداية إلى تحصيل ذلك.

وقرأ أبي بن كعب، وابن القعقاع، وابن عامر، والحسن - على ما زعم هارون - ورويت عن النبي ﷺ: ﴿فَلْتَفَرَّحُوا﴾ و ﴿تَجَمَّعُونَ﴾ بالتاء فيهما على المخاطبة، وهي قراءة جماعة من السلف كبيرة، وعن أكثرهم خلاف. وقرأ السبعة سوى ابن عامر، وأهل المدينة، والأعرج، ومجاهد، وابن أبي إسحاق، وقتادة، وطلحة، والأعمش بالياء فيهما على

شيء، ومعنى اللفظ: وما تكون يا محمد - والمراد هو وغيره - في شأن من جميع الشؤون، ﴿وَمَا تَلَوْا مِنهُ﴾ الضمير عائذ على ﴿شَأْنٍ﴾ أي فيه وبسببه من قرآن، ويحتمل أن يعود الضمير على جميع القرآن، ثم عم بقوله: ﴿وَلَا تَمْلِكُونَ مِن عَمَلٍ﴾، وفي قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُوَبًا﴾ تحذير وتنبيه. و﴿ثِيَابُكُمْ﴾: تأخذون وتنهضون بجدة، يقال: أفاض الرجل في سيره وفي حديثه، ومنه الإفاضة في الحج، ومفيض القِداح، ويحتمل أن (فاض) غدي بالهمزة.

و ﴿يَرْزُبُ﴾ معناه: يغيب حتى يخفى، حتى قالوا للبعيد: عازب، ومنه قول الشاعر:

عواذب لم تسمع ثُبُوحُ مُقَامَةٍ
ولم تر تاراً يَمُ حَوْلَ مُجَرِّمٍ
وقيل للغائب عن أهله: عازب، حتى قالوه لمن لا زوجة له، وفي السير أن بيت سعد بن خيشمة كان يقال له: بيت العزاب. وقرأ جمهور السبعة، والناس: ﴿يَرْزُبُ﴾ بضم الزاي، وقرأ الكسائي وحده منهم: ﴿يَغْرِبُ﴾ بكسرهما، وهي قراءة ابن وثاب، والأعمش، وطلحة بن مصرف. قال أبو حاتم: القراءة بالضم والكسر لغة. والميثقال: الوزن، وهو اسم لا صفة كمعطار ومضراب. والدَّر: صغار النمل، جعلها الله مثلاً إذ لا يُعرف في الحيوان المتغذي المتناسل المشهور النوع والموضع أصغر منه. وقرأ جمهور الناس، وأكثر السبعة: ﴿وَلَا أَصْنَرُ﴾ ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ بفتح الراء عطفاً

على ﴿ذَرَبُ﴾ في موضع خفض لكن منع من ظهوره امتناع الصرف. وقرأ حمزة وحده: ﴿وَلَا أَصْفَرُ﴾ ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ عطفاً على موضع قوله: ﴿يُثْقَلُ﴾ لأن التقدير: وما يعزب عن ربك مثقال ذرة. والكتاب المبين: اللوح المحفوظ، كذا قال بعض المفسرين، ويحتمل أن يريد تحصيل الكتبة، ويكون القصد ذكر الأعمال المذكورة قبل، وتقديم الأصغر في الترتيب جرياً على قولهم: القمرين والعمرين، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَبْدُرُ صَيْرَةٌ وَلَا كِبَرَةٌ﴾، والقصد بذلك كله تنبيه الأقل، وأن الحكم المقصود إذا وقع على الأقل فأحرى أن يقع على الأعظم.

و ﴿آلَا﴾ استفتاح وتنبيه، وأولياء الله هم المؤمنون الذين والوه بالطاعة والعبادة، وهذه الآية يعطي ظاهرها أن من آمن واتقى فهو داخل في أولياء الله، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الولي، وإنما نبهنا هذا التنبيه حذراً من بعض الصوفية وبعض الملحدين في الولي، وروي عن النبي ﷺ أنه سئل: من أولياء الله؟ فقال: «الذين إذا رأيتهم ذكرت الله».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وصف لازم للمتقين لأنهم يخشعون ويخشعون، وروي عن النبي ﷺ أيضاً أنه قال: «أولياء الله قوم تحابوا في الله واجتمعوا في ذاته، لم تجمعهم قرابة ولا مال يتعاطونه». وقوله: ﴿لَا حَرْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يحتمل أن يكون في

الآخرة، أي: لا يهتمون بهما، ولا يخافون عذاباً ولا عقاباً ولا يحزنون لذلك. ويحتمل أن يكون ذلك في الدنيا، أي: لا يخافون أحداً من أهل الدنيا ولا من أعراسها، ولا يحزنون على ما فاتهم منها، والأول أظهر، والعموم في ذلك صحيح، لا يخافون في الآخرة جملة، ولا في الدنيا الخوف الدنيوي الذي هو في فوت آمالها، وزوال منازلها، وكذلك في الحزن، وذكر الطبري عن جماعة من العلماء مثل ما في الحديث في الأولياء الذين إذا رأهم أحد ذكر الله، وروي فيهم حديث: «إن أولياء الله هم قوم يتحابون في الله، وتجمل لهم يوم القيامة منابر من نور، وتبر وجوههم، فهم في عرصة القيامة لا يخافون ولا يحزنون». وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله»، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام ولا أموال» الحديث، ثم قرأ: ﴿آلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا حَرْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يصح أن يكون في موضع نصب على البدل من (الأولياء)، ويصح أن يكون في موضع رفع على الابتداء على تقدير: (هم الذين)، وكثيراً ما يفعل ذلك بنعت ما عملت فيه (إن) إذا جاء بعد خبرها، ويصح أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ ابتداء وخبره في قوله: ﴿لَهُمُ الْبَشَرَى﴾، وقوله: ﴿وَكَاوُوا﴾

يَتَنَبَّأُونَ ﴿٦٤﴾ لفظ عام في تقوى الشرك والمعاصي.

﴿٦٥﴾ - ﴿٦٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

أما بشرى الآخرة فهي بالجنة قولاً واحداً، وتلك هي الفضل الكبير الذي في قوله: ﴿وَنَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَأْتِيهِمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا ﴿٦٥﴾، وأما بشرى الدنيا فتظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنها الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرَى له. وروى ذلك عن رسول الله ﷺ أبو الدرداء، وعمران بن حصين، وعبدالله ابن عباس، وعبدالله بن عمر - رضي الله عنهم جميعاً - وغيرهم على أنه سُئِلَ عن ذلك ففسره بالرؤيا. وعن النبي ﷺ في صحيح مسلم أنه قال: «لَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ»، وروى عنه أم كند الكعبية أنه قال: «ذَهَبَتِ النَّبُوءَةُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ» قال قتادة، والضحاك: البشرى في الدنيا هي ما يُبَشِّرُ به المؤمن عند موته وهو حيٌّ عند المعايعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن تكون بشرى الدنيا ما في القرآن من الآيات المبشرات، وتقوى ذلك بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ وإن كان ذلك كله يعارضه قول النبي ﷺ: «هِيَ الرُّؤْيَا» إلا إن قلنا: إن النبي ﷺ أعطى مثلاً من البشرى، وهي تعم جميع الناس. وقوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ يريد: لا خلف لمواعيده ولا رد في أمره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد أخذ ذلك عبدالله بن عمر رضي الله عنهما على نحو غير هذا،

وجعل التبديل المنفي في الألفاظ، وذلك أنه زُوي أن الحجاج بن يوسف خطب فأطال خطبته حتى قال: إن عبدالله بن الزبير قد بذل كتاب الله، فقال له عبدالله بن عمر: إنك لا تطبق ذلك أنت ولا ابن الزبير، ﴿لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، فقال له الحجاج: لقد أعطيت علماً، فلما انصرف إليه في خاصته سكت عنه، وقد زُوي هذا النظر عن ابن عباس في غير مقالة الحجاج، ذكره البخاري، وقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ﴾ إشارة إلى النعيم الذي وقعت به البشرى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ الآية. هذه آية تسلية لمحمد ﷺ، والمعنى: ولا يحزنك يا محمد ويهملك قولهم، أي قول كفار قريش، ولقظة «القول» تعم جحودهم واستهزاءهم وخداعهم وغير ذلك.

ثم ابتدأ بوجوب أن العزة لله جميعاً، أي: فهم لا يقدرُونَ لك على شيء ولا يؤذونك إلا بما شاء الله، وهو القادر على عقابهم، لا يُعَازُهُ شيء، ففي الآية وعيد لهم. وكسر ﴿إِنَّكَ﴾ في الابتداء ولا ارتباط لها بالقول المتقدم لها. وقال ابن قتيبة: لا يجوز فتح إن في هذا الموضوع وهو كفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله: «وهو كفر» غلُو. وكأن ذلك خرج على تقدير: لأجل أن العزة لله، وقوله: ﴿هُوَ السَّيِّعُ﴾ أي لجميع ما يقولونه، ﴿الْقَلِيمُ﴾ بما في نفوسهم من ذلك، وفي ضمن هذه الصفات تهديد.

ثم استفتح بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَنَّ فِي السَّمَكَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْشِينَ﴾ أي بالملك والإحاطة، وغلب من يعقل في قوله: ﴿مَنْ﴾ إذ لله ملك الجميع ما فيها ومن فيها، وإذا جاءت العبارة ب (مَا) فذلك تغليب للكثرة، إذ الأكثر عدداً من المخلوقات لا يعقل، فـ ﴿مَنْ﴾ تقع للصنفين بمجموعهما، و (مَا) كذلك، ولا تقع لما يعقل إذا تجرد من الصفات والأحوال، ألا ترى لو ذكرت لك قوله في مسألة فأردت أن تسأل عن قائلها، أيجوز في كلام العرب أن تقول: «ما قائل هذا القول؟» هذا ما يتقلده من يفهم كلام العرب. وقوله: ﴿وَمَا يَبْعُ﴾. يصح أن يكون «مَا» استفهاماً بمعنى التقرير وتوقيف نظر المخاطب، ويعمل «يَبْعُونَ» في قوله: ﴿شُرَكَاءُ﴾. ويصح أن تكون نافية ويعمل «يَبْعُ» في «شُرَكَاءُ» على معنى أنهم لا يتبعون شركاء حقاً، ويكون مفعول «يَبْعُونَ» محذوفاً، وفي هذا الوجه عندي تكلف. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «تَذْعُونَ» بالتاء، وهي قراءة غير متجهة، وقوله: ﴿إِنَّ﴾ نافية، و«يَحْزَنُونَ» معناه: يحسدون ويخمنون، لا يقولون بقباس ولا نظر. وقرأت فرقة: ﴿وَلَا يُحْزَنُكَ﴾ من أحزن، وقرأت فرقة: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ من حزن.

﴿٦٧﴾ - ﴿٦٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما نصَّ على عظمة الله تبارك وتعالى في الآية المتقدمة؛ عقب ذلك في هذه بالتنبيه على أفعاله لتبين العظمة المحكوم بها قبل. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنَّا﴾ دال على أن النهار للحركة والتصرف، وكذلك هو في

النبي ﷺ، وقوله: ﴿هُوَ
الَّذِي﴾ صفة على
الإطلاق، أي: لا يفتقر
إلى شيء بجهة من
الجهات، والولد جزء مما
هو غني عنه، والحق هو
قول الله تبارك وتعالى:
﴿أَنْتُمْ أَفْقَرَاءٌ إِلَى اللَّهِ﴾،
وقوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بالملك
والإحاطة والخلق،
﴿وَلَنْ نَافِيَةٍ، وَالسُّلْطَانُ:
الحجة، وكذلك معناه
حيث تكرر من القرآن، ثم
وقفهم مرتباً بقوله:
﴿أَنْتَوْنِ عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَمْلِكُون﴾.

الوجود، وذلك أن حركة الليل
متعذرة بفقد الضوء. وقوله:
﴿وَالنَّهَارُ مُبْصِرٌ﴾ مجاز، لأن النهار
لا يبصر، ولكنه ظرف للإبصار،
وهذا موجود في كلام العرب، إذ
المقصود من ذلك مفهوم، فمن ذلك
قول ذي الرمة:

لَقَدْ لُمْتُنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السَّرَى
وَنَسِيتَ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِثَانِمٍ
وليس هذا من باب النسب كعيشة
راضية ونحوها، وإنما ذلك مثل قول
الشاعر:

أَمَا النَّهَارُ فَنِي قَيْنِدٍ وَسِلْسِلَةٍ
وَاللَّيْلُ فِي بَطْنٍ مَنُحَوِّتٍ مِنَ السَّاجِ
فجعل الليل والنهار بهاتين
الحالتين، وليس يريد إلا أنه هو
فيهما كذلك، وهذا البيت لمسجون
كان ببيت في خشبة السجن، وعلى
أن هذا البيت قد ينشد: «أما النهار»
بالنصب، وفي هذه الألفاظ إيجاز
وإحاطة على ذهن السامع لأن العبرة
هي في أن الليل مظلم يسكن فيه،
والنهار مبصر يُتصرف فيه. فذكر
طرف من هذا والطرف الآخر من
الجهة الثانية، ودل المذكوران على
المشروكين، وهذا كما في قوله
تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ
الَّذِي يَتَّقُ يَمَّا لَا يَنْتَعِجُ﴾. وقوله:
﴿يَسْتَمُوتُونَ﴾ يريد: ويَمُوتُونَ. والضمير
في ﴿قَالُوا﴾ للكفار العرب، وذلك
قول طائفة منهم: «الملائكة
بنات الله»، والآية بعد تَعَمُّ كل من
قال نحو هذا القول كالنصارى
ومن يمكن أن يعتقد ذلك من الكفرة
و﴿سُبْحَنَكَ﴾ مصدر معناه: تنزيهاً
له وبراءة من ذلك، فسره بهذا

عنكم لتوكلي على الله تعالى،
فاعملوا ما قدرتم عليه.

وقرأ السبعة، وجمهور الناس:
الحسن، وابن أبي إسحق، وعيسى:
﴿فَأَجْمَعُوا﴾ من أجمع الرجل على
الشيء إذا عزم عليه، ومنه قول
الشاعر:

هَلْ أَغْدُوَنَ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعٌ؟
ومنه قول الآخر:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ قَلَمًا
أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ
ومنه الحديث: «ما لم يُجْمَعْ
مُكْتَبًا، ومنه قول أبي ذؤيب:

ذَكَرَ الزُّرُودَ بِهَا فَأَجْمَعَ أَمْرَهُ
شَوْقًا وَأَقْبَلَ حَيْثُ يَتَتَّبِعُ
وقرأ نافع - فيما روى عنه الأصمعي
- وهي قراءة الأعرج، وابن أبي
رجاء، وعاصم الجحدري،

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ الآية. هذا توعد
لهم بأنهم لا يظفرون ببغية ولا ييقون
في نعمة، إذ هذه حال من يصير إلى
العذاب وإن نَعِمَ في دنياه يسيراً،
وقوله: ﴿مَتَّعٌ﴾ مرفوع على خبر
ابتداء، أي: ذلك متاع، أو هو
متاع، أو على الابتداء بتقدير: لهم
متاع. وقوله: ﴿ثُمَّ لَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾
إلى آخر الآية توعد بحق.

٦١ تفسير قوله عز وجل:
تقدم في (الأعراف) الكلام على
لفظة نوح، والمَقَام: وقوف الرجل
لكلام أو لخطبة أو نحوه، والمَقَام
بضم الميم: إقامته ساكناً في موضع
أو بلد، ولم يُقرأ هنا بضم الميم،
وتذكيره: وعظه وزجره، والمعنى:
يا قوم، إن كنتم تستضعفون حالي
ودعائي لكم إلى الله فياني لا أبالي

والزهري، والأعمش: ﴿فَاجْتَمِعُوا﴾ بفتح الميم من جَمَعَ إذا ضَمَّ شيئاً إلى شيء. و﴿أَمْرَكُمْ﴾ يريد به: قدرتكم وحياتكم، ويؤيد هذه القراءة قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾، وكل هؤلاء نصب (الشركاء)، ونُصِبَ قوله: ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾ يحتمل أن يعطف على قوله: ﴿أَمْرَكُمْ﴾، وهذا على قراءة ﴿فَاجْتَمِعُوا﴾ بالوصل، وأما من قرأ: ﴿فَاجْتَمِعُوا﴾ بقطع الألف فنصب «الشركاء» بفعل مضمر كأنه قال: «وادعوا شركاءكم»، فهو من باب قول الشاعر:

شُرَابُ أَلْبَانٍ وَتَنْمِرٍ وَأَقِطْ

ومن قول الآخر:

وَرَأَيْتُ زَوْجَكَ فِي الْوَعَى
مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَزُنْحاً

ومن قول الآخر:

عَلَفْتُهَا يَبْنَأَ وَمَاءً بَارِداً
حَتَّى شَتَّتْ هَمَالَةً عَيْنَاهَا
وفي مصحف أبي بن كعب:
﴿فَاجْتَمِعُوا أَمْرَكُمْ وَادْعُوا
شُرَكَاءَكُمْ﴾، قال أبو علي: وقد ينتصب «الشركاء» بواو مفع، كما قالوا: «جاء البريد والطالسة». وقرأ أبو عبد الرحمن، والحسن، وابن أبي إسحق، وعيسى، وسلام، ويعقوب، وأبو عمرو فيما روي عنه: ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ بالرفع عطفاً على الضمير في: ﴿اجْتَمِعُوا﴾، وعطف على الضمير قبل تأكيده لأن الكاف والميم في ﴿أَمْرَكُمْ﴾ ناب مناب «أنتم» المؤكد للضمير، ولطول الكلام أيضاً، وهذه العبارة أحسن

من أن يطول الكلام بغير ضمير، ويصح أن يرتفع بالابتداء والخبر مُقَدَّر، تقديره: «وشركاءكم فليجمعوا»، وقرأ فرقة: ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ بالخفض على العطف على الضمير في قوله تعالى: ﴿أَمْرَكُمْ﴾، والتقدير: «وأمر شركائكم» فهو كقول الشاعر:

أَكُلْ أَمْرِي تَخْسِبِينَ امْرَأاً

ونار تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَاراً؟
أي: وكل نار، والمراد بالشركاء في هذه الآية الأنداد من دون الله، فأضافهم إليه إذ يجعلونهم شركاء بزعهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَتْرُكُكُمْ عَلَيْهِمْ غَنَّةٌ﴾ أي ملتبساً مُشْكِلاً. ومنه قوله ﷺ في الهلال: «فَلِنْ هُمْ عليكم»، ومنه قول الرازي:

بَلْ لَوْ شِئْتَ النَّاسُ إِذْ تُكْمُوا

بِئْمَةٍ لَوْلَمْ تَفَرِّجْ غُمُّوا
وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْكُمْ﴾ معناه: أنفذوا قضاءكم نحوي، وقرأ السري بن يثعم: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا﴾ بالفاء وقطع الألف، ومعناه: أسرعوا، وهو مأخوذ من الأرض الفضاء، أي: اسلكوا إليّ بكيدكم واخرجوا معي وبني إلى سعة، وقوله: ﴿وَلَا تُظْهِرُوا﴾ أي: ولا تؤخروا، والنظرة: التأخير.

﴿٧٢﴾ - ﴿٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فإن لم تقبلوا على دعوتي وكفرتم بها وتوليت عنها، والتولي أصله بالبدن، ويستعمل في الإعراض عن المعاني، يقول: فأنا لم أسألكم أجراً على ذلك ولا مالا فيقع منكم قطع لي وتقصير بإرادتي

وإنما أجري على الذي بعثني. وقرأ نافع، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿أَجْرِي﴾ بسكون الياء، وقرأ: ﴿أَجْرِي﴾ بفتح الياء الأعرج، وطلحة بن مصرف، وعيسى، وأبو عمرو. وقال أبو حاتم: هما لغتان، والقراءة بالإسكان في كل القرآن. ثم أخبرهم بأن الله أمر بالإسلام والدين الحنيف الذي هو توحيد الله والعمل بطاعته والإعداد للقائه.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الآية. إخبار من الله عز وجل عن حال قوم نوح المكذبين له، وفي ضمن ذلك الإخبار توعد للكفار بمحمد ﷺ وضرب المثال لهم، أي: أنتم بحال هؤلاء من التكذيب فستكونون بحالهم من النعمة والتعذيب، و﴿الْفُلُكُ﴾: السفينة، والمفسرون وأهل الآثار مجمعون على أن سفينة نوح كانت واحدة، والفلك لفظ الواحد منه ولفظ الجمع مستو، وليس به، وقد مضى شرح هذا في (الأعراف)، و﴿عَلَيْكَ﴾ جمع خليفة، وقوله: ﴿فَانظُرْ﴾ مخاطبة للنبي ﷺ يشاركه في معناها جميع الخلق، وفي هذه الآية أنه أغرق جميع من كذب بآيات الله التي جاء بها نوح عليه السلام، وهي مقتضية أيضاً أنه أئذهم فكانوا منذرين، فلو كانوا جميع أهل الأرض كما قال بعض الناس لاستوى نوح ومحمد عليهما الصلاة والسلام في البعث إلى أهل الأرض، ويرد ذلك قول النبي ﷺ: «أَعْطَيْتُ خُمْساً لِمَ يُطَهَّنُ أَحَدٌ قَبْلِي» الحديث، وترجع بهذا النظر أن بعثة نوح عليه السلام

والغرق إنما كان في أهل صقع لا جميع الأرض.

(٧٤) - (٧٥) تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله: ﴿وَمِنْ بَقِيَّتِهِ﴾ عائذ على نوح عليه السلام، والضمير في ﴿قَوْمَهُمْ﴾ عائذ على الرسل، ومعنى هذه الآيات كلها ضرب المثل لحاضري محمد ﷺ، أي: كما حل بهؤلاء يجل بكم، والبيّنات: المعجزات والبراهين الواضحة، والضمير في قوله: ﴿كَانُوا﴾ وفي ﴿يُؤْتُوا﴾ عائذ على قوم الرسل، والضمير في ﴿كَذَّبُوا﴾ عائذ على قوم نوح عليه السلام، وهذا قول بعض المتأولين، وقال بعضهم: بل يعود الثلاثة على قوم الرسل على معنى أنهم بادروا رسلهم بالكذب كلما جاء رسول، ثم لجأوا في الكفر وتمادوا فلم يكونوا ليؤمنوا بما سبق به تكذيبهم، وقال يحيى بن سلام: ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ معناه: من قبل العذاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول بُعد، ويحتمل اللفظ عندي معنى آخر وهو أن تكون (ما) مصدرية، والمعنى: فكذبوا رسلهم فكان عقابهم من الله أن لم يكونوا ليؤمنوا بتكذيبهم من قبل، أي من سببه ومن جرائه. ويؤيد هذا التأويل قوله: ﴿كَذَلِكَ نَطِّعُ﴾. وقال بعض العلماء: عقوبة التكذيب الطنّع على القلوب. وقرأ جمهور الناس: ﴿نَطِّعُ﴾ بالنون، وقرأ العباس بن الفضل: ﴿يَطِّعُ﴾ بالياء، وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: هذا فعلنا بهؤلاء، ثم ابتدأ: ﴿كَذَلِكَ نَطِّعُ﴾ أي كفعلنا

هذا. و﴿الْمُتَعَذِّبِينَ﴾ هم الذين تجاوزوا طورهم، واجترحوا ما لا يجوز لهم، وهي ها هنا في الكفر.

والضمير في ﴿بَقِيَّتِهِمْ﴾ عائذ على الرسل، والضمير في ﴿وَمَلَائِهِ﴾ عائذ على فرعون، والملا: الجماعة من قبيلة وأهل مدينة، ثم يقال للأشراف والأعيان من القبيلة أو البلد ملا، أي: هم يقومون مقام الملا، وعلى هذا الحد هي في قول رسول الله ﷺ في قريش بدر: «أولئك الملا»، وكذلك هي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتَّبِعُونَ بِكُ﴾، وأما في هذه الآية فهي عامة لأن بعثة موسى وهارون كانت إلى فرعون وجميع قومه من شريف ومشروف، وقد مضى في ﴿الَّتِي﴾ ذكرهما وما بُعثا إليهم فيه. والآيات: البراهين والمعجزات وما في معناها، وقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: تعظموا وكفروا بها، و﴿تَجَرَّبِينَ﴾ معناه: يرتكبون ما لم يُبَحَّ الله ويجسرون من ذلك على الخطر الصعب.

(٧٦) - (٧٧) تفسير قوله عز وجل: يريد بالحق آيتي العصا واليد، ويدل على ذلك قولهم عندهما: «هذا سحر»، ولم يقولوا ذلك إلا عندهما، ولم يتعاطوا إلا مقاومة العصا فهي معجزة موسى عليه السلام التي وقع فيها عجز المعارض. وقرأ جمهور الناس: ﴿لَيْسَ شَيْئٌ﴾، وقرأ سعيد بن جبير، والأعمش: ﴿لَسَاجِرٌ مُبِينٌ﴾. ثم اختلف المتأولون في قوله: ﴿أَسْحَرُ هَذَا﴾ فقالت فرقة: هو حكاية من موسى عنهم على معنى أن

قولهم كان: «أَسْحَرُ هَذَا»؟ ثم اختلف في معنى قول قوم فرعون: «أَسْحَرُ هَذَا»؟ فقال بعضهم: قالها منهم كل مستفهم جاهل بالأمر فهو يسأل عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا التأويل يضعفه ما ذكر الله قبل عنهم من أنهم صمموا على أنه سحر بقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْئٌ﴾. وقال بعضهم: بل قالوا ذلك على معنى التعظيم للسحر الذي رأوه بزعمهم، كما تقول لفرس تراه يجيد الجري: «أفرس هذا؟» على معنى التعجب منه والاستغراب وأنت قد علمت أنه فرس. وقالت فرقة غير هاتين: ليس ذلك حكاية من موسى عنهم، بل القول الذي حكاه عنهم مقدر تقديره: أنقولون للحق لما جاءكم سحر؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أو نحو هذا من التقدير، ثم ابتدأ يوقفهم بقوله: «أَسْحَرُ هَذَا»؟ على جهة التوبيخ، ثم أخبرهم عن الله تعالى أن السّاحرين لا يفلحون ولا يظفرون ببغية، ومثل هذا التقدير المحذوف على هذا التأويل موجود في كلام العرب، ومنه قول ذي الرمة:

فَلَمَّا لَيْسَ اللَّيْلُ أَوْ حِينَ نَصَبْتُ
لَهُ مِنْ خَذَا أَذَانَهَا وَهُوَ جَانَحُ
يريد: أو حين قاربين ذلك، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَتُؤْفَكُمُ﴾، المعنى: بعثناهم لیسؤوا، ومثل هذا كثير شائع.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ الآية.

وهي بمعنى الذي وصلتها قوله: ﴿جَنَّتْ بِرٍ﴾، والعائد: الضمير في ﴿بِرٍ﴾، وخبرها ﴿الْبَحْرُ﴾، ويؤيد هذه القراءة والتأويل أن في مصحف ابن مسعود: ﴿مَا جَنَّتْ بِهِ سَحْرٌ﴾، وكذلك قرأها الأعمش، وهي قراءة أبي بن كعب: ﴿مَا أَتَيْتُمْ بِهِ سَحْرٌ﴾، والتعريف هنا في ﴿الْبَحْرُ﴾ أرتب لأنه تقدم مذكراً في قولهم: «إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِسَحْرٍ» فجاء هنا بلام العهد. كما يقال في أول الرسالة: «سلام عليك»، وفي آخرها: «والسلام عليك»، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ استفهاماً في موضع رفع بالابتداء، و﴿جَنَّتْ بِرٍ﴾ الخبر، و﴿الْبَحْرُ﴾ خبر ابتداء مضمر تقديره: «هو السحر إن الله سيبيطله»، ووجه استفهامه هذا هو التقرير والتوبيخ. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ في موضع نصب على معنى: «أَيُّ شَيْءٍ جَنَّتْ بِهِ»، و﴿الْبَحْرُ﴾ مرفوع على خبر الابتداء، وتقدير الكلام: «أَيُّ شَيْءٍ جَنَّتْ بِهِ هو السحر إن الله سيبيطله». وأما من قرأ بألف الاستفهام والمد قبل ﴿الْبَحْرُ﴾ فـ ﴿مَا﴾ استفهام رفع بالابتداء، و﴿جَنَّتْ بِرٍ﴾ الخبر، وهذا على جهة التقرير، وقوله: ﴿الْبَحْرُ﴾ استفهام أيضاً كذلك، وهو بدل من الاستفهام الأول، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ في موضع نصب بمضمر تفسيره في قوله: ﴿جَنَّتْ بِرٍ﴾، وتقديره: «أَيُّ شَيْءٍ جَنَّتْ بِهِ السحر»، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيَبِطِلُهُ﴾ إيجاب عن عِدَّةٍ من الله تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ﴾

المتأولين، لأنه أعظم تكبر الدنيا، ومنه قول الشاعر:

سُودِدَا غَيْرَ فَاجِسٍ لَا يُدَا
نِيَهُ تَجْبَارُهُ وَلَا كِبْرِيَا
وقوله: ﴿يُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدقين.

٧٩ - ٨٢ تفسير قوله عز وجل:

يخبر أن فرعون قال لخدمته ومتصرفه: اتنوني بكل ساحر، هذه قراءة جمهور الناس، وقرأ طلحة بن مصرف، ويحيى بن وثاب، وعيسى: ﴿بِكُلِّ سَحَارٍ﴾ على المبالغة، قال أبو حاتم: لسنا نقرأ:

﴿سَحَارٍ﴾ إلا في سورة الشعراء، فروي أنهم أتوه بسحرة الفرما وغيرها من بلاد مصر حسبما قد ذكر قبل في غير هذه الآية، فلما ورد السحرة باستعدادهم للمعارضة خيروا موسى كما ذكر في غير هذه الآية، فقال لهم عن أمر الله ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُثْقَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ الآية. المعنى: فلما ألقوا حبالهم وعصيهم وخيلوا بها وظنوا أنهم قد ظهروا قال لهم موسى هذه المقالة. وقرأ السبعة سوى أبي عمرو. ﴿بِرٍ الْبَحْرُ﴾ وهي قراءة جمهور الناس، وقرأ أبو عمرو، ومجاهد، وأصحابه، وابن القعقاع: ﴿بِهِ السَّحْرُ﴾ بألف استفهام قبله ممدودة قبل (السحر)، فأما من قرأ: ﴿الْبَحْرُ﴾ بغير ألف استفهام فـ ﴿مَا﴾ في موضع رفع على الابتداء،

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا السَّحَرَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُثْقَرُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبِطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا أَمِنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَكَاِلٌ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَأْمُومِينَ بِاللَّهِ فَقَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٤﴾ فَتَوَكَّلُوا عَلَيَّ إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٥﴾ فَقَالَ أَعْلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَوَكَّلْ عَلَى الْقَوْمِ لَكُمَا بِصِرَتُنَا وَأَجْعَلُوا يُوتُوكُم فِتْنَةً وَأُفْسِدُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٩﴾

المعنى: قال قوم فرعون لموسى: أجتنا لتصرفنا وتلونا وتردنا عن دين آبائنا؟ يقال: «لفت الرجل عن الآخر» إذا لمواه، ومنه قولهم: التفت، فإنه افتعل من لفت عنقه، ومنه قول رؤبة:

لَفْتًا وَتَهْزِيعًا سِوَا اللَّفْتِ

وقرأ السبعة سوى أبي عمرو - فإنه اختلف عنه - ﴿وَيَكُونُ﴾ بالياء من فوق، وهي قراءة جمهور الناس، وقرأ الحسن بن أبي الحسن - فيما زعم خارجة وإسماعيل - ﴿وَيَكُونُ﴾ بالياء من تحت، ورويت عن أبي عمرو، وعن عاصم، وهي قراءة ابن مسعود. و﴿الْكِبْرِيَاءَ﴾ مصدر مبالغ من الكبر، والمراد به - في هذا الموضع - الملك، وكذلك قال فيه مجاهد، والضحاك، وأكثر

الآية. يحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام، ويحتمل أن يكون من إخبار الله عز وجل، وكون ذلك كله من كلام موسى عليه السلام أقرب، وهو الذي ذكره الطبري، وأما قوله: ﴿يَكْفُرُ بِهِ﴾ فمعناه: بكلماته السابقة الأزلية في الوعد بذلك، قال ابن سلام: ﴿يَكْفُرُ بِهِ﴾: بقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾، ومعنى ﴿لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾: وإن كرهه المجرمون. والمجرم: المجرم. الراكب للخطر.

٨٣ - ٨٤ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فما صدق موسى، ولقطة ﴿يَكْفُرُ بِهِ﴾ تتمدى بالباء، وتتمدى باللام وفي ضمن المعنى الباء، واختلف المتأولون في عود الضمير الذي في ﴿فَرِيضَةٍ﴾ فقالت فرقة: هو عائد على موسى عليه السلام، وقالت فرقة: هو عائد على فرعون، فمن قال إن العود على موسى عليه السلام قال: معنى الآية وصف حال موسى عليه السلام في أول مبعثه أنه لم يؤمن به إلا فتيان وشباب أكثرهم أولوا آباء كانوا تحت خوف من فرعون ومن ملا بني إسرائيل، فالضمير في «الملا» عائد على الذرية، وتكون الفاء - على هذا التأويل - عاطفة جملة على جملة لا مرتبة. وقال بعض القائلين بعود الضمير على موسى عليه السلام: إن معنى الآية أن قوماً أدركهم موسى عليه السلام ولم يؤمنوا به، وإنما آمن ذرياتهم بعد هلاكهم لطول الزمان، قاله مجاهد، والأعمش، وهذا قول غير واضح،

وإذا آمن قوم بعد موت آبائهم فلا معنى لتخصيصهم باسم الذرية، وأيضاً فما روي من أخبار بني إسرائيل لا يعطي هذا، وهيئة قوله: ﴿فَكَاذِبًا﴾ تعطي تقليل المؤمنين به، لأنه نفى الإيمان ثم أوجبه للبعض، ولو كان الأكثر مؤمناً لأوجب الإيمان أولاً ثم نفاه عن الأقل، وعلى هذا الوجه يخرج قول ابن عباس رضي الله عنهما في الذرية: «إنه القليل»، لا أنه أراد أن لفظة الذرية هي بمعنى القليل كما ظن مكي وغيره. وقالت فرقة: إنما سناهم ذرية لأن أمهاتهم كانت من بني إسرائيل وآبائهم من القبط، فكان يقال لهم: الذرية كما قيل لفرس اليمن: الأبناء، وهم الفرس المتقلون من هرمز بسعاية سيف بن ذي يزن، والأمر بكماله في السير. وقال السدي: كانوا سبعين أهل بيت من قوم فرعون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومما يضعف عود الضمير على موسى عليه السلام أن المعروف من أخبار بني إسرائيل أنهم كانوا قوماً قد تقدمت فيهم النبوات، وكانوا في مدة فرعون قد نالهم ذل مفروط وقد رجوا كشفه على يدي مولود يخرج فيهم يكون نبياً، فلما جاءهم موسى عليه السلام أصفقوا عليه واتبعوه، ولم يحفظ قط أن طائفة من بني إسرائيل كفرت به، فكيف تعطي هذه الآية أن الأقل منهم كان الذي آمن؟ فالذي يترجح - بحسب هذا - أن الضمير عائد على فرعون، ويؤيد ذلك أيضاً ما تقدم من محاوراة موسى عليه

السلام ورذه عليهم وتوبيخهم على قولهم: «هذا سحر»، فذكر الله ذلك عنهم ثم قال: فما آمن لموسى إلا ذرية من قوم فرعون الذين هذه أقوالهم، وروي في ذلك أنه آمنت زوجة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وشباب من قومه - قاله ابن عباس رضي الله عنهما - والسحرة أيضاً فإنهم معدودون في قوم فرعون، وتكون القصة - على هذا التأويل - بعد ظهور الآية والتعجيز بالمعصا، وتكون الفاء مرتبة للمعاني التي عطف.

ولا اعتقاد الفراء وغيره عود الضمير على موسى عليه السلام تخبطوا في عود الضمير في ﴿وَمَلَأْنَاهُمْ﴾ فقال بعضهم: ذكر فرعون - وهو الملك - يتضمن الجماعة والجنود، كما تقول: «جاء الخليفة، وسافر الملك» وأنت تريد جيوشه معه، وقال الفراء: المعنى: «على خوف من آل فرعون وملئهم»، وهو من باب: ﴿وَسَلَّى الْقَرْيَةَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التنظير غير جيد لأن إسقاط المضاف في قوله: ﴿وَسَلَّى الْقَرْيَةَ﴾ هو سائق بسبب ما يعقل من أن القرية لا تسأل، فففي الظاهر دليل على ما أضمر، وأما هنا فالخوف من فرعون متمكن لا يحتاج معه إلى إضمار، أما إنه ربما احتج بأن الضمير المجموع في ﴿وَمَلَأْنَاهُمْ﴾ يقتضي ذلك، والخوف إنما يكون من الأفعال والأحداث التي للجنة، ولكن لكثرة استعماله ولقصد الإيجاز أضيف إلى الأشخاص.

تُسَلِّينَ ﴿٨٧﴾ يريد: أهل طاعة منضافة إلى الإيمان المشروط، فذكر الإسلام فيه زيادة معنى. ثم ذكر أنه أجاب بنو إسرائيل بنيت التوكل على الله والنطق بذلك، ثم دعوا في ألا يجعلهم فتنه للظلمة، والمعنى: لا تنزل بنا بلاء بأيديهم أو بغير ذلك مدة مجاورتنا لهم فيفتنون ويعتقدون أن إهلاكنا إنما هو بقصد منك لسوء ديننا وصلاح دينهم، وأنهم أهل الحق. قاله مجاهد وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا الدعاء - على هذا التأويل - يتضمن دفع فصلين، أحدهما: القتل والبلاء الذي توقعه المؤمنون، والآخر: ظهور الشرك باعتقاد أهله أنهم أهل الحق، وفي ذلك فساد الأرض، ونحو هذا المعنى قول النبي ﷺ: «بئس الميت أبو أمانة لليهود والمشركين، يقولون: لو كان نبيا لم يمت صاحبه»، ويحتمل اللفظ من التأويل، وقد قالته فرقة: إن المعنى: لا تفتنهم وتبطلهم بقتلنا فتعذبهم على ذلك في الآخرة، وفي هذا التأويل قلق بين.

﴿٨٧﴾ - ﴿٨٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

روي أن فرعون أخاف بني إسرائيل وهدم لهم مواضع كانوا اتخذوها للصلاة ونحو هذا، فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتخذوا وتخيرا لبني إسرائيل بيوتا بمصر، قال مجاهد: مصر في هذه الآية: الإسكندرية، ومصر ما بين البحر إلى أسوان، والإسكندرية من أرض مصر، و﴿بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ معناه كما قلنا: تخيرا واتخذوا، وهي لفظة مستعملة في

وتوكل، فقد جعله متوكلا مع التقييد، والنسبي ﷺ رأس المتوكلين، وقد تسبب عمره كله، وكذلك السلف كله، فإن شذ متوكل فترك التسبب جملة فهي رتبة رفيعة ما لم يسرف بها إلى حد قتل نفسه وإهلاكها، كمن يدخل غارا خفيا يتوكل فيه فهذا أو نحوه مكروه عند جماعة من العلماء، وما روي من إقدام عامر بن قيس على الأسد ونحو ذلك كله ضعيف، وللصحيح منه قرائن

تسهله، وللمسلمين أجمعين قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾، ولهم قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾، وقول النبي ﷺ في مدح السبعين ألفا من أمته: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ليس فيه أنهم يتركون التسبب جملة واحدة، ولا حفظ عن عكاشة أنه ترك التسبب، بل كان يغزو ويأخذ سهامه. وأعني بذلك ترك التسبب في الغذاء، وأما ترك التسبب في الطب فسهل وكثير من الناس جبل عليه دون نية وحسبة، فكيف بمن يحتسب؟ وقال لهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ﴾ مع علمه بإيمانهم على جهة إقامة الحجة وتنبيه الأنفس وإثارة الأنفة، كما تقول: «إن كنت رجلا فقاتل» تخاطب بذلك رجلا تريد إقامة نفسه. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ مَا فَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَبْغُوا سَكِينَتِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٧﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْهُمْ فَرَعَوْنَ وَجُنُودُهُ بَعِيًا وَعَدُوا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِوَيْهَاتُ إِلَهِ الْوَثَنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ ﴿٨٨﴾ ءَالْفَنِّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٩﴾ فَأَلْوَمَ نَسِيكَ بِذَلِكَ لِكَوْنِكَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَابَهُ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَفْلُونَ ﴿٩٠﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ يَمْأُا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩١﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍ مِمَّا نَزَّلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِّ الْوَيْلَ يَفْرَهُنَّ الْكَتَبَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٢﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَدَّبِ اللَّهُ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٤﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٥﴾

٢١٩

وقوله: ﴿إِنْ يَفْتَنَهُمْ﴾ بدل من ﴿فَرَعَوْنَ﴾ وهو بدل الاشتمال، فـ ﴿إِنْ﴾ في موضع خفض، ويصح أن تكون في موضع نصب على المفعول من أجله، وقرأ الحسن، والجراح: ﴿إِنْ يَفْتَنَهُمْ﴾ بضم الياء. ثم أخبر عن فرعون بالعلو في الأرض والإسراف في الأفعال والقتل والدعاوي ليتبين عذر الخائفين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ بَقِيَّتِي إِلَى الْكَافِرِينَ﴾. ابتداء حكاية قول موسى عليه السلام لجماعة بني إسرائيل المؤمنين منهم مؤنسا لهم ونادبا إلى التوكل على الله الذي بيده النصر، ومسألة التوكل متشعبة للناس فيها خوصات، والذي أقول: إن التوكل الذي أمرنا به هو مقترن بتسبب جميل على مقتضى الشرع، وهو الذي في قوله ﷺ: ﴿قِيلَهَا

الأمّاكن وما يشبه بها، ومن ذلك قول الشاعر:

لَهَا أَمْرُهَا حَتَّى إِذَا مَا تَبَوَّأَتْ
لَأَحْفَافِهَا مَرْغَى تَبَوَّأَ مَضْجَعاً
وهذا البيت للراعي، وبه سُمي
الراعي، ومنه قول امرئ القيس:

يَتَبَوَّؤْنَ مَقَاعِدَ لِقَتَالِكُمْ
كَلِيْوَتْ غَابَ لَيْلُهُنَّ زَيْرُ

وقرأ الناس: ﴿تَبَوَّأَ﴾ بهمزة على تقدير (...)، وقرأ حفص في رواية هبيرة: ﴿تَبَوَّأَ﴾، وهذا تسهيل ليس بقياسي، ولو جرى على القياس لكان بين الهمزة والألف، وقوله:

﴿يَتَبَوَّأْنَ﴾ معناه: مساجد، قاله ابن عباس، والربيع، والضحاك،

والنخعي، وغيرهم، قالوا: خافوا فأمرؤا بالصلاة في بيوتهم، وقيل:

يقابل بعضها بعضاً، قاله سعيد بن جببر، والأول أصوب. وقيل:

معناه: موجهة إلى القبلة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومن هذا

حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «خير بيوتكم ما استقبل به القبلة»، وقوله:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ خطاب لبني إسرائيل، وهذا قبل نزول التوراة

لأنها لم تنزل إلا بعد إجازة البحر، وقوله:

﴿وَنَبِّئِ الرُّسُلَ﴾ أمر لموسى عليه السلام. وقال مكي، والطبري: هو أمر لمحمد ﷺ، وهذا غير متمكن.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ الآية. غضب من موسى عليه السلام على القبط ودعاء عليهم، فقدم

للدعاء تقرير نعم الله عليهم وكفرهم بها. و﴿أَتَيْتَ﴾ معناه: أعطيت وملكت، وتكرر قوله: ﴿رَبَّنَا﴾

استغاثة، كما يقول الداعي بالله. وقوله: ﴿يُحْسِلُوا﴾ يحتمل أن يكون

لام كي على بابها، على معنى: آتيتهم الأموال إملاء لهم واستدراجاً، فكان الإيتاء كي يضلوا، ويحتمل أن

تكون لام الصيرورة والعاقبة، كما قال: ﴿فَالْفَقَطَةُ مَالٌ فِرْعَوْنُ لِيَكُونَ لَهُمْ عُدُوًّا وَحَرًّا﴾، والمعنى: آتيتهم

ذلك فصار أمرهم إلى كذا، وزوي عن الحسن أنه قال: هو دعاء، ويحتمل أن يكون المعنى على جهة

الاستفهام، أي: ربنا ليضلوا ففعلت ذلك؟ وفي هذا تقرير الشعة عليهم.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والحسن، والأعرج،

وشيبة، وأبو جعفر، ومجاهد، وأبو رجاء، وأهل مكة: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بفتح

الياء على معنى: لِيُضِلُّوا في أنفسهم. وقرأ عاصم، وحمزة،

والكسائي، والأعمش، وقتادة، وعيسى، الحسن، والأعرج -

بخلاف عنه -: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء، على معنى: لِيُضِلُّوا غيرهم،

وقرأ الشعبي: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بكسر الياء.

وقرأ الشعبي أيضاً، وغيره: ﴿اطْمَسْ﴾ بضم الميم، وقرأت

فرقة: ﴿اطْمَسْ﴾ بكسر الميم، وهما لغتان، يقال: طمس يطمس

ويطمس، قال أبو حاتم: وقراءة الناس بكسر الميم، والضم لغة

مشهورة، ومعناه: عَفَ وغَيَّرَ، وهو من طموس الأثر والعين وطمس

الوجوه، ومنه قول كعب بن زهير: مِنْ كُلِّ نَضَاجَةِ الذُّفْرِي إِذَا عَرِقَتْ

عَرَضَتْهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُولٌ

وروي أنهم حين دعا موسى عليه السلام بهذه الدعوة رجع سكرهم

حجارة، وزادهم ودنايرهم وحبوبهم من الأطعمة رجعت حجارة، قاله

محمد بن كعب القرظي، وقتادة، وابن زيد. وقال مجاهد وغيره:

معناه: أهلكها ودمرها، وروي أن الطمسة كانت من آيات موسى عليه

السلام التسع. وقوله: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بمعنى: اطبع واختم عليهم

بالكفر، قاله مجاهد والضحاك، ولما أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه

على رسول الله ﷺ بقتل أسرى بدر شبهه بموسى عليه السلام في دعائه

على قومه الذين بعث إليهم في هذه الآية، وينوح عليه السلام في قوله:

﴿لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾. وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ مذهب الأخفش

وغيره أن الفعل منصوب عطفاً على قوله: ﴿يُحْسِلُوا﴾، وقيل: هو

منصب على جواب الأمر، وقال الفراء والكسائي: هو مجزوم على

الدعاء، ومنه قول الشاعر:

فَلَا يَنْبَسِطُ مِنْ بَيْنَ عَيْنَيْكَ مَا أَنْزَوَى
وَلَا تَلْقُنِي إِلَّا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ

وجعل رؤية العذاب نهاية وغاية، وذلك ليعلمه من قبل الله تعالى أن

المؤمن عند رؤية العذاب لا ينفعه إيمانه في ذلك الوقت ولا يخرججه من كفره، ثم أجاب الله هذه الدعوة

في فرعون نفسه، قال ابن عباس: العذاب هنا: الفرق، وقرأ الناس: ﴿دَعَوْتُكُمْ﴾، وقرأ السُّدِّي،

والضحاك: ﴿دَعَوَاتُكُمْ﴾، وروي عن ابن جريج، ومحمد بن علي، والضحاك أن الدعوة لم تظهر إجابته

إلا بعد أربعين سنة، وحينئذ كان أمر الفرق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأعلمنا أن دعاءهما صادف مقدوراً، وهذا معنى إجابة الدعاء. وقيل لهما: ﴿وَلَا تُبْعَثَانِ سَبِيلَ الْآلِثِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي في أن تستعجلا قضائي فإن وعدي لا خلف له. وقوله: ﴿تَعَوَّضَكُمَا﴾ ولم يتقدم الدعاء إلا لموسى عليه السلام، وروي أن هارون كان يؤمن على دعاء موسى عليه السلام، قاله محمد بن كعب القرظي، فلذلك نسب الدعوة إليهما، وقيل: كنى عن الواحد بلفظ الثنية، كما قال: قِفْأَنْبُكِ...

ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأن الآية تتضمن بعد مخاطبتيهما من غير شيء، قال علي بن سليمان: قول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا﴾ دال على أنهما دعوا معاً، وقوله: ﴿فَأَسْتَيْبِكَا﴾ أي على ما أُمِرْتُمَا بِهِ من الدعاء إلى الله. وأمرا بالاستقامة وهما عليها للإدامة والتماذي.

وقرأ نافع والناس: ﴿تُبْعَانِ﴾ بتشديد التاء والنون على النهي، وقرأ ابن عامر، وابن ذكوان: ﴿تُبْعَانِ﴾ بتخفيف التاء وشذ النون، وقرأ ابن ذكوان أيضاً: ﴿تُبْعَانِ﴾ بتشديد التاء وتخفيف النون وكسرهما، وقرأت طائفة: ﴿تُبْعَانِ﴾ بتخفيفها وسكون النون، رواه الأخفش الدمشقي عن أصحابه عن

ابن عامر. فأما شذ النون فهي النون الثقيلة حذفت معها نون الثنية للجزم. كما تحذف معها الضمة في «تفعلُن» حيث بُني الفعل معها على الفتح، وإنما كسرت هذه النون الثقيلة بعد ألف الثنية. وأما تخفيفها فيصح أن تكون الثقيلة خففت، ويصح أن تكون نون الثنية ويكون الكلام خيراً معناه الأمر، أي: لا ينبغي أن تبعا، قال أبو علي: إن شئت جعلته حالاً من «فَأَسْتَيْبِكَا» كأنه قال: غير متبعين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والعطف يمانع في هذا فتأمله.

٩٢ - ٩١ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿وَجَوَزْنَا﴾ بشد الواو وطرح الألف، ويشبه عندي أن يكون ﴿وَجَوَزْنَا﴾ كتب في بعض المصاحف بغير ألف. وتقدم القول في صورة جوازهم البحر في البقرة والأعراف. وقرأ جمهور الناس: ﴿فَاتَّبَعْتُمُ﴾ لأنه يقال: تَبِعَ وَاتَّبَعَ بمعنى واحد، وقرأ قتادة، والحسن: ﴿فَاتَّبَعْتُمُ﴾ بشد التاء، قال أبو حاتم: القراءة «اتَّبَعَ» بقطع الألف لأنها تتضمن الإدراك، «واتَّبَعَ» بشد التاء هي طلب الأثر سواء أدرك أو لم يدرك.

وروي أن بني إسرائيل الذين جاوزوا البحر كانوا ستمائة ألف، وكان يعقوب قد استقر أولاً بمصر في نيف على السبعين ألفاً من ذريته فتناسلوا حتى بلغوا وقت موسى العدد المذكور، وروي أن فرعون كان في ثمانمائة ألف أدهم حاشا ما

بقي من ألوان الخيل، وروي أقل من هذه الأعداد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف، والذي تقتضيه ألفاظ القرآن أن بني إسرائيل كان لهم جمع كثير في نفسه قليل بالإضافة إلى قوم فرعون المتبعين.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكوفيون، وجماعة: ﴿وَعَدُوا﴾ على مثال: غزا غزواً، وقرأ الحسن: وقاتلة: ﴿وَعَدُوا﴾ على مثال: علا علواً. وقوله: ﴿أَدْرَكُهُ الْفَرْقُ﴾ أي في البحر، وروي في ذلك أن فرعون لما انتهى إلى البحر فوجده قد انفرق ومشى فيه بنو إسرائيل قال لقومه: إنما انفلق بأمري، وكان على فرس ذكر، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام على فرس أنثى وديق فدخل بها البحر، فولج فرس فرعون وراءه وحشت الجيوش خلفه، فلما رأى الانفراق يثبت له استمر، وبعث الله تعالى ميكائيل يسوق الناس حتى حصل جميعهم في البحر، فانطبق عليهم حينئذ، فلما عاين فرعون قال ما حكى عنه في هذه الآية.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنْدَ﴾ بفتح الألف، ويحتمل أن تكون في موضع نصب، ويحتمل أن تكون في موضع خفض على إسقاط الباء. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو: ﴿إِنَّهُ﴾ بكسر الألف، إما على إضمار الفعل، أي: «أمنت فقلت: إنه»، وإما على أن يتم الكلام في قوله: ﴿ءَامَنْتُ﴾ ثم يتبدى إيجاب: (إِنَّهُ)، وروي عن النبي ﷺ أن جبريل عليه

السلام قال: «ما أَيْغَضْتُ أَحَدًا قط بغضى لفرعون، ولقد سمعته يقول: «أَمْسَتْ» الآية، فأخذت من حال البحر فملائت فمه مخافة أن تلحقه رحمة الله»، وفي بعض الطرق «مخافة أن يقول لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فتلحقه رحمة الله».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فانظر إلى كلام فرعون ففيه مجهلة وتلعثم، ولا عذر لأحد في جهل هذا، وإنما العذر فيما لا سبيل إلى علمه، كقول علي رضي الله عنه: «أهللت بإهلال كإهلال النبي ﷺ والحال الطين»، كذا في الغريب المصنف وغيره، والأثر بهذا كثير مختلف اللفظ والمعنى واحد. وفعل جبريل عليه السلام هذا يشبه أن يكون لأنه اعتقد تجويزه المغفرة للثائب وإن عاين، ولم يكن عنده قبل إعلام من الله تبارك وتعالى أن التوبة بعد المعايعة غير نافعة.

وقوله تعالى: «وَأَلْقَيْنَا نَارَ الْآبَةِ»، قال أبو علي: اعلم أن لام المعرفة إذا دخلت على كلمة أولها الهمزة فخففت الهمزة فإن في تخفيفها وجهين، أحدهما: أن تحذف وتُلْقَى حركتها على اللام وتقر همزة الوصل فيه فيقال: «الْخَمَرُ»، وقد حكى ذلك سيبويه، وحكى أبو عثمان عن أبي الحسن أن ناساً يقولون: «الْخَمَرُ»، فيحذفون الهمزة التي للوصل، فمن ذلك قول الشاعر:

وَقَدْ كُنْتُ تُخْفِي حُبَّ سَمَرَاءَ حَقْبَةً
فَبُخَّ لَأَن مِثْهَا بِالَّذِي أَنْتَ بَائِخٌ
قرأ نافع في رواية ورش لم يختلف

عنه: «الْأَن» بمد الهمزة وفتح اللام، وقرأ الباقون بمد الهمزة وسكون اللام وهمز الثانية، وقرأت فرقة: «الْأَن» بقصر الهمزة وفتح اللام وتخفيف الثانية. وقرأ جمهور الناس: «الْأَن» بقصر الأولى وسكون اللام وهمز الثانية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقراءات التخفيف في الهمزة تترتب على ما قال أبو علي، فتأمله، فإن الأولى على لغة من يقول: «الْخَمَرُ»، وهذا على جهة التوبيخ له والإعلان بالنقمة منه، وهذا اللفظ يحتمل أن يكون مسموعاً لفرعون من قول مَلِكٍ مُوَصَّلٍ عن الله وكيف شاء الله، ويحتمل أن يكون معنى هذا الكلام معنى حاله وصورة خزيه، وهذه الآية نص في رد توبة الْمُعَايِن.

وقوله تعالى: «وَأَلْيَمَ تَنْجِيكَ» الآية. يُقَوَّى ما ذكرناه من أنها صورة الحال، لأن هذه الألفاظ إنما يظهر أنها قيلت بعد غرقه. وسبب هذه المقالة - على ما روي - أن بني إسرائيل بَعُدَ عندهم غرق فرعون وهلاكه لِعِظَمِهِ عندهم، وكذب بعضهم أن يكون فرعون يموت، فَنَجَّيْ على نجوة من الأرض حتى رآه جميعهم ميتاً كأنه ثور أحمر، وتحققوا غرقه، وقرأت فرقة: «وَأَلْيَمَ تَنْجِيكَ»، وقالت فرقة: معناه: من النجاة، أي من غمرات البحر والماء، وقال جماعة: معناه: نلقيك على نجوة من الأرض وهي ما ارتفع منها، ومنه قول أوس بن حجر: قَمَنْ يَغْفُورِي كَمَنْ يَنْجُورِي

والمُسْتَكْبِرُ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْوَاخٍ وقرأ يعقوب: «تَنْجِيكَ» بسكون التون وتخفيف الجيم، وقرأ أبي ابن كعب: «تَنْجِيكَ» بالحاء المشددة من التنحية، وهي قراءة محمد بن السميع اليماني، ويزيد البريدي، وقالت فرقة: معنى «يَدْنِيكَ»: بدرعك، وقالت فرقة: معناه: بشخصك، وقرأت فرقة: «يَدْنِيكَ» أي: بقولك: «أَمْسَتْ» إلى آخر الآية، ويشبه أن يكتب «يَدْنِيكَ» بغير ألف في بعض المصاحف، ومعنى الآية: إنا نجعلك آية مع ندائك الذي لا ينفع. وقرأت فرقة: «خَلَقْنَاكَ» أي: مَنْ أتى بعدك، وقرأت فرقة: «خَلَقْنَاكَ» والمعنى: يجعلك الله آية له في عباده.

ثم بيّن عز وجل العظة لعباده بقوله: «وَأَن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَنُفِئُونَّ»، وهذا خبر في ضمنه توعد.

١٦٦ - ١٦٧ تفسير قوله عز وجل: المعنى: لقد اخترنا لبني إسرائيل أحسن اختيار، وأحللناهم من الأماكن أحسن محل، و«سَبَّأً صَدَقَ» أي: يصدق فيه ظن قاصده وسأكيه وأهله، ويعني بهذه الآية إحلالهم بلاد الشام وبيت المقدس. قاله قتادة، وابن زيد، وقيل: بلاد مصر والشام، قاله الضحاك، والأول أصح بحسب ما حفظ من أنهم لن يعودوا إلى مصر، على أن في القرآن: «كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ»، يعني ما ترك القبط من جنات وعيون وغير ذلك، وقد يحتمل أن يكون «وَأَوْرَثْنَاهَا» معناه:

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ لَكُمْ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِيَابَ الْخَيْرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُكَفَّيْهُمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَلَوْ سَأَلْتَهُمْ لَكُم مِّنْ فِي الْأَرْضِ مَكْرَهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتُمْ تُكْفِرُونَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۚ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمَرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۚ قُلْ أَنْظَرُوا مَا فِي الْأَسْمَانِ ۚ وَالْأَرْضِ وَمَا تَحْتِهَا الْأَلْبَتُّ وَالْخُزْنُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ يَوْمَ الْاٰمْتِنَظِرِينَ ۚ تَرَىٰ سُبْحَىٰ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا سُبْحَ الْمُوْمِنِيْنَ ۚ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُوْمِنِيْنَ ۚ وَأَنْ أَقْدِرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ۚ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الطَّاغُوتِ ۚ

وفصل بعقاب من يعاقب ورحمة من يرحم .

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنَ الْآيَةِ﴾ قال بعض المتأولين - وروى ذلك عن الحسن - إن ﴿إِن﴾ نافية بمعنى (ما)، والجمهور على ﴿إِن﴾ شرطية. والصواب في معنى الآية أنها مخاطبة للنبي ﷺ، والمراد بها سواء من كل من يمكن أن يشك أو يعارض. وقال قوم: الكلام بمنزلة قولك: ﴿إِن كُنْتَ ابني فبرني﴾.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: وليس هذا المثال بجيد، وإنما مثال هذه قوله تعالى لعيسى: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي﴾، وروى أن رجلاً سأل ابن عباس رضي الله عنهما عما يحيك في الصدر من الشك فقال له: ما نجا من ذلك أحد ولا النبي ﷺ حتى أنزل عليه: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر الزهراوي أن هذه المقالة أنكرت أن يقولها ابن عباس، وبذلك أقول، لأن الخواطر لا ينجو منها أحد، وهي خلاف الشك الذي يحال فيه على الاستشفاء بالسؤال. و﴿الَّذِينَ يَفْقَهُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هم من أسلم من بني إسرائيل كعبد الله بن سلام، وروى أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «أَنَا لَا أَشْكُ وَلَا أَسْأَلُ».

وقرأ: ﴿قَسَلٌ﴾ دون همز الحسن، وأبو جعفر، وأهل المدينة، وأبو عمرو، وعيسى، وعاصم. وقرأ جمهور عظيم بالهمز. ثم جزم الله تبارك وتعالى الخبر بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾. واللام في ﴿لَقَدْ﴾ لام قسم، و﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: الشاكين الذين يحتاجون في اعتقادهم إلى المماراة فيها، وقوله: ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يريد به: من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في أمره إلا من بعد مجيئه، وهذا قول أهل التأويل قاطبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الذي يشبه أن ترجى إزالة الشك فيه من قبل أهل الكتاب. ويحتمل اللفظ أن يريد: بما أنزلنا جميع الشرع، ولكنه بعيد بالمعنى لأن ذلك لا يعرف ويحول الشك فيه إلا بأدلة العقل لا بالسمع من مؤمني بني إسرائيل. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ الآية، مما خوطب به النبي ﷺ والمراد سواء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولهذا فائدة ليست في مخاطبة الناس به، وذلك شدة التخويف، لأنه إذا كان رسول الله ﷺ يحذر من مثل هذا فغيره من الناس أولى يحذر ويتقي على نفسه.

﴿٩٦﴾ - ﴿٩٧﴾ تفسير قوله عز وجل: جاء هذا تحذيراً مُرْدُداً وإعلاماً بسوء حال المحتوم عليهم، والمعنى: إن الله أوجب لهم سخطه في الأزل وخلقهم لعذابه، فلا يؤمنون ولو جاءهم كل بيان وكل وضوح إلا في الوقت الذي لا

الحالة من النعمة وإن لم يكن في قطر واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْيَوْمُ﴾ يحتمل معنيين، أحدهما: فما اختلفوا في نبوة محمد ﷺ حتى جاءهم وبان علمه وأمره، فاختلَفوا حيثن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التخصيص هو الذي وقع في كتب المتأولين، وهذا تأويل يحتاج إلى سند. والتأويل الآخر الذي يحتمله اللفظ: أن بني إسرائيل لم يكن لهم اختلاف على موسى عليه السلام في أول حاله، فلما جاءهم العلم والأوامر وغرق فرعون اختلفوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فمعنى الآية مذمة ذلك الصدر من بني إسرائيل. ثم أوجب الله عز وجل بعد ذلك أنه يقضي بينهم

يونس عليه السلام أن العذاب لم ينزل قال: كيف أتصرف وقد وجدوني في كذب؟ فذهب مغاضباً كما ذكر الله تعالى في الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذهب الطبري إلى أن قوم يونس عليه السلام خُصُوا من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاناة العذاب، ذكر ذلك عن جماعة من المفسرين، وليس كذلك، والمعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي تلبس العذاب أو الموت بشخص الإنسان كقصة فرعون. وأما قوم يونس عليه السلام فلم يصلوا هذا الحد.

وقرأ الحسن، وطلحة بن مصرف، وعيسى بن عمر، وابن وثاب، والأعمش: «يُونُسُ» بكسر النون، وفيه للعرب ثلاث لغات: ضم النون وفتحها وكسرها، وكذلك في (يوسف). وقوله: «إِلَّا يَبِينُ» يريد: إلى آجالهم المفروضة في الأزل.

وروي أن قوم يونس عليه السلام كانوا يَنْتَوَى من أرض الموصل، ويقتضي ذلك قول النبي ﷺ لِعَدَّاس حين قال له إنه من أهل نَيْتَوَى: «من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى؟» الحديث الذي في السيرة لابن إسحق.

١٠٠ - ١٠١ تفسير قوله عز وجل: المعنى: إن هذا الذي تقدم إنما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيته فيهم، ولو شاء الله لكان الجميع مؤمناً، فلا تأسف أنت يا محمد على كفر من لم يؤمن بك، وادع ولا عليك، فالأمر محتوم، أفتريد أنت أن تُكْرِهَ الناس بإدخال الإيمان في

يلتبس العذاب بهم فيكون الإيمان نافعا لهم في هذه الحالة، ثم استثنى قوم يونس عليه السلام، فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع، وكذلك رسمه النحويون أجمع، وهو بحسب المعنى متصل لأن تقديره: ما آمن من أهل قرية إلا قوم يونس عليه السلام، والنصب في قوله: «إِلَّا قَوْمٌ» هو الوجوه، ولذلك أدخله سيويه في باب «ما لا يكون فيه إلا النصب»، وكذلك مع انقطاع الاستثناء، وتشبه الآية قول النابغة:

إِلَّا الْأَزَارِي

وذلك هو حكم لفظ الآية. وقالت فرقة: يجوز فيه الرفع وهذا مع اتصال الاستثناء، وقال المهدي: والرفع على البدل من «قَرِيَّة».

وروي في قصة يونس عليه السلام أن القوم لما كفروا أوحى الله إليه أن أنذرهم بالعذاب لثلاثة، ففعل فقالوا: هو رجل لا يكذب فارقه، فإن أقام بين أظهركم فلا عليكم، وإن ارتحل فهو نزول العذاب لا شك، فلما كان الليل تزود يونس عليه السلام وخرج عنهم، فأصبحوا فلم يجدوه، فتابوا ودعوا الله وأمنوا ولبسوا المُسُوح وفرقوا بين الأثمات والأولاد من الناس والبهائم، والعذاب منهم - فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما - على ثلثي ميل. ورُوي: عَلَى ميل، وقال ابن جبير: غشيه العذاب كما يغشى الثوب القبر، فرفع الله عنهم العذاب، فلما مضت الثلاثة وعلم

ينفعهم فيه إيمان، كما صنع فرعون وأشباهه من الخلق، وذلك وقت المعاينة، وفي ضمن الألفاظ التحذير من هذه الحال، وبعث الكل على المبادرة إلى الإيمان، والفرار من سخط الله.

وقرأ أبو عمرو، وعاصم، والحسن، وأبو رجاء: «كَلِمَاتٍ» بالإنفراد. وقرأ نافع، وأهل المدينة: «كَلِمَاتٍ» بالجمع. وقد تقدم ذكر هذه الترجمة.

وقوله تعالى: «فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَّةٌ ؕ آمَنَتْ» الآية. في مصحف أبي، وابن مسعود: «فَهَلَا»، والمعنى فيهما واحد. وأصل (لَوْلَا) في الكلام التحضيض أو الدلالة على منع أمر لوجود غيره، فأما هذه فبعيدة عن هذه الآية، لكنها من جملة التي هي للتحضيض، وحقيقة التحضيض بها أن يكون المحضض يريد من المخاطب فعل ذلك الشيء الذي يحضه عليه. وقد تَجَيَّءُ (لولا) وليس من قصد المخاطب أن يحض المخاطب على فعل ذلك الشيء فيكون حينئذ المعنى توبيخاً، كقول جرير:

... لَوْلَا الْكَمِي الْمَقْتَعَا
وذلك أنه لم يقصد حضهم على عقر الكمي، كقولك لرجل قد وقع في أمر صعب: «لولا تحرّزت»، وهذه الآية من هذا القبيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومفهوم من معنى الآية نفى إيمان أهل القرى، ومعنى الآية: فَهَلَا آمن أهل القرية وهم على مهل لم

قلوبهم وتضطربهم إلى ذلك والله عز وجل قد شاء غيره؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا التأويل الآية عليه محكمة، أي: ادع وقاتل من خالفك، وإيمان من آمن مصروف إلى المشيئة.

وقالت فرقة: المعنى: أفأنت تكثره الناس بالقتال حتى يدخلوا في الإيمان؟ ورغمت أن هذه الآية في صدر الإسلام وأنها منسوخة بآية السيف، والآية - على كلا التأويلين - رادة على المعتزلة.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّهُمْ جِمْأٌ﴾ تأكيد وهو من فصيح الكلام، و﴿جِمْأٌ﴾ حال مؤكدة، ونحوه قوله سبحانه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا لِلْهَيْبِ اتِّبَاعًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية. رد إلى الله تعالى، وأن الحول والقوة في إيمان من يؤمن بالله، وكون الرجس على الكفار. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿وَنَجْعَلُ الرَّجْسَ﴾ بنون العظمة، وقرأ الباقون، حفص عن عاصم: ﴿وَنَجْمَلُ﴾ بالياء، وقرأ الأعمش: ﴿وَنَجْعَلُ الله الرجس﴾، والرجس يكون بمعنى العذاب كالرجز، ويكون في معنى القذر والنجاسة كالركس، ذكره أبو علي هنا وغيره، وهو في هذه الآية بمعنى العذاب، و﴿لَا يَمْتَدُّونَ﴾ يريد: آيات الله وحجج الشرع، ومعنى الإذن في هذه الآية: الإرادة والتقدير لذلك، فهو العلم والتمكين.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذه الآية أمر للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع وغير

ذلك من آيات السموات وأفلاكها وكواكبها وسحابها ونحو ذلك، والأرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك، المعنى: انظروا في ذلك بالواجب يَنْبَهِكُمْ إلى المعرفة بالله والإيمان بوحدانيته. وقرأ أبو عبد الرحمن والعامّة بالبصرة: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا﴾ بكسر اللام، وقرأ نافع وأمل المدينة: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا﴾ بضم اللام. ثم أعلم في آخر الآية أن النظر في الآيات والسماع من «النذر» وهم الأنبياء لا يُغني إلا بمشيئة الله، وأن ذلك غير نافع لقوم قد قضى الله أنهم لا يؤمنون، وهذا على أن تكون ﴿وَمَا﴾ نافية، ويجوز أن تُعَدَّ استفهاماً على جهة التقرير الذي ضمنه نفى وقوع الغناء، وفي الآية - على هذا - توبيخ لحاضري رسول الله ﷺ من المشركين، وقوله: ﴿الْأَيْتُ وَالنُّذُرُ﴾ حصر طريقي تعريف الله تعالى عباده. ويحتمل أن تكون ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا تَنْتَ﴾ مفعولة بقوله: ﴿أَنْظَرُوا﴾ معطوفة على قوله: ﴿مَاذَا﴾، أي: تأملوا قدر غنائ الآيات والنذر عن الكفار إذ قبلوا ذلك كفعل قوم يونس عليه السلام فإنه يرفع العذاب في الدنيا والآخرة، وتُسْجَى من الهلكات. فالآية - على هذا - تحريض على الإيمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتجوز اللفظ - على هذا التأويل - إنما هو في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٠٢ - ١٠٣ تفسير قوله عز وجل: هذا وعيد وحض على الإيمان، أي: إذا لجأوا في الكفر حل بهم

العذاب، وإذا آمنوا نجوا، هذه سنة الله في الأمم الخالية، فهل عند هؤلاء غير ذلك؟ وهو استفهام بمعنى التوقيف.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأَنْظَرُوا﴾ مهادة ما، وهي من جملة ما نسخه القتال.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَنْجِي رَسُولًا﴾ الآية. لما كان العذاب لم تحصر مدته وكان النبي والمؤمنون بين أظهر الكفرة وقع التصريح بأن عادة الله عز وجل سلّقت بإنجاء رسله ومُتَّبِعِيهِمْ، فالتخويف - على هذا - أشد، وكلهم قرأ: ﴿تَنْجِي﴾ مشددة الجيم إلا الكسائي وحفصاً عن عاصم فإنهما قرأ: ﴿تُنْجِي﴾ بسكون النون وتخفيف الجيم، وقرأ عاصم في سورة الأنبياء في بعض ما روي عنه: ﴿تُنْجِي﴾ بضم النون وحذف الثانية وشد الجيم، كأن النون أذغمت فيها، وهي قراءة لا وجه لها، ذكر ذلك الزجاج، وحكى أبو حاتم نحوها عن الأعمش، وخط المصحف في هذه اللفظة ﴿تَنْجِي﴾ بجيم مطلقة دون ياء، وكذلك قرأ الكسائي في سورة مريم: ﴿ثُمَّ تَنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ بسكون النون وتخفيف الجيم، والباقون فتح النون وشد الجيم، والكاف في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ يصح أن تكون في موضع رفع، ويصح أن تكون في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الآية. مخاطبة عامة للناس أجمعين إلى يوم القيامة، يدخل تحتها كل من اتصف بالشك في دين الإسلام،

وهذه الآية يتسق معناها بمحذوفات يدل عليها هذا الظاهر الوجيز، والمعنى: إن كنتم في شك من ديني فأنتم لا تعبدون الله، كذلك فليس هو بأهل أن يشك فيه، وإنما يشك في دينكم ويرفض، وأنا لا أعبد أحداً غيره، فاقتضت فصاحة الكلام وإيجازه اختصار هذا كله، ثم صرح بمعبوده وخص من أوصافه ﴿الَّذِي يَرْزُقُكُمْ﴾ لما فيها من التذكير بالموت وفزع النفوس به، والمصير إلى الله بعده، والنقد للأصنام التي كانوا يعتقدونها ضارة ونافعة.

﴿١٠٥﴾ - ﴿١٠٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قيل لي: كن من المؤمنين وأقم وجهك للدين، ثم جاءت العبارة بهذا الترتيب، والوجه في هذه الآية بمعنى المنحى والمقصد، أي: اجعل طريقك واعتمادك للدين والشرع، و﴿حَنِيفًا﴾ معناه: مستقيماً على قول من قال: الحنف: الاستقامة، وجعل تسمية المعوج القدم أحنف على جهة التفاضل، ومن قال: «الحنف: الميل» جعل ﴿حَنِيفًا﴾ ها هنا: مائلاً عن حال الكفرة وطريقهم. و﴿حَنِيفًا﴾ نصب على الحال. وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ معناه: قيل لي، ولا تدع، فهو عطف على ﴿أَقِرْ﴾، وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ إذا كانت هكذا فأحرى أن يتحرز من ذلك غيره، و«ما لا ينفع ولا يضر» هو الأصنام والأوثان، والظالم: الذي يضع الشيء في غير موضعه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْكُنَ اللَّهُ يَصْرَ﴾ الآية. مقصد هذه الآية أن

الحول والقوة لله. ويبين ذلك للناس بما يحسونه من أنفسهم. والضر لفظ جامع لكل ما يكرهه الإنسان كان ذلك في ماله أو في بدنه، وهذه الآية مظهرة فساد حال الأصنام، لكن كل مُمَيِّز أدنى ميز يعرف يقيناً أنها لا تكشف ضرراً ولا تجلب نفعاً.

وقوله: ﴿وَلَنْ يَرْزُقَ يَصْرَ﴾ لفظ تام المعلوم، وخصص النبي ﷺ الفقه بالذكر في قوله: «مَنْ يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، وهذا على جهة التشريف للفقه. وقوله

تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ترجمة وبسط ووعد ما.

﴿١٠٨﴾ - ﴿١٠٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة لجميع الكفار مستمرة مدى الدهر، و﴿الْحَقُّ﴾ هو القرآن والشرع الذي جاء به محمد ﷺ، ﴿مَنْ أَهْتَدَى﴾ أي اتبع الحق وأدع له فإنما يسعى لنفسه لأنه يوجب لها رحمة الله ويدفع عذابه، ﴿وَمَنْ سَلَ﴾ أي حاذ عن طريق الحق ولم ينظر بعين الحقيقة، وكفر بالله عز وجل فيضد ذلك. وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: لست بأخذكم ولا بُد بالإيمان، وإنما أنا مبلغ، وهذه الآية منسوخة بالقتال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ الآية. معناه: أتبِع ما رسمه لك شرعك، وما أعلمك الله به من نُصْرَتِهِ لك، واصبر على شقاء

تفسير سورة هود عليه السلام

هذه السورة مكية إلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَارِكُ بِعَصَىٰ يَٰ يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاقِبَ يَدِ سَدْرِكَ﴾، وقوله: ﴿أُوتِيكَ يُونُسَ يَدِي﴾ ونزلت في ابن سلام وأصحابه، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكْبَتِ أَحْكَمَتْ إِلَهُهُمُ فَصَلَّتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾
الْأَتْبَدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكَرِيمٌ يَذَرُ وَيَشِيرُ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَفِرُّوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيَّ يَتَّبِعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ
كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَفِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ
يَتَوَكَّلُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَفْهِمُونَ أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَعِشُونَ يَا بَهُمُ
يَعْلَمُ مَا تُبْشِرُونَ وَمَا يُنذِرُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يُدَاتُ الضُّلُومُ ﴿٥﴾

يُذَوِّبْنَ أَلْسِنَتَهُنَّ الآية، نزلت في شأن شمار. وهذه الثلاث مدنية، قاله مقاتل، عَلَى أَنَّ الْأَوَّلَى تشبه المكي.

وإذا أردت بـ (هود) اسم السورة لم ينصرف، كما تفعل إذا سميت امرأة بـ (عمرو) و (زيد)، وإذا أردت سورة (هود) صرفت.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

تقدم استيعاب القول في الحروف المقطعة في أوائل السور، وتختص هذه بأن قيل: إِنَّ (الرَّحْمَنَ) فرقت حروفه فيها، وفي ﴿حَرَ﴾ وفي ﴿تَ وَالْقَلْبِ﴾.

و ﴿كَتَبَ﴾ مرتفع على خبر الابتداء، فمن قال: «الحروف إشارة إلى حروف المعجم» كانت الحروف المبتدأ، ومن تأول الحروف غير ذلك كان المبتدأ: هذا كتاب، والمراد بالكتاب القرآن.

و ﴿أُخْرِجْتَ﴾ معناه: أُنْقِذْتُ وَأُجِدْتُ شبه ما تحكم من الأمور المتقنة الكاملة، وبهذه الصفة كان القرآن في الأزل، ثم فصل بتقطيعه وتبيين أحكامه وأوامره على محمد ﷺ في أزمنة مختلفة، ف ﴿ثُمَّ﴾ على بابها، وهذه طريقة الإحكام والتفصيل، إذ الإحكام صفة ذاتية، والتفصيل إنما هو بحسب من يُفَصَّلُ له، والكتاب بأجمعه مُحْكَمٌ ومُفَصَّلٌ، والإحكام الذي هو ضد النسخ والتفصيل الذي هو خلاف الإجمال إنما يقالان مع ما ذكرناه باشتراك. وحكى الطبري عن بعض المتأولين: أُحْكِمْتُ بالأمر والنهي، وَفُضِّلْتُ بالثواب والعقاب، وعن بعضهم: أُحْكِمْتُ من الباطل،

وَفُضِّلْتُ بالحلال والحرام، ونحو هذا من التخصيص الذي هو صحيح المعنى ولكن لا يقتضيه اللفظ. وقال قوم: ﴿فُضِّلْتَ﴾ معناه: فَسِّرْتُ. وقرأ عكرمة، والضحاك، والجحدري، وابن كثير فيما روي عنه: ﴿ثُمَّ﴾ فَضَّلْتُ بفتح الفاء والصاد واللام، ويحتمل ذلك معنيين، أحدهما: فَضَّلْتُ أي: نزلت إلى الناس، كما تقول: «فَصَّلْ فلان» لسفره ونحو هذا من المعنى، والثاني: فَضَّلْتُ بين الْمُحِقِّ والمُبْطِل من الناس.

و ﴿بِئْسَ لَدُنَّ﴾ معناها: من حيث ابتدئت الغاية، كذا قال سيبويه، وفيها لغات. يقال: (لَدُنَّ)، و(لَدُنْ) يسكون الدال، وقرئ بهما ﴿بِئْسَ لَدُنَّ﴾، ويقال: (لَدُ) بفتح اللام وضم الدال دون نون، ويقال: (لَدَى) بدال منونة مقصورة، ويقال: (لَيْد) بدال مكسورة منونة. حكى ذلك أبو عبيدة.

و ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: مُنْجِمٌ، و ﴿حَيِّرٌ﴾ أي: ذو خبرة بالأمر أجمع.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾، (أَنْ) في موضع نصب، إما على إضمار فعل، وإما على تقدير: «بِأَنَّ» وإسقاط الخافض، وقيل: على البدل من موضع «الآيات»، وهذا معترض ضعيف لأنه لا موضع للآيات، وإن نظر موضوع الجملة فهو رفع، ويحتمل أن تكون في موضع رفع على تقدير: «تفصيله ألا تعبدوا»، وقيل: على البدل من لفظ «الآيات».

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُرَّيْتُهُ نَذِيرٌ

وَنَذِيرٌ﴾ أي: من عقابه وبشوابه، وإذا أُطْلِقَتْ هاتان اللفظتان فالنذارة في المكروه والبشارة في المحبوب، وقدم «النذير» لأن التحذير من النار هو الأهم، و(أَنْ) معطوفة على التي قبلها، ومعنى الآية: استغفروا ربكم، أي: اطلبوا مغفرته لكم وذلك بطلب دخولكم في الإسلام، ثم توبوا من الكفر، أي: انسلخوا منه واندموا على سالفه، و ﴿ثُمَّ﴾ مرتبة لأن الكافر أول ما ينبى فإنه في طلب مغفرة ربه فإذا تاب وتجرد من الكفر تَمَّ إيمانه. وقرأ الجمهور: ﴿يُغْفِرْكُمْ﴾ بشد التاء، وقرأ ابن محيصن: ﴿يُغْفِرْكُمْ﴾ بسكون الميم وتحفيف التاء. وفي كتاب أبي حاتم: «إن هذه القراءات بالنون»، وفي هذا نظر. و ﴿مَتَّعًا﴾ مصدر جار على غير الفعل المتقدم مثل: ﴿وَاللَّهُ أَتَبَرُّ مِنَ الْآرِضِ نَبَاتًا﴾، وقيل: نصب بتعدي ﴿يُغْفِرْكُمْ﴾ لأنك تقول: مَتَّعْتُ زيدًا ثوبًا. ووَصَفَ المتاع بِالْحُسْنِ إنما هو لطيف عيش المؤمن برجائه في الله عز وجل وفي ثوابه، وفرحه بالتقرب إليه بمفترضاته، والسرور بمواعيده، والكافر ليس في شيء من هذا. وأما من قال بأن المتاع الحسن هو فوائد الدنيا وزينتها - فيضعف بأن الكفرة يشاركون في ذلك أعظم مشاركة. والأجل المسمى هو أجل الموت، معناه: إلى أجل مسمى لكل واحد منكم، وهذا ظاهر الآية، والأجل الكبير - على هذا - هو يوم القيامة. وتحتمل الآية أن يكون التوعد بتعجيل العذاب إن كفروا، والوعد بتمتعهم إن

وَيَتَغَشَّوْنَ ثِيَابَهُمْ كَرَاهِيَةً أَنْ يَفْضُوا
بِفِرْجِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، وقرأ ابن
عباس رضي الله عنهما - فيما روى
ابن عُيَيْنَةَ -: ﴿تَتَّقُوْنَ﴾ بتقديم الناء
على النون وبغير نون بعد الواو،
قال أبو حاتم: هذه القراءة غلط لا
تُشْجِه. وقرأ نصر بن عاصم،
ويحيى بن يَعْمَر، وابن أبي
إسحاق: ﴿تَتَّقُوْنَ﴾ بتقديم النون
على الناء، وقرأ عروة، وابن أبيزى،
والأعمش: ﴿تَتَّقُونَ﴾ بشاء مثناة
بعدها نون مفتوحة بعدها واو
مكسورة. وقرأ أيضاً هما ومجاهد
فيما روي عنه: ﴿تَتَّقِينَ﴾ بهمزة بدل
الواو، وهاتان مشتقتان من «التَّشُّ»
وهو العشب المشني بسهولة، فشيبه
صدورهم به إذ هي مجيبة إلى هذا
الانطواء على المكر والخداع.
وأصل «تثنون»: «تَتَّنَوْنَ»، سكنت
النون المكسورة، ونقلت حركتها
إلى الواو التي قبلها، وأدغمت في
النون التي بعدها. وأما «تثنثن»
فأصلها: «تَتَّنَّان» مثل «تَحْمَاز»، ثم
قالوا: «اثْنَان» كما قالوا: اخْمَازُ
وإِيْيَاضُ.

والضمير في «يَتَنَّهُ» عائد على الله
تعالى، هذا هو الأفصح الأجزل في
المعنى، وعلى بعض التأويلات
يمكن أن يعود على محمد ﷺ،
و«يَسْتَشُونَ» معناه: يجعلونها أغشية
وأغطية، ومنه قول الخنساء:

أَزَعَى الثُّجُومَ وَمَا كُفِّلْتُ رَغِيَّتَهَا
وَتَارَةً أَتَغَشَّى فَضْلَ أَطْمَارِي
وقرأ ابن عباس: «عَلَى حِينَ
يَسْتَفْشُونَ»، ومن هذا الاستعمال
قول النابغة:

عَلَى حِينَ عَاتَيْتِ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا
وَقُلْتُ أَلَمْأَ أَضْحُ وَالْمَشِيبُ وَأَنْعُ؟
و «ذات الصدور»: ما فيها،
والذات تتصرف في الكلام على
وجوه هذا أحدها، كقول العرب:
«الذئب مغبوط بذئ بطنه»، أي
بالذي فيه من النفخ، وكقول أبي بكر
الصادق رضي الله عنه: «إنما هو ذو
بطن بنت خارجة». والذات التي هي
حقيقة الشيء ونفسه قلقة في هذا
الموضع، ويحتمل أن يفرق بين «ذي
بطنه» وبين «الذات»، وإنما يجمع
بينهما المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي
الْأَرْضِ...﴾ الآية. تمام في
وصف الله تبارك وتعالى بنحو قوله:
﴿يَسْلَمُ مَا يُرْزَقُ وَمَا يُعْلَنُونَ﴾.
والدابة: ما دب من الحيوان،
والمراد جميع الحيوان الذي يحتاج
إلى رزق، ويدخل في ذلك الطائر
والهَوَامَّ وغير ذلك، كلها دواب.
وقد قال الأعشى:

يَنَافُ كَغَضَنِ الْبَانِ تَرْجُجُ إِنْ مَثَتْ
دَبِيبَ قَطَا الْبَطْحَاءِ فِي كُلِّ مَثَلٍ
وقال علقمة بن عبدة لطير:

.....

... لَطِيرِهِمْ دَبِيبٌ
وفي حديث أبي عبيدة: (فإذا دابة
مثل الظُّرْبِ)، يريد: من حيوان
البحر. وتخصيصه بقوله: ﴿فِي
الْأَرْضِ﴾ إنما هو لأنه الأقرب
لِحِسِّهِم. والطائر والعائم إنما هو في
الأرض، وما مات من الحيوان قبل
أن يتغذى فقد اغتذى في بطن أمه
بوجه ما.

وهذه الآية تعطي أن الرزق: كل ما

صح الانتفاع به خلافاً للمعتزلة في
قولهم: «إنه الحلال الممتلك».

وقوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ إيجابٌ
تفضل لأنه تعالى لا يجب عليه شيء
عقلاً، والمُسْتَوْدَعُ: بطن الأم. وقيل:
المُسْتَقَرُّ: المأوى، والمُسْتَوْدَعُ:
القبر، وهما - على هذا - ظرفان.
وقيل: المُسْتَقَرُّ: ما حصل موجوداً
من الحيوان، والمُسْتَوْدَعُ: ما يوجد
بغد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والمُسْتَقَرُّ - على هذا - مصدر استقرَّ،
وليس بمفعول كُمُسْتَوْدَعُ، لأن استقرَّ
لا يتعدى. وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ﴾
إشارة إلى اللوح المحفوظ، وقال
بعض الناس: هذا مجاز، وهي
إشارة إلى علم الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا ضعيف، وَحْمَلُهُ على الظاهر
أولى.

٧ - ٨ تفسير قوله عز وجل:

قال أكثر أهل التفسير: الأيام هي
من أيام الدنيا، وقالت فرقة: هي من
أيام الآخرة، يوم من ألف سنة، قاله
كعب الأحبار، والأول أرجح.
وأجزأ ذكر «السَّكَّاتِ» عن كل ما
فيها، إذ كل ذلك خُلِقَ في تلك
الستة الأيام.

واختلفت الأحاديث في يوم بداية
الخلق فروى أبو هريرة - فيما أسند
الطبري - أن رسول الله ﷺ أخذ بيده
وقال: «خلق الله التربة يوم السبت،
والجبال يوم الأحد، والشجر يوم
الاثنين، والمكروه يوم الثلاثاء،
والنور يوم الأربعاء، وبث الدواب

يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة، ونحو هذا من أن البداية يوم السبت في كتاب مسلم، وفي الدلائل لثابت: «وكان خلق آدم في يوم الجمعة، لا يعتد به إذ هو بشر كسائر بني، ولو اعتد به لكانت الأيام سبعة خلاف ما في كتاب الله». وروي عن كعب الأجار أنه قال: «بدأ الله خلق السموات والأرض يوم الأحد، وفرغ يوم الجمعة، وخلق آدم في آخر ساعة منه»، ونحو هذا في جل الدواوين أن البداية يوم الأحد، وقال قوم: خلق الله تعالى هذه المخلوقات في ستة أيام مع قدرته على خلقها في لحظة، نهجاً إلى طريق التؤدة والمهلة في الأعمال ليحكم البشر أعمالهم. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان العرش على الماء، وكان الماء على الريح».

وقوله تعالى: ﴿لَيَبْلُوكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾، والمعنى أن خلقه إياها كان لهذا، وقال بعض الناس: هو متعلق بفعل مضمر تقديره: أعلم بذلك ليلوكم، ومقصد هذا القائل أن هذه المخلوقات لم تكن لسبب البشر.

وقرأ عيسى الثقفي: ﴿وَلَيَنْ قُلْتُ﴾ بضم التاء، وقرأ الجمهور: ﴿قُلْتُ﴾ بفتح التاء.

ومعنى الآية: إن الله عز وجل هذه صفاته، وهؤلاء يكفروهم في حيز إن قلت لهم: «إنهم مبعوثون» كذبوا وقالوا: «هذا سحر»، أي: فهذا تناقض منكم، إذ كل مفسطور يقر

بأن الله خالق السموات والأرض، فهم من جملة المقربين بهذا، ومع ذلك ينكرون ما هو أيسر منه بكثير، وهو البعث من القبور، إذ البداية أعسر من الإعادة، وإذ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس. واللام في ﴿لَيَنْ﴾ مؤذنة بأن اللام في ﴿يَقُولَنَّ﴾ لام قسم لا جواب شرط.

وقرأ الأعرج، والحسن، وأبو جعفر، وشيبة، وفرقة من السبعة: ﴿خَلَقَ﴾، وقرأت فرقة: ﴿سَاجِرَ﴾، وقد تقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَنْ أَخْرَأَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ الآية. المعنى: ولئن تأخر العذاب الذي توعدتم به عن الله قالوا: ما هذا الحابس لهذا العذاب؟ على جهة التكذيب. و﴿أُتُوْا﴾ في هذه الآية: المدة، كما قال: ﴿وَأَذْكُرْ بَدَأَ أُمُّوْا﴾، قال الطبري: سميت بذلك المدة لأنها تمضي فيها أمة من الناس وتحدث فيها أخرى، فهي - على هذا - المدة الطويلة. ثم استفتح بالإخبار عن أن هذا العذاب يوم يأتي لا يردّه شيء ولا يصرفه، و﴿وَبَآئِكَ﴾ معناه: حل وأحاط، وهي مستعملة في المكروه، و﴿يَوْمَ﴾ متصّب بقوله: ﴿مَصْرُوفًا﴾.

١ - ١١ تفسير قوله عز وجل: ﴿أَذْنًا﴾ ها هنا مستعارة، لأن الرحمة ها هنا تعم جميع ما يتنفع به من مطعوم وملبوس وجاه وغير ذلك، و﴿الْإِنْسَانُ﴾ ها هنا اسم الجنس. والمعنى: إن هذا الخلق في سجية الناس، ثم استثنى منهم الذين ردتهم الشرائع والإيمان إلى الصبر

والعمل الصالح. و﴿لَيَتُوبَنَّ﴾ و﴿كَفُورٍ﴾ بناءان للمبالغة. و﴿كَفُورٍ﴾ ها هنا من كُفِرَ النعمة، والمعنى: إنه يأس ويتحرج ويتسخط، ولو نظر إلى نعمة الله الباقية عليه في عقله وحواسه وغير ذلك، ولم يكفرها، ولم يكن ذلك، فإن اتفق هذا أن يكون في كافر أيضاً بالشرع صح ذلك ولكن ليس من لفظ الآية.

وقال بعض الناس في هذه الآية: ﴿الْإِنْسَانُ﴾ إنما يراد به الكافر، وخمّله على ذلك لفظة ﴿كَفُورٍ﴾، وهذا عندي مردود، لأن صفة الكفر لا تطلق على جميع الناس كما تقتضي لفظة الإنسان.

والتَّغْمَاءُ: تشمل الصحة والمال ونحو ذلك، والضُّرَاءُ من الضَّر، وهو أيضاً شامل، وقد يكثر استعمال الضراء فيما يخص البدن. ولفظ ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ تقتضي بطلاً وجهلاً أن ذلك بإنعام من الله تعالى، واعتقاد أن ذلك باتفاق أو بعقد من الاعتقادات الفاسدة، وإلا فلو قالها من يعتقد أن ذهابها بإنعام من الله وفضل لم يقع ذلك. و﴿السَّيِّئَاتِ﴾ ها هنا: كل ما يسوء في الدنيا.

وقرأت فرقة: ﴿لَنَجَّ﴾ بكسر الراء، وقرأت فرقة: ﴿لَنَجَّ﴾ بضمها. وهذا الفرج مطلق، ولذلك ذم، إذ الفرج انهمال النفس، ولا يأتي الفرج في القرآن ممدوحاً إلا إذا قيّد بأنه في خير.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ الآية. هذا الاستثناء متصل على ما قدمناه من أن ﴿الْإِنْسَانَ﴾ عام يراد به

هو طلبهم آية تضطر إلى الإيمان، والله تبارك وتعالى لم يبعث الأنبياء بآيات اضطرار، وإنما بعثهم بآيات النظر والاستدلال، ولم يجعل آية الاضطرار إلا للأُمم التي قدر تعذيبها بكفرها بعد آية الاضطرار، كالناقة لثمود.

ثم اتَّسَعُ تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾، أي: هذا القدر هو الذي فُوض إليك، والله تعالى بعد ذلك هو الوكيل الممضي لإيمان من شاء وكفر من شاء.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ الآية. هذه ﴿أَمْ﴾ التي عند سبويه بمعنى «بل وألف الاستفهام»، كأنه أضرب عن الكلام الأول واستفهم في الثاني على معنى التقرير، كقولهم: «إنها لإبل أم شاة؟». والافتراء أخَصُّ من الكذب، ولا يستعمل إلا فيما بهت به المرء وكابر وجاء بأمر عظيم منكر. ووقع التحدي في هذه الآية بعشر لأنه قيدها بالافتراء، فوسَّع عليهم في القدر لتقوم الحجة غاية القيام، إذ قَدْ عَجَّزْهم في غير هذه الآية بسورة من مثله دون تقييد، فهذه مماثلة تامة في غيوب القرآن ومعانيه ونظمه ووعدته ووعدته، وَعَجَّزُوا في هذه الآية بأن قيل لهم: عارضوا القدر منه بعشر أمثاله في التقدير والغرض واحد، واجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه، فهذه غاية التوسعة، وليس المعنى: عارضوا عشر سور بعشر، لأن هذه إنما كانت تجيء معارضة سورة بسورة مفتراة ولا يبالى عن تقديم نزول هذه على هذه. ويؤيد هذا

وتسفيه آبائنا لجالسناك وأثبعتناك. وقالوا: إيت بقرآن غير هذا أو بدله، ونحو هذا من الأقوال، فخطب الله تعالى نبيه ﷺ على هذه الصورة من المخاطبة، ووقف بها توقيفاً راداً على أقوالهم ومبتلاً لها، وليس المعنى أنه ﷺ هم بشيء من هذا فزجر عنه، فإنه لم يرد قط ترك شيء مما أوحى إليه، ولا ضاق صدره، وإنما كان يضيق صدره بأقوالهم وأفعالهم وبعدهم عن الإيمان.

و ﴿فَلَمَّا سَكَ﴾ ها هنا

بمعنى التوقيف والتقرير، و ﴿مَا يُوحَىٰ﴾ إليك هو القرآن والشريعة والدعاء إلى الله تعالى، كان في ذلك سبب آلهتهم وتسفيه آبائهم أو غيره. ويحتمل أن يكون النبي ﷺ قد عَظُم عليه ما يلقي من الشدة فمال إلى أن يكون من الله تعالى إذْنٌ في مساهلة الكفار بعض المساهلة، ونحو هذا من الاعتقادات التي تليق به ﷺ كما جاءت آيات المواعدة. وعبر بـ ﴿وَصَائِقُ﴾ دون (صَيِّق) للمناسبة في اللفظ مع ﴿تَارِكُ﴾، وإن كان (صَيِّق) أكثر استعمالاً لأنه وصف لازم، و ﴿وَصَائِقُ﴾ وصف عارض، فهو الذي يصلح هنا. والضمير في ﴿يَدُ﴾ عائد على «البعض»، ويحتمل أن يعود على ﴿مَا﴾. و ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب على تقدير: «كراهة أن»، والكنز ها هنا: المال، وهذا

أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرَاهُ قُلُوبًا فَتَأْتُوا بَعْدَ سُورٍ وَمَقِيلِهِ مُفْتَرِينَ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا تَرَسَّجُوا أَلَكُمْ فَأَعْمُوا إِنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ يُبْخَلُّونَهُ وَمِنْ بَيْنِهِمْ كُتِبَ مُوسًىٰ أَمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصْذُونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْبُدُونَ عِوَابًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

الجنس، ومن قال: «إنه مخصص بالكافر» قال ها هنا: إن الاستثناء منقطع، وهو قول ضعيف من جهة المعنى، وأما من جهة اللفظ فجيد، وكذلك قاله من الشحاة قوم، واستثنى الله من الماشين على سجية الإنسان هؤلاء الذين حملتهم الأديان على الصبر على المكاره ومثابرة عبادة الله، وليس شيء من ذلك في سجية البشر، وإنما حَمَلَ على ذلك حب الله وخوف الدار الآخرة والصبر، والعمل الصالح لا ينفع إلا مع هداية وإيمان. ثم وعد تبارك وتعالى أهل هذه الصفة - تحريضاً عليها وحضاً - بالمغفرة للذنوب والتفضل بالأجر والنعيم.

﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

سبب هذه الآية أن كفار قريش قالوا: يا محمد لو تركت سب آلهتنا

النظر أن التكليف في آية البقرة إنما هو بسبب الريب، ولا يُزيل الريب إلا العلم بأنهم لا يقدرّون على المماثلة التامة، وفي هذه الآية إنما التكليف بسبب قولهم: «افتراه»، فكلّفوا نحو ما قالوا، ولا يطرد هذا في آية «يونس». وقال بعض الناس: هذه مقدمة في النزول على تلك، ولا يصح أن يُعَجَّزوا في واحدة فيكلّفوا عشرًا والتكليفان سواء، ولا يصح أن تكون السورة الواحدة إلا مفتراة، وآية سورة «يونس» في تكليف سورة متركبة على قولهم: «افتراه»، وكذلك آية البقرة، إنما ربيهم بأن القرآن مفترى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقائل هذا القول لم يلحظ الفرق بين التكليفين، في كمال المماثلة مرة، ووقوفها على النظم مرة.

و «مَنْ» في قوله: «مَنْ أَسْتَظْفَرُ» يراد بها الآلهة والأصنام والشياطين وكل ما كانوا يعظمونه، وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» يريد: في أن القرآن مفترى.

(٧) - (١٦) تفسير قوله عز وجل:

لهذه الآية تأويلان:

أحدهما: أن تكون المخاطبة من النبي ﷺ للكفار، أي: فإن لم يستجب من تدعونه إلى شيء من المعارضة ولا قدر جميعكم عليها فأذعنوا حينئذ واعلموا أنه من عند الله، ويأتي قوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» متمكناً.

والثاني: أن تكون مخاطبة من الله تعالى للمؤمنين، أي: فإن لم يستجب الكفار إلى ما دُعوا إليه من

المعارضة فاعلموا أن ذلك من عند الله. وهذا على معنى: دوموا على علمكم، فإنهم كانوا عالمين بذلك. قال مجاهد: قوله تعالى: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» هو لأصحاب محمد ﷺ.

وقوله تعالى: «يَعْلَمُ اللَّهُ» يحتمل معنيين. أحدهما: بإذنه وعلى علم منه. والثاني: أنه أنزل بما علمه الله تعالى من الغيوب، فكأنه أراد: «المعلومات له»، وقوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» تقرير.

وقوله تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» الآية. قالت فرقة: ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الكفرة. هذا قول قتادة والضحاك، وقال مجاهد: هي في الكفرة وفي أهل الرياء من المؤمنين، وإلى هذا ذهب معاوية حين حدثه سيّافه شفي بن ماتع الأصبحي عن أبي هريرة بقول رسول الله ﷺ في الرجل المتصدق، والمجاهد المقتول، والقائم بالقرآن ليله ونهاره - وكل ذلك رياء - أنهم أول من تُسْعَرُ به النار يوم القيامة، فلما حدثه شفي بهذا الحديث بكى معاوية وقال: صدق الله ورسوله، وتلا: «مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا...» الآية إلى قوله: «وَلَا يَخْلُفْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

فأما من ذهب إلى أنها في الكفرة فمعنى قوله: «يُرِيدُ»: يقصد ويعتمد، أي: هي وجهه ومقصده لا مقصد له غيرها، فالمعنى: من كان يريد بأعماله الدنيا فقط إذ لا يعتقد الآخرة فإن الله يجازيه على حسن

أعماله - في الدنيا - بالنعم والحواس وغير ذلك، فمنهم مُضَيِّقٌ عليه، ومنهم مُوسِّعٌ له، ثم حكم عليهم بأنهم لا يحصل لهم يوم القيامة إلا النار، ولا تكون لهم حال سواها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فاستقام هذا المعنى على لفظ الآية، وهو عندي أرجح التأويلات بحسب تقدم ذكر الكفار والمناقضين في القرآن، فإنما قصد بهذه الآية أولئك.

وأما من ذهب إلى أنها في العصاة من المؤمنين فمعنى «يُرِيدُ» عنده: يُحِبُّ ويؤثر ويُفَضِّلُ ويقصد وإن كان له مقصد آخر بإيمانه، فإن الله يجازيه على تلك الأعمال الحسان - التي لم يعملها الله - بالنعم في الدنيا، ثم يأتي قوله: «لَيْسَ لَهُمْ» بمعنى: ليس يجب لهم أو يحق لهم إلا النار، وجائز أن يتغمدهم الله برحمته، وهذا هو ظاهر ألفاظ ابن عباس وسعيد بن جبير.

وقال أنس بن مالك: هي في أهل الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا أن أهل الكتاب الكفرة يدخلون في هذه الآية، لا أنها ليست في غيرهم.

وقرأ جمهور الناس: «تَوْبِي» بنون العظمة، وقرأ طلحة، وميمون بن مهران: «يُؤْفَ» بياء الغائب.

و «يَخُونُ» معناه: يعطون أقل من ثوابهم، و «حِطَّ» معناه: بطل وسقط، ومنه قول النبي ﷺ: «يقتل حيطاً أو يُلِمَّ»، وهي مستعملة في فساد الأعمال، والضمير في قوله:

﴿فِيهَا﴾ عائذ على الدنيا في الأوليين، وفي الثالثة عائذ على الآخرة، ويحتمل أن يعود في الثلاثة على الدنيا، ويحتمل أن تعود الثانية على الأعمال. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيُطْلَقُ﴾ بالرفع على الاستدعاء والخبر، وقرأ أبي، وابن مسعود: ﴿وَيُطْلَقُ﴾ بالنصب، قال أبو حاتم: ثبت في أربعة مصاحف، والعامل فيه ﴿يَمْلِكُونَ﴾، و﴿مَّا﴾ زائدة، والتقدير: ويطلق كانوا يعملون، والباطل: كل ما تقتضي ذاته ألا تُثَال به غاية في ثواب ونحوه، وبالله التوفيق.

﴿٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون في المراد بقوله: ﴿أَقْنِ﴾؛ فقالت فرقة: المراد بذلك المؤمنون بمحمد ﷺ. وقالت فرقة: المراد محمد ﷺ خاصة. وقال علي بن أبي طالب، والحسن، وقتادة، ومجاهد، والضحاك، وابن عباس: المراد بذلك محمد ﷺ والمؤمنون جميعاً.

وكذلك اختلف في المراد بـ «الْبَيْتَةِ»؛ فقالت فرقة: المراد بذلك القرآن، أي: على جلية بسبب القرآن. وقالت فرقة: المراد محمد ﷺ، أي: على جلية بسبب محمد ﷺ، والهاء في «الْبَيْتَةِ» للمبالغة كهاء علامة ونسابة.

كذلك اختلف في المراد بـ «الشَّاهِد»؛ فقال ابن عباس، وإبراهيم التَّخَعِي، ومجاهد، والضحاك، وأبو صالح، وعكرمة: هو جبريل عليه السلام. وقال الحسن بن علي: هو محمد ﷺ،

وقال مجاهد أيضاً: هو ملك وكَلَّه الله حفظ القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يريد بهذه الألفاظ: جبريل عليه السلام. وقال علي بن أبي طالب، والحسن، وقتادة: هو لسان النبي ﷺ. وقالت فرقة: هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وروي ذلك عنه. وقالت فرقة: هو الإنجيل، وقالت فرقة: هو القرآن، وقالت فرقة: هو إعجاز القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتصرف قوله: ﴿وَيُطْلَقُ﴾ على معنيين. بمعنى: يقرؤه، وبمعنى يثبته. وتصرفه بحسب الخلاف

المذكور في «الشاهد»، ولترتب الآن اطراد كل قول وما يحتمل: فإذا قلنا: إن قوله: ﴿أَقْنِ﴾ يراد به المؤمنون، فإذا جعلت - بعد ذلك - «الْبَيْتَةَ» محمداً ﷺ، صَحَّ أن يترتب «الشَّاهِد» الإنجيل، ويكون ﴿وَيُطْلَقُ﴾ بمعنى: يقرؤه، لأن الإنجيل يُقرأ، شأن محمد ﷺ، وأن يترتب جبريل عليه السلام، ويكون ﴿وَيُطْلَقُ﴾ بمعنى: يثبته، أي في تبليغ الشرع والبعونة فيه. وأن يترتب الملك، ويكون الضمير في ﴿وَيُطْلَقُ﴾ عائداً على «الْبَيْتَةِ» التي قدرناها محمد ﷺ، وأن يترتب القرآن، ويكون ﴿وَيُطْلَقُ﴾ بمعنى: يثبته، ويعود الضمير في ﴿وَيُطْلَقُ﴾ على الرب.

وإن جعلنا «الْبَيْتَةَ» القرآن على أن ﴿أَقْنِ﴾ هم المؤمنون صح أن يترتب «الشَّاهِد» محمد ﷺ، وصح أن يترتب الإنجيل، وصح أن يترتب

جبريل والملك، ويكون ﴿وَيُطْلَقُ﴾ بمعنى: يقرؤه، وصح أن يترتب «الشَّاهِد» الإعجاز، ويكون ﴿وَيُطْلَقُ﴾ بمعنى: يثبته، ويعود الضمير في ﴿وَيُطْلَقُ﴾ على القرآن.

وإذا جعلنا «أَقْنِ» للنبي ﷺ، كانت «الْبَيْتَةُ» القرآن، وترتب «الشَّاهِد» لسان محمد ﷺ، وترتب الإنجيل، وترتب جبريل والملك، وترتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وترتب الإعجاز، ويُتَأَوَّلُ ﴿وَيُطْلَقُ﴾ بحسب «الشاهد» كما قلنا، ولكن هذا القول يضعفه قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾، فإننا إذا جعلنا قوله: ﴿أَقْنِ﴾ للنبي ﷺ وحده لم نجد في الآية مذكورين يشار إليهم بذلك، ونحتاج إلى الآية إلى تجوز وتشبيه بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا طَلَقَهُ النَّسَاءُ﴾، وهو شبه ليس بالقوي.

والأصح في الآية أن يكون قوله: ﴿أَقْنِ﴾ للمؤمنين، أو لهم وللنبي ﷺ معهم بآلا يترتب «الشَّاهِد» - بعد ذلك - يراد به النبي ﷺ داخلاً في قوله: ﴿أَقْنِ﴾، وما تركناه من بسط هذا الترتيب يخرج التفسير بسرعة فتأمله.

وقرأ جمهور الناس: ﴿كِتَابُ﴾ بالرفع، وقرأ الكلبي، وغيره: ﴿كِتَابُ﴾ بالنصب. فمن رفع قدر «الشَّاهِد» الإنجيل، معناه: يقرأ القرآن، أو محمد ﷺ - بحسب الخلاف - والإنجيل، ومن قبل الإنجيل كتاب موسى، إذ في الكتابين ذكر القرآن وذكر محمد ﷺ.

ويصح أن يُقَدَّرَ الرفع «الشاهد» القرآن، وتطرد الألفاظ بعد ذلك.

ومن نصب «كُتِبَ» قدر «الشاهد» جبريل عليه السلام، أي: يتلو القرآن جبريل، ومن قبل القرآن كتاب موسى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهنا اعتراض. يقال: إذا قال: «وَمَنْ قَبْلَهُ كُتِبَ مُوسَى» أو «كُتِبَ» بالنصب على القراءة، والضمير في «قَبْلَهُ» عائد على القرآن، فلم لم يذكر الإنجيل - وهو قبله - بينه وبين كتاب موسى؟ فالانفصال أنه خص التوراة بالذكر لأن الملتين مجتمعتان أنهما من عند الله، والإنجيل ليس كذلك، فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الطائفتين أولى، وهذا يجري مع قول الجن: «إِنَّا سَيِّمًا كُتِبَ أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى»، ومع قول النجاشي: «إِنْ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيُخْرِجُنَا مِنْ مَشَاكَاةٍ وَاحِدَةٍ»، فإنما اختصر «الإنجيل» من جهة أن مذهبهم فيه مخالف لحال القرآن والتوراة.

ونصب «إِنَّمَا» على الحال من «كُتِبَ مُوسَى».

و «الْأَخْرَابَ» ما هنا يراد به جميع الأمم، وروى سعيد بن جبيرة عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من أحد يسمع بي من هذه الأمة، ولا من اليهود والنصارى، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»، فقلت: أين مصداق هذا من كتاب الله؟ حتى وجدته في هذه الآية، وكنت إذا سمعت حديثاً عن

النبي ﷺ طلبت مصداقه في كتاب الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والراجع عندي من الأقوال في هذه الآية أن يكون «أَمَّنْ» للمؤمنين، أولهم وللنبي ﷺ معهم، إذ قد تقدم ذكر الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، فعُتِبَ ذكرهم بذكر غيرهم، و «الْبَيِّنَةُ»: القرآن وما تضمن، و «الشاهد» محمد ﷺ أو جبريل عليه السلام إذا دخل النبي ﷺ في قوله: «أَمَّنْ»، أو

الإنجيل، والضمير في «وَتَتْلُوهُ» للبيئة، وفي «يُنْذِرُ» للرب تبارك وتعالى، والضمير في «قَبْلَهُ» للبيئة أيضاً، وغير هذا مما ذكرته آنفاً محتمل.

وقرأ الجمهور: «فِي رَيْبَةٍ» بكسر الميم، وقرأ السلمي، وأبو رجاء، وأبو الخطاب السدوسي: «فِي مُرْيَةٍ» بضم الميم، وهما لغتان في الشك، والضمير في «يُنْذِرُ» عائد على كون الكفرة مواعدهم النار، وسائر الآية بين.

وفي هذه الآية معادلة محذوفة يقتضيها ظاهر اللفظ تقديرها: أَمَّنْ كان على بيئة من ربه كمن كفر بالله وكذب أنبياءه؟ ونحو هذا - في معنى الحذف - قوله عز وجل: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ أَمُوتَ» لكان هذا القرآن. ومن ذلك قول الشاعر:

أَوَّلَيْكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَصْنَعُهُمْ أَكَاوِشَ طَيِّبُونَ أَسْمَعُ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ ۝ أَوَّلَيْكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ لَأَجْرَمَ أَنْتُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ۝ إِنَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَحِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لَّا تَذَكَّرُونَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذْ قَالَ لَكُمْ تَذَرُونِي ۝ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْرَارِ ۝ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَانِي إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَانِي إِلَّا الَّذِي كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ بِهِ أَأَنْتَ الْبَارِئُ الرَّأْيُ وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ تَنْظُرُونَ كَذِبِينَ ۝ قَالَ يَقُولُونَ كُلٌّ عَلَىٰ يَدَيْهِمْ فِي وَهْنٍ ۝ إِنِّي رَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي ۝ فَمُتِّعْتُمْ عَلَيْهِمْ آثَارَ مَكْرَهُمْ وَأَنْشَأْنَا كَذِبَهُمْ ۝

فَأَقِمْ وَشِئْنَا أَنَا رَسُولُهُ
سِوَاكَ، ولكن لم نجد لك مدقفاً
التقدير: لرذذناه ولم نصنع إليه.

(٧٨) - (٧٩) تفسير قوله عز وجل:

قوله: «وَمَنْ» استفهام بمعنى التقرير، وكأنه قال: لا أحد أظلم ممن افترى كذباً، والمراد بـ «وَمَنْ» الكفرة الذين يدعون مع الله إلهاً آخر، ويفترون في غير ما شيء، وقوله: «أَوَّلَيْكَ يَمْشُونَ عَلَىٰ رِجْلَيْهِمْ» عبارة عن الإشادة عليهم والتشهير بخزيهم، وإلا فكل بشر يعرضون على الله يوم القيامة.

وقوله تعالى: «وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ». قالت فرقة: يريد الشهداء من الأنبياء والملائكة، فيجوز قوله: «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ» إخباراً عنهم وشهادة عليهم. وقالت فرقة: «الْأَشْهَدُ» بمعنى الشاهدين،

ويريد جميع الخلائق، وفي ذلك إشارة عليهم، وروي في نحو هذا حديث: «إِنَّهُ لَا يَخْزِي أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَيَعْلَمُ ذَلِكَ جَمِيعٌ مِنْ شَهِدِ الْمُحْشَرِّ»، فيجيء قوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ - على هذا التأويل - استفهاماً عنهم وثبتاً فيهم، كما تقول إذا رأيت مجرمًا قد عوقب: «هذا هو الذي فعل كذا وكذا؟» وإن كنت قد علمت ذلك، ويحتمل الإخبار عنهم.

وقوله: ﴿أَلَمْ﴾ استفتاح كلام، و«الْثَنَّة»: الإبعاد، و«الَّذِينَ» نعت لـ «الْقَالِينَ». ويحتمل الرفع على تقدير: «هم الذين». و«يُضْذَوْنَ» يحتمل أن يقدر متعدياً على معنى: يَضْذَوْنَ الناس ويمنعونهم من سبيل الله، ويحتمل أن يقدر غير متعد على معنى: يَضْذَوْنَ هم، أي: يُغْرَضُونَ. و«سَبِيلَ اللَّهِ»: شريعته، و«رَبِّعُوتَهَا» معناه: يطلبون لها، كما تقول: بغيتك خيراً أو شراً، أي: طلبت لك، و«عَوَجًا» - على هذا - مفعول، ويحتمل أن يكون المعنى: ويبغون السبيل على عوج، أي: فهم لا يهتدون أبداً، و«عَوَجًا» - على هذا - مصدر في موضع الحال. والعوج: الانحراف والميل المؤذي إلى الفساد، وكرر قوله: ﴿وَهُمْ﴾ على جهة التأكيد، وهي جملة في موضع خبر الابتداء الأول، وليس هذا موضع الفصل لأن الفصل إنما يكون بين معرفتين، أو معرفة ونكرة تقارب المعرفة، لأنها تفصل ما بين أن يكون ما بعدها صفة أو خبراً وتخلصه للخبر.

و«مُتَجَرِّينَ» معناه: مُفْلَتِينَ لَا يَقْدِرُ

عليهم، وخص ذكر الأرض لأن تصرف ابن آدم وتمتعه إنما هو فيها، وهي قصاره لا يستطيع النفوذ منها. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يحتمل معنيين، أحدهما: أنه نفى أن يكون لهم ولي أو ناصر كائنًا من كان. والثاني: أن يقصد وصف الأصنام والآلهة بأنهم لم يكونوا أولياء حقيقة، وإن كانوا هم يعتقدون أنهم أولياء. ثم أخبر أنه يُضَاعَفُ لهم العذاب يوم القيامة، أي يُشَدُّ حتى يكون ضعفي ما كان، و«يُضَعَّفُ» فعل مستأنف وليس بصفة.

وقوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ يحتمل خمسة أوجه:

أحدها: أن يصف هؤلاء الكفار بهذه الصفة على معنى أن الله ختم عليهم بذلك، فهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به ولا يبصرون كذلك.

الثاني: أن يكون وصفهم بذلك من أجل بغضتهم في النبي ﷺ، فهم لا يستطيعون أن يحملوا أنفسهم على السمع منه والنظر إليه، وينظر إلى هذا حشو الطفيل بن عمرو أذنيه بالكُرْسُف، وإبائية قريش وقت الحديبية أن يسمعوا ما نقل إليهم من كلام رسول الله ﷺ حتى رذهم عن ذلك مشيختهم.

والثالث: أن يكون وصف بذلك الأصنام والآلهة التي نفى عنها - على التأويل المتقدم - أن تكون أولياء، و«وَمَا» في هذه الوجوه الثلاثة نافية.

والرابع: أن يكون التقدير: يضاعف لهم العذاب بما كانوا، بحذف الجار، وتكون ﴿وَمَا﴾ مصدرية، وهذا قول فيه تحامل، قاله الفراء وقرنه بقوله: «أجازيك ما صنعت بي».

والخامس: أن تكون ﴿وَمَا﴾ ظرفية، أي أن العذاب يضاعف لهم مدة استطاعتهم السمع والبصر، وقد أعلمت الشريعة أنهم لا يموتون فيها أبداً، فالعذاب إذا مُتَمَادٍ أبداً.

وقدم السمع على البصر في هذه الآية لأن حاشته أشرف من حاسة البصر، إذ عليه تبنى في الأطفال مَعْرِفَةَ دلالات الأسماء، وإذ هو كاف في أكثر المعقولات دون البصر، إلى غير ذلك.

١١ - ١٢ - تفسير قوله عز وجل: ﴿خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بوجوب العذاب عليهم، ولا خسران أعظم من خسران النفس. و«وَصَلَّ» معناه: تلف ولم يجدوه حيث أملوه. و«لَا جَزْمَ» لفظة مركبة من «لا» ومن «جَزَمَ» بُيِّنًا معاً، ومعنى «لا جَزَمَ»: حق. هذا مذهب سيويه والخليل. وقال بعض النحويين: معناها: لا شك ولا بُد ولا مَحَالَة، وقد روي هذا عن الخليل. وقال الزجاج: ﴿لَا﴾ ردٌ عليهم ولما تقدم من كل ما قبلها، و«جَزَمَ» معناه: كَسَبَ، أي: كَسَبَ فَعْلُهُمْ ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾.

فموضع (أن) - على مذهب سيويه - رفع، وموضعها - على مذهب الزجاج - نصب، وقال الكسائي: معناها: لا صد ولا منع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكان ﴿جَزَمَ﴾ - على هذا - من معنى القطع، تقول: جَزَمْتُ أَي قطعْتُ. وهي على منزع الزجاج من الكسب، ومنه قول الشاعر:

جَرِيْمَةٌ نَاهِيْضٌ فِي رَأْسِ نَيْبِي
تَرَى لِعِظَامٍ مَا جَمَعَتْ صَلِيْبَا
وجريمة القوم كاسيهم. وأما قول الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا أُمَيْمَةَ طَعْنَةً
جَزَمْتُ فَرَاوَةَ تَغْدَاهَا أَنْ يَغْضَبُوا
فيحتمل الوجهين، ويختلف معنى البيت. وفي «لَا جَزَمَ» ثلاث لغات: يقول بعض العرب: «لَا ذَا جَزَمَ»، وبعضهم: «لَا أَنْ ذَا جَزَمَ»، وبعضهم: «لَا عَنْ ذَا جَزَمَ»، وبعضهم: «لَا جَزَ»، حذفوا الميم لكثرة استعماله.

و «وَأَخْبَتُوا»، قيل: معناه: خضعوا، قاله قتادة. وقيل: أنابوا، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: اطمانوا، قاله مجاهد، وقيل: خافوا، قاله ابن عباس أيضاً. وهذه الأقوال بعضها قريب من بعض، وأصل اللفظ من «الْخَبْتُ» وهو البرأح القفر المستوي من الأرض، فكان المخبِت في القفر قد انكشف واستسلم وبقي دون منعة، فشبه المتذلل الخاشع بذلك، وقيل: إنما اشتق منه لاستوائه وطمانينته. وقوله: ﴿إِلَّا رَيْبَهُمْ﴾، قيل: هي بمعنى اللام، أي: اخبثوا لربهم، وقيل: المعنى: جعلوا قصدهم بإخباتهم إلى ربهم.

والفرقان: الكافرون والمؤمنون، شبه الكافر بالأعمى وبالأصم، وشبه

المؤمن بالبصير وبالسميع، فهو - على هذا - تمثيل بمثالين. وقال بعض المتأولين: التقدير: كالأعمى الأصم، والبصير السميع، ودخلت واو العطف، كما تقول: جاءني زيد العاقل والكريم، وأنت تريده بعينه، فهو - على هذا - تمثيل بواحد. و﴿مَثَلًا﴾ نصب على التمييز، ويجوز أن يكون حالاً.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه آية قصص فيه تمثيل لقريش وكفار العرب، وإعلام أن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، وروي أن نوحاً عليه السلام أول رسول إلى الناس، وروي أن إدريس أول نبي من بني آدم إلا أنه لم يرسل، فرسالة نوح إنما كانت إلى قومه كسائر الأنبياء، وأما الرسالة العامة فلم تكن إلا لمحمد ﷺ.

وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة: ﴿إِنِّي﴾ بكسر الألف، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الألف، فالكسر على إضمار القول، والمعنى: قال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، ثم يجيء قوله: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾ معمولاً بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أي: أرسلنا نوحاً بالآل تَعْبُدُوا إلا الله، واعترض أثناء الكلام بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. والفتح على إعمال ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في ﴿أَنِّي﴾، أي بأنني لكم نذير. قال أبو علي: وفي هذه القراءة خروج من الغيبة إلى المخاطبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، وإنما هي حكاية مخاطبته لقومه، وليس هذا حقيقة

الخروج من غيبة إلى خطاب، ولو كان الكلام «أَنْ أَنْذَرَهُمْ» أو نحوه لصح ذلك. و «النذير» للتحفظ من المكاره بأن يعرفها ويُنَبِّه عليها، و﴿مُبِينٌ﴾ من: أَبَانَ بَيِّن.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ ظاهر في أنهم كانوا يعبدون الأوثان ونحوها، وذلك بين في غير هذه الآية، و﴿أَلِيمٌ﴾ معناه: مؤلم، ووصف به «اليوم» وحقه أن يوصف به «العذاب» تجوزاً، إذا العذاب في اليوم، فهو كقولهم: «نهارٌ صائمٌ» وليلٌ قائمٌ.

و «أَلَمَلًا» الجمع والأكثر من القبيلة والمدينة ونحوه، ويُسمى الأشراف مَلَأَ إذ هم عمدة الملأ والسَادُونَ مَسَدُهُ في الآراء والأُمُور، وكل جماعة كبيرة ملأ. ولما قال لهم نوح: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ قالوا: ﴿مَا زَيْنَاكَ إِلَّا بِشَرٍّ يَزَلُّنَا﴾، أي: والله لا يبعث رسولاً من البشر، فأحالوا الجائر على الله. و «الأراذل» جمع أَرَذَل، وقيل: جمع أَرَذُل، وأَرَذُل جمع رَذُل، وكان اللازم - على هذا - أن يقال: أراذيل، وإذا ثبتت الباء في جمع «صُنُوفٍ» فأحرى ألا تُروى في موضع استحقاقها وهم سفلة الناس وَمَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ ولا يبالي ما يقول ولا ما يقال له.

وقرأ الجمهور: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ بياء دون همز، من: «بَدَأَ يَبْدُو»، ويحتمل أن يكون من «بَدَأَ مَسْهَلًا»، وقرأ أبو عمرو، وعيسى الثقفي «بَادِئُ الرُّسُلِ» بالهمز من «بَدَأَ يبدأ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كذِبَ ﴿٢٨﴾ فيحتمل أنهم خاطبوا نوحاً ومن آمن معه من قومه، أي: أنتم كاذبون في تصديقكم هذا الكاذب، وقولكم: إنه نبي مرسل. ويحتمل أنهم خاطبوا نوحاً وحده فيكون من باب قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَعْتَ﴾.

﴿٢٨﴾ - ﴿٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية كأنه قال: أرأيتم إن هداني الله وأضلكم، أجبركم على الهدى وأنتم كارهون له معرضون عنه؟ واستفهامه في هذه الآية أولاً وثانياً على جهة التقرير، وعبرة نوح عليه السلام كانت بِلُغَتِهِ دالة على المعنى القائم بنفسه، وهذا هو المفهوم من هذه العبارة العربية، فبهذا استقام أن يقال كذا وكذا، إذ القول ما أفاد المعنى القائم بنفسه.

وقوله: ﴿عَلَىٰ يَتَنَبَّأُ﴾. أي: على أمر بين جللي، والهاء في ﴿يَتَنَبَّأُ﴾ للمبالغة كعلامة ونسابة. و «إِيتَاؤُهُ الرُّحْمَةَ» هو هدايته للبيئة، والمشار إليه بهذا كله النبوة والشرع. وقوله: ﴿يَنْ عِنْدِي﴾ تأكيد، كما قال: ﴿يَبْلُغُ بِحَبَابِجٍ﴾ ونحوه، وفائدته رفع الاشتراك ولو بالاستعارة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَقَعِيثٌ﴾، ولذلك وجهان من المعنى: أحدهما: خَفِيثٌ، ولذلك يقال للسحاب: العماء لأنه يخفي ما فيه، كما يقال له: الغمام لأنه يخفه، ومنه قوله ﷺ: «كان الله قبل أن يخلق الأشياء في عمام». والمعنى الثاني أن تكون الإرادة: «فَقَعِيثٌ أنتم عنها» لكنه قلب، كما تقول العرب: «أدخلت القلنسوة في رأسي»، ومنه قول الشاعر:

أحدهما: أن يتعلق بـ ﴿زَيْلِكَ﴾، أي: وما نراك بأول نظر وأقل فكرة - وذلك هو بادية الرأي - أي: إلا ومتبعوك أراذلنا.

والثاني: أن يتعلق بقوله: ﴿اتَّبَعَكَ﴾، أي: وما نراك أتبعك بادي الرأي إلا الأراذل، ثم يحتمل - على هذا - قوله: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ معنيين: أحدهما: أن يريد: أتبعك في ظاهر أمرهم، وعسى أن بواطنهم ليست معك، والثاني: أن يريد: أتبعوك بأول نظر وبالرأي البادي دون تعقب، ولو تثبتوك

لم يتبعوك، وفي هذا الوجه ذم الرأي الغير المروي.

والوجه الثالث من تعلق قوله: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أن يتعلق بقوله: ﴿أَرَادِلُنَا﴾، أي: الذين هم أراذلنا بأول نظر فيهم، وببادي الرأي يُعلم ذلك منهم.

ويحتمل أن يكون قولهم: «بادي الرأي» وصفاً منهم لنوح، أي: تدعي عظيماً وأنت مكشوف الرأي لا حصافة لك، ونصبه على الحال وعلى الصفة.

ويحتمل أن يكون اعتراضاً في الكلام مخاطبة لمحمد ﷺ، ويجيء جميع هذا سته معان، ويجوز التعلق في هذا الوجه بـ ﴿قَالَ﴾.

ومعنى ﴿وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَتْلٍ﴾، أي: ما تهم شيء تستحقون به الاتباع والطاعة. ثم قال: ﴿بَلْ نُنَبِّئُكُمْ

وَنَقُولُ لَا اسْتُلْجَمُ عَلَيْهٖ مَا لَآ إِنَ أُجْرَىٰ لَآ عَلَىٰ اللّٰهُ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مَّكْفُورٌ بِهِمْ وَلَكِنِّي أَنذَرُكُمْ قَوْمًا يَّجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُونَ مَن يُضَرِّفُ مِن اللّٰهِ لَدِينَهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللّٰهِ وَلَا أَتَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّٰهُ خَيْرًا ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا لَبِئْسَ مَا جَدَلْنَا مَا كُنَّا نَمَنُّ بِكَ وَكَانَ ظَنُّنَا أَنَّكَ بَيِّنٌ مِّنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمُ بِهِ اللّٰهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُتَّبِعٍ ۖ وَلَا يَتَّبِعُنِي فَصُحِّحْ إِن أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّٰهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ يُغْوِيكُمْ وَلَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُرْسِلُ الرُّسُلَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ إِن أَفَرَّقْتُمُ بَيْنَ الْيَاسِرِ وَالْأَنْبَرِ وَمَا تَجْحَرُونَ ﴿٣٤﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوْحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِرَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَتَّبِعْهُمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَصْحَ الْفَالِكِ وَأَعْيُنَا وَوَحْيَنَا وَلَا شَخْطِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْفَرُونَ ﴿٣٦﴾

وبين القراءتين اختلاف في المعنى يعطيه التدبر فتركت التطويل ببسطه. والعرب تقول: «أما بادية بذي فإني أحمد الله»، و «أما بادي بذي»، بغير همز فيها، وقال الرازي:

وَقَدْ عَلَّشْنِي ذُرَّةَ بَادِي بَدِي
وقرأ الجمهور بهمز: ﴿الرَّأْيِ﴾ وقرأ أبو عمرو بترك الهمز، و﴿بَادِي﴾ نصب على الظرف، وصح أن يكون اسم الفاعل ظرفاً كما يصح في «قريب» ونحوه، وفعل وفاعل متعاقبان أبداً على معنى واحد في المصدر، كقولك: جهد نفسي محب كذا وكذا. وتعلق قوله: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ يحتمل ستة أوجه:

تَرَى الثُّورَ فِيهَا يَدْخُلُ الظِّلُّ رَأْسَهُ
وسائره بادٍ إلى الشمس أجمَعُ
قال أبو علي: وهذا مما يقلب إذ
ليس فيه إشكال، وفي القرآن: ﴿فَلَا
تَحْسَبَنَّ اللَّهَ خَائِلًا فِيَّ وَعَدِهِ رُسُلُهُ﴾.

وقرأ حفص، وحزمة، والكسائي:
﴿فَتَبَيَّنَ﴾ بضم العين وتشديد الميم
على بناء الفعل للمفعول، وهذا إنما
يكون من الإخفاء، ويحتمل القلب
المذكور. وقرأ الأعمش، وغيره:
﴿فَمَنَّاها عَلَيْكُمْ﴾، قال أبو حاتم:
روى الأعمش عن ابن وثاب:
﴿وَعَمِيثٌ﴾ بالواو خفيفة.

وقوله: ﴿أَتَلَذَّيْكُمُهَا﴾ يريد إلزام جبر
كالقتال، وأما إلزام الإيجاب فهو
حاصل. وقال النحاس: معناه:
أنوجبها عليكم؟ وقوله في ذلك
خطأ. وفي قراءة أبي بن كعب:
﴿أَتَلَذَّيْكُمُهَا مِنْ شَطَرِ أَنْفُسِنَا﴾،
ومعناه من تلقاء أنفسنا ورؤي عن ابن
عباس أنه قرأ ذلك ﴿مِنْ شَطَرِ
قُلُوبِنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْتَوِرَ لَّا أَتَلَّكُمْ
عَلَيْهِ مَالًا﴾ الآية. الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾
عائد على التبليغ، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا
بَطَّارِدُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقتضي أنهم
طلبوا منه طرد الضعفاء الذين بادروا
إلى الإيمان به نظير ما اقترحت
قريش على رسول الله ﷺ بطرد
أتباعه بمكة الذين لم يكونوا من
قريش. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ ثُلَّةٌ بَلَّغُوا رَيْبَهُمْ
تَنْبِيهَ عَلَى الْعُودَةِ إِلَى اللَّهِ وَلِقَاءِ
جَزَائِهِ، المعنى: فيوصلهم إلى حقهم
عندي إن ظلمتهم بالطرد، ثم
وصفهم بالجهل في مثل هذا الاقتراح
ونحوه.

وقوله: ﴿وَيَنْتَوِرَ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾
الآية. هو استفهام بمعنى تقرير
وتوقيف، أي: لا ناصر يدفع عني
عقاب الله إن ظلمتهم بالطرد عن
الخير الذي قبلوه، ثم وقفهم بقوله:
﴿إِنَّا نَذْكُرُونَ﴾، وعرض عليهم
النظر المؤدي إلى صحة هذا
الاحتجاج.

﴿٣١﴾ - تفسير قوله عز وجل:
قوله: ﴿لَا أَقُولُ﴾ عطف على
قوله: ﴿لَا أَتَلَّكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾،
ومعنى هذه الآية: إني لا أموه
عليكم، ولا أتعاطى غير ما
أهلني الله له، فلست أقول: عندي
خزائن الله، يريد: القدرة التي يوجد
بها الشيء بعد حال عدمه. وقد
يمكن أن يكون من الموجودات
كالرياح والماء، ونحوه كثير
باختراع الله له، فإن سمي ذلك -
على جهة التجوز - مختزناً فيشبه، ألا
ترى المروي في أمر ريح عاد أنه فتح
عليهم من الريح قدر حلقة الخاتم،
ولو كان على قدر منخر الثور لأهلك
الأرض، ورؤي أن الريح عتت على
الملائكة الموكلين بتقديرها فلذلك
وصفها الله تعالى بالعتو، وقال ابن
عباس وغيره: عتت على الخزان،
فهذا ونحوه يقتضي أن ثم خزائين.
ثم قال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْقَتِيبَ﴾، ثم
انحط عن هاتين فقال: ﴿لَا أَقُولُ إِنْ
مَلَكَتْ﴾، وظاهر هذه الآية فضل
الملك على البشر وعلى النبي ﷺ،
وهي مسألة اختلاف، وظاهر القرآن
على ما قلنا. وإن أخذنا قوله: ﴿لَا
أَقُولُ إِنْ مَلَكَتْ﴾ على حد أن لو
قال: «ولا أقول إني كوكب أو

نحوه» زالت طريقة التفضيل، ولكن
الظاهر هو ما ذكرنا.

و ﴿تَزْدَرِي﴾ أصله: «تزتري» -
تفتعل - من: زرى يزري، ومعنى
﴿تَزْدَرِي﴾: تحتقر، و «الخير» هنا
يظهر فيه أنه خير الآخرة، اللهم إلا
أن يكون ازدراؤهم من جهة الفقر،
فيكون الخير: المال، وقد قال بعض
المفسرين: حيشا ذكر الله الخير في
القرآن فهو المال، وفي هذا الكلام
تحامل، والذي يشبه أن يقال: إنه
حيشا ذكر الخير فإن المال يدخل
فيه.

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾
تسليم لله تعالى، أي: لست أحكم
عليهم بشيء من هذا، وإنما يحكم
عليهم بذلك ويخرج حكمه إلى حيز
الوجود الله تعالى الذي يعلم ما في
نفوسهم ويجازيهم بذلك، وقد قال
بعض المتأولين: هي رد على
قولهم: «أتبعك أراذلنا على ما يظهر
منهم» حسب ما تقدم من بعض
تأويلات تلك الآية آنفاً. فالمعنى:
لست أنا أحكم عليهم بلأ يكون لهم
خير لظنكم بهم أن بواطنهم ليست
كظواهرهم، الله أعلم بما في
نفوسهم. ثم قال: ﴿إِنِّي إِذًا لَوْ
فَعَلْتُ ذَلِكَ لَخَلَّيْتُ الَّذِينَ
يُضَعُونَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ».

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْتَبِهُ قَدْ
جَدَدْنَاكَ﴾ الآية. معناه: قد طال
منك هذا الجدل، وهو المراجعة في
الحجة والمخاصمة والمقابلة بالأقوال
حتى تقع الغلبة، وهو مأخوذ من
الجدل، وهو شدة الفتل. ومنه جَبَلٌ
مجدول، أي: مُمَرَزٌ، ومنه قيل

للمصقر: أجدل، لشدة بُنيته وقتل أعضائه، والجدال: فِعَالٌ مصدر فاعِلٌ، وهو يقع من اثنين، ومصدر فاعِلٌ يأتي على فَعَالٍ وفِعَالٍ ومفاعلة، فتركت الياء من فِعَالٍ ورفضت. ومن الجدال ما هو محمود، وذلك إذا كان مع كافر حربي في منعته ويطمع بالجدال أن يهتدي، ومن ذلك هذه الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بَالِيٍّ مِنْ أَصْنَى﴾، إلى غير ذلك من الأمثلة، ومن الجدال ما هو مكروه، وهو ما يقع بين المسلمين بعضهم في بعض في طلب علل الشرائع، وتصور ما يخبر به الشرع من قدرة الله، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك، وكرهه العلماء، والله المستعان. وقرأ ابن عباس: ﴿قَدْ جَادَلْتُنَا فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا﴾ بغير ألف، وفتح الجيم، ذكره أبو حاتم.

والمراد بقولهم: ﴿فَأَيْنَا يَمَّا تَمِدَّنَا﴾ العذاب والهلاك. والمفعول الثاني لـ ﴿تَمِدَّنَا﴾ مضمَرٌ تقديره: بما تعدناه. ولما كان الكلام يقتضي العذاب جاز أن يستعمل فيه الوعد.

(٣٣) - (٣٤) تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ليس ذلك بيدي ولا إليّ توفيته، وإنما ذلك بيد الله، وهو الآتي به إن شاء وإذا شاء، ولستم من المنعة بحال من يفلت أو يعتصم بمُنْجٍ، وإنما أنتم في قبضة القدرة وتحت ذِلة التملك، وليس نصحي بنافع، ولا إرادتي الخير لكم مغنية إذا كان الله تعالى قد أراد بكم الإغواء والإضلال والإهلاك، والشرط الثاني اعتراض بين الكلام،

وفيه بلاغة في اقتران الإرادتين، وأن إرادة الشر غير مغنية، وتعلق هذا الشرط هو بـ ﴿تَصْحِي﴾، وتعلق الآخر هو بـ ﴿لَا يَنْفَعُ﴾ والتضخُّع هو سَدُّ ثَلَمِ الرَّأْيِ للمنصوح وترقيعُه، وهو مأخوذ من: تَصَحَّ الشَّوْبُ إذا خَاطَهُ. والمنصَح: الإبرة، والخَيْطُ يقال له مُنْصَحٌ وَنَصَاحٌ.

وقالت فرقة: معنى قوله: ﴿يُنَوِّيكُمْ﴾: يُضِلُّكُمْ، من قولهم: غَوَى الرجل يَغْوَى، ومنه قول الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَى خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسُ أَمْرَهُ
وَمَنْ يَغْوُ لَا يَغْدُمُ عَلَى الْغَيِّ لَانِمًا

وإذا كان هذا معنى اللفظة ففي الآية حجة على المعتزلة القائلين: إن الضلال إنما هو من العبد. وقالت فرقة: معنى قوله: ﴿يُنَوِّيكُمْ﴾: يُهْلِكُكُمْ، والغَوَى: المرض

والهلاك، وفي لغة طيء: أصبح فلان غاويًا، أي مريضًا، والغَوَى: بَشَمُ الفصيل، قاله يعقوب في الإصلاح، وقيل: فَقْدُهُ اللبن حتى يصوت جوعاً، قاله الفراء وحكاه الطبري، يقال: غَوِيَ يَغْوَى. وحكى الزهراوي أنه الذي قطع عنه اللبن حتى كاد يهلك ولما يهلك بعد. فإذا كان هذا معنى اللفظة زال موضع النظر بين أهل السُّنَّة والمعتزلة، وبقي الاحتجاج عليهم بما هو أبين من هذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الآية ونحوها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واعتقد مكِّي أن للمعتزلة تعلقاً وحجة بالغة بهذا التأويل، فردَّ عليه وأفرط

حتى أنكّر أن يكون الغوى بمعنى الهلاك موجوداً في لسان العرب.

وقوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ تنبيه على المعرفة بالخالق. وقوله: ﴿وَالْيَاثِرِ تُرْجِعُونَ﴾ إخبارٌ في ضمنه وعيد وتخويف.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ الآية. قال الطبري وغيره من المتأولين والمؤلفين في التفسير: إن هذه الآية اعترضت في قصة نوح عليه السلام، وهي في شأن محمد ﷺ مع كفار قريش، وذلك أنهم قالوا: افترى القرآن وافتري هذه القصة على نوح، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لو صح بسند وجب الوقوف عنده، وإلا فهو يحتمل أن يكون في شأن نوح عليه السلام ويبقى اتساق الآية مطرداً، ويكون الضمير في قوله: ﴿افْتَرَيْنَاهُ﴾ عائد إلى العذاب الذي توعدهم به، أو على جميع أخباره، وأوقع الافتراء على العذاب من حيث يقع على الإخبار به، والمعنى: أم يقول هؤلاء الكفرة: افترى نوح هذا التوعد بالعذاب وأراد الإرباب علينا بذلك. ثم يطرد باقي الآية على هذا.

و ﴿أَنْزَ﴾ هي التي بمعنى «بل»، و «الْإِجْرَامُ» مصدر أَجْرَمَ يُجْرِمُ إذا جَنَى، يقال: جَرَمَ وَأَجْرَمَ بمعنى، ومن ذلك قول الشاعر:

طَرِيدٌ عَشِيرَةٌ وَرَهِيْنٌ ذَنْبٍ
بِمَا جَرَمَتْ يَدِي وَجَنَى لِسَانِي
(٣٥) - (٣٦) تفسير قوله عز وجل: قرأ أبو البرهفسم: ﴿وَأَوْحَى﴾ بفتح

الهمزة على إسناد الفعل إلى الله عز وجل، ﴿أَنْتَ﴾ بكسر الهمزة، وقيل لنوح هذا بعد أن طال عليه كفر القرن بعد القرن به، وكان يأتيه الرجل بانه فيقول: يا بُنَيَّ لا تُصَدِّقْ هذا الشيخ فهكذا عهدَ أبي وجدي كذاباً مجنوناً، رواه عبيد بن عمير وغيره. وهذه الآية هي التي أياست نوحاً عليه السلام من قومه، فروي أنه لما أوحى إليه ذلك دعا فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

و ﴿بَنِيَّ﴾ من البؤس تَفْتَعَل، ومعناه: لا تحزن نفسك، ومنه قول الشاعر، وهو لبيد بن ربيعة:

فِي مَأْتَمٍ كَنِجَاجٍ صَا
رَةً يَبْتَلِشْنَ بِمَا لَقِينَا
صَارَةً: موضع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي أمر نوح عليه السلام تدافع في ظاهر الآيات والأحاديث ينبغي أن نلخص القول فيه، وذلك أن ظاهر أمره أنه عليه السلام دعا على الكافرين عامة من جميع الأمم، ولم يخص قومه دون غيرهم، وتظاهرت الروايات وكتب التفسير بأن الغرق نال جميع أهل الأرض، وعمّ الماء جميعها، قاله ابن عباس وغيره، ويوجب ذلك أمر نوح بحمل الأزواج من الحيوان، ولولا خوف فناء أجناسها من جميع الأرض ما كان ذلك، فلا يتفق لنا أن نقول: إنه لم يكن في الأرض غير قوم نوح في ذلك الوقت، لأنه يجب أن يكون نوح بعث إلى جميع الناس، وقد صح أن هذه الفضيلة خاصة لمحمد

عليه الصلاة والسلام بقوله: «أُوتِيتْ خَفْسًا لَمْ يُؤْتَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي»، فلا بد أن تقدر كثيراً من الأمم كان في ذلك الوقت، وإذا كان ذلك فكيف استحقوا العقوبة في جمعهم ونوح عليه السلام لم يبعث إلى كلهم؟ وكنا نقدر هنا أن الله تبارك وتعالى بعث إليهم رسلاً قبل نوح عليه السلام فكفروا بهم واستمر كفرهم لولا أننا نجد الحديث ينطق بأن نوحاً هو أول الرسل إلى أهل الأرض، ولا يمكن أن نقول: «عذبوا دون رسالة» ونحن نجد في القرآن: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

والتأويل المخلص من هذا كله هو أن نقول: إن نوحاً عليه السلام هو أول رسول بعث إلى كفار من أهل الأرض ليصلح الخلق وبالحق في التبليغ ويتحمل المشقة من الناس - بحسب ما ثبت في الحديث - ثم نقول: إنه بعث إلى قومه خاصة بالتبليغ والدعاء والتنبيه، وبقي أمم في الأرض كثير لم يكلف القول لهم، فتصح الخاصة لمحمد ﷺ، ثم نقول: إن الأمم التي لم يُبعث ليخاطبها إذا كانت بحال كفر وعبادة أوثان، وكانت الأدلة على الله تعالى منصوبة معرضة للنظر، وكانوا متمكنين من النظر من جهة إدراكهم، وكان الشرع - يبعث نوح - موجوداً مستقراً، فقد وجب عليهم النظر، وصاروا بتركه بحال من يجب تعذيبه، فإن هذا رسول مبعوث وإن كان لم يبعث إليهم معينين، ألا ترى أن لفظ الآية إنما هو: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، أي: حتى

نوجده، لأن بعثة الأنبياء إلى قوم مخصوصين إنما هو في معنى القتال والشدة، وأما من جهة بذل النصيحة وقبول من آمن فالتناس أجمع في ذلك سواء، ونوح عليه السلام قد لبث ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو إلى الله، فغير ممكن أن لم تبلغ نبوءته للقريب والبعيد، ويجيء تعذيب الكل بالغرق بعد بعثة رسول وهو نوح ﷺ. ولا يعارضنا مع هذه التأويلات شيء من الحديث ولا الآيات، والله الموفق للصواب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْنَحَ الْفُلْكَ﴾ عطف على قوله: ﴿فَلَا يَنْتَهِسْ﴾. والفلك: السفينة، وجمعها أيضاً فُلُكٌ، وليس هو لفظاً للواحد والجمع، وإنما هو فُعل وجمع على فُعل، ومن حيث جاز أن يجمع فُعل على فُعل كأسد وأسد جاز أن يجمع فُعل على فُعل، فظاهر لفظ الجمع فيها كظاهر لفظ الواحد وليس به، تدل على ذلك درجة التشنية التي بينهما، لأنك تقول: فُلُكٌ وفُلُكَانٌ وفُلُكٌ، فالحركة في الجمع نظير ضمة الصاد إذا ناديت: «يا منصور»، تريد: يا منصور، فرخمت على لغة من يقول: «يا حاراً» بالضم، فإن ضمة الصاد هي في اللفظ كضمة الأصل، وليست بها في الحكم.

وقوله: ﴿يَأْتِيُنَا﴾ يمكن - فيما يتأول - أن يريد به: بمرأى منا وتحت إدراك، فتكون عبارة عن الإدراك والرعاية والحفظ، ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير، كما قال تعالى: ﴿فَيَمَّ الْقَدِيرِينَ﴾، فرجع معنى الأعين في هذه وفي غيرها إلى

خمسون ذراعاً وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، ذكره قتادة، وروي غير هذا مما لم يثبت فاختصرت ذكره، وذكر الطبري حديث إحياء عيسى ابن مريم لِسَامِ بْنِ نُوحٍ وسؤاله إياه عن أمر السفينة، فذكر أنها ثلاث طبقات: طبقة للناس، وطبقة للبهائم، وطبقة للطير، إلى غير ذلك في حديث طويل.

و «السَّالَا» هنا: الجماعة، و «سَخَّرُوا» معناه: استجملوه، وهذا الاستجهاال إن كان الأمر كما ذكر أنهم لم يكونوا قبل رأوا سفينة ولا كانت فوجه الاستجهاال واضح، وبذلك تظاهرت التفسير، وإن كانت السفائن حينئذ معروفة فاستجملوه في أن صَنَعَهَا في قرية لا قرب لها من البحر. وروي أنهم كانوا يقولون له: صرّت نجاراً بعد النبوة؟

وقوله: «وَإِنَّا نَسْخَرُهُمْ مِنْكُمْ» قال الطبري: يريد: في الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل الكلام - بل هو الأرجح - أن يريد: إنا نسخر منكم الآن، أي نستجملكم لعلنا بما أنتم عليه من العُزِّ والكون بملج عذابه. ثم جاء قوله: «نَسَخَرَهُمْ مِنْكُمْ» تهديداً. و «السُّخْرَى» الاستجهاال مع استهزاء، ومصدره: «سُخِرِي» بضم السين، والمصدر من السُّخْرَةِ والسُّخْرَى «سُخِرِي» بكسرهما.

والعذاب «المخزي» هو العُزُّ، و «المقيم» هو عذاب الآخرة. وحكى الزهراوي أنه يُقْرَأُ: «وَيُحْلَلُ»، ويُقْرَأُ: «وَيُحْلَلُ» بكسرهما بمعنى: ويجب. و «مَنْ» في موضع نصب

الحفظ لا سرعة الجري، والحديث الذي تضمن أنها كجَوْجُ الطائر أصبح ومعناه أظهر، لأنها لو كانت مربعة لم تكن فُلُكاً، بل كانت وعاءً فقط، وقد وصفها الله تعالى بالجري في البحر، وفي الحديث: «كَانَ رَأَى سَفِينَةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام»، والراز: القِيمُ بعمل السفن، ومن فسر قوله: «وَيَحْيَا» أي: «بأمرنا لك»، فذلك ضعيف، لأن قوله: «وَأَصْنَعَ الْفُلَّكَ» مُغْنٍ عَنْ ذَلِكَ.

و «أَلَيْكَ ظَلَمُوا» هم قومه الذين أعرضوا عن الهداية حتى عَمَتَهُمُ النِّقْمَةُ. قال ابن جريج: وهذه الآية تقدم الله فيها إلى نوح ألا يشفع فيهم.

٣٨ - تفسير قوله عز وجل: التقدير: فشرع يصنع، فحكيت حال الاستقبال إذ في خلالها وقع مرورهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: صنع نوح عليه السلام الفلك بيفاع دمشق، وأخذ عودها من لبنان، وعودها من الشمشاد وهو البقص، وروي أن عودها من الساج، وأن نوحاً عليه السلام اغترسه حتى كبر في أربعين سنة، وروي أن طول السفينة ألف ذراع ومائتان، وعرضها ستمائة ذراع، ذكره الحسن بن أبي الحسن. وقيل: طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها

وَصْنَعَ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ سَخِرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُهُمْ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلْ عَلَيْهِ عِدَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِنْ لَأَقْبِلَ اللَّهُ إِلَيْهِ قَلِيلًا ﴿٤٠﴾ وَقَالَ أَرْكَبْ فِيهَا بِإِسْمِ اللَّهِ تُخَرِّبُهَا وَمُتْرَسِئًا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَبِهِ تَجْرَى بِهَمَزٍ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَكَأَذَى نُوحٍ أَنَّهُ كَانَ فِي مَقَرٍّ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعْنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَضِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسِّمَاءَهُ أَقْبِلِي وَغِصَّ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَكَأَذَى نُوحٍ رَبِّهِ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي أَبْتِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾

٢٢٦

معنى (عين) في قوله: «وَأَصْنَعَ عَلَى عَيْنِي»، وذلك كله عبارة عن الإدراك وإحاطته بالمدركات، وهو تبارك وتعالى مُتَزَهٍ عن الحواس والتشبيه والتكييف لا رَبَّ غيره. ويحتمل قوله: «وَأَعْيُنًا» أي: بملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على مواضع حفظك ومعونتك، فيكون الجمع - على هذا - للتكثير. وقرأ طلحة بن مصرف: «وَأَعْيُنًا» مدغماً.

وقوله: «وَيَحْيَا» معناه: وتعليمنا لك صورة العمل بالوحي، وروي في ذلك أن نوحاً عليه السلام لما جهل كيفية صنع السفينة أوحى الله إليه أن اصنعها على مثال جَوْجِ الطير، إلى غير ذلك مما علمه نوح من عملها، فقد روي أيضاً أنها كانت مربعة الشكل طويلة في السماء ضيقة الأعلى، وأن الغرض منها إنما كان

بـ ﴿تَمَلَّكُوا﴾، وجائز أن يكون ﴿تَمَلَّكُوا﴾ بمثابة «تعرفون» في التعدي إلى مفعول واحد، وجائز أن تكون التعدية إلى مفعولين واقتصر على الواحد.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ الآية. الأمر هنا يحتمل أن يكون واحد الأمور، ويحتمل أن يكون مصدر أمر، فمعناه: أمرنا للماء بالفوران، أو للسحاب بالإرسال، أو للملائكة بالتصرف في ذلك. ونحو هذا مما يقدر في النازلة. و﴿وَقَارَ﴾ معناه: انبعث بقوة، واختلف الناس في ﴿الْتَوَّرَ﴾؛ فقالت فرقة - وهي الأكثر - منهم ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: هو تنور الخبز الذي يوقد فيه. وقالت فرقة: كانت هذه أمانة جعلها الله لنوح، أي: إذا فار التثور فاركب في السفينة، ويشبه أن يكون وجه الأمانة أن مستوقد النار إذا فاز بالماء فغيّره أشد فوراناً وأحرى بذلك. وروي أنه كان تثور آدم خلّص إلى نوح عليهما السلام فكان يوقد فيه. وقال النقاش: اسم المستوقد التثور بكل لغة، وذكر نحو ذلك ابن قتيبة في الأدب عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد.

وقيل: إن موضع تثور نوح عليه السلام كان بالهند، وقيل: كان في موضع مسجد الكوفة، وقيل: كان في ناحية الكوفة، قاله الشعبي، ومجاهد، وقيل: كان في الجهة الغربية من قبلة المسجد بالكوفة، وقال ابن عباس، وعكرمة: التثور:

وجه الأرض، ويقال له: تثور الأرض. وقال قتادة: التثور: أعالي الأرض، وقالت فرقة: التثور: عين بناحية الجزيرة. وقال الحسن بن أبي الحسن: التثور: مجتمع ماء السفينة فار منه الماء وهي بعد في اليبس. وقالت فرقة: التثور هو الفجر، المعنى: إذا طلع الفجر فاركب في السفينة، وهذا قول روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إلا أن التصريف يضعفه، وكان يلزم أن يكون التثوير، وقالت فرقة: الكلام مجاز، وإنما أراد غلبة الماء وظهور العذاب، كما قال النبي ﷺ لشدة الحرب: «حمي الوطيس» والوطيس أيضاً مستوقد النار، فلا فرق بين «حَمِيٍّ» و«قَارَ» إذ يستعملان في النار، قال الله تعالى: ﴿سِعُوا لَهَا شَيْبًا وَهِيَ تَفُورٌ﴾ فلا فرق بين الوطيس والتثور.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿وَمِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ﴾ بتنوين ﴿كُلِّ﴾ وقرأ الباقون: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ بإضافة ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿زَوْجَيْنِ﴾، فمن قرأ بالتثوين حذف المضاف إليه، التقدير: من كل حيوان أو نحوه، وأعمل «الحمل» في ﴿زَوْجَيْنِ﴾، وجاء قوله: ﴿آتَيْنِ﴾ تأكيداً، كما قال: ﴿إِلَهُنَّ آتَيْنِ﴾. ومن قرأ بالإضافة فأعمل «الحمل» في قوله: ﴿آتَيْنِ﴾. وجاء قوله: ﴿زَوْجَيْنِ﴾ بمعنى العموم، أي: من كل ماله ازدواج، هذا معنى قوله: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾، قاله أبو علي وغيره. ولو قلنا المعنى: أحمل من كل زوجين حاصلين اثنين لوجب أن

يحمل من كل نوع أربعة. والزوج يقال - في مشهور كلام العرب - للواحد مما له ازدواج، فيقال: هذا زوج هذا، وهما زوجان، وهذا هو المهيح في القرآن في قوله تعالى: ﴿تَسَيِّئَ آزْوَاجَ﴾، ثم فسرها، وكذلك هو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾. قال أبو الحسن الأخفش في كتابه «الحجة»: وقد يقال في كلام العرب للثنين: زَوْجٌ، ومن ذلك قول لبيد:

مِنْ كُلِّ مَخْفُوفٍ يُظِلُّ عَصِيئَهُ
زَوْجٌ عَلَيْهِ، كَلَّةٌ وَقَرَامُهَا
وهكذا يأخذ العديون. والزوج أيضاً في كلام العرب: النوع، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، وقوله عز وجل: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.

وروي في قصص هذه الآية أن نوحاً عليه السلام كان يأتيه الحيوان فيضع يمينه على الذكر. ويساره على الأنثى، وروي أن أول ما دخل في السفينة الذرّ وآخر ما دخل الحمار، فتمسك الشيطان بذنبه، فزجره نوح عليه السلام فلم ينبعث، فقال له: «ادخل ولو كان معك الشيطان»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: زلت هذه الكلمة على لسانه فدخل الشيطان حينئذ، وكان في كوثل السفينة - أي عند مؤخرها - وقيل: كان على ظهرها، ورؤي أن نوحاً عليه السلام آذاه تنن الزبل والعذرة، فأوحى الله إليه أن امسح على ذنب الفيل ففعل، فخرج من الفيل - وقيل: من أنفه - خنزير وخنزيرة، فكفيا نوحاً وأهله ذلك الأذى، وهذا

يجيء منه أن نوع الخنازير لم يكن قبل ذلك، وزوي أن الفأر آذى الناس في السفينة بقرض حبالها وغير ذلك، فأمر الله نوحاً أن يمسح على جبهة الأسد ففعل، فعتس فخرج منه هراً وهرة، فكفياهم الفأر، وزوي أيضاً أن الفأر خرج من أنف الخنزير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله قصص لا يصح إلا لو استند، والله أعلم كيف كان.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطف على ما عمل فيه ﴿أَجْمَلُ﴾، والأهل هنا: القرابة، وبشرط من آمن منهم خصصوا تشريفاً، ثم ذكر من آمن وليس من الأهل، واختلف في الذي ﴿سَقَى عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ فقليل: هو ابنه يام، وقال النقاش: اسمه كنعان، وقيل: هي امرأته «والعة»، هكذا اسمها بالعين غير منقوطة، وقيل: هو عموم في من لم يؤمن من أهل نوح وعشيرته. و﴿الْقَوْلُ﴾ ها هنا معناه: القول بأن يعذب، وقوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ عطف على قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾. ثم قال إخباراً عن حالهم: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ واختلف في ذلك القليل؛ فقليل: كانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة، وقيل: كان جميعهم ثلاثة وثمانين، وقيل: كانوا ثمانين في الكل، قاله السدي، وقيل: عشرة، وقيل: ثمانية، قاله قتادة، وقيل: سبعة، والله أعلم. وقيل: كان في السفينة جُزْهُم، وقيل: لم ينج من الغرق أحد إلا عوج بن عنق، وكان في السفينة مع نوح عليه السلام ثلاثة من

بنيه: سام، وحام، ويافث، وغرق يام، وزوي عن النبي ﷺ أنه قال: «سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش».

﴿٤١﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وقال نوح - حين أمر بالحمل في السفينة - لمن آمن معه: ﴿أَتَكْبُرُ فِيهَا﴾، فأثت الضمير إذ هي سفينة، لأن «الْفُلْكَ» المذكور مذكّر، وفي مصحف أبي: ﴿على اسم الله﴾، وقوله: ﴿يَسْمِ اللَّهَ﴾ يصح أن يكون في موضع الحال من الضمير الذي في قوله: ﴿أَتَكْبُرُ﴾، كما تقول: «خرج زيد بشيابه وبسلاحه»، أي: اركبوا متبركين بالله تعالى، ويكون قوله: ﴿يَجْرِيهَا وَتَرْسُهَا﴾ ظرفين، أي: وقت إجرائها وإرسائها، كما تقول العرب: «الحمد لله سرازك وإهلالك، وخفوق النجم، ومقدم الحاج»، فهذه ظرفية للزمان، والعامل في هذا الظرف ما في ﴿يَسْمِ اللَّهَ﴾ من معنى الفعل. ويصح أن يكون قوله: ﴿يَسْمِ اللَّهَ﴾ في موضع خبر، و﴿يَجْرِيهَا وَتَرْسُهَا﴾ ابتداء مصدران كأنه قال: «اركبوا فيها فإن ببركة الله إجرائها وإرسائها»، وتكون هذه الجملة - على هذا - في موضع حال من الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾، ولا يصح أن يكون حالاً من الضمير في قوله: ﴿أَتَكْبُرُ﴾ لأنه لا عائد في الجملة يعود عليه، وعلى هذا التأويل قال الضحاك: إن نوحاً كان إذا أراد جري السفينة قال: «بسم الله» فتجري، وإذا أراد وقوفها قال: «بسم الله» فتقف.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم - في رواية أبي بكر - وابن عامر: ﴿مُخْرَاها وَمَرْسَاها﴾ بضم الميمين على معنى: إجرائها وإرسائها، وهي قراءة مجاهد، وأبي رجاء، والحسن، والأعرج، وشيبة، وجمهور الناس، ومنه قول لبيد:

وَعَمِرْتُ حَرْساً قَبْلَ مُخْرَى دَاجِسٍ
لَوْ كَانَ لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ خُلُودُ
وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿يَجْرِيهَا﴾ بفتح الميم وكسر الراء، وكلهم ضم الميم من ﴿وَمَرْسَها﴾، وقرأ الأعمش، وابن مسعود: ﴿مُخْرَاها وَمَرْسَاها﴾ بفتح الميمين، وذلك من الجري والرسو، وهذه ظرفية مكان، ومن ذلك قول عترة:

قَصَبَرْتُ نَفْساً عِنْدَ ذَلِكَ حُرَّةً
تَرْسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلُّعُ
واختار الطبري قراءة ﴿يَجْرِيهَا وَتَرْسُها﴾ بفتح الميم الأولى وضم الثانية، ورجحها بقوله تعالى: ﴿زَيْقُ تَجْرَى﴾ ولم يقرأ أحد «تُجْرِي»، وهي قراءة ابن مسعود أيضاً، رواها عنه أبو وائل، ومسروق. وقرأ ابن وثاب، وأبو رجاء العطاردي، والثخفي، والجحدري، والكلبي، والضحاك بن مزاحم، ومسلم بن جندب، وأهل الشام: ﴿مُخْرِيها وَمَرْسِيها﴾، وهما - على هذه القراءة - صفتان لله تعالى عائدتان على ما ذكره في قوله: ﴿يَسْمِ اللَّهَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَحَى لَنُفُورٍ رَّجِمَ﴾ تنبيه لهم على قدر نعم الله عليهم ورحمته لهم وستره عليهم وغفرانه ذنوبهم بتوبتهم وإتائهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْجُرْ بِهِنَّ﴾ الآية. روي أن السماء أمطرت بأجمعها حتى لم يكن في الهواء جانب لا مطر فيه، وتفجرت الأرض كلها بالنبع، فهكذا كان التقاء الماء، وروي أن الماء علا على الجبال وأعالي الأرض أربعين ذراعاً، وقيل: خمسة عشرة ذراعاً. وأشار الزجاج وغيره إلى أن الماء انطبق، ماء الأرض وماء السماء فصار الكل كالبحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وأين «كان الموج كالجبال» على هذا؟ وكيف استقامت حياة من في السفينة على هذا؟ وقرأت فرقة: ﴿أَبْنِي﴾ على إضافة «الابن» إلى (نوح)، وهذا قول من يقول: هو ابنه لصلبه، وقد قال قوم: إنه ابن قريب له، ودعاه بالنبوة حناناً منه وتلطفاً، وقرأ ابن عباس: ﴿أَبْنِي﴾ بسكون الهاء، وهذا على لغة لأزد السراة. ومنه قول الشاعر:

.....

وَمِطْوَائِي مُشْتَاقَانِ لَهُ أَرْقَانِ
وقرأ السدي: ﴿إِبْنَاهُ﴾، قال أبو الفتح: ذلك على النداء، وذهبت فرقة إلى أن ذلك على جهة التذبة مخكية، وقرأ عروة بن الزبير، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿إِبْنَاهُ﴾، وتأولوا ذلك على أنه دعا ابن امرأته الكافرة إذ قد تقدم ذكرها في قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾، وعلى هذه القراءة يدخل تأويل من قال: «كانت خاتنة» فيه، وسيأتي ذكر هذا بعد، وقرأ علي بن أبي طالب، وعروة بن الزبير أيضاً، وأبو جعفر، وجعفر بن

محمد: ﴿أَبْنِي﴾ على تقدير: ﴿إِبْنَاهُ﴾ فحذف الألف تخفيفاً، وهي لغة، ومنها قول الشاعر:
إِمَّا تَقْوُدْ بِهِ شَاءَ فَتَأْكُلْهَا
أَوْ أَنْ تَبِيعَهُ فِي بَعْضِ الْأَرَاكِيبِ
وأشد ابن الأعرابي على هذا:
فَلَسْتُ بِمُذْرِكَ مَا قَاتَ مِنِّي
بِلَهْفٍ وَلَا بِلَيْتٍ وَلَا لَوَانِي
يريد: بِلَهْفًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وخطأ النحاس أبا حاتم في حذف هذه الألف، وليس كما قال. وقرأ وكيع بن الجراح: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ بضم التنوين، قال أبو حاتم: هي لغة سوء لا تعرف.

وقوله: ﴿وَكَاكَ فِي مَعْزِلٍ﴾، أي: في ناحية، فيمكن أن يريد: في معزل في الدين، ويمكن أن يريد: في معزل من بُعده عن السفينة، واللفظ يعمهما. وقال مكي في «المشكل»: «ومن قال: «مَعْزِلٌ» بكسر الزاي أراد الموضع، ومن قال: «مَعْزِلٌ» بفتحها أراد المصدر». فلم يصرح بأنها قراءة، ولكن يقتضي ذلك لفظه.

وقرأ السبعة: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ بكسر الياء المشددة، وهي ثلاث ياءات: أولاهما: ياء التصغير، وحقها السكون. والثانية: لام الفعل، وحقها أن تكسر بحسب ياء الإضافة، إذا ما قبل ياء الإضافة مكسور، والثالثة: ياء الإضافة، فحذفت ياء الإضافة إما لسكونها وسكون الراء، وإما إذ هي بمشابة التنوين في الأعلام وهو يحذف في النداء، فكذلك ياء الإضافة،

والحذف فيها كثير في كلام العرب، تقول: يا غلام، يا عبيد، وتبقى الكسرة دالة، ثم أدغمت الياء الساكنة في الياء المكسورة. وقد روى أبو بكر، وحفص عن عاصم أيضاً: ﴿يَبْنِي﴾ بفتح الياء المشددة، وذكر أبو حاتم أن المفضل رواها عن عاصم، ولذلك وجهان: أحدهما: أن يبدل من ياء الإضافة ألفاً، وهي لغة مشهورة، تقول: يا غلاماً، يا عينا، فانفتحت الياء قبل الألف، ثم حذفت الألف استخفافاً، أو لسكونها وسكون الراء من قوله: ﴿أَرْكَبُ﴾. والثاني: أن الياءات لما اجتمعت استثقلت اجتماع المماثلة، فخفف ذلك الاستثقال بالفتح إذ هو أخف الحركات، هذا مذهب سيبويه، وعلى هذا حمل قوله ﷺ: «وحواري الزبير»، وروي عن ابن كثير أنه قرأ في سورة لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ بحذف ياء الإضافة وسكون الياء خفيفة، وقرأ الثانية: ﴿يَبْنِي﴾ بكسرة الجماعة، وقرأ الثالثة: ﴿يَا بُنَيَّ أقيم﴾ ساكنة كالأولى.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ يحتمل أن يكون نهياً محضاً مع علمه أنه كافر، ويحتمل أن يكون خفي عليه كفره فناده ألا يبقى - وهو مؤمن - مع الكفرة فيهلك بهلاكهم. والأول أبين.

١٣ - ١٤ تفسير قوله عز وجل: ظن ابن نوح أن ذلك المطر والماء على العادة. وقوله: ﴿لَا عَاصِمَ﴾، قيل فيه: إنه على لفظه «فاعل». وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَجَعُ﴾ يريد:

إلا الله الراحم، ف ﴿مَنْ﴾ كناية عن اسم الله تبارك وتعالى، المعنى: لا عاصم اليوم إلا الذي رحمنا، ف ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع. وقيل: قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَجَعُ﴾ استثناء منقطع كأنه قال: لا عاصم اليوم موجود، لكن من رحم الله موجود، وحسن هذا من جهة المعنى أن نفي العاصم يقتضي نفي المعصوم فهو حاصل بالمعنى، وأما من جهة اللفظ ف ﴿مَنْ﴾ في موضع نصب على حد قول النابتة:

إِلَّا الْأَوَارِي

ولا يجوز أن تكون في موضع رفع على حد قول الشاعر:

وَبَلَدٌ لَيْسَ بِهَا أَنْيَسُ

إِلَّا الْيَتَافِيرُ وَالْأَلْيَسُ

إذ هذان أنيس ذلك الموضع القفر، والمعصوم هنا ليس بعاصم بوجه. وقيل: ﴿عَاصِمٌ﴾ معناه: ذو اعتصام، ف ﴿عَاصِمٌ﴾ - على هذا -

في معنى «معصوم»، ويجيء الاستثناء مستقيماً، و ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع، و ﴿الْيَوْمَ﴾ ظرف، وهو متعلق بقوله: ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾، أو بالخبر الذي تقديره: كائن اليوم، ولا يصح تعلقه بـ ﴿عَاصِمٌ﴾ لأنه كان يجيء منوناً: «لا عاصماً اليوم»، يرجع إلى أصل النصب لثلاث يرجع ثلاثة أشياء واحداً، وإنما القانون أن يكون الشيطان واحداً: «لا» وما عملت فيه، ومثال النحويين في هذه المسألة: «لا أمراً يوم الجمعة لك»، فإن أعملت في «يَوْمَ» لَكَ قُلْتَ: لا أَمَرُ.

و ﴿بَيْنَهُمَا﴾ يريد: بين نوح وابنه، فكان الابن ممن غرق.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ اتْلِي مَا إِلَيْكَ﴾ الآية. بناء الفعل للمفعول أبلغ في التعظيم والجبروت، وكذلك بناء الأفعال - بعد ذلك - في سائر الآية. وروي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال: «هذا كلام القادرين». والبلغ هو تجرّع الشيء وازدراؤه، فشبه قبض الأرض للماء وتسربه فيها بذلك، وأمرت بالتشبيه، وأضاف الماء إليها إذ هو عليها وحاصل فيها. والسماء في هذه الآية: إما السماء المظلمة، وإما السحاب، والإقلاع عن الشيء: تركه. والمعنى: أقعلي عن الأمطار و ﴿وَعِصْ﴾ معناه: نقص، وأكثر ما يجيء فيما هو بمعنى: جفوف، كقوله: ﴿وَعِصْ أَلْمَاءَ﴾، وكقوله: ﴿وَمَا تَنْبِيضُ الْأَرْكَامَ وَمَا تَزْدَادُ﴾، وأكثر المفسرين على أن ذلك في الحيض، وكذلك قول الأسود بن يَغْفَر:

.....

مَا غِيضَ مِنْ بَصْرِي وَمِنْ أَجْلَادِي؟
وذلك أن الإنسان الهرم إنما تنقصه بجفوف وقصافة.

وقوله: ﴿وَقِيلَ الْأَمْرُ﴾ إشارة إلى جميع القصة: بعث الماء، وإهلاك الأمم، وإنجاء أهل السفينة. وروي أن نوحاً عليه السلام ركب في السفينة من عين وردة بالشام أول يوم من رجب، وقيل: في العاشر منه، وقيل: في الخامس عشر، وقيل: في السابع عشر، واستوت السفينة في ذي الحجة، وأقامت على الجودي

شهرأ، وقيل له: اهبط يوم عاشوراء، فصامه وصامه من معه من أناس ووحوش. وذكر الطبري عن ابن إسحاق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة، وذكر أيضاً حديثاً عن النبي ﷺ: «إن نوحاً ركب في السفينة أول يوم من رجب، وصام الشهر أجمع، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء، فبقي أرسى على الجودي فصامه نوح ومن معه». وروي أن نوحاً لما طال مقامه على الماء بعث الغراب لباتيه بخبر كمال الغرق، فوجد جيفة طافية، فبقي عليها فلم يرجع بخبر، فدعا عليه نوح فاسود لونه وخوف من الناس، فهو لذلك مستوحش، ثم بعث نوح الحمام فجاءته بورق زيتونة في فمها ولم تجد تراباً تضع رجلها عليه، فبقي أربعين يوماً ثم بعثها فوجدت الماء قد انحسر عن موضع الكعبة، وهي أول بقعة انحسر الماء عنها، فمست الطين برجليها وجاءته، فعلم أن الماء قد أخذ في النضوب، ودعا لها فطوّقت وأنست، فهي لذلك تألف الناس، ثم أوحى الله إلى الجبال أن السفينة ترسي على واحد منها فتناولت كلها وبقي الجودي - وهو جبل بالموصل في ناحية الجزيرة - ولم يتناول تواضعاً لله، فاستوت السفينة - بأمر الله - عليه، وبقت عليه أعوادها، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة»، وقال الزجاج: الجودي هو بناحية أمد، وقال قوم: هو عند باقر ذي، وروي أن السفينة لما استقلت من «عين

قَالَ يَنْتُحِ إِيَّاهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُمْ عَمَلٌ عَصِيٌّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمَالِئِينَ لَكَ بِهِمْ عِلْمٌ إِنْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخُوذُكَ أَنْ أَتُكَلِّمَكَ مَالِئِينَ لَيْسَ بِهِمْ عِلْمٌ وَلَا تُفَعِّرُنِي وَلَا تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٦﴾ قِيلَ يَنْتُحِ أَقِطْ بِسُلُوكِ رَبِّكَ وَرَكِبْ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمُورِكَ مَعَكَ وَأَمُّ سَمِعَتْهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ رَبُّنَا عَذَابُ الْيَمِّ ﴿٤٧﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَمَّا عَادَ أَهْلَهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٤٩﴾ يَنْقُورُ لَا أَتُكَلِّمُكَ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٠﴾ وَيَنْقُورُ اسْتَغْفِرُكُمْ وَأَنْتُمْ نَارُكُمْ ثُمَّ نَادَى قَوْمَهُمْ قَوْمَهُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِشَارِكِي آلِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾

٢٢٧

ظن أن ابنه مؤمن، وذلك أشد الاحتمالين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْتُحِ﴾ الآية. المعنى: قال الله تعالى: يا نوح، وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: ليس بولد لك، وزعمت أنه كان لغيره، وأن امرأته الكافرة خانته فيه، هذا قول الحسن، وابن سيرين، وعبيد بن عمير، وقال أبزي: إنما قضى رسول الله ﷺ بالولد للفراس من أجل ابن نوح، وحلف الحسن أنه ليس بابنه، وحلف عكرمة والضحاك أنه ابنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: عول الحسن على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، وعول الضحاك وعكرمة على قوله تعالى: ﴿وَكَاذِبٌ نُوحٌ أُنْتَبَهُ﴾.

وقرأ الحسن ومن تأول تأويله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ على هذا المعنى، وهي قراءة السبعة سوى الكسائي، وقراءة جمهور الناس، وقال من خالف الحسن بن أبي الحسن: المعنى: ليس من أهلك الذين عثمهم الوعد، لأنه ليس على دينك وإن كان ابنك بالولادة، فمن قرأ من هذه الفرقة: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ جعله وصفاً له بالمصدر على جهة المبالغة فوصفه بذلك، كما قالت الخنساء تصف ناقه ذهب عنها ولدها:

وردة جرت حتى جاءت الكعبة فوجدتها قد تشرت من الأرض فلم ينلها غرق فطافت بها أسبوعاً، ثم مضت إلى اليمن، ورجعت إلى الجودي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقصص في هذه المعاني كثير صعب أن يستوفى، فأشرت منه إلى بُذ، ويدخله الاختلاف كما ترى في أمر الكعبة، والله أعلم كيف كان. و﴿وَأَسْوَرْتُ﴾ معناه: تمكنت واستقرت. وقرأ جمهور الناس: ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ بكسر الياء وشدها، وقرأ الأعمش وابن أبي عبله: ﴿عَلَى الْجُودِي﴾ بسكون الياء، وهما لغتان. وقوله: ﴿وَقِيلَ بَعْدَ﴾ يحتمل أن يكون من قول الله تعالى عطفاً على: ﴿وَقِيلَ الْأُولَ﴾، ويحتمل أن يكون من قول نوح والمؤمنين. والأول أظهر.

﴿٤٥﴾ - ﴿٤٦﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه جملة معطوفة على التي قبلها دون ترتيب، وذلك أن هذه القصة كانت في أول ما ركب نوح في السفينة، ويظهر من كلام الطبري أن ذلك كان بعد غرق الابن، وهو محتمل، والأول أليق.

وهذه الآية احتجاجاً من نوح عليه السلام، وذلك أن الله أمره بحمل أهله، وابنه من أهله، فينبغي أن يحمل، فأظهر الله له أن المراد من آمن من الأهل. ثم حسن المخاطبة بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَأَنْتَ﴾، ويقول: ﴿وَأَنْتَ أَنْتُمْ الْمُتَكِينُ﴾، فإن هذه الأقوال معينة في حُجته، وهذه الآية تقتضي أن نوحاً عليه السلام

تَزَعَّجَ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا أَذْكَرَتْ فُلُومًا هِيَ إِنْبَالٌ وَإِنْبَارٌ أَي: ذات إقبال وإدبار.

وقرأ بعض هذه الفرقة: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، وهي قراءة الكسائي، وروى هذه القراءة أم سلمة وعائشة عن رسول الله ﷺ. ذكره أبو حاتم، وضئف الطبري هذه القراءة، وطعن في الحديث بأنه من طريق شهر بن حوشب. وهي قراءة علي، وابن عباس، وعائشة، وأنس بن مالك، ورجحها أبو حاتم. وقرأ بعضهم: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ على قراءة جمهور السبعة عائد على سؤال نوح الذي يتضمنه الكلام، وقد فسر آخر الآية، ويُقَوَّى هذا التأويل أن في مصحف ابن مسعود: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ أَنْ تَسْأَلَنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، وقالت فرقة: الضمير عائد

على ركوب ولد نوح معهم الذي يتضمنه سؤال نوح، المعنى: إن ركوب الكافر مع المؤمنين عملٌ غير صالح. وقال أبو علي: ويحتمل أن يكون التقدير: إن كونك مع الكافرين وتركك الركوب معنا عملٌ غير صالح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل لا يتجّه من جهة المعنى.

وكل هذه الفرق قال: إن القول بأن الولد كان لغيره وولّد فراشاً خطأ محض، وقالوا: إنه روي النبي ﷺ أنه ما زنت امرأة نبي قط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الحديث ليس بالمعروف، وإنما هو من كلام ابن عباس رضي الله عنهما، ويُعَصِّدُهُ شَرَفُ النبوة، وقالوا في قوله عز وجل: ﴿فَنَسَأْنَاهُ﴾: إن الواحدة كانت تقول للناس: هو مجنون، والأخرى كانت تنبه على الأضياف، وأما غير هذا فلا. وهذه منازع ابن عباس وحججه، وهو قوله وقول الجمهور من الناس.

وقرأ ابن أبي مليكة: ﴿فَلَا تَسْلِي﴾ بتخفيف النون وإثبات الياء وسكون اللام دون همز، وقرأت فرقة بتخفيف النون وإسقاط الياء وبالهزم ﴿فَلَا تَسْلَيْنِ﴾، وقرأ أبو جعفر، وشيبة بكسر النون وشدّها والهمز وإثبات الياء ﴿فَلَا تَسَالَتِي﴾، وقرأ ابن كثير، وابن عامر: ﴿فَلَا تَسَالَنَ﴾ بفتح النون المشددة، وهي قراءة ابن عباس، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وحزمة،

والكسائي: ﴿فَلَا تَسْلَنَ﴾ خفيفة النون ساكنة اللام، وكان أبو عمرو يثبت الياء في الوصل، وحذفها عاصم وحزمة في الوصل والوقف. ومعنى قوله: ﴿فَلَا تَسْلَيْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، أي: إذا وعدتك فاعلم يقيناً أنه لا خلف في الوعد، فإذا رأيتَ ولدك لم يُخْمَلْ فكان الواجب عليك أن تقف وتعلم أن ذلك واجب بحق عند الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولكن نوحاً عليه السلام حملته شفقة النبوة وسجية البشر على التعرض لفحات الرحمة والتذكير، وعلى هذا القدر وقع عتابه، ولذلك جاء بتلطف وترفع في قوله: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وقد قال الله تبارك وتعالى لمحمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَ﴾، وذلك هنا بحسب الأمر الذي عوتب فيه وعظمته، فإنه لضيق صدره بتكاليف النبوة، وإلا فمستقر أن محمداً ﷺ أفضل البشر وأولاهم بلبين المخاطبة، ولكن هذا بحسب الأمرين لا بحسب النبيين. وقال قوم: إنما وقر نوحاً ليسه، وقال قوم: إنما حمل اللفظ على محمد ﷺ كما يحمل الإنسان على المختص به الحبيب إليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف.

ويحتمل قوله: ﴿فَلَا تَسْلَيْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا تطلب مني أمراً لا تعلم المصلحة فيه علم يقين. ونحا إلى هذا أبو علي الفارسي وقال: إن ﴿بِهِ﴾ يجوز

أن يتعلق بلفظة ﴿عِلْمٌ﴾ كما قال الشاعر:

كَانَ جَزَائِي بِالْعَصَا أَنْ أَجْلَدَا
ويجوز أن يكون ﴿بِهِ﴾ بمنزلة «فيه» فتعلق الياء بالمستقر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واختلاف هذين الوجهين إنما هو لفظي، والمعنى في الآية واحد. ورؤي أن هذا الابن إنما كان ربيبه، وهذا ضعيف. وحكى الطبري عن ابن زيد أن معنى قوله: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ في أن تعتقد أنني لا أفي لك بوعدٍ وعدتك به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل شبع، وليس في الألفاظ ما يقتضي أن نوحاً اعتقد هذا، وعياداً بالله. وغاية ما وقع لنوح عليه السلام أن رأي ترك ابنه معارضاً للوعد فذكر به، ودعا بحسب الشفقة ليكشف له الوجه الذي استوجب به ابنه الترك في الغرقى.

﴿١٧﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية فيها إنابة نوح وتسليمه لأمر الله تعالى واستغفاره، والسؤال الذي وقع النهي عليه والاستعاذة والاستغفار منه هو سؤال العزم الذي معه حاجة وطلبية ملحة فيما قد حجب وجه الحكمة فيه، وأما السؤال في الأمور على جهة التعلم والاسترشاد فغير داخل في هذا، وظاهر قوله: ﴿فَلَا تَسْلَيْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعم التحوين من السؤال، فلذلك نبهت على أن المراد أحدهما دون الآخر. والخاسرون: هم المغبنون حظوظهم من الخير. وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يٰجُنُودُ أَهْبِطْ

يَسْلُوكِ، كان هذا عند نزوله من السفينة مع أصحابه للانتشار في الأرض، و «السَّلام» هنا: السلامة والأمن ونحوه، و «البركات»: الخير والنمو في كل الجهات. وهذه العدة تعم جميع المؤمنين إلى يوم القيامة، قاله محمد بن كعب القرظي. وقوله: ﴿يَمُنَّ مَمْلَكٌ﴾ أي: من ذرية من مملك ومن نسلهم، ذ (من) - على هذا - هي لابتداء الغاية، أي: من هؤلاء تكون هذه الأمم، و (من) موصولة، وصلتها «مَمْلَكٌ» وما يتقدَّر معها نحو قولك: مِمَّنْ استقرَّ مملك، ونحوه. ثم قطع قوله: ﴿وَأَمَّمٌ﴾ على وجه الابتداء إذ كان أمرهم مقطوعاً من الأمر الأول، وهؤلاء هم الكفار إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿يَلْكَ مِنْ أَنَّهُ﴾ الْقَبِيْءُ الآية. إشارة إلى القصة، أي: هذه من الغيوب التي تقادم عهدا ولم يبق علمها إلا عند الله تبارك وتعالى، ولم يكن علمها أو علم أشباهها عندك ولا عند قومك، ونحن نوحياها إليك لتكون لك هداية وأسوة فيما لقيه غيرك من الأنبياء، وتكون لقومك مثلاً وتحذيراً، لئلا يصبهم إذا كذبوك مثل ما أصاب هؤلاء وغيرهم من الأمم المعذبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا المعنى ظهرت فصاحة قولـه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْقَبِيْئَةَ لِلْمُنْقِرِ﴾، أي: فاجتهد في التبليغ وجِدْ في الرسالة واصبر على الشدائد، واعلم أن العاقبة لك كما كانت لنوح في هذه القصة، وفي

مصحف ابن مسعود: ﴿مَنْ قَبِلَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾.

٥١ - ٥٢ تفسير قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عِظْ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا قَوْمِيَّ﴾ فِي قِصَّةِ نُوحٍ، وَ «عَادَ» قَبِيْلَةَ، وَكَانَتْ عَرَبِيًّا فِيمَا يَذْكُرُ، وَ «هُودٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ، وَجَعَلَهُ «لُغَامٌ» بِحَسَبِ النَّسَبِ وَالْقَرَابَةِ، فَإِنْ فَرَضْنَاهُ لَيْسَ مِنْهُمْ فَالْأَخُوَّةُ بِحَسَبِ الْمُنْشِئِ وَاللِّسَانِ وَالْجَبَرَةِ، وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ: «هِيَ أُخُوَّةُ بِحَسَبِ النَّسَبِ الْآدَمِيِّ» فَضَعِيفٌ.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَقْوِيَّ﴾ بكسر الميم، وقرأ ابن محيصن: ﴿يَا قَوْمٌ﴾ برفع الميم، وهي لغة حكاها سيبويه. وقرأ جمهور الناس: ﴿غَيْرُهُ﴾ بالرفع على النعت أو البدل من موضع قوله: ﴿يَنْ لَيْتُ﴾، وقرأ الكسائي وحده بكسر الراء حملاً على لفظ ﴿إِلَهِ﴾، وذلك أيضاً على النعت أو البدل، ويجوز ﴿غَيْرُهُ﴾ نصباً على الاستثناء.

و ﴿مُتَّذِرَاتٌ﴾ معناه: كاذبون أفحش كذب في جعلكم الألوهية لغير الله تعالى. والضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على الدعاء إلى الله تبارك وتعالى، والمعنى: ما أجري وجزائي إلا عند الله تعالى، ثم وصفه بقوله: ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾، فجعلها صفة رادة عليهم في عبادتهم الأصنام، واعتقادهم أنها تفعل، فجعل الوصف بذلك في درج كلامه منبهاً على أفعال الله تعالى، وأنه هو الذي يستحق العبادة، و ﴿نَظَرٌ﴾ معناه: اخترع وأنشأ، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توقيف على مجال القول

بأن غير الفاطر إله، ويحتمل أن يريد: أفلا تعقلون إذا لم أطلب عرضاً من أعراض الدنيا أتي إنما أريد النفع لكم والدار الآخرة. والأول أظهر. والاستغفار: طلب المغفرة، وقد يكون ذلك باللسان، وقد يكون بإنابة القلب وطلب الاسترشاد والحرص على وجود المحجة الواضحة، وهذه أحوال يمكن أن تقع من الكفار، فكأنه قال لهم: اطلبوا غفران الله بالإنابة وطلب الدليل في نبوتي، ثم توبوا بالإيمان من كفركم، فيجيء الترتيب - على هذا - مستقيماً، وإلا احتيج في ترتيب التوبة بعد الاستغفار إلى تحيل كثير، فيما أن يكون ﴿تُوبُوا﴾ أمراً بالدوام، و «الاستغفار» طلب المغفرة بالإيمان، وإلى هذا ذهب الطبري، وقال أبو المعالي في «الإرشاد»: التوبة في اصطلاح المتكلمين هي الندم، بعد أن قال: إنها في اللغة الرجوع، ثم ركب على هذا أن قال: إن الكافر إذا آمن ليس إيمانه توبة، وإنما توبته ندمه بغد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي أقول: «إن التوبة عقد في ترك متوب منه يتقدمها علم بفساد المتوب منه وصلاح ما يرجع إليه، ويقترن بها ندم على فارط المتوب منه لا ينفك منه، وهو من شروطها»، فأقول: إن إيمان الكافر هو توبته من كفره لأنه هو نفسه رجوعه.

و «تاب» في كلام العرب معناه: رجع إلى الطاعة والأمثل من الأمور، وتصرَّف اللفظة في القرآن بـ «إلى»

عليه البشر... الحديث، وهذا يقتضي بأن هوداً وغيره من الرسل لهم معجزات وإن لم يُعَيِّن لنا بعضها.

وقولهم: ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾، أي: لا يكون قولك سبب تركنا إذ هو مجرد عن آية. وقولهم: ﴿إِنْ تَنْزِلُ﴾ الآية، معناه: ما نقول إلا أن بعض الآلهة لما سَبَّيْتَهَا وَضَلَّتْ عِبَدَتَهَا أَصَابَكَ بجنون.

يقال: عَرَّ يُمْرُ، واغترى يعترى إذا أَلَمَ بالشيء، فحينئذ جاهرهم هود عليه السلام بالتبري من أوثانهم، وحضهم على كيدهم هم وأصنامهم، ويذكر أن هذه كانت له معجزة، وذلك أنه حُرِّضَ جماعتهم عليه مع انفرادهم وقوتهم وكفرهم فلم يقدروا على نيله بسوء. و﴿نُظَرُونَ﴾ معناه: توخروني، أي: عاجلوني بما قدرتم عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ الآية. المعنى: إني توكلت على الله الذي هو ربي وربكم مع ضعفي وانفرادي وقوتكم وكثرتكم يمنعي منكم ويحجز بيني وبينكم، ثم وصف قدرة الله تبارك وتعالى وعظم ملكه بقوله: ﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾، وعبر عن ذلك بالناصية إذ هي في العرف حيث يقبض القادر المالك ممن يقدر عليه، كما يقاد الأسير والفرس ونحوه حتى صار الأخذ بالناصية عَزْفاً في القدرة على الحيوان، وكانت العرب تجزُ ناصية الأسير الممنون عليه لتكون تلك علامة أنه

حين رأوا المعارض وقولهم: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّظَرّاً﴾، وحضهم على استنزال المطر بالإيمان والإنابة، وتلك عادة الله في عباده، ومنه قول نوح عليه السلام: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ ومنه فعل عمر رضي الله عنه حين جعل جميع قوله في الاستسقاء ودعاؤه استغفاراً فسُئِلَ عن ذلك فقال: «لقد استنزلت المطر بمجاذيع السماء».

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُمْ قُوَّةً﴾ إِيَّاكُمْ قُوَّتَكُمْ ظاهره العموم في جميع ما يُحسن الله تعالى فيه إلى العباد، وقالت فرقة: كان الله تعالى قد حبس نسلهم، فمعنى قوله: ﴿وَرَزَقَكُمْ قُوَّةً﴾ إِيَّاكُمْ قُوَّتَكُمْ أي: الولد. ويحتمل أن خصَّ القوة بالذكر إذ كانوا أقوى العوالم فوعدوا بالزيادة فيما بهروا فيه. ثم نهاهم عن التولّي عن الحق والإعراض عن أمر الله، و﴿تَجْرِمِينَ﴾ حال من الضير في ﴿تَنَزَّلُوا﴾.

٥٣ - ٥٤ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ما جئتنا بآية تضطرنا إلى الإيمان بك، ونفوا أن تكون معجزاته آية بحسب ظنهم وعماهم عن الحق، كما جعلت قريش القرآن سحراً وشعراً ونحو هذا، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَّا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ

إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَ عَنْكَ بَعْضُ الْهَيْئَةِ سَمَوْ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَاشْهَدُوا إِنِّي بَرِيءٌ وَمَا أَشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٤﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ إِنْ قَالُوا فَقَدْ أُنْزِلَتْكُمْ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ رَبِّكُمُ إِلَهُكُمْ فَاسْأَلُوا رَبي فَمَا غَيْرُكُمْ وَلَا تَنْصُرُنَا مِنْ شَيْءٍ إِنَّ رَبي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٧﴾ وَاتَّبَعُوا مَعْصِرَ بَرْحَمَهِ وَمَا وَجَّهْتُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَكَانَ عَادُ جَعْلًا وَإِبْرَاهِيمَ رَجِيمًا وَعَصَوُوا سُلْطَانَهُمْ فَأَنْبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِقَنَةِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَّا أَنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْعَادِ قَوْرٍ هُوَ ﴿٦٠﴾ وَإِلَى مُوَدَّائِهِمْ صَلَاحًا قَالَ يَقُولُوا عَبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُمْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرُوا فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتَوَبَّوْا إِلَيْهِ وَإِنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾ فَأَوْفُوا بعهْدَكُمْ فَذَكَرْتُمْ فَمَا مَرَجُوا قَبْلَ هَذَا أَنْتُمْ هُنَا أَنْ تَعْبُدُوا مَا بَعْدَ آبَائِكُمْ وَإِنَّا لَنَالِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَ إِلَهُكُمْ رَبَّهُمْ ﴿٦٢﴾

٢٢٨

يقتضي أنها الرجوع لا الندم، وإنما الندم لاحق لازم التوبة كما قلنا، وحقيقة التوبة ترك مثل ما تيب منه من عزيمة معتقدة على ما فسرناه، والله المستعان.

و﴿يَذَرَاكَ﴾ هو بناء تكسير، وكان حقه أن تلحقه هاء ولكن حذف على نية النسب، وعلى أن السماء المطر نفسه، وهو من: دُرَّ يُزَرُ، ومفعال قد يكون من اسم الفاعل الذي هو من ثلاثي، ومن اسم الفاعل الذي هو رباعي، وقول من قال: «إِنَّهُ أَلَزَمَ لِلرَّبَاعِيِّ» غير لازم.

ويروى أن «عَاداً» كان الله تعالى قد حبس عنها المطر ثلاث سنين، وكانوا أهل حرب وبساتين وثمار، وكانت بلادهم شرق جزيرة العرب، فلهذا وعدهم بالمطر، ومن ذلك فرحهم

قُدِّرَ عليه وقُبِضَ على ناصيته.
والدَّابة: جميع الحيوان، وخص
بالذكر إذ هو صنف المخاطبين
والمتكلم. وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يريد أن أفعال الله عزَّ
وجلُّ هي في غاية الإحكام، وقوله
الصدق، ووعد الحق، فجاءت
الاستقامة في كل ما ينضاف إليه عزَّ
وجلُّ، فعبّر عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ
رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على تقدير
مضاف.

﴿٥٧﴾ - ﴿٥٨﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

قرأ الجمهور: ﴿تَوَلَّوْا﴾ بفتح اللام
والتاء على معنى «تَوَلَّوْا»، وقرأ
عيسى الثقفى، والأعرج: ﴿تَوَلَّوْا﴾
بضم التاء واللام، و (إِنْ) شرط
والجواب في الفاء وما بعدها من
قوله: ﴿فَقَدْ أَتَيْنَاكَ﴾، والمعنى: إنه
ما علي كبير هَمَّ منكم إن توليتم،
فقد برئت ساحتني بالتبليغ، وأنتم
أصحاب الذنب في الإعراض عن
الإيمان، ويحتمل أن يكون ﴿تَوَلَّوْا﴾
فعلاً ماضياً ويجيء في الكلام رجوع
من غيبة إلى خطاب، أي فقل: قد
أبلغتكم.

وقرأ الجمهور: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ بضم
الفاء على معنى الخير بذلك، وقرأ
عاصم - فيما روى هُبيرة عن
حفص -: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ بالجزم
عطفاً على موضع الفاء من قوله:
﴿فَقَدْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَصْرُوهُ سِتًّا﴾
يحتمل من المعنى وجهين:

أحدهما: ولا تَصْرُوهُ بذهابكم
وهلاككم شيئاً، أي: لا يتقص ملكه
ولا يختل أمره، وعلى هذا المعنى

قرأ عبدالله بن مسعود: ﴿وَلَا
تَقْصُوهُ شَيْئًا﴾.

والمعنى الآخر: ولا تضرونها،
أي: ولا تقدرن - إذا أهلككم -
على إضراره بشيء، ولا على
الانتصار منه، ولا تقابلون فعله بكم
بشيء يضره. ثم أخبرهم أن ربه
حفيظ على كل شيء، عالم به.
وفي ترديد هذه الصفات ونحوها
تنبيه وتذكير.

والأمر: واحد الأمور، ويحتمل
أن يكون مصدر أمر يأمر، أي:
أمرنا للريح أو لحزنتها ونحو
ذلك، وقوله: ﴿يَحْتَفِئُ﴾ إما أن
يكون إخباراً مجرداً عن رحمة
من الله لحققتهم، وإما أن يكون
قصداً إلى الإعلام أن النجاة إنما
كملت بمجرد رحمة الله لا
بأعمالهم، فتكون الآية - على هذا
- في معنى قول رسول الله ﷺ:
﴿لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ بِعَمَلِهِ﴾،
قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟
قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله
بفضل منه ويرحمته». وقوله:

﴿وَيَجْبِتُهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يحتمل
أن يريد عذاب الآخرة، ويحتمل
أن يريد: وكانت النجاة المتقدمة
من عذاب غليظ، يريد: الريح،
فيكون المقصود - على هذا -
تعدد النعمة. ومشهور عذابهم
بالريح هو أنها كانت تحملهم
وتهدم مساكنهم وتنسفها، وتحمل
الظعينة كما هي، ونحو هذا،
وحكى الزجاج أنها كانت تدخل
في أبدانهم وتخرج من أديبارهم

وتقطعهم عضواً عضواً.

وتعدى: ﴿جَعَدُوا﴾ بحرف جر
لما نُزِّلَ منزلة «كفروا»، وانعكس
ذلك في الآية بعد هذا، وقوله:
﴿وَعَصَوْا رَسُولَهُ﴾ شُنعة عليهم،
وذلك أن في تكذيب رسول واحد
تكذيب سائر الرسل وعصيانهم، إذ
الثبوتات كلها مجمعة على
الإيمان بالله والإقرار بربوبيته،
ويحتمل أن يراد هودٌ وآدم ونوح
عليهم السلام.

و «الْعَنِيدُ» فَعِيلٌ مِنْ عَنَدَ إِذَا عَنَّا،
ومنه قول الشاعر:

إِنِّي كَبِيرٌ لَا أَطِيقُ الْعُنْدَا

أي الصعاب من الإبل، وكان
التجبر والعناد من خُلِقَ عاد
لقوتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
لَنَنْفِخَ فِي الْأَيَةِ. حُكِمَ عَلَيْهِمْ بِهِذَا
الحكم لكفرهم وإصرارهم حتى حلَّ
العذاب بهم، واللعنة: الإبعادُ
والخزي، وقد تيقَّن أن هؤلاء وافوا
على الكفر، فيلعن الكافر الموافي
على كفره، ولا يلعن معين حتى، لا
مِنْ كافر ولا مِنْ فاسق ولا مِنْ
بهيمة، كل ذلك مكروه بالأحاديث،
و﴿يَمَّ﴾ ظرف معناه أن اللعنة عليهم
في الدنيا وفي يوم القيامة، ثم
ذكرت العلة الموجبة لذلك وهي
كفرهم برَّبِّهم، وتعدى «كَفَرًا» بغير
الحرف إذ هو بمعنى جَحَدُوا، كما
تقول: شكرت لك وشكرتك. وكفر
نعمته وكفر بنعمته، و﴿يَعَادُ﴾
منصوب بفعل مقدر وهو مقام ذلك
الفعل.

فمعنى «مرجؤ» أي: مرجؤ أطراحه وغلبته ونحو هذا، فيكون ذلك على جهة الاحتقار، فلذلك فُسر بحقير، وشبه هذا المعنى قول أبي سفيان بن حرب «لَقَدْ أَمَرَ أُمْرُ بْنُ أَبِي كَبْشَةَ... الحديث، ثم يجيء قولهم: «أَتْنَهَنَّا» على جهة التوعد والاستشناع لهذه المقالة منه.

و «مَا يَبْدُءُ أَبَاقًا» يريدون به الأوثان والأصنام، ثم أوجبوا أنهم في شك من أمره وأقاييله، وأن ذلك الشك يرتابون به زائداً إلى مرتبته من الشك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا فرق بين هذه الحال وبين حالة التصميم على الكفر. و«ثيب» معناه: مُلبس مُتهم، ومنه قول الشاعر:

يَا قَوْمَ مَالِي وَأَبَا ذُوْنِبٍ
كُنْتُ إِذَا أَتَيْتُهُ مِنْ غَيْبٍ
يَسْمُ عِطْفِي وَيَبْزُ ثَوْبِي
كَأَنِّي أَرْنُتُهُ بِرَيْبٍ

قوله: «أَرْنُتُهُ» هو من رؤية القلب، أي: أتدبرتم؟ والشرط الذي بعده وجوابه يَسْمُ مَسَدَ مفعولين له «أَرْنُتُهُ»، واليئة: البرهان واليقين، والهاء في «يَسْمُ» للمبالغة، ويحتمل أن تكون هاء تأنيث، والرحمة في هذه الآية: الثبوة وما انضاف إليها، وفي الكلام محذوف تقديره: أَيْضَرْنِي شَكُّكُمْ؟ أو: أَيْمَكْنَنِي طَاعَتَكُمْ؟ ونحو هذا مما يليق بمعنى الآية.

وقوله: «فَا زَيْدُونِي غَيْرَ تَغْيِيرٍ» معناه: فما تُعطينني فيما أقتضيه

وفيها ما يكسر فيه الوجهان كشمود وسبأ، فالقراءتان هنا فصيحتان مستعملتان. وقرأت فرقة: «غَيْرُهُ» برفع الراء، وقرأ الكسائي: «غَيْرِهِ» بكسر الراء، وقد تقدم أنفاً.

و «أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَنْثَى» أي: اخترعكم وأوجدكم، وذلك باختراع آدم عليه السلام، فكان إنشاء آدم إنشاءً لبنية، «وَأَسْتَعْمَرَكُمْ» أي: اتخذكم عماراً، كما تقول: استكتب واستعمل، وذهب قوم إلى أنها من العمر، أي: عَمَّرَكُمْ، وقد تقدم مثل قوله: «وَأَسْتَفِرُّوهُ ثَرَّ ثَوْبًا إِيَّاهُ».

«وَإِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ» أي: إجابته وغفرانه قريب ممن آمن وأتاب، و«مُجِيبٌ» معناه: بشرط المشيئة.

والظاهر الذي حكاه جمهور المفسرين أن قوله: «مَرْجُؤًا» معناه: مُسَوِّدًا، نؤمل فيك أن تكون سيّداً مسدّ الأكابر. ثم قرؤوه - على جهة التوبيخ في زعمهم - بقولهم: «أَتْنَهَنَّا»، وحكى النقاش عن بعضهم أنه قال: معناه: حقيراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فأما أن يكون لفظ «مَرْجُؤًا» بمعنى حقير فليس ذلك في كلام العرب، وإنما يتجه ذلك على جهة التفسير للمعنى، وذلك أن القصد بقولهم: «مَرْجُؤًا» يكون: لقد كنت فينا سهلاً مرامك قريباً ردّ أمرك، وممن لا يظن أن يستفحل من أمره مثل هذا،

قَالَ يَقَوْمُ أَرَهُ يَسْتَرَانِ كُنْتُ عَلَى يَنْتَرٍ مِنْ رَبِّي وَءَاثَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَصْرِفُ مِنْكَ اللَّهُ إِنْ عَصَيْتُهُ هَا زَيْدُونِي غَيْرَ تَغْيِيرٍ ۝ وَيَقَوْمُ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَاغْذُكْرَ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝ فَمَقَرُّوهَا فَقَالَ لَمَتُّوهُ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَذَابٌ مُكْدُوبٌ ۝ فَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرًا فَجَئْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَحْمَةً مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يُوسُفَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ حَيْثُ مِنْ سَلَامًا قَالِ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ حَمِيْلٍ ۝ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْضُ إِنَّا نُرْسِلُكَ إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ۝ وَأَمْرًا لَهُ نَاقِمَةٌ فَصَحَّكَ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝

١٦١ - ١٦٢ تفسير قوله عز وجل:

التقدير: وأرسلنا إلى ثمود، وقد تقدم القول في مثل هذا وفي معنى الأخوة في قصة هود. وقرأ الجمهور: «وَالَّذِي تَوَدَّ» بغير صرف، وقرأ ابن وثاب، والأعمش: «وَالَّذِي تَوَدَّ» بالصرف حيث وقع، فالأولى على إرادة القبيلة، والثانية على إرادة الحي، وفي هذه الألفاظ الدالة على الجموع ما يكسر فيه إرادة الحي كقريش وثقيف وما لا يقال فيه: بنو فلان، وفيها ما يكسر فيه إرادة القبيلة كتميم وتغلب، ألا ترى أنهم يقولون: تغلب ابنة وائل، وقال الطرماح:

إِذَا نَهَلْتُ مِنْهُ تَمِيمٌ وَعَلَيْتُ
وقول الآخر:

تَمِيمٌ بَنُ مَرْ وَأَشْيَاعُهَا

ويمكن أن يُسمى جميع مسكن الحي داراً، والثلاثة الأيام تعجيز قاسٍ الناس عليه الإعذار إلى المحكوم عليه ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك عندي مفترق، لأنها في المحكوم عليه والغارم في الشفعة ونحوه توسعة، وهي هنا توقيف على الخزي والتعذيب. وروى قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لو سعدتم على القارة لرأيتم عظام الفصيل».

❶ - ❷ تفسير قوله عز وجل:

الأمر جائز أن يراد به المصدر من أمر، وجائز أن يراد به واحد الأمور. وقوله: ﴿يَحْتَمِلُ أَنْ يَقْصِدَ أَنْ التَّجْنِيةَ إِنَّمَا كَانَتْ بِمَجْرَدِ الرَّحْمَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ وَصْفَ حَالٍ فَقَطْ، أَخْبَرَ أَنَّهُ رَحِمَهُمْ فِي حَالِ التَّجْنِيةِ. وقوله: ﴿وَيَتَّكِفُ الظَّاهِرُ أَنَّهُ مَتَعَلِّقٌ بِـ ﴿يَحْتَمِلُ﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَحْتَمِلُ﴾».

وقرأت فرقة: ﴿وَمِنْ خِزْيٍ يُؤْمَلُ﴾ بتنوين ﴿خِزْيٍ﴾ وفتح الميم من ﴿يُؤْمَلُ﴾، وذلك يجوز فيه أن تكون فتحة الميم إعراباً، ويجوز أن يكون ببناء الظرف لما أضيف إلى غير متمكن، فأنت مُخَيَّرٌ في الوجهين، والروايتان في قول الشاعر:

عَلَى حِينٍ عَاتَيْتِ الثَّمِيبَ عَلَى الصَّبَا
وَقُلْتُ: أَلَمَّا أَضَحَّ وَالشُّبَّابُ وَازِعٌ؟
وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَمِنْ خِزْيٍ يُؤْمَلُ﴾ بإضافة ﴿خِزْيٍ﴾ وكسر الميم من ﴿يُؤْمَلُ﴾، وهذا توسع في إضافة المصدر إلى

عليه السلام من رُغَاءِ الفصيل على جبل القارة، وأضاف العفر إلى جميعهم لأن العافر كان منهم، وكان عن رضى منهم وتماؤ، وعافرها «قدار»، وروي في خبر ذلك أن صالحاً أوحى إليه أن قومك سيعقرون الناقة وينزل بهم العذاب عند ذلك، فأخبرهم بذلك فقالوا: عياداً بالله أن نفعل ذلك، فقال: إن لم تفعلوا أنتم ذلك أوشك أن يولد فيكم من يفعله، وقال لهم: صفة عافرها أحمر أزرق أشقر، فجعلوا الشرط مع القَوَائِلِ وأمرهم بتفقد الأطفال، فمن كان على هذه الصفة قُتِلَ، وكان في المدينة شيخان شريفان عزيزان، وكان لهذا ابن ولهذا بنت، فتصاهروا فولد بين الزوجين «قدار» على الصفة المذكورة، فهم الشرطة يقتله فمنع منه جداه حتى كبر فكان الذي عفرها بالسيف في عراقيها، وقيل: بالسهم في ضرعها، وهرب فصيلها عند ذلك، فصعد على جبل يقاله: القارة، فَرَّغَا ثَلَاثًا، فقال صالح: هذا ميعاد ثلاثة أيام للعذاب، وأمرهم قبل رُغَاءِ الفصيل أن يطلبوه عسى أن يصلوا إليه فيرد العذاب به، فراموا الصعود إليه في الجبل فارتفع الجبل إلى السماء حتى ما تناله الطير، وحيث رغا الفصيل.

وقوله: ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ هي جمع «دابة» كما تقول: ساحة وساخ وسوخ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

لَهُ دَاعٍ بِمَكَّةَ مُشْمَعِلٌ
وَأَخْرُ عِشْدَ دَارَتِهِ يُنَادِي

منكم من الإيمان وأمركم به من الإنابة غير تخسير لأنفسكم، وهو من الخسارة، وليس التخسير في هذه الآية إلا لهم وفي حيزهم. وأضاف الزيادة إليه من حيث هو مقتضى لأقوالهم مؤكل بإيمانهم، كما تقول لمن توصيه: «أنا أريد بك خيراً وأنت تريد بي شراً»، فكان الوجه البين: «وأنت تريد شراً» ولكن من حيث كنت تريد خير ومقتضى ذلك - حسن أن تضيف الزيادة إلى نفسك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْوَرُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ الآية. اقتضب في هذه الآية ذكر أول أمر الناقة، وذلك أنه روي أن قومه طلبوا منه آية تضطرهم إلى الإيمان فأخرج الله جلَّت قدرته لهم الناقة من الجبل، وروي أنهم اقترحوا تعيين خروج الناقة من تلك الصخرة، فروي أن الجبل تمخض كالحامل وانصدع الحجر وخرجت منه ناقة بفصيلها، وروي أنها خرجت عُشْرَاءَ ووضعت بعد خروجهما فوقهم صالح وقال لهم: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾، ونصب ﴿آيَةً﴾ على الحال.

وقرأت فرقة: ﴿تَأْكُلُ﴾ بالجزم على جواب الأمر، وقرأت فرقة: ﴿تَأْكُلُ﴾ على طريق القطع والاستئناف، أو على أنه الحال من الضمير في ﴿قَدَّرُوهَا﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَسْؤُمَا بِسُوءٍ﴾ عام في العفر وغيره، وقوله: ﴿فَيَاغْذَرُ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ هذا بوحي من الله إليه أن قومك إذا عقروا الناقة جاءهم عذاب قريب المدة من وقت المعصية، وهي الأيام الثلاثة التي فهمها صالح

وَرَوَى أَن جبريل منهم كان مختصاً بإهلاك قرية لوط، وميكائيل كان مختصاً بتبشير إبراهيم بإسحاق، وإسرافيل مختصاً بإنجاء لوط ومن معه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية تقضي باشتراكهم في الإشارة بإسحاق. وقالت فرقة - وهي الأكثر -: البُشرى هي بإسحاق، وقالت فرقة: البُشرى هي بإهلاك قوم لوط. وقوله: ﴿سَلَّمَ﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه فعل مضمر من لفظه كأنه قال: أسلم سلاماً، ويصح أن يكون ﴿سَلَّمَ﴾ حكاية لمعنى ما قاله لا للفظهم، قاله مجاهد والسدي. فلذلك عمل فيه القول، كما تقول لرجل قال: «لا إله إلا الله»: «قلت حقاً أو إخلاصاً»، ولو حكيت لفظه لم يصح أن تعمل فيه القول، وقوله: تبارك وتعالى: ﴿قَالَ سَلَّمَ﴾ حكاية لللفظه. و﴿سَلَّمَ﴾ مرتفع إما على الابتداء والخبر محذوف تقديره: عليكم، وإما على خبر ابتداء محذوف تقديره: أمري سلام، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَبَّرْ جَبِيلَ﴾، إما على تقدير: فأمرني صبر جميل، وإما على تقدير: فصبر جميل أجمل.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿قَالُوا سَلَّمَ﴾ قال سَلَّمَ، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَّمَ﴾ وكذلك اختلافهم في سورة الذاريات، وذلك على وجهين: يحتمل أن يريد به السلام بعينه، كما قالوا: حلّ وحلّ

وذكر الفعل المسند إلى الصيحة إذ هي بمعنى الصياح، وتأنيثها غير حقيقي، وقيل: جاز ذلك وهو مؤنثة لما فصل بين الفعل وبينها، كما قالوا: «حضر القاضي اليوم امرأته»، والأول أصوب، والصيحة إنما تجيء مستعملة في ذكر العذاب لأنها فُعلة تدل على مرة واحدة شاذة، والصياح مصدر متداول، وشذ في كلامهم قولهم: «لقيته لقاةً واحدة»، والقياس: لُقية. و﴿جَبِيلَيْنِ﴾ أي: باركين قد صعد بهم، وهو تشبيه بجشوم الطير، وبذلك يشبه جشوم الأثافي وجشوم الرماح.

و﴿يَتَنَوَّأْنَ﴾ مضارع من غَنِي في المكان إذا أقام فيه في خفض عيش، وهي المغاني، وقرأ حمزة وحده: ﴿أَلَا إِنَّ قَوْمَكَ﴾ وكذلك في «الفرقان»، والعنكبوت، والنجم، وصرفها الكسائي كلها وقوله: ﴿أَلَا بُدًّا لِّقَوْمِكَ﴾، واختلف عن عاصم، فروى عنه حفص ترك الإجراء كحمزة، وروى عنه أبو بكر إجراء الأربعة وتزكته في قوله: ﴿أَلَا بُدًّا لِّقَوْمِكَ﴾، وقرأ الباقر: ﴿أَلَا إِنَّ قَوْمَكَ﴾ فصرّفت، ﴿أَلَا بُدًّا لِّقَوْمِكَ﴾ غير مصروف، والقراءتان فصيحتان، وكذلك صرفوا في «الفرقان»، والعنكبوت، والنجم.

٦٩ - ٧٢ تفسير قوله عز وجل:

الرُّسُلُ: الملائكة، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقالت فرقة بدل إسرائيل: عزرائيل ملك الموت.

الظرف، كما قال: ﴿مَكْرُ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ﴾، ونحو هذا. وقياس هذه القراءة أن يقال: «سير عليه يومئذ» برفع الميم، وهذه قراءتهم في قوله تعالى: ﴿مِنْ عَذَابٍ يَبْعَثُ﴾، و﴿يَنْفِخُ بَنُورٍ﴾. وقرأ عاصم، وحمزة كذلك إلا في قوله: ﴿يَنْفِخُ بَنُورٍ﴾ فإنهما نَوَّنا العين وفتحوا الميم، واختلفت عن نافع في كسر الميم وفتحها، وهو يضيف في الوجهين، وقرأ الكسائي: ﴿مِنْ خِزْيٍ يَوْمَئِذٍ﴾ بترك التنوين وفتح الميم من ﴿يَبْعَثُ﴾ وهذا جمع بين الإضافة وبناء الظرف، وقرأ: ﴿وَمِنْ فَرْعٍ﴾ كعاصم وحمزة، وأما (إِذْ) فكان حقها (إِذْ) ساكنة إلا أنها من حقها أن تليها الجمل، فلما حذفت لها ها هنا الجملة عوضت بالتنوين، والإشارة بقوله: ﴿يَبْعَثُ﴾ إلى يوم التعذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ اللَّيْلِ طَلُوكًا آصِيحَةً﴾ الآية. روي أن صالحاً عليه السلام قال لهم حين رغا الفصيل: ستصفر وجوهكم في اليوم الأول، وتحمر في الثاني، وتسود في الثالث، فلما كان كذلك تكفئوا في الأنطاع واستعدوا للهلاك، وأخذتهم صيحة فيها من كل صوت مهول، صدعت قلوبهم وأصاب كل من كان منهم في شرق الأرض وغربها، إلا رجلاً كان في الحرم فمنعه الحرم من ذلك، ثم هلك بعد ذلك، ففي مصنف أبي داود: قيل: يا رسول الله من ذلك الرجل؟ قال: «أبو رغال».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، وخلافه في السير،

وحرم وحرام، ومن ذلك قول الشاعر:

مَرَزْنَا قُلْنَا إِيَّاهُ سَلِمَ فَسَلِمَتْ
كَمَا اكْتَلَّ بِالْبَرْقِ الْعَمَامُ اللُّوَانُجُ
اِكْتَلَّ: اتَّخَذَ إِكْلِيلًا أَوْ نَحْوَ هَذَا،
قال الطبري: وَرُوي: «كَمَا اكْتَلَّ»،
ويحتمل أن يريد بالسلم: ضد
الحرب، تقول: نحن سَلِمَ لكم.
وكان سلام الملائكة دعاءً مرجوًّا،
فلذلك نصب، وحيا الخليل بأحسن
مما حُبِّي وهو الثابت المتقرر،
ولذلك جاء مرفوعاً.

وقوله: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ﴾، يصح
أن تكون (ما) نافية، وفي ﴿لَيْتَ﴾
ضمير إبراهيم، و﴿أَنْ جَاءَ﴾ في
موضع نصب، أي: بأن جاء.
ويصح أن تكون (ما) نافية، و﴿أَنْ
جَاءَ﴾ بتأويل المصدر في موضع رفع
بـ ﴿لَيْتَ﴾. أي: ما لبث مجيئه،
وليس في ﴿لَيْتَ﴾ - على هذا -
ضمير إبراهيم، ويصح أن تكون (ما)
بمعنى الذي، وفي ﴿لَيْتَ﴾ ضمير
إبراهيم، و﴿أَنْ جَاءَ﴾ خبر (ما)، أي:
فلبث إبراهيم مجيئه بعجل حنيذ،
وفي أدب الضيف أن يُعَجَّلَ قِزَاهُ من
هذه الآية.

وَالْحَنِيدُ بمعنى المحنود، ومعناه:
بعجل مشوي نضج يقطر ماؤه، وهذا
القطر يفصل الحنيذ من جملة
المشويات، ولكن هيئة المحنود في
اللغة الذي يُغَطَّى بحجارة أو رمل
محمي أو حائل بينه وبين النار يُغَطَّى
به، والمُعَرَّضُ من الشواء: الذي
يصفى على الجمر، والمُهَضَّبُ:
الشواء الذي بينه وبين النار حائل
يكون الشواء عليه لا مدفوناً به،

والتحنيد في تضمير الخيل هو أن
يُغَطَّى الفرس بِجُلٍّ على جُلٍّ لِيَتَصَبَّبَ
عَرَقُهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ﴾
الآية، رُوي أنهم كانوا ينكتون بقداح
كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل
أيديهم إليه، وفي هذه الآية من أدب
الطعام أن لصاحب الضيف أن ينظر
من ضيفه هل يأكل أم لا؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وذلك ينبغي أن يكون بتلقت
ومسارقة لا بتحديد النظر، فروي أن
أعرابياً أكل مع سليمان بن
عبد الملك، فرأى سليمان في لقمة
الأعرابي شعرة فقال له: أزل الشعرة
عن لقمتك، فقال له: أنتظر إليّ نظر
من يرى الشعرة في لقمتي؟ والله لا
أكلت معك.

و ﴿تَكْرَهُمْ﴾ - على ما ذكر كثير
من الناس - معناه: أكرههم،
واستشهد لذلك بالبيت الذي نَحَلَهُ
أبو عمرو بن العلاء الأعشى، وهو:
وَأَتَكْرَتُنِي وَمَا كَانَ الَّذِي تَكْرَثُ
مِنْ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشُّبُبُ وَالصَّلَافَا
وقال بعض الناس: (تَكْرَ) هو
مستعمل فيما يُرى بالبصر فينكر،
(وَأَتَكْرَ) هي مستعملة فيما لا يقرر
من المعاني، فكأن الأعشى قال:
وَأَتَكْرَتُنِي مَوَدَّتِي وَأَذْمَتِي ونحوه، ثم
جاء بـ (نكر) في الشيب والصلع
الذي هو مرثي بالبصر، ومن هذا
قول أبي ذؤيب:

فَتَكْرَثُهُ فَتَفَرَّنَ وَامْتَرَسَتْ بِهِ
هَوِجَاءُ هَادِيَةٌ وَهَادٍ جُرْشَعُ
والذي خاف منه إبراهيم عليه
السلام ما يدل عليه امتناعهم من

الأكل، فَعُرِفَ من جاء بِشَرٍّ أَلَّا يَأْكُلَ
من طعام المنزل به، و﴿وَأَوْجَسَ﴾
معناه: أَحْسَ في نفسه خيفة منهم،
والوجيس: ما يعترى النفس عند
الحذر وأوائل الفزع، فأمنوه بقولهم:
﴿لَا تَخَفْ﴾، وعلم أنهم الملائكة.

ثم خرجت الآية إلى ذكر المرأة
وبشارتها، فقالت فرقة: معناه: قائمة
خلف ستر تسمع محاوراة إبراهيم مع
أضيافه، وقالت فرقة: معناه: قائمة
في صلاة. وقال السدي: معناه:
قائمة تخدم القوم، وفي قراءة ابن
مسعود: ﴿وهي قائمة وهو جالس﴾.
وقوله: ﴿فَضَحِكَتْ﴾، قال مجاهد:
معناه: حاضت، وأنشد على ذلك
اللفظيون:

وَضَحِكَ الْأَرَانِبُ فَوْقَ الصُّفَا
كَمِثْلِ دَمِ الْجَوْفِ يَزُمُ اللَّفَا
وهذا القول ضعيف قليل التمكن،
وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون
في كلام العرب ضحكت بمعنى
حاضت، وقرره بعضهم، ويقال:
ضحك الحوض إذا امتلأ وفاض،
ورَدَ الرُّجَاجُ قول مجاهد، وقال
الجمهور: هو الضحك المعروف،
واختلِفَ، وَمِمَّ ضَحِكْتُ؟ فقالت
فرقة: ضحكت من تأمينهم لإبراهيم
بقولهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾، وقال قتادة:
ضحكت هزواً من قوم لوط أن
يكونوا على غفلة وقد نفذ من
أمر الله تعالى فيهم ما نفذ، وقال
وهب بن مُثَبِّ: ضحكت من البشارة
بإسحاق، وقال: هذا مقدم بمعنى
التأخير، وقال محمد بن قيس:
ضحكت لظننها بهم أنهم يريدون
عمل قوم لوط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول خطأ لا ينبغي أن يلتفت إليه، وقد حكاه الطبري، وإنما ذكرته لمعنى التنبيه على فساده.

وقالت فرقة: ضحكت من فزع إبراهيم من ثلاثة وهي تعهده يغلب الأربعين من الرجال، وقيل: الباقية، وقال السدي: ضحكت من أن تكون تخدم وإبراهيم يحتد ويسعى والأضياف لا يأكلون، وقيل: ضحكت سروراً بصدق ظنها، لأنها كانت تقول لإبراهيم: إنه لا بد أن ينزل العذاب بقوم لوط، ورؤي أن الملائكة مسحت العجل فقام حيًا فضحكت لذلك، وقرأ محمد بن زياد الأعرابي: ﴿فَضَحَكْتُ﴾ بفتح الحاء.

وامرأة إبراهيم هذه هي سارة بنت هارون بن ناحور، وهو إبراهيم بن آزر بن ناحور، فهي ابنة عمه، وقيل: هي أخت لوط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما أظن ذلك إلا أخوة القرابة لأن إبراهيم هو عم لوط فيما روي.

وذكر الطبري أن إبراهيم لما قدم العجل قالوا له: إنا لا نأكل طعاماً إلا بشمن، فقال لهم: ثمنه أن تذكروا الله تعالى عليه في أول وتحمدوه في آخر، فقال جبريل لأصحابه: بحق اتخذ الله هذا خليلاً.

وقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا﴾، أضاف فعل الملائكة إلى ضمير اسم الله تعالى إذ كان ذلك بأمره ووحيه،

وبشر الملائكة سارة بإسحاق وبأن إسحاق سيلد يعقوب، ويُسمى ولَدُ الولد الولد من الوراء، وهو قريب من معنى (وراء) في الظرف، إذ هو ما يكون خلف الشيء وبعده، ورأى ابن عباس رجلاً معه شاب، فقال له: من هذا؟ فقال له: ولد ولدي، فقال: هو ولدك من الوراء فغضب الرجل فذكر له ابن عباس الآية.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿يَعْقُوبُ﴾ بالرفع على الابتداء والخبر المقدم، وهو - على هذا - داخل في البشري، وقالت فرقة: رفعه على القطع بمعنى: ومن وراء إسحاق يحدث يعقوب، وعلى هذا لا يدخل في البشارة، وقرأ ابن عامر، وحمزة: ﴿يَعْقُوبُ﴾ بالنصب، واختلف عن عاصم، فمنهم من جعله معطوفاً على ﴿إِسْحَاقَ﴾ إلا أنه لم ينصرف، واستسهل هذا القائل أن فرق بين حرف العطف والمعطوف بالمجرور، وسيبويه لا يجيز هذا إلا على إعادة حرف الجر، وهو كما تقول: ﴿مَرَرْتُ بِزَيْدٍ الْيَوْمَ وَأَمْسِ عَمْرُو، فَالْوَجْهَ عَنْهُ: وَأَمْسِ بَعْمُرُو، وَإِذَا لَمْ يُعَدِّ فِيهِ كَبِيرٌ قَبِيحٌ، وَالْوَجْهَ فِي نَصْبِهِ أَنْ يَنْتَصِبَ بِفَعْلٍ مُضْمَرٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ الْبَشَارَةُ وَتَقْدِيرُهُ: وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ وَهَبْنَا يَعْقُوبَ، وَهَذَا رَجَّحَ أَبُو عَلِيٍّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورؤي أن سارة كانت في وقت هذه

البشارة بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة سنة.

وهذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسماعيل، وأنه أسن من إسحق، وذلك أن سارة كانت في وقت إخدالم الملك الجائر هاجر أم إسماعيل امرأة شابة جميلة حسبما في الحديث، فاتخذها إبراهيم عليه السلام أم ولد فغارت لها سارة، فخرج بها وبابنها إسماعيل من الشام على البراق، وجاء من يومه مكة فتركها - حسبما في السير - وانصرف إلى الشام من يومه ثم كانت البشارة بإسحاق وسارة عجوز مُتَجَالَّة، وأما وجه دلالة الآية على أن إسحاق ليس بالذبيح فهو أن سارة وإبراهيم بُشِّرا بإسحاق وأنه يولد له يعقوب، ثم أمر بالذبح حين بلغ ابنه معه السعي، فكيف يؤمر بذبح ولده قد بُشِّرَ قَبْلُ أنه سيولد لابنه ذلك؟ وأيضاً فلم يقع قط في أثر أن إسحق دخل الحجاز، وإجماع أن أمر الذبح كان بمنى، ويؤيد هذا الغرض قول رسول الله ﷺ: «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحِينَ» يريد أباه عبدالله وأباه إسماعيل، ويؤيده ما نزع إليه مالك رحمه الله من الاحتجاج برتبة سورة الصافات فإنه بعد كمال أمر الذبيح قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا كله موضع معارضات لقائل القول الآخر: إن الذبيح هو إسحاق، ولكن هذا الذي ذكرناه هو الأرجح، والله أعلم.

﴿٧٢﴾ - ﴿٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في الألف التي في قوله: ﴿يَتَوَلَّوْا﴾، وأظهر ما فيها أنها بدل ياء الإضافة، أصلها: «يا وتولتي»، كما تقول: يا غلاما ويا غوثا، وقد تردف هذا الألف بهاء في الكلام، ولم يُقرأ بها، وأمال هذه الألف عاصم، والأعمش، وأبو عمرو.

ومعنى ﴿يَتَوَلَّوْا﴾ في هذا الموضع: العبارة عما دهم النفس من العجب في ولادة عجز، وأصل هذا الدعاء بالويل ونحوه في التجمع لشدة أو مكروه يهم النفس، ثم استعمل بغد في عجب يدهم النفس، وقال قوم: إنما قالت: «يا وتلتي» لما مر بفكرها من ألم الولادة وشدها، ثم رجعت بفكرها إلى التعجب ونطقت بقولها: ﴿هَآؤُلَآءُ وَآنَا عَجُوزٌ﴾ الآية.

وقرأت فرقة: ﴿هَآؤُلَآءُ﴾ بتحقيق الهمزتين، وقرأت فرقة بتخفيف الأولى وتحقيق الثانية، وفي النطق بهذه عُسْرٌ، وقرأت فرقة بتحقيق الأولى وتخفيف الثانية، والتخفيف هنا مذهبها، وقرأت فرقة: ﴿هَآؤُلَآءُ﴾ بتحقيق الهمزتين ومدة بينهما.

والعجز: المُسِنَّةُ، وقد حكى بعض الناس أن العرب تقول: العجوزة. و «البغل»: الزوج، و«تَبَيَّنَا» نصب على الحال، وهي حال من أشار إليه لا يستغنى عنها لأنها مقصود الإخبار، وهي لا تصح إلا إذا لم يقصد المتكلم التعريف بذي الحال، مثل أن يكون المخاطب يعرفه، وأما إذا قصد التعريف به لزم أن يكون التعريف في الخبر قبل

الحال وتجيء الحال على بابها مستغنى عنها، ومثال هذا قولك: «هذا زيد قائما» إذا أردت التعريف بزيد، أو كان معروفاً وأردت التعريف بقيامه، وأما إن قصد المتكلم أن يزيدته إنما هي ما دام قائما فالكلام لا يجوز.

وقرأ الأعمش: «وهذا بغلي شيخ»، قال أبو حاتم: وكذلك في مصحف ابن مسعود، ورفع على وجوه: منها: أنه خبر بعد خبر كما تقول: «هذا حلسو حامض»، ومنها: أن

يكون خبر ابتداء مضمّر تقديره: هو شيخ، وزوي أن بعض الناس قرأه: «وهذا بغلي هذا شيخ»، وهذه القراءة شبيهة بهذا التأويل، ومنها: أنه بدل من «بلي»، ومنها: أن يكون قولها: «بلي» بدلا من «هَذَا» أو عطف بيان عليه، ويكون (شيخ) خبر «هَذَا»، ويقال: شيخ وشيخة، وبعض العرب يقول في المذكر والمؤنث: شيخ، وزوي أن سارة كانت وقت هذه المقالة من تسع وتسعين سنة، وقيل: من تسعين، قاله ابن إسحاق، وقيل: من ثمانين، وكذلك قيل في سن إبراهيم: إنه كان مائة وعشرين سنة، وقيل: مائة سنة، وغير ذلك مما يحتاج إلى سند.

والضمير في قوله: ﴿قَالُوا﴾ للملائكة، وقوله: ﴿يَنْ أَمْرُ اللَّهِ﴾

قَالَتْ يَتَوَلَّوْا هَآؤُلَآءُ وَآنَا عَجُوزٌ وَهَآؤُلَآءُ بَنِي شَيْخَانِ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَ اللَّهُ وَرَزَقْنَهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ آيَاتٍ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَمِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرُ ابْنُ شَدِيدٍ قَالُوا لِي بِمَا يُرِيدُ إِبْرَاهِيمَ كَيْدٌ بَشَرٌ مِمَّنْ هَٰؤُلَاءِ الَّتِي نَقُولُ فَذَلِكُمْ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا بِهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَاقِياً بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا قَالَ هَٰذَا يَوْمُ عَصِيبٍ ﴿٧٥﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ بِهَرَجٍ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَعْمَلُونَ الْبَرَائِثَ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَتَّىٰ وَنَآءُ لَنَعْمَ مَا تَرِيدُ ﴿٧٧﴾ قَالُوا لَوْ أَنَّا لِرَبِّكُمْ قُوَّةٌ أَوْ أَعَاوَدُ إِلَىٰ رَبِّي شَدِيدِينَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ إِنَّا بِمَا نَصِفُكَ فَآثِرٌ بِأَهْلِكَ يَقْطِيعُ مِنَ الْآيَاتِ وَلَا يَلْفِتْ مِنْكُمْ أَحَدًا إِلَّا أَمْرًا لَكَ إِنَّهُمْ عَصِيبٌ مِمَّا مَسَّاهُمْ إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ النَّصِيبُ النَّصِيبُ الصُّبْحُ بِعَرِيسٍ ﴿٧٩﴾

يحتمل أن يريد واحد الأمور، أي من الولادة في هذه السن، ويحتمل أن يريد مصدر أمر، أي مما أمر الله به في هذه النازلة. وقوله: ﴿رَحِمَ اللَّهُ وَرَزَقْنَهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ آيَاتٍ﴾، يحتمل اللفظ أن يكون دعاء وأن يكون إخباراً، وكونه دعاء إنما يقتضي أنه أمر يُتَرْجَى ولم يتحصل بعد، ونصب «أَهْلَ آيَاتٍ» على الاختصاص، هذا مذهب سيبويه، ولذلك جعل هذا والنصب على المدح في باين كأنه مِيزَ النصب على المدح بأن يكون المنتصب لفظاً يتضمن بنفسه مدحاً، كما تقول: «هذا زيد عاقل قومه»، وجعل الاختصاص إذا لم يتضمن اللفظة ذلك، كقوله: «إِنَّا معاشر الأنبياء»:

إِنَّا بَنِي نَهْشَلٍ
.....

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يكون الاختصاص إلا بمدح أو ذم لكن ليس في نفس اللفظة المنصوبة.

وهذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته لأنها خطبت بهذا، فيقوى القول في زوجات النبي ﷺ بأنهن من أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس، بخلاف ما تذهب إليه الشيعة، وقد قاله أيضاً بعض أهل العلم، قالوا: «أهل بيته: الذين حُرموا الصدقة»، والأول أقوى، وهو ظاهر جلّي من سورة الأحزاب لأنه ناداهن بقوله: ﴿يَسَّاتُ النَّبِيِّ﴾ ثم بقوله: ﴿أَهْلُ الْبَيْتِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ووقع في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أهل بيته: الذين حرموا الصدقة بعده»، فأراد ابن عباس: أهل بيت النسب الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: «إن الصدقة لا تحل لأهل بيتي، إنما هي أوساخ الناس».

والبيت - في هذه الآية، وفي سورة الأحزاب - بيت السكنى، ففي اللفظ اشتراك ينبغي أن يُتَحَسَّنَ إليه، ففاطمة رضي الله عنها من أهل بيت محمد ﷺ بالوجهين، وعلي رضي الله عنه بالواحد، وزوجاته بالآخر، وأما الشيعة فيدفعون الزوجات بغضاً في عائشة رضي الله عنها.

و ﴿حَيْدٌ﴾ أي: أفعاله تقتضي أن يُحْمَدَ، ﴿حَيْدٌ﴾ أي: متصف بأوصاف العلو، ومُجْدُ الشيء: إذا حسنت أوصافه.

﴿٧٦﴾ - ﴿٧٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿الرَّزَقُ﴾: الفرع والخيفة التي تقدم ذكرها، وكان ذهابه بإخبارهم إياه أنهم ملائكة، و ﴿الْبَشَرَى﴾: يحتمل أن يريد الولد، ويحتمل أن يريد البشري بأن المراد غيره، والأول أبين. وقوله: ﴿يَجِدَنَّ﴾ فعل مستقبل جائز أن يَشُدَّ مَسَدَ الماضي الذي يصلح لجواب ﴿لَسْنَا﴾، لا سيما والإشكال مرتفع بمضني زمان الأمر ومعرفة السامعين بذلك، ويحتمل أن يكون التقدير: «ظَلَّ أو أخذ ونحوه يجادلنا»، فحذف اختصاراً لدلالة ظاهر الكلام عليه، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿يَجِدَنَّ﴾ حالاً من إبراهيم، أو من الضمير في قوله: ﴿جَاءَهُ﴾، ويكون جواب ﴿لَسْنَا﴾ في الآية الثانية: «قُلْنَا: ﴿يَتَّبِعُهُمُ غَرَضٌ عَنَّا﴾»، واختار هذا أبو علي. والمجادلة: المقابلة في القول والحُجَج، وكأنها أعم من المخاصمة، فقد يجادل من لا يخاصم كإبراهيم.

وفي هذه النازلة وُصِفَ إبراهيم بالحلم، قيل: إنه لم يغضب قط لنفسه إلا أن يغضب لله، والحلم: العقل إذا انضاف إليه أناة واحتمال. والأوَاهُ معناه: الخائف الذي يكثر التأوّه من خوف الله تعالى، ويروى أن إبراهيم عليه السلام كان يسمع وجيب قلبه من الخشية، قيل: كما تُسمع أجنحة النور، وللمفسرين في «الأوَاه» عبارات كلها ترجع إلى ما ذكرته وتلزمه، و «الْمُنِيبُ»: الرجوع إلى الله تعالى في كل أمره. وصورة جدال إبراهيم عليه السلام

كانت أن قال إبراهيم: إن كان فيهم بآفة مؤمن أتعدبونهم؟ قالوا: لا، قال: أفَتَشْعُونَ؟ قالوا: لا، قال: أفثمانون؟ فلم يزل كذلك حتى بلغ خمسة ووقف عند ذلك، وقد عد في بيت لوط امرأته فوجدهم ستة بها فطمع في نجاتهم ولم يشعر أنها من الكفرة، وكان ذلك من إبراهيم حرصاً على إيمان تلك الأمة ونجاتها. وقد كثر اختلاف رواة المفسرين لهذه الأعداد في قول إبراهيم عليه السلام، والمعنى كله نحو مما ذكرته، وكذلك ذكروا أن قوم لوط كانوا أربعمائة ألف في خمس قرى، وقالت فرقة: المراد: يجادلنا في مؤمني قوم لوط، وهذا ضعيف، وأمره بالإعراض عن المجادلة يقتضي أنها كانت في الكفرة حرصاً عليهم، والمعنى: قلنا: يا إبراهيم أعرض عن المجادلة في هؤلاء القوم والمراجعة فيهم، فقد نفذ فيهم القضاء و ﴿جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾، والأمر هنا: واحد الأمور بقرينة وصفه بالمجبي، فإن جعلناه مصدر (أَمَرَ) قدرنا حذف مضاف، أي: جاء مقتضى أمر ربك ونحو هذا، وقوله: ﴿يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ﴾ ابتداء وخبر، جملة في موضع خبر [إِنَّا]، وقيل: ﴿يَأْتِيهِمْ﴾ خبر (إِن) فهو اسم فاعل معتمد، و ﴿عَذَابٌ﴾ فاعل به ﴿يَأْتِيهِمْ﴾.

وهذه الآية مقتضية أن الدعاء إنما هو أن يوفق الله الداعي إلى طلب المقدور، فأما الدعاء في طلب غير المقدور فغير مُجْد ولا نافع.

٧٧ - ٨٠ تفسير قوله عز وجل:

الرسول هنا هم الملائكة الذين كانوا أضياف إبراهيم عليه السلام، وذلك أنهم لما خرجوا إلى بلد لوط - وبينه وبين قرية إبراهيم ثمانية أميال - وصلوه، فقبل: وجدوا لوطاً في حرث له، وقبل: وجدوا ابنته تستقي ماءً في نهر سدوم - وهي أكبر حواضر قوم لوط - فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم: مكانكم، وذهبت إلى أبيها فأخبرته، فخرج إليهم، فقالوا له: نريد أن تضيفنا الليلة، فقال لهم: أوما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال: أشهد بالله لهم شر قوم في الأرض، وقد كان الله عز وجل قد قال للملائكة: لا تعذبوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما قال لوط هذه قال جبريل لأصحابه: هذه واحدة، وتكرر القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرار، ثم دخل لوط بهم المدينة، وحينئذ «سيء» بهم: أي: أصابه سوء و«سيء» فعل بني للمفعول.

والذُّرْعُ: مصدر مأخوذ من الذراع، ولما كان الذراع موضع قوة الإنسان قيل في الأمر الذي لا طاقة له به: ضاق بهذا الأمر ذراع فلان، وذُرْعُ فلان، أي: حيلته بذراعه، وتوسعوا في هذا حتى قلبوه فقالوا: «فلان رحب الذراع» إذا وصفوه بالقدر، ومنه قول الشاعر:

يا سيِّداً ما أنت من سيِّد
مَوْطاً الأكثاف رحب الذراع

وقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أشار به إلى ما كان يتخوفه من تعذي قومه على أضيافه واحتياجه إلى المدافعة مع ضعفه عنها، و﴿عَصِيبٌ﴾ بناء اسم فاعل معناه: يعصب الناس بالشَّرِّ كما يغضب الخابط السَّلْمَة إذا أراد خبطها ونفض ورقها، ومنه قول الحجاج في خطبته: «وَلَا عَصِيبُكُمْ عَصَب السَّلْمَة»، فهو من العصابة، ثم كثر وصفهم اليوم بعصيب، ومنه قول الشاعر وهو عدي بن زيد:

وكنْتُ لِرِزَّازٍ خَضَمِكَ لَمْ أُعْرِذْ
وَقَدْ سَلَكُوكَ فِي يَوْمٍ عَصِيبٍ

ومنه قول الآخر:

فإنَّكَ لِأَتَرْضَى بَكْرَ بْنَ وَاثِلٍ
يَكُنْ لَكَ يَوْمَ بِالْعِرَاقِ عَصِيبٌ

و﴿عَصِيبٌ﴾ بالجملة: في موضع شديد وصعب الوطأة، واشتقاقه كما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا قَوْمُ﴾ الآية. روي أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف ورأت جمالهم وهيئتهم خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت: إن لوطاً أضاف الليلة فتية ما رئي مثلهن جمالاً وكذا وكذا، فحينئذ جاءوا يهرعون إليه، ومعناه: يسرعون، والإهرع هو أن يسرع أمر بالإنسان حتى يسير بين الخشب والجمز، فهي مشية الأسير الذي يسرع به، والطامع المبادر إلى أمر يخاف فوته، ونحو هذا، يقال: هرع الرجل وأهرعه طمع أو عدو أو خوف ونحوه. والقراءة المشهورة: ﴿يَهْرَعُونَ﴾ بضم الياء، أي: يهرعون الطمع. وقرأت فرقة: ﴿يَهْرَعُونَ﴾

بفتح الياء، من هَرَعَ، ومن هذه اللفظة قول مهلهل:

فَجَاءُوا يَهْرَعُونَ وَهُمْ أَسَارَى
تَقْشُرُهُمْ عَلَى رَغَمِ الْأَنْسُوفِ

وقوله: ﴿وَيَنْ بَقْلٌ كَانُوا يَمْلَكُونَ﴾ الكَيْتَابُ: أي: كانت عاداتهم إتيان الفاحشة في الرجال، فجاءوا إلى الأضياف لذلك، فقام إليهم لوط مدافعاً وقال: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾. فقالت فرقة: أشار إلى بنات نفسه وندبهم في هذه المقالة إلى النكاح، وذلك على أن كانت سُنَّتُهُم جواز نكاح الكافر المؤمنة، أو على أن في ضمن كلامه أن يؤمنوا، وقالت فرقة: إنما كان الكلام مدافعة لم يرد إمضاءه، روي هذا القول عن أبي عبيدة، وهو ضعيف، وهذا كما يقال لمن ينهى عن مال الغير: «الخنزير أحل لك من هذا»، وهذا التنطع ليس من كلام الأنبياء صلى الله عليه وسلم، وقالت فرقة: أشار بقوله: ﴿بَنَاتِي﴾ إلى النساء جملة إذ نبئ القوم أب لهم، ويُقَوَّى هذا أن في قراءة ابن مسعود: ﴿أَلْتَنِي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُمْ أَهْلُهُمْ﴾ «وهو أب لهم»، وأشار أيضاً لوط - في هذا التأويل - إلى النكاح.

وقرأت فرقة هي الجمهور: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ برفع الراء على خبر الابتداء. وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر، ومحمد بن مروان، وسعيد بن جبير: ﴿أَطْهَرُ﴾ بالنصب، قال سيبويه: «هو لَحْنٌ»، وقال أبو عمرو بن العلاء: احتبى فيه ابن مروان في لحنه، ووجهه - عند من قرأ بالنصب على الحال - بأن تكون

﴿بَنَاتٍ﴾ ابتداءً، و﴿هُنَّ﴾ خبره، والجملة خبر ﴿هَؤُلَاءِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو إعراب مروى عن المبرد، وذكره أبو الفتح، وهو خطأ في معنى الآية، وإنما قوم اللفظ فقط، والمعنى إنما هو في قوله: ﴿أَطْهَرُ﴾، وذلك قصد أن يُخبر به، فهي حال لا يُستغنى عنها، كما تقدم في قوله: ﴿وَهَذَا بَطْلٌ شَيْئًا﴾. والوجه أن يقال: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتٍ﴾ ابتداءً وخبر، و﴿هُنَّ﴾ فضل، و﴿أَطْهَرُ﴾ حال، وإن كان شرط الفصل، ولما لم يستغ ذلك أبو عمرو ولا سيبويه لحث ابن مروان، وما كان ليذهب عليهما من ذكر أبو الفتح.

والضيف: مصدر يوصف به الواحد والجماعة والمذكر المؤنث. ثم ويخبرهم بقول: ﴿أَلَيْسَ يَنْكُرُ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾، أي: يَزْعَمُ ويردعكم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ الآية. روي أن قوم لوط كانوا قد خطبوا بنات لوط فردّهم، وكانت سُنَّتُهُم أن من رُدّ في خطبة امرأة لا تحل له أبداً، فلذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبعد ألا تكون هذه الخاصة، فوجه الكلام: إنا ليس لنا إلى بناتك تعلق، ولا هُم قصدنا، ولا لنا عادة نطلبها في ذلك، وقولهم: ﴿وَبَنَاتِكَ لَنَنْكُرُ مَا رُئِيَ﴾ إشارة إلى الأضياف، فلما رأى استمرارهم في غيهم وغلبيتهم وضعفه عنهم قال - على جهة التّفجّع

والاستكانة -: ﴿أَوَ أَنْ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾، و (أَنْ) في موضع رفع بفعل مضمر تقديره: لو اتفق أو وقع ونحو هذا، وهذا مطرّد في (أَنْ) التابعة لـ (لَوْ)، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، وحذف مثل هذا أبلغ لأنه يدع السامع ينتهي إلى أبعد تخيلاته، والمعنى: لفعلتُ كذا وكذا.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوَ آوِي﴾ بسكون الياء، وقرأ شبة وأبو جعفر: ﴿أَوَ آوِي﴾ بالنصب، التقدير: أو أن آوي، فتكون (أَنْ) مع (آوي) بتأويل المصدر، كما قالت مَيْسُون بنت بحدل:

وَلَبَسْتُ عَبَاءَةً وَتَقَرَّرْتُ عَيْنِي
.....

ويكون ترتيب الكلام: لو أن لي بكم قوة أو آوينا، وآوى معناه: لجأ وانضوى. ومراد لوط عليه السلام بـ «الرُّكن»: العشيرة والمنّة بالكثرة، وبلغ به قبيح فعلهم إلى هذا مع علمه بما عند الله تبارك وتعالى، فيروى أن الملائكة وجدّت عليه حين قال هذه الكلمات وقالوا: إن ركنك لشديد، وقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، فالعجب منه لم استكان؟».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نقد لأن يلفظ لوط هذه الألفاظ، وإلا فحالة النبي ﷺ وقت طُرح عليه سَلَى الجزور، ومع أهل الطائف، وفي غير موطن تقتضي مقالة لوط، لكن محمداً ﷺ لم ينطق بشيء من ذلك عزيمة منه ونجدة، وإنما خشى لوط أن

يمهل الله أولئك العصاة حتى يعصوه في الأضياف كما أمهلهم فيما قبل ذلك من معاصيهم فيمن مضى، فتمنى ركناً من البشر يعاجلهم به وهو يعلم أن الله تعالى من وراء عقابهم، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «لم يبعث الله تعالى بعد لوط نبياً إلا في ثروة من قومه»، أي: في منّة وعزة.

﴿٨١﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿قَالُوا﴾ ضمير الملائكة، ويروى أن لوطاً لما غلبوه وهموا بكسر الباب وهو يمسكه قالت له الرُّسل: تنحّ عن الباب فتنحّي وانفتح الباب، فضربهم جبريل عليه السلام بجناحه فطمس أعينهم وعمّوا، وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النّجاء النّجاء فعند لوط قوم سحرة، وتوعدوا لوطاً ففرّج حيثنّ من وعيدهم، فحيثنّ قالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فَأَسْمِنُ، ذكر هذا النقاش. وفي تفسير غيره ما يقتضي أن قولهم: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ كان قبل طمس العيون. ثم أمروه بالسُّرى وأعلموه أن العذاب نازل بالقوم، فقال لهم لوط: فعذبوهم الساعة، قالوا له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصَّبْحُ﴾، أي: بهذا أمر الله، ثم آتته في قلبه بقولهم: ﴿أَلَيْسَ الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وقرأ نافع وابن كثير: ﴿فَأَسْرَى﴾ من سَرَى يسري إذا سار في أثناء الليل، وقرأ الباقون: ﴿فَأَسْرَى﴾ من أسرى إذا سار أول الليل، والقطّاع: القطعة من الليل، ويحتمل أن لوطاً أسرى بأهله من أول الليل حتى جاوز البلد المقتلع، ووقعت نجاته بسحر،

فتجتمع هذه الآية مع قوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَالٌ لَّوِيٌّ يَّجْنِبُهُمْ يَسْحَرُونَ﴾، وبيت النابغة جمع بين الفعلين في قوله:

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَازِ سَارِيَّةٌ
تُزْجِي الشَّمَالَ عَلَيْهِ جَايِدَ الْبَرْدِ
فذهب قوم إلى أن (سرى) و (أسرى) بمعنى واحد، واحتجوا بهذا البيت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأقول: إن البيت يحتمل أنهما لِمَعْنَيْنِ، وذلك أظهر عندي، لأنه قصد وصف هذه الديمة وأنها ابتدأت من أول الليل وقت طلوع الجوزاء في الشتاء.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَ﴾ بالرفع على البدل من ﴿أَحَدٍ﴾، وهذا هو الأوجه إذا استثنى من منفي، كقولك: «ما جاءني أحد إلا زيد»، وهذا هو استثناء من المَلْفُوتَيْنِ، وقرأ الباقون: ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَ﴾ بالنصب، ورأت ذلك فرقة من النحاة الوجه في الاستثناء من منفي، إذ الكلام المنفي في هذا مستقل بنفسه كالموجب فإذا هو مثله في الاستقلال، فحكمه حكمه في نصب المستثنى، وتأولت فرقة ممن قرأ: ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَ﴾ بالنصب أن الاستثناء وقع من الأهل كأنه قال: «فأسر بأهلك إلا أمرًا نَكَ»، وعلى هذا التأويل لا يكون إلا النصب، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «لو كان الكلام: ولا يلتفت - برفع الفعل - لَصَحَّ الرفع في قوله: ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَ﴾، ولكنه نهى، فإذا استثنيت المرأة من ﴿أَحَدٍ﴾ وجب أن تكون

«المرأة» أبيض لها الالتفات فيفسد معنى الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الاعتراض حسن يلزم الاستثناء من ﴿أَحَدٍ﴾ رفعت الثاء أو نصبت، والانفصال عنه يترتب بكلام حكى عن المبرد، وهو أن النهي إنما قصد به لوط وحده، والالتفات منفي عنهم بالمعنى، أي: لا تدع أحدا منهم يلتفت، وهذا كما تقول لرجل: «لا يقيم من هؤلاء أحد إلا زيدا»، وأولئك لم يسمعوك، فالمعنى: لا

تدع أحدا من هؤلاء يقوم، والقيام بالمعنى منفي عن المشار إليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجملة هذا أن لفظ الآية هو لفظ قولنا: «لا يقيم أحد إلا زيدا»، ونحن نحتاج أن يكون معناها معنى قولنا: «لا يقوم أحد إلا زيدا»، وذلك اللفظ لا يرجع إلى هذا المعنى إلا بتقدير ما حكيناه عن المبرد فتدبره. ويظهر من مذهب أبي عبيد أن الاستثناء إنما هو من «الأهل»، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا أمرًا نَكَ»، وسقط قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾. والظاهر في ﴿يَلْتَفِتْ﴾ أنها من التفات البصر، وقالت فرقة: هي من: لَفَتَ الشَّيْءُ يَلْفَتُهُ إِذَا ثَنَاهُ وَلَوَاهُ، فمعناها: «وَلَا يَنْتَبِطُ»، وهذا شاذ مع صحته، وفي كتاب الزهراوي أن

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرًا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَاقِلَهَا وَأَمَطَرْنَا عَلَيْهَا حِكَاةً مِنْ سِجِلٍ مَنُصُورٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَى مَدِينٍ آخَرَةٍ شُعْبًا قَالَتْ يَقُومُ عَبْدُ اللَّهِ وَاللَّهُ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَذَابٌ وَلَا تَنْفُصُوا إِلَيْكَ كَيْلَ وَالْإِيمَانُ إِيَّائِي أَنْزَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ يُحْصِي ۖ وَتَقُومُوا أَوْفُوا إِلَيْكَ كَيْلَ وَالْإِيمَانُ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَرَفُوا بِالْأَرْضِ مُقْسِدِينَ ﴿٨٤﴾ يَبْقَى اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا نَأْتِيكُمْ بِحَافِظٍ ﴿٨٥﴾ قَالُوا يَشْعِبُ أَصْلُوكَ تَأْتِيكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَبْقَى ؕ إِنَّا نَأْتِيكَ أَنْ تَفْعَلَ فِي أُمُورِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَا تَأْتِي الْحِيلَةَ الرَّشِيدَ ﴿٨٦﴾ قَالَتْ يَقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَرَفَعَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٧﴾

٢٣١

المعنى: «وَلَا يَلْتَفِتْ أَحَدٌ إِلَى مَا خَلْفَ بَلْ يَخْرُجْ مَسْرِعًا مَعَ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ»، وروي أن امرأة لوط لما سمعت الهدية ردت بصرها وقالت: واقوما، فأصابها حجر فقتلها. وقرأت فرقة: «الضُّبْحُ» بضم الباء.

﴿٨٢﴾ - ﴿٨٧﴾ تفسير قوله عز وجل: رُوي أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط واقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا صراخ الديكة وتبائح الكلاب، ثم أرسلها معكوسة وأنبعهم الحجارة من السماء. وروي أن جبريل عليه السلام أخذهم بخوافي جناحه. ويروى أن مدينة منها نُجيت كانت مختصة بلوط عليه السلام يقال لها: زُغَر.

و «أَمْرًا نَكَ» في هذه الآية يحتمل أن يكون مصدرًا من: أَمَرَ، ويكون في

الكلام حذف مضاف تقديره: مُقتضى أمرنا. ويحتمل أن يكون واحد الأمور. والضمير في قوله: ﴿عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ للمُذْن، وأجري ﴿وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ كذلك، والمراد على أهلها، ورُوي أن الحجارة استوفت منهم من كانوا خارج مدنها حتى قتلتهم أجمعين، ورُوي أنه كان منهم في الحَرَم رجل فبقي حجره معلقاً في الهواء حتى خرج من الحرم فقتله الحَجَر، ﴿وَأَنْطَرْنَا أَبَدًا﴾ إنما يستعمل في المكروه، و (مطر) يستعمل في المحبوب، هذا قول أبي عبيدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس كذلك، وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّظِيرٌ﴾ يرُدُّ هذا القول، لأنهم إنما ظلُّوه معتاد الرحمة.

وقوله: ﴿مِنْ سَجِيلٍ﴾ اختلف فيه، فقال ابن زيد: ﴿سَجِيلٍ﴾: اسم السماء الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، ويردُّه وصفه بـ ﴿مَنْصُورٍ﴾. وقالت فرقة: هو مأخوذ من لفظ السَّجَل، أي: هي من أمر كتب عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد، وقالت فرقة: وهو مأخوذ من السَّجَل إذا أرسل الشيء كما يرسل السَّجَل، كما تقول: قالها مُسَجَّلَةً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وقالت فرقة: ﴿مِنْ سَجِيلٍ﴾ معناه: من جهنم، لأنه يقال: ﴿سَجِيلٌ وَسَجِينٌ﴾، حُفِظَ فِيهَا بَدَلُ النَّوْنِ لَامٌ، كما قالوا: أَصْيَالٌ وَأَصْيَالَانٌ. وقالت فرقة: ﴿سَجِيلٍ﴾

معناه: شديد، وأنشد الطبري في ذلك:

.....

ضرباً تَوَاصَى بِهِ الْأَبْطَالُ سَجِيلاً
والبيت في قصيدة نونية: سَجِيلاً.
وقالت فرقة: ﴿سَجِيلٍ﴾ لفظة غير عربية عُثِرَ عنها بالعربية وأصلها: «سَنْجٌ وَجَلٌ»، وقيل غير هذا في أصلها، ومعنى اللفظة: ماءٌ وطِينٌ، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وابن جُبَيْر، وعكرمة، والسدي، وغيرهم، وذهبت هذه الفرقة إلى أن الحجارة التي رُمُوا بها كانت كالأَجْر المطبوخ، أصلها من طين قد تَحَجَّرَ، نَصَّ عليه الحسن، وهذا قول يشبه، وهو الصواب الذي عليه الجمهور. وقالت فرقة: معنى ﴿سَجِيلٍ﴾: حجر مخلوط بطين، أي حَجَرٌ وَطِينٌ، ويمكن أن يَرَدَّ هذا إلى الذي قبله، لأن الأَجْرَ وما جرى مجراه يمكن أن يقال فيه: حَجَرٌ وَطِينٌ، لأنه قد أخذ من كل واحد بحظه، هي من طين من حيث هو أصلها، ومن حَجَرٍ من حيث صلبت.

و ﴿مَنْصُورٍ﴾ معناه: بعضه فوق بعض، أي تَتَابَعٌ، وهي صفة لـ ﴿سَجِيلٍ﴾، وقال الربيع بن أنس: نضده: أنه في السماء منضود مُعَدَّ بعضه فوق بعض.

و ﴿سُوءَةً﴾ معناه: معلمة بعلامة، فقال عكرمة وقتادة: إنه كان فيها بياض وحمرة، ويُحكى أنه كان في كل حجر اسم صاحبه، وهذه اللفظة هي من سُوءٍ إذا أعلم، ومنه قول النبي ﷺ يوم بدر: «سُوءُوا فَقَدْ

سُوءَتِ الْمَلَائِكَةُ»، ويحتمل أن تكون ﴿سُوءَةً﴾ ها هنا بمعنى: مُرْسَلَةٌ، وَسُوءُهَا من الهبوط. وقوله: ﴿وَمَا أَتَّيْبِلُكُمْ﴾، إشارة إلى الحجارة. و ﴿مِنْ أَتَّيْبِلُكُمْ﴾، قيل: يعني قريشاً، وقيل: يريد عموم كل من اتصف بالظلم، وهذا هو الأصح لأنه رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «سَيَكُونُ فِي أُمْتِي خَنْسَفٌ وَمَنْخٌ وَقَذْفٌ بِالْحِجَارَةِ». وقد ورد أيضاً حديث: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِمَنْحَاةٍ مِنْ ذَلِكَ». وقيل: يعني بـ ﴿مِنْ﴾ المدن، ويكون المعنى الإعلام بأن هذه البلاد قريبة من مكة، والأول أَتَيْنَ، ورُوي أن هذه البلاد كانت بين المدينة والشام، وحكى الطبري في تسميه هذه المدن: صنعة، وصعوة، وعشرة، ودوما، وسدوم، وسدوم هي القرية العظمى.

(٨٤) - (٨٦) تفسير قوله عز وجل:

التقدير: وإلى مدين أرسلنا أخاهم شُعيباً، واختلف في لفظة ﴿مَدْيَنَ﴾؛ فقيل: هي بُقْعَةٌ، فالتقدير على هذا: «وإلى أهل مدين»، كما قال: ﴿رَمَثِلَ الْقَرْيَةِ﴾، وقيل: كان هذا القطر في ناحية الشام، وقيل: ﴿مَدْيَنَ﴾ اسم رجل كانت القبيلة من ولده فُسُمِيَتْ باسمه، و ﴿مَدْيَنَ﴾ لا ينصرف في الوجهين، حكى النقاش أن ﴿مَدْيَنَ﴾ هو ولد إبراهيم الخليل لصلبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد.

وقد قيل: إن ﴿شُعَيْباً﴾ عربي، فكيف يجتمع هذا وليس للعرب اتصال بإبراهيم إلا من جهة إسماعيل فقط! ودعاء شعيب إلى عبادة الله

و «الحفيظ»: المراقب الذي يحفظ أحوال من يراقب، والمعنى: إنما أنا مبلغ، والحفيظ المحاسب هو الذي يجازيكم بالأعمال.

﴿٨٧﴾ - ﴿٨٨﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿قَرَأْ جُمُوهُورَ النَّاسِ: ﴿أَصَلُّوا تَكَ﴾﴾ بالجمع، وقرأ ابن وثاب: ﴿أَصَلُّوا تَكَ﴾ بالإفراد، كذلك قرأ في (بـراءة): ﴿إِنَّ صَلَّوْكَ﴾، وفي (المؤمنين): ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ﴾، كل ذلك بالإفراد. واختلف في معنى الصلاة هنا؛ فقالت فرقة: أرادوا الصلوات المعروفة، وزوي أن شعبياً عليه السلام كان أكثر الأنبياء صلاة، وقال الحسن: لم يبعث الله نبياً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. وقيل: أرادوا: قراءتك، وقيل: أرادوا: أمساجدك؟ وقيل: أرادوا: أدعواتك؟ قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأقرب هذه الأقوال الأول والرابع.

وجعلوا «الأمر» من فعل الصلوات على جهة التجوز، وذلك أن كل من حصل في رتبة من خير أو شر ففي الأكثر تدعوه رتبة إلى الترتيد من ذلك النوع، فمعنى هذا: ألما كنت مصلياً تجاوزت إلى ذم شرعنا وحالنا؟ فكأن حاله من الصلاة جسرته على ذلك فقبل: أمرته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْفَعُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

وقولهم: ﴿أَنْ تَرْكَ مَا يَبْغُ﴾ «بَارِئاً» نص في أنهم كانوا يعبدون غير الله تعالى، وقرأ جمهور الناس: ﴿تَفْعَلُ﴾ و﴿تَشْتَرُ﴾ بنون الجماعة فيهما، وقرأ الضحاک بن قيس: ﴿تَفْعَلُ﴾ و﴿تَشَاءُ﴾ بتاء المخاطبة

الفضل بن الجوهري على المنبر بمصر يعظ الناس في الكيل والوزن فقال: «اعتبروا في أن الإنسان إذا رفع يده بالميزان فامتدت أصابعه الثلاث والتقى الإبهام والسبابة على ناصية الميزان جاء من شكل أصابعه المكتوبة، فكأن الميزان يقول: الله الله».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وعظ مليح مذكر. و «الْيَسْطُ»: العدل ونحوه، و «الْبَخْسُ»: النقصان، و﴿تَنْعَزَا﴾ معناه: تَشْعَوْنَ في فساد، وكرر ﴿مُفْسِدِينَ﴾ على جهة التأكيد، يقال: عَثَا يَعْثُو أو عَثَى يَغْثَى، وَعَثَّ يَعْثُ، وَعَثَّ يَعْثُ إذا أفسد ونحوه من المعنى. والعَثَّة: الدودة التي تفسد ثياب الصوف.

وقوله: ﴿يَبْقَى إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: معناه: الذي يَبْقَى الله لكم من أموالكم بعد توفيتكم الكيل والوزن خير لكم مما تستكثرون أنتم به على غير وجهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير يليق بلفظ الآية.

وقال مجاهد: معناه: طاعة الله: وقال ابن عباس أيضاً: معناه: رزق الله. وهذا كله لا يعطيه لفظ الآية، وإنما المعنى عندي: «إبقاء الله عليكم إن أطعتم». وقرأ إسماعيل بن جعفر عن أهل المدينة بتخفيف الياء، وهي لغة.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرط في أن تكون البقية خيراً لهم، وأما مع الكفر فلا خير لهم في شيء من الأعمال، وجواب هذا الشرط متقدم.

يقتضي أنهم كانوا يعبدون الأوثان، وذلك بَيِّنٌ من قولهم فيما بعد، وَكُفِّرْهُمْ هو الذي استوجبوا به العذاب لا معاصيهم، فإن الله لم يعذب قط أمة إلا بالكفر، فإن انضافت إلى ذلك معصية كانت تابعة، وأعني بالعذاب عذاب الاستئصال العام. وكانت معصية هذه الأمة الشنيعة أنهم كانوا تواطئوا أن يأخذوا ممن يرد عليهم من غيرهم وافيأً وَيُعْطُوا ناقصاً في وزنهم وكيلهم، فنهاهم شعيب بوحي من الله تعالى عن ذلك، ويظهر من كتاب الزجاج أنهم كانوا تراضوا بينهم بأن يبخر بعضهم بعضاً.

وقوله: ﴿يَحْذَرُ﴾ قال ابن عباس: معناه: في رخص من الأسعار. و«عذاب اليوم المحيط» هو حلول الغلاء المُهِلِكِ، وينظر هذا التأويل إلى قول النبي ﷺ: «ما نقص قوم المكيال والميزان إلا ارتفع عنهم الرزق». وقيل: قوله: ﴿يَحْذَرُ﴾ عام في جميع نعم الله تعالى، و«عذاب اليوم» هو الهلاك الذي حل بهم في آخر. وجميع ما قيل في لفظ «خير» منحصر فيما قلناه. ووَصِفَ اليوم بالإحاطة وهي من صفة العذاب على جهة التجوز، إذ كان العذاب في اليوم، وقد يصح أن يوصف اليوم بالإحاطة على تقدير: محيط شره، ونحو هذا.

وكرر عليهم الوصية في «الكيل والوزن» تأكيداً وبياناً وعظة، لأن ﴿وَلَا تَنْفُصُوا﴾ هو «أزفوا» بعينه لكنهما منحيان إلى معنى واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحدثني أبي رحمه الله أنه سمع أبا

اليهود من بني قريظة حين قال لهم:
رسول الله ﷺ: «يا إخوة القردة»:
«يا محمد ما علمناك جهولاً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والشبه بين الأمرين إنما هو بالمناسبة
بين كلام شعيب وتلفظه وبين ما بادر
به محمد عليه الصلاة والسلام بني
قريظة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَقُولُ أُذِيعَ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَتِّقُ﴾ الآية. هذه مراجعة لفظية واسترسال حسن واستدعاء رفيق، ولهذه الآية ونحوها من محاوراة شعيب عليه السلام قال فيه رسول الله ﷺ: **فَإِنَّكَ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ**. وجواب الشرط الذي في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَتِّقُ مِنْ نَفْسِي﴾ محذوف، تقديره: **أَفْضَلُ** كما ضللت **وأترك** تبليغ الرسالة؟ ونحو هذا مما يليق بهذه المحاجة. و﴿يَتِّقُ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى: **بيان** أو **بين** ودخلت الهاء للمبالغة كقلامه، ويحتمل أن تكون صفة لمحذوف فنكون الهاء هاء تأنيث.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنِي مِنهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾
يريد: خالصاً من الفساد الذي أدخلتم
أنتم في أموالكم، ثم قال لهم:
ولست أريد أن أفعل الشيء الذي
أدخلتم أنتم في أموالكم، ثم قال
لهم: ولست أريد أن أفعل الشيء
الذي نهيتكم عنه من نقص الكيل
والوزن فأستأثرُ بالمال لنفسي، وما
أريد إلا إصلاح الجميع، و﴿أَنِيبٌ﴾
معناه: أرجع وأتوب وأستند.

﴿يَحْرِمَ مَكَّكُمْ﴾ معناه: لا يكسبنيكم، يقال: جَرَمَهُ كَذَا وكَذَا وأَجْرَمَهُ إِذَا

الشُّرْكُ في قراءة من قرأ
بالتون في الفعلين إنما هو
بمعنى الرِّفْض غير متنوع،
وأما من قرأ بالتون في
﴿تَفْعَلْ﴾ والتاء في
﴿تَشَاءُ﴾ فـ ﴿أَنْ﴾ معطوفة
على الأولى، ولا يجوز
أَنْ تنعطف على ﴿مَا﴾
لأن المعنى أيضاً ينقلب
فتدبره.

وظاهر فعلهم هذا الذي
أشاروا إليه هو بخس
الكيل والوزن الذي تقدم
ذكره، وُزِي أن الإشارة
هي إلى قرضهم الدينار
والدرهم وإجراء ذلك مع
الصحيح على جهة

التدليس، قاله محمد بن كعب، وغيره. وزُوي عن سعيد بن المسيب أنه قال: قطع الدنانير والدرهم من الفساد في الأرض، فتأول ذلك بهذا المعنى المتقدم، وتؤول أيضاً بمعنى أنه تبديل السكك التي يقصد بها أكل أموال الناس.

واختلف في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾؛ فقيل: إنما كانت
ألفاظهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْجَاهِلُ السُّفِيه﴾
فكنى الله عن ذلك، وقيل: بل هذا
لفظهم بعينه إلا أنهم قالوه على جهة
الاستهزاء، قاله ابن جريج، وابن
زيد، وقيل: المعنى: إِنَّكَ لَأَنْتَ
الحليم الرشيد عند نفسك، وقيل: بل
قالوه على جهة الحقيقة وأنه اعتقادهم
فيه، فكانهم قُتِدوه أي: أنت حليم
رشيد فلا ينبغي لك أن تأمرنا بهذه
الأوامر، وبشبه هذا المعنى، قول

[illegible]

فيهما، ورويت عن أبي عبد الرحمن، ﴿تَعْلَمُ﴾ بالنون ﴿مَا نَشَأُ﴾ بالياء، ورويت عن ابن عباس رضي الله عنهما. فأما من قرأ بالنون فيهما ف﴿أَنْ﴾ الثانية عطف على ﴿مَا﴾ لا على ﴿أَنْ﴾ الأولى، لأنَّ المعنى يصير: أصلواتك تأمرُك أن تفعل في أموالنا ما نشأ؟ وهذا قلب ما قصده، وأما من قرأ بالياء فيهما فيصح عطف ﴿أَنْ﴾ الثانية على ﴿أَنْ﴾ الأولى، قال بعض النحويين: ويصح عطفها على ﴿مَا﴾ ويتم المعنى في الوجهين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وجيء بـ ﴿تَرَكَ﴾ في الأول بمعنى:
نرفض، وفي الثاني بمعنى: نُقَرِّر،
فيتعذر عندي هذا الوجه لما ذكرته
من تنوع التَّرك على الحكم اللفظي،
أو علم حذف مضاف، ألا ترى أن

أكسبه، كما يقال: كسب وأكسب بمعنى، ومن ذلك قول الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عَيْبَةَ طَعْنَةً
جَزَمْتُ فَرَارَةً بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا
وقرأ الجمهور: ﴿يَجْزِمُكُمْ﴾ بفتح
الياء، وقرأ الأعمش، وابن وثاب:
﴿يَجْزِمُكُمْ﴾ بضمها، و﴿يُشَاقُّ﴾
معناه: مُشَاقَّتِي وعداوتي، و﴿أَنْ﴾
مفعولة بـ ﴿يَجْزِمُكُمْ﴾. وكانت قصة
قوم لوط أقرب القصص عهداً بقصة
قوم شعيب، وقد يحتمل أن يريد:
وما منازل قوم لوط منكم ببعيد،
فكأنه قال: وما قوم لوط منكم ببعيد
في المسافة، ويتضمن هذا القول
ضرب المثل لهم بقوم لوط.

وقرأ الجمهور: ﴿يُنْزِلُ﴾ بالرفع على
أنه فاعل ﴿يُصِيبُكُمْ﴾، وقرأ
مجاهد، والجدري، وابن أبي
إسحاق: ﴿يُنْزِلُ﴾ بالنصب، وذلك
على أحد وجهين: إما أن يكون
﴿يُنْزِلُ﴾ فاعلاً وفتحة اللام فتحة بناء
لما أضيف لغير متمكن، فإن ﴿يُنْزِلُ﴾
قد يجري مجرى الظروف في هذا
الباب وإن لم يكن ظرفاً محضاً، وإما
أن يقدر الفاعل محذوفاً يقتضيه
المعنى، ويكون ﴿يُنْزِلُ﴾ منصوباً على
النعت لمصدر محذوف تقديره:
إصابة مثل.

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾
الآية. تقدم القول في مثل هذا من
ترتيب هذا الاستغفار قبل التوبة،
و﴿وَدُّدٌ﴾ معناه أن أفعاله ولطفه
بعباده لما كانت في غاية الإحسان
إليهم كانت كفعل من يتوَدَّد ويود
المصنوع له.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ﴾
الآية. ﴿سَعْيٌ﴾ معناه: نفهم، وهذا
نحو قول قريش: ﴿قُلُونَا فِي
أَكْثَرِ﴾، ومعنى ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا
تَقُولُ﴾: أي ما نفقه صحة قولك،
وأما فقههم لفظه ومعناه فمتحصل.
وروي عن ابن جبير، وشريك
القاضي في قولهم: ﴿سَعْيًا﴾ أنه
كان ضرير البصر أعمى، وحكى
الزهراوي أن جَنْبِرَ تقول للأعمى:
ضعيف، كما يقال له: ضرير،
وقيل: كان ناكل البدن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا كله ضعيف ولا تقوم عليه
حجة بضعف بصره أو بدنه، والظاهر
من قولهم: ﴿سَعْيًا﴾ أنه ضعيف
الانتصار والقدرة، وأن رهطه الكفرة
كانوا يراعون فيه.

والرُّهْطُ: جماعة الرجل، ومنه
الراهطاء لأن اليربوع يعتصم به كما
يفعل الرجل برهطه. و﴿لِرَجْمِكَ﴾
قيل: معناه: بالحجارة، وهو
الظاهر، وقاله ابن زيد. وقيل:
معناه: لرجمناك بالسُّبِّ، وبه فسر
الطبري، وهذا أيضاً تستعمله
العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿لَارْجَمَنَّكَ
وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾، وقولهم: ﴿يَمْزِرُ﴾
أي: بذى منعة وعزّة ومنزلة في
نفوسنا.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْفَرُ لَظْمٌ﴾
الآية. «الظَّهْرِيّ»: الشيء الذي يكون
وراء الظهر، وقد يكون الشيء وراء
الظهر بوجهين في الكلام: إما بأن
يُطرح، كما تقول: جعلت كلامي
وراء ظهرك ودَبَّرَ أذنك، ومنه قول
الفرزدق:

تَمِيمٌ بِنَ زَيْدٍ لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي
بِظَهْرٍ فَلَا يَعْبَأُ عَلَيَّ جَوَابُهَا
وإِذَا بَانَ يُسْنَدُ إِلَيْهِ وَيُلْجَأُ، ومن هذا
قول النبي ﷺ في دعائه: «وَالْبَاجَاتُ
ظَهْرِي إِلَيْكَ»، فقال جمهور
المتاولين في معنى هذه الآية: إنه
«واتخذتم الله ظهرياً - أي غير مُراعي
- وراء الظهر» على معنى الاطراح،
ورجحه الطبري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهو عندي على حذف مضاف ولا
بُذ.

وقال بعضهم: الضمير في قوله:
﴿وَأَعْتَدُوا﴾ عائد على أمر الله
وشرعه، إذ يتضمنه الكلام، وقالت
فرقة: المعنى: أترون رهطي أعز
عليكم من الله وأنتم تتخذون الله
سند ظهوركم وعماد آمالكم؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فقول الجمهور على أن كان كُفِّرَ قوم
شعيب جحداً بالله تعالى وجهلاً به،
وهذا القول الثاني على أنهم كانوا
يقرون بالخالق الرازق ويعتقدون
الأصنام وسائط ووسائل، ونحو
هذا، وهاتان الفرقتان موجودتان في
الكفرة، ومن اللفظة: الاستظهار
بالبينة، وقد قال ابن زيد: الظَّهْرِيّ:
الفضل مثل الجمال يخرج معه بإيل
ظهارية يُعدها إن احتاج إليها وإلا فيه
فضلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
هذا كله مما يُسْتَدُّ إليه.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ﴾ خبر في ضمنه توعد،
ومعناه: محيط علمه وقُدْرَتُهُ.

ونحو هذا، وفارقت هذه قولهم: «سلام عليك»، لأن هذا كأنه إخبار عن شيء قد وجب وتحصل، وتلك إنما هي دعاء مَتَرَجِّي، ومعنى البعد في قراءة من قرأ: «بَدَتْ» بكسر العين: الهلاك، وهي قراءة الجمهور، ومنه قول جرّزق بنت هُثَّان:

لَا تَبْعِدُنْ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ
سُوءُ الْعُدَّةِ وَأَقَةُ الْجُزْرِ

ومنه قول مالك بن الربيع:

يقولون لا تَبْعِدْهُمْ وَهُمْ يَذْفُونَنِي
وَأَيِّنْ مَكَانَ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا؟
وأما من قرأ: «بَعْدَتْ» وهو السلمي، وأبو حيوة فهو من البُعد الذي ضده القرب، ولا يُدعى به إلا على مَبْغُوض.

٩٦ - ٩٧ تفسير قوله عز وجل: «عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ» معناه: على حالاتكم، وهذا كما تقول: مكانة فلان في العلم فوق مكانة فلان، يستعار من البقاع إلى المعاني، وقرأ الحسن، وأبو عبد الرحمن، وعاصم: «مَكَانَاتِكُمْ» بالجمع، والجمهور على الأفراد.

وقوله: «اعْتَصِلُوا» تهديد ووعيد، وهو نحو قوله: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ».

وقوله: «مَنْ يَأْتِيهِ» يجوز أن تكون «مَنْ» مفعولة بـ «تَمْلِكُون»، والثانية عطف عليها، قال الفراء: ويجوز أن تكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الأول أحسن لأنها موصولة ولا توصل في الاستفهام، ويقضي بصلتها أن المعطوفة عليها معطوفة

عليها موصولة لا محالة، والصحيح أن الوقف في قوله: «إِنِّي عَابِلٌ» ثم ابتداء الكلام بالوعيد، و«مَنْ» معمولة بـ «تَمْلِكُون» وهي موصولة. وقوله: «وَأَرْتَبُوا» كذلك تهديد أيضاً.

وقوله تعالى: «وَلَكِنَّا جَاءَ أَمْرُنَا» الآية. الأمر هنا يصح أن يكون مصدر أمر، ويصح أن يكون واحد الأمور، وقوله: «رَحِمَهُ مَنَّا» إما أن يقصد الإخبار عن الرحمة التي لحقت شعباً لنبوته وخُسن عمله وعمل مُتَّبِعِيه، وإما أن يقصد أن التنجية لم تكن إلا بمجرد رحمة لا بعمل من أعمالهم.

وأما «الضَّيْقَةُ» فهي صيحة جبريل عليه السلام، وزوي أنه صاح بهم صيحة جثم لها كل واحد منهم في مكانه حيث سمعها ميتاً قد تقطعت حجب قلبه. والجثوم أصله في الطائر إذا ضرب بصدره إلى الأرض، ثم يستعمل في غيره إذا كان منه شَيْءٌ.

وقوله تعالى: «كَانَ لَمْ يَنْتَوِ إِلَيْهَا» الآية. الضمير في قوله: «يَبْأُ» عائد على «الديار»، و«يَنْتَوِ» معناه: يقيمون بنعمة وخفض عيش، ومنه المغانبي، وهي المنازل المعمورة بالأهل، وقوله: «آلَا» تنبيه للسامع، وقوله: «بَدَأَ» مصدر دَعَا بِهِ، وهذا كما تقول: «سقى لك، ورعى لك، وسحقاً للكافرين»

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْدَحَهُمُ الْكَارَ وَنَسَّ الْوَرْدَ
الْمُرُودَ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ نَسَّ
الْقَدَّ الْمُرُودَ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَقِ نَقَضَهُ عَلَيْكَ
مِنْهَا قَائِدٌ وَرَحِصِدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ عِزًّا تَنَبَّسَ ﴿١٠١﴾
وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنْ أَخَذَهُ
أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ
ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ أَلَةُ النَّاسِ وَذَلِكَ يَوْمَ تُنْفَخُ السُّفُوفُ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِي لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ
إِلَّا بِإِذْنِهِ فَيَمْنَعُهُمْ رَبُّهُمْ وَسِعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَّوْا فَنُفِ
النَّارَ فَمِنْهَا زُفِيرٌ وَسُفِيرٌ ﴿١٠٦﴾ خَلَّدِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾
﴿١٠٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَنُفِ الْجَنَّةِ خَلَّدِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاكَ غَيْرَ مُجَدِّدٍ ﴿١٠٩﴾

٩٦ - ٩٧ تفسير قوله عز وجل:

«عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ» معناه: على حالاتكم، وهذا كما تقول: مكانة فلان في العلم فوق مكانة فلان، يستعار من البقاع إلى المعاني، وقرأ الحسن، وأبو عبد الرحمن، وعاصم: «مَكَانَاتِكُمْ» بالجمع، والجمهور على الأفراد.

وقوله: «اعْتَصِلُوا» تهديد ووعيد، وهو نحو قوله: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ».

وقوله: «مَنْ يَأْتِيهِ» يجوز أن تكون «مَنْ» مفعولة بـ «تَمْلِكُون»، والثانية عطف عليها، قال الفراء: ويجوز أن تكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الأول أحسن لأنها موصولة ولا توصل في الاستفهام، ويقضي بصلتها أن المعطوفة عليها معطوفة

الذي حل محل الخير منك. والإزفاد: المعونة، ومنه رفادة قریش، معونتهم لفقراء الحاج بالطعام الذي كانوا يطعمونه في الموسم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى﴾ الآية. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من ذكر العقوبات النازلة بالأسم المذكورة، والأنباء: الأخبار، و﴿الْفُرَى﴾ يحتمل أن يراد بها القرى التي ذكرت في الآيات المتقدمة خاصة، ويحتمل أن يريد القرى عامة، أي: هذه الأنباء المقصودة عليك هي عوائد المدن إذا كفرت، فيدخل - على هذا التأويل - فيها المدن المعاصرة، ويسجيء قوله: ﴿مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ﴾ منها عامر ودائر، وهذا قول ابن عباس، وعلى التأويل الأول - في أنها تلك القرى المخصوصة - يكون قوله: ﴿قَائِدٌ وَحَصِيدٌ﴾ بمعنى: قائم الجدران ومتهدم لا أثر له، وهذا قول قتادة وابن جريج، والآية بجملتها متضمنة التخويف وضرب المثل للحاضرين من أهل مكة وغيرهم.

(١٠١) - (١٠٥) تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وما وضعنا عندهم من التعذيب ما لا يستحقونه، لكنهم ظلموا أنفسهم بوضعهم الكفر موضع الإيمان، والعبادة في جنب الأصنام، فما نفعهم تلك الأصنام، ولا دفعت عنهم حين جاء عذاب الله.

والتثيب: الخسران، ومنه ﴿بَيَّتَ بِدَا أَيْ لَهُمْ وَتَبَّ﴾، ومنه قول جرير:

الفصاحة من العرب في أنها تضع أحياناً الماضي موضع المستقبل أن الماضي أدل على وقوع الفعل وحصوله. و «الزورد» في هذه الآية هو زورد الدخول، وليس بوزود الإشراف على الشيء والإشفاء لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَذِيكٌ﴾، وقال ابن عباس: «في القرآن أربعة: ﴿وَلَنْ يَنْكَرَ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، وقوله: ﴿رَسُوهُمُ الْمُجْرِبِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَارِدُهَا﴾، وهذه في مريم، وفي الأنبياء: ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبَ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾. قال: وهي كلها زورد دخول، ثم يُنجي الله الذين اتقوا. و «الزورد» صفة لمكان «الزورد» على أن التقدير: وبش مكان الزورد المزورد. وقيل: «الزورد» ابتداء والخبر مقدم، والمعنى: المورد بش الزورد.

وقوله: ﴿فِي هَذِهِ﴾ يريد دار الدنيا، و «اللجنة»: إبعادهم بالغرق والاستئصال وقبيح الذكر غابر الدهر، وقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يُلعنون أيضاً بدخولهم جهنم، قال مجاهد: «فهما لغتان، وذهب قوم إلى أن التقسيم هو أن لهم في الدنيا لعنة، ويوم القيامة بش ما يُرقدون به، فهي لعنة واحدة أولاً، وقبيح إرفاد آخر». وقوله: ﴿يَسْأَلُ الرِّفْدُ أَلَمْزُودٌ﴾ أي: بش العطاء المعطى لهم، والرّفد في كلام العرب: العطية، وسُمي العذاب هنا رفاً لأن هذا هو الذي حل لهم محل الرّفد، وهذا كما تقول: يا فلان لم يكن خيراك إلا أن تضربني، أي: لم يكن

عزارة من بَقِيَّةِ قَوْمِ لُوطٍ أَلَا تَبْأَلُمَا عَمِلُوا تَبَاباً أَي: خساراً، وصورة زيادة الأصنام التثيب إنما تُتصوّر: إمّا بأن تأملها والثقة بها والتعب في عبادتها شغلت نفوسهم وصرفتها عن النظر في الشرع وعاقبتها، فلحق عن ذلك عنت وخسران، وإمّا بأن عذابهم على الكفر يزداد عليه عذاب على مجرد عبادة الأوثان.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾، الإشارة إلى ما ذكر من الأحداث في الأمم، وهذه آية وعيد تعم قرى المؤمنين، فإن ﴿ظَلِيلَةٌ﴾ أعم من «كافرة»، وقد يمهّل الله تبارك وتعالى بعض الكفرة، وأما الظلّة - في الغالب - فمُعْاجِلُونَ، أما إنه يمهلي لبعضهم، وفي الحديث - من رواية أبي موسى - أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ رَهْوًا ظَلِيلَةً﴾ الآية.

وقرأ أبو رجاء العطاردي، وعاصم الجحدري: ﴿وَبِكَ إِذْ أَخَذَ الْقُرَى﴾، والجمهور الأعظم: ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ وأنحى الطبري على قراءة عاصم هذه، وقرأ طلحة بن مصرف كذلك، وهي قراءة متمكنة المعنى، ولكن قراءة الجماعة تعطي بقاء الوعيد واستمراره في الزمان، وهو الباب في وضع المستقبل موضع الماضي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾، المعنى: إن في أمر هذه القرى وما حل بها لعبرة وعلامة اعتداء لمن خاف أمر الآخرة، وتوقع

رضي الله عنه: «فَإِنَّ الْأَمَانَةَ الْيَوْمَ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ».

ومعنى قوله تعالى: «لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ»: وصف المهابة يوم القيامة وذهول العقل وهو القيامة، وما ورد في القرآن من ذكر كلام أهل الموقف في السلاوم والتساؤل والتجادل، فإما أن يكون بإذن، وإما أن تكون هذه هنا مختصة في تكلم شفاعة أو إقامة حجة.

وقوله: «فَتَبَيَّنَ» عائد على الجميع الذي تضمنه قوله: «نَفْسٌ» إذ هو اسم جنس يراد به الجميع.

قوله تعالى: «الَّذِينَ شَقَّوْا» على بعض التأويلات في الاستثناء الذي في آخر الآية: يُرَادُ بِهِ كُلٌّ مِنْ يَعَذَّبُ مِنْ كَافِرٍ وَعَاصٍ، وعلى بعضها كُلٌّ مِنْ يَخْلُدُ، وذلك لا يكون إلا في الكفرة خاصة.

والزفير: صوت شديد خاص بالمحزون أو الموجد أو المعذب ونحوه، والشهيق كذلك، كما يفعل الباكى الذي يصبح خلال بكائه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الزفير: صوت حاد، والشهيق: صوت ثقيل، وقال أبو العالية: الزفير من الصدر، والشهيق من الحلق، وقيل: بالعكس، وقال قتادة: الزفير: أول صوت الحمار والشهيق آخره، فصياح أهل النار كذلك، وقيل: الزفير مأخوذ من الزفر وهو الشدة، والشهيق من قولهم: جبل شاهق أي عال، فهما - على هذا المعنى - واحد أو متقارب، والظاهر ما قال أبو العالية، فإن الزفرة هي

يأتون»، وقرأ بها الأعمش، ووجه حذفها في الوقف التشبيه بالفواصل، وإثباتها في الوجهين هو الأصل، ووجه حذفها في الوصل التخفيف، كما قالوا في «لَا أَبَالُ وَلَا أَذِرُ» وأنشد الطبري:

كَفَّاكَ كَفُّ مَا تَلِيَقُ دِرْقَمًا
جوداً وأخرى تُغَطُّ بِالسَّيْفِ الدَّمَ

وقوله: «لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ» يصح أن تكون جملة في موضع الحال من الضمير الذي في «يَأْتِي» وهو العائد على قوله: «ذَلِكَ يَوْمٌ»، ولا يجوز أن يعود على قوله: «يَوْمٌ يَأْتِي»، لأن اليوم المضاف إلى الفعل لا يكون فاعل ذلك الفعل، إذ المضاف متعرف بالمضاف إليه، والفعل متعرف بفاعله وليس في نفسه شيئاً مستقلاً دون الفاعل، وقولهم: «سَيِّدُ قَوْمِهِ، ومولى أخيه، وواحد أمه» مفارق لما لا يستقل، فلذلك جازت الإضافة فيها، ويكون قوله: «يَوْمٌ يَأْتِي» - على هذا - في موضع الرفع بالابتداء وخبره: «فَتَبَيَّنَ شَيْئٌ وَسَيِّدٌ»، وفي الكلام - على هذا - عائد محذوف تقديره: «لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ فِيهِ إِلَّا»، ويصح أن يكون قوله: «لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ» صفة لقوله: «يَوْمٌ يَأْتِي» والخبر قوله: «فَتَبَيَّنَ شَيْئٌ وَسَيِّدٌ»، ويصح أن يكون قوله: «لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ» خبراً عن قوله: «يَوْمٌ يَأْتِي». وقوله: «ذَلِكَ يَوْمٌ» يُرَادُ بِهِ الْيَوْمُ الَّذِي قَبْلَ لَيْلَتِهِ، وقوله: «يَوْمٌ يَأْتِي» يُرَادُ بِهِ الْحَيْنُ وَالْوَقْتُ لَا التَّهَارُ بَعِينَهُ، فهو كما قال عثمان: «إِنِّي رَأَيْتُ أَتْرُوجَ يَوْمِي هَذَا»، وكما قال الصديق

أن يناله عذابها فنظر وتأمل، فإن نظره يوديه إلى الإيمان بالله تعالى، ثم عظم الله أمر يوم القيامة بوصفه بما تَلَبَّسَ بأجنبي منه للسبب المتصل بينهما ويعود الضمير عليه، و«الْقَائِمِينَ» - على هذا - مفعول لم يُسَمِّ فاعله، ويصح أن يكون «الْقَائِمِينَ» رفعاً بالابتداء، و«يُجْمَعُونَ» خبر مقدم.

وهذه الآية خبر عن الحشر، و«مَشْهُودٌ» عام على الإطلاق يشهده الأولون والآخرون من الإنس والملائكة والجن والحيوان في قول الجمهور وفيه - أعني الحيوان الصامت - اختلاف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الشاهد: محمد عليه الصلاة والسلام، والمشهود: يوم القيامة.

وقوله: «وَمَا تُوَخَّرُهُ» الآية. المعنى: وما تؤخر يوم القيامة عجزاً عن ذلك، ولكن القضاء السابق قد نفذ فيه بأجل محدود لا يتقدم عنه ولا يتأخر. وقرأ الجمهور: «تُوَخَّرُهُ» بالنون، وقرأ الأعمش: «يُوَخَّرُهُ» بالياء.

وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة: «يَوْمٌ يَأْتِي» بحذف الياء من يأتي في الوصل والوقف. وقرأ ابن كثير بإثباتها في الوصل والوقف، وقرأ نافع، وأبو عمرو، والكسائي بإثباتها في الوصل وحذفها في الوقف، ورويت أيضاً كذلك عن ابن كثير، والياء ثابتة في مصحف أبي بن كعب، وسقطت في إمام عثمان، وفي مصحف ابن مسعود: «يَوْمٌ

التي يعظم معها الصدر والخوف، والشهقة هي الوقعة الأخيرة من الصوت المندفعة معها النفس أحياناً، فقد يشهق المحتضر ويشهق المغشي عليه.

وأما قوله: ﴿هَٰذَا دَٰثِرُ النَّوَثِ وَالْأَرْضِ﴾ فقول: معناه أن الله تبارك وتعالى يبدل السموات والأرض يوم القيامة، ويجعل الأرض مكاناً لجهنم والسماء مكاناً للجنة، ويتأبد ذلك، ففترت الآية خلود هؤلاء ببقاء هذه، ويروى عن ابن عباس أنه قال: «إن الله خلق السموات والأرض من نور العرش، ثم يردهما إلى هنالك في الآخرة، فلَهُمَا ثَمٌّ بقاء دائم». وقيل: معنى قوله: ﴿هَٰذَا دَٰثِرُ النَّوَثِ وَالْأَرْضِ﴾: العبارة عن التأييد بما تعهده العرب، وذلك أن من فصيح كلامها إذا أرادت أن تخبر عن تأييد شيء أن تقول: «لا أفعل كذا وكذا مدى الدهر، وما ناح الحمام، وما دامت السموات والأرض»، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية، فأفهمهم الله تعالى تخليد الكفرة بذلك وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فقول فيه: إن ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام، فهو على نحو قوله تعالى: ﴿لَنَنْتَقِفَنَّ النَّاسُ عَلَى الْحَرَمِ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ﴾ استثناء في واجب، وهذا الاستثناء في حكم الشرط، كأنه قال: «إن شاء الله»، فليس يحتاج إلى أن يوصف بمُتَّصِل ولا بمنقطع، ويؤيد هذا قوله تعالى:

﴿عَلَّكَ غَيْرَ تَجْدُوذٍ﴾، وقيل: هو استثناء من طول المدة، وذلك على ما روي من أن جهنم تخرب ويعدم أهلها وتخفق أبوابها، فهم - على هذا - يخلدون حتى يصير أمرهم إلى هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مختل، والذي روي ونقل عن ابن مسعود وغيره إنما هو الدرك الأعلى المختص بعصاة المؤمنين، وهو الذي يُسمى جهنم، وسمي الكل به تجوزاً.

وقيل: إنما استثنى ما يلطف الله تعالى به للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدة من النار، فيجزي قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: لقوم ما، وهذا قول قتادة، والضحاك، وأبي سنان، وغيرهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ عاماً في الكفرة والعصاة كما قدمنا، ويكون الاستثناء من ﴿تَحْلِيلِينَ﴾. وقيل: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى الواو، فمعنى الآية: «وما شاء الله زائداً على ذلك»، ونحو هذا قول الشاعر:

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ
لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلَّا الْفَرْقَدَانِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا البيت يصح الاستشهاد به على معتقدا في فناء الفرقدين وغيرهما من العالم، وأما إن كان قائله من ذفرية العرب فلا حجة فيه، إذ يرى ذلك مؤبداً فأجرى «إِلَّا» على بابها.

وقيل: ﴿إِلَّا﴾ في هذه الآية بمعنى «سوى»، والاستثناء منقطع، كما

تقول: «لي عندك ألفا درهم، إلا الألف التي كنت أسلفتك»، بمعنى: سوى تلك، فكأنه قال: «خالدين فيها ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء الله زائداً على ذلك»، ويؤيد هذا التأويل قوله بغد: ﴿عَلَّكَ غَيْرَ تَجْدُوذٍ﴾، وهذا قول الفراء، فإنه يقدر الاستثناء المنقطع بـ «سوى»، وسيبويه يقدره بـ «الكن». وقيل: «سوى ما أعده لهم من أنواع العذاب مما لا يُعرف كالزهرير ونحوه»، وقيل: استثناء من مدة السموات والأرض، المدة التي فرطت لهم في الحياة الدنيا، وقيل: في البرزخ بين الدنيا والآخرة، وقيل: في المسافات التي بينهم في دخول النار، إذ دخولهم إنما هو زمرأ بعد زمر، وقيل: الاستثناء من قوله: ﴿فَنِي النَّارِ﴾، كأنه قال: «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ من تأخير قوم عن ذلك»، وهذا قول رواه أبو نضرة عن جابر أو عن أبي سعيد الخدري، ثم أخبر مُتَّبِعاً على قدرة الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم - في رواية أبي بكر - «سَعِدُوا» بفتح السين، وهو فعل لا يتعدى، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم - في رواية حفص -: «سُودُوا» بضم السين، وهي شاذة ولا حجة في قولهم: «مسعود» لأنه «مفعول» من «أسعد» على حذف الزيادة، كما يقال: «محبوب» من «أحب» و «مجنون» من «أجته الله»، وقد قيل في مسعود: إنما أصله الوصف للمكان،

﴿١٠٩﴾ - ﴿١١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

لفظ الخطاب للنبي ﷺ، والمعنى له ولأمته، ولم يقع لأحد شك فيقع عنه نهى، ولكن من فصاحة القول في بيان ضلالة الكفرة إخراجهم في هذه العبارة، أي حالهم أوضح من أن يُخْتَرَى فيها، والمِرْزَةُ: الشك، و﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى كفار العرب عبدة الأصنام، ثم قال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ﴾، المعنى: إنهم مقلدون لا يبرهان عندهم

ولا حجة، وإنما عبادتهم تشبهاً منهم بأبائهم لا عن بصيرة، وقوله: ﴿وَرِئَاءَ لَوْمَتِهِمْ نَصِيحُهُمْ غَيْرِ مَشْهُورٍ﴾، وعيد، ومعناه: العقوبة التي تقتضيها أعمالهم، ويظهر من قوله: ﴿غَيْرِ مَشْهُورٍ﴾ أن على الأولين كِفْلاً من كُفْرِ الآخرين. وقرأ الجمهور: ﴿لَمَوْفُوهُمْ﴾ بفتح الواو وشد الفاء، وقرأ ابن محيصن: ﴿لَمَوْفُوهُمْ﴾ بسكون الواو وتخفيف الفاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ الآية. تسلياً لمحمد ﷺ، وذكر قصة موسى مثل ما: أي: لا يعظم عليك أثر من كذبك فهذه هي سيرة الأمم، فقد جاء موسى بكتاب فاختلف الناس عليه.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ إلى آخر الآية يحتمل أن يريد به أمة موسى، ويحتمل أن يريد

فَلَا تَأْكُلُ فِي مَرْيَدٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيحُهُمْ غَيْرِ مَشْهُورٍ
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ
وَإِن كَلَّمَا لَوْلَا لِرَبِّهِمْ رَبُّكَ أَعْمَاهُمْ أَنفُسُهُم يَكْمُلُونَ
خَبِيرٌ فَاسْتَوَيْتُمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا
إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ وَلَا تَرْجِعُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَعْمَلُونَ لِنَارٍ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلَآنِ الْاِحْسَانِ يُذَكِّرَ الَّذِينَ نَسُوا ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ
وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ فَكُلُوا
كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَبْهَتُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ آمَنَّا إِنَّهُمْ فِي الذِّكْرِ
ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ وَكَانُوا ثَجْرًا مَّيْمَنٌ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْطَحِقُونَ

٢٢٤

يقال: مكان مسعود فيه، ثم نقل إلى التسمية به، وذكر أن الفراء حكى أن هذيلًا يقول: سَعَدَ الله، بمعنى: أسعده، ويضم السين قرأ ابن مسعود، وطلحة بن مصرف، وابن وثاب، والأعمش.

والأقوال المترتبة في استثناء التي قبل هذه تترتب ها هنا إلا تأويل من قال: «هو استثناء المدة التي تخرب فيها جهنم» فإنه لا يترتب مثله في هذه الآية، ويزيد هنا قول أن يكون الاستثناء في المدة التي يقيمها العصاة في النار، ولا يترتب أيضاً تأويل من قال في تلك: إن الاستثناء هو من قوله تعالى: ﴿فِي النَّارِ﴾.

وقوله: ﴿عَطَا غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ نصب على المصدر، والمجدوذ: المقطوع، والجذ: القطع، وكذلك الجذ، وكذلك الحز.

به معاصري محمد ﷺ، وأن يعمهم اللفظ أحسن عندي، ويؤكد ذلك قوله: ﴿وَإِن كَلَّمَا﴾، والكلمة ها هنا عبارة عن الحكم والقضاء، ومعنى ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: لفصل بين المؤمن والكافر بتعظيم هذا وعذاب هذا. ووصف الشك بالمريب تقوية لمعنى الشك.

وقرأ الكسائي، وأبو عمرو: ﴿وَإِن كَلَّمَا﴾ بتشديد النون وتخفيف الميم من ﴿لَمَّا﴾، وقرأ ابن كثير، ونافع، بتخفيفهما، وقرأ حمزة بتشديدهما، وكذلك حفص عن عاصم، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - بتخفيف ﴿وَإِن﴾ وتشديد الميم من ﴿لَمَّا﴾، وقرأ الزهري، وسليمان بن أرتم: ﴿وَإِن كَلَّمَا﴾ بتشديد الميم وتوניהا، وقرأ الحسن بخلاف: ﴿وَإِن كُلُّ لَمَّا﴾ بتخفيف ﴿وَإِن﴾ ورفع ﴿كُلُّ﴾ وشد ﴿لَمَّا﴾، وكذلك قرأ أبان بن تغلب إلا أنه خفف ﴿لَمَّا﴾، وفي مصحف أبي وابن مسعود: ﴿وَإِن كُلُّ إِلَّا لِيُؤْفِقْتَهُمْ﴾، وهي قراءة الأعمش، قال أبو حاتم: الذي في مصحف أبي: ﴿وَإِن مِن كُلِّ إِلَّا لِيُؤْفِقْتَهُمْ أَعْمَالُهُمْ﴾.

فأما الأول فـ ﴿وَإِن﴾ فيها على بابها، و﴿كَلَّا﴾ اسمها، وعرفها أن تدخل على خبرها لام، وفي الكلام قسم تدخل لامة أيضاً على خبر «إن»، فلما اجتمع لاما فصل بينهما بـ (ما)، هذا قول أبي علي، والخبر في قوله: ﴿لِيُؤْفِقْتَهُمْ﴾. وقال بعض النحاة: يصح أن تكون (ما) خبر (إن)، وهي لمن يعقل لأنه موضع

جنس وصنف، فهي بمنزلة «مَنْ»، كأنه قال: «وإن كُلاً لخلق ليؤفّقينهم»، ورجح الطبري هذا واختاره، أما إنه يلزم القول أن تكون (ما) موصوفة إذ هي نكرة، كما قالوا: «مررت بما معجب لك»، وينفصل بأن قوله: «لِيُؤفّقِيَنَّهُمْ» يقوم معناه مقام الصفة، لأن المعنى: «وإن كُلاً لخلق مؤفّي عمله».

وأما من خَفَّفَهَا - وهي القراءة الثانية في ترتيبنا - فحكم «وإن» وهي مخففة حكمها مثقلة، وتلك لغة فصيحة، حكى سيويه أن الثقة أخبره أنه سمع بعض العرب يقول: «إن عَمراً لَمُتَطَلِّقٌ»، وهو نحو قول الشاعر:

وَوَجْهٌ مُشْرِقُ السُّخْرِ
كَأَن تَذِيئِهِ خُفَّانِ
رواه أبو زيد، ويكون القول في فصل (ما) بين اللامين حسباً تقدم، ويدخلها القول الآخر من أن تكون (ما) خبر «وإن».

وأما من شدها أو خَفَّفَ «وإن» وشدّد الميم ففي قراءتيهما إشكال، وذلك أن بعض الناس قال: «إن (لما) بمعنى «إلا»، كما تقول: «سألتك لما فعلت كذا وكذا»، بمعنى: إلا فَعَلْتُ، قال أبو علي: وهذا ضعيف لأن (لما) هذه لا تفارق القسم. وقال بعض الناس: أصلها «لَمَنْ ما» فقلبتم النون ميماً وأدغمت في التي بعدها فبقي «لَمَمًا» فحذفت الأرولى تخفيفاً لاجتماع الأمثلة، كما قرأ بعض القراء: «وَوَالْتَفِي يَعْظُمُكُمْ» بحذف الياء مع الياء، وكما قال الشاعر:

وَأَشَمَّتِ الْعِدَّةُ بِنًا فَأَضْحَرَا
لَذِي يَتَبَاشَرُونَ بِمَا لَقِينَا
قال أبو علي: وهذا ضعيف، وقد اجتمع في هذه السورة ميمات أكثر من هذه في قوله: «أَمْرٌ مِّنْ تَمَكَّنَ» ولم يدغم هناك فأحرى ألا يدغم هنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال بعض الناس: أصلها «لَمَنْ ما»، فـ «مِنْ» خبر (إِنْ)، و (ما) زائدة، وفي التأويل الذي قبله أصله: «لَمَنْ ما»، فـ (ما) هي الخبر دخلت عليها «مِنْ» على حدّ دخولها في قول الشاعر:

وإنّا ليمّا نضرب الكبش ضربة
على رأسه تلقى اللسان من الفم
وقالت فرقة: «لَمَّا» أصلها «لَمّا» منونة، والمعنى: وإن كلاً عاماً حصراً شديداً، فهو مصدر: لَمْ يَلَمْ، كما قال: «وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا»، أي: شديداً، قلت: ولكنه ترك تنوينه وصرفه وبني منه (فَعَلَى) كما فعل في (تَشْرَى)، فقرأ: «تَلَّا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، حكى عن الكسائي أنه قال: لا أعرف وجه التثقيب في «لَمَّا». قال أبو علي: وأما من قرأ «لَمّا» بالتثوين وشدّد الميم فواضح الوجه كما بيّنا.

وأما من قرأ: «وإن كلّ لَمّا» فهي المخففة من الثقيلة، وحققها في أكثر لسان العرب أن يرتفع ما بعدها، و«لَمّا» هنا بمعنى: «إلا»، كما قرأ جمهور القراء: «وإن كلّ نفس لَمّا»

عَلَيْهَا حَافِظٌ»، ومن قرأ: «إلا» مصرحةً فمعنى قراءته واضح. وهذه الآية وعيد.

وقرأ الجمهور: «يَتَمَكَّنُونَ» بياءً على ذكر الغائب، وقرأ الأعرج: «تَتَمَكَّنُونَ» بياءً على مخاطبة الحاضر.

﴿١١٢﴾ - ﴿١١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بالاستقامة وهو عليها إنما هو أَمْرٌ بالدوام والثبات، وهذا كما تأمر إنساناً بالمشي والأكل ونحوه وهو متلبس به، والخطاب بهذه الآية للنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الذين تابوا من الكفر ولسائر أمته بالمعنى، وزوي أن بعض العلماء رأى النبي ﷺ في النوم فقال له: يا رسول الله بلغنا عنك أنك قلت: «شَيْبَتْنِي هود وأخواتها»، فما الذي شيبك من هود؟ قال له: قوله تعالى: «فَأَسْتَوِمَ كَمَا أَمَرْتُ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتأويل المشهور في قوله ﷺ: «شَيْبَتْنِي هود وأخواتها» أنها إشارة إلى ما فيها مما حلّ بالأُمم السابقة، فكان حذرهم على هذه الأمة مثل ذلك شيبه عليه الصلاة والسلام.

وقوله: «أَمَرْتُ» مخاطبة تعظيم، وقوله: «وَمِنْ» معطوف على الضمير في قوله: «فَأَسْتَوِمَ»، وحسن ذلك دون أن يؤكد لطول الكلام بقوله: «كَمَا أَمَرْتُ». «وَلَا تَقْرَأُ» معناه: ولا تتجاوزوا حدود الله تبارك وتعالى، والظفيان: تجاوز الحدّ، ومنه قوله: «هَلْكَ

الْمَاءِ»، وقوله في فرعون: ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾، وقيل في هذه: معناه: ولا تطغيئكم النعم، وهذا كالأول. وقرأ الجمهور: ﴿تَمَكَّرْتُ﴾ بتاء، وقرأ الحسن، والأعمش: ﴿يَغْمَلُونَ﴾ بياء من تحت.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تَزْكُتُوا﴾ بفتح الكاف، وقرأ طلحة بن مصرف، وقتادة، والأشهب العقيلي، وأبو عمرو - فيما روى عنه هارون - بضمها، وهو لغة، يقال: زَكَنَ يَزْكُنُ وَرَكَنَ يَزْكُنُ، ومعناه: السكون إلى الشيء والرُّضَا به، قال أبو العالية: الزُّكُونُ: الرُّضَا، قال ابن زيد: الزُّكُونُ: الإذعان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالركون يقع على قليل هذا المعنى وكثيره، والنهي هنا يترتب من معنى الركون على الميل إليهم بالشرك معهم إلى أقل الرُّتَب من ترك التغيير عليهم مع القدرة، و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هنا هم الكفار، وهو النُّص للمتأولين، ويدخل بالمعنى أهل المعاصي.

وقرأ الجمهور: ﴿فَتَسَكَّمُ﴾، وقرأ يحيى بن وثاب، وعلقمة، والأعمش، وابن مصرف، وحمزة - فيما روى عنه -: ﴿فَتَمَسْكُمُ﴾ بكسر التاء، وهي لغة في كسر العلامات الثلاث دون الباء التي للغائب، وقد جاء في الباء «يَجِلُّ» و«يَبْيُ» وعلمت هذه بأن الباء التي وليت الأولى ردتها إلى الكسر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ أَفْكَارَهُ﴾ الآية. لم يختلف أحد في أن الصلاة

في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة، واختلف في «طَرَفِي» النهار وزُلف الليل؛ فقيل: الطرف الأول: الصبح، والثاني: الظهر والعصر، والزُلف: المغرب والعشاء، قال مجاهد، ومحمد ابن كعب القرظي. وروى أن النبي ﷺ قال في المغرب والعشاء: «هما زُلفنا الليل». وقيل: الطرف الأول: الصبح، والثاني: العصر، قاله الحسن، وقتادة، والضحاك. والزُلف: المغرب والعشاء، وليست الظهر في هذه الآية - على هذا القول - بل هي في غيرها. وقيل: الطرفان: الصبح والمغرب، قاله ابن عباس، والحسن أيضاً، والزُلف: العشاء، وليست الظهر والعصر في الآية، وقيل: الطرفان: الظهر والعصر، والزُلف: المغرب والعشاء والصبح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأن هذا القائل راعى جهر القراءة والأول أحسن هذه الأقوال عندي، ورجح الطبري أن الطرفين: الصبح والمغرب، وأنه الظاهر إلا أن عموم الصلوات الخمس بالآية أولى.

وقرأ الجمهور: ﴿زُؤْلَفًا﴾ بفتح اللام، وقرأ طلحة بن مصرف، وابن محيصن، وعيسى، وابن إسحاق، وأبو جعفر: ﴿زُؤْلَفًا﴾ بضم اللام كأنه اسم مفرد، وقرأ: ﴿زُؤْلَفًا﴾ بسكون اللام مجاهد، وقرأ أيضاً: ﴿زُؤْلَفِي﴾ على وزن «فُعْلَى»، وهي قراءة ابن محيصن، والزُؤْلَف: الساعات القريب بعضها من بعض ومنه قول المعاج:

ناجِ طَوَاهِ الْأَيْنِ مِنَّا وَجَفَا
طَيِّ السَّيَالِي زُؤْلَفًا قَزْلَفًا
سَمَاوَةَ الْهَلَالِ حَتَّى اخْقَوْقَفَا
وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذِيئْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ ذهب جمهور المتأولين من صحابة وتابعين إلى أن «الْحَسَنَاتِ» يراد بها الصلوات الخمس، وإلى هذه الآية ذهب عثمان رضي الله عنه عند وضوئه على المقاعد، وهو تأويل مالك، وقال مجاهد: الحسنات: قول الرجل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله إنما هو على جهة المثال في الحسنات، ومن أجل أن الصلوات الخمس هي أعظم الأعمال. والذي يظهر أن لفظ الآية عام في الحسنات خاص في السيئات لقوله عليه الصلاة والسلام: «مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ». وروى أن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار، قيل: هو أبو اليسر بن عمرو، وقيل: اسمه عبَّاد، خلا بامرأة فقبلها وتلذذ بها فيما دون الجماع، ثم جاء إلى عمر رضي الله عنه فشكا إليه، فقال: قد ستر الله عليك فاستر على نفسك، فقلق الرجل فجاء أبا بكر رضي الله عنه فشكا إليه، فقال له مثل مقالة عمر، فقلق الرجل فجاء رسول الله ﷺ فصلى معه ثم أخبره وقال: أَقْضِ فِي مَا شِئْتَ، فقال الرسول ﷺ: «لَعَلَّهَا زَوْجَةٌ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، قال: نعم، فوئخه رسول الله ﷺ وقال: «مَا

أدري»، فنزلت هذه الآية، فدعاه رسول الله ﷺ فتلاها عليه، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: يا رسول الله، خاصة؟ قال: «يل للناس عامة».

وروي أن الآية كانت نزلت قبل ذلك واستعملها رسول الله ﷺ في ذلك الرجل، وروي أن عمر بن الخطاب قال ما حكى عن معاذ.

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «الجمعة إلى الجمعة، والصلوات الخمس، ورمضان إلى رمضان - كفارة لما بينهما إن اجْتَنِبْتَ الكبائر»، فاختلف أهل السنة في تأويل هذا الشرط في قوله: «إِنْ اجْتَنِبْتَ الكبائر» فقال جمهورهم: هو شرط في معنى الوعد كله، أي: إِنْ اجْتَنِبْتَ الكبائر كانت العبادات المذكورة كفارة للذنوب، فإن لم تُجْتَنَب لم تكفر العبادات شيئاً من الصغائر، وقالت فرقة: معنى قوله: «إِنْ اجْتَنِبْتَ» أي: هي التي لا تحطها العبادات، فإنما شرط ذلك ليصح بشرطه عموم قوله: «ما بينهما»، وإن لم تُجْتَنَب لم تحطها العبادات وحطت الصغائر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبهذا أقول، وهو الذي يَتَقَضِيهِ حديث خروج الخطايا مع قطر الماء وغيره، وذلك كله بشرط التوبة من تلك الصغائر وعدم الإصرار عليها، وهذا نصٌ حذّاق الأصوليين، وعلى التأويل الأول تجيء هذه مخصوصة في مجتنب الكبائر فقط.

وقوله: «ذَلِكَ» إشارة إلى الصلوات، ووصفها بـ «ذَكَرَى»،

أي: هي سبب ذكر وموضع ذكرى، ويحتمل أن يكون «ذَلِكَ» إشارة إلى الإخبار بأن الحسنات يذهبن السيئات، فتكون هذه الذكرى تحض على الحسنات، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى جميع ما تقدم من الأوامر والنواهي في هذه السورة، وهو تفسير الطبري.

ثم أمره تعالى بالصبر.

وجاءت هذه الآيات في نمط واحد: أعلمه الله تعالى أنه يوفي جميع الخلائق أعمالهم، المسيء والمحسن، ثم أمره بالاستقامة والمؤمنين معه، ثم أمره بإقامة الصلوات ووعد على ذلك، ثم أمره بالصبر على التبليغ والمكاره في ذات الله تبارك وتعالى، ثم وعد بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ».

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿لَوْلَا﴾ هي التي للتحضيض، لكن يقترون بها هنا معنى التفعج والتأسف الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتد، وهذا نحو قوله: «يَتَحَسَّرُ عَلَى الْيَبَاءِ»، و﴿الْفُرُوقُ﴾ من قبلنا هم قوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكره، والقرن من الناس: المقترنون في زمان طويل أكثره - فيما حدّ الناس - مائة سنة، وقيل: ثمانون، وقيل غير ذلك إلى ثلاثين سنة، والأرجح الأول لقول النبي ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ فَإِنْ إِلَى رَأْسِ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى مِنْهُنَّ هَذِهِ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ»، قال ابن عمر رضي الله عنهما: يريد أنها تخرم ذلك القرن، و «البقية» هنا

يراد بها السُّنَنُ والعقل والحزم والثبوت في الدين، وإنما قيل «بقية» لأن الشرائع والدول ونحوها قُوَّتُهَا في أولها ثم لا تزال تضعف، فمن ثبت في وقت الضعف فهو بقية الصدر الأول، وقرأت فرقة: «بَقِيَّة» بتخفيف الياء، وهو ردّ فَعِيلَةٍ إلى فَعِلَةٍ، وقرأ أبو جعفر، وشيبة: «بَقِيَّة» بضم الباء وسكون القاف على وزن فُعْلَةٍ.

و «الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ» هو الكفر وما اقترن به من المعاصي، وهذه الآية فيها تنبيه لأمة محمد ﷺ وحض على تغيير المنكر والنهي عن الفساد ثم استثنى الله تعالى القوم الذين نجاهم مع أنبيائهم وهم قليل بالإضافة إلى جماعاتهم، و﴿قَلِيلًا﴾ نصب على الاستثناء، وهو منقطع عند سيبويه، والكلام عنده موجب، وغيره يراه منفياً من حيث معناه أنه لم يكن فيهم أولو بَقِيَّة.

وقرأ جمهور الناس: «وَأَتَّبَعَ» على بناء الفعل للفاعل، وقرأ جعفر بن محمد: «وَأَتَّبَعَ» على بنائه للمفعول، ورويت عن أبي عمرو: «وَمَا أَتَرَفُوا فِيهِ» أي: عاقبة ما نعموا به - على بناء الفعل للمفعول -، والمُتَرَفُ: المُتَعَمُّ الذي شغله ترفه عن الحق حتى هلك، ومنه قول الشاعر:

تَهْدِي زُؤُوسُ الْمُتَرَفِينَ الصُّدَّادَ
إِلَى أَيْمِرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَشَادَ
يريد: المسؤول، يقال: مَادَهُ إِذَا سَأَلَهُ.

وقوله تعالى: «يُظَلِّرُ» يحتمل أن يريد: يَظْلِمُ منه لهم - تعالى عن

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فجاءت الإشارة بـ (ذلك) إلى الأمرين معاً: الاختلاف والرحمة، وقد قاله ابن عباس واختاره الطبري، ويجيء عليه الضمير في ﴿خَلَقَهُ﴾ للصنفين، وقال مجاهد، وقتادة: (ذلك) عائد على الرحمة التي تضمنها قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَجَعُ﴾ أي: وللرحمة خلق المرحومين، قال الحسن: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الاختلاف الذي في قوله: ﴿وَلَا يَرْأُونَ تَخْلُفَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعترض هذا بأن يقال: كيف خلقهم للاختلاف؟ وهل معنى الاختلاف هو المقصود بخلقهم؟ فالوجه في الانفصال أن نقول: إن قاعدة الشرع أن الله عز وجل خلق خلقاً للسعادة وخلقاً للشقاوة، ثم يسر كلأ لما خلق له، وهذا نص في الحديث الصحيح، وجعل بعد ذلك الاختلاف في الدين على الحق هو أمانة الشقاوة، وبه تعلق العقاب، فيصح أن يحمل قوله هنا: «وللاختلاف خلقهم» أي: لثمرة الاختلاف وما يكون عنه من الشقاوة.

ويصح أن تجعل اللام في قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ﴾ لام الصيرورة، أي: وخلقهم ليصير أمرهم إلى ذلك وإن لم يقصد بهم الاختلاف. ومعنى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: لأمرهم بالعبادة وأوجبها عليهم، فعبير عن ذلك بشمة الأمر ومقتضاه.

مختلفين في الأديان والآراء والميل. هذا تأويل الجمهور. قال الحسن، وعطاء، ومجاهد، وغيرهم: المرحومون المستثنون هم المؤمنون ليس عندهم اختلاف، وقالت فرقة: لا يزالون مختلفين في السعادة والشقاوة، وهذا قريب المعنى من الأول، إذ هي ثمرة الأديان والاختلاف فيها ويكون الاختلاف - على هذا التأويل - يدخل فيه المؤمنون إذ هم مخالفون للكفرة، وقال الحسن أيضاً: لا يزالون مختلفين في الفنى والفقر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول بعيد معناه من معنى الآية. ثم استثنى الله تعالى من الضمير في ﴿يَرْأُونَ﴾ مَنْ رَحِمَهُ مِنَ النَّاسِ بِأَن هذاه إلى الإيمان ووقفه له. وقوله: ﴿وَلِلَّذِينَ خَلَقَهُ﴾ اختلاف فيه المتأولون؛ فقالت فرقة: ولشهود اليوم المشهود - المتقدم ذكره - خلقهم، وقالت فرقة: (ذلك) إشارة إلى قوله قبل: ﴿فَيَنْهَضُ سَقِئٌ وَسَعِيدٌ﴾ أي: لهذا خلقهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان المعنيان وإن صحا فهذا العود المتباعد ليس بجيد، وروى أشهب عن مالك أنه قال: (ذلك) إشارة إلى أن يكون فريق في الجنة وفريق في السعير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُنَّ تَخْلُفِينَكَ ۚ أَلَمْ يَأْمُرْ رَبُّكَ وَلَدَكَ خَلْقَهُمْ وَقَمَتَ كَلِمَةً رَبُّكَ لَا تُمِلُّونَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۚ وَلَا تَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ خُفَاؤَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۚ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا أَعْلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ۚ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ۚ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۚ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّيَالَةُ إِنَّهُ الْكِتَابُ الْأُمِينُ ۚ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۚ عَنْ نَفْسٍ عَلَيْكَ أَحْسَنُ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذِهِ الْقُرْآنُ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۚ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۚ

٢٣٥

ذلك -، قال الطبري: ويحتمل أن يريد: بشريك منهم وهم مصلحون في أعمالهم وسيرهم، وعدل بعضهم في بعض، أي أنه لا بُدَّ من معصية تقرر بكفرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وإنما ذهب قائله إلى نحو ما قيل: «إن الله تعالى يُنهل الدول على الكفر ولا يُنهلها على الظلم والجور». ولو عكس لكان ذلك متجهاً، أي: ما كان الله ليعذب أمة بظلمهم في معاصيهم وهم مصلحون في الإيمان، والاحتمال الأول في ترتيبنا أصح إن شاء الله.

١١٨ - ١١٩ تفسير قوله عز وجل: المعنى: ليجعلهم أمة واحدة مؤمنة - قاله قتادة - حتى لا يقع منهم كفر ولا تنزل بهم مثلة، ولكنه عز وجل لم يشأ ذلك، فهم لا يزالون

تفسير

سورة يوسف
عليه السلام

هذه السورة مكية، ويروى أن اليهود سألو رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فنزلت السورة بسبب ذلك، ويروى أن اليهود أمروا كفار مكة أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر فنزلت السورة، وقيل: سبب نزولها تسليّة رسول الله ﷺ عما يفعله به قومه بما فعل إخوة يوسف بيوسف، وسورة يوسف لم يتكرر من معناها شيء في القرآن كما تكررت قصص الأنبياء، ففيها حجة على من اعترض بأن الفصاحة تمكنت بترداد القول، وفي تلك القصص حجة على من قال في هذه: لو كررت لَفَتَرَتْ فصاحتها.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

تقدم القول في فواتح السور، و﴿الْكِتَابُ﴾: القرآن، وصفه ب﴿الْيُسُفِ﴾ - قيل: من جهة أحكامه وحلاله وحرامه، وقيل: من جهة مواعظه وهده ونوره، وقيل: من جهة بيان اللسان العربي وجودته إذ فيه ستة أحرف لم تجتمع في لسان - روي هذا القول عن معاذ بن جبل - ويحتمل أن يكون مُبيناً لنسوة محمد ﷺ بإعجازه. والصواب أنه مبين بجميع هذه الوجوه، والضمير في قوله: ﴿أَرْزَلْنَاهُ﴾ للكتاب، والإنزال إمّا بمعنى الإنابت، وإما أن تتصف به التلاوة والعبارة، وقال

﴿الْحَقُّ﴾ إنما تختص بما تضمنت من وعيد للكفرة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية. هذه آية وعيد، أي: اعملوا على حالاتكم التي أنتم عليها من كفركم. وقرأ الجمهور هنا: ﴿مَكَانِكُمْ﴾ واحدة دالة على جمع، وألفاظ هذه الآية تصلح للموادة، وتصلح أن تقال على جهة الوعيد المحض والحرب قائمة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. هذه آية تعظم وانفراد بما لا حظ لمخلوق فيه، وهو علم الغيب، وتبين أن الخير والشر وجليل الأشياء وحقيقها مصروف إلى أحكام مالكة، ثم أمر النبي ﷺ بالعبادة والتوكل على الله تبارك وتعالى، وفيها زوال همه وصلاحه ووصوله إلى رضوان الله.

وقرأ السبعة غير نافع: ﴿يَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ على بناء الفعل للفاعل، وقرأ نافع، وحفص عن عاصم: ﴿يَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ على بنائه للمفعول، ورواها ابن أبي الزناد عن أهل المدينة. وقرأ: ﴿تَسْمَلُونَ﴾ بالشاء من فوق نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وهي قراءة الأعرج، والحسن، وأبي جعفر، وشيبة، وعيسى بن عمرو، وقتادة، والجحدري، واختلف عن الحسن، وعيسى. وقرأ الباقر: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بإلياء على كناية الغائب.

تم بتوفيق من الله تبارك وتعالى تفسير سورة هود والحمد لله رب العالمين

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي نفذ قضاؤه وحق أمره، واللام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لام قسم، إذ «الكلمة» تتضمن القسم، والجر: جمع لا واحد له من لفظه، وهو من أجن إذا ستر، والهاء في ﴿الْجَنَّةِ﴾ للمبالغة، وإن كان الجر يقع على الواحد ف﴿الْجَنَّةِ﴾ جنعه.

③ - ④ تفسير قوله عز وجل:

قوله: ﴿وَلَا﴾ مفعول مقدم بـ ﴿نَفْسٍ﴾، وقيل: هو منصوب على الحال، وقيل: على المصدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان ضعيفان.

و ﴿مَا﴾ بدل من قوله: ﴿وَلَا﴾، و﴿تُبَيَّنَ بِهِ فُؤَادُكَ﴾ أي: نُؤَنِّسُكَ فيما تلقاه، ونجعل لك الأسوة فيمن تقدمك من الأنبياء، وقوله: ﴿فِي هَلْوَ﴾، قال الحسن: هي إشارة إلى دار الدنيا، وقال ابن عباس: إلى السورة والآيات التي ذكر فيها قصص الأمم. وهذا قول الجمهور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ووجه تخصيص هذه السورة بوصفها بـ ﴿الْحَقِّ﴾ - والقرآن كله حق - أن ذلك يتضمن معنى الوعيد للكفرة والتنبية للناظر، أي: جاءك في هذه السورة الحق الذي أصاب الأمم الظالمة، وهذا كما يقال عند الشدائد: «جاء الحق»، وإن كان الحق يأتي في غير شدة وغير ما وجه، ولا يستعمل في ذلك «جاء الحق». ثم وصف أيضاً أن ما تضمنته السورة هو موعظة وذكرى للمؤمنين، فهذا يؤيد أن لفظة

الزجاج: الضمير في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ يراد به خبر يوسف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يحتمل أن تتعلق بـ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، أي: أنزلناه لعلكم، ويحتمل أن تتعلق بقوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾، أي: جعلناه عربياً لعلكم تعقلون إذ هو لسانكم، و﴿فَرَّانًا﴾ حال، و﴿عَرَبِيًّا﴾ صفة له، وقيل: إن ﴿فَرَّانًا﴾ بدل من الضمير، وهذا فيه نظر، وقيل: ﴿فَرَّانًا﴾ توطئة للحال، و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال، وهذا كما تقول: «مررت بزيد رجلاً صالحاً».

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ نَفَخْنَا عَلَيْكَ﴾ الآية. روى ابن مسعود أن أصحاب رسول الله ﷺ ملؤا ملة فقالوا: لو قصصت علينا يا رسول الله، فنزلت هذه الآية، ثم ملؤا ملة أخرى فقالوا: لو حدثتنا يا رسول الله، فنزلت: ﴿اللَّهُ زَلَّ لَحْصَنَ لَقْدَيْهِ كِتَابًا﴾، و﴿الْقَمَرُ﴾: الإخبار بما جرى من الأمور، كأن الأنبياء تتبّع بالقول كما يُقَصُّ الأثر. وقوله: ﴿يَبَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: بِوَحْيِنَا، و﴿الْقُرْآنُ﴾ نعت لـ ﴿هَذَا﴾، ويجوز فيه البذل، وعطف البيان فيه ضعيف. و﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة، واللام في خبرها لام التأكيد، هذا مذهب البصريين، ومذهب أهل الكوفة أن ﴿إِنْ﴾ بمعنى (ما)، و (اللام) بمعنى (إلا)، والضمير في ﴿قِيلَ﴾. للقصص العام لما في جميع القرآن منه، و﴿لَيْنَ الْفَتِيلِ﴾ أي عن معرفة هذا القصص. ومن قال: إن الضمير في ﴿قِيلَ﴾ عائد على

﴿الْقُرْآنُ﴾ جعل ﴿لَيْنَ الْفَتِيلِ﴾ في معنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، أي: على طريق غير هذا الدين الذي بعثت به، ولم يكن عليه الصلاة والسلام في ضلال الكفار ولا في غفلتهم، لأنه لم يشرك قط، وإنما كان مستهدياً ربّه عز وجل وموحداً، والسائل عن الطريق المتخير يقع عليه - في اللغة - اسم ضال.

﴿١﴾ تفسير قوله عز وجل:

العامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مضمّر تقديره: اذكر إذ، ويجوز أن يعمل فيه ﴿نَفَخْ﴾، كأن المعنى: نفخ عليك الحال إذ، وحكى مكّي أن العامل فيه ﴿لَيْنَ الْفَتِيلِ﴾، وهذا ضعيف.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿يُؤَسِّفُ﴾ بالهمز وفتح السين، وفيه ست لغات: (يُؤَسِّفُ) بضم الياء وسكون الواو ويفتح السين ويضمها وبكسرهما، وكذلك بالهمز، وقرأ الجمهور: ﴿يَبَايُنُ﴾ بكسر التاء، حذف الياء من (أبي) وجعلت التاء بدلاً منها، قاله سيبويه. وقرأ ابن عامر وحده، وأبو جعفر، والأعرج: ﴿يَا أَبَتُ﴾ بفتحها، وكان ابن كثير، وابن عامر يقفان بالياء، فأما قراءة ابن عامر بفتح التاء فلها وجهان: إما أن يكون «يا أبنا» ثم حذف الألف تخفيفاً وبقيت الفتحة دالة على الألف، وإما أن يكون جارياً مجرى قولهم: «يا طلحة أقبل»، رخموه ثم ردوا العلامة ولم يعتد بها بعد الترخيم، وهذا كقولهم: «اجتمعت اليمامة»، ثم قالوا: «اجتمعت أهل

اليمامة» فردوا لفظة الأهل ولم يعتدوا بها.

وقرأ أبو جعفر، والحسن، وطلحة بن سليمان: ﴿أَخَذَ غَشَرَ كَوْكَبًا﴾ بسكون العين لتوالي الحركات، وليظهر أن الاسمين قد جعلوا واحداً، وقيل: إنه رأى كواكب حقيقة والشمس والقمر فتأولها يعقوب إخوته وأبويه، وهذا قول الجمهور، وقيل: الإخوة والأب والخالة، لأن أمه كانت ميتة، وقيل: إنما كان رأى إخوته وأبويه فعبّر عنهم بالكواكب والشمس والقمر، وهذا ضعيف، ترجم به الطبري ثم أدخل عن قتادة والضحاك وغيرهما كلاماً محتملاً أن يكون كما ترجم وأن يكون مثل قول الناس. وقال المفسرون: القمر تأويله: الأب، والشمس تأويلها: الأم، فانتزع بعض الناس من تقديمها وجوب ير الأم وزيادته على ير الأب، وحكى الطبري عن جابر بن عبد الله أن يهودياً اسمه بستانة جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أخبرني عن أسماء الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام، فسكت عنه رسول الله ﷺ، ونزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها، فدعا رسول الله ﷺ اليهودي، فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بذلك؟» قال: نعم، قال: «جبريان، والطارق، والذئبال، وذو الكتفين، وقابس، ووئاب، وعمودان، والفيلق، والمضبح، والضروح، وذو الفزغ، والضياء، والثور»، فقال اليهودي: أي والله إنها لأسماؤها.

وتكرر ﴿رَأَيْتُمْ﴾ لطول الكلام، وجزئي ضمائر هذه الكواكب في هذه الآية مجرى ضمائر من يعقل إنما كان لما وصفت بأفعال هي خاصة بمن يعقل.

وروي أن رؤيا يوسف كانت ليلة القدر ليلة جمعة، وأنها خرجت بعد أربعين سنة، وقيل: بعد ثمانين سنة.

٥ - ٦ تفسير قوله عز وجل:

تقتضي هذه الآية أن يعقوب عليه السلام كان يجس من بنيه حسد يوسف وبغضته، فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن يشعل بذلك غل صدورهم، فيعملوا الحيلة على هلاكه، ومن هنا ومن فعلهم بيوسف - الذي يأتي ذكره - يظهر أنهم لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت. ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يردّه القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي، وعن عقوق الآباء، وعن تعريض مؤمن للهلاك والتوافر في قتله. ثم أعلمه أن الشيطان للإنسان عدو مبين، أي: هو يدخلهم في ذلك ويحضمهم عليه.

وأمال الكسائي ﴿رُءْيَاكَ﴾ والرؤيا حيث وقعت، وروي عنه أنه لم يُعلم الحجاز - ولم يُعلمها الباقون حيث وقعت. والرؤيا مصدر كثر وقوعه على هذا المَحْتَمِل في النوم حتى جرى مجرى الأسماء كما فعلوا في الدَرْ في قولهم: «لله ذُوك» فخرجا

من حكم عمل المصادر، وكشروها رؤى بمنزلة ظلم، والمصادر في أكثر الأمر لا تُكسر.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ﴾ الآية. - ﴿يَجْنِيكَ﴾ معناه: يختارك ويصطفيك، ومنه: جيث الماء في الحوض، ومنه: جباية المال. وقوله: ﴿وَمِثْلِكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، قال مجاهد، والسدي: هي عبارة الرؤيا، وقال الحسن، هي عواقب الأمور، وقيل: هي عامة لذلك وغيره من المعانيات. وقوله: ﴿وَرِئَتْ﴾

يُغْنِيكَ يريد النبوة وما انضاف إليها من سائر النعم، وقوله: ﴿وَالِ يَعْقُوبُ﴾ يريد - في هذا الموضع - الأولاد والقرباة التي هي من نسله، أي يجعل فيهم النبوة، ويروي أن ذلك إنما علمه يعقوب من دعوة إسحاق له حين تشبه له بعبصو، والقصة كاملة في كتاب النقاش لكني اختصرتها لأنه لم يُثبَل ألفاظها، وما أظنه انتزعها إلا من كتب بني إسرائيل فإنها قصة مشهورة عندهم، وباقي هذه الآية بين.

والنعمة على يوسف كانت تخليصه من السجن وعصمته والمُلْك الذي نال، وعلى إبراهيم هي اتخاذ خليلًا، وعلى إسحق فديته بالذبح العظيم مضافًا ذلك كله إلى النبوة. و﴿يَعْلَمُ حِكْمَهُ﴾ مناسبتان لهذا الوعد.

قَالَ يَسَّى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ رَهْمَ وَيَخْلُقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ

٧ - ١٠ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجمهور: ﴿يَكِيدُ﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿آيَةً﴾ بالإنفراد، وهي قراءة مجاهد، وشبل، وأهل مكة، فالأولى على معنى أن كل حال من أحواله آية آية فجمعها، والثانية على أنه بجملته آية، وأن تفصل بالمعنى. ووزن آية فَعْلَهُ أو فَعْلُهُ أو فاعلة على الخلاف فيه، وذكر الزجاج أن في غير مصحف عثمان «عِبْرَةٌ لِلنَّاسِ»، قال أبو حاتم: هو في مصحف أبي بن كعب.

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ يقتضي حضًا ما على تعلم هذه الأنبياء، لأنه إنما المراد: «آية للناس»، فوصفهم بالسؤال إذ كل واحد ينبغي أن يسأل عن مثل هذه القصص، إذ هي مقر العبر والاتعاظ، ويصح أيضاً أن

يصف الناس بالسؤال من حيث كان سبب نزول السورة سؤال سائل كما روي. وقولهم: ﴿وَأَخُوهُ﴾ يريدون به: «بنيامين»، وهو أصغر من يوسف، ويقال له: «يامين»، وقيل: كان شقيق يوسف وكانت أمهما ماتت، ويدل على أنهما شقيقان تخصيص الإخوة لهما بـ «أخوه» وهي دلالة غير قاطعة، وكان حُب يعقوب ليوسف عليه السلام وبينامين لصغرهما وموت أمهما، وهذا من «حُب الصغير فطرة البشر»، وقد قيل لابنة الحسن: أي بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمرضى حتى يفيق.

وقولهم: ﴿وَكُنْ عَصْبَةً﴾ أي: نحن جماعة تضر وتنفع، وتحمي وتدخل، أي: لنا كانت تنبغي المحبة والمراعاة. والعصبة في اللغة: الجماعة، قيل: من عشرة إلى خمسة عشر، وقيل: من عشرة إلى أربعين، وقال الزجاج: العشرة ونحوهم، وفي الزهراوي: الثلاثة: نفر، فإذا زادوا فهم رهط إلى التسعة، فإذا زادوا فهم عصب، ولا يقال لأقل من عشرة: عصب.

وقولهم: ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لفى اختلاف وخطإ في محبة يوسف وأخيه، وهذا هو معنى الضلال، وإنما يصغر قدره أو يعظم بحسب الشيء الذي فيه يقع الائتلاف، و﴿ثَبِثْ﴾ معناه: يظهر للمتأمل، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحزمة: ﴿ثَبِثْ أَقْتُلُوا﴾ بكسر التنوين في الوصف لالتقاء ساكن التنوين والقاف. وقرأ نافع، وابن

كثير، والكسائي: ﴿مُبِيتٌ أَقْتُلُوا﴾ بكسر النون وضم التنوين إتياعاً لضمة التاء ومراعاة لها. وقوله: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ الآية. كانت هذه مقالة بعضهم، ﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ﴾ معناه: أبعدوه، ومنه قول عروة بن الورد:

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُفْتِرٍ
يُغَرِّزُ وَيَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ
والتوى الطروح: البعيدة، و﴿أَرْسَا﴾ مفعول ثان بإسقاط حرف الجر، لأن «طرح» لا يتعدى إلى مفعولين إلا كذلك. وقالت فرقة: هو نصب على الظرف، وذلك خطأ لأن الظرف ينبغي أن يكون مبهماً، وهذه ليست كذلك، بل هي أرض مقيدة بأنها بعيدة أو قاصية ونحو ذلك، فزال بذلك إبهامها، ومعلوم أن يوسف لم يخل من الكون في أرض فبين أنها أرض بعيدة غير التي هو فيها قريب من أبيه.

وقوله: ﴿يَحُلْ لَكُمْ وَبَهُ أَيْكُمُ﴾ استعارة، أي: إذا فقد يوسف رجعت إليكم محبته، ونحو هذا قول العربي حين أحبه أمه لما قُتل إخوته وكانت قبيل لا تُحبّه: «الشُّكْلُ أَرْأَمَهَا»، أي عطفها عليه. والضمير في ﴿بَدِيءٍ﴾ عائد على «يوسف» أو «قَتْلِهِ» أو «طَرَحِهِ»، و﴿مَلِيحِينَ﴾ قال السدي، ومقاتل بن سليمان: إنهم أرادوا صلاح الحال عند أبيهم، وهذا يشبه أن يكون قصدهم في تلك الحال، ولم يكونوا حينئذ أنبياء، وقال الجمهور: ﴿مَلِيحِينَ﴾ معناه بالتوبة، وهذا هو الأظهر من اللفظ، وحالهم أيضاً تعطيه، لأنهم مؤمنون

بنوا على عزيمة وعملوا أنفسهم بالتوبة، والقائل منهم، قيل: هو روبيل - أسنهم -، قاله قتادة، وابن إسحق. وقيل: يهوذا - أحلمهم -، وقيل: شمعون - أشجعهم - قاله مجاهد، وهذا عطف منه على أخيه لا محالة لما أراد الله من إنفاذ قضائه، و«الغَيَابَةُ»: ما غاب منك من الأماكن أو غيب عنك شيئاً آخر. وقرأ الجمهور: ﴿غَيَّبَتِ الْمَلِكُ﴾، وقرأ نافع وحده: ﴿غَيَّابَاتِ الْجُبِّ﴾، وقرأ الأعرج: ﴿غَيَّابَاتِ الْجُبِّ﴾ بشد الباء، قال أبو الفتح: «هو اسم جاء على (فُعالة)، كان أبو علي يلحقه بما ذكر سيبويه من القياد ونحوه، ووجدت أنا من ذلك: الثَّيَّار للموج، والفَخَّار للخزف».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي شبه «غَيَابَةُ» بهذه الأمثلة نظر لأن «غَيَابَةُ» جارية على فعل. وقرأ الحسن: ﴿فِي غَيَّابَةِ الْجُبِّ﴾ على وزن (فُعلة)، وكذلك خطت في مصحف أبي بن كعب، ومن هذه اللفظة قول الشاعر، وهو المَخْل:

فَإِنْ أَنَا يَوْمًا غَيَّبْتَنِي غَيَّابَتِي
فَيَسِيرُوا بِسِيرِي فِي أَلْعَشَائِرِ وَالْأَهْلِ
و«الْجُبِّ»: البشر التي لم تُطَوَّر لأنها جُبَّت من الأرض فقط.

وقرأ الجمهور: ﴿يَلْقَظُهُ بَعْضٌ﴾ بالياء من تحت على لفظ «بَعْضٌ»، وقرأ الحسن البصري، ومجاهد، وقاتة، وأبو رجاء: ﴿تَلَقَّظَتْهُ﴾ بالياء، وهذا من حيث أضيف «بَعْضٌ» إلى «السَّيَّارَةِ» فاستفاد منها تأنيث العلاقة، ومن هذا قول الشاعر:

أَرَى مَرَّ السَّنِينَ أَخَذَ مِنْي
كَمَا أَخَذَ السَّرَارُ مِنَ الْهَلَالِ
ومنه قول الآخر:
إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ سَيِّدٌ
فَذَلَّتْ لَهُ أَهْلُ الْقُرَى وَالْكَثَائِشُ
وقول كعب:

ذَلَّتْ لَوْفَعَتِهَا جَمِيعُ نَزَارٍ
حين أراد بـ «نزار» القبيلة، وأمثلة
هذا كثير. وروي أن جماعة من
الأعراب التقطت يوسف عليه
السلام. و«النَّيَّارَةُ» جمع سيار،
وهو بناء للمبالغة.

وقيل في هذا الجُب: إنه بئر بيت
المقدس، وقيل: غيره، وقيل: لم
يكن حيث طرحوه ماء، ولكن
أخرجه الله فيه حتى قصده الناس
للاستقاء، وقيل: بل كان فيه ماء
يفرق يوسف فنشز حجر من أسفل
الجُب حتى ثبت عليه يوسف،
وروي أنهم رموه بحبل في الجُب
فتماسك بيديه حتى ربطوا يديه
ونزعوا قميصه ورموه حينئذ، وهُمُوا
برضخه بالحجارة فمنعهم أخوهم
المشير بطرحه من ذلك.

⑪ - ⑫ تفسير قوله عز وجل:
الآية الأولى تقتضي أن أباهم قد
كان علم منهم إرادتهم الخبيثة في
جهة يوسف، وهذه تقتضي أنهم
علموا منه بعلمه ذلك.

وقرأ الزهري، وأبو جعفر: «لَا
تَأْتَانَا» بالإدغام، دون إشماع،
ورواها الحلواني عن قالون. وقرأ
السبعة بالإشباع للضم، وقرأ
طلحة بن مصرف: «لَا تَأْتَمَتْنَا»،
وقرأ ابن وثاب، والأعمش: «لَا

تَيْمَتْنَا» بكسر تاء العلامة.
و«عَدَا» ظرف،
أصله: «عَدُو» فلزم اليوم
كله وبقي الغدو والغدوة
اسمين لأول الثمار، وقال
النضر بن شميل: ما بين
الفجر إلى الإسفار يقال
فيه: غدوة وبكرة.

وقرأ أبو عمرو، وأبو
عامر: «تَرْزَعُ وَتَلْعَبُ»
بالنون فيهما وإسكان العين
والباء، و«تَرْزَعُ» - على
هذا - من الرزوع وهي
الإقامة في الخصب
والمرعى في أكل وشرب،
ومنه قول الغضبان بن
القبعثري: «الْقَيْدُ وَالرَّزْعَةُ
وقلة التفتحة»، ومنه قول الشاعر:

وَيَعْدُ عَطَايَكَ الْمَاءُ الرِّثَاعَا؟
ولعبهم هذا داخل في اللعب المباح
كاللعب بالخيول والرمي ونحوه، فلا
وصم في ذلك عليهم، وليس باللعب
الذي هو ضد الحق وقرين اللهو،
وقيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف
يقولون: «تلعب» وهم أنبياء؟ قال:
لم يكونوا حينئذ أنبياء، وقرأ ابن
كثير: «تَرْزَعُ وَتَلْعَبُ» بالنون فيهما،
وبكسر العين وجزم الباء، وقد روي
عنه، و«وَلَعَبْتُ» بالياء، وهي قراءة
جعفر بن محمد، و«تَرْزَعُ» - على
هذا - من رعاية الإبل، وقال
مجاهد: هي من المراعاة، أي:
يراعي بعضنا بعضاً ويحرسه، وقرأ
عاصم، وحزمة، والكسائي: «تَرْزَعُ

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوا فِي عَذِيبِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا
إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑬ وَجَاءَهُ
أَبَاهُمْ عَسَاءً يَبْكُونَ ⑭ قَالُوا إِنَّا بِأَنْ أُنَادِيَهُمْ إِنَّا لَنَسْتَقِي
وَنَزَكُ يَا يُوسُفُ عِنْدَ مَلِكِنَا فَأَكْلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَتَى
بِغُورٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ⑮ وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ
بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ⑯ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا
وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرى هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُهُ بَصُغَةٌ
وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ ⑰ وَسَرَّوهُ يُصَبِّحُ بِخَيْرٍ
دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ⑱ وَقَالَ
الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرْأَةَ عَاصِيَ مَثْوًى جَسَدٍ
أَنْ يَفْعَلَا أَوْ يَتَّبِعُوا هَذَا وَلَكِنْ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى
أَمْرِهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ⑲ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُ بِمَاءِنِهِ حَكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ⑳

٢٣٧

وَلَعَبْتُ» بإسناد ذلك كله إلى
يوسف، وقرأ نافع: «يَرْزَعُ وَيَلْعَبُ»
بالياء فيهما وكسر العين وجزم الباء،
فـ «يَرْزَعُ» - على هذا - من رعي
الإبل، قال ابن زيد: المعنى:
يتدرب في الرعي وحفظ المال،
ومن الارتعاض قول الأعشى:

تَرْزَعِي السُّفْحَ فَالْكَثِيبُ قَدَا
رِ قَرُوضِ الْقَطَا فَذَاتِ الرِّثَالِ
قال أبو علي: وقراءة ابن كثير:
«تَرْزَعُ» بالنون، و«يَلْعَبُ» بالياء
منزعها حسن لإسناد النظر في المال
والرعاية إليهم، واللعب إلى يوسف
لصباه. وقرأ العلاء بن سبابة: «يَرْزَعُ
وَيَلْعَبُ» برفع الباء على القطع، وقرأ
مجاهد، وقتادة: «تَرْزَعُ» بضم النون
وكسر التاء، و«تَلْعَبُ» بالنون
والجزم. وقرأ ابن كثير - في بعض
الروايات عنه -: «تَرْزَعِي» بإثبات

الياء، وهي ضعيفة لا تجوز إلا في الشعر كما قال الشاعر:

أَلَمْ يَأْتِيَكِ وَالْأَنْبَاءُ تُنْمِي
بِمَا لَأْتِ لَبُونَ بَنِي زَيْدٍ؟
وَقَرَأَ أَبُو رَجَاءٍ: ﴿زَيْزَعٌ﴾ بِضَمِّ الْيَاءِ
وَجَزَمَ الْعَيْنَ، وَ﴿يَلْعَبُ﴾ بِالْيَاءِ
وَالْجَزَمِ.

وَعَلُّوا طلبه والخروج به بما يمكن
أن يستهوي يوسف لصباه من التروع
واللعب والنشاط.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَبِخْرُئِي﴾
 الآية. قرأ عاصم، وابن كثير،
 والحسن، والأعرج، وعيسى، وأبو
 عمرو، وابن محيصن: ﴿لَبِخْرُئِي﴾
 بفتح الياء وضم الزاي، قال أبو
 حاتم: وقرأ نافع بضم الياء وكسر
 الزاي والإغام، ورواية ورش عن
 نافع بياض التنوين مع ضم الياء وكسر
 الزاي في جميع القرآن، و (أَنْ)
 الأولى فاعلة، والثانية مفعولة
 بِـ أَخَافُ.

وقرأ الكسائي وحده: «الذَّيْبُ»
دون همز، وقرأ الباقون بالهمز وهو
الأصل، ومنه جمعهم إياه على:
«ذُؤْيَان»، ومنه: تذاؤبت الريح
والذئاب إذا أتت من ها هنا وها هنا.
وروى ورش عن نافع «الذَّيْبُ» بغير
همز، وقال نصر: سمعت أبا عمرو
لا يهمز، قال: وأهل الحجاز
يهزمون.

وإنما خاف يعقوب الذئب دون
سواه وخصه لأنه كان الحيوان
العادي المنبث في القطر، وزوي أن
يعقوب كان رأى في منامه ذئباً يشتد
عليه يوسف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا عندي ضعيف لأن يعقوب لو رأى ذلك لكان وحياً، فإما أن يخرج على وجهه وذلك لم يكن، وإما أن يعرف يعقوب فلمعرفته بالعبارة مثل هذا المرئي، فكان يتشكاه بعينه، اللهم إلا أن يكون قوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ بمعنى: أخاف أن يصيبه مثل ما رأيت من أمر الذئب، وهذا بعيد، وكذلك يقول الربيع بن ضبع:

والذُّنْبُ أَخْشَاهُ...

إِنَّمَا خَصَّصَهُ لِأَنَّهُ كَانَ حَيَوَانَ قَطَرِهِ
العادي، ويحتمل أن يخصصه
يعقوب عليه السلام لصغر يوسف،
أي: أخاف عليه هذا الحقير فما
فوقه، وكذلك خصصه الربيع
لحقارته وضعفه في الحيوان، وباقِي
الآية بَيِّنُ .

وقوله تعالى: ﴿لَنَلَّكَ ذُخْرًا بِه﴾ الآية. أسند الطبري إلى السدي قال: ذهبوا بيوسف وبه عليهم كرامة، فلما برزوا في البرية أظهروا له العداوة، وجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رحيماً، فضربه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويقول: يا أبتاه، يا يعقوب لو تعلم ما صَنَعَ بابنك بنو الإماء، فقال لهم يهوذا: ألم تعطيني موثقاً ألا تقتلوه؟ فانطلقوا به إلى الجُب، فجعلوا يدلونه فيتعلق بالشفير، فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه زُودُوا عَلَيَّ قميصي أتوارى به في الجُب، فقالوا: ادع الشمس والقمر والكواكب تُؤَنِّسْكَ، فدلوه حتى إذا

بلغ نصف الجُب القَوَه إِرَادَة أَنْ يَمُوتَ، فَكَانَ فِي الْجُب مَاءً فَسَقَطَ فِيهِ ثُمَّ قَامَ عَلَى صَخْرَة يَبْكِي، فَنَادَوْهُ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ رَحِمُوهُ فَأَجَابَهُمْ: فَأَرَادُوا أَنْ يَرْضَخُوهُ بِصَخْرَة فَمَنَعَهُمْ يَهُودَا، وَكَانَ يَأْتِيهِ بِالطَّعَامِ.

وجواب ﴿لَمَّا﴾ محذوف تقديره، فلما ذهبوا به وأجمعوا أجمعوا، هذا مذهب الخليل وسيبويه وهو نصُّ لهما، ومن ذلك قول امرئ القيس: **فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى**

ومثل هذا قول الله تعالى: ﴿قُلْنَا أَسْكَنُوا مَا أَنْتُمْ اللَّيْمِينَ﴾ ، وقال بعض النحاة في مثل هذا: إن الواو زائدة، وقوله مردود لأنه ليس في القرآن شيء زائد لغير معنى.

﴿وَأَمْعَزَ﴾ معناه: عزموا واتفق رأيهم عليه، ومنه قول النبي ﷺ في المسافرين: «مَا لَمْ يَجْعَم مَكْنَأَ»، على أن إجماع الواحد قد يتفرد بمعنى العزم والشروع، وتُصَوِّرُ ذلك في إجماع إخوة يوسف وفي سائر الجماعات، وقد يجيء إجماع الجماعة فيما لا عزم فيه ولا شروع، ولا يُصَوِّرُ ذلك في إجماع الواحد.

والضمير في ﴿إِيَّايَ﴾ عائد على يوسف، وقيل: على يعقوب، والأول أصح وأكثر، ويحتمل أن يكون الوحي حينئذ إلى يوسف برسول، ويحتمل أن يكون بإلهام أو بنوم، وكل ذلك قد قيل، وقال الحسن: أعطاه الله النبوة وهو في الجُب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
وهذا بعيد .

وقرأ الجمهور: ﴿لَتَنبِتَنَّهُ﴾ بالتاء، وفي بعض مصاحف البصرة بالياء، وقرأ سلام بالنون، وهذا كله في العلامة التي تلي اللام.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال ابن جريج: «وَقْتُ التَّنْبِيهِ أَنْكَ يَوْسُفَ»، وقال قتادة: «لا يشعرون بوحينا إليه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيكون قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ - على التأويل الأول - مما أوحى إليه، وعلى التأويل الثاني - خبر لمحمد ﷺ.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأت فرقة: ﴿عِشَاءً﴾، أي: وقت العشاء. وقرأ الحسن: ﴿عُشَى﴾ على مثال ذُجَى، أي جمع «عاش»، قال أبو الفتح: عِشَاءٌ كعاش ومشاء، ولكن حذفت الهاء تخفيفاً كما حذفت من «مألكة»، وقال غدي:

أبلغ الشُعْمَانُ عُنَى مَأْلِكَا
أَنَّهُ قَدْ طَالَ حَبْسِي وَأَنْتِظَارِي
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى ذلك أصابهم عشا من البكاء أو شبه العشا إذ كذلك هي هيئة عين الباكي لأنه يتعاشى، ومثل شريح في امرأة بكت وهي مُبْطَلَةٌ ببكاء هؤلاء وقرأ الآية، وروى أن يعقوب لما سمع بكاءهم قال: ما بالكُم؟ أجزى في الغنم شيء؟ قالوا: لا، قال: فأين يوسف؟ قالوا: ذهبنا نستبق... فبكى وصاح وقال: أين قميصه؟ وسيأتي قصص ذلك.

و ﴿سَتَقْبَى﴾ معناه: على الأقدام، أي: نجري غلاباً، وقيل: بالرمي،

أي: ننتضل، وهو نوع من المسابقة، قاله الزجاج.

وقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ﴾ أي: بمصدق، ومعنى الكلام: أي: لو كنا موصوفين بالصدق وقيل: المعنى: ولو كنت تعتقد ذلك فينا في جميع أقوالنا قديماً لما صدقتنا في هذه النازلة خاصة لما لحقك فيها من الحزن ونالك من المشقة ولما تقدم من تُهْمَتِكَ لنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ذكره الزجاج وغيره، ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ بمعنى: وإن كنا صادقين، قاله المبرد، كأنهم أخبروا عن أنفسهم أنهم صادقون في هذه النازلة، فهو تمادٍ منهم في الكذب، ويكون بمنزلة قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَاذِبِينَ﴾، بمعنى: وإن كنا كارهين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا المثال عندي نظر، وتخطب الرُثْمَانِي في هذا الموضع وقال: «ألزموا أباهم عناداً» ونحو هذا مما لا يلزم لأنهم لم يقولوا: وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين في معتقدك. بل قالوا: وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين فيما نعتقد نحن، وأما أنت فقد غلب عليك سوء الظن بنا، ولا يُنْكَرُ أن يعتقد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صدق الكاذب وكذب الصادق ما لم يُوحَ إليهم، فإنما هم بشر، كما قال ﷺ: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه...» الحديث، فهذا

يقتضي أنه جَوَزَ على نفسه أن يُصَدِّقَ الكاذب، وكذلك قد صدق عليه الصلاة والسلام عبدالله بن أبي حنيفة حلف على مقالة زيد بن أرقم وكذب زيدا، حتى نزل الوحي فظهر الحق، فكلام إخوة يوسف إنما هو مغالطة ومحاجة لا إلزام عناد.

وقوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا عَلَى قَيْمِيهِ يَدْرِي كَذِبٌ﴾ الآية. روي أنهم أخذوا سَخْلَةً أو جَذِيًّا فذبحوه ولطخوا به قميص يوسف، وقالوا ليعقوب: هذا قميصه، فأخذه ولطخ به وجهه وبكى، ثم تأمله فلم يَزْ خَرْقًا ولا أثر ناب فاستدل بذلك على كذبهم وقال: متى كان الذئب حليماً يأكل يوسف ولا يخرق قميصه؟ قص هذا القصص ابن عباس وغيره، وأجمعوا على أنه استدل على كذبهم لصحة القميص، واستند الفقهاء إلى هذا في إعمال الأمارات في مسائل كالقسامة وغيرها في قول مالك، إلى غير ذلك، قال الشعبي: كان في القميص ثلاث آيات: دلالة على كذبهم، وشهادته في قده، وردُّ بصر يعقوب به، وروى أنهم ذهبوا فأخذوا ذئباً فلطخوا فاه بالدم وساقوه وقالوا ليعقوب: هذا أكل يوسف، فدعاه يعقوب فأقعى وتكلم بتكذيبهم.

ووضف الدم بـ ﴿كَذِبٌ﴾ إمَّا على معنى: يَدْمُ ذِي كَذِبٍ، وإمَّا أن يكون بمعنى: مكذوب عليه، كما قد جاء «المعقول» بدل «العقل» في قول الشاعر: حَتَّى إِذَا لَمْ يَشْرُكَوا لِعِظَابِهِ لَحْماً وَلَا لِقُؤَادِهِ مَغْفُلاً فَكَذَلِكَ يَجِيءُ «التكذيب» مكان «المكذوب».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا كلام الطبري، ولا شاهد له فيه عندي، لأن نفي «المعقول» يقتضي نفي «العقل» ولا يحتاج إلى بدل، وإنما الذم الكذب عندي وصف بالمصدر على جهة المبالغة. وقرأ الحسن: ﴿يَدْمُ كَذِبٍ﴾ بَدَالٍ غير معجمة، ومعناه: الطري ونحوه، وليست هذه القراءة قوية.

ثم قال لهم يعقوب لما بان كذبهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أي: رضيتم وجعلت سؤلاً ومُرَاداً. ﴿أَمْراً﴾ أي: صنعاً قبيحاً بيوسف، وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ رفع إمّا على حذف الابتداء وإمّا على حذف الخبر، إمّا على تقدير: فَشَأْنِي صَبْرٌ جَمِيلٌ، وإمّا على تقدير: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ أَمْثَلُ. وذكر أن الأشهب، وعيسى بن عمر قرأ بالنصب: ﴿فَصَبْرًا جَمِيلًا﴾ على إضمار فعل، وكذلك هي في مصحف أبي ومصحف أنس بن مالك، وهي قراءة ضعيفة عند سيويه، ولا يصلح النصب في مثل هذا إلا مع الأمر، ولذا يحسن النصب في قول الشاعر:

صَبْرًا جَمِيلًا فَكِلَانَا مُبْتَلَى
وينشد أيضاً بالرفع، ويروي: «صَبْرٌ جَمِيلٌ» على نداء الْجَمَلِ المذكور في قوله:

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِي طَوَلَ الشَّرَى
يَا جَمَلِي أَلَيْسَ إِلَيَّ الْمُشْتَكَى
صَبْرٌ جَمِيلٌ فَكِلَانَا مُبْتَلَى
وإنما تصح قراءة النصب على أن يقدر أن يعقوب عليه السلام رجع إلى مخاطبة نفسه أثناء مخاطبة بنيه،

وجميل الصبر ألا تقع شكوى إلى بشر، وقال النبي ﷺ: «مَنْ بَثَّ لَمْ يَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا» وقوله: ﴿وَأَنَّهُ أَلْهَثَانٌ عَلَى مَا يَصِفُونَ﴾ تسليماً لأمر الله تعالى وتوكل عليه، والتقدير: على احتمال ما تصفون.

١٩ - ٢٠ تفسير قوله عز وجل:

قيل: إن السيارة جاءت في اليوم الثاني من طرحه في الجب، والسيارة: جمع سيار، كما قالوا: بَغَالٌ وبَغَالَةٌ، وهذا بعكس تمرّة وتَمَرٌ، والسيارة بناء مبالغة للذين يرددون السير في الطرق، وروي أن هذه السيارة كانوا قوماً من أهل مدين، وقيل: قوم أعراب، والوارد هو الذي يأتي الماء ليسقي منه لجماعته، ويروي أن مذلّي الدلو كان يسمى مالك بن ذعر، والوارد هنا يمكن أن تقع على الواحد وعلى الجماعة. ويروي أن هذا الجب كان بالأردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، ويقال: أذلى الدلو إذا ألقاه في البئر ليستقي الماء، ودَلَاةٌ يدلوه إذا استقاه من البئر، وفي الكلام هنا حذف تقديره: فتعلق يوسف بالحبل، فلما بَصُرَ به المذلي قال: يا بشراي. وروي أن يوسف كان يومئذ ابن سبع سنين، ويرجح هذا لفظة «غلام» فإنه ما بين الحولين إلى البلوغ، فإن قيلت فيما فوق ذلك فعلى استصحاب حال وتجوّز، وقيل: كان ابن سبع عشرة سنة، وهذا بعيد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ بإضافة البشرى إلى المتكلم ويفتح الياء على

ندائها كأنه يقول: احضري فهذا وقتك، وهذا نحو قوله: ﴿يَخْرَجُ عَلَى آلِ يَسَّادٍ﴾، وروى ورش عن نافع: ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ بسكون الياء، قال أبو علي: وفيها جمع بين ساكنين على حذف دابة وشأبة، ووجه ذلك أنه يجوز أن تختص بها الألف لزيادة المد الذي فيها على المد الذي في أختيها، كما اختصت في القوافي بالتأسيس، واختصت في تخفيف الهزمة نحو هبّاء، وليس شيء من ذلك في الياء والواو. وقرأ أبو الطفيل، والجحدري، وابن أبي إسحق، والحسن: ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ تقلب الألف ياء ثم تدغم في ياء الإضافة، وهي لغة فاشية، ومن ذلك قول أبي ذؤيب:

سَبَقُوا هَوًى وَأَعْتَقُوا لِهَوَاهُمْ
فَشَحَرُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرُغٍ
وأشد أبو الفتح وغيره في ذلك: يُطَوَّفُ بِي كَعْبِدٍ فِي مَعْدٍ وَيَطْمُنُّ بِالصُّمْلَةِ فِي قَفِيَا فَإِنْ لَمْ تَشَارُوا لِي فِي مَعْدٍ فَمَا أَرْوَيْتُمَا أَبَدًا صَدْيَا أَرَادَ: هَوَايَ، وَقَفَايَ، وَصَدَايَ. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ بالإمالة يُمِيلَانِ ولا يضيفان، وقرأ عاصم كذلك إلا أن يفتح الراء ولا يُمِيلُ، واختلف في تأويل هذه القراءة - فقال السدي: كان في أصحاب هذا الوارد رجل اسمه بشري، فناداه وأعلمه بالغلام، وقيل: هو على نداء البشرى كما قدمنا.

والضمير في ﴿وَأَسْرُوهُ﴾ ظاهر الآيات أنه لوراد الماء، قاله مجاهد،

وقال: إنهم خَشُوا أمر تجار الرقعة - إن قالوا وجدناه - أن يشاركوهم في الغلام الموجود، - هذا إن كانوا فسقة - أو يمنعوهم من تملكه إن كانوا مؤمنين، فأسروا بينهم أن يقولوا: أَبْصَعَهُ معنا بعض أهل المصر. و﴿بَصَعَهُ﴾ حال، والبِضَاعَةُ: القطعة من المال يُتَجَر فيها بغير نصيب من الربح، مأخوذة من قولهم: بَصَعْتُ، أي: قطعت، وقيل: إنهم أسروا في أنفسهم أنهم يتخذونه بضاعة لأنفسهم أي متجراً، ولم يخافوا من أهل الرقعة شيئاً، ثم يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿وَسَرَّوْهُ﴾ لهم أيضاً، أي: باعوه بضمن قليل، إذ لم يعرفوا حقه ولا قدره، بل كانوا زاهدين فيه، وروي - على هذا - أنهم باعوه من تاجر، وقال مجاهد: الضمير في ﴿وَأَسْرَوْهُ﴾ لأصحاب الدلو، وفي ﴿وَسَرَّوْهُ﴾ لإخوة يوسف الأحد عشر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل الضمير في ﴿وَأَسْرَوْهُ﴾ و﴿وَسَرَّوْهُ﴾ لإخوة يوسف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك أنه رُوي أن إخوته لما رجعوا إلى أبيهم وأعلموه رجوع بعضهم إلى الجب ليحققوا أمر يوسف، ويقفوا على الحقيقة من فقدته، فلما علموا أن الوَزَاد قد أخذوه جاءوهم فقالوا: هذا عبد أتى لأمتنا ووهبته لنا ونحن نبيعه منكم، ففازوهم يوسف على هذه المقالة خوفاً منهم ولينفذ أمر الله، فحينئذ أسره إخوته إذ جحدوا أخوته فأسروها واتخذوه بضاعة، أي متجراً لهم ومكسباً،

وَسَرَّوْهُ أيضاً بضمن بَخُس، أي باعوه. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَتَكَلَّمُونَ﴾، إن كانت الضمائر لإخوة يوسف ففي ذلك توعد، وإن كانت الضمائر للواردين ففي ذلك تنبيه على إرادة الله تبارك وتعالى ليوسف، وسوق الأقدار بحسب بناء حاله، فهو - حينئذ - بمعنى قول النبي ﷺ: ﴿يُدَبِّرُ ابْنُ آدَمَ وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ﴾. وفي الآية أيضاً تسلية للنبي ﷺ عما يجري عليه من جهة قريش، أي: العاقبة التي هي للمتقين هي المراعاة والمتظرة.

و﴿وَسَرَّوْهُ﴾ هنا بمعنى باعوه، وقد يقال: شري بمعنى اشترى، ومن الأول قول يزيد بن مَفْرُغَ الجَمْرِيِّ: وَسَرَرْتُ بُرْداً لَيْسَنِي مِنْ بَغْدٍ بُرْدٌ كُنْتُ هَامَةً و﴿بُرْدُهُ﴾ اسم غلام له ندم على بيعه، والضمير يحتمل الوجهين المتقدمين.

والبَخُسُ: مصدر وصف به الثمن، وهو بمعنى النقص، وهذا أشهر معانيه، فكأنه القليل الناقص، وهو قول الشعبي، وقال قتادة: البَخُسُ هنا بمعنى الظلم، ورجحه الزجاج من حيث أن الحر لا يحل بيعه، وقال الضحاك: هو بمعنى الحرام، وهذا أيضاً بمعنى أنه لا يحل بيعه.

وقوله تعالى: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ عبارة عن قلة الثمن لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها، وذلك أنهم كانوا لا يَزِنُونَ ما دون الأوقية وهي أربعون درهماً. واختلف في مبلغ ثمن يوسف عليه السلام؛ فقيل: باعوه بعشرة دراهم، وقال ابن

مسعود: بعشرين، وقال مجاهد: باثنين وعشرين، أخذها إخوته درهمين درهمين وقال عكرمة: بأربعين درهماً دفعت ناقصة فهذا كان بَخُسُهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وصف يترتب في وَزَاد الماء، أي: كانوا لا يعرفون قدره، فهم - لذلك - قليل اغتباطهم به، لكنه أرتب في إخوة يوسف، إذ حقيقة الزهد في الشيء إخراج حبه من القلب ورفضه من اليد، وهذه كانت حال إخوة يوسف في يوسف، وأما الوَزَاد فتمسكهم به وتجرهم يمانع زهدهم إلا على تحجوز. وقوله: ﴿فِيهِ﴾ ليست بصلة له ﴿الزَّاهِدِينَ﴾، قاله الزجاج، وفيه نظر، لأنه يقتضي وصفهم بالزهد على الإطلاق وليس قصد الآية هذا، بل قصدها الزهد الخاص في يوسف، والظروف يجوز فيها من التقديم ما لا يجوز في سائر الصلوات، وقد تقدم القول في عود ضمير الجماعة الذي في قوله: ﴿وَسَرَّوْهُ﴾.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل: رُوي أن مُبْتَاعَ يوسف - وهو الوارد من إخوته أو التاجر من الوَزَاد حسبما تقدم من الخلاف - ورد به مصر - البلد المعروف ولذلك لا ينصرف - فعرضه في السوق، وكان أجمل الناس، فوقعت فيه مزايده حتى بلغ ثمناً عظيماً، فقبل: وزنه من ذهب، ومن فضة، ومن حرير. فاشتراه العزيز وكان حاجب الملك وخازنه، واسم الملك الرَّئِيسُ بن الوليد،

كان كما في المثالين الآخرين، فإن ما تفرس خرج بعينه.

والأشد: استكمال القوة وتناهي بنية الإنسان، وهما أشدان: أولهما البلوغ وقد عبّر عنه مالك وربيعه بأشد، وذكره منذر بن سعيد. والثاني الذي يستعمله العرب، وقيل: هو من ثماني عشرة سنة إلى بئتين سنة، وهذا قول ضعيف. وقيل: الأشد: بلوغ الأربعين، وقيل: بل ستة وثلاثون، وقيل: ثلاث وثلاثون، وهذا هو أظهر الأقوال فيما نحسبه، وقيل: عشرون سنة، وهذا ضعيف، وقال الطبري: الأشد لا واحد له من لفظه، وقال سيبويه: الأشد: جمع شدة نحو نغمة وأنعم، وقال الكسائي: أشد جمع شد نحو قد وأقد، وشد النهار: معظمه وحيث تستكمل نهاره.

وقوله تعالى: ﴿حَكَمًا﴾ يحتمل أن يريد الحكمة والثبوت، وهذا على الأشد الأعلى، ويحتمل العلم والحكمة دون الثبوت، وهذا أشبه إن كانت قصة المراودة بعد هذا. ﴿وَعَلَمًا﴾ يريد تأويل الأحاديث وغير ذلك، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿حَكَمًا﴾ أي سلطاناً في الدنيا وحكماً بين الناس بالحق، وتدخل الثبوت وتأويل الأحاديث وغير ذلك في قوله: ﴿وَعَلَمًا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ألفاظ فيها وعد للنبي ﷺ، فلا يهزلتكم فعل الكفرة بك وعثوهم عليكم، فالله تعالى يصنع المحسنين أجمل صنع.

(٢٣) - (٢٤) تفسير قوله عز وجل:

المراودة: الملاطفة في السوق إلى غرض، وأكثر استعمال هذه اللفظة

ذلك من وجوه النفع، وقوله: ﴿أَوْ نَجْزِيهِمْ وَلَدًا﴾ أي نجبته، وكان - فيما يقال - لا ولد له.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما وصفنا ﴿مَكَّنَّا﴾ يوسف في الأرض ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ فعلنا ذلك، و﴿الْأَحَادِيثَ﴾: الرؤيا في النوم، قاله مجاهد، وقيل: أحاديث الأنبياء والأمم. والضمير في ﴿أَمْرِهِ﴾ يحتمل أن يعود على يوسف، قاله الطبري، ويحتمل أن يعود على الله عز وجل، قاله ابن جبير، فيكون إخباراً منبهاً على قدرة الله عز وجل

ليس في شأن يوسف خاصة بل عاماً في كل أمر، وكذلك الاحتمال في قول الشاعر:

رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ - وَرَبُّكَ غَالِبٌ
عَلَى أَمْرِهِ - يَبْغِي الْخِلَافَةَ بِالشَّمْرِ
وأكثر الناس الذين نفى عنهم العلم هم الكفرة، وفيهم الذين زهدوا في يوسف وغيرهم ممن جهل أمره، وروي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: أصح الناس فِرَاسَةَ الثَّلَاثَةِ: العزيز حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَوْلَاهُ﴾، وابنة شَعْنَبٍ حين قالت: ﴿أَسْتَجِرُّهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرْتُ الْقُرَى الْأَمِينُ﴾، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفِرَاسَةُ العزيز إنما كانت في نفس نجابة يوسف، لا أنه تفرس الذي

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَّهٖنَ رَآهٖ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُم مِّنْ عِبَادِنَا الْأَخْلَاصِ ﴿٢٤﴾ وَأَسْبَقَ إِلَيْهَا وَقَدْ تَرَفَّتْ قَيْصُوهٗ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْآبَاءِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَن أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن نَّسْجَنَ أَعْيُنَهَا أَلَيْسَ أَهْلُهَا إِن كَانَتْ قَيْصُوهٗ قَدْ مِّن قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهِيَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِن كَانَتْ قَيْصُوهٗ قَدْ مِّن دُبُرٍ فَكَلَبَتْ وَهِيَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّارَةً قَيْصُوهٗ قَدْ مِّن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِكُنَّ إِن كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ يَسُوفاً فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾

٢٣٨

وقيل: مصعب بن الزُّثَيَّان، وهو أحد الفراعنة، وقيل: هو فرعون موسى عُمِرَ إلى زمانه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وذلك أن ظهور يوسف عليه السلام لم يكن في مدة كافر يخدمه يوسف. واسم العزيز المذكور: قطفير، قاله ابن عباس، وقيل: أطفير، وقيل: قنطور، واسم امرأته: راعيل، قاله ابن إسحاق، وقيل: ريبة، وقيل: زليخا، وظاهر أمر العزيز أنه كان كافراً، ويدل على ذلك كون الصنم في بيته - حسبما نذكره في البرهان الذي رأى يوسف - وقال مجاهد: كان العزيز مسلماً. والمَثْوَى: مكان الإقامة، والإكرام إنما هو لذي المَثْوَى، ففي الكلام استعارة. وقوله: ﴿عَوَى أَن يَنْعَمَ﴾ أي: بأن يُعِينَنَا في أبواب دنيانا وغير

إنما هو في هذا المعنى الذي هو بين الرجال والنساء، ويشبه أن يكون من «رَاد يَرُوْدُ» إذا تقدم لاختبار الأرض والمرعى، فكأن المراود يختبر أبدأ بأقواله وتلفظه حال المراود من الإجابة أو الامتناع.

وفي مصحف ابن مسعود: «وقرعت الأبواب»، وكذلك رويت عن الحسن، و«أَلَّى هُوَ فِي بَيْتِهَا» هي زليخا امرأة العزيز، وقوله: «عَن نَّفْسِهَا» كناية عن غرض الواقعة، وقوله: «وَعَلَّقَتْ» تضعيف مبالغة لا تعديّة. وظاهر هذه النازلة أنها كانت قبل أن يُنْبَأَ عليه السلام.

وقرأ ابن كثير وأهل مكة: «هَيْثُ» بفتح الهاء وسكون الياء وضم التاء، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحاق، وابن محيصن، وأبو الأسود، وعيسى بفتح الهاء وكسر التاء، وقرأ ابن مسعود، والحسن، والبصريون: «وَيْنُ» بفتح الهاء والتاء وسكون الياء، ورويت عن ابن عباس، وقتادة، وأبي عمرو، قال أبو حاتم: لا يعرف أهل البصرة غيرها، وهم أقل الناس غُلُوًّا في القراءة، قال الطبري: وقد رويت عن رسول الله ﷺ، وقرأ نافع، وابن عامر: «هَيْثُ» بكسر الهاء، وسكون الياء وفتح التاء وهي قراءة الأعرج، وشيبة، وأبي جعفر، وهذه الأربع بمعنى واحد واختلفت باختلاف اللغات فيها، ومعناه: الدعاء، أي: تعال وأقبل على هذا الأمر، قال الحسن: معناها: هَلُمَّ، ويحسن أن تتصل بها «لك» إذ حَلَّت محل قولها: إقبالاً أو قرباً، فَجَرَّت

مجرى «سقياً لك ورعياً لك»، ومن هذا قول الشاعر يخاطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أَبْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
حَنَ أَخَا الْعِرَاقِ إِذَا أَتَيْتَا
إِنَّ الْمِرَاقَ وَأَفْسَلَهُ
عُنْتُكَ إِلَيْكَ فَهَيْثُ هَيْتَا
ومن ذلك على اللغة الأخرى قول طرفة:

لَيْسَ قَوْمِي بِالْأَبْعَدِينَ إِذَا مَا
قَالَ دَاعٍ مِنَ الْغَشِيرَةِ هَيْثُ
ومن ذلك أيضاً قول الشاعر:

قَدْ زَانِسِي أَنْ الْكَرْبِيَّ أَسْكَنْتَا
وَلَوْ غَدَا يُغْنِي بِنَا لَهَيْتَا
أَسْكَنْتَ: دخل في السكون، و«هَيْثُ» معناه: قال: هَيْثُ، كما قالوا: أَفْتُ إِذْ قَالَ: أَفْ أَفْ، ومنه: سَبَّحْ وَكَبِّرْ وَدَعِّعْ إِذَا قَالَ: دَاعٍ دَاعٍ. والتاء على هذه اللغات كلها مَبْنِيَّةٌ، فهي في حال الرفع مثل قُبُلٍ وَتَعْدُ، وفي الكسر على الباب لالتقاء الساكنين، وفي حال النصب ككَيْفٍ ونحوها. قال أبو عبيدة: و«هَيْثُ» لا تُثْنَى ولا تُجْمَع، تقول العرب: هَيْثُ لَكَ، وهَيْثُ لَكُمْ، وهَيْثُ لَكُمْ.

وقرأ هشام بن عامر: «هَيْثُ» بكسر الهاء والهمز وضم التاء، وهي قراءة علي بن أبي طالب، وأبي وائل، وأبي رجاء، ويحيى، ورويت عن أبي عمرو، وهذا يحتمل أن يكون من: «هَاءَ الرَّجُلِ يَهِيءُ» إِذَا أَحْسَنَ هَيْثَتَهُ عَلَى مِثَالِ: «جَاءَ يَجِيءُ»، ويحتمل أن يكون بمعنى: تَهَيَّأْتُ، كما يقال: «فُتْتُ وَتَهَيَّأْتُ» بمعنى واحد، قال الله عز وجل:

«يَنْتَقِزُوا ظِلَالَهُ»، وقال: «حَتَّى تَفْتَحَ» لَمْ أَمْرٌ لِلَّهِ. وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً هكذا إلا أنه سهل الهمزة، وقرأ ابن عباس أيضاً: «هَيْثُ لَكَ»، وقرأ الحلواني عن هشام: «هَيْثُ» بكسر الهاء والهمزة وفتح التاء، قال أبو علي: ظاهر أنه هذه القراءة وهم، لأنه كان ينبغي أن تقول: «هَيْثُ لي» وسياق الآيات يخالف هذا، وحكى النحاس أنه يقرأ: «هَيْثُ» بكسر الهاء وسكون الياء وكسر التاء.

و«مَعَادٌ» نصب على المصدر، ومعنى الكلام: أعوذ بالله، ثم قال: «إِنَّهُ رَبِّي» فيحتمل أن يعود الضمير في «إِنَّهُ» على الله عز وجل، ويحتمل أن يريد العزيز سيده، أي: فلا يصلح لي أن أخونه وقد أكرم مشواي واثمنتني. قال مجاهد، والسدي: «رَبِّي» معناه: سيدي، وقاله ابن إسحاق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا حفظ الأدمي لإحسانه فهو عمل زايك وأحرى أن يحفظ ربه.

ويحتمل أن يكون الضمير للأمر والشأن، ثم يشتدي: «رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى». والضمير في قوله: «إِنَّهُ لَا يُبْلِغُ» مراد به الأمر والشأن فقط.

وحكى بعض المفسرين أن يوسف عليه السلام لما قال: «مَعَادُ اللَّهِ» ثم دافع الأمر باحتجاج وملانة امتحنه الله تعالى بالهم بما هم به، ولو قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ودافع بعنف وبغير شيء من ذلك ما ابتلي بالمكروه.

وقرأ الحجدري: «مَثْوًى»، وكذا

قرأها أبو الطفيل، وروي عن النبي ﷺ: ﴿فَمَنْ آتَيْعَ هُدًى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْثَ﴾ الآية. لاشك أن همّ زليخا كان في أن يواقعها يوسف، واختلف في همّ يوسف عليه السلام فقال الطبري: قالت فرقة: كان مثل همها، واختلفوا كيف يقع من مثل يوسف وهو نبي؟ فقيل: ذلك لِإِيْرَتِهِ الله تعالى موقع العفو والكفاية، وقيل: الحكمة في ذلك أن يكون مثالا للمذنبين لِإِيْرَتِهِ أن توبتهم ترجع بهم إلى عفو الله كما رجعت بمن هو خير منهم ولم يوبقه القرب من الذنب. وذلك كله على أن همّ يوسف بلغ - فيما روت هذه الفرقة - إلى أن جلس بين رجلي زليخا وأخذ في حلّ ثيابه وتكته ونحو هذا، وهي قد استلقت له، قاله ابن عباس وجماعة من السلف. وقالت فرقة في همّه: إنما كان بخطر القرب التي لا يقدر البشر على التحفظ منها، ونزع عن ذلك ولم يتجاوز، فلا يبعد هذا على مثله عليه السلام، وفي الحديث: «إِنْ مِنْ هُمْ بَسِيْةٌ وَلَمْ يَعْمَلْهَا فَلَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ»، وفي حديث آخر «حَسَنَةٌ»، فقد يدخل يوسف في هذا الصنف، وقالت فرقة: كان همّ يوسف بضربها ونحو ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف البتّة.

والذي أقول في هذه الآية: إن كون يوسف نبياً في وقت هذه النازلة لم يصح ولا تظاهرت به رواية، وإذا كان ذلك فهو مؤمن قد أوتي حكماً

وعلماً ويجوز عليه الهمّ الذي هو إرادة الشيء دون مواقفته، وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبياً في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهمّ الذي هو الخاطر، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حلّ تكة ونحو ذلك، لأن العصمة مع النبوة، وما زوي من أنه قيل له: «تكون في ديوان الأنبياء وتفعّل فعل السفهاء» فإنما معناه العدة بالنبوة فيما بعد، وَلِلّٰهِم بِالْشَيْءِ مُرْتَبَنَانِ: فالأولى تجوز عليه مع النبوة، والثانية الكبرى لا تقع إلا من غير نبي، لأن استصحاب خاطر المعصية والتلذذ به معصية في نفسها تكتب، وقول النبي ﷺ: «إِنْ الله تَجَاوَزَ لِأُمْتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسُهَا مَا لَمْ تَنْطِقْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ» معناه: من الخواطر، وأما استصحاب الخاطر فمحال أن يكون مباحاً، فإن وقع فهو خطيئة من الخطايا، لكنه ليس كمواقعة المعصية التي فيها الخاطر، ومما يؤيد أن استصحاب الخاطر معصية قول النبي ﷺ: «إِنَّه كَانَ حَرِيصاً عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ بِمَقَرِّ الظَّنِّ إِنَّهُ﴾، وهذا منتزع من غير موضع من الشرع، والإجماع متعقد على أن الهمّ بالمعصية واستصحاب التلذذ بها غير جائز ولا داخل في التجاوز.

واختلف في البرهان الذي رأى يوسف. وقيل: نودي. واختلف فيما نودي به فقيل: ناداه جبريل عليه السلام. يا يوسف، تكون في ديوان الأنبياء وتفعّل فعل السفهاء؟ وقيل:

نودي: يا يوسف، لا تواقع المعصية فتكون كالطائر الذي عضى فتساقط ريشه فبقي ملقى، ناداه بذلك يعقوب، وقيل غير هذا مما هو في معناه. وقيل: كان البرهان كتاباً رآه مكتوباً، فقيل: في جدار المجلس الذي كان فيه، وقيل: بين عيني زليخا، وقيل: في كفّ من الأرض خرجت دون جسد، واختلف في المكتوب فقيل: قوله تعالى: ﴿أَفَنَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، وقيل: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ آيَاتِيْ إِذْ كُنْتَ كَانَتْ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، وقيل غير هذا. وقيل: كان البرهان أن رأى يعقوب عليه السلام ممثلاً معه في البيت عاصياً على إبهامه، وقيل: على شفته، وقيل: بل انفرج السقف فرآه كذلك، وقيل: إن جبريل عليه السلام قال له: لئن واقعت المعصية لأمحونك من ديوان النبوة، وقيل: إن جبريل ركضه برجله فخرجت شهوته على أنامله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقيل: بل كان البرهان فكرته في عذاب الله ووعيده على المعصية، وقيل: بل كان البرهان الذي اتعظ به أن زليخا قالت له: مكانك حتى أشتري هذا الصنم - ليضمّ كان معها في البيت - فإني أستحي منه أن يراني على هذا الحال، وقامت إليه فسترته بثوب، فاتعظ يوسف وقال: من يستترني أنا من الله القائم على كل شيء؟ وإذا كنت أنت تفعلين هذا لما لا يعقل فإني أولى أن أستحي من الله.

والبرهان في كلام العرب: الشيء الذي يعطي القطع واليقين لأنه مما يُعلم ضرورة أو بخبر قطعي أو بقياس نظري، فهذه التي رويت فيما رآه يوسف براهين.

و ﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وهذه ﴿لَوْلَا﴾ التي يحذف معها الخبر، تقديره: لفعل أو لارتكاب المعصية، وذهب قومٌ إلى أن الكلام تَمُّ في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِرَبِّهِ﴾، وأن جواب ﴿لَوْلَا﴾ في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، وأن المعنى: لولا أن رأى البرهان لهم، أي: فلم يَهْمُ عليه السلام، وهذا قول يردّه لسان العرب وأقوال السلف، قال الزجاج: ولو كان الكلام: ﴿وَلَهُمْ بِهَا لَوْلَا﴾ لكان بعيداً، فكيف مع سقوط اللام؟

والكاف في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ متعلقة بمضمر تقديره: جرت أفعالنا وأقدارنا كذلك لنصرف، ويصح أن تكون الكاف في موضع رفع بتقدير: عَصَمْنَا لَهُ كَذَلِكَ لنصرف. وقرأ الجمهور: ﴿لِنَصْرِفَ﴾ بالنون، وقرأ الأعمش: ﴿لِنُصْرِفَ﴾ بالياء على الحكاية عن الغائب.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والحسن بن أبي الحسن، وأبو رجاء: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكسر اللام في كل القرآن، وكذلك ﴿مُخْلِصًا﴾ في سورة مريم، وقرأ نافع: ﴿مُخْلِصًا﴾ كذلك بكسر اللام، وقرأ سائر القرآن ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بفتح اللام، وقرأ حمزة، والكسائي، وجمهور من القراء: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾

بفتح اللام، و﴿مُخْلِصًا﴾ كذلك في كل القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ الآية. ﴿وَأَسْتَبَقَا﴾ معناه: سابق كل واحد منهما صاحبه إلى الباب، هي لتردّه إلى نفسها، وهو ليهرب عنها، فقبضت في أعلى قميصه من خلفه، فتخرق القميص عند طوقه ونزل التخريق إلى أسفل القميص، والقُدُّ: القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً، والْقَطُّ يستعمل فيما لو كان عرضاً، وكذلك هي اللفظة في قول التابعة:

تَقْدُّ السُّلُوقِي.....

فإن قوله: «وَتُوْقِدُ بِالضَّفْحِ» يقتضي أن القطع بالطول.

و ﴿وَالْقِيَا﴾: وجداً، والسَّيْدُ: الزوج، قاله زيد بن ثابت، ومجاهد. فيروى أنهما وجدا العزيز ورجلاً من قرابة زليخا عند الباب الذي استبقا إليه، قاله السُّدِّي، فلما رأت الفضيحة فزعت إلى مطالبة يوسف والبغي عليه، فأرت العزيز أن يوسف أرادها، وقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وتكلمت في الجزاء، أي أن الذنب ثابت ومتقرر.

وهذه الآية تقتضي تعظيم موقع السجن من النفوس لا سيما بدوي الأقدار إذ قد قُرِنَ بأليم العذاب.

﴿٦٦﴾ - ﴿٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال نوف الشامي: كان يوسف عليه السلام لم يبن على كشف القصة، فلما بغت عليه غضب فقال الحق، فأخبره أنها هي زَاوَنَتُهُ عن نفسه،

فروي أن الشاهد كان الرجل ابن عمها، قال: انظر إلى القميص، فإن كان قُدُّ من دُبُرٍ فكذبت، أو من قُبُلٍ فصدقت، قاله السُّدِّي: وقال ابن عباس: كان رجلاً من خاصة الملك، قاله مجاهد وغيره. وقيل: إن الشاهد كان طفلاً في المهد فتكلم بهذا، قاله أيضاً ابن عباس، وأبو هريرة، وابن جبير، وهلال بن يساف، والضحاك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومما يضعف هذا أن في صحيح البخاري، ومسلم: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وابن السوداء الذي تمت له أن يكون كالفاجر الجبار» فقال: «لم يتكلم»، وأسقط صاحب يوسف منها، ومنها أن الصبي لو تكلم لكان الدليل نفس كلامه دون أن يحتاج إلى الاستدلال بالقميص، وأسند الطبري إلى ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «تكلم في المهد أربعة» فذكر الثلاثة وزاد صاحب يوسف، وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ابن ماشطة فرعون تكلم في المهد فهم - على هذا - خمسة، وقال مجاهد أيضاً: الشاهد القميص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأنه لا يوصف بأنه من الأهل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مِنْ قُبُلٍ﴾ و﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ بضم الباءين وبالتنوين، وقرأ ابن يغمر، والجارود بن أبي سبرة، ونوح، وابن أبي إسحاق: ﴿مِنْ قُبُلٍ﴾ و﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ بثلاث

وامرأة حاجبه، وامرأة بوابه،
و﴿الْعَزِيزُ﴾: الملك، ومنه قول
الشاعر:

دُرَّةٌ غَاصَ عَلَيْهَا تَاجِرُ
جُلَيْثٍ عِنْدَ عَزِيزٍ يَوْمَ طُلُ
و «الْفَتَى»: الغلام، وعرفه في
المملوك، وقد قال رسول الله ﷺ:
«لا يقل أحدكم: عبدي، وأمتي،
وليل: فتاي وفتاتي» ولكنه قد يقال
في غير المملوك، ومنه: «وَإِذْ قَالَ
مُوسَى لِقَتْنَهُ»، وأصل الفتى في
اللغة: الشاب، ولكنه لما كان جل
الخدمة شاباً استعير لهم اسم الفتى.
و«شَغَفَهَا» معناه: بلغ حتى صار
من قلبها موضع الشغاف، وهو على
أكثر القول غلاف من أغشية القلب،
وقيل: الشغاف: سويداء القلب،
وقيل: الشغاف: داء يصل إلى
القلب.

وقرأ أبو رجاء، والأعرج،
وعلي بن أبي طالب، والحسن -
بخلاف - ويحيى بن يعمر، وقتادة -
بخلاف - وثابت، وعوف،
ومجاهد، وغيرهم: «قَدْ شَغَفَهَا»
بالعين غير منقوطة، ولذلك وجهان:
أحدهما أنه علا بها كل مرتبة من
الحب، وذهب بها كل مذهب، فهو
ماخوذ - على هذا - من شغف الجبال
وهي رؤوسها وأعاليلها، ومنه قول
النبي ﷺ: «يوشك أن يكون خير
مال المسلم غنماً يتبع بها شغف
الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من
الفتن»، والوجه الآخر أن يكون
الشغف لذّة بحُرقة يوجد من
الجراحات والجرب ونحوها، ومنه
قول امرئ القيس:

﴿إِنَّ﴾ يريد مقالها المتقدم
في الشكوى بيوسف.

ونزع لهذه الآية من يرى
الحكم بالأماره من
العلماء، فإنها معتمد،
و«يُسْتُ» في قوله:
«يُسْتُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا»
منادى - قاله ابن عباس -
ناداه الشاهد، وهو الرجل
الذي كان مع العزيز
و«أَعْرَضَ عَنْ هَذَا» معناه:
عن الكلام به، أي: اكنمه
ولا تتحدث به، ثم رجع
إليها فقال: «وَأَسْتَغْفِرُ
لَذَلِكَ» أي: استغفري
زوجك وسيدك، وقال:
«مِنَ الْخَاطِئِينَ» ولم

يقول: «من الخاطئات» لأن الخاطئين
أعم، وهو من: خطيء يخطئ خطأ
وخطأ، ومنه قول الشاعر:

لَعَنَرُكُ إِثْمًا خَطْشِي وَصُورِي
عَلَيَّ، وَإِنْ مَا أَتَلَفْتُ مَا
وَيَشْدُ بَيْتَ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ:
عِبَادُكَ يَخْطِئُونَ وَأَنْتَ رَبُّ
بِكُفْنِكَ الْمَسَايَا وَالْحُسُومُ
(٣٠) - (٣١) تفسير قوله عز وجل:

ذَكَرَ الفعل المسند إلى النسوة
لتذكير اسم الجمع، و«النسوة» جمع
قلة لا واحد له من لفظه، وجمع
التكثير نساء، و«نِسْوَةٌ» فِعْلَةٌ، وهو
أحد الأبنية الأربعة التي هي لأدنى
العدد، وقد نظمها القائل بيت شعر:
بِأَفْعُلٍ وَأَفْعَالٍ وَأَفْعِلَةٍ
وَفِعْلَةٍ يُعْرِفُ الْأَدْنَى مِنَ الْعَدَدِ
وَيُرَوَّى أَنَّ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةُ كُنَّ أَرَبَعًا،
امرأة خباز الملك، وامرأة ساقية،

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَاوِنًا أَتَتْ
كُلَّ وَجْهٍ مِّنْهُنَّ رِيكَيْنَا وَقَالَتْ أَخْرِجِي عَلَيَّ فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْرَهَهُ
وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ
كَرِيمٌ ﴿٣٠﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنِ
نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيَفْعَلَنَّ وَلَيْسَ كُودًا
مِّنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي
إِلَيْهِ وَلَا أَصْرِفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْمُجَاهِلِينَ
﴿٣٢﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٣٣﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْعَذَابَ لَئِنْ سَجَدُوا
لِيَّ أَرِيَنِي أَعْمُرُكُمْ وَفَالِ الْآخِرِ إِنِّي أَرِيَنِي أَجْمَلُ قُوَّةٍ
رَأْسِي خَيْرًا نَّأْكُلُ الطَّيْرَ مِنْهُ نَبِّذْنَا بِنَاوِيلِهِ وَنَارَنَّاكَ مِنْ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمُ طَعَامٌ مَُّرْتًا وَلَا يَأْتِيَاكُمْ
بِنَاوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَاكُمْ فَذَلِكُمْ إِمَّا عَلَمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ حُمْحُمُ كَثِيرُونَ ﴿٣٥﴾

ضمانات من غير تنوين، قال أبو
الفتح: هما غايتان بنيتا كقوله تعالى:
﴿مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾، قال أبو
حاتم: وهذا رديء في العربية جدًا،
وإنما يقع هذا البناء في الظروف،
وقرأ الحسن: «مِنْ قَبْلُ» و«مِنْ
ذُبُرٍ» بإسكان الباءين والتنوين،
ورويت عن أبي عمرو، وروي عن
نوح القاري أنه أسكن الباءين وضم
الأواخر ولم ينون، ورواها عن أبي
إسحاق عن يحيى بن يعمر.

وسُمِّيَ المتكلم بهذا الكلام شاهدًا
من حيث دلَّ على الشاهد، ونفس
الشاهد هو تخريق القميص.

وقرأت فرقة: «فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ
قَطُ مِنْ ذُبُرٍ»، والضمير في «رَأَى»
هو للعزيز، وهو القائل: «إِنَّهُ مِن
كَيْدِكُنَّ»، قاله الطبري، وقيل: بل
الشاهد قال ذلك، والضمير في

أَيَقْتُلُنِي وَقَدْ شَعَفْتُ فُؤَادَهَا
كَمَا شَعَفَ الْمُهْنُوَّةُ الرَّجُلَ الطَّالِي
والمشعوف في اللغة: الذي أحرق
الحب قلبه، ومنه قول الأعشى:

تَغْصِي الْوُشَاةَ وَكَانَ الْحُبُّ أَوْنَةً
مِمَّا يَزِينُ لِلْمَشْعُوفِ مَا صَنَعَا

وروي عن ثابت البناني، وأبي
رجاءٍ أنهما قرآ: ﴿قَدْ شَفَّهَا﴾ بكسر
العين غير منقوطة، قال أبو حاتم:
المعروف فتح العين، وهذا قد قرئ
به. وقرأ ابن مَحْصِن: ﴿قَدْ شَفَّهَا﴾
أدغم الدال في الشين.

وروي أن مقالة هؤلاء النسوة إنما
قصدن بها المكر بامرأة العزيز
لِيُغْضِبَنَّهَا حتى تعرض عليهن يوسف
لِيَبَيِّنَ عِذْرَهَا أَوْ يَحُتِّ لَوْمَهَا، وقد قال
ابن زيد: الشَّغْفُ في الحب والشَّغْفُ
في البغض، وقال الشعبي: الشَّغْفُ
والمشغوف بالغبين منقوطة في
الحب، والشَّغْفُ: المجنون،
والمشغوف: المجنون، وهذان
القولان ضعيفان.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾
الآية. إنما سُمِّي قولهن مكرًا من
حيث أظهرن إنكار منكر وقصدن
إثارة غيظها عليهن، وقيل: مَكْرُهُنَّ
أنهن أفشين ذلك عنها وقد كانت
أطلعتهن على ذلك واستكنتهن إياه،
وهذا لا يكون مكرًا إلا بأن يظهرن
لها خلاف ذلك ويقصدن بالإفشاء
أذاها.

ومعنى ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي
ليخضرن، ﴿وَأَعَدَّتْ﴾ معناه: أعدت
ويسرت، و﴿مُتَّكَا﴾: ما يُتَّكأ عليه
من فرش ووسائد، وعبر بذلك عن
مجلس أعد لكرامة، ومعلوم أن هذا

النوع من الكرامات لا يخلو من
الطعام والشراب، فلذلك فسر
مجاهد وعكرمة المتَّكأ بالطعام. قال
ابن عباس: ﴿مُتَّكَا﴾ معناه: مجلساً،
ذكره الزهرواي، وقال القتيبي: يقال:
اتَّكأنا عند فلان، أي أكلنا.

وقوله: ﴿وَأَنْتَ كُلَّ وَجَدٍ مِثْنُ
يَكِينَا﴾ يقتضي أنه كان في جملة
الطعام ما يقع بالسكاكين، فقيل:
كان لحمًا، وكانوا لا ينتهسون اللحم
وإنما كانوا يأكلونه حُرًا بالسكاكين،
وقيل: كان أثرجًا، وقيل: كان
زُماوَرْد - وهو من نحو الأثرج - موجود
في تلك البلاد - وقيل: هو
مصنوع من سكر ولوز وأحلاط.
وقرأ ابن عباس، ومجاهد،
والجحدري، وابن عمر، وقناة،
والضحاك والكلبي، وأبان بن
تغلب: ﴿مُتَّكَا﴾ بضم الميم وسكون
التاء وتنوين الكاف، واختلف في
معناه؛ فقيل: هو الأثرج، وقيل: هو
اسم يعم جميع ما يقع بالسكين من
الفواكه كالأثرج والتفاح وغيره،
وأشد الطبري:

نَشْرَبُ الْإِثْمَ بِالصُّوَاعِ جَهَارًا
وَنَرَى الْمُتَّكَ بِئِثْنَا مُسْتَعَارًا
وقرأ الجمهور: ﴿مُتَّكَا﴾ بشد التاء
المفتوحة والهمز والقصر، وقرأ
الزهري: ﴿مُتَّكَا﴾ مشدد التاء من
غير همز، وهي قراءة أبي جعفر بن
القعقاع، وشيبة بن نصاح، وقرأ
الحسن: ﴿مُتَّكَا﴾ بالمد على إشباع
الحركة. والسكين: تذكر وتؤنث،
قاله الكسائي والفراء، ولم يعرف
الأصمعي إلا التذكير.

وقولها: ﴿أَخْرَجَ﴾ أمر ليوسف،

وأطاعها بحسب الملك، وقال
مكي، والمهدي: قيل: إن في الآية
تقديمًا وتأخيرًا في القصص، وذلك
أن قصة النسوة كانت قبل فضيحتها
في القميص للسيد، وباشتهار الأمر
للسيد انقطع ما بينها وبين يوسف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا محتمل إلا أنه لا يلزم من
ألفاظ الآية. بل يحتمل أن كانت
قصة النساء بعد قصة القميص،
وذلك أن العزيز كان قليل الغيرة، بل
قومه أجمعون، ألا ترى أن الإنكار
في وقت القميص إنما كان بأن قيل:
﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾؟
وهذا يدل على قلة الغيرة، ثم سكن
الأمر بأن قال: ﴿يُوشِفُ أَعْرَضَ عَنْ
هَذَا﴾ وأنت ﴿وَأَسْتَفْرِى﴾ وهي لم
تبق حينئذ إلا على إنكارها وإظهار
الصحة، فلذلك تغافل عنها بعد
ذلك، لأن دليل القميص لم يكن
قاطعًا، وإنما كان أمانة ما، هذا إن
لم يكن المتكلم طفلًا.

وقوله: ﴿أَكْبَرَهُ﴾ معناه: أعظمه
واستهولن جماله، هذا قول
الجمهور، وقال عبدالصمد بن علي
الهاشمي عن أبيه عن جده: معناه:
جِصْن، وأنشد بعض الناس حجة
لهذا التأويل:

يَأْتِي النِّسَاءَ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ وَلَا
يَأْتِي النِّسَاءَ إِذَا أَكْبَرْنَ إِخْبَارًا
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا قول ضعيف، ومعناه منكور،
والبيت مصنوع مختلق، كذلك
قال الطبري وغيره من المحققين،
وليس عبدالصمد من رِوَاة العلم،
رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقَّصَنَ إِلَهِنَّ﴾ أي: أكثرن فيها حُرَّ السكاكين، وقال عكرمة: الأيدي هنا: الأكماء، وقال مجاهد: هي الجوارح وقطعنها حتى ألقينها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فظاهر هذا أنه بانت الأيدي، وذلك ضعيف من معناه، وذلك أن قطع العظم لا يكون إلا بشدة، ومحال أن يسهو أحد عنا، والقطع على المفصل لا يتهيأ إلا بتلطف لا بُدَّ أن يُقصد، والذي يشبه أنهم حملن على أيديهن الحمل الذي كن يحملنه قبل المثلث فكان ذلك حُرًا، وهذا قول الجماعة، وضوعفت الطاء في ﴿نَقَّصَنَ﴾ لكثرتهم وكثرة الحُرِّ، وربما كان مراداً.

وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿حَاشَى﴾ بألف، وقرأ أبي وابن مسعود: ﴿حَاشَى﴾، وقرأ سائر السبعة: ﴿حَشَى لِلَّهِ﴾، وفرقة: ﴿حَشَى﴾، وهي لغة، وقرأ الحسن: ﴿حَاشَى لِلَّهِ﴾ بسكون الشين، وهي ضعيفة، وقرأ الحسن أيضاً: ﴿حَاشَى إِلَهِهُ﴾ محذوفاً من «حاشى». فأما «حاشى» فهي حيث جرت حرفٌ معناه الاستثناء، كذا قال سيبويه، وقد ينصب به، تقول: «حاشى زيدٌ وحاشى زيداً»، قال المبرد: النصب أولى إذ قد صحَّ أنها فعلٌ بقولهم: «حاشى ليزيد»، والحرف لا يحذف منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يظهر من مجموع كلام سيبويه والمبرد أن الحرف يُخفَضُ به لا غير، وأن الفعل هو الذي يُنصب به،

فهذه اللفظة تستعمل فعلاً وحرفاً، وهي في بعض المواضع فعل وزنه فاعَل، وذلك في قراءة من قرأ: ﴿حَاشَى لِلَّهِ﴾، معناه مأخوذ من معنى الحرف وهو إزالة الشيء عن معنى مقرون به، وهذا الفعل مأخوذ من «الحَشَى»، أي: هذا في حشى وهذا في حشى، ومن ذلك قول الشاعر:

يَقُولُ الَّذِي يَنْشِي إِلَى الْجَزْرِ أَهْلُهُ
بَأْيِ الْحَشَى صَارَ الْخَلِيطُ الْمُبَايِنُ؟
ومنه الحاشية، كأنها مباينة لسانر ما هي له، ومن المواضع التي «حاشى» فيها فعلٌ هذه الآية، يدلُّ على ذلك دخولها على حرف الجر، والحروف لا يدخل بعضها على بعض، ويدلُّ على ذلك حذف الياء منها في قراءة الباقيين: ﴿حَاشَى﴾ على نحو حذفهم من: «لا أَسَالِي» و«لا أَذِي» و«لَوْ تَرَى»، ولا يجوز الحذف من الحروف إلا إذا كان فيها تضعيف مثل: «لَعَلَّ» فيحذف وتزجج «عَلَّ»، ويُعْتَرَضُ في هذا الشرط بـ «مُتَذُّ» و«مُتَذِّ» فإنه حذف دون تضعيف، فتأمله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن ذلك في حديث خالد يوم مُؤْتَةَ: «فَحَاشَى بِالنَّاسِ»، فمعنى ﴿حَشَى لِلَّهِ﴾ ما هنا: حاش يوسف لطاعته لله، أو لمكاتبه من الله، أو لترفع الله له أن يُرْمَى بما رَمَيْتُ به أو يُدْعَى إلى مثله، لأن تلك أفعال البشر وهو ليس منهم، إنما هو مُلْكٌ، هكذا رُتِبَ أبو عليٍّ الفارسي معنى هذا الكلام على هاتين القراءتين اللتين في السُّنَنِ، وأما قراءة أبي بن كعب، وابن مسعود فعلى أن

(حَاشَى) حرف استثناء، كما قال الشاعر:

حَاشَى أَبِي ثَوْبَانَ إِنْ بِهِ
ضِيًّا عَلَى الْمَلْخَاءِ وَالشُّشْمِ
وتسكين الشين في إحدى قراءتي الحسن ضعيف، جمع بين ساكنين، وقراءته الثانية محذوفة الألف من (حَاشَى).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتشبيه بالملْك هو من قبيل التشبيه بالمستعظمت وإن كانت لا تُرى. وقرأ أبو الحويرث الحنفي، والحسن: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلِكٌ كَرِيمٌ﴾ بكسر اللام في ﴿مَلِكٌ﴾، وعلى هذه القراءة فالكلام فصيح، لما استعظمت حسن صورته قلن: ما يصلح أن يكون هذا عبداً بشراً، إنما يصلح أن يكون ملكاً كريماً. ونصب ﴿يَتَرَكُ﴾ على لغة الحجاز، شبهت ﴿مَا﴾ بـ «ليس»، وأما تميم فرفع، ولم يقرأ به.

وروي أن يوسف عليه السلام أُعطي ثلث الحُسن، وعن النبي ﷺ أنه أُعطي نصف الحُسن، ففي بعض الأسانيد هو وأمه، وفي بعضها هو وسارة جَدَّةُ أبيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على جهة التمثيل، أي: لو كان الحُسن مما يقسم لكان حُسن يوسف يقع في نصفه، فالقصد أن يقع في نفس السامع عظم حُسنه، على نحو التشبيه بـ «برؤوس الشياطين» وأنياب الأغوال.

٢٣٠ - ٢٣١ تفسير قوله عز وجل: قال الطبري: المعنى: فهذا الذي لُمْتُني فيه، أي: هذا الذي قطعتن

أبيدكن بسببه هو الذي جعلتني ضالة في هواه، والضمير عائد على يوسف في ﴿فِيهِ﴾، ويجوز أن تكون الإشارة إلى حُب يوسف والضمير عائد على الحب، فيكون ذلك إشارة إلى غائب على بابه.

ثم أَقْرَبْتُ امرأة العزيز للنسوة بالمرادة، واستأنمت إليهن في ذلك إذ قد علمت أنهن قد عَذَّرْنَهَا، و﴿فَأَسْتَقِمَّ﴾ معناه: طلب العصمة وتمسك بها وعصاني، ثم جعلت تنوعده - وهو يسمع - بقولها: ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَقَعْ مَا ءَامُرُو لِيَسْجُنَّ وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ إلى آخر الآية.

واللام في قوله: ﴿لِيَسْجُنَّ﴾ لام القسم، واللام الأولى هي المؤذنة بمجيء القسم، والنون هي الثقيلة والوقوف عليها بشدها، و﴿لِيَكُونَا﴾ نونه هي النون الخفيفة، والوقف عليها بالألف، وهي مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿لَتَسْتَفْتَى﴾، ومثلها قول الأعشى:

وَصَلَّ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى
وَلَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ وَاللهُ فَاعْبُدَا
أَرَادَ: فَاغْبُدُنَّ. وقرأت فرقة:
﴿وَلِيَكُونَنَّ﴾ بالنون الشديدة،
والصاغرون الأذلاء الذين لَحِقَهُمُ
الصغار.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ آلَيْتُنِي أَحَبُّ إِلَيَّ﴾. روي أنه لما توعدته امرأة العزيز قال له النسوة: «أطع مولاتك، وافعل ما أمرتك به»، فلذلك قال: ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، قال نحوه الحسن، ووزن «يدعون» في هذه الآية: يَفْعَلُنْ، بخلاف قولك: «الرجال يدعون».

وقرأ الجمهور: ﴿آلَيْتُنِي﴾ بكسر السين، وهو الاسم. وقرأ الزهري، وابن هرمز، ويعقوب، وابن أبي إسحاق: ﴿السَّجُنُ﴾ بفتح السين، وهي قراءة عثمان رضي الله عنه وطارق مولاة، وهو المصدر، وهو كقولك: الجذع والجذع.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْعَاهِلِينَ﴾ إلى آخر الآية، استسلام لله تبارك وتعالى، ورغبة إليه، وتوكل عليه، المعنى: وإن لم تُثْجِنِي أَنْتَ هَلَكْتُ، هذا مقتضى قرينة كلامه وحاله، والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد على الفاحشة المعنية بـ (مَا) في قوله: ﴿مِمَّا﴾. و﴿أَصَبُ﴾ مأخوذ من الصَّبْوة، وهي أفعال الصبا، ومن ذلك قول الشاعر - أنشده الطبري -:

إِلَى مِثْدٍ صَبَا قُلُوبِي
وَمِثْدٍ مِثْلَهَا يُضْطَبِي
ومن ذلك قول دُرَيْد بن الصمة:

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسُهُ
فَلَمَّا عَلَا قَالَ لِلْبَاطِلِ: ابْعُدِ
والجاهلون: هم الذين لا يراعون حدود الله تعالى ونواهي.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ﴾ الآية. قول يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ آلَيْتُنِي﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنَ الْغَاهِلِينَ﴾ كلام يتضمن الشككي إلى الله عز وجل من حاله معهن، والدعاء إليه في كشف بلواه، فلذلك قال - بعد مقالة يوسف -: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ﴾، أي: أجابه إلى إرادته، وصرف عنه كيدهن في أن حال بينه وبين المعصية، وقوله: ﴿السَّيِّئُ

الَّذِيئُ﴾ صفتان لانتفتان بقوله: ﴿فَأَسْتَجَابَ﴾.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل: لما أبى يوسف المعصية ويشت منه امرأة العزيز طالبتة بأن قالت لزوجها: إن هذا الغلام العبراني قد فضحني في الناس، وهو يعتذر إليهم ويصف الأمر بحسب اختياره، وأنا محبوسة محجوبة، فإما أذنت لي فخرجت إلى الناس فاعتذرت وكذبت، وإما حبسته كما أنا محبوسة، فحينئذ بدا لهم سجنه. قال ابن عباس: فأمر به فحمل على حمار، وضرب بالطبل، ونودي عليه في أسواق مصر: إن يوسف العبراني أراد سيده، فهذا جزاؤه أن يسجن، قال أبو صالح: ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكى.

و ﴿بَدَا﴾ معناه: ظهر، والفاعل بـ ﴿بَدَا﴾ محذوف تقديره: بدؤ، أو رأي، وجمع الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ والساجن الملك وحده من حيث كان في الأمر تشاور، و﴿لِيَسْجُنَّهُ﴾ جملة دخلت عليها لام القسم، ولا يجوز أن يكون الفاعل بـ ﴿بَدَا﴾ ﴿لِيَسْجُنَّهُ﴾ لأن الفاعل لا يكون جملة بوجه، هذا صريح مذهب سيبويه، وقيل: الفاعل: ﴿لِيَسْجُنَّهُ﴾، وهو خطأ، وإنما هو مفسر للفاعل.

و ﴿الْآيَاتِ﴾ ذكر فيها أهل التفسير أنها قد القميص - قاله مجاهد وغيره - وخمش الوجه الذي كان مع قد القميص - قاله عكرمة - وحز النساء أيديهن، قاله السدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومقصد الكلام إنما هو أنهم رأوا سجنه بعد بدو الآيات المبرقة له من التهمة، فهكذا تبين ظلمهم له، وخمش الوجه وحز النساء أيديهن ليس فيهما تبرية ليوسف، ولا تصور تبرية إلا في خبر القميص، فإن كان المتكلم طفلاً - على ما روي - فهي آية عظيمة، وإن كان رجلاً فهي آية فيها استدلالاً ما، والعادة أنه لا يُعْتَبَرُ بآية إلا فيمّا ظهوره في غاية الوضوح، وقد تقع «الآيات» أيضاً على «المبينات» كانت في أي حدّ اتفق من الوضوح، ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿يَرَىٰ بَعْدَ مَا رَأَىٰ الْآيَاتِ﴾ أي: من بعد ما ظهر لهم من وجوه الأمر وقرائنه أن يوسف بريء، فلم يرد تعيين آية، بل قرائن جميع القصة.

و «الحين» في كلام العرب وفي هذه الآية: الوقت من الزمن غير محدود، يقع للقليل والكثير، وذلك بين من موارد في القرآن، وقال عكرمة: الحين هنا يراد به سبعة أعوام، وقيل: بل يراد بذلك سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بحسب ما كشف الغيب في سجن يوسف. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقرأ: «عَتَىٰ جِين» بالعين - وهي لغة هذيل - فقال له: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود، فكتب عمر إلى ابن مسعود: «إن الله أنزل القرآن عربياً بلغة قريش، فيها أثريء الناس، ولا تقرنهم بلغة هذيل». وروي عن ابن عباس أنه قال: «عَثَرُ يوسف عليه السلام ثلاث عشرات: هَمَّ

فُسَجِنَ، وقال: اذكرني عند رَبِّكَ فأنساه الشيطان ذكر ربّه فطول سجنه، وقال: إنكم لسارقون، فروجع: إن يسرق فقد سَرَقَ أَخٌ له من قبل».

وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ﴾ الآية. المعنى: فسجنوه فدخل معه السجن غلامان أيضاً، وهذه «مع» تحتمل أن تكون باقتران وقت الدخول، وألا تكون بل دخلوا أفذاذاً، وروي أنهما كانا للملك الأعظم، الوليد بن الريان، أحدهما: خبّازه، والآخر: ساقيه.

والفتى: الشاب، وقد تقع اللفظة على المملوك وعلى الخادم الحر، ويحتمل أن يتصف هذان بجميع ذلك، واللفظة من ذوات البياء، وقولهم: «الْفُتُوَّة»: شاذ، وروي أن الملك اتهمهما بأن الخايز منهما أراد سقه، ووافقه على ذلك الساقى فسجنهما، قاله السدي، فلما دخل يوسف السجن استمال الناس فيه بحسن حديثه وفضله ونبله، وكان يسلي حزينهم، ويعود مريضهم، ويسأل لفقيهم، ويندبهم إلى الخير، فأحبه الفتيان ولزمه، وأحبه صاحب السجن والقيّم عليه، وقال له: كن في أي البيوت شئت، فقال له يوسف: لا تُجِنِّي يرحمك الله، فلقد أدخلت عليّ المحبة مضرات: أحبتني عمتي فامتحتن لمحبتها، وأحبتني أبي فامتحتن لمحبته لي، وأحبتني امرأة العزيز فامتحتن لمحبتها بما ترى، وكان يوسف عليه السلام قد قال لأهل السجن: إني أغبر الرؤيا وأجيد، فروي عن ابن

مسعود أن الفتيين استعملا هذين المئامين ليحرياه، وروي عن مجاهد أنهما رأيا ذلك حقيقة فأرادا سؤاله، فقال أحدهما واسمه «نبو» فيما روي: إني رأيت حيلة من كرم لها ثلاثة أغصان حسان، فيها عناقيد عنب حسان، فكتت أعصرها وأسقي الملك، وقال الآخر واسمه «مجلث»: كنت أرى أنني أخرج من مطبخة الملك وعلى رأسي ثلاث سلاسل فيها خبز والطير تأكل من أعلاه.

وقوله: ﴿أَعَصِرْ خَمْرًا﴾ قيل: إنه سقى العنب خمرًا بالمال، وقيل: هي لغة أزد عمان، يسمون العنب. خمرًا، وقال الأصمعي: حدثني المعتمر قال: لقيت أعرابياً يحمل عنباً في وعاء، فقلت: ما تحمل؟ قال: خمرًا، أراد العنب. وفي قراءة أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعَصِرُ عَنَبًا﴾، ويجوز أن يكون وصف الخمر بأنها معصورة، إذ العصر لها ومن أجلها.

وقوله: ﴿خَبْرًا﴾ يروى أنه رأى ثريداً فوق رأسه، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿فَوْقَ رَأْسِي ثَرِيدًا تَأْكُلُ الطير منه﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال الجمهور: يريدان: في العلم، وقال الضحّاك وقتادة: المعنى من المحسنين في عشرته مع أهل السجن وإجماله معهم، وقيل: أرادوا إخباره أنهما يريان له إحساناً عليهما ويداً إذا تأول لهما ما رأياه، ونحا إليه ابن إسحاق.

(٣٧) - (٣٨) تفسير قوله عز وجل:

روي عن السدي وابن إسحاق أن يوسف عليه السلام لما علم شدة تعبير منامة رائي الخبز وأنها تؤذن بقتله ذهب إلى غير ذلك من الحديث عسى ألا يظالباه بالتعبير، فقال لهما - مُعَلِّمًا بعظيم علمه بالتعبير -: إنه لا يجيشكما طعام في نومكما تريان أنكما رزقتماه إلا أعلمتكما بتأويل ذلك الطعام، أي: بما يؤول إليه أمره في اليقظة قبل أن يظهر ذلك التأويل الذي أُعْلِمَكُما به، فروي أنهما قالا: ومن أين لك ما ندعيه من العلم وأنت لست بكاهن ولا منجم؟ فقال لهما: ﴿ذَلِكُمَا مِنَّا عَلَيَّ رَبِّي﴾، ثم نهض ينحي لهما على الكفر ويحسن لها الإيمان بالله، فروي أنه قصد في ذلك وجهين: أحدهما: تنسيهما أمر تعبير ما سالا عنه، إذ في ذلك التذكرة بقتل أحدهما، والآخر: الطماعية في إيمانهما، ليأخذ المقتول بحظه من الإيمان وتسلم له آخرته، وقال ابن جريج: أراد يوسف عليه السلام: لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة إلا نبأتكما منه بعلم، وبما يؤول إليه أمركما قبل أن يأتيكما ذلك المأك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا إنما أعلمهم بأنه يعلم مغيبات لا تعلق لها برؤيا، وقصد بذلك أحد الوجهين المتقدمين، وهذا على ما روي أنه نبئ في السجن، فإخباره كإخبار عيسى عليه السلام، وقال ابن جريج: كانت عادة ذلك الملك إذا أراد قتل أحد ممن في سجنه بعث إليه طعاماً

يجعله علامة لقتله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله لا يقتضيه اللفظ ولا ينهض به إسناده.

وقوله: ﴿زَكَّ﴾ مع أنه لم يتشبه بها جائز صحيح، وذلك أنه عبر عن تجنبه من أول بالترك، وساق لفظة الترك استجلاباً لهما عسى أن يتوكأ الترك الحقيقي الذي هو بغد الأخذ في الشيء، والقوم المتروك ملتهم: الملك وأتباعه، وكرر قوله: ﴿هُمَّ﴾ على جهة التأكيد، وحسن ذلك للفاصلة التي بينهما.

وقوله: ﴿وَأَنبَتُ﴾ الآية. تماد من يوسف عليه السلام في دعائهما إلى الملة الحنيفة، وزوال مواجهة «مجلت» بما تقتضيه رؤياه. وقرأ: ﴿أَبَائِي﴾ بالإسكان في الياء، الأشهب العقيلي وأبو عمرو، وقرأ الجمهور: ﴿أَبَائِي﴾ بياء مفتوحة، قال أبو حاتم: هما حسنتان فافرا كيف شئت، وأما طرح الهمزة فلا يجوز، ولكن تخفيفها جيد، فنصير ياء مكسورة بعدها ياء ساكنة أو مفتوحة.

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ملتهم وشرعهم، وكون ذلك فضلاً عليهم، ببين، إذ خصهم الله تعالى بذلك، وجعلهم أنبياء، وكونه فضلاً على الناس هو إذ يدعون به إلى الدين، ويساقون إلى النجاة من عذاب الله

وَأَنبَتُ اللَّهُ أَبَاءَ يَاقُوبَ وَاسْحَقَ وَمَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَن نَّشْرَكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْنَعِي السِّجْنَ، أَرَادَتْ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرَ أَوْ اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ آمَرَ لَا تُعْبَدُ إِلَّا الْإِلَٰهَ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيمُ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبِّهِ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ فَفِي الْأَمْرِ لَدَىٰ فِيهِ شَكٌّ لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٤١﴾ قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أَذْكَرَ فِي عَذَابِكَ فَأَنسَهُ السَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أُنْتَوَىٰ فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرَّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

عز وجل. وقوله: ﴿بِنِشْرٍ﴾ هي (من) الزائدة المؤكدة التي تكون مع الجحد، وقوله: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ يريد الشكر الثام الذي فيه الإيمان.

(٣٩) - (٤٠) تفسير قوله عز وجل:

وضفه لهما بـ ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ﴾ هو: إما على أن يتسبها بصحبتهما للسجن من حيث سكنانه، كما قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ و﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، ونحو هذا، وإما أن يريد صُنِّجَتْ لهما في السجن، فأضافهما إلى السجن لذلك، كأنه قال: يا صاحبي في السجن، وهذا كما قيل في الكفار: إن الأصنام شركاؤهم. وعرضه عليهما بطول أمر الأوثان بأن وصفها بالفرق، ووضف الله تعالى بالوحدة والقهر تلطف حسن وأخذ بيسير الحجة قبل كثيرها الذي ربما نفرت منه طباع الجاهل وعاندته،

وهكذا الوجه في مُحاجة الجاهل، أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها، فإذا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها، ثم كذلك أبداً حتى يصل إلى الحق، وإن أخذ الجاهل بجميع المذهب الذي يساق إليه دفعةً أباه للحين وعانده، وقد ابتلي بأرباب متفرقين من يخدم أبناء الدنيا ويؤملهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَسْمَاءُ﴾، وذهب بعض المتكلمين إلى أنه أوقع في هذه الآية الأسماء على السميات وعبر عنها بها إذ هي ذوات أسماء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والاسم الذي هو: (ألف وسين وميم) قد يجري في اللغة مجرى النفس والذات والعين، فإن حُملت الآية على ذلك صح المعنى، وليس الاسم - على هذا - بمنزلة التسمية التي هي: رجلٌ وحجر، وإن أريد بهذه الأسماء التي في الآية أسماء الأصنام التي هي بمنزلة اللات والعزى ونحو ذلك من تسميتها آلهة، فيحتمل أن يريد: إلا ذوات أسماء، وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. ويحتمل - وهو الراجح المختار إن شاء الله - أن يريد: ما تعبدون من دونه أُلوهية، ولا لكم تعلق بإله إلا بحسب أن سميت أصنامكم آلهة، فليست عبادتكم لإله إلا باسم فقط لا بالحقيقة، وأما الحقيقة فهي وسائر الحجارة والخشب سواء، فإنما تعلقت عبادتكم بحسب الاسم الذي وضعتم، فذلك هو معبودكم إذا حُصل أمركم، فعبر عن هذا المعنى

باللفظ المسرود في الآية. ومن هذه الآية وَهَمٌ من قال: «في قولنا: رجلٌ وحجر»: إن الاسم هو المسمى في كل حال، وقد بانت هذه المسألة في صدر التعليق.

ومفعول (سَمَيْتُمْ) الثاني محذوف، تقديره: آلهة، هذا على أن الأسماء يراد بها ذوات الأصنام، وأما على المعنى المختار من أن عبادتهم إنما هي لِمَعَانٍ تعطىها الأسماء وليست موجودة في الأصنام؛ فقلوه: ﴿سَمَيْتُوهَا﴾ بمنزلة: وضعتها، فالضمير للسميات، وأكد الضمير ليعطف عليه.

والسلطان: الحُجَّةُ، وقوله: ﴿إِنَّ أَعْيُنَكُمْ لِلَّهِ﴾ أي: ليس لأصنامكم التي سميتها آلهة من الحكم والأقدار والأرزاق شيء، أي: فما بالها إذن؟ ويحتمل أن يريد الرد على حُكمهم في نصبهم آلهة دون الله تعالى، وليس لهم تعدي أمر الله في ألا يُعبد غيرُه. و﴿الْقِسْمُ﴾ معناه: المستقيم، و﴿أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لجهالهم وغلبة الكفر.

ثم نادى ﴿يَصْحَجِ إِلَيْنَا﴾ ثانية لتجتمع أنفسهما لسماع الجواب، فروي أنه قال لبنو: أما أنت فتعود إلى مرتبتك وسقاية ريك، وقال لمجلى: أما أنت فتصلب، وذلك كله بعد ثلاث، فروي أنهما قالا له: ما رأينا شيئاً وإنما تحالما لنجربك، وروى أنه لم يقل ذلك إلا الذي حدثه بالصلب، وقيل: كانا رأيا ثم أنكرا.

وقرأت فرقة: ﴿فَيَسْقَى رَبَّهُ﴾ من سَقَى، وقرأت فرقة: ﴿فَيَسْقَى﴾ من

أسقى، وهما لغتان لمعنى واحد، وقرأ عكرمة، والجحدري: ﴿فَيَسْقَى﴾ بضم الياء وفتح القاف، أي: ما يرويه. وأخبرهما يوسف عليه السلام - عن غيب عليمه من قبل الله تعالى - أن الأمر قد قضي ووافق القدر.

وقوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ﴾ الآية. الظن هنا بمعنى اليقين، لأن ما تقدم من قوله: ﴿فَيُسْقَى الْأَمْرُ﴾ يلزم ذلك، وهو يقين فيما لم يخرج بعد إلى الوجود، وقال قتادة: الظن هنا على بابه لأن عبارة الرؤيا ظن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقول يوسف عليه السلام: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ دالٌ على وحي، ولا يترتب قول قتادة إلا بأن يكون معنى قوله: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾، أي: قضى كلامي وقلت ما عندي والله أعلم بما يكون بعد.

وفي الآية تأويل آخر، وهو أن يكون ﴿ظَنَّ﴾ مسنداً إلى الذي قيل له: إنه يسقي ربّه خمرًا، لأنه دخلته أبهة السرور بما بُشّر به، وصار في رتبة من يؤمل حين ظنّ وغلب على معتقده أنه ناج، وذلك بخلاف ما نزل بالآخر المُعَرَّف بالصلب.

ومعنى الآية: قال يوسف لساقى الملك حين علم أنه سيعود إلى حاله الأولى مع الملك: أذكرني عند الملك، فيحتمل أن يريد أن يذكره بعلمه ومكانته، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق، أو يذكره بهما.

والضمير في ﴿فَأَنسَنُهُ﴾ قيل: هو

عائد على يوسف عليه السلام، أي: نسي في ذلك الوقت أن يشتكي إلى الله، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق، فروي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله عز وجل في ذلك، وطوّل سجنه عقوبة على ذلك، وقيل: أوحى إليه: يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلن حبسك، وقيل: إن الضمير في ﴿فَأَنسَهُ﴾ عائد على الساقى، قاله ابن إسحاق، أي: نسي ذكر يوسف عند ربه، فأصاف الذكر إلى ربه إذ هو عنده، والرب على هذا التأويل: الملك.

والبضع في كلام العرب اختلف فيه، فالأكثر على أنه من الثلاثة إلى العشرة، قاله ابن عباس. وعلى هذا هو فقه مالك رحمه الله في الدعاوي والإيمان، وقال أبو عبيدة: البضع لا يبلغ العقد ولا نصف العقد، وإنما هو من الواحد إلى الأربعة، وقال الأخفش: البضع من الواحد إلى العشرة، وقال قتادة: البضع من الثلاثة إلى التسعة، ويقوي هذا ما روي من أن النبي ﷺ قال لأبي بكر الصديق في قصة خطره مع قريش في غلبة الروم لفارس: «أما علمت أن البضع من الثلاث إلى التسع»، وقال مجاهد: من الثلاثة إلى السبعة. قال الفراء: ولا يذكر البضع إلا مع العشرات، لا يذكر مع مائة ولا مع ألف، والذي روي في هذه الآية أن يوسف عليه السلام سجن خمس سنين، ثم نزلت له قصة الفتّين، وعوقب على قول: ﴿أَنكَرَنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ بالبقاء في السجن سبع

سنين، فكانت مدة سجنه اثنتي عشرة سنة، وقيل: عوقب ببقاء سنتين، وقال الحسن: قال رسول الله ﷺ: «الولا كلمته ما لبث في السجن طول مما لبث»، ثم بكى الحسن وقال: نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس.

١٢ - ١٠ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وقال الملك الأعظم: ﴿إِنِّي أَرَى﴾ يريد: في منامه، وقد جاء ذلك مبيّناً في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي

أَذْهَبُكَ﴾، وحكي حال ماضية بـ ﴿أَرَى﴾ وهو مستقبل من حيث يستقبل النظر في الرؤيا.

و ﴿سَبَّحَ بِقُرْبَتِ سَيِّدَانِ﴾، يروي أنه قال: رأيتهما خارجة من نهر، وخرجت وراءها سبع عجاف، فرأيتهما أكلت تلك السماء حتى حصلت في بطونها، ورأى السنابل أيضاً كما ذكر، والعجاف: التي بلغت غاية الهزال، ومنه قول الشاعر:

ورجالٌ مَكَّةَ مُسْنِنُونَ عَجَافٌ
ثم قال لجماعته وحاضريه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَتَوْنِي﴾. قرأت فرقة بتحقيق الهمزتين، وقرأت فرقة بأن لفظت بالالف ﴿أَتَوْنِي﴾ وواو. وقوله: ﴿لِلرَّيَّا﴾ دخلت اللام لمعنى التأكيد والربط، وذلك أن المفعول إذا تقدم

قَالُوا أَصْنَعْتَ أَغْلَرٌ وَمَا عَنَّا بِأَوَّلِ الْأَحْلَامِ بَعَيْنِ ﴿١٢﴾
وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِمَّا وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمْرِ أَنَا أَبْنُوكُمْ بِمَا رَزَقْتُمُوهُ
فَأَرْسَلُونَا ﴿١٣﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
يَسْمَانُ بِأَكْلِهِنَّ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرَ
وَأُخْرَاهَا يَسْتَلْعَى لَعَلَّيْ أَتَمْنَى إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ
تَرْزَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سَبِيلِهِ فَلَا
قِيلَآ مَتَىٰ نَأْكُلُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ بَاقَىٰ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ كَانُوا
مَأْفَقَةً لِّهِنَّ لَا يَأْكُلْنَ صَوْتًا فَتَشْوُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ بَاقَىٰ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
عَامٌ فِيهِ يَأْتُنَّ النَّاسُ فِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿١٧﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَوْنِي
بِهِ فَمَا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ زِلْكَ قَسَمْتُ لَكَ مَا بَاقِيَ
الْيَسْرِ الَّذِي قَطَعْتَ يَدَيَّ إِنِّي رَبِّي كَذَّابٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالَ
مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَوْنِي بِسَبْعٍ عَنْ نَفْسِي مَقْلَرٍ حَشَىٰ لِلَّهِ
مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِنَّ مِنْ شَيْءٍ قَالَتْ أُمُّ الرِّبَازِ أَتَنْتَ حَصَصَ
الْحَقُّ أَتَارَوْدُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّمَا لِي مِنَ الصِّدْقِ قَلِيلٌ ﴿١٩﴾ ذَلِكَ
لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْغَالِغِينَ ﴿٢٠﴾

حسُن في بعض الأفعال أن تدخل عليه لام الجر، وإذا تأخر لم يحتج الفعل إلى ذلك، و «عبارة الرؤيا»: مأخوذة من: عبر النهر، وهو تجاوز من شط إلى شط، فكان عابر الرؤيا يتهي إلى آخر تأويلها.

وقوله: ﴿قَالُوا أَصْنَعْتَ أَغْلَرٌ﴾ الآية. الضَّعْتُ - في كلام العرب - أقل من الحزمة وأكثر من القبضة من النبات والعشب ونحوه، وربما كان من جنس واحد، وربما كان من أخلط النبات، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَحَدَّ يَدَاكَ يَمْنًا﴾، وروي أنه أخذ «عكلاً» من النخل، وروي أن النبي ﷺ فعل نحو هذا في حد أقامه على رجلٍ زمنٍ، ومن ذلك قول ابن مَثْبُل:

خَوَذَ كَأَن فَرَّاشَهَا وَضَعَتْ بِهِ
أَضْعَافُ رِيحَانٍ عُدَّةَ شَمَالِ

ومن الأخلاط قول العرب في أمثالها: «ضُغْتُ عَلَى إِثَالَةٍ»، فيشبه اختلاط الأحلام باختلاط الجملة من النبات، والمعنى أن هذا الذي رأيت أيها الملك اختلاط من الأحلام بسبب النوم، ولسنا من أهل العلم بذلك، أي: بما هو مختلط ورديء، فإنما نفوا عن أنفسهم عبر الأحلام لا عبر الرؤيا على الإطلاق، وقد قال النبي ﷺ: «الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان»، وقال للذي كان يرى رأسه يُقَطَّع ثم يردّه فيرجع: «إذا لعب الشيطان بأحدكم في النوم فلا يحدث بذلك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالأحلام وحدثان النفس مُلغاة، والرؤيا هي التي تعبّر ويلتمس علمها. والباء في قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ للتأكيد، وفي قوله: ﴿يَتَأْوِيلُ﴾ للتعدي، وهي متعلقة بقوله: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾.

و «الأحلام»: جمع حلم، يقال: حلم الرجل - بفتح اللام - يحلم إذا خيل إليه في منامه، والأحلام مما أثبتته الشريعة، وقال رسول الله ﷺ: «الرؤيا من الله، وهي المبشرة، والحلم المحزن من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليستقل عن يساره ثلاث مرات، وليقل: أعوذ بالله من شرِّ ما رأيت، فإنها لا تضره»، وما كان عن حديث النفس في اليقظة فإنه لا يلتفت إليه.

ولما سمع الساقى الذي نجا هذه المقالة من الملك ومراجعة أصحابه تذكّر يوسف وعلمه بتأويل الأحلام والرؤى، فقال مقالته في هذه الآية.

و «وَأَذْكُرُ» أصله: اذتكر، افتعل من الذكر، قلبت التاء دالاً وأدغم الأول في الثاني، ثم بدلت دالاً غير منقوطة لقوة الدال وجلدها، وبعض العرب يقول: «أذكر»، وقرأ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ بالنقط، و«مِنْ مُدْكِرٍ» على اللغتين، وقرأ جمهور الناس: ﴿بَعْدَ أَفْعَى﴾ وهي المدة من الدهر، وقرأ ابن عباس وجماعة: ﴿بَعْدَ أَمِهِ﴾ وهو النسيان، وقرأ مجاهد، وشبيل بن غزوة: ﴿بَعْدَ أَمِهِ﴾ بسكون الميم، وهو مصدر من «أيمه» إذا نسي، وقرأ الأشهب العقيلي: ﴿بَعْدَ إِمَةٍ﴾ بكسر الهمزة، والإمّة: النعمة، والمعنى: بعد نعمة أنعمها الله على يوسف في تقريب إطلاقه وعزّته. ويقول: ﴿وَأَذْكُرُ﴾ يقوي قول من يقول: إن الضمير في ﴿فَأَسْأَلُهُ﴾ عائد على الساقى، والأمر محتمل.

وقرأ الجمهور: ﴿أَنَا أَنُتَكَّمُ﴾، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿أَنَا آتِيكُمْ﴾، وكذلك في مصحف أبي بن كعب، وقوله: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ استئذان في الماضي، فقيل: كان السجن في غير مدينة الملك، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: كان فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويرسم الناس اليوم سجن يوسف في موضع على النيل بينه وبين الفسطاط ثمانية أميال.

٤٦ - ٤٩ تفسير قوله عز وجل: المعنى: فجاء الرسول - وهو الساقى - إلى يوسف فقال له: يا يوسف، ﴿إِنَّا أَلْهَيْنَاكَ﴾، وسماه

صديقاً من حيث كان جرب صدقه في غير شيء، وهو بناء مبالغة من (صدق)، وسَمِيَّ أبُو بكر رضي الله عنه صديقاً من «صدق» غيره، إذ مع كل تصديق صدق، فالمصدق بالحقائق صادق أيضاً، وعلى هذا الأساس سَمِيَّ المؤمنون صديقين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾. ثم قال: ﴿أَفَتَدِينُ سَبْعَ بَقَرَاتٍ﴾ أي: فيمن رأى في المنام سبع بقرات، وحكى النقاش حديثاً روى فيه أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن وبشّره بعطف الله تعالى عليه، وأخرجه من السجن، وأنه قد أحدث للملك منامة جعلها سبباً لفرج يوسف، ويروى أن الملك كان يرى سبع بقرات سمان يخرجن من النهر، وتخرج وراءها سبع عجاف، فتأكل العجاف السمان، فكان يعجب كيف غلبتها؟ وكيف وسعت السمان بطون العجاف؟ وكان يرى سبع سنبلات خضر وقد التفت بها سبع يابسات حتى كانت تغطي خضرتها فعجب أيضاً لذلك.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي تأويل هذه الرؤيا فيزول همُّ الملك لذلك وهمُّ الناس، وقيل: لعلهم يعلمون مكانتك من العلم وكُنه فضلك فيكون ذلك سبباً لتخلصك.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ الآية. تضمن هذا الكلام من يوسف عليه السلام ثلاثة أنواع من القول: أحدها: تعبير بالمعنى وباللفظ. والثاني: عرض رأي وأمر به وهو

قوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سَبِيلِهِ﴾،
والثالث: الإعلام بالغيب في أمر
العام الثامن، قاله قتادة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويحتمل هذا ألا يكون غيباً، بل علم
العبارة أعطى انقطاع الجذب بعد
سبع، ومعلوم أنه لا يقطعه إلا
خشب شاف، كما أعطى أن النهر
مثال للزمان إذ هو أشبه شيء به
فجاءت البقرات مثلاً للسنين.

و ﴿دَابَّ﴾ معناه: ملازمة لعادتكم
في الزراعة، ومنه قول امرئ
القيس:

كَذَابِكَ مِنْ أُمِّ الْخَوَزِيرِثَ قَبْلَهَا
..... السبب

وقرأ جمهور السبعة: ﴿دَابَّ﴾
بإسكان الهمزة، وقرأ عاصم وحده:
﴿دَابَّ﴾ بفتح الهمزة، وأبو عمرو
يسهل الهمزة عند درج القراءة، وهما
مثل: نَهْرٌ وَنَهْرٌ، والناصب لقوله:
﴿دَابَّ﴾ ﴿تَزْعُونَ﴾ عند أبي العباس
المبرد، إذ في قوله: ﴿تَزْعُونَ﴾
﴿تَذَابُونَ﴾، وهي عنده مثل: ﴿قَعْدُ
القرفصاء﴾، و «اشتمل الصماء»،
وسيبويه يرى نصب هذا كله بفعل
مضمَر من لفظ المصدر يدل عليه
هذا الظاهر، كأنه قال: «تزرعون
تذابون داباً».

وقوله: ﴿فَإِذَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ﴾ هي
إشارة برأي نبيل نافع بحسب طعام
مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين
بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبُل،
فإن الحبة إذا بقيت في خبائها
انحفظت، والمعنى: اتركوا الزرع
في السنبُل إلا ما لا غنى عنه للأكل،
فيجتمع الطعام هكذا ويتركب،

ويؤكل الأقدم فالأقدم، فإذا جاءت
السنون الجذبة تقوّت الناس الأقدم
فالأقدم من ذلك المدخر، وأدخروا
أيضاً الشيء الذي يصاب في أعوام
الجذب على قلته، وحملت الأعوام
بعضها بعضاً حتى يتخلص الناس،
وإلى هذه السنين أشار النبي عليه
الصلاة والسلام في دعائه على
قريش: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ
كَسْبِ يَوْسُفَ»، فابتدأ ذلك بهم،
ونزلت سنة حَصَّتْ كُلُّ شَيْءٍ، حتى
دعا لهم النبي عليه الصلاة والسلام
فارتفع ذلك عنهم ولم يتعمد سبع
سنين، وروي أن يوسف عليه السلام
لما خرج ووصف هذا الترتيب
للملك وأعجبه أثره، قال له الملك:
قد أسندت إليك تولّي هذا الأمر في
الأطعمة هذه السنين المقبلة، فكان
هذا أول ما ولي يوسف.

وأسند الأكل إلى السنين في قوله:
﴿يَاكُنْ﴾ اتساعاً من حيث يؤكل
فيها، كما قال تعالى: ﴿وَالْتِهَارَ
مُبْسِرًا﴾، وكما يقال: «نهارك بطال»
وليلك قائم»، وهذا كثير في كلام
العرب، ويحتمل أن يُسمّى فعل
الجذب وإيباس البالات أكلاً، وفي
الحديث: «فأصابته سنة حَصَّتْ كُلُّ
شَيْءٍ»، وقال الأعرابي في السنة:
«جَمَشَتِ النَّجْمُ، وَالْحَبِيتُ اللَّحْمُ،
وَأَحْجَنَتِ الْعَظْمُ».

و ﴿تُحْزِنُونَ﴾ معناه: تُحْزِرُونَ
وتُحْزِنُونَ، قاله ابن عباس، وهو
مأخوذ من الحصن، وهو الحَرْزُ
والمُلْجَأُ، ومنه تحصن النساء لأنه
بمعنى التحرز.

وقوله تعالى: ﴿يُنَاقِشُ﴾ جائز أن

يكون من الغيث وهو قول ابن
عباس، ومجاهد، وجمهور
المفسرين أي: يُمَطَّرُونَ، وجائز أن
يكون من: «أغاثهم الله» إذا فرج
عنهم، ومنه الغوث وهو الفرج.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو،
وعاصم: ﴿يَعَصِرُونَ﴾ بفتح الياء
وكسر الصاد، وقرأ حمزة، والكسائي
ذلك بالثاء على المخاطبة، وقال
جمهور المفسرين: هي من عَصَرَ
النباتات كالزيتون والعنب والقصب
والسمسم والفجل وجميع ما يعصر،
ومصرٌ بلدٌ عَصَرَ لأشياء كثيرة،
وروي أنهم لم يعصروا شيئاً مدة
الجذب، والحلب منه لأنه عصر
للضرع، وقال أبو عبيدة وغيره:
ذلك مأخوذ من العَصْرَةِ والعَصْرُ وهو
الملجأ، ومنه قول أبي زيد في
عثمان رضي الله عنه:

صَادِبًا يَسْتَنْفِيثُ غَيْرَ مُعَاثٍ
ولقد كان عَصْرَةَ المنجود
ومنه قول عدي بن زيد:

لَوْ بَغِيَرِ الْمَاءِ خَلَقِي شَرْقٍ
كَثْتُ كَالْعَصَانِ بِالْمَاءِ اغْتِصَارِي
ومنه قول ابن مقبل:

وَصَاحِبِي وَهُوَ مُسْتَوْهَلٌ زَعِلٌ
يَحُولُ بَيْنَ جِمَارِ الْوُخْشِ وَالْعَصْرِ
ومنه قول ليبد:

فَبَاتَ وَأَسْرَى الْقَوْمُ آخِرَ لَيْلِهِمْ
وما كان وقافاً يَغْيِرُ مُعَصِّرُ
أي: بغير ملتجئ، فالآية على
معنى: ينجون بالعصرة.

وقرأ الأعرج، وعيسى، وجعفر بن
محمد: ﴿يُعَصِرُونَ﴾ بضم الياء وفتح
الصاد، وهذا مأخوذ من العصرة،

أي: يؤتون بعصرة، ويحتمل أن يكون من: عَصَرَتِ السحاب ماءها عليهم، قال ابن المستنير: معناها: يُمَطَّرُونَ، وحكى النقاش أنه قُرِئ: ﴿يُعْصِرُونَ﴾ بضم الباء وكسر الصاد وشدّها وجعلها من عصر البلبل، وردّ الطبري على من جعل اللفظة من العُصْرَة ردّاً كثيراً بغير حجة.

﴿٥١﴾ تفسير قوله عز وجل:

في تضاعيف هذه الآية محذوفات يعطيها ظاهر الكلام ويدل عليها، والمعنى هنا: فرجع الرسول إلى الملأ والملك فقص عليهم مقالة يوسف، فرأى الملك وحاضروه نبيل التعبير وحسن الرأي وتضمن الغيب في أمر العام الثامن، مع ما وصفه به الرسول من الصدق في المنامة المتقدمة، فعظم يوسف في نفس الملك، وقال: ﴿أَتُؤَيِّدُونِي﴾، فلما وصل الرسول في إخراجه إليه وقال: إن الملك قد أمر بأن تخرج فقال له: ﴿أَجِئْ لِي رَيْكَ﴾ أي الملك وقل له: ﴿مَا بَالُ الْيَسْوَ﴾ ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان: وقل له يستقصي عن ذنبي وينظر في أمري، هل سجنّ بحق أو يظلم؟ فرسم قصته بطرف منها إذا وقع النظر عليه بأن الأمر كله، ونكب عن ذكر امرأة العزيز حسن عشرة ورعاية لزمام الملك العزيز له.

وقرأ أبو بكر عن عاصم، وأبو حيرة: ﴿الْيَسْوَ﴾ بضم النون، وقرأ الباقون: ﴿الْيَسْوَ﴾ بكسر النون، وهما لغتان في تكسير «نساء» الذي هو اسم جمع لا واحد له من لفظه، وقرأت فرقة: ﴿الْيَاسِي﴾ بالياء،

وقرأت فرقة: ﴿الْيَاسِي﴾ بالياء، وكلاهما جمع «التي».

وكان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناءً وصبراً وطلباً لبراءة الساحة، وذلك أنه - فيما روي - خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحاً، فيراه الناس بتلك العين أبداً، ويقولون: هذا الذي راود امرأة مولاه، فأراد يوسف عليه السلام أن تبين براءته وتحقق منزلته من العفة والخير وحينئذ يخرج للأخطاء والمنزلة. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يرحم الله أخي يوسف، لقد كان صابراً حليماً، ولو لبثت في السجن لبثته لأجبت الداعي ولم ألتبس العذر حينئذ»، وروي نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك في كتاب التفسير من صحيح البخاري، وليس لابن القاسم في الديوان غيره.

وهنا اعتراض ينبغي أن ينفصل عنه، وذلك أن النبي ﷺ إنما ذكر هذا الكلام على جهة الممدح ليوسف، فما باله هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟ فالوجه في ذلك أن النبي ﷺ إنما أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي له جهة أيضاً من الجودة، أي: لو كنت أنا لبادرت بالخروج ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك، وذلك أن هذه القصص والنوازل إنما هي معرضة ليقنتي بها الناس إلى يوم القيامة، فأراد رسول الله ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور، وذلك أن

المتعرق في مثل هذه النازلة التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ربما ينتج له من ذلك البقاء في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام أين من ذلك بعلمه من الله فغيره من الناس لا يأمن ذلك، فالحالة التي ذهب إليها النبي ﷺ بنفسه حالة حزم ومدح، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي يَكِيدُ الْكَاذِبِينَ﴾ يحتمل أن يريد بالرب الله عز وجل، وفي الآية وعيد - على هذا - وتهديد، ويحتمل أن يريد بالرب العزيز مولاه، ففي ذلك استشهاد به وتقريع له. والضمير في ﴿كَادَهُنَّ﴾ للنسوة المذكورات لا للجنس لأنها حالة توقيف على ذنب.

﴿٥١﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن، وقال لهن: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ الآية، أي: أي شيء كانت قصتكن؟ فهو استدعاء منه أن يعلمنه القصة، فجواب النساء بجواب جيد تظهر منه براءة أنفسهن جملة، وأعطين يوسف بعض براءة، وذلك أن الملك لما قرّر لهن أنهن راودته قلن - جواباً عن ذلك -: ﴿حَسَنَ لِلَّهِ﴾، وقد يحتمل - على بعد - أن يكون قولهن: ﴿حَسَنَ لِلَّهِ﴾ في جهة يوسف عليه السلام، وقولهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْكَ مِنْ سُوءٍ﴾ ليس بإبراء تام، وإنما كان الإبراء التام وصف القصة على وجهها حتى يتقرر الخطأ في جهتهن، ولو قلن: «ما علمنا عليه إلا خيراً» لكان أدخل في التبرئة،

بها النفوس، إذ النفس تجري صفة لمن يعقل كالعين والسمع، كذا قال أبو علي، فتقدير الآية: إلا النفوس التي يرحمها الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا ﴿النَّفْسُ﴾ اسم جنس، فصح أن تقع «ما» مكان «مَنْ» إذ هي كذلك في صفات من يعقل وفي أجناسه، وهو نص في كلام المبرد، وهو عندي - معنى كلام سيبويه، وهو مذهب أبي علي، ذكره في «البتديات».

ويجوز أن تكون [ما] ظرفية، والمعنى: إن النفس لأثارة بالسوء إلا مدة رحمة الله العبد وذهابه عن اشتها المعاصي.

ثم ترجى في آخر الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٥٤ - ٥٧ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: إن الملك لما تبين له براة يوسف مما نسب إليه، وتحقق في القصة أمانته، وفهم أيضاً صبره وجلده - عظمت منزلته عنده، وتيقن حسن خلالة فقال: ﴿أَتُوْنِي بِهِ؟﴾ أَسْتَحْلِيْهُ لِنَفْسِي. وهذا السدي أم يوسف عليه السلام - بتبئيه في السجن - أن يرتقي إلى أعلى المنازل، فتأمل أن الملك قال أولاً - حين تحقق علمه -: ﴿أَتُوْنِي بِهِ؟﴾ فقط، فلما فعل يوسف ما فعل، فظهرت أمانته وصبره وعلو همته وجودة نظره قال: ﴿أَتُوْنِي بِهِ؟﴾ أَسْتَحْلِيْهُ لِنَفْسِي، فلما جاءه وكلمه قال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، فدل ذلك على أنه رأى من كلامه وحسن منطق ما صدق به الخبر أو

أزى عليه، إذ المرء مخبوء تحت لسانه، ثم لما زاول الأعمال مشى القدمية حتى ولي خطة العزيز.

و ﴿أَمِينٌ﴾ من الأمانة، وقالت فرقة: هو بمعنى أمين. وهذا ضعيف، لأنه يخرج من نمط الكلام، وينحط إكرام يوسف كثيراً.

ويروى أن الملك لما أدنى يوسف قال له: إني أشارك في كل شيء إلا أنني أحب ألا تشاركني في أهلي، وألا تأكل عندي، فقال له يوسف: أأأف أن أكل معك؟ أنا أحق أن آف، أنا ابن إبراهيم الخليل، وابن إسحق الذبيح، وابن يعقوب الصديق، وفي هذا الحديث بُغْذُ وضعف. وقد قال ابن ميسرة: إنما جرى هذا في أول أمره، كان يأكل مع العزيز، فلما جرت قصة المرأة قالت للعزيز: أأأف هذا يؤأكلك؟ فقال له: أذهب فكل مع العبيد، فأف وقال ما تقدم. أما إن الظاهر من قصته وقت محاورة الملك أنه كان على عبودية، وإلا كان اللائق به أن يَتَنَحَّى بنفسه عن عمل الكافر، لأن القوم كانوا أهل أوثان، ومحاورة يوسف لصاحبي السجن تقضي بذلك.

وسمى الله تعالى فرعون مصر ملكاً إذ هي حكاية اسم مضي حكمه وتصرم زمنه، ولو كان حياً لكان حكماً له إذا قيل لكافر: «ملك أو أمير»، ولهذا كتب النبي ﷺ إلى هرقل فقال: «عظيم الروم»، ولم يقل: ملكاً أو أميراً، لأن ذلك حكم، والحق أن يسلم ويسلموا، وأما كونه عظيمهم فتلك صفة لا

تفارقه كيفما تقلب، ولو كتب له النبي ﷺ: «أمير الروم» لتمسك بتلك الحجة على نحو تمسك زياد في قوله: «شهد - والله - لي أبو الحسن».

وقوله تعالى: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ الآية. فهم يوسف عليه السلام من الملك أنه على تصريفه والاستعانة بنظره في الملك، فألقى يده في الفعل الذي يمكنه فيه المغدلة، ويرتب له الإحسان إلى من يجب، ووضع الحق على أهله وعند أهله.

قال بعض أهل التأويل: في هذه الآية ما يُبَيِّن للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل ما لا يعارض فيه، فيصلح منه ما يشاء، وأما إن كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهوته وفجوره فلا يجوز له ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وطلب يوسف للعمل إنما هي حصة منه عليه السلام لرغبته في أن يقع العدل، ونحو هذا هو دخول أبي بكر الصديق في الخلافة مع نهيه المستشار له من الأنصار أن يتأمر على اثنين، الحديث بكماله، فجائز للفاضل أن يعمل وأن يطلب العمل إذا رأى ألا عَوْض منه، وجائز أيضاً للمرء أن يشي على نفسه بالحق إذا جهل أمره.

والخزائن لفظ عام لجميع ما تختزنه المملكة من طعام ومال وغيره، و ﴿حَاطِطٌ عَلَيْهِ﴾ صفتان تعم وجوه التشقيف والحيطة لا خلل معهما لعامل، وقد خصص الناس بهاتين

الصفتين أشياء مثل قولهم: حفيظ بالحساب عليم بالأسن، وقول بعضهم: حفيظ لما استودعني عليم بسني الجوع، وهذا كله تخصيص لا وجه له، وإنما أراد باتصافه أن يعرف الملك بالوجه الذي به يستحق الكون على خزائن الأرض، فاتصف بأنه يحفظ المَجْبِي من كل جهة تحتاج إلى الحفظ، ويعلم التناول أجمع، ورؤي عن مالك بن أنس أنه قال: «مصر خزانة الأرض»، واحتج بهذه الآية. وقوله: ﴿خَزَائِنَ الْأَرْضِينَ﴾ يريد أرض مصر إذ لم تكن مملكة فرعون إلا بها فقط، ويؤكد أن تسمى خزانة الأرض بصيتها في بلاد الأرض وتوسطها، فمنها ينتقل الناس إلى أقطار الأرض، وهي محل كل جالب.

وقوله تعالى: ﴿رَكَدَكَ مَكَّنًا يُّوسُفُ﴾ الآية. الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم من جميل صنع الله به، ولهذه الأفعال المنصوصة درجناه في الرتب ونقلناه فمكنا له في الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فروي أن العزيز مات في تلك الليالي، وقال ابن إسحق: بل عزله الملك، ثم مات قطفير فولاه الملك مكانه وزوجه زوجته، فلما دخلت عليه عروساً قال لها: أليس هذا خيراً مما كنت أردت؟ فقالت له: أيها الصديق، كنت في غاية الجمال وكنت شابة عذراء، وكان زوجي لا يطأ، فغلبتني نفسي في حبك، فدخل يوسف بها فوجدها بكرأ، وولدت له ولدين، ورؤي أن الملك

عزل العزيز ولأه موضعه، ثم عظم مُلك يوسف وتغلب على حال الملك أجمع، قال مجاهد: وأسلم الملك آخر أمره، ودرّس أمر العزيز وذهبت دنياه ومات وافتقرت زوجته وزمنت وشاخت، فلما كان في بعض الأيام لقيت يوسف في طريق والجنود حوله ووراءه، وعلى رأسه بنود مكتوب عليها ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسُخَّرَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فصاحت به وقالت: سبحان من أعز العبيد بالطاعة، وأذل الأرباب بالمعصية، ففرعها، وقالت له: تعطف علي وارزقني شيئاً فدعاها وكلمها، وأشفق لحالها، ودعا الله تعالى فرزّ عليها جمالها وتزوجها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورؤي في نحو هذا من القصص ما لا يوقف على صحته، ويطول الكلام بسوقه.

وقرأ الجمهور: ﴿حَيْثُ بَشَاءَ﴾ على الإخبار عن يوسف، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿حَيْثُ نَشَاءَ﴾ بالنون على ضمير المتكلم، أي حيث يشاء الله من تصرف يوسف على اختلاف تصرفه، وحكى أبو حاتم هذه القراءة عن الحسن، وشيبة، ونافع، وأبي جعفر - بخلاف عن الثلاثة المدنيين - قال أبو علي: إمّا أن يكون تقدير هذه القراءة: «حيث يشاء من المحارب والمتعبدات»، وأحوال الطاعات قُرْبَ يريد الله تبارك وتعالى ويشاؤها، وإمّا أن يكون معناها: «حيث يشاء يوسف»،

لكن أضاف الله عز وجل المشيئة التي ليوسف إليه من حيث هو عبد من عبيده، وكانت مشيئته بقوة الله تعالى وقدرته، كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله من أبي علي نزعة اعتزالية وتحفظ من أن أفعال العباد من فاعلين، فتأمله.

واللام في قوله: ﴿مَكَّنًا يُّوسُفُ﴾ يجوز أن تكون على حد التي في قوله تعالى: ﴿رَدِّفْ لَكُمْ﴾، و﴿لِلرَّيْبَا تَمَبُّوْنَ﴾ وقوله: ﴿يَبْتَوُاْ﴾ في موضع نصب على الحال، و﴿حَيْثُ بَشَاءَ﴾ نصب على الظرف، أو على المفعول به، كما قال الشماخ:

.....
.... حَيْثُ تُكْوَى السَّوَاجِرُ
وباقى الآية بين.

ولما تقدم في هذه الآية أن الإحسان من العبد والجري على طريق الحق لا يضيع عند الله، ولا بُد من حُسن عاقبته في الدنيا - أعقب ذلك بأن حال الآخرة أحمد، وأخرى أن يُجعل غرضاً ومقصداً، وهذا هو الذي ينتزع من الآية بحسب التقيد بين الإيمان والتقوى من الناس، وفيها - مع ذلك - إشارة إلى أن حاله من الآخرة خير من حاله العظيمة في الدنيا.

٥٨ - ٥٩ تفسير قوله عز وجل: قال السدي وغيره: سبب مجيئهم أن المجاعة التي أنذر بها يوسف أصابت البلاد التي كان بها يعقوب، ورؤي أنه كان في العربات من أرض فلسطين بغور الشام، وقبل: كان

بالأدلاج من ناحية الشعب، وكان صاحب بادية، له إبل وشاة، فأصابهم الجوع، وكان أهل مصر قد استعدوا وادخروا من السنين الخصيبة، فكان الناس يمتارون من عند يوسف وهو في رتبة العزيز المتقدم، وكان لا يعطي الوارد أكثر من حمل بعير، يُسَوِّي بين الناس، فلما ورد إخوته عرفهم يوسف عليه السلام ولم يعرفوه هم لبعد العهد وتغير سنه، ولم يقع لهم - بسبب مُلكه ولسانه القبطي - ظن عليه، ورُوي في بعض القصص أنه لما عرفهم أراد أن يُخبروه بجميع أمرهم، فباحثهم بأن قال لهم (بترجمان): أظنكم جواسيس، فاحتاجوا حينئذ إلى التعريف بأنفسهم فقالوا: نحن أبناء رجل صديق، وكنا اثني عشر، ذهب واحد منا في البرية، وبقي أصغرنا عند آبينا، وجئنا نحن للميرة، وسقنا بعير الباقي منا، وكانوا عشرة ولهم أحد عشر بعيراً، فقال لهم يوسف: ولم تخلف أخوكم؟ قالوا: لمحبة أبينا فيه، قال: فأتوني بهذا الأخ حتى أعلم حقيقة قولكم، وأرى: لم أحبه أبوكم أكثر منكم إن كنتم صادقين. ورُوي في القصص أنهم وردوا مصر، واستأذنوا على العزيز وانتسبوا في الاستئذان، فعرفهم وأمر بإنزالهم، وأدخلهم في ثاني يوم على هيئة عظيمة لمُلكه وأُبْهة شيقه، ورُوي أنه كان متلشماً أبداً سترأ لجماله، وأنه كان يأخذ الصُواع فينقره، ويفهم من طنينه صدق ما يُحدِّث به أو كذبه، فسُئِلوا عن

أخبارهم، فكلما صدقوا قال لهم يوسف: صدقتم، فلما قالوا: وكان لنا أخ أكله الذئب طناً يوسف الصواع وقال: كذبتُم، ثم تغير لهم وقال: أراكم جواسيس، وكلفهم سوق الأخ الباقي ليظهر صدقهم. وفي ذلك قصص طويل جاءت الإشارة إليه في القرآن وجيزة.

والجهاز: ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع وكل ما يحمل، وكذلك جهاز العروس وجهاز الميت.

وقول يوسف عليه السلام: ﴿آلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ الآية. يرغبهم في نفسه آخرأ ويؤنسهم ويستميلهم، ﴿وَالْمُزِيلِينَ﴾: يعني المُضْيفِينَ في قُطره ووقته. والجهاز المشار إليه: الطعام الذي كان حمله لهم، ثم توعدهم إن لم يجيئوا بالأخ بأنه لا يكيل لهم عنده في المستأنف، وأمرهم ألا يقربوا له بلداً ولا طاعة، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ نهى لفظاً ومعنى، ويجوز أن يكون لفظه الخبر ومعناه النهي، وتحذف إحدى النونين، كما قرئ: ﴿فِيمَ تُبْشَرُونَ﴾ بكسر النون، وهذا خبر لا غير، وخلط النحاس في هذا الموضع، وقال مالك رحمه الله: هذه الآية - وما يليها - تقتضي أن كيل الطعام على البائع، وكذلك هي الرواية في الشركة والتولية أنها بمنزلة البيع، والرواية في القرض أن الكيل على المستقرض، ورُوي أنه حبس منهم شمعون رهينة حتى يجيئوه ببنيامين، قاله السدي، ورُوي أنه لم يحبس منهم أحداً، ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «كان يوسف يلقي حصاة في

إناء فضة مخوص بالذهب فيطن، فيقول لهم: إن هذا الإناء يخبرني أن لكم أبا شيخاً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنها حيلة وإيهام لهم، ورُوي أن ذلك الإناء به كان يكيل الطعام إظهاراً لعزته بحسب غلاته في تلك المدة، ورُوي أن يوسف عليه السلام استوفى في تلك السنين أموال الناس ثم أملاكهم، فمن هناك ليس لأحد في أرض مصر ومزارعها ملك، وظاهر كل ما فعله يوسف معهم أنه بوحى وأمر، وإلا فكان برُّ يعقوب يقتضي أن يبادر إليه ويستدعيه، لكن الله تبارك وتعالى أعلمه بما يصنع ليكمل أجر يعقوب ومحنته وتفسر الرؤيا الأولى.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

تقدم معنى «المراودة»، أي: سنفائل أباه في أن يتركه يأتي معنى إليك، ثم شدّدوا هذه المقالة بأن التزموها لهم في قولهم: ﴿وَرَأَيْنَا كَتَمُونَ﴾، وأراد يوسف عليه السلام المبالغة في استمالتهم بأن ردّ مال كل واحد منهم في رحله بين طعامه، وأمر بذلك فتياه.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿لِفَتْنَيْهِ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿لِفَتْنَائِهِ﴾، واختلف عن عاصم، ففَتْنَان للكثر - على مراعاة المأمورين، وفَتْنَةٌ للقلّة - على مراعاة المتناولين وهم الخدمة - ويكون هذا الوصف للحر والعبد، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَقَالَ لِفَتْنَانِهِ وَهُوَ يَكْلَاهُمْ﴾.

وقوله: ﴿لَمَّا هَرَّ يَرْوُفُهُ﴾ يريد:

وقولهم: ﴿مُنْجِ يَنَا﴾ ظاهره أنهم أشاروا إلى قوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ فهو منج في المستأنف، وقيل: أشاروا إلى بعير يامين الذي لم يمت، والأول أرجح، ثم تضمنوا له حفظه وحيطته. عز وجل:

قوله: ﴿مَلَّ﴾ توقيف وتقرير، وتالم يعقوب عليه السلام من فرقة يامين، ولم يصرح بمنعهم من خمله لما رأى في ذلك من المصلحة، لكنه أعلمهم بقلة طمانينته

إليهم، وأنه يخاف عليه من كيدهم، ولكن ظاهر أمرهم أنهم كانوا ثبوا وانتقلت حالهم فلم يخف مثل ما خاف على يوسف من قبل، لكن أعلم بأن في نفسه شيئاً ثم استسلم لله تعالى، بخلاف عبارته في قصة يوسف.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿خَيْرٌ حَفِظًا﴾، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص - عن عاصم -: ﴿خَيْرٌ حَفِظًا﴾ ونصب ذلك - في القراءةتين - على التمييز، وقال الزجاج: يجوز أن ينصب ﴿حَفِظًا﴾ على الحال، وضعف ذلك أبو علي الفارسي، لأنها حال لا بُدَّ للكلام والمعنى منها، وذلك بخلاف شرط الحال، وإنما المعنى أن حافظ الله خير من حافظكم، ومن قرأ:

لعلهم يعرفون لها بدأ أو تكرمه يرون حقها فيرجعون فينا فلعلهم يرجعون حينئذ، وأما مِيز البضاعة فلا يقال فيه: ﴿لَعَلَّ﴾، وقيل: قصد يوسف بَرْد البضاعة أن يخرجوا من أخذ الطعام بلا ثمن فيرجعوا لدفع الثمن، وهذا ضعيف من وجوه، وسرورهم بالبضاعة وقولهم: ﴿هَذِهِ بِضَاعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ يكشف أن يوسف عليه السلام لم يقصد هذا، وإنما قصد أن يستميلهم ويصلحهم فيرجعهم في نفسه كالذي كان. وخص البضاعة دون أن يعطيهم غيرها من الأموال لأنها أوقع في نفوسهم، إذ يعرفون حلها، وماله هو إنما كان عندهم ما لا مجهول الحال، غايته أن يُسْتَجَازَ على نحو استجازتهم قبول الميرة، ويظهر أن ما فعل يوسف من صلحتهم وجبرهم في تلك الشدة كان واجباً عليه، إذ هو ملك عدل، وهم أهل إيمان ونبوة. وقيل: علم عدم البضاعة والدرهم عند أبيه فرد البضاعة إليهم لئلا يمنعهم العدم من الانصراف إليه، وقيل: جعلها توطئة لجعل السقاية في رحل أخيه بعد ذلك لِيَبَيِّنَ أنه لم يسرق لمن يتأمل القصة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر من القصة أنه أراد الاستلاف وصلة الرحم.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿نَكْتَلُ﴾ بالنون على مراعاة: ﴿مُنْجِ يَنَا﴾، ويقويه: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ و﴿وَنَزْدَادُ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿يَكْتَلُ﴾ بالياء، أي: يكتل يامين كما اكتلنا، وأصل ﴿نَكْتَلُ﴾: نَكْتَلُ، وزنه نَفْتَعِل.

قَالَ هَلْ أَمْنَكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنَكُمْ عَلَى أَخِيهِمْ
قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَفِظًا وَهُوَ أَحْمَرُ الرَّجُلِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا
مَتَعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا بَلَا بَلَا
مَا بَعِيَ هَذِهِ بِضَاعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَحَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْفِقًا يَرَى اللَّهُ لَنَا نَبِيًّا يَهْدِي
أَنْ يَحِاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْفِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ يَسِيرُ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابِ رَجِيمٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ بَابِ
مُتَّقِينَ وَمَا غَنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وَإِنْ لَأُنْذِرَكُمْ
لَهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا
دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ
مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ
لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْنَاهُ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾
وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَى أَخِيهِ أَخَاهُ قَالَ
إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

﴿حَفِظًا﴾ فهو مع قولهم: ﴿وَنَحْفَظُ أَحَانَا﴾، ومن قرأ: ﴿حَافِظًا﴾ فهو مع قولهم: ﴿وَرَأَى لَهُ لَحَظُونَ﴾، فاستسلم يعقوب عليه السلام الله وتوكل عليه، قال أبو عمرو الداني: قرأ ابن مسعود: ﴿فَالله خَيْرُ حَافِظٍ وَهُوَ خَيْرُ الْحَافِظِينَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا بُعد.

وقوله: ﴿فَتَحُوا مَتَعَهُمْ﴾ سُمِّيَ المشدود المربوط بجملة متاعاً فلذلك حَسَنَ الفتح فيه، وقرأ جمهور الناس: ﴿رُدَّتْ﴾ بضم الراء على اللغة الفاشية عند العرب، وتليها لغة من يُبْسَمُ، وتليها لغة من يكسر، وقرأ علقمة، ويحيى بن وثاب: ﴿رُدَّتْ﴾ بكسر الراء على لغة من يكسر، وهي في بني ضبَّة، قال أبو الفتح: وأما المغتَلُّ نحو قِيلَ وَبِيعَ فالفاشي فيه

الكسر، ثم الإشمام، ثم الضم، فيقولون: قَوْلٌ وَيُوعَ، وأشدُّ ثعلب:

وَقَوْلٌ لَا أَفْلَلُ لَهُ وَلَا مَانٌ
قال الزجاج: من قرأ: ﴿رِدَّتْ﴾ بكسر الراء جعلها منقولة من الدال، كما فعل في قيل وبيع لِتَذُلَّ على أن أصل الدال الكسرة.

وقوله: ﴿مَا تَبَيَّنَ﴾ يحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ استفهاماً، قاله قتادة، و﴿تَبَيَّنَ﴾ من التَّبَيُّنِ، أي: ما نطلب بعد هذه التكرمة؟ هذا ما لُتْنَا زِدْ إلينا مع ميرتنا. قال الزجاج: ويحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، أي: ما بقي لنا ما نطلب، ويحتمل أيضاً أن تكون نافية و﴿تَبَيَّنَ﴾ من التَّبَيُّنِ، أي: ما تَعَدُّينَا فَكَذَّبْنَا على هذا الملك ولا في وصف إجماله وإكرامه، هذه البضاعة مردودة. وقرأ أبو حيو: ﴿مَا تَبَيَّنَ﴾ بـالتاء على مخاطبة يعقوب، وهي بمعنى: ما تريد؟ وما تطلب؟ قال المهدي: وروتها عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ.

وقرأت فرقة: ﴿وَنَبِيٍّ﴾ بفتح النون، من: مار يميز إذا جلب الخير، ومن ذلك قول الشاعر:
بَعَثْتُكَ مَا نَبْرَأَ قَمَكَّكَتْ حَوْلًا
مَتَى يَأْتِي غِيَابُكَ مَنْ تُغِيثُ؟
وقرأت عائشة رضي الله عنها: ﴿وَنُمَيْرٍ﴾ بضم النون، وهي من قراءة أبي عبد الرحمن السلمي، وعلى هذا يقال: مار وأَمَارٌ بمعنى.

وقولهم: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ يريدون بعير أخيه، إذ كان يوسف إنما حمّل لهم عشرة أبعرة ولم يحمل الحادي عشر لغيبه صاحبه،

وقال مجاهد: ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أَرَادَ: كيل حمار، قال: وبعض العرب، يقول للحمار: بعير. وهذا شاذ.

وقولهم: ﴿ذَلِكَ كَيْلُ بَعِيرٍ﴾ تقرير بغير ألف، أي: أذلك كيلٌ يسيرٌ في مثل هذا العام فيهمل أمره؟ وقيل: معناه: يسير على يوسف أن يعطيه، وقال الحسن البصري: وقد كان يوسف وعدهم أن يزيدهم حمل بعير بغير ثمن، وقال السدي: معنى ذلك: كيل يسير أي سريع لا نجس فيه ولا نمطل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأنهم - على هذا - أنسوه بقرب العودة.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ: أَرَادَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَتَوَقَّعَ مِنْهُمْ، وَالْمَوْتُقُ «مَفْعَلٌ» مِنَ الْوَتَاقَةِ، فَلَمَّا عَاهَدُوهُ أَشْهَدَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ وَالْوَكِيلُ: الْقَيِّمُ الْحَافِظُ.

وقرأ ابن كثير: ﴿تَوَتَّقُونِي﴾ بياء في الوصل والوقف، ورُوي عن نافع أنه وصل بياء ووقف دونها، والباقون تركوا الباء في الوجهين.

وقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابِ وَطَنِي﴾ قيل: خشي عليهم العين لكونهم أحد عشر لرجل واحد، وكانوا أهل جَمال وبسطة، قاله ابن عباس، والضحاك، وقاتدة وغيرهم، والعين حق، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَيْنَ لَتَدْخُلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالْجَمَلُ الْقِدْرُ»، وفي تعوذه عليه الصلاة والسلام: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَةٍ وَكُلِّ عَيْنٍ لَامَةٍ»، وقيل: خشي أن يُسْتَرَابَ بهم

لقول يوسف قَبْلُ: «أَنْتُمْ جَوَاسِيسُ»، ويضعف هذا ظهورهم قَبْلُ بمصر، وقيل: طمع بافتراقهم أن يتسَمَّعُوا ويتطلعوا خبر يوسف، وهذا ضعيف يَسْرُهُ ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فَإِنْ ذَلِكَ لَا يَتَرَكَّبُ عَلَى هَذَا الْمَقْصِدِ.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَاطَبَ بِكُمْ﴾ لفظ عام لجميع وجوه الغلبة والفسر، والمعنى: تعمكم الغلبة من جميع الجهات حتى لا تكون لكم حيلة ولا وجه تَخْلُصُ، وقال مجاهد: المعنى: إِلَّا أَنْ تَهْلِكُوا جَمِيعاً، وقال قتادة: إِلَّا أَلَّا تَطِيقُوا ذَلِكَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يرجحه لفظ الآية.

وانظر أن يعقوب عليه السلام قد تَوَقَّعَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَأَشْهَدَ اللَّهُ تَعَالَى، وَوَصَّى بِنِهِ، وَأَخْبَرَ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَوَكُّلِهِ، فَهَذَا تَوَكَّلَ مَعَ تَسْبَبٍ، وَهُوَ تَوَكَّلَ جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَنْ شُدَّ فِي رَفْضِ السَّعْيِ، وَقَنَّعَ بِالْمَاءِ وَبَقِلَ الْبَرِيَّةُ وَنَحْوَهُ، فَتِلْكَ غَايَةُ التَّوَكُّلِ، وَعَلَيْهَا بَعْضُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَالشَّارِعُونَ مِنْهُمْ مُثْبِتُونَ سُنَنِ التَّسْبَبِ الْجَائِزِ، وَمَا تَجَاوَزَ ذَلِكَ مِنَ الْإِلْقَاءِ بِالْيَدِ مُخْتَلَفٌ فِي جَوَازِهِ، وَقَدْ فَضَّلَهُ بَعْضُ الْمُجَازِيزِينَ لَهُ، وَلَا أَقُولُ بِذَلِكَ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ:

رُوي أَنَّهُمْ لَمَّا دَعَوْا أَبَاهُمْ قَالَ لَهُمْ: «بَلِّغُوا مَلِكَ مِصْرَ سَلَامِي، وَقُولُوا لَهُ: إِنَّا أَبْنَا يَصْلِي عَلَيْكَ، وَيَدْعُو لَكَ، وَيَشْكُرُ صَنِيعَكَ مَعَنَا». وَفِي كِتَابِ أَبِي مَنْصُورٍ الْمَهْرَانِيِّ أَنَّهُ

خاطبه بكتاب قرئ على يوسف فبكى.

وقوله: ﴿مَا كَانَتْ تُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ بمثابة قوله: لم يكن في ذلك دفع قَدر الله، بل كان أَرَبَاً ليعقوب قضاءه، وطيباً لنفسه تمسك به وأمر بحسبه، فجواب [لَمَّا] في معنى قوله: ﴿مَا كَانَتْ تُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، و﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناء ليس من الأول، والحاجة هي أن يكون طيب النفس بدخولهم من أبواب متفرقة خوف العين، قال مجاهد: الحاجة: خيفة العين، وقاله ابن إسحق، وفي عبارتهما تجوز، وفي نظير هذا الفعل أن النبي ﷺ سَدَّ كَوَّةَ فِي قَبْرِ يَحْجَرٍ وَقَالَ: «إِنْ هَذَا لَا يَغْنِي شَيْئاً وَلَكِنَّهُ تَطْيِيبٌ لِنَفْسِ الْحَيِّ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قوله - عندي -: ﴿مَا كَانَتْ تُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ معناه: ما يَرُدُّ عنهم قدراً، لأنه لو قضى أن تصيبهم عين لأصابتهم مفترقين أو مجتمعين، وإنما طمع يعقوب أن تصادف وصيته قَدَرُ السَّلامَةِ فَوْضَى، وقضى - بذلك - حجة نفسه في أن يَتَنَمَّعَ بِرَجَائِهِ أَنْ تصادف وصيته القدر في سلامتهم.

ثم أثنى الله عز وجل على يعقوب بأنه لقن ما علمه الله من هذا المعنى، واندرج غير ذلك في العموم، وقال: إن أكثر الناس ليس كذلك، وقيل: معناه: إنه لعامل بما علمناه، قاله قتادة. وقال سفيان: من لا يعمل لا يكون عالماً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يعطيه اللفظ، أما إنه صحيح في نفسه يرجحه المعنى وما تقتضيه منزلة يعقوب عليه السلام، قال أبو حاتم: قرأ الأعمش: ﴿لَنَلُوْا عِلْمَ مِمَّا عَلَّمْنَاهُ﴾. ويحتمل أن يكون جواب [لَمَّا] في هذه الآية محذوفاً مقدراً، ثم يخبر عن دخولهم أنه ﴿مَا كَانَتْ تُغْنِي...﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ الآية. المعنى أنه لما دخل إخوة يوسف عليه ورأى أخاه شكر ذلك لهم - على ما

رؤي - وضُمَّ إليه أخاه وآواه إلى نفسه، ومن هذه الكلمة: المأوى، وكان بنيامين شقيق يوسف فأواه. وصورة ذلك - فيما رؤي عن ابن إسحق وغيره - أن يوسف عليه السلام أمر صاحب ضيافته أن ينزلهم رجلين رجلين، فبقي بنيامين وحده، فقال يوسف: أنا أنزل هذا مع نفسي، ففعل ويات عنده، وقال له: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾، واختلف المتأولون في هذا اللفظ - فقال ابن إسحق وغيره: أخبره بأنه أخوه حقيقة استكتمه، وقال له: لا تبال بكل ما تراه من المكروه في تحيل في أخذك منهم، وعلى هذا التأويل يحتمل أن يشير بقوله: ﴿يَا كَاوُؤُا يَمَلُوكُ﴾ إلى ما يعمله فتيان يوسف في أمر السقاية ونحو ذلك، ويحتمل أن يشير إلى ما عمله الإخوة قديماً.

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسِرْقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا تَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ جِدْلٌ يَعْمِرُ وَأَنَاءُ بِهِ رَعِيَةٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمَا لِتَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ جِدْلٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ قَبِلَ أَبَا يَعْقِبَ قَبْلَ رِجَالِهِمْ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهُمِنْ رِجَالِهِمْ وَمَا كَانُوا بِأَعْيُنِهِمْ إِلَّا رُءُوسَ بَاقِرٍ فَكَبَّرُوا بِآلِ أَبِي يَعْقِبَ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنَّ يَسَاءَةَ اللَّهِ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ شَاءَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ سَرِقُوا فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ بَنِى قَالِيسَ فَاسْأَلْهُمْ يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَبْذُهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا كُنَّا بِهَا عَزِيزِينَ لَهُ وَأَنَّا شَيْخَا كِبِيرَا فَخَذَّ أَحَدُنَا مَكَّانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

وقال وهب بن منبه: إنما أخبره أنه أخوه في الود مقام أخيه الذاهب، ولم يكشف له الأمر بل تركه تجوز عليه الحيلة كسائر إخوته.

و﴿يَبْتَغِينَ﴾ تفتعل، من البؤس، أي: لا تحزن ولا تهتم، وهكذا عبر المفسرون.

﴿٧٥﴾ - ﴿٧٥﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا من الكيد الذي يسره الله ليوسف عليه السلام، وذلك أنه كان في دين يعقوب أن يستعبد السارق، وكان في دين ملك مصر أن يضرب ويضاعف عليه الغرم، فعلم يوسف أن إخوته - لثقتهم ببرائة ساحتهم - سيدعون في السرقة إلى حكمهم، فتحيل لذلك، واستسهل الأمر على ما فيه من رمي أبرياء بالسرقة وإدخال الهَمَّ على يعقوب عليه السلام وعليهم، لما علم في ذلك من

الصالح في الآجل، ويسوحي لا محالة وإرادة من الله محنتهم بذلك. هذا تأويل قوم، ويُقَوِّيه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

وقيل: إنما أوحى إلى يوسف أن يجعل السقاية فقط، ثم إن حافظها فقدما، فنادى برأيه على ما ظهر إليه، ورجحه الطبري، وتفتيش الأوعية يرُدُّ عليه.

وقيل: إنهم لما كانوا قد باعوا يوسف استجاز أن يقال لهم هذا، وأنه عوقب على ذلك بأن قالوا: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَحَدٌ لَّمْ يَنْبَغْ﴾.

وقوله: ﴿جَعَلَ﴾ أي أمر خدمه وفتيانا، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَجَعَلَ﴾ بزيادة واو.

وو ﴿الْيَقَابَةَ﴾: الإناء الذي يشرب به الملك، وبه كان يكيل الطعام للناس، هكذا نص جمهور المفسرين: ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد، وفي كتب من حرَّر أمرها أنها شكل له رأسان ويصل بينهما مَقْبِضٌ يمسك بالأيدي، فيكيل الطعام بالرأس الواحد، ويشرب بالرأس الثاني أو بهما، فيشبه أن يكون لِشْرَابِ أَضياف الملك وفي أطعمته الجميلة التي يحتاج فيها إلى عظم الأواني.

وقال سعيد بن جبير: الصُّوَاع مثل المَكُوك الفارسي، وكان إناء يوسف الذي يشرب فيه، وكان إلى الطول ما هو، قال: وحدثنني ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان للعباس مثله يشرب به في الجاهلية.

وقال ابن جبير أيضاً: الصُّوَاع: المَكُوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه،

كانت تشرب فيه الأعاجم، ورُوي أنها كانت من فضة، وهذا قول الجمهور، ورُوي أنها كانت من ذهب، قال الزجاج: وقيل: كان من مَسْك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد رُوي هذا بفتح الميم.

وقيل: كان يشبه الطاس، وقيل: من نحاس، قاله ابن عباس أيضاً، ولِعِزَّة الطعام في تلك الأعوام قُصِر كيلها على ذلك الإناء. وكان هذا الجَعْلُ بغير علم يامين. قاله السدي، وهو الظاهر.

فلما فصلت العير بأوقارها، وخرجت من مصر فيما رُوي - وقالت فرقة: بل قبل الخروج من مصر - أمر بهم فحبسوا، ﴿أَذَنَ مُؤَذِّنٌ﴾، ومخاطبة العير تَجَوُّز، والمراد أربابها، وإنما المراد: أيتها القافلة أو الرفقة، وقال مجاهد: كانت دوابهم حميراً، ووصفهم بالسرقة من حيث سرق - في الظاهر - أحدهم، وهذا كما تقول: «بنو فلان قتلوا فلاناً» وإنما قتله أحدهم. فلما سمع إخوة يوسف هذه المقالة أقبلوا عليهم، وساء لهم أن يُزَمُّوا بهذه المنقبة، وقالوا: ﴿نَاذًا نَقِيدُونَ؟﴾ ليقع التفتيش فتظهر براءتهم، ولم يلوذوا بالإنكار من أول، بل سألوا إكمال الدعوى عسى أن يكون فيها ما تَبْطُلُ به فلا يحتاج إلى خصام. وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿تَفْقِدُونَ﴾ بضم التاء، وضعفها أبو حاتم.

﴿قَالُوا نَفَقَدْ صَوَّاعَ الْمَلِكِ﴾ وهو المكيال، وهو السقاية، رسمه أولاً بإحدى جهتيه وآخرها بالثانية. وقرأ

جمهور الناس: ﴿صَوَّاعَ﴾ ضم الصاد وبالف، وقرأ أبو خنوة: ﴿صِوَاعَ﴾ بكسر الصاد وبالف، وقرأ أبو هريرة، ومجاهد: ﴿صَاعَ الْمَلِكِ﴾ بفتح الصاد دون واو، وقرأ عبدالله بن عوف: ﴿صُوعَ﴾ بضم الصاد، وقرأ أبو رجاء: ﴿صُنُوعَ﴾. وهذه لغات في المكيال، قاله أبو الفتح وغيره، وتؤنث هذه الأسماء وتذكر، وقال أبو عبيد: يؤنث الصاع من حيث سمي سقاية، ويُذكر من حيث هو صاع، وقرأ يحيى بن يغمر: ﴿صُنُوعَ﴾ بالغين منقوطة، وهذا على أنه الشيء المصوغ للملك على ما رُوي أنه كان في ذهب أو فضة، فهو مصدر سُيَّ به، ورويت هذه القراءة عن أبي رجاء، قال أبو حاتم: وقرأ سعيد بن جبير، والحسن: ﴿صُوَاعَ﴾ بضم الصاد وألف وغين معجمة.

وقوله: ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ جِدْلٌ يَبِيرُ﴾ أي: لمن دلَّ على سارقه وفضحه وجبر الصواع على الملك، وهذا جُفْل. وقوله: ﴿وَأَنَّا بِهِ زَعِيمٌ﴾ حَمَالَة، وذلك أنه لما كان الطعام لا يوجد إلا عند الملك فهم عن المؤذُن أنه إنما جعل عن غيره، فلخوفه ألا يوثق بهذه الجَمَالَة - إذ هي عن الغير - تحمل هو بذلك. قال مجاهد: الزَّعِيم هو المؤذُن الذي قال: ﴿يَنْتَهَا أَلْعِيرُ﴾، والزعيم: الضامن في كلام العرب، ويسمى الرئيس زعيماً لأنه يتضمن حوائج الناس.

وقوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ الآية. رُوي أن إخوة يوسف كانوا رُدوا البضاعة الموجودة في الرحال، وتخرجوا من

أخذ الطعام بلا ثمن، فلذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾، أي: لقد علمتهم منا التحري، وزوي أنهم كانوا قد اشتهروا في مصر بصلاح وتعفف، وكانوا يجعلون الأكمة في أفواه إبلهم لئلا تنال زرع الناس، فلذلك قالوا: لقد علمتم ما جئنا لفساد وما نحن أهل سرقة. والتاء في ﴿تَأْكَلُ﴾ بدل من واو، كما أبدلت في ﴿ثَرَاثُ﴾، وفي «الثورة» و «ثُخْمَة»، ولا تدخل التاء في القسم إلا في المكتوبة من بين أسماء الله تعالى لا في غير ذلك، لا تقول: «تالرحمن» ولا «تالرحيم».

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ الآية. قال فتيان يوسف: فما جزاء السارق إن كنتم كاذبين في قولكم: ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾؟ فقال إخوة يوسف: جزاء السارق الحكم الذي تتضمنه هذه الألفاظ ﴿مَنْ يُدْ فِي رَسْمِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾، فـ ﴿جَزَاؤُهُ﴾ الأول مبتدأ، و﴿مَنْ﴾ مبتدأ ثان، وـ ﴿مَنْ﴾ شرط أو بمعنى الذي - وقوله: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ خبر ﴿مَنْ﴾، والجملة خبر قوله: ﴿جَزَاؤُهُ﴾ الأول، والضمير في قوله: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ﴾ للسارق، ويصح أن تكون ﴿مَنْ﴾ خبراً على أن المعنى: «جزاء السارق من وجد في رحله»، والضمير في ﴿رَحْلِهِ﴾ عائد على ﴿مَنْ﴾، ويكون قوله: ﴿فَهُوَ﴾ زيادةً بياناً وتأكيذاً، وليس هذا الموضع عندي من مواضع إبراز الضمير على ما ذهب إليه بعض المفسرين. ويحتمل أن يكون التقدير: «جزاؤه استرقاق من وجد في رحله»، ثم يؤكد بقوله:

﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾، وقولهم هذا قول من لم يَشْرَبْ بنفسه، لأنهم التزموا إرقاق من وجد في رحله، وهذا أكثر من موجب شرعهم، إذ حق شرعهم ألا يؤخذ إلا من صحت سرقة، وأمر يامين في السقاية كان محتلاً، لكنهم التزموا أن من وجد في رحله فهو مأخوذ على أنه سارق.

وقولهم: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: هذه سُنَّتُنَا وديننا في أهل السرقة، أن يَمْلِكُ السارق كما تَمْلِكُ هو الشيء المسروق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحكى بعض الناس أن هذا الحكم كان في أول الإسلام ثم نسخ بالقطع، وهذا ضعيف، ما كان قط فيما علمت. وحكى الزهراوي عن السدي أن حكمهم إنما كان أن يُستخدم السارق على قدر سرقة، وهذا يضعفه رجوع الصواع، فكان ينبغي ألا يؤخذ يامين إذ لم يبق فيما يخدم.

﴿٧٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

بدؤه أيضاً بأوعيتهم تمكين للحيلة، وإبعاد لظهور أنها حيلة. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَعَاءٍ﴾ كسر الواو، وقرأ الحسن: ﴿وُعَاءٍ﴾ بضمها، وقرأ ابن جبير: ﴿إِعَاءٍ﴾ بهمزة بدل الواو، وهذا شائع في الواو المكسورة، وهو أكثر في المضمومة، وقد جاء في المفتوحة أحد في وحد.

وأضاف الله تعالى الكيد إلى ضميره لما أخرج القدر الذي أباح به ليوسف أخذ أخيه مخرج ما هو في اعتياد الناس كيند. وقال السدي،

والضحك: ﴿كَذَنًا﴾ معناه: صَنَعْنَا. و﴿رَيْنَ أَلَمِكِ﴾ فُسِّرَه ابن عباس رضي الله عنهما بسلطانه، وفُسِّرَه قتادة بالقضاء والحكم. وهذا متقارب، والاستثناء في هذه الآية حكاية حال، التقدير: «إلا أن شاء الله ما وقع من هذه الحيلة»، ويحتمل أن يقدر أنه تَسَنَّن لما قرر النفي.

وقرأ الجمهور: ﴿بَرَّعَ﴾ على ضمير المعظم، و﴿شَاءَ﴾ كذلك، وقرأ الحسن، وعيسى، ويعقوب بالياء، أي الله تعالى، وقرأ أبو عمرو، ونافع، وأهل المدينة: ﴿دَرَكْتِ مَنْ﴾ إضافة «الدرجات» إلى ﴿مَنْ﴾، وقرأ عاصم، وابن محيصن: ﴿دَرَكْتِ مَنْ﴾ بتنوين الدرجات، وقرأ الجمهور: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عَالِمٍ﴾، والمعنى أن البشر في العلم درجات، فكل عالم فلا بُد من أعلم منه، فإما من البشر، وإما الله عز وجل، وأما على قراءة ابن مسعود ف قيل: ﴿ذِي﴾ زائدة، وقيل: ﴿عَالِمٍ﴾ مصدر كالباطل.

وزوي أن المفتش كان إذا فرغ من رَحَلَ رَجُلٍ فلم يجد منه شيئاً استغفر الله عز وجل تائباً من فعله ذلك، وظاهر الكلام قتادة وغيره أن المستغفر كان يوسف لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصواع، حتى فرغ منهم وانتهى إلى رحل بنيامين فقال: ما أظن هذا الفتى رضي بهذا، ولا أخذ شيئاً، فقال له إخوته: والله لا نبرح حتى تفتشه فهو أطيب لنفسك ونفوسنا، ففتش حينئذ

فأخرج السقاية، وهذا التفتيش من يوسف يقتضي أن المؤذن إنما سرقهم برأيه، وإما أن يقال: جميع ذلك كان بأمر الله تعالى، ويُقَوَّى ذلك قوله: ﴿كَذَّابًا﴾، وكيف لا يكون برأي يوسف وهو مضطر في محاولته لأن يلزمهم حكم السرقة لِيَسْتَمَ لَهُ أخذ أخيه.

والضمير في قوله: ﴿أَسْتَخْرِجَهَا﴾ عائد على السقاية، ويحتمل أن يعود على السرقة.

وَرُوي أن إخوة يوسف لما رأوا ذلك قالوا: يَا بَنِيَّامِينَ بْنَ رَاحِيلَ، قُبِّحَكَ اللَّهُ، وَلَدْتَ أَمَكْ أَخَوَيْنِ لِيَصْنِينَ، كيف سَرَقْتَ هذه السقاية؟ فرفع يديه إلى السماء وقال: والله ما فعلت، فقالوا له: فمن وضعها في رحلك؟ قال: الذي وضع البضاعة في رحالك.

وما ذكرناه من المعنى في قوله تعالى: ﴿وَقَوْفٌ كَلِّ ذِي غِلٍّ عَلَيْهِ﴾ هو قول الحسن وقتادة، وقد روي عن ابن عباس، وروي أيضاً عنه رضي الله عنه أنه حدث يوماً بحديث عجيب، فتعجب منه رجل ممن حضر وقال: «الحمد لله وفوق كل ذي علم عليم»، فقال له ابن عباس: «بئس ما قلت، إنما العليم الله، وهو فوق كل ذي علم». قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبين هذا وبين قول الحسن فرق.

﴿٧٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿قَالُوا﴾ لإخوة يوسف، والأخ الذي أشاروا إليه هو يوسف، ونكروه تحقيراً للأمر، إذ كان مما لا علم للحاضرين به، ثم

أصقوه بنيامين إذ كان شقيقه. ويحتمل قولهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ تأويلين:

أحدهما: أنهم حققوا السرقة في جانب بنيامين ويوسف عليهما السلام بحسب ظاهر الحكم، فكأنهم قالوا: إن كان قد سرق فغير بدع من ابني راحيل، لأن أخاه يوسف كان قد سرق، فهذا من الإخوة إنحاء على ابني راحيل: يوسف وبنيامين.

والوجه الآخر الذي يحتمله لفظهم يتضمن أن السرقة في جانب يوسف وبنيامين مظنونة، كأنهم قالوا: إن كان هذا الذي رمي به بنيامين حقاً في نفسه فالذي رُمِيَ به يوسف قُبِّلَ حق إذاً، وكأن قصة يوسف والظن به قوياً عندهم أقوى مما ظهر في جهة بنيامين.

وقال بعض المفسرين: «التقدير: فقد قيل عن يوسف إنه سرق»، ونحو هذا من القول الذي لا ينطبق معناه على لفظ الآية.

وهذه الأقوال منهم عليهم السلام إنما كانت بحسب الظاهر وموجب الحكم في التازلين، فلم يعنوا غيبة ليوسف، وإنما قصدوا الإخبار بأمر جرى لِيَتَزُولَ بعض المعرة عنهم ويختص بها هذان الشقيقان.

وأما ما روي في سرقة يوسف فثلاثة وجوه: الجمهور منها على أن عمته كانت ربته، فلما شب أراد يعقوب أخذه منها، فولعت به وأشفقت من فراقه، فأخذت منطقة إسحق - وكانت متوارثة عندهم - فَنَطَّقَتْهُ بها من تحت ثيابه، ثم صاحت وقالت: إني قد فقدتُ

المنطقة ويوسف قد خرج بها، فَنُتِش فوجدت عنده، فاسترقته - حسبما كان في شرعهم - وبقي عندها حتى ماتت فصار عند أبيه، وقال ابن إدريس عن أبيه: إِنَّمَا أَكَلَ بنو يعقوب طعاماً فأخذ يوسف عَزَقاً فخبأه فرموه لذلك بالسرقة، وقال سعيد بن جبير، وقتادة: إنما أمرته أمه أن يسرق صنماً لأبيها فسرقه وكسره، وكان ذلك - منها ومنه - تغييراً للمنكر، وفي كتاب الزجاج أنه كان صنم ذهب.

والضمير في قوله: ﴿فَأَسْرَهَا﴾ عائد يراد به الحزاة التي حدثت في نفس يوسف من قولهم، والكلام يتضمنها، وهذا كما تضمن الكلام الضمير الذي في قول حاتم:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى
إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْماً وَصَاقَ بِهَا الصُّدُرُ
وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَدْوٍ مَا فِئْتُوا ثُمَّ جَعَلُوا صِبْرًا إِنَّكَ رَبَّكَ مِنْ بَدْوٍ لَقُورٌ رَجِيحٌ﴾ فهو مراد به الحالة المتحصلة من هذه الأفعال المذكورة في الآية.

وقال قوم: أسر المجازاة، وقال قوم: أسر الحجة. وما قدمناه أليق. وقرأ ابن أبي عبله: ﴿فَأَسْرُهُ يُوسُفُ﴾ بضمير تذكير.

وقوله: ﴿أَنَّهُ سَرٌّ مُكْتَافٍ﴾ الآية. الظاهر منه أنه قالها إصفاً، فكأنه أسر لهم كراهية مقاتلتهم ثم وبَّخهم بقوله: ﴿أَنَّهُ سَرٌّ مُكْتَافٍ﴾ أي لسوء أفعالكم، والله يعلم إن كان ما وصفتموه حقاً، وفي اللفظ إشارة

قَالَ مَكَادُ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجْدَتِنَا مَتَّعْنَا عَنْهُ وَإِنَّا إِذَا نَظَرْنَا لِيُوسُفَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَرَ أَمْنُهُ خَصَّصُوا بِجَنَّةٍ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلَ مَا فَرَّطُشَ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٧٩﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا إِنَّا بَنَاءُ ابْنِكُمْ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا عَلَىٰ الْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨٠﴾ وَسَلَّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨١﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٢﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفِي عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَيِّسَتْ عَيْنَا مِنْ الْحَزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٣﴾ قَالُوا إِنَّا لَنَنظِرُكَ وَأَتَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٤﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾

﴿٧٨﴾ - ﴿٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

خاطبوه باسم العزيز إذ كان في تلك اللحظة بعزل الأول أو موته، على ما روي في ذلك. وقولهم: ﴿فَخَذَ أَحَدًا مَكَانَهُ﴾ يحتمل أن يكون مجازاً وهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حُرٍّ لِيُستَرَقَّ بدل من أحكم السنة رقه، وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله: «اقتلني ولا تفعل كذا وكذا»، وأنت لا تريد أن يقتلك ولكن تبالغ في استنزاله، وعلى هذا يتجه قول يوسف: ﴿مَكَادُ اللَّهِ﴾ لأنه تعوذ من غير جائز، ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿فَخَذَ أَحَدًا مَكَانَهُ﴾ حقيقة، ويعيد عليهم - وهم أنبياء - أن يريدوا استرقاق حُرٍّ، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمالة، أي: خذ أحداً حتى ينصرف إليك صاحبك، ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه، ويعرف يعقوب جلية الأمر، فمنع يوسف عليه السلام من ذلك، إذ الحمالة في الحدود ونحوها بمعنى إحضار المضمون جائزة مع التراضي غير لازمة إذا أبى الطالب، وأما الحمالة في مثل هذا - على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة - فلا يجوز ذلك إجماعاً، وفي «الواضحة» أن الحمالة في الوجه فقط في جميع الحدود جائزة إلا في النفس.

إلى تكذيبهم، ومما يُقَوِّي هذا عندي أنهم تركوا الشفاعة بأنفسهم وعدلوا إلى الشفاعة بالشيخ عليه السلام، وقالت فرقة - وهو ظاهر كلام ابن عباس رضي الله عنهما -: لم يقل يوسف عليه السلام هذا الكلام إلا في نفسه، وإنما هو تفسير للذي أسر في نفسه، أي: هذه المقالة هي التي أسر. فكأن المراد: قال في نفسه: ﴿أَسْرَ...﴾.

وذكر الطبري هنا قصصاً اختصاره أنه لما استخرجت السقاية من رجل بنيامين قال إخوته: يا بني راحيل. ألا يزال البلاء ينالنا من جهتك؟ فقال بنيامين: بل بنو راحيل ينالهم البلاء منكم: ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووضّع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالك، فقالوا: لا تذكر الدراهم وإلا أخذنا بها، ثم دخلوا على يوسف فأخذ الصواع فنقره ففلن، فقال: إنه يخبر أنكم ذهبتم بأخ لكم فبعتموه، فسجد بنيامين وقال: أيها العزيز، سل صواعك هذا يخبرك بالحق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونحو هذا من القصص الذي آثرنا اختصاره، وروي أن روبيل غضب ووقف شعره حتى خرج من ثيابه، فأمر يوسف بئثاً له فمسه فسكن غضبه، فقال روبيل: لقد مسني أحد من ولد يعقوب، ثم إنهم تشاوروا في محاربة يوسف - وكانوا أهل قوة لا يدانون في ذلك - فلما أحس يوسف بذلك قام إلى روبيل فلجّبه وصرعه، فرأوا من قوته ما استعظموه عند ذلك، وقالوا: أيها العزيز.

وقولهم: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الشَّاسِيِينَ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوا من إحسانه في جميع أفعاله معهم ومع غيرهم، ويحتمل أن يريدوا: إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إن أسديتها إلينا، وهذا تأويل ابن إسحق.

و ﴿مَكَادُ﴾ نصب على المصدر، ولا يجوز إظهار الفعل معه، والظلم في قوله: ﴿لَنَظَرْنَا لِيُوسُفَ﴾ على حقيقته، إذ هو وضع الشيء في غير موضعه، وذكر الطبري أنه روي أن يوسف لما أتأسهم بلفظه هذا قال لهم: إذا أتيتم أباكم فاقروا عليه السلام، وقولوا له: إن ملك مصر يدعو لك ألا تموت حتى ترى ولدك يوسف، ليعلم أن في أرض مصر صديقين مثله.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَرَ مِنْهُ﴾

الآية. يقال: يشس واشتئأس بمعنى واحد، كما يقال: سجر واشتسجر، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْتَجِرُونَ﴾، وكما يقال: عجب واستعجب، ومنه قول أوس ابن حجر:

وَمُسْتَعْجِبٌ مِمَّا يَرَى مِنْ أُنَاتِنَا
وَلَوْ زَيْتُ الْحَرْبِ لَمْ يَسْتَرْزَمْ
ومنه: نَوَكٌ وَاسْتَوَكٌ، وعلى هذا يجيء قول الشاعر في بعض التأويلات:

.....
وَاسْتَوَكْتُ وَلِلشَّابِ نُوكٌ
وهذه قراءة الجمهور، وقرأ ابن كثير: «استأيسوا» و «لَا تَأْتِسُوا»، و «لَا يَأْسُ» و «حَتَّى إِذَا اسْتَأْيَسَ الرُّسُلُ»، أصله: استأيسوا «استَفَعَلُوا» من (أَيْسَ) على قلب الفعل من (يَيْسُ) إلى (أَيْسُ)، وليس هذا كَجَذَبَ وَجَبَذَ، بل هذان أصلان والأول قلب، دل ذلك على أن المصدر من (يَيْسُ وأَيْسُ) واحد وهو (اليأس)، وَلَجَذَبَ وَجَبَذَ مصدران.

وقوله تعالى: ﴿حَصَصُوا يَتَّى﴾ معناه: انفردوا عن غيرهم يناجي بعضهم بعضاً، والتَّجَيُّ لَفْظُ يوصف به من له نجوى، واحداً أو جماعة، مُؤَنَّثاً أو مُذَكَّراً، فهو مثل عدوٍّ وعدلٍّ، وجمعه أنجية، قال لبيد:

وَشَهِدْتُ أَنْجِيَةَ الْأَفَاقَةِ عَلِيّاً
كَغَيْبِي وَأَزْدَانِ الْمُلُوكِ شُهُودٌ
و «كَغَيْبِي» قال مجاهد: هو شمعون، لأنه كان كبيرهم رأياً وتديبيراً وعلماً، وإن كان روبييل أسنهم، وقال قتادة: هو روبييل لأنه أسنهم، وهذا أظهر ورجحه الطبري،

وقال السدي: معنى الآية: وقال كبيرهم في العلم، وذكرهم أخوهم الميثاق في قول يعقوب: ﴿لَتَأْتِيَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَخَاطَ بِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿مَا قَرَّطْتُمْ﴾، يصح أن تكون [مَا] صلة في الكلام لا موضع لها من الإعراب، ويصح أن تكون في موضع رفع بالابتداء، والخبر قوله: ﴿فِي يَوْسُفَ﴾، كذا قال أبو علي، ولا يجوز أن يكون قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلقاً بـ ﴿مَا قَرَّطْتُمْ﴾، وإنما تكون - على هذا - مصدرية، التقدير: «من قبل تفريطكم في يوسف واقع أو مستقر»، وبهذا المقدر يتعلق قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾. ويصح أن تكون في موضع نصب عطفاً، على أن التقدير: «وتعلموا تفريطكم» أو «وتعلموا الذي فرطتم»، فيصح - على هذا الوجه - أن تكون بمعنى الذي، ويصح أن تكون مصدرية.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُنَبِّئَكَ الْآنَ﴾، أراد أرض القطر أو الموضع الذي ناله فيه المكروه المؤدي إلى سخط أبيه، والمقصد بهذا اللفظ التحريض على نفسه والتزام التضييق، كأنه سجن نفسه في ذلك القطر ليبلي عذراً.

وقوله: ﴿أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ﴾، لفظ عام لجميع ما يمكن أن يرد من القدر كالموت أو النصرة وبلوغ الأمل، وغير ذلك، وقال أبو صالح: أو يحكم الله لي بالسيف، ونصب ﴿يَحْكُمُ﴾ بالعطف على ﴿يَأْذَنُ﴾، ويجوز أن تكون ﴿أَوْ﴾ في هذا الموضع بمعنى «إِلَّا أَنْ»، كما تقول:

«لَأُزِمَنَّكَ أَوْ تَقْضِيَنِي حَقِي»، فتصب على هذا ﴿يَحْكُمُ﴾ بـ ﴿أَوْ﴾.

وزوي أنهم لما وصلوا إلى يعقوب بكى وقال: «يا بني، ما تذهبون عني مرة إلا نقصتم، ذهبتم فنقصتم يوسف، ثم ذهبتم فنقصتم شمعون حيث ارتهن، ثم ذهبتم فنقصتم بنيامين وروبييل».

٨١ - ٨٢ تفسير قوله عز وجل:

الأمر بالرجوع - قيل: هو من قول كبيرهم، وقيل: بل هو من قول يوسف لهم، والأول أظهر، وقرأ الجمهور: ﴿سَرَقَ﴾ على تحقيق السرقة على «بنيامين» بحسب ظاهر الأمر، وقرأ ابن عباس، وأبو رزین: ﴿سَرَقَ﴾ بضم السين وكسر الراء وتشديدها، وكأن في هذه القراءة لهم تحر ولم يقطعوا عليه بسرقة، وإنما أرادوا: جعل سارقاً بما ظهر من الحال، ورويت هذه القراءة عن الكسائي، وقرأ الضحاك: ﴿إِنْ أَتَيْتَكَ سَارِقٌ﴾ بالآلف وتنوين القاف، ثم تحروا بعد - على القراءة - في قولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾، أي: وقولنا لك: ﴿إِنْ أَتَيْتَكَ سَرَقَ﴾ إنما هي شهادة عندك بما علمناه من ظاهر ما جرى، والعلم في الغيب إلى الله، ليس ذلك في حفظنا، هذا قول ابن إسحق.

وقال ابن زيد: قولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أرادوا به: وما شهدنا عند يوسف بأن السارق يُسَرَقُ في شرعك إلا بما علمنا من ذلك، وما كنا للغيب حافظين أن السرقة تخرج من رحل أحدنا، بل

حسبنا أن ذلك لا يكون البتة، فشهدنا عنده - حين سألتنا - بعلمنا. وقرأ الحسن: ﴿وما شهدنا عليه إلا بما علمنا﴾ بزيادة «عليه».

ويحتمل قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾، أي حين واثقناك إنما قصدنا ألا يقع منا نحن من جهته شيء يكرهه، ولم نعلم الغيب في أنه سيأتي هو بما يوجب رقة، وزوي أن معني ﴿لِلْغَيْبِ﴾ أي: للليل، والغيب: الليل بلغة حمير، فكأنهم قالوا: وما شهدنا عندك إلا بما علمناه من ظاهر حاله، وما كنا بالليل حافظين لما يقع من سرقته هو أو التدليس عليه.

ثم استشهدوا بأهل القرية التي كانوا فيها، وهي مصر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وهذا مجاز، والمراد أهلها، وكذلك قوله: ﴿وَالْعَمِيرُ﴾، هذا قول الجمهور وهو الصحيح، وحكى أبو المعالي في التلخيص عن بعض المتكلمين أنه قال: هذا من الحذف وليس من المجاز، وإنما المجاز لفظه تستعار لغير ما هي له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحذف المضاف هو عين المجاز وعظمه، هذا مذهب سيبويه وغيره من أهل النظر، وليس كل حذف مجازاً، ورجح أبو المعالي في هذه الآية أنه مجاز، وحكى أنه قال الجمهور أو نحو هذا، وقالت فرقة: بل أحواله على سؤال الجمادات والبهائم حقيقة، ومن حيث هو نبي فلا يبعد أن يُخبره بالحقيقة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وإن جُوز فبعيد، والأول أقوى.

وهنا كلام مقدر يقتضيه الظاهر، تقديره: فلما قالوا هذه المقالة لأبيهم قال: ﴿بَلْ سَوَّكْتَ﴾، وهذا على أن يتصل كلام كبيرهم إلى هنا، ومن يرى أن كلام كبيرهم تم في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَكَ سَرَقَ﴾ فإنه يجعل الكلام هنالك تقديره: فلما رجعوا قالوا: ﴿إِنَّكَ أَنتَكَ سَرَقَ﴾ الآية، والظاهر أن قوله: ﴿بَلْ سَوَّكْتَ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْزَاجَ﴾ إنما هو ظن سنيء بهم، كما كان في قصة يوسف قبل، فاتفق أن صدق ظنه هناك ولم يتحقق هنا.

و ﴿سَوَّكْتَ﴾ معناه: زُيِّنَتْ وَخِيلَتْ وجعلته سولاً، والسؤل: ما يتمناه الإنسان ويحرص عليه.

وقوله: ﴿نَصَبَ جَائِلٌ﴾ إمّا ابتداء وخبره: أمثل وأزلى، وحسن الابتداء بالنكرة من حيث وصفت، وإمّا خبر ابتداء تقديره: فأمرني، أو شأني، أو صبري صبرٌ جميل، وهذا أليق بالنكرة، أن تكون خبراً، ومعنى وصفه بالجمال أنه ليس فيه شكوى إلى بشر ولا ضجر بقضاء الله تعالى.

ثم ترجى عليه السلام من الله أن يجبرهم عليه، وهم: يوسف وبنيامين وروبيل الذي لم يبرح الأرض، ورجاؤه هذا من جهات:

إحداها: الرؤيا التي رأى يوسف، فكان يعقوب ينتظرها. والثانية: حسن ظنه بالله تعالى في كل حال، والثالثة: ما أخبروه به عن ملك مصر أنه يدعو له برؤية ابنه، فوقع له - من هنا - تحسُّن ورجاء، والوصف

بالعلم والإحكام لائق بما يرجوه من لقاء بني، وفيها تسليم لحكم الله تعالى في جميع ما جرى عليه.

(٨٤) - (٨٦) تفسير قوله عز وجل: المعنى أنه لما ساء ظنه بهم ولم يصدق قولهم بل استراب به ﴿وَوَكَّ عَنَّهُمْ﴾ أي زال بوجهه عنهم، وجعل يتفجع ويتأسف. قال الحسن: خُصَّتْ هذه الأمة بالاسترجاع. ألا ترى إلى قول يعقوب: ﴿يَتَأَسَّفُ﴾؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمراد: يا أسفي، لكن هذه لغة من يردُّ ياء الإضافة ألفاً نحو: يا أبتا ويا غلاما. ونادى الأسف على معنى: احضر فهذا من أوقاتك، وقيل: قوله: ﴿يَتَأَسَّفُ﴾ على جهة التذبة، وحذف الهاء التي هي في التذبة علامة المبالغة في الحزن تجلداً منه عليه السلام، إذ كان قد ارتبط إلى الصبر الجميل، وقيل: قوله: ﴿يَتَأَسَّفُ﴾ نداء فيه استغاثة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يبعد أن يجتمع «الاسترجاع» و «يَا أَسْفَا» لهذه الأمة وليعقوب عليه السلام.

﴿وَأَيَّضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزَنِ﴾ أي: من ملازمة البكاء الذي هو ثمرة الحزن، وزوي أن يعقوب عليه السلام حَزَنَ حُزْنَ سَبْعِينَ ثَكْلَى، وأعطى أجر مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله قط، رواه الحسن عن النبي ﷺ. وقرأ ابن عباس، ومجاهد: ﴿مِنْ الْحُزَنِ﴾ بفتح الحاء والزاي، وقرأ قتادة بضمهما، وقرأ الجمهور بضم الحاء وسكون الزاي.

﴿وَمَوْ كَظِيمٌ﴾ بمعنى: كاظم، كما قال: «وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْضَ»، ووصف يعقوب بذلك لأنه لم يشك إلى أحد، وإنما كان يكمد في نفسه، ويُمسك همُّه في صدره، وكان يكظمه أي يردُّه إلى قلبه ولا يرسله بالشكوى والغضب والضجر، وقال ناس: ﴿كَظِيمٌ﴾ بمعنى: مكظوم. وقد وصف الله تعالى يونس عليه السلام بمكظوم في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ مَوْ كَظُمٌ﴾، وهذا إنما يتجه على تقدير أنه مليء بحزنه، فكأنه كظم بشه في صدره، وجزى ﴿كَظِيمٌ﴾ على باب «كاظم» أبين، وفسر ناس «الكظيم» بالمكروب وبالمكدور، وذلك كله متقارب. وقال منذر بن سعيد: الأسف إذا كان من جهة من هو أقل من الإنسان فهو غضب، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنفَقْنَا بِنَهْجِهِ﴾، ومنه قول الرجل الذي ذهب لخادمه الشاة من الغنم: «فأسفت فلطمتها»، وإذا كان من جهة لا يطيقها فهو همٌّ وحزنٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحرير هذا المتنزع أن الأسف يقال في الغضب ويقال في الحزن، وكل واحد من هذين يحزر حاله التي يقال عليها.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُونَ﴾ الآية. المعنى: تالله لا نقتأ، فتحذف (لا) في هذا الموضع من القسم لدلالة الكلام عليها، فمن ذلك قول امرئ القيس:

فَقُلْتُ يَجِينُ اللهَ أَبْرِحْ قَاعِدَا
وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

ومنه قول الآخر:

تَاللهِ يَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ دُو جِيدٍ
بِمُشْمِخَرِّبِهِ الظُّلْيَانِ وَالْأَسْ
أراد: لا يَبْرَح، ولا يَبْقَى. وقال الرُّجَاجِي: وقد تحذف أيضاً (ما) في هذا الموضع، وخطأه بعض النحويين، ومن المواضع التي حذفت فيها (لا) ويدل عليها الكلام قول الشاعر:

فَلَا - وَأَبِي دُهْمَاء - زَالَتْ عَزِيْزَةٌ
عَلَى قَوْمِهَا مَا قُتِلَ الزُّنْدُ قَادِحُ
وقوله: «مَا قُتِلَ الزُّنْدُ قَادِحُ» يوجب أن المحذوف (لا)، وليست (ما). و (فَتِيءٌ) بمنزلة زال وبَرِح في المعنى والعمل، تقول: «والله لا فَيْتَتْ قَاعِدَا» كما تقول: «لا زلت ولا بَرِخت»، ومنه قول أوس بن حجر:

فَمَا قَيْتَتْ حَتَّى كَأَنَّ عُبَارَهَا
سُرَادِقُ يَوْمٍ ذِي رِيحٍ تَرْفَعُ
و «الْحَرْضُ»: الذي قد نَهَكَ الهرم أو الحب أو الحزن إلى حال فساد الأعضاء والبدن والجِس، وعلى هذا المعنى قراءة الجمهور: ﴿حَرْضًا﴾ بفتح الراء والحاء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن بضمهما، وقرأت فرقة: ﴿حَرْضًا﴾ بضم الراء وسكون الراء، وهذا كله المصدر يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والجمع بلفظ واحد، كَعَذْلٍ وَعَدُوٍّ، وقيل في قراءة الحسن: إنه فتات الأثنان، أي: بالياً متفتتاً، ويقال من هذا المعنى الذي هو شن الهمِّ والهرم: «رجلٌ حارِضٌ»، ويُقْتَى هذا البناء ويُجمع ويُؤنث ويذكر، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

إِنِّي امْرُؤٌ لَّجَّ بِي حُبٌّ فَأَخْرَضَنِي
حَتَّى بَلَيْتُ وَحَتَّى شَفَنِي السَّقَمُ
وقد سمع من العرب «رجلٌ مُخْرَضٌ»، قال الشاعر وهو امرؤ القيس:

أَرَى الْمَرْءَ ذَا الْأَزْوَادِ يُضْبِحُ مُخْرَضًا
كإِخْرَاضِ بَكْرِ فِي الدِّيَارِ مَرِيضٍ
والحرَض - بالجملة -: الذي فسد ودنا موته، قال مجاهد: الحرَض: ما دون الموت، قال قتادة: الحرَض: البالي الهرم، وقال نحوه الضحَّاك والحسن، وقال الحسن: ﴿حَرْضًا﴾: معناه: فاسد لا عقل له، فكأنهم قالوا على جهة التعنيف له: أنت لا تزال تذكر يوسف إلى حال القرب من الهلاك، أو إلى الهلاك، فأجابهم يعقوب عليه السلام راذاً عليهم: إني لست ممن يجزع ويضجر فيستحق التعنيف، وإنما أشكوا بئني وحزني إلى الله.

و «الْبَثُّ»: ما في صدر الإنسان مما هو معترم أن يئسه وينشره، وأكثر ما يستعمل البَثُّ في المكروه، وقال أبو عبيدة وغيره: البَثُّ: أشد الحزن، وقد يستعمل البَثُّ في المخفي على الجملة، ومنه قول المرأة في حديث «أُمُّ زَرْعٍ»: «وَلَا يُوَلِّجُ الْكَفَّ لِيَعْلَمَ الْبَثُّ»، ومنه قولهم: «أَبَثُّكَ حَدِيثِي».

وقرأ عيسى: ﴿وَحَزَنِي﴾ بفتح الحاء والزاي.

وحكى الطبري بسند أن يعقوب دخل على فرعون وقد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، فقال لفرعون: ما بلغ بك هذا يا إبراهيم؟ فقالوا: إنه يعقوب، فقال: ما بلغ بك هذا يا

يَسْتَبِيحُ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا
مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا أَاهَلْنَا الصُّرَّ
وَجَحَنَّا يَصُدُّهُ مُرَجَلُهُ قَاوِفٌ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا
إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ
بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَتُؤْتِكُ
لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَتَأْتِيُونِي بِهَذَا أَجْنَى قَدْ مَنَّ اللَّهُ
عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَسْتَبِيحُ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَيْنَاكَ اللَّهُ عِلْمًا
وَأَنْتَ بِأَهْلِكَ كُنتُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩١﴾ قَالُوا لَا تَتَرَبَّصَ عَلَيْنَا
أَلَيْسَ بِغَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٩٢﴾ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٣﴾
أَذْهَبُوا بِقَعِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا
وَأَنْتُمْ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَمَّا فَصَلَ
يُوسُفَ قَالَ أَبُوهُمَ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ
تَفْعِدُونِي ﴿٩٥﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٦﴾

٢٤٦

رويل إنما بقي مختاراً،
وهذان قد منعا الأوبة.

والرُّوحُ: الرحمة، ثم
جعل اليأس من رحمة الله
وتفريجه من صفة
الكافرين، إذ فيه: إما
التكذيب بالربوبية، وإما
الجهل بصفات الله تبارك
وتعالى. وقرأ الحسن،
وقتادة، وعمر بن
عبد العزيز: ﴿مِنْ
رُوحِ اللَّهِ﴾ بضم الراء،
وكان معنى هذه القراءة:
«لا تيأسوا من حيٍّ معه
روحُ الله الذي وهبه، فإنَّ
من بقي روحه فيرجى»،
ومن هذا قول الشاعر:

وَفِي غَيْرِ مَنْ قَذَوَاتِ الْأَرْضِ فَاطْمَحَ
وَمِنْ هَذَا قَوْلُ عبيد:

وَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَوْوُبُ
وِغَائِبُ النَّوْتِ لَا يَوْوُبُ
ويظهر من حديث الذي قال: «إِذَا
مِتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ
ذَرُونِي فِي الْبَحْرِ وَالْبَرِّ فِي يَوْمِ رَاحٍ،
فَلَسْتُ قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيَّ فَلْيُعَذِّبْنِي عَذَابًا
مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ»: إنه
يشس من روح الله، وليس الأمر
كذلك لأن قول النبي ﷺ في آخر
الحديث: «فَغُفِرَ لَهُ» يقتضي
أنه مات مؤمناً إذ لا يغفر الله لكافر،
فبقي أن يتأول الحديث، إما على أن
(قَدَّرَ) بمعنى: ضَيَّقَ وناقش
الحساب، فذلك معنى بين، وإما أن
تكون من «القدرة» ويكون خطؤه في
أن ظن أن الاجتماع بعد السحق
والنذرية مُحال لا يوصف الله تعالى

يعقوب؟ قال له: طول الزمان وكثرة
الأحزان، فأوحى الله إليه: يا
يعقوب، أتسكونني إلى خلقي؟ قال:
يا رب، خطيئة فاغفرها لي. وأسند
الطبري إلى الحسن قال: كان بين
خروج يوسف عن يعقوب إلى دخول
يعقوب على يوسف ثمانون سنة لم
يفارق الحزن قلبه، ولم يزل يبكي
حتى كف بصره، وما في الأرض
يومئذ أكرم على الله من يعقوب.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ﴾ يحتمل أنه أشار إلى حسن
ظنه بالله وجميل عادة الله عنده،
ويحتمل أنه أشار إلى الرؤيا
المنتظرة، أو إلى ما وقع في نفسه
عن قول ملك مصر: «إِنِّي أَدْعُو لَكَ
برؤية ابنه قبل الموت، وهذا هو
حسن الظن الذي قدمناه.

٨٧ - ٨٨ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: اذهبوا إلى الأرض التي
جنتم منها وتركتم أخويكم بنيامين
وروييل، ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾، أي:
استقصوا وتفروا، والتَّحَسُّسُ: طلب
الشيء بالحواس، ويستعمل في
الخير والشر، فمن استعماله في
الخير هذه الآية، وفي الشر نهي
النبي ﷺ في قوله: «لَا تَحَسَّسُوا».

وقوله: ﴿مِنْ يُوسُفَ﴾ يتعلق
بمحذوف يعمل فيه ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾،
التقدير: فَتَحَسَّسُوا نَبَأَ أَوْ حَقِيقَةَ مِنْ
أمر يوسف، لكن يحذف ما يدل
ظاهر القول عليه إيجازاً.

وقرأت فرقة: ﴿تَأْيَسُوا﴾ وقرأت
فرقة: ﴿تَأْيَسُوا﴾ على ما تقدم، وقرأ
الأعرج: ﴿تَيْسُوا﴾ بكسر التاء،
وخص يوسف وبنيامين بالذكر لأن

بالقدرة عليه، فغلط في أن جعل
الجائز محالاً، ولا يلزمه بهذا
الكفر.

قال النقاش: وقرأ ابن مسعود:
﴿مِنْ فَضْلٍ﴾، وقرأ أبي بن كعب:
﴿مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾
الآية. في هذا الموضع اختصار
محذوفات يعطيها الظاهر، وهي أنهم
نفذوا من الشام إلى مصر ووصلوها،
والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائذ على
يوسف. و﴿الضَّرَّ﴾ أرادوا به
المسغبة التي كانوا يسبيلها، وأمر
أخيهم الذي أهم أباهم وغم
جميعهم، و«البضاعة»: القطعة من
المال يقصد بها شراء شيء، ولزمها
عرف الفقه فيما لاحظ لحاملها من
الربح، و«المُزْجَاة» معناها:
المدفوعة المتحيل لها، ومنه: إزجاء

السحاب، ومنه: إزجاء الإبل، كما قال الشاعر:

عَلَى زَوَاجِفٍ تُزْجِي مَخْهَا رِيرُ

وكما قال النابغة:

وَهَبْتَ الرِّيحَ مِنْ تَلْقَاءِ ذِي أَرْلٍ
تُزْجِي مَعَ اللَّيْلِ مِنْ صُرَايَا صَرِيَا
وقال الأعشى:

الْوَاهِبُ الْمِائَةِ الْهَجَانِ وَعَبْدَمَا
عُودًا تُزْجِي خَلْفَهَا أَطْفَالَهَا
وقال الآخر:

وَحَاجَةٌ غَيْرُ مُزْجَاةٍ مِنَ الْحَاجِ

وقال حاتم:

لَيْبِكَ عَلَى مَلْحَانَ ضَيْفٍ مُدْفَعٍ
وَأَرْسَلَهُ تُزْجِي مَعَ اللَّيْلِ أَرْسَلًا

فجملة هذا أن من يسوق شيئاً ويتلطف في تسييره فقد أزجاه، فإذا كانت الدارهم المدفوعة نازلة القدر تحتاج أن يعتذر معها ويشفع لها فهي مُزْجَاةٌ، فقليل: كان ذلك لأنها كانت رُيُوفاً، قاله ابن عباس، وقال الحسن: كانت قليلة، وقيل: كانت ناقصة، قاله ابن جُبَيْر، وقيل: كانت بضاعتهم عروضاً فلذلك قالوا هذا، واختلف في تلك العُروض - ما كانت؟ فقليل: كانت السُّنَنُ والصوف، قاله عبدالله بن الحارث، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كانت قديد وخش، ذكره النقاش، وقال أبو صالح، وزيد بن أسلم: كانت الصنوبر والحة الخضراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: «وهي المُسْتَقَّة»، وقيل: كانت المُقْل، وقيل: كانت القطن، وقيل: كانت الحبال والأعدال والأقتاب.

وحكى مكي أن مالكا رحمه الله قال: المُرْجَاة: الجائزة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا أعرف لذلك وجهاً، والمعنى يأباه، ويحتمل أنه صحف على مالك، وأن لفظه بالحاء غير منقوطة وبالراء، واستند مالك رحمه الله في أن الكيل على البائع إلى هذه الآية، وذلك ظاهر منها وليس بنص.

وقولهم: «وَصَدَّقَ عَلَيْنَا» معناه: بما بين الدراهم الجياد وهذه المُرْجَاة، قاله السدي وغيره، وقيل: كانت الصدقة غير مُحَرَّمة على أولئك الأنبياء، وإنما حرمت على محمد ﷺ، قاله سفيان بن عُيَيْنَةَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف يراد حديث النبي ﷺ في قوله: «نحن معاشر الأنبياء لا تحل لنا الصدقة».

وقالت فرقة: كانت الصدقة عليهم محرمة ولكن قالوا هذا تجوزاً واستعطافاً منهم في المبايعه، كما تقول لمن تساومه في سلعة: هبني من ثمنها كذا وخُذْ كذا، فلم تقصد أن يهبك، وإنما حسنت له الانفعال حتى يرجع معك إلى سومك. وقال ابن جريج: إنما خصوا بقولهم: «وَصَدَّقَ عَلَيْنَا» أمر أخيه (بنيامين)، أي: أوف لنا الكيل في المبايعه، وتصدق علينا بصرف أخينا إلى أبيه.

وقولهم: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُصْذِقِينَ». قال النقاش: يُقَال: هو من المعارض التي هي مندوحة عن الكذب، وذلك أنهم كانوا يعتقدونه ملكاً كافراً على غير دينهم، ولو

قالوا: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِيكَ بِصَدَقَتِكَ فِي الآخِرَةِ» كذبوا، فقالوا له لفظاً يوهمه أنهم أرادوه، وهم يصح لهم إخراجهم منه بالتأويل.

﴿٨٩﴾ - ﴿٩٠﴾ تفسير قوله عز وجل: رُوي أن يوسف عليه السلام لما قال له إخوته: «مَسَنَا وَآهَلْنَا الْفُرْ» واستعطفوه - رُقُ ورحمهم، قال ابن إسحق: «وَارْقُصْ دمه بأكياً، فشرع في كشف أمره إليهم، فيروى أنه حَسَرَ قناعه وقال لهم: «هَلْ عَلِمْتُمْ» الآية.

وقوله: «مَا قَعَلْتُمْ يَٰيُوسُفَ وَأَخِيهِ» يريد: من التفريق بينهما في الصغر، والتمرس بهما، وإذاية (بنيامين) بعد مغيب يوسف، فإنهم كانوا يذلولونه ويشتمونه، ولم يشر إلى قصة (بنيامين) الأخيرة لأنهم لم يفعلوا هم فيها شيئاً، ونسبهم إمّا إلى جهل المعصية، وإمّا إلى جهل الشباب وقلة الحنكة، فلما خاطبهم هذه المخاطبة - وشبه أن يكون قد اقترن بها من هيئته وبشره وتبسمه ما دلّهم - تنبهوا ووقع لهم من الظن القوي أنه يوسف، فخاطبوه مستفهمين استفهام تقرير.

وقرأت فرقة: «وَأَنَّكَ لَأَنْتَ يَٰيُوسُفَ» بتحقيق الهمزتين، وقرأت فرقة بإدخال ألف بين الهمزتين وتحقيقهما: «أَنْتَكَ»، وقرأت فرقة بتسهيل الثانية: «أَيْنُكَ»، وقرأ ابن مُحِصِّن، وقتادة، وابن كثير: «أَنْتَكَ» على الخبر وتأكيده، وقرأ أبي بن كعب: «[أَنْتَكَ] أَوْ أَنْتَ يَٰيُوسُفَ»، قال أبو الفتح: ينبغي أن يكون هذا على حذف خبر (إِنَّ)،

معهما من سوء معتقد ونحوه، وقد عبّر بعض الناس عن التشريب بالتعير، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يقرّب»، أي: لا يعير، أخرج الشيخان في الحدود.

ووقف بعض القراء: ﴿عَلَيْكُمْ﴾، وابتنأ: ﴿الْيَوْمَ يَنْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾، ووقف أكثرهم: [اليوم]، وابتدأ: ﴿يَنْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ على جهة الدعاء، وهو تأويل ابن إسحق والطبري، وهو الصحيح، و [اليوم] ظرف، وعلى هذا فالعامل فيه ما يتعلق به ﴿عَلَيْكُمْ﴾، تقديره: لا تريب ثابت أو مستقر عليكم اليوم. وهذا الوقف أرجح في المعنى، لأن الآخر فيه حكم على مغفرة الله، اللهم إلا أن يكون ذلك بوحى.

﴿٩٣﴾ - ﴿٩٤﴾ تفسير قوله عز وجل: حُكِّمَهُ - بعد الأمر بإلقاء القميص على وجه أبيه - بأن أباه يأتي بصيراً ويؤزل عمامه - دليل على أن هذا كله بوحى وإعلام من الله تبارك وتعالى، قال النقاش: وزوي أن هذا القميص كان لإبراهيم كساه الله إياه حين خرج من النار، وكان من ثياب الجنة، وكان بغد لإسحق، ثم ليعقوب، ثم كان دفعه ليوسف فكان عنده في حفاظ من فضة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله يحتاج إلى سند، والظاهر أنه قميص يوسف الذي هو بمنزلة قميص كل أحد، وهكذا تبين الغرابة في أن وجد ريحه من بغد، ولو كان من قميص الجنة لما كان في ذلك غرابة ولوجده كل أحد.

مَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا الآية. هذا منهم استنزال ليوسف، وإقرار بالذنب في ضمنه استغفار منه، و﴿مَاتَرَكَ﴾ لفظ يعم جميع التفضيل وأنواع العطايا، والأصل فيها همزتان وحُفَّت الثانية، ولا يجوز تحقيقها، والمصدر: إيثار.

وخاطئين: من خطيء يخطأ، وهو المتعمد للخطي، والمُخْطِئ: من أخطأ وهو الذي قصد الصواب فلم يوفق إليه، ومن ذلك قول الشاعر - وهو أمية بن الأكر -:

وَإِنْ مُهَاجِرَيْنِ تَكَلَّفَا
عُدَّةً عَدَّ لَقَدْ خَطَا وَخَابَا
وقوله: ﴿لَا تَرِيبَ عَلَيْكُمْ﴾ عفو جميل، وقال عكرمة: «أوحى الله إلى يوسف: بعفوك عن إخوتك رفعت لك ذكرك». وفي الحديث أن أبا سفيان بن الحارث، وعبدالله بن أمية لما وردا مهاجرين على رسول الله ﷺ أعرض عنهما لِقُبْحِ فعلهما معه قبل، فشق ذلك عليهما وأتيا أبا بكر رضي الله عنه فكلفاه الشفاعة، فأبى، وأتيا عمر رضي الله عنه فكذلك، فذهب أبو سفيان بن الحارث إلى ابن عمه علي رضي الله عنه، وذهب عبدالله إلى أخته أم سلمة، فقال علي رضي الله عنه: الرأي أن تلتقيا رسول الله ﷺ في الحفل فتصيحان به: «تالله لقد أترك الله علينا وإن كنا لَخَاطِئِينَ»، فإنه لا يرضى أن يكون دون أحد من الأنبياء، فلا بد لذلك أن يقول: «لا تشريب عليكما»، ففعلا ذلك، فقال لهما رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَرِيبَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

والتشريب: اللوم والمقوبة وما جرى

كأنه قال: أبتك لغير يوسف أو أنت يوسف؟ وحكى أبو عمرو الداني: إن في قراءة أبي بن كعب: ﴿أَوْ أَنْتَ يُوسُفُ﴾. وتأولت فرقة ممن قرأ: ﴿إِنَّكَ﴾ أنها استفهام بإسقاط حرف الاستفهام، فأجابهم يوسف كاشفاً أمره، قال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَحِي﴾، وقال مجاهد: أراد: من يتق في ترك المعصية ويصبر في السجن، وقال إبراهيم النخعي: من يتق الزنى ويصبر على العزوبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومقصد اللفظ إنما هو العموم في العظائم، وإنما قال: «هذان ما خصصنا» لأنها كانت من نوازل، ولو فرضنا نزول غيرها به لائق وصبر.

وقرأ الجمهور: ﴿يَتَّقِ﴾ بغير ياء، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿يَتَّقِي﴾ بإثبات الياء، واختلف في وجه ذلك - فقيل: قدر الياء متحركة وجعل الجزم في حذف الحركة، كما قال الشاعر:

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تُلْجِي
بِمَا لَأَتَتْ أَبَوْنِ بَنِي زِيَادٍ؟
قال أبو علي: وهذا مما لا نحمله عليه، لأنه يجيء في الشعر لا في الكلام، وقيل: ﴿مَنْ﴾ بمعنى الذي، و﴿يَتَّقِي﴾ فعل مرفوع، و﴿وَيَصْبِرُ﴾ عطف على المعنى، لأن ﴿مَنْ﴾ وإن كانت بمعنى الذي ففيها معنى الشرط، ونحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ذَكَرْكَ وَأَكَّنْ﴾، وقيل: أراد: «يصبر» بالرفع، لكنه سكن الراء تخفيفاً، كما قرأ أبو عمرو: ﴿وَيَأْتُرْكُمْ﴾ بإسكان الراء.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتفنيذ يقع إما لجهل المُفَنِّد، وإما لهوى غلبه، وإما لكذبه، وإما لضعفه وعجزه لذهاب عقله وهرمه، فلهذا فسر الناس التفنيذ في هذه الآية بهذه المعاني، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أَوْ هَرِمًا مُفَنِّدًا»، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: معناه: تُسَفِّهون، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: تُجْهَلُونَ، وقال ابن جُبَيْر، وعطاء: معناه: تُكْذِبُونَ، وقال ابن إسحق: معناه: تُضَعِّفُونَ، وقال ابن زيد، ومجاهد: معناه: تقولون ذهب عقلك، وقال الحسن: معناه: تهرمون.

والذي يشبه أن تفنيدهم ليعقوب عليه السلام إنما كان لأنهم كانوا يعتقدون أن هواء قد غلبه في جانب يوسف عليه السلام، قال الطبري: أصل التفنيذ الإفساد.

وقولهم: ﴿لَبَّى مَكَلًا﴾ يريدون: ائْتِكَاكِ وَتَحْيِرِكَ، وليس هو بالضلال الذي هو في الشرف ضد الرشاد، لأن ذلك من الجفاء الذي لا يسوغ لهم مواجهته به، وقد تأوله بعض الناس على ذلك، ولهذا قال قتادة رحمه الله: قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله عليه السلام. وقال ابن عباس: المعنى: لفي خطئك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان حزن يعقوب قد تجدد بقصة (بنيامين)، فلذلك يقال له: ذو الحزنين.

﴿٩٦﴾ - ﴿٩٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُؤِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

ورُوي أنه كان بينهما ثمانون فرسخاً، قاله الحسن، وابن جريج، قال: وقد كان فارقه قبل ذلك سبعاً وسبعين سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قريب من الأول. ورُوي أنه كان بينهما مسيرة ثلاثين يوماً، قاله الحسن بن أبي الحسن، ورُوي عن أبي أيوب الهوزني أن الريح استأذنت في أن توصل عرف يوسف إلى يعقوب، فأذن لها في ذلك، وكانت مخاطبة يعقوب هذه لحاضريه، ورُوي أنهم

كانوا حَفَدَتُهُ، وقيل: كانوا بعض بنيه، وقيل: كانوا قرابته.

و﴿تُنَزِّلِينَ﴾ معناه: تَرُدُّونَ رأيي وتُدفعون في صدري، وهذا هو التفنيذ في اللغة، ومن ذلك قول الشاعر:

يَا عَاذِلِي دَعَا لَوْيِي وَتَفْنِيذِي
فَلَيْسَ مَا قَاتَ مِنْ أَمْرِي بِمَزْدُودِ
ويقال: «أَفَنَدَ الدهر فلاناً» إذا أفسده، قال ابن مقبل:

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ مَا أَرَادَ فَإِنَّهُ
إِذَا كَلَّفَ الْإِنْسَانَ بِالنَّاسِ أَفْنَدَا
ومما يعطي أن المُفَنِّد: الفساد في الجملة قول النابتة:

إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ الْإِلَهُ لَهُ
قُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ فَاخْذُهَا عَنِ الْفَنْدِ
وقال منذر بن سعيد: يقال: شيخ مُفَنِّدٌ، أي قد فسد رأيه، ولا يقال:

فَلَمَّا جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعُنَا أَنْسَافٌ لَنَا ذُنُوبًا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَّحَى إِلَيْهِ أَبُوئِهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوتِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتُ هَذَا بَيْتًا بَيْنَ يَدَيْ رُبِّي قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدُنْهُمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

٢٤٧

وأما «أَلْقَاهُ» فُرُوي أنهم كانوا ثمانين نسمة، وقيل: ستة وسبعين نفساً بين رجالٍ ونساء، وفي هذا العدد دخلوا مصر ثم خرج منها أعقابهم مع موسى في ستمائة ألف، وذكر الطبري عن السدي أنه لما كشف أمره لإخوته سألهم عن أبيهم: ما حاله؟ فقالوا: ذهب بصره من البكاء، فحينئذ قال لهم: «اذْهَبُوا بِبَيْتِي» الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْيَهُودَ﴾ الآية. معناه: فصلت العير من مصر متوجهة إلى موضع يعقوب حسبما اختلف فيه، فقيل: كان على مقربة من بيت المقدس، وقيل: كان بالجزيرة، والأول أصح، لأن آثارهم وقبورهم حتى الآن هناك، ورُوي أن يعقوب وجد ريح يوسف وبينه وبين القميص مسيرة ثمانية أيام، قاله ابن عباس، وقال: هاجت ريح فحملت عَرْفَهُ،

عجوز.

أَن البشير كان يهوذا لأنه كان جاء بقميص الدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حدثني أبي رضي الله عنه قال: سمعت الواعظ أبا الفضل بن الجوهري على المنبر بمصر يقول: **﴿إِنْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَا قَالَ: ﴿أَذْكَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾ قَالَ يَهُودًا: قَدْ عَلِمْتُ أَنِّي ذَهَبْتُ إِلَيْهِ بِقَمِيصِ الشَّرْحَةِ فَدَعُونِي أَذْهَبْ إِلَيْهِ بِقَمِيصِ الْفَرْحَةِ، فَتَرَكُوهُ وَذَلِكَ. وَقَالَ هَذَا الْمَعْنَى السَّيِّدِ.﴾**

و **﴿فَازْتَدَّ﴾** معناه: رجع هو، يقال: ارتدَّ الرجل وزدَّ غيره، و **﴿بَصِيرًا﴾** معناه: مبصرًا. ثم وقفهم على قوله لهم: **﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**، وهذا - والله أعلم - هو انتظاره لتأويل الرؤيا، ويحتمل أن يشير إلى حسن ظنه بالله تعالى فقط. وزوي أنه قال للبشير: على أي دين تركت يوسف؟ قال: على الإسلام، قال: الحمد لله، الآن تمت النعمة. وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: **﴿فلما أن جاء البشير من بين يدي العير﴾**، وحكى الطبري عن بعض النحويين أنه قال: **﴿أَن﴾** في قوله: **﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾** زائدة، والعرب تزيدها أحياناً في الكلام بعد (لما) وبعد (حتى) فقط، تقول: لما جئت كان كذا، ولما أن جئت، وكذلك تقول: ما قام زيد حتى قمت، وحتى أن قمت.

وقوله: **﴿قَالُوا يَتَّكَبَرُ أَنْ سَتِغْفَرَ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾**. زوي

أَن يوسف عليه السلام لما غفر لإخوته وتحققوا أيضاً أَن يعقوب يغفر لهم قال بعضهم لبعض: ما يغني عنا هذا إن لم يغفر الله لنا، فطلبوا حيثنذ من يعقوب أَن يطلب لهم المغفرة من الله تعالى، واعترفوا بالخطأ، فقال لهم يعقوب: **﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾**، قالت فرقة: **﴿سَوْفَ نُسَوِّقُهُمْ إِلَى السُّحَرِ، وَزُوي عن محارب بن دثار أنه قال: كان لي عم يأتي المسجد، فسمع إنساناً يقول: «اللهم دعوتني فأجبت، وأجبتني فأطعت، وهذا سحرٌ فاغفر لي﴾**، فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبدالله بن مسعود، فسئل عبدالله بن مسعود عن ذلك فقال:

إِن يعقوب عليه السلام آخر بنيه إلى السحر، ويقوي هذا التأويل قولُ النبي ﷺ: **﴿ينزل ربنا كل ليلة إذا كان الثلث الآخر إلى سماء الدنيا فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يستغفرني فأغفر له...﴾** الحديث، ويقويه قوله تبارك وتعالى: **﴿رَاللَّيْلِ نَزِيلُ السَّحَرِ﴾**. وقالت فرقة: إنما سَوْفَهم يعقوب إلى قيام الليل، وقالت فرقة - منهم سعيد بن جبير -: سَوْفَهم يعقوب إلى الليالي البيض، فإن الدعاء فيهن يستجاب، وقيل: إنما أخرهم إلى ليلة الجمعة، وروى ابن عباس هذا التأويل عن النبي ﷺ، قال: **﴿أخبرهم يعقوب حتى تأتي ليلة الجمعة﴾**.

ثم رجَّاهم يعقوب عليه السلام بقوله: **﴿إِنَّهُمْ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**.

وقوله: **﴿فَلَمَّا دَخَلُوا﴾** الآية. ها هنا محذوفات يدل عليها الظاهر، وهي: فرحل يعقوب بأهله أجمعين وساروا حتى بلغوا يوسف، فلما دخلوا عليه. و **﴿وَأَوْرَثَ﴾** معناه: ضَمَّ وأظهر الحفاوة بهما، وفي الحديث: **﴿أَنَا أَحَدُهُم فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَأَوَاهُ اللَّهُ﴾**. وقيل: أراد بالأبوين أباه وأمه، قاله ابن إسحق، والحسن، وقال بعضهم: أباه وجدته أم أمه، حكاه الزهراوي، وقيل: أباه وخالته، لأن أمه قد كانت ماتت، قاله السدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أظهر بحسب اللفظ، إلا لو ثبت بسند أن أمه قد كانت ماتت، وفي مصحف ابن مسعود: **﴿أَوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ وَإِخْوَتُهُ﴾**.

وقوله: **﴿أَدْخَلُوا بِضْرَ﴾** معناه: تمكنوا واسكنوا واستقروا، لأنهم قد كانوا دخلوا عليه، وقيل: بل قال لهم ذلك في الطريق حين تلقاهم، قاله السدي، وهذا الاستثناء هو الذي ندب إليه القرآن أَن يقوله الإنسان في جميع ما ينفذه بقوله في المستقبل، وقال ابن جريج: هذا مؤخر في اللفظ وهو متصل في المعنى بقوله: **﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾**.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا التأويل ضعف.

و **﴿الْمُلْكِ﴾**: سرير المُلْك، وكل ما عُرِّشَ فهو عريش وعرش، وخصصت اللغة العرش لسرير المُلْك. و **﴿خَرَّأَ﴾** معناه: تصوبوا نحو الأرض، واختلف في هذا

النعمة بسكون الحاضرة، وكان منزل يعقوب عليه السلام بأطراف الشام في بادية فلسطين، وكان ربّ إبل وغنم وبادية.

﴿وَنَزَعَ﴾ معناه: فَعَلَ فعلاً أفسد به، ومنه قول النبي ﷺ: «لَا يُشْرِزُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ، لَا يَنْزِعُ الشَّيْطَانُ فِي يَدِهِ»، وإنما ذكر يوسف هذا القدر من أمر إخوته ليُبين حسن موقع النعم، لأن النعمة إذا جاءت إثر شدة وبلاء فهي أحسن موقعاً.

وقوله: «لَمَّا بَشَأَ﴾ أي: من الأمور أن يفعله.

واختلف الناس في: كم كان بين رؤيا يوسف وبين ظهورها؟ فقالت فرقة: أربعون سنة، هذا قول سليمان الفارسي، وعبدالله بن شداد، وقال عبدالله بن شداد: ذلك آخر ما تبطئ الرؤيا، وقالت فرقة - منهم الحسن، وحسن بن فرقد، وفضيل بن عياض -: ثمانون سنة، وقال ابن إسحق: ثمانية عشر، وقيل: اثنان وعشرون، قاله النقاش، وقيل: ثلاثون، وقيل: خمس وثلاثون، وقيل: إن يوسف عليه السلام عمّر مائة وعشرين سنة، وقيل: إن يعقوب بقي عند يوسف نيفاً على عشرين سنة ثم توفي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا وجه في ترك تعريف يوسف أباه بحاله منذ خرج من السجن إلى العيزة إلاّ الوحي من الله تعالى لما أراد أن يمتحن به يعقوب وبنيه، وأراد من

من لا يضررك ولا ينفعك؟ قال: يا ربّ، ذنب فاغفره. وقال أبو عمرو الشيباني: تقدم يوسف يعقوب في المشي في بعض تلك المواطن، فهبط جبريل فقال له: أتتقدم أباك؟ إن عقوبتك لذلك ألا يخرج من ذُرَيْتِكَ نبي.

﴿تفسير قوله عز وجل﴾:

المعنى: قال يوسف ليعقوب: هذا السجود الذي كان منكم هو ما آلت إليه رؤياي قديماً في الأحد عشر كوكباً وفي الشمس والقمر.

وقوله: «قَدْ جَعَلْنَا رِبِّيَ حَقًّا﴾ ابتداءً تعديد نعم الله تعالى عليه، وقوله: «وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ أي: أوقع وناط إحسانه بي، فهذا منحى في وصول الإحسان بالباء، وقد يقال: أَحْسَنَ إِلَيَّ، وأحسن في، ومنه قول عبدالله بن أبي ابن سلول: يا محمد، أحسن في موالي، وهذه المناحي مختلفة المعنى، وأليقها بيوسف قوله: «بِي﴾ لأنه إحسان خُرج فيه دون أن يقصد هو الغاية التي صار إليها.

وذكر يوسف إخراجه من السجن وترك إخراجه من الحب لوجهين:

أحدهما أن في ذكر إخراجه من الحب تجديد فعل إخوته وخزيهم بذلك وتقليع نفوسهم وتحريك تلك الغوائل وتخثيث النفوس.

والوجه الآخر أنه خرج من الحب إلى الرق ومن السجن إلى الملك، فالنعمة هنا أوضح.

وقوله: «وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ يعم جمع الشمل والتنقل من الشقاوة إلى

السجود، فقيل: كان كالمعهود عندنا من وضع الجبهة بالأرض، وقيل: بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه مما كان سير تحياتهم للملوك في ذلك الزمان. وأجمع المفسرون أن ذلك السجود - على أي هيئة كان - فإنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة، وقال الحسن: الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ لله عز وجل. ورُدَّ على هذا القول.

وحكى الطبري أن يعقوب لما بلغ مصر في جملة كلم يوسف عليه السلام فرعون في تلقيه، فخرج إليه وخرج الملوك معه، فلما دنا يوسف من يعقوب - وكان يعقوب يمشي متوكئاً على يهودا - قال: فنظر يعقوب إلى الخيل والناس فقال: يا يهودا، هذا فرعون مصر، قال: لا، هو ابنك، قال: فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدؤ بالسلام، فمنعه يعقوب من ذلك، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل، فقال: السلام عليك يا مُذْهِبَ الْأَحْزَانِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونحو هذا من القصص.

وفي هذا الوقت قال يوسف ليعقوب: إن فرعون قد أحسن إلينا فادخل عليه شاكرًا، فدخل عليه، فقال فرعون: يا شيخ، ما صيرك إلي ما أرى؟ قال: تتابع البلاء عليّ، قال: فما زالت قدمه حتى نزل الوحي: يا يعقوب، أُنْشِكُونِي إِلَى

صورة جمعهم، لا إله إلا هو، وقال النفاش: كان ذلك الوحي في الجب، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَرْجِنَا إِلَيْنَا لَنُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وهذا محتمل.

ومما روي في أخبار يعقوب عليه السلام: قال الحسن: لما ورد البشير لم يجد عنده شيئاً يشبه به، فقال له: والله ما أصبت عندنا شيئاً، وما خبزنا منذ سبع ليال، ولكن: ﴿هَوْنُ اللَّهِ عَلَيْكَ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ﴾. ومن أخباره أنه لما اشتد بلاؤه قال: يا رب، أعميت بصري وغَيَّبْتَ عَنِّي يوسف، أما ترحمني؟ فأوحى الله إليه: سوف أرحمك وأرُدُّ عليك ولدك وبصرك، وما عَاقَبْتُكَ بِذَلِكَ إِلَّا أَنكَ طَبَخْتَ فِي مِزْلِكَ حَمَلًا، فشمه جَارٌ لَكَ، ولم تساهمه بشيء، قال: فكان يعقوب بغد يدعوهُ إلى غذائه وعشائه. وحكى الطبري أنه لما اجتمع شمله كلفه بنوه أن يدعو الله لهم حتى يأتي الوحي بأن الله قد غفر لهم، قال: فكان يعقوب يصلي ويوسف وراءه وهم وراء يوسف، ويدعو لهم، فلبث كذلك عشرين سنة ثم جاءه الوحي: إني قد غفرت لهم وأعطيتهم مواثيق النبوة بعدك.

ومن أخباره أنه لما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يدفنه بالشام، فلما مات نفخ فيه المُرَّ وحمله إلى الشام، ثم مات يوسف فدفن بمصر، فلما خرج موسى عليه السلام - بعد ذلك - من أرض مصر احتمل عظام يوسف حتى دفنها بالشام مع آبائه.

﴿١٠١﴾ - ﴿١٠٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن مسعود: ﴿آتَيْنِي﴾ و

﴿عَلَّمْتَنِي﴾ بحذف الياء على التخفيف، وقرأ ابن ذرّ وحده: ﴿رَبِّ آتَيْنِي﴾ بغير «قد».

وذكر كثير من المفسرين أن يوسف عليه السلام لما عدّد في هذه الآية نعم الله عنده تشوّق إلى ربه ولقاء الجِلَّة من صالحي سلفه وغيرهم من المؤمنين، ورأى أن الدنيا كلها قليلة، فتمنى الموت في قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِينَ﴾.

وقال ابن عباس: «لم يتمن الموت نبي غير يوسف»، وذكر المهدوي تأويلاً آخر - وهو الأقوى عندي - : إنه ليس في الآية تمنى موت، وإنما عدّد يوسف عليه السلام نعم الله عنده، ثم دعا أن يتم عليه النعم في باقي عمره، أي: توفني - إذا حان أجلي - على الإسلام، واجعل لحاتي بالصالحين، وإنما تمنى الموافاة على الإسلام لا الموت. وورد عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَسْتَمْتِنُ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِيُضْرَ نَزْلُ بِهِ...» الحديث بكامله، وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال في بعض دعائه: «وإذا أردت في الناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»، وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قاله: «اللهم قد رُقَّ عظمي، واستشترت رغبتي، فتوفني غير مقصر ولا عاجز».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيشبه أن قول النبي ﷺ: «لِيُضْرَ نَزْلُ بِهِ» إنما يريد به ضرر الدنيا كالفقر والمرض ونحو ذلك، ويبقى تمنى الموت مخافة فساد الدين مباحاً، ويدل ذلك على ذلك قول النبي ﷺ:

«يأتي على الناس زمان يمر فيه الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، ليس به الدين ولكن ما يرى من البلاء والفتن»، فقوله: «ليس به الدين» يقتضي إباحة ذلك إن لو كان عن الدين، وإنما ذكر رسول الله ﷺ حالة الناس كيف تكون.

وقوله: ﴿هَاتَيْنِي مِنَ الْكُلِّ﴾، قيل: ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، وقيل: لبيان الجنس، كذلك في قوله: ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، والمراد بقوله: ﴿الْأَحَادِيثِ﴾: الأحلام، وقيل: قصص الأنبياء والأمم.

وقوله: ﴿فَاطِرُ﴾ منادى، وقوله: ﴿أَنْتَ وَلِيِّي﴾ أي القائم بأمرى، الكفيل بنصرتي ورحمتي.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنَ أَنْبَاءِ النَّبِيِّ﴾ الآية. «ذلك» إشارة إلى ما تقدم من قصة يوسف، وهذه الآية تعريض لقريش، وتنبيه على آية صدق محمد ﷺ، وفي ضمن ذلك الطعن على مكذبيه. والضمير في ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عائد إلى إخوة يوسف، وكذلك الضمائر إلى آخر الآية. و﴿وَجَمَعُوا﴾ معناه: عزموا وجزموا، و«الأمر» هنا هو إلقاء يوسف في الجب، و«المكر» هو أن تدبر على الإنسان تدبيراً يضره ويؤذيه، والخديعة هي أن تفعل بإنسان وتقول له ما يوجب أن يفعل هو فعلاً فيه عليه ضرر. وحكى الطبري عن أبي عمران الجوني أنه قال: «والله ما قص الله نبأهم ليعبرهم بذلك، إنهم لأنبياء من أهل الجنة، ولكن قص الله علينا نبأهم لثلاث يقنط عبيده».

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمُ﴾ الآية. قال ابن عباس: هي في أهل الكتاب الذين يؤمنون بالله ثم يشركون من حيث كفروا بنبيه، أو من حيث قالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وقال عكرمة، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: هي في كفار العرب، وإيمانهم هو إقرارهم بالخالق والرازق والمميت، فسماه إيماناً وإن أعقبه إشراكهم بالأوثان والأصنام، فهذا الإيمان لغوي فقط من حيث هو تصديق ما. وقيل: هذه الآية نزلت بسبب قول قريش في الطواف والتلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك، وروي أن النبي ﷺ كان إذا سمع أحدهم يقول: «لا شريك لك»، يقول له: «قط قط»، أي: قف هنا ولا تزدد: «إلا شريك هو لك».

و «الغاشية»: ما يغشى ويغطي ويغم، وقرأ أبو حفص، وبشر بن عبيد: ﴿أَوْ يَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ بالياء و«بَغْتَةً» معناها: فجأة، وذلك أصعب.

وهذه الآية من قوله: ﴿وَكَايْنِ﴾ وإن كانت في الكفار بحكم ما قبلها، فإن العصاة يأخذون من ألفاظها بحظ، ويكون الإيمان والشرك لغوياً كالرياء، فقد قال ﷺ: «الرياء الشرك الأصغر».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ الآية، إشارة إلى دعوة الإسلام والشرعية بأسرها، قال ابن زيد: المعنى: هذا أمري وسئستي ومنهاجي. وقرأ ابن مسعود: ﴿قُلْ

لجميع العالم، نفنعا الله به، ووفر حظنا منه بعزته. وقرأت الجماعة: ﴿وَكَايْنِ﴾ بهمز الألف وشد الياء، قال سيبويه: هي كافي التشبيه اتصلت بـ (أي)، ومعناها معنى (كم) في التكشير، وقرأ ابن كثير: ﴿وَكَايْنِ﴾ بمد الألف وهمز الياء، وهو اسم الفاعل من (كان) فهو كائن، ولكن معناه معنى (كم) أيضاً. وقد تقدم استيعاب القراءات في هذه الكلمة في قوله: ﴿وَكَايْنِ﴾ مِنْ نَحْوِ تَكَلُّفٍ.

و «الآية» هنا: المخلوقات المنصوبة للاعتبار، والحوادث الدالة على الله سبحانه في مصنوعاته، ومعنى ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ الآية: إذا جاء منها ما يُحْسَنُ أو يعلم في الجملة لم يتعظ الكافر به، ولا تأمله، ولا اعتبر به بحسب شهوته وعتمه، فهو - لذلك - كالْمُغْرَضِ، ونحو هذا المعنى قول الشاعر:

تَمُرُّ الصَّبَا صَفْحاً بِسَاكِنِي ذِي الْعُصَا
وَيَضْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهْبُ هَبْوْبُهَا
وقرأ السدي: ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالنصب بإضمار فعل، والوقف - على هذا - في ﴿السَّعَاتِ﴾، وقرأ عكرمة، وعمرو بن فائد: ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالرفع على الابتداء، والخبر قوله: ﴿يَمُرُّونَ﴾، وعلى القراءة بخفض ﴿الْأَرْضِ﴾ فـ ﴿يَمُرُّونَ﴾ نعمت لـ «الآية»، وفي مصحف عبدالله: ﴿وَالْأَرْضِ يمشون عليها».

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٢﴾
وَكَايْنِ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٤﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَنْ تُاتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٥﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَسِيرُونَ ﴿١٠٧﴾ فِي الْأَرْضِ يَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٨﴾ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُفِخَ مِنْ شَآءٍ وَلَا يَرَوْا بَاسُئَاعَيْنِ الْقَوْمِ الْمَظْمُونِ ﴿١٠٩﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١٠﴾

٢٤٨

﴿١٠٢﴾ - ﴿١١٠﴾ تفسير قوله عز وجل: هاتان الآيتان تدلان على أن الآية التي قبلها فيها تعريض لقريش ومعاصري محمد ﷺ، كأنه قال: فأخبارك بالغيوب دليل قائم على نبوتك، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون وإن كنت أنت حريصاً على إيمانهم، أي: إنما يؤمن من شاء الله، وقوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراض فصيح.

وقوله: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ﴾ الآية، توبيخ للكفرة، وإقامة للْحُجَّةِ عليهم، أي: ما أسفهم في أن تدعوهم إلى الله دون أن تبتغي منهم أجراً فيقول: قائل: بسبب الأجر يدعوهم، وقرأ مبشر بن عبيد: ﴿وَمَا نَسْأَلُهُمْ﴾ بالنون.

ثم ابتدأ الله تبارك وتعالى الإخبار عن كتابه العزيز أنه ذكر وموعظة

هَذَا سَبِيلِي»، والسبيل: المسلك، وتَوَثَّئْتُ وتَذَكَّرْتُ، وكذلك الطريق.

و «الْبَصِيرَةُ»: اسم لمعتقد الإنسان في الأمر من الحق واليقين، والبصيرة أيضاً - في كلام العرب -: الطريقة من الدَّم، وفي الحديث المشهور: «تَنْظُرُ فِي الثُّصُلِ فَلَا تَرَى بَصِيرَةً»، وبها فُسِّرَ بعض الناس قول الأشعر الجُعْفِي:

رَاحُوا بِصَايِرِهِمْ عَلَى أَكْثَانِهِمْ
وَبَصِيرَتِي يَغْدُو بِهَا عَيْدٌ وَأَيُّ
يُصِفُ قَوْمًا بَاعُوا دَمَ وَلِيِّهِمْ، فَكَأَنَّ
دَمَهُ حَصَلَتْ مِنْهُ طَرَائِقُ عَلَى أَكْثَانِهِمْ
إِذْ هُمْ مُوسِمُونَ عِنْدَ النَّاسِ بِبَيْعِ
ذَلِكَ الدَّمِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويجوز أن تكون البصيرة في بيت الأشعر على المعتقد الحق، أي: جعلوا اعتقادهم طلب الشار وبصيرتهم في ذلك وراء ظهورهم، كما تقول: طرح فلان أمري وراء ظهره.

وقوله: «أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي» يحتمل أن يكون تأكيداً للضمير في «أَدْعُوا»، ويحتمل أن تكون الآية كلها أمارة بالمعروف داعية إلى الله الكفرة به والعصاة. و«سُبْحَنَ اللَّهِ» تنزيه لله، أي وقل: سبحان الله، وقل متبرئاً من الشرك.

وروي أن هذه الآية «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي» إلى آخرها كانت مرقومة على رايات يوسف عليه السلام.

(١٠٩) - (١١٠) تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تتضمن الرذ على مستغربي إرسال الرسل من البشر،

كالطائفة التي قالت: «أَيْمَنَ اللَّهُ بِشَرِّكَ رَسُولًا»، والطائفة التي اقترحت ملكاً، وغيرهما.

وقرأ الجمهور: «يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ» بالياء وفتح الحاء، وهي قراءة عاصم في رواية أبي بكر، وقرأ في رواية حفص: «فُوحَىٰ» بالنون وكسر الحاء، وهي قراءة أبي عبد الرحمن، وطلحة.

و «الْقُرَى»: المدن، وخصصها دون القوم المنتوين أهل العمود، فإنهم في كل أمة أهل جفاء وجهالة مفرطة، قال ابن زيد: أهل القرى أعلم وأحلَم من أهل العمود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإنهم قليل نبيلهم، ولم يُنَبِّئْهُ الله منهم قط رسولاً. وقال الحسن: لم يبعث الله رسولاً قط من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتَّبْدِي مكرهه إلا في الفتن وحين يُفَرُّ بالدين، كقوله عليه الصلاة والسلام: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً...» الحديث. وفي ذلك أذن رسول الله ﷺ لِسَلَمَةَ بن الأَكْوَع. وقد قال ﷺ: «لَا تَعْرُبُ فِي الْإِسْلَامِ»، وقال: «مَنْ بَدَا جَفَاً»، وروى عنه معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: «الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية، فيأياكم والشعاب، وعليكم بالمساجد والجماعات والعامّة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا يبدو يعقوب، وينفصل عن ذلك بوجهين:

أحدهما: أن ذلك البدو لم يكن في أهل عمود، بل هو بَقَرٌ وفي منازل وربوع، والثاني: أنه إنما جعله بدواً بالإضافة إلى مصر، كما هي بنات الحواضر بدو بالإضافة إلى الحواضر.

ثم أحالهم على الاعتبار في الأمم السالفة في أقطار الأرض التي كذبت رسلها فحاق بها عذاب الله، ثم حض على الآخرة والاستعداد لها والاتقاء من الموبقات فيها، ثم وقفهم موبخاً بقوله: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

وقوله: «وَلَدَارُ الْآخِرَةِ» زيادة في وصف إنعامه على المؤمنين، أي: عَذَّبَ الكفار ونَجَّى المؤمنين ولدار الآخرة أحسن لهم.

وأما إضافة الدار إلى الآخرة فقال الفراء: هي إضافة الشيء إلى نفسه، كما قال الشاعر:

فإِنَّكَ لَوْ خَلَلْتَ دِيَارَ عَنَسٍ
عَرَفْتَ الذَّلَّ عَرَفَانِ الْيَقِينِ
وفي رواية: «فَلَوْ أَفَوْتُ عَلَيْكَ دِيَارَ عَنَسٍ» - وكما يقال: «مسجد الجامع» ونحو هذا، وقال البصريون: هذه على حذف مضاف تقديره: «ولدار الحياة الآخرة»، أو «المدّة الآخرة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الأسماء التي هي للأجناس كمسجد وثوب وحق وجبل ونحو ذلك - إذا نطق بها الناطق لم يُدْرَ ما يريد بها فتضاف إلى مُعْرِفٍ مُخَصَّصٍ للمعنى

المقصود، فقد تضاف إلى جنس آخر كقولك: «تَوْبُ خَزٍّ»، و «جَبَلُ تَرَابٍ»، وقد تضاف إلى صفة كقولك: «مَسْجِدُ الجامع» و «حَقُّ اليقين»، وقد تضاف إلى اسم خاص كقولك: «جَبَلُ أُحُدٍ» ونحوه.

وقرأ الحسن، والأعمش، والأعرج، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وعلقمة: «يَغْفِلُونَ» بالياء، واختلف عن الأعمش، قال أبو حاتم: قراءة العامة: «أَفْكَ تَغْفِلُونَ» بالثاء من فوق.

ويتضمن قوله: «أَفْكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» أن الرسل الذين بعثهم الله من أهل القرى دعوا أممهم فلم يؤمنوا بهم حتى نزلت بهم المثلثات، فصاروا في حيز من يُعتبر بعاقبته، فلهذا المُضمَّن حَسَنٌ أن تدخل «حتى» في قوله: «حَقٌّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ».

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والحسن، وعائشة - بخلاف - وعيسى، وقتادة، ومحمد بن كعب، والأعرج، وأبو رجاء، وابن أبي مَلَيْكَةَ: «كَذَّبُوا» بتشديد الذال وضم الكاف، وقرأ الباقر: «كَذَّبُوا» بضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها، وهي قراءة علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطلحة، والأعمش، وابن جبير، ومسروق، والضحاك،

وإبراهيم، وأبي جعفر، ورواها شيبه بن نصاح عن القاسم عن عائشة، وقرأ مجاهد، والضحاك، وابن عباس، وعبدالله بن الحارث - بخلاف عنهم -: «كَذَّبُوا» بفتح الكاف والذال.

فأما الأولى فتحتمل أن يكون الظن بمعنى اليقين، ويكون الضمير في «ظَنُّوا» وفي «كَذَّبُوا» الرسل، ويكون المكذبون مشركي من أرسل إليه، والمعنى: وتيقَّن الرسل أن المشركين كذبوهم وصمموا على ذلك، وأن لا انحراف عنه. ويحتمل أن يكون الظن على بابه، والضميران للرسل، والمكذبون مؤمن من أرسل إليه، أي: لما طالَّت المواعيد حسب الرسل أن المؤمنين أولاً قد كذبوهم وارتابوا بقولهم.

وأما القراءة الثانية - وهي ضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها - فيحتمل أن يكون المعنى: حتى إذا استيأس الرسل من النصر، أو من إيمان قومهم - على اختلاف تأويل المفسرين في ذلك - وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما ادَّعَوْه من النبوة، أو فيما توعدوهم به من العذاب، لما طال الإمهال واتصلت العافية، فلما كان المرسل إليهم - على هذا التأويل - مكذبين، بني الفعل للمفعول في قوله: «كَذَّبُوا»، هذا مشهور قول ابن عباس، وابن جبير. وأسند الطبري أن مسلم بن يسار قال لسعيد بن جبير: يا أبا عبدالله، آية بلغت مني كل مَبْلَغ،

«حَقٌّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا»، فهذا هو أن تظن الرسل أنهم قد كذبوا مخففة، فقال له ابن جبير: «يا أبا عبدالرحمن، إنما ينس الرسل من قومهم أن يجيبوهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبتهم، فحينئذ جاء النصر»، فقام مسلم إلى سعيد فاعتنقه وقال: فَرَّجت عني فَرْجَ الله عنك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فرضي الله عنهم، كيف كانت خلقهم في العلم، وقال بهذا التأويل - في هذه القراءة - ابن مسعود ومجاهد، ورجح أبو علي الفارسي هذا التأويل، وقال: إن ردَّ الضمير في «ظَنُّوا» وفي «كَذَّبُوا» على المرسل إليهم - وإن كان لم يتقدم لهم ذكرٌ صريح - جائز لوجهين:

أحدهما: أن ذكر الرسل يقتضي ذكر مرسل إليه.

والآخر: أن ذكرهم قد أشير إليه في قوله: «عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

وتحتمل هذه القراءة أيضاً أن يكون الضمير في «ظَنُّوا» وفي «كَذَّبُوا» عائد على الرسل، والمعنى: كَذَّبَهُم من أخبرهم عن الله، والظن على بابه، وحكى هذا التأويل قوم من أهل العلم، والرسل بشرٌ، فضعفوا وساء ظنهم، قاله ابن عباس: وابن مسعود أيضاً: وابن جبير وقال: ألم يكونوا بشرأ؟ وقال ابن مسعود لمن سأله عن هذا: «هو الذي نكَّره»، وردَّت هذا التأويل عائشة أم المؤمنين

رضي الله عنها وجماعة من أهل العلم، وأعظموا أن توصف الرسل بهذا، وقال أبو علي الفارسي: «هذا غير جائز على الرسل».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الصواب، وأين العصمة والعلم؟

وأما القراءة الثالثة، وهي فتح الكاف والذال، فالضمير في ﴿ظَنُّوا﴾ للمرسل إليهم، والضمير في ﴿كَذَّبُوا﴾ للمرسل. ويحتمل أن يكون الضميران للمرسل، أي: ظن الرسل أنهم قد كذبوا من حيث نقلوا الكذب وإن كانوا لم يتعمدوه، فيرجع هذا التأويل إلى المعنى المردود الذي تقدم ذكره.

وقوله: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: بتعذيب أممهم الكافرة.

ثم وصف حال مجيء العذاب في أنه ينجي الرسل وأتباعهم، وهم الذين شاء رحمتهم، ويحل بأسه بالمجرمين الكفرة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿فَتُنَجِّي﴾ بنونين، من أنجي. وقرأ الحسن: ﴿فَتُنَجِّي﴾، النون الثانية مفتوحة والجيم مشددة، وهو من نجى يُنَجِّي. وقرأ أبو عمرو أيضاً وقشادة: ﴿فَتُنَجِّي﴾ بنون واحدة وشُدَّ الجيم وسكون الياء، فقالت فرقة: إنها كالأولى أدغمت النون الثانية في الجيم، ومنع بعضهم أن يكون هذا موضع إدغام لتنافر النون والجيم في الصفات لا في المخارج، وقال: إنما حذفت

النون في الكتابة لا في اللفظ، وقد حكيت هذه القراءة عن الكسائي، ونافع، وقرأ عاصم، وابن عامر: ﴿فَتُنَجِّي﴾ بفتح الياء، على وزن فُعْلٌ، وقرأت فرقة: ﴿فَتُنَجِّي﴾ بنونين وفتح الياء، رواها هبيرة عن حفص عن عاصم، وهي غلط من هبيرة. وقرأ ابن محيصن، ومجاهد: ﴿فَتُنَجَّا﴾ فعل ماض بتخفيف الجيم، وهي قراءة نصر بن عاصم، والحسن بن أبي الحسن، وابن السميع، وأبي حنيفة. قال أبو عمرو الذاني: «وقرأت لابن محيصن: ﴿فَتُنَجِّي﴾ بشد الجيم»، على معنى: فَنَجَّى النصر.

و «البأس»: العذاب، وقرأ أبو حنيفة: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ بالياء، وجاء الإخبار عن هلاك الكافرين بقوله: ﴿وَلَا يَرْجُوا نَجَاً﴾ الآية، إذ في هذه الألفاظ وعيد بين، وتهديد لمعاصري محمد عليه الصلاة والسلام، وقرأ الحسن: ﴿بِأَسْءُ﴾ بالهاء.

﴿١١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿فَصَمِّمُ﴾ عام ليوسف وأبويه وإخوته وسائر الرسل الذين ذكروا على الجملة، ولما كان ذلك كله في القرآن قال عنه: ﴿مَا كَانَ حَبِيبًا يُفْتَرَى﴾، فإذا تأملت قصة يوسف ظهر أن في غرائبها، وامتحان الله فيها لقوم في مواضع، ولطيفه لقوم في مواضع، وإحسانه لقوم في مواضع - معتبراً لمن له لُبٌّ وأجاد النظر

حتى يعلم أن كل أمر من عند الله تبارك وتعالى وإليه.

وقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ صيغة مَنع، وقرينة الحال تقتضي أن البرهان يقوم على أن ذلك لا يُفْتَرَى، وذلك بأدلة النبوة وأدلة الإعجاز.

و «الحديث» هنا واجد الأحاديث، وليس للذي هو خلاف القديم ها هنا مدخل.

ونصب ﴿تَصِدِّقُ﴾ إما على إضمار معنى كان، وإما على أن تكون ﴿لَكِنَّ﴾ بمعنى (لكن) المشددة. وقرأ عيسى الثقفي: ﴿تَصِدِّقُ﴾ بالرفع، وكذلك كل ما عطف عليه، وهذا على حذف المبتدأ، والتقدير: «هو تصديق»، وقال أبو حاتم: نصب على التقدير: «ولكن كان»، والرفع على تقدير: «ولكن هو»، ويُشَدُّ بيت ذي الرمة بالوجهين:

وما كان مَالِي مِنْ تَرَاثٍ وَرَثَتُهُ
وَلَا دِيَّةً كَانَتْ وَلَا تَحْسَبُ مَأْتَمُ
وَلَكِنْ عَطَاءُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ رِخْلَةٍ
إِلَى كُلِّ مُخْجُوبٍ الشَّرَاقِ خَضْرَمُ
رفع «عطاء الله» والنصب أجود.

و «الَّذِي يَنْ يَدَّيْ» هو الشئورة والإنجيل، والضمير في ﴿يَدَّيْ﴾ عائد على القرآن، وهو اسم [كان]، وقوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني من العقائد والأحكام والحلال والحرام.

وباقى الآية بين -
تم بمعون الله وتوفيقه تفسير سورة يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين

القرآن فالمراد بـ ﴿الَّذِي أُنْزِلَ﴾ جميع الشريعة، ما تضمنه القرآن منها وما لم يتضمنه. ويصح في ﴿الَّذِي﴾ أن يكون في موضع خفض عطفًا على ﴿الْكِتَابِ﴾، فإن أردت - مع ذلك - بـ ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن كانت الواو عطف صفة لشيء واحد، كما تقول: جاءني الطريف والعافل وأنت تريد شخصاً واحداً، ومن ذلك قول الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقُرْمِ وَابْنِ الْهَمَامِ
وَلَيْثِ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُرْدَحَمِ
وإن أردت - مع ذلك - بـ ﴿الْكِتَابِ﴾ التوراة والإنجيل فذلك بين، فإن تأولت - مع ذلك - ﴿الَّتَرْ﴾ حروف المعجم رفعت قوله: ﴿الْحَقُّ﴾ على إضمار مبتدأ تقديره: هو الحق، وإن تأولتها كما قال ابن عباس رضي الله عنهما فـ ﴿الْحَقُّ﴾ خبر ﴿يَلِكُ﴾. ومن رفع ﴿الْحَقُّ﴾ بإضمار ابتداء وقف على قوله: ﴿يَنْ رَبِّكَ﴾ وباقي الآية ظاهر إن شاء الله.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ الآية. لما تضمن قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ توبيخ الكفرة عقب ذلك بذكر الله تبارك وتعالى الذي ينبغي أن يؤمن به، وبذكر الأدلة الداعية إلى الإيمان به. والضمير في قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ قالت فرقة: هو عائد على ﴿السَّمَوَاتِ﴾ فـ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ - على هذا - في موضع الحال، وقال جمهور الناس: لا عمد للسماوات، وقالت فرقة: الضمير عائد على ﴿الْعَمَدِ﴾ فـ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ - على هذا - صفة

وذكره مكِّي بن أبي طالب.

١ - تفسير قوله عز وجل:

تقدم القول في فواتح السور وذكر التأويلات في ذلك، إلا أن الذي يخصه هذا الموضع من ذلك ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: «إن هذه الحروف من قوله: أنا الله أعلم وأرى، ومن قال: «إن حروف أوائل السور هي مثال لحروف المعجم» قال: الإشارة هنا بـ ﴿يَلِكُ﴾ هي إلى حروف المعجم، ويصح -

على هذا - أن يكون ﴿الْكِتَابِ﴾ يراد به القرآن، ويصح أن يراد به التوراة والإنجيل، و﴿الَّتَرْ﴾ - على هذا - ابتداء، و﴿يَلِكُ﴾ ابتداء ثان، و﴿يَلِكُ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأول. وعلى قول ابن عباس في ﴿الَّتَرْ﴾ تكون ﴿يَلِكُ﴾ ابتداء، و﴿يَلِكُ﴾ بدلاً منه، ويصح في ﴿الْكِتَابِ﴾ التأويلات اللذان تقدما.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾. ﴿الَّذِي﴾ رفـع بالابتداء، و﴿الْحَقُّ﴾ خبره، وعلى هذا تأويل من يرى ﴿الَّتَرْ يَلِكُ﴾ حروف المعجم، و﴿يَلِكُ﴾ و﴿يَلِكُ﴾ ابتداء وخبر، وعلى قول ابن عباس يكون ﴿الَّذِي﴾ عطفًا على ﴿يَلِكُ﴾، و﴿الْحَقُّ﴾ خبر ﴿يَلِكُ﴾، وإذا أريد بـ ﴿الْكِتَابِ﴾



تفسير سورة الرعد

هذه السورة مكية، قاله سعيد بن جبّير، وقال قتادة: هي مدنية غير آيتين: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ الآية، حكاه الزهراوي، وحكى المهدوي عن قتادة أن السورة مكية إلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، والظاهر عندي أن المدني فيها كثير، وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل، وإريد بن ربيعة فهو مدني، وقيل: السورة مدنية، حكاه مُنذِر بن سعيد البلوطي،

للعمد، وقالت هذه الفرقة: للسموات عمد غير مرتبة، قاله مجاهد، وقتادة. وقال ابن عباس: وما يدريك أنها بعمد لا تثرى، وحكى بعضهم أن العمد جبل قاف المحيط بالأرض، والسماء عليه كالقبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف، والحق ألا عمد جملة، إذ العمدة تحتاج إلى عمد، ويتسلل الأمر فلا بد من وقوفه على القدرة، وهذا هو الظاهر من قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُ الْحَمْدَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، ونحو هذا من الآيات. وقال إياس بن معاوية: السماء مقببة على الأرض مثل القبة. وفي مصحف أبي ﴿تَرْوَنَهُ﴾ بتذكير الضمير.

و «الْعَمَدُ» اسم جمع عمود، والباب في جمعه «عُمْد» بضم الحروف الثلاثة، كرسول ورسل وشهاب شُهَب، وغيره. ومن هذه الكلمة قول النابغة:

وَحَبَّرَ الْجَنُّ أَنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُمْ
يَبْنُونَ تَذُمُّرَ بِالصُّفْحِ وَالْعُمْدِ
وقال الطبري: «العمد (بفتح العين) جمع عمود، كما جمع الأديم أَدَمًا»، وليس كما قال. وفي كتاب سيبويه أن الأدم اسم جمع، وكذلك نص اللغويون على العمد، ولكن أبا عبيدة ذكر الأمر غير مُتَيَقِّنٍ فأتبعه الطبري. وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿بَغَيْرِ عُمْدٍ﴾ بضم العين.

وقوله: ﴿ثُمَّ﴾ هي هنا لعطف الجمل لا للترتيب، لأن الاستواء على العرش قبل رفع السموات، ففي

الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الله ولم يكن شيء قبل، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض».

وقد تقدم القول في كلام الناس في الاستواء، واختصاره أن أبا المعالي رجح أنه استوى بقره وغلبته، وقال القاضي ابن الطيب وغيره: «أَسْتَوَى» في هذا الموضع بمعنى: استولى، والاستيلاء قد يكون دون قهر، فهذا فرق ما بين القولين، وقال سفيان: فعل فعلاً سَمَاهُ استواء، وقال الفراء: «أَسْتَوَى» - في هذا الموضع - كما تقول العرب: «فعل زيد كذا ثم استوى إليّ يكلمني»، بمعنى أَقْبَلَ وقَصَدَ، وحكي لي عن أبي الفضل بن النحوي أنه قال: «الْعَرْشُ» - في هذا الموضع - مصدر (عَرَشَ)، فكأنه أَرَادَ جميع المخلوقات، وذكر أبو منصور عن الخليل أن العرش: المُلْكُ، وهذا يؤيد منزع أبي الفضل بن النحوي إذ قال: «العرش مصدر»، وهذا خلاف ما مشى عليه الناس من أن «الْعَرْشُ» هو أعظم المخلوقات، وهو الشخص المشهور الذي كان على الماء، والذي بين يديه الكرسي، وأيضاً فيبقى النظر على أبي الفضل في معنى الاستواء قريباً مما هو على قول الجميع. وفي البخاري عن مجاهد أنه قال: «المعنى: علا على العرش»، وكذلك هي عبارة الطبري، والنظر الصحيح يرفع هذه العبارة.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾ تنبيه على القدرة، و«الْأَمْسَ وَالْقَمَرُ» في ضمن

ذكرهما ذَكَرَ الكواكب، ولذلك قال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾، أي كل ما هو في معنى الشمس والقمر من التسخير، و (كُلٌّ) لفظة تقتضي الإضافة ظاهرة أو مقدره.

والأجل المُسَمَّى هو انقضاء الدنيا وفساد هذه البنية، وقيل: يريد بقوله: ﴿لِلْأَجَلِ مُسَمًّى﴾ الحدود التي لا تتعدها هذه المخلوقات، أي: تجري على رسوم معلومة.

وقوله: ﴿يُدِيرُّ﴾ بمعنى يَبْرُم ويُفْعَدُ، وعبر بالتدبير تقريباً للأفهام، إذ التدبير إنما هو النظر في أبعاد الأمور وعواقبها، وذلك من صفة البشر، و«الْأَمْرُ» عامٌ في جميع الأمور ومما ينقضي في كل أوان في السموات والأرض. وقال مجاهد: ﴿يُدِيرُّ الْأَمْرَ﴾ معناه يقضيه وحده. وقرأ الجمهور: ﴿يَفْعَلُ﴾ بالياء، وقرأ الحسن بنون العظمة، ورواه الخفاف وعبد الوهاب عن أبي عمرو، وهبيرة عن حفص، قال المهدي: ولم يختلفا في ﴿يُدِيرُّ﴾، وقال أبو عمرو الداني: إن الحسن قرأ بالنون فيهما، والنظر يقتضي أن قوله: ﴿يَفْعَلُ الْأَيَّاتُ﴾ ليس على حدّ قوله: ﴿يُدِيرُّ﴾ من تعديد الآيات، بل لما تعددت الآيات وفي جملتها تدبير الأمر أخبر أنه يُفْعَلُ الآيات لعل الكفرة يوقنون بالبعث، و«الْأَيَّاتُ» هنا إشارة إلى ما ذكر في الآية وبعدها.

﴿٣﴾ - ﴿٤﴾ تفسير قوله عز وجل: لما فرغت آيات السماء ذكر آيات الأرض. وقوله: ﴿هَذَا الْأَرْضُ﴾ يقتضي أنها بسيطة لا كروية، وهذا

هو ظاهر الشريعة. والرواسي: الجبال الثابتة، يقال: «رسا يرسو» إذا ثبت، ومنه قول الشاعر:

بِهْ خَالَدَاتٍ مَا يُرْتَنْنَ وَهَامِدٌ
وَأَشْعَثُ أَرْسَتْهُ الْوَلِيدَةُ بِالْفَهْرِ
وَالزُّوجُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ الصَّنْفُ
وَالنَّوْعُ، وَلَيْسَ بِالزُّوجِ الْمَعْرُوفِ فِي
الْمُتَلَاذِمَيْنِ الْفَرْدَيْنِ مِنَ الْحَيَوَانِ
وغيره، ومنه قوله: «سُبْحَنَ الَّذِي
خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا» الْآيَةِ، وَمِثْلُ
هَذِهِ الْآيَةِ: «وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا» الْآيَةِ
فِي (ق)، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَقْتَضِي أَنْ كُلِّ
ثَمَرَةٍ فَمَوْجُودٌ مِنْهَا نَوْعَانِ، فَإِنْ اتَّفَقَ
أَنْ وَجَدَ مِنْ ثَمَرَةٍ أَكْثَرَ مِنْ نَوْعَيْنِ
فَغَيْرُ ضَارٍّ فِي مَعْنَى الْآيَةِ.

وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو،
وَابْنُ عَامِرٍ، وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ:
«يُسْقَى» بِسُكُونِ الْغَيْنِ وَتَخْفِيفِ
الشَّيْنِ، وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِيُّ
وَعَاصِمٌ - فِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ - بِفَتْحِ
الْغَيْنِ وَشَدِّ الشَّيْنِ، وَكَفَى ذَكَرَ
الْوَاحِدُ ذَكَرَ الْآخَرِ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.
وَيُشَبِّهُ أَنْ الْأَزْوَاجَ الَّتِي يَرَادُ بِهَا
الْأَنْوَاعُ وَالْأَصْنَافُ وَالْأَجْنَاسُ إِنَّمَا
سُمِّيَتْ بِذَلِكَ مِنْ حَيْثُ هِيَ اثْنَانِ
اثْنَانِ فِي كُلِّ ثَمَرَةٍ ذَكَرَ أَوْ أُنْثَى،
وَأَشَارَ إِلَى ذَلِكَ الْفَرَاءُ عِنْدَ
الْمَهْدُودِيِّ، وَحَكَى عَنْهُ غَيْرُهُ مَا
يَقْتَضِي أَنَّ الْمَعْنَى تَمَّ فِي قَوْلِهِ:
«الْأَثَرَتِ»، ثُمَّ ابْتَدَأَ أَنَّهُ جَعَلَ فِي
الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ ذَكَرٍ وَأُنْثَى زَوْجَيْنِ.

وقوله: «وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ» جَمْعُ
قِطْعَةٍ، وَهِيَ الْأَجْزَاءُ، وَقِيْدٌ مِنْهَا فِي
هَذَا الْمَثَلِ مَا تَجَاوَرَ وَقَرُبَ بَعْضُهُ مِنْ
بَعْضٍ لِأَنَّ اخْتِلَافَ ذَلِكَ فِي الْقُرْبِ
أَغْرَبَ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: «وَجَعَلَتْ»

بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى «قِطْعٌ»، وَقَرَأَ
الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: «وَجَعَلَتْ»
بِالنَّصْبِ بِإِضْمَارِ فِعْلٍ، وَقِيلَ: هُوَ
عَطْفٌ عَلَى «وَرَزَقَ»، وَقَرَأَ ابْنُ
كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَحَفْصٌ عَنْ
عَاصِمٍ: «وَرَزَقَ وَنَجَّيْلٌ صِنَوَانٌ وَنَجَّيْلٌ
صِنَوَانٌ» بِالرَّفْعِ فِي الْكُلِّ عَطْفًا عَلَى
«قِطْعٌ»، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْخَفْضِ فِي
الْكُلِّ عَطْفًا عَلَى «أَعْتَبَ»، وَجَعَلَ
الْجَنَّةَ مِنَ الْأَعْنَابِ، وَمَنْ رَفَعَ
«الزُّرْعَ» فَالْجَنَّةُ حَقِيقَةٌ هِيَ الْأَرْضُ
الَّتِي فِيهَا الْأَعْنَابُ، وَفِي ذَلِكَ تَجَوُّزٌ،
وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مُقْتَلَةٌ
مِنْ التَّوَاضُّعِ تُسْقِي جَنَّةً سَحْقًا
أَي: نَخِيلَ جَنَّةٍ، إِذْ لَا يُوصَفُ
بِالسَّحْقِ إِلَّا النَّخِيلُ، وَمَنْ خَفَضَ
الزُّرْعَ فَالْجَنَاتُ مِنْ مَجْمُوعِ ذَلِكَ لَا
مِنَ الزُّرْعِ وَحْدَهُ، لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ
لِلْمَزْرَعَةِ جَنَّةٌ إِلَّا إِذَا خَالَطَهَا
شَجَرَاتُ.

و «صِنَوَانٌ» جَمْعُ صِنَوٍ وَهُوَ الْفَرْعُ
تَكُونُ مَعَ الْآخَرِ فِي أَصْلٍ وَاحِدٍ،
وَرُبَّمَا كَانَ أَكْثَرُ مِنْ فَرْعَيْنِ، قَالَ
الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: الصَّنَوَانُ:
الْمَجْتَمِعُ، وَغَيْرُ صِنَوَانٍ: الْمَتَفَرِّقُ
فَرْدًا فَرْدًا، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ:
«الْعَمُّ صِنَوُ الْأَبِ»، وَرَوَى أَنَّ
عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
أَسْرَعَ إِلَيْهِ الْعَاصُ فِي مَلَاخَةٍ، فَجَاءَ
إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَرَدْتُ يَا
رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أَقُولَ لِلْعَاصِ فَذَكَرْتُ
مَكَانَهُ مِنْكَ فَسَكَتُ، فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا
عُمَرُ، الْعَمُّ صِنَوُ الْأَبِ»، وَجَمَعَ
الصَّنَوَانُ، وَهُوَ جَمْعُ مَكْسَرٍ،

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: وَكَسْرُهُ الصَّادُ فِي
الْوَاحِدِ لَيْسَتْ الَّتِي فِي الْجَمْعِ، وَهُوَ
جَارٌ مَجْرَى قُلُوكَ، وَتَقُولُ: صِنَوٌ
وَصِنَوَانٌ فِي الْجَمْعِ بِتَنْوِينِ النُّونِ
وإِعْرَابِهِ. وَقَرَأَ عَاصِمٌ - فِي رِوَايَةٍ
الْقَوَاسِ - عَنْ حَفْصٍ: «صُنَوَانٌ»
بِضْمِ الصَّادِ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: هُوَ مِثْلُ
ذُنْبٍ وَذُؤْبَانٍ، وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ
مُضَرَّفٍ، وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ،
وَهِيَ لُغَةٌ تَمِيمٌ وَقَيْسٌ، وَكَسَرُ الصَّادِ
لُغَةٌ أَهْلِ الْحِجَازِ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ،
وَقَتَادَةُ: «صُنَوَانٌ» بِفَتْحِ الصَّادِ،
وَهُوَ اسْمُ جَمْعٍ لَا جَمْعَ، وَنَظِيرُ هَذِهِ
الْلَفْظَةِ قَبُو وَقَبُونٌ، وَإِنَّمَا نَصَّ عَلَى
الصَّنَوَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِأَنَّهَا بِمِثَابَةِ
التَّجَاوُرِ فِي الْقِطْعِ تَظْهَرُ فِيهَا غَرَابَةُ
اخْتِلَافِ الْأَكْلِ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ،
وَنَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَحَمْزَةُ،
وَالْكَسَائِيُّ، وَالْحَسَنُ، وَأَبُو جَعْفَرٍ،
وَأَهْلُ مَكَّةَ: «نُسْقَى» بِالتَّاءِ، وَأَمَّا
حَمْزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ الْقَافَ، وَقَرَأَ
عَاصِمٌ، وَابْنُ عَامِرٍ: «يُسْقَى» بِالْيَاءِ
عَلَى مَعْنَى: يُسْقَى مَا ذُكِرَ. وَقَرَأَ
الْجُمْهُورُ: «وَنُفَّيْلٌ» بِالنُّونِ، وَقَرَأَ
حَمْزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ: «وَيُفْضَلُ»
بِالْيَاءِ، وَقَرَأَ ابْنُ مَحِيصَنٍ: «يُسْقَى»
و «يُفْضَلُ» بِالْيَاءِ فِيهِمَا، وَقَرَأَ
يَحْيَى بْنُ يَعْفَرٍ، وَأَبُو حَنِوَةَ:
«وَيُفْضَلُ» بِالْيَاءِ وَفَتْحِ الضَّادِ
«يُفْضَلُ» بِالرَّفْعِ، قَالَ أَبُو حَاتِمٍ:
وَجَدْتُهُ كَذَلِكَ فِي لَفْظِ يَحْيَى بْنِ
يَعْفَرَ فِي مَصْحَفِهِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَقَطَ
الْمَصَاحِفَ.

و «الْأَكْلَى» اسْمٌ مَا يُؤْكَلُ بِضَمِّ
الْهَمْزَةِ وَالْكَافِ، وَالْأَكْلُ الْمَصْدَرُ،
وَقَرَأَتْ فَرَقَةٌ: «فِي الْأَكْلَى» بِضَمِّ

الهمزة والكاف، وقد تقدم هذا في البقرة.

وحكى الطبري عن غير واحد - ابن عباس وغيره -: ﴿فُطِحَ - مُتَّجَرَّتٌ﴾ أي: واحدة سبخة والأخرى عذبة ونحو هذا من القول، وقال قتادة: المعنى: قُرئ متجاورات، وهذا وجه من العبرة، كأنه قال: وفي الأرض قطع مختلفات بتخصيص الله لها بمعان فهي تسقى بماء واحد ولكن تختلف فيما تخرجه، والذي يظهر من وصفه لها بالتجاور إنما هو: من تربة واحدة ونوع واحد، والعبرة في هذا أبين، لأنها مع اتفاقها في التربة والماء تفضل القدرة والإرادة بعض أكلها على بعض، كما قال النبي ﷺ حين سئل عن هذه الآية فقال: «الدُّقْلُ والفارسي والحلو والحامض»، وعلى المعنى الأول قال الحسن: هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم، كانت الأرض في يد الرحمن طينة واحدة، فسطحها الله فصارت قطعاً متجاورة ينزل عليها ماء واحد من السماء، فتخرج هذه زهرة وثمرة، وتخرج هذه سبخة وملحاً وخبثاً، فكذلك الناس خلقوا من آدم فنزلت عليهم من السماء تذكرة فرقت قلوب وخشعت، وقست قلوب، ولهت قلوب، ووجفت قلوب، قال الحسن: فوالله ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾،

والتفضيل في الأكل
[يشمل] الأذواق والألوان
واللمس وغير ذلك.

عَزَّ وَجَلَّ: ﴿٧﴾ - تفسير قوله
 آية توبيخ للكفرة، أي:
 إِنَّ تعجب يا محمد من
 جهالتهم وإعراضهم عن
 الحق فهم أهل ذلك،
 وعجب غريب، والمراد به
 قولهم: «أنعود بعد كوننا
 تراباً خلقاً جديداً؟»
 ويحتمل اللفظ منزعاً
 آخر، أي: إِنَّ كُنْتُ تزيد
 عجباً فلهُمَّ فَإِنَّ من أعجب
 العجب قولهم.

واختلف القراء في قراءة قوله: ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ - فـ كثير، وأبو عمرو: ﴿إِيذَا﴾ أبشاً لقي خُلِقَ جديدي بالاستفهام، غير أن أبا الهزمة ثم يأتي بالياء ساكنة كثير يأتي بياء ساكنة بعد غير مدّ، وقرأ نافع: ﴿إِيذَا﴾ مثل أبي عمرو واختلف المدّ، وقرأ: ﴿إِنَّا لَقِيَ خُلِقَ﴾ مكسورة على الخبر، ووافق في اكتفائه بالاستفهام الثاني، غير أنه كان يهملز وقرأ عاصم وحمة: ﴿إِذَا﴾ بهمزتين فيهما، عامر: ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ الألف من غير استفهام ثم يمدّ ثم بهمز. فـ بالاستفهامين فذلك للتأكيد والاحتبال بهذا التقرير، ومـ

وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّنَا لَذُوْ غَفُورٍ لِّغَافِلِهِمْ
وَإِنَّ رَبَّنَا لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ
﴿٦﴾ اللَّهُ يَتْلَمُ مَا تَعْمَلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِصُّ الْأُحْشَامُ
وَمَا تَزِدُّهُ وَمَا تَغْلُ فَنُوحِلْ فِيهِ مِنْهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٧﴾ عَلَيْهِ الْعُقُوبُ
وَالشَّهَادَةُ الْكُبْرُ الْمُتَعَالِ ﴿٨﴾ سِوَاةُ مَنَكُمْ مَنْ أَسْرَ
الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ
بِالنَّهَارِ ﴿٩﴾ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ
وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ آفَلًا مَرَدَّهُمْ وَلَهُمْ آهٌ مِنْ دُونِهِمْ
وَالِ ﴿١٠﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآيَاتِ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١١﴾ وَيَسْجِجُ الرُّعْدَ يَحْمَدُوهُ
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَرُسُلُ الصُّرُوعِ فَصِيدِبْ بِهَا
مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجْنَدُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٢﴾

في الأول فقط وإنما قصد بالاستفهام الموضع الثاني، و﴿إِذَا﴾ ظرف له، و﴿إِذَا﴾ في موضع نصب بفعل مضمّر تقديره: أثبت أو نُخسّر. وإذا؟ ومن استفهم في الثاني فقط فهو يبيّن، والإشارة بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى القوم القائلين: ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾، وتلك المقالة إنما هي تقرير وتصميم على الجحد والإنكار للبعث فلذلك حكم عليهم بالكفر.

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ﴾ يحتمل
عنيين: أحدهما الحقيقة وأنه أخبر
عن كون الأغلال في أعناقهم في
الآخرة، فهي كقوله تعالى: ﴿إِذْ
الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّكِينُ﴾،
ويحتمل أن يكون مجازاً وأنه أخبر
عن كونهم مُغْلَلِينَ عن الإيمان، فهي
إذا تجري مجرى الطبع والختم على
القلوب، وهي كقوله تعالى: ﴿إِنَّا

جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاةً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٥﴾، وباقى الآية بيّن. وقال بعض الناس: الأغلال هنا عبارة عن الأعمال، أي: أعمالهم الفاسدة في أعناقهم كالأغلال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحرير هذا هو في التأويل الثاني الذي ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَجِيبُكَ يَالْيَسِيَّةَ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الآية، هذه الآية تبين لخطئهم في أن يتمنوا المصائب ويطلبوا سقوط كسف من السماء أو جحارة تمطر عليهم ونحو هذا مع حلول ذلك في الأمم ونزوله بأناس كثير، ولو كان ذلك لم ينزل قط لكان لهم العذر.

و ﴿الْمُتْلُثُّ﴾ جمع مُثْلَة كَسُمُرَة وَسُمُرَات وَصُدْقَة وَصُدَقَات، وقرأ الجمهور: ﴿الْمُتْلُثُّ﴾ بفتح الميم وضم الشاء، وقرأ مجاهد بفتح الميم والشاء، وذلك جمع مُثْلَة في الآخرة بمعنى العدة بالعقوبة. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿الْمُتْلُثَاتُ﴾ بضم الميم والشاء، ورويت عن أبي عمرو، وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿الْمُتْلُثَاتُ﴾ بضم الميم وسكون الشاء، وهاتان جمع مُثْلَة، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿الْمُتْلُثَاتُ﴾ بفتح الميم وسكون الشاء.

ثم رجى تعالى بقوله: ﴿وَلَيْكَ لَدُوٌّ مِّنْزِعٌ لِّنَّاسٍ عَلَىٰ ظُهُبِهِمْ﴾. قال الطبري: معناه: في الآخرة، وقال قوم: المعنى: إذا تابوا، و «شديد العقاب» إذا كفروا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من معنى المغفرة هنا إنما هو: ستره في الدنيا وإمهال للكفرة، ألا ترى التنكير في لفظ «تَغْفِرُهُ»، وأنها مُتَكْررة مُقْلَلَة وليس فيها مبالغة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ لَفَنَاءٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ﴾، ونمط الآية يُعطي هذا، ألا ترى حكمه عليهم بالنار ثم قال: ﴿يَسْتَجِيبُكَ﴾، فلما ظهر سوء فعلهم وجب في نفس السامع تعذيبهم فأخبر بسيرته في الأمم وأنه يمهل مع ظلم الكفر؟ ولم يرد في الشرع أن الله تعالى يغفر ظلم العباد.

ثم خُوف بقوله: ﴿وَلَيْكَ لَشَدِيدٌ الْعِقَابُ﴾، قال ابن المسيب: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله ومغفرته لما تمنى أحد عيشاً، ولولا عقابه لأتكل كل أحد»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في القرآن أزجى من هذه الآية»، و ﴿الْمُتْلُثُّ﴾ هي العقوبات المُتَكَاتِلَة التي تجعل الإنسان مثلاً يُمَثِّلُ به، ومنه التمثيل بالقتلى، ومنه المثلة بالعبيد.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. هذه آية غَضٌ من اقتراحاتهم المُتَشَطِّطَة التي لم يُخبر الله بها عادة إلا للأمة التي حتم بعذابها واستئصالها، والآية - هنا - يراد بها الأشياء التي سمتها قريش كالمُلْك والكُتْر وغير ذلك، ثم أخبره الله بأنه منذر، وهذا الخبر قَصِدَ هُوَ بلفظه والناس أجمعون بمعناه.

واختلف المفسرون في قوله: ﴿وَلَيْكَ قَوْرٌ هَادٍ﴾ - فقال عكرمة، وأبو الضحى: المراد بالهاد محمد عليه الصلاة والسلام، و «هادٍ»

عطف على «شديد» كأنه قال: «إنما أنت منذر وهاد لكل قوم»، فيكون هذا المعنى يجري مع قوله عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»، و «هادٍ» - على هذا في هذه الآية - دأب إلى طريق الهدى. وقال مجاهد، وابن زيد: المعنى: «إنما أنت منذر، ولكل أمة سلفت هادٍ، أي نبي يدعوهم، والمقصد: فليس أمرك يا محمد ببذع ولا بمنكر»، وهذا يشبه غرض الآية. وقالت فرقة: «الهادي» - في هذه الآية - الله عز وجل، روي ذلك عن ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير. و «هادٍ» - على هذا - معناه: مخترع للرشاد، والألفاظ تطلق بهذا المعنى، ويعرف أن الله تعالى هو الهادي من غير هذا الموضع. وقالت فرقة: «الهادي علي بن أبي طالب»، وردت عن النبي ﷺ من طريق ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ هذه الآية وعليّ حاضر فأومأ بيده إلى منكب عليّ وقال: «أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يشبه - إن صح هذا - أن النبي ﷺ إنما جعل علياً مثلاً من علماء الأمة وهداتها إلى الدين، كأنه قال: يا علي أنت وصنك، فدخل في هذا أبو بكر وعمر وعثمان وسائر علماء الصحابة - عليهم رضوان الله أجمعين - ثم كذلك من كل عصر، فيكون المعنى - على هذا - إنما أنت يا محمد منذر، ولكل قوم في القديم والحديث دعاة وهداة إلى

الخير، والقول الأول أرجح ما تؤول في هذه الآية.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما تقدم تعجب الكفار واستبعادهم البعث من القبور نص الله في هذه الآيات الأمثال المنبهة على قدرة الله تبارك وتعالى القاضية بتجويز البعث، فمن ذلك هذه الواحدة من الخمس التي هي مفاتيح الغيب، وهي أن الله تبارك وتعالى انفرد بمعرفة ما تحمل كل الإنث من الأجنة في كل نوع من الحيوان، وهذه البدأة تبين أنه لا يتعذر على القادر عليها الإعادة.

و ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ﴾ يصح أن تكون بمعنى الذي مفعولة بـ ﴿يَحْمِلُ﴾، ويصح أن تكون مصدرية مفعولة أيضاً بـ ﴿يَحْمِلُ﴾، ويصح أن تكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء، والخبر ﴿تَحْمِلُ﴾، وفي هذا الوجه ضعف. وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَضَعُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَضَعُ الْأَرْكَامُ﴾ معناه: ما تنقص، وذلك من معنى ﴿وَنُفِصَ الْأَمَّةُ﴾ وهو من معنى النضوب، فهي ها هنا بمعنى زوال الشيء عن الرُحم وذهابه، فلما قبله قوله: ﴿وَمَا تَزَادُ﴾ فُسِّرَ بمعنى النقصان، ثم اختلف المتأولون في صورة الزيادة والنقصان - فقال مجاهد: غَيْضُ الرَّجْمِ أن تهريق دماً على الحمل، فإذا كان ذلك ضعف الولد في البطن وشحب، فإذا أكملت الحامل تسعة أشهر لم تَضَعُ، ويبقى الولد في بطنها زيادة من الزمن

يكمل فيها من جسمه وصحته ما نقص بهراقه الدم، فهذا هو معنى قوله: ﴿وَمَا تَضَعُ الْأَرْكَامُ وَمَا تَزَادُ﴾.

وجمهور المتأولين على أن غيض الرحم إرسال الدم على الحمل، وذهب بعض الناس إلى أن غيضه هو نضوب الدم فيه وإمساكه بعد عادة إرساله بالحيض، فيكون قوله: ﴿وَمَا تَزَادُ﴾ بعد ذلك جارياً مجرى «تغيض» على غير مقابلة، بل غيض الرحم هو بمعنى الزيادة فيه. وقال الضحاك: غيض الرحم أن تسقط المرأة الولد، والزيادة أن تضعه لمدة كاملة تاماً في خلقه. وقال قتادة: الغَيْضُ السقط، والزيادة البقاء فوق تسعة أشهر.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ لفظ عام في كل ما يدخله التقدير.

و ﴿الْفَتْبَابُ﴾: ما غاب عن الإدراكات، و ﴿الْمُهَكَّدَةُ﴾: ما شوهد من الأمور، ووضع المصادر موضع الأشياء التي كل واحد منها لا بد أن يتصف بإحدى الحالتين.

وقوله: ﴿الْكَبِيرُ﴾ صفة تعظيم على الإطلاق، و ﴿الْمُتَعَالِ﴾ من العلو، واختلف القراء في الوقف على (الْمُتَعَالِ) - فأثبت ابن كثير، وأبو عمرو - في بعض ما روي عنه - الياء في الوصل والوقف، ولم يثبتها الباقر في وصل ولا وقف، وإثباتها هو الوجه والباب، واستسهل سيبويه حذفها في الفواصل كهذه الآية قياساً على القوافي في الشعر، ويقبح حذفها في غير فاصلة ولا شعر، ولكن وجهه أنه لما كان التنوين يعاقب الألف واللام أبداً، وكانت

هذه الياء تحذف مع التنوين حَسُنَ أن تحذف مع معاقبها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتصل بهذه الآية فقه يحسن ذكره.

فمن ذلك اختلاف الفقهاء في الدم الذي تراه الحامل - فذهب مالك وأصحابه والشافعي وأصحابه وجماعة إلى أنه حيض. وقالت فرقة عظيمة: ليس بحيض، ولو كان حيضاً لما صح استبراء الأمة بحيض وهو إجماع. وروي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض، ومن ذلك أن الأمة مجمعة على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وذلك منتزع من قوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ مع قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ وهذه الستة الأشهر هي بالأهلة كسائر أشهر الشريعة، ولذلك قد روي في المذهب عن بعض أصحاب مالك - وأظنه في كتاب ابن الحارث - أنه إن نقص من الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلته نقص الشهور وزيادتها.

واختلف في أكثر الحمل - فقيل: تسعة أشهر، وهذا ضعيف، وقالت عائشة - رضي الله عنها - وجماعة من العلماء: أكثره حولان، وقالت فرقة: ثلاثة أعوان، وفي المدونة: أربعة أعوام وخمسة أعوام، وقال ابن شهاب وغيره: سبعة أعوام، وروي أن ابن عجلان ولدت امرأته لسبعة أعوام، وروي أن الضحاك بن مزاحم بقي حولين، قال: فولدت وقد نبئت ثناباي، وروي أن

عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر.

وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ يَنْكَرُ﴾ الآية. سواء مصدر، وهو يطلب بعده شيئين يتماثلان، ورفع على خبر الابتداء الذي هو [مَنْ]، والمصدر لا يكون خبراً إلا بإضمار كما قالت الخنساء:

فَلِنَمَاهِي إِقْبَالَ وَإِذْبَارُ أَي: ذات إقبال وإدبار، فقالت فرقة: هنا المعنى: «ذو سواء»، قال الزجاج: كثر استعمال (سواء) في كلام العرب حتى جرى مجرى اسم الفاعل فلا يحتاج إلى إضمار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو عندي كعذلي وزور وضيف. وقالت فرقة: المعنى: «مُستو منكم»، فلا يحتاج إلى إضمار، وضعف هذا سببويه بأنه ابتداء بنكرة. ومعنى هذه الآية: مُغتدل منكم في إحاطة الله تعالى وعلمه مَنْ أَسْرَ قوله فهمس به في نفسه وَمَنْ جهر به فأسمع، لا يخفى على الله تعالى شيء.

وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِإِثْلٍ﴾ معناه: من هو بالليل في غاية الاختفاء ومن هو متصرف بالنهار ذاهباً لوجهه سواء في علم الله تبارك وتعالى وإحاطته بهما. وذهب ابن عباس، ومجاهد إلى معنى مقتضاه أن المستخفي بالليل والسارب بالنهار هو راجل واحد مريب بالليل ويظهر بالنهار البراءة في التصرف مع الناس، فهذا قسم واحد جعل الليل نهار راحة، والمعنى: هذا والذي أمره كله واحد بريء من

الرئب سواء في اطلاع الله تعالى على الكل. ويؤيد هذا التأويل عطف السارب دون تكرار «مِنْ»، ولا يأتي حذفها إلا في ضرورة الشعر. والسارب في اللغة المتصرف كيف شاء، ومن ذلك قول الشاعر: أَرَى كُلَّ قَوْمٍ كَارِبُوا قَيْدَ فَخْلِهِمْ وَنَحْنُ حَلَلْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبٌ أي متصرف غير مدفوع عن جهة، وهذا رجل يفخر بعزة قومه، ومن ذلك قول الآخر:

أَتَى سَرْنِي وَكُنْتُ غَيْرَ سَرُوبٍ وَتَقَرَّبُ الْأَخْلَامُ غَيْرَ قَرِيبٍ وتحتمل الآية أن تتضمن ثلاثة أصناف، فالذي يُسِرُّ طرف، والذي يجهر طرف مضاد للأول، والثالث متوسط مُتَلَوِّنٌ يعصي بالليل مستخفياً ويظهر البراءة بالنهار، والقول في الآية يطرد معناه في الأعمال، وقال قطرب - فيما حكى الزجاج -: ﴿مُسْتَخَفٌّ﴾ معناه: ظاهر، من قولهم: «خَفِئْتُ الشيء» إذا أظهرته، قال امرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَذَقَّ مِنْ عَيْشِي مُجَلِّبٌ قال: و﴿وَسَارِبٌ﴾ معناه: مُتَوَارٍ في سرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول وإن كان متعلقاً باللغة فضعيف، لأن اقتران الليل بالمستخفي والنهار بالسارب يردُّ على هذا القول.

﴿١١﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل: اختلف المتأولون في عود الضمير من ﴿لَهُ﴾ - فقالت فرقة: هو عائد على اسم الله تعالى المتقدم ذكره، و

«المُعْتَبَاتُ» - على هذا - الملائكة الحفظة على العباد أعمالهم، والحفظة لهم أيضاً، قاله الحسن، وروى فيه عثمان بن عفان عن النبي ﷺ حديثاً، وهو قول مجاهد، والثَّغْيي، والضمير - على هذا - في قوله: ﴿يَكْدِي﴾ وما بعده من الضمائر عائد على العبد المذكور في قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِإِثْلٍ﴾، و﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾. يحتمل أن يكون صفة للمُعْتَبَاتِ، ويحتمل أن يكون المعنى: يحفظونه من كل ما جرى القدر باندفاعه، فإذا جاء المقدور الواقع أسلم المرء إليه.

وقال ابن عباس أيضاً: الضمير في ﴿لَهُ﴾ عائد على المذكور في قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِإِثْلٍ﴾ وكذا باقي الضمائر التي في الآية، قالوا: و«المُعْتَبَاتُ» - على هذا - حرس الرجل وجلارزته الذين يحفظونه، قالوا: والآية - على هذا - في الرؤساء الكافرين، واختار هذا القول الطبري، وهو قول عكرمة وجماعة، قال عكرمة: هي الموابك خلفه وأمامه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح على التأويل الأول الذي قبل هذا أن يكون الضمير في ﴿لَهُ﴾ للعبد المؤمن على معنى: جعل الله له، وهذا التأويل عندي أقوى، لأن غرض الآية إنما هو التنبيه على قدرة الله، فذكر استواء من هو مُسْتَخَفٌّ ومن هو سارب وأن له معقبات من الله يحفظه في كل حال، ثم ذكر أن الله لا يَغَيِّرُ هذا الحالة من الحفظ للعبد حتى يغير ما بنفسه،

وعلى كلا التأويلين ليست الضمائر لِمُعَيَّنِينَ من البشر.

وقال عبدالرحمن بن زيد: الآية في النبي ﷺ، ونزلت في حفظ الله له من أربد بن ربيعة، وعامر بن الطفيل في القصة التي تأتي بعد هذا في ذكر الصواعق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية وإن كانت ألفاظها تنطبق على معنى القصة فيُضَعَّفُ القول أن النبي ﷺ لم يتقدم له ذكر فيعمود الضمير في ﴿لَمْ﴾ عليه.

و «المُعَقَّبَات»: الجماعات التي يعقب بعضها بعضاً، فعلى التأويل الأول هي الملائكة، وينظر هذا إلى قول النبي ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة المغرب والصبح»، وعلى التأويل الثاني هي الحرس والوزعة الذين للملوك.

والمُعَقَّبَات جمع مُعَقَّبَةٍ، وهي الجماعة التي تأتي بعد الأخرى، والتعقيب بالجملة أن تكون حال تَعَقُّبِهَا حال أخرى من نوعها، وقد تكون من غير النوع، ومنه معاقبة الركوب، ومعقب عقبة القدر، والمعاقبة في الأزواج، ومنه قول سلامة بن جندل:

وَكُرْنَا الْخَيْلَ فِي آثَارِهِمْ رُجْعاً
كُسُ السَّنَابِكِ مِنْ بَذْيٍ وَتَعْقِيبِ
وقرأ عبدالله بن زياد على المنبر: ﴿لَهُ الْمَعَاقِبُ﴾، قال أبو الفتح: هو تكسير مَغَقِب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يسكون العين وكسر القاف كمطعم ومطاعيم ومقدم ومقاديم، وهي قراءة

أبي البرهمس، فكأن معقّباً جمع على معاقبة ثم جعلت الياء في معاقيب عوضاً من الهاء المحذوفة في معاقبة.

والمُعَقَّبَةُ ليست جمع مُعَقَّبٍ كما ذكر الطبري وشبه ذلك برجل ورجال ورجالات، وليس الأمر كما ذكر لأن تلك كَجَمَلٍ وَجَمَالٍ وجمالات، ومُعَقَّبَةٍ وَمُعَقَّبَاتٍ إنما هي كضارب وضاربات.

وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَرَقِيبٌ مِنْ خَلْفِهِ﴾، وقرأ ابن عباس: ﴿وَرَقِيباً مِنْ خَلْفِهِ﴾، وذكر عنه أبو حاتم أنه قرأ: ﴿مُعَقَّبَاتٍ مِنْ خَلْفِهِ وَرَقِيبٌ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون بمعنى يحرسونه ويذُبُّونَ عنه، فالضمير معمول الحفظ، والمعنى الثاني أن يكون بمعنى حفظ الأقوال وتحصيلها، ففي اللفظة حيث حذف مضاف تقديره: يحفظون أعمالهم، ويكون هذا حيث من باب ﴿وَسَلَّ الْقَرَيَّةُ﴾، وهذا قول ابن جريج.

وقوله: ﴿يَنْ أَمْرُ اللَّهِ﴾ - مَنْ جَعَلَ يَحْفَظُونَهُ بِمَعْنَى يحرسونه كان معنى قوله: ﴿يَنْ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يراد به المعقبات، فيكون في الآية تقديم وتأخير، أي: له معقبات من أمر الله يحفظونه مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، قال أبو الفتح: ف ﴿يَنْ أَمْرُ اللَّهِ﴾ في موضع رفع لأنه صفة لمرفوع وهي «المُعَقَّبَات»، ويحتمل هذا التأويل في قوله: ﴿يَنْ أَمْرُ اللَّهِ﴾ مع التأويل الأول في ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾، وَمَنْ تَأَوَّلَ

الضمير في ﴿لَمْ﴾ عائد على العبد وجعل «المعقبات» الحرس وجعل الآية في رؤساء الكافرين جَعَلَ قوله: ﴿يَنْ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بمعنى: يحفظونه بزعمه من قَدَّرَ الله ويدفعونه في ظنه عنه، وذلك لجهالة بالله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبهذا التأويل جعلها المتأولون في الكافرين، قال أبو الفتح: ف ﴿يَنْ أَمْرُ اللَّهِ﴾ - على هذا - في موضع نصب، كقولك: «حفظت زيدا من الأسد»، ف ﴿يَنْ أَمْرُ اللَّهِ﴾ معمول لـ «حفظت»، وقال قتادة: معنى ﴿يَنْ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي يحفظونه مما أمر الله، وهذا تحكم في التأويل، قال قوم: المعنى: الحفظ من أمر الله، وقد تقدم نحو هذا. وقرأ علي ابن أبي طالب، وابن عباس، وعكرمة، وجعفر بن محمد - رضي الله عنهم -: ﴿يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لا يَغَيِّرُ ما يقوم بأن يعذبهم ويمتنحهم معاقباً حتى يقع منهم تكسب للمعاصي وتغيير ما أمروا به من طاعة الله، وهذا موضع تأمل، لأنه يداخل هذا الخبر ما قُرِئَتِ الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنفُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام - وقد قيل له: يا رسول الله أَتَهْلِكُ ومنا الصالحون؟ - قال: «نعم، إذا كثر الخبث» إلى أشياء كثيرة من هذا، فقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبْزُغَ﴾ معناه: حتى يقع تغيير إما منهم وإما من الناظر لهم أو ممن هو منهم بسبب، كما عبر تعالى

بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثال الشريعة، فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير، وثم أيضاً مصائب يريد الله بها أجر المصاب فتلك ليست تغييراً.

ثم أخبر تبارك وتعالى بأنه إذا أراد بقوم سوءاً فلا مَرَدَ له، ولا حفظ منه، وهذا أجري في مقام التنبيه على عادة الله تعالى وقدرته، والشُّرُّ والخير بمنزلة واحدة إذا أرادهما الله بعبد لم يُرَدَّ، لكنه خصَّ السوء بالذكر ليكون في الآية تخويف.

واختلف القراء في ﴿وَالِي﴾ - فأماله بعضهم ولم يُعْمَلْ بعضهم، والوالي الذي يلي أمر الإنسان كالولي، وهما من الولاية كعليم وعالم من العلم.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ﴾ الآية. هذه آية تنبيه على القدرة، «والبرق» روي فيه عن النبي ﷺ أنه مخراق بيد مَلَكٍ يزجر به السحاب، وهذا أصح ما روي فيه، ورُوي عن بعض العلماء أنه قال: البرق: اصطكاك الأجرام، وهذا عندي مردود، وقال أبو الجلد في هذه الآية: البرق: الماء، وذكره مكي عن ابن عباس، ومعنى هذا القول أنه لما كان داعية الماء وكان خوف المسافرين من الماء وطمع المقيم فيه عُبر في هذا القول عنه بالماء.

وقوله: ﴿خَوَافًا وَطَمَعًا﴾، من قال ذلك في الماء فهو على ما تقدم، والظاهر أن الخوف إنما هو من صواعق البرق، والطمع في المطر

الذي يكون معه، وهو قول الحسن، و﴿السَّحَابُ﴾ جنغ سحابة، ولذلك جَمَعَ الصفة، و﴿الْفَقَالَ﴾ معناه: يحمل الماء، وبذلك فُسِّرَ فتادة ومجاهد، والعرب تصفها بذلك، ومنه قول قيس بن الخطيم:

فَمَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْقَطَا
كَأَنَّ الْمَصَابِيحَ حَوَازِيهَا
بِأَحْسَنِ مِثْلِهَا وَلَا مُرْتَنَةً
ذُلُوحٌ تَكْشِفُ أَذْجَانِهَا
والذُّلُوح: المُثَقَّلَة.

و﴿الرَّعْدُ﴾ مَلَكٌ يزجر السحاب بصوته، وصوته هذا المسموع تسييح، والرعد اسم المَلَك، وقيل: الرُّعد اسم صوت المَلَك، وروي عن النبي ﷺ أنه كان إذا سمع الرعد قال: «اللَّهُمَّ لَا تُهْلِكْنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تُقَتِّلْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ».

ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أنهم كانوا إذا سمعوا الرُّعد قالوا: «سبحان الذي سُبِّحَ له»، وروي أبو هريرة أن النبي ﷺ كان إذا سمع الرُّعد قال: «سبحان من سُبِّحَ الرعد بحمده»، وقال ابن أبي زكريا: «من قال إذا سمع الرُّعد: سبحان الله وبحمده لم تصبه صاعقته»، وقيل في الرعد أيضاً: إنه ريح يختنق بين السحاب، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي لا يصح لأنها نزعات الطبيعيةين وغيرهم من الملحدة، ورُوي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المَلَك إذا غضب وزجر السحاب اضطربت من

خوفه فيكون البرق، وتحتك فتكون الصواعق.

قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ السَّيْلَ﴾ الآية. قيل: إنه أدخلها في التنبيه على القدرة بغير سبب ساق ذلك، وقال ابن جريج: كان سبب نزولها قصة أُرِيدَ أخي لبيد بن ربيعة، وعامر بن الطفيل، وكان من أمرهما فيما روي أنهما قدما على رسول الله ﷺ فدعواه أن يجعل الأمر بعده إلى عامر بن الطفيل ويدخلا في دينه فأبى، فقال عامر:

فتكون أنت على أهل المدر وأنا على أهل الوبر فأبى، فقال له عامر: فماذا تعطيني؟ فقال النبي ﷺ: «أعطيك أعتة الخيل فإنك رجل فارس»، فقال له عامر: والله لأملأنها عليك خيلاً ورجلاً حتى آخذك، فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله ذلك وأبناء قبيلة»، فخرجا من عنده، فقال أحدهما لصاحبه: لو قتلناه ما انتطح فيها عئزان، فتآمرا في الرجوع لذلك، فقال عامر لأريد: أنا أشغله لك بالحديث واضربه أنت بالسيف، فجعل عامر يحدثه وأريد لا يصنع شيئاً، فلما انصرفا قال له عامر: والله يا أريد لا خفتك أبداً، ولقد كنت أخافك قبل ذلك، فقال له أريد: والله لقد أردت إخراج السيف فما قدرتُ على ذلك، ولقد كنت أراك بيني وبينه أفأضربك؟ فمضيا للحشد على النبي ﷺ، فأصاب أريد صاعقة فقتلته، ففي ذلك يقول لبيد بن ربيعة أخوه:

أخشى على أُرَيْدَ الْخُثُوفِ وَلَا
أَرْهَبُ نَوْءَ السَّمَاءِ وَالْأَسَدِ

فَجَعَلَنِي الْبَرْقُ وَالصَّوَاعِقُ بَالِدَ
فَارِسَ يَوْمَ الْكَرْبَةِ السُّجْدِ
فنزلت الآية في ذلك، وروي عن
عبدالرحمن بن صحر العبدى أنه
بلغه أن جباراً من جابرة العرب بعث
إليه النبي ﷺ لِيُسْلِمَ، فقال:
أخبروني عن إله محمد، من لؤلؤ هو
أو من ذهب؟ فنزلت عليه صاعقة
ونزلت الآية فيه، وقال مجاهد: إن
بعض اليهود جاء إلى النبي ﷺ
ينظره، فبينما هو كذلك إذ نزلت
صاعقة فأخذت قحف رأسه فنزلت
الآية فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي
اللَّهِ﴾، يجوز أن تكون إشارة إلى
جدال اليهود المذكور وتكون الواو
واو حال، أو إلى جدال الجبار
المذكور، ويجوز - إن كانت الآية
على غير سبب - أن يكون قوله:
﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ إشارة إلى
جميع الكفرة من العرب وغيرهم
الذين جليت لهم هذه التنبيهات.
و ﴿لِلْأَعْيُنِ﴾: القوة والإهلاك، ومنه
قول الأعشى:

فَرَحْتُ نَبْعَ يَهْتَزُّ فِي غُصْنِ الْمَسْجِدِ
بِدَعْظِيمِ الثَّدْيِ شَدِيدِ الْمَحَالِ
ومنه قول عبدالمطلب:

لَا يَنْفِلِبْنَ صُلَيْبُهُمْ
وَمَحَالُهُمْ عَذْوًا مَحَالُكَ
وقرأ الأعرج، والضحاك:
﴿الْمَحَالِ﴾ بفتح الميم بمعنى
المحالة، وهي الحيلة، ومنه قول
العرب في [ذكر] المثل: «المرء
يعجز لا محال»، وهذا كالأستدرج
والمكر ونحوه، وهذه استعارات في
ذكر الله تعالى، والميم إذا كُسرت

أصلية، وإذا فتحت زائدة،
ويقال: مَحَلَّ الرجل
بالرجل: مَكَرَ به وأخذ به
بسعاية شديدة.
عز وجل:

الضمير في ﴿لَهُ﴾ عائذ
على اسم الله تبارك
وتعالى، وقال ابن عباس:
﴿وَعُوذٌ لِّكَ﴾ لا إله
إلا الله، وما كان من
الشريعة في معناه، وقال
علي بن أبي طالب
رضي الله عنه: «هي
التوحيد»، ويصح أن
يكون معناها: له دعوة
العباد بالحق ودعاء غيره
من الأوثان باطل.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُرَادُ بِهِ مَا عُبِدَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ، والضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾
لكفار قريش ونحوهم من العرب،
وروى اليزيدي عن أبي عمرو بن
العلاء: ﴿تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ بالتاء من
فوق، و﴿يَسْتَجِيرُونَ﴾ بمعنى يُجِيبُونَ،
ومنه قول الشاعر:

وَدَاعَ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى الثَّدْيِ
قَلَمُ يَسْتَجِيبُهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبُ
ومعنى الكلام: والذين يدعونهم
الكفار في حوائجهم ومنافعهم لا
يجيبون بشيء.

ثم مثل تعالى مثلاً لإجاباتهم بالذي
يبسط كَفَيْهِ نحو الماء ويشير إليه
بالإقبال إلى فيه، فهو لا يبلغ فمه
أبداً، فكذاك إجابة هؤلاء والانتفاع
بهم لا يقع. وقوله: ﴿هُوَ﴾ يريد به
الماء وهو البالغ، والضمير في

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْئاً إِلَّا
بِكَيْسٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْعَذَابِ لِيَلْغَ فِيهِ وَهُمْ مُبِلَغُونَ مَا دَعَا الْكَافِرِينَ
إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً
وَكَرْهاً وَطِلَاسُ لَهُمُ بِالْعَدْوِ وَالْأَسَالِ ۖ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَتَأْتِذُنَ مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ لَا يَتْلُونَ إِلَّا عُشُمَ
نَفْعاً وَلَا ضَرراً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي
الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُوا الْخَلْقَ
عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ۖ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِياً
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ النُّعْلِ كَذَلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا
يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۖ ﴿١٧﴾
لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخُسُوفُ وَالْزُلُكُ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ
لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ
أُولَئِكَ هُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَهُمْ فِيهَا يَلْهَدُونَ ۖ ﴿١٨﴾

﴿يَبْلُغُهُ﴾ للشم، ويصح أن يكون
﴿هُوَ﴾ يراد به الشم وهو البالغ أيضاً،
والضمير في ﴿يَبْلُغُهُ﴾ للماء، لأن
الشم لا يبلغ الماء أبداً على تلك
الحال، ثم أخبر تعالى عن دعاء
الكافرين أنه في ضلال ولا يفيد شيئاً
ولا يغني.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ﴾ الآية.
يحتمل ظاهر هذه الألفاظ أنه جرى
في طريق التنبيه على قدرة الله
وتسخير الأشياء له فقط، ويحتمل أن
يكون في ذلك طعن على كفار قريش
وحاضري محمد ﷺ، أي: إن كنتم
أنتم لا توقنون ولا تسجدون فإن
جميع من في السموات والأرض لهم
سجود لله تعالى، وإلى هذا
الاحتمال نحا الطبري، و﴿مِنْ﴾ تقع
على الملائكة عموماً وسجودهم
طوعاً بلا خلاف، وأما أهل الأرض

فالمؤمنون منهم داخلون في مَنْ سجدوهم طَوْعًا، وأما سجود الكفرة فهو الكُره، وذلك على نحوين من هذا المعنى، فإن جعلنا السجود هنا الهيئة المعمودة فالمراد من الكفرة من يضمه السيف إلى الإسلام - كما قال قتادة - فيسجد كرهاً، إمَّا نفاقاً، وإمَّا أن يكون الكره أول حاله فتستمر عليه الصفة وإن صَحَّ إيمانه بعد، وإن جعلنا السجود الخضوع والتذلل على حسب ما هو في اللغة كقول الشاعر:

.....

تَرَى الْأَكْمَفَ فِيهَا سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ
فَيَدْخُلُ الْكُفَّارُ أَجْمَعُونَ فِي ﴿مَنْ﴾،
لأنه ليس من كافر إلا ويلحقه من التذلل والاستكانة بقدرة الله أنواع أكثر من أن تُحصى بحسب رزاياه واعتباراته، وقال النحاس، والزجاج: إن الكره يكون في سجود عصاة المسلمين وأهل الكسل منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإن كان اللفظ يقتضي هذا فهو قلق من جهة المعنى المقصود بالآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ السُّجُودُ وَالْأَسْمَاءُ﴾ إخبار عن أن «الظلال» لها سجود لله تعالى بالبُكر والعَشِيَّات، قال الطبري: وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظِلُّهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ قال: وذلك هو فيئته بالعشي، وقال مجاهد: «ظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره»، وقال ابن عباس: «يسجد ظل الكافر حين

يفيء عن يمينه وشماله»، وحكى الزجاج أن بعض الناس قال: إن «الظلال» هنا يُراد بها الأشخاص، وضعفه أبو إسحق. و«الآسماء» جمع أصيل، وقرأ أبو مجلز: ﴿وَالْإِصْبَالُ﴾، قال أبو الفتح: هو مصدر أصلنا، أي: دخلنا في الأصل، كأصبحنا وأمسينا. وروي أن الكافر إذا سجد لصنمه فإن ظله يسجد لله حيثن.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. جاء السؤال والجواب في هذه الآية من ناحية واحدة، إذ كان السؤال والتقرير عن أمر واضح لا مدافعة لأحد فيه ملتزم للحجة، فكان السبق إلى الجواب أفصح في الاحتجاج وأسرع في قطعهم من انتظار الجواب منهم، إذ لا جواب إلا هذا الذي وقع البدار إليه. وقال مكي: جهلوا الجواب وطلبوه من جهة السائل فأعلمهم به السائل، فلما تقيد من هذا كله أن الله تعالى هو رب السموات والأرض وقع التوبيخ على اتخاذهم من دونه أولياء مُتَّصِفِينَ بأنهم لا ينفعون أنفسهم ولا يضرّونها، وهذه غاية العجز، وفي ضمن هذا الكلام: «وتركتموه وهو الذي بيده ملكوت كل شيء»، ولفظة «مِنْ دُونِهِ» تقتضي ذلك.

ثم مثل الكفار والمؤمنين - بعد هذا - بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ﴾ بالناء، وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو

بكر عن عاصم: ﴿يَسْتَوِي﴾ بالياء، فالتأنيث أحسن لأنه مؤنث لم يُفصل بينه وبين فاعله بشيء، والتذكير شائع لأنه تأنيث غير حقيقي والفعل مقدم، وشبهت هذه الآية الكافر بالأعمى والكفر بالظلمات، وشبهت المؤمن بالبصير والإيمان بالنور. ثم وفقهم بغد، هل رأوا خلقاً لغير الله فحملهم ذلك وأشباهه بما خلق الله على أن جعلوا إلهاً غير الله. ثم أمر محمداً عليه الصلاة والسلام بالإفصاح بصفات الله تعالى في أنه خالق كل شيء، وهذا عموم في اللفظ يراد به الخصوص في كل ما هو خلق لله تعالى، ويخرج عن ذلك صفات ذاته لا ربّ غيره، ووصف نفسه بالوحدانية من حيث لا موجود إلا به، وهو في وجوده مستغن عن الموجودات، لا إله إلا هو العلي العظيم.

﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالى وإقامة الحجة على الكفر به، ثم لما فرغ ذكر ذلك جعله مثلاً للحق والباطل والإيمان والكفر والشك في الشرع واليقين به.

و «الماء»: يريد به المطر، و «الأودية»: ما بين الجبال من الانخفاض والخنادق، وقوله سبحانه: ﴿يَقْدِرُهَا﴾ يحتمل أن يريد: بما قَدَّرَ لها من الماء. ويحتمل أن يريد: بقدر ما تحمله على قدر صغرها وكبرها، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَقْدِرُهَا﴾ بفتح الدال، وقرأ الأشهب العقيلي بسكونها.

و «الزبد»: ما يحمله السيل من

غثاء ونحوه وما يرمي به ضفتيه من الحجاب الملتبك به، ومنه قول حسان بن ثابت:

والبَحْرُ حينَ تهبُّ الرِّيحُ شامِيةً
قَبَاطِلُ ويزمي العِبرَ بالزُّبْدِ
و «الرَّابِي»: المنتفخ الذي قد رُبَا، ومنه الرُّوَّة.

وقوله تعالى: «وَمِمَّا» خبر ابتداء، والابتداء قوله: «زَيْدٌ» و «مِثْلُهُ» نعت لـ «الزُّبْدِ»، والمعنى: ومن الأشياء التي توقدون عليها ابتغاء الحلي - وهي الذهب والفضة - أو ابتغاء الاستمتاع بها في المرافق -

وهي الحديد والرصاص والنحاس ونحوها من الأشياء التي توقدون عليها، فأخبر تعالى أن من هذه أيضاً - إذا أحمي عليها - تكون زبداً مماثلاً للزُّبْد الذي يحمل السيل، ثم ضرب تعالى ذلك مثلاً للحق والباطل، أي أن الماء الذي تشربه الأرض فيقع النفع به هو كالحق، والزُّبْد الذي يَجْفُو وَيَنْفِش ويذهب هو كالباطل، وكذلك ما يخلص من الذهب والفضة والحديد ونحوها هو كالحق، وما يذهب في الدخان هو كالباطل. وقوله: «فِي النَّارِ» متعلق بمحذوف تقديره: كأننا كذا، قال مكي وغيره: ومنعوا أن يتعلق بقوله: «يُوقَدُونَ» لأنهم زعموا أنه ليس يوقد على شيء إلا وهو في النار، وتعلق حرف الجر بـ «يُوقَدُونَ» يتضمن تخصيص حال من حال أخرى.

وذهب أبو علي الفارسي إلى تعلقه بـ «يُوقَدُونَ»، وقال: قد يوقد على شيء وليس في النار كقوله تعالى: «فَأَوْقَدَ لِي يَهْمَكُنَّ عَلَى الطَّيْنِ»، فذلك

البناء الذي أمر به أن يوقد عليه ليس في النار ولكن يصيبه لهيبها، وقوله: «جُفَاءً» مصدر من قولك: «جفأت القدر»، إذا غلت خرج زبدها وذهب. وقرأ رؤية: «جُفَالاً» من قولهم: «جفلت الريح السحاب» إذا حملته وفرقته، قال أبو حاتم: لا تعتبر قراءة الأعراب في القرآن.

وقوله: «مَا يَنْتَعِ النَّاسُ» يريد الخالص من الماء ومن تلك الأحجار، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر،

وعاصم في رواية أبي بكر، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، والحسن: «يُوقَدُونَ» بالناء، أي أنتم أيها الموقدون، وهي صفة لجميع أنواع الناس. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن معيص، ومجاهد، وطلحة، ويحيى، وأهل الكوفة: «يُوقَدُونَ» بالياء على الإشارة إلى الناس، و«جُفَاءً» مصدر في موضع الحال، وروي عن ابن عباس أنه قال: قوله تعالى: «يَنْ أَسْمَاءُ» يريد به الشرع والدين، وقوله تعالى: «فَنَأَتْ آوِيَةً» يريد به القلوب، أي: أخذ النبيل بحظّه والبلید بحظّه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول لا يصح والله أعلم عن ابن عباس لأنه ينحو إلى قول أصحاب الرموز، وقد تمسك به

﴿أَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَنْذُرُ الْغَافِلِينَ﴾^(١٨) الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْيَمِينَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوْصَلَ وَيُخْصَنَ رَحْمَتَهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ وَالْحَسَنَةَ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَمْ يُغْفَرْ لَهُمُ الذَّنْبُ عَنْهُ ﴿٢١﴾ جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا مِنْ صَلَاحٍ مِنْ أَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ فِي الْيَمِينِ كَيْدُ الْوَارِثِينَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوْصَلَ وَيُخْصَنَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْغَنِيُّونَ وَمَنْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٣﴾ اللَّهُ يُسْطِرُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا الْآخِرَةُ الْأَوَّلَى ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنَاقِبُ ﴿٢٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٦﴾

الغزالي وأهل ذلك الطريق، ولا وجه لإخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب بغير علة تدعو إلى ذلك، والله الموفق للصواب برحمته، وإن صَحَّ هذا القول عن ابن عباس فإنما قصد أن قوله تعالى: «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ» معناه: الحق الذي يتقرر في القلوب، والباطل الذي يعترها.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ هم المؤمنون الذين دعاهم الله على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من اتباع دينه.

و «الْحَسَنُ» هي الجنة، ويدخل في هذا النصر في الدنيا ونحو ذلك من البشارات التي تكون للمؤمن وكل ما يختص به المؤمنون من نعم الله عز وجل.

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِبُوا﴾ هم الكفرة، و﴿سُوءُ الْحَسَابِ﴾ هو التقصي على المحاسب، ولا يقع في حسابه شيء من التجاوز. قاله حوشب، وإبراهيم النخعي، وقرئ السُّبُخِي وغيره. و«المأوى» حيث يأوي الإنسان ويسكن، و﴿لِلْهَادِ﴾ ما يُفْتَرَش ويُلبس بالجلوس والرقاد.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَمَلِكُ﴾ استفهام بمعنى التقرير، والمعنى: أيسْتوي مَنْ هداه الله تعالى فأمن بك وعلم صدق نبوتك ومَنْ لم يهتد ولا رزق بصيرة فبقي على كفره؟ فمثل عز وجل ذلك بالعمى، وزوي أن هذه نزلت في حمزة بن عبدالمطلب وأبي جهل بن هشام، وقيل: في عمار بن ياسر وأبي جهل، وهي - بعد هذا - مثال في جميع العالم. و﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصرة، أي: إنما يتذكر فيؤمن ويراقب الله مَنْ له لب وتحصيل.

ثم أخذ تبارك وتعالى في وصف هؤلاء الذين يَسْرَهُم للإيمان فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿يَمْهَدُ اللَّهُ﴾ اسم للجنس، أي بجميع عهده، وهي أواصره ونواحيه التي وُضِيَ بها عبیده، ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض وتجلب جميع المعاصي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّقُونَ آلَيْنَ﴾ يحتمل أن يريد به جنس الموثيق، أي: إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه، قال قتادة: وتقدم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في

بضع وعشرين آية، ويحتمل أن يشير إلى ميثاق معين وهو الذي أخذه الله على عباده وقت مسحه على ظهر أبيهم آدم عليه السلام.

وَوَصَّلُ ما أمر الله به أن يُوصَلَ ظاهرة في القربات، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات، وسُوءُ الحساب هو أن يَنْقُصَ، ولا يقع فيه مسامحة ولا تغمد.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٤﴾ تفسير قوله عز وجل: الصبر لوجه الله يدخل في الرزايا والأسقام والعبادات، وعن الشهوات ونحو ذلك. و﴿أَيْتَكَ﴾ نصب على المصدر، أو على المفعول من أجله، و«الوجه» في هذه الآية ظاهره الجهة التي تقصد عند الله تعالى بالحسنات لتقع عليها المثوبة، وهذا كما تقول: خرج الجيش لوجه كذا، وهذا أظهر ما فيه، مع احتمال غيره، و«إقامة الصلاة» هي الإتيان بها على كمالها، والصلاة هنا هي المفروضة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا﴾ يريد مواساة المحتاج، و«السُّرُّ» هو فيما أنفق تطوعاً، والعلائية فيما أنفق من الزكاة المفروضة، لأن التطوع كله الأفضل فيه الشكتم. وقوله: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ الْكَيْدَةَ﴾ أي: ويدفعون من رأوا منه مكروهاً بالتالي هي أحسن، وقيل: يدفعون بقول «لا إله إلا الله» شركهم، وقيل: يدفعون بالسلام غوائل الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبالجمل لا يُكَافِثُونَ الشرَّ بالشرِّ، وهذا بخلاف خُلِقَ الجاهلية. وزوي أن هذه الآية

نزلت في الأنصار ثم بقيت عامة - بعد ذلك - في كل من اتصف بهذه الصفات.

وقوله: ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ يحتمل أن تكون عُقْبَى دار الدنيا، ثم فسر «العقبى» بقوله: ﴿جَنَّتْ عَذْنٌ﴾ إذ العقبى تَعْمُ حالة الخير وحالة الشر، ويحتمل أن يريد: عقبى دار الآخرة لدار الدنيا، أي: العقبى الجنة في الدار الآخرة هي لهم، وقرأ الجمهور: ﴿جَنَّتْ عَذْنٌ﴾، وقرأ السُّعَيْي: ﴿جَنَّةُ عَذْنٍ يُذْخِلُونَهَا﴾ بضم الياء وفتح الخاء، و﴿جَنَّتْ﴾ بدلٌ من ﴿عُقْبَى﴾ وتفسير لها. و﴿عَذْنٌ﴾ هي مدينة الجنة ووسطها، ومنها «جَنَّتْ الإقامة»، من «عَذْنٌ بالمكان» إذا أقام فيه طويلاً، ومنه المعادن، وجَنَّتْ عَذْنٌ يقال: هي سكن الأنبياء والشهداء والعلماء فقط، قاله عبدالله بن عمرو بن العاص، ويروي أن لها خمسة آلاف باب.

وقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أي: من عمل صالحاً وآمن، قاله مجاهد وغيره، ويحتمل: أي مَنْ صلح لذلك بقدر الله تعالى وسابق علمه، وحكى الطبري في صفة دخول الملائكة أحاديث لم نطول بها لضعف أسانيدنا، والمعنى: يقولون: سلام عليكم، فحذف «يقولون» تخفيفاً وإيجازاً لدلالة ظاهر الكلام عليه، والمعنى: هذا بما صبرتم، والمعنى في ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ على نحو ما تقدم من المعنيين، وقرأ الجمهور: ﴿يَتِمُّ﴾ بكسر النون وسكون العين، وقرأ

يحيى بن وثاب بفتح النون وكسر العين، وقالت فرقة: معنى ﴿عُثِّي الدَّارِ﴾ أي: أن أعقبوا الجنة من جهنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل مبني على حديث وزد وهو: «إن كل رجل في الجنة فقد كان له مقعد معروف في النار فصرفه الله عنه إلى النعيم، فيعرض عليه، ويقال له: هذا مكان مقعدك فبذلك الله منه الجنة بليمانك وطاعتك وصبرك».

٢٥ - ٢٦ تفسير قوله عز وجل:

هذه صفة مضادة للمقدمة، وقال ابن جريج في قوله تعالى: ﴿وَيَقُطَّوْنَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ أن يؤصل أنه زوي: «إذا لم تمش إلى قريبك برجلك ولم تواسه بمالك فقد قطعت»، وقال مصعب بن سعد: سألت أبي عن قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الَّذِينَ سَلَ سَعِيهِمْ فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا، أهم الحرورية؟ قال: لا، ولكن الحرورية هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وتلا هذه الآية، فكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يجعل فيهم الآيتين. و﴿الْفَسَقَةُ﴾: الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن الخير جملة، و﴿سُوءَ الدَّارِ﴾ ضد ﴿عُثِّي الدَّارِ﴾، والأظهر في الدار هنا أنها دار الآخرة، ويحتمل أن تكون الدنيا على ضعف.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْخَرُ الرِّزْقَ﴾ الآية. لما أخبر تعالى عن تقدم صفته بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار

أنحى بعد ذلك على أغنيائهم، وحقر شأنهم وشأن أموالهم، والمعنى أن هذا كله بمشيئة الله، يهب الكافر المال ليهلكه به، ويقدر على المؤمن ليعظم بذلك أجره وذخيره. وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ من التقدير، فهو مناقض لـ ﴿يَسْخَرُ﴾، ثم استجملهم في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَوَةِ الدُّنْيَا﴾ وهي بالإضافة إلى الآخرة متاع ذاهب مضمحل، يستمتع به قليلاً ثم يفنى، و «المتاع»: ما يَتَمَتَّعُ به مما لا يبقى، قال الشاعر:

تَمَتَّعَ بِمَا مُشَعَّتْ إِنْ شَيْئاً
سَبَقَتْ بِهِ الْمَمَاتِ هُوَ الْمَتَاعُ
وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، هذا رد على مقترحي الآيات من كفار قريش، كسقوط السماء عليهم كسفاً، ونحو ذلك من قولهم: سِيرَ عَنَا الْأَخْشَبِينَ، واجعل لنا البطاح محارث ومغترباً كالأردن، وأخي لنا مُضَيَّنَا وأسلافنا، فلما لم يكن ذلك بحسب أن آيات الاقتراح لم تجر عادة الأنبياء بالإتيان لها إلا إذا أراد الله تعذيب قوم قالوا هذه المقالة، فرد الله عليهم، أي أن نزول الآية لا تكون معه ضرورة إيمانكم ولا هداكم، وإنما الأمر بيد الله يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء إلى طاعته والإيمان به من أناب إلى الطاعة وآمن بالآيات الدالة،

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَى الْعِلْمِ الَّذِينَ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَآبٍ ﴿٢٨﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْبًا تَاسَّيْتُ بِهِ الْجِبَالَ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَكَلِمٌ بِهِ الْمُؤْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِ الْبَرِّ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ أَسْتَشِرْتُ بَرِئِلَ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٠﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَارِعٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْطِئُ عَنِ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣١﴾ هَلْهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَأَهِمٌّ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ وَاقٍ ﴿٣٢﴾

٢٥٣

ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ على القرآن الكريم، أو على محمد ﷺ.

و ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من ﴿مَنْ﴾ في ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، وطمأنينة القلوب هي الاستكانة والسرور بذكر الله والسكون به كمالاً به، ورضى بالشواب عليه، وجودة اليقين. ثم استفتح الإخبار بأن طمأنينة القلوب بذكر الله تعالى، وفي هذا الإخبار حض وتغيب في الإيمان، والمعنى: إن بهذا تقع الطمأنينة لا بالآيات المقترحة، بل ربما كفر بعدها قوم فنزل العذاب كما سلف في بعض الأمم.

و ﴿الَّذِينَ﴾ الثاني ابتداء وخبره ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾، ويصح أن تكون ﴿الَّذِينَ﴾ بدلاً من الأولى. و﴿طُوبَى﴾ ابتداء و﴿لَهُمْ﴾ خبره.

وطوبى اسم، ويدل على ذلك كونه ابتداءً، وهي فُعلَى من الطيب في قول بعضهم، وذهب سيبويه بها مذهب الدعاء، وقال: هي في موضع رفع، ويدل على ذلك رفع ﴿وَحَسُنَ﴾، قال ثعلب: وقرئ: ﴿وَحُسْنٌ﴾ بالنصب، فـ ﴿طُوبَى﴾ - على هذا - مصدر، كما قالوا: سقياً لك، ونظيره من المصادر: الرجعى والعُقْبَى. قال ابن سيدة: والطوبى جميع طيبة - عن كراع - ونظيره كُوسَى في جمع كيسة، وصُوفَى في جمع صيفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي قرأ: ﴿وَحُسْنٌ﴾ بالنصب هو يحيى بن يَعْمَر، وابن أبي عيلة.

واختلف في معنى ﴿طُوبَى﴾ - ف قيل: معناه: خير لهم، وقال عكرمة: معناه: نعم لهم، وقال الضحاك: معناه: غبطة لهم، وقال ابن عباس: طوبى اسم الجنة بالحبشية، وقال سعيد بن مشجوح: اسم الجنة طوبى بالهندية، وقيل: طوبى اسم شجرة في الجنة، وبهذا تواترت الأحاديث، قال رسول الله ﷺ: «طوبى شجرة في الجنة، يسير الراكب المُجِدُّ في ظلها مائة عام مجداً لا يقطعها، اقروا وإن شتمتم: ﴿وَلَيْلٌ مُدَوَّرَةٌ﴾»، وحكى الطبري عن أبي هريرة، وعن مغيث بن سمي، وعتبة بن عبد يرفعه أخباراً مقتضاها أن هذه الشجرة ليست في الجنة دار إلا وفيها من أغصانها، وأنها ثمر ثياب أهل الجنة، وأنها تخرج منها الخيل بسُرُجِها

ولُجْمِها، ونحو هذا مما لا يثبت سنده.

و «الْمَأْب»: المرجع والمآل، من أب يؤوب، ويقال في طوبى: طيبى.

② - ③ تفسير قوله عز وجل:

الكاف في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ متعلقة بالمعنى الذي في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَرَادَ﴾، أي: كما أنفذ الله هذا كذلك أرسلناك، هذا قول، والذي يظهر لي أن المعنى: كما أجرينا العادة بأن الله يضل من يشاء ويهدي، لا الآيات المقترحة، فكذلك أيضاً فعلنا في هذه الأمة، أرسلناك إليها بوحي لا بالآيات المقترحة، يفضل الله من يشاء ويهدي من يشاء.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالْآخِرِينَ﴾، قال قتادة، وابن جريج: نزلت في قريش حين عاهدهم رسول الله ﷺ عام الحديبية، فكتب الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال قائلهم: نحن لا نعرف الرحمن ولا نقر اسمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي أقول في هذا: إن ﴿الْآخِرِينَ﴾ هنا يراد به الله تعالى وذاته، ونسب إليهم الكُفر به على الإطلاق، وقصة الحديبية وقصة أمية بن خلف مع عبدالرحمن بن عوف إنما هي عن إياية الاسم فقط، وهروب عن هذه العبارة التي لم يعرفوها إلا من قبل محمد ﷺ، ثم أمر الله نبيه بالتصريح بالدين والإفصاح بالدعوة في قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾، و «الْمَتَاب»: المرجع كالمآب، لأن التوبة: الرجوع.

ويحتمل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالْآخِرِينَ﴾ فيكون معنى الآية الإخبار عنهم أنهم لا يؤمنون ولو نزل قرآن سُيِّرَتْ به الجبال أو قُطِعَتْ به الأرض، هذا تأويل الفراء وفرقة من المتأولين. وقالت فرقة: بل جواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف تقديره: ولو أن قرآنًا يكون صفته كذا لما آمنوا بوجه، قال أهل التأويل: ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: إن الكفار كانوا قالوا للنبي ﷺ: أرح عنا، أو سِير عنا جبلي مكة فقد ضيقا علينا، واجعل لنا أرضاً قطع غراسه وحرث، وأخي لنا آبائنا وأجدادنا وفلاتنا وفلاتنا، فنزلت الآية في ذلك مُفْلِمَةً أنهم لا يؤمنون ولو كان ذلك كله. وقالت فرقة: جواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف ولكنه ليس في هذه المعنى، بل تقديره: لكان هذا القرآن الذي يصنع به هذا، وتتضمن الآية - على هذا - تعظيم القرآن، وهذا قول حسن يحرق فصاحة الآية. وقوله تعالى: ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ يعضد التأويل الأخير وترتب مع الآخرين. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِينَ﴾ بمعنى: يعلم، وهي لغة هوازن، قاله القاسم بن معن، وقال ابن الكلبي: هي لغة «هَبِيل» حي من النخع، ومنه قول سُحَيْم بن وثيل الرياحي:

﴿مَثَلُ الْآحَسَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُتِّهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا ذُكِّي عَقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعَقْبَى
الْكُفْرِينَ النَّارُ﴾ (٣٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكَتَبُ يَفْرَحُونَ
بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْآخِرَاتِ مِنْ بُكْرَةٍ بَعْضُهُمْ قُلُوبُهُمْ آمَنَتْ
أَنْ تُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا أَشْرَكَ بِهِ إِلَهٌ آدَعُوا وَإِلَهُ مَنَابٍ (٣٤)
وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَعِنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا
جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٥) وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ
لِرُسُلِهِ أَنْ يَأْتِيَ بِنَايَةٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ (٣٦)
يَمْحُو اللَّهُ مَا شَاءَ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٧)
وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْكَلْعُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٣٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا
مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ (٣٩) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلُّوا الْكُفْرَ لِمَنْ عَقْبَى النَّارُ (٤٠)

٢٥٤

والأنسر ونهب المال وكشف الحريم ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَشِرَّيْ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ﴾. هذه الآية تأنيس للنبي ﷺ، أي: لا يضيّق صدرك يا محمد بما ترى من قومك وتلقى منهم، فليس ذلك ببدع ولا نكير، قد تقدم هذا في الأسم، و«أَمْلَيْتُ لَهُمْ»: أي: مَدَدْتُ الْمُدَّةَ وَأَطْلَعْتُ، والإملاء: الإمهال على جهة الاستدراج، وهو من المَلَاوَة من الزمن، ومنه: تَمَلَّيْتُ حُسْنَ الْعَيْشِ.

وقوله: ﴿مَكَيْتَ كَانَ عَقَابِي؟﴾ تقرير وتعجيب، وفي ضمنه وعيد الكفار المعاصرين لمحمد عليه الصلاة والسلام.

(٣٣) - (٣٥) تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية بالمعنى راجعة إلى قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، والمعنى: أقمن هو هكذا أحق بالعبادة أم الجمادات التي لا تضر ولا تنفع؟ هذا تأويل، ويظهر أن القول مرتبط بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾، كأن المعنى: أقمن له القدرة والوحدانية ويُجعل له شريك أهل أن ينتقم ويعاقب أم لا؟ و«الأنفس» من مخلوقاته وهو قائم على الكل أي محيط به لِيَقْرَبَ الموعظة من حسن السامع، ثم خص من أحوال الأنفس حال كسبها ليتفكر الإنسان عند نظر الآية في أعماله وكسبه.

أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَنْسِرُونَنِي أَلَمْ تَيَاسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَم؟ ويحتمل أن يكون «الْيَاسُ» في هذه الآية على بابه، وذلك أنه لما أبعد إيمانهم في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ الآية، على التأويلين في المحذوف المقدر قال في هذه: أفلم ييأس المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة علماً منهم أن لو شاء الله لهدى الناس جميعاً؟

وقرأ ابن كثير، وابن محيصن: ﴿يَاسِيَسُ﴾، وقرأ ابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وابن أبي مليكة، وعكرمة، والجاحدي، وعلي بن حسين، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد: ﴿أَفَلَمْ يَبَيِّنْ﴾.

ثم أخبر تعالى عن كفار قريش والعرب أنهم لا يزالون تصيبهم قوارع من سرايا رسول الله ﷺ وغزواته، وقرأ ابن مسعود ومجاهد: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، ثم قال: ﴿أَوْ تَحُلْ﴾ أنت يا محمد قريباً من دارهم، هذا تأويل فرقة منهم الطبري، وعزاه إلى ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقال الحسن بن أبي الحسن: المعنى: أو تحل القارعة قريباً من دارهم، وقرأ سعيد بن جبير، ومجاهد: ﴿أَوْ تَحُلْ﴾ قريباً مِنْ دِيَارِهِمْ بالجمع.

ووعد الله - على قول ابن عباس وقوم - فتح مكة، وقال الحسن بن أبي الحسن: الآية عامة في الكفار إلى يوم القيامة، وإن حال الكفار هكذا هي أبداً، ووعد الله قيام الساعة، و«القارعة»: الرزية التي تفرع قلب صاحبها بظفاعتها كالقتل

وقوله: ﴿قُلْ سَوِّمُكُمْ﴾ أي: سُمُّوا من له صفات يستحق بها الألوهية، ثم أضرب عن القول وقرّر: هل تعلمون الله بما لا يعلم، وقرأ الحسن: ﴿تُسَوِّمُكُمْ﴾ بإسكان النون وتخفيف الباء. و«أَمَ» بمعنى «بل» و«ألف الاستفهام»، هذا مذهب سيبويه، وهي كقولهم: «إنها لإبل أم شاء». ثم قرره بعد، هل يريدون تجويز ذلك بظاهر من الأمر؟ لأن ظاهر الأمر له إلباس ما وموضع من الاحتمال، وما لم يكن إلا بظاهر من القول فقط فلا شبهة له. وقرأ الجمهور: ﴿زَيْنَ﴾ على البناء للمفعول «مَكْرَهُمُ» بالرفع، وقرأ مجاهد: ﴿زَيْنَ﴾ على بناء الفاعل «مَكْرَهُمُ» بالنصب، أي: زَيْنَ الله، و«مَكْرَهُمُ» لفظ يعم أقوالهم وأفعالهم التي كانت بسبيل مناقضة

الشرع، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَصَدُّوا﴾ بضم الصاد، وهذا على تعدي الفعل، وقرأ الباقون هنا وفي «حَمَ الْمُؤْمِنَ» ﴿وَصَدُّوا﴾ بفتحها، وذلك يحتمل أن يكون: صدُّوا أنفسهم أو صدُّوا غيرهم، وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿وَصِدُّوا﴾ بكسر الصاد.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ عَذَابُ﴾ الآية وعيدٌ، أي: لهم عذاب في دنياهم بالقتل والأسر والجذوب والبلايا في أجسامهم وغير ذلك مما امتحنهم الله به، ثم لهم عذاب أشقُّ من هذا كله وهو الاحتراق بالنار. و﴿أَشَقُّ﴾: أصعب، من المشقة، و«الواقى» هو الساتر على جهة الحماية، من الوقاية.

وقوله تعالى: ﴿تَنَلُّ الْجَنَّةَ﴾ الآية. قال قوم: (متل) معناه: صفة، وهذا من قولك: «مثلت الشيء» إذا وصفته لأحد وقربت عليه فهم أمره، وليس بضرب مثل لها، وهو كقوله سبحانه: ﴿وَلَهُ النَّارُ الْأَكْثَى﴾ أي الوصف الأعلى، ويظهر أن المعنى الذي يتحصل في النفس مثلاً للجنة هو جزئي الأنهار وأن أكلها دائم، ورافعه عند سبويه مُقَدَّر، قيل: تقديره: فيما يثلى عليكم أو ينص عليكم مثل الجنة، ورافعه عند الفراء قوله: ﴿تَجْرِي﴾، أي: صفة الجنة أنها تجري من تحتها الأنهار، ونحو هذا موجود في كلام العرب، وتناول عليه قومٌ أن ﴿مِثْلُ﴾ مُفْحَم، وأن التقدير: الجنة التي وعد المتقون بها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قلق، وقرأ علي بن أبي طالب، وابن مسعود: ﴿أَمْشَالُ الْجَنَّةِ﴾، وقد تقدم غير مرّة معنى قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

وقوله: ﴿أَكْكَلَهَا﴾ معناه: ما يؤكل فيها، «والمغشى» والعاقبة والعاقب: حال تتلو أخرى قبلها. وباقي الآية بين، وقيل: التقدير في صدر الآية: «مثل الجنة جنة تجري»، قاله الزجاج، فتكون الآية - على هذا - ضَرْبٌ مثل لجنة النعيم في الآخرة.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل: اختلف المتأولون فيمن عني بهذه الآية - فقال ابن زيد: عني به من آمن من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وشبهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى مَذْحَمُهُم بأنهم لشدة إيمانهم يُسَرُّون بما يرد على النبي ﷺ من مباحات الشرع، وقال قتادة: عني به جميع المؤمنين و﴿الْكِتَابُ﴾ هو القرآن، و﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يراد به جميع الشرع، وقالت فرقة: المراد «بالذين آتيناهم الكتاب» اليهود والنصارى، وذلك أنهم لهم فرح بما ينزل على النبي ﷺ من تصديق شرائعهم وذكر أوائلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَيُضَعَّفُ هذا التأويل بأن همهم به أكثر من فرحهم فلا يُغْتَدُ بفرحهم، وَيُضَعَّفُ أيضاً بأن اليهود والنصارى ينكرون بعضه وقد فَرَّقَ الله في هذه الآية بين الذين ينكرون بعضه وبين الذين آتيناهم الكتاب.

و﴿الْأَحْزَابُ﴾ قال مجاهد: هم

اليهود والنصارى والمجوس، وقالت فرقة: أحزاب الجاهلية من العرب، وأمره الله تعالى أن يطرح اختلافهم، وأن يصدق بأنه إنما أمر بعبادة الله وترك الإشراك والدعاء إليه، واعتقاد المآب إليه، وهو الرجوع عند البعث يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾، المعنى: كما يسرنا هؤلاء للفرح هؤلاء لإنكار البعض، كذلك ﴿أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، ويحتمل المعنى: والمؤمنون الذين آتيناهم الكتاب يفرحون به لفهمهم له وسرعة تلقّيههم، ثم عدّد النعمة بقوله: كذلك جعلناه، أي: سَهَّلْنَاهُ عليهم في ذلك وَتَقَضَّيْنَا. و﴿حُكْمًا﴾ نصب على الحال، والْحُكْمُ: ما تضمنه القرآن من المعاني، وجعله عربياً لما كانت العبارة عنه بالعربية. ثم خاطب النبي ﷺ محذراً من اتباع أهواء هذه الفرق الضالة، والخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام وهو بالمعنى يتناول المؤمنين إلى يوم القيامة. ووقف ابن كثير وحده على: ﴿وَأَيُّ﴾ و﴿هَادِي﴾ و﴿وَالِ﴾ بالياء، قال أبو علي: «والجمهور يقفون بغير ياء، وهو الوجه»، وباقي الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية. في صدرها تأنييس للنبي ﷺ، وردّ على المقترحين من قريش بالملائكة، المتعجبين من بعثة الله بشراً رسولاً، فالمعنى: إن بعثك يا محمد ليس ببدع، فقد تقدم هذا في الأمم، ثم جاء قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية، لفظه لفظ النهي والزجر،

والمقصد به إنما هو النفي المحض، لكنه نفي تأكيد بهذه العبارة، ومتى كانت هذه العبارة عن أمر واقع تحت قدرة المنهي عنه فهي زجر، ومتى لم يقع ذلك تحت قدرته فهو نفي مؤكد. ﴿يَا ذُنُوبَ اللَّهِ﴾ معناه: إلا أن يأذن الله في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لفظ عام في جميع الأشياء التي لها آجال، وذلك أنه ليس كائن فيها إلا وله أجل في بدنه وفي خاتمته، وكل أجل مكتوب محصور، فأخبر الله تعالى عن كتبه الآجال التي للأشياء عامة، وقال الضحاك، والفراء: المعنى: لكل كتاب أجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا العكس غير لازم، ولا وجه له، إذ المعنى تام في ترتيب القرآن، بل يمكن هدم قولهما بأن الأشياء التي كتبها الله أزلية باقية كتنعيم أهل الجنة وغيره يوجد كتابها ولا أجل له.

وقوله تعالى: ﴿يَمَحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، قرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ بتشديد الباء، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم بتخفيفها، وقد تخبط الناس في معنى هذه الألفاظ، والذي يتلخص من مسلكها أن الأشياء التي قدرها الله تعالى في الأزل، وعلمها بحال ما، لا يصح فيها محو ولا تبديل، وهي التي كتبت في أم الكتاب، وسبق بها القضاء، وهذا مروى عن ابن عباس وغيره من أهل العلم، وأما الأشياء التي أخبر الله تعالى أنه يبذل فيها

وينقل كغفر الذنوب بعد تقريرها، وكشف آية بعد تلاوتها واستقرار حكمها ففيها يقع المحو والتثبيت فيما يقيد الحفظه ونحو ذلك، وأما إذا رُدَّ الأمر إلى القضاء والقدر فقد محا الله ما محا وثبت ما ثبت، وجاءت العبارة مستقبلة لمحي الحوادث وهذه الأمور فيما يستأنف من الزمان، فينتظر البشر ما يمحو أو ما يثبت، وبحسب ذلك خوفهم ورجاؤهم ودعاؤهم، وقالت فرقة منهم الحسن: هي في آجال بني آدم، وذلك أن الله تعالى في ليلة القدر - وقيل: ليلة نصف شعبان - يكتب آجال الموتى، فيُمحى ناس من ديوان الأحياء ويُثَبِّتون في ديوان الموتى، وقال قيس بن عباد: العاشر من رجب هو يوم يمحو الله ما يشاء ويثبت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التخصيص في الآجال وغيرها لا معنى له، وإنما يحسن من الأقوال هنا ما كان عاماً في جميع الأشياء، فمن ذلك أن يكون معنى الآية: إن الله تعالى يغير الأمور عن أحوالها، أعني ما من شأنه أن يُعَيَّر على ما قدمناه، فيمحو من تلك الحالة ويثبت في التي نقله إليها، وزوي عن عمر، وابن مسعود أنها كانا يقولان في دعائهما: «اللهم إن كنت كتبتنا في ديوان الشقاوة فامحنا وأثبتنا في ديوان السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت»، وهذا دعاء في غفران الذنوب وعلى جهة الجزع منهما، أي: اللهم إن كنا شقينا بمعصيتك، وكتبت علينا ذنوب

وشقاوة بها فامحها عنا بالمغفرة والطاعة، وفي لفظ عمر رضي الله عنه - في بعض الروايات - بعض من هذا، ولم يكن دعاؤهما التبتة في تبديل سابق القضاء، ولا يتأول عليهما ذلك.

وقيل: إن هذه الآية نزلت لأن قريشاً لما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَقُولَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قالوا: ليس لمحمد في هذا الأمر قدرة ولا حظ، فنزلت ﴿يَمَحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ أي: ربما أذن الله من ذلك كما تكرهون بعد أن لم يكن بإذن الله.

وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يمحو الله ما يشاء ويثبت من أمور عباده، إلا السعادة والشقاوة والآجال فإنه لا محو فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نحو ما أصلناه أولاً في الآية.

وحكى عن فرقة أنها قالت: يمحو الله ما يشاء ويثبت من كتاب حاشي أم الكتاب الذي عنده لا يغير منه شيئاً، وقالت فرقة: معناه: يمحو كل ما يشاء ويثبت كل ما أراد، ونحو هذه الأقوال التي هي سهلة المعارضة. وأسند الطبري عن إبراهيم التَّخَمِي أن كعباً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿يَمَحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، وذكر أبو المعالي في التلخيص أن علياً رضي الله عنه هو الذي قال هذه

و﴿الْأَرْضِ﴾ يريد به اسم الجنس، وقيل: يريد أرض الكفار المذكورين، وهذا بحسب الاختلاف في قوله: ﴿تَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾. وقرأ الجمهور: ﴿تَنْقُصُهَا﴾، وقوله: ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، من قال: «إنها أرض الكفار المذكورين» قال: معناه: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي أَرْضَ هَؤُلَاءِ بِالْفَتْحِ عَلَيْكَ فَتَنْقُصُهَا بِمَا يَدْخُلُ فِي دِينِكَ مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْبِلَادِ الْمُجَاوِرَةِ لَهُمْ، فَمَا يَوْمُهُمْ أَنْ نَمُكِّنَكَ مِنْهُمْ أَيْضاً كَمَا فَعَلْنَا بِمُجَاوِرِهِمْ؟ قاله ابن عباس، والضحاك، وهذا القول لا يتأتى إلا بَأَنْ يُقَدَّرَ نَزُولُ هَذِهِ الْآيَةِ بِالْمَدِينَةِ. ومن قال: «إِنَّ [الْأَرْضَ] اسم جنس» جعل الانتقاص من الأطراف بتخريب العمران الذي يُجْلَهُ اللهُ بِالْكَفَرَةِ، وهذا قول ابن عباس أيضاً ومجاهد، وقالت فرقة: الانتقاص هو يموت البَشَرُ، وهلاك الشمرات، ونقص البركة، قاله ابن عباس أيضاً والشعبي، وعكرمة، وقتادة. وقالت فرقة: الانتقاص بموت الأخيار والعلماء، قال ذلك ابن عباس أيضاً ومجاهد، وكل ما ذكر يدخل في لفظ الآية. والطرف من كل شيء: خياره، ومنه قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «العلوم أودية، في أي وادٍ أخذت منها خسرت، فخذوا من كل شيء طرفاً»، يعني خياراً. وجملة معنى هذه الآية الموعظة وضرب المثل، أي: أَلَمْ يَرَوْا فَيَقْعَ مِنْهُمْ اتِّعَاطُ، وَأَلْبَقَ مَا يَقْصِدُ لَفْظُ الْآيَةِ هُوَ تَنْقُصُ الْأَرْضَ بِالْفَتْحِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

وهي قبل الفعل، فصارت بعد في ذلك بمنزلة اللام المؤكدة في القسم التي تكون قبل الفعل في قولك: «والله لتخرجن»، فلذلك يحسن أن تدخل النون الثقيلة في قولك «ثُرَيْكَ» لحولها هنا محل اللام هناك، ولو لم تدخل «ما» لما جاز ذلك إلا في الشعر.

وخص «البعض» بالذكر إذ مفهوم أن الأعمار تقصر عن إدراك جميع ما تأتي به الأقدار مما يُوعَدُ بِهِ الْكَافِرُ، وكذلك أعطى الوجود، ألا ترى أن أكثر الفتوح إنما كان بعد النبي ﷺ، و﴿أَوْ﴾ عاطفة.

وقوله: ﴿فَإِنَّا﴾ جواب الشرط، ومعنى الآية: إِنْ تَبَقَّ يَا مُحَمَّدُ لَتَرَى، أَوْ تَتَوَقَّيْتُكَ فَعَلَى كِلَا الْوَجْهَيْنِ إِنَّمَا يَلْزَمُكَ الْبَلَاغُ فَقَطْ. وقوله: ﴿تَوَدُّكُمْ﴾ يحتمل أن يريد به المضار التي تَوَدُّ اللهُ بِهَا الْكَافِرَ، فأطلق فيها لفظة الوعد لما كانت تلك المضار معلومة مصرحاً بها، ويحتمل أن يريد الوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام في إهلاك الكفرة، ثم أضاف الوعد إليهم لما كان في شأنهم.

والضمير في قوله: ﴿يَرَوْنَ﴾ عائد على كفار قريش، وهم المتقدم ضميرهم في قوله: ﴿تَوَدُّكُمْ﴾، وقوله: ﴿تَأْتِي الْأَرْضُ﴾ معناه: بِالْقُدْرَةِ وَالْأَمْرِ، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا إِلَهُهُمُ الْفَوَاعِدَ﴾،



المقالة المذكورة عن كعب، وذلك - عندي - لا يصح عن علي.

واختلفت أيضاً عبارة المفسرين في تفسير ﴿أَمْ أَتَكْتَبُ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: وهو الذِّكْرُ، وقال كعب: هو علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأصوب ما يُفَسَّرُ بِهِ ﴿أَمْ أَتَكْتَبُ﴾ أنه ديوان الأمور المحدثه التي قد سبق القضاء فيها بما هو كائن، وسبق ألا يُبَدَّلَ، ويبقى المحو والتثبيت في الأمور التي سبق في القضاء أن تُبَدَّلَ وتُحْمَى وتثبت، قال نحوه قتادة، وقالت فرقة: معنى ﴿أَمْ أَتَكْتَبُ﴾: الحلال والحرام، وهذا قول الحسن بن أبي الحسن.

٤٠ - ٤١ تفسير قوله عز وجل: «إِنْ شَرَطَ دَخَلْتَ عَلَيْهَا «مَا»

ورفع (الكتاب)، وهذه القراءات يراذ فيها الله تعالى، لا يحتمل لفظها غير ذلك.

تم تفسير سورة الرعد والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه

تفسير

سورة إبراهيم عليه السلام

هذه السورة مكية إلا آيتين، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا﴾ إلى آخر الآيتين، ذكره مكّي، والنقاش.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور، و﴿كِتَابٌ﴾ رفع على خبر ابتداء مضمر، تقديره: هذا كتاب، وهذا على أكثر الأقوال في الحروف المقطعة، وأما مَنْ قال فيها: إنها كناية عن حروف المعجم، ف﴿كِتَابٌ﴾ مرفوع بقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾، أي: هذه الحروف كتاب أنزلناه إليك، وقوله: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ في موضع الصفة لـ «الكتاب»، قال القاضي ابن الطيب، وأبو المعالي، وغيرهما: إن الإنزال لم يتعلق بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، لكن بالمعاني التي أفهمها الله جبريل عليه السلام من الكلام.

وقوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ أسند الإخراج إلى النبي ﷺ من حيث له

وتوحيد الله تبارك وتعالى، يريد مَنْ آمَن منهم، كعبد الله بن سلام، وتميم الذاري، وسلمان الفارسي الذين يشهدون بتصديق محمد عليه الصلاة والسلام. وقال مجاهد: يريد عبد الله بن سلام خاصة، قال هو: فني نزلت ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان الأخيران لا يستقيمان إلا أن تكون الآية مدنية والجمهور على أنها مكية، قاله سعيد بن جبير، وقال: لا يصح أن تكون الآية في عبد الله بن سلام لكونها مكية، وكان يقرأ: ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

وقيل: يريد الله تعالى، كأنه استشهد بالله سبحانه، ثم ذكره بهذه الألفاظ التي تتضمن صفة تعظيم، ويعترض هذا القول بأن فيه عطف الصفة على الموصوف وذلك لا يجوز وإنما تعطف الصفات بعضها على بعض، ويحتمل أن تكون [مَنْ] في موضع رفع بالابتداء والخبر محذوف والتقدير: أعدل أو أمضى قولاً، ونحو هذا مما يدل عليه لفظه «شاهد»، ويراد بذلك الله تعالى.

وقرأ علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وابن عباس، وابن جبير، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، والحكم، وغيرهم: ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ بكسر الميم من [مِنْ] وخفض الدال، قال أبو الفتح: ورويت عن النبي ﷺ، وقرأ علي بن أبي طالب أيضاً، والحسن، وابن السميع: ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ بكسر الميم والدال، ويضم العين وكسر اللام على ما لم يسم فاعله

وقوله: ﴿لَا مُعْتَبَ﴾ أي: لا راؤ ولا مناقض يتعقّب أحكامه، أي: ينظر في أعقابها، أمصية هي أم لا؟ وسُرعة حساب الله واجبة لأنها بالإحاطة وليست بعدد.

و «المَكْرُ»: ما يتمرس بالإنسان ويسعى عليه، عليم بذلك أو لم يعلم، فوصف الله تعالى الأسم السالفة التي سعت على أنبيائها، كما فعلت قريش بمحمد ﷺ بالمكر، وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، أي العقوبات التي أحلها بهم، وسماها مكرًا على عرف تسمية المعاقبة باسم الذنب، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ﴾ ونحو هذا، وفي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْتُبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ تنبيه وتحذير في طي إخبار. ثم توعدهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُنِيَ الدَّارُ﴾، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿الكَافِرُ﴾ على الإفراد، هو اسم الجنس، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿الْكَافِرُ﴾ وقرأ ابن مسعود: ﴿الْكَافِرُونَ﴾، وقرأ أبي بن كعب: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وتقدم القول في ﴿عُنِيَ الدَّارُ﴾ قبل هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. المعنى: ويكذبك يا محمد هؤلاء الكفرة، ويقولون: لست مرسلًا من الله، وإنما أنت مُدْع، قل لهم: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، و﴿يَاللَّهُ﴾ في موضع رفع، التقدير: كفى الله، و «شاهد» بمعنى: شاهد، وقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، قيل: يريد اليهود والنصارى الذين عندهم الكتب السابقة برفض الأصنام

فيه المشاركة بالدعاء والإنذار، وحقيقته إنما هي لله تعالى بالاختراع والهداية، وفي هذه اللفظة تشريف للنبي ﷺ، وعمَّ «النَّاسُ» إذ هو مبعوث إلى جميع الخلق، ثبت ذلك بآيات القرآن التي اقترن بها ما نُقل تواتراً من دعوته عليه الصلاة والسلام العالمُ كُلُّهُ، وفي بعثه إلى الأحمر والأسود، علم ذلك الصحابة مشاهدة، ونقل عنهم تواتراً، فعلم قطعاً والحمد لله. واستعير الظلمات للكفر والنور للإيمان تشبيهاً، وقوله: ﴿يَا ذِي رَيْبٍ﴾ أي بعلمه وقضائه وتمكينه لهم، و﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مِرْيَئُكَ﴾ بدل من الأول في قوله: ﴿إِلَّا أَلْتَوِيَّ﴾، أي المحجَّة المؤدية إلى طاعة الله والإيمان به ورحمته، فأضافها إلى الله بهذه المتعلقات، و﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾ صفتان لا نفتان في هذا الموضع، فالعزة من حيث الإنزال للكتب، وما في ضمن ذلك من القدرة واستيجاب الحمد من حيث بثَّ هذه النعم على العالم في هدايتهم.

وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ برفع اسم الله على القطع والابتداء، وخبره ﴿الَّذِي﴾، ويصح رفعه على تقدير: «هو الله الذي»، وقرأ الباقون بكسر الهاء على البدل من قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾، وروى الأصمعي وحده هذه القراءة عن نافع، وعبر بعض الناس عن هذا بأن قال: التقدير: «إلى صراط الله العزيز الحميد»، ثم قدم الصفات وأبدل منها الموصوف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذا كان هذا فليست بغدٌ بصفات على طريقة صناعة النحو، وإن كانت بالمعنى صفاته ذكر معها أو لم يذكر.

وقوله: ﴿وَوَيْلٌ﴾ معناه: وشدة وبلاء ونحوه، أي يلقيه من عذاب شديد ينالهم الله به يوم القيامة، ويحتمل أن يريد: في الدنيا، هذا معنى قوله: ﴿وَوَيْلٌ﴾، وقال بعض الناس: ﴿وَيْلٌ﴾ اسم واد في جهنم يسيل من صديد أهل النار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خبر يحتاج إلى سند يقطع العذر، ثم لو كان هكذا لقلَّ تأويل هذه الآية لقوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾، وإنما يحسن تأويله في قوله: ﴿وَيْلٌ﴾ لِلْمُطَفِّينَ ﴿﴾ وما أشبهه، وأما هنا فإنما يحسن في ﴿وَيْلٌ﴾ أن يكون مصدراً، ورفع على نحو رفعهم «سَلَامٌ عَلَيْكَ» وشبهه.

و﴿الَّذِينَ﴾ بدل من ﴿الْكَاذِبِينَ﴾، وقوله: ﴿يَسْتَحْزِنُونَ﴾ من صفة الكافرين الذين توعدهم قبل، والمعنى: يؤثرون دنياهم وكفرهم وترك الإذعان للشرع على رحمة الله تعالى وسكنى جنته، وقوله: ﴿يَصْطَدُونَ﴾ يحتمل أن يتعدى وأن يقف، والمعنى على كلا الوجهين مستقل، تقول: «صدَّ زيد» و«صدَّه غيره»، ومن تعديته قول الشاعر: صَدَدْتُ الْكَأْسَ عَنَّا أَمْ عَمِرُوا وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا وَ «سَبِيلَ اللَّهِ» طريقة هداة وشرعه الذي جاء به رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿رَبُّنَا عِوَجًا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه من التأويل: أظهرها أن يريد:

ويطلبونها في حالة عَوَجٍ منهم، ولا يُراعى إن كانوا بزعمهم على طريق نظر وبسبيل اجتهاد واتباع الأحسن، فقد وصف الله تعالى حالهم تلك بالعوج، كأنه قال: ويصدُّون عن سبيل الله التي هي بالحقيقة نبيلة، ويطلبونها على عوج في النظر.

والتأويل الثاني أن يكون المعنى: ويطلبون لها عوجاً يظهر فيها، أي: يسمعون على الشريعة بأنوالهم وأفعالهم، ف﴿عِوَجًا﴾ مفعول.

والتأويل الثالث أن تكون اللفظة من البغي على معنى: ويبغون عليها أو فيها عوجاً، ثم حذف الجار، وفي هذا بعض القلق.

وقال كثير من أهل اللغة: العَوَجُ - بكسر العين - في الدُّنْيَا والأُمُور، وبالجُمْلَةِ في المعاني، والعَوَجُ - بفتح العين في الأجرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعترض هذا القانون بقوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾، وقد تتداخل اللفظة مع الأخرى، ووضف الضلالة بالبعد عبارة عن تعمُّقهم فيه وصعوبة خروجهم منه.

① - ② تفسير قوله عز وجل: هذه الآية رَدُّ وطعن على المُسْتَغْفِرِينَ أمر محمد ﷺ، أي: لست يا محمد ببدع من الرسل، وإنما أرسلناك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور على عادتنا في رسلنا في أن نبعثهم باللسنة أمهم ليقع التكلم بالبيان والعبارة المتمكنة، ثم يكون تبأين الناس من غير أهل اللسان عيلاً في التبيين على

أهل اللسان الذي يكون للنبي عليه الصلاة والسلام، وجعل الله العلة في إرسال الرسل بالسنة قومهم طلب البيان، ثم قطع قوله: ﴿فَيُضِلُّ﴾، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام إنما غايته أن يُبْلَغ وَيُبَيَّن، وليس فيما كلف أن يهدي ويضل، ذلك بيد الله ينفذ فيه سابق قضائه، وله في ذلك العزّة التي لا تعارض، والحكمة التي لا تُعْلَل، لا ربّ غيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإن اعترض أعجمي بأن يقول: من أين يبين هذا الرسول لي الشريعة وأنا لا أفهمه؟ قيل له: أهل المعرفة باللسان يعبرون لك، وفي ذلك كفايتك، وإن قال: من أين يتبين لي المعجزة وأفهم الإعجاز وأنا لا أفهم اللغة؟ قيل له: الحجة عليك إذعان أهل الفصاحة والذين كانوا يُظَنُّ بهم أنهم قادرون على المعارضة، وبإذعانهم قامت الحجة على البشر، كما قامت الحجة في معجزة موسى بإذعان السحرة، وفي معجزة عيسى بإذعان الأطباء.

و «اللسان» - في هذه الآية - يُراد به اللغة، وقرأ أبو السّمّال: ﴿بِلِسْنِ قَوْمِهِ بِسُكُونِ السَّيْنِ دُونَ الْأَلْفِ، كَرَيْشٍ وَرِيَّاشٍ، وَنَقُولُ: لِسْنٌ وَلِسَانٌ فِي «اللُّغَةِ»، فَأَمَّا الْعَضْوُ فَلَا يُقَالُ فِيهِ: لِسْنٌ بِسُكُونِ السَّيْنِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾ الآية. آيات الله هي العصا، واليد، وسائر الشّع، وقوله: ﴿أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾، تقديره: بأن أخرج، ويجوز أن تكون ﴿أَنْتَ﴾ مفسّرة لا موضع لها من الإعراب، وأما «الظلمات

والنور» هنا فيحتمل أن يراد بها: من الكفر إلى الإيمان، وهذا على ظاهر أمر بني إسرائيل في أنهم كانوا قبل بعث موسى فيهم أشياء متفرقين في الدين ففرع مع القبط في عبادة فرعون، وكلهم على غير شيء، وهذا مذهب الطبري، وحكاة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإن صحّ أنهم كانوا على دين إبراهيم وإسرائيل أو نحو هذا فالظلمات: الذل أو العبودية، والنور: العزّة بالدين والظهور بأمر الله تبارك وتعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر هذه الآية وأكثر الآيات في رسالة موسى عليه السلام أنها إنما كانت إلى بني إسرائيل خاصة في معنى الشرع لهم، وأمرهم ونهيهم بفروع الديانة، وإلى فرعون وأشراف قومه في أن ينظروا ويعتبروا في آيات موسى فيقرؤا بالله تعالى ويؤمنوا به وبموسى وبمعجزته، ويتحققوا نبوته، ويرسلوا معه بني إسرائيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يترتب هذا منهم إلا بالإيمان به. وأمّا أن تكون رسالته إليهم بمعنى أتباعه والدخول في شرعه فليس هذا بظاهر القصة، ولا كشف الغيب ذلك، ألا ترى أن موسى عليه السلام خرج عنهم ببني إسرائيل، فلو لم يُتَبَّعَ لمضى بأمته؟ وألا ترى أنه لم يَدْعُ القبط بجملتهم وإنما كان يحاور أولي الأمر؟ وأيضاً فليس دعاؤه لهم على حدّ دعاء نوح وهود وصالح - عليهم السلام - أمهم في معنى كفرهم ومعاصيهم، بل في الاهتداء

والتزكي وإرسال بني إسرائيل، ومما يؤيد هذا أنه لو كانت دعوته لفرعون والقبط على حدّ دعوته لبني إسرائيل فلم كان يطلب بأمر الله أن يرسل معه بني إسرائيل؟ بل كان المطلوب أن يؤمن الجميع ويتشروعوا بشرعه ويستقرّ الأمر، وأيضاً فلو كان مبعوثاً إلى القبط لرّده الله إليهم حين أغرق فرعون وجنوده، ولكن لم يكونوا أمته فلم يُرَدِّ إليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واحتج من ذهب إلى أن موسى عليه السلام بُعث إلى جميعهم بقوله تعالى في غير آية: ﴿إِنَّكَ فِرْعَوْنٌ وَمَلَكُوتُ﴾، و﴿إِنَّكَ فِرْعَوْنٌ وَقَارُوتُ﴾ والله أعلم.

وقوله: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ الآية. أمر الله عز وجل موسى أن يعظ قومه بالتهديد بنقم الله التي أحلّها بالأمم الكافرة قبلهم، وبالتعديد لنعمه عليهم في المواطن المتقدمة، وعلى غيرهم من أهل طاعته. ليكون جزئهم على مناهج الذين أنعم الله عليهم، وهزهم، من طريق الذين حلّت بهم النقمات، وعبر عن النعم والثقم بالأيام إذ هي في أيام، وفي هذه العبارة تعظيم هذه الكوائن المُذَكَّر بها، ومن هذا المعنى قولهم: يومٌ عصيب، ويومٌ عبوس، ويومٌ بسام، وإنما الحقيقة وصف ما وقع فيه من الشدة أو السرور، وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: أيام الله: نعمه، وعن فرقة أنها قالت: أيام الله: يَقمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولفظه «الأيام» تعم المعنيين، لأن

محيصن: ﴿وَيَذَّبُحُونَ﴾
بفتح الباء والباء مخففة.

و «الْبَلَاءُ» في هذه الآية
يحتمل أن يريد به المحنة،
ويحتمل أن يريد به
الاختبار، والمعنى
مقارب.

و «تَذَذَّتْ» بمعنى:
أذن، أي: أعلم، وهو
مثل: أكرم وتكرم، وأُعد
وتوعد، وهذا الإعلام منه
مقترن بإنفاذ وقضاء قد
سبقه، وما في «تَفَعَّلَ»
هذه من المحاولة
والشروع إذا أسندت إلى
البشر منفى في جهة الله
تعالى، وأما قول العرب:

تَعْلَمُ بمعنى: أعلم فمرفوض الماضي
على ما ذكر يعقوب، كقول الشاعر:
تَعْلَمُ - أَبَيْتُ الْفَنَ - ..

ونحوه.

وقال بعض العلماء: الزيادة على
الشكر ليست في الدنيا، وإنما هي من
نعم الآخرة، والدنيا أهون من ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وصحيح جائز أن يكون ذلك، وأن
يزيد الله تعالى المؤمن على شكره
من نعم الدنيا، وأن يزيده أيضاً منهما
جميعاً، وفي هذه الآية تزجية
وتخويف، ومما يقضي بأن الشكر
متضمن الإيمان أنه عادله بالكفر،
وقد يحتمل أن يكون الكفر كفر النعم
لا كفر الجحد، وحكى الطبري عن
سفيان وعن الحسن أنهما قالوا: معنى
الآية: لئن شكرتم لأزيدنكم من

وَأَذَقَالَ مُوسَى لِقَايَهُ أَذْكُرُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
وَيَذَّبُحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي
ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ① وَإِذْ تَأَذَّتْ
رَبِّكُمْ لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ
عَذَابِي لَشَدِيدٌ ② وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَكِيمٌ ③ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودُ وَالَّذِينَ مِنْ
بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي آفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ
بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ④ قَالَتْ
رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِئُوا أَسْمَوتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ
لِيُبْعِثَ لَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ وَيُوَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ
مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا
عَمَّا كُنَّا نَعْبُدُ آبَاءَنَا فَأَنْتُمْ تَأْتُونَنَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ⑤

٢٥٦

التذكير يقع بالوجهين جميعاً. وقوله
سبحانه: ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾
إنما أراد: لكل مؤمن ناظر لنفسه،
فأخذ من صفات المؤمن صفتين
تجمعان أكثر الخصال، وتعمنان
أجمل الأفعال.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

هذا من التذكير بأيام الله في النعم،
وكان يوم الإنجاء عظيماً لعظم الكائن
فيه، وقد تقدم تفسير هذه الآية
وقصصها بما يغني عن إعادته، غير
أن في هذه الآية زيادة الواو في
قوله: ﴿وَيَذَّبُحُونَ﴾ وفي البقرة:
﴿يَذَّبُحُونَ﴾ بغير واو عطف، فهناك
فسر «سوء العذاب» بأنه التذبيح
والاستحياء، وهنا دلّ بـ «سوء
العذاب» على أنواع غير التذبيح
والاستحياء، وعطف التذبيح
والاستحياء عليها. وقرأ ابن

طاعتي، وضعفه الطبري، وليس كما
قال، بل هو قوي حسن فتأمل،
وقوله: ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ﴾ هو جواب
قَسَمَ يتضمنه الكلام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾
الآية. في هذه الآية تحقيق
للمخاطبين بشرط كفرهم وتوبيخ،
وذلك بين في الصفتين اللتين وصف
بهما نفسه تبارك وتعالى في آخر
الآية، وقوله: ﴿لَغَفُورٌ﴾ يتضمن
تحقيرهم وعظمته، وقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾
يتضمن توبيخهم، وذلك أنه بصفة
توجب المحامد كلها دائماً كذلك في
ذاته لم يزل ولا يزال، فكفركم أنتم
بإله هذا حاله غاية التخلف
والخذلان، وقوله أيضاً: ﴿حَكِيمٌ﴾
يتضمن أنه ذو آلاء عليكم أيها
الكافرون به كان يستوجب بها
حمدكم، فكفركم به مع ذلك أذهب
في الضلال، وهذا توبيخ بين.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الآية.
هذا من التذكير بأيام الله في النعم من
الأمم الكافرة، وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ
إِلَّا اللَّهُ﴾ من نحو قوله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ
ذَلِكَ كَثِيرًا﴾، وفي مثل هذا قال
رسول الله ﷺ: «كذب التَّسَابُوتِ من
فوق عدنان»، وزوي عن ابن عباس
أنه قال: «كان بين زمن موسى وبين
زمن نوح قرون ثلاثون لا يعلمهم
إلا الله»، وحكى عنه المهدوي أنه
قال: «كان بين عدنان وإسماعيل
ثلاثون أباً لا يعرفون».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا الوقوف على عدتهم بعيد،
ونفي العلم بها جملة أصح، وهو
لفظ القرآن.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ بحسب احتمال اللفظ، و «الأيدي» في هذه الآية قد تُتَأَوَّلُ بمعنى الجوارح، وقد تُتَأَوَّلُ بمعنى أيدي النعم فيما ذكر، وعلى أن «الأيدي» هي الجوارح يكون المعنى: ردُّوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم عَصَا عليها من الغيظ على الرُّسل، ومبالغة في التكذيب، هذا قول ابن مسعود، وابن زيد، وقال ابن عباس: عجبوا ففعلوا ذلك، والعض من الغيظ مشهور، وفي كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿عَصَوْا عَنْكُمْ الْآثَامَ مِنَ الْغَيْظِ﴾، وقال الشاعر:

قَدْ أَقْنَى أَنَا بِلَهُ أَزْمَةً
فَأَضْحَى يَعْصُ عَلَيَّ الْوُظَيْفَا
وقال الآخر:

لَوْ أَنَّ سَلَمَى أَبْصَرَتْ تَحْدُرِي
وَوَقَّةً فِي عَظَمِ سَاقِي وَيَدِي
وَيُغْدِ أَهْلِي وَجَفَاءَ عَوْدِي
عَضَّتْ مِنَ الْوُجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ
ومما ذكر أن يكون المعنى أنهم ردُّوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم إشارة على الأنبياء بالسكوت، واستبشاعاً لما قد قالوه من دعوى النبوة، ومما ذكر أن يكون المعنى: ردُّوا أيدي أنفسهم في أفواه الرُّسل تسكيناً لهم، ودفعاً في صدر قولهم، قاله الحسن، وهذا أشنع في الردِّ وأذهب في الاستطالة على الرُّسل والنيل منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحتمل الألفاظ معنى رابعاً، وهو أن يُتَحَوَّزَ في لفظ الأيدي، أي أنهم ردُّوا أقوالهم ومكافحتهم ومدافعتهم

فيما قالوه بأفواههم من التكذيب، فكان المعنى: ردُّوا جميع مدافعتهم في أقوالهم، أي في أقوالهم، وعُبر عن جميع المدافعة بالأيدي إذ الأيدي موضع أشد المدافعة والمرادة، وحكى المهدوي قولاً ضعيفاً، وهو أن المعنى: أخذوا أيدي الرُّسل فجعلوها في أفواه الرسل. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي لا وجه له.

ومما ذكر على أن «الأيدي» أيادي النعم ما ذكره الزجاج، وذلك أنهم

ردُّوا الأيدي من الرسل في الإنذار والتبليغ بأفواههم، أي بأقوالهم، فوصل الفعل بـ (في) عوضاً وصوله بـ (الباء)، وزوي نحوه عن مجاهد، وقتادة. والمشهور جمع «يد» النعمة على «أيادٍ»، ولا يجمع على «أيدي»، إلا أن جمعه على «أيدي» لا يكسر باباً ولا ينقض أصلاً، وبحسبنا أن الزَّجَّاج قدَّره وتأول عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل اللفظ - على هذا - معنى ثانياً، أن يكون المقصود: ردُّوا إنعام الرسل في أفواه الرسل، أي لم يقلوه، كما تقول لمن لا يُعجبك كلامه: أَمْسِكْ يا فلان كلامك في فيك، ومن حيث كانت أيدي الرسل أقوالاً ساغ هذا فيها، كما تقول: كسرتُ كلام فلان في فمه، أي: ردَّذته عليه وقطعته بقلة القبول

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنَّمَا نَحْنُ بِالْأَبَشَرِ فَأَنصَرِكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُعْزِلُ عَنِ مَن يَشَاءُ مَن يَشَاءُ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَا عَلَى مَا أَدَّبْتُمُوهُ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِ إِنَّا خَرَجْنَا مِنْكُمْ فِي هَذِهِ بَأْسَ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَنَا ذِكْرُنَا مِن قَبْلُ وَلَكِنْ كُنَّا فِي سَبِيلٍ مَّا يَشْتَأِي الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَّا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ كُنَّا نَظُنُّهُمْ أَهْلًا عِزٍّ وَكَرَامَةٍ إِنَّهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَغَافِلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ كُنَّا نَظُنُّهُمْ أَهْلًا عِزٍّ وَكَرَامَةٍ إِنَّهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَغَافِلِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كُنَّا نَظُنُّهُمْ أَهْلًا عِزٍّ وَكَرَامَةٍ إِنَّهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَغَافِلِينَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ كُنَّا نَظُنُّهُمْ أَهْلًا عِزٍّ وَكَرَامَةٍ إِنَّهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَغَافِلِينَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ كُنَّا نَظُنُّهُمْ أَهْلًا عِزٍّ وَكَرَامَةٍ إِنَّهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَغَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كُنَّا نَظُنُّهُمْ أَهْلًا عِزٍّ وَكَرَامَةٍ إِنَّهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَغَافِلِينَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ كُنَّا نَظُنُّهُمْ أَهْلًا عِزٍّ وَكَرَامَةٍ إِنَّهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَغَافِلِينَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ كُنَّا نَظُنُّهُمْ أَهْلًا عِزٍّ وَكَرَامَةٍ إِنَّهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَغَافِلِينَ ﴿٢٠﴾

وبالردِّ، وحكى المهدوي عن مجاهد أنه قال: معناه: ردُّوا نعم الرُّسل في أفواه أنفسهم بالتكذيب والتهج.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي شَكَّيْتُ مِمَّا تَدْعُونَنِي﴾ يقتضي أنهم شكُّوا في صدق نبوتهم وأقوالهم وكذبوها، وتوقفوا في إمضاء أحد المعتقدين، ثم ارتابوا بالمعتقد الواحد في صدق نبوته، فجاءهم شك مؤكد بارتباب، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿بِمَا تَدْعُونَنِي﴾ بنون واحدة مشددة.

قوله: ﴿إِنِّي شَكَّيْتُ مِمَّا تَدْعُونَنِي﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنِّي شَكَّيْتُ مِمَّا تَدْعُونَنِي﴾ قوله: ﴿إِنِّي شَكَّيْتُ مِمَّا تَدْعُونَنِي﴾ تقديره عند كثير من النحويين: أفني إلهيتهم شك؟ وقال أبو علي الفارسي: أفني وحدانيته شك؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وزعم بعض الناس أن أبا علي إنما فرغ إلى هذه العبارة حفظاً للاعتزال،

وزوالاً عما تحمله لفظة «الإلهية» من الصفات بحسب عمومها، ولفظة الوجدانية مخلصة من ذلك الاحتمال.

و «الْفَاطِرُ»: المخترع المبتدئ، وسوَّقَ هذه الصفة احتجاجاً على الشَّاكِّين، أي الشك فيمن هذه صفته، فساق الصفة التي هي منصوبة لرفع الشك، وقوله: ﴿يَنْ ذُؤْبَانُكُمْ﴾، ذهب بعض النحاة إلى أنها زائدة، وسيبويه يأبى أن تكون زائدة في الواجب، ويراهما للتبعض، وهو معنى صحيح، وذلك أن الوعد وقع بغفران الشرك وما معه من المعاصي، وبقي ما يستأنف أحدهم بعد إيمانه من المعاصي مسكوتاً عليه ليبقى معه في مشيئة الله تعالى، فالغفران إنما يقدمه الوعد في البعض، فصَحَّ معنى [من].

وقوله: ﴿وَيُخَوِّضُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قد تقدم القول فيه في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الآية، وجلبت هذه هناك بسبب ما يظهر بين الآيتين من التعارض، ويليق هنا أن نذكر مسألة المقتول: هل قُطِعَ أجله أم ذلك هو أجله المحتوم عليه؟ فالأول قول المعتزلة، والثاني قول أهل السُّنة، فنقول: قول المعتزلة: «إنه لو لم يقتله لعاش، وهذا سبب القَوْد»، وقالت فرقة من أهل السُّنة: «لو لم يقتله لمات حتف أنفه»، قال أبو المعالي: «وهذا كله تخبط، وإنما هو أجله الذي سبق في القضاء أنه يموت فيه على تلك الصفة، فمحال أن يقع غير ذلك، فإن فرضنا أنه لم

يقتله، وفرضنا مع ذلك أن علم الله تعالى سبق بأنه لا يقتله بقي أمره في حَيِّزِ الجواز في أن يعيش أو يقتل أو كيف ما كان علم الله تعالى سبق فيه».

وقول الكفرة: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فيه استبعاد لبعة البشر، وقال بعض الناس: بل أرادوا إحالته، وذهبوا مذهب البراهمة أو من يقول من الفلاسفة: إن الأجناس لا يقع فيها هذا الثَّابِت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر كلامهم لا يقتضي أنهم أعضوا هذا الإغماض، ويدل على ما ذكرْتُ أنهم طلبوا منهم الإتيان بآية وسلطان مبين، ولو كانت بعثتهم عندهم محالاً لما طلبوا منهم حجة، ويحتمل أن طلبهم منهم السلطان إنما هو على جهة التعجيز، أي: بعثتكم محال وإلا فأتوا بسلطان مبين، أي: إنكم لا تفعلون ذلك أبداً، فَيَقْفُوْا بهذا الاحتمال منحاهم إلى مذهب الفلاسفة.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، المعنى: صدقتم في قولكم: «إنَّا بَشَرٌ» في الأشخاص والخلقة، لكن تَبَايَأُ بفضل الله تعالى ومَنَّهُ الذي يختص به من يشاء، ففارقوهم بالمعنى، بخلاف قوله تعالى: ﴿كَانَهُمْ حُمُرٌ مُّشْتَبِهَةٌ﴾ فَإِنَّ ذَلِكَ في المعنى لا في الهيئة.

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا أَنْ تَأْتِيَكُمْ يَسْطَلِينَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، هذه العبارة إذا قالها الإنسان من نفسه، أو قيلت

له فيما يقع تحت مقدوره فمعناها النهي والخطر، وإن كان ذلك فيما لا قدرة له عليه فمعناه نفى ذلك الأمر جملة، وكذلك هذه الآية. وقال المهدوي: لفظها لفظ الخطر ومعناها النفي، واللام في قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلْ﴾ لام الأمر، وقرأها الجمهور ساكنة، وقرأها الحسن مكسورة، وتحريكها بالكسر هو أصلها، وتسكينها طلب للتخفيف، ولكثرة استعمالها، وللفرق بينها وبين لام كي التي ألزمت الحركة إجماعاً.

وقوله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ الآية، وقفهم الرسل على جهة التوبيخ على تعليل في ألا يتوكلوا على الله وهو قد أنعم عليهم، وهداهم طريق النجاة، وفضلهم على خلقه، ثم أفسموا أن يقع منهم الصبر على الإذابة في ذات الله تعالى، و [مَا] في قوله: ﴿مَا آذَيْتُمُونَا﴾ مصدرية، وهي حرف عند سيبويه بانفرادها، إلا أنها اسمٌ مع ما اتصل بها من المصدر، وقال بعض النحويين: «ما» المصدرية بانفرادها اسمٌ، ويحتمل أن تكون [مَا] في هذا الموضع بمعنى الذي، فيكون في ﴿مَا آذَيْتُمُونَا﴾ ضمير عائد تقديره: آذيتُمونا، ولا يجوز أن يضم به بسبب إضمار حرف الجر، هذا مذهب سيبويه، والأخفش يُجيز ذلك.

١٣ - ١٤ تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ: قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي يَمِينَتِي﴾، قالت فرقة: [أَوْ] هنا بمعنى: «إلا أن»، كما هي في قول امرئ القيس:

فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكُ عَيْنُكَ إِنَّمَا
تُحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ تَمُوتُ فَتُعْذَرَا
وتحتمل [أَوْ] في الآية أن تكون
على بابها لوقوع أحد الأمرين، لأنهم
حملوا رسلهم على أحد الوجهين،
ولا يحتمل بيت امرئ القيس ذلك
لأنه لم يحاول أن يموت فيعذر،
فتخلصت بمعنى «إِلَّا أَنْ» ولذلك
نصب الفعل بعدها. وقالت فرقة:
هي بمعنى «حَتَّى» في الآية، وهذا
ضعيف، وإنما يترتب ذلك في قوله:
«لَأَزَلُّمَنَّكَ أَوْ تَقْضِيَنِي حَقِّي»، وفي
قوله: «لَا يَقُومُ زَيْدٌ أَوْ يَقُومُ عَمْرُو»،
وفي هذه المثل كلها يحسن تقدير
«إِلَّا أَنْ». والعودة أبدأ إنما هي إلى
حالة قد كانت، والرُّسل ما كانوا قط
في ملّة الكفر، فإنما المعنى: أو
لتعودن إلى سكوتكم عثا إغفالاً،
وذلك عند الكفار كَوْنٌ فِي مِلَّتِهِمْ،
وخصّص تعالى الظالمين من الذين
كفروا إذ جائز أن يؤمن من الكفرة
الذين قالوا المقالة ناس، فإنما توعّد
بإهلاك من خلص للظلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْكُمْ﴾
الخطاب للحاضرين والمراد هُـمْ
وذريتهم، ويترتب هذا المعنى في
قوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى﴾، أي: يؤخركم وأعقابكم،
وقرأ أبو حيوة: ﴿لِيَهْلِكَنَّ﴾ و
﴿لَيْسَ كَيْتُكُمْ﴾ بالياء فيهما، وقوله:
﴿مَقَامِي﴾ يحتمل أن يريد به المصدر
من القيام على الشيء بالقدرة،
ويحتمل أن يريد به الظرف لقيام
العبد بين يديه في الآخرة، فإضافته
إذا كان مصدراً إضافة المصدر إلى
الفاعل، وإضافته إذا كان ظرفاً إضافة

الظرف إلى حاضره، أي: مقام
حسابي، فجائز قوله: ﴿مَقَامِي﴾،
وجائز لو قال: «مقامه»، وجائز لو
قال: «مقام العرض والحساب»،
وهذا كما تقول: «دار الحاكم، ودار
الحُكْم، ودار المحكوم عليه»، قال
أبو عبيدة: ﴿مَقَامِي﴾ مجاز، حيث
أقيمه بين يدي للحساب.

و «الاستفتاح»: طلب الحُكْم،
والفتاح: الحاكم، والمعنى: إن
الرُّسل استفتحوا، أي: سألوا الله
تعالى إنفاذ الحكم بنصرهم وتعذيب
الكفرة، وقيل: بل استفتح الكفار
على نحو قول قريش: «عَجِّلْ لَنَا
قُطْنَا»، وعلى نحو قول أبي جهل في
بدر: «اللَّهُمَّ أَقْطَعْنَا لِلرَّحِمِ، وَأَتَانَا
بَمَا لَا نَعْرِفُ فَأَجِئُهُ الْغَدَاةُ» هذا
قول ابن زُريد، وقرأت فرقة:
﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ بكسر التاء على
معنى الأمر للرسل، قرأها ابن
عباس، ومجاهد، وابن محيصن.
و «خَابَ» معناه: خسر ولم ينجح،
و «الْجَبَّارُ»: المتعظم في نفسه الذي
لا يرى لأحد عليه حقاً، وقيل:
معناه: الذي يجبر الناس على ما
يكرهون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا هو المفهوم من اللفظ. وعبر
قتادة وغيره عن «الجبار» بأنه الذي
يأبى أن يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، و
«العنيد»: الذي يعاند ولا يتقاد.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ رِجْلَيْهِ﴾، ذكر
الطبري وغيره من المفسرين أن
معناه: «من أمامه»، وعلى ذلك
حملوا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رِجْلُهُ
مَلِكٌ﴾، وأنشد الطبري:

أَتُوْعِدُونِي وِرَاءَ بَنِي رِيَا ح
كَذَّبْتَ لَشَقْصَرَنَ يَدَاكَ دُونِي
وليس الأمر كما ذكر، و «الوراء»
ها هنا على بابه، أي: هو ما يأتي
بعد في الزمان، وذلك أن التقدير في
هذه الحوادث بالأمام والوراء إنما هو
بالزمان، وما تقدم فهو أمام، وهو
بين اليد، كما يقال في التوراة
والإنجيل: إنهما بين يدي القرآن،
والقرآن وراءهما على هذا، وما تأخر
في الزمان هو وراء المتقدم، ومنه
قولهم لَوْلَدَ الْوَلَدُ: الوريث، وهذا
الجبار العنيد وجوده وكُفْرُهُ وأعماله
في وقت ما، ثم بعد ذلك في الزمان
يأتيه أمر جهنم، قال: وتلخيص هذا
أن يُشَبَّه الزمان بطريق تأتي الحوادث
من جهته الواحدة متتابعة، فما تقدم
فهو أمام، وما تأخر فهو وراء
المتقدم، وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ
رِجْلُهُ﴾ أي غَضَبُهُ وَتَغْلِبُهُ يأتي بعد
حذرهم وتحفظهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيُثَقِّلُ مِنَ ثَمَرِهِ﴾،
وليس بِمَاءٍ، لكن لما كان بدل الماء
في العُرف عندنا. ثم نعت به
[صديدي]، كما تقول: هذا خاتم
حديد. و «الصَّديدُ»: القَيْحُ والذُّمُّ،
وهو ما يسيل من أجساد أهل النار،
قاله مجاهد والضحاك.

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ
يُشِيعُهُ﴾ عبارة عن صعوبة أمره
عليهم، وَيُزَوَّى أن الكافر يؤتى
بالشرية من شراب أهل النار
فيتكرهها، فإذا أذُنيت منه شوت
وجهه وسقطت فيها فروة رأسه، فإذا
شربها قطعت أمعاءه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و «المستكبرين» بالقادة وأهل الرأي، وقولهم: «مُتَنَوِّنَاتٌ» من العناء، وهي المنفعة التي تكون من الإنسان للآخر في الدفاع وغيره.

والألف في قوله: «أَجْرَتَا» ألف التسوية وليست بألف استفهام، بل هي كقوله: «أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ»، و «الْمُحِيطُ»: المَقْرُ والمُلْجَأُ، مأخوذ من «حاص يحيط» إذا نَفَرَ وفَرَّ، ومنه في حديث هرقل: «فَحَاصِبُوا حَيْضَةَ حُمُرِ اللُّوحِشِ إِلَى الْأَبْوَابِ»، وروي عن ابن زيد، وعن محمد بن كعب أن أهل النار يقولون: إنما نال أهل الجنة الرحمة بالصبر على طاعة الله تعالى، فلنصبر، فيصبرون خمسمائة سنة فلا ينتفعون، فيقولون: فلنجزع، فيفضحون ويصيحون ويبكون خمسمائة سنة أخرى فلا ينتفعون، فيقولون هذا القول الذي في الآية، وظاهر الآية أنهم يقولونها في موقف العرض وقت البروز بين يدي الله تبارك وتعالى.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

المراد ما هنا «بالشيطان» إبليس الأقدم نفسه، وروي في حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام من طريق عقبة بن عامر أنه قال: «يقوم يوم القيامة خطيبان: أحدهما إبليس، يقوم في الكفرة بهذه الألفاظ، والثاني عيسى ابن مريم عليه السلام، يقوم بقوله: «مَا قُلْتُ لَكُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ» الآية وقال بعض العلماء: يقوم إبليس خطيب السوء الصادق بهذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى معنى هذه الروايات يكون معنى قوله تعالى: «فَتُحَى الْأَمْرُ» أي: تعين قومٌ لدخول النار، وقومٌ لدخول الجنة، وذلك كله في الموقف.

وروي في حديث أن إبليس إنما يقوم بهذه الألفاظ في النار على أهلها عند قولهم: «مَا لَنَا مِنْ نَّجِيٍّ» في الآية المتقدمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذه الرواية يكون معنى قوله تعالى: «فَتُحَى الْأَمْرُ»، أي: حصل أهل النار في النار، وأهل الجنة في الجنة، وهو تأويل الطبري. و «فُتُحَى» قد يُعَبَّرُ بها في الأمور عن فعل كقوله تعالى: «وَفُتِحَ الْأَمْرُ وَأَسَوَّتْ عَلَى الْبُيُوتِ»، وقد يُعَبَّرُ بها عن عزم على أن يفعل كقوله: «فَتُحَى الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ».

و «الْوَعْدُ» في هذه الآية على بابه في الخير، أي أن الله وعدهم النعيم إن آمنوا، ووعدهم إبليس الظفر والأمل إن كذبوا، ومعلوم اقتران وعد الله بوعيده، وثائق أن لم يتبعوا طلب وعد الله فوقعوا في وعيده، وجاء من ذلك كأن إبليس أخلفهم.

والسلطان: الحجة البينة، وقوله: «إِلَّا أَنْ دَعَوْتَكُمْ» استثناء منقطع، و «أَنْ» في موضع نصب، ويصح أن تكون في موضع رفع على معنى: إلا أن النائب عن السلطان أن دعوتكم، فيكون هذا في المعنى كقول الشاعر:

.....
نَجِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرَبَتْ وَجِيعٌ
ومعنى قولهم: «فَأَسْتَجِيبُ لِي» أي:

رأيتم ما دعوتكم إليه ببصيرتكم، واعتقدتموه الرأي، وأتى نظركم عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر بعض الناس أن هذا المكان يطل منه التقليد، وفي هذه المقالة ضعف على احتمالها، والتقليد وإن كان باطلاً ففساده من غير هذا الموضع.

ويحتمل أن يريد بالسلطان في هذه الآية الغلبة والقدرة والملك، أي: ما اضطرتكم ولا خوفتكم بقوة مني، بل عرضت عليكم شيئاً فأنتى رأيكم عليه.

وقوله: «فَلَا تَلُومُونِي» يريد بزمه: إذ لا ذنب لي، «وَلَوْ مَوَّ أَنْفُسَكُمْ» في سوء نظركم وقلة تثبتكم، فإنكم إنما أنيتم اتباعي عن بصيرة منكم وتكسب، و «الْمُضْرِخُ»: المغيث، والصارخ: المستغيث. ومنه قول الشاعر:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَنَزَغَ
كَانَ الصَّارِخُ لَهُ فَرْغُ الظَّنَابِيبِ
فيقال: «صرخ الرجلُ وأصرخ غيره»، وأما «الصارخ» فهو مصدر بمنزلة البريح، ويوصف به كما يقال: رجلٌ عَذْلٌ ونحوه.

وقرأ حمزة، والأعمش، وابن وثاب: «بِمُضْرِيخِي» بكسر الياء تشبيهاً ببياء الإضمار في قوله: بمصرخي، وردّ الزجاج هذه القراءة وقال: هي رديئة مردولة، وقال فيها القاسم بن معن: إنها صواب، ووجهها أبو علي، وحكى أبو حاتم أن أبا عمرو حسنها، وأنكر أبو حاتم ذلك على أبي عمرو.

وغيره: الكلمة الطيبة هي «لا إله إلا الله»، مثلها الله بالشجرة الطيبة وهي النخلة في قول أكثر المتأولين، فكان هذه الكلمة أصلها ثابت في قلوب المؤمنين، وفضلها وما يصدر عنها من الأفعال الزكية والخبيثة وما يتحصل عليها من عفو الله ورحمته هو فرعها يصعد إلى السماء من قبل العبد، ويتنزل منها من قبل الله تبارك وتعالى. وقرأ أنس بن مالك: «ثابت أصلها»، وقالت فرقة: إنما مثل الله بالشجرة الطيبة المؤمن نفسه، إذا الكلمة الطيبة لا تقع إلا منه، فكان الكلام: كلمة طيبة قائلها، وكان المؤمن ثابت في الأرض، وأفعاله وأقواله صاعدة، فهو كشجرة فرعها في السماء، وما يكون أبداً من المؤمن من الطاعة أو على الكلمة من الفضل والأجر والغفران هو بمثابة الأكل الذي تأتي به كل حين، وقوله عن الشجرة: «وَرَفَعَهَا فِي السَّمَاءِ» أي: في الهواء نحو السماء، وهذا كما تقول عن المستطيل: نحو الهواء، وفي الحديث: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ طَوْلَهُ فِي السَّمَاءِ سِتُونَ ذِرَاعاً»، والقيدودة: الطويل في غير سماء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه انقاد وامتد، وقال أنس بن مالك، وابن مسعود، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد: الشجرة الطيبة في هذه الآية: النخلة، وروي في ذلك أحاديث، وقال ابن عباس أيضاً: هي شجرة في الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و «الخلود» في هذه الآية على بابه في الدوام، و «الإذن» هنا عبارة عن القضاء والإمضاء، وقوله: «يَحْيِيَهُمْ» مصدر مضاف إلى الضمير، فجائز أن يكون الضمير للمفعول، أي: تحييتهم الملائكة، وجائز أن يكون الضمير للفاعل، أي: يحيي بعضهم بعضاً، و «يَحْيِيَهُمْ» رفع بالابتداء، و «سَكَنَ» ابتداء ثانٍ وخبره محذوف تقديره: عليكم، والجملة خبر الأول، والجميع في موضع الحال من الضمير

في «خَلَدِينَ»، أو يكون صفة لـ «جَسَدَ».

٢٤ - تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ» بمعنى: ألم تعلم، و «مَثَلًا» مفعول لـ «ضَرَبَ»، و «كَلِمَةً» مفعول أول بها، و «ضَرَبَ» هذه تتعدى إلى مفعولين، لأنها بمنزلة «جَعَلَ» ونحوه، إذ معناها، جعل ضربها، وقال المهدوي: «مَثَلًا» مفعول، و «كَلِمَةً» بدل منها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أنها تتعدى إلى مفعول واحد، وإنما أروهم في هذا قلة التحرير في «ضرب» هذه. والكاف في قوله: «كَشَجَرَةٍ» في موضع الحال، أي: مشبهة بشجرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -

تَوَقَّأْتُ كُلَّهَا كُلَّ حِينَ يَأْذَنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَشْجَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٥﴾ بَيَّنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٧﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَنَافَسَ الْأَقْرَارُ ﴿٢٨﴾ وَجَعَلَ اللَّهُ آتِدَادًا لِلْبَاطِلِ أَعْنَ سَبِيلَهُ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِمَا دَيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَتَّقُوا مَا رَفَعْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا نَبْعِثُ فِيهِ وَلَا خَلْلٌ ﴿٣٠﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿٣١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٢﴾

وقوله: «يَمَّا أَثْرَكْتُونِ» أي: مع الله في الطاعة التي ينبغي أن يُفرد الله بها، ف [ما] مصدرية، وكأنه يقول: إني الآن كافر بإشراككم إياي مع الله قبل هذه الوقت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا تَبَيَّنَ منه، وقد قال الله تعالى: «وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ»، ويحتمل اللفظ أن يكون إقراراً على نفسه بكفره الأقدم، فتكون [ما] بمعنى الذي، يريد «الله» تعالى، أي: خطيئتي قبل خطيئتك فلا إصراخ عندي، وباقي الآية بَيَّنَّ.

وقرأ الجمهور: «وَأَدْخَلَ» على بناء الفعل للمفعول، وقرأ الحسن: «وَأَدْخَلَ» على فعل المتكلم، أي: يقولها الله تعالى، وقوله: «مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أي: من تحت ما علا منها كالغرف والمباني والأشجار وغيره،

بالشجرة، فلا تسمى هذه بشجرة إلا بتجوز، فقد قال عليه الصلاة والسلام في الثوم والبصل: «من أكل من هذه الشجرة»، وأيضاً فإن هذه كلها ضعيفة وإن لم تخبث، اللهم إلا أن نقول: اجثت بالخلقة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «هذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى ولم يخلق هذه الشجرة على وجه الأرض». والظاهر عندي أن التشبيه وقع بشجرة غير معينة إذا وجدت فيها هذه الأوصاف، فالخبث هو أن تكون كالعضة أو كشجرة السموم ونحوها إذا اجثت، أي اقتلعت جثتها بنزع الأصول، وبقيت في غاية الوهن والضعف فتقلبها أقل ريح، فالكافر يرى أن بيده شيئاً، وهو لا يستقر ولا يغني عنه، كهذه الشجرة التي يُظَنُّ بها على بعد - أو للجهل بها - أنها شيء نافع، وهي خبيثة الجنى غير باقية.

(٧) - (٣٠) تفسير قوله عز وجل:

القولُ الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة كلمة الإخلاص والنجاة من النار «لا إله إلا الله» والإقرار بالنبوة، وهذه الآية تعم العالم من لدن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة. وقال طائوس، وقتادة، وجمهور العلماء: «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» هي مدة حياة الإنسان، «فِي الْآخِرَةِ» هي وقت سؤاله في القبر، وقال البراء بن عازب وجماعة: «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» هي وقت سؤاله في قبره، ورواه البراء عن النبي ﷺ في لفظ مُتَأَوَّل، لأن ذلك في مدة وجود الدنيا، وقوله: «فِي الْآخِرَةِ» هو

الطلع في الشتاء، وأن أكل الثمر في كل وقت من أوقات العام هو إتيانُ أكل وإن فارق النخل، وإن فرضنا التشبيه بها على الإطلاق وهي إنما تؤتي في وقت دون وقت فالمعنى: كشجرة لا تخل بما جعلت له من الإتيان بالأكل في الأوقات المعلومة، فكذلك هو المؤمن لا يخل بما يُسر له من الأعمال الصالحة، أو الكلمة لا تغيب بركتها والأعمال الصادرة عنها، بل هي في حفظ النظام كالشجرة الطيبة في حفظ وقتها المعلوم، وبإقي الآية بين.

ومن قال: «الحين سنة» راعى أن ثمر النخلة وجناها إنما يأتي كل سنة، ومن قال: «سنة أشهر» راعى من وقت جدد النخلة إلى حملها من الوقت المقبل، وقيل: إن التشبيه وقع بالنخل الذي يشمر مرتين في العام، ومن قال: «شهرين» قال: هي مدة الجنى في النخل، وكلهم أفتى بقوله في الإتيان على الحين.

وحكى الكسائي والفراء أن في قراءة أبي بن كعب: «وضرب الله مَثَلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ»، والكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر وما قاربها من الكلام السوقي في الظلم ونحوه، «كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ»، قال أكثر المفسرين: شجرة الحنظل، قاله أنس بن مالك، ورواه عن النبي ﷺ، وهذا عندي على جهة المثال، وقالت فرقة: هي الثوم، وقال الزجاج: هي الكشوثا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذه الأقوال من الاعتراض أن هذه كلها من النجم، وليست من الشجر، والله تعالى إنما مثل

ويحتمل أن تكون شجرة غير معينة إلا أنها كل ما اتَّصَف بهذه الصفات فيدخل فيه النخلة وغيرها، وقد شبه الرسول عليه الصلاة والسلام المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأنثرجة، فلا يتعذر أن يُشَبَّه أيضاً بشجرتها، و «الأكل»: الثمر، وقرأ عاصم وحده: «أَكَلَهَا» بضم الكاف.

وقوله تعالى: «كُلَّ حِينٍ»، الحين في اللغة: القطيع من الزمان غير محدود، كقوله تعالى: «هَذَا أَنَّى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ»، وقوله: «وَلَمَّا كُنَّا نَبَاكَ بَعْدَ حِينٍ»، وقد تقتضي لفظة «الحين» بقرينتها تحديداً كقوله في هذه الآية: «كُلَّ حِينٍ»، وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحَكَمُ، وخَمَاد، وجماعة من الفقهاء، قالوا: من حلف لا يفعل شيئاً حيناً فإنه لا يفعله سنة، واستشهدوا بهذه الآية: «تَوَقَّعْ أَكَلَهَا كُلَّ حِينٍ» أي: كل سنة، وقال ابن عباس، وعكرمة، والحسن: أي كل سنة أشهر، وقال ابن المُسَيَّب: الحين: شهران، لأن النخلة تدوم مثمرة شهرين، وقال ابن عباس أيضاً والضحاك، والربيع بن أنس: «كُلَّ حِينٍ»، أي: كل غدوة وعشية ومتى أريد جناها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهكذا يشبهها المؤمن الذي هو في جميع أيامه في عمل، والكلمة التي أخرجها والصادر عنها من الأعمال مستمر، فيشبه أن الله تعالى إنما شبه المؤمن أو الكلمة بالشجرة في حال إثمارها، إذ تلك أفضل أحوالها، وتأويل الطبري في ذلك أن أكل

أنها تخص مَنْ قَعَلَ فَعَلَ جَبَلَةً إِلَى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَأَعْلَوْا قَوَاهُكُمْ﴾ أي: من أطاعهم وكان معهم في التبديل، فكان الإشارة والتعنيف إنما هو للبرؤوس والأعلام، و﴿الْبَرَّاءِ﴾ الهلاك، ومنه قول سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي
رَاتِقٌ مَا فَشَقْتُ إِذْ أُنَابُورُ

قاله الطبري، وقال هو وغيره: إنه يُرَوَى لابن الزُّعْرِي، ويحتمل أن يريد بـ﴿الْبَرَّاءِ﴾ الهلاك في الآخرة ففسره حينئذ بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا﴾، أي: يحترقون في حرها ويحتملونه، ويحتمل أن يريد بـ﴿الْبَرَّاءِ﴾ الهلاك في الدنيا بالقتل والخزي فتكون «الدار» قليب بدر ونحوه. وقال عطاء بن يسار: نزلت هذه الآية في قتلى بدر، فيكون قوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ نصباً على حد قولك: «زيداً ضريرته» بإضمار فعل يقتضيه الظاهر، و﴿انْقَرَّضَ﴾ موضع استقرار الإنسان.

و «الأنداد» جمع نَدٍّ، وهو المثل والشبيه المناوئ، والمراد الأصنام، واللام في قوله: ﴿يُضِلُّوْا﴾ بضم الياء لام كي، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿يُضِلُّوْا﴾ بفتح الياء، أي هم أنفسهم، فاللام - على هذا - لام عاقبة وصيرورة، وقرأ الباقر بن بضمها، أي: يُضِلُّوْا غيرهم. وأنزهم بالتمتع هو وعيد وتهديد على حد قوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾.

٣١ - ٣٢ تفسير قوله عز وجل:

العباد: جمع عبد، وعرفه في التكرمة بخلاف العبيد، وقوله:

هذا جائز في قدرة الله تعالى، غير أن في الأحاديث أنه يسمع خفق النعال، ومنها أنه يرى الضوء كالشمس دنت للغروب، وفيها: أنه يراجع، وفيها: فتعاد روحه إلى جسده، وهذا كله يتضمن الحياة، فثبت أن رب هذه القدرة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا بَدَلًا لِّدِينِ اللَّهِ﴾، هذا تنبيه على مثال من الظالمين، والتقدير: بدلوا شكر نعمة الله كفراً، وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَيَعْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْفِرُونَ﴾، ونعمة الله المشار إليها في هذه الآية هو محمد عليه الصلاة والسلام، وأنعم الله به على قريش فكفروا النعمة ولم يقبلوها وتبدلوا بها الكفر، والمراد بالذين كفروا قريش جملة، وهذا بحسب ما اشتهر من حالهم، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم. وروي عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب أنها نزلت في الأنفجرين من قريش: بني مخزوم وبني أمية، قال عمر: فأما بنو المغيرة فكفوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمُتَعَوِّا إلى حين، وقال ابن عباس: هذه الآية في جَبَلَةَ بن الأيهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يُرد ابن عباس أنها فيه نزلت، لأن نزول الآية قبل قصته، وإنما أراد

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يُرد ابن عباس أنها فيه نزلت، لأن نزول الآية قبل قصته، وإنما أراد

وَأَنْتُمْ مِنْ كُلِّ مَسَا أَتَوْهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٢﴾ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ كَيْفَ يَأْتِيَنَّكَ مِنِّي مِنْ عَصَايَ فَإِنَّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ رَبِّ إِنِّي أَتُكِّتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَرِذِي رِزْقٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٤﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا تُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٥﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ ذَا بَلَدٍ ﴿٣٦﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ عَفِيفًا غَنِيًّا ﴿٣٩﴾ الْقُلُوبُ أَكْفَرُ مِنْ الْأَبْصَارِ ﴿٤٠﴾

٢٦٠

يوم القيامة عند العرض. والأول أحسن، ورجحه الطبري.

و «الظَّالِمُونَ» في هذه الآية: الكافرون، بدليل أنه عادل بهم المؤمنين، وعادل الثيب بالإضلال، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ تقرير لهذا التقسيم المتقدم، وكان امرأة رأى التقسيم فطلب في نفسه علته فقيل له: ﴿وَيَعْلَمُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ بحق الملك، وفي هذه الآية رد على القدرية. وذكر الطبري في صفة مُسَاءَلَةِ العبد في قبره أحاديث منها ما وقع في الصحيح، وهي من عقائد الدين، وأكثر ذلك المعتزلة، ولم تقل بأن العبد يُسأل في قبره، وجماعة السنة تقول: إن الله يخلق له في قبره إدراكات وتحصيلات، إما بحياة كالمعرفة وإما بحضور النفس وإن لم تتلبس بالجسد كالعرف، كل

﴿يُخَيِّمُوا الْفَلَكَ﴾، قالت فرقة من النحويين: جزمه بإضمار لام الأمر على حد قول الشاعر:

مُحَمَّدٌ تَفْدِي نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ

.....

أنشد سيبويه، إلا أنه قال: إن هذا لا يجوز إلا في الشعر، وقالت فرقة - أبو علي وغيره -: هو فعل مضارع جزم لما كان في معنى فعل أمر، لأن المراد: أقيموا، وهذا كما يبنى الاسم المتمكن في النداء في قولك: «يا زيد» لما شُبِّهَ بـ «قبل وبعد»، وقال سيبويه: هو جواب شرط مقدر يتضمنه صدر الآية، تقديره: إن تقل لهم: أقيموا يقيموا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون جواب الأمر الذي يعطينا معناه قوله: ﴿قُلْ﴾، وذلك بأن تجعل ﴿قُلْ﴾ في هذه الآية بمعنى بَلِّغْ وأد الشريعة يقيموا الصلاة، وهذا كله على أن المقول هو الأمر بالإقامة والإنفاق، ويظهر أن المقول هو الآية التي بعد، أعني قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ و«السَّعْيُ» صدقةُ الثَّغُلِ، والعلاية الصدقة المفروضة، هذا هو مقتضى الأحاديث، وفسر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية بزيادة الأموال مجملًا، وكذلك فسر الصلاة بأنها الخمس، وهذا عندي منه تقريب للمخاطب.

و«الْجَلَالُ» مصدر من خَالَكَ إذا وَاذَّ وصافى، ومنه الْخُلَّةُ والخليل، قال امرؤ القيس:

صَرَفْتُ الْهَوَى عَنْهُمْ مِنْ خَشْيَةِ الرَّذَى
وَلَسْتُ بِمَقْلِي الْجَلَالِ وَلَا قَالَ

وقال الأخفش: الْجَلَالُ جمع خُلَّة. وقرأ نافع، وعاصم، وحمرزة والكسائي، وابن عامر: ﴿لَا يَبْتَغِ فِيهِ وَلَا يَخْلُ﴾ بالرفع على إلغاء ﴿لَا﴾، وقرأ أبو عمرو، والحسن، وابن كثير: ﴿لَا يَبْتَغِ فِيهِ وَلَا يَخْلُ﴾ بالنصب على التبرية، وقد تقدم هذا والمراد بهذا اليوم يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية تذكير بالألوهية، وتنبيه على قدرته التي فيها إحسان إلى البشر لتقوم الحجة من وجهين، و﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿الَّذِي﴾ خبره، ومن أخبر بهذه الجملة وتقررت في نفسه آمَنَ وصلَّى وأنفق، و﴿السَّمَوَاتِ﴾ هي الأربعة السبعة، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ يَرِيدُ السَّحَابَ﴾. وقوله: ﴿مِنْ السَّمَوَاتِ﴾ يجوز أن تكون [مِنْ] للتبعيض، فيكون المراد بعض جنى الأشجار، ويسقط ما كان منها سُماً أو مجرداً للمضرات، ويجوز أن تكون [مِنْ] لبيان الجنس كأنه قال: فأخرج به رزقاً لكم من السموات، وقال بعض الناس: [مِنْ] زائدة، وهذا لا يجوز عند سيبويه لكونها في الجواب، ويجوز عند الأخفش، و«الْفُلُكُ» جمع فُلْكَ، وقد تقدم القول فيه مراراً.

وقوله: ﴿يَأْمُرُ﴾ مصدر من أمر يأمر، وهذا راجع إلى الكلام القائم بالذات، كقوله تعالى للبحار وللأرض وسائر الأشياء: «كن» عند الإيجاد، إنما معناه: كن بحال كذا، أو على وتيرة كذا، وفي هذا تدرج دوران الفلك وغيره، وفي تسخير

الْفُلْكَ ينطوي تسخير البحر وتسخير الرياح، وأما تسخير الأنهار فتسخيرها في كل بلد وانقيادها للسقي وسائر المنافع.

و﴿ذَابِثِينَ﴾ معناه: متمادين، ومنه قول النبي ﷺ لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش إليه: «إن هذا الجمل شكاً إلي أنك تجيئه وتدثبه» أي تديمه في الخدمة والعمل، وظاهر الآية أن معناه: ذَابِثِينَ في الطلوع والغروب وما بينهما من المنافع للناس التي لا تُحصى كثرة، وحكى الطبري عن مقاتل بن حيان - يرفعه عن ابن عباس - أنه قال: معناه: ذابثين في طاعة الله، وهذا قول إن كان يُراد به أن الطاعة انقياد منهما في التسخير فذلك موجود في قوله: ﴿سَخَّرَ﴾، وإن كان يُراد أنها طاعة مقصودة كطاعة العباد من البشر فهذا بعيد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ مِنْ كَلِمَةٍ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ للجنس من البشر، أي أن الإنسان بجملته قد أوتي من كل ما شأنه أن يُسأل ويُستفَع به، ولا يطرد هذا في واحد من الناس، وإنما تفرقت هذه النعم في البشر، فيقال بحسب هذا للجميع: «أوتيتهم كذا» على جهة التعديد للنعمة، وقيل: المعنى: وأتاكم من كل ما سألتموه إن لو سألتموه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قريب من الأول، و [ما] في قوله سبحانه: ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يصح أن تكون مصدرية، ويكون الضمير في قوله: ﴿سَأَلْتُمُوهُ﴾ عائداً على الله تبارك وتعالى، ويصح أن تكون [ما]

بمعنى «الذي»، ويكون الضمير عائداً على «الذي»، وقرأ الضحّاك بن مزاحم، وابن عباس: ﴿مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بتنوين [كُلٌّ]، وهي قراءة الحسن، وقتادة، وسلام، ورويت عن نافع، والمعنى: وآتاكم من كل هذه المخلوقات المذكورات قبل ما شأنه أن يسأل لمعنى الانتفاع به، فـ [مَا] في قوله: ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ مفعول ثانٍ بـ ﴿ءَاتَاكُمْ﴾. وقال بعض الناس: [مَا] نافية على هذه القراءة، أي: أعطاكم من كُلِّ شيئاً، ما سألتموه، والمفعول الثاني هو قولنا: «شيئاً»، فعدّد - على هذه - النعمة في تفضله بما لم يسأله البشر من النعم، وكان ما سأله لم يعرض له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير الضحّاك. وأما القراءة الأولى بإضافة ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿مَا﴾ فلا بُدَّ من تقدير المفعول الثاني: جُزءاً أو شيئاً أو نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَنْتَظِرْ إِلَهُكُمْ لَآتٍ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: لكسرتها وعظمتها في الحواس والقوى والإيجاد من العدم إلى الهداية إلى الإيمان وغير ذلك. وقال طلق بن حبيب: إن حقّ الله أثقل من أن يقوم به العباد، ونعمه أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين. وقال أبو الدرداء: من لم ير نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قلّ علمه وخسر عذابه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ الْإِنْسَانُ عَلِيمٌ﴾ يريد به النوع والجنس، المعنى: توجد فيه هذه الخلال، وهي الظلم والكفر، فإن كانت هذه الخلال من

جاحد فهي بصفة، وإن كانت من عاص فهي بصفة أخرى.

٣٥ - ٣٦ تفسير قوله عز وجل: المعنى: واذكر إذ قال إبراهيم، ﴿وَالْبَلَدُ﴾: مكة، و﴿ءَامَنَّا﴾ معناه: فيه أمن، فوصفه بالأمن تجوزاً، كما قال: ﴿فِي يَوْمٍ عَصِيتُ﴾، وكما قال الشاعر:

..... وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِسَائِمٍ
و﴿وَأَجْنِبْنِي﴾ معناه: امنعني، يقال: جَنَّبَهُ كذا وَجَنَّبَهُ وَأَجْنَبَهُ إذا منعه من الأمر وحماه منه، وقرأ الجحدري، والثقفى: ﴿وَأَجْنِبْنِي﴾ بقطع الألف وكسر النون. و﴿يَنِي﴾ أراد بني ضلّه، ولذلك أجيب دعوته فيهم، وأما باقي نسله فقد عبدوا الأصنام، وهذا الدعاء من الخليل عليه الصلاة والسلام يقتضي إفراط خوفه على نفسه ومن حصل في رتبته، فكيف يخاف أن يعبد صنماً؟ لكن هذه الآية ينبغي أن يقتدى بها في الخوف وطلب الخاتمة.

و«الأصنام» هي المنحوتة على خلقة البشر، وما كان منحوتاً على غير خلقة البشر فهي أوثان، قاله الطبري عن مجاهد، ونسب إلى الأصنام أنها أضلت كثيراً من الناس تجوزاً إذ كانت عرضة الإضلال والأسباب المنصوبة للغي، وعليها منشأ الأعمال، وحقيقة الإضلال إنما هي لمختره.

قوله: ﴿وَمَنْ عَصَاكَ﴾ ظاهره بالكفر لمعادلة قوله: ﴿فَمَنْ يَعْصِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، وإذا كان ذلك، كذلك فقوله: ﴿فَإِنَّكَ عَقُورٌ رَجِيمٌ﴾ معناه: بتوبتك على

الكفرة حتى يؤمنوا، لا أنه أراد أن الله يغفر لكافر، ولكن حمله على هذه العبارة ما كان يأخذ نفسه به من القول الجميل والنطق الحسن وجميل الأدب ﷺ، قال قتادة: اسمعوا قول الخليل، والله ما كانوا طعانين ولا لعانين، وكذلك قال نبي الله عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنْ تَقَرَّرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وأسند الطبري عن عبدالله بن عمرو حديثاً عن النبي ﷺ أنه تلا هاتين الآيتين، ثم دعا لأمته فبُشِّرَ فيهم، وكان إبراهيم التيمي يقول: من يأمن على نفسه بعد خوف الخليل على نفسه من عبادة الأصنام؟

وقوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يريد إسماعيل عليه السلام، وذلك أن سارة لما غارت لهاجر بعد أن ولدت إسماعيل تعذّب إبراهيم عليه السلام بهما، فركب البراق هو وهاجر والطفل، فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، فنزل ونزل ابنه وأمنته هنالك، وركب منصرفاً من يومه ذلك، وكان هذا كله بوحى من الله تبارك وتعالى، فلما ولّى دعا بمضمن هذه الآية، وأما كيفية بقاء هاجر وما صنعت وسائر خبر إسماعيل ففي كتاب البخاري والسّير وغيره، و [مِنْ] في قوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ للتبويض، لأن إسحق كان بالشام. و «الوادي»: ما بين الجبلين، وليس من شرطه أن يكون فيه ماء، وهذه الآية تقتضي أن إبراهيم عليه السلام قد كان عليم من الله تعالى أن الله لا يُضَيِّعُ هاجر وابنها في ذلك الوادي، وأنه يرزقهما الماء، وإنما نظر النظر

البعيد للعاقبة فقال: ﴿غَيْرِ ذِي زَنْعٍ﴾، ولو لم يعلم ذلك من الله لقال: «غير ذي ماء» على ما كانت عليه حال الوادي عند ذلك.

وقوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إما أن يكون البيت قد كان قديماً على ما روي قبل الطوفان، وكان علمه عند إبراهيم، وإما أن يكون قالها لما كان قد أعلمه الله تعالى أنه سيبنى هنالك بيتاً لله تعالى فيكون محترماً، والمعنى: محترماً على الجبارة أن تثبتك حرمة وتُستخف بحقه، قاله قتادة وغيره، وجمعه الضمير في قوله: ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ يدل على أن الله قد أعلمه أن ذلك الطفل سيعقب هنالك ويكون له نسل. واللام في قوله: ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ هي لام «كي»، هذا هو الظاهر فيها، على أنها متعلقة بـ ﴿أَشْكُتُ﴾، والنداء اعتراض، ويصح أن تكون لام أمر، كأنه رغب إلى الله أن يوفقهم لإقامة الصلاة، ثم ساق عبارة ملزمة لهم إقامة الصلاة، وفي اللفظ - على هذا التأويل - بعض تجوز يربطه المعنى ويصلحه.

و «الْأَفِيدَةُ»: القلوب، جمع فؤاد، سمي بذلك لاثفاده، مأخوذ من: فَأَذَ، ومنه الْمُفْتَاد وهو مستوقد النار حيث يشوى اللحم، وقرأ ابن عامر بخلاف عنه: ﴿فَاجْعَلْ أَفِيدَةً﴾ بياء بعد الهمزة. وقوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامِ﴾ تبغيض، ومراده: المؤمنون، قال مجاهد: لو قال إبراهيم: «أفئدة الناس» لازدحمت على البيت فارس والروم، وقال سعيد بن جبير: «لَحَجَّجْتُهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى».

و﴿تَهْوِي﴾ معناه: تسير بجد وقصد مستعجل، ومنه قول الشاعر:

وَإِذَا زَمَيْتَ بِهِ الْفَجَاجَ زَأَيْتَهُ
يَهْوِي مَخَارِمَهَا هَوِي الْأَجْدَلِ
ومنه البيت المروي:

تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهَدَى
مَا مُؤْمِنُوا الْجِرْ كَأَجْنَابِهَا
وقرأ سلمة بن عبدالله: ﴿تَهْوِي﴾ بضم التاء، من أهوى، وهو الفعل المذكور معدى بالهمزة، وقرأ علي بن أبي طالب، ومحمد بن علي، ومجاهد: ﴿تَهْوِي﴾ بفتح التاء والواو، ويُعَدَّى هذا الفعل - وهو من الهوي - بـ «إلى» لما كان مقترناً بسير وقصد، وروي عن مسلم بن محمد الطائفي أنه لما دعا عليه السلام بأن يرزق سكان مكة من الشمرات بعث الله جبريل عليه السلام فاقتلع بجناحه قطعة من أرض فلسطين، وقيل - من الأردن - فجاء بها وطاف حول البيت بها سبعاً ووضعها قريب مكة، فهي الطائف، وبهذه القصة سُمِّيت، وهي موضع ثقيف، وبها أشجار وثمرات.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل: مقصد إبراهيم عليه السلام التنبيه على اختصاره في الدعاء، وتقويضه إلى ما علم الله من رغائبه وحرصه على هداية بنيه والرفق بهم، وغير ذلك. ثم انصرف إلى الشناء على الله تعالى بأنه علام الغيوب، وإلى حمده على هباته، وهذه من الآيات المعلمة أن علم الله تبارك وتعالى بالأشياء هو على التفصيل التام.

وروي في قوله: ﴿عَلَى الْأَكْبَرِ﴾ أنه ولد له إسماعيل وهو ابن مائة وسبعة عشر عاماً، وروي أقل من هذا، وإسماعيل أسن من إسحق فيما روي، وبحسب ترتيب هذه الآية، وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: بُشِّرَ إبراهيم وهو ابن مائة وسبعة عشر عاماً.

وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُبْرِكاً مُبَارَكاً وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، دعا إبراهيم عليه السلام في أمر كان مشابهاً عليه، متمسكاً به، ومتى دعا الإنسان في مثل هذا فإنما المقصد إدامة ذلك الأمر واستمراره، وقرأ طلحة والأعمش: ﴿دُعَاءَ رَبَّنَا﴾ بغير ياء، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿دُعَانِي﴾ بياء ساكنة في الوصل، وأثبتها بعضهم في الوصل دون الوقف، وقرأ نافع، وابن عامر، وحزمة، والكسائي بغير ياء في وصل ولا وقف، وروى ورش عن نافع إثبات الباء في الوصل، وقرأت فرقة: ﴿وَلَوْلَاذِي﴾ واختلف في تأويل ذلك، فقالت فرقة: كان هذا من إبراهيم قبل يأسه من إيمان أبيه وتبينه أنه عدو لله، فأراد أباه وأمه لأنها كانت مؤمنة، وقيل: أراد أمه ونوح عليه السلام، وقيل: أراد آدم وحواء لأن أمه لم تكن مؤمنة، وقيل: أراد آدم ونوحاً عليهما السلام، وقرأ سعيد بن جبير: ﴿وَلَوْلَاذِي﴾ بإفراد الأب وحده، وهذا يدخله ما تقدم من التأويلات، وقرأ الزهري، وإبراهيم النخعي: ﴿وَلَوْلَاذِي﴾ على أنه دعاء لإسماعيل وإسحق، وأنكرها عاصم

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْقِدُكُمْ
هَوَاءً ۖ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ يَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنا مِنْ أَجْلِ قُرْبِ جَنَّتِ دَعْوَتُكَ وَتَسْجِ
الرُّسُلِ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مَن قَبْلَ مَا لَكُمْ
مِنْ زَوَالٍ ۖ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِنٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمْ الْأَمْثَالَ ۖ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ
ۖ فَلَا تَخْشَى اللَّهَ مَخْلَفَ عَبْدِهِ ۖ رُسُلُهُ ۖ وَإِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ
ذُو أَنْتِقَامٍ ۖ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ
وَيَرْزُقُ اللَّهُ الْوَحِيدَ الْقَهَّارَ ۖ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُقَرَّبِينَ إِلَى الْأَصْفَادِ ۖ سَرَّابِلُهُمْ مِنْ طَرِيقٍ وَإِنَّمَا
وُجُوهُهُمْ النَّارُ ۖ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۖ هَذَا بَالِغُ النَّاسِ وَلَسَدُوا
بِهِ ۖ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَبِحْدْوَلِهِ ذُرُّوا الْأَنْبِيَاءَ ۖ

٢٦١

عز وجل: ﴿٤٢﴾ - ﴿٤٤﴾ تفسير قوله

هذه الآية بجملتها فيها وعيد للظالمين، وتسليية للمظلومين، والخطاب بقوله: ﴿تَحْتَبَنَ﴾ لمحمد ﷺ، والمراد بالنهي غيره ممن تلبس به أن يحسب مثل هذا، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿وَلَا تَحْسَبِ اللَّهَ غَافِلًا﴾ بإسقاط النون، وكذلك: ﴿فَلَا تَحْسَبِ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ﴾، وقرأ أبو حية، وعبد الرحمن، والحسن، والأعرج: ﴿تُؤَخِّرُهُمْ﴾

بنون العظمة، وقرأ الجمهور: ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ بالياء، أي الله تعالى، و﴿تَنْخَسُ﴾ معناه: تُجِدُّ النظر لفرع، ولفرط ذلك يشخص المحضر.

و «المُهْطِع»: المُسْرِعُ في مشيه، قاله ابن جبير، وقادة، وذلك بِذِلَّةٍ واستكانة، كإسراع الأسير الخائف ونحوه، وهذا هو أرجح الأقوال، وقد توصف الإبل بالإهطاع على معنى الإسراع، وقلما يكون إسراعها إلا خوف السوط ونحوه، فمن ذلك قول الشاعر:

وَبِمُهْطِعِ سُرْحٍ كَأَنَّ عِثَاءَهُ
فِي رَأْسِ جَذَعٍ مِنْ أَوَالِ مُشَدِّبٍ
وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانَ:
إِذَا دَعَانَا فَأَهْطَعْنا لِذَعْوَتِهِ
دَاعٍ سَمِيعٍ فَلَقُونَا وَسَاقُونَا

ومنه قول ابن مفرغ: بِدِجْلَةٍ دَارُهُمْ وَلَقَدْ أَزَاهُم بِدِجْلَةٍ مُهْطِعِينَ إِلَى السَّمَاعِ ومن ذلك قول الآخر: بِمُسْتَهْطِعِ رَسْلِ كَأَنَّ جَدِيدَهُ بِقَيْدُومِ زَعْنٍ مِنْ صَوَامٍ مَعْنُ وقال ابن عباس، وأبو الضحى: الإهطاع: شدة النظر من غير أن يطرف، وقال ابن زيد: الذي لا يرفع رأسه، قال أبو عبيدة: وقد يكون الإهطاع للوجهين جميعاً: الإسراع وإدامة النظر.

و «وَالْمُقْنِعُ» هو الذي يرفع رأسه قداماً بوجهه نحو الشيء، ومن ذلك قول الشاعر:

يُبَاكِزُنَ الْعِضَاةَ بِمُقْنَعَاتٍ
نَوَاجِذُهُنَّ كَالْحِدَايِ الْوَقِيعِ
يصف الإبل بالإقناع عند رعيها أعالي الشجر. وقال الحسن في تفسير هذه الآية: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء، لا ينظر أحد إلى أحد، وذكر الميرد فيما حكى عنه أَنَّ الإقناع يوجد في كلام العرب، بمعنى خفض الرأس من الذلَّة، والأول أشهر.

وقوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا يطفرون من الحذر والجزع وشدة الحال.

وقوله: ﴿وَأَفْقِدُكُمْ مَرًّا﴾ تشبيهه محض، لأنها ليست بهواء حقيقة، وجهة التشبيه يحتمل أن تكون في فراغ الأفتدة من الخير والرجاء والطمع في الرحمة، فهي منقرقة مشبهة الهواء في تفرغه من الأشياء وانخراقه، ويحتمل أن يكون في اضطراب أفئدتهم وجيشانها في

الجحدري وقال: إن في مصحف أبي بن كعب: ﴿وَلَا بُؤْيَ﴾، وقرأ يحيى بن يعمر: ﴿وَلَوْلُؤِي﴾ بضم الواو وسكون اللام، وهي لغة في الولد، ومنه ما أسند أبو علي وغيره:

قُلْتُ زَيْدًا كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ
وَلَيْتَ زَيْدًا كَانَ وَلَدَ جِمَارٍ
ويحتمل أن يكون الولد جمع ولد كأُسْدٍ في جمع أُسْدٍ.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾، يعني: يوم يقوم الناس للحساب، فأُسْدُ القيام إلى الحساب إيجازاً إذ المعنى مفهوم، ويتوجه أن يريد قيام الحساب نفسه، ويكون القيام بمعنى ظهوره وتلبس العباد بين يدي الله به كما تقول: قامت السوق، وقامت الصلاة، كما قال: وقامت الحرب على ساق.

صدورهم، وإنما تجيء وتذهب وتبلغ - على ما زوي - حناجرهم، فهي في ذلك كالهواء الذي هو أبداً في اضطراب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هاتين الجهتين يشبه قلب الجبان وقلب الرجل المضطرب في أموره بالهواء، فمن ذلك قول الشاعر:

وَلَا تَكُ مِنْ أَخْدَانِ كُلِّ يَزَاعِيَةٍ
هَوَاءٍ كَسَقَبِ الْبَانِ جُوفٍ مُكَاسِرَةٍ
ومن ذلك قول حسان:

أَلَا أُبْلِغُ أَبَا سُفْيَانَ عُنِي
فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَجِبٌ هَوَاءٌ
ومن ذلك قول زهير:

كَأَنَّ الرَّحْلَ مِنْهَا فَوْقَ صَفْلٍ
مِنَ الظُّلْمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءٌ
فالمعنى أنه في غاية الخفة في إجفاله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ الآية. المراد باليوم يوم القيامة، ونصبه على أنه مفعول بـ ﴿أَنْذِرِ﴾، ولا يجوز أن يكون ظرفاً لأن القيامة ليست بموطن إنذار. وقوله: ﴿فَيَقُولُ﴾ رفع عطفاً على قوله: ﴿يَأْتِيَهُمْ﴾. وقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ تَكُونُوا﴾ إلى آخر الآية معناه: يقال لهم، فحذف ذلك إيجازاً إذ المعنى يدل عليه، وقوله: ﴿مَا لَكُمْ يَنْزَوَالٍ﴾ هو المقسم عليه نقل المعنى، و﴿زَوَالٍ﴾ معناه: من الأرض بعد الموت، أي: لا بعث من القبور، وهذه الآية ناظرة إلى ما حكى عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾.

﴿٥٥﴾ - ﴿٥٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

يقول عز وجل: أيتها المعرضون عن آيات الله من جميع العالم سكتتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر من الأمم السالفة فنزلت بهم المثلات، فكان قولكم الاعتبار والاعتناظ، وقرأ الجمهور: ﴿وَتَبَيَّنَ﴾ بتاء، وقرأ السلمي - فيما حكى المهدوي -: ﴿وَتُبَيَّنَ﴾ بنون عظمة مضمومة وجزم على معنى: أو لم يُبَيَّنْ، عطف على ﴿أَرَأَيْتُمْ تَكُونُوا﴾، قال أبو عمرو: وقرأ أبو عبد الرحمن بضم النون الأولى ورفع النون الأخيرة.

وقوله: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ هو على حذف مضاف تقديره: وعند الله عقاب مكرهم، أو جزاء مكرهم، ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أن يكون خطاباً لمحمد عليه الصلاة والسلام والضمير لمعاصريه، ويحتمل أن يكون مما يقال للظلمة يوم القيامة، والضمير للذين سكن في منازلهم.

وقرأ السبعة سوى الكسائي: ﴿وَأِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلُنَا الْجِبَالَ﴾ بكسر اللام الأولى وفتح الثانية، وهي قراءة علي بن أبي طالب وجماعة، وهذا على أن تكون [إِنْ] نافية بمعنى «ما»، ومعنى الآية تحقير مكرهم، وأنه ما كان لتزول منه الشرائع والنبوت وأقدار الله بها التي هي كالجبال في ثبوتها وقوتها، وهذا تأويل الحسن وجماعة المفسرين. وتحتمل عندي هذه القراءة أن تكون بمعنى تعظيم مكرهم، أي: وإن كان

شديداً إنما يفعل لتذهب به عظام الأمور، وقرأ الكسائي: ﴿لَيَرْزُلُنَا﴾ بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، وهي قراءة ابن عباس، ومجاهد، وابن وثاب، وهذا على أن تكون [إِنْ] مخففة من الثقيلة، ومعنى الآية تعظيم مكرهم وشدته، أي أنه مما يشقى به، ويزيل الجبال من مستقراتها بقوته، ولكن الله تعالى أبطله، ونصر أوليائه، وهذا أشد في العبرة.

وقرأ علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وعمر بن الخطاب، وأبي بن كعب: ﴿وَأِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ﴾، ويترتب مع هذه القراءة في ﴿لَيَرْزُلُنَا﴾ ما تقدم، وذكر أبو حاتم أن في قراءة أبي بن كعب: ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةُ اللَّهِ لَزَالَتْ مِنْ مَكْرِهِمُ الْجِبَالُ﴾، وحكى الطبري عن بعض المفسرين أنهم جعلوا هذه الآية إشارة إلى ما فعل نمرود، إذ علّق الثابوت بين الأنسر ورفع لها اللحم في أطراف الرماح بعد أن أجاعها، ودخل هو وحاجبه في الثابوت ففعل بهما الأنسر حتى قال له النمرود: ماذا ترى؟ قال: أرى بحراً وجزيرة، يريد الدنيا المعمورة، ثم قال: ما ترى؟ قال: أرى غماماً ولا أرى جبلاً، فكأن الجبال زالت عن نظر العين بهذا المكر، وذكر ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك عندي لا يصح عن علي، وفي هذه القصة كلها ضعف من طريق المعنى، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف، وبعيد أن يُعْرَرْ أحد بنفسه في مثل هذا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ الآية. تثبت للنبي ﷺ ولغيره من أمته، ولم يكن النبي ﷺ ممن يحسب مثل هذا، ولكن خرجت العبارة هكذا، والمراد بما فيها من الزجر من شارك النبي ﷺ في أن قصد تثبيته. وقرأ جمهور الناس: ﴿تُخَلِّفَ وَعْدِهِ﴾ بالإضافة «رُسُلُهُ» بالنصب، وأضاف «تُخَلِّفَ» إلى «الْوَعْدِ» إذ للإخلاف تعلق بالوعد على تجوز، وإنما حقيقة تعلقه بالرسل، وهذا نحو قول الشاعر:

تَرَى الثُّورَ فِيهَا مُدْخِلَ الظِّلِّ رَأْسَهُ
وَسَائِرُهُ بَادٍ إِلَى الشَّمْسِ أَجْمَعُ
وكقولك: «هذا مُعْطِي زَيْدٍ درهمًا»، وقرأت فرقة: «مُخْلِفٌ وَعْدَهُ رُسُلِهِ» بنصب «الوعد» وخفض «الرسل» على الإضافة، وهذه القراءة ذكرها الزجاج وضعفها، وهي تحول بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، وهو كقول الشاعر:

فَرَجَجْتُهَا بِمَرْجَةٍ
رَجَّ الْقُلُوصُ أَبِي مُزَادَةَ
وأما إذا جيل في مثل هذا بالظرف فهو أشهر في الكلام كقوله:

لله ذُرِّيَّةٌ مِّن لَّا مَعَهَا
وقال آخر:

كَمَا خَطَّ الْكِتَابُ بِكَفِّ يَوْمًا
يَسْهُودِي يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ
والمعنى: لا تحسب يا محمد أنت ومن اعتبر بالأمر من أمتك وغيرهم أن الله لا يُنَجِّزُ وعده في نصر رسله وإظهارهم، ومعاقبة من كفر بهم في

الدنيا والآخرة، فإن الله عزيز لا يمتنع منه شيء، ذو انتقام من الكفرة، ولا سبيل إلى عفوهم عنهم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ﴾ الآية. ﴿يَوْمَ﴾ ظرف للانتقام المذكور قبله، وروي في «تبديل الأرض» أقوال: منها في الصحيح أن الله يبدل هذه الأرض بأرض عفراء بيضاء كأنها قُرْصَةُ الثَّقِيِّ، وفي الصحيح أن الله يبدلها خبزة يأكل المؤمن منها من تحت قدميه، وروي أنها تبدل أرضاً من فضة، وروي أنها أرض كالفضة في بياضها، وروي أنها تبدل أرضاً من نار وقال بعض المفسرين: تبدل الأرض هو نفس جبالها، وتفجير بحارها، وتغييرها حتى لا تَرَى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا، فهذه حال غير الأولى، وبهذا وقع التبديل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وسمعت من أبي رضي الله عنه أنه روي أن التبديل يقع في الأرض، ولكن يُبدل لكل فريق بما يقتضيه حاله، فالمؤمن يكون على خبز يأكل منه بحسب حاجته إليه، وفريق يكون على فضة - إن صحَّ السند بها - وفريق الكفرة يكونون على نار، ويجوز هذا مما كله واقع تحت قدرة الله تعالى. وأكثر المفسرين على أن التبديل يكون بأرض بيضاء عفراء لم يُعْصَ الله فيها، ولا سُفِكَ فيها دم، وليس فيها مَعلَم لأحد. وروي فيها عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن وقت التبديل في ظل العرش»، وروي عنه أنه قال: «الناس وقت التبديل على الصراط»،

وعنه أنه قال: «الناس حينئذ أضياف الله فلا يعجزهم ما لديه».

﴿وَيَزُولُ﴾ مأخوذ من الزَّاز، أي: ظهروا بين يديه لا يوارهم بناءً ولا حِصْن. وقوله: ﴿الْوَكْدُ الْقَهَّارُ﴾ صفتان لاقتان بهذه الحال.

﴿٥٩﴾ - ﴿٦٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

المجرمون هم الكفار، و﴿مُفَرِّقِينَ﴾ مربوطين في قَرْنٍ وهو الحبل الذي يُشَدُّ به رؤوس الإبل والبقر، ومنه قول الشاعر:

وَابْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لَزَّ فِي قَرْنٍ
لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبَزْلِ الْقَنَاجِسِ
و «الْأَصْنَافُ» الأعلال، واحدها صَفَدٌ، يقال: صَفَدَهُ وَأَصْفَدَهُ وَصَفَدَهُ إِذَا غَلَّلَهُ، والاسم الصفاد، ومنه قول سلامة بن جندل:

وَزَيْدُ الْحَيْلِ قَدْ لَأَى صِفَادًا
يَعْتَصُ بِسَاعِدٍ وَيَعْظُمُ سَاقٍ
وكذلك يقال في العطاء، ومنه قول النابغة:

.....
فَلَمْ أَعْرِضْ - أَبَيْتُ اللَّعْنَ - بِالْصَّفَدِ
و «السَّرَابِيلُ»: القُمُص، و«الْفَطِرَانُ» هو الذي تُهْنَأُ به الإبل، وللنار فيه اشتعال شديد، فلذلك جعل الله قُمُص أهل النار منه، ويقال بفتح القاف وكسر الطاء، وبكسر القاف وسكون الطاء، وفتح القاف وسكون الطاء، وقرأ عُمَرُ، وعلي، والحسن - بخلاف - وابن عباس، وأبو هريرة، وعلقمة، وسنان بن سلمة، وعكرمة، وابن سيرين، وابن جُبَيْر، والكَلْبِيُّ،

وقتادة، وعمرو بن عبيد: ﴿قَطِرْ
آن﴾، والقَطِرُ: القصدير، وقيل:
النحاس. وروي عن عمر
رضي الله عنه أنه قال: ليس
بالقطران، ولكنه النحاس يُسْرَبُونَهُ،
و [آن] صفة، وهو الذائب الحارُّ
الذي قد تنامي حرُّه، وقال ابن
عباس رضي الله عنهما: المعنى:
يعذبون به، وقال الحسن: قد
سُعِرَتْ عليه جهنم منذ خلقت فتنامي
حرُّه. وقرأ جمهور الناس:
﴿وَجُوهَهُمْ﴾ بالنصب ﴿النَّارِ﴾
بالرفع، وقرأ ابن مسعود بالعكس،
فالأول على نحو: ﴿وَأَبْلَى إِذَا بَتْنَى﴾
فهي حقيقة الغشيان، والثاني على
نحو قول الشاعر:

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كِلَابُهُمْ
لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُفْصِلِ
فهو يَتَجَوَّزُ فِي الغشيان، كأنه ورود
الوجوه على النار غشيان.

وقوله تعالى: ﴿يَجْزِي اللَّهُ أَيُّ:
لكي يجزي الله، واللام متعلقة بفعل
مضمر تقديره: أنفذ على المجرمين
هذا العقاب ليكون في ذلك جزاء
المسيء على إساءته، وجاء من لفظة
الكسب بما يعم المسيء والمحسن
لِيُتَبَّهَ على أن المحسن أيضاً يجازى
بإحسانه خيراً.

وقوله تعالى: ﴿سَرِيعَ الْحِسَابِ﴾
أي: فاصله بين خلقه بالإحاطة التي
له بدقيق أمورهم وجليلها، لا إليه
غيره، وقيل لِعَلِي بن أبي طالب
رضي الله عنه: كيف يحاسب الله
العباد في وقت واحد مع كثرتهم؟
قال: كما يرزقهم في وقت واحد.
وقوله: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾ الآية

إشارة إلى القرآن والوعيد
الذي تضمنه، ووصفه
بالمصدر في قوله:
﴿بَلَّغٌ﴾، والمعنى: هذا
ذو بلاغ للناس، وهو
لينذروا به، وقرأ
الجمهور: ﴿وَلْيُنْذَرُوا﴾
بضم الياء وفتح الذال على
بناء الفعل للمفعول، وقرأ
يحيى بن عمار،
وأحمد بن يزيد بن أسيد:
﴿وَلْيُنْذَرُوا﴾ بفتح الياء
والذال، تقول العرب:
«نُذِرْتُ بِكذا» إذا أشعرت
به، وتَحَرَّزْتُ منه،
وأَعَدَّدْتُ له.

وَرَوَى أَن قَوْلَهُ سَبْحَانَهُ:
﴿وَلْيَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ نزلت في أبي
بكر الصديق رضي الله عنه.

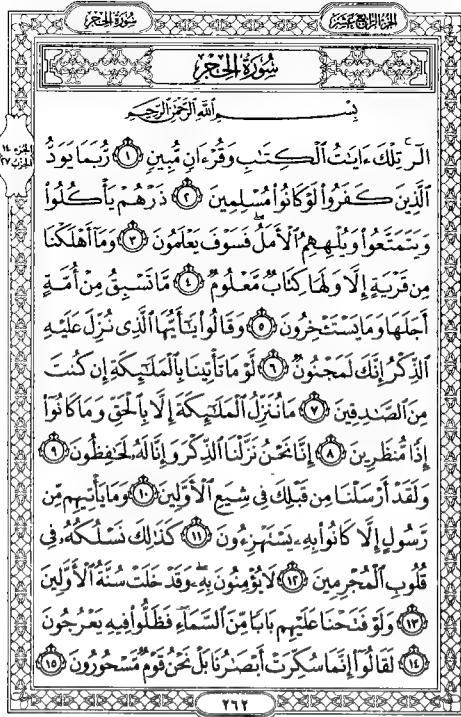
انتهى تفسير سورة إبراهيم عليه
الصلاة والسلام والحمد لله كثيراً،
وصلى الله على سيدنا محمد
المبعوث بشيراً ونذيراً وعلى آله
وصحبه وسلم

تفسير سور الحجر

هذه السورة مكية.

① - ⑤ تفسير قوله عز وجل:

﴿الرَّ﴾، تقدم القول في الحروف
المقطعة في أوائل السور،
و﴿تِلْكَ﴾ يمكن أن تكون إشارة



إلى حروف المعجم بحسب بعض
الأقوال، ويحتمل أن تكون إشارة
إلى الحكم والعبر ونحوها التي
تضمنتها آيات التوراة والإنجيل،
وعطف القرآن عليه، قال مجاهد،
وقتادة: ﴿الْكِتَابِ﴾ في هذه الآية ما
نزل من الكتب قبل القرآن، ويحتمل
أن يراد به ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن، ثم
تعطف الصفة عليه.

وقرأ نافع، وعاصم: ﴿رَبِّكَ﴾
بتخفيف الباء، وقرأ الباقر بشدھا،
إلا أن أبا عمرو قرأها على الوجهين،
وهما لغتان، وروى عن طلحة بن
مصرف ﴿رَبِّتُمَا﴾ بزيادة التاء، وهي
لغة، و ﴿رَبُّمَا﴾ للتقليل، وقد تجيء
شاذة للكثير، وقال قوم: إن هذه من
تلك، ومنه:

رُبَّ كَأْسٍ هَرَقْتُ يَا بَن لُؤَيٍّ

.....

وَأَنْكَرَ الرُّجُاجَ أَنْ تَجِيءَ «رُبُّ»
للتكثير.

و «ما» التي تدخل عليها «رُبُّ» قد تكون اسماً نكرة بمنزلة «شيء»، وذلك إذا كان في الكلام ضمير عائد عليه كقول الشاعر:

رُبَّمَا تَكْرَهُ الثُّفُوسُ مِنْ الْأَمْرِ

رَبْلَهُ فَزَجَجَتْ كَحَلِّ الْعُقَالِ

التقدير: رُبُّ شيء، وقد تكون حرفاً كافاً لـ «رُبُّ» وَمَوْطِئاً لتدخل على الفعل، إذ ليس من شأنها أَنْ تدخل إلا على الأسماء، وذلك إذا لم يكن ثَمَّ ضمير عائد، كقول الشاعر:

رُبَّمَا أَوْفَيْتُ فِي عِلْمِ

تَرْفَعَنْ نَوْسِي شِمَالًا

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك تدخل «ما» على «مِنْ» كَأَفَّةً في نحو قوله: «وكان رسول الله ﷺ مِمَّا يُحْرِكُ شَفْتَيْهِ». ونحو قول الشاعر:

وَأِنَّا لِمِمَّا نَضْرِبُ الْكَبْشَ ضَرْبَةً

عَلَى رَأْسِهِ تُلْقِي اللِّسَانَ مِنْ الْقَمِ

قال الكسائي، والفراء: الباب في «رُبَّمَا» أَنْ تدخل على الفعل الماضي، ودخلت هنا على المستقبل إذ هذه الأفعال المستقبلية في كلام الله تعالى لَمَّا كانت صادقة واقعة ولا بُدَّ تجري مجرى الماضي الواقع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تدخل «رُبُّ» على الماضي الذي يراد به الاستقبال، وتدخل على العكس.

والظاهر في «رُبَّمَا» في هذه الآية أَنْ «ما» حرف كاف، هكذا قال أبو

علي، قال: ويحتمل أَنْ تكون اسماً، ويكون في «يُودُّ» ضمير عائد عليه، التقدير: رُبُّ ودٍّ، أو شيء يوده الذين كفروا لو كانوا مسلمين، ويكون «لَوْ» كَأَوْ مُتَّبِعِينَ بدلاً من [ما]. وقالت فرقة: تقدير الآية: ربما كان يود الذين كفروا، قال أبو علي: وهذا لا يجيزه سيبويه، لأن «كان» لا تضمير عنده.

واختلف المتأولون في الوقت الذي يود فيه الذين كفروا لو كانوا مسلمين - فقالت فرقة: هو عند معاينة الموت في الدنيا، حكى ذلك الضحاك، وفيه نظر؛ إذ لا يقين للكافر حينئذ بحسن حال المسلمين، وقالت فرقة: هو عند معاينة أهوال يوم القيامة، قاله مجاهد، وهذا بين؛ لأنَّ حُسْنَ حال المسلمين ظاهر فيودُّ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وأنس بن مالك رضي الله عنه: هو عند دخولهم النار ومعرفتهم بدخول المؤمنين الجنة، واحتج لهذا القول بحديث زوي في هذا من طريق أبي موسى الأشعري، وهو أَنَّ الله تعالى إذا أدخل عصاة المسلمين النار نظر إليهم الكفار فقالوا: أليس هؤلاء من المسلمين؟ فماذا أغنت عنهم لا إله إلا الله؟ فيغضب الله تعالى لقولهم، فيقول: أخرجوا من النار كل مسلم؟ قال رسول الله ﷺ: «فحينئذ يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين».

وهذا يقينهم فيه متمكن بحسْن حال المسلمين، فمن حيث هذا كله موطن واحد في كل قول فـ [رُبَّمَا] للتقليل، لأنهم كانوا في الدنيا لا يودون الإسلام في كل أوقاتهم،

ومن حيث موطن الآخرة يدوم ودُّهم فيه جعل بعض الناس «رُبَّمَا» هذه للتكثير، إذ كلما تذكر أمره ودَّ أَنْ لو كان مسلماً.

و «لَوْ» في هذه الآية هي التي للتمني، ويدخلها الامتناع من الشيء لامتناع غيره بإضمار يوضحه المعنى، وذلك أنهم ودُّوا لو كانوا مسلمين فينجون النجاء الذي مانعه أَنْ لم يكونوا مسلمين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن الجبر في هذه الآية حديث الواصي الذي في ذيل الأمالي، ومقتضاه أنه ارتد ونسي القرآن إلا هذه الآية.

وقوله تعالى: «ذَرَهُمْ يَأْكُوفُوا وَرَتَمَوْا» الآية، وعيد وتهديد، وما فيه من المهادنة منسوخ بآية السيف، وقوله: «فَسَوْفَ يَلْمُوكَ» وعيد ثان، وحكى الطبري عن بعض العلماء أنه قال: الأول في الدنيا، والثاني في الآخرة، فكيف تطيب حياة بين هذين الوعدين؟ ومعنى قوله: «وَيَلْمُهُمُ الْإِثْمَ» أي يشغلهم أملهم في الدنيا والتزُّيد فيها عن النظر والإيمان بالله ورسوله.

وقوله تعالى: «وَمَا أَفْلَحَ الَّذِينَ قَرَّبُوا إِلَّا وَكُفَّاءُ» الآية، أي: لا تستبطن هلاكهم، فليس من قرية إلا مهلكة بأجل وكتاب، ومعنى «تَمَلُّوكَ» محدود، والواو في قوله: «وَمَا» هي واو الحال، وقرأ ابن أبي عبلة: «إِلَّا لَهَا» بغير واو، وقال منذر بن سعيد: هذه الواو هي التي تعطي أَنْ الحالة التي بعدها هي في الزمان قبل الحالة التي قبل الواو، ومنه قوله

تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَصَّحَتْ أَتَوَتْهَا﴾. وباقى الآية بين.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿فَالْوَا﴾ يراد به كفار قريش، ويروى أن القائلين كانوا: عبدالله بن أبي أمية، والنضر بن الحارث وأشباههما، وقرأ الأعمش: ﴿يَأْيُهَا الَّذِي أَلْقَىٰ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾. وقولهم: ﴿يَأْيُهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ كلام على جهة الاستخفاف، أي بزعمك ودعواك، وهذه المخاطبة كما تقول لرجل جاهل أراد أن يتكلم فيما لا يخبر: يأيها العالم أنت لا تخبر تنوضاً.

و ﴿لَوْ مَا﴾ بمعنى «لولا» فتكون تخفيضاً كما هي في هذه الآية، وقد تكون دالة على امتناع شيء لوجوب غيره، كما قال ابن مقبل:

لَوْلَا الْحَيَاءُ وَلَوْ مَا الدِّينُ عِبْتُكُمْا
بِتَغْضِ مَا فِيكُمْا إِذْ عِبْتُمَا عَوْرِي
وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿مَا تُنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ بفتح التاء والرفع، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر كذلك إلا أنه ضم التاء، وهي قراءة يحيى بن وثاب، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص: ﴿نُزِّلُ﴾ بنون العظمة ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ نصباً، وهي قراءة طلحة بن مصرف.

وقوله: ﴿إِلَّا يَأْتِيَنَّ﴾، قال مجاهد: المعنى: بالرسالة والعذاب. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن معناه: كما يجب ويحق من الرحي والمنافع التي أراها الله لعباده، لا على اقتراح كافر، ولا باختيار معترض. ثم ذكر عادة الله

في الأمم من أنه لم يأتهم بآية اقتراح إلا ومعها العذاب في أثرها إن لم يؤمنوا، وكأن الكلام: ما نُنْزِلُ الملائكة إلا بالحق واجب لا باقتراحكم، وأيضاً فلو نزلت لم ينظروا بعد ذلك بالعذاب، أي: لم يؤخروا، والتَّخْطُّرة: التأخير، والمعنى: فهذا لا يكون أبداً إذ كان في علم الله أن منهم من يؤمن، أو يلد من يؤمن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ رد على المستخفين في قولهم: ﴿يَأْيُهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾، وهذا كما يقول لك رجل على جهة الاستخفاف: «يا عظيم القدر»، فتقول له على جهة الرُّدِّ والتَّجْه: نعم أنا عظيم القدر، ثم تأخذ في قولك، فتأمله. وقوله: ﴿وَرِئَاءَ لَكُمُ الْخَيْطُومُ﴾، قالت فرقة: الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ عائد على محمد عليه الصلاة والسلام، أي: نحفظه من أذاكم، ونحوطه من مكرهم وغيره، ذكر الطبري هذا القول ولم ينسبه، وفي ضمن هذه العدة كان رسول الله ﷺ حتى أظهر الله به الشرع وحن أجله، وقالت فرقة: وهي الأكثر -: الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ عائد على القرآن، وقاله مجاهد، وقتادة، والمعنى: لحافظون من أن يبدل أو يغير كما جرى في سائر الكتب المنزلة، وفي آخر ورقة من البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن التبدل فيها إنما كان في التأويل، وأما في اللفظ فلا، وظاهر آيات القرآن أنهم بدلوا اللفظ، ووَضَعَ اليَدَ على آية الرجم

هو في معنى تبديل الألفاظ. وقيل: لحافظون باختزانه في صدور الرجال، والمعنى متقارب، وقال قتادة: هذه الآية نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكَ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ الْآيَةَ تَسْلِيَةً لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَعَرَّضَ أَسُوءَ، أَي: لا يرضى صدرك يا محمد بما يفعله قومك من الاستهزاء في قولهم: ﴿يَأْيُهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ وغير ذلك، فقد تقدم منا إرسال الرسل في شيع الأولين، وكانت تلك سيرتهم في الاستهزاء بالرسل، و «الشَّيْعُ» جمع شَيْعَةٍ، وهي الفرقة التابعة لرأس، إما مذهب أو رجل أو نحوه، وهي مأخوذة من قولهم: شيعت النار إذا استدمت وقدها بحطب أو غيره، فكأن الشيعة تصل أمر رأسها وتظهره وتمده بمعونة. وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ تقتضي «رُسلًا»، ثم اختصر ذكرهم لدلالة ظاهر القول على ذلك.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير عائد على الاستهزاء أو الشرك ونحوه، وهو قول الحسن، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، ويكون الضمير في ﴿يَدٍ﴾ يعود على ذلك بعينه، وتكون باء السبب، أي: لا يؤمنون بسبب شركهم واستهزائهم، ويكون قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ في موضع الحال. ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿نَسْتَكْفُرُ﴾ عائداً على «الذِّكْرُ» المحفوظ المتقدم الذكر وهو

القرآن، أي: مكذباً به مردوداً مُستَهْزَئاً به ندخله في قلوب المجرمين، ويكون الضمير في ﴿يَدِ﴾ عائداً عليه أيضاً، أي: لا يصدقون به، ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿سَلَكُوكُمْ﴾ عائداً على الاستهزاء والشرك، والضمير في ﴿يَدِ﴾ يعود على القرآن، فيختلف على هذا عَوْدُ الضميرين، والمعنى في ذلك كله ينظر بعضه إلى بعض.

و ﴿سَلَكُوكُمْ﴾ معناه نُدْخِلْهُ، يقال: سَلَكْتُ الرجل الأمر إذا أدخلته فيه، ومن هذا قول الشاعر:

وَكُنْتُ لِرِزَازٍ خَضِيكَ لَمْ أَعْرِذْ
وَقَدْ سَلَكُوكَ فِي أَمْرِ عَصِيبٍ
ومنه قول الآخر:

حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي فُتَايِدَةٍ
شَلًّا كَمَا تَطْرُدُ الْجَمَالَ الشُّرْدَا
ومنه قول أبي وَجْزَةَ يصف حُمْرَ وَخْشٍ:

حَتَّى سَلَكْنَ الشَّوْىَ مِنْهُنَّ فِي مَسَكٍ
بَيْنَ نَسْلِ جَوَابَةِ الْأَقَا فِي مَهْدَاجٍ
قال الزُّجَاج: ويُقرأ: ﴿تُسَلِّكُهُ﴾ بضم النون وكسر اللام. و﴿الْمَجْرِبِينَ﴾ في هذه الآية يُراد بهم كفار قريش ومعاصري رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ عموم معناه الخصوص فيمن ختم عليه. وقوله: ﴿وَقَدْ عَلَتْ شُهُ الْآدَانِ﴾ أي: على هذه الوتيرة، وتقول: سَلَكْتُ الرجلَ في الأمر وأَسْلَكْتُهُ بمعنى واحد، ويروى:

حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي فُتَايِدَةٍ
البيت.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ الضَّمِيرَ عَائِدَ عَلَى قَرِيشٍ وَكَفَرَةِ العصر المختوم عليهم، والضمير في قوله: ﴿فَنَظَرُوا﴾ يحتمل أن يعود عليهم، وهو أبلغ في إصرارهم، وهذا هو تأويل الحس. و﴿يَعْرِجُونَ﴾ معناه: يصعدون، وقرأ الأعمش، وأبو حنيفة: ﴿يَعْرِجُونَ﴾ بكسر الراء، والمعارج: الأدراج، ومنه المعراج، ومنه قول كثير:

إِلَى حَنِيبٍ عَوْدَ بَنَى الْمَرْءَ قَبْلَهُ
أَبْوَهُ لَهُ فِيهِ مَعَارِجُ سُلَمٍ
ويحتمل أن يعود على الملائكة لقولهم: ﴿أَوَمَا تَأْنِسُنَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾، فكأن الله تعالى قال: «ولو رأوا الملائكة يصعدون ويتصرفون في باب مفتوح في السماء لما آمنوا»، وهذا هو تأويل ابن عباس رضي الله عنهما.

وقرأ السبعة سوى ابن كثير: ﴿سَكَّرَتْ﴾ بضم السين وشد الكاف، وقرأ ابن كثير وحده بتخفيف الكاف، وهي قراءة مجاهد وقرأ الزهري بفتح السين وتخفيف الكاف، على بناء الفعل للفاعل، وقرأ أبان بن تغلب: ﴿سُحِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، ويجيء قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ انشقالاً إلى درجة عظمى من سحر العقل. وتقول العرب: «سَكَّرَتْ الرِّيحُ تُسَكِّرُ سُكُوراً» إذا ركدت ولم تنفذ لما كانت بسبيله أولاً، وتقول: «سَكِرَ الرُّجُلُ مِنَ الشَّرَابِ يَسْكُرُ سُكْرًا» إذا تغيرت حاله وركد ولم ينفذ فيما للإنسان أن ينفذ فيه، ومن هذا المعنى «سَكْرَانٌ لَا يَبِيْثُ»، أي: لا

يقطع أمراً، وتقول العرب: «سَكَّرَتْ الفُتُقُ في مجاري الماء سُكْرًا» إذا طمسته وصرفت الماء عنه فلم ينفذ لوجهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه اللفظة: [سَكَّرَتْ] بِشَدِّ الْكَافِ، إن كانت من سُكْرِ الشَّرَابِ، أو من سُكُورِ الرِّيحِ فهي فعل عُذِي بالتضعيف، وإن كانت من سُكْرِ مجاري الماء فتضعيفها للمبالغة لا للتعدي، لأن المخفف من فعله مُتَعَدٍّ، وَرَجَّحَ أَبُو حَاتِمٍ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ، لِأَنَّ «الْأَبْصَارَ» جَمْعَ، وَالتَّثْقِيلَ مَعَ الْجَمْعِ أَكْثَرُ، كَمَا قَالَ: ﴿ثُمَّ نَصَّاهُ لَمَّ الْأَوَّلِينَ﴾، وَمِنْ قَرَأَ: ﴿سَكَّرَتْ﴾ بِضَمِّ السِّينِ وَتَخْفِيفِ الْكَافِ، فَإِنْ كَانَتِ الْلفظة مِن سُكْرِ الْمَاءِ فَهُوَ فَعْلٌ مُتَعَدٍّ، وَإِنْ كَانَتِ مِنْ سُكْرِ الشَّرَابِ، أَوْ مِنْ سُكُورِ الرِّيحِ فَتَضْمَنُ أَنَّ الْفِعْلَ بَنِي لِلْمَفْعُولِ إِلَى أَنْ نَنْزِلَهُ مُتَعَدِّيًا،

ويكون هذا الفعل من قبيل: رجع زَيْدٌ وَرَجَّعَهُ غَيْرُهُ، وَغَارَتِ الْعَيْنُ وَغَارَهَا الرَّجُلُ، فَتَقُولُ - عَلَى هَذَا -: سَكِرَ الرَّجُلُ وَسَكَّرَهُ غَيْرُهُ، وَسَكَّرَتْ الرِّيحُ وَسَكَّرَهَا شَيْءٌ غَيْرُهَا، وَمَعْنَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ مِنْهُمْ: أَيِ غُيِّرَتْ أَبْصَارُنَا عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ، فَهِيَ لَا تَعْطِينَا حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ. وَغَيْرُ بَعْضِ الْمَفْسَرِينَ عَنْ هَذِهِ الْلفظة بقوله: غَشِيَ عَلَى أَبْصَارُنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَمِيَتْ أَبْصَارُنَا، وَهَذَا وَنَحْوُهُ تَفْسِيرٌ بِالْمَعْنَى لَا يَرْتَبِطُ بِالْلفظِ، وَيَقَالُ أَيْضًا: هَؤُلَاءِ الْمَبْصُرُونَ عَرُوجَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ عَرُوجَ أَنْفُسِهِمْ بَعْدَ قَوْلِهِمْ: ﴿سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ بِلِ سُجْرُنَا حَتَّى لَا نَعْقِلَ

الآشياء كما يجب، أي صرف فينا السحر.

﴿١٦﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر أنهم لو رأوا الآية المذكورة قبل في السماء لعاندوا فيها عقيب ذلك بهذه الآية، كأنه قال: وإن في السماء لجبراً منصوبة غير هذه المذكورة، وكفرهم بها وإعراضهم عنها إصرار منهم وعتو، والبروج: المنازل، واحدها بُرج، وسُمي بذلك لظهوره ووضوحه، ومنها تبرج المرأة ظهورها وبدوها، والعرب تقول: «برج الشيء» إذا ظهر وارتفع.

وحفظ السماء هو بالرجم بالشهب على ما تضمنته الأحاديث الصحاح، قال رسول الله ﷺ: «إن الشياطين تقرب من السماء أفواجاً، قال: فينفرد المراد منها فيعملوا فيسمع فيرمى بالشهاب، فيقول لأصحابه وهو يلهث: إنه من الأمر كذا وكذا، فيزيد الشيطان في ذلك، ويلقون إلى الكهنة، فيزيدون مع الكلمة مائة»، ونحو هذا الحديث، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الشهب تنجرح وتؤذي ولا تقتل، وقال الحسن: تقتل، وفي الأحاديث ما يدل على أن الرجم كان في الجاهلية ولكنه اشتد في وقت الإسلام، وحفظ السماء حفظاً تاماً، وقال الزجاج: لم يكن إلا بعد النبي عليه الصلاة والسلام؛ بدليل أن الشعراء لم يشبهوا به في السرعة إلا بعد الإسلام، وذكر الزهراوي عن أبي رجاء الطاردي: كنا لا نرى الرجم بالنجوم قبل الإسلام، و﴿يَجِيءُ﴾

بمعنى مرجوم، فعيل بمعنى مفعول، فإما من رجم الشهب، وإما من الرجم الذي هو الشتم والذم. ويقال: تبغت الرجل واتبعته بمعنى واحد، و﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن، هذا قول، والظاهر أن الاستثناء من الحفظ، وقال محمد بن يحيى عن أبيه: إلا من امتزق السمع فإنها لم تحفظ منه، ذكره الزهراوي.

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ روي في الحديث أن الأرض كانت تتكفأ بأهلها كما تتكفأ السفينة

فثبتها الله تبارك وتعالى بالجبال، ويقال: رَسَا الشيء يرسو إذا رسخ وثبت، وقوله: ﴿تَوَرَّيْنِ﴾، قال الجمهور: معناه: مقدر محدد بقصد وإرادة، فالوزن على هذا مستعار، وقال ابن زيد: المراد ما يوزن حقيقة كالذهب والفضة وغير ذلك مما يوزن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أعم وأحسن.

و «المعاش» جمع معيشة، وقرأها الأعرج بالهمز، وكذلك روى خارجة عن نافع، والوجه ترك الهمز، لأن الأصل في ياء «معيشة» الحركة، فيردها الأصل إلى الجمع، بخلاف «مدينة ومدائن»، وقوله: ﴿وَنَ لَّسْتُمْ لَمْ يَرْزِقِينَ﴾ يحتمل أن تكون [مَنْ] في موضع نصب على ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون عطفاً على

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِقِينَ لِلنَّظِيرِ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مِنْ أَسْفَلِ السَّمَاءِ قَائِمَةٌ فِيهَا ثَلَاثُ مِائَةٍ مِائَةٍ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِزْقًا وَأَبْنَيْنَا فِيهَا كُلَّ شَيْءٍ مُزَوَّجِينَ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا الْكُرُوفَ فِيهَا مَعِيشًا وَمِنْ لَّسْتُمْ لَمْ يَرْزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِإِقْدَارٍ مُعْلُونٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفٍ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَا كُفُوهُ وَمَا أَنْشَرْنَاهُ إِلَّا بِرِزْقِنَا ﴿٢٢﴾ وَإِذَا لَحْنٌ لَحِيَ. وَثَبِتَ وَتَحَنَّنَ الرُّزُقُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ رَبُّكَ بِهِمْ شَرُّهُمْ إِنَّهُمْ كَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَلَكِنَّ خَلْقَهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ﴿٢٧﴾ وَلَئِنْ رَأَيْتَ لَلْمَلَكِ كَذِبًا فِي خَلْقٍ يُسْكَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَصَلِّ مِنْ حَمَلٍ مُسْتَوْسِنٍ ﴿٢٩﴾ إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣٠﴾ فَسَجِدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣١﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾

﴿مَعِيشًا﴾، كأن الله تعالى عدّد النعم في المعاش وهي ما يؤكل ويلبس، ثم عدّد النعم في الحيوان والعبيد والضياع وغير ذلك مما ينتفع به الناس وليس عليهم رزقهم، والوجه الثاني أن تكون [مَنْ] معطوفة على موضع الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، وذلك أن التقدير: وأعشناكم وأعشنا أماً غيركم من الحيوان، وكأن الآية - على هذا - فيها اعتبار وعرض آية، والوجه الثالث أن تكون [مَنْ] منصوبة بإضمار فعل يقتضيه الظاهر وتقديره: وأعشنا مَنْ لَسْتُمْ له برازقين، ويحتمل أن تكون [مَنْ] في موضع خفض عطفاً على الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، وهذا قلق في النحو، لأنه العطف على الضمير المحرور وفيه قبح، فكأنه قال: ومن لَسْتُمْ له برازقين وأنتم تتنفعون به.

وقوله: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ خَزَائِنُكَ﴾، قال ابن جريج: هو المطر خاصة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وينبغي أن يكون أعم من هذا في كثير من المخلوقات، و «الخزائن» المواضع الحاوية، وظاهر هذا أن الماء والرياح ونحو ذلك موجود مخلوق، وهو ظاهر قولهم في الرياح: «عنت على الخزائن»، وانفتح منها قدر حلقة الخاتم، ولو كان قدر منخر الشور لأهلك الأرض، إلى غير ذلك من الشواهد، وذهب قوم إلى أن كونها في القدرة هو خزئها، فإذا شاء الله أوجدها، وهذا أيضاً ظاهر في أشياء كثيرة، وهو لازم في الأعراس إذا عَمُنَا لفظة «شيء»، وكيفما كان الأمر فالقدرة تسعه وتنفقه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْزِيلُهُ﴾، ما كان من المطر ونحوه فالإنزال فيه متمكن، وما كان من غير ذلك فإيجاده والتمكين من الانتفاع به إنزال على تجوز، وقرأ الأعمش: ﴿وَمَا تُرْسِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، وقوله: ﴿يَقْدَرُ مَعْلُومٌ﴾ روي فيه ابن مسعود وغيره أنه ليس عام أكثر مطراً من عام، ولكن ينزله الله في مواضع دون مواضع.

٢٢ - ٢٧ تفسير قوله عز وجل:

يقال: لقحت الناقة والشجرة فهي لاقحة إذا حملت، والرياح تلقح الشجر والسحاب، فالوجه في الرياح أنها ملقحة لا لاقحة، ونتجه صفة الرياح بـ «لَوْحٍ» على أربعة أوجه: أولها وأولها أن جعلها لاقحة

حقيقة؛ وذلك أن الريح منها ما فيه عذاب أو ضر أو نار، ومنها ما فيه رحمة أو مطر أو نصر أو غير ذلك، فإذا هي تخيل ما حملتها القدرة، أو ما علقت من الهواء أو التراب أو الماء الذي مرت عليه، فهي لاقحة بهذا الوجه، وإن كانت أيضاً تلقح غيرها وتصير إليه نفعها، والعرب تسمي الجنوب الحامل واللاقحة، وتسمي الشمال الحایل والعقيم ومخوة لأنها تمحو السحاب، روى أبو هريرة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «الرياح الجنوب من الجنة، وهي اللواقح التي ذكر الله، وفيها منافع للناس»، ومن هذا قول الطرمح:

قُلْتُ لِأَتْنَانِ الرَّيَا
ح لَلْأَيْحِ مِنْهَا وَحَائِلُ
وقول أبي جزة:

.....
مِنْ نَسْلِ جَوَابَةِ الْآفَاقِ ..
فجعلها حاملاً بنس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويخرج هذا على أنها ملقحة فلا حجة فيه.

والثاني أن يكون وصفها بـ «لَوْحٍ» من باب قولهم: «ليل نائم»، أي: فيه نوم ومعه، «ويوم عاصف» ونحوه، فهذا على طريق المجاز. والثالث أن توصف الرياح بـ «لَوْحٍ» على جهة النسب، أي: ذات لقع، كقول النابغة:

كِلِينِي لَهُمْ يَا أُنَيْمَةَ نَاصِبٍ
.....

أي: ذي نصب. والرابع أن يكون «لَوْحٍ» جمع «ملقحة» على حذف زوائده، فكانه «لقحة» فجمعها كما

تجمع «لاقحة»، ومثله قول الشاعر: لِيُبْنِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ وَأَسْعَثُ بِمَنْ طَوَّحَتْهُ الطَّوَائِحُ وَإِنَّمَا طَوَّحَتْهُ الْمَطَارِحُ، وعلى هذا النحو فسرهما أبو عبيدة في قوله: «لواقح ملاقح»، وكذلك العبارة عنها في كتاب البخاري: «لواقح ملاقح ملقحة».

وقرأ الجمهور: «الرَّيْحُ» بالجمع، وقرأ الكوفيون: حمزة، وطلحة بن مصرف، والأعمش، ويحيى بن وثاب: «الرَّيْحُ» بالإنفراد، وهي للجنس فهي في معنى الجمع، ومثلها الطبري بقولهم: «قميص أخلاق، وأرض أغفال».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله من حيث هو أجزاء كثيرة تجمع صفته، فكذا «رياح لواقح» لأنه متفرقة الهبوب، وكذلك «دَارُ بلاقع»، أي: كل موضع منها بلقع. وقال الأعمش: إن في قراءة عبدالله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ تَلْقُحُ﴾، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الرياح من نفس الرحمن». ومعنى الإضافة هنا إضافة خلق إلى خالق، كما قال: «من روعي»، ومعنى «من نفس الرحمن» أي من تنفيسه وإزالته الكرب والشدائد، فمن التنفيس بالرياح النَّفْثُ بالصبا، ودُورُ الأرزاق بها، وما لها من الخدمة في الأرزاق وجلب الأمطار وغير ذلك مما يكسر عده، ولقد حدثت أن ابن أبي قحافة رحمه الله فسر هذا الحديث نحو هذا، وأنشد في تفسيره:

فَإِنَّ الصَّبَارِيحَ إِذَا مَا تَنَفَّسَتْ
عَلَى نَفْسٍ مَهْمُومٍ تَجَلَّتْ هُمُومَهَا

وهذا من جملة التنفيس.

والعرب تقول: أسقى وسقى بمعنى واحد، قال لييد:

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى
ثَمِيرًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هِلَالٍ
فَجَاءَ بِاللَّغْتَيْنِ، وقال أبو عبيدة: أما إذا كان من سقى الشفة خاصة فلا يقال إلا سقى، وأما إن كان لسقى الأرض والشمار وجملة الأشياء فيقال: أسقى، وأما الداعي لأرض أو غيرها بالسقى فإنما يقال فيه: أسقى، ومنه قول ذي الرمة:

وَقَفْتُ عَلَى رَسْمٍ لِمَيْةٍ نَاقَتِي
فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأَخَاطِبُهُ
وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ يَمُوتُ أَبْثُهُ
ثُكُلْتُ نَفْسِي أَخْجَاؤُهُ وَمَلَأَ عَيْنَهُ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: على أن بيت لييد دعاء وفيه اللغتان. وقوله تعالى: ﴿وَلِنَا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ وَنُيِّتُ الآية. هذه الآية مع الآيات التي قبلها تضمنت العبرة والدلالة على قدرة الله تعالى، وما يوجب توحيده وعبادته، فمعنى هذه الآية: وإننا نحن نحوي من نشأ بإخراجه من العدم إلى وجود الحياة، ونرؤه عند البعث من مرقده ميتاً، ونميت بإزالة الحياة عمن كان حياً. ﴿وَنَحْنُ أَلْوَنُونَ﴾ أي: لا يبقى شيء سوانا، وكل شيء هالك إلا وجهه، لا رب غيره.

ثم أخبر تعالى بإحاطة علمه بمن تقدم من الأمم وبمن تأخر في الزمن، من لدن أهبط آدم إلى الأرض إلى يوم القيامة، وأعلم أنه هو الحاشر لهم، الجامع لعرض يوم القيامة على تباعدهم الأقطار

والأزمان، وَأَنَّ حِكْمَتَهُ وَعِلْمَهُ يَأْتِيَانِ بهذا كله على أتم غاياته التي قدرها وأرادها. وقرأ الأعرج: ﴿يَخْشِرُهُمْ﴾ بكسر الشين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا سياق معنى الآية، وهو قول جمهور المفسرين. وقال الحسن: معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا لُتْفَتِيبِينَ﴾ أي: في الطاعة والبدار إلى الإيمان والخيرات، و﴿لَلتَّخْشِرِينَ﴾ بالمعاصي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإن كان اللفظ يتناول كل من تقدم وتأخر على جميع وجوهه، فليس يطرد سياق معنى الآية إلا كما قدمناه. وقال ابن عباس، ومروان بن الحكم، وأبو الجوزاء: نزله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا لُتْفَتِيبِينَ﴾ الآية في قوم كانوا يصلون مع النبي ﷺ، وكانت امرأة جميلة تصلي وراءه، فكان بعض القوم يتقدم في الصفوف لثلاثتته، وكان بعضهم يتأخر ليسرق النظر إليها في الصلاة، فنزلت الآية فيهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما تَقَدَّمَ الآية من قوله: ﴿وَنَحْنُ أَلْوَنُونَ﴾ وما تأخر من قوله: ﴿وَلِنَا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ يَضْعَفُ هذه التأويلات، لأنها تُذهب إيصال المعنى، وقد ذكر ذلك محمد بن كعب القرظي لعون بن عبد الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الآية. ﴿الْإِنْسَانَ﴾ هنا للجنس، والمراد آدم عليه السلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سُمِّيَ بذلك لأنه عُهد إليه فنسي، ودخل

من بعده في ذلك إذ هو من نسله. و«الصلصال» الطين الذي إذا جف صَلَّصَل، هذا قول فرقة، منها من قال: هو طين الخزف، ومنها قول الفراء: هو الطين الحر يخالطه رمل دقيق، وقال ابن عباس: خلق من ثلاثة: من طين لازب، وهو اللازق الجيد، ومن صلصال، وهو الأرض الطيبة يقع عليها الماء ثم ينحسر فتتشقق وتصير مثل الخزف، ومن حمى مسنون، وهو الطين فيه الحمأة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان الوجه - على هذا المعنى - أن يقال: «صلال»، لكن ضعف الفعل من فائه، وأبدلت إحدى اللامين من «صلال» صاداً، وهذا مذهب الكوفيين، وقاله ابن جني، والزبيدي، ونحوهما على نحو البصرة، ومذهب جمهور البصريين أنهما فعلاً متباينان، وكذلك قالوا في ثَرَارٍ وثَرَارَةٌ، قال بعضهم: تقول: صَلَّ الخزف ونحوه إذا صوت بتمديد، فإذا كان في صوته ترجيع كالجرس ونحوه قلت: صَلَّصَل، ومنه قول الكميت:

فِيهَا الْعَنَاجِيحُ تُزْدِي فِي أَعْيُنِهَا
شُغْنًا تُصَلِّصِلُ فِي أَشْدِّهَا اللَّجْمُ
وقال مجاهد وغيره: ﴿صَلَّصَلِي﴾ هنا إنما هو من: «صَلَّ اللُّحْم» إذا أَتَّشَنَ، فجعلوا معنى ﴿صَلَّصَلِي﴾ و«حَكَمَ» في لزوم التثنى شيئاً واحداً.

و«المَسْنُون»، قال معمر: معناه: الممتن، وهو من «أَسِنَ الماء» إذا تغير، والتصريف يزُدُّ هذا القول، وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

﴿٢٨﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ نَصَبْتَ بِإِصْصَارٍ فَعَلَّ مَقْدَرُ،
تَقْدِيرُهُ: وَإِذْ كَرَّ إِذْ قَالَ رَبِّكَ،
وَالْبَشَرُ هَا هُنَا آدَمُ، وَهُوَ مَاخُذٌ مِنْ
الْبَشَرَةِ، وَهِيَ وَجْهُ الْجِلْدِ فِي الْأَشْهُرِ
مِنَ الْقَوْلِ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ:
«وَأَنْقُوا الْبَشَرَةَ». وَقِيلَ: الْبَشَرَةُ مَا
يَلِي اللَّحْمَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ فِي الْمَثَلِ:
«إِنَّمَا يُعَاتَبُ الْأَدِيمُ ذُو الْبَشَرَةِ»؛ لِأَنَّ
تِلْكَ الْجَهَّةَ هِيَ الَّتِي تَبْشُرُ،
وَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَلَائِكَةَ بِعَجَبِ
عِنْدِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا مَخْلُوقِينَ
مِنْ نُورٍ، فَهِيَ أَجْسَامٌ لَطَافٌ،
فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ يَخْلُقُ جَسَماً حَيّاً ذَا
بَشَرَةٍ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُهُ مِنْ صَلْصَالٍ،
وَالْبَشَرُ وَالْبَشَرَةُ أَيْضاً أَصْلُهُمَا الْبَشَرَةُ
لِأَنَّهُمَا فِيهَا يَظْهَرَانِ.

و ﴿سَوَّيْتُهُ﴾ معناه: كَمَلْتُهُ وَأَتَقَنْتُهُ
حَتَّى إِذَا اسْتَوَتْ أَجْزَاؤُهُ عَلَى مَا
يَجِبُ، وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ رُوحِي﴾ إِضَافَةٌ
خَلَقَ وَمَلَكَ إِلَى خَالِقِ مَالِكٍ، أَيْ:
مِنَ الرُّوحِ الَّذِي هُوَ لِي، وَلَفْظُ الرُّوحِ
هُنَا لِلْجَنَسِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَنَنْفُخُ﴾ مِنْ
وَقَعَ يَقَعُ، وَفَتَحَتْ الْقَافُ لِأَجْلِ
حَرْفِ الْحَلْقِ، وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ تَقْوَى أَنْ
سَجَدَ الْمَلَائِكَةُ إِنَّمَا كَانَ كَالْمَعْهُودِ
عِنْدُنَا، لَا أَنَّهُ خَضُوعٌ وَتَسْلِيمٌ وَإِشَارَةٌ
كَمَا قَالَ بَعْضُ النَّاسِ، وَشَبَّهَهُ بِقَوْلِ
الشَّاعِرِ:

فَكَلَّمْتَاهُمَا خَرَّتْ وَأَسْجَدَتْ رَأْسُهَا
كَمَا سَجَدَتْ تَضَرَّاتُهُ لَمْ تَحْتَفِ
وَهَذَا الْبَيْتُ يَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ السَّجُودُ
فِيهِ كَالْمَعْهُودِ عِنْدُنَا، وَحَكَى الطَّبْرِي
فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ
مَلَائِكَةً وَأَمَرَهُمْ بِالسَّجُودِ لِآدَمَ فَأَبَوْا،

مَأْخُذٌ مِنْ كَوْنِهِ عَلَى سَنَةِ
الطَّرِيقِ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَتَغَيَّرُ إِذَا
فَارَقَ الْمَاءَ، فَمَعْنَى الْآيَةِ
عَلَى هَذَا: مِنْ حَمَلٍ
مَصْبُوبٍ يَوْضَعُ بَعْضُهُ فَوْقَ
بَعْضٍ عَلَى مِثَالِ وَصُورَةٍ.

﴿وَالْجَانَّ﴾ يراد به جنس
الشیاطین، وُسْمُونٌ جِنَّةٌ
وَجَانٌّ وَجَنَّا لاسْتِزَارِهِمْ عَنْ
الْعَيْنِ، وَشَلَّ وَهَبَ بَن
مُنْتَبَهٍ عَنْهُمْ فَقَالَ: هُم
أَجْنَاسٌ، فَأَمَّا خَالِصُ
الْجِنِّ فَهُمْ رِيحٌ لَا يَأْكُلُونَ
وَلَا يَشْرَبُونَ وَلَا يَمُوتُونَ
وَلَا يَتَوَلَّدُونَ، وَمِنْهُمْ
أَجْنَاسٌ تَفْعَلُ هَذَا كُلَّهُ،

مِنْهَا السَّعَالِيُّ وَالْغُولُ
وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ. وَقَرَأَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي
الْحَسَنِ: «الْجَانَّ» بِالْهَمْزِ، وَالْمُرَادُ
بِهَذِهِ الْخَلْقَةِ إِبْلِيسُ أَبُو الْجِنِّ، وَفِي
الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ
جَمِيعِ أَنْوَاعِ الشَّرَابِ، الطَّيِّبِ
وَالْخَبِيثِ، وَالْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ»، وَفِي
سُورَةِ الْبَقَرَةِ إِيْعَابُ هَذَا. وَقَوْلُهُ:
﴿مِنْ قَبْلِ﴾ لِأَنَّ إِبْلِيسَ خَلَقَ قَبْلَ آدَمَ
بِمُدَّةٍ، وَخَلَقَ آدَمَ آخِرَ الْخَلْقِ.
وَالسُّمُومُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِفْرَاطُ
الْحَرِّ حَتَّى يَقْتُلَ، مِنْ نَارٍ أَوْ شَمْسٍ أَوْ
رِيحٍ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: السُّمُومُ بِاللَّيْلِ،
وَالْحَرُورُ بِالنَّهَارِ، وَأَمَّا إِضَافَةُ النَّارِ
إِلَى السُّمُومِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَيَحْتَمِلُ أَنْ
تَكُونَ النَّارُ أَنْوَاعاً وَيَكُونُ السُّمُومُ أَمْراً
يَخْتَصُّ بِنَوْعٍ مِنْهَا فَتَنْصَحُ الْإِضَافَةُ
حِينَئِذٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا فَيُخْرِجُ هَذَا
عَلَى قَوْلِهِمْ: «مَسْجِدُ الْجَامِعِ» وَ«دَارُ
الْآخِرَةِ» عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ.

قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ لَا تَسْجُدُ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ
لَا سَاجِداً لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْتَوْنٍ ﴿٢٩﴾ قَالَ
فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٠﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ
الَّذِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٢﴾ قَالَ فَإِنَّكَ
مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٣﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا
أَعُوذُ بِكَ لَأَرْسِلَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا عَاقِبَةَ لَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٥﴾
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْحَكِيمُ ﴿٣٦﴾ قَالَ هَذَا أَمْرٌ عَلَى
مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٧﴾ إِنْ عَادَى لِرَبِّكَ عَلَيْكَ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ
اتَّبَعَكَ مِنَ الْعَادِينَ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُوعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾
لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ أَتَوَلَّوْا سُلُوكَهُمْ أَيْمِينَ ﴿٤٢﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٣﴾
لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَجَسٌ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٤﴾
بَنَى عِبَادِي أَيْ أَنَا أَلْعَنُورُ الرَّجِيمِ ﴿٤٥﴾ وَأَنْ عَذَابِي
هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٤٦﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَيْبِ آتِهِمْ ﴿٤٧﴾

٢٦٤

الْمَسْنُونِ: الرُّطْبِ، وَهَذَا تَفْسِيرُ
لَا يَخْصُ اللَّفْظَةَ، وَقَالَ الْحَسَنُ:
الْمَعْنَى: سَنَ ذَرِيَّتِهِ عَلَى خَلْقِهِ،
وَالَّذِي يَتَرْتَبِ فِي ﴿سَوَّيْتُهُ﴾ إِمَّا أَنْ
يَكُونَ: مَخْكُوكَ مُخَكِّمَ الْعَمَلِ أَمْلَسَ
السَّطْحِ، فَيَكُونُ مِنْ مَعْنَى الْمَسْنُونِ
وَالسَّنَانِ وَقَوْلُهُمْ: «سَنَنْتُ السَّكِينِ»،
وَسَنَنْتُ الْحَجَرَ إِذَا أَحْكَمْتَ مَلْسَهُ،
وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

ثُمَّ دَافَعْتُهَا إِلَى الْقُبَّةِ الْخَضْرِ
رَاءَ تَمَشُّي فِي مَرْمَرٍ مُسْنُونٍ
أَيْ: مُخَكِّمِ الْإِمْلَاسِ، وَإِمَّا أَنْ
يَكُونَ بِمَعْنَى الْمَضْبُوبِ: تَقُولُ:
«سَنَنْتُ التُّرَابَ وَالْمَاءَ» إِذَا صَبَّيْتَهُ شَيْئاً
بَعْدَ شَيْءٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَمْرٍو ابْنِ
الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَنْ حَضَرَ
وَفَاتَهُ: «إِذَا أَدْخَلْتُمُونِي فِي قَبْرِي
فَسُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ سَنّاً»، وَمِنْ هَذَا
سَنُّ الْغَارَةِ. وَقَالَ الرَّجَاجُ: هُوَ

فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم خلق آخرين فكذلك، ثم خلق آخرين فأمرهم بالسجود فأطاعوا إلا إبليس فإنه كان من الأولين، وقوله: «من الأولين» يحتمل أن يريد: من الأولين في حالهم وكفرهم، ويحتمل أن يريد أنه بقي منهم.

وقوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ هو عند سيبويه تأكيد بعد تأكيد، يتضمن الآخر ما تضمن الأول، وقال غيره: ﴿كُلُّهُمْ﴾ لو وقف عليه لصلحت للاستثناء، وصلحت على معنى المبالغة مع أن يكون البعض لم يسجد، وهذا كما يقول القائل: «كل الناس يعرف كذا»، وهو يريد أن المذكور أمر مشتهر، فلما قال: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ رفع الاحتمال في أن يبقى منهم أحد، واقتضى الكلام أن جميعهم سجد، وقال المبرّد: لو وقف على ﴿كُلُّهُمْ﴾ لاحتمل أن يكون سجودهم في مواطن كثيرة، فلما قال: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ دلّ على أنهم سجدوا في موضع واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واعترض قول المبرّد بأنه جعل قوله تعالى: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ حالاً بمعنى «مُجْتَمِعِينَ»، ويلزمه - على هذا - أن يكون ﴿أَجْمَعُونَ﴾ هنا على أن يقرب من التأكيد إذ هو معرفة لكونه يلزم إتباع المعارف، والقراءة بالرفع تأتي قوله.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، قيل: إنه استثناء من الأول، وقيل: إنه ليس من الأول، وهذا متركب على الخلاف في إبليس، هل هو من الملائكة أم لا؟ والظاهر من كثير من

الأحاديث ومن هذه الآية أنه من الملائكة، وذلك أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود، ولو لم يكن إبليس من الملائكة لم يذنب في ترك السجود، وقد روي عن الحسن بن أبي الحسن أن إبليس إنما كان من قبيل الجن، ولم يكن قط ملكاً، ونسب ابن فورك القول إلى المعتزلة، وتعلّق من قال هذا بقوله تعالى في صفته: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، وقالت الفرقة الأخرى: لا حجة في هذا لأن الملائكة قد تُسمّى جناً لاستئثارها، وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَهَبًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْلُغُ﴾، قيل: إنه حينئذ ساء إبليس، وإنما كان اسمه قَبْلَ عَزَازِيلَ، وهو من الإبلّاس، وهو الإبعاد، أي: يا مُبْعِد. وقالت طائفة: إبليس كان اسمه، وليس باسم مشتق، بل هو أعجمي، ويقضي بذلك أنه لا ينصرف، ولو كان عربياً مشتقاً لكان كإجفيل، من أجفل، وغيره، ولكان منصرفاً، قاله أبو علي الفارسي. وقوله: ﴿أَلَا تَكُونُ﴾، [أَنْ] في موضع نصب، وقيل: في موضع خفض، والأصل: «مالك في ألا تكون»، وقول إبليس: ﴿لَمْ أَكُنْ لَاسْتَجِدَ لِسَرِّي﴾ ليس هذا موضع كفره عند الحذاق، لأن إبايته إنما هي معصية فقط، وأما تعليقه فإنما يقتضي أن الله خلق خلقاً مفضلاً وكلف خلقاً أفضل منه أن يذلّ له، فكأنه قال: «وهذا جور»، وذلك أن إبليس لما ظن أن النار أفضل من الطين ظن أن نفسه أفضل من آدم من

حيث النار تأكل الطين، ففاس وأخطأ في قياسه، وجهل أن الفضائل إنما هي حيث جعلها المالك للجميع، لا ربّ غيره.

﴿٣٤﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ للجنة وإن لم يجر ذكرها، فالقصة تتضمنها، ويحتمل أن يعود الضمير على صيغة الملائكة. و«الرجيم» المشثوم، أي: المرجوم بالقول والشتم، و«يَوْمَ الدِّينِ» يوم الجزاء، ومنه قول الشاعر:

وَلَمْ يَنْقُ سِوَى الْكُفْرِ
بِذُنُوبِهِمْ كَمَا ذُنُوبُوا

وسأل إبليس النظرة إلى يوم البعث فأعطاه الله إياها إلى وقت معلوم، واختلف فيه - فقيل: إلى يوم القيامة، أي يكون آخر من يموت من الخلق، قاله الطبري وغيره. وقيل: إلى وقت غير معين ولا مرسوم بقيامة ولا غيرها، بل علمه عند الله وحده. وقيل: بل أمره كان إلى يوم بدر، وأنه قتل يوم بدر، وهذا - وإن كان زوي - فهو ضعيف. والمُنْظَرُ: المؤخّر. وقوله: ﴿رَبِّ﴾ مع كفره يخرج على أنه يُقَرُّ بالربوبية والخلق، وهو الظاهر من حاله وما تقتضيه فيه الآيات والأحاديث، وهذا لا يدفع في صدر كفره.

وقوله: ﴿يَا أَغْوَيْتَنِي﴾، قال أبو عبيدة، وغيره: «أَقْسَمَ بالإغواء»، كأنه جعله بمنزلة قوله: «ربّ بقدرتك عليّ وقضائك»، ويحتمل أن يكون بالسبب، كأنه قال: «ربّ والله لأغوينهم بسبب إغوائك لي ومن أجله وكفاء له»، ويحتمل أن يكون

المعنى تجلداً منه ومبالغة في الجدة، أي: «بحالي هذه وبعدي من الخير والله لأفعلن ولأفعلن» ومعنى ﴿لَأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي الشهوات والمعاصي، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ للذرية آدم وإن كان لم يجر لهم ذكر، فالقصة بجملتها حيث وقعت كاملة تَشْتَمِلُهُمْ، والإغواء: الإضلال. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والحسن، والأعرج: ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بفتح اللام، أي الذين أخلصتهم أنت لعبادتك وتقواك، وقرأ الجمهور بكسر اللام، أي الذين أخلصوا الإيمان بك وبرسولك.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، القائل هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أن يكون ذلك بواسطة، وقرأ الضحاك، وخميد، والتخفي، وأبو رجا، وابن سيرين، وقتادة، وقيس بن عباد، ومجاهد، وغيرهم: ﴿عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ من العلو والرفعة، والإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ - على هذه القراءة - إلى الإخلاص، لما استثنى إبليس من أخلص قال الله له: هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بإغواذك أهل. وقرأ جمهور الناس: ﴿عَلَيَّ﴾ بياء مشددة مفتوحة، والإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ - على هذه القراءة - إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص، لما قسم إبليس الناس هذين القسمين قال الله له: هذا طريق إلني، أي: هذا أمر مصيره إلني، والعرب تقول: «طريقك فلان» أي: في هذا الأمر على فلان، أي: إليه يصير النظر في أمرك. وهذا نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، والآية - على هذه القراءة - خبر تتضمن وعيداً.

ثم ابتدأ الإخبار عن سلامة عباده المتقين من إبليس، وخاطبه بأنه لا حجة له عليهم ولا ملكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر في قوله: ﴿عِبَادِي﴾ الخصوص في أهل الإيمان والتقوى لا عموم الخلق، وبحسب هذا يكون ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ﴾ مستثنى من غير الأول، والتقدير: لكن من اتبعك من الغاوين لك عليهم سلطان، وإن أخذنا العباد عاماً في عباد الناس، إذ لم يقدر الله لإبليس سلطاناً على أحد، فإننا نقدر الاستثناء في الأقل في القدر من حيث لا قدر للكفار، والنظر الأول أصوب، وإنما الغرض ألا نقع في استثناء الأكثر من الأقل وإن كان الفقهاء قد جوزوه، وقال أبو المعالي: ليس معروفاً في استعمال العرب، وهذه الآية أمثل ما احتج به مجوزوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا حجة لهم في الآية على ما يثبت. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَظَرْعُكُمْ﴾ أي موضع اجتماعهم، والموعود يتعلق بزمان ومكان، وقد يذكر المكان ولا يحدد زمان الموعود. و﴿أَجْمِينَ﴾ تأكيد، وفيه معنى الحال، وقوله: ﴿لَمَّا سَمِعَتْ آبَاةُ﴾ قيل: إن النار بجملتها سبعة أطباق، أعلاها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم وفيه أبو جهل، ثم الهاوية، وإن في كل طبق منها باباً، فالأبواب - على هذا - بعضها فوق بعض، وعبر في هذه الآية عن النار جملة بجهنم، إذ هي أشهر منازلها

وأولها، وهي موضع عصاة المؤمنين الذين لا يخلدون، ولهذا روي أن جهنم تخرب وتبلى. وقيل: إن النار أطباق كما ذكرنا، لكن الأبواب السبعة كلها في جهنم على خط استواء، ثم ينزل من كل باب إلى طبقة الذي يفضي إليه. واختصرت ما ذكر المفسرون في المسافات بين الأبواب، وفي هواء النار، وفي كيفية الحال، إذ هي أقوال كثيرة أكثرها لا يستند، وهي في حيز الجائر، والقدرة أعظم منها، عافانا الله من ناره، وتغمدنا برحمته بيمينه.

وقوله: ﴿جُزْءٌ﴾، قرأ الجمهور بالهمز، وقرأ ابن شهاب بضم الزاي، وقرأت فرقة: ﴿جُزْءٌ﴾ بشد الزاي دون همز، وهي قراءة ابن القعقاع.

﴿٥٥﴾ - ﴿٥٦﴾ تفسير قوله عز وجل: ذكر الله تعالى ما أعد لأهل الجنة عقب ذكره ما أعد لأهل النار ليظهر التباين، وقرأ الجمهور: ﴿رَعِيونَ﴾ بضم العين، وقرأ نبيح، والجراح، وأبو واقد، ويعقوب - في رواية رؤيس - بكسر العين، مثل بيوت وشيوخ.

وقرأ الجمهور: ﴿أَدْخَلُوهَا﴾ على الأمر بمعنى يقال لهم: ادخلوها، وقرأ رؤيس عن يعقوب: ﴿أَدْخِلُوهَا﴾ على بناء الفعل للمفعول بضم الهمزة وكسر الخاء وضم التنوين في ﴿عُيُونَ﴾ ألقى عليه حركة الهمزة. و«السلام» ها هنا يحتمل أن يكون السلامة، ويحتمل أن يكون التحية، و«الغل» : الحقد، وذكر الله تعالى في هذه الآية أنه يتزع الغل من قلوب أهل الجنة، ولم يذكر لذلك موطناً،

وجاء في بعض الحديث أن ذلك على الصراط، وجاء في بعضها أن ذلك على أبواب الجنة، وفي لفظ بعضها أن الغل ليبقى على أبواب الجنة كمعاطن الإبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن الله تعالى يجعل ذلك تمثيلاً بكون يخلقه هناك ونحوه، وهذا كحديث ذبح الموت، وقد يمكن أيضاً أن يسئل من الصدور، ولذلك جواهر سود فيكون كمنار الإبل، وجاء في بعض الأحاديث أن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم في الجنة، والذي يقال في هذا أن الله ينزعه في موطن من قوم، وفي موطن من آخرين، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾»، وذكر أن ابناً لطلحة كان عنده، فاستأذن الأشتر فحبسه مدة، ثم أذن له فدخل، فقال: ألهذا حبستني؟ وكذلك لو كان ابن عثمان حبستني له؟ فقال علي: نعم، إني أنا وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ الآية. وقد روي أن المستأذن غير الأشتر.

و﴿إِخْوَانًا﴾ نصب على الحال، وهذه أخوة الدين المؤدة. والأخ من ذلك يجمع على إخوان وإخوة، والأخ من النسب يجمع إخوة وأخاء، ومنه قول الشاعر:

.....
وأي بني الآخاء تصفؤ مذهباً؟

و«السُّرُر»: جمع سرير، و«مُتَقَابِلِينَ» الظاهر أن معناه: في الوجوه، إذ الأبيزة متقابلة، فيه أحسن في الزينة، قال مجاهد: لا ينظر أحدهم في قفا صاحبه، وقيل: متقابلين في المودة، وقيل: غير هذا مما لا يعطيه اللفظ.

و«النَّصَب»: الثعب، يقع على القليل من ذلك والكثير، ومن الكثير قول موسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾، ومنه قول الشاعر:

كَلْبِيْنِي لِيَهْمٍ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ

وقوله تعالى: ﴿نَجَّيْنَاهُ﴾ معناه: أغلیم، و﴿عَبَادِي﴾ مفعول بـ ﴿نَجَّيْنَاهُ﴾، وهي تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، فـ ﴿عَبَادِي﴾ مفعول، و﴿وَأَنَّا﴾ تسد مسد المفعولين الباقيين، واتفق ذلك وهي مع ما عملت فيه بمنزلة اسم واحد، ألا ترى أنك إذا قلت: «أعجبني أن زيداً منطلقاً» إنما المعنى: أعجبني انطلاق زيد، لأن دخولها إنما هو على جملة ابتداء وخبر، فسدت تلك مسد المفعولين، وقد يتعدى «نَبَأٌ» إلى مفعولين فقط، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ أُنْبِئَكَ هَذَا﴾، وتكون في هذا الموضع بمعنى: أخبر وعرف، وفي هذا كله نظر.

وهذه آية ترجية وتخويف، وروي في هذا المعنى عن النبي عليه الصلاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذْ خَلَوْا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا أَنْتُمْ وَجَلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا لَا تَنْجِلْ إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ ﴿٥٢﴾ قَالَ أَتَشْتَرُونِي عَلَى أَنْ مَسْنَى الْكَبِيرِ فَدَبَّرُوا نَجْوَاهُمْ ﴿٥٣﴾ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَنطِيرِ ﴿٥٤﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٥﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٧﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَنَجِّيهِمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا أَمْرًا تَعْدَّتْ آيَاتُهَا لَكِنْ أَلْفَيْتَ ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦٠﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَآ كُنَّا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٢﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَئُ مِنْكَ أَحَدٌ وَاقْصِرْ آخِيتَ تَوَّارُونَ ﴿٦٤﴾ وَفَضَّلْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْآخَرِينَ ﴿٦٥﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَلُّوا عَنْ نَجْمِ الْوَقْعَةِ ﴿٦٧﴾ وَأَتَوْا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَهْتَكِ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦٩﴾

والسلام أنه قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عذابه لبتع نفسه»، وروي في هذه الآية أن سببها أن رسول الله ﷺ جاء إلى جماعة من أصحابه عند باب بني شيبه في الحرم فوجدتهم يضحكون، فزجرهم ووعظهم، ثم ولى، فجاءه جبريل عن الله فقال: يا محمد، أتقنط عبادي؟ وتلا عليه الآية، فرجع بها رسول الله ﷺ إليهم وأعلمهم. ولو لم يكن هذا السبب لكان ما قبلها يقتضيها، إذ قد تقدم ذكر ما في النار وما في الجنة فأكد تعالى تنبيه الناس بهذه الآية.

٥١ - ٥٢ تفسير قوله عز وجل: ﴿قَرَأَ أَبُو حِيوة: ﴿وَبَشِّرُهُمْ﴾ بضم الهاء من غير همز، وهذا ابتداء قصص بعد انصرام الغرض الأول،

و«الضيف» مصدر وُصف به فهو للواحد وللثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد، قال النحاس وغيره: التقدير: عن أصحاب ضيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويغني عن هذا أن هذا المصدر عومل معاملة الأسماء، كما فعل في «رهن» ونحوه، والمراد بالضيف هنا بالملائكة الذين جاءوا لإهلاك قوم لوط وبشروا إبراهيم - عليهما السلام -، وقد تقدم قصصهم.

وقوله: ﴿سَكَنَّا﴾ مصدر منصوب بفعل مضمر تقديره: سلمنا، أو نُسَلِمَ سلاماً، والسلام هنا التحية، وقوله: ﴿سَكَنَّا﴾ حكاية قولهم، فلا يعمل القول فيه، وإنما يعلم إذا كان ما بعده ترجمة عن كلام ليس يحكي بعينه، كما تقول لمن قال: «لا إله إلا الله»، قلت: حقاً، ونحو هذا.

وقوله: ﴿إِنَّا يَنْكَحُكُمْ وَجَلُونَ﴾ أي: فزعون، وإنما وجل إبراهيم عليه السلام منهم لما قدم إليهم العجل الحنيد فلم يرههم يأكلون، وكان عندهم العلامة المؤننة أكل الطعام، وكذلك هو في غابر الدهر أُمَّتُهُ للنازل والمنزول به.

وقرأ الجمهور: ﴿وَجَلَّ﴾ مستقبل «وجل»، وقرأ الحسن بضم التاء على بناء الفعل للمفعول من «أوجل»، لأن «وجلَّ» لا يتعدى، وكانت هذه البشارة بإسحاق، وذلك بعد مولد إسماعيل بمدة، وقول إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ ليس يقتضي أنه

حينئذ وهبهما، بل قبل الحمد بكثير.

وقرأ الجمهور: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بألف استفهام، وقرأ الأعرج: ﴿بَشَّرْتُمُونِي﴾ بغير ألف، وقوله: ﴿عَلَى أَنْ مَسَّيَ﴾ أي: في حالة قد مسني الكبر فيها، وقرأ ابن محيصن: ﴿الْكَبَرُ﴾ بضم الكاف وسكون الباء، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿بَشَّرْتُمُونِي﴾ بفتح النون التي هي علامة الرفع، والفعل - على هذه القراءة - غير مُعَدَّى، وقرأ الحسن البصري: ﴿فَبَشَّرُونِي﴾ بنون مشددة وياء، وقرأ ابن كثير بشد النون دون ياء، وهذه القراءة أدغمت فيها نون العلامة في النون التي هي للمتكلم موطئة للياء، وقرأ نافع: ﴿فَبَشَّرُونِي﴾ بكسر النون، وغلط أبو حاتم نافعاً في هذه القراءة، وقال: إن شاهد الشعر في هذا اضطراب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا حمل منه، وتقدير هذه القراءة أنه حذفت النون التي للمتكلم، وكُسرت النون التي هي علامة الرفع بحسب الياء، ثم حذفت الياء للدلالة الكسرة عليها، ونحو هذا قول الشاعر - أنشده سيويه -:

تَرَاهُ كَالشَّغَامِ يَعْلُ مَسْكَاً
يَسُرُّ الْقَالِيَاتِ إِذَا قَلْبِي نِي

ومنه قول الآخر:
أَبَالْمَوْتِ الَّذِي لَا بُدَّ أُنْسِي
مُلَاقِي - لَا أَبَاكَ - تُخَوِّفِينِي؟
ومن حذف هذه النون قول الشاعر:

قَدْنِي مِنْ نَضْرِ الْخُبَيْبَيْنِ قَدِي

يريد عبدالله ومصعباً ابني الزبير، وكان عبدالله يكنى أبا خبيب. وقرأ الحسن: ﴿قَبِمَ تَبَشَّرُونَ﴾ بفتح التاء وضم الشين. وقول إبراهيم: ﴿قَبِمَ تَبَشَّرُونَ﴾ تقرير على جهة التعجب والاستبعاد لكبرهما، أو على جهة الاحتقار وقلة المبالاة بالمسرات لمضي العمر واستيلاء الكبر. قال مجاهد: عجب من كبره وكبر امرأته، وقد تقدم ذكر سنه وقت البشارة.

وقولهم: ﴿بَشَّرْتَنِكَ يَا لَحَيَّ﴾ فيه شدة ما، أي: أبشر بما بُشِّرَ به ودع غير ذلك، وقرأ جمهور الناس: ﴿الْقَنِطِينِ﴾ والقنوط: أتم اليأس، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وابن مصرف، ورويت عن أبي عمرو: ﴿الْقَنِطِينِ﴾، وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ بفتح النون في كل القرآن. وقرأ أبو عمرو، والكسائي بكسرها، وكلهم قرأ: ﴿مَنْ يَغْدِ مَا قَنَطُوا﴾ بفتح النون، ورد أبو عبيدة قراءة أهل الحرمين، وأنكر أن يقال: «قَنِط» بكسر النون، وليس كما قال، لأنهم لا يُجمعون إلا على قوي في اللغة مروى عندهم، وهي قراءة فصيحة، يقال: قَنَطَ يَقْنِطُ، وَقْنَطَ يَقْنِطُ، مثل: نَقِمَ يَقْنِطُ، وقرأ الأعمش هنا: ﴿يَقْنِطُ﴾ بكسر النون، وقرأ: ﴿مَنْ يَغْدِ مَا قَنَطُوا﴾ بكسر النون أيضاً، فقرأ باللغتين، وقرأ الأشب: ﴿يَقْنِطُ﴾ بضم النون، وهي قراءة الحسن، والأعمش أيضاً، وهي لغة تميم.

٥٧ - ٥٨ - تفسير قوله عز وجل:

القاتل هنا إبراهيم عليه السلام، وقوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ؟﴾ سؤال فيه عنف مأ، كما تقول لمن تنكر حاله: ماذا دهاك؟ وما مصيبتك؟ وأنت إنما تريد استفهاماً عن حاله فقط، لأن «الخطب» لفظة إنما تستعمل في الأمور الشداد، على أن قول إبراهيم: ﴿إِنِّي الْمُرْسَلُونَ﴾، وكونهم أيضاً قد بشروه، يقتضي أنه قد كان عرف أنهم ملائكة حين قال: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ؟﴾ فيحتمل قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ؟﴾ مع هذا أنه أضاف الخطب إليهم من حيث هم حملته إلى القوم المعذنين. أي: ما هذا الخطب الذي تحملونه؟ وإلى أي أمة؟

و «القوم المجرمون» يراد بهم أهل مدينة سدوم الذين بعث فيهم لوط عليه السلام، والمجرم: الذي يجزئ الجرائم ويرتكب المحظورات، وأصل جرم وأجرم: كَسَب، ومنه قول الشاعر:

جَرِيْمَةٌ نَاهِيْضٌ فِي رَأْسِ نَيْقٍ

أي: كَسَب عقاب في قُتَّة شامخ، ولكن اللفظة خُصَّت في عرفها بالشر، لا يقال لكاسب الأجر مجرم.

وقولهم: ﴿إِلَّا ءَالَ﴾ استثناء منقطع، و«الآل»: القوم الذين يؤول أمرهم إلى المضاف إليه، كذا قال سيويه، وهذا نص في أن لفظة «آل» ليست لفظة «أهل»، كما قال النحاس، ويجوز - على هذا - إضافة «آل» إلى الضمير وأما «أهمل» فتصغير «أهل»، واحترزوا به عن تصغير «آل»،

فرفضوا «أويلاً». وقرأ جمهور السبعة: ﴿لَمَجْرُومٌ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي بالتخفيف، والضمير في «مَجْرُومٌ» في موضع خفض بالإضافة، وانحذفت النون للمعاينة هذا قول جمهور النحويين، وقال الأخفش: الضمير في موضع نصب، وانحذفت النون لأنه لا بُد من اتصال هذا الضمير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمْرًا﴾ استثناء بعد استثناء، وهما منقطعان فيما حكى بعض النحاة، لأنهم لم يجعلوا أمرأته الكافرة من آله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، لأنها قبل الاستثناء داخله في اللفظ الذي هو «الآل»، وليس كذلك «الآل» مع المجرمين، فيظهر الاستثناء الأول منقطعاً، والثاني متصلاً، والاستثناء بعد الاستثناء يرد المستثنى الثاني في حكم الأمر الأول، ومثل بعض الناس في هذا بقولك: «عندي مائة درهم إلا عشرة دراهم» لا درهمين، فرجعت الدرهمان في حكم التسعين درهماً. وقال المبرد: ليس هذا المثال بجيد، لأنه من خلف الكلام ورده، إذ له طريق إلى أداء المعنى بأجمل من هذا التحليق، وهو أن يقول: «عندي مائة إلا ثمانية»، وإنما ينبغي أن يكون مثلاً للآية قولك: «ضربت بني تميم إلا بني دارم إلا حاجباً»، لأن «حاجباً» من بني دارم، فلما كان المستثنى الأول في ضمنه مالا يجري الحكم

عليه، والضرورة تدخله في لفظه، ولا يمكننا العبارة عنه دون ذلك الذي لا يجري الحكم عليه، اضطرت إلى استثناء ثان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونزعة المبرد في ذلك نبيلة. وقرأ جميعهم سوى عاصم في رواية أبي بكر: ﴿فَقَدْزَنَا﴾ بتشديد الذال في كل القرآن، وقرأ عاصم بتخفيفها ونقل في رواية حفص، والتخفيف يكون بمعنى الثقل، كما قال الهذلي أبو ذؤيب:

وَمُفْرِهَةٌ عَنَسٌ قَدَزْتُ لِسَاقِهَا
فَخَزْتُ كَمَا تَتَابَعُ الرِّيحُ بِالْقَفْلِ
يريد: قَدَزْتُ ضربتي لساقها، وكقول النبي ﷺ في الاستخارة: «وَأَقْدَرْ لِي الْخَيْرِ حَيْثُ كَانَ»، وَيَكُونُ أيضاً بمعنى: يَسِرُ وَوَقْفٌ، ومنه قول الشاعر:

يَقْدُزُهُمَا وَمَنْ تُقْدَزُ مَيْتُهُ
يَقْدُزُهُمَا يَرْجُمُ دُونَهُ الْخَبَرُ
وكسرت الألف من [إنها] بسبب اللام التي في قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ﴾، و«الغابر»: الباقي في الدهر وفي غيره. وقالت فرقة - منهم النحاس -: هو من الأضداد، يقال في الماضي وفي الباقي، وأما في هذه الآية فهي للبقاء، أي: من الغابرين في العذاب.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ آلُ الرُّسُلِ﴾ الآيات. تقدم القول وذكر القصص في أمر لوط، وصورة لقاء الرسل له، وقيل: إن الرسل كانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل: كانوا اثني عشر. وقوله: ﴿تُكْرَرُونَ﴾ أي لا تعرفون

أَمْضِيَاءَ وَحَتَمَنَاهُ، ثُمَّ أَدْخَلَ فِي الْكَلَامِ ﴿إِلَيْهِ﴾ مِنْ حَيْثُ أَوْحَى إِلَيْهِ ذَلِكَ وَأَعْلَمَهُ اللَّهُ بِهِ، فَجَلَبَ هَذَا الْمَعْنَى بِإِيجَازٍ، وَحَذَفَ مَا يَدُلُّ الظَّاهِرُ عَلَيْهِ. وَ﴿أَنَّ﴾ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ، قَالَ الْأَخْفَشُ: هِيَ بَدَلُ مِنْ ﴿ذَلِكَ﴾، وَقَالَ الْفَرَاءُ: التَّقْدِيرُ: «بِأَنَّ دَابِرَ» فَحَذَفَ حَرْفَ الْجَرِّ، وَالْأَوَّلُ أَصَوَّبُ.

و «الدَّابِرُ»: الَّذِي يَأْتِي فِي آخِرِ الْقَوْمِ، أَيْ فِي أَدْبَارِهِمْ، وَإِذَا قُطِعَ ذَلِكَ وَأُتِيَ عَلَيْهِ فَقَدْ أَتَى الْعَذَابُ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَهَذِهِ أَلْفَاظُ دَالَّةٌ عَلَى الْاسْتِثْصَالِ وَالْهَلَاكِ التَّامِ، يُقَالُ: «قُطِعَ اللَّهُ دَابِرَهُ»، وَاسْتَأْصَلَ شَأْنَهُ، وَ«أَسْكَتْ نَأْمَتُهُ»، بِمَعْنَى. وَ﴿مُسَيَّرِينَ﴾ مَعْنَاهُ: إِذَا أَصْبَحُوا وَدَخَلُوا فِي الصَّبَاحِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّاءُ أَقْلُ الدَّيْسَةِ يَسْتَبِيرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى وَصْفِ أَمْرِ جَرَى قَبْلَ إِعْلَامِ لُوطَ بِهَلَاكِ أُمَّتِهِ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا أَنَّ مُحَاجَّةَ لُوطَ لِقَوْمِهِ فِي الْأَضْيَافِ تَقْتَضِي ضَعْفَ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ إِهْلَاكَهُمْ وَأَنَّ الْأَضْيَافَ مَلَائِكَةٌ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿رَبَّاءُ أَقْلُ الدَّيْسَةِ﴾ بَعْدَ عِلْمِهِ بِهَلَاكِهِمْ، وَكَانَ قَوْلُهُمْ مَا يَأْتِي مِنَ الْمَحَاوَرَةِ عَلَى جِهَةِ التَّكْتُمِ عَنْهُمْ، وَالْإِمْلَاءِ لَهُمْ، وَالتَّشْرِيطِ بِهِمْ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْإِحْتِمَالُ الْأَوَّلُ عِنْدِي أَرْجَحُ، وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ آيَاتٍ غَيْرِ هَذِهِ السُّورَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿يَسْتَبِيرُونَ﴾ أَيْ: بِالْأَضْيَافِ طَمَعًا مِنْهُمْ بِالْفَاحِشَةِ، وَالضَّيْفُ مَصْدَرٌ وَصِفٌ بِهِ فَهُوَ

فَرَقَةٌ: «بِقِطْعٍ» بَفَتْحِ الطَّاءِ، حَكَاهُ مَنْذَرُ بْنُ سَعِيدٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنبَغُ أَدْبَرَهُمْ﴾ أَيْ: كُنْ خَلْفَهُمْ وَفِي سَاقِهِمْ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَا تَلْوِي. وَ«حَيْثُ» فِي مَشْهُورِهَا ظَرْفُ مَكَانٍ، وَقَالَتْ فَرَقَةٌ: أَمَرَ لُوطُ أَنْ يَسِيرَ إِلَى زُعْرٍ، وَقِيلَ: إِلَى مَوْضِعِ نَجَاةٍ غَيْرِ مَعْرُوفٍ عِنْدَنَا، وَقَالَتْ فَرَقَةٌ: «حَيْثُ» قَدْ تَكُونُ ظَرْفُ زَمَانٍ، وَأَنْشَدَ أَبُو عَلِيٍّ فِي هَذَا بَيْتَ طَرْفَةٍ: لِمَفْتَى عَقْلٍ يَعْيشُ بِهِ حَيْثُ تَهْدِي سَاقَهُ قَدَّمَهُ

كَأَنَّهُ قَالَ: مُدَّةٌ مَشْبِيهِ وَتَنْقَلُهُ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ حَيْثُ أَمَرَ أَنْ يَسِيرَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ: «حَيْثُ ثَوْرٌ»، وَنَحْنُ لَا نَجِدُ فِي الْآيَةِ أَمْرًا إِلَّا فِي قَوْلِهِ: «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» أَمَكُنْ أَنْ تَكُونَ «حَيْثُ» ظَرْفُ زَمَانٍ. وَ«يَلْتَوِي» مَاخُذٌ مِنَ الْإِنْفَاتِ الَّذِي هُوَ نَظَرُ الْعَيْنِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: الْمَعْنَى: لَا يَنْظُرُ أَحَدٌ وَرَاءَهُ، وَتُهَوِّا عَنْ النَّظَرِ مَخَافَةَ الْغَفْلَةِ وَتَعَلُّقِ النَّفْسِ بِمَنْ خَلْفَ، وَقِيلَ: بَلْ لَثَلَا تَتَفَطَّرُ قُلُوبُهُمْ مِنْ مَعَايِنَةِ مَا جَرَى عَلَى الْقَرْيَةِ فِي رَفْعِهَا وَطَرَحِهَا، وَقِيلَ: «يَلْتَوِي» مَعْنَاهُ: يَلْوِي، مِنْ قَوْلِكَ: «لَقَتُ الْأَمْرَ» إِذَا لَوَيْتَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ لِلْقَصِيدَةِ: لَفَيْتَهُ، لِأَنَّهَا مَلَوِيٌّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ.

١١٦ - ٧٧ تفسير قوله عز وجل: المعنى: وقضينا ذلك الأمر، أي:

قَالَ هُوَ لَا يَبَاقُ إِنْ كَثُرَ فَعِلَيْنَ ٧٧ لَعَنَهُمُ اللَّهُ لِيَسْخَرَهُمْ يَعْصُونَ ٧٨ فَأَخَذَهُمُ الصَّبِيحَةُ مُشْرِقِينَ ٧٩ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهُمَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِمَارًا مِنْ سَجِيلٍ ٨٠ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّلِينَ ٨١ وَإِنَّا لَنَسِيبُ الْقُسَيْفَ ٨٢ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ٨٣ وَإِنْ كَانَ أَحَبُّ الْأَتَاكِ لَطَائِلِينَ ٨٤ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِيَامَرُ مَبِينٍ ٨٥ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَحَبُّ الْأَنْجَرِ لِلرَّسُلِينَ ٨٦ وَوَالَيْتُهُمْ مَا يَلْبِثُونَ أَفَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ٨٧ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ مِنَ الْبِلَالِ يَوْمَاءَ أَمِينٍ ٨٨ فَأَخَذَهُمُ الصَّبِيحَةُ مُصْبِحِينَ ٨٩ ثُمَّ أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ٩٠ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ ٩١ الصَّبْرُ الْجَمِيلُ ٩٢ إِنْ رَبُّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ٩٣ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمُنَافَى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ٩٤ لَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ حَنَاكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ٩٥ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ٩٦ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِبِينَ ٩٧

٢٦٦

فِي هَذَا الْقَطْرِ، وَفِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ تَحْذِيرٌ، وَهُوَ مِنْ نَمَطَ ذَمُّهُ لِقَوْمِهِ، وَجَرِيهِ أَلَّا يَنْزِلَ هَوْلَاءِ الْقَوْمِ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ خَوْفًا مِنْهُ أَنْ يَظْهَرَ سُوءُ فَعْلِهِمْ وَطَلَبُهُمُ الْفَوَاحِشَ، فَقَالَتْ الرِّسْلُ لِلُّوطَ: بَلْ جِنَّاتُكَ بِمَا وَعَدَكَ اللَّهُ مِنْ تَعْذِيبِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، وَهُوَ الَّذِي كَانُوا يَشْكُونَ فِيهِ وَلَا يَحْقُقُونَهُ.

وَقَرَأَتْ فَرَقَةٌ: «فَاسْرِ» بِوَصْلِ الْأَلْفِ، وَفَرَقَةٌ بِقَطْعِهَا، يُقَالُ: سَرَى وَأَسْرَى بِمَعْنَى إِذَا سَارَ لَيْلًا، قَالَ النَّابِغَةُ:

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَازِ سَارِيَةٌ

فَجَمَعَ بَيْنَ اللَّغَتَيْنِ، وَقَرَأَ الْبِهْمَانِيُّ: «فَسِرْ بِأَهْلِكَ»، وَهَذَا الْأَمْرُ بِالسَّرَى هُوَ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى، أَيْ: يُقَالُ لَكَ، وَ«الْقِطْعُ»: الْجُزْءُ مِنَ اللَّيْلِ، وَقَرَأَتْ

يقع للواحد والجميع والمذكر والمؤنث.

وقولهم: ﴿أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْفَعَالِيْنَ﴾، روي أنهم كانوا قد تقدموا إليه في ألا يضيف أحداً ولا يجيره، لأنهم لا يراعونه ولا يكفون عن طلب الفاحشة فيه، وقرأ الأعمش: ﴿إِنْ ذَابِرٌ﴾ بكسر الهمزة، وروي أن في قراءة عبدالله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ وَقُلْنَا إِنْ ذَابِرٌ هَؤُلَاءِ﴾، وذكر السدي أنهم كانوا يفعلون الفاحشة مع الغرباء ولا يفعلونها بعضهم ببعض، فكانوا يتعرضون الطرق.

وقول لوط عليه السلام: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾، اختلف في تأويله - فقيل: أراد نساء أمته، لأن زوجات النبيين أمهات الأمم وهو أبوهن، فالنساء بناته في الحرمه، والمراد بالتزويج، ويلزم من هذا التأويل أن يكون في شرعه جواز زواج الكافر للمؤمنة، وقد ورد أن المؤمنات به قليل جداً. وقيل: إنما أراد بنات صلبه، ودعا إلى التزويج أيضاً، قاله قتادة، ويلزم هذا التأويل ما لزم المتقدم في ترتبنا. ويحتمل أن يريد عليه السلام بقوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ بنات صلبه، ويكون ذلك على طريق المجاز، وهو لا يحقق في إباحة بناته، وهذا كما تقول لإنسان تراه يريد قتل آخر: اقتلني ولا تقتله، فإنما ذلك على جهة التشنيع عليه، والاستئزال من جهة ما، واستدعاء الحياء منه، وهذا كله من مبالغة القول الذي لا يدخله معنى الكذب، بل الغرض منه مفهوم، وعليه قول النبي ﷺ: ﴿وَلَوْ

كَمَفْحَصٍ قَطَاةٍ﴾ إلى غير هذا من الأمثلة.

و «الْعُمْرُ» و «الْعُمْرُ» بفتح العين وضمها واحد، وهما عُمر الحياة ومدتها، ولا يستعمل في القَسَم إلا بالفتح، وفي هذه الآية شرف لمحمد ﷺ تعالى أقسم بحياته، ولم يفعل ذلك مع بشر سواه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والقَسَم بـ «لَعْمَرِكَ» في القرآن وبـ «لَعْمَرِي» ونحوه في أشعار العرب وفصح كلامها في غير موضع، كقوله:

لَعْمَرِي وَمَا عَمَرِي عَلَيَّ بِهَيِّينٍ
وقول الآخر:

لَعْمَرُ أَبِيكَ مَا نُسِبَ الْمُتَعَلَّى
وكقول الآخر:

لَعْمَرُكَ إِنْ الْمَوْتُ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى
لَكَالَطَوَّلِ الْمُرْخَى وَثِيئًا بِالْيَدِ
والعرب تقول: «لَعْمَرُ الله»، ومنه قول الشاعر:

إِذَا رَضِيتَ عَلَيَّ بِنَوْ قُشَيْرٍ
لَعْمَرُ الله أَعْجَبَنِي رِضَاها
وقال الأعشى:

وَلَعْمَرُ مَنْ جَعَلَ الشُّهُورَ عَلَامَةً
فِيْنَا فَبَيِّنْ نِصْفَهَا وَكَمَالَهَا
وقال بعض أصحاب المعاني: لا يجوز هذا لأنه لا يقال: لله تعالى عُمر، وإنما يقال: بقاء أزلي، ذكره الزهراوي، وكره إبراهيم الثُّعَمِي أن يقول الرجل: «لعمري»، لأنه حلف بحياة نفسه، وذلك من كلام ضعفة الرجال، ونحو هذا. وقول مالك في «لَعْمَرِي وَلَعْمَرِكَ» أنها ليست بيمين،

وقال ابن حبيب: ينبغي أن تصرف «لعمرك» في الكلام اقتداءً بهذه الآية.

و «يَمُوءُ» أي يَزْتَبِكون ويتحiron، والضمائر في «سُكْرِهِمْ» يراد بها قوم لوط المذكورون، وذكر الطبري أن المراد قريش، وهذا بعيد لأنه ينقطع مما قبله ومما بعده. وقوله: ﴿لَنْ يَمُوءَ سُكْرِهِمْ﴾ مجازٌ وتشبيه، أي: في ضلالتهم وغفلتهم عن الحق ولهوهم، و «يَمُوءُ» معناه: يترددون في حيرتهم، و «يَمُوءُ» معناه: قد دخلوا في الإشراق، وهو سطوع ضوء الشمس وظهوره، قاله ابن زيد، وهذه الصيغة هي صيغة الوجبة، وليست كصيغة نمود، وأهلكوا بعد الفجر مصبحين، واستوفاهم الهلاك مشرقين وخبر قوله: ﴿لَعْمَرُكَ﴾ محذوف تقديره: لعمرُك قسمي أو يميني، وفي هذا نظر. وقرأ ابن عباس: ﴿وَعَمْرُكَ﴾، وقرأ الأشهب العقيلي: ﴿لَفِي سُكْرَتِهِمْ﴾ بضم السين، وقرأ ابن أبي عبله: ﴿سُكْرَاتِهِمْ﴾، وقرأ الأعمش: ﴿لَفِي سُكْرِهِمْ﴾ بغير تاء، وقرأ أبو عمرو في رواية الجهضمي: ﴿أَنَّهُمْ﴾ بفتح الهمزة «في سُكْرَتِهِمْ».

وروي في معنى قوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سُلَالَةً﴾ أن جبريل عليه السلام اقتلع المدينة بجناحه ورفعها حتى سمعت ملائكة السماء صراخ الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها وأرسل الكل، فمن سقط عليه شيء من ردم المدينة مات، ومن أفلت منهم أصابته حجارة من سجيل، و «سَجِيلٌ» اسم من أسماء سماء الدنيا، وقيل:

هي لفظة فارسية، وهي الحجارة المطبوخة من الطين كالآجر ونحوه، وقد تقدم القول في هذا.

و«الْمُتَوَسِّمُونَ» قال مجاهد: المتفَرِّسون، وقال الضحاك: الناظرون، وقال قتادة: المعتبرون، وقيل غير هذا مما هو قريب منه، وهذا كله تفسير لها بالمعنى، وإنما تفسيرها باللفظ، فإن المعاني التي تكون في الإنسان وغيره من خير أو شر يلوح عليه وشم على تلك المعاني كالسكون والديانة والهيبة التي تكون عن الخير ونحو هذا، فالمتوسم هو الذي ينظر في وشم المعنى ليستدل به على المعنى، وكان معصية هؤلاء أبقت من العذاب والإهلاك وشمًا، فمن رأى الوشم استدل على المعصية به، واقتاده النظر إلى تجنب المعاصي لئلا ينزل به ما نزل بهم، ومن الشعر في هذه اللفظة قول الشاعر:

تَوَسَّسْتُهُ لَمَّا رَأَيْتُ مَهَابَةً
عَلَيْهِ وَقُلْتُ الْمَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ

وقال آخر:

وظَلَلْتُ فِيهَا وَاقِفًا أَتَوَسَّمُ

وقال آخر:

إِنِّي تَوَسَّمْتُ فِيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً

والضمير في قوله: «وَرَأَيْتَهَا» يحتمل أن يعود على المدينة المهلكة، أي: أنها في طريق ظاهر للمعتبر، وهذا تأويل مجاهد، وقاتدة، وابن زيد، ويحتمل أن يعود على الآيات، ويحتمل أن يعود على الحجارة، ويقوي هذا التأويل ما روي أن

النبي ﷺ قال: «إِنَّ حِجَارَةَ الْعَذَابِ معلقة بين السماء والأرض منذ أَلْفِي عام لعصاة أمتي».

وقوله: «أَيَّ أَمَارَةٍ» وعلمة، كما تقول: آية ما بيني وبينك كذا وكذا.

(٧٨) - (٨٦) تفسير قوله عز وجل:

«الْأَيْكَةَ»: الغنيضة والشجر الملتف المخضر، يكون السدر ونحوه، قال قتادة: زوي أن أَيْكة هؤلاء كانت من شجر الدوم، وقيل: من المقل، وقيل: من السدر، وكان هؤلاء قومًا يسكنون غُيْضَةً ويرتفقون بها في معاشهم، فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكفروا، فسلط الله عليهم الحر فدام عليهم سبعة أيام، ثم رأوا سحابة فخرجوا فاستظلوا تحتها فاضطربت عليهم ناراً، وحكى الطبري قال: بُعث شُعَيْبٌ إِلَى أُمْتَيْنِ كَفَرْنَا فَعَدَبْنَا بِعَذَابَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ: أهل مدين عذبوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة عذبوا بالظلة، ولم يختلف القراء في هذا الموضع في إدخال الألف واللام على «أَيْكة»، وأكثرهم همز ألف «أَيْكة» بعد اللام، وزوي عن بعضهم أنه سهلها ونقل حركتها إلى اللام فقرأ: «الْأَيْكَةَ» دون همز، واختلفوا في سورة الشعراء، وفي سورة ص.

و«وَرَأَى» هي المخففة من الثقيلة على مذهب البصريين، وقال الفراء: «وَرَأَى» بمعنى «ما»، واللام في قوله: «لَطَلَّيْنِ» بمعنى «إِلَّا»، قال أبو علي: الْأَيْكُ: جمع أَيْكة كثرة وتفر، ومن الشاهد على اللفظة قول أُمَيَّة بن أَبِي الصلت:

كَبَّكَ الْحَمَامَ عَلَى غُصْوِ
نِ الْأَيْكِ فِي الطَّيْرِ الْجَوَائِحِ

وقول جرير:

وَقَفْتُ بِهَا فَهَاجَ الشُّوقُ مِنِّي
حَمَامُ الْأَيْكِ يَسْعِدُهَا حَمَامُ

ومنه قول الآخر:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا غُصَارَةٌ أَيْكَةٍ
إِذَا اخْضَرَّتْ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبٌ

ومنه قول الهذلي:

مَوْشَحَةٌ بِالطَّرِيقَيْنِ دَنَا لَهَا
جَنَى أَيْكَةٍ يَضْفُرُ عَلَيْهَا قِصَارُهَا

وأشد الأصمعي:

وما خَلِيجٌ مِنْ... ذُو حَدَبٍ
يَزِيهِ الصُّعَيْدُ بِخُشْبِ الْأَيْكِ وَالضَّالِ
والضمير في قوله: «وَرَأَيْتَهَا» يحتمل أن يعود على المدينتين اللتين تقدم ذكرهما، مدينة قوم لوط، ومدينة أصحاب الأيكة، ويحتمل أن يعود على التبيين لوط وشُعيب في أنهما على طريق من الله وشرع مبين.

و«الإمام» في كلام العرب: الشيء الذي يهتدى به ويؤتم، بقولونه لخط البناء، وقد يكون الطريق، وقد يكون الكتاب المفيد، وقد يكون القياس الذي يعمل عليه الصناع، وقد يكون الرجل المُقَدِّد به، ونحو هذا، ومن رأي عود الضمير في «وَرَأَيْتَهَا» على المدينتين قال: الإمام: الطريق، وقيل على ذلك: الإمام: الكتاب الذي سبق فيه إهلاكهما.

و«أَصْحَابُ الْحَجَرِ» ثمود، وقد تقدم قصصهم، و«الْمَجَرَّ» مدينتهم، وهي ما بين المدينة وتبوك، وقال: «الْمَرْسَلَيْنِ» من حيث يجب بتكذيب



المكتسبين الدنيا الذين لم يغن عنهم اكتسابهم ليسوا في شيء، فإن السموات والأرض وجميع الأشياء لم تخلق عبثاً ولا سدى ولا لتكون طاعة الله كما فعل هؤلاء ونظراؤهم، وإنما خلقت بالحق، ولواجب مقصود وأغراض لها نهايات من عذاب ونعيم، وإن الساعة آتية على جميع أمور الدنيا، أي: فلا تهتم يا محمد بأعمال قومك، فإن الجزاء لهم بالمرصاد، فاصفح عن أعمالهم، أي: ولها صفحة عنقك بالإعراض

عنها، وأكد الصفح بفتح الجَمَالِ إذ المراد منه أن يكون لا عتب فيه ولا تعرض. وهذه الآية تقتضي مهادنة ونسختها آية السيف، قاله قتادة.

ثم سلأه في آخر الآيات بأن الله تعالى يخلق ما شاء لمن شاء، ويعلم تعالى وجه الحكمة في ذلك، لا هذه الأوثان التي تعبدونها. وقرأ جمهور الناس: ﴿الْمَلَكُ﴾ وقرأ الأعشى والجحدري: ﴿الْخَالِقُ﴾.

٨٧ - ٩٣ تفسير قوله عز وجل: قال ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود، وابن عمر، ومجاهد، وابن جبير: السبع هنا هي السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والمص، والأنفال مع براءة، وقال ابن جبير: بل السابعة يونس، وليست الأنفال وبراءة منها.

رسول واحد تكذيب الجميع، إذ القول في المعتقدات واحد للرسل أجمع، فهذه العبارة أشنع على المكذبين.

والآيات التي آتاهم الله في الناقة وما اشتملت عليه من خرق العادة حسب ما تقدم تفسيره وبسطه، وقرأ أبو حنيفة: ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتَنَا﴾ مفردة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَاؤُا يَجُوتُ﴾ الآية. يصف قوم صالح بشدة النظر للدنيا والكسب منها، فذكر من ذلك مثلاً أن بيوتهم كانوا ينحتونها في حجر من الجبال، والنحت: النقر بالمعاول ونحوها في الحجارة والعود ونحوه، وقرأ جمهور الناس بكسر الحاء، وقرأ الحسن بفتحها وذلك لأجل حرف الحلق، وهي قراءة أبي حنيفة، وقوله: ﴿ءَايِنِي﴾، قيل: معناه: من انهدامها، وقيل: من حوادث الدنيا، وقيل: من الموت لاغترارهم بطول الأعمار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف، وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة، فكانوا لا يعملون بحسبها، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها.

ومعنى ﴿مُسَيِّرِينَ﴾ أي عند دخولهم في الصباح، وذكر أن ذلك كان يوم سبت، وقد تقدم قصص عذابهم وميعادهم وتغير ألوانهم، ولم تغن عنهم شدة نظرهم للدنيا وتكسبهم شيئاً، ولا دفع عذاب الله. و[ما] الأولى للنفي، وتحتل التقرير، والثانية مصدرية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية. المراد أن هؤلاء

و﴿الْبَنَانِ﴾ - على قول هؤلاء - القرآن كله، كما قال تعالى: ﴿كِتَابًا مُنَشَّئًا مَثَائٍ﴾، وسُمي بذلك لأن القصص والأخبار تُثنى فيه وتُرَدَّد.

وقال عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس أيضاً، وابن مسعود، والحسن، وابن أبي مليكة، وعبيد بن عمير وجماعة: السبع هنا هي آيات الحمد، قال ابن عباس: هُنَّ سبع بالبسملة، وقال غيره: هُنَّ سبع دون البسملة، وزوى في هذا الحديث أبي بن كعب ونُصّه: قال أبي: قال رسول الله ﷺ: «ألا أعلمكم يا أبي سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «إني لأرجو ألا تخرج من ذلك الباب حتى تعلمها، فقام رسول الله ﷺ وقمت معه،

ويدي في يده، وجعلت أبطيء مخافة أن أخرج، فلما دنوت من المسجد قلت: يا رسول الله، السورة التي وعدتنيها؟ فقال: «كيف تقرأ إذا قُمت في الصلاة؟» قال: فقرأت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى أكملت فاتحة الكتاب، فقال: «هي هي، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيت»، كذا أو نحوه، ذكره مالك في الموطأ، وهو مروى في البخاري، ومسلم عن أبي سعيد بن المعلى أيضاً. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ «أنها السبع المثاني، وأم القرآن، وفاتحة الكتاب»، وفي كتاب الزهراوي: «وليس فيها بسملة»، و«المثاني» - على قول هؤلاء - يحتمل أن تكون القرآن، فـ ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، وقالت فرقة: بل أراد الحمد نفسها، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فـ ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس، وسميت بذلك لأنها تشنى في كل ركعة، وقيل: سميت بذلك لأنها يشنى بها على الله تبارك وتعالى، جوّزه الزجاج، وفي هذا القول من جهة التصرف نظر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سميت بذلك لأن الله تعالى استثنانا لهذه الأمة ولم يعطها لغيرها، وقال نحوه ابن أبي مليكة. وقرأت فرقة: «وَالْقُرْآنُ» بالخفض عطفاً على «الْمَثَانِي»، وقرأت فرقة: «الْقُرْآنُ» بالنصب عطفاً على قوله: ﴿سَبَّحًا﴾.

وقال زياد بن أبي مريم: المراد بقوله: ﴿سَبَّحًا﴾ أي سبع معانٍ من القرآن خولناك فيها شرف المنزل في

الدنيا والآخرة، وهي: مُز، وائنة وبَشَر، وأنزِر، واضرب الأمثال، واعدد النعم، وقُض الغيوب.

وقال أبو العالية: السبع المثاني هي أي فاتحة الكتاب، وقد نزلت هذه السورة وما نزل من السبع الطول شيء.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْنَنَّ عَيْنَكَ﴾ الآية. حكى الطبري عن سفيان بن عُيَيْنَةَ أنه قال: هذه الآية أمر بالاستغناء بكتاب الله عن جميع زينة الدنيا، وهي ناظرة إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، أي: يستغني به، فكأنه قال: ولقد آتيناك عظيماً خطيراً، فلا تنظر إلى غير ذلك من أمور الدنيا وزينتها التي متعنا بها أنواعاً من هؤلاء الكفرة، ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: «من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي فقد عظم صغيراً وصغر عظيماً»، وكأن مد العين يقترن به تَمَنُّ، ولذلك عبّر عن الميل إلى زينة الدنيا بِمَدِّ العين. و«الأزواج» هنا: الأنواع والأشياء.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: لا تتأسف لكفرهم وهلاكهم، واصرف وجهك وتحفّيك إلى من آمن بك، واخفض لهم جناحك، وهذه استعارة بمعنى: ليّن جانبك ووطىء أكنافك، و«الجناح»: الجانب والجنب، ومنه قوله: ﴿وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾، فهو أمر بالميل إليهم، والجَنُوحُ: الميل.

وقوله: ﴿وَقَدْ إِنْ أَنَا التَّذِيرُ الْبَئِثُ﴾، أي: تمسك بهذا القدر العظيم الذي

وهبتك، والكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾ متعلقة بفعل محذوف تقديره: وقل إني أنا التذير بعذاب كالذي أنزلناه على المقتسمين، والكاف اسم في موضع نصب، هذا قول المفسرين، وهو عندي غير صحيح؛ لأن ﴿كَمَا﴾ ليست مما يقوله محمد ﷺ، بل هو من قول الله تعالى له، فين فصل الكلام، وإنما يترتب هذا القول بأن يقدر أن الله تعالى قال له: تنذر عذابكم، والذي أقول في هذا: إن المعنى: وقل إني أنا نذير كما قال قبلك رسلنا، وأنزلنا عليهم كما أنزلنا عليك. ويحتمل أن يكون المعنى: وقل أنا النذير كما أنزلنا في الكتب أنك ستأتي نذيراً، وهذا على أن «الْمُقْتَسِمِينَ» أهل الكتاب.

واختلف الناس في «الْمُقْتَسِمِينَ». من هم؟ فقال ابن زيد: هم قوم صالح الذين اقتسموا بالله لئبئته وأهله، فالمقتسمون - على هذا - من القسم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقلق هذا التأويل مع قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِشِينَ﴾.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة: المقتسمون هم أهل الكتاب الذين فرقوا دينهم، وجعلوا كتاب الله أعضاء، آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وقال نحوه مجاهد.

وقالت فرقة: المقتسمون هم من كفار قريش الذين اقتسموا الطرق وقت المواسم ليعرفوا الناس بحال محمد ﷺ، وجعلوا القرآن سحراً وشعراً وكهانة، فعضوه بهذا وعضوه أعضاء بهذا التقسيم.

وقال عكرمة: المقتسمون هم قوم كانوا يستهزئون بِسُورِ القرآن، ويقول الرجل منهم: هذه السورة لي، ويقول الآخر: وهذه لي.

وقوله: ﴿عِصِينَ﴾ مفعول ثان، و﴿جَعَلُوا﴾ بمعنى «صَيَّرُوا»، أي بالستهم ودعواهم، وأظهر ما فيه أنه جمع عِصَّة، وهي الفرقة من الشيء، والجماعة من الناس كَثْبَةٌ وتُبِين، وعِزَّة وعِزِينَ، وأصلها عِصَّة وثَبُتَة، فالبناء والنون عوض من المحذوف، كما قالوا: سَنَّة وسُنُون، إذ أصلها سَنَّة. وقال ابن عباس وغيره: ﴿عِصِينَ﴾ مأخوذ من الأعضاء، أي عَصَاهُ فجعلوه أَسْماً وأَعْضَاءً، ومن ذلك قول الراجز:

وَأَيْسَ دِينَ اللَّهِ بِالْمَعْصِي

وهذا هو اختيار أبي عبيدة. وقال قتادة: ﴿عِصِينَ﴾ مأخوذ من العَصِيهِ وهو السُّبُّ المَفْحَش، فقريش عَصَبُوا كتاب الله بقولهم: هو شعر، هو سحر، هو كهانة، وهذا هو اختيار الكسائي، وقالت فرقة: ﴿عِصِينَ﴾ جمع عِصَّة، وهو اسم للسُّخْرِ خاصة بلغة قريش، ومنه قول الراجز:

لِلْمَاءِ مِنْ عِصَاتِهِمْ زِمْرَةٌ

قال هذا القول عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: العَصِيهِ: السُّخْر، وهم يقولون للساحرة: العاصِية، وفي الحديث: «لَمَنَ اللَّهُ الْعَاصِيَةُ وَالْمُسْتَفْضِيَّةُ»، وهو اختيار الفراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن قال: «جعلوه أعضاء» فإنما

أراد: قَسَمُوهُ كما يُقَسَّمُ الجزور أعضاء.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ لَنَنصَلَّهِنَّ أَجْمِينَ﴾ إلى آخر الآية، ضمير عام، ووعيد محض يأخذ كل أحد منه بحسب جرمه وعصيانه، فالكافر يُسأل عن «إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ»، وعن الرسل، وعن كفره وقصده، والمؤمن العاصي يُسأل عن تضييعه، والإمام عن رعيته، وكلُّ مكلف عما كلف القيام به، وفي هذا أحاديث.

وقال أبو العالية في تفسير هذه الآية: يسأل العباد كلهم عن خَلْتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وبماذا أجابوا المرسلين. وقال في تفسيرها أُنْسُ بن مالك، وابن عمر، ومجاهد: إن السؤال عن «إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ»، وذكره الزهراوي عن النبي ﷺ.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ لَنَنصَلَّهِنَّ أَجْمِينَ﴾ عَنَّا كَأَنَّا بِمَلَكُوتٍ، قال: يقال لهم: لِمَ عملتم كذا وكذا؟ قال: وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّكَ بِشَيْءٍ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنَّا لَنَدَّبُهُ وَنَلْفِي السَّوَالُ هُوَ نَفْيُ الاسْتِثْنَاءِ مِنَ الْمُحْضَرِّ، وإيجاب السؤال هو على جهة التقرير لهم والتوبيخ.

﴿٩٩﴾ - ﴿٩٨﴾ تفسير قوله عز وجل: «أصْدع» معناه: أنفذ وصرح بما بعث به، والصدع: التفريق بين مُلْتَحِم، كصدع الزجاجة ونحوه، فكأن المصْرَح يقول يُرْجَع إِلَيْهِ يَصْدَعُ به ما سواه مما يضاده، والصدع: الصُّبْح، لأنه يصدع الليل. وقال

مجاهد: نزلت في أن يجهر بالقرآن في الصلاة.

وفي ﴿تَوَمَّرَ﴾ ضمير عائد على [مَا]، تقديره: تَوَمَّرَ به، أو تَوَمَّرَ، وفي هذين تنازع. وقوله: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ من آيات المهادنات التي نسختها آية السيف، قاله ابن عباس، ثم أعلمه تعالى أنه كفاه المستهزئين به من كفار مكة ببوائق من الله أصابتهم، لم يسع بها محمد، ولا تكلف فيها مشقة.

وقال عروة بن الزبير، وسعيد بن جبير: المستهزئون خمسة نفر: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب أبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث، ومن خزاعة الحارث بن الطلائع، وهو ابن غيطة، وهو ابن قيس. قال أبو بكر الهذلي: قلت للزهري: إن ابن جبير، وعكرمة اختلفا في رجل من المستهزئين، فقال ابن جبير: هو الحارث بن غيطة، وقال عكرمة: هو الحارث بن قيس، فقال الزهري: صدقاً، أنه غيطة وأبوه قيس، وذكر الشعبي في المستهزئين هَبَارَ بن الأسود، وذلك وهم، لأن هَبَارَ أسلم يوم الفتح ورحل إلى المدينة. وذكر الطبري عن ابن عباس أن المستهزئين كانوا ثمانية، كلهم مات قبل بدر، وروي أن رسول الله ﷺ كان في المسجد، فأتاه جبريل، فجاز الوليد فأومأ جبريل بإصبعه إلى ساقه وقال: كُفَيْتَ، ثم جاء العاصي فأومأ إلى أخصيه وقال: كُفَيْتَ، ثم جاء أبو زمعة فأومأ إلى عينه، ثم مرَّ

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا زَكَاةُكَ فَتَمَسْكْهَا﴾ وغير قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَافِعٌ لِأَيْدِيكَ هَاجِرُونَ﴾ الآية، وأما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ مَا ظَلَمُوا﴾ فمكي في شأن هجرة الحبشة.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي أن رسول الله ﷺ لما قال جبريل عليه السلام في سرد الوحي: ﴿أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ﴾ وثب رسول الله ﷺ قائماً، فلما قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ سكن.

وقوله: ﴿أَمَرَ اللَّهُ﴾ قال فيه جمهور المفسرين: إنه يريد القيامة، وفيه وعيد للكفار، وقيل: المراد نصر محمد ﷺ، وقيل: المراد تعذيب كفار مكة بقتل محمد عليه الصلاة والسلام لهم وظهوره عليهم، ذكر نحو هذا النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: المراد فرائض الله وأحكامه في عباده وشرعه لهم، هذا قول الضحاك، ويُعبده قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، لأننا لا نعرف استعجالاً إلا ثلاثة: اثنان منها للكفار في القيامة وفي العذاب، والثالث للمؤمنين في النصر وظهور الإسلام، وقوله: ﴿أَنَّ﴾ - على هذا القول - إخبار عن إتيان ما سيأتي، وصح ذلك على جهة التأكيد، وإذا كان الخبر حقاً يؤكد المستقبل بأن يخرج في صيغة الماضي، أي كأنه لوضوحه والثقة به قد وقع، ويحسن ذلك في خبر الله تبارك وتعالى لصدق وقوعه.

وقال قوم: ﴿أَنَّ﴾ بمعنى قُرْب، وهذا نحو ما قلْتُ، وإنما يجوز

الصلاة حالة القرب من الله تعالى وهي السجود، وهي أكرم حالات الصلاة وأتمنها بنيل الرحمة، وفي الحديث: «كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَرَعَ إِلَى الصَّلَاةِ»، فهذا منه عليه الصلاة والسلام أخذ بهذه الآية.

و ﴿أَلَيْقِينَ﴾: الموت، بذلك فسره هنا ابن عمر، ومجاهد، وقتادة، والحسن، وابن زيد، ومنه قول النبي ﷺ عند موت عثمان بن مظعون: «أما هو فقد رأى اليقين»، ويرى: «فقد جاءه اليقين»، وليست اليقين من أسماء الموت، وإنما العلم به يقين لا يمتري فيه عاقل، فسمّاه هنا يقيناً تجوزاً، أي: يأتيك الأمر اليقين علمه ووقوعه، وهذه الغاية معناها: مُدَّة حياتك، ويحتمل أن يكون المعنى: حتى يأتيك اليقين في النصر الذي وعَدْتَهُ.

نجز تفسير سورة الجُحْرِ، والله الحمد والمنة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تفسير

سورة النحل

هذه السورة كانت تُسمى سورة النُعم بسبب ما عدَّد الله فيها من نعمه على عباده، وهي مكية غير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ الآية، نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة رضي الله عنه وقتلى أحد، وغير

الأسود بن عبد يغوث فأوماً إلى رأسه وقال: كفيت، ثم مرَّ الحارث فأوماً إلى بطنه وقال: كفيت، وكان الوليد قد مرَّ بَقَيْنَ في خزاعة فتعلق سهم من نبلة يلزازه فجرح ساقه، ثم برى، فانتقض به ذلك الخدش بعد إشارة جبريل عليه السلام فقتله، وقيل: إن السهم قطع أكَحَلَهُ، قاله قتادة: ومقسم. وركب العاصي بغلة في حاجة، فلما جاء ينزل وضع أخصَّه على شِبْرَةٍ، فورمت قدمه فمات، وعمي أبو زمعة، وكان يقول: دعا عليّ محمد بالعمى فاستجيب له، ودعوت عليه بأن يكون طريداً شريداً فاستجيب لي، وتمخض رأس الأسود بن عبد يغوث قيحاً فمات، وامتلاً بطن الحارث ماء فمات حيناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي ذكر هؤلاء وكفايتهم اختلاف بين الرواة، وفي صفة أحوالهم وما جرى لهم جلبت أصحُّه مختصراً طلباً للإيجاز.

ثم قرر الله تبارك وتعالى ذنبهم في الكفر، واتخاذ الأصنام آلهة مع الله، ثم توعدهم بعذاب الآخرة الذي هو أشق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّرْنَاكَ بِبَيْعِ مَدْرَكٍ بِمَا يَقُولُونَ﴾ آية تأنيس للنبي ﷺ وتسلية عن أقوال المشركين وإن كانت مما يعلق، وضيق الصدر يكون من امتلانه غيظاً بما يكره الإنسان، ثم أمر تعالى بملازمة الطاعة، وأن تكون مَسَلَّاته عند الهموم. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يريد: من المصلين، فذكر من

فقال مجاهد: الروح: النبوة، وقال ابن عباس: الوحي، وقال قتادة: بالرحمة والوحي، وقال الربيع بن أنس: كل كلام الله روح، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾، وقال ابن جريج: الروح: شخص له صورة كصورة بني آدم، ما نزل جبريل قط إلا وهو معه، وهم كثير، وهم ملائكة. وهذا قول ضعيف لم يأت به سند، وقال الزجاج: الروح: ما تحيا به القلوب من هداية الله تعالى لها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن، وكأن اللفظة على جهة التشبيه بالمقايسة، أي: إن هذا الذي أمر الأنبياء أن يندروا به الناس من الدعاء إلى التوحيد هو بالمقايسة إلى الأوامر التي هي في الأفعال والعبادات كالروح للجسد، ألا ترى قوله تعالى: ﴿أَوَّ مِنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾، و﴿مَنْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ - على هذا التأويل الذي قدرناه - للتبعيض، وعلى سائر الأقوال لبيان الجنس. و﴿مَنْ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ هي للأنبياء، و﴿أَنْ﴾ في موضع خفض بدل من [الرُّوح]، ويصح أن تكون في موضع نصب بإسقاط الخافض، على تقدير: بأن أنذروا، ويحتمل أن تكون مفسرة بمعنى «أي». وقرأ الأعمش: ﴿يُنْذِرُوا﴾، وحسنت النذارة هنا وإن لم يكن في اللفظ ما فيه خوف من حيث كان المُنْذَرُونَ كافرين بالألوهية، ففي ضمن أمرهم مكان خوف، وفي ضمن الإخبار بالوحدانية نهي عما كانوا عليه ووعيد.

فلما لم يروا شيئاً عادوا، فنزلت ﴿اقْرَبْ لِلنَّاسِ حِكْمَهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَغْرُوسُونَ﴾، فقالوا مثل ذلك، ثم عادوا فنزلت ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْمَدَدَاتِ إِلَهُ أَنتُمْ مَعْدُودُونَ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْكُمُهُ إِنَّهُ الْآيَةُ. وقال أبو بكر بن حفص: لما نزلت ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ﴾ رفعوا رؤوسهم فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وحكى الطبري عن أبي صادق أنه قرأ: ﴿يا عبادي أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾، و﴿سُبْحَنَهُ﴾ نصب على المصدر، أي: تنزيهاً له.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يُنْزِلُ أَلَلَّتِكَةً﴾ بالياء وشذ الزاي، ورجحها الطبري لما فيها من التكثير، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بتخفيف الزاي مكسورة وسكون النون، وقرأ ابن أبي عبله بالنون للعظمة وشذ الزاي، وقرأ قتادة بالنون وتخفيف الزاي وسكون النون، وفي هذه والتي قبلها شذوذ كثير، وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿تُنْزِلُ﴾ بضم التاء وفتح النون والزاي وشدها ورفع ﴿أَلَلَّتِكَةً﴾ على ما لم يُسَمَّ فاعله، وهي قراءة الأعمش، وقرأ الجحدري بالياء مضمومة وسكون النون وفتح الزاي، وقرأ الحسن، وأبو العالية، وعاصم، والجحدري، والأعرج بفتح التاء ورفع ﴿أَلَلَّتِكَةً﴾ على أنها فاعلة، ورواها المفضل عن عاصم، و﴿أَلَلَّتِكَةً﴾ ها هنا جبريل عليه السلام.

واختلف المتأولون في «الرُّوح» -

الكلام بهذا عندي لمن يعلم قرينة التأكيد ويفهم المجاز، وأما إن كان المخاطب لا يفهم القرينة فلا يجوز وضع الماضي موضع المستقبل، لأن ذلك يفسد الخبر ويوجب الكذب، وإنما جاز في الشرط لوضوح القرينة بـ (إن)، ومن قال: ﴿إِنَّ أَمْرَ الْقِيَامَةِ﴾ قال: إن قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ردٌ على القائلين: ﴿عَجَلْنَا قُلُوبَنَا وَنَحْوَهُ مِنَ الْعَذَابِ، أَوْ عَلَى مُسْتَبْطِئِي النَّصْرِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ بِالتَّاءِ - وهي قراءة الجمهور - على مخاطبة المؤمنين، أَوْ عَلَى مُخَاطَبَةِ الْكَافِرِينَ، بمعنى: قُلْ لَهُمْ: فلا تستعجلوه. وقرأ سعيد بن جبير بالياء على غيبة المشركين، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿تُنْشِرُكُونَ﴾ بالتاء من فوق، وجميع الباقيين قرءوا بالياء، ورجح الطبري القراءة بالتاء من فوق في الحرفين، قال أبو حاتم: قرأ ﴿يُنْزِلُكُونَ﴾ بالياء من تحت في هذه والتي بعدها الأعرج، وأبو جعفر، ونافع، وأبو عمرو، وابن نضاح، والحسن، وأبو رجاء، وقرأ عيسى الأولى بالتاء من فوق، والثانية بالياء من أسفل، وقرأهما جميعاً بالتاء من فوق أبو العالية، وطلحة، والأعمش، وأبو عبد الرحمن، ويحيى بن وثاب، والجحدري، وقد روي الأصمعي عن نافع التاء في الأولى.

وقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى﴾ معناه: تنزيهاً له، وحكى الطبري عن ابن جريج قال: لما نزلت ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ﴾ فلا تستعجلوه، قال رجال من الكفار: إن هذا يزعم أن أمر الله قد أتى، فأمسكوا عما أنتم بسبيله حتى ننظر،

و «الْمَنَافِعُ»: ألبانها وما تصرف منها، ودهونها وحرثها والنضج عليها، وغير ذلك، ثم ذكر «الْأَكْلُ» الذي هو من جميعها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: في النظر، ﴿حِينَ تَرِيحُونَ﴾ معناه: حين تردونها وقت الرواح إلى المنازل فتأتي بطاء متلثة الضروع، و «تَرِيحُونَ» معناه: تخرجونها غدوة إلى السرح، تقول: «سَرَحْتُ السائمة» إذا أرسلتها تسرح، فسرخت هي، كَرَجَعَ وَرَجَعْتُه، وهذا الجمال لمالكها ولْمُجَبِّيه وعلى حسدته، وهذا في المعنى كقوله تعالى: ﴿الْأَنْثَىٰ وَالْبُنَىٰ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وقرأ عكرمة، والضحاك: ﴿حِينًا تَرِيحُونَ وَحِينًا تَسْرَحُونَ﴾، وقرأت فرقة: ﴿حِينًا تَرِيحُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي ضعيفة، وأظنها تصحيفاً.

و «الْأَنْثَىٰ»: الأمتعة، وقيل: المراد هنا الأجسام، كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْثَىٰهَا وَنَذَرَتْ﴾، أي بني آدم، واللفظ يحتمل المعنيين، قال النقاش: ومنه سُمِّيَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ الثَّقَلَانِ. وقوله: ﴿إِنْ يَكُذِّبْ﴾ أي: إلى أي بلد توجهتم بحسب اختلاف أغراض الناس، وقال عكرمة، وابن عباس، والربيع بن أنس: المراد مكة، وفي الآية - على هذا - حُضُّ مَا عَلَى الْحَجِّ. و «الشَّقُّ»: المشقة، ومنه قول الشاعر:

وذي إبل يسئى ويخسبها له
أخي نَصَبٍ مِنْ شِقِّهَا ودُوبٍ

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ يراد بالإنسان الجنس، وأخذ له الغائتين ليظهر البعد بينهما بقدرة الله، ورُوي أن الآية نزلت لقول أبي بن خلف: «مَنْ يُخَيِّ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ» وقوله: ﴿حَصْبَةً﴾ يحتمل أن يريد به الكفرة الذين يختصمون في الله، ويجادلون في توحيدِهِ وشرعه، ذكره ابن سلام عن الحسن البصري، ويحتمل أن يريد أعم من هذا، على أن الآية تعديد نعمة الذهن والبيان

على البشر، ويظهر أنها إذ تقرر في خصام الكافرين ينضاف إلى العبرة وعيد ما.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

﴿الْأَنْثَىٰ﴾: الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقال: نَعَمَ وَأَنْعَامٌ لِلإِبِلِ، ويقال للجموع، ولا يقال للغنم مفردة، ونصبها إما عطفاً على ﴿الْإِنْسَانِ﴾، وإما بفعل مقدر، وهو أَوْجَه.

و «الدَّفءُ»: السخانة وذهاب البرد بالأكسية، وذكر النحاس عن الأموي قال: الدَّفءُ في لغة بعضهم: تناسل الإبل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نسل كل شيء، والمعنى الأول هو الصحيح. وقرأ الزهري، وأبو جعفر: «دَف» بضم الفاء وشدها وتوניהا.

وَيَخْلُقُ أَنْثَى الْكَلْبِ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُنْ تُدْرِكُ أَبْصَارَهُ إِلَّا يَسْبِقُ الْإِنْفِيسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَمَوْفٍ رَءِيسٌ ۝ وَالْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَالْحِمِيرَ لَنَظَرُكُمْ هَاهُنَا ذَرِينَةٌ وَمِنْ هَاجِرٍ مَا لَا قَبْلُكُمْ ۝ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الرِّزْقَ وَارْتَمَوْا وَالْخَيْلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ أَنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَكَادَرَأَى الْكُفَّاءُ فِي الْأَرْضِ مُخْلِفاً لَوَدَّ أَنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَكُمْ لَآكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَ الْكَبِيرَ مُوَاجِهَهُ ۝ وَلَسْتَبْتُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝

٢٦٨

ثم ذكر تعالى ما يقال للأنبياء بالوحي على المعنى، ولم يذكره على لفظه، لأنه لو ذكره على اللفظ لقال: أَنْ أَنْذَرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ولكنه إنما ذكر ذلك على معناه، وهذا شائع في كل الأقوال إذا حكيت أن تحكى على لفظها، أو تحكى بالمعنى فقط.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَالْأَرْضَ﴾ آية تنبيه على قدرة الله تعالى، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالواجب اللائق، وذلك أنها تدل على صفات يحق لمن كانت له أن يخلق ويخترع ويعيد، وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة النافذة، بخلاف شركائهم الذين لا يحق لهم شيء من صفات الربوبية. وقرأ الأعمش بزيادة فاء: ﴿فَتَقَالَى﴾.

أي: من مشقتها. ويقال فيها: شِقْ وشِقْ، أي: مَشَقَّة، وقرأ أبو جعفر القاري، وعمرو بن ميمون، وابن أرقم، ومجاهد، والأعرج: ﴿بَشِقْ﴾ بفتح الشين، ورويت عن نافع، وأبي عمرو، وذهب الفراء إلى أن معنى ﴿بَشِقْ أَلْتَشِينُ﴾ أي: بذهاب نصفها، كأنها قد ذابت تعباً ونصباً، كما تقول لرجل: لا تَقْدُرْ على كذا إلا بذهاب جُلِّ نفسك، وبقطعة من كبد لك، ونحو هذا من المجاز، وذهبوا في فتح الشين إلى أنه مصدر: شَقَّ يَشُقُّ. ثم أوجب الله رأفته ورحمته في هذه النعم التي أذهبت المشقات ورفعت الكلف.

وقوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلِ وَالْإِبِلِ وَالْحِمِيرِ﴾ عطف، أي: وخُلِقَ الخيل، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿وَالْخَيْلِ وَالْإِبِلِ وَالْحِمِيرِ﴾ بالرفع في كلها، وسميت الخيل خيلاً لاختيالها في المشية، أفهمه أعرابي لأبي عمرو بن العلاء. وقوله: ﴿وَزَيْتَةٍ﴾ نصبت بإضمار فعل تقديره: «وجعلناها زيتة»، وقرأ أبو عياض: ﴿لَتَزَكُّوْهَا زَيْتَةً﴾ دون واو، والنصب حينئذ على الحال من الهاء في ﴿تَزَكُّوْهَا﴾. وقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَحْكُمُونَ﴾ عبرة منصوبة على العموم، أي أن مخلوقات الله تعالى من الحيوان وغيره لا يحيط بعلمها بشر، بل ما يخفى عنه أكثر مما يعلم وقد روي أن الله تعالى خلق ألف نوع من الحيوان، منها في البر أربعمائة، وبشها بأعيانها في البحر، وزاد فيه مائتين ليستا في البر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكل من خصص في هذه الآية شيئاً - كقول من قال: سوس الثياب وغير ذلك - فإنما هو على جهة المثال، لا أن ما ذكره هو المقصود في نفسه، وقال الطبري: ﴿مَا لَا تَحْكُمُونَ﴾ هو ما أعد في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها، مما لم تره عين، ولا سمعته أذن، ولا خطر على قلب بشر. واحتج بهذه الآية مالك ومن ذهب مذهبه في كراهية لحوم الخيل والبغال والحمير وتحريمها بحسب الاختلاف في ذلك، وذكره الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن جبير: سئل ابن عباس عن لحوم الخيل والبغال والحمير فكرهها واحتج بهذه الآية، وقال: جعل الله الأنعام للأكل وهذه للركوب، وكان الحكم بن عيينة يقول: الخيل والبغال والحمير حرام في كتاب الله تعالى، ويحتج بهذه الآية، وهذه الحجة غير لازمة عند جماعة من العلماء، قالوا: إنما ذكر الله تعالى عظم منافع الأنعام، وذكر عظم منافع هذه وأهم ما فيها، وليس يقضي ذلك بأن ما ذكره لهذه لا تدخل هذه فيه، قال الطبري: وفي إجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأكل دليل على جواز أكل ما ذكر للركوب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، ولحوم الخيل عند كثير من العلماء حلال، وفي جواز أكلها حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، وحديث جابر بن عبدالله: «كنا نأكل الخيل في عهد النبي عليه الصلاة والسلام» والبغال

والحمير مكروهة عند الجمهور، وهو تحقيق مذهب مالك رحمه الله، وحجة من ألحق الخيل بالبغال والحمير في الكراهية القياس، إذ قد تشابهت وفارقت الأنعام في أنها لا تَجُزُّ، وأنها ذات حوافر، وأنها لا أكراش لها، وأنها متداخلة في النسل، إذ البغال بين الخيل والحمير، فهذا من جهة النظر، وأما من جهة الشرع فإنها قرنت في هذه الآية وأسقطت الزكاة فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ الآية. هذه أيضاً من أجل نعم الله تبارك وتعالى، أي: على الله تقويم طريق الهدى وتبيينه، وذلك يَضُبُّ الأدلة ويبعث الرسل، وإلى هذا ذهب المتأولون، ويحتمل أن يكون المعنى: إن من سلك السبيل القاصد فعلى الله رحمته ونعيمة وطريقه، وإلى ذلك مصيره، فيكون هذا مثل قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وقول النبي ﷺ: «والشُّرُّ ليس إليك»، أي: لا يُفْضَى إلى رحمتك، «وطريقٌ قاصدٌ» معناه: بين مستقيم قريب، ومنه قول الرازي:

فَصَدَّ عَنْ نَهْجِ الطَّرِيقِ الْقَاصِدِ
وَالْأَلْفِ وَالسَّلَامِ فِي «السَّبِيلِ»
للعهد، وهي سبيل الشرع، وليست للجنس، ولو كانت للجنس لم يكن فيها جائز.

قوله: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ يريد طريق اليهود والنصارى وغيرهم كعباد الأصنام، والضمير في «مِنْهَا» يعود على «السَّبِيلِ» التي يتضمنها معنى

الآية، كأنه قال: «ومن السُّبُل جائر»، فأعاد عليها وإن كان لم يجز لها ذكر لتَضْمُن لفظة [السُّبُل] بالمعنى لها، ويحتمل أن يعود الضمير في «يُنْهَا» على سبيل الشرع المذكورة، وتكون [من] للتبعيض، ويكون المراد فِرْق الضلالة من أمة محمد ﷺ، كأنه قال: «ومن بُنَيَات الطريق في هذه السبيل ومن شُعْبها جائر».

وقوله: «وَلَوْ سَاءَ لَهْدَنكُمْ أَجْمِينَ» معناه: لَخَلَق الهداية في قلوب جميعكم ولم يضل أحد، وقال الزجاج: معناه: لو شاء لمرض عليكم آية تضطركم إلى الإيمان والاهتداء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول سوء لأهل البدع الذين يرون الله لا يخلق أفعال العباد لم يُحصِله الزواج، ووقع فيه رحمة الله عليه من غير قصد، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: «ومنكم جائر»، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «فمنكم جائر»، والسبيل تَذَكَّر وتَوَثَّن.

(١٠) - (١١) تفسير قوله عز وجل:

هذا تعديد نعمة الله في المطر، وقوله: «وَمِنْهُ شَجَرٌ» أي: يكون منه بالتدرج، إذ يسقي الأرض فينبت عن هذا السقي الشجر، وهذا من التَّجَوُّز، كما قال الشاعر:

أَسْنِمَةُ الْآبَالِ فِي رَبَابَةٍ
وكما سُمِّيَ الْآخِرُ الْغَيْثُ سَمَاءً فِي
قوله:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ
رَعَيْنَاءَ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا

قال أبو إسحق: يقال لكل ما ينبت على الأرض: شَجَرٌ، وقال عكرمة: لا تأكلوا ثمر الشجر فإنه مسحت، يعني الكلاً.

و «ثِيْمُونَ» معناه: ترعون أنعامكم، وسؤمها من الرعي، وتسرحونها، ويقال للأنعام: السائمة، قال رسول الله ﷺ: «في سائمة الغنم الزكاة»، يقال: أسام الرجل ماشيته إسماءً إذا أرسلها ترعى، وسؤمها أيضاً فسامت هي، ومن ذلك قول الأعشى:

وَمَشَى الْقَوْمُ بِالْعِمَادِ إِلَى الرُّزْ
حَى، وَأَغْيَا الْمُسِيمُ أَتَيْنَ الْمَسَاقُ
ومنه قول الآخر:

مِثْلُ ابْنِ بَزْعَةَ أَوْ كَاخَرَ مِثْلِهِ
أَوَّلَى لَكَ ابْنُ مُسَيْمَةَ الْأَجْمَالِ
أي: راعية الأجمال. وفسر المتأولون «ثِيْمُونَ» بـ «تَرْعُونَ».

وقرأ الجمهور: «ثِيْبَتْ» بالياء، على معنى: ثُيِبَتِ الله، يقال: نبت الشجر وأنبته الله، ويقال: أنبت الشجر بمعنى ثَبَّتْ، وكان الأصمعي يأبي ذلك ويتهم قصيدة زهير التي فيها:

.....

... خَشَى إِذَا أَنْبَتَ الْبَقْلُ
وقرأ أبو بكر عن عاصم: «ثُيْبَتْ» بنون العظمة، وخَصَّ عَزَّ وَجَلَّ ذكر هذه الأربعة لأنها أشرف ما يَنْبُتُ وأجمعها للمنافع، ثم عمَّ بقوله: «وَمِنْ كُلِّ الثَّوَرَاتِ»، ثم أحال القول على الفكرة في تصارييف النبات والأشجار، وهي موضع عبرة في ألوانها واطرد خلقها وتناسب ألوانها فسيحان الخلاق العظيم.

وقوله تعالى: «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ» الآية. قرأ الجمهور بإعمال «وَسَخَّرَ» في جميع ما ذكر، ونصب «مُسَخَّرَاتٍ» على الحال المؤكدة، كما قال تعالى: «وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا»، وكما قال الشاعر:

أَنَا أَبْنَى دَارَةً مَعْرُوفاً بِهَا نَسِي

.....

ونحو هذا، وقرأ ابن عامر: «وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ» برفع هذا كله، وقرأ حفص عن عاصم: «وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ» بالرفع، ونصب ما قبل ذلك، والمعنى في هذه الآية أن هذه المخلوقات مُسَخَّرَاتٌ على رتبة قد استمر بها انتفاع البشر من السكون بالليل والمعاش وغير ذلك بالنهار، وأما منافع الشمس والقمر فأكثر من أن تُحصى، وأما النجوم فهدايات، ولهذا الوجه اعتدت في جملة النعم على بني آدم، ومن النعمة بها ضيائها أحياناً، قال الزجاج: وعلم عدد السنين والحساب بها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر.

وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وطلحة بن مصرف: «وَالرِّيَّاحُ مُسَخَّرَاتٌ» في موضع «والنجوم». ثم قال: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ» لعظم الأمر، لأن كل واحد مما ذكر آية في نفسه لا يشترك مع الآخر، وقال في الآية قَبْلُ: [لَآيَةً] لأن شيئاً واحداً يعم تلك الأربعة وهو النبات، وكذلك في ذكر ما ذُكِرَ لِإِسَارَتِهِ بالإضافة، وأيضاً فإنه بمعنى «آيات»، واحد يراد به الجمع.

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاكِبًا أَنْ يَمْلِكَ بِكُمْ وَاتَّخِذُوا سُبُلًا
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ الْبُحْرَانُ أَنْ يَسْبِقْنَ
أَنْفُسَهُنَّ يَخْلُقْنَ كَيْفَ تَخْفَى ﴿١٦﴾ وَأَنْفُسُ الْفُجَّارِ لَكُمْ
شُرَكَاءُ فَاتَّبِعُوهُمْ يَكُونُوا لَكُمْ رُحْمًا يُعْتَبَرُونَ ﴿١٧﴾
وَأَلَّهِ الْأَمْرُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْزُّجُرْجِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٨﴾ أَمْ لَهُمْ
أَعْيُنٌ يَأْتِيهِمْ أَفْئَاتُ الْغَيْبِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ يَخْلُقْ اللَّهُ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرٌ وَهُمْ
سُتُورٌ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ يَخْلُقْ اللَّهُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِآيَاتِهِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرٌ وَهُمْ
سُتُورٌ ﴿٢١﴾ أَلَمْ يَخْلُقْ اللَّهُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِآيَاتِهِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرٌ وَهُمْ
سُتُورٌ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ يَخْلُقْ اللَّهُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِآيَاتِهِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرٌ وَهُمْ
سُتُورٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ يَخْلُقْ اللَّهُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِآيَاتِهِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرٌ وَهُمْ
سُتُورٌ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ يَخْلُقْ اللَّهُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِآيَاتِهِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرٌ وَهُمْ
سُتُورٌ ﴿٢٥﴾

وصف بريقها ومائتيها
فشبهه بماء الفرات، ولم
يذهب إلى الغرض الذي
خُطئ فيه. واللحم
الطري: السمك،
والحلية: ما تقدم،
والفلك: هنا جمع،
ومواخر: جمع
ماخرة، والمخر: في
اللغة الصوت الذي يكون
من هبوب الريح على
شيء يشق، أو يصحب
في الجملة الماء، فيترتب
منه أن يكون المخر: من
الريح، وأن يكون من
السفينة ونحوها، وهو في
هذه الآية من السفن،

ويقال للسحاب: «بَنَاتُ مَخْر»
تشبيهاً، إذ في جريها ذلك الصوت
الذي هو عن الريح، والماء الذي في
السحاب وأمرها يشبه أمر البحر،
على أن الزجاج قد قال: «بَنَاتُ
الْبَحْرِ»: سحاب بيض لا ماء فيها،
وقال بعض اللغويين: المخر في
كلام العرب: الشق، يقال: مخر
الماء في الأرض، فهذا بين أن يقال
فيه للفلك: مواخر، وقال قوم:
«مواخر» معناه: تجمد وتذهب
بريح واحدة، وهذه الأقوال ليست
تفسيراً للفظ، وإنما أرادوا بها أنها
مواخر لهذه الأحوال، فنصروا على
هذه الأحوال؛ إذ هي موضع النعم
المعدودة؛ إذ نفس كون الفلك
ماخرة لا نعمة فيه، وإنما النعمة في
مخرها بهذه الأحوال في التجارات،
والسفر فيها، وما يمنح الله فيها من

﴿١٣﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:
﴿وَمَا ذَرَأَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾
معناه: بث ونشر، والذرية: من هذا
أحد الأقوال في اشتقاقها، وقوله:
﴿الزُّجُرْجِ﴾ معناه: أصنافه، كما تقول:
هذه ألوان من الثمر ومن الطعام،
ومن حيث كانت هذه المبتوثات في
الأرض أصنافاً عذت في النعمة،
وظهر الانتفاع بها أنه على وجوه،
ولا يظهر ذلك من حيث هي متلونة
حُمْرة وصفرة وغير ذلك، ويحتمل
أن يكون التنبيه على اختلاف الألوان
حِمْرة وصفرة، والأول أثبت.
وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي سَخَّرَ
الْبَحْرَ﴾ الآية، تعديد نعم الله،
وتسخير البحر هو تمكين البشر من
التصرف فيه، وتذليله للركوب
والأفراد وغيره.

والبحر: الماء الكثير ملحاً كان أو
عذباً، كله يسمى بحراً، والبحر هنا
اسم جنس، وإذا كان كذلك فمنه
أكل اللحم الطري، ومنه استخراج
الحلية، وأكل اللحم يكون من ملحه
وعذبه، وإخراج الحلية إنما هو -
فيما عرف - من الملح فقط، ومما
عُرف من ذلك اللؤلؤ والمرجان
والصدف البحري، وقد يوجد في
العذب لؤلؤ لا يلبس إلا قليلاً، وإنما
يُتداوى به، ويقال: إن في الزمرد
بحرياً، وقد خُطئ الهذلي في قوله
في وصف الدرّة:

فَجَاءَ بِهَا مِنْ دُرَّةٍ لَطِيفَةٍ
عَلَى وَجْهِهَا مَاءُ الْفَرَاتِ يَمْوجُ
فجعلها من الماء الحلو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وتأمل قوله: «يموج» على أنه أراد

الأرياح واليمن، وقال الطبري:
«المخر» في اللغة: صوت هبوب
الريح، ولم يقيد ذلك بكونه في ماء،
وقال: إن من ذلك قول واصل مولى
أبي عبيدة، إذا أراد أحدكم البول
قلبت مخر الريح، أي: لينظر في
صوتها في الأجسام من أين تهب
فيتجنب استقبالها لئلا ترد عليه بوله.

وقوله: ﴿وَلَسَبْتَنَاهُ﴾ عطف على
قوله: ﴿تَأْكُلُوا﴾، وهذا ذكر نعمة لها
تفاصيل لا تخصي، وفيه ركوب
البحر للتجارة وطلب الأرياح، فهذه
ثلاثة أسباب في تسخير البحر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ﴾
الآية. قال المتأولون: «ألقى»
بمعنى خلق وجعل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهي عندي أخض من خلق وجعل،
وذلك أن ألقى تقتضي أن الله أحدث

الجبال ليس من الأرض، لكن من قدرته واختراعه، ويؤيد هذا النظر ما روي في القصص عن الحسن عن قيس بن عباد أن الله تعالى لما خلق الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحت ضحى وفيها رواسيها، والرواسي: الثوابت، رسا الشيء يرسو إذا ثبت، ومنه قول الشاعر في وصف الوتد:

.....
وَأَشْعَثُ تُرْسِيهِ الْوَلِيدَةُ بِأَلْفِهَرٍ
و [أَنْ] مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ،
وَالْمَيْدُ: الاضطراب، وقوله:
﴿أَنْهَكَ﴾ منصوب بفعل مضمر،
تقديره: وجعل أو خلق أنهاراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإجماعهم على إضمار هذا الفعل دليل على خصوص ﴿الْفَيِّ﴾، ولو كان ﴿الْفَيِّ﴾ بمعنى «خَلَقَ» لم يحتاج إلى الإضمار. و«السُّبُلُ»: الطرق، وقوله: ﴿لَتَلَكَّنَّ تَهْتَدُونَ﴾ يحتمل أن يكون: لعلكم تهتدون في مشيكم وتصرفكم في السُّبُل، ويحتمل لعلكم تهتدون بالنظر في دلالة هذه المصنوعات على صانعها، وهذا التأويل هو البارع، أي: سخر وألقى وجعل أنهاراً وسُبُلًا لعلَّ البشر يعتبرون ويرشدون، ولتكون علامات.

١٦ - ١٧ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَعَلَّمَكَ﴾ نصب على المصدر، أي: فعل هذه الأشياء لعلكم تعتبرون بها، وعلامات، أي عبرة وإعلاماً في كل سلوك، فقد يهتدى بالجبال والأنهار والسُّبُل، واختلف

الناس في معنى قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ على أن الأظهر عندي ما ذكرت - فقال ابن الكلبي: العلامات: الجبال، وقال إبراهيم النخعي ومجاهد: العلامات: النجوم، منها ما سُمي علامات، ومنها ما يهتدى بها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العلامات: معالم الطرق بالنهار، والنجوم هداية بالليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الصواب - إذا قدرنا الكلام غير معلق بما قبله - أن اللفظة تعم هذا وغيره، وذلك أن كل ما دلَّ على شيء أو علم به فهو علامة، وأحسن الأقوال المذكورة قول ابن عباس رضي الله عنهما لأنه عموم بالمعنى فتأمله، وحدثني أبي رحمه الله أنه سمع بعض أهل العلم بالمشرق يقول: إن في بحر الهند الذي يجري فيه من اليمن إلى الهند حيتاناً طوالاً رفاقاً كالحيات في ألوانها وحركاتها والتواتها، وأنها تُسمى العلامات، وذلك أنها علامة الوصول إلى بلاد الهند، وأمانة النجاة والانتها إلى الهند لطول ذلك البحر وصعوبته، وأن بعض الناس قال: إنها التي أراد الله تعالى في هذه الآية، قال أبي رضي الله عنه: وأنا ممن شاهد تلك العلامات في البحر المذكور وعابنها، فحدثني منهم عدد كثير.

وقرأ الجمهور: ﴿وَيَا نَجْمَ﴾ على أنه اسم الجنس، وقرأ يحيى ابن وثاب: ﴿وَيَا النُّجْمَ﴾ بضم النون وإسكان النجم على التخفيف من ضمها، وقرأ الحسن بضمهما،

وذلك جمع، كسُفِّ وسُفِّ، وزَمَن وزَمَن، ويحتمل أن يراد به النجوم، فحذف الواو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي توجيه ضعيف.

وقال الفراء: المراد الجذئي والفرقدان، وقال غيره: المراد القطب الذي لا يجري، وقال قوم غير هذا، وقال قوم: هو اسم الجنس، وهذا هو الصواب.

ثم قرره تعالى على التفرقة بين ما يخلق الأُمَيَّة ويخترعها وبين من لا يقدر على شيء من ذلك، وعبر عن الأصنام بـ [مَنْ] لوجهين: أحدهما أن الآية تضمنت الرَّد على جميع من عبد غير الله، وقد عبدت طوائف ممن تقع عليه العبارة بـ [مَنْ]، والآخر أن العبارة جرت في الأصنام بحسب اعتقاد الكفرة فيها من أن لها تأثيراً وأفعالاً، ثم ويختم بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدُّوا يَمَنَّا﴾ لا تُحْصَوْنَ، أي: إن حاولتم إحصاءها عدداً حتى لا يشذ منها شيء لم تقدرُوا على ذلك، ولا اتفق لكم إحصاؤها؛ إذ هي في كل دقيقة من أحوالكم، و«الْغَنَمَةُ» هنا مفردة يراد بها الجمع، وبحسب المعجز عن عدد نعم الله تبارك وتعالى يلزم أن يكون الشكر لها مقصراً عن بعضها، فلذلك قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَفْعُورٌ رَجِيءٌ﴾ أي تقصيركم في الشكر عن جميعها، نحا هذا المنحى الطبري، ويرد عليه أن نعمة الله في قول العبد: «الحمد لله ربِّ الْعَالَمِينَ» مع شرطها من النية

والطاعة يوازي جميع النعم، ولكن أين قولها بشروطها؟ والمخاطبة: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ عامة لجميع الناس.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَتْلُو مَا تَشْرُونَ وَمَا تُمْلُونَ﴾ الآية متصل بما قبله، أي: إن الله الغفور الرحيم في تقصيركم عن شكر ما لا تحصونه من نعم الله، وإن الله تعالى يعلم سرركم وغلنكم، فيغني ذلك عن التزامكم بشكر كل نعمة، هذا على قراءة من قرأ: ﴿تَسْرُونَ﴾ بالثاء مخاطبة للمؤمنين، فإن جمهور القراء قرأ: ﴿تَسْرُونَ﴾ بالثاء من فوق، و﴿تُمْلُونَ﴾ و﴿تَذْهَبُونَ﴾ كذلك، وهي قراءة الأعرج، وشيبة، وأبو جعفر، ومجاهد، على معنى: قل يا محمد للكفار. وقرأ عاصم: ﴿تَسْرُونَ﴾ و﴿تُمْلُونَ﴾ بالثاء من فوق، و﴿تَذْهَبُونَ﴾ بالياء من تحت على غيبة الكفار، وهي قراءة الحسن بن أبي الحسن، وروى هيرة عن حفص عن عاصم كل ذلك بالياء على غيبة الكفار، وروى عن الكسائي، وأبي بكر عن عاصم كل ذلك بالثاء من فوق، وقرأ الأعمش وأصحاب عبدالله: ﴿يَعْلَمُ الَّذِي تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ و﴿تَذْهَبُونَ﴾ بالثاء من فوق في الثلاثة، وقرأ طلحة: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ و﴿تَذْهَبُونَ﴾ بالثاء من فوق في الثلاثة. و﴿تَذْهَبُونَ﴾ معناه: يدعوها إليها، وعبر عن الأصنام بـ ﴿الَّذِينَ﴾ على ما قدمناه من أن ذلك يعُمُّ الأصنام ومن عبد من دون الله من غيرها.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ

يَخْلُقُونَ﴾ أجمع عبارة في أحوال الربوبية عنهم، وقرأ محمد اليماني: ﴿وَالَّذِينَ يُذْعُونَ﴾ بضم الياء وفتح العين على ما لم يسم فاعله.

و﴿تَتَوَكَّلُونَ﴾ يراد به الذين يدعون من دون الله، ورفع على ابتداء خبر مضمّر تقديره: هم أموات، ويجوز أن يكون خبراً لقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ بعد الخبر في قوله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ﴾، ووصفهم بالموت مجازاً، وإنما المراد أنهم لم يقبلوا حياة قط ولا انصافوا بها، وعلى قراءة من قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ بالياء على غيبة الكفار يجوز أن يراد بالأموات الكفار الذين ضميرهم في ﴿يَدْعُونَ﴾، شبههم بالأموات غير الأحياء من حيث هم ضلال غير مهتدين، ويستقيم - على هذا - فيهم قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ والبعث هنا هو الحشر من القبور. و﴿إِيَّانَ﴾ ظرف زمان مبني، وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي: ﴿إِيَّانَ﴾ بكسر الهمزة، والفتح فيها والكسر لغتان، وقالت فرقة: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي الكفار ﴿إِيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الضميران لهم، وقالت فرقة: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي الأصنام أيان يبعث الكفار، ويحتمل أن يكون الضميران للأصنام الأمانة، كما تقول: «بعث النائم من نومه» إذا نبهته، وكما تقول: «بعث الراعي سحبه»، فكأنه وصفهم بغاية الجمود، أي: وإن طلبت حركاتهم بالتحريك لم يشعروا بذلك، وعلى تأويل من يرى الضميرين للكفار ينبغي أن يعتد في الكلام الوعيد، أي: وما يشعر الكفار متى يُبعثون

إلى التعذيب، ولو اختصر هذا المعنى لم يكن في وصفهم بأنهم لا يشعرون أيان يُبعثون طائل؛ لأن الملائكة والأنبياء والصالحين كذلك هم في الجهل بوقت البعث. وذكر بعض المفسرين أن قوله: ﴿إِيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ظرف لقوله: ﴿إِنَّا نَحْكُمُ اللَّهَ رَبِّدُ﴾، وأن الكلام تم في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، ثم أخبر عن يوم القيامة أن الإله فيه واحد، وفي هذا توعد.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما تقدم وصف الأصنام جاء الخبر الحق بالوحدانية، وهذه مخاطبة لجميع الناس معلمة بأن الله تعالى متحد وحدانية تامة، لا يحتاج لكمالها إلى مضاف إليها، ثم أخبر عن إنكار قلوب الكافرين، وأنهم يعتقدون إلهية أشياء أخر، ويستكبرون عن رفض معتقدهم فيها وأطراح طريقة آبائهم في عبادتها، ووسمهم بأنهم لا يؤمنون بالآخرة، إذ هي أقوى رتب الكفر، أعني الجمع بين التكذيب بالله تبارك وتعالى وبالبعث، لأن من صدق بالبعث فمحال أن يكذب بالله تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿لَا جَزْمَ﴾ عبرت فرقة من اللغويين عن معناها بـ «لا بُدَّ، ولا محالة»، وقالت فرقة: معناها: «حق أن الله»، ومذهب سيبويه أن (لا) نفي لما تقدم من الكلام، و (جَزَمَ) معناه: وجب أو حق، ونحو هذا من مذهب الزجاج، ولكن مع مذهبهما (لا) ملازمة لـ (جَزَمَ)، لا تنفك هذه من هذه، وفي

سورة النحل

سورة النحل

تَدْعُوهُمْ إِلَى الْغَيْمَةِ يَحْزَنُهُمْ وَيَقُولُ إِنَّ شُرَكَاءَ الَّذِينَ
كُنتُمْ تَشْكُرُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ
الْيَوْمَ وَالْأُسْوَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُم مَّا كُنْتُمْ
ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا أَسْلَمَهُ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
إِنْ أَلَّهَ عَلَيْهِمْ يَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَذَلُّوا الْأَنْبِيَاءَ جَهَنَّمَ
خَلِيلِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٨﴾ وَقِيلَ
لِلَّذِينَ آمَنُوا مَاذَا أُنْزِلَ فِيكُمْ فَأَلَوْا خَبِيرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَهُمْ دَارُ الْمُنِجِينَ
﴿٢٩﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا
مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ
أَلَمْ نَكُنْ لَهُمْ طَبِيبِينَ يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا فَمَنْ أَلْجَأَ الْجَنَّةَ بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ
أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَنَّهُمْ
أَلَّا يَكُنْ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتٍ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ فَأَصَابَهُمْ
سَيِّئَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِإِيْهِ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٣﴾

٢٧٠

الحسن بن علي أنه كان
يجلس مع المساكين
ويحدثهم ثم يقرأ: ﴿إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وروي
في الحديث أنه «من
سجد لله سجدة من
المؤمنين فقد برىء من
الكبر».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ فِيكُمْ﴾ الآية.
الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ لكفار
مكة، ويقال: إن سبب
الآية كان أن النضر بن
الحارث سافر عن مكة إلى
الحيرة وغيرها، فجاء إلى
مكة وكان قد اتخذ كتب
التاريخ «كليلة ودمنة»

وأخبار اسفنديار ورستم، فكان
يقول: إنما يحدث محمد بأساطير
الأولين، وحديثي أجمل من حديثه.
وقوله: ﴿مَاذَا﴾ يجوز أن تكون [مَا]
استفهاماً و [ذَا] بمعنى: الذي، وفي
﴿أُنْزِلَ﴾ ضمير عائذ، ويجوز أن
يكون [مَا] و [ذَا] اسماً واحداً
مركباً، كأنه قال: أي شيء؟
وقولهم: «أساطير الأولين» ليس
بجواب عن السؤال الأول، لأنهم لم
يريدوا أنه نزل شيء، ولا أن ثم
متزلاً، ولكنهم ابتدءوا الخبر بأن هذه
أساطير الأولين، وإنما الجواب عن
السؤال قول المؤمنين في الآية
المستقبل: خيراً، وقولهم: «أساطير
الأولين» إنما هو جواب بالمعنى.
فأما على السؤال وبحسبه فلا.
والسلام في قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا﴾
يحتمل أن تكون لام المعاقبة، لأنهم

لم يقصدوا بقولهم: «أساطير
الأولين» أن يحملوا الأوزار،
ويحتمل أن تكون صريح لام كني
على معنى: قَدَّرَ هذا، ويحتمل أن
تكون لام الأمر على معنى الحتم
عليهم بذلك والصغار الموجب لهم.
والأوزار: الأثقال، وقوله:
﴿وَمِنْ﴾ للتبعيض، وذلك أن هذا
الرأس المضل يحمل وزر نفسه
كاملاً، ويحمل وزراً من أوزار كل
من ضل بسببه، ولا تنقص أوزار
أولئك. وقوله: ﴿يَتَّبِعُوا عَلَيْهِمْ﴾
أن يريد بها المضل، أي: أضلّ بغير
برهان قام عنده، ويجوز أن يريد:
بغير علم من المقلدين الذين
يضلونهم. ثم استفتح الله تعالى
الإخبار عن سوء ما يتحملونه
للآخرة، وأسند الطبري وغيره في
معنى هذه الآية حديثاً نصه: «إِنَّمَا
دَاعِ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتَّبِعْ فَإِنَّ عَلَيْهِ
مِثْلَ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ
مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا دَاعِ
دَعَا إِلَى هُدًى فَاتَّبِعْ فَلَهُ مِثْلُ أَجُورِهِمْ
مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ
شَيْءٌ، وَ﴿سَاءَ﴾ فَعَلَ مَسْنَدٌ إِلَى
[مَا]، وَلَا يَحْتَاجُ فِي ذَلِكَ هُنَا إِلَى
صلة.

٢٦ - ٢٧ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -
وغیره من المفسرين: الإشارة بـ
﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى نمرود
الذي بنى الصرح ليصعد به إلى
السماء على زعمه، فلما أفرط في
عُلوّه وطوّله في السماء فرسخين على
ما حكى النقاش بعث الله عليه ريحاً
فهدمه، وخرّ سقفه عليه وعلى

جرم لغات قد تقدم ذكرها في سورة
هود، وأنشد أبو عبيدة:

جَرَمَتْ قَرْزَاةٌ ...

وقال: معناها: حقت عليهم
وأوجبت أن يغضبوا. و [أَنَّ] على
مذهب سيبويه فاعلة بـ [جَرَمَ]. وقرأ
الجمهور: ﴿أَنَّ﴾ مفتوحة، وقرأ
عيسى الثقفي: ﴿إِنَّ﴾ بكسر الألف
على القطع، قال يحيى بن سلام،
والنقاش: المراد هنا بـ ﴿مَا
يُتْرَكُ﴾ تشاورهم في دار الندوة
في قتل النبي ﷺ. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا
يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عام في الكافرين
والمؤمنين، يأخذ كل واحد منهم
بقسطه، وفي الحديث: «لا يدخل
الجنة من في قلبه مثقال حبة من
كبر»، وفيه «إِنَّ الْكِبَرَ مَنَعُ الْحَقِّ
وَضَمَطُ النَّاسِ»، ويروى عن

أتباعه، وقيل: إن جبريل عليه السلام هدمه بجناحه، وألقى أعلاه في البحر، وانجفع من أسفله. وقالت فرقة أخرى: المراد بـ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ جميع من كفر من الأمم المتقدمة ومكر، ونزلت به عقوبة من الله تعالى، وقوله - على هذا -: ﴿فَأَنَّى اللَّهُ بُيِّنَتْ لَهُمْ مِنْ الْقَوَائِدِ﴾ إلى آخر الآية تمثيل وتشبيه، أي: حالهم كحال من فعل به هذا. وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قَوْنِهِمْ﴾ أي: جاءهم العذاب من قِل السماء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ينحو إلى اللغز.

ومعنى قوله: ﴿مِنْ قَوْنِهِمْ﴾ رفع الاحتمال في قوله: ﴿فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾، فإنك تقول: «انهدم على فلان بناؤه» وهو ليس تحته، كما تقول: «انفسد عليه متاعه». وقوله: ﴿مِنْ قَوْنِهِمْ﴾ أُلزم أنهم كانوا تحته.

وقوله: ﴿فَأَنَّى﴾ أي: فأتى أمر الله وسلطانه، وقرأ الجمهور: ﴿بُيِّنَتْ لَهُمْ﴾ وقرأت فرقة: ﴿بُيِّنَتْ لَهُمْ﴾ وقرأ جعفر بن محمد: ﴿بُيِّنَتْ لَهُمْ﴾، وقرأ الضحاك: ﴿بُيُوتُهُمْ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿السَّقْفُ﴾ بسكون القاف، وقرأت فرقة بضمها، وهي لغة فيه، وقرأ الأعرج بضم السين والقاف، وقرأ مجاهد بضم السين وسكون القاف.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية، لما ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة حال هؤلاء الماكرين في الدنيا، ذكر في هذه حالهم في الآخرة، وقوله: ﴿يَجْزِيهِمْ﴾ لفظ يعم جميع المكاره

التي تنزل بهم، وذلك راجع إلى إدخالهم النار، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾. وقوله: ﴿أَيُّ شُرَكَائِكَ﴾ توبيخ لهم، وأضافهم إلى نفسه في مخاطبة الكفار، أي: على زعمكم ودعواكم، قال أبو علي: وهذا كما قال تعالى حكاية: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، وكما قال تعالى: ﴿يَتَّبِعُهُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ لَنَا رَيْكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والإضافات تترتب مغفولة وملفوظاً بها بأرق سبب، وهذا كثير في كلامهم، ومنه قول الشاعر:

إِذَا قُلْتُ قَذِيبِي قَالَ بِاللَّهِ حَلْفَةٌ
لَشَغْنِي عَنِّي ذَا إِثْنَاكَ أَجْمَعًا
فَأَضَافَ الْإِنَاءَ إِلَى حَاسِبِيهِ. وقرأ البرقي عن ابن كثير: ﴿شُرَكَائِي﴾ بقصر الشركاء وفتح الباء، مثل هداي، وقرأ الجمهور بالمد وفتح الباء بعد الهمزة، وقرأت فرقة بالمد وباء ساكنة.

وقوله: ﴿تَشْتَقُونَ﴾ معناه: تحاربون وتحاجون، أي: تكونون في شق والحق في شق، وقرأ الجمهور: ﴿تَشْتَقُونَ﴾ بفتح النون، وقرأ نافع وحده بكسرهما، ورويت عن الحسن بخلاف، وضعف هذه القراءة أبو حاتم، وقد تقدم القول في مثله في «الججر» في ﴿يُتَشَرُّونَ﴾، وقرأت فرقة: ﴿تَشَاقُوتِي﴾ بشد النون وكسرهما وباء بعدها. و﴿الَّذِينَ أَوَّلُوا أَلِيلَةً﴾ هم الملائكة فيما قال بعض المفسرين، وقال يحيى بن سلام: «هم

المؤمنون، وهذا الخطاب منهم يوم القيامة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب أن يعم جميع من آتاه الله علم ذلك من جميع من حضر الموقف من ملك وإنسي وغير ذلك، وبقي الآية بين:

﴿الَّذِينَ﴾ نعت لـ ﴿الْكَاذِبِينَ﴾ في قول أكثر المتأولين، ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ مرتفعاً بالابتداء منقطعاً مما قبله، وخبره في قوله: ﴿فَالْقَوْلُ السَّكَرُ﴾ فزبدت الفاء في الخبر، وقد يجيء مثل هذا. و﴿وَالْمَلَكُ﴾ يريد بهم القابضين لأرواحهم، وقوله: ﴿ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ حال. و﴿الْيَسِيرُ﴾ هنا: الاستسلام، أي: رموا بأيديهم وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فحذف «قالوا» لدلالة الظاهر عليه، قال الحسن: هي مواطن، فمرة يقرون على أنفسهم، كما قال: ﴿وَتَهْدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَهْلَهُمْ كَاوُوا كَنُيُوتَ﴾، ومرة يجحدون كهذه الآية، ويحتمل قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وجهين: أحدهما أنهم كذبوا وقصدوا الكذب اعتصاماً منهم به، على نحو قولهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، والآخر أنهم أخبروا عن أنفسهم أنهم لم يكونوا يعملون سوءاً، فأخبروا عن ظنهم بأنفسهم، وهو كذب في نفسه، وحسن الرد عليهم في الوجهين جميعاً بـ ﴿بَلَى﴾، أي يقال لهم: بلى، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وعيد وتهديد، وظاهر الآية أنها عامة في جميع

الكفار. وإلقاؤهم السَّلم ضدُّ مُشَاقَّتِهِمْ قَبْلُ، وقال عكرمة: نزلت في قوم من أهل مكة آمنوا بقلوبهم ولم يهاجروا، فأخرجهم كفار مكة مكرهين إلى بدر فقتلوا هنالك، فنزلت فيهم هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما اشتبهت عليه بالآية الأخرى التي نزلت في أولئك باتفاق من العلماء، وعلى هذا القول يحسن قطع ﴿الَّذِينَ﴾ ورفعها بالابتداء، فتأمله. والقانون أن «بلى» تجيء بعد النفي، و«نعم» تجيء بعد الإيجاب، وقد تجيء بعد التقرير، كقولك: أليس كذا؟ ونحوه، ولا تجيء بعد نفي سوى التقرير. وقرأ الجمهور: ﴿تَوَفَّاهُمْ﴾ بالتاء من فوق، وقرأها حمزة بالياء، وهي قراءة الأعمش، قال أبو زيد: أدغم أبو عمرو: ﴿السَّلمَ ما﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا﴾ من كلام الذي يقول: [بلى]، و﴿أَبْوَابُ جَهَنَّمَ﴾ مفضية إلى طباقها التي هي بعض على بعض، والأبواب كذلك بابٌ على باب، و﴿خَلِيلَيْن﴾ حال، واللام في قول: ﴿فَلْيَسِّنْ﴾ لام التأكيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكره سيبويه، وهو إجماعٌ من النحويين فيما علمت أن لام التأكيد لا تدخل على الفعل الماضي، وإنما يدخل عليه لام القسم، ولكن دخلت على «بش» لأنها لما لم تنصرف أشبهت الأسماء ويعدت عن حال الفعل في هذا، وهي بعيدة أيضاً عن حال الفعل من جهة أنها لا تدخل على زمان. و«المثوى»: موضع

الإقامة، ونعم وبش إنما يدخلان على معرّف بالألف واللام، أو مضاف إلى معرّف بذلك، و«المثوى» هنا محذوف تقديره: ولبش المثوى مثوى المتكبرين، والمتكبر هنا هو الذي أفضى به كبره إلى الكفر.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ الآية. لما وصف الله تعالى مقالة الكفار الذين قالوا: «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» عاذلٌ ذلك بذكر مقالة المؤمنين من أصحاب النبي ﷺ، وأوجب لكل فريق ما يستحق لتباين المنازل بين الكفر والإيمان، و«مآذاً» تحتل ما ذكر في التي قبلها، وقولهم: ﴿خَيْرٌ﴾ جواب بحسب السؤال، واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ إلى آخر الآية - فقالت فرقة: هو ابتداء كلام من الله تعالى مقطوع مما قبله، ولكنه بالمعنى وغد متصل بذكر إحسان المتقين من مقاتلهم، وقالت فرقة: هو من كلام الذين قالوا: ﴿خَيْرٌ﴾، وهو تفسير للخير الذي أنزل، أي: أنزل الله في الوحي على نبيِّنا خيراً، أي من أحسن في الدنيا بالطاعة فله حسنة في الدنيا ونعيم في الآخرة بدخول الجنة، وروى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً، يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة»، وقد تقدم القول في إضافة الدار إلى الآخرة، وباقي الآية بين.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

يَحْتَمِلُ أَنْ يَرْتَفِعَ ﴿جَنَّتْ﴾ على خبر ابتداءٍ مضمر بتقدير: هي جنات

عدن، ويحتمل أن ترتفع بقوله: ﴿وَلَنَعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّتْ عَدْنٌ﴾، ويحتمل أن يكون التقدير: لهم جنات عدن، ويحتمل أن تكون ﴿جَنَّتْ﴾ مبتدأ، وخبره: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، وقرأ زيد بن ثابت، وأبو عبد الرحمن: ﴿جَنَّتْ﴾ بالنصب، وهذا على نحو قوله: «زيداً ضربته»، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ وقرأ إسماعيل عن نافع: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ بضم الياء وفتح الخاء، ولا يصح هذا عن نافع، ورويت عن أبي جعفر، وشيبة بن نصح. وقوله: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ في موضع الحال، وباقي الآية بين.

وقرأ الجمهور: ﴿تَوَفَّاهُمْ﴾ بالتاء، وقرأ الأعمش، وحمزة: ﴿يَتَوَفَّاهُمْ﴾ بالياء من تحت، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿تَوَفَّاهُمْ﴾ بتاء واحدة في الموضعين. و﴿طَائِفَتَيْنِ﴾ عبارة عن صلاح حالهم واستعدادهم للموت، وهذا بخلاف ما قال في الكفرة: ﴿طَائِفَتَيْنِ أَنْفُسِهِمْ﴾، والطَّيْف: الذي لا خبث معه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَلْبِثُ فَاذْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، وقول الملائكة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بشارة من الله تعالى، وفي هذا أحاديث صحاح يطول ذكرها. وقوله: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَمْشُونَ﴾ أي: بما كان في أعمالكم من تكسبكم، وهذا على التجوز، علّق دخولهم الجنة بأعمالهم من حيث جعل الأعمال أمانة لإدخال العبد الجنة، ويعترض في هذا قول رسول الله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ بِعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إِلَّا أَنْ

الرسول منذرين، وليس عليهم إلا البلاغ.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: لما أشار قوله: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ إلى إقامة الحجة حسب ما ذكرناه بين ذلك في هذه الآية، أي أنه بعث الرسل أمراً بعبادته وتجنب عبادة غيره. و«الطَّاغُوت» في اللغة كل ما عُبد من دون الله من آدمي راضٍ بذلك أو حجر أو خشب، ثم أخبر أن منهم من اعتبر وهواه الله ونظر ببصيرته، ومنهم من أعرض وكفر فحقت عليه الضلالة، وهي مؤدية إلى النار حتماً، ومنهم من أدته إلى عذاب الله في الدنيا، ثم أحالهم في علم ذلك على الطلب في الأرض، واستقراء الأمم، والوقوف على عواقب الكافرين المكذبين.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ الْجَزُصُ: أبلغ الإرادة في الشيء، وهذه تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، أي أن حرصك لا ينفع، فإنها أمور محتومة. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والحسن، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، ومجاهد، وشبل، ومزاحم الخراساني، وأبو رجاء العطاردي، وابن سيرين: ﴿لَا يَهْدِي﴾ بضم الياء وفتح الدال، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿لَا يَهْدِي﴾ بفتح الياء وكسر الدال، وهي قراءة ابن مسعود، وابن المسيب، وجماعة، وذلك على معنيين: أي أن الله لا يهدي من قضى بإضلاله، والمعنى الآخر أن العرب تقول: «يَهْدِي

الرجل» بمعنى «اهتدى»، حكاه الفراء، وفي القرآن: ﴿لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ﴾، وجعله أبو علي وغيره بمعنى «يهدي»، وقرأ فرقة بفتح الياء وكسر الهاء والدال، وقرأت فرقة: «يَهْدِي» بضم الياء وكسر الدال، وهي ضعيفة، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ﴾، وحكاها أبو حاتم: «فَإِنَّهُ لَا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ»، قال أبو علي: «الراجع إلى اسم [إِنَّ] مقدر في [يُضِلُّ] على كل قراءة إلا قراءة [يَهْدِي] بفتح الياء وكسر الدال، أي: يهدي الله، فإنَّ الراجع مقدر في [يَهْدِي]». وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ كَلْبٍ عَلَيْكَ﴾ ضمير على معنى [مَنْ]، وتقول العرب: حَرَصَ يَحْرِصُ وَيَحْرِصُ وَيَحْرِصُ، والكسر في المستقبل لغة أهل الحجاز، وقرأ الحسن، وإبراهيم، وأبو حية بفتح الراء في قوله: ﴿تَحْرِصُ﴾ وقرأ إبراهيم: ﴿وإنَّ تَحْرِصُ﴾ بزيادة واو.

والضمير في قوله: ﴿وَأَنسُوا﴾ لكفار قريش، وذكر أن رجلاً من المسلمين جاور رجلاً من المشركين، فقال في حديثه: «لا والذي أرجوه بعد الموت»، فقال له الكافر: «أو تبعت بعد الموت؟» قال: «نعم»، فأقسم الكافر مجتهداً في يمينه أن الله لا يبعث أحداً بعد الموت، فنزلت الآية بسبب ذلك، و«جَهَدَ» مصدر، ومعناه: بغاية تجهدهم، ثم ردَّ تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلَى﴾ فأوجب بذلك البعث. وقوله: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا﴾ مصدران

مؤكدان، وقرأ الضحاك: ﴿بَلَى وَغَدَا عَلَيْهِ حَقٌّ﴾ بالرفع في المصدرين، وأكثر الناس في هذه الآية الكفار المكذبون بالبعث، والبعث من القبور مما يُجَوِّزه العقل، وأثبت خبر الشريعة على لسان جميع النبيين، وقال بعض الشيعة: إن الإشارة بهذه الآية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وإن الله سيبعثه في الدنيا، وهذا هو القول بالرجعة، وقولهم هذا باطل وافتراء على الله، وبهتان من القول ردَّه ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل: اللام في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ متعلقة بما في ضمن قوله: ﴿بَلَى﴾، لأن التقدير: بلى يبعث ليبين، وقيل: هي متعلقة بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، والأول أصوب في المعنى، لأن به يتصور كذب الكفار في إنكار البعث.

وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ الآية. «إِنَّمَا» في كلام العرب هي للمبالغة وتحقيق وتحضيض على المذكورين، وقد تكون - مع هذا - حاصرة إذا دل على ذلك المعنى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾، وأما قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إنما الربا في النسيئة»، وقول العرب: «إنما الشجاع عنترة» فبقي فيها معنى المبالغة فقط، و«إِنَّمَا» في هذه الآية هي للحصر، وقاعدة القول في هذه الآية أن نقول: إن الإرادة والأمر اللذين هما صفتان من صفات الله تبارك وتعالى القديمة هما قديمان أزليَّان، وإن ما في ألفاظ

هذه الآية من معنى الاستقبال والاستئناف إنما هو راجع إلى المراد لا إلى الإرادة، وذلك أن الأشياء المرادة المكوّنة في وجودها استئناف واستقبال، لا في إرادة ذلك، ولا في الأمر به، لأن ذينك قديمان، فمن أجل المراد عبّر بـ [إِذَا] و [نَقُولُ]. ونرجع الآن على هذه الألفاظ فنوضح الوجه فيها واحدة واحدة: أما قوله: ﴿لَيْسَ﴾ فيحتمل وجهين: أحدهما أن هذه الأشياء التي هي مُرادَة وقيل لها: [كُنْ] معلوم أن الوجود يأتي على جميعها بطول الزمن وتقدير الله تعالى، فلما كان وجودها حتمًا جاز أن تسمى «أشياء» وهي في حالة عدم، والوجه الثاني أن يكون قوله: ﴿لَيْسَ﴾ تنبيهًا لنا على الأمثلة التي ننظر فيها، أي أَنَّ كل ما تأخذونه من الأشياء الموجودة فإنما سبيله أن يكون مرادًا وقيل له: «كُنْ» فكان، ويكون ذلك الشيء المأخوذ من الموجودات مثلاً لما يتأخر من الأمور وما تقدم، فهذا نتخلص من تسمية المعدوم شيئاً، وقوله: ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ مَنَزَّلَ منزلة مراد، ولكنه أتى بهذه الألفاظ المستأنفة بحسب أن الموجودات تجيء وتظهر شيئاً بعد شيء فكانه قال: «إِذَا ظهر المراد منه»، وعلى هذا الوجه تخرج قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولَهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ونحو هذا مما معناه: ويقع منكم من رآه الله تعالى في الأزل كله وعِلِمَهُ. وقوله: ﴿أَن نَّقُولَ﴾ نزل منزلة المصدر، كأنه قال: «قولنا»،

ولكن «أَن» مع الفعل تعطي استئنافاً ليس في المصدر في أغلب أمرها، وقد تجيء في مواضع لا يلحظ فيها الزمن كهذه الآية، وكقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن نَقُومَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بِأَمْوٍ﴾ وغير ذلك. وقوله: ﴿وَلَوْ﴾ ذهب أكثر الناس إلى أن «الشيء» هو الذي يقال له كالمخاطب، وكأن الله تبارك وتعالى قال في الأزل لجميع ما خلق: «كُنْ» بشرط الوقت والصفة، وقال الرجّاح: ﴿وَلَوْ﴾ بمعنى: من أجله،

وهذا ممكن أن يُرَدَّ بالمعنى إلى الأول، وذهب قومٌ إلى أن قوله: ﴿أَن نَّقُولَ﴾ مجاز، كما تقول: قال برأسه فرفعه، وقال بيده فضرب فلاناً، وردّ على هذا المنزع أبو منصور، وذهب إلى أن الأول هو الأول. وقرأ الجمهور: ﴿فَيَكُونُ﴾ برفع النون، وقرأ ابن عامر، والكسائي هنا وفي «يس» ﴿فَيَكُونُ﴾ بنصبها، وهي قراءة ابن محيص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أبعدُ على التعقيب الذي يصحب الفاء في أغلب حاله، فتأمل.

وفي هذه التُبْذَة ما يُطْلَع منه على عيون هذا المسألة، وشرط الإيجاز منع من بسط الاعتراضات والانفصالات، والمقصود بهذه الآية إعلامُ مُنكري البعث بهوان أمره

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَنَّا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ بِالْيَمِينِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٣﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ فَأَمَّا هُمْ فَيَمْتَعِزُّونَ ﴿٤٤﴾ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يُنْفَخُونَ عَلَيْهِ ظِلُّهُ يَوْمَ الدَّيْمِ وَالشَّامِ لَيْسَ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُوَ ذَرُونِ ﴿٤٥﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْكَرُونَ ﴿٤٦﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوْنِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٤٧﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا لِلَّهِ بَشَرٌ إِنْ هُوَ إِلَّا وَجْدٌ بِلَا نَفْسٍ فَارْهُبُوا ﴿٤٨﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْيَمِينُ وَاصْبَا أَفْعَرِ اللَّهُ نَفَقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِنَّكُمْ تَخْشَوْنَ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِذَا كُفِيَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥١﴾

على الله تعالى وقربه في قدرته، لا رَبَّ غيره.

٤١ - ٤٢ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى كُفَارَ مَكَّةَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَبْعَثُ مِنْ يَمُوتُ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ ذَكَرَ مُؤْمِنِي مَكَّةَ الْمَعَارِضِينَ لَهُمْ، وَهُمْ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، هَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ فِي سَبَبِ هَذِهِ الْآيَةِ، لِأَنَّ هَجْرَةَ الْمَدِينَةِ لَمْ تَكُنْ وَاقْتِ نَزُولِ الْآيَةِ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: سَبَبُ الْآيَةِ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ سَهِيلِ بْنِ عَمْرٍو، وَهَذَا ضَعِيفٌ، لِأَنَّ أَمْرَ أَبِي جَنْدَلٍ إِنَّمَا كَانَ وَالنَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: نَزَلَتْ فِي عُمَارٍ وَصَهْبٍ وَخَبَّابٍ وَأَصْحَابِهِمُ الَّذِينَ أُودُوا بِمَكَّةَ وَخَرَجُوا عَنْهَا، وَعَلَى كُلِّ قَوْلٍ فَلَآيَةٌ تَتَنَاوَلُ بِالْمَعْنَى كُلِّ مَنْ هَاجَرَ أَوَّلًا وَآخِرًا.

وقرأ الجمهور: ﴿لَتُؤْتِنَهُمْ﴾ وقرأ ابن مسعود، ونعيم بن ميسرة، والربيع بن خنيتم، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿لَتُؤْتِنَهُمْ﴾، وهاتان اللفظتان معناهما التقرير في موضع، فقالت فرقة: «الْحَسَنَةُ» عِدَّةٌ بِقِيعَةٍ شَرِيفَةٍ كَشَفَ الْغَيْبِ أَنَّهَا كَانَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَإِلَيْهَا كَانَتْ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿حَسَنَةً﴾، وقالت فرقة: الْحَسَنَةُ هُنَا لِسَانُ الصَّدَقِ الْبَاقِي عَلَيْهِمْ فِي غَابِرِ الدَّهْرِ، وفي قوله: ﴿لَتُؤْتِنَهُمْ﴾ أَوْ ﴿لَتُؤْتِنَهُمْ﴾ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ فِي لِسَانِ الصَّدَقِ تَجَوُّزٌ كَثِيرٌ وَاسْتِعَارَةٌ بَعِيدَةٌ، وَهَذَا عَلَى أَنَّ «الْحَسَنَةَ» هِيَ الْحَيَاةُ وَالْمَثْوَى، وَأَنَّ الْفِعْلَ الظَّاهِرَ عَامِلٌ فِيهَا، وَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ: نَصَبَهَا عَلَى مَعْنَى: «نُحْسِنُ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ إِحْسَانًا»، وَجَعَلَتْ «حَسَنَةً» مَوْضِعَ «إِحْسَانًا»، وَذَهَبَتْ فِرْقَةٌ إِلَى أَنَّ الْحَسَنَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ مُسْتَحْسَنٍ يَنَالُهُ ابْنُ آدَمَ، وَتَخَفُ الْإِسْتِعَارَةُ الْمَذْكُورَةُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، وَفِي هَذَا الْقَوْلِ يَدْخُلُ مَا رَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُعْطِي الْمَالَ وَقَدْ قَسَمَ الرَّجُلُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَيَقُولُ لَهُ: خُذْ مَا وَعَدَكَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ، ثُمَّ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْقَوْلِ النَّصْرُ عَلَى الْعَدُوِّ وَفَتْحُ الْبِلَادِ وَكُلُّ أَمَلٍ بَلَغَهُ الْمُهَاجِرُونَ، وَ«أَجْرُ الْآخِرَةِ» هُنَا إِشَارَةٌ إِلَى الْجَنَّةِ، وَالضَّمِيرُ فِي «يَتْلُونَ» عَائِدٌ عَلَى كِفَارِ قَرِيشٍ، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾ مَقْدَرٌ مُحَذَوْفٌ، وَمَفْعُولُ «يَتْلُونَ» كَذَلِكَ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ مِنْ صِفَةِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ اللَّهُ، وَالصَّبْرُ يَجْمَعُ: عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَعَلَى الْمَكَارِهِ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّوَكُّلُ بِتَفَاصِيلِ مَرَاتِبِهِ، فَمُطِيلٌ فِيهِ وَذَلِكَ مَبَاحٌ حَسَنٌ مَا لَمْ يُغْلَ حَتَّى يُسَبِّبَ الْهَلَكَ، وَمَتَوَسِّطٌ يَسْعَى جَمِيلًا وَيَتَوَكَّلُ، وَهَذَا مَعَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «قَتِيلُهَا وَتَوَكَّلْ»، وَمَقْصُرٌ لَا نَفْعَ فِي تَقْصِيرِهِ، وَإِنَّمَا لَهُ مَا قُدِّرَ لَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ الْآيَةَ، هِيَ رُدٌّ عَلَى كِفَارِ قَرِيشٍ الَّذِينَ اسْتَبَعَدُوا أَنْ يَكُونَ الْبَشَرُ رَسُولًا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، فَأَعْلَمَهُمُ اللَّهُ مَخَاطِبًا لِمُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يَرْسَلْ إِلَى الْأُمَمِ إِلَّا رَجُلًا، وَلَمْ يَرْسَلْ مَلَكًا وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ، وَ﴿يَا أَيُّهَا الْمُنَاصِرُونَ﴾ بِ«أَرْسَلْنَا»، وَ﴿إِلَّا﴾ إِيْجَابٌ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿يُوحَى﴾ بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِ الْهَاءِ، وَقَرَأَتْ فِرْقَةٌ بِضَمِّ الْيَاءِ وَكسْرِ الْهَاءِ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ مِنْ طَرِيقِ حَفْصٍ وَحْدَهُ ﴿يُوحَى﴾ بِالنُّونِ وَكسْرِ الْهَاءِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَطَلْحَةَ بْنِ مَصْرُفٍ، وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿تَسْتَلُوا﴾، أَيُّ: قُلْ هُمْ فَاسْأَلُوا، وَأَهْلُ الذِّكْرِ هُنَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ. وَقَالَ الْأَعْمَشُ، وَسَفِيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: الْمَرَادُ مِنْ أَسْلَمَ مِنْهَا، وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ، وَابْنُ زَيْدٍ: «أَهْلُ الذِّكْرِ»: أَهْلُ الْقُرْآنِ، وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ فِيهِمَا ضَعْفٌ؛ لِأَنَّهُ لَا حُجَّةَ عَلَى الْكُفَّارِ فِي إِخْبَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا ذَكَرَ، لِأَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ هَذِهِ الصَّنَائِفَ،

وقال الزجاج: «أَهْلُ الذِّكْرِ» عَامٌ فِي كُلِّ مَا يُعْزَى إِلَى عِلْمٍ.

قال القاضي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْأَظْهَرُ فِي هَذَا كَلَهُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ يَكُونُ أَهْلُ الذِّكْرِ هُنَا أَجْبَارُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ لَمْ يَسْلَمُوا، وَهُمْ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ خَاصَّةٌ إِنَّمَا يُخْبِرُونَ بِأَنَّ الرِّسْلَ مِنَ الْبَشَرِ، وَأَجْبَارَهُمْ حُجَّةٌ عَلَى هَؤُلَاءِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُصَدِّقِينَ لَهُمْ، وَلَا يَتَهَمُونَ بِشَهَادَةِ لَنَا لِأَنَّهُمْ مَدَافِعُونَ فِي صَدْرِ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَاتِلَهُمُ اللَّهُ، وَهَذَا هُوَ كَسْرُ حُجَّتِهِمْ مِنْ مَذْهَبِهِمْ، لَا أَنَّا افْتَقَرْنَا إِلَى شَهَادَةِ هَؤُلَاءِ، بَلِ الْحَقُّ وَاضِحٌ فِي نَفْسِهِ، وَقَدْ أَرْسَلْتُ قَرِيشَ إِلَى يَهُودٍ يَتْرَبُ يَسْأَلُونَهُمْ وَيُسْتَدُونَ إِلَيْهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلِ مَضْمَرٍ تَقْدِيرُهُ: أَرْسَلْنَاهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: إِنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِ«أَرْسَلْنَا» فِي أَوَّلِ الْآيَةِ، وَالتَّقْدِيرُ - عَلَى هَذَا -: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ إِلَّا رَجُلًا، فِيهِ الْآيَةُ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، وَ«الزُّبُرُ»: الْكُتُبُ الْمُزَوَّجَةُ، تَقُولُ: «زَبَرْتُ وَدَبَرْتُ» إِذَا كَتَبْتُ، وَ«الَّذِينَ» فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْقُرْآنُ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَيُتَيَّنَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: لَيُتَيَّنَ بِسُزُوكِ نَصِ الْقُرْآنِ مَا نَزَلَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: لَيُتَيَّنَ بِتَفْسِيرِكَ الْمَجْمَلِ وَيُشْرَحُ مَا أَشْكَلَ مِمَّا نَزَلَ، فَيَدْخُلُ فِي هَذَا مَا تَبَيَّنَ السُّتَةُ مِنْ أَمْرِ الشَّرِيعَةِ، وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ.

٥٨ - ٥٩ تفسير قوله عز وجل: هذه آية تهديد لأهل مكة، وهم المراد بـ «الَّذِينَ» في قول

الأكثرين، وقال مجاهد: المراد نمرود بن كنعان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أظهر، ونصب ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ يحتمل وجهين، أحدهما أن ينصب بقوله: ﴿أَفَأَنْتَ الَّذِي﴾، وتكون السيئات - على هذا - العقوبات التي تسوء من تنزل به، ويكون قوله: ﴿أَنْ يَخِيفَ﴾ بدلاً منها، والوجه الثاني أن تنصب بـ ﴿مَكْرُؤًا﴾، وعُدِّي ﴿مَكْرُؤًا﴾ لأنه في معنى «عملوا» أو «فعلوا»، و﴿السَّيِّئَاتِ﴾ - على هذا - معاصي الكفر وغيره، قاله قتادة. ثم توعدهم بما أصاب الأمم قبلهم من الخسف، وهو أن تبتلع الأرض المخسوف به ويقعد إلى أسفل، وأسند النقاش عن بعض أهل العلم أن قوماً في هذه الأمة أقيمت الصلاة فندافعوا الإمامة وتصلفوا في ذلك، فما زالوا كذلك حتى خيف بهم.

و ﴿تَقْلِبُهُمْ﴾: سفرهم ومحاولتهم المعاش بالسفر والرعاية وغيرها، و﴿الْمُعْجِزَ﴾: المُفْلِتَ هرباً، كأنه عجز طالبه، وقوله: ﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾، أي: على جهة التَّخَوُّفِ، والتَّخَوُّفُ: التَّنْقِصُ، ومنه قول الشاعر يصف ناقته:

تَخَوُّفُ السَّيْرِ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً
كما تَخَوُّفُ عَوْدَ النَّبِيعَةِ السَّقْنُ
فالسَّقْنُ: الميبرد، ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خفي عليه معنى «التَّخَوُّفُ» في هذه الآية، وأراد الكتب إلى الأمصار يسأل عن ذلك حتى سمع هذا البيت، ويروى أنه جاء فتى من العرب وهو قد أشكل عليه أمر لفظة

التخوف، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن أبي يَتَخَوَّفُنِي مالي، فقال عمر رضي الله عنه: الله أكبر، ﴿أَوْ يَأْخُذُهُ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾، ومنه قول طرفة: وَجَائِلٌ خَوْفٍ مِنْ نَيْبِهِ
وَجُرَّ الْمُعْلَى أَصْلاً وَالسَّفِيحُ
ويروى: من نفسه، ومنه قول الآخر:

أَلَمْ عَلَى الْهَجَاءِ وَكُلِّ يَوْمٍ
يُلَاقِيَنِي مِنَ الْجِيرَانِ عُورُ
تَخَوُّفٌ عَذُوْمُهُمْ مَالِي وَأَهْدَى
سَلَابِلَ فِي الْحُلُوقِ لَهَا صَلِيلُ
يريد الأهاجي. ومنه قول النابغة:

تَخَوُّفُهُمْ حَتَّى أَذْلَ سَرَائِهِمْ
بَطْنُ خَيْرٍ بَعْدَ نَفْحِ الصَّفَائِحِ
وهذا التنقيص يتجه الوعيد به على معنيين: أحدهما: أن يهلكهم ويخرج أرواحهم على تخوف، أي أفذاذاً، يتنقصهم بذلك الشيء بعد الشيء، وهذا لا يدعي أحد أنه يأمنه، وكأن هذا الوعيد إنما يكون بعذاب ما يلحقون بعد الموت، وإلا فهكذا تهلك الأمم كلها، ويؤيد هذا قول: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ لَمَكْرُؤٌ رَجِيءٌ﴾، أي أن هذه الرتبة من الوعيد فيها رافة ورحمة وإمهال ليتوب التائب ويرجع الراجع، والآخر: ما قال الضحاك: أن يأخذ بالعذاب طائفة أو قرية ويترك أخرى، ثم كذلك حتى يهلك الكل. وقالت فرقة: التَّخَوُّفُ هنا من الخوف، أي: يأخذهم بعد تخوف ينالهم يعذبهم به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا تكلف ما.

وقوله: ﴿أَوَّلَهُ يَوْمًا إِنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية، قرأ ابن كثير،

ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿أَوَّلَهُ يَوْمًا﴾ بالياء، على لفظ الغائب، وكذلك في العنكبوت، فهي جارية على قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ﴾ وقوله: ﴿لَا يَنْتَرُونَ﴾، ورجحها الطبري. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿أَوْ لَمْ تَرَوْا﴾ بالتاء من فوق في الموضعين، وهي قراءة الحسن، والأعرج، وأبي عبد الرحمن، وذلك يحتمل من المعنى وجهين: أحدهما على معنى: قل لهم يا محمد أو لم تَرَوْا، والوجه الثاني أن يكون خطاباً عاماً لجميع الخلق ابتداءً به القول أنفاً، وقرأ عاصم في النحل بالتاء من فوق، واختلف عنه في العنكبوت. وقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ لفظ عام في كل ما اقتضته الصفة في قوله: ﴿يَنْفَقُوا يُلْكَئُهُ﴾ لأن ذلك صفة لما عرض للعبارة في جميع الأشخاص التي لها ظل، والرؤية هنا هي رؤية القلب، ولكن الاعتبار برؤية القلب هنا إنما تكون في مريات بالعين، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿تَنْفَقِيًا﴾ بالتاء من فوق، وهي قراءة عيسى ويعقوب، وقرأ الجمهور: ﴿يَنْفَقُوا﴾ قال أبو علي: إذا تقدم الفعل المسند إلى مثل هذا الجمع فالتذكير والتأنيث فيه حسان. و﴿فَاءُ الظَّلِّ﴾: رجع بعكس ما كان بُكْرَةً إلى الزوال، وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى وقت الزوال إنما هي في نسخ الظل العام قبل طلوعها، فإذا زالت ابتداءً رجوع الظل العام، ولا يزال ينمو حتى تغيب الشمس فيعم، والظل الممدود في الجنة لم يذكر الله له فينا لأنه لم

يرجع بعد أن ذهب، وكذلك قول حميد بن ثور الهلالي:

فَلَا الظِّلُّ مِنْ بَرْدِ الضَّحَى تَسْتَطِيعُهُ
وَلَا الْفَيْءُ مِنْ بَرْدِ الْعَيْشِ تَذُوقُ
فهو على المهيح، وكذلك قول علقمة بن عبدة:

تَتَّبِعْ أَفْيَاءَ الظَّلَالِ عَشِيَّةً
عَلَى طُرُقٍ كَأَنَّهُنَّ سُيُوبُ
وكذلك قول امرئ القيس:

.....
يَفِيءُ عَلَيْهَا الظِّلُّ...
وأما النابتة الجعدي فقال:

فَسَلَامُ إِلَهٍ يَغْدُو عَلَيْهِمْ
وَقُبُوءُ الْفِرْدَوْسِ ذَاتِ الظَّلَالِ
فَتَجُوزُ فِي أَنْ جَعَلَ الْفَيْءُ حَيْثُ لَا
رجوع، وقال رؤبة بن العجاج: يقال
بعد الزوال: فيءٌ وظلٌّ، ولا يقال
قبله إلا ظلٌّ فقط، ويقال: فاء الظلِّ
إذا رجع من النقصان إلى الزيادة،
ويُعْدَى (فاءً) بالهمزة، كقوله تبارك
وتعالى: ﴿مَّا آفَءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾،
ويُعْدَى بالتضعيف، فيقال: آفأه الله
وقِيَاءً، وتَفِيَاءً مضارع قِيَاءً، ولا يقال
الفَيْءُ إلا ما بعد الزوال في مشهور
كلام العرب، لكن هذه الآية الاعتبار
فيها من أول النهار إلى آخره، فكأن
الآية جارية في بعض التأويلات على
تجاوز كلام العرب واقتضائه وضع
(تَتَفَيَّأً) مكان (تَتَقَطَّلُ) و (تميل)،
وأصاف الظلال إلى ضمير مفرد
حماً على لفظ [مآ]، أو لفظ
[شئ]، وهو بالمعنى لجميع، وقرأ
الثَّقَفِيُّ: ﴿ظَلَّلَهُ﴾ بفتح اللام الأولى
وضم الثانية وضم الطاء.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ الْكَيْبِينَ

وَالْكَمَالِينَ﴾، أفرد ﴿الْكَيْبِينَ﴾ وهو يراد
به الجمع فكأنه للجنس، والمراد:
عن الأيمان والشمال، كما قال
الشاعر:

الزَّارِدُونَ وَثِيْمٌ فِي دُرَى سَبَلِ
قَدْ عَضَّ أَغْنَأَهُمْ جِلْدَ الْجَوَامِيسِ
وقال الآخر:

بِفِي الشَّامِتِينَ الصُّخْرُ إِذَا كَانَ هَذَنِي
رَزِيَّةً شِبْلِي مُخَدَّرٍ فِي الضَّرَاغِمِ
والمنصوب للعبارة في هذه الآية هو
كل شخص وجرم له ظل كالجبال
والشجر وغير ذلك، والذي يترتب
فيه أيمان وشمال إنما هو البشر
فقط، ولكن ذكر الأيمان والشمال
هنا هو على جهة الاستعارة لغير
البشر، أي: تُقَدَّرُهُ ذات يمين
وشمال، وتُقَدَّرُهُ يستقبل أي جهة
شئت ثم تنظر ظله فتراه يميل إما إلى
جهة اليمين وإما إلى جهة الشمال،
وذلك في كل أقطار الدنيا، فهذا
وجه يعمم لك ألفاظ الآية، وفيه
تجاوز واتساع، ومن ذهب إلى أن
اليمين من غدوة النهار إلى الزوال،
ثم يكون من الزوال إلى المغيب عن
الشمال - وهو قول قتادة، وابن
جريج - فإنما يترتب له ذلك فيما
قدرة مستقبل الجنوب والاعتبار في
هذه الآية عندي إنما هو في مستقبل
الجنوب، وما قاله بعض الناس من
«أن اليمين أول دفعة للظل بعد
الزوال، ثم الآخر إلى الغروب هي
عن الشمال، ولذلك جمع الشمال
وأفرد اليمين» فتخليط من القول
يبطل من جهات، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما: إذا صليت الفجر
كان ما بين مطلع الشمس إلى مغربها

ظلاً، ثم جعل الله عليه الشمس
دليلاً فقبض إليه الظل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وعلى هذا فأول ذرور الشمس فالظل
عن يمين مستقبل الجنوب، ثم يبدأ
الانحراف فهو عن الشمال، لأنها
حركات كثيرة وظلال مقطعة، فهي
شمال كثيرة، وكان الظل عن اليمين
متصلاً واحداً عاماً لكل شيء، وفي
هذا القول تجاوز في ﴿يَتَفَيَّأُ﴾،
وعلى ما قدرنا من استقبال الجنوب
يكون الظل أبداً مندفعاً عن اليمين
إلى الزوال، فإذا تحرك بعد فارق
الأيمان جملة وصار اندفاعه عن
الشمال، وقالت فرقة: الظلال هنا:
الأشخاص، وهي المراد أنفسها،
والعرب تُعَبِّرُ أحياناً عن الأشخاص
بالظلال، ومنه قول عبدة بن
الطيب:

إِذَا نَزَلْنَا نَضَبْنَا ظِلُّ أَخِيَّةِ
وَقَارَ لِلْقَوْمِ بِاللَّحْمِ الْمَرَا جِيلُ
وإنما تُنْصَبُ الأخبية، ومنه قول
الآخر:

تَتَّبِعْ أَفْيَاءَ الظَّلَالِ عَشِيَّةً
.....

أي أفياء الأشخاص، وهذا كله
محمّل غير صريح، وإن كان أبو
علي قد قرره.

واختلف المتأولون في هذا السجود
- فقالت فرقة: هو سجود عبادة
حقيقية، وذكر الطبري عن الضحاك
قال: إذا زالت الشمس سجد كل
شيء قِبَلَ القبلة من بيت أو شجر،
ولذلك كان الصالحون يستحبون
الصلاة في ذلك الوقت، وقال
مجاهد: إنما تسجد الظلال لا

التعب: أي: وله الدِّين على تعبهِ ومَشَقَّتِهِ، فـ «واصب» - على هذا - جارٍ على النسب، أي: ذَا وَصَبٍ، كما قال:

... أَضْحَى فُؤَادِي بِهِ فَاتِنَا
وهذا كثير، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: الواصب: الواجب، وهذا نحو قوله: الواصب: الدائم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَوْبِخُ فِي لَفْظِ اسْتِفْهَامٍ، وَنَصْبِ ﴿غَيْرٍ﴾ بِـ ﴿تَتَّقُونَ﴾، لَأَنَّهُ فَعْلٌ لَمْ يَعْمَلْ فِي سَوَى ﴿غَيْرٍ﴾ الْمَذْكُورَةِ.

والواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُمُ﴾ يجوز أن تكون واو ابتداء، ويجوز أن تكون واو الحال ويكون الكلام متصلاً بقوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾، كأنه يقول على جهة التوبيخ: أَتَتَّقُونَ غَيْرَ اللَّهِ وَلَا يُنْعِمُ عَلَيْكُمْ سِوَاهُ؟ والباء في قوله: ﴿يَكُمُ﴾ متعلقة بفعل تقديره: وما نَزَلَ أَوْ أَلَمَ، ونحو هذا، و﴿وَمَا﴾ بمعنى «الذي»، والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ دخلت بسبب الإبهام الذي في [مَا] التي هي بمعنى «الذي»، فأشبه الكلام الشرط، ومعنى الآية التذكير بأن الإنسان في جليل أمره ودقيقه إنما هو في نعمة الله وأفضاله، إيجاداه داخل في ذلك فما بعده، ثم ذَكَرَ تعالى بأوقات المرض لِيَكُونَ الإنسان الجاهل يُجِسُّ فيها قدر الحاجة إلى لطف الله، و«الضُّر» - وإن كان يُعْمَى كل مكروه - فأكثر ما يجيء عبارة عن أرزاء البدن. و﴿يَتَخَرَّوْنَ﴾ معناه ترفعون أصواتكم باستغاثة وتضرع، وأصله

من جوار الثور والبقرة وصياحهما، وهو عند جهد يلحقهما، أو في أثر دم يكون من بقر يُذبح، فذلك الصراخ يشبه به انتحاب الداعي المستغيث بالله إذا رفع صوته، ومنه قول الأعشى:

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيحِ
لِكَ طَوْرًا سُجُودًا وَطَوْرًا جُؤَارًا
وأشد أبو عبيدة:

بِأَسْبَلِ كُنْنا صَلَى جَارُ
والأصوات تأتي غالباً على فعال أو فَعِيل. وقرأ الزهري: «تَجْرُونَ» بفتح الجيم دون همز، حذفت وألقيت حركتها على الجيم، كما حُفِّفَ تَسْلُونَ من تَسْأَلُونَ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَفَّ الْفُتْرَ عَنْكُمْ﴾، قرأ الجمهور: «كَفَّ» وقرأ قتادة: «كاشف»، وَوَجْهَهَا أنه فاعل من واحد بمعنى «كشف»، وهي ضعيفة. و«الفريق» هنا يراد به المشركون الذين يرون أن للأصنام أفعالا من شفاء المرضى وجلب الخير ودفع الضر، فهم إذا شفاهم الله عظموا أصنامهم وأضافوا ذلك الشفاء إليها.

وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ يجوز أن تكون اللام لام الصيرورة، أي: فصار أمرهم ليكفروا، وهم لم يقصدوا بأفعالهم تلك أن يكفروا، ويجوز أن تكون لام أمرٍ على معنى التهديد والوعيد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾، والكفر هنا يحتمل أن يكون كفر الجحد بالله والشرك، ويؤيده قوله: ﴿رَبِّهِمْ يَبْئُرُونَ﴾، ويحتمل أن يكون كفر

النعمة، وهو الأظهر؛ لقوله: ﴿يَبْأُ إِلَيْهِمْ﴾، أي: بما أنعمنا عليهم، وقرأ الجمهور: «فَتَتَّقُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» على معنى: قل لهم يا محمد، وروى أبو رافع عن النبي ﷺ: «فَيَمْتَنِعُوا فَسَوْفَ يَفْلَمُونَ» بياء من تحت مضمومة، و«فَسَوْفَ يَفْلَمُونَ» على معنى ذكر الغائب، وكذلك في الروم، وهي قراءة أبي العالية، وقرأ الحسن: «فَتَتَّقُوا» كالجماعة على الأمر «فَسَوْفَ يَفْلَمُونَ» بالياء على ذكر الغائب، كقراءة أبي رافع، فيكون «يَمْتَنِعُوا» في قراءة أبي رافع في موضع نصب عطفاً على «يَكْفُرُونَ» إن كانت اللام لام (كَنَى)، ونصباً بالفاء في جواب الأمر، إن كانت لام الأمر، ومعنى «التَّمَنُّعُ» في هذه الآية: بالحياة الدنيا التي مصيرها إلى الفناء والزوال.

٥٦ - ٥٩ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿يَجْعَلُونَ﴾ للكفار، ويريد بـ «لِمَا لَا يَعْلَمُونَ» الأصنام، أي: لا يعلمون فيها حجة ولا برهاناً، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ» الأصنام، أي: يجعلون للجمادات - وهي لا تعلم شيئاً - نصيباً، فالمفعول محذوف، ثم عبّر عنهم بعبارة من يعقل بحسب مذهب الكفار الذين يسندون إليها ما يسند إلى من يعقل، وبحسب أنه إسناد منفي، وهذا الاحتمال كله ضعيف. و«النصيب» المشار إليه هو ما كانت العرب سئته من الذبح لأصنامها، والإهداء إليها، والقسم لها من الغلات.

ثم أمر الله تبارك وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يُقسم لهم أنهم سيُسألون عن افتراءهم في أن تلك الشئ هي الحق الذي أمر الله به كما قال بعضهم، و«الفِزْيَةُ» اختلاق الكذب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُونَ ثِقَلَهُ﴾ الآية. هذا تعديد لقيح قول الكفار: «الملائكة بناتُ الله»، وردَّ عليهم من وجهين: أحدهما نسبة النسل إلى الله تعالى عن ذلك، والآخر أنهم نسبوا من النسل الأخسُّ المكروه عندهم، و [مَا] في قوله: ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾ مرتفعة بالابتداء، والخبر في المجرور، وأجاز الفراء أن تكون في موضع نصب عطفاً على ﴿الَّذِينَ﴾، والبصريون لا يجيزون هذه الآية من باب: ضربني، وكان يلزم عندهم أن يكون: «ولأنفسهم ما يشتهون»، والمراد بـ ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾ الذُّكْرَانُ من الأولاد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُرِّرَ أَحَدُهُمْ﴾ الآية. لما صرَّح بالشيء المبشَّر به حسن ذكر البشارة فيه، وإلا فالبشارة مطلقة لا تكون إلا في خير. وقوله: ﴿ثَلَاثَ رَجُلٍ مَّسْوُودًا﴾ عبارة عن العبوس والقطوب الذي يلحق وجه المغموم، وقد يعلو وجه المغموم سواد وزيد، وتذهب شرافته، فلذلك يذكر له السَّوَادُ. و«كَطِيلٌ» بمعنى كاظم كعليم وعالم، والمعنى أنه يخفي وجهه وهَمُّه بالأنثى.

وقوله: ﴿يَنْزِلُ مِنَ الْقَوَارِ﴾ الآية، هذا التواري الذي ذكره الله تعالى إنما هو بعد البشارة بالأنثى، وما يحكى أن الرجل منهم كان إذا أصاب امرأته الطَّلُقُ تواري حتى يُخبر

بأحد الأمرين فليس المراد في الآية، ويُشبه أن ذلك كان لكي: إن أخبر بسارٍ خرج، وإن أخبر بسوء بقي على تواريه ولم يحتج إلى إحدائه، ومعنى ﴿يَنْزِلُ﴾: يتغيب، وتقدير الكلام: يتواري من القوم مدبراً أُنْمِسَكُهُ أم يدسه؟ وقرأت فرقة: ﴿أُنْمِسَكُهُ﴾ على لفظ [مَا]، «أَنَّهُ يَدْسُهُ» على معنى الأنثى، وقرأ الجحدري: ﴿أُنْمِسَكُهَا﴾ «أَنَّهُ يَدْسُهُ» على معنى الأنثى في الموضعين. وقرأ الجمهور: ﴿عَلَى هُونٍ﴾ بضم الهاء، وقرأت فرقة بفتحها، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿عَلَى هَوَانٍ﴾ وهي قراءة عاصم الجحدري، وقرأ الأعمش: ﴿عَلَى سُوءٍ﴾، ومعنى الآية: يُدْبِر: أُنْمِسَكُ هذه الأنثى على هوان يتحملة وهم يتخلد له أم يندها فيدفنها حيَّة، فهو الدُّسُّ في التراب. ثم استفتح الله تعالى الإخبار عن سوء فعلهم وحكمهم بهذا في بناتهم ورزق الجميع على الله.

﴿٦١﴾ - ﴿٦٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: ﴿يُنْثَلُ﴾ هنا بمعنى صفة، أي: لهؤلاء صفة السوء، والله الوصف الأعلى، وهذا لا تضطر إليه؛ لأنه خروج عن اللفظ، بل قوله: ﴿يُنْثَلُ﴾ على حاله، وذلك أنهم إذا قالوا: «إن البنات لله» فقد جعلوا له مثلاً فالبنات من البشر، وكثرة البنات عندهم مكروه ذميم، فهو المثل السوء الذي أخبر الله تعالى أنه لهم وليس في البنات فقط، لكن لما جعلوه هم في البنات جعله هو لهم على الإطلاق في كل سوء، ولا غاية بعد عذاب النار.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَى الْأَعْلَى﴾ على الإطلاق أيضاً، أي: الكمال المستقر، وقال قتادة: المثل الأعلى: لا إله إلا الله. وباقي الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَاهُ اللَّهُ لَنَسَا﴾ الآية. ﴿يُرَآخِذُ﴾ هو يُفَاعِل من أخذ، كأن أحد المؤاخذين يأخذ من الآخر مأخذاً كما هي في حق الله تعالى، أو بإذابة من جهة المخلوقين، فيأخذ الآخر من الأول بالمعاقبة والجزاء، وهي لغتان: وَآخِذٌ، وَآخِذٌ، ويُؤاخِذُ يصح أن تكون من آخذ، وأما كونها من واخذ فبين، والضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ عائد على الأرض، ويمكن ذلك مع أنه لم يجر لها ذكر لشهرتها، ويمكن الإشارة إليها كما قال لبيد في الشمس:

حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ يَدَا فِي كَافِرٍ
وَأَجَسَ عَوْرَاتِ الْبِلَادِ ظِلَامُهَا
ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، ولم يجر للشمس ذكر. وقوله: ﴿بَيْنَ دَابَّوْ﴾، «بَيْنَ» دخلت لاستغراق الجنس، وظاهر الآية أن الله تعالى أخبر أنه لو أخذ الناس بعقاب يستحقونه بظلمهم في كفرهم ومعاصيهم لكان ذلك العقاب يهلك عنه جميع ما يدب على الأرض من حيوان، فكأنه بالقحوط أو بأمر يصيبهم من الله تعالى، وعلى هذا التأويل قال بعض العلماء: كاد أنْجَعَلَ أن يهلك بذنوب بني آدم، ذكره الطبري، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليَهْزُلُ العوْثَ في الماء والطير في الهواء بذنوب

ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً،
وقيل للنبي ﷺ: أنهلك
وفينا الصالحون؟ قال:
«نعم، إذا كثر الخبيث». ثم
لا بد من تعلق ظلم ما
بالأبرياء؛ وذلك بترك
التغيير ومداجنة أهل الظلم
ومداومة جوارهم،
و«الأجل المُسمى» في هذه
الآية هو بحسب شخص
شخص، وفي معنى الآية
ضمائر كثيرة تركتها
اختصاراً وإيجازاً.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ يريد البنات،
و[ما] في هذا الموضع تقع
لمن يعقل من حيث هو
صنف، وقرأ الحسن: ﴿أَلَيْسَتْهُمُ
الْكُذُوبُ﴾ بسكون النون خوفاً من توالي
الحركات، وقرأ الجمهور: ﴿الْكُذُوبُ﴾
بكسر الذال وفتح الباء، فـ[أَنَّ] بدل
منه، وقرأ معاذ بن جبل
رضي الله عنه وبعض أهل الشام بضم
الكاف والذال والباء على صفة
الألسنة، و[أَنَّ] مفعولة بـ﴿نَصِيفُ﴾.
و﴿الْمُسْنَى﴾ قال مجاهد، وقاتدة: يريد
المذكور من الأولاد، وهو الأسبق من
معنى الآية، وقالت فرقة: يريد الجئة،
ويؤيد هذا قوله: ﴿لَا جَرَءَ أَنْ لَمْ
أَلْزَأْ﴾، ومعنى الآية على هذا
التأويل: يجعلون الله المكروه ويدعون
مع ذلك أنهم يدخلون الجئة، كما
تقول لرجل: أنت تعصى الله وتقول -
مع ذلك - إنك تنجو، أي: إن ذلك
لبعيد مع هذا، ثم حكم عليهم بعد
ذلك بالنار، وقد تقدم القول في «لا

جَرءَ»، وقرأ الجمهور: ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾
بفتح الهمزة، وإعرابها بحسب تقدير
﴿جَرءَ﴾، فمن قَرَّرها بـ«كسب فعلهم»
فهو نصب، ومن قدرها بـ«وجب» فهو
رفع، وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر:
﴿إِنَّ﴾ بكسرة الهمزة، وقرأ السبعة
سوى نافع: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ بفتح الراء
خفيفة، ومعناه: مقدمون إلى النار
والعذاب، وهي قراءة الحسن،
والأعرج، وأصحاب ابن عباس، وقد
رويت عن نافع، وهو مأخوذ من «فرط
الماء»، وهم القوم الذين يتقدمون إلى
المياه لإصلاح الدلاء والأرشاء، ومنه
قول النبي ﷺ: «أنا فرطكم على
الحوض»، ومنه قول القطامي:

وَأَسْتَجْلُونَا وَكَانُوا مِنْ صَحَابَتِنَا
كَمَا تَعَجَّلَ فَرَّاطٌ لِيُزَادَ
وقالت فرقة: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ معناه:
مُخْلَفُونَ متروكون في النار مُتَبَيِّهُونَ
فيها، قاله سعيد بن جبیر، ومجاهد،
وابن هند، وقال آخرون: ﴿مُفْرَطُونَ﴾
معناه: مُبْعَدُونَ في النار، وهذا قريب
من الذي قبله، وقرأ أبو جعفر بن
القعقاع: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ بكسر الراء
وتشديدها وفتح الفاء، ومعناه:
مُقَصَّرُونَ في طاعة الله تبارك
وتعالى، وقد روي فتح الراء مع
شدها، وقرأ نافع وحده:
﴿مُفْرَطُونَ﴾ بكسر الراء وخفتها،
وهي قراءة ابن مسعود، وابن عباس،
وأبي رجاء، وشيبة بن نصاح، وأكثر
أهل المدينة، أي: متجاوزون للحد
في معاصي الله.

﴿٦٣﴾ - ﴿٦٤﴾ تفسير قوله عز وجل:
هذه آية ضرب مثل لهم بمن تقدم،
وفي ضمنها وعيد لهم وتأنيس

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَإِنْ لَكُمُ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِيُفَكِّرَ الَّذِينَ
فِي طُغْيَانٍ مِنْ بَيْنِ قَرْبٍ وَدَمْرٍ لَنَا خَالِصًا يَأْتِي الشَّارِبِينَ ﴿٦٤﴾
وَمِنْ نَعْمَاتِ الْخَيْلِ وَالْأَنْعَامِ لَنُخِذُوهُمْ مِنْهُمْ سَكْرًا وَرِزْقًا
حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ
أَنِ امْكُذِي مِنْ لِبْنَالٍ يَخُونَ وَأَنْ السَّجِرَ وَمِمَّا يَخْرِشُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ عَلَى
مِنْ كُلِّ الشَّيْءِ فَاسْئَلِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ طُغْيَانِهَا
شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
يَنْفَكِرُونَ ﴿٦٧﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْرِكُ الْأَنْزَالَ
الْمُؤْمَرُ لَكِي لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٦٨﴾ وَاللَّهُ
فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدٍ
رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ
اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ بَيْنَ وَحْشَةً وَرِزْقَكُمْ مِنْ
الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِزَّةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

٢٧٤

العصاة»، وسمع أبو هريرة رجلاً
يقول: «إن الظالم لا يهلك إلا نفسه»،
فقال أبو هريرة: «إن الله ليهلك
الحباري في وكورها هُزالاً بذنوب
الظلمة»، وقد نطقت الشريعة في
أخبارها بأن الله أهلك الأمم بَرَّها
وعاصيها بذنوب العصاة منهم. وقالت
فرقة: قوله: ﴿مِنْ ذَاتِهِ﴾ يريد: من
أولئك الظلمة فقط، ويدل على هذا
التخصيص أن الله تعالى لا يعاقب
أحداً بذنب أحد، واحتجت بقوله
تعالى: ﴿وَلَا تَزِدُْوا رِزْقَهُمْ إِلَّا ضَرِيًّا﴾،
وهذا كله لا حجة فيه؛ وذلك أن الله
تعالى لا يجعل العقوبة تقصد أحداً
بسبب إذنب غيره، ولكنه إذا أرسل
عذاباً على أمة عاصية لم يمكن البريء
التخلص من ذلك العذاب، فأصابه
العذاب لا بأنه له مجازاة، ونحو هذا
قوله: ﴿وَأَنفِقُوا فَنَنَ لَا تُصِيبَ الَّذِينَ

للنبي ﷺ، وقوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ يحتمل أن يريد به يوم الإخبار بهذه الآية، وهو بعد موت أولئك الأمم المذكورة، أي: لا ولي لهم مذ ماتوا واحتاجوا إلى الغوث إلا الشيطان، ويحتمل أن يريد يوم القيامة، والآلف واللام فيه للعهد، أي: هو وليهم في اليوم المشهود، وهو وقت الحاجة والفصل، ويحتمل أن يريد: فهو وليهم مدة حياتهم ثم انقطعت ولايته بموتهم، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ تمثيلاً للمخاطبين بمدة حياتهم، كما تقول لرجل شاب تحضه على طلب العلم: يا فلان لا يدرس أحد من الناس إلا اليوم، تريد: في مثل سنك هذه، فكأنه قال لهؤلاء: فهو وليهم في مثل حياتكم هذه، وهي التي كانت لهم، وسائر الآية وعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يريد القرآن، وقوله: ﴿إِلَّا لِإِثْبَاتِ﴾ في موضع المفعول من أجله، وقوله: ﴿وَهَذِي وَرَحْمَةٌ﴾ عطف عليه، كأنه قال: إلا للبيان، أي لأجل البيان، وقوله: ﴿الَّذِي أَخْلَلُوا بِهٖ﴾ لفظ عام لأنواع كفر الكفرة من الجحد بالله تعالى وبالقيامة، أو بالتبوتات وغير ذلك، ولكن الإشارة في هذه الآية إنما هي لجحدهم الربوبية، وتشريكهم الأصنام في الإلهية، يدل على ذلك أخذه بعد هذا في إثبات العبر الدالة على أن الأنعام وسائر الأفعال إنما هي من الله تعالى لا من أصنام.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الآية. لما أمر تبين ما اختلف

فيه نص العبر المؤدية إلى بيان أمر الربوبية، فبدأ بنعمة المطر التي هي أبين العبر، وهي ملاك الحياة، وفي غاية الظهور، لا يخالف فيها عاقل، وحياة الأرض وموتها استعارة وتشبيه بالحيوان؛ إذ هي هامة غبراء غير مثبتة فهي كالصيت، وإذ هي مثبتة مخضرة مهتزة رابية فهي كالحي. وقوله: ﴿يَسْتَعْبِدُونَ﴾ يدل على ظهور هذا المعبر فيه وبيانه؛ لأنه لا يحتاج إلى تفكير ولا نظر قلب، وإنما يحتاج المنبه إلى أن يسمع القول فقط.

و﴿الْأَنْعَامِ﴾ هي الأصناف الأربعة: الإبل والبقر والضأن والمعز، و﴿الْعِبْرَةُ﴾: الحال المعبر فيها، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم - في رواية أبي بكر - وابن مسعود - بخلاف - والحسن، وأهل المدينة: ﴿نَسْقِيكُمْ﴾ بفتح النون، من أسقى يسقي، وقرأ الباقون، وحفص عن عاصم بضم النون، وهي قراءة الكوفيين وأهل مكة، وقال بعض أهل اللغة: هما لغتان بمعنى واحد، وقالت فرقة: تقول لمن سقيته بالشفة أو من مرة واحدة: سَقَيْتُهُ، وتقول لمن ثمر سَقِيَهُ أو تمنحه شرباً: أَسَقَيْتُهُ، وهذا قول من قرأ: ﴿نَسْقِيكُمْ﴾، لأن ألبان الأنعام من المُسْتَجِرِّ للبشر، وأنشد من قال: «إنهما لغتان بمعنى» قول لبيد:

سَقَى قَوْمِي بَنِي بَدْرٍ وَأَسَقَى
نُسَيْرًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هَلَالٍ
وذلك لازم؛ لأنه لا يدعو لقومه بالقليل. وقرأ أبو رجاء: ﴿نَسْقِيكُمْ﴾ بالياء، أي: يسقيكم الله، وقرأت

فرقة: ﴿نَسْقِيكُمْ﴾ بالياء، وهي ضعيفة، وكذلك اختلف القراء في سورة المؤمنين، وقوله: ﴿يَمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ الضمير عائد على الجنس، وعلى المذكور، كما قال الشاعر:

مِثْلُ الْفِرَاحِ نُسِفَتْ حَوَاصِلُهُ
وهذا كثير، كقوله سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَدْعُونَ شَاةَ ذَكْوَى﴾، وقيل: إنما قال: ﴿بُطُونِهِ﴾ لأن الأنعام والثعم واحد فرد، والضمير على معنى الثعم، وقالت فرقة: الضمير عائد على «البعض»؛ لأن الذكور لا ألبان فيها، فكأن العبرة إنما هي في بعض الأنعام. و﴿الْفَرْثُ﴾: ما ينزل إلى الأمعاء، و﴿السَّائِبُ﴾: المُسَهَّل في الشرب اللذيذ، وقرأت فرقة: ﴿سَيْغًا﴾ بشد الياء، وقرأ عيسى الثقفي: ﴿سَيْغًا﴾ بسكون الياء، وهي تخفيف من «سَيْغ» كَمَيَّتْ وَهَيَّتْ، وليس وزنها فعلاً؛ لأن اللفظة واوية، ففعل منها «سَوَّغ»، ورؤي أن اللبن لم يشرق به أحد قط، روي ذلك عن النبي ﷺ.

(٦٧) - (٦٨) تفسير قوله عز وجل: قال الطبري: التقدير: ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون. وقالت فرقة: التقدير: ومن ثمرات النخيل والأعناب شيء تتخذون منه، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ﴾ عطفاً على ﴿الْأَنْعَامِ﴾، أي: ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عبرة، ويجوز أن يكون عطفاً على «بمما»، أي: ونسقيكم أيضاً مشروبات من ثمرات. و«السُّكَّر»: ما يُسَكَّر، هذا هو المشهور في اللغة، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه

الآية قبل تحريم الخمر، وأراد «بالسكر» الخمر، و«بالرزق الحسن» جميع ما يُشرب ويؤكل حلالاً من هاتين الشجرتين، فالحسنُ ما هنا الحلال، وقال هذا القول ابن جبير، وإبراهيم، والشعبي، وأبو رزين، وقال الحسن بن أبي الحسن: ذكر الله نعمته في السكر قبل تحريم الخمر، وقال الشعبي، ومجاهد: السكر: المايح من هاتين الشجرتين كالخل والرُب والتبذ، والرزق الحسن: العنب والتمر، قال الطبري: والسكر أيضاً في كلام العرب: ما يطعم، ورجح الطبري هذا القول. ولا يدخل الخمر فيه، ولا نسخ من الآية شيء، وقال بعض الفرقة التي رأت السكر الحُرْم: إن هذه الآية منسوخة بتحريم الخمر، وفي هذه المقالة درك؛ لأن النسخ إنما يكون في حكم مستقر مشروع، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «حُرمت الخمر لعينها، والسكر من غيرها»، هكذا روي، والرواية الصحيحة بفتح السين والكاف، أي: جميع ما يُسكر منه حُرْم على حد تحريم الخمر قليله وكثيره، ورواه العراقيون و«السكر» بضم السين وسكون الكاف، وهو مبني على فقههم من أن ما أسكر كثير من غير خمرة العنب فقليله حلال، وباقى الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ﴾ الآية. الوحي في كلام العرب إلقاء المعنى من الموجي إلى الموحى إليه في خفاء، فمنه الوحي إلى الأنبياء برسالة الملك، ومنه

وحي الرؤيا، ومنه وحي الإلهام وهو الذي ها هنا باتفاق المتأولين، والوحي أيضاً بمعنى الأمر، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿إِلَى النَّحْلِ﴾ بفتح الحاء، و﴿يَأْتِيَنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنْ أَتَيْتَ﴾ مفسرة. وقد جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة: إما في الجبال وكوهاها، وإما في متجوف الأشجار، وإما فيما يعرش ابن آدم من الأجباح والحيطان ونحوها. «وعرش» معناه: هيأ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من اتفاق الأغصان والخشب وترتيب ظلالها، ومنه العريش الذي صنَّع لرسول الله ﷺ يوم بدر، ومن هذا هي لفظة العرش، ويقال: عرش يَغْرش ويغْرش بكسر الراء وضمها، وقرأ ابن عامر بالضم، وسائرهم بالكسر، واختلف عن عاصم، وجمهور الناس على الكسر، وقرأ بالضم أبو عبد الرحمن، وعُبَيْد بن نضلة، وقال ابن زيد في قوله: ﴿يَبْرُشُونَ﴾ قال: الكروم، وقال الطبري: ﴿وَمِمَّا يَبْرُشُونَ﴾ يعني: ما يبنون من السقوف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا منهما تفسير غير مُتَقَن.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ الآية. المعنى: ثم أَلْهَمَهَا أَنْ كُلِّي، بعطف ﴿كُلِي﴾ على ﴿أَتَيْتَ﴾، و﴿يَنْ﴾ للتبعيض، أي: كُلِّي جزءاً أو شيئاً من كل الثمرات، وذلك أنها إنما تأكل الثَّوَار من الأشجار. و«السُّبُل»: الطرق، وهي مسالكها في الطيران وغيره، وأضافها إلى الرَّبِّ من حيث هي مِلْكُه

وخلقه، أي: التي يَسِّرُ لِكَ رَبِّكَ. وقوله: ﴿ذَلَّلَ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من ﴿أَفَلَّ﴾، أي: مطبوعة منقادة لما يُسِّرُ له، قاله قتادة، وقال ابن زيد: فهم يخرجون بالنحل يتجمعون، وهي تتبعهم، وقرأ: ﴿أَوْ لَمْ يَزُوا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ إلى قوله: ﴿يَأْكُلُونَ﴾، ويحتمل أن يكون حالاً من «السُّبُل»، أي: مُسَهَّلَةً مستقيمة، قال مجاهد: لا يتوغر عليها سبيل تسلكه.

ثم ذكر تبارك وتعالى - على جهة تعديد النعمة والتنبية على العبرة - أمرَ العسل في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾، وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل، ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في تحقيره للدنيا: «أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة، وأشرف شرابه رجيع نحلة». فظاهر هذا أنه من غير الفم، واختلاف الألوان في العسل بحسب اختلاف النحل والمراعي، وقد يختلف طعمه بحسب اختلاف المرعي، ومن هذا المعنى قول زينب رضي الله عنها للنبي ﷺ: «جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطُ»، حين شبهت رائحته برائحة المغافير.

وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، الضمير للعسل، قاله الجمهور: ولا يقتضي العموم في كُلِّ عِلَّة، وفي كُلِّ إنسان، بل هو خبر عن أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في بعض، وعلى حال دون حال، ففي الآية إخبارٌ منبّه على أنه دواءٌ لما كثر الشفاء به وصار خليطاً ومعيناً للأدوية

والأشربة والمعاجن، وقد رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان لا يشكو شيئاً إلا تداوى بالعسل، حتى أنه كان يدهن به الدمل والقرصة ويقرأ: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يقتضي أنه يرى الشفاء به على العموم، وقال مجاهد: الضمير للقرآن، أي: فيه شفاء، وذهب قوم من أهل الجاهلية إلى أن هذه الآية إنما يراد بها أهل البيت من بني هاشم، وأنهم النحل، وأن الشراب القرآن والحكمة، وقد ذكر بعضهم هذا في مجلس المنصور أبي جعفر العباسي، فقال له رجل ممن حضر: جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بني هاشم، فأضحك الحاضرين وأبهت الآخر، وظهرت سخافة قوله، وباقي الآية بين.

٧١ - ٧٢ تفسير قوله عز وجل:

هذا تنبيه على الاعتبار في إيجابنا بعد العدم وإماتتنا بعد ذلك، ثم اعترض بمن ينكس من الناس لأنهم موضع عبرة، و«أرذل العمر»: آخره الذي تفسد فيه الحواس ويختل النطق، وخص ذلك بالرديلة - وإن كانت حالة الطفولة كذلك - من حيث كانت هذه لا رجاء معها، والطفولة إنما هي بداءة الرجاء معها متمكن، وقال بعض الناس: أول أرذل العمر خمس وسبعون سنة، رُوي ذلك عن علي رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا في الأغلب، وهو لا ينحصر إلى مدة معينة، وإنما هو بحسب إنسان وإنسان. والمعنى: ومنكم من

يرتد إلى أرذل عمره، ورُب من يكون ابن خمسين سنة وهو في أرذل عمره، ورُب ابن مائة أو تسعين وليس في أرذل عمره، واللام في ﴿لِكَيْلَا﴾ يشبه أن تكون لام صيرورة، وليس بيبين، والمعنى: لئبصير أمره بعد العلم بالأشياء إلى ألا يعلم شيئاً، وهذه عبارة عن قلّة علمه، لا أنه لا يعلم شيئاً البتّة، ولم تحل (لا) بين كي ومعمولها لتصرفها، وأنها قد تكون زائدة. ثم قرر تبارك وتعالى علمه وقدرته التي لا تتبدّل، ولا تحيلها الحوادث، ولا تتغير.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْوَرْثَةِ﴾ إخبار يراد به العبرة، وإنما هي قاعدة بني المثل عليها، والمثل هو أن المفضلين لا يصح منهم أن يساهموا بماليتهم فيما أعطوا حتى تستوي أحوالهم، فإذا كان هذا في اليسير فكيف تنسبون أنتم أيها الكفرة إلى الله تعالى أنه يسمح بأن يشرك في ألوهيته الأوثان والأنصاب وهم خلقه، وغير هذا مما عُدّ كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقته؟ هذا تأويل الطبري، وحكاة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحكي عنه أن الآية مشيرة إلى عيسى عليه السلام. قال المفسرون: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿حَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية، ثم وقفهم على جحدهم بنعمة الله في تنبيههم لهم على مثل هذا من مواضع النظر المؤدي إلى الإيمان. وقرأ الجمهور، وحفص عن عاصم:

﴿يَحْمَدُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأها أبو بكر عن عاصم بالتاء، وهي قراءة أبي عبد الرحمن، والأعرج - بخلاف عنه -، وهي على معنى: قل لهم يا محمد، قال قتادة: لا يكون الجحد إلا بعد معرفة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْآيَةَ آيَةً تَعْلَمُونَ نِعْمَ وَالْأَرْوَاحُ﴾: الزوجات، ولا يترتب في هذه الآية الأنواع ولا غير ذلك، وقوله: ﴿وَمِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يحتمل أن يريد خلقه حواء من نفس آدم وجسمه، فمن حيث كان مبتدأ الجميع ساغ حمل أمرهما على الجميع حتى صار الأمر كأن النساء خلقن من أنفس الرجال، وهذا قول قتادة، والأظهر عندي أن يريد بقوله: ﴿وَمِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من نوعكم وعلى خلقكم، كما قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنًا﴾ ظاهر في تعديد النعمة في الأبناء، واختلف الناس في قوله: ﴿وَحَفْدَةً﴾ - قال ابن عباس: الحفدة: أولاد البنين، وقال الحسن: هم بنوك وبنو بنيك، وقال ابن مسعود، وأبو الضحى، وإبراهيم، وسعيد بن جبير: الحفدة: الأصهار، وهم قرابة الزوجة، وقال مجاهد: الحفدة: الأنصار والأعوان والخدم، وحكى الزجاج أن الحفدة البنات في قول بعضهم، قال الزهراوي: لأنهن خدم الأبوين، ولأن لفظة «البنين» لا تدل عليهن، ألا ترى أنهن لسنن في قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلَلَّاتُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وإنما

لمحمد عليه الصلاة والسلام على إيمانهم بالباطل وكفرهم بنعمة الله، وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاء من فوق، ورويت عن عاصم، على معنى: قل لهم يا محمد، ويحيى قوله بعد ذلك: ﴿وَيَسَمَّى اللَّهُ هُمَ يَكْفُرُونَ﴾ إخباراً مجرداً عنهم، وحكماً عليهم لا توقيفاً، وقد يحتمل التوقيف أيضاً على قلة اطراد في القول.

(٧٣) - (٧٥) تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تقرير للكفار وتوبيخ، وإظهار لفساد نظرهم، ووضع لهم من الأصنام في الجهة التي فيها سعي الناس وإليها مهمهم، وهي طلب الرزق، وهذه الأصنام لا تملك إزال المطر ولا إنبات نعمة، مع أنها لا تملك ولا تستطيع أن تحاول ذلك من مَلِكِ الله تعالى. وقوله: ﴿رِزْقًا﴾ مصدر، ونصبه على المفعول به ﴿يَمْلِكُ﴾.

وقوله: ﴿شَيْئًا﴾ ذهب كثير من النحويين إلى أنه منصوب على البدل من قوله: ﴿رِزْقًا﴾، و﴿رِزْقًا﴾ اسم، وذهب الكوفيون - وأبو علي معهم - إلى أنه منصوب بالمصدر في قوله: ﴿رِزْقًا﴾، ولا نقدره اسماً، وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَّحَىٰ بِهَا لَهَادَ الْأَرْضِ كَفَاتَا﴾ ﴿أَوَّحَىٰ بِهَا لَهَادَ الْأَرْضِ كَفَاتَا﴾، ومنه قوله: ﴿أَوَّحَىٰ بِهَا لَهَادَ الْأَرْضِ كَفَاتَا﴾، فنصب [يَتِيمًا] بـ [إِطْعَامًا]، ومنه قول الشاعر:

فَلَوْلَا رَجَاءُ النَّصْرِ مِنْكَ وَرَهْبَةٌ
عِقَابِكَ قَدْ صَارُوا لَنَا كَالْمَوَارِدِ
والمصدر يعمل مضافاً باتفاق؛ لأنه في تقدير الانفصال، ولا يعمل إذا دخله الألف واللام؛ لأنه قد توغل

عندي أن قوله: ﴿يَزِيدُكُمْ﴾ إنما هو على العموم والاشتراك، أي: إن من أزواج البشر جعل الله لهم البنين، ومنهم جعل الخدمة، فمن لم يكن له زوجة فقد جعل الله له حفدة وحصل تلك النعمة، وأولئك الحفدة هم من الأزواج، وهكذا تترب النعمة التي تشمل جميع العالم، وتستقيم لفظة «الحفدة» على مجراها في اللغة، إذ البشر بجملتهم لا يستغني أحد منهم عن حفدة. وقالت فرقة: الحفدة هم

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَصْرِيحُ بِاللَّهِ الْأَمْثَالُ
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا
مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمِن رَّزْقِنَا مَنَارًا خَاسِنًا
فَهُوَ يَبْقَىٰ مِنهُ سِرٌّ وَجَهَرٌ هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَا آتَاكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ
مَوْلَاهُ أَيْمَانًا يُوَجِّهُهُ لَأَيَاتٍ بِحَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ
لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾
أَلَمْ يَرْوِ إِلَى الطَّيْرِ مَسْخَرَتِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

٢٧٥

البنون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يستقيم على أن تكون الواو عاطفة صفة لهم، كما لو قال: جعلنا لهم بنين وأعوأنا، أي: وهم لهم أعوان، فكانه قال: وهم حفدة.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُمْ يَنَ الطَّيْرِ﴾ يريد: المِلْدُ من الأشياء التي تطيب لمن يُرزقها، ولا يقتصر هنا على الحلال؛ لأنهم كفار ولا يكتسبون بشرع، وفي هذه الآية رد على من قال من المعتزلة: «إن الرزق إنما يكون الحلال فقط»، ولهم تعلّق في لفظة [يَنَ] إذ هي للتبعية، فيقولون: ليس الرزق المعدد عليهم من جميع ما بأيديهم إلا ما كان حلالاً.

وقرأ الجمهور: ﴿يُؤْمَرُونَ﴾ وتجيء الآية - على هذه القراءة - توقيفاً

الزينة في الذكور، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: الحفدة: أولاد زوجة الرجل من غيره، ولا خلاف أن معنى «الحفدة» هو الخدمة والبر والتمشي في الطاعة مسرعاً، ومنه في القنوت: «واليك نسعى ونحفد»، والحفدان: حَبَبٌ فوق المشي، ومنه قول الشاعر وهو جميل بن معمر:

حَفَدَ الْوَلَايِدَ بَيْنَهُنَّ وَأَسْلِمَتْ
بِأَكْفِهِنَّ أَرْثَةَ الْأَجْمَالِ
ومنه قول الآخر:

كَلَفْتُ مَجْهُولَهَا ثَوْقًا يَمَانِيَّةً
إِذَا الْخُدَاةُ عَلَى أَكْسَائِهَا حَفَدُوا
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الفِرْق التي ذكرت أقوالها إنما بنت على أن كل أحد يجعل له من أزواجه بنين وحفدة، وهذا إنما هو في الغالب وعظم الناس، ويحتمل

في حال الأسماء، ويُعد عن الفعيلة،
وتقدير الانفصال في الإضافة حسن
عمله، وقد جاء عاملاً مع الألف
واللام في قول الشاعر:
ضَعِيفُ التَّكَايَةِ أَعْدَاءُهُ
.....
وقوله:

... عَنِ الضَّرْبِ مِسْمَعًا
وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ﴾ على لفظ
[ما]، وقوله: ﴿يَسْتَلْبِثُونَ﴾ على
معناها بحسب اعتقاد الكفار في
الأصنام أنها تعقل، ويحتمل أن
يكون الضمير في ﴿يَسْتَلْبِثُونَ﴾ للذين
يعبدون، والمعنى: لا يستطيعون
ذلك ببرهان يظهرونه وَحْجَةً يَبَيِّنُونَهَا.
وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا﴾ أي: لا
تُمَثِّلُوا الله الأمثال، وهو مأخوذ من
قولك: «هذا ضريب هذا» أي مثيله،
والضرب: النوع، تقول: الحيوان
على ضروب، وهذا من ضرب
واحد، وباقي الآية يبين.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾
الآية. الذي هو مثال في هذه الآية
هو عبد بهذه الصفة مملوك، لا يقدر
على شيء من المال ولا من أمر
نفسه، وإنما هو مُسَخَّر بِإِِرَادَةِ سيِّده
مدبِّر، ولا يلزم من الآية أن العبيد
كلهم بهذه الصفة كما انتزع بعض من
ينتحل الفقه، وقد قال في المثل
الثاني: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾، فيلزم
- على هذا الانتزاع - أن يكون البُكْم
لا شيء لهم، وإِِرْزَاءُ العبد في المثال
رجل مُوسَّع عليه في المال فهو
يتصرف فيه بإِِرَادَتِهِ، ولا يلزم من
نفس المثال أن يكون مؤمناً ينفق

بحسب الطاعة، أما إنه أشرف أن
يكون مثلاً.

و «الرُّزْقُ»: ما صحَّ الانتفاع به،
وقال أبو منصور في عقيدته: «الرُّزْقُ
ما وقع الاغتذاء به»، وهذه الآية تردُّ
على هذا التخصيص، وكذلك قوله
تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾،
و﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وغير ذلك
من قول النبي ﷺ: «وَجُعِلَ رِزْقِي
فِي ظِلِّ زُمُجِي» وقوله: «أَرْزَأَقُ أُمْتِي
فِي سَنَابِكِ خَيْلِهَا وَأَسِنَّةِ رِمَاحِهَا»،
فالغنيمة كلها رزق، والصحيح أن ما
صح الانتفاع به هو الرزق، وهو
مراتب، أعلاها ما تُغْذِي به، وقد
حصر رسول الله ﷺ وجوه الانتفاع
في قوله: «يقول ابن آدم: مالي
مالي، وهل لك من مالك إلا ما
أَكَلْتُ فَأَنْفَيْتُ، أو لبست فألبيت، أو
تصدقت فأَمْضَيْتُ؟». وفي معنى
اللباس يدخل الركوب.

واختلف الناس في الذي له هذا
المثل - فقال قتادة، وابن عباس: هو
مثل الكافر والمؤمن، فكأن الكافر
مملوك مصروف عن الطاعة، فهو لا
يقدر على شيءٍ لذلك، ويشبه العبد
المذكور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والتمثيل - على هذا التأويل - إنما
وقع في جهة الكافر فقط، جعل له
مثلاً، ثم قرن بالمؤمن المرزوق، إلا
أن يكون المرزوق ليس بمؤمن،
وإنما هو مثال للمؤمن، فيقع التمثيل
من جهتين، وقال مجاهد،
والضحاك: هذا المثال، والمثال
الآخر الذي بعده إنما هو الله تعالى
والأصنام، فتلك هي كالعبد المملوك

الذي لا يقدر على شيء، والله تعالى
تتصرف قدرته دون معقِّب، وكذلك
فسر الزجاج على نحو قول مجاهد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا التأويل أصوب؛ لأن الآية
تكون من معنى ما قبلها وما بعدها
في تبين أمر الله تبارك وتعالى والرَّد
على الأصنام. وذكر الطبري عن ابن
عباس رضي الله عنهما أنه قال:
نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان
رضي الله عنه وعبد كان له، وروي
تعيين غير هذا لا يصح إسناده،
والمثال لا يحتاج إلى تعيين أحد،
وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكر على
بيان الأمر بهذا المثال، وعلى إذعان
الخصم له، كما تقول لمن أذعن لك
في حجةٍ وسلَّم ما ينبي عليه قولك:
الله أكبر، وعلى هذا يكون كذا
وكذا، فلما قال هنا: ﴿هَلْ
يَسْتَوُونَ﴾ فكأن الخصم قال له:
لا، فقال: الحمد لله، ظهرت
الحجة، وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ يريد: لا يعلمون أبداً ولا
يدخلهم إيمان، ويتمكن على هذا
قوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأن الأقل من
الكفار هو الذي يؤمن، وهو الذي
آمن من أولئك، ولو أراد بقوله: ﴿لَا
يَعْلَمُونَ﴾ أي الآن لكان قوله:
﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ بمعنى الاستيعاب؛ لأنه لم
يكن أحد منهم يعلم قوله.

٧٦ - ٧٩ تفسير قوله عز وجل:

هذا مثل الله تعالى وللأصنام، فهي
كالأبكم لا نطق له ولا يقدر على
شيء، وهو عيال على من والاه من
قريب أو صديق، و«الكُلُّ»: الثقل
والمؤونة، وكل محمول فهو كُلٌّ،

وَالَّذِينَ: الآية، أخبر تعالى أن الغيب له يملكه ويعلمه، وقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَجِّ الْبَصْرِ﴾ إخبارٌ بالقدرة، وحجة على الكفار، والمعنى على ما قال قتادة وغيره: «ما تكون الساعة وإقامتها في قدرة الله تعالى إلا أن يقول لها: كن»، فلو اتفق أن يقف على ذلك محصل من البشر لكانت من السرعة بحيث يقول: هل هي كلمح البصر أو هي أقرب من ذلك؟ ف[أ] - على هذا - على بابها للشك،

وقيل: هي للتخيير، و«لَمْخُ الْبَصْرِ» هو وقوعه على المرئي، وقوى هذا الإخبار بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، يريد: على كل شيء مقدور، ومن قال: «﴿وَمَا أُنْزِلَ السَّاعَةِ﴾ أي: وما إتيانها ووقوعها بكم، على جهة التخويف من حصولها - ففيه بُعد وتجاوز كثير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: من قول النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، ومن ذكره ما ذكر من أشراف الساعة ومهلتها، ووجه التأويل أن القيامة لما كانت آتية ولا بُدَّ جعلت من القرب كلمح البصر، كما يقال: ما السَّنة إلا لحظة، إلا أن قوله: «أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» يرد أيضاً هذه المقالة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ الآية تعديد نعمة بيئة

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَاوُمتَعَالَى إِلَى جِنِّ ٨٠ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٨١ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ٨٢ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَمُكِّرُونَهَا وَكَثَرَتْهُمْ الْكَافِرُونَ ٨٣ وَيَوْمَ يُعْثَبُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ إِنَّهُ لَا يُوْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يَسْتَعِينُونَ ٨٤ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يَخَفُوا عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ٨٥ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ٨٦ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّعْدُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٨٧

٢٧٦

وسمى البيتيم كلاً، ومنه قول الشاعر:

أَكُولُ لِمَالِ الْكَلِّ قَبْلَ شَبَابِهِ
إِذَا كَانَ عَظُمَ الْكَلِّ غَيْرَ شَدِيدٍ
كما أن الأصنام تحتاج إلى أن تنقل وتخدم ويُتَعَذَّبُ بها ثم لا يأتي من جهتها خير البتة، هذا قول قتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو مثل للكافر، وقرأ ابن مسعود: «يُؤْجَهُ»، وقرأ علقمة: «يُؤْجَهُ»، وقرأ الجمهور: «لَا» وهي خطأ المصحف، وقرأ يحيى بن وثاب: «تَوْجَهُ»، وقرأ ابن مسعود أيضاً: «تَوْجَهُ» على الخطاب، وضعف أبو حاتم قراءة علقمة لأن الجزم لازم، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى، وقال ابن عباس: هو المؤمن، «والصراط»: الطريق.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ

لا ينكرها عاقل، وهي نعمة يقبح معها كفرها وتصريفها في الإشراف بالذي وهبها، فالله تعالى أخبر أنه أخرج ابن آدم لا يعلم شيئاً، ثم جعل حواشيه التي قد وهبها له في البطن سُلماً إلى إدراك المعارف ليشكر على ذلك ويؤمن بالمنعم عليه. و«أُمَّهَات» أصله أُمات، وزيدت الهاء مبالغة وتأكيذاً، كما زادوا الهاء في «أعمرت الماء»، قاله أبو إسحق. وفي هذا المثال نظر، وقيل غير هذا، وقرأ حمزة، والكسائي: «﴿أُمَّهَاتُ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ الأعمش: «﴿فِي بُطُونِ مَهَاتِكُمْ﴾ بحذف الهمزة وكسر الميم، وقرأ ابن أبي ليلى بحذف الهمزة وفتح الميم مُشَدَّدة، قال أبو حاتم: «حذف الهمزة رديء، ولكن قراءة ابن أبي ليلى أصوب»، والتَّرجِي الذي في «لَعَلَّ» هو بحسبها، وهذه الآية تعديد نِعَم وموضع اعتبار.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الظَّيْرِ﴾ الآية، قرأ طلحة بن مصرف، والأعمش، وابن هرمز: «﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ بالثاء، وقرأ أهل مكة والمدينة: «﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ بالياء على الكناية عنهم، واختلف عن الحسن، وعاصم، وأبو عمرو، وعيسى الشقفي. و«الْجَوْ»: مسافة ما بين السماء والأرض، وقيل: هو ما يلي الأرض منها، وما فوق ذلك هو اللوح، والآية عبرة بيئة المعنى، تفسيرها تكلف بحت.

تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تعديد نعمة الله على الناس في البيوت، فذكر أولاً بيوت التمدن

وهي التي للإقامة الطويلة، وهي عَظُم بيوت الإنسان، وإن كان الوصف بالسكن يعم جميع البيوت، والسكن مصدر يوصف به الواحد، ومعناه: يسكن فيها وإليها، ثم ذكر تعالى بيوت النقلة والرحلة.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ يحتمل أن يعم به بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف؛ لأن هذه من الجلود لكونها ثابتة فيها، نحا إلى ذلك ابن سلام، ويكون قوله: ﴿وَمِنْ أَمْوَالِهِمَا﴾ ابتداء كلام، كأنه قال: «جعل أثاثاً»، يريد الملابس والوطاء وغير ذلك، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ بيوت الأدم فقط، ويكون ﴿وَمِنْ أَمْوَالِهِمَا﴾ عطفاً على قوله: ﴿مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾، أي: جعل بيوتاً أيضاً، ويكون قوله: ﴿أَتَانَكُمْ﴾ نصيباً على الحال، و﴿تَسْتَخِفُّنَهَا﴾ أي تجدونها خفافاً، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿ظَفَنَكُمْ﴾ بفتح العين، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي بسكون العين، وهما لغتان وليس بتخفيف، و﴿ظَفَنَ﴾ معناه رَحَلَ، والأصواف للغنم، والأوبار للإبل، والأشعار للمعز والبقر، ولم تكن بلادهم بلاد قطن وكتان، ولذلك اقتصر على هذا، ويحتمل أن ترك ذكر القطن والحبر والكتان إعراضاً عن السرف؛ إذ ملبس عباد الله الصالحين إنما هو الصوف، وأيضاً فقد أشير إلى القطن والكتان في لفظة السراويل. و«الأثاث»: متاع البيت، واحدها أثانة، هذا قول أبي زيد الأنصاري، وقال غيره: الأثاث:

جميع أنواع المال، ولا واحد له من لفظه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والاشتقاق يقوي هذا المعنى الأعم؛ لأن حال الإنسان تكون بالمال أثينة، كما تقول: «شعر أثيث، ونبات أثيث» إذا كثر والتف. وقوله: ﴿إِنَّكُمْ بِحَسَبِ كُلِّ إِنْسَانٍ﴾ إم بموته، وإمّا بفقد تلك الأشياء التي هي أثاث، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

أَهَاجَتْكَ الطَّعَائِنُ يَوْمَ بَأثُوا
بِذِي الرِّزْيِ الْجَمِيلِ مِنَ الْأَثَاثِ؟
قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ الآية. نعم عددها عليهم بحسب أحوالهم وبلادهم، وأنها الأشياء المباشرة لهم؛ لأن بلادهم من الحرارة وصهر الشمس بحيث للظل غنى عظيم ونفع ظاهر. وقوله: ﴿مِمَّا خَلَقَ﴾ يعم جميع الأشخاص المظلة. و«الأكنان»: جمع كن، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك. و«السراويل»: جميع ما يلبس على البدن كالقميص والقرقل والمجول والدرع والجوشن والحفتان ونحوه. وذكر وقاية الحر إذ هو أَمْسُ في تلك البلاد على ما ذكرنا، والبرّد فيها معدوم في الأكثر، وإذا جاء في الشتوات فإنما يَتَوَقَّى بما هو أكثف من السربال من الأثاث المتقدم الذكر، فبقي السراويل لتوقي الحر فقط، قاله الطبري عن عطاء الخراساني، ألا ترى أن الله تعالى قد نههم إلى العبرة في البرد ولم يذكر لهم الثلج لأنه ليس في بلادهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن

الثلج شيء أبيض ينزل من السماء ما رأيته قط، وأيضاً قد ذكر أحدهما يدل على الآخر، ومنه قول الشاعر:

وَمَا أَذْرِي إِذَا يَمُمْتُ أَرْضاً
أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي؟
وهذه التي ذكرناها هي بلاد الحجاز، وإلا ففي بلاد العرب ما فيه برد شديد، ومنه قول مَتَمُّ:

.....
إِذَا الْقَشْعُ مِنْ بَرْدِ الشَّائِ تَقَعَّقَا
وقول الآخر:

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ الْأُنْدِيَةِ
.....

البيتين، وغير هذا، والسراويل التي تقي البأس هي الدروع، ومنه قول كعب بن زهير:

شُمُ الْعَرَابِيِّينَ أَبْطَالُ لَبُوسُهُمْ
مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ
وقال أوس بن حجر:

.....
وَلَيَنْفَمَ خَشْوُ الدُّرْعِ وَالسَّرْبَالِ
فهذا يراد به القميص.

و«البأس»: من الحديد في الحرب. وقرأ الجمهور: ﴿يُبَيِّدُ نِعْمَتَهُ﴾ وقرأ ابن عباس: ﴿تَبِيْمُ نِعْمَتِهِ﴾، على أن النعمة هي التي تتم، وزوي عنه ﴿تَبِيْمُ نِعْمَتِهِ﴾ على الجمع. وقرأ الجمهور: ﴿تَشْلِيْمُونَ﴾ من الإسلام، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿تَسْلَمُونَ﴾ من السلامة، فتكون اللفظة مخصوصة في بأس الحرب، وما في «لَعْلُ» من الترحي والتوقع فهو في حيز البشر المخاطبين، أي: لو نظر الناظر في هذه الحالة لترجى منها إسلامهم.

الرجوع إلى الدنيا فلا يعطون فيقع منهم توبة وعمل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾، أخبر الله تعالى في هذه الآية أن هؤلاء الكفرة الظالمين في كفرهم إذا أراهم الله عذاب النار وشارفوها وتحققوا كُنه شدتها فإن ذلك الأمر الهائل الذي نزل بهم لا يخفف بوجه ولا يؤخر عنهم، وإنما مقصد الآية الفرق بين ما يحل بهم وبين رزايا الدنيا، فإن الإنسان لا يتوقع أمراً من خطوب الدنيا إلا وله طمع في أن يتأخر عنه، وأن يجيشه في أخف ما يتوهم برجائه، وكذلك متى حلَّ به كان طامعاً في أن يخف، وقد يقع ذلك في خطوب الدنيا كثيراً، فأخبر الله تعالى أن عذاب الآخرة - إذا عاينه الكافر - لا طماعية فيه بتخفيف ولا تأخير.

﴿٨٢﴾ - ﴿٨٣﴾ تفسير قوله عز وجل: أخبر سبحانه وتعالى أنهم إذا رأوا يوم القيامة بأبصارهم الأوثان والأصنام وكل معبود من دون الله - لأنها تُخسر معهم توبيخاً لهم على رؤوس الأشهاد - أشاروا إليهم وقالوا: هؤلاء كنا نعبدكم من دون الله، كأنهم أرادوا بذلك تذنب المعبودين وإدخالهم في المعصية، وأضافوا الشركاء إلى أنفسهم من حيث هم جعلوهم شركاء، وهذا كما يصف رجل آخر خيّر فتقول له أنت: ما فعل خيرك؟ فأصفتَه إليه من حيث وصفه هو بتلك الصفة، والضمير في «القول» عائد على الشركاء، فمن كان من المعبودين من البشر ألقى القول المعهود بلسانه، وما كان من

بالتكذيب، ورجَّحه الطبري، ثم حتم على أكثرهم بالكفر وهم أهل مكة؛ لأنه كان فيهم من قد داخله الإسلام ومن أسلم بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ آية وعيد، التقدير: واذكر يوم نبعث شهاداً على كفرهم وإيمانهم، فـ «شاهد» بمعنى «شاهد»، وذكر الطبري أن المعنى: ثم ينكرونها اليوم، ويوم نبعث، أي: ينكرون كفرهم فيكذبهم الشهيد. وقوله: ﴿هُدًى لَا يُوَدِّتُ

لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في المعذرة، وهذا في موطن دون موطن؛ لأن في القرآن ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجُودِلٍ عَنْ نَفْسِهَا﴾، ويترتب أن تجيء كل نفس تجادل، فإذا استقرت أقوالهم بعث الله الشهود من الأمم فتكذب الكفار فلا يؤذن للكاذبين بغد في معذرة، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ بمعنى: يُعْتَبُونَ، تقول: «عَتَبْتُ الرجل» إذا كفيته ما عتب فيه، كما تقول: «أشكيتُه ما شكاً»، كأنه قال: ولا هم يكفون ما يُعْتَبُونَ فيه ويشق عليهم، والعرب تقول: استفعل بمعنى أفعَلَ، تقول: أَذْنَيْتُ الرجل واستدنيته، وقال قوم: لا يسألون أن يرجعوا عما كانوا عليه في الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا استعتاب معناه طلب عُتْبَاهُ، وقال الطبري: معناه: يطلبون

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٣﴾ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِهِ لَعَدِلٌ وَإِلْحَسَنٌ وَإِنَّا بِذِي الْقُرْفِ وَبَنِي عَنْ الْقَصْحَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ بِعِظْمِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٨٤﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْدَالاً إِنَّ اللَّهَ بِعَمَلِكُمْ لَفَتَّصٌ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَالاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يُلَوِّكُهُ اللَّهُ بِهِمْ وَلَبِيتَ لِكُلِّ يَوْمٍ فَتِيماً مَا كُتِرَ فِيهِ تَتْلِفُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَنْ مَا كُتِرَ تَعْمَلُونَ ﴿٨٧﴾

٢٧٧

﴿٨٢﴾ - ﴿٨٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية فيها موادة نسختها آية السيف، والمعنى: إن أعرضوا فلست بقادر على خلق الإيمان في قلوبهم، وإنما عليك أن تبلغ أمر الله ونهيه، ثم قرعهم ووبَّخهم بأنهم يعرفون نعمة الله في هذه الأشياء المذكورة، ويقولون إنها من عنده ثم يكفون به تعالى، وذلك فعل المنكر للنعمة الجاحد لها. هذا قول مجاهد، فسامهم منكرين للنعمة تجوزاً؛ إذ كانت لهم أفعال المنكرين من الكفر بزبِ النعم، ولشركهم في النعم الأوثان على جهة ما، وهو ما كانوا يعتقدون للأوثان من الفعل في النفع والضرر، وقال السدي: «نعمة هنا: محمد عليه الصلاة والسلام. ووصفهم تبارك وتعالى بأنهم يعرفون معجزاته وآيات نبوته وينكرون ذلك

الجمادات تكلمت بقدرة الله بتكذيب المشركين في وصفهم بأنهم آلهة وشركاء لله، ففي هذا وقع الكذب لا في العبادة. وقال الطبري: المعنى: إنكم لكاذبون، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأنهم كذبوهم في التذنب لهم.

وقوله: ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ﴾، الضمير في ﴿أَلْقُوا﴾ عائد على المشركين، والمعنى: ألقوا إليه الاستسلام، وألقوا بأيديهم وذلوا لحكمه ولم تكن لهم حيلة ولا دفع، و﴿أَلْقُوا﴾: الاستسلام، وقرأ الجمهور: ﴿أَلْسَلُوا﴾ بفتح اللام، وروى يعقوب عن أبي عمرو سكون اللام، وقرأ مجاهد: ﴿السلم﴾ بضم السين واللام.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية في ضمن قوله: ﴿وَمَكَدَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أنه حل بهم عذاب الله وباشروا نقمته، ثم فسره فأخبر أن الذين كفروا ومنعوا غيرهم من الدخول في الدين وسلوك سبيل الله زادهم عذاباً أجل من العذاب العام لجميع الكفار عقوبة على إفسادهم، فيحتمل أن يكون قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ بدلاً من الضمير في ﴿يَفْتَرُونَ﴾ و﴿زِدْنَهُمْ﴾ فعل مستأنف إخباره، ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ ابتداء وخبره ﴿زِدْنَهُمْ﴾، وروى في ذلك أن الله تعالى سلط عليهم عقارب وحيات لها أنياب كالنخل الطوال، قاله: ابن مسعود، وقال عبيد بن عمير: حيات لها أنياب كالنخل، وعقارب كالبغال الدلثم، ونحو هذا،

وروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن لجهنم سواحل فيها هذه الحيات وهذه العقارب، فيفر الكفار إلى السواحل من النار فتتلقاهم هذه الحيات والعقارب، فيفرون منها إلى النار، فتتبعهم حتى تجد حر النار فترجع، قال: وهي في أسراب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبُثُ﴾ الآية، في ضمنها وعيد، والمعنى: واذكر يوم نبث في كل أمة شاهداً عليها، وهو رسولها الذي شاهد في الدنيا تكذيبها وكفرها وإيمانها وهداها، ويجوز أن يبعث الله شهيداً من الصالحين مع الرسل، وقد قال بعض الصحابة: إذا رأيت أحداً على معصية فأنهه، فإن أطاعك وإلا كنت شهيداً عليه يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْفُسِ﴾ بحسب أن بعثة الرسل كذلك هي في الدنيا، وذلك أن الرسول الذي من نفس الأمة في اللسان والسيرة وفهم الأغراض والإشارات متمكن له إفهامهم والرد على معاندتهم، ولا يتمكن ذلك من غير من هو من الأمة، فذلك لم يبعث الله نبياً قط من الأمة المبعوث إليهم. وقوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى هذه الأمة. و﴿الْكِتَابِ﴾: القرآن، وقوله: ﴿يَتَّبِعُنَا﴾ اسم وليس بمصدر، كالنقصان، والمصادر في مثل هذا التأويل منها مفتوحة كالشرداد والتكرار، ونصب ﴿يَتَّبِعُنَا﴾ على الحال، وقوله: ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما نحتاج في الشرع ولا بد منه في الجملة، كالحلال والحرام والدعاء

إلى الله والتخويف من عذابه، وهذا حصر ما اقتضته عبارات المفسرين، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «أنزل في القرآن كل علم، وكل شيء قد بين لنا في القرآن»، وتلا هذه الآية.

﴿٩١﴾ - ﴿٩٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: أجمع آية في كتاب الله آية في سورة النحل، وتلا هذه الآية، وروي عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية قرأتها على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فعجب وقال: «يا آل غالب أتبعوه تفلحوا، فوالله إن الله أرسله إليكم ليأمر بكمارم الأخلاق»، وحكى النقاش قال: كان يقال: «زكاة العدل الإحسان، وزكاة القدرة العفو، وزكاة الغنى المعروف، وزكاة الجاه كتب الرجل إلى إخوانه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: العدل هو فعل كل مفروض من عقائد وشرائع، وسيّر مع الناس في أداء الأمانات وترك الظلم، والإنصاف وإعطاء الحق، والإحسان هو فعل كل مندوب إليه، فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما فرض إلا أن أحد الأجزاء منه داخل في العدل، والتكميل الزائد على حد الأجزاء داخل في الإحسان، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما حكى الطبري: العدل: لا إله إلا الله، والإحسان: أداء الفرائض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القسم الأخير نظر؛ لأن أداة الفرائض هي الإسلام حسب ما فسره رسول الله ﷺ في حديث سؤال جبريل عليه السلام، وذلك هو العدل، وإنما الإحسان: التكميلات والمندوب إليه حسب ما يقتضيه تفسير النبي ﷺ لسؤال جبريل عليه السلام بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فإن صح هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما فإنما أراد أداة الفرائض مكتملة.

﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تقتضي صلة الرحم، وتعم جميع إسداء الخير إلى القرابة. وتركه مبهماً أبلغ؛ لأن كل من وصل وفي ذلك إلى غاية - وإن غلت - يرى أنه مقصّر، وهذا المعنى المأمور به في جانب ذي القربى داخل تحت العدل والإحسان، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماماً به وحثاً عليه.

﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾: الزنى - قاله ابن عباس - وغيره من المعاصي التي شتمتها ظاهراً، وفاعلها أبداً مستتر بها، وكأنهم خصوها بمعاني الفروج، ﴿وَالْمُنْكَرَ﴾ أعم منه؛ لأنه يعم جميع المعاصي والبرذائل والإدانات على اختلاف أنواعها، ﴿وَالْبَغْيَ﴾ هو إنشاء ظلم الإنسان والسعاية فيه، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماماً لشدة ضرره بين الناس، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا ذنب أسرع عقوبة من بغي»، وقال عليه الصلاة والسلام: «البغوي مصروع»، وقد وعد الله من بُغِيَ عليه بالنصر، وفي بعض الكتب

المنزلة: «لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكاً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتغيير المنكر فرض على الولاة، إلا أن المغيّر لا يعين لمستور، ولا يعمل ظناً، ولا يتجسس، ولا يغيّر إلا ما بدت صفحته، ويكون أمره ونهيّه بمعروف، وهذا كله لغير الولاة ألزم، وفرض على المسلمين عامة، ما لم يخف المغيّر إذابة أو دلاً، ولا يغير المؤمن بيده ما وجد سلطاناً، فإن عذمه غير بيده، إلا أنه لا يصل إلى نصب القتال والمداراة وإعمال السلاح إلا مع الرياسة والإمام المشيع، وينبغي للناس أن يغيّر المنكر كل أحد منهم، تقي وغير تقي، ولو لم يغير إلا تقي لم يتغير منكر في الأغلب، وقد ذم الله قوماً بأنهم لم يتناهوا عن منكر فعلوه، فقد وصفهم بفعله، وذهمهم بأنهم لم يتناهوا عنه، وكل منكر فيه مدخل للنظر فلا مدخل لغير حملة العلم فيه، فهذه نبذة من القول في تغيير المنكر تضمنت ثمانية شروط، وروي أن جماعة من الصحابة رفعت على عاملها إلى أبي جعفر المنصور، فحاجها العامل وغلها بأنهم لم يثبتوا عليه كبير ظلم ولا جوزه في شيء، فقام فتى من القوم فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عدلٌ ولم يُحسن، قال: فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِمَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ الآية. يتضمن قوله: ﴿إِنْ﴾ الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ الآية التي

قبلها: «افعلوا كذا واتهوا عن كذا»، فعطف على ذلك التقدير قوله: ﴿وَأَوْفُوا﴾، وعهد الله لفظ لجميع ما يعقد باللسان ويلزمه الإنسان، من بيع أو صلة أو مؤاكلة في أمر موافق للديانة، وقوله: ﴿وَلَا تُفْضِرُوا الْإِيمَانَ بَدَلًا تَوَكُّبَهَا﴾ خص في هذه الآية الألفاظ المعهودة التي يقرن بها أيمان تهمماً بها وتنبهاً عليها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله فيما كان الثبوت فيه على اليمين طاعة لله تعالى، وما كان الانصراف عنه أصوب في الحق فهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير»، ويقال: توكيد وتأكيد، ووكد وأكد، وهما لغتان، وقال الزجاج: الهمزة مبدلة من الواو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير بين؛ لأنه ليس في وجود تصرفه ما يدل على ذلك.

﴿وَكَيْلًا﴾ معناه: متكلفاً بوفائكم، وباقي الآية وعيد في ضمن خبر يعلم الله تعالى بأفعال عباده، وقالت فرقة: نزلت هذه الآية في الذين يابعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، رواه أبو ليلى عن بريدة، وقال قتادة، ومجاهد، وابن زيد: نزلت فيما كان من تحالف الجاهلية في أمر بمعروف أو نهي عن منكر، فزادها الإسلام شدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كما قال ﷺ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ وَمَا كَانَ مِنْ حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمْ يَزِدِ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً»، وهذا حديث معنى، وإن كان السبب بغض هذه

الآشياء فالفاظ الآية عامة على جهة مخاطبة العالمين أجمعين.

(٩٢) - (٩٣) تفسير قوله عز وجل:

شبهت هذه الآية الذي يحلف أو يعاهد ويبرم عقده بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكماً، وشبه الذي ينقض عهده بعد الإحكام بتلك الغازلة إذا نقضت قوياً ذلك الغزل فحلته بعد إبرامه، ويروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تُسَمَّى رِبْطَةَ بنت سعد كانت تفعل ذلك، فَبُيِّها وقع التشبيه، قاله عبدالله بن كثير، والسُّدِّي، ولم يُسَمِّها المرأة، وقيل: كانت امرأة موسوسة تُسَمَّى خطية تغزل عند الحجر وتفعل ذلك، وقال مجاهد، وقتادة: ذلك ضرب مثل لا على امرأة معينة. و﴿نَكَتَ﴾ نصب على الحال، والنكت: التَّقْطُص. و﴿الْقُوَّةُ﴾ في اللغة واحدة قُوَى الْغَزْلِ والحبل وغير ذلك مما يصفى، ومنه قول الأغلب الرازي:

خَبَلٌ عَجُوزٌ قَتَلَتْ سَبْعَ قُوَى
ويظهر لي أن المراد بالقُوَّة في الآية الشدَّة التي تحدث من تركيب قُوَى الغزل، ولو قدرناها واحدة القُوَى لم يكن معها ما ينتقض أنكأنا، والعرب تقول: انتكت الحبل إذا انتقضت قواه، أما إنَّ عرف الغزل أنه قوة واحدة ولكن لها أجزاء كأنها قُوَى كثيرة له، قال مجاهد: المعنى: من بعد إمرار قوة.

و «الدُّخْلُ»: الدُّغْل بعينه، وهي الذرائع إلى الخدع والغدر، وذلك أن المحلوف له مطمئن فيتمكن الحالف من ضربه بما يريد.

وقوله: ﴿إِنْ تَكُونُ أَنتَ﴾، قال المفسرون: نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى، ثم جاءت إحداها قبيلة كبيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت معها ورجعت إلى هذه الكبرى، فقال الله تعالى: لا تنقضوا العهود من أجل أن تكون قبيلة أزيد من قبيلة في العدد والغلبة، و﴿الرُّبَا﴾: الزيادة، ويحتمل أن يكون القول معناه: لا تنقضوا الأيمان من أجل أن تكونوا أزيد من غيركم، أي: أزيد

خيراً، فمعناه: لا تطلبوا الزيادة بعضكم على بعض بنقض العهود. و﴿يَلُكِّدُ﴾ معناه: يختبركم، والضمير في ﴿يَلُكِّدُ﴾ يعود على الوفاء الذي أمر الله به، ويحتمل أن يعود على الرُّبَا، أي أن الله ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك ليري من يجاهد نفسه ممن يُثَبِّها هواها، وبإقاي الآية وعيد يوم القيامة.

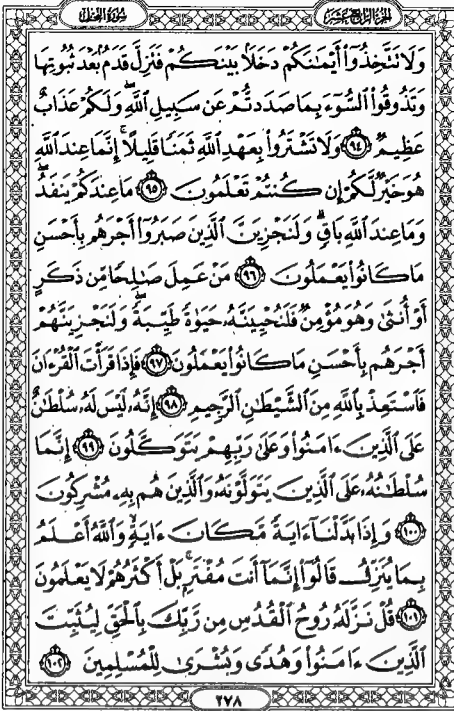
وقوله: ﴿مِنْ أَرْبٍ﴾، موضع ﴿أَرْبٍ﴾ عند البصريين رفع، وعند الكوفيين نصب و﴿مِنْ﴾ عماد، ولا يجوز العماد هنا عند البصريين؛ لأنه لا يكون مع النكرة، و [أمة] نكرة، وحجة الكوفيين أن [أمة] وما جرى مجراها من أسماء الأجناس تنكيرها قريب من التعريف، ألا ترى أن إدخال الألف واللام عليها لا يخصها كبير

تخصيص؟ وفي هذا نظر.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَبَلَّغَكُمْ أَنتَ وَجَدَ﴾ الآية. أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه يبتلي عباده بالأوامر والنواهي ليذهب كل واحد إلى ما يسر له، وذلك منه تعالى بحق الجَلْك، ولا يُسأل عما يفعل، ولو شاء لكان الناس كلهم في طريق واحد، إمّا في هدى وإمّا في ضلالة، ولكنه تعالى شاء أن يفرق بينهم، ويخص قوماً بالسعادة وقوماً بالشقاوة. و﴿يَهْدِي﴾ معناه: «يخلق ذلك في القلوب، خلافاً لقول المعتزلة، ثم توعد في آخر الآية بسؤال كل أحد يوم القيامة عن عمله، وهذا سؤال توبيخ، وليس ثم سؤال تفهم، وذلك هو المعنى في آيات.

(٩٧) - (٩٨) تفسير قوله عز وجل:

كُرِّرَ النَّهْيُ عَنْ اتِّخَاذِ الْإِيمَانِ تَهْمًا



قال: نزلت هذه الآية بسبب قوم من أهل الميلل تفاخروا، وقال كل منهم: يَلْتِي أَفْضَلُ، فَعَرَفَهُمُ اللهُ فِي هَذِهِ أَفْضَلُ الْمِلَلِ.

(٩٨) - (٩٩) تفسير قوله عز وجل:

الفاء في ﴿فَإِذَا﴾ واصله بين الكلامين، والعرب تستعملها في مثل هذا، وتقدير الآية: فإذا أخذت في قراءة القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُتِلْتُمْ إِلَى الْكَفَّةِ فَأَقْبِلُوا وَجُوهَكُمْ﴾، وكما تقول لرجل: إذا أكلت فقل بسم الله. والاستعانة ندب عند الجميع، وحكى النقاش عن عطاء أن التعوذ واجب، ولفظ الاستعانة هو على رتبة هذه الآية، وقد ذكرت الخلاف الذي قيل فيه في صدر هذا الكتاب. و﴿الزَّجْرِ﴾: المرجوم باللعنة، وهو إبليس.

ثم أخبر تبارك وتعالى أن إبليس ليس له ملكة ولا رئاسة، هذا ظاهر «السلطان» عندي في هذه الآية، وذلك أن السلطان إن جعلناه الحجة فليس لإبليس حجة في الدنيا على أحد، لا مؤمن ولا كافر، اللهم إلا أن يتأول متأول: «ليس له سلطان يوم القيامة»، فيستقيم أن يكون بمعنى الحجة، لأن إبليس له حجة على الكافرين أنه دعاهم بغير دليل فاستجابوا له من قبل أنفسهم، وهؤلاء الذين لا سلطان ولا رئاسة لإبليس عليهم هم المؤمنون أجمعون؛ لأن الله تعالى لم يجعل سلطانه إلا على المشركين الذين يتولونه، والسلطان منفي ها هنا في الإشراك؛ إذ له عليهم ملكة ما في المعاصي، وهم الذين قال الله فيهم:

علي، وقال أبو حاتم: إن نافعاً روي عنه: ﴿وَلَيَجْزِيَنَّهُمْ﴾ بالياء. و﴿صَبْرًا﴾ معناه: عن الشهوات وعلى مكاره الطاعة، وهذه إشارة إلى الصبر عن شهوة كسب المال بالوجوه المذكورة، وقوله: ﴿بِأَحْسَنَ﴾ أي: بقدر أحسن ما كانوا يعملون.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ يعم جميع أعمال الطاعة، ثم قيده بالإيمان، واختلف الناس في الحياة الطيبة - فقال ابن عباس، والضحاك: هو الرزق الحلال، وقال الحسن، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هي القناعة، وهذا أطيب عيش الدنيا، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: هي السعادة، وقال الحسن البصري أيضاً: الحياة الطيبة هي حياة الآخرة ونعيم الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هناك هو الطيب على الإطلاق، ولكن ظاهر هذا الوعد أنه في الدنيا، والذي أقول: إن طيب الحياة اللازم للمصالحين إنما هو بنشاط نفوسهم وبئلبها وقوة رجائهم، والرجاء للنفس أمر ملبذ، فبهذا تطيب حياتهم، وبأنهم احتقروا الدنيا فزالت همومها عنهم، فإن انضاف إلى هذا مال حلال وصحة أو قناعة فذلك كمال، وإلا فالطيب فيما ذكرناه راتب، وجاء قوله: ﴿فَلْيَحْزَنْهُمْ حَبْوٌ طَيِّبٌ﴾ على لفظ [من]، وجاء قوله: ﴿وَلَيَجْزِيَنَّهُمْ﴾ على معناها، وهذا وغد بنعيم الجنة، وباقي الآية بين.

وحكى الطبري عن أبي صالح أنه

بذلك، ومبالغة في النهي عنه لعظم موقعه من الدين، وتردده في معاشرات الناس، و«الدخل» - كما قلنا - الغوائل. وقوله: ﴿فَكَرَّكَ قَدَمٌ بَدَّ ثَبْرًا﴾ استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه؛ لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر، ومن هذا المعنى قول كُتِّير:

.....
فَلَمَّا تَوَافَيْتَا ثَبْتُ وَزَلْتُ
أي: تنقلت من حال إلى حال، فاستعار لها الزلل، ومنه يقال لمن أخطأ في الشيء: زل فيه. ثم توعد بغد بعذاب في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة. وقوله: ﴿يَمَّا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يدل على أن الآية فيمن باع رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية. هذه آية نهى عن الرشا وأخذ الأموال على فعل ما يجب على الأخذ تركه، أو ترك ما يجب عليه فعله، فإن هذه هي التي عهد الله إلى عباده فيها، فمن أخذ على ذلك مالا فقد أعطى عهد الله وأخذ قليلاً من الدنيا، ثم أخبر تبارك وتعالى أن ما عنده من نعيم الجنة ومواهب الآخر خير لمن اتقى وعلم واهتدى، ثم بين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفذ وتنقضي عن الإنسان أو ينقضي عنها، وأن الآخرة باقية دائمة. وقرأ ابن كثير، وعاصم: ﴿وَلَيَجْزِيَنَّهُمْ﴾ بنون، وقرأ الباقون: ﴿وَلَيَجْزِيَنَّهُمْ﴾ بالياء، ولم يختلفوا في قوله: ﴿وَلَيَجْزِيَنَّهُمْ﴾ أنه بالنون، كذا قال أبو

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، وهم الذين قال فيهم إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَخَلِّصِينَ﴾.

و ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ معناه: يجعلونه ولياً، والضمير في ﴿يَدِي﴾ يحتمل أن يعود على اسم الله عز وجل، والظاهر أنه يعود على اسم إبليس، بمعنى: من أجله وبسببه، كما تقول لمعلمك: أنا أعلم بسببك، فكأنه قال: والذين هم بسببه مشركون بالله، وهذه الأخبار بأن لا سلطان للشيطان على المؤمنين بعقب الأمر بالاستعاذة تقتضي أن الاستعاذة تصرف كيده كأنها متضمنة للتوكل على الله والانتفاع إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً نَكَاتٍ آيَةً﴾، كان كفار مكة إذا نسخ الله لفظ آية بلفظ أخرى أو معناها وإن بقي لفظها - لأن هذا كله يقع عليه التبديل - يقولون: لو كان من عند الله لم يتبدل، وإنما هو من افتراء محمد، فهو يرجع من خطإه يبدو له إلى صواب يراه بغد، فأخبر الله تعالى أعلم بما يصلح للعباد برهة من الدهر، ثم ما يصلح لهم بعد ذلك، وأنهم لا يعلمون هذا. وقرأ الجمهور: ﴿يَزُولُ﴾ بفتح النون وشد الزاي، وقرأ أبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي، وعبر بالأكثر مراعاة لما كان عند قليل منهم من موقف وقلة مبالغة في التكذيب وظن، ويحتمل أن يكون هذا اللفظ قرّر على قليل منهم أنهم يعلمون ويكفرون تَمْزُداً وعناداً.

وأمر نبيه أن يخبر أن القرآن ناسخه

ومنسوخه إنما نزله جبريل عليه السلام، وهو روح القدس، لا خلاف في ذلك، و﴿الْقُدُّوسُ﴾: الموضع المطهر، فكأن جبريل أضيف إلى الأمر المطهر بإطلاق، وسُمِّي روحاً إما لأنه ذو روح من حملة روح الله الذي بثّه في خلقه، وخُصّ هو بهذا الاسم، وإما لأنه يجري من الهدايات والرسالات ومن الملائكة أيضاً مجرى الروح من الأجساد لِشرفه ومكانته، وقرأ ابن كثير: ﴿الْقُدُّوسُ﴾ بسكون الدال، وقرأ الباقر بضمها، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: مع الحق في أوامره ونواهيه وأحكامه ومصالحه وأخباره، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ بمعنى حقاً، ويحتمل أن يريد بالحق في أن ينزل، أي أنه واجب لمعنى المصلحة أن ينزل، وعلى هذا الاحتمال اعتراضات عند أصحاب الكلام على أصول الدين، وباقى الآية بين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَا نَهْمًا يَقُولُونَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان في مكة غلام أعمى لبعض قريش يُقال له بلعام، فكان رسول الله ﷺ يكلمه ويعلمه الإسلام ويرومه عليه، فقالت قريش: هذا يعلم محمداً من جهة الأعاجم، فنزلت الآية بسببه، وقال عكرمة وسفيان: كان اسم الغلام يعيش، وقال عبدالله بن مسلم الحضرمي: كان بمكة غلامان، أحدهما اسمه جبر، والثاني يسار، وكانا يقرآن بالرومية، وكان رسول الله ﷺ يجلس إليهما، فقالت قريش ذلك،

ونزلت الآية، وقال ابن إسحق: الإشارة إلى جبر، وقال الضحاك: الإشارة إلى سلمان الفارسي، وهذا ضعيف، لأن سلمان إنما أسلم بعد الهجرة بمكة. وقرأت فرقة: ﴿لِسَانُ الَّذِي﴾ وقرأ الحسن البصري: ﴿اللِّسَانُ الَّذِي﴾ بالتعريف وبغير تنوين في راء ﴿يَنْشُرُ﴾. وقرأ نافع، وابن كثير: ﴿يُنْخَرُطُ﴾ بضم الياء، مِن «الْحَدَّ» إذا مال، وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وابن عامر، وأبي جعفر بن القعقاع، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿يُنْخَرُطُونَ﴾ بفتح الياء والحاء، من «لَحَدَّ»، وهي قراءة عبدالله، وطلحة، وأبي عبد الرحمن، والأعمش، ومجاهد، وهما بمعنى، ومنه قول الشاعر:

قَذَّبَنِي مِنْ تَضَرُّعِ الْخَبَبَيْنِ قَدِيدِي
لَيْسَ أَمِيرِي بِالشَّحِيحِ الْمُلْجِدِ
يريد: المائل عن الجود وحال
الرياسة.

وقوله: ﴿أَعْجَبِي﴾ إضافة إلى «أَعْجَمَ» لا إلى «الْعَجَمِ»؛ لأنه كان يقول: «عَجَمِي»، والأعجم: هو الذي لا يتكلم بعربية، وأما العجمي فقد يتكلم بالعربية ونسبته قائمة. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إشارة إلى القرآن، والتقدير: وهذا سرّ لسان، أو نُطْقُ لسان، فهو على حذف مضاف، وهذا على أن نجعل اللسان هنا الجارحة، واللسان - في كلام العرب -: اللغة، ويحتمل أن يراد في هذه، واللسان: الخبر، ومنه قول الأعشى:

إِنِّي أَتَشْنِي لِسَانًا غَيْرُ كَاذِبَةٍ
.....

القول يضعف؛ لأن الكاتب المشهور الذي ارتد لهذا السبب ولغيره من نحوه هو عبدالله بن أبي سرح العامري، ولسانه ليس بأعجمي، فتأمل.

(١٠٤) - (١٠٥) تفسير قوله عز وجل:

المعهود من الوجود أن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بآياته، ولكنه قدم في هذا الترتيب وأخر تهمماً بقبح فعلهم والتشنيع بخطئهم، وذلك كقوله: ﴿لَنَّا رَاغُوا أَرَاغَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾، والمراد ما

ذكرناه، فكأنه قال: إن الذين لم يؤمنوا لم يهديهم الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ﴾ بمعنى: إنما يكذب، وهذه مقاومة للذين قالوا لمحمد ﷺ: «إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ»، و﴿إِنَّمَا﴾ حاصرة أبداً، لكن حصرها يختلف باختلاف المعاني التي تقع فيها، فقد يربط المعنى أن يكون حصرها حقيقياً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحِيدٌ﴾، وقد يقتضي المعنى أن يكون حصرها تجزؤاً ومبالغة، كقولك: «إِنَّمَا الشجاع عنترة»، وهكذا هي في هذه الآية، قال الزجاج: يفترى هذا الصنف لأنهم إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله كذبوا بها، فهذا

أنحش الكذب. وكرر المعنى في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لفائدة إيقاع الصفة بالكذب عليهم،

وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾ إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٦﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ لَا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَمَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٩﴾ لَّا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١٠﴾ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحَهُمْ دُورًا وَصَبَرُوا إِنَّكَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١١﴾

٢٧٩

ومنه قول الآخر:

لِسَانُ السُّوءِ تُهْدِيهَا إِلَيْنَا وَجِئْتُ وَمَا حَسِبْتُكَ أَنْ تُجِئَنَا

وحكى الطبري عن سعيد بن المسيب أن الإشارة بقولهم: ﴿بَشَرٌ﴾ إنما هي إلى كاتب كان يكتب لرسول الله ﷺ، فيقول له رسول الله صلوات الله وسلامه في أواخر الآيات: ﴿سَبِّحْ عَلَيَّ﴾، فيكتب هو «عزيز حكيم» أو نحو هذا، ثم يشتغل باستماع الوحي فيبدل هو بـ «غفور رحيم» أو نحوه، فقال له عليه الصلاة والسلام في بعض الآيات: هو ما كتبت، ففتن وقال: أنا أعلم محمداً وارتد ولحق بمكة فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا نصراني أسلم وكتب ثم ارتد ومات فلفظته الأرض، وإلا فهذا

إذ الصفة بالشئ أبلغ من الخبر به؛ لأن الصفة تقتضي الدوام أكثر مما يقتضيه الخبر، فبدأ في هذه الآية بالخبر ثم أكد بالصفة، وقد اعترض هذا النظر مكئ، وليس اعتراضه بالقوي. و [مَنْ] في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بدل من قوله: ﴿الْكَافِرُونَ﴾، ولم يُجز الزجاج غير هذا الوجه؛ لأنه رأى أن هذا الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام، فعلقه بما قبله، والذي أبى الزجاج سائغ على ما أورده الآن إن شاء الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يتأيد بما روي من أن قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يراد به عبدالله بن أبي سرح، ومقبس بن صبابه وأشباههما ممن كان آمن برسول الله ﷺ ثم ارتد، فلما بين في هذه الآية أمر الكاذبين بأنهم الذين كفروا بعد الإيمان أخرج من هذه الصفة القوم المؤمنين المعدلين بمكة وهم بلال وعمار وسُمَيَّةُ أمه وخباب وصُهَيْب وأشباههم، وذلك أن كفار مكة كانوا في صدر الإسلام يؤذون من أسلم من هؤلاء لضعفه، ويُعذِّبونهم ليرتدوا، فربما سامحهم بعضهم بما أرادوا من القول، روي أن عمار بن ياسر فعل ذلك فاستثناه الله في هذه الآية، وبقيت الرخصة عامة في الأمر بعده. ثم ابتدأ في الإخبار بأن ﴿مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ﴾، وهذا الضمير على معنى [مَنْ] لا على لفظها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا من الاعتراض أن أمر ابن أبي سرح وأولئك إنما كان

ورسول الله ﷺ بالمدينة، والظاهر من هذه الآيات أنها مكّية، وقالت فرقة: [مَنْ] في قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ ابتداءً، وقوله: ﴿مَنْ شَرَحَ﴾ تخصيص منه، ودخل الاستثناء لما ذكرنا من إخراج عَمَّار وشبيهه، وَدَنَا من الاستثناء الأول الاستدراك ولكن. وقوله: ﴿فَلْيَنْهَيْهِ﴾ خبر عن [مَنْ] الأولى والثانية؛ إذ هو واحد بالمعنى؛ لأن الإخبار في قوله إنما قصد به الصنف الشارح بالكفر، فـ ﴿مَذْكُورٌ﴾ نصب على التمييز، وقوله: ﴿شَرَحَ بِالْكَفْرِ مَذْكُورٌ﴾ معناه: انبسط للكفر باختياره، وَيُزَوَّى أَنْ عَمَّار بن ياسر شَكَا إلى رسول الله ﷺ ما صنع به من العذاب، وما سامح به من القول، فقال له: «كيف تجد قلبك؟» قال: أجده مطمئناً بالإيمان، قال: «فَأَجِبْنَهُمْ بِلِسَانِكَ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ، وَإِنْ عَادُوا فَعُدْ»، ويتعلق بهذه الآية شيء من مسائل الإكراه، أمّا من عذّبه كافر قادر عليه ليكفر بلسانه، وكان العذاب يؤدي إلى قتله فله الإجابة باللسان قولاً واحداً فيما أحفظ، فإن أراد منه الإجابة بفعل كالسجود للضمن ونحو ذلك ففي هذا اختلاف - فقالت فرقة وهي الجمهور: يجب بحسب الثّقِيّة، وقالت فرقة: لا يجب، ويسلم نفسه، وقالت فرقة: إن كان الصنم نحو القبلة أجاب واعتقد السجود لله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما أحرأه أن يسجد لله حينئذ حيثما توجه، وهذا مباح في السفر لتعب النزول عن الدابة في التّقل، فكيف

بهذا؟ واحتجت فرقة على التفريق في المنع بقول ابن مسعود: «ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنت متكلماً به»، فقصر الرخصة على القول دون الفعل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا بحجة، لأنه يحتمل أن جعل الكلام مثلاً وهو يريد أن الفعل في حكمه، وأمّا الإكراه في البيع والطلاق والعق والفرط في رمضان وشرب الخمر ونحو هذا من المعاصي التي بين العبد وبين الله تبارك وتعالى فلا يلزم المكروه شيء من ذلك، قاله مطرف، ورواه مالك، وقاله ابن عبدالحكم وأصبخ، ورواه عن ابن القاسم عن مالك، وفرق ابن عباس رضي الله عنهما بين ما منها قول كالعق والطلاق فجعل فيها الثّقِيّة، وقال: لا تقيّة فيما كان فعلاً كشرب الخمر والفرط في رمضان، ولا يحل فعلهما لمكروه، وأمّا المظلوم فيضغط حتى يبيع متاعه، فذلك بيع لا يجوز عليه، وهو أولى بمتاعه يأخذه رجع بضمنه أو بقيمته - بالأكثر من ذلك - على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه، قال مطرف: ومن كان من المشتري يعلم حال المكروه فإنه ضامن لما ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب، وأمّا من لا يعلم فلا يضمن العروض والحيوان، وإنما يضمن ما كان تلفه بسببه، مثل طعام أكله، أو ثوب لبسه، والغلّة - إذا عليم أو لم يعلم - ليست له بحال، هو لها ضامن كالغاصب، وقال أصبخ وعبدالحكم: قال مطرف:

وكل ما أحدث المبتاع في ذلك من عثق أو تدبير أو تحبّيس فلا يلزم المكروه، وله أخذ متاعه. وأمّا الإكراه على قتل مسلم أو جليله وأخذ ماله أو بيع متاعه فلا عذر فيه، ولا استكراه في ركوب معصية تُنتهك من أحد كالزنى والقتل ونحوه، قال مطرف، وأصبخ، وابن عبدالحكم: لا يفعل أحد ذلك وإن قُتل إن لم يفعله، فإن فعله فهو آثم ويلزمه الحد والقود، وقال مالك: القيد إكراه، والسّجن إكراه، والوعيد المخوف إكراه وإن لم يقع إذا تحقق ظلم ذلك المُتَعَدّي وإنفاذه لما يتوعد به، ويعتبر الإكراه عندي بحسب همة المُكْرَه وقدره في الدين، وبحسب الشيء الذي يُكْرَه عليه، فقد يكون الضرب إكراهاً في شيء دون شيء، فلهذه النوازل فقه الحال، وأمّا يعين المُكْرَه كما قلنا فهي غير لازمة، فلهذه النوازل فقه الحال، وأمّا يعين المُكْرَه كما قلنا فهي غير لازمة، قال ابن الماجشون: وسواء حلف فيما هو لله تبارك وتعالى طاعة أو معصية إذا أكره على اليمين، قاله أصبخ، وقال مطرف: إن أكره على اليمين فيه ساقطة، وإن أكره على اليمين فيما هو طاعة - مثل أن يأخذ الوالي رجلاً فاسقاً فَيُكْرَهه على أن يحلف بالطلاق لا يشرب خمرأ، أو لا يفسق، أو لا يغش في عمله، أو الوالد يحلف ولده في مثل هذا تأدياً له - فإن اليمين تلزم وإن كان المُكْرَه قد أخطأ فيما تكلف من ذلك، وقال به ابن حبيب. وأمّا إن أكره رجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال -

فجمعت الآية بين الأمرين، وعلى هذا مرّت عقيدة أهل السنة. وقوله: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ عموم على أنه لا يهديهم من حيث هم كفار في نفس كفرهم، أو عموم يراد به الخصوص فيمن يوافي.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، عبارة عن صرف الله لهم عن طريق الهدى، واختراع الكفر المظلم في قلوبهم، وتغليب الإعراض على نظرهم، فكأنه سدّ بذلك طرق هذه الحواس حتى لا تنفع في اعتبار وتأمل، وقد تقدم القول وذكر الاختلاف في الطبع والختم في سورة البقرة، وهل هو حقيقة أو مجاز. «والسنع»: اسم جنس، وهو مصدر في الأصل، فلذلك، وُحِدَ، وثبّه على تكسّبهم الإعراض عن النظر فوصفهم بالغفلة، وقد سبق شرح ﴿لَا جِمَمَ﴾ في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا﴾ الآية. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكروها فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا الْكُفْرَ﴾ غَالِبِينَ أَنفُسِهِمْ. إلى آخر الآية، قال: فكتب بها إلى من بقي من المسلمين بمكة، وأن لا عذر لهم، فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ

خَوْفٌ وَرَجَاءُ النِّجَاةِ مِنْ ظُلْمِهِ فَقَدْ دَخَلَ فِي الْإِكْرَاهِ وَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَحْلِفْ عَلَى رَجَاءِ النِّجَاةِ فَهُوَ حَانِثٌ، وَإِذَا أَتَاهُمُ الْوَالِي أَحَدًا بِفِعْلِ أَمْرٍ فَقَالَ لَهُ: لَا بُدَّ مِنْ عَقُوبَتِكَ إِلَّا أَنْ تَحْلِفَ لِي، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْأَمْرُ مِمَّا لَدُنْكَ الْمُكْرَهَ فَعَلُهُ - إِمَّا أَنْ يَكُونَ طَاعَةً، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لَا طَاعَةَ وَلَا مَعْصِيَةَ - فَالْتِقِيَةِ فِي هَذَا، وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْأَمْرُ مِمَّا لَا يَحِلُّ لَهُ فَعَلُهُ وَيَكُونُ حَظَرُ الْوَالِي فِيهِ صَوَابًا فَلَا تَقِيَةَ فِي الْيَمِينِ، وَهُوَ حَانِثٌ، قَالَه مَالِكٌ،

وابن الماجشون، فهذه بُذِئَتْ مِنْ مَسَائِلِ الْإِكْرَاهِ.

﴿١٠٧﴾ - ﴿١١١﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الغضب والعذاب الذي توعد به قبل هذه الآية، والضمير في ﴿أَنَّهُمْ﴾ لمن شرح بالكفر صدرًا، ولما فعلوا فعل من استحبّس ألزموا ذلك وإن كانوا غير مصدقين بالآخرة، لكن الأمر في نفسه بيّن، فمن حيث أعرضوا عن النظر فيه كانوا كمن استحبّ غيرهم، وهذه الآية علّق فيها العقاب بتكسّبهم، وذلك أن استحبابهم زينة الدنيا ولذات الكفر هو التكسّب.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إشارة إلى اختراع الله الكفر في قلوبهم، ولا شك أن كفر الكافر الذي تعلّق به العقاب إنما هو باختراع من الله وتكسّب من الكافر،

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٠٧﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٠٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٠٩﴾ فَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا لَكُمْ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١٠﴾ وَإِذَا حُرِمَ عَلَيْكُمْ الْعَمِيَّةُ وَالذَّمُّ وَلَحِمَ الْخَزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَيْعٍ لِلَّهِ بِهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ عِزَابُكُمْ وَلَا تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١١﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبْنَا لَكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿١١٢﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٣﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا أَحْزَابًا مِمَّا قَفَصْنَا عَنْكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٤﴾

كأصحاب المكس، وظلمة السعاة، وأهل الاعتداء - فقال مطرف: لا تقيّة في ذلك، وإنما يدرأ المرأة بيمينه عن بدنه لا عن ماله، وقال ابن الماجشون: لا يحث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه. وقال ابن القاسم: يقول مطرف، ورواه عن مالك رحمه الله، وقاله ابن عبدالحكم، وأصيح، وابن حبيب. وقال مطرف، وابن الماجشون، وإن يدرأ الحالف بيمينه للوالي الظالم قبل أن يسأله ليدبّ بها عما خاف عليه من بدنه وماله فحلف بها فإنها تلزمه، وقاله ابن عبدالحكم وأصيح، وقال أيضاً ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم فحلف له بالطلاق البتّة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب، وإنما حلف خوفاً من ضربه وقتله أو أخذ ماله، فإن كان إنما يتبرع باليمين غلبة

ءَامَنَّا بِاللَّهِ ﴿١١٢﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَكُتِبَ
المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا
ويشوا من كل خير، ثم نزل فيهم:
﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا
مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنَّاوُا﴾ فَكُتِبُوا إِلَيْهِمْ
بذلك أَنَّ الله قد جعل لكم مخرجاً،
فخرجوا فلحقهم المشركون فقاتلوهم
حتى نجا من نجا، وقُتل من قُتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
جاءت الرواية هكذا أنَّهم بعد نزول
الآية خرجوا، فيجئُ الجهاد الذي
ذُكر في الآية جهادهم مع
رسول الله ﷺ على الإسلام، وروت
طائفة أنهم خرجوا وأتبعوا وجاهدوا
مُتَّبِعِيهم، فقتل من قُتل، ونجا من
نجا، فنزلت الآية حينئذ، فمعنى
الجهاد المذكور جهادهم لِمُتَّبِعِيهم.

وقال ابن إسحق: نزلت هذه الآية
في عُمَار بن ياسر، وعِيَّاش بن أَبِي
ربيعة، والوليد بن الوليد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وِذْكُرْ عُمَارَ فِي هَذَا عِنْدِي غَيْرَ قَوِيمٍ،
فإِنَّهُ أَرْفَعُ مِنْ طَبَقَةِ هَؤُلَاءِ، وَإِنَّمَا
هَؤُلَاءِ مَنْ تَابَ يَمُنُّ بِشَرْحِ الْكُفْرِ
صَدْرًا، فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ فِي
آخِرِ الْآيَةِ.

وقال عكرمة، والحسن: نزلت هذه
الآية في شأن عبد الله بن أَبِي سَرْجٍ
وأشباهه، فكأنه قال: من بعد ما
فتنهم الشيطان. وهذه الآية مدنية،
ولا أعلم في ذلك خلافاً، وإن وُجد
فهو ضعيف.

وقرأ الجمهور: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا فَتَنَّاوُا﴾
بضم الفاء وكسر التاء، وقرأ ابن
عامر وحده بفتحهما، فَإِنْ كَانَ
الضمير للمعذبين فتجئُ بمعنى:

فَتَنَّاوُا أَنفُسَهُمْ بِمَا أَعْطَاوُا الْمُشْرِكِينَ مِنْ
القول، كما فعل عُمَار بن ياسر،
وأما على قراءة الجمهور فَإِنْ كَانَ
الضمير للمعذبين فهو بمعنى: من
بعد ما فَتَنَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَإِنْ كَانَ
الضمير للمشركين فهو بمعنى: من
بعد ما فَتَنَهُمُ الشَّيْطَانُ. والضمير في
﴿بَعْدَ مَا﴾ عائد على الفتنة، أو على
الفعلة، أو الهجرة، أو التوبة،
والكلام يعطيها وإن لم يجر لها ذكر
صريح.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ
تَحْدِيدٌ﴾، المعنى: لغفورٍ رحيمٍ
يَوْمَ، وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: كل
ذي نفس. ثم أجرى الفعل على
المضاف إليه المذكور فأثت العلامة،
﴿وَنَفْسٌ﴾ الأولى هي النفس
المعروفة، والثانية هي بمعنى
الذات، كما تقول: نفس الشيء
وعينه، أي ذاته. ﴿وَنَفْسٌ كُلُّ
نَفْسٍ﴾ أي: تُجَازَى، كُلُّ مَنْ أَحْسَنَ
بِإِحْسَانِهِ، وَكُلُّ مَنْ أَسَاءَ بِإِسَاءَتِهِ.

وظاهر الآية أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ تَجَادَلُ،
مُؤْمِنَةٌ كَانَتْ أَوْ كَافِرَةٌ، فَإِذَا جَادَلَ
الْكَفَّارَ بِكَذِبِهِمْ وَجَحْدِهِمُ الْكُفْرَ
شَهِدَتْ عَلَيْهِمُ الْجَوَارِحُ وَالرُّسُلُ
وغير ذلك بحسب الطوائف، فحينئذٍ
لَا يَنْسَطِقُونَ، ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ
يَعْتَذِرُونَ﴾، فتجتمع آيات القرآن
باختلاف المواطنين، وقالت فرقة:
قول كل أحد من الأنبياء وغيرهم:
نفسى نفسى، وهذا ليس بجَدَالٍ وَلَا
احتجاج، وإنما هو مجرَّد رغبة.

﴿١١٣﴾ - ﴿١١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:
قال ابن عباس، ومجاهد، وابن
زيد، وقَتَادَةُ: القرية المضروب بها

المثل مَكَّةُ، كانت بهذه الصفة التي
ذكر الله؛ لأنها كانت لَا تُغْزَى وَلَا
يُغِيرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ، وَكَانَتْ الْأَرْزَاقُ
تَجْلِبُ إِلَيْهَا، وَأَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهَا
برسوله ﷺ، والمراد بهذه الضمائر
كلها أهل القرية فكفروا بأنتم الله في
ذلك وفي جملة الشرع والهداية،
فأصابتهم السنون والخوف وسائر
سرايا رسول الله ﷺ وغزواته، هذا
إِنْ كَانَتْ الْآيَةُ مَدْنِيَّةً، وَإِنْ كَانَتْ
مَكِّيَّةً فَجُوعُ السنين وخوف العذاب
من الله بسبب الكفر والتكذيب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وَإِذَا كَانَتْ هِيَ الَّتِي ضُرِبَتْ مَثَلًا فَإِنَّمَا
ضُرِبَتْ لِغَيْرِهَا مِمَّا يَأْتِي بَعْدَهَا لِيَحْذَرَ
أَنْ يَقَعَ فِيهَا وَقَعَتْ هِيَ فِيهِ، وَحَكَى
الطبري عن حفصة أم المؤمنين
رضي الله عنه: ما صنع الناس؟
وهي صادرة من الحج من مكة،
فقليل لها: قتل، فقالت: والذي
نفسى بيده إنها للقرية - تعني المدينة
- الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِيهَا: ﴿وَمَتَرَبَّ اللَّهُ
مَثَلًا﴾ الْآيَةِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فَادْخَلَ الطبري هَذَا عَلَى أَنَّ حَفْصَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِنْ الْآيَةُ نَزَلَتْ
فِي الْمَدِينَةِ وَإِنَّمَا هِيَ الَّتِي ضُرِبَتْ
مَثَلًا، وَالْأَمْرُ عِنْدِي لَيْسَ كَذَلِكَ،
وَإِنَّمَا أَرَادَتْ أَنَّ الْمَدِينَةَ قَدْ حَصَلَتْ
فِي مَحْذُورِ الْمَثَلِ، وَحَلَّ بِهَا مَا حَلَّ
بِالَّتِي جَعَلَتْ مَثَلًا، وَكَذَلِكَ يَتَوَجَّه
عِنْدِي فِي الْآيَةِ أَنَّهَا قُصِدَ بِهَا قَرْيَةٌ
غَيْرَ مَعْنِيَةٍ جَعَلَتْ مَثَلًا، لَكِنَّهُ عَلَى
مَعْنَى التَّحْذِيرِ لِأَهْلِهَا وَلِغَيْرِهَا مِنْ
الْقُرَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

و ﴿رَعَدَا﴾ نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ،

﴿أَنْتُمْ﴾ جمع نعمة، كشيعة وأشد، كما قال سيبويه، وقال قطرب: أَنْعُم: جمع نُعم، وهو بمعنى النعيم، يقال: هذه أيام نُعم وطُعم، وقوله تعالى: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ آلْتَجُوعٍ وَالْخَوْفِ﴾ استعارات، أي: لما باشرهم ذلك صار كاللباس، وهذا كقول الأعشى:

إِذَا مَا الضَّجِيعُ نَسِيَ جِيدَهَا
تَشَبَّثَ عَلَيْهِ فَصَارَتْ لِبَاسًا
ونحوه قوله تعالى: ﴿مَنْ يَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَأْسُ لَهُمْ﴾، ومنه قول الشاعر:

لَقَدْ لَبِستُ بَعْدَ الزُّبَيْرِ مُجَاشِعَ
ثِيَابِ الْتِي حَاضَتْ وَلَمْ تُغَيِّلِ الدِّمَا
كَانَ الْعَارُ لَمَّا بَاشَرَهُمْ وَأَلْصَقَ بِهِمْ
جَعَلَهُمْ لِبَسُوهُ.

وقوله: ﴿فَأَذَقَهَا﴾ نظير قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْكَرِيمُ الْكَرِيمُ﴾، ونظير قول الشاعر:

دُونَكَ مَا جَنَيْتُهُ فَاخْشَى وَذُقْ
وقرأ الجمهور: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ عطفاً على ﴿الْجُوعِ﴾ وقرأ أبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ عطفاً على قوله: ﴿لِبَاسٍ﴾ وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه: ﴿لباس الخوف والجوع﴾، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿فَأَذَقَهَا الله الخوف والجوع﴾، ولا يذكر «لباس».

والضمير في ﴿جَاءَهُمْ﴾ لأهل مكة، والرسول محمد عليه الصلاة والسلام، و«العذاب»: الجوع وأمر بدر ونحو ذلك إن كان التمثيل بمكة وكانت الآية مدنية، وإن كانت مكئية

فهو الجوع فقط، وذكر الطبري أنه القتل ببدر، وهذا يقتضي أن الآية نزلت بالمدينة، وإن كان التمثيل بمدينة قديمة غير معينة فيحتمل أن يكون الضمير في ﴿جَاءَهُمْ﴾ لأهل تلك المدينة، ويكون هذا مما جرى كمدينة شعيب وغيره، ويحتمل أن يكون الضمير المذكور لأهل مكة، فتأمل.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ الآية. هذا ابتداء كلام آخر ومعنى حُكم، والفاء في قوله: ﴿فَكُلُوا﴾ لصلة الكلام واتساق الجمل، خرج من ذكر الكافرين والمثل عليهم إلى أمر المؤمنين بشرع ما فوصل الكلام بالفاء، وليست المعاني موصلة. هذا قول، والذي عندي أن الكلام متصل بالمعنى، أي: وأنتم أيها المؤمنون لستم كهذه القرية، فكلوا واشكروا الله على تباين حالكم من حال الكفرة، وهذه الآية بسبب أن الكفار كانوا قد سُئوا في الأنعام سُنتاً، وأحلوا بعضاً وحُرموا بعضاً، فأمر الله المؤمنين بأكل جميع الأنعام التي رزقها عباده. واختلف العلماء في قوله: ﴿طَيِّباً﴾، والصحيح أنه مُسْتَلَذُّ، بعد قوله: ﴿حَلَالاً﴾، ووقع النص في هذا على المُسْتَلَذِّ إذ فيه ظهور النعمة، وهو عظم النعم، وإن الحلال قد يكون غير مُسْتَلَذِّ، ويحتمل أن يكون الطيب بمعنى الحلال، كثره مبالغة وتوكيداً، وباقى الآية بين.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَكْفُرُونَ﴾ إقامة للنفوس، كما تقول لرجل: إِنْ كُنْتُ مِنَ الرِّجَالِ فَافْعَلْ

كذا، على معنى إقامة نفسه، وروى الطبري أن بعض الناس قال: نزلت هذه خطاباً للكفار عن طعام كان رسول الله ﷺ بعثه إليهم في جوعهم، وأنحى الطبري على هذا القول، وكذلك هو فاسد من غير وجه.

﴿١١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

حَصْرَتْ ﴿إِنَّمَا﴾ هذه المحرمات وقت نزول الآية، ثم نزلت المحرمات بعد ذلك.

وقرأ جمهور الناس: ﴿الْيَسَّةَ﴾ مخففاً، وشدها أبو جعفر بن القعقاع، وهو الأصل، والتخفيف طارئ عليه، والعامل في نصبها ﴿حَرَمَ﴾، وقرأت فرقة: ﴿الْمَيْتَةَ﴾ بالرفع على أن تكون [مَا] بمعنى «الذي».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكون [مَا] متصلة بـ [إِنْ] يضعف هذا ويحكم بأنها حاصرة و [مَا] كافة، وإذا كانت بمعنى «الذي» فيجب أن تكون منفصلة، وذلك خلاف خط المصحف. وقرأ الجمهور: ﴿حَرَمَ﴾ على معنى: حُرِّمَ الله، وقرأت فرقة: ﴿حُرِّمَ﴾ على ما لم يُسَمَّ فاعله، وهذا برفع ﴿الْيَسَّةَ﴾ ولا بُدَّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والميتة المحرمة هي ما مات من حيوان البر الذي له نفس سائلة حتف أنفه، وأما ما ليس له نفسه سائلة كالجراد والذباب والبراغيث ودود التين وحيوان الفول وما مات من الحوت حتف أنفه وطفأ على الماء ففيه قولان في المذهب، وما مات حتف أنفه من الحيوان الذي يعيش

﴿أَضْطَرُّرًا﴾، فنقلت حركة
الراء إلى الطاء وأدغمت
الراء في الراء. [وقوله:
﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾] قالت فرقة:
هو صاحب البغي على
الإمام، أو في قطع
الطريق، وبالجمله في
سفر المعاصي، والعادي
بمعناه في أنه من ينوي
المعصية، وقال الجمهور:
﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ معناه: غير
مستعمل لهذه المحرمات
مع وجود غيرها، ﴿وَلَا
عَادٍ﴾ معناه: لا يعدو
حدود الله في هذا.
قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: وهذا القول
أرجح وأعم في الرخصة.

وقالت فرقة: باغ وعادٍ في الشَّعْبِ
والتَّزَوُّدِ، واختلف الثَّامِسُ في صورة
الأكل من الميتة - فقالت فرقة:
الجائز من ذلك ما يُمْسِكُ الرُّمَقَ
فقط، وقالت فرقة: بل يجوز الشَّعْبِ
الثَّامِ، وقالت فرقة - منهم مالك
رحمه الله -: يجوز الشَّعْبِ والتَّزَوُّدِ،
وقال بعض النحويين في قوله:
﴿عَادٍ﴾: إنه منقول من عايد، فهو
كشاكبي السلاح، وكيوم راح، وكقول
الشاعر:

لَا ثِبَّ بِهَ الْأَشْيَاءُ وَالْعُبْرِيُّ
وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ رَجِيمٌ﴾
يقتضي منه الإباحة للمضطر،
وخرجت الإباحة في هذه الألفاظ
تحرراً فيها وتضييقاً في أمرها، ليدل
الكلام على عظم الحظر في هذه
المحرمات، فغاية هذا المرخص له

في الماء وفي البرِّ كالسلاحف
ونحوها ففيه قولان، والمنع هنا
أظهر، إلا أن يكون الغالب عليه
العيش في الماء.

والدَّم المحرَّم هو المنسفع الذي
يسيل إن ترك مفرداً، وأما ما خالط
اللحم وسكن فيه فحلال طبخ ذلك
اللحم به، ولا يكلف أحد تَتَبُّعَهُ،
ودم الحوت مختلف في تحليله وإن
كان ينسفع لو تُرِكَ.

ولحم الخنزير هو معظمه
والمقصود الأظهر فيه، فلذلك خصه
 بالذكر، وأجمعت الأمة على تحريم
شحمه وغضاريفه، ومن تخصيصه
استدلت فرقة على جواز الانتفاع
بجلده إذا ذُبِغَ ولبسه، والأولى
تحريمه جملة، وأما شفره فالانتفاع
به مباح، وقالت فرقة: ذلك غير
جائز، والأول أرجح.

﴿وَمَا أَوْلَىٰ لِغَيْرِ اللَّهِ بَدْءٌ﴾، يريد كل
ما نوي بذبحه غير التقرب إلى الله
والقرب إلى سواه، وسواء تكلم
بذلك على الذبيحة أو لم يتكلم،
لكن خرجت العبارة عن ذلك بـ
﴿أَهْلٍ﴾، ومعناه صحيح على عادة
العرب، وقصد النَّصُّ منها، وذلك
أنها كانت إذا ساق ذبيحة إلى صنم
جهرت باسم ذلك الصنم وصاحت
به.

وقوله: ﴿مَنْ أَضْطَرَّ﴾، قالت
فرقة: معناه: أكرهه، وقال الجمهور:
معناه: اضطره جوع واحتياج،
وقرأت فرقة: ﴿فَمَنْ﴾ بضم النون
﴿أَضْطَرَّ﴾ بضم الطاء، وقرأت
فرقة: ﴿فَمَنْ﴾ بكسر النون ﴿أَضْطَرَّ﴾
بكسر الطاء على أن الأصل:

غفران الله له، وحطه عنه ما كان
يلحقه من الإثم لولا ضرورته، وهذا
التخريج الذي ذكرناه يفهمه الفصحاء
من اللفظ، وليس في المعنى منه
شيء، وإنما هو إيحاء، وكذلك
جعل غايته في موضع آخر أن لا إثم
عليه، وإن كان «لا إثم عليه» وقوله:
«هو له مباح» يرجعان إلى معنى
واحد فإن في هيئة اللفظتين خلافاً.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
هذه مخاطبة للكفار الذين حرّموا
البحائر والسوائب وأحلّوا ما في
بطون بعض الأنعام وإن كان ميتة،
يدل على ذلك قوله حكاية عنهم:
﴿وَأِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ
شُرَكَاءُ﴾، والآية تقتضي كل ما
كان لهم من تحليل وتحريم، فإنه
كله افتراء منهم، ومنه ما فعلوه في
الشهور. وقرأت السبعة وجمهور

الثاس: ﴿الْكُذِبَ﴾ بفتح الكاف والباء وكسر الذال، و [ما] مصدرية، فكأنه قال: لوصف ألسنتكم. وقرأ الأعرج، وطلحة، وأبو معمر، والحسن: ﴿الْكُذِبَ﴾ بخفض الباء على البدل من [ما]. وقرأ بعض أهل الشام، ومعاذ بن جبل، وابن أبي عبلة: ﴿الْكُذِبَ﴾ بضم الكاف والذال والباء، على صفة الألسنة. وقرأ مسلمة بن محارب: ﴿الْكُذِبَ﴾ بفتح الباء على أنه جمع كذاب كُتِبَ وكتاب.

وقوله: ﴿هَذَا حَلَلٌ﴾ إشارة إلى ميتة بطون الأنعام وكل ما أحلوا، وقوله: ﴿وَهَذَا حَرَامٌ﴾ إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حرموا، وقوله: ﴿لِيَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ إشارة إلى قولهم في فواحشهم التي هذه إحداه: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا أَبَاءَنَا وَاتَّخَذْنَا أُمَّتَنَا مِنَّا﴾، ويحتمل أن يريد أنه كان شرعهم لاتباعهم سُنتاً لا يرضاه الله افتراءً عليه، لأن من شرع أمراً فكأنه قال لأتباعه: هذا هو الحق، وهذا مراد الله. ثم أخبرهم الله أن الذين يفترون على الله الكذب لا يبلغون الأمل، والفلاح: بلوغ الأمل، فتارة يكون في البقاء، كما قال الشاعر:

.....

والمُسْنَى والصُّبْحُ لا بقاءَ مَعَه ويشبه أن هذه الآية من هذا المعنى، يُقَرِّى ذلك قوله: ﴿مَنْعٌ قَلِيلٌ﴾، وقد يكون في نجح المساعي، ومنه قول عبيد:

أَفْلَحَ بِمَا شِئْتُ فَقَدْ يُبْلَغُ بِالْضَعْفِ وَقَدْ يُخْدَعُ الْأَرِيبُ وقوله: ﴿مَنْعٌ قَلِيلٌ﴾ إشارة إلى

عيشتهم في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بعد ذلك في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية، لما قص الله تبارك وتعالى على المؤمنين ما حرم أغلَم أيضاً بما حرم على اليهود: لبيان تبديلهم الشرع فيما استحلوا من ذلك وفيما حرموا من تلقاء أنفسهم. وقوله: ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ إشارة إلى ما في سورة الأنعام من ذي الطُّفَر والشحوم. وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي: لم نضع العقوبة عليهم بتحريم تلك الأشياء عليهم في غير موضعها، بل هم طرَقوا إلى ذلك، وجاء من تَشَبُّههم بالمعاصي ما أوجب ذلك.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشَّرَّ يَجْهَلَكَ﴾ الآية. هذه آية تأنيس لجميع العالم، أخبر الله تعالى فيها أنه يغفر للنائب، والآية إشارة إلى الكفار الذين افتروا على الله، وفعلوا الأفاعيل المذكورة، فهم إذا تابوا من كفرهم بالإيمان، وأصلحوا بأعمال الإسلام - غفر الله لهم، وتناولت هذه - بعد ذلك - كل واقع تحت لفظها من كافر وعاص، وقالت فرقة: الجهالة: العمد، والجهالة عندي في هذه الموضع ليست ضد العلم، بل هي تعدي الطور وركوب الرأس، ومنه قول النبي ﷺ: ﴿أَوْ أَجْهَلُ أَوْ يُجْهَلُ عَلَيَّ﴾، وهي التي في قول الشاعر:

أَلَا يَجْهَلُنْ أَحَدَ عَلَيْنَا فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ ومنه لفظة الجاهلية، والجهالة التي

هي ضد العلم تصحب هذه الأخرى كثيراً، ولكن يخرج منها المتعمد، وهو الأكثر، وقُلما يوجد في الغصاة من لم يتقدم له علم بحظر المعصية التي تُواقع. والضمير في ﴿بَعْدَهَا﴾ عائد على التوبة.

﴿١٢٠﴾ - ﴿١٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْيَهُودَ وتحكمهم في شرعهم بذكر ما حرم عليهم أراد أن يبين بعدهم عن شرع إبراهيم والدعوى فيه، وأن يصف حال إبراهيم للبين الفرق بين حاله وحالهم قريش أيضاً.

والأمة في اللغة لفظة مشتركة تقع للخير، والعامه، والجمع الكثير من الناس، ثم يُشَبَّه الرجل العالم أو الملك أو المنفرد بطريقة وحده بالناس الكثير فيسمى أمة، وعلى هذا الوجه سُمي إبراهيم عليه السلام أمة، قال ابن مسعود رضي الله عنه: الأمة: مُعَلِّم الخير، وقال في بعض أوقاته: إن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان أمة قانتاً، فقال له: أبو قُرَّة الكندي، أو فروة ابن نوفل: ليس كذلك، إنما هو أن إبراهيم كان أمة قانتاً، فقال: أندري ما الأمة؟ هو مُعَلِّم الخير، وكذلك كان معاذ يُعَلِّم الخير ويطيع الله ورسوله. وقال مجاهد: سُمي إبراهيم أمة لانفراده بالإيمان في وقته مدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي البخاري أنه قال لسارة: ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك، وقال بعض النحويين - أظنه أبا الحسن الأخفش -: الأمة فُعْله من

أَمْ يَوْمٌ، فهو كَالْهُمَزَةِ وَالضُّحَكَةِ،
أي: يَوْمٌ بِهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ف [أُمَّة] - على هذا - صفة، وعلى
القول الأول اسمٌ ليس بصفة.
وَالْقَائِنُ: المطيع الدائم على
العبادة، وَالْحَنِيفُ: المائل إلى
الخير والإصلاح، وكانت العرب
تقول لمن يَخْتَنِي وَيَحُجُّ الْبَيْتَ:
حَنِيفًا، وحذف النون من ﴿وَلَدَّ يَكَ﴾
لكثرة الاستعمال، كحذفهم من: لا
أَبَالٍ وَلَا أَذْرٍ، وهو أيضاً لشبه النون
في حال سكنها حروف العلة لفتتها
وخفتها وأنها قد تكون علامة وغير
ذلك، فكان (لَمْ) هنا دخلت على
(يَكُنْ) في حال جزم، ولا تحذف
النون إذا لم تكن ساكنة في نحو قوله
تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الْأَدْنَىٰ كُتُوبًا﴾، ولا
تحذف من مثل هذا إلا في الشعر
فقد جاءت محذوفة، وقوله: ﴿وَبَكَ
الشُّرَكَاةِ﴾ مُشْبِرٌ إلى حال تَبَرَّى
إبراهيم عليه السلام من حال مشركي
العرب ومشركي اليهود، إذ كلهم
أدعاه، ويلزم الإشراك اليهود من
جهة تَجْسِيمِهِمْ.

و ﴿شَاحِكَا﴾ صفة لإبراهيم تابعة
ما تقدم، وَالْأَتْنَمُ: جمع نعمة،
و﴿أَجْنَكَةً﴾ معناه: تَخْيِيرُهُ، وباقِي
الآية بَيِّن.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْتَهِ فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةً﴾، الْحَسَنَةُ: لسان الصدق
وإمامته لجميع الخلق، هذا قول
جميع المفسرين، وذلك أن كل أُمَّة
متشرعة فهي مُفَرَّدة أن إيمانها إيمان
إبراهيم، وأنه فُتِنَتْهَا، وأنه كان على
الصواب. وقوله: ﴿لَئِنْ أَقْبَلِينَ﴾

بمعنى: الْمُتَنَمِّ عَلَيْهِمْ، أي: من
الصالحين في أحوالهم ومراتبهم، أو
بمعنى أنه في الآخرة مَتَّنَ يُحْكَمُ لَهُ
بحكم الصالحين في الدنيا، وهذا
على أن الآية وصف حالِهِ فِي
الدَّارَيْنِ، ويحتمل أن يكون المعنى:
في أعمال الآخرة، فعلى هذا وصف
حالته في الأعمال الدنيوية
وَالْآخِرِيَّةِ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْتَيْنَا إِلَيْكَ
الْآيَةَ. الرُّوحِي إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بهذا
من جملة الحسنات التي أتاه الله
إبراهيم عليه السلام، قال ابن فورك:
وأمر الفاضل باتباع المفضل لما
تقدم إلى قول الصواب والعمل به،
و﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَنِ اتَّبَعَ﴾
مفسرة، ويجوز أن تكون مفعولة،
وَالْمِلَّةُ: الطريقة في عقائد الشرع،
و﴿حَنِيفًا﴾ حال، والعامل فيها
الْفِعْلِيَّةُ التي في قوله: ﴿وَلَمْ
يُتَّبِعْهُ﴾، ويجوز أن تكون حالاً من
الضمير المرفوع في ﴿اتَّبَعَ﴾، قال
مكي: ولا يكون حالاً من
﴿يُتَّبِعْهُ﴾؛ لأنه مضاف إليه، وليس
كما قال؛ لأن الحال قد تعمل فيها
حروف الخفض. إذا عملت في ذي
الحال، كقولك: مررت بزيد قائماً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ
الْكُتُبُ﴾، أي: لم يكن من ملّة
إبراهيم، وإنما جعله الله فرضاً
عاقب به القوم المختلفين فيه، قاله
ابن زيد، وذلك أن موسى عليه
السلام أمر بني إسرائيل أن يجعلوا
من الجمعة يوماً مختصاً بالعبادة،
وأمرهم أن يكون يوم الجمعة،
فقال جمهورهم: بل يكون يوم

السبت لأن الله فرغ فيه من خلق
مخلوقاته، وقال غيرهم: بل نقبل
ما أمر به موسى عليه السلام،
فراجعهم الجمهور، فتابعهم
الآخرون، فألزمهم الله يوم السبت
إلزاماً قوياً عقوبة منه لهم، فلم
يكن منهم ثبوت، بل عصوا فيه
وتعدوا فأهلكهم.

وقرأ الأعمش: ﴿إِنَّمَا نَزَّلْنَا
السَّبْتَ﴾، وهي قراءة ابن مسعود،
وقرأ أبو حية: ﴿جَعَلَ﴾ بفتح الجيم
والعين، وورد في الحديث أن اليهود
والنصارى اختلفوا في اليوم الذي
يختص من الجمعة، فأخذ
هؤلاء السبت، وهؤلاء الأحد،
فهدانا الله إلى يوم الجمعة، قال
رسول الله ﷺ: ﴿فهذا يومهم الذي
اختلفوا فيه﴾. فليس الاختلاف
المذكور في الآية هو الاختلاف الذي
في الحديث، وباقي الآية وعيدٌ
وبَيِّن.

١٢٥ - ١٢٦ - تفسير قوله عز وجل:
نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنته
للمشركين، أمره الله تعالى أن يدعو
إلى دين الله وشرعه بِلُطْفٍ، وهو أن
يُسمع المدعو حكمة، وهو الكلام
الصواب القريب الواقع في النفس
أجمل موقع، وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ:
التخويف والتوجيه والتلطُّف
بالإنسان، بأن يُجِلَّهُ وَيُنَشِّطُهُ ويجعله
بصورة من يقبل الفضائل ونحو هذا،
فهذه حالة من يُدعى، وحالة من
يُجادل دون مخاشنة فتظهر عليه دون
قتال، والكلام يعطي أن جدك
وهمك وتعبك لا يغني؛ لأن الله قد
علم من يؤمن منهم ويهتدي، وعلم

من يَضِلُّ، فجملة المعنى: اسلك هذه السبيل ولا تلجأ للمخاشنة فإنها غير مجدية، لأن علم الله قد سبق بالمهتدي منهم والضال. وقالت فرقة: هذه الآية منسوخة بآية القتال، وقالت فرقة: هي مُحْكَمَةٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر لي أن الاختصار على هذه الحال، وألا يتعدي مع الكفرة متى احتيج إلى المخاشنة وهو منسوخ لا محالة. وأما من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار، ويرجى إيمانه بها دون قتال، فهي فيه محكمة إلى يوم القيامة، وأيضاً فهي محكمة في جهة العصاة، فهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا﴾ الآية، أطبق أهل التفسير أن هذه الآية مدنية نزلت في شأن التمثيل بحمزة رضي الله عنه في يوم أحد، ووقع ذلك في صحيح البخاري، وفي كتاب السير، وذهب النحاس إلى أنها مكية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى متصل بما قبلها من المكي اتصالاً حسناً، لأنها تتدرج الرتب من الذي يُدعى ويوعظ، إلى الذي يجادل، إلى الذي يُجَارَى على فعله، ولكن ما رَوَى الجمهور أثبت، وأيضاً فقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ صَبَرْتُ﴾ تعلق بمعنى الآية على ما روى الجمع أن كفار قريش لما مثلوا بحمزة رضي الله عنه وقع ذلك من نفس رسول الله ﷺ فقال: ﴿لَيْسَ أَظْفَرَنِي اللهُ بِهِمْ لَأَمْتُلُنَّ بِثَلَاثِينَ﴾ وفي كتاب النحاس وغيره - بسبعين منهم، فقال الناس: إن ظفرنا

لنفعن ولنفعن، فنزلت هذه الآية.

ثم عزم على رسول الله ﷺ في الصبر في الآية بعدها وسُمِّي الإذابات في هذه الآية عقوبة، والعقوبة حقيقة إنما هي الثانية، وإنما فعل ذلك ليستوي اللفظان وتتناسب ديباجة القول، وهذا بعكس قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾، وقوله: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، فإن الثاني هو المجازي، والأول هو الحقيقة. وقرأ ابن سيرين: ﴿وَلَنْ عَقَبْتُمْ فَعَقِبُوا﴾.

وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة ألا يقال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته، لا يتعده إلى غيره، واختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل في أخذ مال، ثم ائتمن الظالم والمظلوم على مال، هل يجوز له خيانتته في القدر الذي ظلمه؟ - فقالت فرقة: «له ذلك»، ومنهم ابن سيرين، وإبراهيم النخعي، وسفيان، ومجاهد، واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها، وقال مالك - رحمه الله - وفرقة معه: «لا يجوز له ذلك»، واحتجوا بقول رسول الله ﷺ: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَّكَ، وَلَا تَخُنْ مِنْ خَانَكَ»، ووقع في مسند ابن إسحق أن هذا الحديث إنما ورد في رجل زنا بامرأة آخر، ثم تمكن الآخر من زوجة الثاني بأن تركها عنده وسافر، فاستشار ذلك الرجل رسول الله ﷺ في الأمر، فقال له هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَيَقْرَأُ فِي أَمْرِ الْمَالِ قَوْلُ مَالِكٍ

رحمه الله؛ لأن الخيانة لاحقة في ذلك، وهي رذيلة لا انفكاك عنها، ولا ينبغي للمرء أن يتأسى بغيره في الرذائل، وإنما ينبغي أن يتجنبها لنفسه، وأما الرجل يظلم في المال، ثم يتمكن من الانتصاف دون أن يؤتمن فيشبه أن ذلك جائز، يرى أن الله حكم له كما لو تمكن له بالحكم من الحاكم.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، هذه عزيمة على رسول الله ﷺ في الصبر على المجازاة على التمثيل بالقتلى، وقال ابن زيد: هذه الآية منسوخة بالقتال، وجمهور الناس على أنها محكمة، ويروى أنه ﷺ قال لأصحابه: «أَنَا أَنَا فَأَصْبِرْ كَمَا أَمَرْتُ، فَمَاذَا تَصْنَعُونَ؟»، قالوا: نصبر يا رسول الله كما ندبنا. وقوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بمعونة الله وتأيدته لك على ذلك، والضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾، قيل: يعود على الكفار، أي: لا تتأسف على أن لم يُسَلِّمُوا، وقالت فرقة: بل يعود على القتلى: حمزة وأصحابه رضوان الله عليهم الذين حزن عليهم رسول الله ﷺ، والأول أصوب، إذ يكون عود الضمائر على جهة واحدة.

وقرأ الجمهور: ﴿صَبْرِي﴾ بفتح الصاد، وقرأ ابن كثير: ﴿فِي ضَيْقِي﴾ بكسرهما، ورويت عن نافع، وهو غَلَطَ ممن رواه، قال بعض اللغويين: الكسر والفتح في الضاد لغتان في المصدر، وقال أبو عبيدة: الضَيْقُ مصدر، والضَيْقُ مخفف من



رسول الله ﷺ وفد
ثقيف، وحين قالت
اليهود: «ليست هذه
بأرض الأنبياء»، وقوله عز
وجل: ﴿وَوَلَّى رَبِّي أَدْبَلُنِي
مَنْحَلٌ صِدْقٍ﴾، وقوله عز
وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
مِنْ قَبْلِهِ﴾ الآية، وقال ابن
مسعود: في بني إسرائيل
والكهف: «إنهن من
العتاق الأول، وهن في
تلادي»، يريد أنهن من
قديم كسبه.

﴿١﴾ تفسير قوله عز
وجل:

لفظ الآية يقتضي أن الله
عز وجل أسرى بعبد،

وهو محمد ﷺ، قال المفسرون:
معناه: سرى بعبد، ويظهر أن
﴿أَسْرَى﴾ مُعَدَّة بالهمز إلى مفعول
محذوف، تقديره: أسرى الملائكة
بعبد، وذلك لأنه يعلق أن يُسند
﴿أَسْرَى﴾ - وهو بمعنى (سرى) -

إلى الله عز وجل، إذ هو فعل يُعطى
الثقل كَمَشَى وَجَرَى وأحضر وانتقل،
فلا يحسن إسناد شيء من هذا ونحن
نجد مندوحة، فإذا صرحت الشريعة
بشيء من هذا النحو كقوله تعالى في
الحديث: ﴿أَتَيْتُهُ سَعْيًا، وَأَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً﴾
حُمِلَ ذلك بالتأويل على الوجه
المخلص من نفي الحوادث،
﴿أَسْرَى﴾ - في هذه الآية - تخرج
فصيحة كما ذكرنا، ولا تحتاج إلى
تَجَوُّز قل في هذا اللفظ، فإنه ألزم
لِلنقل من (أَتَيْتُهُ) ﴿وَقَاتَ اللَّهُ
بَيْنَهُمْ﴾. ويحتمل أن يكون

صَبَقَ، كَمَيْتٍ وَمَيْتٍ، وَهَيْنَ وَهَيْنَ،
وقال أبو علي الفارسي: والصواب
أن يكون الصَّبَق لغة في المصدر؛
لأنه إن كان مخففاً من صَبَقَ لزم أن
تقام الصفة مقام الموصوف، وليس
هذا موضع ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
إنما تقوم الصفة مقام الموصوف إذا
تخصص الموصوف من نفس
الصفة، كما تقول: «رَأَيْتُ
ضاحكاً»، فإنها تخصص الإنسان،
ولو قلت: «رَأَيْتُ بارداً» لم يُخصَّن،
وإِبَارِدٌ مثل سيبويه رحمه الله،
و«صَبَقَ» لا تخصص الموصوف.
وقال ابن عباس، وابن زيد: إن ما
في هذه الآيات من الأمر بالصبر
منسوخ.

وقوله: ﴿مَعَ الَّذِينَ اتَّفَعُوا﴾ أي:
بالنصر والمعونة والتأييد، و﴿اتَّفَعُوا﴾
يريد: المعاصي، و﴿تُحْشَرُونَ﴾
معناه: يزيدون فيما نَدَب إليه من
فعل الخير.

نجز تفسير سورة النحل والحمد لله
رب العالمين والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكية إلا ثلاث آيات:
قوله عز وجل: ﴿وَلَنْ كَادُوا
لَيَقْتُلَنَّكَ﴾، وقوله: ﴿وَلَنْ كَادُوا
لَيَسْتَفِزَّنَكَ﴾، نزلت حين جاء

﴿أَسْرَى﴾ بمعنى: (سرى) على
حذف مضاف، كنحو قوله تعالى:
﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَسْرِي﴾. ووقع الإسراء
في مُصْطَفَات الحديث، وروى عن
الصحابة في كل أقطار الإسلام، فهو
من المتواتر بهذا الوجه. وذكر
النقاش ممن رواه عشرين صحابياً،
فروى جمهور الصحابة، وتلقى جل
العلماء منهم أن الإسراء كان
بشخصه ﷺ، وأنه ركب البراق من
مكة ووصل إلى بيت المقدس وصلى
فيه. وروى حذيفة وغيره أن
رسول الله ﷺ لم ينزل من البراق
في بيت المقدس ولا دخله، - قال
حذيفة: ولو صلى فيه لكتب عليكم
الصلاة فيه - وأنه ركب البراق بمكة
ولم ينزل عنه حتى انصرف إلى بيته
إلا في صعوده إلى السماء. وقالت
عائشة ومعاوية: إنما أسرى بنفس

رسول الله ﷺ، ولم يفارق شخصه مضجعه، وإنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق من ربه عز وجل. وجوزه الحسن وابن إسحق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والحديث مطول في البخاري ومسلم وغيرهما فلذلك اختصرنا نصه في هذا الكتاب، وركوب البراق على قول هؤلاء يكون من جملة ما رُئي في النوم، قال ابن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن في كتاب الطبري: البراق هو دابة إبراهيم عليه السلام الذي كان يزور عليه البيت الحرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريدان: يجيء من يومه ويرجع، وذلك من مسكنه بالشام. والصحيح ما ذهب إليه الجمهور، ولو كانت منامية ما أمكن قريش أن تشع، ولا فضل أبو بكر رضي الله عنه بالتصديق، ولا قالت له أم هانئ: لا تحدث الناس بهذا فيكذبوك، إلى غير هذا من الدلائل.

واحتج لقول عائشة رضي الله عنهما بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يحتمل القول الآخر؛ لأنه يقال لرؤية العين: رؤيا. واحتج أيضاً بأن في بعض الأحاديث: «فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام»، وهذا يحتمل أن يُرد من الإسراء إلى نوم. واعترض قول عائشة بأنها كانت صغيرة لم تشاهد ولا حدثت عن النبي ﷺ، وأما معاوية فكان كافراً

في ذلك الوقت، غير مشاهد للحال، صغيراً، ولم يحدث عن النبي عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ﴾ مصدر غير متمكن؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ويجيء منه فعل، وسبح معناه: قال سبحان الله، فلم تستعمل سُبْحَ إلا إشارة إلى سبحان، ولم يتصرف لأن في آخره زائدين، وهو معرفة بالعلمية، وإضافته لا تزيده تعريفاً، هذا كله مذهب سيويه فيه. وقالت فرقة: نصبه على النداء، كأنه قال: يا سبحان الذي أسرى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، ومعناه: تنزيهاً لله. وروى طلحة بن عبيد الله الفيض أحد العشرة أنه قال للنبي ﷺ: ما معنى (سبحان الله)؟ فقال: «تنزيه الله من كل سوء»، والغامل فيه على مذهب سيويه الفعل الذي هو من معناه لا من لفظه إذ لم يجز من لفظه فعل، وذلك مثل: «فَعَدَ الْفُرْقَاءُ واشتَمَل الصُّمَاءُ»، فالتقدير عنده: أنزله الله تنزيهاً، فوقع ﴿سُبْحَنَ﴾ مكان قولك: تنزيهاً. وقال قوم من المفسرين: ﴿أَسْرَى﴾ فعل غير مُتَعَدٍّ، عداه هنا بحرف الجر، تقول: أسرى الرجل وسرى إذا سار بالليل بمعنى. وقد ذكرت ما يظهر في اللفظة من جهة العقيدة. وقرأ حذيفة وابن مسعود: ﴿أسرى بعبده من الليل من المسجد الحرام﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ أَكْبَرُ﴾. قال أنس بن مالك: أراد المسجد المحيط بالكعبة نفسها،

ورجحه الطبري، وقال: هو الذي يُعرف إذا ذكر هذا الاسم، وروى الحسن بن أبي الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان»، وذكر عبد بن حميد الكمشي في تفسيره، عن سفيان الثوري أنه قال: أسرى بالنبي ﷺ من شغب أبي طالب. وقالت فرقة: «المسجد الحرام» مكة كلها، واستندوا إلى قوله تعالى: ﴿لَتَنَزَّلَنَّ السَّجْدَ الْحَرَامَ﴾، وعظم المقصد هنا إنما هو مكة. ورؤي بعض هذه الفرقة عن أم هانئ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ ليلة الإسراء في بيتي، وروى بعضها عن النبي ﷺ أنه قال: «فُرج سقف بيتي»، وهذا يلتزم مع قول أم هانئ رضي الله عنها.

وكان الإسراء فيما قال مقاتل قبل الهجرة بعام، وقاله قتادة، وقيل: بعام ونصف، قاله عروة عن عائشة رضي الله عنها، وكان ذلك في رجب، وقيل: في ليلة سبع عشرة من ربيع الأول، والنبي ﷺ ابن إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، والمتحقق أن ذلك كان بعد شق الصحيفة، وقيل: بيعة العقبة، ووقع في الصحابين لشركك بن أبي نمر وهم في هذا المعنى، فإنه روى حديث الإسراء وقال فيه: «وذلك قبل أن يوحى إليه». ولا خلاف بين المحدثين أن هذا وهم من شريك.

و «المسجد الأقصى» مسجد بيت المقدس، وسماه «الأقصى» أي في ذلك الوقت، كان أقصى بيوت الله

الفاضلة من الكعبة، ويحتمل أن يريد بـ ﴿الْأَقْصَا﴾: البعيد، دون مفاضلة بينه وبين سواه، ويكون المقصد إظهار العجب في الإسراء إلى هذا البُعد في ليلة.

والبَرَكَةُ حوله من جهتين: إحداهما النبوة والشرائع والرسول الذين كانوا في ذلك القطر وفي نواحيه ونواديه، والأخرى الثَّغَمُ من الأشجار والمياه والأرض المفيدة التي خصَّ الله الشَّامَ بها، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله بارك فيما بين العريش والفرات»، وخصَّ فلسطين بالتقديس.

وقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ مِنْ أَتَيْنَا﴾ يريد: لنري محمداً بعينه آياتنا في السموات، والملائكة، والجنة، والسُدرة، وغير ذلك مما رآه تلك الليلة من العجائب، ويحتمل أن يريد: لنري محمداً ﷺ للناس آية، أي: يكون النبي ﷺ آية في أن يصنع الله لبيش هذا الصُّنع، وتكون الرؤية - على هذا - رؤية قلب.

ولا خلاف أن في هذا الإسراء فُرِضَت الصلوات الخمس على هذه الأمة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وعيدٌ من الله تبارك وتعالى للكفار على تكذيبهم محمداً ﷺ في أمر الإسراء، فيه إشارة لطيفة بليغة إلى ذلك، أي: هو السميع لما تقولون، البصير بأفعالكم.

② - ① تفسير قوله عز وجل:

عطف قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا﴾ على ما في قوله: ﴿أَنزَلْنَاهُ بِعَبْدِهِ﴾ من تقدير الخبر، كأنه قال: أُنزِلْنَا بعبدنا وأُرْسِنَاهُ آياتنا، و﴿الْكِتَابُ﴾:

التوراة، والضمير في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿الْكِتَابُ﴾، ويحتمل أن يعود على ﴿مُوسَى﴾ عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَذَكَّرُوا﴾ يجوز أن يكون في موضع نصب بتقدير: كراهية، وأن يكون في موضع خفض بتقدير: بألَّا تَتَذَكَّرُوا، ويجوز أن تكون [أَن] مفسرة بمعنى: أي، كما قال: ﴿إِنْ أَشَاءُ وَأَصِيرُ﴾، فهي في هذا مع أنر، وهي في آيتنا هذه مع نُهي، والمعنى في هذه التقديرات: جعلنا ذلك لئلا تتخذوا يا ذُرِّيَّةُ، ويحتمل أن تكون ﴿ذُرِّيَّةُ﴾ مفعولاً، ويحتمل أن تكون ﴿إِنْ﴾ زائدة، ويضمّر في الكلام قول تقديره: قلنا لهم: لا تتخذوا، وأما أن يُضمّر القول ولا تجعل ﴿أَن﴾ زائدة فلا يُشْجِه؛ لأن ما بعد القول إما أن يكون جملة يُخَكِّي، وإما أن يكون ترجمة عن كلام لا هو بعينه، فيعمل القول في الترجمة، كما تقول - لمن قال لا إله إلا الله -: قلت حقاً، وقوله: ﴿أَلَّا تَتَذَكَّرُوا﴾ ليس بواحد من هذين، قاله أبو علي. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَلَّا تَتَذَكَّرُوا﴾ على المخاطبة، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿أَلَّا يَتَذَكَّرُوا﴾ بالياء على لفظ الغائب، وهي قراءة ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعيسى، وأبي رجاء. و«الْوَكِيلُ» هنا فاعيل من التوكّل، أي: مُتَوَكِّلًا عليه في الأمور، فهو يؤلّفه بهذا الوجه، قال مجاهد: ﴿وَكَيْلًا﴾: شريكاً.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ذُرِّيَّةُ﴾ بضم الذال، وقرأ عامر بفتحها، وقرأ زيد بن ثابت، وأبان بن عثمان،

ومجاهد أيضاً بكسرهما، وكل هذا بشد الرائء والياء، ورويت عن زيد بن ثابت بفتح الذال وتسهيل الرائء وشدّ الياء، على وزن فَعِيلَةٍ، و (ذُرِّيَّةُ) وزنها فعولة، أصلها (ذُرْوَرَةٌ)، أبدلت الرائء الثانية ياءً وأدغمت ثم كسرت الرائء لتناسب الياء. وكل هؤلاء قرؤوا: ﴿ذُرِّيَّةُ﴾ بالنصب، وذلك مُشْجِه، إمّا على المفعول به ﴿تَتَذَكَّرُوا﴾، ويكون المعنى: ألا تتخذوا بشراً إلهاً من دون الله، وإمّا على النداء، أي: يا ذُرِّيَّةُ، فهي مخاطبة للعالم - قال قوم: وهذا لا يُشْجِه إلا على قراءة من قرأ: ﴿أَلَّا تَتَذَكَّرُوا﴾ بالياء من فوق، ولا يجوز على قراءة من قرأ بالياء من تحت؛ لأن الفعل لغائب والنداء لمخاطب، والخروج من الغيبة إلى الخطاب إنما يُسْتَنْهَل مع دلالة الكلام على المراد، وفي النداء لا دلالة إلا على غاية التكلف -. وإمّا على النصب بإضمار أعني، وإمّا على البدل من قوله: ﴿وَكَيْلًا﴾، وهذا أيضاً فيه تكلف. وقرأت فرقة: ﴿ذُرِّيَّةُ﴾ بالرفع على البدل من الضمير المرفوع في ﴿تَتَذَكَّرُوا﴾، وهذا أيضاً يتوجه على القراءة بالياء، ولا يجوز على القراءة بالياء؛ لأنه لا يبدل من ضمير مخاطب، لو قلت: «ضربتك زيدا» على البدل لم يجز. وقوله: ﴿ذُرِّيَّةُ مَنْ حَكَمْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ إنما عبّر بهذه العبارة عن الناس الذين عناهم في الآية بحسب الخلاف المذكور، ولأن في هذه العبارة تعديد النعمة على الناس في الإنجاء المؤدّي إلى وجودهم، ويقبح الكفر والمصيان مع

هذه النعمة، والذين حُمِلوا مع نوح عليه السلام وأنسلوا هم بنوه لصلبه؛ لأنه آدم الأصغر، وكل من على الأرض من نسله، هذا قول الجمهور، وذكره الطبري عن قتادة ومجاهد، وإن كان معه غيره فلم يُثْمَل. قال النقاش: اسم نوح عبد الجبار، وقال ابن الكلبي: اسمه فرج، ووصفه بالشكر لأنه كان يحمد الله في كل حال، وعلى كل نعمة، على المطعم والمشرب والملبس والبراز وغير ذلك ﷺ. قاله سلمان الفارسي، وسعيد بن مسعود، وابن أبي مريم، وقاتدة.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ الْآيَةَ﴾، قال الطبري: معنى ﴿قَضَيْنَا﴾: فَرَعْنَا، وحكى عن غيره أنه قال: ﴿قَضَيْنَا﴾ هنا بمعنى: أخبرنا، وحكى عن آخرين أنهم قالوا: ﴿قَضَيْنَا﴾ معناه: في أم الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما يُلَاحَظ في هذا المكان تعدية ﴿قَضَيْنَا﴾ بـ ﴿إِلَى﴾، وتلخيص الكلام عندي أن هذا الأمر هو ما قضاه الله تعالى في أم الكتاب على بني إسرائيل وألزمهم إياه، ثم أخبرهم به في التوراة على لسان موسى، فلما أراد هنا الإعلام بالأمرين جميعاً في إيجاز جعل ﴿قَضَيْنَا﴾ دالةً على النفوذ في أم الكتاب، وقَرَنَ بها ﴿إِلَى﴾ دالة على إنزال الخبر بذلك إلى بني إسرائيل، والمعنى المقصود مفهوم خلال هذه الألفاظ، ولهذا فُسِّرَ ابن عباس رضي الله عنه مرةً بأن قال:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ معناه: أعلمناهم، وقال مرةً: معناه: قضينا عليهم والكتاب هنا التوراة؛ لأنَّ القَسَمَ في قوله تبارك وتعالى: ﴿لَتَقْسِدُنَّ﴾ غير متوجّه مع أن يُجعل «الكتاب» هو اللوح المحفوظ. وقرأ سعيد بن جبیر، وأبو العالية الرياحي: ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ على الجمع، قال أبو حاتم: قراءة الناس على الأفراد. وقرأ الجمهور: ﴿لَتَقْسِدُنَّ﴾ بضم التاء وكسر السين، وقرأ عيسى الثقفی: ﴿لَتَقْسِدُنَّ﴾ بفتح التاء وضم السين والدال، وقرأ ابن عباس، ونصر بن عاصم، وجابر بن زيد: ﴿لَتَقْسِدُنَّ﴾ بضم التاء وفتح السين وضم الدال. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبُوا عَنْ طَاعَةِ الْأَمْرِينَ بِطَاعَةِ اللَّهِ﴾، وتطلبون في الأرض العلو والفساد، وتظلمون من قدرتم على ظلمهم، ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومقتضى هذه الآيات أن الله تعالى أعلم بني إسرائيل في التوراة أنه سيقع منهم عصيان وطغيان وكفر لنعم الله تعالى عندهم في الرُّسل والكتب وغير ذلك، وأنه سيرسل عليهم أمةً تغلبهم وتقتلهم وتذلهم، ثم يرحمهم بعد ذلك ويجعل لهم الكثرة ويردّهم إلى حالهم الأولى من الظهور، فتقع منهم المعاصي وكُفِّرَ النعم، والظلم والقتل، والكفر بالله من بعضهم، فبيعت الله عليهم أمةً أخرى تخرب ديارهم وتقتلهم وتجليهم جلاءً مبرحاً، وأعطى الوجود بعد ذلك هذا الأمر كله، وقيل: كان بين المرّتين: آخر الأولى

وأول الثانية مائتا سنة وعشر سنين ملكاً مُؤَيَّداً بأنبیاء، وقيل: سبعون سنة.

٥ - ٧ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ عائد على قوله: ﴿مُرَّتَيْنِ﴾، وعبر عن الشرّ بالوعد لأنه قد صرّح بذكر المعاقبة، وإذا لم يجيء الوعد مطلقاً فجائز أن يقع في الشرّ.

وقرأ علي بن أبي طالب، والحسن بن أبي الحسن: ﴿قَبِيداً﴾، واختلف الناس في العبيد المبعوثين وفي صورة الحال اختلافاً شديداً متباعدًا. عُيُونه أن بني إسرائيل عَصَوْا وقتلوا زكريا عليه السلام فغزاهم سَحَارِبُ مَلِكِ بَابِلَ، كذا قال ابن إسحق، وابن جبیر. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غزاهم جالوت من أهل الجزيرة، وروي عن عبدالله بن الزبير أنه قال في حديث طويل: غزاهم آخراً ملك اسمه خردوش، وتولّى قتلهم على دم يحيى بن زكريا قائد لخردوش اسمه هورزادان، وكف عن بني إسرائيل وسكن برعاية دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، وقيل: غزاهم أولاً صخابين ملك رومة، وقيل: بختنصر، وزوي أنه دخل قُبْلَ في جيش من الفرس وهو خامل يسير في مطبخ الملك، فاطلع من جور بني إسرائيل على ما لم تعلمه الفرس؛ لأنه كان يُدْخِلُهُمْ، فلما انصرف الجيش ذكر ذلك للملك الأعظم، فلما كان بعد مدة جعله رئيس الجيش وبعثه، فخرّب بيت المقدس وقتلهم وجلاهم، ثم انصرف فوجد الملك قد مات فملك

موضعه، واستمرت حاله حتى ملك الأرض بعد ذلك.

وقالت فرقة: إنما غزاهم بختنصر في المرة الأخيرة حين عَصَوْا وقتلوا يحيى بن زكريا عليهما السلام، وصورة قتله أن الملك أراد أن يتزوج بنت امرأته، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك، فعز ذلك على امرأته، فزينت بنتها وجعلتها تسقي الملك الخمر، وقالت لها: إذا راودك عن نفسك فتمتعني حتى يعطيك ما تَتَمَتُّنِي، فإذا قال لك: تَمَتُّنِي عَلَيَّ ما أردت فقول لي: رأس يحيى بن زكريا، ففعلت الجارية ذلك، فردّها الملك مرتين، وأجابها في الثالثة، فجاءه بالرأس في طست ولسانه يتكلم ويقول: لا تحل لك، وجرى دم يحيى عليه السلام فلم ينقطع، فجعل الملك عليه التراب حتى ساوى سور المدينة والدم ينبعث، فلما غزاهم الملك الذي بعث الله عليهم - بحسب الخلاف فيه - قتل منهم على الدّم حتى سكن بعد قتل سبعين ألفاً. وهذا مقتضى هذا الخبر، وفي بعض رواياته زيادة أو نقص، فَرَوَتْ فرقة أن أشعياء النبي عليه السلام وَعَظَّمَهُمْ وذكرهم الله ونَمَّه في مقام طويل نصّه الطبري، وذكر أشعياء في آخره محمداً ﷺ وبشّر به، فابتدره بنو إسرائيل، فَفَرَّ منهم، فلقي شجرة فتفلّت له حتى دخلها فالتأمت عليه، فعرض الشيطان عليهم هُذْبَةً من ثوبه، فأخذوا منشاراً فنشروا الشجرة وقطعوه في وسطها فقتلوه، وحينئذ بعث الله عليهم في المرة الأخيرة.

وذكر الزهراوي عن قتادة قصصاً أن زكريا هو صاحب الشجرة، وأنهم لما حملت مريم قالوا: ضيّع بنت سيدنا حتى زنت، فطلبوه فهرب منهم حتى دخل في الشجرة فنشروه. وروت فرقة أن بختنصر كان حفيد سَنَحَارِيب الملك الأول، وروت فرقة أن الذي غزاهم آخراً هو سابور ذو الأكتاف. وقال أيضاً ابن عباس رضي الله عنهما: سلّط الله عليهم حين عادوا ثلاثة أملاك من فارس: سَنَدَبَادَان وَشَهْرَبَازَان وآخر. وقال مجاهد: إنما جاءهم في الأولى عسكر من فارس فجاس خلال الديار وتقلب، ولكن لم يكن قتال ولا قتل في بني إسرائيل، ثم انصرفت عنهم الجيوش، وظهروا وأمدوا بالأموال والبنين حتى عَصَوْا وطغوا، فجاءهم في المرة الثانية من قتلهم وغلبهم على بيضتهم وأهلكهم آخر الدهر.

قوله تعالى: ﴿فَبَاسُوا خِلْدَ الدِّيَارِ﴾، وهي المنازل والمساكن، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَدْخُلُوا أَلْسِنَهُ كَمَا دَخَلُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يرد على قول مجاهد: إنه لم يكن في المرة الأولى غلبة ولا قتال، وهل يدخل المسجد إلا بعد غلبة وقتال؟ وقد قال مؤرج: جاسوا خلال الأرقّة. وقد ذكر الطبري في هذه الآية قصصاً طويلاً، منه ما يخص الآيات، وأكثره لا يخص، وهذه المعاني ليست بالثابتة لذلك اختصرتها.

وقوله تعالى: ﴿بَنَيْنَا﴾ يحتمل أن يكون الله تعالى بعث إلى ملك تلك الأمة رسولاً يأمره بغزو بني

إسرائيل، فتكون البعثة بأمر، ويحتمل أن يكون عبّر بالبعث عمّا ألقى في نفس الملك الذي غزاهم. وقرأ الناس: ﴿فَبَاسُوا﴾ بالجيم، وقرأ أبو السّمّال: ﴿فَحَاسُوا﴾ بالحاء، وهما بمعنى الغلبة والدخول قسراً، ومنه الحُوس، وقيل لأبي السّمّال: إما القراءة ﴿جَاسُوا﴾ بالجيم، فقال: جاسوا وحاسوا واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا يدل على تَخْيِير لا على رواية، ولهذا لا تجوز الصلاة بقرائه وقراءة نظرائه.

وقرأ الجمهور: ﴿خِلْدَ﴾ وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿خِلْ﴾، ونصبه في الوجهين على الظرف.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية عبارة عما قال الله تعالى لبني إسرائيل في التوراة، وجعل ﴿رَدَدْنَا﴾ في موضع (نَزَد) إذ وقت إخبارهم لم يقع الأمر بعد، لكنه لما كان وعد الله في غاية الشقة أنه يقع عبّر عن مستقبله بالماضي، وهذه الكَرَّة هي بعد الجلوة الأولى كما وصفنا، فغلبت بنو إسرائيل على بيت المقدس وملكوا فيه، وحسنت حالهم برهة من الدهر، وأعطاهم الله الأموال والأولاد وجعلهم إذا نفروا إلى أمر أكثر الناس، قال الطبري: وصيّرتناكم أكثر عدد نافر منهم. قال قتادة: كانوا أكثر نفيراً في زمن داود عليه السلام. و﴿فَبَاسُوا﴾ يحتمل أن يكون جمع نَفَر، كَكَلَب وكَلِيب، وعبد وعبيد، ويحتمل أن يكون فعلاً

﴿٨﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

يقول الله تعالى لبقية بني إسرائيل: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾، إن أطعتم في أنفسكم واستقمتم ﴿أَن يَرْحَمَكُم﴾، و﴿عَسَىٰ﴾ ترج في حقهم، وهذه العدة ليست برجوع دولة، وإنما بأن يرحم المطيع منهم، وكان من الطاعة اتباعهم لعيسى عليه السلام، ولمحمد ﷺ، فلم يفعلوا، وعادوا إلى الكفر والمعصية، فعاد عقاب الله تعالى، فضرب عليهم الذل وقتلهم، وأذلهم بيد كل أمة، وهنا قال ابن عباس رضي الله عنهما: سلط عليهم ثلاثة ملوك.

و «الْحَصِيرُ» فعيل من الحصر، فهي بمعنى السجن، أي: تخضرمهم، وينحو هذا فسر مجاهد وقتادة وغيرهما، ويقال: الحصير أيضاً من الحضر للملك، ومنه قول لبيد:

وَمَقَامَةٌ غُلِبَ الرُّقَابِ كَأَنَّهُمْ
جَنُّ لَدَىٰ بَابِ الْحَصِيرِ قِيَامُ
ويقال لجنبي الإنسان: حصيران لأنهما يحصرانه، ومنه قول الطرماح:

قَلِيلًا تَتَلَّىٰ حَاجَةً ثُمَّ عُولِيَتْ
عَلَىٰ كُلِّ مَفْرُوشِ الْحَصِيرَيْنِ بَادِنُ
وقال الحسن: «الْحَصِيرُ» في الآية أراد به ما يُفْتَرَشُ وَيُسَطُّ كالحصير المعروف عند الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك الحصر مأخوذ من الحصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقَوْمَ يَهْدَىٰ﴾ الآية. ﴿يَهْدَىٰ﴾ في هذه الآية بمعنى: يُزْشَد، ويتوجه فيها أن تكون بمعنى: يدعو، و﴿أَلَىٰ﴾ يريد

﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾، اللام

لام أمر، وقيل: المعنى: بعثناهم ليسوءوا، فهي لام (كَي) كلها، والضمير للعباد أولي البأس الشديد، وقرأ الجمهور: ﴿لِيَسْتَوُوا﴾ بالياء، جمع وهمزة بين واوين، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -، وابن عامر: ﴿لِيَسْءُوا﴾ بالياء وهمزة مفتوحة على الإفراد، وقرأ الكسائي - وهي مروية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه -: ﴿لِيَسْءُوا﴾ بنون العظمة، وقرأ أبي بن كعب:

﴿لِيَسْءُونَ﴾ بنون خفيفة، وهي لام الأمر، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿لِيَسْءُونَ﴾ بفتح السلام - وهي لام القسَم - والفاعل الله عز وجل، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿لِيَسْءِي﴾ بياء مضمومة بغير واو، وفي مصحف أنس: ﴿لِيَسْءُوا وَجُوهَكُمْ﴾ على الإفراد، وخص بالذكر الوجوه لأنها المواضع الدالة على ما بالإنسان من خير أو شر. و«المسجد»: مسجد بيت المقدس. و«تَبَّرَ» معناه: أفسد وأهلك بغشم، وقوله: ﴿مَا عُلُوًّا﴾ أي: ما تغلبوا عليه من الأقطار وملكوه من البلاد، وقيل: [ما] ظرفية، والمعنى: مدة غلُومهم وغلبيتهم على البلاد. و«تَبَّرَ» تحريره: رد الشيء فتاتاً كثيراً الذهب والحرير ونحوه، وهو تفتيته.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عِدًّا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَذَا الْقَوْمَ يَهْدَىٰ لِلَّذِي هُمْ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَبَدَعَ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دَعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مُجْرِمًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَاةٌ آيَةُ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّبَنَاتِنَا فَوَضَّلْنَا مِنَ رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ النَّيِّينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَانَهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عَقِبِهِ وَنُخْرِجُهُ لِكُلِّ يَوْمٍ لِّقِيَمَةٍ كَيْفَتَهَا يَلْقَاهُ مَشْهُورًا ﴿١٣﴾ أَفَرَأَيْتَ لَكَ فَنِيَكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا ﴿١٤﴾ مَنِ أَمْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَلِإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نَّهْلِكَ قَوْمًا أَمْرًا مَّرْفُوفًا فَفَسَقُوا وَآبَاهَا فَحَقَّ عَلَيْهِ الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

بمعنى فاعل، أي: وجعلناكم أكثر نافرأ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعندي أن التفسير اسم للجمع الذي يَفْتَرُ، سُمِّيَ بالمصدر، وقد قال تَبَّع الحميري:

فَأَكْرَمَ بِقُحْطَانٍ مِّنَ الْوَالِدِ
وَبِالْجَنَفِيرَيْنِ أَكْرَمَ تَفْسِيرًا
وقالوا: «لَا فِي الْعِيرِ وَلَا فِي النَّفِيرِ»، يريدون جمع قريش الخارج من مكة إلى بدر.

فَلَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ: إِنِّي سَأَفْعَلُ بِكُمْ هَكَذَا عَقَبَ ذَلِكَ بَوْصِيَّتِهِمْ فِي قَوْلِهِ سَبَّحَانَهُ: ﴿إِنَّ أَحْسَنَ أَحْسَنَ لِنَفْسِكُمْ﴾، والمعنى: إنكم بعملكم تؤخذون، ولا يكون ذلك ظلمًا ولا تشرعًا إليكم، و﴿وَعَدُ الْآخِرَةِ﴾ معناه: من المرتبتين المذكورتين، وقوله تعالى:

بها الحالة والطريقة. وقالت فرقة: ﴿لَيْتَ مِنَّا أَقْوَمٌ﴾ هي لا إله إلا الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أعم، وكلمة الإخلاص وغيرها من الأقوال والأفعال داخلة في الحال التي هي أقوم من كل حال تجعل بلزائها، والاختصار على ﴿أَقْوَمٌ﴾ ولم يذكر: «من كذا» إيجازاً، والمعنى مفهوم، أي: لَيْتَ هي أقوم من كل ما غيرها، فهي النهاية في القوام، وقيد المؤمنين بعمل الصالحات إذ هو كمال الإيمان وإن لم يكن في نفسه، والمؤمن المفرط في العمل له بإيمانه حظ في عمل الصالحات، و«الأَجْرُ الكبير»: الجنة، وكذلك حيث وقع في كتاب الله تعالى: «فُضِّلَ كبيرٌ وأَجْرٌ كبيرٌ» فهو الجنة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ الْأَوَّلَى فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ بِهِ «بَيْتُهُ»، وَ«أَنَّ» الثانية عطف على الأولى، وهي داخلة في جملة بشارة المؤمنين. بَشَرَهُمُ الْقُرْآنَ بِالْجَنَّةِ وبأن الكفار لهم عذاب أليم، وذلك أن علم المؤمنين بهذا مسرة لهم، وفي هذه البشارة وعيد للكفار بالمعنى، وهذا الذي تقتضيه ألفاظ الآية. وقرأ الجمهور: ﴿وَيُنَبِّئُ﴾ بضم الباء وفتح الباء وكسر الشين، وقرأ ابن مسعود، ويحيى بن وثاب، وطلحة: ﴿وَيُنَبِّشُ﴾ بفتح الباء وسكون الباء وضم الشين. و«أَعْتَدْنَا» معناه: أحضرنا وأعدنا، ومنه العتاد. و«الْأَلِيمُ»: الموجه.

قوله تعالى: ﴿وَيُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ بِأَلَسَّرَ

دَعَاةً يَلْمِزُ﴾. سقطت الواو من ﴿يُنَبِّئُ﴾ في خط المصحف لأنهم كتبوا المسموع، وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: هذه الآية نزلت دائماً لما يفعله الناس من الدعاء على أموالهم وأولادهم في وقت الغضب والضجر، فأخبر الله تعالى أنهم يدعون بالشَّرِّ في ذلك الوقت كما يدعون بالخير في وقت التثبت، فلو أجاب الله دعاءهم لأهلكهم، ولكن الله تعالى يصفح ولا يجيب دعاء الضَّجِرِ المستعجل. ثم عذر بعض العذر في أن الإنسان له عجلة فطرية، و«الْإِنْسَانُ» هنا، قيل: يراد به الجنس بحسب ما في الخلق من ذلك. قاله مجاهد وغيره. وقال سلمان الفارسي، وابن عباس: إشارته إلى آدم عليه السلام في أنه لما نفخ الروح في رأسه عطس وأبصر، فلما مشى الروح في بدنه قبل ساقه أعجبه نفسه فذهب يمشي مستعجلاً لذلك فلم يقدر، فأشارت ألفاظ الآية إلى ذلك. والمعنى: فأنتم ذوو عجلة موروثه من أبيكم، وُروى أن رسول الله ﷺ جعل أسيراً في قيد في بيت سودة بنت زمعة، فسمعت سودة أئنه فأشفقت، فقالت له: ما بالك؟ فقال: ألم القيد، فقامت فأرخت من ربطه فسكت، ثم نامت، فتَحِيلُ في الانحلال وفر، فطلبه النبي ﷺ عند الصبح فأخبر الخبر، فقال: «قطع الله يديها»، فزرعت سودة ورفعت يديها نحو السماء وهي تخاف الإجابة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد جعل

دعائي في مثل هذا رحمة على المدعو له؛ لأنِّي بشر أغضب وأعجل، فلتَرُدَّ سودة يديها».

وقالت فرقة: هذه الآية نزلت في شأن قريش، قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمُطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ﴾ الآية، وكان الأولى أن يقولوا: «فاهدنا إليه وارحمنا به»، فذمهم الله تعالى في هذه الآية.

وقالت فرقة: معنى هذه الآية معاتبه الناس على أنهم إذا نالهم شرٌ وضرٌ دعوا ولجؤا في الدعاء الذي كان يجب أن يدعوه في حالة الخير ويلزمه الكل، من ذكر الله تعالى وحمده والرغبة إليه، لكن الإنسان يقصر حينئذ، فإذا مشه الضُّرُّ أَلَحَّ واستعجل الفرج، فالآية - على هذا - نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ أَنفُسِهِ إِذَا فَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَنَّا كُفِّنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرًّا كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسْئَرِهِ﴾.

(١٢) - (١٣) تفسير قوله عز وجل: «الآية»: العلامة المنصوبة للنظر والعبرة، وقوله تعالى: ﴿فَوَحَا﴾، قالت فيه فرقة: سبب تعقيب الفاء أن الله تعالى خلق الشمس والقمر مضيين، فَمَحَا بعد ذلك القمر، محاه جبريل عليه السلام بجناحه ثلاث مرات، فمن هنالك كلفه وكونه منيراً فقط وقالت فرقة - وهو الظاهر -: إن قوله تعالى: ﴿فَوَحَا﴾ إنما يريد: في أصل خلقته، وهذا كما تقول: «بنيت داري فبدأت بالأس ثم تابعت»، فلا تريد بالفاء التعقيب، وظاهر لفظ الآية يقتضي

أربع آيات، لا سيما لمن بنى على أن القمر هو المَمْخُو، والشمس هي المبصرة، فأما من قدر أن المَمْخُو في ظلام الليل والإبصار في ضوء النهار أمكن أن تتضمن الآية آيتين فقط، على أن يكون فيها طرف من إضافة الشيء إلى نفسه. وقوله تعالى: ﴿ثُبِيرَةٌ﴾ مثل قولك: «ليل نائم وقائم»، أي: يُنَام ويُقَام فيه، وكذلك: «آية مبصرة» أي: يبصر فيها ومعها.

وحكى الطبري عن بعض الكوفيين أنه قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: سَلُوا عما شئتم، فقال ابن الكواء: ما السواد الذي في القمر؟ فقال له علي: قاتلك الله، هلاً سألت عن أمر دينك وآخرتك؟ ذلك مَخُو الليل.

وجعل الله تعالى النهار مبصراً ليبتغي الناس الرزق وفضل الله، وجعل القمر مخالفاً لحال الشمس ليعلم به العدد من السنين والحساب للأشهر والأيام، ومعرفة ذلك في الشرع إنما هو من جهة القمر لا من جهة الشمس.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ مِّنصُوبٌ﴾ بفعل مضمر يدل عليه الظاهر، تقديره: وفصلنا كل شيء تفصيلاً، وقيل: ﴿وَكُلُّ﴾ عطف على ﴿وَالْحِسَابُ﴾، فهو معمول ﴿يَسْتَلُوا﴾، و«التفصيل»: البيان بأن تذكر فصول ما بين الأشياء وتزال أسبابها حتى يتميز الصواب من الشبهة العارضة فيه.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ

طَبِيرُهُ فِي عَنِّيٍّ﴾ الآية. قوله: ﴿وَكُلُّ﴾ منصوب بفعل مقدر، وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وابن مجاهد: ﴿طَبِيرُهُ فِي عَنِّيٍّ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «طابيره»: ما قُدِّرَ عليه وله، وخاطب الله تبارك وتعالى العرب في هذه الآية بما تعرف، وذلك أنه كان من عاداتها التَّيْمُنُ والتَّشَاوُمُ بالطير في كونها سائحة وبارحة، وكثر ذلك حتى فعلته بالطباء وحيوان الفلوات، وسُمَّت كل ذلك تطبيراً، وكانت تعتقد أن تلك الطَّيْرَة قاضية بما يلقي الإنسان من خير وشر، فأخبرهم الله تعالى في هذه الآية في أوجز لفظ وأبلغ إشارة أن جميع ما يلقي الإنسان من خير أو شر قد سبق به القضاء، وألزم حفظه وعمله وتكسبه في عنقه، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ طَبِيرُهُ فِي عَنِّيٍّ﴾، فعبر عن الحظ والعمل - إذ هما متلازمان - بالطائر، قاله مجاهد وقتادة، بحسب معتقد العرب في التطبير، وقولهم في الأمور: «على الطائر الميمون»، و«بأسعد طائر»، ومنه ما طار في المحاصة والسهم، كقول أم العلاء الأنصارية: «فطار لنا من القادمين مع رسول الله ﷺ في الهجرة عثمان بن مظعون»، أي: كان ذلك حظنا، وأصل هذا كله من الطير التي تقضي عندهم بقاء الخير والشر، وأبطل ذلك قول النبي ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة».

وقوله تعالى: ﴿فِي عَنِّيٍّ﴾ جرى أيضاً على مقطع العرب في أن تنسب ما كان إلزاماً، وقِلادةً، وأمانةً،

ونحو هذا - إلى المُتَّقِ، كقولهم: «دسي في عُنُق فلان»، وكقول الأعشى:

قُلْتُذَلِكَ الشَّعْرُ يَا سَلَامَةً ذَا الـ
تَفَضَّالِ، والشيء حَيْثُمَا جُعِلَا
وهذا كثير، ونحوه جَعَلُهُم ما كان
تكسباً وجنايةً وإثماً منسوباً إلى اليد؛
إذ هي الأضَلُّ في التَّكْسِبِ.

وقرأ أبو جعفر، ونافع، والناس: ﴿وَيُخْرِجُ﴾ بنون العظمة «كِتَاباً» بالنصب، وقرأ الحسن، ومجاهد، وابن محيصن: ﴿يُخْرِجُ﴾ بفتح الياء وضم الراء على الفعل المستقبل - «كِتَاباً»، أي: طائرُه الذي كُتِيَ به عن عمله يُخْرِجُ له ذا كتاب، وقرأ الحسن - من هؤلاء -: «كِتَابٌ» بالرفع، وقرأ أبو جعفر أيضاً: ﴿وَيُخْرِجُ﴾ بضم الياء وفتح الراء - على ما لم يُسَمِّ فاعله - «كِتَاباً»، أي: طائره. وقرأ أيضاً: «كِتَابٌ»، وقرأت فرقة: ﴿وَيُخْرِجُ﴾ بضم الياء وكسر الراء، أي: يُخْرِجُ الله، وفي مصحف أبي بن كعب: «ففي عنقه يقرأه يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً». وهذا الكتاب هو عمل الإنسان وخطيئاته.

وقرأ الجمهور: ﴿يُلْقِيهِ﴾ بفتح الياء وسكون اللام وخفة القاف، وقرأ ابن عامر وحده: «يُلْقِيهِ» بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، وهي قراءة الحسن - بخلاف - وأبي جعفر الجحدري. وقوله: ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ﴾ حَذَفَ من الكلام «يُقَالُ لَهُ» اختصاراً لدلالة الظاهر عليه. و«الحاسب»: الحاسب، ونصبه على التمييز،

وأسند الطبري، عن الحسن أنه قال: «يا بن آدم، بُسِطَتْ لك صحيفة، ووكل بك مَلَكَانِ كَرِيمَانِ، أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يحفظ سيئاتك، فأمَّا لك ما شئت أو أَقَلُّلْ أو أَكْثَرُ، حتَّى إذا مِتُّ طُوِّيتَ صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً، اقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، قد عدل والله فيك مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذه الألفاظ التي ذكر الحسن يكون الطائر ما يتحصل مع ابن آدم من عمله في قبره، فتأمل لفظه، وهذا هو قول ابن عباس رضي الله عنهما. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾: إنه سيقراً يومئذ من لم يكن يقرأ.

(١٥) - (١٧) تفسير قوله عز وجل:

معنى هذه الآية أن كل أحد إنما يحاسب عن نفسه لا عن غيره، وزوي أن سببها أن الوليد بن المغيرة المخزومي قال لأهل مكة: اكفروا بمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وإثمكم عليّ، فنزلت هذه الآية، أي: إن الوليد لا يحمل آثامكم، وإنما إثم كل أحد عليه. وقالت فرقة: نزلت الإشارة في الهدى إلى أبي سلمة بن عبد الأسد، والإشارة بالضلال إلى الوليد بن المغيرة.

و «وَزَّيْرًا» معناه: حَمَلٌ، و«الْوَزْرُ»: الثَّقَلُ، ومنه: وزير السلطان، أي:

الذي يحمل ثقل دولته، وبهذه الآية نزلت عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها في الرد على من قال: إن الميت يُعَذَّبُ ببكاء الحي عليه، ونكتة ذلك المعنى إنما هي أن التعذيب إنما يقع إذا كان البكاء من سئة الميت وتُسبِّبه، كما كانت العرب تفعل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى بَيَّنَّتَ رَسُولًا﴾، قالت فرقة هي الجمهور: وهذا في حكم الدنيا، أي أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا من بعد الرسالة والإنذار، وقالت فرقة: هذا عام في الدنيا والآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتلخيص هذا المعنى أن مقصد الآية في هذا الموضع الإعلام بعبادة الله تعالى مع الأمم في الدنيا، وبهذا يقرب الوعيد من كفار مكة. ويؤيد هذا ما يجيء باند من وصفه ما يكون عند إرادة الله إهلاك قرية، ومن إعلامه بكثرة ما أهلك من القرون، ومع هذا فالظاهر من كتاب الله تعالى في غير هذا الموضع، ومن النظر، أن الله تعالى لا يعذب في الآخرة إلا بعد بعثة الرسل، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلِيقَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتَاهُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ قَالُوا بَلَى، وظاهر ﴿كُلَّمَا﴾ الحضر، وكقوله تعالى: ﴿وَأَن يَمُنَّ أَتَمَّةً إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، وأما من جهة النظر فإن بعثة آدم عليه السلام بالتوحيد، وبعث المعتققات في بني، ونصب الأدلة الدالة على الصانع، مع سلامة البصر، يوجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم

تجدد ذلك من مدة نوح عليه السلام بعد غرق الكفار، وهذه الآية أيضاً يُعطي احتمال ألفاظها نحو هذا، ويجوز مع الفرض وجود قوم لم تصلهم رسالة، ومنهم أهل الفترات الذين قد قَدَّرَ وجودهم بعض أهل العلم، وأما ما زوي أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال، فحديث لم يصح، ولا يقتضيه ما تقتضيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ الآية. هي في مصحف أبي بن كعب: ﴿نُعَذِّبُهَا أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾، و«الْقَرْيَةُ»: المدينة المجتمعة، مأخوذ من: قَرَيْتُ الماء في الحوض، إذا جمعته، وليست من (قرأ) الذي هو مهموز، وإن كان فيهما جميعاً معنى الجمع. وقرأ الجمهور: ﴿أَمَرْنَا﴾ على صيغة الماضي، من: أَمَرْتُ نَهْيَ، وقرأ نافع، وابن كثير - في بعض ما زوي عنهما -: ﴿أَمَرْنَا﴾ بمد الهمزة، بمعنى: كَثَرْنَا، وزويت عن الحسن، وهي قراءة علي بن أبي طالب، وابن عباس - بخلاف عنه - وعن الأعرج، وقرأ بها ابن أبي إسحق، وتقول العرب: ﴿أَمَرَ الْقَوْمُ﴾ إذا كَثَرُوا، وَأَمَرَهُمُ الله تعالى فيتعدي بالهمزة. وقرأ أبو عمرو - بخلاف -: ﴿أَمَرْنَا﴾ بتشديد الميم، وهي قراءة أبي عثمان النهدي، وأبي العالية، وابن عباس رضي الله عنهما، ورويت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقال الطبري: القراءة الأولى معناها: أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها، وهو قول ابن عباس، وابن جبير، والثانية معناها: كثرناهم، والثالثة هي من الإمارة، أي: ملكتهم على الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قال أبو علي الفارسي: «الجيد في أمرنا» أن تكون بمعنى: كثرنا، يتعدى الفعل بلفظ غير متعدد، كما تقول: رجع ورجعته، وشترت عيته وشترتها، فتقول: أمر القوم وأمرهم الله، أي كثرهم، وأمرنا مبالغة في أمرنا بالهمزة، وأمرنا مبالغة فيه بالتضعيف، ولا وجه لكون أمرنا من الإمارة؛ لأن رياستهم لا تكون إلا واحداً بعد واحد، والإهلاك إنما يكون في مدة واحد منهم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وينفصل عن هذا الذي قاله أبو علي بأن الأمر وإن كان يضم المتصرف وغيره، فخص المتصرف بالذكر إذ فسفه هو المؤثر في فساد القرية، وهم عظم الضلالة وسواهم تبع لهم. وأما أمرنا من الإمارة فمتوجه على وجهين: أحدهما ألا يريد إمارة المملك، بل كونهم يأمررون ويؤتمرون لهم؛ فإن العرب تقول لمن يأمر الإنسان - وإن لم يكن ملكاً -: هو أمير، ومنه قول الأعشى:

إذا كان هادي الفتى في البلاء
دصدراً القناة أطاع الأмира
ومنه قول معاوية لعمر
رضي الله عنه حين أمر بالاستقادة

من لطة عمرو بن العاص: إن علي أميراً لا أقطع أمراً دونه، أراد معاوية أباه، وأراد الأعشى أنه إذا شاخ الإنسان وعمي واهتدى بالعصى أطاع كل من يأمره، ومنه قول الآخر:

والناس يَلْحَظُونَ الأَمِيرَ إِذَا هُمْ
خَطِئُوا الصُّرُوبَ وَلَا يَلَامُ المُرْشِدُ
وأيضاً فلو أراد إمارة المملك في الآية لَحَسَنَ المعنى؛ لأن الأمة إذا ملك الله تعالى عليها مَثَرَةً ففسق، ثم ولّى مثله بعده، ثم كذلك، عَظُمَ الفساد وتوالى الكُفْرُ واستحقوا العذاب فنزل بهم على رجل الأخير من ملوكهم، وقرأ الحسن، ويحيى بن يغمر: «أمرنا» بكسر الميم، وحكاها النحاس عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا أتخفّق وجهاً لهذه القراءة؛ إلا إن كان (أمر القوم) يتعدى بلفظه، فإن العرب تقول: «أمر بنو فلان» إذا كثروا، ومنه قول لبيد:

إِنْ يُغَبِّطُوا يُهَبِّطُوا وَإِنْ أَمَرُوا
يَوْمًا يَصِيرُوا لِقُلٍّ وَتُفْدٍ
ومنه: (لقد أمر أمر ابن أبي كبشة)، وردّ الفراء هذه القراءة، وقد حكى (أمر) متعدياً عن أبي زيد الأنصاري، والمُثَرَفُ: الغني من المال المتنعم، والثُرْفَةُ: الثَّغْمَةُ، وفي مصحف أبي بن كعب: «قرية بعثنا أكابر مجرميها فمكروا فيها». وقوله تعالى: «نَحَقَّ عَلَيَّ الْقَوْلُ» أي وعيد الله لها الذي قاله رسولهم. والتذمير: الإهلاك مع طمس الآثار وهدم البناء، ومنه قول الفرزدق:

وَكَانَ لَهُمْ كَبْكُرٌ تُمُودُ لَمَّا
رَعَا ظَهْرًا قَدَمَرُهُمْ دَمَارًا
قوله تعالى: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ» الآية، [كَمْ] في موضع نصب بـ [أَهْلَكْنَا]، وهذا الذكر لكثرة من أهلك الله من القرون مثال لقريش ووعد، أي: لستم ببعيد مما حصلوا فيه من العذاب إذا أنتم كذبتهم، واختلف الناس في القرن - فقال ابن سيرين عن النبي ﷺ: «أربعون»، وقيل غير هذا مما هو قريب منه، وقال عبدالله بن أبي أوفى: القرن مائة وعشرون سنة، وقالت طائفة: القرن مائة سنة، وهذا هو الأصح الذي يعضده الحديث في قوله ﷺ: «خير الناس قرني». وروى محمد بن القاسم في ختبه عبدالله بن بسر قال: وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي وقال: «سيعيش هذا الغلام قرناً»، قلت كم القرن؟ قال: «مائة سنة»، قال محمد بن القاسم: فما زلنا نعدّ له حتى أكمل مائة سنة، ثم مات رحمه الله، والباء في قوله تعالى: «بِرَبِّكَ» زائدة، والتقدير: كفى ربك، وهذه الباء إنما تجيء في مدح أو ذم، وكأنها تعطي معنى: اكتف بربك، أي: ما أكفاه في هذا، وقد تجيء (كفى) بدون باء، كقول الشاعر:

كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا
وكقول الآخر:

وَيُخْبِرُنِي عَنْ غَائِبِ الْمَرْءِ هَذِيهِ
كَفَى الْهَذِي عَمَّا غَيَّبَ الْمَرْءُ مُخْبِرَا

﴿١٨﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: من كان يريد الدنيا العاجلة، ولا يعتقد غير هذا، ولا يؤمن بآخرة، فهو يفرغ أملة ومعتقده للدنيا، فإن الله تعالى يعجل لمن يريد من هؤلاء ما يشاء هذا المريد، أو ما يشاء الله تعالى - على قراءة من قرأ: ﴿نَشَاءُ﴾ بالنون - وقوله سبحانه: ﴿لَنْ تُرِيدَ﴾ شرط كاف على القراءتين، ثم يجعل الله تعالى جهنم لجميع من يريد العاجلة - على جهة الكفر - مَنْ أعطاه فيها ما يشاء وَمَنْ حرمه. وقال أبو إسحق الفزاري: لمن نريد هلكته. وقرأ الجمهور: ﴿نَشَاءُ﴾ بالنون، وقرأ نافع أيضاً: ﴿نَشَاءُ﴾ بالياء. و«المُدْحُور»: الْمُهَانُ الْمُتَبَعْدُ الْمَذْلُلُ المسخوط عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ الآية. المعنى: ومن أراد الآخرة إرادة يقين بها وبالله وبرسالاته. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك كله مرتبط بتلازم.

ثم شرط في مُريد الآخرة أن يسعى لها سعيها، وهو ملازمة أعمال الخير وأقواله على حكم الشرع وطرقه، فأولئك يشكر الله سعيهم، ولا يشكر الله تعالى عملاً ولا سعيًا إِلَّا إذا أثاب عليه وغفر بسببه، ومنه قول النبي ﷺ في حديث الرجل الذي سقى الكلب العاطش، فشكر الله له، فغفر له.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا تَبَدُّدُ﴾ الآية. نصب ﴿كَلَّا﴾ بـ ﴿تَبَدُّدُ﴾. وأمددت الشيء إذا زدت فيه من غير نوعه، ومددت إذا زدت فيه من نوعه،

وقيل: هما بمعنى واحد، يقال: مَدَّ وَأَمَدَّ. و«هَؤُلَاءِ» بدل من ﴿كَلَّا﴾، فهو في موضع نصب، وقوله تعالى: ﴿مِنْ عَطَا رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يريد: من الطاعات لمن يريد الآخرة، والمعاصي لمن يريد العاجلة، وزوي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يريد بالعطاء رزق الدنيا، وهذا هو تأويل الحسن بن أبي الحسن، وقتادة، أي أن الله تبارك وتعالى يرزق في الدنيا مُريدي الآخرة

المؤمنين، ومُريدي العاجلة الكافرين، ومُمدهم بعطائه منها، وإنما يقع التفاضل والتباين في الآخرة، ويتناسب هذا المعنى مع قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ عَطَا رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، أي أَنَّ رزقه في الدنيا لا يضيق عن مؤمن ولا كافر وقلما، تصلح هذه العبارة لمن يُمد بالمعاصي التي تُوبَّه. و«المَحْظُور»: الممنوع.

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ آية تدلُّ دلالة على أن العطاء في الآية التي قبلها هو الرزق، وفي ذلك يترتب أن ينظر محمد ﷺ إلى تفضيل الله تبارك وتعالى لبعض على بعض في الرزق ونحوه من الصور والشرف والجاه والحظوظ، ويَبَيَّن أن يكون التفضيل الذي ينظر إليه النبي ﷺ أن

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَنَّتَهُمْ بِصَلَتِهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا تَبَدُّدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَا رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَا رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٢﴾ وَفَضَّلْنَا رِبَّكَ أَلَّا تَعْبُدَ إِلَّا الْإِلَٰهَ وَآلَؤُنَا لَدَيْنَا إِحْسَانًا إِنَّمَا يَبْلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِمَا أَفِي وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتَاكَ الْفَرْقَ حَقًّا وَالْمُسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ رِبِّيًّا وَلَا تَبْذُرْ إِنْ الْمُدْرَيْنِ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٦﴾

٢٨٤

أعطى الله قومًا الطاعة المؤدية إلى الجنة، وأعطى آخرين الكفر المؤدي إلى النار، وهذا قول الطبري، وهذا النظر في تفضيل فريق على فريق، وعلى التأويل الآخر فالنظر في تفضيل شخص على شخص من المؤمنين والكافرين كيفما قرنتهما. ثم أخبر عز وجل أن التفضيل الأكبر إنما يكون في الآخرة، وقوله: ﴿أَكْبَرُ دَرَجَتٍ﴾ ليس في اللفظ: «من أي شيء»، لكنه في المعنى - ولا بد - أكبر درجات من كل ما يضاف بالوجود أو بالفرض إليها، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورأى بعض العلماء أن هذه الدرجات والتفضيل إنما هو فيما بين المؤمنين، وأسند الطبري في ذلك حديثاً نصه: «إِنَّ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ

درجة وأسفلهم كالنجم يرى في مشارق الأرض ومغاربها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : قيل : وقد رضى الله الجميع فما يغبط أحد أحداً ولا يتمنى ذلك بدلاً .

قوله تعالى : ﴿لَا تَجْمَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية . الخطاب لمحمد ﷺ ، والمراد : جميع الخلق ، قاله الطبري وغيره ، والذم هنا لا حق من الله تعالى ومن ذوي العقول في أن يكون الإنسان يجعل عوداً أو حجراً أفضل من نفسه ، ويخصه بالكرامة ، وينسب إليه الألوهية ، ويشركه مع الله الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه . والخذلان في هذا يكون بإسلام الله تعالى ، وألا يكفل له النصر ، والمخذول : الذي لا ينصره من يجب أن ينصره . والخاذل : من الظباء التي تترك ولدها ، ومن هذه اللفظة قول الراعي :

فَقُلُوا ابْنِ عَفَّانَ الْخَلِيفَةُ مُخْرِمًا
وَدَعَا فَلَمْ أَرْ مِثْلَهُ مَخْذُولًا
(١٣) - (١٤) تفسير قوله عز وجل :

﴿فَصَّحَّ﴾ في هذه الآية بمعنى : أمر وألزم وأوجب عليكم ، وهكذا قال الناس . وأقول : المعنى : وقضى ربك أمره ﴿أَلَّا تَتَّبِعُوا إِلَّا مَا يَأْتِي﴾ ، وليس في هذه الألفاظ إلا أمر بالانقياد على عبادة الله ، فذلك هو المقضي ، لا نفس العبادة . و ﴿فَصَّى﴾ في كلام العرب : أتم المقضي محكماً ، والمقضي هنا هو الأمر ، وفي مصحف ابن مسعود : ﴿وَوَصَّى﴾ ، وهي قراءة أصحابه

وقراءة ابن عباس ، والنخعي ، وسعيد بن جبني ، وميمون بن مهران ، وكذلك عند أبي بن كعب . وقال الضحاك : تصحَّف على قوم (وَصَّى) بـ (فَصَّى) حين اختلطت الواو بالصاد وقت كتب المصحف .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا ضعيف ، وإنما القراءة مَرْوِيَّةٌ بسند ، وقد ذكر أبو حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما مثل قول الضحاك ، وقال عن ميمون بن مهران : إنه قال : ﴿إِنَّ عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِلنُّورِ﴾ قال الله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ . ثم ضعف ابن حاتم أن يكون ابن عباس رضي الله عنهما قال ذلك ، وقال : لو قلنا هذا لطنع الزنادقة في مصحفنا . والضمير في ﴿تَتَّبِعُوا﴾ لجميع الخلق ، وعلى هذا التأويل مضى السلف والجمهور ، وسأل الحسن بن أبي الحسن رجل فقال : إنه طلق أمرته ثلاثاً ، فقال له الحسن : عصيت ربك وبانت منك امرأتك ثلاثاً ، فقال له الرجل : قضى الله ذلك علي ، فقال له الحسن : وكان فصيحاً : ما قضى الله ، أي : ما أمر الله ، وقرأ هذه الآية ، فقال الناس ، تكلم الحسن في القدر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : ويحتمل أن تكون ﴿فَصَّى﴾ على مشهورها في الكلام ، ويكون الضمير في ﴿تَتَّبِعُوا﴾ للمؤمنين من الناس إلى يوم القيامة ، لكن على التأويل الأول يكون قوله تعالى : ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنَّا﴾ عطفاً على ﴿أَنْزِلْنَا الْأَوَّلَى﴾ أي : أمر الله ألا تعبدوا إلا إياه وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً ، وعلى هذا الاحتمال الذي ذكرناه يكون قوله : ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنَّا﴾ مقطوعاً من الأول ، فإنه أخبرهم بقضاء الله تبارك وتعالى ، ثم أمرهم بالإحسان إلى الوالدين .

و [إِذَا] شَرْطِيَّةٌ ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : ﴿يَنْلَقْنِ﴾ وروى عن ابن ذكوان ﴿يَنْلَقْنِ﴾ بتخفيف النون ، وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿يَنْلَقَانِ﴾ ، وهي قراءة أبي عبد الرحمن ، ويحيى ، وطلحة ، والأعمش ، والجحدري ، وهي النون الثقيلة دخلت مؤكدة ، وليست بنون تشنية ، فعلى القراءتين الأولىين يكون قوله : ﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعلاً ، وقوله : ﴿أَزْ كِلَاهُمَا﴾ معطوفاً عليه ، وعلى هذا القراءة الثالثة يكون قوله : ﴿أَحَدُهُمَا﴾ بدلاً من الضمير في ﴿يَنْلَقْنِ﴾ ، وهو بدل مُقَسَّم كقول الشاعر :

وَكُنْتُ كَذِي رَجُلَيْنِ : رَجُلٌ صَحِيحَةٌ
وَرَجُلٌ رَمَى فِيهَا الزَّمَانَ فَشَلَّتْ
ويجوز أن يكون : ﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعلاً ، وقوله : ﴿أَزْ كِلَاهُمَا﴾ عطف عليه ، ويكون ذلك على لغة من قال : «أكلوني البراغيث» ، وقد ذكر هذا في هذه الآية بعض النحويين ، وسيبويه لا يرى لهذه اللغة مدحلاً في القرآن الكريم .

وقرأ أبو عمرو : ﴿أَبْ﴾ بكسر الفاء وترك التنوين ، وهي قراءة حمزة ، والكسائي ، وعاصم - في رواية أبي

بكر، وقرأ نافع، والحسن، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وعيسى: ﴿أَفَ﴾ بالكسر والتنوين، وقرأ ابن كثير، وابن عامر: ﴿أَفْ﴾ بفتح الفاء، وقرأ أبو السَّمال: ﴿أَفْ﴾ بضم الفاء، وقرأ ابن عباس: ﴿أَفْ﴾ خفيفة، وهذا كله بناء، إلا أن قراءة نافع تعطي التنكير، كما تقول: «إيه». وفيها لغات لم يُقرأ بها: «أَفْ» بالرفع والتنوين، على أن هرون حكاها قراءة - «أَفَا» بالنصب والتنوين، و«أَفِي» بياء بعد الكسرة، حكاها الأَخفش الكبير، و«أَفَا» بألف بعد الفتحة، و«أَفْ» بسكون الفاء المشددة، و«أَفْ» مثل رَبِّ، ومن العرب من يُميل «أَفَا»، ومنهم من يزيد فيها هاء السَّكْت فيقول: «أَفَاه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى اللفظة أنها اسم فعل، كأن الذي يريد أن يقول: أَضَجِرْ، أو: أَتَقَدَّرْ، أو: أَكْزَرْ، أو نحو هذا، يُعَبَّرُ بإيجازاً بهذه اللفظة فتعطي معنى الفعل المذكور، وجعل الله تعالى هذه اللفظة مثلاً لجميع ما يمكن أن يقابل به الآباء مِمَّا يكرهون، فلم تَرَدْ هذه اللفظة في نفسها وإنما هي مثال الأعظم منها والأقل، فهذا هو مفهوم الخطاب الذي المسكوت عنه حكمه حكم المذكور.

و «الانتَهَارُ»: إظهار الغضب في الصوت واللفظ. و «القول الكريم»: الجامع للمحاسن، من اللين وجودة المعنى وتَضَمُّن البر، وهذا كما تقول: ثوب كريم، تريد أنه جَمُّ المحاسن. و «الأَفْ»: وسخ الأظفار، فقالت فرقة: إن هذه اللفظة

التي في هذه الآية مأخوذة من ذلك، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِّمَنَّا أَفَ﴾: معناه: إذا رأيت منهما في حال الشيخ الغائط والبول الذي رأيته منك في الصغر، فلا تَقْدِرُهُمَا، ولا تقل: أَفْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية أعم من هذا القول، وهو داخل في جملة ما تقتضيه. قال أبو السُّراج الشَّجِيبِي: قلت لسعيد بن المسيب: كل ما في القرآن من بِرِّ الوالدين قد عرفته إلا قوله: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، ما هذا القول الكريم؟ قال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد القَطُّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ استعارة، أي: أقطعهما جانب الذل منك، وديث لهما نفسك وخُلُقك. ويُولغ بذكر الدُّلِّ هنا ولم يذكر في قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِئِنْ أَتَيْكَ مِنَ الْتَوَّابِينَ﴾، وذلك بحسب عظم الحق هنا. وقرأ الجمهور: ﴿الَّذِلَّ﴾ بضم الذال، وقرأ سعيد بن جبير، وابن عباس، وعروة بن الزبير: ﴿الَّذِلَّ﴾ بكسر الذال، ورويت عن عاصم ابن أبي النجود، و«الَّذِلُّ» في الدواب ضد «الصُّعوبية»، ومنه: الجَمَلُ الذَّلُول، والمعنى يتقارب.

وينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في حَيِّز ذَلَّة في أقواله وسَكَنَاتِهِ ونظره، ولا يجد لهما بصره، فإن تلك هي نظرة الغاضب. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أبعده الله وأسحقه»، قالوا: من يا رسول الله؟

قال: «من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يغفر له».

قوله تعالى: ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾، «مِنَ» هنا لبيان الجنس، أي: إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالاً، ويصح أن تكون لابتداء الغاية.

ثم أمر الله تعالى عباده بالتَّوَحُّم على آباءهم، وذكر مَنِيَّهما على الإنسان في التربية؛ ليكون تذكر تلك الحالة مما يزيد الإنسان إشفاقاً لهما، وحناناً عليهما، وهذا كله في الأبوين المؤمنين، وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولى قُرْبَى، وذكر عن ابن عباس هنا لفظ النسخ، وليس هذا موضع نسخ.

قوله تعالى: ﴿وَتَذَكَّرُ أَقَلُّ مِمَّا فِي نَفْسِكَ﴾ أي: من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما، أو من غير ذلك، ويجعلون ظاهر بِرِّهِمَا رياءً. ثم وَعَدَ سبحانه وتعالى في آخر الآية بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة إلى طاعة الله. واختلفت عبارة الناس في «الأوابين» - فقالت فرقة: هم المصلحون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم المسبِّحون، وقال أيضاً: هم المطيعون والمحسنون، وقال ابن المنكدر: هم الذين يصلون بين المغرب والعشاء، وذلك أن رسول الله ﷺ سئل عن الصلاة في ذلك الوقت فقال: «تلك صلاة الأوابين». وقيل غير ذلك من المستغفرين ونحوه. قال عَوْن القَيْلِي: هم الذين يصلون صلاة

وكذلك ثبت في مصحف أس بن مالك، ثم ذكر تبارك وتعالى كُفِّر الشيطان ليقع التحذير من التشبه به في الإنساد مستوعباً يتناً.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا نُرْضِئُكَ﴾ الآية. الضمير في ﴿عَنَّهُمْ﴾ عائذ على من تقدم ذكره من المساكين وبني السبيل، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية - إذا سأله منهم أحد فلم يجد عنده ما يعطيه، فقابله رسول الله ﷺ بالإعراض تأدباً منه في أن يرده تصريحاً، وانتظاراً لرزق من الله تعالى يأتي فيُعطي منه - أن يكون يُؤنسه بالقول الميسور، وهو الذي فيه الترجية بفضل الله، والتأنيس بالميعاد الحسن، والدعاء في توسعة الله تعالى وعطائه. وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول بعد نزول هذه الآية - إذا لم يكن عنده ما يعطي -: «يرزقنا الله وإياكم من فضله»، فالرُخمة - على هذا التأويل - الرزق المنتظر، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقال ابن زيد: الرُخمة: الأجر والثواب، وإنما نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن يعطيهم، لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد، فكان يعرض عنهم رغبة الأجر في منعهم، لئلا يعينهم على فسادهم، فأمره الله تبارك وتعالى بأن يقول لهم قولاً ميسوراً يتضمن الدعاء في الفتح لهم والإصلاح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال بعض أهل التأويل الأول: نزلت الآية في عمار بن ياسر

في هذه الآية ما يتعين له من صلة الرُحِم، وسد الخلة، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه، قال بنحو هذا الحسن، وعكرمة، وابن عباس، وغيرهم. وقال علي بن الحسين في هذه: هم قرابة النبي ﷺ، أمر رسول الله ﷺ بإعطائهم حقوقهم في بيت المال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول أبين، ويعضده العطف بالمسكين وابن السبيل.

و«ابن السبيل» هنا يعم الغني والفقير؛ إذ لكل واحد منهما حق وإن اختلفا، و«ابن السبيل» في آية الصدقة أخص.

و«التبذير»: إنفاق المال في إفساد، أو في سرف في مباح، وهو من البذر، ويحتمل قوله تعالى: ﴿الْبَذِيرِينَ﴾ أن يكون اسم جنس، ويحتمل أن يعني أهل مكة مُعَيَّيْن، وذكره النقاش، وقوله تعالى: ﴿إِخْرَجُوا﴾ يعني: في حكمهم؛ إذ المبدع ساع في فساد، والشيطان أبداً ساع في فساد، والإخوان: جمع أخ من غير النسب، وقد يشد، ومنه قوله تعالى في سورة النور: ﴿أَزْوَاجَهُمْ أَوْ أَيْحَىٰ إِخْوَانُهُمْ﴾، والإخوة: جمع أخ في النسب، وقد يشد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْكُفَّارُونَ إِخْوَةٌ﴾، وقرأ الحسن، والضحاك: ﴿إِخْوَانُ الشَّيْطَانِ﴾ على الأفراد،

الضحى. وحقيقة اللفظة أنها من: آب يؤوب إذا رجع، وهؤلاء كلهم لهم رجوع إلى طاعة الله تبارك وتعالى، ولكنها لفظة لزم عرفها أهل الصلاح. قال ابن المسيب: هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وفسر الجمهور «الأوابين» بالراجعين إلى الخير، وقال ابن جبير: أراد بقوله: «عُفُوراً» للأوابين، الرُلة والفلة تكون من الرجل لأحد أبويه، وهو لم يصبر عليها بقلبه، ولا علمها الله من نفسه. وقالت فرقة: «خَفَضَ الجناح» هو ألا يمتنع من شيء يريدانه.

٢٨٥ - (٣٠) تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون في «ذي القربى» - فقال الجمهور: الآية وصية للناس كلهم بصلة قرابتهم، خوطب بذلك النبي ﷺ والمراد الأمة. و«الحق»

وصفه، و«الْمَيْسُورُ» مفعولٌ من لفظة الْمَيْسُورِ، تقول: يَسْرُتُ لك كذا إذا أعدته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ الآية، روي عن قالون: «كُلُّ الْبُضْطِ» بالصاد، ورواه الأعمش عن أبي بكر، واستعير لليد المقبوضة جملةً عن الإنفاق المَشْفِطَةِ بالبخل الغلُّ إلى العنق، واستعير لليد التي تستنفد جميع ما عندها غاية البسط، ضد الغل، وكل هذا في إنفاق الخير، وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام.

وهذه الآية ينظر إليها قول النبي ﷺ: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمَتَصَدِّقِ...» الحديث بكماله.

والملامة هنا لاحقة ممن يطلب من المستحقين فلا يجد ما يُعطى. و«الْمَحْسُورُ»: المقعد الذي قد اسْتَفْذِت قُوَّتُهُ، تقول: حَسَرْتُ البعير إذا أَتَعَبْتَهُ حتى لم يبق له قوة، فهو حسير، ومنه قول الشاعر:

لَهُنَّ الْوُجَا لِمَ كُنَّ عَوْنًا عَلَى السُّرَى
وَلَا زَالَ مِنْهَا طَالِعٌ وَخَسِيرٌ

ومنه: البصر الحسير، وهو الكال. وقال ابن جريج وغيره في معنى هذه الآية: لا تُنْسِك عن النفقة فيما أمرتك به من الحق، ولا تبسطها كل البسط فيما نهيتك عنه. وقال قتادة: التبذير: التَّفَقُّة في معصية، وقال مجاهد: لو أنفق الإنسان ماله كله في حق لم يكن تبذيراً، ولو أنفق مداً في باطل كان تبذيراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا فيه نظر، ولا يُعطي البَسْط معنى لم يُح فيهما نهى عنه، ولا يقال

في المعصية: «وَلَا تُبْذَرْ»، وإنما يُقال: «وَلَا تُنْفِق ولو باقتصاد وقوام»، والله ذو ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهما فإِثْمَا قَالَا: «التبذير: الإنفاق في غير حق»، فهذه عبارة تُعْمُ المعصية والسرف المباح، وإنما نَبَّهَتْ في الآية على است فراغ الجهد فيما يطرأ أولاً من سؤال المؤمنين؛ لِئَلَّا يَبْقَى من يأتي بعد ذلك لا شيء له، أو لِئَلَّا يُضَيِّع المنفق عيالاً، ونحوه من كلام الحكمة: «ما رأيتُ سرفاً قط إلا ومعه حق مضىع»، وهذا من آيات فقه الحال، ولا يبين حكمها إلا باعتبار شخص شخص من الناس.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْهُطُ الرِّزْقَ﴾، المعنى: كن أنت يا محمد على ما رسم لك من الاقتصاد وإنفاق القوام، ولا يهملك فقر من تراه كذلك، فإنه يَمْرَأَى من الله وَيَسْمَع، ويمشيته. و﴿يَبْذَرُ﴾ معناه: يُضَيِّق. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ يَعْاَوِدُ خَيْرًا مِنْ بَيْرٍ﴾، أي: يعلم مصلحة قوم في الفقر، ويعلم مصلحة آخرين في الغنى. وقال بعض المفسرين - وحكاه الطبري -: إن الآية إشارة إلى حال العرب التي كانت يُصلحها الفقر، وكانت إذا شبت طغت وقتلت غيرها وأغارث، وإذا كان الجوع والقحط شغلهم.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الأعمش، وابن وثاب: ﴿وَلَا تُقْتُلُوا﴾ بتضعيف الفعل. وهذه الآية نهى عن الوأد الذي كانت العرب تفعله، وهو قوله تعالى: ﴿وَرَدَا

الْوَدَّ سَيْتَ ﴿٣١﴾، ويقال: كان جهلهم يبلغ إلى أن يُعَزَّ واحدٌ منهم كلبه ويقتل ولده، و﴿خَشِيَةً﴾ منصوب على المفعول لأجله، و«الإملاق»: الفقر وعدم المال، أَمْلَقَ الرجلُ: لم يبق له إلا المَلَقَاتُ، وهي الحجارة العظام المُلْسُ السُّود. وقرأ الجمهور: ﴿خَطَأً﴾ بكسر الخاء وسكون الطاء، وبالهزم والقصر، وقرأ ابن عامر: ﴿خَطْأً﴾ بفتح الخاء والطاء والهزمة مقصورة، وهي قراءة أبي جعفر، وهاتان قراءتان مأخوذتان من: خَطِئَ إِذْ أَتَى الذَّنْبَ على عمد، فهي: كَجَذَرٍ وَخَذَرٍ ومِثْلٍ وَمِثْلٍ وَثِبُهُ وَثَبَهُ اسم مصدر، ومنه قول الشاعر:

الْخِطْءُ فَاجِحَةٌ وَالْبِرُّ نَافِلَةٌ
كَعَجْوَةٍ غُرِسَتْ فِي الْأَرْضِ تُؤْتِي
قال الزجاج: خَطِئَ الرجلُ يَخْطِئُ خِطْئًا، مثل: أَيْمٌ يَأْتُمُ إِنْمًا، فهذا هو المصدر، وَخَطَأَ اسْمٌ مِنْهُ، وقال بعض العلماء: خَطِئَ معناه واقع الذنب مع التعمد، وأخطأ إذا واقعه من غير تعمد، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وقال أبو علي الفارسي: قد يقع هذا موضع هذا، وهذا موضع هذا، فأخطأ بمعنى تعمد في قول الشاعر:

عِبَادُكَ يَخْطِئُونَ وَأَنْتَ رَبُّ
كَرِيمٌ لَا تَلِيْقُ بِكَ الذُّمُّومُ
وخطيء بمعنى لم يتعمد في قول الآخر:

وَالنَّاسُ يَلْحَوْنَ الْأَمِيرَ إِذَا هُمْ
خَطِئُوا الصَّوَابَ وَلَا يَلَامُ الْمُزِيدُ

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿خَطَأٌ﴾ بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة، وقرأ ابن كثير: ﴿خِطَاءٌ﴾ بكسر الخاء وفتح الطاء ومدّ الهمزة، وهي قراءة الأعرج - بخلاف - وطلحة، وشبل، والأعمش، وعيسى، وخالد بن إلياس، وقتادة، والحسن - بخلاف -، قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً، وكذلك جعلها أبو حاتم غَلَطاً، قال أبو علي الفارسي: هي مصدر خاطأ يخطئ، وإن كنا لم نجد خاطأً، ولكن وجدنا تخاطأً، وهو مضارع خاطأً، فدلنا عليه، ومنه قول الشاعر:

تَخَاطَأَتِ التُّبُلُ أَخْشَاءُ
وَأَخْرَىوُمِي فَلَمْ أَغْجَلِ
وقال الآخر في صفة كماء:

تَخَاطَاهُ الْقَنَاصُ حَتَّى وَجَدْتُهُ
وَحَرْطُومُهُ فِي مِثْقَعِ الْمَاءِ زَائِبُ
فكان هؤلاء الذين يقتلون أولادهم يخطئون الحق والعدل. وقرأ الحسن

- فيما روي عنه -: ﴿خَطَأٌ﴾ بفتح الخاء والطاء والمد في الهمزة. قال أبو حاتم: لا يُعرف هذا في اللغة، وهي غلط غير جائز، وليس كما قال أبو حاتم. قال أبو الفتح: الخطأ من «أخطأت» بمنزلة العطاء من «أعطيت»، هو اسم بمعنى المصدر. وقرأ الحسن - بخلاف -: ﴿خَطَأً﴾ بفتح الخاء والطاء مَثُونَةً من غير همز. وقرأ أبو رجاء، والزهري: ﴿خِطَاءٌ﴾ بكسر الخاء وفتح الطاء كالتي قبلها، وهاتان مخففتان من: خَطَأٌ وَخِطَأٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَؤُا الزِّقَّةَ﴾

تحريم، والزنى يُمدُّ ويُقصر، فمن قَصَرِه الآية، وهي لغة جميع كتاب الله، ومن مَدَّه قول الفرزدق: أَبَا حَارِثٍ مَنْ يَزِنُ يَغْرِفُ زَنَاوُهُ وَمِنْ يَشْرِبِ الْخُرْطُومُ يُضْبِغُ مُسْكِرَا وَيُزَوِّي: أبا خالد، و«الفاحشة»: ما يُستتر به من المعاصي لقبه. و﴿سَكِيلًا﴾ نصب على التمييز، والتقدير: وساء سبيله سبيلاً، أي لأنه يؤدي إلى النار.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ وما تقدم قبله من الأفعال جزم بالنهي. وذهب الطبري إلى أنها عطف على قوله: ﴿وَتَقَى رَبَّكَ أَلاَّ تَبْهَتُوا﴾ إِلَّا إِيَّاهُ، والأول أصوب وأبصر للمعنى.

والأنف واللام التي في ﴿النَّفْسِ﴾ هي للجنس، و«الحق» الذي تقتل به النفس هو ما فسره النبي ﷺ في قوله: ﴿لَا يُجِلُّ دَمَ الْمُسْلِمِ إِلَّا إِحْدَى ثَلَاثَ خِصَالٍ: كَفَرٌ بَعْدَ إِيمَانٍ، أَوْ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ قَتَلَ نَفْسَ أُخْرَى﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتتصل بها أشياء هي راجعة إليها، فمنها قَطْعُ الطريق لأنه في معنى قتل النفس، وهي الجزاء، ومن ذلك الزندقة، ومسألة ترك الصلاة لأنها في معنى الكفر بعد الإيمان، ومنه قَتَلَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه مَنَعَةً الزكاة، وقتل من امتنع في المدن من فروع الكفاية. وقوله: ﴿مَظْلُومًا﴾ نصب على الحال، ومعناه: بغير هذه الوجوه المذكورة. و«الولي»: القائم بالدم وهو من وَلَدَ الْمَيْتِ، أَوْ وَلَدَهُ الْمَيْتِ، أَوْ جَمَعَهُ وَإِيَّاهُ أَبٌ، وَلَا

مدخل للنساء في ولاية الدم عند جماعة من العلماء، ولهن ذلك عند آخرين. و«السُّلْطَانُ»: الحجة والملك الذي جعل الله إليه من التَّخْيِيرِ في قبول الدِّيَّةِ أو العفو، قاله ابن عباس والضحاك. وقال قتادة: السلطان: القود.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿فَلَا يُشْرِفُ﴾ بالياء، وهي قراءة الجمهور، أو الولي، لا يتعدى أمر الله، والتَّعْدِي هو أن يقتل غير قاتل وليه من سائر القبيلة، أو يقتل اثنين بواحد، وغير ذلك من وجوه التعدي، وهذا كله كانت العرب تفعله، فلذلك وقع التحذير منه، وقال رسول الله ﷺ: «إِنْ مِنْ أَغْنَى النَّاسِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِ وَلِيهِ، أَوْ قَتَلَ بِدُخَنِ الْجَاهِلِيَّةِ، أَوْ قَتَلَ فِي حَرَمِ اللَّهِ». وقالت فرقة: المراد بقوله تعالى: ﴿فَلَا يُشْرِفُ﴾ القاتل الذي يتضمنه الكلام، والمعنى: فلا يكن أحد من المسرفين بأن يقتل نفساً، فإنه يحصل في سياق هذا الحكم. وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي: ﴿فَلَا تُشْرِفُ﴾ بالتاء من فوق، وهي قراءة حذيفة، ويحيى بن وثاب، ومجاهد - بخلاف - والأعمش، وجماعة. قال الطبري: على معنى الخطاب للنبي ﷺ ولأئمة بعده، أي: فلا تقتلوا غير القاتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يراد به الولي، أي: فلا تسرف أيها الولي في قتل أحد متحصل في هذا الحكم. وقرأ أبو مسلم السراج صاحب الدعوة

العباسية: ﴿فَلَا يَنْفِرُ﴾ بضم الفاء، على معنى الخبر لا على معنى النهي. والمراد - على هذا التأويل - الولي فقط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي الاحتجاج بأبي مسلم في القراءة نظر. وفي قراءة أبي بن كعب ﴿فلا تُسرفوا في القتل إن وليّ المقتول كان منصوراً﴾. والضمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾ عائد على الولي، وقيل: على المقتول، وهو عندي أرجح الأقوال؛ لأنه المظلوم ولغة النصر تقابل أبداً الظلم، كقوله عليه الصلاة والسلام: «وَتُصْرُ الْمَظْلُومُ وَإِنْ زَارَ الْقَسَمَ»، وكقوله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، إلى كثير من الأمثلة. وقيل: على القتل، وقال أبو عبدة: على القاتل؛ لأنه إذا قُتِلَ في الدنيا وخلص بذلك من عذاب الآخرة فقد نُصِرَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف بعيد المقصد.

وقال الضحاك: هذه أول ما نزل من القرآن بشأن القتل، وهي مكيّة. ﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب في هذه الآية للأوصياء الذين هم مُعَدُّونَ لِقُرْبِ مال اليتيم، ثم هي لمن تَلَبَّسَ بشيء من أمرهم من غير وصي، واليَتِيمُ: الفَزْدُ من الأبناء، واليَتَمُّ: الانفراد، يقال: يَتَمُّ الصبي يَتَمُّ إذا فقد أباه. وقال ابن السكيت: اليَتَمُّ في البشر من قَبِل الأب، وفي البهائم من قَبِل الأم. وفي كتاب الماوردي: إن اليَتَمَّ في البشر من قَبِل الأم أيضاً، وجمع اليتيم أيتام، كشريف وأشراف،

وشهيد وأشهد، ويُجمع يَتَمُّ كَأَسِيرٍ وَأَسَارَى، كأنها في الأمور المكروهة التي تدخل على المرء غلبة. قال ابن سيدة: وحكى ابن الأعرابي (يَتَمَان) في (يتيم)، وأنشد في ذلك:

فَبِتْ أَشْوَى صَبِيَّتِي وَحَلِيلَتِي
طَرِيّاً وَجَزْؤُ الدُّبِّ يَتَمَانُ جَانِغُ
ويجوز أن يكون (يَتَمَانِي) جمع (يَتَمَان). وفي الحديث: «لَا يَتَمُّ بَعْدَ حُلْمٍ».

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يريد: إلا بأحسن الحالات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك في الوصي الغني، أن يُتَمَّرَ المال ويحوطه، ولا يحبس منه شيئاً على جهة الانتفاع به. هذا هو الورع، والأولى ألا يكون يشتغل في مال اليتيم ويشح عليه، فالفقه أن تفرض له أجرة. وأما الوصي الفقير الذي يشغله مال اليتيم عن معاشه، فاختلف الناس في أكله منه بالمعروف، كيف هو؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يَتَسَلَّفُ منه، فإذا أيسر ردّ فيه، وقال ابن المسيب: لا يشرب الماء من مال اليتيم، قيل: فما معنى: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾؟ قال: إنما ذلك لخدمته وغسل ثوبه، وقال مجاهد: لا يَقْرُبُ إلا بتجارة ولا يستقرض منه، قال: وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ من مال نفسه. وقال أبو يوسف: لعلّ قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ منسوخ بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يأكل منه الشربة من اللبن، والطرفة من الفاكهة،

ونحو هذا مما يخدمه، ويُلَوِّط الحوض، ويجذُّ الثَّخْل، وَيَنْشُد الضَّالَّةَ، فيأكل غير مُضَرٍّ يَسْلُ، ولا ناهك في الحلب، وقال زيد بن أسلم: يأكل منه بأطراف أصابعه بِلَغَّةٍ من العيش بَتَغِيهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا استعارة للتَّخْلُّل، وقال مالك رحمه الله، وغيره: يأخذ منه أجرة بقدر تعبته، فهذه كلها تدخل فيما هو أَحْسَن. وكما تفسير هذه المعاني في سورة النساء بحسب ألفاظ تلك الآيات، وفي الخبر عن قتادة أن هذه الآية لما نزلت شَقَّتْ على المسلمين، وتجنبوا الأكل معهم في صحفة، فنزلت: ﴿كَانَ تَحَايَظُهُمْ فَاخْوَنُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ غاية الإمساك عن مال اليتيم، ثم بعد الغاية قد سُنَّتْ آية أخرى، وما بعد هذه الغايات أبداً موقوف حتى يقوم فيه دليل شرعي، أو يقتضي ذلك الإنصاف في النازلة، ومثل هذا قول عائشة رضي الله عنها: «أنا قَتَلْتُ قَلَانِدَ هَذِي رسول الله ﷺ بيدي، وبعثت بها، فلم يحرم على رسول الله ﷺ شيء أحله الله له حتى نحر الهدي».

و «الأشدة»: جمع (شَدَّ) عند سيبويه، وقال أبو عبيدة: لا واحد من لفظه، ومعناها: قُوَّةٌ في العقل والتجربة والنظر لنفسه، وذلك لا يكون إلا مع البلوغ، فالأشدُّ في مذهب مالك إقران البلوغ بالاحتلام أو ما يقوم مقامه حسب الخلاف في

ذلك، والرُّشد في المال. واختلف، هل من شروط ذلك الرُّشد في الدين على قولين: فابن القاسم لا يراعيه إذا كان ضابطاً لماله، وراعه غيره من أصحاب مالك، ومذهب أبي حنيفة أن الأشد هو البلوغ فقط، فلا حجر عنده على بالغ إلا أن يعرف منه السُّفَه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولست من هذا التقييد في قوله على ثقة.

وقال أبو إسحق الزجاج: الأشد في قول أن يأتي على الصبي ثمان عشرة سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما أراد أنه بعض ما قيل في حد البلوغ لمن لا يحتلم، وأما أن يكون بالغاً رشيداً فلا يدفع إليه ماله حتى يبلغ هذه المدة فشيء لا أحفظ من يقوله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ لفظ عام لكل عهد وعقد بين الإنسان وبين ربه، أو بينه وبين المخلوقين في طاعة، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ أي: مطلوباً ممن عهد إليه أو عوهد، هل وفى به أم لا؟

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ الآية. أمر الله تعالى في هذه الآية أهل الثجر والوزن والكيل أن يعطوا الحق في كيلهم ووزنهم، وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقف في السوق ويقول: يا معشر الموالي، إنكم وليتم أمرين بهما هلاك الناس قبلكم، هذا المكيال وهذا الميزان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتقتضي هذه الآية أن الكيل على البائع؛ لأن المشتري لا يقال له: «أوف الكيل»، هذا هو ظاهر والسابق منه، و«الْقِسْطَاسُ»: قال الحسن: هو القَبَّان، ويقال فيه: القَبَّان، وهو القاسِطُون، ويقال القَرِطُسُون، وقيل: القِسْطَاسُ الميزان كان صغيراً أو كبيراً، وقال مجاهد: القِسْطَاسُ: العَدْلُ، وكان يقول: هي لغة رومية، فكان الناس قيل لهم: زنوا بمعدلة في وزنكم. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم - في رواية أبي بكر -: «بِالْقِسْطَاسِ» بضم القاف، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «بِالْقِسْطَاسِ» وهما لغتان، واللفظة منه للمبالغة من القِسْط، والمراد بها في الآية جنس الموازين العدلة على أي صفة كانت. قال أبو حاتم: «إنما قرأ بكسر القاف أهل الكوفة، وكل قراءة لا تجاوز الكوفة إلى الحرمين والبصرة فاقراً بغيرها». وقرأت فرقة: «بِالْقِسْطَاسِ» بالصاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان مذهب مجاهد في هذا، وفي ميزان القيامة، وكل ذلك، أنها استعارات للعدل، وقوله: «ميزان القيامة» مردود، وعقيدة أهل السنة أنه ميزان له عمود وكفتان. وسمعت أبي رضي الله عنه يقول: رأيت الواعظ أبا الفضل بن الجوهري في جامع عمرو بن العاص يعظ الناس في الوزن، فقال في جملة كلامه: إن في هيئة اليد بالميزان عظة، وذلك أن الأصابع يجيء منها صورة

المكتوبة: أَلِفٌ ولامان وهاء، فكان الميزان يقول: الله الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وعظ جميل.

و«التَّأْوِيلُ» في هذه الآية: المَالُ، قاله قتادة، ويحتمل أن يكون «التَّأْوِيلُ» مصدر تأوَّل، أي: يتأوَّل عليكم الخبر في جميع أموركم إذا أحسستم في الكيل والوزن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والغرض من الكيل والوزن تحري الحق، فإن غلب الإنسان بعد تحزيه لشيء من تطفيف شأه، أو لم يقصده، فذلك نزر موضوع عنه إثمه، وذلك ما لا يكون الانفكاك عنه في وضع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ معناه: وَلَا تَقُلْ وَلَا تَتَّبِعْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لكنها لفظة تستعمل في القذف والعظة، ومنه قول النبي ﷺ: «نحن بنو النضر لا نَقْفُو أَمَنًا ولا ننتفي من أبينا»، وتقول: فلان قَفَوْتِي، أي: موضع تَهْمَتِي، وتقول: رَبُّ سَامِعٌ عِذْرَتِي وَلَمْ يَسْمَعْ قَفَوْتِي، أي: ما رميت به، وهذا مثل للذي يُفْشِي سره ويعتذر من ذنب لم يسمعه الْمُعْتَذِرُ إليه. وقد قال ابن عباس أيضاً، ومجاهد: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ معناه: لا تَزِمُ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر: وَمِثْلُ الدُّمَى شُمُ الْعَرَانِينَ سَاكِنٌ بِهِنَ الْحَيَاءِ لَا يُشْفِنُ التَّقَايَا وقال الكمي:

وَلَا أَرْمِي النَّبْرِيَّ بِغَيْرِ ذَنْبٍ
وَلَا أَتَقْفُو الْحَوَاصِنَ إِنْ قُفِينَا
وأصل هذه اللفظة من اتَّبَعَ الأثر،

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٧﴾ أَفَأَصْحَابُكُمْ يُرْسَلُونَ
 بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْتُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنشَاءً أَنْتُمْ لِلْقَوْلِ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٣٨﴾
 وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَنْ يَزِدْهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٣٩﴾
 قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا نُبْعَثُ إِلَّا بِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ
 سُبْحَانَهُ تَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٠﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ
 السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ وَمَنْ فِيهِمْ شَيْءٌ إِلَّا بِسَمْعٍ مَجْدُودٍ وَلَكِنْ
 لَا تَنْفَعُهُمْ تَسْبِيحُهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَإِذَا قُرَأَتْ
 الْقُرْآنُ أَنْجَلْنَا بِكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ يَا آخِرُ رَجُلًا
 مَسْئُورًا ﴿٤٢﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
 وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتُ بِكَ فِي الْقُرْآنِ حَدَّثُوا وَلَوْ عَلِمَ فِي أَرْبَعِ قُرُورٍ
 أَنَّكُمْ عَادُونَ عَلَيْهِمْ يَدْعُوا لِيُسْمِعُوا إِلَيْكَ وَإِنَّهُمْ مُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾
 إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا أَرْجُلًا مَسْخُورًا ﴿٤٤﴾ أَنْظِرْ
 كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٥﴾
 وَقَالُوا أَوْذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا أَوْذَا لِمَسْمُورُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٦﴾

٢٨٦

فأما حكاية أبي إسحق عن اللغة فأمر يوقف عنده، وأما البيت فالرواية «الأقوام». والضمير في «عنه» يعود على ما ليس للإنسان به علم، ويكون المعنى: إن الله تعالى يسأل سمع الإنسان وبصره وفؤاده عما قال مما لا علم له به، فيقع تكذيبه من جوارحه، وتلك غاية الخزي. ويحتمل أن يعود الضمير في «عنه» على «كل» التي هي للسمع والبصر والفؤاد، والمعنى: إن الله تعالى يسأل الإنسان عما

حواه سمعه وبصره وفؤاده، فكأنه قال: كل هذه كان الإنسان عنه مسئولاً، أي عما حصل لهؤلاء من الإدراكات، ووقع منها من الخطايا، فالتقدير: «عن أعمالها مسئولاً»، فهو على حذف مضاف.

﴿٣٧﴾ - ﴿٤٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجمهور: «مَرَّحًا» بفتح الراء، مصدر من: مَرَحَ يَمْرَحُ إِذَا تَبَخَّرَ مسروراً بدنيه مقبلاً على راحته، فهذا هو الْمَرَحُ، فُثِيهِ الإنسان في هذه الآية أن يكون مشيه في الأرض على هذا الوجه، ثم قيل له: إنك لن تقطع الأرض وتمسحها بمشيك، ولن تبلغ أطوال الجبال فتنالها طولاً، فإذا كنت لا تستوي في الأرض بمشيك فقصرك نفسك على ما يوجب الحق من المشي والتصرف أولى وأحق. وخوطب

تقول: قَفُوتُ الأثر، ويشبه أن هذا مأخوذ من «القفا»، ومنه قافية الشعر لأنها تقفو البيت، وتقول: «فُتْتُ الأثر»، ومن هذا: هو القائف، وتقول: «فُتْتُ الأثر» بتقديم الفاء على القاف، ويشبه أن يكون هذا من تلثب العرب في بعض الألفاظ، كما قالوا: «رَعْمَلِي» في «لَعْمَرِي»، وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: قَفَا وَقَافٌ، مثل عَنَّا وَعَاتٌ، فمعنى الآية: ولا تتبع لسانك من القول ما لا علم لك به، وذهب مُنْذِرُ بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثل جَذَبَ وَجَبَذَ، فهذه الآية بالجملة تنهى عن قول الزور والقفذ وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة الرديئة. وقرأ الجمهور: «وَلَا تَقْفُ» وقرأ بعض الناس - فيما حكى الكسائي -: «وَلَا تَقْفُ» بضم القاف وسكون الفاء.

وقرأ الجراح: «وَالْفُؤَادُ» بفتح الفاء، وهي لغة، وأنكرها أبو حاتم وغيره، وعبر عن «السمع والبصر والفؤاد» بـ «أَوَّلَيْكَ» لأنها حواس لها إدراك، وجعلها في هذه الآية مسئولة فهي حالة من يعقل، فلذلك عبر عنها بـ «أَوَّلَيْكَ»، وقد قال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى: «رَأَيْتُمْ لِي سَجِيدًا»: إنه إنما قال: «رَأَيْتُمْ» في نجوم لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل من يعقل عبر عنها بكناية من يعقل. وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بالإدراك، وأنشد هو والطبري:

ذُمَّ الْمَنَازِلُ بَعْدَ مَنَازِلَةِ اللَّوَى
 وَالْعَيْشُ بَعْدَ أَوَّلَيْكَ الْأَيَّامِ

النبى ﷺ بهذه الآية والمراد الناس كلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإقبال الإنسان على الصيد ونحوه تنزهاً دون حاجة إلى ذلك داخل في الآية، وأما الرجل يستريح في اليوم النادر والساعة من يومه فيجثم فيها نفسه في التفرج والراحة ليستعين بذلك على شغل من البر كقراءة علم أو صلاة، فليس ذلك بداخل في هذه الآية. وقرأت فرقة - فيما حكى يعقوب -: «مَرَّحًا» بكسر الراء على بناء اسم الفاعل، وهذا المعنى يترتب على هذه القراءة، ولكن يحسن معها معنى آخر ذكره الطبري مع القراءة الأولى، وهو بهذه القراءة أَلْبَقِ، وهو أن قوله: «إِنَّكَ لَنْ تَخَرَّقَ الْأَرْضَ وَكَأَنَّكَ كَيْلَالُ غُلَامٍ» أراد بذلك: أيها المرح المختال الفخور، لا تخرق

الأرض، ولا تطاول الجبال بفخرك وكبرك، وذهب بالألفاظ إلى هذا المعنى، ويحسن ذلك مع القراءة بكسر الراء من المرح؛ لأن الإنسان نهي حينئذ عن التخلُّق بالمرح في كل أوقاته؛ إذ المشي في الأرض يفارقه، فلم يُثْثَ إلا عن أن يكون مرحاً، وعلى القراءة الأخرى إنما نهي من ليس بمرح عن أن يمشي في بعض أوقاته مرحاً، فيترتب في المرح - بكسر الراء - أن يؤخذ بمعنى المتكبر المختال.

وخرق الأرض: قطعها، والخرق: الواسع من الأرض، ومنه قول الشاعر:

وخرق تجاوزت مجهولة
بوجناء خرق تشكى الكلالا
ويقال لثقب الأرض: خرق، وليس هذا المعنى في الآية، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

وقائم الأعماق خاوي المخرق
وقرأ الجراح، والأعرابي: «لن تخرق الأرض» بضم الراء، قال أبو حاتم: لا تُعرف هذه اللغة.

قوله تعالى: «كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُومًا» ﴿٤١﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، والأعرج: «سَيِّئُهُ»، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، والحسن، ومسروق: «سَيِّئُهُ» على إضافة (سَيِّئُهُ) إلى الضمير، والإشارة - على القراءة الأولى إلى ما تقدم ذكره مما نهي عنه، كقول: أف، وقذف الناس، والمرح، وغير ذلك، والإشارة - على القراءة الثانية - إلى جميع ما ذكر في هذه الآيات من

بِرٍّ ومَغْصِيَةٍ، ثم اختص ذكر السَيِّئِ منه بأنه مكروه عند الله تعالى، فأما من قرأ: «سَيِّئُهُ» بالإضافة إلى الضمير فإعراب قراءته بَيِّنٌ، و[سَيِّئُهُ] اسم [كَانَ]، و«مَكْرُومًا» خبره، وأما من قرأ: «سَيِّئُهُ» فهي الخبر ل [كَانَ]. واختلف الناس في إعراب «مَكْرُومًا» - فقالت فرقة: هو خبر ثان ل [كَانَ] حمله على لفظ «كُلُّ» ﴿٤١﴾، و [سَيِّئُهُ] محمول على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبل، وقال بعضهم: هو نعت ل [سَيِّئُهُ] لأنه لما كان تأنيثها غير حقيقي جاز أن توصف بمذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وضعفه أبو علي الفارسي، وقال: إن المؤنث إذا ذكر فإنما ينبغي أن يكون ما بعده وفقه، وإنما التساهل أن يتقدم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يسند إلى المذكر، ألا ترى أن قول الشاعر:

فَلَا مُرْئَةً وَذَقْتُ وَذَقَهَا
وَلَا أَرْضَ أَبْقَلَ إِنْقَالَهَا
مُسْتَقْبَحٌ عندهم؟ ولو قال قائل: أَبْقَلَ أَرْضَ لم يكن قبيحاً. قال أبو علي: ولكن يجوز في قوله تعالى: «مَكْرُومًا» أن يكون بدلاً من قوله: «سَيِّئُهُ»، قال: ويجوز أن يكون حالاً من الذكر الذي في قوله: «عِنْدَ رَبِّكَ»، ويكون قوله: «عِنْدَ رَبِّكَ» في موضع الصفة ل [سَيِّئُهُ]. وقرأ عبدالله بن مسعود، «كَانَ سَيِّئَاتُهُ»، وروي «كَانَ سَيِّئَاتُ» بغير هاء، وروي عنه «كَانَ حَبِيبُهُ». وذهب الطبري إلى أن هذه النواهي كلها معطوفة على قوله أولاً: «وَقَصَّ رَبُّكَ

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» ﴿١﴾، وليس ذلك بالبين.

قوله تعالى: «ذَلِكَ مِنَّا آتٍ إِلَيْكَ رَبُّكَ» الآية. الإشارة ب «ذَلِكَ» إلى هذه الآداب التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة، أي: هذه من الأفعال المحكمة التي تقتضيها حكمة الله تبارك وتعالى في عباده وخلقه لهم محاسن الأخلاق. و«الحكمة»: قوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة، ثم عطف قوله تعالى: «وَلَا تَجْعَلْ» على ما تقدم من النواهي. والخطاب للنبي ﷺ والمراد كل من سمع الآية من البشر، و«الْمَذْخُورُ»: الْمُهَانُ الْمُتَبَعِد.

وقوله تعالى: «أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْإِنِّينَ» الآية، خطاب للعرب التي كانت تقول: الملائكة بنات الله، فقررهم الله تعالى على هذا الحجة، أي: أنتم أيها البشر لكم الأعلى من النسل والله البنات؟ فلما ظهر هذا التباعد الذي في قلوبهم عظم الله عليهم فساد ما يقولونه وشنعته، ومعناه: عظيماً في المنكر والوخامة. و«أَفَأَصْفَكَ» معناه: جعلكم أصحاب الصفرة. وحكى الطبري عن قتادة عن بعض أهل العلم أنه قال: نزلت هذه الآية في اليهود لأنهم قالوا هذه المقالة، من أن الملائكة بنات الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول هو الذي عليه جمهور المفسرين.

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٣﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأ الجمهور: «مَرَقًا» بتشديد

الراء، على معنى: صرفنا فيه الجحكم والمواظ. وقرأ الحسن: ﴿صَرَفْنَا﴾ بتخيف الراء، على معنى: صَرَفْنَا فيه الناس إلى الهدى بالدعاء إلى الله، وقال بعض من شدد الراء: إن قوله: ﴿فِي﴾ زائد، والتقدير: صَرَفْنَا هذا القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقرأ الجمهور: ﴿لِيَكْرُوا﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿لِيَكْذُرُوا﴾ بسكون الدال وضم الكاف، وهي قراءة طلحة، ويحيى، والأعمش. وما في ضمن الآية من ترجُ وطماعية فهو في حق البشر وبحسب ظنهم فيمن يفعل الله معه هذا.

و«الْفُورُ» عبارة عن شدة الإعراض، تشبيهاً بنفور الدابة، وهو في هذه الآية مصدر لا غير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورُوي أن في الإنجيل في معنى هذه الآية: «يا بني إسرائيل، شوقناكم فلم تشاقوا، ونَحْنُ لكم فلم تبكوا».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ﴾ الآية، إخبار بالحجة. واختلف الناس في معنى قوله: ﴿لَا تَبْتَغُوا إِلَيَّ ذِي الْكَرْبِ سَبِيلًا﴾ - فحكى الطبري وغيره من المفسرين أن معناه: لَطَلَبْ هؤلاء الآية الزُلْفَى إِلَى ذِي الْعَرْشِ، والقربة إليه بطاعته، فيكون «السَّيْلُ» - على هذا التأويل - بمعناها في قوله تعالى: ﴿فَنَنْسَاءَ أَنْتَ إِلَهُ رَبِّي سَبِيلًا﴾، وقال سعيد بن جبّير، وأبو علي الفارسي، والنقاش - وقاله المتكلمون، أبو منصور وغيره -: إن معنى الكلام:

لَا تَبْتَغُوا إِلَيَّ سَبِيلًا في إفساد مُلْكِيهِ وَمُضَاهَاة في قدرته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا التأويل تكون الآية بياناً للتمانع، وجارية مع قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَنَسَدْتُمَا﴾، وَتَقْتَضِبُ شيئاً من الدليل على أنه لا يجوز أن يكون مع الله تبارك وتعالى غيره، وذلك على ما قال أبو المعالي وغيره: إِنَّا لَوْ فَرَضْنَاهُ لَفَرَضْنَا أَنْ يَرِيدَ أَحَدُهُمَا تَسْكِينَ جِسْمٍ، وَالْآخَرُ تَحْرِيكَهُ، وَمُسْتَحِيلٌ أَنْ تَنْفِذَ الْإِرَادَتَانِ، وَمُسْتَحِيلٌ أَلَّا تَنْفِذَا جَمِيعاً، فَيَكُونُ الْجِسْمُ لَا مَتَحَرِّكاً وَلَا سَاكِئاً، فَإِذَا تَمَّتْ إِرَادَةُ أَحَدُهُمَا دُونَ الْآخَرِ فَإِنَّ الَّذِي لَمْ تَمَّ إِرَادَتُهُ لَيْسَ بِإِلَهٍ، فَإِنْ قُلْنَا بِفَرَضِهِمَا لَا يَخْتَلِفَانِ، قُلْنَا: اخْتِلَافُهُمَا جَائِزٌ غَيْرُ مَمْتَنِعٍ عَقْلاً، وَالْجَائِزُ فِي حُكْمِ الْوَاقِعِ. وَدَلِيلٌ آخَرٌ، لَوْ كَانَ الْإِثْنَانِ لَمْ يَمْتَنِعْ أَنْ يَكُونَا ثَلَاثَةً، وَكَذَلِكَ إِلَى مَا لَا نَهَايَةَ لَهُ، وَدَلِيلٌ آخَرٌ: إِنَّ الْجِزءَ الَّذِي لَا يَتَجَزَأُ مِنَ الْمَخْتَرَعَاتِ لَا تَعْلُقُ بِهِ إِلَّا قُدْرَةٌ وَاحِدَةٌ لَا يَصِحُّ فِيهَا اشْتِرَاكٌ، وَالْآخَرُ كَذَلِكَ، وَالْآخَرُ كَذَلِكَ دَابَّاً، فَكُلُّ جِزءٍ إِنَّمَا يَخْتَرَعُهُ وَاحِدٌ، وَهَذِهِ ثُبُوتُهُ شَرْحُهَا بِحَسَبِ التَّقْصِي يَطُولُ.

وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ الجمهور: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ بالتاء.

و«سُبْحَنَهُ» مصدر لفعل متروك إظهاره، فهو بمعنى التنزيه، فموضعها هنا موضع (تَنَزَّهَ)، فلذلك عطف الفعل عليه في قوله:

﴿وَتَمَلَّكَ﴾. و«التَّعَالَى» تفاعلٌ، أما في المشاهد في الأجرام فهو من اثنين؛ لأن الإنسان إذا صعد في منزلة أو في جبل، فكأن ذلك يُعَالِيَهُ وهو يُعَالِي ويرتقي، وأما في جهة الله عز وجل فالتعالي هو بالقدر لا بالإضافة إلى شيء آخر. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ بالياء، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ بالتاء من فوق. و«عَلَوْا» مصدرٌ على غير الفعل، فهو كقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَتَبَنُّكَ مِنَ الْأَرْضِ بَنَاتًا﴾، وهذا كثير.

قوله تعالى: ﴿تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ﴾ الآية. المعنى: يُتَرَنَّمُ عَنْ هذه المقالة التي لكم، والإشراك الذي أنتم بسبيله، السموات السبع والأرض، ثم أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل لئلا أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح، وقوله: ﴿وَمَنْ فِيهَا﴾ يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عمَّ بعد ذلك الأشياء كلها في قوله: ﴿وَأَنْ يَنْسَبُ إِلَهُ إِلَّا يَسْبِحُ بِحَمْدِهِ﴾، أي: يُنَزِّهُ الله ويمجده.

واختلف أهل العلم في هذا التسبيح - فقالت فرقة: هو تجوُّز، ومعناه أن كل شيء تبدو فيه صنعة الصانع الدالة عليه، فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المُعْتَبِر، ومن حُجَّة هذا التأويل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ﴾.

وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ فِي شَيْءٍ﴾ لفظ عموم ومعناه الخصوص في كل حي ونام، وليس ذلك في

الجمادات البحتة، فمن ذلك قول عكرمة: الشجرة تُسَبِّحُ، والاسطوانة لا تُسَبِّحُ. وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام وقد قدم الخوان: أَيْسَبِّحُ هذا الخوان يا أبا سعيد؟ قال: قد كان يُسَبِّحُ مرة، يريد أن الشجرة في زمان نموها واعتدالها كانت تسبح، فمذ صارت خواناً مدهوناً ونحوه صارت جماداً.

وقالت فرقة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيء على العموم يسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهونه، ولو كان التسبيح ما قاله الآخرون من أنه أثر الصنعة لكان أمراً مفهوماً، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفْقَهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويفصل عن هذا الاعتراض بأن يريد بقوله سبحانه: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ الكفار والغفلة، أي أنهم يُعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله تبارك وتعالى في الأشياء.

وقال الحسن: بلغني أن معنى هذه الآية في التوراة، ذكر فيه ألف شيء مما يُسَبِّحُ، سبحت له السموات، وسبحت له الأرض، سبَّح كذا، سبَّح كذا.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم - في رواية أبي بكر - وابن عامر: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ بالياء، وقرأ أبو عمرو، وعاصم - في رواية حفص - وحمزة والكسائي: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ بالتاء. والقراءتان حستان. وقرأ عبدالله بن مسعود، وطلحة، والأعمش: ﴿سَبَّحَتْ لَهُ السَّمَوَاتُ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَوَّارًا﴾ فيه تنبيه على إملائه لهم، وصفحهم عنهم

في الدنيا، وإمهاله لهم، مع شنيع هذه المقالة، أي: تقولون قولاً يُزْهِه عنه كل شيء من المخلوقات، إنه كان حلماً غفوراً، فلذلك أمهلهم. ﴿٤٥﴾ - ﴿٤٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تحتل معنيين: أحدهما أن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ أنه يحميه من الكفرة أهل مكة الذين كانوا يؤذونه في وقت قراءته القرآن وصلاته في المسجد، ويريدون مذبذبة اليد إليه، وأحوالهم في هذا المعنى مروية مشهورة. والمعنى الآخر أنه تعالى أعلمه أنه يجعل بين الكفرة وبين فهم ما يقرؤه محمد ﷺ حجاباً، فالآية - على هذا التأويل - في معنى التي بعدها، وعلى التأويل الأول هما آيتان لمعنيين.

وقوله: ﴿مَسْتُورًا﴾ أظهر ما فيه أن يكون نعتاً للحجاب، أي مستوراً على أعين الخلق، فلا يدركه أحد برؤية كسائر الحُجُب، وإنما هو من قدرة الله وكفايته أو إضلاله بحسب التأويلين المذكورين، وقيل: التقدير: مستوراً به، على حذف العائد، وقال الأخفش: ﴿مَسْتُورًا﴾ بمعنى: سائر، كَمَشْتُوم وميمون، بمعنى: شائم ويامن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا - لغير داعية إليه - تكلف، وليس مثاله بمُسَلَّم. وقيل: هو على جهة المبالغة، كما قالوا: شعِرَ شاعرٌ، وهذا معترض بأن المبالغة أبداً إنما تكون باسم الفاعل ومن اللفظ الأول، فلو قال تعالى: ﴿حجاباً حاجباً﴾ لكان التنظير صحيحاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الآية. «الأكِنَّة»: جمع كنان، وهو ما غطى الشيء، ومنه كنانة النبل، و«الوَفْرُ»: الثقل في الأذن المانع من السمع، فهو الصمم، وهذه كلها استعارات للإضلال الذي حَفَمَهم الله به، فعبّر عن كثرة ذلك وعظمته بأنهم بمثابة من غطى قلبه وصُمَّتْ أذنه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ﴾ الآية، يريد: إذا جاءت مواضع التوحيد في القرآن أثناء قراءتك فزكفكارة مكة من سماع ذلك إنكاراً له واستبشاعاً؛ إذ فيه رفض ألهمتهم واطراحها. وقال بعض العلماء: إن ملا قريش دخلوا على أبي طالب يزورنه، فدخل عليهم رسول الله ﷺ، فقرأ ومَرَّ بالتوحيد، قال: يا معشر قريش: قولوا: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ تملكون بها العرب، وتدين لكن العجم، فَوَلُّوا وُفُورًا، فنزلت هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأن تكون الآية وصف حال الفارين عنه في وقت توحيده في قراءته أَيْبَن وأجرب مع اللفظ.

وقوله تعالى: ﴿تُفَوِّكُ﴾ يصح أن يكون مصدرًا في موضع الحال، ويصح أن يكون جمع نافر، كشاهد وشهود؛ لأن فَعُولًا من أبنية فاعل في الصفات، ونصبه على الحال، أي: نافرين. وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَفْقَهُوْا﴾، [أَنْ] نصب على المفعول، أي: كراهة أن، أو منع أن، والضمير في ﴿يَفْقَهُوْا﴾

﴿مَسْحُورًا﴾ معناه: ذا
سُخْرٍ، وهي الرثة، يقال
لها: «سُخْرٌ وَسُخْرٌ» بضم
السّين، ومنه قول عائشة
رضي الله عنها: «توفي
رسول الله ﷺ بين
سُخْرِي وَسُخْرِي»، ومنه
قولهم للجبان: «انْتَفَخَ
سُخْرُهُ» لأن الجازع تنتفخ
رثته، فكأن مقصد الكفار
بهذا التشبيه على أنه
بشر، أي: ذا رِثَةٍ، قال:
ومن هذا يقال لكل من
يأكل ويشرب من آدمي
وغيره: «مَسْحُورٌ»
و«مُسْحَرٌ»، ومنه قول
أبي القيس:

عائد على القرآن. وحكى الطبري
عن فرقة أنها قالت: إنما عنى
بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الذِّكْرِ
شَهِدُوا﴾، وأنهم يفرون من قراءة
القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
يريد أن المعنى يدل عليهم وإن لم
يَجْر لهم ذَكْرٌ في اللفظ، وهذا نظير
قول النبي ﷺ: «إذا نودي بالصلاة
أدبر الشيطان له خصاص».

قوله تعالى: ﴿يَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمْعُونَ﴾ الآية. هذا كما تقول: فلان يستمع بحرص وإقبال، أو بإعراض وتغافل واستخفاف، فالضمير في ﴿يَحْنُ﴾ عائذ على [ما] وهي بمعنى (الذي)، والمراد بالذي ما ذكرناه من الاستخفاف والإعراض، فكأنه قال: نعم أعلم بالاستخفاف والاستهزاء الذي يستمعون به، أي هو ملازمهم، يفضح الله بهذه الآية سرهم، والعامل في [إِذْ] الأولى وفي المعطوف عليها ﴿يَسْتَمْعُونَ﴾ الأولى، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ مُمَّ جَحْوَى﴾ وصفهم بالمصدر، كما قالوا: قوم رضى وعدل، وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ مُمَّ جَحْوَى﴾ اجتماعهم في دار الندوة، ثم انتشرت عنهم.

وقوله تعالى: ﴿سَخَّرَ﴾ الظاهر فيه أن يكون من السَّخَر، فشيَّهوا الخيال الذي عنده بزعمهم وأقواله الوخيمة برأيهم بما يكون من المَسْحُور الذي قد خبل السُّخْر عقله، وأفسد كلامه. وتكون الآية - على هذا - شبيهة بقول بعضهم: ﴿بِهْ جِنَّةٌ﴾ ونحو هذا، وقال أبو عبيدة:

وَنُسَحَّرُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ
وقول لبيد:
فَإِنْ تَسْأَلِينَا فِيهِمْ نَحْنُ فَإِنَّا
عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَثَامِ الْمُسَحَّرِ
ومنه: السحور، وهو إلى هذه
اللفظة أقرب منه إلى السُحْر، ويشبهه
أن يكون من السُحْر كالصُّبْح من
الصباح، والآية التي بعد هذا تَقْوِي
أن اللفظة التي في الآية من السُحْر
بكسر السين؛ لأن (...). حينئذ في
قولهم ضَرَبَ مثل له، وأما على أنها
من السُحْر الذي هو الرُّثَّة، ومن
التَّغْذِي، وأن تكون الإشارة إلى أنه
بشر، فلم يُضْرَب له في ذلك مثل،
بل هو صفة حقيقية له.

٤٨ - ٥١ تفسير قوله عز وجل:

ضَرْبُ الْمَثَلِ لَهُ هُوَ قَوْلُهُمْ:

قُلْ كُونُوا حِجْرَةً أَوْ حَصِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ
صُدُورَهُمْ فَسَيُشْأَوْنَ مِنْ عَيْدِنَا قُلِ الَّذِينَ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَسَيُخْضِبُونَ إِلَيْكُمْ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ
يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ
وَتَنْظُرُونَ أَنْ لَيْسَ لَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ قُلِ لِمَا دَى يَقُولُوا أَلَيْسَ
أَحْسَنَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ
عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾ وَتَكْفُرُ أَغْلِبُهُمْ إِنَّ يَشَاءُ بَرَحْمَةً أَوْ أَنْ يَشَاءُ
يَعَذِّبَهُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَتِلْكَ أَغْلَمُ
بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ
وَمَا تَشَاءُونَ أَتُؤْتُونَ ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا
يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَ بَرٍّ كَانَ ذِكْرُكَ لَهُمْ فَذُورُوا ﴿٥٧﴾
وَأَنْ تَنْ قَرِيبَةً إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
أَوْ مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

مسحور، ساحر، مجنون، متكهن؛
لأنه لم يكن عندهم مَتَقِنًا بأحد
هذه، فإنما كانت منهم على جهة
التشبيه، ثم رأى الوليد بن المغيرة
أن أقرب الأمور على تخيل الطارئين
عليهم هو أنه ساحر، ثم حكم الله
تبارك وتعالى عليهم بالضلال.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: لا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى والنظر المؤدي إلى الإيمان، فتجري الآية مجرى قوله تعالى: ﴿وَمَعَنَا عَلٰى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ ونحو هذا. والآخر: لا يستطيعون سبيلاً إلى إفساد أمرك، وإطفاء نور الله بضرهم الأمثال لك، واتباعهم كل حيلة في جهنك.

وحكى الطبري أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّمَا كُنَّا عِبَادًا

وَرَفَعْنَا ﴿الآية﴾. هذه الآية في إنكارهم البعث، وهذا منهم تعجب وإنكار واستبعاد. و«لِرَفْعَاتٍ» من الأشياء: ما مر عليه الزمن حتى بلغ به غاية البلى، وقرئته من حالة التراب، يقال: رَفَعَتْ رَفْعًا فهو مَرْفُوتٌ، وُفْعَالٌ بناء لهذا المعنى، كالحطام والفئات والرضاض والدقاق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَرَفَعْنَا﴾: غباراً، وقال مجاهد: تراباً.

واختلف القراء في هذين الاستفهامين، فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿أَوَدَّاءُنَا﴾ جميعاً بالاستفهام، غير أن أبا عمرو يمدُّ الهمزة ثم يأتي بياء ساكنة، وابن كثير يأتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مدٍّ. وقرأ نافع في الأولى مثل أبي عمرو، واختلف عنه في المدِّ، وقرأ الثانية: ﴿إِنَّا﴾ مكسورة على الخبر، ووافقه الكسائي في اكتفائه بالاستفهام الأول من الثاني، غير أنه كان يهزم بهمزين، وقرأ عاصم، وحمة: ﴿أَوَدَّاءُ الَّذِينَ كُنَّا أَوْدًا﴾ بهمزين فيهما، وقرأ ابن عامر: ﴿إِذَا كُنَّا﴾ مكسورة الألف من غير استفهام ﴿إِنَّا﴾ يهزم ثم يمد ثم يهزم، وروي عنه مثل قراءة حمزة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي سورة الرعد توجييه هذه القراءات.

و«جديد» صفة لما قرب حدوثه من الأشياء، وهكذا يوصف به المذكر والمؤنث، فيقال: ملحفة جديد، وقولهم: جديدة لغة ضعيفة، كذا قال سيويه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِبْرَةً

أَوْ حَبِيدًا ﴿...﴾ الآية. المعنى: قل لهم يا محمد: كونوا إن استطعتم هذه الأشياء الصعبة الممتنة الثاني لا بُدَّ من بعثكم، وقوله: ﴿كُونُوا﴾ هو الذي يسميه المتكلمون التعجيز، من أنواع لفظة: افعل، وبهذه الآية مثل بعضهم، وفي هذا عندي نظر، وإنما التعجيز حيث يقضي بالأمر فعل ما لا يقدر عليه المخاطب، كقوله تعالى: ﴿فَادْرَوْا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ ونحوه، وأما هذه الآية فمعناها: كونوا بالتوهم والتقدير كذا وكذا، الذي فطركم كذلك هو يعيدكم. وقال مجاهد: أراد بالخلق الذي يكبر في الصدور السموات والأرض والجبال، وقال ابن عباس، وعبد الله بن عمر، والحسن، وابن جبير، والضحاك: أراد الموت، وقال قتادة ومجاهد: بل أحال على فطرتهم عموماً، ورجحه الطبري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأصح؛ لأنه بدأ بشيء صلب، ثم تدرج القول إلى أقوى منه، ثم أحال على فطرتهم إن شاء، وفي أشد من الحديد فلا وجه للتخصيص بشيء دون شيء. ثم احتج عليهم عز وجل في الإعادة بالفطرة الأولى من حيث خلقهم واخترعهم من تراب، وكذلك يعيدهم إذا شاء، لا ربَّ غيره. وقوله: ﴿تَسْتَبْصِرُونَ﴾ معناه: يرفعون ويخفزون على جهة التكذيب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: والاستهزاء. قال الزجاج: تحريك من يُطل الشيء ويستبطئه، ومنه قول الشاعر:

أَتَغْضُ نخوي رأسه وأَقْتَسَا
كُنَّا أَبْصَرَ شَيْئاً أَطْمَعَا
ويقال: تَغَضَّتِ السُّنُّ إذا تحركت، وقال ذو الرُّمَّة:

ظَعَائِنُ لَمْ يَسْكُنْ أَكْثَافَ قَرْيَةٍ
بِسِيفٍ وَلَمْ تَغْضُ بِهِنَّ الْقَنَاطِرُ
وقال الطبري: وابن سلام: و«عَسَى» من الله واجبة، فالمعنى: وهو قريب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه إنما هي من النبي ﷺ، ولكنها بأمر الله تعالى له، فيقربها ذلك من الوجوب، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وفي ضمن اللفظة توعدُّ لهم.

٥٢ - ٥٣ تفسير قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿قَرِيبًا﴾، ويظهر أن يكون المعنى: هو يوم، جواباً لقولهم: ﴿مَتَى هُوَ﴾، ويريد: يدعوكم من قبوركم بالنفخ في الصور لقيام الساعة. وقوله: ﴿تَسْتَجِيبُونَ﴾ أي: بالقيام والعودة والنهوض نحو الدعوة، وقوله: ﴿يَحْمَدُونَ﴾، حكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: معناه: بأمره، وكذلك قال ابن جريج، وقال قتادة: معناه: بطاعته ومعرفته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله تفسير لا يعطيه اللفظ، ولا شك أن جميع ذلك بأمر الله تعالى، وإنما معنى ﴿يَحْمَدُونَ﴾: إما أن جميع العالمين - كما قال ابن جبير - يقومون وهم يحمدون الله تعالى، و«يَحْمَدُونَ» لما يظهر لهم من قدرته،

وإِذَا أَنْ قَوْلُهُ: ﴿يَحْدُوهُ﴾ هو كما تقول لرجل إذا خاصمته أو حاورته في علم: قد أخطأت بحمد الله، وكان النبي ﷺ يقول لهم في هذه الآيات: «هَئِنَا أَنْ السَّاعَةِ قَرِيبَةٌ يَوْمَ تُدْعَوْنَ فَتَقُومُونَ، بِخِلَافِ مَا تَعْتَقِدُونَ الْآنَ، وَذَلِكَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى صِدْقِ خَبَرِي»، نَحْنَا هَذَا النُّحُورِ الطَّبْرِي، وَلَمْ يُلْخِصْ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقْلُوبُونَ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أنه أخبر أنهم لما رجعوا إلى حالة الحياة وتصرف الأجساد، وقع لهم ظن أنهم لم ينفصلوا عن حال الدنيا إلا قليلاً، لمغيب علم مقدار الزمن عنهم: إِذْ مَنْ فِي الْآخِرَةِ لَا يَقْدِرُ زَمَنُ الدُّنْيَا إِذْ هُمْ لَا مُحَالَةَ أَشَدَّ مَفَارِقَةٍ لَهُمْ مِنَ النَّائِمِينَ، وَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ عَوَّلَ الطَّبْرِيُّ، وَاحْتِجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سَبْعِينَ﴾ قَالُوا لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. وَالْمَعْنَى الْآخِرُ أَنْ يَكُونَ الظَّنُّ بِمَعْنَى الْيَقِينِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: يَوْمَ تُدْعَوْنَ فَتُسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ، وَتَتَبَقُّونَ أَنْكُمْ إِنَّمَا لَيْسَتْ قَلِيلًا، مِنْ حَيْثُ هُوَ مُنْقَضٌ مُتَّخِيرٌ، وَهَذَا كَمَا يَقَالُ فِي الدُّنْيَا بِأَسْرِيهَا: مَتَاعٌ قَلِيلٌ، فَكَأَنَّهُ قَلَّةٌ قَدَرٌ، عَلَى أَنَّ الظَّنَّ بِمَعْنَى الْيَقِينِ يَقْلُقُهَا هُنَا؛ لِأَنَّهُ شَيْءٌ قَدْ وَقَعَ. وَإِنَّمَا يَجِيءُ الظَّنُّ بِمَعْنَى الْيَقِينِ فِيمَا لَمْ يَخْرُجْ بَعْدَ إِلَى الْكُومِ الْوُجُودِ، وَفِي الْكُومِ تَقْوِيَةٌ لِلْبُعْثِ كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَيُّهَا الْمَكْذُوبُ بِالْحَشْرِ الَّذِي تَعْتَقِدُ أَنَّكَ لَا تَبْعَثُ أَبَدًا لَا بُدَّ لَكَ أَنْ تُدْعَى لِلْبُعْثِ فَتَقُومَ وَتَرَى أَنَّكَ إِنَّمَا لَيْسَتْ قَلِيلًا مُنْقَضِيًا مُتَصَرِّمًا،

وَحَكَى الطَّبْرِيُّ عَنْ قِتَادَةِ أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا هَوْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ احْتَقَرُوا الدُّنْيَا فَظَنُّوا أَنَّهُمْ لَبِثُوا فِيهَا قَلِيلًا.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِيَبَادِيَ يَقُولُوا أَلَيْسَ مِنِّي أَحْسَنُ﴾. اختلف النحويون في قوله سبحانه: ﴿يَقُولُوا﴾، فمذهب سيبويه أنها جواب شرط مقدر، تقديره: «وقل لعبادي، إنك إن تقل لهم يقولوا»، وهذا على أصله في أن الأمر لا يُجَاب، وإنما يجاب معه شرط مقدر، ومذهب الأخفش أن الأمر يُجَاب، وأن قوله تعالى ها هنا: ﴿يَقُولُوا﴾ إنما هو جواب ﴿وَقُلْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يصح المعنى على هذا بأن يجعل ﴿قُلْ﴾ مختصة بهذه الألفاظ، على معنى أن يقول لهم النبي ﷺ: «قولوا التي هي أحسن»، وإنما يصح بأن يكون ﴿وَقُلْ﴾ أنراً بالمحاوراة في هذا المعنى بما أمكن من ألفاظ، كأنه قال: «بَيِّنْ لعبادي»، فيكون ثمره ذلك القول والبيان قولهم التي هي أحسن، وهذا المعنى يُجَوِّزُهُ مذهب سيبويه الذي قدمنا. ومذهب أبي العباس أن ﴿يَقُولُوا﴾ جوابٌ لأمر محذوف، تقديره: «وقل لعبادي قولوا التي هي أحسن يقولوا» فحذف وطوي الكلام. ومذهب الزجاج أن ﴿يَقُولُوا﴾ جزم بالأمر، بتقدير: «قُلْ لعبادي يقولوا»، فحذفت اللام لتقدير الأمر، وحكى أبو علي في «الحليتان» في تضاعيف كلامه أن مذهب أبي عثمان المازني في ﴿يَقُولُوا﴾ أنه فعلٌ مبني؛ لأنه مضارع حل محل المبني الذي هو فعل

الأمر؛ لأن المعنى: «قل لعبادي: قولوا».

واختلف الناس في «أَلَيْسَ مِنِّي أَحْسَنُ» فقالت فرقة: هي «لا إله إلا الله»، ويلزم - على هذا - أن يكون قوله تعالى: ﴿لِيَبَادِيَ﴾ يريد به جميع الخلق؛ لأن جميعهم مدعو إلى «لا إله إلا الله»، ويجيء قوله سبحانه بعد ذلك: ﴿إِنَّ الْفَاطِنَ يَبْزُغُ بَيْنَهُمْ﴾ غير مناسب للمعنى إلا على تكوُّره، بأن يجعل ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بمعنى «خلالهم وأثناءهم»، ويجعل «الْبَزْغُ» بمعنى الوسوسة والإضلال. وقال الجمهور: التي هي أحسن هي المحاوراة الحسنى، بحسب المعنى معنى، قال الحسن: «يقول: يفرغ الله لك، ويرحمك الله».

وقوله تعالى: ﴿لِيَبَادِيَ﴾ خاص بالمؤمنين، فكأن الآية بمعنى قوله ﷺ: «وكونوا عباد الله إخواناً»، ثم اختلفوا - فقالت فرقة: أمر الله تعالى المؤمنين فيما بينهم بحسن الأدب، وخفض الجناح، وإلافة القول، وأطراح نزغات الشيطان. وقالت فرقة: إنما أمر الله تبارك وتعالى في هذه الآية المؤمنين بالإلافة القول للمشركين بمكة أيام المهادنة.

وسبب الآية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شتمه بعض الكفرة، فسبه عمر وهم بقتله، فكاد أن يثير فتنة، فنزلت الآية، وهي منسوخة بآية السيف.

وقرأ الجمهور: ﴿يَبْزُغُ﴾ بفتح الزاي، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿يَبْزُغُ﴾ بكسر الزاي، على الأصل، قال أبو حاتم: «لعلها لغة، والقراءة

لاقتضى أنه ليس بأعلم بغير ذلك.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا لا يلزم، ويصح تعلّقها بـ
﴿أَعْلَمُ﴾، ولا يلتفت إلى دليل
الخطاب.

وقرأ الجمهور: ﴿زُبُورًا﴾ بفتح
الزاي، وهو قُورٌ بمعنى مفعول،
وهو قليل، لم تجيء إلا في قُرُوع
ورُكُوب وحُلُوب، وقرأ حمزة،
ويحيى، والأعشى: ﴿زُبُورًا﴾ بضم
الزاي، وله وجهان: أحدهما أن
يكون جمع زبور بحذف الزائد، كما
قالوا في جمع طريق: طُرُوق،
والآخر أن يكون جمع زُبر، كأن ما
جاء به داود جُزءٌ أجزاء، كل جزءٍ
منهم زُبرٌ، سُمي بمصدر زَبَرَ يَزْبُرُ،
ثم جمع تلك الأجزاء على زُبُور،
فكأنه قال: «آتينَا داود كتاباً»،
ويحتمل أن يكون جمع (زُبر) الذي
هو القُتل وسَدَادُ الثُّظَرِ، لأن داود
أوتي من المواعظ والوصايا كثيراً،
ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ في
آخر كتاب مسلم: «وأهل النار
خمس: الضعيف الذي لا زُبر له»،
قال قتادة: زبور داود مواعظ وجُحَم
ودعاء، ليس به حلال ولا حرام.

٥٦ - ٥٩ تفسير قوله عز وجل:
الذين أمر رسول الله ﷺ أن يقول
لهم في هذه الآية ليسوا عبدة
الأصنام، وإنما هم عبدة من يعقل،
واختلف في ذلك - فقال ابن عباس
رضي الله عنهما: هي في عبدة
العُزَيْرِ والمسيح وأمه ونحوهم، وقال
ابن عباس أيضاً، وابن مسعود: هي
في عبدة الأوثان والقمر والكواكب
وعُزَيْرِ والمسيح وأمه وأي ذلك كان.

الكفر، قاله ابن جريج
وغيره. ثم قال
للنبي ﷺ: فإنما عليك
البلاغ، ولست بوكيل على
إيمانهم ولا بد، فتناسب
الآيات بهذا التأويل.

ثم قال تبارك وتعالى
لنبيّه عليه الصلاة
والسلام: ربُّك أعلم بمن
في السموات والأرض،
وهو الذي فضل بعض
الأنبياء على بعض بحسب
علمه فيهم، فهذه إشارة
إلى محمد ﷺ، وإلى
استبعاد قريش أن يكون
الرسول بشراً، والمعنى:

لا تُنكروا أمر محمد وأن
أوتي قرآناً، فقد فُضِّلَ النَّبِيُّونَ،
وأوتي دواود زبوراً، فالله أعلم حيث
يجعل رسالاته.

وتفضيل بعض الرسل إمّا بهذا
الإخبار المجمل دون أن يُسمّى
المفضول، وعلى هذا يتّجه لنا أن
نقول: محمد أفضل البشر، وقد نهى
عليه الصلاة والسلام عن تغيين أحد
منهم في قصة موسى ويونس عليهما
السلام، وإما أن يكون التفضيل
مُقَسِّماً بينهم: أعطى هذا التكليم،
وأعطى هذا الخُلة، ومحمّد
الخمس، وعيسى الإحياء، فكلُّهم
مفضولٌ في وجه، فاضل على
الإطلاق.

وقوله تعالى: ﴿يَمَنَ فِي السَّمَوَاتِ﴾.
الباء متعلقة بفعل تقديره: «عَلِمَ بمن
في السموات»، ذهب إلى هذا أبو
علي؛ لأنه لو علّقها بـ ﴿أَعْلَمُ﴾

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ
وَمَا آتَيْنَاهُمُ إِلَّا نَارًا مُبْهِمَةً فَلَطَمُوا بِهَا مَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ
إِلَّا تَخَوِيفًا ﴿٥٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِأَنَّا نَسُومُ وَمَا
جَعَلْنَا الرُّءُوسَ الَّتِي أَرَبْتُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ
فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٥٩﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
قَالَ مَا أَجْعِدْ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا ﴿٦٠﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ هَذَا الَّذِي
كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَذْهَبَ مَعَن تَعَبٍ وَنَهْمٌ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَاءُ وَكُفْرًا تَوْفُورًا ﴿٦٢﴾ وَأَسْفَرْنَا مَنْ أَسْطَفَتْ
وَمَنَّهُمْ بَصُورُكَ وَأَجَلَبَ عَلَيْهِمْ حَيْكُكَ وَرَجَلُكَ وَشَارَكُهُمْ
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٤﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُرِيكُمْ لَكُمْ أَنفُسَكُمْ
فِي الْبَحْرِ لَتَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهَ ذَاكَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٥﴾

بالفتح. ومعنى التَّزَغ حركة الشيطان
بسرعة ليجوب فساداً، ومنه قول
النبي ﷺ: «لا يُشِزُّ أحدكم على
أخيه بالسُّلَاحِ لا ينزغ الشيطان في
يده»، فهذا يخرج اللفظة عن
الوسوسة، وعداوة الشيطان البيئة هي
من قصته مع آدم عليه السلام فيما
بعد.

قوله تعالى: ﴿زُبُورًا أَعْلَمُ بِكُورًا﴾
الآية. هذه الآية تُقَوِّي أن التي قبلها
هي ما بين العباد المؤمنين وكفار
مكة، وذلك أن هذه المخاطبة في
قوله سبحانه: ﴿زُبُورًا أَعْلَمُ بِكُورًا﴾ هي
لكفار مكة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، فكأن الله
عزَّ وجلَّ أمر المؤمنين ألا يخاشنوا
الكفار في الدين، ثم قال للكفار: إنه
أعلم بهم، ورَجَاهُمْ وَخَوْفُهُمْ،
ومعنى ﴿يَزَحْزَحُ﴾ بالتوبة عليكم من

[وقال ابن عباس أيضاً، وابن مسعود: هي في عبدة الملائكة، وقال ابن مسعود أيضاً: هي في عبادة شياطين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، فأسلم أولئك الشياطين، وبقي عِبَدَتُهُمْ يعبدونهم، فنزلت الآية في ذلك].

فمعنى الآية: قُلْ لَهُوْلَاءِ الكفرة: ادعوا عند الشدائد والضرر هؤلاء المعبودين فإنهم لا يملكون كشفه ولا تحويله عنكم، ثم أخبرهم - على قراءة ابن مسعود، وقشادة: ﴿تَدْعُونَهُمْ﴾ بالتاء -، أو أخبر النبي ﷺ - على قراءة الجمهور: ﴿يَدْعُونَهُمْ﴾ بالياء من تحت - أن هؤلاء المعبودين يطلبون التقرب إلى الله والتزلف إليه، وأن هذه حقيقة حالهم، وقرأ ابن مسعود: ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾. والضمير في ﴿رَبِّهِمْ﴾ للمتبعين أو للجميع.

و «الْوَسِيلَةُ» هي القرية وسبب الوصول إلى البغية، وتوسل الرجل إذا طلب الدنو والنيل لأمر ما، وقال عترة:

إِنَّ الرُّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ

ومنه قول النبي ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ... الحديث». و﴿أَبْتُهُمْ﴾ ابتداء، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره، و﴿أَوْلَيْكَ﴾ يراد به المعبودون. وهو ابتداء خبره ﴿يَدْعُونَهُمْ﴾، والضمير في ﴿يَدْعُونَهُمْ﴾ للكفار، وفي ﴿يَدْعُونَهُمْ﴾ للمعبودين، والتقدير: نظروهم ووكدتهم أيهم أقرب، وهذا كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث

الرؤية بخير: «فبات الناس يدوكون أيهم يعطاها»، أي: يتبارون في طلب القرب، وطفف الزجاج في هذا الموضع فتأمله. وقال ابن فورك، وغيره: إن الكلام من قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَيْكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ راجع إلى التبيين المتقدم ذكرهم، و﴿يَدْعُونَ﴾ - على هذا - من الدعاء بمعنى الطلبة إلى الله تعالى، والضمائر لهم في ﴿يَدْعُونَ﴾ وفي ﴿يَدْعُونَهُمْ﴾. وباقى الآية بين.

قوله تعالى: ﴿وَلِكِنْ مِنْ قَرْبَيْهِ﴾ الآية. أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه ليس مدينة من المدن إلا هي هالكة قبل يوم القيامة بالموت والفناء، وهذا مع السلامة وأخذها جزءاً جزءاً، أو هي معذبة مأخوذة مرة واحدة، فهذا عموم في كل مدينة، و﴿وَمِنْ﴾ لبيان الجنس، وقيل: المراد الخصوص، [والتقدير:] وإن مِنْ قرية ظالمة. وحكى النقاش أنه وجد في كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسير هذه الآية استقراء البلاد المعروفة اليوم، وذكر لهلاك كل قطر منها صفة، ثم ذكر نحو ذلك عن وهب بن منبه، فذكر فيه أن هلاك الأندلس وخرابها يكون بسنابك الخيل واختلاف الجيوش فيها، وتركت سائرنا لعدم الصحة في ذلك، والمعلوم أن كل قرية تهلك إما من جهة القحوط والخسف غرقاً، وإما من جهة الفتن، أو منهما، وصور كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى فإنما ما هلك بالفتنة فمن ظلم ولا بد، إما في كفر أو معاص أو تقصير في دفاع، وأما

القحط فيصيب الله به من يشاء وكذلك الخسف. وقوله تعالى: ﴿مُهْلِكُوهُمْ﴾ الضمير لها وفي ضمن ذلك الأهل. وقوله: ﴿أَنْزِعْنَاهُمْ﴾ هو على حذف مضاف، فإنه لا يعذب إلا الأهل. وقوله سبحانه: ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ يريد: في سابق القضاء وما خطه القلم في اللوح المحفوظ. و﴿الْمُسْطَوْرُ﴾: المكتوب أسطواراً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَتَّعْنَا أَنْ تَرْجِعَ بِالْأَيْمَنِ﴾ الآية. هذه العبارة في ﴿مَتَّعْنَا﴾ هي على ظاهر ما تفهم العرب، فسمى سبق قضائه بتكذيب من كذب وتعذيبه متعاً. و﴿أَنْ﴾ الأولى في موضع نصب، والثانية في موضع رفع، والتقدير: ما مَتَّعْنَا الإرسال إلا التَّكْذِيبَ.

وسبب هذه الآية أن قريشاً اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الضفأ ذهباً، واقترح بعضهم أن يُزِيل عنهم الجبال حتى يزرعوا الأرض، فأوحى الله تعالى إلى محمد ﷺ: إن شئت أفعل ذلك لهم، فإن تأخروا عن الإيمان عاجلتهم العقوبة، وإن شئت استأنيت بهم عسى أن أجنبي منهم مؤمنين، فقال رسول الله ﷺ: «بَلْ تَسْتَأْنِي بِهِمْ يَا رَبِّ»، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لم يمنعه من إرسال الآيات المُفْتَرَحَةِ إلا الاستيناء؛ إذ أنه قد سلفت عادته بمعالجة الأمم الذين جاءتهم الآية المُفْتَرَحَةُ فلم يؤمنوا. قال الزجاج: أخبر الله تعالى أن موعد كفار هذه الأمة الساعة، لقول سبحانه: ﴿يَوْمَ الْآفَاقَةِ يَومِئذٍ﴾، فهذه الآية تنظر إلى ذلك.

ثم ذكر الله تعالى أمر ثمود احتجاجاً إن قال منهم قائل: نحن كنا نؤمن لو جاءتنا آية اقترحناها ولا نكفر بوجهه، فذكر الله تعالى ثمود، بمعنى: لا تأمنون أن تظلموا بالآية كما ظلمت ثمود بالناقاة. وقرأ الجمهور: ﴿ثُودٌ﴾ بغير تنوين، قال هارون: أهل الكوفة يَتَوَنُون (ثُوداً) في كل وجه، قال أبو حاتم: لا تُتَوَّن العامة والعلماء بالقراءات (ثُوداً) في وجه من الوجوه، وفي أربعة مواطن أُلِفَ مكتوبة، ونحن نقرأها بغير ألف.

وقوله تعالى: ﴿مُبْصِرَةٌ﴾ على جهة النسب، أي: معها إبصار، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ الْفَارِ مُبْصِرَةً﴾، أي: معها إبصار لمن ينظر، وهذه عبارة عن بيان أمرها ووضوح إعجازها. وقرأ قوم: ﴿مُبْصِرَةٌ﴾ بضم الميم وفتح الصاد، حكاه الزجاج، ومعناه: مُبَيِّنَةٌ. وقرأ قتادة: ﴿مُبْصِرَةٌ﴾ بفتح الميم والصاد، وهي مُفَعَّلَةٌ من البصر، ومنه قول عترة:

.....

وَالْكَفْرُ مَخْبُتَةٌ لِنَفْسِ الْمُشْعِمِ
وقوله تعالى: ﴿فَنظَلَمُوا بِهَا﴾، أي: وضعوا الفعل غير موضعه، أي: بقهرها، وقيل: بالكفر في أمرها. ثم أخبر تعالى أنه إنما يرسل بالآيات غير المُفْتَرَحَةِ تخويفاً للعباد، وهي آيات معها إنهال لا معالجة فمن ذلك الكسوف والرعد والزلزلة وقوس قزح وغير ذلك. قال الحسن: والموت الذريع، وروي أن الكوفة رجفت في مدة عبدالله بن

مسعود فقال: أيها الناس، إن ربكم يستعيبكم فأعجبوه، ومن هذا قول النبي ﷺ في الكسوف: «فَاغْرُضُوا إِلَى الصَّلَاةِ الْحَدِيثِ، وَأَيَّاتُ اللَّهِ الْمُغْتَبَرُ بِهَا ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: فَقَسَمَ عَامٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ إِذْ حَيْثَمَا وَضَعْتَ نَظْرَكَ وَجَدْتَ آيَةً، وَهَذَا فَكْرَةُ الْعُلَمَاءِ، وَقَسَمَ مَعْتَادٌ غِبَاً كَالرَّعْدِ وَالْكَسُوفِ وَنَحْوِهِ، وَهَذَا فَكْرَةُ الْجَهْلَةِ فَقَطْ، وَقَسَمَ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، وَقَدْ انْقَضَى بَانْقِضَاءِ النَّبُوَّةِ، وَإِنَّمَا يُعْتَبَرُ بِهِ تَوْهَمًا لِمَا سَلَفَ مِنْهُ.

﴿٦٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال الطبري: معنى قوله: ﴿وَرَأَى قَلْبًا لَكَ إِذْ رَأَيْتَ أَحَاطَ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: في منعك يا محمد وحياطك وحفظك، فالآية إخبار له بأنه محفوظ من الكفرة، أي: أن يقتل أو يُنَالَ بمكروه عظيم، أي: قُلْتُ بَلْغَ رسالة ربك ولا تهيب أحداً من المخلوقين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويلٌ بَيَّنَّ جَارٍ مَعَ اللفظ، وقد روي نحوه عن الحسن بن أبي الحسن، والسدي، إلا أنه لا يناسب ما بعده مناسبة شديدة، ويحتمل أن يجعل الكلام مناسباً لما بعده، توطئة له، فأقول: اختلف الناس في الرؤيا - فقال الجمهور: هي رؤيا عين ويقظة، وهي ما رآه رسول الله ﷺ في ليلة الإسراء، قالوا: فلما أخبر رسول الله ﷺ بصيحة الإسراء بما رأى تلك الليلة من العجائب، قال الكفار: إن هذا لعجيب، تخبُّ الحُداة إلى بيت المقدس شهرين إقبالاً وإدباراً، ويقول محمد - عليه الصلاة والسلام - إنه جاءه من ليلته

وانصرف عنه، فافتتن بهذا التلبس قوم من ضعفة المسلمين فارتدوا، وشق ذلك على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآيات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا يحسن أن يكون معنى قوله: ﴿وَرَأَى قَلْبًا لَكَ إِذْ رَأَيْتَ أَحَاطَ بِالْكَافِرِينَ﴾، أي: في إضلالهم وهدايتهم، وأن كل واحد مُبْسَرٌ لما خلق له، أي: فلا تهتم أنت بكفر من كفر، ولا تحزن عليهم، فقد قيل لك: لا تحزن عليهم، إن الله محيط بهم، مالك لأمرهم، وهو جعل هذه فتنة ليكفر من سبق عليه الكفر. وسميت الرؤية في هذا التأويل رؤيا إذ هما مصدران من: رأى.

قال النقاش: جاء ذلك على اعتقاد من اعتقد أنها منامة وإن كانت الحقيقة غير ذلك.

وقالت عائشة رضي الله عنها: الرؤيا في الإسراء رؤيا منام، وهذا قول الجمهور على خلافه، وهذه الآية تقتضي بفساده، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها، وما كان أحد لينكرها، وقد ذكر هذا مستوعباً في صدر السورة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺ أن يدخل مكة، فعجل في سنة الحديبية، فرُدَّ، فافتتن المسلمون لذلك، فنزلت الآيات.

وقال سهل بن سعد: إنما هذه الرؤيا أن رسول الله ﷺ كان يرى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، فاهتم لذلك وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات. فنزلت

الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم على المنابر، وإنما يجعلها الله فتنه للناس وامتحاناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويجيء قوله تعالى: ﴿أَنَّا كُنَّا بِأَقْبَارِهِمْ﴾، أي: بإقداره، وأن كل ما قدره نافذ، فلا تهتم بما يكون بعدك من ذلك. وقد قال الحسن بن علي في خطبته في شأن بيعته لمعاوية: «وَلَوْ أَنَّ أَزْدِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى جِين».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولا عمر بن عبد العزيز، ولا معاوية.

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ معطوفة على قوله سبحانه: ﴿الرُّؤْيَا﴾، أي: جعلنا الرؤية والشجرة فتنَةً، والشجرة الزقوم، هي شجرة الزقوم، وذلك أن أمرها لما نزل في سورة الصافات قال أبو جهل وغيره: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنها تنبت الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد، ثم أمر أبو جهل جارية له فأحضرت تمرأ وزيداً وقال لأصحابه: تَرَقُّمُوا، فافتتن أيضاً بهذه المقالة بعض الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيه ﷺ أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم اختباراً ليكفر من سبق عليه الكفر، ويصدق من سبق له الإيمان، كما روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قيل له صبيحة الإسراء: إن صاحبك يزعم أنه جاء

البارحة بيت المقدس وانصرف منه، فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق، فقيل له: أتصدق قبل أن تسمع منه؟ فقال: أين عقولكم؟ أنا أصدقه بخبر السماء فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعد منها بكثير؟

وقالت فرقة: الشجرة إشارة إلى القوم المذكورين قبل في الرؤيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف مُخَدَّث، وليس هذا عن سهل بن سعد ولا مثله. وقال الطبري - عن ابن عباس رضي الله عنهما - إن الشجرة الملعونة: يعني: الملعون أكلها لأنها لم يجيء لها ذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يراد: الملعونة هنا، فأكد الأمر بقوله: ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾، وقالت فرقة: الملعونة: المُبْعَدَةُ المكروهة، وهذا أراد؛ لأنه لَعَنَهَا بلفظ اللعنة المتعارف، وهذا قريب في المعنى من الذي قبله. وأيضاً فما يثبت في أصل الجحيم فهو في نهاية البعد من رحمة الله.

وقوله تعالى: ﴿رَقِيقُهُمْ﴾، يريد: إما كُفَّارَ مَكَّةَ، وإما الملوك من بني أمية بعد الخلافة التي قال فيها النبي ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون، ثم تكون ملكاً عضوداً»، والأول منهما أصوب كما قلنا قبل.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ يريد كُفْرَهُمْ وانهماكهم فيه، كقول أبي جهل في

الزقوم والتزقُم، فقد قال النقاش: إن في ذلك نزلت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي نحوه، وقرأ الأعمش: ﴿وَيَخَوُّهُمْ﴾ بالياء، وقرأ الجمهور: ﴿وَيَخَوُّهُمْ﴾ بالنون.

٦١ - ٦٥ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر إذ قلنا، وكذلك ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ في الآية المتقدمة هي منصوبة بفعل مضمر، وقد تقدم في غير موضع ذكر خلق آدم عليه السلام وأمر السجود له. واختلف في قوله: ﴿إِلَّا إِلَهِسَ﴾ - فقيل: هو استثناء منقطع؛ لأن إبليس لم يكن من الملائكة، وقيل: هو متصل؛ لأن إبليس من الملائكة. وقوله: ﴿طِغْيَانًا﴾ يصح أن يكون تمييزاً، ويصح أن يكون حالاً. وقاس إبليس في هذه النازلة فأخطأ؛ وذلك أنه رأى الفضيلة لنفسه من حيث رأى أن النار أفضل من الطين، وجعل أن الفضائل في الأشياء إنما تكون حيث خصصها الله تبارك وتعالى، ولا يُنظر إلى أصولها.

وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبليس هو الذي أمره الله تعالى، فأخذ من آدم المشهود الأرض طينة، فخلق آدم، والمشهود أنه ملك الموت. وكفر إبليس في أن جهل صفة العدل من الله تعالى حين لحقته الأنفة والكبر، وكان أصل ذلك الحسد ولذلك قيل: «أول ما غصي الله تعالى بالحسد»، وظهر ذلك من إبليس من قوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا اللَّيِّ كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ و«أَنَا خَيْرٌ

يَنَّهُ ﴿حَسْبَمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى، فَهَذَا هُوَ النَّصُّ بِأَن فَعَلَكَ غَيْرِ مُسْتَقِيمٍ.

والكاف في قوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ هي كاف خطاب ومبالغة في التنبيه، لا موضع لها من الإعراب؛ فهي زائدة. ومعنى «أَرَأَيْتَ»: أَتَأَمَّلْتُ، ونحوه. كأن المخاطب بها يُتَبَّه المخاطَب لِيَسْتَجْمَعَ لِمَا يُنْصَحُ عَلَيْهِ بِغَدُ. وقال سيبويه: هي بمعنى: أخبرني، ومثل بقوله: أَرَأَيْتَكَ زَيْدًا أَيُؤْمِنُ هُوَ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال الزجاج في آيتنا، ولم يُمَثَّل، وقول سيبويه صحيح حيث يكون بعدها استفهام كمثلها، وما في هذه فهي كما قُلْتُ، وليست الذي ذكره سيبويه رحمه الله.

وقرأ ابن كثير: ﴿أَخْرَجْتَنِي﴾ بالياء في الوصل والوقف، وهذا هو الأصل، وليس هذا الموضع كالكافية التي يحسن فيها الحذف، كمثل قول الأعشى:

فَهَلْ يَمْنَعُنِي اِرْتِيَادِي أَلْبِلَاءَ
ذِمِّنْ خَذِرِ الْمَوْتِ أَنْ يَأْتِيَنِي؟
وقرأ نافع، وأبو عمرو بالياء في الوصل وبحذفها في الوقف، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿أَخْرَجْتَنِي﴾ بحذف الياء في الوصل والوقف، وهذا تشبيه بياء (قاضٍ) ونحوه، لكونها بياء مطرفة قبلها كسرة، ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

وقوله: ﴿لَأَخْزِيَنَّ﴾ معناه: لأُمِيلَنَّ ولأُجْزِنَنَّ، وهو مأخوذ من تخنيك الدابة، وهو أن يُشَدَّ على حنكها

بحبل أو غيره فتقاد، والسنة تخنيك المال، أي: تجتره، ومنه قول الشاعر:

نَشْكُو إِلَيْكَ سَنَةً قَدْ أَجْحَقَتْ
جَهْدًا إِلَى جَهْدٍ بِنَا فَأَضْعَفَتْ
وَاحْتَنَكْتَ أَمْرَانَا وَجَنَّفَتْ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن هذا الشعر قال الطبري في ﴿لَأَخْزِيَنَّ﴾: لَأَسْتَأْصِلَنَّ، وعبر ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك بـ لَأَسْتَوْلِيَنَّ، وقال ابن زيد: لَأُصِلَنَّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بدل اللفظ لا تفسير.

وحكم إبليس بهذا الحكم على ذرية آدم عليه السلام من حيث رأى الخلقة مجوفة مختلفة الأجزاء، وما اقترن بها من الشهوات والعوارض كالغضب ونحوه، ثم استثنى القليل لعلمه أنه لا بد أن يكون في ذريته من يصلب في طاعة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَنفَبَ﴾ وما بعده من الأوامر هي صيغة أفعَل، بمعنى التهديد، كقوله تعالى: ﴿أَتَمَلُّوْا مَا شِئْتُمْ﴾ و﴿يَمَكْ﴾ معناه: في طريق الكفر الذي تدعو إليه. فالآية في الكفار وفيمن ينفذ عليه الوعيد من العصاة. وقوله تعالى: ﴿جَزَاءَ﴾ مصدر في موضع الحال، و«المؤفور»: المكتمل.

و«وَأَسْتَفْزِزَ» معناه: استخِفَّ واخذَغ حَتَّى يَقَعَ فِي إِرَادَتِكَ، تقول: اسْتَفْزَنِي فَلَانٌ فِي كَذَا، إِذَا خَدَعَكَ حَتَّى تَقَعَ فِي أَمْرِ أَرَادَهُ، ومن الخفة قيل لولد البقرة: قَرُ، ومنه قول زهير:

كَمَا اسْتَفَاتَ بِسَيِّءٍ قَرُ غَيَظَلَةٍ
خَافَ أَلْعَيُونُ فَلَمْ يُنْظَرْ بِهِ الْحَشَكُ
و«الصُّوْتُ» هنا قيل: هو الغناء والمزامير والملاهي؛ لأنها أصوات كلها مختصة بالمعاصي، فهي مضافة إلى الشيطان، قاله مجاهد، وقيل: معناه: بدعائك إياهم إلى طاعتك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: صوته دعاء كل عاصٍ إلى معصية الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب أن يكون «الصُّوْتُ» يعمُ جميع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْتَ﴾ أي: هَوَّلَ، والجلبة: الصوت الكثير المختلط الهائل، وقرأ الحسن: ﴿وَأَجْلَبَ﴾ بوصل الألف وضم اللام. وقوله سبحانه: ﴿يَجِيءُكَ وَيَجْلِبُكَ﴾، قيل: هذا مجاز واستعارة بمعنى: اشغَّ سعيك وابلغ جهدك، وقيل: معناه أن له من الجن خيلاً ورجلاً، قاله قتادة، وقيل: المراد فرسان الناس ورجالتهم المتصرفون في الباطل، فإنهم كلهم أعوان لإبليس على غيرهم، قاله مجاهد. وقرأ الجمهور: ﴿وَوَجَّلِكَ﴾ بسكون الجيم، وهو جمع (راجِل)، كناجِر وتَجَر، وصاحِب وصَخْب، وشَارِب وشَرْب، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿وَوَجَّلِكَ﴾ بكسر الجيم، على وزن فَعِل، وكذلك قرأ الحسن، وأبو عمرو - بخلاف عنه - وهي صفة، تقول: فلانٌ يمشي رجلاً، أي غير راكب، ومنه قول الشاعر:

أَمَا أَقَاتِلُ عَنْ دِينِي عَلَى قَرَسِي
وَلَا كَذَّارِجُلًا إِلَّا بِأَصْحَابٍ؟
وَقَرَأَ قَتَادَةَ وَعَكْرَمَةَ: «بِخَيْلِكَ
وَرِجَالِكَ».

وقوله: «وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ» عامٌّ لكل معصية يصنعها الناس بالمال، فإن ذلك المصروف في المعصية هو حظ إبليس، فمن ذلك السجائر وشبهها، ومن ذلك مهر البغي وثمن الخمر وحلوان الكاهن والرُّبَا وغير ذلك مما يوجد في الناس دأباً، وقوله: «وَالْأَوْلَادِ» عامٌّ لكل ما يصنع في أمر الذرّية من المعاصي، فمن ذلك الإيلاء بالزّنى، ومن ذلك تسميتهم عبد شمس، وعبد الحارث، وأبا الكويفر، وكل اسم مكروه، ومن ذلك الوأد الذي كانت العرب تفعله، ومن ذلك صبغهم في أديان الكفر، وغير هذا، وما أدخل النقاش من وطء الجن وأنه يحبل المرأة من الإنس فضعيف كله.

وقوله تعالى: «وَعِدْتُهُمْ» أي: منّهم بما لا يتم لهم، وبأنهم غير مبعوثين، فهذا مشاركة في النفوس، ثم أخبر الله تعالى أنه إنما يعدّهم غروراً منه؛ لأنه لا يغني عنهم شيئاً. وقوله تعالى: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ» قولٌ من الله تبارك وتعالى لإبليس، وقوله: «عِبَادِي» يريد المؤمنين في الكفر، والمُتَّقِينَ في المعاصي، وخصّهم بأنهم العباد وإن كان اسماً عاماً لجميع الخلق من حيث قصد تشريفهم والتنويه بهم، كما يقول رجلٌ لأخيه بنيه إذا رأى منه ما يحب: «هذا ابني»، على معنى التّثنية والتشريف له، ومنه قول

النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «هذا خالي، فليُبرني امرؤ خاله». و«السُّلْطَانُ»: الملكية والتغلب، وتفسيره هنا بالحُجّة قُلُقٌ. ثم قال تعالى لِيُثَبِّتْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ: وكفى بِرُكُ يَا مُحَمَّدَ حَافِظًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَقِيَمًا عَلَى هِدَايَتِهِمْ. ﴿٦٦﴾ - ﴿٦٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

«الْإِزْجَاءُ»: سوق الثَّقِيلِ السَّيْرِ؛ إمَّا لضعفٍ أو ثِقَلِ حَمَلٍ أو غيرِهِ، فالإِجْلُ الضعاف تُزْجَى، ومنه قول الفرزدق:

عَلَى زَوَاجِفٍ تُزْجِيهَا مَخَاسِيرِ
وَالسُّحَابُ تُزْجِي، ومنه قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا»، والبضاعة المُزْجَاءُ هي التي تحتاج لاختلالها أن تُسَاقَ بِشَفَاعَةٍ وتُدْفَعَ بمعاونٍ إلى الذي يقبضها، وإِزْجَاءُ الْفُلْكِ سَوْقُهُ بِالرَّيْحِ اللَّيْسَةِ وَالْمَجَادِفِ. و«الْفُلْكَ» هنا جمع. و«الْبَحْرُ»: الماء الكثير عذباً كان أو بلحاً، وقد غلب الاسم على هذا المشهور والفلك تجري فيه، وقوله: «لِيَتَنَفَّسُوا مِنْ فَضْلِهِ» لفظ يعم البحرَ وَطَلَبَ الْأَجْرَ فِي حُجٍّ أَوْ غَزْوٍ أَوْ نحوه، ولا خلاف في جواز ركوبه للحجّ والجهاد والمعاش، واختلف في وجوبه للحجّ، أعني الكثير منه. واختلف في كراهيته للثروة وتزيدها لِمَالٍ، وقد أخبر رسول الله ﷺ

وَأِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّحُوا بِإِلَى الْبَرِّ اغْرَقْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمْسَرْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَرُسِلَ عَلَيْكُمْ فَأَصْحَابًا مِّنَ الرِّيحِ يَغْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عُذْرًا ﴿٦٩﴾ وَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْلَئِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كَيْتَبِهِ يَتَّبِعُهُ وَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ كَيْتَبَهُمْ وَلَا يَطْمَئِنُّونَ قَبِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَلَاكِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِينَ أَوحَيْنَا إِلَيْكَ لِلْفَقْرِ عَلَىٰ نَجْوَىٰهِ وَإِذَا لَخَذْتُكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَبُ فِي الْيَمِّ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذْنُكَ ضَعِيفٌ الْحَبْوَةُ وَضَعِيفُ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

بركوبه للغزو في حديث أم حرام، وقد روي عنه أنه قال: «البحر لا أركبه أبداً»، وهو حديث يحتمل أنه رأي رآه لنفسه، ويحتمل أنه أوحى إليه ذلك، وهذه الآية توقيف على آلاء الله تعالى وفضله على عباده.

و«الضُّرُّ» لفظ يعمُّ خوف الغرق، والإمساك عن المشي، وأهول حالاته اضطرابه وتموجه. وقوله تعالى: «ضَلَّ» معناه: تلف وفقد، وهي عبارة تحقير لمن يدعي إلهاً من دون الله تبارك وتعالى. والمعنى في هذه الآية أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلاً، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علماً لا يقدر على مدافعتها أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام، فَوَقَفَهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى حَالَةٍ

البحر، وقوله تعالى: ﴿كَثُورًا﴾ أي بالنّعم. و﴿الْإِنْسَانُ﴾ هنا للجنس، وكل واحد لا يكاد يؤدي شكر الله تعالى كما يجب. وقال الزجاج: ﴿الْإِنْسَانُ﴾ يراد به الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير بارع.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتُمْ أَنْ يَخِفَ بِكُمْ جَبَابَ الْيَوْمِ﴾ الآية. المعنى: أفأنتم أيها المعرضون الناسون الشدة حين صرتم إلى الرخاء أن يخسف الله بكم مكانكم من البر؛ إذ أنتم في قبضة القدرة في البحر وفي البر.

و«الحاصب»: العارض الرامي بالبزد والحجارة ونحو ذلك، ومنه قول الشاعر:

مُسْتَقْبِلِينَ سَمَالَ الشَّامِ تَضَرُّبًا
بِحَاصِبِ كَنْدِيفِ الْقُطْنِ يَنْشُورُ
ومنه قول الأخطل:

تُزِمِي الْعِضَاءَ بِحَاصِبٍ مِنْ ثُلُجِهَا
حَتَّى يَبَيَّتَ عَلَى الْعِضَاءِ جَفَالًا
ومنه الحاصب الذي أصاب قوم لوط. والحصب: الرمي بالحصباء، وهي الحجارة الصغار.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَخِفَ﴾ بالياء، على معنى: يخسف الله، وكذلك ﴿يُرْسِلَ﴾ و﴿يُمِدُّكُمْ﴾ و﴿يُرْسِلَ﴾ و﴿يَفْرَقَكُمْ﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو ذلك كله بالنون، وقرأ أبو جعفر، ومجاهد: ﴿فَتَفَرَّقَكُمْ﴾ بالتاء، أي الريح. وقرأ حميد: ﴿فَتَفَرَّقَكُمْ﴾ بالنون خفيفة، وأدغم القاف في الكاف، ورويت عن أبي عمرو، وابن محيصن، وقرأ

الحسن، وأبو رجاء: ﴿فَتَفَرَّقَكُمْ﴾ بشدّ الراء. و«الوكيل»: القائم بالأمور، و«القاصف»: الذي يكسر كل ما يلقي ويقصفه. و«تأذة» جمعها تارأت وتيّز، ومعناها: مرة أخرى، وقرأ أبو جعفر: ﴿وَمِنْ الرِّيحِ﴾ بالجمع. و«التبيغ»: الذي يطلب ثأراً أو ذنباً أو نحو هذا، ومنه قول الشاعر:

عَدَاؤًا وَعَدَتْ غِزْلَانَهُمْ فَكَأَنَّهُمَا
ضَوَائِمُ غُرْمٍ لَزُومٌ تَبِيعُ
ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ: «إِذَا أَتَيْتُمْ أَحَدَكُمْ عَلَى مِلْيَةٍ فَلْيَتَّبِعْ»، فالمعنى: لا تجدون من يتبع فعلنا بكم ويطلب نصرتكم.

﴿٧٠﴾ - ﴿٧١﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿كَرَّمْنَا﴾ تضعيف (كرم)، فالمعنى: جعلنا لهم كرمًا، أي شرفاً، وفضلاً، وهذا هو كرم نفي نقصان، لا كرم المال، وإنما هو كما تقول: «ثوب كريم»، أي: جمّة محاسنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية عدّد الله تعالى فيها على بني آدم ما خصّهم به من دون سائر الحيوان، والجن هو الكثير المفضل، والملائكة منهم الخارجون عن الكثير المفضل. وحنّهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمّل بإرادته وقصده وتدبيره في البر والبحر جميعاً. والرزق من الطيبات لا ينتفع به حيوان انتفاع بني آدم؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب، ويأكلون المركبات من الأطعمة، وغاية كل حيوان أن يأكل لحماً نيئاً،

أو طعاماً غير مركب. و«الرزق»: كل ما صح الانتفاع به، وحكى الطبري عن جماعة أنهم قالوا: التفضيل هو أن يأكل بيديه وسائر الحيوان بالهم، وقال غيره: وأن ينظر من إشراف أكثر من كل حيوان، ويمشي قائماً، ونحو هذا من التفضيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله غير محذوق، وذلك أن للحيوان من هذا النوع ما كان يفضل به ابن آدم، كجري الفرس وسمعه وإبصاره، وقوة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك، وإنما التكريم والتفضيل بالعقل الذي به يملك الحيوان كله، وبه يعرف الله تعالى، ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه. وقالت فرقة: هذه الآية تقضي بفضل الملائكة على الإنس من حيث هم المستثنون، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمَقْرُونُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير لازم من الآية، بل التفضيل بين الإنس والجن لم تكن له الآية، بل يحتمل أن الملائكة أفضل، ويحتمل التساوي، وإنما صحّ تفضيل الملائكة من مواضع أخرى من الشرع.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِ﴾ الآية. يحتمل قوله: ﴿يَوْمَ﴾ أن يكون منصوباً على الظرف، والعامل فيه فعل مضمر تقديره: أذكر، أو فعل يدل عليه قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾، تقديره: ولا يظلمون يوم ندعو، ثم فسرهُ ﴿يُظْلَمُونَ﴾ الآخر، ويجوز أن يعمل فيه ﴿وَنَصَّلْنَاهُمْ﴾،

يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْقَلَّةِ وَتَفَاهَةِ الْقَدْرِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَٰذِهِ أَعْيُنٌ﴾ الآية. قال محمد بن أبي موسى: الإشارة بـ ﴿هَٰذِهِ﴾ إشارة إلى النعم التي ذكرها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، أي: مَنْ عَمِيَ عَنْ شُكْرِ هَذِهِ النِّعَمِ وَالْإِيمَانِ بِمُسْنَدِهَا فَهُوَ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ وَشَأْنِهَا أَعْمَى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل ﴿أَعْيُنٌ﴾ الثاني أن يكون بمنزلة الأول، على أنه تشبيه بأعمى البصر، ويحتمل أن يكون صفة تفضيل، أي: أشد عمى، والعمى في هذه الآية هو عمى القلب في الأول والثاني، وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الإشارة بـ ﴿هَٰذِهِ﴾ إلى الدنيا، أي: مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدَّارِ أَعْمَى عَنِ النَّظَرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَغَيْرِهِ وَالْإِيمَانِ بِآيَاتِهِ ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾، إما أن يكون على حذف مضاف، أي: في شأن الآخرة، وإما أن يكون: فهو في يوم القيامة أعمى، على معنى أنه حيران لا يتوجه إليه صواب، ولا يلوح له نَجَحٌ. قال مجاهد: في الآخرة أعمى عن حجته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن الإشارة بـ ﴿هَٰذِهِ﴾ إلى الدنيا، أي: مَنْ كَانَ فِي دُنْيَاهُ هَذِهِ وَوَقْتُ إِدْرَاكِهِ وَفَهْمِهِ أَعْمَى عَنِ النَّظَرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَشَدَّ حَيْرَةً وَأَعْمَى؛ لَأَنَّهُ قَدْ بَاشَرَ الْخَبِيَّةَ، وَرَأَى مَخَايِلَ الْعَذَابِ. وبهذا

تجيء كل أمة معها إمامها من هادٍ أو مُضِلٍّ، واختلف المفسرون في الإمام - فقال مجاهد، وقتادة، نبيهم، وقال أبو زيد: كتابهم الذي أنزل عليهم، وقال ابن عباس، والحسن: كتابهم الذي فيه أعمالهم، وقالت فرقة: مُتَّبِعُهُمْ مِنْ هَادٍ وَمُضِلٍّ. ولفظة «الإمام» تعمُّ هذا كله؛ لأن الإمام هو ما يُؤْتَمُّ بِهِ وَيُهْتَدَى بِهِ فِي الْقَصْدِ، وَمِنْهُ قِيلَ لَخَيْطِ الْبَيْتَاءِ: إِمَامٌ، وَقَالَ الشَّاعِرُ يَصِفُ قَدْحًا:

وَقَوْمُهُ حَتَّى إِذَا تَمَّ وَاسْتَوَى
كَمُخَّةٍ سَاقٍ أَوْ كَمَشْنِ إِمَامٍ
ومنه قيل للطريق: إِمَامٌ؛ لَأَنَّهُ يُؤْتَمُّ بِهِ فِي الْمَقَاصِدِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَرَادِ.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَوْقَى كَتَبَهُ يَسِينٌ﴾ حقيقة في أن في القيامة صحائف تتطابق وتوضع في الأيمان لأهل الإيمان، وفي الشوائب لأهل الكفر، وتوضع في أيمان المذنبين الذين ينفذ عليهم الوعيد فيستفيدون منها أنهم غير مخلصين في النار. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ﴾، عبارة عن السرور بها، أي: يُرَدُّونَهَا وَيَتَنَاقَلُونَهَا، وقوله: ﴿وَلَا يَلْمُزُونَ قَبِيلًا﴾، أي: ولا أقل ولا أكثر، فهذا هو مفهوم الخطاب، حُكْمُ الْمَسْكُوتِ عَنْهُ كَحُكْمِ الْمَذْكُورِ، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِمَا أَتَى﴾ وكقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا عِثْقًا ذَرًّا﴾، وهذا كثير. ومعنى هذه الآية أنهم لا يبخسون من جزاء أعمالهم الصالحة شيئاً، والفتيل هو الخيط الذي في شق نواة التمر،

وذلك أن فضل البشر على سائر الحيوان يوم القيامة بين؛ لأنهم الْمُتَعَمِّمُونَ الْمُكَلَّمُونَ الْمُحَاسِبُونَ الَّذِينَ لَهُمُ الْقَدْرُ، إِلَّا أَنَّ هَذَا يَرُدُّهُ أَنَّ الْكَفَّارَ يَوْمَئِذٍ أَحْسَنُ مِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ؛ إِذْ يَقُولُ الْكَافِرُ: ﴿يَلْبَسُنِي كَتُّ ثَرَابًا﴾، وَلَا يَعْمَلُ فِيهِ ﴿يَوْمَ﴾ لَأَنَّهُ مُضَافٌ إِلَيْهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ منصوباً على البناء لما أضيف إلى غير متمكن، ويكون موضعه رفعاً بالابتداء، والخبر في التقسيم الذي أتى بغد في قوله: ﴿مَنْ أَوْقَى﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿يَوْمَ﴾ بنون العظمة، وقرأ مجاهد: ﴿يَذْعُو﴾ بالياء، على معنى: يدعو الله، وزويت عن عاصم، وقرأ الحسن: ﴿يَذْعُو﴾ بضم الياء وسكون الواو، وأصلها: يُذْعَى، ولكنها لغة لبعض العرب، يقلبون هذه الألف واواً فيقولون: أَذْعُو، وَخَبَلُو. ذكر هاتين أبو الفتح وأبو علي في ترجمة أعمى بعد، وقرأ الحسن: ﴿كُلُّ﴾ بالرفع، على معنى: يُذْعَوُ كُلُّ. وذكر أبو عمرو الداني عن الحسن أنه قرأ: ﴿يُذْعَى كُلُّ﴾، و«الأناس» اسم جمع لا واحد له من لفظه.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ يحتمل أن يريد: باسم إمامهم، ويحتمل أن يريد: مع إمامهم، فعلى التأويل الأول يقال: يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَيَا أَتْبَاعَ فِرْعَوْنَ، وَنَحْوَ هَذَا، وَعَلَى التَّأْوِيلِ الثَّانِي

التأويل تكون معادلة للتي قبلها مِنْ ذَكَرٍ مَنْ يُؤْتَى كتابه بيمينه، وإذا جعلنا قوله تعالى: ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ بمعنى: «في شأن الآخرة» لم تطرد المعادلة بين الاثنين.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿أَعْمَى﴾ في الموضعين بغير إمالة، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم - بخلاف عنه - في الموضعين بإمالة، وقرأ أبو عمرو بإمالة الأول وفتح الثاني، وتأوّل بمعنى: «أشدّ عمى»، ولذلك لم يُجْمَلْ. قال أبو عمرو: لأن الإمالة إنما تحسّن في الأواخر، و﴿أَعْمَى﴾ ليس كذلك؛ لأن تقديره: أعمى من كذا، فليس يتم إلّا في قولنا: «مِنْ كذا» على ما هو شبيه به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما جعله في الآخرة أضلّ سبيلاً لأن الكافر في الدنيا ممكن أن يؤمن فينجو، وهو في الآخرة لا يمكنه ذلك، فهو أضلّ سبيلاً، وأشدّ حيرة، وأقرب إلى العذاب. وقول سيبويه: «لا يقال أعمى من كذا، كما لا يقال: ما أَيْدَاهُ» إنما هو في عمى العين الذي لا تفاضل فيه، وأما في عمى القلب فيقال ذلك لأنه يقع فيه التفاضل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر مكى في هذه الآية أن العمى الأول هو عمى العين عن الهدى. وهذا بين الاختلال، والله المعين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَقْتُلُنَكَ عَنِ اللَّيْلِ أُوحِيََا إِلَيْكَ﴾ الآية. ﴿وَإِنْ﴾ هذه عند سيبويه المحققة من الثقيلة، واللام في قوله سبحانه:

﴿لَيَقْتُلُنَكَ﴾ لام تأكيد، و﴿وَإِنْ﴾ هذه عند الفراء بمعنى (ما)، واللام بمعنى (إنما)، والضمير في قوله تعالى: ﴿كَادُوا﴾ قيل: هو لقريش، وقيل: لثقيف، فأما لقريش فقال ابن جبير، ومجاهد: نزلت الآية لأنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لا ندعك تستلم الحجر الأسود حتّى تمس أوثاننا، على جهة التشريع بذلك، قال الطبري وغيره: فهم رسول الله ﷺ أن يظهر لهم ذلك وقضيه له منكر، فنزلت الآية في ذلك، قال الزجاج: وقال رسول الله ﷺ في نفسه: «وما عَلَيَّ أَنْ أَفْعَلَ لَهُمْ ذَلِكَ وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي؟» وقال ابن إسحق وغيره: إنهم اجتمعوا ليلة فعظموه وقالوا له: أنت سيدنا، ولكن: أقبل على بعض أمرنا وتقبل على بعض أمرك، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهي في معنى قوله تعالى: ﴿وَوَدَّأَنَّ تَذَهُنَّ يَذْهَبُونَ﴾. وحكى الزجاج أن الآية قيل: إنما هي فيما أرادوه من طرد فقراء أصحابه.

وأما لثقيف فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره: لأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يؤخرهم بعد إسلامهم سنة يعبدون فيها اللات، وقالوا: إنا نريد أن نأخذ ما يهدى لها، ولكن إن خفت أن تنكر ذلك عليك العرب فقل: أوحى الله ذلك إليّ، فنزلت الآية في ذلك. ويلزم قائل هذا القول أن يجعل الآية مدنية، وقد روي ذلك، وروى قائلوا الأقوال الأخر أنها مكية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وجميع ما أريد من النبي ﷺ بحسب هذا الاختلاف قد أوحى الله تعالى إليه خلافة، إمّا في مُعْجَز. وإمّا في غير معجز، وفعله هو - إن لو وقع - افتراء على الله، إذ أفعاله وأقواله إنما هي كلها شرع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَأَخَذُواكَ خِلَافًا﴾ توقيف على ما نجاه الله تعالى منه من مخالفته الكفار والولاية لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ نَبُنْثَكَ﴾ الآية... تعديد نعمة على النبي ﷺ، وروى أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: «اللَّهُمَّ لَا تُكَلِّبْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ». و«الرُّكُونُ»: شدّ الظهر إلى الأمر، أو الجزم على جهة السكون إليه، كما يفعل الإنسان بالركن من الجدران، ومنه قوله تعالى حكاية: ﴿أَوَّاهُ وَيْلَكَ رُكْنِي شَدِيدٍ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿تَرَكَّنْ﴾ بفتح الكاف، وقرأ ابن مصرف، وقتادة، وعبدالله بن أبي إسحق: ﴿تَرَكَّنْ﴾ بضم الكاف، ورسول الله ﷺ لم يركن، ولكنه كاد بحسب همّه بموافقتهم طمعاً منه في استئلافهم، وذهب ابن الأنباري إلى أن معناه: لقد كاد أن يخبروا عنك أنك ركنت، ونحو هذا، ذهب في ذلك إلى نفي الهمّ بذلك عن النبي ﷺ، فحمل اللفظ ما لم يحتمل. وقوله تعالى: ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾ يبطل ذلك. وهذا الهمّ من النبي ﷺ إنما كان حَظَرَةً مما لا يمكن دفعه، ولذلك قيل: ﴿يَكْدُ﴾، وهي تُعْطَى أنه لم يكن رُكُون، ثم قيل: ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾ إذ كانت المقاربة التي

تتضمنها ﴿كَدَتْ﴾ قليلة، خَطَرَةٌ لم تتأكد في النفس، وهذا الهم هو كَهَم يوسف عليه السلام، والقول فيهما واحد. وقوله تعالى: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ﴾ يبطل أيضاً ما ذهب إليه ابن الأباري.

وقوله تعالى: ﴿ضَعَفَ الْحَيَاةَ وَضَعَفَ الْمَمَاتَ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: يريد: ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: على معنى أن ما يستحقه هذا الذنب من عقوبتنا في الدنيا والآخرة كنا نضعفه لك، وهذا التضعيف شائع مع النبي ﷺ في أجره وألمه وعقاب أزواجه. وبإتي الآية بين.

٧٦ - ٧٨ تفسير قوله عز وجل:

قال حضرمي: الضمير في ﴿كَادُوا﴾ ليهود المدينة وناحتيتها، كَحَيِّي بن أخطب وغيره، وذلك أنهم ذهبوا إلى المكر برسول الله ﷺ فقالوا: إن هذه الأرض ليست بأرض أنبياء، وإنما أرض الأنبياء الشام، ولكنك تخاف الروم، فإن كنت نبياً فاخرج إليها فإن الله سيحميك كما حمى غيرك من الأنبياء، فنزلت الآية في ذلك، وأخبر الله تعالى أن رسوله لو خرج لم يُلْبِثُهُمْ بعد إلا قليلاً.

وحكى النقاش أن رسول الله ﷺ خرج بسبب قولهم، وعسكر بذئ الحليفة، وأقام ينتظر أصحابه، فنزلت الآية عليه فرجع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، لم يقع في سيرة ولا

كتاب يعتمد عليه، وذو الحليفة ليس في طريق الشام.

وقالت فرقة: الضمير في ﴿كَادُوا﴾ هو لقريش، وحكى الزجاج أن استفزازهم هو ما كانوا أجمعوا عليه في دار الندوة من قتله، و﴿الْأَرْضِ﴾ -

على هذا - عامة في الدنيا، كأنه قال: يخرجوك من الدنيا، وعلى سائر الأقوال هي أرض مخصوصة، إما مكة وإما المدينة، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾، وإنما معناه:

من الأرض التي بها تصرفهم وتمتعهم. وقال ابن عباس، وقتادة: استفزاز قريش هو ما كانوا ذهبوا إليه من إخراج رسول الله ﷺ من مكة، كما ذهبوا قبل إلى حصره في الشعب. ووقع استفزازهم هذا بعد نزول الآية، وضيقوا عليه حتى خرج واتبعوه إلى الغار وغير ذلك، ونفذ عليهم الوعيد في أن لم يلبثوا خلفه إلا قليلاً يوم بدر. وقال مجاهد: ذهبت قريش إلى هذا ولكنه لم يقع منها؛ لأنه لما أراد الله تعالى استقاء قريش وألاً يستأصلها أذن لرسول الله ﷺ في الهجرة، فخرج من الأرض بإذن الله تعالى لا بقهر قريش، واستبقيت قريش يُسلم منها ومن أعقابها من أسلم، قال: ولو أخرجته قريش لعدبوا، فذهب مجاهد رحمه الله إلى أن الضمير في

سورة الإسراء

سورة الإسراء

وإن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةٌ مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قُلُوكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَفَرَأَى الْأَصْلَوةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ هَآءِ الْحَقُّ وَهَآءِ الْبَيِّنَاتُ إِنَّ الْبَيِّنَاتُ كَانَتْ مِنْ قَبْلُ مِنْ قُرْءَانِ الْفُرْقَانِ هَآءِ الْبَيِّنَاتُ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨١﴾ وَإِذْ أَتَيْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَاضًا وَتَوَّابِينَ وَإِذْ أَسْمَى الشُّرَكَاءُ يُوَسَّسُونَ ﴿٨٢﴾ قُلْ كُلُّ عَمَلٍ عَلَيَّ شَاكِلِيهِ قُلُوبُكُمْ أَتَعْلَمُونَ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٣﴾ وَتَسْتَوْنَاكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٤﴾ وَلَيْسَ شَيْئًا لِلدَّهْنِ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَاحِظْكَ بِهِ عَالِيًا وَكَبِيرًا ﴿٨٥﴾

٢٩٠

﴿يَلْبِثُونَ﴾ عامٌ في جميعهم. وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿وَإِذَا لَا يَلْبِثُوا﴾ بحذف النون وإعمال ﴿وَإِذَا﴾، وسائر القراء أَلْفَوْهَا وَأَثَبُوا النون. وقرأ عطاء بن أبي رباح: ﴿يَلْبِثُونَ﴾ بضم الياء وشد الباء وفتح اللام، وروي مثله عن يعقوب إلا أنه كسر الباء. وقرأ عطاء: ﴿يَبْغُذُكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقرأ الجمهور: ﴿خَلْفَكَ﴾، وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿خَلْفَكَ﴾ والمعنى واحد، ومنه قول الشاعر:

عَقَبَ الرُّدَادُ خَلَاقَهَا فَكَأَنَّمَا
بَسَطَ الشَّوَابِطُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرًا
ومنه قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾، على بعض تأويلاته، أي: بعد خروج رسول الله ﷺ، وهذه اللفظة قد لزم فيها حذف المضاف؛ لأن التقدير في

آيتنا: «خلاف خروجك»، وفي بيت الشاعر: «خلاف انبساط الشمس» أو نحوه.

قال أبو علي: أصابوا هذه الظروف تضاف إلى الأسماء الأعيان التي ليست أحداثاً، فلم يَسْتَجِئُوا إضافتها إلى غير ما جرى عليه كلامهم، كما أنها لما جرت منصوية في كلامهم تركوها على حالها إذا وقعت في موقع النصب، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْيَقِينِ يَقُولُ إِنَّكَ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿سَكَنَ﴾ نصب على المصدر، وقال الفراء: نصبه على حذف الخافض؛ لأن المعنى: «كَسَنَ»، فحذف الكاف ونصب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويلزمه على هذا ألا يقف في قوله: ﴿تَلِيلًا﴾.

ومعنى الآية الإخبار أن سُئِنَ الله تعالى في الأمم الخالية وعادته أنها إذا أخرجت نبيها من بين أظهرها نالها العذاب، واستأصلها الهلاك، فلم تلبث بعده إلا قليلاً.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ لِدُلُوكِ اللَّيْلِ﴾ الآية. هذه بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة.

فقال ابن عمر، وابن عباس، وأبو بزة، والحسن، والجمهور: ﴿دُلُوكِ الشمس﴾: زوالها، والإشارة إلى الظهر والعصر، و«عَسَقَ الليل» أشير به إلى المغرب والعشاء، و«قرآن الفجر» أريد به صلاة الصبح، فالآية - على هذا - تعُمُّ جميع الصلوات،

وروى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أَتَانِي جِبْرِيلُ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ حِينَ زَالَتْ فَصَلَّى بِي الظُّهْرَ»، وروى جابر أن النبي ﷺ خرج من عنده وقد طعم وزالت الشمس، فقال: «اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس».

وقال ابن مسعود، وابن عباس، وزيد بن أسلم: «دُلُوكِ الشمس»: غروبها، والإشارة بذلك - إلى المغرب، و«عَسَقَ الليل»: اجتماع ظلمته، فالإشارة إلى العتمة، و«قرآن الفجر»: صلاة الصبح، ولم تقع إشارة - على هذا التأويل - إلى الظهر والعصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول أصوب لعمومه الصلوات، وهما من جهة اللغة حَسَنَانِ، وذلك أن «الدُّلُوكَ» هو المِيلُ في اللغة، فأوَّلُ الدُّلُوكِ هو الزوال، وآخره هو المغرب، ومن وقت الزوال إلى الغروب يُسَمَّى دُلُوكًا، لأنها في حالة ميل، فذكر الله الصلوات التي تكون في حالة الدُّلُوكِ وعنده، فدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب، ويصح أن تكون المغرب داخلية في «عَسَقَ الليل»، ومن الدُّلُوكِ الذي هو المِيلُ قول الأعرابي للحسن بن أبي الحسن: أَيَذَلِكَ الرجلُ امرأته؟ يريد: أيميل بها إلى المَطْلُ في دَيْتِهَا؟ فقال له الحسن: نعم إذا كان ملحفاً، أي: عديماً، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُنَا
نُجُومٌ وَلَا بِالْأَقْلَاتِ الدُّوَالِكِ

ومن ذلك قول الشاعر:

هَذَا مَكَانٌ قَدْ مَنَى زَبَاحُ
غَدُوَّةٍ حَتَّى دَلَّكَتْ بِزَبَاحٍ
ويروى (بزاح) بكسر الباء، قال أبو عبيدة، والأصمعي، وأبو عمر الشيباني: معناه: براحة الناظر يستكف بها أبداً لينظر كيف ميلها وما

بقي لها، وهذا نحو قول العجاج: وَالشَّمْسُ قَدْ كَادَتْ تَكُونُ دَنْفًا
أَذْفَعُهَا بِالزَّبَاحِ كَيْ تَزْخُلُقَا
وذكر الطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «دَلَّكَتْ بِزَاحٍ، يعني: بِزَاحِ مَكَانًا»، قال: فإن كان هذا من تفسير ابن مسعود فهو أعلم، وإن كان من كلام رِأٍ فأهل الغريب أعلم بذلك.

ويُروى البيت الأول: (غَدُوَّةٍ حَتَّى هَلَّكَتْ بِزَاحٍ) بفتح الباء، على وزن قَطَامٍ وَخَزَامٍ، وهو اسم من أسماء الشمس.

و «عَسَقَ اللَّيْلُ»: اجتماعه وتكاثف ظلمته، قال الشاعر:

أَبَ هَذَا اللَّيْلِ إِذْ عَسَقَا
.....

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عَسَقَ اللَّيْلُ: بدؤه.

ونُصِبَ قوله تعالى: ﴿قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ بفعل مضمر، تقديره: واقرأ قرآن، ويصح أن يُنْصَبَ عطفاً على ﴿الصَّلَاةِ﴾، أي: وأقم قرآن الفجر، وعبر عن صلاة الصبح خاصة بالقرآن لأن القرآن هو عَظَمُهَا؛ إِذْ قَرَأَتْهَا طَوِيلَةً مَجْهُودًا بها، وَيَصِحُّ أَنْ يَنْصَبَ قَوْلُهُ:

﴿قُرْآنَ﴾ على الإغراء. وقوله: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُورًا﴾ معناه:

يشهده حفظة النهار وحفظة الليل من الملائكة حسبما ورد في الحديث المشهور من قوله عليه الصلاة والسلام: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في الصبح وصلاة العصر» الحديث بطوله من رواية أبي هريرة وغيره. وعلى القول بذلك مضى الجمهور.

وذكر الطبري حديثاً عن ابن عسكر، من طريق أبي الدرداء في قوله تعالى: «كَانَ مَشْهُودًا»، قال محمد بن سهل بن عسكر: (يشهده الله وملائكته)، وذكر في ذلك الحديث أن الله تبارك وتعالى ينزل في آخر الليل، ونحو هذا مما ليس بقوي.

وقوله تعالى: «وَمِنَ اللَّيْلِ»، «وَمِنَ» للتبويض، والتقدير: ووقتاً من الليل، أي: وأوّل وقتاً من الليل، والضمير في «يَوْمٍ» عائد على هذا المقدر، ويحتمل أن يعود على القرآن وإن كان لم يجز له ذكر مطلق، كما هو الضمير مطلق، لكن جرى مضافاً إلى الفجر.

و «تَهْجُدُ» معناه: اطرح الهجود عنك، والهجود: النوم، يقال: هَجَدَ يَهْجُدُ - بضم الجيم - هُجُوداً إذا نام، ومنه قول الشاعر:

أَلَا طَرَقَتْنا والرِّفَاقُ هُجُودُ
فَبَاتَتْ بِعَلَاتِ السَّوَالِ تَجُودُ
ومنه قول الحطية:

فَحَيَاكَ وَدُمَا هَذَاكَ لِفَتْحِيَّةٍ
وَحُوصٍ بِأَعْلَى ذِي طَوَالَةِ هُجْدٍ
وهذا الفعل جار مجرى: تحرّب وتحرّج وتأنّم وتحنّث، ومثله «نَظَلَّتْ نَفَسْكَوْنَ»، فمعناه: تَنَدُّمون،

أي تطرحون الفاكهة عن أنفسكم، وهي انبساط النفس وسرورها، يقال: رجلٌ فَكِهٌ إذا كان كثير السرور والضحك، فالمعنى: وَوَقْتُاً من الليل استهز به في صلاة وقراءة، وقال الأسود، وعلقمة، وعبد الرحمن بن الأسود: التَّهْجُدُ بعد نومة، وقال الحجاج بن عمرو: إنما التَّهْجُدُ بعد رقدة، وقال الحسن: التَّهْجُدُ ما كان بعد العشاء الآخرة.

وقوله تعالى: «نَافِلَةً لَّكَ»، قال ابن عباس وغيره: معناه: زيادة لك في الفرض، قالوا: وكان قيام الليل فرضاً على النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحتمل الآية أن يكون هذا على جهة الندب في الشئفل، ويكون الخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وأُمته، كخطابه في قوله تعالى: «أَتَمِرُكَ لَكُنْزُكَ أَكْثَرُ». وقال مجاهد: إنما هي نافلة للنبي ﷺ؛ لأنه مغفور له، والناس يحطون بمثل هذا خطاياهم، ويبيّن أن النبي ﷺ منذ عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر عام الحديبية، فإنما كانت نوافله واستغفاره فضائل من العمل، وقرباً أشرف من نوافل أُمته؛ لأن هذه إما أن تجيء بها فرائضهم، وإما أن تحط بها خطيئاتهم، وقد يتصور من لا ذنب له ينتقل، فيكون تنفله فضلاً، كنصراني يسلم وصبي يحتلم، وضعف الطبري قول مجاهد.

وقوله تعالى: «عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَنَامًا مَّخْمُودًا» عِدَّة من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ، وهو أمر

الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء حتى ينتهي إليه عليه الصلاة والسلام، والحديث بطوله في البخاري ومسلم فلذلك اختصرناه، ولأجل ذلك الاحتمال الذي له في مرضات جميع العالم مؤمنهم وكافرهم قال: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»، و«عَسَىٰ» من الله واجبة، و«مَنَامًا» نصب على الظرف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن غريب حديث الشفاعة اقتضابه المعنى، وذلك أن صدر الحديث يقتضي أن النبي ﷺ يُسْتَنْهَض للشفاعة في أن يُحَاسَب الناس، وينطلقون من الموقف، فيذهب لذلك، وينص بأثر ذلك على أنه شفع في إخراج المذنبين من النار، فمعناه الاقتضاب والاختصار؛ لأن الشفاعة في المذنبين لم تكن إلا بعد الحساب والزوال من الموقف ودخول قوم الجنة ودخول قوم النار، وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء، بل يشفعون وشفع العلماء، وذكر الطبري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وينبغي أن يُتَأَوَّلَ هذا على ما قلناه: لأمته وغيرها، أو يُقال: كل منهم مقام محمود. وقال النقاش: لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة في السبق إلى الجنة، وشفاعة في أهل الكباثر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمشهور أنهما شفاعتان فقط.

وحكى الطبري عن فرقة منها مجاهد أنها قالت: المقام المحمود هو أن الله عز وجل يُجْلِسَ محمداً - عليه الصلاة والسلام - معه على عرشه، وروت في ذلك حديثاً، وعُضِدَ الطبري جواز ذلك بِشَطْطٍ من القول، وهو لا يخرج إلا على تَلَطُّفٍ في المعنى، وفيه بُغْدٌ، ولا يُشْكِرُ مع ذلك أن يُزَوَّى، والعلم يتأوله. وقد ذكر النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: من أنكر جوازه على تأويله.

﴿٨٠﴾ - ﴿٨١﴾ تفسير قوله عز وجل: ظاهر هذه الآية والأحسن فيها أن تكون دعاءً في أن يُحَسِّنَ الله حالته في كل ما يتناول من الأمور، ويحاول من الأسفار والأعمال، وينتصر من تصرف المقادير في الموت والحياة، فهي على أتم عموم، ومعناها: رب أصلح لي وزدي في كل الأمور وصُدري، وذهب المفسرون إلى أنها في غرض مخصوص، ثم اختلفوا في تعيينه - فقال ابن عباس، والحسن، وقتادة: أراد: أدخلني المدينة وأخرجني من مكة، وتقدم في التأويل المتأخر في الموضوع، فإنه متقدم في القول لأن الإخراج من مكة هو المتقدم، اللهم إنَّ مكان الدخول والفرار هو الأهم. قال أبو صالح، ومجاهد: أدخلني في أمر تبليغ الشرع، وأخرجني منه بالإعداد التام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الإدخال بالموت

في القبر، والإخراج البعث. وما قدمت من العموم التام الذي يتناول هذا كله أصوب.

وقرأ الجمهور: ﴿مُدْخَلَ﴾ و﴿مُخْرَجَ﴾ بضم الميم، فهو جرى على: أدخلني وأخرجني. وقرأ أبو حية، وقتادة، وحמיד: ﴿مُدْخَلَ﴾ و﴿مُخْرَجَ﴾ بفتح الميم، فهو غير جار على: أدخلني، ولكن التقدير: «أدخلني فأدخل مدخل» لأنه إنما يجري على دخل، والصدق هنا صفة تقتضي رفع المذام واستيعاب المدح، كما تقول: «رجل صدق» أي: جامع للمحاسن.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَبِيرًا﴾، قال مجاهد وغيره: حُجَّةٌ، يريد: تنصرتني ببيانها على الكفار، وقال الحسن وقتادة: يريد: مَنَعَةً ورياسةً وسيفاً ينصر دين الله تعالى، فطلب رسول الله ﷺ ذلك بأمر الله إياه رغبةً في نصر الدين، فزوي أن الله تعالى وعده بذلك، ثم أنجز له في حياته وتَّمَّمه بعد وفاته.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ الآية. قال قتادة: ﴿الْحَقُّ﴾: القرآن، و﴿الْبَاطِلُ﴾: الشيطان، وقالت فرقة: الحق: الإيمان، والباطل: الكفر، وقال ابن جريج: الحق: الجهاد، والباطل: الشرك، وقيل غير ذلك، والصواب تعميم اللَّفْظِ بالغاية الممكنة، فيكون التعبير: جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه، وزهق الكفر بجميع ما انطوى فيه، و﴿الْبَاطِلُ﴾: كل ما لا ينال به غاية نافعة. وقوله سبحانه: ﴿كَانَ زَوْقُهُ﴾، ليست [كَانَ] إشارة إلى زمن

مضى، بل المعنى: كان وهو يكون، وهذا كقولك: كان الله عالماً قادراً، ونحو هذه.

وهذه الآية نزلت بمكة، ثم إن رسول الله ﷺ كان يستشهد بها يوم فتح مكة، وقت طعنه الأصنام، وسقوطها لضعفه إياها بمخصرة حسبما في السيرة لابن هشام وغيرها. وقرأ الجمهور: ﴿وَنُزِّلَ﴾ بالنون، وقرأ مجاهد: ﴿وَيُنْزِلُ﴾ بالياء خفيفة، ورواه المروزي عن حفص. وقوله تعالى: ﴿يَنْ أَلْقُرْآنَ﴾، يصح أن تكون ﴿يَنْ﴾ لابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس، كأنه قال: ونُزِّلَ ما فيه شفاء من القرآن، وأنكر بعض المتأولين أن تكون ﴿يَنْ﴾ للتبويض، لأنه تحفظ من أن يلزمه أن بعضه لا شفاء فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون ﴿يَنْ﴾ للتبويض بحسب أن إنزاله إنما هو مُبْعَضٌ، فكأنه قال: ونُزِّلَ من القرآن شيئاً شيئاً ما فيه كله شفاء. واستعارته الشفاء للقرآن هو بحسب إزالته الريب، وكشفه غطاء القلب لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى، المقررة لشرعه. ويحتمل أن يراد بالشفاء نفعه من الأمراض والرقي والتعويد ونحوه وكونه رحمة ظاهرة. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ بمعنى أنه عليهم عَمَى؛ إذ هم معرضون بحالة من لا يفهم ولا يلقن.

وقوله تعالى: ﴿وَرِثَآءًا أَمْتًا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ الآية. «الإنسان» في هذه

إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٥﴾ قُلْ لِّئِنِ أَجْنَعْتُ الْإِنْسَانَ وَلَئِنِ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِبَيِّنَةٍ هَذَا الْفَرْقَانِ لَأَيَأْتُونَ بِبَيِّنَةٍ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَنَّى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا أَكْثُورًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ بُنْيُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَسَىٰ فَتُنْجِرَ الْآلَافَ هَذَا نَفْخَتُهَا أَنْفُجِيرًا ﴿٨٨﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُحَّمَتْ غَالِيًا كَسُفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِهَةً وَالْمَلَائِكَةُ قِيلًا ﴿٨٩﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرَّيِّهِ أَوْ تُرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا يَقَرُّهُ قُلُوبُ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا مُبَشِّرًا لِّرُسُلِكَ ﴿٩٠﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿٩١﴾ قُلْ لَّوْكَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُّنْشِرُونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٢﴾ قُلْ كَفَىٰ بِإِلَهِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أَنَّهُ دَانَ عِبَادُهُ خَيْرٌ بِبَصِيرَةٍ ﴿٩٣﴾

٢٩١

الروح مما انفرد الله بعلمه، ولا يُطَّلَع عليه أحدًا من عباده. قال ابن مسعود: وقال بعضهم: لا تسألوه لئلا يأتي فيه بشيء تكرهونه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني - والله أعلم - من أنه لا يفسره فتقوى الحجة عليهم في نبوته، قال: فسألوه، فوقف رسول الله ﷺ مُتَوَكِّئًا على عسيب، فظننت أنه يوحى إليه، ثم تلا عليهم الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقيل: الآية مكية، والضمير لقريش، وذلك أنهم قالوا: نسأل عن محمد - عليه الصلاة والسلام - أهل الكتاب من اليهود فأرسلوا إليهم إلى المدينة الثَّغْرَ بن الحارث وعُقبه بن أبي مُعَيْط، فقال اليهود: جربوا بثلاث مسائل، سلوه عن أهل الكهف وعن

ثم قال عز وجل: قُلْ يَا مُحَمَّد: ﴿كُلُّ يَمَلٍّ عَلَى شَاكِرِيهِ﴾، أي: طريقته وبحسب نبيته ومذهبه الذي يشبهه. وهو شكل له، وهذه تدل دلالة على أن «الإنسان» أولاً لم يَرُزْ به العموم، أي أن الكفار بهذه الصفات، والمؤمنون بخلافها، وكلٌ منهم يعمل على ما يليق به، والرُّبُّ تعالى أعلم بالمهتدي. وقال مجاهد: ﴿عَلَى شَاكِرِيهِ﴾ معناه: على طبيعته، وقال أيضاً: معناه: على جذته، وقال ابن عباس رضي الله

عنهما: معناه: على ناحيته، وقال قتادة: معناه: على حدته وعلى ما ينوي، وقال ابن زيد: معناه: على دينه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأرجح هذه العبارات قول ابن عباس وكتادة. وقوله تعالى: ﴿فَرَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ توعد بين:

﴿٨٥﴾ - ﴿٨٨﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿تَسْتَوُونَ﴾ قيل: هو لليهود وأن الآية مدنية، وروي عن عبدالله بن مسعود أنه كان مع رسول الله ﷺ، فَمَرَّ على حرث بالمدينة - ويروى على خرب - وإذا فيه جماعة من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح فإن أجاب فيه عرفتم أنه ليس بنبي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك أنه كان عندهم في التوراة أن

الآية لا يُرَادُ به العموم، وإنما يراد به بعضه وهم الكفرة، وهذا كما تقول عند غضب: «لا خير في الأصدقاء» ولا أمانة في الناس، فأنت تعم مبالغة، ومرادك البعض، وهذا بحسب ذكر الظالمين والخسارة في الآية، قيل: فأتصل ذكر الكفرة، ويحتمل أن يكون «الإنسان» في هذه الآية عامًا للجنس، على معنى: إن هذا الخلق الدميم في سجيته، فالكافر يبالغ في الإعراض، والعاصي يأخذ بحظه منه. وقد قال رسول الله ﷺ في مؤمن: «فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ الله عنه». ومعنى [أَعْرَضَ] وَلَأَنَّا عَرَضْنَاهُ، أي: بَعْدَ، وهذه استعارة، وذلك أنه يفعل أفعال المُعْرِضِ الثاني في تركه الإيمان بالله وشكر نعمه عليه. وقرأ ابن عامر وحده: ﴿وَنَاءً﴾، ومعناه: نهض متباعدًا، هذا قول طائفة، وقالت أخرى: هو قلب الهمزة بعد الألف في (نأى) بعينه، وهي لغة كَرَأَى وَرَاءَ، ونحو هذه اللفظة قول الشاعر في وصف رام:

حَتَّى إِذَا مَا أَلْتَأَمْتُ مَفَاصِلُهُ
وَنَاءً فِي شَيْئِ الشَّمَالِ كَاهِلُهُ
أي: نهض مُتَوَرِّكًا على شماله.

والذي عندي أن نَاءً ونَأَى فعلان متباينان، و﴿وَنَاءً بِحَايَةٍ﴾ عبارة عن التَّحِيرِ، والاستبداد، و (نَاءً) عبارة عن البُعد والفراق.

ثم وصف الله تعالى الكفرة بأنهم إذا مَسَّهُمْ شَرٌّ من مرض أو مصيبة في مال أو غير ذلك يَسْتَوُوا من حيث لا يؤمنون بالله، ولا يرجون تصرف أقداره.

ذي القرنين وعن الروح، فإن فسر الثلاثة فهو كذاب، وإن سكت عن الروح فهو نبي، فسألته قريش عن الروح، فيروى أن النبي ﷺ قال لهم: «هَذَا أَخْبِرْكُمْ بِهِ»، ولم يقل: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، فاستمسك الرحي عنه خمسة عشر يوماً معاتباً على وعده لهم دون استثناء، ثم نزلت هذه الآية.

واختلف الناس في الروح المستول عنه، أي روح هو؟ فقالت فرقة هي الجمهور: وقع السؤال عن الأرواح التي في الأشخاص الحيوانية، ما هي؟ فالروح اسم جنس على هذا، وهذا هو الصواب، وهو المشكل الذي لا تفسير له. وقال قتادة: الروح المستول عنه جبريل عليه السلام، قال: وكان ابن عباس يكتمه. وقالت فرقة: هو عيسى ابن مريم عليهما السلام، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: مَلَكَ له سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله لسانه بكل تلك اللغات، فيخلق من كل تسبيحة مَلَكَ يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة، ذكره الطبري. وما أظن القول يصح عن علي رضي الله عنه. وقالت فرقة: الروح القرآن، وهذه كلها أقوال مفسرة، والأول أظهرها وأصوبها.

وقوله: «مِنْ أَمْرِ رَبِّي» يحتمل تأويلين: أحدهما أن يكون «الأمْر» اسم جنس للأُمُور، أي: الروح من جملة أمور الله التي استأثر بعلمها، فهي إضافة خلق إلى خالق، والثاني

أن يكون مصدراً، من أمر يأمر، أي: الروح مِمَّا أَمَرَ الله تعالى أمراً بالكُنْ فكان. وقرأ ابن مسعود، والأعمش: «وَمَا أَوْثُوا»، ورواها ابن مسعود عن النبي ﷺ، وقرأ الجمهور: «وَمَا أَوْتَيْدُ».

واختلف فيمن خاطب بذلك - فقالت فرقة: السائلون فقط، ترجم الطبري بذلك، ثم أدخل تحت الترجمة عن قتادة أنهم اليهود. وقالت فرقة: المراد اليهود بجملتهم، وعلى هذا في قراءة ابن مسعود. وقالت فرقة: العالم كله، وهذا هو الصحيح؛ لأن قول الله تعالى له: «قُلِ الرُّوحُ» إنما هو أمر بالقول لجميع العالم؛ إذ كذلك هي أقواله كلها، وعلى ذلك تمت الآية من مخاطبة الكل. ويحتمل أيضاً أن تكون مخاطبة من الله تعالى للنبي ﷺ ولجميع الناس. ويتصف ما عند جميع الناس من العلم بالقِلة بإضافته إلى علم الله عز وجل الذي هو بهذه الأمور التي عندنا من علمها طرف يسير جداً، كما قال الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام: «ما نقص علمي وعلمك وعلم الخلائق من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من البحر»، وأراد الخضر علم الله بهذه الموجودات التي عند البشر من علمها طرف يسير جداً نُسِبَ إلى ما يخفى عنهم، نُسِبَ النقطة إلى البحر، وأما علم الله تبارك وتعالى على الإطلاق فغير مُتَنَاهٍ، ويحتمل أن يكون التجوز في قول الخضر عليه السلام: «كما نقص هذا

العصفور»، أي: إننا لا ينقص علمنا شيئاً من علم الله تعالى على الإطلاق، ثم مثل بقرعة العصفور في عدم النقص؛ إذ نقصه غير محسوس فكانه معدوم، فهذا احتمال، ولكن فيه نظر، وقد قالت اليهود لرسول الله ﷺ: كيف لم تؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فعارضهم رسول الله ﷺ بعلم الله فغلبوا، وقد نص رسول الله ﷺ في بعض الأحاديث بقوله: «كُلُّهُ»، يعني أن المراد بـ «أُوتِيتُمْ» جميع العالم، وذلك أن يهود قالت له: أَلَمْ تُخْنِ عَيْنُ أَمِ قَوْمِكَ؟ فقال: «كُلُّهُ»، وفي هذا المعنى نزلت: «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَرٌ»، حكى ذلك الطبري رحمه الله.

وقوله تعالى: «وَلَكِنْ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالْبَاقِيَاتِ وَاجِبَاتٍ إِلَيْنَا» الآية، آية فيها شدة على النبي ﷺ، وهي عتاب على قوله: «هَذَا أَغْلِبُكُمْ»، فأمر أن يقول: «الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي»، فيُدْعَى بالتسليم لله في أنه يُعْلِمُ بما شاء، ويُؤمَسِكُ عن عباده ما شاء، ثم قيل له: وَمَا أُوتِيتُمْ يَا مُحَمَّدُ وَجَمِيعَ الْخَلَائِقِ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً، فإله تعالى يُعْلِمُ من عِلْمِهِ بما شاء، ويدْعُ ما شاء، ولئن شاء لذهب بالوحي الذي أتاك، ثم لا ناصر لك منه، فليس بعظيم ألا تجيء بتفسير في الروح الذي أردت تفسيره للناس ووعدتهم بذلك. وروى ابن مسعود أنه سخر ريح حمراء من قبيل الشام فتزيل القرآن من المصاحف ومن

الصدور، وتذهب به، ثم يتلو هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أراد ابن مسعود بتلاوة الآية أن يُبدي أن الأمر جائز الوقوع ليظهر مصداق خبره من كتاب الله عز وجل. و«الوكيل»: القائم بالأمر في الانتصار أو المخاصمة ونحو ذلك من وجوه النفع.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ استثناء منقطع، أي: لكن رحمة من ربك يمسك ذلك عليك، وهذا الاستثناء المنقطع يُخَصِّصُ تخصيصاً مآ، وليس كالم متصل؛ لأن المتصل يُخَصِّصُ من الجنس أو الجملة، والمنقطع يُخَصِّصُ أجنبياً من ذلك، ولا ينكر وقوع المنقطع في القرآن إلا أعجمي، وقد حكي ذلك عن ابن خوزير مقداد. ثم عدّد عليه عز وجل كِبَرُ فضله في اختصاصه بالنبوة، وحمايته من المشركين، إلى غير ذلك مما لا يُحصى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّيَ أَجْتَمَعِيَ آلِإِنشَ وَاللَّيْنِ﴾ الآية.

سبب هذه الآية أن جماعة من قريش قالت لرسول الله ﷺ: يا محمد، جئنا بأية غريبة غير هذا القرآن فإننا نقدر نحن على المجيء بمثل هذا، فنزلت هذه الآية المصروفة بالتمجيز، المعلقة بأن جميع الخلائق إنساً وجناً لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه.

والعجز عن معارضة القرآن إنما وقع في النظم والرصف لمعانيه، وعلة ذلك الإحاطة التي لا يتصف بها إلا الله تعالى، والبشر مقصّر

ضرورة بالجهل والنسيان والغفلة وأنواع النقص، فإذا نظم كلمة خفي عنه - لِلْعِلَلِ التي ذكرنا - أليق الكلام بها في المعنى، وقد ذكرت هذه المسألة في صدر هذا الديوان.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ في موضع رفع، و﴿لَا﴾ مُلتَقِيَةٌ قَسَمًا، واللام في قوله تعالى: ﴿لَيَنْ﴾ مؤذنة غير لازمة، قد تحذف أحياناً، وقد تجيء هذه اللام مؤكدة فقط ويجيء الفعل المنفي مجزوماً، وهذا اعتماد على الشرط، ومنه قول الأعشى:

لَيْسَ مُبَيَّنَّ بِنَا عَنْ غَيْبٍ مَغْرُوكَةٍ
لَا تُلْفِتُنَا عَنْ دِمَائِ الْقَوْمِ نَسْتَفِلُ
و «الظهير»: المعين، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَلَنْ تَنظُرَنَّا عَلَيْهِ﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقهمت العرب بخلوص فهمها في مِيزِ الكلام ودزيتها به ما لا نفهمه نحن ولا كل من خالطته حضارة، ففهموا العجز عنه ضرورة ومُشاهدة، وَعَلِمَهُ النَّاسُ بعدهم استدلالاً ونظراً، ولكل حصل علم قطعي لكن ليس في مرتبة واحدة، وهذا كما علمت الصحابة شَرَعَ النبي عليه الصلاة والسلام وأعماله مشاهدة عِلْم ضرورة، وعلمنا نحن المتواتر من ذلك بنقل الثواتر، فحصل للجميع القَطْعُ، لكن في مرتبتين، وفهم إعجاز القرآن أرباب الفصاحة الذين لهم غرائب في مِيزِ الكلام. ألا ترى إلى فهم الفرزدق شعر جرير في شعر ذي الرُّمَّة في قوله:

يَعُدُّ النَّاسِيبُونَ إِلَى تَمِيمٍ
.....

الآيات كلها، وألا ترى قصة جرير

في توارده مع الفرزدق في قول الفرزدق:

عَلَامٌ تَلَفَّتَيْنِ

وفي قوله:

تَلَفَّتْ أَنَّهَا تَحْتَ ابْنِ قَيْنٍ

وألا ترى قول الأعرابي: «عز فحكم فقطع؟» وألا ترى إلى الاستدلال الآخر على البعث بقوله تعالى: ﴿حَقَّ زَنَمُ الْقَافِرِ﴾، فقال: إن الزيارة تقتضي الانصراف. ومنه علم بشار بقول أبي عمرو بن العلاء في شعر الأعشى:

وَأَتَكَّرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكَّرْتُ

ومنه قول الأعرابي للأصمعي: مَنْ أَخْرَجَ الْكَرِيمَ إِلَى أَنْ يَقْسِمَ؟ ومن فهمهم أنهم ببدايتهم يلقون بكلمة منشورة تفضل المُتَفَحِّج من الشعر، وأمثلة ذلك محفوظة، ومن ذلك أجوبتهم المُسَكَّتة، إلى غير ذلك من براعتهم في الفصاحة وكونهم فيها النهاية، كما كان السحر في زمن موسى عليه السلام، والطب في زمن عيسى عليه السلام، فهم مع هذه الأفهام أقرؤوا بالعجز، ولجأ المُخَادُّ منهم إلى السيف، ورضي بالقتل والسبأ وكشف الحُرَم، وهو كان يجد المندوحة عن ذلك بالمعارضة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك التحدي بالعشر السور، والتحدي بالسورة، إنما وقع كله على حد واحد في النظم خاصة، وقيد العشر بالافتراء لأنهم قالوا: إن

القرآن مفترى، فدعاهم بعقب ذلك إلى الإتيان بعشر سُورٍ مفتريات، ولم يذكر الافتراء في السُورة لأنهم لم يجز عنهم ذكر ذلك قَبْلُ، بل قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾، على أنه قد جاء ذكر السُورة مع ذكرهم الافتراء في سورة هود، وقد اختلف الناس في هذا الموضع - فقيل: دُعُوا إلى السورة المماثلة في النظم والغيوب وغير ذلك من الأوصاف، وكان ذلك من تكليف ما لا يطاق، فلما عسر عليهم خُفِّفَ بالدعوة إلى المفتريات، وقيل غير هذا مما ينحل عند تحصيله.

٨٩ - ٩٢ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تنبيه على فضل الله تعالى في القرآن على العالم، وتوبيخ للكفار منهم على قبيح فعلهم. وتضريف القول هو ترديد البيان عن المعنى. وقرأ الجمهور: ﴿صَرَفْنَا﴾ بتشديد الراء، وقرأ الحسن: ﴿صَرَفْنَا﴾ بفتح الراء خفيفة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يجوز أن تكون ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، ويكون المفعول بـ ﴿صَرَفْنَا﴾ مقدراً، تقديره: ولقد صَرَفْنَا في هذا القرآن التنبيه والعبر من كل مثل ضربناه، ويجوز أن تكون مؤكدة زائدة، والتقدير: ولقد صَرَفْنَا كُلَّ مَثَلٍ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَعِزُّوهُ مِنَ الْفِتَنِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْنَا﴾ عبارة عن تكسب الكفار الكفر، وإعراضهم عن الإيمان، وفي العبارة بـ [أبى] تغليظ، والكفر بالخلق والاختراع هو من

فعل الله تعالى، وبالكسب والدُّوب هو من الإنسان. و﴿كَفَرُوا﴾ مصدر كالخروج.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ الآية. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿حَتَّىٰ نُفَجِّرَ لَنَا﴾، وقرأ عاصم، وحمة، والكسائي: ﴿حَتَّىٰ نَفْجِرَ﴾ بفتح التاء وضم الجيم، وفي القرآن ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾، وانْفَجَرَ مطاوع فَجَرَ، فهذا مما يقوي القراءة الثانية، وأما الأولى فتقتضي المبالغة في التفجير. والينبوع: الماء النابع، وهي صفة مبالغة إنما تقع للماء الكثير.

وطلبت قريش هذا من رسول الله ﷺ بمكة، وإياها عنوا بـ ﴿الْأَرْضِينَ﴾، وإنما يراد بإطلاق لفظة الأرض هنا الأرض التي يكون فيها المعنى المتكلم فيه، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفِقُوا مِنْ الْأَرْضِينَ﴾، فإنما يراد: من أرض تصرفهم وقطعهم السبل ومعاشهم، وكذلك أيضاً اقتراحهم بالجنة إنما هو بمكة لامتناع ذلك فيها، وإلا ففي سائر البلاد كان ذلك يمكنه، وإنما طالبوه بأمر إلهي في ذلك الموضع الجذب. وقرأ الجمهور: ﴿جَنَّةٍ﴾ وقرئ: ﴿حبة﴾، ذكره المهدوي. وقوله تعالى: ﴿فَنَفْجِرُ﴾ تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية، كقوله سبحانه: ﴿وَعَلَقَتِ الْآيُوبَ﴾، و﴿جَلَّلَهَا﴾ ظرف، ومعناه: أثناءها وفي داخلها.

وروي في قول هذه المقالة لرسول الله ﷺ حديث طويل، مقتضاه أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وعبد الله بن أبي أمية، والنضر بن

الحارث، وغيرهم من مشيخة قريش وساداتها اجتمعوا فعرضوا عليه أن يُملِّكوه - إن أراد - المُلْك، ويجمعوا له كثيراً من المال إن أراد الغنى، أو يُطِّبُوهُ إن كان به داء، ونحو هذا من الأقاويل، فدعاهم رسول الله ﷺ عند ذلك إلى الله، وقال: إنما جئتكم من عند الله بأمر فيه صلاح دينكم ودنياكم، فإن سمعتم وأطعتم فحسن، وإلا صبرت لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم بما شاء، فقالوا له حينئذ: فإن كان ما ترعمه حقاً فَجَّرْ يَنْبوعاً ونؤمن لك، ولتكن لك جنة، إلى غير ذلك مما كلفوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «هذا كله إلى الله، ولا يلزميني اقتراح هذا ولا غيره، وإنما أنا مستسلم لأمر الله تعالى».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا هو معنى الحديث، وفي الألفاظ اختلاف وروايات متشعبة يطول سَوِّقُ جميعها، فاختصرت بذلك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ﴾ الآية. قرأ الجمهور: ﴿أَوْ تُسْقِطَ﴾ بضم التاء وضم السين، وقرأ مجاهد: ﴿أَوْ تُسْقِطُ السَّمَاءُ﴾ برفع السَّمَاءِ وإسناد الفعل إليها، وقوله: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ إشارة إلى ما تلا عليهم قبل ذلك في قوله عز وجل: ﴿إِنْ تَأْتِيَنَا خَيْفٌ بِهِمْ أَوْ نَسُفَ عَلَيْهِمْ كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمة، والكسائي: ﴿كَيْفًا﴾ بسكون السين، إلا في الرُّوم فإنهم حرَّكوها، ومعناها: قطعاً واحداً، قال مجاهد: السماء جميعاً، وتقول العرب:

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبِهِدْهُهُمُ الْمَهْدَى وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ يَهْدِيَهُمْ أُولَئِكَ
 مِنْ دُونِهِ، وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وَجْهِهِمْ عَمَّا وَكَّمَا
 وَصَّامًا وَأُولَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبِثَ زَنْدُهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾
 ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَأَكَاغِظُنَا
 وَفِتْنَانَا؟ أَلَا لَمُبِعُونُ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
 وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾
 قُلْ لَوِ اتَّخَذَ الْمُتَكِبُونَ خُرَافِينَ رَحْمَةً مِنِّي إِذَا لَأَمْسَكُنَّكُمْ خَشْيَةَ
 الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَفُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ
 آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَتَلَّى بِسِرِّهِ إِسْرَافًا إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
 إِنِّي لَا أَظُنُّكَ بِمُسْرَوٍّ مُسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ
 هَذِهِ إِلَّا بِأَرْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافٍ وَإِنِّي لَا أَظُنُّكَ
 بِفِرْعَوْنٍ مُتَّبِعٍ ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَ بِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ
 فَأَعْرَضَهُ وَمِنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَافِيلَ
 اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جُنَّا بِكُمْ لُعِينًا ﴿١٠٤﴾

وَيُزَوَّى أَنْ قَائِلَ هَذِهِ
 المقالة هو عبدالله بن
 أبي أمية، فإنه قال
 لرسول الله ﷺ: إنا لا
 نؤمن لك حتى تأتينا
 بكتاب - أراد هنا كتابه -
 فيه: من الله عز وجل إلى
 عبدالله بن أبي أمية.
 وزوي أن جماعتهم طلبت
 هذا النحو منه، فأمره الله
 تعالى أن يقول: ﴿سُبْحَانَ
 رَبِّي﴾، أي: تنزيهاً له من
 الإتيان إليكم مع الملائكة
 قبلاً، ومن أن يخاطبكم
 بكتاب كما أردتم، ومن
 أن أشرح عليه هذه
 الأشياء، وهل أنا إلا بشر

«كَسَفْتُ الثُّوبَ» ونحوه: قطعته،
 فالكسف - بفتح السين - المصدر،
 والكسف: الشيء المقطوع، قال
 الزجاج: المعنى: أو تُسقط السماء
 علينا طبقاً، واشتقاقه من: كَسَفْتُ
 الشيء إذا غَطَيْتُهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 وليس بمعروف في دواوين اللغة
 (كَسَفَ) بمعنى (غَطَى)، وإنما هو
 بمعنى (قَطَعَ)، وكان كسوف الشمس
 والقمر قطع منهما، وقرأ نافع،
 وعاصم - في رواية أبي بكر -
 ﴿كَسَفًا﴾ بفتح السين، أي: قطعاً،
 جمع (كِسْفَةٌ).

وقوله: ﴿فَيَلَا﴾ معناه: مقابلةً
 وعياناً، وقيل: معناه: ضامناً وزعيماً
 بتصديقك، ومنه القبالة، وهي
 الضمان، والقبيل: المُتَقَبِّلُ الضامن،
 وقيل: معناه: نوعاً وجنساً لا نظير له
 عندنا. وقرأ الأعرج: ﴿قَبِيلًا﴾ وهو
 بمعنى المقابلة.

﴿٩٣﴾ - ﴿٩٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال المفسرون: «الزُّخْرُفُ»: الذهب
 المذهب في هذا الموضع،
 والزخرف: ما تُزَيَّنُ به، كان بذهب
 أو غيره، ومنه: ﴿حَقٌّ إِلَّا لُكُذِّتِ
 الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾، وفي قراءة عبدالله بن
 مسعود: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ
 ذَهَبٍ﴾. وقوله: ﴿فِي السَّكَاةِ﴾
 يريد: في الهواء علواً، والعرب
 تسمي الهواء علواً سماءً، لأنه في
 حيز السمو، ويحتمل أن يريد السماء
 المعروفة، وهو الظاهر؛ لأنه أعلمهم
 أن إله الخلق فيها، وأنه يأتيه خبرها.
 و﴿تَرَفَّ﴾ معناه: تصعد، والرؤي: الصعود.

لنفرت طبائعهم من رؤيته، ولم
 تحتمله أبصارهم، ولا تجلّدت له
 قلوبهم، وإنما الله أجرى أحوالهم
 على معتادها.

﴿٩٦﴾ - ﴿٩٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

زوي أن الملاً من قريش قالوا
 لرسول الله ﷺ: المقالات التي تقدم
 ذكرها، من عرض المُلْك عليه
 والغنى وغير ذلك، وقالوا له في آخر
 قولهم: فَلْتَجِيءَ مَعَكَ طَائِفَةٌ مِنْ
 الْمَلَائِكَةِ تشهد لك بصديقك في
 نبوتك. قال المهدي: زوي أنهم
 قالوا له: فمن يشهد لك؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 ومعنى أقوالهم إنما هو طلب شهادة
 دون أن يذكروها، ففي ذلك نزلت
 هذه الآية، أي: الله يشهد بيني
 وبينكم، الذي له الخبر والبصر
 بجميعنا، صادقتنا وكاذبتنا. ثم ردّ

منكم أرسلت إليكم بالشرعة، فإنما
 عليّ التبليغ فقط. وقرأ ابن كثير،
 وابن عامر: ﴿قال سبعان ربي﴾ على
 معنى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه
 سبّح عند قولهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَسَخَ النَّاسُ أَنْ
 يُؤْمَرُوا﴾. هذه الآية على معنى
 التوبيخ والتلّيف من النبي ﷺ، كأنه
 يقول متعجباً منهم: ما شاء الله كان،
 ما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم
 الهدى إلا هذه العلة النزرة
 والاستبعاد الذي لا يستند إلى حجة،
 وبعثة البشّر رسلًا غير بدع ولا
 غريب، فبها يقع الإفهام والتكمن من
 النظر، كما لو كان في الأرض
 ملائكة يسكنونها ﴿مُطَمِّينَ﴾ أي:
 وادعين فيها مقيمين لكان الرسول
 إليهم من الملائكة، ليَقَعَ الإفهام،
 وأما البشّر فلو بُعِثَ إليهم مَلَكٌ

الأمر إلى خلق الله واختراعه الهدى والضلال في قلوب البشر، أي: ليس بيدي من أمركم أكثر من التبليغ، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ وعيد.

ثم أخبر تعالى أنهم يحشرون على الوجوه غنياً وبكماً وضماً، وهذا قد اختلف فيه - فقل: هي استعارات، إما لأنهم من الحيرة والهَمُّ والذهول يشبهون أصحاب هذه الصفات، وإما من حيث لا يرون ما يسرهم، ولا يسمعون، ولا ينطقون بحجة. وقيل: هي حقيقة كلها، وذلك عند قيامهم من قبورهم، ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم وسمعهم ونطقهم، فعند رد ذلك إليهم يرون النار، ويسمعون زفيرها، ويتكلمون بكل ما حكى عنهم في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقال للمنصرف عن أمر خائباً مهموماً: انصرف على وجهه، ويقال للمبغض: كأنما يمشي على وجهه، ومن قال ذلك في الآية حقيقة قال: أقدرهم الله تعالى على الثقله على الوجوه كما أقدرهم في الدنيا على الثقله على الأقدام، وفي هذا المعنى حديث، قيل: يا رسول الله، كيف يمشي الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه في الدنيا على رجلين قادر أن يمشيه في الآخرة على وجهه؟» قال قتادة: بلى وعزة ربنا.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَزَعَتْ أَيْ: كلما فرغت من إحراقهم، فيسكن اللهيب القائم عليهم قدر ما

يعادون ثم يثور، فلك زيادة السعير، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالزيادة في خزيهم، وأما جهنم فعلى حالها من الشدة لا يصيبها فتور. و«خَبَّتِ النَّارُ» معناه: سكن اللهب والجمر على حاله، و«خَمَدَتْ» معناه: سكن الجمر وضعف، و«هَمَدَتْ» معناه: طفيت جملة، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

لِمَنْ نَارٌ قُبِيلُ الصُّبْحِ
حِ عِنْدَ الْبَيْتِ مَا تَخْبُو
إِذَا مَا أَخْمَدَتْ يُلْقَى
عَلَيْهَا الْمَثَدَلُ الرُّطْبُ؟
ومنه قول علي بن زيد:

وَسَطُهُ كَالْبَرَاخِ أَوْ سُرْجِ الْمَجْدِ
مَذَلْ حِينًا يَخْبُو وَحِينًا يُنِيرُ
ومنه قول القطامي:

.....
فَيَخْبُو سَاعَةً وَيَهْبُ سَاعَةً
قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ﴾، الآية إشارة إلى الوعيد المتقدم بجهنم. وقوله: ﴿يَكَايُنَا﴾ يعُمُّ الدلائل والحجج التي جاء بها محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويعُمُّ آيات القرآن الكريم وما تضمن من خبر وأمر ونهي. ثم عظم عليهم أمر إنكار البعث، وخضع بالذكر مع كونه في عموم الكفر بآيات القرآن الكريم، ووجه تخصيصه التعظيم له، والتنبيه على خطارة الكفر في إنكاره، وقد تقدم اختلاف القراء في الاستفهامين في غير هذا الموضع.

و «الرُّفَاتُ»: بقية الشيء التي

قد أصارها البلى إلى حالة التراب، و«الْبُعْثُ»: تحريك الشيء الساكن، وهذا الاستفهام منهم على جهة الإنكار والاستبعاد للمحال بزعيمهم.

﴿٩٩﴾ - ﴿١٠١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية احتجاج عليهم فيما استبعدوه من البعث، وذلك أنهم قرروا على خلق الله واختراعه لهذه الجملة التي البشر جزء منها، فهم لا ينكرون ذلك، فكيف يصح لهم أن يقرروا بخلقه للكل وإخراجه من خمول العدم وينكرون إعادته للبعث؟ فحصل الأمر في حيز الجواز. وأخير الصادق الذي قامت دلائل معجزاته بوقوع ذلك الجائز. والرؤية في هذه الآية رؤية القلب، و«الأجل» ما هنا يحتمل أن يريد القيامة، ويحتمل أن يريد أجل الموت، والأجل - على هذا التأويل - اسم جنس؛ لأنه وضعه موضع الأجال. ومقصد هذا الكلام بيان قدرة الله عز وجل وملكه لخلقه، ويتقدير ذلك يقوى جواز بعثه لهم حين يشاء لا إله إلا هو. وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ عبارة عن تكسبهم وجنوحهم، وقد مضى تفسير هذه الآية آنفاً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الآية. حكم (لَوْ) أن يليها الفعل، إما مظهرأ وإما مضمراً يفسره الظاهر بعد ذلك، فالتقدير هنا: قل لو تملكون أنتم تملكون خزائن، ف «أَنْتُمْ» رفع على تبع الضمير. و«الرُّخْمَةُ» في هذه الآية: المال والنعم التي تصرف في الأرزاق، ومن هذا سميت

رحمة. و«الْإِنْفَاقُ» المعروف: إذهابُ المال. وهو مؤدٌ إلى الفقر، فكأن المعنى: خشية عاقبة الإنفاق. وقال بعض اللغويين: «أنفق الرجل» معناه: افتقر.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ معناه: مُنْسَكًا، يريد أن في طبعه ومنتهى نظره أن الأشياء تتناهى وتفنى، فهو لو مَلَكَ خِزَانِ رحمة الله تعالى لَأَمْسَكَ خَشِيَةَ الفقر، وكذلك يظن أن قدرة الله تبارك وتعالى تقف دون البعث، والأمر ليس كذلك، بل قدرته لا تتناهى، فهو يخترع من الخلق ما يشاء، ويختزن من الرحمة الأرزاق، فلا يخاف نفاذ خِزَانِ رحمته، وبهذا النظر تلتبس هذه الآية بما قبلها، والله وليُّ التوفيق برحمته، ومن الإقترار قول أبي ذؤاد:

لَا أَعْدُ الْإِفْتَارَ عُذْمًا وَلَكِنْ
فَقَدْ مَنْ قَدَّرَ زَيْتُهُ الْإِعْدَامَ
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ
شِعْرَ مَائِكَةِ بَيِّنَاتٍ﴾. اتفق المتأولون
والرواة أن الآيات الخمس التي في
سورة الأعراف هي من بين هذه
الشُّعْر، وهي: الطوفان، والجراد،
والقُمَّل، والضفادع، والدم.
واختلفوا في الأربع - فقال ابن
عباس رضي الله عنهما: هي يَدُهُ،
ولسانه حين انحَلَّتْ عَقْدَتُهُ،
وعصاه، والبحر. وقال محمد بن
كعب القرظي: هي: البحر،
والعصا، والطَّمْسَةُ، والحَجَر،
وقال: سألتني عن ذلك عمر بن
عبد العزيز رضي الله عنه فأخبرته،

فقال: وما الطَّمْسَةُ؟ فقلت: دعا
موسى وأُتِيَ هَارُونَ عليهما السلام،
فطمس الله أموالهم ورَدَّهما حِجَارَةً.
فقال عمر: وهل يكون الفقه إلا
هكذا؟ ثم دعا بخريطة فيها غرائب
كانت لعبد العزيز بن مروان جمعها
بمصر، فاستخرج منها الحوزة
والبيضة والعدسة، وهي كلها أحجار
كانت من بقايا أموال فرعون، وقال
الضحَّاك: هي إلقاء العصا مَرَّتَيْنِ،
واليد وعقدة لسانه. وقال عِكْرَمَةُ،
ومطر السُّوِّاق، والشعبي: هي
العصا، واليد، والسنون، ونقص
الثمرات. وقال الحسن: هي العصا
في كونها ثعبانًا، واليد، والسنون،
وتلفف العصا ما يأفكون. وقال ابن
عباس رضي الله عنهما: هي السنون
في بواديهم، ونقص الثمرات في
قراهم، واليد، والعصا. وروى
مصرف عن مالك أنها العصا،
واليد، والجبل إذ نتق، والبحر.
وروى ابن وهب عنه مكان البحر
الحَجَر، والذي يلزم من الآية
أن الله تعالى خصَّ من آيات موسى
- إذ هي كثيرة تنيف على أربع
وعشرين - تسعًا بالذكر، ووصفها
بالبیان ولم يعينها، واختلف العلماء
في تعيينها بحسب اجتهادهم في
بيانها، أو رواياتهم التوقيفية في
ذلك. وقالت فرقة: آيات موسى
عليه السلام إنما أريد بها آيات
التوراة التي هي أوامر ونواه، وروى
في هذا صفوان بن عَسَّال أن يهوديًا
من يهود المدينة قال لآخر: سِرْ بنا
إلى هذا النبي نسأله عن آيات موسى
- عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -،

فقال الآخر: لا تقل إنه نبي، فإنه
لو سمعك صار له أربعة أعين،
قال: فساروا إلى رسول الله ﷺ:
فسألوه، فقال: «هي ألا تشركوا بالله
شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا
تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا
بالحق، ولا تمشوا ببيري» إلى
سلطان ليقته، ولا تسخروا، ولا
تأكلوا الربا، ولا تغدوا المحصنة،
ولا تفرؤوا يوم الزحف، وعليكم
خاصة يهود: ولا تعدوا في
السبت».

وقرأ الجمهور: ﴿فَاسْأَلْ بَنِي
إِسْرَائِيلَ﴾، وروى عن الكسائي:
﴿فَسَلْ﴾ على لغة من قال: «سَأَلَ
يَسْأَلُ»، وهذا كله على معنى الأمر
لمحمد ﷺ، أي: اسأل معاصريك
عَمَّا أَعْلَمْنَاكَ بِهِ مِنْ غَيْبِ الْقِصَّةِ، ثم
قال: ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾، يريد: آباءهم،
وأدخلهم في الضمير إذ هم منهم،
ويحتمل أن يريد: فاسأل بني
إسرائيل الأولين الذين جاءهم موسى
عليه السلام، وتكون إحالته إياه على
سؤالهم بطلب أخبارهم والنظر في
أحوالهم وما في كتبهم، نحو قوله
تعالى: ﴿وَسَتَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ
رُسُلِنَا﴾، وهذا كما تقول لمن تعظه:
سَلِ الْأُمَمَ الْخَالِيَةَ هل بقي منها
مخلد؟ ونحو هذا مما يجعل النظر
فيه مكان السؤال. قال الحسن:
سؤالك إياهم نظرك في القرآن. وقرأ
ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَسَأَلَ
بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي: سأل موسى بني
إسرائيل، أي طلبهم لينجيهم من
العذاب.

وقوله تعالى: ﴿مَسْحُورًا﴾، اختلف

فيه المتأولون - فقالت فرقة: هو مفعول على بابه، أي: إنك قد سحرت فكلامك مختل وما تأتي به غير مستقيم. وقال الطبري: هو مفعول بمعنى فاعل، كما قال تعالى: ﴿جَبَابًا مَسْتَوِرًا﴾، وكما قالوا: مَشْتَوٍ وَمَيْمُون، وإنما هو: شائِم ويامن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا يخرج إلا على النسب، أي: ذا سِخْرِ مَلَكْتَهُ وَعِلْمَتَهُ، فأنت تأتي بهذه الغرائب لذلك. وهذه مخاطبة تَنْقِص، فيستقيم أن يكون ﴿مَسْتَوِرًا﴾ مفعولاً على ظاهره، وعلى أن يكون بمعنى: ساحر يعارضنا، (أَمَا) ما حُكِيَ عنهم أنهم قالوا له - على جهة المدح -: ﴿يَبَاءُ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، فلما أن يكون القائلون هنالك ليس فيهم فرعون، وإما أن يكون فيهم لكنه تنقل من تَنْقِصَ إلى تعظيمه. وفي هذا نظر.

﴿١٠٢﴾ - ﴿١٠٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وغيره، أنه قرأ: ﴿عَلِمْتُ﴾ بناءً المتكلم مضمومة، وقال: «وما علم عددُ الله قط، وإنما علم موسى».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتتقوى هذه القراءة لمن تأول ﴿مَسْتَوِرًا﴾ على بابه، فلما رماه فرعون بأنه قد سحر فَمَسَدَ نظره وعقله وكلامه، ردَّ هو عليه بأنه يعلم آيات الله تعالى، وأنه ليس بمسحور، بل مُحَرَّر لما يأتي به.

وهي قراءة الكسائي. وقرأ الجمهور: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ بناءً المخاطب مفتوحة، فكأن موسى عليه السلام رماه بأنه يكفر عناداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن قال بوقوع الكفر عناداً فَلَهُ تعلق بهذه الآية، وجعلها كقوله عز وجل: ﴿وَمَعَدُوا يَا وَيْلَتَنَّهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، وقد حكى الطبري ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ونحا إليه الزجاج وهي، بعد معرصة للاحتمال على أن يكون قول موسى عليه السلام إبلاغاً على فرعون في التوبيخ، أي: أنت بحال من يعلم هذا، وهي من الوضوح بحيث تعلمها، ولم يكن ذلك على جهة الخبر عن علم فرعون.

وقوله تعالى: ﴿بَصَائِرُ﴾ جمع بصيرة، وهي الطريقة، أي طرائق يهتدى بها، وكذلك غلب على البصيرة أنها تستعمل في طريقة النفس في نظرها واعتقادها، ونصب ﴿بَصَائِرُ﴾ على الحال.

والمَثْبُورُ: المُهْلَك، قاله مجاهد، وقال ابن عباس، والضحاك: هو المغلوب، وقال ابن زيد: هو المخبول، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسره بالملعون. وقال بعض العلماء: كان موسى عليه السلام في أول أمره يجزع، ويؤمر بالقول اللين، ويطلب الوزير، فلما تقوّت نفسه بقوى النبوة وتجلّد قابل فرعون بأكثر مما أمر به، بحسب اجتهاده الجائز له. قال ابن زيد: اجترأ موسى أن يقول له فوق ما

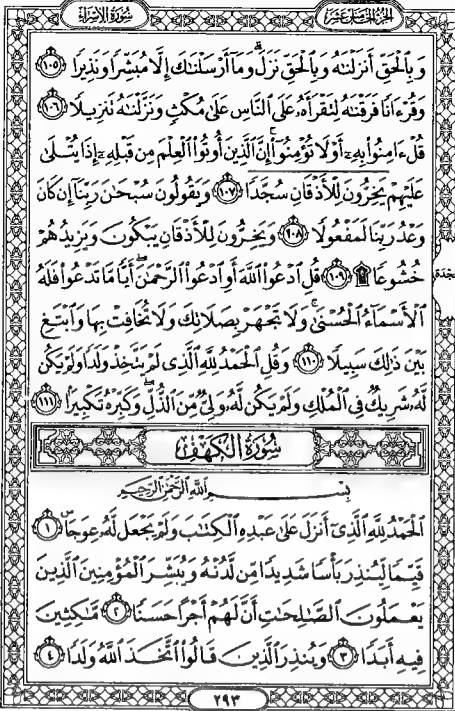
أمره الله به. وقالت فرقة: بل المَثْبُور: المغلوب المُخْرَع، وما كان موسى عليه السلام ليكون لعناً، ومن اللفظة قول عبدالله بن الزُّبَيْري:

إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ النَّعْيِ
وَمَنْ مَالٌ مَبْلُهُ مَشْبُورُ
وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْزِلَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية. ﴿يَسْتَوِزُّهُمْ﴾ معناه: يَسْتَخْفُهُمْ وَيُقْلِقُهُمْ، إما بقتل أو بإجلاء، و﴿الْأَرْضِ﴾ هي أرض مصر، وقد تقدم أنه متى ذكرت «الأرض» عموماً فإنما يراد بها ما يناسب القصة المتكلم فيها، وقد يحسن عمومها في بعض القصص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واقتضبت هذه الآية قصص بني إسرائيل مع فرعون، وإنما ذُكِرَتْ عَظَمُ الأمر وخطيره، وذلك طَرَفَاهُ: أراد فرعون غلبتهم وقتلهم، وهذا كان بدء الأمر، فأغرقه الله تبارك وتعالى وأغرق جنوده، وهذا كان نهاية الأمر. ثم ذكر الله تعالى بني إسرائيل بعد إغراق فرعون بسُكْنَى أرض الشام.

و﴿وَقَدْ آخِرَةٌ﴾ هو يوم القيامة. و﴿الْقَيْفُ﴾: الجمع المختلط الذي قد لُفَّ بعضه ببعض، فليس ثم قبائل ولا انحياز. وقال بعض اللُّغَوِيِّين: هو من أسماء الجموع، ولا واحد له من لفظة، وقال الطبري: هو بمعنى المصدر كقول القائل: لَفَقْتُه لُفًّا ولفيفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر فتأمله.



هذا المعنى مع قوله تعالى: ﴿لَنَقْرَأَنَّكَ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكِّيٍّ﴾، وهذا كان بما أراد الله تعالى من نزوله بأسباب تقع في الأرض من أقوال وأفعال في أزمان محدودة معينة.

واختلف أهل العلم، في كم نزل القرآن من المدة؟ فقول: في خمس وعشرين سنة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: في ثلاث وعشرين، وقال قتادة: في عشرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بحسب الخلاف في سن

رسول الله ﷺ، وذلك أن الوحي جاء وهو ابن أربعين سنة، وتَمَّ بموته. وحكى الطبري عن الحسن البصري أنه قال: نزل القرآن في ثماني عشرة سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مُخْتَلِّ، لا يصح عن الحسن، والله أعلم.

وتأولت فرقة قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَكِّيٍّ﴾، أي: على ترسل في التلاوة وترتيل، هذا قول مجاهد، وابن عباس، وابن جريج، وابن زيد. والتأويل الآخر، أي: على مَكِّيٍّ وتطاول في المدة شيئاً بعد شيء. وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ مبالغة وتأکید بالمصدر للمعنى المتقدم ذكره في ألفاظ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأجمع القراء على ضم الميم من

﴿١٠٥﴾ - ﴿١٠٨﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ عائد على القرآن المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، ويجوز أن يكون الكلام أنفاً، وأشار بالضمير إلى القرآن على غير ذلك متقدم لشهرته، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، وهذا كثير.

قال الزهراوي: معناه: بالواجب الذي هو المصلحة والسداد للناس والحق في نفسه، وقوله سبحانه: ﴿وَالْحَقِّي نَزْلًا﴾ يريد: بالحق في أوامره ونواهيه وأخباره، فهذا التأويل يكون تكرار اللفظ لمعنى غير الأول، وذهب الطبري إلى أنهما بمعنى واحد، أي: بأخباره وأوامره، وبذلك نزل.

وقوله تعالى: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾. مذهب سيبويه أن نصبه بفعل مضمّر يفسره الظاهر بعد، أي: وفرقنا قرآنًا، ويصح أن يكون معطوفاً على الكاف في ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، من حيث كان إرسال هذا وإنزال هذا لمعنى واحد. وقرأ جمهور الناس: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بتخفيف الراء، ومعناه: بيّناه وأوضحناه وجعلناه فرقاناً، وقرأ ابن عباس، وقتادة، وأبو رجاء، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وأبي بن كعب، والشعبي، والحسن - بخلاف - وحُمَيْد، وعمرو بن فائد: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بشد الراء، إلا أن في قراءة ابن مسعود، وأبي بن كعب: ﴿فَرَقْنَاهُ عَلَيْكَ لِنَقْرَأَنَّكَ﴾، أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء، لا جملة واحدة، ويتناسق

﴿مَكِّيٍّ﴾، ويقال: مَكْتُ ومَكْتُ بضم الميم ويفتحها، ويمَكْتُ بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا نَذِيرٌ لَّكُمْ﴾ الآية. هذه آية تحقير للكفار، وفي ضمنه ضرب من التوعّد، والمعنى: إنكم لستم بحجة، فسواء علينا أمتتم أو كفرتم، وإنما ضرر ذلك على أنفسكم، وإنما الحجة أهل العلم من قبله، وهم بالصفة المذكورة.

واختلف الناس في المراد بالذين أوتوا العلم من قبله - فقالت فرقة: هم مؤمنو أهل الكتاب. وقالت فرقة: هم ورقة بن نوفل، وزيد ابن عمرو بن نفيل، ومن جرى مجراهما، وقيل: إن جماعة من أهل الكتاب جلسوا وهم على دينهم فتذاكروا أمر النبي عليه الصلاة والسلام وما أنزل عليه، وقرأ

عليهم منه شيء فخشعوا وسبحوا الله وسجدوا له، وقالوا: هذا وقت نبوة المذكور في التوراة، وهذه صفته، ووعد الله به واقع لا محالة، وجنحوا إلى الإسلام هذا الجنوح، فنزلت الآية فيهم، وقالت فرقة: المراد بالذين أوتوا العلم من قبله محمد ﷺ، والضمير في ﴿قَبْلِهِ﴾ عائد على القرآن، حَسَبَ الضمير في ﴿يَوْمَ﴾، وَيَبَيِّنُ ذلك قوله: ﴿إِذَا يَسُئَلُ عَنْهُمْ﴾. وقيل: الضميران لمحمد ﷺ، واستأنف ذكر القرآن في قوله: ﴿إِذَا يَسُئَلُ عَنْهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَجْزُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾، أي: لِنَاجِيَتِهَا، وهذا كما تقول: ساقطٌ لليد والضم، أي: لناحيتهما وعليهما، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: لِلْوُجُوهِ، وقال الحسن: لِلْخَى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأَذْقَانِ أسافل الوجوه حيث يجتمع اللِّحْيَان، وهي أقرب ما في رأس الإنسان إلى الأرض لا سِيَّما عند سجوده، وقال الشاعر:

فَخَرُّوا لِلْأَذْقَانِ الْوُجُوهُ تَشْوِشُهُمْ
سِبَاعَ مِنَ الطَّيْرِ الْعَوَادِي وَتَشِيفُ
و ﴿إِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ هي عند سيبويه المخففة من الثقيلة. واللام بعدها لام التأكيد، وهي عند الفراء النافية واللام بمعنى: إلّا. ويتوجه في هذه الآية معنى آخر، وهو أن يكون قوله: ﴿قُلْ مَا يَشَاءُ بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ مخلصاً للوعيد دون التحقير. والمعنى: فَتَسْتَرُونَ مَا تُجَاوِزُونَ به، ثم

ضرب لهم المثل - على جهة التفرغ - بمن تقدم من أهل الكتاب، أي: إن الناس لم يكونوا كما أنتم في الكفر، بل كان الذين أوتوا التوراة والإنجيل والزبور والكتب المنزلة في الجملة إذا بُتِلَ عليهم ما نزل عليهم خضعوا وأمنوا.

﴿١١٠﴾ - ﴿١١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه مبالغة في صفتهم، ومذخ لهم، وحضٌ لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئاً أن يجري إلى هذه الرتبة. وحكى الطبري عن الثبتي أنه قال: إن من أوتي من العلم ما لم يُبَكِّه لخليق ألا يكون أوتي علماً ينفعه؛ لأن الله تعالى نَعَت العلماء فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ...﴾ إلى آخر الآيتين.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ الآية.

سبب نزول هذه الآية أن المشركين سمعوا رسول الله ﷺ يدعو: «يا الله، يا رحمن»، فقالوا: كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد، وهو يدعو إِلَهَيْنِ. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقال مكي: تهجد رسول الله ﷺ ليلة، فقال في دعائه: «يا رحمن يا رحيم»، فسمعه رجل من المشركين - وكان باليامة رجلٌ يسمى الرحمان - فقال ذلك السامع: ما بال محمد يدعو رحمان اليامة، فنزلت الآية مبينة أنها أسماء لشيء واحد، فإن دعوتهم بالله فهو ذلك، وإن دعوتهم بالرحمن فهو ذلك.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿أَيُّا مَنْ

تَدْعُو فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، أي: وله سائر الأسماء الحسنى، أي التي تقتضي أفضل الأوصاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي بتوقيف، لا يصح وضع اسم الله تعالى إلا بتوقيف من القرآن والحديث. وقد روي: «إِنَّ الله تسعة وتسعين اسماً...» الحديث، ونصها كلها الترمذي وغيره بسند صحيح. وتقدير الآية: أَيُّ الْأَسْمَاءِ تَدْعُو به فَأَنْتَ مصيب، له الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى.

ثم أمر رسول الله ﷺ ألا يجهر بصلاته، وألا يخافت بها، وهو الإِسْرَارُ الذي يسمعه المتكلم به، هذه هي حقيقته، ولكنه في الآية عبارة عن خفض الصوت وإن لم يَنْتَه إلى ما ذكرناه.

واختلف المتأولون في «الصلاة»، ما هي؟ فقال ابن عباس، وعائشة رضي الله عنهما، وجماعة: هي الدعاء. وقال ابن عباس أيضاً: هي قراءة القرآن في الصلاة، فهذا على حذف مضاف، والتقدير: ولا تجهر بقراءة صلاتك، قال: والسبب أن رسول الله ﷺ جهر بالقراءة فسمعه المشركون فسبوا القرآن ومن أنزله، فأمر رسول الله ﷺ بالوسط، لِيَسْمَعَ أصحابه المصلين معه ويذهب عنه أذى المشركين. وقال ابن سيرين: كان الأعراب يجهرون بتشهدهم فنزلت الآية في ذلك، وكان أبو بكر رضي الله عنه يُسِرُّ قراءته، وكان عمر رضي الله عنه يجهر بها، ف قيل لهما في ذلك، فقال أبو بكر: إنما أنا جاني ربِّي وهو يعلم حاجتي، وقال عمر: أنا أطرح الشيطان وأوقظ

بطريق الذل، وعلى جهة الانتصار؛ إذ ولايته موجودة بتفضله ورحمته لمن وإلى من صالح عباده. قال مجاهد: المعنى: لم يحالف أحداً، ولا ابتغى نصر أحد.

وقوله: ﴿ذِكْرٌ كَثِيرٌ﴾ أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال، ثم أكدها بالمصدر تحقيقاً لها، وإبلاغاً في معناها. وروى مُطَرِّفٌ عن عبدالله بن كعب قال: «افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام، وختمت بخاتمة هذه السورة».

نجز تفسير سورة الإسراء والله الحمد والمنة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تفسير سورة الكهف

هذه السورة مكّية في قول جميع المفسرين، وزوي عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة، إلى قوله تعالى: ﴿جُرُودًا﴾، والأول أصح. وهي من أفضل سور القرآن، زوي أن النبي ﷺ قال: «الآن أخبركم بسورة (ملاً) عظمتها ما بين السموات والأرض، ولمن جاء بها من الأجر مثل ذلك؟ قالوا: أي سورة هي يا رسول الله؟ قال: «سورة الكهف،

الوستان، فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر رضي الله عنه: ارفع أنت قليلاً، وقيل لعمر رضي الله عنه: اخفض أنت قليلاً. وقالت عائشة أيضاً رضي الله عنها: الصلاة يُراد بها في هذه الآية التشهد، وقال ابن عباس، والحسن: المراد: لا تُحَسِّن صلاتك في الجهر، ولا تُسَهِّلها في السر، بل اتَّبِع طريقاً وسطاً يكون دائماً في كل حالة. وقال ابن زيد: معنى الآية النهي عما يفعله أهل الإنجيل والتوراة من رفع الصوت أحياناً فيرفع الناس معه، ويخفض أحياناً فيسكت من خلفه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: إن معناها: ولا تجهر بصلاة النهار، ولا تخافت بصلاة الليل، وابتغ سبيلاً من امتثال الأمر كما رسم لك، ذكره يحيى بن سلام، والزهراوي. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لم يخافت من أسمع أذنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما زوي من أنه قيل لأبي بكر رضي الله عنه: «ارفع أنت قليلاً» يرُدُّ هذا، ولكن هذا الذي قال ابن مسعود رضي الله عنه هو أصل اللغة، ويستعمل الخفوت بعد ذلك في أرفع من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَنُحْيِيَنَّكَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَمُتْ وَلَكَّا﴾. هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً: «عُزِّرَ وعيسى والملائكة ذُرِّيَّةُ الله»، سبحانه وتعالى عن أقوالهم، وراثة على العرب في قولهم: «لولا أولياء الله لذل»، وتيَّد لفظ الآية نفى الولاية لله عز وجل

قَالَهُمْ بِهِمْ مِنْ عِلْمٍ وَلَا آيَاتِهِ كَثُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿١﴾ فَلَمَّا كَثُرَتْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ أَتَاهُمْ مِنْ لَدُنْهُمْ يُنذِرُهُمْ بِهَذَا الْكِتَابِ أَفْسَا ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٣﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُودًا ﴿٤﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٥﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا لَمِنَ الَّذِينَ رَحِمْتَ وَهِيَ تِلْكَ الْقَرْيَةُ الَّتِي كُنَّا نَمُرُّ بِهَا إِذْ أَتَيْنَاهُمْ فِي الْكَهْفِ سِينًا عَدَا ﴿٦﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَبْلُوَهُمْ أَئِذَا هُمْ فِي الْأَرْضِ أَحْسَنُ لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ﴿٧﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿٨﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ لَهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذْ شَطَطًا ﴿٩﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفَرَقْنَاهُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٠﴾

من قرأ بها يوم الجمعة غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة الأخرى - وزيادة ثلاثة أيام في رواية أنس -، ومن قرأ بها أعطي نوراً بين السماء والأرض، ووفى بها فتنة القبر.

١ - ٥ تفسير قوله عز وجل:

كان حفص عن عاصم يسكت عند قوله تعالى: ﴿عِوَجًا﴾ سكتة خفيفة، وعند ﴿مَرْدَنًا﴾ في يسن، وسبب هذه البدأة في هذه السورة أن رسول الله ﷺ لما سأله قريش عن المسائل الثلاث: الروح والكهف وذو القرنين - حسبا أمرتهم به يهود - قال لهم رسول الله ﷺ: «عُدًّا أخبركم بجواب سؤالكم»، ولم يقل: «إن شاء الله»، فعاتبه الله تعالى بأن أسلك عنه الوحي خمسة عشر يوماً، فأرجف به كفار قريش، وقالوا: إن محمداً قد تركه رثيه الذي

كان يأتيه من الجن، وقال بعضهم: قد عجز عن أكاذيبه، إلى غير ذلك، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، وبلغ منه، فلما أن قضى الأمر الذي أراد الله تعالى عتاب محمد - ﷺ - عليه، جاء الوحي من الله تعالى بجواب الأسئلة وغير ذلك، فافتتح الوحي بحمد الله الذي أنزل على عبده الكتاب، أي: بزعمكم أنتم يا قريش، كما تقول لرجل يحب مساءً ثك فلا يرى إلا نعمتك: الحمد لله الذي أنعم عليّ وفعل بي كذا، على جهة النعمة عليه. والكتاب هو القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ أي: لم يزلّه عن طريق الاستقامة، والعوج: فقد الاستقامة، وهو بكسر العين في الأمور والطرق وما لا يحسّ منتصباً شخصاً، والعوج: بفتح العين في الأشخاص، كالعصا والحائط ونحوه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يجعله مخلوقاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ يعمّ هذا وجميع ما ذكر من أنه لا تناقض فيه، ومن أنه لا خلل ولا اختلاف فيه.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا﴾ نصب على الحال من ﴿الْكِتَابِ﴾، فهو بمعنى التقديم مؤخّر في اللفظ، أي: أنزل الكتاب قيماً، واعترض بين الحال وذو الحال قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾. ذكر الطبري هذا التأويل عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويجوز أن يكون [منضوباً] بفعل مضمر

تقديره: أنزله، أو جعله قيماً، وفي بعض مصاحف الصحابة: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا وَلَكِنْ جَعَلَهُ قِيَمًا﴾، قاله قتادة. ومعنى «قيّم»: مستقيم، هذا قول ابن عباس، والضحاك، وقيل: معناه أنه قيّم على سائر الكتب بتصرفها. ذكره المهدوي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا محتمل، وليس من الاستقامة. ويحتمل أن يكون معنى «قيّم» قيامه بأمر الله تبارك وتعالى على العالم، وهذا المعنى يؤيده ما بعده من النذارة والشارة للَّذِينَ عَمَّا الْعَالَمِ. والْبَأْسُ الشَّدِيدُ: عذاب الآخرة، ويحتمل أن يندرج معه في النذارة عذاب الدنيا ببذر وغيرها، ونصبه على المفعول الثاني، والمعنى: يُنْذِرُ الْعَالَمَ، وقوله تعالى: ﴿يَنْ لَدُنَّ﴾ أي: من عنده ومن قبله، والضمير عائد على الله تعالى. وقرأ الجمهور: ﴿يَنْ لَدُنَّ﴾ بضم الدال وسكون النون وضم الهاء، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿يَنْ لَدُنَّ﴾ بسكون الدال وإشمام الضم فيها وكسر النون والهاء. وفي (اللدن) لغات، يقال: لدن مثل سبّح، ولدن بسكون الدال، ولدن بضم اللام، ولدن بفتح اللام والدال، وهي لفظة مبنية على السكون، ويلحقها حذف النون مع الإضافة، وقرأ عبدالله، وطلحة: ﴿وَيَبْشُرُ﴾ بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين. وقوله تعالى: ﴿أَنْ لَّمْ أَجْرًا﴾ تقديره: بأن لهم أجراً، والأجر الحسن: نعيم الجنة، ويتقدمه خير الدنيا.

﴿تَكْنِيَتَ﴾ حال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾، و﴿أَبَدًا﴾ ظرف؛ لأنه دال على زمن غير متناه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد أشرنا في تفسير هذه الآية إلى أمر اليهود قريشاً بسؤال رسول الله ﷺ عن المسائل الثلاث، وينبغي أن ننصّ كيف كان ذلك.

ذكر ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند أنه قال: بعث قريش النضر بن الحارث، وعقبه بن أبي معيط، إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهما: سلامهم عن محمد - عليه الصلاة والسلام -، وصفاً لهم صفته، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألأ أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، فقالت لهما أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهنّ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول قرواً فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، فأقبل النضر وغفبه إلى مكة، وسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، وكان من الأمر ما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿وَنَذِرَ الَّذِينَ قَالُوا أَخَذَ اللَّهُ بَدْلًا﴾ الآية. أهل هذه المقالة هم بعض اليهود في غزير، والنصارى في المسيح، وبعض العرب في الملائكة. والضمير في

﴿يَوْمَ﴾ يحتمل أن يعود على القول الذي يتضمنه ﴿قَالُوا﴾ المتقدم، وتكون جملة قوله: ﴿مَا لَكُمْ بِهِ مِنْ غَيْرٍ﴾ في موضع الحال، أي: قالوا جاهلين. ويحتمل أن يعود على «الولد»، أي: لا علم لهم بهذا الولد الذي ادَّعَوْهُ، فتكون الجملة صفة لقوله: «وَلَدًا»، قاله المهدوي، وهو معترض؛ لأنه لا يصفه إلا القائل، وهم ليس في مقصدهم أن يصفوه. والصواب عندي أنه نفي مؤنثف، أخبر الله تعالى به بجهلهم في ذلك، فلا موضع للجملة من الإعراب، ويحتمل أن يعود على الله تعالى، وهذا التأويل أدُّمُّ لهم، وأقضى بالجهل الثَّامَّ عليهم، وهو قول الطبري. وقوله تعالى: ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾، يريد الذين أخذ هؤلاء هذه المقالة عنهم.

وقرأ الجمهور: ﴿كَذَّبَتْ كَلِمَةً﴾ بنصب [كَلِمَةً]، كما تقول: نعم رجلاً زيدا، وفُسر الكلمة وضُفها بالخروج من أفواههم، وقال بعضهم: نصبها على التفسير، على حدِّ نصب قوله: ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، وقالت فرقة: نصبها على الحال، والتقدير: كبير فُرَيْثُهُمْ - أو نحو هذا - كلمة، وسُمِّيت هذه الكلمات كلمة من حيث هي مقالة واحدة، كما يقولون للقبيدة: كلمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه المقالة قائمة هي في التفسير معنى واحداً فيَحْسُنُ أن تُسَمَّى كلمة. وقرأ الحسن، ويحيى بن يعمر، وابن محيصن، والقواس عن ابن كثير: ﴿كَلِمَةً﴾ بالرفع على أنها

فاعلة بـ ﴿كَذَّبَتْ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، أي: ما يقولون إلا كذباً، فهي النافية.

﴿٦﴾ - ﴿٩﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه آية تسلية للنبي ﷺ، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُنْتُمْ تَقْرُونَ﴾ تقرير وتوقيف بمعنى الإنكار عليه، أي: لا يكن كذلك. و«الباحِغُ نَفْسُهُ» هو مُهلِكها وَجْداً وحزناً على أمرٍ ما، ومنه قول الشاعر:

أَلَا أَيُّهَا الْبَاخِغُ الرَّجْدُ نَفْسُهُ
لِشَيْءٍ نَحْنُهُ عَنْ يَدَيْهِ الْمُقَادِرُ
يريد: (نَحْنُهُ) فخفف.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّاءَ أَثَرِهِمْ﴾ استعارة فصيحة، من حيث لهم إدبار وتباعد عن الإيمان، وإعراض عن الشرع، فكأنهم من فرط إدبارهم قد بعدوا فهو في آثارهم يحزن عليهم. وقوله سبحانه: ﴿يَهْدِي أَلْحَدِيثَ﴾، أي: بالقرآن الذي نحدثك به، و﴿أَيْسَاءَ﴾ نصب على المصدر، قال الزجاج: والأسف: المبالغة في حُزن أو غضب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأسف - في هذا الموضع - الحزن؛ لأنه على من لا يملك ولا هو تحت يد الآييف، ولو كان الأسف من مُقْتَدِرٍ على من هو في قبضته ومُلْكِهِ لكان غضباً، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَأَلُنَا﴾، أي: أغضبونا، وإذا تأملت هذا في كلام العرب أطرد، وذكره منذر بن سعيد، وقال قتادة هنا: ﴿أَيْسَاءَ﴾: غضباً، وقال مجاهد: ﴿أَيْسَاءَ﴾: جَزَعاً، وقال قتادة أيضاً: حُزْناً، ومن هذه اللفظة قول الأعشى:

أَرَى رَجُلًا مِنْكُمْ أَيْسِيفًا كَأَنَّمَا
يَضُمُّ إِلَى كَشْحِيهِ كُفًا مُحْضَبًا
يريد: حزناً كأنه مقطوع اليد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ الآية بَسَطُ في التَّسْلِيَةِ، أي: لا تهتم للدنيا وأهلها، فأمرها وأمرهم أقل لفنائها وزهاها، فإنما إنما جعلناها على الأرض زينة أو امتحاناً وخبرة.

واختلف في المراد بها - فقال ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم: أراد الرجال، وقاله مجاهد. وروي عن عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والعلماء والأمرء. وقالت فرقة: أراد النعم والملابس والثمار والخضرة والمياه ونحو هذا مما فيه زينة، ولم تدخل في هذا الجبال الصم وكل ما لا زين فيه كالحيات والعقارب. وقالت فرقة: أراد كل ما على الأرض، وليس شيء إلا وفيه زينة من جهة خلقه وصنعتة وإحكامه، وفي معنى الآية قول النبي ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء». و﴿زِينَةً﴾ مفعول ثان، أو مفعول من أجله بحسب معنى (جعل).

وقوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ معناه: لنختبرهم، وفي هذا وعيدٌ ما. قال سفيان الثوري: أحسنهم عملاً: أزهدهم فيها، وقال أبو عصام السقلاني: أَحْسَنُ عَمَلًا: أَتْرَكُ لها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان أبي رحمه الله يقول: أَحْسَنُ

العمل: أَخَذَ بحق، وإنفاق في حق مع الإيمان، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم، والإكثار من المندوب إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَمِيدًا جُرًّا﴾، أي: يرجع كل ذلك تراباً غير مُتَزَيِّن بنبات ونحوه، والـجُرُّ: الأرض التي لا شيء فيها من عمارة وزينة، وهي البلقع، وهي حالة الأرض العامرة بالزَيْن، لا بُدُّ لها من هذا في الدنيا جزءاً جزءاً من الأرض، ثم يعثها ذلك بأجمعها عند القيامة، يقال: جرزت الأرض بقحط أو جراد ونحوه إذا ذهب نباتها وبقيت لا شيء فيها ولا نفع. وأرضون أجراز. وقال الزجاج: الجُرُّ: الأرض التي لا تُثَبَّت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما ينبغي أن يقول: التي لم تُثَبَّت. والصَّعِيدُ: وجه الأرض، وقيل: الصَّعِيد: التراب خاصة، وقيل: الصَّعِيد: الأرض الطيبة، وقيل: الصَّعِيد: الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة.

وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ حَيْثُ أَتَى﴾ الآية. مذهب سيبويه في (أَمْ) إذا جاءت قبل أن تتقدمها ألف استفهام أنها بمعنى (بَلْ) و (أَلَيْفَ الاستفهام)، كأنه قال: بل أحييت؟ إضراباً عن الحديث الأول واستفهاماً عن الثاني. وقال بعض النحويين: هي بمنزلة ألف الاستفهام، وأما معنى الكلام فقال الطبري: هو تقرير للنبي ﷺ على حسابه أن أصحاب الكهف أتوا عجباً، بمعنى إنكار ذلك عليه، أي: لا تُعْظَم ذلك بحسب ما عظمه عليه

السائلون من الكفرة، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشنع، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن إسحق. وذكر الزهراوي أن الآية تحتل معنى آخر، وهو أن تكون استفهاماً له، هل عِلِمَ أن أصحاب الكهف كانوا عجباً؟ بمعنى إثبات أنهم عجب، وتكون فائدة تقريره جمع نفسه للأمر؛ لأن جوابه أن يقول: لم أحسب ذلك ولا علمته، فيقال له وَضَفُّهُمْ عند ذلك، والتَّجُوز في هذا التأويل هو في لفظة [حَيَّيْتُ]، فتأمل.

و «الكَهْفُ»: الثقب المُتَّسِع في الجبل، وما لم يتسع منها فهو غار. وحكى النحاس عن أنس بن مالك أنه قال: الكَهْفُ: الجبل، وهذا غير شهير في اللغة. واختلف الناس في «الرَّقِيم» - فقال كعب: الرَّقِيم: القرية التي كانت بإزاء الكهف، وقال ابن عباس، وقتادة: الرَّقِيم: الوادي الذي كان بإزائه، وهو وادٍ كان بين غضبان وأيلة دون فلسطين. وقال ابن عباس أيضاً: هو الجبل الذي فيه الكهف. وقال السدي: الرَّقِيم: الصخرة التي كانت على الكهف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرَّقِيم: كتاب مرقوم كان عندهم، فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام، وقيل: من دين قبل عيسى عليه السلام، وقال ابن زيد: كتاب عمى الله تعالى علينا أمره ولم يشرح قصته. وقالت فرقة: الرَّقِيم: كتاب في لوح من نحاس، وقال ابن عباس: في لوحين من

رصاص كَتَبَ فيهما القوم الكفار الذين فَرَّ الفتية منهم قَصَّتْهُمْ، وجعلوها تاريخاً لهم، ذكروا وقت فقدهم، وكما كانوا، وبني من كانوا. وقال سعيد بن جبير: الرَّقِيم: لوح من حجارة كتبوا فيها قصة أصحاب الكهف، ووضعوه على باب الكهف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوماً مؤرخين للحوادث، وذلك من قبل المملكة، وهذا أمر مفيد، وهذه الأقوال مأخوذة من الرَّقِيم، ومنه: ﴿كُتِبَ رُؤُوسُ﴾، ومنه «الرَّقِيم» لِتَحْطِيطِهِ ومنه: «رَقَمْتُ الرُّادِي»: أي: مكان جزى الماء وانعطافه، يقال: عليك بالرقمة وَحَلَّ الضَّفَّة.

وقال النقاش عن قتادة: الرَّقِيم: دراهمهم، وقال أنس بن مالك، والشعبي: الرَّقِيم: الكلب، وقال عكرمة: الرَّقِيم: الدَّوَاة، وقالت فرقة: الرَّقِيم كان لِفَتْيَةٍ آخرين جرى لهم ما جرى لأهل الكهف. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما أدري ما الرَّقِيم، أَكْتَابَتْ أَمْ بُثِّيَتْ؟ وروي أنه قال: كل القرآن أعلمه إلا: الحَنَان، والأَوَّاه، والرَّقِيم.

١٧ - ١٨ تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ﴾ فيما روي: قوم من أبناء أشراف مدينة دقيوس الملك الكافر، ويقال فيه: دَقْلِيوس، ويقال: دَقِينوس. وروي أنهم كانوا: مُطَوِّقِينَ مُسَوِّرِينَ بالذهب، وهم من الرُّوم، واتبعوا دين عيسى عليه السلام، وقيل: كانوا قبل عيسى، وأما

أَسْمَاؤُهُمْ فِيهِمْ أَعْجَمِيَّةٌ وَالسُّنْدُ فِي مَعْرِفَتِهَا وَاءٍ، وَلَكِنْ الَّتِي ذَكَرَ الطَّبْرِيُّ هِيَ هَذِهِ: مَكْسِيَلَمِينَا، وَهُوَ أَكْبَرُهُمُ وَالْمَتَكَلَّمُ عَنْهُمْ، وَمَكْسِيَلَمِينِيَا، وَتَمْلِيخًا.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهُوَ الَّذِي مَضَى بِالْوَرَقِ إِلَى الْمَدِينَةِ عِنْدَ بَعْثِهِمْ مِنْ رَقْدَتِهِمْ. وَمَرْطُوسٌ، وَكُشُوطُوسُكُشٌ، وَبَيْسِرُونَسٌ، وَيَيْمُوسٌ، وَيُطُونَسٌ.

وَاخْتَلَفَ الرِّوَاةُ فِي قِصَصِ هَؤُلَاءِ الْفَتِيَّةِ، وَكَيْفَ كَانَ اجْتِمَاعُهُمْ وَخُرُوجُهُمْ إِلَى الْكَهْفِ، وَأَكْثَرَ الْمُؤَرِّخُونَ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنْ نَحْتَصِرُ مِنْ حَدِيثِهِمْ، وَنَذَكُرُ مَا لَا تَسْتَغْنِي الْآيَةُ عَنْهُ، وَنَذَكُرُ مِنَ الْخِلَافِ عِيُونَهُ بِحَوْلِ اللَّهِ.

رَوَى مُجَاهِدٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْفَتِيَّةِ كَانُوا فِي دِينِ مَلِكٍ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَيَذْبَحُ لَهَا، وَيَكْفُرُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ تَابَعَهُ عَلَى ذَلِكَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، فَوَقَعَ لِلْفَتِيَّةِ عِلْمٌ مِنْ بَعْضِ الْحَوَارِيِّينَ - حَسْبَمَا ذَكَرَهُ النِّقَاشُ - أَوْ مِنْ بَعْضِ مُؤْمِنِي الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ - بِحَسَبِ الْخِلَافِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ -، فَأَمَّنُوا بِاللَّهِ، وَرَأَوْا بِبَصَائِرِهِمْ قُبُوحَ فِعْلِ النَّاسِ، فَأَخَذُوا نَفْسَهُمْ بِالتَّزَامِ الدِّينِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَرُفِعَ أَمْرُهُمْ إِلَى الْمَلِكِ، وَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ فَارَقُوا دِينَكَ، وَاسْتَحَفُّوا بِأَلْهَتِكَ وَكَفَرُوا بِهَا، وَاسْتَحَضَرَهُمُ الْمَلِكُ فِي مَجْلِسِهِ، وَأَمَرَهُ بِاتِّبَاعِ دِينِهِ وَالدُّبْحِ لِأَلْهَتِهِ، وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَى فِرَاقِ ذَلِكَ بِالْقَتْلِ، فَقَالُوا لَهُ - فِيمَا رَوَى -: ﴿رَبَّنَا رَبِّ السَّكْرَتَيْنِ وَالْأَرْضَيْنِ﴾ الْآيَةَ،

إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَايَ أَفْعَزَ لَتَوُفُّهُمْ﴾. وَرَوَى أَنَّهُمْ قَالُوا نَحْنُ هَذَا الْكَلَامُ، وَلَيْسَ بِهِ، فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ: إِنَّكُمْ شَبَابٌ أَغْمَارٌ، لَا عَقُولَ لَكُمْ، وَأَنَا لَا أَعْجَلُ بِكُمْ بَلْ أَشْتَأْنِي، فَاذْهَبُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ فَذَبُّوا أَمْرَكُمْ وَارْجِعُوا إِلَى أَمْرِي، وَضَرْبَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ أَجْلًا، ثُمَّ إِنَّهُ سَافَرَ خِلَالَ الْأَجْلِ، فَتَشَاوَرَ الْفَتِيَّةُ فِي الْهَرُوبِ بِأَدْيَانِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ أَحَدُهُمْ: إِنِّي أَعْرِفُ كَهْفًا فِي جَبَلٍ كَذَا كَانَ أَبِي يَدْخُلُ فِيهِ غَنَمَهُ، فَلْنَذْهَبْ إِلَيْهِ فَنَخْتَفِي فِيهِ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ لَنَا، فَخَرَجُوا - فِيمَا رَوَى - يَلْمِبُونَ بِالصَّوْلُجَانِ وَالْكُرَّةِ، وَهُمْ يَدْحَرُجُونَهَا إِلَى نَحْوِ طَرِيقِهِمْ لِثَلَا يَشْعُرَ النَّاسُ بِهِمْ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا مُتَّقِفِينَ فَحَضَرَ عِيدَ خَرَجُوا لَهُ فَرَكِبُوا فِي جَمَلَةِ النَّاسِ، ثُمَّ أَخَذُوا فِي اللَّعِبِ بِالصَّوْلُجَانِ حَتَّى خَلَصُوا بِذَلِكَ.

وَرَوَتْ فِرْقَةٌ أَنَّ أَمْرَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ إِنَّمَا كَانَ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْأَشْرَافِ، فَحَضَرَ عِيدَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَرَأَى الْفَتِيَّةُ مَا يُمَثِّلُهُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الْعِيدِ مِنَ الْكُفْرِ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالدُّبْحِ لَهَا، فَوَقَعَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَجْمَعُوا عَلَى مَفَارِقَةِ النَّاسِ لِثَلَا يَنَالَهُمُ الْعَذَابُ مَعَهُمْ، فَزَابِلُوا النَّاسَ وَذَهَبُوا إِلَى الْكَهْفِ.

وَرَوَى وَهْبُ بْنُ مَنْبِهٍ أَنَّ أَمْرَهُمْ إِنَّمَا كَانَ أَنَّ حَوَارِيَّاءَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَاءَ إِلَى مَدِينَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ يَرِيدُ دُخُولَهَا، فَأَجْرَ نَفْسَهُ مِنْ صَاحِبِ الْحُمَامِ، فَكَانَ يَعْمَلُ فِيهِ، فَرَأَى صَاحِبُ الْحُمَامِ فِي أَعْمَالِهِ بَرَكَةً عَظِيمَةً، فَأَلْقَى إِلَيْهِ بِكُلِّ أَمْرٍ، وَعَرَفَ

ذَلِكَ الرَّجُلَ فَتَيَّأَنَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَنَشَرَ فِيهِمُ الْإِيمَانَ، وَعَرَّفَهُمُ اللَّهَ تَعَالَى، فَأَمَّنُوا وَاتَّبَعُوهُ عَلَى دِينِهِ، وَاشْتَهَرَتْ خُلُفَتُهُمْ بِهِ، فَأَتَى يَوْمًا إِلَى ذَلِكَ الْحُمَامِ وَلَدُ الْمَلِكِ بَامْرَأَةٍ بَغِيٍّ أَرَادَ الْخُلُوةَ بِهَا، فَفُتِهَا ذَلِكَ الْحَوَارِيُّ فَانْتَهَى، ثُمَّ جَاءَهُ مَرَّةً أُخْرَى فَفُتِهَا وَشَتَمَهُ، فَأَمْضَى عِزْمَهُ عَلَى دُخُولِ الْحُمَامِ مَعَ الْبَغِيَّةِ، فَدَخَلَ فَمَاتَا بِهِ جَمِيعًا، فَأَتَتْهُمْ ذَلِكَ الْحَوَارِيُّ وَأَصْحَابُهُ بِقَتْلِهِ، فَفَرُّوا جَمِيعًا حَتَّى دَخَلُوا الْكَهْفَ.

وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عَمِيرٍ: إِنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ كَانُوا فَتِيَّةً مِنْ أَبْنَاءِ الْعِظَمَاءِ مَطُوقِينَ مَسُورِينَ ذَوِي ذَوَائِبَ، قَدْ دَاخَلَهُمُ الْإِيمَانُ أَفْذَاذًا. وَأَزْمَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْفِرَارَ بِدِينِهِ مِنْ بِلَدِ الْكُفْرِ، فَأَخْرَجَهُمُ اللَّهُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ لَمَّا أَرَادَ بِهِمْ، فَخَرَجَ أَحَدُهُمْ فَجَلَسَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ عَلَى بَعْدٍ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَخَرَجَ ثَانٍ، فَلَمَّا رَأَى الْجَالِسَ جَلَسَ إِلَيْهِ، ثُمَّ الثَّالِثُ، ثُمَّ الْبَاقُونَ حَتَّى كَمَلَ جَمْعُهُمْ فِي ظِلِّ الشَّجَرَةِ، فَأَلْقَى اللَّهُ فِي نَفْسِهِمْ أَنَّ غَرَضَهُمْ وَاحِدٌ، فَتَسَاءَلُوا، فَفَزَعَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَتَكَتَمُوا، ثُمَّ تَرَاثَوْا بِرَجُلَيْنِ مِنْهُمْ، وَقَالُوا: انْفَرِدَا وَتَوَاقَّعَا وَلْيُفْشِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا سِرَّهُ إِلَى صَاحِبِهِ، فَإِنْ اتَّفَقْتُمَا كُتْمًا مَعَكُمْ، فَهَذَا بَعِيدٌ، فَأَفْصَحَا بِالْإِيمَانِ وَالْهَرُوبِ بِالدِّينِ، فَجَمَعَا وَفَضَحَا الْأَمْرَ، وَتَابَعَهُمَا الْآخَرُونَ، وَنَهَضُوا إِلَى الْكَهْفِ.

وَأَمَّا الْكَلْبُ فَرُوي أَنَّهُ كَانَ كَلْبَ صَيْدٍ لِبَعْضِهِمْ، وَرُوي أَنَّهُمْ وَجَدُوا فِي طَرِيقِهِمْ رَاعِيًا لَهُ كَلْبٌ، فَاتَّبَعَهُمُ الرَّاعِي عَلَى رَأْيِهِمْ، وَذَهَبَ الْكَلْبُ

معهم، واسم الكلب حمران، وقيل: قطمير. فدخلوا الغار على جميع هذه الأقوال.

فروت فرقة أن الله تعالى ضرب على آذانهم عند ذلك لِمَا أَرَادَ مِنْ سِتْرِهِمْ، وخفي على المملكة مكانهم، وعجب الناس من غرابة فقدهم فَأَرَوْا ذلك ورقموا في لوحين من رصاص أو نحاس، وجعلوه على باب المدينة، فيه أسماءهم وأسماء آبائهم وذكر شرفهم، وأنهم فقدوا بصورة كذا في وقت كذا. وقيل: إن الذي كتب هذا وتهنّم به رجلان قاضيان مؤمنان يكتمان إيمانهما من أهل بيت المملكة، وتسئرا بذلك ودفنا اللوحين عندهما، وقيل على هذه الرواية: إن الملك أتى باب الغار، وأنهم دفنا ذلك في بناء الملك على الغار.

وروت فرقة أن الملك لما ذهب الفتية أمر بقص آثارهم، فأنهى ذلك لمُتَبِعِيهِمْ إلى باب الغار، فعرف الملك فركب في جنده حتى وقف عليه، فأمر بالدخول عليهم، فهاب الرجال ذلك، فقال له بعض وزرائه: أَلَسَتْ أَيْهَا الْمَلِكُ إِنَّ أَخْرَجْتَهُمْ قَتَلْتَهُمْ؟ قال: نعم، قال: فأَيُّ قَتْلَةٍ أَبْلَغَ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، ابْنِ عَلَيْهِمْ بَابَ الْغَارِ وَدَعِهِمْ يَمُوتُوا فِيهِ، فَفَعَلَ، وضرب الله تعالى على آذانهم قبل ذلك لما أَرَادَ مِنْ تَأْمِينِهِمْ، وَأَرْخَ النَّاسُ أَمْرَهُمْ فِي الْلُوحَيْنِ، أَوْ أَرَخَهُ الرَّجُلَانِ بِحَسَبِ الْخِلَافِ، واسم أحد الرجلين - فيما ذكر الطبري - نيدروس، واسم الآخر روقاس.

وَرُوي أَنَّ هَذَا الْمَلِكَ الَّذِي فَرَّ الْفَتِيَّةِ مِنْ دِينِهِ كَانَ قَدْ امْتَحَنَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ أَحَسَّ بِهِمْ، يَقْتُلُهُمْ وَيُعَلِّقُهُمْ أَشْخَاصاً وَرِءُوساً عَلَى أَسْوَارِ مَدِينَتِهِ، وَكَانَ يَرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ فِي ذَلِكَ - كَمَا ذَكَرَ - دِينَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ هُوَ وَقَوْمُهُ مِنَ الرُّومِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْفَتِيَّةِ أَنَّهُمْ لَمَّا أَوَّزُوا إِلَى الْكَهْفِ، أَيُّ: دَخَلُوهُ وَجَعَلُوهُ مَأْوًى لَهُمْ وَمَوْضِعَ اعْتِصَامٍ، دَعَا اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ يُؤْتِيَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ، وَهِيَ الرِّزْقُ فِيمَا ذَكَرَهُ الْمَفْسُورُونَ، وَأَنْ يُهَيِّئَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ رَشْداً، أَيُّ: خُلَاصاً جَمِيعاً، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿رَشَدَا﴾ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَالشَّيْنِ، وَقَرَأَ أَبُو رَجَاءٍ: ﴿رُشْدَا﴾ بِضَمِّ الرَّاءِ وَسُكُونِ الشَّيْنِ، وَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ لَشَبْهِهَا بِفَوَاصِلِ الْآيَاتِ قَبْلُ وَبَعْدُ. وَهَذَا الدِّعَاءُ مِنْهُمْ كَانَ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُمْ، وَأَلْفَاظُهُ تَقْتَضِي ذَلِكَ، وَقَدْ كَانُوا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ رَشْدِ الْآخِرَةِ وَرَحْمَتِهَا.

وَيَنْبَغِي لِكُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَجْعَلَ دِعَاءَهُ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ هَذِهِ الْآيَةَ فَقَطْ، فَإِنَّهَا كَافِيَةٌ. وَيَحْتَمِلُ ذِكْرَ الرَّحْمَةِ أَنْ يُرَادَ بِهَا أَمْرُ الْآخِرَةِ. وَقَدْ اخْتَصَرْتُ هَذَا الْقِصَصَ، وَلَمْ أَفْعِلْ مِنْ مُهْمَةٍ شَيْئاً بِحَسَبِ اجْتِهَادِي. وَاللَّهُ الْمَعِينُ بِرَحْمَتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَفَرَرْنَا عَلَيْهِمْ مَا دَانِيَهُمْ﴾ الآية، عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم، ويُعَبَّرُ عَنْ هَذَا وَنَحْوِهِ بِالضَّرْبِ لِتَبَيُّنِ قُوَّةِ الْمُبَاشَرَةِ وَشِدَّةِ اللَّصُوقِ فِي الْأَمْرِ الْمُتَكَلِّمِ فِيهِ وَالْإِلْزَامِ. وَمِنْهُ ضَرْبُ الذَّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ، وَمِنْهُ ضَرْبُ الْجَزِيَةِ

وَضَرْبُ الْبُعْثِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ: ضَرَبَتْ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتُ بِسَجْجِهَا وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الْكِتَابَ الْمُنْزَلُ فَهُوَ يَسْتَعْمَلُ فِي اللُّزُومِ الْبَلِيغَ.

وَأَمَّا تَخْصِصُ الْآذَانِ بِالذِّكْرِ فَلِأَنَّهَا الْجَارِحَةُ الَّتِي مِنْهَا عُظُمُ فُسَادِ النَّوْمِ، وَقَلَمًا يَنْقَطِعُ نَوْمُ نَائِمٍ إِلَّا مِنْ جِهَةِ أُذُنِهِ، وَلَا يَسْتَحْكُمُ النَّوْمُ إِلَّا مَعَ تَعَطُّلِ السَّمْعِ، وَمَنْ ذَكَرَ الْأُذُنَ فِي النَّوْمِ قَوْلُهُ ﷺ: «ذَلِكَ رَجُلٌ بِالْشَّيْطَانِ فِي أُذُنِهِ»، أَشَارَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى رَجُلٍ طَوِيلِ النَّوْمِ، لَا يَقُومُ بِاللَّيْلِ.

وقوله تعالى: ﴿عَدَدًا﴾ نَعَتْ لِلسَّيْنِ، وَالْقَصْدُ بِهِ الْعِبَارَةُ عَنِ التَّكْثِيرِ، أَيُّ: تَحْتَاجُ إِلَى عَدَدٍ، وَهِيَ ذَاتُ عَدَدٍ. قَالَ الزَّجَّاجُ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَصَبٌ ﴿عَدَدًا﴾ عَلَى الْمَصْدَرِ.

وَالنَّعْتُ: التَّحْرِيكُ بَعْدَ سُكُونٍ، وَهَذَا مَطْرُودٌ مَعَ لَفْظَةِ الْبُعْثِ حَيْثُ وَقَعَتْ، وَقَدْ يَكُونُ السُّكُونُ فِي الشَّخْصِ، أَوْ عَنِ الْأَمْرِ الْمَبْعُوثِ فِيهِ وَإِنْ كَانَ الشَّخْصُ مُتَحَرِّكاً. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِنَقِمَنَّ﴾ عِبَارَةٌ عَنْ خُرُوجِ ذَلِكَ الشَّيْءِ إِلَى الْوُجُودِ، وَهَذَا عَلَى نَحْوِ كَلَامِ الْعَرَبِ، أَيُّ: لَنَعْلَمَ ذَلِكَ مَوْجُوداً، وَإِلَّا فَقَدْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى عَلِيمٌ أَيْ الْحَزِينُ أَحْصَى الْأَمَدَ. وَقَرَأَ الزَّهْرِيُّ: ﴿لِيَفْلَمَنَّ﴾ بِالْبَاءِ.

وَالْحَزْبَانِ: الْفَرِيقَانِ، وَالظَّاهِرُ مِنْ الْآيَةِ أَنَّ الْحِزْبَ الْوَاحِدَ هُمُ الْفَتِيَّةُ إِذْ ظَنُّوا لِبُيُوتِهِمْ قَلِيلاً، وَالْحِزْبُ الثَّانِي هُمُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ بُعِثَ الْفَتِيَّةُ عَلَى عَهْدِهِمْ حَتَّى كَانَ عِنْدَهُمُ التَّارِيخُ بِأَمْرِ الْفَتِيَّةِ. وَهَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ مِنَ الْمَفْسُورِينَ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هُمَا حَزْبَانِ

وَأِذْ أَنْعَمْتَ لَتُؤْمِنَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدِعْ إِلَى الْكَهْفِ
يُنْشَرُ لَكُمْ رُحْمُكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا
﴿١٥﴾ وَرَأَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوَعْنَ كَهْفَهُمْ ذَاتَ
الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبَهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ
مِنْ ذَلِكَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ
يَضِلَّ فَلَنْ يُحْدِثَهُ وَلَا يُلَاقِيَهُمْ رُحْمًا ﴿١٦﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آفَاطًا
وَهُمْ رُفُودٌ وَيَقِيلُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ
بِسِطْرٍ ذَرَأَ عَلَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٧﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ
لِسَاءِ أَوْلَادِهِمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا الْبَيْنَا
يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا
أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٨﴾ إِنَّمَا أَنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يَشْفَعُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدْنَا ﴿١٩﴾

بالحق الذي وقع. وفي مجموع هذه الآيات جواب قريش عن سؤالهم الذي أمرتهم به بنو إسرائيل. والقصص: الإخبار بأمر يسرد، لا بكلام يُروى شيئاً شيئاً، لأن تلك المخاطبة ليست بقصص. وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ هُنَا﴾ أي: يسرناهم للعمل الصالح، والانقطاع إلى الله عز وجل، ومباعدة الناس، والزهدي في الدنيا، وهذه زيادات على الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن

شدة عزم وقوة صبر أعطاهما الله لهم، ولما كان الفزع وخوَر النفس يشبه بالتناسب الانحلال، حُسن في شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه الرُّبُط، ومنه يقال: «فلان رابط الجأش» إذا كان لا تفترق نفسه عند الجزع والحرب وغيرها، ومنه الرُّبُط على قلب أم موسى. وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر؛ فإنه مقام يحتاج إلى الرُّبُط على القلب، حيث طلبوا عليه، وخالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيئته. والمعنى الثاني أن يُعَبَّرَ بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس، كما تقول: «قام فلان إلى أمر كذا» إذا عزم عليه بغاية الجد، وبهذه الألفاظ التي هي: «قَامُوا

من الكافرين اختلفاً في مدة أصحاب الكهف. وقالت فرقة: هما حزبان من المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا يرتبط من ألفاظ الآية.

وأما قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ﴾ فالظاهر الجيد فيه أنه فعل ماض، و﴿أَمْدًا﴾ منصوب به على المفعول، و﴿الْأَمْدُ﴾: الغاية، ويأتي عبارة عن المدة من حيث للمدة غاية هي أمدها على الحقيقة، وقال الزجاج: ﴿أَحْسَنَ﴾ هو أفعل، و﴿أَمْدًا﴾ - على هذا - نصب على التفسير، ويلحق هذا القول من الاختلال أن (أَفْعَلَ) لا يكون من فعل رباعي إلا في الشاذ، و﴿أَحْسَنَ﴾ فعل رباعي. ويحتاج لقول أبي إسحق بأن (أَفْعَلَ) من الرباعي مذكر، كقولك: ما أعطاه للمال وآتاه للخير، وقال النبي ﷺ في صفة جهنم: «هي أسود من القار»، وقال في صفة حوضه عليه الصلاة والسلام: «أبيض من اللبن»، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «فهو لما سواها أضيغ»، وهذه كلها (أَفْعَلَ) من الرباعي، وقال مجاهد: ﴿أَمْدًا﴾ معناه: غاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير بالمعنى، وعلى جهة التقريب، وقال الطبري: نصب ﴿أَمْدًا﴾ بـ ﴿يَسْتَوُوا﴾، وهذا غير مُتَّجِه.

﴿١٢﴾ - تفسير قوله عز وجل: ﴿لَمَّا أَتَيْنَا عَلَى الْكَلْبِ الْمَنِئِيِّ﴾ لما اقتضى قوله تعالى: ﴿لَمَّا أَتَيْنَا عَلَى الْكَلْبِ الْمَنِئِيِّ﴾ اختلافاً وقع في أمر الفتية عقب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم

فَقَالُوا: تَعَلَّقَتِ الصَّوْفِيَّةُ فِي الْقِيَامِ وَالْقَوْلِ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ: ﴿إِذْ قَامُوا قِيَامًا فَقَالُوا﴾.

وقولهم: ﴿لَمَّا أَتَيْنَا عَلَى الْكَلْبِ الْمَنِئِيِّ﴾ أي: لو دعونا من دون ربنا إلهاً، و﴿الشُّطُطُ﴾: الجَوَرُ وتعدي الحد والغلو بحسب أمر أمر، ومنه: «اشتط الرجل في السُّؤْم» إذا طلب في سلعته فوق قيمتها، ومنه: شطوط الثوى والبعد، ومنه قول الشاعر:

أَلَا يَا لَقَوْمِي قَدْ أَشْطَطَتْ عَوَازِلِي
وَزَعَمْنِ أَنْ أَوْذَى بِحَقِّي بَاطِلِي
وقوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ مقالة يصلح أن تكون مما قالوه في مقامهم بين يدي الملك، ويصح أن تكون من قول بعضهم لبعض عند قيامهم للأمر الذي عزموا عليه. وقولهم: ﴿لَوْلَا بَأْتُونَكَ﴾ تخضيض بمعنى

التمعيز؛ لأنه تَخْصِيصٌ على ما لا يمكن؛ وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يُلْتَفَتَ إلى دعواهم. و«السُّلْطَانُ»: الحُجَّةُ، وقال قتادة: المعنى: يُغْدِرُ بَيْنَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عبارة محقة.

ثم عَظُمَ جُزْمُ الداعين مع الله آلهة وظَلَمَتَهُم بقوله - على جهة التقرير -: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا».

وقوله تعالى: «وَإِذْ أَعْرَضْنَاهُمْ» الآية. إِنْ كَانَ «الْقِيَامُ» فِي قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: «إِذْ قَامُوا» عَزْمًا - كَمَا تَضْمَنُ التَّأْوِيلُ الْوَاحِدُ، وَكَانَ «الْقَوْلُ» مِنْهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ - فَهَذِهِ الْمَقَالَةُ يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مِنْ قَوْلِهِمُ الَّذِي قَالُوهُ عِنْدَ قِيَامِهِمْ؛ وَإِنْ كَانَ «الْقِيَامُ» الْمَذْكُورُ مَقَامَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ فَهَذِهِ الْمَقَالَةُ لَا تَتَرْتَّبُ أَنْ تَكُونَ مِنْ «مَقَالِهِمْ» بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ، بَلْ يَكُونُ فِي الْكَلَامِ حَذْفُ تَقْدِيرِهِ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ. وَبِهَذَا يَتَرَجَّحُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: «إِذْ قَامُوا فَقَالُوا» إِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ: إِذْ عَزَمُوا وَنَفَذُوا لِأَمْرِهِمْ.

وقوله تعالى: «إِلَّا اللَّهُ»، إِنْ فَرَضْنَا الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَرَأُوا أَهْلَ الْكَهْفِ مِنْهُمْ لَا يَعْرِفُونَ اللَّهَ تَعَالَى، وَلَا عَلِمَ لَهُمْ بِهِ، إِنَّمَا يَعْتَقِدُونَ الْأُلُوهِيَّةَ فِي أَصْنَامِهِمْ فَقَطْ، فَهُوَ اسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٍ لَيْسَ مِنَ الْأَوَّلِ، وَإِنْ فَرَضْنَاهُمْ يَعْرِفُونَ اللَّهَ تَعَالَى وَيَعْظُمُونَهُ كَمَا كَانَتْ تَفْعُلُ الْعَرَبُ، لَكِنْهُمْ يَشْرَكُونَ أَصْنَامَهُمْ مَعَهُ فِي الْعِبَادَةِ، فَالاسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ؛ لِأَنَّ الْإِعْتِزَالَ وَقَعَ فِي كُلِّ مَا

يَعْبُدُ الْكُفَّارُ إِلَّا فِي جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَفِي مَصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «وَمَا يَغْبُتُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ»، قَالَ قَتَادَةُ: هَذَا تَفْسِيرُهَا، قَالَ هَارُونَ: وَفِي بَعْضِ مَصَاحِفِهِ: «وَمَا يَغْبُتُونَ مِنْ دُونِنَا».

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَعَلَى مَا قَالَ قَتَادَةُ تَكُونُ «إِلَّا» بِمَنْزِلَةِ «غَيْرِ»، وَ«وَمَا» مِنْ قَوْلِهِ: «وَمَا يَغْبُتُونَ» فِي مَوْضِعِ نَصَبِ عَقْفًا عَلَى الضَّمِيرِ فِي «أَعْرَضْنَاهُمْ».

وَمُضْمِنُ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ لِبَعْضٍ: إِذْ فَارَقْنَا الْكُفَّارَ وَانْفَرَدْنَا بِاللَّهِ تَعَالَى فَلَنَجْعَلَ الْكَهْفَ مَأْوًى، وَنَتَّكِلَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ يَبْسُطُ لَنَا رَحْمَتَهُ، وَيُنْشِرُهَا عَلَيْنَا، وَيُهَيِّئُ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَرْفَقًا، وَهَذَا كُلُّهُ دَعَاءٌ بِحَسَبِ الدُّنْيَا، وَعَلَى ثِقَةٍ كَانُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَمْرِ آخِرَتِهِمْ.

وَقَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ: «مَرْفَقًا» بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِ الْفَاءِ، وَهُوَ مَصْدَرٌ كَالرَّفَقِ فِيمَا حَكَى أَبُو زَيْدٍ، وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي جَعْفَرٍ، وَالْأَعْرَجِ، وَشَيْبَةَ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَعَاصِمٌ، وَحُمَزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ، وَالْحَسَنُ، وَطَلْحَةُ، وَالْأَعْمَشُ، وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ: «مَرْفَقًا» بِكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِ الْفَاءِ، وَيَقَالُانِ جَمِيعًا فِي الْأَمْرِ وَفِي الْجَارِحَةِ، حَكَاهُ الرَّجَاجُ، وَذَكَرَ مَكِّيٌّ عَنِ الْفَرَّاءِ أَنَّهُ قَالَ: لَا أَعْرِفُ فِي الْأَمْرِ وَفِي الْيَدِ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا كَسْرَ الْمِيمِ، وَأَنْكَرَ الْكَسَائِيُّ أَنْ يَكُونَ «الْمَرْفِقُ» مِنَ الْجَارِحَةِ إِلَّا بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِ الْفَاءِ، وَخَالَفَهُ أَبُو حَاتِمٍ وَقَالَ: «الْمَرْفِقُ» بِفَتْحِ الْمِيمِ الْمَوْضِعُ كَالْمَسْجِدِ، وَهَذَا بَعْدَ لَفْتَانِ.

﴿١٧﴾ - ﴿١٨﴾ تفسیر قوله عز وجل:

بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ اقْتَضَابٌ بَيْنُهُمَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ، وَتَقْدِيرُهُ: فَأَوَّزُوا وَضَرَبَ اللَّهُ عَلَى آذَانِهِمْ، وَمَكْشُوا كَذَلِكَ.

وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو: «تَزَوَّرُوا» بِشَدِيدِ الزَّايِ وَإِدْغَامِ النَّاءِ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ، وَحُمَزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ: «تَزَوَّرُوا» بِتَخْفِيفِهَا، بِتَقْدِيرٍ: تَتَزَوَّرُوا، فَحَذَفْتُ إِحْدَى الثَّانِيَيْنِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ، وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ، وَقَتَادَةُ: «تَزَوَّرُوا» عَلَى وَزْنِ تَحَمَّرَ، وَقَرَأَ الْجَحْدَرِيُّ، وَأَبُو رَجَاءٍ: «تَزَوَّرُوا» بِالْفَاءِ بَعْدَ الْوَاوِ. وَمَعْنَى اللَّفْظَةِ عَلَى كُلِّ هَذَا التَّصْرِيفِ: تَغْدِيلُ وَتَزَوُّغٌ وَتَعْمِيلٌ، وَهَذِهِ عِبَارَاتُ الْمَفْسِّرِينَ، أَمَّا إِنْ الْأَخْفَشُ قَالَ: «تَزَوَّرُوا» مَعْنَاهُ: تَتَّقِيضُ، وَالزُّوْرُ: التَّعْيِلُ، وَالْأَزْوَرُ فِي الْعَيْنِ: الْمَائِلُ النَّظَرُ إِلَى نَاحِيَةٍ، وَيَسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ الْعَيْنِ، كَقَوْلِ ابْنِ أَبِي رَيْبَةَ:

..... وَجُنُبِي خَيْفَةُ الْقَوْمِ أَزْوَرُ
وَمِنَ اللَّفْظَةِ قَوْلُ عَتَرَةٍ:

فَارْوُذُ مِنْ وَقَعَ الْقَسَا يَلْبَسَانِيهِ
.....

وَمِنْهُ قَوْلُ بَشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ:
تَوَّزُّ بِهَا الْحُدَاةُ مَيَاةً تَخْلُ
وَفِيهَا عَنْ أَبَانِ بْنِ أَرْوَارَ
وَفِي حَدِيثِ غَزْوَةِ مُؤَنَّةَ أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي سَرِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
رَوَاحَةَ أَرْوَارًا عَنْ سَرِيرِ جَعْفَرٍ
وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ.

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: «تَقَرَّضَهُمْ» بِالنَّاءِ، وَقَرَأَتْ فَرَقَةُ: «يَقَرِّضُهُمْ» بِالْيَاءِ، أَيْ الْكَهْفِ، كَأَنَّهُ مِنَ الْقَرَضِ وَهُوَ

القطع، أي: يَقْطَعُهُم الكهفُ بظله من ضوء الشمس. وجمهور من قرأ بالتاء فالمعنى أنهم كانوا لا تصيبهم شمس البتة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، فيتأولون ﴿تَقْرَهُمْ﴾ بمعنى: تتركهم، أي: كأنها عنده تقطع كل ما لا تناله عن نفسها، وفرقة ممن قرأ بالتاء تأولت أنها كانت بالعشي تنالهم فكأنها تقرضهم، أي تقطعهم مما لا تناله، وقالوا: كان في مسألتهم بالعشي صلاح لأجسامهم. وحكى الطبري أن العرب تقول: قرضت موضع كذا، أي قطعت، ومنه قول ذي الرمة:

إِلَى ظُغْنٍ يَفْرُسُنْ أَجْوَا مُشْرِفٍ
شِمَالاً وَعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الْقَوَارِصُ
ومنه: أقرضني درهماً، أي: اقطعه لي من مالك. وهذه الصفة مع الشمس تقتضي أنه كان لهم حاجب من جهة الجنوب، وحاجب من جهة الدبور، وهم في زاويته. وحكى الزجاج وغيره قال: كان باب الكهف ينظر إلى بنات نعش، وقال عبدالله بن مسلم، وهذا نحو ما قلناه، غير أن الكهف كان مستور الأعلى من المطر. وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس كان آية من الله تعالى دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ذَاتَ اللَّيْلِ﴾ و﴿ذَاتَ النَّهَالِ﴾ يحتمل أن يريد: ذات يمين الكهف، بأن تقدر باب الكهف بمشابة وجه إنسان، فإن الشمس تجيء منه أول النهار عن يمين وآخره عن شمال، ويحتمل أن

يريد: ذات يمين الشمس وذات شمالها، بأن تقدر الشعاع الممتد منها إلى الكهف بمشابة وجه الإنسان. والوجه الأول أوضح. و﴿الْفَجْوَةُ﴾: الْمُتَسَّعُ، وَجَمْعُهَا فِجَاءٌ، قال قتادة: في فضاء منه، ومنه الحديث: كان رسول الله ﷺ يَبْسُرُ الْعَتَقَ، فإذا وجد فجوة نص. وقال ابن جبير: ﴿فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾: في مكان داخل.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ إشارة إلى الأمر بجملته، وعلى قول الزجاج «إن الشمس كانت تزاور وتقرض دون حجاب» تكون الإشارة إلى هذا المعنى خاصة. ثم تابع بتعظيم الله عز وجل والتسليم له وما يقتضي صرف الآمال إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتُنَا﴾ وَهُمْ رُفُودٌ الآية... صفة حال قد انقضت، وجاءت أفعالها مستقبلة تَجَوَّزًا وَاتِّسَاعًا. و﴿آيَاتُنَا﴾ جمع يَقْظٌ، كَقَضْدٍ وَأَعْضَادٍ، وهو المُتَنَبِّه. قال أهل التفسير: كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون، فلذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يحسب الرائي ذلك لشدة الحفظ الذي كان عليهم، وقلة التغير، وذلك أن الغالب على النائم أن يكون لهم استرخاء وهيئات تقتضي النوم، ورُبَّ نائم على أحوال لم تتغير عن حالة اليقظة، فيحسبه الرائي يقظاً وإن كان مسدود العين، ولو صَحَّ فتح أعينهم بسند يقطع العذر كان أَيْبَنَ في أن يحسب عليهم التيقظ.

وقرأ الجمهور: ﴿وَتَقْلِبُهُمْ﴾ بنون العظمة، وقرأ الحسن: ﴿وَتَقْلِبُهُمْ﴾ بالتاء المفتوحة وضم اللام والباء، وهو مصدر مرتفع بالابتداء، قاله أبو حاتم. وحكى ابن جني القراءة عن الحسن بفتح التاء وضم اللام وفتح الباء، وقال: هذا نصب بفعل مقدر، كأنه قال: وَتَرَى، أو تُشَاهِدُ تَقْلِبُهُمْ. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأبو حاتم أثبت.

ورأت فرقة أن الثَّقَلُ هو الذي من أجله كان الرائي يحسبهم أيقاظاً. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا - وإن كان الثَّقَلُ لمن صادف رؤيته دليلاً على ذلك - فإن ألفاظ الآية لم تُشَفِّهِ إِلَّا خَبْرًا مُشْتَأَفًا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان هذا الثقل مرتين في السنة، وقالت فرقة: كل سنة مرة، وقالت فرقة: كل سبع سنين مرة، وقالت فرقة: إنما قُلِبُوا في التسع الأواخر، وأما الثلاثمائة فَلَآ. وذكر بعض المفسرين أن ثَقْلَهُمْ إنما كان حِفْظاً من الأرض، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لو مُسَّتْهم الشمس لأحرقتهم، ولولا الثقل لأكلتهم الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وآية الله تعالى في نومهم هذه المدة الطويلة وحياتهم دون تَغَدٍّ أَذْهَبَ في الغرابة من حفظهم من مَسِّ الشمس ولزوم الأرض، ولكنها روايات تختلف وتُتَأَمَّلُ بعد، وظاهر كلام المفسرين أن الثَّقَلُ كان بأمر الله تعالى وفعل ملائكته. ويحتمل أن يكون ذلك بإقدار الله إياهم على

ذلك وهم في غمرة النوم وهم لا ينتبهون كما يعترى كثيراً من النوم؛ لأن القوم لم يكونوا موتى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ﴾. أكثر المفسرين على أنه كَلْبٌ حقيقة، كان لصيد أحدهم فيما رُوي، وقيل: كان لراع مرّوا عليه فصحبهم وتبعه الكلب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحديثي أبي رضي الله عنه قال: سمعتُ أبا الفضل بن الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم، كَلْبٌ أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله تعالى في محكم تنزيله. وقيل: كان أنمر، وقيل: كان أحمر، وقالت فرقة: كان رجلاً طباحاً لهم، حكاه الطبري ولم يسمُ قائله، وقالت فرقة: كان أحدهم، وكان قعد عند باب الغار طليعة لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قسُمي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس، كما سُمي النجم التابع للجوزاء كلباً لأنه منها كالكلب من الإنسان، ويقال له: كلب الجبار. أما إن هذا القول يضعفه ذكر بسط الذراعين فإنها في العرف في ضفة الكلب حقيقة، ومنه قول النبي ﷺ: «ولا ييسط أحدكم ذراعيه في السجود اتبساط الكلب»، وقد حكى أبو عمر المطرّز في كتاب اليواقيت أنه قرئ: «وَكَلْبُهُمْ» باسِطٌ ذِرَاعِيهِ، فيحتمل أن يريد بالكلاب هذا الرجل على ما رُوي؛ إذ يَسِطُ الذراعين واللصوق بالأرض مع رفع

الوجه للتطلع هي هيئة الربيثة المستخفي بنفسه، ويحتمل أن يريد بالكلاب الكلب. وقوله تعالى: ﴿بَسِطَ ذِرَاعِيهِ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضى لأنها حكاية، ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب. و«الرّصيد»: العتبة التي لباب الكهف، أو موضعها حيث ليست،

وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير: الرّصيد: الفناء. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: الرّصيد: الباب، وقال ابن جبير أيضاً: الرّصيد: التراب، والقول الأول أصح، والباب الموصد هو المثلث، أي: وقف على وصيده.

ثم ذكر الله تعالى ما حقهم من الرُعب واكتنفهم من الهيبة، وقرأ: ﴿لَوْ أَطْلَقْتُ﴾ بكسر الواو جمهور القراء، وقرأ الأعمش، وابن وثاب: ﴿لَوْ أَطْلَقْتُ﴾ بضمها، وقد ذكر ذلك عن نافع، وشيبة، وأبي جعفر، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عباس رضي الله عنهما، وأهل مكة والمدينة: ﴿وَكَلْبَتُ﴾ بشد اللام على تضعيف المبالغة، أي: مُلِثْتُ ثم مُلِثْتُ، وقرأ الباقر: ﴿لَمُلِثْتُ﴾ بتخفيف اللام، والتخفيف أشهر في اللغة، وقد جاء التشكيل في قول المُخَبِّل السعدي:

وَإِذْ فَتَكَ الثُّغَمَانِ بِالنَّاسِ مُخْرِماً
فَمُلَى مِنْ كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ سَلَابِلُهُ
وقالت فرقة: إنما حقهم هذا الرعب لطول شعورهم وأظفارهم، ذكره المهدوي والزجاج، وهذا قول بعيد، ولو كانت حالهم هكذا لم يقولوا: ﴿لِئَنَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾،

وإنما الصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي قاموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيها آية، فلم يبَلْ لهم ثوب، ولا تغيّرت صفة، ولا أنكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم، ولروي ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿رُغَبًا﴾ بسكون العين، وقرأ: ﴿رُغْبًا﴾ بضمها أبو جعفر وعيسى، قال أبو حاتم: هما لغتان.

① - ② تفسير قوله عز وجل: الإشارة بـ «ذَلِكَ» إلى الأمر الذي ذكره الله تعالى في جهتهم والعبرة التي جعلت فيهم. و«الْبَغْتُ»: التحريك عن سكون، واللام في قوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَسْأَلُوا﴾ لام الصيرورة؛ لأن بعثهم لم يكن لنفس تسألهم، وقول القائل: ﴿كَمْ لَيْثٌ﴾ يقتضي أنه هجس بخاطره طول نومهم، واستشعر أن أمرهم خرج عن العادة بعض الخروج، وظاهر أمرهم أنهم انتبهوا في حال من الوقت والهواء الزمني لا تباين التي ناموا فيها، وأما أن يُخَدَّدَ الأمر جداً فذلك بعيد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿بِوَرَقِكُمْ﴾ بكسر الراء، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: ﴿بِوَرَقِكُمْ﴾ بسكون الراء، وهما لغتان، وحكى الزجاج قراءة ﴿بِوَرَقِكُمْ﴾ بكسر الواو وسكون الراء دون إدغام، وروي عن أبي عمرو الإدغام، وإنما هو إخفاء؛ لأن

الإدغام مع سكون الراء متعذر، وأدغم ابن محيصن القاف في الكاف، قال أبو حاتم: وذلك إنما يجوز مع تحريك الراء، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿يُؤَارِقُكُمْ﴾، اسم جمع كالجائل والباقر، وقرأ أبو رجاء: ﴿يُؤَرِّقُكُمْ﴾ بكسر الواو والراء والإدغام.

ويروى أنهم انتبهوا أحياناً، وأن المبعوث هو تَمْلِيخًا، وروي أنهم صلوا كأنهم ناموا ليلة واحدة وبعثوا تَمْلِيخًا في صبيحتها. وروي أن باب الكهف انهدم بناء الكفار منه لطول السنين، وروي أن راعياً هدمه ليدخل فيه غنمه. فأخذ تَمْلِيخًا ثياباً منكورة رثّة ولبسها وخرج من الكهف فأكثر ذلك البناء المهذوم؛ إذ لم يعرفه بالأمس، ثم مشى فجعل يذكر الطريق والمعالم ويتحير، وهو في ذلك لا يشعر شعوراً تاماً، بل يكذب ظنه فيما تغير عنده، حتى بلغ باب المدينة، فرأى على بابها أمانة الإسلام فزادت حيرته وقال: كيف هذا ببلدة دقنيوس وبالأمس كنا معه حيشماً كئناً؟ فنهض إلى باب آخر فرأى نحواً من ذلك حتى مشى الأبواب كلها، فزادت حيرته ولم يميز بشراً، وسمع الناس يقسمون باسم عيسى فاستراب بنفسه وظن أنه جُنٌّ وانفسد عقله، فبقي حيران يدعو الله تعالى، ثم نهض إلى بائع الطعام الذي أراد شراؤه، فقال: يا عبدالله بعني من طعامك بهذا الورق، فدفع إليه دراهم كأخفاف الرُّبْع فيما يذكر، فعجب لها البياض ودفعتها إلى آخر يُعَجِّبُهُ، وتعاطاها الناس وقالوا

له: هذه دراهم عهد فلان الملك، من أين أنت؟ وكيف وجدت هذا الكنز؟ فجعل يبهت ويعجب، وقد كان بالبلدة مشهوراً هو وفتيته، فقال: ما أعرف غير أنني وأصحابي خرجنا بالأمس من هذه المدينة، فقال الناس: هذا مجنون، اذهبوا به إلى الملك، ففزع عند ذلك، فذهب به حتى جيء به إلى الملك، فلما لم ير دقنيوس الكافر تأنس، وكان ذلك الملك مؤمناً فاضلاً يُسَمَّى ثَيْرُوسيس، فقال له الملك: أين وجدت هذا الكنز؟ فقال له: إنما خرجت أنا وأصحابي أمس من هذه المدينة، فأوتينا إلى الكهف الذي في جبل أنجلوس، فلما سمع الملك ذلك قال - في بعض ما روي -: لعل الله قد بعث لكم أيها الناس آية، فلنسّر إلى الكهف معه حتى نرى أصحابه، فسار. وروى أنه أو بعض جلسائه قال: هؤلاء هم الفتية الذين أُرْخَ أمرهم على عهد دقنيوس الملك وكتب لوح النحاس بباب المدينة، فسار الملك إليهم وسار الناس معه، فلما انتهوا إلى الكهف قال تَمْلِيخًا: أَدْخُلْ عليهم لثلاً يربعوا، فدخل عليهم وأعلمهم بالأمر وأن الأمة أمة إسلام، فيروى أنهم سُرُّوا وخرجوا إلى الملك وعظّموه وعظمهم، ثم رجعوا إلى كهفهم، وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدثهم تَمْلِيخًا، فانظروهم الناس، فلما أبطأ خروجهم دخل الناس إليهم، فرعب كل من دخل، ثم أقدموا فوجدوهم موتى، فتنازعوا بحسب ما يأتي في الآية التي بعد هذه.

وفي هذا القصص من اختلاف الروايات والألفاظ ما تضيق به الصحف، فاختصرته وذكرْتُ المهم الذي تنفسر به ألفاظ هذه الآية، واعتمدتُ الأصح، والله المعين برحمته.

وفي هذه البعثة بالوَرَقِ الوكالة وَصَحَّتْهَا، وقد وكل علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخاه عقيلاً عند عثمان رضي الله عنهم.

وقرأ الجمهور: ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ بسكون لام الأمر، وقرأ الحسن: ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ بكسرهما. و﴿أَنْذَكُ﴾ معناه: أكثر، فيما ذكر عكرمة، وقال قتادة: معناه: خير، وقال مقاتل: المراد: أطيب، وقال ابن جُبَيْر: المراد: أحل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: من جهة ذبائح الكفرة وغير ذلك، فروى أنه أراد شراء زبيب، وقيل: بل شراء تمر.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَنْظُرْ﴾، أي: في اختفائه وتَحِيلِهِ، وقرأ الحسن: ﴿وَلْيَنْظُرْ﴾ بكسر اللام.

والضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائد على الكفار آل دقنيوس، و﴿يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ معناه: يتقفوكم بعلومهم وغلبتهم، وقوله تعالى: ﴿يَرْجُوكُ﴾، قال الزجاج: معناه: بالحجارة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو الأصح؛ لأنه كان عازماً على قتلهم لو ظفر بهم. والرجم فيما سلف هي كانت - على ما ذكر - قِتْلَةٌ مخالف دين الناس، إذ هي أشقى لجملة ذلك في الدين، ولهم فيها

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بِالْأَيْمِينِ﴾
معناه: ظناً، وهو مستعار من
الرجم، كأن الإنسان يرمي الموضع
المشكوك المجهول عنده بظنه المرة
بعد المرة، يرجمه به عسى أن
يصيب، ومن هذا: الترجمان،
وترجمة الكتب، ومنه قول زهير:

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَدَقْتُمْ
وَمَا هُرْ عَثَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ
والواو في قوله تعالى: ﴿وَتَأْمُرُهُمْ
كَتِبُهُمْ﴾ طريق النحويين فيها أنها
واو عطف دخلت في آخر إخبار عن
عدددهم، لتفصل أمرهم، وتدل على
أن هذا نهاية ما قيل، ولو سقطت
لصح الكلام، [ولو كانت فيما قبل
من قوله: ﴿رَأَيْبُهُمْ﴾ و﴿سَادُسُهُمْ﴾
لصح الكلام]، وتقول فرقة منها ابن
خالويه: هي واو الثمانية، وذكر ذلك
الثعلبي عن أبي بكر بن عياش، وأن
قريباً كانت تقول في عددها: ستة،
سبعة، وثمانية، تسعة، فتدخل الواو
في الثمانية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقد تقدم شرحها، وهي في القرآن
في قوله تعالى: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، وقوله:
﴿وَوَيْحَتْ أَوَّلُهَا﴾، وأما قوله تعالى:
﴿يَنْبِئُ وَيُنْكَرُ﴾، وقوله: ﴿سَجَّ لَبَالٍ
وَكَلْبِيَّةَ آيَاتٍ﴾ فتوهم في هذين
الموضعين أنها واو الثمانية وليست
بها، بل هي لازمة لا يستغني الكلام
عنها.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه
أن يَزِدَّ عِلْمَ عِدَّتِهِمْ إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثم
أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل،
والمراد به قوم من أهل الكتاب،

وكان ابن عباس رضي الله عنهما
يقول: «أنا من ذلك القليل، وكانوا
سبعة وثامنهم كليهم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وُيُسْتَدَلُّ عَلَى هَذَا مِنَ الْآيَةِ، فَإِنَّ
الْقُرْآنَ لَمَّا حَكَى قَوْلَ مَنْ قَالَ ثَلَاثَةَ
وخمسة قَرَنَ بِالْقَوْلِ أَنَّهُ رَجِمَ
بِالْغَيْبِ، وَقَدْحَ ذَلِكَ فِيهِمَا، ثُمَّ
حَكَى هَذِهِ الْمَقَالَةَ وَلَمْ يَقْدَحْ فِيهَا
بِشَيْءٍ، بَلْ تَرَكَهَا مَسْجُودَةً، وَأَيْضاً
فَيَقْوَى ذَلِكَ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهَا وَاوِ
الْثَمَانِيَةِ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ حَيْثُ عِدَدُ
الْثَمَانِيَةِ صَحِيحٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا
رِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ﴾ معناه على بعض
الأقوال، أي: بظاهر ما أوحينا إليك
وهو رد علم عِدَّتِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى، وَقِيلَ: مَعْنَى الظَّاهِرِ أَنَّ
يَقُولُ: لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ، وَنَحْوُ
هَذَا، وَلَا يَحْتَاجُ هُوَ عَلَى أَمْرِ مُقَدَّرٍ
فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ مَرَاءً فِي
بَاطِنٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَقَالَ التَّبْرِيزِيُّ:
﴿ظَاهِرًا﴾ مَعْنَاهُ: ذَاهِبًا، وَأَشْدُّ:

.....
وَيَلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرَةٌ عَنكَ عَارِضًا
وَلَمْ يُبَيِّحْ لَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ
يَمَارِي، وَلَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا رِيَّةٌ﴾
استعارة، من حيث يماريه أهل
الكتاب سُمِّيَتْ مَرَاغَعَتُهُ لَهُمْ مَرَاءً،
ثُمَّ قُيِّدَ بِأَنَّهُ ظَاهِرٌ فَفَارَقَ الْمَرَاءَ
الْحَقِيقِي الْمَذْمُومَ. وَ«الْمَرَاءُ» مُشْتَقٌّ
مِنَ الْمِرْيَةِ، وَهِيَ الشُّكُّ، فَكَأَنَّهُ
الْمُشَاكَكَةُ. وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿فِيهِمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى أَهْلِ الْكَهْفِ،
وَفِي قَوْلِهِ سَبَّحَانَهُ: ﴿فِيهِمْ﴾ عَائِدٌ
عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُعَاَصِرِينَ.

وقوله: ﴿فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ﴾ يعني: في
عِدَّتِهِمْ، وَخَذِذْتَ الْعِدَّةَ لِلدَّلَالَةِ ظَاهِرِ
الْقَوْلِ عَلَيْهَا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾
الآية. عاتب الله تعالى نبيه ﷺ على
قوله للكفار: عُدَا أَخْبِرْكُمْ بِجَوَابِ
أَسْأَلْتَكُمْ، وَلَمْ يَسْتَشِنْ فِي ذَلِكَ،
فاحتبس عنه الوحي خمسة عشر يوماً
حتى شق ذلك عليه، وأرجف الكفار
به، فزلت عليه هذه السورة مفرجة،
وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر
من الأمور: إني أفعل غداً كذا وكذا
إِلَّا وَأَنْ يُعَلِّقَ ذَلِكَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ. وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿لِشَيْءٍ﴾ بِمَنْزِلَةِ (فِي)، أَوْ كَأَنَّهُ
قَالَ: لِأَجْلِ شَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ﴾، فِي الْكَلَامِ حَذَفَ
يَقْتَضِيهِ الظَّاهِرُ وَيُحَسِّنُهُ الْإِيجَازُ،
تَقْدِيرُهُ: إِلَّا أَنْ تَقُولَ: «إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ»، أَوْ إِلَّا أَنْ تَقُولَ: «إِنْ
شَاءَ اللَّهُ». فَالْمَعْنَى: إِلَّا أَنْ تَذْكُرَ
مَشِيئَةَ اللَّهِ، فَلَيْسَ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ﴾ مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي تُهْمِي عَنْهُ.
وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا
تَقُولَنَّ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا قول حكاه الطبري ورُدَّ عليه،
وهو من الفساد بحيث كان من
الواجب ألا يُحْكِيَ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا
نَسِيتَ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالحسن:
معناه والإشارة به إِلَى الاستثناء،
أَي: وَلَتَنْتَشِنْ بَعْدَ مَدَّةٍ إِذَا نَسِيتَ
الاستثناء أولاً لِتُخْرِجَ مِنْ جُمْلَةٍ مَنْ
لَمْ يَعْلُقْ فَعَلَهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَقَالَ

عكرمة: المعنى: واذكر ربك إذا غضبت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتكلم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليمين، والآية ليست في الأيمان، وإنما هي في سنة الاستثناء في غير اليمين، ولكن من حيث تكلم الناس فيها ينبغي أن نذكر شيئاً من ذلك.

أما مالك رحمه الله وجميع أصحابه - فيما علمت - وكثير من العلماء فيقولون: لا ينفع الاستثناء ويسقط الكفارة إلا أن يكون متصلاً باليمين. وقال عطاء: له أن يستثنى في قدر حَلَبِ الثَّاقَةِ الغزيرة. وقال قتادة: إن استثنى قبل أن يقوم فَلَهُ ثُثْيَاهُ، وقال ابن حنبل: له الاستثناء ما دام في ذلك الأمر، وقاله ابن راهويه. وقال طاوس، والحسن: ينفع الاستثناء ما دام الحالف في مجلسه. وقال ابن جبير: ينفع الاستثناء بعد أربعة أشهر فسقط، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ينفع الاستثناء ولو بعد سنة. وقال مجاهد: بعد مستين، وقال أبو العالية: ينفع أبداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واختلف الناس في التأويل عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقال الطبري وغيره: إنما أراد ابن عباس أنه ينفع في أن يجعل الحالف في رتبة المستثنين بعد سنة من حلفه، وأما الكفارة فلا تسقط عنه، قال الطبري: ولا أعلم أحداً يقول: (ينفع الاستثناء بعد مدة) يقول بسقوط الكفارة، قال: وَيَزُودُ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى

يَعِينُ ثُمَّ رَأَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا فَلْيَكْفُرْ وَلَيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»، فلو كان الاستثناء يسقط الكفارة لكان أخف على الأمة، ولم يكن لذكر الكفارة فائدة.

وقال الزهراوي: إنما تكلم ابن عباس رضي الله عنهما في أن الاستثناء بعد سنة لمن قال: أَنَا أَفْعَلُ كَذَا، لا الحالف أراد حلَّ يمينه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذهبت فرقة من الفقهاء إلى أن مذهب ابن عباس رضي الله عنهما سقوط الكفارة، وألزموا كل من يقول: (ينفع الاستثناء بعد مدة) إسقاط الكفارة، وردوا على القول بعدم إلزامه، وليس الاستثناء إلا في اليمين بالله، لا يكون في طلاق ونحوه، ولا في مشي إلى مكة، وهذا قول مالك وجماعة.

وقال الشافعي رحمه الله، وأصحاب الرأي، وطاوس، وحماة: الاستثناء في ذلك جائز، وليس في اليمين الغموس استثناء ينفع، ولا يكون الاستثناء بالقلب، وإنما يكون قولاً ونطقاً.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّيَ الْآيَةَ﴾. قال محمد الكوفي المفسر: إنها بالفاظها بما أمر أن يقولها كل من لم يستثن، وإنها كفارة لنسيان الاستثناء. وقال الجمهور: هو دعاء مأثور به دون هذا التخصيص.

وقرأ الجمهور: ﴿يَهْدِيَنِي﴾ بإثبات الياء، وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿يَهْدِيَنِي﴾ دون ياء في

الوصل، وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي.

والإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ إلى الاستدراك الذي يقع من ناسي الاستثناء. وقال الزجاج: المعنى: عسى أن يُيسر الله من الأدلة على نبوتي أقرب من دليل أصحاب الكهف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما قدَّمته أصوب، أي: عسى أن يرشدني فيما أستقبل من أمري. وهذه الآية مخاطبة للنبي ﷺ، وهي بعد تَعَمُّ جميع أمته، لأنه حكم يتردد في الناس بكثرة وقوعه، والله الموفق.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل: قال قتادة: ومطر الوراق، وغيرهما: ﴿وَلَيَأْتُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ الآية حكاية عن بني إسرائيل أنهم قالوا ذلك، واحتجاً بأن في قراءة عبدالله بن مسعود وفي مصحفه: ﴿وَقَالُوا لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾، وذلك عند قتادة - على غير قراءة عبدالله - عطف على ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾، ذكره الزهراوي.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يرد العلم إليه رداً على مقالتهم وتفنيدها لهم، قال الطبري: «وقال بعضهم: لو كان ذلك خيراً من الله لم يكون لقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ وجْه مفهوم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أين ذهب بهذا القائل؟ وما الوجه المفهوم البارع إلا أن تكون الآية خبراً عن لبثهم، ثم قيل لمحمد ﷺ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ بخبره، هذا هو الحق من

عالم الغيب، فليزل اختلافكم أيها المتخوضون.

وقال المحققون: بل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ الآية خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم، ثم اختلف في معنى قوله بعد الإخبار: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾ - فقال الطبري: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإخبار عليهم إلى مدة النبي ﷺ، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وأخبر الله تعالى نبيه ﷺ أن هذه المدة في كونهم نياماً، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر، فأمره الله تعالى أن يرُدَّ علم ذلك إليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقله تعالى - على هذا التأويل -: ﴿لَيْسُوا﴾ الأول يريد: في نوم الكهف، و﴿لَيْسُوا﴾ الثاني يريد: بعد الإخبار موتى إلى مدة محمد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبلد، على الاختلاف الذي سنذكره بعد. وقال بعضهم: إنه لما قال: ﴿وَأَزْدَادُوا تَبًا﴾ لم تَدْرِ النَّاسُ أَهِيَ سَاعَاتُ أَمْ أَيَّامُ أَمْ جَمْعُ أَمْ شُهُورُ أَمْ أَعْوَامُ، واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمره الله تعالى برَدِّ العلم إليه؛ يريد: في التسع، فهي - على هذا - مبهمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر كلام العرب والمفهوم عنه أنها أعوام، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى عليه السلام بيسير، وقد بقيت من الحوارين بقية. وحكى النقاش ما

معناه أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية بحساب الأمم، فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي ﷺ ذكرت التسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية، فهذه الزيادة هي ما بين الحسابين.

وقرأ الجمهور: ﴿تِلْكَ يَأْتِرُ سِينَكُ﴾ بتنوين «مائة» ونصب «سِينَكُ» على البدل من «تِلْكَ يَأْتِرُ»، أو عطف البيان، وقيل: على التفسير والتمييز، وقرأ حمزة، والكسائي، ويحيى، وطلحة، والأعمش بإضافة [مِائَةٍ] إلى «السنين» وترك التنوين، وكأنهم جعلوا «سِينَكُ» بمنزلة [سَنَةٍ]؛ إذ المعنى بهما واحد. قال أبو علي: إذ هذه الأعداد التي تضاف في الشهور إلى الأحاد نحو ثلاثمائة رجل أو ثوب قد تضاف إلى المجموع، وانشأ أبو حاتم على هذه القراءة، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿ثَلَاثُمِائَةِ سَنَةٍ﴾، وقرأ الضحاك: ﴿ثَلَاثُمِائَةِ سَنُونَ﴾ بالواو. وقرأ أبو عمر - بخلاف -: ﴿تَسْعًا﴾ بفتح التاء، وقرأ الجمهور: ﴿تِسْعًا﴾ بكسر التاء.

وقوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ، وَأَسْمِعْ﴾، أي: ما أبصره وأسمعه، قال قتادة: لا أحد أبصر من الله تعالى ولا أسمع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عبارات عن الإدراك، ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ﴾ أي: بسوحيه وإرشاده، هداك وحججك والحق من الأمور، وأسمع به العالم، فيكونان أمرين لا على وجه التعجب. وقوله تعالى:

﴿هَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنَ وَلِيٍّ﴾ يحتمل أن يعود الضمير في «لَهُمْ» على أصحاب الكهف، أي: هذه قدرته وحده، لم يؤلِّهم غيره بتلطف لهم، ولا اشترك معه أحد في هذا الحكم. ويحتمل أن يعود الضمير في «لَهُمْ» على معاصري رسول الله ﷺ من الكفار ومُشَاقِّبِهِ، وتكون الآية اعتراضاً بتهديد.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا يَنْفِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ بالياء من تحت، على معنى الخبر عن الله تبارك وتعالى، وقرأ ابن عامر، والحسن، وأبو رجاء، وقتادة، والجحدري: ﴿وَلَا يَنْفِكُ﴾ بالتاء من فوق، على جهة النهي للنبي ﷺ، ويكون قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُ﴾ عطفاً على قوله سبحانه: ﴿أَبْصِرْ بِهِ، وَأَسْمِعْ﴾. وقرأ مجاهد: ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ بالياء من تحت وبالجزم، قال يعقوب: لا أعرف وجهه.

وحكى الطبري عن الضحاك بن مزاحم أنه قال: نزلت هذه الآية ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ تِلْكَ يَأْتِرُ﴾ فقط، قال الناس: أهِيَ أَشْهُرُ أَمْ أَيَّامُ أَمْ أَعْوَامُ؟ فنزلت ﴿سِينَكُ وَأَزْدَادُوا تَبًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما هل دام أهل الكهف وبقيت أشخاصهم محفوظة بعد الموت؟ فاختلفت الروايات في ذلك - فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه مرَّ بالشام في بعض غزواته مع ناسٍ على موضع الكهف وجبله، فمشى الناس إليه فوجدوا عظاماً، فقالوا: هذه عظام أصحاب الكهف، فقال

يفسد قوله: ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ أمر النسخ؛ لأن المعنى إما أن يكون: لا مبدل سواه، فتبقى الكلمات على الإطلاق، وإما أن يكون أراد من «الكلمات» الخبر ونحوه مما لا يدخله النسخ، والإجماع أن الذي لا يتبدل هو الكلام القائم بالذات الذي يحسبه يجري القدر، فأما الكتب المنزلة فمذهب ابن عباس رضي الله عنهما أنها لا تبدل إلا بالتأويل، ومن العلماء من يقول: إن بني إسرائيل بدلوا ألفاظ التوراة.

٣٨ - ٣٩ تفسير قوله عز وجل:

سبب هذه الآية أن عظماء الكفار - قيل: من أهل مكة، وقيل: عُيَيْنَةُ بن حصن وأصحابه، والأول أصوب لأن السورة مكية - قالوا لرسول الله ﷺ: لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك وصحبناك، يريدون: عمار بن ياسر، وصهيب بن سنان، وسلمان الفارسي، وعبدالله بن مسعود، وغيرهم من الفقراء كبلال ونحوه، وقالوا: إن ربح جبابهم تؤذي، فنزلت الآية بسبب ذلك، وروي أن رسول الله ﷺ خرج إليهم، وجلس بينهم وقال: «الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معه»، وروي أنه قال لهم: «مرحباً بالذين عاتبني فيهم ربي»، وروي سلمان أن المؤلفلة قلوبهم، عُيَيْنَةُ بن حصن، والأقرع، وذويهم قالوا ما ذكر فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالآية - على هذا - مدنية، ويُسَبَّه أن

ولم نجد من علم شأنهم إثارة، ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف، دخلت إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد، وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم مما يلي القبلة، وأثار مدينة قديمة رومية يقال لها دقنيوس، وجدنا في أثارها غرائب في قبور ونحوها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما استسهلت ذكر هذا مع بُغْدِه لأنه عجب يتخلد ذكره ما شاء الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ﴾ الآية. من قرأ: ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ بالنهي عطف قوله: ﴿وَأَتْلُ﴾ عليه، ومن قرأ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ جعل هذا أمراً بُدِئَ به كلام آخر ليس من الأول، وكأن هذه الآية في معنى العتاب للنبي ﷺ عقب العتاب الذي كان على تركه الاستثناء، كأنه يقول: هذه أجوبة الأسئلة، فاثقل وخفي الله إليك، أي: اتبع في أعمالك، وقيل: اشرد بتلاوتك ما أوحى إليك من كتاب ربك، لا نقص في قوله، ولا مبدل لكلماته، وليس لك سواه جانب تميل إليه وتستند.

و «المُلتَحَذُ»: الجانب الذي يمال إليه، ومنه اللُحْذُ، كأنه الميل في أحد شقي القبر، ومنه: الإلحاذ في الحق، وهو الميل عن الحق، ولا

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطْعَمْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴿٣٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعَدُّ لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ مُرَادُهَا وَإِنْ يَسْتَفْسِحُوا يُغْلَوْا يُعَذِّبُ اللَّهُ النَّاسَ فِي الْآثَارِ وَأَسَافَتِ مَرْفَقَاتُهَا ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِفِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَبْشَتُ لِبَاسُهُمْ فِيهَا نَرَقَّاقٌ ﴿٤١﴾ وَأَمْشَرْتُمْ لَهُمْ مِثْلًا مِثْلًا زَجْرَيْنَ جَعَلْنَا لَأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَسْنَبٍ وَجَفَفْتُهُمَا نَبَخَازًا وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٤٢﴾ كَتَا الْجَنَّتَيْنِ أَنْتَ أَكْثَرُهَا وَلَوْ نَظَرْتُمْ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٤٣﴾ وَكَانَ لَهُمْ فِيهَا لُحُومٌ حَرَوْرٌ مُسَوِّغَةٌ وَهِيَ خَازِنَةٌ بِمَا كَرِهْتُمْ مَا لَا يَبْغُونَ وَاعْرِضْ عَنْهُمْ نَفْسًا

لهم ابن عباس رضي الله عنهما: لا، أولئك فنوا وعدموا منذ مدة طويلة، فسمعه راهب فقال: ما كنت أحسب أن أحداً من العرب يعرف هذا، فقبل له: هذا ابن عم نبينا ﷺ. وقالت فرقة: إن رسول الله ﷺ قال: لَيَحْجُنَّ عَيْسَى ابن مريم ومعه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجوا بعد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبالشام - على ما سمعت من ناس كثير - كهف كان فيه موتى يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف، وعليه مسجد وبناء يُسَمَّى الرقيم، ومعهم كلب رمة، وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تُسَمَّى لوشة كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة، وأكثرهم قد انجرد لَحْمُهُ، وبعضهم متماسك، وقد مضت القرون السالفة

تكون الآية مكية وقَعَلَ المؤلفة فعل قرش فردَّ عليهم بالآية.

و ﴿أَصْبَرَ﴾ معناه: اخْبَسَ، ومنه المصبورة التي جاء فيها الحديث (نهى رسول الله ﷺ عن صبر الحيوان)، أي حبسه للرَّمي ونحوه.

وقرأ الجمهور: ﴿بِالْفُذُوءِ﴾ وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بِالْفُذُوءِ﴾، وهي قراءة نصر بن عاصم، ومالك بن دينار، وأبي عبد الرحمن، والحسن، وهي في الخطِّ على القراءتين بالواو، فمن يقرأ ﴿بِالْفُذُوءِ﴾ فيكتبها كما تكتب «الضَّلُوءُ» والزُّكُوءُ، وفي قراءة من قرأ: ﴿بِالْفُذُوءِ﴾ ضعف؛ لأنَّ (فُذُوءٌ) اسم معرّف فحقّه ألا يدخل عليه الألف واللام، ووجه القراءة بذلك أنهم ألحقوها ضرباً من التنكير؛ إذ قالوا: «جثثُ فُذُوءٍ»، يريدون: من الفُذُوات، فحَسُن دخول الألف واللام، كقولهم: الفَيْئَةُ، وفَيْئَةُ اسم معرّف. والإشارة لقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْفُذُوءِ وَالْفُلُوءِ﴾ إلى الصلوات الخمس، قاله ابن عمر، ومجاهد، وإبراهيم. وقال قتادة: المراد صلاة الفجر وصلاة العصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويدخل في الآية من يدعو في غير صلاة، ومن يجتمع لمذاكرة علم. وقد روي عن عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَذِكْرُ اللَّهِ بِالْفُذُوءِ والعشي أفضل من حطَم السيوف في سبيل الله، ومن إعطاء المال سحاً». وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿بِالْفُذُوءِ﴾ دون هاء، وقرأ ابن أبي عبلة:

﴿بِالْفُذُواتِ والعِشِيَّاتِ﴾ على الجمع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، أي: لا تتجاوز إلى أبناء الدنيا والملابس من الكفار. وقرأ الحسن: ﴿وَلَا تُغْدُ﴾ بضم التاء وفتح العين وشدّ الدال المكسورة، أي: لا تُجاوِزها أنت عنهم، ورُوي عنه: ﴿وَلَا تُغْدِ﴾ بضم التاء وسكون العين. وقوله: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا﴾، قيل: إنه أراد بذلك مُعَيَّنًا وهو عُيَيْنَةُ بن حصن، والأقرع، قاله خُباب، وقيل: إنما أراد من هذه صفته، وإنما المراد أولاً كفار قرش لأنَّ الآية مكية. وقرأ الجمهور: ﴿أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ﴾ بنصب الباء، على معنى: جعلناه غافلاً، وقرأ عمرو بن فائد، وموسى الأسواري: ﴿أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ﴾، على معنى: أهمل ذكرنا وتركه، قال ابن جني: المعنى: من ظَنَّنَا غافلين عنه، وذكر أبو عمرو الداني: إنها قراءة عمرو بن عبيد.

و «الْفُرُطُ» يحتمل أن يكون بمعنى التفريط والتضييع، أي أمره الذي يجب أن يلتزم، ويحتمل أن يكون بمعنى الإفراط والإسراف، أي أمره وهواه الذي هو بسبيله، وقد فسر المتأولون بالعبارتين، أعني التضييع والإسراف، وعبر عنه خُباب بالهلاك، وداود بالندامة، وابن زيد بالخلاف للحق، وهذا كله تفسير بالمعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية. المعنى: وقل لهم يا محمد: هذا الحقُّ من ربكم، أي: هذا القرآن، أو هذا الإعراض

عنكم، وتَرْكُ الطاعة لكم، وصَبْرُ النفس مع المؤمنين. وقرأ قُتَيْبُ أبو السَّمال: ﴿وَقُلِ﴾ بفتح اللام، قال أبو حاتم: وذلك رديء في العربية. وقوله: ﴿مَنْ شَأَ قُلُوبَيْنِ﴾ الآية، تَوَعَّد وتهديد، أي: قَلْبِيْخَر كُلِّ امرئٍ لنفسه ما يجده غداً عند الله عزَّ وجلَّ. وتأولت فرقة: فمن شاء الله إيمانه فليؤمن، ومن شاء كفره فليتكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا متوجه، أي: فحقّه الإيمان وحقّه الكفر، ثم عبّر عن ذلك بلغة الأمر إلزاماً وتحريضاً من حيث للإنسان في ذلك التَّكْسُّب الذي يتعلق به ثواب الإيمان وعقاب الكفر. وقرأ الحسن، وعيسى الشقفي: ﴿قُلُوبَيْنِ... وَلِيَتَكْفُرَ﴾ بكسر اللامين.

و «أَعَدَّنَا» مأخوذ من العتاد، وهو الشيء المُعَدُّ الحاضر. و«السُّرَادِقُ» هو الجدار المحيط كالحجارة التي تدور وتحيط بالفسطاط، وقد تكون من نوع الفسطاط أديماً أو ثوباً أو نحوه، ومنه قول رؤبة:

يَا حَكَمَ بْنَ الْمُثَنِّرِ بْنِ الْجَارُودِ
سُرَادِقُ الْمَسْجِدِ عَلَيْكَ مَسْدُودُ

ومنه قول سلامة بن جندل:
هُوَ الْمَوْلِجُ الثُّغْمَانُ بَيْتاً سَمَاوُهُ
صُدُورُ الْقُبُولِ بَعْدَ بَيْتِ مُسَرْدَقِ
وقال الزجاج: السُّرَادِقُ: كُلُّ مَا أحاط بالشيء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي أخصُّ مما قال الزجاج. واختلف في سرادق النار - فقال ابن

عباس رضي الله عنهما: سرادقها حائط من نار، وقالت فرقة: سرادقها دخان محيط بالكفار، وهو قوله تعالى: ﴿أَطْلِقُوا إِنَّا ظِلُّ ذِي تِلْكَ﴾ شُعْبٌ. وقالت فرقة: الإحاطة هي في الدنيا، والسرادق: البحر، ورؤي هذا المعنى من طريق يغلى بن أمية عن النبي ﷺ، فيجيء قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ﴾، أي: بالبشر، ذكر الطبري الحديث عن يغلى، قال: قال رسول الله ﷺ: «البحر هو جهنم»، وتلا هذه الآية، ثم قال: «والله لا أدخله أبداً، أو ما دُفِنَ حياً»، وروي عنه أيضاً عليه الصلاة والسلام من طريق أبي سعيد الخدري أنه قال: «لسرادق النار أربعة جذر كُثُف، عرض كل جدار مسيرة أربعين سنة».

وقوله تعالى: ﴿يَعَاذُوا﴾ أي يكون لهم مقام الغوث، وهذا نحو قول الشاعر:

تَجِيئةً بَيْنَهُمْ ضَرَبَ وَجِيعُ
أي: القائم مقام التحية.

و ﴿كَأَنَّهُمْ﴾، قال أبو سعيد عن النبي ﷺ: «هو دُودِي الزيت إذا انتهى حره»، وقالت فرقة: هو كل مائع سخن حتى انتهى حره، وقال ابن مسعود وغيره: كل ما أذيب من ذهب أو فضة أو رصاص أو نحو هذا من الفلز حتى تَمَّع، وروي أن عبدالله بن مسعود أهديت إليه سقاية من ذهب أو فضة، فأمر بها فأذيت حتى تَمَّعَتْ وتَلَوَّت ألواناً، ثم دعا مَنْ ببابه من أهل الكوفة فقال: ما رأيْت في الدنيا شيئاً أدنى شَبْهاً

بالمُهْل من هذا، يريد: أدنى شَبْهاً بشراب أهل النار. وقالت فرقة: المُهْل: الصديد والدم إذا اختلطاً، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه في الكفن: «إنما هو للمهلة»، يريد: لما يسيل من الميت في قبره، ويقوي هذا بقوله تعالى: ﴿وَمِن مَّاءٍ صَٰكِبٍ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿يَتَوَّأَلُّوْهُ﴾ روي في معناه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تَقَرَّبَ الشَّرِيَّةُ مِنَ الْكَافِرِ، فَإِذَا دَنَتْ تَكَرَّهَهَا، فَإِذَا دَنَتْ أَكْثَرَ شُوت وَجْهَهُ وَسَقَطَتْ فِيهَا فِرَّةُ وَجْهِهِ، وَإِذَا شَرِبَ تَقَطَّعَتْ أَمْعَاؤُهُ». والمُرْتَفَقُ: الشيء الذي يَزْتَفِقُ به، أي يطلب رفقه، والمُرْتَفَقُ الذي هو الْمُتَكَا أَخْضَ من هذا الذي في الآية؛ لأنه في شيء واحد من معنى الرُفْق، على أن الطبري قد فسر الآية به، والأظهر عندي أن يكون «المُرْتَفَقُ» بمعنى الشيء الذي يطلب رفقه بِاتِّكَاءٍ وغيره. وقال مجاهد: المرتفق: المجتمع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه ذهب بها إلى موضع الرُفَاقَة، ومنه الرفقة، وهذا كله راجع إلى الرُفْق، وأنكر الطبري أن يعرف لقول مجاهد معنى، والقول بين الوجه، والله المعين.

﴿٣٠﴾ - ﴿٣١﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ جَٰزَرَ مِّنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ اعتراض مؤكّد للمعنى، مذكّر بأفضال الله تعالى، مُبْتَدِئاً على حُسن جزائه، بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَاتِ﴾ وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ

يَجَنُّوا﴾، فقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَجَنُّوا﴾ ابتداء وخبر، جملة هي خبر ﴿إِنَّ﴾ الأولى، ونحو هذا من الاعتراض قول الشاعر:

إِنَّ الْخَلِيفَةَ - إِنْ اللَّهُ أَلْبَسَهُ
سِرْبَالاً مُلْكٍ - بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ
قال الزجاج: ويجوز أن يكون خبر [إِنَّ] في قوله: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ جَٰزَرَ مِّنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾؛ لأن المحسنين هم المؤمنون، فكأن المعنى: لا نضيع أجرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومذهب سيويه أن الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ﴾ على حذف العائد، وتقديره: من أحسن عملاً منهم.

و «العَدْنُ»: الإقامة، ومنه المَعْدِنُ؛ لأن حَجَرَهُ مَقِيمٌ فيه ثابت، وقوله تعالى: ﴿مِن نَّعِيمٍ﴾ يريد: تحت عُرْفِهِمْ ومبانيهِمْ. وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ وروى أبان عن عاصم: ﴿مِنْ أَسْوَرَةٍ﴾ بغير ألف وبزيادة هاء، وواحدة الأساور: إسوار وحذفت الياء من الجمع؛ لأن الباب: أساور، وهي ما كان في الذراع من الحلبي، وقيل: أساور جمع أسورة، وأسورة جمع سوار، وإنما الإسوار بالفارسية القائد ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقال في خُلِي الذراع: إسوار، ذكره أبو عبيدة معمر، ومنه قول الشاعر:

وَالله لَوْلَا نَشِيئةٌ صَعَارُ
كَأَنَّمَا وَجْهُهُمْ أَقْمَارُ
تَضُفُّهُمْ مِنَ الْعَتِيكِ دَارُ
أَخَافُ أَنْ يُصِيبَهُمْ إِتْسَارُ

أَوْ لَا طِمَّ لَيْسَ لَهُ إِنْشَوَارُ
لَمَّا زَانِي مَلِكْ جَبَّارُ
بَبَابِهِ مَا وَضَحَ الشَّهَارُ
أَنشده أبو بكر بن الأنباري حاشية
في كتاب أبي عبيدة.

و «السُّنْدُسُ»: رقيق الديباج،
و «الإِسْتَبْرَقُ»: ما غلظ منه، وقال
بعض المفسرين: هي لفظة أعجمية
عربت، وأصلها: استبره، وقال
بعضهم: هو الفعل العربي سُمِّيَ به،
فهو إِسْتَبْرَقَ، من البريق، فغُبِرَ حين
سُمِّيَ به بقطع الألف، وَيُقَوَّى هذا
القول أن ابن محيصن قرأ: «مِنْ
سُنْدُسٍ وَاسْتَبْرَقٍ»، فجاء به موصول
الهمزة حيث وقع، ولا يَجْرُهُ بل
يفتح القاف، ذكره الأسواري، وذكره
أبو الفتح وقال: هذا سهو أو
كالتسوية.

و «الْأَرَاكِكُ»: جمع أريكة، وهو
السرير في الحجال، والضمير في
قوله: «وَسُكِّنَتْ» للجنات، وحكى
النقاش عن أبي عمران الجوني أنه
قال: الإِسْتَبْرَقُ: الحرير المنسوج
بالذهب، وحكى مكي والزهرراوي
وغيرهما حديثاً مُضْمَنُهُ أن قوله
تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ» الآية نزلت في أبي بكر،
وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله
تعالى عنهم، سأل أعرابي
رسول الله ﷺ عن الآية، فقال
النبي ﷺ للأعرابي: «أَعْلِمَ قومك
أنها نزلت في هؤلاء الأربعة» وهم
حضور.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:
الضمير في «لَهُمْ» عائد على
الطائفة المتحيرة التي أرادت من

النبي ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين
الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي،
وعلى أولئك الداعين أيضاً، فالمثل
مضروب للطائفتين؛ إذ الرجل الكافر
صاحب الجنتين هو بإزاء متجبري
قريش، أو بني تميم، على الخلاف
المذكور أولاً، والرجل المؤمن المقر
بالربوبية هو بإزاء بلال وعُمَارِ
وَصُهَبٍ وأقرانهم.

و «وَحَفَّتْهُمَا» بمعنى: جعلنا ذلك
لها من كل جهة، تقول: حَفَّكَ الله
بخير، أي: عَمَّكَ به من جميع
جهاتك، والجفاف: الجانب من
السرير ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وظاهر هذا المثل أنه بأمر وقع وكان
موجوداً، وعلى هذا فسر أكثر أهل
التأويل، ويحتمل أن يكون المثل
مضروباً بمن هذه صفته وإن لم يقع
ذلك في وجود قط. والأول أظهر.

وزوي في ذلك أنهما كان أخوين
من بني إسرائيل ورثا أربعة آلاف
دينار، فصنع أحدهما بماله ما ذكر،
واشترى عبيداً وتزوج وأثرى، وأنفق
الآخر ماله في طاعة الله تعالى حتى
افتقر، والتقيا ففخر الغني وويخ
المؤمن، فجرت بينهما هذه
المحاور، وزوي أنهما كانا شريكين
حدادين كسبا مالا كثيراً وصنعا نحو
ما زوي في أمر الأخوين، فكان من
أمرهما ما قص الله في كتابه. وذكر
إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه
(في عجائب البلاد) أن بحيرة تَيْسِيسَ
كانت ما بين الجنتين، وكانت
للأخوين، فباع أحدهما نصيبه من
الآخر، وأنفق في طاعة الله حتى

عُيِّرَ الآخر، فجرت بينهما هذه
المحاور، فغَرَّقَهَا الله في ليلة،
وإياها عنى بهذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وفي بسط قصصهما طول فاخترته
واقصرت على معناه لقلة صحتة،
ولأن في هذا ما يفي بفهم الآية.

وتأمل هذه الهيئة التي ذكر الله
تعالى، فإن المرة لا يكاد يتخيل
أجل منها في مكاسب الناس: جنتا
عنب أحاط بها نُخْلٌ بينهما فسحة
هي مزدورج لجميع الحبوب، والماء
الغَيْلُ يسقي جميع ذلك من النهر
الذي جُمِّلَ هذا المنظر، وعظم
النفع، وقرب الكد، وأغنى عن
النواضح وغيرها.

وقرأ الجمهور: «كُنَّا» وفي
مصحف عبدالله: «كِلَا»، والتاء في
(كُنَّا) متقلبة عن واو عند سيبويه،
وهو بالتاء أو بغير التاء اسم مفرد
واقع على الشيء المُتَنَّى، وليس
باسم مُتَنَّى، ومعناه: كل واحدة
منهما، و«الأَكْلُ»: ثمرها الذي يؤكل
منها، قال الفراء: وفي قراءة ابن
مسعود: «كُلُّ الْجَنَّتَيْنِ أَتَى أَكْلَهُ».
وقوله تعالى: «وَلَوْ تَطَوَّلَ مَنَّةً شَيْئاً»،
أي: لم تنقص عن العرف، ومنه
قول الشاعر:

تَطَلَّمْنِي مَالِي كَذَا وَلَوَى يَدِي
لَوَى يَدَهُ اللهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُ
وقرأ الجمهور: «وَفَجَّرْنَا» بتشديد
الجيم، وقرأ سلام، ويعقوب،
وعيسى بن عمر: «وَفَجَّرْنَا» بفتح
الجيم دون شد. وقرأ الجمهور:
«هَرَّأَ» بفتح الهاء، وقرأ أبو
السَّمَّال، والفياض بن غزوان،

ويستشهدون لهذا القول
بيت الثابتة:

وَمَا أَتَمُرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدٍ
وقال مجاهد: يراد بها
الذهب والفضة خاصة،
وقال ابن زيد: الثمر هي
الأصول التي فيها الثمر.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: كأنها ثمار
وثمر، ككتاب وكُتُب.
وأما من قرأ بفتح الشاء
والميم فلا إشكال في أن
المعنى ما في رؤوس
الأشجار من الأكل،
ولكن فصاحة الكلام

تقتضي أن يعبر بإيجازاً عن
هلاك الثمر والأصول بهلاك الثمر
فقط، خَصَّها بالذكر إذ هي مقصد
المستغل، وإذ هلاك الأصول إنما
يسوء منه هلاك الثمر الذي كان
يُرجى في المستقبل، وكما يقتضي
قوله «إِنَّ لَهُ ثَمْرًا» أَنَّ لَهُ أَصُولًا،
كذلك يقتضي الإحاطة المطلقة
بالثمرات والأصول قد هلكت. وفي
مصحف أبي: «وَأَتَيْنَاهُ ثَمَرًا كَثِيرًا».
وقرأ أبو رجاء: «وَكَاَنَّ لَهُ ثَمَرٌ»
بفتح الشاء وسكون الميم.
و«الْمُحَاوَرَةُ»: مراجعة القول، وهو
من: حَارَ يَحُور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
واستدل بعض الناس من قوله
سبحانه: «وَأَعَزُّ نَفَرًا» على أنه لم
يكن أخاه. وقال المناقض: أراد
بالنفر العبيد والخول، إذ هُم الذين
ينفرون في رغبته، وفي هذا الكلام

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ
أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْكَ سَائِرَ ذُنُوبِكُمْ وَلَنُفَصِّلَنَّ لَكَ مَا لَا يُغْنِي عَنْكَ
دَخْلَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ رَبَّنَا
أَكْلَمُ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا ﴿٣٨﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا
زَلَقًا ﴿٣٩﴾ وَأُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْعًا ﴿٤٠﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهَ عَلَىٰ مَا آفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغُنِي بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤١﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ
فِتْنَةٌ يَصْرُوفُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٢﴾ هَٰذَا لَكَ الْوَلَدُ
لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ نَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٣﴾ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْخَيْوَةَ
الَّتِي كَانَتْ أَهْلُهَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ حُشِيمًا لَّنَذَرُوهُ لِلرِّيحِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدِرًا ﴿٤٤﴾

٢٩٨

وطلحة بن سليمان: «نَهْرًا» يسكون
الهاء، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن
عامر، وحمزة، والكسائي، وابن
عباس، ومجاهد، وجماعة قراء
المدينة ومكة: «ثَمَرٌ» وَأُحِيطَ
بِثَمَرِهِ بضم الشاء والميم، جمع
ثمار، وقرأ أبو عمرو، والأعمش،
وأبو رجاء يسكون الميم فيهما
تخفيفاً، وهي في المعنى كالأولى،
ويُشْجِه أن يكون جمع ثَمَرَةٍ، كَبَدَنَةٍ
وَبُذْنٍ، وقرأ عاصم: «ثَمَرٌ»
«وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ» بفتح الميم والشاء
فيهما، وهي قراءة أبي جعفر،
والحسن، وجابر بن زيد،
والحجاج.

واختلف المتأولون في «الثمر» بضم
الشاء والميم، فقال ابن عباس،
وقتادة: الثمر: جميع المال من
الذهب والفضة وغير ذلك،

من الكبر والزهو والاعتزاز ما بيانه
يفني عن القول فيه. وهذه المقالة
بإزاء مقالة عُيَيْنَةَ والأقصر
للنبي ﷺ: نحن سادات العرب،
وأهل الوبر والمدر، فَتَحَّ عَنَّا
سلمان وقرناءه.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل:
أفرد الجنة من حيث الوجود،
كذلك إذ لا يدخلهما معاً في وقت
واحد، وظلمة لِنَفْسِهِ: كفره وعقائه
الفاضة في الشك في البعث، فقد
نصَّ على ذلك قتادة، وابن زيد،
وفي شكه في حدوث العالم وإن
كانت إشارته بـ «هَذِهِ» إلى الهيئة
في السموات والأرض وأنواع
المخلوقات، وإن كانت إشارته إلى
جنته فقط فإنما في الكلام تسخف
واغترار وقلة تحصيل، كأنه من شدة
العجب بها والسرور أفرط في وصفها
بهذا القول، ثم قاس أيضاً الآخرة
على الدنيا، وظنَّ أنه لم يُغَلِّ له في
الدنيا إلا لكرامة يستوجبها في نفسه،
قال: فإن كان ثم رجوع كما تزعم
فسيكون حالي كذا وكذا، وليست
مقالة العاصي بن وائل لِحَبَاب على
حدِّ هذه، بل قصد العاصي
الاستخفاف على جهة التصميم على
التكذيب.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر،
وابن الزبير، وثبت في مصاحف
المدينة «مِنْهُمْ» يريد الجنتين
المذكورتين أولاً، وقرأ أبو عمرو،
وعاصم، وحمزة، والكسائي،
والعامه، وكذلك هو في مصحف
البصرة: «مِنْهَا» يريد الجنة
المدخولة.

وقوله: ﴿قَالَ لَمْ سَاجِدٌ﴾ حكاية أن المؤمن من الرجلين لما سمع كلام الكافر وَقَفَهُ - على جهة التوبيخ - على كفره بالله تعالى، وقرأ أبي بن كعب: ﴿وهو يخاصمهم﴾، وقرأ ثابت البناني: ﴿وَيَلْكَ أَكْفَرْتُ﴾، ثم جعل يعظم الله تعالى عنده بأوصاف تضمنت النعم والدلائل على جواز البعث من القبور. وقوله: ﴿بَيْنَ ثَرَايَ﴾ إشارة إلى آدم ﷺ. وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّكَ رَبُّكَ﴾ كما تقول: سَوَّكَ شخصاً أو حياً أو نحو هذا من التأكيدات، وقد يحتمل أنه قصد تخصيص الرجولة على وجه تعديد النعمة في أن لم يكن أنشئ ولا خُتِي، وذكر الطبري نحو هذا.

واختلفت القراءة في قوله: ﴿لَكِنَّا﴾، فقرأ ابن عامر، ونافع - في رواية المَسْبُورِي -: ﴿لَكِنَّا﴾ في الوصل والوقف. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمره، والكسائي، ﴿لَكِنْ﴾ في الوصل، و﴿لَكِنَّا﴾ في الوقف، ورجحها الطبري، وهي رواية ورش، وقالون عن نافع. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، والحسن: ﴿لَكِن أَنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾، وفي قراءة عيسى الثقفى، والأعمش - بخلاف - ﴿لَكِن هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾، فأما هذه الأخيرة فَبَيَّنَّ على الأمر والشأن، وأما الذي قبلها فعلى معنى: لكن إنما أقول. ومن هذه الفرقة من قرأ: ﴿لَكِنَّا﴾ على حذف الهمزة وتخفيف التنوين، وفي هذا نظر، وأما من قرأ: ﴿لَكِنَّا﴾ فأصله عنده «لَكِن أَنَا» حذفت الهمزة على غير قياسٍ وأدغمت النون في

النون، وقال بعض النحويين: نُقلت حركة الهمزة إلى النون فجاء «لَكِنَّا» ثم أدغمت بعد ذلك فجاء «لَكِنَّا»، فرأى بعض القُرَّاء أن بالإدغام استغني عن الألف الأخيرة، فمنهم من حذفها في الوصل، ومنهم من أثبتها في الوصل والوقف لتدل على أصل الكلمة. ويتوجه في «لَكِنَّا» أن تكون «لَكِن» لحقتها نون الجماعة التي في «خَرَجْنَا وَضَرَبْنَا»، ووقع الإدغام لاجتماع اليائين، ووحد في «رَبِّي» على المعنى، ولو اتبع اللفظ لقال: «رَبُّنَا»، ذكره أبو علي. ويترجح بهذا التعليل قول من أثبت الألف في حالي الوصل والوقف. ويتوجه في «لَكِنَّا» أن تكون المشهورة من أخوات «إِن»، والمعنى: «لَكِن قَوْلِي هُوَ اللَّهُ رَبِّي»، إلا أنني لا أعرف من يقرأ بها وصلاً ووقفاً، وذلك يلزم من يُوَجِّه هذا الوجه. وَرَوَى هَارُونَ عَنْ أَبِي عمرو «لَكِنُّهُ هُوَ اللَّهُ رَبِّي» بضمير لِحَقِّ «لَكِن». وباقى الآية بَيَّنَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ﴾ الآية. وصية من المؤمن للكافر، و﴿وَلَوْلَا﴾ تحضيض بمعنى: هَلَا، و [مَا] يحتمل أن تكون بمعنى «الذي»، بتقدير: «الذي شاء الله كائن»، وفي «شَاءَ» ضمير عائد، ويحتمل أن تكون شَرْطِيَّة بتقدير: «ما شاء الله كان»، ويحتمل أن تكون خبر ابتداء محذوف تقديره: «هو ما شاء الله، أو الأمر ما شاء الله»، وقوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ تسليمٌ وصدُّ لقول الكافر: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ يُبَدِّلَ هَذِهِ أَبَدًا﴾، وروي عن النبي ﷺ

أنه قال لأبي هريرة: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كلمة من كنز الجنة؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، إِذَا قَالَهَا الْعَبْدُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ». وفي حديث أبي موسى أن النبي ﷺ قال له: «يا عبدالله بن قيس: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كنز من كنوز الجنة؟» قال: «لا حول ولا قوة إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ».

واختلفت القراءة في حذف الياء من «كُنْ» وإثباتها، فأثبتها ابن كثير وصلاً ووقفاً، وحذفها ابن عامر، وعاصم، وحمره فيهما، وأثبتها نافع، وأبو عمرو في الوصل فقط. وقرأ الجمهور: «أَقُلُّ» بالنصب على المفعول الثاني، وقوله: «أَنَا» فاصلة مُلَفَّاة، وقرأ عيسى بن عمر: «أَقُلُّ» بالرفع على أن يكون «أَنَا» مبتدأ و«أَقُلُّ» خبره، والجملة في موضع المفعول الثاني، والرؤية رؤية قلب في هذه الآية.

﴿٤٠﴾ - ﴿٤١﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا الشَّرْجِيُّ بـ (عَسَى) يحتمل أن يريد به: في الدنيا، ويحتمل أن يريد: في الآخرة، وتمني ذلك في الآخرة أشرف مقطوعاً، وأذهب مع الخير والصلاح، وأن يكون ذلك يراد به في الدنيا أذهب في نكاية هذا المخاطب، وأشدَّ إيلاًماً لنفسه. و«الْحُسْبَانُ»: العذاب كالبرد والصر ونحوه، واجِدُ الْحُسْبَانِ: حُسْبَانَةٌ، وهي المرامي من هذه الأنواع المذكورة، وهي سهام تُرمى دفعة بالة لذلك. و«الصَّعِيدُ»: وجه الأرض، و«الزَّلْزَلُ»: الذي لا يثبت

فِغْلَةً «فَيْتَةً» حذفت العين تخفيفاً، وقد قال أبو علي وغيره: هي من فَأَوْتُ وليست من فاء، وهذا الذي قالوه أدخل في التصريف، والأول أحكم في المعنى. وقرأ ابن أبي عبلة: «فَيْتَةً تَنْصُرُهُ».

وقوله تعالى: «مَنَّاكَ» يحتمل أن يكون ظرفاً لقوله: «مُنْصِرٍ»، ويحتمل أن تكون «الْوَلَايَةُ» مبتدأ و«مَنَّاكَ» خبره، وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثاب: «الْوَلَايَةُ» بكسر الواو، وهي بمعنى الرياسة والزعامة ونحوه، وقرأ الباقون: «الْوَلَايَةُ» بفتح الواو، وهي بمعنى الموالاة والصلة ونحوه. وحكي عن أبي عمرو، والأصمعي أن كَسَرَ الواو هنا لحن؛ لأن (فَعَالَةً) إنما تجيء فيما كان صنعة أو معنى متقلداً، وليس هنا تولي أمر.

وقرأ أبو عمرو، والكسائي: «الْحَقُّ» بالرفع على جهة النعت لـ «الْوَلَايَةِ»، وقرأ الباقون: «الْحَقِّ» بالخفض على النعت لله عز وجل، وقرأ أبو حبيوة: «الله الْحَقُّ» بالنصب. وقرأ الجمهور: «عُقْباً» بضم العين والقاف، وقرأ عاصم، وحمزة، والحسن، «عُقْباً» بضم العين وسكون القاف وتنوين الباء، وقرأ عاصم أيضاً: «عُقْبِي» بياء التانيث. و العُقْبُ والعُقْبُ بمعنى المعاقبة.

(٤٥) - (٤٨) تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: «الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا» يريد حياة الإنسان بما يتعلق بها من نعم وثروة، وقوله: «كَلَّا أُنْزِلَتْ» يريد: هي كماء، وقوله: «فَاتَخَلَّطَ بِهِ»

إحاطة العذاب بحال هذا المُمَثِّل به، وقد تقدم القول في الثمر، غير إن الإحاطة كناية عن عموم العذاب والفساد. و«يَقْلِبُ» يريد: يضع بطن أحدهما على ظهر الأخرى، وكذلك فعل المتلف المتأسف على فائت أو خسارة أو نحوهما، ومن عبّر به «يُصَفِّقُ» فلم يُتَقَنَّ. وقوله: «خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا» يريد أن السقوف وقعت، وهي العروش، ثم تهذمت الحيطان عليها فهي خاوية والحيطان على

العروش. «وَيَقُولُ يَلَيِّنِي لَرَأَيْتُكَ بِرَيْتُ أَحَدًا»، قال بعض المفسرين: هي حكاية عن قول الكافر هذه المقالة في الآخرة، ويحتمل أن يريد أنه قالها في الدنيا على جهة التوبة بعد حُلُولِ المصيبة، ويكون فيها زجر للكفرة من قرئش أو غيرهم؛ لثلاث تجيء لهم حال يؤمنون فيها بعد نَقَمٍ تحل بهم.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم، وأبو عمرو، والحسن، وأبو جعفر، وشيبة: «وَلَمْ تَكُنْ» بالتاء على لفظ الْفَيْتَةِ، وقرأ حمزة، والكسائي، ومجاهد، وابن وثاب: «وَلَمْ يَكُنْ» بالياء على المعنى، و«الْفَيْتَةُ»: الجماعة التي يلجأ إلى نصرها، وقال مجاهد: هي العشييرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي من: فاء يفيء، وزنها

أَمَّا وَالْبُسُورُ رِيَّةُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَالْبَيْتَةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا أَمَلًا ﴿٤٥﴾ وَيَوْمَ نَسِفُ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٦﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٧﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُتَجَرِّمِينَ مُشْقِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبْدِلْنَا مَا لَ هَذَا أَلَمْ يَكُنْ لَنَا فَايِدَارُ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاشِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَسْتَكْبِرُ وَتَدْرِيضُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٤٩﴾ مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُظْلِمِينَ عَصَدًا ﴿٥٠﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥١﴾ وَرَأَى الْمُتَجَرِّمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٢﴾

فيه قدم، يعني أنه تذهب أشجاره ونباته، ويبقى أرضاً قد ذهبت منافعها حتى منفعة المشي، فهي وخل لا تثبت ولا تثبت فيها قدم.

و «الْعُورُ» مصدر يوصف به الماء المفرد والمياه الكثيرة، كقولك: رجل عذل وامرأة عذل ونحوه، ومعناه: ذاهباً في الأرض لا يُسْتَطَاع تناوله، وقرأت فرقة: «عُورًا» بضم الغين، وقرأت فرقة: «عُورًا» بضم الغين وهمز الواو، و«عُورُ» مثل «نُوح» يوصف به الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، ومنه قول الشاعر:

تَظَلُّ جِيَادَهَا نُوحاً عَلَيْهِ
مُقَلَّدَةً أَعْنَتْهَا صُفُونَا

وهذا كثير، وباقي الآية بين. وقوله تعالى: «وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ» الآية. هذا خبر من الله تعالى عن

أي: فاختلط الثَّابِتُ ببعضه ببعض بسبب الماء، فالْبَاءُ في ﴿يَوْمَ﴾ بَاءُ السبب؛ فَـ ﴿أَصْبَحَ﴾ عبارة عن صيرورته إلى ذلك، لا أنه أراد اختصاصاً بوقت الصباح، وهذا كقول الرُّبِيعِ بْنِ صُحَيْبٍ:

أَصْبَحْتُ لَا أَخْمِلُ السِّلَاحَ وَلَا أُمْلِكُ رَأْسَ السَّيْفِ إِنْ نَفَرَا وَ «الْهَشِيمُ»: الْمُتَفَتَّتُ مِنْ يَابِسِ الْعُشْبِ، ومنه قوله تعالى: ﴿كَهَشِيرِ اللَّحْظِ﴾، ومنه: هَشَمَ الشريد، و﴿تَذَرُوهُ﴾ بمعنى: تُفَرِّقُهُ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «تَذَرِيهِ» والمعنى: تَقْلَعُهُ وترمي به. وقرأ الحسن: «تَذَرُوهُ الرِّيحُ» بالإنفراد، وهي قراءة طلحة، والثَّخمي، والأعمش.

وقوله: ﴿وَكَاثَ اللَّهِ﴾ عبارة للإنسان عن أن الأمر قبل وجود الإنسان هكذا كان إذ كان، إذ نفسه حاكمة بذلك في حال غفلة، هذا قول سيبويه، وهو معنى صحيح. وقال الحسن: ﴿كَانَ﴾ إِيخَارٌ عن الحال قبل إيجاد الموجودات، أي أن القدرة كانت، وهذا أيضاً حسن. وقوله: ﴿كُلِّي ثَوءٍ﴾ يريد: من الأشياء المُقَدَّرَةِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لا المُخَالَات وغيرها من الأشياء التي لا يوصف الله تبارك وتعالى بالقدرة عليها، ولا بالعجز عنها، وهذا على تسمية المحال شيئاً، من حيث هو معقول لا واقع، وقد جاء أن زلزلة الساعة شيء.

فمعنى هذا المثال تشبيه حال المرء في حياته وماله وعزته وزهوه وبطوره

بالنبات الذي له خُضرة ونُضرة عن المطر النَّازِل، ثم يعود بعد ذلك هشيماً، ويصير إلى عدم، فمن كان له عمل صالح يبقى في الآخرة فهو الفائز، فكأن الحياة بمثابة الماء، والخضرة والنضارة بمنزلة النعيم والعزة ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لَفْظُهُ لفظ الخير، لكن معه قرينة الضَّعْفُ للمال والبنين؛ لأنه في المثل قَبْلُ حَقَّرَ أمر الدنيا وبَيْتُهُ، فكأنه يقول في هذه: المالُ والبنون زينة هذه الحياة الدنيا المحقَّرة، فلا تُتَّبِعُوها أنفسكم. وقوله: ﴿زِينَةُ﴾ مصدرٌ، وقد أخبر به عن أشخاص، فإما أن يكون على تقدير محذوف، تقديره: مَقَرَّ زينة الحياة، وإما أن يضع المال والبنين بمنزلة الغنى والكثرة.

واختلف الناس في «الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ» - فقال ابن عباس، وابن جبير، وأبو ميسرة، وعَمْرُو بْنُ شَرْحَبِيلٍ: هي الصلوات الخمس. وقال الجمهور: هي الكلمات المأثور فضلها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قُوَّةُ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. ورُوي في هذا الحديث: «أَكْثَرُوا مِنَ الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ». وقال ابن عباس أيضاً، ورُوي عن رسول الله ﷺ من طريق أبي هريرة وغيره أن هذه الكلمات هي الباقيات الصالحات. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: الباقيات الصالحات: كلُّ عمل صالح من قول أو فعل يبقى للأخرة،

ورجحه الطبري، وقول ابن عباس رضي الله عنهما لكل الأقوام دليل على قوله بالعموم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَبْرٌ لَّكَ تَوَكَّأَ وَعَبْرٌ لِّلْمَلَأِ﴾، أي: صاحبها ينتظر الثواب وينبسط أمُّهُ على خير من حال ذي المال والبنين دون عمل صالح.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ﴾ الآية. التقدير: واذكر يوم، وهذا أفصح ما يُتَأَوَّلُ في هذا هنا. وقرأ نافع، والأعرج، وشيبة، وعاصم، وابن مصرف، وأبو عبد الرحمن: ﴿نُسِرُّ﴾ بنون العظمة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والحسن، وشبل، وقتادة، وعيسى: ﴿نُسِيرُّ﴾ بالتاء وفتح الياء المشددة ﴿الْجِبَالَ﴾ بالرفع. وقرأ الحسن: ﴿نُسِيرُّ﴾ بياء مضمومة والثانية مفتوحة مشددة ﴿الْجِبَالَ﴾ رفعاً. وقرأ ابن محيصن: ﴿نُسِيرُّ﴾ بتاء مفتوحة وسين مكسورة، أسند الفعل إلى الجبال، وقرأ أبي بن كعب: ﴿وَيَوْمَ سِيرَتِ الْجِبَالَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَارَزَهُ﴾، إما أن يريد أن الأرض لذهب الجبال والظراب والشجر برزت وانكشفت، وإما أن يريد بروز أهلها والمحشورين من سكان بطنها. ﴿وَحَشَرْنَهُمْ﴾ أي أقمناهم من قبورهم وجمعناهم لعرضة القيامة. وقرأ الجمهور: ﴿تُعَادَرُ﴾ بنون العظمة، وقرأ قتادة: ﴿تُعَادِرُ﴾ على الإسناد إلى القدرة أو إلى الأرض. وروى أبان بن زيد عن عاصم: ﴿يُعَادَرُ﴾ بياء مضمومة وفتح الدال ﴿أَخَذَ﴾

بالرفع. وقرأ الضحاك: ﴿قَلَمْ تُغْنِ﴾ بنون مضمومة وكسر الدال وسكون الغين. والمغادرة: التَّركُ، ومنه: غدير الماء، وهو ما تركه السيل.

وقوله تعالى: ﴿صَفًّا﴾ أفراد نُزِّل منزلة الجمع، أي: صفوفاً، وفي الحديث الصحيح: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفاً يُسمِعُهُم الداعي وَيُنْفِلُهُم الْبَصَرَ» الحديث. وفي حديث آخر: «أَمَل الجنة يوم القيامة مائة وعشرون صفًّا، أنتم منها ثمانون صفًّا». وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ إلى آخر الآية، مقابلة للكفار والمنكرين للبعث، ومُضْمَنُهَا التقرُّيع والتوبيخ. والمؤمنون المعتقدون في الدنيا أنهم يبعثون يوم القيامة لا تكون هذه المخاطبة لهم بوجه، وفي الكلام حذف يقتضيه القول ويَحْسُنُه الإيجاز، تقديره: يقال للكفرة منهم. ﴿وَكَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يُفسره قول النبي ﷺ: «إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا»، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُبِيدُ﴾.

(٤٩) - (٥٠) تفسير قوله عز وجل:

﴿الْكِتَابُ﴾ اسم جنس يراد به كُتُب الناس التي أحصتها الحفظة لواحدٍ واحدٍ، ويحتمل أن يكون الموضوع كتاباً واحداً حاضراً، وإشفاقاً للمُجرمين: فرعهم من كشفه لهم وقضحه، فشكاية المجرمين إنما هي من الإحصاء، لا من ظلم ولا حيف. وقدم «الصغيرة» اهتماماً بها لِئُنبَّه منها ويدل أن الصغيرة إذا أحصيت فالكبيرة أخرى بذلك، والعرب أبداً تقدم في الذكر

الأقل من كل مقترنين، ونحو هذا قولهم: القمران والعمران، سَمُوا باسم الأقل تنبيهاً منهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الصغيرة: الضحك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مثال، وباقي الآية يبين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ الآية، هذه الآية مُضْمَنُهَا تقرُّيع الكفرة وتوقيفهم على خطابهم في ولايتهم العدو دون الذي أنعم بكل نعمة على العموم، صغيرها وكبيرها، وتقدير الكلام: واذكر إذ قلنا، وتكررت هذه العبارة حيث تكررت هذه القصة إذ هي توطئة النازلة، فأما ذكر النازلة هنا فمقدمة للتوبيخ، وذكرها في البقرة لإعلام بمبادئ الأمور.

واختلف المتأولون في السجود لآدم - فقالت فرقة: هو السجود المعروف ووضع الوجه بالأرض، جعله الله تعالى من الملائكة عبادة له وتكرُّم لآدم، فهذا كالصلاة للكعبة.

وقالت فرقة: بل كان إيماناً منهم نحو الأرض، وذلك يُسمى سجوداً؛ لأن السجود في كلام العرب عبارة عن غاية التواضع، ومنه قول الشاعر:

.....

تَرَى الْأَنْكَمَ فِيهَا سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا جائز أن يكلفه الخالق للفاضل، وجائز أن يتكلفه الفاضل للفاضل، ومنه قول النبي ﷺ: «قوموا إلى سيِّدكم»، ومنه تقبيل أبي

عبدة بن الجراح يد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما حين تلقاه في سفر إلى الشام، ذكره سعيد بن منصور في مُصَنِّفه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، قالت فرقة: هو استثناء منقطع؛ لأن إبليس ليس من الملائكة، بل هو من الجن وهم الشياطين المخلوقون من مارج من نار، وجميع الملائكة إنما خلقوا من نور، واختلفت هذه الفرقة - فقال بعضها: إبليس من الجن، وهو أولهم وبدأتهم، كآدم من الإنس، وقالت فرقة: بل كان إبليس وقبيله جئا، لكن جميع الشياطين اليوم من ذريته، فهو كنوح في الإنس، واحتجوا بهذه الآية، وتعنيف إبليس على عصيانه يقتضي أنه أمر مع الملائكة.

وقالت فرقة: بل الاستثناء متصل، وإبليس من قبيل من الملائكة خلقوا من نار، فإبليس من الملائكة، وغير عن الملائكة بالجن من حيث أنهم مستترون، فهي صفة تعم الملائكة والشياطين، وقال بعض هذه الفرقة: كان في الملائكة صنف يُسمى الجن، وكانوا في السماء الدنيا وفي الأرض، وكان إبليس مدبر أمرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا خلاف أن إبليس كان من الملائكة في المعنى؛ إذ كان متصرفاً بالأمر والنهي مرسلًا، والمَلَكُ مشتق من المَلَأَكة وهي الرسالة، فهو في عداد الملائكة يتناوله قوله: ﴿اسْجُدُوا﴾، وفي سورة البقرة وسورة الأعراف استيعاب هذه الأمور.

وَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَر شِقْوَةٍ جَدًّا ۖ وَمَنْعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أَلْوَيْنَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۖ وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمَجْدِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْطَّبْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آلِيَنِي وَمَا أَنْذَرُوا هَؤُلَاءِ مَا ظَنُّهُمْ أَنْ يَأْتِيَنِي رِبْدٌ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذْ أَبَدًا ۗ وَرَبُّكَ الْعَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ۚ وَتِلْكَ الْأَفْرُتُ أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَنُّوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۚ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا آتِيَنَّكَ حُجُوجُ آبِلْجَمْعِ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِ حَقْبًا ۖ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَبَسُوا بِخُفَاهُمَا فَخَذَّ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۚ

٣٠٠

﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ ظاهر اللفظة يقتضي المؤمنين من الشياطين الذين يأمرون بالمنكر ويحملون على الباطل. وذكر الطبري أن مجاهدًا قال: ذُرِّيَّةُ إبليس الشياطين، وكان يعدُّهم: «زَلْزَبُور» صاحب الأسواق، يضع رايته في كل سوق، و«ثَبْن» صاحب المصائب، و«الأعور» صاحب الرِّياء، و«مُسَوِّط» صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقبها في أفواه الناس ولا يجدون لها أصلًا، و«ذابِسم» الذي إذا دخل

الرجل بيته فلم يسلم ولم يذكر اسم الله بصره من المتاع ما لم يرفع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وما جاسه مما لم يأت به خبر صحيح فلذلك اختصرته. وقد طوّل النقاش في هذا المعنى، وجلب حكايات تبعد من الصحة، فتركها إيجازًا، ولم يمر بي في هذا صحيح إلا ما في كتاب مسلم من أن للوضوء والوسوسة شيطانًا يُسَمَّى «خُتْزَب»، وذكر الترمذي أن للوضوء شيطانًا يسمى «الولهان»، والله أعلم بتفاصيل هذه الأمور، لا رب غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي: أعداء، فهو اسم الجنس. وقوله: ﴿يَنْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، أي: بدل ولاية الله عز وجل بولاية إبليس وذريته، وذلك هو التعوض من الحق

وقوله تعالى: ﴿فَسَقَ﴾ معناه: فخرج وانتزع، وقال رؤبة: يَهْوِينَ فِي نَجْدٍ وَعُورٍ غَائِرًا قَوَائِمًا عَنْ قُضْدِيهَا جَوَائِرًا ومنه يقال: «فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ» إذا خرجت عن قشرتها، و«فَسَقَتِ الفَاة» إذا خرجت من جحرها، وجميع هذا الخروج المستعمل في هذه الأمثلة إنما هو في فساد، وقول النبي ﷺ: «خمس فواسق يقتلن في الجحلم والحرم» إنما هن مفسدات.

وقوله تعالى: ﴿عَنْ آتَرِ رَبِّي﴾، يحتمل أن يريد: خرج عن أمر ربه إياه، أي فارقه، كما يفعل الخارج عن طريق واحد، أي: منه، ويحتمل أن يريد: فخرج عن الطاعة بعد أمر ربه بها، و (عَنْ) قد تجيء بمعنى (تَبَعْد) في مواضع كثيرة، كقولك: «أطعمته عن جوع»، ونحوه، فكأن المعنى: فسق بسبب أمر ربه بأن يطيع، ويحتمل أن يريد: فخرج بأمر ربه، أي مشيئته ذلك له، ويعبر عن المشيئة بالأمر؛ إذ هي أحد الأمور، وهذا كما تقول: فعلت ذلك عن أمرك، أي بجدك وبحسب مرادك.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قصص هذه الآية: كان إبليس من أشرف صنم، وكان له سلطان السماء وسلطان الأرض، فلما عصى صارت حاله إلى ما تسمعون. وقال بعض العلماء: إذا كانت خطيئة المرأة من الخطأ فلتزجه كآدم، وإذا كانت من الكفر فلا تزجه كإبليس.

ثم وقف عز وجل الكفرة - على جهة التوبيخ - بقوله: ﴿أَفَنْتَحَذَرُونَ﴾، يريد: أفنتخذون إبليس، وقوله:

بالباطل، وهذا هو نفس الظلم لأنه رُضِعَ الشيء في غير موضعه.

٥١ - ٥٤ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿أَشْهَدُهُمْ﴾ عائد على الكفار وعلى الناس بالجملة، فتتضمن الآية الرد على طوائف المنجمين وأهل الطبائع والمتحكيمن من الأطباء وسواهم من كل مُتَخَرِّصٍ في هذه الأشياء. وحدثني أبي رضي الله عنه قال: سمعتُ الفقيه أبا عبدالله محمد بن معاذ المهدي بالمهدي يقول: سمعتُ عبدالحق الصقلّي يقول هذا القول، ويتأول هذا التأويل في هذه الآية، وأنها رادة على هذه الطوائف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر هذا بعض الأصوليين. وقيل: الضمير في ﴿أَشْهَدُهُمْ﴾ عائد على ذُرِّيَّةِ إبليس، فهذه الآية - على هذا -

تتضمن تحقيرهم. والقول الأول أعظم فائدة، وأقول: إن الغرض المقصود أولاً بالآية هم إبليس وذريته، وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعرب المصدقين لهم والمعظمين للجن حين يقولون: أعوذ بعزير هذا الوادي، إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته، وهم أضلوا الجميع، فهم المراد الأول بالمُضِلِّين، وتدرج هذه الطوائف في معانهم.

وقرأ الجمهور: ﴿أَشْهَدُهُمْ﴾، وقرأ أبو جعفر وعوف العقيلي، وأيوب السخيتاني: ﴿أَشْهَدْنَاهُمْ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ وقرأ أبو جعفر الجحدري، والحسن - بخلاف -: ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ والصفة بـ ﴿الْمُضِلِّينَ﴾ تترتب في الطوائف المذكورة وفي ذرية إبليس لعنه الله. والعُضْدُ استعارة للمعين والمُؤَاوِز، وهو تشبيه بعُضْد الإنسان الذي يستعين به. وقرأ الجمهور: ﴿عُضْدًا﴾ بفتح العين وضم الضاد، وقرأ أبو عمرو، والحسن بضمهما، وقرأ الضحّاك بكسر العين وفتح الضاد، وقرأ عكرمة: ﴿عُضْدًا﴾ بضم العين وسكون الضاد، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿عُضْدًا﴾ بفتح العين والضاد، وفيه لغات غير هذا لم يُقرأ بها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾، الآية وعيدٌ، والمعنى: واذكر يومٌ، وقرأ طلحة، ويحيى، والأعمش، وحمزة: ﴿نَقُولُ﴾ بنون العظمة، وقرأ الجمهور بالياء، أي: يقول الله

تعالى للكفار الذين أشركوا به من الدنيا سواه: ﴿فَأَدَّأ شُرَكَائِي﴾ على وجه الاستغاثه بهم، وقوله: ﴿شُرَكَائِي﴾، أي: على دعوكم أيها المشركون، وقد بين هذا بقوله: ﴿الَّذِينَ رَعَيْنَا﴾. وقرأ ابن كثير وأهل مكة: ﴿شُرَكَائِي﴾ بياء مفتوحة، وقرأ الجمهور: ﴿شُرَكَائِي﴾ بهمزة، فمنهم من حَقَّقَهَا، ومنهم من خَفَّفَهَا، وَالزُّعْمُ إنما هو مستعمل أبداً في غير اليقين، بل أغلبه في الكذب، ومنه هذه الآية، وأرفع مواضعه أن تستعمل «زعم» بمعنى «أخبر» حيث تلقي عهدة الخبر على المخبر، كما يقول سيبويه رحمه الله: «زعم الخليل»، وقوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ظاهره أن ذلك يقع حقيقة، ويحتمل أن يكون استعارة، كأن فكرة الكفار ونظرهم في أن تلك الجمادات لا تغني شيئاً ولا تنفع هي بمنزلة الدعاء وترك الإجابة، والأول أبين.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿مُؤَيَّنًا﴾ - قال عبدالله بن عمر، وأنس بن مالك، ومجاهد: هو واد في جهنم يجري بدم وصديد، قال أنس رضي الله عنه: يحجز بين أهل النار وبين المؤمنين، فقوله - على هذا -: ﴿يَبْنَهُمْ﴾ ظُرف. وقال الحسن: ﴿مُؤَيَّنًا﴾: عداوة و﴿يَبْنَهُمْ﴾ - على هذا - ظُرف وبعض هذه الفرقة يرى أن الضمير في قوله تعالى: ﴿يَبْنَهُمْ﴾ يعود على المؤمنين والكافرين، ويحتمل أن يعود على المشركين ومعبوداتهم في الدنيا، وأما التأويل الأول فالضمير فيه عائد

على المشركين ومعبوداتهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مُؤَيَّنًا﴾ معناه: مهلكاً، بمنزلة: موضع، وهو من قولك: وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَأَوْيَقُهُ غَيْرُهُ إذا أهلكه، فقوله تعالى: ﴿يَبْنَهُمْ﴾ - على هذا التأويل - يصح أن يكون ظرفاً، والأظهر فيه أن يكون اسماً بمعنى: وجعلنا تواصلهم أمراً مهلكاً لهم، ويكون ﴿يَبْنَهُمْ﴾ مفعولاً أولاً لـ ﴿جَعَلْنَا﴾. وعبر بعضهم عن «المُؤَيَّن» بالوعيد، وهذا ضعيف.

ثم أخبر عز وجل عن رؤية المجرمين النار ومعابنتهم لها، ووقوع العلم لهم بأنهم مُبَايَرُوْها، وأطلق الناس أن «الظن» هنا بمعنى اليقين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولو قال تعالى بدل «ظنوا»: «أَيَقْنُوا» لكان الكلام مُتَّسِقاً على مبالغة فيه، ولكن العبارة بالظن لا تجيء أبداً في موضع يقين تام قد ناله الحس، بل أعظم درجاته أن يجيء في موضع علم متحقق لكنه لم يقع ذلك المظنون، وإلا فما يقع ويُحْسُنُ لا يكاد يوجد في كلام العرب العبارة عنه بالظن، وتأمل هذه الآية، وتأمل قول دُرَيْد:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظَنُّوا بِالْفَنِي مُدَجِّجٍ

وقرأ الأعمش: ﴿فَنَظَّنُّوا أَنَّهُمْ مُلَاقُوها﴾، وكذلك في مصحف ابن مسعود، وحكى أبو عمرو الداني عن علقمة أنه قرأ: ﴿مُلَاقُوها﴾ بالفاء مشددة، من لَفَّت. وروى أبو سعيد

الخدي أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْكَافِرَ لَيَرَى جَهَنَّمَ وَيَظُنُّ أَنَّهَا مَوَاقِعُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً». وَالْمَضْرِبُ: الْمَغْدِلُ، وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي كَبِيرٍ الْهَذَلِيِّ:

أَزْهَيْزُهُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَضْرِبٍ
أَمْ لَا خُلُودَ لِإِذِلِّ مُتَكَلِّفٍ؟
وهذا مأخوذ من الانصراف من شيءٍ إلى شيءٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ الآية. المعنى: ولقد خَوَّفْنَا وَرَجَّيْنَا وبالغنا في البيان، وهذا كله بتمثيل وتقريب للأذهان. وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي: من كلِّ مثل له نفع في الغرض المقصود بهم وهو الهداية، وقوله تعالى: ﴿وَكَاذِبًا كَثِيرًا أَكْثَرَ شَبَابًا جَدَلًا﴾ خبرٌ مُقْتَضِبٌ في ضمنه: فلم ينفع فيهم تصريف الأمثال، بل هم قوم منحرفون يجادلون بالباطل. وقوله تعالى: ﴿الْإِنْسَانُ﴾ يريد به الجنس، وروى أن سبب الآية هو النضر بن الحارث، وقيل: ابن الزُّبَيْرِ، وروى أن رسول الله ﷺ دخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد نام عن صلاة الليل فأيقظه وعاتبه، فقال له علي: إنما نفسي بيد الله، ونحو هذا، فخرج رسول الله ﷺ وهو يضرب فخذه بيده ويقول: ﴿وَكَاذِبًا كَثِيرًا أَكْثَرَ شَبَابًا جَدَلًا﴾. فقد استعمل الآية على العموم في جميع الناس، والجدل: الخصام والمدافعة بالقول، فالإنسان أكثر جدلاً من كلِّ ما يجادل من ملائكة وجن وغير ذلك إن فُرض. وفي قوله تعالى: ﴿وَكَاذِبًا كَثِيرًا أَكْثَرَ شَبَابًا جَدَلًا﴾ تعليمٌ تَفْجَعُ مَا عَلَى النَّاسِ، وَيَتَّبِعِينَ فيما بعد.

٥٥ - ٥٧ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تأسف عليهم، وتنبية على فساد حالهم؛ لأن هذا المنع لم يكن يَقْضِدُ منهم أن يمتنعوا ليجيئهم العذاب، وإنما امتنعوا هم مع اعتقادهم أنهم مصيبون، لكن الأمر في نفسه يسوقهم إلى هذا، فكأن حالهم يقتضي التأسف عليهم، ﴿وَالنَّاسِ﴾ يُرَادُ بِهِ كِفَارُ عَصْرِ مُحَمَّدٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ تَوَلَّوْا دَفْعَ الشَّرِيعَةِ وَتَكْذِيبَهَا.

و ﴿الْمُتَكَلِّفِ﴾ هو شرع الله تعالى، والبيان الذي جاء به محمد ﷺ، و﴿الْأَسْتِغْفَارِ﴾ هنا هو طلب المغفرة على فارط الذنب كُفْرًا وغيره. و﴿سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ هي عذاب الأمم المذكورة من العُرُق والصيحة والظلة والريح وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾، أي: مقابلة عياناً، والمعنى عذاب غير المعهود، فتظهر فائدة التفسير، وكذلك صدق هذا الوعيد في بدر. وقال مجاهد: ﴿قُبُلًا﴾ معناه: فجأة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، ومجاهد، وعيسى بن عمر: ﴿قُبُلًا﴾ بكسر القاف وفتح الباء، وقرأ عاصم، والكسائي، وحمة، والحسن، والأعرج: ﴿قُبُلًا﴾ بضم القاف والباء، ويحتمل مَعْنَيْنِ: أحدهما أن يكون بمعنى: (قَبِيلَ): لأن أبا عيسى حكاهما بمعنى واحد في المقابلة، والآخر أن يكون جمع (قَبِيلَ)، أي: يجيئهم العذاب أنواعاً وألواناً. وقرأ أبو رجاء، والحسن أيضاً: ﴿قُبُلًا﴾ بضم القاف وسكون الباء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُزِيلُ الْعَذَابَ﴾ الآية. كأنه لما تَفَجَّعَ عليهم وعلى ضلالهم ومصيرهم بأرائهم إلى الخسار - قال: وليس الأمر كما ظنوا، والرُّسُلُ لم نبعثهم لِيُجَادِلُوا، وَلَا لِيُتَمَتَّى عليهم الاقتراحات، وإنما بعثناهم مبشرين من آمن بالجنة، ومُنْذِرِينَ من كفر بالنار. و﴿يُذْخِرُوا﴾ معناه: يزهقوا، والدَّخْضُ: الطين الذين يُزَلَّقُ فيه، ومنه قول الشاعر:

رَبِيتُ وَنَجَى النَّيْشُكْرِيَّ جَذَارُهُ
وَحَادَ كَمَا حَادَ النَّبِيرُ عَنِ الدَّخْضِ
وفي قوله تعالى: ﴿وَأَخَذُوا عَائِي﴾ إلى آخر الآية ترغيد. والآيات تجمع آيات القرآن والعلامات التي تظهر على لسان محمد ﷺ. وقوله: ﴿وَمَا أَزِيدُوا هَزْؤًا﴾ يريد: من عذاب الآخرة، والتقدير: وما أنذروه، فحذف الضمير. و﴿الْهَزْءُ﴾: السخر والاستخفاف، كقولهم: «أساطير الأولين»، وقولهم: «لو نشأ لقلنا مثلاً هذا».

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام بمعنى التقرير، وهذا من أقصَحِ التقرير، أن يُوقِفَ المرء على ما لا جواب له فيه إلا الذي يريد خَصْمُهُ، فالمعنى: لا أحد أظلم ممن هذه صفته، أن يُعرض عن الآيات بعد الوقوف عليها بالتذكير، وينسى وَيَطْرَحُ كِبَاثِرَهُ التي أسلفها، هذه غاية الإهمال. ونسب السيئات إلى الَيَذِينَ من حيث كانت اليدان آلة التَكْسِبِ في الأمور الجرمية، فجعلت كذلك في المعاني استعاراً.

ثم أخبر الله تعالى عنهم وعن فعله بهم جزاءً عن اعتراضهم وتكسبهم

القبيح بأن الله تعالى جعل على قلوبهم أكنة، وهي جمع كنان، وهو الغلاف الساتر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واختلف الناس في هذا وما أشبهه من الخشم والطبع ونحوه، هل هو حقيقة أو مجاز؟ والحقيقة في هذا غير مستحيلة، والتجوز أيضاً نصيح، أي: لما كانت هذه المعاني مانعة في الأجسام وحائلة استعيرت للقلوب التي قد أنساها الله تعالى وأقصاها عن الخير. وأما «الْوَقْرُ فِي الْأَذَانِ» فاستعارة بنية لأن الكفرة يسمعون الدعاء إلى الشرع سماعاً تاماً، ولكن لما كانوا لا يؤثر ذلك فيهم إلا كما يؤثر في الذي به وقر فلا يسمع، شبهوا به، وكذلك العمى والصمم والبكم كلها استعارات، وإنما الخلاف في أوصاف القلب، هل هي حقيقة أو مجاز؟ و«الْوَقْرُ»: الثقل في السمع.

ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم وإن دُعُوا إلى الهدى فإنهم لا يهتدون أبداً، وهذا يُخْرِجُ على أحد تأويلين: أحدهما أن يكون هذا اللفظ العام يراد به الخاص ممن حتم الله عليه أنه لا يؤمن ولا يهتدي أبداً، ويخرج عن العموم كل من قضى الله بهداه في ثاني حال، والآخر أن يزيد: وإن تدعهم إلى الهدى فلن يؤمنوا جميعاً أبداً، أي: إنهم ربما آمن منهم الأفراد، ويضطرنا إلى أحد هذين التأويلين أننا نجد المُخْبِر عنهم بهذا الخبر قد آمن منهم واهتدى كثير.

﴿٥٨﴾ - ﴿٥٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما أخبر الله تعالى عن القوم الذين حتم بكفرهم أنهم لا يهتدون أبداً،

عقب ذلك بأنه للمؤمنين الغفور ذو الرحمة، ويتحصل للكفار من صفته تبارك وتعالى بالغفران والرحمة تَرْكُ المعالجة، ولو أخذوا بحسب ما يستحقونه لبادرهم بالعذاب المُيسَّر لهم، ولكنه تعالى أخرهم إلى موعد لا يجدون منه منجى، قالت فرقة: هو أجل الموت، وقالت فرقة: هو عذاب الآخرة، وقال الطبري: هو يوم بدر والحشر، و«الْمَوْئِلُ»: المُنْجَى، يقال: وألَّ الرَّجُلُ يَيْلُ إِذَا نَجَا، ومنه قول الشاعر:

لَا وَأَلَّتْ نَفْسُكَ خَلَيْتَهَا
لِلْغَايِرِ بَيْنَ وَلَمْ تُكَلِّمْ
ومنه قول الأعشى:

فَقَدْ أَخَالِسُ رَبِّ النَّبِيتِ غَفْلَتُهُ
وَقَدْ يَحَاذِرُ مَنِيَّ ثُمَّ مَا يَيْلُ
ثم عقب تعالى توعدهم بذكر الأمثلة من القرى التي نزل بها ما توعد هو لا بمثله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَلَّكَ الْقُرَى﴾ حذف مضاف، تقديره: وتلك أهل القرى، و«الْقُرَى»: المدن، وهذه الإشارة إلى عاد وثمود ومدين وغيرهم، و«يَلَّكَ» ابتداء، و«الْقُرَى» صفة، و«أَهْلَكْنَهُمْ» خبر، ويصح أن تكون «يَلَّكَ» منصوباً بفعل يدل عليه «أَهْلَكْنَهُمْ».

وقرأ الجمهور: ﴿لِمَهْلِكِهِمْ﴾ بضم الميم وفتح اللام، وهو من: (أَهْلَكَ)، ومُفْعَل في مثل هذا يكون لزمن الشيء، ومكانه، ويكون مصدراً، فالمصدر - على هذا - مضاف إلى المفعول. وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿لِمَهْلِكِهِمْ﴾ بفتح الميم واللام، وقرأ - في رواية

حفص -: ﴿لِمَهْلِكِهِمْ﴾ بفتح الميم وكسر اللام، وهذا مصدر من: (هَلَكَ)، وهو في مشهور اللغة غير مُتَعَدٍّ، فالمصدر - على هذا - مضاف إلى الفاعل، لأنه بمعنى: وجعلنا لأن هلكوا موعداً، وقالت فرقة: إن (هَلَكَ) يتعدى، تقول: أَهْلَكَتُ الرَّجُلَ وَهَلَكَتُهُ بمعنى واحد، وأنشد أبو علي في ذلك:

وَمَهْمَه هَالِكٍ مَنْ تَعَرَّجَا

فعلى هذا يكون المصدر في كل وجه مضافاً إلى المفعول.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ الآية... ابتداء قصة ليست من الكلام الأول، والمعنى: واذكر أو أتْلُ، و«مُوسَىٰ» هو موسى بن عمران بمقتضى الأحاديث والتواريخ، وبظاهر القرآن؛ إذ ليس في القرآن موسى غير واحد، وهو ابن عمران، ولو كان في هذه الآية موسى غيره لَبَيَّنَّهُ. وقالت فرقة منها نواف أَلِيكَالِي: إنه ليس ابن عمران، وهو موسى بن مَشَى، ويقال: موسى بن مَشَى، وأما فتاه فعلى قول من قال هو موسى بن عمران فهو يوشع بن نون بن إفرائيل بن يوسف بن يعقوب، وأما من قال هو موسى بن مشى فليس الفتى يوشع ابن نون، ولكنه قول غير صحيح رده ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. و«الفتى» في كلام العرب: الشاب، ولما كان الخدمة - أكثر ما يكون - فتيناً قيل للخادم: فتى على جهة حسن الأدب، وإن أسَنَّ، وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي ﷺ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عِبْدِي وَلَا أَمْتِي،

وليل فتاي وفتاتي، فهذا ندب إلى التواضع، و«الفتى» في الآية هو الخادم، ويوشع بن نون يقال: هو ابن أخت موسى عليه السلام.

وسبب هذه القصة فيما روي عن النبي ﷺ أن موسى جلس يوماً في مجلس لبني إسرائيل، وخطب فأبلغ، فقبل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله تعالى إليه: بلى، عبدنا خضر، فقال: يا رب، دلني على السبيل إلى لقيته، فأوحى الله تعالى إليه أن يسير بطول سيف البحر حتى يبلغ مجمع البحرين، فإذا فقدت الحوت فإنه هنالك، وأمر أن يتزود ويرتقب زواله عنه، ففعل موسى ذلك، وقال لفتاه على جهة إمضاء العزيمة: لا أَبْرَحَ السَّيْرَ، أي: لا أزال، وإنما قال هذه المقالة وهو سائر، ومن هذا قول الفرزدق:

فَمَا بَرَحُوا حَتَّى تَهَاجَتْ نِسَاؤُهُمْ
بِبَطْحَاءِ ذِي قَارِ عِيَابِ الطُّغَايِمِ
وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما ظهر موسى عليه السلام وقومه على مصر أنزل قومه بمصر، فلما استقر الحال خطب يوماً فذكر بالآء الله وأيامه عند بني إسرائيل، ثم ذكر نحو ما تقدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما مر بي قط أن موسى عليه السلام أنزل قومه بمصر إلا في هذا الكلام، وما أراه يصح، بل المتظاهر أن موسى عليه السلام مات بفحص التيه قبل فتح ديار الجبارين، وفي هذه القصة من الفقه الرحلة في طلب العلم، والتواضع للعالم.

وقرأ الجمهور: ﴿جَمَعَ﴾ بفتح

الميمين، وقرأ الضحاك: ﴿مَجَمَعَ﴾ بكسر الميم الثانية.

واختلف الناس في «مَجَمَعَ الْبَحْرَيْنِ»، أين هو؟ فقال مجاهد، وقتادة، هو مجمع بحر فارس وبحر الروم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان، فالركن الذي لاجتماع البحرين ممّا يلي بر الشام، وهو مجمع البحرين على هذا القول،

وقالت فرقة منهم محمد بن كعب: مجمع البحرين هو عند طنجة، وهو حيث يجتمع البحر المحيط والبحر الخارج منه السائر من دبور إلى صبا، وروي عن أبي بن كعب أنه قال: مجمع البحرين بأفريقية، وهذا يقرب من الذين قبله. وقال بعض أهل العلم: هو بحر الأندلس من البحر المحيط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله واحد، حكاة النقاش، وهذا مما يذكر كثيراً. ويذكر أن القرية التي أبت أن تضيفهما هي الجزيرة الخضراء، وقالت فرقة: مجمع البحرين، يريد بحراً ملحاً وبحراً عذياً. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا إنما كان الخضر عند موقع نهر عظيم في البحر. وقالت فرقة: البحرين إنما هما كناية عن موسى عليه

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا نَادِيَا نَا لَقَدْ لَبِيتْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْرَثْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أُنْصِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْسَلْنَا عَنْهُ آتَاهُمَا فَصَبَّأَهُمَا فَوْجَدًا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عَيْنِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٣﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَى أَنْ تَعْلِمَ مِنْ مَاءٍ عَذْبٍ تَشْتَبِيهِ؟ قَالَ أَتَيْكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٤﴾ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَى مَا رَجَعْنَا بِكَ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٥﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٦٦﴾ فَأَطْلُقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا أِمْرًا ﴿٦٧﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ لَا تُؤْخِذْنِي بِمَا نَسِيتَ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسَى أَنْ يَأْتِيَنَا حَوْضٌ وَإِذَا أَلْقَا عُلَمَانَا فَفَعَلَهُ ﴿٦٩﴾ قَالَ أَفَلَا تَنْتَظِرُونَ ﴿٧٠﴾ فَتَوَلَّى مُعْرِضًا وَالْفَخْرُ كُنْتُ مُكْرَمًا ﴿٧١﴾

٣٠١

السلام والخضر، لأنهما بحرًا علم. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف، والأمر بين من الأحاديث أنه إنما رُسم له بحرًا ما. وقوله: ﴿أَوْ أَمْنِي حَقًّا﴾ معناه: أو أمضي على وجهي زمانًا، واختلف القراء - فقرأ الحسن، والأعمش، وعاصم: ﴿حَقًّا﴾ بسكون القاف، وقرأ الجمهور: ﴿حَقًّا﴾ بضمه، وهو ثقیل (حَقْبٍ)، وجمع الحَقْبِ أَحْقَابٌ، واختلف في الحَقْب - فقال عبدالله بن عمرو: ثمانون سنة، وقال مجاهد: سبعون سنة، وقال القراء: الحَقْب: سنة واحدة، وقال ابن عباس وقتادة: الحَقْب أزمان غير محدودة، وقالت فرقة: الحَقْب جمع حقة وهي السنة.

٦١ - ٦٥ - تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ للبحرين،

قاله مجاهد، وقيل: هو لموسى والخضر، والأول أصوب. وقرأ عبدالله بن مسلم: ﴿مَجْمَعٌ﴾ بكسر الميم الثانية: وقال: ﴿نَسِيًا﴾ وإنما كان النسيان من الفتى وحده، نسي أن يعلم موسى عليه السلام بما رأى من حاله من حيث كان لهما زاداً، وكان بسبب منه، فنسب فعل الواحد فيه إليهما، وهذا كما يقال: فَعَلَ بَنُو فلان الأمر، وإنما فعله منهم بعض. وزوي في الحديث أن يوشع رأى الحوت قد حشر من الجحش إلى البحر، فراه قد اتَّخَذَ السَّرب، وكان موسى عليه السلام نائماً، فأشفق أن يوقظه، وقال: أَوْخِرْ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، فلما استيقظ نسي يوشع أن يعلمه، ورحلا حتى جاوزا، و«السَّبِيلُ»: الْمَسْلُكُ، و«السَّرْبُ»: الْمَسْلُكُ فِي جَوْفِ الْأَرْضِ، فشبه به مسلك الحوت في الماء حين لم ينطبق الماء بعده كَالطَّاقِ، وهذا الذي ورد في الحديث عن النبي ﷺ، وقاله جمهور المفسرين، إن الحوت بقي موضع سلوكه ماء جامداً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل صار موضع سلوكه حجراً صليداً، وقال ابن زيد: إنما اتَّخَذَ سَبِيلَهُ سِرْباً فِي الْبَرِّ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْبَحْرِ ثُمَّ عَامَ عَلَى الْعَادَةِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهؤلاء يتأولون ﴿سَرًّا﴾ بمعنى: تصرفاً وجولاناً، من قولهم: فَخُلَّ سَارِبٌ أَيْ مُهْمَلٌ يَرعى من حيث يشاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌ يَلْتَمِسُ﴾، أي متصرف. وقالت فرقة: اتَّخَذَ سِرْباً فِي الثَّرَابِ من المكثل إلى

البحر، وصادف في طريقه حجراً فنقبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر الأمر أن السَّرْبَ إنما كان في الماء، ومن غريب ما روي في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصص هذه الآية أن الحوت إنما حَبِيَ لَأَنَّهُ مَشَهُ ماءً عَيْنَ هنالك تدعى عين الحياة، ما مَسَّتْ شيئاً قط إلا حَيِيَ. ومن غريبه أيضاً أن بعض المفسرين ذكر أن موضع سلوك الحوت عاد حجراً طريقاً، وأن موسى عليه السلام مشى عليه تبعاً للحوت حتى أفضى به ذلك الطريق إلى جزيرة في البحر، وفيها وجد الخضر عليه السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر الكتاب والروايات أنه إنما وجد الخضر في ضفة البحر، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، وروي في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أن موسى عليه السلام نزل عند شجرة عظيمة في ضفة البحر فنسي يوشع الحوت هنالك، ثم استيقظ موسى، ورحلا مرحلة بقية الليل وصَدَرَ يومهما، فجاج موسى ولحقه تعب الطريق فاستدعى الغداة.

قال لي أبي رضي الله عنه: وسمعت أبا الفضل بن الجوهري يقول في وعظه: مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوماً لم يحتج إلى طعام، ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع في بعض يوم. و«النَّصَبُ»: التعب والمشقة. وقرأ عبدالله بن عبيد بن عمير: ﴿نُصْبًا﴾ بضم النون

والصاد، ويشبه أن يكون جمع (نَصَبٍ)، وهو تخفيف (نَصَبٍ).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا﴾ الآية. حكى الطبري عن فرقة أنها قالت: الصخرة هي بالشام عند نهر الذيب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تقدم ذكر الخلاف في موضع هذه القصة.

وقوله تعالى: ﴿نَسِيتُ الْكَوْنُ﴾، يريد: نسيت ذكر ما جرى فيه لك، وأمال الكسائي وحده «أَنْسَانِيَّةً». وقرأ ابن كثير في الوصل: ﴿أَنْسَانِيَّةً﴾ بباء بعد الهاء، وفي مصحف عبدالله: ﴿وَمَا أَنْسَانِيَّةً أَنْ أَذْكَرَ لَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَذْكَرُ﴾ بدل من «أَلْهَوْتُ»، بدل اشتمال. وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾، يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى عليه السلام، أي: اتَّخَذَ الحوت سبيله عجباً للناس، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾ تمام الخبر، ثم استأنف التعجب فقال: من قَبِلَ نفسه -: «عَجَبًا» لهذا الأمر، وموضع العجب أن يكون الحوت قد مات وأكل شِقُّهُ الأيسر، ثم حيي بعد ذلك، قال أبو شجاع في كتاب الطبري: رأيته، أوتيت به فإذا هو شقة حوت وعين واحدة، وشق آخر ليس فيه شيء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأنا رأيته، والشق الذي ليس فيه شيء عليه قشرة رقيقة يشق تحتها شوكة وشقه الآخر. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَاتَّخَذَ

بضم الدال وتخفيف النون، قال أبو حاتم: هما لغتان.

﴿٦٦﴾ - ﴿٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة المستنزل المبالغ في حُسن الأدب. المعنى: هل يُتَّق لك ويخفُّ عليك؟ وهذا كما في الحديث: هل تستطيع أن تُريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ وعلى بعض التأويلات يجيء كذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رُؤُوكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ؟﴾

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم: ﴿رُشْدًا﴾ بتخفيف الشين، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وقرأ ابن عامر: ﴿رُشْدًا﴾، وقرأ أبو عمرو: ﴿رُشْدًا﴾ بفتح الراء والشين. ونصبه على وجهين: أحدهما أن يكون مفعولاً ثانياً بـ ﴿تَمْلِكُنِ﴾، والآخر أن يكون حالاً من الضمير في قوله: ﴿أَنْتُمْ كَ﴾.

ثم قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، أي: إنك يا موسى لا تُطِيق أن تصبر على ما تراه من عملي؛ لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تُخبر بوجه الحكمة فيه ولا وجه الصواب؟ فقرب له موسى الأمر بوعده أنه سيجده صابراً، ثم استثنى حين حكم على نفسه بأمر، فقوى الخضر وصاته، وأمره بالإمساك عن السؤال والإكثار لما يراه حتى يبتدئه الخضر بشرح ما يجب شرحه.

وقرأ نافع: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ بفتح اللام وتشديد النون وإثبات الياء، وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه حذف الياء فقال: ﴿فَلَا تَسْأَلُنِ﴾، وقرأ ابن

موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال له: ألم يكن لك في بني إسرائيل ما يشغلك عن السفر إلى هنا؟ قال: بلى، ولكني أحبيث لقاءك وأن أعلم منك، قال له: إنني على علم من علم الله علمنيه ولا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك لا أعلمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كان علم الخضر معرفة بواطن قد أوحيت إليه لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها، وكان علم موسى عليه السلام علم الأحكام والفُتُيا بظواهر أقوال الناس وأفعالهم. وزوي أن موسى وجد الخضر قاعداً على ثبج البحر، وسُمي الخضر خضراً لأنه جلس على فروة يابسة فاهتزت تحته خضراء، زوي ذلك عن النبي ﷺ، و﴿الرُّخْمَةُ﴾ - في هذه الآية - الثبوة. وقد ذكرنا الحديث المُضْمَن أن سبب هذه القصة أن موسى عليه السلام قيل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا. وحكى الطبري حديثاً آخر مُضْمَن أن موسى عليه السلام قال من قَبِل نفسه: أي رَبِّ، أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة خير تهديه، قال: رب، فهل في الأرض أحد؟ قال: نعم، فسأل السبيل إلى لِقَائِهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والحديث الأول في صحيح البخاري.

وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ بتشديد النون، وقرأ أبو عمرو: ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾

سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ إخباراً من الله تعالى، وذلك على وجهين: إما أن يُخبر عن موسى أنه اتخذ سبيل الحوت من البحر عجباً، أي: تعجَّب منه، وإما أن يخبر عن الحوت أنه اتخذ سبيله عجباً للناس، وقرأ أبو حية: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾، فهذا مصدر معطوف على الضمير في ﴿أَنْ أَذْكُرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾ الآية. المعنى: قال موسى لفتاه: أمر الحوت وفقده هو الذي كنا نطلب، فإن الرجل الذي جئنا له ثم، فرجعا يَقْضَان أثرهما لثلا يخطئنا طريقهما. وقرأ الجمهور: ﴿تَبْغِي﴾ بشبوت الياء، وقرأ عاصم وقوم: ﴿تَبِغُ﴾ دون ياء، وكان الحسن يشبها إذا وصل ويحذفها إذا وقف. و﴿قُصُّ الأَثَرِ﴾: اتِّباعه وتطلبه في موضع خفية.

والعَبْدُ هو الخضر في قول الجمهور بمقتضى الأحاديث، وخالف من لا يعتد بقوله فقال: ليس صاحب موسى بالخضر، بل هو عالم آخر، والخضر نبي عند الجمهور، وقيل: هو عبد صالح غير نبي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية تشهد بنبوته؛ لأن بواطن أفعاله هل كانت إلا بوحي إليه؟ وزوي في الحديث أن موسى وجد الخضر عليهما السلام مُسْجِي في ثوبه مستلقياً على الأرض، فقال له: السلام عليك، فرفع الخضر رأسه وقال: وَأَنْتِ بَارِضُكُ السَّلَام؟ ثم قال له: من أنت؟ قال: أنا موسى، قال:

كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿فَلَا تَنْتَهِنِي﴾ بسكون اللام وثبوت الياء، وقرأ الجمهور: ﴿خَيْرًا﴾ بسكون الباء، وقرأ الأعرج: ﴿خَيْرًا﴾ بضمها.

وقوله تعالى: ﴿تَنْطَلَقَا﴾، روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم انطلقا ماشيتين على سيف البحر حتى مرّت بهما سفينة، فعرف الخضر فحَمَلًا بغير نول إلى مقصد أمة الخضر. وعُرِفَت السفينة بالآلف واللام تعريف الجنس لا لِعَهْدَ غَيْتِهَا. فلمّا ركبا عمد الخضر إلى وتد فجعل يضرب به في جنب السفينة حتى بلغ به - فيما روي - لوحين من ألواحها، فذلك هو معنى ﴿خَرَقَهَا﴾، فلما رأى ذلك موسى عليه السلام غلبه ظاهر الأمر على الكلام حين رأى فعلاً يُؤدّي إلى غرق من في السفينة. فوقفه بقوله: ﴿أَخَرَقَهَا؟﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿لِيَفْرَقَ أَهْلَهَا﴾ بالتاء، وقرأ أبو رجاء: ﴿لِيَفْرَقَ أَهْلَهَا﴾ بشدّ الراء وفتح الغين، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿لِيَفْرَقَ أَهْلَهَا﴾ برفع الأهل وإسناد الفعل إليهم.

و «الإمر»: الشّنيع من الأمور كالداهية والإدّ ونحوه، ومنه: «أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ»، ومنه «أَمِرَ الْقَوْمُ» إذا كثروا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: و «الإمرُ أَخْصُ من النُّكرِ».

فقال الخضر مجاباً لموسى: ﴿أَنْتَ أَقْلُ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فتنّبّه

موسى لما أتى معه فاعتذر بالنسيان، وذلك أنه نسي العهد الذي كان بينهما، هذا قول الجمهور، وفي كتاب التفسير من صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً»، وفيه عن مجاهد قال: كانت الأولى نسياناً، والثانية شرطاً، والثالثة عمداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الكلام معترض؛ لأن الجميع شرط، ولأن العمد يبعد على موسى عليه السلام، وإنما هو التأويل إذ جنب صيغة السؤال والنسيان. وروي الطبري عن أبي بن كعب أنه قال: إن موسى عليه السلام لم يَنْسَ، ولكنها من معارض الكلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا القول صحيح، والطبري لم يُبَيِّنْهُ، ووجهه عندي أن موسى عليه السلام إنما رأى العهد في أن يسأل، ولم ير إنكار هذا الفعل الشنيع سؤالاً، بل رآه واجباً، فلما رأى الخضر قد أخذ العهد على أعم وجوه فضئته السؤال والمعارضة والإنكار وكلّ اعتراض - إذ السؤال أخف من هذه كلها - أخذ معه في باب المعارض التي هي مندوحة عن الكذب، فقال له: ﴿لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ﴾، ولم يقل: «إني نسيت العهد»، بل قال لفظاً يعطي للمتأول أنه نسي العهد، ويستقيم أيضاً تأويله وطلبه مع أنه لم ينس العهد؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ كلام جيد طلبه، وليس فيه للعهد ذكر، هل نسيه أم لا، وفيه تعريض أنه نسي العهد، فجمع في

هذا اللفظ بين العذر والصدق وما يخل بهذا القول إلا أن الذي قاله وهو أبي روى عن النبي ﷺ أنه قال: «كانت الأولى نسياناً». و﴿تَهْفَى﴾ معناه: تكلفني وتضيق عليّ.

ومِمَّا قُصِّ من أمرهما أنهما لمّا ركبا السفينة وجَرَتْ نَزَلُ عصفور على جنب السفينة، فنقر في الماء نفرة، فقال الخضر لموسى: ماذا ترى هذا العصفور نقص من ماء البحر؟ قال موسى: قليلاً، فقال: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا ما نقص هذا العصفور من ماء البحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقل: معنى هذا الكلام وضع العلم موضع المعلومات، وإلّا قيلَ الله تبارك وتعالى لا يُشَبَّه بمتناهٍ، إذ لا يتناهي، والبحر لو فرضت له عصافير على عدد نقطه لانتَهَى، وعندي أن الاعتراض يحتمل أن يريد: من علم الله الذي أعطاه العلماء قبلهما وبعدهما إلى يوم القيامة، فتجيء نسبة علمه إلى علم البشر نسبة تلك النقطة إلى البحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن لولا أن في بعض طرق الحديث: «ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كنقرة هذا العصفور»، فلم يبق مع هذا إلا أن يكون التشبيه بتجاوز؛ إذ لا يوجد في المحسوسات أقوى في القلّة من نقطة بالإضافة إلى البحر، فكأنّها لا شيء؛ إذ لا توجد لها إلى البحر نسبة معلومة.

(٧٤) - (٧٨) تفسير قوله عز وجل:

انطلقا في موضع نزولهما من السفينة، فمراً بغلمان يلعبون، فعمد الخضر إلى غلام حسن الهيئة وضيء فاقطلع رأسه، ويقال: رَضُّها بحجر، ويقال: ذبحه، وقال بعض الناس: كان هذا الغلام لم يبلغ الحلم، ولذلك قال موسى: ﴿رَكِبْهُ﴾، أي: لم تذنب، وقالت فرقة: بل كان غلاماً شاباً، والعرب تُبقي على الشاب اسم الغلام، ومنه قول ليلي الأخيلية:

غُلامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاءَ سَقَامَا

وهذا في صفة الحجاج. وفي الخبر أن هذا الغلام كان يفسد في الأرض ويقسم لأبويه ما فعل فيقسمان على قَسَمِهِ ويحميانه ممن يطلبه، وقرأ ابن عباس، والأعرج، وأبو جعفر، ونافع، والجمهور: ﴿رَاكِبَهُ﴾، وقرأ الحسن، وعاصم، والجحدري: ﴿رَكِبَهُ﴾ والمعنى واحد، وقد ذهب قوم إلى الفَرْق، وليس بَيِّن. وقوله: ﴿يَغْيَرُ ثُنَيَّ﴾ يقتضي أنه لو كان عن قتل نفس لم يكن به بأس، وهذا يدل على كبر الغلام؛ وإلا فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس ولا بغير نفس، وقرأ الجمهور: ﴿نُكْرًا﴾ وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿نُكْرًا﴾ بضم الكاف، واختلف عن نافع، ومعناه: شيء يُنْكِر.

واختلف الناس أيهما أبلغ؟ قوله: ﴿إِنَّمَا﴾ أو قوله: ﴿نُكْرًا﴾ - فقالت فرقة: هذا قتل بَيِّنٌ وهنالك مُتَرَقَّبٌ، و﴿نُكْرًا﴾ أبلغ، وقالت فرقة: هذا

قتل واحدٍ وذلك قتل جماعية، ف﴿إِنَّمَا﴾ أبلغ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعندي أنهما لِمَعْنَيَيْنِ: قوله: ﴿إِنَّمَا﴾ أقطع وأمول من حيث هو متوقع عظيم، و﴿نُكْرًا﴾ أبين في الفساد لأن مكروهه قد وقع، [ونصف القرآن بعد الحرف ن أو ينتهي إلى النون من قوله: ﴿نُكْرًا﴾].

وقوله: ﴿قَالَ آتِ أَقْلَ لَكَ﴾ فيه زجر وإغلاط ليس في قوله أولاً: ﴿أَلَمْ أَقْلَ لَكَ﴾ لأن تَسْتَطِيعَ مَعَ صَبْرًا، وقوله: ﴿بَعْدَهَا﴾

يريد: بعد هذه القصة، فأعاد الضمير عليها وإن كانت لم يتقدم لها ذكر صريح من حيث كانت في ضمن القول.

وقرأ الجمهور: ﴿فَلَا تَصْخَبْ﴾ ورواهما أبوي عن النبي ﷺ، وقرأ عيسى، ويعقوب: ﴿فَلَا تَصْخَبْنِي﴾، وقرأ عيسى أيضاً: ﴿فَلَا تُصْخَبْنِي﴾ بضم التاء وكسر الحاء، ورواهما سهل عن أبي عمرو، والمعنى: فلا تُصْخَبْنِي علمك، وقرأ الأعرج: ﴿فَلَا تَصْخَبْنِي﴾ بفتح التاء والياء وشذ النون. وقوله: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا﴾، أي: قد أعذرت إليّ وبلغت إلى العذر من قبلي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن تكون هذه القصة أصلاً للأجال في الأحكام التي هي ثلاثة أيام، وأيام التلؤم ثلاثة، فتأمله. وقرأ

﴿قَالَ آتِ أَقْلَ لَكَ﴾ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعَ صَبْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ مَّعْدَهَا فَلا تَصْخَبْ عَلَيَّ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٥﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آنَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٦﴾ قَالَ هَذَا أَرْأَى أَنْ يَبْنِيَ وَيَنْتَظِرَ سَأَيْتُكَ بِنَاوِيلَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٧﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أُعْيِيَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ بِأُحُدِ كُلِّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٨﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٧٩﴾ فَأَرْدْنَا أَنْ يَبْنِيَ لَهُمَا مَهِمَّاءَ حَيْرَانَةٍ فَكُذِّبُوا وَآقَرَبَ رَحْمًا ﴿٨٠﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا قَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨١﴾ وَتَتَلَوْنَهَا عَنْ ذِي الْقُرْآنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٢﴾

٣٠٢

ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ بفتح اللام وضم الدال وشذ النون، وهي (لَدُنْ) اتصلت بها نون الكناية التي في «ضربني» ونحوه، فوقع الإدغام، وهي قراءة النبي ﷺ، وقرأ نافع، وعاصم: ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ كالأولى إلا أن النون مُحْقَقَةٌ، فهي (لَدُنْ) اتصلت بها ياء المتكلم التي في «غلامي» وكثير ما قبل الياء كما كثير في هذه، وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون، وهو تخفيف [لَدُنِّي] التي ذكرناها قبل هذه، وزوي عن عاصم: ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ بضم اللام وسكون الدال، قال مجاهد: وهي غلط، قال أبو علي: هذا التغليظ يشبه أن يكون من جهة الرواية، فأما

على قياس العربية فهي صحيحة. وقرأ الحسن: ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ بفتح اللام وسكون الدال.

وقرأ الجمهور: ﴿عُذْرًا﴾ وقرأ أبو عمرو، وعيسى: ﴿عُذْرًا﴾ بضم الذال، وحكى الداني أن أبا روى عن النبي ﷺ: ﴿عُذْرِي﴾ بكسر الراء وإياء بعدها، وأسند الطبري قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لأحد بدأ بنفسه، فقال يوماً: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صبر على صاحبه لرأى العجب، ولكنه قال: ﴿فَلَا تُصِغِي قَدْ بَلَّغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾». وفي البخاري عن النبي ﷺ: «يرحم الله موسى، لوددنا أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما». وزوي في تفسير هذه الآية أن الله تعالى جعل هذه الأمثلة التي وقعت لموسى مع الخضر حجة على موسى وعجبا له، وذلك أنه لما أنكر خرق السفينة نودي: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في الثابت مطروحا في اليم؟ فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكزك للقبطي وقضائك عليه؟ فلما أنكر إقامة الجدار نودي: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنت شعيب دون أجر؟

وقوله: ﴿فَأَسْأَلَنَّ﴾، يريد: انطلق الخضر وموسى يمشيان لارتياح الخضر أمراً ينفذ فيه ما عنده من علم الله تعالى، فمرا بقية فطلبا من أهلها أن يطعموهما فأبوا. وفي الحديث أنهما كان يمشيان على مجالس أولئك القوم يستطعمانهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه عبارة مصرحة بهوان الدنيا على الله عز وجل.

واختلف الناس في القرية - فقال محمد بن سيرين: هي الأبلّة، وهي أبخل قرية وأبعدها من السماء، وقالت فرقة: هي أنطاكية. وقالت فرقة: هي بركة، وقالت فرقة: هي بجزيرة الأندلس، روي ذلك عن أبي هريرة، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء. وقالت فرقة: هي أبو جردان، وهي بناحية أذربيجان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله بحسب الخلاف في أي ناحية من الأرض كانت قصة موسى عليه السلام، والله أعلم بحقيقة ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿يُضَيِّقُونَهَا﴾ بفتح الضاد وشد الياء، وقرأ أبو رجاء: ﴿يُضَيِّقُونَهَا﴾ بكسر الضاد وسكون الياء، وهي قراءة ابن محيصن، والزبير، وأبي رزين. والضمي مأخوذ من: ضاف إلى المكان إذا مال إليه، ومنه الإضافة وهي إمالة شيء إلى شيء. وقرأ الأعشى: ﴿فَأَبَا أَنْ يُطْعَمُوهُمَا﴾.

وقوله تعالى في الجدار: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ﴾ استعارة، وجميع الأفعال التي حقها أن تكون للحَي الناطق متى أسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي استعارة، أي: لو كان مكان الجماد إنسان لكان متمثلاً لذلك الفعل، فمن ذلك قول الأعشى:

هَلْ تَنْتَهُونَ؟ وَلَا يَنْهَى دَوِي شَطِيطٍ
كَالطُّغْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الرِّيثُ وَالْفُتْلُ
فَأَسْنَدَ الثُّهْيَ إِلَى الطُّغْنِ، ومن ذلك قول الشاعر:

يُرِيدُ الرُّمُحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ
وَيَزْعَبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عُقَيْلٍ
ومنه قول عترة:

.....
وَسَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَنُّمٍ
وَقَسَّرَ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ:

لَوْ كَأَنَّ يَذْرِي مَا الْمُحَاوَرَةَ اشْتَكَى
..... البيت.

ومنه قول الناس: «داري تنظر إلى دار فلان»، ومنه قول النبي ﷺ: «لا تَرَأَى نَارَاهُمَا» وهذا كثير جداً.

وقرأ الجمهور: ﴿يَنْقُصُ﴾ أي: يسقط. وقرأ النبي ﷺ - فيما روي عنه - ﴿أَنْ يُنْقَضَ﴾ بضم الياء وتخفيف الضاد، وهي قراءة أبي، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعكرمة: ﴿أَنْ يُنْقَاصَ﴾ بالصاد غير منقوطة، بمعنى: ينشق طولاً، يقال: انقاص الجدار وطَيَّ البئر، وانقاصت السن إذا انشقت طولاً، وقيل: إذا تصدعت كيف كان، ومنه قول أبي ذؤيب:

فِرَاقٌ كَقَيْصِ السَّنِّ فَالضُّبْرُ إِنَّهُ
لِكُلِّ أَنْاسٍ عَشْرَةٌ وَجُبُورُ
ويروى البيت: عبرة وجور بالياء والحاء. وقرأ ابن مسعود، والأعشى: ﴿يُرِيدُ لِيُنْقَضَ﴾.

واختلف المفسرون في قوله: ﴿فَأَكَامَهُ﴾ - فقالت فرقة: هدمه وقعد بينيه، ووقع هذا في مصحف ابن مسعود، ويؤيد هذا التأويل قول موسى عليه السلام: ﴿لَوْ شِئْتَ

لَتَخَذَتْ عَلَيْهِ أَجْرًا؛ لَأَنَّهُ فَعَلَ يَسْتَحِقُّ أَجْرًا. وقال سعيد بن جبير: بَلَّ مَسَحَهُ يَدَهُ وَأَقَامَهُ قَامًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَرَوَى فِي هَذَا حَدِيثٍ، وَهُوَ الْأَشْبَهُ بِفِعْلِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فَقَالَ مُوسَى لِلْخَضِرِ: ﴿كَوْشَيْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أَي: طَعَامًا نَأْكُلُهُ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿لَتَخَذْتَ﴾ وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو: ﴿لَتَجِدْتَ﴾، وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَأَذَعَمَ بَعْضُ الْقُرَاءِ الذَّالَ فِي الثَّاءِ، وَلَمْ يَدْغِمْهَا بَعْضُهُمْ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ: (تَجِدُ) قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَقَدْ تَجَدَّتْ رَجُلِي إِلَى جَنْبِ غَرْزِهَا
نَيْسِيًّا كَأَفْحُوصِ الْقَطَاةِ الْمُطَرِّقِ
وَفِي حَرْفِ أَبِي: ﴿لَوْ شِئْتُ لَاؤْتِيتُ
عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

ثم قال الخضر لموسى بحسب شرطهما: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، واشترط الخضر، وأعطاه موسى ألا يقع سؤال عن شيء، والسؤال أقل وجوه الاعتراضات، فالإنكار والتخطئة أعظم منه، وقوله: ﴿لَوْ شِئْتُ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ - وإن لم يكن سؤالاً - ففي ضمنه الإنكار لفعله والقول بتصويب أخذ الأجر، وفي ذلك تخطئة ترك الأجر، وأما فضله وتكريره ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ وعذوله عن «بَيْنَنَا» فليَمْنَى التأكيد، والسُّيْنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَأْنِيكَ﴾ مُفْرَقَةٌ بَيْنَ الْمُحَاوَرَتَيْنِ وَالصَّحْبَتَيْنِ، وَمُؤَدَّةٌ بَأَنَّ الْأَوَّلَى قَدْ انْقَطَعَتْ.

﴿٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

قَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿لِمَسْكِينٍ﴾ بِتَخْفِيفِ السُّيْنِ، جَمَعَ مَسْكِينٍ، وَاخْتَلَفَ فِي

صَفَتِهِمْ - فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَتْ لِقَوْمِ تِجَارٍ، وَلَكِنْهُمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ مُسَافِرُونَ عَلَى قَلْتٍ وَفِي لُجَةِ بَحْرِ وَبِحَالٍ ضَعْفٍ عَنْ مَدَافِعَةِ غَضَبِ جَائِرٍ، عَبَّرَ عَنْهُمْ بِ[مَسَاكِينٍ]؛ إِذْ هُمْ فِي حَالٍ يُشْفَقُ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِهَا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَهَذَا كَمَا يَقُولُ لِرَجُلٍ غَنِيٍّ - إِذَا وَقَعَ فِي وَهْلَةٍ أَوْ خَطْبٍ -: مَسْكِينٍ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانُوا عَشْرَةَ إِخْوَةٍ أَهْلٍ عَاهَاتٍ، خَمْسَةٌ مِنْهُمْ عَامِلُونَ فِي السَّفِينَةِ، وَخَمْسَةٌ لَا قُدْرَةَ بِهِمْ عَلَى الْعَمَلِ.

وقرأ فرقة: ﴿لِمَسَاكِينٍ﴾ بِشَدِّ السُّيْنِ، وَاخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ - فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: أَرَادَ بِالْمَسَاكِينِ مَلَاحِي السَّفِينَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَسَاكُ هُوَ الَّذِي يُمَسَّكُ رَجُلُ الْمَرْكَبِ، وَكُلُّ الْخِدْمَةِ يَصْلُحُ لِإِمْسَاكِهِ، فَسُمِّيَ الْجَمِيعُ مَسَاكِينٍ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: أَرَادَ بِالْمَسَاكِينِ ذِبْيَةَ الْمُسُوكِ وَهِيَ الْجُلُودُ وَاحِدُهَا مَسْكٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَالْأَظْهَرُ فِي ذَلِكَ الْقِرَاءَةُ الْأُولَى، وَأَنَّ مَعْنَاهَا أَنَّ السَّفِينَةَ لِقَوْمٍ ضَعْفَاءٍ يَنْبَغِي أَنْ يَشْفَقَ عَلَيْهِمْ، وَاحْتِجَّ النَّاسُ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي أَنَّ الْمَسْكِينِ الَّذِي لَهُ الْبُلْغَةُ مِنَ الْعَيْشِ، كَالسَّفِينَةِ لَهُؤُلَاءِ، وَأَنَّهُ أَصْلَحُ حَالًا مِنَ الْفَقِيرِ، وَاحْتِجَّ

مَنْ يَرَى خِلَافَ هَذَا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:
أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حُلُوبَتُهُ
وَفَقُّ الْعِيَالِ فَلَمْ يَشْرَكَ لَهُ سَبْدٌ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَتَحْرِيرُ هَذَا عِنْدِي أَنَّهُمَا لَفْظَانِ يَدُلَّانِ عَلَى ضَعْفِ الْحَالِ جَدًّا، وَمَعَ الْمَسْكَنَةِ انْكِشَافٌ وَذَلٌّ بِسُؤَالٍ، وَلِلَّذَلِكَ

جعلهما الله تعالى صنفين في قسم الصدقات، فأما حديث النبي ﷺ الذي هو: «ليس المسكين بهذا الطَّوَّافِ» فجعل المساكين في اللغة أهل الحاجة الذين كشفوا وجوههم، وأما قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فجعل الفقراء الذين لم يكشفوا وجوههم. وقد تقدم القول في هذه المسألة بأَوْعَبَ مِنْ هَذَا.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾، قال قوم: معناه: أمامهم، وقالوا: (وراء) من الأضداد. وقال ابن جبير، وابن عباس: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة، وقرأ عثمان بن عفان رضي الله عنه: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ﴾ هُوَ عِنْدِي عَلَى بَابِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَافَ إِنَّمَا تَجِيءُ مُرَاعَى بِهَا الزَّمَنُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْحَادِثَ الْمَقْدَمَ الْوُجُودَ هُوَ الْأَمَامُ، وَبَيْنَ الْيَدِ لَمَّا يَأْتِي بَعْدَهُ مِنَ الزَّمَنِ، وَالَّذِي يَأْتِي بَعْدَ هُوَ الْوَرَاءُ وَهُوَ مَا خَلْفَ، وَذَلِكَ بِخِلَافِ مَا يَظْهَرُ بِبَدَائِءِ الرَّأْيِ، وَتَأْمَلْ هَذِهِ الْأَلْفَافَ فِي مَوَاضِعِهَا حَيْثُ وَرَدَتْ تَجِدُهَا تَطَرُّدًا، فَهَذِهِ الْآيَةُ مَعْنَاهَا: إِنَّ هَؤُلَاءِ وَعَمَلُهُمْ وَسَعْيُهُمْ يَلِي بَعْدَهُ فِي الزَّمَنِ غَضَبٌ مِنَ الْمَلِكِ، وَمَنْ قَرَأَ: ﴿أَمَامَهُمْ﴾ أَرَادَ: فِي الْمَكَانِ، أَيْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ إِلَى بَلَدِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ إِنَّهُمَا «بَيْنَ يَدَيِ الْقُرْآنِ» مَطْرَدٌ عَلَى مَا قُلْنَا فِي الزَّمَانِ، وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِمْ

جَهَنَّمَ ﴿٨٠﴾ مطرد كما قلنا من مراعاة الزمان، وقول النبي ﷺ: «الصلاة أمامك» يريد في المكان، وإلا فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمن، فتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ ووقع لقتادة في كتاب الطبري: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ﴾، قال قتادة: أمامهم، ألا ترى أنه يقول: ﴿يَنْزِلُ وَرَاءَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ وهي بين أيديهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول غير مستقيم، وهذه هي المعجمة التي كان الحسن ابن أبي الحسن يضحك منها. قاله الزجاج. ويجوز أن كان رجوعهم في طريقهم على الغاصب فكان وراءهم حقيقة. وقيل: اسم هذا الغاصب هُذْدُ بن بُدَد، وقيل: الجَلَنْدِي، وهذا كله غير ثابت. وقوله تعالى: ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ عموم معناه الخصوص في الإيجاد منها الصحاح المازّة به.

﴿٨١﴾ - ﴿٨٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

تقدم القول في الغلام والخلاف في بلوغه أو صغره، وفي الحديث أن ذلك الغلام طبع يوم طبع كافراً، وهذا يؤيد ظاهره أنه كان غير بالغ، ويحتمل أن يكون خيراً عنه مع كونه بالغاً، وقيل: اسم الغلام جَيْسُور بالراء، وقيل: جَيْسُون بالنون، وهذا أمر كله غير ثابت. وقرأ أبي بن كعب: ﴿فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ آبَاؤُهُ مُؤْمِنِينَ﴾، وقرأ أبو سعيد الخدري: ﴿فَكَانَ آبَاؤُهُ مُؤْمِنَانِ﴾، فجعلها (كان) التي فيها الأمر والشأن.

وقوله: ﴿فَخَيَّبْنَا﴾ قيل: هو في جهة الخضر، فهذا متخلص،

والضمير عندي للخضر وأصحابه الصالحين الذين أهمهم الأمر وتكلموا فيه، وقيل: هو في جهة الله تعالى وعبر عنه الخضر. قال الطبري: معناه: فَعَلِمْنَا، وقال غيره: فَكَّرْنَا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل - وإن كان اللفظ يدافعه - أنها استعارة، أي: على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين. وقرأ ابن مسعود: ﴿فَخَافَ رُبُّكَ﴾، وهذا بين في الاستعارة، وهذا نظير ما يقع في القرآن في جهة الله تعالى من «لَعَلَّ وَعَسَى»، فإن جميع ما في هذا كله من تَرْجُحٍ وَتَوَقُّعٍ وخوف وخشية إنما هو بِخَسْبِكُمْ أيها المخاطبون. و﴿يُرْهِقُهُمَا﴾ معناه: يُجَسِّمُهُمَا ويكلفهما بشدة، والمعنى أن يلقيهما خُبهما في أتباعه.

وقرأ الجمهور: ﴿أَنْ يَبْدُلَهُمَا﴾ بفتح الباء وشُدَّ الدال، وقرأ ابن محيصن، والحسن، وعاصم: ﴿أَنْ يَبْدِلَهُمَا﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال. و«الرُّكَاةُ»: شرف الخلق والوفار والسكينة المنظوية على خير، و«الرُّحْمُ»: الرحمة، والمراد - عند فرقة - أي: يرحمهما، وقيل: أي: يرحمانه، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

يَا مُنْزَلَ الرُّحْمِ عَلَى إِذْرِيسَا
وَمُنْزَلَ السُّفْنِ عَلَى إِنْجِلِسَا
وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ: «رُحْمًا» بضم الحاء، وقرأ الباقر: «رُحْمًا» بسكونها، واختلف عن أبي عمرو.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿رُبُّهُمَا أَزْكَى مِنْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، وروي عن ابن جريج «أنهما بُدِّلَا غلاماً مسلماً»، وروي عن ابن جريج «أنهما بُدِّلَا جارية»، وحكى النقاش أنها ولدت هي وذريتها سبعين نبياً، وذكره المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو بعيد، ولا تعرف كثرة الأنبياء إلا في بني إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم، وروي عن ابن جريج أن أم الغلام يوم قتل كانت حاملاً بغلام مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ﴾. هذان الغلامان صغيران بقرينة وصفهما باليُثْمِ، وقد قال النبي ﷺ: «لَا يُثْمُ بَعْدَ بُلُوغٍ»، هذا الظاهر، وقد يحتمل أن يبقى عليهما اليُثْمُ بعد البلوغ، أي: كانا يتيمين، على معنى الشفيع عليهما. واختلف الناس في الكنز - فقال قتادة، وعكرمة: كان مالاً جسيماً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان علماً في صحف مدفونة، وقال عمر مولى عُفْرَةَ: كان لوحاً من ذهب قد كتب فيه: «عجباً للموقن بالرزق يتعب، وعجباً للموقن بالحساب كيف يغفل، وعجباً للموقن بالموت كيف يفرح»، وروي نحو هذا مما هو في معناه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دنيّة، وقيل: الأب السابع، وقيل: العاشر فحفظا فيه وإن لم يذكر بصراح، وفي الحديث: «إن الله تعالى يحفظ الرجل الصالح في ذريته».

وَقَوْلِ الْخَضِرِ: ﴿وَمَا فَعَلْتُ عَنْ أَمْرٍ﴾ يقتضي أن الخضر نبي، وقد اختلف الناس فيه - ف قيل: هو نبي، وقيل: هو عبد صالح وليس بنبي. وكذلك جمهور الناس على أن الخضر مات ﷺ، وتقول فرقة: إنه حيٌّ لأنه يشرب من عين الحياة، وهو باقٍ في الأرض، وأنه يحج البيت وغير هذا، وقد أطنب النقاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره،

وَقَوْلِ الْخَضِرِ: ﴿وَمَا فَعَلْتُ عَنْ أَمْرٍ﴾ يقتضي أن الخضر نبي، وقد اختلف الناس فيه - ف قيل: هو نبي، وقيل: هو عبد صالح وليس بنبي. وكذلك جمهور الناس على أن الخضر مات ﷺ، وتقول فرقة: إنه حيٌّ لأنه يشرب من عين الحياة، وهو باقٍ في الأرض، وأنه يحج البيت وغير هذا، وقد أطنب النقاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره،

وَقَوْلِ الْخَضِرِ: ﴿وَمَا فَعَلْتُ عَنْ أَمْرٍ﴾ يقتضي أن الخضر نبي، وقد اختلف الناس فيه - ف قيل: هو نبي، وقيل: هو عبد صالح وليس بنبي. وكذلك جمهور الناس على أن الخضر مات ﷺ، وتقول فرقة: إنه حيٌّ لأنه يشرب من عين الحياة، وهو باقٍ في الأرض، وأنه يحج البيت وغير هذا، وقد أطنب النقاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره،

وجاء في أنباء الخضر عليه السلام في أول قصة ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وفي الثانية ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ يُبَدِّلَهَا﴾، وفي الثالثة ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا﴾، وإنما انفرد أولاً في الإرادة لأنها لفظة غيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا لنفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَلَا مَرِضْتُ فَهْوَ يَشْفِينِ﴾، فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند المرض إلى نفسه؛ إذ هو معنى نقص ومصيبة، وهذا المنزع يطرد في فصاحة القرآن كثيراً، ألا ترى إلى تقديم فعل البشر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وتقديم فعل الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾، وإنما قال الخضر في الثانية: ﴿فَأَرَدْتُ﴾ لأنه أمل كان قد زوّاه هو وأصحابه الصالحون، وتكلم فيه في معنى الخشية على الوالدين وتمنى التبديل لهما، وإنما أسند الإرادة في الثالثة إلى الله تعالى لأنها في أمر مستأنف في الزمن طويل غيب من الغيوب، فحسن إفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد أيضاً ذلك الذي أعلمه الله تعالى أنه يريد، وهذا توجيه فصاحة هذه العبارة بحسب فهمنا المقصّر، والله أعلم.

وَقَوْلِ الْخَضِرِ: ﴿وَمَا فَعَلْتُ عَنْ أَمْرٍ﴾ يقتضي أن الخضر نبي، وقد اختلف الناس فيه - ف قيل: هو نبي، وقيل: هو عبد صالح وليس بنبي. وكذلك جمهور الناس على أن الخضر مات ﷺ، وتقول فرقة: إنه حيٌّ لأنه يشرب من عين الحياة، وهو باقٍ في الأرض، وأنه يحج البيت وغير هذا، وقد أطنب النقاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره،

وَقَوْلِ الْخَضِرِ: ﴿وَمَا فَعَلْتُ عَنْ أَمْرٍ﴾ يقتضي أن الخضر نبي، وقد اختلف الناس فيه - ف قيل: هو نبي، وقيل: هو عبد صالح وليس بنبي. وكذلك جمهور الناس على أن الخضر مات ﷺ، وتقول فرقة: إنه حيٌّ لأنه يشرب من عين الحياة، وهو باقٍ في الأرض، وأنه يحج البيت وغير هذا، وقد أطنب النقاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره،

وَقَوْلِ الْخَضِرِ: ﴿وَمَا فَعَلْتُ عَنْ أَمْرٍ﴾ يقتضي أن الخضر نبي، وقد اختلف الناس فيه - ف قيل: هو نبي، وقيل: هو عبد صالح وليس بنبي. وكذلك جمهور الناس على أن الخضر مات ﷺ، وتقول فرقة: إنه حيٌّ لأنه يشرب من عين الحياة، وهو باقٍ في الأرض، وأنه يحج البيت وغير هذا، وقد أطنب النقاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره،

وَالْأَشْدُّ: كمال الخلق والعقل، واختلف الناس في قدر ذلك من السنين - ف قيل: خمسة وثلاثون، وقيل: ستة وثلاثون، وقيل: أربعون، وقيل غير هذا مما فيه ضعف.

تهتم بإملاء الله لهم، وإجراء النعم لهم على ظاهرها، فإن البواطن سائرة إلى الانتقام منهم، ونحو هذا مما هو محتمل لكن بتعسف ما، فتأمل.

٨٣ - ٨٤ تفسير قوله عز وجل: اختلف فيمن سأله عن هذه القصة - ف قيل: سأله طائفة من أهل الكتاب، وروى في ذلك عقبه بن عامر حديثاً ذكره الطبري، وقيل: إنما سأله قريش حين دلتها اليهود على سؤاله عن الروح والرُّجُل الطُّوُافِ وفِتْيَةٍ ذهبوا في الدهر ليقع امتحانه بذلك.

وذو القرنين هو الإسكندر اليوناني المقدوني، وقد تشدد فاهه فيقال: المَقْدُونِي، وذكر ابن إسحق في كتاب الطبري أنه يوناني، وقال وهب بن مُثَنَّى: هو رومي، وذكر الطبري حديثاً عن النبي ﷺ أن ذا

كلها لا تقوم على ساق، ولو كان الخضر عليه السلام حياً يحجُّ لكان له في ملّة الإسلام ظهور، والله العليم بتفاصيل الأشياء لا ربَّ غيره. ومما يقتضي بموت الخضر الآن قول النبي ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى مِنْهُ هُوَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ».

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أي مآل، وقرأت فرقة: ﴿تَسْتَطِيعُ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿تَسْطِيعُ﴾ قال أبو حاتم: كذا تُقرأ، تتبع المصحف.

وانتزع الطبري من اتصال هذه القصة بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَلِّمُكُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَكُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْعُدُوا مِنْ دُونِهِ. مَوْيَلًا﴾ أن هذه القصة إنما جُلِّبت على معنى المثل للنبي ﷺ في قومه، أي: لا

القرنين شاب من الروم، وهو حديث واهي السند، عن شيخين من تجيب.

واختلف الناس في وجه تسميته بذي القرنين، فأحسن الأقوال أنه كان ذا صغيرتين من شجر هما قرناه، فُسِّمِي بهما، ذكره المهدوي وغيره، والصفائر قرون الرأس، ومنه قول الشاعر:

فَلَسْتُ قَاهَا آخِذاً بِقُرُونِهَا
شُرِبَ التَّرِيفُ لِيَزِدَ مَاءَ الْحَشْرِجِ
ومنه الحديث في غسل بنت النبي ﷺ، قالت أم عطية: «فَضَفَرْنَا رَأْسَهَا ثَلَاثَةَ قُرُونٍ»، وكثيراً تجيء تسمية النواصي قروناً.

وَرُوي أنه كان في أول مُلكه يرى في نومه أنه يتناول الشمس ومُمسك قرنين لها يديه، فَقَصَّ ذلك، ففُسر أنه سيغلب على ما دَوَّرَتْ عليه وُسْمِي ذا القرنين، وقالت فرقة: سُمِّي ذا القرنين لأنه بلغ المغرب والمشرق، فكأنه حاز قرني الدنيا، وقالت فرقة: إنه لما بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية قُرْنَيْهَا فُسْمِي بذلك، أو قرني الشيطان بها، وقال وهب بن منبه: سُمِّي بذلك لأن جَبَّتِي رأسه كانتا من نحاس، وقال وهب بن منبه أيضاً: كان له قرنان تحت عمامته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله بعيد، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إِنَّمَا سُمِّي ذا القرنين لأنه ضُرب على قَرْنِ رأسه فمات، ثم حيي، ثم ضرب على قرن رأسه الآخر فمات، فُسْمِي بذلك لأنه جُرح على قرني رأسه

جرحين عظيمين في يومين عظيمين من أيام حربه، فُسْمِي بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قريب.

والتَّمَكُّيُّنُ له في الأرض أنه مَلَكُ الدنيا ودانت له الملوك كلها، فُرُوي أن جميع ملوك الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان سليمان بن داود عليه السلام، والإسكندر، والكافران نمرود وبختنصر. وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّنَهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ معناه: علماً في كل أمر، وأَقْبَسَ يتوصل بها إلى معرفة الأشياء. وقوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ عَمُومٌ﴾ عموم معناه الخصوص في كل ما يمكن أن يعلمه ويحتاج إليه، وقَمَّ لا محالة أشياء لم يُؤت منها سبباً يعلمها به.

واختلف في ذي القرنين، فقليل: هو نبئ، وهذا ضعيف، وقيل: هو مَلَك - بفتح اللام -، ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يدعو آخر: يا ذا القرنين، فقال: أما كفاكم أن تسميتم بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة؟ وروي عن النبي ﷺ أنه سئل عنه فقال: «مَلَكٌ مَسَحَ الْأَرْضَ مِن تَحْتِهَا بِالْأَسْبَابِ»، وقيل: هو عَبْدٌ مَلِكٍ - بكسر اللام - صالح نصح الله فأَيَّدَهُ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال: «فيكم اليوم مثله»، وعنى بذلك نفسه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَنبِئَ سَبَبًا﴾ الآية. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿فَأَنبِئَ سَبَبًا﴾ بشد التاء، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة،

والكسائي: ﴿فَأَنبِئَ سَبَبًا﴾ بسكون التاء، على وزن أَفْعَل، قال بعض اللغويين: هما بمعنى واحد، وكذلك (تَبَّعَ)، وقالت فرقة: (أَتَّبَعَ) بقطع الألف عبارة عن التَّجِدُّدِ المُسْرِعِ الحثيث الطلب، و (أَتَّبَعَ) إنما يتضمن معنى الاقتفاء دون هذه القرائن، قاله أبو زيد وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واستقرأ هذا القائل هذه المقالة من القرآن، كقوله عز وجل: ﴿فَأَنبِئَهُمْ بِهَبَابِ ثَائِبٍ﴾، وكقوله تعالى: ﴿فَأَنبِئَهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُودُودٍ﴾، وكقوله تعالى: ﴿فَأَنبِئَهُمُ الشَّيْطَانَ﴾، وهذا قول حكاه النقاش عن يونس بن حبيب، وإذا تأملت (أَتَّبَعَ) بشد التاء لم يرتبط لك هذا المعنى ولا بُدَّ. والسَّبَبُ في هذه الآية: الطريقُ المسلوكة؛ لأنها سبب الوصول إلى المقصد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿فِي عَقِبِ جَحْزٍ﴾ على وزن فَعْلَةٍ، أي: ذات حمأة، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -، والباقون: ﴿فِي عَيْنِ حَامِيَةٍ﴾، أي حارّة، وقد اختلف في قراءة ذلك معاوية وابن عباس، فقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿جَحْزٍ﴾ وقال معاوية: ﴿حَامِيَةٍ﴾، فبعث إلى كعب الأحبار ليخبرهم بالأمر كيف هو في التوراة، فقال لهما: أما العربية فأنتما أعلم بها مني، ولكني أجد في التوراة أنها تغرب في عين ناط، والثَّأُط: الطين، فلما انفصلا قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: لَوَدِدْتُ يا أبا العباس فكنتُ

أنجدك بشعر نَج الذي يقول فيه في ذكر ذي القرنين:

فَذَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ جَدِّي مُسْلِمًا
مَلِكًا تَدِينُ لَهُ الْمُلُوكُ وَتُخْشَدُ
بَلَّغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَبْتَغِي
أَسْبَابَ أَنْزِلَ مِنْ حَكِيمٍ مُزِيدٍ
فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا
فِي عَيْنٍ ذِي حُلْبٍ وَثَأطٍ حَزْمِدٍ
فَالْحُلْبُ: الطَّيْنُ، وَالثَّأطُ: الحِمَاةُ،
وَالْحَزْمِدُ: الْأَشْوَدُ. وَمَنْ قَرَأَ:
﴿حَامِيَةً﴾ وَجَّهَهَا إِلَى الْحَرَارَةِ،
وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
نَظَرَ إِلَى الشَّمْسِ وَهِيَ تَغِيبُ فَقَالَ:
«فِي نَارِ اللَّهِ الْحَامِيَةِ، لَوْلَا مَا يَرْعَاهَا
مِنْ اللَّهِ لَأَحْرَقَتْ مَا عَلَى الْأَرْضِ».
وَرَوَى أَبُو ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَظَرَ
إِلَى الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا فَقَالَ:
«أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ يَا أَبَا ذَرٍّ؟» قُلْتُ:
لَا، قَالَ: «إِنِّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنِ
حَامِيَةٍ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَيْنَ
هُنَاكَ حَارَّةٌ، وَ﴿حَامِيَةً﴾ هِيَ قِرَاءَةُ
طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَمْرُو بْنُ
الْعَاصِ، وَابْنُهُ، وَابْنُ عَمْرٍو، وَذَهَبَ
الطَّبْرِيُّ إِلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ
فَقَالَ: يَحْتَمِلُ أَنَّ تَكُونَ الْعَيْنَ حَارَّةً
ذَاتَ حِمَاةٍ، فَكُلُّ قِرَاءَةٍ وَصَفَ بِصِفَةٍ
مِنْ أَحْوَالِهَا، وَذَهَبَ بَعْضُ الْبَغْدَادِيِّينَ
إِلَى أَنَّ [فِي] بِمَنْزِلَةِ (عِنْدَ)، كَأَنَّهَا
مَسَامَتَةٌ مِنَ الْأَرْضِ فِيمَا يَرَى الرَّائِي
لَعَيْنٍ حِمَّةً. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ:
﴿فِي عَيْنٍ﴾ إِنَّمَا الْمُرَادُ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ
كَانَ فِيهَا، أَيْ: هِيَ آخِرُ الْأَرْضِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وظاهر هذه الأقوال محتمل، والله
أعلم. قال أبو حاتم: وقد يمكن أن

تكون [حَامِيَةً] مهموزة، بمعنى:
ذات حمأة، فتكون القراءتان بمعنى
واحد. واستدل بعض الناس على أن
ذا القرنين نبي بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَدَا
الْقَرْنَيْنِ﴾، ومن قال إنه ليس بنبي
قال: كانت له هذه المقالة من الله
بإلهام.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْ تَدْبِ﴾ معناه:
بالقتل على الكفر، ﴿وَمَا أَنْ تَنْجِدَ
فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بِالْحَمَلِ عَلَى الْإِيمَانِ
وَاتِّبَاعِ الْهُدَى، فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: هَذِهِ لَا
تَعْطِيهَا إِلَّا إِحْدَى خِطَّتَيْنِ: إِمَّا أَنْ
تَكْفُرَ فَتُعَذِّبَهَا، وَإِمَّا أَنْ تَوْمِنَ فَتَحْسِنَ
إِلَيْهَا. وَذَهَبَ الطَّبْرِيُّ إِلَى أَنَّ اتِّخَاذَ
الْحُسْنِ هُوَ الْأَسْرُ مَعَ كُفْرِهِمْ،
فَالْمَعْنَى - عَلَى هَذَا - أَنَّهُمْ كَفَرُوا وَلَا
يُدُّ، فَخَيَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ قَتْلِهِمْ أَوْ
أَسْرِهِمْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويحتمل أن يكون «الْإِتِّخَاذُ» ضَرْبُ
الْجَزْيَةِ. وَلَكِنْ تَقْسِيمُ ذِي الْقَرْنَيْنِ
بَعْدَ هَذَا الْأَمْرِ إِلَى كُفْرٍ أَوْ إِيْمَانٍ يَرُدُّ
هَذَا الْقَوْلَ بَعْضُ الرُّدِّ، فَتَأْمَلْهُ.

(٨٧) - (٨٨) تفسير قوله عز وجل:
﴿ظَلَر﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَعْنَى:
كَفَرَ، ثُمَّ تَوَعَّدَ الْكَافِرِينَ بِتَعْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ
قَبْلَ عَذَابِ اللَّهِ، وَعَقَّبَ لَهُمْ بِذِكْرِ
عَذَابِ اللَّهِ لِأَنَّ تَعْذِيبَ ذِي الْقَرْنَيْنِ
هُوَ الْأَحَقُّ عَنْدهُمْ، الْمَحْبُوسُ لَهُمْ،
الْأَقْرَبُ نَكَايَةٍ. فَلَمَّا جَاءَ وَعْدُ
الْمُؤْمِنِينَ قَدَّمَ تَنْعِيمَ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي
هُوَ الْأَحَقُّ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْآخِرُ
بِإِزَاتِهِ حَقِيرٌ، ثُمَّ عَقَّبَ أَخِيرًا بِذِكْرِ
إِحْسَانِهِ فِي قَوْلِ الْيُسْرِ، وَجَعَلَهُ قَوْلًا
إِذْ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى،
فَكَأَنَّهُ سَلَّمَهَا وَلَمْ يَرَاعَ نَكْسُهَا.

وقرأت فرقة: ﴿نُكْرًا﴾ بضم
الكاف، وقرأت فرقة: ﴿نُكْرًا﴾
بسكون الكاف، ومعناه: المنكر
الذي تنكره الأوهام لِعِظَمِهِ
وتستهويه. وقرأ ابن كثير، ونافع،
وعاصم - في رواية أبي بكر - وأبو
عمرو، وابن عامر: ﴿جَزَاءَ
الْحُسْنَى﴾ بِإِضَافَةِ الْجَزَاءِ إِلَى
الْحُسْنَى، وَذَلِكَ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ:
أَحَدُهُمَا أَنْ يَرِيدَ بِ﴿الْحُسْنَى﴾ الْجَنَّةَ،
وَالْجَنَّةُ هِيَ الْجَزَاءُ، فَأَضَافَ ذَلِكَ،
كَمَا قَالَ: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ وَالْآخِرَةُ
هِيَ الدَّارُ، وَالثَّانِي أَنْ يَرِيدَ بِـ
﴿الْحُسْنَى﴾ أَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ فِي
إِيْمَانِهِمْ، فَوَعَدَهُمْ بِجَزَاءِ الْأَعْمَالِ
الصَّالِحَةِ. وَقرأ حمزة، والكسائي،
وحفص عن عاصم: ﴿جَزَاءَ لَحْسَى﴾
بَنَصْبِ «الْجَزَاءِ» عَلَى الْمَصْدَرِ فِي
مَوْضِعِ الْحَالِ، وَ﴿الْحُسْنَى﴾ ابْتِدَاءً،
وَحَبْرُهُ فِي الْمَجْرُورِ، وَيَرَادُ بِهَا
الْجَنَّةُ، وَقرأ عبدالله بن أبي إسحق:
﴿جَزَاءَ﴾ بِالرَّفْعِ وَالتَّنْوِينِ
﴿الْحُسْنَى﴾، وَقرأ ابن عباس
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَمَسْرُوقُ:
﴿جَزَاءَ﴾ بِالنَّصْبِ بِغَيْرِ تَنْوِينٍ
﴿الْحُسْنَى﴾ بِالإِضَافَةِ. قَالَ الْمَهْدَوِيُّ:
يَجُوزُ حَذْفُ النُّونِ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ،
وَوَعَدَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ يُيَسَّرُ عَلَيْهِمْ
أُمُورُ دُنْيَاهُمْ. وَقرأ ابن القعقاع:
﴿يُسَّر﴾ بِضَمِّ السِّينِ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْجِيَ سَيِّدُكَ﴾،
الْمَعْنَى: ثُمَّ سَلَكَ ذُو الْقَرْنَيْنِ الطَّرِيقَ
الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى مَقْصَدِهِ، فَهِيَ سَبَبُ
الْوَصُولِ، فَكَأَنَّ ذُو الْقَرْنَيْنِ - عَلَى مَا
وَقَعَ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ - يَدُوسُ
الْأَرْضَ بِالْجِيُوشِ الثَّقَالِ، وَالسَّيِّرةِ

الحميدة، والإعداد الموفى، والحزم المستيقظ المتقصد، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمة ولا مر بمدينة إلا دانت له ودخلت في طاعته، وكل من عارضه وتوقف عن أمره جعله عظة وآية لغيره، وله في هذا المعنى أخبار كثيرة، وغرائب كرهت التطويل بها لأنها علم تاريخ. وقرأ الجمهور: ﴿مَطْلَعٌ﴾ بكسر اللام، وقرأ الحسن - بخلاف -، وابن كثير، وأهل مكة: ﴿مَطْلَعٌ﴾ بفتح اللام.

و «القوم»: الزُّنُج، قاله قتادة، وهم الهنود وما وراءهم. وقال الناس في قوله: ﴿لَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ معناه: إنهم ليس لهم بنيان؛ إذ لا تحتل أرضهم البناء، وإنما يدخلون من حرّ الشمس في أسراب، وقيل: يدخلون في ماء البحر، قاله الحسن، وقتادة، وابن جريج. وكثر النقاش وغيره في هذا المعنى، والظاهر من الألفاظ أنها عبارة بليغة عن قُرب الشمس منهم، وفعلها بقدرة الله تبارك وتعالى فيهم، وتبليها منهم، ولو كان لهم أسراب تغني لكان سِتْرًا كشيء، وإنما هم في قبضة القدرة سواء كان لهم أسراب أو دُور أو لم يكن، ألا ترى أن السُّرَّ عندنا بحق إنما هو من السحاب والغمام ويُزد الهواء، ولو سلط الله علينا الشمس لأحرقتنا، فسبحان المنفرد بالقدرة التامة.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ معناه: فَعَلْ معهم كِفَعْلَه مع الأولين أهل المغرب، فأوجز بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾. ثم أخبر الله تعالى عن إحاطته بجميع

ما لدى ذي القرنين، وما تصرف من أفعاله، ويحتمل أن يكون ﴿كَذَلِكَ﴾ استئناف قول، ولا يكون راجعاً على الطائفة الأولى، فتأمل، والأول أصوب.

﴿٩٥﴾ - ﴿٩٦﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأت فرقة: ﴿اتَّبَعَ﴾ بشد التاء، وقرأت فرقة بتخفيفها، وقد تقدم. وهذا يقتضي أنه لما بلغ مطلع الشمس اتبع بعد ذلك سبباً، أي: طريقاً آخر، فهو - والله أعلم - إما يَمْنَةً وإما يسرة من مطلع الشمس. و«السُّدان» - فيما ذكر أهل التفسير -: جيلان سدا مسالك تلك الناحية من الأرض، وبين طريقي الجبلين فَتَحَ هو موضع الرُوم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجبلان اللذان بينهما السُّدَّ أرمينية وأذربيجان. وقالت فرقة: هما من وراء بلاد الترك، ذكره المهدوي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله غير متحقق، وإنما هما في طرف الأرض مما يلي المشرق، ويظهر من ألفاظ التواريخ أنهما إلى ناحية الشمال، وأما تعيين موضع فضيف.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿السُّدَيْنِ﴾ بضم السين، وكذلك (سُدًا) حيث وقع، وقرأ حفص عن عاصم بفتح ذلك كله في جميع القراءات، وهي قراءة مجاهد، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، وقرأ ابن كثير: ﴿السُّدَيْنِ﴾ بفتح السين، وضم «سُدًا» في (يسن). واختلف بعد - فقال الخليل وسيبويه: الضم هو الاسم، والفتح المصدر، وقال

الكسائي: الضم والفتح لفتان بمعنى واحد، وقال: عكرمة، وأبو عمرو بن العلاء، وأبو عبيدة: ما كان من خلقه الله تعالى لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضم، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويلزم أهل هذه المقالة أن نقرأ: ﴿بَيْنَ السُّدَيْنِ﴾ بالضم، وبعد ذلك ﴿سُدًا﴾ بالفتح، وهي قراءة حمزة، والكسائي. وحكى أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكس ما قال أبو عبيدة، وقال ابن إسحق: ما رأته عينك فهو (سُد) بضم السين، وما لا يرى فهو (سُد) بالفتح. والضمير في ﴿دُونِهَا﴾ عائد على الجبلين، أي: وجدهم في الناحية التي تأتي إلى المغرب. واختلف في «القوم» - فقيل: هم بشر، وقيل: جن، والأول أصح من وجوه. وقوله: ﴿لَا يَكْدُرُونَ يَنْفَهُونَ قَوْلًا﴾ عبارة عن بعد لسانهم عن ألسنة الناس، لكنهم فقهوا أو فهموا بالترجمة ونحوها. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿يَنْفَهُونَ﴾ من أُنْفَقَ، وقرأ الباقون: ﴿يَنْفَهُونَ﴾ من فَنَقَ.

والضمير في «قَالُوا» للقوم الذين من دون السُّدَيْنِ، وأجوج وأجوج قبيلتان من بني آدم، لكنهم يقسمون أنواعاً كثيرة اختلفت في عددها، فاختصرت ذكره لعدم الصحة، وفي خلفهم تشويه، منهم المفرط الطول، ومنهم المفرط القصر على قدر الشبر وأقل، وأكثر، ومنهم صنف عظيم الأذان، الأذن الواحدة وبرة والأخرى زعراء، يضيّف في الواحدة ويشنو

سورة الكهف

سورة الكهف

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدِي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدِي حَقًّا ﴿٨٨﴾ وَرَكَعًا بَعْضُهُمْ يَوْمِيذٍ يَمُوتُ فِي بَعْضٍ وَفُتِحَ فِي الصُّورِ ﴿٨٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُم مِّنْهُمُ يَوْمَ نُفِخُ فِي الصُّورِ ﴿٩٠﴾ وَكَانَ وَعْدُنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطاٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿٩٢﴾ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَسْخَرُوا عِبَادِي مِنِّي وَأَنِّي أَتْلُو آيَاتِنا أَنَا عِنْدَنا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿٩٣﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿٩٤﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِنُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٩٥﴾ وَلِلَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا رَبُّهُمْ وَلِقَاءُ رَبِّهِمْ أَجَلٌ ﴿٩٦﴾ فَطُغِيَ أَهْلُهَا فَلَمْ يَأْتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَرَأَوْا لِلَّهِ أَجْرًا وَهُمْ فِي جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَآخِذُوا بِآيَاتِي وَرَأَوْا هَرُورًا ﴿٩٧﴾ إِنَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿٩٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا أَبْصَارًا لَّكُنَّ بَرَصًا وَرَبِّي لَذُو فَهْمٍ مُّبِينٍ ﴿١٠٠﴾ لَنُنَبِّئَنَّ الْكَافِرِينَ أَنَّ نَفْدًا كُنْهَتْ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِبَئِلِهِ مَدَدًا ﴿١٠١﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ إِلَهُ وَاحِدٌ مَّن كَانَ رَاجِئًا لِّإِلَهِاتِهِ غَيْرِ اللَّهِ فَلَْيَصْلَحْ أَعْيُنُكُمْ وَأَلْأَبْصَارُكُمْ وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هِيَ رَجْزٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَأَنَّ الْإِلَاحَ إِلَّا اللَّهُ يَسْخَرُ مِنْهُمْ زَجْرًا ﴿١٠٢﴾

٣٠٤

من التنين يرزقونها ويمطرونها، ونحو هذا مما لا يصح، وزوي أيضاً أن الذكر منهم لا يموت حتى يولد له ألف ولد، والأنثى لا تموت حتى يخرج من بطنها ألف، فهم ذلك إذا بلغوا العدد مائتا، وزوي أيضاً يتناكحون في الطرق كالبهائم، وأخبارهم تضيق بها الصحف فاختصرتها لضعف صحتها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَبْرٌ فَأُعْثِرْنِي بِقُوَّتِي أَجْعَلْ لِّي نَصْرًا مِّن رَّبِّي﴾

ردماً ﴿١٠٢﴾، المعنى: قال لهم ذو القرنين: ما بسط الله لي من القدرة والمُلك خير من خَزْجكم وأموالكم، ولكن أعينوني بقوة الأبدان، ويعمل منكم بالأيدي. وقرأ ابن كثير وحده: ﴿مَا مَكَّنِّي﴾ بتونين، وقرأ الباقر: ﴿مَا مَكَّنِّي﴾ بإدغام النون الأولى في الثانية. وهذا من تأييد الله تعالى للذي القرنين، فإنه تهذى في هذه المحاوراة إلى الأنفع والأنزه، فإنهم لو جمعوا له خراجاً ومالاً لم يُعِثْ منهم أحد ولو كَلَّوْهُ إِلَى الْبَنِيانِ، ومعونتهم له بالقوة أجمل به، وأمر يطاول مدة العمل، وربما أَدْبَى عَلَى الْخُرْجِ.

والرُذْمُ، أبلغ من السُّدْ؛ إذ كل ما يُسَدُّ به، والرُذْم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع،

في الأخرى وهي تعمه. واختلف القراء - فقرأ عاصم وحده: ﴿يَأْجُجَ وَيَأْجُجَ﴾ بالهمز، وقرأ الباقر بغير همز، فأما من همز فاختلف فيه - فقالت فرقة: هو أعجمي، علته في منع الصرف التعريف والتأنيث، وأما من لم يهمز فإما أن يراها اسمين أعجميين، وإما أن يُسَهِّلَ من الهمز، وقرأ رؤبة بن العجاج: ﴿أَجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ بهمة بدل الياء.

واختلف الناس في إفسادهم الذي وصفوهم به - فقال سعيد بن عبد العزيز: إفسادهم أكل بني آدم، وقالت فرقة: إفسادهم إنما كان عندهم مُتَوَقِّعًا، أي: سيفسدون، فطلبوا وجه التحرز منهم، وقالت فرقة: إفسادهم هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعروف من البشر، وهو أظهر الأقوال؛ لأن الطائفة الشاكية إنما شكت من ضُرِّ قد نالهم. وقولهم: ﴿فَهَلْ يَحْشُرُكَ خَرَابًا﴾ استفهام على جهة حسن الأدب.

و «الْخَرْجُ»: المُجْبَى، وهو الخراج، وقال قوم: «الْخَرْجُ»: المال يخرج مرة، و«الْخَرْجُ»: المُجْبَى المتكرر، فعرضوا عليه أن يجمعوا له أموالاً يقيم بها أمر السد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «خَرْجًا»: أجراً. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: «خَرْبًا» وقرأ حمزة، والكسائي: «خَرْجًا»، وهي قراءة طلحة بن مصرف، والأعمش، والحسن - بخلاف عنه - وزوي في أمر يأجوج ومأجوج أن أرزاقهم

ومنه: رَذْمُ ثوبه إذا رَقَعَهُ بَرَقاع متكاتفة بعضها فوق بعض، ومنه قول عترة:

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ؟

أي: من قول يركب بعضه على بعض.

٣٠٥ - تفسير قوله عز وجل:

قرأ عاصم، وحمزة: ﴿إِيْثُونِي﴾ بمعنى: جيئوني، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: ﴿آتُونِي﴾ بمعنى: أعطوني، وهذا كله متقارب، إنما هو استدعاء المناولة لا استدعاء العطية والهبه؛ لأنه قد ارتبط من قوله ألا يأخذ منهم الخَرْجُ، فلم يبق إلا استدعاء المناولة وأعمال القوة، و﴿إِيْثُونِي﴾ أشبه بقوله: ﴿فَأُعْثِرْنِي﴾

يُفَرِّقُ، ونصب «الرُّبْرُ» على نحو قول الشاعر:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ

حذف الجار فنصب الفعل. وقرأ الجمهور: «زَبْرٌ» بفتح الباء، وقرأ الحسن بضمها، وكل ذلك جمع (زُبْرَةٌ)، وهي القطعة العظيمة منه. والمعنى: قَرَضَافَهُ وَبَنَاهُ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ، فاختصر ذلك لدلالة الظاهر عليه. وقرأ الجمهور: «سَوَى» وقرأ قتادة: «سَوَى»، والصَّدَفَانِ: الجبلان المتناوحيان، ولا يقال للواحد: صدف، وإنما يقال (صدفان) لاثنتين أحدهما يصادف الآخر. وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: «الصَّدَفَيْنِ» بفتح الصاد وشدها، وهي قراءة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو: «الصَّدَفَيْنِ» بضم الصاد والدال، وهي قراءة مجاهد، والحسن، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: «الصَّدَفَيْنِ» بضم الصاد وسكون الدال، وهي قراءة أبي رجاء، وأبي عبدالرحمن السلمي، وقرأ الماجشون بفتح الصاد وضم الدال، وقرأ قتادة: «بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ» بفتح الصاد وسكون الدال. وكل ذلك بمعنى واحد، وهما الجانبان المتناوحيان، وقيل: الصَّدَفَانِ: السطحان الأعلىان من الجبلين، وهذا نحو من الأول.

وقوله: «قَالَ أَنْشَرُوا» الآية، معناه أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزُّبْرِ والحجارة، ثم يوقد عليه حتى

تحمي، ثم يُؤْتَى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد - بحسب الخلاف في «الْقَطْرُ» - فيفرغه على تلك الطاقة المنصدة، فإذا التأم واشتد استأنف رصف طاقة أخرى إلى أن استوى العمل، وقرأ بعض الصحابة: «يَقْطُرُ أَنْفَرُ عَلَيْهِ».

وقال أكثر المفسرين: «الْقَطْرُ»: النحاس المذاب، ويؤيد هذا ما روي عن رسول الله ﷺ، جاء رجل فقال: يا رسول الله، إِنِّي رَأَيْتُ سَدًّا يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، قال: كيف رأيته؟ قال: رأيته كالبُرْدِ الْمُخْبَرِ، طريقة صفراء، وطريقة حمراء، وطريقة سوداء، فقال رسول الله ﷺ: قد رأيته. وقالت فرقة: «الْقَطْرُ»: الرصاص المذاب، وقالت فرقة: «الْقَطْرُ»: الحديد الذائب. وهو مشتق من قَطَرٍ يَقْطُرُ.

والضمير في قوله: «فَمَا اسْطَعُوا» ليأجوج ومأجوج. وقرأت فرقة: «فَمَا اسْطَعُوا» بسكون السين وتخفيف الطاء، وقرأت فرقة بشد الطاء، وفيها تكلف للجمع بين الساكنين. و«يَظْهَرُ» معناه: يَغْلُوهُ بصعود فيه، ومنه قوله في الموطأ: «وَالشَّمْسُ فِي خُجْرَتِهَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ». «وَمَا اسْطَعُوا لَهُ نَقْبًا» لبعد عرضه وقوته، ولا سبيل سوى هذين، إما ارتقاء وإما نَقْبٌ. وروي أن في طوله ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ وعرضه خمسون فرسخاً، وزُوي غير هذا مما لا ثبوت له فاختصرناه إذ لا غاية للتخريف، وقوله في هذه الآية: «أَنْشَرُوا» أي بالأكوار، وقوله: «اسْطَعُوا»

بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور، قيل: هي لغة بمعنى: استطاعوا، وقيل: استطاعوا بعينه كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء فقال: اسطاع، وحذف بعضهم الطاء فقال: اسْتَاعَ يستيع، بمعنى استطاع يستطيع، وهي لغة مشهورة. وقرأ حمزة وحده: «فَمَا اسْطَعُوا» بتشديد الطاء، وهي قراءة ضعيفة الوجه. قال أبو علي: هي غير جائزة، وقرأ الأعمش: «فَمَا اسْطَعُوا» أَن يَظْهَرُ وَمَا اسْطَعُوا لَهُ نَقْبًا بالتاء في الموضعين.

قوله تعالى: «قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي» الآية. القائل هو ذو القرنين، وأشار بهذا إلى الردم والقوة عليه والارتفاع به، وقرأ ابن أبي عبلة: «هَلِيو رَحْمَةً». و«الْوَعْدُ» يحتمل أن يريد به يوم القيامة، ويحتمل أن يريد به وقت خروج يأجوج ومأجوج. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «دَكَا» مصدر دَكَ يَدُكُ إِذَا هَدَمَ وَرَضَ، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «دَكَا» بالمد، وهذا على التشبيه بالناقة الدكاء، وهي التي لا سنام لها، وفي الكلام حذف تقديره: جعله مثل دكاء، وأما النصب في «دَكَا» فيحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً بـ «جَمَلٌ»، ويحتمل أن يكون «جَمَلٌ» بمعنى خَلَقَ وينصب «دَكَا» على الحال، وكذلك أيضاً النصب في قراءة من مدَّ يحتمل الوجهين.

والضمير في «رَكْنَا» لله تعالى، وقوله: «يَوْمَئِذٍ» يحتمل أن يريد به يوم القيامة لأنه قد تقدم ضميره،

فالضمير في قوله: ﴿بَتَّئْنَهُمْ﴾ - على ذلك - لجميع الناس، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم كمال السد، فالضمير في قوله: ﴿بَتَّئْنَهُمْ﴾ ليأجوج ومأجوج، واستعارة «المَوْج» لهم عبارة عن الحَيَرة وتَرَدُّد بعضهم في بعض كالوالهين من هم وخوف، فشَبَّهَهُم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ الآية. المعنى به يوم القيامة، فلا احتمال لغيره، فَمَنْ تَأَوَّل الآية كلها في يوم القيامة اتَّسَق تأويله، ومن تَأَوَّل الآية إلى قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في أمر يأجوج ومأجوج تأوَّل القول: «وتركناهم يمجرون» دأباً على مَرِّ الدهر وتناسل القرون بينهم وقيامهم، ثم نفخ في الصور فيجتمعون. و«الصُّور» في قول الجمهور وظاهر الأحاديث الصحاح هو القرن الذي ينفخ فيه للقيامة، وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد انقطع القرن وحتى الجبهة وأصغى بالأذن متى يؤمر»، فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قولوا: حسبنا الله، وعلى الله توكلنا، ولو اجتمع أهل منى ما أجلوا ذلك القرن» وأما النفخات فأسند الطبري رحمه الله إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الصُّور قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام»، وقال بعض الناس: النفخات اثنتان. نفخة الفزع وهي نفخة

الصعق، ثم الأخرى التي هي للقيام. ومَلَك الصُّور هو إسرافيل عليه السلام. وقالت فرقة: الصُّور جمع صورة، فكأنه أراد صور البشر والحيوان نفخ فيه الروح. والأول أبين وأكثر في الشريعة.

وقوله: ﴿وَعَرَّسْنَا جَهَنَّمَ﴾ معناه: أبرزناها لهم لتجمعهم وتحطمهم، ثم أكد بالمصدر عبارة عن شدة الحال، وروى الطبري في هذا حديثاً مضمناً أن النار ترفع لليهود والنصارى كأنها السراب، فيقال لهم: هل لكم في الماء حاجة؟ فيقولون: نعم، ونحو هذا مما لا صحة له.

﴿١٠١﴾ - ﴿١٠٢﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿أَعْيَنَهُمْ﴾ كناية عن البصائر؛ لأن عين الجارحة لا نسبة بينها وبين الذُّكْر، والمعنى: الذين فكَّروهم بينها وبين ذُكْرِي والنَّظَر في شرعي حجابٍ وعليها غطاء، ثم قال: إنهم كانوا لا يستطيعون سمعاً، يريد: لإعراضهم ونفاههم عن دعوة الحق.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنَحِيبَ الَّذِينَ﴾ بكسر السين، بمعنى: أظَلُّوا، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن البصري، وابن يَغمَر، ومجاهد، وابن كثير - بخلاف عنه - ﴿أَنَحَسِبَ الَّذِينَ﴾ بسكون السين وضم الباء، بمعنى: أكافئهم ومنتهى غرضهم؟ وفي مصحف ابن مسعود: ﴿أَنظَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهذه حجة لقراءة الجمهور. وقال جمهور المفسرين: يريد كل من عُبد من دون الله تبارك

وتعالى، كالملائكة، وعزَّير، وعيسى، فيدخل في ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعض العرب واليهود والنصارى، والمعنى: إن ذلك ليس كظنهم، بل ليس لهم من الولاية هؤلاء المذكورين شيء، ولا يجدون عندهم متنعاً.

و ﴿أَعْتَدْنَا﴾ معناه: يَسَّرْنَا، و«الْزُلْ» موضع النزول، و«الزُّلْ» أيضاً: مَا يُقَدَّم للضيف والقادم من الطعام عند نزوله، ويحتمل أن يراد بالآية هذا المعنى، إن المُعَدَّ لهم بدل الزُّلْ جهنم، كما قال الشاعر:

.....
تَحِيَّةً بَيْنَهُمْ ضَرَبَ وَجِيعُ
ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ لَّيُنْظَرُ﴾ بِالْأَنْسَرِ أَعْلَاءَ ﴿الآية. المعنى: قل لهؤلاء الكفرة - على جهة التوبيخ - : هَلْ نخبركم بالذين خسر عملهم وضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم - مع ذلك - يظنون أنهم يحسنون فيما يصنعونه؟ فإذا طلبوا ذلك فقل لهم: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَيُحِبُّونَ أَعْمَالَهُمْ فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾. وقرأ ابن وثاب: ﴿قُلْ سَتُنْفِثُكُمْ﴾، وهذه صفة المخاطبين من كفار العرب المكذبين بالبعث، و«حَطَّتْ» معناه: بطلت، و«أَعْمَلَهُمْ» يريد: ما كان لهم من عمل خير، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ يحتمل أنه لا حسنة لهم توزن في موازين القيامة، ومن لا حسنة له فهو في النار لا محالة، ويحتمل أن يريد المجاز والاستعارة كأنه يقول: لا قَدْر لهم عندنا يومئذ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا معنى الآية عندي، وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالْأَكُولِ الشُّرُوبِ الطَّوِيلِ فَلَا يَزِنُ جَنَاحُ بَعُوضَةٍ»، ثم قرأ: «فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا»، وقالت فرقة: إن الاستفهام ثم في قوله تعالى: «أَعْتَلًا»، ثم قال: هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فقال: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: هم عبادة اليهود والنصارى وأهل الصوامع والديارات، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هم الخوارج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إن صح عنه فهو على جهة مثال فيمن ضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه محسن. وروى أن ابن الكواء سأله عن «الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا» فقال له: أنت وأصحابك، ويضعف هذا كله قوله تبارك وتعالى بعد ذلك: «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ»، وليس من هذه الطوائف من يكفر بلقاء الله تعالى، وإنما هذه صفة مشركي عبدة الأوثان، فاتجه بهذا ما قلناه أولاً، وعليّ وسعد رضي الله عنهما ذكرا قوماً أخذوا بحظهم من صدر الآية. وقوله: «أَعْتَلًا» نصب على التمييز، وقرأ الجمهور: «فَحَبَطَتْ» بكسر الباء، وقرأ ابن عباس، وأبو السَّمَّال: «فَحَبَطَتْ» بفتح الباء، وقرأ كعب بن عُجْرَةَ، والحسن، وأبو عمرو، ونافع، والناس: «فَلَا

نُقِيمُ» بنون العظمة، وقرأ مجاهد: «فَلَا يُقِيمُ» بياء الغائب، يريد: فلا يقيم الله عز وجل، وقرأ عبيد بن عمير: «فَلَا يَقُومُ»، ويلزمه أن يقرأ: (وَزَنًا)، وكذلك قرأ مجاهد: «فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا». وقوله تعالى: «ذَلِكَ» إشارة إلى ترك إقامة الوزن، و«جَزَائُهُمْ» خبر الابتداء في قوله: «ذَلِكَ»، وقوله: «جَهَنَّمَ» بدل منه، و«مَا» في قوله: «بِمَا كَفَرُوا» مصدرية. والهُزْءُ: الاستخفاف والسخرية.

(١٠٧) - (١١٠) تفسير قوله عز وجل: لما فرغ من ذكره الكفرة والأخسرين أعمالاً عقَّب بذكر حالة المؤمنين ليظهر التباين، وفي هذا بعث النفوس على اتباع الحَسَن القويم.

واختلف المفسرون في «الْفِرْدَوْسِ» - فقال قتادة: إنه أعلى الجنة وربوتها، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إنه جبل تتفجر منه أنهار الجنة، وقال أبو أمامة: إنه سُرَّة الجنة ووسطها، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه يتفجر منه أنهار الجنة، وقال عبدالله بن الحارث بن كعب: إنه جنات الكروم والأعناب خاصة من الثمار، وقاله كعب الأحبار، واستشهد قومٌ لذلك بقول أمية بن أبي الصلت:

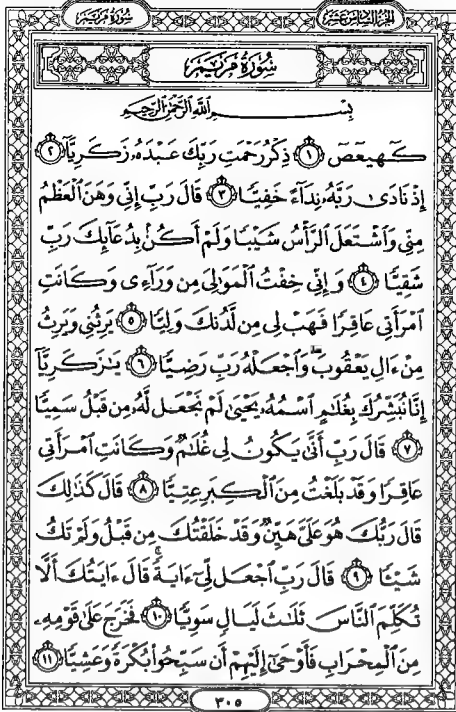
كَانَتْ مَنَازِلُهُمْ إِذْ ذَاكَ ظَاهِرَةً
فِيهَا الْفَرَادِيسُ وَالْقُومَانُ وَالْبَصُلُ
وقال الزجاج: قيل: إن الفردوس سريانية، وقيل: رومية، ولم يسمع بالفردوس في كلام العرب إلا في بيت حسان بن ثابت:

وَإِنْ ثَوَابَ اللَّهِ كُلُّ مُوَحِّدٍ
جَنَّاتٍ مِنَ الْفِرْدَوْسِ فِيهَا يُخْلَدُ
وروي أن النبي ﷺ قال: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ»، وقالت فرقة: الفردوس: البستان بالرومية. وهذا اقتضاب القول في «الْفِرْدَوْسِ» ويعيون ما قيل فيه.

وقوله تعالى: «تَزَلَّجَ» يحتمل الوجهين اللذين قدمناهما قبل. والْجَوْلُ: بمعنى: التحول. وقال مجاهد: مُتَحَوِّلًا، ومنه قول الشاعر:

لِكُلِّ ذَوْلَةٍ أَجَلٌ
ثُمَّ يُنَاحَ لَهَا جَوْلٌ
وكأنه اسم جمع، وكأنَّ واحده جَوْلَةٌ، وفي هذا نظر. وقال الزجاج عن قوم: هو بمعنى الجيلَّة في الشغل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف متكلف. وأما قوله تعالى: «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا» الآية، فروي أن سبب الآية أن اليهود قالت للنبي ﷺ: كيف تزعم أنك نبيُّ الأمم كلها ومبعوث إليها، وأنت أعطيت ما يحتاجه الناس من العلم، وأنت مُقْصَرٌ قد سُئِلْتَ في الرُّوح ولم تجب فيه، ونحو هذا من القول، فنزلت الآية مُغلَّمةً باتساع معلومات الله عز وجل، وأنها غير متناهية، وأن الوقوف دونها ليس ببدع ولا نكر، فغير عن هذا بتمثيل ما يستكثرونه وهو قوله: «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي». والْكَلِمَاتُ: هي المعاني القائمة بالنفس، وهي المعلومات، ومعلومات الله سبحانه



بالخوف كان المعنى تاماً على جهة التخويف والتحذير، وإذا عبّر بالرجاء فعلى جهة الإطعام وبسط النفوس إلى إحسان الله سبحانه وتعالى. أي: من كان يرجو النعيم المؤبد من ربه فليعمل عملاً صالحاً، وباقى الآية بين في الشكر بالله تبارك وتعالى. وقال سعيد بن جبیر في تفسيرها: لا يراني في عمله، وقد روي حديث أنها نزلت في الرياء حين سئل رسول الله ﷺ عن من يجاهد ويحمده الناس.

وقال معاوية بن أبي سفيان: هذه آخر آية نزلت من القرآن. كمل تفسير سورة الكهف، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة مريم

هذه السورة مكّية بإجماع، إلا السجدة منها، فقالت فرقة: هي مكّية، وقالت فرقة: هي مدنية. ① - ② تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في الحروف التي في أوائل السور على قولين: فقالت فرقة: هي سر الله تبارك وتعالى في القرآن، لا ينبغي أن يُعرض له، يؤمن بظاهره ويترك باطنه. وقال

وتعالى لا تتناهي، والبحر متناه ضرورة.

وقرأ الجمهور: ﴿تَنْفَذَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ عمرو بن عبيد: ﴿يَنْفَذَ﴾ بالياء، وقرأ عبدالله بن مسعود، وطلحة بن مصرف: ﴿قَبْلَ أَنْ تُقْضَى﴾ كلمات رَمِي.

وقوله: ﴿يَدَاكَ﴾ أي: زيادة، وقرأ الجمهور: ﴿مِدَادًا﴾، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، والأعمش، ومجاهد، والأعرج: ﴿مَدَاكَ﴾ فالمعنى: لو كان البحر مداداً لكتب به معلومات الله عز وجل لنفد قبل أن يستوفيها، وكذلك إلى ما شئت من العدد؛ لأن ما لا يتناهي أكثر منه، فليس يذبح أن أجهل شيئاً من معلوماته تعالى، وإنما أنا بشر مثلكم لم أعط إلا ما أوحى إليّ وكُشف لي. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَنْفَذَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ الباقر بالتاء من فوق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الآية. المعنى: إنما أنا بشر ينتهي علمي إلى حيث يوحى إليّ، ومهم ما يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد، وكان كفرهم بعبادة الأصنام فلذلك خصص هذا الفصل مما أوحى إليه، ثم أخذ في الموعظة والوصايا البيّنة الرشد. ﴿يَرْجُوا﴾ على بابها، وقالت فرقة: ﴿يَرْجُوا﴾ يخاف، وقد تقدم القول في هذا إذ المقصد: ممن كان يؤمن بقاء ربه، وكل مؤمن بقاء ربه فلا محالة أنه بحالتي خوف ورجاء، فلو عبّر

الجمهور: بل ينبغي أن يتكلم فيها وتطلب معانيها؛ فإن العرب قد تأتي بالحرف الواحد دالاً على كلمة، وليس في كتاب الله تبارك وتعالى ما لا يفهم، ثم اختلف هذا الجمهور على أقوال قد استوفينا ذكرها في سورة البقرة، ونذكر الآن ما يختص بهذه السورة.

قال ابن عباس، وابن جبیر، والضحاك: هي حروف دالة على أسماء من أسماء الله عز وجل، الكاف من (كبير)، وقال ابن جبیر أيضاً: هي من (كاف)، وقال أيضاً: هي من (كريم).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فمقتضى أقواله أنها دالة على اسم فيه كاف من أسماء الله تبارك وتعالى. قالوا: والهاء من (هاد)، والياء من (علي)، وقيل: من (حكيم)، وقال

الربيع بن أنس: هي من: «يا من يُجير ولا يُجارُ عليه». قال ابن عباس رضي الله عنهما: والعين من (عزيز)، وقيل: من (عليم)، وقيل: من (عدل)، والصاد من (صادق). وقال قتادة: بل ﴿كَهَيَّصَ﴾ بجملته اسم السورة، وقالت فرقة: بل هي اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقول: «يا كَهَيَّصَ اغفر لي».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا يحتمل أن تكون الجملة اسماً من أسماء الله تعالى، ويحتمل أن يريد علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينادي الله تعالى بجميع الأسماء التي تضمنها ﴿كَهَيَّصَ﴾، كأنه أراد أن يقول: يا كريم يا هادي يا علي يا عزيز يا صادق اغفر لي، فجمع هذا كله باختصار في قوله: «يا كَهَيَّصَ». وقال ابن المستنير وغيره: ﴿كَهَيَّصَ﴾ عبارة عن حروف المعجم، ونسبه الزجاج إلى أكثر هذه اللغات، أي: هذه الحروف من ذكر رحمة ربك عبده زكرياً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا يتركب قول من يقول: ارتفع ﴿ذَكَرَ﴾ بأنه خبر عن ﴿كَهَيَّصَ﴾، وهي حروف تهج يوقف عليه بالسكون.

وقرأ الجميع: ﴿كَافٍ﴾ بإثبات الألف والفاء، وقرأ نافع: ﴿الهَاءِ﴾ والياء بين الكسر والفتح، ولا تدغم الدال في الذال، وقرأ ابن

كثير، ونافع أيضاً بفتح الهاء والياء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن بضم الهاء وفتح الياء، وقد روي عنه بضم الياء، وروي عنه أنه قرأ: ﴿كَافٍ﴾ بضم الفاء، قال أبو عمرو الداني: معنى الضم في الهاء والياء إشباع التفخيم، وليس بالضم الخالص الذي يوجب القلب. وقرأ أبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء، وقرأ عاصم بكسرهما، وقرأت فرقة بإظهار النون من ﴿عَيْنٍ﴾، وهي قراءة حفص عن عاصم، وهو القياس؛ إذ هي حروف منفصلة، وقرأ الجميع: ﴿عَيْنٍ﴾ بإخفاء النون، جعلوها في حكم الاتصال، وقرأ الأكثر بإظهار الدال من (صاد)، وقرأ أبو عمرو بإدغامه في الذال من قوله: ﴿ذَكَرَ﴾، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بإظهار هذه الحروف كلها وتخليص بعضها من بعض.

وارتفع قوله: ﴿ذَكَرَ﴾ - فيما قالت فرقة - بقوله: ﴿كَهَيَّصَ﴾، وقد تقدم وجه ذلك. وقالت فرقة: ارتفع على خبر مبتدأ تقديره: هذا ذكر. وقالت فرقة: ارتفع بالابتداء والخبر مُقَدَّر، تقديره: «فيما أوحى إليك ذكر»، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وابن يَغمَر: ﴿ذَكَرَ رَحْمَةً رَبِّكَ﴾، بفتح الذال والكاف [المشددة] والراء، على معنى: هذا المثلُّ ذَكَرَ رحمة ربك عبده، ومن قال: «في الكلام تقديم وتأخير» فقد تعسف. وقرأ الجمهور: ﴿ذَكَرِيَّاءَ﴾ بالمد، وقرأ الأعشى، ويحيى، وطلحة: ﴿ذَكَرِيَّاءَ﴾ بالقصر، وهما لغتان، وفيه لغات غيرهما.

وقوله تعالى: ﴿نَادَى﴾ معناه: بالدعاء والرغبة. واختلف في معنى إخفائه هذا النداء - فقال ابن جريج: ذلك لأن الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء، ومنه قول النبي ﷺ: «خَيْرُ الذُّكْرِ الْخَفِيُّ»، وقال غيره: يستحب الإخفاء بين العبد ومولاه في الدعاء الذي هو في معنى القبول والمغفرة، لأنه يدل من الإنسان على أنه خير، فإخفاؤه أبعد من الرياء، وأما دعاء زكريا وطلبه فكان في أمر دنيا وهو طلب الولد فإنما أخفاه لئلا يلومه الناس في ذلك، وليكون على أول أمره، إن أجيب نال بُغيته، وإن لم يُجِبْ لم يعرف أحد بذلك. ويقال: وصف بالخفاء لأنه كان في جوف الليل.

و ﴿وَقَنَّ﴾ معناه: ضَعَفَ، والْوَقْنُ في الشخص والأمر: الضَعْفُ. وقرأ الأعشى: ﴿وَهَنَّ﴾ بكسر الهاء. و ﴿وَأَشْتَقَلَّ﴾ مستعارٌ للشيب من اشتعال النار، على التشبيه به، و ﴿سَيِّبًا﴾ نصب على المصدر في قول من رأى ﴿وَأَشْتَقَلَّ﴾ في معنى شاب، وعلى التمييز في قول من لا يرى ذلك، بل رآه فعلاً آخر، فالأمر عنده كقولهم: امتلأت غيظاً.

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ شكر الله تعالى على سالف أباديه عنده، معناه: قد أحسنت إليّ فيما سلف، وسعدت بدعائي إليك، فالإنعام يقتضي أن يشفع آخره أوله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ آلَ مُحَمَّدٍ مِنْ دَرَكَيْهِ﴾ الآية. اختلف الناس في المعنى الذي من أجله خاف الموالي - فقال ابن عامر، ومجاهد، وقاتدة،

وأبو صالح: خاف أن يَرْتُوا ماله وأن تَرْتَهُ الكلالَة، فأشفق من ذلك، وروى قتادة، والحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «برحم الله أخي زكريا، ما كان عليه بمَن يرث ماله»، وقالت فرقة: إنما كان مواله مهملين للدين، فخاف بموته أن يضيع الدين فطلب وليًا يقوم بالدين بعده، حكى هذا القول الزجاج، وفيه أنه لا يجوز أن يسأل زكريا من يرث ماله إذ الأنبياء لا تورث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يؤيده قول النبي ﷺ: «إننا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»، ويؤيده ذكر العاقِر، والأكثر من المفسرين على أنه أراد وراثته المال، ويحتمل قول النبي ﷺ: «إننا معشر الأنبياء لا نورث» ألا يريد به العموم، بل على أنه غالب أمرهم، فتأمل. والأظهر الأتيق بزكريا عليه السلام أنه يريد وراثته العلم والدين، فتكون الوراثه مستعارة، ألا ترى أنه إنما طلب وليًا ولم يخصص ولداً فبلغه الله أمله على أكمل الوجوه؟ وقال أبو صالح وغيره: قوله: «يَرْتِي» يريد المال، وقوله: «وَرِثَ مِنِّي» يريد به العلم والنبوة، وقال السدي: رغب زكريا في الولد.

و «خَفَّتْ» من الخوف، وهي قراءة الجمهور، وعليه هو هذا التفسير، وقرأ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وسعيد بن العاص، وابن يَعمَر، وابن جُبَيْر، وعلي بن الحسين، وغيرهم: «خَفَّتْ» بفتح

الخاءِ وفتح الفاءِ وشذها وكسر التاءِ، وعلى إسناد الفعل إلى «الْمَوْلَى»، والمعنى - على هذا -: انقطع أوليائي وماتوا، وعلى هذه القراءة فإنما طلب وليًا يقوم بالدين. و«الْمَوْلَى»: بنو العَمِّ والقرابة الذين يَلُون بالنسب. وقوله: «مِن رَزَايَ» أي: من بغدي في الزمن، فهم الوريث على ما بيّناه في سورة الكهف، وقال أبو عبيدة في هذه الآية: أي من بين يدي ومن أمامي، وهذا قلة تحرير. وقرأ ابن كثير: «مِن رَزَايَ» بالمدِّ والهمز وفتح الياء، وقرأ أيضاً ابن كثير: «مِن رَزَايَ» بالياء المفتوحة مثل (عَصَايَ)، والباقون همزوا ومدّوا وسكنوا الياء.

و «الْعَاقِرُ» من النساء التي لا تلد من غير كِبَر، وكذلك العاقر من الرجال، ومنه قول عامر بن الطفيل: لَيْشَسَ الْفَتَى إِنْ كُنْتُ أَغَوَّ عَاقِرًا جَبَانًا فَمَا عُنْزِي لَدَى كُلِّ مَحْضَرٍ؟ وزكريا عليه السلام لما رأى من حاله إنما طلب وليًا، ولم يصرح [بالولد] لِيُعْزِدَ ذلك بسبب المرأة، ثم وصف الولي بالصفة التي هي قصده، وهي أن يكون وارثًا، وقالت فرقة: بل طلب الولد، ثم طلب أن تكون الإجابة في أن يعيش حتى يرثه، تحفظًا من أن تقع الإجابة في الولد ثم يُخْتَرَم فلا يتحصل منه الغرض المقصود.

وقرأ الجمهور: «يَرْتِي وَرِثَ» برفع الفعلين على معنى الصفة لِلْمَوْلَى، وقرأ أبو عمرو، والكسائي: «يَرْتِي وَيَرِثَ» بجزم الفعلين، وهذا على

مذهب سيبويه ليس هو جواب «هب»، إنما تقديره: إِنْ تَهَبُهُ يَرْتِي، والأول أصوب في المعنى؛ لأنه طلب وارثًا موصوفًا، ويضعف الجزم أنه ليس كل موهوب يرث. وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهما، وغيرهما: «يَرْتِي وَارِثَ» من آل يعقوب، قال أبو الفتح: وهذا معناه التجريد، والتقدير: يَرْتِي منه أو به وارث، قرأ مجاهد: «يَرْتِي أَوْ يَرِثَ» على التصغير، وقوله تعالى: «مِن آلِ يَعْقُوبَ» يريد: يرث منهم الحكمة والعلم والنبوة، والميراث في هذا كله استعارة. و«رَضِي» معناه: مَرَضِي، فهو فاعل بمعنى مفعول.



تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قيل له بأثر دعائه: «إننا نبشرك بغلام يؤلد لك اسمه يحيى، وقرأ الجمهور: «نَبَشِّرُكَ» بفتح الباء وكسر الشين مشددة، وقرأ أصحاب ابن مسعود: «نَبَشِّرُكَ» بسكون الباء وضم الشين.

قال قتادة: سُمِّي يحيى لأن الله تعالى أحياه بالنبوة والإيمان؛ وقال بعضهم: سُمِّي لأن الله أحياه به الناس بالتدين، وقوله: «سَيِّئًا» معناه في اللغة: لم نجعل لم مشاركاً في هذا الاسم، أي: لم يُسَمَّ قبل بيحيى، وهذا قول قتادة، وابن عباس، وابن أسلم، والسدي، وقال مجاهد وغيره: «سَيِّئًا» معناه: مثلاً ونظيراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كأنه من المساماة والسُمُو، وفي هذا بُعْدٌ؛ لأنه لا يفضل على

إبراهيم وموسى عليهما السلام إلا أن يفضل في السؤدد والحصر وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: لم تلد العواقر مثله.

وقول زكريا: ﴿أَنْتَ يَكُونُ لِي عَظْمًا﴾ اختلف الناس فيه فقالت فرقة: إنما طلب الولي دون تخصيص وَلَدَ، فلما بُشِّرَ بالولد استفهم عن طريقه مع هذه الموانع منه، وقالت فرقة: إنما كان طلب الولد وهو بحال يوجد الولد فيها بزواج غير العاقر، أو بُشِّرَ ولم تقع إجابته إلا بعد مدة طويلة صار فيها إلى حال من لا يولد له، فحينئذ استفهم وأخبر عن نفسه بالكِبَرِ والعُتُوِّ فيه، وقالت فرقة: بل طلب الولد فلما بُشِّرَ به لحين الدعوة استفهم على جهة السؤال لا على جهة الشك. كيف طريق الوصول إلى هذا؟ وكيف نفذ القدر به؟ لا أنه بُعد عنده هذا في قدرة الله.

والعِتْيُ والعَيْبُ: المبالغة في الكبر وبُشِّرَ العود أو شيب الرأس ونحو هذا، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿عَيْتًا﴾ بكسر العين، والباقون بضمها، وقرأ ابن مسعود: ﴿عَيْتًا﴾ بفتح العين، وحكى أبو حاتم أن ابن مسعود قرأ: ﴿عَيْتًا﴾ بضم العين وبالسین، وحكاها الداني عن ابن عباس أيضاً، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لا أدري، أكان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر والعصر، ولا أدري أكان يقرأ: ﴿عَيْتًا﴾ أو ﴿عَيْتًا﴾ بالسین، وحكى الطبري عن السدي أنه قال: نادى جبريل زكريا: إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِعُلَامٍ

أَسْمُهُ يَخِي، فلقبه الشيطان فقال له: إن ذلك الصوت لم يكن لِمَلَكٍ وإنما كان لشيطان، فحينئذ قال زكريا: ﴿أَنْتَ يَكُونُ لِي عَظْمًا﴾؟ لِيَتَّبِعْتَ أَنْ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وزكريا هو من ذرية هارون عليه السلام، وقال قتادة: جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة، وقيل: ابن سبعين، وقال الزجاج: ابن خمس وستين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقد كان غلب على ظنه ألا يولد له.

وقوله: ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾، قيل: إن المعنى: قال له المَلَكُ: كذلك فليكن الوجود، كما قيل لك: قال رَبُّكَ: خَلَقَ الْعُلَامَ عَلِيَّ هَيْئًا، أَي: غَيْرُ بَذْعٍ، وكما خلقتك قَبْلُ وأخرجتك من عدم إلى وجود كذلك أفعل الآن. وقال الطبري: معنى قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أَي: الأَمْران اللذان ذكرت من المرأة العاقر والكَبَرِ هو كذلك ولكن قال ربك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى عندي: قال الملك كذلك، أَي: على هذه الحال قال ربك هو عَلِيَّ هَيْئًا.

وقرأ الجمهور: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ شَيْئًا﴾، أَي: موجوداً. قال زكريا: ﴿رَبِّ أَجْمَلُ لِي عَظْمًا﴾، أَي: علامة أعرف بها صحة هذا وكونه من عندك، وروي أن زكريا عليه السلام لما عَرَفَ ثُمَّ طَلَبَ الآية بعد ذلك عاقبه الله بأن أصابه بذلك السكوت

عن كلام الناس، وذلك وإن لم يكن عن مرض - خرس أو نحوه - فيه على كل حال عقاب ما، وروي عن ابن زَيْد أن زكريا عليه السلام لما حملت زوجته منه بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو مع ذلك يقرأ التوراة، ويذكر الله، فإذا أراد مناداة أحد لم يطقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل مع هذا أن يكون قوله: ﴿أَجْمَلُ لِي عَظْمًا﴾ معناه: علامة أعرف بها أن الحمل قد وقع، وبذلك فسر الزجاج.

ومعنى قوله: ﴿سَيِّئًا﴾ فيما قال الجمهور: صحيحاً من غير علة ولا خَرَسٍ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أيضاً: ذلك عائد على الليالي، أراد: كاملات مستويات.

وقوله تعالى: ﴿فَفَرَّجَ عَلَى قَوْمِهِ﴾، المعنى أن الله تعالى أظهر الآية بأن خرج زكريا من محرابه وهو موضع الصلاة، والمخوابُ: أرفع المواضع والمباني؛ إذ هي تحارب من نواها، ثم خص بهذا الاسم مبنى الصلاة، وكانوا يتخذونها فيما ارتفع من الأرض، واختلف الناس في اشتقاقه. فقالت فرقة: هو مأخوذ من الْحَرْبِ، كأن مُلَازِمَهُ يحارب الشيطان والشهوات، وقالت فرقة: هو مأخوذ من الْحَرْبِ - بفتح الراء -، كأن مُلَازِمَهُ يلقى فيه حرباً وتعباً ونصباً، وفي اللفظ بعد هذا نظر.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلَ﴾، قال قتادة، وابن منبه: كان ذلك بإشارة، وقال مجاهد: بل بأن كتبه في التراب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكلا القولين وخي. وقوله: ﴿أَنْ سَيَحْجُوا﴾، ﴿أَنْ﴾ مفسرة، بمعنى أي، و﴿سَيَحْجُوا﴾ قال قتادة: معناه: صلوا، والسبحة: الصلاة، وقالت فرقة: بل أمرهم بذكر الله وقول: سبحان الله. وقرأ طلحة: ﴿أَنْ سَيَحْجُوا﴾ بضمير، وباقي الآية بين.

المعنى: ﴿فَوَلَدَ لَهُ﴾، وقال الله للمولود: يا يحيى. وهذا اختصار ما يدل الكلام عليه. و﴿الْكِتَابُ﴾: التوراة بلا خلاف؛ لأنه ولد قبل عيسى عليه السلام ولم يكن الإنجيل موجوداً عند الناس، وقوله: ﴿يَقْوَرُ﴾، أي: العلم به، والحفظ له، والعمل به، والالتزام للوازمه.

ثم أخبر الله تعالى فقال: ﴿وَأَنبَأَتْهُ أَلْحَمَّكُمْ صَيِّبًا﴾، واختلف في «الحكم» - فقالت فرقة: الأحكام والمعرفة بها، و﴿صَيِّبًا﴾ يريد: شأباً لم يبلغ حد الكهولة، وقال الحسن رحمه الله: الحكم: الثبوت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي لفظة (صَيِّبٍ) - على هذا - تجوز واستصحاب حال. وقالت فرقة: الحكم: الحكمة، وروى معمر في ذلك أن الصبيان دَعَوْهُ وهو طفل إلى اللعب فقال لهم: إني لم أخلق للعب، فتلك الحكمة التي آتاه الله عز وجل وهو صبي، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فقد أوتي الحكم صيباً.

وقوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا يَنْ لَدُنَّا﴾ عطف على قوله: ﴿أَلْحَمَّكُمْ﴾،

و﴿زَكَاةً﴾ عطف عليه، أعمل في جميع ذلك ﴿ءَاتَيْنَا﴾، ويجوز أن يكون ﴿وَحَنَانًا﴾ عطف على ﴿صَيِّبًا﴾، أي: وبحال حنانٍ ما وتزكية له. و﴿الْحَنَانُ﴾: الرحمة والشفقة والمحبة، قاله جمهور المفسرين، وهو تفسير اللغة، وهو فعل من أفعال النفس، ويقال: حنانك وحنانك، قيل: هما لغتان بمعنى واحد، وقيل: حنانك تشنية الحنان، وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿وَحَنَانًا يَنْ لَدُنَّا﴾: تعظيماً من لدنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والحنان في كلام العرب أيضاً ما عظم من الأمور في ذات الله، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل في خبر بلال بن رباح رضي الله عنه: «والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن فيه حناناً»، وقد روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «والله ما أدري ما الحنان». و﴿الزكاة﴾ التّطهير والتنمية في وجوه الخير والبر، و﴿التَّقِيَّ﴾ فعيل من تقوى الله عز وجل، وروي في تفسير هذه الآية من طريق عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذَنْبٌ، إلا ما كان من يحيى بن زكريا صلوات الله عليه»، وقال قتادة رحمه الله: «إن يحيى بن زكريا

يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآيَاتُهُ الْمُرْكَبَاتُ صَيِّبًا ۝ وَحَنَانًا يَنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَلَدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا ۝ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ ذَرْوًا ۝ قَالَ كَذَلِكِ ۝ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً ۝ وَلِلنَّاسِ وَرَحْمَةٌ ۝ وَمَا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۝ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِوْفِ النَّخْلِ ۝ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۝ فَدَايَهَا مِنْ تَحْتِهَا آلا تَحْزَنُ ۝ فَجَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ وَهَرَىٰ إِلَيْكِ الْجَنَّةُ فَخُذْ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۝

عليه السلام لم يعص الله قط بكبيرة ولا صغيرة ولا هم بامرأة، قال قتادة: وكان طعامه صلوات الله عليه العشب، وكان للدمع في خذه مجارٍ ثابتة. ومن الشواهد في الحنان قول امرئ القيس:

ويمسحها بنو شمسجي بن جزم
معيّزهم، حنائك ذا الحنان
وقول النابغة:

أبا مُنْذِرٍ أَفْتِنْتُ فاستبقي بغضًا
حنائيك بغض الشر أهون من بغض
وقول الآخر:

فقالت: حنان ما أتى بك هاهنا؟
أذو نَسَبٍ أم أنت بالحي عارف؟
قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَلَدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، البر: الكثير البر، والجبار: المتكبر، كأنه يجبر الناس على أخلاقه، والجبارة: النخلة العالية العظيمة، والعصبي

أَصْلُهُ عَصَوِيٌّ، فَعُولٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ، وَرَوِي أَنْ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَوَاقِعْ مَعْصِيَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً.

قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ﴾، قال الطبري وغيره: معناه: أمانٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف وأشبه من الأمان؛ لأن الأمان متحصل له فيبقى العصيان عنه، وهي أقل درجاته، وإنما الشرف في أن سلم الله عليه وحيّاه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله وعظيم الهول. وذكر الطبري عن الحسن رحمه الله أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما التقيا، وهما أبناء الخالة، فقال يحيى لعيسى: ادع لي فأنت خير مني، فقال له عيسى: بل أنت ادع لي فأنت خير مني، سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قال لي أبي رحمه الله: انتزع بعض العلماء من هذه الآية في التسليم فضل عيسى بأن قال: إذلاله في التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التي اقتضت ذلك حين قرر وحكى في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يسلم عليه. ولكل وجّه.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء قصة ليست من الأولى، والخطاب لمحمد ﷺ. و«الكتاب»: القرآن، و«مريم» ابنة عمران أم عيسى أخت أم يحيى. واختلف

الناس، لم انتبذت، والانتباز: التثني - فقال السدي: انتبذت لتظهر من حيز، وقال غيره: لتعبد الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أحسن؛ وذلك أن مريم كانت وقفاً على سدانة المتعبد وخدمته والعبادة فيه، فتنحت عن الناس لذلك، وقوله: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ يريد جهة الشرق من مساكن أهلها، وسبب كونه في الشرق أنهم كانوا يُعَظَّمُونَ جهة الشرق من حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها، حكاها الطبري رحمه الله. وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: إني لأعلم الناس لِمَ اتَّخَذَ النصارى المشرق قبلة؛ لقول الله عز وجل: ﴿إِذْ أَنْبَأْتُ مِنَ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، فاتخذوا ميلاد عيسى قبلة. وقال بعض الناس: الحجاب هي اتخذته لِيَسْتَتِيرَ بِهِ عَنِ النَّاسِ لِعِبَادَتِهَا، وقال السدي: كان من جذران، وقيل: من ثياب، وقال بعض المفسرين: اتخذت المكان بشرفي المحراب.

و«الروح»: جبريل عليه السلام، وقيل: عيسى، حكى الزجاج القولين، فمن قال إنه جبريل قدر الكلام: فتمثل هو لها، ومن قال إنه عيسى قدر الكلام: فتمثل لها المَلَكُ. قال النقاش: ومن قرأ: ﴿رُوحَنَا﴾ بتشديد النون جعله اسم ملك من الملائكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم أر هذه القراءة لغيره. واختلف الناس في ثبوت مريم - فقيل: كانت نبيّة بهذا الإرسال

وبالمحاوراة مع الملك، وقيل: لم تكن نبيّة، وإنما كلّمها مِثَالُ بَشَرٍ، ورؤيتها للملك كما رُئي جبريل في صفة دحية، وفي سؤاله عن الإيمان والإسلام، والأول أظهر.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾، المعنى: قالت مريم للملك الذي تمثّل لها بشراً لما رآته قد خرق الحجاب الذي اتخذته فأساءت به الظن، قالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت ذا تقى، قال أبو وائل: علمت أن التقيّ ذو نهيّة، وقال وهب بن منبه رضي الله عنه: تعنى اسم رجل فاجر كان في ذلك الزمان في قومها، فلما رآته مُتَسَوِّراً عليها ظننت إياه فاستعادت بالرحمن منه، حكى هذا مكّي رحمه الله وغيره. وهو ضعيف ذاهب مع التخرص. قال لها جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾، جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله.

وقرأ الجمهور: ﴿لَأَهَبَ لَكِ﴾ كما تقدم، وقرأ نافع، وأبو عمرو: ﴿لِيَهَبَ لَكِ﴾ بالياء، أي: ليهب لك الله، واختلف عن نافع رحمه الله، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿لِيَهَبَ لَكِ﴾.

فلما سمعت مريم بذلك واستشرت ما طرأ عليها، استفتت عن طريقه، وهي لم يمسهما بشر بنكاح ولم تك زانية. و«البغي»: المجاهرة المشتهرة في الزنى، فهي طالبة له، أصله بشوي على وزن فَعُول كَبُتُول، ولو كانت فعلاً لقوي

أَن تَلْحَقَهَا هَاءُ التَّأْنِيثِ فيقال: بَيْتَةٌ.

(٢١) - (٢٣) تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ:

قال لها الْمَلَكُ: كذلك هو كما وصفتِ، ولكن قال ربُّك، ويحتمل أن يريد: على هذه الحال قال ربُّك، والمعنى متقارب، والآية: العبرة المعرضة للنظر، والضمير في قوله: ﴿وَلَنَجْجِلكَ﴾ للغلام، ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾، أي: طريق هُدًى لعالم كثير، فينالون الرحمة بذلك. ثم أعلمها بأن الأمر قد قُضي وانتجز، و«الأمر» هنا واحد الأمور، وليس بمصدر: أَمَرَ يَأْمُرُ، وروي أن جبريل عليه السلام - حين قال لها هذه المقالة - نفخ في جيب دِرعها، فَسَرَتِ النفخة بإذن الله تعالى حتَّى حملت منها، قاله وهب بن منبه وغيره. وقال ابن جُرَنيج: نفخ في جيب دِرعها وكفها، وقال أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه: دخل الرُّوحُ المنفوخ من فمها، فذلك قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾، أي: فحملت الغلام.

ويذكر أنها كانت بنت ثلاث عشرة سنة، فلمَّا أَحسَّت بذلك وخافت تعنيف الناس وأن يَظُنَّ بها البشر انتبذت به، أي: تنَحَّت مكاناً بعيداً حياةً وفزارةً على وجهها، وروي في هذا أنها فُرِثَ إلى بلاد مصر ونحوها، قاله وهب بن منبه، ويروي أيضاً أنها خرجت إلى موضع يعرف ببית لحم، بينه وبين إيلياء أربعة أميال.

و «فَلَمَّا هَا» معناه: اضطرها، و (أَجَاءَ) هو تعدية (جاء) بالهمزة، وقرأ شُبَيْلُ بْنُ عَزْرَةَ - ورويت عن عاصم -: «فَلَمَّا هَا» من المفاجأة،

وفي مصحف أُبَيِّ بن كعب: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾، وقال زهير:

وَجَارِ سَارَ مُغْتَمِدًا إِلَيْنِ كُمْ
أَجَاءَتْهُ الْمَخَاضُ وَالرَّجَاءُ
وقرأ الجمهور: «الْمَخَاضُ» بفتح الميم، وقرأ ابن كثير - فيما روي عنه - بكسرها، وهو الطَّلُؤُ وشدة الولادة وأوجاعها، وروي أنها بلغت إلى موضع كان فيه جذع نخلة بالِ يابسٍ في أصله مدود بقرة على جرية ماء، فاشتد بها الأمر هناك، واحتضنت الجذع لشدة الوجع، فولدت عيسى عليه السلام، وقالت عند ولادته - لما رأتها من الآلام والتغرب وإنكار قومها وصعوبة الحال من غير ما وَجَّه -: يا ليتني متُّ ولم ينجر عليَّ هذا القَدَر.

وقرأ الحسن، وأبو جعفر، وشيبة، وعاصم، وأبو عمرو، وجماعة: ﴿مُتُّ﴾ بضم الميم، وقرأ الأعرج، وطلحة، ويحيى، والأعمش بكسرها، واختلف عن نافع. وتمنت مريم الموت من جهة الدين؛ إذ خافت أن يظن بها الشرُّ في دينها، وتُعَيَّرَ فيفتنها ذلك، وعلى هذا الحدّ تمناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من الصالحين، ونَهَى النبي ﷺ عن تمنى الموت إنما هو لِضُرِّ نَزَلٍ بِالْبَدَنِ، وقد أباحه ﷺ في قوله: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَمُرُّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فيقول: يا ليتني مكانه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأنه زمن فِتْنٍ تتصل بالدين.

وقالت: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًا مَّنْسِيًا﴾، أي: شيئاً متروكاً محترقاً، والنسني

في كلام العرب: الشيء الحقيق الذي من شأنه أن يُنسى فلا يُتَأَلَّم لفقده كالوتد والحبل للمسافر ونحوه، يقال: نَسِيَ ونَسِيَ بفتح النون وكسرها، وقرأ الجمهور بالكسر، وقرأ حمزة وحده بالفتح، واختلف عن عاصم، وكقراءة حمزة قرأ طلحة، والأعمش، ويحيى، وقرأ محمد بن كعب القرظي: «نَسِيًا» بالهمز وكسر النون، وقرأ نوف البكالي: «نَسِيًا» بفتح النون، وحكاه أبو الفتح، وأبو عمرو الداني عن محمد بن كعب القرظي، وقرأ بكر بن حبيب: «نَسَا» بشد السين وفتح النون دون همز، وقال الشَّفَرِيُّ:

كَأَنَّ لَهَا فِي الْأَرْضِ نَسِيًا تَقْصُهُ
إِذَا مَا عَدَّتْ وَإِنْ تُحَدِّثُكَ تَبَلَّتْ
وحكى الطبري رحمه الله في قصتها أنها لما حملت بعيسى حملت أيضاً أختها بيحيى، فجاءتها أختها زائرة فقالت: يا مريم، أشعرت أُنِي حملت؟ فقالت لها مريم: أشعرت أُنِي أُنِي حملت؟ قالت لها: وأُنِي أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك، وذلك أنه رُوي أنها أَحسَّت جنينها يخِرُّ برأسه إلى ناحية بطن مريم، قال السُّدِّي: فذلك قوله تعالى: ﴿مَسَرَّةً يَكْكَرُ بَيْنَ اللَّهِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا كله ضعف، فتأمل. وكذلك ذكر الطبري في قصصها أنها خرجت فارةً مع رجل من بني إسرائيل يقال له يوسف النجار كان يخدم معها المسجد، وطول الطبري في ذلك فاختصرته لضعفه، وهذه

وقرأ علقمة، وزر بن حبيش: ﴿فَخَاطَبَهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَتَادَاهَا مَلَكٌ مِنْ تَحْتِهَا﴾.

وقوله: ﴿أَلَا تَحْزَنُ﴾ تفسير للنداء، فـ [أَنْ] مفسرة بمعنى: أي، و«السري» من الرجال: العظيم الخصال السيّد، و«السري» أيضاً: الجدول من الماء، وبحسب هذا اختلف الناس في هذه الآية - فقال قتادة، وابن زيد: أراد: جعل تحتك عظيماً من الرجال له شأن، وقال الجمهور: أشار لها إلى الجدول الذي كان قرب جذع النخلة، وزوي أن الحسن فسّر الآية فقال: أجل، لقد جعله الله سرياً كريماً، فقال حميد بن عبد الرحمن الحميري: يا أبا سعيد، إنما نعني بالسري الجدول، فقال: لهذه وأشباهها أحبّ قربك، ولكن غلبتنا عليك الأمراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن الشاهد في السري قول لبيد: فَتَوَسَّطًا عُرْضَ السَّرِيِّ وَصَدَعًا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلَامُهَا ثم أمرها بهزّ الجذع اليابس لتري آية أخرى في إحياء موات الجذع، فقالت فرقة: كانت النخلة مطعمة رطباً، وقال السدي: كان الجذع مقطوعاً، وأجري تحتها النهر لحيته. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر من الآية أن عيسى هو المكلّم لها، وأن الجذع كان يابساً، وعلى هذا تكون آية تسليها وتسكن إليها، والباء في قوله: ﴿يَجْنَعُ﴾ زائدة مؤكدة، قال أبو علي: كما

ومجاهد، والجحدري، وجماعة: ﴿فَتَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ على أن «من» فاعل بـ [تَادَى]، والمراد بـ «من» عيسى، أي: ناداه المولود، قاله مجاهد، والحسن، وابن جبير، وأبي بن كعب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد جبريل عليه السلام، ولم يتكلم عيسى حتى أتته به قومها، وقال علقمة، والضحاك، وقاتدة: ففي هذا آية لها وأماره أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي الله فيها مراداً عظيماً،

لا سيما والمنادي عيسى، فإنه يتبين به عذر مريم، ولا تبقى به استرابة، فذلك كان النداء ألا يقع حُزْنٌ.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والبراء بن عازب، والضحاك، وعمرو بن ميمون، وأهل المدينة، وأهل الكوفة، وعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً، والحسن: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ بكسر الميم على أنها لا ابتداء الغاية، واختلفوا - فقال بعضهم: هو عيسى عليه السلام، وقالت فرقة: المراد جبريل المجاور لها قبل، قالوا: وكان في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت هي عليها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أظهر، وعليه كان الحسن بن أبي الحسن يقسم.

كُلِّي وَأَمْرِي وَقَرَى عَيْنَا فَمَاتَرَيْنِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٤﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ فَأُلَاؤُا يُنْمِرُهُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيبًا ﴿٢٥﴾ يَتَأَخَذُ هَهُنَا مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْعِدَافِ صَبِيًّا ﴿٢٧﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَبَعَثَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٢٨﴾ وَبَرَّأَوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٢٩﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٠﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَيِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣١﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَخْذُلَ مَنْ وَلِيَ سَبْعَتَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٢﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٣﴾ فَاخْلَفَ الْأَحْرَابُ مِنْ بَنِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٤﴾ أَتَمَعْتُمْ بَيْنَهُمْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لِنَكْفِي الظَّالِمِينَ الْيَوْمَ فِي صَلَافٍ مِثْرٍ ﴿٣٥﴾

٣٠٧

القصة تقتضي أنها حملت واستمرت حاملاً على عرف البشر، واستحيت من ذلك وفرت بسببه وهي حامل، وهو قول جمهور المتأولين، وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس إلا أن حملت فوضعت في ساعة واحدة، والله أعلم. وظاهر قوله تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ يقتضي أنها كانت على عرف النساء، وتظاهرت الروايات أنها ولدته لثمانية أشهر؛ ولذلك لا يعيش ابن ثمانية أشهر حفظاً لخاصية عيسى عليه السلام، وقيل: ولدته لسبعة أشهر، وقيل: لثلاثة أشهر.

٢٤ - ٢٦ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وابن عباس، والحسن، وزر بن حبيش،

يقال: ألقى بيده، أي: ألقى يده.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وفي هذا المثال نظر، وأنشد الطبري رحمه الله:

بِوَادِ يَمَانٍ يُنْبِتُ السُّدْرَ صَدْرُهُ
وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ وَالشُّبَهَانِ
وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو،
والكسائي، وأبو بكر عن عاصم،
والجمهور من الناس: ﴿تَسَاقُطُ﴾
بفتح التاء وشد السين، يريد النخلة
وقرأ البراء بن عازب رضي الله عنه،
والأعمش رحمه الله: ﴿يَسَاقُطُ﴾
يريد الجذع، وقرأ حمزة وحده:
﴿تَسَاقُطُ﴾ بفتح التاء وتخفيف
السين، وهي قراءة مسروقة،
ويحيى بن وثاب، وطلحة بن
مصرف، وأبي عمرو - بخلاف -
وقرأت فرقة: ﴿يَسَاقُطُ﴾ بالياء على
ما تقدم من إرادة النخلة أو الجذع،
وقرأ عاصم - في رواية حفص -:
﴿تَسَقُطُ﴾ بضم التاء وفتح السين
وتخفيفها، وقرأ أبو حيو: ﴿يَسَقُطُ﴾
بضم الياء، وحكى أبو علي في
الحجة أنه قرئ: ﴿يَسَاقُطُ﴾ بياء
وتاء، وروي عن مسروق: ﴿تَسَقُطُ﴾
بضم التاء وكسر القاف، وكذلك عن
أبي حيو، وقرأ أبو حيو أيضاً:
﴿يَسَقُطُ﴾ بفتح الياء وضم القاف
﴿زُطِبَ جَنِيٌّ﴾. ونصب ﴿رُطِبَا﴾
يختلف بحسب معاني القراءات
المذكورة، فمرة يستند الفعل إلى
الجذع، ومرة إلى الهز، ومرة إلى
النخلة، و﴿جَنِيٌّ﴾ معناه: قد طاب
وصلح للاجتماع، وهو من جنث
الثمرة، وقرأ طلحة بن سليمان:
﴿جَنِيًّا﴾ بكسر الجيم، وقال

عمرو بن ميمون: ما من شيء خير
للثَّقَسَاءِ من التمر والرطب، وقال
محمد بن كعب: ﴿رُطِبَا﴾: عجوة.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
واستدل بعض الناس من هذه الآية
على أن الرزق وإن كان محتوماً
فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى
سعي ما فيه، لأنه أمر مريم بهز
الجذع لترى آية، وكانت الآية تكون
بالأ تهز.

وحكى الطبري عن ابن زيد أنه قال
لها عيسى: ﴿لَا تَحْزَنِي﴾، فقالت:
وكيف لا أحزن وأنت معي، لا ذات
زوج [فأقول من زوج، ولا مملوكة
فأقول من سيدي، أي شيء عذري
عند الناس؟] ﴿يَكَلِّتُنِي مِثْلَ هَذَا
وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا﴾، فقال لها
عيسى: أنا أكفيك الكلام.

قوله تعالى: ﴿مَكِّي وَأَشْرِي وَفَرَى
عَيْنًا﴾ الآية. قرأ الجمهور:
﴿وَفَرَى﴾ بفتح القاف، وحكى
الطبري قراءة ﴿وَوَفَرَى﴾ بكسر
القاف، وقرء العين مأخوذة من القَر،
وذلك أنه يحكى أن دمع الفرج بارد
ودمع الحزن سخن، وضعت فرقة
هذا وقالت: الدمع كله سخن، وإنما
معنى قرء العين أن البكاء الذي
يسخن ارتفع، أي: لا حزن من
الأمر الذي قرت به العين، وقال
الشيباني: ﴿وَوَفَرَى عَيْنًا﴾ معناه:
نامي، حضها على الأكل والشرب
والنوم، وقوله: ﴿عَيْنًا﴾ نصب على
التمييز، والفعل في الحقيقة إنما هو
للعين، فنقل ذلك إلى ذي العين،
وينصب الذي كان فاعلاً في الحقيقة
على التفسير، ومثله: طبث نفساً،

وتفثأت شحمًا، وتصبثت عرقًا،
وهذا كثير.

وقرأ الجمهور: ﴿تَرَيْنَ﴾ وأصله:
(تَرَائِينَ)، حذفت النون للجزم، ثم
نقلت حركة الهمزة إلى الراء، ثم
قلبت الياء الأولى ألفاً لتحركها
وانفتاح ما قبلها، فاجتمع ساكنان،
الألف [المنقلبة عن الياء]، والياء،
فحذفت الألف فصار (تَرَيْنِ)، وعلى
هذا النحو قول الأفره:

إِنَّا تَرَيْنِي رَأْسِي أَرَزَى بِهِ
البيت

ثم دخلت النون الثقيلة، وكسرت
الياء لاجتماع ساكنين منها ومن
النون، وإنما دخلت النون هنا
توطئة، كما توطئ لدخولها أيضاً
لام القسم. وقرأ أبو عمرو - فيما
رؤي عنه -: ﴿تَرَيْنِ﴾ بالهمزة، وقرأ
طلحة، وأبو جعفر، وشيبة:
﴿تَرَيْنِ﴾ بسكون الياء وفتح النون
خفيفة، قال أبو الفتح: «وهي
شاذة».

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى
أمرها - على لسان جبريل أو ابنها
عليهما السلام، على الخلاف
المتقدم - بأن تمسك عن مخاطبة
البشر، وتحيل على ابنها في ذلك،
ليرتفع عنها خجلها وتبين الآية فيقوم
عُذْرُهَا، وظاهر الآية أنها أبيع لها أن
تقول هذه الكلمات التي في الآية،
وهو قول الجمهور، وقالت فرقة:
معنى ﴿فَقُولِي﴾ بالإشارة لا بالكلام،
ولإلا كان التناقض بيناً في أمرها.

وقرأ ابن عباس، وأنس بن مالك:
﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ وَضْعًا﴾،
وقال قوم: معناه: صوماً عن

الكلام؛ إذ أصل الصيام الإمساك،
ومنه قول الشاعر:

خَيْلٌ صِيَامٌ ...

وقال ابن زيد، والسدي: كانت
سنة الصيام عندهم الإمساك عن
الأكل والكلام، وقرأت فرقة: ﴿إِنِّي
نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا يجوز في شرعنا أن ينذر أحد
صومًا، ولقد أمر ابن مسعود من فعل
ذلك بالنطق والكلام، وقالت فرقة:
أمرت مريم بهذا ليكفيها عيسى
الاحتجاج.

(٧٨) - (٧٩) تفسير قوله عز وجل:

رُوي أن مريم عليها السلام لما
اطمأنت بما رأت من الآية، وعلمت
أن الله تعالى سيبين عذرها، أتت به
تحمله من المكان القصبي الذي
انتبذت فيه، وروي أن قومها خرجوا
في طلبها فلحقوها وهي مقبلة.
والقري: العظيم الشنيع، قاله
مجاهد والسدي، واقتراه: اختلقه
وهو من الفيزية، وقراه يفريه: شقه
وأفسده، وأفراه: أصلحه، من
قولهم: فريت الأديم: قطعته على
جهة الإصلاح، وأما قولهم في
المثل: «فلان يفري القري» فمعناه:
جاء بعمل عظيم من العمل، أو...
قصد ضرب المثل له، وهو مستعمل
فيما يختلق ويفعل، والقري من
الأسقية الجديد، وقرأ أبو حيوة:
﴿شَيْئًا قَرِيًّا﴾ بسكون الراء.

واختلف المفسرون في معنى قوله
عز وجل: ﴿يَكَاخَتْ هَرُونَ﴾ فقالت
فرقة: كان لها أخ اسمه هارون؛ لأن

هذا الاسم كان كثيراً في بني إسرائيل
تبركاً باسم هارون أخي موسى
عليهما السلام، وروى المغيرة بن
شعبة أن رسول الله ﷺ أرسله إلى
نجران في أمر من الأمور، فقالوا:
إن صاحبك يزعم أن مريم هي أخت
هارون، وبينهما في المدة ستمائة
سنة، قال المغيرة: فلم أدر ما أقول،
فلما قدم على رسول الله ﷺ
ذكرت له، فقال: «ألم تعلموا أنهم
كانوا يُسمُّون بأسماء الأنبياء
والصالحين؟»

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فالمعنى أنه اسم وافق اسماً، وقال
السدي وغيره: بل نسبوها إلى
هارون أخي موسى لأنها كانت من
نسله، وهو كما تقول لرجل من
قبيلة: يا أخا فلانة، ومنه قول
النبي ﷺ: «إن أخا صداء أذن، ومن
أذن فهو يقيم»، وقال كعب الأحبار
بحضرة عائشة أم المؤمنين
رضي الله عنها: «لَيْسَتْ بِأُخْتِ
هَارُونَ أَخِي مُوسَى»، فقالت عائشة:
كذبت، فقال لها: يا أم المؤمنين،
إن كان رسول الله ﷺ قاله فهو
أصدق وأخبر، وإلا فإني أجِدُ بينهما
من المدة ستمائة سنة، قال:
فسكتت، وقال قتادة: كان في ذلك
الزمن في بني إسرائيل رجلٌ عابد
منقطع إلى الله عز وجل يُسمى
هارن، فنسبوا إلى أخوته من حيث
كانت على طريقته، قيل: إذ كانت
موقوفة على خدمة البيع، أي: يا
هذه المرأة الصالحة ما كنت أهلاً لما
أتيت به، وقالت فرقة: بل كان في
ذلك الزمن فاجر اسمه هارون،

فنسبوا إليه على جهة التَّغْيِيرِ
والتَّوْبِيخِ، ذكره الطبري ولم يُسمِّ
قائله، والمعنى: ما كان أبوك ولا
أُمُّكَ أهلاً لهذه الفعلة، فكيف جئت
بها أنت؟ و«البغي»: التي تبغي
الزنى، أي تطلبه، أضلها: بغوي،
فعل، وقد تقدم ذلك.

(٧٩) - (٨٠) تفسير قوله عز وجل:

الْتَزَمَتْ مَرْيَمُ عَلَيْهَا السَّلَامُ مَا أَمَرْتُ
بِهِ مِنْ تَرْكِ الْكَلَامِ، ولم يرد في هذه
الآية أنها نطقت بـ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ
صَوْمًا﴾، وإنما ورد أنها أشارت،
فيقوى بهذا قول من قال: إن أمرها
في ﴿فَقُولِي﴾ إنما أريد به الإشارة،
ويُزَوَّى أنهم - لما أشارت إلى الطفل
- قالوا: استخفافا بنا أشد علينا من
زناها، ثم قالوا لها - على جهة
التقرير - ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَتْ فِي
الْمَهْدِ صَبِيًّا؟﴾

و «كَانَ» هنا ليس يراد بها
المضي؛ لأن كل واحد قد كان في
المهد صبيًا، وإنما هي في معنى:
هو «الآن»، ويحتمل أن نكون
الناقصة، والأظهر أنها التامة، وقد
قال أبو عبيدة: [كَانَ] هنا لغو. وقال
الزجاج والفراء: [مَنْ] شرطية في
قوله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ونظير «كان» هذه قول رؤية:

وَالرَّأْسُ قَدْ كَانَ لَهُ قَتِيرٌ

و «صَبِيًّا» إمَّا خبر [كَانَ] على
تجاوز وتخييل في كونها ناقصة، وإمَّا
حال [إِذَا قُدِّرَتْ زَائِدَةٌ أَوْ تَائِمَةٌ]
للاستقرار المقدر في الكلام.

وروي أن المهد يراد به جحر أمه،
قال لهم عيسى من مرقد: ﴿إِنِّي عَبْدُ

اللَّهُ الْآيَةَ، وَرُوي أَنَّهُ قَامَ مَكْنَأً عَلَى يَسَارِهِ، وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ بِسَبَابَتِهِ الْيَمْنَى. وَ«الْكِتَابُ»: التَّوْرَةُ، وَيَحْتَمِلُ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَ«أَتَيْنِي» مَعْنَاهُ: قَضَى بِذَلِكَ وَأَنْفَذَهُ فِي سَابِقِ حُكْمِهِ، وَهَذَا نَحْوُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنَّا أَتَرُ اللَّهَ» وَغَيْرِ هَذَا، وَأَمَّا الْكِسَائِيُّ «أَتَانِي» وَ«وَأَوْصَانِي» وَالْبَاقُونَ لَا يُمِيلُونَ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: الْإِمَالَةُ فِي «أَتَانِي» أَحْسَنُ لَا فِي «وَأَوْصَانِي» وَ«مُبَارَكًا» قَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ: نَفْعًا، وَقَالَ سَفِيانُ الثَّوْرِيُّ: مَعْنَاهُ: مُعَلِّمٌ خَيْرٌ، وَقِيلَ: أَيْرَأُ بِالْمَعْرُوفِ نَاهِيًا عَنِ الْمُنْكَرِ، قَالَ رَجُلٌ لِبَعْضِ الْعُلَمَاءِ: مَا الَّذِي أَغْلَيْتُ مِنْ عِلْمِي؟ قَالَ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّهُ دِينَ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ، وَأَسَدَ النَّقَاشِ عَنِ الضَّحَّاكِ أَنَّهُ قَالَ: «مُبَارَكًا» مَعْنَاهُ: قَضَاءٌ لِلْحَوَائِجِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: «مُبَارَكًا» يَعْنِي هَذِهِ الْوُجُوهُ وَغَيْرَهَا.

و «الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ» قِيلَ: هُمَا الْمَشْرُوعَتَانِ فِي الْبَدَنِ وَالْمَالِ، وَقِيلَ: زَكَاةُ الْبَدَنِ فِي الْفِطْرِ، وَقِيلَ: الصَّلَاةُ الدُّعَاءُ، وَالزَّكَاةُ التَّطَهُّرُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَتَقْصِيرٍ وَمَعْصِيَةٍ. وَقُرَأَ: «دُمْتُ» بِضَمِّ الدَّالِ عَاصِمٌ وَجَمَاعَةٌ، وَقُرَأَ: «دُمْتُ» بِكسرها أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَجَمَاعَةٌ.

وقرأ الجمهور: «وَرَبَّارًا» بِفَتْحِ الْبَاءِ - وَهُوَ الْكَثِيرُ الْبَرُّ - وَنَصَبَهُ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: «مُبَارَكًا»، وَقُرَأَ أَبُو نَهْيَكٍ، وَأَبُو مَجْلَزٍ، وَجَمَاعَةٌ: «وَرَبَّارًا» بِكسرها

الْبَاءِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَصَبَهُ عَلَى الْعَطْفِ عَلَى قَوْلِهِ: «مُبَارَكًا»، كَأَنَّهُ قَالَ: ذَا بَرٍّ، فَاتَّصَفَ بِالمَصْدَرِ كَعَدَلٍ وَنَحْوِهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَصَبَهُ بِقَوْلِهِ: «وَأَوْصَانِي»، أَي: وَأَوْصَانِي بِرَأٍ بِوَالِدَتِي، حَذَفَ الْجَارَ، يَرِيدُ: وَأَوْصَانِي بِبِرِّ وَالِدَتِي، وَحَكَى الزَّهْرَاوِيُّ فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ «وَبَرَّ» بِالْخَفْضِ عَطْفًا عَلَى «الْزَّكَاةِ»، وَقَوْلُهُ: «وَبَرَّ» بَيَانٌ لِأَنَّهُ لَا وَالِدَ لَهُ، وَبِهَذَا الْقَوْلُ بَرُّهَا قَوْمُهَا.

و «الْجَبَّارُ»: الْمُتَعَطِّمُ، وَهِيَ خَلْقٌ مَقْرُونَةٌ بِالشَّقَاءِ لِأَنَّهُمَا مُنَاقِضَتَانِ لِجَمِيعِ النَّاسِ فَلَا يَلْقَى صَاحِبَهَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا مَكْرُوهًا، وَكَانَ عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي غَايَةِ التَّوَاضُعِ، يَأْكُلُ الشَّجَرِ، وَيَلْبِسُ الشَّعْرَ، وَيَجْلِسُ عَلَى التَّرَابِ، وَيَأْوِي حَيْثُ جَنَّهُ اللَّيْلُ إِذْ لَا مَنْكُنَّ لَهُ، قَالَ قَتَادَةُ: وَكَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: سَلُونِي فَإِنِّي لَأُتِنَ الْقَلْبَ صَغِيرٌ فِي نَفْسِي، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ تَسْلِيمِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَإِدْلَالِهِ فِي ذَلِكَ، وَذَكَرَ الْمَوَاطِنَ الَّتِي خَصَّصَهَا لِأَنَّهُمَا أَوْقَاتُ حَاجَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ.

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه في هذه الآية: مَا أَشَدُّهَا عَلَى أَهْلِ الْقَدَرِ، أَخْبَرَ عِيسَى بِمَا قَضَى مِنْ أَمْرِهِ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ يَمُوتَ، وَفِي قِصَصِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ ابْنِ زَيْدٍ وَغَيْرِهِ أَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا كَلَامَ عِيسَى وَهُوَ فِي الْمَهْدِ أَذْعَنُوا وَقَالُوا: إِنَّ هَذَا لِأَمْرٌ عَظِيمٌ، وَرُوي أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا تَكَلَّمَ فِي طُفُولَتِهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ ثُمَّ عَادَ إِلَى حَالَةِ الْأَطْفَالِ حَتَّى نَشَأَ عَلَى عَادَةِ الْبَشَرِ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ:

إِنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ أُوتِيَ ذَلِكَ الْكِتَابَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ السَّنِ، وَكَانَ يَصْلِي وَيُصُومُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَهَذَا فِي غَايَةِ الضَّعْفِ، مُضَرَّحٌ بِجَهَالَةِ قَائِلِهِ.

المعنى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمُعَاصِرِكَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: ذَلِكَ الَّذِي هَذِهِ قِصَّتُهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَإِنَّمَا قَدَرْنَا فِي الْكَلَامِ «قُلْ» لِأَنَّهُ يَجِيءُ فِي الْآيَةِ بِغَدٍّ «وَلَقَدْ أَنذَرْتُ رَبِّي وَرَبِّيكَ»، وَهَذِهِ مَقَالَةٌ بَشَرٌ، وَلَيْسَ يَقْتَضِي ظَاهِرُ الْآيَةِ قَائِلًا مِنَ الْبَشَرِ سِوَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: «ذَلِكَ عِيسَى» إِلَى قَوْلِهِ: «فَيَكُونُ» إِخْبَارًا لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَاعْتِرَاضًا أَتْنَاءَ كَلَامِ عِيسَى، وَيَكُونَ قَوْلُهُ: «وَأَنَّ» بِفَتْحِ الْأَلْفِ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: «الْكِتَابُ»، وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مَنْبِهٍ: عَهْدَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَيْهِمْ أَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، وَمَنْ كَسَرَ الْأَلْفَ عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ».

وقرأ ابن كثير، ونافع، وحَمْزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ، وَعَامَّةُ النَّاسِ: «قَوْلُ الْحَقِّ»، وَقُرَأَ عَاصِمٌ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ: «قَوْلِكَ الْحَقِّ» بِنَصْبِ «الْقَوْلِ» عَلَى الْمَصْدَرِ، وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَقْرِي: كَانَ يَجَالِسُنِي ضَرِيرٌ ثَقَّةٌ، فَقَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّوْمِ يَقْرَأُ: «قَوْلِكَ الْحَقِّ» نَصْبًا، قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: وَكَنتُ أَقْرَأُ بِالرَّفْعِ فَحَسِبْتُ، فَصُرْتُ أَقْرَأُ بِهِمَا جَمِيعًا، وَقُرَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء خبر من الله عز وجل لمحمد ﷺ بأن بني إسرائيل اختلفوا أحزاباً، أي: فِرَقاً، وقوله: ﴿يُرِيهِمْ﴾ معناه أن الاختلاف لم يخرج عنهم، بل كانوا المختلفين، وروي في هذا عن قتادة أن بني إسرائيل جمعوا من أنفسهم أربعة أجناس غاية في المكانة والجلالة عندهم، وطالبوهم بأن يبيّنوا أمر عيسى عليه السلام، فقال أحدهم: عيسى هو الله نزل إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد، فقال له الثلاثة: كذبت، وأتبعه اليعقوبية، ثم قيل للثلاثة، فقال أحدهم: عيسى هو ابن الله، فقال له الاثنان: كذبت، وأتبعه النسطورية، ثم قيل للثنتين، فقال أحدهما: عيسى أحد ثلاثة، عيسى إله، ومريم إله، والله إله، فقال له الرابع: كذبت، وأتبعه الإسرائيلية، فقيل للرابع، فقال: عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، فأنجب كل واحد من الأربعة فريق من بني إسرائيل، ثم اقتتلوا فغلب المؤمنون وقتلوا، وظهرت اليعقوبية على الجميع. وروي أن في ذلك نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَأْتِيَتَهُمُ الرَّسُولُ مِنْهُمْ قَدْ كَانُوا إِتِّفَاقًا عَلَى أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْبُرْهَانَ فَاصْبِرْ لَهُمْ رَبِّي أِنَّهُمْ كَانُوا ذُفْلِقِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

و«الْوَيْلُ»: الحزن والشور، وقيل: الوَيْلُ وإد في جهنم. ومشهد اليوم العظيم هو مشهد يوم القيامة، ويحتمل أن يريد بـ«مَشْهَدٍ بَرٍّ عَظِيمٍ» يوم قتل المؤمنين حين اختلف

يَنْ اَلْأَحْزَابِ أَنْ يَخْتَلِفُوا، وإما تعجيز كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لَكُمُ الْاَرْضُ وَالْاِسْمُ جَمْعًا﴾، وإما تبرئة كهذه الآية، وقوله: ﴿مِنْ دَخَلَتْ﴾. ومن مؤكدة للجنح، لينفي الواحد فما فوقه مما يحتمله نظير هذه العبارة إذا لم تدخل (مَنْ)، وقوله: ﴿أَنْزَلَهُ﴾ أي: واحداً من الأمور، وليس بمصدر «أَنْزَلَ يَنْزِلُ» فمعنى قُضِيَ وأوجد وأخرج من العدم وهذه التصاريح في هذه الأفعال من مضي واستقبال هي

بحسب تجوز العرب وأتباعها، وقد تقدم القول في قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ بفتح الألف، وذلك عطف على قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ و«وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي» كذلك، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ بكسر الألف، وذلك بيّن على الاستئناف، وقرأ أبي بن كعب رضي الله عنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ بكسر الألف دون واو.

وقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾، وقف ثم ابتداء: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: ما أعلمتكم به عن الله تعالى من وحدانية، ونفي الولد عنه، وغير ذلك مما يتنزه عنه، طريق واضح مُفْضٍ إلى النجاة ورحمة الله تعالى.

وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهِمُ الْاِسْمُ جَمْعًا ﴿٣٨﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَاحِبًا نَبِيًّا ﴿٣٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٠﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤١﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٣﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْئَةِ يَا إِبْرَاهِيمَ لَنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرُنَّكَ مِثْلًا ﴿٤٤﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَاسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَيْثُ ﴿٤٥﴾ وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا نَدَعُوكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا أَغْتَرَّهُمْ وَوَعَدَهُمْ وَعَادَهُمْ وَوَعَدَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٧﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمُ مِنْ دُونِهَا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٨﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ خَلَّاصًا كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾

٣٠٨

مسعود: ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ بمعنى: كلمته الله، وقرأ عيسى: ﴿قَالَ الْحَقُّ﴾.

وقرأ نافع والجمهور: ﴿يَسْتَرْوُونَ﴾ بالياء على الكناية عنهم، وقرأ نافع أيضاً وأبو عبدالرحمن السلمي، وداود بن أبي هند: ﴿تَمْتَرُونَ﴾ بالناء على الخطاب لهم، والمعنى: تختلفون أيها اليهود والنصارى، فيقول بعضهم: هو لِرِزْيَةٍ ونحو هذا، ويقول بعضهم: هو ابن الله تعالى، فهذا هو امتراؤهم، وسيأتي شرح ذلك من بعد هذا.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَخْذَ مِنْ لَدُنْهِ سُبْحَتُهُ﴾ معناه النفي، وهذا هو معنى هذه الألفاظ حيث وقعت، ثم يضاف إلى ذلك بحسب المذكور فيها، إما زجر ونهي كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ﴾

الأحزاب، وقد أشار إلى هذا المعنى قتادة رحمة الله.

وقوله تعالى: ﴿أَتَجِيبُهُمْ وَأُصْبِرُهُمْ﴾ أي: ما أسمعهم وأبصرهم يرجعون إلينا ويرون ما نصنع بهم من العذاب، فإن إعراضهم حينئذ يزول، ويقبلون على الحقيقة حيث لا ينفعهم الإقبال عليها وهم في الدنيا صم غمي؛ إذ لا ينفعهم النظر مع إعراضهم، ثم قال: لكنهم اليوم في الدنيا في ضلال، وهو جهل المسلك، والمؤمن: اليقين في نفسه وإن لم يتبين لهم، وحكى الطبري عن أبي العالية أنه قال: ﴿أَتَجِيبُهُمْ وَأُصْبِرُهُمْ﴾ بمعنى الأمر لمحمد ﷺ، أي: أسمع الناس اليوم وأبصرهم بهم وبحديثهم، ماذا يصنع بهم من العذاب إذا أتوا محشورين مغلولين.

واختلف في ﴿يَوْمَ الْفَتْرَةِ﴾ فقال الجمهور: هو يوم ذبح الموت، وفي هذا حديث صحيح، وقع في البخاري وغيره أن الموت يجاء به في صورة كبش أملح، وقال عبيد بن عمير: كأنه دابة، فيذبح على الصراط بين الجنة والنار، وينادي: يأهل الجنة خلود لا موت، ويأهل النار خلود لا موت. ويروى أن أهل النار يشربون إليه رجاء أن يخرجوا مما هم فيه، وأن أهل الجنة يشربون خوفاً على ما هم فيه، والأمر المقضي هو ذبح الكبش الذي هو مثال الموت، وهذا عند حذاق العلماء كما يقال: تدين العوامل ويجعل التراب تحت القدم ونحو ذلك، وعند ذلك تصيب أهل

النار حسرة لا حسرة مثلها.

وقال ابن زيد وغيره: يوم الحسرة هو يوم القيامة، وذلك أن أهل النار قد حصلوا من أول أمرهم في سخط الله وأمارته، فهم في حال حسرة، والأمر المقضي - على هذا - هو الحتم عليهم بالعذاب وظهور إنفاذ ذلك عليهم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يوم الحسرة حين يرى الكفار مقاعدتهم التي فاتتهم من الجنة لو كانوا مؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون يوم الحسرة اسم جنس لأن هذه حسرات كثيرة في مواطن عدة، ومنها يوم القيامة، ومنها وقت أخذ الكتاب بالشمال، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ فِي غَلَاظٍ يَرِيدُ﴾ في الدنيا الآن وهم لا يؤمنون كذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ﴾ تجوزُ وعبارة عن فناء المخلوقات وبقاء الخالق، فكانها وراثه، وقرأ عاصم، ونافع، وأبو عمرو، والحسن، والأعمش: ﴿يَرْجِعُونَ﴾ بالياء، وقرأ الأعرج: ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ أبو عبد الرحمن، وابن أبي إسحق، وعيسى: ﴿يَرْجِعُونَ﴾ بالياء مفتوحة وكسر الجيم، وحكى عنهم أبو عمرو: ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بالتاء.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ﴾ معناه: وأتلى وبلغ، لأن الله تعالى هو الذاكر، والكتاب هو القرآن، وهذا وما

أشبهه من لسان الصدق الذي ألقاه الله عليهم، والصدق فعيل، بناءً مبالغة من الصدق، وقرأ أبو البرهمس: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقًا﴾، والصدق عرفه في اللسان، وهو مظهر في الأفعال والخلق إلا أنه يستعار لما لا يعقل، يقال: صدقني الطعام كذا وكذا فقيراً، ويقال: عود صدق للصلب الجيد. فكان إبراهيم عليه السلام يوصف بالصدق على العموم في أقواله وأفعاله، وبذلك يفترق صدق اللسان الذي يضاد الكذب، وأبو بكر رضي الله تعالى عنه وصف بصدق لكثرة ما صدق في تصديقه بالحقائق، وصدق في مبادرته إلى الإيمان وما يقرب من الله تبارك وتعالى. وللصدق مراتب، ألا ترى أن المؤمنين يصدقون لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

وقوله: ﴿يَتَأْتَيْنَ﴾، اختلف النحاة في التاء من ﴿يَمُ﴾ - فذهب سيبويه إلى أنها عوض من ياء الإضافة، فالوقوف عليها عنده بالهاء، ومذهب الفراء أن يوقف عليها بالتاء لأن الياء التي للإضافة عنده مؤنثة، وجمهور الفراء على كسر التاء، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ﴿وَأَبْتٌ﴾ بواو النداء، وقرأ ابن عامر، والأعرج، وأبو جعفر: ﴿يَا أَبْتُ﴾ بفتح التاء، ووجهها أنه أراد: يَا أَبْنَا، فحذف الألف وترك الفتحة دالةً عليها، ووجه آخر أن تكون التاء المقحمة كالتي في قولهم: يَا طَلْحَةَ أَقْبَلْ، وفي هذا نظر، وقد لحن هارون هذه القراءة. والذي

لا يُبصر ولا يسمع هو الصنم، ولو سمع وأبصر كما هي حال الملائكة وغيرهم ممن عُبد لم تحسن عبادتها، ولكن بين إبراهيم عليه السلام بئفي السمع والبصر شُغَّة الرأي في عبادتها وفَسَادَه.

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَنِي يَدُلُّ أَنْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ بَعْدَ أَنْ تُبَيَّنَ، وَالصَّرَاطُ السَّوِيُّ﴾ معناه: المستقيم، وهو طريق الإيمان.

وقوله: ﴿يَكَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ مخاطبة برّ واستعطاف على حالة كفره، وقوله: ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ يحتمل أن يكون أبوه ممن عبد الجن، ويحتمل أن يجعل طاعة الشيطان المُغْوِي في عبادة الأوثان والكفر بالله عبادة له. «والعصبي» قُوبِلَ من عَصَى يعصي إذا خالف الأمر.

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾، قال الطبري وغيره: ﴿أَخَافُ﴾ بمعنى: أعلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر عندي أنه خوف على بابه؛ وذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يكن في وقت هذه المقالة آيساً من أبيه، فكان يرجو ذلك، وكان يخاف ألا يؤمن ويتمادى على كفره إلى الموت فيمسه العذاب. «والولي» الخالص المصاحب القريب بنسب أو مودة.

قال آزر - وهو تارخ -: ﴿رَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي﴾، والرغبة: ميل النفس، فقد تكون الرغبة في الشيء، وقد

تكون عنه. وقوله: ﴿رَاغِبٌ﴾ رفع بالابتداء، و﴿أَنْتَ﴾ فاعل يسد مسدّد الخبر، وحسن ذلك وقربه اعتماد [رَاغِبٌ] على ألف الاستفهام، ويجوز أن يكون [رَاغِبٌ] خبراً مقدماً، و [أَنْتَ] مبتدأ، والأول أصوب، وهو مذهب سيبويه.

وقوله: ﴿عَنْ إِلَهِي﴾ يريد الأصنام، وكان - فيما زُوي - ينحتها وينجزها بيده ويبيعها ويحض عليها، فقرر ابنه إبراهيم عليه السلام على رغبته عنها على جهة الإنكار عليه، ثم أخذ يتورعه.

وقوله: ﴿لَأَرْجَمَنَّكَ﴾ اختلف فيه المتأولون - فقال السدي، وابن جريج، والضحاك: معناه: بالقول، أي: لأشتمنك واهجرني أنت إذا شئت مدة من الدهر، أو سألماً، حسب الخلاف الذي سنذكره، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله: معناه: لأرجمنك بالحجارة، وقالت فرقة: معناه: لأقتلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان بمعنى واحد، وقوله: ﴿مَيِّتًا﴾ - على هذا التأويل - إنما يترتب على أنه أمر على حياته، كأنه قال: إن لم تنته قتلتك بالرجم، ثم قال له: واهجرني، أي: مع انتهائك، كأنه جزم الأمر بالهجرة، وإلا فمع الرجم لا تترتب الهجرة. و﴿مَيِّتًا﴾ معناه: دهرأ طويلاً، مأخوذ من الملوّن، وهما الليل والنهار، هذا هو قول الجمهور: الحسن، ومجاهد، وغيرهما، فهو ظرف وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَيِّتًا﴾

معناه: سليماً سوياً، فهو حال من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ عليه السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتلخيص هذا أن يكون بمعنى قوله: مُسْتَبِدّاً بحالك عني غنياً، مَلِيّاً بالاكْتِفَاءِ.

﴿٤٧﴾ - ﴿٤٨﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿قَرَأَ أَبُو الْبَرْهَمِ: ﴿سَلَامًا﴾ بالنصب. واختلف أهل العلم في معنى تسليمه عليه - فقال بعضهم: هي تحية مفارق، وجوزوا تحية الكافر، وأن يُبدأ بها، وقال الجمهور: ذلك التسليم بمعنى المُسَالَمَةِ لا بمعنى التحية، وقال الطبري: معناه: أَمَنَةٌ مِنِّي لَكَ، وهذا قول الجمهور، وهم لا يرون ابتداء الكافر بالسلام. وقال النقاش: حلیم خاطب سفيهاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، ورفع «السلم» بالابتداء، وجاز ذلك مع كونه نكرة لأنه نكرة مُخَصَّصة، فقربت من المعرفة، ولأنه في موضع المنصوب الذي هو: سلمت سلاماً، وهذا كما يجوز ذلك فيما هو في معنى الفاعل، كقولهم: «شراً ما أهرّ ذا ناب»، وهذا مشال سيبويه رحمه الله.

وقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ﴾ معناه: سأدعو الله تعالى في أن يهديك، فيغفر لك بإيمانك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أظهر من أن يتأول على إبراهيم الخليل صلوات الله عليه أنه لم يعلم أن الله تعالى لا يغفر لكافر، وقد يجوز أن يكون إبراهيم عليه السلام

أول نبي أوحى الله إليه أن الله لا يغفر لكافر؛ لأن هذه العقيدة إنما طريقها السمع، فكانت هذه المقالة منه لأبيه قبل أن يوحى إليه ذلك، وإبراهيم عليه السلام إنما تبين له في أبيه أنه عدو لله بأحد وجهين: إما بموته على الكفر كما روي، وإما بأن أوحى الله إليه المحتم عليه. وقال مكّي عن السدي: أخره بالاستغفار إلى السحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تحسّف، وإنما ذكر ذلك في أمر يعقوب وبنيه، وأما هذا فوعد باستغفار كثير مؤتلف، فالسن متمكنة.

و «الْحَفِيّ»: المهتل المتلطف، وهذا شكر من إبراهيم عليه السلام لنعم الله تعالى عليه ثم أخبره أن يعتزلهم، أي: يصير عنهم بمعزل، ويروي أنهم كانوا بأرض كوثا، فانتقل إبراهيم عليه السلام إلى الشام، وفي هجرته تلك لقي الجبار الذي أخدم هاجر لسارة... الحديث بطوله. و «تَدْعُونَ»: تعبدون. وقوله: «عَسَى» تَرَجَّ وفي ضمته خوف شديد.

وقوله: «فَلَمَّا عَفَاكَ رَبُّكَ وَمَا يَكُونُ مِنْ دُونِ اللَّهِ» الآية إخبار من الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ أن إبراهيم عليه السلام لما رحل عن بلد أبيه وبلد قومه عوضه الله من ذلك ابنه إسحق وابن ابنه يعقوب عليهما السلام، وجعل له الولد تسليّة وشداً لعضده، وإسحق أصغر من إسماعيل عليهما السلام، ولما حملت هاجر

بإسماعيل غارت سارة فحملت بإسحق فيما روي.

قوله تعالى: «وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا» يريد العلم والمنزلة والشرف في الدنيا والنعيم في الآخرة، كل ذلك من رحمة الله، وإلسان الصّدق هو الشّاء الباقي عليهم آخر الأبد، قاله عبدالله بن عباس رضي الله عنهما. واللسان في كلام العرب القالة الذائعة كانت في خير أو شر، ومنه قول الشاعر:

إِنِّي أَتَخَيَّرُ لِسَانَ لَا أُسْرِبُهَا
مِنْ عَلَوٍ لَا كَذِبَ فِيهَا وَلَا سَخَرُ

وقال آخر:

نَدِيتُ عَلَى لِسَانٍ فَاتٍ مِنِّي
.....

وإبراهيم عليه السلام - وذريته - معظّم في جميع الأمم والممالك، صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين.

٥١ - ٥٥ تفسير قوله عز وجل: هذا أمر من الله تعالى بذكر موسى بن عمران صلوات الله عليه على جهة التشريف، وأعلمه بأنه كان مخلصاً، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: «مُخْلِصاً» بكسر اللام، وهي قراءة الجمهور، أي: أخلص نفسه لله تعالى، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: «مُخْلِصاً» بفتح

وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَسَهُ نَجِيًّا ﴿٥١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٢﴾ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٤﴾ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٥﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ إِنَّا نَنْزِلُ الْإِنشَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُصَلُّوا وَاتَّخِذُوا الشُّعْبَاقَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٧﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٥٨﴾ جَنَّتْ عَدْنُ الْأَنْبِيَاءِ وَعَدْنُ الرَّاغِبِينَ وَأَلْغِيَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ الْغَيْبَ إِنَّهُمْ كَانُوا غَافِلِينَ ﴿٥٩﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٠﴾ وَمَا نَزَّلْنَا إِلَّا بَأْمُرِنَاكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦١﴾

السلام، وهي قراءة أبي رزين، ويحيى، وقتادة، أي: أخلصه الله تعالى للنبوّة والقيادة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْصَتُمْ بِحَاكِمَتِهِ﴾ والرسول من الأنبياء: الذي يكلف تبليغ أمته، وقد يكون نبي غير رسول.

وقوله تعالى: «وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ» هو تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام، والطور: الجبل المعروف بالشام، وقوله: «الْأَيْمَنِ» صفة للجانب، وكان على يمين موسى عند وقوفه، وإلا فالجبل نفسه لا يمنة له ولا يسرة، ولا يوصف بشيء من ذلك إلا بالإضافة إلى ذي يمين ويسار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون «الْأَيْمَنِ» مأخوذ من اليمين، كأنه قال: الأبرك

والأنشد، فيصح على هذا أن يكون صفة للجانب وللجبل بجملة. وقوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ نَجْيًا﴾ هو التقريب بالتشريف بالكلام والنبوة. وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: بل أدني موسى للملكوت، ورفعت له الحجب حتى سمع صريف الأقلام، وقاله ميسرة رحمه الله، وقال سعيد: أردفه جبريل عليه السلام، والتَّجِّي، قيل: من المناجاة وهي المسارة بالقول، وقال قتادة: معناه: نجا بصدقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا محتمل، وإنما التَّجِّي المنفرد بالمناجاة، وكان هارون أسن من موسى عليهما السلام فطلب من الله أن يشتد أثره بشبوته ومعونته فأجابته الله إلى ذلك، وعدّها في نعمه عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ هو أيضاً من لسان الصدق والشرف المضمون بقاؤه على آل إبراهيم عليه السلام. وإسماعيل عليه السلام هو أب العرب اليوم، وذلك أن اليمينية والمضرية ترجع إلى ولد إسماعيل عليه السلام، وهو الذي أسكنه أبوه بواي غير ذي زرع، وهو الذبيح في قول الجمهور، وقالت فرقة: الذبيح إسحق عليه السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول يترجح بجهات: منها قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، فَوَلَدَ قَدْ بُشِّرَ أَبَوَاهُ أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْهُ وَلَدٌ هُوَ حَفِيدٌ لَهُمْ كَيْفَ يُؤْمَرُ بَعْدَ ذَلِكَ بِذَبْحِهِ وَهَذِهِ الْعِدَّةُ قَدْ

تقدمت؟ وجهة أخرى هي أن أمر الذبيح لا خلاف بين العلماء أنه كان بمنى عند مكة، وما روي قط أن إسحق دخل تلك البلاد، وإسماعيل بها نشأ، وكان أبوه يزوره بها مراراً كثيرة يأتي من الشام على البراق ويرجع من يومه، والبراق هو مركب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجهة أخرى وهي قول النبي ﷺ: «أنا ابن الذبيحين»، وهما أبوه عبدالله بن عبدالمطلب، لأنه فُدي بالإبل من الذبيح، والذبيح الثاني هو أبوه إسماعيل عليه السلام، وجهة أخرى وهي الآيات في سورة (الصافات)، وذلك أنه لما فرغ من ذكر الذبيح وحاله قال: ﴿وَيَسِّرْنَاهُ يَاسْحَقَ﴾، فترتيب تلك الآيات يكاد ينص على أن الذبيح غير إسحق عليه السلام.

ووصف الله تعالى إسماعيل بصدق الدعوة لأنه كان مبالغاً في ذلك، روي أنه وعد رجلاً أن يلقاه في موضع، فجاء إسماعيل عليه السلام وانتظر الرجل يومه وليته، فلما كان في اليوم الآخر جاء الرجل، فقال له: ما زلت في انتظارك هنا منذ أمس، وفي كتاب ابن سلام أنه انتظره سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد غير صحيح، والأول أصح، وقد فعل مثله نبينا محمد ﷺ قبل بعثه، ذكره النقاش، وخرجه الترمذي، وغيره، وذلك في مبايعة وتجارة، وقيل: وصفه بصدق الدعوة لوفائه بنفسه في أمر الذبيح؛ إذ قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ

الْمَنِيِّ﴾. قال سفيان بن عيينة رحمه الله: أسوأ الكذب إخلاف الوعد ورمي الأبرياء بالثهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «الْعِدَّةُ دِينٌ»، فنهايك بفضيلة الصدق في هذا. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾، يريد قومه وأمثه، قاله الحسن، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «وَكَانَ يَأْمُرُ قَوْمَهُ»، وقوله: ﴿مَرْضِيًّا﴾ أصله: مَرْضُوي، لقيت الواو وهي ساكنة الياء فأبدلت ياءً، وأدغمت، ثم كسرت الضاد للتناسب في الحركات، وقرأ ابن أبي عبة: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضُوءًا﴾.

٥٦ - ٥٧ تفسير قوله عز وجل:

إدريس عليه السلام هو من أجداد نوح، وهو أول نبي بُعث إلى أهل الأرض فيما زُري بعد آدم صلوات الله عليه، وهو أول من خط بالقلم، وكان خياطاً، ووصفه الله تعالى بالصدق، والوجه أن يحمل ذلك على العموم في الأحاديث والأعمال، قال ابن مسعود رضي الله عنه: هو إلياس، بعث إلى قومه بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويعملوا ما شاءوا، فَأَيُّوا فَأَهْلَكُوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأشهر أنه لم يبعث بإهلاك أمة، وأنه نبي فقط.

واختلف الناس في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ - فقال جماعة من العلماء: هذا هو رفع بالبسوة والتشريف والمنزلة، وهو في السماء كسائر الأنبياء. وقالت فرقة: بل رُفِعَ إلى السماء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان ذلك بأمر الله

كما رفع عيسى عليه السلام، وهنالك مات إدريس عليه السلام، وكذلك قال مجاهد إلا أنه قال: ولم يمِت، وكذلك قال وهب بن منبه، وقال كعب الأحبار لابن عباس: كان له خليل من الملائكة فحمّله على جناحه وصعد به حتى بلغ السماء الرابعة، فلقي هناك مَلَك الموت. فقال له: إنه قيل لي: اهبط إلى السماء الرابعة فاقبض روح إدريس، وإني لأعجب كيف يكون هذا، فقال له المَلَك الصاعد: هذا إدريس معي، فقبض روحه. وروي أن هذا كله كان في السماء السادسة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وكذلك هي رتبته في حديث الإسراء في بعض الروايات، وحديث أنس بن مالك وأبي هريرة رضي الله عنهما في الإسراء يقتضي أنه في السماء الرابعة.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّارِ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ الآية. الإشارة بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى من تقدم ذكره، وقوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ يريد إدريس ونوحاً عليهما السلام، و﴿وَمِنْ حَمَلَتَا مَع نُوحٍ﴾ يريد إبراهيم عليه السلام، و﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يريد إسماعيل وإسحق ويعقوب عليهم السلام، و﴿إِسْرَءِيلَ﴾ يريد موسى وهارون وزكريا ويحيى ومريم عليهم السلام. وقوله: ﴿وَمِنْ هَٰذِهِنَّ وَكِيعٌ﴾ معناه: اخترنا واصطفينا، وكأنه من: «جَبَّيْتُ الْمَاءَ إِذَا جَمَعْتَهُ، وَمِنْهُ جَبَايَةُ الْمَالِ، وَكَأَن جَابِيَهُ يَصْطَفِيهِ. وقرأ الجمهور: ﴿إِذَا تُتْلَى﴾ بالتاء من فوق، وقرأ نافع،

وشيبة، وأبو جعفر: ﴿إِذَا يُتْلَى﴾ بالياء. و«الآيات» هنا الكُتُب المنزلة، و«سُجَّدًا» نصب على الحال لأن مبدأ السجود سجود، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والجمهور: ﴿وَبِكَيْتًا﴾ قالت فرقة: هو جمع بك، كما يُجْمَع عَاتٍ وَجَاثٌ عَلَى: عُتِي وَجُثِي، وقالت فرقة: هو مصدر بمعنى البكاء، والتقدير: وَبَكَوْا بُكْيًا، واحتج الطبري ومكي لهذا القول بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه روي أنه قرأ سورة مريم فسجد ثم قال: هذا السجود فأين البُكْيُ؟ يعني البكاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واحتجاجهما بهذا فاسد؛ لأنه يحتمل أن يريد عمر رضي الله عنه: فأين الباكون؟ فلا حجة فيه لهذا، وهذا الذي ذكره عن عمر رضي الله عنه ذكره أبو حاتم عن النبي ﷺ. وقرأ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، ويحيى، والأعمش: ﴿وَبِكَيْتًا﴾ بكسر الباء، وهو مصدر على هذه القراءة لا يحتمل غير ذلك.

٥٩ - ٦٣ تفسير قوله عز وجل:

«الْخَلْفَ» - بفتح اللام -: الْقَرْنُ يأتي بعد آخر يمضي، والابن بعد الأب، وقد يستعمل في سائر الأمور، و«الْخَلْفَ» - بسكون اللام - إذا كان الآتي مضموماً، وهذا مشهور كلام العرب، وقد ذكر عن بعضهم أن الْخَلْفَ وَالْخَلْفَ بمعنى واحد، وحجة ذلك قول الشاعر:

لَنَا الْقَدَمُ الْأُولَى إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا
لَأَوْلُنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعُ
وقرأ الجمهور: ﴿أَصَاغُوا الْكَلِمَةَ﴾

بالإفراد، وقرأ الحسن: ﴿أَصَاغُوا الْكَلِمَاتِ﴾ بالجمع، وهو كذلك في مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، والمراد بـ «الْخَلْفِ» من كفر وعصى بَعْدَ من بني إسرائيل، وقال مجاهد: المراد النصارى، خلفوا بعد اليهود، وقال محمد بن كعب القرظي، ومجاهد، وعطاء: هم قوم من أمة محمد ﷺ في آخر الزمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أي: يكون في هذه الأُمَّة مَنْ هذه صفته، لا أنهم المراد بهذه الآية، وروي أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يَكُونُ الْخَلْفُ بَعْدَ سَتِينَ سَنَةً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عرف إلى يوم القيامة.

واختلف الناس في «إِضَاعَةِ الصَّلَاةِ» منهم، فقال محمد بن كعب القرظي وغيره: كانت إِضَاعَةً كُفِّرَ وَجَحِدَ بها، وقال القاسم بن مخيمرة، وعبدالله بن مسعود: كانت إِضَاعَةً أوقاتها، و[عدم] المحافظة على أوقاتها، وذكره الطبري عن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه في حديث طويل. و«الشَّهَوَاتُ» عموم، وكل ما دُكر من ذلك فمثال.

و «الْعَيُّ»: الْخُسْرَانُ والحصول في الورطات، ومنه قول الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَى خَيْرًا يَخْمَدُ النَّاسَ أَمْرُهُ
وَمَنْ يَغْوِ لَا يَعْدَمُ عَلَى الْعَيِّ لَأَيَّمَا
وبه فسر ابن زيد رحمه الله هذه الآية. وقد يكون الْعَيُّ أيضاً الضَّلَالُ، فيكون هذا هنا على حذف

عند انسدادها، وقال مجاهد رحمه الله: ليس بُكَرَةً ولا عَشِيًّا، ولكن يُؤْتُونَ به على ما كانوا يشتهون في الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد ذكر نحوه قتادة، أن تكون مخاطبة بما تعرفه العرب وتستغربه من رفاة العيش، وجعل ذلك عبارة عن أن رزقهم يأتي على أكمل وجوهه. قال الحسن: خوطبوا على ما كانت العرب تعلم من أفضل العيش، وذلك أن كثيراً من العرب إنما كان يجد الطعام المرّة في اليوم، وهي غايته، وكان أكثر عيشهم من شجر البرّية، ومن الحيوان، ونحوه، ألا ترى قول الشاعر:

أَوْ وَجِبَةً مِنْ جَنَاءِ أَشْكَلَةٍ
إِنْ لَمْ يَرِغْهَا بِالْقُوسِ لَمْ تُنْصَلِ
الوجه: الأكلّة في اليوم.

وقرأ الجمهور: ﴿ثَوْرٌ﴾ بسكون الواو، وقرأ الحسن، والأعرج، وقتادة: ﴿ثَوْرٌ﴾ بفتح الواو وشذّ الراي.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿وَمَا تَنْتَظِرُونَ﴾ بالجمهور: كأن جبريل عليه السلام عنى نفسه والملائكة، وقرأ الأعرج: ﴿وَمَا تَنْتَظِرُونَ﴾ بالياء على أنه خبر من الله تعالى أن جبريل لا ينتزل، قال هذا التأويل بعض المفسرين، ويردّه قوله: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ لأنه لا يطرد معه، وإنما يتّجه أن يكون خبراً من جبريل عليه السلام أن القرآن لا ينتزل إلا بأمر الله تبارك وتعالى في الأوقات التي يقدرها، ورُويت قراءة الأعرج بضم الياء،

ينصب الجنّات على البدل من ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر، وأبو حيوة برفعها على تقدير: ذلك، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿جَنَّةٌ﴾ على الإفراد والنصب، وكذلك في مصحف عبدالله بن مسعود، وقرأها الأعمش. والعَدْنُ: الإقامة المستمرة، وقوله: ﴿بِالنَّبِيِّ﴾ أي: أخبرهم من ذلك بما غاب عنهم، وفي هذا مدح لهم على سرعة إيمانهم وقرارهم إذ لم يعانوا، والمَآئِي: مفعول على بابه، والآئِي هو الإنجاز والفعل الذي تضمنه الوعد، وكان إتيانه إنما يقصد به الوعد الذي تقدمه، وقالت جماعة من المفسرين: هو مفعول في اللفظ بمعنى: آت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد، والنظر الأول أصوب. و﴿اللَّغْوُ﴾: السقط من القول، وهو أنواع مختلفة كلها ليست في الجنة، وقوله: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع، والمعنى: لكن يسمعون سلاماً، وهو تحية الملائكة لهم في كل الأوقات، وقوله: ﴿بُكَرَةً وَعَشِيًّا﴾ يريد في التقدير، أي: يأتيهم طعامهم مرتين في مقدار اليوم واللييلة من الزمان، ويروى أن أهل الجنة تنسّد لهم الأبواب بقدر الليل في الدنيا، فهم يعرفون البُكَرَةَ عند افتتاحها والعَشِيّة

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعَذَابِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿١١﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أَخْرِجُنِي هَٰذَا أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَرَبِّكَ شَيْئًا ﴿١٢﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا ﴿١٣﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿١٤﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَولىٰ بِهِمْ أَصِلًا ﴿١٥﴾ وَلَنَنْصُرَنَّكَ لَوْلَا إِزْدَارُهُمَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَسْفِى الَّذِينَ أَنْفَقُوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴿١٧﴾ وَإِذَا نُنْفِىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿١٨﴾ وَكَوْهَلِكُنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَبْلٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَا رِيبًا ﴿١٩﴾ فَلَمَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَتَاعًا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِذَا الْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ فَيَسْئَلُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٢٠﴾ وَبِزَيْدِ اللَّهِ الَّذِينَ أَهْتَدُوا هَدًى وَابْتَقِيَتْ الْفَصلُ الحَدِثَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًا ﴿٢١﴾

٣١٠

مضاف تقديره: «يلقون جزاء الغي»، وبه فسر الزجاج. وقال عبدالله بن عمرو، وعبدالله بن مسعود: الغي واد في جهنم، وبه وقع التوعد في هذه الآية. وقيل: الغي والآثام نهران في جهنم، رواه أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ استثناء يحتمل الاتصال والانفصال، وقوله: ﴿وَأَمَّنْ﴾ يقتضي أن الإضاعة أولاً هي إضاعة كفر، هذا مع اتصال الاستثناء، وعليه فسر الطبري. وقرأ الجمهور: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الحسن كل ما في القرآن: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بفتح الياء وضم الخاء.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ قرأ جمهور الناس: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾

وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه:
﴿إِلَّا يَقُولُ رَبُّكَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: سبب هذه الآية أن النبي ﷺ عنه جبريل مرة، فلما جاءه قال له: «يا جبريل قد اشتقت إليك، أفلا تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد، والضحاك: سببها أن جبريل عليه السلام تأخر عن النبي ﷺ عند قوله في الأسئلة المتقدمة في سورة الكهف: «فَعَدَا أَخْبَرَكُمْ» حتى فرح بذلك المشركون، واهتم رسول الله ﷺ، ثم جاءه جبريل عليه السلام، فنزلت هذه الآية في ذلك المعنى، فهي كالتي في الضحى.

وهذه الواو التي في قوله: ﴿وَمَا نَنْزَلُ﴾ هي عاطفة جملة كلام على أخرى، وواصلت بين القولين، وإن لم يكن معناه واحداً، وحكى النقاش عن قوم أن قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزَلُ﴾ متصل بقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا قول ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ أَيْدِيًا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا يَكُنْ ذَلِكَ﴾ لفظ يحتاج إلى ثلاث مراتب، واختلف المفسرون فيها - فقال أبو العالية: ما بين الأيدي: الدنيا بأسرها إلى النفخة الأولى، وما خلف: الآخرة إلى وقت البعث، وما بين ذلك: ما بين النفختين. وقال ابن جريج: ما بين الأيدي هو ما مر من الزمن قبل إيجاد من في الضمير، وما خلف هو

ما بعد موتهم إلى استمرار الآخرة، وما بين ذلك هو مدة الحياة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية إنما المقصد بها الإشعار بملك الله تعالى لملائكته، وأن قليل تصرفهم وكثيره إنما هو بأمره، وانتقالهم من مكان إلى مكان إنما هو لخدمته؛ إذ الأمكنة له وهم له، فلو ذهب بالآية إلى أن المراد بما بين الأيدي وما خلف الأمكنة التي تصرفهم فيها، وأن المراد بما بين ذلك هم أنفسهم ومقاماتهم - لكان وجهاً، كأنه قال: نحن مقيّدون بالقدر، لا نتنقل ولا ننزل إلا بأمر ربك.

وقال ابن عباس، وقتادة - فيما روي وما أراه صحيحاً عنهما: ما بين الأيدي هي الآخرة، وما خلف هي الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا محتمل المعنى إلا على التشبيه بالمكان، كأن ما بين اليد إنما هو ما تقدم وجوده في الزمان بمشابهة التوراة والإنجيل من القرآن، وقول أبي العالية إنما يتصور في بني آدم، وهذه المقالة هي للملائكة، فتأمل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي من يلحقه نسيان لينسنا إليك في وقت المصلحة به، فإنما ذلك عن قدر له، أي: فلا تطلب أنت يا محمد من الزيارة أكثر مما شاء الله، هذا على ما تقتضيه قوة الكلام على التأويل الواحد، أو فلا تهتم يا محمد بتأخري، ولا تلتفت إلى فرح المشركين بذلك على التأويل الثاني. و﴿نَسِيًّا﴾ فعيل من النسيان والذهول

عن الأمور، وقالت فرقة: ﴿نَسِيًّا﴾ معناه: تاركاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا ضعف لأنه إنما نفى النسيان مطلقاً، فيتمكن ذلك في النسيان الذي هو نص، وأما التذكّر فلا ينتفي مطلقاً، ألا ترى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَكَّبَهُمْ فِي سُلُكِنَا﴾، وقوله: ﴿وَرَكَّبْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا يَتَّبِعُونَ فِي سُلُكِنَا﴾، فلو قال: نسيك، أو نحوه من التقييد لم يصح حمله على الترك، ولا حاجة بنا إلى أن نقول: إن التقييد في النية لأن المعنى الآخر أظهر. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا نَسِيكَ رَبُّكَ﴾، وروى أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: «مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ فَاقْبَلُوا»، ثم تلا هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الآية. ﴿رَبِّ﴾ بدل من قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِحُكْمِهِ﴾ أمر بحمل تكاليف الشرع وإشعاراً بما بصعوبتها، كالجهاد والحج والصدقات، فهي شريعة تحتاج إلى اصطبار، أعاننا الله عليها. وقرأ الجمهور: ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ بإظهار اللام، وقرأ علي بن نصر عن أبي عمرو بإدغام اللام في التاء، وهي قراءة عيسى، والأعمش، والحسن، وابن محيصن. قال أبو علي: سبويه يجيز إدغام اللام في الطاء والتاء والذال والشاء والصاد والزاي والسين، وقرأ أبو عمرو: ﴿هَلْ تُؤْتِي﴾ بإدغامها في الشاء

وإدغامها في التاء أحق لأنها أدخل معها في الفم، ومن إدغامها في التاء ما روي من قول مزاحم العقيلي: قَدْزَذَا وَلَكِنْ هَشْعَيْنِ مُتَّيْمًا عَلَى صَوِّهِ بَرَقِ أَخْرَ اللَّيْلِ نَاصِبٍ؟ وقوله: ﴿سَيِّئًا﴾ قال قوم - وهو ظاهر اللفظ -: معناه: موافقاً في الاسم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يحسن فيه أن يريد بالاسم ما تقدم من قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: هل تعلم من يُسَمَّى بهذا ويُوصف بهذه الصفة؟ وذلك أن الأسم لا يُسَمُّون بهذا الاسم وثناً ولا شيئاً سوى الله تعالى، وأما الألوهية والقدرة فقد يوجد السمي فيها، وذلك باشتراك لا بمعنى واحد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿سَيِّئًا﴾ معناه: مثيلاً أو شبيهاً أو نحو ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن، وكأن السمي بمعنى المسامي والمضاهي، فهو من السُمُو، وهذا القول يحسن في هذه الآية ولا يحسن فيما تقدم في ذكر يحيى عليه السلام.

﴿٦٦﴾ - ﴿٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿الْإِنْسَنُ﴾ اسم للجنس يُراد به الكافرون، ورُوي أن سبب هذه الآية هو أن رجلاً من قريش كانوا يقولون هذا ونحوه، ورُوي أن القائل هو أبي بن خلف، جاء إلى النبي ﷺ بعظم رفات ونفخ فيه وقال: أيبعث هذا؟ وكذب وسخر، وقيل: إن القائل هو العاصي بن وائل، وقرأ الأعرج، وأبو عمرو: ﴿وَإِذَا﴾

بالاستفهام الظاهر، وقرأت فرقة: ﴿وَإِذَا﴾ دون ألف استفهام، وقد تقدم هذا مستوعباً. وقرأت فرقة: ﴿مِثُّ﴾ بكسر الميم، وقرأت فرقة بضمها. واللام في قوله: ﴿لَسَوْفَ﴾ مجلوبة على الحكاية لكلام معلّم بهذا المعنى، كأن قاتلاً قال لكافر: إذا مِثُّ يا فلان لسوف تخرج حياً، فقرّره الكافر على جهة الاستبعاد، وكرر الكلام حكاية للقول الأول. وقرأ جمهور الناس: ﴿أُخْرِجَ﴾ بضم الهمزة، وقرأ الحسن - بخلاف - وأبو حنيفة: ﴿أُخْرِجَ﴾ بفتح الهمزة وضم الراء.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ﴾ الآية احتجاج، خاطب الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ راذاً على مقالة الكافر. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ بشد الذال والكاف، وقرأ أبي بن كعب رضي الله عنه: ﴿أَوَلَا يَتَذَكَّرُ﴾، والنشأة الأولى والإخراج من العدم إلى الوجود أوضح دليل على جواز البعث من القبور، ثم قرأ ذلك وأوجبه السمع، وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَرَبُّكَ شَيْئًا﴾ دليل على أن المعدم لا يُسَمَّى شيئاً، قال أبو علي الفارسي: أراد شيئاً موجوداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه نزعة اعتزالية فتأملها.

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ الآية وعيدٌ يكون ما بعده على أصعب وجوهه، والضمير في قوله: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾، عائد على الكفار

القائلين ما تقدم، ثم أخبر أن يقرن بهم الشياطين المُغَوِّينَ لهم، وقوله: ﴿يَجِيئًا﴾ جمع جاثٍ كقاعد وقعود وجالس وجلوس، وأصله: جُثُوا، وليس في كلام العرب واو متطرفة قبلها ضمة فوجب أن تُعْلَى، ولم يُعْتَدْ ها هنا بالساكن الذي بينهما لِخَفْتِهِ وقِلَّةِ حوله فقلبت ياءً فجاء جُثُوا، فاجتمع الواو والياء وسبقت إحداها بالسكون فقلبت ياءً، ثم أدغمت الياء في الياء ثم كسرت التاء للتناسب بين الكسر والياء. وقرأ الجمهور: ﴿جُثِيًا﴾ و﴿ضَلِيلًا﴾ بضم الجيم والصاد، وقرأ ابن وثاب والأعمش: ﴿جُثِيًا﴾ و﴿مِثًّا﴾ بكسر الجيم والصاد. وأخبر الله تعالى أنه يُحْضِر هؤلاء المنكرين للبعث مع الشياطين فيجشون حول جهنم، وهي قعدة الخائف الذليل على ركبته كالأسير ونحوه، وقال قتادة: ﴿جُثِيًا﴾ معناه: على ركبهم، وقال ابن زيد: الجثي شرُّ الجلوس.

و﴿الشَّيْقَةُ﴾: الفرقة المرتبطة بمذهب واحد، المتعاونة فيه، كأن بعضهم يشيع بعضاً، أي يتبَّع منه، ومنه تشيع النار بالحطب، وهو وقْدُهَا بالحطب شيئاً بعد شيء، ومنه قيل للشجاع: مشيع القلب، فأخبر الله تعالى أنه ينزع من كل شيعة أعتاها وأولاها بالعذاب فتكون تلك مقدمتها إلى النار، وقال أبو الأحوص: المعنى: نبدأ بالأكابر جُزْماً. ثم أخبر تعالى في الآية بغد أنه أعلم بمستحق ذلك وأبصر؛ لأنه لم يخف عليه حالهم من أولها إلى آخرها.

وقرأ بعض الكوفيين، ومعاذ بن مسلم، وهارون القاري: ﴿أَيْهَمُ﴾ بالنصب، وقرأ الجمهور: ﴿أَيْهَمُ﴾ بالضم، إلا أن طلحة والأعمش سكنوا ميم ﴿أَيْهَمُ﴾ واختلف الناس في وجه رفع (أي) - فقال الخليل: رَفَعَهُ على الحكاية بتقدير: الذي يُقال فيه من أجل عَثْوِهِ: أَيْهَمُ أَشَدُّ، وقرنه بقول الشاعر:

وَلَقَدْ أَبَيْتُ مِنَ الْفَتَاةِ بِمَنْزِلِ
فَأَبَيْتُ لَا حَرْجَ وَلَا مَحْرُومَ
أي: فأبَيْتُ يقال في: لا حَرْجَ ولا محروم، ورجح الزجاج قول الخليل، وذكر عنه النحاس أنه غلط سيبويه في هذه المسألة، قال سيبويه: ويلزم على هذا أن يجوز: «اضرب السارق الخبيث»، أي الذي يقال له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس بلام؛ من حيث هذه أسماء مفردة والآية جملة، وتسلب الفعل على المفرد أعظم منه على الجملة، ومذهب سيبويه أن ﴿أَيْهَمُ﴾ مبني على الضم؛ إذ هي أخت لـ «الذي» ولي «ما»، وخالفتهما في جواز الإضافة فيها فأعربت لذلك، فلما حذف من صلتها ما يعود عليها ضعفت فرجعت إلى البناء، وكان التقدير: أَيْهَمُ أَشَدُّ. وقال أبو علي: حذف ما الكلام مفتقر إليه فوجب البناء، وقال يونس: علّق عنها الفعل فارتفعت بالابتداء، قال أبو علي: معنى ذلك أنه يعمل في موضع «بن كل شيعة» إلا أنه ملغى لأنه تعلق جملة، إلا أفعال الشك كظننت ونحوها مما لم يتحقق وقوعه. وقال

الكسائي: ﴿لَتَنْزِعَنَّ﴾ معناه: لَتَنْزِعَنَّ، فعومل معاملة الفعل المراد فلم يعلم في «أي». وقال المبرد: ﴿أَيْهَمُ﴾ متعلق بـ «شيعة» فلذلك ارتفع، والمعنى: من الذين تشايعوا أَيْهَمُ أَشَدُّ، كأنهم يتأرون إلى هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويلزمه أن يقدر مفعولاً لـ «ننزعن» محذوفاً.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿أَيْهَمُ أَكْبَرُ﴾. و﴿عَيْنًا﴾ مصدر، وأصله: عتروا، أَعْلَ بما أعل به ﴿عَيْنًا﴾، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: ينزل عُنُقُ من النار فيقول: إني أمرت بكل جبار عنيد، فتلفظهم... الحديث.

﴿٧٠﴾ - ﴿٧١﴾ تفسير قوله عز وجل:

أي: نحن في ذلك النزاع لا نضع شيئاً في غير موضعه؛ لأننا قد أخطأنا علماً بكل أحد، والأولى بصلي النار نعرفه، والصليّ مصدر صليّ يَصْلِي إذا باشر. قال ابن جريج: المعنى: أولى بالخلود.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْكَرَ لَأَ وَارِدَهَا﴾ حَشَمٌ، والواو تقتضيه، ويفسر قول النبي ﷺ: «من مات له ثلاثة من الولد لم تمسه النار إلا تجلّة القسم». وقرأ عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، وجماعة: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ﴾ بالهاء، على إرادة الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فلا شَغَبَ في هذه القراءة.

وقالت فرقة من الجمهور القارئين ﴿مِنْكُمْ﴾: المعنى: قل لهم يا

محمد، فإنما المخاطب بـ «مِنْكُمْ» الكفرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتأويل هؤلاء أيضاً سهل التناول.

وقال الأكثر: المخاطبُ العالمُ كُلُّهُ، ولا بُدَّ من ورود الجميع، واختلفوا في كيفية ورود المؤمنين - فقال عبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس، وخالد بن معدان، وابن جريج، وغيرهم: ورود دخول، لكنها لا تعدو على المؤمنين، ثم يخرجهم الله منها بعد معرفتهم بحقيقة ما نَجَّوا منه. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في هذه المسألة لنافع بن الأزرق الخارجي: أما أنا وأنت فلا بُدَّ أن نردها، أما أنا فينجيني الله منها، وأما أنت فما أظنه يُنجيك، وقالوا: في القرآن أربعة أورد معناها الدخول، هذا أحدها، وقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمُنْجِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتَر لَهَا وَرَدُونَ﴾، وقالوا: كان دعاء بعض السلف: «اللهم أدخلني النار سالماً، وأخرجني منها غانماً»، وروى جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ أنه قال: «الورود في هذه الآية هو الدخول»، وأشفق كثير من العلماء من تحقيق الورد والجهل بالصدور.

وقالت فرقة: بل هو ورود إشراف واطلاع وقرب، كما تقول: «وردت الماء» إذا جشته، وليس يلزم أن تدخل فيه، قالوا: وحسب المؤمنين

بهذا هولاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَدَّ مَاءً مَّيِّتًا﴾.

وروت فرقة أن الله تعالى يجعل النار يوم القيامة خامدة الأعلى كأنها إهالة، فيأتي الخلق كلهم برهم وفاجرهم، فيقومون عليها، ثم تسوخ بأهلها، ويخرج المؤمنون الفائزون ولم ينلهم ضرر، فقالوا: هذا هو الورد.

وروت حفصة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد من أهل بدر والحديبية»، قالت: فقلت: يا رسول الله، وأين قول الله تعالى: ﴿وَلَن يَنكَرَ إِلَّا وَارِدُهَا؟﴾ فقال رسول الله ﷺ: «قَمَّه»، ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا»، ورجح الزجاج هذا القول بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

وذكر النقاش عن بعضهم أنه قال: نسخ قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنكَرَ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وليس هذا موضع نسخ.

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ورودكم هو جوازهم على الصراط، وذلك أن الحديث الصحيح تضمن أن الصراط مضروب على جسر جهنم، فيمر الناس كالبرق الخاطف، وكالريح، وكالجواد من الخيل، وعلى مراتب، ثم يسقط الكفار في جهنم وتأخذهم كلاليب، قالوا: فالجواز على

الصراط هو الورد الذي تضمنته هذه الآية.

وقال مجاهد: وروء المؤمنين هو الحمى التي تصيبهم في دار الدنيا، وفي الحديث «الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء»، وفي الحديث أيضاً «الحمى حظ كل مؤمن من النار»، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لرجل عاده من الحمى: «إن الله يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من نار الآخرة»، فهذا هو الورد.

و «الْحَمَمُ»: الأمر المنفذ المجذوم، وقرأ أبي بن كعب، وعبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «ثُمَّ» بفتح الشاء على الظرف، وقرأ ابن أبي ليلى: «ثُمَّه» بفتح الشاء وهاء السكت، وقرأ نافع وابن كثير، وجمهور الناس: «ثُمَّيَّ» بفتح النون الثانية وشد الجيم، وقرأ يحيى، والأعمش: «ثُمَّجِي» بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم، وقرأت فرقة: «ثُمَّجِي» بضم النون الواحدة وشد الجيم وكسرها، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ثُمَّ» بفتح الشاء «ثُمَّيَّ» بالحاء غير منقوطة.

و «الَّذِينَ اتَّقَوْا» معناه: اتقوا الكفر. وقال بعض العلماء: «لا يضيع أحد بين الإيمان والشفاعة»، و«يُنذَرُ» دالة على أنهم كانوا فيها، و«الظُّلُمُ» هنا هو ظلم الكفر. وقد تقدم القول في قوله: ﴿يُنَبِّئُ﴾، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا مِنْهَا وَنُشْرِكُ الظَّالِمِينَ».

﴿٧٣﴾ - ﴿٧٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الأعرج، وابن محيصن، وأبو حنيفة: «وَإِذَا يُثَلَّى» بالياء من تحت.

وسبب هذه الآية أن كفار قريش لما كان الرجل منهم يكلم المؤمن في معنى الدين فيقرأ المؤمن عليه القرآن، ويهره بآيات النبي ﷺ، كان الكافر منهم يقول: إن الله إنما يحسن لأحب الخلق إليه، وإنما ينعم على أهل الحق، ونحن قد أنعم علينا دونكم، فنحن أغنياء وأنتم فقراء، ونحن أحسن مجلساً وأجمل شارة، فهذا المعنى ونحوه هو المقصود بالتوقيف في قوله تعالى: ﴿أَيُّ الْيَقِينِ؟﴾

وقرأ نافع، وابن عباس رضي الله عنهما: «مَقَامًا» بفتح الميم، و«لَا مَقَامَ لَكُمْ» بالفتح أيضاً، وهو المصدر من قام، أو الظرف منه في موضع القيام. وهذا يقتضي لفظ المَقَام، إلا أن المعنى في هذه الآية يجوز أنه واقع على الظرف فقط، وقرأ أبي رضي الله عنه: «فِي مَقَامٍ أَمِينٍ»، بضم الميم، وقرأ ابن كثير: «مَقَامًا» بضم الميم، وهو ظرف من أقام، وكذلك أيضاً في المصدر منه مثل «يَجِبُهَا وَرُسُهَا»، وقرأ: «فِي مَقَامٍ أَمِينٍ» و«لَا مَقَامَ لَكُمْ» بالفتح، وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم جميعهم بالفتح، وروى حفص عن عاصم: «مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا» بالضم. و «الثَّيِّبِيُّ» والثَّادِي: المجلس فيه الجماعة، ومنه قول حاتم الطائي:

وَدُعِيتُ فِي أَوْلَى السَّيِّدِي وَلَمْ
يُنْظَرْ لِي بِأَعْيُنِ خُزُرٍ
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَمَلْنَا بُنْيَامَهُ﴾
مَخَاطَبَةٌ مِنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِنَبِيِّهِ
مُحَمَّدٍ ﷺ، خَبَرٌ يَتَضَمَّنُ كَسْرَ
حُجَّتِهِمْ وَاحْتِقَارَ أَمْرِهِمْ؛ لِأَنَّ
التَّقْدِيرَ: هَذَا الَّذِي افْتَخَرُوا بِهِ لَا قَدْرَ
لَهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَيْسَ بِمُنْجٍ لَهُمْ، فَكَمْ
أَمَلَكَ اللَّهُ مِنَ الْأُمَمِ لِمَا كَفَرُوا وَهُمْ
أَشَدُّ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَجْمَلِ
مَنْظَرًا. وَالْقُرْآنُ: الْأُمَّةُ يَجْمَعُهَا
العَصْرُ الْوَاحِدُ، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي
قَدْرِ الْمُدَّةِ الَّتِي إِذَا اجْتَمَعَتْ أُمَّةٌ
سُمِّيَتْ تِلْكَ الْأُمَّةُ قَرْنًا. فَقِيلَ: مِائَةٌ
سَنَةً، وَقِيلَ: ثَمَانُونَ سَنَةً، وَقِيلَ:
سَبْعُونَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي هَذَا غَيْرَ
مَرَّةٍ. وَالْأَثَاثُ: الْمَالُ الْقَتِينُ
وَالْعَرَضُ وَالْحَيَوَانُ، وَهُوَ اسْمٌ عَامٌّ،
وَاخْتَلَفَ، هَلْ هُوَ جَمْعٌ أَوْ إِفْرَادٌ؟
فَقَالَ الْفَرَاءُ: هُوَ اسْمٌ جَمْعٌ لَا وَاحِدَ
لَهُ مِنْ لَفْظِهِ كَالْمَتَاعِ، وَقَالَ خَلْفُ
الْأَحْمَرِ، هُوَ جَمْعٌ وَاحِدُهُ أَثَاثَةٌ،
كَحِمَامَةٍ وَحِمَامٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:
أَشَاقَتْكَ السَّطَّعَاتُ يُزَمُّ بِأَثَاثِ
بِذِي الرُّثْيِ الْجَمِيلِ مِنَ الْأَثَاثِ؟
وَأَشْدُّ أَبُو الْعَبَّاسِ:

لَقَدْ عَلِمْتُ عُرْيَتُهُ حَيْثُ كَانُوا
بِأَنَّا نَحْنُ أَكْثَرُهُمْ أَتْنَاءً
وَقَرَأَ نَافِعٌ - بِخَلَّافٍ - وَأَهْلُ
الْمَدِينَةِ: ﴿وَرِيَاءُ﴾ بِيَاءٍ مُشَدَّدَةٍ، وَقَرَأَ
ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا رَوَى
عَنْهُ، وَطَلْحَةُ: ﴿وَرِيَاءُ﴾ بِيَاءٍ مُخَفَّفَةٍ،
وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو،
وَعَاصِمٌ، وَحُمَزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ:
﴿وَرِيَاءُ﴾ بِهَمْزَةٍ بَعْدَهَا يَاءٌ، عَلَى وَزْنِ
رَغِيًّا، وَرَوَيْتُ عَنْ نَافِعٍ، وَابْنِ عَامِرٍ،

رواها أشهب عن نافع،
وقرأ أبو بكر عن عاصم:
﴿وَرِيثًا﴾ بياء ساكنة بعدها
همزة، وهو على القلب،
وزنها فِلْعَةً، وكأنه من
راء، وقال الشاعر:

وَكُلُّ خَلِيلٍ رَأَيْتَنِي فَهُوَ قَائِلٌ
مِنْ أَجْلِكَ: هَذَا هَامَةُ الْيَوْمِ أَوْ عَدِ
فَأَمَّا الْقَرَاءَتَانِ الْمَهْمُوزَتَانِ
فَهُمَا مِنْ رُؤْيَا الْعَيْنِ،
الرُّؤْيَا اسْمُ الْمَرْئِي الظَّاهِرِ
لِلْعَيْنِ كَالطُّحْنِ وَالسَّقْيِ،
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الرُّؤْيَا:
الْمَنْظَرُ، قَالَ الْحَسَنُ:
وَرِياً بِمَعْنَاهُ، وَأَمَّا الْمَشْدُودَةُ
الْيَاءُ فَقِيلَ: هِيَ بِمَعْنَى

المهموزة إلا أن الهمزة
خففت لتستوي رؤوس الآ
منذر بن سعيد عن بعض أ
أنه من الرِّي في السُّقيا،
أنهم خير منهم ببلاداً وأط
وأكثر نعماً؛ إذ جملة النعم
من المطر، وأما القراءة الم
فضعيفة الوجه، وقد ق
لحن، وقرأ: سعيد بن جب
البربري، وابن عباس أيضاً
بالزاي، وهي بمعنى الملبس
تقول: زَيْتٌ بمعنى زَيْتٌ.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي
الْأُصْلَافِ﴾ فقول يحتمل معنيين:
أحدهما أن يكون بمعنى الدعاء
والإبتهال، كأنه يقول: الأصلُ منا
ومنكم مد الله له حتى يؤول ذلك
إلى عذابه. والمعنى الآخر أن يكون
بمعنى الخير كأنه يقول: من كان

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَا وِلْدَانًا لَهُ
(٧٦) أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٧) كَلَّا
مَسْكُوتٌ مَائِقُولٌ وَمُنْذَلُهُ مِنَ الْعَذَابِ مَذًى (٧٨) وَنَزِيلُهُ
مَائِقُولٌ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٧٩) وَأَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً
لِيَكُونُوا لَهُمْ عُرَى (٨٠) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادِهِمْ وَيَكُونُونَ
عَلَيْهِمْ حُزْدًا (٨١) أَلَمْ نَرَأَ أَنَّا سَلَّمْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكَافِرِينَ
فَؤْذُهُمْ أَرْأَى (٨٢) فَلَا تَعْمَلُ عَلَيْهِمْ أَلْمَانَا نَعْدُ لَهُمْ عَذَابًا (٨٣)
يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ (٨٤) وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ
إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًّا (٨٥) أَلَيْسَ لِكُلِّ شَفِيعَةٍ إِلَى اللَّهِ أَنْ أَخَذَ عِنْدَ
الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٦) وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٧) لَقَدْ
جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨٨) تَكَادَ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرُنَ مِنْهُ
وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٨٩) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا
(٩٠) وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩١) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٢) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ
وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٣) وَلَكُلُّهُمْ مَائِدَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا (٩٤)

ضالاً من الأمم فعادة الله فيه أن يمد له ولا يعاجله حتى يُفضي ذلك إلى عذابه في الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فاللام في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعِذَّ﴾ على
المعنى الأول لَمْ رغبة في صيغة
أمر، وعلى المعنى الثاني لَمْ أمر
دخلت على معنى الخبر ليكون أوكد
وأقوى، وهذا موجود في كلام
العرب وفصاحتها.

٧٥ - ٨٠ تفسیر قوله عز وجل:

﴿حَتَّى﴾ في هذه الآية حرف ابتداء دخلت على جملة، وفيها معنى الغاية، و﴿إِنَّا﴾ شرط، وجوابها في قوله تعالى: ﴿سَيَسْأَلُونَكَ﴾، و﴿الرَّؤْيَى﴾ رؤْيَةُ العين، و﴿الْمَدَابِّ﴾ و﴿السَّاعَةِ﴾ بدلٌ من ﴿مَا﴾ التي وقعت عليها ﴿رَأَوْنَا﴾. و﴿إِنَّا﴾ هي المدخلة

للسك في أول الكلام، والثانية عطف عليها. ﴿وَالْعَذَابُ﴾ يريد به عذاب الدنيا ونُصْرَةُ الْمُؤْمِنِينَ عليهم، وَالْجُنْدُ النُّصْرَةُ والقائمون بأمر الحرب، ﴿وَنَزَّ مَكَانًا﴾ بإزاء قولهم: ﴿حَبِيرٌ مَقَامًا﴾، ﴿وَأَضَعُفٌ جُنْدًا﴾ بإزاء قولهم: ﴿وَأَحْسَنُ نَيْكًا﴾.

ولما ذكر ضلالة الكفرة، وارتباكهم في الامتحان بنعم الدنيا وعماهم عن الطريق المستقيم، عقب ذلك بذكر نعمته على المؤمنين، في أنه يزيدهم هدى في الارتباط إلى الأعمال الصالحة، والمعرفة بالدلائل الواضحة، وزيادة العلم دأباً، قال الطبري عن بعضهم: المعنى: بناسخ القرآن ومنسوخه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مثال.

﴿وَأَلْبَيْتُكَ أَصْلَحْتُ﴾ إشارة إلى ذلك الهدى الذي يزيدهم الله، وهذه النعم على هؤلاء خيرٌ عند الله ثواباً وخير مرجعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول في زيادة الهدى سهلٌ بَيِّنٌ الوجوه.

﴿وَأَلْبَيْتُكَ أَصْلَحْتُ﴾ كلٌ عملٍ صالح يرفع الله به درجة عامله، وقال الحسن: هي الفرائض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الصلوات الخمس، وروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها الكلمات المشهورات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فقد قال ﷺ لأبي الدرداء رضي الله عنه: «تُحْذَرُنَّ قَبْلَ أَنْ يَحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُنَّ، فَهُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ، وَهُنَّ مَنْ كُنُوزُ الْجَنَّةِ»،

وروي عنه ﷺ أنه قال يوماً: «تُحْذَرُونَ جُنُتَكُمْ»، قالوا: يا رسول الله، أَمِنَ عَدُوٌّ حَضَرَ؟ قال: «مِنَ النَّارِ»، قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، هُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ»، وكان أبو الدرداء رضي الله عنه إذا ذكر هذا الحديث يقول: «لَأَهْلُلَنَّ وَلَا كُيِّرَنَّ اللَّهُ وَلَا سُبْحَتُهُ حَتَّى إِذَا رَأَيْتِ الْجَاهِلَ ظَنَنْتِي مَجْنُونًا».

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾. الفاء في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ عاطفة بعد ألف الاستفهام، وهي عاطفة جملة على جملة، ﴿وَالَّذِي كَفَرْتُ﴾ يعني به العاصي بن وائل السهمي، قاله جمهور المفسرين، وخبره أن حَبَابَ بْنِ الْأَرْثَ كَانَ قَيْنًا في الجاهلية، فعمل له عملاً، فاجتمع له عنده دين، فجاءه يتقاضاه، فقال له العاصي بن وائل: لا أنصفك حتى تكفر بمحمد، فقال حَبَابُ: لا أكفر بمحمد - عليه الصلاة والسلام - حتى يميتك الله ثم يبعثك، قال العاصي: أَوْ مَبْعُوثٌ أَنَا بعد الموت؟ قال حَبَابُ: نعم، قال: فإذا كان ذلك فسيكون لي مالٌ وولد، وعند ذلك أقضيك دينك، فنزلت الآية في ذلك.

وقال الحسن: نزلت في الوليد بن المغيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد كانت للوليد أيضاً أقوالٌ تشبه هذا الغرض.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿وَوَلَدًا﴾ على معنى اسم الجنس، بفتح الواو واللام، وكذلك كل ما في سائر القرآن، إلا في سورة نوح فإنهما قرأ

بضم الواو وسكون اللام. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر بفتح الواو في كل القرآن، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿وَوَلَدًا﴾ بضم الواو وسكون اللام، وكذلك في جميع القرآن، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَوَلَدًا﴾ بكسر الواو وسكون اللام، واختلف مع ضم الواو - فقال بعضهم: هو جمع وَلَدٌ كَأَسَدٍ وَأُسْدٍ، واحتجوا بقول الشاعر:

فَلَقَدْ رَأَيْتُ مَعَاثِيرًا
قَدْ تَمَرُّوا مَالًا وَوَلَدًا
وقال بعضهم: هو مفرد، واحتجوا بقول الشاعر:

فَلَيْتَ فُلَانًا كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ
وَلَيْتَ فُلَانًا كَانَ وَلَدَ جِمَارٍ
قال أبو علي رحمه الله: وفي قراءة حمزة والكسائي ما كان مفرداً قصد به المفرد، وما كان جمعاً قصد به الجمع، وقال الأخفش: الولد: الابن، والولد: الأهل والوالد، وقال غيره: الولد: بطن الرجل الذي هو منه، حكاه أبو علي في الحجة.

وقوله تعالى: ﴿أَطْلَعَ النَّبِيَّ﴾ توقيف، والألف للاستفهام، وحذفت في الوصل للاستغناء عنها. «وَأَتَّخِذَ الْعَهْدَ» معناه: بالإيمان والأعمال الصالحة. و﴿كَلَّا﴾ زجرٌ وردعٌ، ثم أخبر تعالى أن قول هذا الكافر سيكتب، على معنى جفظه عليه ومعايته به، وقرأ عاصم، والأعشى: ﴿سَيُحْكَبُ﴾ بياءٍ مضمومة، وقرأ: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ بالنون أبو عمرو، والحسن، وعيسى. و﴿مَدَّ الْعَذَابَ﴾ هو إطالته وتعظيمه، وقوله تعالى: ﴿مَّا يَقُولُ﴾، أي: هذه الأشياء التي سماها وقال إنه يؤتاها في الآخرة يَرِثُ الله

ماله منها في الدنيا بإهلاكه وتركه لها، فالوراثة مستعارة، ويحتمل أن تكون خيبته في الآخرة كوارثة ما أُمِّل. وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه: «وَنَرْتُهُ مَا عِنْدَهُ»، وقال النحاس: «وَنَرْتُهُ مَا يَقُولُ» معناه: تُخَفِّظُهُ عَلَيْهِ فَنَعَابِهِ، ومنه قول النبي ﷺ: «الْعُلَمَاءُ وَرِثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»، أي حفظه ما قالوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأن هذا الجُزْم يورث هذه المقالة. وقوله تعالى: «وَيُؤَيِّنُنَا فَرْدًا» يتضمن ذلك.

﴿٨١﴾ - ﴿٨٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

«اتَّخَذَ» افتعل من (أَخَذَ) لكنه يتضمن إغداداً من المَّتَّخِذ للمَّتَّخِذ، وليس ذلك في (أَخَذَ)، والضمير في «اتَّخَذُوا» لِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، «وَالْأَلِهَةِ»: الْأَصْنَامُ وَكُلٌّ مِنْ عِبَادَةِ دُونِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومعنى «عِزًّا» العموم في الثُّبُورَةِ والمنفعة وغير ذلك من أوجه الخير.

وقوله تعالى: «كَلَّا» زَجْرٌ وَرَدٌّ، وهذا المعنى لازم لـ (كَلَّا)، فَإِنْ كَانَ الْقَوْلُ الْمَرْدُودَ مَنْصُوصاً عَلَيْهِ بَانَ الْمَعْنَى، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَنْصُوصاً عَلَيْهِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ مَرْدُودٍ يَتَضَمَّنُهُ الْقَوْلُ كَقَوْلِهِ عز وجل: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَلْبٌ»، فَإِنْ قَوْلُهُ: «عَلَى الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَبْتِهِ» يتضمن، مع ما قبله أن الإنسان يزعم من نفسه ويرى أن له حولاً ما ولا يتفكر جداً في أن الله علمه ما لم يعلم وأنعم عليه بذلك.

وقرأ الجمهور: «كَلَّا» على ما فَسَّرْنَاهُ، وقرأ أبو نهيك: «كَلَّا» بفتح الكاف والتنوين، حكاه عنه أبو الفتح، وهو نعت للآلهة. وحكى

عنه أبو عمرو الداني «كَلَّا» بضم الكاف والتنوين، وهو منصوب بفعل مضمر يدل عليه «سَيَكْفُرُونَ»، تقديره: يرفضون أو يتركون أو يجحدون ونحوه.

واختلف المفسرون في الضمير الذي في «سَيَكْفُرُونَ» وفي «يَمَادِيَهُمْ». فقالت فرقة: الأول للكفار والثاني للمعبودين، والمعنى أنه سيجيء يوم القيامة من الهول على الكفار والشدة ما يدفعهم إلى جحد الكفر وعبادة الأوثان، وذلك كقوله تعالى حكاية عنهم: «وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ».

وقالت فرقة: الأول للمعبودين والثاني للكفار، والمعنى أن الله تعالى يجعل للأصنام حياة تنكر بها ومعها عبادة الكفار وأن يكون لها هي من ذلك ذنب، وأما المعبدون من الملائكة وغيرهم فهذا منهم بَيِّنٌ، وقوله تعالى: «تَوَزَّهُمْ» معناه: يجيئهم منه خلاف ما أُمِّلُوهُ فيؤول بهم ذلك إلى ذِلَّةٍ ضِدِّ مَا أُمِّلُوهُ من العز، وهذه صفة عامة، وقال قتادة: معناه: قُرْنَاءُ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: أعواناً، وقال الضحاك: أعداء، وقال ابن زيد: بلاء وقيل غير هذا مما لفظ القرآن أعم منه وأجمع للمعنى المقصود، «وَالضُّدُّ» هنا مصدرٌ بوصف به الجمع كما يوصف به الواحد.

وحكى الطبري عن ابن نهيك أنه قرأ: «كُلُّ» بالرفع، ورفعت بالابتداء.

قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ» الآية. الرؤية رؤية قلب، و«أَرْسَلْنَا» معناه: سَلَطْنَا، أو لم نُحِلْ بينهم وبينهم فهو تسليط، وهو

مثل قوله تعالى: «نَتَّبِعُ لَكُمُ شَيْطَانًا»، وتعديته بـ «عَلَى» دالة على أنه تسليط. و«تَوَزَّهُمْ» معناه: تُثَلِّقُهُمْ وتحرِّكُهُمْ إلى الكفر والضلال، وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً، وقال ابن زيد: تُثَلِّبُهُمْ إشلاءً، ومنه أَرَزَى الْقِدْرُ، وهو غَلْيَانُهُ، ومنه ما في الحديث: أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فوجدته يصلي وهو يبكي، ولصدره أَرَزَى كَأَرَزَى الْمَرْجُلُ. قوله تعالى: «فَلَا تَعْبَلْ عَلَيْهِمْ»، أي: فلا تستبطن عذابهم وتُحِب تعجيله، وقوله: «نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا» أي مدة نعمتهم وقبح أعمالهم لتصير بهم إلى العذاب إما في الدنيا، وإلا ففي الآخرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نعد أنفاسهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما تضمنته هذه الألفاظ من الوعيد بعذاب الآخرة هو العامل في قوله تعالى: «يَوْمَ»، ويحتمل أن يعمل فيه فعل مقدر، تقديره: واذكر، أو اخذَر، ونحو هذا. «وَالْحَشْرُ»: الجمع، وقد صار في عرف ألفاظ الشرع: البعث من القبور، وقرأ الحسن: «يَوْمَ يُخْشَرَةُ الْمُتَشَفُّونَ وَيُسَاقَى الْمُجْرِمُونَ»، وروي عنه: «وَيُسَوَّى الْمُجْرِمِينَ»، و«الْمُتَّقُونَ»: المؤمنون الذين غفر لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر هذه الروايات أنها بعد انقضاء الحساب، وإنما هي النهوض إلى الجنة، وكذلك «سَوَّى الْمُجْرِمِينَ» إنما هو لدخول النار. و«وَقَدْ» قال المفسرون: معناه: زُكِّيْنَا، وهي عادة الوفود؛ لأنهم سراً الناس وأحسنهم

هريرة، والحسن، رضي الله عنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهم القوم الذين ينحفزون من عطشهم لورود الماء، ويحتمل أن يكون المصدر، والمعنى: نوردهم ورذاً، وهكذا يجعله من رأى أن في القرآن أربعة أوراد، وقد تقدم ذكر ذلك.

واختلف المتأولون في الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا يَلْكُونَ﴾ - فقالت فرقة: هو عائد على ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: لا يملكون أن يُشْفَعَ لهم ولا

سبيل لهم إليها، وعلى هذا التأويل فهم مشركون خاصة، ويكون قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَىٰ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ استثناءً منقطعاً، أي: لكن من أتى عهداً يُشْفَعُ له، و«العهد» - على هذا - الإيمان، قال ابن عباس رضي الله عنهما: العهد لا إله إلا الله، وفي الحديث: «يقول الله تعالى يوم القيامة: من كان له عندي عهد فليقم»، وفي الحديث: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن تأمات كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة»، و«العهد» أيضاً الأمان، وبه فُسِّرَ قوله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَتَّٰلَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون «المجرمون» يُمُّ الكفرة والعصاة، ثم أخبر أنهم لا يملكون الشفاعة إلا العصاة من المؤمنين فإنه يُشْفَعُ فيهم، فيكون

الاستثناء متصلاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا أزال أشفع حتى أقول: يا رب شفّني فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول الله: يا محمد ليست لك، ولكنها لي».

وقالت فرقة: الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا يَلْكُونَ﴾ للمتقين، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَىٰ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أي: إلا من كان له عمل صالح مُبَرِّز يحصل به في حيز من يشفع، وقد تظاهرت الأحاديث أن أهل العلم والفضل والصلاح يَشْفَعُونَ فَيُشْفَعُونَ، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «في أمّتي رجل يدخل الله بشفاعته الجنة أكثر من بني تميم»، قال قتادة رحمه الله: وكنا نحدث أن الشهيد يشفع في سبعين.

وقال بعض هذه الفرق: معنى الكلام: إلا لمن أتى عند الرحمن عهداً، أي: لا يملك المتقون الشفاعة إلا لهذه الصنعة فتجيء [مَنْ] في التأويل الواحد للشافعين، وفي الثاني للمشفوع فيهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحتمل الآية أن يراد به ﴿مَنْ﴾ محمد ﷺ وبـ (الشفاعة) الخاصة له ﷺ لعامة الناس، ويكون الضمير في ﴿يَلْكُونَ﴾ لجميع أهل الموقف، ألا ترى أن سائر الأنبياء يتدافعون الشفاعة حتى تصير إليه فيقوم إليها ﷺ، فالعهد - على هذا - النص على أمر الشفاعة في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

(٣٨) - (٣٩) تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿قَالُوا﴾ للكفار من العرب في قولهم: الملائكة

سُورَةُ مَرْيَمَ

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٨٨﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ﴿٨٩﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴿٩٠﴾

سُورَةُ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا لَذِكْرٍ لِّلْمَنِّ ﴿٣﴾ لِّئَلَّا يُتَذَكَّرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴿٤﴾ وَأَنذِرْ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ وَالرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٧﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِقَوْلِ فَإِنَّا يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ ﴿٨﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٠﴾ إِذْ رَأَاهُ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلَّ إِنِّي مُبْعَثُ قَبَسٍ أَوْ أُمِدُّ عَلَى النَّارِ هُذًى ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَنهَاوَتْ رُؤْيَىٰ يَمُوسَىٰ ﴿١٢﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاقْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِأَوَّلِ الْمُقَدِّسِينَ طوى ﴿١٣﴾

٣١٢

شكلاً، فشبه أهل الجنة بأولئك، لا أنهم في معنى الوفاة إذ هو مُضْمَن الانصراف، وإنما المراد تشبيههم بالوفد هيئة وكرامة. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنهم يجيئون رُكباناً على الثور المُحَلَّاة بحلية الجنة، حُطَّمتها من ياقوت وزبرجد ونحو هذا. وروي عمرو بن قيس المُلَاطِي أنهم يركبون على تماثيل من أعمالهم الصالحة هي في غاية الحُسن، وروي أنهم يركب كل واحد منهم ما أحب، فمنهم من يركب الإبل، ومنهم من يركب الخيل، ومنهم من يركب الشفَّ فتجيء عائمة بهم، وقد وُزِدَ في الضحايا (إنها مطاياكم إلى الجنة)، وفي أكثر هذا بُغِذَ لكن ذكرناه بحسب الجمع للأقوال. و«السُّود» يتضمن هواناً لأنهم يُخَفَّزُونَ من ورائهم. و«الوزد» العِطَاش، قاله ابن عباس، وأبو

بنات الله، وللنصارى، ولكل من كفر بهذا النوع من الكفر، وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ - بعد الكناية عنهم - بمعنى: قل لهم يا محمد، والإدابة: الأمر الشنيع الصعب، وهي الدواهي والشُّنَع العظيمة، ويروى عن النبي ﷺ أن هذه المقالة أول ما قيلت في العالم شاكاً الشجر واستمرت جهنم وغضبت الملائكة. وقرأ الجمهور: ﴿إِذَا﴾ بكسر الهمزة، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿أَذَا﴾ بفتح الهمزة، ويقال: إِذَا، وَأَذَا، وقرأ ابن كثير هنا، وفي ﴿عَسَى﴾: ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء ﴿يَنْفُطِرْنَ﴾ بياء وتاء وفتح الطاء وشدها، ورواها حفص عن عاصم، وقرأ أبو عمرو، وعاصم - في رواية أبي بكر: ﴿تَكَادُ﴾ بالتاء ﴿يَنْفُطِرْنَ﴾ بياء ونون وكسر الطاء، وقرأ نافع، والكسائي: ﴿يَكَادُ﴾ بالياء وإزالة علامة التأنيت ﴿يَنْفُطِرْنَ﴾ بالياء والتاء وشد الطاء وفتحها في الموضعين، وقرأ حمزة، وابن عامر في مريم مثل أبي عمرو، وفي ﴿عَسَى﴾ مثل ابن كثير، وقال أبو الحسن، والأخفش: ﴿يَكَادُ﴾ بمعنى: يريد، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أَتْنِي﴾، وأنشد على أن (كاد) بمعنى (أراد) قول الشاعر: كَادَتْ وَكَدْتُ وَتِلْكَ خَيْرُ إِزَادَةٍ لَوْ عَادَ مِنْ زَمَنِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا حجة في هذا البيت، وهذا قول قَلْبِي.

وقال الجمهور: إنها استعارة لشئمة الأمر، أي: هذا حقه لو فهمت

الجمادات قدره، وهذا المعنى مهتج العرب، فمته قول جرير: لَمَّا أَتَى خَيْرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَعُ ومنه قول الآخر: أَلَمْ تَرَ صَدْعاً فِي السَّمَاءِ مُبِيناً عَلَى ابْنِ بُيْنَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ؟ وقال الآخر: وَأَصْبَحَ بَطْنُ مَكَّةَ مُفْشِرِاً تَكَانُ الْأَرْضُ لَيْسَ بِهَا هِشَامُ و «الانْفِطَارُ»: الانشقاق على رتبة غير مقصودة، و«الهدُّ»: الانهدام والتفرُّق في سرعة، قال محمد بن كعب: كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَلْبِغِي الرَّحْمَنُ أَنْ يَنْخِذَ لَكَ﴾ نفى على جهة التنزيه له عن ذلك، وقد تقدم ذكر هذا المعنى وأقسام هذا اللفظ في هذه السورة.

وقوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى (ما)، وقرأ الجمهور: ﴿وَأَنَّى الرَّحْمَنُ﴾ بالإضافة، وقرأ طلحة: ﴿أَبِ الرَّحْمَنِ﴾ بتثوين و«أَبِ» والنصب في النون، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿لَمَّا أَتَى الرَّحْمَنُ﴾، واستدل بعض الناس بهذه الآية على أن الولد لا يكون عبداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا انتزاع بعيد، و«عَبْدًا» حال. ثم أخبر تعالى عن إحاطته ومعرفته بعبده، فذكر «الإحصاء»، ثم كرر المعنى بغير اللفظ، وقرأ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿لَقَدْ كَتَبَهُمُ

وَعَدْنَهُمْ﴾، وفي مصحف أبي رضي الله عنه: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ فَأَجْمَلَهُمْ عِدْداً﴾. وقوله: ﴿عَدَا﴾ تأكيد للفعل وتحقيق له. وقوله: ﴿تَكَرَّكَ﴾ يتضمن معنى قلة النصير والحوال والقوة، فلا مجير له مما يريد الله به.

قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَكُمْ آرْحَمَنُ دُكَاً﴾. ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا هو القبول الذي يضعه الله لمن يحبه من عباده حسب ما في الحديث المأثور، وقال عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه: إنها بمنزلة قول النبي ﷺ: «مَنْ أَسْرَ سُرُورَةً أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءَهَا»، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله وآله وسلم: «ما من عبد إلا وله في السماء صيت، فإن كان حسناً وُضع في الأرض حسناً، وإن كان سيئاً وُضع كذلك».

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: إن الآية نزلت فيه، وذلك أنه لما هاجر من مكة استوحش بالمدينة، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت الآية في ذلك، أي: ستستقر نفوس المؤمنين ويؤدون حالهم ومنزلتهم، وذكر النقاش أنها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، قال ابن الحنفية: «لا يوجد مؤمن إلا وهو يحب علي بن أبي طالب وأهل بيته رضي الله عنهم».

وقرأ الجمهور: ﴿وَدَا﴾ بضم الواو، وقرأ أبو الحارث الحنفي بفتح الواو. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحتل الآية أن تكون متصلة بما

قبلها في المعنى، أي أن الله تبارك وتعالى لما أخبر عن إتيان كل من في السموات والأرض في حال العبودية والانفراد، آنس المؤمنين بأنه سيجعل لهم في ذلك اليوم وداً وهو ما يظهر عليهم من كرامته؛ لأن محبة الله للعبد هي ما يظهر عليه من نعمه وأمارات غفرانه له.

﴿٩٧﴾ - ﴿٩٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿يَسْرَتَهُ﴾ للقرآن، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾؛ لأن المعنى يقتضي المراد وإن لم يتقدم ذكره، ووقع التيسير في كونه بلسان محمد ﷺ، وبلغته المفهومة المبينة. وبشارة المثقين هي بالجنة والتعيم الدائم والعز في الدنيا. والقوم اللدء هم قريش، ومعناه: مجادلين ومخاصمين بباطل، والألدء: المخاصم المبالغ في ذلك. وقال مجاهد: ﴿لدء﴾ معناه: فجاراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي فجور الخصومة، ولا يلد إلا المبطل. وفي الحديث: «أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلْدُ الْأَخْصِمُ».

ثم لما وصفهم تعالى بأنهم لدء - وهي صفة سوء بحكم الشرع والحق - وجب أن يفسو عليهم بالوعيد والتمثيل بإهلاك من كان أشد منهم وألد وأعظم قذراً ما كان يسرهم في أنفسهم من الوصف بـ [اللدء]، فإن العرب بجهالتها وعثوها وكفرها كانت تتمدح باللدء، وتراه إدراكاً وشهادة، فمن ذلك قول الشاعر:

إِنْ تَخَتِ الشَّرَابَ عَزْماً وَحَزْماً
وَخَصِيماً أَلْدَ ذَا مِثْلَاقِ

فمَثَلُ لَهُمْ بِإِهْلَاكَ مَنْ قَبْلَهُمْ
لِيَحْتَقِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَيَتَبَيَّنَ صِغَرُ شَأْنِهِمْ، وَعَبَّرَ الْمَفْسُورُونَ عَنِ «اللدء» بِالْفَجْرَةِ وَبِالظَّلْمَةِ، وَتَلْخِصُ مَعْنَاهَا مَا ذَكَرْنَاهُ.

و «الْقَرْنُ»: الأئمة، و «الرُّكُزُ»: الصوت الخفي دون نُطْق بحروف ولا فم، وإنما هو صوت الحركات وَخُفَّتُهَا، ومنه قول لبيد:

وَتَوَجَّسْتُ رُكُزَ الْأَنْبِيَاءِ قَرَأَعَهَا
عَنْ ظَهْرِ غَيْبِ الْأَنْبِيَاءِ سَقَامُهَا
فَكَأَنَّهُ قَالَ: أَوْ تَسْمَعُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ قَلِيلاً أَوْ كَثِيراً، أَوْ طَرَفًا خَفِيًّا ضَعِيفًا، وَهَذَا يُرَادُّ بِهِ مِنْ تَقَدُّمِ أَمْرِهِ مِنَ الْأُمَمِ وَدَرَسِ خَبَرِهِ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: هَلْ بَقِيَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ كَلَامٌ أَوْ تَصَوُّتٌ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ؟ فَيَدْخُلُ فِي هَذَا مِنْ عُرْفِ هَلَاكِهِ مِنَ الْأُمَمِ.

ثم تفسير سورة مريم والحمد لله رب العالمين

(٢٠) تفسير

سورة طه

مكية

وآياتها خمس وثلاثون ومائة

هذه السورة مكية.

﴿١﴾ - ﴿٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في قوله تعالى: ﴿طه﴾ بحسب اختلافهم في كل الحروف المتقدمة في أوائل السور، إلا قول من قال هناك: «إن الحروف إشارة إلى حروف المعجم، كما

تقول: «أ، ب، ج»، فإنه لا يترتب هاهنا؛ لأن ما بعد ﴿طه﴾ من الكلام لا يصح أن يكون خبراً عن ﴿طه﴾.

واختصت ﴿طه﴾ بأقوال لا تترتب في أوائل السور المذكورة، فمنها قول من قال: ﴿طه﴾ اسم من أسماء محمد ﷺ، وقول من قال: ﴿طه﴾ معناه: «يا رجل» بالسريانية، وقيل: بغيرها من لغات العجم، وروي أنها لغة يمنية في عك، وأنشد الطبري في ذلك:

دَعَوْتُ بِطَهَ فِي الْقِتَالِ فَلَمْ يُجِبْ
فَحَفِضْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُؤَاوِلًا

ويروى: مزايلاً. وقال الآخر:

إِنَّ السَّفَاةَ طَهَ مِنْ خِلَافِ كُنْ
لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الْقَوْمِ الْمَلَاعِينِ
وقالت فرقة: سبب نزول هذه الآية إنما هو ما كان رسول الله ﷺ يتحملة من مشقة الصلاة حتى كانت قدماء تتورم وتحتاج إلى الترويح، فقيل له: طأ الأرض، أي: لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح، فالضمير في ﴿طه﴾ للأرض، وخُفِّفَتْ الهمزة فصارت ألفاً ساكنة.

وقرأت فرقة: ﴿طه﴾، وأصله: طأ، فحذفت الهمزة وأدخلت هاء السكت، وقرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿طه﴾ بفتح الطاء والهاء، وروي ذلك عن قالون عن نافع، وروي يعقوب عنه كسرهما، وروي عنه بين الفتح والكسر، وأمالت فرقة، وفخمت فرقة، والتفخيم لغة الحجاز والنبی ﷺ، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿طيه﴾ بكسر الطاء والهاء، وقرأ أبو عمرو: ﴿طيه﴾ بفتح

الطاء وكسر الهاء، وزوي عن الضحاك وعمرو بن فائد أنهما قرأ: ﴿طَاوِي﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدَ﴾ معناه التبليغ من نفسك في العبادة والقيام في الصلاة، وقالت فرقة: إنما سبب الآية أن قريشاً نظرت إلى عيش رسول الله ﷺ وشظفه وكثرة عياله، فقالت: إن محمداً مع ربه في شقاء، فنزلت الآية رادة عليهم، أي: إن الله تعالى لم ينزل القرآن ليجعل محمداً شقيماً، بل لي يجعله أسعد بني آدم في النعيم المقيم في أعلى المراتب، فالشقاء الذي رأيتم هو تنعم النفس، ولا شقاء مع ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا التأويل أعم من الأول في لفظ الشقاء.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذَكُّرَ لِنَ يَحْشَى﴾ يصح أن ينصب على البدل من موضع ﴿لِيَشْهَدَ﴾، ويصح أن ينصب بفعل مضمر تقديره: لكن أنزلناه تذكراً. و﴿يَحْشَى﴾ يتضمن الإيمان والعمل الصالح، إذ الخشية باعثة على ذلك. وقوله: ﴿تَزِيلَا﴾ نصب على المصدر، وقوله: ﴿يَمَنَ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى﴾ صفة أقامها مقام الموصوف، وأفاد ذلك العبرة والتذكرة وتحقير الأوثان وبعث النفوس على النظر. و﴿الْفُلَى﴾ جمع غُلَى، فُغِلَى.

وقوله: ﴿الرَّحْنُ﴾ رفع بالابتداء، ويصح أن يكون بدلاً من الضمير المستقر في ﴿خَلَقَ﴾. وقوله: ﴿أَسْتَوَى﴾ قالت فرقة: هو بمعنى:

استولى، وقال أبو المعالي وغيره من المتكلمين: هو بمعنى استواء القهر والغلبة، وقال سفيان الثوري: فَعَلَ فعلاً في العرش سماه استواء، وقال الشعبي وجماعة غيره: هذا من متشابه القرآن، نؤمن به ولا نعرض لمعناه، وقال مالك بن أنس لرجل سأله عن هذا الاستواء، فقال هل مالك: «الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة، وأظنك رجل سوء، أخرجوه عني»، فأدبر السائل وهو يقول: يا أبا عبد الله، لقد سألت عنها أهل الشام وأهل العراق فما وُفِّقَ فيها أحد توفيقك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وضَعَفَ أبو المعالي قول من قال: «لا يتكلم في تفسيرها»، فإن قال: «إن كل مؤمن يجمع على أن لفظة الاستواء ليست على عرفها في معهود الكلام العزيز»، فإذا فعل هذا فقد فسره ضرورة ولا فائدة في تأخره عن طلب الوجه والمخرج البين، بل في ذلك إلباس على الناس، وإيهام للقوام، وقد تقدم القول في مسألة الاستواء.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تمام في الصفة المذكورة المُنْتَهية على الخالق المنعم، وفي قوله: ﴿وَمَا تَحْتُ الرُّنَى﴾ قصص في أمر الحوت ونحوه اختصرته لعدم صحته. والآية مُضْمِنَةٌ أن كل موجود مُخْدَت فهو لله بالملك والاختراع، ولا قديم سواه تعالى. و﴿الرُّنَى﴾: التراب الندي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِأَقْوَلِ﴾ الآية، معناه: وإن كنتم أيها الناس إذا أردتم إعلام أحد بأمر، أو مخاطبة أوثانكم وغيرها، فأنتم تجهرون بالأقوال، فإن الله الذي هذه صفاته يعلم السر وأخفى، فالمخاطبة بـ﴿تَجَهَّرَ﴾ لمحمد ﷺ، وهي مراد بها جميع الناس إذ هي آية اعتبار.

واختلف الناس في ترتيب السر وما هو أخفى منه؛ فقالت فرقة: السر هو الكلام الخفي الخافت كقراءة السر في الصلاة، والأخفى ما هو في النفس متحصل. وقالت فرقة: السر هو ما في نفوس البشر وكل ما يمكن أن يكون فيها في المستأنف بحسب الممكنات من معلومات البشر، والأخفى ما هو من معلومات الله تعالى، ولا يمكن أن يعلمه البشر البتة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا كله معلوم لله عز وجل، وقد تؤوّل على بعض السلف أنه جعل ﴿وَأَخْفَى﴾ فعلاً ماضياً، وهذا ضعيف.

و﴿الْأَسْمَاءُ الْمُسْتَوَى﴾ يراد بها المُسَمَّيات التي تضمنت المعاني التي هي في غاية الحُسْن، ووَحَّدَ الصفة مع جَمْع الموصوف لما كانت المُسَمَّيات لا تعقل، وهذا جار مجرى ﴿مَنَارِثِ أَخْرَى﴾، و﴿يَجْأَلُ أَوَى﴾ وغيره، وذكر أهل العلم أن هذه الأسماء هي التي قال فيها رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَسْمَعُ وتسعين اسماً، يائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة».

يُعْمُ هذا كله، وإنما رجا موسى عليه السلام هُدًى نازِلِيَه فصادف الهدى على الإطلاق.

وفي ذكر قصة موسى عليه السلام بأسرها في هذه السورة تسليية للنبي ﷺ عما لقي في تبليغه من المشقات وكُفِّر الناس، فإنما هي له على جهة التمثيل في أمره، وروى عن نافع وحمزة ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ بضم الهاء، وكذلك في القصص، وكسر الباقون الهاء فيها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنَّهُمَا﴾، الضمير عائد على النار، وقوله: ﴿ثَوْدِي﴾ كناية عن تكليم الله له، وفي ﴿ثَوْدِي﴾ ضمير يقوم مقام الفاعل، وإن شئت جعلته موسى إذ قد جرى ذكره، وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿إِنِّي﴾ بكسر الألف على الابتداء، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿إِنِّي﴾ بفتح الألف على معنى: لأجل أني أنا ربك فاخلع نعليك. و﴿ثَوْدِي﴾ قد توصل بحرف الجر، وأنشد أبو علي:

نَادَيْتُ بِاسْمِ رَيْبَعَةٍ بِنِ مَكْدُمٍ
إِنَّ الْمَنْوَةَ بِاسْمِهِ الْمَوْثُوقُ
واختلف المتأولون في السبب الذي من أجله أمر بخلع الثعلين؛ فقالت فرقة: كانتا من جلد حمار ميت، فأمر بطرح النجاسة، وقالت فرقة: بل كانت نعلاه من جلد بقرة دُكِّي، ولكن أمر بخلعهما لينال بركة الوادي المقدس وتمس قدماه تربة الوادي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحتل الآية معنى آخر هو الأليق

أين يطلبه، فيينا هو كذلك - وقد قدح زنده فلم يُور شيئا - إذ رأى نارا، فقال لأهله: امكثوا، أي أقيموا، وذهب هو إلى النار فإذا هي مضطربة في شجرة خضراء يانعة، قيل: كانت من عُثَاب، وقيل: من عوسج، وقيل: من عُليقة، فكلما دنا منها تباعدت منه ومشت، فإذا رجع عنها اتبعته، فلما رأى ذلك أيقن أن هذا أمر من أمور الله تعالى الخارقة للعادة، ونودي وانقضى أمره في تلك الليلة، هذا

قول الجمهور، وهو الحق، وحكى النقاش عن ابن عباس أنه أقام في ذلك الأمر حولا، ومكث أهله، قالوا: وهذا أمر غير صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما وضعيف في نفسه.

و﴿أَنَسْتُ﴾ معناه: أخسنت، ومنه قول الحارث بن حلزة:

أَنَسْتُ نَبَاةً وَأَفْرَعَهَا الْفُثُ

نَاصَ عَصْرًا وَقَدْ ذُنَا الْإِمْسَاءُ
والنار على البعد لا تُحَسُّ إِلَّا بالبصر، ولذلك فُثِر بعضهم اللفظة بـ﴿أَنَسْتُ﴾، و﴿أَنَسْتُ﴾ أَعْمُ من ﴿رَأَى﴾ لأنك تقول: أَنَسْتُ من فلان خيرا أو شرا. و﴿الْقَبَسُ﴾: الجذوة من النار على رأس العود أو القصبه أو نحوه، و﴿الهُدَى﴾ أراد هدي الطريق، أي: لعلني أجد ذا هدى مرشداً لي أو دليلاً وإن لم يكن فخبيراً، و﴿الهُدَى﴾

وَأَنَا أَعْرَفُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿٩﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٠﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١١﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٢﴾ وَمَا تَلَكَ بِسَيْمِيكَ يَمْوَسَّى ﴿١٣﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنِيٍّ وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى ﴿١٤﴾ قَالَ أَلْقَاهَا يَمْوَسَّى ﴿١٥﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَبِيبَتُنِي ﴿١٦﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْزَنْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿١٧﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ وَخَرُجْ بِبَضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ؕ آيَةُ الْآخِرَى ﴿١٨﴾ لِيُزَيِّنَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿١٩﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي صَدْرِي ﴿٢١﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٢﴾ وَاجْلُدْ عُنُقَهُمْ لِيَسْأَلَنِي ﴿٢٣﴾ فَتَقُولُوا هَلْ نَحْنُ بِالْمُزَيَّنِينَ ﴿٢٤﴾ لِيُزَيِّنَ أَمْرِي أَشَدَّ بِهٖ أَرَى ﴿٢٥﴾ وَأَشْرَكَ فِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ كَيْ سَجَّكَ كَثِيرًا ﴿٢٧﴾ وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا ﴿٢٨﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِبَابِصِيرٍ ﴿٢٩﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَّى ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣١﴾

٣١٢

٩ - ١٤ تفسير قوله عز وجل:

هذا الاستفهام هو توقيف مضمنه تنبيه النفس إلى ما يُورد عليها، وهذا كما تبدأ الرجل إذا أردت إخباره بأمر غريب فتقول: أعلمت كذا وكذا؟ ثم تبدأ تخبره، والعامل في ﴿إِذْ﴾ ما تضمنه قوله سبحانه: ﴿حَلِيتُ مُوسَى﴾ من معنى الفعل، وتقديره: وهل أنك ما فعل موسى إذ رأى نارا، ونحوه.

هذا، وكان من قصة موسى عليه السلام أنه رحل من مدين بأهله بنت شُعيب وهو يريد أرض مصر، وقد طالت مدة جنائته هنالك، فرجا خفاء أمره، وكان - فيما يزعمون - رجلاً غيوراً، فكان يسير الليل بأهله ولا يسير النهار مخافة كشفه الناس، فضل عن طريقه في ليلة مظلمة ندية، ويروى أنه فقد الماء فلم يدر

بها عندي، وذلك أن الله تعالى أمره أن يتواضع لعظيم الحال التي حصل فيها، والعرف عند الملوك أن تخلع التعلان وبلغ الإنسان إلى غاية تواضعه، فكأن موسى عليه السلام أمر بذلك على هذا الوجه، ولا تبالي كانت نعلاه من مينة أو غيرها.

و﴿المقدس﴾ معناه: المٌطَهَّر، و﴿طَوًى﴾ معناه: مرّتين مرّتين، فقلت فرقة: معناه: قدس مرّتين، وقالت فرقة: معناه: طويته أنت، أي سرت فيه، أي طويت لك الأرض مرّتين من ظنك. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: ﴿طَوًى﴾ بالتثنية على أنه اسم المكان، وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو عمرو: ﴿طَوًى﴾ على أنه اسم البقعة، بدون تنوين، وقرأ هؤلاء كلهم بضم الطاء، وقرأ ابن زيد عن أبي عمرو بكسر الطاء، وقرأت فرقة: ﴿طواوي﴾، قالت فرقة: هو اسم الوادي، و﴿طَوًى﴾ على التاويل الأول بمنزلة قولهم ثنى وثنى، أي: ثنيًا.

وقرأ السبعة غير حمزة: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ﴾، ويؤيد هذه القراءة تناسبها مع قوله تعالى: ﴿أَنَا رَبُّكَ﴾، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ﴾، وقرأ حمزة وحده: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ﴾ بالجمع وفتح الهمزة وشذ النون، والآية على هذا بمنزلة قوله تعالى: ﴿سَيَحْنُ الَّذِي أَسْرَى بِعَبِيدِهِ لِيَأْخُذَ﴾، ثم قال: ﴿وَأَنَا أَنَا مَوْسَى الْكَذِبُ﴾، فخرج من إفراد إلى جمع، وقرأت فرقة: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ﴾ بكسر الألف، وحدثني

أبي رحمه الله يقول: سمعت أبا الفضل الجوهري يقول: «لما قيل لموسى عليه السلام ﴿فَأَسْتَبِيعْ لَنَا يَوْحَى﴾ وقف على حجر، واستند إلى حجر، ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه إلى صدره، ووقف يستمع، وكان كل لباسه صوفاً»، وقرأت فرقة: ﴿بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَاوِي﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ﴾ يحتمل أن يريد: لتذكرني فيها، أو يريد: لأذكرك في عليين بها، فالمصدر - على هذا - يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول، واللام لام السبب. وقالت فرقة: قوله: ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي عند ذكرني، أي إذا ذكرتني وأمرني لك بها، فاللام - على هذا - بمنزلة في قوله تعالى: ﴿أَقْرِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ النَّاسِ﴾. وقرأت فرقة: ﴿لِلذِّكْرِ﴾، وقرأت فرقة: ﴿لِلذِّكْرِ﴾ بغير تعريف، وقرأت فرقة: ﴿لِلذِّكْرِ﴾.

﴿١٥﴾ - ﴿١٦﴾ تفسير قوله عز وجل: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ تحذيرٌ ووعدٌ، أي: اعبدني فإن عقابي وثوابي بالمرصاد، و﴿السَّاعَةُ﴾ في هذه الآية: القيامة، بلا خلاف.

وقرأ ابن كثير، والحسن، وعاصم: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ بفتح الهمزة، بمعنى: أظهرها، أي أنها من صفة وقوعها وتيقن كونها تكاد تظهر، لكن تنحجب إلى الأجل المعلوم، والعرب تقول: «أخفيت الشيء» بمعنى: أظهرته، ومنه قول امرئ القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا
خَفَاهُنَّ وَذَقَّ مِنْ عَيْشِي مُجَلَّبٍ
ومنه قوله أيضاً:

فَإِنْ تَذَفَّنُوا الدَّاءَ لَا تَخْفِهِ
وَإِنْ تَبَعَثُوا الْحَرْبَ لَا تَقْعُدُ
قال أبو علي: المعنى: أزيل خفاءها وهو ما ثلّف به القرية ونحوها.

وقرأ الجمهور: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ بضم الهمزة، واختلف المتأولون في معنى الآية، فقلت فرقة: معناها أظهرها، و﴿أَخْفَيْتُ﴾ من الأضداد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مختل.

وقالت فرقة: معناها أكاد أخفيها من نفسي، على معنى العبارة عن شدة غموضها على المخلوقين، وقالت فرقة: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ﴾ وتم الكلام، بمعنى: أكاد أنفذها لقربها وصحة وقوعها، ثم استأنف الإيجاز بأنه يخفيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول قلبي.

وقالت فرقة: ﴿أَكَادُ﴾ زائدة لا دخول لها في المعنى، بل تضمنت الآية الإخبار بأن الساعة آتية، وأن الله يخفي وقت إتيانها عن الناس.

وقالت فرقة: ﴿أَكَادُ﴾ بمعنى: أريد، فالمعنى: أريد إخفاءها عنكم ليُخْجَزَى كل نفس بما تسعى، واستشهد قائل هذه المقالة بقول الشاعر:

كَادَتْ وَكَذَتْ وَتِلْكَ خَيْرُ زَافَةٍ
.....

وقد تقدم هذا المعنى.

وقالت فرقة: ﴿أَكَاذُ﴾ على بابها، بمعنى أنها لمقاربة ما لم يقع، لكن الكلام جارٍ على استعارة العرب ومجازها، فلما كانت الآية عبارة عن شدة خفاء أمر القيامة ووقتها، وكان القطع بإتيانها مع جهل الوقت أهيب على النفوس، بالغ قوله تعالى في إغتمام وقتها فقال: ﴿أَكَاذُ أَخْفِيَا﴾ حتى لا تظهر البتة، ولكن ذلك لا يقع، ولا بُدَّ من ظهورها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا تلخيص هذا المعنى الذي أشار إليه بعض المفسرين، وهو الأقوى عندي. وروى بعض القائلين بأن المعنى: «أكاذ أخفيها من نفسي» ما في القول من القلق، فقالوا: معنى «من نفسي»: من تلقائي ومن عندي. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا رفض للمعنى الأول ورجوع إلى هذا القول الذي اخترناه أخيراً، فتأمل.

واللام في قوله تعالى: ﴿لَيَجْزِيَنَّ﴾ متعلقة بقوله: ﴿ءَايَةُ﴾، وهكذا يترتب الوعيد، و﴿تَنَقَّى﴾ معناه: تكتسب وتجتريح. والضمير في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ عائد على (السَّاعَةِ)، يريد: عن الإيمان بالساعة، فأوقع الضمير عليها، ويحتمل أن يعود على الصلاة، وقالت فرقة: على «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا منجّه، والأولان أبين وجهاً.

وقوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنِي﴾ معناه: تَهْلِكُ، والرَّدَى: الهلاك، ومنه قول دُرَيْد بن الصَّمَّة:

تَنَادَوْا فَقَالُوا: أَرَدَتِ الْخَيْلُ فَارَسَا

فقلت: أَعْبَدُ اللَّهَ ذَلِكَكُمْ الرُّدَى وهذا الخطاب كله لموسى عليه السلام، وكذلك ما بعده، وقال النقاش: الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ لمحمد ﷺ، وهذا بعيد، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿أَكَاذُ أَخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي﴾، وعلى هذه القراءة تركب ذلك القول المتقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بَيِّنَاتُكَ يَتَّبِعُونَ﴾ تقديره ومُضْمَنُهُ التنبيه وجمع النفس لتلقي ما يورد عليها، وإلا فقد علم الله تعالى ما هي في الأزل. وقوله: ﴿بَيِّنَاتُكَ﴾ من صلة ﴿تِلْكَ﴾، وهذا نظير قول الشاعر:

عَدَسٌ مَا لِعَبَادٍ عَلَيْنِكَ إِسَارَةٌ
تَجَزَّتْ وَهَذَا تَحْمِيلٌ طَلِيْقٌ

قال ابن الجوهري: روي في بعض الآثار أن الله تعالى عتب على موسى إضافة العصا إلى نفسه في ذلك الموطن، فقال له: ﴿أَلَيْهَا﴾ ليرى منها العجب فيعلم أنه لا ملك له عليها ولا تنضاف إليه.

وقرأ الحسن، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿عَصَايَ﴾ بكسر الباء مثل غلامي، وقرأت فرقة: ﴿عَصِيَّ﴾، وهي لغة هذيل، ومنه قول أبي ذؤيب:

سَبَقُوا قَهْوِيَّ وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ

.....

وقرأ الجمهور: ﴿عَصَايَ﴾ بفتح الباء، وكذلك ابن أبي إسحق قرأ: ﴿عَصَايَ﴾ بياء ساكنة.

ثم ذكر موسى عليه السلام من منافع عصاه عظمها وجمهورها، وأجمل سائر ذلك. وقرأ الجمهور:

﴿وَأَهْلُ﴾ بضم الهاء والشين المنقوطة، ومعناه: أخط بها الشجر حتى ينتشر الورق للغنم، وقرأ إبراهيم الشَّخِي: ﴿وَأَهْلُ﴾ بكسر الهاء، والمعنى كالذي تقدم، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَأَهْلُ﴾ بضم الهاء والشين غير منقوطة، ومعناه: أزجرها وأخوف، وقرأت فرقة: ﴿عَلَّ عَنِّي﴾ بالجر، وقرأت فرقة: ﴿عَلِّيَّ فَتَمِيَّ﴾ فأوقعوا الفعل على الغنم، وقرأت فرقة: ﴿عَلَّيَّيَّ﴾ بسكون النون، ولا أعرف لها وجهاً. وقوله: ﴿أُخْرِفُ﴾ - فَوُحِدَ مع تقدم الجمع - هو المَهْيَع في توابع جمع ما لا يعقل والكناية عنه، فإن ذلك يجري مجرى الواحدة المؤنثة، كقوله: ﴿الْأَتَمَاءُ لُتْسِيَّ﴾، وكقوله: ﴿يَجِبَالُ أَرِيَّ مَمَّ﴾، وقد مر القول في هذا المعنى غير مرة.

وعصا موسى عليه السلام هي التي كان أخذها من بيت عصي الأنبياء الذي كان عند شعيب عليه السلام حين اتفقا على الرعية، وكانت عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة، وكانت من العين الذي في ورق الرياحان، وهو الجسم المستطيل في وسطها، وقد تقدم شرح أمرها فيما مضى.

(١٩) - (٢٥) تفسير قوله عز وجل:

لما أراد الله تبارك وتعالى أن يذريه في تلقي النبوة وتكاليفها أمره بإلقاء العصا، فألقاها موسى عليه السلام، فقلب الله أوصافها وأغراضها، وكانت عصا ذات شعبتين، فصارت الشعبتان لها فمًا، وصارت حيَّة

تسعى، أي تنتقل وتمشي وتلتقم الحجارة، فلما رآها موسى عليه السلام رأى عبرة فولّى مُذْبِرًا ولم يُعَقِّبْ، فقال الله له: خذها ولا تخف، وذلك أنه أوجس في نفسه خيفة، أي لحقه ما يلحق البشر، وروى أن موسى عليه السلام تناولها بِكُمِّي جُبْتِه، فنهى عن ذلك فأخذها بيده فصارت عصا كما كانت أول مرة، وهي سيرتها الأولى.

ثم أمره الله تعالى أن يضم يده إلى جُنبِه، وهو الجناح استعارة ومجازاً، ومنه قول الراجز:

أَضْمُهُ لِلْضَنْدِ وَالْجَنَاحِ
وبعض الناس يقول: «الجناح»:
اليد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله صحيح على طريق الاستعارة، ألا ترى أن جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه سُمِّيَ ذا الجناحين بسبب يديه حين أُقيمت له الجناحان مقام اليد، شبه بجناح الطائر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكلُّ مرعوبٍ من ظُلْمَةٍ أو نحوها فإنه إذا ضَمَّ يده إلى جناحه قَتَرَ رعيه وجمع جأشه، فجمع الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام تفتير الرعب مع الآية في اليد. وروى أن يد موسى عليه السلام خرجت بيضاء تَشِيفُ وتضيء كالشمس.

وقوله تعالى: ﴿يَنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أي: من غير بَرَصٍ ولا مُثَلَّةٍ، بل هو أمر يَنْخَسِرُ ويعود بحكم الحاجة إليه، وقوله: ﴿لِئَرْيَاكَ مِنْ عَيْنَيْكَ الْكَبْرَى﴾

يحتمل أن يريد وصف الآيات بالكبر على ما تقدم من قوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْكُسَى﴾ و﴿تَارِبٌ أُخْرَى﴾ ونحوه، ويحتمل أن يريد تخصيص هاتين الآيتين بأنهما أكبر الآيات، كأنه قال: لِئَرْيَاكَ الْكَبْرَى من آياتنا، فهما معنيان. ثم أمره الله تبارك وتعالى بالذهاب إلى فرعون، وهو مصعب بن الرُّيَّان في بعض ما قيل، وقيل غير هذا، ولا صحة لشيء من ذلك. و﴿طَقَى﴾ معناه: تجاوز الحد في فساد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْحَجْ لِي مَدْرَى﴾ الآية، لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون علم أنها الرسالة، وفهم قَدْرَ التكليف، فدعا الله في المعونة إذ لا حول له إلا به، وقوله: ﴿اشْحَجْ لِي مَدْرَى﴾ معناه: لفهم ما يرد علي من الأمور، و﴿الْعُقْدَةُ﴾ التي دعا في حلِّها هي التي اعترته من الحجرة التي جعلها في فمه حين جرَّبه فرعون، وروى في ذلك أن فرعون أراد قتله وهو طفل حين مدَّ يده إلى إحياء فرعون، فقالت له امرأته: إنه لا يعقل، فقال: بَلَى، وهو يعقل وهو عدوُّ لي، فقالت له: نُجْزِيه، قال: أفعل، فدعت بجمرات من نارٍ وطبق فيه ياقوت، فقالت: إن أخذ الياقوت علمنا أنه يعقل، وإن أخذ النار طُذِرناه، فمدَّ موسى يده إلى جمره فأخذها فلم تُعْدُ على يده فجعلها في فيه فأحرقته وأورثت لسانه عُقْدَةً في كِبَرِه، أي حَبْسَةً مُلَبَّسَةً في بعض الحروف. قال ابن الجوهري رحمه الله: كَفَّ الله النار عن يده لثلاث تقول النار: طبعي،

وأحرق لسانه لثلاث يقول موسى: مكاتني. وموسى عليه السلام إنما طلب من حلِّ العقدة قَدْرَ أَنْ يُفَقِّهَ قوله، فجائز أن يكون ذلك كله زال، وجائز أن يكون بقي منه القليل، فيجتمع أن يُؤْتَى سُؤْلُه وأن يقول فرعون: ﴿وَلَا يَكَاذُ يَبُوءُ﴾، ولو فرضناه زال جملةً لكان قول فرعون سبباً لموسى عليه السلام لحالته القديمة.

و﴿الْوَزِيرُ﴾: المُعِين القائم بوزر الأمور، وهو ثقلها، ويحتمل الكلام أن طلب الوزير من أهله على الجملة، ثم أبدل هارون من الوزير المطلوب، ويحتمل أن يريد: واجعل هارون وزيراً، فإنما ابتداء الطلب فيه، فيكون - على هذا - مفعولاً أولاً بـ﴿اجْعَلْ﴾. وكان هارون عليه السلام أكبر من موسى عليه السلام بأربعة أعوام.

وقرأ ابن عامر وحده: ﴿أَشْدُّدُ﴾ بفتح الهمزة و﴿وَأَشْرَكُهُ﴾ بضمها على أن موسى عليه السلام أسند هذه الأفعال إلى نفسه، ويكون الأمر هنا لا يريد به النبوة بل يريد تدبيره ومساعدته، لأن النبوة لا يكون لموسى عليه السلام أن يشرك فيها بشراً، وقرأ الباقون: ﴿أَشْدُّدُ﴾ بضم الهمزة و﴿وَأَشْرَكُهُ﴾ على معنى الدعاء في شدِّ الأزر وتشريك هارون عليه السلام في النبوة، وهذه هي الوجه لأنها تناسب ما تقدم من الدعاء، ويعضدها آيات غير هذه تقضي بطلبه تصديق هارون إياه. و﴿الْأَزْرُ﴾ يعني الظهر، قاله أبو عبيدة، كأنه قال: شدَّ به عوني، واجعله مُقَاوِمِي

راقدًا في فراش، ثم قذفته في يَمّ النيل، وكان فرعون جالسًا في موضع يشرف على النيل إذ رأى الثابوت، فأمر به فسيق إليه وامرأته معه، ففتح فرآه، فرحمته امرأته وطلبته لتتخذه ابنًا فأباح لها ذلك.

وروي أن الثابوت جاء في الماء إلى المشرعة التي كان جوارى امرأة فرعون يستقن فيها الماء، فأخذن الثابوت وَحَمَلَتْهُ إِلَيْهَا، فأخرجته وأعلمت فرعون وطلبته منه، ثم إنها عرضته للرضاع فلم يقبل امرأة، فجعلت تنادي عليه في المدينة ويُطاف به يعرض للمراضع، فكلما عرضت عليه امرأة أباه. وكانت أمه حين ذهب عنها في النيل بقيت مغنومة وفؤادها فارغ إلا من هَمِّه، فقالت لأختها: «اطلبي أثره في المدينة عسى يقع إلينا منه خبر». فبينما الأخت تطوف إذ بَصُرَتْ به وفهمت أمره، فقالت لهم: «أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون»، فتعلقوا بها وقالوا لها: «أنت تعرفين هذا الصبي»، قالت: «لا، غير أنني أعلم من أهل هذا البيت الحرص على التقرب إلى الملكة والجد في خدمتها وإرضائها»، فتركوها وسألوها الدلالة. فجاءت بأُم موسى، فلما قَرَّئَتْه شرب ثديها، فسرَّت أسية امرأة فرعون، وقالت لها: «كوني معي في القصر»، فقالت لها: «ما كنت لأدع بيتي وولدي، ولكنه يكون عندي»، فأحسنَت إلى أهل ذلك البيت غاية الإحسان، واعتزَّ بنو إسرائيل بهذا الرضاع، والسبب من الملكة.

الأفعال، وإيتاء هذا السؤال مئة من الله عز وجل، فقرن إليها قديم مئته عنده على جهة التوقيف عليها ليُعْظَم اجتهاده وتقوى بصيرته.

وكان من قصة موسى عليه السلام - فيما روي - أن فرعون ذكر له أن خراب ملكه يكون على يدي غلام من بني إسرائيل، فأمر بقتل كل ولد يولد لبني إسرائيل، ثم إنه رأى مع أهل مملكته أن فناء بني إسرائيل يعود على القبط بالضرر؛ إذ هم كانوا عملة

الأرض والصناع ونحو هذا، فعزم على أن يقتل الولدان سنة ويستحييهم سنة، فولد هارون عليه السلام في سنة الاستحياء فكانت أمه آمنة، ثم ولد موسى عليه السلام في العام الرابع سنة القتل، فخافت أمه عليه الذبح فبقيت مهتمة، فأوحى الله إليها، قيل: بملك جاءها فأخبرها وأمرها، قال بعض من روى هذا: ولم تكن نبيّة؛ لأننا نجد في الشرع ورواياته أن الملائكة قد كلّمت من لم يكن نبيًّا، وقال بعضهم: بل كانت أم موسى عليه السلام نبيّة بهذا الوحي، وقال بعضهم: بل كان هذا الوحي رؤيا رأتها في النوم. وقالت فرقة: بل هو وحي إلهام وتسديد كوحي الله إلى النحل وغيرها، فآلهما الله تبارك وتعالى إلى أن اتَّخَذَتْ تابوتًا فقدفت فيه موسى

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ إِيْمَك مَآيُوسَ ۖ ﴿٣٦﴾ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلُهُ ۖ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبْلَهُ مَبْنِيًّا وَلَمْ نُصَبِّ عَلَىٰ عَيْنِي ۖ ﴿٣٧﴾ إِذْ تَنْسُو أَخْبَاءَكَ فَقُولْ هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ مِنْ يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقُلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكَ فَنَوَّيْنَا فَلْيَتَّ سَبِيلَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِي ۖ ﴿٣٨﴾ وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنُقْبِي ۖ ﴿٣٩﴾ أَذْهَبَ أَنتَ وَآخُوكَ يُنَاقِي وَيَلْبِثَا فِي بَدْرِي ۖ ﴿٤٠﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ ﴿٤١﴾ فَقُولْ لَهُ قَوْلًا نَسِيًّا ۖ ﴿٤٢﴾ لَعَلَّهُ يَنْدَكِّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۖ ﴿٤٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُقْرَطَ عَلَيَّ ۖ ﴿٤٤﴾ وَأَنْ يَطْغَىٰ ۖ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَفْ إِنِّي مَعَكُمْ مَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۖ ﴿٤٦﴾ فَأَنبَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ بَلْ لَا تَعْدُ بِهِمْ قَدْ جِئْنَاكَ يَتَايَعُونَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا ۖ مَنْ أَتْبَعَ الْهَدْيَ ۖ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أَرْجَىٰ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۖ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبِّكُمْ نَسُو ۖ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۖ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۖ ﴿٥١﴾

٣١٤

فيما أحاول من الأمور، وقال امرؤ القيس:

بِمَخْنِيَّةٍ قَدْ أَزَرَ الضَّالَّ نَبْثُهَا
مَجْرَجُ جُبُوشِ غَائِمِينَ وَخُبِيبِ
أَي: فَأَوَّمَهُ وصار في طوله. وفتح أبو عمرو وابن كثير الياء من ﴿أَي﴾ وسكنها الباقون.

وروي عن نافع ﴿وَأَشْرِكُهُو﴾ بزيادة واو في اللفظ بعد الهاء. ثم جعل موسى عليه السلام ما طلب من نعم الله تعالى سببًا يلزم كثرة العبادة والاجتهاد في أمر الله. وقوله: ﴿كَذِبَ﴾ نعت لمصدر محذوف، تقديره: تسبيحًا كثيرًا.

٣٦ - ٣٩ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قال الله تعالى: قد أعطيتك يا موسى طلبتك في شرح الصدر وتيسير الأمر وحل العقدة، إنا بالكل وإنا على قدر الحاجة في

وأقام موسى حتى كمل رضاعه، فأرسلت إليها آسية أن جيئي بولدي ليوم كذا، وأمرت خدمها ومن لها أن يَلْقَيْنَه بالثُحف والهدايا واللباس، فوصل إليها على ذلك وهو بخير حال وأجمل شباب، فسُرت به ودخلت به على فرعون ليراه ويحبه، فرأه وأعجبه وقربه، فأخذ موسى عليه السلام بلحية فرعون وجَبَدَهَا، فاستشاط فرعون وقال: «هذا عدو لي»، وأمر بقتله، فناشدته فيه امرأته وقالت: «إنه لا يعقل»، فقال فرعون: «بل يعقل»، فاتفقا على تجربة بالجمرة والياقوت حسبما ذكرنا آنفاً في حلِّ الْعُقْدَةِ، فنجاه الله من فرعون وردّه إلى أمه. فَشَبَّ عندها إلى أن ترعرع، وكان فتى جلدًا فاضلاً. فاعزت به بنو إسرائيل بظاهر ذلك الرضاع، وكان يحميمهم ويكون ضلعه معهم وهو يعلم من نفسه أنه منهم ومن صميمهم، فكانت بصيرته في حمايتهم، وكان يعرف ذلك أعيان بني إسرائيل.

ثم إن قصة القبطي المقاتل مع الإسرائيلي نزلت، وذكُرَهَا في موضعها مُسْتَوْعَبٌ؛ فخرج موسى عليه السلام من مصر حتى وصل إلى مدين، فكان من أمره مع شعيب عليه السلام ما هو مُسْتَوْعَبٌ في موضعه، من أنه تزوج ابنته الصغرى على رعيه الغنم عشر سنين، ثم اعترم الرحيل بزوجته إلى بلاد مصر، فجاء في طريقه فَضْلٌ في ليلة مظلمة فرأى النار حسبما تقدم ذكره. فعَدَّدَ الله تبارك وتعالى على موسى في هذه الآية ما تضمنته هذه القصة من

لطف الله به في كل فضل، وتخليصه له من قصة إلى أخرى، وهذه الفتون التي فتنه بها، أي اختبره وخلّصه حتى صلح للنبوة وسَلِمَ لها.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُوحَىٰ﴾ إيهامٌ يتضمن عِظَمَ الأمر وجلالته في النعم، وهذا نحو قوله سبحانه: ﴿إِذْ يَتَنَبَّأُ الْمَلَائِكَةُ مَا يَتَّبِعُ﴾، وهو كثير في القرآن والكلام، و﴿أَنَّا أَتَيْنَاهُ﴾ بدلٌ من ﴿مَا﴾، والضمير الأول في ﴿أَتَيْنَاهُ﴾ عائد على موسى، وفي الثاني على التابوت، ويجوز أن يعود على موسى عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَلْغِ الْيَمُّ﴾ خبر خرج في صيغة الأمر مبالغة، إذ الأمر أقطع الأنعال وأوجب، ومنه قول النبي ﷺ: «قوموا فلاضِّلْ لكم»، فأخرج الخبر في صيغة الأمر لنفسه مبالغة، وهذا كثير، ومن حيث خرج الفعل مخرج الأمر حسن جوابه كذلك. و(الْعَدُوُّ) الذي كان الله تبارك وتعالى ولموسى عليه السلام هو فرعون، ولكن أم موسى أخبرت به على الإيهام، ولذلك قالت لأخته: قُصِّيهِ، وهي لا تدري أين.

ثم أخبر الله تعالى موسى عليه السلام أنه ألقى عليه مَحَبَّةً منه، فقال بعض الناس: أراد محبة آسية، لأنها كانت من الله وكانت سبب حياته، وقالت فرقة: أراد القبول الذي يضعه الله في الأرض لخيار عباده، وكان حظ موسى عليه السلام منه غاية الرجل، فقالت فرقة: أعطاه إجلالاً يُجِبُّ به كل من رآه، وقالت فرقة: أعطاه ملاحاة العينين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان فيهما ضعف، وأقوى الأقوال أنه القبول.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلِئْلُصْنَعُ عَلَى عَيْنِي﴾ بكسر اللام وضم التاء على معنى: ولئلا تُلْغَى ولتُطْعَم وتُرَبَّى، وقرأ أبو نُهَيْك: ﴿وَلِئْلُصْنَعُ﴾ بفتح التاء، قال ثعلب: معناه: لتكون حركتك وتصرفك على عين مني، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿وَلِئْلُصْنَعُ﴾ بالياء وكسر اللام على الأمر للغائب، وذلك مُتَّجِهٌ. وقوله: ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ معناه: بمرأى مني وأمر مدرك مبصر مراعى.

١٠ - ١١ تفسير قوله عز وجل: العامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مضمّر تقديره: ومثلاً إذ، وتقدم تفسير هذه الآية في القصص المذكورة آنفاً، وقرأت فرقة: ﴿كَي تَقَرَّ﴾ بفتح القاف، وقرأت فرقة: ﴿كَي تَقَرَّ﴾ بكسر القاف، والْفَقْسُ التي قتلها هي نفس القبطي الذي كان يقاتل الإسرائيلي فوكزه موسى فقضى عليه. و(الْفَقْمُ): هم النفس، وكان هم موسى عليه السلام بأمر من طلبه ليثأر به.

وقوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّا قُوتًا﴾ معناه: خَلَّصْنَاكَ تَخْلِيصاً، هذا قول جمهور المفسرين، وقالت فرقة: معناه: اختبرناكَ، وعلى هذا التأويل لا يُرَاد إلا ما اختبر به موسى عليه السلام بعد بلوغه وتكليفه، وما كان قبل ذلك فلا يدخل في اختبار موسى عليه السلام.

وعِدَّة سنين في أهل مدين عشرة أعوام؛ لأنه إنما قضى أوفى الأجلين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿عَلَى

قَدَرٍ أَي: بميقات محدود للنبوة التي قد أرادها الله بك، ومنه قول الشاعر:

نَالَ الْخَلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدْرًا
كَمَا أَتَى رَبُّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ
وقوله تعالى: ﴿رَأْسُكَ تَنَازَعُ﴾ معنى: جعلتك موضع الصنيعة ومقرَّ الإجمال والإحسان، وقوله: ﴿لِنَفْسِي﴾ إضافة تشريف، وهذا كما تقول: «بيت الله» ونحوه، «والضياء لي وأنا أجزي به»، وعبر بالنفس عن شدة القرب وقوة الاختصاص.

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٣﴾ تفسير قوله عز وجل: أمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام في هذه الآية بالنفوذ إلى دعوة فرعون، وخاطب موسى وحده تشريفاً له، ويحتمل أن هارون أوحى إليه مع ملك أن ينفذ، و﴿يَا أَيُّهَا﴾ معنى: بعلاماتي التي أعطيتكما من معجزة وآية وحي وأمر ونهي كالنوراة، و﴿يَا أَيُّهَا﴾ معنى: تضعفا وتبطلاً، تقول: وَتَى فلان في أمر كذا إذا تباطأ فيه عن ضعف، ومنه قول الشاعر:

فَمَا أَنَا بِالْوَانِي وَلَا الضَّرْعُ الثَّمَرِ
وَالْوَتَى: الكلال والفشل في البهائم والإنس، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَلَا تَهَيَّا فِي ذِكْرِي﴾، ومعناه: وَلَا تَلِينَا، من قولك: هَيَّ لِيْن.

و(الْقَوْلُ اللَّيْنُ)، قالت فرقة: معناه: كُتِبَاءُ، وقالت فرقة: بل أمرهما بتحسين الكلمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الوجه، وذلك أن كل من

يريد دعاء إنسان إلى أمر يكرهه، فإنما الوجه أن يحزر في عبارته المعنى الذي يريد حتى لا يخل به ولا يُجزئه، ثم يجتهد بعد ذلك في أن تكون عبارته لطيفة ومقابلته لينة، فذلك أجلب للمراد، فأمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام أن يَسْلُكَا مع فرعون إكمال الدعوة في لين من القول.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ معناه: على رجائكما وطمعكما، فالتوقع فيها إنما هو راجع إلى جهة البشر، وقرأ الجمهور: ﴿يَقْرَءُ﴾ بفتح الياء وضم الراء، ومعناه: يَغْجَلُ ويتسرع بمكرهه فينا، ومنه الفارط في الماء، وهو الذي يتقدم القوم إليه، قال الشاعر:

فَأَسْتَعْجَلُونَا وَكَانُوا مِنْ صَحَابَتِنَا
كَمَا تَقْدَمُ قُرَاطٌ لِيُورَادَ
وقرأت فرقة: ﴿يُقْرِطُ﴾ بضم الياء وكسر الراء، ومعناه: يَشْتَطُ، وقرأ ابن محيصن: ﴿يُقْرِطُ﴾ بضم الياء وفتح الراء، ومعناها أن يحمله حائل على التسرع إلينا.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون، وهذا كما تقول: «الأمير مع فلان» إذا أردت أنه يحميه. ﴿أَسْعَ وَارَكُ﴾ عبارة عن الإدراك الذي لا تخفى معه خافية، تبارك الله رب العالمين.

﴿٤٤﴾ - ﴿٤٥﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: فأتيا فرعون فأغلاماه أنكما رسولان إليه، وعبر لفرعون بـ﴿رَبَّكَ﴾ تحقيراً له؛ إذ كان يدعي الربوبية، ثم أمر بدعوته إلى أن يَتَّبَعَ

معهما بني إسرائيل ويُخرجهم من دُلْ خدمة القبط، وقد تقدم في هذه الآية دعاؤه إلى الإيمان، وهذه جملة ما دُعي إليه فرعون «الإيمان وإرسال بني إسرائيل»، والظاهر أن رسالته إليه ليست على حد إرساله إلى بني إسرائيل، وتعذيب بني إسرائيل كان ذبح أولادهم وإذلالهم. و(الآية) التي أحالاً عليها هي العصا واليد. وقال: ﴿جَنَّاتِكَ﴾ - والجاني بهما موسى - تجوزاً من حيث هما مشتركان.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْتُمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ أَهْلُكُمْ﴾ يحتمل أن يكون آخر كلام وقضله، فيقوى أن يكون (السلام) بمعنى التحية، كأنما رغباً بها عنه، وجوزاً على العُرف في التسليم عند الفراغ من القول فسلماً على من اتبع الهدى، وفي هذا توبيخ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذه الجملة استعمال الناس هذه الآية في مخاطبتهم ومحاوراتهم. ويحتمل أن يكون في درج القول متصلاً بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا قَدْ أُرِجِي إِلَيْتَا﴾ فيحتمل - على هذا - أن يكون خبراً بأن السلامة للمهتدين، وهذان المعنيان قالت كل واحد منهما فرقة لكن دون هذا التلخيص، وقالوا: ﴿وَأَسَلْتُمُ﴾ بمعنى: السلامة، و﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى «اللام»، أي: السلامة لمن اتبع الهدى.

ولما فرغا من المقالة التي أمرا بها عند قوله: ﴿وَتَوَلَّى﴾ خاطبهما فرعون، وفي سرد هذه الآية حذف يدل عليه ظاهر الكلام، تقديره:

فَأَنبِئَهُ فَلَمَّا قَالَ جَمِيعَ مَا أَمَرَا بِهِ قَالَ لَهَا فِرْعَوْنُ: فَمَنْ رَبُّكُمَا؟ وَقَوْلُهُ: ﴿يَمُوسَى﴾ بِغَيْرِ جَمْعِهِ مَعَ «هَارُونَ» فِي الضَّمِيرِ نِدَاءٌ لَهُ بِمَعْنَى التَّخْصِصِ وَالتَّوْقِيفِ؛ إِذْ كَانَ صَاحِبَ عَظَمِ الرِّسَالَةِ وَلَزِمَ الْآيَاتِ.

٥٣ - ٥٤ تفسير قوله عز وجل:

استبَدَّ موسى عليه السلام بجوابه من حيث خصه بالسؤال، ثم أعلمه من صفات الله بالتبلي لا تشريك لفرعون فيه ولا بوجه مجاز. واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾؛ فقالت فرقة: أعطى الله الذِّكْرَ من كل حيوان نوعه وخلقته أنثى، ثم هدى للإتيان. وقالت فرقة: أعطى الله كل موجود من مخلوقاته جِلْقَتَهُ وصورته، أي أكمل ذلك له وأتقنه، ثم هدى أي: يسر كل شيء لمنافعه ومرافقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول أشرف معنى وأعم في الموجودات.

وقرأت فرقة: ﴿خَلَقَهُ﴾ بفتح اللام، ويكون المفعول الثاني به ﴿أَطْعَمَ﴾ مُقَدَّرًا، تقديره: كماله أو مصلحته.

وقول فرعون: ﴿هَمَّا بِالْقُرُونِ الْأُولَى﴾ يحتمل أن يريد محتاجته بحسب ما تقدم من القول ومناقضته فيه، فليس يتجه على هذا أن يريد إلا: ما بال القرون الأولى لم تُبعث إليها ولم يوجد أمرُك عندها؟ فردَّ موسى عليه السلام علم ذلك إلى الله تعالى. ويحتمل أن يريد فرعون قَطْعَ الكلام الأول والرجوع إلى سؤال

موسى عَمَّنْ سَلَفَ مِنَ النَّاسِ رُوحَانًا فِي الْحِجَةِ وَحِيدَةٍ، وَقِيلَ: (الْبَالُ): الْحَالُ، كَأَنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ حَالِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يَهْدِيكُمْ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بِالْكَمِّ»، قَالَ النَّقَاشُ: إِنَّمَا قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿هَمَّا بِالْقُرُونِ الْأُولَى﴾ لَمَّا سَمِعَ مُؤْمِنَ آلِهِ يَقُولُ: ﴿يَقْوَى إِلَيَّ لَخَافَ عَلَيْكُمْ يَنْتَلِ يَوْمَ الْأَحْزَابِ﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَكَادَ الْآيَةُ، وَرَدَّ مُوسَى الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ لِأَنَّهُ لَمْ تَأْتِ التَّوْرَةُ بَعْدَ وَقَوْلِهِ: ﴿فِي كِتَابٍ﴾ يَرِيدُ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ، أَوْ فِيمَا كَتَبَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ أَحْوَالِ الْبَشَرِ.

وقرأت فرقة: ﴿لَا يَصِلُ﴾ بفتح الياء وكسر الضاد، واختلف في معنى هذه القراءة؛ فقالت فرقة: هو ابتداء كلام، تنزيه لله تبارك وتعالى عن هاتين الصفتين، وقد كان الكلام تم في قوله: ﴿فِي كِتَابٍ﴾، و﴿يَصِلُ﴾ معناه: يتلف، وقالت فرقة: بل قوله: ﴿لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ من صفة الكتاب، أي أن الكتاب لا يغيب عن الله تعالى، تقول العرب: «صَلَّنِي الشَّيْءُ» إِذَا لَمْ أَجِدْهُ، وَأَصْلُهُ أَنَا، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ حِكَايَةً عَنِ الْإِسْرَائِيلِيِّ الَّذِي طَلَبَ أَنْ يُحْرَقَ بَعْدَ مَوْتِهِ: «لَعَلِّي أَضِلَّ اللَّهَ» الْحَدِيثُ، «وَلَا يَنْسَى» أَظْهَرَ مَا فِيهِ أَنْ يَعُودَ ضَمِيرُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ إِلَى

قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٣﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَكَنًا لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٤﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿٥٥﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَمِمَّا نَحْيِيكُمْ وَمِمَّا تَخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا كَلْهَبًا فَكَذَّبَ وَإِنِّي ﴿٥٧﴾ قَالَ أَجَعَلْنَا التَّخْرِجَ مِنْ أَرْضِنَا سِحْرَ كَيْدِ يَمُوسَى ﴿٥٨﴾ فَلَمَّا بَيَّنَّنَا سِحْرَ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ يَسْتَأْذِنُكَ وَمُعِدَّةً لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا ﴿٥٩﴾ قَالَ مُوعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ ضَعْفَى ﴿٦٠﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦١﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مِنْ قَبْلِي ﴿٦٢﴾ فَتَنَزَّلُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٣﴾ قَالُوا إِنَّ هَذَيْنِ سَجَرَيْنِ بَرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكُمْ النَّارَ ﴿٦٤﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَنَ ﴿٦٥﴾

٣١٥

الكتاب في بعض التأويلات، يصفه بأنه لا ينسى، أي: لا يدع شيئاً، فالنسيان هنا استعارة، كما قال في موضع آخر: ﴿لَا أَحْصَاهَا﴾، فوصفه بالإحصاء من حيث حصرته فيه الحوادث.

٥٣ - ٥٤ تفسير قوله عز وجل:

انظر هذه الأشياء التي ذكرها موسى عليه السلام، هي مما تقضي بداية العقول أن فرعون وكل بشر بعيد عنها؛ لأنه لو قال: هو الرزاق القادر المريد العالم ونحوه من العبارات لأمكن فرعون أن يغالط ويقول: أنا أفعل هذا كله، فإنما أتاه موسى عليه السلام بصفات لا يمكن فرعون أن يقول إن ذلك له.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عباس: ﴿وَمِمَّا تَخْرِجُكُمْ وَمِمَّا تَحْيِيكُمْ﴾ بِكسر الميم وبألف، و(المهَاد) هو جمع مهْدٍ،

وقيل: هو اسم مفرد كفرش وفراش، وقرأ عاصم، وحمة، والكسائي: ﴿هَذَا﴾ بفتح الميم وسكون الهاء، وقوله: ﴿وَسَكَتَ﴾ بمعنى: نَهَجَ وَلَحَبَ، و(السُّبُل): الطُّرُق. وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا يَدَيْهِ﴾ يحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام، على تقدير: يقول عز وجل: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾، ويحتمل أن يكون كلام موسى تم عند قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ثم وصل الله تعالى كلام موسى بإخباره لمحمد ﷺ، والمراد الخلق أجمع بهذه الآيات المنبئة عليها. و(الْأَزْوَاج) بمعنى: الأنواع، وقوله: ﴿سَقَى﴾ نعت للأزواج، أي: مختلفات.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ بمعنى هي صالحة أن يؤكل منها وترعى الغنم فيها، فأخرج العبارة في صيغة الأمر؛ لأنه أوحى الأفعال وأمرها للنفس. و(الْأَنْفُسُ) جمع نُفُوسٍ، والنُّفُوسُ: العقل الناهي عن القبائح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُ﴾، أي: من الأرض، وهذا من حيث خلق آدم عليه السلام من تراب، ﴿وَنَفَا نُمِدَّكُمْ﴾ يريد: بالموت والدفن والفناء كيف كان، وقوله: ﴿وَنَفَا نُخْرِجُكُمْ﴾ يريد: بالبعث يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ إخبار من الله تعالى لمحمد ﷺ عن فرعون، وهذا يؤيد أن الكلام من قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا يَدَيْهِ﴾ إنما هو خطاب لمحمد ﷺ، وقوله:

﴿كُلُّهَا﴾ عائد على الآيات التي رآها، لا أنه رأى كل آية الله، وإنما المعنى أن الله أراه آيات ما، وهي العصا واليد والطمسة وغير ذلك، وكانت رؤيته لهذه الآيات مستوعبة، يرى الآية كلها كاملة، كأنه قال: «لقد آريناهُ آياتنا بكمالها»، وأضاف الآيات إلى ضمير العظمة تشريفاً لها. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا﴾ يقتضي تَكْسِبَ فرعون، وهذا هو الذي يتعلق به الثواب والعقاب.

٥٧ - ٥٩ تفسير قوله عز وجل: هذه المقالة من فرعون تدل على أن أمر موسى عليه السلام قد كان قوياً، وكثر متبوعوه من بني إسرائيل، ووقع أمره في نفوس الناس، وذلك أنها مقالة من يحتاج إلى الحجة لا من يصدع بأمر نفسه. وأرضهم هي أرض مصر.

وقرأت فرقة: ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾ بالرفع، وقرأت فرقة: ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾ بالجزم حملاً على جواب الأمر، و﴿نَحْنُ﴾ تأكيد للضمير من حيث احتاج الكلام إلى العطف عليه أكد. و﴿مَوِيدًا﴾ مفعول أول لـ ﴿أَجْمَلْ﴾، و﴿مَكَانًا﴾ مفعول ثانٍ. وهذا الذي اختار أبو علي، ومنع أن يكون ﴿مَكَانًا﴾ معمولاً لقوله: ﴿مَوِيدًا﴾ لأنه قد وُصِفَ، وهذه الأسماء العاملة عمل الفعل إذا نعتت أو عطف عليها أو أخبر عنها أو صُفِّرَتْ أو جُمِعَتْ وتوَعَّلَتْ في الاسمية بمثل هذا لم تعمل ولا تَعْلَقُ بها شيء هو منها، وقد يَتَوَسَّعُ في الظروف فتَعْلَقُ بعد ما ذكرناه، كقوله تعالى: ﴿يَنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾

إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ، فقوله: ﴿إِذْ﴾ معلق بقوله: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ وهو قد أخبر عنه، وإنما جاز هذا في الظرف خاصة، وكذلك منع أبو علي أن يكون ﴿مَكَانًا﴾ نصب على الظرف الساذ مسدود المفعول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، ومنع قوم أن يكون ﴿مَكَانًا﴾ نصباً على المفعول الثاني بـ ﴿تُخْلِفُهُ﴾، وجوزه كثير من النحاة، ووجهه أن يَتَسَّعَ في أن يخلف الموعود. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿سِوَى﴾ بكسر السين. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمة: ﴿سُؤَى﴾ بضمها، والجمهور نون النون. وقرأ الحسن: ﴿سِوَى﴾ بكسر السين غير منون الواو، قال أبو الفتح: «تَرَكَ الصرف هنا مشكلاً، والذي ينبغي أن يكون معمولاً على الوقف»، وقرأت فرقة: ﴿سَوَاءً﴾، ذكره أبو عمرو عن ابن أبي عبله، ومعنى ﴿سِوَى﴾ أي: عدلاً ونصفاً، قال أبو علي: فكانه قال: مكاناً قريباً مما قُرِبه منكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما أراد: حالنا فيه مستوية، فيعُمُ ذلك القُرْبَ، وأن تكون المنازل فيه واحدة في تعاطي الحق، أي: لا تعترضكم فيه الرياسة، وإنما بقصد الحجة، و﴿سُؤَى﴾ لغة في (سِوَى)، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

وإن أباناً كان حلٍ ببِلْدَةٍ
سِوَى بَيْنِ قَيْسٍ قَيْسِ عِيْلَانَ والفِرَزِ

وقالت فرقة: معناه: مستويّاً من الأرض لا وَهْدَ فيه ولا نَجْد، وقالت فرقة: معناه: سَوَى مكاننا هذا.

فقال موسى عليه السلام: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾، اتسع في الظرف من قرأه برفع ﴿يَوْمَ﴾ فجعله خبراً. وقرأ الحسن، والأعمش، والثقفى: ﴿يَوْمَ﴾ بالنصب على الظرف، والخبر مقدر. ورؤي أن يوم الزينة كان عيداً لهم ويوماً مشهوداً، وصادف يوم عاشوراء، وكان يوم سبت، وقيل: هو كسر الخليج الباقي إلى اليوم. وقوله: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ﴾ عطف على ﴿الزَّيْنَةِ﴾ فهو في موضع خفض، ويحتمل أن يكون في موضع رفع على تقدير: موعدهم أن يُحشَرَ، وتعلق عطفه على ﴿يَوْمَ﴾، وفيه نظر. وقرأ الجمهور: ﴿يُحْشَرُ﴾ برفع الياء، وقرأ ابن مسعود، وأبو سعيد الخدري: ﴿يُحْشَرُ﴾ بفتح الياء وضم الشين ونصب ﴿النَّاسِ﴾، وقرأت فرقة: ﴿نُحْشَرُ﴾ بالنون، و﴿الْحَشَرُ﴾: الجمع، ومعناه: نحشر الناس لمشاهدة المعارضة والتَّهْيُؤُ لقبول الحق حيث كان.

٦٠ - ٦١ تفسیر قوله عز وجل:

المعنى: فجمع السحرة ووعدهم وأمرهم بالإعداد لموسى، فهذا هو كيده، ثم أتى فرعون بجمعه وأهل دولته، والسحرة معه، وكانت عصابة لم يخلق الله تعالى أسحر منها، وجاء أيضاً موسى عليه السلام ببني إسرائيل معه، فقال موسى عليه السلام للسحرة:

﴿وَيَلْجَأُ﴾، وهذه مخاطبة مُحذَر،
ونذبههم في هذه الآية إلى قول
الحق إذا رأوه، وألاً يباهنوا
بكذب.

وقرأ عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿فَيَسْجُجُكُم﴾ بفتح الياء. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿فَيَسْجُجُكَ﴾ بضم الياء، وهما لغتان بمعنى واحد، يقال: سَجَّحْتُ وَأَسَجَّحْتُ بمعنى: أَهْلَكْتُ وَأَذْقَبْتُ، ومنه قول الفرزدق:

وَعَصُ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لِمَ يَدْعُ
مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسَحَّتًا أَوْ مُجَلَّفُ
فَهَذَا مِنْ أَسَحَّتْ.

فلما سمع السحرة هذه المقالة هالهم هذا المنزع، ووقع في نفوسهم من مهابته رعبٌ شديد، وتنازعا أرواحهم. (والتنازع) يقتضي اختلافاً كان بينهم في السر، أي: قال بعضهم لبعض: هو محق، وقال بعضهم: هو مبطل، وقال بعضهم: إن كان من عند الله فسيُغلبنا، ونحو هذا من الأقوال التي تعهد من الجموع الكثيرة في وقت الخوف كالحرب ونحو هذا، ومعلوم أن جميع تناجيههم إنما كان في أمر موسى عليه السلام، وقالت فرقة: إنما كان تناجيههم بالآية التي بعد هذا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّذْمَرٌ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والأظهر أن تلك قيلت علانية، ولو
كان تناجيهما ذلك لم يكن ثم تنازع.
(والنحوي): السر والمساءلة، أي:

كان كل رجل منهم يناجي من يليه،
ثم جعلوا ذلك سرّاً مخافة فرعون أن
يتبين فيهم ضعفاً؛ لأنهم حينئذ لم
يكونوا مُصْطَمِينَ على غلبة موسى
عليه السلام، بل كان ظناً من
بعضهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَجْرَيْنَ﴾ الآية. قرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿إِنَّ﴾ مُشَدَّدة النون ﴿هَٰذَا﴾ بـالْف ونون مخففة للثنية، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَاجِرَيْنَ﴾، وقرأ ابن كثير: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاجِرَيْنَ﴾ بتخفيف نون ﴿إِنَّ﴾ وتشديد نون ﴿هَٰذَا لَسَاجِرَيْنَ﴾، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿إِنَّ﴾ خفيفة ﴿هَٰذَيْنِ﴾ خفيفة أيضاً ﴿سَجْرَيْنَ﴾، وقرأت فرقة: ﴿إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سَاجِرَيْنَ﴾، وقرأت فرقة: ﴿إِنَّ ذَٰنِ لَسَاجِرَيْنَ﴾، وقرأت فرقة: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا سَاجِرَيْنَ﴾، وقرأت فرقة: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ بتشديد النون من ﴿هَٰذَا﴾.

قَامًا الْقِرَاءَةُ الْأُولَى، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ:
﴿إِنْ﴾ بِمَعْنَى: نَعَمْ، كَمَا رَوَى أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ: **﴿إِنْ﴾**
الْحَمْدُ لِلَّهِ بِرَفْعِ (الْحَمْدِ)، وَقَالَ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **﴿إِنْ﴾**
وَرَأَيْتُهَا حِينَ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: لَعَنَ اللَّهُ
نَاقَةَ حَمْلَتْنِي إِلَيْكَ، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا
التَّأْوِيلِ أَنَّ اللَّامَ لَا تَدْخُلُ فِي خَبَرِ
الِابْتِدَاءِ، وَهُوَ مِمَّا يَجُوزُ فِي الشُّعْرِ،
وَمَعْنَى قَوْلِ الشَّاعِرِ:

أُمُّ الْحَلِيسِ لَعَجُوزُ شَهْرِيَّةٍ
تَرْضَى مِنَ اللَّحْمِ بِعَظْمِ الرُّقْبَةِ
وَذَهَبَتْ فِرْقَةٌ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ بُلُغَةٌ
بَنَى الْحَارِثُ بَنَ كَعْبٍ، وَهِيَ إِيقَاءُ

﴿هَذَانِ﴾ مُشَبَّهَةٌ هُنَا
بِأَلْفِ تَفْعَلَانِ، وقال
ابن كيسان: لما كان
﴿هَذَا﴾ بحال واحدة في
رفعه ونصبه وخفضه
تركت تثنيته هنا كذلك.
وقالت جماعة - منهم
عائشة رضي الله عنها،
وأبو عمرو -: هذا مِمَّا
لَحَنَ الْكَاتِبُ فِيهِ وَأَقِيمَ
بِالصَّوَابِ وَهُوَ تَخْفِيفُ
النُّونِ مِنْ «إِنْ».

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: وهذه الأقوال
مُغْتَرِضَةٌ، إِلَّا مَا قِيلَ مِنْ
أَنَّهُا لُغَةٌ، وَ«إِنْ» بِمَعْنَى:
أَجَلٌ وَنَعَمْ، أَوْ إِنْ فِي

قَالُوا يَتَّبِعُونَ إِمَانًا أَنْ تَلْقَىٰ وَإِيمَانًا تَكُونُ أَوَّلَ مَنْ لَقِيَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
بَلْ أَتَقُولُ فَإِنَّا جَاءَهُمْ وَعَصِيَهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِمْ سِحْرُهُمْ أَنَّهُمْ سَمِعُوا
﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ أَنْتَ
أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا
كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَلَ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَ هُجْدًا
قَالُوا أَمْ نَمَارِيبُ هَرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ أَمْ نَمَرْتُمْ لَهُ فَقِيلَ إِنَّهُ أَذِنَ
لَكُمْ أَنَّهُ لَكُمْ يَرْكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السَّحْرَ فَلَا أَقْبِعُكُمْ أَيُّدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتُكُمْ فِي جُدُوعِ الْأَشْجَلِ وَلَتَعْلَمَنَّ
إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَقْبَلَ ﴿٧١﴾ قَالُوا أَنْ تُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ
الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ
الْحُبُوبَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّمَا أَمْثَارُهَا لِتُفْهَرَقَ فَتَأْكُلُهَا وَأَنْتَ أَكْرَهْتَهَا
عَلَيْهِمْ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَقْبَلَ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَنْ بَاتَ رَبَّهُ يَحْجُرْ مَا
فَلَانَ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِيهِ مَوْءَاظُ
عَمَلٍ الصَّالِحِينَ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ حِجَّتْ عَنْهُمْ
حَجَرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَوَّى ﴿٧٦﴾

٣١٦

أَلْفِ التَّثْنِيَةِ فِي حَالِي النِّصْبِ
وَالخَفْضِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:
تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أَذْنَاءِ طَغَنَةٍ
ذَعَنَهُ إِلَىٰ هَابِي السَّرَابِ عَقِيمٍ
وقول الآخر:

فَأَطْرَقَ إِطْرَاقُ الشُّجَاعِ وَلَوْ يَزَى
مَسَاغًا لِنَابِءِ الشُّجَاعِ لَصَسَمَا
وَتَعَزَى هَذِهِ اللَّغَةُ لِكِنَاثَةٍ، وَتَعَزَى
لِيَخْتَعِمَ. وقال الفراء: الألف في
﴿هَذَانِ﴾ دُعَامَةٌ وَلَيْسَتْ مَجْلُوبَةً
لِلتَّثْنَةِ، وَإِنَّمَا هِيَ أَلْفٌ (هَذَا) تُرِكَتْ
فِي حَالِ التَّثْنَةِ، كَمَا نَقُولُ: (الَّذِي)
ثُمَّ فِي الْجَمْعِ نَزِيدٌ نُونًا وَنَتْرَكَ الْيَاءَ
فِي حَالِ النِّصْبِ وَالرَّفْعِ وَالخَفْضِ،
وقال الزجاج: فِي الْكَلَامِ ضَمِيرٌ
تَقْدِيرُهُ: إِنَّهُ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وفي هذا التأويل دخول اللام في
الخبر، وقال بعض النحاة: أَلِفٌ

بعض، وقرأ ابن كثير: ﴿ثُمَّ﴾ بفتح
الميم ﴿أَبْتُوا﴾ بسكون الياء، وقرأ
أيضاً في رواية شبل عنه: ﴿ثُمَّ أَبْتُوا﴾
بكسرهما، قال أبو علي: وهذا
غلط، ولا وجه لكسر الميم من
﴿ثُمَّ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿ثُمَّ أَتُوا﴾
بفتح الميم وهمزة بعد الألف. وقوله
تعالى: ﴿صَلِّ﴾ حال، أي:
مُضْطَفِّينَ، وتَدَاعَوْا إِلَى هَذَا لِأَنَّ
أَقْبَبَ وَأَظْهَرَ لَهُمْ. وَ﴿أَتَلَحَّ﴾ معناه:
ظَفَرَ بِبَغِيئَتِهِ، وَ﴿أَسْتَقَلَّ﴾: طَلَبَ
الْعُلُوَّ فِي أَمْرِهِ وَسَعَى سَعْيَهُ.

١٥ - ١٦ تفسير قوله عز وجل:

خَيْرَ السَّحَرَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي
أَنْ يَبْتَدِءَ بِالْإِلْقَاءِ أَوْ يَتَأَخَّرَ بَعْدَهُمْ،
وَرُوي أَنَّهُمْ كَانُوا سَبْعِينَ أَلْفَ
سَاحِرٍ، وَرُوي أَنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثِينَ
أَلْفًا، وَرُوي أَنَّهُمْ كَانُوا خَمْسَةَ عَشَرَ
أَلْفًا، وَرُوي أَنَّهُمْ كَانُوا تِسْعِمِائَةَ
أَلْفَ، ثَلَاثِمِائَةَ مِنَ الْفِيَوْمِ، وَثَلَاثِمِائَةَ
مِنَ الْفَرَسِ، وَثَلَاثِمِائَةَ مِنَ
الْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَكَانَ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ
مِنْهُمْ حَبْلٌ وَعَصِي قَدْ اسْتَعْمَلَ فِيهَا
السَّحْرَ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا﴾ هِيَ
لِلْمُفَاجَأَةِ، كَمَا تَقُولُ: خَرَجْتُ إِذَا
زَيْدٌ، وَهِيَ الَّتِي تَلِيهَا الْأَسْمَاءُ.
وَقُرَأَتْ فِرْقَةً: ﴿وَعَصِيَهُمْ﴾ بِكسْرِ
العين، وَقُرَأَتْ فِرْقَةً بضمها، وَقُرَأَتْ
فِرْقَةً: ﴿يُخِيلُ﴾ عَلَى بِنَاءِ الْفِعْلِ
لِلْمَفْعُولِ، فَقَوْلُهُ: ﴿أَنَّهُ﴾ فِي مَوْضِعِ
رَفْعٍ عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ. وَقُرَأَ
الْحَسَنُ، وَالثَّقَفِيُّ: ﴿تُخِيلُ﴾ بضم
الثاءِ الْمُنْقُوطَةِ مِنْ فَوْقِ وَكسْرِ الياءِ،
وَإِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَى الْحَبَالِ وَالْعَصِيِّ،
فَقَوْلُهُ: ﴿أَنَّهُ﴾ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ.

الكلام ضمير.
وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ «إِنْ» خَفِيفَةً، فَهِيَ
عِنْدَ سِبْوِيهِ الْمَخْفُفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ
وَيَرْتَفِعُ بَعْدَهَا الْأَسْمُ، وَيَقُولُ الْفَرَاءُ:
هِيَ بِمَعْنَى (مَا) وَاللَّامُ بِمَعْنَى (إِلَّا).
وَوَجْهُهُ سَائِرُ الْقَرَاءَاتِ بَيِّنٌ.

وعبر كثير من المفسرين عن
«الطريقة» بـ«السَّادَةِ»، وَإِنَّمَا يَرَادُ أَهْلُ
الْعَقْلِ وَالسَّنِّ وَالْحِجَى، وَخُكِّي أَنَّ
الْعَرَبَ تَقُولُ: «فُلَانٌ طَرِيقَةُ قَوْمِهِ»،
أَي: سَيِّدُهُمْ، وَالْأَظْهَرُ فِي الطَّرِيقَةِ
هَنَا أَنَّهَا السَّيْرَةُ وَالْمَمْلَكَةُ وَالْحَالُ الَّتِي
هِيَ عَلَيْهَا، وَ«الَّتِي» تَأْنِيثُ الْأَمْثَلِ،
أَي: الْفَاضِلَةُ الْحَسَنَةُ.

وقرأ جمهور القراء: ﴿فَاجْمَعُوا﴾
بِقَطْعِ الْأَلْفِ وَكسْرِ الميمِ، عَلَى
مَعْنَى: اعْزَمُوا، وَقُرَأَ أَبُو عَمْرٍو
وَحْدَهُ: ﴿فَاجْمَعُوا﴾ مِنْ (جَمَعَ)،
أَي: ضَمُّوا سِحْرَهُمْ بَعْضُهُ إِلَى

وقرأت فرقة: ﴿تَخِيلُ﴾ بفتح التاء والياء وإسناد الفعل إلى الحبال والعصي، فقوله: ﴿أَنَّهَا﴾ مفعول من أجله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر من الآيات والقصص في كتب المفسرين أن الحبال والعصي كانت تتحرك وتنقل بحيل السحر، ويدس الأجسام الثقيلة المياعة فيها، وكان تحريكها يشبه تحريك الذي له إرادة كالحيوان، وهو السغي، فإنه لا يوصف بالسغي إلا من يمشي من الحيوان. وذهب قوم إلى أنها لم تتحرك، ولكنهم سحروا أعين الناس وكان الناظر يُخِيل إليه أنها تتحرك وتنقل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والله أعلم أي ذلك كان.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ﴾ عبارة عما يعترى نفس الإنسان إذا وقع ظنه في أمر على شيء يسوءه. وظاهر الأمر كله الصلاح، فهذا الفعل من أفعال النفس يسمى الوجيس، وعبر المفسرون عن ﴿أَوْجَسَ﴾ بأَضْمَرَ وهذه العبارة أعم بكثير من الوجيس. و﴿خِيفَةُ﴾ يصح أن يكون أصلها (خَوْفَةٌ) فقلبت الواو ياءً للتناسب، ويحتمل أن يكون (خَوْفَةٌ) بفتح الخاء، قلبت الواو ياءً ثم كسرت الخاءً للتناسب. وخوف موسى عليه السلام إنما كان على الناس أن يضلوا لهول ما رأى. والأول أصوب؛ لأنه أوجس في نفسه على الجملة وبقي ينتظر الفرج. وقوله: ﴿أَنْتَ الْغَالِبُ﴾ أي الغالب لمن ناوأك في هذا المقام.

وقرأ جمهور القراء: ﴿تَلْقَفُ﴾ بالجزم وشذ القاف على جواب الأمر. وقرأ ابن عامر وحده: ﴿تَلْقَفُ﴾، وهو في موضع الحال، ويصح أن يكون من الملقى على الاتساع، ويصح أن يكون من الملقى وهي العصا، وهذه حال وإن كانت لم تقع بعد، كقوله تعالى: ﴿هَذَّبًا يَكْبُلُ أَكْـمَبَ﴾، وهذا كثير. وقرأ حفص عن عصام: ﴿تَلْقَفُ﴾ بسكون الفاء وتخفيف القاف، وأثت الفعل وهو مسند إلى ما في اليمين من حيث كانت العصا مُرَادَةً بذلك. وروى البري عن قتيل أنه كان يشدد الفاء من ﴿تَلْقَفُ﴾، كأنه أراد: تلتقف فأدغم، وأنكر أبو علي هذه القراءة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن قارئها إنما يَلْتَزِمُها في الوصل حيث يستغني عن جلب ألف.

وقرأ الجمهور: ﴿كَيْدٌ﴾ بالرفع، وقرأت فرقة: ﴿كَيْدٌ﴾ بالنصب، وهذا على أن ﴿مَا﴾ كافة و﴿كَيْدٌ﴾ منصوب بـ﴿صَنَعُوا﴾، ورفع ﴿كَيْدٌ﴾ على أن ﴿مَا﴾ بمعنى الذي. و﴿يُلْقِي﴾ معناه: يظفر ببغيته، وقالت فرقة: معناه أن الساحر يقتل حيث تقف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا جزء من عدم الفلاح، وقرأت فرقة: ﴿أَيْنَ أَتَى﴾، والمعنى فيها مقارب.

وروي من قصص هذه الآية أن فرعون لعنه الله، جلس في عليه له طولها ثمانون ذراعاً، والناس تحته

في بسيط، وجاء سبعون ألف ساحر فألقوا من حبالهم وعصيهم ما فيه وقر ثلاثمائة بعير، فقال الأمر. ثم إن موسى عليه السلام ألقى عصاه من يده فاستحالت ثعباناً، وجعلت تنمو حتى روي أنها عبرت النهر بذنبها، وقيل: البحر، وفرعون في هذا يضحك ويرى أن الاستواء حاصل. ثم أقبلت تأكل الحبال والعصي حتى أفنتها، ثم فغرت نحو فرعون، ففرغ عند ذلك وقال: يا موسى، فمد موسى عليه السلام يده إليها فرجعت عصاً كما كانت فنظر السحرة وعلموا الحق ورأوا عدم الحبال والعصي فأمنوا رضي الله عنهم.

﴿٧٠﴾ - ﴿٧١﴾ تفسير قوله عز وجل:

في خلال هذه الآية تقدير وحذف يدل عليه ظاهر القول، فالمقدر من ذلك هنا: «فألقى موسى عصاه فألتقمت كل ما جاءوا به»، أو نحو هذا. وروي أن السحرة لما رأَت العصا لا أثر فيها للسحر ثم رأَت انقلابها حيَّةً وأكلها الحبال والعصي ثم رجوعها إلى حالتها وعدم الحبال والعصي، أيقنوا بنبوة موسى عليه السلام، وأن الأمر من عند الله تعالى. وقدم ﴿هَـزُونَ﴾ قبل ﴿وَمُوسَى﴾ لتستوي رؤوس الآي بنقل معنى قول السحرة، وهذا مثل قوله عز وجل: ﴿أَرْوَجَا مِنْ نَبَاتٍ شَقٍّ﴾، فتأخير ﴿شَقٍّ﴾ إنما هو لتعتدل رؤوس الآي، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ إِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾، فتأخير قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ إنما هو لتستوي رؤوس الآي.

السلام، والأول أذهب مع
مخرقة فرعون.

عز وجل: ﴿٧٢﴾ - ﴿٧٣﴾ تفسير قوله

قال السحرة لفرعون لما
توعدهم: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾،
أي: لن نفضلك ونفضل
السلامة منك علي ما رأينا
من حجة الله تعالى وآياته
المبينات وعلى الذي
فطرنا، هذا على قول
جماعة إن الروا في قوله:

﴿وَالَّذِي﴾ عاطفة. وقالت
فرقة: هي واو القسم،
﴿فَطَرْنَا﴾ معناه: خلقنا
واخترنا، فافعل يا فرعون
ما شئت، وإنما قضاؤك في

هذه الحياة الدنيا، والآخرة من وراء
ذلك لنا بالنعيم ولك بالعذاب.

وهؤلاء السحرة اختلف الناس هل
نفذ فيهم وعيد فرعون؟ فقالت
طائفة: صلبهم على الجذوع كما
قال، فأصبح القوم سحرة وأمساوا
شهداء بلطف الله ورحمته. وقالت
فرقة: إن فرعون لم يفعل ذلك، وقد
كان الله تعالى قد وعد موسى عليه
السلام أنه ومن معه الغالبون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا كله محتمل، وصلب السحرة
وقطع أيديهم لا يدفع في أن موسى
عليه السلام ومن معه غلب إلا بظاهر
العموم، والانفصال عن ذلك بين.

وقوله: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْخَبَرِ﴾،
قالت فرقة: أرادوا ما ضمهم إليه من
معارضة موسى عليه السلام وحملهم
عليه من ذلك. وقالت فرقة: بل كان

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا
فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى ﴿٧٢﴾ فَأَتَيْنَهُمْ فَرَعُونُ
يُجْرَدُونَ ﴿٧٣﴾ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٤﴾ وَأَصْلَ فَرَعُونَ قَوْمَهُ
وَمَا هَدَى ﴿٧٥﴾ يَبْنِي إِسْرَهُ بِلْ قَدْ أَهْبَتُمْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا عَدَّوْهُ
وَوَعَدْنَاهُ لَاجِلَ الظُّلُمِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّيْلَ ﴿٧٦﴾ كَلُوا
مِنْ طِينَتِ مَارِزَقَتِكُمْ وَلَا تَطْعَمُوا فِيهِ فَبَجَلْ عَلَيْكُمْ عَضْبُي
وَمَنْ يَجْعَلْ عَلَيْهِ عَضْبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٧٧﴾ وَإِنِّي لَأَعْلَمُ لِمَنِ نَابُ
وَمَا مِنْ وَاعِلٍ صَلَاحًا ثُمَّ أَهْدَى ﴿٧٨﴾ وَمَا أَصْبَحْتَ عَنْ
قَوْمِكَ بِمُوسَى ﴿٧٩﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ
رَبِّ لِرِضَى ﴿٨٠﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
الْأَسْمَرُ ﴿٨١﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ
يَتَّبِعُوا آلَ بَعْدَكُمْ وَبِعَدْلِهِمْ وَبِعَدْلِهِمْ أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ
الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْكُمْ غَضْبَ مَنْ رَبِّكُمْ فَتُخْلَقَ مِنْكُمْ
مُوتَرِدِينَ ﴿٨٢﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَوْ كُنَّا كَاذِبِينَ
أَوَأَرَأَيْتَ إِنْ زِلْنَاهُ وَقَوْمُهُ لَمَّا خَلَّوْا فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا

٣١٧

وقرأ ابن كثير، وخفف عن
عاصم، وورش عن نافع: ﴿ءَأَمْنْتُمْ﴾
على الخبر، وقرأ نافع، وأبو عمرو،
وابن عامر: ﴿أَأَمْنْتُمْ﴾ بهمة بعدها
مدة. وقرأ حمزة، والكسائي،
وأبو بكر عن عاصم ﴿أَأَمْنْتُمْ﴾
بههمزتين. وقوله: ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ
لَكَ﴾ مقاربة منه وبعض إذهان.

وقوله: ﴿مِنْ خَلْفٍ﴾ يريد قطع
اليد اليمنى مع الرجل الشمال،
وقوله: ﴿فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾ اتساع من
حيث هو مربوط في الجذع، وليست
على حد قولك: زيد في الدار،
ويصلح في هذا المعنى (على) من
حيث هو مربوط في أعلاها، وليست
على حد قولك: ركبت على
الفرس. وقوله: ﴿إِنَّا﴾ يريد نفسه
ورب موسى عليه السلام. وقال
الطبري: يريد نفسه وموسى عليه

فرعون قديماً يأخذ ولدان الناس بتعليم
السحر ويجبرهم على ذلك، فأشار
السحرة إلى ذلك. وقولهم: ﴿وَاللَّهُ
خَبِيرٌ وَأَبْقَى﴾ رد على قوله: ﴿إِنَّا أَشَدُّ
عَذَابًا وَأَبْقَى﴾.

﴿٧٢﴾ - ﴿٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل:
قالت فرقة: هذه الآية بجملتها هي
من كلام السحرة لفرعون على جهة
الموعظة له والبيان فيما فعلوه.
وقالت فرقة: بل هي من كلام الله
تبارك وتعالى لمحمد ﷺ تنبيهاً على
قبح ما فعل فرعون. وحسن ما فعل
السحرة، وموعظة وتحذيراً. وقد
تضمنت القصة المذكورة مثاله
والمجرم الذي اكتسب الجرائم
والخطايا.

وقوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾
مختص بالكافر، فإنه معذب عذاباً
ينتهي به إلى الموت، ثم لا يُجهز
عليه فيستريح، بل يُعَادُ جُلْدُهُ وَيُجَدَّدُ
عَذَابُهُ، فهو لا يحيا حياة هنية. وأما
من يدخل النار من المؤمنين
بالمعاصي فهم قبل أن تخرجهم
الشفاعة في غمرة قد قاربوا الموت
إلا أنهم لا يُجهز عليهم ولا يُجَدَّدُ
عذابهم، فهذا فرق ما بينهم وبين
الكفار، وفي الحديث الصحيح أنهم
يموتون إماتة، وهذا هو معناها؛ لأنه
لا موت في الآخرة.

﴿وَالَّذِي كَذَّبَ آيَاتِنَا﴾ هي القربة
من الله تعالى، و﴿كَذَّبَ﴾ معناه:
أطاع الله وأخذ بأوامر الأمور، وتأمل
التكسب في لفظة ﴿كَذَّبَ﴾ فإنه بين.

﴿٧٤﴾ - ﴿٧٥﴾ تفسير قوله عز وجل:
هذا استئناف إخبار عن شيء من
أمر موسى، بينه وبين مقال السحرة

المتقدم مدة من الزمان حدث فيها لموسى وفرعون حوادث. وذلك أن فرعون لما انقضى أمر السحرة وغلب موسى وقوي أمره، وعدّه فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، فأقام موسى عليه السلام على وعده حتى غدره فرعون ونكث وأعلمه أنه لا يرسلهم معه. فبعث الله تعالى حينئذ الآيات المذكورة في غير هذه الآية: الجراد والقمل إلى آخرها، وكلما جاءت آية وعد فرعون أن يرسل بني إسرائيل عند انكشاف العذاب، فإذا انكشف العذاب نكث حتى تأتي أخرى. فلما كانت الآيات أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل من مصر في الليل سارياً، (وَالسَّري): سير الليل، وأن في قوله تعالى: ﴿أَن آتَرَ﴾ يجوز أن تكون مفسرة لا موضع لها من الإعراب، كقوله تعالى: ﴿وَأَنطَلَقَ أَلَلًا مِنْهُمْ أَن آتُوا﴾، ويجوز أن تكون الناصبة للأفعال، وتكون في موضع نصب بـ ﴿أَوْحَيْنَا﴾. وقوله: ﴿يَبَادِي﴾ إضافة تشريف لبني إسرائيل، وكل الخلق عباد الله، ولكن هذا كقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾.

وروي في قصص هذه الآية أن بني إسرائيل لما أشعرهم موسى عليه السلام بليلة الخروج استعاروا من معارفهم من القبط حلياً وثياباً. ويروى أن موسى عليه السلام أذن لهم في ذلك وقال لهم: إن الله سينفلكموها، ويروى أنهم فعلوا ذلك دون رايه، وهو الأنبياء به ﷺ، وسيأتي في جمع الحلّي ما يؤيد

ذلك. ويروى أن بني إسرائيل عجنوا زادهم ليلة سراهم ووضعوه ليختمر، فأعجلهم موسى عليه السلام في الخروج، فطبخوه فطيراً، فهي سُنْتهم في ذلك الوقت من العام إلى هَلَمَّ. ويروى أن موسى عليه السلام نهض ببني إسرائيل وهم ستمائة ألف إنسان، فسار بهم من مصر يريد بحر القلزم، فاتصل الخبر بفرعون، فجمع جنوده وحشروهم ونهض وراءه. فأوحى الله إلى موسى أن يقصد البحر، فجزع بنو إسرائيل، رأوا أن العدو من وراءهم والبحر أمامهم، وموسى عليه السلام يثني بصنع الله تعالى، فلما رآهم فرعون قد نهضوا نحو البحر طمع فيهم؟ وكان مقصدهم إلى موضع تنقطع فيه الفحوص والطرق الواسعة.

واختلف الناس في عدد جنود فرعون؛ فقيل: كان في خيله سبعون ألف أدهم، ونسبة ذلك من سائر الألوآن، وقيل أكثر من هذا مما اختصرته لقلة صحته.

فلما وصل موسى إلى البحر وقارب فرعون لحاقه وقوي فزع بني إسرائيل، أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر. ويروى أن الوحي إليه بذلك كان متقدماً بمصر وهو ظاهر الآية. ويروى أنه إنما أوحى إليه بذلك في موطن وقوعه، واتصل الكلام في هذه الآية على جهة وصف الحال وضم بعض الأمور إلى بعض فضرب موسى عليه السلام البحر فانفرك اثنتي عشرة فرقة، طُرْقاً واسعة بينها حيطان ماء واقف،

فدخل موسى عليه السلام بعد أن بعث الله تعالى ريح الصبا فجفت تلك الطرق حتى ييست، ودخل بنو إسرائيل، ووصل فرعون إلى المدخل وبنو إسرائيل كلهم في البحر، فرأى الماء على تلك الحال، فجزع قومه واستعظموا الأمر، فقال لهم لعنه الله: إنما انفلق من هيبتي، وهامنا كمل إضلالة لهم، وحمله الله على الدخول، وجاء جبريل عليه السلام راكباً على فرس أنثى فاتبعها فرس فرعون، وتابعه الناس حتى تكاملوا في البحر فانطبق عليهم، وسمع بنو إسرائيل انطباق الماء وهم قد خرجوا بأجمعهم من البحر فنجبوا، فأخبرهم موسى عليه السلام أن فرعون وقومه قد هلكوا فيه، فطلبوا مصداق ذلك فلفظ البحر الناس، وألقى الله تعالى فرعون على نجوة من الأرض يدزعه المعروفة له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا اختصار قصص هذه الآية بحسب ألفاظها، وقد مضى أمر فرعون بأوعب من هذا في موضع اقتضاه.

وقوله تعالى: ﴿يَبَسَا﴾ مصدر وصف به، وقرأ بعض الناس: ﴿يَابَسَا﴾، وأشار إلى ذكره الزجاج. وقرأ حمزة وحده: ﴿لَا تَخَفْ﴾ إنما على جواب الأمر، وإمّا على نهي مستأنف. وقرأ الجمهور: ﴿لَا تَخَفْ﴾ على أن يكون حالاً من موسى عليه السلام، ويحتمل أن يكون صفة للطريق على تقدير: لا تخاف فيه، أي يكون بهذه الصفة،

ومعنى هذا القول: لا تخاف دركاً من فرعون وجنوده، ولا تخشى غرقاً من البحر. وقرأ أبو عمرو - فيما روي عنه -: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ بشد التاء، وتبع وأتبع إنما يتعدى إلى مفعول واحد، كقولك: شويت واشتويت، وفديت وافتديت، وحفرت واحفرت.

وقوله: ﴿يَجُودِيهِ﴾، إما أن تكون الباء مع ما جر بها في موضع الحال، كما تقول: خرج زيد بسلاحه، وإما أن يكون لتعدي الفعل إلى مفعول ثانٍ إذ لا يتعدى دون حرف جرٍ إلا إلى واحد. وقرأ الجمهور: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ بسكون التاء، وهذا يتعدى إلى مفعولين، فالباء - على هذا - إما زائدة، والتقدير: فأتبعهم فرعون وجنوده، وإما أن تكون باء الحال، ويكون المفعول الثاني مقدراً، كأنك قلت: رؤساءه أو عزمه، ونحو هذا، والأول أظهر. وقرأت فرقة: ﴿فَتَقِيَّبَهُمْ﴾، وقرأت فرقة: ﴿فَقَشَاهُمْ أَلَّهُ﴾. وقوله: ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ إيهام أهول من اللص على قدر ما، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَفْتَنِي الْيَدْرَةَ مَا يَفْتَنِي﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ يريد: من أول أمره إلى هذه النهاية، ثم أكد تعالى بقوله: ﴿وَمَا هَدَى﴾ مقابلة لقول فرعون لعنه الله: ﴿وَمَا أَهْدِيكَ إِلَّا سَبِيلَ الْكُرْشَادِ﴾.

٨٠ - (٨١) تفسير قوله عز وجل:

ظاهر هذه الآيات أن هذا القول قيل لبني إسرائيل حينئذ عند حلول هذه النعم التي عندها الله تعالى عليهم، وبين خروجهم من البحر وبين هذه

المقالة مدةٌ وحواشي، ولكن يخص الله بالذكر ما يشاء من ذلك. ويحتمل أن تكون هذه المقالة خوطب بها مُعاصرو رسول الله ﷺ، فالمعنى: هذا فعلنا بأسلافكم، ويكون قوله سبحانه: ﴿كُلُّوا﴾ بتقدير: قيل لهم: كُلُّوا، وتكون الآية - على هذا - اعتراضاً في أثناء قصة موسى عليه السلام القُصْدُ به توبيخ هؤلاء الحضور إذ لم يصبر سلفهم على أداء شكر نعم الله تبارك وتعالى، والمعنى الأول أظهر وأبين. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو: ﴿أَتَجِيبُكُمْ﴾، ﴿وَوَاعِدُنَا﴾، ﴿وَوَزَعْنَاكُمْ﴾، ﴿إِلَّا أَنْ أَبَا عَمْرٍو قرأ: ﴿وَوَعَدْنَاكُمْ﴾ بغير ألف في كل القرآن، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿أَتَجِيبُكُمْ﴾، ﴿وَوَاعِدُنَا﴾، ﴿وَوَزَعْنَاكُمْ﴾. وقوله: ﴿وَوَعَدْنَاكُمْ﴾ قيل: هي لغة في (وَعَدَ) لا تقتضي فعل اثنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإن حُجِلَتْ على المعهود فلأن الثلثي والعهد والعزم على ذلك يقوم مقام الواعدة.

وقصص هذه الآية أن الله تعالى لما أنجى بني إسرائيل وعرق فرعون، وعَدَّ سبحانه وتعالى بني إسرائيل وموسى عليه السلام أن يسيروا إلى جانب طور سيناء ليكلّم فيه موسى ويناجيه بما فيه صلاحهم بأوامرهم ونواهيهم، فلما أخذوا في السير تعجل موسى عليه السلام للقاء ربه حسبما يأتي ذكره بعد.

وقالت فرقة: هذا الطور الذي

كلّم الله تعالى فيه موسى أولاً حيث رأى النار وكان في طريقه من الشام إلى مصر، وقالت فرقة: ليس به. والطور: الجبل الذي لا شغراء فيه. وقوله: ﴿الْأَيْنِ﴾، إما أن يريد به العين، وإما أن يريد به اليمين فالإضافة إلى «ذي يمين»، إنسان أو غيره. والْأَمْنُ وَالسَّلَوى طعامهم، وقد مضى في سورة البقرة استيعاب تفسيرهما.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ طَيْبَتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ﴾ يريد الحلال المِلْك؛ لأن المعنى في هذا الموضع قد جمعهما. واختلف الناس ما المقصود الأول بلفظ (الطَّيْب) في القرآن؛ فقال مالك رحمه الله: الحلال، وقال الشافعي رحمه الله: ما يطيب للنفوس، وساق إلى هذا الخلاف تَفَقُّههم في الخَشَاش والمستقذر من الحيوان.

وقوله تعالى: ﴿تَقَفَّوْا فِيهِ﴾ معناه: تتعدون الحد وتتعسفون كالذي فعلوا. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَبُولُ﴾ بكسر الحاء، و﴿يَخْلُلُ﴾ بكسر اللام، وقرأ الكسائي وحده: ﴿فَيَحْلُلُ﴾ بضم الحاء، و﴿يَخْلُلُ﴾ بضم اللام، ومعنى الأول: فيجب ويحق، ومعنى الثاني: فيقع ويتزل. وقوله تعالى: ﴿فَقَدَّ هَوًى﴾ معناه: سقط من علو إلى سفلى، ومنه قول خنافر:

فَهَوًى هَوًى أَلْعَقَاب
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإن لم يكن سقوطاً فهو تشبيه بالساقط، والسقوط حقيقة قول الآخر:

.....
هَوِيَّ السَّلْوِ أَرْسَلَهُ الرُّسَاءُ
وشبه الذي يقع في طامة أو ورطة
بعد أن كان بنجوة منها بالساقط،
فالآية من هذا، أي: هوى في جهنم
وفي سخط الله، وقيل: أخذ الفعل
من الهاوية وهي قعر جهنم.

ولما حذر الله تبارك وتعالى غضبه
والطغيان في نعمه فَتَحَ باب الرجاء
للتائبين. والتوبة فرض على جميع
الناس لقوله تعالى في سورة النور:
﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ
الْمُؤْمِنُونَ﴾، والناس فيها على
مراتب: أمّا مواقع الذنب وقدرته
على ذلك باقية فتوبته التَّدُّم على ما
مَضَى والإقلاع الثَّام عن مثله في
المستقبل، وأمّا الذي وَاَقَعَ الذَّنْبُ ثُمَّ
زالت قدرته على ذلك بِمَنْ شَيْخَ أو
بَاقَةَ فتوبته التَّدُّم واعتقاد التَّوَكُّل إن لو
كانت قُدرة، وأمّا من لم يُوَاقِعْ ذَنْبًا
فتوبته العزم على ترك كل ذنب،
والتوبة من ذنب تصحّ مع الإقامة
على غيره، وهي توبة مَقْبُودَة، وإذا
تاب العبد ثم عاود الذَّنْبَ بعينه بعد
مُدَّة فيحتمل عند خُذَّاق أهل السُّنَّة
ألا يعيد الله تعالى عليه الذَّنْبَ
الأوّل؛ لأنَّ التَّوْبَةَ قد كانت محضَة،
ويحتمل أن يعيده لأنها توبة لم يُؤَفِّ
بها.

واضطرب الناس في قوله تعالى:
﴿ثُمَّ أَمْتَدَّ﴾ من حيث وجدوا الهدى
ضَمَّنَ الإيمان والعمل؛ فقالت فرقة:
معناه: ثُمَّ لزم الإسلام حتّى يموت
عليه، وقالت فرقة: معناه: لم يشك
في إيمانه، وقالت فرقة: معناه: ثم
استقام، وقالت فرقة: ثم أخذ بِسُنَّةِ

نَبِيِّهِ ﷺ، وقالت فرقة: معناه: ثم
أصاب العمل، وقالت فرقة: معناه:
ثُمَّ عرف أمر مَشِيْبِهِ، وقالت فرقة:
معناه: وَآلَى أهل البيت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه كلها تخصيص واحد منها دون
ما هو من نوعه بعيد ليس بالقوي،
والذي يقوى في معنى ﴿ثُمَّ أَمْتَدَّ﴾
أن يكون: ثم حفظ معتقداته من أن
يخالف الحق في شيء من الأشياء،
فإن الاهتداء - على هذا الوجه - غير
الإيمان وغير العمل، وَرُبَّ مؤمن
عمل صالحاً قد أوبقه عدم الاهتداء
كالقدريّة والمرجئة وسائر أهل البدع
والخوارج، فمعنى ﴿ثُمَّ أَمْتَدَّ﴾: ثُمَّ
مَشَى في عقائد الشَّرع على طريق
قويم، جعلنا الله تعالى منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وفي حفظ المعتقدات ينحصر عَظَمُ
أمر الشَّرع.

٨٣ - ٨٤ تفسير قوله عز وجل:
قصص هذه الآية أن موسى عليه
السلام لما شرع في الشُّهُوسِ ببني
إسرائيل إلى جانب الطُّور الأيمن
حيث كان الموعد أن يكلم الله
موسى بما فيه لهم شرف العاجل
والآجل، رأى - على جهة الاجتهاد -
أن يتقدم وحده مبادرةً إلى الله
عزَّ وجلَّ، وحرصاً على القرب،
وشوقاً إلى مناجاته، واستخلف
هارون عليه السلام على بني
إسرائيل، وقال لهم موسى عليه
السلام: تسبِّروا إلى جانب الطُّور،
فلما انتهى موسى عليه السلام وتاجى
ربه، زاده في الأجل عَشْراً، وحينئذ
وقفه على معنى استعجاله دون القيام

ليخبره موسى أنهم على الأثر فيقع
الإعلام له بما صنعوا.

وقرأت فرقة: ﴿أَوَّلَايَ﴾، وقرأت
فرقة أخرى: ﴿أَوَّلَايَ﴾ بفتح الباء.
وقوله: ﴿عَلَى أَثَرِي﴾ يحتمل أن يكون
في موضع رفع خبراً بعد خبر،
ويحتمل أن يكون في موضع نصب
على الحال. وقرأت فرقة: ﴿عَلَى
أَثَرِي﴾ بفتح الهمزة والثاء، وقرأت
فرقة: ﴿عَلَى إِثَرِي﴾ بكسر الهمزة
وسكون الثاء.

وأعلمه موسى عليه السلام أنه إنما
استعجل طلب الرُّضَا، فأعلمه الله
تعالى أنه قد قَتَنَ بني إسرائيل، أي
اختبرهم بما صنع السَّامري.
ويحتمل أن يريد: أَلْقَيْنَاهُمْ في فتنة،
أي في مَبْتَلٍ مع الشهوات، ووقوع
في اختلاف كلمة. وقوله: ﴿مِنْ
بَعْدِكَ﴾ أي من بعد فراقك لهم.
وقرأت فرقة: ﴿وَأَضْلَلُ السَّامِرِيَّ﴾
بإسناد الفعل إلى السَّامري، وقرأت
فرقة: ﴿وَأَضْلَهُمُ السَّامِرِيَّ﴾ بضم
اللام على الابتداء والخبر عن
السَّامري أنه أَضَلَّ القوم.

وَالسَّامِرِيُّ رجلٌ من بني
إسرائيل، ويقال: إنه كان ابن خال
موسى عليه السلام، وقالت فرقة: لم
يكن من بني إسرائيل، بل كان أضله
من العجم من أهل كرمات، والأوّل
أصح. وكان من قصص السَّامري أنه
كان منافقاً عنده جَيْلٌ وسَحَرٌ، وقبض
القبضة من أثر جبريل عليه السلام،
وعلم بما أقدره الله عليه لِفَتْنَةِ القوم
أنه يتهيأ له بتلك القبضة ما يريد مما
يجوز على الله تعالى، لأنه لو ادعى
النُّبُوَّةَ مع ذلك العجل لما صَحَّ ولا

جاز أن يجوز ولا أن تتم الحيلة فيه، لكنه لما ادعى له الربوبية وعلامات كذبه قائمة لائحة صحت الفتنة به وجاز ذلك على الله تعالى، كقصّة الدّجّال الذي تخرق له العادات لأنّه مدعي الربوبية، ولو كان مدعي النبوة لما صَحَّ شيء من ذلك. فلما رأى السامري موسى قد غاب ورأى بقية بني إسرائيل في طلبهم من موسى آلهة حين مرّوا على قوم يعبدون أصناماً على صفة البقر - وقيل: كانت بقرأ حقيقة - علم أنه سيفتنهم من هذا الطريق. فيروى أنه قال لهم: إنّ الحلّي الذي عندكم من مال القبط قبيح بكم حبسه، ولكن اجمعوه عندي حتى يحكم الله لكم فيه. ويروى أن هارون عليه السلام أمر بجمعه ووضعه في حفرة حتى يجيء موسى ويستأذن فيه ربّه، وقيل: بل كان المال الذي جمعه للسامري ممّا لَفَظَ البحر من أموال القبط الغارقين مع فرعون. فيروى - مع هذا الاختلاف - أن الحلّي اجتمع عند السامري، وأنه صنع العجل وألقى القبضه فيه فخار. وزوي - وهو الأصح والأكثر - أنه ألقى الناس الحلّي في حفرة أو نحوها، وألقى هو عليها القبضه فتجسّد العجل، وهذا هو وجه فتنة الله تعالى لهم، وعلى هذا نقول: انخرقت للسامري عادة، وأما على أن يصوغه فلم ينخرق له عادة، وإنما فتنوا حينئذ بخواره فقط، وذلك الصوت قد يولد في الأجرام بالصنعة، فلما أخبر الله تعالى موسى عليه السلام بما وقع رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً

عليهم من حيث له قدرة على تغيير منكرهم.

وقوله: ﴿أَيُّهَا﴾ أي حزينا، من حيث علم أنه موضع عقوبة لا يد له يدفعها، ولا بدّ منها، وال(أسف) في كلام العرب متى كان من ذي قدرة على من دونه فهو غضب، ومتى كان من الأقل على الأقوى فهو حزن، وتأمل ذلك فهو مطّرد إن شاء الله.

٨٦ - ٨٧ تفسير قوله عز وجل:

ويخ موسى عليه السلام قومه بهذه المقالة. وال(وَعْدُ الْحَسَن) هو ما وعدهم من الوصول إلى جانب الطّور الأيمن، وما بعد ذلك من الفتح في الأرض، والمغفرة لمن تاب وآمن، وغير ذلك ممّا وَعَدَ الله به أهل طاعته. وقوله: ﴿وَعْدًا﴾ إمّا أن يكون نصباً على المصدر والمفعول الثاني مُقَدَّر، وإمّا أن يكون بمعنى الموعد ويكون هو المفعول الثاني بعينه.

ثم وقفهم على أَعْدَارٍ لم تكن ولا تصحّ لهم، وهي طول العهد حتى يتبيّن لهم خلف في الموعد، وإرادة غضب الله تعالى، وذلك كلّ لم يكن ولكنهم عملوا عمل من لم يتدبّر. وسُمّي العذاب غضباً من حيث هو ناشئ عن الغضب، والغضب إنّ جعل بمعنى الإرادة فهو صفة ذات، وإن جعل ظهور النعمة والعقاب فهو صفة فعل، فهو من التردد بين الحالين.

وقرأ نافع، وعاصم: ﴿يَمْلِكُنَا﴾ بفتح الميم. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿يَمْلِكُنَا﴾ بضمها. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر:

﴿يَمْلِكُنَا﴾ بكسرها، قال أبو علي: هذه لغات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ظاهر الكلام أنها بمعنى واحد، ولكن أبا علي - وغيره - فرق بين معانيها، فأما ضم الميم فمعناه - على قول أبي علي - لم يكن لنا مُلْك فتخلف موعده بقوته وسلطانه، وإنما أخلفناه بنظر أدّى إليه ما فعل السامري، وليس المعنى أن لهم مُلْكاً، وإنما هو كقول ذي الرّمّة:

لا يُشْتَكِي سَقَطَةً مِنْهَا وَقَدْ رَقَصَتْ
بِهَا الْمَقَاوِرُ حَتَّى ظَهَرَتْهَا حَبِثُ
أي: لا يكون منها سَقَطَةٌ فَتُشْتَكِي، قال: وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَلُوكَ النَّاسُ إِلَّا كَأَنَّهُمْ لَيْسَ مِنْهُمْ سَوَالٌ فَيَكُونُ مِنْهُمْ إِلْحَافٌ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كلّ في هذه الأمثلة غير متقن من قول أبي علي، وإنما مشى في ذلك على أثر الزجاج دون تعقب، وقد شرحنا هذا المعنى في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَلُوكَ النَّاسُ إِلَّا كَأَنَّهُمْ لَيْسَ مِنْهُمْ سَوَالٌ فَيَكُونُ مِنْهُمْ إِلْحَافٌ﴾، وتبين أن هذه الآية ليست كهذه الأمثلة لأنهم لم يرفعوا الاختلاف، والأمثلة فيها رفع الوجهين.

وأما فتح الميم فهو مصدر من مَلَكَ، والمعنى: ما فعلنا ذلك بأننا ملكنا الصّواب ولا وُقِفْنَا له، وإنما غَلَبْنَا أنفسنا.

وأما كسر الميم فقد كثر استعماله فيما تحوزه اليد، ولكنه يستعمل في الأمور التي يُبْرَمها الإنسان، ومعناها كمعنى التي قبلها، والمصدر مضاف

﴿٩٢﴾ - ﴿٩٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

في سرد القصص اقتضاب يدل عليه ما ذكر تقديره: فرجع موسى عليه السلام فوجد الأمر كما ذكر الله تعالى له، فجعل يؤنب هارون بهذه المقالة. وقرأ الجمهور: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُ﴾ بحذف الياء. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بإثباتها في الوصل، ويقف ابن كثير بالياء وأبو عمرو بغير الياء. ويحتمل قوله: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُ﴾ أي بني إسرائيل نحو جبل الطور، فيجيء اعتذار هارون عليه السلام بمعنى: إني لو فعلت ذلك مشيت معي طائفة وأقامت طائفة على عبادة العجل، فتفرق الجمع، فحُفْتُ لومك على التفرق. ويحتمل قوله: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُ﴾ أي ألا تسير بسيرتي وعلى طريقتي في الإصلاح والتسديد، فيجيء اعتذار هارون عليه السلام بمعنى: إن الأمر كان متفاقماً، فلو تقويت عليه وقع القتال واختلاف الكلمة فكان تفرقاً بين بني إسرائيل، وإنما لا يثبت جهدي.

وقوله: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُ﴾ بمعنى: ما منعك أن تتبني، واختلف الناس في وجه دخو (لا)؛ فقالت فرقة: هي زائدة، وذهب حذاق النحاة إلى أنها مؤكدة، وأن في الكلام فجلاً مقدراً، كأنه قال: ما منعك ذلك، أو خصك، أو نحو هذا على ألا تتبني؟ وما قبل وما بعد يدل على هذا ويقضيه.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿يَنْتَزِمُ﴾، فيحتمل أن يريد: «يأبى أن» فحذف الألف تخفيفاً، ويحتمل أن يجعل

الاسمين اسماً واحداً وبناء كخمسة عشر. وقرأ أبو بكر عن عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿يَبْنِيْنُ أُمَّ﴾ بالكسر على حذف الياء تخفيفاً، وهو شاذ لأنها ليست كالياء في قولك: يا غلامي، وإنما هي كالياء في قولك: يا غلام غلامي، وهذه ياء لا تحذف، ويحتمل أن يجعل الاسمين اسماً واحداً ثم أضاف إلى نفسه حذف الياء كما تحذف من الأسماء المفردة إذا أضيفت نحو: يا غلام، وقالت فرقة: لم يكن هارون أخا موسى عليهما السلام إلا من أمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وقالت فرقة: كان شقيقه، وإنما دعاه بأمه لأن التداعي بالأُم أشفق وأشد استرحاماً، وأخذ موسى عليه السلام بلحية هارون غضباً، وكان حديد الخلق عليه السلام.

﴿٩٤﴾ - ﴿٩٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قال موسى عليه السلام مخاطباً للسامري: فما خطبك؟ وقوله: ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾ كما تقول: ما شأنك؟ وما أمرُك؟ ولكن لفظة الخطب تقتضي انتهاراً؛ لأن الخطب مستعمل في المكاره، فكأنه قال: ما نخسك؟ وما شؤمك؟ وما هذا الخطب الذي جاء من قبلك؟ و«السامري» قيل: هو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل، ويقال: إلى قرية يقال لها: سامرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي معروفة اليوم ببلاد مصر، وقيل: كان اسمه موسى بن ظفر.

قوله تعالى: ﴿بَصُرْتُ﴾، قرأت فرقة بضم الصاد على معنى: صارت بصيرتي بصورة ما، فهو كَطَرَفْتُ وشرُفْتُ، وقرأت فرقة: ﴿بَصُرْتُ﴾ بكسر الصاد، فيحتمل أن يريد من البصيرة، ويحتمل أن يريد من البَصَر، وذلك أن في أمر السامري ما زاد على الناس بالبصر، وهو وجه جبريل عليه السلام وفرسه، وبالبصيرة، وهو ما علمه من أن القبضة إذا نبذها مع الحلي جاءه من ذلك ما يريد. وقرأ الجمهور: ﴿يُبَصِّرُوا بِهِ﴾ بالياء، يريد بني إسرائيل، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يُبَصِّرُوا بِهِ﴾ بالتاء من فوق، يريد موسى عليه السلام مع بني إسرائيل.

وقرأ الجمهور: ﴿قَبَضْتُ﴾ بالضاد منقوطة، بمعنى: أخذت بكفي مع الأصابع. وقرأ عبدالله بن مسعود، وعبدالله بن الزبير، وأبي بن كعب رضي الله عنهم، وغيرهم: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ بالضاد غير منقوطة، بمعنى: أخذت بأطراف أصابعي فقط، وقرأ الحسن - بخلاف عنه - ﴿قَبْضَةً﴾ بضم القاف. و«الرَّسُولُ» هو جبريل عليه السلام، و«الْأَثَرُ» هو تراب تحت حافر فرسه.

وسبب معرفة السامري لجبريل عليه السلام ومميزه فيما روي أن أم السامري ولدته عام الذئح فطرحت في مغارة، فكان جبريل عليه السلام يغذوه فيها ويحميه حتى كبر وشب، فميزه لذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقوله: ﴿قَبَذْتُهَا﴾ أي عَلَى الحلي فكان منها ما تراه، وهذا محذوف من اللفظ يقتضيه الحال والمخاطبة. ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ أي: كما وقع وحدث قريت لي نفسي وجعلته لي سؤلاً ورأياً حتى فعلته. وكان موسى عليه السلام لا يقتل بني إسرائيل إلا في جد أو وُحْي، فعاقبه باجتهاد نفسه بأن أبعده ونَحَاهُ عن الناس، وأمر بني إسرائيل باجتنابه واجتناب قبيلته، وَأَلَّا يُؤَاكِلُوا وَيَتَاكَلَوْا، ونحو هذا، وعلمه مع ذلك، وجعل له أن يقول مدة حياته: ﴿لَا مَسَاسَ﴾، أي: لَا مَمَاسَةً ولا إذاية، وقرأ الجمهور: ﴿لَا مَسَاسَ﴾ بكسر الميم وفتح السين، على النصب بالثبوت، وهو اسم ينصرف، ومنه قول الثابتة:

فَأَصْبَحَ مِنْ ذَلِكَ كَالسَّامِرِيِّ
إِذْ قَالَ مُوسَى لَهُ لَا مَسَاسَا
ومنه قول رؤبة:

حَتَّى تَقُولَ الْأَزْدُ لَا مَسَاسَا
واستعماله على هذا كثير. وقرأ أبو حيوة: ﴿لَا مَسَاسَ﴾ بفتح الميم وكسر السين، وهو معدول عن المصدر كَفَجَارٍ ونحوه. وشبهه أبو عبيدة وغيره بِتَزَالٍ وَذَكٍَّ ونحوه، والشَّبه صحيح من حيث هي معدولات، وفارقه في أن هذه عدلت عن الأمر، و﴿مَسَاسٍ﴾ و﴿فَجَارٍ﴾ عدلت عن المصدر، ومن هذا قول الشاعر:

تَمِيمٌ كَرَهَ السَّامِرِيَّ وَقَوْلِهِ
أَلَا لَا يَرِيدُ السَّامِرِيَّ مَسَاسٍ
وقرأ الجمهور: ﴿تُخْلِفُهُ﴾ بفتح

اللام، على معنى: أن يقع فيه خُلف. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿لَنْ تُخْلِفُهُ﴾ بكسر اللام، على معنى: لن تستطيع الزوغان عنه والحيدة، فتزول عن موعد العذاب. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿لَنْ تُخْلِفُهُ﴾ بالنون، قال أبو الفتح: المعنى: لن نصادفه مُخْلَفًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكلها بمعنى الوعيد والتهديد.

ثُمَّ وَبَّخَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿وَأَنْتَ لَكَ إِلَهُكَ﴾ الآية أي: انظر صنيعك وتغييرنا له وردنا الأمر فيه إلى الواجب. وقرأت فرقة: ﴿ظَلَّتْ﴾ بفتح الظاء، على حذف اللام الواحدة، وقرأت فرقة: ﴿ظَلَّتْ﴾ بكسر الظاء على نقل حركة اللام إلى الظاء ثم حذفها بعد ذلك، نحو قول الشاعر:

خَلَا أَنْ الْعِثَاقُ مِنَ الْمَطَايَا
أَحْسَنَ بِهِ قَهْنٌ إِلَيْهِ شُوسُ
أراد: أَحْسَنَ، فنقلت حركة السَّيْنِ إلى الحاءِ ثم حذفنا تخفيفاً، وفي بعض الروايات: حَسَيْنَ. وقرأت فرقة: ﴿ظَلَّتْ﴾، و﴿ظَلَّ﴾ معناه: أقام يفعل الشيء نهاراً، ولكنه قد يستعمل في الدَّائِبِ ليلاً ونهاراً، بمثابة طَفِقَ. و﴿عَاكِئًا﴾ معناه: ملازماً.

وقرأت فرقة: ﴿لَتُخْرِقَنَّهُ﴾ بتخفيف الرائء بمعنى: بالنار، وقرأ علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم: ﴿لَتُخْرِقَنَّهُ﴾ بفتح النون وضم الرائء خفيفة، بمعنى: لَتُبَرِّدَنَّهُ بِالْمَبْرَدِ، وقرأ نافع وغيره: ﴿لَتُخْرِقَنَّهُ﴾ بضم النون وكسر الرائء

وشدّها، وهذا تضعيف مبالغة لا تعدية، وهي قراءة تحتل الحرق بالنار، وتحتل بالمبرد، وفي مصحف أبي بن كعب، وعبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنهما ﴿لَتُنْذِرَنَّهُ ثُمَّ لَتَنُفِقَنَّهُ ثُمَّ لَتُخْرِقَنَّهُ ثُمَّ لَتَنُفِقَنَّهُ﴾، وهذه القراءة مع رواية من روى أن العجل صار لحماً ودماً، وعلى هذه الرواية يترُكَب أن يكون هناك حرق بنارٍ، وإلّا فإذا كان جماداً من ذهب فإنما هو حَزَقٌ بِالْمَبْرَدِ، اللَّهُمَّ إِنْ أَنْ يَكُونَ أَذَابُهُ، وَيَكُونَ السُّفُفُ مُسْتَعَاراً لَتَفْرِيقِهِ فِي السِّمِّ مَذَاباً. وقرأت فرقة: ﴿لَتَنُفِقَنَّهُ﴾ بكسر السين، وقرأت فرقة: ﴿لَتَنُفِقَنَّهُ﴾ بضم السين، و﴿السُّفُفُ﴾: تفريق الريح العُجْبَارِ، وكل ما هو مثله كتفريق الغريال ونحوه فهو نسف. و﴿السِّمِّ﴾: غمر الماء من بحر أو نهر، وكل ما غمر الإنسان من الماء فهو يَمٌّ. و﴿سَفَا﴾ تأكيد بالمصدر واللام في قوله: ﴿لَتُخْرِقَنَّهُ﴾ لام القسم.

وفي هذه الآية من القصص أن موسى عليه السلام بَرَدَ الْعِجْلَ حتى رَدَّه كَالْغَبَارِ ثُمَّ ذَرَاهُ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ أَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَشْرَبَ جَمِيعُهُمْ مِنَ الْمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِمَّنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حُبُّ الْعِجْلِ خَرَجَ عَلَى شَارِبِهِ مِنَ الذَّهَبِ فَضِيحَةً لَهُ، وَقَالَ مَكِّي رحمه الله - وَأَسْتَدُّ: إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مَعَ السَّبْعِينَ فِي الْمَنَاجَاةِ، وَحِينَئِذٍ وَقَعَ أَمْرُ الْعِجْلِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَعْلَمَ مُوسَى بِذَلِكَ فَكَتَمَهُ عَنْهُمْ، وَجَاءَ بِهِمْ حَتَّى سَمِعُوا لُغَطَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَوْلَ الْعِجْلِ، فَحِينَئِذٍ أَعْلَمَهُمْ مُوسَى.

القرن الذي يفتح فيه إسرائيل، وبهذا جاءت الأحاديث، وقالت فرقة: الصور: جمع صورة، كتمة وتمر، وقرأ عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿في الصور﴾ بفتح الواو، وهذه صريحة في بعث الأجساد من القبور. وقرأت فرقة هي الجمهور: ﴿وتحشر﴾ بالنون، وقرأت فرقة: ﴿وتحشر﴾ بالياء، وقرأت فرقة: ﴿وتحشر﴾ بضم الباء المجرمون على المفعول الذي لم يسم فاعله، وهي قراءة مخالفة لخط المصحف.

وقوله: ﴿زرق﴾: اختلف الناس في معناه؛ فقالت فرقة: يحشرهم أول قيامهم سود الألوان زرق العيون، فهو تشويه ما، ثم يعمون بعد ذلك، وهي موطن. وقالت فرقة: إنهم يحشرون عطاشاً، والعطش الشديد يرد سواد العيون إلى البياض، فكانهم يبيض سواد عيونهم من شدة العطش. وقالت فرقة: أراد: زرق الألوان، وهي غاية في التشويه لأنهم يجيئون كلون الرماد، ومتهيج في كلام العرب أن يسمى هذا اللون أزرق، ومنه زرقه الماء، قال الشاعر:

فَلَمَّا وَزَدْنَا أَلَمَاءَ زُرْقًا جَمَامَهُ
وَضَعْنَا عِصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَحَنِّنِ
ومنه قولهم: «سنان أزرق» لأنه نحو ذلك اللون.

﴿يَتَخَفَتِ الْمَجْرُمُونَ بَيْنَهُمْ﴾: يتساورون، المعنى أنهم لهول المطلع وشدة ذهاب أذهانهم قد عذب عنهم قذُر المدة التي لبثوها، واختلف

على التمييز. وقرأ مجاهد، وقتادة: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ﴾ بفتح السين وشدها، بمعنى: خلق الأشياء وكثرها بالاختراع فوسعها موجودات.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، أي: كما قصصنا عليك نبأ بني إسرائيل هذا في خبر العجل كذلك نقص عليك، فكانه قال: هكذا نقص عليك، فكانها تعديد نعمة، وقوله: ﴿مَا قَدْ سَبَقَ﴾ يريد به ما قد

سبق مدة محمد ﷺ. (الذُكْرُ): القرآن. وقرأت فرقة: ﴿يَحْمِلُ﴾ بكسر الميم، وقرأت فرقة أخرى: ﴿يَحْمَلُ﴾ بفتح الميم وشدها. وقوله: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ يريد: بالكفر به والتكذيب له، و«الوزر»: الثقل، وهو هنا ثقل العذاب بدليل قوله: ﴿خَلِيلَيْنِ يَذَمُّهُمَا﴾ و«جَلَا»: تمييز، و«يَوْمَ»: ظرف، و«يَوْمَ»: الثاني بدل منه. وقرأ الجمهور: ﴿يَفْخَرُ﴾ بضم الياء وبناء الفعل للمفعول، وقرأت فرقة: ﴿يَفْخُخُ﴾ بفتح الياء وإسناد الفعل للفاعل، أي: يَفْخُخُ الْمَلِكُ، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿تَفْخُخُ﴾ بالنون، أي: بأمرنا وإذنتنا، وهذه القراءة تناسب قوله: ﴿تَحْشُرُ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿في الصور﴾ بسكون الواو، مذهب الجمهور أنه

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٨﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٩٩﴾ خَلِيلَيْنِ يَذَمُّهُمَا ﴿١٠٠﴾ يَوْمَ يَفْخَرُ بِمَنْ يَفْخَرُ فِي الصُّورِ وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠١﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٢﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٣﴾ وَتَسْأَلُونَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٤﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٥﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا جَبَلٌ وَلَا شَاةٌ ﴿١٠٦﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّمَاءَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَجَىٰ لَهُ، قَوْلًا ﴿١٠٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴿١٠٩﴾ وَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُ وَالْقَوِيَّةُ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٢﴾

٣١٩

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه رواية الجمهور على خلافها، وإنما تعجل موسى وحده فوقع أمر العجل، ثم جاء موسى عليه السلام وصنع بالعجل ما صنع، ثم خرج بعد ذلك بالسبعين على معنى الشفاعة في ذنب بني إسرائيل، وأن يطلعهم أيضاً على أمر المناجاة، فكان لموسى عليه السلام نهضتان، والله أعلم.

﴿٩٨﴾ - ﴿١١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة من موسى عليه السلام لجميع بني إسرائيل مبيّناً لهم، وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ بمعنى: وسع علمه كل شيء، و«عِلْمًا»: تمييز، وهذا كقولهم: «تَفَقَّاتُ شَحْمًا» وَتَصَبَّبَتْ عَرَقًا، والمصدر في الأصل فاعل، ولكن يسند الفعل إلى غيره وينصب هو

الناس في هذا؛ فقالت فرقة: في دار الدنيا ومدة العمر، وقالت فرقة: في الأرض مدة البرزخ، وقالت أخرى: ما بين التفتحين في الصور.

﴿وَأَمَلُّهُمْ طَرِيقَةً﴾ معناه: أثبتهم نفساً وأعلمهم بالحقيقة بالإضافة إليهم، فهم في مدة المقالة يظنون أن هذا قدر لئبهم.

والضمير في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا كُنَّا﴾، قيل: إن رجلاً من ثقيف سأل رسول الله ﷺ عن الجبال، ما يكون أمرها يوم القيامة؟ وقيل: بل سأل عن ذلك جماعة من المؤمنين. وقد تقدم معنى التُسْف، وروي أن الله تعالى يرسل على الجبال ريحاً فيدكدها حتى تكون كالعهن المنفوش، ثم تتوالى عليها حتى تعيدها كالهباء المنبث، فذلك هو التُسْف، وقوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا﴾ يحتمل أن يريد مواضعها، ويحتمل أن يريد ذلك التراب الذي نسفه؛ لأنه إنما يقع على الأرض باعتدال حتى تكون الأرض كلها مستوية. (وَالْقَاعُ): المستوي من الأرض المعتدل الذي لا تَشَرُّ فيه، ومنه قول ضرار بن الخطَّاب:

لَتَكُونَنَّ بِالْبِطَاحِ قُرَيْشٌ
بُقْعَةَ الْقَاعِ فِي أَكْفِ الْأَمَاءِ
(وَالصَّفْصَفُ) نحوه في المعنى.

(وَالْيُوجُ) ما يعترى اعتدال الأرض من الأخذ بَمَنَّةٍ وَبَسْرَةٍ بحسب التَّشْرِ من جبل وظَرْبٍ وَكُذْيَةٍ ونحوه، (وَالْأَمْتُ): ما يعترى الأرض من ارتفاع وانخفاض، يقال: مدَّ جبله

حتى ما ترك فيه أمتاً، فكأن الأمت في الآية العوج في السماء تجاه الهواء، والعوج في الآية مختص بالخفض، وفي هذا نظر.

﴿١٠٨﴾ - ﴿١١١﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: يوم تُنسف الجبال ينثع الخلائق داعي الله تعالى إلى المحشر، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَكُمْ﴾ يحتمل أن يريد الإخبار به، أي: لا شك فيه، ولا يخالف وجوده خبره، ويحتمل أن يريد: لا محيد لأحد عن اتباعه، والمشي نحو صوته. (وَالخُشُوعُ): التَّطَائُنُ والتَّوَاضُّعُ، وهو في الأصوات استعارة بمعنى الخفاء والاستسراء، ومعنى: ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾: لِهُبَيْتِيهِ وهول مطلع قدرته. (وَالهَمْسُ): الصَّوْتُ الخفي الخافت، وقد يحتمل أن يريد «بِالْهَمْسِ المسموع» تخافتهم بينهم وكلامهم السَّوْرَ، ويحتمل أن يريد صوت الأقدام، وأن أصوات النطق ساكنة.

﴿وَمَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ يحتمل أن يكون الاستثناء متصلاً، ويكون ﴿مَنْ﴾ في موضع نصب يُراد بها المشفوع له، فكأن المعنى: إلا من أذن له الرَّحْمَنُ في أن يشفع له، ويحتمل أن تكون استثناء منقطعاً على تقدير: لكن من أذن له الرَّحْمَنُ يشفع، ف﴿مَنْ﴾ في موضع نصب بالاستثناء، ويصلح أن يكون في موضع رفع، كما يجوز الوجهان في قولك: «ما في الدَّارِ أَحَدٌ إِلَّا حِمَاراً، وَإِلَّا حِمَاراً»، والنصب أوجه، و﴿مَنْ﴾ - على هذه

التأويلات - للشافعي، ويحتمل أن تكون للمشفوع فيه.

وقوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، قالت فرقة: يريد الملائكة، وقالت فرقة: يريد خلقه أجمع، وقد تقدم القول في ترتيب ما بين اليد وما خلفه في غير موضع، على أن جماعة من المفسرين قالوا في هذه الآية: ما خلفهم: الدنيا، وما بين أيديهم: أمر الآخرة والثواب والعقاب، وهو بأن يعرضها حالة وقوف حتى يجعلها كالأجرام، وأما إن قدرناها في نسق الزمان فالأمر على العكس بحكم ما بيَّناه قَبْلُ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ معناه: ذَلَّتْ، والعاني: الأسير، ومنه قول النبي ﷺ في أمر النساء: «هُنَّ عَوَانٌ عندكم»، وهذه حالة الناس يوم القيامة. قال طلق بن حبيب: أراد تعالى سجود الناس على الوجوه والآداب السبعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إن كان روى هذا أن للناس يوم القيامة سجوداً وجعل هذه الآية إخباراً عنه فقوله مستقيم، وإن كان أراد سجود الدنيا فقد أفسد المعنى. (وَالْقِيُومُ) بناء مبالغة من قيامه عز وجل على كل شيء بما يجب فيه. و﴿خَابَ﴾ معناه: لم ينجح ولا ظَفِرَ بِمَطْلُوبِهِ، (وَالظُّلُمُ) يعم الشُّرْكَ والمعاصي، وخيبة كل حامل بقدر ما حمل من الظُّلُم، فخيبة المشرك على الإطلاق، وخيبة العاصي مقيدة بوقت واحد في العقوبة.

وقالت فرقة أخرى: سبب هذه الآية أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه القرآن أمر بكتبه للحين، فأمر الله تعالى في هذه الآية أن يتأني حتى تُقَسَّرَ له المعاني وتقرر عنده.

وقالت فرقة: سبب الآية أن امرأة شكت إلى رسول الله ﷺ أن زوجها لطمها، فقال لها رسول الله ﷺ: «بينكما القصاص»، ثم نزلت ﴿الرِّجَالُ قَوَّاتٌ﴾، ونزلت هذه الآية بمعنى التثبت في الحكم بالقرآن حتى يتبين، والله أعلم. وقرأ الجمهور: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْضَى إِلَيْكَ وَخِيَةٌ»، وقرأ عبدالله بن مسعود: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْضَى إِلَيْكَ وَخِيَةٌ»، وباقي الآية بين، رغبة في خير.

(١١٢) - (١١٧) تفسير قوله عز وجل: قال الطبري رحمه الله: المعنى: وإن يعرض - يا محمد - هؤلاء الكفرة عن آياتي ويخالفوا رُسلي ويطيعوا إبليس، فقيماً فعل ذلك أبوهم آدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل ضعيف؛ وذلك أن كون آدم مثلاً للكفار الجاحدين ليس بشيء، وآدم إنما عصى بتأويل، ففي هذا غضاضة عليه ﷺ. وإما الظاهر في هذه الآية إما أن يكون ابتداء قصص لا تعلق له بما قبله، وإما أن يجعل تعلقه أنه لما عهد إلى محمد ﷺ ألا يجعل القرآن مثل له بنبي قبله عهد إليه فنسي فعوقب ليكون أشد في التحذير وأبلغ في العهد إلى محمد ﷺ. والعهد هنا في معنى الوصية، (وَأَنبِئْهُمْ) معناه: ترك، ونسيان الذهول لا يمكن هنا

عربياً، وتوعدنا فيه بأنواع من الوعيد، لعلهم - بحسب توقع البشر وترجيهم - يتقون ويخشون عقابه فيؤمنون ويتذكرون نِعَمَهُ عندهم وما حذرهم من أليم عقابه، هذا تأويل فرقة في قوله: ﴿أَوْ يُخَدِّثْ لَهُمْ ذِكْرَكَ﴾، وقالت فرقة: معناه: أو يكسبهم شرفاً، ويبقي عليهم إيمانهم وذكراً صالحاً في الغابرين. وقرأ الحسن البصري: «أَوْ تُخَدِّثْ» ساكنة اللام، وقرأ مجاهد: «أَوْ تُخَدِّثْ» بالنون وسكون اللام، ولا وجه

للجزم إلا على تسكين حرف الإعراب استقلالاً لحركته، وهذا نحو قول جرير:

.....

..... وَلَا تُغْرِفُكُمْ الْقَرْبُ
وقوله تعالى: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِيكَ الْحَيُّ﴾ فتح للقول؛ لأنه لما قدم صفة سلطانه يوم القيامة وعظم قدرته ودلّة عبيده وتلطّف بهم، ختم ذلك بهذه الكلمات، وجعل بعد ذلك الأمر بنوع آخر من القول. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْبَلْ بِالْقُرْآنِ﴾، قالت فرقة: سببه أن النبي ﷺ كان يخاف وقت تكليم جبريل عليه السلام له أن ينسى أول القرآن، فكان يقرأ قبل أن يستتم جبريل عليه السلام الوحي، فنزلت الآية في ذلك، وهي بمعنى قوله تعالى: ﴿لَا تُخَوِّلْ بِهِ سَاكِنًا﴾، ﴿لَتَعْبَلَ بِهِ﴾،

فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِيكَ الْحَيُّ وَلَا تَعْبَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْضَى إِلَيْكَ وَخِيَةٌ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَنُنَّا يَتَّخِذُ مِنْ هَذَا عُدُوًّا وَإِنَّكَ لَأَنْتَ أَكْبَرُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا أَجْنَثَ فَنَسَخْنَاهُ إِنَّ لَكَ الْأَمْوَاجَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى وَأَنْتَ لَا تَنْظُرُ فِيهَا وَلَا تَنْصَحِي فَوَسَّوْا إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُ مِنْ هَذَا عُدُوًّا عَلَى شَجَرَةِ الْغُلَامِ وَمَلَكِ لَا بَيْنَ أَكْبَرُ فَكَلَّهَا وَهِيَ أَكْبَرُ لَهَا سَوَاءٌ لَهَا وَطْفِئَا بِخَيْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبَّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ هُنَّ فَمِنْ أَنْبَعٍ هَدَى فَلَا يَصِلُ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا

٣٢٠

(١١٢) - (١١٧) تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ﴾ معادل لقوله: ﴿مَنْ حَلَّ غُلَامًا﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿مِنْ الْفُكْلِ الْخَلَّتِ﴾ تيسير في الشرع؛ لأنها ﴿مِنْ﴾ التي للتبعض، (وَالظُّلُمُ) أعم من (الْهَضْمُ)، وهما متقاربان في المعنى ويتداخلان، ولكن من حيث تناسق في هذه الآية ذهب قوم إلى تخصيص كل واحد منهما بمعنى، فقالوا: الظلم أن تغظم عليه سيئاته وتكثر أكثر مما يجب، والتهضم أن يثقص من حسناته ويُبَخِّسَهَا، وكلهم قرأ: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ على الخبر، غير ابن كثير فإنه قرأ: ﴿فَلَا يَخْفُفُ﴾ على النهي.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَرْزَلْنَاهُ﴾ أي: كما قدرنا هذه الأمور وجعلناها حقيقة بالمرصاد للعباد، كذلك حذرنا هؤلاء أمرها، وأنزلنا قرآناً

وَأَنْ رَكُوبَ الْخَيْلِ لِلصِّيدِ وَغَيْرِهِ مِنْ
اللَّدَاتِ يَنَاسِبُ تَبَطُّنَ الْكَاعِبِ. وَمِنْ
الصُّحِيِّ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ
فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْفُتَيْشِ فَيَخْضِرُ
(وَسُوسَةُ الشَّيْطَانِ) قَالُوا: كَانَتْ
دُونَ مَشَافَهَةِ إِلقاءِ فِي النَّفْسِ، وَقِيلَ:
بَلْ كَانَتْ بِالْمَشَافَهَةِ وَالْمَخَاطَبَةِ، وَهُوَ
ظَاهِرُ الْقِصَّةِ مِنْ غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ.
وَكَانَ دَخُولُهُ إِلَى الْجَنَّةِ - فِيمَا رُويَ -
فِي فَمِ الْحَيَّةِ، وَكَانَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
قَدْ قَالَ اللَّهُ لَهُ: لَا تَأْكُلْ مِنْ هَذِهِ
الشَّجَرَةِ، وَعَيْنُ لَهُ شَجَرَةٌ قَدْ تَقَدَّمَ
الْخِلَافُ فِي جَنْسِهَا، فَلَمَّا وَصَفَهَا لَهُ
إِبْلِيسُ أَنَّهَا شَجَرَةُ الْخُلْدِ الَّتِي مِنْ
أَكْلِهَا كَانَ مَلَكًا مَخْلُدًا، عَمَدَ آدَمُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى غَيْرِ تِلْكَ الَّتِي نَهَى
عَنْهَا مِنْ جَنْسِهَا فَأَكْلَهَا بِتَأْوِيلِ أَنْ
النَّهْيَ كَانَ عَلَى التَّدْبِ لَا عَلَى
التَّحْرِيمِ، وَسَارَعَتْ إِلَى ذَلِكَ حَوَاءُ
وَكَانَتْ مَعَهُ فِي النَّهْيِ، فَلَمَّا رَأَاهَا آدَمُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَكَلَتْ أَكَلًا، فَطَارَتْ
عَنْهُمَا ثِيَابُهُمَا، وَظَهَرَ تَبَرُّؤُ الْأَشْيَاءِ
مِنْهُمَا، وَبَدَتْ سَوَاتِنُهُمَا. وَقَوْلُهُ:
﴿وَطَيْفًا يَخْصِيَانِ﴾ مَعْنَاهُ: جَعَلَا
يَفْعَلَانِ ذَلِكَ دَائِمًا، وَ﴿يَخْصِيَانِ﴾
مَعْنَاهُ: يَلْفَقَانِ وَيَضُمَّانِ شَيْئًا إِلَى
شَيْءٍ، فَكَانَا يَسْتَتِرَانِ بِالْوَرَقِ، وَرُويَ
أَنَّهُ كَانَ مِنْ وَرَقِ الثَّيْنِ.

ثُمَّ نَصَّ تَعَالَى عَلَى آدَمَ أَنَّهُ غَضَى،
وَ﴿فَنَوَى﴾ مَعْنَاهُ: ضَلَّ، مِنَ الْغَيِّ
الَّذِي هُوَ ضِدُّ الرُّشْدِ، وَمِنْهُ قَوْلُ
الشَّاعِرِ:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرُهُ
وَمَنْ يَغْوُ لَا يَغْدُمُ عَلَى الْغَيِّ لَاثِمًا

أَي: لَا يَقَعُ مِنْكُمْ طَاعَةٌ لَهُ فِي إِغْوَاثِهِ
فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ خُرُوجِكُمَا مِنَ
الْجَنَّةِ. ثُمَّ خَصَّصَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
بِقَوْلِهِ: ﴿فَتَنَفَّقْ﴾ مِنْ حَيْثُ كَانَ
الْمَخَاطَبُ أَوَّلًا الْمَقْصُودُ فِي الْكَلَامِ،
وَقِيلَ: بَلْ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ
الشَّقَاءَ فِي مَعِيشَةِ الدُّنْيَا فِي حَبِيزِ
الرُّجَالِ. وَرُويَ أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
لَمَّا أَهْبَطَ أَهْبَطَ مَعَهُ ثَوْرٌ أَحْمَرُ، فَكَانَ
يَحْرَثُ وَيَمْسَحُ الْعَرَقَ، فَهَذَا هُوَ
الشَّقَاءُ الَّذِي خُوفُ مِنْهُ.

﴿١١٨﴾ - ﴿١١٩﴾ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

الْمَعْنَى: إِنَّ لَكَ يَا آدَمُ نِعْمَةً تَامَةً
وَعَطِيَّةً مُسْتَمِرَّةً أَلَّا يَصِيبَكَ جُوعٌ وَلَا
عَرِي وَلَا ظَمَأٌ وَلَا يَبْرُوزُ لِلشَّمْسِ
تَوْذِيكَ، وَهُوَ الصُّحِيُّ.

وَقَرَأَ نَافِعٌ، وَعَاصِمٌ - فِي رِوَايَةٍ
أَبَى يَكُرُ -: ﴿وَأَنَّكَ﴾ بِكَسْرِ الْأَلِفِ،
وَقَرَأَ الْبَاقُونَ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ:
﴿وَأَنَّكَ﴾ بِفَتْحِ الْأَلِفِ، وَجَعَلَ اللَّهُ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ آيَةِ الْجُوعِ مَعَ
الْعَرِيِّ، وَالظَّمَأِ مَعَ الضَّحِيِّ؛ وَكَانَ
عَرَفَ الْكَلَامَ أَنَّ يَكُونُ الْجُوعُ مَعَ
الظَّمَأِ لِلتَّنَاسُبِ، وَالْعَرِيُّ مَعَ الضَّحِيِّ
لَأَنَّهَا لَا تَتَضَادُّ، وَالْعَرِيُّ يَمَسُّ بِسَبَبِهِ
الْبَرْدَ فَيُؤْذِي، وَالْحَرُّ يَفْعَلُ ذَلِكَ
بِالضَّاحِي، وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ مَهِيغٌ فِي
كَلَامِ الْعَرَبِ أَنَّ تَفَرُّقَ النِّسْبِ، وَمِنْهُ
قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ:

كَأَنِّي لَمْ أَزْكَبْ جَوَادًا لِللَّدَّةِ
وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالٍ
وَلَمْ أَتَسَبَّلِ الرُّوقَ الرَّوِّيَّ وَلَمْ أَقْلُ
لِخَيْلِي كَرِيَّ كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ
وَذَهَبَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ إِلَى أَنَّ بَيْتِي
امْرِئِ الْقَيْسِ فِيهِمَا مَحَافِظَةٌ لِلنِّسْبِ،

لَأَنَّهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِالنَّاسِ عِقَابٌ. وَقَرَأَ
الْأَعْمَشُ: ﴿فَنُتَشِي﴾ بِسُكُونِ الْيَاءِ،
وَوَجْهُهَا طَلَبُ الْخَفَةِ. وَ(الْعَزْمُ):
الْمُضِيِّ عَلَى الْمَعْتَقَدِ فِي أَيِّ شَيْءٍ
كَانَ، وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ كَانَ
مَعْتَقِدَهُ أَلَّا يَأْكُلُ مِنَ الشَّجَرَةِ، لَكِنَّهُ
لَمَّا وَسَّوسَ إِلَيْهِ إِبْلِيسُ لَمْ يَعْزَمْ عَلَى
مَعْتَقَدِهِ، وَعَبَّرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ عَنْ
الْعَزْمِ هُنَا بِالصَّبْرِ وَالْحِفْظِ وَغَيْرِ ذَلِكَ
مِمَّا هُوَ أَعْمُ مِنْ حَقِيقَةِ الْعَزْمِ.
وَالشَّيْءُ الَّذِي عَهْدَ لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
هُوَ أَلَّا يَقْرُبَ الشَّجَرَةَ، وَأَعْلَمَ مَعَ
ذَلِكَ أَنَّ إِبْلِيسَ عَدُوُّ لَهُ. وَقَالَ أَبُو
أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ أَنَّ أَحْلَامَ
بَنِي آدَمَ جُمِعَتْ مِنْذُ خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَوَضِعَتْ فِي كِفَّةٍ
مِيزَانٍ وَوُضِعَ حِلْمُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي كِفَّةٍ أُخْرَى لَرَجَحَهُمْ، وَقَدْ
قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُمْ
عَزْمًا﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ
أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ الْآيَةُ ابْتِدَاءُ قِصَّةِ،
وَالْعَامِلُ فِي ﴿إِذْ﴾ فِعْلٌ مُضَمَّرٌ. وَقَدْ
تَقَدَّمَ اسْتِيعَابُ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَلَكِنْ
نَذَكَرْ مِنْ ذَلِكَ مَا تَقْتَضِيهِ أَلْفَاظُ هَذِهِ
الْآيَةِ. فَالْمَلَائِكَةُ قَبْلَ كَانَ جَمِيعُهُمْ
مَأْمُورًا بِذَلِكَ، وَقِيلَ: بَلْ فَرَقَةُ فَاضِلَةٌ
مِنْهُمْ عِدَدُهُمْ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ.
(وَالسُّجُودُ) الَّذِي أَمُرُوا بِهِ سَجُودَ
كَرَامَةِ لآدَمَ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ،
وَعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا
إِبْلِيسَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُتَّصِلٌ فِي قَوْلٍ مِنْ
جَعَلَ إِبْلِيسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمِنْقَطَعٌ
فِي قَوْلٍ مِنْ قَالَ: هُوَ مِنْ قَبِيلَةِ غَيْرِ
الْمَلَائِكَةِ يُقَالُ لَهَا الْجِنُّ. وَقَوْلُهُ:
﴿فَلَا يَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَنَفَّقْ﴾،

الْحَمْدُ لِلَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ

قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ
تَجْزَى مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَى
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
وَمِنْ أَنَايِ النَّهْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾ وَلَا
تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُمْ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
لِنُفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ
وَاصْطِرْ عَلَيْهَا لَأَسْأَلَنَّ رِزْقًا مِنْ رِزْقِكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٢﴾
﴿١٣٣﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ ءَاوَلَمْ نَأْتِهِمْ بِبَيِّنَاتٍ مِمَّا فِي
الْصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٤﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ
لَقَالُوا إِنَّا لَوَاقِنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُفِيعَ ءَايَاتِكَ مِنْ
قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى ﴿١٣٥﴾ قُلْ كُلُّ مَتْرَفٍ مَقْرَبٌ قَرِيبٌ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٦﴾

٣٢١

يَأْتِيَنكُمْ ﴿ شَرْطٌ، وجوابه
في قوله: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ
هُدًى﴾ وما بعده إلى
آخر القسم الثاني،
والهدى معناه دعوة
ترعى. ثم أعلمهم أن
من اتبع هداى وأمن به
فإنه لا يضل في الدنيا
ولا يشقى في الآخرة،
وأن من أعرض عن
ذكر الله وكفر به فإن له
معيشة ضنكاً،
(والضنك): الكد الشاق
من العيش في المنازل
أو في مواطن الحرب
ونحوها، ومنه قول
عنترة:

.....
..... وَإِنْ نَزَلُوا يَوْمًا بِضُنْكِ أَنْزَلِ
يوصف به الواحد والجمع
والمؤنث. وقرأت فرقة:
﴿ضُنْكِ﴾، أتبع بالصفة لفظة
(المعيشة). واختلف الناس في
المعيشة الضنك، متى هو الوقت
الذي هي فيه؛ فقالت فرقة: هي
الدنيا، ومعنى ذلك عندهم أن الكافر
وإن كان متسع الحال والمال فمعه
من الحرص والأمل والتعذيب بأمر
الدنيا والرغبة واتساع صفاء العيش
بذلك ما يصير معيشته ضنكاً، وقالت
فرقة: هي ضنك بأكل الحرام،
وقالت فرقة: بل المعيشة الضنك هي
في البرزخ، وهو أن يرى مقعده من
النار غدواً ورواحاً، وبالجمله عذاب
القبر على ما روي فيه.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وَحَمَلَ هَذِهِ الْفَرْقَةَ عَلَى هَذَا التَّوِيلِ
أَنَّ لَفْظَ الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنَّ الْمَعِيشَةَ
الضَّنْكَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِقَوْلِهِ:
﴿وَنُخْشِرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾،
ويقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَى﴾. وقالت فرقة: بل المعيشة
الضنك في الآخرة، وهي عذابهم في
جهنم وأكلهم الرزقوم وغيره،
وذكر الله تعالى ذلك من وعيده لهم،
ثم أخبر عن حالة أخرى هي أيضاً
يوم القيامة وهي حشرهم عمياً، ثم
يجيء قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَى﴾ بمعنى هذا الذي ذكرناه من
المعيشة الضنك والعمى ونحوه هو
عذابه في الآخرة، وهو أشد وأبقى
من كل ما يقع عليه الظن والتخيل،
فكانه ذكر نوعاً من عذاب الآخرة
ثم ذكر أن عذاب الآخرة أشد
وأبقى.

وقرأت فرقة: ﴿وَنُخْشِرُهُ﴾ بالنون،
وقرأت فرقة: ﴿وَنُخْشِرُهُ﴾، وقرأت
فرقة: ﴿وَنُخْشِرُهُ﴾ بسكون الراء.
وقرأت فرقة: ﴿أَعْمَى﴾ بفتح الألف،
وقرأت فرقة: ﴿أَعْمَى﴾ بالإمالة،
وقالت فرقة: العمى هنا عمى
البصيرة عن الحجة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولو كان هذا لم يحسن الكافر بذلك؛
لأنه مات أعمى البصيرة ونُخْشِرَ
كذلك، وقالت فرقة: العمى هنا
عمى البصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا هو الأوجه، مع أن عمى
البصيرة حاصل في الوجيين، وأما
قوله تعالى: ﴿وَنُخْشِرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
رُزْقًا﴾ فمن رآه «في العين» فلا بد أن

وقرأت فرقة: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظُنُّهُمْ﴾
بفتح الألف عطفاً على قوله: ﴿أَلَّا
تَجْعَلَ﴾، وقرأت فرقة: ﴿وَأَنَّكَ لَا
تَظُنُّهُمْ﴾ عطفاً على قوله تعالى: ﴿إِنَّ
لَكَ﴾.

﴿١٢٦﴾ - ﴿١٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
﴿أَجْبَنَهُ﴾ معناه: تخيره واصطفاه،
و﴿قَاتَبَ عَلَيْهِ﴾ معناه: رجع به من
حال المعصية إلى حال التدم وهده
لصالح الأقوال والأعمال، وأمضى
عقوبته عز وجل في إيهاطه من
الجنة.

وقوله تعالى: ﴿أَهْطَا﴾ مخاطبة
لآدم وحواء، ثم أخبرهما بقوله:
﴿جَعِيلاً﴾ أن إبليس والحيّة يهبطان
معهما، وأن العداوة بينهم وبين
أنسآلهم إلى يوم القيامة. و﴿عَذْرٌ﴾
يوصف به الواحد والاثنتان
والجمع. وقوله تعالى: ﴿فَاتَا﴾

يتأولها مع هذا إما أنها في طائفتين وإما في موطنين.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَ لَأَمِينٌ﴾، (ذَلِكَ) إشارة إلى المعنى الذي حل به، أي مثل هذا في الدنيا أن أنتك آياتنا فنسبتها، (والثنيان) في هذه الآية بمعنى الترك، ولا مدخل للذهول في هذا الموضع، و﴿ثَنَيْتُ﴾ بمعنى: تترك في العذاب، وروي أن هذه الآية نزلت في القرشي.

﴿١٢٧﴾ - ﴿١٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وكما وصفنا من أليم الأفعال نجزي المسرفين المعتدين الكفار بالله عز وجل. وقوله سبحانه: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ وَأَقْوَمُ﴾ إن كانت معيشة الضنك في الدنيا أو في البرزخ فجاء هذا وعيداً بعذاب الآخرة بعد وعيد، وإن كان المعيشة (الضنك) في الآخرة فأكد الوعيد بعينه بهذا القول الذي جعل به عذاب الآخرة فوق كل عذاب يتخيله الإنسان أو يقع في الدنيا.

ثم ابتدأ يؤيخهم ويذكر العبر بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾. وقرأت فرقة: ﴿يَهْدِي﴾ بالياء بمعنى: يبين، واختلفت هذه الفرقة في الفاعل؛ فقال بعضهم: الفاعل (كَمْ)، وهذا قول كوفي، ونحاة البصرة لا يجيزونه؛ لأن (كَمْ) لها صدر الكلام، وفي قراءة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ مَنْ أَهْلَكُنَا﴾، فكان هذه القراءة تناسب ذلك التأويل في (كَمْ). وقال بعضهم: الفاعل الله عز وجل، والمعنى: أفلم يهد لهم ما جعل الله

لهم من الآيات والعبر، فأضاف الفعل إلى الله تعالى بهذا الوجه، قاله الزجاج. وقال بعضهم: الفاعل مقدر، الهدى أو الأمر. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أو النظر والاعتبار، وهذا أحسن ما يقدّر به عندي.

وقرأت فرقة: ﴿يَهْدِي﴾ بالثون، وهذه القراءة تناسب تأويل من قال في التي قبلها: الفاعل الله، و(كَمْ) - على هذه الأقوال - نصب بـ ﴿أَهْلَكُنَا﴾. ثم قيد (القرؤون) بأنهم يمشي هؤلاء الكفرة في مسالكهم، فإنما أراد عاداً وثمود والطوائف التي كانت قريش تجوز على بلادهم في المرور إلى الشام وغيره. وقرأت فرقة: ﴿يَسْئُونَ﴾ بفتح الياء، وقرأت فرقة: ﴿يَمْسُونَ﴾ بضم الياء وفتح الميم وشذ الشين، و(الشيء) جمع نهيّة، وهو ما ينهى الإنسان عن فعل القبيح.

ثم أعلم عز وجل أن العذاب كان يصير لهم لزماً لولا كلمة سبقت من الله عز وجل في تأخيرهم عنهم إلى أجل مسمى عنده، فتقدير الكلام: ولولا كلمة سبقت في التأخير لأجل مسمى لكان العذاب لزماً، كما تقول: لكان حتماً وواجباً وإقاعاً، لكنه قدم وأخر ليشابه رؤوس الآي.

واختلف الناس في الأجل؛ فيحتمل أن يريد يوم القيامة، والعذاب المتوعد به - على هذا - هو عذاب جهنم، ويحتمل أن يريد بالأجل موت كل واحد منهم، فالعذاب - على هذا - ما يلقي في

قبره وما بعده، ويحتمل أن يريد بالأجل يوم بدر، فالعذاب - على هذا - هو قتلهم بالسيف، وبكل احتمال مما ذكرناه قالت فرقة، وفي صحيح البخاري أن يوم بدر هو اللزام، وهو البطشة الكبرى.

ثم أمره تبارك وتعالى بالصبر على أحوالهم: إنه ساحر، إنه كاهن، إنه كذاب، إلى غير ذلك، والمعنى: لا تعجل بهم فهم بمدرجة المهلكة، وكون اللزام يوم بدر أبلغ في آيات نبينا ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْمِلُ حَرُّهُ﴾، قال أكثر المتأولين: هذه إشارة إلى الصلوات الخمس: ﴿فَبَلَّغْهُمُ السَّلَامَ﴾: صلاة الصبح، ﴿وَبَلَّغْهُمُ غُرُوبًا﴾: صلاة العصر، ﴿وَبَلَّغْهُمُ الْإِيلَافَ﴾: العتمة، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾: المغرب والظهر. وقالت فرقة: ﴿مَنْ آتَاءَ اللَّيْلِ﴾: المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾: الظهر وحدها، ويحتمل اللفظ أن يراد به قول: «سبحان الله وبحمده» من بعد صلاة الصبح إلى ركعتي الضحى، وقبل غروب الشمس؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَبَّحَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ تَسْبِيحَةَ غَرِيبٍ بَدْنُوهُ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وسُمي الطرفان أطرافاً على أحد وجهين: إما على نحو قوله: ﴿نَقَذَ صَعَتَ قُلُوبِكُمْ﴾، وإما على أن يجعل النهار للجنس فلكل يوم طرف، وهي التي جمع. وأما من قال: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ لصلاة الظهر وحدها فلا بُدَّ له من أن يتمسك بأن يكون النهار

للجنس كما قلنا، أو يقول: إن النهار ينقسم قسمين فصلهما الزوال، ولكل قسم طرفان، فعند الزوال طرفان، الآخر من القسم الأول، والأول من القسم الآخر، فقال عن الطرفين: أطرافاً على نحو ﴿فَنَدَّ صَوْتٌ قُلُوبَكُمْ﴾، وأشار إلى هذا النظر أبو بكر بن فورك في «المشكل».

و(الآناء) جمع (إني) وهي الساعة من الليل، ومنه قول الهذلي:

خَلَوُ وَمُرُ كِعِطْفِ الْقِدْحِ مِرْثُهُ
فِي كُلِّ إِنِّي قَضَاءُ اللَّيْلِ يَشْتَعِلُ
وقالت فرقة: الآية إشارة إلى نوافل، فمنها آناء الليل، ومنها قبل طلوع الشمس، وركعتا الفجر والمغرب أطراف النهار. وقرأ الجمهور: ﴿لَعَلَّكَ تَرْتَعَنُ﴾ بفتح التاء، أي: لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به. وقرأ الكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿لَعَلَّكَ تُرَضَّى﴾، أي: لعلك تُعطى ما يرضيك.

﴿١٣١﴾ - ﴿١٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل: قال بعض الناس: سبب هذه الآية أن رسول الله ﷺ نزل به ضيف فلم يكن عنده شيء، فبعث إلى يهودي ليسلفه شعيراً، فأبى اليهودي إلا برهن، فبلغ الرسول ذلك إلى النبي ﷺ فقال: «والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض»، فرهنه دزعه، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا معترض أن يكون سبباً؛ لأن الثورة مكية والقصة المذكورة مدنية في آخر عمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه مات ودرعه

مرهونة بهذه القصة التي ذكرت، وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها، وذلك أن الله تعالى ويخهم على ترك الاعتبار بالأمر السابقة، ثم توعدهم بالعذاب المؤجل، ثم أمر نبيه ﷺ بالاحتقار لشأنهم والصبر على أقوالهم والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا؛ إذ ذلك منصرف عنهم، صائر بهم إلى خزي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أبلغ من (ولا تنظر)، لأن الذي يمد بصره إنما يحمله على ذلك حرص مقترن، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه. و(الأزواج): الأنواع، فكأنه قال: إلى ما متعنا به أقواماً منهم وأصنافاً، وقوله: ﴿زَهْرَةَ الْحَبِيزَةِ النَّبَاتِ﴾ شبه نعيم هؤلاء الكفار بالزهر، وهو ما اصفر من الثور، وقيل: الزهر: الثور جملة؛ لأن الزهر له منظر ثم يضمحل، فكذلك حال هؤلاء. ونصب ﴿زَهْرَةَ﴾ يجوز أن يكون بإضمار فعل تقديره: جعلناه زهرة، ويجوز أن ينصب على الحال، وذلك أن تعريفها ليس بمحض. وقرأت فرقة: ﴿زَهْرَةَ﴾ بالتنوين، وقرأت فرقة: ﴿زَهْرَةَ﴾ بالهاء مُسَكَّنَةً، وقرأت فرقة: ﴿زَهْرَةَ﴾ بفتح الهاء. ثم أخبر تعالى نبيه ﷺ أن ذلك إنما هو ليختبرهم به، ويجعله فتنة لهم وأمرأ يجازون عليه بالسوء لفساد قلوبهم فيه، ورزق الله تعالى الذي أحله للمتقين من عباده خيراً وأبقى، أي: ورزق الدنيا خيراً، ورزق الآخرة أبقى، وبين أنه خير من رزق الدنيا.

ثم أمره تبارك وتعالى بأن يأمر أهله بالصلاة ويمثلها معهم ويصطر عليها ويلازمها، وتكفل هو برزقه، لا إله إلا هو، وأخبره أن العاقبة لأولي التقوى وفي خيها. فتم نصر الله في الدنيا ورحمته في الآخرة. وهذا الخطاب للنبي ﷺ، ويدخل في عمومهم جميع أمته. وزوي أن عروة بن الزبير رضي الله عنه كان إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله ودخله وهو يقرأ هذه الآية ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقَ رِزْقَ الْخَيْرِ وَابْقَى﴾، ثم ينادي: الصلاة الصلاة يرحمكم الله، ويصلي.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوقظ أهل داره لصلاة الليل ويصلي ويمثل بهذه الآية. وقرأ الجمهور: ﴿عَن زَرْفُكُ﴾ بضم الزاف، وقرأت فرقة: ﴿نَحْنُ نَزْرُفُكُ﴾ بسكونها.

ثم أخبر تعالى عن طوائف من الكفار قالوا عن محمد ﷺ: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّنَا﴾ أي بعلامة مما اقترحناها عليه، أو ممّا يبهر ويضطر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورسل الله تعالى إنما اقترنت معهم آيات معرضة للنظر، محفوفة بالبراهين العقلية، ليضل من سبق في علم الله ضلاله، ويهتدي من سبق هداه، فوخبهم الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمُ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ يعني التوراة، أعظم شاهد وأكبر آية له. وقرأ نافع، وأبو



(٢١)

سورة الأنبياء

مكية

وآياتها اثنتا عشرة ومائة

هذه السورة مكية بإجماع، وكان عبدالله بن مسعود يقول: «الكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول، وهن من تلادي»، يريد: من قديم ما كسبت وحفظت من القرآن، كالمال التلاد.

﴿١﴾ - تفسير قوله عز وجل:

رُؤِيَ أَن رَّجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَبْنِي جِدَارًا، فَمَرَّ بِهِ آخِرُ يَوْمِ نَزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَالَ الَّذِي كَانَ يَبْنِي الْجِدَارَ: مَاذَا نَزَلَ الْيَوْمَ مِنَ الْقُرْآنِ؟ فَقَالَ لَهُ

أمرهما، وأنا صاحب الفترة فليس ككفار قريش قبل النبي ﷺ؛ لأن كفار قريش وغيرهم ممن علم وسمع عن نبوة ورسالة في أقطار الأرض فليس بصاحب فترة، والنبي ﷺ قد قال للرجل الذي سأله عن أبيه: «أبي وأبوك في النار»، ورأي عمرو بن لحي في النار، إلى غير هذا مما يطول ذكره، وإنما صاحب الفترة يفرض أنه آدمي لم يصل إليه أن الله تعالى بعث رسولاً ولا دعا إلى دين، وهذا قليل الوجود، اللهم

إلا أن يشذ في أطراف الأرض المنقطعة عن العمران، والذلل والخزي مقترنان بعذاب الآخرة.

ثم أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يتوعدهم ويجلبهم ونفسه على التَّوْبِصِ وانتظار الفرج. (والتَّوْبِصُ): الشَّائِي، (وَالصُّرَاطُ): الطريق. وقرأت فرقة: «مَنْ آمَنَ حَبَّ الصُّرَاطِ أَسْوَى»، وقرأت فرقة: «الصُّرَاطِ أَسْوَى». فكان هذه الآية قسمت الفريقين، أي: سَتَعْلَمُونَ هذا من هذا. وقرأت فرقة: «الصُّرَاطِ أَسْوَى» بشذ الواو وفتحها، وقرأت فرقة: «الصُّرَاطِ أَسْوَى» بضم السين وهمزة على الواو، على وزن فُعْلَى. و«مَنْ آمَنَ حَبَّ» معناه: رشد. كمل تفسير سورة طه والحمد لله رب

العالَمين

عمرو، وحفص عن عاصم: «تَأْتِيهِمْ» على لفظ «يَبْتِئُ»، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم: «يَأْتِيهِمْ» بالياء على المعنى. وقرأت فرقة: «يَبْتِئُ مَا فِي الصُّحُفِ» بالإضافة إلى «مَا». وقرأت فرقة: «يَبْتِئُ» بالتونين، و«مَا» بدل على هذه القراءة. وقرأت فرقة: «يَبْتِئُ مَا» بالنصب، و«مَا» - على هذه القراءة - فاعلة بـ «تَأْتِي». وقرأ الجمهور: «فِي الصُّحُفِ» بضم الحاء، وقرأت فرقة: «فِي الصُّحُفِ» بسكونها.

﴿١٣٤﴾ - ﴿١٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

أخبر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أنه لو أهلك هذه الأمة الكافرة قبل إرساله إليهم محمداً ﷺ لقامت لهم حجة وقالوا: «لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا»، الآية. وروى أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «يُخْرِجُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْهَالِكُ فِي الْفِتْرِ، وَالْمَغْلُوبُ عَلَى عَقْلِهِ، وَالصَّبِيُّ الصَّغِيرُ، فَيَقُولُ الْمَغْلُوبُ عَلَى عَقْلِهِ: رَبِّ، لِمَ لَمْ تَجْعَلْ لِي عَقْلاً؟ وَيَقُولُ الصَّبِيُّ نَحْوَهُ: وَيَقُولُ الْهَالِكُ فِي الْفِتْرِ: يَا رَبِّ، لِمَ لَمْ تُرْسِلْ إِلَيَّ رَسُولًا؟ وَلَوْ جَاءَنِي لَكُنْتُ أَطْوَعُ خَلْقَكَ لَكَ، قَالَ: فَتَرْفَعُ لَهُمْ نَارٌ، وَيَقَالُ لَهُمْ: رُدُّوْهَا، قَالَ: فَيَرُدُّوْهَا مِنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ سَعِيدٌ، وَيَكْفُ عَنْهَا الشُّكُّ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إِنِّي عَصَيْتُمْ، فَكَيْفَ بَرَسَلِي لَوْ أَتَيْتُكُمْ؟».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فأما الصَّبِيُّ والمَغْلُوبُ على أمره فَيَبْنِي

الآخر: نزل اليوم ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، فنفض يده من البنيان وقال: والله لا بنيت أبداً وقد اقترب الحساب.

وقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ عام في جميع الناس وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار قريش، ويدل على ذلك ما بعده من الآيات، وقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ يريد الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتجّه من هذه الآية على العصاة من المؤمنين قسطهم.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ﴾ وما بعده مختص بالكفار. وقوله: ﴿وَيَنْذِكُرُ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، قالت فرقة: المراد ما ينزل من القرآن، وقوله: ﴿تُحَدِّثُ﴾ يريد نزوله وإتيانه إليهم، لا هو في نفسه. وقالت فرقة: المراد بالذكر أقوال النبي ﷺ في أمر الشريعة، ووعظه وتذكيره، فهو مُخَدِّثٌ على الحقيقة. وجعله (مِنْ رَبِّهِمْ) من حيث أن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلا ما هو من عند الله، وقالت فرقة: (الدُّكْرُ) الرُّسُولُ نفسه، واحتجّت على ذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَاكُمْ ذِكْرًا﴾ رُسُلًا يَنْتَلُوا عَلَيْكُمْ ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا؟، فهو محدث على الحقيقة، ويكون معنى ﴿أَسْمَعُوهُ﴾ بمعنى: استمعوا إليه. وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ جملة في موضع الحال، أي: استماعهم في حال لعب، فهو غير نافع ولا واصل النفس.

٢ - تفسير قوله عز وجل: قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ حال بعد حال،

واختلف النحاة في إعراب قوله سبحانه: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ فمذهب سيويه أن الضمير في قوله: ﴿وَأَسْرُوا﴾ فاعل، وأن ﴿الَّذِينَ﴾ بدل منه، وأن لغة «أكلوني البراغيث» ليست في القرآن. وقال أبو عبيدة وغيره: الواو والألف علامة أن الفاعل مجموع، كالتاء في قولك: «قامت هند»، و﴿الَّذِينَ﴾ فاعل بـ﴿أَسْرُوا﴾، وهذا على لغة من قال: «أكلوني البراغيث». وقالت فرقة: الضمير فاعل، و﴿الَّذِينَ﴾ مرتفع بفعل تقديره: أسرها الذين، أو قالها الذين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والوقوف على ﴿النَّجْوَى﴾ في هذا القول وفي القول الأول أحسن، ولا يحسن في الثاني. وقالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ مرتفع على خبر ابتداء مضمّر، تقديره: هم الذين ظلموا، والوقف مع هذا حسن. وقالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب بفعل تقديره: أعني الذين. وقالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خفض بدل من (الأناس) في قوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه أقوال ضعيفة.

ومعنى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾: تكلموا بينهم بالسوء والمناجاة بعضهم لبعض. وقال أبو عبيدة: (أسروا): أظهروا، وهو من الأضداد، ثم بين تعالى الأمر الذي تناجوا به وهو قول بعضهم لبعض: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، ثم قال بعضهم لبعض على جهة التوبيخ في الجهالة :-

﴿أَفَتَأْتُونَ السَّيْحَةَ﴾، أي ما يقول، شبهوه بالسحر، المعنى: أفتتبعون السحرة؟ ﴿وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ﴾، أي تدركون أنه سيخر، وتعلمون ذلك، كأنهم قالوا: تضلّون عن بيّنة ومعرفة. ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم وللناس جميعاً: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: يعلم أقوالكم هذه وهو بالمرصاد في المجازاة عليها.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿قُلْ رَبِّي﴾، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿قَالَ رَبِّي﴾ على معنى الخبر عن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، واختلف عن عاصم، قال الطبري رحمه الله: وهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار.

٥ - تفسير قوله عز وجل:

لما اقتضت الآية التي قبل هذه أنهم قالوا إن ما عنده سحر، عدّد الله تعالى في هذه الآية جميع ما قالته طوائفهم، ووقع الإضراب بكل مقالة عن المتقدمة لها ليبين اضطراب أمرهم، فهو إضراب عن جحد متقدم لأن الثاني ليس بحقيقة في نفسه. و(الْأَضْغَاثُ): الأخطا، وأصل الضُّغْث: القبض المخلطة من العشب والحشيش، فشبهت تخالط الحُلم بذلك، وهو ما لا يتفسر ولا يتحصل. ثم حكى قول من قال: إنه مُفْتَرٍ قاصد للكذب، ثم حكى قول من قال: شاعر، وهي مقالة فرقة عامية منهم، لأن نبلاء العرب لم يخف عليهم بالبدية أن مباني القرآن ليست مباني شاعر. ثم حكى اقتراحهم وتمنيهم آية تضطرهم

وتكون في غاية الوضوح كتناقة صالح عليه السلام وغيرها. وقوله: ﴿كَمَّا أَرْسَلَ الْآدَمُ﴾ دال على معرفتهم بإتيان الرُّسل الأُمم المتقدمة.

وقوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ قبله كلام مقدّر يدل عليه المعنى، تقديره: والآية التي طلبوها عاذتنا أن القوم إن كفروا بها عاجلناهم، وما آمنت قرية من القرى التي نزلت بها هذه النازلة، فهذه كانت تؤمن؟ وقوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ جملة في موضع الصفة للقرية، والجمل إذا أتبعته النكرات فهي صفات لها، وإذا أتبعته المعارف فهي أحوال منها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ رد على فرقة منهم كانوا يستبعدون أن يبعث الله من البشر رسولا يشف على نوعه من البشر بهذا القدر من الفضل، فمثل الله تعالى في الرّد عليهم بمن سبق من الرُّسل من البشر. وقرأ الجمهور: ﴿يُوحِي﴾ على بناء الفعل للمفعول، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿يُوحِي﴾ بالنون، ثم أحالهم على سؤال أهل الذّكر من حيث لم يكن عند قريش كتاب ولا أثار من علم.

واختلف الناس في أهل الذّكر، من هم؟ فروي عن عبدالله بن سلام أنه قال: أنا من أهل الذّكر، وقالت فرقة: هم أجبار أهل الكتاب، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: أنا من أهل الذّكر، وقالت فرقة: هم أهل القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا موضع ينبغي أن يتأمل؛ وذلك أن الذّكر هو كل ما يأتي من تذكير الله عباده، فأهل القرآن أهل ذّكر، وهذا أراد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأما المحال على سؤالهم في هذه الآية فلا يصح أن يكونوا أهل القرآن في ذلك الوقت؛ لأنهم كانوا خصومهم، وإنما أحيلوا على سؤال أجبار أهل الكتاب من حيث كانوا موافقين لهم على ترك الإيمان بمحمد ﷺ،

فتجئ شهادتهم - بأن الرُّسل قديماً من البشر لا مطعن فيها - لازمة لكفار قريش.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا﴾، قيل: الجسد من الأشياء يقع على ما لا يتغذى، ومنه قوله سبحانه: ﴿عِبَادًا جَسَدًا﴾، فمعنى هذا: ما جعلناهم أجساداً لا تتغذى. وقيل: الجسد يعم المتغذى من الأجسام وغير المتغذى، فالمعنى: ما جعلناهم أجساداً وجعلناهم مع ذلك لا يأكلون الطعام كالجمادات أو كالملائكة، فجعلناهم جسدًا على التأويل الأول منفى، وعلى الثاني موجب والثقي واقع على صفته، وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث، ثم نفى عنهم الخلد لأنه من صفات القديم، وكل محدث فغير خالد في الدنيا.

سورة الأنبياء

سورة الأنبياء

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَاءِ إِذَاهُمْ مِنْهَا وَرَضُّونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَنَلَّوْنَ ﴿١٣﴾ قَالُوا وَيَوَيْلُنَا إِنَّا كَانُوا غَافِلِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زِلْتَ تَلَّكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَبِيدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينِينَ ﴿١٦﴾ تَوَارَدْنَا أَنْ نَخْلُجَهُمْ لَا نَخَذِّنُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كَسْبَ فَعَلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْمُنَى عَلَى الْبَاطِلِ قِدْمَهُ فَإِذَا هُوَ هَاقٍ وَلَكُمْ الْوَيْلُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ قَوْلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَوْ اتَّخَذُوا آلَ الْهَيْمَةِ مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبَشِّرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كُنَّا فِيهَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدْنَا فَسَدَ اللَّهُ رِيبَ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسَلِّعُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢٣﴾ أَوْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

٢٢٢

١١ - ١٢ تفسير قوله عز وجل:

هذه وعيد في ضمن وصفه تعالى سيرته في الأنبياء عليهم السلام من أنه يصدق مواعيدهم، فكذلك يصدق لمحمد ﷺ ولأصحابه ما وعدهم من النصر وظهور الكلمة. وقوله: ﴿وَمَنْ نَشَاءُ﴾ يعني من المؤمنين، والمسرفون: الكفار المفرطون في غيهم وكفرهم، وكل من ترك الإيمان مسرف.

ثم وبخهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، والكتاب: القرآن. وقوله: ﴿يَبَيِّرُ ذِكْرُكُمْ﴾ يحتمل أن يريد: فيه الذّكر الذي أنزله الله إليكم بأمر دينكم وآخرتكم ونجاتكم من عذابه، فأضاف الذّكر إليهم من حيث هو في أمرهم، ويحتمل أن يريد: فيه شرفكم وذكركم آخر الدهر كما تذكّر

عظام الأمور، وفي هذا تحريض، ثم أكد التحريض بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وحركهم بذلك إلى النظر. ثم مثل لهم على جهة التوعّد بمن سلف من الأمم المعذبة، و﴿وَكَمْ﴾ للتكثير، وهي في موضع نصب بـ﴿فَصْنَا﴾. و﴿فَصْنَا﴾ معناه: أهلكنا، وأصل القضم: الكسر في الأجرام، فإذا استعير للمقوم والقرية ونحوه فهو ما يشبه الكسر، وهو إهلاكهم، فأوقع هذه الأمور على القرية والمراد أهلها، وهذا متهنّع كثير، ومنه: ﴿مَا ءَمَنْتَ قَبْلَهُمْ بِنَ قَرِيْبَةٍ﴾، وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ معناه: خلقنا وأبنتنا أمة أخرى غير المهلّكة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ وصف عن قرية من القرى المجملة أولاً، قيل: كانت باليمن تسمى خُضُوراء بعث الله تعالى إلى أهلها رسولاً فقتلوه، فأرسل إليهم بختنصر صاحب بني إسرائيل، فهزموا جيشه مرتين، فنهض في الثالثة إليهم بنفسه، فلما هزمهم وأمل القتل فيهم ركضوا هاربين. ويحتمل ألا يريد بالآية قرية بعينها، وأنه واصف كل قرية من القرى المعذبة، وأن أهل كل قرية كانوا إذا أحسوا العذاب من أي نوع كان أخذوا في الفرار. و﴿أَحَسُّوا﴾: باشروا بالحوائس. و﴿الرُّكُضُ﴾: تحريك القدم على الصفة المعهودة، والفأر والجاري بالجملة راكض، إما دابة وإما الأرض تشبيهاً بالذابة.

١٣ - تفسير قوله عز وجل: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾

إلى آخر الآية أن يكون من قول رجال بختنصر على الرواية المتقدمة، فالمعنى على هذا أنهم خدعهم واستهزؤا بهم بأن قالوا للهاربين منهم: لا تفروا وارجعوا إلى مواضعكم لعلكم تسألون صلحاً أو جزية أو أمراً يتفق عليه، فلما انصرفوا أمر بختنصر أن ينادى فيهم: يا ثارات النبي المقتول، فقتلوا بالسيف عن آخرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله مروي. ويحتمل أن يكون ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ إلى آخر الآية من كلام ملائكة العذاب على التأويل الآخر، أن الآيات وصف قصة كل قرية، وأنه لم يرد تعيين خُضُوراء ولا غيرها، فالمعنى على هذا أن أهل هذه القرى كانوا باغترارهم يرون أنهم من الله بمكان، وأنه لو جاءهم عذاب أو أمر لم ينزل بهم حتى يخاصموا أو يسألوا عن وجه تكذيبهم لنبيهم، فيحتجون هم عند ذلك بِحُجَج تنفعهم في ظنهم، فلما نزل العذاب دون هذا الذي أملوه وركضوا فارّين نادتهم الملائكة - على وجه الهُزء بهم -: لا تركضوا وارجعوا لعلكم تسألون كما كنتم تطمعون بسفه رأيكم. ثم يكون قوله: ﴿حَصِيدًا﴾ أي بالعذاب تُركوا كالحصيد. و﴿الإنراف﴾: التنعيم، و﴿دَعَوْنَهُ﴾ معناه: دعاؤهم وكلامهم، أي: لم ينطقوا بغير التأسف. و﴿الحَصِيدُ﴾ يشبه بحصيد الزرع بالمنجل، أي ردهم الهلاك كذلك، و﴿خَيِّبِينَ﴾ أي موتى دون أزواج، مشبهين بالنار إذا طفيت.

ولما فرغ وصف هذه الحال وعظ الله تعالى السامعين بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا﴾، أي: كما ظن هؤلاء الذين نزل بهم ما نزل، وكما تظنون أيها الكفرة الآن، ففي الآية وعيد بهذا الوجه، والمعنى: إنما خلقنا هذا كله ليُعْتَبَر به ويُنْظَر فيه ويُؤْمَن بالله بِحَسْبِهِ.

قال بعض الناس: ﴿سُتْلُونَ﴾ معناه: تفهمون وتفقهون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير لا يعطيه اللفظ، وقالت فرقة: ﴿سُتْلُونَ﴾ معناه: شيئاً من أموالكم وعرض دنياكم، على جهة الهُزء.

١٤ - تفسير قوله عز وجل: ظاهر هذه الآية الرؤى على من قال من الكفار أمر مريم وما ضارعه من الكفر، تعالى الله عن قول المبطلين، و﴿الْلَّهُوُ﴾ في هذه الآية: المرأة، ورؤي أنها في بعض لغات العرب تقع على الزوجة. و﴿إِنْ﴾ في قوله: ﴿إِنْ كُنَّا فَعَلِيلِينَ﴾ يحتمل أن تكون الشرطية، بمعنى: لو كنّا فاعيلين، ولَسْنَا كذلك، وللمتكلمين هنا اعتراض وانفصال، ويحتمل أن تكون نافية، بمعنى (ما)، وكل هذا قد قيل.

و﴿الْحَقُّ﴾ عام في القرآن والرسالة والشرع وكل ما هو حق، و﴿الْبَاطِلُ﴾ أيضاً عام كذلك، و﴿يَدْمَعُهُ﴾ معناه: يصيب دماغه، وذلك مُهْلِك في البشر، فكذلك الحق يهلك الباطل. و﴿الْوَيْلُ﴾: الخزي والهم، وقيل: هو اسم وادٍ في جهنم فهو

المراد في هذه الآية، وهذه مخاطبة للكفار الذين وصفوا الله تبارك وتعالى بما لا يجوز عليه وما لا يليق به، تعالى الله وتبارك وتقدس وتنزهه عن قولهم، بل هو كما وصف نفسه، وفوق ما نعت به خلقه، لا رب غيره.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ﴾ يحتمل أن يكون ابتداء كلام، ويحتمل أن يكون معادلاً لقوله: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ﴾، كأنه تقسيم الأمر في نفسه، أي: للمختلقين هذه المقالة الويل وله تعالى من في السموات والأرض. واللام في (لَه) لام الملك، ﴿وَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعم الملائكة والنبیین وغيرهم، ثم خصص من هذا العموم من أراد تشريفه من الملائكة بقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدُ﴾؛ لأن (عند) هنا ليست في المسافات، وإنما هي تشريف في المنزلة، فوصفهم تعالى بأنهم لا يستكبرون عن عبادة الله، ولا يسأمونها ولا يكلون فيها. و(الْخَسِيرُ) من الإبل: المغني، ومنه قول الشاعر:

لَهُنَّ الْوَجَى كَمْ كُنَّ عَوْنًا عَلَى النَّوَى
وَلَا زَالَ مِثْلَهَا ضَالِغٌ وَخَسِيرُ
و«خَسِرَ» و«اشْتَخَسِرَ» بمعنى واحد، وهذا موجود في كثير من الأفعال، وإن كان في استفعل لطلب الشيء.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَفْقَرُونَ﴾، روي عن كعب الأحبار رحمه الله تعالى أنه قال: جعل الله لهم التسبيح كالثَّغْسِ وطرف العين للبشر، يقع منهم دائماً دون أن تلحقهم فيه سامة. وقال قتادة رحمه الله: ذكر لنا

أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه إذ قال: «تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء يا رسول الله. قال: «إِنِّي لَأَسْمَعُ أَطِيطُ السَّمَاءِ، وَحَقٌّ لَهَا أَنْ تَطِيطَ، لَيْسَ فِيهَا مَوْضِعُ رَاحَةٍ إِلَّا وَفِيهَا مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ».

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه ﴿أَرْ﴾ التي هي بمنزلة ألف الاستفهام، وهي هنا تقرير وتوقيف، ومذهب سيبويه أنها بمنزلة (بل) مع ألف الاستفهام، كأن في القول إضراباً عن الأول ووقفهم الله تعالى بقوله: هل اتَّخَذُوا إِلَهَةً يُحْيَوْنَ ويخترعون؟ أي: ليست آلهتهم كذلك، فهي غير آلهة؛ لأن من صفة الإله القدرة على الإحياء والإماتة. وقرأت فرقة: ﴿يُنْشِرُونَ﴾ بضم الياء، بمعنى: يُحْيَوْنَ غيرهم، وقرأت فرقة أخرى: ﴿يُنْشِرُونَ﴾ بمعنى يُخْيَوْنَ هم وتدوم حياتهم، يقال: نَشَرَ الميتُ وأَنْشَرَهُ الله.

ثم يبين تبارك وتعالى أمر التمانع بقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، وذلك بأنه كان ينبغي بعضهم على بعض ويذهب بما خلق. واقتضاب القول في هذا أن إلهين لو قُرضا فَرَقَ بينهما الاختلاف في تحريك جِزْمٍ وتَسْكِينِهِ، فمحال أن تتم الإرادتان، ومحال ألا تَتَمَّا جميعاً، وإذا تَمَّت الواحدة كان صاحب الأخرى عاجزاً، وهذا ليس بإله، وجواز الاختلاف عليهما بمنزلة وقوعه منهما، ونظَرُ آخر، وذلك أن كل جزء يخرج من العدم إلى الوجود فمحال أن تتعلّق به قدرتان، فإذا

كانت قدرة أحدهما توجد بَقْيَ الآخر فضلاً لا معنى له في ذلك الجزء، ثم يتمادى النَّظَرُ هكذا جُزْءاً جُزْءاً. ثم نَرَهُ تبارك وتعالى نفسه عما وصفه به أهل الجهالة والكفر.

ثم وصف تعالى نفسه بأنه ﴿لَا يُسْتَلَّ عَنْهُ يَفْعَلُ﴾، وهذا وصف يحتمل معنيين: إمّا أن يريد أنه بحق ملكه وسلطانه لا يعارض ولا يُسْأَلُ عن شيء يفعلُه؛ إذ له أن يفعل في ملكه ما يشاء، وإمّا أن يريد أنه مُحَكَّمُ الأفعال وواضع كل شيء في موضعه، فليس في أفعاله سؤال ولا اعتراض. وهؤلاء من البشر يُسْأَلُونَ لهاتين العِلَّتَيْنِ؛ لأنهم ليسوا مالكيين، ولأنهم في أفعالهم خَلَلٌ كثير.

ثم قرّره تعالى ثانية على اتخاذ الآلهة، وفي تكرار هذا التقرير مبالغة في نكيره وبيان فسادِه، وفي هذا التقرير زيادة على الأول، وهي قوله: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾، فكأنه قرّره هنا على قصد الكفر بالله عز وجل، ثم دعاهم إلى الْحُجَّةِ والإتيان بالبرهان.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ نَّبِيِّ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾ يحتمل أن يريد به ﴿هَذَا﴾ جميع الكتب المنزلة قديمها وحديثها، أي: ليس فيها برهان على اتخاذ الآلهة من دون الله، بل فيها ضد ذلك. ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿هَذَا﴾ القرآن، والمعنى: فيه ذكر الأولين وذكر الآخرين، فذكر الآخرين بالدعوة وبيان الشَّرْعِ لهم وردّهم على طريق النجاة، وذكر الأولين بقص أخبارهم وذكر الغيوب في أمورهم. ومعنى الكلام - على

بِالْقَوْلِ» عبارة عن حُسن طاعتهم وعبادتهم ومراعاتهم لامتنال الأمر. وقوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما تقدم من أفعالهم وأعمالهم والحوادث التي لها إليهم تسبب، وما تأخر، ثم أخبر أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله أن يشفع لهم، قال بعض المفسرين: لأهل لا إله إلا الله. و(المُشفق): المبالغ في الخوف المحترق النفس من الفزع على أمر ما.

٢٨ - ٢٩ تفسير قوله عز وجل: المعنى: من يَقلُّ منهم كذا إن لو قاله، وليس منهم من قال هذا، وقال بعض المفسرين: المراد بقوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ﴾ الآية... إبليس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف؛ لأن إبليس لم يُزَوَّ قط أنه ادَّعى رُبوبيَّة.

وقرأ الجمهور: ﴿تَجْزِيهِ﴾ بفتح النون، وقرأ أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد: ﴿تُجْزِيهِ﴾ بضم النون والهاء، ووجهها أن المعنى: نجعلها تكتفي به، من قولك: أجزأني الشيء، ثم خفت الهمزة ياء. وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كجزائنا هذا القائل جزأونا الظالمين.

ثم وَقَّفَهُم تعالى على عبرة دالة على وحدانية الله جلَّت قدرته. و(الرُّتُقُ): الملتصق ببعضه ببعض الذي لا صدع فيه ولا فتح، ومنه: «امرأة رتقاء». واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿كَانَّا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمْ﴾، فقالت فرقة: كانت السماء ملتصقة بالأرض ففتقهما الله بالهواء، وقالت فرقة: كانت السماء

معرضون ولذلك لا يعلمون الحق، وقرأ الحسن، وابن محيصن: ﴿الْحَقُّ﴾ بالرفع على معنى: هذا القول هو الحق، والوقف في هذه القراءة على ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٢٩ - ٣٠ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا أَخْبَرَهُم تبارك وتعالى عنهم لا يعلمون الحق لإعراضهم أتبع ذلك بإعلامه أنه ما أرسل رسولا قط إلا أوحى إليه أن الله تعالى فردَّ صمداً وهذه عقيدة لم تختلف

فيها الثبوتات، وإنما اختلفت في الأحكام. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿نُوحٍ﴾ بنون مضمومة، وقرأ الباقون: ﴿يُوحَى﴾ بياء مضمومة، واختلف عن عاصم.

ثم عدَّد الله تعالى بعد ذلك نوعاً آخر من كفرهم، وذلك أنهم مع اتخاذهم آلهة كانوا يُقرُّون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق إلا أنهم قال بعضهم: اتَّخَذَ الملائكة بنات، وقال نحو هذه المقالة النصارى في عيسى ابن مريم، واليهود في عُزَيْر، فجاءت هذه الآية رادة على جميعهم مُنْهَةً عليهم. ثم نزه تعالى نفسه عن مقالة الكفرة، وأضرب عن مقالهم، ونَصَّ ما هو الأمر في نفسه بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، وهذه عبارة تشمل الملائكة وعيسى وعُزَيْر.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَهُ

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْأَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلْيَنْكُرْ إِيَّاهُ إِنَّهُ يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَيَكْفُرُ أَتَىٰ عَلَىٰ الْفَالِغِينَ ﴿٢٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتْ نَارًا فَفَتَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رِجْسًا أَنْ يَنْبَغِيَهُمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَبَالًا سَبَّكًا لِّكُلِّ هَمَزٍ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِلشِّرْكِ قِيلًا الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْأَشْرِ وَالْخَيْرِ وَفَنَّاوَالِيَّاءُ تَرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

هذا التأويل - عرض القرآن في معرض البرهان، أي: هاتوا برهانكم فهذا برهاني أنا ظاهر في ذكر من معي وذكر من قبلي. وقرأت فرقة: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ نَّبِيِّ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلٍ﴾ بالإضافة فيهما، وقرأت فرقة: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ نَّبِيٍّ﴾ بالإضافة ﴿وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾ بتنوين ﴿وَذِكْرٌ﴾ الثاني وكسر الميم في قوله: ﴿مِّنْ قَبْلِي﴾، وقرأ يحيى بن سعيد، وابن مصرف بالتنوين في ﴿وَذِكْرٌ﴾ من المَوْضِعَيْن وكسر الميم في ﴿مِّنْ﴾ في المَوْضِعَيْن، وضَعَف أبو حاتم هذه القراءة، كسر الميم في الأول، ولم يَر لها وجهاً.

ثم حكم عليهم تعالى بأن أكثرهم لا يعلمون الحق لإعراضهم عنه، وليس المعنى: فهم مُعْرِضُونَ لأنهم لا يعلمون، بل المعنى: فهم

ملتصقة بعضها ببعض والأرض كذلك ففتقهما الله سبعا سبعا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذين القولين فالرؤية الموقفة عليها رؤية القلب.

وقالت فرقة: السماء قبل المطر رتق، والأرض قبل النبات رتق، ففتقهما الله تعالى بالمطر والنبات، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنشَأَ دَاتٍ أَرْبَعٍ ۖ وَالْأَرْضِ دَاتٍ أَلْبَنَ ۖ﴾، وهذا قول حسن يجمع العبرة وتعدد النعمة والحجة بمحسوس بين، ويناسب قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، أي: من الماء الذي أوجده الفتق، فيظهر معنى الآية ويتوجه الاعتبار. وقالت فرقة: السماء والأرض رتق بالظلمة ففتقهما الله تعالى بالضوء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والرؤية على هذين القولين رؤية العين، والأرض هنا اسم للجنس، فهو جمع.

وقرأ الجمهور: ﴿رَتَقًا﴾ بسكون التاء، والرتق: مصدّر وصف به كالزور والغذل. وقرأ الحسن، والشعبي، وأبو حيو: ﴿كَانَتَا رَتَقًا﴾ بفتح التاء، وهو اسم المرتوق كالنفض والنقض والخبط والخبط، وقال: ﴿كَانَتَا﴾ من حيث هما نوعان، ونحوه قول عمرو بن شئيم: أَلَمْ يَخْزُنْكَ أَنَّ جِبَالَ قَنِيسٍ وَتَغْلِبَ قَدْ تَبَايَنَتَا انْقِطَاعًا

وقوله: ﴿كَانَتَا﴾ في القولين بمنزلة قولك: «كَانَ زَيْدٌ حَيًّا»، أي: ثم لم يكن، وفي القولين الآخرين بمنزلة قولك: «كَانَ زَيْدٌ عَالِمًا»،

أي: وهو كذلك. وقرأ ابن كثير وحده: ﴿أَلَمْ يَزَ﴾ بإسقاط الواو.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ بيّن أنه ليس على عموم، فإن الملائكة والجن قد خرجوا من ذلك، ولكن الوجه أن يُحمل على أعم ما يمكن، فالحيوان أجمع والثبات - على أن الحياة فيه مستعارة - داخل في هذا. وقالت فرقة: المراد بالماء المني الذي في جميع الحيوان. ثم وقفهم على ترك الإيمان توبيخاً وتقريباً.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل: الرّواسي جمع راسية، أي ثابتة، يقال: رسا يرسو إذا ثبت واستقر، ولا يستعمل إلا في الأجرام الكبار كالجبال والسفينة ونحوها. ويروى أن الأرض كانت تكفأ بأهلها حتى ثقلها الله بالجبال فاستقرت. والتميد: التحرك، والنفجاء: الطرق المتسعة في الجبال وغيرها و﴿سُبُلًا﴾: جمع سبيل، والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ يحتمل أن يعود على الرّواسي، ويحتمل أن يعود على الأرض، وهو أحسن. و﴿يَتَدَوَّنَ﴾ معناه: في مسالكهم وتصرفهم.

والسَّقْفُ: ما علا، والجفط هنا عام في الجفط من الشياطين ومن الوهي والسقوط وغير ذلك من الآفات.

و(آياتها): كواكبها وأمطارها والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك مما شبهه. وقرأت فرقة: ﴿عَنِ آيَاتِهَا﴾ بالإفراد الذي يراد به الجنس. و(الفلك): الجسم الدائر دورة

اليوم والليلة، فالكل في ذلك سابح متصرف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعن بعض المفسرين إلى الكلام فيما هو الفلك، فقال بعضهم: كحديدة الرّحى، وقال بعضهم: كالطاحونة، وغير هذا مما لا ينبغي التّسور عليه، غير أننا نعرف أن الفلك جسم مستدير، و﴿يَسْبَحُونَ﴾ معناه: يتصرفون، وقالت فرقة: الفلك موج مكشوف، ورأوا قوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ من السباحة وهي العموم.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل: قيل: إن سبب هذه الآية أن بعض المسلمين قال: إن محمداً لن يموت وإنما هو مخلّد، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأنكره، ونزلت هذه الآية. والمعنى: لم تُخلّد أحداً، ولا أنت نُخلّدك، وينبغي ألا يَتَنَقَّم أحد من المشركين عليك في هذا أفهم مُخلّدون إن مت أنت فيصح لهم انتقام؟

وقيل: إن سبب الآية أن كفار مكة طعنوا على النبي ﷺ بأنه بشر، وأنه يأكل الطعام ويموت، فكيف يصح إرساله؟ فنزلت الآية رادّة عليهم. وألف الاستفهام داخلّة في المعنى على جواب الشرط، وتؤدّت في أول الجملة لأن الاستفهام له صدر الكلام، والتقدير: أفهم الخالدون إن ميت؟ والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَنبِئْ﴾ عاطفة جملة على جملة، وقرأت فرقة: ﴿مُتَّ﴾ بضم الميم، وقرأت فرقة: ﴿يَتَّ﴾ بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ عموم يُراد به الخصوص، والمراد كل نفس

ثم رد عليهم بأن قرن بإنكارهم ذكر الأصنام كُفَرُهم بذكر الله، أي: فهم أحق باللام، وهم المخطئون. وقوله تعالى: ﴿يَذِكُرْ﴾ أي: بما يجب أن يذكر به، ولا إله إلا الله منه. وقوله سبحانه: ﴿يَذِكُرِ الرَّحْمَنُ﴾، روي أن الآية نزلت حين أنكروا هذه اللفظة وقالوا: ما نعرف الرَّحْمَنُ إلا باليمامة، وظاهر الكلام أن ﴿الرَّحْمَنَ﴾ قصد به العبارة عن الله تعالى، كما لو قال: وهم بذكر الله، وهذا التأويل أغرق في ضلالهم وخطئهم.

وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ توطئة للرد عليهم في استعجالهم العذاب، وطلبهم آية مقترحة، وهي مقرونة بعذاب مُجَهِّزٍ إن كفروا بعد ذلك. ووَصَفَ تعالى الإنسان الذي هو اسم الجنس بأنه خُلِقَ مِنْ عَجَلٍ، وهذا على جهة المبالغة، كما تقول للرجل البَطَالُ: أنت من لعب ولهو، وكما قال رسول الله ﷺ: «لَسْتُ مِنْ قِيٍّ وَلَا ذَقٍّ مِثِّي». وهذا نحو قول الشاعر:

وَأَنَا لِمِمَّا تَضْرِبُ الْكَبِشَ ضَرْبَةً
عَلَى رَأْسِهِ تُلْقِي السَّانَ مِنَ الْقَمِ
كَأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا أَهْلَ ضَرْبٍ لِلْهَامِ
وملازمة للحرب قال: إنهم من الضرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل يتم به معنى الآية المقصود في أن ذمت عَجَلَتهم وقيل لهم على جهة الوعيد: إن الآيات ستأتي فلا تستعجلون، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾: إنه من

وخير البدن وشروءه، وخير الدنيا في الحياة وشروءها، وأما الهدى والضلال فغير داخل في هذا، ولا الطاعة والمعصية؛ لأن من هدى فليس نفسُهُ هُداة اختاراً، بل قد تَبَيَّنَ خيره، فعلى هذا ففي الخير والشر ما ليس فيه اختارٌ، كما يوجد أيضاً اختبار بالأوامر والنواهي وليس بداخل في هذه الآية.

﴿وَفِتْنَةً﴾ معناه: امتحاناً وكشفاً. ثم أخبر عز وجل عن الرجعة إليه والقيام من القبور، وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّكُمْ جُثُوجٌ﴾ وقرأت فرقة: ﴿تُزْجَعُونَ﴾ بضم التاء، وقرأت فرقة: ﴿تُزْجَعُونَ﴾ بفتحها، وقرأت فرقة: ﴿تُزْجَعُونَ﴾ بالياء مضمومة، على الخروج من الخطاب إلى الغيبة.

(٣٦) - (٣٨) تفسير قوله عز وجل: رُوي أن أبا سفيان وأبا جهل بن هشام رأيا رسول الله ﷺ في المسجد فاستهزأ به فنزلت الآية بسببها، وظاهر الآية أن كفار قريش وعظماءهم يعمهم هذا المعنى من أنهم ينكرون أخذ رسول الله ﷺ في أمر آلهتهم، وذكره لهم بفساد. ﴿وَإِنْ﴾ بمعنى (ما)، وفي الكلام حذف تقديره: يقولون: أهذا الذي؟ وقوله: ﴿يَذِكُرْ﴾ لفظ يعم المدح والذم لكن قرينة المقال أبداً تدل على المراد من الذكر، وتَمَّ ما حكى عنهم في قوله: ﴿إِلَهُكُمْ﴾.

وَأَذَارَ الْآلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَخْدُونَا فَلَا هُمْرُوا
أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهُكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ
هُمْ كَفَرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُولُكُمْ
عَابِتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُنَّ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٧﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ
لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ أَسْدَارٌ لَأَعَانَ طُغُورُهُمْ وَلَا
هُمْ يَصْغُرُونَ ﴿٣٨﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْضَةً فَبَهُتُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَسْمَعْنَا
رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَكَانَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٠﴾ قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
الرَّحْمَنُ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ
لَهُمْ آلَهِمَّةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ يَتَضَاعَفُونَ ﴿٤٢﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ
وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٣﴾

مخلوقة. (والدُّوْق) هاهنا مستعار، و﴿وَبُؤُوكُمْ﴾ معناه: نخبركم، وقدم الشر لأن الابتلاء به أكثر، ولأن العرب من عاداتها أن تقدم الأقل والأزداً، فمعه قوله تعالى: ﴿لَا يَغَاذِرُ صَبِيْرَةٌ وَلَا كَبِيْرَةٌ إِلَّا أَحْصَاهَا﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَنْهَرُ ظُلْمَهُ أَنْفُسِهِمْ وَيَتَمَّ مَقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخَبْرَتِ﴾، فبدأ بتقسيم أمة محمد ﷺ بالظلم. وقال الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنه جعل الخير والشر هاهنا عاماً في الغنى والفقر والصحة والمرض والطاعة والمعصية والهدى والضلالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن المراد من الخير والشر هنا كل ما يصح أن يكون فتنةً وابتلاءً، وذلك خير المال وشروءه،

المقلوب، كأنه أراد: خُلِقَ الْعَجَلُ من الإنسان، على معنى أنه جعل طبيعة من طبائعه وجزءاً من أخلاقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل ليس فيه مبالغة، وإنما هو إخبارٌ مجرد، وإنما حمل قائله عليه عَدَمُهُمْ وجه التجوُّز والاستعارة في أن يبقى الكلام على ترتيبه، ونظير هذا القلب الذي قاله قولُ العرب: «إذا طلعت الشعري استوت العود على الجزباء»، وكما قالوا: «عرضت الثقة على الحوض»، وكما قال الشاعر:

حَسَرْتُ كَفِّي عَنِ السُّزْبَالِ أَخَذَهُ
فَزَدَا يُجَرُّ عَلَى أَيْدِي الْمُفْذِنَا
وأما المعنى في تأويل من رأى الكلام من المقلوب فكالمعنى الذي قدَّمناه، وقالت فرقة من المفسرين: قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ إنما أراد أن آدم عليه السلام خلقه الله تعالى في آخر ساعة من يوم الجمعة فتعجل به قبل مغيب الشمس، وروى بعضهم أن آدم عليه السلام قال: يا ربِّ اكمل خلقي فإنَّ الشمس على الغروب أو قد غربت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قولٌ ضعيف، ومعناه لا يناسب معنى الآية. وقالت فرقة: العَجَلُ: الطَّيْنُ، والمعنى: خُلِقَ آدم من طين، وأنشد النقاش:

وَالنَّحْلُ يَنْبُثُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعَجَلِ
وهذا أيضاً ضعيف مغايرٌ لمعنى الآية. وقالت فرقة: معنى ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي بقوله تعالى: ﴿كُنْ﴾، فهو بحال عَجَلَةٍ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أيضاً ضعيف، وفيه تخصيص ابن آدم بشيء كل مخلوق يشاركه فيه، وليس في هذه الأقوال ما يصح معناه ويلتئم مع الآية إلا القول الأول.

وقرأت فرقة: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ﴾ على بناء الفعل للمفعول، وقرأت فرقة: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ﴾ على معنى: خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ، فمعنى الآية بجملة: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، على معنى التعجب من تعجل هؤلاء المقصودين بالردِّ. ثم توعدهم بقوله: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾، أي: سيأتي ما يسوؤكم إذا مثم على كفركم، يريد يوم بدر وغيره، ثم فسر تعالى استعجالهم بقوله: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وكان استفهامهم على جهة الهُزء والتكذيب، وقولهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يريدون محمداً ﷺ ومَن آمَنَ به؛ لأنَّ المؤمنين كانوا يتوعدونهم على لسان الشَّرع، وموضع ﴿مَتَى﴾ رفع عند البصريين، وقال بعض الكوفيين: موضعه نصب على الظرف، والعامل فعل مُقَدَّر تقديره: يكون أو يجيء، والأول أصوب.

٣٩ - ٤٠ تفسير قوله عز وجل: حُذِفَ جواب ﴿أَوْ﴾ إيجازاً للدلالة الكلام عليه، وأبهم قدر العذاب لأنه أبلغ وأهيب من النص عليه، وهذا محذوف نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ مِنْ آيَاتِهِ﴾، وتقدير المحذوف في جواب هذه الآية: لَمَّا استعجلوا، ونحوه. وقوله

تعالى: ﴿حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ النَّارَ﴾ يريد يوم القيامة، وذكر الوجوه خاصة لشرفها من الإنسان وأنها موضع حواسه وهو أحرص على الدفاع عنها، ثم ذكر الظهور ليبيِّن عموم النار لجميع أبدانهم.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ استدراك مُقَدَّر قبله نفى تقديره: إِنَّ الآيات لا تأتي بحسب اقتراحهم بل تأتيهم بغتة، والضمير للساعة التي تُصِيرُهُم إلى العذاب، ويحتمل أن يكون للنار. وقرأت فرقة: ﴿بَلْ يَأْتِيهِمْ﴾ بالياء على أن الضمير للوعد، ﴿فَتَبَيَّنَتْ لَهُمْ﴾ بالياء على أن الضمير للوعد أيضاً. (وَالْبَغْضَاءُ): الفجأة عن غير مقدمة، و﴿يُنْظَرُونَ﴾ معناه: يُؤَخَّرُونَ.

ثم آتس الله تعالى محمداً ﷺ بما جرى على سائر الأنبياء من استهزاء قومهم بهم وحلول العذاب بالمستهزئين، وخاق معناه: نُزِلَ وحلٌّ، وهي مستعملة في العذاب والمكاره. وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا﴾ فيه محذوف تقديره: جزاء ما كانوا، ونحوه، ومع هذا التأنيس الذي لمحمد ﷺ وعيد للكفرة وضربٌ مثلٍ لهم بمن سلف من الأمم.

٤١ - ٤٢ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة المستهزئين بك وبما جئت به، الكافرين بذكر الرحمن، الجاهلين به، قل لهم على جهة التقرير والتوبيخ: من يحفظهم؟ وكلاً

يَسْمَعُ ﴿٤٥﴾ بالياء وإسناد الفعل إلى ﴿الْأَصْرُ﴾ وقرأ ابن عامر وحده: ﴿وَلَا يُسْمِعُ﴾ بضم الياء وكسر الميم ونصب ﴿الْصُّمُّ﴾. وقرأت فرقة: ﴿وَلَا تُسْمِعُ﴾ بالتاء مضمومة وفتح الميم وبناء الفعل للمفعول، والفرقتان نصبتا ﴿الْدُّعَاءُ﴾، وقرأت فرقة: ﴿وَلَا يُسْمِعُ الْصُّمُّ الدُّعَاءُ﴾ بإضافة ﴿الْصُّمُّ﴾ إلى ﴿الدُّعَاءُ﴾، وهي قراءة ضعيفة وإن كانت متوجهة. ثم خاطب الله تعالى محمدا ﷺ متوعدا لهم بقوله: ﴿وَلَكِنْ مَسْتَهْزِئَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، والتهفة: الخطرة والمستهة، كما تقول: نفج بيده إذا مال بها هكذا ضارباً إلى جهة، ومنه «نَفَحَ الطَّيْبُ» كأنه يخطر خطرات على الحاسة، ومنه: «نَفَحَ لَهُ مِنْ عَطَايَاهُ» إذا أخذ منها نصيباً، ومنه: «نَفَحَ الْفَرَسُ بِرِجْلِهِ» إذا ركض، والمعنى: ولئن مس هؤلاء الكفرة صدمة عذاب في دنياهم لَيُتَذَمَّنْ وَلَيُقَرَّنَ بظلمهم. ﴿٤٦﴾ - ﴿٤٧﴾ تفسير قوله عز وجل: لما توعدهم بنفحة من عذاب الدنيا عقب ذلك بتوعد بوضع الموازين من حيث القسط، وإنما جمعها وهي ميزان واحد لأن لكل أحد وزن يخصه، ووحد ﴿الْقِسْطُ﴾ وهو قد جاء بلفظ الموازين مجموعاً من حيث «الْقِسْطُ» مصدر وصف به، كما تقول: «قَوْمٌ عَدْلٌ وَرَضَى». وقرأت فرقة: ﴿الْقِسْطُ﴾ بالصاد. وقوله سبحانه: ﴿لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي: لحساب يوم القيامة، أو لحكم يوم القيامة، فهو بتقدير حذف مضاف. والجمهور على أن الميزان في يوم

أن حالهم لا يبدو، والمعنى: طال العمر في رخاء.

ثم وقفهم تعالى على مواضع العبرة في الأمم وفي البشر بحسب الخلاف في الأطراف، و(الرؤية) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ رؤية العين تتبعها رؤية القلب. و﴿نَارِي﴾ معناه: بالقدرة والبأس، و﴿الْأَرْضِ﴾ عامة في الجنس، وقوله سبحانه: ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ إما أن يريد: فيما يخرب من المعمور فذاك بعض الأرض، وإما أن يريد

موت البشر فهو تَنْقُصُ للمقرون، ويكون المراد حينئذ أهل الأرض، وقال قوم: النقص من الأطراف موت العلماء، ثم وقفهم - على جهة التوبيخ - أنهم يغلبون من غلب جميع أهل الأرض وقهر الكل بسلطانه وعظمته؟ أي إن ذلك محال بَيِّنٌ، بل هم مغلوبون مقهورون.

﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: قل يَأَيُّهَا الْمُقْتِرِحُونَ المتشبطون إنما أنذركم بوحى يوحى الله إليّ، وبدلالات على العبر التي نصبها الله تعالى لِيُنْظَرَ فيها، كنقصان الأرض من أطرافها وغيره، ولم أبعث بآية مُطَرِّدة ولا بما تقتريه. ثم قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ﴾ بمعنى: وأنتم معرضون عما أنذر به، فهو غير نافع لكم، ومثل أمرهم بالْصُّمِّ. وقرأ جمهور القراء: ﴿وَلَا

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنَادُّونَ ﴿٤٨﴾ وَلَكِنْ مَسْتَهْزِئَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لِيُقُولَ تَوَلَّيْنَا أَنَا كَمَا ظَلَمْتُمْ ﴿٤٩﴾ وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطِ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِنْكَ آلَتْ بِكَ مِنْ خَدَلٍ أَلَيْسَ بِهَا وَكَفَى بِتَاجِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَّةً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ أَسَاسَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٥٢﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُسُودَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِدُونَ ﴿٥٥﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى عِزْدِينَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَوْا آبَاءَكُمْ فِي ضَلَالٍ شِينٍ ﴿٥٧﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتُمْ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٨﴾ قَالَ بَلْ زَكَّيْتُ أَلْسِنَاتٍ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرْنَاهُ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٩﴾ وَاللَّهُ لَا يَكِيدُ أَصْنَاكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ﴿٦٠﴾

معناه حفظ، ومنه قول النبي ﷺ: «أَكْثَلُنَا الْفَجْرُ»، وفي آخر الكلام تقدير محذوف، كأنه قال: ليس لهم مانع ولا كالية، وعلى هذا المعنى تركبت ﴿بَلْ﴾ في قوله سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾. ثم يقضي عليهم التقرير في أنه لا مانع لهم من الله بأن كشف أمر ألهتهم، والمعنى: يظنون أن ألهتهم التي بهذه الصفة تمنعهم من دوننا، بل لا يمنعهم أحد إلا نحن. وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَتَّخِذُونَ﴾ يحتمل تأويلين: أحدهما: يُجَاوِزُونَ وَيُتَمَنَعُونَ، والآخر: وَلَا هُمْ مِتَّا يُصْحَبُونَ بخير ولا بركة ونحو هذا، وفي الكلام تقدير محذوف، كأنه قال: ليس ثم شيء من هذا كله، بل ضل هؤلاء لأننا متعنهم ومتعنا آباءهم فنسوا عقاب الله وظنوا

القيامة بعمود وكفتين توزن به
الأعمال، ليبين للناس المحسوس
المعروف عنده، والخفة والثقل
متعلقة بأجسام يقرنها الله تعالى يوم
القيامة بالأعمال، فإِذَا أَن تَكُونُ
صحف الأعمال أو مثالات تُخلق أو
ما شاء الله تبارك وتعالى.

وقرأ نافع وحده: ﴿مِثْقَالٌ﴾ بالرفع على أن تكون مستأنفة، وقرأ جمهور الناس: ﴿مِثْقَالٌ﴾ بالنصب على معنى: وإن كان الشيء أو العمل مثقال. وقرأ الجمهور: ﴿أَيْتَانَا﴾ على معنى: جئنا، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: ﴿أَيْتَانَا﴾ على معنى: وأتينا من المواتاة، ولا يقدر ولا يفسر ﴿أَيْتَانَا﴾ بأعطينا لما تعدت بحرف جر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويوهن هذه القراءة أن تبديل الواو
المفتوحة بهمزة ليس بمعروف،
وإنما يعرف ذلك في المضمومة أو
المكسورة. وفي قوله تبارك وتعالى:
﴿وَكُنْ مِنْ حَسْبِينَ﴾ نَوْعٌ.

ثُمَّ عَقَّبَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَمْرِ
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

و(الْفُرْقَان) فيما قالت فرقة:
التَّوْرَة، وهي «الضِّيَاءُ وَالذُّكْرُ». وقرأ
ابن كثير، وحمزة: ﴿ضِيَاءٌ﴾
بهمزتين قبل الألف وبعدها، وقرأ
الباقون: ﴿ضِيَاءٌ﴾ بهمزة واحدة بعد
الألف، وقرأ ابن عباس: ﴿الْفُرْقَانُ
ضِيَاءٌ﴾ بغير واو، وهي قراءة عكرمة
والضحاك، وهذه القراءة تؤيد قول
من قال: المراد بذلك كله التوراة،
وقالت فرقة: (الفرقان) هو ما
رزقه الله من نصر وظهور حُجْبَةٍ وغير

ذلك مما فَرَّقَ بين أمره
وبين أمر فرعون لَعَنَهُ اللهُ،
(وَالضُّيَاءُ)، التوراة،
(وَالذِّكْرُ) بمعنى التَذَكُّرِ.
وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل
ثلاثة تأويلات: أحدها في
غيهم وخلواتهم وحيث لا
يطلع عليهم أحد، وهذا
أرجحها، والثاني أنهم
يخشون الله على أن أمره
تعالى غائب عنهم، وإنما
استدلوا بدلائل لا
بمشاهدة، والثالث أنهم
يخشون الله ربهم بما
أعلمهم به مما غاب عنهم
من أمر آخرتهم ودنياهم.
(وَالْإِسْفَاقُ): أَشَدُّ

الخشية، (وَالسَّاعَةِ): القيامة. وقوله تعالى: ﴿وَمَعَذَاتٌ﴾ إشارة إلى القرآن، ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، إمَّا أَنْ يكون بمعنى أنْزَلْنَاهُ، كما تقول: أنْزَلْتُ الشَّيْطَانَ فَلَنَأْتِيَ بِمَكَانٍ كَذَا إِذَا أَتَيْتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ النُّزُولُ بِالْمَلِكِ. ثُمَّ وَقَفْهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَقْرِيراً وَتَوْبِيخاً، هَلْ يَصِحُّ لَهُمْ إِنْكَارُ بَرَكَةِ وَمَا فِيهِ مِنَ الدَّعَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى صَالِحِ الْعَمَلِ؟

٥١ - ٥٨ تفسیر قوله عز وجل:

الرُّشْد عام في هدايته إلى رفض
الأصنام، وفي هدايته في أمر
الكوكب والشمس والقمر وغير ذلك
من النُّبُوَّة فما دونها، قال بعضهم:
معناه: وَفَّق للخير صغيراً، وهذا كله
مقارب. وقوله سبحانه: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾
معناه: من قبل موسى وهارون
عليهما السلام، فبهذه الإضافة هو

فَجَعَلَهُمْ جُودًا ۖ الْأَكْبَرُ أَهْلُ لَعْنَةٍ ۖ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ
 ﴿٣٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا ۖ إِنَّهُ لَغَيْرُ الْظَالِمِينَ
 قَالُوا سُبْحَانَ الَّذِي يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ الْإِزْمِيلُ ﴿٣٩﴾ قَالُوا فَأَنَّى لَهُ
 عَلَى الْعِثْرِ الْأَنْسَ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ
 هَذَا بِإِلَهِنَا يَا ابْنِ زَيْهٍ ﴿٤١﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ
 هَذَا فَاسْتَأْذِنُوا ۖ إِنْ كُنَّا نَاطِقُونَ ﴿٤٢﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ
 أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ ذَكَرُوا عَلَىٰ
 رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٤٤﴾ قَالَ
 أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
 يَضُرُّكُمْ ﴿٤٥﴾ أَتَىٰ لَكُمْ حُرُوفُهَا وَلِمَا تُعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا حُرُوفُهَا وَاضْرِبْهُ ۖ وَإِنَّ الْإِلَهَ بْنَ كُنْثٍ
 فَجَعِلَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا بَسَرْنَا كُنْثَىٰ بَرَدًا وَسَلَمًا عَلَىٰ ابْنِ زَيْهٍ ﴿٤٨﴾
 وَارْأَوْا بَنِي كَيْدٍ أَفْجَعَلْنَاهُمْ الْأَعْرَصِينَ ﴿٤٩﴾ وَتَجَنَّبْهُ
 وَطُلَّ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٠﴾ وَوَهَبْنَا
 لَهُمُ اسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ ﴿٥١﴾

قبل كما هي نسبة نوح عليه السلام منه، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِ عِلِيلِينَ﴾ مدح لإبراهيم عليه السلام، أي أنه يستحق ما أهل له، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، والعامل في ﴿إِذْ﴾ قوله: ﴿آتَيْنَا﴾، و﴿الْتَمَائِيلُ﴾: الأصنام؛ لأنها كانت على صورة الإنسان من خشب، و﴿الْعُكُوفُ﴾: الملازمة للشيء. وقوله: ﴿فَطَرَهُمْ﴾ عبارة عنها كأنها تعقل، وهذه من حيث لها طاعة وانقياد، وقد وصفت في مواضع بما يوصف به من يعقل.

قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ﴾
 الآية. رُوي أنهم حضروهم عيداً لهم
 فعزم قوم منهم على حضور إبراهيم
 عليه السلام معهم طمعاً منهم أن
 يستحسن شيئاً من أخبارهم، فمشى
 معهم، فلما كان في الطريق عزم

على التخلف عنهم، فقعده وقال لهم: **إِنِّي سَقِيمٌ**، فمَرَّ به جمهورهم، ثم قال في خلوة من نفسه: **﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَكُكُمْ﴾**، وسمعه قوم من ضعفته ممن كان يسير في آخر الناس. وقوله: **﴿بَعْدَ أَنْ تُولَوا مُدْبِرِينَ﴾** معناه: إلى عيدهم، ثم انصرف إبراهيم عليه السلام إلى بيت أصنامهم وحده فدخل ومعه قدم، فوجد الأصنام قد وقفت، أكبرها في الأول ثم الذي يليه فالذي يليه، وقد جعلوا أطعماتهم في ذلك اليوم بين يدي الأصنام تبركاً بها لينصرفوا من ذلك العيد إلى أكله، فجعل عليه السلام يقطعها بذلك القدم ويهشمها حتى أفسد أشكالها كلها حاشى الكبير فإنه تركه بحاله وعلّق القدم في يده وخرج عنها. و**﴿جَذَذَكُمْ﴾** معناه قطعاً صغاراً، والجذ: القطع، وقرأ الجمهور: **﴿جَذَذَكُمْ﴾** بضم الجيم، وقرأ الكسائي وحده بكسرهما، وقرأ ابن عباس، وأبو ثيبك، وأبو السّمال بفتحها، وهي لغات، والمعنى واحد.

وقوله تعالى: **﴿فَجَعَلَهُمْ﴾** ونحوه معاملةً للأصنام بحال من يعقل من حيث كانت تُعبد وتُزَلّ منزلة من يعقل، والضمير في **﴿إِلَيْهِ﴾** أظهر ما فيه أنه عائد على إبراهيم عليه السلام، أي فعل هذا كله توحّياً منه أن يعقب ذلك منهم رجعة إليه وإلى شرعه، ويحتمل أن يعود الضمير إلى الكسر المتروك، ولكن يضعف ذلك دخول الترخّي في الكلام.

٥٩ - (١٢) تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فانصرفوا من عيدهم فرأوا

ما حدث بألبهتهم فأكبروا ذلك، وحينئذ قالوا: **﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا﴾** على جهة البحث والإنكار، و**﴿تَالُؤْا﴾** الثانية الضمير فيها يعود للقوم الضعفة الذين سمعوا إبراهيم عليه السلام حين قال: **﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ﴾**، واختلف الناس في وجه رفع قوله: **﴿إِبْرَاهِيمُ﴾**؛ فقالت فرقة: هو مرتفع بتقدير النداء، كأنهم أرادوا: الذي يقال له عندما يدعي: يا إبراهيم، وقالت فرقة: رفعه على إضمار الابتداء، تقديره: هو إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أرجح. وقال الأستاذ أبو الحجاج الأشبيلي الأعلم: هو رفع على الإهمال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لما رأى وجوه الرُفَع كأنها لا توضح المعنى الذي قصدوه ذهب إلى رفعه بغير شيء، كما قد يرفع التجرد والعُرُو عن العوامل الابتداء..

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والوجه عندي أنه مفعول لم يُسم فاعله، على أن تجعل **﴿إِبْرَاهِيمُ﴾** غير دالٍّ على الشخص، بل تجعل النطق به دالاً على بناء هذه اللفظة، وهذا كما تقول: **﴿زَيْدٌ وَزَن فَعَلَ﴾**، أو **﴿زَيْدٌ﴾** ثلاثة أحرف، فلم تدل بوجه على الشخص بل دللت بنطقها على نفس اللفظة، وعلى هذه الطريقة تقول: **﴿قلت إبراهيم﴾**، ويكون مفعولاً صحيحاً أنزلته منزلة قول وكلام فلا يتعذر بعد ذلك أن يبني الفعل فيه للمفعول.

وقوله: **﴿عَلَىٰ آعْيُنِ النَّاسِ﴾** يريد: في المحفل وبمحضر الجمهور،

وقوله: **﴿يَتَنَبَّهُونَ﴾** يحتمل أن يراد به الشهادة عليه، يريدون بفعله أو بقوله: **﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَكُكُمْ﴾**، ويحتمل أن يراد به المشاهدة، أي: يشاهدون عقوبته أو غلبته المؤدية إلى عقوبته، المعنى: فجاء إبراهيم عليه السلام حين أتى به فقالوا له: آئت فعلت هذا بالألّه؟ فقال لهم إبراهيم عليه السلام: بل فعله كبيرهم هذا، على جهة الاحتجاج عليهم، أي أنه غار من أن يُعبد هو ويُعبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك. وقالت فرقة هي الأكثر: إن هذا الكلام قاله إبراهيم عليه السلام لأنها كذبة في ذات الله تؤدي إلى خزي قوم كافرين، والحديث الصحيح يقتضي ذلك وهو قول النبي ﷺ: **﴿لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ نَعْمَكُمُ كِيدُ هَذَا﴾، وقوله: ﴿لَمَّا تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾﴾**، ثم تطرق إلى موضع خزيهم بقوله: **﴿تَنَتَبَّهُونَ﴾** إن كانوا يَطْفُون على جهة التوقيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذهبت فرقة إلى نفي الكذب عن هذه المقالات، وقالت فرقة: معنى قول النبي ﷺ: **﴿لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات...﴾** أي لم يقل كلاماً ظاهره الكذب، أو يشبه الكذب، وذهبت إلى تخريج هذه المقالات، فخرّجت هذه الآية على معنى أنه أراد تعليق فعل الكبير بنطق الآخرين، كأنه قال: بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء، ولم يجزم الخبر على أن الكبير فعل هذا، وفي الكلام

تقديم - على هذا التأويل - في قوله: ﴿تَتَكَلَّمُونَ﴾. وذهب الفراء إلى جهة أخرى بأن قال: قوله: ﴿فَعَلَّكَ﴾ ليس من الفعل، وإنما هو: ﴿فَلَعَلَّهُ﴾ على جهة التوضع، حذف اللام، على قولهم: ﴿عَلَّهُ﴾ بمعنى «لَعَلَّهُ» ثُمَّ خُفِّتِ اللام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تكلف.

المعنى: فظهر لهم ما قال إبراهيم عليه السلام من أن الأصنام التي أهلوها للعبادة ينبغي أن تُسأل وتُسْتَفْسَر، فقالوا: إنكم أنتم الظالمون في توقيف هذا الرجل على هذا الفعل وأنتم معكم من تسألون، ثم ارتبكوا في ضلالهم ورأوا بالفكرة وبديهة العقل أن الأصنام لا تنطق فساقهم ذلك حين نطقوا عنه إلى موضع قيام الحجَّة عليهم. وقوله: ﴿كَيْسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ استعارة للذي يرتطم في غيِّه كأنه منكوس على رأسه، فهي أقبح هيئة للإنسان، وكذلك هذا هو في أسوأ حالات النظر، فقالوا لإبراهيم عليه السلام حين نكسوا في حيرتهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾، أي: فما بالك تدعو إلى ذلك؟ فوجد إبراهيم عليه السلام عند هذه المقالة موضع الحجَّة فوقفهم موبخاً على عبادتهم تماثيل لا تنفع بذاتها ولا تضر، ثم حَقَّر شأنها وأزرى بها في قوله: ﴿أَفِ لَكَ﴾.

وقرأ ابن كثير: ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ بالفتح، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم - في رواية

أبي بكر -: ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ بالكسر وترك التنوين فيها، وقرأ نافع وحفص عن عاصم: ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ بالكسر والتنوين. و(أَف) لفظة تقال عند المستقذرات من الأشياء فيستعار ذلك للمكروه من المعاني كهذا وغيره.

فلما غلبهم إبراهيم عليه السلام من جهة النظر والحجَّة نكسوا رؤوسهم وأخذتهم عزَّةً بإثم وانصرفوا إلى طريق الغشم والغلبة فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾، وروي أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس، أي من باديتها، فخسف الله به الأرض فهو يتلجلج فيها إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ نَجَمًا﴾ تحريض، كما تقول: اعزم على كذا إن كنت عازماً.

وروي أنهم لما اجتمع رأيهم على تحريقه حبسه نمرود الملك، وأمر بجمع الحطب فجُمع في مدة أشهر. وكان المريض يجعل على نفسه نذراً إذا هو برئ أن يجمع كذا وكذا حزمة حتى اجتمع من الحطب - ممَّا تبرَّع به الناس - ممَّا جُلِبَ للملك من أهل الرساتيق - كالجبل من الحطب. ثم أضرم ناراً، فلما أرادوا طرح إبراهيم عليه السلام فيه لم يقدروا على القرب منه، فجاء إبليس في صورة شيخ فقال لهم: أنا أصنع لكم آلة يلقي بها في النار، فعلمهم صنعة المنجنيق، ثم أخرج إبراهيم عليه السلام فشُدَّ برباط ووضِع في كفة المنجنيق ورمي به فوضع في النار، وقد قيل للنار: ﴿كُونِي بَرَكًا وَسَلَامًا عَلَى إِبراهيم﴾ فاحترق الجبل الذي رُبط به

فقط. وروي أن جبريل عليه السلام جاءه وهو في الهواء فقال له: أَلَيْكَ حاجة؟ فيروي أنه قال: أمَّا إليك فلا، ويروي أنه قال له: إني خليل، وإنما أطلب حاجتي من خليلي لا من رسوله، فقال الله تعالى: يا إبراهيم قطعت الواسطة بيني وبينك لا قطعتها بيني وبين النار، يا نار كوني برداً وسلاماً. وروي أنه حين خطبت النار خمدت كل نار في الأرض. وروي أن الغراب كان ينقل الحطب إلى نار إبراهيم عليه السلام، وروي أن الوزغة كانت تنفخ عليه لتضرم، وكذلك البغل، وروي أن العصفُفوط والخُطَّاف والضفدع كانوا ينقلون الماء لتطفأ النار، فألقى الله على هذه الرقاية وسلَّط على تلك الأخرى النوايب والأيدي، وقال بعض العلماء فيما روي: إن الله تعالى لو لم يقل: ﴿وَسَلَامًا﴾ لهلك إبراهيم من برد النار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد أكثر الناس في قصص حرق إبراهيم عليه السلام، وذكروا تحديد مدة بقاءه في النار وصورة بقاءه فيها ممَّا رأيت اختصاره لقلة صحته، والصحيح من ذلك أنه أُلقي في النار فجعلها الله تعالى عليه برداً وسلاماً فخرج منها سالماً، وكانت أعظم آية. وروي أنهم قالوا: إنها نارٌ مسحورة لا تحرق، فرموا فيها شيخاً منهم فاحترق، وروي أن إبراهيم عليه السلام كان له بسطة وطعام في تلك النار، كل ذلك من الجنة، وروي أن العيدان أُنعت وأثمرت له هنالك ثمارها التي كانت أصولها.

إلاً وأصله وخروجه من تحت صخرة بيت المقدس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف. وهي أرض المحشر، وفيها يجمع الناس، وفيها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدجال، ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال يوماً في خطبة: «إنه يكون بالشام جند، وبالعراق جند، وباليمن جند»، فقال رجل: يا رسول الله، خزل لي، فقال: «عليك بالشام فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله، ومن بقي فليلحق بأمنه»، وقال عمر رضي الله تعالى عنه لكعب الأحبار: ألا تتحول إلى المدينة؟ فقال: يا أمير المؤمنين إني أجد في كتاب الله المنزل أن الشام كنز الله من أرضه، وبها كنزه من عباده. وروي أن إبراهيم ولوطاً عليهما السلام هاجرا من كوثا ومرا بمصر، وليست بالطريق ولكئهم نجسوا خوف الاتباع حتى جاؤا الشام، فنزل إبراهيم السبع من أرض فلسطين وهي برئة الشام، ونزل لوط بالمؤتفة.

(إسحاق) هو ابن إبراهيم عليهما السلام، (يعقوب) ولد لإسحاق عليهما السلام، (الثافلة): العطية، كما تقول: نفلني الإمام كذا، ونافلة الطاعة كأنها عطية من الله تعالى لعباده يُبَيِّهم عليها، وقالت فرقة: الموهوب إسحاق، والثافلة يعقوب عليهما السلام، والأول أبين. و﴿يَهْدُونَ﴾ معناه: يرشدون غيرهم، و﴿وَقَامَ﴾ مصدر، وفي هذا نظر.

خرج من النار أحضره السمرد وكلّمه، ثم حتم الله عليه بالكفر فلجّ وقال لإبراهيم في بعض قوله: يا إبراهيم أين جنود ربك الذي تزعم؟ فقال له: سيربك فعل أضعف جنوده، فبعث الله تعالى على نمرود وأصحابه سحابة من بعض فأكلتهم عن آخرهم ودوابهم حتى كانت العظام تلوح بيضاً، ودخلت منها بعوضة في رأس نمرود فكان رأسه يضرب بالعيدان وغيرها، ودام تعذيبه بها زمناً طويلاً وهلك منها. وخرج إبراهيم عليه السلام وابن أخيه لوط عليه السلام من تلك الأرض مهاجرين، وهي كوثا من العراق، ومع إبراهيم عليه السلام ابنة عمه سارة زوجه، وفي تلك السفارة لقي الجبار الذي زام أخذها منه.

واختلف الناس في الأرض التي بورك فيها ونجّى الله إليها إبراهيم ولوطاً عليهما السلام؛ فقالت فرقة: هي مكّة، وذكروا قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَلَّيْ يَكَّةَ مَبَآكَا﴾، وقال الجمهور: هي أرض الشام، وهي الأرض التي بارك الله فيها، أمّا من جهة الآخرة فبالثبوة والإيمان، وأمّا من جهة الدنيا فهي أطيب بلاد الله أرضاً، وأعذبها ماء، وأكثرها ثمرة ونعمة، وهو الموضع المعروف بسكنى إبراهيم وعقبة، ورؤي أنه ليس في الأرض ماء عذب

وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧١﴾ وَلَوْ طَاءَ آيَاتُنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجِيتُنَا مِنَ الْقُرْتَبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ لَفَبَحِثُوا إِنْتِهَارًا قَوْمًا سَوَاءٌ فَنَسِيقَ ﴿٧٢﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ السَّالِكِينَ ﴿٧٣﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا آيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ سَاعَرْتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٥﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْبِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكَانَ الْحُكْمُ بِشَرِيعَةٍ ﴿٧٦﴾ فَفَقَهُنَّهَا سُلَيْمَانُ وَكَانَ آيَاتُنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطُّيُورُ وَكَانَ فَاعِلِينَ ﴿٧٧﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٧٨﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَنَرْنَا فَايَهَا وَكَانَ يَحْكُمُ عَلَى عِبَادِنَا ﴿٧٩﴾

٣٢٨

وقوله: ﴿وَسَلَّمَا﴾ معناه: وسلامة، وقال بعضهم: هي تحية من الله تعالى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وكان الوجه أن يكون مرفوعاً. و(الْكَيْدُ) هو ما أرادوا من حرقه، وكانوا في خسارة من كفرهم وغلته لهم وحرق الشيخ الذي جرّبوا به النار، ورؤي أن الملك بنى بنياناً وأطلع منه على النار فرأى إبراهيم عليه السلام ومعه ناسٌ فعجب وسأل: هل طرح معه أحد؟ فقليل له: لا، فناده فقال: من أولئك؟ فقال: هم ملائكة ربّي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمروى في هذا كثير غير صحيح. ﴿٧١﴾ - ﴿٧٣﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ: روي أن إبراهيم عليه السلام لما

﴿٧٦﴾ - ﴿٧٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

التقدير: وآتيناً لوطاً، فهو منصوب بفعل مضمّر يدل عليه الظاهر، و(الحكم) فصل القضاء بين الناس، و(الخبائث) إتيان الرجال وضراطهم في مجالسهم إلى غير ذلك من كفرهم. وقوله في نوح عليه السلام: ﴿وَبَنِيَّ﴾ بالإضافة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام، و(الكَزْبُ) الْغَطِيم) هو الغرق وما نال قومه من الهلكة بدعائه عليهم الذي استجيب، وقوله سبحانه: ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾ لَمَا كَانَ جَلْ نُصْرَتِهِ النجاة وكانت غلبة قومه بغير يده بل بأمر أجنبي منه حسن أن يقول: ﴿وَنَصَرْنَاهُ يَوْمَ﴾، ولا تتمكّن هنا «علی» كما تتمكّن في أمر محمد ﷺ مع قومه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ضَرْبٌ مثل لقصة محمد ﷺ مع قومه، ونجاة الأنبياء وهلاك مكذّبيهم ضمنها توعدٌ لكفار قريش.

﴿٧٨﴾ - ﴿٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر داود وسليمان، هكذا قدره جماعة من المفسرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل عندي ويقوى أن يكون المعنى: (وآتيناً داود) عطفاً على قوله: ﴿وَنُوحًا﴾، وذلك عطف على قوله: ﴿وَلُوطًا مَّا يَنْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، والمعنى على هذا التأويل مُتَّسِقٌ.

وسليمان هو ابن داود عليهما السلام من بني إسرائيل، وكان ملكاً عدلاً نبياً يحكم بين الناس ف وقعت بين يديه هذه الثّالِزة، وكان ابنه إذ ذاك قد كبر، وكان يجلس على

الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود عليه السلام من باب آخر، فتخاصم إلى داود عليه السلام رجل له زرع، وقيل: كَزَمَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: و(الْحَرْثُ) يقال فيهما، وهو في الزرع أبعد عن الاستعارة، دخلت حَرْثُهُ غنم رجل آخر فأفسدته، فرأى داود عليه السلام أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فقالت فرقة: على أن يبقى كَزَمُهُ بيده، وقالت فرقة: بل دفع الغنم إلى صاحب الْحَرْثِ والْحَرْثُ إلى صاحب الغنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيشبهه على القول الواحد أنه رأى الغنم تقاوم الغلة التي أفسدت، وعلى القول الثاني رآها تقاوم الحرث وغلته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يُظَنُّ بداود عليه السلام إلا أن حكمه بنظر متوجه. فلما خرج الخصمان على سليمان عليه السلام تشكى صاحب الغنم، فجاء سليمان إلى داود فقال: يا نبي الله، إنك حكمت بكذا، وإنني رأيت ما هو أرفق بالجميع، قال: وما هو؟ قال: أن يأخذ صاحب الغنم الحرث فيقوم عليه ويصلحه حتى يعود كما كان، ويأخذ صاحب الحرث الغنم في تلك المدة ينتفع بمراقفها من لبن وصوف ونسل وغير ذلك، فإذا كُمِلَ الحرث وعاد إلى حاله صرف كل واحد مَالْ صاحبه، فرجعت الغنم إلى رُبِّها والْحَرْثُ إلى رُبِّه، فقال داود عليه

السلام: وَفَقَّتْ يَا بَنِيَّ، وقضى بينهما بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا شك أن سليمان عليه السلام رأى ما يتحمّله صاحب الغنم من فقد مرافق غنمه تلك المدة ومن مؤونة إصلاح الحرث يُؤَاوِي ما فسد في الحرث، وفضل حُكْمِهِ حُكْمَ أَبِيهِ في أنه أحرز أن يبقى ملك كل واحد منهما على متاعه وتبقى نفسه بذلك طيبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذهبت فرقة إلى أن هذه الثّالِزة لم يكن الحُكْمُ فيها باجتهاد، وإنما حَكَمَ داود بوحى، وحَكَمَ سليمان بوحى نسخ الله به حُكْمَ داود، وجعلت فرقة - منها ابن فُورَك - قوله تعالى: ﴿فَقَهْنَهَا سُلَيْمَنُ﴾ أي فَقَهْنَاهَا القضاء الفاصل الناسخ الذي أراد الله تبارك وتعالى أن يستقر في الثّالِزة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحتاج هذه الفرقة في هذه اللفظة إلى هذا التعب ويبقى لها المعنى قَلْقًا.

وقال جمهور الأئمة: إن حكمهما كان باجتهاد، وأدخل العلماء هذه الآية في كتبهم على مسألة اجتهاد العالمين، فينبغي أن يُذكر هنا تلخيص مسألة الاجتهاد. واختلف أهل السُّنَّة في العالمين - فما زاد - يُفْتَيَانِ من الفروع والأحكام في المسألة فيختلفان؛ فقالت فرقة: الحق في مسائل الفروع في طرف واحد عند الله تعالى، وقد نصب على ذلك أدلة وحمل المجتهدين

على البحث عنها والنظر فيها، فمن صادف العين المطلوبة في المسألة فهو المصيب على الإطلاق، وله أجران، أجر في الاجتهاد وأجر في الإصابة، ومن لم يصادفها فهو مصيب في اجتهاده مخطيء في أن لم يُصِبِ العين، فله أجر وهو غير معذور، وهذا هو الذي قال النبي ﷺ: «إِذَا اجْتَهِدَ الْعَالِمُ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»، وكذلك أيضاً يدخل في قوله ﷺ: «إِذَا اجْتَهِدَ الْعَالِمُ فَأَخْطَأَ» العالم يجتهد فيخالف نصاً لم يَمُرَّ به، كقول سعيد بن المسيب في النكاح: إنه العقد في مسألة التحليل للزوج المطلق ونحوه، وهذا يجمع بين قوله ﷺ: «إِذَا اجْتَهِدَ الْعَالِمُ فَأَخْطَأَ» وبين قوله: «كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ» أي أخطأ العين المطلوبة وأصاب في اجتهاده، ورأت هذه الفرق أن العالم المخطيء لا إثم عليه في خطئه وإن كان غير معذور. وقالت فرقة: الحق في طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دليلاً، بل وكل الأمر إلى نظر المجتهدين، فمن أصابه أصاب، ومن أخطأ فهو معذور وما جور، ولم تُتَعَبَّدْ بإصابة العين بل تعبدنا بالاجتهاد فقط. وقال جمهور أهل السنة - وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه -: الحق في مسائل الفروع في الطرفين، وكل مجتهد مصيب، والمطلوب إنما هو الأفضل في الظن، فكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل في نظره، والدليل على هذه المقالة أن الصحابة قَمَنَ بعدهم قرَّر بعضهم خلاف بعض ولم يَرِ أحد منهم أن يقع

الاعتماد على قوله دون قول مخالفه. ومنه رد مالك رحمه الله للمنصور أبي جعفر عن حمل الناس على الموطأ إلى كثير من هذا المعنى. وإذا قال العالم في أمرٍ ما: حلال، فذلك هو الحق فيما يختص بذلك العالم عند الله تعالى وبكل من أخذ بقوله، وإذا قال آخر: حرام - وكل ذلك باجتهاد - فذلك أيضاً حق عند الله تعالى فيما يختص بذلك العالم وبكل من أخذ بقوله. فأما من قال إن الحق في طرف فرأى مسألة داود وسليمان عليهما السلام مطردة على قوله، وأن سليمان عليه السلام صادف العين المطلوبة وهي التي فهم، ومن رأى أن الحق في الطرفين رأى أن سليمان عليه السلام فهم القضية المثلثي والتي هي أرجح، لا أن الأولى خطأ، وعلى هذا يحملون قول النبي ﷺ: «إِذَا اجْتَهِدَ الْعَالِمُ فَأَخْطَأَ» أي: أخطأ الأفضل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكثيراً ما يكون بين الأقوال في هذه المسائل قليل تباين إلا أن ذلك الشُّفُوف يشرف القول وكثيراً ما يتبين الفضل بين القولين بأدنى نظر، ومسائل الفروع تخالف مسائل الأصول في هذا، ومسألة المجتهدين في نفسها مسألة أصل. والفرق بين مسائل الفروع ومسائل الأصول أن مسائل الأصول الكلام فيها إنما هو في وجود شيءٍ ما، كيف هو؟ كقولنا: «يُرَى الله يوم القيامة» فقالت المعتزلة: «لا يُرى»، وكقوله: «الله واحد»، وقالت النصارى: «ثلاثة»، وهكذا هل للمسائل عينٌ مطلوبة؟

ومسائل الفروع إنما الكلام فيها على شيءٍ مقرر الوجود، كيف حكمه من تحليل أو تحریم ونحو هذا؟ والأحكام خارجة عن ذاته ووجوده، وإنما هي بمقاييس واستدلالات، وتعتبر مسائل الفروع بأنها كل ما يمكن أن يَنْسَخَ بعضه بعضاً، ومسائل الأصول ما لو تقرر الوجه الواحد لم يصح أن يطرأ عليه الآخر ناسخاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومسألة الاجتهاد طويلة ومتشعبة، إلا أن هذه النبهة تليق بالآية وتقتضيها حرصاً على الإيجاز.

ويتعلّق بالآية فصل آخر لا بد من ذكره وهو رجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى اجتهاد آخر أرجح من الأول، أن داود عليه السلام فعل ذلك في هذه النازلة. واختلف فقهاء المذهب المالكي في القاضي يحكم في قضية، ثم يرى بعد ذلك أن غير ما حكم به أصوب، فيريد أن ينقض الأول ويقضي بالثاني؛ فقال عبد الملك ومطرف في (الواضحة): ذلك له ما دام في ولايته، فأما إذا كانت ولاية أخرى فليس ذلك له، وهو بمنزلة غيره من القضاة، وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله في (المدونة). وقال سحنون في رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أصوب: ليس له ذلك. وقال ابن عبد الحكم، ويستأنف الحكم بما قوي عنده آخراً، قال سحنون: إلا أن يكون نسي الأقوى عنده أو وهم فحكم بغيره فله نقضه، وأما إن حكم بحكم وهو الأقوى عنده في ذلك الوقت ثم توجّه عنده غير ذلك

فلا سبيل له إلى نقض الأول، قاله سحنون في كتاب ابنه. وقال أشهب في كتاب ابن المواز: إن كان رجوعه إلى الأصوب في مالٍ فله نقض الأول، وإن كان في طلاق أو نكاح أو عتق فليس له نقضه، وقد تقدم القول في الحرث، وروت فرقة أنه كان زرعاً، وروت فرقة أنه كان كرمًا.

و(الثَّقَشُ): تسرُّب البهائم في الزروع وغيرها بالليل. و(الْهَمَلُ): تسرُّبها في ذلك بالنهار والليل، وقال ابن سيدة: لا يقال الْهَمَلُ في الغنم، وإنما هو في الابل. ومضى الحكم في الإسلام بتضمين أرباب الغنم ما أفسدت بالليل لأن على أهلها أن يثقفوها، وعلى أهل الزروع وغيرها حفظها بالنهار، وهذا هو مقتضى الحديث في ناقة البراء بن عازب، وهذا مذهب مالك وجمهور الأمة. ووقع في كتاب ابن سحنون أن الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي هي حيطان مُحْدِقَة، وأمَّا البلاد التي هي زروع متصلة غير محظرة وبساتين كذلك فيضمن أرباب الثعم ما أفسدت من ليل أو نهار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه ذهب إلى أن ترك تشقيف الحيوان في مثل هذه البلاد تَعَدُّ لأنها ولا بد تفسد. وقال أبو حنيفة في ذلك: لا ضمان، وأدخله في عموم قول النبي ﷺ: «جرح العجماء جَبَارَةً»، فحاس جميع أفعالها على جروحها.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا ءَايَنَا حُكْمًا وَعَلَّمَآءَ تَأُولَ قَوْمٍ مِنْهُ أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ

السلام لم يخطئ في هذه النازلة، بل فيها أوتي الحُكْم والعِلْم، وقالت فرقة: بل لأنه لم يصب العين المطلوبة في هذه النازلة مدحه الله تعالى بأن له حُكْمًا وعِلْمًا يُرْجَع إليه في غير هذه النازلة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا فَعَلَيْكَ﴾ مبالغة في الخير وتحقيق له. وفي اللفظ معنى: وكان ذلك في حقه وعند مستوجه مآ، فكأنه قال: وكَلَّا فاعلين لأجل استجابة ذلك، وحذف اختصاراً لدلالة ظاهر القول على ما حُذِفَ منه. وقوله: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ يريد داود وسليمان والخضمين، لأن الحكم ينضاف إلى جميعهم وإن اختلفت جهات الإضافة، وقرأت فرقة: ﴿لِحُكْمِهِمَا﴾.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿يُسَيِّخُنَّ﴾؛ فذهبت فرقة - وهي الأكثر - إلى أنه قول «سبحان الله»، وذهبت فرقة منها منذر بن سعيد إلى أنه بمعنى: يَصْلِيْنُ معه بصلاته.

﴿٨٠﴾ - ﴿٨١﴾ تفسير قوله عز وجل: عَدَّدَ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْبَشَرِ أَنْ عِلْمَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صِنْعَةُ الدُّرُوعِ وَأَلَانَ لَهُ الْحَدِيدَ فَكَانَ يَصْنَعُهَا أَحْكَمَ صِنْعَةٍ لَتَكُونَ وَقَايَةً فِي الْحَرْبِ وَسَبَبَ نَجَاةٍ مِنَ الْعَدُوِّ وَاللُّبُوسِ فِي اللُّغَةِ: السلاح، فمنه الدُّرْعُ والسيْفُ والرُّمَحُ وغير ذلك، ومنه قول الشاعر: وَمَعَيَ لُبُوسٌ لِبَلْبِيسٍ كَأَنَّهُ زَوْقٌ يَجِبْنَهْ ذِي نِعَاجٍ مُخْفِلٍ يعني الرُّمَح.

وقرأ نافع والجمهور: ﴿لِيُخَصِّنْكُمْ﴾ بالياء على معنى: لِيُخَصِّنْكُمْ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوِ اللَّبُوسَ. وقرأ ابن

عامر، وحفص عن عاصم: ﴿لِيُخَصِّنْكُمْ﴾ بالتاء على معنى: لِيُخَصِّنْكُمْ الصِنْعَةَ أَوِ الدُّرُوعَ الَّتِي أَوْقَعَ عَلَيْهَا اللَّبُوسَ. وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿لِيُخَصِّنْكُمْ﴾ بالنون على معنى رَدِّ الفعل لله تعالى. ويروى أنه كان الناس يَتَّخِذُ القوي منهم لباساً من صفائح الحديد، فكان ثقله يقطع بأكثر الناس. وقرأت فرقة: ﴿الرِّيحُ﴾ بالنصب على معنى: وَسَخَّرْنَا الرِّيحَ، وقرأت فرقة: ﴿الرِّيحُ﴾ بالرفع على الابتداء والخبر في المجرور قبله. ويروى أن الرِّيحَ العاصفة كانت تهب على سرير سليمان عليه السلام الذي فيه بساطة، وقد مَدَّ حَوْلَ البَسَاطِ بالخشب والألواح حتى صنع سريراً يحمل جميع عسكره وأقواته فَثَقَلَهُ من الأرض في الهواء ثم تتولاه الرِّيحُ الرِّخَاءُ بعد ذلك فتحمله إلى حيث أراد سليمان عليه السلام.

وقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾، اختلف الناس فيها؛ فقالت فرقة: هي أرض الشام وكانت مسكنه وموضع مُلْكِهِ، وخَصَّصَ في هذه الآية انصرافه من سفراته إلى أرضه لأن ذلك يقتضي سفره إلى المواضع التي سافر إليها. والبركة في أرض الشام بينة الوجوه. وقد قال بعضهم: إن العاصفة هي في القبول على عادة البشر والدواب في الإسراع إلى الوطن، والرخاء في البداية حيث أصاب، أي حيث يقصد؛ لأن ذلك وقت تَأَنُّ وتدبير وتقلب رأي. وقال منذر بن سعيد: في الآية تقديم وتأخير، والكلام تام عند قوله:

﴿يَقُصُّونَ﴾ جمع على معنى ﴿مَنْ﴾ لا على لفظها. (والغوص): الدخول في الماء والأرض، والعمل دون ذلك البنیان وغيره من الصنائع والخدمة ونحوه. وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾، قيل: معناه: من إفسادهم ما صنعوه، فإنهم كان لهم حرص على ذلك لولا ما حال الله بينهم وبين ذلك، وقيل: معناه: عادلين وحاضرين، أي لا يشذ عن علمنا وتسخيرنا أحد منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ﴾، أحسن ما فيه النصب بفعل مضمر تقديره: واذكر أيوب. وفي قصص أيوب عليه السلام طول واختلاف من المفسرين، وتلخيص ذلك أنه زوي أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان نبياً مبعوثاً إلى قوم، وكان كثير المال من الإبل والبقر والغنم، وكان صاحب البُشْنِيَّة من أرض الشام، فغير كذلك مدة. ثم إن الله تبارك وتعالى لما أراد محنته وابتلاء أذن لإبليس في أن يفسد ماله، فاستعان بذريته فأحرقوا ماله ونعمته أجمع، فكان كلما أخبر بشيء من ذلك حَمَدَ الله تعالى وقال: هي عارية استردها صاحبها والمُنعَم بها. فلما رأى إبليس ذلك جاء فأخبر بعجزه عنه، فأذن الله له في إهلاك بنيه وقرابته ففعل ذلك أجمع فدام أيوب عليه السلام على شكره.

فأخبر إبليس بعجزه، فأذن الله تعالى له في إصابته في بدنه، وحجر عليه لسانه وعينيه وقلبه، فجاء إبليس وهو ساجد فنفخ في أنفه نفخة احترق بدنه منها، وجعلها الله أكلة في بدنه، فلما عظمت وتقطع أخرجه الناس من بينهم وجعلوه على سبابة، ولم يبق معه بشر حاشا زوجته، ويقال: كانت بنت يوسف الصديق، وقيل: اسمها رحمة. وقيل في أيوب: إنه من بني إسرائيل، وقيل: إنه من الروم من ذرية عيصو، فكانت زوجته تسعى عليه وتأتيه بما يأكل وتقوم عليه، فدام في هذا العذاب مدة طويلة، قيل: ثلاثين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وقيل: اثنى عشرة سنة، وقيل: تسعة أعوام، وقيل: ثلاثة، وهو في كل ذلك صابر شاكراً حتى جاءه - فيما زوي - ثلاثة مئمن كان آمن به فوقره بالقول وأنبوه ونَجَّهوه وقالوا: ما صنع بك ربك هذا إلا لخبيث باطنه فيك، فراجعهم أيوب في آخر قولهم بكلام مقتضاه أنه ذليل لا يقدر على إقامة حُجَّة ولا بيان ظُلامة، فخطبه الله تعالى معاتباً على هذه المقالة ومُبَيِّناً أنه لا حُجَّة لأحد مع الله، ولا يسأل عما يفعل، ثم عرَّفه سبحانه وتعالى بأنه قد أذن في صلاح حاله، وعاد عليه بفضلله، فدعا أيوب عليه السلام عند ذلك فاستجيب له.

وُزِي أن أيوب عليه السلام لم يزل صابراً لا يدعو في كشف ما به، وكان - فيما زوي - يقع الدود منه فيردُّه بيده حتى مرَّ به قوم كانوا

وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَقُصُّونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ وَلِسَعِيدٍ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٍّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَذِكْرَى إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُمْ وَزَوْجُهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرُونَ ﴿٩٠﴾ فِي الْآخِرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَبُّهُمَا وَهَبَّا وَكَانُوا تَارِكِينَ ﴿٩١﴾

﴿إِلَ الْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿أَلَنِي بَرَكَاتٍ فِيهَا﴾ صفة للريح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يريد الأرض التي يسير إليها سليمان عليه السلام كائنة ما كانت، وذلك أنه لم يكن يسير إلى أرض إلا أصلحها، وقتل كفارها، وأثبت فيها الإيمان، وبث فيها العدل، ولا بركة أعظم من هذا، فكانه قال: إلى أي أرض باركنا فيها فبعثنا سليمان إليها.

﴿٨٢﴾ - ﴿٨٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

يحتمل أن يكون قوله: ﴿يَقُصُّونَ لَهُ﴾ في موضع نصب على معنى: وسخرنا من الشياطين، ويحتمل أن يكون في موضع رفع على الابتداء، ويتناسب هذا مع القراءتين المتقدمتين في قوله سبحانه: ﴿وَلِسَعِيدٍ وَالْإِدْرِيسَ﴾ وقوله: بالنصب والرفع.

يعادونه فشمتموا به فتألم لذلك ودعا حينئذ فاستجيب له، وكانت امرأته غائبة عنه في بعض شأنها فأتبع الله له عيناً وأمر بالشرب منها فبرء باطنه، وأمر بالاغتسال فبرء ظاهره ورُدَّ إلى أفضل حاله، وأُتي بأحسن الثياب، وهبَّ عليه رجلٌ من جرّاد من ذهب فجعل يحثو منها في ثوبه، فناداه الله تعالى: يا أيُّوب ألم أكن أغنيتك عن هذا؟ قال: بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك، فبينما هو كذلك إذ جاءت امرأته فلم تره على السبابة فجذعت وظنّت أنه أُرِبل عنها وجعلت تتوّله. فقال لها: ما شأنك أيتها المرأة؟ فهابته لحسن هيئته، فقالت: إني فقدتُ مريضاً كان لي في هذا الموضع، ومعالم المكان قد تغيرت، وتأمّلت في أثنياء المقالة فرأت أيوب، فقالت له: أنت أيُّوب؟ فقال لها: نعم، فاعتنقها وبكى، فروي أنه لم يفارقها حتى أراه الله جميع ماله حاضراً بين يديه. واختلف الناس في أهله وولده الذين آتاه الله، فقيل: كان ذلك كله في الدنيا، فردَّ الله عليه بصره وولده بأبائهم، وجعل مثلهم عدّة له في الآخرة، وقيل: بل أوتي جميع ذلك في الدنيا من أهل ومال.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ لِلْمُنذِرِينَ﴾ أي: وتذكّر وموعظة، ولا يعبد الله إلا مؤمن. والذكرى إنما هي في محنته، والرحمة في زوال ذلك. وقوله: ﴿إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ تقديره: بأنّي مسّني، فحذف الجار وبقيت ﴿إِنِّي﴾ في موضع نصب. وروي أن سبب محنة أيوب عليه السلام أنه

دخل مع قوم على ملك جار عليهم فأغلظ له القول ولئّن له أيوب القول خوفاً منه على ماله، فعاقبه الله على ذلك. وروي أنه كان يقال له: ما لك لا تدعو في العافية؟ فكان يقول: إني لأستحي من الله تعالى أن أسأله زوال عذابه حتّى يمرّ علي فيه ما مرّ من الرخاء، وأصابه البلاء - فيما روي - وهو ابن ثمانين سنة.

المعنى: واذكر إسماعيل، وهو إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليها السلام، وهو أبو العرب المعروفين اليوم في قول بعضهم. وإدريس هو خنوخ، وهو أول نبيّ بعث الله من بني آدم، وروي أنه كان خياطاً يسبح الله عند إدخال الإبرة ويحمده عند إخراجها. وذو الكفل كان نبياً، وروي أنه بُعث إلى رجل واحد، وقيل: لم يكن نبياً ولكنه كان عبداً صالحاً. وروي أن (اليسع) جمع بني إسرائيل فقال: من يتكفل لي بصيام النهار وقيام الليل ولأأ يغضب وأوليه النظر للعباد بعدى؟ فقام إليه شاب فقال: أنا لك بذلك، فراجعته ثلاثاً في ذلك يقول: أنا لك بذلك، فاستعمله، فلما مات (اليسع) قام بالأمر فجاء إبليس ليغضبه - وكان لا ينأى إلا في القائلة - فكان يأتيه وقت القائلة أياماً فيوقظه ويشكي ظلامته ويقصد تضيق صدره، فلم يضق به صدرأ، ومضى معه لينصفه بنفسه، فلما رأى إبليس ذلك أبلس عنه، وكفاه الله شره، وسُمّي (ذا الكفل) لأنه تكفل بأمر فوقى به، وباقي الآية بين.

التقدير: واذكر ذا النون، والنون: الحوت، وصاحبه يونس بن متى عليه السلام، ونسب إلى الحوت الذي التقمه على الحالة التي يأتي ذكرها في موضعها الذي تقتضيه، وهو نبي من أهل نينوى، وهذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ»، وفي حديث آخر: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»، وهذا الحديث وقوله: «لَا تَفْضُلُونِي عَلَى مُوسَى» يتوهم أنهما يعارضان قوله عليه الصلاة والسلام على المنبر: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فُخْرَ»، والانفصال عن هذا بوجهين: أحدهما ذكره الناس وهو أن يكون قوله: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ» يتأخر في التاريخ، وأنها منزلة أعلمه الله تعالى بها لم يكن عَلِمَهَا وقت تلك المقالات الأخر، والوجه الثاني وهو عندي أجري مع حال النبي ﷺ أنه إنما نهى عن التفضيل بين شخصين مذكورين وذهب مذهب التواضع ولم يزل سيّد ولد آدم، ولكنه نهى أن يفضّل على موسى كراهة أن يغضب لذلك اليهود فيزيد نفارها عن الإيمان، وسبب الحديث يقتضي هذا، وذلك أن يهودياً قال: لا والذي فضل موسى على العالمين، فقال له رجل من الأنصار: أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ فسرى الأمر وارتفع إلى النبي ﷺ فنهى عن تفضيله عن موسى، ونهى عليه الصلاة والسلام عن تفضيله على يونس لثلاثا يظن أحد بيونس

عليه السلام نقص فضيلة بسبب ما وقع له، فنهيه ﷺ عن التفضيل على شخص معين، وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث ثالث: «لا تفضلوا بين الأنبياء» هذا كله مع قوله: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر» وإطلاق الفضل له دون اقتران بأحد بين صحيح. وتأمل هذا فإنه يلوح، فقد قال عمر رضي الله عنه للحطية: امدح ممدوحك ولا تفضل بعض الناس على بعض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولفظه «سيّد» ولفظة «خير» سيّان، هذا مبدأ جُمع آخر بين الأحاديث يذهب ما يُظن من التعارض.

وقوله تعالى: ﴿مَنْصُوبٌ﴾، قيل: إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعتنهم فذهب فازاً بنفسه، وقد كان الله تعالى أمره بملازمتهم والصبر على دعائهم، فكان ذنبه في مخالفة هذا الأمر، وروي أنه كان شاباً ولم يحتمل أثقال الثبوة وتفسخ تحتها كما يتفسخ الرُبع تحت الحمل، ولهذا قيل للنبي ﷺ: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْكُوَيْتِ﴾ أي: فاصبر ودم على الشقاء بقومك، وقالت فرقة: إنما غاضب الملك الذي كان على قومه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نحو من الأول فيما يلحق منه يونس عليه السلام. وقال الحسن بن أبي الحسن وغيره: إنما ذهب مغاضباً ربّه واستغفره إبليس، وروّوا في ذلك أن يونس عليه السلام لمّا طال عليه أمر قومه طلب من الله عذابهم، فقيل له: إنّ العذاب

يجيئهم يوم كذا، فأخبرهم يونس عليه السلام بذلك، فقالوا: إن رحل عنا فالعذاب نازل، وإن أقام بيننا لم نبال، فلمّا كان سحر ذلك اليوم قام يونس فرحل فأيقنوا بالعذاب فخرجوا بأجمعهم إلى البرّاز، وفرّقوا بين صغار البهائم وأمهاتها وتضرّعوا وتابوا ورفع الله عنهم العذاب، وبقي يونس في موضعه الذي خرج إليه ينتظر الخبر، فلمّا عرف أنهم لم يُعذبوا ساءه أن عدّوه كاذباً، وقال: والله لا انصرفت إليهم أبداً، وروي أنه كان من دينهم قتل الكذاب، فغضب حينئذ على ربه وخرج على وجهه حتى دخل في سفينة في البحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول من الضعف ما لا خفاء به مما لا يتّصف به نبي.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿نَظَرَ أَنْ لَنْ يَفْدِرَ عَلَيْهِ﴾ فقالت فرقة: استغفره إبليس ووقع في ظنه إمكان أن لن يقدر الله عليه بمعاقة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مردود.

وقالت فرقة: معنى ﴿نَظَرَ أَنْ لَنْ يَفْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أن لن يُضَيّقَ عليه في مذهبه، من قوله تعالى: ﴿يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِنَ بَنَاءٍ وَيَفْدِرُ﴾، وقالت فرقة: هو من القدر، أي ظن أن لن يقضي الله عليه بعقوبة. وقالت فرقة: الكلام بمعنى الاستفهام، أي: أفظن أن لن نقدر عليه؟ وحكى منذر بن سعيد أن بعضهم قرأ: ﴿أَنْظُرْ﴾ بالالف، وقرأ الزهري: ﴿نَقْدِرْ﴾ بضم النون وفتح القاف وشد الدال، وقرأ الحسن:

﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ يَفْدِرَ عَلَيْهِ﴾، وعنه أيضاً: ﴿نَقْدِرْ﴾، وبعد هذا الكلام حذف كثير اقتضب لبيانه في غير هذه الآية. المعنى: فدخل البحر وكذا وكذا حتى التقمه الحوت وصار في ظلمة جوفه.

واختلف الناس في جمع (الظلمات) ما المراد به؟ فقالت فرقة: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت، وقالت فرقة: ظلمة البحر، وظلمة حوت التقم الحوت الأول، وظلمة الحوت الأول الذي التقم يونس عليه السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يعبر بالظلمات عن جوف الحوت الأول فقط، كما قال: ﴿فِي غَيْبَتِ الْبُحْرِ﴾، وكل جهاته ظلمة فجمّعها سانح. وروي أن يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيثان في قعر البحر، ثم قال في دعائه: «اللهم إني قد اتخذت لك مسجداً في موضع لم يتخذ أحد قبلي». و﴿أَنْ﴾ مفسرة نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَشْرَ﴾، وفي هذا نظر، وقوله: ﴿بَيْنَ الظُّلُمَاتِ﴾ يريد: فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم، هذا أحسن الوجوه، وقد تقدم ذكر غيره، فاستجاب الله له وأخرجه إلى البرّ، ووصف هذا يأتي في موضعه. و﴿الْعَمُ﴾ ما كان ناله حين التقمه الحوت.

وقرأ جمهور القراء: ﴿نُجِّي﴾ بنونين الثانية ساكنة، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿نُجِّي﴾ بنون واحدة مضمومة وشد الجيم،

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا
وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ هَذِهِ
أَمْتَكُمْ أُمَةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنْتُمْ بِكُمْ فَأَعْبُدُوا
وَنَقُطُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رُجُوعٌ ﴿٩٠﴾
فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاشِبُونَ ﴿٩١﴾ وَكَرَّمُوا عَلَى قَرْنِهِ
أَهْلَكْنَاهُمْ أَنْهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٢﴾ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ
الْأَبْوَابُ وَمُاجِجٌ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٣﴾
وَأَقْرَبَ الْأَوْعَادُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ
كَفَرُوا يُنَادُونَ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٥﴾ لَوْ كُنَّا
هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا وَرَدُوا هَؤُلَاءِ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٦﴾
لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٩٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ
سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّْا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿٩٨﴾

سورة مريم، وإصلاح
الزوجة، قيل: بأن جعلها
تحمل وهي عاقر،
فحاضت وحملت، وهذا
هو الذي يشبه الآية،
وقيل: بأن أزيل بدءاً كان
في لسانها.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: وهذا ضعيف،
وعوم اللفظة يتناول كل
وجوه الإصلاح.

وقرأت فرقة:
﴿وَيَذْعُوكَ﴾، وقرأت
فرقة: ﴿وَيَذْعُونَا﴾،
وقرأت فرقة: ﴿رَعَبًا﴾
بفتح الراء والغين،
و﴿وَرَهَبًا﴾ كذلك،

وقرأت فرقة بضم الراء فيهما وبسكون
الغين والهاء، وقرأت فرقة بفتح الراء
وسكون الغين والهاء، والمعنى أنهم
يدعون في وقت تعبدتهم وهم بحال
رغبة ورجاء ورهبة وخوف في حال
واحدة؛ لأن الرغبة والرّهبة
متلازمان، وقال بعض الناس: الرغب
أن ترفع بطون الأكتف نحو السماء،
والرهب أن ترفع ظهورهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وتلخيص هذا أن عادة كل داع من
البشر أن يستعين بيديه، فالرغب -
من حيث هو طلب - يحسن معه أن
يوسع باطن الراح نحو المطلوب
منه؛ إذ هو موضع الإعطاء، وبها
يتملك، والرّهب - من حيث هو دفع
مضرة - يحسن معه طرح ذلك
والإشارة إلى ذهابه وتوقيه بنفض
اليدين ونحوه.

ورويت عن أبي عمرو، وقرأت
فرقة: ﴿نُنَجِّي﴾ بنونين الأولى
مضمومة والثانية مفتوحة والجيم
مشددة، فأما القراءة الأولى والثالثة
فَبَيِّنَتَانِ، الأولى فعلها معدي
بالهمزة، والأخرى بالتضعيف. وأما
القراءة الوسطى التي هي بنون واحدة
مضمومة وجيم مشددة وباء ساكنة
فقال أبو علي: لا وجه لها، وإنما
هي وهم من السامع، وذلك أن
عاصماً قرأ: ﴿شَجِي﴾ والنون الثانية
لا يجوز إظهارها لأنها تخفى مع هذه
الحروف، يعني الجيم وما جرى
مجراها، فجاء الإخفاء يشبهها
بالإدغام، ويمتنع أن يكون الأصل
(ننجي) ثم يدعو اجتماع النونين إلى
إدغام إحداهما في الجيم؛ لأن
اجتماع المثليين إنما يدعو إلى ذلك
إذا كانت الحركة فيهما متفقة،
ويمتنع أن يكون الأصل (ننجي)
وتسكن الباء ويكون المفعول الذي
لم يُسم فاعله المصدر، كأنه قال:
نُجِّي النجاء المؤمنين؛ لأن هذه لا
تجيء إلا في ضرورة، وليست في
كتاب الله تعالى، والشاهد فيها قول
الشاعر:

وَلَوْ وَلَدْتُ قُفَيْرَةً جَزَوُ كُلِّ
لَسْبٍ بِذَلِكَ الْجَزُو الْكِلَابَا
وأيضاً فإن الفعل الذي بني
للمفعول إذا كان ماضياً لم يسكن
آخره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والمصاحف فيها نون واحدة كتبت
كذلك من حيث النون الثانية مخففة.
﴿٩٩﴾ - ﴿٩٨﴾ تفسير قوله عز وجل:
تقدم أمر زكريا عليه السلام في

﴿وَالْخُشُوعُ﴾: التذلل بالبدن
المتركب على التذلل بالقلب.

﴿٩٩﴾ - ﴿٩٨﴾ تفسير قوله عز وجل:
المعنى: واذكر التي أحصنت
فرجها، وهي مريم بنت عمران أم
عيسى عليهما السلام. و﴿الْفَرْجُ﴾ -
فيما قال الجمهور - وهو ظاهر
القرآن -: الجارحة المعروفة، وفي
إحصانها هو المدح. وقالت فرقة:
الْفَرْجُ هنا فَرج ثوبها الذي منه نفخ
الملك، وهذا ضعيف. وأما نفخ
الولد فيها فقال كثير من العلماء:
إنما نفخ من جيب درعها،
وأضاف (الروح) إضافة الملك إلى
المالك، و﴿إنها﴾: عيسى ابن مريم
عليه السلام، وأراد تعالى أنه جعل
مجموع قصة عيسى وقصة مريم
عليهما السلام من أولها إلى
آخرها آية لمن اعتبر في ذلك.

﴿لَتَلْمِزِينَ﴾ يريد: لمن عاصر فما بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ يحتمل الكلام أن يكون مُنْقَطِعاً خطاباً لمعاصري محمد عليه الصلاة والسلام، ثم أخبر عن الناس أنهم تقطعوا، ثم وَعَدَ وَأَوْعَدَ، ويحتمل أن يكون متصلاً، أي: جعلنا مريم وابنها آية للعالمين بأن بُعِثَ لهم بمِلَّةٍ وكتاب، وقيل لهم: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾، أي دعا الجميع إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى وعبادته، ثم أخبر تعالى بعد ذلك أنهم اختلفوا وتقطعوا أمرهم، ثم فرق بين المحسن والمسيء فذكر المحسن بالوعد، أي: فمن عمل من الصالحات وهو مؤمن فهو بِسَعْيِهِ يُجَازَى، وذكر المسيء بالوعيد في قوله: ﴿وَحَرَّمَ عَلَى قَرَبِيهِ أَهْلَكْنَاهَا﴾ الآية، فتأمل الوعيد فيها على كل قول تذكره فإنه بَيِّن، و﴿الْكُفْرَانُ﴾ مصدر كالكفر، ومنه قول الشاعر:

رَأَيْتُ أَنَسًا لَا تَنَامُ خُلْدُودُهُمْ
وَخُدِّي وَلَا كُفْرَانٌ لِّلَّهِ نَائِمٌ
واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ﴾ فقرأ عكرمة وغيره: ﴿وَحَرَّمَ﴾ بفتح الحاء وكسر الراء، وقرأ جمهور السبعة: ﴿وَحَرَّمَ﴾، وقرأ حمزة والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿وَحَرَّمَ﴾ بكسر الحاء وسكون الراء، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما - بخلاف عنه - : ﴿وَحَرَّمَ﴾ بفتح الحاء وسكون الراء، وقرأت فرقة: ﴿وَحَرَّمَ﴾ بفتح الحاء والراء وشد الراء، وقرأت فرقة:

﴿وَحَرَّمَ﴾ بضم الحاء وكسر الراء وشدها، وقرأ قتادة، وطمر الوراق: ﴿وَحَرَّمَ﴾ بفتح الحاء وضم الراء. والمستفيض من هذه القراءات قراءة من قرأ: ﴿وَحَرَّمَ﴾، وقراءة من قرأ: ﴿وَحَرَّمَ﴾، وهما مصدران مثل «حَلَّ وَحَلَّالٌ».

وأما معنى الآية فقالت فرقة: حرام وجزء معناه: جَزْمٌ وَحْشٌ على قرية أهلكتها أنهم لا يرجعون إلى الدنيا فيتوبون ويستعيبون، بل هم صاثرون إلى العذاب، وقال بعض هذه الفرقة: «الإهلاك» هو بالطَّبع على القلوب ونحوه، و«الرَّجُوعُ» هو إلى التوبة والإيمان. وقالت طائفة: المعنى: وَحَرَّمَ، أي ممتنع - وجزء كذلك - على قرية أهلكتها أنهم لا يرجعون، وقالوا: لا زيادة في الكلام. واختلفوا في «الإهلاك والرجوع» بحسب القولين المذكورين، قال أبو علي: يحتمل أن يرتفع ﴿وَحَرَّمَ﴾ بالابتداء، والخبر رجوعهم، و﴿لَا﴾ زائدة، ويحتمل أن يرتفع ﴿وَحَرَّمَ﴾ على خبر الابتداء، كأنه قال: والإقالة والتوبة حرام ثم يكون التقدير بأنهم لا يرجعون، فتكون ﴿لَا﴾ على بابها، كأنه قال: هذا عليهم ممتنع بسبب كذا، فالتحريم في الآية بالجملة ليس كتحريم الشرع الذي إن شاء المنهي عنه ركه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتَّجه في الآية معنى ضمنه وعيدٌ بَيِّن، وذلك أنه ذكر من عمل صالحاً وهو مؤمن، ثم عاد إلى ذكر الكفرة الذين من كفرهم ومعتقدهم أنهم لا

يُحْشَرُونَ إلى ربِّ، ولا يرجعون إلى مَعَادٍ، فهم يظنون بذلك أنه لا عقاب ينالهم، فجاءت الآية مكذبة لظن هؤلاء، أي: «مُتَنَبِّعٌ على الكفرة المهلكين أنهم لا يرجعون، بل هم راجعون إلى عقاب الله وأليم عذابه»، فتكون ﴿لَا﴾ على بابها، والحرام على بابها، وكذلك الجزم فتأمل.

﴿٩٦﴾ - ﴿٩٧﴾ تفسير قوله عز وجل: تحتمل ﴿حَقٌّ﴾ - في هذه الآية - أن تكون متعلقة بقوله: ﴿وَنَقَطَ عَمَّا﴾، وتحتمل - على بعض التأويلات المتقدمة - أن تتعلق بـ﴿يَرْجِعُونَ﴾، وتحتمل أن تكون حرف ابتداء: وهو الأظهر بسبب ﴿إِذَا﴾؛ لأنها تقتضي جواباً هو المقصود ذكره.

واختلف هنا في الجواب؛ فقالت فرقة: الجواب قوله: ﴿وَأَقْرَبَ الرَّعْدُ﴾ والواو زائدة، وقالت فرقة - منها الزجاج وغيره -: الجواب في قوله تعالى: ﴿يَكُونُ﴾، والتقدير: قالوا يا ويلنا، وليست الواو بزائدة. والذي أقول: إن الجواب في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ﴾، وهذا هو المعنى الذي قصد ذكره لأنه رجوعهم الذي كانوا يكذبون به وحرَّم عليهم امتناعه.

وقرأ الجمهور: ﴿فُتِحَتْ﴾ بتخفيف التاء، وقرأ ابن عامر وحده: ﴿فُتِحَتْ﴾ بتثنيها. وزوي أن ياجوج ومأجوج يشرفون في كل يوم على الفتح فيقولون: عَدَا يُفْتَحُ، ولا يردون المشيئة إلى الله تعالى، فإذا كان العَدَا وجدوا الرُّؤْم كآوله، حتى إذا أذن الله في فتحه قال قائلهم:

غداً نفتحه إن شاء الله، فيجدونه كما تركوه قريب الانفتاح فيفتحونه حينئذ. وقرأ عاصم وحده: ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ بالهمز، وقرأ الجمهور بالتسهيل، وقد تقدّم في سورة الكهف توجيه ذلك وكثير من حال يأجوج ومأجوج فغنيّا هنا عن إعادة ذلك.

و(الْحَدَبُ) كلُّ مُسْتَمٍّ من الأرض كالجبل والطَّرب والكُذبة والقبر ونحوه، وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿وَهُمْ﴾ يأجوج ومأجوج، يعني أنهم يطلعون من كل ثنية ومرتفع ويُمُون الأرض، وذلك أنهم من الكثرة بحيث قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم أخرج بعث النار من ذُرَّتِكَ، فيخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين» قال: ففزع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «إن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف رجل»، ويروى أن الرجل منهم لا يموت حتى يولد له ألف ولد بين رجل وامرأة. وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿وَهُمْ﴾، جميع العالم، وإنما هو تعريف بالبعث من القبور. وقرأ ابن مسعود: ﴿مِنْ كُلِّ جَذْثٍ﴾، وهذه

القراءة تؤيد هذا التأويل. و﴿يَسْلُونُ﴾ معناه: يُسرعون في تطامن، ومنه قول الشاعر: عَسَلَانَ الذُّئْبِ أُنْسَى قَارِباً بَرَدَ اللَّيْلِ عَلَيْهِ فَتَسَلَّ وقرأت فرقة بكسر السين، وقرأت فرقة بضمها.

وأسند الطبري عن أبي سعيد قال: (يخرج يأجوج ومأجوج فلا يتركون

أحداً إلا قتلوه إلا أهل الحصون، فيمرون على بحيرة طبرية، فيمر آخرهم فيقول: كان هاهنا ماء، فيبعث الله عليهم الثَّغف حتى يكسر أعناقهم، فيقول أهل الحصون: لقد هَلَكَ أعداء الله، فيدلُّون رجلاً ينظر فيجدهم قد هلكوا، قال: فينزل الله ماء من السماء فيقذف بهم في البحر فيطهر الأرض منهم)، وفي حديث حذيفة نحو هذا، وفي آخره: (قال: وعند ذلك طلوع الشمس من مغربها) وزوي أن ابن عباس رضي الله عنهما رأى صبياناً يلعبون ويتزوّج بعضهم على بعض فقال: هكذا خروج يأجوج ومأجوج.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يريد يوم القيامة، وروي في الحديث «إن الرجل ليتخذ القللو من بعد يأجوج ومأجوج فلا يبلغ منفته حتى تقوم الساعة»، وقوله: ﴿هِيَ﴾ مذهب سيبويه أنها ضمير القصة، كأنه قال: فإذا القصة أو الحادثة شاخصة أبصار، وجوز الفراء أن تكون ضمير (الأبصار) تقدمت لدلالة الكلام، ويجيء ما يفسرهما، وأنشد على ذلك:

فَلَا وَأَبِيهَا لَا تَقُولُ خَلِيلَتِي
أَلَا قَرَّ عَشِي مَالِكِ بْنِ أَبِي كَعْبٍ
والشخص بالعين: إخذاد النظر دون أن يطرف، وذلك يعترى من الخوف المُفْطَر أو علة أو نحوه.

وقوله: ﴿يَبُولَانَا﴾ تقديره: يا ويلنا لقد كانت بنا غفلة عما وجدنا الآن وتبيناً من الحقائق، ثم تركوا الكلام الأول ورجعوا إلى نقد ما كان يُدخلهم من تعمّد الكفر وقصد

الإعراض فقالوا: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

(٩٨) - (٩٩) تفسير قوله عز وجل: هذه مخاطبة لكفار مكة، أي: إنكم وأصنامكم حصب جهنم، و(الْحَصْبُ): ما توقد به النار، إنما لأنها تُحصب به أي تُزْمَى، وإما أن تكون لغة في الحطب إذا رمي، وأما قبل أن تُزْمَى فلا يُسمّى حصباً إلا بتجوز.

وقرأ الجمهور: ﴿حَصْبٌ﴾ بالصاد مفتوحة، وسكنها ابن السميّقع؛ وذلك على إيقاع المصدر موقع اسم المفعول. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأبي بن كعب، وعائشة، وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم: ﴿حَطَبٌ جَهَنَّمُ﴾ بالطاء، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿حَضَبٌ جَهَنَّمُ﴾ بالضاد منقوطة مفتوحة، وسكنها كثير غيره. والْحَضَبُ أيضاً ما يُرمى به في النار لتوقد به، والمِحْضَبُ المؤد الذي تُحرّك به النار أو الحديد ونحوه، ومنه قول الأعشى:

فَلَا تَكُ فِي حَزْبِنَا مِحْضَباً
لِتَجْعَلَ قَوْمَكَ شَيْئاً شُعُوباً

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ يريد الأصنام، وحرّقها بالنار على جهة التوبيخ لعابدها، ومن حيث تقع ﴿مَا﴾ لمن يعقل في بعض المواضع اعترض في هذه الآية عبدالله بن الزبير على رسول الله ﷺ فقال: إن عيسى وعزير ونحوهما قد عبدا من دون الله فيلزم أن يكونا حصباً لجهنم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ الآية، ثم قرّر

يحزنهم الشيء الذي هو عند أهل النار فزع أكبر، فأما إن كان فزعاً للجميع فلا بد مما قلنا من أنه قبل دخول الجنة.

وقد ذهب بعض الناس إلى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ يعُمُّ كل مؤمن، وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: عثمان منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا مزية أنها مع نزولها في خصوص مقصود تتناول كل من سعد في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَلَقَّاهُمُ الْمَلَكُ﴾ يريد بالسلام عليهم والتبشير لهم، أي: هذا يومكم الذي وعدتم فيه الثواب والنعيم.

﴿١٠١﴾ - ﴿١٠٢﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأت فرقة: ﴿يَطْوِي﴾ بنون العظمة، وقرأت فرقة: ﴿يَطْوِي﴾ بياء مفتوحة على معنى: يَطْوِي الله: وقرأت فرقة: ﴿يَطْوِي﴾ بـتاء مضمومة ويرفع ﴿السَّمَاءَ﴾ على ما لم يُسَمِّ فاعله.

واختلف الناس في ﴿السَّجِّلِ﴾؛ فقالت فرقة: السَّجِّل: مَلَكٌ يطوي الصحف، وقالت فرقة: السَّجِّل: رجل كان يكتب للنبي ﷺ. وهذا كله وما شاكله ضعيف. وقالت فرقة: السَّجِّل: الصحيفة التي يكتب فيها، المعنى: ﴿كُتِبَ السَّجِّلُ﴾ أي: كما يطوى السجل من أجل الكتاب الذي فيه، فالمصدر مضاف إلى المفعول، ويحتمل أن يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل، أي: كما يطوي السَّجِّلُ الكتاب الذي هو فيه، فكانه

عيسى ابن مريم وعزير نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ مُبَيَّنَةٌ أن هؤلاء ليسوا تحت المراد لأنهم لم يرضوا ذلك ولا دعوا إليه، و﴿الْحُسْنَىٰ﴾ يريد كلمة الرُحمة والختم بالفضل. و﴿الْحَسَنَىٰ﴾: الصوت، وهو بالجملة ما يتأدى إلى الجس من حركة الأجرام، وهذه صفة لهم بعد دخولهم الجنة، لأن الحديث يقتضي أن في الموقف تفرج جهنم زفرة لا يبقى نبي ولا ملك إلا جثا على ركبته.

و﴿الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ عام في كل هول يكون في يوم القيامة، فكان يوم القيامة بجملة هو الفزع الأكبر، وإن خصص شيء من ذلك فيجب أن يقصد الأعظم هوله. قالت فرقة في ذلك: هو ذبح الموت، وقالت فرقة: هو وقوع طبق جهنم على جهنم، وقالت فرقة: هو الأمر بأهل النار إلى النار، وقالت فرقة: هو وقت النفخة الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وما قبله من الأوقات أشبه أن يكون فيها الفزع لأنها وقت لرجم الظنون وتعرض الحوادث، فأما وقت ذبح الموت ووقوع طبق جهنم فوقت قد حصل فيه أهل الجنة في الجنة، فذلك فزع بيِّن أنه لا يصيب أحداً من أهل الجنة فضلاً عن الأنبياء، اللهم إلا أن يريد: لا

لَا يَسْمَعُونَ حَيِّثُهَا وَهَمَّ فَمَا أَشْهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَلِدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَاقَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٢﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعِندَ عَلَيْنَا أُنُوفُ الَّذِينَ كُنْتُمْ يُعْتَبِرُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَكِيدٍ ﴿١٠٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٦﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَعَلِمَ أَنَّمَا تُشْرِكُونَ ﴿١٠٧﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ أَغْنَىٰ عَنْكُمْ عِلِّيُّوهُوَ وَإِنِ آدَرْتُمْ أَقْرَبُ أَمِ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٠٩﴾ وَإِنِ آدَرْتُمْ لَعَلَّهٗ فَتَنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١٠﴾ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١١﴾

الأمر بالإشارة إلى الأصنام التي أرادها في قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ فقال: ﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا رَدَّوْهَا﴾، وعبر عن الأصنام بـ﴿هَؤُلَاءِ﴾ من حيث هي عندهم بحال من يعقل، و﴿الزُّرُودُ﴾ في هذه الآية زُرُودُ الدخول.

﴿١١٢﴾ - ﴿١١٣﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ عائد على من يعقل ممن تُوعَد. و﴿الزُّفِيرُ﴾: صوتُ المعذَّب، وهو كشهيق الحمير وشبهه إلا أنه من الصدر، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ قالت فرقة: معناه: لا يسمعون خيراً ولا ساراً من القول، وقالت فرقة: إن عذابهم أن يجعلوا في توابيت في داخل توابيت أخر فيصيرون هنالك لا يسمعون شيئاً. ولما اعترض ابن الزُّبَيْري بأمر

قال: يوم نظوي السجل كالهيئة التي فيها طي السجل للكتاب، ففي التشبيه تجوز.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿السَّجُلُ﴾ بشد السين وسكون الجيم وتخفيف اللام، وفتح أبو السَّمال (السين) فقرأها: ﴿السَّجُلُ﴾، وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير: ﴿السَّجُلُ﴾ بضم السين وشدها وضم الجيم، وقرأ الجمهور: ﴿لِلْكِتَابِ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿لِلْكِتَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُبِيدُهُ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون خبراً عن البعث، أي: كما اخترعنا الخلق أولاً على غير مثال كذلك نُثَبِّئُهُمْ تارة أخرى فنبعثهم من القبور، والثاني أن يكون خبراً عن أن كل شخص يُبعث يوم القيامة على هيئته التي خرج بها إلى الدنيا، ويؤيد هذا التأويل أن رسول الله ﷺ قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»، كما بدأننا أول خلق نُعيدُه. والكاف في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا﴾ متعلقة بقوله: ﴿يُبِيدُهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ تأكيد للأمر، بمعنى أن الأمر واجب فيه ذلك.

وقالت فرقة: (الزُّبور) اسم يعم جميع الكتب المنزلة لأنه مأخوذ من «زَبَرْتُ الْكِتَابَ»: إذا كتبتَه. قالت فرقة: (الذُّكْرُ) أراد به اللوح المحفوظ، وقال بعضهم: الذُّكْر الذي في السماء. وقالت فرقة: الزُّبور هو زبور داود عليه السلام، والذُّكْر أراد به التوراة، وقالت فرقة:

الزُّبور ما بعد التوراة من الكتب، والذُّكْر التوراة. وقرأ حمزة وحده: ﴿الزُّبور﴾ بضم الزاي.

وقالت فرقة: (الأَرْضُ) أراد بها أرض الدنيا، أي كل ما يناله المؤمنون من الأرض. وقالت فرقة: أراد أرض الجنة، واستشهدوا بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا أَلَكُمُ اللَّهُ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّنَا الْأَرْضُ نَبْؤُا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾، وقالت فرقة: إنما أراد بهذه الآية الإخبار عما كان صنعه مع بني إسرائيل، أي: فاعلموا أننا كُنَّا وَثِقًا لَهُمْ بما وعدناهم، فكذاك نُنْجِزْ لَكُمْ ما وعدناكم من النُّصرة.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قال فرقة: الإشارة بقوله تعالى: ﴿فِي هَذِهِ﴾ إلى هذه الآيات المتقدمة، وقالت فرقة: الإشارة إلى القرآن بجملته، والعبادة تتضمن الإيمان بالله تعالى. وقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قالت فرقة: عمّ العالمين وهو يريد من آمن فقط، وذلك أن النبي ﷺ ليس برحمة على من كفر به ومات على كفره، وقالت فرقة: العالمون عامٌّ ورحمته للمؤمنين بيّنة، وهي للكافرين بأن الله تعالى رفع عن الأمم أن يُصيَّبَ ما كان يصيب القرون قبلهم من أنواع العذاب المستأصلة كالطوفان وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل الكلام أن يكون معناه: وما أرسلناك للعالمين إلا رحمةً، أي: هو رحمة في نفسه وهدي، أخذ به من أخذ، وأعرض عنه من أعرض. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

﴿سَوَاءٌ﴾ معناه: عرفتكم بنذرتي، وأردت أن تُشاركوني في معرفة ما عندي من الخوف عليكم من الله.

ثم أعلمهم بأنه لا يعرف تعيين وقت لعقابهم، بل هو مُتَرَقَّبٌ في القرب والبعد، وهذا أهول وأخوف.

﴿سَوَاءٌ﴾ - ﴿إِنَّا﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله: ﴿إِنَّا﴾ عائد على الله تعالى، وفي هذه الآية تهديد، أي: يعلم جميع الأشياء الواقعة منكم، وهو بالمرصاد في الجزاء عليها.

وقرأ يحيى بن عامر: ﴿وَإِنْ أَذْرِي لَعَلَّةٌ﴾ ﴿وَإِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ﴾ بفتح الياء فيهما، وأنكر ابن مجاهد فتح هذه الياء، ووجه أبو الفتح.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ الضمير فيه عائد على الإملاء لهم، وصفح الله تعالى عن عذابهم، وتمادي النعمة عليهم. و﴿يُسْتَمْتَعُ﴾ معناه: امتحانٌ وابتلاء، و(الْمَتَاعُ) ما يُسْتَمْتَعُ به مدة الحياة الدنيا.

ثم أمره الله تعالى أن يقول على جهة الدعاء: ﴿رَبِّ آخِرُ الْبَلَاءِ﴾، والدعاء بهذا هنا فيه توعد، أي: إن الحق هو نصرتي عليكم، وأمر الله تعالى لهم بهذا الدعاء دليل على الإجابة والعدة بها.

وقرأت فرقة: ﴿رَبِّ آخِرُ﴾، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿رَبِّ﴾ بالرفع على المنادى المفرد، وقرأت فرقة: ﴿رَبِّي أَحْكَمُ﴾ على وزن أَفْعَلْ، وذلك على الابتداء والخبر، وقرأت فرقة: ﴿رَبِّي أَحْكَمُ﴾ على أنه فعل ماضٍ، ومعاني هذه القراءات بيّنة.

ثم توكّل في آخر الآية واستعان بالله تعالى، وقرأ جمهور القراء: ﴿قُلْ

سماها شيئاً لأنها حاصلة مُتَقَيَّن وقوعها يُستسهل لذلك أن تُسمَّى شيئاً وهي معدومة؛ إذ اليقين بها يشبه الموجودات، وإما على المال، أي هي إذا وقعت شيء عظيم، فكأنه لم يُطلق الاسم الآن، بل المعنى: إنها إذا كانت فهي حينئذ شيء عظيم.

(وَالزَّلْزَلَةُ): التحريك العظيم، وذلك مع نفخة الفزع، ومع نفخة الصعق حسبما تضمن حديث أبي هريرة من ثلاث نفخات. ومن لفظة الزلزلة قول الشاعر:

يَعْرِفُ الْجَاهِلُ الْمُضِلُّ أَنَّ الدُّهْرَ
رَفِيهِ السُّخْرَاءُ وَالزُّلْزَالُ
فيحتمل أن تكون الزلزلة في الآية عبارة عن أهوال يوم القيامة، كما قال: ﴿مَسَّيَهُمُ الْبُيُوتُ وَانْقَرَضَ زُكُورُهُمْ﴾، وكما قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلِّزْلِهِمْ»، على أن زلزلة الساعة هي كالعهودة في الدنيا إلا أنها في غاية الشدة.

واختلف المفسرون في الزلزلة المذكورة، هل هي في الدنيا على القوم الذين تقوم عليهم القيامة، أم هي في يوم القيامة على جميع العالم؟ فقال الجمهور: هي في الدنيا، والضمير في ﴿تَزَلَّزَلَهَا﴾ عائد على الزلزلة، وقوى قولهم أن الرضاع والحمل إنما هو في الدنيا. وقالت فرقة: الزلزلة في يوم القيامة، واحتجت بحديث أنس المذكور آنفاً؛ إذ قرأ رسول الله ﷺ الآية ثم قال: «إِنَّهُ الْيَوْمَ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ لَأَدَمُ: أَخْرَجَ بَعث النار».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

تمام ثلاث آيات، قاله ابن عباس ومجاهد، وروي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهن أربع آيات، إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلْحَرِيقٌ﴾، وقال الضحاك: هي مدنية، وقال قتادة: سورة الحج مدنية إلا أربع آيات، من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، إلى قوله: ﴿عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيبٍ﴾، فهن مكثيات، وعد النقاش ما نزل

بالمدينة عشر آيات، وقال الجمهور: السورة مختلطة، منها مكِّي ومنها مدني، وهذا هو الأصح - والله أعلم - لأن الآيات تقتضي ذلك، وروي عن أنس بن مالك أنه قال: نزل أول السورة في السفر على رسول الله ﷺ، فنادى بها فاجتمع الناس إليه، فقال: أتندرون أي يوم هذا؟ فبهتوا، فقال: يوم يقول الله: يا آدم أخرج بعث النار، فيخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فقال: فاغتم الناس، فقال رسول الله ﷺ: «أبشروا، فمنكم رجل ومن يأجوج ومأجوج ألف رجل... الحديث».

٢ - تفسير قوله عز وجل:

صدر الآية تحذير لجميع العالم، ثم أوجب الخبر وأكده بأمر زلزلة القيامة، وهي إحدى شرائطها،

بَيَاتُهَا النَّاسُ أَتَقَارِبُكُمْ مِنْ زَلْزَلَةِ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُنْهَضُونَ كُلٌّ مَرْضِعَةٌ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَنَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۝ كَذِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ رَبِّبٌ مِنَ الْبَعَثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِنَبْلُو لَكُمْ وَنُقَرِّفَ الْأَرْحَامَ مَا نَشَاءُ لَكُمْ أَجَلٌ سَمِيٌّ ثُمَّ نَحْنُ حَكِيمٌ ۝ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُوًّا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَزْدَلِ الْأَعْمُرِ لِيَكْتَلِبَ عَلَيْكُمُ يَوْمَ يَعْلَمُ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَاهَا عَلَيْهِمُ الْغَمَاءُ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُتْبِعَتْ مِنْ كُلِّ رَجْعٍ مَبْهَاجٌ ۝

رَبِّ أَخْكُمُ، وقرأ عاصم - فيما روي عنه -: ﴿قُلْ رَبِّ أَخْكُمُ﴾. وقرأ ابن عامر وحده: ﴿عَلَىٰ مَا يَصِفُونَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون والناس: ﴿عَلَىٰ مَا يَصِفُونَ﴾ بالتاء من فوق على المخاطبة.

كامل تفسير سورة الأنبياء والحمد لله رب العالمين

(٢٢)

سورة الحج
مدنية

وآياتها ثمان وسبعون

هذه السورة مكِّيَّة إلا ثلاث آيات، قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ خَصَّانِ﴾، إلى

وهذا الحديث لا حُجَّة فيه؛ لأنَّه يحتمل أن النبي ﷺ قرأ الآية الْمُتَضَمِّنَةَ ابتداءً أمر الساعة ثم قصد في تذكيره وتخويله إلى فصل من فصول يوم القيامة فنص ذكره، وهذا من الفصاحة، والضمير عند هذه الفرقة عائد على الساعة، أي: يوم يرون ابتداءها في الدنيا، فيصح لهم بهذا التأويل ألا يلزمهم وجود الرضاع والحمل في يوم القيامة، وإن أعادوه على الزلزلة فسد قولهم بما يلزمهم. على أن النقاش ذكر أن المراد بـ ﴿كُلِّ ذَاتِ حَمَلٍ﴾ من مات من الإنثاء ولدها في جوفها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

والدُّهُولُ: الغفلة عن الشيء بطُورِهِ ما يشغل عنه من همٍّ أو وجع أو غيره، قال ابن زيد: المعنى: تترك ولدها للكرب الذي نزل بها. وقرأ ابن أبي عبله: ﴿تَذْهِلُ﴾ بضم التاء وكسر الهاء ونصب ﴿كُلِّ﴾، وألحق الهاء في ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ لأنه أراد فاعلات ذلك في ذلك اليوم فأجراه على الفعل، وأما إذا أخبرت عن المرأة بأن لها طفلاً ترضعه فإنما تقول: ﴿مُرْضِعٌ﴾ مثل «حامل»، قال علي بن سليمان: هذه الهاء في ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ تردُّ على الكوفيَّين قولهم: إن الهاء لا تكون فيما لا تلبس له بالرجال، وحكى الطبري أن بعض نحويي الكوفة قال: أم الصبي مرضعة، والمُستأجرة له مرضع.

و(الْحَمْلُ) بفتح الحاء: ما كان في بطنٍ أو على رأس شجرة. وقوله تعالى: ﴿وَرَزَى النَّاسَ سُكْرَى﴾ تشبيه

لهم، أي: من الهمِّ، ثم نفى عنهم الشُّكر الحقيقي الذي هو من الخمر، قاله الحسن وغيره.

وقرأ جمهور القراء: ﴿سُكْرَى﴾ بضم السُّين وثبوت الألف، وكذلك في الثاني، وهذا هو الباب، فمرة جعله سيبويه جمعاً، ومرة جعله اسم جمع، وقرأ أبو هريرة بفتح السُّين فيهما وهذا أيضاً قد يجيء في هذه الجموع، قال أبو الفتح: هو تكسير، وقال أبو حاتم: هي لغة تميم، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿سُكْرَى﴾ في الموضعين، ورواه عمران بن حصين، وأبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ، وهي قراءة ابن مسعود، وحذيفة، وأصحاب عبدالله. قال سيبويه: وقوم يقولون «سُكْرَى»، جعلوه مثل «مُرْضَى» لأنهما شيثان يدخلان على الإنسان، ثم جعلوا «رُزَى» مثل «سُكْرَى» وهم المستقلون نوماً من شرب الرائب. وقال أبو علي: ويصح أن يكون ﴿سُكْرَى﴾ جَمْع «سُكْرٍ» كزَمْزَى وَزَيْنَ، وقد حكى سيبويه: رجل سُكْرٌ بمعنى سكران، فيجىء سُكْرَى حينئذ لتأنيث الجمع، كما العلامة في «طائفة» لتأنيث الجمع.

وقرأ سعيد بن جبیر: ﴿وَرَزَى النَّاسَ سُكْرَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ بالضم والألف. وحكى المهدوي عن الحسن أنه قرأ: ﴿وَرَزَى النَّاسَ سُكْرَى وَمَا هُمْ بِسُكْرَى﴾، وقرأ الحسن، والأعرج، وأبو زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير في الموضعين: ﴿سُكْرَى﴾ بضم السين، قال أبو الفتح: «هو اسم مفرد كالبُشْرَى،

وبهذا أفناني أبو علي، وقد سأله عن هذا. وقرأ أبو زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير، وأبو هريرة، وأبو نُهَيْك: ﴿وَرَزَى﴾ بضم التاء، «النَّاسَ» بالنصب، قال: وإنما هي بحسبه، ورويت هذه القراءة «وَرَزَى النَّاسَ» بضم التاء والسين، أي: تُرى جماعة الناس.

❦ - ❦ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَيَنْ أَلْأَيْنَ﴾ الآية. قال ابن جرير: نزلت في النضر بن الحارث، وأبي بن خلف، وقيل: في أبي جهل بن هشام، ثم هي بغد تتناول كل من يتصف بهذه الصفة. و(المُجَادَلَةُ): المُحَاجَّة، والمادة مأخوذة من «الجدل» وهو الفتل، والمعنى: «يُجَادِلُ» في قدرة الله وصفاته. وكان سبب الآية كلام من ذكر في أن الله تبارك وتعالى لا يبعث الموتى، ولا يقيم الأجساد من القبور. و(الشَّيْطَانُ) هنا هو مُؤْمَرِهِمْ من الجن، ويحتمل أن يكون الشيطان من الإنس، والانحاء على مُثْبَعِيهِ. و(الْمُرِيدُ): المتجرّد من الخير إلى الشر، ومنه الأمرد، وشجرة مرداء أي عارية من الورق، وصرخ مُمرّد أي مُملّس من زجاج، وصخرة مرداء أي ملساء. والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على (الشَّيْطَانِ)، قاله قتادة، ويحتمل أن يعود على «المُجَادِلِ». و﴿أَنَّهُ﴾ في موضع رفع على المفعول الذي لم يسم فاعله، و﴿أَنَّهُ﴾ الثانية عطف على الأولى مؤكدة مثلها، وقيل: هي مكررة للتأكيد فقط، وهو معترض بأن الشيء لا يؤكد إلا بعد تمامه وتمام

﴿أَنَّهُ﴾ الأولى إنما هو بصلتها في قوله: ﴿الْعَصِيرِ﴾، وكذلك لا يُعطف عليه، ولسيبويه في مثل هذا أنه بدلٌ، وقيل ﴿أَنَّهُ﴾ الثانية خبر ابتداء محذوف تقديره: فشأنه أنه يضلّه، وقدره أبو علي: فَلَهُ أَنْ يُضِلَّهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر لي أن الضمير في ﴿أَنَّهُ﴾ الأولى للشيطان، وفي الثانية ﴿مَنْ﴾ الذي هو المتولى. وقوله: ﴿وَبَهْدِيهِ﴾ بمعنى: يذله على طريق ذلك، وليست بمعنى الإرشاد على الإطلاق. وقرأ أبو عمرو: ﴿إِنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ بالكسر فيها.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْآيَةِ﴾ الآية. هذا احتجاج على العالم بالبداة الأولى، وضرب الله تعالى في هذه الآية مثلين إذا اعتبرهما الناظر جُوزَ في العقل البعثة من القبور، ثم ورد خبر الشرع بوجوب ذلك ووقوعه. و﴿الزَّيْبُ﴾: الشك، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ شرط مضمنه التوقيف، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿الْبَعَثُ﴾ بفتح العين، وهي لغة في «الْبَعَثُ» عند البصريين، وهي عند الكوفيين تخفيف «بَعَثُ».

وقوله: ﴿خَلَقْتَنَّاكَ مِن رُّبَابٍ﴾ يريد آدم ثم سُلطَ الفعل عليهم من حيث هم ذريته. وقوله: ﴿ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ﴾ يريد المني الذي يكون من البشر، و«النُّطْفَةُ» تقع على قليل الماء وكثيره، وقال النقاش: المراد نطفة آدم. وقوله: ﴿ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ﴾ يريد من الدَّم الذي تعود النُّطْفَةُ إليه في الرُّجُم، أو المقارن للنطفة.

و﴿الْعَلَقُ﴾: الدَّم العبيط، وقيل: ﴿الْعَلَقُ﴾: الشديد الحمرة، فسمي الدَّم لذلك، وقوله: ﴿ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ﴾ يريد بضعة لحم على قدر ما يُمضغ، وقوله: ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾ معناه: مُتَمَمَّةُ الْبَيْتَةِ ﴿وَعَبْرَ مُخَلَّقَةٍ﴾ غير مُتَمَمَّة، أي التي تسقط، قاله مجاهد، وقتادة، والشعبي، وأبو العالية، فاللفظة بناء مبالغة من «خَلَقَ». ولما كان الإنسان فيه أعضاء متباينة وكلٌ منها مختص بخَلْقٍ حَسَنٍ في جملة تضعيف الفعل لأن فيه خَلْقاً كثيرة، وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾ بالنصب «وَعَبْرَ» بالنصب في الرأى.

ويتصل بهذا الموضع من الفقه أن العلماء اختلفوا في أم الولد إذا أسقطت بضعة لم تُصَوِّرْ، هل تكون أمٌ ولد بذلك؟ فقال مالك، والأوزاعي، وغيرهما: هي أمٌ ولد بالمضغة إذا علم أنها مضغة الولد، وقال الشافعي، وأبو حنيفة: حتى يثبِتَ فيه خلق ولو عضو واحد.

وقوله: ﴿لِيُثَبِّتَ لَكُمُ﴾، قالت فرقة: معناه: لثبِتَ أمر البعث، فهو اعتراض بين الكلامين. وقرأت هذه الفرقة بالزُّفْع في «نُقِرُّ»، والمعنى: ونحن نُقِرُّ، وهي قراءة الجمهور. وقالت فرقة: ﴿لِيُثَبِّتَ لَكُمُ﴾ معناه: تكون المضغة غير مُخَلَّقَةٍ وطرح النساء إياها كذلك ثبِتَ للناس أن المناقل في الرُّجُم هي هكذا، وقرأت هذه الفرقة: «وَنُقِرُّ» بالنصب، وكذلك قرأت: «نُخْرِجُكُمْ» بالنصب، وهي رواية المفضل عن عاصم، وحكى أبو عمرو الداني أن

رواية المفضل هذه هي بالباء في «نُقِرُّ» «وَنُخْرِجُكُمْ»، والرفع على هذا التأويل شائع، ولا يجوز النصب على التأويل الأول. وقرأ ابن وثاب: «مَا نِشَاءُ» بكسر النون. و«الأجلُ المُسَمَّى» هو مختلف بحسب جنين جنين، فثَمٌ من يسقط، وثَمٌ من يكمل أمره ويخرج حياً.

واختلف الناس في (الأشدُّ) من ثمانية عشر إلى ثلاثين، إلى اثنين وثلاثين، إلى ستة وثلاثين، إلى أربعين، إلى خمسة وأربعين، واللفظة تُقال باشتراك، فأشدُّ الإنسان على العموم غير أشدُّ اليتيم الذي هو الاحتلام. و«الأشدُّ» في الآية يحتمل المعنيين، والرصد إلى أرذل العمر هو حصول الإنسان في زمانة واختلال قوة حتى لا يقدر على إقامة الطاعات، واختلال عقل حتى لا يقدر على إقامة ما يلزمه من المعتمدات، وهذا أبداً يلحق مع الكبير، وقد يكون أرذل العمر في قليل من السن بحسب شخص ما لحقته زمانة، وقد ذكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن أرذل العمر خمسة وسبعون سنة، وهذا فيه نظير، وإن صحَّ عن علي رضي الله عنه فلا يتوجه إلا أن يريد: على الأكثر، فقد نرى كثيراً أبناء ثمانين سنة ليسوا في أرذل العمر. وقرأ الجمهور: «الْعُمُرُ» مشبعة، وقرأ نافع: «الْعُمُرُ» مخففة الميم، واختلف عنه.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: لينسى معارفه وعلمه الذي كان معه فلا يعلم من ذلك شيئاً، فهذا مثال

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّمُ الْوَقْدَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٣﴾ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَيُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٤﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلِمُ الْعَبِيدَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعَادِلُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِمَوْلَانِ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أَعْلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿٦﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿٧﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِمْ لَيْسَ الْوَعْدُ وَلَيْسَ الْعِشِيرُ ﴿٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَاعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَتْ يَطْنُ أَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِنَ كَيْدُهُ مَا يَعْبَثُ ﴿١٠﴾

٢٢٢

مجاهد وأهل مكة: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بفتح الياء، وكذلك قرأ أبو عمرو. والخزي الذي تُوعَد به النضر بن الحارث صدق في أسره يوم بدر، وقتله صبراً، والحرقي: طبقة من طبقات جهنم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ بمعنى: يقال له، ونسب التقديم إلى اليمين إذ هما آلة الاكتساب. واختلف في الوقف على ﴿يَدَاكَ﴾؛ فقليل: لا يجوز لأن التقديم: «وبأن الله»، أي أن هذا هو العدل فيك بجرائمك، وقيل: يجوز بمعنى: والأمر أن الله تعالى ليس بظلام. والعبيد ذكر هنا في معنى مسكنتهم وقلة قدرتهم، فلذلك جاءت هذه الصيغة.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآيات نزلت في أعراب وقوم

الله الآية. الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ إلى القوم المتقدم ذكرهم، وحكى النقاش، عن محمد بن كعب أنه قال: نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق، وكرر هذه على جهة التوبيخ، فكأنه يقول: وهذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان، ومن الناس مع ذلك من يجادل، فكأن الواو واو الحال، والآية المتقدمة الواو فيها واو عطفت جملة الكلام على ما قبلها، والآية على معنى الإخبار، وهي هاهنا

مكررة للتوبيخ. و﴿ثَانِي﴾ حال من الضمير في ﴿يُجَادِلُ﴾، ولا يجوز أن يكون من ﴿مَنْ﴾ لأنها ابتداء، والابتداء عمله الرفع لا النصب، وإضافة ﴿ثَانِي﴾ غير مُعْتَد بها؛ لأنها في معنى الانفصال إذ تقديرها: ثانياً عِطْفُهُ. وقوله سبحانه: ﴿ثَانِي عِطْفِهِ﴾ عبارة عن المتكبر المُفْرَض، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك أن صاحب الكبر يرد وجهه عما يتكبر عنه، فهو يرد وجهه بصغر خذه ويلوي عنقه، وشي عِطْفُهُ، وهذه هي عبارات المفسرين. و﴿الْعِطْفُ﴾: الجانب. وقرأ الحسن: ﴿عِطْفِهِ﴾ بفتح العين، والعِطْفُ: السيف؛ لأن صاحبه يَتَعَطْفُهُ، أي يصله بجنبه. وقرأ الجمهور: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياء، وقرأ

واحد يقضي للمُعْتَد به أن القادر على هذه المناقل المُتَقِن لها قادر على إعادة تلك الأجساد التي أوجدها بهذه المناقل إلى حالها الأولى. ﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا هو المثل الذي يعطي للمعتبر فيه جواز بعث الأجساد، وذلك أن إحياء الأرض بعد موتها بَيِّن، وكذلك الأجساد. و﴿هَامِدَةٌ﴾ معناه: ساكنة ودارسة بالية، ومنه قيل: همد الثوب إذا بلي، قال الأعشى:

قَالَتْ قَتِيلَةٌ مَا لِحِجْمِكَ شَاجِبًا
وَأَرَى نَيْبًا كَبَالِيَاتٍ هُمْدًا
(و) (اهتزاز الأرض) هو حركتها بالنبات وغير ذلك مما يعتريها بالماء، و﴿وَرِيَتْ﴾ معناه: نشرت وارتفعت، ومنه الربو، وهي المكان المرتفع. وقرأ أبو جعفر بن القفّاق: ﴿وَرِيَّاتٌ﴾ بالهمز، ورويت عن أبي عمرو، وقرأها عبدالله بن جعفر، وخالد بن إلياس، وهي غير وجيهة، وَوَجْهَهَا أن تكون من: ﴿رَبَّاتُ الْقَوْمِ﴾ إذا علوت شرفاً من الأرض طليعة، فكأن الأرض بالماء تتناول وتعلو. و﴿الزُّوجُ﴾: النوع، و﴿الْبَهِيحُ﴾ فَعِيلٌ من البهجة وهي الحُسن، قاله قتادة وغيره.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره، ف﴿ذَلِكَ﴾ ابتداء، وخبره ﴿يَأَنَّ﴾، أي: هو بأن الله حقٌ مُحْيِي قَائِدٌ. وقوله: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ ليس بسبب لما ذكر، لكن المعنى أن الأمر مرتبط ببعثه ببعض، أو على تقدير: والأمر أن الساعة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعِدُ

فيوقف على هذا. قال أبو علي: ويحسن أن يكون ﴿ذَلِكَ﴾ بمعنى «الذي»، أي: الذي هو الضلال البعيد يدعو، فيكون قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ موصولاً بقوله: ﴿هُوَ الضَّالُّ الْبَعِيدُ﴾، ويكون ﴿يَدْعُوا﴾ عاملاً في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كون ﴿ذَلِكَ﴾ بمعنى «الذي» غير سهل، وشبهه المهدي بقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بَيِّنَاتٌ﴾. وقد يظهر في الآية أن يكون قوله: ﴿يَدْعُوا﴾ متصلاً بما قبله، ويكون فيه معنى التوبيخ، كأنه قال: يدعو من لا يضر ولا ينفع، ثم كرر ﴿يَدْعُوا﴾ - على جهة التوبيخ - غَيْرَ مُعْدِيٍّ، إذ قد عُدِّي في أول الكلام، ثم ابتدأ الإخبار بقوله: ﴿لَنْ ضُرَّهُ﴾ واللام مؤذنة بمجيء القسم، والثانية التي في ﴿لَيْسَ﴾ لام القسم وإن كان أبو علي مال إلى أنها لام الابتداء والثانية لام اليمين، ويظهر أيضاً في الآية أن يكون المراد: ﴿يَدْعُو من ضُرَّهُ﴾، ثم علق الفعل باللام، ويصح أن يقدّر هذا الفعل من الأفعال التي تعلق وهي أفعال النفس كظننت وحسبت، وأشار أبو علي إلى هذا ورد عليه.

و(الْعَشِيرُ): القريب المعاشر في الأمور، وذهب الطبري إلى أن المراد بـ«الْمَوْلَى» و«الْعَشِيرِ» هو الوثن الذي ضُرّه أقرب من نفعه، وهو قول مجاهد، والله أعلم.

١٤ - (٧) تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تبارك وتعالى من يعبد الله على حرف وسفّه رأيهم وتوعدهم

وقوله تعالى: ﴿يَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَنْفَعُهُ﴾ يريد الأوثان، ومعنى ﴿يَدْعُوا﴾ يعبد، ويدعو أيضاً في مُلِمَاتِهِ. واختلف الناس في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَدْعُوا لَنْ ضُرُّهُ﴾ فقالت فرقة من الكوفيين: اللام مُقدّمة على موضعها، وإنما التقدير: يدعو من يضره، ويؤيد هذا التأويل أن عبداً بن مسعود قرأ: ﴿يَدْعُوا لَنْ ضُرُّهُ﴾، وقال الأخفش: ﴿يَدْعُوا﴾ بمعنى يقول. و﴿مَنْ﴾ مبتدأ، و﴿ضُرُّهُ﴾ مبتدأ،

و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره، والجملة صلة، وخبر ﴿مَنْ﴾ محذوف، والتقدير: يقول: لمن ضُرّه أقرب من نفعه إليه، وشبه هذا يقول عترة:

يَدْعُونَ عَشْتَرَ وَالرَّمَاخَ كَأَنَّهَا

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول فيه نظر، فتأمل إفساده للمعنى إذ لم يعتقد الكافر قط أن ضرر الأوثان أقرب من نفعها، واعتذار أبي علي هنا مُموه، وأيضاً فهو لا يشبه البيت الذي استشهد به. وقيل: المعنى في ﴿يَدْعُوا﴾ يُسَمَّى، وهذا كالقول الذي قبله إلا أن المحذوف آخر مفعول تقديره: إلهاً. وقال الزجاج: يجوز أن يكون ﴿يَدْعُوا﴾ في موضع الحال وفيه هاء محذوفة، والتقدير: ذلك هو الضلال البعيد يدعو، أي: يدعو،

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ أَلَّا اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّابِرِينَ وَالْمُجْرِمِينَ وَالَّذِينَ اشْرَكُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۚ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۚ ﴿٨﴾ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصِمَا فِي رَيْبِهِمَا الَّذِينَ كَفَرُوا وَقُتِلَ لَهُمْ تَابٌ مِنْ تَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٠﴾ وَلَهُمْ مَقْطِعٌ مِنْ حديدٍ ﴿١١﴾ كَمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿١٣﴾

٣٣٤

لا يقين لهم، كان أحدهم إذا أسلم فاتفقت له اتصافات حسان من نُمو مالٍ وولد ذَكَرٍ يُوزَّقه وغير ذلك قال: هذا دين جيّد، وتمسك به لهذه المعاني، وإن كان الأمر بخلاف تشاءم به وارتد كما صنع العَرَبِيُّونَ وغيرهم، قال هذا المعنى ابن عباس، ومجاهد، وقادة، وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ معناه: على انحراف منه عن العقيدة البيضاء، أو على شفا منها مُعَدٌّ للزهوق. و(الْفَيْئَةُ): الاختبار. وقوله: ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ عبارة: للْمَوْلَى عن الأمور. و(خَسَارَتِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ): أما الدنيا بالمقادير التي جرت عليه، وأما الآخرة فبازتداد وسوء معتقده. وقرأ مجاهد، وحمزة، والأعرج: ﴿خَاسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ نصباً على الحال.

بخسارة الآخرة، عَقِبَ ذلك بذكر حالة مخالفيهم من أهل الإيمان، وذَكَرَ ما وعدهم به من إدخاله إِيَّاهم الجنة، ثم أخذت الآية في توبيخ أولئك الأولين وإسلامهم إلى رأيهم وإحالتهم على ما فيه عنتهم وليس فيه راحتهم، كأنه يقول: هؤلاء العابدون على حرف صحبهم القُلُقَ وظَنُّوا أن الله تعالى لن ينصر محمداً عليه الصلاة والسلام وأتباعه، ونحن إنما أمرناهم بالصبر وانتظار وعدنا، فمن ظنَّ غير ذلك فليمدد بسبب وليختنق وينظر هل يذهب بذلك غيظه؟ قال هذا المعنى قتادة، وهو على جهة المثل السائر، قولهم: «دونك الحبل فاختنق»، يقال ذلك للذي يريد من الأمر ما لا يمكنه.

و(السَّبَبُ): الحبل، والسُّزُرُ معروف، إلا أن أبا عبيدة ذهب به إلى معنى الرُّزْق، كما قالوا: «أزض منصور» أي ممطورة، وكما قال الشاعر:

وَإِنَّكَ لَا تُغْطِي امْرَأَةً قَوْقَ حَقِّهِ
وَلَا تَمْلِكُ الشَّقُّ الَّذِي الْعَيْثُ نَاصِرُهُ

وقال: وقف بنا سائل من بني أبي بكر فقال: من ينصرني ينصره الله. و(السَّمَاءُ) - على هذه الأقوال -: الهواءُ عُلُوًّا، فكأنه أراد: سقفاً أو شجرةً أو نحوه، وقال ابن زيد: السماء هي المعروفة، وذهب إلى معنى آخر، كأنه قال لمن يظن أن الله لا ينصر محمداً: إِنْ كُنْتَ تَظُنُّ ذلك فامدد سبباً إلى السماء واقطعه إِنْ كُنْتَ تقدر على ذلك، فإن عجزت فكذا لا تقدر على قطع سبب

محمد عليه الصلاة والسلام من السماء؛ إذ نصرته من هنالك، والوحي الذي يأتيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: و(الْقَطْعُ) - على هذا التأويل - ليس بالاختناق، بل هو جَزَمُ السبب، وفي مصحف ابن مسعود: «ثُمَّ لَيَقْطَعَنَّ بِهَا»، والجمهور على أن القطع هنا هو الاختناق. قال الخليل: «وَقَطَعَ الرَّجُلُ» إذا اختنق بحبل أو نحوه، ثم ذكر الآية.

وتحتمل الآية معنى آخر، وهو أن يراد به الكفار وكل من يمتناظ بأن ينصره الله ويطمع ألا يُنْصَرَ، قيل لهم: من ظنَّ أن هذا لا يُنْصَرُ فليمت كمدأ، هو منصور لا محالة، فليختنق هذا الظان غيظاً وكمدأ، ويؤيد هذا أن الطبري والنقاش قالوا: ويقال: نزلت في نفر من بني أسد وغطفان قالوا: نخاف أن يُنْصَرَ محمد فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من يهود من المنافع.

والمعنى الأول الذي قيل للعابدين على حرف ليس بهذا، ولكنه بمعنى: مَنْ قَلِقَ واستبطأ النصر وظن أن محمداً عليه الصلاة والسلام لا يُنْصَرُ فليختنق سفاهةً إذ تعدى الأمر الذي حُدَّ له في الصبر وانتظار صنع الله تعالى. وقال مجاهد: الضمير في «يَنْصَرُ» عائذ على «مَنْ»، والمعنى: من كان من القلقين من المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: والضمير في التأويل الذي ذكرناه في أن يُرَادَ الكفار لا يعود إلا على النبي ﷺ فقط. وقالت فرقة: الضمير عائذ على الدين والقرآن.

وقرأ أبو عمرو وابن عامر: «لَيَقْطَعَنَّ فَلَيَنْظُرَنَّ» بكسر اللام فيهما على الأصل، وهي قراءة الجمهور. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بسكون اللام فيهما وفي لام الأمر في كل القرآن مع الواو والفاء وثُمَّ. واختلف عن نافع، وهي قراءة الحسن، وأبي عمرو، وعيسى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أما الفاء والواو - إذا دخلت (إحداهما) على لام الأمر - فحكى سببويه أنهم يرونها كأنها من الكلمة فسكون اللام تخفيف، وهو أفصح من تحريكها، وأما «ثُمَّ» فهي كلمة مستقلة فالوجه تحريك اللام بعدها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد رأى بعض النحويين الميم من «ثُمَّ» بمنزلة الفاء والواو.

وقوله: «مَا يَغِيْظُ» يحتمل أن تكون «مَا» بمعنى الذي، وفي «يَغِيْظُ» عائذ عليها، ويحتمل أن تكون مصدرية حرفاً فلا عائذ عليها، و(الكَيْدُ) هو مدة السبب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأبَيَّنَ وجوه هذه الآية أن تكون مثلاً، ويكون النصر المعروف، والقطع الاختناق، والسماء الارتفاع في الهواء يسقف أو شجر أو نحوه فتأمل.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ﴾ إلى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، المعنى: وكما وعدنا بالنصر وأمرنا بالصبر كذلك أنزلنا القرآن آية بيّنة لمن نظر واهتدى، لا ليُفترَح معها ويُستعجل القدر. وقال الطبري: المعنى: كما بيّنتُ حُجَّتِي على من جَحَدَ قُدْرَتِي على إحياء الموتى كذلك أنزلناه. والضمير في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ عائد على القرآن، وجاءت هذه الضمائر هكذا وإن لم يتقدّم لها ذكر لشهرة المشار إليه نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ وغيره.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ في موضع خبر الابتداء، والتقدير: والأمر أن الله يهدي من يريد، وهداية الله تبارك وتعالى هي خلقه الرُّشاد والإيمان في نفس الإنسان.

ثم أخبر الله تعالى عن فعله بالفرق المذكورين وهم المؤمنون بمحمد ﷺ وغيره، واليهود، والصابئون، وهم قوم يعبدون الملائكة ويستقبلون القبلة ويوحدون الله ويقرؤون الزبور قاله قتادة، والنصارى، والمجوس، وهم عبدة النار والشمس والقمر، والمشركون، وهم عبدة الأوثان. قال قتادة: الأديان ستة، خمسة للشيطان وواحد للرحمن. وخبر ﴿إِنَّ﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ يَتَّخِذُ﴾، ثم دخلت ﴿إِنَّ﴾ على الخبر مؤكدة، وحسن ذلك لطول الكلام فهي وما بعدها خبر ﴿إِنَّ﴾ الأولى، وقرن الزجاج هذه الآية بقول الشاعر:

إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنْ لَمْ سَزَلْهُ
سِرْبَالُ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ
نقله الطبري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا البيت كالأية لأن الخبر في البيت قوله: «به تُرْجَى الخواتيم»، وإن الثانية وجملتها معترضة بين الكلامين. ثم تم الكلام في قوله تعالى: ﴿أَلْفَيْكُمْ﴾، واستأنف الخبر عن أن الله تبارك وتعالى على كل شيء شهيدٌ وعالم به، وهذا خير مناسب للفصل بين الفرق، وقُضِلَ الله تعالى بين هذه الفرق هو بإدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار.

﴿١٨﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنبيه، من رؤية القلب، وهذه آية إعلام بتسليم المخلوقات جميعها لله تعالى وخضوعها. وذكر في الآية كل ما عبد الناس إذ في المخلوقات أعظم مما ذكر كالبحار والرياح والهواء، ف﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾: الملائكة، و﴿مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من عبد من البشر. و(الشمس) كانت تعبدُها حمير، وهم قوم بليقيس، و(القمر) كانت كنانة تعبدُها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكانت تميم تعبد الدبران، وكانت لخم تعبد المشتري، وكانت طي تعبد الثريا، وكانت قريش تعبد الشعرى، وكانت أسد تعبد عطار، وكانت ربيعة تعبد المرزم. و(الجبال والشجر) منها النار وأصنام الحجارة والخشب، و(الدواب) منها البقر

وغير ذلك مما عبد من الحيوان كالديك ونحوه.

و(السجود) في هذه الآية هو بالخضوع والانقياد للأمر، وهذا كما قال الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَ فِيهَا سَجْدًا لِلْخَوَافِرِ
وهذا مما يتعذر فيه السجود المتعارف. قال مجاهد: سجود هذه الأشياء هو بظلالها، وقال بعضهم: سجودها هو بظهور الصنعة فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وهم، وإنما خلط هذه الآية بآية التسبيح، وهنالك يحتمل أن يقال: هي بآثار الصنعة.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على ما تقدم، أي: وكثير حق عليه العذاب سجد، أي كراهيةً وعلى رَغْمِهِ، إنما يظله وإنما بخضوعه عند المكاره ونحو ذلك، قاله مجاهد، وقال: سجوده بظله، ويحتمل أن يكون رفعاً بالابتداء مقطوعاً ممّا قبله، وكأن الجملة معادلةً لقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ لأن المعنى أنهم مرحومون بسجودهم، ويؤيد هذا قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يَرِنِ اللَّهُ﴾ الآية.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَمَا لَهُمْ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ بكسر الراء، وقرأ ابن أبي عبلة بفتح الراء على معنى: من موضع، أو على أنه مصدر كمدخل. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَالَّذِينَ﴾ مشددة الباء، وقرأ الزهري وحده

مخففة الباء، وهي قليلة ضعيفة، وهي تخفيف على غير قياس كما قالوا: ظَلْتُ وَأَحْسَنْتُ، وكما قال علقمة:

كَأَنَّ يُرِيْقَهُمْ ظَبْيِي عَلَى شَرْفٍ
مُقَدَّمٍ بِسَبَابِ الْكَثَّانِ مَلَثُومٍ
أراد: بِسَبَابِ الْكَثَّانِ، وأنشد أبو علي في مثله:

حَتَّى إِذَا مَا لَمْ أَجِدْ غَيْرَ الشَّرِّ
كُنْتُ امْرَأً مِنْ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرٍ
وهذا باب إنما استعمل في الشعر لذلك ضَعُفَتْ هذه القراءة.

قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصَّانِ أَخَصَّوْا فِي رِيْبِهِمُ﴾ الآية. اختلف الناس في المشار إليه بقوله: ﴿هَذَانِ﴾؛ فقال قيس بن عُبَادَةَ، وهلال بن يساف: نزلت هذه الآية في المتبارزين يوم بدر، وهم ستة: حمزة، وعلي. وعبيدة بن الحارث، برزوا لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: أنا أول من يجشور للخصومة بين يدي الله يوم القيامة، وأقسم أبو ذر رضي الله عنه على هذا القول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ووقع أن الآية فيهم في صحيح البخاري رحمه الله.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الإشارة إلى المؤمنين وأهل الكتاب، وذلك أنه وقع بينهم تخاصم، فقالت اليهود: نحن أقدم ديناً منكم ونحو هذا، فنزلت الآية. وقال عكرمة:

المخاصمة بين الجنة والنار. وقال مجاهد، وعطاء بن أبي رباح، والحسن بن أبي الحسن، وعاصم، والكلبي: الإشارة إلى المؤمنين والكفار على العموم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول تعضده الآية، وذلك أنه تقدم قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْ آلَائِهَا﴾، المعنى: فهم مؤمنون ساجدون، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾، ثم أشار إلى هذين الصنفين بقوله: ﴿هَذَانِ خَصَّانِ﴾، والمعنى أن الإيمان وأهله والكفر وأهله خصمان مذ كانا إلى قيام الساعة بالعداوة والجدال والحرب. وقوله: ﴿خَصَّانِ﴾ يريد: طائفتين لأن لفظة خَضَم هي مصدر يوصف به الجمع والواحد، ويدل على أنه أراد الجمع قوله تعالى: ﴿أَخَصَّوْا﴾، فإنها قراءة الجمهور، وقرأ ابن أبي عبله: ﴿أَخَصَّصَا فِي رِيْبِهِمْ﴾. وقوله: ﴿فِي رِيْبِهِمْ﴾ معناه: في شأن ربهم وصفاته وتوحيده، ويحتمل أن يريد: في رضى ربهم، وفي ذاته. ثم بيّن حكم الفريقين، فتوعد تبارك وتعالى الكفار بعذاب جهنم، و﴿قُلِّمَتْ﴾ معناه: جعلت لهم بتقدير كما يفصل الثوب، وروى أنها من نحاس، وقيل: ليس شيء من الحجارة آخر منه إذا حمي. وروى في صَبِّ الحميم - وهو الماء المغلي - أنه تُضْرَبُ رؤوسهم بالمقامع فتتكشف أدمغتهم فيصَبُّ الحميم حينئذ، وقيل: بل يصب

الحميم أولاً فيفعل ما وصف ثم تُضْرَبُ بالمقامع بعد ذلك. و﴿الْحَمِيمُ﴾: الماء المغلي. و﴿يُضْهِرُّ﴾ معناه: يُذَابُ، وقيل: معناه: يُعْصَرُ، وهذه العبارة قلقة، وقيل: معناه: ينضح، ومنه قول الشاعر:

تَضْهِرُهُ الشَّمْسُ وَلَا يَنْضَحُهُزُ
وإنما يُضْهِيه - فيمن قال: يعصر - أنه أراد أن الحميم بحرارته يهبط - كُلَّمَا يُلْقَى - في الجوف ويكشطه وَيَسْلُتُهُ، وقد روى أبو هريرة نحوه عن النبي ﷺ (أنه يَسْلُتُهُ وَيَبْلُغُ به قدميه ويديه ثم يعاد كما كان). وقرأ الجمهور: ﴿يُضْهِرُّ﴾، وقرأت فرقة: ﴿يُضْهِرُّ﴾ بفتح الصاد وشدّ الهاء. و﴿الْمِقْمَعَةُ﴾ - بكسر الميم - مقرعة من حديد يُقْمَعُ بها المضروب.

وقوله تعالى: ﴿أَرَادُوا﴾ رُوي فيه أن لهب النار إذا ارتفع رفعهم فيصلون إلى أبواب النار فيريدون الخروج فيُضْرَبون بالمقامع وترُدُّهم الزبانية. و مِنْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَنْهَا﴾ لا ابتداء الغاية، وفي قوله: ﴿وَمِنْ غَيْرِ﴾ يحتمل أن تكون لبيان الجنس، ويحتمل أن تكون لا ابتداء غاية أيضاً، وهي بدلٌ من الأولى. وقوله: ﴿وَرُدُّوْا﴾ هنا حذف تقديره: ويقال لهم: ذوقوا. و﴿الْأَحْرِيقُ﴾ قَبِيلٌ بمعنى مُفْعَل، أي: محرق.

وقرأ الجمهور: ﴿هَذَانِ﴾ بتخفيف النون، وقرأ ابن كثير وحده:

دون الأخرى جائز كله. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما:

﴿لَيْلًا﴾ بكسر اللامين.

وأخبر الله تعالى عنهم بلباس الحرير لأنها من أكمل حالات الآخرة، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تشبه أمور الآخرة أمور الدنيا إلا في الأسماء فقط، وأما الصفات فمتباينة.

و«الطَّيِّبُ من القول»: لا إله إلا الله وما جرى معها من ذكر الله تبارك وتعالى وتسبحيه وتقديسه، وسائر كلام أهل الجنة من محاوراة وحديث طيب؛ فإنها لا تسمع فيها لاغية. و(صِرَاطُ الْحَمِيدِ) هو طريق الله تعالى الذي دعا عباده إليه، ويحتمل أن يريد بـ«الْحَمِيدِ» نفس الطريق، فأضاف إليه على حَدِّ إضافته في قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ﴾ الآية. قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ تقديره: وهم يصدون، وبهذا حسن عطف المستقبل على الماضي، وقالت طائفة: الواو زائدة، و﴿يَصُدُّونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مفسد للمعنى المقصود، وإنما الخبر محذوف مقدّر عند قوله: ﴿وَالْبَاقُونَ﴾ تقديره: خَسِرُوا أو هلكوا، وجاء ﴿يَصُدُّونَ﴾ مستقبلاً إذ هو فعل يُدِيمُونَهُ، كما جاء قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾ ونحوه.

وهذه الآية نزلت عام الحديبية حين صُدَّ رسول الله صلى الله عليه وآله

جمع أسيرة، وأسورة جمع سوار. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «من أسيرة من ذهب».

و(اللؤلؤ): الجوهر، وقيل: صفاره، وقيل: كباره، والأشهر أنه اسم للجوهر. وقرأ نافع، وعاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿وَلَوْلُؤُا﴾ بالنصب عطفًا على موضع (الأساور)؛ لأن التقدير: يُحْلَوْنَ فيها أساور، وهي قراءة الحسن، والجحدري، وسلام،

ويعقوب، والأعرج، وأبي جعفر، وعيسى، وابن عمر، وحمل أبو الفتح نصبه على إضمار فعل.

وقرأ الباقون من السبعة: ﴿وَلَوْلُؤُا﴾ بالخفض عطفًا إما على لفظة (الأساور)، ويكون (اللؤلؤ) في غير الأساور، وإما على «الذهب» لأن الأساور تكون أيضاً من ذهب ولؤلؤ قد جمع بعضها إلى بعض، ورويت هذه القراءة عن الحسن بن أبي الحسن، وطلحة، وابن وثاب، والأعمش، وأهل مكة، وثبتت في (الإمام) ألف بعد الواو، قاله الجحدري، وقال الأصمعي: ليس فيها ألف، وروى يحيى عن أبي بكر، عن عصام بهمز الواو الثانية دون الأولى، وروى المعلّى بن منصور، عن أبي بكر، عن عاصم ضد ذلك، قال أبو علي: فهزهما وتخفيفهما وهمز إحداهما

وَهَذَا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَذَا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ
﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَذَابُ فِيهِ وَالْبَاقِ
وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَكْمِ يَظْلِمُ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ
وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي
شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ ﴿٢٤﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا
كُلِّ صِامٍ بِأَنْيَابٍ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٥﴾ لِيَشْهَدُوا
مَنْفَعٍ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنْسَاءَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ
عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَمَا أَطْعَمُوا
إِلَّا بَشِيرًا الْفَقِيرَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ لَيَقَصُنَّ أَنْفُسُهُمْ وَلَيُوفُوا
نَذْرَهُمْ وَيَصَدُقُوا أَلْفَيْتَ الْعَتِيقِ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ وَمَنْ
يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُ
لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَاتَّقُوا
الْحَيْثُ مِنَ الْأَوْتَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٨﴾

٣٣٥

﴿هَذَانِ﴾ بتشديد النون، وقرأها شبل، وهي لغة لبعض العرب في المبهمات كالأذاني وهذاني، وقد ذكر ذلك أبو علي.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية معادلة لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ كَفَرُوا قُتِلَتْ لَهُمْ نِيَابٌ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿بِحُكْمٍ﴾ بضم الياء وشد اللام من الحلي، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَحْلَوْنَ﴾ بفتح الياء واللام وتخفيفها، يقال: حَلَّى الرجل وحَلَّيْت المرأة إذا صارت ذات حَلْي. وقيل: هي من قولهم: «لَمْ يَحْلُ فَلَانٌ بِطَائِلٍ». و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ هي لبيان الجنس، ويحتمل أن تكون للتبعيض. و(الأساور) جمع سوارٍ وإسوارٍ بكسر الهمزة، وقيل: أساور

وسلم عن المسجد الحرام، وذلك أنه لم يُعلم لهم صدق قبل ذلك الجمع، إلا أن يراد صدهم الأفراد من الناس فقد وقع ذلك في صدر المبعث. وقالت فرقة: (المسجد الحرام) أراد به مكة كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا صحيح لكنه قصد بالذكر المهم المقصود من ذلك.

وقرأ جمهور الناس: ﴿سَوَاءٌ﴾ بالرفع، وهو على الابتداء، و﴿الْمَكُتَبُ﴾ خبر، وقيل: الخبر ﴿سَوَاءٌ﴾ وهو مقدم، وهو قول أبي علي. والمعنى: الذي جعلناه للناس قِبْلَةً أَوْ مُتَعَبِّدًا. وقرأ حفص عن عاصم: ﴿سَوَاءٌ﴾ بالنصب، وهي قراءة الأعمش، وذلك يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون مفعولاً ثانياً لا (جَعَلَ) ويرتفع ﴿الْعَاكِفُ﴾ به لأنه مصدر في معنى «مُسْتَوٍ» أعمل عمل اسم الفاعل، والوجه الثاني أن يكون حالاً من الضمير في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾، وقرأت فرقة: ﴿سَوَاءٌ﴾ بالنصب ﴿الْعَاكِفُ﴾ بالخفض عطفاً على النَّاسِ، و﴿الْعَاكِفُ﴾: المقيم في البلد، و﴿الْبَادِي﴾: القادم عليه من غيره. وقرأ ابن كثير في الوصل والوقف: ﴿الْبَادِي﴾ بالياء، ووقف أبو عمرو بغير ياءٍ وَوَصَلَ بالياء، وقرأ نافع: ﴿وَالْبَادِي﴾ بغير ياءٍ في الوصل والوقف في رواية المسيبي، وأبو بكر وإسماعيل بن أبي أويس، وروى ورش الوصل بالياء، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بغير ياءٍ وصلًا ووقفًا، وهي في «الإمام» بغير ياءٍ.

وأجمع الناس على الاستواء في المسجد الحرام واختلفوا في مكة؛ فذهب عمر بن الخطاب، وابن عباس، ومجاهد، وجماعة معهم إلى أن الأمر كذلك في دور مكة، وأن القادم له النزول حيث وُجِدَ، وعلى رب المنزل أن يُؤويه شاء أو أبى، وقال ذلك سفيان الثوري وغيره. وكذلك كان الأمر في الصدر الأول، قال ابن سابط: وكانت دورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة فاتخذ رجل باباً فأنكر عليه عمر رضي الله عنه وقال: أتغلق باباً في وجه حاج بيت الله؟ فقال: إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة، فتركه فاتخذ الناس الأبواب. وقال جمهور من الأمة منهم مالك رحمه الله: ليست الدور كالمسجد، ولأهلها الامتناع بها والاستبداد، وعلى هذا هو العمل اليوم.

وهذا الخلاف متركب على الاختلاف في مكة، هل هي عتوة كما روي عن مالك والأوزاعي؟ أو صلح كما روي عن الشافعي؟ فمن رآها صلحاً فإن الاستواء عنده في المنازل بعيد، ومن رآها عتوة أمكنه أن يقول: الاستواء فيها قدره الأئمة الذين لم يقطعوها أحداً وإنما سُكنى من سكن من قِيلَ نفسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر قول النبي ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً» يقتضي الاستواء، وأنها مُتَمَلِّكَةٌ ممنوعة على التأويلين في قوله ﷺ: «لأنه تَوَوَّلَ بمعنى أنه ورث جميع منازل أبي طالب وغيره، وتَوَوَّلَ بمعنى أنه باع منازل بني

هاشم حين هاجروا. ومن الحجة لتملك أهلها دورهم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترى من صفوان بن أمية داراً للسجن بأربعة آلاف، وبصح مع ذلك أن يكون الاستواء في وقت الموسم للضرورة والحاجة فيخرج الأمر حينئذ عن الاعتبار بالعتوة والصلح.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، قال أبو عبيدة: الباء زائدة، ومنه قول الشاعر:

يَوَادِّ يَمَانٍ يُثْبِتُ الشُّبَّ صَدْرُهُ
وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ وَالشَّبَّهَانِ
ومنه قول الأعشى:

ضَمِنْتُ بِرِزْقِ عِيَالِنَا أَرْمَاحَنَا
.....

وهذا كثير. ويجوز أن يكون التقدير: ومن يرد فيه الناس بالإلحاد. و﴿الْإِلْحَادُ﴾: المَلْءُ، وهذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر. فليُظْمَ حُرْمَةُ المكان توعده الله تعالى على نيَّة السيئة فيه، ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب بذلك إلا في مكة، هذا قول ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وجماعة من الصحابة وغيرهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الإلحاد في هذه الآية: الشُّرك، وقال أيضاً: هو استحلال الحرام وحرمة، وقال مجاهد: هو العمل السيئ فيه، وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: وَقَوْلُ «لَا وَاللَّهِ، وَيَلَى وَاللَّهِ» بمكة من الإلحاد، وقال حبيب بن أبي وثَّاب: الحكرة بمكة من الإلحاد بالظلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والعموم يأتي على هذا كله.

وقرأت فرقة: ﴿وَمَنْ يَرُدَّ﴾ من
الزُّرُود، حكاة الفراء، والأول أَبَيِّنْ
وأعم وأمدح للبقعة. و﴿مَنْ﴾ شرط
جازمة للفعل، وذلك منع من عطفها
على ﴿الَّذِينَ﴾. والله المستعان.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر إذ بَوَّأْنَا، و بَوَّأَ هي
تعدية بالتضعيف، و(باء) معناه:
رَجَعَ، فكانَ المُبَوَّى يَرُدُّ المُبَوَّى إِلَى
المكان، واستعملت اللفظة بمعنى
(سَكَنَ)، ومنه قوله تعالى: ﴿نَتَّبِعُ
مِنْكَ الْكَلْبَ﴾، وقال الشاعر:

كَمْ صَاحِبٍ لِي صَالِحٍ
بَوَّأْتُهُ بِبَيْدِي لَحْدًا
والسلام في قوله تعالى:
﴿لَا بُرْهَانَ﴾ قالت فرقة: هي زائدة،
وقالت فرقة: ﴿بَوَّأْتُكَ﴾ نازلة منزلة
فعل يتعدى باللام نحو جعلنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والأظهر أن يكون المفعول الأول
بـ ﴿بَوَّأْتُكَ﴾ محذوفاً تقديره: (الناس)
أو (العالم)، ثم قال: ﴿لَا بُرْهَانَ﴾،
بمعنى: له كانت هذه الكرامة وعلى
يديه بَوَّأُوا.

و(الْبَيِّنَات) هو الكعبة، وكان - فيما
رُوي - قد جعله الله تعالى مُتَعَبِّدًا
لآدم عليه السلام، ثم درس بالطوفان
وغيره، فلمَّا جاءتْ مُدَّةُ إبراهيم
عليه السلام أمره الله تعالى ببناؤه،
فجاءَ إلى موضعه وجعل يطلب أثراً،
فبعث الله ريحاً فكشفت له عن
أساس آدم فرتب قواعده عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ بِى
شَيْئًا﴾ هي مخاطبة لإبراهيم عليه

الصلاة والسلام في قول الجمهور
حُكِيَتْ لَنَا، بمعنى قيل له: ﴿أَنْ لَا
تُشْرِكَ بِى شَيْئًا﴾، وقرأ عكرمة:
﴿أَنْ لَا يُشْرِكَ بِى﴾ بالياء على معنى
نقل معنى القول الذي قيل له، قال
أبو حاتم: ولا بُدَّ مِنْ نصب الكاف
على هذه القراءة، بمعنى: لِشَيْءٍ
يشرك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
يحتمل أن تكون ﴿أَنْ﴾ في قراءة
الجمهور مفسرة، ويحتمل أن تكون
مُخَفِّفَةً من الثقيلة.

وفي الآية طعن على من أشرك من
قُطَان البيت، أي: هذا كان الشرط
عَلَى أَبِيكُمْ فَمَنْ بعده وأنتم، فلم تفوا
بل أشركتم. وقالت فرقة: الخطاب
من قوله: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ﴾
لمحمد ﷺ، وأمر بتطهير البيت
والأذان بالحج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والجمهور على أن ذلك لإبراهيم
عليه السلام، وهو الأصح.

و(تَطْهِيرُ الْبَيْتِ) عامٌ في الكفر
والبدع وجميع الأنجاس والدماء
وغير ذلك. و(القائمون) هم
المصلون، وذكر الله تعالى من أركان
الصلاة أعظمها وهي: القيام والركوع
والسجود.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَذِّنْ﴾ بشد
الذال، وقرأ الحسن بن أبي الحسن،
وابن مُحَنِصَن: ﴿وَأَذِّنْ﴾ بمدة
وتخفيف الذال، وتصحف هذا على
ابن جني؛ فإنه حكى عنهما ﴿وَأَذِّنْ﴾
على أنه فعل ماض وأعرب على
ذلك بأن جعله عطفاً على ﴿بَوَّأْتُكَ﴾.
وروي أن إبراهيم عليه السلام لما

أمر بالأذان بالحج قال: يا رب وإذا
ناديت فمن يسمعي؟ قيل له: ناد يا
إبراهيم، فعليك النداء وعلينا البلاغ،
فصعد على أبي قُبَيْس - وقيل: على
حجر المقام - ونادى: أَيُّهَا النَّاسُ؛
إن الله قد أمركم بحج هذا البيت
فحجُّوا واختلفت الروايات في ألفاظه
عليه السلام، واللازم أن يكون فيها
ذكر البيت والحج. وروي أنه يوم
نادى أسمع كل من يحج إلى يوم
القيامة في أصلاص الرجال، وأجابه
كل شيء في ذلك الوقت من جمادٍ
وغيره: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، فجرت
التلبية على ذلك، قاله ابن عباس
وابن جبير.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَا الْحَجَّ﴾ بفتح
الحاء، وقرأ ابن أبي إسحاق في كل
القرآن بكسرهما. و﴿رُجُلًا﴾ جمع
راجلٍ كساجرٍ وتجارٍ، وصاحب
وصحاب. وقرأ عكرمة، وابن
عباس، وأبو مجلز، وجعفر بن
محمد: ﴿رُجُلًا﴾ بضم الراء وشد
الجيم، ككتابٍ وكُتَّابٍ.

وقرأ عكرمة أيضاً، وابن أبي
إسحاق: ﴿رُجُلًا﴾ بضم الراء
وتخفيف الجيم، وهو قليل في أبنية
الجمع، ورويت عن ابن مجاهد،
وقرأ مجاهد: ﴿رُجُلًا﴾ على وزن
فُعَالَى، فهو مثل كُنَالَى.

و(الضَّامِرُ) قالت فرقة: أراد بها
الناقة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وذلك أنه يقال: ناقة ضامر، ومنه
قول الأعشى:

عَهْدِي بِهَا فِي الْحَيِّ قَدْ دُرْعَتْ
هَيْفَاءَ مِثْلَ الْمُهْرَةِ الضَّامِرِ

فيجيء قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ﴾ مستقيماً على هذا التأويل. وقالت فرقة: (الضامر) كل ما اتصف بذلك من جمل وناقة وغير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأظهر، لكنه يتضمن معنى الجماعات أو الرفاق، فيحسن لذلك قوله: ﴿يَأْتِينَ﴾. وقرأ أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿يَأْتُونَ﴾، وهي قراءة ابن أبي عبلة، والضحاك.

وفي تقديم ﴿يَكَاكَا﴾ تفضيل للمشاة في الحج، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما أتى على شيء فاتني إلا أن أكون حَجَّجْتُ مَاشِئاً، فلاني سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَأْتُوكَ يَكَاكَا﴾. وقال ابن أبي نجيج: حج إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مَاشِيَيْنِ، واستدل بعض العلماء بسقوط ذكر البحر في هذه الآية على أن فرض الحج بالبحر ساقط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قال مالك في المَوَازِيَةِ: لا أسمع للبحر ذكراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأنيس، لا أنه يلزم من سقوط ذكر البحر سقوط الفرض. وذلك أن مكة ليست في ضفة بحر فيأتيها الناس في السفن، ولا بد لمن ركب البحر أن يصير في إتيان مكة إما راجلاً وإما على ضامر، فإنما ذكرت حالتنا الوصول، وإسقاط فرض الحج بمجرد عدم ذكر البحر ليس بالكثير ولا بالقوي، فأما إذا اقترن به عدو أو خوف أو هول شديد أو مرض يلحق

شخصاً ما فمالك والشافعي وجمهور الناس على سقوط الوجوب في ذلك، وأنه ليس بسبيل يُستطاع، وذكر صاحب كتاب (الاستظهار) في هذا المعنى كلاماً ظاهره أن الوجوب لا يُسقطه شيء من هذه الأعذار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

(وَالْفَجْ): الطريق الواسعة، (وَالْعَمِيْقُ) معناه: البعيد، قال الشاعر:

إِذَا الْخَيْلُ جَاءَتْ مِنْ فِجَاجٍ عَمِيْقَةٍ
يَمْدُ بِهَا فِي السَّيْرِ أَشْعَثُ شَاجِبٍ
(وَالْمَنَافِعُ) في هذه الآية: التجارة في قول أكثر المتأولين، ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. وقال أبو جعفر محمد بن علي: أراد الأجر ومنافع الآخرة، وقال مجاهد بعموم الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ اللَّهُ﴾، يصح أن يريد بالاسم هاهنا المُسَمَّى، بمعنى: وَيَذْكُرُوا اللَّهَ، على تجوز في هذه العبارة، إلا أن يقصد ذكر القلوب. ويحتمل أن يريد بالاسم التسميات، وذكر الله تعالى إنما هو بذكر أسمائه، ثم يذكر القلب السلطان والصفات، وهذا كله على أن يكون الذكر بمعنى حمده وتقديسه شكراً على نعمته في الرزق، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّهَا أَيَّامُ أَكَلٍ وَشَرْبٍ وَذَكَرِ اللَّهِ». وذهب قوم إلى أن المراد ذكر اسم الله تعالى على النحر والذبح، وقالوا: إن في ذكر الأيام دليلاً على أن الذبح في الليل لا يجوز، وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي. وقال ابن عباس

رضي الله تعالى عنهما: الأيام المعلومات هي أيام العشر ويوم النحر وأيام التشريق، وقال ابن سيرين: هي أيام العشر فقط، وقالت فرقة: بل أيام التشريق، ذكره القتيبي، وقالت فرقة فيها مالك وأصحابه: بل الأيام المعلومات يوم النحر، ويومان بعده، وأيام التشريق الثلاثة هي المعدودات، فيكون يوم النحر معلوماً لا معدوداً، واليومان بعده معلومات ومعدودات والرابع معدود لا معلوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحمل هؤلاء على هذا التفصيل أنهم أخذوا «ذكر اسم الله» هنا على الذبح للأضاحي والهدي وغيره، فاليوم الرابع لا يُضْحَى فيه عند مالك وجماعة، وأخذوا التَّعَجُّل والتَّأَخُّر بالتَّعَرُّف في الأيام المعدودات، فتأمل هذا يبين لك قصدهم، ويظهر أن تكون المعلومات والمعدودات بمعنى، أي تلك الأيام الفاضلة كلها، ويبقى أمر الذبح وأمر الاستعجال لا يتعلق بمعدود ولا بمعلوم، وتكون فائدة قوله: ﴿مَمْلُوءَتٌ﴾ و﴿مَمْدُودَةٌ﴾ التحريض على هذه الأيام وعلى اغتنام فضلها؛ إذ ليست كغيرها، فكأنه قال: هي مخصوصات فلتغتتم.

وقوله تعالى: ﴿تَكَلُّوا﴾ ندب، واستحب أهل العلم للرجل أن يأكل من هديه أو ضحيته مع التصدق بأكثرها، مع تجويزهم الصدقة بالكل وأكل الكل. (وَالْبَائِسُ): الذي قد مسه ضرر الفاقة ويؤسها، يقال: بأس الرجل ببؤس، وقد يستعمل فيمن

سُمِّيَ عتيقاً لأنه لم يُملك موضعه قط، وقالت فرقة: سُمِّيَ عتيقاً لأن الله تعالى يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يرذُّه التصريف. وقيل: سُمِّيَ عتيقاً لأنه أعتق من غرق الطوفان، قاله ابن جبير، ويحتمل أن تكون ﴿الْعَتِيقُ﴾ صفة مدح تقتضي جودة الشيء، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حَمَلْتُ عَلَى فَرَسٍ عَتِيقٍ» الحديث، ونحوه قولهم: «كلام حر».

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ يحتمل أن يكون في موضع رفع بتقدير: فَرَضْنَا ذَلِكَ، أو الواجب ذلك، ويحتمل أن يكون في موضع نصب بتقدير: امتثلوا ذلك ونحو هذا الإضمار، وأحسن الأشياء مضمراً أحسنها مظهرأ، ونحو هذه الإشارة البليغة قول زهير:

هَذَا وَلَيْسَ كَمَنْ يَغْنَى بِخُطْبَتِهِ
وَسَطُ الثَّدْيِ إِذَا مَا نَاطِقٌ نَطَقَا
وَالْخُرْمَاتُ الْمَقْصُودَةُ هَاهُنَا هِيَ
أَفْعَالُ الْحَجِّ الْمَشَارُ إِلَيْهَا فِي قَوْلِهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَيَقْعُنَّهَا
نَجْمُهُمْ وَلَيُؤْرِثُنَّ نُذُورُهُمْ﴾، ويدخل
في ذلك تعظيم المواضع، قاله ابن زيد وغيره، ووعد على تعظيمها بعد ذلك تحريضاً وتحريضاً، ثم لفظ الآية - بعد ذلك - يتناول كل حرمة الله تعالى في جميع الشرع. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَبَرَ﴾ ظاهره أنها ليست للتفضيل، وإنما هي عِدَّةٌ بخير ويحتمل أن يجعل ﴿خَبَرَ﴾ للتفضيل على تجوُّز في هذا الموضع.

وحده - في رواية أبي بكر -: ﴿وَلَيُؤْفَوْنَ﴾ بفتح الواو وشذ الفاء، و(ؤفَى) و(أؤفى) لغتان مستعملتان في كتاب الله تعالى، و(أؤفى) أكثر. و(الثُّورُ) ما معهم من هدي وغيره، و(الطُّوْفُ) المذكور في هذه الآية هو طواف الإفاضة الذي هو من واجبات الحج، قال الطبري: لا خلاف بين المتأولين في ذلك. قال مالك: هو واجب يرجع تاركه من وطنه إلا أن يطوف طواف وداع فإنه يجزيه منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل بحسب الترتيب أن تكون الإشارة إلى طواف الوداع إذ المستحسن أن يكون ولا بد، وقد أسند الطبري عن عمرو بن أبي سلمة قال: سألت زهيراً عن قوله تعالى: ﴿وَلَيَطُوفُنَّ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فقال: هو طواف الوداع. وقال مالك في الموطأ: واختلف المتأولون في وجه وصف البيت بالعتيق؛ فقال مجاهد، والحسن: العتيق: القديم، يقال: سيف عتيق، وقد عتق الشيء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول بعضه النظر؛ إذ هو أول بيت وضع للناس، إلا أن الزبير قال: سُمِّيَ عتيقاً لأن الله تعالى أعتقه من الجبابة بمنعه إياه منهم، وروى في هذا حديثاً عن النبي ﷺ، ولا نظر مع الحديث. وقالت فرقة:

حُفَّتْ لِلَّهِ عَيْرٌ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ
السَّمَاءُ فَتُخَطَفُ السَّمَاءُ أَوْ تُنْهَوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ
﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ
﴿٣٠﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ
الْعَتِيقِ ﴿٣١﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَسْكاً يُذْكَرُ وَاسْمُ اللَّهِ عَلَى مَا رَفَعْنَاهُمْ مِنْ بَيْمَتِهِ الْأَتَعْرِ فَإِنَّهُمْ كَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
فَالَهُ أَصْلُكُمْ وَأُتِيَتْ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَرَمَا
رَفَعْنَاهُمْ يُفْقُونَ ﴿٣٣﴾ وَأَلْبَدْتَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ
اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِئْتُمْ
جُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعَمَّرَ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا
لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٤﴾ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لَكُمْ هُوَ وَلَا مَا وَهَبَا
وَلَكِنْ بِنَاءُ اللَّهِ النَّقْوَى بِكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرٍ وَرَأَى
اللَّهُ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَيَشْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ اللَّهَ
يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَاذِبٍ ﴿٣٦﴾

نزلت به نازلة دهر وإن لم تكن فقراً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لكن البائس سعد بن خولة»، والمراد في هذه الآية أهل الحاجة.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣١﴾ تفسير قوله عز وجل: اختلفت القراءة في سكون اللام من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَيَقْعُنَّهَا نَجْمُهُمْ وَلَيُؤْرِثُنَّ نُذُورُهُمْ وَلَيَطُوفُنَّ﴾ وفي تحريك جميع ذلك بالكسر، وفي تحريك ﴿لَيَقْعُنَّهَا﴾ وتسكين الاثنين، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿لَيَمْدَدَنَّ إِلَى السَّمَاءِ﴾ توجيه جميع ذلك.

وَالْتَفَتَ) ما يفعله المحرم عند حله من تقصير شعره وحلقه وإزالة شعته ونحوه من إقامة الخمس من الفطرة حسب الحديث، وفي ضمن ذلك قضاء جميع مناسكه إذ لا يقضي التَّفَتُّ إلا بعد ذلك. وقرأ عاصم

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآفَاقُ﴾ إشارة إلى ما كانت العرب تفعله من تحريم أشياء برأيها كالبحيرة والسائبة، فأذهب الله تعالى جميع ذلك وأحلَّ لهم جميع الأنعام إلا ما يُتلى عليهم في كتاب الله تبارك وتعالى في غير موضع، ثم أمرهم باجتناب الرُّجس من الأوثان، والكلام يحتمل معنيين: أحدهما أن تكون ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس فيقع نهيهم عن رجس الأوثان فقط، وتبقى سائر الأرجاس تُهَيِّئُهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، والمعنى الثاني أن تكون ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، فكأنه نهاهم عن الرُّجس عاماً ثم عَيَّنَ لَهُمْ مَبْدَأَهُ الَّذِي مِنْهُ يَلْحَقُهُمْ؛ إِذْ عِبَادَةُ الْوُثْنِ جَامِعَةٌ لِكُلِّ فِسَادٍ وَرَجْسٍ، ويظهر أن الإشارة إلى الذبائح التي كانت للأوثان، فيكون هذا مما يتلى عليهم. ومن قال: إن ﴿مِنْ﴾ للتبعيض قلب معنى الآية وأفسده، والمروى عن ابن عباس، وابن جريج أن الآية نهي عن عبادة الأوثان.

والرُّزُورُ عامٌّ في الكذب والكفر، وذلك أن كلَّ ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزور. وقال ابن مسعود، وأيمن بن خُزَيْم: إن رسول الله ﷺ قال: «عدلت شهادة الرُّزُور بالشُّرك» وتلا هذه الآية، والرُّزُور مشتق من الرُّزُور وهو الميل، ومنه: في جانب فلان رَزَوْرٌ، ويظهر أن الإشارة إلى زُور أقوالهم في تحريم وتحليل ما كانوا قد شرَّعوه في الأنعام.

و﴿حُفَّتَا﴾ معناه: مستقيمين أو

مائلين إلى الحق بحسب أن لفظة «الحَنَف» من الأضداد، تقع على استقامة وتقع على الميل. و﴿حُفَّتَا﴾ نصب على الحال. وقال قوم: ﴿حُفَّتَا﴾ معناه: حُجَّابَا. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تخصيص، لا حُجَّةَ معه.

و﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾ يجوز أن تكون حالاً أخرى، ويجوز أن تكون صفة لقوله: ﴿حُفَّتَا﴾.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً للمشرك بالله سبحانه وتعالى أظهره به في غاية السقوط ويحتمل الهول والانبثاق من النجاة، بخلاف ما ضرب للمؤمن في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ﴾، ومثله قول علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فليكن آخر من السماء إلى الأرض أهون علي من أن أكذب عليه» الحديث.

وقرأ نافع وحده: ﴿فَتَخَطَّفُ الطَّيْرُ﴾ بفتح الخاء وشد الطاء على حذف تاء التفعّل، وقرأ الباقون: ﴿فَتَخَطَّفُ الطَّيْرُ﴾ بسكون الخاء وتخفيف الطاء، وقرأ الحسن - فيما روي عنه: ﴿فَتَخَطَّفُ﴾ بكسر التاء والياء وفتح الطاء مشددة، وقرأ الحسن أيضاً، وأبو رجاء بفتح التاء وكسر الخاء والياء وشدّها، وقرأ الأعشى: ﴿مِنْ السَّمَاءِ تَخَطَّفُ﴾ بغير فاء وعلى نحو قراءة الجماعة. وعطف المستقبل على الماضي لأنه بتقدير: فهو تَخَطَّفُ الطير. وقرأ أبو جعفر: ﴿الرِّيَّاحُ﴾.

و(السَّحَابُ): البعيد، ومنه قولهم:

أَسْحَقَهُ اللَّهُ، ومنه قوله ﷺ: «فَأَقُولُ سُحْقاً سُحْقاً»، ومنه: «نَخَلَةُ سَحوق» للبعيدة في السماء.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

التقدير في هذا الموضع: الأمر ذلك. و(الشَّعَائِرُ) جمع شعيرة، وهو كلُّ شيءٍ لله تعالى فيه أمرٌ أشعَّرَ به وأعلم. وقالت فرقة: قصد بالشعائر في هذه الآية الهذلي والأنعام المشعرة، ومعنى (تعظيمها) التسمين والاهتبال بأمرها والمغلاة بها، قاله ابن عباس، ومجاهد، وجماعة. وعود الضمير في ﴿فَأَنفَثَهَا﴾ على التعظيمة والفُعْلَةُ التي تضمنها الكلام، وقرئ: ﴿أَلْقُلُوبُ﴾ بالرفع على أنها فاعلة بالمصدر الذي هو ﴿تَقَوَّى﴾. ثم اختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿لَكُرَّ فِيهَا مَنَعٌ﴾ الآية؛ فقال مجاهد وقناة: أراد أن للناس في أنعامهم منافع من الصوف واللبن وغير ذلك ما لم يبعثها رُبُّها هدياً، فإذا بعثها فهو (الأَجَلُ الْمُسَمَّى)، وقال عطاء بن أبي رباح: أراد: لكم في الهذلي المبعوث منافع من الركوب والاحتلاب من اضطر، و(الأَجَلُ الْمُسَمَّى): نحرها، وتكون ﴿نُدَّ﴾ لترتيب الجمل، لأن (المَجَلَّ) قبل (الأَجَل)، ومعنى الكلام عند هاتين الفرقتين: ثُمَّ مَجَّلَهَا إِلَى مَوْضِعِ النَحْرِ، فذكر البيت لأنه أشرف الحرم وهو المقصود بالهذلي وغيره. وقال ابن زيد، وابن عمر، والحسن: تلك الشعائر في هذه الآية مواضع الحج كلها ومَعَالِمُهُ بمنى وعرفة والمزدلفة والصفاء

والمروة والبيت وغير ذلك، وفي الآية التي تأتي أن البُذُن من الشعائر، والمَنَافِعُ: التجارة وطلب الرِّزْق، ويحتمل أن يريد كسب الأجر والمغفرة، ويكُلُّ احتمال قالت فرقة. و(الأَجَلُ): الرجوع إلى مكة وطواف الإفاضة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَظَّمْنَا مَا حُودُوا مِنْ إِيحَالِكِ الْمُحَرِّمِ مَعْنَاهُ، ثُمَّ أَخَّرَ هَذَا كُلَّهُ إِلَى طَوَافِ الْإِفاضة بِالْبَيْتِ الْعِيقِ، فَالْبَيْتُ - عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ - مَرَادٌ بِنَفْسِهِ، قَالَه مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ».

ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل أمة من الأمم مَنَسَكًا، أي موضع نُسك وعبادة، على أن المَنَسَكَ ظَرْفٌ كالمذبح ونحو هذا، ويحتمل أن يريد المصدر، كأنه قال: عبادة ونحوها. والتَّاسِيكُ: العابد، وقال مجاهد: سُنَّةٌ فِي إِرَاقَةِ دِمَائِهِ الذَّبَائِحِ.

وقرأ معظم القراء: ﴿مَنَسَكًا﴾ بفتح السين، وهو من: نَسَكَ يَنسُكُ بضم السين في المستقبل. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿مَنَسِكًا﴾ بكسر السين، قال أبو الفتح: «الفتح أولى؛ لأنه إما المصدر وإما المكان وكلاهما مفتوح، والكسر في هذا من الشاذ في اسم المكان أن يكون (مَفْعِل) من: فَعَّلَ يَفْعُلُ، مثل سَجَدَ، من: سَجَدَ يَسْجُدُ، ولا يسوغ فيه القياس، ويشبه أن الكسائي سمعه من العرب».

وقوله تعالى: ﴿يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ معناه: أمرناهم عند ذبائحهم

بذكر الله، وأن يكون الذبح له لأنه رازق ذلك، ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه: فالإله واحد لجميعكم، فكذلك الأمر في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له، و﴿أَسْلِمُوا﴾ معناه: لِحَقِّهِ وَلِوَجْهِهِ وَإِنْ تَعَاهَى آمَنُوا وَأَسْلِمُوا، ويحتمل أن يريد الاستسلام.

ثم أمر تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يبشِّرَ بشارته على الإطلاق، وهي أبلغ من المفصلة لأنها مرسله مع نهاية التخييل. و﴿الْمُحَيِّتِينَ﴾: المتواضعين الخاشعين من المؤمنين، و«الخبث»: ما انخفض من الأرض، والمُخْبِتُ: المتواضع الذي مشيه متطامن كأنه في حدود من الأرض، وقال عمرو بن أوس: الْمُخْبِتُونَ: الَّذِينَ لَا يَظْلِمُونَ وَإِنْ ظَلَمُوا لَمْ يَتَصَرَّوْا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مثال شريف من خلق المؤمن الهَيِّنَ اللَّيِّنَ، وقال مجاهد: هم المطمئنون بأمر الله تعالى، ووصفهم تعالى بالخوف والوجل عند ذكر الله، وتلك لِقْوَةٌ يَقْبِنُهُمْ ومراعاتهم لرُبُّهُمْ وكأنهم بين يديه، ووصفهم تبارك وتعالى بالصبر والصلاة وإقامة الصلاة وإدامتها، وقرأ الجمهور: ﴿أَسْلِمُوا﴾ بالخفض، وقرأ ابن أبي إسحاق، والحسن: ﴿الصَّلَاةَ﴾ بالنصب على توهم النون وأن حذفها للتخفيف، ورويت عن أبي عمرو. وقرأ الأعمش: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ بالنون والنصب في (الصلاة)، وقرأ الضحاك:

﴿وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةَ﴾. وروي أن هذه الآية - قوله تعالى: ﴿وَيَشِيرَ الْمُحْيَتِينَ﴾ - نزلت في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله تعالى عنهم.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

(البُذُنُ): جمع بُذْنَةٍ، وهي ما أشعر من ناقة أو بقرة، قاله عطاء وغيره، وسميت بذلك لأنها تُبَذَن، أي تَسْمَنُ، وقيل: بل هذا الاسم خاص بالإبل. وقالت فرقة: (البُذُنُ): جمع بَذَن بفتح الباء والدال، ثم اختلفت، فقال بعضها: البُذُنُ مفرد اسم جنس يُراد به العظيم السمين من الإبل والبقرة، ويقال للسمين من الرجال: بَذَن، وقال بعضها: البُذُنُ جمع بُذْنَةٍ كَقَمَرَةٍ وَثَمَرٍ، وقرأ الجمهور: ﴿وَالْبَذَاتِ﴾ ساكنة الدال، وقرأ ابن جعفر، وشيبة، والحسن، وابن أبي إسحاق: ﴿وَالْبَذَاتِ﴾ بضم الدال، فيحتمل أن يكون جمع بُذْنَةٍ كَثَمَرٍ. وعدد الله تعالى في هذه الآية نعمه على الناس في هذه البُذُنِ، وقد تقدم القول في الشعائر. و(الخَيْرُ) قيل فيه ما قيل في (المنافع) التي تقدم ذكرها، والصواب عمومها في خير الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا﴾ يريد: عند نحرها.

وقرأ جمهور الناس: ﴿صَوَاتٍ﴾ بفتح الفاء وشدها، جمع صَافَةٍ، أي: مطيعة في قيامها. وقرأ الحسن، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وأبو موسى الأشعري، وشقيق،

وسليمان التيمي، والأعرج: ﴿صَوَافِي﴾ جمع صافية، أي: خالصة لوجه الله تعالى، لا شركة فيها لشيء كما كانت الجاهلية تشرك، وقرأ الحسن أيضاً: ﴿صَوَافِي﴾ بكسر الفاء وتوينها مخففة، وهي بمعنى التي قبلها لكن حذفت الياء تخفيفاً على غير قياس، وفي هذا نظر. وقرأ ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وأبو جعفر محمد بن علي: ﴿صَوَافِي﴾ بالنون جمع صَافِيَّةٌ، وهي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لثلاث تضطرب، والصَّافِن من الخيل: الرافع لفراسته إحدى يديه، وقيل: إحدى رجليه، ومنه قوله تعالى: ﴿الْفَصِيحَتُ الْجَيَادُ﴾، وقال عمرو بن كلثوم:

تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاجِفَةً عَلَيْهِ
مُقَلَّدَةً أَعْنَتَهَا صُفُونَا
وَوَجَّحَتْ معناه: سقطت بعد نحرها، ومنه: وجبت الشمس، ومنه قول أوس بن حجر:

أَلَمْ تُكْسِفِ الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ وَالْ
كَوَاكِبُ لِلْجَبَلِ الْوَاجِبِ
وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا﴾ ندب، وكل العلماء يستحب أن يأكل الإنسان من هديه، وفيه أجرٌ وامتثال إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هديهم، وقال مجاهد، وإبراهيم، والطبري: هي إباحة.

و(القَائِنُ): السائل، يقال: قَنَّع الرجل يَفْتَعُ قَنوعاً إذا سأل، بفتح النون في الماضي، وقنع بكسر النون يَفْتَعُ قناعة فهو قَنِيعٌ إذا تَعَفَّفَ واستغنى بِبُلْعَتِهِ،

قاله الخليل، ومن الأول قول الشماخ:

لَمَّا لَ الْمَرْءُ يُضْلِحُهُ فَيُغْنِي
مَفَاقِرَهُ أَعْفُ مِنَ الْقُسُوعِ
فَمَحُورُوا الْقَوْلَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ
قالوا: القانع: السائل.

و(الْمُعْتَرُ): المعترض من غير سؤال، قاله محمد بن كعب القرظي، ومجاهد، وإبراهيم، والكلبي، والحسن بن أبي الحسن، وعكست فرقة هذا القول، حكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: القانع: المستغني بما أعطيته، والمُعْتَرُ هو المعترض، وحكى عنه أنه قال: القانع: الْمُتَعَفِّفُ، والمُعْتَرُ: السائل، وحكى عن مجاهد أنه قال: القانع: الجارُ وإن كان غنياً، وقرأ أبو رجاء ﴿الْقَنِيعُ﴾، فعلى هذا التأويل معنى الآية: أطعموا المتعفف الذي لا يأتي معترضاً، وذهب أبو الفتح ابن جني إلى أنه أراد «القانع» فحذف الألف تخفيفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد؛ لأن توجيهها على ما ذكرته أنفأ أحسن، وإنما يلجأ إلى هذا إذا لم توجد مندوحة، وقرأ أبو رجاء، وعمرو بن عبيد: ﴿الْمُعْتَرِي﴾، والمعنى واحد، ويروى عن أبي رجاء ﴿وَالْمُعْتَرِي﴾ بتخفيف الراء، وقال الشاعر:

لَعَمْرُكَ مَا الْمُعْتَرِي يَغْشَى بِلَادَنَا
لِتَمْنَعَهُ بِالضَّائِعِ الْمُتَهَضِّمِ
وذهب ابن مسعود رضي الله عنه

إلى أن الهدى أثلاث، فقال جعفر بن محمد عن أبيه: أطعم القانع والمُعْتَرِ ثلثاً، والبائس الفقير ثلثاً، وأهلي ثلثاً، وقال ابن المسيب: ليس لصاحب الهدى منه إلا الربع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله على جهة الاستحسان لا على الفرض، ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾، أي: كما أمرتكم فيها بهذا كله سخرناها لكم، ﴿وَلَكُمْ﴾ تَرَجُّ في حقنا وبالإضافة إلى نظرنا.

وقوله تعالى: ﴿يَتَالُ﴾ عبارة مبالغة وتوكيد، وهي بمعنى: لن يرتفع عنده ويتحصل سبب ثواب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أهل الجاهلية كانوا يُضَرِّجُونَ البيت بالدماء فأراد المؤمنون فعل ذلك فنهى الله تعالى عن ذلك ونزلت هذه الآية، والمعنى: ولكن ينال الرفعة عنده والتحصل حسنة لديه التقوى، أي الإخلاص وعمل الطاعات. وقرأ مالك بن دينار، والأعرج، وابن يَغَمَر، والزهري: ﴿لَنْ تَنَالُ﴾، ﴿وَلَكِنْ تَنَالُهُ﴾ بناءً فيهما.

والتسمية والتكبير على الهدى والأضحية أن يقول الذابح: باسم الله والله أكبر، وزوي أن قوله تعالى: ﴿وَيَذِّرَ الْمَحْسِينَ﴾ نزلت في الخلفاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم حسبما تقدم في التي قبلها، فأما ظاهر اللفظة فيقتضي العموم في كل محسن.

والأعمش إلا أنهما فتحا همزة ﴿أُذِنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ معناه: كان الإذن بسبب أنهم ظلموا، قال ابن جريج: وهذه الآية أول ما نقض الموادة. قال ابن عباس، وابن جبير: نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لما سمعت علمت أنه سيكون قتال، وقال مجاهد: الآية في مؤمنين بمكة أرادوا الهجرة إلى المدينة فمنعوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما بعد هذه الآية يرد هذا القول؛ لأن هؤلاء منعوا الخروج لا أخرجوا. ثم وعد تعالى بالنصر في قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَنْصُرُهُمْ لَقْدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يريد كل من ثبت به مكة وآذاه أهلها حتى أخرجوه بإذيتهم، طائفة إلى الحبشة وطائفة إلى المدينة، ونسب الإخراج إلى الكفار لأن الكلام في معرض تقرير الذنب وإلزامه. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع ليس من الأول، هذا قول سيبويه، ولا يجوز عنده في البدل، وجوزة أبو إسحاق، والأول أصوب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ الآية تقوية للأمر بالقتال، وذكر الحجة بالمصلحة فيه، وذكر أنه متقدم في الأمم، وبه صلت الشرائع واجتمعت المتعبدات، فكانه قال: أذن في القتال فليقاتل

الافتش: أكثر الكلام أن الله يدفع، ويقولون: دافع الله عنك إلا أن دفع أكثر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يحسن في الآية ﴿يُدْفَعُ﴾ لأنه قد عن المؤمنين من يدفعهم ويؤذيهم فتجئ معارضته ودفعه مدافعة عنهم، وحكى الزهراوي أن (دفاعاً) مصدر (دفع)، كحسب حساباً.

ثم أذن الله تعالى في قتال المؤمنين لمن قاتلهم من الكفار بقوله:

﴿أُذِنَ﴾، وصورة الإذن

مختلفة بحسب القراءات، فبعضها أقوى من بعض. فقرأ نافع، وحفص عن عاصم: ﴿أُذِنَ﴾ بضم الألف. ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ بفتح التاء، أي: في أن يقاتلوه، فالإذن في هذه القراءة ظاهر أنه في مجازاة. وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، والحسن، والزهري: ﴿أُذِنَ﴾ بضم الألف ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ بكسر التاء، فالإذن في هذه القراءة في ابتداء القتال. وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: ﴿أُذِنَ﴾ بفتح الألف ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ بكسر التاء، وقرأ ابن عامر بفتح الألف والتاء جميعاً، وهي في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بكسر التاء، وفي مصحف أبي ﴿أُذِنَ﴾ بضم الهمزة ﴿لِلَّذِينَ قَاتَلُوا﴾، وكذلك قرأ طلحة

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَلَئِنْ أَلَّ اللَّهُ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقْدِيرٌ ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَلَا يَنْصُرُهُمْ رَبُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَلَدٌ مَكِينٌ ﴿٣٩﴾ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ فَفَنَفَفْنَا صَوَاعِقُ وَبِيعَ صَلَواتٌ وَنَسْجِدٌ وَذُكِرَ بِهَا أَسْمَاءُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَئِنْ نَصَرْنَا اللَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَنُصَرِّفَهُنَّ الَّذِينَ يَنْفَكُونَ عَنْ أَقْسَامِهِمْ فِي الْأَرْضِ أَقْسَامًا فَضْلَةً وَأَنفَاكَ الزَّكَاةَ وَأَمْرِؤَالِ الْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِاللَّهِ عَقِيبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ يَكُذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤١﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٢﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلْنَا لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ فَنَقَّبُوا لَكُمُ الْكِبْرَ ﴿٤٣﴾ فَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَنَّهُمْ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مَعْطَلٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ﴿٤٤﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا أَلَمْ يَأْتِهَا لَاتَمَعِي الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٥﴾

٣٣٧

٣٨ - ٤٠ تفسير قوله عز وجل:

روي أن هذه الآية نزلت بسبب المؤمنين، لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار ويغتال ويغدر ويحتال، فنزلت هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿كَثُورٌ﴾، ووعد فيها بالمدافعة، ونهى أفصح نهي عن الخيانة والغدر. وقرأ نافع، والحسن، وأبو جعفر: ﴿يُدْفَعُ﴾ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ﴾، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿يُدْفَعُ﴾، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ﴾. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يُدْفَعُ﴾، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ﴾. قال أبو علي: أجريت (دافع) في هذه القراءة مجرى (دفع)، كعاقبت اللص وطارت النمل، فجاء المصدر دفعاً، قال أبو الحسن

المؤمنون، ولولا القتال والجهاد لَتَغْلَبَ على الحق في كل أمة. هذا أصوب تأويلات الآية. ثم ما قيل بَعْدُ من مُثْل الدفاع تبع للجهاد. وقال مجاهد: ولولا دفع الله ظلم قوم لشهادة العدول ونحو هذا، وقالت فرقة: ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ولولا دفع الله بأصحاب محمد ﷺ الكفار عن التابعين فمن بعدهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله فيه دفع قوم يقوم إلا أن معنى القتال أليق بما تقدم من الآية. وقالت فرقة: ولولا دفع الله العذاب بدعاء الفضلاء والأخيار ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وما شاكله مفسد لمعنى الآية، وذلك أن الآية تقتضي ولا بُدَّ مدفوعاً من الناس ومدفوعاً عنه، فتأمل.

وقرأ نافع، وابن كثير: ﴿لَهْدِمْتُ﴾ مخففة الدال، وقرأ الباقون: ﴿لَهَيْمْتُ﴾ مشددة الدال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه تَحْسُن من حيث هي صوامع كثيرة ففي هدمها تكرار وكثرة، كما قال تعالى: ﴿فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ فَتَقُلَّ السَّيَاءُ، وقال: ﴿وَقَصَّرَ مُشِيدٍ﴾ فخفف لكونه فرداً، ومنه ﴿وَعَلَقَتِ الْآيُونَ﴾، و﴿مُنْمَعَةً لِّمُ الْآيُونَ﴾.

و(الصُّومَةُ): موضع العبادة، وزنها فَوْعَلَةٌ، وهي بناء مرتفع منفرد حديد الأعلى، والصُّومُعُ من الرجال: الحديد القلب، وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى

ويعُتَاد الصابئين - قاله قتادة - ثم استعمل في مثناة المسلمين.

و(النَّبِيْعُ): كنائس النصارى، واحدها نَبِيْعَة، وقال الطبري: «وقيل: هي كنائس اليهود».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ثم أدخل عن مجاهد ما لا يقتضي ذلك.

و(الصَّلَوَاتُ) مشتركة لكل ملّة، واستعير الهدم للصلوات من حيث تُعْطَل، أو أراد: موضع صلوات، وذهبت فرقة إلى أن (الصَّلَوَات) اسم لکنائس اليهود، وأن اللَّفْظَة عبرانية عُرِيت، وليست بجمع صلاة. وقال أبو العالية: الصَّلَوَات مساجد الصابئين. واختلفت القراءة؛ فقرأ

جمهور الناس: ﴿صَلَوَاتٍ﴾ بفتح الصاد واللام وبالتاء بنقطتين، وذلك إما بتقدير: مواضع صلوات، وإما على أن تعطيل الصلوات هدمها. وقرأ جعفر بن محمد: ﴿صَلَوَاتٍ﴾ بفتح الصاد وسكون اللام. وقرأت فرقة: ﴿صَلَوَاتٍ﴾ بكسر الصاد وسكون اللام، حكاهما ابن جني. وقرأ الجحدري - فيما روي عنه -:

﴿وَصَلَوَاتٍ﴾ بنقطتين من فوق وبضم الصاد واللام، على وزن فُعُول، قال: وهي مساجد النصارى. وقرأ الجحدري، والحجاج بن يوسف: ﴿وَصَلُوبٍ﴾ بضم الصاد واللام وبالباء، على أنه جمع صليب. وقرأ الضحاك والكلبي: ﴿وَصُلُوثٍ﴾ بضم الصاد واللام والثاء منقوطة ثلاثاً، قالوا: وهي مساجد اليهود. وقرأت فرقة: ﴿صَلَوَاتٍ﴾ بفتح الصاد وسكون اللام، وقرأت فرقة:

﴿وَصُلُوثٍ﴾ بضم الصاد واللام. حكاهما ابن جني، وقرأت فرقة: ﴿صُلُوثٍ﴾ بضم الصاد واللام وقصر الألف بعد التاء، وحكى ابن جني أن خارج باب الموصل بيوت تدفن فيها النصارى يقال لها: صَلَوَات. وقرأ عكرمة، ومجاهد: ﴿صِلَوَاتٍ﴾ بكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الألف بعد التاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذهب خصيف إلى أن هذه الأسماء قصدها تقسيم متعبدات الأمم، فالصوامع للرهبان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقيل: للصابئين، والبيعُ للنصارى، والصَّلَوَات لليهود، والمساجد للمسلمين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر أنه قُصِد بها المبالغة في ذكر المتعبدات، وهذه الأسماء تشترك الأمم في مَسْمِيَّاتِهَا إِلَّا الْبَيْعَة فَإِنَّهَا مختصة بالنصارى في عرف لغة العرب، ومعاني هذه الأسماء هي في الأمم التي لهم كتاب على قديم الدهر، ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أهل الشُّرك لَأَن هَؤُلَاءِ ليس لهم ما تجب حمايته، ولا يوجد ذكر الله تعالى إلا عند أهل الشرائع.

وقوله تعالى: ﴿يَذْكُرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الضمير عائد على ما تقدّم. ثم وعد الله تبارك وتعالى بنصره ونصر دينه وشرعه، وذلك حضُّ على القتال والجِدِّ فيه، ثم الآية تَعْمُ كُلُّ من نصر حقاً إلى يوم القيامة.

أوعبت القول في معنى هذه اللفظة وقراءتها في سورة آل عمران، في قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ﴾، وهي لفظة إخبار، وقد تجيء استفهاماً، حكى الفراء: كَايْنٌ مَّالِكٌ؟ أي: كم ممالك؟ وقرأت فرقة: ﴿أَهْلَكُنَّاهَا﴾، وقرأت فرقة: ﴿أَهْلَكُنَّهَا﴾، بالإفراد، والمراد أهل القرية. و﴿ظَالِمَةٌ﴾ معناه: بالكفر، و﴿خَاوِيَةٌ﴾ معناه: خالية، ومنه: خوى النجم إذا خلا من القوة، ونحوه «ساقطة» على عروشها، و(العروش) السقوف، فالمعنى أن السقوف سقطت ثم وقعت الحيطان عليها فهي على العروش.

وقوله تعالى: ﴿وَيَبْرُئُ مُنْعَطَرَةٍ﴾، قيل: هو معطوف على (العروش)، وقيل: على (القرية)، وهو أصوب. وقرأت فرقة: ﴿وَيَبْرُئُ﴾ بهمزة على الياء، وسهلها الجمهور. وقرأت فرقة: ﴿تُنْعَطَلُ﴾ بفتح الميم وسكون العين وفتح الطاء وتخفيفها، والجمهور على ﴿تُنْعَطَلُ﴾ بضم الميم وفتح العين وشد الطاء. و(المشيّد): المبنى بالشيد وهو الجص، وقيل: المشيد: المَعْلَى بالأجر ونحوه فمن المشيد قول عدّي بن زيد:

شَاةٌ مَزْمَرًا وَجَلَّلَهُ كِلْ
سَافِلِطِيرٍ فِي ذَرَاةٍ وَكُورُ
شَاةٌ: بناء بالشيد، والأظهر في البيت أنه أراد: علاه بالمرمر. وقالت فرقة في هذه الآية: إن (مشيداً) معناه: مَعْلَى مُحَصَّنًا، ومعنى الآية يقتضي أنه كان كذلك قبل خرابه.

ثم وبّخهم على الغفلة وترك الاعتبار بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا

الناس، وهذا على أن ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من قوله تبارك وتعالى: ﴿يُقَاتِلُونَ﴾. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أو على أن ﴿الَّذِينَ﴾ تابع لـ ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَتَّبِعْهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ عَقِيبَةُ الْأُمُورِ﴾ توعد للمخالف عن هذه الأوامر التي تقتضيها الآية لمن مكن.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَى بُكَدْيُوكَ﴾ يعني قريشاً، وهذه آية تسلية للنبي ﷺ ووعد لقريش، وذلك أنه

مثّلهم بالأُمم المكذبة المعذبة. وأسند فعلاً فيه علامة التأنيت إلى ﴿قَوْمٌ﴾ من حيث أراد الأمة والقبيلة ليطرد القول في عاد وثمود، وقوم نوح هم أول أمة كذبت نبيها. ثم أسند التكذيب في موسى عليه السلام إلى ما لم يُسم فاعله من حيث لم يكذبه قومه بل كذبه القبط وقومه مؤمنون به. و﴿فَأَمَلَيْتُ﴾ معناه: أمهلت، وكأن الإماء أن تُمهّل من تنوي فيه المعاقبة وأنت في حيز إمهالك عالم بفعله. و(التكبير) مصدر كالغدير بمعنى الإنكار والإعذار، وهو في هذه المصادر بناءً مبالغة، فمعنى هذه الآية: فكما فعلت بهذه الأمم كذلك أفعّل بقومك.

١٥ - تفسير قوله عز وجل:

﴿فَكَانَ﴾ هي كاف التشبيه دخلت على «أي»: قاله سيبويه، وقد

وَيَسْتَحِيلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ. وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤١﴾ وَكَانَ مِنْ قَرِينَةٍ أَمَلَيْتُهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ تَأْخُذُهَا وَلَى الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ فَلْيَتَابَهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ فَأَلْزَمَ اللَّهُ الْبَشَرَ مَا تَوَلَّوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَكُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ ﴿٤٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَوَخَّيَ أَتَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٤٦﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٤٧﴾ لِيَعْلَمَ أَأَلْزَمَ أَلْعَمَ أَنَّهَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَتُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٨﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي رَبِّهِمْ يَوْمَنَةً حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٌ عَقِيمٌ ﴿٤٩﴾

٣٣٨

٤١ - تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: هذه الآية في الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا التخصيص أن هؤلاء خاصة مكثوا في الأرض من جملة الذين يُقَاتِلُونَ المذكورين في صدر الآية، والعموم في هذا كله آتئين، ويترجّح الأمر في جميع الناس، وإنما الآية آخذة عهداً على كل من مكّنه الله تعالى، كل على قدر ما مكن. فأما الصلاة والزكاة فكل مأخوذ بإقامتها، وأما الأسر بالمعروف والنهي عن المنكر فكل بحسب قوته، والآية أمكن ما هي في الملوك، والمعروف والمنكر يعثمان الإيمان والكفر فما دونهما.

وقالت فرقة: نزلت هذه الآية في أصحاب محمد ﷺ خاصة من

فِي الْأَرْضِ، أَي: فِي الْبِلَادِ
فَيَنْظُرُوا فِي أَحْوَالِ الْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ
الْمَعْدُوبَةِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ تَقْتَضِي أَنْ
الْعَقْلُ فِي الْقَلْبِ، وَذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ،
وَلَا يَنْكَرُ أَنْ لِلدِّمَاغِ اتِّصَالاً بِالْقَلْبِ
يُوجِبُ فُسَادَ الْعَقْلِ إِذَا اخْتَلَّ الدِّمَاغُ.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَكْفُرُونَ﴾ نَسَبَ بِالْفَاءِ
فِي جَوَابِ الاسْتِفْهَامِ، صُرِفَ الْفِعْلُ
مِنَ الْجَزْمِ إِلَى النَّسَبِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى
الْأَبْصَارَ﴾ لَفْظَةٌ مِبَالِغَةٌ كَأَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ
الْعَمَى عَمَى الْأَبْصَارِ وَإِنَّمَا الْعَمَى حَقُّ
الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ
الْأَبْصَارَ تَعْمَى وَلَكِنْ الْمَقْصُودُ مَا
ذَكَرْنَاهُ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ»،
وَالْضَمِيرُ فِي «فَإِنَّهَا» لِلْقَصَّةِ وَنَحْوَهَا
مِنَ التَّقْدِيرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ فِي
الْحَشْرِ﴾ مِبَالِغَةٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿يَأْتُواكَ﴾، وَكَمَا تَقُولُ: نَظَرْتُ
إِلَيْهِ بَعِينِي، وَنَحْوُ هَذَا.

وَالضَّمِيرُ فِي «وَسَتَجِدُوكَ» لِقُرَيْشٍ،
وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وَعِيدٌ
وَإِحْبَازٌ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى وَقْتٍ
مَحْدُودٍ، وَالْوَعْدُ هُنَا مُقِيدٌ بِالْعَذَابِ
فَلِلذَلِكَ وَرْدٌ فِي مَكْرُوهِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ
كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾، قَالَتْ فَرْقَةُ: وَإِنْ يَوْمًا
مِنَ أَيَّامِ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَأَلْفِ سَنَةٍ
مِمَّا تُعَدُّونَ مِنْ هَذِهِ لِيَطُولَ الْعَذَابُ
وَيُؤَسَّهَ، فَكَأَنَّ الْمَعْنَى: فَمَا أَجْهَلُ مِنْ
يَسْتَعْجِلُ هَذَا، وَقَالَتْ فَرْقَةُ: وَإِنْ
يَوْمًا عِنْدَ اللَّهِ لِإِحْاطَتِهِ بِهِ وَعِلْمِهِ
وَإِنْفَازِ قُدْرَتِهِ كَأَلْفِ سَنَةٍ عِنْدَكُمْ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَهَذَا التَّأْوِيلُ يَقْتَضِي أَنْ عَشْرَةَ آلَافٍ
سَنَةٍ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ مِنَ الْعَدَدِ فِي
حُكْمِ الْأَلْفِ، وَلَكِنْهُمْ قَالُوا: ذَكَرَ
الْأَلْفَ لِأَنَّهَا مَتْنَهِيَ الْعَدَدُ دُونَ تَكَرُّارٍ
فَاقْتَصَرَ عَلَيْهِ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:
وَهَذَا التَّأْوِيلُ لَا يَنْسَبُ الْآيَةَ. وَقَالَتْ
فَرْقَةُ: إِنْ الْمَعْنَى أَنَّ الْيَوْمَ عِنْدَ اللَّهِ
تَعَالَى أَلْفُ سَنَةٍ مِنْ هَذَا الْعَدَدِ، فَمِنْ
ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ
تُؤَخَّرَ أُمَّتِي نِصْفَ يَوْمٍ»، وَقَوْلُهُ:
«يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ
الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ، وَذَلِكَ خَمْسَمِائَةِ
سَنَةٍ»، وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَقْدَارُ الْحِسَابِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلْفُ سَنَةٍ، فَكَأَنَّ
الْمَعْنَى: وَإِنْ طَالَ الْإِهْمَالُ فَإِنَّهُ فِي
بَعْضِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ.

وَكُرِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنِ﴾ لِأَنَّهُ
جَلَبَ مَعْنَى آخَرَ، ذَكَرَ أَوَّلَ الْفُرَى
الْمُهْلِكَةِ دُونَ إِمْلَاءِ بَلٍ بِعَقَبِ
التَّكْذِيبِ، ثُمَّ ثَنَّى بِالْمَهْلَةِ لِيُثَلِّثَ يَفْرَحَ
هَؤُلَاءِ بِتَأَخُّرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ. وَقَرَأَتْ
فَرْقَةُ: ﴿تَعْدُونَ﴾ بِالثَّاءِ، وَقَرَأَتْ
فَرْقَةُ: ﴿يَعْدُونَ﴾ بِالْيَاءِ عَلَى
الْغَائِبِ.

٤٩ - ٥٤ تفسير قوله عز وجل:

الْمَعْنَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ
عَذَابِ اللَّهِ، لَيْسَ إِلَيَّ أَنْ أُعْجِلَ عَذَابًا
وَلَا أَنْ أُؤَخِّرَهُ عَنْ وَقْتِهِ. ثُمَّ قَسَمَ
حَالَةَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ بِأَنَّ
لِلْمُؤْمِنِينَ سُرَّةَ ذُنُوبِهِمْ وَرِزْقَهُ إِيَّاهُمْ
فِي الْجَنَّةِ. وَ(الْكِرِيمُ) صِفَةُ نَفِيِّ
الْمَذَامِ، كَمَا تَقُولُ: ثَوْبٌ كَرِيمٌ،
وَبِأَنَّ لِلْكَافِرِينَ الْمَعَاجِزِينَ عَذَابَ

الْجَحِيمِ، وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا أَمَرَ أَنْ
يَقُولَهُ، أَي: هَذَا مَعْنَى رِسَالَتِي لَا مَا
تَتَمَنُّونَ أَنْتُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَعَوًا﴾ مَعْنَاهُ:
تَحَيَّلُوا وَكَادُوا، مِنَ السَّعَايَةِ،
و(الْآيَاتِ): آيَاتُ الْقُرْآنِ، أَي: كَادُوا
بِالتَّكْذِيبِ وَسَائِرِ أَقْوَالِهِمْ. وَقَرَأَتْ
فَرْقَةُ: ﴿مُعْجِزِينَ﴾، مَعْنَاهُ: مَغَالِبِينَ،
كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا عَجْزَ صَاحِبِ الْآيَاتِ،
وَالْآيَاتُ تَقْتَضِي تَعْجِيزَهُمْ، فَصَارَتْ
مُفَاعَلَةٌ. وَعَبَّرَ بَعْضُ النَّاسِ فِي تَفْسِيرِ
﴿مُعْجِزِينَ﴾ بِظَانِّينَ أَنَّهُمْ يَغْلِبُونَ اللَّهَ
تَعَالَى.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:
وَهَذَا تَفْسِيرٌ خَارِجٌ عَنِ اللَّفْظَةِ.
وَقَرَأَتْ فَرْقَةُ: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ بِغَيْرِ أَلْفٍ
وَبَشَدِ الْجِيمِ، وَمَعْنَاهُ: مُعْجِزِينَ
النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ، أَيِ جَاعِلُوهُمْ
بِالشَّيْطِ عَجْزَةً عَنِ الْإِيمَانِ. وَقَالَ أَبُو
عَلِيٍّ: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مَعْنَاهُ: نَاسِبِينَ
أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْعَجْزِ، كَمَا
تَقُولُ: قَسَمْتُ فَلَانًا وَرَيْثَتَهُ، أَيِ نَسَبْتَهُ
إِلَى ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ﴾ الْآيَةُ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَنِ
النَّازِلَةِ الَّتِي أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِيهَا فِي
أُمْنِيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ.

و﴿تَمَنَّيَ﴾ مَعْنَاهُ الْمَشْهُورُ: أَرَادَ
وَأَحْبَبَ، وَقَالَتْ فَرْقَةُ: هُوَ مَعْنَاهَا فِي
الْآيَةِ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَلْقَى
أَلْفَاظَهُ بِسَبَبِ مَا تَمَنَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
مِنْ مَقَارِبَةِ قَوْمِهِ وَكَوْنِهِمْ مُتَبِعِينَ لَهُ،
قَالُوا: فَلَمَّا تَمَنَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ
ذَلِكَ مَا لَمْ يَقْضِهِ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
وَجَدَ الشَّيْطَانَ السَّبِيلَ، فَحِينَ قَرَأَ

رسول الله ﷺ سورة النجم في مسجد مكة وقد حضر المسلمون والمشركون بلغ إلى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرَىٰ وَنَوَّهَ النَّائِلَةَ الْأَخْرَىٰ﴾ ﴿١﴾ ألقى الشيطان «تلك الغرائقة العللى وإن شفاعتهن لَتُرْتَجَى»، فقال الكفار: هذا محمد يذكر آلهتنا بما نريد، وفرحوا بذلك، فلما انتهى إلى السجدة سجد الناس أجمعون إلا أمية بن خلف، فإنه أخذ قبضة من تراب فرفعها إلى جبهته وقال: يكفيني هذا، قال البخاري: هو أمية بن خلف، وقال بعض الناس: هو الوليد بن المغيرة، وقال بعض الناس: هو أبو أحيحة سعيد بن العاصي، ثم اتصل بمهاجرة الحبشة أن أهل مكة اتبعوا محمداً ﷺ وفرحوا لذلك، وأقبل بعضهم فوجدوا أَلْقِيَةَ الشيطان قد نسخت وأهل مكة قد افشتوا.

وقالت فرقة: ﴿تَمَنَّى﴾ معناه: تَلَا، والأمنية: التلاوة، ومنه قول الشاعر: تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَأَخْرَجَهَا لَأَقَى جَمَامَ الْمَقَادِرِ ومنه قول الآخر:

.....
تَمَنَّى دَاوُدَ الزُّبُورَ عَلَى رِسْلِ
وَتَأْوَلُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنَئِي﴾، أي: إلا تلاوة. وقالت هذه الفرقة في معنى سبب إلقاء الشيطان في تلاوة النبي ﷺ ما تقدم أنفاً من ذكر الآلهة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الحديث الذي فيه هذه الغرائقة وقع في كتب التفسير ونحوها، ولم يدخله البخاري ولا مسلم، ولا ذكره

- في علمي - مصنف مشهور، بل يقتضي مذهب أهل الحديث أن الشيطان أَلْقَى، ولا يُعَيِّنُونَ هذا السبب ولا غيره، ولا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة بها وقعت الفتنة. ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء؛ فالذي في التفاسير - وهو مشهور القول - أن النبي ﷺ تكلم بتلك الألفاظ، وأن الشيطان أوهمه ووسوس في قلبه حتى خرجت تلك الألفاظ على لسانه، ورُوي أنه نزل إليه جبريل عليه السلام بعد ذلك فدارسه سورة النجم، فلما قالها رسول الله ﷺ قال له جبريل: لم آتِكَ بهذا، فقال رسول الله ﷺ: افتريت على الله وقلت ما لم يقل لي، وجعل يتفجّع ويغتم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحدثني أبي رحمه الله أنه لقي بالمشرق من شيوخ العلماء والمتكلمين من قال: هذا لا يجوز على النبي ﷺ وهو المعصوم في التبليغ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمع الكفار عند قول النبي ﷺ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرَىٰ وَنَوَّهَ النَّائِلَةَ الْأَخْرَىٰ﴾ ﴿٢﴾، وقرب صوته من صوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى التبس الأمر على المشركين وقالوا: محمد قرأها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ﴿تَمَنَّى﴾ - على هذا التأويل - بمعنى: (تَلَا) ولا بُدَّ، وقد ورد هذا

التأويل عن الإمام أبي المعالي رحمه الله وغيره.

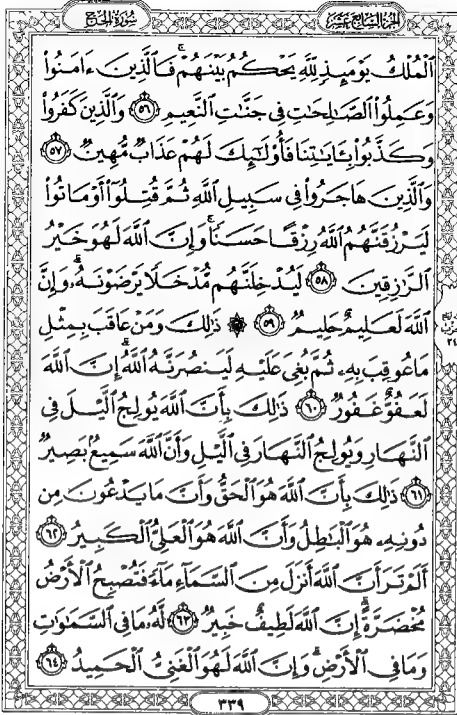
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والرُّسُولُ أخص من النبي، وكثير من الأنبياء لم يُرسلوا، وكل رسول نبي. و(السُّنْحُ) في هذه الآية: الإذهاب، كما تقول: نسخت الشمس الظل، وليس برفع ما استقر من الحكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وطُوف الطبري وأشجع الإسناد في أن إلقاء الشيطان على لسان النبي ﷺ، واختلفت الروايات في الألفاظ ففي بعضها: «تلك الغرائقة»، وفي بعضها: «وإن شفاعتهن»، وفي بعضها: «منها الشفاعة تُرْتَجَى».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والغرائق: السادة العظام الأقدار، ومنه قول الشاعر:

أَهْلًا بِصَائِلَةِ الْغُرَانِقِ
قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ﴾ الآية. اللام في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ﴾ متعلقة بقوله: ﴿يَنْسُخُ اللَّهُ﴾، و(الفتنة): الامتحان والاختبار، و(الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ) هم عامة الكفار، و(الْقَائِيَّةُ قُلُوبُهُمْ) خواص منهم عتاة كآبي جهل، والضُّر، وعُقبة، و(الشقاق): البعد عن الخير، والضلال، والكُونُ في شق غير شق الصلاح، و﴿يَبِيدُ﴾ معناه أنه انتهى بهم وتعمق قَرْجَتُهُمْ منه غير مرجوة.

و﴿الَّذِينَ أَرَادُوا الْوَيْلَ﴾ هم أصحاب محمد ﷺ، والضمير في «أَنَّهُ» عائد على القرآن، و﴿فَنَحْنُ﴾ معناه: تتطامن وتخضع، وهو مأخوذ من النَّحَبْتُ، وهو المطمئن من



فَأَمَّا مَنْ تَأَوَّلَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَاتَّقِ لَهْ قَوْلِهِ: ﴿فَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَائِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، وَمَنْ تَأَوَّلَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ وَنَحْوِهِ جَعَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَائِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ابْتِدَاءً خَبَرَ عَنْ حَالِهِمُ الْمَتْرَكَةِ عَلَى حَالِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَقِيمِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَائِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الآية ابتداءً بمعنى آخر، وذلك أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون، وأبو سلمة بن

الأرض. وقرأت فرقة: ﴿لَهَادٍ﴾ بغير ياء بعد الدال، وقرأت فرقة: ﴿لَهَادِي﴾ بياء، وقرأت فرقة: ﴿لَهَادٍ﴾ بالتثنية وترك الإضافة، وهذه الآية معادلة لقوله تعالى قبل: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾. (٥٦) - (٥٧) تفسير قوله عز وجل:

(الْمِزَّةُ): الشك، والضمير في قوله تعالى: ﴿مِنْهُ﴾ قالت فرقة: هو عائد على القرآن، وقالت فرقة: على محمد ﷺ، وقالت فرقة: على ما ألقى الشيطان، وقال سعيد بن جبير أيضاً: على سجود النبي ﷺ في سورة النجم، و﴿السَّاعَةُ﴾ قالت فرقة: أراد يوم القيامة و(اليوم العقيم) يوم بدر، وقالت فرقة: ﴿السَّاعَةُ﴾ ساعة موتهم أو قتلهم في الدنيا كيوم بدر ونحوه، و(اليوم العقيم) يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان جيدان لأنهما أحزما التقسيم ب(أو)، ومن جعل «الساعة» واليوم العقيم يوم القيامة فقد أفسد رتبة (أو)، وسمي يوم القيامة أو يوم الاستئصال عقيماً لأنه لا ليلة بعده ولا يوم، والأيام كأنها نتائج لمجيء واحد إثر واحد، فكأن آخر يوم قد عقم، وهذه استعارة، وجُملة هذه الآية تواعد.

وقوله تعالى: ﴿الْمَلَأْتُ بَوْمِيذٍ لِلَّهِ﴾ السابق منه أنه يوم القيامة حيث لا مُلْك فيه لأحد، ويجوز أن يريد به يوم بدر ونحوه من حيث ينفذ قضاء الله وحده ويبطل ما سواه، ويمضي حكمه فيمن أراد تعذيبه،

وأسد الطبري عن سلمان بن عامر قال: كان فضالة برؤيس أميراً على أرباع، فخرج بجنازتي رجلين أحدهما قاتل والآخر متوفى، فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل، فقال: أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل وتفضلونه، فوالذي نفسي بيده ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت، اقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَائِهِمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إِلَى ﴿لَعَلَّكُمْ حَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ المعنى: الأمر ذلك. ثم أخبر تعالى عمن عاقب من المؤمنين مَنْ ظَلَمَهُ مِنَ الْكَفَرَةِ، ووعد المبعوث عليه بأنه ينصره، وسمى الذنب في هذه الآية باسم العقوبة كما تسمى

عبدالأسد قال بعض الناس: مَنْ قَتَلَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَفْضَلَ مِمَّنْ مَاتَ حَتَفَ أَنْفَهُ، فنزلت هذه الآية مُسَوِّية بينهم في أن الله تبارك وتعالى يرزق جميعهم رزقاً حسناً، وليس هذا بقاض بتساويهم في الفضل، وظاهر الشريعة أن المقتول أفضل. وقد قال بعض الناس: المقتول والميت في سبيل الله شهيدان، ولكن للمقتول مزية ما أصاب في ذات الله تعالى. و(الرزق الحسن) يحتمل أن يريد به رزق الشهداء عند ربهم في البرزخ، ويحتمل أن يريد به بعد يوم القيامة في الجنة.

وقرأت فرقة: ﴿مَدْخَلًا﴾ بفتح الميم من (دَخَلَ)، فهو محمول على فعل مقدر تقديره: فَيَدْخُلُونَ مَدْخَلًا، وقرأت فرقة: ﴿مَدْخَلًا﴾ بضم الميم من (أَدخَلَ).

ذكرناه. وقرأت فرقة: ﴿تَذْعُونَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأت فرقة: ﴿يَذْعُونَ﴾ بالإشارة بما يدعى من دونه، قالت فرقة: هي إلى الشيطان، وقالت فرقة: هي إلى الأصنام، والعموم هاهنا أحسن. ١٣١ - ١٣٢ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنبيه وبعده خبر أن الله أنزل من السماء ماء فظلت الأرض تخضر عنه. وقوله: ﴿فَتُضْبَحُ﴾ بمنزلة قوله: فتضحى أو فنصير، عبارة عن استعجالها أثر نزول الماء واستمرارها كذلك عادة، ووقع قوله: ﴿تُضْبَحُ﴾ من حيث الآية خبراً، والفاء عاطفة وليست بجواب لأن كونها جواباً لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فاسد المعنى، ورؤي عن عكرمة أنه قال: هذا لا يكون إلا بمكة أو تهامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا أنه أخذ قوله: ﴿فَتُضْبَحُ﴾ مقصوداً به صباح ليلة المطر، وذهب إلى أن ذلك الاخضرار في سائر البلاد يتأخر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد شاهدت هذا في السوس الأقصى، نزل المطر ليلاً بعد قحط وأصبحت تلك الأرض الرملة التي نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف دقيق. وقرأ الجمهور:

الَّذِينَ يَذْرِبُونَ فِي الْبَحْرِ يَأْمُرُ وَيُسَبِّحُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِذَرِيرَةٍ إِنَّ اللَّهَ بِأَلْسِنٍ لَّهُ وَفَرِحِينَ ﴿١٣١﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿١٣٢﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُهُ فَلَا تَنَزِعُ عَنْكَ فِي الْآمْرِ وَاذْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَلَكٌ هُدًى مَسْتَفِيمٌ ﴿١٣٣﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَا كُشِّرْفِهِ تَعْتَفُونَ ﴿١٣٥﴾ أَلَمْ تَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٣٦﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿١٣٧﴾ وَإِذَا نَادَى عَلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ تَكُنْ بِكَ دُونَكَ بِسُطُورٍ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشُرْقِنَ ذَالِكُمْ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرَ ﴿١٣٨﴾

٣٤٠

العقوبة كثيراً باسم الذنب، وهذا كله تجوزاً واتساع.

وذكر أن هذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين لقيهم كفار في الشهر الحرام، فأبى المؤمنون من قتالهم، وأبى المشركون إلا القتال، فلما اقتتلوا جدد المؤمنون ونصرهم الله تعالى فنزلت الآية فيهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُمُ اللَّهُ يُؤَلِّجُ الْيَلَّ فِي النَّهَارِ﴾ معناه: نصر الله تعالى أوليائه ومن بُغي عليه بأنه القادر على العظام، الذي لا تضاهى قدرته، فأوجز العبارة بأن أشار به ﴿ذَلِكَ﴾ إلى النصر، وعبر عن القدرة بتفصيلها، فذكر منها مثلاً لا يدعى لغير الله تعالى، وجعل تقصير الليل وزيادة النهار وعكسها إيلاجاً تجزواً وتشبيهاً. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُمُ اللَّهُ هُوَ الْخَلْقُ﴾ معناه نحو ما

﴿مُخَضَّرَةٌ﴾، وقرأت فرقة: ﴿مُخَضَّرَةٌ﴾. (وَاللَّطِيفُ): المُحْكِم للأمر برفق، واللام في ﴿لَهُ﴾ لام الملك، و﴿الْفَرْقِ﴾ الذي لا حاجة به إلى شيء، هكذا هو على الإطلاق.

وقوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ يريد: من الحيوان والمعادن وسائر المرافق. وقرأ الجمهور: ﴿وَالْفُلُكُ﴾ بالنصب، وذلك يحتمل وجهين من الإعراب: أحدهما أن يكون عطفاً على ﴿مَا﴾ بتقدير: وسُخِّرَ الْفُلُكُ. والآخر أن يكون عطفاً على المكتوبة، بتقدير: وأن الْفُلُكُ، وقوله: ﴿تَجْرَى﴾ على الإعراب الأول في موضع الحال، وعلى الإعراب الثاني في موضع الخبر. وقرأت فرقة: ﴿وَالْفُلُكُ﴾ بالرفع، ف﴿تَجْرَى﴾ خبر على هذه القراءة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِذَرِيرَةٍ﴾ يحتمل أن يريد يوم القيامة، كأن طي السماء ونقص هذه الهيئة كوقوعهما، ويحتمل أن يريد بذلك الوعيد لهم في أنه إن أذن في سقوط السماء عليكم سقطت، ويحتمل أن يعود قوله: ﴿إِلَّا بِذَرِيرَةٍ﴾ على (الإمساك)؛ لأن الكلام يقتضي: بغير عَمَد ونحوه، فكأنه أراد: إِلَّا بِذَرِيرَةٍ فِيهِ تُمَسِّكُهَا. وباقي الآية بين.

١٣١ - ١٣٢ تفسير قوله عز وجل:

الإحياء والإماتة في هذه الآية ثلاث مراتب، وسقط منها الموت الأول الذي نص عليه في غيرها، إلا أنه بالمعنى في هذه. (وَالْمُنْسَكُ)

المصدر، فهو بمعنى العبادة والشرية، وهو أيضاً موضع التمسك، وقرأت فرقة بفتح السين وفرقة بكسرهما، وقد تقدم القول فيه في هذه السورة. وقوله تعالى: ﴿هُم نَائِكُونَ﴾ يعطي أن (الْمَسْكُ) المصدر، ولو كان الموضع لقال: هم ناسكون فيه.

وروت فرقة أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح، وقولهم للمؤمنين: تأكلون ما ذبحتم وهو من قتلكم، ولا تأكلون مما قتل الله من الميتة، فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة. قوله تعالى: ﴿فَلَا يَشْرَعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾. هذه البيضة من الفعل والنهي تحتل معنى التخويف وتحتل معنى احتقار الفاعل وأنه أقل من أن يُفَاعِلَ، وهذا هو المعنى في هذه الآية، وقال أبو إسحاق: المعنى: فلا تنازعهم فينازعوك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التقدير الذي قُدِّرَ إنما يَحْسُنُ مع معنى التخويف، وإنما يحسن أن يُقَدَّرَ هنا المعنى: فلا تبدأهم بمنازعتك، فالنهي إنما يراد به معنى من غير اللفظ، كما يراد في قولهم: لا أرينك هاهنا، أي: لا تكن هاهنا.

وقرأت فرقة: ﴿فَلَا يَشْرَعُكَ﴾. وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ معناه - على تأويل أن (الْمَسْكُ) الشريعة -: لا ينازعك في الدين والكتاب ونحوه، وعلى أن (الْمَسْكُ) موضع الذبح على ما روت الفرقة المذكورة من أن الآية نزلت في الذبائح،

فيكون ﴿الْأَمْرُ﴾ الذبح. و(الْهَدْيُ) في هذه الآية: الإرشاد.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ جَدَلُوكَ﴾، الآية موادة محضة ونسختها آية السيف، وباقي الآية وعيد.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا بِأَنَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، اتَّبَعَ ذَلِكَ الْخَبَرَ بِأَنَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ كُلِّ شَيْءٍ لِيَقَعَ الْحُكْمُ فِي مَعْلُومٍ، فَخَرَجَتِ الْعِبَارَةُ عَلَى طَرِيقِ التَّشْبِيهِ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحَاطَتِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي كِتَابٍ وَهُوَ الْوَحْيُ الْمَحْفُوظُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. يحتمل أن تكون الإشارة إلى كون ذلك في كتاب وكونه معلوماً، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى الحكم في الاختلاف.

ثم ذكر تعالى - على جهة التوبيخ - فعل الكفرة في أنهم يعبدون من الأصنام من دون الله ما لم يُنْزَلِ اللَّهُ فِيهِ حُجَّةٌ وَلَا بُرْهَانٌ، و(السُّلْطَانُ): الحجة حيث وقع في القرآن الكريم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ توعد.

والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على كفار قريش، والمعنى أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن من النبي ﷺ، أو من أحد أصحابه، وسمعوا ما فيه من رفض آلهتهم والدعاء إلى التوحيد، عرفت المساءة في وجوههم. و(الْمُنْكَرُ) من معتقدهم وعداوتهم وأنهم يدبرون ويسرعون إلى السطوة بالتالي، والمعنى أنهم يكادون

يسطون دهرهم أجمع، وأما في الشاذ من الأوقات فقد يُسْطَى بالتالين نحو ما فُعل بعباد الله بن مسعود وبالنبي ﷺ حين أغاثه وحل الأمر أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وبعمرو رضي الله عنه حين أجاره العاصي بن وائل، وبأبي ذر رضي الله عنه وغير ذلك، و(السُّطُو) إيقاع بمباطشة أو أمر بها.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم على جهة التوعيد والتقريع: أَتَنْبُتُكُمْ، أي أخبركم بشر من ذلكم، والإشارة بـ﴿ذلكم﴾ إلى السطو، ثم ابتداء بـ﴿يُنِيءُ﴾، كأن قائلًا قال له: وما هو؟ قال التار، أي نار جهنم، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. يحتمل أن يكون أراد أن الله وعدهم بالنار، فيكون الوعد بالشر ونحو ذلك لَمَّا نَصَّ عليه ولم يَجِءْ مطلقاً، ويحتمل أن يكون أراد أن الله تعالى وعد النار بأن يطعمها الكفار، فيكون الوعد على بابهِ الذي يقتضيه تسرعها إلى الكفار وقولها: ﴿بَلْ يَنْزِيلُ مَزِيدٌ﴾. ونحو ذلك من مساوئها. و(الْمَصِيرُ) مَفْعَلٌ من (صار) إذا تحوّل من حال إلى حال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقتضي كلام الطبري في هذه الآية أن الإشارة بـ﴿ذلكم﴾ هي إلى أصحاب محمد ﷺ التالين، ثم قال: ألا أخبركم بأثرة إليكم من هؤلاء أنتم الذين وعدتم النار، وأسند نحو هذا القول إلى قائل لم يُسَمَّ، وهذا كله ضعيف.

﴿ضَعُفَ الطَّلِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾؛ فقالت فرقة: أراد بالطالب الأصنام وبال المطلوب الذباب، أي أنهم ينبغي أن يكونوا طالبيين لما سلب من طيبهم على معهود الأنفة في الحيوان. وقالت فرقة: معناه ضَعُفَ الكفار في طلبهم الصواب والفضيلة من جهة الأصنام، وَضَعُفَ الأصنام عن إعطاء ذلك وإنالته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يريد: ضَعُفَ الطالب وهو الذباب في استلابه ما على الأصنام، وَضَعُفَ الأصنام في ألا منعة لهم، وعلى كل قول فدلَّ ضَعُفُ الذباب الذي هو محسوس مُجمَع عليه وَضَعُفُ الأصنام في ألا منعة لهم عن هذا المُجمَع على ضعفه على أن الأصنام في أحط رُتبة وأخس منزلة.

وقوله تعالى: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ خطاب للناس المذكورين، والضمير في ﴿قَدَّرُوا﴾ للكفار، والمعنى: ما وقَّره حقُّه من التعظيم والتوحيد. ثم أخبر بقوَّة الله تعالى وعزِّته، وهما صفتان مناقضتان لعجز الأصنام.

﴿٧٧﴾ - تفسير قوله عز وجل:

روي أن هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿الْأُمُورُ﴾ نزلت بسبب قول الوليد بن المغيرة: ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ الآية، فأخبر الله تعالى أنه ﴿يَمَسُّنِي﴾ أي يختار ﴿مِنْ أَلَمِّكَ رَسُولًا﴾ إلى الأنبياء وغيرهم حسبما ورد في الأحاديث، ﴿رَبِّ

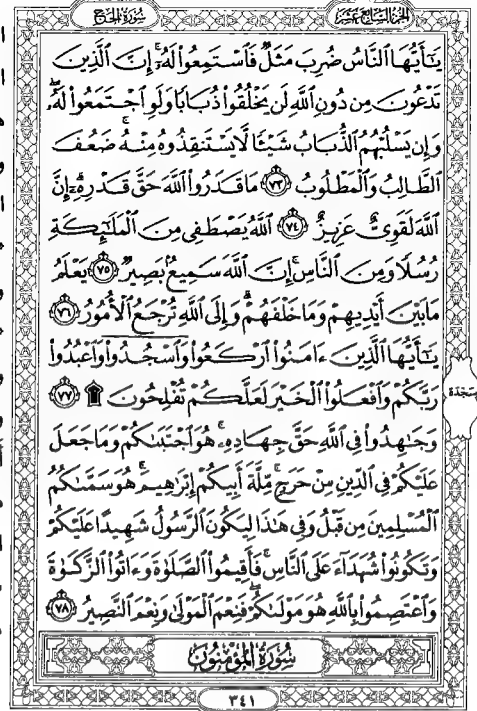
المثال الله تعالى، والمثال الذي في التأويل الثاني هو في الذباب وأمره، والذي جعل له هي الأصنام. ومعنى ﴿ضُرِبَ﴾ أثبت وألزم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾، وقولنا: ضُرِبَ الجزية وضرب البعث، ويحتمل أن يكون «ضُرِبَ المثل» من الضَرْب الذي هو المثل، ومن قولك: «هَذَا ضَرْبُ هذا»، فكأنه قال: مَثَلٌ مَثَلٌ.

وقرأت فرقة: ﴿يُذْعَوْنَ﴾

بالياء من تحت والضمير للكفار، وقرأت فرقة: ﴿يُذْعَوْنَ﴾ بضم الياء وفتح العين على ما لم يُسمَّ فاعله والضمير للأصنام.

وبدأ تعالى بنفي الخلق والاختراع عنهم من حيث هي صفة ثابتة له مختصة به، فكأنه قال: ليس لهم صفتي، ثم ثنى بالأمر الذي بلغ بهم غاية التعجيز، وذكر تعالى أمر سلب الذباب لأنه كان كثيراً محسوساً عند العرب، وذلك أنهم كانوا يُضَمِّحُونَ أوثانهم بأنواع الطيب فكان الذباب يذهب بذلك، وكانوا متألمين من هذه الحجة فجعلت مثلاً. والذباب جمعه أذبة في القليل وذبان في الكثير كغراب وأغربة وغزبان، ولا يقال ذبابات إلا في الذبول لا في الحيوان.

واختلف المتأولون في قوله تعالى:



﴿٧٣﴾ - ﴿٧٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب بقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا﴾ قيل: هو خطاب يعم جميع العالم، وقيل: هو خطاب للمؤمنين حينئذ الذين أراد الله تعالى أن يبين عندهم خطأ الكافرين، ولا شك أن المخاطب هم ولكنه خطاب يعم جميع الناس، متى نظره أحد في أمر عبادة الأوثان توجه له الخطاب.

واختلف المتأولون في فاعل (ضُرِبَ)، من هو؟ فقالت فرقة: المعنى: ضُرِبَ أهل الكفر مثلاً لله أصنامهم وأوثانهم، فاستمعوا أنتم أيها الناس لأمر هذه الآلهة، وقالت فرقة: المعنى: ضُرِبَ الله تعالى مثلاً لهذه الأصنام وهو كذا وكذا، فالمثال والمثل في القول الأول هي الأصنام، والذي جعل له

النَّاسِ ﴿وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ الْمُبْعُوثُونَ لِإِصْلَاحِ الْخَلْقِ الَّذِينَ اجْتَمَعَتْ لَهُمُ النَّبُوءَةُ وَالرَّسَالَةُ.

وقوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عبارة عن إحاطة علمه بهم، وحقيقتها: ما قبلهم من الحوادث وما بعدهم، و﴿الْأُمُورُ﴾ جمع أمر، ليس يراد به المصدر.

ثم أمر الله تعالى بعبادته، وخصَّ الرُّكُوعَ والسُّجُودَ بالذكر تشريفاً للصلاة.

واختلف الناس، هل في هذه الآية سجدة؟ ومذهب مالك رحمه الله ألا يسجد هاهنا. وقوله تعالى: ﴿وَأَنصَلُوا الْخَيْرَ﴾ ندب فيما عدا الواجبات التي صَحَّ وجوبها من غير هذا الموضع. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَتَلَكَّنَّ لُفُوحًا﴾ ترج في حق المؤمنين، كقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ يَذَّكَّرُ أَوْ يَخْتَضِرُ﴾، و﴿الْفَلَاحُ﴾ في هذه الآية تِلْ أَبْنِيَّةٍ وبلوغ الأمل.

﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: هذه الآية أمر الله تعالى فيها بالجهاد في سبيله، وهو قتال الكفار، وقالت فرقة: هي أعم من ذلك، وهو جهاد النفس، وجهاد الكافرين، وجهاد الظلمة، وغير ذلك، أمر الله عباده بأن يفعلوا ذلك في ذات الله حق فعله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والعموم حسن، وبَيِّنَ أن عرف اللفظة يقتضي الجهاد في سبيل الله. وقال هبة الله وغيره: إن قوله تعالى: ﴿حَقَّ جِهَادُهُ﴾ وقوله في الأخرى:

﴿حَقَّ تَقَالِيهِ﴾ منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى الاستطاعة في هذه الأوامر هو المراد من أوَّل الأمر، فلم يستقر تكليف بلوغ الغاية شرعاً ثابتاً فيقال إنه نُسَخ بالتخفيف، وإطلاقهم النسخ في هذا غير محقق. و﴿اجْتَنَبَكُمْ﴾ معناه: تخيركم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرْجٍ﴾ معناه: من تضيق، يريد: في شرعة الجلمة، وذلك أنها حنيفة سَمَحَة، ليست كشدائد بني إسرائيل وغيرهم، بل فيها التوبة والكفارات والرخص ونحو هذا مما كثر عذره. و﴿الْحَرْجَةُ﴾: الشجر المُلْتَف المتضايق، ورفع الحرج صَحَّ لجمهور هذه الأمة ولمن استقام على منهاج الشَّرع، وأما السَّلَابَةُ والسَّرَاقُ وأصحاب الحدود فعليهم الحرج، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين، وليس في الشرع أعظم حرجاً من إلزام ثبوت رجلٍ لاثنتين في سبيل الله تعالى، ومع صحة اليقين وجودة العزم ليس يخرج.

وقوله: ﴿مَنْعَةً﴾ نصب بفعل مضمر تقديره: بل جعلها، أو نحوه من أفعال الإغراء، وقال الفراء: هو نصب على تقدير حذف الكاف، كأنه قال: «كجلمة»، وقيل: هو كما ينصب المصدر. وقوله: ﴿هُوَ سَتْنُكُمْ﴾، قال أبو زيد: الضمير لإبراهيم والإشارة إلى قوله: ﴿وَرَيْنَ دَرِينًا أَنَّهُ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾. وقال ابن

عباس، وقتادة، ومجاهد: الضمير لله تعالى، و﴿وَرَيْنَ قَبْلَ﴾ معناه: في الكتب القديمة، و﴿وَرَيْنَ هَذَا﴾: في القرآن، وهذه اللفظة تضعف قول مَنْ قال: الضمير لإبراهيم، ولا يتوجه إلا على تقدير محذوف من الكلام مستأنف. وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي بالتبليغ، وقوله: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي بتبليغ رسلكم إليهم على ما أخبركم نبيكم.

وأسند الطبري إلى قتادة أنه قال: أعطيت هذه الأمة ما لم يُعْطَ إلا نبي، كان يقال للنبي: أنت شهيد على أمتك، وقيل لهذه الأمة: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وكان يقال للنبي: ليس عليك حرج، وقيل لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرْجٍ﴾، وكان يقال للنبي: سَلْ تُفْطَ، وقيل لهذه الأمة: ﴿أَتَعْرِفُ أَسْتَجِبَ لَكَ﴾.

ثم أمر الله تعالى بالصلاة المفروضة أن تُقام ويُدَاوَمَ عليها بجميع حدودها، وبالزكاة أن تُؤدَّى، كما أنعم عليكم فافعلوا كذا، ثم أمر بالاعتصام بالله تعالى، أي بالتمسك به والخُلُوصَ له وطلب النجاة منه ورَفْضَ التَّوَكُّلِ على سواه. و﴿الْمَوْلَى﴾ في هذه الآية معناه: الذي يُلِيكم نصره وحفظه، وباقي الآية يَبِّن.

كمل تفسير سورة الحج بحمد الله تعالى وعونه

تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ الآية، يقتضي تحريم الزنى والاستمناء ومواقعة البهائم، وكل ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾، ويريد: وراء هذا الحد الذي حُدَّ، ومعنى ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من النساء، ولما كان ﴿حَافِظُونَ﴾ بمعنى (محجوزون) حسن استعمال ﴿عَلَىٰ﴾، والعايدي: الظالم.

(٨) - (١١) تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس: ﴿لَا تَسْتَبِيهِ﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير: ﴿لَا مَاتِيهِمْ﴾ بالإفراد، والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلًا، وهذا يعم معاشره الناس والمواعيد وغير ذلك، ورعاية ذلك: حفظه والقيام به. والأمانة أعم من العهد؛ إذ كل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد، وقد تَعَيَّنَ الأمانة فيما لم يعهد فيه تقدم، وهذا إذا أخذناهما بنسبتهما إلى العبد، فإن أخذناهما من حيث هما - عهد الله إلى عباده وأمانته التي حَمَلَهُمْ - كانا في رتبة واحدة.

وقرأ الجمهور: ﴿صَلَّوْهُمْ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿صَلَاتِهِمْ﴾ بالإفراد، وهذا الإفراد اسم جنس فهو بمعنى الجمع، والمحافظة على الصلوات ترُقُّ أوقاتها والمبادرة إلى وقت الفضل فيها. و﴿الْوَارُونَ﴾ يريد: الجنة. وروى في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكنًا في الجنة ومسكنًا في النار، فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون الكفار، ويحصل

عنه ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

بضم الهمزة وكسر اللام.

ثم وصف تعالى هؤلاء المفلحين فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، والخشوع: الشطامن وتساكن الأعضاء والوقار، وهذا إنما يظهر في الأعضاء لمن في قلبه خوف واستكانة. وروى عن بعض العلماء أنه رأى رجلًا يعبت بلحيته في الصلاة فقال: لو خشع هذا خشعت جوارحه. وروى أن سبب هذه الآية أن المسلمين كانوا يلتفتون في صلاتهم يُمْنَةً وَيُسْرَةً، فنزلت هذه الآية، وأمروا أن يكون بصر المصلِّي حذاء قبلته أو بين يديه، وفي الحرم إلى الكعبة، وروى عن ابن سيرين وغيره أن رسول الله ﷺ كان يلتفت في صلاته إلى السماء فنزلت الآية في ذلك.

و(اللُّغُو): سقط القول، وهذا يعم جميع ما لا خير فيه، ويجمع آداب الشرع، وكذلك كان النبي ﷺ وأصحابه، وكان الآية فيها موادة.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾، ذهب الطبري وغيره إلى أنها الزكاة المفروضة في الأموال، وهذا بين، ويحتمل اللفظ أن يريد بالزكاة الفضائل، كأنه قال الأزكى من كل فعل، كما قال تعالى: ﴿خَيْرٌ مِّنْهُ زَكَاةٌ وَأَقْرَبُ رُحْمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَهْلِهَا خَافِظُونَ﴾، صفة العفة، وقوله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعَصِّمُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَهْلِهَا خَافِظُونَ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَهْلِهَا خَافِظُونَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَهْلِهَا خَافِظُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَهْلِهَا خَافِظُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَهْلِهَا خَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَهْلِهَا خَافِظُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَهْلِهَا خَافِظُونَ ﴿١١﴾

٣٤٢

(٢٣) تفسير

سورة المؤمنون

مكية

وآياتها ثمانين عشرة ومائة

(١) - (٧) تفسير قوله عز وجل:

أخبر الله تبارك وتعالى عن فلاح المؤمنين وأنهم نالوا البُنية وأحرزوا البقاء الدائم. وروى عن كعب الأحبار أن الله تعالى لما خلق الجنة عدن قال لها: تكلمي، فقالت: «قد أفلح المؤمنون»، وروى عن مجاهد أن الله تعالى لما خلق الجنة وأتقن حسناتها قال: «قد أفلح المؤمنون».

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بضم الحاء، يريد: قد أفلحوا، وهي قراءة مردودة، وروى

الكفار على منازلهم في النار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يسمى الله تعالى الحصول على الجنة وراثة من حيث حصلوها دون غيرهم، فهو اسم مستعار على الوجهين. و(الْفِرْدَوْسُ): مدينة الجنة، وهي جنة الأعتاب، واللفظة - فيما قال مجاهد - روميّة عُزِّيت، وقيل: هي فارسية عُزِّيت، والعرب تقول للكرم: فراديس، وقال رسول الله ﷺ: «لَأَمْ حَارِثَةٌ: إِنَّهَا جَنَّاتُ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ ابْنُكَ قَدْ أَصَابَ الْفَرْدَوْسَ».

١٣ - ١٤ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء كلام، والواو في أوله عاطفة جملة الكلام على جملة وإن تباينت في المعاني. واختلف المفسرون في قوله: «أَلَا إِنَّكُمْ؟» فقال قتادة وغيره: أراد آدم عليه السلام لأنه استل من الطين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحيى الضمير في قوله تعالى: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ» عائداً على ابن آدم - وإن كان لم يذكره - لشهرة الأمر، وأن المعنى لا يصلح إلا له، نظير ذلك: «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ» وغيره. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره: المراد بقوله: «أَلَا إِنَّكُمْ؟» ابن آدم. و«سُلَّكُوا مِنْ طِينٍ» صفوة الماء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أنه اسم الجنس، ويترتب عليه أنه سلالة من حيث كان الكل عن آدم عليه السلام أو عن الأبوين المتقدمين بما يكون من الطين،

وذلك السبع التي جعل الله تعالى رزق ابن آدم فيها، وسيجي قول ابن عباس رضي الله عنهما فيها إن شاء الله، وعلى هذا يجيء قول ابن عباس رضي الله عنهما: إن السلالة هي صفوة الماء، يعني المني. وقال مجاهد: «سُلَّكُوا مِنْ طِينٍ»: بني آدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بين؛ إذ آدم من طين وذريته من سلالة، وما يكون عن الشيء فهو سلالته، وتختلف وجوه ذلك الكون، فمنه قولهم للخمير: «سلالة»؛ لأنها سلالة العنب، ومنه قول الشاعر:

إِذَا أُتْبِجَتْ مِنْهَا الْمَهَارَى تَشَابَهَتْ
عَلَى الْعُودِ إِلَّا بِالْأَثْوَفِ سَلَالُهُ
ومن اللفظة قول هند بنت النعمان بن بشير:

سَلِيلَةُ أَفْرَاسٍ تَجَلَّلَهَا بَغْلٌ
ومنه قول الآخر:

فَجَاءَتْ بِهِ غَضْبُ الْأَدِيمِ غَضُنْفَرًا
سُلَالَةُ فَرْجِ كَأَنَّ غَيْرَ خَصِينٍ
وهذه الفقرة يترتب مع قولها عود الضمير في «جَعَلْنَاهُ» و«أَنشَأْنَاهُ».

و(الطُّفَّةُ) تقع في اللغة على قليل الماء وكثيره، وهي هنا لمني ابن آدم، و(الْفَرَارُ الْمَكِينُ) من المرأة هو موضع الولد، و«الْمَكِينُ»: المتكن، فكان «القرار» هو المتمكن في الرحم. و(الْعَلَقَةُ): الدم العريض، و(الْمُضْغَةُ): بضعة اللحم قَدَر ما يُمَضَّغ.

وقرأ الجمهور: «عَظْمًا» في الموضعين. وقرأ ابن عامر، وعاصم

- في رواية أبي بكر -: «عَظْمًا» بالإفراد في الموضعين، وقرأ سلمة، وقتادة، والأعرج، والأعمش بالإفراد أولاً وبالجمع في الثاني. وقرأ مجاهد، وأبو رجاء، وإبراهيم بن أبي بكر بعكس ذلك، وفي قراءة ابن مسعود: «ثُمَّ جَعَلْنَا الْمُضْغَةَ عَظْمًا وَغَضَبًا فَكَسَوْنَاهُ لَحْمًا».

واختلف الناس في الخلق الآخر؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، والشعبي، وأبو العالية، والضحاك، ابن زيد: هو نُفْخُ الرُّوحِ فيه، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: خروجه إلى الدنيا، وقال قتادة - عن فرقة -: نبات شعره، وقال مجاهد: كمال شبابه، وقال ابن عباس أيضاً: تصرفه في أمور الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التخصيص كله لا وجه له، وإنما هو عام في هذا، وغيره من وجوه النطق والإدراك وحسن المحاولة هو بها آخر، وأول رتبة من كونه آخر هو نفخ الروح فيه، والطرف الآخر من كونه آخر تحصيله المعقولات إلى أن يموت.

و(تَبَارَكَ) هو مطاوع «بارك»، كأنها بمنزلة «تعالى وتقدس»، من معنى البركة. وهذه الآية يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سمع صدر الآية إلى قوله: «ءَاخِرُ» قال: «فتبارك الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت». ويروى أن قاتل ذلك معاذ بن جبل رضي الله عنه، ويروى أن قاتل ذلك عبدالله بن أبي سَرْح، وبهذا السبب ارتد وقال: أنا آتي بمثل ما يأتي به

﴿لَمَّا تَشُونَ﴾ بالالف. و﴿يَعْتُونَ﴾ معناه: من قبوركم أحياء، وهذا خبر بالبعث والنشور، و(الطرائق) كل ما كان من طبقات بعضه فوق بعض، ومنه: طارت نعلي، ويريد بالسبع الطرائق السموات، ويجوز أن تكون (الطرائق) بمعنى المبسوطات، من: طرقت الشيء، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ نفى عام، أي: في إتيان خلقهم وعن مصالحهم وعن أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿مَاءً يَقْدَرُ﴾ قال بعض العلماء: أراد المطر، وقال بعضهم: إنما أراد الأنهار الأربعة: سحيان وجيحان والفرات والنيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب أن هذا كله داخل تحت الماء الذي أنزل الله تعالى.

وقال مجاهد: ليس في الأرض ماء إلا وهو من السماء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويمكن أن يقيد هذا بالعذب، وإلا فالأجاج ثابت في الأرض مع القحط، والعذب يقل مع القحط، وأيضاً فالأحاديث تقتضي الماء الذي كان قبل خلق السموات والأرض، ولا محالة أن الله تعالى قد جعل في الأرض ماء وأنزل من السماء ماء.

وقوله تعالى: ﴿يَقْدَرُ﴾ أي على مقدار مصلح؛ لأنه لو كثير أهلك.

﴿فَأَنشَأْنَا﴾ معناه: أوجدنا وخلقنا، وذكر تعالى النخيل والأعناب لأنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما، قاله الطبري، ولأنها أيضاً أشرف الشمار، فذكرها مثلاً لا تشريقاً لها وتنبهاً عليها.

الاختراع والإيجاد من العدم، ومن هذه الآية قال ابن عباس لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حين سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر فقالوا: الله أعلم، فقال عمر رضي الله عنه: ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى خلق السموات سبعا والأرض سبعا، وخلق ابن آدم من سبع، وجعل رزقه في سبع، فأراها في ليلة سبع وعشرين، فقال عمر: أعجزكم أن تأتوا بمثل ما أتى به هذا الغلام

الذي لم تجتمع شؤون رأسه. وهذا الحديث بطوله في مسند ابن أبي شيبه، فأراد ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «خلق ابن آدم من سبع» هذه الآية، ويقول: «وجعل رزقه في سبع» قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ وَنَبَّاتٍ وَنَخْلًا وَمَدَائِنَ غَلِيًّا وَمَا أَكْبَهُتُ أَبَا﴾ الآيات، السبع منها لابن آدم، والأب للأتعام، والقضب يأكله ابن آدم وتسمن به النساء، وهذا قول، وقيل: القضب: البقول لأنها تقضب، فهي رزق ابن آدم، وقيل: القضب والأب للأتعام والسنة الباقية لابن آدم، والسابعة هي الأنعام إذ هي من أعظم رزق ابن آدم.

(١٥) - تفسير قوله عز وجل:

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من هذه الأحوال، وقرأ ابن أبي عبلة:

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنشَأْنَا فِي الْأَرْضِ وَأَنزَلْنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقْدَرُونَ ﴿١٥﴾ فَأَنشَأْنَا لَكَ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ تَحِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكَ فِيهَا فَوْكِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٦﴾ وَشَجَرَةً تُفْرِحُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَنِيعٌ لِلَّاكِلِينَ ﴿١٧﴾ وَلَنُكَرِّفِي الْأَنْعَامَ لَعِبَةً تَسْفِكُ مِرْيَافِي طُورِهَا وَلَئِنْ لَّكَ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٨﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٠﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَّا نَصُوبُوهُ حَتَّىٰ جِئَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنْتُ دَاعِيَةً إِلَى الْبِرِّ وَأَعِزَّنِي بِمَا كُنْتُ دَاعِيَةً إِلَى الْفَالِكِ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِنِ اجْتَمَعَتِ أُمَّمُنَا وَنَارٌ فَاكِلَةٌ فَاتَسَلَّكُوا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنهُمْ وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٣﴾

٢٢٣

محمد - عليه الصلاة والسلام -، وفيه نزلت: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ معناه: أحسن الصانعين، يقال لمن صنع شيئاً: خلقه، ومنه قول الشاعر:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَدَّضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي وَذَهَبَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَىٰ نَفِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ عَنِ النَّاسِ، فَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: إِنَّمَا قَالَ: ﴿الْخَالِقِينَ﴾ لِأَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ أَذِنَ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَنْ يَخْلُقَ، وَاضْطَرَبَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا تُنفَى اللَّفْظَةُ عَنِ الْبَشَرِ فِي مَعْنَى الصَّنْعِ، وَإِنَّمَا هِيَ مُنْفِيَةٌ بِمَعْنَى

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ يحتمل أن يعود الضمير على (الجئات) فيريد حيثئذ جميع أنواع الفواكه، ويحتمل أن يعود على (النخيل والأعناب) خاصة إذ فيها مراتب وأنواع، والأول أعم لساير الثمرات.

وقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على قوله: ﴿جَنَّتٍ﴾، ويريد بها الزيتون، وهي كثيرة في طور سيناء من أرض الشام، وهو الذي كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام، قاله ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره. (الطور): الجبل في كلام العرب، وقيل: هو مما عُرِبَ من كلام العجم. واختلف في ﴿سَيِّئَةً﴾؛ فقال قتادة: معناه: الحسن، ويلزم على هذا التأويل أن ينون «الطور»، وقال مجاهد: معناه: مبارك، وقال مفر عن فرقة: معناه: ذو شجر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويلزمهم أن يتَّوَّن (الطور).

وقال الجمهور: هو اسم الجبل، كما تقول: جبل أحد، و﴿سَيِّئَةً﴾ اسم مضاف إليه الجبل.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن كثير: ﴿سَيِّئَةً﴾ بكسر السين، وقرأ الباقون وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿سَيِّئَةً﴾ بفتح السين، وكلهم بالمد، فعلى فتح السين لا ينصرف الاسم بوجه، وعلى كسر السين فالهمزة كهزمة جرباء، ولم ينصرف في هذه الآية لأنه جعل اسم بقة أو أرض.

وقرأ الجمهور: ﴿تُثْبِتُ﴾ بفتح التاء وضم الباء، فالتقدير: تُثْبِتُ ومعها الدهن، كما تقول: خرج زيد

بسلاحه، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿تُثْبِتُ﴾ بضم التاء وكسر الباء. واختلف في التقدير على هذه القراءة، فقالت فرقة: الباء زائدة، وهكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، وهذا المشال عندي معترض وإن كان أبو علي قد ذكره، كقول الشاعر:

نَحْنُ بَنُو جَعْدَةَ أَزْبَابِ الْفُلَجِ
تَضْرِبُ بِالْبَيْضِ وَتَرْجُو بِالْفَرْجِ
ونحو هذا، وقالت فرقة: التقدير: ثَبَّتَ جناها ومعه الدهن، فالمفعول محذوف، قاله أبو علي الفارسي أيضاً، وقد قيل: ثَبَّتْ وأَبَتْ بمعنى، فيكون المعنى كما مضى في قراءة الجمهور، والأصمعي يُنكر أنبت ويثهم قصيدة زهير التي فيها:

..... أَتَبَّتِ الْبَقْلُ

وقرأ الزهري، والحسن، والأعرج: ﴿تُثْبِتُ﴾ برفع التاء ونصب الباء، قال أبو الفتح: هي باء الحال، أي: تُثْبِتُ ومعها دهنها، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿تَخْرُجُ بِالْدُّفْنِ﴾، وهي أيضاً باء الحال، وقرأ زُرُّ بن حُبَيْش: ﴿تُثْبِتُ﴾ بضم التاء وكسر الباء ﴿الْدُّفْنِ﴾ بحذف الباء ونصبه، وقرأ سليمان بن عبد الملك، والأشهب: ﴿بِالدُّفَّانِ﴾. والمراد في هذه الآية تعديد نعمة الزيت على الإنسان، وهي من أركان النعم التي لا غنى للصحة عنها، ويدخل في معنى الزيتون شجر الزيت كله على اختلافه بحسب الأمصار.

وقرأت فرقة: ﴿وَصَيْخُ﴾، وقرأت

فرقة: ﴿وَأَصْبَاغُ﴾ بالجمع، وقرأ عامر بن قيس: ﴿وَمَتَاعاً لِلْكَالِينَ﴾. (٢١) - (٢٢) تفسير قوله عز وجل:

وقرأ الجمهور: ﴿تُسْقِيكُمْ﴾ بضم النون من «أسقي»، ورويت عن عاصم. وقرأ نافع، وعاصم وابن عامر: ﴿تُسْقِيكُمْ﴾ بفتح النون من «سقى»، فمن الناس من قال: هما لغتان بمعنى، ومنهم من قال: سَقَيْتُهُ إِذَا أَعْطَيْتَهُ لِلشَّيْءِ، وَأَسْقَيْتُهُ إِذَا جَعَلْتَ لَهُ سَقِيًّا لأَرْضٍ أَوْ ثَمَرَةً أَوْ نَحْوَهُ، فَأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْأَنْعَامَ لِعِبَادِهِ سَقِيًّا يَشْرَبُونَ وَيَتَجَعَوْنَ. وقرأ أبو جعفر: ﴿تُسْقِيكُمْ﴾ بالتاء من فوق، أي: تسقيكم الأنعام.

(والمنافع): الحَمْلُ عليها، وجلودها، وأصوافها، وأوبارها، وغير ذلك مما يطول عدّه.

(وَالْفُلُكُ): السفن، واحدها فُلْكٌ، الحركات في الواحد كحركات فُكُلٍ وُزْدٍ، والحركات في الجمع كحركات أُسْدٍ وَكُتُبٍ.

(٢٣) - (٢٤) تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء تمثيل لكفار قريش بأُمم كفرت بأنبيائها فأهلكوا، وفي ضمن ذلك الوعيد بأن يحل بهم بلاء نحو ما حلّ بأولئك.

ونوح عليه السلام أول نبي أرسل إلى الناس، وإدريس عليه السلام أول من نُبِّئَ ولم يُرْسَلْ.

(وَالْمَلَأُ): الأشراف لأنهم عنهم يصدر الملأ، وهو جمع القوم، وفي

حَتَّى سَلَكَنَ الشَّوْىَ مِنْهُ فِي مَسَكٍ
مِنْ نَسْلِ جَوَابَةِ الْآفَاقِ مِهْدَاجٍ
وقال الآخر:

وَكُنْتُ لِرَزَّازٍ خَضِيكَ لَمْ أُعْرِذْ
وَقَدْ سَلَكَوكَ فِي يَوْمٍ عَصِيبٍ
يقال: سَلَكَ وَأَسْلَكَ بمعنى.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿مِنْ
كُلِّ﴾ بتنوين ﴿كُلِّ﴾، وقرأ
الباقون وأبو بكر عن عاصم بإضافة
﴿كُلِّ﴾ دون تنوين. و(الرَّوْجَانِ) كل
ما شأنه الاصطحاب من كل شيء
كالذكر والأنثى من الحيوان ونحو
السعال وغيرها كل واحد زوج
للآخر، هذا موقع اللفظة في اللغة،
والعددون يوقعون الزوج على
الاثنين، على هذا أمر استعمال العامة
للزوج.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يريد
قرباته، ثم استثنى من سبق عليه
القول بأنه كافر وهو ابنه وامراته. ثم
أمر نوحاً عليه السلام ألا يراجع ربه
ولا يخاطبه شافعاً في أحد من
الظالمين، والإشارة إلى من استثنى
إذ العرف من البشر الخئول على
الأهل، ثم أمره تعالى بأن يحمده ربّه
على النجاة من الظلمة عند استوائه
وتمكنه في الفلك، ثم أمره بالدعاء
في بركة المنزل. وقرأ عاصم في
رواية أبي بكر: ﴿مُنْزِلاً﴾ بفتح الميم
وكسر الزاي، وهو موضع النزول،
وقرأ الباقر وحفص عن عاصم:
﴿مُنْزِلاً﴾ بضم الميم وفتح الزاي،
وهو مصدر بمعنى الإنزال، ويجوز
أن يراد به موضع النزول.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ
لَآخِذٌ﴾ خطاب لمحمد ﷺ، أي:

﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾ برفع
الباء، وكذلك ﴿رَبِّ
أَخْكُم﴾ وشبهه.

﴿٢٧﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله
عز وجل:

قد تقدم القول في صفة
السفينة وقدرها في سورة
هود، و(الفلك) هنا مفرد
لا جمع.

وقوله تعالى: ﴿يَا عَيْنَانَا﴾
عبارة عن الإدراك على
مذهب الحدائق، ووقفت
الشريعة على أغين وغين،
ولا يجوز أن يقال: عينان
من حيث لم توقف
الشريعة على التثنية،
و﴿وَوَحَّيْنَا﴾ معناه: في

كيفية العمل ووجه البيان، وذلك أن
جبريل عليه السلام نزل إلى نوح
عليه السلام فقال له: اصنع كذا وكذا
لجميع حكم السفينة وما يحتاج إليه.
واستحسن الكفار نوحاً لادعائه النبوة
بزعمهم أنها دعوى، وسخروا منه
لعمله السفينة على غير مجرى، أو
لكونها أول سفينة إن صح ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَتَرَبَّا﴾ يحتمل أن
يكون مصدراً بمعنى أن تأمر الماء
بالفيض، ويحتمل أن يريد واحد
الأمر، أي إهلاكنا للكفرة، وقد
تقدم القول في معنى قوله تعالى:
﴿وَقَارَ الثُّرُورُ﴾. والصحيح من
الأقوال أنه ثور الخبز، وأنه أماره
كانت بين الله تبارك وتعالى وبين
نوح عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْلَفَ﴾ معناه:
فأذخل، ومنه قول الشاعر:

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَتَمَّ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكِ فَقُلْ لِحَدِّ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَنَا
مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٧﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مَبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ
الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآخِذٌ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٢٩﴾ فَرَأَيْنَا
مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٣٠﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةَ وَأُتْرِفْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بَرَأَ كُلِّ مِمَّا نَكُونُ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا
تَشْرَبُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ شُرَكَاءَ أَتُكْفَرُوا إِذَا لَخِيسِرُونَ
﴿٣٣﴾ أَعْبُدُوا أَتُكْفَرُوا إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَماً أَتُكْفَرُونَ
﴿٣٤﴾ هَبَّاتُ هَبَّاتٍ لَمَّا تَوْعَدُونَ ﴿٣٥﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
الَّتِي نَمُوتُ وَحَيَاتٍ وَمَاتُكُمْ يُعْمَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا لَآرِجٌ
أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبِّ
أَنْصُرْنِي بِمَا كُنْتُ بَرًّا ﴿٣٨﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدِيمِينَ ﴿٣٩﴾
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّبَاحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَّةً فَبَعَثَ الْقَوْمُ
الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤١﴾

٣٤٤

قَوْل هَؤُلَاءِ اسْتِعْبَادُ بَعَثَةِ الْبَشَرِ، وَهُمْ
قَوْمٌ مُقَرُّونَ بِالْمَلَانِكَةِ، وَذَلِكَ لَا شَكَّ
مُسْتَقَرٌّ عِنْدَهُمْ مِنْ بَقَايَا نَبِوَةِ آدَمَ
وَادْرِيسَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَغَيْرِهِمَا،
وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ صَحِيحٍ وَلَا
مَعْرِفَةٍ بِأَخْبَارِ نُبُوَّةٍ.

و(الْجِبَّةُ): الجنون، و﴿فَتَرَبَّصُوا﴾
معناه: اصبروا وانتظروا هلاكه،
و﴿حَتَّى جِينَ﴾ معناه: إلى وقت، ولم
يُعَيِّشُوهُ، وإنما أرادوا: إلى وقت
يربحكم القدر منه.

ثم إن نوحاً عليه السلام دعا على
قومه حين يش منهم وإن كان دعاؤه
في هذه الآية ليس بنص، وإنما هو
ظاهر من قوله: ﴿يَمَّا كَذَّبُونَ﴾،
فهو يقتضي طلب العقوبة، وأما
الثمرة بمجرد ما فكانت تكون برزهم
إلى الإيمان.

وقرأ أبو جعفر، وابن محيصن:

إِنْ فِيمَا جَرَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَمِ لَعِبْرًا
أَوْ دَلَالًا لِمَنْ لَهُ نَظَرٌ وَعَقْلٌ، ثُمَّ
أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ يَبْتَلِي عِبَادَهُ الزَّمَنَ بَعْدَ
الزَّمَنِ عَلَى جِهَةِ الرَّعِيدِ لِكُفَّارِ قَرِيشٍ
بِهَذَا الْإِخْبَارِ ﴿٣١﴾ عِنْدَ سَيِّبِيهِ هِيَ
الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاللَّامُ لَا مِ
تَأْكِيدٍ، وَالْفَرَاءُ يَقُولُ: ﴿إِنَّ﴾ نَافِيَةٌ
وَاللَّامُ بِمَعْنَى «إِلَّا»، وَ﴿لَنْبَلَيْنَ﴾
مَعْنَاهُ مُصِيبِينَ بِبَلَاءٍ وَمُخْتَبَرِينَ اخْتِبَارًا
يُودِي إِلَى ذَلِكَ.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قَالَ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ هَذَا
الْقَرْنَ هُم ثُمُودٌ، وَرَسُولُهُمْ صَالِحٌ
عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي الرِّوَايَاتِ مَا
يَقْتَضِي أَنَّ قَوْمَ عَادٍ أَقْدَمُ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ
يَهْلِكُوا بِصِيْحَةٍ، وَفِي هَذَا احْتِمَالَاتٌ
كَثِيرَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَا تَرْفَعْهُمْ﴾ مَعْنَاهُ: نَعْمَانَاهُمْ
وَيُسْطَنَّا لَهُمُ الْأَمَالُ وَالْأَرْزَاقُ، وَمَقَالَةٌ
هَؤُلَاءِ أَيْضًا تَقْتَضِي اسْتِبْعَادَ بَعْثَةِ
الْبَشَرِ، وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمْ
يَذْكُرْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ الْمَعْجِزَةَ
ظَهَرَتْ لَهُمْ وَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بَعْدَ
وَضُوحِهَا، وَلَكِنْ ذَلِكَ مُقَدَّرٌ مَعْلُومٌ
وَإِنْ لَمْ يَعْينَ لَنَا الْمَعْجِزَةُ، وَالْعِقَابُ
لَا يَتَعَلَّقُ بِأَحَدٍ إِلَّا بَعْدَ تَرْكِهِ الْوَاجِبِ
عَلَيْهِ، وَوَجُوبُ الْإِتْبَاعِ إِنَّمَا هُوَ بَعْدَ
قِيَامِ الْحِجَّةِ عَلَى الْمَرْءِ أَوْ عَلَى مَنْ
هُوَ الْمَقْصِدُ وَالْجُمْهُورُ، كَالْعَرَبِ فِي
مَعْجِزَةِ الْقُرْآنِ، وَالْأَطْبَاءِ لِعِيسَى،
وَالسَّحَرَةِ لِمُوسَى، فَقِيَامُ الْحِجَّةِ عَلَى
هَؤُلَاءِ قَامَتْ عَلَى جَمِيعٍ مِنْ
وَرَاءِهِمْ.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيُّدْرِكُ﴾ اسْتِفْهَامٌ
بِمَعْنَى التَّوْقِيفِ، عَلَى جِهَةِ

الاسْتِبْعَادِ، وَبِمَعْنَى الْهَزْءِ بِهَذَا
الْوَعْدِ، وَ﴿أَنْتُمْ﴾ الثَّانِيَةُ بَدَلٌ مِنَ
الْأُولَى عِنْدَ سَيِّبِيهِ، وَفِيهَا مَعْنَى
تَأْكِيدِ الْأَوَّلِ، وَكُثِّرَتْ لَطُولُ الْكَلَامِ،
وَإِنْ كَانَ الْمَبْرَدُ أَبَى عِبَارَةَ الْبَدَلِ
لِكَوْنِهِ غَيْرَ مُسْتَقِلٍّ إِذْ لَمْ يَذْكُرْ خَبَرَ
«أَنْ» الْأُولَى، وَالْخَبَرُ عِنْدَ سَيِّبِيهِ
مَحْذُوفٌ وَتَقْدِيرُهُ: «أَنْتُمْ تَبْعُونَ إِذَا
مَتَّمَّ»، وَهَذَا الْمَقْدَرُ هُوَ الْعَامِلُ فِي
﴿إِذَا﴾، وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّدْرِكُكُمْ إِذَا مَتَّمَّ
وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ»
بِحَذْفِ «أَنْتُمْ» الْأُولَى. وَيَعْنُونَ
بِالْإِخْرَاجِ النُّشُورَ مِنَ الْقُبُورِ.

وَقَوْلُهُمْ: «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ» اسْتِبْعَادٌ،
وَهَذِهِ كَلِمَةٌ لَهَا مَعْنَى الْفَعْلِ،
التَّقْدِيرُ: بَعْدَ كَذَا، فَطَوَّرُوا تَلِي الْفَاعِلِ
دُونَ لَامٍ، تَقُولُ: هَيْهَاتَ مَجِيءُ
زَيْدٍ، أَيْ: بَعْدَ ذَلِكَ، وَمِنْهُ قَوْلُ
جَرِيرٍ:

فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الْعَقِيقُ وَمَنْ بِهِ
وَهَيْهَاتَ خَلٌّ بِالْعَقِيقِ تَوَاصُلُهُ
وَأَحْيَانًا يَكُونُ الْفَاعِلُ مَحْذُوفًا،
وَذَلِكَ عِنْدَ اللَّامِ كَهَذِهِ الْآيَةِ،
وَالْتَقْدِيرُ: بَعْدَ الْوُجُودِ لَمَّا تَوَعَّدُونَ،
وَمِنْ حَيْثُ كَانَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ بِمَعْنَى
الْفِعْلِ أَشْبَهَتْ الْحُرُوفَ مِثْلَ (مَةً)
وْغَيْرِهَا، فَلِذَلِكَ بَنِيَتْ عَلَى الْفَتْحِ،
وَهَذِهِ قِرَاءَةُ الْجَمَاعَةِ يَفْتَحُ التَّاءَ، وَهِيَ
مَفْرُودٌ سُمِّيَ بِهِ الْفِعْلُ فِي الْخَبَرِ، أَيْ:
بَعْدَ، كَمَا أَنَّ (شَتَّانَ) اسْمُ (افْتَرَقَ)،
وَعُزْفُ تَسْمِيَةِ الْفِعْلِ أَنَّ تَكُونَ فِي
الْأَمْرِ كَصَةِ وَهَسَ.

وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ: «هَيْهَاتَ» بِكَسْرِ
التَّاءِ غَيْرَ مَنْوُونَةٍ. وَقَرَأَهَا عِيسَى بْنُ
عَمْرٍ، وَأَبُو حَيَوَةَ - بِخِلَافِ عَنْهُ - بِتَاءٍ

مَكْسُورَةٍ مَنْوُونَةٍ، وَهِيَ عَلَى هَاتَيْنِ
الْقِرَاءَتَيْنِ عِنْدَ سَيِّبِيهِ جَمْعُ
«هَيْهَاتَ»، وَكَانَ حَقُّهَا أَنْ تَكُونَ
«هَيْهَاتَاتٍ» إِلَّا أَنَّ ضَعْفَهَا لَمْ يَقْتَضِ
إِظْهَارَ الْيَاءِ، وَقَالَ سَيِّبِيهِ رَحِمَهُ اللَّهُ:
«هِيَ مِثْلُ «يُبَيْضَاتٍ»، أَرَادَ: «فِي أَنَّهَا
جَمْعٌ»، وَظَنَّ بَعْضُ النَّحَاةِ أَنَّهُ أَرَادَ:
«فِي اتِّفَاقِ الْمَفْرُودِ» فَقَالَ: وَاحِدٌ
«هَيْهَاتَ»: «هَيْهَةً»، وَلَيْسَ كَمَا قَالَ،
وَتَنَوَّنَ عِيسَى أَرَادَ التَّنْكِيرَ، وَتَرَكَ أَبِي
جَعْفَرَ التَّنَوُّنَ عَلَى إِرَادَةِ التَّعْرِيفِ.
وَقَرَأَ عِيسَى الْهَمْدَانِيُّ: «هَيْهَاتَ
هَيْهَاتَ» بِتَاءٍ سَاكِنَةٍ، وَهِيَ - عَلَى
هَذَا - جَمَاعَةٌ لَا مَفْرُودَ، وَقَرَأَهَا كَذَلِكَ
الْأَعْرَجُ، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي عَمْرٍو.
وَقَرَأَ أَبُو حَيَوَةَ: «هَيْهَاتَ» بِتَاءٍ
مَرْفُوعَةٍ مَنْوُونَةٍ، وَهَذَا عَلَى أَنَّهُ اسْمُ
مَعْرَبٍ مُسْتَقِلٍّ وَخَبَرٍ «لَمَّا تَوَعَّدُونَ»،
أَيْ: الْبُعْدُ لَوْعَدِكُمْ، كَمَا تَقُولُ:
النَّجْمُ لَسَعِيكُم. وَرُوِيَ عَنْ أَبِي حَيَوَةَ
«هَيْهَاتَ» بِالرَّفْعِ دُونَ تَنَوُّنٍ، وَقَرَأَ
خَالِدُ بْنُ الْيَاسِ: «هَيْهَاتَا هَيْهَاتَا»
بِالنَّصْبِ وَالتَّنَوُّنِ. وَالْوَقْفُ عَلَى
«هَيْهَاتَ» مِنْ حَيْثُ هِيَ مَبْنِيَّةٌ
بِالْهَاءِ، وَمَنْ قَرَأَ بِكَسْرِ التَّاءِ وَقَفَ
بِالتَّاءِ، وَهِيَ فِي اللَّفْظَةِ لَغَاتٌ: هَيْهَاتَا،
وَهَيْهَاتَا، وَهَيْهَاتَا، وَهَيْهَاتَا، وَهَيْهَاتَا،
وَهَيْهَاتَا، قَالَ رُؤْبَةُ:

هَيْهَاتَ مِنْ مُنْخَرِقِ هَيْهَاتُوهُ
وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَيْلَةَ: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾
لَمَّا تَوَعَّدُونَ ﴿بِغَيْرِ لَامٍ﴾.

وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
الْدُّنْيَا﴾ أَرَادُوا أَنَّهُ لَا وَجُودَ لَنَا غَيْرَ
هَذَا الْوُجُودِ، وَإِنَّمَا تَمُوتُ مِنَّا طَائِفَةٌ
فَتَذْهَبُ وَتَجِيءُ طَائِفَةٌ جَدِيدَةٌ، وَهَذَا

مما جرى بعد الخروج من البحر فليست تلك لفرعون بل هي خاصة ببني إسرائيل.

و (المَلَأَ): هاهنا: الجمع، يعمُ الأشراف وغيرهم، و ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ معناه: عن الإيمان بموسى وأخيه عليهما السلام لأنهم أنفوا من ذلك. و ﴿عَالِينَ﴾ معناه: قاصدين العلو بالظلم والكبرياء.

وقوله تعالى: ﴿عِيدُونَ﴾ معناه: خادمون مُتَذَلِّلُونَ، ومن هذا قيل لعرب الحيرة: العباد؛ لأنهم دخلوا من بين العرب في طاعة كسرى، وهذا أحد القولين في تسميتهم، والطريق المُعْتَد: المذلل، وعلو هؤلاء هو الذي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْخَرْتُ عَنْهُمْ﴾ لِيَذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُكَاكًا. وقوله: ﴿وَمِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ يريد: بالفرق.

١٤٩ - (٥١) تفسير قوله عز وجل: ﴿الْكِتَابَ﴾ هو التوراة، و ﴿لَهُمْ﴾ يريد بني إسرائيل لأن التوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون والقبط، والترجي في «لعل» في حيز البشر. أي: كان من فعلنا معهم ما يرجو معه ابن آدم إيمانهم وهداهم، والقضاء قد حكم بما حكم.

و (ابْنُ مَرْثَمَ) عيسى عليه السلام، وقصتهما كلها آية عظمية بمجموعها، وهي آيات مع التفصيل، وأخذها من كلا الوجهين متمكن، و «أَوَى» معناه: ضَمَّ، واستعمال اللفظة في الأماكن، أي أقرناهما، و «الرُّبُوعَة»: المرتفع من الأرض، وقرأ جمهور الناس: ﴿زُبُوعَة﴾، وقرأ

و ﴿تَنَزَّ﴾ مصدر بمنزلة فعل مثل الدعوى والعدوى ونحوهما، وليس ﴿تَنَزَّ﴾ بفعل، وإنما هو مصدر من: تَوَاتَرَ الشيء، وقرأ الجمهور: ﴿تَنَزَّ﴾ كما تقدم، ووقفهم بالألف، وحمزة والكسائي يميلانها، قال أبو حاتم: هي ألف تأنث، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿تَشَرَّى﴾ بالتشوين، ووقفهما بالألف، وهي ألف إلحاق، قال ابن سيده: يقال: جاءوا تَشَرَّى وتَشَرَّى، أي متواترين،

الناء مُبْدَلَةٌ من الواو على غير قياس؛ لأن قياس إبدال الواو ناء إنما هو في «افْتَعَلَ» وما تَصَرَّفَ منها إذا كانت ياءه واوًا، فإن فاءه تنقلب ناءً وتُدْغَمُ في ناءٍ «افْتَعَلَ»، وذلك نحو «اتَزَنَ» وأُتَجِّهَ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنبَغْنَا بِعَصْمِهِمْ بَعَثْنَا﴾ أي: في الإهلاك. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يريد أحاديث مثل، وقلما يستعمل الجعل حديثاً إلا في الشر.

١٥٠ - (٥٢) تفسير قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ﴾ هنا على بابها لترتيب الأمور واقتضاء المهلة، و «الآيَات» التي جاء بها موسى وهارون هي اليَدُ والعصا اللتان اقترن بهما التحدي، وهما «السُّلْطَانُ الْمُبِين»، ويدخل في عموم اللفظ سائر آياتهما كالبحر والمرسلات السَّت، وأما غير ذلك

مَا تَسْبِقُ مِنْ أَمْرٍ أَجَلْهَا وَمَا يَسْتَجِرُّونَ ٥١ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَنَزَّ ٥٢ كُلَّ مَاجَاءٍ أَمْرُهُ رَسُولُهُا كَذَبُواهُ فَأَنبَغْنَا بِعَصْمِهِمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَثْنَا لِقَوْمِهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٣ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ٥٤ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ٥٥ فَقَالُوا الْفُتُونُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ٥٦ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ٥٧ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْثَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ٥٩ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٦٠ وَإِنْ هِيَ إِلَّا عَمْكَةٌ آتَتْهُمُ وَجِدَتْهُ وَأَنَا رِيكُهُمْ فَالْفُتُونُ ٦١ فَتَقَطَّعُوا أَرْهَامَهُمْ يَدِيَهُمْ ذُرًّا كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْعَوْنُ ٦٢ فَذَرْنِي فِي عَمْرِئِهِمْ حَتَّى حِينٍ ٦٣ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُثَبِّتُهُمْ فِيهِمْ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ٦٤ سَاعٍ مُّثَمَّ فِي الْخَرَابِ بَلْ لَا يَعْلَمُونَ ٦٥ إِنْ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ ٦٦ وَالَّذِينَ هُمْ يُشَارِكُونَ فِي بَيِّنَاتٍ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٦٧ وَالَّذِينَ هُمْ يُرِيدُونَ لَا يُشْرِكُونَ ٦٨

٢١٥

كفر الدهرية. و ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: بِمُصَدِّقِينَ، ثم دعا عليهم نبيهم وطلب عقوبتهم على تكذيبهم.

١٥١ - (٥٣) تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قال الله تعالى لهذا النبي الداعي: عَمَّا قَلِيلٍ يَنْدَمُ قَوْمُكَ عَلَى كُفْرِهِمْ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ. ومن ذَكَرَ الصَّيْحَةَ ذَهَبَ الطَّبْرِي إِلَى أَنَّهُمْ قَوْمٌ ثُمُود. وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه: بما استحقوا بأفعالهم وبما حق منا في عقوبتهم. و (الْعُثَاء): ما يحملُه السيل من زَبَدِهِ ومعتاده الذي لا يُتَنَفَعُ به، فَيُسَبِّهُ كل هَامِدٍ وتالفٍ بذلك. و ﴿فَبَعَثْنَا﴾ منصوب بفعل متروك إظهاره.

ثم أخبر تعالى عن أنه أنشأ بعد هؤلاء أُمَّماً كثيرة، كل أُمَّة بأجل وفي كتاب لا تتعدها في وجودها وعند موتها.

عاصم، وابن عامر بفتحها، وهي قراءة الحسن وأبي عبدالرحمن، وقرأ ابن عباس، ونصر عن عاصم بكسرها. وقرأ محمد بن إسحاق: ﴿رُبَاوَةٌ﴾ بضم الراء، وقرأ الأشهب العقيلي بفتحها، وقرأت فرقة بكسرهما، وكلها لغات قرأ بها. و«الْقَرَارُ»: المتمكن، فمعنى هذا أنها مستوية بسيطة للحرث والغراس، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال قتادة: القرار هنا: الشمار والحبوب.

ومعنى الآية أنها من البقاع التي كملت خصالها فهي أهل أن يُسْتَقَرَّ فيها، وقد يمكن أن يُسْتَقَرَّ على الكمال في البقاع التي ماؤها آبَارٌ، فَصِيحٌ بَعْدَ أَنْ مَاءَ هَذِهِ الرُّبُوعَةِ يُرَى معيناً جارياً على وجه الأرض، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا كمال الكمال.

و (الْمَعِينُ): الظاهر الجري للعين، فالميم زائدة، وهو الذي يُعَايِنُ جريه، لا كالبشر ونحوه، وكذلك أدخل الخليل هذه اللفظة في باب (ع ي ن)، وقد يحتمل أن يكون من قولهم: «مَعَنَ الْمَاءُ» إذا كَثُرَ، ومن قولهم: المعنُ المعروف والجود، فالميم فاء الفعل، وأشد الطبري على هذا قول عبيد بن الأبرص:

وَإِهْبَةِ أَوْ مَعِينَ مُعِينٌ
أَوْ مُضَبَّةٌ دُونَهَا لُهُوْبٌ
وقد قال رسول الله ﷺ:

«يرحم الله هاجر لو تركت زمزم لكانت عيناً معيناً»، وهذا يحتمل الوجهين، وهذه الرُبُوعَةُ هي الموضع الذي فرت إليه مريم حين استحيت

في قصة عيسى عليه السلام، وهو الذي قيل لها فيه: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، هذا قول بعض المفسرين.

واختلف الناس في موضع الرُبُوعَةِ - فقال ابن المسيب سعيد: هي الغوطة بدمشق. وهذا أشهر الأقوال لأن صفة الغوطة أنها ذات قرار ومعين على الكمال. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: هي الرملة في فلسطين، وأشدُّه الطبري، عن كريب، عن مُرَّةَ الْبَهْرِي، عن النبي ﷺ، ويعارض هذا القول أن الرملة ليس يجري بها ماء البئة، ذكره الطبري وضَعَفَ القول به، وقال كعب الأحبار: الرُبُوعَةُ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، وزعم أن في التوراة أن بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء، وأنه يزيد على الأرض ثمانية عشر ميلاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويترجح أن الرُبُوعَةُ في بيت لحم من بيت المقدس لأن ولادة عيسى هنالك كانت، وحينئذ كان الإيواء، وقال أبو زيد: الرُبُوعَةُ بِأَرْضِ مِصْرَ، وذلك أنها رُبِيَّ يجري فيض النيل إليها فيملاً الأرض ولا ينال تلك الرُبِيَّ وفيها القرى وبها نجاتها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويضعف هذا القول أنه لم يُرَوَّ أن عيسى عليه السلام ومريم كانا بأرض مصر ولا حفظت لهما بها قصة.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ يحتمل أن يكون معناه: وقلنا يَا أَيُّهَا الرسل، فتكون هذه بعض القصص التي ذكر، وكيف كان قول المعنى، فلم يخاطبوا قط مجتمعين وإنما

خوِّط كل واحد في عصره. وقالت فرقة: الخطابُ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ لمحمد ﷺ، ثم اختلف - فقال بعضهم: أقامه مقام الرسل، كما قال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، وقيل غير هذا مما لا يثبت مع النظر. والوجه في هذا أن يكون الخطاب لمحمد ﷺ، وخرج بهذه الصيغة ليفهم وجيزاً أن هذه المقالة قد خوِّط بها كل نبي، أو هي طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها، وهذا كما تقول لثاجر: يا ثُجَّارُ ينبغي أن تتجانبا الرُّبَا، فأنت تخاطبه بالمعنى، وقد اقترن بذلك أن هذه المقالة تصلح لجميع صنفه وقال الطبري: الخطاب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ لعيسى عليه السلام، وروى أنه كان يأكل من غزل أمه، والمشهور أنه كان يأكل من بقل البرية، ووجه خطابه لعيسى عليه السلام ما ذكرناه من تقدير لمحمد ﷺ.

و(الطَّيَّاتُ) هنا: الحلال بلذَّة وبغير ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنِّي يَمَّا تَمَلُّونَ عَلَيْهِمُ﴾ تنبيه على التحفظ، وضرب من الرعيد بالمباحثة، صلى الله على جميع أنبيائه ورسله، وإذا كان هذا معهم فما ظن كل الناس بأنفسهم.

٥٢ - ٥٣ تفسير قوله عز وجل:

قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَلَنْ هَذِهِ﴾ بكسر الالف وشدة النون. وقرأ ابن عامر: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ﴾ بفتح الالف وتخفيف «أَنَّ». وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿وَأَنَّ

ثم ذكر تعالى أن كل فريق منه معجب برأيه وضلالته، هذا غاية الضلال؛ لأن المرتاب بما عنده ينظر إلى طلب الحق، ومن حيث كان ذكر الأمم في هذه الآية مثلاً لقريش خاطب محمداً عليه الصلاة والسلام في شأنهم متصلاً بقوله: ﴿فَذَرْنَهُمْ﴾، أي: فذر هؤلاء الذين هم بمنزلة من تقدم. (والغمرة): ما عثمهم من ضلالهم وقَعَل بهم فعل الماء الغمر بما حصل فيه، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿فَذَرْنَهُمْ فِي غَمَرَاتِهِمْ﴾. و﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى وقت فتح فيهم غير محدود. وفي هذه الآية موادة منسوخة بآية السيف.

ثم وقفهم على خطأ رأيهم في أن نعمة الله عندهم بالمال ونحوه إنما هي لرضاه عن حالهم، ويثبت تعالى أن ذلك إنما هو إملاء واستدراج، وخبر ﴿أَنَّ﴾ في قوله: ﴿سَارِعَ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿سَارِعَ﴾ بنون العظمة، وفي الكلام - على هذه القراءة - ضمير عائد تقديره: ﴿لَهُمْ﴾ به. وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة: ﴿سَارِعَ﴾ بالياء وكسر الراء بمعنى أن إمدادنا يسارع، ولا ضمير مع هذه القراءة إلا ما يتضمن الفعل. ورؤي عن أبي بكرة المذكور ﴿سَارِعَ﴾ بفتح الراء، وقرأ الحرز النحوي: ﴿نَسْرِعَ﴾ بالنون وسقوط الألف، (والخيزات) هنا تعم الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿يَلَا يَشْرُونَ﴾ وعيد وتهديد، (الشعور) مأخوذ من الشعور وهو ما يلي الإنسان من الثياب.

٥٧ - ٥٨ تفسير قوله عز وجل:

لما فرغ من ذكر الكفرة وتوعدهم عَقَبَ ذلك بذكر المؤمنين ووعدهم

﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ إنما هو مخاطبة لجميعهم، وأنه بتقدير حضورهم، وتجيء هذه الآية بعد ذلك بتقدير: وقلنا للناس، وإذا قدرت ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ مخاطبة لمحمد ﷺ فليق اتصال هذه واتصال قوله: ﴿نَنْقُطُوا أَمْرَهُمْ﴾، أما إن قوله: ﴿وَأَنَّا رَجَعَكُمْ فَأَنْفَرَكُمْ﴾ وإن كان قيل للأنبياء فأمهم داخلون فيه بالمعنى فيحسن بعد ذلك اتصال ﴿نَنْقُطُوا﴾. ومعنى (الأمة) هنا الإملة والشرعة، والإشارة بـ ﴿هَذِهِ﴾ إلى الحنيفية السمحة ملحة إبراهيم عليه السلام وهو دين الإسلام.

وقوله: ﴿نَنْقُطُوا﴾ يريد الأمم، أي: افترقوا، وليس بفعل مطاوع كما تقول «تقطع الثوب»، بل هو فعل متعد بمعنى «قطعوا»، ومثله تجهمني الليل، وتخوفني الشئير، وتعرفني الزمن.

وقرأ نافع: ﴿زُبُرًا﴾ بضم الزاي والباء، جمع زبور. وقرأ الأعمش، وأبو عمرو - بخلاف -: ﴿زُبُرًا﴾ بضم الزاي وفتح الباء. فأما الأولى فتحتمل معنيين: أحدهما أن الأمم تنازعت أمرها كتباً منزلة، فاتبعت فرقة الصحف وفرقة التوراة وفرقة الإنجيل، ثم خَرَفَ الكل ويذل، وهذا قول قتادة. والثاني أنهم تنازعوا أمرهم كتباً وضعوها وضلالات ألفوها، وهذا قول ابن زيد، وأما القراءة الثانية فمنعناها: فَرَقًا كَزُرِّ الحديد.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ رَاجِعُونَ إِلَيْهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ يَسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِ لَهُمْ غَاسِقُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَبْلُغُ الْحَقَّ وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ ﴿٥٩﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَاتٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَصْحَابُ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَاثِلُونَ ﴿٦٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦١﴾ لَا يُجْتَرُونَ وَلَا يُنْكَرُونَ إِنَّا أَنْصَرُونَ ﴿٦٢﴾ فَكَانَتْ مَا يَنْتَبِهُنَّ عَلَيْنَا مَكِئِدٌ عَلَىٰ أَغْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ ﴿٦٣﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْتَجِرُونَ ﴿٦٤﴾ أَفَلَا يَذَرُوا الْقَوْلَ أُرِجَاءَ هُمْ أَمْ لَرَأْيِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٥﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُبْكَرُونَ ﴿٦٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَذَّبَهُمُ الْحَقُّ كَذِبُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَنْتَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ أَمْ قُلُوبُهُمْ خَرَجَافٌ رَاكٍ سَحِيرٌ وَغَوَّارٌ رَافِقِينَ ﴿٦٩﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٠﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَرِبُونَ ﴿٧١﴾

٣٤٦

هَذِهِ بفتح الألف وتشديد ﴿أَنَّ﴾. فالقراءة الأولى بَيِّنَةٌ على القطع، وأما فتح الألف وتشديد النون فمذهب سيبويه أنها متعلقة آخرًا بـ ﴿فَأَنْفَرَكُمْ﴾ على تقدير: «لأن»، أي: فانقون لأن أمتكم أمة واحدة وأنتي ربكم، وهذا عنده نحوه قوله عز وجل: ﴿رَأَى الْمَسِيحَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، و﴿رَأَى﴾ عنده في موضع خفض، وهي عند الخليل في موضع نصب لما زال الخافض، وقد عكس هذا الذي نسبت إليهما بعض الناس. وقال الفراء: ﴿رَأَى﴾ متعلقة بفعل مضمر تقديره: واعلموا أو احفظوا. وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق: ﴿أَنَّهُ وَجِدَهُ﴾ بالرفع على البدل. وقرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو: ﴿أَمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ بالنصب على الحال، وقيل على البدل من ﴿هَذِهِ﴾، وفي هذا نظر.

وهذه الآية تقوي أن قوله تعالى:

وذكر ذلك بأبلغ صفاتهم. (الإشفاق) أبلغ التوقع والخوف، و﴿يَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَنْ خَشْيَةَ﴾ لبيان جنس الإشفاق، والإشفاق إنما هو من عذاب الله تعالى، و﴿يَنْ﴾ في قولنا: ﴿يَنْ عذاب الله﴾ هي لابتداء غاية.

و(الآية) تعلم القرآن وتعلم العبر والمصنوعات التي لله تعالى وغير ذلك مما فيه نظر واعتبار.

وفي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ

ثم ذكرهم تعالى من الطرف الآخر وهو نفي الإشراك؛ لأن إكفار قريش أن يقولوا: ونحن نؤمن بآيات ربنا، ونريد أن نصدق بأنه المخترع الخالق، فذكر تعالى نفي الإشراك الذي لا حظ لهم فيه بسبب أصنامهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ على قراءة الجمهور معناه: يُعطون ما أعطوا، وقال الطبري: يريد الزكاة المفروضة وسائر الصدقة، وروي نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما، ومجاهد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما ضمهم إلى هذا التخصيص أن العطاء مستعمل في المال على الأغلب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وابن جبير: هو عام في جميع أعمال البر، وهذا حسن، كأنه قال: والذين يُعطون من أنفسهم في طاعة الله ما بلغه جهدهم. وقرأت عائشة أم المؤمنين، وابن عباس، وقتادة، والأعمش: ﴿يَأْتُونَ مَا آتَوْا﴾، ومعناه: يفعلون ما فعلوا،

ورويت هذه القراءة عن النبي ﷺ. وذهبت فرقة إلى أن معناه: من المعاصي، وذهبت فرقة إلى أن ذلك في جميع الأعمال طاعتها ومعصيتها، وهذا أمدح. وأسند الطبري عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: قلت: يا رسول الله، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ الذي يزني ويسرق؟ قال: «لا يا بنت أبي بكر، هي في الرجل يصوم ويتصدق وقلبه وجل يخاف ألا يتقبل منه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا نظر مع الحديث.

(وَالَّذِينَ) نحو الإشفاق والخوف. وصورة هذا الرجل أما المخلط فينبغي أن يكون أبداً تحت خوف من أن يكون ينفذ عليه الوعيد بتخليطه، وأما الثقي التائب فخوفه من الخاتمة وما يطلع عليه بعد الموت، وفي قوله سبحانه: ﴿أَتَيْتُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَجِعُونَ﴾ تنبيه على الخاتمة. وقال الحسن: معناه: الذين يفعلون ما يفعلون من البر ويخافون ألا يُنجيهم ذلك من عذاب ربهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عبارة حسنة.

وروي عن الحسن أيضاً أنه قال: المؤمن يجمع إحساناً وشفقة، والمنافق يجمع إساءة وأمثالاً.

وقرأ الجمهور: ﴿أَتَيْتُمْ﴾ بفتح الألف، والتقدير: بأنهم أو لأنهم أو من أجل أنهم، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَجِلَّةٌ﴾ عاملاً في ﴿أَنْ﴾ من حيث هي بمعنى: خائفة. وقرأ الأعمش: ﴿إِنَّهُمْ﴾ بكسر الألف

على إخبارٍ مقطوع في ضمنه تخويف.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم يبادرون إلى فعل الخيرات، وقرأ الجمهور: ﴿يُسْرِعُونَ﴾، وقرأ الحُرّ النحوي: ﴿يُسْرِعُونَ﴾، و﴿أَتَيْتُمْ إِلَيْهَا سَابِقُونَ﴾، وهذا قول بعضهم في قوله تعالى: ﴿لَهَا﴾، وقالت فرقة: معناه: من أجلها سابقون. فالسابق - على هذا التأويل - هو إلى رضوان الله، وعلى الأول هو إلى الخيرات، وقال الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: سبقت لهم السعادة في الأول فهم لها، ورجحه الطبري بأن اللام متمكنة في المعنى.

﴿١٧﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنَّ نَفْسًا بَاطِلًا رُشْمًا﴾ نسخ لجميع ما ورد في الشرع من تكليف ما لا يطاق على الحقيقة، وتكليف ما لا يطاق أربعة أقسام: ثلاثة حقيقة ورابع مجازي، وهو الذي لا يطاق الاشتغال بغيره مثل الإيمان للكافر والطاعة للمعاصي، وهذا التكليف باقٍ وهو تكليف أكثر الشريعة، وأما الثلاثة فورد اثنان منها، وفيها وقع النسخ المحال عقلاً في نازلة أبي لهب والمحال عادة في قوله: ﴿وَلَنْ تَبْدُرَ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية، والثالث لم يرد فيه شيء، وهو النوع المهلك لأن الله تعالى لم يكلفه عباده، فأما قتل القاتل ورجم الزاني فعقوبته بما فعل، وقد مضى القول مستوعباً في مسألة تكليف ما لا يطاق في سورة البقرة، وفي قولنا «ناسخ» نظر من

جهة التواريخ وما نزل بالمدينة وما نزل بمكة، والله المعين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَظْلُ بِالحَقِّ﴾ أظهر ما قيل فيه أنه أراد كتاب إحصاء الأعمال الذي ترفعه الملائكة، وفي الآية - على هذا التأويل - تهديد وتأنيس من الحيف والظلم، وقالت فرقة: الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ إلى القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يحتمل، والأول أظهر.

وقوله تعالى: ﴿فِي غَرَرٍ﴾ يريد: في ضلال قد غمرها كما يفعل الماء القمر بما حصل فيه، وقوله سبحانه: ﴿يَنْ هَذَا﴾ يحتمل أن يشير إلى القرآن، ويحتمل أن يشير إلى كتاب الإحصاء، ويحتمل أن يشير إلى الأعمال الصالحة المذكورة قبل، أي: هم في غمرة من أطراحها وتركها، ويحتمل أن يشير إلى الدين بجملته، أو إلى محمد ﷺ، وكل تأويل من هذه قد قالته فرقة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَقَلِّ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾، الإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الغمرة والضلال المحيط بهم، فمعنى الآية: بل هم ضالون معرضون عن الحق، وهم - مع ذلك - لهم سعيات فساد، فوسمهم تعالى بحالتي شر، قال هذا المعنى قتادة وأبو العالية، وعلى هذا التأويل فالإخبار عما سلف من أعمالهم وعمّا هم فيه. وقالت فرقة: الإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿يَنْ هَذَا﴾ فكأنه قال: لهم أعمال من دون الحق أو القرآن ونحوه، وقال الحسن بن أبي الحسن ومجاهد: إنما أخبر سبحانه وتعالى

بقوله: ﴿وَلَمْ أَقَلِّ﴾ عما يُستأنف من أعمالهم، أي أنهم لهم أعمال من الفساد سيعملونها.

﴿حَقٍّ﴾ حرف ابتداء لا غير، ﴿وَإِذَا﴾ الأولى و﴿وَإِذَا﴾ الثانية - التي هي جواب - تمنعان من أن تكون غاية لـ﴿عَمَلُونَ﴾.

و(المُتَرَفِّ) هو المنعم في الدنيا الذي هو منها في سرف، وهذه حال شائعة في رؤساء الكفرة من كل أمة.

﴿وَيَتَزَوَّجُونَ﴾ معناه: يستغيثون بصياح كصياح البقر، وكثر استعمال الجأر في البشر، ومنه قول الأعشى: يُزَاوِجُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيبِ

لَكَ طَوْرًا سُجُودًا وَطَوْرًا جُؤَارًا
وذهب مجاهد وغيره إلى أن العذاب المذكور هو الوعيد بيوم بدر، وفيه نقد على مترفيهم. والضمير في قوله: ﴿وَإِذَا هُمْ﴾ يعود على «المترفين» فقط لأنهم صاحوا حين نزل بهم الهزم والقتل يوم بدر، ويحتمل أن يعود على الباقيين بعد المعذبين، وقد حكى ذلك الطبري عن ابن جريج، قال: المُعَذَّبُونَ: قُتِلُوا بِدَرٍ، والذين يجأرون: أهل مكة لأنهم ناحوا واستغاثوا.

⑩ - ⑪ تفسير قوله عز وجل: المعنى: يقال يوم العذاب عند حلوله: ﴿لَا تَجْتَرِئُوا الْيَوْمَ أَنْ تَكُنَّا لَا تَضُرُّونَ﴾، وهذا القول يجوز أن يكون حقيقة، أي تقول لهم ذلك الملائكة، ويحتمل أن يكون مجازاً، أي: لسان الحال يقول ذلك، وهذا على أن الذين يجأرون هم المعذبون، وأما على قول ابن جريج فلا يحتمل أن تقول ذلك الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَلِّ عَلَيْكُمْ﴾ الآية يريد بها القرآن. و﴿تَكْهُنُونَ﴾ معناه: ترجعون وراءكم، وهذه استعارة للإعراض والإدبار عن الحق، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَكْهُنُونَ﴾ بضم الكاف وبذكر الأدبار بدلاً من الأعقاب. و﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حال، والضمير في ﴿يَدِهِ﴾ قال الجمهور: هو عائد على الحرم والمسجد وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته في الأمر، والمعنى: إنكم تعتقدون في أنفسكم أن لكم بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على الناس والمنازل عند الله، فأنتم تستكبرون لذلك، وليس الاستكبار من الحق وقالت طائفة: الضمير «في» عائد على القرآن من حيث ذكرت الآيات، والمعنى: يُحدث لكم سماع الآيات كفراً وطمعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول جيد.

وذكر مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ أَنَّ الضمير لمحمد ﷺ، وهو متعلق بما بعده، وكأن الكلام تم في قوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾، ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿سَمِيرًا تَهْجُرُونَ﴾.

وقوله: ﴿سَمِيرًا﴾ حال، وهو مفرد بمعنى الجمع، يقال: قومٌ سَمَرٌ وسَمَرٌ وسَامِرٌ، ومعناه سَهْرُ الليل، مأخوذ من السَّمر وهو ما يقع على الأشخاص من ضوء القمر، فكانت العرب تجلس للسمر تتحدث، وهذا أوجب معرفتها بالنجوم؛ لأنها تجلس في الصحراء فترى الطوالع مع

الغوارب. وقرأ الجمهور: ﴿سَمَرًا﴾، وقرأ أبو رجاء: ﴿سُمَارًا﴾، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، وابن محيصن: ﴿سُرًا﴾، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

مِنْ دُونِهِمْ إِنْ جِئْتَهُمْ سَمَرًا
عَزَفَ الْقِيَانِ وَمَجْلِسُ غَمُرٍ
وكانت قريش تسمُرُ حول الكعبة مجالسَ في أباطيلها وكفرها. وقرأ الجمهور: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بفتح التاء وضم الجيم، واختلف المتأولون في معناها؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناها: تَهْجُرُونَ الحقَّ وذكَّرَ الله تعالى، من الهَجْر المعروف. وقال ابن زيد: هو من هَجَرَ المريضُ إذا هَدَى، أي: تقولون اللغو من القول، وقاله أبو حاتم. وقرأ نافع وحده من السبعة: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بضم التاء وكسر الجيم، وهي قراءة أهل المدينة، وابن محيصن، وابن عباس أيضاً، ومعناه: تقولون الفُحْشَ والهَجْرَ من القول، وهذه إشارة إلى سبهم رسول الله ﷺ وأصحابه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً وغيره، وفي الحديث: «كنْتُ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هُجْرًا». وقرأ ابن محيصن، وأبو نهيك: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بضم التاء وفتح الهاء وشَدَّ الجيم مكسورة، وهو تضعيف هَجَرَ وتكثير الهَجْر أو الهُجْر على المعنيين المتقدمين، قال ابن جني: لو قيل إن المعنى أنكم تبالغون في المهاجرة حتى إنكم وإن كنتم سُمَرًا بالليل فكأنكم تَهْجُرُونَ

في الهَاجِرَةِ على غاية الانفضاح لكان وجهاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا تكون هذه القراءة تكثير ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بضم التاء وكسر الجيم لأنَّ أَفْعَلَ لا يتعدى ولا يُكْثَرُ بتضعيف؛ إذ التضعيف والهمزة متعاقبان.

ثم وبخهم على إعراضهم بعد تدبُّر القول لأنهم - بعد التدبر والنظر الفاسد - قال بعضهم: شِغْرٌ، وقال بعضهم: سِخْرٌ، وسائر ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَاءَكُمْ﴾ كذلك توبيخ أيضاً، والمعنى: أَلْبَدَغَ لهم أمراً لم يكن في الناس قبلهم؟ بل قد جاء الرسلُ قَبْلُ كَنُوح وإبراهيم وإسماعيل عليهم السلام، وفي هذا التأويل من التجوز أن جعل سالف الأمم آباءً؛ إذ الناس في الجملة آخرهم من أولهم. ويحتمل اللفظ معنى آخر على أن يُراد بآبائهم الأولين مَنْ فَرِطَ من سلفهم في العرب، كأنه قال: أَلَمْ يَذَّبُرُوا القول أم جاءهم أمر غريب من عند الله لم يأت آباءهم فبهر عقولهم، وثبت عنه أذهانهم، فكأن التوبيخ يتَّسَق بأن يُقَدَّر الكلام: أَلَمْ يَذَّبُرُوا أم بُهرت عقولهم وثبت أذهانهم عن أمر من أمور الله غريب في سلفهم؟ والمعنى الأول أبين.

﴿٦٩﴾ - ﴿٧١﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا أيضاً توبيخ، والمعنى: أَلَمْ يعرفوه صادقاً مدة عمره ولم يقع قط منهم إنكار لمعرفة وجه محمد ﷺ، وإنما أنكروا صدقه. وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾

توبيخ أيضاً لأن الفرق بين الحكمة وفصل الخطاب الذي جاء به وبين ذي الجِنَّة لا يخفى على ذي فِطْرَةٍ. ثم بين تعالى حاله عليه الصلاة والسلام في معيئه بالحق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّبَعُ الْحَقُّ أَفْوَاءَهُمْ﴾، قال ابن جريج وأبو صالح: الحقُّ: الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ليس من تَمَطُّ الآية. وقال غيرهما: الحقُّ هنا: الصواب والمستقيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأخرى، على أن يكون المذكور قَبْلُ الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ، ويستقيم - على هذا - فساد السماوات والأرض ومن فيهن لو كان بحكم هوى هؤلاء، وذلك أنهم جعلوا لله شركاء وأولاداً، ولو كان هذا حقاً لم تكن لله تبارك وتعالى الصفات العلية، ولو لم تكن له تلك الصنعة ولا القدرة، وكان ذلك فساد السماوات والأرض ومن فيهن، ومن قال إن الحق في الآية الله تعالى تشعبت له لفظة ﴿أَنَّبَعُ﴾ وصعب عليه ترتيب الفساد المذكور في الآية؛ لأن لفظة «الاتباع» - على كلا الوجهين - إنما هي استعارة بمعنى أن تكون أهواؤهم يصونها الحق ويقرِّرها، فنحن نجد الله تعالى قد قَدَّرَ كُفْرَ أُمَمٍ وأهواءهم، فليس في ذلك فساد سماوات، وأما الحق نفسه الذي هو الصواب فلو كان طبق أهوائهم لفسد كلُّ شيء، فتأملهُ.

وقرأ ابن وثاب: ﴿وَلَوْ أَنَّبَعُ﴾ بضم

قوله: «اللهم سبعاً كسني يوسف...» الحديث.

(٧٦) - (٧٧) تفسير قوله عز وجل:

هذا إخبار من الله عز وجل عن استكبارهم وطغيانهم بعد ما نالهم من الجوع، هذا قول روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن جريج أن «العذاب» هو الجوع والجذب المشهور نزوله بهم حتى أكلوا الجلود وما جرى مجراها، وأن «الباب» المتوعد يوم بدر، وهذا القول يرده أن الجذب الذي نالهم إنما كان بعد وقعة بدر، وروي أنهم لما بلغهم الجهد جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: أأست تزعج يا محمد أنك بعثت رحمة للعالمين؟

قال: بلى، قال: فقد قتلت الآباء بالسيف والأناء بالجوع، وقد أكلنا العجلهز، فنزلت الآية. و«اسْتَكْبَرُوا» معناه: انخفضوا وتواضعوا، ويحتمل أن يكون من السكون، ويلزمه أن يكون «اسْتَكْبَرُوا»، ووجهه أن فتحة الكاف مطلقة فتولدت ألف، ويعطي التصريف أنه من «كان»، وأن وزنه (اسْتَفْعَلَ)، وكونه من «كان» أبين، والمعنى: فما طلبوا أن يكونوا لربهم أهل طاعة، وعبيد خير. وروي عن الحسن رحمه الله أنه قال: «إذا أصاب الناس من قبل الشيطان بلاء فإنا هي نعمة، فلا تستقبلوها نعمة الله بالحمية، ولكن استقبلوها بالاستغفار، واستكبنوا وتضرعوا إلى الله»، وقرأ هذه الآية «وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَوُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ».

سألناهم ما لأفلقوا لذلك واستقلوك من أجله؟

وقرأ حمزة والكسائي: «خَرَجَا فَخَرَجَ». وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: «خَرَجَا فَخَرَجَ». وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «خَرَجَا فَخَرَجَ»، وهو المال الذي يُجْبَى ويؤتى به لأوقاف محدودة، قال الأصمعي: «الخَرْجُ الجُفْل مرة واحدة، والخَرْجُ ما تَرَدَّد لأوقات ما».

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: وهذا فرق استعمال، وإلا فهما في اللغة بمعنى، وقد قرئ «خَرَجَا» في قصة ذي القرنين.

وقوله: «فَخَرَجَ رَيْكَ» يريد ثوبه، سماء خراجاً من حيث كان معادلاً للخراج في هذا الكلام، ويحتمل أن يريد بخراج ريك رُزْق ريك، ويؤيد هذا قوله تعالى: «وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ» والصراط المستقيم: دين الإسلام. و«لَتَكُونَنَّ» معناه: عادلون ومعرضون.

ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم لو زال عنهم القحط ومن الله عليهم بالخصب ورحمهم بذلك لبقوا على كفرهم ولجؤا في طغيانهم. وهذه الآية نزلت في المدة التي أصابت فيها قريشاً السنون الجدية والجوع الذي دعا به رسول الله ﷺ في

وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكُفَّنا ما بهم مِنْ شَرِّ لَاجِرُوا طَغْيَانِهِمْ بِعَمَلِهِمْ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَوُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ ﴿٧٧﴾ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْ هُمْ فِيهِ مُبَسِّطُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَ لَكُمْ الْزُرْعَ وَالنَّخْلَ وَالشَّجَرِ الْمُنْتَجِنَ ﴿٨٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨١﴾ بَلْ قَالُوا أَإِشْرَاقُ مَقَالٍ أَمْ لَأُنْزِلَتْ سَحَابٌ مَائِيَّةٌ قَالُوا أَأَوْدَاقُنا وَكُنَّا نُرَاكُمُ عِظَمًا أَوْ نَافَا لَمُبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَاكَ وَإِنْ هَذَا مِنْ قَبْلُنا هَذَا إِلَّا أَصْطِيرُ الْأَوَّلِ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقُورُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ مَلَكُوتِكُمْ كُلِّ مَنْ هُوَ يُعْزِرُ وَلَا يُعْزِرُ عَلَيْهِمْ لَوِائِلُ كُتُبِهِمْ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَسْخَرُونَ ﴿٨٨﴾

٣٤٧

الواو، قال أبو الفتح: الضم في هذه الواو قليل، والوجه تشبيهها بواو الجمع كقوله تعالى: «أَشْرَكُوا أَصْلَهُ».

وقوله تعالى: «يَذَكِّرْهُمْ» يحتمل أن يريد: يوعظهم والبيان لهم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقرأ قتادة: «نَذَرُكُمْهُمْ» بنون مضمومة وذال مفتوحة وكسر الكاف مشددة. ويحتمل أن يريد: يشرفهم، وهو مروى. وقرأ عيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق: «أَيَسَّنَّاهُمْ يَذَكِّرْهُمْ» بضم تاء المتكلم، وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً: «بَلْ أَتَيْنَهُمْ» خطاباً لمحمد ﷺ. وقرأ الجمهور: «بَلْ أَتَيْنَهُمْ يَذَكِّرْهُمْ» أي جئناهم، وروي عن أبي عمرو «أَتَيْنَاهُمْ» بالمد، بمعنى أعطيناهم.

(٧٦) - (٧٧) تفسير قوله عز وجل:

هذا توبيخ لهم كأنه قال: أم

وَالْعَذَابُ الشَّدِيدُ) إمّا يوم بدر بالسيف كما قال بعضهم، وإمّا توعدّ بعذاب غير معين، وهو الصواب لما ذكرناه من تقدم بدر للمجاعة، وروي عن مجاهد أن العذاب والباب الشديد هو كله في مجاعة قريش.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا حسن، كان «الأخذ» في صدر الأمر، ثم فتح الباب عند تنأيه حيث أبلسوا وجاء أبو سفيان.

و(المبلس): الذي قد نزل به شرٌ ويش من زواله ونسخه بخير.

﴿٧٨﴾ - ﴿٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

ابتدأ تعالى بتعديد نعم في نفس تعديدها استدلال بها على عظيم قدرته، وأنها لا يعزب عنها أمر البعث ولا يعظم.

و﴿أَنشَأَ﴾ بمعنى اخترع، و(السنع) مصدر، فلذلك وُحِدَ، وقيل: أراد الجنس. و﴿وَالْآفِئَّةَ﴾ القلوب، وهذه إشارة إلى النطق والعقل، وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: شكراً قليلاً ما تشكرون، وذُهِبَ فرقة إلى أنه أراد: قليلاً منكم من يشكر، أي من يؤمن ويشكر حق الشكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أظهر.

و﴿ذَكَرَ﴾ معناه: بَثَّ وخلق، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ نَحْتَرُونَ﴾ فيه حذف مضاف، أي: إلى حكمه وقضائه، و﴿نَحْتَرُونَ﴾ يريد آية البعث.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ انْخِلَتْ آيَلٌ وَالتَّهَارُ﴾ أي: له القدرة التي عنها ذلك. و(الاختلاف) هنا التعاقب والكون خلفه، ويحتمل أن يكون الذي هو المغايرة البينة.

وقوله تعالى: ﴿بَلَّ﴾ إضراب، والنجذ قبله مقدر، كأنه قال: ليس لهم نظر في هذه الآيات، أو نحو هذا، و(الأولون) يشير به إلى الأمم الكافرة كعاد وثمود، وقوله تعالى: ﴿كَبَبُورُنَ﴾ أي لمُحَادُونَ أحياء، وقولهم: ﴿وَبَاكَوْنَا﴾ إن حَكَى المقالة عن العرب فمرادهم من سلف من العالم، جعلوهم آباء من حيث النوع واحد، وإن حَكَى ذلك عن الأولين فالأمر مستقيم فيهم. و(الأساطير) قيل: هي جمع أسطورة كأعجوبة وأعاجيب وأحدوث وأحاديث، وقيل: هي جمع جمع، يقال: سَطَرَ وأسَطرَ وأسَاطير.

﴿٨٠﴾ - ﴿٨١﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتوقيفهم على هذه الأشياء التي لا يمكنهم إلا الإقرار بها، ويلزم من الإقرار بها أن يؤمنوا بِبَارِئِهَا ويدعوا لِشَرْعِهِ ورسالة رسوله.

وقرأ الجميع في الأول: ﴿لِلَّهِ﴾ بلا خلاف. واختلف في الثاني والثالث، فقرأ أبو عمرو: ﴿أَلِلَّةَ﴾ جواباً على اللفظ، وقرأ باقي السبعة: ﴿لِلَّهِ﴾ جواباً على المعنى، كأنه قال في السؤال: لِمَنْ ملك السموات السبع؟ إذ قولك: لمن

هذه الدار؟ وقولك: من ممالك هذه الدار؟ واحذ في المعنى.

ثم جعل التوبيخ مدرجاً بحسب وضوح الحجة شيئاً شيئاً، فوقف على الأرض ومن فيها وجعل بإزاء ذلك التذكّر، ثم وقف على السموات السبع والعرش وجعل بإزاء ذلك التقية وهي أبلغ من التذكّر، وهذا بحسب وضوح الحجة، وفي قوله: ﴿أَنَّا نُنْشِئُ﴾ وعيد، ثم وقف على ملكوت كل شيء، وفي الإقرار بهذا التزام ما تقع به الغلبة في الاحتجاج، فوقع التوبيخ بعده في غاية البلاغة بقوله: ﴿فَأَنَّا نُنْشِئُ﴾ ومعنى ﴿أَنَّا﴾ كيف؟ ومن أين؟ وفي هذا تقرير سحرهم، وهو سؤال عن الهيئة التي سحروا بها، والسحر هنا مستعار لهم، وهو تشبيه لما وقع منهم من التخليط ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع من المسحور، عبّر عنهم بذلك. وقالت فرقة: ﴿نُنْشِئُ﴾ معناه: تمنعون، وحكى ذلك بعضهم لغة.

وقرأ ابن محيصن: ﴿الْعَظِيمَ﴾ برفع الميم، و﴿مَلَكُوتَ﴾ مصدر في بنائه مبالغة.

و(الإجارة): المنع من الإنسان، والمعنى أن الله تبارك وتعالى إذا منع أحداً فلا يُقدر عليه، وإذا أراد أحداً فلا مانع له، وكذلك في سائر قدرته وما نفذ من قضائه، لا يُعارض ذلك شيء ولا يحيله عن مجراه.

تفارق «إِذَا» عند المبرد، ويجوز عند سيبويه أن تفارقها فيقال: «إِذَا تُرِيتِي»، لكن استعمال القرآن لزومها فمن هنالك التزمه المبرد.

وهذا الدعاء فيه استصحاب الخشية والتحذير من الأمر المُعَذَّب من أجله، ثم نظيره لسائر الأمة دعاء في جودة الخاتمة. وفي هذه الآية بجملتها إعلام بقرب العذاب منهم كما كان في يوم بدر. وقوله ثانياً: ﴿رَبِّ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه.

وفي قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالْيَمِينِ أَحْسَنَ السَّيِّئَةِ﴾ الآية. أمرٌ بالصفح ومكارم الأخلاق، وما كان منها لهذا فهو محكم باق في الأمة أبداً، وما فيها من معنى موادة الكفار وتزك التعرض لهم والصفح عن أمورهم منسوخٌ بالقتال؛ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَقْلَمُ يَمًا بَصِيرَتِ﴾ يقتضي أنها آية موادة. وقال مجاهد: الدَّفْعُ بالتي هي أحسن هو السلام، تسلم عليه إذا لقيته، وقال الحسن: والله لا يُصيبها أحد حتى يكظم غيظه ويصفح عما يكره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذان الطرفان، وفي هذه الآية عِدَّةٌ للنبي ﷺ، أي: اشتغل أنت بهذا وكل تعذيبهم والنقمة منهم إلينا، وأمره بالتعوذ من الشيطان في همزاته، وهي سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه، وكأنها هي التي كانت تصيب المؤمنين مع الكفار ففزع المُخَادَّة، فلذلك اتصلت بهذه الآية، وقال ابن زيد: همزُ الشيطان: الجنون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

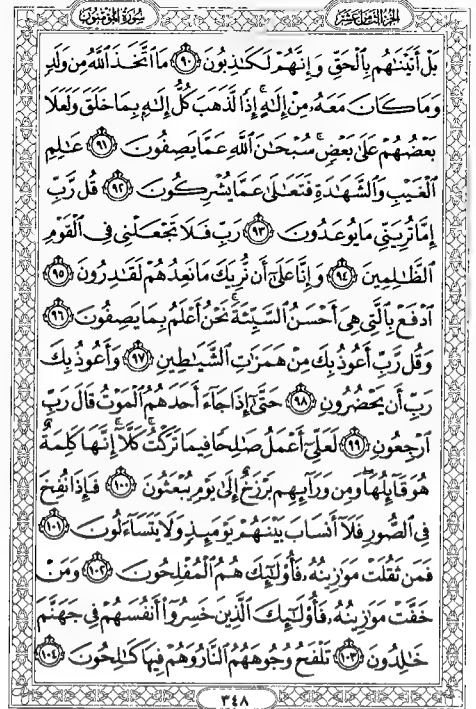
الحجة عليهم فإن ما التزم جوازه جارٍ في الحجة مجرى ما التزم وقوعه.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا﴾ جواب لمحذوف تقديره: لو كان معه إله إذا ذهب كل إله. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ بكسر الميم إتباعاً للمكتوبة في قوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ﴾، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ بالرفع، والمعنى: هو عالم، قال الأخفش: الجَرُّ أجود ليكون الكلام من وجه واحد، وقال أبو علي: ووجه الرفع أن الكلام قد انقطع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والابتداء عندي أبوع.

والفاء في قوله تعالى: ﴿وَنَعْلَى﴾ عاطفة بالمعنى، كأنه قال: «عالم الغيب والشهادة فتعالى»، وهذا كما تقول: «زيد شجاع فعظمت منزلته»، أي: شجع فعظمت، ويحتمل أن يكون المعنى: فأقول تعالى عما يشركون على إخبار مؤتلف، و(الْغَيْبُ): ما غاب عن الناس، و(الشَّهَادَةُ): ما شهده.

﴿٩٧﴾ - ﴿٩٨﴾ تفسير قوله عز وجل: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعو لنفسه بالنجاة من عذاب الظلّة إن كان قضي أن يرى ذلك، و﴿إِنْ﴾ شرط و﴿مَا﴾ زائدة، و﴿تُرِيتِي﴾ جزم بالشرط لزمته النون الثقيلة، وهي لا



﴿٩٧﴾ - ﴿٩٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ليس الأمر كما يقولون من يستبهم إلى الله تعالى ما لا يليق به، بل أتيناهم. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿أَتَيْنَهُمْ﴾ على الخطاب لمحمد ﷺ. و﴿لَكَذِبُونَ﴾ يراد به: فيما ذكروا لله تعالى من الصاحبة والولد والشريك، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْإِلَهِ﴾ دليل التمانع، وهذا هو الفساد الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، والخبر المُخْتَرع محال أن تتعلق به قدرتان فصاعداً، ولو اختلف إلهان في إدارة فمُحال نفوذهما ومحال عجزهما، فإذا انفردت إرادة الواحد فهو العالي والآخر ليس بإله، فإن قيل: نُقَدِّرهما لا يختلفان في إرادة قيل: ذلك يعرض فإذا جَوَّزَه الكفار قامت

وفي مصنف أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»، قال أبو داود: وهَمْزُهُ الْمَوْتَةُ وَهِيَ الْجَنُونُ، وَنَفْثُهُ الْكِبَرُ، وَنَفْثُهُ السَّحَرُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَالْتَزَعَاتُ وَسَوَارِثُ الْغَضَبِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَهِيَ الْمُتَعَوِّذُ مِنْهَا فِي الْآيَةِ، وَالتَّعَوُّذُ مِنَ الْجَنُونِ أَيْضاً وَكَيْدِ، وَفِي قِرَاءَةِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: «رَبِّ عَائِذاً بِكَ مِنْ هَمْزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَعَائِذاً بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ». وقوله: «أَنْ يَحْضُرُونَ» معناه: أَنْ يَكُونُوا مَعِي فِي أُمُورِي، فَلِإِنِّهِمْ إِذَا حَضَرُوا الْإِنْسَانَ كَانُوا مَعْدِينِ لِلْهَمْزِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ حَاضِراً فَلَا هَمْزَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَأَصْلُ الْهَمْزِ الدَّفْعُ وَالْوَحْدُ بِيَدٍ وَغَيْرِهَا، وَمِنْهُ قَمْزُ الْخَيْلِ وَهَمْزُ النَّاسِ بِاللَّسَانِ، وَقِيلَ لِبَعْضِ الْعَرَبِ: أَتَهْمُزُ الْفَارَةَ؟ سُئِلَ بِذَلِكَ عَنِ اللَّفْظَةِ فَظَنَّ أَنَّ الْمُرَادَ شَخْصَ الْفَارَةِ فَقَالَ: الْهَرُّ يَهْمُزُهَا.

٩٩ - ١٠٢ تفسير قوله عز وجل:

﴿حَتَّىٰ﴾ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ابْتِدَاءً، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ غَايَةً مَجْرُودَةً بِتَقْدِيرِ كَلَامٍ مَحْذُوفٍ، وَالْأَوَّلُ أَبَيَّنَ لِأَنَّ مَا بَعْدَهَا هُوَ الْمَعْنَى بِهِ الْمَقْصُودُ ذِكْرُهُ. وَالضَّمِيرُ فِي «أَحَدَهُمْ» لِلْكَفَّارِ، وَقَوْلُهُ: «أَرْجُونَ» مَعْنَاهُ: إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَجُمِعَ الضَّمِيرُ بِتَخْرِجٍ عَلَى مَعْنِيَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَخَاطَبُهُ مَخَاطَبَةُ الْجَمْعِ تَعْظِيماً، عَلَى نَحْوِ إِخْبَارِهِ

تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ بَنُونَ الْجَمَاعَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ اسْتِغَاثَةً بِرَبِّهِ أَوَّلًا ثُمَّ خَاطَبَ مَلَائِكَةَ الْعَذَابِ بِقَوْلِهِ: «أَرْجُونَ». وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هِيَ فِي الْمُشْرِكِ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِذَا عَلَيْنِ الْمُؤْمِنُ قَالَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: تُرْجِعُكَ؟ فَيَقُولُ: إِلَى دَارِ الْهَمُومِ وَالْأَحْزَانِ؟ بَلْ قَدِمَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَقُولُ: «أَرْجُونَ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا». وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَالْجُمْهُورُ: «لَعَلِّي» بِسُكُونِ الْيَاءِ، وَقَرَأَ طَلْحَةُ بْنُ مَصْرَفٍ: «لَعَلِّي» بِفَتْحِ الْيَاءِ. وَ«كَلَّا» كَلِمَةٌ زَجَرٌ وَهِيَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى.

وقوله: «إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا» يَحْتَمِلُ ثَلَاثَةَ مَعَانٍ: أَحَدُهَا: الْإِخْبَارُ الْمُؤَكَّدُ بِأَنَّ هَذَا الشَّيْءَ يَقَعُ وَيَقُولُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ، وَالْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: إِنَّهَا كَلِمَةٌ لَا تَغْنِي أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَقُولَهَا، وَلَا نَفْعَ لَهَا فِيهَا وَلَا غَوْتٌ، وَالثَّالِثُ: أَنْ تَكُونَ إِيضاً إِلَى أَنَّهُ لَوْ رُدُّ لَعَادَ، فَتَكُونُ آيَةً دُمُ لِهِمْ. وَالضَّمِيرُ فِي «رَبَّائِهِمْ» لِلْكَفَّارِ، أَيْ يَأْتِي بَعْدَ مَوْتِهِمْ حَاجِزٌ مِنَ الْمُدَّةِ. (وَالْبَرْزُخُ) فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْحَاجِزُ بَيْنَ الْمَسَافَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَعَارُ لِمَا عَدَا ذَلِكَ، فَهُوَ هُنَا لِلْمُدَّةِ الَّتِي بَيْنَ مَوْتِ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ بَعْثِهِ، هَذَا إِجْمَاعٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ. وَ«يَوْمٍ» مُضَافٌ إِلَى «يَتَّبِعُونَ».

وقرأ الجمهور: «فِي الصُّورِ» وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فِي الصُّورِ» بِفَتْحِ الْوَاوِ جَمْعُ صُورَةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلَا أَنْسَابَ يَتَّبِعُهُ يَوْمَئِذٍ»، اخْتَلَفَ الْمُتَأَلِّفُونَ فِي صِفَةِ

ارتفاع الأنساب؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هذا عند النفخة الأولى، وذلك أن الناس بأجمعهم يموتون فلا يكون بينهم نسب في ذلك الوقت وهم أموات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل يزِيلُ مَا فِي الْآيَةِ مِنْ ذِكْرِ هَوْلِ الْحَشْرِ.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: إِنَّمَا الْمَعْنَى أَنَّهُ عِنْدَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ وَقِيَامِ النَّاسِ مِنَ الْقُبُورِ فَهَمُ حِينَئِذٍ لِهَوْلِ الْمَطْلَعِ قَدْ اشْتَغَلَ كُلُّ امْرِئٍ بِنَفْسِهِ، قَدْ انْقَطَعَتْ بَيْنَهُمُ الْوَسَائِلُ وَزَالَ انْتِفَاعُ الْأَنْسَابِ، فَلِذَلِكَ نَفَاها، فَالْمَعْنَى: فَلَا أَنْسَابَ نَافِعَةً. وَرَوَى عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَى الْإِنْسَانِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِمَّنْ يَعْرِفُ، لِأَنَّهُ يَخَافُ أَنْ يَكُونَ عَنْدهُ مَظْلَمَةٌ، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَفْرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، وَيَفْرَحُ كُلُّ أَحَدٍ بِوَمُئِذٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ حَقٌّ عَلَى ابْنِهِ وَأَبِيهِ، وَقَدْ وَرَدَ بِهَذَا حَدِيثٌ. وَكَذَلِكَ ارْتِفَاعُ التَّسْأُلِ لِهَذِهِ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، ثُمَّ يَأْتِي فِي الْقِيَامَةِ مَوَاطِنُ يَكُونُ فِيهَا السُّؤَالُ وَالتَّعَارُفُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَهَذَا التَّأْوِيلُ حَسَنٌ، وَهُوَ مَرْوِيُّ الْمَعْنَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَثَقُلَ الْمَوَازِينُ هُوَ بِالْحَسَنَاتِ، وَالثَّقُلُ وَالْخَفَةُ إِنَّمَا يَتَعَلَّقَانِ بِأَجْرَامِ يَخْتَرَعُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا ذَلِكَ، وَهِيَ فِيمَا رَوَى بَرَاءَةُ.

قال: فتنتطبق عليهم جهنم، ويقع اليأس، ويقون يتنج بعضهم في وجه بعض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واختصرت ذلك الحديث لعدم صحته، لكن معناه صحيح، عافانا الله من ناره بيمته.

وقوله تعالى: ﴿أَخْسَرُوا زَجْرًا﴾ وهو مستعمل في زجر الكلاب، ومنه قول النبي ﷺ لابن صياد: «أخسأ فلن تعدو قدرك».

﴿١٠٣﴾ - ﴿١٠٤﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأ هارون: ﴿أَنَّهُ كَانَ﴾ بفتح الألف، وهي قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه، وزوي أن في مصحف أبي بن كعب ﴿أَنْ كَانَ﴾، وهذا كله متعاضد، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونَ كَانٌ فَرِيقٌ﴾ بغير «إنه»، وهذه تعضد كسر الألف من ﴿إِنَّهُ﴾ لأنها استئناف، وهذه الهاء مبهمة ضمير الأمر، والكوفيون يسمونها المجهولة، وهي عبارة فاسدة. وهذه الآية كلها مما يقال للكفرة على جهة التوبيخ.

والفريق المشار إليه كل مستضعف من المؤمنين يتفق أن يكون حاله مع كفار مثل هذه الحال، ونزلت الآية في كفار قريش مع صهيب وعثمارة وبلال رضي الله عنهم ونظرانهم، ثم هي عامة فيمن جرى مجراهم قديماً وبقية الدهر.

وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين، وقرأ الباقون: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكسرها، قالت طائفة هما بمعنى واحد، ذكر ذلك

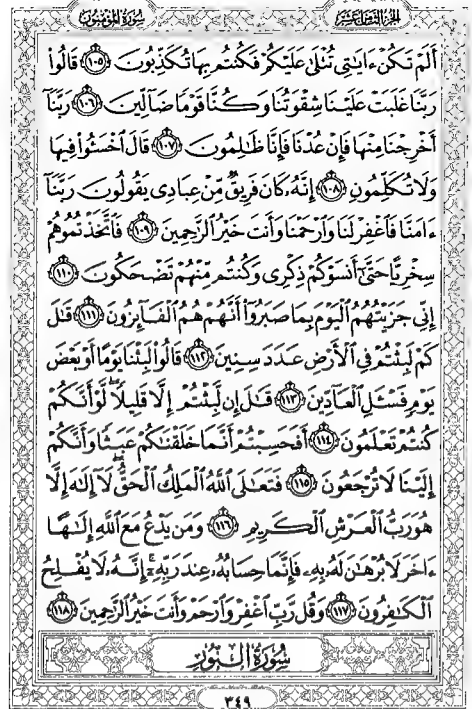
يعتري رؤوس الكباش إذا شبط بالنار فإنها تكلح، ومنها كلوح الكلب والأسد، ويستعار للزمان والخطوب.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَى عَلَى كَلِمَةٍ﴾ قبله محذوف تقديره: يقال لهم، والآيات هنا: القرآن، وأخبر عنهم تعالى أنهم إذا سمعوا هذا التقرير أذعنوا، وأقروا على أنفسهم، وسلموا بقولهم: ﴿عَلَّتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿شِقْوَتُنَا﴾ بكسر الشين

دون ألف، وهي قراءة الحرمين، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿شَقَاوَتُنَا﴾ بفتح الشين وألف بعد القاف، وهي قراءة ابن مسعود، وخير عاصم في الوجهين، وهما مصدران من شَقِيَ يَشْقَى، ثم تدرجوا من الإقرار إلى الرغبة والتضرع، وذلك أنهم ذلوا؛ لأن الإقرار بالذنب اعتذار وتنصل، فوقع جواب رغبتهم بحسب ما حتم الله تعالى من عذابهم بقوله تعالى: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾، وجاء ﴿وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ بلفظ نهي وهم لا يستطيعون الكلام على ما زوي، فهذه مبالغة في المنع، ويقال: إن هذه الكلمة إذا سمعوها يشعروا.

وحكى الطبري حديثاً طويلاً في مقالة تكون بين الكفار وبين مالك خازن النار، ثم بينهم وبين ربهم، وآخرها هذه الكلمة «أخسأوا فيها»،



﴿١٠٣﴾ - ﴿١٠٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

جمع «الموازن» من حيث الموزون جمع وهي الأعمال، ومعنى الوزن: إقامة الحجة على الناس بالمحسوس على عاداتهم وعرفهم، ووزن الكافر على حد وجهين: إما أن يوضع كُفْرُهُ في كُفَّةٍ فلا يجد شيئاً يعادله به في الكُفَّةِ الأخرى، وإما أن توضع أعماله من صلة رحم ووجه بر في كُفَّةِ الحسنات ثم يوضع كُفْرُهُ في الكُفَّةِ الأخرى فتخف أعماله.

و(لَفَّح النار): إصابتها بالوهج والإحراق، وقرأ أبو حنيفة: ﴿تَكْلُمُونَ﴾ بغير ألف، و«الكَلْحُ»: انكشاف الشفتين عن الأسنان، وهذا يعتري الإنسان عند المباحشة عند الغضب، ويعتري الرؤوس عند النار، وقد شبهه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ما في هذه الآية بما

الطبري، وقال أبو زيد الأنصاري: إنهما بمعنى الهزء، وقال أبو عبيدة وغيره: إن ضم السين من السخرة والتخديم، وكسر السين من السخر وهو الاستهزاء، ومنه قول الأعشى:

إِنِّي أَنَا نِي حَدِيثٌ لَا أَسْرُبُهُ
مِنْ عَلَوٍ لَا كَذِبٌ فِيهِ وَلَا سَخَرُ

قال أبو علي: قراءة كسر السين أوجه لأنه بمعنى الاستهزاء والكسر فيه أكثر، وهو أليق بالآية، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَكُثِّرْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ألا ترى إلى إجماع القراء على ضم السين في قوله تعالى: ﴿يَتَخَدَّ بِضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَاءً﴾ لما تخلص الأمر للتخديم، قال يونس: إذا أريد التخديم فهو بضم السين لا غير، وإذا أريد الهزء فهو بالضم والكسر. وقرأ أصحاب عبدالله، والأعرج، وابن أبي إسحاق كل ما في القرآن بضم السين. وقرأ الحسن، وأبو عمرو كل ما في القرآن بالكسر إلا التي في الزخرف فإنهما ضما السين كما فعل الناس لأنها من التخديم، وأضاف الإنساء إلى الفريق من حيث كان بسببهم، والمعنى أن اشتغالهم بالهزء بهؤلاء أناسهم ما ينفعهم.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْفَآرِزُونَ﴾ بفتح الألف، فـ﴿جَزَيْتَهُمْ﴾ عامل في أن، ويجوز أن يعمل في مفعول محذوف، ويكون التقدير: لأنهم. وقرأ

حمزة، والكسائي، وخارجة عن نافع: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْفَآرِزُونَ﴾ بكسر الألف، فالمفعول الثاني لـ﴿جَزَيْتَ﴾ مقدر، تقديره: الجئة والرضوان. و﴿الْفَآرِزُونَ﴾ المُنْتَهُونَ إلى غايتهم التي كانت أملهم. ومعنى الفوز: النجاة من هلكة إلى نعمة.

﴿١١٢﴾ - ﴿١١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿قَدْ كَفَّ لَيْتُهُمْ﴾، و﴿قَدْ كَفَّ لَيْتُهُمْ﴾، وروى البرقي عن ابن كثير: ﴿قَدْ كَفَّ لَيْتُهُمْ﴾ على الأمر، و﴿قَدْ كَفَّ لَيْتُهُمْ﴾ على الخبر. وأدغم أبو عمرو، وحمزة، والكسائي الشاء، والباقيون لا يدغمونها، فمعنى الأول: الإخبار بأن الله يوقفهم للسؤال عن المدة ثم يعلمهم آخراً بلبيهم قليلاً، ومعنى الثانية: الأمر لواحد منهم مُشَارٌ إليه، بمعنى: يقال لأحدهم قل كذا، فإذا قال غير القويم قيل له: قل: إن لبيتم، ومعنى رواية البرقي: التوقيف ثم الإخبار، وفي المصاحف: ﴿قَدْ كَفَّ﴾ فيهما، إلا في مصحف الكوفة فإن فيه ﴿قَدْ كَفَّ﴾ بغير ألف.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، قال الطبري: معناه: في الدنيا أحياء، وعن هذا وقع السؤال، ونسوا لفرط هول العذاب حتى قالوا: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والغرض من هذا توقيفهم على أن أعمارهم قصيرة، أذاهم الكفر فيها إلى عذاب طويل. وقال جمهور المتأولين: في جوف التراب أمواتاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأصوب من حيث أنكروا البعث وكان قولهم: إنهم لا يقومون من التراب، قيل لهم لما قاموا: كم لبيتم؟ وقوله آخر: ﴿وَأَنْتُمْ إِنَّا لَا نَرْجِعُونَ﴾ يقتضي ما قلناه.

و﴿عَدَدَ﴾ نصب بـ﴿كَمْ﴾ على التمييز. وقرأ الأعمش: ﴿عَدَدًا سِينًا﴾ بتوئين ﴿عَدَدًا﴾.

وقال مجاهد: أرادوا بـ﴿الْمَلَايِينِ﴾ الملائكة، وقال قتادة: أرادوا أهل الحساب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر اللفظة أنهم أرادوا من يتصف بهذه الصفة ولم يعينوا ملائكة ولا غيرها؛ لأن النائم والميت لا يعد الحركة فيقدر له الزمان.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ لَيْتَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مقصده - على القول بأن المكث في الدنيا - أي قليل القدر في جنب ما تُعَذَّبُونَ، وعلى القول بأن المكث في القبور معناه أنه قليل، إذ كل آت قريب، ولكنكم كذبتهم به إذ كنتم لا تعلمون؛ إذ لم ترغبوا في العلم والهدى.

و﴿عَبَثًا﴾ معناه: باطلاً لغير غاية مُرَادَة. وقرأ الجمهور: ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بضم التاء وفتح الجيم، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بفتح التاء وكسر الجيم، والمعنى فيها بين.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٨﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: فتعالى الله عن مقاتلهم في جهته من صاحبة الولد، ومن حسابهم أنهم لا يرجعون، أي: تنزه الله عن تلك الأمور وتعالى

(٢٤)

سورة النور

مدنية

وآياتها أربع وستون

هذه السورة كلها مدنية.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجمهور: ﴿سورة﴾ بالرفع،

وقرأ عيسى بن عمر، ومجاهد:

﴿سورة﴾ بالنصب، وزوي ذلك أيضاً

عن عمر بن عبد العزيز، وعن

أُم الدرداء. فوجه الرفع أنه خبر

ابتداءً مضمّر تقديره: هذه سورة، أو

ابتداءً وخبره مفهوم تقديره: فيما

يُتلى عليكم، ويحتمل أن يكون

قوله: ﴿سورة﴾ ابتداءً، وما بعدها

صفة لها أخرجتها عن حد النكرة

المحضة، فحسن الابتداء لذلك،

ويكون الخبر في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ

وَالزَّانِي﴾ وفيما بعد ذلك، والمعنى:

السورة المُنزلة المفروضة كذا وكذا؛

إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة

لها بدءٌ وختمٌ، ولكن يلحق هذا

القول أن كون الابتداء هو الخبر ليس

بالبَيِّن إلا أن يُقدَّر الخبر في السورة

بأسرها، وهذا بعيد في القياس.

وجه النصب إضمار فعل قدره

بعضهم: اتل سورة، أو نحوه،

وجعله بعضهم: أنزلنا سورة

أنزلناها، وقال الفراء: هي حال من

الهاء والألف، والحال من المكنى

يجوز أن تقدم عليه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَرَضَّاهَا﴾

بتخفيف الراء، ومعناه الإثبات

أَبَي: «عند الله»، وزوي

أن فيه «على الله». ثم

حتم وأكد أن الكافر لا

يبلغ أمنيته ولا ينجح

سعيه. وقرأ الجمهور:

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ بكسر

الألف، وقرأ الحسن

وقتادة: ﴿أَنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾

بفتحها، والمعنى أنه إذ لا

يَتَذَكَّر ولا يفلح بآخر

حسابه وعذابه حتى يلقي

ربه. وقرأ الحسن:

﴿يُفْلِحُ﴾ بفتح الباء

واللام.

ثم أمر رسول الله ﷺ

بالدعاء في المغفرة

والرحمة والذكر له تعالى

بأنه خير الراحمين: لأن كل راحم

فمتصرف على إرادة الله تعالى

وتوفيقه وتقديره لمقدار هذه الرحمة.

ورحمته تعالى لا مشاركة لأحد فيها،

وأيضاً فرحمة كل راحم في أشياء

وبأشياء حقيرات بالإضافة إلى

المعاني التي تقع في رحمة الله تبارك

وتعالى من الاستفاد من النار، وهيئة

نعيم الجنة، وعلى ما في الحديث

فرحمة كل راحم مجموعها كلها جزء

من مائة من رحمة الله تعالى جلّت

قدرته؛ إذ بئ في العالم واحد

وأمسك عنده تسعة وتسعين.

وقرأ ابن محيصن: ﴿وَقُلْ رَبِّ

أَغْفِرْ﴾ بضم الباء من ﴿رَبِّ﴾.

ثم تفسير سورة المؤمنون والحمد

لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النُّورِ وَأَنزَلْنَاهَا فَاذْكُرُوا إِلَهَ إِلَهُكُمْ إِنِّي أَنزَلْتُهَا فِي الْأَنبَاءِ فَأَنبِئُوا بِهَا النَّاسَ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ حَقُّ كَلِمَةٍ لَا تُؤْتَى بِهَا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنبِئُوا أَنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١﴾ وَالزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتَيْهِمَا وَلَا بِإِصْبَتَيْهِمَا إِنِ احْتَسَبُوا تَعَابًا فَتُخْفَفَ مِنْهُمْ جُلْدُهُمَا إِلَى سِتَّةِ مِائَاتٍ وَلَا يَجْزِي اللَّهَ شَيْئًا إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿١٢﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿١٣﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِلَّهِ شَهَادَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿٣٠﴾

٢٥٠

عنها. وقرأ ابن محيصن:

﴿الْكَبِيرِ﴾ بالرفع صفة للرب.

ثم توعد جلّت قدرته عبدة الأوثان

بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ

اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية، والسعيد

قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾.

و(الْبُرْهَانُ): الحُجَّةُ وظاهر الكلام

أن ﴿وَمَن﴾ شرط، وجوابه في قوله:

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾، وقوله:

﴿لَا بُرْهَانَ لَّكَ بِهِ﴾ في موضع الصفة.

وذهب قومٌ إلى أن الجواب في

قوله: ﴿لَا بُرْهَانَ﴾، وهذا هروب من

دليل الخطاب من أن يكون ثم داع له

برهان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تحفُّظ مما لا يلزم، ويلحقه

حذف الفاء من جواب الشرط وهو

غير فصيح، قال سيويه. وفي حرف

عبدالله: «عِندَ رَبِّكَ»، وفي حرف

والإيجاب بأبلغ وجوهه، إذ هو مشبه بالفرض في الإلزام. وقرأ مجاهد وغيره؛ وأبو عمرو، وابن كثير، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وابن مسعود رضي الله عنه: «وَفَرَضْنَاهَا» بشدّ الراء، ومعناه: جعلناه فرائض، فمن حيث تردّد ذلك ضُعِفَ الفعل للمبالغة والتكثير. وقرأ الأعمش: «وَفَرَضْنَاهَا لَكُمْ»، وحكى الزهراوي عن بعض العلماء أنه قال: كل ما في السورة من أمر ونهي فرض.

والآياتُ البَيِّنَاتُ: أمثالها ومواعظها وأحكامها، وقال الزهراوي: المعنى: ليس فيها مشكل، تأويلها موافق لظاهرها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تحكّم.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ لَدَكُرُونُ﴾ أي على توقّع البشر ورجائهم.

وقرأ جمهور الناس: «الزَّانِيَةُ» بالرفع، وقرأ عيسى الشقفي: «الزَّانِيَةُ» بالنصب، وهو أوجه عند سيبويه لأنه عنده كقولك: زيدا اضرب. ووجه الرفع عنده أنه خبر ابتداءٍ تقديره: فيما يُتلى عليكم الزانية والزاني، وأجمع الناس على الرفع وإن كان القياس عند سيبويه النصب. وأما الفراء والمُبَرِّد والزجاج فإن الرفع عندهم هو الأوجه، والخبر في قوله تعالى: ﴿فَاقْبَلُوا﴾؛ لأن المعنى: إن الزانية والزاني مجلودان بحكم الله تبارك وتعالى، وهذا قول جيد. وهو قول أكثر النحاة، وإن شئت قدرت الخبر: ينبغي أن يُجلدوا. وقرأ ابن مسعود:

«وَالزَّانِ» بغير ياء، وقُدِّمت الزانية في اللفظ من حيث كان في ذلك الزمن زنى النساء أفشى، وكان لإماء العرب وبغايا الوقت رايات، وكنّ مجاهرات بذلك، والعارُ بالنساء ألحق إذ موضوعهن الحجب والصيانة، فقدم ذكرهن تغليظاً واهتماماً. والألف واللام في قوله: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي» للجنس، وذلك يُعطي أنها عامة في جميع الزناة، وهذه الآية باتفاقٍ ناسخةٌ لآية الحبس الآية الأولى اللتين في سورة النساء.

وجماعة من العلماء على عموم هذه الآية، وأن حكم المحصنين منسوخ منها. واختلفوا في الناسخ، فقالت فرقة: الناسخُ السُّنة المتواترة في الرُّجم، وقالت فرقة: بل القرآن الذي ارتفع لفظه وبقي حكمه، وهو الذي قرأه عمر رضي الله تعالى عنه على المنبر بمحضر الصحابة رضي الله عنهم «الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا بِنَتْنَةٍ» وقال: إننا قرأناه في كتاب الله تعالى، وأتفق الجميع على أن لفظه رفع وبقي حكمه. وقال الحسن بن أبي الحسن، وابن راهويه: ليس في هذه الآية نسخ، بل سُنّة الرجم جاءت بزيادة، فالمُخَصَّن - على رأي هذه الفرقة - يُجلد ثم يَرجم، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفعله بشراحة، ودليلهم قول النبي ﷺ: «وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جَلْدُ مِائَةِ وَالرَّجْمُ»، ويردّ عليهم فعل النبي ﷺ حيث رجم ولم يجلد، وبه قال جمهور الأمة إذ فعله كقوله رفع الجلد عن المحصن، وقال ابن سلام

وغيره: هذه الآية خاصة في البكرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأنه لم يبق من هذا حكمه إلا البكران، واستدلوا على ذلك بقول النبي ﷺ: «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام»، ويقول: «على ابنك جلد مائة»، واستدلوا على أنها غير عامة بخروج الإماء والعبيد وغيرهم منها، وقد تقدم بسط كثير من هذه المعاني في سورة النساء.

والجلد يكون والمجلود قاعد عند مالك، ولا يُجزى عنده إلا في الظاهر، وأصحاب الرأي والشافعي يرون أن يُجلد الرجل وهو واقف، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، ويُفَرَّق الضرب على كل الأعضاء، وأشار ابن عمر رضي الله عنهما بالضرب إلى رجلني أمة جلدها في الزنى، والإجماع في تسليم الوجه والعورة والمقاتل. ويترجح قول مالك رحمه الله بقول النبي ﷺ: «أَوْ حَذَّ فِي ظَهْرِكَ»، وقال عمر رضي الله عنه: «أَوْ لَأَوْجَعَنَّ مَثْنِي»، ويُعرَى الرجل عند مالك، والثَّخمي، وأبي عبيدة بن الجراح، وابن مسعود، وعمر بن عبد العزيز، والحسن، والشعبي. وغيرهم يرون أن يُضرب على قميص، وهو قول عثمان، وابن مسعود رضي الله عنهما أيضاً، وأما المرأة فتُسْتَر قولاً واحداً.

وقرأ الجمهور: «زَانَةً» بهمزة ساكنة على وزن فَعْلَةٍ، وقرأ ابن كثير: «زَانَةً» على وزن فَعْلَةٍ بفتح العين، وقرأ عاصم أيضاً: «زَانَةً»

على وزن فَعَالَة، كَسَامَة وكَابَة، وهذه مصادر أشهرها الأولى، من «زُؤُوف» إذا رُقَّ ورحم، وقرأ الجمهور: «تَأَخَذَكُمُ» بالتاء من فوق، وقرأ أبو عبد الرحمن: «يَأْخُذْكُمْ» بالياء من تحت.

واختلف الناس في الرافة المنهي عنها، فيم هي؟ فقال أبو مجلز: لاحق بن حُميد ومجاهد، وعكرمة، وعطاء: هي في إسقاط الحدِّ، أي: أقيموا ولا بُدَّ، وهذا تأويل ابن عمر رضي الله عنهما، وابن جبير، وغيرهما، ومن رأيهم أن الضرب في الزنى والفِرية والخمر على نحو واحد. وقال قتادة، وابن المسيب، وغيرهما: الرافة المنهي عنها هي تخفيف الضرب عن الزنى، ومن رأيهم أن يُخَفَّفَ ضرب الخمر والفِرية ويشدَّ ضرب الزنى. وقال سليمان بن يسار: نُهي عن الرافة في الوجهين، وقال أبو مجلز: إِنْما لَتَرْجُمَ المحدود ولكن لا تُسْقَطَ الحدُّ، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السوط: «دون هذا» ضرب من الرافة. وقال عمر رضي الله عنه: «اضرب ولا تُبَدِّلَنَّ إِبْطَكَ»، واتفق الناس على أن الضرب سوط بين سوطيين. وقال الزهري: ضرب الزنى والفِرية مُشَدَّدٌ لأنهما بمعنى واحد، وضرب الخمر مخفف. وقوله تعالى: «فِي دِينِ اللَّهِ» بمعنى: في الإخلال بدين الله، أي بشرعه، ويحتمل أن يكون الدِّين هنا بمعنى الحكم.

ثم قرره على معنى التشبث والحض بقوله: «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ

بِاللَّهِ»، وهذا كما تقول لرجل تحضه: إن كنت رجلاً فافعل كذا، أي: هذه أفعال الرجال.

وقوله تعالى: «وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ»، المقصد بالآية الإغلاظ على الزناة والتوبيخ بحضرة الناس، فلا خلاف أن الطائفة كلُّها كشرت فهي أليق بامتنال الأمر. واختلف الناس في أقل ما يُجزى؛ فقال الحسن بن أبي الحسن: لا بُدَّ من حضور عشرة، وقال: إن هذا العدد عقد خارج عن الأحاد وهي أقل الكثرة، وقال ابن زيد وغيره: لا بُدَّ من حضور أربعة، ورأوا أن شهادة الزنى كذلك وأن هذا باب منه. وقال الزهري: الطائفة ثلاثة فصاعداً، وقال عطاء وعكرمة: لا بُدَّ من اثنين، وهذا مشهور قول مالك، فرأها موضع شهادة. وقال مجاهد: يجزي الواحد ويُسمى طائفة، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما، ونزعا بقوله تعالى: «فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ» وقوله: «وَكَانَ طَائِفَتَانِ» ونزلت في قتال رجلين.

واختلف العلماء في التغريب، وقد غرَّبَ الصديق رضي الله عنه إلى فذك، وهو رأي عمر وعثمان وعلي وأبي ذر وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله تعالى عنهم، ولكن عمر رضي الله عنه بعد أن نفى رجلاً فَلَجَجَ بالرُّوم فقال: لا أنفي أحداً بعدها، وفيه عن مالك قولان، ولا يرى تغريب النساء والعبيد، واحتج بقوله ﷺ: «لا تسافر المرأة مسيرة يوم إلا مع ذي محرم»، وممن أبى

التغريب جملة أصحاب الرأي، وقال الشافعي: ينفي البكر رجلاً كان أو امرأة، ونفى علي رضي الله تعالى عنه امرأة إلى البصرة.

﴿٣﴾ تفسير قوله عز وجل: في هذه الآية أربعة أوجه من التأويل:

أحدها: أن يكون مقصد الآية تشنيع وتبشيع أمره، وأنه مُحَرَّمٌ على المؤمنين، واتصال هذا المعنى بما قبلُ حسنٌ بليغ، ويريد بقوله سبحانه: «لَا يَكُحُّ» أي لا يطأ، فيكون النكاح بمعنى الجماع، وردد القصَّة مبالغة وأخذاً من كلا الطرفين، ثم زاد تقسيم المشرِك والمشرِكة من حيث الشرك أعم في المعاصي من الزنى، فالمعنى: الزاني لا يطأ في وقت زناه إلا زانية من المسلمين أو من هي أخسُّ منها من المشرِكات، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابه أن النكاح في هذه الآية الوطء، وأنكر الزجاج وقال: لا يُعرف النكاح في كتاب الله تعالى إلا بمعنى التزويج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس كما قال، وفي القرآن ﴿حَتَّى تَكُحَّ رِجْلَا غَيْرِهِ﴾، وقد بيَّنه النبي ﷺ أنه بمعنى الوطء، وذكر الطبري ما ينحو إلى هذا التأويل عن سعيد بن جبير، وابن عباس، وعكرمة، ولكن غير ملَّخص ولا مكمل.

والثاني أن تكون الآية نزلت في قوم مخصوصين، وهذا قول روي معناه عن عبدالله بن عمر، وعن ابن عباس وأصحابه رضي الله تعالى عنهم، قالوا: وهم قوم كانوا يزنون

في جاهليتهم ببغايا مشهورات، فلما جاء الإسلام وأسلموا لم يمكنهم الزنى، فأرادوا - لفقرهم - زواج أولئك النسوة؛ إذ كان من عاداتهن الإنفاق على من ارتسم بزواجهن، فنزلت الآية بسببهن، والإشارة بـ ﴿وَالزَّانِي﴾ إلى أحد أولئك، حمل عليه اسم الزنى الذي كان في الجاهلية، وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْكِحُ﴾ أي لا يتزوج، وفي الآية - على هذا التأويل - معنى التفجع عليهم، وفي ذلك توبيخ كأنه يقول: أي مصاب؟ الزاني لا يريد أن يتزوج إلا زانية أو مشركة، أي: تنزع نفوسهم إلى هذه الخسائس لقلّة انضباطهم. ويردّ على هذا التأويل الإجماع على أن الزانية لا يجوز أن يتزوجها مشرك، ثمّ قوله: ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي نكاح أولئك البغايا، فيزعم أهل هذا التأويل أن نكاح أولئك البغايا حرّمه الله تعالى على أمة محمد ﷺ، ومن أشهرهن عتاق البغي، وكان الذي همّ يتزوجها ذلك، كان يستخرج ضعفة المسلمين من مكة سراً، ففطنت له ودعته إلى نفسها فأبى الزنى وأراد التزويج، واستأذن النبي ﷺ فنزلت الآية، ولما دعته وأبى قالت له: أتى تبرز؟ والله لأفضحك، وذكر الطبري أن من البغايا المذكورات أم مهزول جارية السائب المخزومي، ويقال فيها: أم مهزوم. وأم غليط جارية صفوان بن أمية، وحنّة القبطية جارية العاص بن وائل، ومزنة جارية مالك بن عميلة بن السباق بن عبد الدار، وجلالة جارية سهيل بن عمرو، وأم

سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومي، وشريفة جارية زمعة بن الأسود، وفرسة جارية هشام بن ربيعة، ومرثا جارية هلال بن أنس، وغيرهن ممن كان لهن رايات تعرف منازلهن بها، وكذلك كان بالمدينة إماء عبدالله بن أبي وغيره مشهورات.

وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في سياق هذا التأويل: «كانت بيوت في الجاهلية تسمى المواخير، كانوا يؤجرون فيها فتياتهم، وكانت معلومة للزنى، فحرّم الله ذلك على المؤمنين».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون هذا الكلام في التأويل الذي ذكرته قبل هذا. وواحد المواخير: ماخوّر، ومنه قول بعض المحدثين:

فِي كُلِّ وادٍ حَبَطْنَا فِيهِ دَسَكْرَةً
فِي كُلِّ تَشْرِيبٍ صَدَدْنَا فِيهِ مَاخُورٌ
والتأويل الثالث ذكره الزجاج وغيره عن الحسن، وذلك أنه قال: المراد الزاني المحدود والزانية المحدودة، قال: وهذا حكم من الله تعالى، فلا يجوز لزاني محدود أن يتزوج إلا محدوداً، وروي أن محدوداً تزوج غير محدود فردّ علي بن أبي طالب نكاحهما، وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد الزنى، وحكى الزهراوي في ذلك حديثاً من طريق أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله»، وهذا حديث لا يصح، وقول فيه نظر، وإدخال «المشرك» في الآية

يردّه، وألفاظ الآية تأباه وإن قدرت «المشركة» بمعنى الكتابية فلا حيلة في لفظ المشرك.

والرابع قد روي عن سعيد بن المسيب، وذلك أنه قال: هذا حكم كان في الزناة عامة، ألا يتزوج زان إلا زانية، ثم جاءت الرخصة ونسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَّانَ﴾، وروي ترتيب هذا النسخ أيضاً عن مجاهد، إلا أنه قال: إن التحريم كان في أولئك النفر خاصة لا في الزناة عامة، ذكر ذلك عنهما أبو عبيدة في ناسخه، وذكر عن مجاهد أنه قال: حُرِّمَ نكاح أولئك البغايا على أولئك النفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر «الاشراك» في الآية يضعف هذه المناحي.

وقرأ أبو البرهثيم: ﴿وَحَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

واختلف فيمن زنى بامرأة وأراد نكاحها؛ فأجاز ذلك أبو بكر الصديق، وابن عمر، وجابر بن عبدالله، وطاوس، وابن المسيب، وجابر بن زيد، وعطاء، والحسن، وعكرمة، وابن عباس، ومالك، والثوري، والشافعي. ومثّنه ابن مسعود، والبراء بن عازب، وعائشة، وقالوا: لا يزالان زانين ما اجتمعا.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية زلت في القاذفين، قال سعيد بن جبیر: كان سببها ما قيل في عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، وقيل: بل نزلت بسبب القذف عامة لا في تلك النازلة.

المحدودين شهادةً أبداً، وهذا يقتضي مدة أعمارهم، ثم حكم عليهم بأنهم فاسقون، أي خارجون عن طاعة الله عز وجل.

ثم استثنى جل وعز من تاب وأصلح من بعد القذف، فإنه وعدهم بالرحمة والمغفرة، فتضمنت الآية ثلاثة أحكام في القاذف: جلده، وردُّ شهادته أبداً، وفسقه، فلاستثناء غير عامل في جلده بإجماع، وعامل في فسقه بإجماع.

واختلف الناس في عمله في الشهادة؛ فقال شريح القاضي، وإبراهيم التُّخعي، والحسن، والثوري، وأبو حنيفة: لا يعمل الاستثناء في ردِّ شهادته، وإنما يزول فسقه عند الله تعالى، وأما شهادة القاذف فلا تقبل البتة ولو تاب وأكذب نفسه ولا بحال من الأحوال. وقال جمهور الناس: الاستثناء عامل في ردِّ الشهادة، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته، ثم اختلفوا في صورة توبته؛ فمذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والشعبي وغيره أن توبته لا تكون إلاً بأن يكذب نفسه في ذلك القذف الذي حُدَّ فيه، وهكذا فعل شبيل بن معبد، ونافع، تابا عن القول في المغيرة، وأكذبا أنفسهما فقبل عمر رضي الله عنه شهادتهما، وأبى أبو بكره نُفَيْعٌ من إكذاب نفسه فردَّ عمر رضي الله عنه شهادته حتى مات. وقالت فرقة منها مالك رحمه الله وغيره: - توبته أن يضلح وتُخْشَن حاله وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب.

أربعة شهداء رحمةً بعباده وستراً لهم. وقرأ جمهور الناس: ﴿بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ﴾ على إضافة الأربعة إلى الشهداء، وقرأ عبدالله بن مسلم بن يسار، وأبو رُزْعة بن جرير: ﴿بِأَرْبَعَةٍ﴾ بالتثنية، و﴿شُهَدَاءَ﴾ على هذا إما بدل وإما صفة للأربعة وإما حالٌ وإما تمييز، وفي هذين نظراً؛ إذ الحال من نكرة والتمييز مجموع، وسيبويه يرى أن تثنية العدد وترك إضافته إنما يجوز في الشعر، وقد حَسَّن أبو الفتح هذه القراءة ورجَّحها على قراءة الجمهور. وحكم شهادة الأربعة أن تكون على معانية كالمروء والمكحلة في موطن واحد، فإن اضطرب منهم واحد جُلِدَ الثلاثة والقاذف، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في أمر المغيرة بن شعبه، وذلك أنه شهد عليه بالزنى أبو بكره نُفَيْعٌ بن الحارث وأخوه نافع؛ وقال الزهراوي: عبدالله بن الحارث وزياد أخوهما لأُم وهو مستلحق معاوية، وشبل بن معبد الجبلي، فلما جاؤوا لأداء الشهادة توقف زياد ولم يؤدِّها كاملةً، فجلَّد عمر رضي الله عنه الثلاثة المذكورين.

والجلد: الضرب، والمجادلة: المضاربة في الجلود أو بالجلود، ثم استعير الجلد لغير ذلك من سيف وغيره، ومنه قول قيس بن الخطيم: أَجْبَلِدُهُمْ يَوْمَ الْحَدِيقَةِ حَابِيراً كَأَنَّ يَدِي بِالسَّيْفِ مِخْرَاقٌ لَا عِيبَ وَنَصَبَ ﴿نَتَيْنِ﴾ على المصدر، و﴿جلَّدَ﴾ على التمييز. ثم أمر الله تبارك وتعالى ألا تقبل للقفزة

وذكر الله تعالى في الآية قذف النساء من حيث هو أَمُّهُ، وَرَمَيْتُهُنَّ بالفاحشة أَبْشَعَ وَأَنْكى للنفوس، وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى وإجماع الأمة على ذلك، وهذا نحو نصه تعالى على لحم الخنزير ودخول شحمه وغضاريفه ونحو ذلك بالمعنى وبالإجماع، وحكى الزهراوي أن المعنى: الأنفُسُ المحصنات، فهي تَعْمُ بلفظها الرجال والنساء، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ والجمهور على فتح الصاد من الْمُحْصَنَاتِ، وكسرها يحيى بن وثاب. و﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾: العفاف في هذا الموضع؛ لأن هذا هو الذي يجب به جلد القاذف، والعِفَّةُ أعلى معاني الإحصان، وفي طيه الإسلام، وفي هذه النازلة الحرية، ومنه قول حسان:

خَصَّانَ رَزَّانَ.....

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾. وذكر الله تعالى من صفات النساء العفة المنافية للرمي بالزنى، ولتخرج من ذلك من ثبت عليها الزنى وغير ذلك ممن لم تبلغ الوطء من النساء حسب الخلاف في ذلك.

وعبر عن القذف بالرُّمي من حيث معتاد الرمي أنه مؤذ كالرمي بالحجر والسهم، فلما كان قول القاذف مؤذياً جعل رمياً، وهذا كما قال:

.....

وَجَزَحَ اللِّسَانُ كَجَزَحِ الْيَدِ والقذف والرمي بمعنى واحد. وشدَّد الله تعالى على القاذف في

واختلف فقهاء المالكيين، متى تسقط شهادة القاذف؟ فقال ابن الماجشون: بنفس قذفه، وقال أبو القاسم، وأشهد، وسُحَنون: لا تسقط حتى يُجلد، فإن منع من جلده مانع - عفو أو غيره - لم تُردَّ شهادته. قال الشيخ أبو الحسن اللخمي: شهادته في مدة الأجل في الإثبات موقوفة، ورجَّح القول بأن التوبة إما أن تكون بالكذب في القذف وإلا فأُي رجوع لعدل إن قُذِف وحُدَّ وبقي على عدالته. و﴿تَأْوِيلُ﴾ معناه: رجعوا؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ترجيح، وقد رجَّح الطبري وغيره قول مالك.

واختلف أيضاً - على القول بجواز شهادته بعد التوبة - في أي شيء تجوز شهادته؟ فقال مالك رحمه الله: تجوز في كل شيء بإطلاق، وكذلك كل من حُدَّ في شيء من الأشياء. وقال سُحَنون رحمه الله: من حُدَّ في شيء من الأشياء فلا تجوز شهادته في مثل ما حُدَّ فيه. وقال مطرف، وابن الماجشون: من حُدَّ في قذف أو زنى فلا تجوز شهادته في شيء من وجوه الزنى ولا في قُذِف ولا في لَعَانٍ وإن كان عدلاً، روي هذا القول عن مالك، وانفقوا - فيما أحفظه - على ولد الزنى أن شهادته لا تجوز في الزنى.

(٦) - (١٧) تفسير قوله عز وجل:

لما نزلت الآية المتقدمة في الذين يرمون المحصنات تناول ظاهرهما الأزواج وغيرهن، فقال سعد بن

عبادة: يا رسول الله إن وجدت مع امرأتي رجلاً أمهله حتى آتي بأربعة؟ والله لأضربنه بالسيف غير مُضَفَّح عنه، فقال رسول الله ﷺ: «أَتَعْجِبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغِيرُ مِنْ سَعْدٍ وَاللَّهِ أَغِيرُ مِنِّي»، وفي ألفاظ سعد روايات مختلفة، وهذا نحو معناها. ثم جاء بعد ذلك هلال بن أمية الواقفي فرمى زوجته بشريك بن السَّخَمَاءِ الْبَلَوِيِّ، فعزم رسول الله ﷺ على ضربه حدَّ القذف فنزلت هذه الآية، فجعهما رسول الله ﷺ في المسجد وتلاعنا فتلكأت المرأة عند الخامسة لما وُعِظَتْ وقيل: إنها مُوجبة، فقالت: لا أفضح قومي سائر اليوم ولجَّت، وفرق رسول الله ﷺ بينهما، وولدت غلاماً كأنه جمل أورق، ثم كان - بعد ذلك - الغلام أميراً بمصر وهو لا يعرف لنفسه أباً. وجاء أيضاً عُوَيْمِرُ الْحِجْلَانِي فرمى امرأته وَلَاعَنَ، والمشهور أن نازلة هلال قُبِلَ وأنها سبب الآية، وقيل: نازلة عُوَيْمِر قُبِلَ، وهو الذي وسط إلى رسول الله ﷺ عاصم بن عدي.

والأزواج في هذا الحُكْمُ يعمُّ المسلمات والكافرات والإماء، فكلهن يلاعنهن الزوج للانتفاء من الحمل، وتختص الحرّة برفع حدِّ القذف عن نفسه.

وقرأ الجمهور: «أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ» بالنصب، وهو كانتصاب المصدر، والعامل في ذلك قوله: «نَهْدَةُ»، ورفع (الشهادة) على خبر ابتداء تقديره: فالحُكْمُ أو فالواجب، أو على الابتداء بتقدير: فَعَلَيْهِمْ أَنْ

يشهدوا، أو بتقدير حذف الخبر وتقديره في آخر الآية: كافية أو واجبة.

وقوله تعالى: «يَاللَّهُ» من صلة ﴿شَهَدَاتٍ﴾، ويجوز أن يكون من صلة ﴿نَهْدَةُ﴾.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ» بالرفع، وذلك على خبر قوله تعالى: «نَهْدَةُ»، قال أبو حاتم: لا وجه للرفع لأن الشهادة ليست بأربع شهادات، و﴿يَاللَّهُ﴾ - على هذه القراءة - من صلة ﴿شَهَدَاتٍ﴾، لعله الفصل المتقدمة في قوله: «يَاللَّهُ».

وقرأ حفص عن عاصم: «وَالْخَامِسَةُ» بالنصب في الثانية، وقرأها بالنصب فيهما طلحة بن مصرف، وأبو عبدالرحمن، والحسن، والأعمش، وقرأ الجمهور فيهما: «وَالْخَامِسَةُ» بالرفع، فأما من نَصَبَ فَإِنْ كَانَ فِي قِرَاءَتِهِ نَصَبٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: «أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ» فَإِنَّهُ عَطَفَ «الْخَامِسَةَ» عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّهَا مِنَ الشَّهَادَاتِ، وَإِنْ كَانَ يَقْرَأُ: «أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ» بِالرَّفْعِ فَإِنَّهُ جَعَلَ نَصَبُ قَوْلُهُ: «وَالْخَامِسَةُ» عَلَى فِعْلِ يَدُلُّ عَلَيْهِ مُتَقَدِّمُ الْكَلَامِ، تَقْدِيرُهُ: وَتَشْهَدُ الْخَامِسَةُ، وَأَمَّا مَنْ رَفَعَ قَوْلَهُ: «وَالْخَامِسَةُ» فَإِنْ كَانَ يَقْرَأُ: «أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ» بِالرَّفْعِ فَقَوْلُهُ: «وَالْخَامِسَةُ» عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ يَقْرَأُ «أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ» بِالنَّصَبِ فَإِنَّهُ حَمَلَ قَوْلَهُ: «وَالْخَامِسَةُ» عَلَى الْمَعْنَى، لِأَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: «نَهْدَةُ أَحْمَرُ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ»: عَلَيْهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ

وَالْخَامِسَةُ، واستشهد أبو علي لهذا بحمل الشاعر:

وَمُسَجَّجٌ أَمَا سَوَاءٌ... البيت

على قوله:

إِلَّا زَوَاكِدَ جَمْرِهُنَّ مَبَاءٌ
لأن المعنى: ثُمَّ زَوَاكِدُ. ولا خلاف في السُّبْعِ في رفع قوله تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةُ﴾ في الأولى، وإنما خلاف السُّبْعِ في الثانية فقط، فنصبه حَمَلٌ على قوله: ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَنْتَ﴾، ﴿وَالْخَامِسَةُ﴾ على القطع والحمل على المعنى.

وقرأ نافع: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾، و﴿أَنْ غَضِبَ اللَّهُ﴾، وقرأ الأعرج، والحسن، وقتادة، وأبو رجاء، وعيسى: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾، و﴿وَأَنْ غَضِبَ اللَّهُ﴾، وهذا على إضمار الأمر، وهي الخفيفة كما هي في قول الشاعر:

فِي فِتْنَةٍ كَسَيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا
أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَخْفَى وَيَنْتَعِلُ
وقرأ باقي السبعة: ﴿أَنْ لَعْنَتِ اللَّهُ﴾ و﴿أَنْ غَضِبَ اللَّهُ﴾ بتشديد النون فيهما ونصب اللعنة والغضب، ورجح الأخفش القراءة بتشغيل النون لأن الخفيفة إنما يراد بها التثقل ويضمّر معها الأمر والشأن، وما لا يحتاج معه إلى إضمار أولى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لا سيما وأن الخفيفة - على قراءة نافع - في قوله تعالى: ﴿أَنْ غَضِبَ اللَّهُ﴾ قد وَلِيَهَا الْفِعْلُ، قال أبو علي: وأهل العربية يستقبحون أَنْ يليها

الفعل إلا أن يفصل بينها وبينه شيء نحو قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾، وأما قوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَخَى﴾ فذلك لقلة تمكن «ليس» في الأفعال، وأما قوله تعالى: ﴿أَنْ بُرِّكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ ف﴿بُرِّكَ﴾ على معنى الدعاء فلم يجز دخول الفاصل لئلا يفسد المعنى.

و(الْعَذَابُ الْمُنْذَرُ) في قول العلماء: الحد، وحكى الطبري عن آخرين أنه الحبس، وهذا قول أصحاب الرأي، وأنه لا حدٌ عليها إن لم تُلَاعَن، وليس يوجب عليها قول الزوج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر الحديث الوقفة في الخامسة حين تلكأت ثم مرت في لعانها أنها كانت تحدُّ لقول النبي ﷺ لها: «فالعذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة».

وجعلت اللعنة للرجل الكاذب لأنه مُفْتَر مباحث بالقول فأبعد باللعنة، وجعل الغضب الذي هو أَشَدُّ على المرأة التي باشرت المعصية بالفعل ثم كذبت وباهت بالقول، فهذا معنى هذه الألفاظ، والله أعلم.

ولا بُدَّ أَنْ نذكر في تفسير هذه الآية ما يتعلق بها من مسائل اللعان إذ لا يستغنى عنها في معرفة حكمه وحيث يجب، وأجمع مالك وأصحابه على وجوب اللعان بادعاء رؤية زنى لا وطء بعده من الزوج، وكذلك مشهور المذهب وقول مالك أن اللعان يجب بنفي حَمَلٍ يدعى قبله استبراء، وحكى اللخمي عن مالك أنه قال مرة: لا يُنْفَى الولد بالاستبراء

لأن الحيض يأتي على الحمل، وقاله أشهب في كتاب ابن المواز، وقاله المغيرة، وقال: لا يُنْفَى الولد إلا بخمس سنين.

واختلف المذهب في أن يقذف الرجل أو ينفي حملاً ولا يُعْلَل ذلك لا برؤية ولا باستبراء؛ فجلُّ رُؤَاة مالك على أن ذلك لا يوجب لعاناً، بل يُحدُّ الزوج، قاله ابن القاسم، ورؤي عنه أيضاً أنه قال: يلاعن ولا يُسأل عن شيء.

واختلف - بعد هذا القول باللعان بالاستبراء - في قدر الاستبراء، فقال مالك، والمغيرة - في أحد قوليه -: يجزي في ذلك خَيْضَةٌ، وقال أيضاً مالك: لا يفيه إلا ثلاث خِيَضٍ.

وأما موضع اللعان ففي المسجد وعند الحاكم، والمستحب أن يكون في المسجد بحضرة الحاكم، وكذلك يستحب أن يكون بعد العصر تغليظاً بالوقت، وكل وقت مُجْزٍ.

ومن قذف امرأته وهي كبيرة لا تحمل تَلَاعَنًا، هو لِرَفْع الحد، وهي لِدَرْءِ العذاب، وإن كانت صغيرة لا تحمل لَاعَن هو لِرَفْع الحد، ولم تلاعن هي لأنها لو أقرت لم يلزمها شيء، وقال ابن الماجشون: لا حدٌ على قاذف من لم تبلغ، قال اللخمي: فَعَلَى هذا لا لعان على زوج الصغيرة التي لا تحمل.

والمستحب من ألفاظ اللعان أن يمشي مع ترتيب القرآن ولفظه، فيقول الزوج: أشهد بالله لرأيت هذه المرأة تزني، وإني في ذلك لمن الصادقين، ثم يقول في الخامسة: لعنة الله علي إن كنت من الكاذبين،

وقال أصبغ: لا بُدَّ أن يقول: «كالمزود في المُكحلة»، وقيل: لا يلزمه ذلك، وكذلك يقول أشهب: لا بُدَّ أن يقول: بالله الذي لا إله إلا هو، وأما في لعان نفي الحمل فقيل: يقول الرجل: ما هذا الولد مني وَلَزَنْتَ، وقال ابن القاسم في الموازية: لا يقول «وَزَنْتَ» من حيث يمكن أن تغضب، وتقول المرأة: أشهد بالله ما زنيث وإنه في ذلك لمن الكاذبين، ثم تقول: غَضِبَ الله علي إن كان من الصادقين، فإن منع جهلهما من ترتيب هذه الألفاظ وأتيا بما في معناها أجزأ ذلك.

وحكى اللخمي عن محمد بن أبي صفرة أنه قال: اللعان لا يرفع العصمة لقول عويمر: كذبت عليها يا رسول الله إن أمسكتها، قال: (فأحدث طلاقاً)، ومشهور المذهب أن نفس تمام اللعان بينهما فرقة، ولا يحتاج معها إلى تفريق حاكم، وابن أبي صفرة هذا ليس بعدد يُزاحم به الجمهور. ومذهب الشافعي أن الفرقة حاصلة إثر لعان الزوج وحده، وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تفريق إلا بحكم السلطان بعد تمام لعانهما، فإن مات أحدهما بعد تمام لعانهما وقبل حكم القاضي ورثه الآخر. ومذهب «المدونة» أن اللعان حكم تفريقه حكم الطلاق، ويعطى لغير المدخول بها نصف الصداق، وفي مختصر ابن الجلاب: لا شيء لها، وهذا على أن تفريق اللعان فسخ، وقال ابن القصار: تفريق اللعان عندنا فسخ.

وتحريم اللعان أبدي بإجماع فيما أحفظ من مذهب مالك رحمه الله،

ومن فقهاء الكوفة وغيرهم من لا يراه متأبداً، وإن أكذب نفسه بعد اللعان لم ينتفع بذلك، وروي عن عبد العزيز بن سلمة أنه إن أكذب نفسه بعد اللعان كان خاطباً من الخطاب. وإن تقدمت المرأة في اللعان فقال ابن القاسم: لا تعيد، وقال أشهب: تعيد.

والجواب في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفُتِنْتُمْ بِهِ بِأَعْيُنِكُمْ وَأَبْصَارِكُمْ وَلَكِنْ فَضْلُ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، تقديره: لكشف الزناة بأيسر من هذا، أو لأخذهم بعقاب من عنده،

ونحو هذا من المعاني التي أوجب تقديرها إيهام الجواب.

تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية وما بعدها إلى ست عشرة آية أنزلت في عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وما اتصل بذلك من أمر الإفك، وفي البخاري في غزوة بني المصطلق عن عائشة رضي الله عنها قالت: وأنزل الله تعالى العشر الآيات، ثم أنزل الله ما قريباً في براءتي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأنها عدت ما يختص بها.

والإفك: الزور والكذب، والأفك الكذب، والإفك قلب الحقيقة عن حالها بالأقوال وصرفها عن جهة الصواب، وبذلك شبه بالكذب.

واختصار حديث الإفك أن

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ وَلَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَبَرٌ لِّكُلِّ أَمرٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَفْسِهِمْ خَبَرًا وَقالُوا هَذَا إِفْكٌ شَيْنٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ كَذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَفِهْتُمَا بِمَا أَفْسَدْتُم فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَلْفَ آيَاتٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١﴾

رسول الله ﷺ خرج بعائشة رضي الله عنها معه في غزوة بني المصطلق، وهي غزوة المريسيع، قال ابن إسحاق: وكانت سنة ست، وقال موسى بن عقبة: كانت سنة أربع، فضاع لها هناك عقد، فلما انصرفت إلى الرجل شعرت بضياعه فرجعت تطلبه، وسار الناس حينئذ، فوجدته وانصرفت فلم تجد أحداً، وكانت شابة قليلة اللحم رفع الرجال هودجها ولم يشعروا بزوالها، فلما لم تجد أحداً اضطجعت في مكانها رجاء أن تفتقد فيرجع إليها، فنامت في الموضع ولم يوقظها إلا قول صفوان بن المعطل: إنا لله وإنا إليه راجعون، وذلك أنه تخلف وراء الجيش لحفظ الساقة، وقيل: اتفاقاً، فلما مر بسوادها قرب منها فعرفها فاسترجع وقال: ظعينة

رسول الله ﷺ خُلِفَتْ هَاهُنَا؟ ونزل عن ناقته وتنحى عنها حتى ركب عائشة رضي الله عنها، وأخذ يقودها حتى بلغ بها الجيش في نحر الظهيرية، فوق أهل الإفك في مقاتلهم، وكان الذي يُجتمع إليه فيه وَيَسْتَوْشِيهِ وَيُسْعِلُهُ عبدالله بن أبي ابن سلول المنافق، وكان من أهل قائلته حسان بن ثابت، ومِسْطَحُ بن أثانة، وخَمْتَةُ بنت جحش، هذا اختصار الحديث، وهو بكماله وإتقانه في البخاري ومسلم، وهو في مسلم أكمل.

وكان صفوان صاحب ساقية رسول الله ﷺ في غزواته لشجاعته، وكان من خيار الصحابة، قال لما سمع ما قال الناس فيه: «سبحان الله، والله ما كشفت كثف أنثى قط»، أراد: بزنى، ويدل على ذلك حديثه المروي مع امرأته، وقول النبي ﷺ في ابنته: «لَهَا مَا أَشْبَهَ بِهِ مِنَ الْغَرَابِ بِالْغَرَابِ»، وقيل: كان حصوراً لا يأتي النساء، ذكره ابن إسحاق من طريق عائشة رضي الله عنها، وقُتِلَ شهيداً رضي الله عنه في غزوة أرمينية سنة تسع عشرة في زمن عمر رضي الله عنه، وقيل: في بلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمن معاوية.

وقوله تعالى: «عُصْبَةُ» رفع على البذل من الضمير في «جَاءُوا»، وخير «إِنَّ» في قوله سبحانه: «لَا تَحْسَبُوهُ»، والتقدير: إِنَّ فِعْلَ الَّذِينَ، وهذا أنسق في المعنى وأكثر فائدة من أن تكون «عُصْبَةُ» خبراً.

(وَالْعُصْبَةُ): الجماعة من العشرة إلى الأربعين، قاله يعقوب وغيره، ولا يقال عُصْبَةٌ لأقل من عشرة، ولم يُسم من أهل الإفك إلا حَسَّان، ومِسْطَح، وخَمْتَةُ، وعبدالله، وجُهل الغير، قاله عروة بن الزبير وقد سأله عن ذلك عبد الملك بن مروان، وقال: إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا عُصْبَةً كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى.

وقوله تعالى: «لَا تَحْسَبُوهُ» خطاب لكل من ساءه من المؤمنين، وقوله: «بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكَ» يريد أنه ثبته في الدنيا، وترفع من الله تبارك وتعالى في أن نزل وحيه بالبراءة من ذلك، وأجر جزيل في الآخرة، وموعظة للمؤمنين في غابر الزمن، ونقمة من المفترين في الدنيا والآخرة ففي ذلك شفاء وخير، وهذه خمسة وجوه. وقوله: «يَنْهَهُمْ» عائد على العصبة المذكورة، (وَالْكَتْسَبُ) مستعملة في المآثم ونحوها لأنها تدل على اعتمالٍ وقصد هو أبلغ في الترتيب، (وَكَسَبُ) مستعمل في الخير، وذلك أن حصوله مُثْنٌ عن الدلالة على اعتمالٍ فيه، وقد تستعمل (كَسَبُ) في الوجهين، ومثله:

.....

فَحَمَلْتُ بَرَّةً وَاحْتَمَلْتُ فَجَارِ
والإشارة بقوله: «وَالَّذِي تَوَلَّى كَيْدَهُ» إلى عبدالله بن أبي ابن سلول، والعذاب المتوعد به هو عذاب الآخرة، وهذا قول الجمهور، وهو ظاهر الحديث، وزوي عن عائشة رضي الله عنها أن حَسَّان بن ثابت دخل عليها يوماً وقد عَمِيَ فأنشدتها مدحه فيها:

حَصَّانَ زَرَّانَ مَا تَزَنُّ بِرَيْبَةٍ
وَتَضِيحُ غَزَنِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ
فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:
لَكُنْتَ لَسْتُ كَذَلِكَ، تَرِيدُ أَنَّهُ وَقَعَ فِي
الْغَوَافِلِ فَأَنْشَدَ:

فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ قَبِلَ عَنِّي قُلْتُه
فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَى أَنَا مِلِي
فلما خرج قال لها مَسْرُوق: أيدخل هذا عليك وقد قال ما قال وتوعدده الله بالعذاب على توليه كِبِيرَ الإفك؟ فقالت عائشة رضي الله عنها: أَيُّ عَذَابٍ أَشَدَّ مِنَ الْعَمَى وَضَرْبِ الْحَدِّ؟ وَفِي رَوَايَةٍ: وَضَرْبَةِ السَّيْفِ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فأما قوله عن الحد فإن حَسَّانَ وَمِسْطَحاً وَخَمْتَةَ حُدُوا، ذكر ذلك ابن إسحاق، وذكره الترمذي، وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنهما أن ابن أبي حُدٍّ، وهذا عندي لا يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما لأنه لم يُحْفَظْ عن عبدالله الرُّمِّي، قال عروة في البخاري: (أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَتُحَدِّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَوْشِيهِ).

وأما ضربة السيف فإن صفوان بن المعطل لما بلغه قول حَسَّانَ فِي الْإِفْكَ جَاءَ فَضْرِبَهُ بِالسَّيْفِ ضَرْبَةً عَلَى رَأْسِهِ، وَقَالَ:

تَلَقَّى دُبَابَ السَّيْفِ عَنِّي فَإِنِّي
غَلَامٌ إِذَا هُوَ جِئْتُ لَسْتُ بِشَاعِرٍ
فأخذ جماعة صفوان ولبيوه وجاؤوا به رسول الله ﷺ، فأهدر رسول الله ﷺ جرح حَسَّانَ واستوهبه إِيَّاهُ، وهذا يقتضي أن حسان ممن تولى الكِبَر.

وقد قال قوم: الإشارة بـ ﴿وَالَّذِي﴾ إلى البادئ بهذه الفرية والذي اختلقها، فلكل أحد منهم ما اكتسب، وللبادئ المفتري عذاب عظيم، وهو - على هذا - غير معين، وهذا قول الضحاك، والحسن، وقال ابن زيد وغيره: هو عبدالله بن أبي. وقرأ جمهور الناس: ﴿كَبِيرٌ﴾ بكسر الكاف، وقرأ حميد الأعرج، ويعقوب الزهري، وأبو رجاء، والأعمش، وابن أبي عبله: ﴿كَبِيرَةٌ﴾ بضم الكاف، وهما مصدران، من كبر الشيء وعظمه، ولكن استعملت العرب ضم الكاف في السن، تقول: هذا كُبر القوم، أي كبيرهم سناً ومكانة، ومنه قول النبي ﷺ في قصة حُويصة ومُحَيصة: «الْكُبَر» ومن استعمله في المعنى الثاني قول ابن الخطيم:

تَنَامُ عَنْ كُبَرِ شَأْنَهَا فَإِذَا قَامَتْ رُؤُوداً تَكَادُ تُشْعِرِفُ (١٢) - (١٣) تفسير قوله عز وجل:

الخطاب بهاتين الآيتين لجميع المؤمنين حاشا من تولّى الكبُر، ويحتمل دخولهم في الخطاب، وفي هذا عتاب للمؤمنين، أي: كان الإنكار واجباً عليهم، والمعنى أنه كان ينبغي أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم، فإذا كان ذلك يبعد فيهم فكانوا يقضون بأنه في صفوان وعائشة أبعد لفضلهما رضي الله عنهما. وروي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته، وذلك أنه دخل عليها فقالت له: يا أبا أيوب أسمعت ما قيل؟ قال: نعم، وذلك الكذب،

أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟ فقالت: لا والله، قال: فعائشة والله أفضل منك، قالت أم أيوب: نعم. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فذلك الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله المؤمنين عليه إذ لم يفعله جميعهم، والضمير في قوله: ﴿جَاءُوا﴾ لأولئك الذين تولوا الكبر، وإذا كانوا عند الله كذبة فهي الحقيقة فيهم، وعند هذا حُدوا، ولم يَزَوْ في شهير الدواوين أن عبدالله بن أبي حُد، وشبه أن ذلك لم يكن لأنه لم تقم عليه بالمقالة بينة لنفاقه وتسوّه، وإنما كان يخوض فيه مع من يذيعه ولا يسأل عن شهادته كما قال عروة في البخاري: «وأخبرت أنه كان يقره ويستوشيه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولكن النبي ﷺ استعذر منه على المنبر، ووقده بالقول، ووقع في أمره بين الأوس والخزرج ما هو مطول في مسلم في حديث الإفك.

(١٤) - (١٥) تفسير قوله عز وجل: هذا عتاب من الله تعالى بليغ، ذكر أن حالتهم التي وقع فيها جميعهم من تعاطيهم الحديث وإن لم يكن المُخْبِر ولا المُخْبَر مصدقين، ولكن نفس التعاطي والتلقي من لسان إلى لسان والإفاضة في الحديث هو الذي وقع العتاب فيه.

وقرأ محمد بن السميع: ﴿إِذْ تَلْقَوْتُمْ﴾ بضم التاء وسكون اللام وضم القاف، من الإلقاء، وهذه قراءة يثتة. وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود: ﴿إِذْ تَلْقَوْتُمْ﴾ من التلقي بتاءين. وقرأ جمهور السبعة: ﴿إِذْ

تَلْقَوْتُمْ﴾ بحذف التاء الواحدة وإظهار الذال دون إدغام، وهو أيضاً من التلقي، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿إِذْ تَلْقَوْتُمْ﴾ بإدغام الذال في التاء، وقرأ ابن كثير: ﴿إِذْ تَلْقَوْتُمْ﴾ بإظهار الذال وإدغام التاء في التاء، وهي قراءة قلقة لأنها تقتضي اجتماع ساكنين، وليست كالإدغام في قراءة من قرأ: ﴿فَلَا تَلْبِسُوا﴾ وَلَا تَلْبِسُوا، لأن لدونة الألف الساكنة وكونها حرف لين حسنت هنالك ما لا يحسن مع سكون الذال. وقرأ ابن يغمر وعائشة رضي الله عنها - وهي أعلم الناس بهذا الأمر -: ﴿إِذْ تَلْقَوْتُمْ﴾ بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف، ومعنى هذه القراءة من قول العرب: «وَلَقِيَ الرَّجُلُ وَلَقَاءً» إذا كذب، قال ابن سيدة في (المحكم): «قرئ: ﴿إِذْ تَلْقَوْتُمْ﴾. وحكى أهل اللغة أنها من وَلَقِيَ إذا كذب، فجاؤوا بالمتعدي شاهداً على غير المتعدي، وعندني أنه أراد: إِذْ تَلْقَوْنَ فيه، فحذف حرف الجر ووصل الضمير، وحكى الطبري وغيره أن هذه اللفظة مأخوذة من وَلَقِيَ الذي هو إسرَاعك بالشيء بعد الشيء، كعذو في أثر عذو، وكلام في أثر كلام، يقال: ولق في سيره إذا أسرع، ومنه قول الشاعر:

جَاءَتْ بِهِ عَشَسٌ مِنَ الشَّامِ تَلَقٍ
وقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ يَا أَفْوَكَرٌ﴾ مبالغة والزام وتأکید، والضمير في قوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ﴾ للحديث والخوض فيه والإذاعة له، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ إلى ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عتاب لجميع

المنافقين وإما من لم يُحَدِّد. وقال الطبري: معناه: إن مات مصراً غير تائب.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ﴾ معناه: يعلم البريء من المذنب، وسائر الأمور، ووجه الحكمة في ستركم والتغليظ في الوعيد والعذاب على قاذبيكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ الآية. جواب ﴿وَلَوْلَا﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه، تقديره: لفضحكم بذنوبكم ولم يستركم، ولعذبكم فيما أفضتم فيه من قول الباطل والبهتان.

﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا الخطاب عام لجميع المؤمنين، و(خُطُوات) جمع خطوة، وهي ما بين القدمين في المشي، فكأن المعنى: لا تمشوا في سبيله وطرقه من الأفعال الخبيثة. وقال منذر بن سعيد: يجوز أن يكون «خُطُوات» جمع خطأ من الخطيئة وسُهلَت الهمة فنطق بها خطوات. وقرأ بضم الطاء من «خُطُوات» الجمهور، وقرأ بسكونها عاصم، والأعمش.

وقرأ الجمهور: ﴿مَا زَكَّيْكُمْ﴾ بتخفيف الكاف، أي: ما اهتدي ولا أسلم ولا عرف رشداً، وقرأ أبو حيرة، والحسن، والأعمش: ﴿مَا زَكَّيْكُمْ﴾ بشد الكاف، أي: تزكيتكم لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضل لا بأعمالكم وتحزركم من المعاصي. ثم ذكر تعالى أنه يزكي من يشاء ممن سبقت له السعادة وكان عمله الصالح أمارة على سبق السعادة له.

أبي ومن أشبهه، وهي خاصة في أمر عائشة رضي الله عنها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فحبهم شياع الفاحشة في المؤمنين متمكن على وجهه لعداوتهم في أهل الإيمان، وعذابهم الأليم في الدنيا الحدود، وفي الآخرة النار.

وقالت فرقة - وقولها هو الأظهر -: الآية عامة في كل قاذف منافقاً كان أو مؤمناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقاذف المؤمن من لا يتصف بحب شياع الفاحشة في المؤمنين جملة، لكنه يحبها لمقدوفه، وكذلك آخر لمقدوفه، وآخر حتى تشيع الفاحشة من مجموع فعلهم، فهم لها محبوبون بهذا الوجه من حيث أحب كل واحد جزءاً من شياعها، والعذاب الأليم في الدنيا الحدود، وفي الآخرة يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون القاذف متوعداً من بين العصاة بعذاب في الآخرة لا يزيله الحد حسب مقتضى حديث عبادة بن الصامت، ويكون أمره كأمر المحاربين إذا صلبوا، خزني في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب. والوجه الثاني أن يحكم بأن الحد مُسقط عذاب الآخرة حسب حديث عبادة، وأن قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ لا يريد به عموم القذفة، بل يريد إما

سورة النور

يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَةِ وَالنَّكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾ وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يَعْبُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَأَسْوَأُ الْدِّينَارِ وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢١﴾ يَوْمَ تَنْهَضُهُمْ عَلَيْهِمُ السَّيِّئَةُ وَيَأْمُرُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٢﴾ يُؤَيِّدُونَهُمْ اللَّهُ وَيُبِهِمُ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٣﴾ الْمُنِيفَتِ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثَاتِ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ وَالطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبِينَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُرَرَّوْنَ بِمَا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٤﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ غَيْرِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

٢٥٢

المؤمنين، أي: كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضهم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه ﷺ، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان، وحقيقة البهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبة أن يقال في الإنسان ما فيه. ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة، و﴿أَنْ﴾ مفعول من أجله بتقدير: «كراهية أن» ونحوه. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ توقيف وتأکید، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلاً، وسائر الآية بين، و﴿عَلَيْدُ حَكِيمٌ﴾ صفتان تقتضيها الآية.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال مجاهد، وابن زيد: الإشارة بهذه الآية إلى المنافقين، عبدالله بن

وقال بعض الناس: هذه أرجى آية في كتاب الله عز وجل من حيث لطف الله تعالى فيها بالقذفة العصاة بهذه اللفظة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما تعطي الآية تفضلاً من الله عز وجل في الدنيا، وإنما الرجاء في الآخرة، أما إن الرجاء في هذه الآية بقياس، أي إذا أمر أولي السعة بالعفو، فطرد هذا التفضل بسعة رحمته لا رب سواه، وإنما آيات الرجاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادُ الَّذِينَ آتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾، وسمعت أبي رحمه الله يقول: أرجى آية في كتاب الله تعالى عندي قوله: ﴿وَنُفِثَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَانَ لَهُمْ مِنْ أَلَلِهِمْ فَضْلاً كَبِيراً﴾، وقد قال الله تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ فشرح الفضل الكبير في هذه الآية وبشر به المؤمنين في تلك، وقال بعضهم، أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار.

(٢٣) - (٢٥) تفسير قوله عز وجل:

قال سعيد بن جبیر: إن هذه الآية التي تضمنت لعن القاذف وتوعده الشديد إنما هي خاصة في رُماة عائشة رضي الله عنها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك،

يفعل سنة من السنن أو مندوباً وأبد ذلك أنها جرحه في شهادته، ذكره الباجي في المنتقى، ومنه قول النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ التَّائِي عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفُ»؟

﴿يَأْتِي﴾ معناه: يحلف، وزنها يفتعل، من الآلية وهي اليمين. وقالت فرقة: معناه: يقصّر، من قولك: أَلَوْتُ في كذا إذا قَصَصْتُ فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيكُمْ حَبَالاً﴾، وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع: ﴿وَلَا يَأْتِي﴾، وهذا وزنه يَتَقَعَّلُ من الآلية بلا خلاف، وهي في المصحف «ياء تاء لام» فلذلك ساغ هذا الخلاف لأبي جعفر وزيد فروياه. وذكر الطبري أن خط المصحف مع قراءة الجمهور، فظاهر قوله أَنْ تُمْ أَلْفًا قبل التاء.

﴿وَالْفَضْلُ وَالسَّعَةُ﴾ هنا: المال، وقوله تعالى: ﴿لَا تَحِبُّونَ﴾ الآية تمثيل وحجة، أي: كما تحبون غفران الله لكم عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم، وينظر إلى هذا المعنى قول النبي ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمَ لَا يَرْحَمَ»، فروي عن أبي بكر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية أنه قال: «إِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي»، ورجع إلى مسطح النفقة والإحسان الذي كان يجري عليه، قالت عائشة رضي الله عنها: «وَكُفِّرَ عَنْ يَمِينِهِ». وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه، وسفيان بن حسين: ﴿وَلْتَصْفَحُوا وَلْتَصْفَحُوا﴾ بالتاء من فوق فيهما، ورويت عن النبي ﷺ

ثم أخبر تعالى بأنه سميع لجميع أقوالهم وكلامهم من قذف وغيره، عليهم بحق ذلك من باطله، لا يجوز عليه في ذلك وهم ولا غلط.

(٢٢) تفسير قوله عز وجل:

المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت في قصة أبي بكر بن قحافة الصديق رضي الله عنه ومسطح بن أثاثه، وذلك أنه كان ابن بنت خالته، وكان من المهاجرين البدرين المساكين، وهو مسطح ابن أثاثه بن عباد بن المطلب بن عبد مناف، وقيل: اسمه عوف، ومسطح لقب. وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه لمسكنته، فلما وقع أمر الإفك وقال مسطح ما قال حلف أبو بكر رضي الله عنه ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً، فجاء مسطح فاعتذر وقال: إنما كنت أغشى مجلس حسان فأسمع ولا أقول، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: لقد ضحكت وشاركت فيما قيل، ومرّ على يمينه فنزلت الآية.

وقال الضحاك وابن عباس رضي الله عنهما: إن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال في الإفك وقالوا: والله لا نصل من تكلم في شأن عائشة، فنزلت الآية في جميعهم. والأول أصح، غير أن الآية تتناول الأمة إلى يوم القيامة، بالأب لا يفتأ ذو فضل وسعة فيحلف ألا ينفع من هذه صفته غابر الدهر.

ورأى الفقهاء أن من حلف ألا

وغيرهما: بل هذه لجميع أزواج النبي ﷺ، غلظ الله أمر زميهم لمكانهم من الدين، فلعن قاذفهن ولم يقرن بآخر الآية توبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقاذف غيرهن له اسم الفسق وذُكرت له التوبة.

وقال جماعة من العلماء: بل هي في شأن عائشة رضي الله تعالى عنها إلا أنه يراد بها كل من اتصف بهذه الصفة، وقال بعض هذه الفرقة: إن هذه الآية نزلت أولاً في القاذفين؛ ثم نزلت بعد ذلك الآية في صدر السورة التي فيها التوبة، وقد تقدم القول في «المُحْصَنَات» ما معناه.

(واللغة) في هذه الآية: الإبعاد، وضرب الحد، واستيحاش المؤمنين منهم وهجرهم لهم، وزوالهم عن رتبة العدالة، وعلى قول من قال إن هذه الآية خاصة بعائشة رضي الله عنها ترتبت هذه الشدائد في جانب عبدالله بن أبي وأشباهه. وفي ضمن رمي المحصنة رمي الرجل معها، وقد يكون مؤمناً.

والعامل في قوله: ﴿يَوْمَ﴾ فعل مضمر يقتضيه العذاب، أي: يُعَذَّبُونَ يوم، أو نحوه، وأخبر الله تعالى أن جوارحهم تشهد عليهم، وذلك من أعظم الخزي والتنكيل، فيشهد اللسان وقلب المنافق لا يريد ما يشهد به، وتشهد الأيدي والأرجل وتشكلم كلاماً يقدرها الله تعالى عليه. وقرأ جمهور السبعة: ﴿تَشْهَدُ﴾

بالتاء من فوق، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يَشْهَدُ﴾ بالياء.

(والذين) في هذه الآية: الجزاء، ومنه قول الشاعر:

وَلَمْ يَنْبَقْ سِوَى الْعُذْوَا
نِ دَنَاهُمْ كَمَا ذَاثُوا

أي جازيناهم كما فعلوا، ومنه المثل «كَمَا تُدِينُ تُدَانُ». وقرأ جمهور الناس: ﴿الْحَقُّ﴾ بالنصب على الصفة للذين، وقرأ مجاهد: ﴿الْحَقُّ﴾ بالرفع على الصفة لله تعالى، وفي مصحف ابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهما: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِقُهُمُ اللَّهُ الْحَقُّ ذِينَهِمْ﴾ بتقديم الصفة على الموصوف، ورويت عن النبي ﷺ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ يقوِّي قول من ذهب إلى أن الآية في المنافقين عبدالله بن أبي وغيره، وذلك أن كل مؤمن في الدنيا يعلم أن الله هو الحق المبين، وإلا فليس بمؤمن.

﴿٦٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون في الموصوف في هذه الآية بالخبث والطيب؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والضحاك، وقتادة: هي الأقوال والأفعال، ثم اختلفت هذه الجماعة، فقال بعضها: المعنى: الكلمات والفعلات الخبيثات لا يقولها ويرضاها إلا الخبيثون من الناس، فهي لهم وهم لها بهذا الوجه، وكذلك الطيبات للطيبين. وقال بعضها: المعنى: الكلمات

والفعلات الخبيثات لا تليق ولا تلتصق عند رمي الرامي وقذف القاذف إلا بالخبيثين من الناس، فهي لهم وهم لها بهذا الوجه.

وقال ابن زيد: الموصوف بالخبت والطيب النساء والرجال، وإنما الآية على نحو التي تقدمت وهي قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾، فمعنى هذه: التفريق بين حكم عبدالله بن أبي وأشباهه وبين حكم النبي عليه الصلاة والسلام وفضلاء الصحابة رضوان الله عليهم وأمته، أي: إن النبي ﷺ طيب فلم يجعل الله له إلا كل طيبة، وأولئك خبيثون فهم أهل النساء الخبيثات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبهذه الآية قيل لأزواج النبي ﷺ: الطيبات المبرآت.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى «الطيبين» في قوله: ﴿وَالْكَاذِبُونَ لِلطَّيِّبِينَ﴾. وقال النقاش: الإشارة بـ«أُولَئِكَ مَبْرُوءَاتٍ» إلى صفوان وعائشة رضي الله عنهما، وجمعهما في الضمير على حد قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ والسمراد: أخوان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا التمثيل بآية الإخوة نظر، وبخسب هذه المعاني يتقدر المراد بالضمير في «يَقُولُونَ»، فتأمل. ثم وعد الله تعالى الطيبين من المؤمنين بالمغفرة عند الحساب، وبالرزق الكريم في الجنة.

٢٧ - تفسير قوله عز وجل:

سبب هذه الآية فيما ذكر الطبري عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني عليها والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، فنزلت هذه الآية. ثم هي عامة في الأمة غابر الدهر من حيث هذه النازلة تخص بكل أحد في نفسه، وبيت الإنسان هو البيت الذي لا أحد معه فيه، أو البيت الذي فيه زوجه وأمه، وما عدا هذا فهو غير بيته. قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: ينبغي للإنسان ألا يدخل البيت الذي فيه أنه إلا بعد الاستئذان. وروي في ذلك عن النبي ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، أستاذن على أمي؟ قال: «نعم» قال: إنما هي أمي ولا خادم لها غيري، قال: «أتحب أن تراها عريانة؟» قال: لا، قال: «فاستأذن عليها». وكذلك كل ذات محرم منه لأنه لا ينبغي له أن يراهن عاريات، وقالت زينب امرأة ابن مسعود: كان ابن مسعود إذا جاء بيته تنحج مخافة أن يهجم على ما يكره.

و«تَسْتَأْذِنُوا» معناه: تستعلموا، أي: تستعلموا من في البيت وتستبصروا، تقول: آتشت إذا علمت عن حسن وإذا أبصرت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ يَنْتَظِرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ نَارًا﴾، ومنه قول حسان بن ثابت:

انْظُرْ خَلِيلِي بِبَابِ جِلْقٍ هَلْ
تُؤْنِسُ دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدٍ

وقول الحارث:

أَتَسْتُ نَبَأَهُ
وزن آتس: أفعَل،
واستأنس وزنه: استفعل،
فكان المعنى في
«تَسْتَأْذِنُوا»: تطلبون ما
يؤنسكم ويؤنس أهل
البيت منكم، وإذا طلب
الإنسان أن يعلم أمر البيت
الذي يريد دخوله فذلك
يكون بالاستئذان على من
فيه، أو بأن يتنحج ويشعر
بنفسه بأي وجه أمكنه،
ويتأني قدر ما يتحفظ،
ويدخل إثر ذلك.

وذهب الطبري في
«تَسْتَأْذِنُوا» إلى أنه بمعنى: حتى
تؤنسوا أهل البيت من أنفسكم
بالتنحج والاستئذان ونحوه،
وتؤنسوا أنفسكم بأن تعلموا أن قد
شعر بكم. وتصريف الفعل يأبى أن
يكون من أس.

وذكر الطبري عن ابن عباس
رضي الله عنهما أنه كان يقرأ:
«حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا»، وهي
قراءة أبي بن كعب، وحكاها أبو
حاتم «حَتَّى تُسَلِّمُوا وَتَسْتَأْذِنُوا»،
قال ابن عباس: «تَسْتَأْذِنُوا» خطأ أو
وهم من الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها
«تَسْتَأْذِنُوا»، وصح الإجماع فيها
من لدن مدة عثمان رضي الله عنه،
فهي التي لا يجوز خلافها، والقراءة

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوا حَتَّى يَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَعَالِمٌ لِمَا كُنْتُمْ يَنْتَظِرُونَ
قِيلَ لَكُمْ تَرْجِعُوا فَقَرْعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمُنُّ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلَيْكُمْ ۝ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ فِيهَا
قُلُوبًا ۝ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ يُحَافِظُ أَوْفَرَهُمْ وَلَا يُبْدُونَ
ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَصْنَعُونَ ۝ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ
بَعْضُهُنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ يُحَافِظُ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْحَكُنَّ مِنْ غَيْرِ عَلَى جُوهِرٍ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ
أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءً
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَابِ
الزَّجَالَ أَوْ الْطِفْلَ الَّذِي لَا يَفْهَمُ عَوْرَتِ الْمَرْأَةِ
وَلَا يَضُرُّهُنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَيُؤْنِسُوا
إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا ۖ آيَةُ الْمُؤْمِنِينَ لَعَلَّكُمْ تَقْلِقُونَ ۝

٢٨

«تَسْتَأْذِنُوا» ضعيفة، وإطلاق الخطأ
والوهم على الكتاب في لفظ أجمع
الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن
عباس رضي الله عنهما، والأشبه أن
يقع «تَسْتَأْذِنُوا» على التفسير،
وظاهر ما حكى الطبري أنها قراءة،
ولكن قد روي عن ابن عباس
رضي الله تعالى عنهما أنه قال:
«تَسْتَأْذِنُوا» بمعنى: تَسْتَأْذِنُوا. ومما
ينفي هذا القول عن ابن عباس
رضي الله عنهما أن «تَسْتَأْذِنُوا»
متمكنة في المعنى، يَنْتَظِرُ الوجه في
كلام العرب، وقد قال عمر
رضي الله عنه للنبي عليه الصلاة
والسلام: أَسْتَأْذِنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟
وعمر واقف على باب الغرفة.
الحديث المشهور، وذلك يقتضي أنه
طلب الأُس به ﷺ، فكيف يخطيء
ابن عباس رضي الله عنهما أصحاب

الرسول صلوات الله وسلامه عليه في مثل هذا؟

وحكى الطبري أيضاً بسند عن ابن جريج، عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن بن أبي الحسن أنهم قالوا: نُسخ واستثنى من هذه الآية الأولى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾، وهذا أيضاً لا يترتب فيه نسخ ولا استثناء؛ لأن الآية الأولى في البيوت المسكونة والمقصورة، والآية الثانية في البيوت المباحة، وكأن من ذهب إلى الاستثناء رأى الأولى عامة.

وصورة الاستئذان أن يقول الرجل: السلام عليكم، أدخل؟ فإن أذن له دخل، وإن أمر بالرجوع انصرف، وإن سكنت عنه استأذن ثلاثاً ثم ينصرف بعد الثلاث، فأما ثبوت ما ذكرته من صورة الاستئذان فروى الطبري أن رجلاً جاء إلى بيت النبي ﷺ فقال: أليح؟ أو أتليح؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمة له يقال لها روضة: «قولي لهذا يقول: السلام عليكم، أَدْخُل؟»، فسمعه الرجل فقالها، فقال له النبي ﷺ: «ادخل».

وروي أن ابن عمر رضي الله عنهما آذنه الرمضاء فأتى فسطاط امرأة من قريش، فقال: السلام عليكم، أَدْخُل؟ فقالت المرأة: ادخل بسلام، فأعاد فأعادت، فقال لها: قولي: ادخل، فقالت ذلك فدخل، فكانه توقف لما قالت: بسلام؛ لاحتمال اللفظ أن تريد: ادخل بسلامك لا بشخصك. ثم لكل قوم في الاستئذان عَزْفهم في العبارة. وأما

ثبوت الرجوع بعد الاستئذان ثلاثاً فلحديث أبي موسى الأشعري الذي استعمله مع عمر رضي الله عنه، وشهد به لأبي موسى أبو سعيد الخدري، ثم أبي بن كعب، الحديث المشهور، وقال عطاء بن أبي رباح: الاستئذان واجب على كل محتلم، وسيأتي ذكر هذا. وروي أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رسول الرجل إذنه»، أي: إذا أرسل في أحد فقد أذن له في الدخول. وقوله: ﴿ذَلِكُمْ حَرٌّ لَكُمْ﴾ تم الكلام عنده، وقوله: ﴿لَكُمْ لَذَكُرُونَ﴾ معناه: فعلنا ذلك بكم ونبهاكم لعلكم.

والضمير في قوله: ﴿إِنْ لَرَّ يَجِدُوا فِيهَا﴾ للبيوت التي هي بيوت الغير، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال: معنى قوله: ﴿إِنْ لَرَّ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾: إن لم يكن لكم فيها متاع، وضعف الطبري هذا التأويل، وكذلك هو في غاية الضعف، وكأن مجاهد رأى أن البيوت غير المسكونة إنما تدخل دون إذن إذا كان للدخل فيها متاع، ورأى لفظة (المتاع) متاع البيت الذي هو البسط والسياب، وهذا كله ضعيف.

وأسند الطبري عن قتادة أنه قال: قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها، أن استأذن على بعض إخواني فيقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط لقوله تعالى: ﴿إِنْ قِيلَ لَكُمْ اتَّجِعُوا فَاتَّجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ توعد لأهل التجسس على

البيوت وطلب الدخول على غفلة للمعاصي والنظر إلى ما لا يحل، ولغيرهم ممن يقع في محذور. ﴿تفسير قوله عز وجل:﴾

رُوي أن بعض الناس لما نزلت آية الاستئذان تعمق في الأمر، فكان لا يأتي موضعاً خرباً ولا مسكوناً إلا سلم واستأذن، فنزلت هذه الآية، أباح الله تعالى فيها رفع الاستئذان في كل بيت لا يسكنه أحد؛ لأن العلة إنما هي في الاستئذان خوف الكشفة على الحُرُمات، فإذا زالت العلة زال الحكم.

ومثل أهل التأويل من هذه البيوت أمثلة، فقال محمد بن الحنفية، وقتادة، ومجاهد: هي الفنادق التي في طرق المسافرين، قال مجاهد: لا يسكنها أحد، بل هي موقوفة لياوي إليها كل ابن سبيل، وفيها متاع لهم، أي استمتاع بمنفعتهم، ومثل عطاء في بيوت غير مسكونة بالخرب التي يدخلها الإنسان للبول والغائط، ففي هذا أيضاً متاع، وقال ابن زيد والشعبي: هي حوانيت القيساريات والأسواق، قال الشعبي: لأنهم جاؤوا ببئوعهم فجعلوها فيها وقالوا للناس: هلم. وهذا قول غلط قائله، وذلك أن بيوت القيسارية محظورة بأموال الناس، غير مباحة لكل من أراد دخولها بإجماع، ولا يدخلها إلا من أذن له بها، بل إن أربابها مؤكلون بدفع الناس عنها. وقال محمد بن الحنفية أيضاً: أراد تعالى دور مكة، وهذا على القول بأنها غير مملوكة، وأن الناس شركاء فيها، وأن مكة أخذت عنوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو في هذه المسألة القول الضعيف، يردُّه قوله عليه الصلاة والسلام: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟»، وقوله: «من دخل دار أبي سفيان، ومن دخل داره»، وغير ذلك من وجوه النظر.

وباقى الآية بين، وظاهره التوعد.

﴿٣٠﴾ - ﴿٣١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ يَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بمنزلة قوله: انْتَهَهُمْ، فقوله: ﴿يَتَوَكَّلُوا﴾ جواب الأمر، وقال المازني: المعنى: قل لهم غَضُّوا يَغْضُوا، ويلحق هذين من الاعتراض أن الجواب خبر من الله تعالى، وقد يوجد من لا يغض، وينفصل بأن المراد: يكونون في حكم من يغض. وقوله: ﴿مِنْ أَنْصَرِهِمْ﴾، أظهر ما في ﴿مِنْ﴾ أن تكون للتبعض، وذلك أن أول نظرة لا يملكها الإنسان، وإنما يغض فيما بعد ذلك، فقد وقع التبعض، ويؤيد هذا التأويل ما روي من قوله عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «لا تتبع النظرة النظرة، فإن الأولى لك، وليست لك الثانية» الحديث. وقال جرير بن عبد الله: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فقال: «اصرف بصرك». ويصح أن تكون ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس، ويصح أن تكون لابتداء الغاية، والبصر هو الباب الأكبر للقلب وأمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه.

(وحفظ الفرج) يحتمل أن يريد به:

في الزنى، ويحتمل أن يريد: بستر العورة، والأظهر أن الجميع مراد واللفظ عام. وبهذه الآية حرَّم العلماء دخول الحمام بغير مئزر، وقال أبو العالية: كل فرج ذكر في القرآن فهو من الزنى إلا في هاتين الآيتين فإنه يعني التستر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا وجه لهذا التخصيص عندي.

وباقى الآية بين، وظاهره التوعد. وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلزَّيْنَتِ﴾ الآية، أمر الله تعالى النساء في هذه الآية بغض البصر عن كل ما يكره من جهة الشرع النَّظَرُ إليه، وفي حديث أم سلمة قالت: كنت أنا وعائشة رضي الله عنهما عند النبي ﷺ، فدخل ابن أم مكتوم، فقال النبي ﷺ: «احتجبن» قلنا: إنه أعمى، فقال النبي ﷺ: «أَفَعَمَيَاوَانِ أَتَمْتَا؟».

﴿مِنْ﴾ تحتمل ما تقدم في الأولى، (وحفظ الفروج) يعم الفواحش وستر العورة وما دون ذلك مما فيه حفظ.

وأمر الله تعالى بالأبواب يُبَدِّين زينتهن للناظرين، إلا ما استثناه من الناظرين في باقى الآية. ثم استثنى ما يظهر من الزينة، فاختلف الناس في قدر ذلك؛ فقال ابن مسعود رضي الله عنه: ظاهر الزينة هو الثياب، وقال سعيد بن جبير: الوجه والثياب، وقال سعيد بن جبير أيضاً، وعطاء، والأوزاعي: الوجه والكفان والشباب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، والمِسُورُ بن مخزومة: ظاهر الزينة هو الكحل والسواك والخضاب إلى

نصف الذراع والقرطة والفتح، ونحو هذا فباح أن تبدي المرأة لكل من دخل عليها من الناس، وذكر الطبري عن قتادة في معنى نصف الذراع حديثاً عن النبي ﷺ، وذكر آخر عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بالأبواب تُبَدِّين، وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ويقع الاستثناء في كل ما غلبها فظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك، فما ظهر على هذا الوجه فهو المعفي عنه. فغالب الأمر أن الوجه والكفين أكثر منهما الظهور، وهو الظاهر في الصلاة، ويحسن بالحسنة الوجه أن تستتر إلا من ذي حرمة محرمة، ويحتمل لفظ الآية أن الظاهر من الزينة لها أن تبديها، ولكن يقوي ما قلناه الاحتياط ومراعاة فساد الناس، فلا يظن أن يباح للنساء من إبداء الزينة إلا ما كان بذلك الوجه، والله الموفق للصواب برحمته.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ بسكون اللام التي هي للأمر، وقرأ أبو عمرو في رواية عباس عنه: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ بكسر اللام على الأصل؛ لأن أصل لام الأمر الكسر في «لِيَضْرِبْ» و«لِيَضْرِبْ»، وإنما تسكينها كتسكين «عَصَدَ وَفَجَذَ».

وسبب هذه الآية أن النساء كن في ذلك الزمان إذا غطين رؤوسهن بالأخمرة سدلتها من وراء الظهر، قال النقاش: كما يصنع الثببط،

فيتبقى النحر والعنق والأذنان لا ستر على ذلك، فأمر الله تعالى بِلَيِّ الخمار على الجيوب، وهينة ذلك أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها فيستر جميع ما ذكرناه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: رحم الله المهاجرات الأول، لما نزلت هذه الآية عَمَدَنُ إِلَى أَكْثَفِ المروط فَشَقَّقْتُهَا أَحْمَرَةً، وَضَرَبْتُ بِهَا عَلَى الْجُيُوبِ، ودخلت على عائشة حفصة بنت أخيها عبدالرحمن وقد اختمرت بشيء يشف عن عنقها وما هنالك، فَشَقَّقْتُهَا عَلَيْهَا وقالت: إِنَّمَا يُضْرَب بالكثيف الذي يستر.

ومشهور القراءة ضم الجيم من ﴿جُيُوبٍ﴾، وقرأ بعض الكوفيين بكسرهما بسبب الياء كقراءتهم ذلك في بُيُوت وشيوخ، ذكره الزهراوي.

﴿٣١﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى في هذه الآية: ولا يقصدن بذلك الإخفاء للزينة الباطنة كالخلخال والأقراط ونحوه، ويطرحن مؤونة التحفظ إلا مع من سمى. وبدأ بالبعولة وهم الأزواج لأن اطلاعهم يقع على أكثر من هذا، ثم ثنى بذوي المحارم وسوى بينهم في إبداء الزينة، ولكنهم تختلف مراتبهم في الحرمة بحسب ما في نفوس البشر، فلا مربة أن كشف الأب والأخ على المرأة أحوط من كشف ولد زوجها، وتختلف مراتب ما يُبْدَى لهم، فيبْدَى للأب ما لا يجوز إبداءه لولد الزوج.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَسَاءَلُونَ﴾ يعني جميع المؤمنات، فكأنه قال: أو صنفهن، ويدخل في هذا الإماء المؤمنات، ويخرج منه نساء المشركين من أهل الذمة وغيرهم. وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة رضي الله عنه: إنه بلغني أن نساء أهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساء المسلمين، فامنع من ذلك وحل دونه، فإنه لا يجوز أن ترى الذمية عِزَّةَ المسلمة، قال: فعند ذلك قام أبو عبيدة وابتهل وقال: أيما امرأة تدخل الحمام من غير عذر، لا تريد إلا أن تَبْيَضَ وجهها فسَوَّدَ الله وجهها يوم تَبْيَضُ الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يدخل فيه الإماء الكتابيات، ويدخل فيه العبيد عند جماعة من أهل العلم، وهو الظاهر من مذهب عائشة وأُم سلمة رضي الله عنهما، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة العلماء: لا يدخل العبد على سيده فيرى شعرها ونحو ذلك إلا أن يكون غداً، فمنعت هذه الفرقة الكشف بملك اليمين، وأباحته بأن يكون من التابعين غير أولي الإزبة، وفي بعض المصاحف ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فيدخل فيه عبد الغير.

وقوله: ﴿أَوْ اللَّائِيك﴾ يريد الأتباع الذين يدخلون ليطعموا الفضول، وهم من الرجال الذين لا إزبة لهم في الوطء، فهي شرطان. ويدخل في هذه الصيغة

المجبوب والمعتوه والمُخْتَت والشيخ الفاني والزَيْن الموقود بزمانته، ونحو هذا هو الغالب في هذه الأصناف، وَرُبَّ مُخْتَت لا ينبغي أن يكشف، ألا ترى إلى حديث «هيت» ونَهَى رسول الله ﷺ عن كشفه على النساء لما وصف بَادِيَةَ ابنة غيلان بن معتب؟ وتأمل ما روي في أخبار الدَّالِّ الْمُخْتَت، وكذلك الحمقى والمعتوهون فيهم من لا ينبغي أن يكشف، والذي لا إربة له من الرجال قليل.

و(الإزبة): الحاجة إلى الوطء، وعبر عن هذا بعض المفسرين فقال: هو الذي يتبعك لا يريد إلا الطعام وما يؤكله. وقرأ عاصم، وابن عامر: ﴿غَيْرَ﴾ بالنصب، وهو على الحال من الذكر الذي في ﴿النَّائِيك﴾، أو على الاستثناء من ﴿النَّائِيك﴾، وقرأ الباقون: ﴿غَيْرَ﴾ بالخفض على النعت لـ ﴿النَّائِيك﴾، والقول فيها كالقول في ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ اللَّطِفَلِ﴾ اسم جنس بمعنى الجمع، ويقال «لطفل» ما لم يراهق الحُلُم، و﴿يَطْلُهُوا﴾ معناه: يَطْلُمُوا بالوطء، والجمهور على سكون الواو من ﴿عَوْرَتِ﴾، وروي عن ابن عامر فتح الواو، وقال الزجاج: الأكثر سكون الواو كَجَوَزَاتٍ وَبِنِصَاتٍ لِشَقْلِ الحركة على الواو والياء، ومن قرأ بالفتح فعلى الأصل في فَعَلَةٍ وَفَعَلَاتٍ.

يَنْفَرًا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِيهِ»،
ونفحات رحمة الله تعالى مأمولة في كل حال، موعود بها.

وقوله تعالى: ﴿وَرِيعٌ عَلَيْكُمْ﴾ صفتان نحو المعنى الذي فيه القول، أي واسع الفضل، عليهم بِمُسْتَحَقِّ التوسعة والإغناء.

﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

«استغف» وزنه استَغْفَلَ، ومعناه: طلب أن يكون عفيفاً، فأمر الله تعالى في هذه الآية كل من يتعذر عليه النكاح ولا يجده بأي وجه تعذر أن يستغف، ثم لما كان أغلب الموان على النكاح عدم المال وَعَدَّ بالإغناء من فضله، فعلى هذا التأويل يعمُّ الأمر بالاستغفاف كل من تعذر عليه لنكاح بأي وجه تعذر.

وقالت جماعة من المفسرين: النكاح في هذه الآية اسم ما يُهْتَمُّ ويُتَّقَى في الزواج كاللحاف واللباس لما يُلتَحَف به ولما يلبس، وحملهم على هذا قوله تعالى: ﴿حَقٌّ بَيْنَهُمْ أَنَّهُ مِّن فَضْلِي﴾، فظنوا أن المأمور بالاستغفاف إنما هو من عدم المال الذي يتزوج به، وفي هذا القول تخصيص المأمورين بالاستغفاف، وذلك ضعيف.

ثم أمر الله تعالى المؤمنين كافة أن يكتسب منهم كل من له مملوك وطلب المملوك الكتابة وعلم سيده منه خيراً، قال النقاش: سببها أن غلاماً لحويط بن عبد العزى سأل مولاه الكتابة فأبى عليه، وقال مكي: هو ضَبَّاح القبطي غلام حاطب بن أبي بلتعة، ولفظ «الْكِتَاب» في الآية مصدر كالقتال والجلاد ونحوه من

مصادر فاعل، والكتابة؛ فعالة من حيث هذا يكتب على نفسه، وهذا على نفسه.

واختلف الناس، هل هذا الأمر بالكتابة على الوجوب أو على الندب، على قولين: فمذهب مالك رحمه الله أن ذلك على الندب، وقال عطاء: ذلك واجب، وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لأنس بن مالك رضي الله عنه في سيرين، حين سأل سيرين الكتابة فتلكأ أنس، فقال له عمر: كاتبه أو لأضربك بالذرة، وهو قول عمرو بن دينار والضحاك.

واختلف الناس في المراد بالخير؛ فقالت فرقة: هو المال، ولم تر على سيّد عبد أن يكتسب إلا إذا علم أن له مالاً يؤدي منه أو من الشجر فيه. وروي عن ابن عمر وسلمان أنهما أبيا من كتابة عبيدين رغبا في الكتابة ووعدا باستيفاء قاق الناس، فقال كل واحد منهما لعيده: أتريد أن تطعمني أوساخ الناس؟ وقال مالك: إنه ليقال: يراد بالخير القوة والأداء، وقال الحسن بن أبي الحسن: الخير هو صدق الموعد، وقلة الكذب، والوفاء، وإن لم يكن للعبد مال، وقال عبيدة السلماني: الخير هو الصلاح في الدين، وهذا في ضمنه القول الذي قبله.

والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم، وحرمة العتق إنما يتلبس بها بعد الأداء، هذا قول جمهور الأمة، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا أدى ثلث الكتاب فهو عتق غريم، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

العنقة تجري فيه بأول نجم يؤديه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ﴾، قال المفسرون: هو أمر لكل مكاتب أن يضع للعبد من مال كتابته، واستحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يكون ذلك ربع الكتابة، قال الزهراوي: وروي ذلك عن النبي ﷺ، واستحسن الحسن بن أبي الحسن، وابن مسعود ثلثها، وقال قتادة: عُشْرُهَا، ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يكون ذلك من أول نجومه مبادرة إلى الخير وخوف ألا يدرك آخرها، ورأى مالك رحمه الله، وغيره أن يكون الوضع من آخر نجم، وعلة ذلك أنه إذا وضع من أول نجم ربما عجز العبد فرجع هو وماله إلى السيّد، فعادت إليه وضيعته، وهي شبه الصدقة، وهذا قول عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، ورأى مالك رحمه الله هذا الأمر على الندب، ولم يرَ لقدر الوضيعة حداً، ورأى الشافعي رحمه الله وغيره الوضيعة واجبة يحكم بها الحاكم على المكاتب وعلى ورثته، وقال الحسن، والتخعي، وبزينة: إنما الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ﴾ للناس أجمعين في أن يتصدقوا على المكاتبين، وأن يعينهم في فكك رقابهم، وقال زيد بن أسلم: إنما الخطاب لولاة الأمور بأن يعطوا للمكاتبين من مال الصدقة حظهم، وهو الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿فِي الرِّقَابِ﴾.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

روي أن سبب هذه الآية هو أن

عبدالله بن أبي ابن سلول كانت له أمة تسمى مُسَيَّكة، وقيل: معادة، فكان يأمرها بالزنى والكسب به، فشكت ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْتُمْ نَحْصًا﴾ راجع إلى «الفتيات»، وذلك أن الفتاة إذا أرادت التَّحْصُنَ فحينئذ يمكن وَتَنْصُورُ أَنْ يَكُونَ السَّيِّدُ مَكْرَهًا، ويمكن أَنْ يُنْهَى عَنِ الْإِكْرَاهِ، وإذا كانت الفتاة لا تريد التَّحْصُنَ فلا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَقَالَ لِلْسَّيِّدِ: لَا تُكْرِهْهَا؛ لِأَنَّ الْإِكْرَاهَ لَا يُتَصَوَّرُ فِيهَا وَهِيَ مَرِيدَةٌ لِلزَّنى، فهذا أَمْرٌ فِي سَادَةِ وَفَتَيَاتِ حَالِهِمْ هَذِهِ. وَذَهَبَ هَذَا النَّظَرُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَفْسَرِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَرَدْتُمْ نَحْصًا﴾ رَاجِعٌ إِلَى «الْأَيَّاتِ» فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَّاتِ بِمَا نَكَحَ﴾، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا الشَّرْطُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَرَدْتُمْ﴾ مُلْغًى، وَنَحْوُ هَذَا مِمَّا ضَعُفَ، وَاللَّهُ الْمُوفِقُ لِلصَّوَابِ بِرَحْمَتِهِ.

و(عَرَضُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الشَّيْءُ الَّذِي تَكْتَسِبُهُ الْأُمَّةُ بِفِرْجِهَا، وَمَعْنَى بَاقِي الْآيَةِ: فَإِنَّ اللَّهَ بَعْدَ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ بِهِنَّ، وَقَدْ يُتَصَوَّرُ الْعُقْرَانُ وَالرَّحِمَةُ بِالْمُكْرَهَيْنِ بَعْدَ أَنْ تَقَعَ التَّوْبَةُ مِنْ ذَلِكَ، فَالْمَعْنَى: غَفُورٌ لِمَنْ تَابَ. وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَابْنُ جَبْرِ: ﴿لَهُنَّ غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بِزِيَادَةِ «لَهُنَّ».

ثُمَّ عُدَّ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ فِيمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الْمُنِيرَاتِ،

وفيما ضرب لهم من أمثال الماضين من الأمم ليقع التحفظ مما وقع أولئك فيه، وفيما ذكر لهم من المواعظ. وقراء جمهور الناس: ﴿مُبَيَّنَاتٍ﴾ بفتح الباء، أي: يبينها الله تعالى وأوضحها، وقراء الحسن، وطلحة، وعاصم، والأعمش: ﴿مُبَيَّنَاتٍ﴾ بكسر الباء، أي: بيئت الحق وأوضحته.

﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

الثور في كلام العرب: الأصواء المدركة بالبصر، ويستعمل مجازاً فيما صحَّ من المعاني ولاح، فيقال: «كلام له نور»، ومنه «الكتاب المنير» ومنه قول الشاعر:

تَسَبَّ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى
ثُوراً وَمِنْ فَلَقِ الصُّبْحِ عُمُوداً
والله تعالى ليس كمثله شيء، فبين أنه ليس كالأصواء المدركة، ولم يبق للآية معنى إلا أنه أراد: الله ذو نور السموات والأرض، أي بقدرته أنارت أضواؤها، واستقامت أمورها، وقامت مصنوعاتها، فالكلام على التقريب للذهن، كما تقول: الملك نور الأمة، أي به قوام أمورها وصلاحي جملتها. والأمر في الملك مجاز، وهو في صفة الله تعالى حقيقة محضة؛ إذ هو الذي أبدع الموجودات، وخلق العقل نوراً هادياً؛ لأن ظهور الوجود به حصل، كما حصل بالضوء ظهور المُبَصَّرَاتِ، تبارك الله لا ربَّ سواه.

وقالت فرقة: التقدير: دين الله نور السموات والأرض، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: هادي

أهل السموات الأرض. والأول أعم للمعاني وأوضح مع التأمل.

وقرأ عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة، وأبو عبدالرحمن السلمي: ﴿الله نُّورٌ﴾ بفتح النون والواو المشددة وفتح الراء على أنه فعل.

وروي أن اليهود لما نزلت هذه الآية جسموا في تأويلها، واعترضوا محمداً ﷺ بأن قالوا: كيف هو نور الأرض والسماء بيننا وبينه، فنزلت حينئذ ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْلِ نُورِ﴾ الآية، أي: ليس الأمر كما ظننتم، وإنما هو نور بأنه قوام كل شيء وخالقه وموجده، مثل نوره كذا وكذا.

واختلف المتأولون في الضمير في ﴿نُورِهِ﴾ على من يعود؟ فقال كعب الأحبار، وابن جبير: هو عائذ على محمد ﷺ، أي: مثل نور محمد ﷺ، وقال أبي بن كعب رضي الله عنه، وابن جبير، والضحاك: هو عائذ على المؤمنين، وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وروي أن في قراءته ﴿مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ﴾، وروي أن فيها ﴿مَثَلُ نُورِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾. وقال الحسن: هو عائذ على القرآن والإيمان، وقال مكِّي بن أبي طالب: وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله: ﴿وَالْأَرْضِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه أقوال فيها عود الضمير على من لم يجر له ذكر، وفيها قطع المعنى المراد بالآية.

وقالت فرقة: الضمير في ﴿نُورِهِ﴾ عائذ على الله تعالى، ثم اختلفت هذه الفرقة في المراد بالنور الذي

أضيف إلى الله تعالى إضافة خلق إلى خالق، كما تقول: سماء الله، وناق الله؛ فقال بعضها: هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقال بعضها: هو المؤمن، وقال بعضها: هو الإيمان والقرآن، وهذه الأقوال متجهة مُطَرَّد معها المعنى، فكأن اليهود لما تأولوا ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية بمعنى الضوء قيل لهم: ليس كذلك، وإنما هو نور بأنه قوام كل شيء وهاديه، مثل نوره في محمد ﷺ، أو في المؤمن، أو في القرآن والإيمان كمشكاة، وهي الكوة غير النافذة فيها القنديل ونحوه.

وهذه الأقوال الثلاثة تضطرد فيها مقابلة جزء من المثل لجزء من المُمَثَّل، فعلى قول من قال: المُمَثَّل محمد ﷺ - وهو قول كعب الخير - فرسول الله ﷺ هو المشكاة، أو صدره، والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من علمه وهذه، والزجاجة قلبه، والشجرة المباركة هي الوحي والملائكة رسل الله إليه وسببه المتصل به، والزيت هو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحي.

وعلى قول من قال: «المُمَثَّل به المؤمن» - وهو قول أبي بن كعب - فالمشكاة صدره، والمصباح الإيمان والعلم، والزجاجة قلبه، والشجرة القرآن، وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمنها، قال أبي: فهو على أحسن الحال يمشي في الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات.

ومن قال: «إِنَّ المُمَثَّل به القرآن

والإيمان» فتقدير الكلام: مثل نوره - الذي هو الإيمان في صدر المؤمن - في قلبه كمشكاة، أي: كهذه الجملة. وهذا القول ليس في مقابلة التشبيه كالأولين، لأن المشكاة ليست تقابل الإيمان.

وتحتل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثل لجزء من المُمَثَّل به، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة، وذلك أي ريد: مثل نور الله الذي هو هُداة إتقانه صنعة كل مخلوق وبراهينه الساطعة على الجملة كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة التي هي أبغ صفات النور الذي بين أيدي الناس، أي: فَمَثَّلَ نور الله في الوضوح كهذا الذي هو متهاكم أيها البشر.

و(المشكاة): الكوة في الحائط غير النافذة، قاله ابن جبير، وسعيد بن عياض، وجمهور المفسرين، وهي أجمع للضوء، والمصباح فيها أكثر إنارة منه في غيرها، وقال جاهد: المشكاة: العمود الذي يكون المصباح على رأسه، وقال أبو موسى: المشكاة: الحديدية أو الرصاصة التي يكون فيها الفتيل في جوف الزجاج، وقال مجاهد أيضاً: المشكاة: الحداثد التي يعلق بها القنديل. والأول أصح هذه الأقوال.

وقوله تعالى: ﴿فِي رَيْبٍ﴾ لأنه جسم شفاف، المصباح فيه أنور منه في غير الزجاج. و(المضباح): الفتيل بناره. وأمال الكسائي - فيما روى عنه أبو عمرو الداني - الألف من «مَشْكَاة» فكسر الكاف التي

قبلها، وقرأ نصر بن عاصم: ﴿فِي رَجَاجَةٍ﴾ بفتح الزاي «وَالرَّجَاجَةُ» كذلك، وهي لغة.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّا كَوِّكٌ دُرِّيٌّ﴾ أي في الإنارة والضوء، وذلك يحتمل معنيين: إما أن يريد أنها بالمصباح كذلك، وإما أن يريد أنها في نفسها لصفاتها وجوده جوهرها كذلك، وهذا التأويل أبلغ في التعاون على النور. قال الضحاك: الكوكب الدُرِّيُّ هو الزُّهرة. وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص: ﴿دُرِّيٌّ﴾ بضم الدال وشد الياء، ولهذه القراءة وجهان: إما أن يُنسب الكوكب إلى الدُرِّ لبياضه وصفاته، وإما أن يكون أصله «دُرِّيٌّ» مهموز من الدُرِّ وهو الدفع، وخُفِّفَت الهمزة. وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم:

﴿دُرِّيٌّ﴾ بالهمز، وهو فُعِيل من الدُرِّ، بمعنى أنها تدفع بعضها بعضاً، أو بمعنى أن بها ما يدفع خفاءها، وفُعِيل بناء لا يوجد في الأسماء إلا في قولهم: مُرِيْقٌ لِلْعُضْرِ وفي السُّرْبَةِ إذا اشتقت من السُّر، وَوَجَّهَ هذه القراءة أبو علي وضَعَفَهَا غيره. وقرأ أبو عمرو، والكسائي: ﴿دُرِّيٌّ﴾ على وزن فُعِيل بكسر الفاء، من الدُرِّ، وهذه متوجهة. وقرأ قتادة: ﴿دُرِّيٌّ﴾ بفتح الدال والهمزة، قال أبو الفتح: وهذا عزيز، وإنما حفظ منه «السُّكَيْتَةُ» بشد الكاف، وقرأ سعيد بن المسيب، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم: ﴿دُرِّيٌّ﴾ بفتح الدال دون همز.

وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وطلحة، والأعمش،

والحسن، وقتادة، وابن وثاب، وعيسى: ﴿تَوْقُذٌ﴾ بضم التاء، أي الزجاجاة. وقرأ أبو عمرو، وأهل الكوفة، والحسن، وابن محيصن: ﴿تَوْقُذٌ﴾ بفتح التاء والواو وشد القاف وضم الدال، أي الزجاجاة. وقرأ أبو عمرو أيضاً، وابن كثير: ﴿تَوْقُذٌ﴾ بفتح التاء والدال، أي المصباح، وقرأ عاصم - فيما روى عنه إسماعيل - ﴿يُوقُذُ﴾ بالياء المرفوعة، على معنى: يُوقُذُ المصباح، قال أبو الفتح: وقرأ السلمي، والحسن، وابن محيصن، وسلام، وقتادة: ﴿يُوقُذُ﴾ بفتح الياء والواو والقاف المشددة ورفع الدال، أصله: يَتَوْقُذُ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾ أي: من زيت شجرة، و(المباركة): المُنْمَاة، والزيتون من أعظم الثمار نماءً وأطراذاً أفناناً وعضارةً لا سيما بالشام، والرُّمان كذلك، والعيان يقضي بذلك، وقول أبي طالب يرثي مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس:

لَيْتَ شِغْرِي مُسَافِرَ بْنَ أَبِي عَمْرٍو، وَلَيْتَ يَقُولُهَا الْمَحْزُونُ
بُورِكَ الْمَيِّتُ الْغَرِيبُ كَمَا بُورِكَ نَسْبُ الرُّمَّانِ وَالزُّنْشُونُ
وقوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قرأ الجمهور فيهما بالخفض عطفًا على ﴿زَيْتُونَةٍ﴾، وقرأ الضحاك: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ بالرفع. واختلف المتأولون في معناه؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما - فيما حكى عنه الطبري -: معناه أنها شجرة في دوحة قد أحاطت بها فهي

غير منكشفة من جهة الشرق ولا عن جهة الغرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأن الوجود يقتضي أن الشجرة التي تكون بهذه الصفة ينفذ جناها.

وقال الحسن: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية.

وقال أبو زيد: أراد أنها من شجر الشام؛ لأن شجر الشام أفضل الشجر، ومن الأرض المباركة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم: المعنى في قوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ أنها في منكشف من الأرض، تصيبها الشمس طول النهار، تستدير عليها، فليست خالصة للشرق فتسمى شرقية، ولا للغرب فتسمى غربية.

وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَنَسَّه نَارُ﴾ مبالغة في صفة صفائه وحسنه وجودته. وقرأ الجمهور: ﴿تَنَسَّه﴾ بالتاء من فوق. وقرأ ابن عباس، والحسن بالياء من تحت. وقوله: ﴿تُورُّ عَلَى نُورٍ﴾ أي هذه كلها معادن تكامل بها

يَسْأَلُ لَأَنَّهُمْ جَذَرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةَ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَلَفُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَلَا أَبْصَرَ ﴿٣٦﴾
يَجْزِيهِمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كُفْرًا بِقِيَعِهِ يَحْسَبُهُ الظُّلُمَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٨﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدَرُهَا وَمَنْ يَكْمُلْ لِيَعْمَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَشْيَاءُ كُلِّ قَدْ عِلِمَ صَلَاتُهُ وَتُسَبِّحُهُ وَاللَّهُ عِلِمٌ بِمَا يُفْعَلُونَ ﴿٤٠﴾ وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَ اللَّهُ الْعَصِيدُ ﴿٤١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي الْحَبَّاءَ ثُمَّ يُولِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكًّا فَارَى الْوَدُوكَ يَخْرُجُ مِنْ خَلْقِهِ وَيَزِيلُ مَنْ أَسْمَاءُ مِنْ جِبَالٍ مِنْ بَرٍّ رَئِيبٍ وَمِنْ بَنَاءٍ وَيَصْرِفُهُمْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَاقِرُهَا يَذْهَبُ بِهَا لَا أَبْصَرَ ﴿٤٢﴾

٣٥٥

هذا النور المُمَثِّلُ به، وفي هذا الموضع تم المثال.

ثم ذكر تبارك وتعالى هذه لنوره من شاء وأسعد من عباده، وذكر تفضله في ضرب الأمثال للعباد ليقع لهم العبرة والنظر المؤدي إلى الإيمان.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: الباء في ﴿يُورَّتْ﴾ تَضُمُّ وتُكْسَرُ، واختلف في الفاء من قوله: ﴿فِي﴾؛ فقيل: هي متعلق بـ ﴿يُضَيِّعُ﴾، قال أبو حاتم: وقيل: متعلقة بـ ﴿يُسَبِّحُ﴾ المتأخر، فعلى هذا التأويل يوقف على ﴿يُسَبِّحُ﴾، قال الرماني: هي متعلقة بـ ﴿يُوقُذُ﴾.

واختلف الناس في البيوت التي أَرَادَهَا بقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، ومجاهد: هي المساجد

المخصوصة لله تعالى التي من عاداتها أن تُنَوَّر بذلك النوع من المصابيح، وقال الحسن بن أبي الحسن: أراد بيت المقدس، وسَمَّاهُ بيوتاً من حيث فيه مواضع يتحيز بعضها عن بعض، ويؤثر أن عادة بني إسرائيل في وقيد بيت المقدس كانت غاية في التَهْمُم به، وكان الزيت منتخباً مختوماً على ظروفه، وقد صُنِعَ صنعة وقُدِّسَ حتى لا يجري الوقيد بغيره، فكان أضواء بيوت الأرض. وقال عكرمة: أراد بيوت الإيمان على الإطلاق، مساجد ومسكن، فهي التي يستصبح فيها بالليل للصلاة وقراءة العلم، وقال مجاهد: أراد بيوت النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿يَسْبُحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ﴾ يَقْوِي أنها المساجد.

وقوله تعالى: ﴿أُذُنٌ﴾ بمعنى أَمْرٌ وقَضَى، وحقيقة الإذن العلم والتمكن دون حظر، فإن اقترن بذلك أَمْرٌ وإنفاذ كان أقوى. و﴿تَرْجَعُ﴾ قيل: معناهُ تَبْنَى وتَعَلَّى، قاله مجاهد وغيره، فذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَى أَهْلِكَ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «من بنى مسجداً من ماله بنى الله له بيتاً في الجنة»، وفي هذا المعنى أحاديث. وقال الحسن بن أبي الحسن: معناهُ تُعْظَم ويُرفع شأنها. وذكر اسمه تعالى هو بالصلاة والعبادة قولاً وفعلاً.

وقرأ ابن كثير، وعاصم: ﴿يَسْبُحُ﴾ بفتح الباء المشددة، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم: ﴿يَسْبُحُ﴾ بكسر الباء المشددة. ف﴿رِجَالٌ﴾ - على

القراءة الأولى - مرتفع بفعل مضمر يدل عليه ﴿يَسْبُحُ﴾، تقديره: يُسَبِّحُه رجال، فهذا عند سيبويه نظر قول الشاعر:

لِيُبْنِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ

.....

أي: يبكيه ضارعٌ، و﴿رِجَالٌ﴾ - على القراءة الثانية - مرتفع بـ ﴿يَسْبُحُ﴾ الظاهر، وروي عن يحيى بن وثاب أنه قرأ: ﴿يَسْبُحُ﴾ بالتاء من فوق. و﴿الْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ قال الضحاك: أراد الصبح والظهر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد ركعتي الضحى والعصر، وإن ركعتي الضحى لفي كتاب الله تعالى، وما يغوص عليهما إلا غواص. وقرأ أبو مجلز: ﴿وَالْإِبْصَالِ﴾.

ثم وصف الله تعالى المسبحين بأنهم لمراقبتهم أمر الله تعالى وطلبهم لرضاه لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا. وقال كثير من الصحابة رضوان الله عليهم: نزلت هذه الآية في أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة تركوا كل شغل وبادروا إليها، ورأى سالم بن عبدالله بن عمر أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة فقال: هؤلاء الذين أراد الله تعالى بقوله: ﴿لَا لَّهُمْ يَحْزَنُ وَلَا يَسُوعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وروى ذلك عن ابن مسعود.

و﴿وَأَقَامَ﴾ مصدرٌ من أقام يُقيم، أصله إقوامٌ، نقلت حركة الواو إلى القاف فبقيت ساكنة والألف ساكنة، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، فجاء «إقام»، فقال بعض النحويين: هو

مصدر بنفسه قد لا يضاف، وقيل: لا يجوز أقمته إقاماً، وإنما يستعمل مضافاً، ذكره الرماني، وقال بعضهم من حيث رأؤهُ لا يستعمل إلا مضافاً: ألحقت به هاء عَوْضاً من الحذوف فجاء «إقامه»، فهم إذا أضافوه حذفوا العَوْضَ لاستغنائهم عنه، فإن المضاف والمضاف إليه كاسم واحد. و(الزكاة) هنا عند ابن عباس رضي الله عنهما: الطاعة لله، وقال الحسن: هي الزكاة المفروضة في المال. و«اليوم المخوف» الذي ذكره الله تبارك وتعالى هو يوم القيامة.

واختلف الناس في تقلب القلوب والأبصار، كيف هو؟ فقالت فرقة: يرى الناس الحقائق عياناً فتتقلب قلوب الشاكين ومعتقدي الضلال عن معتقداتها إلى اعتقاد الحق على وجهه، وكذلك الأبصار، وقالت فرقة: هو تقلب على جمر جهنم، ومقصد الآية هو وصف هول يوم القيامة. فأما القول الأول فليس يقتضي قولاً، وأما الثاني فليس التقلب في جمر جهنم في يوم القيامة، وإنما هو بعده، وإنما معنى الآية عندي أن ذلك اليوم - لشدة هوله ومطلعه - القلوب والأبصار فيه مضطربة قلقلة متقلبة من طمع في النجاة إلى طمع، ومن حذر هلاك إلى حذر، ومن نظر في هول إلى النظر في الآخر. والعرب تستعمل هذا المعنى في الحروب ونحوها، ومنه قول الشاعر:

بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طَائِرٍ

ومنه قول بشار:

كَأَنَّ فُرَادَاهُ كُورَةٌ تَسْرَى

.....

وهذا كثير.

(٣٨) - (٤٠) تفسير قوله عز وجل:

اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهمُ﴾ متعلقة بفعل مضمر تقديره: فعلوا ذلك، ويسرّوا لذلك، ونحو هذا، ويحتمل أن تكون متعلقة بقوله سبحانه: ﴿يَسْخِجُ﴾. وقوله: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ فيه حذف مضاف تقديره: ثواب أحسن ما عملوا، ثم وعدهم عز وجل بالزيادة من فضله على ما تقتضيه أعمالهم، فأهل الجنة أبداً في مزيد، ثم ذكر أنه يرزق من يشاء، ويخصه بما يشاء من رحمته دون حساب ولا تعدد، وكل تفضل لله فهو بغير حساب، وكل جزاء على عمل فهو بحساب.

ولما ذكر الله تعالى فيما تقدم من هذه الآية حالة الإيمان والمؤمنين وتنويره قلوبهم، عقّب ذلك بذكر الكفرة وأعمالهم، فمثل لها ولهم تمثيلين: الأول منهما يقتضي حال أعمالهم في الآخرة من أنها غير نافعة ولا مجدية، والثاني يقتضي حالها في الدنيا من أنها في الغاية من الضلال والعمّة التي مثالها ما ذكر من تناهي الظلمة في قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾.

(وَالسَّرَابِ): ما تفرّق من الهواء في الهجير في فيافي الأرض المنبسطة، وأوهم الناظر إليه على بُعد أنه ماء، سُمّي بذلك لأنه ينسرب كالماء، فكذلك أعمال

الكافر، يظن في دنياه أنها نافعة، فإذا كان يوم القيامة لم يجدها شيئاً، فهي كالسراب الذي يظنه الراثي العطشان ماءً، فإذا قصده وأتعب نفسه بالوصول إليه لم يجد شيئاً. (وَالْقَيْعَ): جمع قاع، كجار وجيرة، والقاع: المنخفض البساط من الأرض، ومنه قول النبي ﷺ في مانع زكاة الأنعام: «فَيَبْطَحُ لها بقاع قَرْقَرٍ». وقيل: القيعان مفرد، وهو بمعنى القاع. وقرأ مسلمة بن محارب: «بِقَيْعَاتٍ»، وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع - بخلاف -: «الظُّلُمَاتِ» بفتح الميم وطرح حركة الهمزة على الميم وترك الهمزة.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَهُ لَرَّ يَجِدُهُ سَيِّئًا﴾ يريد: شيئاً نافعاً في العطش، أو يريد: شيئاً موجوداً على العموم، ويريد به ﴿جَاءَهُ﴾: جاء موضعه الذي تخيله فيه، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿جَاءَهُ﴾ على السراب، ثم يكون في الكلام بعد ذلك متروك يدل عليه الظاهر تقديره: «فكذلك الكافر يوم القيامة يظن عمله نافعاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً»، ويحتمل الضمير أن يعود على العمل الذي يدل عليه قوله: «أَعْتَلَهُمْ»، ويكون تمام المثل في قوله: ﴿تَأَيَّ﴾، ويستغنى الكلام عن متروك على هذا التأويل، لكن يكون في المثل إيجازاً واقتضاباً لوضوح المعنى المراد به.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِندَهُ﴾ أي: بالمجازات، والضمير في

﴿عِندَهُ﴾ عائد على العمل، وباقى الآية بين، فيه توعّد وسرعة الحساب من حيث هو بعلم لا تكلف فيه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ عطف على قوله: ﴿كَرِيبٍ﴾، وهذا المثال الأخير تضمن صفة أعمالهم في الدنيا، أي أنهم من الضلال ونحوه في مثل هذه الظلمة المجتمعة من هذه الأشياء، وذهب بعض الناس إلى أن في هذا المثال أجزاء تقابل أجزاء من الممثل، فقال: الظلمات: الأعمال الفاسدة والمعتقدات الباطلة، والبخر: اللجج: صدر الكافر وقلبه، واللجج معناه ذو اللجة وهي معظم الماء وغمره، واجتماع مائه أشد لظلمته، والمروج هو الضلال أو الجهالة التي غمرت قلبه، والفكر المعوجة، والسحاب هو شهوته في الكفر وإعراضه عن الإيمان وما يرين به على قلبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل سائغ، وألاً يُقدّر هذا التقابل سائغ.

وقرأ سفيان بن حسين: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ بفتح الواو، وقرأ جمهور السبعة: ﴿سَحَابٍ﴾ بالرفع والتنوين ﴿ظُلُمَاتٍ﴾، وقرأ ابن كثير - في رواية قبل -: ﴿سَحَابٍ﴾ بالرفع والتنوين ﴿ظُلُمَاتٍ﴾ بالخفض على البدل من ﴿ظُلُمَاتٍ﴾ الأول، وقرأ ابن أبي بزة عن ابن كثير: ﴿سَحَابٍ﴾ بغير تنوين على الإضافة إلى ﴿ظُلُمَاتٍ﴾.

وقوله: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُ لَمْ يَكْدُ بِرَبِّهَا﴾ لفظ يقتضي مبالغة الظلمة، واختلف الناس في هذا اللفظ، هل يقتضي أن هذا الرجل - المقدر في هذه الأحوال وأخرج يده - رأى يده أو لم يرها البتة؟ فقالت فرقة: لم يرها جملة، وذلك أن (كاد) معناها قارب، فكأنه قال: إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها، وهذا يقتضي نفى الرؤية جملة، وقالت فرقة: بل رآها بعد عُسر وشدة، وكاد ألا يراها، ووجه ذلك أن (كاد) إذا صحبها حرف النفي وجب الفعل الذي بعدهما، وإذا لم يصحبها انتفى الفعل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لازم متى كان حرف النفي بعد (كاد) داخلاً على الفعل الذي بعدهما، تقول: «كاد زيد يقوم» فالقيام منفي، فإذا قلت: «كاد زيد ألا يقوم» فالقيام واجب واقع، وتقول: «كاد النعام يطير»، فهذا يقتضي نفى الطيران عنه، فإذا قلت: «كاد النعام ألا يطير» وجب الطيران له، فإذا كان حرف النفي مع (كاد) فالأمر محتمل، مرة يوجب الفعل، ومرة ينفيه، تقول: «المفلوج لا يكاد يسكن»، فهذا كلام صحيح تضمن نفى السكون، وتقول: «رجل متكلم لا يكاد يسكن»، فهذا كلام صحيح يتضمن إيجاب السكون بعد جهد ونادراً، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ نفى مع (كاد) تضمن وجوب الذبح، وقوله في

هذه الآية: ﴿لَمْ يَكْدُ بِرَبِّهَا﴾ نفى مع (كاد) يتضمن في أحد التأويلين نفى الرؤية، ولهذا ونحوه قال سيويه رحمه الله: «إن أفعال المقاربة لها نحو آخر» بمعنى أنها دقيقة التصرف.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾، قالت فرقة: يريد: في الدنيا، أي: من لم يهده الله لم يهتد، وقالت فرقة: أراد: في الآخرة، أي: من لم يرحمه الله ويُتَوَّرَّ حاله بالعفو والرحمة فلا رحمة له، والأول أبين وأليق بلفظ الآية، وأيضاً فذلك متلازم، نور الآخرة إنما هو لمن نُور قلبه في الدنيا وهدي، وقد قررت الشريعة أن من مرَّ لآخرته على كفره فهو غير مرحوم ولا مغفور له.

(١١) - (١٢) تفسير قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ نَبِيَّةٌ﴾ (الرؤية) رؤية الفكر. قال سيويه: كأنه قال: اثبتة، الله يُسَبِّحُ له من في السموات، (التسبيح) هنا التعظيم والتنبية، فهو من العقلاء بالنطق وبالصلاة من كل ذي دين. واختلف في تسبيح الطير وغير ذلك مما قد ورد الكتاب بتسبيحه؛ فالجمهور على أنه تسبيح حقيقي، وقال الحسن وغيره: هو لفظ تجوُّز، وإنما تسبيحه بظهور الحكمة فيه، فهو - لذلك - يدعو إلى التسبيح.

وقال المفسرون: قوله تعالى: ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عامة لكل شيء، من له عقل وسائر الجمادات،

لكنه لما اجتمع ذلك عبر عنه ﴿مَنْ﴾ تغليبا لحكم من يعقل. و﴿صَلَّاتٍ﴾ معناه: مصطفة في الهواء، وقرأ الأعرج: ﴿وَالطَّيْرُ﴾ بنصب الراء، وقرأ الحسن: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ﴾ مرفوعات.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، قال الحسن: المعنى: كل قد علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه، فهو يثابر عليهما ويؤديهما. وقال مجاهد: الصلاة للبشر والتسبيح لما عداهم، وقالت فرقة: المعنى: كل قد علم صلاة الله وتسبيح الله اللذين أمر بهما وهدي إليهما، فهذه إضافة خلق إلى خالق، وقال الزجاج وغيره: المعنى: كل قد علم الله صَلَاتَهُ وتسبِيحَهُ، فالضميران للكل. وقرأت فرقة: ﴿عُلِّمَ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ﴾ بالرفع وبناء الفعل للمفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، ذكرها أبو حاتم. وقرأ الجمهور: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ بالياء، على معنى المبالغة في وصف قدرة الله وعلمه بخلقه، وقرأ عيسى، والحسن: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ بالتاء من فوق، ففيه المعنى المذكور وزيادة الوعيد والتخويف من الله تعالى، وإعلام بتعدُّ بكون الملوك على الاطلاق له، وتذكيره بأمر المصير إليه والحشر يَقُوِي معنى التخويف من الله تبارك وتعالى. وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه، وابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَأَلَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

(الرؤفة) في هذه الآية رؤية عين، والتقدير: أن أمر الله وقدرته. و﴿نُزِجَ﴾ معناه: يسوق، والإجزاء إنما يستعمل في سوق كل ثقل ومدافعته كالسحاب والإبل المزاحيف، كما قال الفرزدق:

عَلَى مَزَاحِفٍ تُزْجِيهَا مَحَابِيرُ
والبضاعة المُرْجأة: التي تحتاج من الشفاعة والتحسين إلى ما هو كسوق الثقل، ومنه قول حبيب في الشيب: «وَنُحْنُ نُرْجِيهِ» - وسيبويه أبداً يقول في كلامه: «فَأَنْتَ تَرْجِيهِ إِلَى كَذَا»، أي تسوقه ثقيلًا متباطئًا.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرْفَعُ فِيهِ﴾ أي بين مفترق السحاب نفسه؛ لأن مفهوم السحاب يقتضي أن بينه فروجاً، وهذا كما تقول: جلست بين الدور، ولو أضيفت «بين» إلى مفرد لم يصح إلا أن تريد آخر، لا تقول: «جلست بين الدار» إلا أن تريد: «وبين كذا».

وورث عن نافع لا يهمز ﴿يُرْفَعُ﴾، وقالون عن نافع، والباقون يهزمون ﴿يُرْفَعُ﴾، وهو الأصل.

(الرُكَامُ): الذي يركب بعضه بعضاً ويتكاثف، والعرب تقول: إن الله تعالى إذا جعل السحاب ركاماً بالريح عصر بعضه بعضاً فخرج الودق منه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَابًا﴾، ومن ذلك قول حسان بن ثابت:

كَلْنَا هُمَا حَلَبَ الْعَصِيرِ قَعَا طِنِي
بِرْجَاجَةٍ أَرْخَاهُمَا لِلْمَفْصِلِ

ويروى «للمفصل» بكسر الميم وفتح الصاد، فالمفصل: واحد المقاصيل، والمفضل: اللسان، ويروى بالقاف، أراد حسان الخمر والماء الذي مزجت به، أي: هذه من عصر العنب وهذه من عصر السحاب، فسر هذا التفسير قاضي البصرة عبدالله بن الحسن للقوم الذين حلف صاحبهم بالطلاق أن يسأل القاضي عن تفسير بيت حسان.

(وَالْوَدْقُ): المطر، ومنه قول الشاعر:

فَلَا مُزْنَةَ وَدَقْتُ وَدَقَهَا
وَلَا أَرْضَ أَبْقَلٍ إِنْقَالَهَا
وقرأ جمهور الناس: ﴿وَمِنْ جَلِيلِهِ﴾ وهو جمع خَلَل، كَجَبَل وجبال، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك: ﴿وَمِنْ خَلَلِهِ﴾. وقرأ عاصم، والأعرج: ﴿وَيُنْزَلُ﴾ على المبالغة، والجمهور على التخفيف.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَرٍ﴾ قيل: تلك حقيقة، وقد جعل الله تعالى في السماء جبالاً من برد، وقالت فرقة: ذلك مجاز، وإنما أراد وصف كثرتهم، وهذا كما تقول: عند فلان جبال من المال، أو جبال من العلم، أي في الكثرة مثل الجبال، وحكي عن الأخفش تقديره زيادة ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَرَرٍ﴾، وهو قول ضعيف. و﴿مِنْ﴾

يُقَلِّبُ اللَّهُ أَلْوِيلَ وَالنَّهَارَ آخِرَ فِي ذَلِكَ لَعِبَةٍ لِأَوَّلِي الْأَنْصَرِ ﴿١٣﴾
وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ خَلَقَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤﴾
لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ تُعْمَضُونَ ﴿١٧﴾ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لِقَاءُ يَأْتُوا إِلَيْكُم مُذْعَبِينَ ﴿١٨﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ لِقَاءُ أَنْ يُصِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٩﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهََ وَتَفَقَّهَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِدُوا أَعْيُنَكُمْ مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ يَخَيْرُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

في قوله تعالى: ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ هي لابتداء الغاية، وفي قوله: ﴿مِنْ جِبَالٍ﴾ هي للتبعيض، وفي قوله: ﴿مِنْ بَرَرٍ﴾ هي لبيان الجنس.

(وَالسَّاءُ) مقصوراً: الضوء، (وَالسَّاءُ) ممدوداً: المجد والارتفاع في المنزل، وقرأ الجمهور: ﴿سَاءَ﴾ بالقصر، وقرأ طلحة ابن مصرف: ﴿سَاءَ﴾ بالمد والهمز، وقرأ طلحة أيضاً: ﴿بَرَرِهِ﴾ بضم الباء وفتح الراء، وهي جمع بُرَّة - بضم الباء وسكون الراء - فُعلة، وهي القدر من البرق، كلُّفَةُ وَلُثْمٌ وَغُرْفَةٌ وَغُرْفٌ. وقرأ الجمهور: ﴿يَذْهَبُ﴾ بفتح الياء، وقرأ أبو جعفر: ﴿يَذْهَبُ﴾ بضمها، من أذهب، كأن التقدير: يذهب النفوس بالآبصار، نحو قوله: ﴿تَبَّتْ يُالَ اللَّهِ﴾، ويحتمل أن يكون كقوله: ﴿وَمَنْ يُدِرْ فِيهِ بِالْحَكَامِ﴾

تنبيه وتذكير، وأخبر تعالى أنه أنزل الآيات ثم قيد الهداية إليها لأنه من قبله لبعض دون بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية، نزلت في المنافقين، وسببها فيما روي أن رجلاً من المنافقين اسمه بشر كان بينه وبين رجل من اليهود خصومة، فدعاه اليهودي إلى التحاكم عند رسول الله ﷺ، وكان المنافق مبطلاً، فأبى من ذلك ودعا اليهودي إلى كعب بن الأشرف، فنزلت هذه الآية فيه، وأسند الزهراوي عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال: من دعاه خصمه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم. ﴿مُذْنِبِينَ﴾ أي مظهرين للانقياد والطاعة، وهم إنما فعلوا ذلك حيث أيقنوا بالثجح، وأما إذا طلبوا بحق فهم عنه معرضون. ثم وقَّفه تعالى على أسباب فعلهم توقيف توبيخ، أي ليُقرُّوا بأحد هذه الوجوه التي عليهم في الإقرار بها ما عليهم، وهذا التوقيف يستعمل في الأمور الظاهرة مما يؤتخ به أو مما يُمدح به، فهو بليغ جداً، ومنه قول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا
البيت

ثم حكم عليهم بأنهم هم الظالمون، وقال: ﴿أَنْ يَحْفَ أَنْهُ عَلَيْهِمْ﴾ من حيث أن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحكم بأمر الله وشرعه، والخيْفُ: الميل.

٥١ - ٥٢ تفسير قوله عز وجل: قرأ الجمهور: ﴿قَوْلَ﴾ بالنصب، وقرأ علي بن أبي طالب

«دَابَّةً مِنَ الْبَحْرِ مِثْلَ الْظُرْبِ». وقوله: ﴿مِنْ مَاءٍ﴾ قال النقاش: أراد أمينية الذكور، وقال جمهور النظرة: أراد أن خلقه كل حيوان فيها ماء كما خلق آدم من الماء والطين، وعلى هذا يخرج قول النبي ﷺ للشيخ الذي سأله في غزاة بدر: ممن أنتم؟ فقال النبي ﷺ: «نحن من ماء»، الحديث.

والمشي على البطن للحيات والحوت ونحوه من الدود وغيره، وعلى الرُّجُلَيْنِ للإنسان والطير إذا

مشى، والأربع لسانير الحيوان، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَكْثَرِ﴾، فعم بهذه الزيادة جميع الحيوان، ولكنه قرآن لم يشته الإجماع، لكن قال النقاش: إنما اكتفى القول بذكر ما يمشي على أربع عن ذكر ما يمشي على أكثر لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع، وهي قوائم مشيه، وكثرة الأرجل في بعضه زيادة في الخلقة لا يحتاج ذلك الحيوان في مشيه إلى جميعها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلاً، بل هي محتاج إليها في تنقل الحيوان، وهي كلها تتحرك في تصرفه.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَءُوا الْقُرْآنَ حَتَّى يَخْرُجَ الْغَيْثُ أَوْ تَكُونَ فِي حُلِيِّكُمْ﴾ يعم كل ما نصب الله تعالى من آية وصنعة للعبرة، وكل ما نص في كتابه من آية

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِمَا عَلَّمَ مَوْلَايَ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ أَكْثَرَ مِنْكُمْ وَلْيَسْمَعُوا أَصْوَاتَ الْوَعْدِ إِنَّكُمْ فِي شَكٍّ مِنْ أَنْصَابٍ﴾. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. ﴿لَا تَحْزَنْ أَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزَاتُكَ فِي الْأَرْضِ وَمَا بَعْدُهَا وَأَنزَلْنَا الْقُرْآنَ الْمُبِينُ﴾. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْتَوُوا بِالَّذِينَ مَنَعْتُمْ كَيْدًا وَمَنَعْتُمْ الْقُرْآنَ وَالَّذِينَ لَمْ يَمْنَعُوا الْقُرْآنَ وَكُنْ لَكُمْ مَرْءٌ مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَبَيْنَ صَلَوةِ الْآصَاةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْدَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ قَدْ كَفَرْنَا بِكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٣٥٧

يُطْلَقُ، فالباء زائدة دالة على فعل يناسبها.

ثم اقتضت ألفاظ الآية الإخبار عن تغليب الليل والنهار، والإتيان بهذا بعد هذا دون توطئة، وهذا هو الذي تعجز عنه الفصحاء حتى يقع منهم التخليط في الألفاظ والتوسطة بالكلام، وباقي الآية يبين.

١٥ - ١٦ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية اعتبار، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿وَاللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾. ﴿وَالدَّابَّةُ﴾: كل ما يدب من الحيوان، أي يتحرك متنقلاً أمامه قدماً، ويدخل فيه الطير إذ قد يدب، ومنه قول الشاعر:

.....
دَبِبَ قَطَا الْبَطْحَاءِ فِي كُلِّ مَنَهَلٍ
ويدخل فيه الحوت، وفي الحديث

رضي الله عنه، والحسن، وابن أبي إسحاق: ﴿قَوْلُ﴾ بالرفع، واختلف عن الآخرين، قال أبو الفتح: شرط «كان» أن يكون اسمها أعرف من خبرها، فقراءة الجمهور أقوى: والمعنى: إنما كان الواجب أن يقوله المؤمنون إذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، فـ ﴿كَانَ﴾ هذه ليست إخباراً عن الماضي، وإنما هي كقول الصديق رضي الله عنه: «ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ، وجعل الدعاء إلى الله من حيث هو إلى شرعه ودينه. وقرأ الجمهور: ﴿يَلْعَنُكُمْ﴾ على بناء الفعل للفاعل، وقرأ أبو جعفر، والجحدري، وخالد بن إلياس، والحسن: ﴿يَلْعَنُكُمْ﴾ على بناء الفعل للمفعول، و(المُفْلِحُونَ): البالغون آمالهم في دنياهم وآخرتهم.

و(جَهْدُ اللَّيْمِينَ) بلوغ الغاية في تعقيدها، و﴿يَتَرَفَّعُونَ﴾ معناه: إلى الغزو، وهذه في المنافقين الذين تولّوا حين دُعُوا إلى الله ورسوله. وقولسه: ﴿قُلْ لَا تَقْسِمُوا طَاعَةَ مَرْوَةَ﴾ يحتمل معاني: أحدها النهي عن القسم الكاذب؛ إذا عرف أن طاعتهم دغلة رديئة، فكأنه يقول: لا تغالطوا فقد عرف ما أنتم عليه، والثاني أن يكون المعنى: لا تتكلفوا القسم، طاعة عرف متوسطة على قدر الاستطاعة أثقل وأجدى عليكم، وفي هذا الوجه إبقاء عليهم، والثالث أن يكون المعنى: لا تقنعوا بالقسم، طاعة تُعرف منكم وتظهر عليكم هو المطلوب منكم، والرابع أن يكون

المعنى: لا تقنعوا لأنفسكم بإرضائنا بالقسم، طاعة الله معروفة، وشرعه وجهاد عدوه مهيب لائح. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ متصل بقوله: ﴿لَا تَقْسِمُوا﴾ و﴿طَاعَةَ مَرْوَةَ﴾ اعتراض بليغ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ الآية مخاطبة لأولئك المنافقين وغيرهم من الكفار وكل من يتعتى عن أمر محمد ﷺ، وقوله: ﴿تَوَلَّوْا﴾ معناه: تَتَوَلَّوْا، محذوف التاء الواحدة، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا مِثْلُهُ﴾. ولو جعلنا ﴿تَوَلَّوْا﴾ فعلاً ماضياً وقدرنا في الكلام خروجاً من خطاب الحاضر إلى ذكر الغائب لاقضى الكلام أن يكون بعد ذلك: «وعليهم ما حُمِلُوا». والذي حُمِلَ رسول الله ﷺ هو التبليغ ومكافحة الناس بالرسالة وإعماله الجهد في إنذارهم، والذي حُمِلَ الناس هو السمع والطاعة وأتباع الحق، وباقي الآية بين.

وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ونافع - رواية ورش -: ﴿وَيَتَّقِي﴾ بياء بعد الهاء، قال أبو علي: وهو الوجه، وقرأ قالون عن نافع: ﴿وَيَتَّقِي﴾ بكسر الهاء لا يبلغ بها الباء، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وعاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿وَيَتَّقِي﴾ جزمًا للهاء، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿وَيَتَّقِي﴾ بسكون القاف وكسر الهاء.

٥٥ - ٥٧ تفسير قوله عز وجل: قرأ الجمهور: «أَسْتَخْلِفُ» على بناء الفعل للمفعول، وروي أن سبب

هذه الآية أن بعض أصحاب النبي ﷺ شكا جهده مكافحة العدو، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم، وأنهم لا يضعون أسلحتهم، فنزلت هذه الآية عامة لأمة محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يريد: في البلاد التي تجاورهم والأصقاع التي قضى بامتدادهم إليها، واستخلافهم هو أن يُمْلِكَهُم البلاد ويجعلهم أهلها كما جرى في الشام وفي العراق وخراسان والمغرب. وقال الضحاك في كتاب النقاش: هذه الآية تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم لأنهم أهل الإيمان وعمل الصالحات، وقد قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح في الآية أنها في استخلاف الجمهور.

والسلام في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ لام القسم. وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿وَلْيَبْدُلْهُمْ﴾ بفتح الباء وشد الدال. وقرأ ابن كثير، وعاصم - في رواية أبي بكر - والحسن، وابن محيصن بسكون الباء وتخفيف الدال.

وجاء في معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله ﷺ لما قال أصحابه: أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ قال رسول الله ﷺ: «لا تغربون إلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتباً ليس فيه حديدة».

قوله: ﴿يَسْبُدُونِي﴾ فعل مستأنف، أي هم يعبدونني، وقوله: ﴿وَنَ كَرُ﴾ يريد: كفر هذه النعم إذا وقعت. ويكون الفسق - على هذا - غير المخرج عن الجملة، قال بعض الناس في كتاب الطبري: ظهر ذلك في قتل عثمان رضي الله عنه، ويحتمل أن يريد الكفر والفسق المخرجين عن الجملة، وهو ظاهر قول حذيفة بن اليمان، فإنه قال: كان على عهد النبي ﷺ نفاق وقد ذهب ولم يبق إلا كفر بعد إيمان.

ولما قَدَّمَ تعالى عَمَل الصالحات بَيْنَها في هذه الآية، فَنَصَّ على عَظَمِها وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وعَمَّ بطاعة الرسول لأنها عامة لجميع الطاعات. و﴿لَمَلَكْكُمْ﴾ معناه: في حقكم ومعتقدكم.

ثم أنحى القول على الكفرة بأن نبه على أنهم ليسوا بِمُفْلِحِينَ من عذاب الله تعالى. وقرأ جمهور السبعة: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالناء على المخاطبة للنبي ﷺ، وقرأها الحسن بن أبي الحسن بفتح السين، وقرأ حمزة، وابن عامر: ﴿لَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، قال أبو علي: وذلك يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون التقدير: لا يحسبن محمد، والآخر أن يسند الفعل إلى الذين كفروا والمفعول أنفسهم، وأعجز الرجل إذا ذهب في الأرض فلم يُقَدَّر عليه، ثم أخبر بأن ماواههم النار، وأنها بش الخاتمة والمصير.

قال ابن عمر رضي الله عنهما:

﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْشُكُ﴾ يُراد به الرجال

خاصة، وقال أبو عبد الرحمن السلمي: يراد به النساء خاصة، وسبيل الرجال أن يستأذنوا في كل وقت، وحكى الزهراوي عن ابن عمر رضي الله عنهما نحوه، وقيل: الرجال والنساء كلهم مراد، ورجحه الطبري. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَلْحَلُمَّ﴾ بضم اللام، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿أَلْحُلُمَّ﴾ بسكون اللام، وكان أبو عمرو يستحسنها.

وهذه الآية مُخَكِّمَةٌ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تركها الناس، وكذلك تَرَكَ النَّاسُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَى﴾، فأبى الناس إلا أن الأكرم هو الأنسب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه العبارة بترك الناس إغلاظاً وزجراً، إذ لم تُلْتَزَمْ حق الالتزام، وإلا فما قال الله تعالى هو المعتقد في ذلك عند العلماء المكتوب في تواليفهم، أعني أن الكرم التقوى، وأما أمر الاستئذان فإن تغيير المباني والحُجُب أغنت عن كثير من الاستئذان، وصيرته على حد آخر.

وأين أبواب المنازل اليوم من مواضع النوم؟ وقد ذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان العمل بهذه الآية واجباً إذ كانوا لا غلق ولا أبواب، ولو عادت الحال لعاد الوجوب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهي الآن واجبة في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحاري ونحوها.

ومعنى الآية عند جماعة من العلماء

أن الله تعالى أَدَب عباده بأن يكون العبيد - إذ لا بَالَ لهم - والأطفال الذين لم يبلغوا الحُلُمَ إلا أنهم عقلوا معاني الكشفة ونحوها، يستأذنون على أهلبيهم في هذه الأوقات الثلاثة، وهي الأوقات التي تقتضي عادة الناس الانكشاف فيها وملازمة التعري في المضاجع، وهي: عند الصباح لأن الناس في ذلك الوقت عراة في مضاجعهم، وقد ينكشف النائم، فمن مشى ودخل وخرج فحكمه أن يستأذن لثلا يطلع على ما يجب ستره، وكذلك في وقت القائلة - وهي الظهيرة - لأن النهار يظهر فيها إذا عَلَا واشتد حره، وبعد العشاء لأنه وقت التعري للنوم والتبديل للفراش، وأما في غير هذه الأوقات التي هي عورة، أي ذات انكشاف، فالعرف من الناس التحفظ والتحرُّز، فلا حرج في دخول هذه الصنيفة بغير إذن؛ إذ هم طَوَافُونَ يَمْضُونَ ويجيئون ولا يجد الناس بُدْأً من ذلك. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿طَوَافِينَ﴾ بالياء، وقال الحسن: إذا أبأت الرجلُ خادمه معه فلا استئذان عليه ولا في هذه الأوقات الثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿بِمَضَعِكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بدل من قوله: ﴿طَوَافُونَ﴾، و﴿لَكَ مَرِيٌّ﴾ نصب على الظرف لأنهم لم يُؤْمَرُوا بالاستئذان ثلاثاً، إنما أمروا بالاستئذان في ثلاثة مواطن، فالظرفية في ﴿لَكَ﴾ بيّنة.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿لَكَ عَوْرَتِي﴾ برفع ﴿لَكَ﴾، وهذا على الابتداء. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿ثَلَاثَ

وَأَذِ ابْلَغُ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُرَّةَ فَلْيَسْتَنْزِلُوا كَمَا اسْتَنْزَدَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْفَرْعَدَيْنِ الْمُسَاوِيَّاتِ اللَّتِي لَا يُرْجَوْنَ
نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ
غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُمْ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَنفُسِ كُمْ أَنْ تَأْكُلُوا
مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ حَلَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ مَكَاتِحِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَوْصِيائِكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا
جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ
تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

٢٥٨

به التبرج وإبداء الزينة،
فَرُبَّ عَجُوزٍ يَبْدُو مِنْهَا
الحرص على أن يظهر لها
جمال ونحو هذا مما هو
أقبح الأشياء وأبعده عن
الحق.

والتبرج طلب البُذُو
والظهور، ومنه: (بروج
مشبدة)، وأصل ذلك
بروج السماء والأسوار،
والذي أبيض وضعه لهذه
الصنيفة الجلباب الذي
فوق الخمار والرداء، قاله
ابن مسعود، وابن جبير،
وغيرهما.

ثم ذكر تعالى أن تحفظ
الجميع منهن واستعفافهن

عن وضع الثياب والتزامهن ما يلتزمه
الشباب من السر، أفضل لهن
وخير، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنْ
يَتَعَفَّفْنَ﴾ بغير سين، ثم ذكر تعالى
أنه سمع لما يقول كل قائل وقائلة،
عليم بمقصد كل أحد في قوله، وفي
هاتين الصفتين توعد وتحذير، والله
الموفق للصواب برحمته.

﴿٦١﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في المعنى الذي
رفع الله فيه الحرج عن الأصناف
الثلاثة؛ فظاهر الآية وأمر الشريعة أن
الحرج مرفوع عنهم في كل ما
يضرهم إليه العذر، وتقضي نيتهم
الإتيان فيه بالأكمل، ويقضي العذر
أن يقع منهم الأنقص، فالحرج
مرفوع عنهم في هذا. فأما ما قال
الناس في الحرج هنا، فقال ابن
زيد: هو الحرج في الغزو، أي: لا

عُزُورَاتٍ بَنَصَبٍ ﴿ثَلَاثٌ﴾، وهذه
على البذل من الطرف في قوله:
﴿ثَلَاثٌ مَرَّتَيْنِ﴾، وهذا البذل إنما يصح
معناه بتقدير: أوقات ثلاث عورات،
فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه
مقامه. و(عُزُورَاتٍ) جمع عورة، وبابه
في الصحيح أن يجيء على «فَعْلَاتٍ»
بفتح العين، كحَفَظَةٍ وَحَفَظَاتٍ ونحو
ذلك، وسكنوا العين في المعتل
كَبَيْضَةٍ وَبَيْضَاتٍ وَجَوْنَةٍ وَجَوْنَاتٍ
ونحوه، لأن فتحه داخٍ إلى اعتلاله
فلم يفتح لذلك.

﴿٥٩﴾ - ﴿٦١﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى أن الأطفال أمروا بالاستئذان
في الأوقات الثلاثة المذكورة، وأبيض
لهم الأمر في غير ذلك من الأوقات،
ثم أمر الله تعالى في هذه الآية أن
يكونوا - إذا بلغوا الحلم - على حكم
الرجال في الاستئذان في كل وقت،
وهذا بيان من الله عز وجل.

و(القواعد) يريد النساء اللاتي قد
أُسْتُئْذِنَ وقعدن عن الولد، واجدتهن
قاعد، وقال ربيعة: هي هنا التي
تُسْتَقْدَر من كبرها، قال غيره: وقد
تقعد المرأة عن الولد وفيها مُسْتَمْتَع،
فلما كان الغالب من النساء أن ذوات
هذا السن لا مذهب للرجال فيهن
أبيض لهن ما لم يُبَحِّ لغيرهن، وأزيل
عنهن كلفة التحفظ المتعب، إذ علّة
التحفظ مرتفعة فيهن. وقرأ ابن
مسعود: ﴿أَنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيَابِهِنَّ﴾،
وهي قراءة أبي، وروي عن ابن
مسعود أيضاً: ﴿مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾،
والعرب تقول: «امرأة واضع» للتي
كبرت فوضعت خمارها، ثم استثنى
عليهن في وضع الثياب ألا يقصدن

حرج عليهم في تأخرهم، وقوله
تعالى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية
معنى مقطوع من الأول.

وقالت فرقة: الآية كلها في معنى
المطاعم، قالت: وكانت العرب
ومن بالمدينة قبل المبعث تتجنب
الأكل مع أهل الأعداء، فبعضهم
كان يفعل ذلك تقديراً لجولان اليد
من الأعمى، ولائبساط الجلسة من
الأعرج، ولرائحة المريض وعِلَّاتِهِ،
وهي أخلاق جاهلية وكبر، فنزلت
الآية مؤدية، وبعضهم كان يفعل ذلك
تخرجاً من غير أهل الأعداء إذ هم
مقصرون في الأكل عن درجة
الأصحاء، لعدم الرؤية في الأعمى،
وللعجز عن المزاحمة في الأعرج،
ولضعف المريض، فنزلت الآية في
إباحة الأكل معهم، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما في كتاب

الزهراوي: إن أهل هذه الأعذار تخرجوا في الأكل مع الناس لأجل عذرهم فنزلت الآية مبيحة لهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: الآية من أولها إلى آخرها إنما نزلت بسبب أن الناس لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ قالوا: لا مال أعز من الطعام، وتخرجوا من أن يأكل أحد مع هؤلاء فيغبنهم في الأكل فيقع في أكل المال بالباطل، وكذلك تخرجوا عن أكل طعام القربايات لذلك، فنزلت الآية مبيحة جميع هذه المطاعم، ومبينة أن تلك إنما هي في التعدي والقمار وكل ما يأكله المرء من مال الغير والغير كاره، أو بصفة فاسدة ونحوه.

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: قوله في الأصناف الثلاثة إنما نزل بسبب أن الناس كانوا إذا نهضوا إلى الغزو وخلقوا أهل العذر في منازلهم وأموالهم، فكان أهل العذر يتجنبون أكل مال الغائب، فنزلت الآية مبيحة لهم أكل الحاجة من طعام الغائب إذا كان الغائب قد بنى على ذلك.

وقيل: كان الرجل إذا ساق أهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئاً ذهب بهم إلى بيت قرابته، فتخرج أهل الأعذار من ذلك فنزلت الآية.

وذكر الله تعالى بيوت القربايات وسقط منها بيوت الأبناء، فقال المفسرون: ذلك داخل في قوله تعالى: ﴿مِنْ يُّورِيكُمْ﴾؛ لأن بيت ابن الرجل بيته. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿إِمَاهَاتِكُمْ﴾ بكسر الهمزة.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ

مَفَاخِذُهُ﴾ يعني ما حُزِمت وصار في قبضتكم، ففُظمه ما ملكه الرجل في بيته وتحت غلقه، وذلك هو تأويل الضحك ومجاهد، وعند جمهور المفسرين يدخل في الآية الوكلاء والعبيد والأجراء بالمعروف. وقرأ جمهور الناس: ﴿مَلَكَتْكُمْ﴾ بفتح الميم واللام، وقرأ سعيد بن جبيرة: ﴿مُلْكُكُمْ﴾ بضم الميم وكسر اللام وشدها، وقرأ جمهور الناس: ﴿مَفَاخِذُهُ﴾، وقرأ سعيد بن جبيرة: ﴿مَفَاتِيحُهُ﴾ بياء بين التاء والحاء، الأولى على جمع مَفْتَح، والثانية على جمع مِفْتَاح، وقرأ قتادة: ﴿مَلَكَتُمْ مِفْتَاحَهُ﴾.

وقرن تعالى في هذه الآية الصديق بالقربة المحضة الوكيذة؛ لأن قرب المودة لصيق، قال معمر: قلت لقتادة: ألا أشرب من هذا الحب؟ فقال: أنت لي صديق فما هذا الاستئذان؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب النقاش: الصديق أوكد من القربة، ألا ترى في استغاثة الجهشميين: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَرِيحِينَ﴾ وَلَا صَرِيحٍ جَمِيعٍ.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ رد لمذهب جماعة من العرب كانت لا تأكل أفراداً البتة، قاله الطبري، ومن ذلك قول بعض الشعراء:

إِذَا مَا صَنَعْتَ الرَّادَّ فَالْتِمِسِي لَهُ
أَكِيلًا فَإِنِّي لَسْتُ أَكَلُهُ وَخِدي

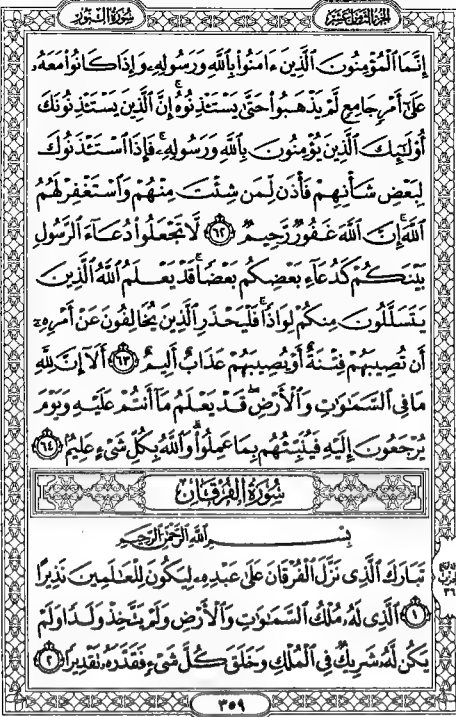
وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه، فنزلت هذه الآية مُبَيِّنَةً سُنة الأكل، ومُذْهِبَةً كل ما خالفها من

سنة العرب، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرماً، نَحَثَ به نحو كرم الخلق فأفرطت في إلزامه، وإن إحضار الأكل لحسن ولكن بآلأ يحرم الافراد.

وقال بعض أهل العلم: هذه الآية منسوخة بقوله ﷺ: «إِنْ دِمَاءُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، ويقولون: «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا» الآية، ويقولون ﷺ من حديث ابن عمر رضي الله عنه: «لَا يَخْلُبَنَّ أَحَدٌ مَاشِيَةً أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ» الحديث.

ثم ختم الله تعالى الآية بِتَبْيِينِهِ سُنة السلام في البيوت، واختلف الناس في أي البيوت أراد؛ فقال إبراهيم التَّخَمِي: أراد المساجد، والمعنى: سَلِّمُوا عَلَى مَنْ فِيهَا مِنْ صَنَفِكُمْ، فهذا كما قال: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ»، فإن لم يكن في المساجد أحد فالسلام أن يقول المرأة: السلام على رسول الله، وقيل: يقول: السلام عليكم، يريد الملائكة، ثم يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وقوله تعالى: ﴿نَحِيَّةٌ﴾ مصدر، ووصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب مودة المسلم عليه، والكاف من قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ كاف تشبيه، (وَذَلِكَ) إشارة إلى هذه السُّنة، أي: كهذا الذي وصف يطرد تبين الآيات لعلكم تعقلونها وتعملون بها.

وقال بعض الناس في هذه الآية: إنها منسوخة بآية الاستئذان الذي أمر به الناس، وهي المتقدمة في



والزهراوي: الجمعة من الأمر الجامع، وإمام الصلاة ينبغي أن يستأذن إذا قدمه إمام الإمرة إذا كان يرى المستأذن، ومشى بعض الناس دهرأ على استئذان إمام الصلاة، وروي أن هرم بن حبان كان يخطب، فقام رجل فوضع يده على أنفه، وأشار إلى هرم بالاستئذان فأذن له، فلما قضيت الصلاة كشف عن أمره أنه إنما ذهب لغير ضرورة، فقال هرم: اللهم آخر رجال سوء لزمان سوء.

وظاهر الآية إنما يقتضي أن يستأذن أمير الإمرة الذي هو في مقعد النبوة؛ فإنه ربما كان له رأي في حبس ذلك الرجل لأمر من أمور الدين، فأما إمام الصلاة فقط فليس ذلك إليه؛ لأنه وكيل على جزء من أجزاء الدين للذي هو في مقعد النبوة.

ثم أمر تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يأذن لمن عرف منه صحة العذر وهم الذين يشاء.

وروي أن هذه الآية نزلت في وقت حفر رسول الله ﷺ خندق المدينة، وذلك أن بعض المؤمنين كان يستأذن لضرورة، وكان المنافقون يذهبون دون استئذان، فأخرج الله تعالى الذين لا يستأذنون عن صنيعة المؤمنين، وأمر النبي ﷺ أن يأذن للمؤمن الذي لا تدعوه ضرورة إلى حبسه، وهو الذي يشاء، ثم أمره

السورة، فإذا كان الإذن محجوراً فالطعام أخرى، وكذلك فرضت فرقة نسخاً بينها وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والنسخ لا يتصور في شيء من هذه الآيات، بل هي كلها محكمة، أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ففي التعدي والخذع والغرر واللهو والقمار ونحوه، وأما هذه الآية ففي إباحة طعام هذه الأصناف التي يسرها استحابة طعامها على هذه الصفة، وأما آية الإذن فعلة إيجاب الاستئذان خوف الكشف، فإذا استأذن الرجل خوف الكشف ودخل المنزل بالوجه المباح صح له بعد ذلك أكل الطعام بهذه الإباحة، وليس يكون في الآيات نسخ، فتأمل.

﴿٦٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية للحصر، اقتضى ذلك المعنى؛ لأنه لا يتم إيماناً إلا بأن يؤمن المرء بالله ورسوله، وبأن يكون من الرسول سامعاً غير معنت في أن يكون الرسول ﷺ يريد أمراً فيريد هو إفساده بزواله في وقت الجمع ونحو ذلك.

والأمر الجامع) يراد به ما للإمام حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة، فأدب الإسلام اللازم في ذلك - إذا كان الأمر حاضراً - ألا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه، فإذا ذهب بإذن ارتفع عنه الظن السيء، والإمام الذي يترقب إذنه في هذه الآية هو إمام الإمرة. وقال مكحول،

بالاستغفار لصنفي المؤمنين، من أذن له ومن لم يؤذن له، وفي ذلك تأنيس للمؤمنين ورأفة بهم.

﴿٦٣﴾ - ﴿٦٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية مخاطبة لجميع معاصري رسول الله ﷺ، وأمرهم الله تعالى ألا يجعلوا مخاطبة رسول الله ﷺ في النداء كمخاطبة بعضهم لبعض، فإن سيرتهم كانت التداعي بالأسماء، وعلى غاية البداوة وقلة الاهتمام، فأمرهم الله تعالى في هذه الآية وفي غيرها أن يدعوا رسول الله ﷺ بأشرف أسمائه، وذلك هو مقتضى التوقير والتعزير، فالمبتغى في الدعاء أن يقول: يا رسول الله، ويكون ذلك بتوقير وخفض صوت وبر، وألا يجري ذلك على عادتهم بعضهم لبعض، قاله مجاهد وغيره.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

تفسير سورة الفرقان

هذه السورة مكية في قول الجمهور، وقال الضحاك: هي مدنية، وفيها آيات مكية، قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآيات.

﴿١﴾ - ﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿تَبَارَكَ﴾ وزنه تفاعل، وهو فعل مضارع (تبارك)، من البركة، و (تبارك) فاعل من واحد، ومعناه: زاده، و ﴿تَبَارَكَ﴾ فعل مختص بالله تعالى، لم يستعمل في غيره، ولذلك لم يصرف منه مستقبل، ولا اسم فاعل، وهو صفة فعل، أي: كثرت بركاته، ومن جُمِلَتْها إنزال كتابه الذي هو الفرقان بين الحق والباطل، وصدر هذه الآية إنما هو رد على مقالات كانت لقريش، فمن جُمِلَتْها قولهم: «إن القرآن افتراه محمد، وإنه ليس من عند الله»، فهو رد على هذه المقالات.

وقرأ الجمهور: ﴿عَلَى عِبَادِهِ﴾ وقرأ عبدالله بن الزبير: ﴿عَلَى عِبَادِهِ﴾، والضمير في قوله: ﴿يَكُونُ﴾ يحتمل أن يكون لمحمد ﷺ، وهو عبده المذكور، وهذا تأويل ابن زيد، ويحتمل أن يكون للقرآن، وأما على قراءة ابن الزبير فهو للقرآن، لا يحتمل غير ذلك إلا بكزه، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ عام في كل إنسي وجني، عاصره أو جاء بعده، وهذا مؤيد من غير ما موضع من الحديث المتواتر وظاهر الآيات،

في هذا الموضع: الاختبار والرزايا في الدنيا، أو بالعذاب الأليم في الآخرة، ولا بد للمنافقين من أحد هذين.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ﴾ استفتح الكلام وأخبر أن الله تعالى له ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً، ثم أخبرهم أنه قد علم ما أهل السماء والأرض عليه، وخص بالذكر منهم المخاطبين لأن ذلك موضع الحجة عليهم، وهم به أعمى.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُرْجَمُونَ﴾ يجوز أن يكون معمولاً لقوله: ﴿يَسْتَمُّ﴾، ويجوز أن يكون التقدير: والعلم الظاهر لكم - أو نحو هذا - يزوم، فيكون النصب على الظرف. وقرأ الجمهور: ﴿يُرْجَمُونَ﴾ بضم الياء وفتح الجيم، وقرأ يحيى بن يغمر وابن أبي إسحاق، وأبو عمرو: ﴿يُرْجَمُونَ﴾ بفتح الياء وكسر الجيم.

وقال عتبة بن عامر الجهني: رأيت النبي ﷺ يقرأ هذه الآية خاتمة التور فقال: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾، وباقي الآية بين.

كمل تفسير سورة النور والحمد لله رب العالمين، وبذلك ينتهي الجزء العاشر بفضل الله وعونه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وَأَعْتَدُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يُخْلَقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يَحْلُقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَاةً وَلا شَوْراً ﴿١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَنْفَكُ
أَقْرَبُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَآخِرُونَ فَقَدْ جَاءَ وظلما وذكرا
﴿٢﴾ وَقَالُوا اسْطِغْثُوا آلَؤُلَافَكُمْ أَكُنْتُمْ بِهَا أَهْلًا تُشْكِلُ
عَلَيْهِمْ بِكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٣﴾ فَلَمْ أَنْزَلْهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا ذَكِيًّا ﴿٤﴾ وَقَالُوا
مَا لَ هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْرِي فِي الْأَنْسَاءِ
لَوْلَا أَنْزَلُ إِلَهِهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ زَيْدًا ﴿٥﴾ أَوْ يُلَاقَى
إِلَهِهُ كَعَزَّزْتُ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَيَكُلُ
الطَّالِمُونَ إِنَّ تَنْبِئَهُمْ إِلَّا رَجُلًا مَسْجُورًا ﴿٦﴾ أَنْظِرْ
كَيفَ ضَرَبُوا لَهُ الْأَمْثَلُ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَيْلًا ﴿٧﴾ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ مَقَدَّرُ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ
جَنَّاتُ تجري من تحتهم الأنهارُ وَفِيهَا عِشْرُونَ مِائَةً
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَعِندَنا لَعْنُ كَذِبِ الْبَاطِلِ سَعِيرًا ﴿٨﴾

المعنى في هذه الآية إنما هو: لا تحسبوا دعاء الرسول عليكم كدعاء بعضكم على بعض، أي: دعاؤه عليكم مجاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولفظ الآية يدفع هذا المعنى، والأول أصح.

ثم أخبرهم الله تعالى أن المتسللين منهم لو أذا قد علمهم، واللواذ: الرُّوْغان والمخالفة، وهو مصدر «لاؤذ»، وليس بمصدر «لاؤذ»؛ لأنه كان يقال له: «لِإِذَا»، ذكره الزجاج وغيره.

ثم أمرهم بالحنز من عذاب الله تعالى ونقمته إذا خالفوا عن أمره، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُونَ عَنْ آسَرِهِ﴾ معناه: يقع خلافهم بعد أمره، وهذا كما تقول: كان المطر عن ريح، «وعن» هي لما عدا الشيء. (والفتنة)

و«النذير»: المُحَذَّرُ مِنَ الشَّرِّ، والرسول من عند الله نذير، وقد يكون النذير ليس برسول، كما روي في ذي القرنين، وكما ورد في رُسُل رسول الله ﷺ إلى الجن، فإنهم نذر وليسوا برسل.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ الْتَكْوِينُ وَالْأَلْحَاقُ الآية، هي من الرُّدْ على قريش في قولهم: «إن الله شريكاً»، وفي قولهم: «أَتَأْخُذُ الْبَنَاتَ»، وفي قولهم في التَّلبِية: «إِلَّا شَرِيكَ هُوَ لَكَ»، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَاصِمٌ فِي كُلِّ مَخْلُوقٍ﴾، وتقديرُ الأشياءِ هو حُدُودُهَا بِالْأَمْكِنَةِ وَالْأَزْمَانِ وَالْمَقَادِيرِ وَالْمَصْلَحَةِ وَالْإِتْقَانِ.

ثم عقب ذكر هذه الصفات التي هي للألوهية بالظن على قريش في اتخاذهم آلهة ليست لهم هذه الصفات، فالعقل يعطي أنهم ليسوا بآلهة. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَخْلُقُونَ﴾ يحتمل أن يريد: يخلقهم البشر بالنحت، وهذا التأويل أشد إبداءً لخشاسة الأصنام، وخلق البشر يجوز، ولكن العرب تستعمله، ومنه قول زهير:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ
خُسُوفِ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي
وهذا من: خَلَقْتَ الْجِلْدَ، إِذَا عَمِلْتَ فِيهِ رَسُوماً يَقْطَعُ عَلَيْهَا، فَالْفَرْيُ هُوَ أَنْ يَقْطَعَ عَلَى تِلْكَ الرَّسُومِ، وقوله تعالى: ﴿مَوْتًا وَلَا حَيَاةً﴾ يريد: إماتة ولا إحياء، و«الشُّور»: بعث الناس من القبور.

١ - تفسير قوله عز وجل: المراد بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قريش،

وذلك أن بعضهم قالوا: هذا كذب افتراه محمد، واختلف الناس في المُعِينِينَ لمحمد ﷺ - على زعم قريش - فقال مجاهد: أشاروا إلى قوم من اليهود، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أشاروا إلى عبيد كانوا للعرب من الفرس، أحدهم أبو فُكَيْهَةَ مولى الحضرميين، وجبر، ويسار، وعدَّاس، وغيرهم. ثم أخبر الله تعالى أنهم ما جاءوا إلا إثمًا وزورًا، أي: ما قالوا إلا بهتانًا وزورًا، و«الزُّور»: تحسين الباطل، هذا عرفه، وأصله التحسين مطلقًا، ومنه قول عمر رضي الله عنه: «فَأَرَدْتُ أَنْ أَقْدِمَ بَيْنَ يَدَيَّ أَبِي بَكْرٍ مُقَدِّمَةً كُنْتُ زَوْرَتْهَا».

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَتُطِيطِرُ﴾ الْتَوَلَّى، قال ابن عباس: يعني بذلك قول النضر بن الحارث، وذلك أنهم قالوا: كل ما في القرآن من ذكر أساطير الأولين فإنما هو بسبب النضر بن الحارث المشهور في ذلك، ثم رَمَوْا محمداً ﷺ بأنه اكْتَتَبَهَا، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿اِكْتَتَبَهَا﴾ بضم التاء الأولى وكسر الثانية، على معنى: اكْتَتَبَتْ لَهُ، ذكرها أبو الفتح، وقرأ طلحة: ﴿تَتَلَّى﴾ بتاء بدل الميم. ثم أمره الله تعالى أن يقول: الذي أنزله هو الله الذي يعلم سرَّ جميع الأشياء التي في السموات والأرض، ثم أعلم أنه غفور رحيم يُبْرِجِي كل سامع في عفوه ورحمته مع التوبة والإنابة، والمعنى أن الله غفور رحيم في إيقانه على أهل هذه المقالات والكفر لعلهم أن يؤمنوا.

٢ - تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ لقريش، وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله ﷺ مجلس مشهود، ذكره ابن إسحق في السير، مضمته أن سادتهم - عتبة وغيره - اجتمعوا معه، فقالوا: يا محمد، إن كنت تحب الرئاسة وَلَيْتَاكَ عَلَيْنَا، وإن كنت تحب المال جمعنا لك من أموالنا... فلما أبى رسول الله ﷺ رجعوا في باب الاحتجاج عليه، وقالوا له: ما بالك - وأنت رسول من الله - تأكل الطعام، وتقف بالأسواق تريد التماس الرزق؟ أي: من كان رسول الله مستغن عن جميع ذلك، ثم قالوا له: سَلْ رَبَّكَ أَنْ يُنْزِلَ مَعَكَ مَلَكًا يُنْذِرُ مَعَكَ، أَوْ يُلْقَى إِلَيْكَ كَنْزٌ تُنْفِقُ مِنْهُ، أَوْ يَرُدَّ لَكَ جِبَالُ مَكَّةَ ذَهَبًا، أَوْ تُزَالِ الْجِبَالُ وَيَكُونَ مكانها جنات تطرد فيها المياه، وأشاعوا هذه المحاجة، فنزلت هذه الآية.

وكتبت اللام مفردة من قولهم: ﴿هَٰذَا هَٰذَا﴾ إِمَّا لِأَنَّ مُغْلِي المصحف قطع لفظه فاتبعه الكاتب؛ وإمَّا لِأَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ حَرْفَ الْجَزْ بِإِنْهَاءِ الْإِتِّصَالِ، نحو مِنْ، وَفِي، وَغَنَ، وَعَلَى. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ بالياء، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿تَأْكُلُ﴾ بالنون، وهي قراءة ابن وثاب، وابن مُصَرِّفَ، وسليمان بن مهران. ثم أخبر تعالى عنهم - وهُم الظالمون الذين أشير إليهم - أنهم قالوا - حين يَسْئَلُوا مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ -: ﴿إِنْ تَنْتَعُونَ إِلَّا رَجُلًا

وُسْمِي ما كان بالجدران قصراً؛ لأنه
قُصِر على الداخلين.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ليس بهم في تكذيب
مشبك في الأسواق، بل إنهم كفرة
لا يفهمون الحق، فقوله: ﴿بَلْ تَرَكُ
لِنَفْسِ اللَّفْظِ الْمُتَقَدِّمِ لَا لِمَعْنَاهُ، عَلَى
مَا تَقْتَضِيهِ «بَلْ» فِي مَشْهُورِ مَعْنَاهَا،
﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: جَعَلْنَا مُعَدًّا، وَالْعَتَادُ:
مَا يُعَدُّ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَالسَّعِيرُ: طَبَقٌ
مِنْ أَطْبَاقِ جَهَنَّمَ.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ يريد:
جهنم؛ إذ اقتضاهما لفظ «السَّعِيرُ»،
ولفظ [رَأَتْهُمْ] يحتمل الحقيقة،
ويحتمل المجاز على معنى: صارت
منهم قُدر ما يرى الرائي من البعد،
إِلَّا أَنَّهُ وَرَدَ حَدِيثٌ يَقْتَضِي الْحَقِيقَةَ
فِي هَذَا، ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ، وَهُوَ أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ
مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعِدَهُ مِنَ النَّارِ بَيْنَ
عَيْنِي وَجَهَنَّمَ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
أَوَلَجَهَنَّمَ عَيْنَانِ؟ فَقَالَ: «اقْرَأُوا إِنْ
شِئْتُمْ: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ تَحْتِ بَيْتِكَ﴾»،
وَرَوَى فِي بَعْضِ الْأَثَارِ أَنَّ الْبَعْدَ الَّذِي
تَرَاهُمْ مِنْهُ مَسِيرَةُ سَنَةٍ، وَرَوَى أَنَّهُ
مَسِيرَةُ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَسْمِعُوا لَهَا نَفْثًا
وَوَيْرًا﴾ لفظ فيه تجوُّز، وذلك أَنَّ
التَّغْيِثَ لَا يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا الْمَسْمُوعُ
أَصْوَاتُ دَالَةٍ عَلَى التَّغْيِثِ، وَهِيَ وَلَا
شَكَّ احْتِدَامَاتُ فِي النَّارِ كَالَّذِي يَسْمَعُ
فِي نَارِ الدُّنْيَا، فَنُسِبَتْ هَذَا الْمَسْمُوعُ
الَّذِي فِي الدُّنْيَا مِنْ ذَلِكَ نُسْبَةً
إِلْحِرَاقٍ مِنَ الْإِحْرَاقِ، وَهِيَ سَبْعُونَ
دَرَجَةً كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ.
وَالزَّفِيرُ: صَوْتُ مَمْدُودٍ كَصَوْتِ

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: لَأَنَّ التَّأْوِيلَ
الثَّانِي يُوْهِمُ أَنَّ الْجَنَاتِ
وَالْقُصُورَ الَّتِي فِي
هَذِهِ الْآيَةِ - وَهُوَ تَأْوِيلُ
الشَّعْلِيِّ وَغَيْرِهِ - يَزِيدُهُ قَوْلُهُ
بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا
بِالسَّاعَةِ﴾، وَالْكُلُّ
مُحْتَمَلٌ.

وقرأ عاصم في رواية
أبي بكرٍ وحفص - ونافع،
وأبو عمرو، وحمزة،
والكسائي: ﴿وَيَجْعَلُ﴾
بالجزم، على العطف على
موضع الجواب في قوله:
﴿جَعَلَ﴾؛ لَأَنَّ التَّقْدِيرَ:

إِنْ يَشَأْ يَجْعَلِي، وَقَرَأَ أَبُو
بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ أَيْضًا: وَابْنُ كَثِيرٍ،
وَابْنُ عَامِرٍ: ﴿وَيَجْعَلُ﴾ بِالرَّفْعِ
وَالِاسْتِثْنَاءِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ مُجَاهِدٍ،
وَوَجْهُهُ الْعُطْفُ عَلَى الْمَعْنَى فِي
قَوْلِهِ: ﴿جَعَلَ﴾؛ لَأَنَّ جَوَابَ الشَّرْطِ
هُوَ مَوْضِعُ اسْتِثْنَاءٍ، أَلَا تَرَى أَنَّ
الْجَمْلَ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ وَالْخَبَرِ قَدْ تَقَعَّ
مَوْضِعَ جَوَابِ الشَّرْطِ؟ وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
مُوسَى، وَطَلْحَةُ بْنُ سُلَيْمَانَ:
﴿وَيَجْعَلُ﴾ بِالنَّصْبِ، وَهِيَ عَلَى
تَقْدِيرِ (أَنْ) فِي صَدْرِ الْكَلَامِ، قَالَ أَبُو
الْفَتْحِ: هِيَ عَلَى جَوَابِ الْجَزَاءِ،
قَالُوا وَهِيَ قِرَاءَةُ ضَعِيفَةٍ، وَأَدْغَمَ
الْأَعْرَجُ ﴿جَعَلَ لَكَ﴾ وَ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ﴾
وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ ابْنِ مَحِيصَنٍ.

و «القصور»: البيوت المبنية
الجدران، قاله مجاهد وغيره،
فكانت العرب تُسَمِّي ما كان من
الشَّعْرِ وَالصُّوفِ وَالْقَصَبِ بَيْتًا،

إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ يَسْمَعُوا لَهَا نَفْثًا وَوَيْرًا ﴿١١﴾ وَإِذَا
الْقَوَائِمُ مَكَانًا ضَيِّقًا مَقْرِينَ دَعَا هُنَا لَكَ ثُبُورًا ﴿١٢﴾
لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٣﴾ مَثَلُ
أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَاءً وَصِيرًا ﴿١٤﴾ لَمْ يَفْهَمُوا مَا يَشَاءُونَ خَلِيلِينَ
كَانَ عَلَى رَيْكِ وَعَدَا مُتَشَوِّلًا ﴿١٥﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَمْ تَدْعُوا إِلَهُاتِي عَادَى
هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٦﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ
يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ
وَأَبْأَسَهُمْ حَتَّى شَاؤَ اللَّهُ كُفْرًا وَكَانُوا قَوْمًا بُرًّا ﴿١٧﴾ فَقَدْ
كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَظِيمُونَ صَرَفُوا وَلَا
نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسًا مِنْكُمْ نَفْسًا عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٨﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَبَاءُ كُفْرٍ
أَلْفَعَامٍ وَيَحْسَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَحُمُلَانَا بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ فَشَنَّةٌ أُنْصِرُوا وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿١٩﴾

٣٦١

مَسْحُورًا، يجوز أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّخَرِ
وَهِيَ الرِّثَّةُ، فَكَأَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى
تَحْقِيقِهِ، أَيْ: رَجُلٌ مِنْكُمْ فِي
الْخَلْقَةِ، ذَكَرَهُ مَكِّي وَغَيْرُهُ. ثُمَّ
نَبَّهَهُ اللَّهُ تَعَالَى مُسْلِمًا عَنْ مَقَالَتِهِمْ
فَقَالَ: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ
فَضَّلُوا﴾، أَيْ: أَخْطَأُوا الطَّرِيقَ فَلَا
يَجِدُونَ سَبِيلًا لِهَدَايَةِ، وَلَا يَطِيقُونَهُ
لِلتَّبَاسُهِمِ بِضَدِّهِ مِنَ الضَّلَالِ.

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾ الْآيَةُ
رُجُوعٌ بِأُمُورِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى اللَّهِ،
أَيْ: هَذِهِ جِهَتُكَ، لَا هَؤُلَاءِ الضَّالُّونَ
فِي أَمْرِكَ، وَالْإِشَارَةُ بِ «ذَلِكَ» - قَالَ
مُجَاهِدٌ: هِيَ إِلَى مَا ذَكَرُوهُ فِي
التَّفَاقُشِ مِنَ الْكَتَنِ وَالْجَنَّةِ فِي الدُّنْيَا،
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:
هِيَ إِلَى أَكْلِهِ الطَّعَامِ وَمِثْلِهِ فِي
الْأَسْوَاقِ، قَالَ الطَّبْرِيُّ: وَالْأَوَّلُ
أَظْهَرَ.

الحمار المرجع في نهيقه، قال الثَّقَاشُ: الرَّفِيرُ: صوت الحمار عند نهيقه، وقال عبيد بن عمير: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك ولا نبي إلا خرّ ترعد فرائضه.

و «المكان الضيق» فيها هو مقصد إلى التضييق عليهم من المكان في النار، وذلك نوع من التعذيب، قال عليه الصلاة والسلام: «إنهم ليكروهون في النار كما يكره الود في الحائط»، أي: يدخلون كرهاً وعنفاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تُضَيَّقُ عليهم كما يُضَيَّقُ الرُّج على الرمح، وقرأ ابن كثير، وعبيد عن أبي عمرو: «ضَيْقاً» بتخفيف الياء، والباقون يُشَدَّدُونَ.

ومعنى «مُقَرَّرِينَ» مربوط بعضهم إلى بعض، وروى أن ذلك بسلاسل من نار، والقربان من الشيران: ما قُرنا بحبل للحرث، ومنه قول الشاعر:

إِذَا لَمْ يَزَلْ حَبْلُ الْقَرَيْنَيْنِ بِالتَّوَى
فَلَا بُدَّ يَسْؤَمَانِ...

وقرأ أبو شبة المهري صاحب معاذ بن جبل رضي الله عنه: «مُقَرَّرُونَ» بالواو، وهي قراءة شاذة، والوجه قراءة الناس، وقوله: «تُبُوراً» مصدر، وليس بالمدعو، ومفعول «دُعُوا» محذوف، تقديره: دعوا من لا يجيبهم، ونحو هذا من التقديرات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يكون التُّبُور هو المدعو، كما يدعى الحسرة والويل، والتُّبُورُ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو

الويل، وقال الضحّاك: هو الهلاك، ومنه قول ابن الزُّبَيْرِ:

إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْعَدَى
وَمَنْ مَالٍ مَسِيلُهُ مُشْبُورٌ

وقوله: «لَا نَدْعُوا» إلى آخر الآية معناه: يقال لهم على معنى التوبيخ والإعلام بأنهم مخلدون: لا تقتصروا على حُزْن واحد، بل احزنوا كثيراً؛ لأنكم أهل لذلك.

١٥ - ١٦ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين هم بسبيل مصير هذه الأحوال من النار: «أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْآخِلَةِ؟» وذلك على جهة التوقيف والتوبيخ، ومن حيث كان الكلام استفهاماً جاز فيه مجيء لفظة التفضيل بين الجنة والنار في الخير؛ لأن الموقف جائر له أن يُوقَف مُحاوره على ما يشاء ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطأ، وإنما يمنع سبويه وغيره من التفضيل بين شيئين لا اشتراك بينهما في المعنى الذي فيه تفضيل إذا كان الكلام خبراً؛ لأن فيه مخالفة، وأما إذا كان استفهاماً فذلك سائغ.

وقيل: الإشارة بقوله: «ذَلِكَ» إلى الجئات التي تجري من تحتها الأنهار، وإلى القصور التي في قوله تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي لِنَاكَ جَعَلَ لَكَ»، وهذا على أن يكون الجعل في الدنيا، وقيل: الإشارة بقوله: «ذَلِكَ» إلى الكنز والجنة اللتين ذكر الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأصح أن الإشارة بقوله: «ذَلِكَ» إلى النار كما شرحنا آنفاً.

و «الْمُنْقُوتُونَ» في هذه الآية مَنْ اتَّقَى الشُّرْكَ، فإنه داخل في الوعد، ثم تبقى المنازل في الوعد بحسب تقوى المعاصي.

وقوله تعالى: «وَعَدًا مَسْئُولًا» يحتمل معنيين: أحدهما - وهو قول ابن عباس، وابن زيد - أنه مسئول لأن المؤمنين سألوه أو يسألونه، وروى أن الملائكة سألت الله تعالى تنعيم المتقين فوعدهم بذلك، قال محمد بن كعب: هو قول الملائكة، وتَسْأَلُ «وَأَنبِئَهُمْ جَنَّتْ عَذَابُ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ»، والمعنى الثاني ذكره الطبري عن بعض أهل العربية: أن يريد وعداً واجباً قد حتمه، فهو لذلك مُعَدُّ أَنْ يُسْأَلَ وَيُقْتَضَى، وليس يتضمن هذا التأويل أن أحداً سأل الوعد المذكور.

١٧ - ١٨ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر يوم، والضمير في «يَحْشُرُهُم» للكفار، وقوله تعالى: «وَمَا يَعْبُدُونَ» يريد به كل شيء عُبِدَ من دون الله، فغلب العبادة عما لا يعقل من الأوثان لأنها كانت الأغلب وقت المخاطبة.

وقرأ ابن كثير، وعاصم - في رواية حفص -، والأعرج، وأبو جعفر: «يَحْشُرُهُم» «تَقُولُ» بالياء فيهما، وقرأ ابن عامر بالنون فيهما، وهي قراءة الحسن، وطلحة، وعاصم أيضاً، وقرأ نافع: «نَحْشُرُهُم» بالنون «تَقُولُ» بالياء، وفي قراءة عبدالله: «وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِنَا»، وقرأ الأعرج: «نَحْشُرُهُم» بكسر الشين، وهي قليلة في الاستعمال قوية في القياس؛ لأن (يَفْعِلُ) بكسر

العين في المتعدي أقيس من (يفعل) بضم العين.

وهذه الآية تتضمن الخبر على أن الله تعالى يوبّخ الكفار في القيامة بأن موقف المعبودين على هذا المعنى؛ ليقع الجواب بالثبوت من الذنب فيقع الخزي على الكافرين.

واختلف الناس في الموقف الموجب في هذه الآية - فقال جمهور المفسرين: هو كل من ظلم بأن عبد ممن يعقل كالملائكة وعزير وعيسى وغيرهم، وقال الضحاك، وعكرمة: الموقف الموجب: الأصنام التي لا تعقل، يقدرها الله تعالى يومئذ على هذه المقالة، ويجيء خزي الكفرة لذلك أبلغ.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَنْجَذَ﴾ بفتح النون، وذهبوا بالمعنى إلى أنه من قول من يعقل، وأن هذه الآية بمعنى التي في سورة سبأ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِنَّا كُرِّهْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ وكقول عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾، و﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ - على هذه القراءة - في موضع المفعول به. وقرأ أبو جعفر، والحسن، وأبو الدرداء، وزيد بن ثابت، وأبو رجاء، ونصر بن علقمة، ومكحول، وزيد بن علي، وحفص بن حميد: ﴿تَنْجَذَ﴾ بضم النون، وتذهب هذه مذهب من يرى أن الموقف الموجب الأوثان، ويضعف هذه القراءة دخول ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾، اعترض بذلك سعيد بن جبیر

وغيره، وقال أبو الفتح: ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ في موضع الحال، ودخلت زيادة لمكان النفي المتقدم، كما تقول: ما اتخذت زيدا من وكيل، وقرأ علقمة: «ما ينبغي» بسقوط [كَانَ] وثبوتها أمكن في المعنى؛ لأنهم أخبروا عن حال كانت في الدنيا، ووقت الإخبار لا عمل فيه.

وفسر هذا الموجب - بحسب الخلاف فيه - الوجهة في ضلال الكفار، كيف وقع؟ وأنه لما متّعهم الله تعالى بالنعم الدنيوية وأدّرها لهم ولأسلافهم الأحقاب الطويلة نسوا الذكر، أي: ما ذكر به الناس على ألسنة الأنبياء.

و﴿بُرْءًا﴾ معناه: هلكى، والبوار: الهلاك، واختلف في لفظه - فقالت فرقة: هي مصدر يوصف به الجمع والواحد، ومنه قول ابن الزبيري:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي
رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ

وقالت فرقة: هي جمع باير، وهو الذي قد فارقه الخير فحصل بذلك في حكم الهلاك، باشره الهلاك بغد أو لم يباشر، قال الحسن: البايرو: الذي لا خير فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ الآية، خطاب من الله تبارك وتعالى بلا خلاف، فمن قال: «إن الموجب الأصنام» كان معنى هذه إخباره الكفار أن أصنامهم قد كذبهم، وفي هذا الإخبار خزي وتوبيخ، والفرقة التي قالت: «إن الموجب هو الملائكة، وعزير، وعيسى،

ونحوهم» اختلفت في المخاطب بهذه الآية، فقالت طائفة: المخاطب الكفار على جهة التوبيخ والتقريع، وقالت طائفة: المخاطب هؤلاء المعبدون، أعلمهم الله تعالى أن الكفار بأنعالهم القبيحة قد كذبوا بهذه المقالة، وزعموا أن هؤلاء هم الأولياء من دون الله تعالى، وقالت فرقة: خاطب الله تعالى المؤمنين من أمة محمد ﷺ، أي: قد كذبكم أيها المؤمنون الكفار فيما تقولون من التوحيد والشرع.

وقرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، والناس: ﴿تَقُولُونَ﴾ بالياء من فوق ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ بالياء من تحت، ورجحها أبو حاتم، وقرأ أبو حية: ﴿تَقُولُونَ﴾ بالياء من تحت، ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بالياء من فوق، وقال مجاهد: الضمير في ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ هو للمشركين، قال الطبري: وفي مصحف ابن مسعود: ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ لَكَ صَرْفًا﴾، وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿لَقَدْ كَذَّبُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَكَ﴾، قال أبو حاتم: في حرف عبدالله: ﴿لَكُمْ صَرْفًا﴾ على جمع الضمير.

و﴿صَرْفًا﴾ معناه: ردُّ التكذيب أو العذاب أو ما اقتضاه المعنى بحسب الخلاف المتقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ نَنُكَتْهُ﴾ قيل: هو خطاب للكفار، وقيل: هو للمؤمنين، والظلم هو الشرك، قاله الحسن وابن جريج، وقد يحتمل أن يعم غيره من المعاصي، وفي حرف أبي: ﴿وَمَنْ يَكْذِبْ مِنْكُمْ نَذِفْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية الأولى رد على كفار قريش في استبعادهم أن يكون من البشر رسول، وقولهم: ﴿تَالِهَذَا أَنرَسُولُ اللَّهِ﴾، وأخبر الله تعالى محمد ﷺ وأمته بأنه لم يرسل قبل في سالف الدهر نبياً إلا بهذه الصفة. والمفعول بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ محذوف يدل عليه الكلام، تقديره: رجلاً أو رسلاً، وعلى هذا المفعول المحذوف المقدر يعود الضمير في قوله: ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ﴾، وذهبت فرقة إلى أن قوله: ﴿يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيُمْشُونَ﴾ بضم الياء وسكون الميم وتخفيف الشين، وقرأ علي، وعبدالرحمن، وابن مسعود رضي الله عنهم: ﴿وَيَمْشُونَ﴾ بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة، بمعنى: يذهبون إلى المشي ويحملون عليه، وقرأ أبو عبدالرحمن بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشددة، وهي بمعنى يمشون، ومنه قول الشاعر:

وَأَمْشِي بِأَغْطَانِ الْمِيَاءِ وَأَبْغِي
فَلَا تَصْنُ مِنْهَا صَغْبَةً وَزَكُوبُ
ثم أخبر تبارك وتعالى أن السبب في ذلك أنه سبحانه أراد أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس، مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الشاكر فتنة للغني، والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس الكفار في عصره، وكذلك العلماء وحكام

العدل، وقد تلا ابن القاسم هذه الآية حين رأى أشهب، والتوقيف بـ ﴿أَنْصِرُونَ﴾ خاص للمؤمنين المحققين، فهو لأمة محمد ﷺ، كأنه جعل إمهال الكفار فتنة للمؤمنين، أي اختباراً لهم، ثم وقّفهم: هل تصبرون أم لا؟ ثم أعرب قوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ عن الوعد للصابرين والوعيد للعاصين.

ثم أخبر عن مقالة الكفار: ﴿لَوْلَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ﴾ الآية، وقوله

تعالى: ﴿يَرْجُونَ﴾، قال أبو عبيدة وقوم: معناه: يخافون، والشاهد لذلك قول الهذلي:

إِذَا لَسَعَنَهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا
وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ ثُوبٍ عَوَامِلُ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر لي أن الرجاء في الآية والبيت على بابه؛ لأن خوف لقاء الله تعالى مقترن أبداً برجائه، فإذا نفى الرجاء عن أحد فإنما أخبر عنه أنه مُكْذَّبٌ بالبعث لنفي الخوف والرجاء، وفي ذلك الكفار بنفي الرجاء تنبيه على غبطة ما فاتهم من رجاء الله تعالى، وأما بيت الشعر المذكور فمعناه عندي: لم يرج دفعها ولا الانتفكاك عنها، فهو لذلك يوفي على الصبر ويجد في شغله.

ولما تمت كفار قريش رؤية ربهم أخبر تعالى عنهم أنهم عظموا

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ - ﴿٢٤﴾ - ﴿٢٥﴾ - ﴿٢٦﴾
﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ
أَوْرَثِي رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا
﴿٢٢﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى لَوْمٍ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ
فَأَنْجَارٌ يُؤْخَذُ وَجْهًا لَّيَوْمَ يَنْفَخُ الْأَشْجَارُ أَنْجَارًا
﴿٢٣﴾ هَكَذَا نَسْأَلُكَ اللَّهُ لِقَاءَهُ يَوْمَ يَنْفَخُ الْأَشْجَارُ أَنْجَارًا
وَأَحْسَنَ مِيقَلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ وَالْغَمَمُ يَرَى الْمَلَائِكَةُ
نَزِيلًا ﴿٢٥﴾ أَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى
الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَاسٍ ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَصْخَرُ الْأَرْضُ الْأَظْلَمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يُعْمَلُ
بِأَيْمَانِي أُنْخَذَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ سَيْلًا ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَئِذٍ لَيْسَ لَكَ أَنْتَ
فَلَا تَسْأَلُكَ إِلَّا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِجْلَاءٍ فِي
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ
يَرَبِّ إِنِّي قُورِي أَنُخَذَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ هَاجِرًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً
وَحِيدَةً كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرُكِّنَتْ زُرِّيًّا ﴿٣٢﴾

٣٢٦

أنفسهم، وسألوا ما ليسوا له بأهل، و﴿عَتَوْا﴾ معناه: صعبوا على الحق واشتدوا، ويقال: عَتَيْتُ وَعَتُوْتُ، عَتُوْتُ على الأصل، وعَتَيْتُ لاستثقال الضم على الواو فقلبت ياءً ثم كُسر ما قبلها طلباً للتناسب.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى في هذه الآية أن الكفار لما قالوا: ﴿لَوْلَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ﴾ إنما هو يوم القيامة، وقد كان أول الآية يحتمل أن يريد يوم تُقبض أرواحهم، لكن آخرها يقتضي أن الإشارة إلى يوم القيامة، وأمر العوامل في هذه الظروف بيّن إذا تؤمل، فاختصرناه لذلك. ومعنى الآية: إن هؤلاء الذين تمنوا نزول الملائكة لا يعرفون ما قدر الله تعالى في ذلك؛ فإنهم يوم يرون الملائكة هو شرٌ لهم، ولا بُشْرَى لهم، بل

لهم الخسار ولُقيا المكروه، ويومئذ لا خير ولا بشرى؛ لأن الظروف تكون إخباراً عن المصادر، والضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، قال الحسن، وقتادة، والضحاك، ومجاهد: هو للملائكة، المعنى: ويقول الملائكة للمجرمين: جبراً مخبراً عليكم البشرى، أي: حراماً مُحَرَّمًا، ومنه قول جرير بن عبدالمسيح:

خَتَّ إِلَى الثُّخْلَةِ الْفُضْرَى قُلْتُ لَهَا
جَجْرُ حَرَامٍ أَلَا يَلُكُ الدَّهَارِسُ
وقال مجاهد أيضاً، وابن جريج: إن الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هو للكفار المجرمين، قال ابن جريج: كانت العرب إذا كرهوا شيئاً قالوا: حجراً، قال مجاهد: حجراً: عوداً، يستعيدون بالملائكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون المعنى: ويقولون: حرام محرم علينا العفو، وقد ذكر أبو عبيدة أن هاتين اللفظتين عوذة عند العرب، يقولها من خاف آخر في الحرم، أو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما بزة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المعنى هو مقصد بيت المثلث الذي تقدم، أي: هذا الذي خَتَّ إليه ممنوع.

وقرأ الحسن، وأبو رجاء: ﴿حُجْرًا﴾ بضم الحاء، والناس على كسرهما.

ثم أخبر تعالى عما يأتي قضاؤه وفعله فقال حكاية عن يوم القيامة: ﴿وَقَدْ نَزَّ﴾، أي: قَصَدَ حكمنا

وإنفاذنا، ونحو هذا من الألفاظ اللاتقة، وقيل: هو قدوم الملائكة أسنده إليه لأنه عن أمره، وحسنت لفظة [قَدِمْنَا] لأن القادِم على شيء مكروه لم يُقَرَّرْه ولا أمر به مُعَيَّرَ له ومُذْهَب، وأما قول الراجز: وَقَدِيمَ السَّخَوَارِجِ الضَّلَالِ إِلَى عِبَادِ رَبِّنَا فَقَالُوا إِنَّ دِمَاءَكُمْ لَنَا حَلَالٌ فَالْقُدُومُ على بابه.

ومعنى الآية: وقصدنا إلى أعمالهم التي هي في الحقيقة لا تزن شيئاً؛ إذ لا نيةَ مَعَهَا، فجعلناها على ما تستحق لا تعدل شيئاً، وصيرناها هباءً منثوراً، أي: شيئاً لا تحصيل له، والهباء: هي الأجرام المستدقة الشائعة في الهواء التي لا يدركها جسٌّ إلا حين تدخل الشمس على مكان ضيق يحيط به الظل كالكوّة ونحوها، فيظهر حينئذ فيما قابل الشمس أشياء تغيب وتظهر، فذلك هو الهباء، ووصفه في هذه الآية بـ «مُنْثُور»، ووصفه في غيرها بـ «مُنْبَثٌّ»، فقالت فرقة: هما سواء، وقالت فرقة: المُنْبَثُّ أَرَقُّ وَأَذْقُ من المُنْثُور؛ لأن المنثور يقتضي أن غيره نثره، كسنايب الخيل أو الرياح أو هدم حائط ونحو ذلك، والمُنْبَثُّ كأنه انْبَثَّ من رفته، وقال غيرهما، الهباء المنثور هو ما تسفي به الرياح وتبثه، وروي عنه أيضاً أنه قال: الهباء الماء المهرق، والأول أصح، والعرب تقول: هبات الغبار ونحوه إذا بثته، قال الشاعر:

فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرُّجْعِ وَالْوَفْدِ
عَ مَنِيناً كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ

ومعنى هذه الآية: جعلنا أعمالهم لا حكم لها ولا منزلة. ثم أخبر عز وجل أن مُسْتَقَرَّ أهل الجنة خير من مُسْتَقَرَّ أهل النار، وجاءت ﴿تَبَيَّرَ﴾ ها هنا للتفضيل بين شيئين لا شركة بينهما، قال الزجاج وغيره: إنه لما اشتركا في أن هذا مُسْتَقَرٌّ وهذا مُسْتَقَرٌّ فَضَّلَ الاستقرار الواحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر لي أن هذه الألفاظ التي فيها عموم مآ، ويتوجه حكمها من جهات شتى، نحو قولك: أحب، وأحسن، وخير، وشر، يسوغ أن يُجَاءَ بها بين شيئين لا شركة بينهما، فتقول: السعد في الدنيا أحب إلينا من الشقاء، أي: قد يوجد بوجه مآ من يستحب الشقاء كالمُتَعَبِّدِ والمُعْتَاطِ، وكذلك في غيرها، فإذا كانت (أفعل) في معنى يَبَيِّنُ أن الواحد من الشيئين لا حظ له فيه بوجه فسد الإخبار بوجه التفصيل به، كقولك: الماء أبرد من النار، ومن هذا أنك تقول في ياقوتة ومذرة - ونشير إلى المذرة -: هذه خير وأحسن وأحب وأفضل من هذه، ولو قلت: هذه ألعم وأشدُّ شراقة من هذه، لكان فاسداً.

وقوله: ﴿مَعِيلاً﴾، ذهب ابن عباس رضي الله عنهما، والنخعي، وابن جريج إلى أن حساب الخلق يكمل في وقت ارتفاع النهار ومقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فالمقيل من القائلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن اللفظة إنما تضمنت

وقال مجاهد، وأبو رجاء: الظالم: اسم جنس، وفلان: الشيطان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر لي أن «الظالم» عام، وأن مقصد الآية تعظيم يوم يتبرأ فيه الظالمون من خلائهم الذين أمرهم بالظلم، فلما كان خليل كل ظالم غير خليل الآخر، وكان كل ظالم يسمي رجلاً خاصاً به عبّر عن ذلك بـ «فلان» الذي فيه الشيع الثام، ومعناه واحد عن الناس، وليس من ظالم إلا وله في دنياه خليل يعينه ويحرضه، هذا في الأغلب، ويشبه أن سبب الآية وترتب هذه المعاني كان عتبة وأبياً، وقوله: «مَعَ أَرْسُولِهِ» يُقَوِّي ذلك بأن نجعل تعريف «أَرْسُولِهِ» للعهد، والإشارة إلى محمد ﷺ، وعلى التأويل الأول التعريف للجنس.

وكلهم قرأ: «لَيْتَنِي» ساكنة الياء غير أبي عمرو فإنه حرك الياء «لَيْتَنِي» اتَّخَذْتُ، ورواها أبو حامد عن نافع مثل أبي عمرو، و«السَّيْلُ» المتمثلة هي طريق الآخرة. وفي هذه الآية لكل ذي نهاية تنبيه على تجنب قرين السوء، والأحاديث والحكم في هذا الباب كثيرة مشهورة.

وقوله تعالى: «يَوَلِّيكَ» الياء فيه عِوَض عن الياء في: يا وَيَلِّيكَ، والألف هي التي في قولهم: يا غلاما، وهي لغة، وقرأت فرقة بإمالة: «يَا وَيَلِّيكَ»، قال أبو علي: وترك الإمالة أحسن؛ لأن أصل هذه اللفظة الياء «يَا وَيَلِّيكَ»، فبدلت الكسرة فتحة والياء ألفاً فإرأاً من

مكة، ورويت عن أبي عمرو، وقرأ هارون عن أبي عمرو: «وَنَزَّلَ الملائكة» بإسناد الفعل إليها، وقرأت فرقة: «وَيَنْزِلُ الملائكة»، وقرأ أبي بن كعب أيضاً: «وَتَنَزَّلُ الملائكة».

وَقَرَّرَ أَنَّ الْمُلْكَ الْحَقَّ الْمُبِينُ هُوَ يَوْمُئِذٍ لِلرَّحْمَنِ؛ إِذْ قَدْ بَطَلَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كُلُّ مَلِكٍ. وَعَسِيرُهُ عَلَى الْكَافِرِينَ يُوجَّهُ بِدخول النار عليهم فيه، وما في خلال ذلك من المخاوف، وقوله: «عَلَّ الْكَافِرِينَ» دليل على أن ذلك اليوم سهل على المؤمنين، وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِيَهْزُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخْفَ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ صَلَّاهَا فِي الدُّنْيَا».

(٧٧) - (٧٨) تفسير قوله عز وجل: «يَوْمَ» ظرف العامل فيه مضمر، و«عَضُّ اليدين» هو فعل النادم الملهوف المتفجع، وقال ابن عباس وجماعة من المفسرين: «الظَّالِمُ» في هذه الآية عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مَعِيْطٍ؛ وذلك أنه أسلم أو جنح للإسلام، وكان أبي بن خلف الذي قتله رسول الله ﷺ بيده يوم أحد خليلاً لعُقْبَةَ، فنهاء عن الإسلام، فقبل نهيهِ، فنزلت الآية فيهما، فالظالم عُقْبَةُ، وفلان أبي. وفي بعض الروايات عن ابن عباس أن الظالم أبي، فإنه كان يحضر إلى النبي ﷺ، فنهاء عُقْبَةَ، فأطاعه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن أدخل في هذه الآية أُمِّيَّةً بن خلف فقد وهم، إلا على قول من يرى «الظَّالِمُ» اسم جنس.

تفضيل الجنة جملة وحسن هوائها، والعرب تفضل البلاد بحسن المقيّل؛ لأن وقت القيلولة يبدو فيها فساد هواء البلاد، فإذا كان بلد في وقت فساد الهواء حسناً جاز الفضل، ومن ذلك قول الأسود بن يَغْفَرُ الإيادي:

أَرْضٌ تَخَيَّرَهَا لَطِيبٌ مَقِيلُهَا
كَغَبِ بْنِ مَامَةَ وَابْنِ أُمِّ دُوَادٍ
وقوله تعالى: «وَيَوْمَ تَشَقُّقُ»، يريد يوم القيامة عند انفطار السماء ونزول الملائكة ووقوع الجزاء بحقيقة الحساب، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «تَشَقُّقُ» بشد الشين والقاف، وقرأ الباقون: بتخفيف الشين، وقوله: «وَالنَّاسِمْ»، أي: تشقّق عنه، والغمام: سحب رقيق أبيض جميل لم يره البشر بعد إلا ما جاء في تظليل بني إسرائيل. وقرأ جمهور القراء: «وَنَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلًا» بضم النون وشد الزاي المكسورة ورفع «الْمَلَائِكَةَ» على مفعول لم يسم فاعله، وقرأ أبو عمرو في رواية عبد الوهاب: «وَنَزَّلَ» بتخفيف الزاي المكسورة، قال أبو الفتح: وهذا غير معروف؛ لأن (نَزَّلَ) لا يتعدى إلى مفعول فيبني هنا للملائكة، ووجهه أن يكون مثل: «وَكَيْمَ الرَّجُلِ وَجُنَّ»، فإنه لا يقال إلا: أَزَكَمَهُ الله وأَجَنَّهُ، وهذا باب سماع لا قياس، وقرأ أبو رجاء: «وَنَزَّلَ» بفتح النون وشد الزاي، وقرأ الأعمش: «وَأَنْزَلَ الملائكة»، وكذلك قرأ ابن مسعود، وقرأ أبي بن كعب: «وَنَزَّلَتِ الملائكة»، وقرأ ابن كثير وحده: «وَتُنَزَّلُ الملائكة» بنونين، فهي قراءة أهل

تعالى لنزل جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ يحتمل أن يكون من قول الكفار، [ويحتمل أن يكون] من قول الكفار، كلام الله تبارك وتعالى لا من كلامهم، وهو أولى، ومعناه: كما نزل أردناه، فالإشارة إلى نزوله متفرقا، وجعل الله تعالى السبب في

نزوله متفرقا في الزمان تثبيت فؤاد محمد ﷺ، وليحفظه. وقال مكِّي، والرُّماني: من حيث كان أميا لا يكتب، وليطابق الأسباب المؤقتة، فنزل في ثيف وعشرين سنة، وكان غيره من الرسل يكتب فنزل جملة واحدة، وقرأ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ بالياء.

و«التَّزْنِيلُ»: التفریق بين الشيء المتتابع، ومنه قولهم: بقر رتل، ومنه ترتيل القراءة. وأراد الله تبارك وتعالى أن يُنَزِّلَ القرآن في النوازل والحوادث التي قدَّرها وقدر نزوله فيها.

ثم أخبر تعالى أن هؤلاء الكفرة لا يجيئون بِمَثَلٍ - يضربونه على جهة المعارضة - مُبَهِّمٍ - كتمثيلهم في هذه بالتوراة والإنجيل - إلا جاء القرآن بالحق في ذلك، أي بالذي هو حق، ثم هو أحسن تفسيرا، أو أفصح بيانا وتفصيلا. ثم أوعده الله تعالى الكفار بما ينزل بهم يوم القيامة من الحشر على وجوههم إلى النار. وذهب الجمهور إلى أن هذا المشي على الوجوه حقيقة، ورؤي في ذلك - من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه - حديث أن النبي ﷺ قال له رجل:

﴿مَهْجُورًا﴾ يحتمل أن يريد: مُبَعَّدًا مُقْصِيًا، [ويحتمل أن يكون] من الهجر بضم الهاء إشارة إلى قولهم: شعر وكهانة ويسخر، هذا قول مجاهد، والنخعي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقول ابن زيد: هو تنبيه للمؤمنين على ملازمة المصحف، وألا تكون الغبرة تعلوه في البيوت وتشتغل بغيره، وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «من علّق مصحفاً ولم يتعاهده أتى يوم القيامة معلقاً به،

يقول: هذا اتخذني مهجوراً، أقض يا رب بيني وبينه».

ثم أسه عن فعل قومه بأن أعلمه أن غيره من الرسل كذلك امتحن بأعداء في زمنه، أي: فاصبر كما صبروا، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، و﴿عَذْوًا﴾ يريد به الجمع، تقول: «هؤلاء عذو لي»، فتصف به الجمع والواحد والمؤنث، ثم وعده تعالى بقوله: ﴿وَكُنْ مِنْ رِبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، والباء في ﴿رِبِّكَ﴾ للتأكيد، دالة على المعنى، إذ هو: اكف بربك.

٢٢ - ٢٣ تفسير قوله عز وجل:

رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره أن كفار قريش قالوا في بعض معارضاتهم: لو كان هذا القرآن من عند الله

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جُنْدًا بِالْعَنَقِ وَأَحْسَنَ تَقْوِيمًا ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ يَحْشُرُونَ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أَوْ لَتَأْتِيكَ سَكْرٌ مَكْنَأً وَأَصْلٌ سَيْدًا ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ زَكِيًّا ﴿٢٤﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَىٰ آلِ قَوْمِ الْفِرْعَوْنَ كَذِبًا إِنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ مِنْهُمْ بِغِيٍّ ﴿٢٥﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٦﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّيسِ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٢٧﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا نَبِّئُكَ بِمَا لَمْ يَنصُرْكُم بِ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اطْلُبِ الْمَرْغَبَ لَنَنْظُرَ أَتَنْتَبِهَ ﴿٢٩﴾ وَوَدَّاعِلُ الْفَرِيقَةِ الَّتِي أَطَاعَتْ مَطَرُ السَّوَاءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرْتَضُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ شَيْئًا قَوْلِي وَلَا يَخَافُونَ رَبَّهُمْ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِلْكَ الْآيَاتِ كُنُوا مِنْ الَّذِينَ لَا يَهْتَفِئُونَ بِهَا لَوَالِئَ أَلْفَافٍ ﴿٣١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَنَا لَ الْغَدَابَ مِنْ أَصْلٍ سَيْدًا ﴿٣٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٣٣﴾

الياء، فمن آمال رجع إلى الذي فر عنه أولاً.

و «الَّذِكْرُ» هو ما ذكر به الإنسان أمر آخرته من قرآن أو موعظة ونحوه، و«كَانَ التَّنْبِيْهُ لِلنَّاسِ عَذْوًا» يحتمل أن يكون من قول الظالم، ويحتمل أن يكون ابتداء إخبار من الله تعالى على جهة الدلالة على وجه ضلالهم، والتحذير من الشيطان الذي بلغ ثم ذلك المبلغ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ حكاية عن قول الرسول ﷺ في الدنيا، وتشكيه ما يلقاه من قومه، هذا قول الجمهور، وهو الظاهر. وقالت فرقة: هو حكاية عن قوله ذلك في الآخرة. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿قَوْمِي﴾ بتحريك الياء، والباقون بسكونها.

يا رسول الله، كيف يقدرون على المشي على وجوههم؟ قال: «إِنَّ الَّذِي أَقْدَرَهُمْ عَلَى الْمَشْيِ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ أَنْ يَمْشِيَهُمْ عَلَى وَجُوهِهِمْ» وقالت فرقة: المشي على الوجوه استعارة للمذلة المفرطة والهوان والخزي، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَكَاكُفُ الْقَوْلُ فِيهِ كَالْقَوْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «خَيْرٌ مُسْتَقَرٌّ»

(٣٥) - (٣٦) تفسير قوله عز وجل:

هذه الآيات التي ذكر فيها الأمم هي تمثيل لهم وتوعد بأن يحل بهم ما حلَّ بهؤلاء المعذِّبين، و﴿الْكِتَابُ﴾: التوراة، و﴿الْوَزِيرُ﴾: المُعين، وهو من تحمُّل الوزر، أي ثقل الحال، ومن الوزر الذي هو الملجأ، و﴿الْقَوِيَّةُ الْبَرَّةُ كَذَّبُوا﴾ هم فرعون وملئيه من القبط، ثم حذف من الكلام كثيراً دلَّ عليه ما بقي، وتقدير المحذوف: فَذَهَبَا قَادِيَا الرسالة فكذبوهما فدمرناهم. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومسلمة بن محارب: ﴿فَقَدَّمَرَأَاهُم﴾، أي: كونا سبب ذلك، قال أبو الفتح: أَلَحَقَ نون التوكيد ألف الثنية، كما تقول لرجل: اضرباً زيدا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿فَقَدَّمَرَأَاهُمْ﴾، وحكى عنه أبو عمرو الداني: ﴿فَقَدَّمَرَأَاهُمْ﴾ بكسر الميم خفيفة، قال: وروى عنهم: ﴿فَقَدَّمَرُوا بِهِمْ﴾ على الأمر لجماعة وبزيادة باء،

والذي فسَّر أبو الفتح وهم، وإنما القراءة: ﴿فَقَدَّمَرُوا بِهِمْ﴾ بالياء، وكذا ذكرها المهدوي.

ونُصِبَ قوله: ﴿قَوِيَّةٌ﴾ بفعل مضمر يدلُّ عليه ﴿أَفَرَقْتَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿الرُّسُلُ﴾ وهم إنما كذبوا نوحاً فقط معناه أن الأمة التي تكذب نبياً واحداً ففي ضمن ذلك تكذيب جميع الأنبياء، فجاءت العبارة بما تضمنه فعلهم تعبيراً في القول عليهم، وقوله تعالى: ﴿ءَايَةٌ﴾ أي علامة على سطوة الله تبارك وتعالى بكل كافر بأنبيائه.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ يُصْرَف ولا يصرف، وجاء ها هنا مصروفاً، وقرأ ابن مسعود، وعمرو بن ميمون، والحسن، وعيسى: ﴿وَعَادًا﴾ مصروفاً، و ﴿وَتَمُودًا﴾ غير مصروف. واختلف الناس في ﴿وَأَمْسَبَ الرَّيْنِ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم قوم من ثمود، وقال قتادة: أهل قرية من اليمامة يقال لها: الرُّس، وقال كعب، ومقاتل، والسدي: الرُّس: بشر بأنطاكية الشام، قُتل بها صاحب ياسين، وقال الكلبي: أصحاب الرُّس قوم بُعث إليهم نبي فأكلوه، وقال قتادة: أصحاب الرُّس وأصحاب الأيكة قومان أرسل إليهم شبيب عليه السلام، وقاله وهب بن مُثَبِّه، وقال علي - في كتاب الثعلبي -: أصحاب الرُّس قوم عبدوا شجرة صنوبر يقال لها: «شاه درخت» رسوا نبيهم في بئر أو قبر أو معدن، ومنه قول الشاعر:

سَبَقَتْ إِلَى قَرْطِ بَاهِلٍ
تَنَابِلَةً يَحْفَرُونَ الرُّسَّاسَا
وروى عكرمة، ومحمد بن كعب القرظي عن النبي ﷺ أن أهل الرُّس المشار إليهم في هذه الآية قوم أخذوا نبيهم فرموه في بئر وأطبقوا عليه صخرة، فكان عبد أسود قد آمن به يجيء بطعام إلى ذلك البشر فيعيث الله على تلك الصخرة فيقلعها، وهو مؤمن بذلك النبي، فيعطيه ما يغذيه، ثم يرذ تلك الصخرة، إلى أن ضرب الله على أذن ذلك الأسود نوماً أربع عشرة سنة، وأخرج أهل القرية نبيهم فأمنا به في حديث طويل. قال الطبري: فيمكن أنهم كفروا به بعد ذلك فذكرهم الله تعالى في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ إيهام لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، وقد تقدم شرح «القرن»، وكم هو، ومن هذا اللفظ قال رسول الله ﷺ فيما يروى - ويروى أن ابن عباس رضي الله عنهما قاله -: «كذب الثَّسَابُونَ من فوق عدنان»، لأن الله تبارك وتعالى أخبر عن كثير من الأمم والخلق ولم يخبر عن غيرهم. ثم قال الله تعالى: إن كلَّ هؤلاء ضُرب له الأمثال ليهتدي فلم يهتد، فَتَبَّرَهُ اللهُ، أي أهلكه، والثَّسَابُ: الهلاك، والتَّبَرُّ: الذَّهَبُ، أي: الْمُكْسَرُ الْمُفْتَتَت، ولذلك يقال لِفُتَاتِ الرُّخَامِ والرُّجَاجِ: تَبَر، وقال ابن جرير: إن أصل الكلمة نبطي، ولكن العرب قد استعملته.

أَلَاهَةٌ، وَيَصْرِفُ وَلَا يَصْرِفُ،
«وَالْوَكِيلُ»: القائم على الأمر
الناض به.

﴿٤٠﴾ - ﴿٤١﴾ تفسير قوله عز وجل:
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءُوكَ
قَالَ أَوْيَقُنُوا إِنَّهُمْ لَا يَصْرِفُونَ
وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُمُ أَصْنَافًا مِّمَّنْ
فَتَلَّ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَسْوَاقًا﴾
﴿٤٠﴾ «أَلَمْ تَرَ» معناه: انتبه، والرؤية
هنا رؤية القلب، وأدغم عيسى بن
عمر: «رَبِّكَ كَيْفَ»، قال أبو
حاتم: والبيان أحسن، و«مَدَّ الظِّلَّ»
بإطلاق هو ما بين أول الإسفار إلى
بزوغ الشمس، ومن بعد مغيبها مدة
يسيرة، فإن في هذين الوقتين ظلُّ
ممدود على الأرض مع أنه نهار،
وفي سائر أوقات النهار ظلال
متقطعة، و«الْمَدَّ» و«الْقَبْضُ» مطرد
فيها، وهو عندي المراد في الآية،
والله أعلم.

ومن الظل الممدود ما ذكر الله
تبارك وتعالى في هواء الجنة؛ لأنها
لما كانت لا شمس فيها كان ظلها
ممدوداً أبداً، وتظاهرت أقوال
المفسرين على أن هذا الظل هو من
الفجر إلى طلوع الشمس، وذلك
معترض بأن ذلك في غير نهار،
بل في بقايا الليل، فلا يقال له
ظل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُمُ
سَاكِنَاتٍ﴾ أي ثابتاً غير متحرك
ولا منسوخ، ولكنه جعل الشمس
ونسخها إياه وطردها له من موضع
إلى موضع دليلاً عليه مبنياً لوجوده
ولوجه العبرة فيه، وحكى الطبري
أنه لولا الشمس لم يعلم أن الظل
شيء؛ إذ الأشياء إنما تعرف
بأضدادها.

وقوله تعالى: ﴿فَبَصَّاتُ الْيَمِينِ
يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: لَطِيفاً، أَيْ: شَيْئاً

عَلَى «الَّذِي» حذفت
اختصاراً، وحسن ذلك في
الصفة.

ثم آتس النبي ﷺ عن
كفرهم بقوله تعالى:
﴿أَوَيْتَ مِنَ اتَّخَذَ إِلَهُهُمُ
هُوَئِلَآءَ﴾ الآية، والمعنى:
لا تتأسف عليهم ودعهم
لرأيهم، ولا تحسب أنهم
على ما تحب من
التحصيل، بل هم كالأنعام
في الجهل بالمنافع، وقلة
التحسس للعواقب، ثم
حكم بأنهم أضل سبيلاً
من حيث لهم الفهم
وتركوه، والأنعام لا سبيل

لها إلى فهم المصالح،
ومن حيث جهالة هؤلاء وضلالهم،
وهي في أمر أخطر من الأمر الذي
فيه جهالة الأنعام. وقوله تعالى:
﴿اتَّخَذَ إِلَهُهُمُ هَوَاهُ﴾ أي: جعل هواه
مطاعاً فصار كالإله، والهوى قائد
إلى كل فساد، والنفس أمارة بالسوء،
وإنما الصلاح إذا انتمرت العقل،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
الهوى إله يُعبد من دون الله عزَّ
وجلَّ، وذكره الشعلبي، وقيل:
الإشارة بقوله: ﴿إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ إلى
ما كانوا عليه من أنهم كانوا يعبدون
حجراً، فإذا وجدوا أحسن منه
طرحوا الأول عبدوا الثاني الذي
وقع هواهم عليه. قال أبو حاتم:
وروي عن رجل من أهل المدينة -
قال ابن جني: هو الأعرج - «إِلَاهَةٌ
هَوَاهُ»، والمعنى: اتخذ شمساً
يستضيء بها، إذ الشمس يقال لها:

﴿الْأَلَهُةُ﴾
أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ رِبَّكَ كَيْفَ مَدَّ
الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُمُ سَاكِنَاتٍ مَّا كَانُوا يَعْلَمُونَ فَتَلَّ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أَسْوَاقًا ﴿٤١﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٢﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمْ اللَّيْلَ لِيَأْسَوا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ ذُكُورًا ﴿٤٣﴾
وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثَرَا بِكُم بِدَى رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا
مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٤﴾ لِنَخْشِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا وَشَقِيقَةً
مَيِّتًا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَا كَيِّدٌ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ صَدَقْنَاهُ بَدِينِهِمْ
لِيَذْكُرُوا أَنَّهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا كُفُورًا ﴿٤٦﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَبَشَّتُنَا بِكُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٤٧﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ
وَجَنَّهُدْهُمْ بِهِ جَهَادًا كَبِيرًا ﴿٤٨﴾ وَهُوَ الَّذِي مَجَّ
الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا
وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٤٩﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ
نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّكَ ظَهِيرًا ﴿٥١﴾

﴿٤٠﴾ - ﴿٤١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس، وابن جريج،
والجماعة: الإشارة إلى مدينة قوم
لوط، وهي (سَدُوم) بالشام،
و«مَطَرُ السَّوَى» حجارة السَّجِيل،
وقرأ أبو السَّمَال: «السَّوَى» بضم
السَّين المشددة، ثم وقفهم على
إعراضهم وتعرضهم لسخط الله
تبارك وتعالى بعد رؤيتهم العبرة من
تلك القرية، ثم حكم عليهم بأن
كفرهم إنما أوجبه فساد معتقدهم في
أمر الآخرة، وأنهم لا يرجون
البعث، وكذلك لا يخافونه.

ثم حكى الله تعالى عنهم أنهم إذا
رأوا محمداً ﷺ استهزؤا به
واحتقروه، واستبعدوا أن يبعثه الله
تعالى رسولا، فقالوا - على جهة
الاستهزاء -: «هَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ
رَسُولًا»، وفي «بَثَّ» ضمير يعود

بعد شيء في مرة واحدة لا بعنف، قال مجاهد: ويحتمل أن يريد: معجلاً، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يريد: سهلاً قريب التناول.

قال الطبري: ووصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث تستر الأشياء وتغشاها، و«السبات» ضرب من الإغماء يعتري اليقظان مرض فيشبه النائم به، والسبت: الإقامة بالمكان، فكأن السبات سكوناً ما وثبت عليه، و«النشور» في هذا الموضع الإحياء، شبه اليقظة به ليتطابق الإحياء مع الإمامة والتوفي للذين يتضمنهما النوم والسبات، ويحتمل أن يريد بالنشور وقت انتشار وتفرق لطلب المعاش وإبتغاء فضل الله، و«النهَارُ شُورًا» وما قبله من باب: ليل نائم ونهار صائم.

١٨٨ - ٥٢ تفسير قوله عز وجل:

قرأت فرقة: «الرَّيْحَ»، وقرأت فرقة: «الرَّيْحَ» على الجنس، فهي بمعنى الرياح، وقد نسبنا القراءة في سورة الأعراف، وقراءة الجمع أوجه؛ لأن عرف «الرياح» متى وردت في القرآن مفردة فإنما هي للعذاب، ومتى كانت للمطر والرحمة فإنما هي رياح؛ لأن ريح المطر تتشعب (وتتدأب) وتتفرق وتأتي لينة من ها هنا وها هنا، وشيئاً إثر شيء، وريح العذاب حرجف لا تتدأب، وإنما تأتي جسداً واحداً، ألا ترى أنها تُحطَّم ما تجد وتهدمه؟ قال الرُّماني: جُمعت رياح الرحمة لأنها ثلاثة

لواقح: الجنوب والصبأ والشمال، وأفردت ريح العذاب لأنها واحدة، ولا تلقح، وهي الدُّبور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: [وَيُرَدُّ] على هذا قول النبي ﷺ إذا هبَّت الرياح: «اللَّهُم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً». واختلف القراء في «بُشْرًا» في النون والباء وغير ذلك اختلافاً قد ذكرناه في سورة الأعراف، و«نُشْرًا» معناه: منتشرة متفرقة.

و«الطُّهُور» بناءً مبالغة في (طاهر)، وهذه المبالغة اقتضت في ماء السماء وفي كل ما هو منه ويسيله أن يكون طاهراً ومُطَهَّراً، فإذا أفرط التغيير بخلطه بالخبث لم يكن الماء طاهراً ولا مطهراً، ووصف البلدة بالميت لأنه جعله كالمصدر الذي يوصف به المذكر والمؤنث، وجاز ذلك من حيث «الْبَلَدَةُ» بمعنى «الْبَلَد»، وقرأ طلحة بن مصرف: «لننشىء به بلدة ونُسْقِيه» بضم النون، وهي قراءة الجمهور، ومعناه: نجعله لهم سقياً، هذا قول بعض اللغويين في (أَسْقَى)، قالوا: و (سَقَى) معناه للشِّقَّة، وقال الجمهور: سَقَى وَأَسْقَى بمعنى واحد، وينشد على ذلك بيت لبيد:

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى
نُسَيْرًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هِلَالٍ
وقرأ أبو عمرو: «نُسْقِيه» بفتح النون، وهي قراءة ابن مسعود، وابن أبي عبلة، وأبي حيوة، ورويت عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. و«وَأَنَاسِي» قيل: هو جمع إنسان، والياء المشددة بدل من النون

في الواحد، قاله سيبويه، وقال المبرد: هو جمع إنسي، فكان القياس أن يكون (أَنَاسِيَّةً)، كما قالوا في مهلي: مهالية، وحكى الطبري عن بعض اللغويين في جمع إنسان: (أَنَاسِيْن) بالنون كسرحان وبستان، وقرأ يحيى بن الحارث: «أَنَاسِي» بتخفيف الياء.

والضمير في «مَرْقَنَهُ» قال ابن عباس، ومجاهد: هو عائذ على الماء المنزل من السماء، والمعنى أن الله تبارك وتعالى جعل لهم إنزال الماء تذكرة بأن يصرفه عن بعض المواضع إلى بعض، وهو كله في كل عام بمقدار واحد، وقاله ابن مسعود، وقوله - عَلَى هذا التأويل -: «فَأَنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا» أي في قولهم: بالأنواء والكواكب، قاله عكرمة، وقيل: «كَثُورًا» على الإطلاق لما تركوا التذكر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الضمير في «مَرْقَنَهُ» للقرآن، وإن لم يتقدم له ذلك لوضوح الأمر، ويعضد ذلك قوله بعد ذلك: «وَيَحْضَرُهُمْ يَدِي»، وعلى التأويل الأول الضمير في «يَدِي» يُرَاد به القرآن على نحو ما ذكرناه. وقال ابن زيد: يراد به الإسلام، وقرأ عكرمة: «صَرْفَتَاهُ» بتشخفيف الراء، وقرأ حمزة، والكسائي، والكوفيون: «لِيَذْكُرُوا» بسكون الدال، وقرأ الباكون: «لِيَذْكُرُوا» بشد الدال والكاف.

وفي قوله تعالى: «وَلَوْ شِئْنَا» الآية اقتضاب يدل عليه ما ذكرناه، تقديره: ولكننا أفردناك واصطفيناك فلا تطع الكافرين.

النسب والصهر، وقوله: ﴿وَمِنَ الْمَاءِ﴾ إما أن يريد أصل الخلقة في أن كل حي مخلوق من الماء، وإما أن يريد نطف الرجال، وكل من ذلك قالته فرقة، والأول أنصح وأبين، و«النسب والصهر» معنيان يعمان كل قربي تكون بين آدميين، فالنسب هو أن يجتمع إنسان مع آخر في أب أو في أم، قُرْبُ ذلك أو بعد ذلك، والصهر هو تواسج المناكحة، فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج هم الأخماء، والأصهار يقع عاماً لذلك كله، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: النسب ما لا يحل نكاحه، والصهر ما يحل نكاحه، وقال الضحاك: الصهر قرابة الرضاع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك عندي وهم أوجه أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حُرْم من النسب سبع، ومن الصهر خمس»، وفي رواية أخرى: «ومن الصهر سبع»، يريد قوله عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ فهذا هو النسب، ثم يريد بالصهر قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَهْلَانِكُمُ الَّتِي آفَسْتُمْكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ بَيْنَ الرَّضَعَةِ وَأُمَّهَاتُكُمْ رِبَّيْنِكُمُ الَّتِي فِي حُجُوبِكُم مِّنْ بُسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ثم ذكر المحصنات، ويحتمل هذا أن

الأرض مياهاً عذبة كثيرة من أنهار وعيون وآبار، وجعلها خلال الأجاج، وجعل الأجاج خلالها، فترى البحر قد اكتشفته المياه العذبة في ضفتيه، وتلقى الماء في البحر - في الجزائر ونحوها - قد اكتشفه الماء الأجاج، فَبُيِّنَا هكذا في الأرض، وهو خلطها، ومنه قوله: ﴿مَرَجَ﴾، ومنه ﴿فِي أَمْرِ مَرْجٍ﴾، و«البحران» يراد بهما جميع الماء العذب وجميع الماء الأجاج، كأنه قال: مَرَجَ نَوْعِي الماء، فالبرزخ والجنجر

هما ما بين البحرين من الأرض واليبس، قاله الحسن، ومنه القدرة التي تمسكهما مع قرب ما بينهما في بعض المواضع. ويكسر الحاء قرأ الناس كلهم هنا، والحسن بضم الحاء في سائر القرآن. و«البرزخ»: الحاجز بين الشيتين.

وقرأ الجمهور: ﴿وَهَذَا يَلِغُ﴾ وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿وَهَذَا يَلِخُ﴾ بفتح الميم وكسر اللام، قال أبو حاتم: هذا منكر في القراءة، وقال ابن جني: أراد: مالحاً، وحذف الألف، كعريدٍ ورديد. و«الأجاج»: أبلغ ما يكون من الملوحة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِن أَلْمَاءٍ بَنِينَ﴾ الآية. هو تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم، والتنبيه على العبرة في ذلك، وتعدد النعمة في التواسج الذي بينهم من

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٣﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٤﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْغَنِيِّ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِسَبْحِ مُحَمَّدٍ وَكَفَىٰ بِهِ بَلَدُ يَبْرُودَ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٥﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسُئِلَ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٦﴾ وَإِذْ أُنِيطَ لَهُمْ اسْتِجْدَادُ الرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ اسْتِجْدَادُ مَا أَمَرْنَا وَإِذْ هُمْ مُقِرُّونَ ﴿٥٧﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ حِفْظًا لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٥٩﴾ وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الَّذِي يُسْتَشْعَرُ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذْ نَخَّطَبُوهُم بِالْحَدِيثِ لَقَالُوا اسْلَمْنَا بِالَّذِينَ يَسْتَشْعَرُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦١﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٣﴾

٣٦٥

٥٦ - ٥٧ تفسير قوله عز وجل:

اضطرب الناس في تفسير هذه الآية - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد: بحر السماء والبحر الذي في الأرض، ورُتبت ألفاظ الآية على ذلك، وقال مجاهد: البحر العذب هو مياه الأنهار الواقعة في البحر الأجاج، ووقعها فيه هو مَرَجُهَا، قال: والبرزخ والحجر هما حاجز في علم الله تعالى لا يراه البشر، وقاله الزجاج، وقالت فرقة: معنى ﴿مَرَجَ﴾: أدام أحدهما في الآخر، وقال ابن عباس: غلَى أحدهما على الآخر، ونحو هذا من الأقاويل التي تتداعى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي أقول في الآية: إن القصد بها التنبيه على قدرة الله تعالى، وإتقان خلقه للأشياء، في أن بث في

ابن عباس رضي الله عنهما أراد: حرم من الصهر ما ذكر معه، فقصده بـ (ما ذكر) إلى غظمه وهو الصهر؛ لا أن الرضاع صهر، وإنما الرضاع عدل النسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه، ومن روى: «وَحُرِّمَ مِنَ الصَّهْرِ خَمْسٌ» أسقط من الآيتين الجمع بين الأختين والمحصنات وهن ذوات الأزواج.

وحكى الزهراوي قولاً أن النسب من جهة البنين، والصهر من جهة البنات، قال الحسن: وهذا حسن وفي درج ما قدمته، وقال ابن سيرين: نزلت هذه الآية في النبي ﷺ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ لأنه جمعه به نسب وصهر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فاجتماعهما وكأذ حرمة إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَكَانَ رُؤُكَ قَدِيرًا﴾ هي [كان] التي للدوام قبل وبعد، لا أنها تعطي مضياً فقط.

ثم ذكر تعالى خطأهم في عبادتهم أصناماً لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً، وقوله: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ فيه تأويلان: أحدهما أن «الظهير» المعين، فتكون الآية بمعنى توبيخهم على ذلك، من أن الكفار يعينون على ربهم غيرهم من الكفرة، ويعينون الشيطان بأن يطيعوه ويظاهروه، وهذا هو تأويل مجاهد، والحسن، وابن زيد. والثاني ذكره الطبري في أن يكون «الظهير» فعلاً من قولك: «ظهرت الشيء» إذا

طرحته وراء ظهرك واتخذته ظهرياً، فيكون معنى الآية على هذا التأويل احتقار الكفرة، و«الكافر» في هذه الآية اسم جنس، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل هو مُعَيَّن أراد به أبا جهل بن هشام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويُشَبَّه أن أبا جهل سبب الآية، ولكن اللفظ عام للجنس كله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا آيَةً، تسلياً لمحمد ﷺ، أي: لا تُهَنِّمُ بِهِمْ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حرصاً عليهم، فإنما أنت رسول تبشر المؤمنين بالجنة، وتنذر الكافرين بالنار، ولست بمطلوب بإيمانهم جميعاً.

ثم أمره تعالى بأن يحتج عليهم مُزَيِّلاً لوجوه التهم بقوله: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، أي: لا أطلب مالاً ولا نفعاً يختص بي، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ﴾، الظاهر فيه أنه استثناء منقطع، والمعنى: لكن مسؤولي ومطلوبوي من شاء أن يهتدي ويؤمن ويتخذ إلى رحمة ربه طريق نجاة ليفعل. وقال الطبري: المعنى: لا أسألكم أجراً إلا إنفاق المال في سبيل الله، فهذا هو المستول، وهو السبيل إلى الرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالاستثناء - على هذا - كالمثصل، وكأنه قال: إلا أجبر من شاء، والتأويل الأول أظهر.

٥٨ - ٥٩ تفسير قوله عز وجل: المعنى: قل لهم يا محمد هذه المقالة التي لا ظن ينصرف إليك

معها، ولا تُنْهَمُ معها، وبشر وأنذر وتوكل على الحي الذي لا يموت، فهو المتكفل بنصرك في كل أمرك، ثم وصف تعالى نفسه بالصفة التي تقتضي التوكل في قوله: ﴿الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾؛ إذ هذا المعنى يختص الله تبارك وتعالى دون كل ما في الدنيا مما يقع عليه اسم حي، وقوله تعالى: ﴿وَسَيِّحٌ يَخْمَوِي﴾ أي: قل سبحان الله وبحمده، أي: تنزيهه واجب، وبحمده أقول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال رسول الله ﷺ: «من قال في كل يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»، فهذا معنى: ﴿وَسَيِّحٌ يَخْمَوِي﴾، وهي إحدى الكلمتين الخفيفتين على اللسان، الثقيلتين في الميزان. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَوَعَّدْ، وإزالة عن كاهل محمد ﷺ في همه بهم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مع جمعه «السَّمَوَاتِ»، فقيـل: سائغ من حيث عادل لفظ «الْأَرْضِ» لفظ «السَّمَوَاتِ»، ومنه قول عَمْرِو بْنِ شَيْمٍ:

أَلَمْ يَخْزُتْكَ أَنَّ جِبَالَ قَيْسٍ
وَتَغْلِبَ قَدْ تَبَايَسْنَا انْقِطَاعاً
من حيث عادل جبل جبلاً، ومنه قول الآخر:

إِنَّ الْمَنِيَّةَ وَالْحُثُوفَ كِلَاهُمَا
يُوفِي الْمَخَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوَادِي
وقوله تعالى: ﴿فِي سِتْرٍ آيَاتٍ﴾، اختلفت الرواية في اليوم الذي ابتداء الله تعالى فيه الخلق - فأكثر الروايات على يوم الأحد، وفي

مسلم وكتاب الدلائل: يوم السبت، ويتبين من كون ذلك في ستة أيام وضع الأناة والتمهل في الأمور؛ لأن قدرته تقتضي أنه يخلقها في طرفة عين لو شاء، لا إله إلا هو، وقد تقدم القول في الاستواء.

وقوله: ﴿الزَّكَّى﴾ يحتمل أن يكون رفعه بإضمار مبتدأ، أي: هو الرحمن، ويحتمل أن يكون بدلاً من الضمير في قوله: ﴿أَسْتَوَى﴾، وقرأ زيد بن علي بن الحسين: ﴿الزَّحْمَنُ﴾ بالخفض.

وقوله تعالى: ﴿تَشْتَكَ بِهِ خَيْرًا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: فاسأل عنه، و﴿خَيْرًا﴾ - على هذا - منصوب بوقوع السؤال عليه، والمعنى: اسأل جبريل والعلماء وأهل الكتب المنزلة. والثاني أن يكون المعنى كما تقول: لو لقيت فلاناً لَلَقِيتُ به البحر كرمًا، أي: لقيت منه، والمعنى: فاسأل الله عن كل أمر، و﴿خَيْرًا﴾ - على هذا - منصوب إما بوقوع السؤال، وإما على الحال المؤكدة، كما قال نعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مَصْدَقًا﴾، وليست هذه بحال مُتَقَلِّة؛ إذ الصفة العليَّة لا تتغير.

ولما ذكر ﴿الزَّكَّى﴾ في هذه الآية كانت قریش لا تعرف هذا في أسماء الله تبارك وتعالى، وكان مسيلمة كذاب اليمامة تُسَمَّى بالرحمن، فتغالطت قریش بذلك، وقالت: إن محمداً يأمر بعبادة رحمن اليمامة، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَا أَرْحَمُنَّ؟﴾ استفهام عن مجهول

عندهم، ف [مَا] على بابها المشهور. وقرأ جمهور القراء: ﴿تَأْمُرُنَا﴾ بالتاء، أي أنت يا محمد، وقرأ حمزة، والكسائي، والأسود بن يزيد، وابن مسعود: ﴿يَأْمُرُنَا﴾ بالياء من تحت، إمّا على إرادة محمد ﷺ، والكناية عنه بالغيبة، وإمّا على إرادة رحمن اليمامة، وقوله تعالى: ﴿وَرَكَّاهُمْ﴾ أي: أَصْلَهُمْ هذا اللفظ ضلالاً يختص به حاشى ما تقدم منهم.

﴿٦١﴾ - ﴿٦٢﴾ تفسير قوله عز وجل: لما جعلت قریش سؤالها عن الله تعالى وعن اسمه الذي هو الرحمن سؤالاً عن مجهول نزلت هذه الآية مصرحةً بصفاته التي تُعرف به، وتوجب الإقرار بألوهيته. و«البروج» هي التي علمتها العرب بالتجربة وكل أمة مُضْحَرَة، وهي الشهور عند اللغويين وأهل تعذيل الأوقات، وكل برج منها على منزلتين وثلاث من منازل القمر التي ذكرها الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾، والعرب تُسمي البهائم المرتفع المستغني بنفسه برجاً تشبيهاً ببرز السماء، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رَيْجٍ تُشِيدُونَهُ﴾، وقال الأخطل:

كَأَنَّهَا بُرْجٌ رُومِيٌّ يُشِيدُهُ
بِإِنْ يَجِصُّ وَأَجْزُ وَأَخْجَارِ
وقال بعض الناس في هذه الآية التي نحن فيها: البروج: القصور في الجنة، وقال الأعمش: كان أصحاب عبدالله يقرءونها: «في السماء قصوراً»، وقيل: البروج: الكواكب العظام، حكاه الشعلبي عن أبي صالح، وهذا غير ما بيَّناه إلا أنه غير

مخلص، والقول بأنها قصور في الجنة يحط من غرض الآية في التنبيه على أشياء مدركات تقوم بها الحجة على كل منكر لله أو جاهل به.

وقرأ الجمهور: ﴿يَرْجَا﴾ وهي الشمس، وقرأ حمزة، والكسائي، وعبدالله بن مسعود، وعلقمة، والأعمش: ﴿سُرْجَا﴾، وهو اسم جميع الأنوار، وقد خصص القمر بالذكر تشريفاً، وقرأ الثخعي، وابن وثاب، والأعمش أيضاً: ﴿سُرْجَا﴾ بسكون الراء، قال أبو حاتم: وروى عصمة عن الحسن: ﴿وَقُرْأَ﴾ بضم القاف ساكنة الميم، ولا أدري ما أراد إلا أن يكون جمعاً كَثَمَرٌ، قال أبو عمرو: وهي قراءة الأعمش، والثخعي. وقوله: ﴿جِلْتَهُ﴾ أي: هذا يخلف هذا، ومن المعنى قول زهير:

بِهَا الْجَيْنُ وَالْأَرَامُ يَنْمِشِينَ خَلْفَهُ
وَأُطْلَاؤُهُمَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْتَمِعٍ
ومنه قول الآخر يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء لمنزل في الصيف دأباً:

وَلَهَا بِالْمَاطِرُونَ إِذَا
أَكَلَ التُّمْلُ الَّذِي جَمَعَا
خَلْفَةً حَتَّى إِذَا ارْتَبَعَتْ
سَكَنَتْ مِنْ جِلَّتِي بَيْعَا
فِي بُيُوتٍ وَسَطَ دَسْكَرَةٍ
حَوْلَهَا الرُّيْثُونَ قَدْ يَنْعَا
وقال مجاهد: ﴿جِلْتَهُ﴾ من الخلاف، هذا أبيض وهذا أسود، نحو ما قدمناه، وقال مجاهد وغيره: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْكَرَ﴾ أي: يعتبر بالمصنوعات ويشكر الله تبارك وتعالى على نعمه عليه في العقل

والفكر والفهم، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والحسن، وابن عباس: معناه: لمن أراد أن يذكر ما فاتته من الخير والصلاة ونحوه في أحدهما فيستدركه في الذي يليه، وقرأ حمزة وحده: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ بسكون الذال وضم الكاف، وهي قراءة ابن وثاب، وطلحة، والنخعي، وقرأ الباقون: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ بشد الذال، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ بزيادة تاء.

ثم لما قال تعالى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ جاء بصفة عباده الذين هم أهل التذكُّر والشكور، والعبادة، والعبيد بمعنى، إلا أن العبادة تستعمل في مواضع التنويه، وسمي قومٌ من عبد القيس العبادة لأن كسرى ملكهم دون العرب، وقيل: لأنهم تألفوا مع نصارى الحيرة وصاروا عباداً لله، وإليهم ينسب عدِيُّ بن زيد العبَّادي، وقرأ الحسن: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، ذكره الثعلبي، وقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ خبر ابتداء، والمعنى: وعباده حق عباده هم الذين يمشون، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم، فذكر من ذلك المعظم، لا سيما وفي ذلك الانتقال في الأرض معاشرته الناس وخلطتهم، ثم قال: ﴿هَوْنًا﴾ بمعنى أمره كله هون، أي لِينٌ حسن، قال مجاهد: بالحلم والوقار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بالطاعة والعفاف والتواضع، وقال الحسن: حلماً، إن

جُهل عليهم لم يجهلوا، وذهبت فرقة إلى أن ﴿هَوْنًا﴾ مرتبط بقوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ أي أن المشي هو الهون، ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هوناً مناسبة لمشيهِ، فيرجع القول إلى نحو ما بيَّناه، وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل؛ لأنه رُبُّ ماشٍ هوناً رُوِّدَ وهو ذئب أطلس، وقد كان رسول الله ﷺ يتكفأ في مشيه كأنما يمشي في صيب، وهو عليه الصلاة والسلام الصدر في هذه الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ مَشَى مِنْكُمْ فِي طَمَعٍ فَلَيْمَشَ رُوَيْدًا» إنما أراد في عقد نفسه، ولم يرد المشي وحده، ألا ترى أن المبطلين المتحلِّين بالدين تمسكوا بصورة المشي فقط حتى قال فيهم الشاعر ذمًا لهم:

كُلُّهُمْ يَمْشِي رُوَيْدٌ
كُلُّهُمْ يَطْلُبُ صُنْدٌ
وقال الزهري: سرعة المشي تذهب بهاء الوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد الإسراع الحثيث؛ لأنه يخل بالوقار، والخير في التوسط، وقال زيد بن أسلم: كنت أسأل عن تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فما وجدت في ذلك شفاءً، فرأيت في النوم من جاءني فقال لي: هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا للتفسير في الخلق، و﴿هَوْنًا﴾ معناه: رفقا وقصداً، ومنه قول

النبي ﷺ: «أَخْبِتُ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا» الحديث، وقوله: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا»، اختلفوا في تأويل ذلك - فقالت فرقة: ينبغي للمخاطب أن يقول للجاهل: «سلاماً» بهذا اللفظ، أي: سلمنا سلاماً أو تسليماً أو نحو هذا، فيكون العامل فيه فعلاً من لفظه على طريقة النحويين، والذي أقول: إن قوله: ﴿قَالُوا﴾ هو العامل في ﴿سَلَامًا﴾؛ لأن المعنى: قالوا هذا اللفظ، وقال مجاهد: معنى ﴿سَلَامًا﴾: قولاً سداداً، أي: يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين، فقالوا في هذا التأويل: العامل في قوله: ﴿سَلَامًا﴾ على طريقة النحويين، وذلك أنه بمعنى: قولاً، وهذه الآية كانت قبل آية السيف، فنسخ منها ما يخص الكفرة، وبقي أديها في المسلمين إلى يوم القيامة، وذكر سيبويه النسخ في هذه الآية في كتابه، وما تكلم على نسخ سواه، رجَّح به أن المراد السلامة لا التسليم؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على غير المسلمين، والآية مكِّيَّة نسختها آية السيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورأيت في بعض مصاحف التواريخ أن إبراهيم بن المهدي - وكان من الماثلين على علي بن أبي طالب رضي الله عنه - قال يوماً بمحضر المأمون - وعنده جماعة -: كنت أرى علي بن أبي طالب في النوم، فكنت أقول له: من أنت؟ فيقول: أنا علي بن أبي طالب، فكنت أجيء معه إلى قنطرة، فيذهب يتقدمني في

المعصية وإن قلَّ إنفاقه، وأن المقتر هو الذي يمنع حقاً عليه، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. وقال عون بن عبدالله بن عتبة: الإسراف: أن تنفق مال غيرك. وغير هذا من الأقوال التي هي غير مرتبطة بلفظ الآية، وخلط الطاعة والمعصية بالإسراف والتقتير فيه نظر، والوجه أن يقال: إن النفقة في معصية أمر قد حظرت الشريعة قلبه وكثيره، وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقاً آخر أو عيلاً ونحو هذا، وألا يضيّق أيضاً ويقتري حتى يجيع العيال ويفرط في الشح، والحسن في ذلك هو القوام، أي: العدل، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب، أو ضد هذه من الخصال، وخير الأمور أوساؤها، ولهذا ترك رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله تبارك وتعالى عنه يتصدق بجميع ماله؛ لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدين، ومنع غيره من ذلك، ونعم ما قال إبراهيم التَّحِي: هو الذي لا يجيع ولا يعري، ولا ينفق نفقة يقول الناس: قد أسرف. وقال يزيد بن أبي حبيب: هم الذين لا يلبسون الثياب للجمال، ولا يأكلون الطعام للذة. وقال عبدالملك بن مروان لعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه حين زوجه ابنته فاطمة: ما تَفَقَّك؟

العشاء الآخرة، وشفع وأوتر، فهو داخل في هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إلا أنه دخول غير مستوفى، وقرأ أبو البرهمس: «سجوداً»، ومدحهم تبارك وتعالى بدعائهم في صرف عذاب جهنم من حيث ذلك دليل على صحة عقيدتهم وإيمانهم، ومن حيث أعمالهم بحسبه، و«غراماً» معناه: ملازماً ثقيلًا مجحفًا، ومنه غرام الحب، ومنه قول الأعشى:

إِنْ يَغَاقِبَ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُعْطَ جَزِيلًا فَلَيْسَ لَهُ لِيَبَالِي
وقول بشر بن أبي خازم:
وَيَوْمَ النَّسَارِ وَيَوْمَ الْجَحْفَا
رَكَانَ عِقَابًا وَكَانَ غَرَامًا
وقرأ جمهور الناس: «وَمَقَامًا» بضم الميم، من الإقامة، ومنه قول الشاعر:

خَيُّوا الْمَقَامَ وَخَيُّوا سَاكِنَ الدَّارِ
وقرأت فرقة: «مَقَامًا» بفتح الميم، وأنه من قام يقوم، فجهنم موضع قيام لهم، والأول أفصح وأشهر.

١٦٧ - ١٦٨ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المفسرون في هذه الآية التي في الإنفاق، فعبارة أكثرهم أن الذي لا يسرف هو المتفق في الطاعة وإن أفرط، والمسرف هو المتفق في

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ١٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهْكًا ١٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٧٠ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ١٧١ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا سَأُوا بِأَلْفُرْقٍ مِّنْ أَمْرٍ كَرِهَ اللَّهُ ١٧٢ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخَوِّا عَلَيْهَا صُغًا وَكُفًّا ١٧٣ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فَرَةً ١٧٤ أَعْيَبَ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ١٧٥ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مِنْ حَسَنَةٍ وَوَسَلَاءٍ مِّنْ خَلْدِكُمْ فِيهَا حَسَنَةٌ مِّنْكُمْ وَمَقَامٌ ١٧٦ قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ فِي قَوْلِي لَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ١٧٧

سُورَةُ النِّسَاءِ

٣٦٦

عبورها، فكنت أقول له: إنما تدعي هذا الأمر بامرأه، ونحن أحق به منك، فما رأيت له في الجواب بلاغة كما يذكر عنه، قال المأمون: وبماذا جابوك؟ قال: كان يقول لي: سلاماً سلاماً، قال الراوي: فكان إبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية، أو ذهب عنه في ذلك الوقت، فنبهه المأمون على الآية أمام من حضره، وقال: هو والله يا عم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد جابوك أبلغ جواب، فخنزي إبراهيم واستحيا، وكانت رؤياه لا محالة صحيحة.

١٦٩ - ١٧٠ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية فيها تحريض على قيام الليل بالصلاة، قال الحسن: لما فرغ من وصف نهارهم وصف في هذه ليهم، وقال بعض الناس: من صلى

فقال له عمر: الحسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية. وقال يزيد بن حبيب أيضاً في هذه الآية: أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا لا يأكلون طعاماً للثَنَمِ واللَّذَّةِ، ولا يلبسون ثياباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدُّ عنهم الجوع، ويقوِّهم على عبادة ربِّهم، ومن اللباس ما يستر عوراتهم، ويكثِّهم من الحرِّ والبرد وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشتراه وأكله. وفي سنن ابن ماجه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنَ السَّرَفِ أَنْ تَأْكُلَ مَا اشْتَهَيْتَهُ»، وقال الشاعر:

وَلَا تَغْلُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ وَافْتَصِدْ
كَيْلَ طَرَفَيْنِ قَضِدَ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ
وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر، ومجاهد، وحفص عن عاصم: «يَقْفِرُوا» بفتح الياء وكسر التاء، وقرأ حمزة، والكسائي بفتح الياء وضم التاء، وهي قراءة الحسن، وطلحة، والأعمش، وعاصم - بخلاف -، وقرأ أبو عبد الرحمن بضم الياء وفتح التاء.

وقرأ أبو عمرو والناس: «قَوَامًا» بفتح القاف، أي: معتدلاً، وقرأ حسان بن عبد الرحمن بكسر القاف، أي: مبلغاً وسداداً وملاك حال، و«قَوَامًا» خبر [كَانَ]، واسمها مُقَدَّرٌ، أي: الإنفاق، وجوَّز الفراء أن يكون اسمها قوله: «يَبْكُ ذَلِكَ».

وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» الآية، إخراج

لعباده المؤمنين من صفات الكفرة في: عبادتهم الأوثان، وقتلهم النفس بوأد البنات، وغير ذلك من الظلم والاعتيال والغارات، والزنى الذي كان عندهم مباحاً، وفي نحو هذه الآية قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: قلت يوماً لرسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لَهِ نَذًا وَهُوَ خَلْقُكَ»، قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبالقتل والزنى يدخل في هذه الآية العصاة من المؤمنين، ولهم من الوعيد بقدر ذلك، والحق الذي تقتل به النفس هو قتل النفس، والكفر بعد الإيمان، والزنى بعد الإحصان، والكفر الذي لم يتقدمه إيمان في الحربين.

و «الْأَنَامُ» في كلام العرب: العقاب، وبه فسّر ابن زيد هذه الآية، ومنه قول الشاعر:

جَزَى اللَّهُ ابْنَ عُرْوَةٍ حَيْثُ أَمْسَى
عُقُوقاً وَالْعُقُوقُ لَهُ أَثَامُ
أي: جزاء وعقوبة. وقال عكرمة، وعبدالله بن عمرو، ومجاهد: إن «أثاماً» واد في جهنم، هذا اسمه، وقد جعله الله تعالى عقاباً للكفرة.

وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «يُضَعَّفُ»، و«وَيُخَلَّدُ» جزماً. وقرأ ابن كثير، وأبو جعفر،

والحسن، وابن عامر: «يُضَعَّفُ» بشد العين وطرح الألف، بالجزم في «يُضَعَّفُ»، و«وَيُخَلَّدُ». وقرأ طلحة بن سليمان: «يُضَعَّفُ» بضم النون وكسر العين المشددة «الْعَذَابِ» بالنصب، و«وَيُخَلَّدُ» بالجزم، وهي قراءة أبي جعفر، وقرأ طلحة بن سليمان: «وَيُخَلَّدُ» بالتاء، على معنى مخاطبة الكافر بذلك، وروى عن أبي عمرو: «وَيُخَلَّدُ» بضم الياء من تحت، وفتح اللام، قال أبو علي: «وهي غلط من جهة الرواية»، و«يُسَيِّئُ» بالجزم بدل من «يَلِي»، قال سيبويه: مضاعفة العذاب لقي الأثام، قال الشاعر:

مَتَى تَأْتَانِ تُلْجِمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا
تَجِدُ حَظَبًا جَزْلاً وَنَاراً تَأْجَجَا
وقوله تعالى: «إِلَّا مَنْ تَابَ» الآية، لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عامل في الكافر والزاني، واختلفوا في القاتل من المسلمين - فقال جمهور العلماء: «لَهُ التَّوْبَةُ»، وجعلت هذه الفرقة قاعدتها قوله تعالى: «وَيَقْرَأُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»، فحصل القاتل في المشيئة كسائر التائبين من ذنوب، ويتأولون الخلود الذي في آية القتل في سورة النساء بمعنى الدوام إلى مدة كخلود الدول ونحوه، وروى أبو هريرة لمن قُتِلَ حديثاً عن النبي ﷺ. وقيل: إن هذه الآية نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه، وقاله سعيد بن جبير، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره: لا توبة للقاتل، قال ابن عباس

رضي الله عنهما: وهذه الآية إنما أريد بالتوبة فيها المشركون، وذلك أنها لما نزلت قالت طوائف من المشركين: كيف لنا بالدخول في الإسلام ونحن قد فعلنا جميع هذا؟ فنزلت ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ الآية، ونزلت ﴿قُلْ يَكْفِيكَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْطَعُوا رِجْلَيْكُمْ﴾ الآية، فما رأيت رسول الله ﷺ فرح بشيء فرحه بها وبسورة الفتح. وقال غير ابن عباس رضي الله عنهما ممن قال بأن لا توبة للقاتل: إن هذه الآية منسوخة بآية سورة النساء، قاله زيد بن ثابت، ورواه أيضاً سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال أبو الجوزاء: صحبت ابن عباس رضي الله عنهما ثلاث عشرة سنة فما رأيت شيئاً من القرآن إلا سأله عنه، فما سمعته يقول: إن الله تبارك وتعالى يقول لذنوب: لا أغفره.

وقوله تعالى: ﴿يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ معناه: يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولى طاعة، فيكون ذلك سبباً لرحمة الله عز وجل إياهم، قاله ابن عباس، وابن جبير، وابن زيد، والحسن، وزدوا على من قال: «هو في يوم القيامة لمن يريد المغفرة له من الموحدين، يبدل السيئات حسنات»، وهذا تأويل ابن المسيب في هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو معنى كرم العفو. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿يُبْدِلُ﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل: أَكَّدَ هذا اللفظ أمر التوبة، والمعنى: ومن تاب فإنه قد تمسك بأمر وثيق، وهذا كما تقول لمن يُسْتَحْسَنُ قوله في أمر: لقد قلت يا فلان قولاً، وكذلك الآية معناها مدح المتاب، كأنه قال: فإنه يجد باباً للفرج والمغفرة عظيماً. ثم استمرت الآية في صفة عباد الله - تبارك وتعالى - المؤمنين بأن نفى عنهم شهادة الزور. ﴿يَشْهَدُونَ﴾ في هذه الآية ظاهر معناها: يشاهدون ويحضرون. و«الزور»: كل باطل زور وزُخرف، فأعظمه الشرك، وبه فسر الضحاك، وابن زيد، ومنه الغناء، وبه فسر مجاهد، ومنه الكذب، وبه فسر ابن جريج، وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، ومحمد بن علي: المعنى: لا يشهدون الزور، فهي من الشهادة لأمن المشاهدة، و«الزور»: الكذب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والشاهد بالزور - حاضره ومؤديه - فجرة، فالمعنى الأول أعم، لكن المعنى الثاني أغرق في المعاصي وأنكى.

و«اللغو»: كل سقط من فعل أو قول، ويدخل فيه الغناء واللهم وغير ذلك مما قاربه، ويدخل في ذلك سَفَهُ المشركين وأذاهم للمؤمنين، وذكر النساء وغير ذلك من المنكر، و﴿كَرَامًا﴾ معناه: معرضين مُسْتَحْفِيزِينَ يتجافون عن ذلك، ويصبرون على الإيذاء منه، وروي أن عبدالله بن مسعود سمع غناء فأسرع في مشيه

وذهب، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لقد أصبح ابن أم معبد كريماً»، وقرأ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما إذا مر المسلم بمنكر فكفره أن يُعْتَرِه، وحدود التغير معروفة.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يريد: ذكروا بالقرآن آخرتهم ومعادهم، وقوله: ﴿لَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهَا سُوءًا وَعَثَاً﴾ يحتمل تأويلين: أحدهما أن المعنى: لم يكن خروجهم بهذه الصفة بل يكون خروجهم سجداً وبكياً، وهذا كما تقول: لم يخرج زيد إلى الحرب جزءاً، أي: إنما خرج جريئاً مقدماً، أو كأن الذي يخرج أصم أعمى هو المناق أو الشاك، وهو التأويل الثاني، وإليه ذهب الطبري، وهو أن ﴿يَخْرُجُوا عَلَيْهَا سُوءًا وَعَثَاً﴾ هي صفة الكفار، وهي عبارة عن إعراضهم وجهدهم في ذلك، وقرن ذلك بقولك: «فعد فلان يشتمني، وقام فلان يبيكي»، وأنت لم تقصد الإخبار بقعود ولا قيام، وإنما هي توطئات في الكلام والعبارة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكأن المستمع للذكر قائم القنائة قويماً الأمر، فإذا أعرض وضل كان ذلك خروراً، وهو السقوط على غير نظام وترتيب، وإن كان قد شبه به الذي يخر ساجداً، لكن أصله أن يكون على غير ترتيب.

ثم مدح المؤمنين حال الدعاء إليه بأن يُقَرَّ العيون بالأهل والذرية. و«قَرَّةُ العين» يحتمل أن تكون من القرار، ويحتمل أن تكون من القر،

وهو الأشهر؛ لأن دمع السرور باردٌ ودمع الحزن سخن، فمن هذا يقال: أَقَرَّ اللهُ عَيْنَكَ وَأَسَخَّنَ اللهُ عَيْنَ العدو، وقُرَّةُ العَيْنِ في الأزواج والذرية أن يراهم الإنسان مطيعين لله تبارك وتعالى، قاله ابن عباس، والحسن، وحضرمي، ويُسْنِ المقداد بن الأسود الوجه في ذلك بأنهم كانوا في أول الإسلام يهتدي الابن والأب كافر، والزَّوْجُ والزوجة كافرة، فكانت قرة عيونهم في إيمان أحبابهم. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والحسن: ﴿وَدَّرَيْتِنَا﴾، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وطلحة، وعيسى: ﴿وَوَدَّرَيْتِنَا﴾ بالإفراد.

وقوله تعالى: ﴿لِلنَّفْيِكَ إِمَامًا﴾ قيل: هو جمع (إم)، مثل قائم وقيام، وقيل: هو مفرد اسم جنس، أي: اجعلنا يأتم بنا المتقون، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي مُتَّقِيًا قدوة، وهذا هو قصد الداعي، وقال إبراهيم النَّخَعِي: لم يطلبوا الرئاسة، بل أن يكونوا قدوة في الدين، وهذا حسن أن يطلب ويسعى إليه.

﴿٧٥﴾ - ﴿٧٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ أبي بن كعب: ﴿يَجَارُونَ﴾ باللف، و﴿النَّفْرَةِ﴾ من منازل الجنة، وهي العُرف فوق العُرف، وهي اسم جنس، كما قال:

وَلَوْلَا الْحَبَّةُ السَّمَرَا
لَمْ أَخْلَلْ بِوَادِيكُمْ

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿وَيَلْقَوْنَ﴾ بضم الياء وفتح اللام وشد القاف، وهي قراءة أبي جعفر،

وشيبة، والحسن، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر، وعاصم، وطلحة، ومحمد اليماني، وزويت عن النبي ﷺ: ﴿وَيَلْقَوْنَ﴾ بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف، واختلف عن عاصم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَنْبَغُ بِكُمْ رَبِّي﴾ الآية. أمر لمحمد ﷺ أن يخاطب بذلك، و﴿مَا﴾ تحتمل النفي، وتحتمل التقرير، والكلام في نفسه يحتمل تأويلات: أحدها أن تكون الآية إلى قوله: ﴿لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ﴾ خطاباً لجميع الناس، فكأنه قال لقريش منهم: ما يبالي الله بكم، ولا ينظر إليكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت، وذلك الذي يُعْبَأُ بِالْبَشَرِ من أجله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ آلِينَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾، وقال النقاش: المعنى: لولا استغاثتكم إليه في الشدائد، ونحو ذلك، فهو عرف الناس المرعي فيهم، وقرأ ابن الزبير وغيره: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ﴾، وهذا يؤيد أن الخطاب بـ ﴿مَا يَنْبَغُ بِكُمْ﴾ هو لجميع الناس، ثم يقول لقريش: فأنتم قد كذبتهم ولم تعبدوه، فسوف يكون العذاب - أو يكون التكذيب الذي هو سبب العذاب - لزاماً.

الثاني أن يكون الخطاب بالآيتين لقريش خاصة، أي: ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم الأصنام دونه، فإن ذلك يوجب تعذيبكم.

الثالث وهو قول مجاهد: ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم إلى شرعه، فوقع منكم الكفر والإعراض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمصدر في هذا التأويل مضاف إلى المفعول، وفي الأولين مضاف إلى الفاعل، و﴿يَنْبَغُ﴾ مشتق من العبء وهو من الثقل الذي يعبأ ويُرْتَب كما يُعْبَأُ الجيش، قال ابن جني: قرأ ابن الزبير وابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ﴾، قال الزهراوي: وهي قراءة ابن مسعود، قال: وهي على التفسير.

وأكثر الناس على أن اللزām المشار إليه في هذا الموضع هو يوم بدر، وهو قول أبي بن كعب، وابن مسعود، والمعنى: فسوف يكون جزاء التكذيب، وقالت فرقة: هو توعد بعذاب الآخرة، وقال ابن مسعود: اللزām هو التكذيب نفسه، أي: لا يُعْطَوْنَ توبة، ذكره الزهراوي.

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: اللزām الموت، وهذا نحو القول ببدر، وإن أراد به متأول الموت الفناء في الناس عرقاً فهو ضعيف، وقرأ جمهور الناس: ﴿لِزَامًا﴾ بكسر اللام، من لزوم، وأنشد أبو عبيدة لَصَخْرِ الْعَيِّ:

فَإِذَا يَسْجُوْنَ مِنْ خَشْفِ أَرْضٍ
فَقَدْ لَقِيََا خُشُوفَهُمَا لِزَامًا

وقرأ أبو السمال: ﴿لِزَامًا﴾ بفتح اللام، من لَزِمَ، والله أعلم.

كمل تفسير سورة الفرقان والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الإشارة بها إلى غائب
معهود كأنه حاضر.
﴿الْكِتَابِ الْغَيْبِ﴾ القرآن.
وقرأ حمزة، والكسائي،
وأبو بكر عن عاصم:
﴿طَسَرَ﴾ بكسر الطاء،
وقرأ ابن كثير، ونافع،
وأبو عمرو، وابن عامر
بفتحها وبإدغام النون من
(سين) في الميم، وقرأ
حمزة وحده بإظهارها،
وهي قراءة أبي جعفر،
ورويت عن نافع، وروى
يعقوب عن أبي جعفر
ونافع قطع كل حرف منها
على جذة، قال أبو حاتم:
الاختيار فتح الطاء وإدغام

آخر (سين) في أول (ميم) فتصير
الميم متصلة.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا كُنْتُ نَسْأَلُ﴾
لمحمد ﷺ عما كان فيه من القلق
والحرص على إيمانهم، فكان في
شغل البال في حيّز الخوف من
نفسه، و﴿الْبَاطِحُ﴾ القاتل نفسه
والمهلك لها بالهم، قاله ابن عباس
رضي الله عنهما والناس، ومن ذلك
قول ذي الرمة:

أَلَا أَيُّهَاذَ الْبَاطِحُ الْوَجْدُ نَفْسُهُ
لِشَيْءٍ نَحْنُ عَنْ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ
وخطوب بـ ﴿لَمَلٌ﴾ على ما في نفس
البشر من توقع الهلاك في مثل تلك
الحال. ومعنى الآية ألا تهتم يا
محمد بهم، وبلغ رسالتك، وما
عليك من إيمانهم، فإن ذلك بيد الله
تعالى لو شاء لآمنا، وقوله: ﴿أَلَا﴾
مفعول من أجله.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ شرط،
وما في الشرط من الإيهام هو - في
هذه الآية - في حيّزنا، وأما الله
تعالى فقد علم أنه لا ينزل عليهم آية
اضطرار، وإنما جعل الله تعالى آيات
الأنبياء والآيات الدالة عليه معرضة
للنظر والفكر ليهتدي من سبق
في علمه هداة، ويضل من سبق
ضلاله، وليكون للنظرة تكسب به
يتعلّق الشواب والعقاب، وآية
الاضطرار تدفع جميع هذا إن لو
كانت.

وقرأ: ﴿نَزَّلَ﴾ بفتح النون وشدّ
الزاي أبو جعفر، وشيبة، ونافع،
والأعرج، وعاصم، والحسن، وقرأ
أبو عمرو وأهل البصرة بسكون النون
وتخفيف الزاي. وروى هارون عن
أبي عمرو ﴿يُنْزَلُ﴾ بالياء فيهما.
والخضوع للدلالة في الآية المنزلة
كان يترتب بأحد وجهين: إما بخوف
هلاك في مخالفة الأمر المقترن بها
كثقت الجبل على بني إسرائيل، وإما
أن تكون من الوضوح بحيث يقع
الإذعان لها وانقياد النفوس، وكلّ
هذين لم يأت به نبي، ووجه ذلك ما
ذكرناه، وهو توجيه منصوص
للعلماء. وقرأ طلحة: ﴿فَتَقَطَّلَ﴾
أَعْنَأَفَهُمْ، وهو المراد في قراءة
الجمهور، وجعل الماضي موضع
المستقبل إشارة إلى تقوية وقوع
الفعل. وقوله تعالى: ﴿أَعْنَأَفَهُمْ﴾
يحمل تأويلين: أحدهما - وهو قول
مجاهد، وابن زيد، والأخفش - أن
يريد: جماعاتهم، يقال: «جاء في
عُنُق من الناس» أي جماعة، ومنه
قول الشاعر:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
طَسَرَ ١ نَكَأَ ٢ نَيْتُ ٣ الْكِتَابِ ٤ الْغَيْبِ ٥ لَمَّا ٦ كُنْتُ ٧ نَسْأَلُ ٨
الْأَيُّكُنُ ٩ مُؤْمِنِينَ ١٠ إِنْ شَاءَ ١١ نَزَلَ ١٢ عَلَيْهِمْ ١٣ مِنَ السَّمَاءِ ١٤ آيَةٌ ١٥ فَظَلَّتْ
أَعْنَافُهُمْ ١٦ لَمَّا خَضِعِينَ ١٧ وَمَا يَأْتِيهِمْ ١٨ مِنْ ذِكْرِ ١٩ مِنَ الرَّحْمَنِ ٢٠ مُعْذِرٌ
إِلَّا كَانُوا عَنْهُ ٢١ مُعْرِضِينَ ٢٢ فَقَدْ كَذَّبُوا ٢٣ فَسَيَأْتِيهِمْ ٢٤ أَنْتَوَا ٢٥ أَمَا ٢٦ كَانُوا
بِهِ ٢٧ يَسْتَهْزِئُونَ ٢٨ أَوَلَمْ يَرَوْا ٢٩ إِلَى ٣٠ الْأَرْضِ ٣١ كَرَّمْنَا ٣٢ فِيهَا ٣٣ مِنْ كُلِّ ٣٤ رَوْحٍ
كَرِيمٍ ٣٥ إِنْ فِي ٣٦ ذَلِكَ ٣٧ لَآيَةٌ ٣٨ وَمَا ٣٩ كَانَ ٤٠ أَكْثَرَهُمْ ٤١ مُؤْمِنِينَ ٤٢ وَإِنَّ
رَبَّكَ ٤٣ لَهُوَ ٤٤ الْعَزِيزُ ٤٥ الرَّحِيمُ ٤٦ رَدَّ ٤٧ نَادَى ٤٨ رَبُّكَ ٤٩ مُوسَى ٥٠ أَنْ ٥١ أَتَيْتَ ٥٢ الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ٥٣ قَوْمَ ٥٤ فِرْعَوْنَ ٥٥ أَلَا يَتَّقُونَ ٥٦ قَالَ ٥٧ رَبِّي ٥٨ أَخَافُ ٥٩
أَنْ يَكْذِبُونِ ٦٠ وَيَضِيقُ ٦١ صَدْرِي ٦٢ وَلَا يَبْطِئُ ٦٣ لِسَانِي ٦٤ فَأُرْسِلَ
إِلَى ٦٥ هَرُونَ ٦٦ وَلَهُمْ ٦٧ عَلَى ٦٨ ذَنْبٌ ٦٩ فَأَخَافُ ٧٠ أَنْ يَقْتُلُونِ ٧١ قَالَ
كَلَّا ٧٢ فَادْهَبْ ٧٣ بِآيَاتِنَا ٧٤ إِنَّا ٧٥ مَعَكُمْ ٧٦ مُسْتَعِينُونَ ٧٧ فَأَتَا ٧٨ فِرْعَوْنَ
فَقَوْلًا ٧٩ إِنَّا ٨٠ رَسُولُ ٨١ رَبِّ ٨٢ الْعَالَمِينَ ٨٣ أَنْ ٨٤ أُرْسِلَ ٨٥ مَعْنَايَ ٨٦ بِإِذْنِ ٨٧ رَبِّكَ
٨٨ قَالَ ٨٩ أَلَمْ تَرَ ٩٠ كَيْفَ ٩١ فَعَلْنَا ٩٢ مَعَ ٩٣ هَٰؤُلَاءِ ٩٤ فَمَا ٩٥ مِنْ ٩٦ عَمَلِكُمْ ٩٧ سِينِينَ ٩٨
وَفَعَلْنَا ٩٩ مَعَكَ ١٠٠ أَلَمْ ١٠١ تَعْلَمْ ١٠٢ أَنِّي ١٠٣ فَعَلْتُ ١٠٤ وَأَنْتَ ١٠٥ مِنَ ١٠٦ الْكَافِرِينَ ١٠٧

٣١٧

تفسير سورة الشعراء

هذه السورة مكية كلها، قاله
جمهور الناس، وقال مقاتل: منها
مدني الآية التي يذكر فيها الشعراء،
وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ
آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَ ١٠٧ مَعْنَايَ ١٠٨ بِإِذْنِ ١٠٩ رَبِّكَ ١١٠﴾.

١ - ١٠ تفسير قوله عز وجل:
تقدم القول في الحروف في أوائل
السور مستوعباً، و﴿تِلْكَ﴾ مرتفع
بالابتداء، وهو وخبر ساد مسد
الخبر عن ﴿طَسَرَ﴾ في بعض
التأويلات. والإشارة بـ ﴿تِلْكَ﴾ هي
بحسب الخلاف في ﴿طَسَرَ﴾،
وفي بعض الأقوال أن تكون
﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى حاضر، و﴿ذلك﴾
إلى موجود، كما أن «هذه» قد تكون

أَنْ أَلْجِرَاقَ وَأَهْلَهُ
عُنُقُ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا
وعليه حمل قول أبي مخجن:

وَأَكْتَشُمُ السُّرْفِ فِيهِ ضَرْبَةَ الْعُنُقِ
ولهذا قيل: «عُنُقُ رَقَبَةٍ»، ولم يُقَلْ:
«عُنُقُ عُنُقٍ» فراراً من الاشتراك، قاله
الزهرائي.

والتأويل الآخر أن يريد بـ «الْأَعْنَاقِ»
الجارحة المعلومة، وذلك أن خضوع
العُنُقِ والرقبة هو علامة الذلة
والانقياد، ومنه قول الشاعر:

وَإِذَا الرُّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ
خَضَعَ الرِّقَابِ تَوَاجِسَ الْأَبْصَارِ
فمعنى هذا التأويل أن نتكلم على
قوله: ﴿خَضِيعِينَ﴾، كيف جُمع جَمْعُ
من يعقل؟ وذلك متخرج على نحوين
من كلام العرب: أحدهما أن
الإضافة إلى من يعقل أفادت حُكْمَهُ
لمن لا يعقل، كما تفيد الإضافة إلى
المؤنث تأنيث علامة المذكر، ومنه
قول الأعشى:

كَمَا شَرَقَتْ صَدْرُ الْقَتَاةِ مِنَ الدَّمِ
وهذا كثير. والنحو الآخر أن تكون
«الْأَعْنَاقُ» لَمَّا وُصِفَتْ بفعل لا يكون
إِلَّا مقصود البشر - وهو الخضوع -؛
إذ هو فعل يتبع أمراً في النفس
جمعت فيه جمع من يعقل، وهذا
نظير قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَائِفِينَ﴾،
وقوله: ﴿رَأَيْنَهُمْ لِي سَيِّدِينَ﴾، وقرأ
ابن أبي عبله: ﴿لَهَا خَاضِعَةٌ﴾.

ثم عَنَّفَ الكفار، ونَبَّهَ على سوءِ
فعلهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾
الآية، وقوله تعالى: ﴿تُحَدِّثُ﴾

يريد: مُخَدِّثُ الْإِتْيَانِ، أي: مجيء
القرآن للبشر كان مجيء شيء بعد
شيء، وقالت فرقة: يحتمل أن يريد
بـ «الذِّكْرُ» محمداً ﷺ، كما قال في
آية أخرى: ﴿قَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ
ذِكْرًا رَسُولًا﴾، فيكون الوصف
بالمُخَدِّثِ متمكناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والقول الأول أنصح.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِهِمْ﴾
الآية وعيد بعذاب الدنيا، والآخرة،
وَيُقَوِّي أَنَّهُ وعيد بعذاب الدنيا أن
ذلك قد نزل بهم كبدراً وغيرها.

ولما كان إعراضهم عن النظر
في الصانع والإله أعظم كفرهم،
وكانوا يجعلون الأصنام آلهة،
ويعرضون عن الذكر في ذلك - نبَّهَ
على قدرة الله تعالى، وأنه الخالق
المنشئ الذي يستحق العبادة
بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْآرِضِ﴾
الآية. و«الرُّوْجُ»: النوع والصنف،
و«الكريم»: الحسن المثقن، قاله

مجاهد وقتادة، ويراد الأشياء التي
بها قوام الأمور والأغذية والنباتات،
ويدخل في ذلك الحيوان لأنه عن
إنبات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ
أَبْلَغُكُمْ مِنَ الْآرِضِ نَبَاتًا﴾، قال
الشعبي: الناس من نبات الأرض،
فمن صار إلى الجنة فهو كريم،
ومن صار بضد ذلك فهو لثيم.
وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْفَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ حتم على أكثرهم بالكفر.

ثم تَوَعَّدَ بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَكُنَّ
لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، يريد: عزَّ
في نقمته من الكفار وَرَجِمَ

مؤمني كل أمة، وقال نحو هذا
ابن جريج، وفي لفظة «الرَّحِيمُ»
وعُدَّ.

﴿١٠﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:
التقدير: واذكر إذ نادى ربك
موسى. وسوق هذه القصة تمثيل
لكفار قريش لتكذيبهم محمداً ﷺ،
و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن آتَيْنَا﴾
يجوز أن تكون مفسرة لا موضع
لها من الإعراب، بمنزلة (أي)،
ويجوز أن تكون غيرها، وهي
في موضع نصب، وقوله: ﴿أَلَا
يَنْتَفُونَ﴾، أي: قل لهم، فجمع في
هذه العبارة من المعاني نفى التقوى
عنهم وأمرهم بالتقوى، وقرأ
الجمهور: ﴿يَنْتَفُونَ﴾ بالياء من
تحت، وقرأ عبدالله بن مسلم،
وحمد بن سلمة، وأبو قلابة:
﴿تَنْتَفُونَ﴾ بالتاء من فوق، وعلى
معنى: قل لهم.

وَلِعَظَمَ قُوَّةَ فرعون وتأله وطول
مُدَّتِهِ وما أشربت القلوب من مهابته
قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي
أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾، وقرأ جمهور
الناس: ﴿وَيَضِيقُ﴾ بالرفع،
و﴿يَطْلِقُ﴾ كذلك، وقرأ الأعرج،
وطلحة، وعيسى ذلك بالنصب
فيهما، فقراءة الرفع هي إخبار من
موسى عليه السلام بوقوع ضيق
صدره، وعدم انطلاق لسانه، ولهذا
رَجَّحَ أبو حاتم هذه القراءة، وقراءة
النصب تقتضي أن ذلك داخل تحت
خوفه، وهو عطف على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾.
وكان في خلق موسى عليه السلام
جِدَّةٌ، وكانت في لسانه حِسَّةٌ بسبب
الجمرة في طفولته، وحكى أبو

عمرو عن الأعرج أنه قرأ بنصب ﴿وَيُضَيِّقُ﴾ ويرفع ﴿يُنْطَلِقُ﴾، وقد يكون عدم انطلاق اللسان بالقول لغموض المعاني التي تطلب ألفاظاً محررة، فإذا كان هذا في وقت ضيق صدره لم ينطلق اللسان، وقد قال عليه السلام: ﴿وَأَحْلَلَّ عَقْدَهُ مِنْ لِسَانِي﴾، فالراجح قراءة الرفع. وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ لَنَا مَرْكُوزًا﴾ معناه: يُعينني ويؤازرنني، وكان هارون عليه السلام وزيراً فصيحاً واسع الصدر، فحذف بعض المراد من القول إذ باقية دال عليه.

ثم ذكر موسى عليه السلام خوف القبط من أجل ذنبه، وهو قتله الرجل الذي وكزه، قال قتادة ومجاهد والناس: فخشي أن يُستفاد منه، فقال الله عز وجل له: ﴿كَلَّا﴾ ردّاً لقوله: «إِنِّي أَخَافُ»، أي: لا تخف ردّاً لذلك فإنني لم أخمك ما خُمِلت إلا وقد قضيت بظهورك ونصرك. وأمر موسى وهارون بخطاب موسى فقط لأن هارون ليس بمكلم بإجماع، ولكن قال لموسى: ﴿أَذْهَبَا﴾ أي أنت وأخوك، والآيات تعم جميع ما بعثهما الله تعالى به، وأعظم ذلك العصا، وبها وقع العجز، [وَأَلْيَدِ الْبَيْضَاءِ]، وبالأيتين تحدى موسى عليه السلام فرعون، ولا خلاف في أن موسى عليه السلام هو الذي حمّله الله تبارك وتعالى أمر النبوة كلها، وأن هارون عليه السلام كان نبيّاً رسولاً معيناً وزيراً. وقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إما أن يجعل الاثنين جمعاً،

وإما أن يريد هما والمبعوث إليهم وبني إسرائيل، وقوله: ﴿مُشْتَبِعُونَ﴾ على نحو التعظيم والجبروت الذي لله تبارك وتعالى، وصيغة ﴿مُشْتَبِعُونَ﴾ تُعطي اعتباراً بالأمر ليس في صيغة «سامعون»، وإلا فليس يوصف الله تبارك وتعالى بطلب الاستماع، وإنما المقصد إظهار التَّهَمُّمِ ليعظم أنس موسى عليه السلام، أو تكون الملائكة بأمر الله إياها - تستمع.

وقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ آلِهَتَيْنِ﴾ هو أن العرب أجرت «الرسول» مجرى المصدر في أن وصفت به الجمع والواحد والمؤنث، ومن ذلك قول الهذلي:

أَلْكُنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرُّسُلِ
لِي أَغْلَمَهُمْ بِسَوَاجِي الْخَبَرِ

وقول الشاعر وإن كان مؤلداً:

إِنِّ السِّيَ أَبْصَرْتُهَا
سَخَرْتُ كَلِمَتِي رَسُولُ

وقوله: ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعًا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾

معناه: سرح، فهو بمعنى الإرسال الذي هو بمعنى الإطلاق، كما تقول: أرسلت الحجر من يدي وكان موسى عليه السلام مبعوثاً إلى فرعون في أمرين: أحدهما أن يرسل بني إسرائيل ويزيل عنهم ذلّ العبودية والغلبة. والثاني أن يؤمن ويهتدي، وأمر بمكافحته ومقاومته في الأول، ولم يؤمر بذلك في الثاني على ما بلغ من أمره، وبعث بالعبادات والشرع إلى بني إسرائيل فقط، هذا قول بعض العلماء.

وقول فرعون لموسى: ﴿أَنَّى

تُرِيكَ﴾ هذا على جهة المنّ عليه والاحتقار، أي: ريتك صغيراً، أو لم تقتلك في جملة من قتلنا فلبث فينا سنين، فمتى كان هذا الذي تدعيه؟ وقرأ جمهور القراء: ﴿مِنْ عُرِكَ﴾ بضم الميم، وقرأ أبو عمرو: ﴿عُمُرِكَ﴾ بسكونها، ثم قرّره على قتل القبطي بقوله: ﴿وَقَتَلْتَ قَتَلَتَكَ أَلَيْ قَتَلْتَ﴾ والفعل - بفتح الفاء - المرأة من الفعل، وقرأ الشعبي: ﴿وَفَعَلْتَكَ﴾ بكسر الفاء، وهي هيئة الفعل، وقوله: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أحدهما أن يريد: وقتلت القبطي وأنت في قتلك إياه من الكافرين؛ إذ هو نفس ولا يحل قتله، قاله الضحاك. أو يريد: وأنت من الكافرين بنعمتي في قتلك إياه، قال ابن زيد: وهذان بمعنى واحد في حق اللفظ، وإنما اختلفا باشتراك لفظ الكفر. والثاني أن يكون بمعنى الهزؤ، أي: وأنت على هذا الدين وأنت من الكافرين بزعمك؟ قاله السدي. والثالث - وهو قول الحسن - أن يريد: وأنت من الكافرين الآن، يعني فرعون: بالعقيدة التي يكون بينها، فيكون الكلام مقطوعاً من قوله: ﴿وَقَتَلْتَ قَتَلَتَكَ﴾، وإنما هو إخبار مبتدأ أنه كان من الكافرين، وهذا التأويل أيضاً يحتمل أن يريد به كُفْرُ النعمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه إلى فرعون نبياً أحد عشر عاماً غير أشهر.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

القائل هو موسى عليه السلام، والضمير في قوله: ﴿فَقُلْنَا﴾ لقتله القبطي، وقوله: ﴿إِذَا﴾ صلة في الكلام، وكأنها بمعنى: حينئذ، وقوله: ﴿وَأَنَا مِنَ السَّالِكِينَ﴾ قال ابن زيد: معناه: من الجاهلين بأن وكزني إياه تأتي على نفسه، وقال أبو عبيدة: معناه: من السائبين لذلك، ونزع لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَصِلَ إِحْدَهُمَا﴾، وفي قراءة ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم: ﴿وَأَنَا مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، ويشبه أن تكون هذه القراءة على جهة التفسير.

وقوله: ﴿حُكْمًا﴾ يريد النبوة وحكمته، وقرأ عيسى: ﴿حُكْمًا﴾ بضم الحاء والكاف، وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ درجة ثانية للنبوة، فزب نبي ليس برسول.

ثم حأجه عليه السلام في مئه عليه بالتربية وتزك القتل بقوله: ﴿وَتِلْكَ يَمَّةٌ نَبَّأَ عَلَى أَنْ عَدَدَتْ بَيْحَ إِسْرَءِيلَ﴾، واختلف الناس في تأويل الكلام - فقال قتادة: هذا منه على جهة الإنكار أن تكون نعمة، كأنه قال: أو يصح لك أن تعد علي نعمة ترك قتلي من أجل أنك ظلمت بني إسرائيل قتلهم؟ أي: ليست بنعمة؛ لأن الواجب كان ألا تقتلني وألا تقتلهم، وألا تستعبدني ولا تستعبدهم بالقتل ولا بالخدمة وغير ذلك. وقرأ الضحاك: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ مَالِكٌ أَنْ تَمُنَّهَا﴾، وهذه قراءة تؤيد هذا التأويل، وقال الأخفش: قيل: الواو ألف الاستفهام محذوفة، والمعنى: أو تلك؟ وهذا لا يجوز

إلا إذا عادلتها «أم» كما قال:

تَرُوحُ مِنَ الْحَيِّ أَمْ تَبْتَكِرُ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول تكلف، وقول موسى عليه السلام تقرير بغير ألف، وهو صحيح كما قال قتادة، والله المعين.

وقال السدي، والطبري: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة، كأنه يقول: نعم، وتربيتك نعمة علي

من حيث عبتك غيري وتركتني، ولكن ذلك لا يدفع رسالتي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولكل وجه ناحية من الاحتجاج، فالأول ماض في طريق المخالفة لفرعون ونقض كلامه، والثاني مُبَدِّ من موسى عليه السلام أنه منتصف من نفسه معترف بالحق، ومتى حصل أحد المتجادلين في هذه الرتبة، وكان حججه في ضدها غلب المنتصف بذلك، وكان قوله أوقع في النفوس.

ولما لم يُجِدِ فرعون - لعنه الله - هذا الطريق من تقريره على التربية وغير ذلك رجع إلى معارضة موسى عليه السلام في قوله: ﴿رَسُولٌ رَبِّ الْفَالِكِينَ﴾ فاستفهمه استفهاماً عن مجهول من الأشياء، قال مكّي: كما يستفهم عن

قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ السَّالِكِينَ ﴿٢٠﴾ فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا جَفَيْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ يَمَّةٌ نَبَّأَ عَلَى أَنْ عَدَدَتْ بَيْحَ إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فَرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رِجْسٌ مِمَّا يَدَّبُّكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ لَنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لِمَنْ جُنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَيْنَ أَخَذْتُ النُّهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِمْ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَتَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مُجِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَةٌ لِلنَّظِيرِ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ أُولَئِكَ أَخْوَانُكَ وَأَمْثَلَ فِي الْأَكْدَانِ حُسْرَيْنِ ﴿٣٦﴾ يَا أُولَئِكَ يَكْفُلُ سَحَابٌ عَلَيْهِمْ ﴿٣٧﴾ فَجَمَعَ السَّحَابُ لِيُفَقِّتَ يَوْمَ مَعَاوِرِ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَذَا نَمٌّ مَجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

٣٨

الأجناس، فلذلك استفهم بـ «ما»، وقد ورد له استفهام بـ «من» في موضع آخر، ويشبه أنها مواطن، فأجابه موسى عليه السلام بالصفات التي يتبين السامع منها أنه لا مشاركة لفرعون فيها، وأنها ربوبية السموات والأرض، وهذه المجادلة من فرعون تدل على أن موسى عليه السلام دعاه إلى التوحيد، فقال فرعون عند ذلك: ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ على معنى الإغراء أو التعجب من شدة المقالة؛ إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون رؤسهم ومعبودهم، والفراغة قبله كذلك، وهذه ضلالة منها في مصر وديارنا إلى اليوم بقية، فزاده موسى عليه السلام في البيان بقول: ﴿رِجْسٌ مِمَّا يَدَّبُّكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾، فقال فرعون حينئذ - على جهة الاستخفاف -:

معه، وكان - فيما روي -
يفزع منه فزعاً شديداً حتى
كان لا يُمسك بوله.
وزوي أن سجنه كان أشد
من القتل، إذ كان في
مطبق من الأرض لا
ينطلق منه أبداً، وكان
مخوفاً.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: وهذه نزعة دار
[...]. إلى اليوم.

وكان عند موسى عليه
السلام من أمر الله تبارك
وتعالى ما لا يروعه معه
توعد فرعون، فقال
موسى له على جهة

الثلطف والطمع في
إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾
يتضح لك معه صدقي؟ أفكنت
تسجنني؟ فلما سمع فرعون ذلك
طمع في أن يجد أثناءً موضع
معارضة، فقال له: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ
كَنتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ فألقى عصاهُ
من يده، وكانت من عصى الجنة،
وكانت عصا آدم عليه السلام،
وروي أنها كانت من ورق الريحان،
وكانت عند شعيب عليه السلام في
جملة عصى الأنبياء عليهم السلام
فأعطاها لموسى عليه السلام عند
رعايته له الغنم على صورة قد تقدم
ذكرها دلّت على نبوة موسى، وكان
لها في رأسها شعبتان، فثمّ كان فم
الحية. والشعبان أعظم ما يكون من
الحيات، وقد ذكرنا فيما تقدم ما
روي في عظم الحيات وغير ذلك
من قصص هذه الآية. ونزع موسى

عليه السلام يده من جيبه فإذا هي
تتألاً كأنها قطعة من الشمس، فلما
رأى فرعون ذلك هاله، ولم يكن
له فيه مدفع، غير أنه فزع إلى رميه
بالسحر، وطبع - يُغْلُو علم السحر
في ذلك الوقت وكثرته - أن يكون
فيه سبب لمقاومة موسى عليه
السلام، فأوهم قومه وأتباعه أن
موسى عليه السلام ساحر، و
انتصب ﴿حَوْلَهُ﴾ على الظرف وهو
في موضع الحال، أي: كائنين
حوله، فالعامل فيه محذوف،
والعامل فيه هو الحال حقيقة،
والناصب له ﴿قَالَ﴾ لأنه هو العامل
في ذي الحال بواسطة لام الجر،
نحو مررت بهند ضاحكة.

ثم استشارهم في أمره وأغرامهم به
في قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ
أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾، فأشاروا عليه
بتأخير أمره وأمر أخيه وجمع السحرة
لمقاومته، وزوي أنهم أشاروا
بسجنه، وهو كان الإرجاء عندهم،
و«الإرجاء»: التأخير، ولم يشيروا
بقتله لأن حجته نيرة وضلالهم في
ربوبية فرعون مبينة، فخشوا الفتنة،
وطمعوا أن يُغلب بحجة تقنع العوام.
و«الحاشر»: الجامع. وقرأ نافع،
وأبو عمرو، وعاصم: ﴿يَكْلُ
سَحَابٍ﴾، وهو بناء للمبالغة، وقرأ
عاصم أيضاً والأعمش: ﴿يَكْلُ
سَاجِرٍ﴾.

٢٨ - ﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

اليوم هو يوم الزينة، ويقال: يوم
كسر خليج النيل، فهو يوم الزينة
على وجه الدهر بمصر، وقال ابن

لَقَدْ نَجَّيْنَا السَّحَرَةَ إِنَّ كَاوُأَهُمُ الْفٰلِیِّیْنَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّاءُ السَّحَرَةِ
قَالُوا لِفِرْعَوْنَ آمِينَ لَنَا لِأَجْرِ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْفٰلِیِّیْنَ ﴿٣٠﴾ قَالَ نَعَمْ
وَلَكِنْ إِنْ لَمْ يَمُوتِ الْمُرْقِیْنَ ﴿٣١﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْرَأُوا مَا أَنْتُمْ مُفْلِقُونَ
﴿٣٢﴾ فَأَلْفَوْا جِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعَرْفِ فرعونَ إِنْ لَآلِئْنَ
الْفٰلِیُّوْنَ ﴿٣٣﴾ فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٣٤﴾ فَأَلْفَى السَّحَرَةُ سِحْرَ مُوسَى ﴿٣٥﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾
رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ آمِنْتُمْ لَهُ فَقَالَ إِنْ أَدَّانَ لَكُمْ أَنَّهُ
لَكِبَرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السَّحَرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قِطْعَانَ أَيْدِيكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفِي وَلَا صَلَاحَ لَكُمْ جَمِيعٌ ﴿٣٨﴾ قَالُوا لَآلِئْنَا
إِلَّا بِمَا مُقْبِلُونَ ﴿٣٩﴾ إِنْ أَنْظَمَ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبَّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا
أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَمْرِ عِبَادِي إِذْ كَرَّ
مُتَّبِعُونَ ﴿٤١﴾ فَأَرْسَلَ فرعونَ فِي الْمَلَائِكَةِ خٰشِعِينَ ﴿٤٢﴾ إِنْ هَؤُلَاءِ
لَشِرَذِمَةٌ قٰلِيلُونَ ﴿٤٣﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى هَارُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَنَّا لَجَمِيعُ خٰذِرُونَ
﴿٤٥﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٦﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٤٧﴾
كَذٰلِكَ وَأَوْفَيْنَاهَا بِرَبِّهِمْ يَوْمَ أَقَامَ فَعَالَهُمْ شُرَكَاءَ ﴿٤٨﴾

٣٦٩

﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ
لَكَاوُونَ﴾. وقرأ جمهور الناس:
﴿أُرْسِلَ﴾ على بناء الفعل للفاعل،
فزاد موسى عليه السلام في بيان
الصفات التي تظهر نقص فرعون،
وتبين أنه في غاية البعد عن القدرة
عليها، وهي ربوبية المشرق
والمغرب، ولم يكن لفرعون إلا
ملك مصر من البحر إلى أسوان
وأرض الإسكندرية، وفي قراءة ابن
مسعود وأصحابه: ﴿رَبُّ الْمَشَارِقِ
وَالْمَغَارِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

٢٩ - ﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

لما انقطع فرعون - لعنه الله - في
باب الحجة رجع إلى الاستعلاء
والتعُلب، وهذا أبين علامات
الانقطاع، فتوعد موسى عليه السلام
حين أعياه خطابه، وفي توعدده
بالسجن ضعف؛ لأنه حارب طباعه

زيد: إن هذا الجمع كان بالإسكانية.

وقوله: ﴿لَمَّا نَبُغِ السَّحَرَةَ﴾ ليس معناه تتبعهم في السحر، إنما أراد ما معناه: تتبعهم في نصره ديننا وملتنا، والإبطال على معارضها.

وقرأ الأعرج، وأبو عمرو: ﴿أَيَّنْ لَنَا﴾ بألف الاستفهام، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وشيبة: ﴿إِنَّ لَنَا﴾ على الإيجاب، وقرأ عيسى: ﴿نِعِمَّ﴾ بكسر العين، والتقريب الذي وعدم به فرعون هو الجاه الزائد على العطاء الذي طلبوه، والقرب من الملك الذي كان عندهم إِلَهُهُمْ. واختلف الناس في عدد السحرة، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم، وكانوا مجموعين من مدائن مصر وريف النيل، وهي كانت بلاد السحر كالفرما وغير ذلك، ومعظمهم كان من الفرما والجبال، والعصي كانت أوقار الإبل، وقوله: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما القسم، فكأنهم أقسموا بعزة فرعون، كما تقول: بالله لا أفعل كذا وكذا، فكان قسمهم بعزة فرعون غير مبرور، والآخر أن يكون على جهة التعظيم لفرعون - إذ كانوا يعبدونه - والتبرك باسمه، كما تقول - إذا ابتدأت بعمل شغل -: باسم الله، وعلى بركة الله، ونحو هذا.

١٥ - ١٦ تفسير قوله عز وجل:

تقدم في غير هذه السورة ما ذكر الناس في عظم الحيّة حين ألقى

موسى عليه السلام عصاه، وفي هذه الآية متروك كثير يدل عليه الظاهر، وقد ذكر في مواضع آخر، وهو خوف موسى عليه السلام من ظهور سحرهم واسترهابهم للناس وتخيلهم في حبالهم وعصبيهم أنها تسعى بقصد. ثم إن الحيّة التي خلق الله من العصا التقمت تلك الحبال والعصي عن آخرها، وأعدمها الله تعالى في جوفها، وعادت العصا إلى حالها حين أخذ موسى عليه السلام بالفرجة التي كانت في رأسها فأدخل يده في فمها فعادت عصا بلذن الله تبارك وتعالى.

وقرأ جمهور القراء: ﴿تَلْقَفْ﴾ بفتح التاء خفيفة واللام وشد القاف، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿تَلْقَفْ﴾ بسكون اللام وتخفيف القاف، وروي الزبي وابن فليح عن ابن كثير بشد التاء وفتح اللام وشد القاف، ويلزم على هذه القراءة إذا ابتدأ أن يجلب همزة الوصل، وهمزة الوصل لا تدخل على الأفعال المضارعة، كما لا تدخل على أسماء الفاعلين.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْكُفُونَ﴾ أي: ما يكذبون به وبسببه في قولهم: إنها معارضة موسى عليه السلام ونوع من فعله، والإفك: الكذب.

ثم إن السحرة لما رأوا العصا خالية من صنعة السحر ورأوا فيها بغد من أمر الله تعالى ما أيقنوا أنه ليس في قوة البشر أذعنوا، ورأوا

أن الغنيمة هي الإيمان والتمسك بأمر الله عز وجل، فسجدوا كلهم لله تعالى مُقِرِّين بوحدايته وقدرته، ووصلوا إلى إيمانهم بسبب موسى وهارون عليهما السلام، وصرخوا بأن ذلك على أيديهما؛ لأن قولهم: ﴿بِرَبِّ أَلْعَلَيْنَ﴾ يعني ذلك، فلم يكرروا البيان في قولهم: ﴿رَبِّ مُؤَيَّنْ وَهَزُونَ﴾ إلا لما ذكرناه.

فلما رأى فرعون والملا إيمان السحرة، وقامت الحجّة بإيمان أهل علمهم ومظنة نصرتهم وقع فرعون - لعنه الله - في الورطة العظمى، فرجع إلى السحرة بهذه الحجّة الأخرى، فوقفهم مُؤَبِّخاً لهم على إيمانهم بموسى قبل إذنه، وفي هذه اللفظة مفارقة عظيمة؛ لأن أحد احتمالاتها أنهم لو طلبوا في ذلك أذن. ثم توعدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، وبالصليب في جذوع النخل، فقالوا له: ﴿لَا صَرْ﴾ أي: لا يضيرنا ذلك مع انقلابنا إلى مغفرة الله تعالى ورضوانه، وزوي أنه أنفذ فيهم ذلك الوعيد وصلبهم على النيل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أصبحوا سحرة وأمسا شهداء»، وقولهم: ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد: من القبط وصنيعتهم، وإلا فقد كانت بنو إسرائيل آمنت. وقرأ الناس: ﴿أَنَا﴾ بفتح الألف، وقرأ أبان بن تغلب: ﴿إِنَّا﴾ بكسر الألف بمعنى أن طمعهم إنما هو بهذا الشرط.

وهو المطبوع على الحَذَر، وهو هنا غير عامل، وكذلك هو في قول ابن أحر:

هَلْ أُنْسَانٌ يَوْمًا إِلَى غَيْرِهِ
إِنِّي خَوَّالِي وَإِنِّي خَذِرٌ
واختلف في عمل (فَجَل) - فقال سيبويه: إنه عامل، وأنشد:

خَذِرٌ أُمُورًا لَا تَضِيرُ وَآيَنَ
مَا لَيْسَ مُنْجِيَهُ مِنَ الْأَقْدَارِ
وَأدعى اللاحق تليس هذا البيت على سيبويه. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿خَذِرُونَ﴾ وهو الذي أخذ يحذر، وقال عباس بن مرداس:

وَإِنِّي حَاذِرٌ أَنْمِي سِلَاحِي
إِلَى أَوْصَالِ ذِيَالِ صَنِيعٍ
وقرأ ابن أبي عمَّار، وسميظ بن عجلان: ﴿حَاذِرُونَ﴾ بالبدال غير منقوطة، من قولهم: «عين حذرة» أي: ممتلئة، فالمعنى: ممتلئون غيظاً وأفنة.

والضمير في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ عائذ على القبط، والجنات والعيون بحاقتي النيل من أسوان إلى رشيد، قاله ابن عمر - رضي الله عنهما - وغيره، و«الكُوز» قيل: هو إشارة إلى الأموال التي خربوها، قال مجاهد: لأنهم لم ينفقوها قط في طاعة، وقيل: هي إشارة إلى كنوز المقطم ومطالبة، وهي باقية إلى اليوم، و«المقام الكريم» قال ابن لهيعة: هو الفيوم، وقيل: يعني به المنابر، وقيل: مجالس الأمراء والحكام، وقال الحسن: المجالس الحسان، وقرأ الأعرج

أمرت، فلما أصبح فرعون وعلم بسرى موسى ببني إسرائيل خرج في أثرهم، وبعث إلى مدائن مصر لتلقه العساكر، فروي أنه لحقه ومعه ستمائة ألف أدهم من الخيل حاشى سائر الألوان، وروي أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والله أعلم بصحته، وإنما اللازم من الآية الذي يقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم في بني إسرائيل، وأن فرعون تبعه

بأضعاف ذلك العدد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان مع فرعون ألف جبار، كلهم عليه تاج، وكلهم أمير خيل.

و«الشُرذمة»: الجمع القليل المحتقر، وشُرذمة كل شيء بقية الخسيسة، وأنشد أبو عبيدة:

مَجْدُودِينَ فِي شَرَاذِمِ السُّعَالِ
وقال الآخر:

جَاءَ الشُّنَاءُ وَقَمِيسِي أَخْلَاقُ
شَرَاذِمُ يَضْحَكُ مِنْهَا الشُّوَأُ
وقوله: ﴿لَقَائِطُونَ﴾ يريد: بخلافهم الأمر وبأخذهم المال عارية وهروبيهم منهم تلك الليلة على ما روي، وقال أبو حاتم: وقرأ من لا يؤخذ عنه: ﴿لَشِرْذِمَةً قَلِيلُونَ﴾، وليست هذه موقوفة.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿خَذِرُونَ﴾، وهو جمع (خَذِر)،

فَلَمَّا نَزَرَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٥٢﴾ قَالَ
لَأَنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٥٣﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ
بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ﴿٥٤﴾
وَأَرْفَعْنَا أَلْوَابَهُمْ ﴿٥٥﴾ وَأَخْرَجْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾
ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَإِنْ رَبُّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥٩﴾ وَأَتَى عَلَيْهِمْ
نَبَأُ الْإِزْهِيرِ ﴿٦٠﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا
تَعْبُدُونَ آصْنَامًا فَنُفِّلُهَا عَنْكُمْ ﴿٦٢﴾ قَالُوا هَلْ يَسْمَعُونَ نَكْرَادَ
تَدْعُونَ ﴿٦٣﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ وَأَوْصُرُونَ ﴿٦٤﴾ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا إِنَّا
كَذَلِكَ بَعْلُونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا فَمَا تَسْمَعُونَ تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٦٧﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِلَّهِ الْعَلِيِّ
﴿٦٨﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ رَبِّي ﴿٦٩﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطِيعُنِي وَسَمِعَنِي
﴿٧٠﴾ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهَوَيْتُ شِفَايَ ﴿٧١﴾ وَالَّذِي يُبَشِّرُنِي ثَمَرًا
بِحَبْنِ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ
﴿٧٣﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْزِمْنِي بِإِلْحَادِ حَبْرٍ ﴿٧٤﴾

٣٧٠

٥٢ - ٥٣ تفسير قوله عز وجل:

ثم إن الله عز وجل لما أراد إظهاره أمره في نجاة بني إسرائيل وغرق فرعون وقومه أمر موسى عليه السلام أن يخرج بني إسرائيل إلى الملام من مصر، وأخبره أنهم سيُبعون، وأمره بالسير تجاه البحر، وأمره بأن يستعير بنو إسرائيل حلي القبط وأموالهم، وأن يكثروا من أخذ أموالهم كيفما استطاعوا، هذا ما رواه بعض المفسرين، وأمره باتخاذ جراء الزاد، فأمره أن اتخذه فطيراً لأنه أبقى وأثبت، وروي أن الحركة أجلتهم عن اتخاذ جراء الزاد، وخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحَرًا، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول موسى عليه السلام: كذا

وكتادة بضم الميم، من: أقام.

وتورث بني إسرائيل يحتمل مقصدين: أحدهما أن الله قد ورّثهم هذه الضفة من أرض الشام، والآخر أنه ورّثهم مصر ولكن بعد مدة طويلة من الدهر، قاله الحسن، على أن التواريخ لم تتضمن ملك بني إسرائيل في مصر، و﴿مُتَرَقِّين﴾ معناه: عند شروق الشمس، أي: حين دخلوا فيه، وقيل: معناه: نحو الشرق، وقرأ الحسن: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾ بصلة الألف وشدّ التاء.

فلما لحق فرعون بِجَمْعِهِ جمع موسى عليه السلام وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي وراءهم والبحر أمامهم - ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى عليه السلام - على جهة التوبيخ والجفاء -: ﴿إِنَّا لَنَدْرِكُونَ﴾، أي: هذا دأبك، فردّ عليهم قولهم ورّجّهم، وذكر وغد الله تبارك وتعالى له بالهداية والظفر، وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّا لَنَدْرِكُونَ﴾ وقرأ الأعرج وعبيد بن عمير: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ بتشديد الدال وفتح الراء، ومعناه: يَتَّبَعُ علينا حتى نفنى، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ثَرِيءَ الْجَمْعَانِ﴾ بكسر الراء وبمَدْ ثُمَّ بِهَمْزٍ، وروي مثله عن عاصم، وروي أيضاً عنه مفتوحاً ممدوداً، والجمهور يقرؤونه مثل (تراعى)، وهذا هو الصواب؛ لأنه تفاعل، قال أبو حاتم: «وقراءة حمزة في هذا الحرف محال»، وحمل عليه وقال: «وما روي عن ابن وثاب والأعمش خطأ».

﴿٦٣﴾ - ﴿٦٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما عظم البلاء على بني إسرائيل أمر الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر؛ وذلك أنه عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى عليه السلام، ومتعلقة بفعل فعله، وإلا فضرب العصا ليس بفالق البحر ولا معين على ذلك بذاته، إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه، ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بينها كالجبل العظيم. و﴿الطُّودُ﴾: الجبل، وروي عن ابن جريج والسدي وغيرهما أن بني إسرائيل ظن كل فريق منهم أن الثاني قد غرق، فأمر الله تعالى الماء فصار كالطيفان، فرأى بعضهم بعضاً فتأسوا.

﴿وَرَأَيْنَا﴾ معناه: قربنا، وقرئ بالقاف، ونسبها أبو الفتح إلى عبدالله بن الحارث، وقرأ الحسن وأبو حية: ﴿وَرَأَيْنَا﴾ بغير ألف، وذلك أن فرعون - لعنه الله تعالى - لما وصل إلى البحر وقد دخل بنو إسرائيل، قيل: صمّ وقال لقومه: إنما انفلق بأمرى، فدخل على ذلك، وقيل: بل كعّ وهم بالانصراف، فعرض جبريل عليه السلام على فرس وديق، فمضى وراءها حصان فرعون، فدخل على نحو هذا وأتبعه الناس، وروي أن الله تعالى جعل ملائكة تسوق قومه حتى حصلوهم في البحر، ثم إن موسى عليه السلام وقومه خرجوا إلى البر من تلك الطرق، ولما أحسوا باتباع فرعون

وقومه فزعوا من أن يخرج وراءهم، فهَمَّ موسى عليه السلام بخلط البحر، فحيث قيل له: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَقَوًا﴾، ولما تكامل جند فرعون وهم مقدمتهم بالخروج انطبق البحر عليهم وغرقوا، ودخل موسى عليه السلام البحر بالعرض وخرج في الضفة التي دخل منها بعد مسافة، وكان ذلك في يوم عاشوراء. وقال النقاش: البحر الذي انفلق لموسى عليه السلام نهر النيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مردود إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ تنبيه على موضع العبرة، وقوله: ﴿وَلَيْلَ رَبِّكَ لَهَوَ الْعَزِيزُ الْأَرْحَمُ﴾ أي: عز في نعمته من الكفار، ورحم المؤمنين من الأمة، وقد مضى كثير مما يلزم ذكره من قصة موسى عليه السلام.

﴿٦٥﴾ - ﴿٦٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه القصة تضمنت الإعلام بغيب، والإتيان بما يقطع أن محمداً ﷺ لم يكن يعرفه، ثم ظهر على لسانه في ذلك ما في الكتب المتقدمة، وليست هذه الآية مثلاً لقريش في أمر الأصنام فقط، لأنه ليس فيها تكذيب وعذاب، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ استفهام بمعنى التقرير، والصنم ما كان من الأوثان على صورة بني آدم، كان من حجر أو عود أو غير ذلك، و﴿ظُلٌّ﴾ عرفها في فعل الشيء نهاراً، و﴿بات﴾ عرفها في فعله ليلاً، و﴿طفق﴾ عامة للوجهين، ولكن قد يجيء ﴿ظُلٌّ﴾ بمعنى العموم، وهذا الموضع من

النبي ﷺ: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»، وأسند إبراهيم عليه السلام المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله عز وجل، وهذا من حسن الأدب في العبارة، والكل من عند الله، وهذا كقول الخضر عليه السلام: «فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا»، وقال جعفر الصادق: إذا مرضت بالذنوب شفاني بالتوبة، وقرأ الجمهور هذه الأفعال: ﴿يَهْدِينِ﴾ و﴿يَسْفِينِ﴾ و﴿يَهْدِينِ﴾ بغير ياء، وقرأ نافع وابن إسحق: ﴿يَهْدِينِي﴾ بالياء، وكذلك ما بعده.

وأوقف إبراهيم عليه السلام نفسه على الطمع في المغفرة، وهذا دليل على شدة خوفه مع منزلته وخلته، وقوله: ﴿خَطِيئَتِي﴾ ذهب فيه أكثر المفسرين إلى أنه أراد كذباته الثلاث: قوله: «هي أختي» في شأن سارة، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ نَعْكُهُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا﴾، وقالت فرقة: أراد بالخطيئة اسم الجنس، قدرها في كل أمره من غير تعيين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أظهر عندي؛ لأن تلك الثلاث قد خرجها كثير من العلماء على المعاريض، وهي - وإن كانت كذبات بحكم قول النبي ﷺ: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات»، وبحكم ما في حديث الشفاعة من قوله في شأن إبراهيم عليه السلام: نفسي نفسي، وذكر كذباته - فهي في مصالح وعون شرع وحق. وقرأ الجمهور: ﴿خَطِيئَتِي﴾ بالإنفراد، وقرأ الحسن: ﴿خَطَايَايَ﴾ بالجمع.

على ضلالة، وفي أمر بين خلأه، وعظيم قدره، فلما صرحوا لإبراهيم عليه السلام عن عظم ذلك وعدهم نظرهم، وأنه لا حجة لهم، خاطبهم ببراءته من جميع ما عبد من دون الله عز وجل وعداوته له، وعبر عن بغضته وإطراحه لكل معبود سوى الله تعالى بالعداوة؛ إذ هي تقتضي التفسير، وقيل: في الكلام قلب؛ لأن الأصنام لا تُعادي وإنما هو عاداها، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قالت

فرقة: هو استثناء متصل؛ لأن في الآباء الأقدمين من قذ عبد من دون الله تبارك وتعالى، وقالت فرقة: هو استثناء منقطع؛ لأنه إنما أراد عبادة الأوثان من كل قرن منهم، ولفظه [عَدُوا] تقتضي الجمع والمفرد والمؤنث.

٧٨ - تفسير قوله عز وجل:

أثنى إبراهيم عليه السلام على الله تعالى بهذه الأوصاف التي وصف الله تعالى بها، والمتصف بها يستحق الأوصاف الفعلية التي تخص البشر. و﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ بقدرته ﴿هَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: يرشدني إلى طاعته، وقوله عز وجل: ﴿يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ تجديد للنعمة في الرزق، وقال أبو بكر الوراق في كتاب الشعلي: المعنى: يطعمني بلا طعام، ويسقيني بلا شراب، كما قال

وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَفَّجَنَةِ الْعِيسَى ﴿٧٩﴾ وَأَعِزَّنِي بِإِنْفِ الْفَالِاحِ ﴿٨٠﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٣﴾ وَأَرْزُقْنِي الْفَقِيرَ الْمُنِينِ ﴿٨٤﴾ وَبَرِّزْنِي الْجَمْعُ الْغَالِبِينَ ﴿٨٥﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٨٦﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هُلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٨٧﴾ فَكَيْتُبُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُنَ ﴿٨٨﴾ وَخُذُوا إِلَيْكُمْ أَمْجَعُونَ ﴿٨٩﴾ فَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٠﴾ تَاللَّهِ إِنَّ كُتَابِي ضَلَّتْ مِثْلَ مِثْلٍ ﴿٩١﴾ إِذْ شَرِبْتُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٢﴾ وَمَا أَصْلَانَا إِلَّا الْمَجْرُومُونَ ﴿٩٣﴾ فَتَالَنَّا مِنْ شَفِيعٍ ﴿٩٤﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿٩٥﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتُخَرِّجُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبِيَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٩٩﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَنْتُمْ قَوْمٌ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْطَّيْعِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْطَّيْعِينَ ﴿١٠٣﴾ قَالُوا أَأُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١٠٤﴾

ذلك و«العكوف»؛ اللزوم، ومنه المعتكف، ومنه قول الراجز:

عَكُفَ النَّبِيطِ يَلْعَبُونَ الْقَرْجَا
ثم أخذ إبراهيم عليه السلام يوقفهم على أشياء يشهد العقل أنها بعيدة عن صفة الإله، وقرأ الجمهور بفتح الياء من ﴿يَسْمُوكُمْ﴾ وقرأ قتادة بضمها وكسر الميم، من أسمع، والمفعول - على هذه القراءة - محذوف. وقرأ جمهور القراء: ﴿إِذْ تَدْعُون﴾ بإدغام الدال في التاء بعد القلب، ويجوز فيه قياس (مذكر)، ولم يقرأ به أحد، والقياس أن يكون اللفظ به «إِذْ دُعُونَ»، والذي منع من هذا اللفظ اتصال الدال الأصلية في الفعل فكثرت التماثلات.

وقولهم: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أقبح وجوه التقليد؛ لأنه

و«الْحُكْمُ» الذي دَعَا به إبراهيم عليه السلام هو الحكمة والنبوة، ودعاء إبراهيم عليه السلام في مثل هذا هو في معنى التثبيت والدوام، و«إِلْهَاقَهُ بِالصَّالِحِينَ»: توفيقه لعمل ينظمه في جملتهم أو يجمع بينه وبينهم في الجنة، وقد أجابه تبارك وتعالى حيث قال: ﴿رَأَيْتُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾، و«لِسَانَ الصَّدْقِ» هو الشئ وتخليد المكانة بإجماع من المفسرين، وكذلك أجاب الله دعوته، فكلُّ ملة تتمسك به وتُعظمه، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمد ﷺ. قال مكِّي: وقيل: معنى سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق فأجيب الدعوة في محمد ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكُّم في اللفظ. ولما فرغ من مطالب الدنيا طلب سعادة الآخرة وهي جنة النعيم، وشبهها بما يورث، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾، واستغفاره لأبيه في هذه الآية هو قبل أن يتبين له بموته على الكفر أنه عدو له، أي محتوم عليه، وهو عن الموعدة المذكورة، وقرأ أبي بن كعب: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبَوَيْهِمَا كَمَا كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَلَا تُخْزِي﴾ إما من الخزي وهو الهوان، وإما من الخزية وهي الحياة، والضمير في ﴿يُعْتَوْنَ﴾ ضمير العباد لأنه معلوم، أو ضمير الضَّالِّين، ويكون من جملة الاستغفار.

﴿٨٨﴾ - ﴿٨٩﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ﴾ بدل من الأول في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُعْتَوْنَ﴾، والمعنى: يوم لا تنفع أَعْلَاقُ الدنيا ومحاسنها، فقصده من ذلك الذكر العظيم والأكثر؛ لأن المال والبنين هما زينة الحياة الدنيا، والظاهر أن الاستثناء منقطع، أي: لكن من أتى الله بقلب سليم ينفعه سلامة قلبه، وقوله: ﴿يَقْلَبُ سِلَيرًا﴾ معناه: خالص من الشُّرك والمعاصي وعلق الدنيا المتروكة وإن كانت مباحة كالمال والبنين، قال سفيان: هو الذي يلقي ربه وليس في قلبه شيء غيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يقتضي عموم اللفظة، ولكن السليم من الشُّرك هو الأهم، وقال جنيد: بقلب لديغ من خشية الله، و«السليم»: اللديغ.

﴿وَأُزْلِفَتْ﴾ معناه: قربت، و«الغاوون الذين بُرِّزَتْ لهم الجحيم» هم المشركون بدلالة أنهم خطبوا في أمر الأصنام، والقول لهم: ﴿إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هو على وجه التقرع والتوبيخ والتوقيف على عدم نظرتهم نحوه. وقرأ الأعمش: ﴿فَبُرِّزَتْ﴾ بالفاء، والجمهور بالواو، وقرأ مالك بن دينار: ﴿وَوَبِّرَتْ﴾ بفتح الباء والتخفيف ورفع الجحيم.

ثم أخبر عن حال يوم القيامة من أن الأصنام تُكَبِّبُ في النار، أي تُلقَى كَبَّةً واحدة، ووصل بها ضمير من يعقل من حيث ذكرت بالعبادة، وكادت تسند إليها أفعال من يعقل، والضمير في قوله: ﴿هَمًّا﴾ يعود على

الكفار، و«الْفَاوَنُ»: الشياطين. و«كَبِّبَ» مضاعف من «كَبَّ»، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح؛ لأن معنهما واحد، والتضعيف بين، مثل: صرَّ وصرصر، وغير ذلك. و«الْفَاوَنُ»: الكفرة الذين شملتهم الغواية، و«وَحَوُّوْهُ لِلَّيْسَ»: نسله وكل من تبعه لأنهم جند له وأعوان.

﴿٩٠﴾ - ﴿٩١﴾ تفسير قوله عز وجل:

ثم وصف تعالى أن أهل النار يختصمون فيها ويتلاومون، ويأخذون في شأنهم بجدال، ومن جهلهم قولهم لأصنامهم - على جهة الإقرار وقول الحق -: قسماً بالله إن كنا لفي ضلال مبين في أن نعبدكم ونجعلكم سواء مع الله تعالى الذي هو رب العالمين وخالقهم ومالكهم، ثم عطفوا يردون الملامة على غيرهم، أي: ما أضلنا إلا كبارؤنا وأهل الحزم والجرأة والمكانة، ثم قالوا - على جهة التلهف والتأسف - حين رأوا شفاععة الملائكة والعلماء والأنبياء نافعة في أهل الإيمان عموماً، وشفاعة الصديق في صديقه خاصة -: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ولا صَديقٍ حَيٍّ، وفي هذه اللفظة تنبيه على محل الصديق من المرء، قال ابن جريج: ﴿شَافِعِينَ﴾ من الملائكة، و«صَديقٍ» من الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولفظة «الشفيع» تقتضي رفعة مكانة عند المشفوع عنده، ولفظة «الصديق» تقتضي شدة مساهمة ونصرة، وهو (فعل) من صدق الود من أبنية المبالغة.

فإنما أفتع بظواهرهم واجتزأ به، ثم حسابهم على الله تبارك وتعالى، وهذا نحو ما قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله... الحديث بجملة».

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَنْبَعَكْ﴾ على الفعل الماضي، وقرأ ابن السميع اليماني، وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري: ﴿وَأَنْبَاعُكَ﴾ على الجمع، ونسبها أبو الفتح إلى ابن مسعود، والضحاك، وطلحة، قال أبو عمرو: وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما، والأعمش، وأبي حنيفة. وقرأ عيسى بن عمر الهمداني: ﴿لَوْ يَشْعُرُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ الجمهور: ﴿تَشْعُرُونَ﴾ بياء الخطاب. وإعراب قوله: ﴿وَأَنْبَاعُكَ﴾ إما جعله في موضع الحال، وإما عطف على الضمير في قوله: ﴿أَوُؤْمِنُ لَكَ﴾، وحسن ذلك الفصل بقوله: ﴿لَكَ﴾.

وقوله: ﴿يَنْ الرَّجْرِيَّةِ﴾ يحتمل أن يريد: بالحجارة، ويحتمل أن يريد: بالقرآن والشم ونحوه وهو شبه برجم الحجارة، وهو من الرجم بالغيب والظن ونحو ذلك. وقوله: ﴿أَفْتَحْ﴾ معناه: احكم، والفتاح: القاضي بلغة يمنية، و﴿أَفْتَحْ﴾: السفينة، وجمعها فُلُكٌ أيضاً، وقد تقدم بسط القول في هذا الجمع في سورة الأعراف، و﴿الْمَشْحُونِ﴾ معناه: المملوء بما ينبغي له من قدر ما يحمل، وباقى الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿أَنْبَعُ﴾ يريد: في النسب والمنشأ، لا في الدين، ومعناه: على وحي الله تعالى ورسالته، يريد: في المنشأ.

وقرأ ابن كثير، وعاصم: ﴿أَجْرِي﴾ ساكنة الياء، وقرأ نافع، وأبو جعفر، وشيبة بفتح الياء في كل القرآن، ثم ردّد عليهم الأمر بالتقوى والدعاء إلى الطاعة تحذيراً ونذارة وحرصاً عليهم، فذهب أشرافهم إلى استنقاص أتباعه بسبب صغار الناس الذين اتبعوه وضعفائهم، وهذا كقول قريش في عمار بن ياسر، وصهيب، وغيرهما. وقال بعض الناس: ﴿الْأَزْدَلُونَ﴾: الحاكة والحجامون والأساكفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي على جهة المثال، أي: أهل الصنائع الخسيسة، لا أن هذه الصنائع المذكورة خصت بهذا، و﴿الْأَزْدَلُونَ﴾: جمع الأزدل، ولا يستعمل إلا مُعرفاً أو مضافاً، أو بمن، ويظهر من الآية أن مراد قوم نوح بنسبة الرذيلة إلى المؤمنين تهجين أفعالهم، لا النظر في صنائعهم، ويدل على ذلك قول نوح: ﴿وَمَا عَلَيْنَا﴾ الآية؛ لأن معنى كلامه: ليس في نظري وعلمي بأعمالهم ومعتقداتهم فائدة،

قَالَ وَمَا عَلَيْنَا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ جِسَابَهُمْ لِأَعْلَىٰ رُفِي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا لِنُذِيرٍ مُّيِّنٍ ﴿١٠٨﴾ قَالُوا لَنْ نَرْتَدَّ بِشَيْءٍ وَتُحْشَرُونَ مِنَ الرَّجْرِيِّينَ ﴿١٠٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُوِي كَذَّبُونَ ﴿١١٠﴾ فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ فَأَجِئْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٢﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١١٣﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كُنَّا أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ وَإِنْ رَيْكَ لَهَوُ الْعَزِيزِ الرَّجِيمِ ﴿١١٥﴾ كَذَّبَ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٧﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٨﴾ فَاقْنُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿١١٩﴾ وَمَا أَسْتَأْذِنُ عَلَيْكَ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾ أَتَنْبُوْنَ بِكُلِّ رِيعٍ مَّاءٍ تَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَتَسْخُدُونَ مَصَانِعَ لِمَلَكٍ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطْشَ رَجَائِرِينَ ﴿١٢٣﴾ فَاقْنُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿١٢٤﴾ وَاقْنُوا الَّذِي أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٥﴾ أَمَدُّكُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَبَيْنَ ﴿١٢٦﴾ وَحَبْتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٢٧﴾ إِنْ أَرَأَيْتُمْ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَيْنَانَا وَعُظَّتْ أَمْزَلُكُمْ مِنْ الْوَعْدِ عَظِيمٍ ﴿١٢٩﴾

٣٧٢

و «الحميم»: الولي والقريب الذي يخلص أمره ويخصه أمرك، وجامعة الرجل خاصته، وباقي الآية بين قد مضى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآيات من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ هي عندي منقطعة من كلام إبراهيم عليه السلام، وهي إخبار من الله عز وجل تعلق من صفة اليوم الذي وقف إبراهيم عليه السلام عنده في دعائه ألا يخزي.

١٠٥ - ١١٣ تفسير قوله عز وجل:

أسند ﴿كَذَّبَ﴾ إلى «القوم» وفيه عدم التأنيث من حيث «القوم» في معنى الأمة والجماعة. وقوله: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ من حيث أن من كذب نبياً واحداً فقد كذب جميع الأنبياء؛ إذ قولهم واحد، ودعوتهم سواء،

تَخْلُدُونَ ﴿١٢٣﴾، إما أن يريد: على أمليكم ورجائكم، وإما أن يريد الاستفهام على معنى التوبيخ والهزء بهم، وقرأ الجمهور: ﴿تَخْلُدُونَ﴾ بفتح التاء وضم اللام، وقرأ قتادة: ﴿تُخْلِدُونَ﴾ بضم التاء وفتح اللام، يقال: خلد الشيء، وأخلده غيره، وقرأ أبي وعلقمة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُخْلَدُونَ﴾ بضم التاء وفتح الخاء وفتح اللام وشدها، وروي عن أبي: ﴿كَأَنَّكُمْ تَخْلَدُونَ﴾، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كَأَنَّكُمْ خَالِدُونَ﴾.

و «البَطْشُ»: الأخذ بقوة وسرعة، و«الجَبَّارُ»: المتكبر، ومنه قولهم: «نخلة جبارة» إذا كانت لا تُدْرَك علوًا، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في المرأة التي أبت أن تنحى عن طريقه: «إنها جبارة»، ومنه الجبروت، فالمعنى: إنكم كفار الغضب، لكم السطوات المفرطة، والبرادر من غير تثبيت.

ثم ذكّرهم عليه السلام بأيادي الله تعالى قَبْلَهُمْ فيما منحهم من الأنعام والذرية والجنات والمياه المطردة فيها، ثم خوفهم عذاب الله تعالى في الدنيا، وكانت مراجعتم أن سؤوا بين وعظه وتركه الوعظ. وقرأ ابن محيصن: ﴿وَعَظَّتْ﴾ بإدغام الظاء في التاء، ثم قالوا:

﴿١٢٣﴾ - ﴿١٢٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿عَادٌ﴾: قبيلة، وانصرف للخفة، وقيل: هو اسم أبيهم، وخاطبهم هود عليه السلام بمثل مخاطبة سائر الرسل، ثم كلمهم فيما انفردوا به من الأفعال التي اقتضتها أعمالهم، فقال: ﴿أَتَنْبُوْنُ﴾ على جهة التوبيخ، و«الرَّيْعُ»: المرتفع من الأرض، ومنه قول المسيّب بن علس يصف طريقاً:

في الآل يخفّضها ويرفعها
ريع يلوح كأنة سخل
والسخل: الثوب الأبيض، ومنه قول ذي الرمة:

طرّاق الخوافي مُشرق فوق ربيعة
نَدَى لَيْلِهِ في ريشو يترقرق
ومنه قول الأعشى:

وَيَهْمَاءُ قَفَرٍ تَجَاوَزَتْهَا
إِذَا خَبَّ فِي رِيْعِهَا أَلْهَا
ويقال: (ريع) بكسر الراء، ويقال: (زنيغ) بفتحها، وبها قرأ ابن أبي عبلة، وعبر بعض المفسرين عن «الرَّيْع» بالطريق، وبعضهم بالفج، وبعضهم بالثنية الصغيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجملة ذلك أنه المكان المشرق، وهو الذي يتنافس الناس في حياته. و«الآية»: البينات، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه علّم، وقال مجاهد: أبراج الحمام، وقال النقاش وغيره: القصور الطوال، و«المصانع»: جمع مصنع، وهو ما أصنع وأتقن في بنائه من قصر مشيد ونحوه، وقال قتادة: هي مأخذ للماء، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ

﴿١٢٣﴾ - ﴿١٢٤﴾

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾، واختلف القراء في ذلك - فقرأ نافع، وعاصم، وحزمة، والكسائي، وابن عامر: ﴿خُلُقٌ﴾ بضم اللام، فالإشارة بـ «هَذَا» إلى دينهم وعبادتهم وتصرفهم في المصانع، أي: هذا الذي نحن عليه خُلُقُ الناس وعاداتهم، وما بعد ذلك بعث ولا تعذيب كما تزعم أنت، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي، وأبو قلابة: ﴿خُلُقٌ﴾ بضم الخاء وسكون اللام، ورواه الأصمعي عن نافع، وقرأ أبو جعفر، وأبو عمرو: ﴿خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ بفتح الخاء وسكون اللام، وهي قراءة ابن مسعود، وعلقمة، والحسن، وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: وما هذا الذي تزعمه إلا اختلاق

رضي الله عنهما: ﴿كَأَنَّكُمْ خَالِدُونَ﴾.

و «البَطْشُ»: الأخذ بقوة وسرعة، و«الجَبَّارُ»: المتكبر، ومنه قولهم: «نخلة جبارة» إذا كانت لا تُدْرَك علوًا، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في المرأة التي أبت أن تنحى عن طريقه: «إنها جبارة»، ومنه الجبروت، فالمعنى: إنكم كفار الغضب، لكم السطوات المفرطة، والبرادر من غير تثبيت.

ثم ذكّرهم عليه السلام بأيادي الله تعالى قَبْلَهُمْ فيما منحهم من الأنعام والذرية والجنات والمياه المطردة فيها، ثم خوفهم عذاب الله تعالى في الدنيا، وكانت مراجعتم أن سؤوا بين وعظه وتركه الوعظ. وقرأ ابن محيصن: ﴿وَعَظَّتْ﴾ بإدغام الظاء في التاء، ثم قالوا:

الأولين من الكَذِبَةِ قبلك، فأنت على منهاجهم، والثاني أن يريدوا: ما هذه البنية التي نحن عليها إلا البنية التي عليها الأولون، حياة وموت، وما تُم بعث ولا تعذيب، وكل معنى مما ذكرته تحتمله قراءة «خُلِقَ»، وروى علقمة عن ابن مسعود: «إِلَّا اخْتِلَافُ الْأَوَّلِينَ»، وباقي الآية قد مضى تفسيره.

﴿١٤٢﴾ - ﴿١٤٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿ثَوْدٌ﴾: قبيلة عربية، وتصرف ولا تصرف، على مقصد الحي أو القبيلة، وقرى بالوجهين: الجمهور بغير صرف، وابن وثاب وغيره بالصرف. و﴿صَلَحٌ﴾ أخوهم في النسب، والأنبياء من العرب أربعة: هود وصالح وشعيب ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين، وإسماعيل عليه السلام عربي اللسان سرياني النسب، وهو أب العرب الموجودين اليوم.

وقوله: ﴿أَتَذَكَّرُونَ فِي مَا هَلَفْتُمْ﴾ تخويف لهم، بمعنى: أتطمعون أن تفروا في النعم على معاصيكم؟ و«الْهَضِيم» معناه: اللين الرطب، و«الطَّلْع» الكفري، وهو عنقود النخل قبل أن يخرج من الكم في أول نباته، فكان الإشارة إلى أن طلوعها يشمر ويرطب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أَيْتَع وبلغ وهو يُهْضَم، وقال الزهري: الهضيم: الرِّخْصُ اللطيف أول ما يخرج، وقال الزجاج: هو - فيما قيل - الذي رطبه بغير نوى، وقال

الضحاك: الهضيم: المنضد بعضه على بعض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقرأ الجمهور: «وَنَجَّيْنَهُ» بكسر الحاء، وقرأ الكسائي بفتحها، وذكر أنها لغة، قال أبو عمرو: وهي قراءة الحسن، وأبو حيوة، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم، وابن عامر: «فَرَّيْنَهُ» وهي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: «فَرَّهَيْنَهُ»، وقرأ مجاهد: «مُتَفَرِّهَيْنَهُ» بميم، على وزن: مُتَعَمِّلِينَ، واللفظة مأخوذة من الفراهة، وهي جودة منظر الشيء وقوة كماله في نوعه، فمعنى الآية: كَيْسَيْنِ مُهْتَمِّينِ، قاله ابن عباس، وقال مجاهد: شرهين، وقال ابن زيد: أقوياء، وقال أبو عمرو بن العلاء: أثيرين بطرين، وذهب عبدالله بن شداد إلى أنه بمعنى: مستفرهين، أي: مبالغين في استحازة الفاره من كل شيء مما يصنعونه ويشتبهونه.

وقوله تعالى: «وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الشَّافِرِينَ» ﴿١٤٤﴾ خاطب به جمهور قومه، وعنى بالمسرفين كبرائهم وأعلام الكفر والإضلال فيهم. وقوله: «يَوْمَ تَأْتِي السَّحَابُ» (بكسر السين)، أي: قد سُجِرَتْ فأنت لذلك مخبول لا تنطق بقويم، والثاني أنه مأخوذ من السحر (بفتح السين) وهي الرثة، وقيل: السحر:

قصبة الرثة وما يتعلق بها من كبد وغيره، أي: أنت ابن آدم مثلاً لا يصح أن تكون رسولاً عن الله تعالى، وما بعده في الآية يُقَوِّي هذا التأويل، ومن اللفظة قول لبيد:

فَإِنْ تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّا
عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمُسْحَرِ
ويقال للاغتداء: التَّسْحِيرُ، ومنه قول امرئ القيس:

.....
وَتُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ
ثم اقترحوا عليه آية، وزوي أنهم اقترحوا خروج ناقة من جبل من جبالهم، وقصتها في هذه الآية قد مضت مستوعبة، فلما خرجت الناقة قال لهم: «هَذِهِ نَاقَةُ هَذَا شَرِبَ»، أي: حظ من الماء، وقرأ ابن أبي عبلة: «لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ» بضم الشين فيهما، وقد تقدم قصص ورود الناقة. و«السوء»: عقرها، وتوعدهم عليه بعذاب، وظاهر أمره أنه أراد: في الدنيا، ونسب عقرها إلى جميعهم مع اختصاص قدار الأحمر بعقرها من حيث انفقوا على ذلك رأياً وتدبيراً. وقوله: «فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ»، لما ظهر لهم تغير ألوانهم حسبما كان صالح عليه السلام أخبرهم ندموا، ورأوا أن الأمر على ما أخبر به حتى نزل بهم العذاب، وكانت صيحة جمدت لها أبدانهم، وانشقت قلوبهم، وماتوا عن آخرهم، وصبت عليهم حجارة خلال ذلك.

﴿١٦٧﴾ - ﴿١٦٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال النقاش: إن في مصحف ابن مسعود، وأبي، وحفصة رضي الله تعالى عنهم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ لُوطُ﴾ وسقط «أخوهم»، واختصرت الباء في الخط واللفظ من قوله: ﴿وَأُطِيعُونَ﴾ مراعاة لرؤوس الآي أن تتناسب.

ثم وقفهم على معصيتهم البشعة في «إتيان الذكران» وترك فروج الأزواج، والمعنى: ويذر ذلك العاصي في حال المعصية، لا أن معناه: تركوا النساء جملة، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿مَا أَضْلَحَ لَكُمْ رُبُكُمْ﴾، و﴿عَادُونَ﴾ معناه: ظالمون مرتكبون للخطر، فتوعدهم بالإخراج من أرضه فلا يثبهم عند ذلك، واقتصر على الإخبار بأنه قال: ﴿يَمْلِكُ﴾. و«ألقى»: بغض الشيء وتركه، ثم دعا بالنجاة فنجاه الله تعالى بأن أمره بالرحلة ليلاً، وكانت امرأته تعين عليه قوم فأصابها حجر فهلكت فيمن هلك.

وقوله: ﴿فِي الْفَتَرَيْنِ﴾ معناه: في الباقيين، فيما أن يريد: في الباقيين من لِدَاتِهَا وأهل سُتْهَا، وهو تأويل أبي عبيدة، وإما أن يريد: في الباقيين في العذاب النازل بهم، وهو تأويل قتادة، والمشهور أنها بمعنى: بقي، وغابر الزمان: مستقبله، ولكن الأعشى قد استعمل «غابر الزمان» بمعنى ماضيه في شعر المنافرة المشهور، وقال الزهراوي: يقال للذهاب غابر، وللباقي غابر. و«التدمير»: الإهلاك بإمطار الحجارة، وبذلك جرت السير في

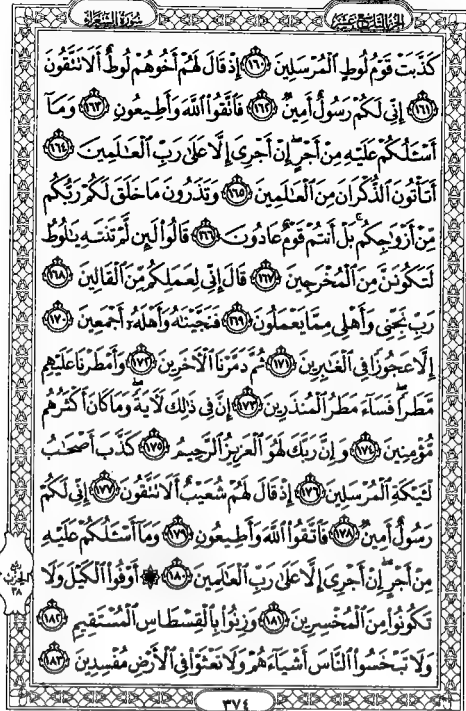
رجم اللوطي، وباقي الآية بين.

﴿١٦٧﴾ - ﴿١٦٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال النقاش: في مصحف ابن مسعود، وأبي، وحفصة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ﴾، وقالوا: لا وجه لمراعاة النسب، وإنما هو أخوهم من حيث هو رسولهم وأدمي مثلهم.

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر: ﴿لَيْكَةَ﴾ على وزن فَعْلَةٍ هنا وفي (ص)، وقرأ الباقون: ﴿الْأَيْكَةَ﴾

وهي الدوحة الملتفة من الشجر على الإطلاق، وقيل: من شجر معروف له غضارة يألفه الحمام والقمارى ونحوه، وقال قتادة: كان شجرهم هذا دوماً، و«لَيْكَةَ» اسم البلد في قراءة من قرأ ذلك، قاله بعض المفسرين، وذكره أبو عبيد القاسم بن سلام، وذهب قوم إلى أنها مُسَهَّلَةٌ من الأيكة، وأنها وقعت في المصحف هنا وفي سورة (ص) بغير ألف، وقال أبو علي: سقوط ذلك في المصحف لا يرجح النطق بها هكذا؛ لأن خط المصحف أثبت فيه تسهيل اللفظ، كلما سقطت الألف من اللفظ سقطت من الخط، نحو سقوط الواو من قوله: ﴿سَنَعُ أَرْبَابَكُمْ﴾، لما سقط من اللفظ، وأما ترجيح القراءة في ﴿لَيْكَةَ﴾ بفتح الباء في موضع الجر فلا يقتضيه ما في المصحف، وهي قراءة ضعيفة،



ويدل على ضعفها أن سائر ما في القرآن غير هذين الموضعين مُجمع فيه على «الْأَيْكَةَ» بالهمز والألف والخفض.

وكانت مدن القوم سبعة فيما روي، فلم يكن شعيب منهم، فلذلك لم يذكر هنا بأنه أخ لهم، وإنما كان من بني مدين، ولذلك ذُكر بأخوهم، وجاءت الألفاظ في دعاء كل واحد من هؤلاء الأنبياء واحدة بعينها إذ كان الإيمان المدعو إليه معنى واحداً بعينه، وفي قولهم عليهم السلام: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عرض رقيق وتلطف، كما قال تبارك وتعالى: ﴿تَقُلْ مَلَكُكَ إِنَّكَ أَنْ تَرَكَهُ﴾، وكانت معصيتهم المضافة إلى كفرهم بخس الموازين وتنقص أموال الناس بذلك. و«الْقِسْطَاسُ»: المعتدل من الموازين، وهو بناء مبالغة من

فاضطربت عليهم تلك
السحابة ناراً فأحرقتهم عن
آخرهم، وللناس في
حديث يوم الظلة تطويلات
لا تثبت، والحق أنه
عذاب جعله الله تبارك
وتعالى ظُلة، وذكر
الطبري عن ابن عباس
رضي الله عنهما أنه قال:
من حدثك ما عذاب يوم
الظُلة فقد كذب، وباقى
الآية بين.

عز وجل: ﴿١٩٩﴾ - ﴿١٩٨﴾ تفسير قوله

الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾
للقرآن، أي: إنه ليس
بكهانة ولا سحر، إنما هو
من عند الله تبارك وتعالى، و﴿الرُّجُ
الْأَيْمِينَ﴾: جبريل عليه السلام
بإجماع، ونزل باللفظ العربي
والمعاني الشابتة في الصدر
والمصاحف، والضمير على ذلك
كله عائد في ﴿يُدْعَى﴾، و«اللسان» عبارة
عن اللغة، وقرأ ابن كثير، ونافع،
وأبو عمرو، وعاصم - في رواية
حفص -: ﴿نَزَّلَ﴾ خفيفة الزاي
﴿الرُّجُ﴾ بالرفع، وقرأ ابن عامر،
وأبو بكر عن عاصم - وحمة،
والكسائي بشد الزاي ﴿الروح﴾
نصباً، ورجحها أبو حاتم بقوله
تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَٰى قَلْبِكَ﴾،
وبقوله: ﴿لَتَنزِيلٌ رَّبِّ الْوَعْدِ﴾،
وقوله: ﴿يُدْعَى﴾ في موضع الحال،
كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّوْا بِالْكَثْرِ وَهُمْ
قَدْ خَرَجُوا يَدْعَى﴾. وقوله تعالى: ﴿عَلَى
قَلْبِكَ﴾ إشارة إلى حفظه إياه، وعُلِّل

النزول على قلبه بكونه من
المنذرين؛ لأنه لا يمكن أن يُنذر به
إلا بعد حفظه، وقوله: ﴿يَلِسَانٍ﴾
يمكن أن يتعلق بلفظ الباء بـ ﴿نَزَّلَ﴾
يُدْعَى، وهذا على أن النبي ﷺ إنما
كان يسمع من جبريل عليه السلام
حروفاً عربية، وهو القول الصحيح،
وتكون صلصلة الجرس صفة لشدة
الصوت وتداخل حروفه وعجلة
مورده وإغلاظه، ويمكن أن يتعلق
بقوله: ﴿لَتَكُونَنَّ﴾، وتمسك بهذا
من رأى أن النبي ﷺ كان يسمع
أحياناً مثل صلصلة الجرس يتفهم له
منه القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا قول ضعيف يقتضي أن بعض
ألفاظ القرآن هي من لدن النبي ﷺ،
وهو مردود.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلِيَّ دُرُّ الْأَوَّلِينَ﴾
﴿١٩٨﴾ أي في كتبهم، يريد أن القرآن
مذكور في الكتب المنزلة القديمة مُتَّبَعُهُ
عليه مشار إليه، وقرأ الجمهور:
﴿دُرُّ﴾ بضم الباء، وقرأ الأعمش
بسكونها.

ثم احتج عليهم بأنهم كان ينبغي أن
يُصَحَّح عندهم أمره، كان علماء بني
إسرائيل يعلمونه، كعبدالله بن سلام
ونحوه، قاله ابن عباس ومجاهد،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما
أيضاً - فيما حكى عنه الثعلبي -: إن
أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب
يسألونهم عن النبي ﷺ، فقالوا: هذا
زمانه، ووصفوا بعثه، ثم خلطوا في
أمر محمد ﷺ، فنزلت الآية في
ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وَأَنقَرُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٨﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٩٩﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٢٠٠﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْكَ سَكُوتَ النَّهْبِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٠١﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَآخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٠٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِدٌ يُعْتَدُ بِهِ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٠٥﴾ تَنَزَّلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٢٠٦﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٢٠٧﴾ لِبَنِي إِدْرِيسَ عِزِّ بْنِ مِثْيَنَ ﴿٢٠٨﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زَكَاةٍ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَتُؤْتِيهِمْ مَّا فَكَّرُوا وَيَكُونُونَ حِينَ يَأْمُرُونَ ﴿٢١٠﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٢١١﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢١٢﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَجَرِّبِينَ ﴿٢١٣﴾ لَّا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢١٤﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢١٥﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢١٦﴾ أَفِعْدَا إِنَّا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿٢١٧﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢١٨﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢١٩﴾

القسط، وذهب ابن عباس ومجاهد
إلى أن قوله: ﴿وَرَوْحًا بِالْقَلْبِ﴾ بضم
القاف [من القسطاس]، وقرأ عيسى
وأهل الكوفة بكسرهما، و﴿تَعَزَّوْا﴾
معناه: تفسدون، يقال: «عَظَا» إذا
أفسد.

﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾: القرون والخليقة
الماضية، قال الشاعر:

وَالْمَوْتُ أَغْظَمُ حَادِثٍ
فِيمَا يَمُرُّ عَلَى الْجِبِلَّةِ
وَقَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ: ﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾
بكسر الجيم والباء، وقرأ أبو حصين
والحسن: ﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾ بضمهما،
و«الْكِسْفُ»: القطع، واحدها:
كِسْفَةٌ، كَتَمَرَةٌ وَتَمَرٌ، و﴿يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾
يوم عذابهم، وصورته - فيما زوي -
أن الله تعالى امتحنهم بَحَرٍّ شَدِيدٍ،
فلما كان ذلك اليوم غشى بعض
قطرهم سحابة، فاجتمعوا تحتها،

ويؤيد هذا كون الآية مكية، وقال مقاتل: هذه الآية مدنية، فمن قال: إنها مكية، ذهب إلى أن علماء بني إسرائيل ذكروا أن في التوراة صفة النبي ﷺ، وهذه الإشارة إلى ذلك. وكلهم قرأ: ﴿يَكُنْ﴾ بالياء ﴿آيَةً﴾ نصباً، غير ابن عامر فإنه قرأ: ﴿تَكُنْ﴾ بالتاء من فوق: ﴿آيَةً﴾ رفعا، وهي قراءة عاصم والجحدري، وقرأ جمهور الناس: ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ بالياء من تحت، وقرأ الجحدري: ﴿أَنْ تَعْلَمَهُ﴾ بالتاء من فوق.

ثم سأل محمد بن أبي بكر عن صدور قومه عن الشرع بأن أخبر أن هذا القرآن العربي لو سمعوه من أعجم، أي: من حيوان غير ناطق، أو جماد، - والأعجم: كل ما لا يفصح - ما كانوا يؤمنون، أي: قد حتم الكفر عليهم فلا سبيل إلى إيمانهم، و«الأعجمون» جمع أعجم، وهو الذي لا يفصح، وإن كان عربي اللسان يقال له: أعجم، وكذلك يقال للحيوانات والجمادات، ومنه قول النبي ﷺ: «جَزَخُ الْعَجَمَاءِ جَبَارٌ»، وأسند الطبري عن عبد الله بن مطيع أنه قال حين قرأ هذه الآية وهو واقف بعرفة: «جمالي هذا أعجم، فلو أنزل عليه ما كانوا يؤمنون»، والعجمي هو الذي نسه في العجم وإن كان فصيح اللسان. وقرأ الحسن: «الْأَعْجَمِيِّينَ»، قال أبو حاتم: أراد جمع «الْأَعْجَمِيِّ» المنسوب، وقال بعض النحويين: الأعجمون جمع أعجم، وهو أعجم، أضيف فقويت بالإضافة رتبته

في الأسماء فجمع، وليس بأعجمي النسبة إلى العجم. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ﴾ بالياء ﴿كَلِمَةً﴾ بالنصب، وقرأ: ﴿أَوْ لَيْسَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ ابن مسعود والأعمش، وفي مصحف أبي ﴿الْيَسْ﴾ بغير واو أو فاء، وقرأت فرقة: ﴿تَكُنْ﴾ بالتاء من فوق ﴿آيَةً﴾ رفعا، وقرأ بعض من قرأ بالتاء ﴿آيَةً﴾ بالنصب، وسائرهم بالرفع، وقد مضى ذكر ما في السبع، وذكر الطبري أن الضمير في قوله: ﴿وَلَهُ لَنَزِيلٌ رَبِّ

الْعَالَمِينَ﴾ عائد على «الذِّكْر» في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ إِلَّا فَتَنٌ﴾.

٢٠٠ - تفسير قوله عز وجل:

الإشارة بـ «ذَلِكَ» إلى ما يتحصل لسامع الآيات المتقدمة من الحتم عليهم بأنهم لا يؤمنون، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ الآية. ومعناه: أدخلناه، والضمير فيه للكفر الذي يتضمنه قوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، قاله الحسن. قال الرُّمَّانِي: لا وجه لهذا إلا أنه لم يجر ذكره، وإنما الضمير للقرآن وإخطاره بالبال، وحكى الزهراوي أن الضمير للتكذيب المفهوم، وحكاه الثعلبي، وقرأ ابن مسعود: «كذلك جعلناه في قلوب»، وروى عنه: «نَجَعَلَهُ»، و«المجرمون» أراد به مجرمي كل

مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْعَوْنَ ﴿٢٠٠﴾ وَمَا أَهْلَكَا مِنْ قَوْمٍ إِلَّا لَمَّا مَنَعُوا عَنْهُمْ ﴿٢٠١﴾ وَذَكَرُوا مَا كُنَّا نَظْلُمُ لَدَيْنَ ﴿٢٠٢﴾ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٠٣﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢٠٤﴾ إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعَزُونَ ﴿٢٠٥﴾ فَلَا تَنْفَعُ الْإِلَهَاءُ لِمَنْ خَفَعُوا مِنَ الْمُعْذِبِينَ ﴿٢٠٦﴾ وَأَنْذَرْتُ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢٠٧﴾ وَخَفِضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٠٩﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٠﴾ الَّذِي يَرْبُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١١﴾ وَتَقَعُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢١٣﴾ هَلْ أَتَيْتُمْ عَنْكُمْ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينَ ﴿٢١٤﴾ نَزَّلَ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢١٥﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢١٦﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢١٧﴾ أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ ﴿٢١٨﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢١٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٠﴾

أمة، أي أن هذه عادة الله تبارك وتعالى فيهم أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب، ولا ينفعهم الإيمان بعد تلبس العذاب بهم، وهذا على جهة المثال لقريش، أي: هؤلاء كذلك. وكشف الغيب ما تضمنته هذه الآية يوم بدر.

وقرأ الجمهور: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ﴾ بالياء، أي العذاب، وقرأ الحسن: ﴿فَتَأْتِيَهُمْ﴾ بالتاء من فوق، يعني الساعة، وفي قراءة ابن كعب: ﴿فَيَرَوْهُ بَغْتَةً﴾، ومن قول كل أمة مُسْتَلْبِة: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ أي مؤخرون، وهذا على جهة التمني منهم والرغبة حيث لا تنفع الرغبة.

ثم رجع لفظ الآية إلى توبيخ قريش على استعجالهم عذاب الله تعالى في طلبهم سقوط السماء كسفاً وغير ذلك، وقولهم لمحمد ﷺ، أين ما

تَعَذِّبُنَا؟ أَي أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ ذَلِكَ لِأَنّ عَذَابِنَا بِالْمَرَصَادِ إِذَا حَانَ حِينُهُ. ثُمَّ خَاطَبَ مُحَمَّدًا ﷺ بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فِي أَنَّ مُدَّةَ الْإِرْجَاءِ وَالْإِمْهَالِ وَالْإِمْلَاءِ لَا يَعْنِي مَنَعُ نَزُولِ الْعَذَابِ بَعْدَهَا، وَوُقُوعِ النِّقْمَةِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الْآيَةَ، قَالَ عَكْرَمَةُ: ﴿يَسِينٌ﴾ يَرِيدُ: غُمْرُ الدُّنْيَا، وَالْأَبْيَ جَعْفَرُ الْمَنْصُورُ قِصَّةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يَهْلِكْ قَرْيَةً مِنَ الْقُرَى إِلَّا بَعْدَ إِسْرَالٍ مِنْ يَنْذَرِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى ذَكَرَى لَهُمْ وَتَبَصُّرَةً وَإِقَامَةَ حُجَّةٍ؛ ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وَ﴿ذَكَرْنَا﴾ عِنْدَ الْكِسَائِيِّ نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ نَصَبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَهُوَ قَوْلُ الزَّجَّاجِ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ عَلَى خَبَرِ ابْتِدَاءٍ، تَقْدِيرُهُ: «ذَلِكَ ذَكَرَى»، ثُمَّ نَفَى عَنْ جِهَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ الظُّلْمَ؛ إِذْ هُوَ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ.

﴿٢١٠﴾ - ﴿٢١١﴾ تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ:

لَمَا كَانَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَا قَالَ الْكُفَّارُ - لَأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كِهَانَةٌ - نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَكْذُوبَةٌ لِذَلِكَ، أَي: مَا نَزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ؛ لِأَنَّهُا عُزِلَتْ عَنِ السَّمْعِ الَّذِي كَانَتْ تَأْخُذُ لَهُ مَقَاعِدَهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَلْبَسُونَ﴾ أَي: مَا يَمْكُنُهُمْ، وَقَدْ تَجَيَّءَ هَذِهِ اللَّفْظَةُ عِبَارَةً عَمَّا لَا يَكُونُ، وَعِبَارَةً عَمَّا لَا يَلِيقُ وَإِنْ كَانَ مُمْكِنًا، وَلَمَا جَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِسْلَامِ حَرَسَ السَّمَاءَ بِالشَّهْبِ الْجَارِيَةِ إِثْرَ الشَّيَاطِينِ، فَلَمْ يَخْلُصْ شَيْطَانٌ بِشَيْءٍ يُلْقِنُهُ كَمَا كَانَ يَتَّفَقُ لَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿الْشَّيَاطِينُ﴾ وَرَوَى عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿الشَّيَاطُونُ﴾، وَهِيَ قِرَاءَةٌ مُرَدُّودَةٌ، قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: هِيَ غَلَطٌ مِنْهُ أَوْ عَلَيْهِ، وَحَكَاهَا الثَّعْلَبِيُّ أَيْضًا عَنْ ابْنِ السَّمِيعِ، وَذَكَرَ عَنْ يُونُسَ بْنِ حَبِيبٍ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: دَخَلْتُ بَسَاتِينَ مِنْ وَرَائِهَا بَسَاتُونُ، قَالَ يُونُسُ: مَا أَشَبَّهُ هَذَا بِقِرَاءَةِ الْحَسَنِ.

ثُمَّ وَصَّى عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ ﷺ بِالثَّبُوتِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَمَرَ بِنَذَارَةِ عَشِيرَتِهِ تَخْصِيصًا لَهُمْ، إِذِ الْعَشِيرَةُ مِظَنَّةُ الْمَقَارِبَةِ وَالطَّوَاعِيَةِ، وَإِذْ يُمْكِنُهُ مَعَهُمْ مِنَ الْإِغْلَاطِ عَلَيْهِمْ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ غَيْرُهُمْ، فَإِنَّ الْبِرَّ بِهِمْ فِي مِثْلِ هَذَا الْحَمْلِ عَلَيْهِمْ، وَالْإِنْسَانُ غَيْرُ مَثْمُومٍ عَلَى عَشِيرَتِهِ، وَكَانَ هَذَا التَّخْصِيصُ مَعَ الْأَمْرِ الْعَامِ بِنَذَارَةِ الْعَالَمِ، وَرَوَى عَنْ ابْنِ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ عَشِيرَتِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ نَالَهُمْ هُمُ مِنْ هَذَا التَّخْصِيصِ وَخُرُوجِهِمْ مِنْهُ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّيْنَاكَ لِإِنِّ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، وَلَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهَذِهِ النَّذَارَةِ عَظُمَ مَوْضِعُ الْأَمْرِ عَلَيْهِ وَصَغُبَ، لَكِنَّهُ تَلَقَّاهُ بِالْجَلْدِ، وَصَنَعَ أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةً كُلُّهَا بِحَسَبِ الْأَمْرِ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَمَرَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِأَنْ يَصْنَعَ طَعَامًا، وَجَمَعَ عَلَيْهِ بَنِي جَدِّهِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَأَرَادَ نَذَارَتَهُمْ وَدَعْوَتَهُمْ فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ، فَظَهَرَ مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَرَكَةٌ فِي الطَّعَامِ، قَالَ عَلِيٌّ: وَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، يَنْقُصُونَ رَجُلًا أَوْ يَزِيدُونَهُ، فَرَمَاهُ أَبُو لَهَبٍ بِالسَّحَرِ، فَوَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَافْتَرَقَ جَمْعُهُمْ مِنْ

غَيْرِ شَيْءٍ، ثُمَّ جَمَعَهُمْ مَرَّةً ثَانِيَةً كَذَلِكَ وَأَنْذَرَهُمْ وَعَظَّمَهُمْ فَتَضَاحَكُوا وَلَمْ يَجِيبُوا، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ نَادَى عَمَّهُ الْعَبَّاسَ، وَصَفِيَّةَ عَمَّتِهِ، وَفَاطِمَةَ ابْنَتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَالَ: «لَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فِي حَدِيثٍ مَشْهُورٍ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ صَعَدَ عَلَى الصُّفَا، أَوْ أَبِي قُبَيْسٍ، وَنَادَى: يَا بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ، وَاصْبَاحَاهُ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالَ: يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، حَتَّى أَتَى عَلَى بَطُونِ قُرَيْشٍ جَمِيعًا، فَلَمَّا تَكَامَلَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ قَالَ لَهُمْ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِسَفْحِ الْجَبَلِ تَرِيدُ الْغَارَةَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟» قَالُوا: نَعَمْ، فَإِنَّا لَمْ نَجْرِبْ عَلَيْكَ كَذِبًا، فَقَالَ لَهُمْ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فَقَالَ لَهُ أَبُو لَهَبٍ لَعْنَهُ اللَّهُ: أَلْهَذَا جَمَعْتُنَا؟ تَبَا لَكَ سَائِرُ الْيَوْمِ، فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يُدَى أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ السُّورَةُ.

وَالْعَشِيرَةُ: قَرَابَةُ الرَّجُلِ، وَهِيَ فِي الرِّبَّةِ تَحْتَ الْفَخْذِ وَفَوْقَ الْعَصَبَةِ. وَ«خَفَضَ الْجَنَاحَ» اسْتِعَارَةٌ وَمَعْنَاهُ: لِيُنْ الْكَلِمَةُ وَتَسُطَّ الْوَجْهَ وَالْبِرُّ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿عَصْرُكَ﴾ عَائِدٌ عَلَى عَشِيرَتِهِ مِنْ حَيْثُ جَمَعَتْ رَجُلًا، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِاللَّتْبَرِيِّ مِنْهُمْ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مُوَادَعَةٌ نَسَخَتْهَا آيَةُ السَّيْفِ.

﴿٢١٢﴾ - ﴿٢١٣﴾ تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ:

قَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَشَيْبَةُ: ﴿فَتَوَكَّلْ﴾ بِالْفَاءِ، وَكَذَلِكَ فِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ،

والجمهور بالواو، وكذلك في سائر المصاحف، وأمره تعالى بالتوكل عليه في كل أمره، ثم جاء بالصفات التي تؤنس المتوكل، وهي العزة والرحمة المذكورتان في آخر قصص الأمم المذكورة في هذه السورة وضمنها نصر كل نبي على الكفرة، والثَّهْمُ بأمره والنظر إليه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ نَّهْمٌ﴾ عبارة عن إدراك، وظاهر الآية أنه أراد قيام الصلاة، ويحتمل أنه يريد سائر التصرفات، وهو تأويل مجاهد وقتادة، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ﴾ أي: في أهل الصلاة، أي صلاتك مع المصلين، قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وقال أيضاً مجاهد: تقلب أعينك وأبصارك في الساجدين حين تراهم من وراء ظهرك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا معنى أجنبي هنا.

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً وقتادة: أراد: تقلبك في المؤمنين، فعبر عنهم بالساجدين. وقال ابن جبير: أراد الأنبياء، أي: تقلبك كما تقلب غيرك من الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الْوَيْلِيُّنَ﴾، هنا استفهام وتوقيف تقرير، و«الْأَفْكَاءُ»: الكذاب، و«الأنيم»: الأثم، ويريد الكهنة لأنهم كانوا يثلقون من الشيطان الكلمة الواحدة التي سمعت من السماء فيخلطون معها مائة كذبة، فإذا صدقت تلك الكلمة كانت سبب ضلالة لمن سمعها. وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ - يعني الشياطين، ومقتضى ذلك أن الشيطان المسترق

أيضاً كان يكذب إلى ما سمع، هذا في الأكثر، ويحتمل الضمير في ﴿يَقُولُونَ﴾ - أي يكذبون - الكهنة. ولما ذكر الكهنة بإفكهم وكذبهم الذي يقتضي نفي كلامهم عن كلام الله تعالى عَقَّبَ ذلك بذكر الشعراء وحالهم لِيَنْبُتَ على بُغْد كلامهم من كلام الله تعالى في القرآن، إذ قال في القرآن بعض الكفرة: إنه شعر، وهذه الكناية عن شعر الجاهلية، حكى النقاش عن السدي أنها في ابن الزبيري، وأبي سفيان بن الحرث، وهبيرة بن أبي وهب، ومسافع الجمحي، وأبي عزة، وأمّية بن أبي الصلت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الأولان ممن تاب وأمن رضي الله عنهما، ويدخل في الآية كل شاعر مخلط يهجو أو يمدح شهوة، ويقذف المحصنات، ويقول الزور.

وقرأ نافع: ﴿يَنْبَغُهُمْ﴾ بسكون التاء وفتح الباء، وهي قراءة أبي عبد الله، والحسن - بخلاف عنه - وقرأ الباقون بشد التاء وكسر الباء.

واختلف الناس في قوله: ﴿الْفَاوِنَ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الزوارة، وقال أيضاً: هم المستحسنون لأشعارهم، المصاحبون لهم، وقال عكرمة: هم الرعاع الذين يتبعون الشاعر، وهذا أرجح الأقوال. وقال مجاهد وقتادة: ﴿الْفَاوِنَ»: الشياطين، وقوله تعالى: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهْمُونَ﴾ عبارة عن تخليطهم وخوضهم في كل فن من غث الكلام وباطله، وتحسينهم القبيح وتقييحهم الحسن، قاله ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ذكر لتعاطيهم وتعتمقهم في مجاز الكلام حتى يؤول إلى الكذب، ولكن في هذا اللفظ عذر لبعضهم أحياناً، فإنه يُرَوَى أن النعمان بن عدي لما ولّاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ميسان، وقال لزوجته الشعر المشهور عَزَلَهُ عمر رضي الله عنه، فاخْتَجَّ عليه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فدرأ عنه عمر رضي الله عنه الحد في الخمر. وروى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ مَشَى سَبْعَ خطوات في شعر كُتِبَ مِنَ الْغَاوِينَ»، ذكره أسد بن موسى، وذكره النقاش.

﴿٢٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا الاستثناء هو في شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وكل من اتصف بهذه الصفة، وروي عن عطاء بن يسار أن هؤلاء شئ عليهم ما ذكر قبل في الشعر، وذكروا ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية للاستثناء في الشعر.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرُوا لِلنَّبِيِّ كِبَارًا﴾ يحتمل أن يريد: في أشعارهم، وهو تأويل ابن زيد، ويحتمل أن يريد: ذلك خُلِقَ لهم وعادة وعبادة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا كما قال لبيد حين طلب منه شعر: «إن الله أبدلني بالشعر القرآن خيراً منه»، وكل شاعر في الإسلام يهجو أو يمدح عن غير حق، ويقذف ولا يرتدع عن قول دنيء، فهو داخل في هذه الآية، وكل تقي منهم يكثر من الذكر، ويُمسك عن كل ما يعاب فهو داخل في الاستثناء، وقوله: ﴿وَأَنصُرُوا﴾ إشارة إلى ما قالوه من

نفوسهم، ومع ذلك اكتسابهم وحرصهم على كفرهم، وهذا على أن تكون الأعمال المُرْتَبَة كفرهم وطغيانهم، ويحتمل أن الأعمال المُرْتَبَة هي الشريعة التي كان الواجب أن تكون أعمالهم، فأخبر الله تبارك وتعالى على جهة الذكر أنه بفضلهم ورحمته زَيْن الدِّين وَبَيَّنَّه، ورسم الأعمال والتوحيد، لكن هؤلاء ﴿يَعْرِضُونَ﴾، أي: يُعْرِضُونَ، «وَالْعَمَّة»: الحيرة والتردد في الضلالة. ثم توعدهم تعالى بسوء العذاب، فمن ناله شيء منه في الدنيا نفى عنه عذاب الآخرة، ومن لم ينله عذاب في الدنيا كان سوء عذابه في موته وفيما بعده، و﴿الْأَخْسَرُونَ﴾: جمع أخسر؛ لأن (أفعل) صفة، لا يجمع إلا أن يضاف فتقوى رتبته في الأسماء، وفي هذا نظر.

١ - ٢ - ﴿تَلْقَى﴾ تَقْلُق، مضاعف، ومعناه: تعطى، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا دُوْرٌ حَظٌّ عَظِيمٌ﴾، قال الحسن: المعنى: إنك لتقبل القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا شك أنه يفيض عليه فضل الله تعالى فيقبله ﷻ، وهذه الآية ردٌ على كفار قريش في قولهم: إن القرآن من تلقاء محمد بن عبدالله، و﴿وَمِنْ لَدُنْ﴾ معناه: من عنده ومن جهته. و«الْحَكِيمُ»: ذو الحكمة في معرفته حيث يجعل رسالاته، وفي غير ذلك، لا إله إلا هو.

ثم قصَّ تعالى خبر موسى، والتقدير: اذكر إذ قال موسى، وكان من أمر موسى عليه السلام أنه حين

هنا، وعلى القول بأنها حروف من أسماء الله تبارك وتعالى فالأسماء هنا: لطيف وسميع، وكونها إشارة إلى نوع حروف المعجم أبين الأقوال، وعطف ﴿يَكْتُبُ﴾ على ﴿الْقُرْآنُ﴾ هما لِمُسْمَى واحد من حيث هما صفتان لمعنيين، فالقرآن لأن اجتمع، والكتاب لأنه كُتِبَ، وقرأ ابن أبي عيلة: ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ بالرفع، وقوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾ يحتمل أن يكون في موضع نصب على

المصدر، ويحتمل أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداءٍ مضمر، تقديره: ذلك هدى وبشر.

ثم وصف تعالى المؤمنين بالأوصاف الخليفة بهم، وإقامة الصلاة: إدامتها على وجهها، و﴿الزَّكَاةُ﴾ هنا يحتمل أن تكون غير المفروضة لأن السورة مكية قديمة، ويحتمل أن تكون المفروضة من غير تفسير، وقيل: ﴿الزَّكَاةُ﴾ هنا بمعنى الطهارة من النقائص وملزمة مكارم الأخلاق، وتكرار الضمير في قوله: ﴿وَمِنْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ للتأكيد.

ثم ذكر تعالى الكفرة الذين لا يؤمنون بالبعث، والإشارة إلى قريش، وقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَفْئَالَهُمْ﴾ يحتمل أنه تعالى حتم عليهم الكفر، وحُبَّ إليهم الشُّرك، وزَيَّنَّه بأن خلقه واختصره في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ يَكْ ءَايَتْ الْقُرْآنَ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ١ هُدًى وَبُشْرَى ٢ لِلْمُؤْمِنِينَ ٣ الَّذِينَ يَصُومُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَفْئَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ٦ وَلَٰكِنَّا لَنَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٧ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِرَتِيكُمْ مِنْهَا خَبِيرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ فَمِيسَ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٨ فَلَمَّا جَاءَهُ نَارُ دُورَى أَنْ يُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٩ يَتُوسَعُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٠ وَأَنَّى عُصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى مُعَقِّبٌ يَتُوسَعُ لَاحِفٌ إِنِّي لَآخِفٌ لَدَى الْمَرْسَلُونَ ١١ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ ١٢ وَأَنزَلْنَا بِكَ فِي بَيْتِكَ نَجْجَ بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سَبْعِ آيَاتٍ إِلَى عِزِّهِمْ وَفُورِهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتَقِينَ ١٣ فَنَامَا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً فَلَوْ أَنَّهُذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ١٤

٣٧٧

الشعر وغيره في قريش، قال قتادة: وانتصروا بمثل ما ظلموا.

وباقى الآية وعيدٌ للظلمة كفار مكة، وتهديدٌ لهم، وعَمِلَ ﴿يَنْفَلِتُونَ﴾ في ﴿أَنَّى﴾ لتأخره، والحوّل والقوة لله عزَّ وجلَّ، والله تبارك وتعالى أعلم.

ثم بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة الشعراء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تفسير سورة النمل

١ - ٢ - تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

تقدم القول في الحروف المقطعة في كل الشُّرر، وكل ما قيل مترتب

خرج بزوجه بنت شعيب عليهما السلام يريد مصر - وقد قرب وقت نبوته - مشوا في ليلة ظلماء ذات برد ومطر، ففقدوا النار ومشمهم البرد واشتدت عليهم الظلمة وضلوا الطريق، وأضلّد زناد موسى عليه السلام، فبينما هو في هذه الحال إذ رأى ناراً على بُعد. ﴿وَأَسْتَشْ﴾ معناه: رأيْتُ، ومنه قول حسان بن ثابت:

انْظُرْ خَلِيلِي بِبَابِ جَلَّقَ هَلْ
تُؤَيِّسُ دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدٍ؟
فلما رأى موسى ذلك قال لأهله ما في الآية، ومشى نحوها، فلما دنا منها بعدت هي منه، وكان ذلك نوراً من نور الله عز وجل، ولم يكن ناراً في نفسه، لكن ظنه موسى ناراً، فناداه الله تبارك وتعالى عند ذلك، وسمع موسى عليه السلام النداء من جهة الشجرة، وأسمعه الله تعالى كلامه. ﴿وَالْخَبِيرُ﴾ الذي رجاه موسى عليه السلام هو الإعلام بالطريق. وقوله: ﴿يُشَاهِدُ قَبَسٍ﴾، شبه النار التي توجد في طرف عود أو غيره بالشهاب، ثم خصّصه بأنه مما اقتبس؛ إذ الشهب قد تكون من غير اقتباس، والقبس اسم لقطعة النار تُقْتَبَسُ في عود أو غيره، كما أن القبض اسم ما يُقْبَضُ، ومنه قول أبي زيد:

فِي كَفِّهِ صَغْدَةٌ مُتَقَفَّةٌ
فِيهَا سِنَانٌ كَشَغَلَةِ الْقَبَسِ
وقول الآخر:

مَنْ شَاءَ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ اسْتَقْبَسَا
وأصل الشهاب الكوكب المنقض

في أثر مُسْتَرْقِ السمع، وكل ما يقال له شهاب من النيران فعلى التشبيه، وقال الزجاج: كل أبيض ذي نور فهو شهاب، وكلامه مُعْتَرِضٌ، والقبس يحتمل أن يكون اسماً غير صفة أضاف إليه بمعنى: بشهاب أقتبسه أو اقتبسته، وعلى كونه صفة يكون ذلك كإضافة الدار إلى الآخرة، والصلاة إلى الأولى، وغير ذلك. وقرأ الجمهور بإضافة ﴿شِهَابٍ﴾ إلى ﴿قَبَسٍ﴾، وهي قراءة الحسن وأهل المدينة ومكة والشام. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿يُشَاهِدُ قَبَسَيْنِ﴾ بتثوين ﴿يُشَاهِدُ﴾، وهذا على الصفة، ويجوز أن تكون الصفة مصدر: قَبَسٌ يَقْبِسُ، كما أن الحَلَبَ مصدر: حَلَبٌ يَحْلَبُ، وقال أبو الحسن: الإضافة أجود وأكثر في القراءة، كما تقول: دارٌ أَجَزُ وسوارٌ ذهب، حكاها أبو علي. ﴿وَتَضَطَّلُونَ﴾ معناه: تستدفئون من البرد.

والضمير في ﴿جَاءَهَا﴾ للنار التي رآها موسى عليه السلام، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَنْ بُرِكَ﴾ يحتمل أن تكون ﴿أَنْ﴾ مُفَسَّرَةٌ، ويحتمل أن تكون في موضع نصب على تقدير: بأن بُورِكَ، ويحتمل أن تكون في موضع رفع على تقدير: «نُودِيَ أَنَّهُ»، قال الزجاج. وقوله: ﴿بُورِكَ﴾ معناه: قُدِّسَ وضوعف خيره ونُفِيَ، والبركة مختصة بالخير، ومن هذا قول أبي طالب بن عبدالمطلب:

بُورِكَ المَيْتُ الْغَرِيبُ كَمَا بُورِكَ
رَكَ نَبْعُ الرُّمَّانِ وَالزَّيْتُونِ

و «بَارَكَ» مُتَعَدٌ بغير حرف، تقول العرب: بَارَكَكَ الله.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ اضطرب المتأولون فيه - فقال ابن عباس، وابن جبير، والحسن، وغيرهم: أراد عز وجل نفسه، وعبر بعضهم في هذا القول عبارات مردودة شنيعة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد النور. وقال الحسن، وابن عباس: أراد به ﴿وَمَنْ حَوَّلَهَا﴾ الملائكة وموسى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فأما قول الحسن وغيره فإنما يتخرج على حذف مضاف، بمعنى: بُورِكَ مَنْ قُدِّرَتْهُ وسلطانه في النار، والمعنى: في النار على ظنك وما حسبت، وأما القول بأن ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ النور، فهذا على أن يُعْبَرُ عن النور من حيث كان أنه من نور الله تعالى، ويحتمل أن يكون من الملائكة؛ لأن ذلك النور الذي حسبه موسى ناراً لم يخل من ملائكة، و﴿وَمَنْ حَوَّلَهَا﴾ يكون موسى والملائكة المطيعين به. وقرأ ابن أبي كعب: ﴿بُورَكَتِ النَّارُ﴾، و﴿وَمَنْ حَوَّلَهَا﴾ يكون موسى والملائكة، كذا حكى، أبو حاتم، وحكى ابن مكى أنه قرأ: ﴿تَبَارَكَتِ النَّارُ وَمَنْ حَوَّلَهَا﴾، وحكى الداني أبو عمرو أنه قرأ: ﴿وَمَنْ حَوَّلَهَا مِنْ﴾ الملائكة، قال: وكذلك قرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ يحتمل أن يكون مما قيل في النداء لموسى عليه السلام، ويحتمل أن يكون خطاباً لمحمد ﷺ اعتراضاً

بين الكلامين، والمقصد به - على كلا الوجهين - تنزيه الله عز وجل ممّا عسى أن يخطر ببال في معنى النداء في الشجرة، وكون قدرته وسلطانه في الثّار، وعُود [مَنْ] عليه، أي: هو مُثَرَّه - في جميع هذه الحالات - عن التشبيه والتكليف، قال الثعلبي: وإنما الأمر - كما روي في التوراة -: «جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران»، المعنى: ظهرت أوامره بأنبيائه في هذه الحالات. والضمير في ﴿إِنَّ﴾ للأمر والشأن، قال الطبري: ورُسميها أهل الكوفة المجهولة، آنس الله تعالى بصفاته من العزّة التي لا خوف معها، والحكمة، أي: لا نقص في أفعاله. ﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمره الله تعالى بهذين الأمرين تدريباً له في استعمالهما، وفي الكلام حذف تقديره: «فألقي موسى العصا»، «فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ»، وأمال ﴿رَأَاهَا﴾ بعض القراء، و«الجآن»: الحيات؛ لأنها تخفي أنفسها، أي تسترّها، وقالت فرقة: «الجآن»: صغار الحيات، وعصا موسى عليه السلام صارت حيّة ثعباناً وهو العظيم، وإنما شبهت بالجآن في سرعة الاضطراب؛ لأن الصغار أكثر حركة من الكبار، وعلى كل قول فإن الله تبارك وتعالى خلق في العصا وغير أوصافها وأعراضها فصارت حيّة. وقرأ الزهري، وعمر بن عبد العزيز: «جآن» بالهمز.

فلما أبصر موسى عليه السلام هو ذلك المنظر ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى مُقَبِّبًا﴾،

قال مجاهد: لم يرجع، وقال قتادة: ولم يلتفت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعقب الرجل: إذا ولّى عن أمر ثم صرف بدنه أو وجهه إليه كأنه انصرف على عقبه، وناداه الله مؤنساً ومثوّياً على الأمر: ﴿يُؤْمِنُ لَا تَحْزَنُ﴾ فإن رسل الذين اصطفيتهم للنبوّة لا يخافون عندي ومعى، فأخذ موسى عليه السلام الحيّة فرجعت عصاه، ثم صارت له عادة.

واختلف الناس في الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ - فقال مقاتل وغيره: الاستثناء متصل، وهو من الأنبياء، وروى الحسن أن الله تعالى قال لموسى: أخفكتك لقنلك النفس، وقال الحسن أيضاً: «كانت الأنبياء تذنّب فتعاقب، ثم تذنّب - والله - فتعاقب، فكيف بنا؟»، وقال ابن جريج: لا يخيف الله تعالى الأنبياء إلا بذنب يصيبه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يأخذه منه، قال كثير من العلماء: لم يعرف أحد من البشر لهم من ذنب إلا ما روي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأجمع العلماء أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي هي رذائل، واختلف فيما عدا هذا، فعسى أن يشير الحسن وابن جريج إلى ما عدا ذلك.

وفي الآية - على هذا التأويل - حذف اقتضى الإيجاز والفصاحة ترك نصّه، تقديره: «فمن ظلم ثم بدّل حسناً بعد سوء»، وقال الفراء

وجماعة: الاستثناء منقطع، وهو إخبار عن غير الأنبياء، كأنه قال: من ظلم من الناس ثم تاب فإني غفور رحيم، وقالت فرقة: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى الواو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول لا وجه له. وقرأ أبو جعفر بن الققاع، وزيد بن أسلم: ﴿أَلَا مَنْ ظَلَمَ﴾ على الاستفتاح. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا﴾ معناه: عملاً صالحاً مقترناً بتوبة، وهذه الآية تقتضي حتم المغفرة للتائب، وأجمع الناس على ذلك في التوبة من الشرك، وأهل السنة في التائب من المعاصي، على أنه في المشيئة كالمُصِرّ، لكن يغلب الرجاء على التائب والخوف على المُصِرّ، وقوله تعالى: ﴿وَيَنْتَهِزُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ عمت الجميع من التائب والمُصِرّ، ولا فرق بين المشرك وغيره؛ لأنه يذهب فائدته، إذ الشرك يُغفر للتائب، وما دونه كذلك على تأويلهم، فما فائدة التفصيل في الآية، وهذا الاحتجاج لازم فتأمل، وروي عن أبي عمرو أنه قرأ: ﴿حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ بفتح الحاء والسين، وهي قراءة مجاهد، وابن أبي ليلى، وقرأ محمد بن علي الأصبهاني: ﴿حُسْنًا﴾ مثل فُعلَى.

ثم أمر الله تعالى موسى عليه السلام بأن يدخل يده في جيب جبهته لأنها لم يكن لها كمّ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وقال مجاهد: مذرعة صوف إلى بعض يده، و«الجيب»: الفتح في الثوب لرأس الإنسان، وروي أن يد موسى

وَمَحْدُوا بِهَا وَاسْتَقْنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا
وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾
وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلِّمْنَا مِطْقَ الطَّيْرِ
وَأَوْثِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ وَخُشِرَ
لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٦﴾
حَتَّى إِذَا اتَّوَعَلَ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّسْلُ أَنْخَلُوا
مَسْكَنَكُمْ لَا يَحْطِئُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾
فَلْيَسِّرْ صَاحِبُكُمْ قَوْلَهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَادِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
تَرْضَاهُ وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٨﴾
وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ هَذَا كَانَ مِنْ
أَلْفِ سَائِرٍ ﴿١٩﴾ لَا أُعَذِّبُهُ عَذَابًا شَدِيدًا أُولَئِكَ أَزْجَحُهُ
أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾ فَصَكَكَ غَيْرُ بَعِيذٍ فَقَالَ
أَحْطَيْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَخَشِيتُكَ مِنْ سَيِّئَاتِكَ يَتْلُو قُرْآنًا ﴿٢١﴾

٣٧٨

وإن عورض هذا المثال
فُرض إنسان يجوز ذلك
فيه. وقالت فرقة: لا
يصح لوجهين: أحدهما
أن هذا لا يجوز وقوعه
من عاقل، والوجه الآخر
أن المعرفة تقتضي أن
يحل في القلب، وذلك
إيمان، وحكم الكافر لا
يلحقه إلا بأن يحل في
القلب كفر، ولا يصح
اجتماع الضدين في محل،
قالوا: ويشبه في هذا
العارف الجاحد أن يسلب
عنف الموافاة تلك المعرفة
ويحل بدلها الكفر.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: والذي يظهر عندي في
هذه الآية وما جرى مجراها أن
هؤلاء الكفرة إذا نظروا في آيات
موسى أعطتهم قولهم: إن هذا
ليست تحت قدرة بشر، وحصل
لهم اليقين أنها من عند الله تعالى،
فيغلبهم أثناء ذلك الحسد،
وتمسكون بالظنون في أنها سحر
وغير ذلك حتى يسلب ذلك اليقين أو
يدفع، وحكمه حكم المستلب في
وجوب عذابهم.

و «ظُلُمًا» معناه: على غير
استحقاق للجحد، و «عُلُوًّا» في
الأرض أعظم آفة على طالبه،
قال الله تعالى: «لَئِنْ أَكْذَرُ الْآخِرَةُ
جَعَلْنَاهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ
وَلَا فَسَادًا». ثم عَجَبَهُ تعالى من عاقبة
المفسدين قوم فرعون، وسوء
مقلبهم حين كذبوا موسى، وفي هذا

عليه السلام كانت تخرج كأنها قطعة
نور يتلألأ، ومعنى إدخال اليد في
الجيب ضم الآية إلى موسى،
وإظهار تلبسها به؛ لأن المعجزات
من شروطها أن يكون لها اتصال
بالرائي، وقوله تعالى: «يَنْ عَبْرَ
سَوْءٍ أَي: من غير برص ولا علة،
وإنما هي آية تجيء وتذهب، وقوله:
«فِي يَتَجَعَّلُ» متصل بقوله: «أَلَيْ»
و «وَأَذْخُلُ» وفيه اقتضاب وحذف،
تقديره: تمهد وتيسر لك ذلك في
جملة تسع آيات، وهي: العصا،
واليد البيضاء، والطوفان، والجراد،
والقمل، والصفاد، والدم،
والطمس، والحجر، وفي هذين
الآخرين اختلاف، والمعنى: يجيء
بهن إلى فرعون وقومه.

﴿١٣﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
الضمير في قوله تعالى: «جَاءَتْهُمْ»
لفرعون وقومه، و «مُبِيرَةً» معناه:
معها الإبصار والوضوح، وعلى هذا
نحو قولهم: نهأ صائم، وليل قائم
ونائم. وقرأ قتادة والحسن:
«مُبْصَرَةً» بفتح الميم والصاد.

وظاهر قوله تعالى: «وَمَحْدُوا بِهَا
رَأْسَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا» حصول
الكفر عناداً، وهي مسألة فيها
قولان: هل يجوز أن يقع أم لا؟
فجوزت ذلك فرقة وقالت: يجوز أن
يكون الرجل عارفاً إلا أنه يجحد
عناداً ويموت على معرفته وجحوده،
فهو بذلك في حكم الكافر المخلد،
قالوا: وهذا حكم إبليس، وحكم
حيي بن أخطب وأخيه حسب ما
رؤي عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

تمثيل لكفار قريش إذ كانوا مفسدين
مستغلين. وقرأ ابن وثاب، وطلحة،
والأعمش: «وَعَلِيًّا»، وحكى أبو
عمرو الداني عنهم وعن أبان بن
ثعلب أنهم كسروا العين من
«عليًا».

﴿١٣﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء قصص فيه غيوب وعبر،
وليس بمثال لقريش، وداود عليه
السلام من بني إسرائيل وكان ملكاً.
ورث سليمان عليه السلام ملكه
ومنزله من النبوة، بمعنى: صار
ذلك إليه بعد موت أبيه، ويُسمى
ميراثاً تجوزاً، وهذا نحو قولهم:
«العلماء ورثة الأنبياء»، وحقيقة
الميراث في المال، والأنبياء لا
تورث أموالهم؛ لأن النبي ﷺ قال:
«إِنَّا مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ»، يريد به
أن ذلك من فعل الأنبياء عليهم

السلام وسيرتهم، وإن كان فيهم من ورث ماله كزكريا عليه السلام على أشهر الأقوال فيه، وهذا كما تقول: «إِنَّا مَعشَرُ الْمُسْلِمِينَ إِنَّمَا شَغَلَنَا الْعِبَادَةُ»، فالمراد أن ذلك فعل الأكثر، ومنه ما حكى سيبويه: «إِنَّا مَعشَرُ الْعَرَبِ أَقْرَى النَّاسِ لِلضَّيْفِ».

وقوله تعالى: ﴿عُلِمْنَا مَقَاطِعَ الْطَيْرِ﴾ إخبارٌ بنعمة الله تبارك وتعالى عندهما في أن فهمهما من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها، فهذا نحو ما كان نبينا محمد ﷺ يسمع أصوات الحجارة بالسلام، وسليمان عليه السلام حكى عن البلبل أنه قال: «أَكَلْتُ نِصْفَ تَمْرَةٍ فَعَلَى الدُّنْيَا الْعَفَاءُ»، إلى كثير من هذا النوع، وقال قتادة والشعبي وغيرهما: إنما كان هذا الأمر في الطير خاصة، والنملة طائر إذ قد يوجد لها الأجنحة، قال الشعبي: وكذلك كانت هذه القائلة ذات جناحين، وقالت فرقة: بل كان في جميع الحيوان، وإنما ذكر الطير لأنه كان جنداً من جنود سليمان عليه السلام يحجب عنه الشمس، ويحتاجه في البعث في الأمور، فخصّ لكثرة مداخلته، ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متردد ترداد أمر الطير، والنمل حيوان فطن قوي شمام جداً، يدّخر ويتخذ القري، ويشق الحب بقطعتين لثلا ينبت، ويشق الكزبرة بأربع قطع لأنها تنبت إذا قسمت نصفين، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي سائرته مدة.

وقوله تعالى: ﴿رَأَوْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ معناه: يصلح لنا ونتمناه، وليست

على العموم، ثم ردّد شكر الله تبارك وتعالى.

ثم قصّ تعالى حال سليمان فقال: ﴿وَحَيْثُ رِشْكَيْنِ﴾ أي: جُمِع، واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام اختلافاً شديداً لم أرّد ذكره لعدم صحته، غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيماً ملاً الأرض، وانقادت له المعمورة كلها، وكان كرسيه يحمله أجناده من الجن والإنس، وكانت الطير تظله من الشمس، ويبعثها في الأمور، فكان له في الكرسي الأعظم موضع يخصه. و﴿يُؤْتُونَ﴾ معناه: يُرَدُّ أولهم على آخرهم ويكفون، قال قتادة: فكان لكل صنف وزعة في رتبته ومواضعهم من الكرسي ومن الأرض إذا مشوا فيها، - فربّ وقت كان يسير فيه في الأرض، - ومنه قول الحسن البصري حين ولي قضاء البصرة: «لَا بُدَّ لِلْحَاكِمِ مِنْ وَرْعَةٍ»، ومنه قول أبي قحافة حين وصفت له الجارية في يوم الفتح أنها ترى سواداً أمامه فارس قد تقدم من الضّف، فقال لها: ذاك الوازع، ومنه قول الشاعر:

عَلَى حِينٍ عَاتَبْتَ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا
وَقُلْتُ أَلَمَّا أَضْحُ وَالشَّيْبُ زَانِعٌ؟
أي: كاف.

٨ - ٩ تفسير قوله عز وجل: ظاهر هذه الآية أن سليمان عليه السلام وجنوده كانوا مشاة في الأرض، ولذلك يتفق حطم النمل [بنزولهم في وادي النمل]، ويحتمل أنهم كانوا في الكرسي المحمول بالريح وأحسّت النمل بنزولهم في

وادي النمل لروادي النمل قيل: بالشام، وقيل بأقصى اليمن، وهو معروف عند العرب مذكور في أشعارها.

وأمال أبو عمرو الواو من ﴿وَادِي﴾، والجميع فحُم، والإمالة قراءة ابن أبي إسحق، وقرأ المعتمر بن سليمان عن أبيه: ﴿الْثَمَلُ﴾ بضم الميم كالشمس، و﴿قَالَتْ ثَمَلَةٌ﴾ أيضاً بالضم كسمرة، وزوي عنه أيضاً ضم النون والميم من [النمل]، قال نَوْفُ الْبِكَالِي: كان ذلك النمل على قدر الذباب، وقالت فرقة: بل كانت صغاراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يقال في هذا أن النمل كانت نسبتها من هذا الخلق نسبة هذا النمل مثلاً، فيحتمل أن كان الخلق كله أكمل، وهذه النملة قالت هذا المعنى - الذي لا يصلح له إلا هذه العبارة - قولاً فهمه عنها النمل، فسمعه سليمان عليه السلام على بَعْدِهِ، وجاءت المخاطبة كمن يعقل لأنها أمرتهم بما يؤمر به من يعقل، وروي أنه كان على ثلاثة أميال فَنَبَسَ من قولها، والثَبَسَ ضحك الأنبياء في غالب أمرهم، لا يليق بهم سواه، وكان ضحكه سروراً، واخْتَلَفَ بِم؟ فقالت فرقة: بنعمة الله تبارك وتعالى في إسماعه وتفهمه ونحو ذلك، وقالت فرقة: بَنِيَّ النملة عليه وعلى جنوده في أن نَفَت عنهم تعمّد القبيح من الفعل، فجعلت الحطم وهم لا يشعرون.

وقرأ شهر بن حوشب: ﴿مَسَكْتَكُمْ﴾ بسكون السين على

الشمس دخلت على
المَلِك من موضع الهدهد
حين غاب، فكان ذلك
سبب تفقد الطير لبيتين من
أين دخلت الشمس، وقال
عبدالله بن سلام: إنما
طلب الهدهد لأنه احتاج
إلى معرفة الماء على كم
هو من وجه الأرض؛ لأنه
كان نزل في مفازة حرم
فيها الماء، ولأن الهدهد
كان يرى بطن الأرض
وظاهرها، كانت تشف
له، فكان يخبر سليمان
عليه السلام بموضع
الماء، ثم كانت الجن
تخرجه في ساعة يسيرة،

تسلخ عنه وجه الأرض كما تسلخ
الشاة، قاله ابن عباس
رضي الله عنهما فيما روى عنه ابن
سلام وغيره، وقال في كتاب
النقاش: كان الهدهد مهندساً،
وَزُوي أن نافع بن الأزرق سمع ابن
عباس رضي الله عنهما يقول هذا،
فقال له: قف يا وقاف، كيف يرى
الهدهد بطن الأرض وهو لا يرى
الفخ حين يقع فيه؟ فقال له ابن
عباس رضي الله عنهما: إذا جاء
القضاء عمي البصر، وقال وهب بن
منبه: كانت الطير تتاب سليمان عليه
السلام كل يوم، من كل نوع واحد
نوبة معهودة، فتفقد الهدهد.

وقوله تعالى: ﴿مَالِكٌ لَا أَرَى﴾ إنما
المقصود أن الهدهد غاب، لكنه أخذ
اللازم عن غيابه وهو ألا يراه،
فاستفهم - على جهة التوقيف - عن

الإفراد، وفي مصحف أبي
رضي الله عنه ﴿مَسَاكِنُكُمْ﴾. وقرأ
جمهور القراء: ﴿لَا يَخْطُمَنَّكُمْ﴾ بشد
النون وسكون الحاء، وقرأ أبو عمرو
في رواية عبيدة: ﴿لَا يَخْطُمَنَّكُمْ﴾
بسكون النون، وهي قراءة ابن أبي
إسحق، وقرأ الحسن، وأبو رجاء:
﴿لَا يَخْطُمَنَّكُمْ﴾ بضم الياء وفتح
الحاء وكسر الطاء وشدها وشد
النون، وعنه أيضاً ﴿لَا يَخْطُمَنَّكُمْ﴾
بفتح الياء وكسر الحاء والطاء
وشدها، وقرأ الأعمش وطلحة: ﴿لَا
يَخْطُمَنَّكُمْ﴾ مخففة بغير نون، وفي
مصحف أبي بن كعب: ﴿لَا
يَخْطُمَنَّكُمْ﴾ مخففة النون التي قبل
الكاف.

و ﴿ضَاحِكًا﴾ نصب على الحال،
وقرأ محمد بن السمين: ﴿ضَاحِكًا﴾، وهو نصب على
المصدر [بفعل محذوف يدل عليه
[تَبَسَّمَ]، كأنه قال: ﴿ضَاحِكٌ
ضَاحِكًا﴾، وهذا مذهب صاحب
الكتاب، أو يكون منصوباً بنفس
[تَبَسَّمَ] لأنه في معنى (ضحك)].

ثم دعا سليمان - عليه السلام - ربه
في أن يعينه الله تعالى ويفرغه لشكر
نعمته، وهذا هو معنى إيزاع الشكر.

وباقى الآية بين.
﴿٢٠﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:
اختلف الناس في معنى «تَفَقَّدَهُ
الطير» - فقالت فرقة: ذلك بحسب
ما تقتضيه العناية بأمر المَلِك
والتهم بكل جزء منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وظاهر الآية أنه تفقد جميع الطير،
وقالت فرقة: بل تفقد الطير لأن

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٠﴾ وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْحَبَّ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٣﴾ قَالَ سَتُنظرُ
أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٤﴾ أَذْهَبَ يَكْنِي هَذَا
قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا
الْمَلَأُ إِلَى إِلَهِي الرَّكْبُ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ إِنَّهُ مِنْ شَيْئِنَ وَإِنَّهُ يُبْشِرُ
اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ﴿٢٧﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَنُورِي سُلَيْمِينَ ﴿٢٨﴾
قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفُنِي فِي أُمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى
تَشْهَدُونَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا لَنْ نَمُرَّ بِكُمْ وَأَنْتُمْ أَبْأَسُ مِنْ دُونِ الْأَمْرِ لَكُمْ
فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آوَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣١﴾
وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدْيٍ فَأَنْظِرُوهُمْ يَوْمَ يُرْسِلُ الرُّسُلُ إِلَى
أَعْيُنِهِمْ فَاصْبِرُوا حَسْبَ عِندِ اللَّهِ الْقَدِيرُ ﴿٣٢﴾

اللازم، وهذا ضرب من الإيجاز،
والاستفهام الذي في قوله ﴿مَا لِي﴾
ناب مناب الألف التي تحتاجها
[أَمْ]. ثم توعد عليه السلام
بالعذاب، وروي عن ابن عباس
ومجاهد وابن جريج أن تعذبه للطير
كان بأن ينتف ريشه أجمع، وقال
يزيد بن رومان: جناحه، وزوي عن
وهب أنه بأن ينتف بعضه ويبقى
بعضه. و«السُّلْطَانُ»: الحُجَّة حيث
وقع في القرآن، قاله عكرمة عن ابن
عباس، وقرأ عكرمة وحده:
﴿لَيَأْتِيَنِي﴾ بنونين، وفعل سليمان
عليه السلام هذا بالهدهد وحده
غلاظاً على العاصين، وعلى إخلاله
بنوّه ورتبه.

وقرأ جمهور القراء: ﴿فَمَكَّنْتُ﴾
بضم الكاف، وقرأ عاصم وحده:
﴿فَمَكَّنْتُ﴾ بفتحها، ومعناه - في

القراءتين -: أقام، والفتح في الكاف أحسن؛ لأنها لغة القرآن في قوله: ﴿مَكِّيَّيْنَ﴾؛ إذ هو من (مَكَّتْ) بفتح الكاف، ولو كان من (مَكَّتْ) بضم الكاف لكان جُمِيع (مَكِّيَّيْتُ)، والضمير في مكث يحتمل أن يكون لسليمان عليه السلام أو الهدهد، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿فَتَمَكَّتْ ثُمَّ جَاءَ فَسَالَ﴾، وفي قراءة أبي: ﴿فَتَمَكَّتْ ثُمَّ قَالَ أَحَطْتُ﴾. وقوله: ﴿عَزَّيَّيْبٍ﴾ كما في مصاحف الجمهور يريد به الزمن والمدة، وقوله: ﴿أَحَطْتُ﴾ أي: علمت علماً تاماً ليس في علمك.

واختلفت القراءة في [سَبَلٍ] - فقرأ الجمهور: ﴿سَبَلٍ﴾ بالصرف، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿سَبَأً﴾ بفتح الهمزة وترك الصرف، وقرأ الأعمش: ﴿مِنْ سَبَلٍ﴾ بالكسر وترك الصرف، وروى ابن حبيب عن اليزيدي ﴿سَبَأً﴾ بالألف ساكنة، وقرأ قنبل - عن النبال - بسكون الهمزة، فالأولى على أنه اسم رجل، وعليه قول الشاعر:

السَّوَادُونَ وَتَنِيمَ فِي دُرَى سَبَلٍ
قَدْ عَضَّ أَغْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ
وقال آخر:

مِنْ سَبَأٍ الْحَاضِرِينَ مُأْرِبٍ

وهذا على أنها قبيلة، والثانية على أنها اسم بلدة، قاله الحسن وقتادة، وكلا القولين قد قيل، ولكن روي عن رسول الله ﷺ من حديث فروة بن مسيك وغيره أنه ولد له عشرة من الولد تيامن منهم ستة وتسام أربعة، وحكي هذا الحديث

على الزجاج فخط عشواء، والثالثة على البناء، والرابعة والخامسة لتوالي الحركات السبع فسكن تخفيفاً للتخفيف في توالي الحركات، وهذه القراءة لا تبنى على الأولى، بل هي إما على الثانية أو الثالثة. وقرأت فرقة دون تنوين على الإضافة، وقرأت فرقة: ﴿بَنِيَّ﴾ بالألف مقصورة.

وقوله: ﴿وَأَوْرَثْتَ مِنْ كُلِّ نَحْوٍ﴾ مبالغة، أي: مما تحتاجه المملكة، قال الحسن: من كل أمر الدنيا، ووصف عرشها بالعظم في الهيئة ورتبة السلطان، وروي عن نافع الوقف على ﴿عَرْشٍ﴾، فـ ﴿عَظِيمٍ﴾ - على هذا - متعلق بما بعده، وهذه المرأة هي بلقيس بنت شراحيل فيما قال بعضهم: وقيل: بنت القشعر، وقيل: كانت أمها جثية، وأكثر بعض الناس في قصصها بما رأيت اختصاره لعدم صحته، وإنما اللازم من الآية أنها مختصة بامرأة ملكت على مدائن اليمن، وكانت ذات مُلْكٍ عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار.

٢٤ - تفسير قوله عز وجل: كانت هذه الأمة أمة تعبد الشمس؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما روي، وقيل: كانوا مجوساً يعبدون الأنوار، وقوله: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ إلى قوله: ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ظاهر أنه من قول الهدهد، وهو قول ابن زيد وابن إسحق، ويعترض بأنه غير مخاطب فكيف يتكلم في شرع، [ويحتمل أن يكون من قول سليمان لما أخبره الهدهد عن القوم]، ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى، فهو اعتراض بين الكلامين، وهو الثابت

مع التأمل، وقراءة التشديد في ﴿أَلَا﴾ تعطي أن الكلام للهدهد، وقراءة التخفيف تمنعه وتقوي الآخر حسب ما سمع، ويتأمل إن شاء الله تعالى.

وقرأ جمهور القراء ﴿أَلَا﴾، أي: «لَا يَسْجُدُوا»، فـ ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب على البذل من «أَعْتَلَهُمْ»، أو في موضع خفض على البذل من «السَّيْلِ»، أو يكون الكلام بتقدير: «لَيْلًا يَسْجُدُوا»، فـ ﴿أَنْ﴾ متعلقة إما بـ ﴿زَيْنَ﴾، وإما بـ ﴿صَدَقْتُمْ﴾، واللام الداخلة على ﴿أَنْ﴾ داخلة على مفعول له.

وقرأ ابن عباس، وأبو جعفر، والزهري، وأبو عبد الرحمن، والحسن، والكسائي، والحسين: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ بتخفيف اللام، فعلى هذا له أن يقف على ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ويبتدىء بـ ﴿أَلَا يَسْجُدُونَ﴾، وإن شاء وقف على ﴿أَلَا يَا﴾ ثم يبتدىء: ﴿أَسْجُدُوا﴾، واحتج الكسائي لقراءته هذه بأنه روي عن النبي ﷺ أنه موضع سجدة وإن جعلناه من كلام الهدهد، بمعنى: ألا يا قوم ونحو هذا، ومنه قول الشاعر:

أَلَا يَا اسْلَمِي يَادَارِ مَيَّ عَلَى الْبَلَى
وَلَا زَالَ مُنْهَلًا بِجَرَ عَائِكَ الْقَطْرُ
ونحو قول الأخطل:

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا هِنْدُ هِنْدُ بَنِي بَدْرٍ
وَإِنْ كَانَ حَيَاتُنَا عِدَا آخِرِ الدَّهْرِ
ومنه قول الآخر:

أَلَا يَا اسْمَعُ اعْظَمَكَ بِخُطْبَةٍ
فَقُلْتُ سَمِعْنَا فَانْطَبَقِي وَأَصْبِي
وتحتمل قراءة من شدد ﴿أَلَا﴾ أن

نجعلها بمعنى التَّخْضِيعِ، ويقدر هذا النداء بعدها، ويجيء في الكلام إضمار كبير ولكنه متوجه، وسقطت الألف كما كتبت في: يا عيسى، ويا قوم، وقرأ الأعمرش: ﴿قَلًّا يَسْجُدُونَ﴾، وفي حرف عبدالله: ﴿أَلَا هَلْ تَسْجُدُونَ﴾ بالثاء، وفي قراءة أبي: ﴿أَلَا تَسْجُدُوا﴾ بالثاء أيضاً.

و ﴿الْخَبَءَ﴾: الخفي من الأمور، وهو من: «خبأت الشيء»، وخبء السماء: مطرها، وخبء الأرض: كنوزها ونباتها، واللفظة - بعد هذا - تعم كل خفي من الأمور، وبه فسر ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأ جمهور الناس: ﴿الْخَبَءَ﴾ بسكون الباء وبالهمز، وقرأ أبي بن كعب: ﴿الْخَبَءَ﴾ بفتح الباء وترك الهمز، وقرأ عكرمة: ﴿الْخَبَءَ﴾ بالألف مقصورة، وحكى سيبويه أن بعض العرب [يقرب الهمزة ألفاً إذا كانت مفتوحة وقبلها ساكناً]، ويقربها واواً إذا كانت مضمومة وقبلها ساكن، ويقربها ياءً إذا كانت مكسورة وقبلها ساكن، ومثل سيبويه في ذلك بالوُثْي، تقول: رأيت الوُثَا، وهذا الوُثُو، وعجبت من الوُثْي، وكذلك يجيء (الْخَبَا) في حال التَّصْب، وتقول: اطلعت على الخَبِي، وراقتي الخَبُو. وقرأ جمهور القراء: ﴿وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُغْلِبُونَ﴾ بياء الغائب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه القراءة أن الآية من كلام الهدهد. وقرأ الكسائي، وعاصم - في رواية حفص -: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُغْلِبُونَ﴾ بقاء المخاطبة، وهذه

القراءة تعطي أن الآية من خطاب الله عز وجل لأمة محمد ﷺ، وفي مصحف ابن كعب: ﴿أَلَا تَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْخَبَا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَمَا تَعْلَمُونَ﴾، وخصَّ العرش بالذكر في قوله: ﴿رَبُّ الْمَرْثِ الْكَبِيرِ﴾ لأنه أعظم المخلوقات، وما عداه في ضمنه وفي قبضته.

ثم إن سليمان عليه السلام آخر أمر الهدهد إلى أن يتبين له حقه من باطله، فسوفه بالنظر في ذلك، وأمر بكتاب فكُتِب، وحمله إياه، وأمر بإلقائه إلى القوم والتَّوَلَّى بعد ذلك، وقال وهب بن منبه: أمره بالتَّوَلَّى حُسن أدب لِيَتَنَحَّى حسب ما يتأدب به مع الملوك، بمعنى: وكن قريباً حتى ترى مراجعتهم، قال: وقوله: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ في معنى التقديم على قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واتساق رتبة الكلام أظهر، أي: ألقه ثم تَوَلَّى، وفي خلال ذلك فانظر، وإنما أراد أن يكل الأمر إلى حكم ما في الكتاب دون أن يكون الرسول ملازمه وبلا إلحاح. وقرأ نافع: ﴿فَأَلْقِيهِ﴾ بكسر الهاء، وفرقة: ﴿فَأَلْقِيهِ﴾ بضمها، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي بإشباع بعد الكسرة في الهاء، وروى عنه ورش بعد الهاء في الوصل بياء، وقرأ قوم بإشباع واو بعد الضمة، وقرأ البيهقي عن أبو عمرو، وعاصم، وحزمة: ﴿فَأَلْقِيهِ﴾ بسكون الهاء، وروي عن وهب بن منبه في قصص هذه الآية أن الهدهد وصل فألقى دون هذه

الملكة حجب جدران، فعمد إلى كُرَّة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إيَّاهَا، فدخل منها ورمى الكتاب على بلقيس وهي - فيما يروى - نائمة، فلما انتبهت وجدته فراعها وظنت أنه قد دخل عليها أحد، ثم قامت فوجدت حالها كما عهدته، فنظرت إلى الكُرَّة تَهْمُماً بَأمر الشمس فرأت الهدهد فعلمت أمره، ثم جمعت أهل مملكتها وعلَّيتهم فخطبتهم بما يأتي بعد.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

في هذه المواضع اختصار يدل ظاهر القول عليه، تقديره: فألقى الكتاب وقرأته وجمعت له أهل ملكها، و﴿الْمَلَأَ﴾: أشرف الناس الذين ينوبون مناب الجميع، ووصفت الكتاب بالكرم، إمَّا لأنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم، فعظمته إجلالاً لسليمان، وهذا قول ابن زيد، وإمَّا أنها إشارات إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم، وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كُرم الكتاب ختمه»، وإمَّا أنها أرادت أنه بدأ بيسم الله تعالى، وقد قال ﷺ: «كل كلام لم يبدأ باسم الله تعالى فهو أجذم»، ثم أخذت تصف لهم ما في الكتاب، فيحتمل اللفظ أنه نص الكتاب موجزاً بليغاً، وكذلك كتب الأنبياء عليهم السلام، قدم فيه العنوان - وهي عادة الناس على وجه الدهر - ثم سَمَّى الله تعالى، ثم أمرهم ألا يعلوا عليه طغياناً وكفراً، وأن يأتوه مسلمين، ويحتمل أنها قصدت إلى اقتضاب معانيه دون

العقلي، ذكرها الثعلبي.

ثم أخذت في حُسن الأدب مع رجالها، ومشاورتهم في أمرها، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر، فكيف في هذه النازلة الكبرى؟ فراجعها الملأ بما يقر عينها من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، أي: وذلك مبذول لك، فقاتلي إن شئت، ثم سلّموا الأمر إلى نظرها، وهذه محاورة حسنة من الجميع. وفي قراءة عبدالله: ﴿مَا كُنْتُ قَاضِيَةً أُمُراً﴾ بالضاد من القضاء.

وذكر مجاهد في عدد أحشادها أنها كان لها اثنا عشر ألف قِتل، تحت يد كل واحد مائة ألف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد، وذكر غيره نحوه فاختصرته لعدم صحته. ثم أخبرت بلقيس عند ذلك بفعل الملوك بالقرى التي يتغلبون عليها، وفي الكلام خوف على قومها، وحيطة لهم، واستعظام لأمر سليمان عليه السلام، وقالت فرقة: إن ﴿وَكذلكَ يَقَعْلُونَ﴾ هو من قول بلقيس تأكيداً منها للمعنى الذي أرادت، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو من قول الله تبارك وتعالى معرفاً لمحمد ﷺ وأُمته، ومخبراً به.

(٣٥) - (٣٦) تفسير قوله عز وجل:

رُوي أن بلقيس قالت لقومها: إني

أجرب هذا الرجل بهدية أعطيه فيها نفائس الأموال، وأغرب عليه بأمور المملكة، فإن كان ملكاً دنيائياً أرضاه المال فعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبياً لم يرضه المال، ولا زَمْنَا في أمر الدين، فينبغي أن نؤمن به ونتبعه على دينه، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر بعض الناس في تفصيلها، فرأيت اختصار ذلك لعدم صحته. واختبرت علمه - فيما روي - بأن بعثت إليه قدحاً فقالت له: املأه لي مِمَّا ليس من الأرض ولا من السماء، وبعثت إليه دُرَّةً فيها ثقب مخلوق وقالت: تدخل سلكها دون أن يقر بها إنس ولا جان، وبعثت إليه أخرى غير مثقوبة وقالت: يثقب هذه غير الإنس والجن، فملأ سليمان عليه السلام القدح من عرق الجبل، وأدخلت السلك دودة وثقبت الدُرَّة أرضة، وراجع سليمان عليه السلام في ردِّ الهدية بما في الآية، وعبر عن «المرسلين» بـ «جَكَ» ويقول: ﴿أَرْجِعْ﴾ لِمَا أَرَادَ بِهِ «الرَّسُولُ» الذي يقع على الجمع والإفراد والتأنيث والتذكير. وقرأ ابن مسعود: ﴿قَلَمًا جَاؤُوا سُلَيْمَانَ﴾، وقرأ: ﴿أَرْجِعُوا﴾، ووعد سليمان لهم مقتون بدوامهم على الكفر، وذكر مجاهد أيضاً أنها بعثت في هديتها بعدد كثير من العبيد بين غلمان وجواري، وجعلت رِثَهم واحداً، وجربته في التفريق بينهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ليس بتجربة في مثل هذا الأمر الخطر.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو:

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَنِيدُونَ بِمَالِ فَسَاءَ أَتَيْنَهُ اللَّهُ خَيْرَ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَتَتْهُم بِذُنُوبِهِمْ فَغُرُوحٌ ﴿٣٥﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَمَّا أَبَتْهُمْ بِحُجُورٍ لَا يَدُلُّ لَهُمْ بِهَا وَلَتُخْرِجَهُمْ مِنْهَا أَذَلَّهُ وَهُمْ صَرِيرُونَ ﴿٣٦﴾ يَكْتَابُ الْمَلَكُ الْإِسْمَ بَأْسِي بِعَرِشِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتُوهُ مُسْلِمِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتَاكَ بِهِ قَوْلًا مِّن قَوْمٍ مِّن مَّقَابِلِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ ﴿٣٨﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ أَنَا آتَاكَ بِهِ قَوْلًا أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيُكَلِّمَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمِن شُكْرٍ فَلَمَّا شَكَرُ لِنَفْسِهِ وَمِن كُفْرٍ فَإِن رَّبِّي عَنِّي كَرِيمٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ذِكْرٌ وَلِمَا عَرَضَ عَلَيْهَا نَظَرُ أَتَاهِدِي أَمْ ذُكْرٌ مِّنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرَضُكَ قَالَتْ كَأنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا سُلَيْمِينَ ﴿٤١﴾ وَصَدَّهَا مَا كُنْتَ تَعْبُدِينَ دُونَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنْتَ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾

٣٨٠

تربيته، فأعلمتهم أنه من سليمان، وأن معناه كذا وكذا. وقرأ أبي: ﴿وَأَنْ بِأَسْمِ اللَّهِ﴾ بفتح الهمزة وتخفيف النون وحذف الهاء، وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿أَنَّهُ مِنْ﴾، وقرأ بِسْمِ اللَّهِ بفتح الهمزة فيهما، وفي قراءة عبدالله: ﴿وَأَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ بزيادة واو، و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ استفتاح شريف بارع المعنى مُعَبَّرٌ عنه بكل لغة، وفي كل شرع.

و ﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَقُولُوا عَلَىٰ﴾ يحتمل أن تكون رفعاً على البدل من «الْكِتَابِ»، أو نصباً على معنى: بأن لا تعلموا، أو مفسرة بمنزلة أي، قال سيبويه: وقرأ وهب بن منبه: ﴿أَلَا تَقُولُوا﴾ بالغين منقوطة: قال أبو الفتح: رواها وهب عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي قراءة أشهب

﴿أَتَمُدُّنِي﴾ بنونين وياء في الوصل، وقرأ ابن عامر، وعاصم، والكسائي: ﴿أَتِيدُونِي﴾ بغير ياء في وقف ووصل، وقرأ حمزة: ﴿أَتَمُدُونِي﴾ بشد النون وإثبات الياء، وقرأ عاصم: ﴿فَمَا تَأْتِيَنِي اللَّهُ﴾ بكسر النون دون ياء، وقرأت فرقة: ﴿آتَانِي﴾ بياء ساكنة، وقرأ أبو عمرو، ونافع: ﴿آتَانِي﴾ بياء مفتوحة. ثم توعدهم بالجنود والغلبة والإخراج، والمعنى: إذا لم يُسلموا، وقرأ عبدالله: ﴿لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِمْ﴾ على جمع ضمير الجنود، و﴿لَا قِبَلَ﴾ معناه: لا طاقة ولا مقاومة.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل: القائل سليمان عليه السلام، والملاى المنادى جمعه من الجن والإنس، واختلف المتأولون في غرضه في استدعاء عرشها - فقال قتادة: ذكر له بعظم وجودة، فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويحمي أموالهم، والإسلام - على هذا - الدين، وهو قول ابن جريج، وقال ابن زيد: استدعاه ليُرِيَهَا القدرة التي هي من عند الله عز وجل، وليُغَرَّبَ عليها، و﴿مُسْلِمِينَ﴾ - في هذا التأويل - هو بمعنى: مُستسلمين، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر صلة في العبارة، ولا تأشير لاستسلامهم في عرض سليمان عليه السلام، ويحتمل أن يكون بمعنى: الإسلام، وأما في التأويل الأول فيلزم أن يكون بمعنى الإسلام. وظاهر الآيات أن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجيء

هديتها وردّه إياها، وبعثه الهدهد بالكتاب، وعلى هذا جمهور المفسرين، وحكى الطبري أنه قال ذلك في اختباره صدق الهدهد من كذبه لما قال له: ﴿وَلَمَّا عَزَّزْتُ عَظِيمًا﴾، فقال سليمان: ﴿إِنَّكُمْ بَأْيُنِي بِرِئَاسَةٍ؟﴾ ثم وقع في ترتيب القصص تقديم وتأخير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول أصح.

وروي أن عرشها كان من ذهب وفضة مرصعاً بالجواهر والياقوت، وأنه كان في جوف سبعة أبيات عليه سبعة أغلاق.

وقرأ الجمهور: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ وقرأ أبو رجاء، وعيسى الشقفي: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾، وزويت عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقرأت فرقة: ﴿قَالَ عَفْرٌ﴾ بكسر العين، وكل ذلك لغات فيه، وهو من الشياطين: المارد القوي، والتاء في (عفريت) زائدة، وقد قالوا: ﴿تَعَفَّرَتِ الرَّجُلُ﴾ إذا تخلق بخلق الإذنية، قال وهب بن منبه: اسم هذا العفريت (كوري)، وزوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صخر الجني، ومن هذا الاسم قول ذي الرمة:

كَأَنَّهُ كَوَكَّبَ فِي إِثَرِ عِفْرِيتٍ
مُضَوَّبٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبٍ
وقوله: ﴿قَالَ أَنُفُومٌ مِنْ مَقَائِدِكَ﴾، قال مجاهد، وقاتدة، وابن منبه: معناه: قبل أن تستوي من جلوسك قائماً، و﴿قَالَ أَلَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَّا آتَاكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ

طَرْفُكَ﴾، قال ابن جبير، وقاتدة: معناه: قبل أن يصل إليك من يقع طرفك عليه من أبعد ما ترى، وقال مجاهد: معناه: قبل أن تحتاج إلى التغميض، أي: مدة ما يمكنك أن تُمَدَّ بصرك دون تغميض، وذلك ارتداده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان يقابلان قول من قال: إن القيام هو من مجلس الحكم، ومن قال: إن القيام هو من الجلوس، فيقول في ارتداد الطرف: هو أن يطرف، أي: قبل أن تُغْمِضَ عينك وتفتحهما، وذلك أن الثاني يعاطي الأقصر في المدة ولا بُدَّ. وقوله: ﴿وَأَنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ معناه: لَقَوِيٌّ على حمليه، أمينٌ على ما فيه.

وروي أن بلقيس لما فصلت من بلدها متوجهة إلى سليمان عليه السلام، تركت العرش تحت سقف حصين، فلما علم سليمان بانفصالها أراد أن يُغَرَّبَ عليها بأن تجد عرشها عنده لتعلم أن مُلكه لا يُضَاهِي، فاستدعى سَوْقَهُ، فدعا الذي عَلِمَ من التوراة - وهو الكتاب المشار إليه - باسم الله الأعظم الذي كانت العادة في كل الزمان ألا يدعو به أحد إلا لأجيب، فشقت الأرض بذلك العرش حتى نبع بين يدي سليمان عليه السلام، وقيل: بل جيء به في الهواء، قال مجاهد: وكان بين سليمان وبين العرش كما بين الكوفة والحيرة، وحكى الرمانى أن العرش حُمِلَ من مأرب إلى الشام في قدر رجع البصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه مسيرة شهرين للمُجِدِّ، وقول مجاهد أشهر.

وروي أن الجن كانت تخبر سليمان عليه السلام بمناقل سريرها، فلما قريت قال: ﴿إِنِّكُمْ يَأْتِيَنِي بِرَمِيهَا؟﴾ واختلف المفسرون في الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب، من هو؟ فجمهور الناس على أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه آصف بن برخيا، روي أنه صلى ركعتين ثم قال لسليمان عليه السلام: يا نبي الله امدد بصرك، فمدَّ بصره فإذا بالعرش نحو اليمن، فما ردَّ سليمان بصره إلا والعرش عنده، وقال قتادة: اسمه مليخا، وقال إبراهيم النخعي: هو جبريل عليه السلام، وقال ابن لهيعة: هو الخضر، وحكى النقاش عن جماعة أنهم سمعوا أنه ضبَّ بن أذجد بني ضبة من العرب، قالوا: وكان رجلاً فاضلاً يخدم سليمان على قطعة من خيله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف.

وقالت فرقة: بل هو سليمان عليه السلام، والمخاطبة - في هذا التأويل - للعفريت، لما قال هو: ﴿أَنَا أَنَا بِكَ يَدِي قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ قيل: كأن سليمان عليه السلام استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره: ﴿أَنَا أَنَا بِكَ يَدِي قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، واستدل قائل هذا القول بقول سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ قَبْلِ رَبِّي﴾، واستدل أيضاً بهذا اللفظ مناقضه؛ إذ في كلا

الأمرين علم سليمان فضل الله تعالى، وعلى الأقوال الأول المخاطبة لسليمان عليه السلام، ولفظ ﴿إِنَّا بِكَ﴾ يحتمل أن يكون فعلاً مستقبلاً، ويحتمل أن يكون اسم فاعل، وفي الكلام حذف تقديره: فدعا باسم الله تعالى فجاء العرش بقدرة الله تعالى، فلما رآه سليمان مستقراً عنده جعل يشكر نعمة ربه بعبارة فيها تعليم للناس، وهي عرضة للاقتداء بها والاقتباس منها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أشكر على السرير وسوقه أم أكفر إذ رأيت من هو دوني في الدنيا أعلم مني؟ وظهر العامل في الظرف من قول: ﴿مُسْتَقَرًّا﴾، وهذا هو المقدر أبداً في كل ظرف جاء هنا مُظْهِراً، وليس في كتاب الله تعالى مثله، وباقي الآية بين.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

أراد سليمان في هذا «التشكير» تجربة ميزها ونظرها، وليزيد في الإغراب عليها، وروت فرقة أن الجن أحسَّت من سليمان أو ظنَّت به أنه ربما تزوج بلقيس، فكروهوا ذلك، وزمَّوها عنده بأنها غير عاقلة ولا مميزة، وبأن رجلها كحافر دابة، فجرب عقلها وميزها بتذكير عرشها، وجرب أمر رجلها بأمر الصرح لتكشف عن ساقها عنده، وقرأ أبو حية: ﴿تَنْظُرُ﴾ بضم الراء.

وتذكير العرش بتغيير وصفه وستر بعضه ونحو هذا، وقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: تنكيره بأن زيد فيه ونقص منه، وهذا يعترض

بأن من حقها - على هذا - أن تقول: ليس به وتكون صادقة، وقوله: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ تحزُّز فصيح، ونحوه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ وَلِيُّهُ حَيَّيمٌ﴾، وقال الحسن بن الفضل: شبَّهوا عليها فشبهت عليهم، ولو قالوا: هذا عرشك؟ لقلت: نعم، وفي الكلام حذف تقديره: فنكروا عرشها، ونظروا ما جوابها إذا سُئِلَتْ عنه، فلما جاءت قيل: أمكذا عرشك؟ وقال سليمان عليه السلام عند ذلك: ﴿وَأَوْتَيْنَا آلَ عَادَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ الآية، وهذا منه على جهة تعديد نعمة الله تعالى عليه وعلى آباءه.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَقَا مَا كَانَتْ تُبَدِّلُ﴾ الآية، يحتمل أن يكون من قول نبي الله سليمان عليه السلام، ويحتمل أن يكون من قول الله تبارك وتعالى إخباراً لمحمد ﷺ، و«الصَّادُ» ما كانت تعبد، أي عن الإيمان ونحوه، قال الرماني: عن التَّفَقُّن للعرش؛ لأن المؤمن فطن يقط والكافر خبيث، أو يكون الصادُّ سليمان عليه السلام، قاله الطبري، أو يكون الصادُّ الله عز وجل، ولما كان [صَدَقَا] بمعنى (مَتَّعَا) تجاوز - على هذا التأويل - بغير حرف جر، وإلا فإنه لا يستعدي إلا ب (عَنْ). وقرأ جمهور الناس: ﴿إِنَّهَا﴾ بكسر الهمزة، وقرأ سعيد بن جبير، وابن أبي عبيدة: ﴿إِنَّهَا﴾ بفتح الهمزة، وعلى تقدير: ذلك أَنَّهَا، أو على البدل من [مَا]، قاله محمد بن كعب القرظي.

ولما وصلت بلقيس أمر سليمان عليه السلام الجنّ فصنعت له صرحاً، وهو السطح في الصحن من غير سقف، وجعلته متيناً كالصهرج، وملىء ماء، وبث فيه السمك والضفادع، وطبّق بالزجاج الشّفاف، وبهذا جاء صرحاً، والصّرح أيضاً كل بناء عالٍ، وكل هذا من التصريح، وهو الإعلان البالغ، وجعل لسليمان في وسطه كرسي، فلما وصلته بلقيس قيل لها: ادخلي إلى النبي ﷺ، فرأت اللجة وفزعت وظنت أنه قصد بها الغرق، وعجبت من كون كرسيه على الماء، ورأت ما هالها، ولم يكن لها بُد من امثال الأمر فكشفت عن ساقها، فرأى سليمان ساقها سليميتين غير أنّها كثيرة الشعر، فلما بلغت هذا الحدّ قال لها سليمان عليه السلام: ﴿إِنَّكَ صَرَّحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، والمُمَرَّد: المكحول الأملس، ومنه: الأُمَرَّد، والشجرة المَرْدَاء: التي لا ورق عليها، والمُمَرَّد أيضاً: المُطَوَّل، ومنه قيل للحصن: مارد، وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت، وأقرت على نفسها بالظلم، فيروى أن سليمان عليه السلام تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام، قاله الضحاك، وقال سعيد بن عبدالعزيز في كتاب النقاش: تزوجها وردّها إلى ملكها باليمن، وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة، فولدت له ولداً أسماه داود، مات في حياته، و [مَع] ظرف، وقيل: حرف بُني على الفتح، وأمّا إذا سُكُنَت الغين فلا

خلاف أنه حرف جاء لمعنى. وقرأ ابن كثير وحده - في رواية الإخريط -: ﴿عَن سَاقِيهَا﴾ بالهمز، قال أبو علي: وهي ضعيفة، وكذلك يضعف الهمز في قراءة قنبل: ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقِي﴾، وأمّا همز ﴿بِالسُّوقِ﴾، و﴿عَلَى سَوْقِيهِ﴾ فلغة مشهورة في همز الواو التي قبلها ضمة، حكى أبو علي أنا أبا حبة الثُميرِيّ كان يهمز كلّ واو قبلها ضمة، وأنشد:

أَحَبُّ الْمُؤَقْدَانِ إِلَيْكَ مُوسَى

وَوَجْهَهَا أَنْ الضمة تقدر على الواو إذ لا حائل بينهما، وقرأ ابن مسعود: ﴿عَن رَجْلَيْهَا﴾. وروى أن سليمان عليه السلام لما أراد زوال شُعر ساقها أشفق من حمل موسى عليها، وقيل: إنها قالت: ما مَسْنِي حديد قط، فأمر الجن بالتلطف في زواله فصنعوا الثوذة ولم يكن قبل في الأمم.

وهذه الأمور التي فعلها سليمان عليه السلام: من سَوَّق العرش، وعمل الصّرح، وغير ذلك، قصد بها الإغراب عليها، كما سلكت هي قبل سبيل ملوك الدنيا في ذلك بأن أرسلت الجواري والغلمان، واقرحت في أمر القَدَح والدَّرَتَيْن.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ آلَ السَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَعِينُونَ اللَّهُ لَمَلَكْتُمْ تَرْجُومُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا أَطِيعُوا نَارَكُمْ وَيَمْنُ مَعَكُمْ قَالُوا طَاعَتُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّفْتُونَ ﴿١٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَجْعَةٌ رَّقِطٌ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا نَقَاسِمُوا بِاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ وَأَهْلُهُ شَرُّ لَّنَفْسٍ لَّوْلَاهُ مَا ضَلَّ النَّاسُ مَهْلَكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٩﴾ وَمَكْرُومًا مَّكَرَ وَمَكْرُومًا مَّكَرَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَنْظَرْنَاهُ كَيْفَ كَانَ عَقِيبُهُ مَكْرَهُمْ أَنَادَ مَرْزَلَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢١﴾ فَتَلَاكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَأَنْجَيْنَا آلَ لَيْثٍ ؕ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُرُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَوْ طَإِذْ قَالُوا لَقَوْمُهُمْ أَتَانَا بِالْحَسَنَةِ وَأَنْتُمْ بَصُرُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَيْسَ لَكُم تَأْوِيلُ أَلَيْسَ شَهْوَةٌ مِّن دُونِ الْإِنْسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ ﴿٢٥﴾

٢٨١

(١٥) - (١٧) تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية على جهة التمثيل لقريش، و﴿أَنَّ﴾ في قوله سبحانه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يحتمل أن تكون مُفسّرة، وأن تكون في موضع نصب، والتقدير: بأن اعبدوا الله، و﴿فَرِيقَانِ﴾ يريد به: من آمن بصالح ومن كفر به، و﴿اِخْتَصِمُواهُمْ﴾ تنازعهم وحدهم، فذكر الله تبارك وتعالى ذلك في سورة الأعراف.

ثم إن صالحاً عليه السلام تَلَطَّف بقومه، وترقّق بهم في الخطاب، فوقفهم على خطيئهم في استعجالهم العذاب مما يقتضي هلاكهم، ثم حضهم على ما هو أسوأ من ذلك وأغود بالخير، وهو الإيمان وطلب المغفرة ورجاء الرحمة، فأجابوا - عند ذلك - بقول سَفَسَاف، معناه: نَشَاءُ مِنَّا بكَ، قال المفسرون:

وكانوا في قحط فجعله لذات صالح عليه السلام، وأصل الطَّيْرَة ما تعارفه أهل الجهل من رَجَر الطَّيْرِ، وشَبَّهت العرب ما عَزَّ بما طار حتى حصل، سُمي ما حصل للإنسان في فزع ونحوه طائراً، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ طَيْرًا فِي عُنُقِهِ﴾، وخاطبهم صالح ببيان الحق، أي: طائرکم على زعمکم وتسميتکم - وهو حَطَّکُمْ في الحقيقة - من تعذيب أو إعفاء هو عند الله تعالى، ويقضائه وقدره، وإنما هو أنهم قوم يخبرون، وهذا أحد وجوه الفتنة، وقد يمكن أن يريد: بل أنتم قوم تولعون بشهواتکم، وهذا معنى قد تعارف الناس استعمال لفظ الفتنة منه، ومنه قولك: «فَئِنَّ فُلَانًا بِفُلَانٍ»، وشاهد ذلك كثير.

٥٨ - ٥٩ تفسير قوله عز وجل:

ذكر الله تعالى في هذه الآية تسعة رجال كانوا من أوجه القوم وأقنابهم وأغنائهم، وكانوا أهل كفر ومعاص جَمَّة، جملة أمرهم أنهم يفسدون في الأرض ولا يُصلحون، قال عطاء بن أبي رباح: بلغني أنهم كانوا يقرضون الدنانير والدرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نحو الأثر المروي: «قطع الدنانير والدرهم من الفساد في الأرض»، و﴿الْمَدِينَةِ﴾: مجتمع ثمود وقريتهم، و﴿الرُّهْطِ﴾: من أسماء الجمع القليل، العشرة فما دونها، و﴿تِسْعَةً رَهْطًا﴾ كما تقول: تسعة رجال، وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قدار بن سالف عاقر الناقة،

وقد تقدم في غير هذا الموضع ما ذكر في أسمائهم.

وقوله تعالى: ﴿تَقَاسَمُوا﴾، حكى الطبري أنه يجوز أن يكون فعلاً ماضياً في موضع الحال، كأنه قال: متقاسمين، أو متحالفين بالله، وكأن قولهم: ﴿لَتَبَيِّنَنَّ﴾ خِلْفٌ، ويؤيد هذا التأويل أن في قراءة عبدالله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ﴿تَقَاسَمُوا﴾ بسقوط ﴿قَالُوا﴾، ويحتمل - وهو تأويل الجمهور - أن يكون ﴿تَقَاسَمُوا﴾ فعل أمر، أشار بعضهم على بعض بأن يتحالفوا على هذا الفعل بـصالح، فـ ﴿تَقَاسَمُوا﴾ هو قولهم على هذا التأويل. وهذه الألفاظ الدالة على قسم أو جواب تجاب باللام وإن لم يتقدم قَسَمَ ظاهر، فاللام في ﴿لَتَبَيِّنَنَّ﴾ جواب ذلك. وقرأ جمهور القراء: ﴿لَتَبَيِّنَنَّ﴾، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بالنون فيهما، وقرأ الحسن، وحمزة، والكسائي بالتاء فيهما، ويضُم التاء واللام على الخطاب، أي: تخاطبوا بذلك، وقرأ مجاهد، وحميد بن قيس بالياء فيهما على الخبر، فهذا ذَكَرَ الله فيه المعنى الذي أرادوه لا بحسب لفظهم.

وروي في هذه الآية أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة وقد أخبرهم صالح عليه السلام بمجيء العذاب اتفق هؤلاء التسعة فتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلاً فيقتلوه وأهله المختصين به، قالوا: فإن كان كاذباً في وعيده أوقنا به ما يستحق، وإن كان صادقاً كنا قد أعجلناه قبلنا وشفينا نفوسنا. قال الراوي: فجاءوا

واختفوا لذلك في غار قريب من داره، فروي أنه انحدرت عليهم صخرة سدحتهم جميعاً، ورُوي أنها طبقت عليهم الغار فهلكوا فيه حين هلك قومهم، وكل فريق لا يعلم بما جرى على الآخر، وكانوا قد بنوا على جحود الأمر من قرابة صالح الذين يمكن أن يغضبوا له، فهذا مكرهم، والمكر نحو الخديعة، وسَمَّى الله تبارك وتعالى عقوبتهم باسم ذنبهم، وهذا مهيع، ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرِجْمٍ﴾، وغير ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿مُهْلِكٌ﴾ بضم الميم وفتح اللام، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بفتحهما، ورُوي عنه بفتح الميم وكسر اللام.

و «العَاقِبَةُ» حال تقتضيها البدأة وتؤدي إليها، ويعني بالأهل كل من آمن معه، قاله الحسن، وقرأ جمهور القراء: ﴿إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ﴾ بكسر الألف، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ﴾، وهي قراءة الحسن وابن أبي إسحق، فـ [كَانَ] - على قراءة الكسر في الألف - تامة، وإن قُدِّرَتْ ناقصة فخبيرها محذوف، أو يكون الخبر [كَيْفَ] مقدماً؛ لأن صدر الكلام لها، ولا يعمل - على هذا - ﴿أَنْظَرُ﴾ في ﴿كَيْفَ﴾، لكن يعمل في موضع الجملة كلها، وهي على قراءة فتح الألف ناقصة، وخبيرها [أَنَا]، ويجوز أن يكون الخبر [كَيْفَ]، ويكون [أَنَا] بدلاً من «العاقبة»، ويجوز أن تكون [كَانَ] تامة و [أَنَا] بدلاً من «العاقبة»، ووقع تقدير السؤال بـ [كَيْفَ] عن

جملة قوله: ﴿كَانَ عَقِيبُهُ مَكْرَهُمُ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ﴾، وقرأ أبي بن كعب: ﴿أَن دَمَرْنَاهُمْ﴾، وهذه تؤيد قراءة الفتح في ﴿أَنَّا﴾.

٥٢ - ٥٣ تفسير قوله عز وجل:

أمر البيوت وخرابها مما أخبر الله تعالى، ففي كل الشرائع أنه إنما يعاقب به الظلمة، وفي التوراة: «ابن آدم، لا تظلم، يخرّب بيتك»، و﴿خَاوِيَةً﴾ نصب على الحال التي فيها الفائدة، ومعناها: الخالية قفراً، قال الزجاج: وقرئت ﴿خَاوِيَةً﴾ بالرفع، وذلك على الابتداء المضمر، والتقدير: هي خاوية، أو عن الخبر عن ﴿يَلُكُّ﴾ و﴿يُؤْتُهُمْ﴾ بدل، أو على خبر ثان، وهذه البيوت المشار إليها هي التي قال فيها النبي ﷺ عام نبوك: ﴿لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَعْدُوبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِأَكْبَن... الحديث﴾.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ كُنَّا عَنْ الْقُدْرَةِ أَفْتَحْنَا﴾: إتيان الرجال في الأبادر ﴿يُفْهِرُونَ﴾ معناه: بقلوبكم أنها خطيئة وفاحشة. وقالت فرقة: تبصرون بأبصاركم؛ لأنكم تتكشفون بفعل ذلك ولا يستتر بعضكم من بعض.

واختلف القراء في قوله: ﴿أَيُّكُمْ﴾، وقد تقدم، وقرأ جمهور القراء: ﴿جَوَابٌ﴾ نصباً، وقرأ الحسن، وابن أبي إسحق: ﴿جَوَابٌ﴾ بالرفع، ونسب ابن جني قراءة الرفع إلى الحسن، وفسرها في الشاذ.

وأخبر الله تعالى عن قوم لوط أنهم

كانوا تركوا في جوابهم طريق الحجة، وأخذوا بالمغالبة، فتأمروا بإخراجه وإخراج من آمن معه، ثم ذمّوهم بمدحة وهي التطهر من هذه الدناءة التي هم أصفقوا عليها، قال قتادة: عابوهم والله بغير عيب. وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿قَدَرْنَاهَا﴾ بتخفيف الدال، وقرأ جمهور القراء بشد الدال، والأولى بمعنى: جعلناها وحصلناها، والثانية بمعنى: قدرنا عليها، من القدر والقضاء.

و «الغابرون»: الباقون في العذاب، وغَبَر بمعنى بَقِيَ، وقد يجيء أحياناً في بعض كلام العرب ما يوهم أنه بمعنى مَضَى، وإذا تَوَمَّل توجه حمله على معنى البقاء، والمطر الذي أمطر عليهم وهو حجارة السَّجِينِ أهلكت جميعهم، وهذه الآية أصل لمن جعل من الفقهاء الرُّجْم في اللوطية، وبها تأنس لأن الله تعالى عَذَّبهم على كفرهم به، وأرسل عليهم الحجارة لمعصيتهم، ولم يقس هذا القول على الزُّنَى فيعتبر الإحصان، بل قال مالك وغيره: يرجمان في اللوطية أحصنا أو لم يُحْصَنَا، وإنما وَرَدَ عن النبي ﷺ: «اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»، فذهب من ذهب إلى رجمهما بهذه الآية.

٥٤ - ٥٥ تفسير قوله عز وجل:

قرأ أبو السمال: ﴿قُلْ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

﴿فَأَكَّاتْ جَوَابٌ قَوِيمٌ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ أَنَّهُمْ أَنَا نَبَطُهُمْ﴾ فَأَجَبَتْهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْقَدِيرِ وَأَمَطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ النَّذِيرِينَ ﴿٥٤﴾ قُلْ لِّلْحَمْدِ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يَشْكُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ يَكُن مَّعَ اللَّهِ شَيْءٌ مِّمَّ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴿٥٦﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ يَكُن مَّعَ اللَّهِ شَيْءٌ مِّمَّ أَنْ كُنتُمْ هُمْ أَقْبَلُوهَا ﴿٥٧﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم خُلُقَاءَ الْأَرْضِ أَوَلَمْ يَكُن مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَدَّكُرُونَ ﴿٥٨﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ شُرَاقِبَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوَلَمْ يَكُن مَّعَ اللَّهِ شَيْءٌ مِّمَّ أَنْ يَشْكُرُوا ﴿٥٩﴾

٣٨٢

بفتح اللام، وكذلك في آخر السورة، وهذه ابتداء تقرير وتثبيت لقريش، وهو أيضاً يعم كل مكلف من الناس جميعاً، وافتتح ذلك بالقول بحمده وتمجيده والسلام على عباده الذين اصطفاهم للنبوّة والإيمان، وهذا اللفظ عام.

لجميعهم من ولد آدم، وكان هذا صدر خطبة للتقرير المذكور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العباد المُسَلَّم عليهم هم أصحاب النبي ﷺ، واصطفاهم لنبيّه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا الاختصاص توبيخ للمعاصرين من الكفار.

وقال الفراء: الأمر بالقول في هذه الآية هو لِلُوطٍ عليه السلام، قال المفسرون: وهذه عجمة من الفراء.

ثم وقف قريشاً والعرب - على جهة

قوم: لا يقال: «حديقة» إلا لما عليه جدار قد أحدق به، وقال قوم: تقول ذلك إذا كان جدار أو لم يكن لأن البياض محدد بالأشجار، و«الْبَهْجَةُ»: الجمال والثُصرة، وقرأ ابن أبي عبلة: «ذَوَاتِ بَهْجَةٍ»، ثم أخبر سبحانه - على جهة التوقيف - أنه ما كان للبشر، أي: ما يتبها لهم، ولا يقع تحت قدرتهم أن يثبتوا شجرها؛ لأن ذلك يكون بإخراج شيء من العدم إلى الوجود. وقد تقدم ترتيب القراءة في الهمزتين من قوليه: ﴿إِن﴾ و﴿أُولَئِكَ لَا تَتُوبُونَ﴾. وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾، قال أبو حاتم: القراءة باجتماع الهمزتين محدثة لا توجد في كلام العرب ولا قرأ بها قارئ عتيق. و﴿يَدْعُونَ﴾ يجوز أن يراد به: يعدلون عن طريق الحق، أي: يجورون في فعلهم، ويجوز أن يراد به: يعدلون بالله غَيْرَهُ، أي: يجعلون له عديلاً ومثيلاً.

و﴿جَنَّاتٍ﴾ معناه: بَيْنَهَا وَأُثْنَاءَهَا، و«الرَّوَّاسِي»: الجبال، رَسَا الشيء يرسو إذا ثبت وتأصل، و«الْبَحْرَانِ»: الماء العذب بجملته، والماء الأجاج بجملته، و«الحاجِزُ»: ما جعل الله بينهما من حواجز الأرض وموانعها على رِقَّتْها في بعض المواضع ولطافتها التي لولا قدرة الله تبارك وتعالى لغلِبَ الجَلْحُ العذب، وكل ما مضى من القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ الآية فهو مترتب هنا فتأمل، وباقي الآية بين.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٧﴾ تفسير قوله عز وجل: وقفهم في هذه الآيات على المعاني

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تقدم أن هذه الألفاظ التي تعم معاني كثيرة كخير وشر وأحب ونحو ذلك قد يقع التفضيل بها بين أشياء متباينة؛ لأن المتباينات ربما اشتركت فيها ولو بوجه ضعيف بعيد، وأيضاً فهذا تقرير، والمجادل يقرر خصمه لتنبيهه على خطئه وإلزامه بحصر التفضيل في جانب واحد وانتفائه عن الآخر، وقد استوعبنا هذا فيما مضى. وقالت فرقة: تقدير هذه الآية: الله ذو خير أما

تُشركون؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا النوع من الحذف بعيد. وقرأ الحسن، وقتادة، وعاصم: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ أهل المدينة ومكة والكوفة بالثاء من فوق.

وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ وما بعدها من التوقيفات توبيخ لهم، وتقدير على ما لا مندوحة لهم عن الإقرار به، وقرأ الجمهور: ﴿أَمَّنْ﴾ بشد الميم، وهي (أَمْ) دخلت على (مَنْ)، وقرأ الأعمش: ﴿أَمَّنْ﴾ بفتح الميم مسهلة، ويحتمل - على هذه القراءة - أن تكون الألف للاستفهام و (مَنْ) ابتداء، وتقدير الخبر: يُكْفَرُ بنعمته و يُشْرَكُ به؟ ونحو هذا من المعنى. و«الحدائق» مُجْتَمَعُ الأشجار من العنب والنخيل وغير ذلك، وقال

التوبخ - على موضع الثبائن بين الله عز وجل وبين الأوثان والأنصاب، وقرأ جمهور الناس: ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بالثاء من فوق، وحكى المهدوي عن أبي عمرو، وعاصم: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء من تحت.

وفي هذا التفضيل بلفظة «خَيْرٌ» أقوال: أحدها أن التفضيل وقع بحسب معتقد المشركين؛ إذ كانوا يعتقدون أن في آلهتهم خيراً بوجه ما، وقالت فرقة: في الكلام حذف مضاف في الموضعين، التقدير: أتوحيد الله خير أم عبادة ما تشركون؟ فـ[ما] في هذا التأويل بمعنى الذي، وقالت فرقة: [ما] مصدرية، وحذف المضاف إنما هو أولاً، وتقديره: أتوحيد الله خير أم شِرْكُكُمْ؟ وقيل: «خَيْرٌ» هنا ليست بأفعل، وإنما هي بفعل، كما تقول: «الصلاة خيرٌ» دون تفضيل.

سورة النمل

سورة النمل

أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٦﴾
قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿١١٧﴾ بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ
فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿١١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
أَيُّذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا إِنَّمَا لُمُحْرَجُونَ ﴿١١٩﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا
هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٠﴾
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢١﴾
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٢﴾
وَيَقُولُ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢٣﴾ قُلْ عَسَى
أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بِعَظْمِ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٢٤﴾ وَلَنْ يَكُونَ
لِلدُّوفِضِلِ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمِمَّنْ غَابِ
فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كَثَبٍ مُبِينٍ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ
يُفَصِّلُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بَلْ أَكْثَرُ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٨﴾

التي يتبين لكل عاقل أنه لا مدخل ليصنم ولا ليوثن فيها، فهي عبّر ونعم، فالحجة قائمة بها من الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّ الْمُضْطَرَّ﴾ معناه: بشرط أن يشاء على المعتقد في الإجابة، لكن المضطر لا يجيبه متى أجيب إلا الله عز وجل، و﴿الْمُضْطَرَّ﴾ عام في كل ضر يكشفه الله تعالى عن عباده، وقرأ الحسن: ﴿وَيَجْعَلْكُمْ﴾ بياء على صيغة المستقبل، ورويت عنه بنون. وكل قرّن خلف للذي قبله، وقرأ الجمهور: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بالتاء على المخاطبة، وقرأ أبو عمرو وحده، والحسن، والأعمش بالياء على الغيبة. و﴿الظُّلُمَاتِ﴾ عام لظلمة الليل التي هي الحقيقة في اللغة، ولظلم الجهل والضلال والخوف التي هي مجازات وتشبيهات، وهذا كقول الشاعر:

تَجَلَّتْ عَمَائَاتُ الرُّجَالِ عَنِ الصَّبَا
وكما تقول: أَظْلَمَ الأمر وأتار، وقد تقدم اختلاف القراء في قوله: ﴿يُشْرِكُونَ﴾، وقرأ الحسن وغيره: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ الجمهور: ﴿تُشْرِكُونَ﴾ على المخاطب.

و﴿بِئْسَ الْخُلُقُ﴾ اختراعه وإيجاده، و﴿الْمَلَأَ﴾: هنا المخلوق من جميع الأشياء، لكن المقصود بني آدم من حيث ذكر الإعادة والبعث من القبور، ويحتمل أن يريد ب﴿الْمَلَأَ﴾ مصدر: خَلَقَ يَخْلُقُ، ويكون ﴿يَبْدَأُ﴾ و﴿يُبْدِئُ﴾ استعارة للإتقان والإحسان، كما تقول: فلان يبدئ

ويعيد في أمر كذا وكذا، أي يتقنه. و﴿الرِّزْقُ﴾ من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات، هذا مشهور ما يحسه البشر، وكم لله تبارك وتعالى من لطف خفي.

ثم أمر عز وجل نبيه أن يوقفهم على أن الغيب مما انفرد به الله عز وجل، ولذلك سُمي غيباً لغيبته عن المخلوقين، ورؤي أن هذه الآية من قوله: ﴿قُلْ لَا يَمْلِكُ﴾ إنما أنزلت لأن الكفار سألوا وألّخوا عن وقت القيامة التي يعدمون فنزلت هذه الآية بالتسليم لأمر الله تعالى وترك التحديد، وأعلم عز وجل أنه لا يعلم وقت الساعة سواه، فجاء بلفظ يعم السامع وغيره، وأخبر عن البشر أنهم لا يشعرون أيان يبعثون، وبهذه الآية احتجت عائشة رضي الله تعالى عنها على قولها: ﴿وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا يَعْلَمُ الْغَيْبَ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ﴾. والمكتوبة في قوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُ مِن نَّارٍ﴾. وقرأ جمهور الناس: ﴿إِنَّا﴾ بفتح الهمزة، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿إِنَّا﴾ بكسرهما، وهما لغتان.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾ أصله: تَذَارَكَ، أدغمت التاء في الدال بعد أن أبدلت، ثم احتجج إلى ألف الوصل، وقرأ أبي بن كعب: ﴿تَذَارَكَ﴾ فيما روي عنه، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾ على وزن افتعل، وهي بمعنى تفاعل، وقرأ سليمان بن يسار، وعطاء بن يسار: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾ بفتح اللام ولا همز ويتشديد الدال دون ألف، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو،

وجعفر، وأهل مكة: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾ وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿أَمْ تَذَارَكَ عَلْمُهُمْ﴾، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾، وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿بَلْ أَذَارَكَ﴾ بهمزة ومدة على جهة الاستفهام، وقرأ ابن محيصن: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾ على الاستفهام، ونسبها أبو عمرو الداني إلى ابن عباس والحسن.

فأما قراءة الاستفهام فهي على معنى الهزء بالكفرة، والتقرير لهم على ما هو في غاية البعد عنهم: أي: أَعْلِمُوا أَمْرَ الآخِرَةِ وأدركها علمهم؟ وأما القراءة الأولى فتحتمل معنيين: أحدهما: بَلْ أَذْرَكَ عَلْمُهُمْ، أي: تنافى، كما تقول: أدرك النبات وغيره، وكما تقول: هذا ما أدرك علمي من كذا وكذا، فهذا قد تتابع وتنافى علمهم بالآخرة إلى أن يعرفوا لها مقداراً فيؤمنوا، وإنما لهم ظنون كاذبة، أو ألا يعرفوا لها وقتاً، وكذلك أذَارَكَ وتَذَارَكَ وسواها، وإن حملت هذه القراءة معنى التوقيف والاستفهام ساعاً، وجاء إنكاراً لأن أدركوا شيئاً نافعاً، والمعنى الثاني: بَلْ أَذْرَكَ بمعنى يُذْرَكَ، أي أنهم في الآخرة يدرك علمهم وقت القيامة، ويرزوا العذاب والحقائق التي كذبوا بها، وأما في الدنيا فلا، وهذا تأويل ابن عباس رضي الله عنهما، ونحا إليه الزجاج، فقوله: ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ - على هذا التأويل - ظرف، وعلى التأويل الأول في معنى الباء، والعلم قد يتعدى بحرف الجر، تقول: علمي يزيد كذا، ومنه قول الشاعر:

﴿٧٧﴾ - ﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

الهاء في ﴿عَائِدَةً﴾ للمبالغة، أي: ما من شيء في غاية الغيب والخفاء إلا في كتاب عند الله في مكنون علمه، ثم نبّه تعالى على أن هذا القرآن أخبر بني إسرائيل بأكثر الأشياء التي كان بينهم اختلاف في صفتها، فجاءت في القرآن على وجهها، ثم وصفه تعالى بأنه هدى ورحمة للمؤمنين، كما أنه عمي على الكافرين المحتوم عليهم، ومعنى ذلك أن كفرهم استتب مع قيام الحجة ووضوح الطريق، فكثر عماهم بهذه الحجة، ثم أخبر أن ذلك كله بقضاء من الله تعالى وحكم قضاة فيهم وبينهم، ثم أمرهم بالتوكل عليه، وبالثقة بالله، وبأنه على الحق، أي: إنك الجدير بالثبوت والظهور، ثم سلّاه عنهم، وشبههم بالموتى من حيث الفائدة بالقول لهؤلاء وهؤلاء معدومة، فشبههم مرة بالموتى ومرة بالضم، قال العلماء: الميت من الأحياء هو الذي يلقي الله تعالى بكفره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واحتجت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أن النبي ﷺ أسمع موتى بدر بهذه الآية، ونظرت هي في الأمر بقياس عقلي، ووقفت مع هذه الآية، وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أنتم بأسمع منهم»، فيشبهه أن قصة بدر هي خرق عادة للنبي ﷺ في أن ردّ الله تعالى إليهم إدراكاً سمعوا به مقالته، ولولا إخبار رسول الله ﷺ بسماعهم لحملنا نداءه إليهم على معنى التوبيخ على من بقي من الكفرة، وعلى معنى

ثم ذكر الكفار أن هذه المقالة ممّا وعدوا بها قبل، وقد ورد ذلك على لسان جميع الأنبياء، وجزموا أن ذلك من أساطير الأولين، ثم وعظهم تبارك وتعالى بحال من عذب وبالحذر أن يُصيبهم ما أصاب أولئك، وهذا التحذير يقتضيه المعنى. ثم سلى الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام عنهم، وهذا بحسب ما كان عنده من الحرص عليهم والاهتمام بأمرهم. وقرأ ابن كثير: ﴿فِي صَيِّقٍ﴾

بكسر الضاد، ورويت عن نافع، وقرأ الباقون بفتحها، والضيق والضيق مصدران بمعنى واحد، وكره أبو علي أن يكون (صَيِّقٍ) كهَيْنٍ ولَئِنْ مسهلة من صَيِّقٍ، قال: لأن ذلك يقتضي أن تقام الصفة مقام الموصوف. ثم ذكر استعجال قریش لأمر الساعة والعذاب.

و ﴿رَدَفٍ﴾ معناه: قُرْبٍ وَأَزِفٍ، قاله ابن عباس وغيره، ولكنها عبارة عما يجيء بعد الشيء قريباً منه، ولكونه بمعنى هذه الأفعال تعدى بحرف وإلا فبإبه أن يتجاوز بنفسه. وقرأ الجمهور بكسر الدال، وقرأ الأعرج: ﴿رَدَفٍ﴾ بفتح الدال. وقرأ الجمهور من الناس: ﴿يَكُنُّ﴾ من أَكُنُّ، وقرأ ابن محيصن وابن السميع من كُنُّ: ﴿تَكُنُّ﴾، وهما بمعنى واحد.

وَلَهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ. وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْقُتَمَ اللَّهُ عَزَّ إِذَا وَلَوْ أُمَّدِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْقُتَمِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَاهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَخْتِمُ مِنْ كُلِّ مَمْرٍ قَبْرًا وَمَنْ يَكْذِبْ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا لَعَلَّكُمْ أَتَمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا طَعَمُوا فَهُمْ لَا يَبْطِئُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِسُكُونٍ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتُفْزِعُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَه دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَرَأَى الْجِبَالَ كَحُجْرٍ مَجْدَةٍ وَهِيَ تَكُومُ فِي السَّحَابِ صُغُرَ الْأَلْفِ الَّذِي أَفْعَى كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

٣٨٤

وَعَلِمِي بِأَسْوَامِ الْمِيَاهِ
ثم وصفهم عز وجل بأنهم في شك منها، ثم أردفهم بصفة أبلغ من الشك وهي العمى بالجملة عن أمر الآخرة، و﴿عَمُونَ﴾ أصله (عَمِيُونَ) فَعَلُونَ كَحَذَرُونَ وغيره.

﴿٧٧﴾ - ﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

استبعد الكفار أن تُبعث الأجساد والرمم من القبور، فذكر ذلك عنهم على جهة الرد عليهم، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿أَيْدًا﴾ و﴿أَيْثًا﴾ غير أنا أبا عمرو يمد وابن كثير لا يمد، وقرأ عاصم وحمزة: ﴿أَيْدًا﴾ و﴿أَيْثًا﴾ بهمزة فيهما، وقرأ نافع: ﴿إِذَا﴾ مكسورة الألف، وقرأ الباقون: ﴿أَيْدًا﴾ ممدودة الألف، بنونين وكسر الألف.

شفاء صدور المسلمين منهم، وقد عورضت هذه الآية بالسلام على القبور، وبما روي في ذلك أن الأرواح تكون في شفير القبور في أوقات، قالوا: فلو لم يسمع الميت لم يسلّم عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله غير معارض للآية؛ لأن السلام على القبور إنما هو عبادة، وعند الله الثواب عليها، وهو تذكير للنفس بحالة الموت وبحالة الموتى في حياتهم، وإن جوزنا مع هذا أن الأرواح في وقت على القبور، فإن سمع فليس الروح بميت، وإنما المراد بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ الأشخاص الموجودة مفارقة لأرواحها، وفيها نقول: خرقت العادة لمحمد ﷺ في أهل القلب، وذلك كنعو قوله عليه الصلاة والسلام في الموتى إذا دخل عليهم المكان: ﴿إِنَّهُمْ يَسْمَعُونَ خَفَقَ الثَّعَالِ﴾.

وقرأ ابن كثير: ﴿وَلَا تَسْمَعُ﴾ بالياء من تحت ﴿الضُّمِّ﴾ رفعاً، ومثله في الرُّوم، وقرأ الباقون: ﴿تَسْمَعُ﴾ بالثاء ﴿الضَّمُّ﴾ نصباً، وقرأ جمهور القراء: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعَمِّيِّ﴾ بالإضافة، وقرأ يحيى بن الحارث، وأبو حيو: ﴿بِهَادِي الْعَمِّيِّ﴾ بتثنية الدال ونصب ﴿الْعَمِّيِّ﴾، وقرأ حمزة وحده: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعَمِّيِّ﴾ بفعل مستقبل، وهي قراءة طلحة بن ثئاب، وابن يغمر، وفي مصحف عبدالله: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعَمِّيِّ﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَلَا رَفَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا انتحز وغد عذابهم الذي

تضمنه القول الآن من الله تعالى في ذلك - أي حتمه الله عليهم - وقضائه، وهذا بمنزلة قوله تعالى: ﴿حَقَّتْ لِمَنِ الْعَذَابُ﴾، فمعنى الآية: وإذا أراد الله تعالى أن ينفذ في الكافرين سابق علمه لهم من العذاب أخرج لهم دابة من الأرض، وروي أن ذلك حين ينقطع الخير، ولا يؤمر بمعروف، ولا يُنهى عن منكر، ولا يبقى مُنيب ولا نائب، كما أوحى الله تعالى إلى نوح: ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْمِكُمْ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، و﴿رَفَعَ﴾ عبارة عن الثبوت واللزوم، وفي الحديث: ﴿إِنَّ الدَّابَّةَ وَطْلُوعُ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ مِنْ أَوَّلِ الْأَشْرَاطِ - وَلَمْ يُعَيَّنِ الْأَوَّلَى - وَكَذَلِكَ الدُّجَالُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر الأحاديث والروايات أن الشمس آخرها؛ لأن التوبة تنقطع معها، ويُعطي الحال أن الإيمان لا يبقى إلا في أفراد، وعليهم تهب الريح التي لا تُبقي إيماناً، وحينئذ ينفذ ويُنفخ في الصور، ونحن نروي أن الدابة تسمى قوماً بالإيمان، ونجد أن عيسى ابن مريم عليه السلام يعدل بعد الدجال، ويؤمن الناس به، وهذه الدابة روي أنها تخرج من جبل الصفا بمكة، قاله عبدالله بن عمر، وقال عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهم أجمعين - نحوه، وقال: لو شئت أن أضع قدمي على موضع خروجها لفعلت، وروي عن قتادة أنها تخرج من يهامة، وروي أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنور نوح عليه السلام، وروي بعضهم عن حذيفة بن اليمان

أنها تخرج ثلاث خرجات، وروي أنها دابة مزغبة شعراء، وروي عن ابن عمر رضي الله عنهم أنها على خلقة الآدميين، وهي في السحاب وقوائمها في الأرض، وروي أنها جمعت من خلق كل حيوان، وروي الثعلبي عن ابن الزبير نحوه، وروي أنها دابة ماثوث نوعها في الأرض، فهي تخرج في كل بلد وفي كل قوم، فقوله - على هذا التأويل -: ﴿وَأَكْثَرُ﴾ إنما هو اسم جنس، وحكى السنقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعتها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَكْلِمُهُمْ﴾ من الكلام، وفي مصحف أبي: ﴿تُثْبِتُهُمْ﴾، وفسرهما عكرمة بـ (تَسْمِيَهُمْ)، قال قتادة: وفي بعض القراءة: ﴿تَحْدِثُهُمْ﴾، وقرأ أبو رزعة بن عمرو بن جرير: ﴿تَكْلِمُهُمْ﴾ بكسر اللام من الكلام وهو الجرح، قال أبو الفتح: هي قراءة ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والجحدري، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل ذلك والله تفعل تكلّمهم وتكليمهم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: روي في هذا أنها تمر على الناس فتسم الكافر في جبهته وترمده وتشتهه وربما خطمته، وربما تمسح على وجه المؤمن فتبيضه، ويُعرف - بعد ذلك - الإيمان والكفر من قبلها.

وقرأ الجمهور من القراء: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ بكسر ﴿إِنَّ﴾، وقرأ حمزة،

والكسائي، وعاصم بفتح الألف، وفي قراءة عبدالله: ﴿تَكَلَّمُهُمْ بِأَنَّ﴾، وهذا تصديق بالفتح، وعلى هذه القراءة يكون قوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ إلى آخر الآية من كلام الدابة، وروى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يكون ذلك من كلام الله عز وجل.

﴿٨٧﴾ - ﴿٨٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وأذكر يوم، وهذا تذكير بيوم القيامة، و﴿تَحْشُرُ﴾: تُجْمَع، و﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ يريد: من كل قرن من الناس متقدم؛ لأن كل عصر لم يخل من كفر بالله من لدن تفريق بني آدم، و﴿الْفُجُجِ﴾: الجماعة الكبيرة من الناس، والمعنى: بمن حاله أنه مكذب بآياتنا، و﴿يُزَعِّوْنَ﴾: معناه: يُكْفَوْنَ في السوق، أي: يُخْبَس أولهم على آخرهم، قاله قتادة وغيره، ومنه وازع الحبس، ومنه يقول عبدالشارف بن عبدالعزى:

فجاءوا عارضا بَرْدًا وجينا
كمثل السيل تركب وإزعينا
ثم أخبر تعالى عن توقيفه الكفرة يوم القيامة وسؤالهم على جهة التوبيخ: ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾ الآية، ثم قال: ﴿أَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على معنى استيفاء الحجج، أي: إن كان لكم عمل أو حجة فهاؤها. وقرأ أبو حية: ﴿أَمَّا ذَاكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بتخفيف الميم.

ثم أخبر عن وقوع القول عليهم، أي نفوذ العذاب وحتم القضاء، وأنهم لا ينطقون بحجة لأنها ليست لهم، وهذا في موطن من مواطن القيامة، وفي فريق من الناس؛ لأن

القرآن يقتضي أنهم يتكلمون بحجج في غير هذا الموطن.

ثم ذكر تعالى الآية في الليل وكونه وقت سكون ووداعة لجميع الحيوان، والمهم في ذلك بنو آدم، وكون النهار مبصرًا، أي: ذا إيبصار، وهذا كما تقول: ليل نائم ونهار صائم، ومعنى ذلك: يُنَام فيه، فكذلك هذا معناه: يُبصر فيه، فهو لذلك: ذا إيبصار، ثم تجوز بأن قيل: ﴿مُبْصِرًا﴾، فهو على النسب كعيشة راضية، والآيات في ذلك هي للمؤمنين والكافرين، هي آية لجميعهم في نفسها، لكن من حيث الانتفاع بها والنظر النافع إنما هو للمؤمنين فلذلك خُصوا بالذكر.

ثم ذكر تبارك وتعالى يوم النفخ في الصور، وهو القرن في قول جمهور الأمة، وهو مقتضى الأحاديث، وقال مجاهد: هو كهية البوق، وقالت فرقة: الصور جمع صورة، كتفزة وتفر وجفزة وجفر، والأول أشهر، وفي الأحاديث المتداولة أن إسرافيل عليه السلام هو صاحب الصور، وأنه قد جثا على ركبته الواحدة وأقام الأخرى وأمال خده والتقم القرن ينتظر متى يؤمر ويؤذن له بالنفخ، وهذه النفخة المذكورة في هذه الآية هي نفخة الفزع، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن الملك له ثلاث نفخات: نفخة الفزع، وهو فزع حياة الدنيا وليس بالفزع الأكبر، ونفخة الصعق، ونفخة القيامة من القبور. وقالت فرقة: إنما هما نفختان، كأنهم جعلوا الفزع والصعق في نفخة واحدة، واستدلوا على ذلك بقوله

تعالى: ﴿ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ لُحْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾، وقالوا: أخرى لا تقال إلا في الثانية.

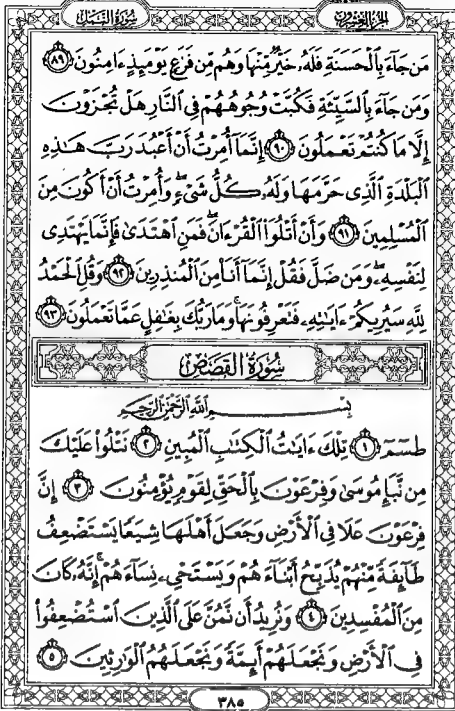
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول أصح، وأخرى تقال في الثالثة، ومنه قول ربعة بن مرقوم:

وَلَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بِآخِرِ ثَالِثِ
ومنه قوله تعالى: ﴿وَنُفْخَةُ الثَّالِثَةِ﴾ الآية، وأما قول الشاعر:
جَعَلْتُ لَهَا عَوْدَيْنِ مِنْ
نَسَمٍ وَآخِرٍ مِنْ ثَمَامَةٍ
فهو يحتمل أن يريد ثانيًا أو ثالثًا فلا حجة فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَنفِخُ﴾ - وهو أمر لم يقع - يُعَدُّ إشعارًا بصحة وقوعه، وهذا معنى وضع الماضي موضع المستقبل، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء فيمن قضى الله تعالى من ملائكته وأنبيائه وشهداء عبيده ألا ينالهم فزع النفخ في الصور، وقال أبو هريرة: هي في الشهداء، وذكر الرُّمَّانِي أنه النبي ﷺ، وقال الفزع مقاتل: هي في جبريل وميكائيل وإسرافيل وملئ الموت، وإذا كان الأكبر لا ينالهم فهم خريون ألا ينالهم هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: على أن هذا في وقت ترتب وذلك في وقت أمن؛ إذ هو إطباق جهنم على أهلها.

وقرأ جمهور القراء: ﴿وَكُلُّ أَتَوْهُ﴾ فآخرين على وزن فاعلوه، وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: ﴿أَتَوْهُ﴾ على صيغة الفعل الماضي، وهي قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة، وقرأ



وقتادة: «آتاة» على الإفراد إتباعاً للفظ [كُل]، وإلى هذه القراءة أشار الزُّجاج ولم يذكرها.

و «الذَّخِرُ»: المتذلل الخاضع، قال ابن عباس، وابن زيد: الذَّخِرُ: الصَّاعِر، وقرأ الحسن: «ذَخِيرِينَ» بغير ألف، وتظاهرت الروايات بأن الاستثناء في هذه الآية إنما أريد به الشهداء؛ لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وهم أهل للفرع لأنهم بشر لكنهم فُضِّلوا بالأمن في ذلك اليوم.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

هذا وصف حال الأشياء يوم القيامة عقب التَّفْخ في الصُّور، والرُّؤية هي بالعين، وهذه الحال للجبال في أول الأمر تسير وتموج، وأمر الله تبارك وتعالى بنسفها ونفشها خلال ذلك فتصير كالعهن، ثم حتى تصير في آخر الأمر هباءً منثوراً، و«الجمود»: الثَّصامُ في الجوهر، قال ابن عباس: [جَابِذَةً]: قائمة، ونظيره قول الشاعر:

بَارِعَنَ مِثْلَ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أَنَّهَمْ
وُقُوفٌ لِحَاجِ وَالرُّكَّابِ تَهْمَلُجُ
و «صُنْعَ اللَّهِ»: مصدر معروف، والعامل فيه فعلٌ مضمر من لفظه، وقيل: هو نصبٌ على الإغراء، بمعنى: انظروا صنيع الله، و«الِإِثْقَانُ»: الإحسان في المعمولات، وأن تكون حسناً وثيقة القوة، وقرأ أبو جعفر، وأبو عمرو، وابن عامر: «يَفْعَلُونَ» بالياء، وقرأ الباكون: «تَفْعَلُونَ» بالتاء على الخطاب.

و «الْحَسَنَةُ»: الإيمان، وقال الحسن، وابن عباس، والنَّخَعِي،

حسنه، وقال ابن زيد: يعطى بالواحدة عشرة، والداعية إلى هذا التقدير أن الحسنة لا يتصور بينها وبين الثواب تفضيل، ويحتمل أن يكون «خَيْرٌ» ليس للتفضيل، بل اسمٌ للثواب والنعمة، ويكون قوله: «مِنْهَا» لابتداء الغاية، أي: هذا الجزاء الذي يكون له هو من حسنته ويستببها، هذا قول الحسن، وابن جريج، وقال عكرمة: ليس شيء خيراً من لا إله إلا الله، وإنما له الخير منها.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «مِنْ فَرَعٍ يَوْمَئِذٍ» بالإضافة، ثم اختلفوا في فتح الميم وكسرها من «يَوْمَئِذٍ» فقرأ أكثرهم بفتح الميم على بناء الظرف لما أُضيف إلى غير ممكن، وقرأ إسماعيل بن جعفر عن نافع بكسر

الميم على إعمال الإضافة؛ وذلك أن الظروف إذا أُضيفت إلى غير ممكن جاز بناؤها وإعمال الإضافة فيها، ومن ذلك قول الشاعر:

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا
وَقُلْتُ أَلَمَّا أَضْحَ وَالشَّيْبُ وَانْعُ
فإنه يروى: «على حين» بفتح النون، و «على حين» بكسرها، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «مِنْ فَرَعٍ» بالتنوين وترك الإضافة، ولا يجوز - مع هذه القراءة - إلا فتح الميم من «يَوْمَئِذٍ».

و «الْيَتِيمَةُ» التي في هذه الآية هي الكفر والمعاصي يَمُن حتم الله تبارك وتعالى عليه من أهل المشيئة بدخول النار، و«تَكُنَّتْ» معناه: ثلثت في النار، وجاء هذا كُتاً من حيث خَلَقَهَا في الدنيا يعطي ارتفاعها، وإذا كُتبت الوجوه فسائر البدن أدخل النار؛ إذ

الوجه موضع الشرف والحواس، وقوله: ﴿هَلْ يُجِزُّونَكَ﴾ بمعنى: فقال لهم ذلك، وهذا على جهة التوبيخ.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمِزْتُ﴾ بمعنى: قل يا محمد لقومك: إِنَّمَا أَمِزْتُ، و«الْبَلَدَةُ» المشار إليها مكَّة، وقرأ جمهور الناس: ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ وقرأ ابن عباس، وابن مسعود: ﴿الَّتِي حَرَّمَهَا﴾، وأضاف - في هذه الآية - التحريم إلى الله تعالى من حيث ذلك بقضائه وسابق علمه، وأضاف النبي ﷺ ذلك إلى إبراهيم في قوله: ﴿إِن إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ﴾ من حيث كان ظاهر ذلك بدعائه ورغبته وتبليغه لأُمَّته، فليس بين الآية والحديث تعارض، وفي قوله: ﴿حَرَّمَهَا﴾ تعديد للنعمة على قریش في رفع الله تعالى عن بلدهم الغارات والفتن الشائعة في جميع بلاد العرب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ كُنْ مِّنْهُمْ﴾ معناه: بالملك والعبودية. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَنْ أَتْلُوهُ﴾ عطفاً على قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ﴾، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنْ أَتْلُ الْقُرْآنَ﴾ بمعنى: وأن قيل لي: أتلى القرآن، و«أتلى» معناه: تابع بقراءتك بين آياته واشترط، وتلاوة القرآن سبب الاهتمام إلى كل خير.

وقوله تعالى: ﴿فَتَنَّا أَهْلَكَ﴾ معناه: من تكسب الهدى والإيمان ونظر نظراً ينجي فلنفسه سعيه. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فتنبئة الهدى والضلال إلى البشر من

هذه الأمة إنما هي بالتكسب والحرص والحال التي عليها يقع الثواب والعقاب، والكل أيضاً من الله تعالى بالاختراع.

وقوله تعالى: ﴿سَيُكْرَهُ أَبْنَاؤُكَ﴾ توعد بعذاب الدنيا كبدر والفتح ونحوه، وبالعذاب الآخرة. وقرأ جمهور القراء: ﴿عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء، وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿عَمَّا﴾ بالثاء من فوق على مخاطبتهم.

كَمُلْ تفسیر سورة التمل والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القصص

هذه السورة مكَّية إلا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ إِلَهِي فَرْضٌ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَيْتَ لِيَ مَعَادٍ﴾، نزلت هذه بالجحفة في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، قاله ابن سلام وغيره، وقال مقاتل: فيها من المدني: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾.

① - ② تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور بما أغنى عن الإعادة، فمن قال: «إن هذه الحروف من أسماء الله تبارك وتعالى» قال: إن الطاء من الطول الذي لله سبحانه، والسين من السلام، والميم من

المنعم، أو من الرحيم، ونحو هذا. وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ يتقدر موضعها بحسب كل قول من الأقوال في الحروف، فمن جعل ﴿طسَّ﴾ مثلاً لحروف المعجم جاءت الإشارة بـ ﴿تِلْكَ﴾ إلى حروف المعجم، ومن قطعها قال: ﴿تِلْكَ﴾ في مواضع هذه، وساغ هذا من حيث لم تكن حاضرة عتيده، بل هي أقوال تقتضي بعضها شيئاً فشيئاً، فسانع أن يقال في الإشارة إليها: ﴿تِلْكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأصل أن (تلك) إشارة إلى ما غاب، و (هذه) إشارة إلى ما حضر، وقد تتداخل متى كان في الغيبة حصول وثقة به يقوم مقام الحضور، ومتى كان في الحضور بُغْداً ما يقوم مقام الغيبة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يُمُوسَى﴾ لما كان موسى لا يرى ربَّه تعالى، فهو وعصاه في منزل غيب، فساغ ذلك. ومن النقص قول المؤلف لكتاب: «هذا كتاب»، وما جرى هذا المجرى فتنيعه، ويشبه في آيتنا هذه أن تكون ﴿تِلْكَ﴾ بمنزلة: هذه آيات الكتاب المبين، ويشبه أن تكون متمكنة من حيث الآيات كلها وقت هذه المخاطبة لم تكن عتيده. و«تتلاً» معناه: تُقَصُّ ونتابع القصص، وخص المؤمنين في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رِؤُوسُونَ﴾ من حيث أنهم هم المستفعمون بذلك دون غيرهم.

و «عَلَا فِي الْأَرْضِ» من علو الطغيان والتغلب. وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ» يريد أرض مصر وموضع ملكه، ومتى جاءت الأرض هكذا

تخفيفاً، والتخفيف الفاشي فتح النون، قاله ابن جني، ونسب المهدوي هذه القراءة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، و﴿أَيُّكُمْ﴾: جمهور الماء ومعظمه، والمراد بيل مصر.

وروي في قصص هذه الآية أن أم موسى عليه السلام - واسمها يوحانة - أخذته ولفته في ثيابه، وجعلت له تابوتاً صغيراً، وشدته عليه بقفل وعلقت عليه مفتاحه وأسلمته ثقة بالله وانتظاراً لوعده، فلما غاب عنها عاودها خوفها، وانشغلت عليه، وأقنطها الشيطان، فاهتمت به وكادت تفتضح، وجعلت الأخت تقصه، أي: تطلب أثره.

﴿١١﴾ - ﴿١٠﴾ تفسير قوله عز وجل: الالتقاط: اللقاء عن غير قصد، ومنه قول الشاعر:

وَمَنْ هَلْ وَرَدْتُهُ الْتِقَاطًا
لَمْ أَلْقُ إِذْ وَرَدْتُهُ فَرَّاطًا
و﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾: أهلكه، ويروى أن آسية امرأة فرعون رأت الثابوت يعوم في اليم فأمرت بسوقه وتجنجه، فرأت فيه صبياً صغيراً فرحمته وأحبته، وقال السدي: إن جواربها كان لهن فُرْضة في القصر على النيل، يدخل الماء فيها إلى القصر حتى يئلكه في المرافق والمنافع، فبينما هن يغسلن في تلك الفُرْضة إذ جاء الثابوت فحملنه إلى مولاتهن، وقال ابن إسحق: رآه فرعون يعوم فأمر بسوقه، وآسية جالسة معه، فكان ما تقدم.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ هي لام العاقبة، لا أن القصد بالالتقاط

كان لأن يكون عدواً، وقرأ الجمهور: ﴿وَحَزَنًا﴾ بفتح الحاء، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش: ﴿وَحَزْنًا﴾ بضم الحاء وسكون الزاي، و﴿الْخَاطِئَةُ﴾: مُتَعَمِّدُ الْخَطِئِ، وَالْمُخْطِئَةُ: الذي لا يتعمده.

واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون: ﴿فَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَئِكَ﴾ - فقالت فرقة: كان ذلك عند التقاط الثابوت لما أشعرت فرعون به؛ إذ سبق إلى وهمه أنه من بني إسرائيل، وأن ذلك قُصِدَ بِهِ التَّخْلُصُ من الذَّنْبِ، فقال: عليّ بالذُّبَّاحِينَ، فقالت امرأته ما ذكر، فقال فرعون: أمّا لي فلأ، قال النبي ﷺ: «لو قال: نعم لأمن بموسى ولكان قُرّة عين له»، وقال السدي: بل رُبُّنُهُ حتى درج، فرأى فرعون فيه شهامة، وظنه من بني إسرائيل، وأخذه في يده، فمدّ موسى عليه الصلاة والسلام يده وبتف لحية فرعون، فهَمَّ حينئذ بدبحه، وحينئذ خاطبته بهذا، واختبرته له في الجمرة والياقوتة فاحترق لسانه، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي بأنه الذي يفُسد المُلْكُ على يديه، قاله قتادة وغيره، وقرأ ابن مسعود: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ قُرّة عَيْنٍ لِي وَلَئِكَ﴾، قدّم وأخر.

وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ﴾ عبارة عن دوام الحال واستقرارها، وهي كظُلٍّ، ومنه قول أبي سفيان للعباس يوم الفتح: «لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك عظيماً»، يريد: استقرّ به حاله عظيماً، وقرأ جمهور الناس: ﴿قَرِيعًا﴾ من الفراغ، واختلف في معنى ذلك - فقال ابن

عباس رضي الله عنهما: فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام، وقال مالك: هو ذهاب العقل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَدََّهُمْ هَوَاءً﴾. وقالت فرقة: فارغاً من الصبر، وقال ابن زيد: فارغاً من وعد الله تبارك وتعالى ووحيه إليها، أي: تناسه بهمهم وفتر أثره في نفسها، وقال لها إبليس: فررت به من قتل لك فيه أجر، وقتلته بيدك، وقال أبو عبيدة: فارغاً من الحزن؛ إذ لم يغرق، وقرأ فضالة بن عبيد - ويقال: ابن عبيدة -، والحسن: ﴿فَرِيعًا﴾ من الفزع - بالفاء والزاي -، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿قَرِيعًا﴾ بالقاف والراء، من القارعة، وهي الهُمُّ العظيم، وقرأ بعض الصحابة رضي الله عنهم: ﴿فَرِيعًا﴾ بالفاء المكسورة والراء الساكنة والغين المنقوطة، ومعناها: ذاهباً هدرأ تالفاً من الهُمِّ والحزن، ومنه قول طلحة الأسدي:

فَإِنْ يَكُ قَتَلِي قَدْ أَصِيبَتْ نَفْسُهُمْ
فَلَنْ يَذْهَبُوا فِرْعَاوًا بِقَتْلِ جِبَالِ
أي: هدرأ تالفاً لا ينفع. وقرأ الخليل بن أحمد: ﴿فَرِيعًا﴾ بضم الفاء والراء.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أي أمر ابنها، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «كادت أم موسى أن تقول: وا ابنه، وتخرج صائحة على وجهها». «والرئط على القلب» تأنيسه وتقريته، ومنه قولهم للشجاع والصابر في المضائق: رابط

الجأش، قال قتادة: ربط على قلبها بالإيمان. وقوله تعالى: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المصدقين بوعده الله تبارك وتعالى، وبما أوحى إليها به.

ثم قالت لأخت موسى طمعاً منها وطلباً له: ﴿فَقَصِيهِ﴾، والقَصُّ: طلب الأثر، فيروى أن أخته خرجت في سبك المدينة تبحث متخفية، فرأته عند قوم من حاشية آل فرعون يطلبون له امرأة تُرضعه حين لم يقبل المراضع، و﴿عَنْ جُثْبٍ﴾ أي: ناحية من غير قصد ولا قُرب يشعرها به، ويقال: «عن جنبابة» و«عن جَنَاب»، ومنها قول الشاعر:

لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي عَنْ جَنَابِ حَمَامَةٍ
بِعُسْفَانَ أَهْلِي وَالْقَوَاذِ حَزِينُ
ومن الجنبابة قول الأعشى:

أَتَيْتُ حُرَيْشاً زَائِراً عَنْ جَنَابِي
وَكُنَ حُرَيْشٌ عَنْ عَطَائِي جَائِداً
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذه الألفاظ: عن مكان جُثْب، أو عن بُعد، ومعنى الآية: عن بُعد، لم تَذُك منه فيشعر بها، وأشد أبو عبيدة لعلمة:

فَلَا تُخْرِمْتَنِي نَائِلاً عَنْ جَنَابِي
فَإِنِّي أَمْرٌ وَسَطُ الْقِبَابِ غَرِيبُ
وقرأ قتادة: ﴿عَنْ جُثْبٍ﴾ بفتح الجيم وسكون النون، وهي قراءة الحسن، والأعرج، وقرأ: ﴿عَنْ جَانِبٍ﴾ النعمان بن سالم، وقرأ الجمهور: ﴿عَنْ جُثْبٍ﴾ بضم الجيم والنون. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ معناه: لا يشعرون أنها أخته، وهذا من جملة لطائف الله تبارك وتعالى له ولأنه حسب الوعد الذي أوحى إليها. ويقال: بصرتُ بالشيء

وَأَبْصَرْتُ بمعنى واحد متقارب، قال المهدوي: وقيل: ﴿عَنْ جُثْبٍ﴾ معناه: عن شوق، وهي لغة لجذام، يقولون: جنبت إلى لقائك، أي اشتقت إليه، وقال قتادة: معنى ﴿عَنْ جُثْبٍ﴾ أنها تنظر إليه كأنها تريد.

عز وجل: ﴿١٢﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ يقتضي أن الله تعالى حُضَّه من الامتناع من شدي النساء بما يشد به عن عرف الأطفال، وهو

تحريم تبغيض، و«المراضع» جمع مَرَضِع، واستعمل دون هاء التأنيث لأنه لا يلتبس بالرجال. وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي من أول أمره، و﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ مبني، والضمير في ﴿فَقَالَتْ﴾ لأخت موسى، قال النقاش: اسمها مريم، و﴿يَكْفُلُونَهُ﴾ معناه: يُحسنون تربيته وإرضاعه. وعلم القوم أن مكلمتهم من بني إسرائيل، وكان ذلك عرف بني إسرائيل، أن يكونوا مراضع وخدمة. وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ يحتمل أن الضمير يعود على الطفل، فقالوا لها: إنك قد عرفته فأخبرينا من هو؟ فقالت: ما أردت إلا أنهم ناصحون للملك، فتخلصت منهم بهذا التأويل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يعود الضمير على الطفل

وَمَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ مَا يَنْتَهِ حَكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا وَهَذَا مِنْ عَدُوِّ هَذَا فَاسْتَعْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٤﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَتَمَمْتُ عَلَىٰ قَلْبٍ فَأَكُونَ ظهيرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٥﴾ فَاصْبِرْ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً تَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرْتَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَنَجْزِيكَ مِنْهُ ثَمِينًا ﴿١٦﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَرِفَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَكُونُوا أَبْنَاءَ إِثْرِي أَوْ يَكُونُوا أَبْنَاءَ إِثْرِي أَوْ يَكُونُوا جِبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَتَمِّمَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَصَلِّينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّكَ لَمَلَكٌ يَأْتِيكَ بِكَ الْيَقِينُ فَاتَّبِعْنِي فَإِنَّهُ لَمِنْ الْجَوَارِحِ ﴿١٨﴾ خَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً تَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾

٣٨٧

ولكن يكون النصح له بسبب الملك وحرصاً على الترتف إليه والقرب منه، وفي الكلام هنا حذف يقتضيه الظاهر، وهو أنها حملتهم إلى أم موسى وكلموها في ذلك، فَذَرَتْ عليه وَقَبِلَهَا، وحظيت بذلك، وأحسن إليها وإلى أهل بيتها، وَفَرَّتْ عَيْنَهَا، أي سُرَتْ بذلك، وروي أن فرعون لعنه الله تعالى قال لها: ما سبب قبول هذا الطفل؟ قالت له: «إني طيبة الرائحة طيبة اللبن، ودعم الفرح بارد، وعين المهموم حرة سخنة، فمن هذا المعنى قيل: قَرَّتْ العين وسخت، وقرأ يعقوب: ﴿تَقَرَّتْ﴾ بنون مضمومة وكسر القاف. و«وَعَدُ الله» تعالى المشار إليه هو الذي أوحاه إليها أولاً، إمَّا بِمَلَكٍ أَوْ تَعَلُّهُ، وإمَّا بِالْهَامِ حسب اختلاف المفسرين في ذلك، والقول بالإلهام

يضعف أن يقال فيه: «وغد». وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَرْيَدُ الْقَبْطَ. وَالْأَشَدُّ: جمع شدة، من السنين، فقالت فرقة: بلوغ الخُلم، وهي مدة خمسة عشر عاماً، وقالت فرقة: ثمانية عشرة عاماً، وقال السدي: عشرون، وقالت فرقة: خمسة وعشرون، وقالت فرقة: ثلاثون، وقال مجاهد وابن عباس: ثلاثة وثلاثون، وقالت فرقة عظيمة: ستة وثلاثون، وقال مجاهد وقتادة: الاستواء: أربعون سنة، وقال مكي: وقيل هو ستون سنة، وهذا ضعيف، والأشدُّ: شِدَّةُ البَذَنِّ واستحكام أسنره وقوته، ﴿وَأَسْتَوَى﴾ معناه: تكامل عقله وحزمه، وذلك - عند الجمهور - مع الأربعين، و«الحُكْمُ»: الحكمة، و«العلمُ»: المعرفة بشرع إبراهيم عليه السلام، وهي مقدمات لنبوته عليه السلام.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ - فقال السدي: كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلُّق بفرعون، وكان يركب مواكبه حتى أنه كان يدعى موسى بن فرعون، قالوا: فركب فرعون يوماً وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف، ثم علم موسى عليه السلام بركوب فرعون فركب بعده ولحق بتلك المدينة في وقت القائلة، وهو حين الغفلة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال أيضاً: هو بين العشاء والعَظَمَةِ، وقال ابن إسحاق: بل المدينة مُصْرُ نفسها، وكان موسى في هذا الوقت قد بدَّت

منه مجاهدة لفرعون وقومه بما يكرهون، فكان مختفياً بنفسه مخوفاً منهم، فدخل متكرراً مغتلاً للناس، وقال ابن زيد: بل كان فرعون قد نابذه وأخرجه من المدينة وغاب عنها سنين ففشا أمره، وجاء الناس على غفلة بنسيانهم لأمره وبُغْد عهدهم به، وقيل: كان يوم عيد. وقوله تعالى: ﴿يَقْتَتِلَ﴾ في موضع الحال، أي: مُقْتَتِلِينَ. و«شيعته»: بنو إسرائيل، و«عَدُوّه»: القبط. وذكر الأخفش سعيد بن مسعدة أنها «فاستغاثه» بالعين غير معجمة، وهي تصحيف لا قراءة. وذكر الثعلبي أن «الذي من شيعته» هو الساميري، وأن الآخر طباطب فرعون.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا﴾، ﴿هَذَا﴾، حكاية حال قد كانت حاضرة، ولذلك عبّر بـ ﴿هَذَا﴾ عن غائب ماضٍ، و«الوَكْزُ»: الضرب باليد مجموعاً كعقد ثلاث وسبعين. وقرأ ابن مسعود: ﴿فَلَكَزَهُ﴾، والمعنى واحد إلا أن «الَلَكَزَ» في اللحي، و«الوَكْزُ» على القلب، وحكى الثعلبي أن في مصحف ابن مسعود: ﴿فَلَكَزَهُ﴾، والمعنى واحد. و«نَفَقَ» عَلَيْهِ معناه: قَتَلَهُ، وكان موسى عليه الصلاة والسلام لم يرد قتل القبطي لكن وافقت وكزته الأجل وكان عنها موته، فندم موسى عليه السلام، ورأى أن ذلك من نزع الشيطان في يده، وأن الغضب الذي اقترنت به تلك الوكزة كان من الشيطان ومن هَفْزِهِ، وهو نصٌّ على ذلك، وبهذا الوجه جعله من عمله، وكان فضل قوته عليه السلام بما

أفرط في وقت غضبه بأكثر مما يقصد.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

ثم إن ندامة موسى عليه السلام حملته على الخضوع لربه تعالى، والاستغفار عن ذنبه، فغفر له خطأه ذلك، قال قتادة: عرف - والله - المخرج فاستغفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يزل عليه السلام يُعيد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غُفِرَ له، حتى أنه في القيامة يقول: «وَقَتَلْتُ نَفْساً وَلَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهِ» حسب ما صحَّ في حديث الشفاعة.

ثم قال عليه السلام معاهداً لربه عز وجل: «رَبِّ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَبِسَبِّ إِحْسَانِكَ وَغُفْرَانِكَ فَأَنَا مُلْتَزِمٌ أَلَّا أَكُونَ مُعِيناً لِلْمَجْرَمِينَ»، هذا أحسن ما تُؤوَّل، وقال الطبري: «إِنَّهُ قَسَمَ، أَقْسَمَ بنعمة الله تبارك وتعالى»، ويضعفه صورة جواب القسم؛ فإنه غير متمكن في قوله: «فَلَنْ أَكُونَ»؛ لأن القسم لا يتلقى بـ (لَنْ)، والفاء تمنع أن تُنْزَلَ (لَنْ) منزلة (لَا) أو (مَا) فتأمله، واحتج الطبري بأن في قراءة عبدالله: «فَلَا تَجْعَلْنِي ظَهِيْراً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واحتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية في [مَنَع] خدمة أهل الجور ومعونتهم في شيء من أمرهم، ورأوا أنها تتناول ذلك، نصٌّ عليه عطاء بن أبي رباح.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ

خَائِفًا عِبَارَةً عَنْ كَوْنِهِ دَائِمَ الْخَوْفِ فِي كُلِّ أَوْقَاتِهِ، كَمَا تَقُولُ: أَصْبَحَ زَيْدٌ عَالِمًا. وَ﴿يَرْقُبُ﴾ مَعْنَاهُ: عَلَيْهِ رَقِيبٌ مِنْ فَعْلِهِ فِي الْقَتْلِ فَهُوَ يَتَحَسَّسُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَتَرٌ وَهُوَ بِحَالَةِ التَّرَقُّبِ وَإِذَا ذَلِكَ الْإِسْرَائِيلِيُّ الَّذِي قَاتَلَ الْقِبْطِيَّ بِالْأَمْسِ يِقَاتِلُ آخَرَ مِنْ الْقِبْطِ، وَكَانَ قَتْلُ الْقِبْطِيِّ قَدْ خَفِيَ عَنِ النَّاسِ وَانْتَهَمَ، فَلَمَّا رَأَى مُوسَى الْإِسْرَائِيلِيُّ اسْتَصْرَخَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ، بِمَعْنَى صَاحٍ بِهِ مَسْتَغِيثًا، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَرِغَ
كَانَ الصَّرَاخُ لَهُ فَرِغَ الظَّنَابِيبِ
فَلَمَّا رَأَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قِتَالَهُ
لِلَّذَلِكَ الْآخَرِ أَعْظَمَ ذَلِكَ، وَقَالَ لَهُ
مَعَاتِبًا وَمُؤَنِّبًا: ﴿إِنَّكَ لَنَرَى ثُبِينَ﴾،
وَكَانَتْ إِرَادَةُ مُوسَى - مَعَ ذَلِكَ - أَنْ
يَنْصُرَ الْإِسْرَائِيلِيَّ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُمَا
وَجَسَّ الْإِسْرَائِيلِيَّ وَفَزَعَ مِنْهُ،
وظَنَّ أَنَّهُ رُبَّمَا ضَرَبَهُ، وَفَزَعَ مِنْ قُوَّتِهِ
الَّتِي رَأَى بِالْأَمْسِ، وَشَهِدَ أَمْرَ
الْقَتِيلِ.

١٩ - ٢٠ تفسير قوله عز وجل:

قَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ: ﴿يَطِشُّ﴾
بِكَسْرِ الطَّاءِ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ، وَأَبُو
جَعْفَرٍ: ﴿يَنْطِشُّ﴾ بِضَمِّ النَّوْ، وَهَذَا
لِغَتَانِ، فَقَالَ الْإِسْرَائِيلِيُّ لِمُوسَى
مَعْنَى الْآيَةِ بِلِسَانِهِ وَفَرَمَنَهُ فَشَهِرَ
أَمْرَ الْقَتِيلِ. وَالْجَبَابِرَةُ شَأْنُهُمْ قَتْلُ
النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ فَلِلَّذَلِكَ جَعَلَهُ
الْإِسْرَائِيلِيَّ كَذَلِكَ وَنَفَى عَنْهُ
الْإِصْلَاحَ. قَالَ الشَّعْبِيُّ: مَنْ قَتَلَ
رَجُلَيْنِ فَهُوَ جَبَّارٌ، قَالَ الشَّعْبِيُّ:

وَلَمَّا اشْتَهَرَ أَنَّ مُوسَى قَتَلَ الْقَتِيلَ،
وَكَانَ قَوْلُ الْإِسْرَائِيلِيِّ يَغْلِبُ عَلَى
النَّفُوسِ تَصْدِيقُهُ عَلَى مُوسَى مَعَ مَا
كَانَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ
الْمَقْدَمَاتِ أَنَّهُ الْمَشَارُ إِلَى بَفْسَادِ
الْمَمْلَكَةِ، فَانْفُذَ فِرْعَوْنُ إِلَيْهِ مِنْ
يَطْلُبُهُ مِنْ جَنْدِهِ وَيَأْتِي بِهِ لِلْقَتْلِ،
فَخَرَجَ عَلَى الطَّرِيقِ الْأَعْظَمِ، وَأَخَذَ
رَجُلًا - يَقَالُ: إِنَّهُ مُؤْمِنٌ آلَ فِرْعَوْنَ،
وَيَقَالُ: إِنَّهُ غَيْرُهُ - فِي بَيِّنَاتِ الطَّرِيقِ
قَصْدًا إِلَى مَوْضِعِ مُوسَى فَلَبِغَهُ وَقَالَ
لَهُ: ﴿إِنَّكَ أَلْسَلَكُ﴾ الْآيَةَ.

و﴿يَسْتَنِّي﴾ مَعْنَاهُ: يُسْرِعُ فِي مَشْيِهِ،
قَالَهُ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ، وَهُوَ دُونَ
الْجَرِيِّ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَاهُ:
يَعْجَلُ وَلَيْسَ بِالشَّدِّ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:
وَهَذِهِ نَزْعَةُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي سَعْيِ
الْجَمْعَةِ، وَالْأَوَّلُ عِنْدِي أَظْهَرَ فِي
هَذِهِ الْآيَةِ.

و﴿يَأْتِيْرُونَ﴾ وَزَنَهُ يَفْتَعِلُونَ،
وَيَفْتَعِلُونَ يَأْتِي كَثِيرًا بِمَعْنَى
يَتَفَاعَلُونَ، وَمِنْهُ ائْذَوْجُ بِمَعْنَى
تَزَاوَجَ، وَذَهَبَ ابْنُ قَتَيْبَةَ إِلَى أَنَّهُ
بِمَعْنَى: يَأْمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، قَالَ: لَوْ
كَانَ ذَلِكَ لَكَانَ «يَتَأْمُرُونَ».

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:
وَذَهَبَ عَنْهُ أَنَّ يَفْتَعَلَ بِمَعْنَى يَتَفَاعَلُ،
وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿وَأَتَّبِعُوا بَيْنَكُمْ بَعْرَوِيًّا﴾،
وَقَدْ قَالَ الثَّوْرِيُّ بْنُ تَوَلَّبَ:

أَرَى النَّاسَ قَدْ أَخَذُوا شَيْبَةً
وَفِي كُلِّ حَادِثَةٍ يُؤْتَمَرُ
وَأَنشَدَ الطَّبْرِي:

مَا تَأْتِيْمَزُ فَيَسْأَلُ
رُكَّ فِي يَمِينِكَ أَوْ شِمَالِكَ

وَمِنْهُ قَوْلُ رَبِيعَةَ بْنِ جَثْمٍ:
أَخَارَ بْنَ كَغَيْبٍ كَأَنِّي خَيْرُ
وَيَغْدُوا عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتِيْمَزُ
فَخَرَجَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَقْلَتَ
مِنَ الْقَوْمِ فَلَمْ يَجِدْهُ، وَخَرَجَ
بِحَكْمٍ فَزَعَهُ إِلَى الطَّرِيقِ إِلَى
مَدِينٍ، وَهِيَ مَدِينَةُ قَوْمِ شَعِيبَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ الطَّرِيقَ،
وَلَمْ يَصْحَبْ أَحَدًا، فَركبَ مَجْهَلَتَهَا
وَائْتَمَّ بِاللَّهِ تَعَالَى وَمَتَوَكَّلًا عَلَيْهِ. قَالَ
السَّيِّدِيُّ وَمِقَاتِلُ: قَرَوِي أَنْ اللَّهَ
تَعَالَى بَعَثَ إِلَيْهِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
- وَقِيلَ: مَلَكًا غَيْرَهُ - فَسَدَّدَهُ إِلَى
الطَّرِيقِ وَأَعْطَاهُ عَصَاً يَقَالُ هِيَ
كَانَتْ عَصَاهُ، وَرَوَى أَنْ عَصَاهُ إِنَّمَا
أَخَذَهَا لِرِعْيَةِ الْغَنَمِ فِي مَدِينٍ، وَهُوَ
أَصْحُ وَأَكْثَرُ، وَبَيْنَ مَدِينٍ وَمِصْرَ
ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ، قَالَهُ ابْنُ جُبَيْرٍ وَالنَّاسُ،
وَكَانَ مُلْكُ مَدِينٍ لِغَيْرِ فِرْعَوْنَ،
وَحَكَى الطَّبْرِيُّ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، أَوْ
ابْنِ أَبِي تُجَيْجٍ - شَكَّ الطَّبْرِيُّ - أَنَّهُ
قَالَ: إِنَّ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ هُوَ
الْإِسْرَائِيلِيُّ، فَتَنَاهَا مُوسَى عَنْ ذَلِكَ
بَعْدَ أَنْ قَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَنَرَى
ثُبِينَ﴾، فَفَزَعَ الْإِسْرَائِيلِيُّ عِنْدَ ذَلِكَ
مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَخَاطَبَهُ
بِالْفَصِيحِ، وَكَانَ مُوسَى مِنَ النَّدَامَةِ
وَالثُّوبَةِ فِي حِينٍ لَا يُتَصَوَّرُ مَعَهُ أَنْ
يُرِيدَ الْبَطْشَ بِهَذَا الْفِرْعَوْنِيِّ الْآخَرِ،
وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ أَنَّ اسْمَ الرَّجُلِ
السَّاعِي مِنَ أَقْصَى الْمَدِينَةِ
شَمْعُونُ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:
سَمْعَانُ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:
وَالثَّبُّتُ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ بَعِيدٌ.

رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «هذا الذي يهدي السبيل» الحديث، فمشى عليه السلام حتى ورد مدين، أي: بَلَّغَهَا، وَوَرُوْدُهُ الْمَاءَ مَعْنَاهُ: بَلَرُغُهُ؛ لِأَنَّهُ دَخَلَ فِيهِ، وَلَفْظَةُ الْوُرُودِ قَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى الدَّخُولِ فِي الشَّيْءِ، وَقَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى الْإِطْلَالِ عَلَيْهِ وَالبَلُوغِ إِلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ، فَوُرُودُ مُوسَى هَذَا الْمَاءَ كَانَ بِالْوَصُولِ إِلَيْهِ، وَهَذِهِ الْجَوْهَةُ فِي اللَّفْظَةِ تَتَنَاوَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَنْكَرُ﴾ إِلَّا وَارِدُهَا. ﴿وَسَدِّتْ﴾

لا تُصرف؛ إذ هي بلدة معروفة. والأُمَّةُ: الجمع الكثير، و﴿تَسْقُونَ﴾ معناه: ما شَبَّيْتَهُمْ، و﴿بَيْنَ دُونِهِ﴾ معناه: من ناحية إلى الجهة التي جاء منها، فوصل إلى الامرأتين قبل وصوله إلى الأمة، وهكذا هما من دونهم بالإضافة إليه، و﴿تَذُودَانِ﴾ معناه: تَمْنَعَانِ وتَحِيسَانِ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أَلَا لَيَذُودَنَّ رَجَالُ عَنِ حَوْضِي» الحديث، وشاهد الشعر في ذلك كثير، وفي بعض المصاحف «امْرَأَتَيْنِ حَابِسَتَيْنِ تَذُودَانِ»، واختلف في الذُّود - فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره: تذودان غنمهما عن الماء خوفاً من السُّقَاةِ الأَقْوِيَاءِ، وقال قتادة: تذودان الناس عن غنمهما، فلما رأى موسى عليه السلام المرأتين قال: ﴿مَا خَطْبُكُمَا؟﴾

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ
السَّبِيلِ ﴿١١﴾ وَلَمَّا وَدَّعَا مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ
النَّاسِ يَسْفُوتُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ أُمَّةً آتِينَ تَذْوَدَانِ
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَ أَلَا نَسْتَقِي حَتَّى يَصْئُرَ لِزَوْجَتَيَّ وَلِأَبَوَيْنَا
مِثْلُ مَا عَلَى آلِكَ ﴿١٢﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿١٣﴾ فَنَجَّاهُ ثُمَّ إِحْدَهُمَا
تَمَسَّى عَلَى آسَتِهِ حَيًّا قَالَتْ إِنَّ ابْنِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَوَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ
لَا تَخَفْ بَيَّوتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ قَالَتْ إِحْدَهُمَا
يَتَأْتِي أَسْتَنْجِرُهُ إِنْ خِفَ مِنْ أَسْتَجَرْتُ الْقَوْمَ الْأَئِمِينَ
﴿١٥﴾ قَالَ إِنِّي أَرِيدُ أَنْ جُكِّلَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَذَيْنِ عَلَيَّ أَنْ
تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَّةً فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ
وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ
النَّاصِلِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ ذَلِكَ بَنِي وَبَنَاتُكُمْ أَيُّمَا الْأَجْلَينِ
فَضَيْتَ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَانُونٌ وَكُتِبَ ﴿١٧﴾

YAM

٢٢ - ٢٤ تفسير قوله عز وجل:

ولمَّا خرج عليه السلام فارًّا بنفسه منفردًا حافيًّا لا شيء معه رأى حاله وعدم معرفته بالطريق وخُلُوه من زائد وغيره فاستند إلى الله تبارك وتعالى وقال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، وهذه الأقوال منه تقتضي أنه كان عارفاً بالله تعالى، عالماً بالحكمة والعلم الذي آتاه الله تعالى، و﴿نَزَّهَ﴾: ردَّ وجهه إليها، و﴿لَقَلَّه﴾ معناه: إلى ناحية، أي إلى الجهة التي يلقى فيها الشيء المذكور، و﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ معناه: وسطه، وفي هذا الوقت بعث الله الملك المُسَدَّد حسب ما ذكرناه قُبْلَ، وقال مجاهد: أراد بـ ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ طريقَ مدين، وقال الحسن: أراد سبيل الهدى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
وهذا أبرع ، ونظيره قول الصديق

أَيُّ: ما أمركما وشأنكما؟ وكان استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب أو مضطهد أو من يشفق عليه أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شرٍّ، فأخبرناه بخبرهما، وأنا أباهما شيخ كبير، فالمعنى أنه لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمهما، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأولياء، وأن عادتهما التأني حتى يُصدر الرعاء - أي الناس - عن الماء ويخلو، وحينئذ تَرِدان، وقالت فرقة: كانت الآبار مكشوفة، وكان رَحْمُ الناس يمنعهما، فلما أن أراد موسى أن يسقي لهما رَحَمَ النَّاسِ وغلّبهم على الماء حتى سقى، فعن هذا الغلب الذي كان منه وَصَفَتْهُ إحداهما بالقوة. وقالت فرقة: بل كانت آبارهم على أفواهاها حجارة كبار، وكان ورد المرأتين يتبع ما في صهاريج الشرب من الفضلات التي تبقى للسقاة، وأن موسى عليه السلام عمد إلى بئر كانت مُغَطَّاة والناس يسقون من غيرها، وكان حجرها لا يرفعه إلا سبعة، قاله ابن زيد. وقال ابن جريج: عشرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاثون، وقال الزُّجَّاج: أربعون، فرفعه موسى عليه السلام وسقى للمرأتين، فعن رفع الصخرة وَصَفَتْهُ بالقوة، وقيل: إن بئرهم كانت واحدة، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السقاة؛ إذ كانت عادة المرأتين شرب الفضلات.

وقرأ الجمهور: ﴿سَقَى﴾ بفتح
النون، وقرأ طلحة: ﴿نَسَقَى﴾
بضمها، وقرأ أبو عمرو، وابن

عامر: ﴿حَتَّى يَصُذَّرَ﴾ بفتح الياءِ وضم الدال، وهي قراءة الحسن، وأبي جعفر، وقتادة، وقرأ الباقر: ﴿يُصْذَرُ﴾ بضم الياء وكسر الدال على حذف المفعول، تقديره: مواشيهم، وحذف المفعول كثير من القرآن والكلام، وهي قراءة الأعرج، وطلحة، والأعمش، وابن أبي إسحق، وعيسى. و [الرُّعَاءُ] جمع راع.

وتولى موسى عليه السلام إلى ظِلِّ سُمْرَةٍ، قاله ابن مسعود، وتعرض لسؤال ما يَطْعُمُهُ بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَزْكَلَ لَكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، ولم يصرح بسؤال، هكذا رَوَى سائر المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان قد بلغ به الجوع، واخْضُرَّ لونه من أكل البقل، وضعف حتى لصق بطنه بظهره ورؤيت خضرة البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق يومئذ على الله عز وجل، ويروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدمه، وفي هذا معتبر وحاكم بهَوَانِ الدُّنْيَا على الله تبارك وتعالى.

٢٥ - (٢٧) تفسير قوله عز وجل:

في هذا الموضع اختصار يدل عليه الظاهر، قدَّره ابن إسحق: فذهبنا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدثاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه - وقيل الصغرى - أن تدعوه له، فجاءت على ما في هذه الآية، وروي أن اسم إحداهما (ليا) والأخرى (شرفا)، وروي أن اسم

زوجة نبي الله موسى عليه السلام (صفورة)، وقيل: اسمها (صوريا)، وقال وهب بن منبه: زوجه الكبرى، وروى عن النسبي رحمته الله أنه زوجه الصغرى، ذكره الثعلبي ومكي من طريق أبي ذر رضي الله عنه، وقال النقاش: كانتا توأمين وولدت الأولى قبل الأخرى بنصف نهار.

وقوله: ﴿تَشْتَبِي﴾ حال من ﴿إِحْدَهُمَا﴾، وقوله: ﴿عَلَى أَسْتَحْيَاوُ﴾ أي خِفِرَة قد سترت وجهها بكم درعها، قاله عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وقال عمرو بن ميمون: لم تكن سَلْفَعًا من النساء خُرَاجَةً ولَاجَةً.

واختلف الناس في الرجل الداعي لموسى، من هو؟ - فقال الجمهور: هو شعيب عليهما السلام، وهما ابنتاه، وقال الحسن: هو ابن أخي شعيب واسمه ثروان، وقال ابن أبي عبيدة: يشرون، وقيل: هو رجل صالح ليس من شعيب بنسب، وقيل: إن المرأتين إنما كان مرسلهما عمهما، وهو كان صاحب الغنم، وهو المزَّوَج، لكن عُبِّرَ عن العم بالأب في جميع الأمر إذ هو بمثابة، وروي أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة أجاب، فقام يتبعها إلى أبيها، فهبت ريح ضَمَّت قميصها إلى بدنهما فوصفت عجيزتها، فخرج موسى عليه السلام من النظر إليها، فقال لها: أرجعي خلفي وأرشديني الطريق، ففهمت عنه ذلك فوصفته بالأمانة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

فوصل موسى عليه السلام إلى

داعيه، فقص عليه أمره من أوله إلى آخره، فأنسه بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ حَوْرَتِ مِنَ الْقَوَرِ اللَّطِيلَيْنِ﴾، وكانت مَذِين خارجة عن مملكة فرعون، فلما فرغ كلامهما قالت الابنة التي ذهبت عنه: ﴿بَنَاتِي أَسْتَحْيَاوُ﴾ الآية، فلما وصفته بالقوة والأمانة قال لها أبوها: ومن أين عرفت هذا منه؟ فقالت: أما قُوَّتُهُ ففي رفع الصخرة، وأما أمانته ففي تحرُّجه عَنِ النَّظَرِ إِلَيَّ وقت هبوب الرياح، قاله ابن عباس، وقاله ابن زيد وغيرهم.

قال له الأب عند ذلك: ﴿أَنْ أَكْهَمَكَ﴾ الآية، قال ابن عباس: فزوجه التي دعت، و«تَأْجُر» معناه: تشيب، وقال مكي: في هذه الآية خصائص في النكاح، منها أنه لم يُعَيَّن الزوجة، ولا حد أول الأمد، وجعل المهر إجارة، ودخل ولم يَنْقُذ شيئاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أما التعيين فيشبه أنه كان في ثاني حال المرافضة، وإنما عرض الأمر مجملًا، وعيَّن بعد ذلك، وأما ذِكْرُ أول المدة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه، بل هو مسكوت عنه، فإما رسماء وإلا فهو من وقت العقد، وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو أمر قد قرَّره شرعنا، وجرى به في حديث الذي لم يكون عنده إلا شيء من القرآن، وذهب بعض العلماء إلى أن ذلك خاصٌّ، وبعضهم إلى أنه منسوخ، ولم يجوز مالك رحمه الله النكاح بالإجارة، وجوزها ابن حبيب وغيره، إذا كانت الأجرة تصل إلى الزوجة.

وروي عن ابن عباس أن النبي ﷺ سأل في ذلك جبريل عليه السلام، فأخبره أنه قضى عشر سنين، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قضى عشرًا وعشرًا بعدها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وفي قصص هذه الآية أن موسى عليه السلام لما قضى الأجل أراد أن يسير بأهله إلى مصر وقومه، وقد كان لا محالة أحسن بالترشيح للنبوة، وكان رجلاً غيوراً لا يصحب الرفاق، فكان في بعض طريقه ليلة مظلمة، قال النقاش: كانت ليلة جمعة، ففقدوا النار، وأصلد الزناد، وضلوا الطريق، واشتد عليهم الخصر، فبينما هو كذلك إذ رأى ناراً، وكان ذلك نوراً من نور الله تعالى قد التبس بشجرة، قال وهب: كانت عليفاً، وقال قتادة: كانت عوسجاً، وقيل: زعروراً، وقيل: سمرة، قاله ابن مسعود. و[آسن] معناه: أحسن، والإحساس ها هنا بالبصر، ومن هذه اللفظة قوله تعالى: ﴿فَإِن مَّأَسَيْتُمْ مِنْهُمْ زُنَادًا﴾، ومنها قول حسان:

اَنْظُرْ خَلِيلِي بِبَابِ جِلْقِ هَلْ
تُؤْنِسُ دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدٍ
وكان هذا الأمر كله في جانب الطور، وهو جبل معروف بالشام، والطور: كل جبل، وخصصه قوم بأنه الذي لا ينبت، فلما رأى موسى النار سُرَّ، فقال لأهله: أقيموا فقد رأيت ناراً ﴿لَقَدْ لَقِيَكُمْ فِيهَا نَارًا﴾ عن الطريق، أين هو، ﴿أَوْ كَذُوبٌ﴾ أي: قطعة من

هذا النكاح بينهما أمر شعيب موسى عليهما السلام أن يسير إلى بيت له فيه عصي، وفيه هذه العصا، فزوي أن العصا وثبت إلى موسى فأخذها، وكانت عصا آدم عليه السلام، وكانت من غير ورقة الريحان، فروي أن شعياً أمره بردها ففعل وذهب يأخذ غيرها فوثبت إليه، وفعل ذلك ثالثة، فلما رأى شعيب ذلك علم أنه مرشح للنبوة فتركها له، وقيل: إنما تركها لأنه أمر موسى بتركها فأبى موسى عليه

السلام ذلك، فقال له شعيب: نمذ إليها جميعاً فمن طاعت له فهي له، فعمد إليها شعيب فثقلت، ومذ موسى فثقت ووثبت إليه، فعلم أن هذا من الترشيح، وقال عكرمة: إن عصا موسى إنما رفعها إليه جبريل عليه السلام ليلاً عند توجهه إلى مدين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾، قال سعيد بن جبير: سألتني رجل من النصارى: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على خير العرب، أعني ابن عباس - رضي الله عنهما -، فقدمت عليه فسألته، فقال: قضى أكملهما وأوفاهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال وفى، فعدت فأعلمت النصراني، فقال: صدق والله هذا العالم،

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ كَذُوبٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا أَنشَأُوا نَادَىٰ مِنْ شَطِئِهِ الرَّادِّ الْأَيْمَنُ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشُوا إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُتَلَوَّىٰ كَانَهَا جَاءَ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْشُوعُ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣٠﴾ أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَصَاءٌ مِنْ غَيْرِ سُورٍ وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكُ بُرْهَانِي مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ إِنَّهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٢﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٣﴾ قَالَ سَشِدْهُ عَضْدَكَ بِأَخِيكَ وَجْعَلْ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمُ الْفُلُورُ ﴿٣٤﴾

قيل: ومن لفظ شعيب عليه السلام حسن في لفظ العقود في النكاح: «أَنْكَحَهُ إِيَّاهَا» أكثر من «أَنْكَحَهَا إِيَّاهُ»، وهذا مفترض. وجعل شعيب عليه السلام الثمانية الأعوام شرطاً ووكل العامين إلى العروة.

٢٨ - ٣٢ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا فرغ كلام شعيب كرهه موسى عليهما السلام، وكرره على جهة التوثق في أن الشرط إنما وقع في ثمان حجج. و﴿أَيْتَا﴾ استفهام نصب بـ ﴿فَضِيَّتِ﴾، و﴿مَا﴾ صلة للتأكيد. وقرأ الجمهور: ﴿فَلَا عُدْوَنَ﴾ بضم العين، وقرأ أبو حية: ﴿فَلَا عِدْوَانَ﴾ بكسر العين، والمعنى: لا تبعة علي من قول ولا فعل، و«الوكيل»: الشاهد القائم بالأمر. قال ابن زيد: ولما كمل

النار في قطعة عود كبيرة لا لهب لها، إنما هي جمرة، ومن ذلك قول الشاعر:

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلِي يَلْتَمِسْنَ لَهَا
جَزَلَ الْجَذَا غَيْرَ خَوَارٍ وَلَا دَعِيرٍ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وأحسب أن أصل الجذوة أصول
الشجر، وأهل البوادي يوقدون بها
أبداء، فهي الجذوة في الحقيقة، ومنه
قول السلمي يصف الصلّى:

حَمَا حُبِّ هَذَا الثَّارِ حُبِّ خَلِيلِي
وَحُبِّ الْعَوَانِي فَهُوَ دُونَ الْحَبَائِبِ
وَبَذَلْتُ بَعْدَ الْجِسْكِ وَالْبَانِ شِفْوَةً
دُخَانَ الْجَذَا فِي رَأْسِ أَشْمَطٍ شَاجِبٍ
وقرأ الجمهور: ﴿جَذْوَةً﴾ بكسر
الجيم، وقرأ حمزة، والأعمش:
﴿جَذْوَةً﴾ بضمها، وقرأ عاصم:
﴿جَذْوَرٌ﴾ بفتحها، وهي لغات،
والصلّى: حُرُّ النَّارِ، وَتَصَطَّلُونَ
تَقْتَعِلُونَ، أبدلت التاء طاء.

فلما أتى موسى ذلك الضوء الذي
راه وهو في تلك الليلة ابن أربعين
سنة نُبِّئَهُ ﷺ، فزوي أنه كان
يمشي إلى ذلك النور فكان يبعد
منه، تمشي به الشجرة وهي غَصَّةٌ
خضراء حتى نودي، والشاطئ
والشُّطُّ: ضفة الوادي، وقوله:
﴿الْأَيْتَنَ﴾ يحتمل أن يكون من
اليُتُنِ صفة للوادي أو الشاطئ،
ويحتمل أن يكون معادلاً لليسار،
فذلك لا يوصف به الشاطئ إلا
بالإضافة إلى موسى في استقباله
مهبط الوادي، أو بعكس ذلك،
وكل ذلك قد قيل، وَبَرَكَةُ الْبُقْعَةِ
هي ما خُصَّتْ به من آيات الله

تعالى وأنواره وتكليمه لموسى عليه
السلام، والناس على ضَمِّ الباء من
«بُقْعَةٍ»، وقرأ بفتحها الأشهب
العقيلي، قال أبو زيد: سمعت من
العرب: «هذه بقعة طيبة» بفتح
الباء، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾
يقتضي أن موسى عليه السلام سمع
ما سمع من جهة الشجرة، وسمع
وأدرك غير مكيف ولا محدود.
وقوله تعالى: ﴿أَن يَتُوبَ﴾ يحتمل
أن تكون [أَن] مفسرة، ويحتمل أن
تكون في موضع نصب بإسقاط
حرف الجر. وقرأت فرقة: ﴿أَنِّي
أَنَا اللَّهُ﴾ بفتح الهمزة من [إِنِّي].

ثم أمره تعالى باللقاء العصا فألقاها
فانقلبت حية عظيمة، ولها اضطراب
الجان، وهي صغير الحيات،
فجمعت حول الشعبان ونشاط
الجان. وقالت فرقة: بل الجان
يَعْمُ الصغير والكبير، وإنما شبه
بالجان جملة العصا لاضطرابها
فقط، وولّى موسى عليه السلام
مدبراً فزعاً منها، ﴿وَلَزَّ بِقَبْ﴾
معناه: لم يرجع على عقبه من
توليّه، فقال الله تبارك وتعالى له:
﴿يَتُوبُ أَقِيلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِن
الْأَيْتَنِ﴾، وهذا من تأمين الله
تعالى إيّاه، ثُمَّ أمره بأن يدخل يده
في جيبه، وهو فتح الجبة من حيث
يخرج رأس الإنسان، وزوي أن كُم
الجبة من حيث يخرج رأس
الإنسان، وزوي أن كُم الجبة كان
في غاية الضيق فلم يكن له جيب
يدخل يده فيه إلا في جيبه.
﴿وَأَسْلَكَ﴾ معناه: أدخل، ومنه قول
الشاعر:

حَتَّى سَلَكَ الشَّوْى مِنْهُنَّ فِي مَسَكٍ
مِنْ تَسْلٍ جَوَابَةِ الْآفَاقِ مِهْدَاجٍ
وقوله تعالى: ﴿مِنَ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أي:
من غير مرض ولا مثله، وزوي
أن يده كانت تُضِيءُ كأنها قطعة
شمس.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى
جَنَاحِكَ﴾، ذهب مجاهد، وابن زيد
إلى أن ذلك على المجاز
والاستعارة، وأنه أمره بالعزم على ما
أمر به، وأنه كما تقول العرب:
«اشدد حيازيمك، واربط جأشك»،
أي: شمر في أمرك، ودع الرهب،
وذلك لما كثر تخوفه وفزعه في غير
ما موطن، قاله أبو علي. وقوله
تعالى: ﴿فَذَنِّكَ بُرْهَانٌ﴾ قال
مجاهد، والسدي: هي إشارة إلى
العصا واليد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو،
والناس: ﴿الرُّقْبَ﴾ بفتح الراء
والهاء، وقرأ عاصم، وقشادة:
﴿الرَّقْبَ﴾ بسكون الهاء، وقرأ
حمزة، والكسائي، وابن عامر،
وعاصم أيضاً: ﴿الرُّقْبَ﴾ بضم الراء
والهاء. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو:
﴿فَذَنِّكَ﴾ بشد النون، وقرأ الباقر:
﴿فَذَنِّكَ﴾ بالتخفيف بالنون، وقرأ
شبل عن ابن كثير: ﴿فَذَنِّكَ﴾ بياء
بعد النون المخففة، أبدل إحدى
النونين ياء كراهة التضعيف، وقرأ
ابن مسعود: ﴿فَذَنِّكَ﴾ بالياء أيضاً
مع شد النون، وهي لغة هذيل،
وحكى المهدي أن لغتهم تخفيف
النون، و﴿بُرْهَانٌ﴾: حُجَّتَانِ
ومُعْجَزَتَانِ. وباقي الآية بيّن.

سورة القصص

القصص

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ أَلَمْ يَأْتِ الْآسِرَ
مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ
مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُ عِبْدَهُ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ
لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَأْتِيهِكَ الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ
لِي يَهْمُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَمْ يَأْتِ بِهَا
إِلَهُ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٥﴾ وَاسْتَكْبَرَ
هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنَّى أَنَّهُمْ إِنَّمَا
لَا يُرْجَوْنَ ﴿٣٦﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَدَّ لَهُمْ فِي
الْيَمِّ فَأَنْظَرُكَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾
وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذْكُرُونَ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْقِسْمَةِ
لَا يُصْرَفُونَ ﴿٣٨﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً
وَيَوْمَ الْقِسْمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى
بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٠﴾

٣٩٠

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

كان موسى عليه السلام قد امتحن
بمخاوف فطلب شد العَضُد بأخيه
هارون؛ لأنه كان فصيح اللسان
سمح الخلق، وقرأ الجمهور:
﴿رُدَّ﴾ بالهمز، وقرأ نافع وحده:
﴿رَدًا﴾ بتووين النون دون همز، وهي
قراءة أبي جعفر، وذلك على
التخفيف من ﴿رُدَّ﴾، والرُدَّة: الوزير
المعين والذي يستند إليه في الأمر،
وذُهِبَت فرقة إلى أنها من معنى
الزَّيَادَة، كما قال الشاعر:

وَأَسْمَرَ خَطِيئًا كَأَنَّ كُفْرَهُ
تَوَى الْقَسْبِ قَدْ أَرْدَى ذِرَاعًا عَلَى الْعَشْرِ
وهذا على ترك الهمز، وأن يكون
وزنه فِعْلًا.

وقرأ جمهور القراء: ﴿يُصَدِّقُنِي﴾
بالجزم، وذلك على جواب

﴿أَرْسِلْنِي﴾، وقرأ عاصم
وحده: ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ أي:
مصدقًا، فهو صفة للزَّيْدِ،
أو حال.

و «شَدَّ الْعَضُد» استعارة
في المعونة والإنهاض،
وقرأ الحسن بضم العين
من «عَضُدِكَ»، وقرأ
عيسى بن عمر بفتح العين
والضاد. و«السُّلْطَانُ»:

الحُجَّة. وقوله:
﴿يَأْتِيَنَا﴾ يحتمل أن
تتعلق الباء بقوله:
﴿وَيَجْعَلُ لَكُمَا﴾، أو
بـ «يَصِلُونَ» وتكون باء
السَّبَب، ويحتمل أن تتعلّق
بقوله: ﴿الْقَلْبُونَ﴾، أي:

تُغْلِبُونَ بآياتنا، و«الآيات» ها هنا
معجزاته عليه السلام.

ولما كذبه ورموه بالسحر قارب
موسى عليه السلام في احتجاجه،
وراعه تكذيبهم، فردَّ الأمر إلى الله،
وعوّل على ما يظهره الله تعالى في
شأنهم، وتوعدهم بنقمة من الله
تعالى منهم. وقرأ ابن كثير: ﴿قَالَ
مُوسَى﴾ بغير واو، وقرأ غيره وجميع
السبعة: ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ بواو، وقرأ
الجمهور: ﴿تَكُونُ لَكَ﴾ بالثاء، وقرأ
حمزة والكسائي: ﴿يَكُونُ﴾
بالياء على التذكير؛ إذ هي بمنزلة
العاقب.

واستمر فرعون على طريق مَخْرَقَتِهِ
على قومه، وأمر هامان أن يطبخ له
الآجُرَّ، وأن يبني له صرحًا، أي
سَطْحًا في أعلى الهواء، وليس
الصُّرْح إلا ما له سَطْح، ويحتمل أن

يكون الإيقاد على الطين كالْبَرَانِي،
وَتَرْجِي بزعمه أنه يطبخ في السماء،
فروي عن السدي أنه بناء أعلى ما
يمكن، ثم صعد فيه، ورمى بالنبل
فردّها الله تعالى إليه مخضوبة بالدم
ليزيدهم عَمًى وفتنة، فقال فرعون
حينئذ: إِنِّي قَتَلْتُ إِلَهَ مُوسَى، ثم
قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾
يريد في أن موسى راسله، فالظن
على بابه، وهو في معنى إيجاب
الكفر له بمنزلة المصمم على
التكذيب.

وقرأ حمزة، والكسائي، ونافع:
﴿لَا يُرْجَوْنَ﴾، وقرأ الباقون
والحسن: ﴿لَا يُرْجَوْنَ﴾ بضم الياء
وفتح الجيم.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:
﴿فَبَدَّ لَهُمْ﴾ معناه: طرحناهم،
ومنه نَبَذَ النواة، ومنه قول الشاعر:
نَظَرْتُ إِلَى عُثْوَانِهِ فَبَدَّتُهُ
كَتَبْتُكَ نَعْلًا مِنْ نِعَالِكَ بَالِيًا
وقوم فرعون وإن كانوا ساروا إلى
البحر ودخلوه باختيارهم فإن ما
ضُمُّهُمْ من القدر السابق [وإغراقهم
في البحر] هو نبذ الله تعالى إليهم
فيه. و«الْيَمُّ» هو بحر القلزم في قول
أكثر الناس، وقالت فرقة: كان
غرقيهم في نيل مصر. والأول أشهر.
وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً
يَذْكُرُونَ إِلَى الْكَارِ﴾ وهم أئمة من
حيث اشتبهوا وبقوا قدوة لكل كافر
وعابٍ إلى يوم القيامة.
و«الْمَقْبُوحِينَ»: الذين يُقْبَحُ كُلُّ
أمرهم، قولاً لهم وفِعْلًا، قال ابن
عباس رضي الله عنهما: هم الذين
قبحوا بسواد الوجوه وزرقة العيون.

وَيَوْمَ ﴿٤٤﴾ ظُفِرَ مَقْدَمٌ. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ بَعْدَ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ إخبار عن أنه أنزل التوراة على موسى بعد إهلاك فرعون وقومه، وبعد هذه الأمم التي تقدم ذكرها من عاد وثمود وقرية قوم لوط وغيرها، والقصد بهذا الإخبار التمثيل لقريش بما تقدم في غيرها من الأمم، وقالت فرقة: الآية متضمنة أن إنزال التوراة على موسى هو بعد أن رفع الله تعالى عذاب الأمم؛ فلم يعذب أمة بعد نزول التوراة إلا القرية التي مسخت قرعة فيما روي، وقوله: ﴿صَائِرُ﴾ نصب على الحال، أي: طرائق هادية، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: على ترج، وما تعطيه من تأمل، وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «ما أهلك الله تعالى أمة بعد أن أنزل التوراة إلى الأرض غير القرية التي مسخت قرعة» أي: الذين تعدوا في السبت، وهذا التعذيب من سبب شرع موسى؛ فكانه لا يُنقص فضيلة التوراة برفع العذاب عن الأرض.

﴿٤٥﴾ - ﴿٤٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: لم تحضر يا محمد هذه الغيوب التي نخبر بها، ولكنها صارت إليك بوحينا، أي: فكان الواجب أن يسارع إلى الإيمان بك، ولكن تطاول الأمر على القرون التي أنشأناها زمناً زمناً، فعزبت حلومهم، واستحكمت جهالتهم وضلالتهم.

و ﴿فَضَيْبًا﴾ معناه: أنفدنا وصرفنا، و ﴿الْأَمْرُ﴾ يعني التوراة. وقالت فرقة: يعني به ما أعلمه الله

تبارك وتعالى من أمر محمد ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل حسن يلتزم معه ما بعده من قوله: ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾.

و «الشَّايِ»: المقيم. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الظُّورِ﴾ يريد: وقت إنزال التوراة إلى موسى، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَيْنَا﴾، روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه نودي يومئذ من السماء: «يا أمة محمد، استجبت لكم قبل أن تدعوني، وغفرت لكم

قبل أن تسألوني»، فحينئذ يسأل موسى عليه السلام أن يكون من أمة محمد ﷺ، فالمعنى: إذ نادينا بأمرك، وأخبرناك بنبوتك، وقوله: ﴿رَحِمْتَ﴾ نصب على المصدر، أو على المفعول من أجله، وقوله: ﴿وَلَكِن﴾ جعلناك وأنفدنا أمرك قديماً رحمة من ربك، أي: ويكون المعنى: ولكن أعلمناك رحمة مثلك وإفضالاً، وقرأ الناس: ﴿رَحِمَةً﴾ بالنصب، وقرأ عيسى: ﴿رَحْمَةً﴾ بالرفع. ويريد بالقوم «الذين لم يأتهم نذير» معاصريه من العرب، وباقي الآية بين، وقال الطبري: معنى قوله: ﴿وَإِذْ نَادَيْنَا﴾ بأن ﴿هَؤُلَاءِ سَأَكْتُمِبُ لِلَّذِينَ يُنْفِقُونَ رِزْقَهُمْ ذَرْوَةً وَالَّذِينَ هُمْ يَكْتُمِبُونَ لِلَّذِينَ يَبْتَغُونَ الرِّسَالَ﴾ أَلَيْسَ الْأَمْرُ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا؟ الآية.

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الظُّورِ إِذْ فَضَيْبًا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيلَ أَهْلِ مَدْيَنَ تَنَلَّوْا عَلَيْهِمْ ءَابَتَيْنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٦﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الظُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٧﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقْتُلُوا رَبَّهُمْ أَوْ لَا يُؤْمِنُوا أَرْسَلْنَا نُوحًا مِّن قَبْلِكَ أَن يَنبَأْ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَن يَكُونُوا عِبَادًا لِّمَن دُونِ اللَّهِ وَلَوْ أَن يَكُونَ لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ آلِهَةٌ لَّكَانَ أَعْيُنُ النَّاسِ عَلَى السَّمَاوَاتِ لَأَخَذُوا مِنْهُنَّ مَتَاعًا وَإِن يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ لَفُتِنَتْ أَفْئُسُهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَوْ أَن يَكُونَ لَكُم آلِهَةٌ دُونِ اللَّهِ لَآتَيْنَاكُمْ الْكِتَابَ مِن دُونِ آلِهَتِكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٩﴾ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٠﴾

٣٩١

﴿٤٧﴾ - ﴿٤٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

«الْمُصِيبَةُ»: عذاب في الدنيا على كفرهم، وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف، تقديره: لما أُرسلنا الرسل. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ يريد: القرآن ومحمداً ﷺ، والمقالة التي قالتها قريش: ﴿لَوْلَا أَوْفَى﴾ مثل ما أَوْفَى مُوسَى، كانت من تعليم اليهود لهم، قالوا لهم: لِمَ لا يأتي بآية باهرة كالعصا واليد وشق الجبل وغير ذلك، فمكس قول الله تعالى عليهم قولهم، ووقفهم على أنهم قد وقع منهم في تلك الآيات ما وقع من هؤلاء في هذه، فالضمير في قوله: ﴿وَكُفُّوا﴾ لليهود.

وقرأ الجمهور: ﴿سَاجِدِينَ﴾، والمراد بهما موسى وهارون، قاله مجاهد، وقال الحسن: موسى وعيسى، وقال ابن عباس: موسى

﴿وَنَظَّاهُمْ﴾ معناه:

تعاونوا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا﴾
يَكْتِبُ الآية، هذه حجة
أمره الله تعالى أن يصدع
بها، أي: أنتم أيها
المكذبون بهذه الكتب
التي قد تضمنت الأمر
بالعبادات ومكارم
الأخلاق، ونهت عن
الكفر والنقائص،
وعد الله تعالى عليها
الشواب الجزيل، إن كان
تكذيبكم لمعنى فاتوا
بكتاب من عند الله عز
وجل يهدي أكثر من هدى
هذه أتبعه معكم. ثم قال

تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ - وقد
علم أنهم لا يستجيبون - على معنى
الإيضاح لفساد حالهم، وسياق
القياس: «لأنهم متبعون لأهوائهم».
ثم عجب تعالى من أتباع الهوى بغير
هداية ولغير مقصد بين، وقرر ذلك
على جهة البيان، أي: لا أحد أضل
منه.

﴿٥١﴾ - ﴿٥٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

الذين وصل إليهم القول قريشاً،
قاله مجاهد وغيره، وقال أبو رفاعه
القرظي: «نزلت في اليهود في عشرة
أنا أحدهم»، ذكره الطبري.

وقال الجمهور: معناه واصلنا لهم
في القرآن وتابعناه موصولاً ببعضه
ببعض في المواعظ والزجر والدعاء
إلى الإسلام، قال الحسن: وفي ذكر
الأمم المهلكة، وصلت لهم قصة
بقصة حسب مرور الأيام، وذهب

سورة القصص

الآيات

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَمَّا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ
يَأْتِيَهُمُ الْكِتَابُ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَئِنْ نَزَّلْنَاهُمْ
قَالَوْا أَمَّا بَدِئَهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٥٣﴾
أُولَئِكَ يُتَوَنَّجُونَ أَعْرَاجَهُمْ مُرْتَبِنِينَ صَادِقُونَ وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ
السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَفَعْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَأِلُوا اللَّغْوَ
أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ
لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا لَئِنْ
تَتَّبِعْ أَهْدَىٰ مَعَكَ نَحْطِفُ مِنْ أَزْصَانٍ أَوْ لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ
حَرَمًا مِمَّا نَحْنُ إِلَيْهِ فَنُفِرَ كُلُّ شَيْءٍ وَرَدَّ قَوْمِنَا لَنَا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ
بَطَرْتَ مَعِيشَتَهَا فَيَلَاكَ مَسْكَنُهُمْ لَا يَرْجِعُونَ مِنْ قَبْلِهِ
إِلَّا قَلِيلًا وَكَفَّ نَارُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رِيسُكَ مَهْلِكًا
الْقُرَى حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمْنَاهَا رَسُولًا يُخَوِّفُ عَلَيْهِمْ وَيُنْذِرُهُمْ
فَيَكُونُوا أَقْرَبَ إِلَىٰ قُرَىٰكَ وَلَا أَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

٣٩٢

ومحمد ﷺ، وقال الحسن أيضاً:
عيسى ومحمد عليهما الصلاة
والسلام، والأول أظهر. وقرأ
عاصم، وحمزة، والكسائي:
﴿سَيَحْرَانِ﴾، والمراد بهما التوراة
والإنجيل، قاله عكرمة، وقال ابن
عباس: التوراة والفرقان، وقرأ ابن
مسعود: ﴿سَيَحْرَانِ أَطَافَرَا﴾، وهي
قراءة طلحة والضحاك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويحتمل أن يريد بـ ﴿مَا أَوْفَىٰ مُؤْمِنٌ﴾
أمر محمد - عليهما الصلاة والسلام -
الذي هو في التوراة، كأنه يقول:
وما يطلبون من أن يأتي بمثل ما أوتي
موسى وهم قد كفروا - في التكذيب
بك - بما أوتيته موسى عليه السلام
من الإخبار بك، وقالوا: إِنَّا بِكُلِّ
كَافِرُونَ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بِكُلِّ
كَافِرٍ﴾ يؤيد هذا التأويل.

مجاهد إلى أن معنى ﴿وَصَلَّاهُمْ﴾:
قَصَلْنَاهُ، أي: جعلناه أوصالاً من
حيث كان أنواعاً من القول في معاني
مختلفة، ومعنى اتصال بعضه ببعض
حاصل من جهة أخرى، لكن إنما
عدد عليهم ها هنا تقسيمه في أنواع
من القول. وذهب الجمهور إلى أن
هذا التوصل الذي وصل لهم القول
معناه: وصل المعاني من الوعظ
والزجر، وفي الأجر وغير ذلك،
وذهبت فرقة إلى أن الإشارة بتوصيل
القول إنما هي إلى الألفاظ، أي
الإعجاز، فالمعنى: ولقد وصلنا لهم
قولاً معجزاً دالاً على نبوتك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والمعنى الأول تقديره: ولقد وصلنا
لهم قولاً تضمن معاني من اهتدى،
وقرأ الحسن: ﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَاهُ﴾
بتخفيف الصاد. وقوله: ﴿لَمَّا هُمْ
يَذْكُرُونَ﴾ أي: يتعظون بالقرآن عن
عبادة الأصنام، أو يتذكرون محمداً
فيؤمنوا به.

ثم ذكر تعالى القوم الذين آمنوا من
أهل الكتاب مباهياً بهم قريشاً،
واختلف، إلى من الإشارة؟ فقيل:
إلى جماعة من اليهود أسلمت وكانت
تلتقى من الكفار أدنى، وقيل: إلى
بحيرى الزاهب، وقال الزهري: إلى
النجاشي، وقيل: إلى سلمان، وابن
سلام، وأسند الطبري عن علي بن
أبي رفاعه قال: خرج عشرة رهط من
أهل الكتاب، فيهم أبو رفاعه - يعني
أباه - فأسلموا، فأودوا، فنزلت فيهم
هذه الآية. والضمير في ﴿بَلَّوْهُ﴾
يحتمل أن يعود على النبي ﷺ،
ويحتمل أن يعود على القرآن، وما

يَعْدُ يُؤِذِ هَذَا، وهو قوله: ﴿وَلَا يَكُنْ عَلَيْهِمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ سُلَاطِينَ﴾ يريدون الإسلام المتحصل لهم من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام. وإتياء أجرهم مرتين معناه: على ملتين، وإيمانهم بشريعتين، وهذا المعنى هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي، وَالْعَبْدُ النَّاصِحُ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَخِدْمَةِ سَيِّدِهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَّةٌ فَأَدْبَاهَا وَعَلَّمَهَا ثُمَّ أَغْتَقَاهَا وَتَزَوَّجَهَا».

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا صَبَرُوا﴾ عام في صبرهم على ملتهم ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار في ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُون﴾ معناه: يدفعون، وهذا وصف لمكارم الأخلاق، أي: يتعاونون، ومن قال لهم سوءاً لا يَثُوهُ وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه، وهذه آية مهادة، وهي في صدر الإسلام، وهي مما نسخته آية السيف، وبقي حُكْمُهَا فيما دون الكفر تتعاطاه أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ مدخ لهم بالنفقة في الطاعات، وعلى رسم الشرع، وفي ذلك حضٌّ على الصدقات ونحوها.

و «اللَّهُو» لَفُؤُ الْقَوْلِ، واليمين لَفُؤُ، حسب الخلاف فيهما، وكلام مستمع الخطية لَفُؤُ، والمراد من هذا - في هذه الآية - ما كان سَبْأً وأذى ونحوه، فأدب أهل الإسلام الإعراض عنه، والقول - على جهة التَّبَرِّي - ﴿لَنَا أَعْمَلُوا وَلَكُمْ أَعْمَلُوا﴾.

وقال ابن زيد: اللَّفُّو هَا هُنَا مَا كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ كَتَبُوهُ فِي التَّوْرَةِ مِمَّا لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه المهادنة هي لبني إسرائيل، الكفار منهم، ﴿وَسَلَّمْ عَلَيْكُمْ﴾ في هذا الموضع ليس المقصود بها التحية، لكنه لفظ التحية قصد به المُنَازَكَةُ، وهو لفظ مؤنس مستنزل لسامعه؛ إذ هو في عرف استعماله تحية، قال الزجاج: وهذا قبل الأمر بالقتال، و﴿لَا تَبْنِيَنَّ الْجِبَلَيْنِ﴾ معناه: لا تطلبهم للجدال والمراجعة والمسابة.

٥٦ - ٥٨ تفسير قوله عز وجل: أجمع جُلُ المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ إنما نزلت في شأن أبي طالب عم رسول الله ﷺ، قال أبو هريرة، وابن المسيب، وغيرهما: إن رسول الله ﷺ دخل عليه وهو يجود بنفسه، فقال له: «أَنْتَ عَمَّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، وكان بحضرة عبدالله بن أمية، وأبو جهل لعنهما الله تعالى، فقالا له: أترغب عن ملة عبدالمطلب يا أبا طالب؟ فقال له: يا محمد، لولا أنني أخاف أن يُعْتَرَّ بِهَا وَلَدِي مِنْ بَعْدِي لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ، ثم قال أبو طالب: أنا على ملة عبدالمطلب والأشياخ، فتفجع رسول الله ﷺ وخرج عنه، فمات أبو طالب على كفره، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إشارة إلى أبي طالب. والضمير في قوله: ﴿وَقَالُوا﴾

لقريش، قال ابن مسعود: والمتكلم بذلك منهم الحرث بن نوفل، وقصد الإخبار بأن العرب تنكر عليهم رفض الأوثان وفراق حكم الجاهلية بتخطفهم من أرضهم، وقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ معناه: على زعمك، وحكى الثعلبي عنه أنه قال: إنا لنعلم أن الذي تقول حق، ولكن إن اتبعناك يتخطفنا العرب، فقطعهم الله تعالى بالحجة، أي: أليس كون الحرم لكم مما يَسْرُنَاهُ وكفنا عنكم الأيدي فيه؟ فكيف بكم لو أسلمتم واتبعتم شرعي وديني؟ وروي عن أبي عمرو: ﴿تَنَحَّطَفُ﴾ بضم الفاء، وأمن الحرم هو ألا يُغْزَى ولا يودى فيه أحد. وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغِي إِلَيْهِ تَزَوُّجَ كُلِّ نَفْسٍ﴾ أي: يُجْمَع وَجُلِبَ. وقرأ نافع وحده: ﴿تُجْبَى﴾ بالتاء من فوق، وقرأ الباقون: ﴿يَبْتَغِي﴾ أي: يجمع بالياء من تحت، ورويت التاء عن أبي عمرو، وأبي جعفر، وشيبة بن نصح. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ يريد مما به صلاح حالهم وقوام أمرهم، وليس العموم فيه على الإطلاق، وقرأ أبان بن تغلب: ﴿تُؤْمَرَاتٍ﴾ بضم الشاء والميم.

ثم تَوَعَّدُ تعالى قريشاً بضرب المثل بالقُرى المُهْلَكَةِ، أي: فلا تغتروا بالحرم الآمن والثمرات التي تُجْبَى؛ فإن الله تعالى مهلك الكفرة على ما سلف في الأمم. و﴿يَطْرَتُ﴾ معناه: سفهت وأشرت وطغت، قاله ابن زيد وغيره، و﴿يَعِيشَتَهَا﴾ نصبت على التفسير، مثل قوله: ﴿سَفِيَةٌ تَنْسَهُ﴾، وقال الأخفش: هو على

﴿أَمْنٌ وَعَدْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَا فَهُوَ لِأَقْبِهِ﴾.
﴿٦١﴾ - ﴿٦٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

التقدير: واذكر يوم، وهذا النداء يحتمل أن يكون بواسطة، ويحتمل أن يكون بغير ذلك، والضمير المتصل بـ [يُنَادِي] لِعِبَادِ الْأَصْنَامِ، والإشارة إلى قريش، وقوله: ﴿أَمْنٌ﴾ على جهة التوبيخ والتقريع، وقوله: ﴿شُرَكَائِكُمْ﴾ أي: عَلَى قَوْلِكُمْ وزعمكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولما كان هذا السؤال مُسْتَكْبِئاً لهم مهيناً فكأنه لا يتعلق بجمهور الكفرة، بل بالمُتَّوِين لهم، وبالأعيان والرؤوس منهم، وبالشياطين المُتَّوِين، فكأن هذه الفئة المُتَّوِيَة إنما أتت الكفرة على علم بأن القول عليها متحقق، وبأن كلمة العذاب ماضية، لكنهم طمعوا في التَّبرِّي من أولئك الكفرة الأتباع فقالوا: ربنا هؤلاء أضللناهم كما ضللنا نحن باجتهاد لنا ولهم، وأرادوا هم اتباعنا، وأحبوا الكفر كما أحببناه، فنحن نتبرأ إليك منهم، وهم لم يعيدونا إنما عبدوا غيرنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا التوقيف يعم جميع الكفرة، والمجيبون هم جميع المُتَّوِين، كل داع إلى كفر، من الشياطين الجن، ومن الإنس العرفاء والرؤساء والسادة.

وقرأ الجمهور: ﴿أَغْوَيْنَا﴾ بفتح الواو، ويقال: غَوَى الرجل يَغْوِي بكسر الواو، وروي عن ابن عامر، وعاصم ﴿غَوَيْنَا﴾ بكسر الواو. ثم أخبر تبارك وتعالى أنه يقال

ثم خاطب تعالى قريشاً محقراً لما كانوا يفخرون به من مال وبنين وغير ذلك من قوة لم تكن عند محمد ﷺ ولا عند من آمن به، فأخبر الله تعالى قريشاً أن ذلك متاع الدنيا الفاني، وأن الآخرة وما فيها من النعيم الذي أعد الله لهؤلاء المؤمنين خير وأبقى، ثم وبَّخهم بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بالياء، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء من فوق، وهي قراءة الأعرج،

والحسن، وعيسى.

ثم زادهم توبيخاً بقوله: ﴿أَفَنِّ وَعَدْنَاهُ﴾ الآية، وقوله: ﴿أَفَنِّ وَعَدْنَاهُ﴾ آية يعم معناها جميع العالم، لكن اختلف الناس فيمن نزلت - فقال مجاهد: الذي وعد الوعد الحسن هو محمد ﷺ، وضده أبو جهل لعنه الله، وقال مجاهد: نزلت في حمزة رضي الله تعالى عنه وأبي جهل، وقال قتادة: نزلت في المؤمن والكافر، كما أن معناها عام. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونزلها عامٌ بَيْنَ الاتساق بما قبله من توبيخ قريش.

و ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معناه: في عذاب الله تعالى، قاله مجاهد وقاتادة، ولفظة [مُحْضَرِينَ] مشيرة إلى سَوْقٍ وَجَرٍّ، وقرأ طلحة: ﴿أَمْنٌ وَعَدْنَاهُ﴾ بغير فاء، وقرأ مسروق:

وَأَمَّا يُتَسَمَّنَ مِّنْهُ وَمَقَّتْ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَرَبَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ أَفَنِّ وَعَدْنَاهُ وَعَدْنَا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٢﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٤﴾ وَقِيلَ أَذْعَوْا شُرَكَاءَ الَّذِينَ دَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٥﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٦﴾ فَجِئْتُمُ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَمَّا نَبَاتٌ مِّنْهُم وَرَعِيلٌ صَالِحٌ فَهَؤُلَاءِ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٩﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٠﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخِصْمُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧١﴾

٣٩٣

إسقاط حرف الجر، أي: بطرت في معيشتها، ثم أحالهم على الاعتبار في خراب ديار الأمم المهلكة كحجر ثمود وغيره، وباقي الآية بين.

﴿٥٩﴾ - ﴿٦١﴾ تفسير قوله عز وجل:

إِنْ كَانَتْ الْإِبَادَةُ لِلْقُرَى بِالْإِطْلَاقِ فِي كُلِّ زَمَنٍ فَأَمَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَظِيمِهَا وَأَفْضَلُهَا الَّتِي هِيَ بِمَثَابَةِ مَكَّةَ فِي عَصْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِنْ كَانَتْ مَكَّةَ أُمُّ الْقُرَى كُلِّهَا أَيْضاً مِنْ حَيْثُ هِيَ أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْأَرْضِ، وَمَنْ حَيْثُ فِيهَا الْبَيْتُ، وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَى عِبَادِهِ بِالرَّسْلِ، فَلَا يَعْذِبُ إِلَّا بَعْدَ إِنْذَارِهِ، وَبَعْدَ أَنْ يَتِمَادَى أَهْلُ الْقُرَى فِي ظُلْمٍ وَطُغْيَانٍ. وَالظُّلْمُ - هُنَا - يَجْمَعُ الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِي وَالتَّقْصِيرَ فِي الْجِهَادِ، وَبِالْجُمْلَةِ وَضَعُ الْبَاطِلِ مَوْضِعَ الْحَقِّ.

للكفرة العابدين للأصنام الذين اعتقدوهم آلهة: ﴿أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي الأصنام التي كنتم تزعمون أنهم شركاء الله، وأضاف الشركاء إليهم لما كان ذلك الاسم بزعمهم ودعواهم، فهذا القول أصل من الاختصاص، وأضاف الشركاء إليهم ثم أخبر أنهم دَعَوْهم، فلم يكن في الجمادات ما يجيب، ورأى الكفار العذاب. وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾، ذهب الزجاج وغيره من المفسرين إلى أن جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره: لما نالهم العذاب، أو: لما كانوا في الدنيا عابدين للأصنام، ففي الكلام - على هذا التأويل - تأسف عليهم، وذلك محتمل مع تقديرنا الجواب: «لما كانوا عابدين للأصنام»، وفي تقديرنا الجواب: «لما نالهم العذاب» نعمة منا، وقالت فرقة: ﴿لَوْ﴾ متعلقة بما قبلها، تقديره: فودُّوا لو أنهم كانوا يهتدون.

(٦٥) - (٦٨) تفسير قوله عز وجل:

وهذا النداء أيضاً كالأول في احتماله الواسطة من الملائكة، وهذا النداء أيضاً للكفار يوقفهم على ما أجابوا به المرسلين الذين دعوهم إلى الله تعالى. ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ أي: أظلمت الأمور، فلم يجدوا خبراً يخبرون به مما لهم فيه نجاة، وساق الفعل في صيغة الماضي لِتَحَقُّقِ وقوعه، وأنه تعين، والماضي من الأفعال مُتَيَقِّنٌ؛ لذلك توضع صيغته بدل المستقبل المُتَيَقِّنُ فيقوى وقوعه وصحته، ومعناه: أظلمت جهاتها، وقرأ الأعشى:

﴿فَعَمِيَّتْ﴾ بضم العين وشذ الميم، وروى في بعض الحديث: «كان الله في عمام» وذلك قبل أن يخلق الأنوار وسائر المخلوقات. و﴿الْأَنْبَاءُ﴾ جمع نَبَأٍ. وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْأَلُونَ﴾ معناه فيما قال مجاهد وغيره: بالأرحام والمنتاب الذي عَزَفَ في الدنيا أن يُسْأَلَ به؛ لأنهم قد أيقنوا أنهم كلهم لا حيلة لهم ولا مكانة، ويحتمل أن يريد أنهم لا يتساءلون عن الأنباء ليتيقن جميعهم أنه لا حجة لهم.

ثم انتزع تعالى من الكفرة من تاب من كفره، وآمن بالله ورسله، وعمل بالتقوى، وَرَجَّى عَزَّ وجلَّ أنهم يفوزون ببغيتهم ويبقون في النعيم الدائم، وقال كثير من العلماء: «عَسَى» من الله واجبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ظن حسن بالله تعالى يشبه فضله وكرمه، واللازم من «عَسَى» أنها ترجية لا واجبة، وفي كتاب الله عز وجل: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَعَ النَّجْمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ الآية، قيل: سببها ما تكلمت به قريش من استغراب أمر النبي ﷺ، وقول بعضهم: ﴿لَوْلَا زَلْزَلَةُ هَذَا الْقُرْآنِ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ فنزلت هذه الآية بسبب تلك المنازع، ورد الله تعالى عليهم، وأخبر أنه يخلق من عباده وسائر مخلوقاته ما يشاء، وأنه يختار لرسالته من يريد ويجعل فيه المصلحة، ثم نفى أن يكون الاختيار للناس في هذا ونحوه، هذا قول جماعة من المفسرين، قالوا:

والظاهر أن [مَا] نافية، أي: ليس لهم الخيرة عن الله تبارك وتعالى، فتجئ الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يريد: ويختار الله تعالى الأديان والشرائع، وليس لهم الخيرة في أن يميلوا إلى الأصنام ونحوها في العبادة، ويؤيد هذا التأويل قوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وذهب الطبري إلى أن [مَا] في قوله: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ﴾ مفعولة، قال: والمعنى أن الكفار كانوا يختارون من أموالهم لأصنامهم خيارها، فأخبر الله تعالى أن الاختيار إنما هو له وحده، يخلق ويختار من الرسل والشرائع ما كان خيراً للناس، لا كما يختارون هم ما ليس لهم، ويفعلون ما لم يؤمروا به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واعتذر الطبري عن الرفع الذي أجمع عليه القراء في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ بأقوال لا تتحصل، وقد رد الناس عليه في ذلك، وذكر عن الفراء أن القاسم بن معن أنشده بيت عنترة:

أَمِنْ سُمَيَّةَ دَمَعُ الْعَيْنِ تَذْرِيفُ
لَوْ كَانَ ذَا مِنْكِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفُ
وقرن الآية بهذا البيت، والرواية في البيت: (لَوْ أَنَّ ذَا)، ولكن على ما رواه القاسم يتجه في بيت عنترة أن يكون في كان ضمير الأمر والشأن، فأما في الآية فلا يكون بجملة فيها محذوف، وفي هذا كله نظر. والوقف على ما ذهب إليه جمهور

الْحَمْدُ لِلَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
 مِنْ إِلَهٍ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَصِيرَةٌ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٦٩﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى
 يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ لَيْلٌ تُصْكَوْنَ
 فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٠﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ
 وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
 ﴿٧١﴾ وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ أَنْ شَرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ
 تَزْعُمُونَ ﴿٧٢﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
 هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ ﴿٧٣﴾ إِنْ قَدْرونَ كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ
 عَلَيْهِمْ ۖ وَإِنَّهُمْ مِنْ الْكَاذِبِينَ ۖ إِنْ مَنَّا بِهَذَا لَنُؤَيِّدُكَ بِالْعَصْبَةِ
 أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُمُ مُوسَى لَا تَفْرَحُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ
 ﴿٧٤﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ
 نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ
 وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٥﴾

٣٩٤

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ السَّرَّ
 وَالْإِعْلَانَ.

ثم أفرد نفسه بالألوهية
 ونفاها عما سواه، وأخبر
 أَنَّ الحمد له في الدنيا
 والآخرة؛ إذ له الصفات
 التي تقتضي ذلك،
 والحُكْم له. وهو - في
 هذا الموضع - الفصل
 والقضاء في الأمر، ثم
 أخبر تعالى بالرجعة إليه
 والحشر.

ثم أخبر تعالى نبئيه أَنَّ
 يوقفهم على أمر الليل
 والنهار، وما منح الله
 تعالى فيهما من المصالح
 والمرافق، وَأَنَّ يوقفهم

على إنباعه تعالى بتوفيق الليل
 والنهار، وأنه لو مَدَّ أحدهما سرمدًا
 لما وجد من يأتي بالآخر.
 و«السَّرمَد» من الأشياء: الدائم الذي
 لا ينقطع. وقرأت فرقة هي
 الجمهور: ﴿بَصِيرَةً﴾ بالياء، وقرأ
 ابن كثير في رواية قبل: ﴿بَصِيرَةً﴾
 بهمزيين، وضعفه أبو علي. ثم ذكر
 عَزَّ وَجَلَّ انقسام الليل والنهار على
 السكون وابتغاء الفضل بالمشي
 والتصرف، وهذا هو الغالب في أمر
 الليل والنهار، فعُدَّ النعمة بالأغلب،
 وإن وُجد من يسكن بالنهار ويتغنى
 فضل الله بالليل فشاؤ نادرًا لَا يُعْتَدُّ
 به، وقال بعض الناس: قوله تعالى:
 ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ إنما عُبِّرَ به
 عن الزمان، فكأنه لم يقصد لتقسيم،
 أي: في هذا الوقت الذي هو ليل
 ونهار يقع السكون وابتغاء الفضل.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ أي على نظر
 البشر، من يرى هذا التلطف والرفق
 يرى أَنَّ ذلك يستدعي الشكر ولا
 بُدَّ.

﴿٧٠﴾ - ﴿٧١﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

التقدير: واذكر يوم يناديهم، وكرر
 هذا المعنى إبلاغًا وتحذيرًا، وهذا
 النداء عند ظهور كل ما وعد الرحمن
 على ألسنة المرسلين من وجوب
 الرحمة لقوم والعذاب لآخرين، ومن
 خضوع كل جبار ودُّلَّه لعزَّة ربِّ
 العالمين، فيتوجه حينئذ توبيخ
 الكفار، فيقول الله تعالى لهم: ﴿أَيَّنْ
 شُرَكَاءَ﴾ على معنى التقرير.

ثم أخبر تبارك وتعالى أنه يُخرج في
 ذلك اليوم من كل أمة شهيدًا يُمَيِّزُ
 بينه وبين الناس، وهذا هو الشُّرَّعُ،
 أي: يُمَيِّزُ بين شيئين فينزعه أحدهما
 من الآخر، وقال مجاهد: أراد بـ
 «الشَّهيد» الذي يشهد على أُمَّته،
 وقال الرماني: أراد عُدُولًا من الأُمم
 وأخيرًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 وهم حملة الحجة الذين لا يخلو
 منهم زمن، و«الشَّهيد» - على هذا
 التأويل - اسم الجنس، وفي هذا
 الموضع حذف يدل عليه الظاهر،
 تقديره: يشهد الشهيد على الأمة
 بخيرها وشرها، فيحق العذاب على
 من كفر، ويقال لهم - عَلَى جهة
 استبراء الحُجَّة والإعذار في
 المحاولة -: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾،
 أي حجتكم على ما كنتم عليه في
 الدنيا إن كان لكم، فيسقط حينئذ في
 أيديهم، ويعلمون أَنَّ الحق متوجه له
 سبحانه عليهم في تعذيبهم،

الناس في قوله تعالى: ﴿وَنَحْكَارُ﴾،
 وعلى ما ذهب إليه الطبري لا يوقف
 على ذلك.

ويُتَّجه عندي أَنَّ تكون [مَا] مفعولة
 إذا قدرنا [كَانَ] تامة، أي أَنَّ الله
 تعالى يختار كل كائن، ولا يكون
 شيء إلا بإذنه، وقوله تبارك وتعالى:
 ﴿لَهُمُ الْآخِرَةُ﴾ جملة مستأنفة معناها
 تعديد النعمة عليهم في اختيار الله
 تعالى لهم لو قبلوا وفهموا.

﴿٦٩﴾ - ﴿٧١﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

ذكر تعالى في هذه الآيات أمورًا
 يشهد عقل كل مفطور بأن الأصنام لا
 شركة لها فيها، فمنها علم ما في
 النفس وما يهيجس بالخواطر.
 و«تَكُنَّ» معناه: تستر، وقرأ ابن
 محيصن: «تَكُنَّ» بفتح التاء وضم
 الكاف، وعُبِّرَ عن القلب بالصدر
 حيث كان محتويًا عليه، ومعنى الآية

وأما قوله: ﴿لَتَنَزَّلَنَّ﴾ فمعناه: تنهض بتحاميل، ومن ذلك قول الشاعر يصف رامياً:

حَتَّى إِذَا مَا التَّمَأَّمْتُ مُفَاصِلَهُ
وَنَاءً فِي شِقِّ الشَّمَالِ كَاهِلُهُ
والوجه أن يقال: إن العُضْبَةَ تنوءُ بالمفاتيح المثقلة لها، وكذلك قال كثير من المتأولين: إن المراد هذا، لكنه قلب كما تفعل العرب كثيراً، فمن ذلك قول الشاعر:

فَذَيْعُ بَنَفْسِهِ نَفْسِي وَمَالِي
وَمَا أَلَوْكَ إِلَّا مَا أَطْبِقُ
وقول الآخر:

وَتَزَكَّبُ خَيْلًا لَا هَوَادَةَ بَيْنَهُمَا
وَتَشْقَى الرِّمَاحَ بِالصَّبَا طِرَةِ الْخُمْرِ
وهذا البيت لا حجة فيه؛ إذ يتجه على وجهه فتأمله، ومن ذلك قول الآخر:

مَا كُنْتُ فِي الْخَرْبِ الْعَوَّانِ مُعَمَّرًا
إِذْ شَبَّ خَرُّ وَقُدُودَهَا أَجْدَالُهَا
وقال سيبويه والخليل: التقدير: لَتُنْشِئَ العُضْبَةَ، فجعل بدل ذلك تعدية الفعل بحرف الجر، كما تقول: ناء الجمل وأنائه ونؤث به بمعنى: جعلته يتنوء، والعرب تقول: ناء الجمل بالبعير إذا أثقله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يُسند ﴿لَتَنَزَّلَنَّ﴾ إلى المفاتيح مجازاً، لأنها تنهض بتحاميل إذا فعل ذلك الذي ينهض بها، وهذا مطرد في قولهم: ناء الحمل بالبعير، ونحوه، فتأمله.

واختلف الناس في «العُضْبَةَ»: كم هي؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاثة، وقال

بمحض من بني إسرائيل، فقالت: يا نبي الله، كذبت أنا عليك، وإنما دفعني قارون إلى هذه المقالة. وكان من بغيه أنه زاد في ثيابه شبراً على ثياب الناس، قاله شهر بن حوشب، إلى غير ذلك مما يصدر عن فسد اعتقاده، وكان من أعظم الناس مالا، وسميت أمواله كنوزاً إذ كان ممتنعاً من أداء الزكاة، ويسبب ذلك عادي موسى عليه السلام أول عداوته.

والمفاتيح: ظاهرها أنها التي يفتح بها، ويحتمل أن يريد بها الخزائن والأوعية الكبار، قاله الضحاك: لأن المفتاح في كلام العرب الخزانة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأكثر المفسرون في شأن قارون، فروي عن خيشمة أنه قال: نجد في الإنجيل مكتوباً: «إن مفاتيح قارون كانت من جلود الإبل، وكان المفتاح نصف شبر، وكانت وقر ستين بغلاً أو بعيراً، لكل مفتاح كتر».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وروي غير هذا مما يقرب منه، وذلك كله ضعيف، والنظر يشهد بفساد هذا، ومن الذي كان يميز بعضها من بعض؟ وما الداعي لهذا؟ وفي الممكن أن ترجع كلها إلى ما يحصى ويقدر على حمله بسهولة؟ وكان يلزم - على هذا - أن تكون «مفاتيح» بياء، وهي قراءة الأعمش، والذي يشبهه هو: إما أن تكون المفاتيح من الحديد ونحوه، وعلى هذا تنوء بالعصبة؛ إذ كانت كثيرة لكثرة مخازنه، أو تكون «المفاتيح» الخزائن، قال أبو صالح: كانت خزائنه تحمل على أربعين بغلاً.

وينكشف لهم ما كانوا بسبيله في الدنيا من كذب مختلق وزور في قولهم للأصنام: هذه آلهة، وفي تكذيبهم الرُّسل، وغير ذلك. ومن هذه الآية انتزع قول القاضي عند إرادة الحكم: أبقيت لك حجة.

٧٦ - ٧٧ تفسير قوله عز وجل:

قارون: اسم أعجمي، فلذلك لم ينصرف، واختلف الناس في قرابة قارون لموسى عليه السلام - فقال ابن إسحق: هو عمه، وقال ابن جريج، وإبراهيم التَّخَعِي: هو ابن عمه، وهذا أشهر، وقيل: ابن خالته، فهو بإجماع رجل من بني إسرائيل، كان ممن آمن بموسى، وحفظ التوراة، وكان من أقرئ الناس لها، وكان عند موسى عليه السلام من عباده المؤمنين، ثم لحقه الزهو والإعجاب، فبغى على قومه بأنواع من البغي، فمن ذلك كفره بموسى واستخفافه به، ومطالبته له بأن يجعل له شيئاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه عمد إلى امرأة مؤمنة ذات جمال، وقال لها: أنا أخير إليك، وأحفظك في أهلي على أن تجيشي في ملا من بني إسرائيل عندي فتقول: يا قارون اكفني أمر موسى فإنه يتعرض لي في نفسي، فجاءت المرأة، فلما وقفت على الملا أحدث الله تعالى لها توبة، فقالت: يا بني إسرائيل، إن قارون قال لي كذا وكذا، ففضحته في جميع القصة، وبرا الله بقدرته نبيه موسى عليه السلام من مطالبته، وقيل: بل قالت المرأة ذلك عن موسى، فلما بلغه الخبر وقف بالمرأة

نصيبك الذي هو الكفن، ونحو هذا قول الشاعر:

نَصِيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدُّفْرُ كُلُّهُ
رِذَاءُ إِنْ تُلَوِّى فِيهِمَا وَحْشُوطُ
وقوله: ﴿وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أمر بصلة المساكين وذوي الحاجة. وباقى الآية بين.

(٧٨) - (٧٩) تفسير قوله عز وجل:

القاتل قارون لما وعظه قومه وندبوه إلى اتقاء الله تعالى في المال الذي أعطاه تفضلاً منه عليه، أخذته العزة بالإثم فأعجب بنفسه، وقال لهم على جهة الرّد عليهم والروغان مما ألزموه فيه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عَرِيَّتٍ﴾، ولكلامه هذا وجهان يحملهما، وبكل واحد منهما قالت فرقة من المفسرين:

فقال الجمهور منهم: إنه ادعى أن عنده علماً استوجب به أن يكون ذلك النعيم له ولذلك المال، ثم اختلفوا في العلم الذي أشار إليه، ما هو؟ فقال بعضهم: علم التوراة وحفظها، قالوا: وكانت هذه مغالطة منه ورياء، وقال أبو سليمان الداراني: أراد العلم بالتجارات ووجوه تمييز المال، فكأنه قال: أوتيته بإدراكي وبسغيي، وقال ابن المسيّب: أراد علم الكيمياء. وقال ابن زيد وغيره: إنما أراد: أوتيته على علم من الله تعالى وتخصيص من لدنه قصدي به، فلا يلزم في شيء مما قلتم، ثم جعل قوله: ﴿عَرِيَّتٍ﴾ كما تقول: «في معتقدي وعلى ما أراه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

عليهم بركته، ولا يهيبهم رحمته. ثم وصّوه بأن يطلب بماله رضى الله وأخرته. وقولهم: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ اختلف المتأولون فيه - فقال ابن عباس - رضى الله عنهما - والجمهور: معناه: لا تضع عمرك في ألا تعمل عملاً صالحاً في دنياك؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها في الدنيا، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فينبغي ألا تهمله.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: فالكلام كله -

على هذا التأويل - شدة في الموعظة. وقال الحسن وقتادة: معناه: ولا تضع حظك أيضاً من دنياك في تمتعك بالحلل بطلبك إياه، ونظرك إلى عاقبة دنياك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالكلام - على هذا التأويل - هو في الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه، وهذا مما يجب استعماله مع الموعظة خشية الثبوة من الشبهة. وقال الحسن: معناه: قدم الفضل وأمسك ما تبلغ به، وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف، وحكى الشلبي أنه قيل: أرادوا بنصيبه الكفن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وعظ متصل كأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عَرِيَّتٍ أَوْلَيْتُمْ بَعْلَمَ أَنْتَ اللَّهُ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَكَرُمًا وَلَا يُسْتَلْعَىٰ عَنْ دُونِهِمْ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَبِيتُكَ لَنَا وَمِثْلَ مَا أَوْفَىٰ قَدْ رُودُكُمْ الدُّوْحُ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَلَيْسَ كُفْرًا لِلَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُ إِلَّا الْمُحْسِنُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِمُ وَبِآدَامَ الْأَرْضَ فَمَا كَانُوا لِمَنْ فَتَنَ بَصَرُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مِنَ الْمُتَصَرِّينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِنَاسٍ الْأَرْضَ لِمَنْ يَشَاءُ مَنْ يَشَاءُ عِبَادَهُ وَيَقْدِرُ لَوْ أَنَّ مِنَ اللَّهِ عِلْمًا لَخَسَفَ بِهَا وَيَكَانَهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الْأَدَارُ الْأُخْرَىٰ تَجْمَعُ لَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

٣٩٥

قتادة: العُصْبَةُ: من العشرة إلى الأربعين، وقال مجاهد: خمسة عشر، وقيل: أحد عشر خفلاً على إخوة يوسف، وقيل: أربعون.

وقرأ بُذِلَ بن مَيْسَرَةَ: ﴿لَيْتُوءٌ﴾ بالياء، ووجهها أبو الفتح على أنه يقرأ: ﴿مَقَامِعَةً﴾ جمعاً، وذكر أبو عمرو الداني أن بُذِلَ بن مَيْسَرَةَ قرأ: ﴿مَا إِنْ مِفْشَاحَةً﴾ على الأفراد، فيستغنى على هذا عن توجيه أبي الفتح.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَوْ قَوْمِي﴾ متعلق بقوله: ﴿فَبَيَّنَّا﴾، ونهوه عن الفرح المطفئي الذي هو انهماك وانحلال نفس وأشر وإعجاب، ولا يُجِيبُ - في هذا الموضع - صفة فعل؛ لأنه أمر قد وقع فمحال أن يرجع إلى الإعادة، وإنما هو لا يظهر

حينئذ الكلام دال عليه، فلذلك يجري مجرى: ﴿تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، و﴿كُلٌّ مِّنْ عِلِّيَّاتٍ فَإِنَّ﴾. وقال الطبري: الضمير عائد على الكلمة، وهي قوله: ﴿فَوَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن عَامَرَ وَغَيْرِ صَاحِبٍ﴾، أي: لا يُلْقَى هذه الكلمة إلا الصابرون، وعنهم تصدر.

وروي في الخسف بقارون وداره أن موسى عليه السلام لما أمَّضَهُ فعل قارون به، وتعدَّيه عليه، ورميه بأمر المرأة، وغير ذلك من فعله، استجار بالله تعالى وبكى وطلب الثَّصْرَةَ، فأوحى الله تعالى إليه: لا تهتم فإني أمرت الأرض أن تطيعك في قارون وأهله وخاصته وأتباعه، فقال موسى عليه السلام للأرض: خُذِيهِمْ، فأخذت منهم إلى الرُّكْب، فاستغاثوا بموسى، يا موسى، فقال: خُذِيهِمْ، فأخذتهم شيئاً فشيئاً، وهم يستغيثون به كل مرة، وهو يُلْجِئُ إلى أن تَمَّ الخسف بهم، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى، استغاثوا بك فلم ترحمهم، لَوْ بِي استغاثوا وإلَيَّ تابوا لرحمتهم وكشفت ما بهم، وقال قتادة، ومالك بن دينار: روي لنا أنه يخسف به كل يوم قامة فهو يتجلجل إلى يوم القيامة.

و «الْفَيْتَةُ»: الجماعة الناصرة التي يفيء إليها الإنسان الطالب للثَّصْرَةِ.

وقصة قارون هي بَعْدَ جوازهم النَّيْمَ؛ لأن الرواة ذكروا أنه كان ممن حفظ التوراة، وكان يقرؤها.

والتقرير، والذي ينبغيه يراد بها أسئلة الاستفهام على جهة الحاجة إلى علم ذلك من المسؤولين، أي أن ذلك لا يقع؛ لأن العلم بهم محيط، وسؤال التوبيخ غير مُعْتَدٍّ به.

ثم أخبر تعالى أن قارون خرج على قومه وقد أظهر قدرته من الملابس والمراكب وزينة الدنيا، قال جابر ومجاهد: خرج في ثياب حر، وقال ابن زيد: خرج هو وحشمه في ثياب مُعْضَفَرَةٍ، وقيل: في ثياب الأرجوان، وقيل غير هذا، وأكثر المفسرون في تحديد زينة قارون وتعيينها - مما لا صحة له - فاختصرته، وباقي الآية في اغترار الجهلة والأغمار من الناس بَيْنَ.

٨١ - ٨٢ تفسير قوله عز وجل:

أخبر تعالى عن الذين أوتوا العلم والمعرفة بالله تعالى وبحق طاعته والإيمان به أنهم زجروا الأغمار الذين تَمَنَّوْا حَالَ قَارُونَ، وحملوهم على الطريقة المُثَلَّى من أن النظر والتَّمَنِّي إنما يكون في أمور الآخرة، وأن حالة المؤمن العامل الذي ينتظر ثواب الله خَيْرٌ من حال كل ذي دنيا.

ثم أخبر تعالى عن هذه النزعة وهذه القوة في الخير في الذين أنه لا يُلْقَاهَا، أي: لا يُمَكِّنُ منها ويُوَحِّئُهَا إلا الصَّابِر على طاعة الله عز وجل، وعن شهوات نفسه، وهذا هو جماع الخير كله، والضمير في ﴿يُلْقَاهَا﴾ عائد على ما لم يتقدم له ذلك من

وعلى كلا الاحتمالين معاً فقد نبَّه القرآن على خطئه في اغتراره، وعارض منزعه بأن من معلومات الناس المتحققة عندهم أن الله تعالى قد أهلك من الأمم والقرون والملوك مَنْ هو أشد من قارون قوة وأكثر جمعاً، إمَّا للمال أو للحاشية. وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ يرجح أن قارون تشبَّع بعلم نفسه على زعمه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ قال محمد بن كعب: هو كلام متصل بمعنى ما قبله، والضمير في ﴿ذُنُوبِهِمْ﴾ عائد على مَنْ أهلك من القرون، أي: أهلكوا ولم يُسأل غيرُهم بعدهم عن ذنوبهم، أي: كلُّ أحد إنما يُسأل ويعاقب بحسب ما يخصه. وقالت فرقة: هو إخبارٌ مستأنف عن حالهم يوم القيامة، معناه أن المجرمين لا يُسألون عن ذنوبهم، أي أن الملائكة لا تُسأل عن ذنوبهم؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم من السَّوَادِ والتشويه ونحو ذلك، كقوله تبارك وتعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي آيات الله ما يقتضي أن الناس يوم القيامة يُسألون، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَفُّهُمْ إِلَيْهِمْ مَسْئُولُونَ﴾، وغير ذلك، وفيه آيات تقتضي أنه لا يُسأل أحد، كقوله تعالى: ﴿فَيَرْجِزُ لَّا يَسْتَكْبِرُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنِّشَ وَلَا جَنَآءَ﴾، وغير ذلك، ويمكن أن تكون الآيات التي توجب السؤال إنما يريد بها أسئلة التوبيخ

﴿وَيْكَانَ﴾ أو ﴿وَيْكَانَ﴾ بفتح الهمزة وبكسرهما، فكذلك في ﴿وَيْكَانَ﴾.

﴿٨٣﴾ - ﴿٨٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا إخبارٌ مستأنفٌ من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ، يُراد به إخبار جميع العالم وخضعتهم على الشئ بحسب ما تضمنته الآية، وهذا الحضر يتضمن الإنحاء على قارون ونظرائه، والمعنى أن الآخرة ليست في شيء من أمر قارون، إنما هي لمن صفته كذا وكذا. و«العلو» مذموم، وهو الظلم والتجبر، قال النبي ﷺ: «وذلك أن تريد أن يكون شراك نعلك أفضل من شراك نعل أخيك»، و«الفساد» يعم جميع الوجوه من الشر، ومما قال العلماء: هو أخذ المال بغير حق، وقوله: «وَالْمَنِيَّةُ لِلنَّفْيَةِ» خبر منفصل.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ معناه: إما في الدنيا وإما في الآخرة ولا بُدَّ، ففي وصف أمر جزاء الآخرة أنه من عجل صالحاً قلَّ خَيْرٌ من القدر الذي يقتضي النظر أنه مُوَازٍ لذلك الفعل، هذا على أن تُجعل في التفضيل، وفي القول حذف مضاف، أي: من ثوابها الموازي لها، ويحتمل أن تكون [من] لابتداء الغاية؛ أي: له خير بحسب حسنته ومن أجلها، وأخبر تبارك وتعالى أن السيئة لا يضاعف جزاؤها فضلاً منه ورحمة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ﴾ معناه:

فكان المعنى: ونيك، اعلم أن الله، ونحو هذا من الإضمار للفعل.

وقالت فرقة من النحويين: ﴿وَيْكَانَ﴾ بجملة دون تقدير انفصال - كلمة بمنزلة قولك: ألم تر أن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقوى الانفصال فيها على ما قاله سيبويه؛ لأنها تجيء مع (أن) ومع (أن)، وأنشد سيبويه:

وَيَ كَأَنَّ مِنْ يَكُنْ لَهْ نَشَبَ يَخُ
بَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعْشَ عَيْشَ ضُرُ
وهذا البيت لزيد بن عمرو بن نقيل.

وقرأ الأعمش: ﴿لَوْلَا مَنْ اللهُ﴾ بحذف (أن)، وروي عنه: ﴿لَوْلَا مَنْ﴾ برفع النون، وبالإضافة إلى [الله]. وقرأ الجمهور: ﴿لَخُفِيفٌ﴾ بضم الخاء وكسر السين، وقرأ عاصم بفتح الخاء والسين، وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف: ﴿لَا تُخْفِيفُ﴾ كأنه فعل مضارع أراد به أن الأرض كانت منفعة، وروى عن الكسائي أنه كان يقف على [وَيَ]، ويبتدئ [كَأَنَّ]، وروي عنه الوصل كالجماعة، وروي عن أبي عمرو أنه كان يقف على [وَيْكَانَ]، ويبتدئ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾، وعلى هذا المعنى قال الحسن: إن شئت:

سُورَةُ الْقَصَصِ

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَّبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٣﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعَ إِلَى رِبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْزَكِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَتَّبِعْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْفُكْرُ وَالَّذِي رُجِعَ مَنَّا إِلَى اللَّهِ الْعَبْدُ الْمُنِيبُ ﴿٨٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ أَحَسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَذَكَّرُوا أَنْ يَقُولُوا أَمْكَأَ مِنْهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَيَأْتِيَهُوهُ السَّيِّئُ الْعَمَلُ ﴿٤﴾ وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يَجِدْ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾

٢٦٦

ثم أخبر تعالى عن حال الذين تمسوا مكانه بالأمس، وندمهم واستشعارهم أن الحول والقوة لله تعالى، وقوله: ﴿وَيْكَانَ﴾، مذهب سيبويه والخليل أن (وَيَ) حرف تنبيه، وهي منفصلة عن (كَأَنَّ)، لكن أضيفت في الكتابة لكثرة الاستعمال، والمعنى أن القوم انتبهوا فتكلموا على قدر علمهم، أو تَبَهُوا فقليل لهم: أما يُشبه أن يكون هذا عندهم هكذا، فقالوا على جهة التّعجب والتّندم: فإن الله يسطر الرزق.

وقال أبو حاتم وجماعة من النحويين: (وَيْكَانَ) هي وَيْكَانَ، حذف لامه وجرت في الكلام كذلك، ومنه قول عترة:

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سَفَمَهَا
قِيلَ الْقَوَارِسُ: وَيْكَانَ عَثْرُ أَقِيمَ

أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ وَأَتَيْتَهُ، وَالْفَرْضُ أَصْلُهُ عَمَلٌ فَرَضَهُ فِي عَزْدٍ أَوْ نَحْوِهِ، فَكَانَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَثَبَّتْ وَتَمَكَّنَتْ وَتَبَقَّى تَشْبَهُ ذَلِكَ الْفَرْضِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ: أَعْطَاكَ الْقُرْآنَ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: فِي هَذَا الْقَوْلِ حَذْفُ مُضَافٍ، وَالْمَعْنَى: فَرَضَ عَلَيْكَ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ.

وَاخْتَلَفَ الْمُتَأَوَّلُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَرَأَيْتُكَ إِلَيَّ مَعَاذُ﴾ - فَقَالَ جَمَاهُورُ الْمُتَأَوَّلِينَ: أَرَادَ: إِلَى الْآخِرَةِ، أَيْ: بِاعْتِكَ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَالْآيَةُ - عَلَى هَذَا - مَقْصُودُهَا إِثْبَاتُ الْحُشْرِ، وَالْإِعْلَامُ بِوُقُوعِهِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: وَغَيْرُهُمَا: الْمَعَادُ: الْجَنَّةُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضاً وَجَمَاعَةٌ: الْمَعَادُ: الْمَوْتُ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَكَانَ الْآيَةُ - عَلَى هَذَا - وَاعِظَةً وَمَذْكُرَةً.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضاً وَمُجَاهِدٌ: الْمَعَادُ مَكَّةَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ بِالْجَحْفَةِ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَالْآيَةُ - عَلَى هَذَا - مُعْلِمَةٌ بِنَيْبٍ قَدْ ظَهَرَ لِلْأُمَّةِ، وَمُؤَنَسَةٌ بِفَتْحِ، وَالْمَعَادُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يُعَادُ إِلَيْهِ، وَقَدْ اشْتَهَرَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَنَّهُ مَعَادٌ لِلْكَلِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ زَيِّعْ أَعْمَ﴾ الْآيَةُ، آيَةٌ مِتَارِكَةٌ لِلْكَفَارِ وَتَوْبِيخٌ، وَأَسْنَدُ الطَّبْرِيِّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَرَأَيْتُكَ إِلَيَّ مَعَاذُ﴾ قَالَ: الْجَنَّةُ،

وَسُمِّيَ مَعَاداً إِثْمًا مِنْ حَيْثُ قَدْ دَخَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ وَغَيْرِهِ، وَإِثْمًا مِنْ حَيْثُ كَانَ فِيهَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَهِيَ مَعَادُ لَذَرِيَّتِهِ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا مِنْ حَيْثُ تَعْطِي لَفْظَةَ «الْمَعَادُ» أَنَّ الْمُخَاطَبَ قَدْ كَانَ فِي حَالٍ يَعُودُ إِلَيْهَا، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مِمَّا يَظْهَرُ فِي اللَّفْظَةِ فَيَتَوَجَّهُ أَنْ يُسَمَّى مَعَاداً مَا لَمْ يَكُنِ الْمَرْءُ فِيهِ مَجْزُوعاً؛ وَلِأَنَّهَا أَحْوَالٌ تَابِعَةٌ لِلْمَعَادِ الَّذِي هُوَ النُّشُورُ مِنَ الْقَبْرِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو﴾ الْآيَةُ. قَالَ بَعْضُ الْمُفْسِّرِينَ: هَذَا ابْتِدَاءُ كَلَامٍ مُضْمِنُهُ تَقْدِيرُ النِّعْمَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَحِمَهُ رَحْمَةً لَمْ يَحْتَسِبْهَا وَلَا بَلَغَهَا أَمَلُهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو﴾ الْآيَةُ كَلَامٌ مَعْلُوقٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَلَيْسَ فَرَضٌ عَلَيْكَ الْقُدْرَةُ﴾ أَيْ: وَأَنْتَ بِحَالٍ مِنْ لَا يَرْجُو ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَلْفَظُ إِلَيْكَ﴾ عِبَارَةٌ عَنْ إِعْلَانِ الشُّبُوهِ وَتَبْلِيغِ الْقُرْآنِ، كَمَا تَقُولُ: أَلْقَى فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ بِالرِّيَاسَةِ، وَنَحْوُ هَذَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ نَصَبٌ عَلَى اسْتِثْنَاءٍ مُنْقَطِعٍ، وَالظَّاهِرُ: الْمُعْمِنُ، أَيْ: اشْتَدَّ يَا مُحَمَّدُ فِي تَبْلِيغِكَ، وَلَا تَلْنِ، وَلَا تَفْشَلِ، فَتَكُونُ مَعُونَتُهُ لِلْكَافِرِينَ بِهَذَا الْوَجْهِ، أَيْ: بِالْفَتُورِ عَنْهُمْ.

(٨٧) - (٨٨) تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَاكَ﴾، أَيْ: بِأَقْوَالِهِمْ وَكَذِبِهِمْ وَأَذَاهُمْ، فَلَا

تَلْتَفِتُ نَحْوَهُ وَأَمُضْ لَشَأْنِكَ، وَقُرْأَ يَعْقُوبُ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَاكَ﴾، بِجَزْمِ النُّونِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَادْعُ إِلَيْنَا رَبَّكَ﴾ وَجَمِيعُ الْآيَةِ - يَتَضَمَّنُ الْمَهَادَنَةَ وَالْمَوَادَعَةَ، وَهَذَا كُلُّهُ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السِّيفِ.

وَسَبَبُ هَذِهِ الْآيَةِ مَا كَانَتْ قَرِيشٌ تَدْعُو رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ مِنْ تَعْظِيمِ أَوْثَانِهِمْ، وَعِنْدَ ذَلِكَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ أَمْرَ الْغَرَانِيقِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ نَهَى عَمَّا هُمْ بِسَبِيلِهِ، فَهَمُّ الْمُرَادِ وَإِنْ عَرِيَ اللَّفْظُ مِنْ ذِكْرِهِمْ، وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قَالَتْ فِرْقَةٌ: هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ الذَّاتِ، وَالْمَعْنَى: هَالِكٌ إِلَّا هُوَ، قَالَهُ الطَّبْرِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَبُو الْمُعَالِي رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَالَ الرَّجَّاجُ: إِلَّا إِلَهًا، وَقَالَ سَفِيَّانُ الثَّوْرِيُّ: الْمُرَادُ: إِلَّا مَا أَدَّى لَوَجْهِهِ، أَيْ: مَا عَمِلَ لِذَاتِهِ مِنْ طَاعَةٍ وَتَوَجُّعٍ بِهِ نَحْوَهُ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ:

.....

رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ وَمِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ: «أَرَدْتُ بِفَعْلِي وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى». وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْزُوْا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدْرَةِ وَالْغِيثِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ أَلْفُكُمْ﴾ أَيْ فَضْلُ الْقَضَاءِ وَإِنْفَاذُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ تُرْجُونَ﴾ إِبْخَارُ بِالْحُشْرِ وَالْعُودَةُ مِنَ الْقُبُورِ. وَقُرْأَ الْجَمَاهُورُ: ﴿تُرْجُونَ﴾ بِالسَّاءِ وَفَتْحِ الْجِيمِ، وَقُرْأَ عَيْسَى: ﴿يُرْجَمُونَ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ

وكسر الجيم، وقرأ أبو عمرو بالوجهين.

كمل تفسير سورة القصص والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحه أجمعين

تفسير سورة العنكبوت

هذه السورة مكية إلا الصدر منها، العشر آيات، فإنها مدنية، نزلت في شأن من كان من المسلمين بمكة، وفي هذا اختلاف.

﴿٣﴾ - ﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل: تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور، وقرأ ورش: ﴿الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا﴾ بفتح الميم من غير همز بعدها، وذلك على تخفيف الهمزة وإلقاء حركتها على الميم.

وهذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، فكانت صدرهم تضيق لذلك، وربما استنكر أن يُمكن الله الكفرة من المؤمنين، قال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية مسئلة ومعلمة أن هذه السيرة هي سيرة الله تبارك وتعالى في عباده اختباراً للمؤمنين وقتل؛ ليعلم الصادق ويرى ثواب الله تعالى له، ويعلم الكاذب ويرى عقابه إياه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية - وإن كانت نزلت بهذا السبب، وفي هذه الجماعة - فهي بمعناها باقية في أمة محمد ﷺ، موجود حُكمها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك، وإذا اعتبر أيضاً كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن، ولكن التي تشبه نازلة المؤمنين مع قريش هي ما ذكرناه مع أمر العدو في كل ثغر.

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر؛ إذ كان يُعذب في الله - ونظرائه. وقال الشعبي: سبب الآية ما كُلِّفه المؤمنون، أما الفتنة فهي الهجرة التي لم يتركوا دونها؛ لا سيما وقد لحقهم بسببها أن اتبعهم الكفار وردوهم وقتلوه، فقتل من قتل ونجا من نجا. وقال السدي: نزلت في مسلمين كانوا بمكة وكرهوا الجهاد والقتال حين فرض على النبي ﷺ.

و ﴿حَسِبَ﴾ معناه: ظَنَ، و ﴿أَنْ﴾ نصب ب ﴿حَسِبَ﴾، وهي الجملة التي بعدها تُسَدُّ مسدً مفعولني ﴿حَسِبَ﴾، و ﴿أَنْ﴾ الثانية في موضع نصب على تقدير إسقاط حرف الخفض، وتقديره: «بأن يقولوا»، ويحتمل أن يقدر: «لأن يقولوا»، والمعنى في الباء واللام مختلف، وذلك أنه في الباء كما تقول: «تركت زيداً بحاله»، وهو في اللام بمعنى: «من أجل»، أي: حسبوا أن إيمانهم علة للترك.

و ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يريد بهم

المؤمنين مع الأنبياء في سالف الدهر.

وقرأ الجمهور: ﴿فَلْيَعْلَنَّ﴾ بفتح الياء واللام الثانية، ومعنى ذلك: ليُظهرنَّ علمه ويُوجد ما علمه أولاً، وذلك أن علمه بهذا أولاً قديم، وإنما هو عبارة عن الإيجاد بالحالة التي تضمنها العلم القديم، والصدق والكذب على بابهما، أي: مَنْ صَدَقَ فعلمه وقوله وَمَنْ كَذَبَ. وقالت فرقة: إنما هي استعارة، وإنما أراد بهما الصلابة في الدين، والاضطراب فيه وفي جهاد العدو، ونحو هذا، ونظير هذا قول زهير:

لَيْتَ بَعَثَ يَضْطَادُ الرِّجَالَ إِذَا
مَا كَذَّبَ اللَّيْتُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا
قال النقاش: وقيل: إن الإشارة ب ﴿صَدَقًا﴾ إلى منهج مولى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه؛ لأنه أول قتيل قُتل من المؤمنين يوم بدر.

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿فَلْيُعْلِمَنَّ﴾ بضم الياء وكسر اللام الثانية، وهذه القراءة تحتل ثلاثة معانٍ: أحدهما أن يُعلم في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنزلة من ثوابه وعقابه، وبأعمالهم في الدنيا، بمعنى يوقفهم على ما كان منهم. والثاني أن يُعلم الناس والعالم هؤلاء الصادقين والكاذبين، أي: يفضحهم ويُشهرهم، هؤلاء في الخير، وهؤلاء في الشر، وذلك في الدنيا والآخرة، والثالث أن يكون ذلك من العلامة، أي: يضع لكل طائفة علماً تُشهر به، فالآية - على هذا ينظر إليها قول

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا حَسَنًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ وَصَيَّا الْإِنْسَانَ بِوَلَدِهِ حُسْنًا إِنَّ جَهَنَّمَ لَنُشْرِكَ بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَنْتُمْ كَذِبْتُمْ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَابٍ إِلَهُهُ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِن رَّبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ إِنَّ شَيْءَ إِتْمَانِهِمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنَّا لَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِسْمَةِ عَمَّا كَانُوا يَقُولُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢﴾

٣٩٧

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، إخبار عن المؤمنين المجاهدين الذين هم في أعلى رتبة من البدار إلى الله تبارك وتعالى، أشاد بهم عز وجل وبحالهم ليقيم بهم نفوس المتخلفين عن الهجرة، وهم الذين فتنتهم الكفار - إلى الحصول في هذه المرتبة، و«السَّيِّئَةُ»: الكفر وما اشتمل عليه، ويدخل في ذلك المعاصي من المؤمنين مع الأعمال الصالحة واجتناب الكبائر، وفي قوله عز وجل: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ حذف مضاف تقديره: ثواب أحسن الذي كانوا يعملون.

٨ - ١١ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَصَيَّا الْإِنْسَانَ﴾ الآية. روي عن قتادة أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص، وذلك أنه

﴿وَهُوَ السَّيِّئُ الْكَبِيرُ﴾ معناه: السميع لأقوال كل فِرْقَةٍ، العليم بالمعتقدات التي لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَهَدَ فَإِنَّمَا يَجْهَدُ لِنَفْسِهِ﴾ إعلام بأن كل أحد مجازي بفعله الحسن، فهو حظّه الذي ينبغي ألا يفرط فيه، فإن الله غني عن جهاده وعن العالمين بأسرهم.

وهاتان الآيتان كأنهما [....] على سواء إلى الطائفة المرتابة المترددة في فتنة الكفار، التي كانت تنكر أن ينال الكفار

المؤمنين بمكروه، وترتاب من أجل ذلك، فكانهم قيل لهم: من كان يؤمن بالبعث فإن الأمر حق في نفسه، والله تعالى بالمرصاد، أي: هذه بصيرة لا ينبغي أن يعتقدها لوجه أحد. وكذلك من جاهد فتنة جهاده له، فلا يمتن ذلك على أحد، وهذا كما يقول المناظر عند سوق حجته: من أراد أن ينظر إلى الحق فإن الأمر كذا وكذا، ونحو هذا فتأمله.

وقيل: معنى الآية: ومن جاهد عدوه لنفسه لا يريد وجه الله، وإنما جهاده لنفسه لا لله تعالى، وليس لله حاجة بجهاده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ذكره المفسرون، وهو قول ضعيف.

النبى ﷺ: «من أسر سريرة ألبسه الله رداءها». وعلى كل معنى منها ففيها وغد للمؤمنين الصادقين، ووعيد للكافرين.

وقرأ الزهري الأولى كقراءة الجماعة، والثانية كقراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

١٢ - ٧ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَمْ﴾ معادلة للآلف في قوله: ﴿أَحْسِبُ﴾، وكأنه عز وجل قرّر الفريقين، قرّر المؤمنين على ظنهم أنهم لا يفتنون، وقرّر الكافرين الذين يعملون السيئات بتعذيب المؤمنين وغير ذلك على ظنهم أنهم يسبقون عقاب الله تعالى ويُعجزونه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْزُبُونَ عَنْ النَّبِيِّاتِ﴾ - وإن كان الكفار المراد الأول بحسب النازلة التي الكلام فيها - فإن لفظ الآية يعم كل عاصٍ وعامل سيئة من المسلمين وغيرهم. وقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يجوز أن تكون «مَا» بمعنى الذي، فهي في موضع رفع، ويجوز أن تكون في موضع نصب على تقدير: ساء حكمًا يحكمونه. وفي هذه الآية وعيد للكفرة، وتأنيس للمؤمنين يظهر في وعده بالنصر في القيامة، وبأنه آت؛ إذ قد أجله الله تعالى وأخبر به.

وفي قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ تثبيت، أي: من كان على هذا الحق فليوقن بأنه آت وليزدد بصيرة، وقال أبو عبيدة: ﴿يَرْجُوا﴾ هنا بمعنى: يخاف، والصحيح أن الرجاء هنا على باب، وقال الزجاج: المعنى: يرجو لقاء ثواب الله، وقوله تعالى:

هاجر، فحلفت أمه ألا تستظل بظل حتى يرجع إليها ويكفر بمحمد - ﷺ -، فلج هو في هجرته، ونزلت الآية. وقيل: بل نزلت في عياش بن أبي ربيعة، وذلك أنه اعتراه في دينه نحو من هذا؛ إذ خدعه أبو جهل لعنه الله عليه وردّه إلى أمه... الحديث في كتاب السيرة. ولا مرية أنها نزلت فيمن كان من المؤمنين بمكة يشقى بجهد أبويه في شأن الإسلام والهجرة، فكان القصد بهذه الآية النهي عن طاعة الأبوين في مثل هذا الأمر العظيم، ولما كان برّ الوالدين وطاعتها من الأمور التي قررتها الشريعة وأكدها، وكان من الأمر القوي الملزم عندهم، قدم تعالى عن النهي عن طاعتها في الشرك بالله قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا﴾، على معنى: إنا لا نحل عقوق الوالدين، لكننا لا نسلط ذلك على طاعة الله تعالى، لا سيما في معنى الإيمان والكفر.

وقوله: ﴿حَسَنًا﴾ يحتمل أن ينتصب على المفعول، وفي ذلك تجوُّز، ويسهله كونه عامًّا لمعان، كما تقول: وصيتك خيرًا، وأوصيتك شرًا، عبّرت بذلك عن جملة ما قلت له، وَحَسَنَ ذلك دون حرف الجرّ كون حرف الجرّ في قوله: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾؛ لأنّ المعنى: ووصينا الإنسان بالحسن في فعله مع والديه، ونظير هذا قول الشاعر:

عَجِبْتُ مِنْ دَفَمَاءٍ إِذْ تَشْكُونَا
وَمِنْ أَبِي دَفَمَاءٍ إِذْ يُوصِيْنَا
خَيْرًا بِهَا كَأَنَّا جَافُونَا
ويحتمل أن يكون المفعول الثاني في قوله: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾، وينتصب ﴿حَسَنًا﴾ بفعل مضمر تقديره: يحسن حسنًا، وينتصب انتصاب المصدر، وقرأ عيسى والجحدري: ﴿حَسَنًا﴾ بفتحتين، وقال الجحدري: في الإمام مكتوب: ﴿بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾، قال أبو حاتم: يعني كالأحقاف، وقال التغلبي: في مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه: ﴿إِحْسَانًا﴾. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَرْجِعُكُمْ﴾ وعيد في طاعة الوالدين في معنى الكفر.

ثم كرّر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين ليحرّك النفوس إلى نيل مراتبهم، وقوله تعالى: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الْأَفْدِلِينَ﴾ مبالغة، على معنى: الذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته، وإذا تحصّل للمؤمنين هذا الحكم تحصل ثَمَرُهُ، وجزاؤه هو الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنَ الْنَاسِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾، نزلت في قوم من المسلمين كانوا بمكة مخفين بإسلامهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما خرج كفار قريش إلى بدر أخرجوا مع أنفسهم طائفة من هؤلاء، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كانوا أصحابنا وأكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَلْبَكُ

ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية، قال: فكتب المسلمون لمن بقي بمكة هذه الآية، وألّا عذر لهم، فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة وردوهم إلى مكة، فكتب المسلمون إليهم بذلك فحزنوا ويشوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿وَيَنَ الْنَاسِ مَن يَقُولُ ءَمَّا كُنَّا بِاللَّهِ﴾، فكتب المسلمون إليهم بذلك، وأن الله تعالى قد جعل لكم مخرجًا فخرجوا، فلحقهم المشركون فقاتلوهم، فنجا من نجا، وقُتل من قُتل.

وقال ابن زيد: نزل قوله تعالى: ﴿يَعْلَمَنَّ الْنَاسِ﴾ في منافقين كفروا لما أودوا.

وقوله تعالى: ﴿وَنَ الْنَاسِ كَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: صعب عليه أذى الناس حين صدّوه، وكان حقه ألا يلتفت إليه، وأن يصبر عليه في جنب نجاته من عذاب الله تعالى. ثم أزال تعالى موضع تعلّقهم ومغالطتهم إن جاء نصر، ثم قرّهم على علم الله تعالى بما في صدورهم، أي: لو كان يقينًا تامًّا وإسلامًا خالصًا لما توقفوا ساعة، ولركبوا كل هول إلى هجرتهم وراء نبّهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ تفسيره على حدّ ما تقدّم في نظيره.

وهنا انتهى المدني من هذه السورة.

﴿١٢﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي أن قاتل هذه المقالة الوليد بن المغيرة، وقيل: بل كانت شائعة من كفار قريش، قالوا لأتباع النبي ﷺ: ادخلوا في أمرنا، وأقروا بالهتنا واعبدوها، ونحن ليقيننا أنه لا بعث بعد الموت ولا رجوع نضمن لكم خطاياكم، ونحملها عنكم فيما دعوناكم إليه إن كان في ذلك درك كما تزعمون أنتم، وقولهم: ﴿وَلَنَحْمِلَ﴾ إخبار أنهم يحملون خطاياهم على جهة التشبيه بالنقل، ولكنهم أخرجوه في صيغة الأمر لأنها أوجب وأشد تأكيداً في نفس السامع من المجازات، وهذا نحو قول الشاعر:

فَقُلْتُ إِذْ عَيَّ وَأَذْعُ فَإِنْ أَتَيْتُ
لِصَوْتِ أَنْ يُنَادِيَ دَاعِيَانِ
ولكونه خبراً حسن تكذيبهم فيه، فأخبر الله عز وجل أن جميع ذلك باطل، وأنهم لو فعلوه لم يتحمل عن أحد من هؤلاء المغترين بهم شيء من خطاياهم التي تختص به.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَنَحْمِلَ﴾ بجزم اللام، وقرأ عيسى ونوح القاري: ﴿وَلَنَحْمِلَ﴾ بكسر اللام. وقرأ داود بن أبي هند: ﴿مَنْ خَطِيئَتِهِمْ﴾ بكسر الياء وفتح الطاء، وحكى عنه أبو عمرو أنه قرأ: ﴿مَنْ خَطِيئَتِهِمْ﴾ بكسر الطاء وهمزة وتاء بعد الألف. وقال مجاهد: الحمل هنا من الحَمَالَة لا من الحَمْل على الظهر.

ثم أخبر تعالى عن أولئك الكفرة أنهم يحملون أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم، أي: أثقالاً من كفرهم الذي يخترعونه ويتلبسون به، ﴿وَأَثْقَالًا مَعَ

أَثْقَالِهِمْ﴾ يريد: ما يلحقهم من أعوانهم وأتباعهم؛ فإنه يلحق بكل داعٍ إلى ضلالة كفّل منها حسب الحديث المشهور، «أَيُّمَا داعٍ دعا إلى هدى فاتبع عليه فله مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجرهم شيئاً، وأيُّمَا داعٍ إلى ضلالة...» الحديث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما كانت مع أثقالهم لكونها بسبب غيرهم وعن غير كفر تلبسوه، فَرَّقَ بينها وبين أثقالهم، ولم ينسبها إلى غيرها، بل جعلها في رتبة أخرى فقط، فهم فيها إنما يزرون وزر أنفسهم، وقد يترتب حمل أثقال الغير بما ورد عن النبي ﷺ: «فَإِنْ لَمْ يَبْقَ لِلظَّالِمِ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ الْمَظْلُومِ فَاطْرَحَ فَطْرَحَ عَلَيْهِ». وقوله تعالى: ﴿وَلَيَسْئَلَنَّ﴾ على جهة التوبيخ والتفريع، لا على جهة الاستفهام والاستعلام، و﴿يَقْتُرُونَ﴾ معناه: يختلقون من الكفر ودغوى الصاحبة والولد وغير ذلك لله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ الآية. قصة فيها تسلية لمحمد ﷺ عما تضمنته الآيات فيها من تعثت قومه، وفتنتهم للمؤمنين وغير ذلك، وفيها وعيد لهم بتمثيل أمرهم بأمر قوم نوح، والوار في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ عاطفة جملة كلام على جملة كلام، والقسم فيها بعيد. وقوله تعالى:

﴿أَرْسَلْنَا﴾، «فَلَيْتَ»، هذا العطف بالفاء يقتضي ظاهره أنه لبث هذه المدة رسلاً يدعو، وقد يحتمل أن تكون المدة المذكورة مدة إقامته، من لدن مولده إلى غرق قومه، وأما على التأويل الأول فاختلف في سنة التي بُعث عندها - فقيل: أربعون، وقيل: ثمانون، وقال عون بن أبي شذاد: ثلاثمائة وخمسون، ولذلك يحتمل أن تكون وفاته عليه السلام عند غرق قومه بعد ذلك بتسير، وقد روي أنه عمر بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين عاماً، وأنه عاش ألف سنة وستمائة سنة وخمسين سنة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ يقتضي أنه أخذ قومه فقط، وقد اختلف في ذلك - فقالت فرقة: إنما غرق في الطوفان طائفة من الأرض وهي المختصة بقوم نوح، وقالت

فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ وَإِذْ هَبْنَا دَاوُدَ إِسْمَاعِيلَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقَرِضْ ذَلِكَ كَذِبُكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَأَبْغِلُوا كُفْرَكُمْ زُقًى فَأَتَيْنُوا عِندَ اللَّهِ الزُّزْفَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ الَّذِي تَرْجِعُونَ ﴿١٤﴾ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ عَنْ قَوْمِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٦﴾ قُلْ يَسِرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ يَعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقَدَّرُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُونَ لَكُمْ أَوْلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأُولَئِكَ يَتْلُونَ كِتَابَكَ وَيَتَّبِعُونَ آيَاتَكَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٠﴾

طائفة - هي الجمهور -: إنما غرقت المعمورة كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو ظاهر الأمر؛ لاتخاذ السفينة، ولبعثه الطير ترتاد زوال الماء، ولغير ذلك من الدلائل، وبقي أن يعترض هذا بأن يقال: كيف غرق الجميع والرسالة إلى البعض؟ فالوجه في ذلك أن يقال: إن اختصاص نبي بأمة ليس هو بالأمر يهدي غيرها، ولا يدعوها إلى توحيد الله تعالى، وإنما هو بالأمر يأخذ بقتال غيرها، ولا يبت العباد فيهم، ولم يكن الناس يومئذ كثيرين بحكم القرب من آدم عليه السلام، فلا محالة أن دعاءه إلى توحيد الله تعالى قد كان بلغ الكل، فنالهم الفرق لإعراضهم وتماديهم.

و «الطوفان»: العظيم الطامي، ويقال ذلك لكل طام خرج عن العادة من ماء أو نار أو موت، ومنه قول الشاعر:

أَفَنَاهُمْ طُوفَانٌ مَوْتٍ جَارِفٍ

وطوفان وزنه فعلان بناءً مبالغة من: طاف يطوف إذا عمّ من كل جهة، ولكنه كثر استعماله في الماء خاصة، وقوله تعالى: «وَهُمْ ظَالِمُونَ» يريد: بالشرك.

و «وَأَسْحَبَ السَّيْفَةِ» تقدم في غير هذه السورة الخلاف في عددهم، وهم بثوهم وقوم آمنوا، والضمير في قوله: «وَجَعَلْنَاهَا» يحتمل أن يعود على السفينة، و«الآية» هنا العبرة والعلامة على قدرة الله تبارك وتعالى في شدة بطشه، قال قتادة: أبقاها آية على الجودي.

١٦ - تفسير قوله عز وجل:

يجوز أن يكون «إِبْرَاهِيمَ» معطوفاً على «ثُمَّ» ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في «فَأَنبِئْنَاهُ»، ويجوز أن ينصبه فعل تقديره: واذكر إبراهيم. وهذه القصة أيضاً تمثيل لقريش، وكان نموذ وأهل مدينته عبدة أصنام، فدعاهم إبراهيم عليه السلام إلى توحيد الله تعالى وعبادته، ثم قرر لهم ما هم عليه من الضلال.

وقرأ جمهور الناس: «وَتَخَلَّقُونَ إِنْكَارًا»، وقرأ ابن الزبير، وفُضِّل: «إِنْكَارًا» على وزن (فَعِيل)، وهو مصدر كالكَذِبِ وَالضَّحْكِ ونحوه، واختلف في معنى «وَتَخَلَّقُونَ» - ف قيل: هو نخت الأصنام وخلقها، سهاها إِنْكَارًا توسعاً من حيث يُفْتَرَى بها الإفك في أنها آلهة، وقال مجاهد: هو اختلاق الكذب في أمر الأوثان، وغير ذلك. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعَوْنُ الْعَقِيلِي، و قتادة، وابن أبي ليلي: «وَتَخَلَّقُونَ إِنْكَارًا» بفتح الخاء وشدة اللام وفتحها، و«الإفك» - على هذه القراءة - الكذب.

ثم وقفهم على جهة الاحتجاج عليهم بأمر يفهمه عامتهم وخاصتهم، وهو أمر الرزق، فقرّر أن الأصنام لا ترزق، وأمر الخير عند الله تبارك وتعالى، وخُصَّص الرزق لمكانته من الخلق، فهو خير يدل على جنسه كله، ويقال: شكرت لك، وشكرتُك، بمعنى واحد. ثم أخبرهم بالمعاد والحشر إليه.

١٧ - تفسير قوله عز وجل:

في قوله تعالى: «وَلَا تَكْذِبُوا» الآية... وعيد، أي: قد كذب غيركم وغدب، وإنما على الرسول البلاغ، وكل أحد - مع ذلك - مأخوذ بعمله.

وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم - بخلاف عنه -: «أَوْ لَمْ تَرَوْا» بالناء، وقرأ الباقون: «أَلَمْ يَرَوْا» بالياء، الأولى على المخاطبة، والثانية على الحكاية عن الغائب، وقرأ الجمهور: «يُنْبِئُ»، وقرأ الزبير، وعيسى، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: «يُنْذِرُ».

وهذه الإحالات على ما يظهر على الإخبار من إحياء الأرض والنبات وإعادته ونحو ذلك مما هو دليل على البعث من القبور والحشر، ويحتمل أن يريد: أو لم يروا بالدلائل والنظر كيف يجوز أن يعيد الله تبارك وتعالى الأجسام بعد الموت، وهذا تأويل قتادة. وقال الربيع بن أنس: المعنى: كيف يبدأ خلق الإنسان ثم يعيده إلى أحوال آخر حتى إلى التراب. وقال مقاتل: الخلق في هذه الآية الليل والنهار.

ثم أمر الله تعالى نبيه - ويحتمل أن يكون محمداً إن كان في قصة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام اعتراض بين كلامين - بأن يأمرهم - على جهة الاحتجاج - بالسير في الأرض، والنظر في كل قطر، وفي كل أمة قديماً وحديثاً، فإن ذلك يُوجد ألا خالق إلا الله تبارك وتعالى، ولا مبتدئاً بالخلق سواه، ثم ساق - على جهة الخبر - أن الله

تعالى هو المبتدئ لنشأة القيام من القبور.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿النَّشْأَةُ﴾ على وزن (الْفَعَالَةُ)، وهي قراءة الأعرج، وهذا كما تقول: رَأَيْتُهُ وَرَأَفْتُ، وقرأ الباقون: ﴿النَّشْأَةُ﴾ على وزن (الْفَعْلَةُ)، وقرأ الزهري: ﴿النَّشْأَةُ﴾ بشين مشددة في جميع القرآن. والبعث من القبور يقوم دليل العقل على جوازه، وأخبرت الشرائع بوقوعه ووجوده.

(٢١) - (٢٣) تفسير قوله عز وجل: المعنى: يُبَسَّرُ من يشاء لأعمالٍ مِنْ حَقٍّ عليه العذاب، وَيُسَّرُ من يشاء لأعمالٍ مِنْ سبقت له السعادة، فيتعلق الثواب والعقاب بالاكْتِسَابِ المقترن بالاختراع الذي لله تبارك وتعالى في أعمال العبيد. ثم أخبر تعالى بأنه إليه المنقلب، وأن البَشَرِ ليس بمعجز ولا مُفْلِتٍ في الأرض ولا في السماء. ويحتمل أن يريد السماء الهواء علوًّا، أي: ليس للإنسان حيلة صَعْدَ أو نَزَلَ، حكى نحوه الزهراوي. ويحتمل أن يريد السماء المعروفة، أي: لستم بمعجزين في الأرض ولو كنتم في السماء، وقال ابن زيد: معناه: ولا مَنْ في السماء مُعْجِزٌ إِنْ عَصَى، ونظروه - على هذا - بقول حسان بن ثابت:

أَمِنْ يَهْجُرُ رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ
وَيَسْخَرُهُ وَيَسْخَرُهُ سَوَاءٌ؟
والتأويل الأوسط أحسنها، ونحوه قول الأعشى:

وَلَوْ كُنْتُ فِي حُبِّ ثَمَانِينَ قَامَةً
وَرُقِيتُ أَشْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلْمٍ
لَيْسْتَ دَرَجَتِكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهْرَهُ
وَتَعْلَمَ أَتَى عَنْكَ لَسْتُ بِمُلْجَمٍ

والسلي أخص من النصير. وقرأ يحيى بن القعقاع، وابن الحرث: ﴿يَيْسُوا﴾ بغير همز. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ذم الله تعالى قوماً هانوا عليه فقال: ﴿أُولَئِكَ يَيْسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما تقدم من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرْوَا﴾ إلى هذه الآية يحتمل أن يكون خطاباً لمحمد ﷺ، ويكون اعتراضاً في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن

يكون خطاباً لإبراهيم ومحاورة لقومه، وعند آخر ذلك ذكر جواب قومه.

(٢٤) - (٢٥) تفسير قوله عز وجل: قرأ الجمهور: ﴿جَوَابَ﴾ بالنصب، وقرأ الحسن: ﴿جَوَابَ﴾ بالرفع، وكذلك سالم الأفطس. وأخبر الله تعالى عنهم أنهم لما بين إبراهيم عليه السلام الحُجَجَ، وأوضح أمر الدين، رجعوا إلى الغلبة، وعدلوا عن طريق الاحتجاج حين لم يكن لهم به قِبَلٌ، فتآمروا في قتله وتحريقه بالثار، وأنفذوا أمر تحريقه حسبما قد أفيض في غير هذا الموضع، وأنجاه الله تعالى من نارهم، وجعلها عليه برداً وسلاماً، قال كعب الأحبار: لم يحرق بالثار إلا الحَبَلُ الذي أوثقوه به، وجعل ذلك آية وعبرة، ودليلاً على

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ وَاحْرِقُوهُ فَأَجَبَهُ اللَّهُ مِنْ التَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَبَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَمَا وَدَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَأَمَّا لَلْهُلُوكَ وَإِنِّي مُهَاجِرٌ لِّكَ رَبِّ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَبَيْنَا لَهُ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَمَا أَيْتَنَّا أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلَوْطَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُمْ لَأَنْتَوْنَ أَنْتَوْنَ الرِّجَالُ وَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ وَأَنْتَوْنَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنَكَّرُ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُؤْتِينَا عَذَابَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

٣٩٩

وحدانيته لمن شرح صدره وسره للإيمان، أي: هذا الصنف ينتفع بالآية، والكفار هي عليهم عَمَى وإن كانت في نفسها آية لكل.

ثم ذكر تعالى أن إبراهيم قرأهم على أن اتخذهم الأوثان والأنصاب إنما كان اتباعاً من بعضهم لبعض، وجفظاً لموداتهم ومحباتهم الدنيوية، وأنهم يوم القيامة يجحد بعضهم بعضاً ويتلاعنون؛ لأن تواذهم كان على غير تقوى، و﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.

وقرأ عاصم - في رواية الأعمش عن أبي بكر عنه -: ﴿مَوَدَّةَ﴾ بالرفع ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالخفض، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم - في رواية أبي بكر - وأبو عمرو - في رواية أبي زيد -: ﴿مَوَدَّةَ بَيْنَكُمْ﴾ بالتثنية

وَالنُّصْبُ، ونصب (بَيْنَ)، أما قراءة رفع ﴿مَوَدَّةٌ﴾ فوجهها أن تكون [مَا] بمعنى (الذي)، وفي قوله: ﴿أَتَخَذْتُمْ﴾ ضمير عائد على (الَّذِي)، وهذا الضمير هو مفعول أول لـ ﴿أَتَخَذْتُمْ﴾، و﴿أَوْتَيْنَا﴾ مفعول ثانٍ، و﴿مَوَدَّةٌ﴾ خبر ﴿إِنْ﴾ في قراءة من نَوْنُهَا، وفي قراءة من لم ينونها. ويجوز أن تكون [مَا] كَأَفَّةٌ، ولا يكون في قوله: ﴿أَتَخَذْتُمْ﴾ ضمير، ويكون قوله: ﴿أَوْتَيْنَا﴾ مفعولاً بقوله: ﴿أَتَخَذْتُمْ﴾، ثُمَّ يفتصر عليه، وَيُقَدَّرُ الثاني: «إِلَهَةٌ» أو نحوه، كما يقدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْوِجَالَ﴾ أي: «إِلَهَاءَ» ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، ويكون قوله: ﴿مَوَدَّةٌ﴾ خبر ابتداءٍ تقديره: «هِيَ مَوَدَّةٌ»، وفي هذه التأويلات مجازٌ واتساعٌ في تسمية الأوثان مودة، أو يكون ذلك على حذف مضاف.

وأما من نصب ﴿مَوَدَّةٌ﴾ فعلى أن [مَا] كافة، وعلى خُلُوِّ ﴿أَتَخَذْتُمْ﴾ من الضمير، والاختصار على المفعول الواحد كما تقدم، ويكون نصب «المودة» على المفعول من أجله.

ومن أضاف «المودة» إلى «الْبَيْنِ» في القراءتين بالنصب والرفع فقد تجوز في ذلك وأجرى الظرف مجرى الأسماء، ومن نصب ﴿بَيْنَكُمْ﴾ في القراءتين - النصب والرفع - في «مَوَدَّةٌ» فكذلك يحتمل أن ينتصب انتصاب الظروف، ويكون معلقاً بـ [مَوَدَّةٌ]، وكذلك ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ظرف أيضاً متعلق بـ [مَوَدَّةٌ]، وهو مصدرٌ عمل في ظرفين من

حيث افتراق الزمان والمكان، ولو كان لواحد منهما لم يجز ذلك، تقول: «رَأَيْتُ زَيْدًا أَمْسَ فِي السُّوقِ»، ولا تقول: «رَأَيْتُ زَيْدًا أَمْسَ الْبَارِحَةَ»؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الظرفين جزءاً للآخر، تقول: «رَأَيْتُ زَيْدًا أَمْسَ عَشِيَّةً». ويجوز أن ينتصب ﴿بَيْنَكُمْ﴾ على أنه صفة «المودة»، وهنا محذوف مقدّر، تقديره: «مَوَدَّةٌ ثابتة بينكم»، وفي الظرف ضمير عائد على «مَوَدَّةٌ»، لما حذف «ثابتة» استقر الضمير في الظرف نفسه. وقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ظرف في موضع الحال من الضمير الكائن في ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بعد حذف «ثابتة»، وهذه الحال متعلقة بـ «مَوَدَّةٌ»، وجاز تعلقها بها وهي قد وصفت لأن معنى الفعل فيها، وإن وصفت فلا يمتنع أن يعمل معنى الفعل إلا في المفعول، فأما في الظرف وفي الحال فيعمل، قال مكِّي: ويجوز أن يكون ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ صفة ثانية لـ «مَوَدَّةٌ»، ويكون فيها مقدر «مستقرة»، وفيها ضمير ثانٍ عائد إلى «مَوَدَّةٌ»، فالتقدير - على هذا - مودة بينكم مستقرة في الحياة الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يكون قوله: ﴿مَوَدَّةٌ﴾ في قراءة من نصب مفعولاً ثانياً بقوله: ﴿أَتَخَذْتُمْ﴾، ويكون في ذلك اتساعٌ، فتأمل. وفي مصحف أبي: ﴿مَوَدَّةٌ بَيْنَهُمْ﴾ بالهاء، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿إِنَّمَا مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ﴾.

(٦٦) - (٧٨) تفسير قوله عز وجل: ﴿أَمِنْ﴾ معناه: صدق، وهو فعل

يتعدى بالباء وباللام، والقائل ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ هو إبراهيم عليه السلام، قاله قتادة، والثَّخَعِي. وقالت فرقة: هو لوط عليه السلام.

ومما صَحَّ من القصص أن إبراهيم ولوطاً هاجرا من قريتهما «كوثى» وهي في سواد الكوفة من أرض بابل إلى بلاد الشام، وفلسطين وغيرها، قال ابن جريج: هاجرا إلى حران، ثم أمرا بَعْدَ إلى الشام، وفي هذه الهجرة كانت سارة في صحبة إبراهيم، واعتراها أمر الملك. و«المُهَاجِرُ»: النازع عن الأمر، وهي في عرف الشرع من ترك وطنه رغبة في رضى الله تعالى، وقد ذهب بهذا الاسم أصحاب محمد ﷺ قبل الفتح. وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مع الهجرة إليه صفتان بليغتان تقتضي استحقاق التوكُّل عليه. وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ حذف مضاف، تقديره: إلى رضى رَبِّي، أو نحو هذا.

وإسحق بن إبراهيم هو الذي بُشِّرَ به، وبُشِّرَ بيعقوب من ورائه، وهو ولد إسحق، و«الْكِتَابُ» هو اسم جنس، أي: جعل الله تعالى في ذرية إبراهيم عليه السلام جميع الكتب المنزلة: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وعيسى عليه السلام من ذريته، وقوله: ﴿أَلْبَسُوا فِي الدُّنْيَا﴾ يريد: في حياته بحيث أدرك ذلك وسُرَّ به، والأجر الذي آتاه الله تعالى العافية من النار، ومن الملك الجائر، والعمل الصالح، والثناء الحسن. قاله مجاهد. وأنَّ كل أمة تتولاه، قاله ابن جريج. والولد الذي قرَّت به

العين بحسب طاعة الله تعالى، قاله الحسن. ثم أخبر عنه أنه في الآخرة في عداد الصالحين الذين نالوا رضى الله تبارك وتعالى، وفازوا برحمته وكرامته العليا.

وقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ نصب بفعل مضمر، تقديره: واذكر لوطاً، و﴿الْفَجِئَةَ﴾: إتيان الرجال في الأدبار، وهي معصية ابتدعها قوم لوط.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣١﴾ تفسير قوله عز وجل:

تقدم ذكر القراءات في ﴿آيَتَكُمْ﴾، واختلف الناس في «قُطِعَ السَّبِيلُ» المشار إليه هنا - فقالت فرقة: كان قُطِعَ الطريق بالسلب فاشياً فيهم، وقال ابن زيد: كانوا يقطعون الطرق على الناس لطلب الفاحشة، فكانوا يحيقون. وقالت فرقة: بل أَرَادَ قُطِعَ سَبِيلَ النسل في ترك النساء وإتيان الرجال. وقالت فرقة: أراد أنهم بفتح بفتح الأحذوثة عنهم يقطعون سبيل الناس عن قصدهم في التجارات وغيرها. و«الثَّادِي»: المجلس الذي يجتمع الناس فيه، هو اسم جنس؛ لأن الأنديّة في المدن كثيرة، كأنه قال: وتأتون في اجتماعكم حيث اجتمعتم، واختلف الناس في ﴿الْمُنْكَرُ﴾ - فقالت فرقة: كانوا يخدّفون الناس بالمحصى، ويستخفّون بالغريب والخطر عليهم، وروته أم هانئ عن النبي ﷺ، وكانوا لا يربطهم دين ولا مروءة، وقال مجاهد، ومنصور: كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً،

وقال القاسم بن محمد: منكرهم أنهم كانوا يتفاعلون في مجالسهم، ذكره الزهراوي، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان ينظارطون في مجالسهم، وقال مجاهد أيضاً: كان من أمرهم لعب الحمام، وتطريف الأصابع بالحناء، والصفير، والحذف، وبند الحياء في جميع أمورهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد توجد هذه الأشياء في بعض عصاة أمة محمد ﷺ، فالتناهي واجب.

فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج، أي: اثنا بالعذاب، فإن ذلك لا يكون، ولا تقدر عليه، وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصممون على اعتقاد كذبه، وليس يصح في الفطرة أن يكون معاند يقول هذا، [ثم استنصر لوط عليه السلام ربه، فبعث عليهم ملائكة لعذابهم، فجاءوا إبراهيم عليه السلام أولاً مبشرين بإسحق، ومبشرين بنصرة لوط على قومه، وكان لقاءهم لإبراهيم على الصورة التي بنيت في غير هذا الموضع، فلطفة «البُشْرَى» - في هذا الموضع - تتضمن أمر إسحق ونصرة لوط عليهما السلام، فلما أخبروه بإهلاك القرية على ظلمهم

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَجِّنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا نَكُنَّ كَآفٍ عَلَيْهِ ﴿٣٠﴾ أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتًّا بِهِمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا نَكُنَّ كَآفٍ عَلَيْهِ ﴿٣١﴾ إِنَّا نُنْزِلُكَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجَالًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ رَكَنَّا إِلَيْهَا آيَةً يَنْتَقِظُونَ لِقَوْمٍ يُعَذِّبُونَ وَلِلَّهِ مَلَكٌ شُعْبًا فَقَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٣٤﴾ وَكَذَّاؤُكُمْ وَكَذَّبْتُمْ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِكُمْ وَرَفَّتْ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلْتُمْ فَصْدَهُمُ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٥﴾

أشفق إبراهيم عليه السلام على لوط عليه السلام، فعارضهم بحسب ما يأتي.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

روى ابن عباس رضي الله عنهما أن إبراهيم عليه السلام لما علم من قبل الملائكة أن قوم لوط يُعَذِّبُونَ أشفق على المؤمنين فجادل الملائكة، وقال: أرايتم إن كان فيهم مائة بيت من المؤمنين أتتكونهم؟ قالوا: ليس فيهم ذلك، فجعل ينحدر حتى انتهى إلى عشرة آيات، فقالت له الملائكة: ليس فيها عشرة، ولا خمسة، ولا ثلاثة، ولا اثنان، فحينئذ قال إبراهيم عليه السلام: إن فيها لوطاً، فراجعوه حينئذ بأننا نحن أعلم بمن فيها، أي: لا تخف أن يقع حيف على مؤمن.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿لَتُنَجِّتَهُ﴾ بفتح النون الوسطى وشد الجيم، و﴿مُنْجُوكٌ﴾ بفتح النون وشد الجيم، وقرأ حمزة، والكسائي، ﴿لَتُنَجِّتَهُ﴾ بسكون النون وتخفيف الجيم، وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿لَتُنَجِّتَهُ﴾ بالتشديد، و﴿مُنْجُوكٌ﴾ بالتخفيف، وقرأت فرقة: ﴿لَتُنَجِّتَهُ﴾ بسكون النون الأخيرة من الكلمة، وهذا إنما يجيء على أنه خفف النون المشددة وهو يريد بها.

وامرأة لوط هذه كانت كافرة، تنبه على أضيافه، و«الغابري»: الباقي، ومعناه: من الغابرين في العذاب، وقالت فرقة: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ﴾ أي: ممن غُيِّرَ وَبَقِيَ من الناس وَعَسَى في كفره، والضمير في ﴿يَوْمٍ﴾ في الموضوعين عائد على الأضياف الرُّسل، وذلك بخوفه من قومه عليهم، فلما أخبروه بما هم فيه فُرِجَ عنه. وقرأ عامة القراء: ﴿يَوْمَ﴾ بكسر السين، وقرأ عيسى وطلحة بضمهما، و«الرُّجُزُ»: العذاب، وقوله تعالى: ﴿يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: عذابهم بسبب فسقهم، وكذلك كل أُمَّةٍ عَذَّبَهَا الله فإنما عَذَّبَهَا على الفسق والمعصية، ولكن بأن يقترون ذلك بالكفر الذي يوجب عذاب الآخرة. وقرأ أبو حيوة، والأعمش: ﴿يَفْسِقُونَ﴾ بكسر السين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهَا﴾ أي: من خيرها وما بقي من آثارها، ف [مِنْ] لابتداء الغاية، ويصح أن تكون للتبعية، على

أن تريد ما ترك من بقايا تلك القرية ومنظرها، والآية موقع العبرة، وعلامة القدرة، ومزدجر النفوس عن الوقوع في سخط الله تعالى.

وقرأ جمهور القراء: ﴿مُنْزِلُونَ﴾ بتخفيف الزاي، وقرأ ابن عامر: ﴿مُنْزِلُونَ﴾ بشد الزاي، وهي قراءة الحسن وعاصم - بخلاف عنهما -، وقرأ الأعمش: ﴿إِنَّا مُرْسِلُونَ﴾ بدل ﴿مُنْزِلُونَ﴾، وقرأ ابن محيصن: ﴿رُجُزًا﴾ بضم الراء.

٣٦ - ٣٨ تفسير قوله عز وجل:

نصب ﴿شُعَبًا﴾ بفعل مضمر مع التقدير: وبعثنا أو أرسلنا، فأمر شُعَبٌ عليه السلام بعبادة الله تعالى، والإيمان بالبعث واليوم الآخر، ومع الإيمان به يصح رجأؤه، وذهب أبو عبيدة إلى أن المعنى: وخافوا. و﴿تَمُوتُوا﴾ معناه: تفسدون، يقال: عَمَّا يَغْتَو، وعَمَّا يَغِيثُ، وعَمِّي يَغْفَى إذا أفسد. وأهل مَذْيَن: قوم شعيب، وهذا على أنها اسم البلدة، وقيل: مَذْيَن: اسم القبيلة. وأصحاب الأيكة: غيرهم، وقيل: هم بعضهم ومنهم، وذلك لأن معصيتهم في أمر الموازين والمكاييل كانت واحدة. و﴿أَرْفَقْنَا﴾: ميد الأرض بهم، وزلزلتها عليهم، وتداعى بها بهم، وهذا نحو من الخسف، ومنه الإرجاف بالأخبار، و«الجُثوم» - في هذا الموضع - تشبيه، أي: كان همودهم على الأرض كالجثوم الذي هو للطائر والحيوان، ومنه قول لبيد:

فَعَدَوْتُ فِي غَلَسِ الظَّلَامِ وَطَيْرُهُ
عُصَبَ عَلَى خَضِلِ الْعِضَاءِ جُثُومُ
وقوله: ﴿وَعَادًا﴾ منصوب بفعل مضمر، تقديره: واذكر عادًا، وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدْ مَتْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. وقرأ: ﴿وَتُمُودًا﴾ عاصم، وأبو عمرو، وابن وثاب. وقرأ: ﴿وَتُمُودَ﴾ بغير تنوين أبو جعفر، وشيبة، والحسن، وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿وَعَادٍ وَتُمُودَ﴾ بالخفض فيهما والتنوين.

ثم دلَّ عز وجل على ما تعطيه العبرة في بقايا مساكنهم ورسوم منازلهم ودُنُو آثارهم. وقرأ الأعمش: ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مَسَاكِنُهُمْ﴾ دون [مِنْ]. وقوله تعالى: ﴿وَرَزَيْنَا لَهُمْ﴾ عطف جملة من الكلام على جملة، و«السَّيْلُ» هي طريق الإيمان بالله تعالى ورسله، ومنهج النجاة من النار، وقوله: ﴿سَتَبَيَّنَ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: معناه: لهم بصيرة في كفرهم، وإعجاب به، وإصرار عليه، فذمهم بذلك. وقيل: لهم بصيرة في أن الرسالة والآيات حق، ولكن كانوا - مع ذلك - يكفرون عادًا، ويرؤهم الضلال إلى مجاهله ومتالفه، فيجري هذا مجرى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَ وَاسْطَيْنِهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا﴾. وتزيين الشيطان هو بالوسواس ومناجاة ضمائر الناس، وتزيين الله تعالى الشيء هو بالاختراع، وخلق محبته والتلبيس به في نفس العبد.

﴿٣٩﴾ - ﴿٤٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

نصب ﴿قَتَرُونَ﴾ إما بفعل مضمر تقديره: اذكر، وإما بالعطف على ما تقدم، وقارون من بني إسرائيل، وهو الذي تقدمت قصته في الكنوز وفي البغي على موسى بن عمران عليه السلام، وفرعون مشهور، وهامان وزيره، وهو من القبط. و«الْبَيِّنَات»: المعجزات والآيات الواضحة، و«سَفِيكٌ» معناه: مفلتين من أخذنا وعقابنا، وقيل: معناه: سابقين من أوليانا، وقيل: معناه: سابقين الأمم إلى الكفر، أي: قد كانت تلك عادة الأمم مع الرسل.

و«الَّذِينَ أُرْسِلَ عَلَيْهِمُ الْحَاصِبُ» - قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم قوم لوط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن يدخل قوم عاد في الحاصب؛ لأن تلك الريح لا بد أنها كانت تحصبهم بأمر مؤذية. و«الْحَاصِبُ»: هو العارض من ريح أو سحاب أو رمي بشيء، ومنه قول الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا
بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ الْقُطَنِ مَثُورٍ
ومنه قول الأخطل:

تَزِيْمِي الْعِضَاءَ بِحَاصِبٍ مِنْ ثُلُجِهَا
حَتَّى يَبِيَّتَ عَلَى الْعِضَاءِ جُفَا لَا
و«الَّذِينَ أَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ» قوم ثمود، قاله ابن عباس، وقال قتادة: هم قوم شعيب، و«الْخَسْفُ» كان بقارون، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويشبه أن يكون أصحاب الرجفة في هذا النوع من العذاب، و«الْعَرْقُ» كان في قوم نوح، وبه فسر ابن عباس، وفي فرعون حربه، وبه فسر قتادة.

وظلمهم أنفسهم كان بالكفر ووضع العبادة في غير موضعها، وقد المفعول على ﴿يُظْلَمُونَ﴾ للاهتمام، وهذا نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وغيره، وحكى الطبري أن رجفة قوم شعيب كانت صيحة أرجفتهم في هذا مع ثمود.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

شبه تبارك وتعالى الكفار في عبادتهم الأصنام وبنائهم جميع أمورهم على ذلك بالعنكبوت التي تبني وتجتهد، وأمرها كله ضعيف متى مسته أدنى هامة أودهمته، وكذلك أمر أولئك وسعيهم مضحّل لا قوة له ولا معتمد، ومن حديث ذكره النقاش: «العنكبوت شيطان مسخه الله تعالى فاقتلوه»، وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه يورث الفقر»، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون أن هذا مثلهم، وأن حالهم ونسبتهم من الحق هذه الحالة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. قرأ أبو

﴿٣٩﴾ وَفَرَّقُوا وَفَرَّقُوا وَفَرَّقُوا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى
بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ
﴿٤٠﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِنُفْسِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤١﴾ مَثَلُ الَّذِينَ
أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ
أَخَذَتْ بِبَنَاتِهَا وَإِنْ أُوْهِيَ الْبُيُوتِ لَيْتَ الْعَنَكَبُوتِ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٣﴾ وَتِلْكَ
الْأَمْثَلُ نُصَرِّفُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ
﴿٤٤﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ أَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
وَأَقْرِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٦﴾

عمرو، وسلام: ﴿يَعْلَمُ مَا﴾ بالإدغام، وقرأ عامة القراء بالفك، وقرأ الجمهور: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالثاء من فوق، وقرأ أبو عمرو، وعاصم - بخلاف - ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء من تحت على الغيبة. فأما موضع [ما] من الإعراب، فقليل: معناه أن الله يعلم الذين يدعون من دونه من جميع الأشياء أن حالهم هذه، وأنهم أمر لا قدر له، وقيل: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ إخبار تام، وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ متصل به، واعترض بين الكلامين ﴿مَا يَدْعُونَ﴾ من دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ، وذلك على هذا النحو من النظر، ويحتمل معنيين: أحدهما أن تكون [ما] نافية، أي: لستم تدعون شيئاً له بال ولا قدر، فيصلح أن يُسَمَّى شيئاً، وفي هذا تعليق ﴿يَعْلَمُ﴾، وفيه نظر،

والثاني أن تكون [ما] استفهاماً، كأنه قرّر - على جهة التوبيخ - على هذا المعبود من جميع الأشياء ما هو إذ لم يكن الله تعالى، أي: ليس لهم - على هذا التقدير - مقنع إليه، ف [مِنْ] على القول الأول والثالث للتبعيض المجرد، وعلى القول الوسط هي زائدة في الجحد، ومعناها التأكيد، وقال أبو علي: [ما] استفهام نصب بـ ﴿يَدْعُونَ﴾، ولا يجوز نصبها بـ ﴿يَسْتَلِمُ﴾، والجملة التي منها في موضع نصب بـ ﴿يَسْتَلِمُ﴾، والتقدير: إن الله تعالى يعلم أوثاناً تدعون من دونه أو غيرها لا يخفى ذلك عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَلَمْتُنَّ﴾ إشارة إلى هذا المثل ونحوه، و﴿نَضْرِبُهَا﴾ مأخوذ من الضرب، أي النوع، كما تقول: «هذان من ضرب واحد»، «وهذا ضرب هذا» أي قرينه وشبيهه، فكأن «ضرب المثل» هو أن تجعل الأمر الممثل ضرب. وباقي الآية بين.

وقال جابر: قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾: «العاقِل من عقل عن الله تعالى، وعمل بطاعته، وانتهى عن معصيته».

① - ② تفسير قوله عز وجل:

تَبَّ فِي ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى أَمْرٍ يُوقِعُ الذَّهْنَ عَلَى صِغَرِ قَدْرِ الْأَوْتَانِ وَكُلِّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وقوله سبحانه: ﴿يَالْحَقُّ﴾ أي: بالواجب الثَّيِّر، لا للعبث واللعب، بل ليدل على سلطانه، ويشيت شرائعه، ويضع الدلائل لأهلها، ويعم المنافع، إلى غير ذلك مما لا يحصى عداً.

ثم أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بالخضوع لأمره، وتلاوة القرآن الذي أوحى إليه، وإقامة الصلاة، أي إدامتها والقيام بحدودها. ثم أخبر - حكماً منه - أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك عندي بأن المصلّي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وذكر الله تعالى وتوهم الوقوف بين يديه، وأن قلبه وإخلاصه مطّلع عليه مرقوب، صلحت لذلك نفسه وتدلّت، وخامرها ارتقاب الله تبارك وتعالى، فاطردت لذلك في أقواله وأفعاله وانتهى عن الفحشاء والمنكر، ولا يكدر يفتّر من ذلك حتى تظلمه صلاة أخرى يزجج بها إلى أفضل حالة، وهذا معنى هذا الإخبار؛ لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون. ورؤي عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واضفرّ لونه، فكلم في ذلك فقال: إني واقف بين يدي الله تبارك وتعالى، وحق لي هذا مع ملوك الدنيا، فكيف مع ملك الملوك؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه صلاة تلهي - ولا بد - عن الفحشاء والمنكر، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء، لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل، فذلك يترك صاحبها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقة معاصي تبعده عن الله تعالى تمادى على بعده، وعلى هذا يخرج الحديث عن ابن عباس، وابن مسعود، والحسن، والأعمش، وهو قولهم: «من لم تنهه صلاته عن

الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُغداً»، وقد روي أن الحسن أرسله عن النبي ﷺ، وذلك غير صحيح السند، سمعت أبي رضي الله عنه يقول: فإذا قدرناه، ونظرنا معناه فغير جائز أن يقول: إن نفس صلاة العاصي تبعده من الله تعالى حتى كأنها معصية، وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر في تقريبه من الله تعالى، بل تتركه في حاله ومعاصيه من الفحشاء، والمنكر البُغْد، فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البُغْد الذي كان سبيله، فكأنها بَعْدَتْه حين لم تكف بُغْدَه عن الله تعالى. وقيل لابن مسعود رضي الله عنه: إن فلاناً كثير الصلاة، فقال: إنها لا تنفع إلا من أطاعها. وقرأ الربيع بن أنس: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: الصلاة - هنا - القرآن، وقال حماد بن أبي سليمان، وابن جريج، والكلبي: إن الصلاة تنهى ما دمت فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عجمة، وأين هذا مما رواه أنس بن مالك؟ قال: كان فتى من الأنصار يصلي مع النبي ﷺ، ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلا ركب، فقيل ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إِنَّ صَلَاتِهِ سَتْنَاهُ»، فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله، فقال رسول الله ﷺ: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ؟»

وقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، قال ابن عباس، وأبو الدرداء، وسلمان، وابن مسعود، وأبو قرة رضي الله عن الصحابة

أجمعين: معناه: ولذكرُ الله إياكم أكبر من ذكركم إياه، وقيل: معناه: ولذكرُ الله أكبر مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر، وقال ابن زيد، وقتادة: لذكرُ الله أكبر من كل شيء، وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ فقال: أما تقرأ القرآن: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، كأنه يخص عليه في هذين التأويلين الأخيرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعندي أن المعنى: ولذكرُ الله أكبر على الإطلاق، أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذكر الله مراقب له، وثواب ذلك الذكر أن يذكره الله تعالى، كما في الحديث: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مِلْحٍ ذَكَرْتُهُ فِي مِلْحٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ». والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نهي، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفروغه إلا من الله تعالى، وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى، وذكرُ الله تعالى للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرة لذكر العبد ربّه. قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، وبإقني الآية ضربٌ من التوعد والحث على المراقبة.

﴿تفسير قوله عز وجل:﴾

قرأ الجمهور: ﴿إِلَّا﴾ على الاستثناء، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَلَا﴾ بفتح الهمزة وتخفيف اللام، واختلف

المفسرون في المراد بهذه الآية.

فقال ابن زيد: معناها: لا تجادلوا من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب، فكأنه قال: «أهل الكتاب المؤمنين»، ﴿إِلَّا﴾ بآلئ هي أحسن، أي بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أوائلكم، وغير ذلك، وقوله تعالى - على هذا التأويل -: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يريد به من بقي على كفره منهم، كمن كفر وغدر من بني قريظة والنضير وغيرهم، فالآية - على هذا - مُحكمة غير

منسوخة.

وقال مجاهد: المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى والباقون على دينهم. أمر الله تعالى المؤمنين ألا يجادلوه إلا بالأحسن: من الدعاء إلى الله تعالى، والتنبية على آياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة، وقوله - على هذا التأويل -: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ معناه: ظلموكم، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق، فيزاد به مَنْ لم يؤدّ جزية، ونصب الحرب، وَمَنْ قال وصرح بأن الله ولداً، أو له شريك، أو يدّ مغلوطة، فالآية - على هذا - منسوخة في مهادة من لم يحارب، قال قتادة: هي منسوخة بقول الله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْنَا وَاللَّهُ وَاللَّهُمَّ وَجِدْهُمْ لَنَا مُسْلِمِينَ﴾^(١) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ كُتِبَ لَهُمُ الْقِسْطُ مِنَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ^(٢) وَمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ قَبْلَهُ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بَيْتُكُمْ إِذَا لَزَمَ أَنْ تَبْطُلُوا^(٣) بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَتَنَبَّأُ فِي صُورِ الْذِّبِ أَوْ نُورِ الْعِلْمِ وَمَا يُجْعَلُ بِتَابِعَاتٍ إِلَّا الظَّالِمُونَ^(٤) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ^(٥) أَوْ لَوْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ رَحْمَةً وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^(٦) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ^(٧)

٤٠٢

والذي يتوجه في معنى الآية إنما يتضح في معرفة الحال في وقت نزول الآية، وذلك أن السورة مكية من بعد الآيات العشر الأول، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية ولا غير ذلك، وكانت اليهود بمكة وفيما جاورها، وربما وقع بينهم وبين المؤمنين جدال واحتجاج في أمر الدين وتكذيب، فأمر الله تعالى المؤمنين ألا يجادلوه بالمحاجة إلا بالحسنى دعاء إلى الله تعالى وملاينة، ثم استثنى مَنْ ظلم منهم المؤمنين، إما بفعل وإما بقول، وإما بإذابة محمد ﷺ، وإما بإعلان كفر فاحش، كقول بعضهم: عزير ابن الله، ونحو هذا، فإن هذه الصفة استثنيت لأهل الإسلام معارضتها بالخروج معها عن التي هي أحسن،

ثم نُسخ هذا بعدُ بآية القتال والجزية . وهذا قول قتادة .

قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾ الآية . قال أبو هريرة: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، فيفسرونها بالعربية للمسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْتُبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحْدٌ وَنَحْنُ لَمْ نُشْرِكْ﴾» . وروى عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، إِمَّا أَنْ تَكْتُبُوا بِحَقٍّ وَإِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ» .

تقدم القول في الآية التي قبل هذه ما يتضمن نزول شرع وكتاب من الله تعالى على أنبيائه قبل محمد ﷺ، فحسن لذلك عطف ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ على ما في الضمن، أي: وكما أنزلنا على من تقدّمك كذلك أنزلنا إليك الكتاب، و﴿الْكِتَابُ﴾: القرآن .

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ﴾ الآية . يريد التوراة والإنجيل، أي: فالذين كانوا في عصر نزول الكتاب وأتوّه حينئذ يؤمنون به، أي: كانوا مصدقين بهذا الكتاب الذي أنزلناه إليك، فالضمير في ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ عائد على القرآن . ثم أخبر عن معاصري محمد ﷺ أن منهم من يؤمن به . ولم يكونوا آمنوا بعد، ففي هذا الإخبار يغيب بينه الوجود بعد ذلك، ثم أنخى على الجاحدين من أمة قد آمن سلفها في القديم وبعضها في الحديث، وحصل الجاحدون منهم

في أحسن رتبة من الضلال، وشبه أن يُراد أيضاً في هذا الإنحاء كفار قريش مع كفار بني إسرائيل .

ثم بين تعالى الحجة على المبطلين المرتابين، وأوضح أن يمّا يُقوي نزول هذا القرآن من عند الله تبارك وتعالى أن محمداً ﷺ جاء به في غاية الإعجاز والطول والتضمن للغيوب وغير ذلك، وهو أمّي لا يقرأ ولا يكتب، ولا يتلو كتاباً، ولا يخط حرفاً، ولا سبيل له إلى التعلم، فإنه لو كان ممن يقرأ لارتاب المبطلون، ولكان لهم في ارتيابهم تعلّق، وأما ارتيابهم مع وضوح هذه الحجة فظاهرٌ فساد . قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ كتاباً فنزلت هذه الآية، وذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال: «ما مات النبي ﷺ حتى كتب»، وأمسد أيضاً حديثاً لأبي كبشة السلولي، مُضمّنه أنه عليه الصلاة والسلام قرأ صحيفة ليعيّن بن حصن، وأخبر بمعناها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف، وقول الباجي رحمه الله منه .

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ إضرابٌ عن مُقدّر من الكلام يقتضي ما تقدّم، كأنه قال: «ليس الأمر كما حسبوا، بل هو...» ، وهذا الضمير يحتمل أن يعود على القرآن، ويؤيده أن في قراءة ابن مسعود: ﴿بَلْ هِيَ آيَاتٌ﴾، ويحتمل أن يعود على محمد ﷺ، ويؤيده قراءة من قرأ: ﴿بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ﴾

على الأفراد وقال: المراد النبي ﷺ، ويحتمل أن يعود على أمر محمد ﷺ أنه لم يتل ولا خط، ويكل احتمال قالت فرقة، وكون هذا كله آيات - أي علامات في صدور العلماء من المؤمنين في أمر محمد ﷺ - يراد به مع النظر والاعتبار .

و ﴿الْمُطَلَّيُونَ﴾ و ﴿الْمُطَلَّيُونَ﴾ قيل: يعم لفظهما كل مكتوب بمحمد ﷺ، ولكن معظم الإشارة بهما إلى قريش لأنهم الأهم، قاله مجاهد . وقال قتادة: ﴿الْمُطَلَّيُونَ﴾: اليهود .

٢١ - تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿قَالُوا﴾ لقريش ولبعض اليهود، لأنهم كانوا يُعلمون قريشاً هذه الحجة: لم يأتكم بمثل ما جاء به موسى من العصا وغيرها . وقرأ ابن كثير، وحمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وعلي بن نصر عن أبي عمرو: ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿آيَاتٌ﴾ فأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يعلمهم أن هذا الأمر بيد الله تبارك وتعالى لا يستنزله الاقتراح والتمني، وأنه بعث نذيراً، ولم يؤمر بغير ذلك . وفي مصحف أبي: ﴿لَوْ مَا يَأْتِينَا بآيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ .

ثم احتج عليهم في طلبهم آية بأمر القرآن الذي هو أعظم الآيات، ومعجزة للجن والإنس، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، ثم قرّر ما فيه من الرحمة والذكرى للمؤمنين، فقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ جواب لمن قال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا﴾ .

وحكى الطبري أن هذه الآية نزلت بسبب قوم من المؤمنين أتوا النبي ﷺ بكتب قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود الذين أخبروهم بشيء من التوراة، فأنكر رسول الله ﷺ ذلك، قال: «كفى بهذا ضلالة، قوم رغبوا عما أتاهم به نبيهم إلى ما أتى به غيره»، ونزلت الآية بسببه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتأويل الأول أجرى مع نسق الآيات.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالاستناد إلى أمر الله تبارك وتعالى، وأن يجعله حسبه شهيداً وحاكماً بينه وبينهم بعلمه وتحصيله جميع أمورهم، وقوله: ﴿يَا بَاطِلُ﴾ يريد: بالأصنام والأوثان وما يتبع أمرها من المعتقدات، والباطل هو أن يفعل فعل يُراد به أمر ما، وذلك الأمر لا يكون عن ذلك الفعل، والأصنام أريد بأمرها الأكمل والأنجح في زعم عبّادها، وليس الأكمل والأرجح إلا رفضها، فهي إذاً باطل، وباقي الآية بين.

٥٣ - ٥٤ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ يريد كفار قريش في قولهم: ﴿فَلَا تَأْتِنَا﴾ وما يُؤْتِنَا وغير ذلك من استعجالهم - على جهة التعجيز والتكذيب - بعذاب الله تعالى الذي توعدهم محمد ﷺ. ثم أخبر تعالى أنه يأتيهم بغته، أي: فجأة، وهذا هو عذاب الدنيا، وهو الذي ظهر يوم بدر، وفي السنين السبع. ثم ذكر تعالى أن تأخره إنما هو بحسب الأجل المقدور السابق. وذكر المفسرون

عن الضحاك أن الأجل المسمى بهذه الآيات الآجال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف يرده النظر، والآجال لا محالة أجل مُسمى، ولكن ليس هذا موضعها.

ثم توعدهم تبارك وتعالى بعَذب بعداب الآخرة في قوله: ﴿يَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾، كرر فعلهم وقبحه، وأخبر أن وراءهم إحاطة جهنم بهم. وقال عكرمة - فيما حكى الطبري - أن جهنم ها هنا أراد بها البحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفْسَنُهُمْ﴾ ظرف يعمل فيه قوله: ﴿يَحِطُّوا﴾. و﴿يَفْسَنُهُمْ﴾ معناه: يغطيهم من كل جهة من جهاتهم. وقرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَيَقُولُ﴾، أي: ويقول الله. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَيُنْقَلُونَ﴾ بالنون، فإما أن تكون نون العظمة، أو نون الجماعة، جماعة الملائكة. وقرأ ابن مسعود: ﴿وَيُقَالُ﴾ بياء وألف، وهي قراءة ابن أبي عبله.

وقوله تعالى: ﴿ذُرُّوا﴾ توبيخ، ويُشَبَّه من العذاب بالدق ومنه قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، ومنه قول أبي سفيان: ﴿ذُقْ عَقَقْ﴾، ونحو هذا

وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَئِنَّهُمْ لَغَفَّةٌ لَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَفْسَنُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُرُّوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَتَّبِعُ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى أَرْضٍ وَسِعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنْ الْجَنَّةِ غُرَافًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَانَ مِنْ دَائِرَةِ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ غَفُورٌ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَاهُ بِأَرْضٍ مِنْ بَعْدِ مَوَدِّهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

٥٣

كثير، وقوله: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: بما في أعمالكم من اكتسابكم.

٥٤ - ٥٥ تفسير قوله عز وجل: هذه الآيات نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة، فأخبرهم تعالى بسعة أرضه، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن تلتمس عبادة الله تعالى في أرضه. وقال ابن جبير، وعطاء، ومجاهد: إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلدٍ حق، وقاله مالك، وقال مطرف بن الشخير: قوله: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ﴾ عدة بسعة الرزق في جميع الأرض.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، ﴿وَيَتَّبِعُونَ﴾، بفتح الباء، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي

عمرو، وقرأ أبو حيو:
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ﴾ بالتونين
﴿الْمَوْتِ﴾ بالنصب.

ثم وعد المؤمنين
العاملين بسكنى الجنة
تحريضاً منه تعالى، وذكر
الجزء الذي ينالونه، وقرأ

جمهور القراء:
﴿لَنُؤْتِيَنَّهُمْ﴾ بالباء، أي:
لنؤتيهم ولنمكثهم
ليدوموا فيها، و﴿عَرَفَا﴾
مفعول ثان؛ لأنه فعل
يتعدى إلى مفعولين. وقرأ
حمزة: ﴿لَنُؤْتِيَنَّهُمْ﴾، من
أثوى يثوي، وهو مُعَدَّى
ثَوَى بمعنى أقام، وهي
قراءة علي بن أبي طالب

رضي الله عنه، وابن مسعود،
والربيع بن خثيم، وابن وثاب،
وطلحة، وقرأها بعضهم بفتح الشاء
وتشديد الواو مُعَدَّى بالتضعيف لا
بالهمزة، وقوله: ﴿عَرَفَا﴾ نصب
بإسقاط حرف الجر، والتقدير: في
عُرف. وقرأ يعقوب: ﴿لَنُؤْتِيَنَّهُمْ﴾
بالياء من تحت، وروي عن ابن
عامر: ﴿عَرَفَا﴾ بضم الغين والراء.

ثم وصفهم تعالى بالصبر والتوكل،
وهاتان جماعُ الخير كله، أي: الصبر
على الطاعات، وعن الشهوات.

٦٠ - ٦١ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَكَاَنَ﴾ بمعنى (كَمْ)، وهذه
الآية تحريض على الهجرة؛ لأن
بعض المؤمنين فُكِّر في الفقر والجوع
الذي يلحقه في الهجرة، وقالوا:
غربة في بلد ولا دار لنا فيه ولا عِقار
ولا من يطعم، فمثَّل لهم بأكثر

الدواب التي تتقوت ولا تدخر ولا
تَرَوَى في رزقها، والمعنى: فهو
يرزقكم أنتم، ففضلوا طاعة الله
تعالى على كل شيء. وقوله تعالى:
﴿لَا تَحِثُّ﴾ يجوز أن يريد: من
الحِثْل، أي: لا تنقل ولا تنظر في
ادخاره، قاله أبو مجلز، ومجاهد،
وعلي بن الأقرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والادخار ليس من خلق الموقنين،
وقد قال رسول الله ﷺ لابن عمر
رضي الله عنهما: «كيف بك إذا
بقيت في حُشالة من الناس يخشون
رزق سنة بضعف اليقين»، ويجوز أن
يريد من الحِمالة، أي: لا تتكفل
برزقها ولا تَرَوَى فيه.

ثم خاطب تعالى نبيه ﷺ في أمر
الكُفَّار وإقامة الحُجَّة عليهم بأنهم إن
سألوا عن الأمور العظام التي هي
دلائل القدرة لم يكن لهم إلا التسليم
بأنها لله تعالى، و﴿يُوقَّكُونَ﴾
معناه: يصرفون، ونُبِّه تبارك وتعالى
على خلق السموات والأرض
وتسخير الكواكب، وذكر عظمها،
ونُبِّه تعالى على بسط الرُّزْق وقُدْرته
لقوم، وإنزال المطر من السماء،
وهذه عِبَرٌ كثيرة لمن تأمل بالنجاة
والمعتقد الأقوم، ثم أمر تعالى نبيه
محمدًا ﷺ بحمده على جهة التوبيخ
لعقولهم، وحَكَم عليهم بأن أكثرهم
لا يعقلون ولا يبدو منهم نظر.

٦٢ - ٦٣ تفسير قوله عز وجل:

وصف الله تعالى الدنيا في هذه
الآية بأنها لهو ولعب، أي: ما كان
منها لغير وجه الله تعالى؛ فإن ما
كان لله تعالى فهو من الآخرة، وأما

سورة العنكبوت

وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهيَ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَا اللَّهُ تَعَالَى لَهَ الْآلِينَ فَلَمَّا بَلَغْتَهُمْ إِلَى الْآلِ الْآخِرَةِ هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦١﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا بِمَقْصُوفٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّا ءَامَنَّا وَيَخْتَلِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي حُجَّتِهِمْ مِّنْهُ لِيَكْفُرُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِيمَا أَنهَدْنَاهُمْ عَنْهُ سَبِيلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٤﴾

سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَنَكَبُوتِ ﴿٦٠﴾ غُلَيْتِ الرُّومُ ﴿٦١﴾ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَبْعُونَ ﴿٦٢﴾ فِي يَضَعُ سَبْعَ لَلَّ الْأَشْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَ يَفْجُرُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٦٣﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْكَافِرُ الرَّجِيمُ ﴿٦٤﴾

بسكونها، وكذلك قرأ نافع وعاصم:
﴿أَرْضِي﴾ ساكنة. وقوله تعالى:
﴿فَأَيُّ﴾ منصوب بفعل مقدر يدل
عليه الظاهر، تقديره: فلأي شيء عبدوا
فاعبدون»، على الاهتمام أيضاً في
التقدير.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ
لِّلْمَوْتِ﴾ الآية، تحقير لأمر الدنيا
ومخاوفها، كأن بعض المؤمنين نظر
في عاقبة ما يلحقه في خروجه من
وطنه أنه يموت أو يجوع ونحو هذا،
فحَقَّر الله تعالى شأن الدنيا، أي:
أنتم لا محالة ميتون ومحشورون
إلى الله تبارك وتعالى، فالبدار إلى
طاعة الله تعالى والهجرة إليه أولى ما
يمثل.

وقرأ الجمهور: ﴿رَجَعْتُمْ﴾ بالتاء
من فوق، ورويت عن عاصم بالياء
من تحت، وذكرها أبو حاتم عن أبي

أُمُور الدُّنْيَا التي هي زائدة على الضروري الذي به قوام العيش والقوة على الطاعات فإنما هو لهوٌ ولعب، وتأمل ذلك في الملابس والمطاعم والمشارب والأقوال وغير ذلك.

وانظر إلى حاجة الغني والفقير في الأمور الضرورية فإنها واحدة، كالشَّقْس في الهواء، وسدَّ الجوع، وستر العورة، وتوقِّي الحر والبرد، وهذه كلها عظم أمر العيش.

و «الْحَيَاةُ» والمعنى، وهو عند سيبويه والخليل مصدر كالهيمن ونحوه، والمعنى: لا موت فيها، قاله مجاهد، وهو حسن. وأصله: حَيَّيَان، فأبدلت إحداهما واواً لاجتماع المثليين.

ثم وقفهم تعالى على حالهم في البحر عند الخوف العظيم، فإن كل بشر يَشَى كل صنم وغيره، ويتمسك بالدعاء والرغبة إلى الله تبارك وتعالى، وقوله تعالى: «إِذَا هُمْ يَنْتَرِكُونَ» أي: يرجعون إلى ذكر أصنامهم وتعظيمها، وقوله: «يَكْفُرُوا» نصب بلام كني. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «وَلْيَسْتَعْمُوا» بكسر اللام، وقرأ ابن كثير، وحزمة، والكسائي: «وَلْيَسْتَعْمُوا» بسكون اللام على صيغة الأمر التي هي للوعيد والتهديد، والواو - على هذا - عاطفة جملة كلام لا عاطفة فعلاً على فعل، وفي مصحف أبي بن كعب: «فَتَسْتَعْمُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ»، وفي قراءة ابن مسعود: «فَلَسَوْفَ» باللام.

ثم عدَّ تعالى على كفره قريش

نعمته عليهم في الحرم في أنه جعله لهم آمناً لا خوف فيه من أحوال العرب وعاداتهم وسوء أفعالهم، من القتل وأخذ الأموال ونحوه، وذلك هو «التَّخَطُّف» الذي كان الناس بسبيله، ثم قررهم - على جهة التوبيخ - على إيمانهم بالباطل وكفرهم بالله ونعمته. وقرأ جمهور القراء: «يُؤَيِّنُونَ» بالياء من تحت، وكذلك «يَكْفُرُونَ»، وقرأهما بالتاء من فوق الحسن، وأبو عبد الرحمن.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل: قررهم عز وجل على حال من افترى على الله كذباً أو كذب بآياته، وهذه كانت حالهم، وأعلمهم أنه لا أحد أظلم منه، وهذا في ضمنه وعيد شديد، ثم بين الوعيد أيضاً بالتقرير على أمر جهنم، والمَثْوَى: موضع الإقامة، وألفاظ هذه الآيات في غاية الاقتضاب والإيجاز وجمع المعاني.

ثم ذكر تعالى حال أوليائه والمجاهدين فيه، وقرن ذلك بذكر الكفرة الظلمة ليمَّين تباين الحالين، وقوله تعالى: «فِيْنَا» معناه: في مرضاتنا وبغية ثوابنا. قال السدي وغيره: نزلت هذه الآية قبل فرض القتال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهي قبل الجهاد العُرْفِي، وإنما هو جهاد عام في دين الله تعالى وطلب رضائه. وقال الحسن: الآية في العُبَاد، وقال ابن عباس والحسن وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ عَلمَهُ الله ما لم يَعْلَمْ»، ونزع بعض

العلماء إلى قوله تعالى: «وَأَتَقُوا اللَّهَ رَعِيَّةً» وقال بعض العلماء لِعُمَرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه: «إنما قَصُر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا»، وقال أبو سليمان الداراني: «ليس الجهاد في هذه الآية قتال العدو فقط، بل هو نصر الدين، والرَّد على المبتطلين، وقمع الظالمين، وعظْم الأُمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله تعالى، وهو الجهاد الأكبر، قاله الحسن وغيره، وفيه حديث عن النبي ﷺ: «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، وقال سفيان بن عُيَيْنَةَ لابن المبارك: «إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الشُّغُور، فإن الله تعالى يقول: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ»». وقال الضحاك: معنى الآية: والذين جاهدوا في الهجرة لنهديهم سبيل الثبوت على الإيمان، و«السَّبِيل» هنا يحتمل أن يكن طرق الجنة ومسالكها، ويحتمل أن يكون سبيل الأعمال المؤدية إلى الجنة والعقائد الثَّيِّرة. وقال يوسف ابن أسباط: «هي إصلاح الثَّيِّة في الأعمال، وحبُّ التَّزَيُّد والتَّفْهَم، وهذا هو أن يُجَازَى العبد على حُسْنِه بازدياد حُسْنِه، وَيُعَلِّم بجديد من عِلْمٍ مقدم، وهي حال من رضي الله عنه». وباقي الآية. وغد.

و «لَمَعَ» يحتمل أن تكون هنا اسماً؛ ولذلك دخلت عليها اللام

أذرعاً فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، وهي التي ذكرها امرؤ القيس في قوله:

تَسَوَّرْتُهَا مِنْ أَذْرَعَاتِ وَأَهْلُهَا
بِشَرِّبِ أَذْنَى دَارِهَا نَظَرُ عَالٍ
وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، وإن كانت بالأردن فهي أدنى إلى أرض الروم، قال أبو حاتم: وثريء ﴿قِيَّ أَذْنَى﴾، وقرأ جمهور الناس: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بفتح اللام، كما يقال: «اخْلَبَ خَلْباً لَكَ شَطْرُهُ»، وقرأ ابن عمر رضي الله عنهما بسكونها، وهو مصدر أضيف إلى المفعول.

وروي في قصص هذه الآية عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره أن الكفار لما فرحوا بمكة بغلب الروم، بشر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بأن الروم سيغلبون في بضع سنين، أي: من الثلاثة إلى التسعة، على مشهور قول اللغويين، كأنه تبضيع العشرة، أي: تقطيعها، وقال أبو عبيدة: من الثلاث إلى الخمس، وقوله مردود، فلما بشرهم بذلك خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المسجد، فقال لهم: «أَسْرُكُمْ أَنْ غَلِبَتِ الرُّومُ؟» فَإِنْ نَبِينَا أَخْبَرْنَا عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بضع سنين، فقال له أُبَيُّ بْنُ خَلْفٍ وَأُمَيَّةُ أَخُوهُ - وقيل: أبو سفيان بن حرب -: تعال يا أبا قُصَيْلٍ - يعرضون بكنيته بالبكر - فُلْتَنَاخَبٌ - أي نتراهن - في ذلك، فراهنهم أبو بكر، - قال قتادة: وذلك قبل أن يحرم القمار - وجعل الرهان خمس قلائص، والأجل ثلاث سنين، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال

الجمهور: ﴿غَلِبَتْ﴾ بضم الغين. وقالوا: معنى الآية أنه طراً بمكة أن الملك كسرى هزم جيش ملك الروم، قال مجاهد: في الجزيرة، وهو موضع بين العراق والشام، وقال عكرمة: بأذرعاً، وهي بين بلاد العرب والشام، وقال مقاتل: بفلسطين والأردن، فلما طراً ذلك سُرَّ الكفار، فبشَّر الله تبارك وتعالى عباده بأن الروم سيغلبون في بضع سنين، وتكون الدولة لهم في الحرب.

وقرأ أبو سعيد الخدري، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومعاوية بن قرة، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: ﴿غَلِبَتْ﴾ بفتح الغين واللام، وتأويل ذلك أن الذي طراً يوم بدر إنما كان أن الروم غَلِبَتْ، فعز ذلك على الكفار من قريش، وسُرَّ المسلمون، فبشَّر الله تبارك وتعالى عباده بأنهم سيغلبون أيضاً في بضع سنين، ذكر هذا التأويل أبو حاتم. والرواية الأولى، والقراءة بضم الغين أصح.

وأجمع الناس على ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ أنه بفتح الياء، يراد به الروم، وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأ أيضاً: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ بضم الياء، وفي هذه القراءة قلب المعنى الذي تظاهرت به الروايات.

و﴿أَذْنَى الْأَرْضِ﴾ معناه: أقرب الأرض، فإن كانت الوقعة في

وَعَدَ اللَّهُ لِيُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ. وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ
﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَنْفَكُوا فِي أَنْفُسِهِمْ خَالِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِأَحْجَى وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ
بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَصِرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَقِيبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشْدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَسَاءُوا إِلَى الْأَرْضِ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلَّوهُمْ وَلَكِن كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَقِيبَ الَّذِينَ آسَفُوا النَّاسُ
أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ
يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ
السَّاعَةَ يُبْعَثُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ
شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَاذِبِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ
نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِنُ بِنُفْقَائِهِمْ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا
وَكَانُوا الصَّالِحِينَ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

للتأكيد، ويحتمل أن تكون حرفاً، ودخلت اللام لما فيها من معنى الاستقرار، كما دخلت في: إِنَّ زَيْدًا لَفِي الدَّارِ.

كامل تفسير سورة العنكبوت والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

تفسير سورة الروم

هذه السورة مَكِّيَّة، لا خلاف أحفظه في ذلك.

﴿١﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور بما فيه كفاية. وقرأ

له: إن البضع إلى التسع، ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأجل، ففعل أبو بكر رضي الله عنه، فجعلوا القلائص مائة والأجل تسعة أعوام، فغلبت الروم في أثناء الأجل، فروي عن أبي سعيد الخدري أن إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر، وروي أن ذلك كان يوم الحُدَيْبِيَّة، وأن الخبر بذلك وصل يوم بيعة الرضوان، روي نحوه عن قتادة، وفي كلا اليومين كان نصر من الله تعالى للمؤمنين.

وذكر الناس أن سبب سرور المسلمين بغلبة الروم وهزمهم أن تغلب، وكون المشركين من قريش على ضد ذلك، إنما هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين، والفرس أهل الأوثان ونحوه من عبادة النار ككفار قريش والعرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن يقال ذلك بما يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدو الأصغر: لأنه أيسر مؤونة، ومتى غلب الأكبر كثر الخوف منه، فتأمل هذا مع كان رسول الله ﷺ ترجاه من ظهور دينه وشرع الله تعالى عز وجل الذي بعث به، وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله تعالى بمليك يستأصله ويريجهم منه.

و «سنين» يجمع كجمع من يعقل عوضاً عن النقص الذي في واحد؛ لأن أصل سنة: سنة، أو سنة، وكسرت السنين منه دلالة على أن جمعه خارج عن قياسه ونمطه.

قوله تعالى: ﴿يَلِّغِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ

وَيَنْ بَدُّ﴾، أخبر تبارك وتعالى بانفراده بالقدرة، وأن ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هو منه وإرادته وقدرته، فقال: ﴿يَلِّغِ الْأَمْرُ﴾، أي: إنفاذ الأحكام، ﴿مِنْ قَبْلُ وَيَنْ بَدُّ﴾ أي: من قبل هذه الغلبة ومن بعدها، و«قَبْلُ» و«بَدُّ» ظرفان بُيِّنَا على الضم؛ لأنهما تعرفا بحذف ما أضيف إليهما وصارا مُتَضَمِّنَيْنِ ما حذف، فخالفا تعريف الأسماء وأشبه الحروف في التضمين قُبِينَا، وخَصًّا بالضم لشبههما بالمنادى المفرد، وأنه إذا نُكِّرَ أو أُضِيفَ زال بناؤه، فكَذَلِكَ هما، فَضْمًا كَمَا أَنَّ المنادى مبني على الضم، وكذلك قيل في ذلك أيضاً: إن الفتح تعدر فيها لأنه حالهما عند إضافتهما إلى المتكلم، وتعدر السكون لأن ما قبل آخرهما ساكن، فلم يبق إلا الضم قُبِينَا عليه. ومن العرب من يقول: مِنْ قَبْلُ وَيَنْ بَدُّ بِالْخَفْضِ وَالتَّنْوِينِ، قَالَ الْفَرَّاءُ: «وَيَجُوزُ تَرْكُ التَّنْوِينِ فَيَبْقَى كَمَا هُوَ فِي الْإِضَافَةِ وَإِنْ حُذِفَ الْمَضَافُ».

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ يحتمل أن يكون عطفًا على «الْقَبْلُ وَالتَّبَدُّ»، كأنه حصر الأزمنة الثلاثة: الماضي والمستقبل والحال، ثم ابتدأ الإخبار بفرح المؤمنين بالنصر، ويحتمل أن يكون الكلام قد نَمَّ في قوله:

﴿بَدُّ﴾ ثم استأنف عطف جملة أخبر فيها أن يوم غلبة الروم للفرس يُفْرِحُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِ اللَّهِ، وعلى هذا الاحتمال مشى المفسرون. والنصر الذي يفرح به المؤمنون يحتمل أن يُشار فيه إلى نصر الروم على فارس،

وهي نُصْرَةٌ لِلْإِسْلَامِ بِحُكْمِ السَّنِينَ التي قد ذكرناها، ويُحْتَمَلُ أَنْ يُشَارَ فِيهِ إِلَى نَصْرِ يَخْصُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَهَذَا أَيْضًا غَيْبٌ أَخْبَرَ بِهِ وَأَخْرَجَهُ إِمَّا بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَإِمَّا بِبَيْعَةِ الرضوان، ويحتمل أن يُشار فيه إلى فرح المسلمين بنصر الله تعالى إِيَّاهُمْ فِي أَنْ صَدَّقَ مَا قَالَ نَبِيُّهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارِسَ، فَإِنَّ هَذَا ضَرْبٌ مِنَ النِّصْرِ عَظِيمٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ نصب على المصدر المؤكد، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يريد الكفار من قريش والعرب، أي: لا يعلمون أن الأمور من عند الله تبارك وتعالى، وأن وعده لا يتخلف، وأن ما يورده نبئ - عليه الصلاة والسلام - حق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا الذي ذكرناه هو عُمْدَةٌ ما قيل. وقد حكى الطبري وغيره روايات يردُّها النظر أَوَّلُ قول، من ذلك أن بعضهم قال: إنما نزلت ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ لا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ بعد غلبة الروم لفارس ووصول الخبر بذلك، فهذا يقتضي أن الآية مدنية، والسورة كلها مكئية بإجماع، ونحو هذا من الأقوال.

٧ - ٨ تفسير قوله عز وجل:

وصف تبارك وتعالى الكفرة الذين لا يعلمون أمر الله تعالى وصدق وعده بأنهم إنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، واختلف الناس في معنى «ظَاهِرًا» - فقالت فرقة: معناه: بَيِّنًا، أي ما أذنه إليهم

حواسهم، فكان علومهم إنما هي علوم البهائم. وقال ابن عباس، والحسن، والجمهور: معناه: ما فيه المُلُو أو الظهور في الدنيا، من إتقان الصناعات والمباني ومطاب كسب المال والفلاحت ونحوها، وقالت فرقة: معناه: ذاهباً زائلاً، أي: يعلمون من أمور الدنيا التي لا بقاء لها ولا عاقبة، ومثل هذه اللفظة قول الهذلي:

وَعَيَّرَهَا الْوَأَشُونَ أَنِّي أَحْبَبُهَا
وَتِلْكَ شَكَاةُ ظَاهِرٍ عَنكَ عَارِهَا
وقال سعيد بن جبیر: إن قوله تعالى: ﴿ظَاهِرًا مِن مَّكِينٍ﴾ إنما هو إشارة إلى ما يعلم من قبل الكهنة مما تسترقة الشياطين، وقال الرماني: كل ما يُعلم بأوائل الرؤية فهو الظاهر، وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفيه تقع الغفلة وتقصير الجاهل.

ثم وصفهم تبارك وتعالى بالغفلة والإعراض عن أمر الآخرة، وكثر الضمير تأكيداً، وغفلة الكافر هي على الكمال، والمؤمن المنهمك في أمور الدنيا التي هي أكبر همّه يأخذ من هذه الآية بحظ. نور الله قلوبنا وهدى.

ثم وقفهم - على جهة التوبيخ - على أنهم قد فكروا فلم يفهم الفكر والنظر؛ إذ لم يكن على سداد. وقوله تعالى: ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن تكون الفكرة في ذواتهم وحواسهم وخلقهم ليستدلوا بذلك على الخالق المخترع، والثاني أن يكون قوله: ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ ظرفاً

للفكرة في خلق السموات والأرض، ثم أخبر عقب هذا المعنى بأن الحق هو السبب في خلق السموات والأرض، فيكون قوله: ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ تأكيداً لقوله: ﴿يَتَفَكَّرُوا﴾، كما تقول: أبصر بعينك واسمع بأذنك، فقولك: «بعينك» و«بأذنك» تأكيد. وقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي بسبب المنافع التي هي حق وواجب، يريد: من الدلالة عليه، والعبادة له دون فتور، والانتصار للعبادة ومنافع الأرزاق وغير ذلك. ﴿وَأَجَلٌ﴾ عطف على «الْحَقِّ»، أي: وبأجل مُسمى وهو يوم القيامة، ففي الآية إشارة إلى البعث والشور وفساد بنية من في هذا العالم، ثم أخبر عن كثير من الناس أنهم كفرو بهذا المعنى، فعبر عنه بلفاء الله تبارك وتعالى؛ لأن لقاء الله تعالى هو أعظم الأمور، وفيه السجدة أو الهلكة.

تفسير قوله عز وجل: ﴿هَذَا أَيْضاً تَوْقِيفٌ وَتَوْبِيخٌ عَلَى أَنَّهُمْ سَارُوا وَنَظَرُوا، أَيْ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَنْفَعَهُمْ حَتَّى لَمْ يَعْمَلُوا بِحَسَبِ الْعِبَرَةِ وَخَوْفِ الْعَاقِبَةِ.﴾

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يتوجه للكفرة أن يعارض منهم من لم يميز فيقول: لم أميز؛ لأن كافة من سار من الناس قد نقلت معارفهم إلى من لم يميز، فاستوت المعرفة وحصل اليقين للكل وقامت الحاجة، وهذا بين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْأَرْضَ﴾ يريد: بالمباني والحرث والحروب، وسائر المباني التي أحدثوها هي كلها

إثارة، بعضها حقيقة وبعضها بتجوز؛ لأن إشارة أهل الأرض والحيوان والمتاع إثارة للأرض. وقرأ أبو جعفر: ﴿وَأَنزَلُوا﴾ بمد الهمزة، قال ابن مجاهد: ليس هذا بشيء، وقال أبو الفتح: وجبها أنه أشبع فتحة الهمزة فنشأت ألف، ونحوه قول ابن هزئة:

فَأَنْتَ مِنَ الْغَوَائِلِ حِينَ تُرْمَى
وَمِنْ ذَمِّ الرِّجَالِ بِمُسْتَنْزَاحٍ
وقال: وهذا من ضرورة الشعر لا يجيء في القرآن. وقرأ أبو حنيفة: ﴿وَأَنزَلُوا﴾ بالمد بغير ألف بعد اللام، من الأثرة، والضمير في ﴿وَعَرَّوْهَا﴾ الأول للماضين، وفي الثاني للحاضرين المعاصرين، وباقى الآية بين يتضمن الوعظ والتخويف من الله تعالى.

تفسير قوله عز وجل: ﴿قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو: ﴿عَاقِبَةُ﴾ بالرفع على أنها اسم [كأن]، والخبر يجوز أن يكون ﴿الشُّرَائِءُ﴾، ويجوز أن يكون: ﴿أَنَّ كَذُوبًا﴾، وتكون ﴿الشُّرَائِءُ﴾ - على هذا - مفعولاً بـ ﴿أَسْكَنُوا﴾، وإذا كان ﴿الشُّرَائِءُ﴾ خبراً فإن ﴿أَنَّ كَذُوبًا﴾ مفعول من أجله، ولا يصح تعلقه بـ ﴿أَسْكَنُوا﴾؛ لأن في ذلك فصلاً بين الصلة وموصولها بخبر [كأن]. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿عَاقِبَةُ﴾ بالنصب على أنها خبر مقدم، واسم كان أخذ ما تقدم، و﴿الشُّرَائِءُ﴾ مصدر كالرُجْعَى والفُتْيَا والشُّورَى، ويجوز أن تكون صفة لمحذوف تقديره: «الخلعة السوءى». قال أبو حاتم: هذه قراءة

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ
 فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٤﴾ فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ نُمْسُونَ
 وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٥﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٦﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
 الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تَخْرُجُونَ
 ﴿١٧﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ
 تَنْتَشِرُونَ ﴿١٨﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً
 إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافَ الْمُنْتَنِينَ ﴿٢٠﴾ وَلِلَّهِ يُدْعَى
 فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ مَا مَكَّرَ بِآيَاتِ
 وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاءَ وَكَمْ مِنْ فَضْلَةٍ إِنَّا فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
 لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٢﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ بَرِيكُمْ مِنَ الْبَرِّ
 خَوْفًا وَطَمَعًا وَيَرْزُقُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ
 بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّا فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٣﴾

شركاء الله بزعمهم .
 وقوله: ﴿وَكَاثُرًا﴾ معناه
 أي كذبون عن معابنتهم
 أمر الله تعالى وفساد حال
 الأصنام، فعبر عنه
 بالماضي لتيقن الأمر
 وصحة وقوعه .

﴿١٤﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله
 عز وجل:

﴿يُنْفِرُونَ﴾ معناه: في
 المنازل والأحكام
 والجزاء، قال قتادة:
 فُرْقَةٌ والله لا اجتماع
 بعدها. و﴿يُخْبِرُونَ﴾
 معناه: يُنْعَمُونَ، قاله
 مجاهد، والخبرة
 والحبور: السُرور

والنعم، وقال يحيى بن أبي كثير:
 ﴿يُخْبِرُونَ﴾ معناه: يسمعون
 الأغاني، وهذا نوع من الخبرة،
 وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
 ﴿يُخْبِرُونَ﴾: يكرمون، وفي المثل:
 «امتأت بيوتهم خيرة فهم ينتظرون
 العيرة»، ومنه بيت أبي ذؤيب:
 فِرَاقُ كَقَيْصِ السَّنِّ قَالَ صَبْرُ إِنَّهُ
 لِكُلِّ نَاسٍ عِزَّةٌ وَخُبُورُ
 هذا على هذه الرواية، ويُرْوَى:
 «عِزَّةٌ وَخُبُورُ»، وهي أكثر.

وذكر تعالى الروضة لأنها أحسن ما
 يعلم من بقاع الأرض، وهي حيث
 يكثر النبات الأخضر، وما كان منها
 في المرتفع من الأرض كان أحسن،
 ومنه قول الأعشى:

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزَنِ مُغِشِبَةٌ
 خَضْرَاءَ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطْلُ
 ومنه قول كثير:

العامه بالمد على الواو وفتح الهمزة
 وباء التانيث، فبعض القراء فخم،
 وبعضهم أمال. وقرأ الحسن:
 ﴿السُّوءِ﴾ بالتذكير، وروي عن
 عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه
 قال: السُّوءُ والسُّوءَى، اقرأ بما
 شئت، قال ابن عباس
 رضي الله عنهما: ﴿اسْتَرَأَ﴾ هنا
 بمعنى: كفروا، و﴿الشَّرَاقِ﴾ هي
 النار، والتكذيب بآيات الله تبارك
 وتعالى غير الاستهزاء بها، فلذلك
 عدَّ عليهم الفعلين.

ثم أخبر تعالى إخباراً مطلقاً لجميع
 العالم بالحشر والبعث من القبور.
 وقرأ طلحة، وابن مسعود:
 ﴿يُنْبِئُ﴾ بضم الياء وكسر الدال،
 وقرأ جمهور القراء: ﴿تُخْبِرُونَ﴾
 بالتاء من فوق. وقرأ أبو عمرو، وأبو
 بكر عن عاصم بالياء.

وقوله: ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بـ
 ﴿يُنْبِئُ﴾، و﴿الْإِنْلَاسُ﴾: الكون في
 شرٍّ مع اليأس من الخير في ذلك
 الشيء بعينه، فإبلاسهم هو في
 عذاب الله تعالى، وقرأ عامة القراء
 بكسر اللام، وقرأ أبو عبد الرحمن،
 وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب
 رضي الله عنه بفتحها، وأبلس الرُّنْعُ
 إذا بلي، وكأنه يشس من العمارة،
 ومنه قول العجاج:

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ زَيْعًا مُكْرَسًا؟
 قَالَ نَعَمْ أَغْرِفُهُ وَأَبْلَسًا
 وقرأ عامة القراء: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾
 بالياء من تحت، وروي عن نافع
 ﴿تَكُنْ﴾ بالتاء من فوق،
 و﴿الشركاء﴾: المشار إليهم هم
 الأصنام، أي الذين كانوا يجعلونهم

فَمَا رَوْضَةٌ بِالْحَزَنِ طَيِّبَةُ الشَّرِّ
 يَمُحُّ الشَّدَى جَشَجَاتُهَا وَعَرَازُهَا
 قال الأصمعي: ولا يُقَالُ روضة
 حتى يكون فيها ما يشرب فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ﴾
 خطاب للمؤمنين بالأمر بالعبادة
 والحض على الصلاة في هذه
 الأوقات، كأنه يقول: أذى هذا
 التفرق إلى أنواع من النعم والعذاب
 فجرى بها المؤمن في طريق الفوز
 برحمة الله . وقال ابن عباس،
 وقاتدة، وبعض الفقهاء: في هذه
 الآية تنبيه على أربع صلوات:
 المغرب والصبح والعصر والظهر،
 قالوا: والعشاء الآخرة في آية
 أخرى، و﴿وَرَزَلْنَا مِنْ اللَّيْلِ﴾، وفي
 ذكر أوقات العورة. وقال ابن عباس
 - رضي الله عنهما - أيضاً وفرقة من
 الفقهاء: في هذه الآية تنبيه على

والحسن وعكرمة: عنى بالمودعة الجماعة. وبالرحمة الولد.

ثم نبه تعالى على خلق السموات والأرض، واختلاف اللغات والألوان، وهذه: البياض والسواد وغيرهما، ويحتمل أن يريد ضروب بني آدم وأنواعهم، فتعّم شخص البشر الذين يختلفون بالألوان، وتعم الألسنة. وقرأ جمهور القراء: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ بفتح اللام، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ بكسر اللام، فالأولى على أن هذه الآية هي في نفسها منصوبة لجميع العالم، والثانية على معنى أن أهل الانتفاع بالنظر فيها إنما هم أهل العلم.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذكر تعالى النوم بالليل والنهار وعزف النوم إنما هو بالليل وحده، ثم ذكر الابتغاء من فضله كأنه فيها، وإنما معنى ذلك أنه عمّ الليل والنهار فسعى الزمان، وقصد من ذلك تعديد آية النوم وتعدد آية ابتغاء الفضل، فألهمنا آيتان ونعمتان يكونان في ليل ونهار، والفرق (تحيز) كل واحدة من النعمتين إلى محلها في الأغلب، وقال بعض المفسرين: في الكلام تقديم وتأخير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وإنما أراد أن يرتب النوم لليل، والابتغاء للنهار، ولفظ الآية لا يعطي ما أراد.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيكُمْ﴾ فعل مرتفع لما حذف (أن) التي لو كانت لنصبته، فلما حلّ الفعل محلّ الاسم أعرب بالرفع، ومثله قول طرفة:

وروي هذا المعنى عن النبي ﷺ، أنه قرأ هذه الآية عندما كلمته بالإسلام أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط. والمجاز إخراج النبات الأخضر من الأرض، وإخراج الطعم من النبات، ما جرى هذا المجرى. ومثل بَعْدُ بإحياء الأرض بعد موتها بالمطر.

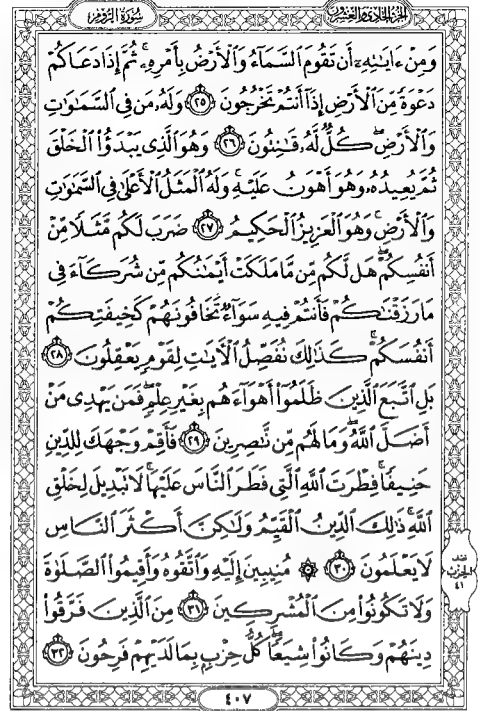
ثم بعد هذه الأمثلة القاضية بتجويز بعث الأجساد عقلاً ساق الخبر بأن كذلك خروجنا من القبور، وقرأت فرقة:

﴿يُخْرِجُون﴾ بالياء من تحت، وقرأ عامة القراء:

﴿يُخْرِجُونَ﴾ بالتاء المضمومة، وقرأ الحسن، وابن وثاب، والأعمش، وطلحة بفتح التاء وضم الراء.

و ﴿وَيَنْ﴾ في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَنْ يَأْتِيهِ أَنْ خَلَقَكُمْ﴾ للتبعيض، وقال: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ من حيث خلق أباهم آدم، قاله قتادة. و ﴿تَنْشُرُونَ﴾ معناه: تنصرفون وتتفرقون في الأعراض والأسفار.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْ أُنْفُسَكُمْ﴾ يحتمل أن يريد خلقه حواء من ضلع آدم، فحمل ذلك على جميع الناس من حيث أنهم مخلوقة من نفس آدم، أي: من ذات شخصه، ويحتمل أن يريد: من نوعكم وجنسكم. و«المودة والرحمة» على باهما المشهور من التردد والتراحم، هذا هو البليغ، وقال مجاهد



الصلوات الخمس؛ لأن قوله تعالى: ﴿حِينَ تُسْرَت﴾ يتضمن الصلاتين. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْخَافِضَاتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اعتراض من الكلام بين وقوع تعظيم الله تعالى والحض على عبادته، وقرأ عكرمة: ﴿حِينَ تُفْسُونَ وَحِينَ تُضْبِحُونَ﴾، والمعنى: حيناً تمسون فيه [وحيناً تصبحون فيه].

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

«الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ» في هذه الآية يستعمل حقيقة ويستعمل مجازاً، فالحقيقة: المني يخرج منه الإنسان والبيضة يخرج منها الطائر، وهذه بعينها ميتة تخرج من حي، وما جرى هذا المجرى، وبهذا المعنى فسر ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم. وقال الحسن: المعنى: المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أَلَا أَنهَذَا الرَّاجِرِ أَخْضَرَ الْوَعَى
وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي؟
قال الرماني: وتحتل الآية أن
يكون التقدير: «ومن آياته آية يريكم
البرق»، وحذفت (آية) لدلالة [من] عليها،
ومنه قول الشاعر:

وما الدهرُ إلا تارتانٍ فجنهُما
أموتُ وأخرى أبتغي العيشُ أكدُحُ
والتقدير: فجنهما تارة أموت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا على أن [من] للتبعيض كسائر
هذه الآيات، ويحتمل في هذه
وحدها أن تكون [من] لابتداء الغاية
فلا يحتاج إلى تقدير (آية)، وإنما
يكون الفعل مخلصاً للاستقبال.

وقوله: «خَوْفًا وَطَمَعًا»، قال قتادة:
خوفاً للمسافر وطمعا للمقيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا وجه لهذا التخصيص ونحوه، بل
الخوف والطمع لكل بشر، وقال
الضحاك: الخوف من صواعقه،
والطمع في مطره. وقوله: «أَنْ تَقُومَ
السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ» معناه: تثبت، كقوله
تعالى: «وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا»،
وهذا كثير، وقيل: هو فعل مستقبل،
أحلّه محل الماضي ليعطي فيه معنى
الدوام الذي هو في المستقبل،
و«الدَّعْوَةُ مِنَ الْأَرْضِ» هي للبعث
يوم القيامة، و«مِنْ الْأَرْضِ» حال من
المخاطبين، كأنه قال: خارجين من
الأرض، ويجوز أن يكون «مِنْ
الْأَرْضِ» صفة الدعوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
و«مِنْ» عندي ها هنا هي لانتهاه
الغاية، كما تقول: «دعوتك من
الجبل»، إذا كان المدعو في الجبل،

والوقف في هذه الآية عند نافع
ويعقوب الحضرمي على «دَعْوَةٍ»،
والمعنى: إذا أنتم تخرجون من
الأرض، وهذا على أن [من] لابتداء
الغاية، قال مكي: والأحسن عند
أهل النظر أن الوقف في آخر الآية؛
لأن مذهب سيويه والخليل في [إِذَا]
الثانية أنها جواب الأولى، كأنه قال:
إذا دعاكم خرجتم، وهذا أسد
الأقوال، وقرأ حمزة، والكسائي:
«تَخْرُجُونَ» بفتح التاء، وقرأ الباقون:
«تَخْرُجُونَ» بضم التاء.

(٢٦) - (٢٨) تفسير قوله عز وجل:

اللام في الأولى لام الملك، وفي
الثانية لام تعدية لـ (قُتَّتْ)، وقُتَّتْ
بمعنى خضع في طاعته وانقياده.
وهذه الآية ظاهر أمرها العموم في
القُتَّتْ، والعموم في كل من يعقل،
وتعميم ذلك في المعنى لا يصح؛
لأنه خبر ونحن نجد كثيراً من الجن
والإنس لا يقُتَّتْ في كثير من المعتقد
والأعمال، فلا بُدَّ أنْ عموم ظاهر
هذه الآية يراد به الخصوص،
واختلف المتأولون في الخصوص
أين هو؟

فقال ابن عباس رضي الله عنهما:
هو في القنوت والطاعة، وذلك أن
جميع من يعقل هو قانت لله في
معظم الأمور من الحياة والموت
والرزق والقدرة ونحو ذلك،
وبعضهم يخل بالعبادة والمعتقدات
فلا يقنت فيها، فكأنه قال: كل له
قانتون في معظم الأمور وفي غالب
الشان.

وقال ابن زيد ما معناه: إن

الخصوص هو في الأعيان
المذكورين، كأنه قال: وله من
السموات والأرض من ملك ومؤمن.
وقوله: «بَدَأُ الْخَلْقَ» معناه: يُنشِئُه
ويخرجه من العدم، وجاء الفعل
بصيغة الحال لما كان في هذا ما قد
مضى كآدم وسائر القرون، وفيه ما
يأتي في المستقبل، فكأن صيغة
الحال تعطي هذا كله. و«يُبْدِئُ»
يبعثه من القبور ويُنشِئُه تارة أخرى.

واختلف المتأولون في قوله تعالى:
«وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ» - فقال ابن
عباس، والربيع بن خثيم: المعنى:

وهو هَيِّنَ، ونظيره قول الشاعر:

لَعَمْرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَأَوْجِلُ

بمعنى: لَوْجِلُ. وقول الآخر:

بَنَيْتُ أَدْعَائِي عَزْ وَأَطْوَلُ

وقولهم في الأذان: «الله أكبر»،
وقول الشافعي رحمه الله عليه:

فَتِلْكَ سَبِيلِي لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحِدٍ

يريد: بواحد، واستشهد بهذا البيت
أبو عبيدة، وهذا شاهد كثير، وفي
بعض المصاحف «وَكُلُّ هَيِّنٍ عَلَيْهِ».

وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد،
وعكرمة: المعنى: وهو أيسر عليه،
وإن كان الكل من اليسر عليه في
حين واحد وحال متماثلة، قال:
ولكن هذا التفضيل بحسب معتقدات
البشر، وما يعطيهم النظر في
المُشَاهِد من أن الإعادة في كثير من
الأمور أهون علينا من البداءة؛
للتَّعَمُّر والاستغناء عن الرُّبُوءَة التي
كانت في البداءة. وهذان القولان

الضميران فيهما عائدان على الله تبارك وتعالى.

وقالت فرقة أخرى: الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على ﴿الْخَالِقُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهو بمعنى «المخلوق» فقط، وعلى التأويلين الأولين يصح أن يكون «المخلوق»، أو يكون مصدراً من «خَلَقَ». فقال الحسن: إن الإعادة أمون على المخلوق من إنشائه؛ لأنه في إنشائه يصير من حالة إلى حالة، من نطفة إلى علقة إلى مضغة ونحو هذا، وفي الإعادة إنما يقوم في مرة واحدة، فكأنه قال: وهو أيسر عليه، أي: أقصر مدة وأقل انتقالاً.

وقال بعضهم: وهو أمون على المخلوق أن يعيد شيئاً بعد إنشائه، فهذا عُرِفَ المخلوقين، فكيف تنكرون أنتم الإعادة في جانب الخالق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر عندي عود الضمير على الله تعالى، ويؤيده قوله: ﴿وَلَهُ الْفَتْحُ الْأَعْمَى﴾، لما جاء بلفظ فيه استعارة واستشهاداً بالمخلوق على الخالق، وتشبيه بما يعهده الناس من أنفسهم، خلص جانب العظمة بأن جعل له المثل الأعلى الذي لا يصل إليه تكيف ولا تماثل مع شيء. والعزوة والحكمة صفتان موافقتان لمعنى الآية، فيهما يُعيد ويُنفذ أمره في عباده كيف شاء.

ثم بين تعالى أمر الأصنام وفساد معتقد من يشركها بالله تعالى بضرب هذا المثل، ومعناه: إنكم أيها الناس إذا كان لكم عبيد تملكونهم فإنكم لا

تسركونهم في أموالكم ولا في أموركم ولا في شيء على جهة استواء المنزل، وليس من شأنكم أن تخافوهم في أن يرثوا أموالكم أو يقاسموكم إياها في حياتكم، كما يفعل بعضكم ببعض، فإذا كان هذا فيكم فكيف تقولون: إن من عبده وملكه شركاء في سلطانه وألوهيته، وتثبتون في جانبه ما لا يليق عندكم بجوانبكم؟ هذا تفسير ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة، وجاء هذا المعنى في معرض السؤال والتقرير.

وقرأ الناس: ﴿كخيفتكم أنفسكم﴾ بنصب السين، وقرأ ابن أبي عجلة بضمها. وقرأ الجمهور: ﴿تَفْصِلُ﴾ بالنون حذلاً على ﴿رَزَقْتَكُمْ﴾، وقرأ عباس عن أبي عمرو: ﴿يُفْصِلُ﴾ بالياء حذلاً على ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا﴾. ﴿٢٩﴾ - ﴿٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

الإِضْرَابُ بِـ ﴿يَدٍ﴾ هو عما يتضمنه معنى الآية الأولى، كأنه يقول: ليس لهم حجة ولا معذرة فيما فعلوا من تشريكهم مع الله تعالى، بل اتبعوا أهواءهم جهالة وشهوة وقصد لأمر دنياهم. ثم قرأ - على جهة التوبيخ لهم - على من يهدي إذا أضل الله؟ أي: لا هادي لأهل هذه الحال، ثم أخبر أنه لا ناصر لهم.

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ بإقامة وجهه للدين المستقيم، وهو دين الإسلام، وإقامة الوجه هو تقويم المعتقد والقوة على الجد في أعمال الدين، وذكر الوجه لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه، و﴿حَنِيفًا﴾ معناه: معتدلاً مقوماً مانحاً عن جميع الأديان المحرفة المنسوخة، وقوله: ﴿فَطَرَتْ

اللَّهُ أَلَّتْ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ نصب على المصدر، كقوله: ﴿صَبَّ اللَّهُ﴾، وقيل: هو نصب بفعل مضمَر تقديره: أتبع والزَّم فطرة الله تعالى، واختلف الناس في الفطرة ها هنا - فذكر مكي وغيره في ذلك جميع ما يمكن أن تصرف هذه اللفظة عليه، وفي بعض ذلك قلتي، والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخِلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدودة مهيأة لأن يُمَيَّرَ بها مصنوعات الله تعالى، ويُسْتَدَلَّ بها على ربّه جلّ وعلا، ويعرف شرائعه، ويؤمن به، فكأنه تعالى قال: أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فطر البشر، لكن تغرضهم العوارض، ومنه قول النبي ﷺ: ﴿كُلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه...﴾ الحديث، وذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَةٍ لِّلَّهِ﴾ يحتمل تأويلين: أحدهما أن يريد بها مدة الفطرة المذكورة، أي: اغلَم أن هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق، ولا يجيء الأمر على خلافها بوجه، والآخر أن يكون قوله: ﴿لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَةٍ لِّلَّهِ﴾ إنحاء على الكفرة، واعترض به أثناء الكلام، كأنه يقول: أقم وجهك للدين الذي من صفته كذا وكذا، فإن هؤلاء الكفار الذين خلق الله لهم الكفر، ولا تبديل لخلق الله، أي: أنهم لا يفلحون. وقال مجاهد: المعنى: لا تبديل لدين الله، وهو

قول ابن جُبَيْر، والضحاك، وابن زيد، والنَّخعي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا معناه: لا تبديل للمعتقدات
التي هي في الدين الحنيف، فإن كل
شريعة فهي عقائدها.

وذهب بعض المفسرين في هذه الآية إلى تأويلات: منها قول عكرمة - وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما -: ﴿لَا بَدِيلَ لِحَاقِ اللَّهِ﴾ معناه: النهي عن خصاء الفحول من الحيوان. ومنها قول بعضهم في الفطرة: إنها الجِلَّة. على أنه قد قيل في الفطرة: الدين. وتؤوَّل قوله تبارك وتعالى: ﴿فَطَرَ النَّاسَ﴾ على الخصوص، أي:

المؤمنين. وقيل: الفطرة هي العهد الذي أخذهُ الله تعالى على ذُرِّيَةِ آدَمَ حين أخرجهم نَسْماً من ظهْره، ونحوه حديث معاذ رضي الله عنه حين مرَّ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا مُعَاذُ، ما قوام هذه الأُمّة؟ قال: الإخلاص، وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والصلاة وهي الدين، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر رضي الله عنه: صدقت.

و ﴿الْقِيَمُ﴾ بناءً مبالغة من القيام
الذي هو بمعنى الاستقامة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَنْتَظِرُ﴾، لا سيما على رأي من رأى أن ذلك خصوص في المؤمنين، ويحتمل أن يكون ذلك من قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾، وجمعه لأن الخطاب بإقامة الوجه هي للنبي ﷺ

وَأَمَّا، وَنَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بَيَّأْنَا أَتَيْنُ إِذَا طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ﴾ وَالْمُنِيبُ: الرَّاجِعُ الْمَخْلَصُ الْمَائِلُ إِلَى جِهَةٍ مَا تَوَدُّهُ نَفْسُهُ، وَالْمُشْرِكُونَ: الْمُشَارِكُ إِلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، قَالَ قَتَادَةُ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُمُ الْيَهُودُ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ وَأَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هِيَ فِي أَهْلِ الْقَبْلَةِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولفظة الإشراك على هذا - فيها تجوز،

٣٣ - ٣٥ تفسیر قوله عز وجل:

هذا ابتداء إنحاءٍ على عبدة الأصنام
المشركين بالله تعالى غيره، بين
تعالى أنهم كسائر البشر في أنهم متى
مسهم ضرُّ دعوا الله سبحانه، وتركوا
الأصنام مطروحة، ولهم في ذلك
الوقت إنابةٌ وخضوع، فإذا أذاقهم
رحمته، أي: بأشْرَهُمْ أمرُهُ بها،
والذوق مستعار، إذ هم طائفة تشرك
به أصناماً ونحو هذا، و﴿إِذَا﴾
للمفاجأة، فلذلك صلحت في جواب
﴿إِذَا﴾ الأولى، فهي بمنزلة الفاء،
وهذه الطائفة هي عبدة الأصنام.

وَأَمَّا النَّاسُ فَهُمْ عَمَوْا رُبَّمَا شَتَّىٰ إِلَيْهِمْ إِذَا أَذَقَهُمْ
مَتَرَهُمْ رَحْمَةً إِذَا فَرِحُوا بِمَتَرِهِمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣١﴾ لِيُكْفَرُوا بِمَا
كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ
سُلْطَانًا فَهُوَ يَسْكُرُ ﴿٣٣﴾ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾
وَأَمَّا أَذُكَا
النَّاسِ رَحْمَةً وَخُوفًا إِنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أَسْرُتَهُمْ فَإِذَا قُمْتَ لِلْيَوْمِ
إِذَا هُمْ بِقَاطِرٍ ﴿٣٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْطِئُ الزَّيْفَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾ فَاتَّذَكَّرُوا
حَقَّهُ وَالْيَشْكُرُونَ وَأَنَّ السَّيْلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلْيَشْكُرِ يُزِيدُونَ
وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ رِزْقٍ
لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ رِزْقٍ
لِيَرْبُوا وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٨﴾ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَفَعَكُمْ ثُمَّ يُسَبِّحُكُمْ ثُمَّ يُغْنِيكُمْ مِنْ
شُرَكَائِكُمْ يَنْفَعُكُمْ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا يَشَاءُ وَجَنَّةُ جَنَّاتِهِ وَتَعَالَى
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٩﴾ طَهَّرَ الْفَسَادَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ
أَيُّهُ النَّاسُ لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ أَعْمَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٠﴾

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
ويلحق من هذه الألفاظ شيء
للمؤمنين إذا جاءهم فرحٌ بعد شدة،
فعلقوا ذلك بمخلوق، أو بحق
آرائهم، أو بغير ذلك؛ لأن فيه قلة
شكر الله تبارك وتعالى، ويسمى
شركاً مجازاً.

وقوله تعالى: ﴿يَكْفُرُوا﴾ اللام لام
كُنْي، وقالت فرقة: هي لام الأمر
على جهة الوعيد والتهديد. وأما قوله
تعالى: ﴿فَنَسْتَوْءِ﴾ فأمر على جهة
الوعيد والتقرير، أي: قل لهم يا
محمد: فَتَسْتَوْءُوا.

وقرأ أبو العالية: ﴿فَيَسْتَمْتُوا﴾ بياء قبل التاء، وذلك عطف على ﴿يَكْفُرُوا﴾، أي: لتطول أعمارهم على الكفر، وفي حرف ابن مسعود: ﴿فَلْيَسْتَمْتُوا﴾، وزرعي عن أبي العالية: ﴿فَيَسْتَمْتُوا﴾ بضم الياء دون

تاء أولى، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿تَمْتَمُوا﴾، كذا قال هارون. وقرأ عامة الناس: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالثاء على المخاطبة، وقرأ أبو العالية: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بالياء على ذكر الغائب.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ﴾ هي بمعنى (بَلْ) وألف الاستفهام، كأنه أضرب عن صدر الكلام ورجع عن هذه الحجة. و«السُّلْطَانُ»: ها هنا: البُرهان، من رسول أو كتاب ونحوه، والسُّلْطَانُ في كلام العرب جمع سَلِيْط، كَرغيف وزُغفان، وُعْدِير وُعْدَرَان، فهو مأخوذ من التَّسَلَّط والتَّغَلَّب، وَلَزِمَ هذا الاسم في العرف الرئيس؛ لأنه تَسَلَّط بوجه الحق، وهو اسم جمع من حيث هي أنواع العَلْبَةِ والملك عنده، وقال قوم: هو اسم مفرد وزنه فُعْلَان.

وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ بِكُمْ﴾ معناه أنه يظهر حجتهم، وَيُغَلِّبُ مذهبهم، وينطق بشركهم، قاله قتادة، فيقوم بذلك مقام الكلام، كما قال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنِيطُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾.

(٣٦) - (٣٧) تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر تعالى حال الناس متى تأتتهم شدة وضراً ولجئوا منه إلى سعة، ذكر في هذه الآية الأمر أيضاً من الطرف الآخر بأن ذكر الرحمة تعقبها الشدة، فلهم في الأولى تضرع ثم إشراك، ولهم في الثانية فرح ويطر ثم قنوط ويأس، وكل أحد يأخذ من هذا الخلق بقسط، فمنهم المقيّل ومنهم المكتر، إلا من ربطت الشريعة على قلبه، وتأدّب

بأدب الله تعالى، فصبر عند الضراء، وسكن عند السراء، ولم يبطر عند النعمة، ولم يقنط عند الابتلاء. وقوله تعالى: ﴿يَمَّا قَدَّمْتُ إِلَيْهِمْ﴾، أي أن الله تعالى يمتحن الأمم، ويصيب منهم عند فشو المعاصي وظهور المنابر، ولذلك فقد يصاب شخص لسوء أعماله بشيء وخذه، ويعفو الله تعالى عن كثير. والقنوط: اليأس، وقرأ أبو عمرو، وجماعة: ﴿يَقْنِطُونَ﴾ بكسر النون، وقرأ نافع، والحسن، وجماعة بفتحها.

وجواب الشرط في قوله: ﴿وَلِنْ تُؤْتِيَهُمْ﴾ قوله: ﴿إِذَا هُمْ﴾، وذلك أنها للمفاجأة لا يُتَنَبَّأُ بها؛ لأنها بمنزلة الفاء، ويجب بها الشرط، وأما التي للشرط أو التي فيها معنى الشرط فيتنبأ بهما.

ثم ذكر تعالى الأمر الذي من اعتبره لم ييأس من روح الله تعالى على حال، وهو أن الله تبارك وتعالى يخصص من شاء من عباده ببسط الرزق، فينبغي لكل عبد أن يكون راجياً ما عند ربه، ثم أمر تعالى نبيه ﷺ أمراً تدخل الأمة فيه، وهذا على جهة التذنب إلى إيتاء ذي القربى حقه من صلة المال وحسن المعاشرة ولين القول. قال الحسن: حقه الموساة في اليسر، قال: ومعظم ما قصد أمر المعونة بالمال، ومنه قول النبي ﷺ: «في المال حق سوى الزكاة»، وكذلك للمسكين وابن السبيل حق، ويبين أن حق هؤلاء إنما هو في المال وغير ذلك، وكذلك يلتزم القريب المعدم الذي

يُقَضَى حقه أن يُقَضَى هو أيضاً حق قريبه في جودة العشرة، و«وَجْهَ الله» هنا جهة عبادته ورضاه، و«الْمُفْلِحُونَ»: الفائزون بِبُغْيَتِهِمْ، البالغون لآمالهم.

(٣٨) - (٣٩) تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجمهور: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ﴾ بمعنى: أعطيتهم، وقرأ ابن كثير: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ﴾ بغير مد، بمعنى: ما فعلتم، كما تقول: آتَيْتُ صواباً وآتَيْتُ خطأ، وأجمعوا على المد في قوله: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ دُونِ﴾. و«الزُّبَا»: الزيادة.

واختلف المتأولون في معنى هذه الآية - فقال ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وطاوس: هذه آية نزلت في هبات الثواب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازي عليه كالسلام وغيره، فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تبارك وتعالى.

وقال ابن عباس أيضاً، وإبراهيم الشَّعْبِي: نزلت في قوم يعطون قرباتهم وإخوانهم على معنى تمويلهم ونفعهم والتفضل عليهم، وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع لهم، وقال الشعبي: معنى الآية أن ما خدم الإنسان به أحداً، وخف له لينتفع به في دنياه، فإن ذلك النفع الذي يجزي به الخدمة لا يربو عند الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله قريب وجزء من التأويل. ويحتمل أن يكون معنى هذه الآية

الْعَبَاد: البحر: القَلْب، والْبَرُّ: اللسان، وقال الحسن: البَرُّ والبَحْرُ هما المعروفان المشهوران في اللغة. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول صحيح.

وظهور الفساد فيهما هو ارتفاع البركات، ونزول رزايا وحدوث فتن، وتغلب عدو كافر، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفساد في البحر: انقطاع صيده بذنوب بني آدم، وقلما توجد أمة فاضلة مطبوعة مستقيمة الأعمال لا يدفع الله عنها هذه، والأمر بالعكس في أمر المعاصي وبطر النعمة، وكذلك كان أمر البلاد في وقت بعث النبي ﷺ، قد كان الظلم عم الأرض برأ وبحراً، وقد جعل الله تعالى هذه الأشياء ليجازي بها على المعاصي، فيذيق الناس عاقبة ذنوبهم لعلمهم يتوبون ويراجعون بصائرهم في طاعة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَسَبَتْ﴾ تقديره: جزاء ما كسبت، ويجوز أن تتعلق الباء بـ ﴿ظَهَرَ﴾، أي: يَكْسِبُهُمُ المعاصي في البر والبحر، وهو نفس الفساد الظاهر، والتَرْجِي في «لَعَلَّ» هو على معتقدنا، ويَحْسَبُ نظرنا في الأمور.

وقرأت عامة القراء والناس: ﴿لِيُذِيقَهُمُ﴾ بالياء، وقرأ قبل عن ابن كثير، والأعرج، وأبو عبد الرحمن السلمي بالنون، ومعناها بين، وقرأ أيضاً أبو عبد الرحمن: ﴿لِيُذِيقَهُمُ﴾ بالتاء من فوق.

- على جهة التقرير والتوبيخ - ﴿هَلْ مِنْ شَرِكَاكَ﴾ أي: الذين جعلتموهم شركاء، مَنْ يفعل مِنْ شيء من ذلك؟ وهذا الترتيب بـ [تَمْ] هو في الإيجاد شيئاً بعد شيء، ومن هنا أدخل الفقهاء الولد مع أبيه في تعقيب الأجناس إذا كان اللفظ: «تَمْ» على أعقابهم، ثم على أعقاب تعقيبهم. ثم نزه تبارك وتعالى نفسه عن مقالتهم في الإشراك. وقرأ الجمهور: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ الأعمش، وابن وثاب بالتاء من فوق.

ثم ذكر تعالى - على جهة العبرة - ما ظهر من الفساد بسبب المعاصي في قوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، واختلف الناس في معنى «الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» في هذه الآية - فقال مجاهد: البر: البلاد البعيدة من البحر، والبحر: السواحل والمدن التي على ضفة البحر والأنهار الكبار. وقال قتادة: البر: الفياضي ومواضع القبائل والصحارى، والبحر: المدن، جمع بَحْرَة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومنه قول سعد بن عبادة رضي الله عنه للنبي ﷺ في شأن عبدالله بن أبي سلول: «لَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوَجَّهُوا» الحديث. ومما يؤيد هذا أن عكرمة قرأ: ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبُحُورِ﴾، ورويت عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال مجاهد أيضاً: ظهور الفساد في البر قتال بني آدم لأخيه، وفي البحر أخذ السفن غضباً، وقال بعض

النهي عن الربا في التجارات. لَمَّا خَضَّ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَفْعِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ أَعْلَمَ أَنَّ مَا فَعَلَ الْمَرْءُ مِنْ رَبَا لِيَزِدَّادَ بِهِ مَالاً - وَفَعَلَهُ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ - فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَرِبُو عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يَزْكُو، بَلْ يَتَعَلَّقُ فِيهِ الْإِثْمُ وَمُخَقُّ الْبِرَّةِ، وَمَا أُعْطِيَ الْإِنْسَانُ مِنْ زَكَاةٍ تَنْمِيَةٌ لِمَالِهِ وَتَطْهِيرٌ، يَرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، فَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يُجَازَى بِهِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً عَلَى مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ.

وقال السدي: نزلت هذه الآية في رباً ثقيف؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش.

وقرأ جمهور القراء السبعة: ﴿لِيُذِيقُوا﴾ بالياء وإسناد الفعل إلى الرِّبَا، وقرأ نافع وحده: ﴿لِيُذِيقُوا﴾ بضم الياء والواو ساكنة، بمعنى: يكونون ذوي زيادات، وهذه قراءة ابن عباس رضي الله عنهما وأهل المدينة، والحسن، وقتادة، وأبو رجاء، والشعبي. قال أبو حاتم: هي قراءة ثناء، وقرأ أبو مالك: ﴿لِيُشْرِكُوا﴾ بضمير مؤنث، و«المُضْعِف» الذي هو ذو أضعاف من التراث، كما أن المؤلف الذي له الألف، وكما تقول: أخصب إذا كان ذا خصب، وهذا كثير، ومنه أَرَبَى المتقدم في قراءة من قرأ: ﴿لِيُذِيقُوا﴾ بضم التاء.

ثم كرر مخاطبة الكفرة في أمر أوثانهم، فذكر أفعال الله تعالى التي لا شريك له فيها، وهي الخَلْقُ والرزق والإماتة والإحياء، ولا يمكن أن ينكر ذلك عاقل، ثم وقف الكفار

الناس بها من فضل الله تعالى في التجارات في البحر، وفي ذرو الأطعمة وغير ذلك.

ثم أتى محمداً ﷺ بأن ضرب له مثل من أرسل من الأنبياء، ثم وعد تعالى محمداً ﷺ وأتمته النصر؛ إذ أخبر أنه جعله حقاً عليه تبارك وتعالى، و [حقاً] خبر [كان] قدمه اهتماماً، لأنه موضع فائدة الجملة، وبعض القراء في هذه الآية وقف على قوله: ﴿حَقًّا﴾، وجعله من الكلام المتقدم، ثم استأنف جملة مكونة من قوله: ﴿عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا قول ضعيف؛ لأنه لم يدر قدر ما عرضه في نظم الآية.

(٤٦) - (٤٧) تفسير قوله عز وجل: إثارة السحب: تحريكها من سكون وتسييرها، وبسطها في السماء هو نشرها في الآفاق، و«الكسف»: القطع. وقرأ جمهور القراء: ﴿كَسَفًا﴾ بفتح السين، وقرأ ابن عامر: ﴿كِسْفًا﴾ بسكون السين، وهي قراءة الحسن، وأبي جعفر، والأعرج، وهما بناءان للجمع، كما يقال: «سبذرة وسبذر» بسكون الدال، و«سبذر» بفتح الدال، وقال مكي: من أسكن السين فمعناه: يجعل السحاب قطعة واحدة، و﴿الْوَزْدَقَ﴾: الماء يطر، ومنه قول الشاعر:

فَلَا مُزْنَةَ وَدَقَّتْ وَدَقَّهَا
وَلَا أَرْضَ أَبْقَلٍ إِنْقَالَهَا
و ﴿خَلِيلٌ﴾: الفطور الذي بين بعضه وبعض؛ لأنه متحلل الأجزاء. وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ خَلِيلٍ﴾ بكسر الخاء وألف بعد اللام، جُمع خَلَلَ

و﴿يُصَدِّعُونَ﴾ معناه: يتفرون بعد جمعهم، وهذا هو التصدع، ومعنى «يتفرون»: إلى الجنة وإلى النار.

ثم قسم الفريقين بأحكام تلحقهم من أعمالهم في الدنيا، ثم عبّر عن الكفر بـ «عليه»، وهي تعطي الثقل والمشقة، وعن العمل الصالح باللام التي هي لام الملك، و﴿يَهْدُونَ﴾ يُوطِئُونَ ويهيئون، وهي استعارة منقولة من الفرش ونحوها إلى الأحوال والمراتب. وقال مجاهد: هذا التمهيد

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٦﴾ فَانظُرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٧﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ مِنْ يَمِينِهِ يَهْدُونَ ﴿٤٨﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ وَمَنْ أَيْنِسَ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مَبْشُرًا وَيُذِيقَكَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِيَجْزِيَ الْفَالِكُ بِأَمْرِهِ وَيَتَنَبَّأُ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكَ تَنْشَكُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَاهْتَمَوْا بِالْآيَاتِ فَانْقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُكُمْ وَأَكَاتِ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِسَ سَحَابًا فَيَسْطُرُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُ كَيْفَ تَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ جَاءَهُمْ يَسْتَشِيرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِكِينَ ﴿٥٣﴾ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْوَدْقَ مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَمْرِهِ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٤﴾

(٤٦) - (٤٧) تفسير قوله عز وجل:

(٤٦) - (٤٧) تفسير قوله عز وجل: اللام في ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلقة بـ ﴿يُصَدِّعُونَ﴾، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف تقديره: ذلك، أو: فَعَلَ ذلك ليجزي، وتكون الإشارة إلى ما تقرر من قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ﴾، وَمِنْ عَمِلَ صَالِحًا. وقوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ليس الحب بمعنى الإرادة، ولكنه بمعنى: لا يُظهر عليهم أمارات رحمته، ولا يرضاه لهم ديناً، ونحو هذا.

ثم ذكر تعالى من آياته أشياء تقتضي كل عقل بأنه لا مشاركة للأوثان فيها، وهي ما في الريح من المنافع، وذلك أنها تُشْرِى بالمطر، ويذيق الله بها الرحمة، يعني الغيث والخصب، ويلقح بها الشجر وغير ذلك، وتجري السفن بها في البحر، ويتغني

هذا تنبيه لقريش وأمر لهم بالاعتبار بمن سلف من الأمم ويسوء عواقبهم بكفرهم وإشراكهم، ثم أمر تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بإقامة وجهه، والمعنى: اجعل قصدك ومسعاك للدين، أي لطريقه ولأعماله واعتقاداته. و﴿الْوَزْدَقَ﴾ أصله: قَيْئوم، اجتمعت الياء والواو وسبقت الياء وهي ساكنة وأبديت الواو ياءً وأدغمت الأولى في الثانية. ثم حذره تبارك وتعالى من يوم القيامة تحذيراً يُعْمُ العالم، وإيماهم القصد، و﴿لَا مَرَدَ لَهُ﴾ معناه: ليس فيه رجوع لعمل ولا رغبة، ولا عنه مرتحل، ويحتمل أن يريد: لا يَزُدُّه رأؤ حتى لا يقع، وهذا ظاهر بحسب اللفظ،

يكون الضمير الذي في الفعل للأثر، ويحتمل أن يكون لله تعالى، وهذا أظهر. وقرأت فرقة: ﴿كَيْفَ تَخْجَا﴾ بالشاء المفتوحة ﴿الْأَرْضُ﴾ بالرفع. وقرأ الجحدري، وابن السمين، وأبو حيوة: ﴿تُخْجِي﴾ ببناء مضمومة على أن إسناد الفعل إلى ضمير الرحمة نصباً. قال أبو الفتح: قوله: ﴿كَيْفَ تُخْجِي﴾ جملة منصوبة الموضع على الحال حملاً على المعنى، كأنه قال: مخبية، وهذه الحياة

كجبل وجبال، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن عباس، والضحاك، والحسن - بخلاف عنه -: ﴿مِنْ خَلِيلِهِ﴾، وهو اسم جنس. والضمير في ﴿خَلِيلِهِ﴾ يحتمل أن يعود على «السحاب»، ويحتمل أن يعود على «الكشف» في قراءة من قرأ بسكون السين، وذكر الضمير مراعاةً للفظ لا لمعنى الجمع، كما تقول: «هذا ثمر جيد»، و﴿يَنْتَزِلُ الشَّجَرُ الْأَخْضَرُ نَارًا﴾، ومن قرأ: ﴿كَسَفًا﴾ بفتح السين فلا يعيد الضمير إلا على السحاب فقط.

قوله عز وجل: ﴿يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ﴾ تأكيد أفاد الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار، وذلك أن قوله: ﴿يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ﴾ يحتمل الفسحة في الزمان، أي: من قبل ذلك، أي: من قبل أن ينزل بكثير من الأيام ونحوه، فجاء قوله: ﴿يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ﴾ بمعنى أن ذلك متصل بالمطر، فهو تأكيد مقيد، وقرأ يعقوب، وعيسى، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿يَنْزِلُ﴾ مخففة، وقرأت عامة القراء بالثقل في الرائي، وقرأ ابن مسعود: ﴿عَلَيْهِمْ لُمْبُلَيْسِينَ﴾ بسقوط ﴿يَنْزِلُ﴾. و«الإبلاس»: الكون في حال سوء مع اليأس من زوالها.

ثم عجنه بمخاطبة يراد بها جميع الناس من أثر رحمة الله وهي المطر، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، «أثر» بالإنفراد، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: «أثار» بالجمع، واختلف عن عاصم.

وقوله: ﴿كَيْفَ تُخْجِي﴾ يحتمل أن

والموت استعارة في القحط والإغشاب. ثم أخبر تبارك وتعالى - على جهة القياس والتثنية عليه - بالبعث والثشور، وقوله سبحانه: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عُمُومٌ﴾.

٥١ - ٥٢ تفسير قوله عز وجل:

ثم أخبر تعالى عن حال تقلب ابن آدم في أنه بعد الاستبشار بالمطر إذا بعث الله ريحاً فاضفر بها النبات ظل يكفر قللاً منه وقلة توكل وتسليم لله عز وجل. والضمير في «قراؤه» للنبات كما قلنا، أو للأثر وهو حوة النبات الذي أحيت به الأرض، وقال قوم: هو للريح، وهذا كله ضعيف. واللام في «لن» مؤذنة بمجيء القسم، وهو في «أظفروا»، فاللام لام القسم. وقوله تعالى: «أظفروا» فعل ماض أنزله منزلة المستقبل

وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفًرًا أَظَلُّوا مِنْ بُعْدِهِ، كَقُرُونٍ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْأَمْمَةَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أُمَّدِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِمَهْدٍ أَعْمَى عَنْ ضَلَالِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِهَا ضِعْفَ نَفْسٍ ضَعِيفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضِعْفًا وَشِبْهَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُفَسِّرُ الْمَجْرُمُونَ مَا لِبَشَرٍ أُخْرَ سَاعَتَهُ كَذَلِكَ كَأَنَّا تَوْفُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَذِي يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَمْغَازَهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جَسَّهُمْ شَايَئُهُمْ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أُنْزِلَ إِلَّا مِطْلُونٌ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾

واستنابه منابه؛ لأن الجزاء هنا لا يكون إلا بفعل مستقبل، لكن استعمل الماضي موضع المستقبل في بعض المواضع توثيقاً لوقوعه.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ الآية... استعارة للكفار، وقد تقدم القول على مثل هذه الآية في سورة النمل. وكلهم قرأ: ﴿وَلَا تَسْمِعُ﴾ ببناء مضمومة ونصب «الأمم»، وقرأ ابن كثير، وعباس عن أبي عمرو: «تَسْمِعُ» ببناء مفتوحة «الأمم» رفعاً. وقرأ الجمهور: «يَهْدِي أَعْمَى» بالإضافة، وقرأ يحيى بن الحرث، وأبو حيوة: «بِهَادٍ» بالتونين «أَعْمَى» نصباً. وقوله: ﴿إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ﴾ معناه: إن تسمع إسماعاً ينفع ويؤدي، وأما سماع الكفرة فغير

مُجِدِّ فاستويا. وقوله تعالى: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾، لما كان الهدى يتضمن الصرف عدت بـ [عَنْ] كما تعدى (صرف)، ومعنى الآية: ليس في قدرتك يا محمد ولا عليك أن تهدي. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿مَنْ ضَلَّاهُمْ﴾.

٥٦ - ٥٧ تفسير قوله عز وجل:

هذه أيضاً آية يَبَيِّنُ فيها أن الأوثان لا مدخل لها في هذا الأمر. وقرأ جمهور القراء والناس بضم الضاد في ﴿ضَعُفٌ﴾، وقرأ عاصم، وحمزة بفتحها، وهي قراءة ابن مسعود وأبي رجاء، والضَّمُّ أصوب، وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأها على رسول الله ﷺ بالفتح فردّها عليه بالضم، وقال كثير من اللغويين: ضَمُّ الضاد في البدن وفتحها في العقل، وروي عن عبد الرحمن، والجحدري، والضحاك أنهم ضموا الضاد في الأول والثاني، وفتحوا ﴿ضَعُفًا﴾، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿مِنْ ضَعْفٍ﴾ بضمين، وهذه الآية إنما يراد بها حال الجسم، والضعف الأول هو كون الإنسان من ماء مهين، والقوة بعد ذلك الشبيبة وشدة الأمر، والضعف الثاني الهرم والشَّح، هذا قول قتادة وغيره.

ثم أخبر تعالى عن يوم القيامة أن المجرمين يُقَسِّمون لجأجأ منهم ونشوزاً على ما لا علم لهم به؛ أنهم ما لبثوا تحت التراب غير ساعة، وهذا اتباع لتخليهم الفاسد، ونظرم في ذلك الوقت على ما كانوا في الدنيا يبتغون، فيؤفكون عن الحق، أي: يُصرفون.

وقيل: المعنى: ما لبثوا في الدنيا، كأنهم استقلوها لما عاينوا أمر الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يضعفه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤَفَّكُونَ﴾؛ إذ لو أرادوا تقليل الدنيا بالإضافة إلى الآخرة لكان منزعاً شديداً، وكان قولهم: ﴿عَبَّرَ سَاعَةً﴾ تجوزاً، أي: في القدر والموازنة.

ثم أخبر تعالى عن الذين أوتوا العلم والإيمان أنهم يقفون في تلك الحال على الحق، ويعرفون أنه الوعد المتقرر في الدنيا. وقال بعض المفسرين: إنما أراد: «أوتوا الإيمان والعلم»، ففي الكلام تقديم وتأخير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يحتاج إلى هذا، بل ذكر العلم يتضمن الإيمان، ولا يصف الله تعالى يعلم مَنْ لم يعلم كل ما يوجب الإيمان، ثم ذكر الإيمان بعد ذلك تنبيهاً عليه وتشريفاً لأمره، كما قال: ﴿فَكَفَّهُمْ وَظَلَّ رَكَنًا﴾، فنسبه تبارك وتعالى على مكان الإيمان وخصه تشريفاً.

٥٧ - ٦٠ تفسير قوله عز وجل:

هذا إخبار عن هول يوم القيامة وشدة أحواله على الكفرة؛ في أنهم لا ينفعهم الاعتذار، ولا يُعطون عُثْبِي، وهي الرضى، و﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ بمعنى: يعتبون، كما تقول: يملك ويستملك، والباب في (استغفل) أنه طلب الشيء، وليس هذا منه؛ لأن المعنى لا يفسد إذا كان المفهوم منه: ولا يطلب منهم عُثْبِي.

وقرأ عاصم، والأعمش: ﴿يَنْفَعُ﴾

بالياء، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّخَذَ﴾، وحسن هذا أيضاً بالترفة التي بين الفعل وما استند إليه، كما قال الشاعر:

وهل يرجع التسليم أو يكتفى العنى
ثلاث الأثافي والديار البلاقيع؟
ثم أخبر تعالى عن قسوة قلوبهم، وعجرفة طباعهم، في أنه ضرب لهم كل مثل، وبين عليهم بيان الحق، ثم هم مع ذلك عند الآية والمعجزة يكفرون ويلحقون ويعمّهون في كفرهم، ويصفون أهل الحق بالأباطيل. ثم أخبر تعالى أن هذا إنما هو من طبيعته وخشيته على قلوب الجهلة الذين قد حتم عليهم الكفر في الأزل، وذهب أبو عبدة إلى أنه من قولهم: «طَبَعَ السَّيْفُ»، أي: ضدىء أشد صدىء.

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ بالصبر، وقوى نفسه بتحقيق الوعد، ونهاه عن الاهتزاز لكلامهم، أو التحرك واضطراب النفس لأقوالهم؛ إذ هم لا يقين لهم ولا بصيرة.

وقرأ ابن أبي إسحق، ويعقوب: ﴿يَسْتَحِقُّنَّكَ﴾ بحاء غير معجمة وقاف، من الاستحقاق، والجمهور على الخاء المعجمة والفاء، من الاستخفاف، إلا أن أبي إسحق ويعقوب سكتا النون من ﴿يَسْتَحِقُّنَّكَ﴾. وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان في صلاة الفجر، فناداه رجل من الخوارج بأعلى صوته يقرأ هذه الآية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آلِهَ بْنَ قَيْلَ﴾ لَيْنَ أَشْرَكَ لِيَجْطَلَ عَمَلَكُ وَلَكُونَنَّ مِنْ أَكْثَرِينَ ﴿﴾، فَعَلِمَ عَلِيٌّ

رضي الله عنه مقصده في هذا، وتعريضه به، فأجابه وهو في الصلاة بهذه الآية: ﴿فَأَسْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ﴾ ❀.

كمل تفسير سورة الرُّوم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تفسير سورة لقمان

هذه السورة مكيّة غير آيتين، قال قتادة: «أُولَهُمَا ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَكَلَهُ﴾».

❶ - ❷ تفسير قوله عزّ وجلّ:

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور، وفي ترتيب ﴿تِلْكَ﴾ مع كل قول منها. و﴿الْحَكِيمُ﴾ يصح أن يكون من الحكمة، ويصح أن يكون من الحُكْم. وقرأ جمهور القراء: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال من المبهم، ولا يصح أن يكون من ﴿الْكِتَابِ﴾؛ لأنه مضاف إليه، وقرأ حمزة، والكسائي بالرفع على تقدير: هو هدى، وخصّصه للمحسنين من حيث لهم نفعه، وهم نظروه بعين الحقيقة، وإلا فهو هدى في نفسه، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿هُدًى وَيُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم وصف تعالى المحسنين بأنهم الذين عندهم اليقين بالبعث وبما جاء به الرسول ﷺ، وعندهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن صفتهم ما قال رسول الله ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان، فقال: «أَنْ

تعبد الله كأنك تراه، فَإِنْ لَمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾، روي أنها نزلت في قرشي اشترى جارية مُعْتَبَةً لِنَعْنِي بهجاء رسول الله ﷺ وسبّه، فنزلت الآية في ذلك، وروي أنه ابن أخطل، وروي عن أبي أمانة الباهلي أن النبي ﷺ قال: «شراء المُعْتَبَاتِ وبمعهن حرام»، وقرأ هذه الآية، وقال: «في هذا المعنى نزلت عليّ هذه الآية»، وبهذا فسر ابن مسعود، وابن عباس،

وجابر بن عبدالله، ومجاهد، وقال الحسن: «لهو الحديث: المعازف والغناء».

وقال بعض الناس: نزلت في النضر بن الحارث لأنه اشترى كتب رستم واسفنديار، وكان يخلف رسول الله ﷺ فيحدثهم بتلك الأباطيل، ويقول: أنا أحسن حديثاً من محمد، وقال قتادة: الشراء في هذه الآية مُستعَار، وإنما نزلت في أحاديث قریش، وتَأْهِيمُهُمْ بِأَمْرِ الإسلام، وخوضهم في الأباطيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكان تَرْكُ ما يجب فعله، وامتنثال هذه المنكرات شراءً لها، على حدّ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَيْئِ﴾. وقد قال مطّرف: شراءً لهو الحديث استحبابه، قال قتادة: ولعلّه لا يُتَّفَقُ فيه مالا، ولكن سماعه هو شراؤه، وقال الضحاك:



لهو الحديث الشُّرْكُ، وقال مجاهد أيضاً: لهو الحديث الطُّبْلُ، وهذا ضربٌ من الغِنَاءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يترجّح أن الآية نزلت في لهو حديث مضاف إلى كُفْرٍ، فلذلك اشتدت ألفاظ الآية بقوله: ﴿يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَبْغِي عَلَيْهِ وَيَخَذُّهَا هُزْواً﴾ وبالتوعد بالعذاب المهيّن. وأما لفظة الشراء فتحتمل الحقيقة والمجاز على ما بيّنا، و«لهو الحديث» كل ما يُلهي من غِنَاءٍ وَخَنَا ونحوه، والآية باقية المعنى في أمة محمد ﷺ، ولكن ليس ليُضِلُّوا عن سبيل الله بكفر، ولا لِيَتَّخِذُوا الآياتِ هُزْواً، ولا عليهم هذا الوعيد، بل لِيُعْطِلَ عبادة، ويقطعهم زمناً بمكروه، ولكونهم من جملة العصاة، والنفوس الناقصة تروم تسميم ذلك النقص بالأحاديث، وقد جعلوا

جنس بمعنى الأحاديث، وكذلك ﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾ اسم جنس، ولكل وجه من الحديث وجه يليق به من السبل.

عز وجل: ﴿٧﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله

هذه دليل كفر هذا الذي نزلت فيه الآية التي قبلها. و«الوقر» في الأذن: الثقل الذي يُغَيِّرُ إدراك المسموعات، وجاءت البشارة بالعذاب من حيث قُيِّدَتْ ونُصَّ عليها.

ولما ذكر عز وجل حال هؤلاء الكفرة وتوعدهم بالنار على أفعالهم عقب

بذكر المؤمنين وما وعدهم به من جنات النعيم؛ لِيَبَيِّنَ الفرق. و«وَعَدَ اللَّهُ» منصوب على المصدر، و«حقاً» مصدر مؤكد.

وقوله تعالى: ﴿بَشِّرْ عَمْرُو تَرْوَنَّا﴾ يحتمل أن يعود الضمير على «السماء» فيكون المعنى: إن السماء بغير عمد، وأنها تُرَى كذلك، وهذا قول الحسن والناس، و«تَرْوَنَّا» - على هذا القول - في موضع نصب على الحال، ويحتمل أن يعود الضمير على «العمد»، فيكون «تَرْوَنَّا» صفة للعمد في موضع خفض، ويكون المعنى: إن السماء لها عمد لكن غير مرئية، قاله مجاهد، ونحاً إليه ابن عباس رضي الله عنهما، والمعنى الأول أصح، والجمهور عليه، ويجوز أن تكون «تَرْوَنَّا» في موضع رفع على القطع، ولا عمد ثم.

و«الرؤاسي» هي الجبال التي بنت في الأرض، وقوله: ﴿أَنْ تَبِيدَ﴾

وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَلِإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٧﴾ وَلَوْ قَالَ لَقَمَنْ لَأَتَيْنَهُ وَهُوَ عَظِيمٌ يَبْنِي لَأَشْكُرَ بِاللَّهِ إِنْ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿٨﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿٩﴾ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ نَارِ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَبْنِ عَنْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ يَبْنِي لَهَا إِنْ تَكَ شَقَالَ حَبْرَتَيْنِ حَرْوِلَ فَتَكُنْ فِي صَحْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَبْنِي أَقْفِدَ الضَّلَاةَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُتَكْرِ وَأَصْرَعَلِ مَا أَصَابَكَ إِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٢﴾ وَلَا تُصْعِقْ ذَلِكَ النَّاسَ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ ﴿١٣﴾ وَأَقْصِدِي مَشْيَكَ وَأَغْضِضِي مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصَوْتُ لَصَوْتُ الْخَيْرِ ﴿١٤﴾

الحديث من القرى، وقيل لبعضهم: أتمل الحديث؟ فقال: إنما يمل العتيق القديم المعاد؛ لأن الجديد من الأحاديث فيه الطرافة التي تمنع من الملل.

وقرأ نافع، وعاصم، والحسن: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياء، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بفتحها، وفي حرف أبي: ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لِيُضِلَّ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالرفع عطفاً على ﴿يَبْنِي﴾.

والضمير في ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ يحتمل أن يعود على «آيَاتِ الْكِتَابِ» المذكور أولاً، ويحتمل أن يعود على «السبيل»، ويحتمل أن يعود على «الأحاديث»؛ لأن «الحديث» اسم

بمعنى: ألا تמיד، والميد: التحرك يمتد ونسرة وما قرب من ذلك. وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ رَجُلٍ﴾ أي: من كل نوع. والزوج في اللغة: الشؤغ والصنف، وليس بالذي هو ضد الفرد، وقوله تعالى: ﴿كَبِيرٍ﴾ يحتمل أن يريد مدحه من جهة إتقان صنعه وظهور حسن الرتبة والتحكم للصنع فيها، فيعم حينئذ جميع الأنواع؛ لأن هذا المعنى في كلها، ويحتمل أن يريد مدحه بكرم جوهره، وحسن منظره، وما تقتضي له النفوس بأنه أفضل من سواء حتى يستحق الكرم، فتكون الأزواج - على هذا - مخصوصة في نفائس الأشياء ومستحسناتها، ولما كان عظم الموجودات كذلك خصص الحجة بها. وقوله: ﴿أَتَيْنَا﴾ يعم أنواع الحيوان وأنواع النبات والمعادن.

ثم وقف تعالى الكفار - على جهة التوبيخ وإظهار الحجة - على أن هذه الأشياء هي مخلوقات الله تبارك وتعالى، ثم سألهم أن يوجدوا ما خلق الأصنام والأوثان وغيرهم بمن عبده، أي: أنهم لم يخلقوا شيئاً، بل هذا الذي قريش فيه ضلال مبين، ثم ذكرهم بالصفة التي تعم معهم سواهم بمن فعل فعلهم من الأمم، وقوله: ﴿مَادَا﴾ يجوز أن تكون [ما] استفهاماً في موضع رفع بالابتداء، و[ذا] خبرها بمعنى (الذي)، والعائد محذوف، ويجوز أن تكون [ما] مفعولة بـ ﴿أَرُونِي﴾، و[ذا] صلة، و[ما] بمعنى (الذي)، والعائد محذوف، تقديره في الوخمين: خلقه.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

لَقْمَانَ رَجُلٌ حَكِيمٌ بِحِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وهي الصواب في

المعتقدات، والفقه في الدين والعمل، واختلف - هل هو نبي مع ذلك أو رجل صالح فقط؟

فقال بُيُوتُهُ عكرمة والشعبي، وقال بصلاحه فقط مجاهد وغيره، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت النبي ﷺ يقول: «لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكير، حسن اليقين، أحب الله فأحبه، فمُنَّ عليه بالحكمة، واختيره في أن يجعله خليفة يحكم بالحق، فقال: رب إن خيرتني قبلت العافية وتركت البلاء، وإن عَزَمْتَ عليّ فسمعاً وطاعة فإنك ستعصمني»، وكان قاضياً في بني إسرائيل، نوبياً أسود مُشَقَّق الرجلين ذا مشافر، قاله سعيد ابن المسيب، ومجاهد، وابن عباس. وقال له رجل كان قد رعى معه الغنم: ما بلغ بك يا لقمان ما أرى؟ قال: صدق الحديث والضُّمْتُ عما لا يعنيني، وقال ابن المسيب: كان من سودان مصر، من الثوبة، وقال خالد بن الربيع: كان نجاراً، وقيل: كان خياطاً، وقيل: كان راعياً. وجكُم لقمان كثيرة مأثورة، قيل له: أيُّ الناس شرُّ؟ قال: الذي لا يبالي إذا رآه الناس مُسيئاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَشْكُرْ﴾ يجوز أن تكون [أَنْ] في موضع نصب على إسقاط حرف الجر، أي: بأن اشكر الله، ويجوز أن تكون مَفْسَّرَةً، أي: كانت حكمته دائرة على الشكر لله تعالى ومعانيه. وجميع العبادات والمعتقدات داخلة في شكر الله تبارك وتعالى. ثم أخبر تعالى أن الشاكر حظه عائد عليه،

وهو المتفع بذلك، والله تعالى غني عن الشكر، فلا ينفعه شكر العباد، وحميدٌ في نفسه، فلا يضر كفر الكافرين. و﴿حَمِيدٌ﴾ بمعنى: محمود، أي: هو مستحق الحمد بصفاته وذاته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ يحتمل أن يكون التقدير: واذكر إذ قال، واختصر ذلك لدلالة المتقدم عليه، واسم ابنه تاران. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ بالشَّد والكسر في الباء، في الثلاثة، على إدغام إحدى الباءين في الأخرى، وقرأ حفص، والمفضل عن عاصم: ﴿يَبْنَى﴾ بالشَّد والفتح في الثلاثة، على قولك: يا بُنَيَّ، ويا غلاماً. وقرأ ابن أبي برة عن ابن كثير: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ بسكون الباء، و﴿يَبْنَى﴾ بكسر الباء، و﴿يَبْنَى﴾ أَفِيرُ الْفَكْلَوَةِ بفتح الباء، وروى عنه قنبل بالسكون في الأولى والثالثة، وبكسر الوسطى. وظاهر قوله: ﴿إِنَّكَ أَلْيَرُكَ لَطَلُّ عَظِيمٌ﴾ أنه من كلام لقمان، ويحتمل أن يكون خبراً من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان، مُتَّصِلاً به في تأكيد المعنى، ويؤيد هذا الحديث المأثور: (إنه لما نزلت: ﴿وَلَوْ يَلَيْسُوا بِإِيمَانِهِمْ لَطَلُّ﴾ أشفق أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أَيْنَا لَمْ يَظْلَم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَلْيَرُكَ لَطَلُّ عَظِيمٌ﴾، فسكن إشفاقهم).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون ذلك

خبراً من الله تعالى، وقد يسكن الإشفاق بأن يذكر الله عز وجل ذلك عن عبد قد وصفه بالحكمة والسداد. ﴿١٤﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هاتان الآيتان اعتراض أثناء وصية لقمان، ووجه الطبري ذلك بأنها من معنى كلام لقمان، ومما قصده، وذلك غير متوجّه؛ لأن كون الآيتين في شأن سعد بن أبي وقاص - حسب ما ذكره بعد - يضعف أن يكون مما قاله لقمان، وإنما الذي يشبه أنه اعتراض أثناء الموعظة، وليس ذلك بمُفْسِدِ الأول منها ولا الآخر، ولما فرغ من هاتين الآيتين عاد إلى الموعظة على تقرير إضمار: «وقال أيضاً لقمان»، ثم اختصر ذلك لدلالة المتقدم عليه.

وهذه الآية شَرِكُ الله تعالى الأم والوالد منها في رتبة الوصية بهما، ثم خَصَّص الأم بدرجة ذُكْر الحمل، وبدرجة ذُكْر الرضاع، فتحصّل للأم ثلاث مراتب، وللأب واحدة، وأشبه ذلك قول الرسول ﷺ - حين قال له رجل: - من أبُرُّ؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «أُمُّكَ»، فجعل له الربع من المبرة كالآية.

و﴿وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ﴾ معناه: ضعفاً على ضعف، وقيل: أشار إلى مشقة الحمل ومشقة الولادة بعده، وقيل: أشار إلى ضعف الولد وضعف الأم معه، ويحتمل أنه أشار إلى تدريج حالها في زيادة الضعف، كأنه لم يعين ضعفين، بل كأنه قال: حملته أمه والضعف يتزَيَّد بعد الضعف إلى

أَنْ يَنْقُضِي أَمْدَهُ. وقرأ عيسى الثقفي: ﴿وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ﴾ بفتح الهاء، ورويت عن أبي عمرو، وهما بمعنى واحد.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَفَصَالُهُ﴾، وقرأ الحسن، وأبو رجاء، والجحدري، ويعقوب: ﴿وَفَضْلُهُ﴾، وأشار بالفصال إلى تحديد مُدَّة الرضاع، فَعَبَّرَ عنه بغايته ونهايته، والناس مجمعون [على العامتين] في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات، وأما في تحريم اللبن فحددت فرقة بالعامتين لا زيادة ولا نقص، وقالت فرقة: العامان وما اتصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متصل الرضاع في حكم واحد يحرم، وقالت فرقة: إن قُطِمَ الصبي قبل العامين ونزل اللبن فإن من شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَشْكُرَّ﴾ يحتمل أن يكون التقدير: بأن أشكر، ويحتمل أن تكون مفسرة، وقال سفيان بن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما. وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَنَصِيرٌ﴾ توعد أثناء الوصية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ﴾ الآية. روي أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص، وذلك أن أمه - وهي حُمْنَةُ بنت أبي سفيان بن أمية - حلفت ألا تأكل ولا تشرب حتى يفارق دينه ويرجع إلى دين أبياته وقومه، فليج سعد في الإسلام، ويروي أنها كانت إذا أجهدا العطش

شَجُّوا فاهما، ويروي: شَجَرُوا، أي: فتحوه بعود ونحوه وصبوا ما يرمقها، فلما طال ذلك ورأت أن سعداً لا يرجع أكلت، ففي هذه القصة نزلت الآيات، قاله سعد بن أبي وقاص والجماعة من المفسرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وواطأت الآية الأولى الأمر بِبِرِّ الوالدين وحكمه، ثم حَكَمَ بأن ذلك لا يكون في الكفر والمعاصي، وجُمِلَتْ هذا الباب أن طاعة الأبوين لا تُرَاعَى في ركوب كبيرة، ولا في ترك فريضة على الأيمان، وتلزم طاعتهما في المباحات، ويُستحسن في ترك الطاعات الندب، ومنه أمر الجهاد الكفائية، والإجابة للأمر في الصلاة مع إمكان الإعادة، مع أن هذا أقوى من الندب، لكن يُعَلَّلُ بخوف هلكة عليها ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب، وخالف الحسن في هذا التفصيل، فقال: إن منعه أمه من شهود العشاء الآخرة شفقة فلا يطعها.

وقوله: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يعني: الأبوين الكافرين، أي: صلها بالمال، وأذعهما برفق، ومنه قول أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ - وقد قدمت عليها خالتها، وقيل: أمها من الرضاغة - فقالت: يا رسول الله، إن أُمِّي قد قدمت علي وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «نعم»، وراغبة، قيل: معناه: عن الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر عندي أنها راغبة في الصلة، وما كانت لتُقدِّم على أسماء لولا

حاجتها، والدة أسماء هي قُتَيْلَةُ بنت عبد العزى بن عبد أسعد، وأم عائشة وعبدالرحمن هي أم رومان قديمة الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصية لجميع العالم، كأن المأمور الإنسان، و﴿أَنَابَ﴾ معناه: رجع إلى الشيء، وهذه سبيل الأنبياء والصالحين، وحكى الثَّقَاتُ أن المأمور سعد، والذي أناب أبو بكر رضي الله عنهما، وقال: إن أبا بكر لما أسلم أتاه سعد، وعبدالرحمن بن عوف، وعثمان، وطلحة، وسعيد، والزبير، فقالوا: أنت؟ قال: نعم، فنزلت فيه ﴿أَمَّنْ هُوَ قَتِيلٌ﴾ عَائِةً أَيْلِيَّ، فلما سمعها السبعة آمنوا، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَتْلَقُوا أَنْ يَدْعَوْهَا وَنَادَوْا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبَشَرُ فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾. ثم توعد تعالى بالبعث من القبور، والرجوع للأعمال والوقوف على صغير الأعمال وكبيرها.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: وقال لقمان: يا بُنَيَّ، وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قُدرة الله تعالى، وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه؛ لأن الحَزْذَلَةَ يقال: إن النَجْسَ لا يُدْرِك لها ثقلًا؛ إذ لا ترجح ميزانًا. وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بها علماً. وقوله تعالى: ﴿وَيُنْفِكَا حَبَشَةً﴾ عبارة تصلح للجواهر، أي: قدر حبة، وتصلح للأعمال، أي: ما زنته على جهة

المماثلة قدر حبة، فظاهر الآية أنه أراد شيئاً من الأشياء خفياً قدر حبة، ويؤيد ذلك ما روي من أن ابن لقمان سأل أباه عن الحبة تقع في مثل البحر، أيعلمها الله؟ فراجع لقمان بهذه الآية. وذكر كثير من المفسرين أنه أراد الأعمال والمعاصي والطاعات، ويؤيد ذلك قوله: ﴿يَا أَبَا اللَّهِ﴾، أي: لا يفوت. وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف. فيضاف ذلك إلى تبيين قدرة الله تعالى، وفي القول الآخر ليس ترجية ولا تخويف. ومما يؤيد قول من قال: «هي من الجواهر» قراءة عبدالكريم الجزري: ﴿فَتَكُنْ﴾ بكسر الكاف وشد النون، من الكُن الذي هو الشيء المغطى.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إِنْ كُنْ﴾ بالثاء من فوق ﴿يُقَالُ﴾ بالنصب على خبر «كان»، واسمها مضمّر تقديره: مسألتك - على ما زوي - أو: المعصية أو الطاعة على القول الثاني، والضمير في ﴿يُنْهَا﴾ ضمير القصة، وقرأ نافع وحده بالياء نصباً ﴿يُنْهَا﴾ بالرفع على اسم «كان»، وهي الثائمة، وأسند إلى المثقال فعلاً فيه علامة التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنث هو منه، وهذا كقول الشاعر:

مَشِينٌ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسْفَهَتْ
أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيَّاحِ السَّوَابِ
وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر.

وقوله: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾، قيل: أراد الصخرة التي عليها الأرض والحوث والماء، وهي على ظهر ملك، وقيل: هي صخرة في الريح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا كله ضعيف، لا يُثْبِتُهُ سَنَدٌ، وإنما معنى الكلام المبالغة والانتهاة في التفهيم، أي: إِنَّ قُدْرَتَهُ مِثَالُ مَا يَكُونُ فِي تَضَاعِيفِ صَخْرَةٍ، وما يكون في السماء وفي الأرض. وقرأ قتادة: ﴿فَتَكُنْ﴾ بكسر الكاف والتخفيف: من: وَكُنْ يَكُنْ، وتقدمت قراءة عبدالكريم ﴿فَتَكُنْ﴾.

وقوله: ﴿يَا أَبَا اللَّهِ﴾، إن أراد بها الجوهر فالمعنى: يَأْتِ بِهَا إِنْ احتجج إلى ذلك، إن كانت رزقاً ونحو هذا، وإن أراد الأعمال فمعناه: يَأْتِ بِذِكْرِهَا وحفظها ليجازي عليها بثواب أو بعقاب. و﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ صفتان لاقتان بإظهار غرائب القدرة.

ثم وصّى ابنه بِمُطَمِّعِ الطَّاعَاتِ، وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا إنما يريد به بعد أن يَمَثِّلَ هو في يقينه، ويزدجر عن المنكر، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع.

وقوله: ﴿وَأَسِيرٌ عَنْ مَا أَصَابَكَ﴾ يقتضي حُضّاً على تغيير المنكر وإن نالك ضرر، فهو إشعار بأن المغير يؤذّي أحياناً، وهذا القدر هو على جهة النذب والقوة في ذات الله عز وجل، وأما على اللزوم فلا.

وقوله: ﴿إِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ معناه: مما عزمه الله وأمر به، ويحتمل أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة، والأول أصوب، ويكليهما قالت طائفة.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن محيصن: ﴿وَلَا

تُصَاعِرُ﴾. وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، والحسن، ومجاهد، وأبو جعفر: ﴿وَلَا تُصْعِرُ﴾، وقرأ الجحدري: ﴿وَلَا تُصْعِرُ﴾ بسكون الصاد، والمعنى متقارب، والصَّعْرُ: المَيْلُ، ومنه قول الأعرابي: «وقد أقام الدهرُ صعري بعد أن أقمْتُ صعره»، ومنه قول عمرو بن حُني الثُّغَلِي:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ
أَقْمُنَا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوُّمٌ
أي: فَتَقَوُّمٌ أَتَتْ، قاله أبو عبيدة، وأنشده أبو عبيدة: (فَتَقَوُّمًا) وهو خطأ، لأن قافية الشعر مخفوضة، وفي بيت آخر:

أَقْمُنَا لَهُ مِنْ خَدِّهِ الْمُتَصَعِّرِ
فالمعنى: ولا تمل خدك للناس كبيراً عليهم، وإعجاباً، واحتقاراً لهم، وهذا هو تأويل ابن عباس - رضي الله عنهما - وجماعة، ويحتمل أن يريد أيضاً الضد، أي: وَلَا سَوَالاً وَلَا ضِرَاعَةً بِالْفَقْرِ، والأول أظهر بدلالة ذكر الاختيال والفخر بعده، وقال مجاهد: ﴿وَلَا تُصْعِرُ﴾ أراد به الإعراض وهجره بسبب أخيه.

و«الْمَرْحُ»: التَّشَاطُ، و«الْمَشْيُ مَرْحاً» هو في غير شغل ولغير حاجة، وأهل هذا الخلق ملازمون للفخر والخيلاء، فالمرح مُخْتَالٌ في مشيته، وقد قال ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وقال: «بينما رجل من بني إسرائيل يجرُّ ثوبه خيلاء خسف الله به، فهو يستجلجل في الأرض إلى يوم

الْبَاطِنَةُ الْغُيُوبَةُ

سُورَةُ الْقَمَرِ

أَلَمْ نَرَا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبُغِ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَا نَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ النَّصِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِنَّا أَمْرُهُمْ فَنُفِثَهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نَسِيتُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَاللَّهُ مَآ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَدِدْتُ كَيْفَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَجِدَّةٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

٤١٣

الأصوات، فكذا كل ما
بُعِدَ عن الغَضِّ من
أصوات البشر فهو في
طريق تلك، وفي
الحديث: «إذا سمعتم
نهيق الحمير فتعوذوا بالله
من الشيطان، فإنها رأت
شيطاناً»، وقال سفيان
الثوري: صباح كل شيء
تسبح إلا صباح الحمير.
وقال عطاء: نهيق الحمير
دعاء على الظلمة.

و «أنكر» معناه: أقبح
وأوحش، و «أنكر»
عبارة تجمع المذام
اللاحقة للصوت الجهير،
وكانت العرب تفخر

بجهازة الصوت الجهير، على خلق
الجاهلية، ومنه قول الشاعر:

جَهِيرُ الْكَلَامِ جَهِيرُ الْعُطَاسِ
جَهِيرُ الرِّوَاءِ جَهِيرُ النُّعْمِ
وَيَعْدُو عَلَى الْأَيْنِ عَذْوُ الظَّلِيمِ
وَيَغْلُو الرُّجَالُ بِخُلُقِ عَمَمٍ
فنهى الله تعالى عن هذه الخلق
الجاهلية. وقوله: «لَصَوْتُ الْخَيْرِ»
أراد بالصوت اسم جنس، ولذلك
جاء مفرداً. وقرأ ابن أبي عبيدة: «إِنَّ
أَتَكَرَّ الْأَصْوَاتِ أَصْوَاتُ الْخَمِيرِ»
بالجمع في الثاني دون لام. والغَضُّ
رَدُّ طَفْحَانِ الشَّيْءِ، كاللُّظَر، وزمام
الناقة، والصوت، وغير ذلك.

٢٠ - ٢١ تفسير قوله عز وجل:
هذه آية تنبيه على الصنعة الدالة
على الصانع، وذلك أن تسخير هذه
الأمور العظام كالشمس والقمر
والنجوم والسحاب والرياح والحيوان

والنبات إنما هو لمسخر ومالك.
وقرأ يحيى بن عمار، وابن عباس:
«وَأَضْحَجَ» بالصاد على بدلها من
السين؛ لأن حروف الاستعلاء
تجذب السين من سفها إلى علوها
فتردّها صاداً، والجمهور قراءة تهيم
بالسين. وقرأ نافع، وأبو عمرو،
وحفص عن عاصم، والحسن،
والأعرج، وابن جعفر، وابن نصاح،
 وغيرهم: «نَعْمَةٌ» جمع (نَعْمَةٌ)،
كسِدْرَةٍ وسِدْرٍ بفتح الدال،
و«الظاهرة» هي الصحة وحسن
الخلق والمال وغير ذلك، و«الباطنة»
المعتقدات من الإيمان ونحوه،
والعقل. قال ابن عباس
رضي الله عنهما: الظاهرة: الإسلام
وحسن الخلق، والباطنة: ما ستر من
سوء العمل، وفي الحديث: (قيل
لرسول الله ﷺ: قد عرفنا الظاهرة،
فما الباطنة؟ قال: «ستر ما لو رآك
الناس عليه لمَقْتُونُك»).
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن الباطنة التنفس والهضم والتغذي
وما لا يحصى كثرة، ومن الظاهرة
عمل بالجوارح بالطاعة، قال
المحاسبي: الظاهرة: نِعَمُ الدُّنْيَا،
والباطنة: نِعَمُ الْعَقْبَى، وقرأ الجمهور
من الناس: «نَعْمَةٌ» على الإفراد،
فقال مجاهد: المراد «لا إله
إلا الله»، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما: أراد الإسلام،
والظاهر عندي أنه اسم جنس، كقوله
تبارك وتعالى: «وَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ
لَا تَخْضَعُوا».

ثم عارض بالكفرة مُتَّبِعاً على فساد
حالهم، وهم المشار إليهم بقوله

القيامة»، وقال مجاهد: الفُخُور هو
الذي يعدد ما أُعطي ولا يشكر الله
تبارك وتعالى، قال: وفي اللفظ
الفخر بالنسب وغير ذلك.

ولما نهى عن الخلق الذميمة رسم له
الخلق الكريم الذي ينبغي أن
يستعمله، من القصد في المشي،
وهو ألا يتخرق في إسرار، ولا
يرائي في إبطاء وتضاؤل، وعلى نحو
ما قال القائل:

كُلُّنَا يَمْشِي زَوْنِدٌ
كُلُّنَا يَطْلُبُ صَنِيدٌ
غَيْرَ عَمْرٍو بِنِ عَبِيدٌ

وَألا يمشي مختالاً متبخراً، ونحو
هذا مما ليس بقصد. وغَضُّ الصوت
أَوْفَرُ لِلْمُتَكَلِّمِ وَأَبْسَطُ لِنَفْسِ السَّامِعِ
وفهمه. ثم عارض متمثلاً بصوت
الحمير على جهة التشبيه، أي: تلك
هي التي بُعِدَتْ عن الغَضِّ فهي أنكر

تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾، وقال النقاش: الإشارة إلى النضر بن الحارث ونظرائه؛ لأنهم كانوا ينكرون الله تعالى ويشركون الأصنام في الألوهية، وذلك جدالهم، و﴿يَتَّبِعْ عِلْمِي﴾ أي: لم يُعلمهم من يُقبل قوله، ولا عندهم هدى قلب ولا نور بصيرة يقيمون بها حجة، ولا يبتغون بذلك كتاباً من الله يبشر بأنه وحي، بل ذلك دعوى منهم وتخبرص، وإذا دعوا إلى اتباع وحي الله تعالى رجعوا إلى التقليد المحض بغير حجة، فسلخوا طريق الآباء. ثم وقف الله تعالى - وهم المراد بالتوقيف - على اتباعهم دين آبائهم، أيكون وهم بحال من يصير إلى عذاب السعير؟ فكان القائل منهم يقول: هم يتبعون دين آبائهم ولو كان مصيرهم إلى السعير، فدخلت ألف التوقيف على حرف العطف كما كان اتساق الكلام، فتأمل.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر الله تعالى حال الكفرة أعقب ذلك بذكر حال المؤمنين لِيَتَّبِعْنَ الفرق وتتحرك النفوس إلى طلب الأفضل. وقرأت عامة القراء: ﴿يُسَلِّمُ﴾ بسكون السين وتخفيف اللام، وقرأ عبدالله بن مسلم، وأبو عبدالرحمن: ﴿يُسَلِّمُ﴾ بفتح السين وشد اللام، ومعناه: يخلص وجهه ويستسلم به، و«الوجه» هنا الجارحة، استعير للقصص؛ لأن القاصد للشيء فهو مستقبله بوجهه، فاستعير ذلك للمعاني، و«المُخْسِن» هو الذي جمع القول والعمل، وهو الذي شرح رسول الله ﷺ حين سأله

جبريل عليه السلام عن الإسلام.

و«الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى» هي استعارة للأمر المنجي الذي لا يخاف عليه استحالة ولا إخلال، والغرى موضع التعلق، فكان المؤمن متعلق بأمر الله تبارك وتعالى، فشبه ذلك بالعروة، و﴿الْأَنْزُورُ﴾ جمع أنور، وليس بالمضاد للنهي. ثم سلى عز وجل نيته عليه الصلاة والسلام عن مزجته لكفر قومه وإعراضهم، فأمره ألا يحزن لذلك، بل يعمد إلى ما كُلف من التبليغ ويرجع الكل إلى الله تعالى. وقرأت فرقة: ﴿يُخَزِّنُكَ﴾ من الرباعي، وقرأت فرقة: ﴿يَحْزِنُكَ﴾ من الثلاثي، و«ذات الصدور» ما فيها، والقصص من ذلك: إلى المعتقدات والآراء، ومن ذلك قولهم: «الذنب مغبوط بذئ بطنه»، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «ذو بطن بنت خارجة». و«الْمَتَاعُ الْقَلِيلُ» هو الغمر في الدنيا، و«الْعَذَابُ الْغَلِيظُ» معناه: المغلظ المؤلم.

ثم أقام عليهم الحجة في أمر الأصنام بأنهم يُقِرُّون بأن الله تعالى هو خالق المخلوقات، ويدعو مع ذلك إلهاً غيره، والمعنى: قل الحمد لله على ظهور الحجة عليهم. وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ إِضْرَابٌ عَنْ مُقَدَّرٍ، تَقْدِيرِهِ: ليست دعواهم بحق، ونحو هذا، وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ على أصله؛ لأن منهم من شد فغليم كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل. ويحتمل أن تكون الإشارة أيضاً إلى من هو مُعَدَّد أن يسلم. ثم أخبر على جهة الحكم وفصل القضية

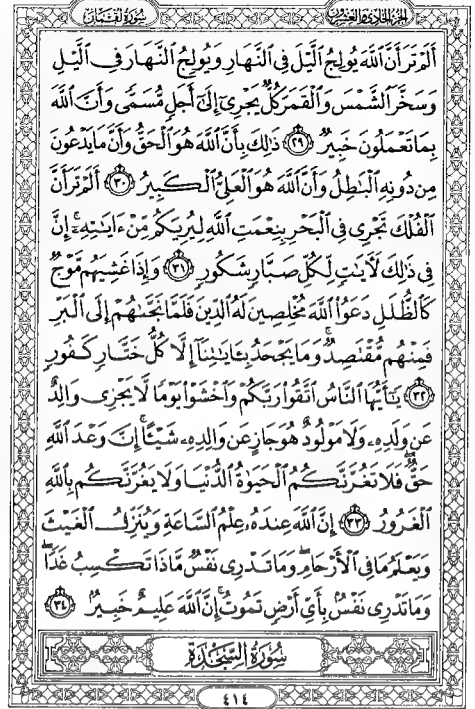
بأن الله عز وجل له ملك السموات والأرض وما فيهما، أي: وأقوال هؤلاء لا معنى لها ولا حقيقة، والمعنى: الذي لا حاجة به في وجوده وكماله إلى شيء، ولا نقص بجهة من الجهات، و﴿الْحَمِيدُ﴾: المحمود، أي: كذلك هو بذاته وصفاته.

﴿٢٤﴾ - ﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سبب هذه الآية أن اليهود قالت: يا محمد، كيف غنينا بهذا القول ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْغَيْرِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه، وعندك أنها تبيين كل شيء؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «التوراة قليل من كثير»، ونزلت هذه الآية، وهذا هو القول الصحيح، والآية مدنية. وقال قوم: إن سبب الآية أن قريشاً قالت: سيتم الكلام لمحمد وينحسر، فنزلت. وقال السدي: قالت قريش: ما أكثر كلام محمد، فنزلت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والغرض منها الإعلام بكثرة كلمات الله تعالى، وهي في نفسها غير متناهية، وإنما قرب الأمر على أنهم البشر بما يتناهى؛ لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة، وأيضاً فإن الآية إنما تضمنت أن كلمات الله تعالى لم تكن لتنفذ، وليس تقتضي الآية أنها تنفذ بأكثر من هذه الأقلام والنحو.

وقال أبو علي: المراد بالكلمات - والله أعلم - ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود. وذهبت فرقة



إلى أن الكلمات هنا إشارة إلى المعلومات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ينحو إلى الاعتزال من حيث يرون أنه مخلوق، نور الله تعالى قلوبنا بهداه.

وقرأ أبو عمرو وحده من السبعة، وابن أبي إسحق، وعيسى: ﴿وَالْبَحْرُ﴾ بالنصب عطفاً على [مَا] التي هي اسم [أَنْ]، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَالْبَحْرُ﴾ بالرفع على أنه ابتداء، وخبره في الجملة التي بعده؛ لأن تقديره: «هذه حاله»، كذا قدره سيبويه، وقال بعض النحويين: هو عطف على [أَنْ]؛ لأنها في موضع رفع بالابتداء. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَمْدُدُّ﴾ من (مد)، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿يُمِدُّهُ﴾ من [أَمَدًا]، وقالت فرقة: هما بمعنى واحد،

وقالت فرقة: مد الشيء بعضه بعضاً، وأمد الشيء ما ليس منه، فكان الأبحر السبعة المتوهمه ليست من البحر الموجود. وقرأ جعفر بن محمد: ﴿وَالْبَحْرُ مِدَادُهُ﴾، وهو مصدر، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَيَخْرُ يَمْدُهُ﴾، وقرأ الحسن: ﴿مَا نَفِدَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى﴾.

ثم ذكر تعالى أمر الخلق والبعث أنه في الجميع وفي شخص واحد بالسواء؛ لأنه كله «يكن فيكون»، قاله مجاهد، وحكى الثَّقَاشُ أن هذه الآية في أبي بن خلف، وأبي الأسود وبنيه، ومنبه بن الحجاج، وذلك أنهم قالوا: يا محمد، إننا نرى الطفل يُخلق بتدريج وأنت تقول: الله يعيدنا دفعة واحدة، فنزلت الآية بسببهم.

٢٩ - ٣٠ تفسير قوله عز وجل: هذا تنبيه خُوطب به النبي ﷺ والمراد به جميع العالم، وهذه عبرة تدل على أن الخالق المخترع أن يكون الليل بتدرج، والنهار كذلك، فما قَصُرَ من أحدهما زاد في الآخر، ثم بالعكس ينقسم الزمان بحكمة باري العالم، لا ربَّ غيره.

و ﴿يُولِجُ﴾ معناه: يُدخل، و ﴿الْأَجَلُ الْمُسَمَّى﴾: القيامة التي تنتقض فيها هذه البنية وتُكوَّر الشمس. وقرأ جمهور القراء: ﴿يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ عباس

عن أبي عمرو: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالياء. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَنْتَظِرُ اللَّهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾، الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى هذه العبرة وما جرى مجراها، ومعنى ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: صفة الألوهية له حق، فيحسن في القول تقدير (ذو)، وكذلك الباب متى أخبر بمصدر عن عين، فالتقدير: ذو كذا، و (حَقُّ) مصدر، ومنه قول الشاعر:

فَأِنَّمَا هِيَ إِفْسَالٌ وَإِذْبَارٌ

وهذا كثير. ومتى قلت: كذا وكذا حق، فإنما معناه: اتَّصَفَ كذا بكذا حق.

وقوله: ﴿وَأَنْ مَّا يَدْعُونَ﴾ يصح أن يريد الأصنام، وتكون [مَا] بمعنى (الذي)، ويكون الإخبار عنها بالباطل على نحو ما قدمناه في ﴿الْحَقُّ﴾، ويصح أن تكون [مَا] مصدرية، كأنه قال: وأن دعاءكم آلهة من دونه الباطل، أي الفعل الذي لا يؤدي إلى الغاية المطلوبة به. وقرأ الجمهور: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء ابن وثاب، والأعمش، وأهل مكة، ورويت عن أبي عمرو، وباقي الآية بين.

٣١ - ٣٢ تفسير قوله عز وجل: الرؤية في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ رؤية العين يترتب عليها النظر والاعتبار، والمخاطب محمد ﷺ والمراد النَّاسُ أجمع. و ﴿أَفَلَا يَكْفُرُ﴾ جمع واحد بلفظ واحد. وقرأ موسى بن الزبير: ﴿أَفَلَا يَكْفُرُ﴾ بضم اللام. وقوله: ﴿يَعْتَمِدُ اللَّهُ﴾ يحتمل أن يريد ما تحمله السفن من الطعام والتجارات

والأرزاق، فالباء للإلصاق، ويحتمل أن يريد: بالريح وتسخير الله تعالى البحر ونحو هذا، فالباء باء السبب. وقرأ الجمهور: ﴿يَنْعَمُ﴾ وقرأ الأعرج، ويحيى بن يعمر: ﴿يَنْعَمَاتُ﴾ على الجمع المسلم، وقرأ ابن أبي عبله: ﴿يَنْعِمَاتُ﴾ بفتح النون وكسر العين.

وذكر تعالى من صفات المؤمنين الصُّبَّارَ والشُّكُورَ على الضَّرَاءِ والسَّرَّاءِ، وقال الشعبي: «الصُّبْرُ نصف الإيمان، والشُّكْرُ نصفه الآخر، واليقين الإيمان كله».

وَعِشِي: غَطَّى أَوْ قَارَبَ، وَالظُّلُلُ: السَّحَابُ، وقرأ محمد بن الحنفية: ﴿كَالظُّلَالِ﴾، ومنه قول النابغة يصف البحر:

يُمَاشِيهِنَّ أَخْضَرُ دُؤْ ظِلَالٍ
عَلَى حَافَاتِهِ فَلَاقَ الدُّنَانِ
ووصف تعالى في هذه الآية حالة البشر الذين لا يعتبرون حق العبرة، والمقصد بالآية تبين آية تشهد العقول بأن الأصنام والأوثان لا شركة لها فيها ولا مدخل.

وقوله تعالى: ﴿فَيَنْهَمُ مُقْتَصِدٌ﴾، قال الحسن: منهم مؤمن يعرف حق الله تعالى في هذه النعم، وقال مجاهد: يريد: منهم مقتصد على كفره، أي: منهم من يسلم الله تعالى ويفهم نحو هذا من القدرة، وإن ضلَّ في الأصنام من جهة أنه يُعَظِّمُها بسيرته ولسانه.

وَالْحَتَّارُ: القبيح القَدْر، وذلك أن نِعَمَ الله تعالى على العباد كأنها عهودٌ ومِنَنٌ يلزم عنها أداء شكرها

والعبادة لمُسَيِّدِهَا، فمن كفر بذلك وجحد به فكأنه خَتَرَ وَخَانَ، ومن الخَتَر قول عمرو بن معديكرب الزبيدي:

فَلِإِنَّكَ لَوَزَّيْتِ أَبَا عَمِيرٍ
مَلَأْتَ يَدِيكَ مِنْ عَذْرِ وَخْشِرٍ
وقال الحسن: الْخَتَارُ هُوَ الْعَدَارُ. و﴿كَفُّورٌ﴾ بناءً مبالغة.

﴿يَجْزِي﴾ - ﴿يَجْزِي﴾ معناه: يقضي، والمعنى: لا ينفعه شيء، ولا يدفع عنه شيئاً، و﴿هُوَ جَارٍ﴾ جملة في موضع الصفة، أي: ولا يجزي مولودٌ قد كان في الدنيا يجزي.

و﴿الْفَرُّورُ﴾: الشَّطْمِيعُ بما لا يتحصل، و﴿الْفَرُّورُ﴾: الشيطان، بذلك فسر مجاهد والضحاك، وقال: هو الأمل والتسويق. وقرأ سَمَاكَ بْنُ حَرْبٍ، وأبو حيو: ﴿الْفَرُّورُ﴾ بضم الغين، وقال سعيد بن جبَّير: معنى الآية أن تعمل المعصية وتُتَمَنَّى المغفرة.

وقرأ الجمهور: ﴿يَجْزِي﴾ بفتح الياء، من (جَزَى)، وقرأ عكرمة: ﴿يُجْزِي﴾ بضم الياء على ما لم يُسَمَّ فاعله، وحكى ابن مجاهد قراءة: ﴿لَا يُجْزِي﴾ بضم الياء وبالهَمْز. وفي رفع ﴿مَوْلُودٌ﴾ اضطرابٌ من النحاة، قال المهدوي: «ولا يكون مبتدأً لأنه نكرة وما بعده صفة له فيبقى بغير خبر». وقرأ ابن أبي عبله، وابن أبي إسحق، ويعقوب: ﴿وَلَا تَغُرَّنَّكُمْ﴾ خفيفة النون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾

الآية. ذكر النقاش أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن هذه الخمس، وزوي أنه سأل عن بعضها فنزلت الآية حاصرةً لمفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله عز وجل، ذكر ذلك مجاهد، ولن تجد من المغنيات شيئاً إلا هذه أو ما يفيد النظر والتأويل.

و﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ مصدرٌ مضاف إلى مفعول، أي: كل ما شأنه أن يُعلم من أمر الساعة، ولكن الذي استأثر الله به هو علم الوقت، وغير ذلك فذا علم ببعض منه. وكذلك نزول الغيث أمر قد استأثر الله عز وجل بتفصيله وعَلِمَ وقته الخاص به. وأمر الأجنة كذلك، وأفعال البشر وجميع كسبهم كذلك، وموضع موت كل بشر كذلك الأصقاع والموضع الخاص بالجسد.

وقرأ ابن أبي عبله: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ﴾ بفتح الياء وزيادة تاء تأنيث. و﴿عَلِمُ خَيْرٌ﴾ صفتان مشابھتان لمعنى الآية.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كل شيء أوتي نبيُّكم إلا مفاتيح الخمس، ثم تلا الآية.

وقرأ: ﴿وَنَزَّلَ الْفَيْثَ﴾ خفيفة أهل الكوفة، وأبو عمرو، وعيسى، وقرأ: ﴿وَنَزَّلَ﴾ بالثقل نافع، وأبو جعفر، وعاصم، وشيبة. وذكر أبو حاتم في ترجيح الثقل رأياً.

كامل تفسير سورة لقمان والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

رضي الله عنهما، ومقاتل: المعنى: لم يأتهم نذيرٌ في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يقضي بأن يوماً من أيام الجمعة بقي لم يُخلق فيه شيء، وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتداءً يوم الأحد، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء، فهذا مستقيم مع هذه الآية، ووقع في كتاب مسلم أن الخلق ابتداءً يوم السبت، فهذا يخالف الآية، اللهم إلا أن يكون أراد في الآية جميع الأشياء غير آدم عليه السلام، ثم يكون يوم الجمعة هو الذي لم يُخلق فيه شيء مما بين السماء والأرض؛ لأن آدم لم يكن حينئذ مما بينهما. وقد تقدم القول في قوله تعالى: ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ بما فيه كفاية، و﴿ثُمَّ﴾ في هذا الموضع لترتيب الجمل، لا لأن الاستواء كان بعد أن لم يكن، وهذا على المعنى المختار في معنى ﴿أَسْتَوَىٰ﴾.

ونفي الشفاعة محمولٌ على أحد وجهين: إما نفي عن الكفرة، وإما نفي الشفاعة من ذاتهم على حد شفاعاة الدنيا؛ لأن شفاعاة الآخرة إنما هي بعد إذن الله تعالى.

﴿تفسير قوله عز وجل﴾:

﴿الْأَمْرُ﴾ اسم جنس لجميع الأمور، والمعنى: ينفذ الله تعالى قضاءه لجميع ما يشاؤه، ثم يرجع إليه خبر ذلك في يوم من أيام الدنيا مقداره - إن لو سير فيه السير المعروف من البشر - ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة

ذلك تنزيل، أو نحو هذا من التقدير بحسب القول في الحروف.

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: هو هكذا في نفسه، ولا يراعى ترتيب الكفرة، وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ متعلق بـ ﴿تَنْزِيلُ﴾، ففي الكلام تقديم وتأخير. ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿لَا رَيْبَ﴾، أي: لا شك فيه من جهة الله تعالى، وإن وقع شكٌ للكفرة فذلك لا يراعى. والزب: الشك، وكذلك هو في كل القرآن إلا قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ إضراب، وتقديره أنه قال: بل يقولون، و﴿أَنزَلْنَاهُ﴾: اختلقه، ثم ردّ تعالى على مقاتلهم هذه، وأخير أنه الحق من عند الله تعالى، واللام في قوله: ﴿لِنُنْزِلَهُ﴾ يجوز أن تتعلق بفعل مضمّر تقديره: أنزله لنُنْزِلَهُ، فيوقف حينئذ على قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّا أَنتَهُم مِن نَّذِيرٍ﴾، أي: لم يباشروهم ولا رأوه هم ولا آبائهم العرب، أمّا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْنُنَ إِلَّا بِهِ﴾، فَيَعْمُ من بوشر من النذر ومن يُسمع به، فإن العرب من الأمم التي خلت فيها النذر على هذا الوجه، لأنها علمت بإبراهيم وبنيه عليهم السلام ودعوتهم، وهم ممن لم يأتهم نذيرٌ مباشر لهم سوى محمد ﷺ. وقال ابن عباس



تفسير سورة السجدة

هذه السورة مكّية غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة، وهي قوله: ﴿أَفَنُكِّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ...﴾ إلى تمام ثلاث آيات، ويأتي تفسيرها. وقال جابر بن عبد الله: «ما كان رسول الله ﷺ ينام حتى يقرأ: ﴿الْمَرْ تَنْزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَرَّكَ الَّذِي يَبْدُو إِلَهُكَ﴾».

﴿١﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿تَنْزِيلُ﴾ يصح أن يرتفع بالابتداء والخبر ﴿لَا رَيْبَ﴾، ويصح أن يرتفع على أنه خبر ابتداء، وهو: إما الحروف المشار إليها على بعض الأقوال في أوائل السور، وإما:

سنة، هذا أحد الأقوال، وهو قول مجاهد، وابن عباس، وقتادة، وعكرمة، والضحاك. وقال مجاهد أيضاً: إن المعنى أن الضمير في ﴿مِقْدَارُهُ﴾ عائد على التدبير، أي: كأن التدبير المنقضي في يوم القيامة ألف سنة لو دبره البشر. وقال مجاهد أيضاً: المعنى أن الله تعالى يدبر ويُلقي إلى الملائكة أمور ألف سنة من عَدْنَا، وهو اليوم عنده، فإذا فرغت ألقى إليهم مثلها، فالمعنى أن الأمور تُنفَّذ عنده لهذه المدة، ثم تصير إليه آخراً؛ لأن عاقبة الأمور إليه. وقيل: المعنى: يُدبر الأمر من السماء إلى الأرض في مدة الدنيا، ثم يرجع إليه في يوم القيامة، ويوم القيامة مقداره ألف سنة من عَدْنَا، وهو على الكفار قدر خمسين ألف سنة يَهْوِلُهُ وشنعتة حسب ما في سورة «سَأَلَ سَائِلٌ». وسنذكر هناك ما فيه من التأويل والأقوال إن شاء الله تعالى.

وحكى الطبري في هذه الآية عن بعضهم أنه قال: «قوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ إلى آخر الآية متعلق بقوله قبل هذا: ﴿فِي سِتْوَةِ أَيَّامٍ﴾ ومُتَّصِل به، أي أن تلك السِتَّة كل واحد منها من ألف سنة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قولٌ ضعيفٌ مُكرهٌ ألفاظ هذه الآية عليه، رادّة له الأحاديث التي تُثبت أيام خلق الله تعالى المخلوقات، وحكى أيضاً عن ابن زيد، عن بعض أهل العلم أن الضمير في ﴿مِقْدَارُهُ﴾ عائد على «العروج»، والعروج: الصعود،

والمعارج: الأدراج التي يصعد عليها.

وقالت فرقة: معنى الآية: يُدبر أمر الشمس في أنها تصعد وتنزل في يوم، وذلك قدر ألف سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أيضاً ضعيف، وظاهرُ عود الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ على اسم الله تعالى، كما قال: ﴿ذَايُبْ إِلَيَّ رَجِيْ﴾، وكما قال: ﴿مُهَاجِرُ إِلَيَّ رَجِيْ﴾، وهذا كله بريء من التحيز. وقيل: إن الضمير يعود على «السَّمَاءِ» لأنها قد تُدَكَّر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَمْدُونُ﴾ بالتاء، وقرأ الأعمش، والحسن - بخلاف عنه -: ﴿يَعْدُونَ﴾ بالياء من تحت.

١١ - ١٢ تفسير قوله عز وجل: قالت فرقة: أراد بالغيب الآخرة وبالشهادة الدنيا، وقيل: أراد بالغيب ما غاب عن المخلوقين، وبالشهادة ما شوهد من الأشياء، فكأنه حصر بهذه الألفاظ جميع الأشياء.

وقرأ جمهور الناس: ﴿خَلَقَهُ﴾ بفتح اللام على أنه فعل ماضٍ، ومعنى ﴿أَحْسَنُ﴾: أَتَقَرَّ وَأَحْكَم، فهو حسنٌ من جهة ما هو لِمَقَاصِدِهِ التي أريد لها، ومن هذا المعنى قال ابن عباس، وعكرمة: ليست استُ القرد بحسنة ولكنها متقنة محكمة. والجملة في ﴿خَلَقَهُ﴾ يحتمل أن تكون في موضع نصب صفة لـ ﴿كُلِّ﴾، أو في موضع خفض صفة لـ ﴿خَلَقَهُ﴾. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿خَلَقَهُ﴾ بسكون اللام، وذلك منصوب على

المصدر، والضمير فيه إمّا عائد على الله تعالى، وإمّا على المفعول، ويصح أن يكون بدلاً من ﴿كُلِّ﴾، وذهب بعض الناس - على هذه القراءة - إلى أن ﴿أَحْسَنُ﴾ معناها: أَلْهَمَ، وأن هذه الآية بمعنى قوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، أي أَلْهَمَ الرجل إلى المرأة، والجمل إلى الثاقه، وهذا قولٌ فيه بُعْدٌ، ورجحه الطبري.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَبَدَأَ﴾، وقرأ الزهري: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ﴾ بألف دون همز، وينصب القاف، قال أبو الفتح: ذلك على البدل لا على التخفيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه أبدل الألف من الهمزة، ويدي لغة الأنصار، قال ابن رواحة:

بِاسْمِ الْإِلَهِ بِهِ بَدِئْنَا
وَلَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شَقِيقْنَا
و «الْإِنْسَانُ»: آدم، عدّد أمره على نبيه؛ إذ خَلَقَهُ خلقاً لهم؛ من حيث هو مُثْبِل لهم. و«الْثَّلُ»: ما يكون عن الحيوان من الولد، كأنه مأخوذ من: «تَسَلَّ الشَّيْءُ» إذا خرج من موضعه، ومنه قول تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَلَبٍ يَنْسِلُونَ﴾، ومنه: «تَسَلَّ رِيشُ الطائر» إذا تساقط. و«السَّلَالَةُ»: من سُلَّ يُسَلُّ؛ فكأن الماء يُسَلُّ من الإنسان، ومن ذلك قول الشاعر:

فَجَاءَتْ بِهِ غَضَبُ الْأَيَّامِ غَضَنْفَرًا
سَلَالَةً فَرَجَ كَانَ غَيْرَ حَصِينٍ
و «الْمُهِينُ»: الضعيف، يقال: «مُهِنَ الْإِنْسَانُ» إذا ضعف وذُلَّ. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ عبارة عن

دليل، وموضع ﴿أَوْدَا﴾
نصب بما في قوله: ﴿أَوْدَا﴾
لَفِي خَلْقِي جَدِيدِي؛ لأن
معناه: لنعاد. واختلف
القراء في ﴿أَوْدَا﴾، وقد
تقدم استيعاب ذكره في
غير هذا الموضع.

وقرأ جمهور القراء:
﴿صَلَّلْنَا﴾ بفتح اللام،
وقرأ ابن عامر،
وأبو رجاء، وطلحة،
وابن وثاب: ﴿صَلَّلْنَا﴾
بكسر اللام، والمعنى:
تَلَفْنَا وتَقَطَّعتْ أَوْصَالُنَا
فذهبنا حيث لم
نوجد، ومنه قول
الأخطل:

كُنْتُ الْقَذَى فِي مَوْجٍ أَكْثَرَ مُزِيدٍ
قَذَفَ الْإِثْمُ بِهِ فَضْلُ ضَلَالَا
ومنه قول النابغة:

فَأَبْ مُضِلُّوهُ بِعَيْنِ جَلِيلَةٍ
وَعُودِرَ بِالْجَوْلَانِ حَزَمٌ وَتَائِلٌ
أي: مُتْلَفُوهُ دَفْنًا، ومنه قول امرئ
القيس:

.....

تَضِلُّ الْمَدَارِي فِي مُثْنَى وَمُرْسَلٍ
وقرأ الحسن البصري: ﴿صَلَّلْنَا﴾
بالصاد غير منقوطة وفتح اللام، قال
الفراء: ويروى عن علي بن أبي
طالب رضي الله عنه، ومعناه: صِرْنَا
من الصَّلَّة، وهي الأرض اليابسة
الصلبة، ويجوز أن يراد به: من
التَّغْيِير، كما يقال: «صَلَّ اللَّخْم»،
ورويت هذه القراءة عن ابن عباس
رضي الله عنهما، وأبان بن

وَلَوْ تَرَى إِذُ الْمَجْرُومُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ
رَبَّنَا أَخْرِبْنَا وَسَبِّحْنَا فَاجْعَلْنَا صِلِحًا وَنَاثِمِينَ ﴿١٢﴾
وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ
مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾
فَذُوقُوا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِقَاءَ رَبِّكُمْ هَذَا إِنَّا نَسَبْنَاكُمْ
وَدُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ
بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ
عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُسْفِتُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا
لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ
جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا
فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ
لَهُمْ دُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

٤١٦

إفاسة الروح في جسد ابن آدم،
والضمير في ﴿رَبِّهِمْ﴾ الله تعالى،
وهي إضافة مَلِكٍ إِلَى مَالِكٍ، وَخَلَقَ
إِلَى خَالِقٍ. ثم أظهر تعديد النعم
عليهم في أن خَصَّهُمْ في قوله:
﴿لَهُمْ﴾ [بضمير] السمع والأبصار
والأفئدة، وهي لمن تقدم ذكره
أيضاً. كما خَصَّ آدم بالنسوية ونفخ
الروح، وهو لجميع ذريته، وهذا
كله تجاوز واقتضاب وتزكُّ لما يدل
عليه المنطوق به. ويحتمل أن
يكون ﴿الْإِنْسَانُ﴾ في هذه الآية
اسم جنس. وقوله تعالى: ﴿يَلِيلًا﴾
صفة لمصدر محذوف، وهو في
موضع الحال حين يحذف
الموصوف به.

والضمير في ﴿قَالُوا﴾ للكفار
الجاحدين البعث من القبور،
المستبعدين لذلك دون حجة ولا

سعيد بن العاص، وقرأ الحسن
أيضاً: ﴿صَلَّلْنَا﴾ بالصاد غير منقوطة
وكسر اللام، وقرأ علي بن أبي
طالب رضي الله عنه، وأبو حيوة:
﴿صَلَّلْنَا﴾. بالصاد غير منقوطة وكسر
اللام وشدها.

وقولهم: ﴿أَوْدَا لَفِي خَلْقِي جَدِيدِي﴾،
أي: أَتَيْنَا لَفِي هذه الحالة نَعَاد ويجدد
خلقنا. وقوله تعالى: ﴿بَلَّ﴾ اضْرَابُ
عن معنى استفهامهم، كأنه قال:
ليسوا مستفهمين، بل هم كافرون
جاحدون بلقاء الله تعالى.

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم
بجملة الحال غير مفصلة، فبدأ
بالإخبار من وقت تفقد روح الإنسان
إلى الوقت الذي يعود فيه إلى ربِّه،
فجمع الغائبين الأولى والآخرة،
و﴿يَتَزَكَّيْكُمْ﴾ معناه: يستوفيكم،
ومنه قول الشاعر:

إِنَّ بَنِي الْأَذَمِ لَيَسُوءُوا مِنْ أَحَدٍ
وَلَا تَوْفَاهُمْ قُرَيْشٌ فِي الْقَدِّ
و﴿تَكَالَمَتِ﴾ اسمه عزرائيل،
وتصرفه كله بأمر الله تعالى وَخَلَقَهُ
واختراعه، ورُوي في الحديث أن
البهائم كلها يَتَوَفَّى الله أرواحها دون
مَلَك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
كانه يعدم حياتها، وكذلك الأمر في
بني آدم، إلا أنه نوع شُرف بتصرف
مَلَك وملائكة معه في قبض
أرواحهم، وكذلك أيضاً غلظ
العذاب على الكافرين في ذلك.
ورُوي عن مجاهد أن الدنيا بين يَدَيَّ
مَلَك الموت كالطست بين يدي
الإنسان يأخذ من حيث أمر.

١٢ - ١٥ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ تعجيب

لمحمد ﷺ وأُمته من حال الكفرة ومما حل بهم. وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف؛ لأن حذفه أهول؛ إذ يُترك الإنسان فيه مع أقصى تخيله. و﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ هم الكافرون؛ بدليل قولهم: ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾، أي أنهم كانوا في الدنيا غير موقنين. و﴿تَنْكِيسُ الرُّؤُوسِ﴾ هو من الهول والذل والهَمُّ بحلول العذاب وتعلق نفوسهم بالرجعة إلى الدنيا، وفي القول محذوف تقديره: يقولون ربنا، وقولهم: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: ما كنا نُخْبِرُ به في الدنيا فكنا مكذابين به، ثم طلبوا الرجعة حين لا ينفع ذلك.

ثم أخبر تبارك وتعالى عن نفسه أنه لو شاء لهدى الناس أجمعين، أي: يلطف بهم لطفاً يؤمنون به ويخترع الإيمان في قلوبهم. هذا مذهب أهل السنة. وقال بعض المفسرين: لَعَرَضَ عليهم آية يضطربهم بها إلى الإيمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول بعض المعتزلة، إلا أن من أشرنا إليه من المفسرين لم يَذِرْ قَدْرَ القول ولا مغزاه ولذلك حكاه، والذي يقود المعتزلة إلى هذه المقالة أنهم يَزَوْن أن من يقدر على اللطف بإنسان حتى يؤمن ولا يفعل فإن ذلك ليس من الحكمة ولا من الأمر المستقيم، والكلام على هذه المسألة يطول وله توالييفه. و﴿الْجِنَّةُ﴾: الشياطين.

وقوله: ﴿وَدُوقُوا عَذَابَ﴾ بمعنى: يقال لهم: دُوقُوا، و﴿يَبْتَغُوا﴾ معناه: تركتم، قاله ابن عباس -

رضي الله عنهما - وغيره، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: عمل، أو عدة ونحوه. وقوله: ﴿إِنَّا نَبِّئُكُمْ﴾ سَمِّيَ العقوبة باسم الذنب، وقوله: ﴿يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بِتَكْسِيكُم الآثام.

ثم أثنى عَزَّ وَجَلَّ على القوم الذين يؤمنون بآياته، ووصفهم بالصفة الحسنة، من سجودهم عند التذكير وتسبيحهم وعدم استكبارهم، بخلاف ما يصنع الكفرة من الإعراض عند التذكير، وقول الهُجْر، وإظهار التكبر، وهذه السجدة من عزائم السجود في القرآن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السجود هنا بمعنى الركوع، وقد روي عن ابن جريج، ومجاهد أن هذه الآية نزلت بسبب قوم من المنافقين كانوا إذا أُقيمت الصلاة خرجوا من المسجد، فكان الركوع يقصد من هذا، ويلزم على هذا أن تكون الآية مدنية، وأيضاً فمن مذهب ابن عباس رضي الله عنهما أن القارئ للسجدة يركع، واستدل بقوله: ﴿فَخَرَّ رَاكِعًا﴾ وَأَنَابَ.

﴿١٦﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ: جَفَا الرَّجُلُ الْمَوْضِعَ: إذا تركه، وتجافى الجنب عن مضجعه: إذا تركه، وجافى الرجل جنبه عن مضجعه، وفي الحديث: «يجافى بمضديه عن جنبه» أي يبعدهما عن بدنه، فقوله تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ أي تبتعد وتزول، ومنه قول عبدالله بن رواحة:

نَبِيٌّ تَجَافَى جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ
إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ
ويروى: «يَبِيتُ يُجَافِي»، قال

الزُّجَاج، والرُّمَانِي: التَّجَافِي: التَّنَحِّي إلى جهة فوق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن، وكذلك هو في الصفح عن المخطيء في سب ونحوه. و﴿الْجُنُوبُ﴾: جمع جنب، و﴿الْمَضَاجِعُ﴾: موضع الاضطجاع للنوم. وقال أنس بن مالك: أراد بهذه الآية الصلاة بين المغرب والعشاء، وقال عطاء، وأبو سلمة: أراد صلاة العشاء الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكانت الجاهلية ينامون في أول الغروب، ومن أي وقت شاء الإنسان، فجاء انتظار وقت العشاء الآخرة غريباً شاقاً، وقال أنس بن مالك أيضاً: أراد انتظار صلاة العشاء الآخرة؛ لأن رسول الله ﷺ كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل، وفي ذلك أحاديث كثيرة. قال الضحاك: «تجافى الجنب هو أن يصلي الرجل العشاء والصبح في جماعة». وهذا قول حسن، يبعده لفظ الآية، وقال الجمهور من المفسرين: أراد بهذا التجافى صلاة النوافل بالليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا التأويل أكثر الناس، وهو الذي فيه المدح، وفيه حديث عن النبي ﷺ يذكر قيام الليل ثم يستشهد بالآية. ذكره الطبري عن معاذ بن جبل رضي الله عنه. ورجح الزجاج هذا القول بأنهم جوزوا بإجفاء، فدل ذلك على أن العمل إجفاءً أيضاً هو قيام الليل.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ يحتمل أن يكون في موضع الحال من الموصوفين،

رضي الله عنهم: ﴿قُرَاتٍ﴾ على الجمع. وقوله: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: يتكسبهم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَنُكْفَىٰ ذُنُوبَنَا﴾ الآية. روى عطاء بن يسار أنها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وذلك أنهما تلاحنا، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: اسكت فإنك فاسق، فنزلت الآية. وذكر الزجاج، والنحاس، وغيرهما أنها نزلت في علي وعقبة بن أبي معيط، وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكئية، لأن عقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قُتل في طريق مكة منصرف رسول الله ﷺ من بدر، ويعترض القول الآخر بإطلاق اسم الفسق على الوليد، وذلك يحتمل أن يكون في صدر الإسلام الوليد لشيء كان في نفسه، أو لما روي من نقله عن بني المصطلق ما لم يكن حتى نزلت فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾، ويحتمل أيضاً أن تطلق الشريعة ذلك عليه لأنه كان على طرف مما ينبغي، وهو الذي شرب الخمر في خلافة عثمان رضي الله عنه، وصلى الصُّبْحَ بالناس أربعاً، ثم التفت وقال: أتريدون أن أزيدكم؟ ونحوه مما يطول ذكره.

ثم قسم الله تعالى المؤمنين والفاستقين الذين فسقهم بالكفر؛ لأن التكذيب الذي في آخر الآية يقتضي ذلك، وقرأ طلحة: ﴿جَنَّةٌ﴾ بالإنفراد، وقرأ أبو حية: ﴿نَزْلًا﴾ بإسكان الزاي، والجمهور على ضمها، وسائر ما في الآية بين.

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ﴾ لكفار قريش، أعلم الله

لهم﴾ بالياء المضومة وفتح الفاء، وقرأ محمد بن كعب: ﴿مَا أَخْفَى﴾ بفتح الهمزة، أي: ما أخفى الله لهم، وقرأ جمهور الناس بفتح الياء على بناء الفعل للمفعول. و [مَا] يحتمل أن تكون بمعنى الذي، فعلى القراءة الأولى قسم ضمير محذوف تقديره: أخفيه، وعلى قراءة الجمهور فالضمير الذي لم يُسم فاعله يجري في العود على (الذي)، ويحتمل أن تكون الأولى فهي في موضع

نصب بـ ﴿أَخْفَى﴾، وعلى القراءة الثانية هي في موضع رفع بالابتداء. و ﴿قُرَّةَ الْعَيْنِ﴾: ما تلذذ وتشتهيه، وهي مأخوذة من القُر، كما أن «سخنة العين» مأخوذة من السخانة، وأصل هذا - فيما يزعمون - أن دمع الفرح بارد، ودمع الحزن سخن.

وفي معنى هذه الآية قال رسول الله ﷺ: ﴿قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرءوا إن شئتم: ﴿قُلْ نَعْلَمُ نَفْسًا مَّا أَخْفَى لَهُمْ مِن قُرَّةِ عَيْنٍ﴾. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «في الثوراة مكتوب: على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». وقرأ ابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو الدرداء

وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنِ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ إِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا إِلَى الْأَرْضِ الْخُرُوفَ فَنُخْرِجُ يَذْرَعًا نَأْكُلُ مِنْهُ فَأَنْهَضْنَاهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ فَمَنْ يُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾

أي وقت التجافي، ويحتمل أن يكون صفة مستأنفة، أي: تتجافى جنوبهم وهم أيضاً في كل أحوالهم يدعون في ليلهم ونهارهم، و«الْخُوفُ» من عذاب الله، و«الطَّمَعُ» في ثواب الله. و﴿يُنْتَظَرُونَ﴾ قيل: معناه: الزكاة المفروضة، وقيل: النوافل والصدقات غير المفروضة، وهذا القول أمدح.

ثم ذكر تعالى ما وعدهم من التَّعِيمِ مِمَّا لَمْ تَعْلَمْ نَفْسٌ وَلَا بَشَرٌ وَلَا مَلَكٌ.

وقرأ حمزة وحده: ﴿أَخْفَى﴾ بسكون الياء، كأنه قال: ﴿أَخْفَى أَنَا﴾، وهي قراءة الأعمش، وروى عنه: ﴿مَا أَخْفَيْتُ لَهُمْ مِنْ قُرَاتٍ أَعْيُنَ﴾، وقرأ عبدالله: ﴿مَا نُخْفِي لَهُمْ﴾ بالنون المضمومة، وروى المفضل عن الأعمش: ﴿مَا يُخْفَى

تعالى أنه يصيبهم بعذاب دون عذاب الآخرة لعلهم يتوبون ويتعظون، ولا خلاف أن العذاب الأكبر هو عذاب الآخرة، واختلف المتأولون في تعيين العذاب الأدنى - فقال إبراهيم الشحيمي، ومقاتل: هو السنون التي أجاعهم الله فيها، وقال ابن عباس، وأبي بن كعب: هي مصائب الدنيا من الأمراض ونحوها، وقاله ابن زيد، وقال ابن مسعود، والحسن بن علي: هو القتل بالسيف كبدر وغيرها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيكون - على هذا التأويل - «الرَّاجِعُ» غير «الَّذِي يَذُوقُ»، بل الذي يبقى بعده، وتختلف رتبة ضمير الذوق مع ضمير لعل. وقال أبي بن كعب - رضي الله عنه - أيضاً: هي البطشة والزام والدخان، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: عنى بذلك الحدود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتجه - على هذا التأويل - أن يكون في فسقة المؤمنين. وقال مجاهد: عنى بذلك عذاب القبر.

ثم قال تعالى - على جهة التعجب والتقرير -: «وَمَنْ أَظْلَمُ»، أي: لا أحد أظلم ممن هذه صفته، وهي بخلاف ما تقدم في صفة المؤمنين من أنهم إذا ذُكروا بآيات ربهم خروا سُجُوداً، ثم تَوَعَّدَ تبارك وتعالى المجرمين، وهم الذين يتجاسرون على ركوب الكفر والمعاصي بالقوة، وظاهر الإجماع هنا أنه الكفر.

وحكى الطبري عن يزيد بن ربيع أنه قال: إن قول الله في القرآن:

﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنَوِّشُونَ﴾ إنما هو في أهل القدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد القائلين بأن أفعال العبد من قبله، قال: ثم قرأ يزيد بن ربيع: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ، يَوْمَ يُنْفَخُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا المنزع من البعد ما لا خفاء به. وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من فعلهن فقد أجرم: من عَقَدَ لواء في غير حق، أو عَقَى والدَّيْنَه، أو مشى مع ظالم ينصره».

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٤﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأ الناس: ﴿فِي زَيِّرٍ﴾ بكسر الميم، وقرأ الحسن بضمها. واختلف المتأولون في الضمير الذي في ﴿لِقَائِهِ﴾ على من يعود؟ فقال أبو العالية الرياحي، وقتادة: يعود على ﴿مُؤَيَّسٍ﴾، والمعنى: لا شك في شك من أنك تلقى موسى، أي: في ليلة الإسراء، وهذا قول جماعة من السلف، وقاله الميزد حين امتحن أبا إسحق الزجاج بهذه المسألة. وقالت فرقة: الضمير عائد على ﴿الْكِتَابِ﴾، أي أنه لقي موسى حين لقيه موسى عليه السلام، والمصدر في هذا التأويل يصح أن يكون مضافاً إلى الفاعل، بمعنى: لقي الكتاب موسى، ويصح أن يكون مضافاً إلى المفعول، بمعنى: لقي الكتاب - بالنصب - موسى عليه السلام. وقال الحسن: الضمير عائد

على ما يتضمنه القول من المحنة والشدة التي في إخباره بأنه أتى موسى الكتاب، كأنه قال: ولقد آتينا موسى هذا العبة الذي أنت بسبيله، فلا تفتخر أنك تلقى ما لقي هو من المحنة بالناس، وكأن الآية تسليئة لمحمد ﷺ وقالت فرقة: معناه: فلا تك في شك من لقائه في الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف.

وقالت فرقة: الضمير عائد على ملك الموت الذي تقدم ذكره، وقوله: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي زَيِّرٍ يَنْ لِقَائِهِ﴾ اعتراض بين الكلامين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أيضاً ضعيف.

والجزئية: الشك. والضمير في ﴿جَنَّاتٍ﴾ عائد على ﴿مُؤَيَّسٍ﴾، وهو قول قتادة، ويحتمل أن يعود على ﴿الْكِتَابِ﴾.

و ﴿أَيَّامَةٍ﴾: جمع إمام، وهو الذي يقتدى به، وأصله خَيْطُ الْبَنَاءِ، وجمهور النحويين على ﴿أَيَّامَةٍ﴾ بباء وتخفيف الهمزة، إلا ابن أبي إسحق فإنه جوز اجتماع الهمزتين وقرأ: ﴿أَيَّامَةٍ﴾. وقرأ جمهور القراء: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ بفتح اللام وشد الميم، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم، وهي قراءة ابن مسعود، وطلحة، والأعمش، والأولى في معنى الظرف، والثانية كأنه قال: لأجل صبرهم، ف [مَ] مصدرية، وفي القراءتين معنى المجازاة، أي: جعلهم أئمة جزاء على صبرهم على الدنيا، وكونهم موقنين بآيات الله

تبارك وتعالى وأوامره وجميع ما
تُورده الشريعة. وقرأ ابن مسعود:
﴿بِمَا صَبَرُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الآية
حُكْم يعم جميع الخلق، وذهب
بعض المتأولين إلى تخصيص
الضمير؛ وذلك ضعيف.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
﴿يَهْدِي﴾ معناه: يُبَيِّن، قاله ابن
عباس رضي الله عنهما، وقرأ
جمهور الناس: ﴿يَهْدِي﴾ بالياء،
فالفاعل الله في قول فرقة،
والرسول في قول فرقة، والمصدر
في قول فرقة، كأنه قال: أو لم
يُبَيِّن لهم الهدى. وجوز الكوفيون
أن يكون الفاعل ﴿كَمْ﴾، ولا
يجوز ذلك عند البصريين؛ لأنها
في الخبر على حكمها في
الاستفهام في أنها لا يعمل فيها ما
قبلها. وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿يَهْدِي
لَهُمْ﴾ بالنون، وهي قراءة الحسن
وقتادة. فالفاعل الله تعالى،
و﴿كَمْ﴾ في موضع نصب: فعند
الكوفيين بـ [يَهْدِي]، وعند البصريين
بـ [أَمْلَكَا] على القراءتين جميعاً.
وقرأ جمهور الناس: ﴿يَمْشُونَ﴾
بفتح الياء وتخفيف الشين، وقرأ
ابن السميع اليماني: ﴿يَمْشُونَ﴾
بضم الياء وفتح الميم وشد
الشين، وقرأ عيسى بن عمر:
﴿يَمْشُونَ﴾ بضم الياء وسكون
الميم وشين مضمومة مخففة،
والضمير في ﴿يَمْشُونَ﴾ يحتمل
أن يكون للمخاطبين بالبيئة
المُخْتَجِّ عليهم، ويحتمل أن
يكون للمهلكين، فـ ﴿يَمْشُونَ﴾ في

موضع الحال، أي: أهلكوا وهم
ماشون في مساكنهم. والضمير في
﴿يَمْشُونَ﴾ لِلْمَنْهِيَّينَ. ومعنى
الآية إقامة الحجة على الكفرة
بالأُمم السالفة الذين كفروا
فأهلكوا.

ثم أقام عز وجل الحجة عليهم
في معنى الإيمان بالقدرة وبالبعث
بأن نبيهم على إحياء الأرض
الموات بالماء، و«السُّوقُ» هو
بالسحاب، و«الجُرُزُ»: الأرض
العائشة التي قد أكلت نباتها من
العطش والقيظ، ومنه قيل للأكل:
جُرُزٌ، قال الشاعر:

خَبَّ جُرُوزٌ وَإِذَا جَاعَ بَكَى
وَمَنْ عَبَّرَ عَنْهَا بِأَنَّهَا الْأَرْضُ الَّتِي
لَا تُثْبِتُ فَإِنَّهَا عِبَارَةٌ غَيْرُ مُخْلِصَةٍ.
وعَمَّ تعالى كل أرض هي بهذه
الصفة؛ لأن الآية فيها والعبرة بيئته.
وقال ابن عباس - رضي الله عنهما
- وغيره أيضاً: الأرض الجُرُزُ هي
أَرْضُ (أَبْيَنَ) من اليمن، وهي
أرض تشرب بسيول لا بمطر.
وجمهور الناس على ضم الراء،
قال الزَّجَّاج: وتُقرأ: «الجُرُزُ»
بسكون الراء.

ثم خصَّ الله تعالى بالذكر تشريفاً
له؛ ولأنه عَظُمَ ما يقصد بالنبات،
والأ فعراف أكل الأنعام إنما هو
من غير الزرع، لكنه أوقع الزرع
موقع النبات، ثم فصل ذلك بأكل
الأنعام وبني آدم. وقرأ أبو بكر بن
عياش، وأبو حيوة: ﴿يَأْكُلُ﴾ بالياء
من تحت، وقرأ ابن مسعود:
﴿تَنْصِرُونَ﴾ بالتاء من فوق،

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَنْصِرُونَ﴾
بالياء.

ثم حكى عن الكفرة أنهم
يستفتحون ويستعجلون فصل القضاء
بينهم وبين الرسول ﷺ، على معنى
الهزء والتكذيب. و«الْفَتْحُ»:
الحُكْم، هذا قول جماعة المفسرين،
وهو أقوى الأقوال، وقالت فرقة:
الإشارة إلى فتح مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا ضعيف، يرده الإخبار بأن
الكفرة لا ينفعهم الإيمان، فلم يبق
أن يكون الفتح إلا إما حُكْم الآخرة،
وهو قول مجاهد، وإما «فَسَكٌ»
الدنيا كبدر ونحوه. وقوله تعالى:
﴿قَدْ يَمَّ الْفَتْحُ﴾ إشارة إلى الفتح
الأول حسب محتملاته. فالألف
واللام في «الْفَتْحُ» الثاني للمهد،
و«يَمَّ» ظرف، والعامل فيه
﴿يَنْتَعِ﴾، و«يَنْظُرُونَ» معناه:
يُؤْخِرُونَ.

ثم أمره تبارك وتعالى بالإعراض
عن الكفار دون انتظار الفرج،
وهذا مما نسخته آية السيف،
وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾
أي العذاب، بمعنى أن هذا
حكمهم وإن كانوا لا يشعرون.
وقرأ محمد بن السميع:
﴿مُنْتَظَرُونَ﴾ أي: لِلْعَذَابِ النازل
بهم، والله أعلم.

كامل تفسير سورة السجدة والحمد لله
رب العالمين والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين

تفسير سورة الأحزاب

هذه السورة مدنية بإجماع فيما علمت، وكذلك قال المهدوي وغيره.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿أَتَى﴾ معناه: دُم على التقوى، ومتى أمر أحد بشيء هو به متلبس فإنما معناه الدوام في المستقبل على مثل الحالة الماضية، وحذره تعالى من طاعة الكافرين، وهم المُجَلِّحُونَ بالكفر، والمنافقون وهم المُظْهَرُونَ للإيمان وهم لا يبطنون.

وسبب الآية أنهم كانوا يُلْحُونَ على رسول الله ﷺ بالطلبات والإرادات، وربما كان في إرادتهم سعي على الشرع، وهم يدخلونها مدخل المصالح، فكان رسول الله ﷺ بخلقه العظيم وحرصه على استئلافهم ربما لا يَتَّهِمُ في بعض الأمور، فنزلت الآية بسبب ذلك، تحذيراً له منهم، وتنبيهاً على عداوتهم، والنوازل في طلباتهم كثيرة محفوظة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تسليةً لمحمد ﷺ، أي: لا عليك منهم ولا من إيمانهم، فإله عليم بما ينبغي لك، حكيم في هدى من شاء وإضلال من شاء.

ثم أمره تعالى باتباع ما يوحى إليه - وهو القرآن الحكيم - والاعتصار على ذلك، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ توعد ما. وقرأ أبو

عمرو وحده: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالياء، والتوعد على هذه القراءة للكافرين والمنافقين أتين. وقوله: ﴿كَانَ﴾ في هاتين الآيتين يقتضي الدوام، أي: كان ويكون، وليست الدالة على زمان مخصوص للمضي.

ثم أمره تعالى بالتوكل على الله في جميع أمره، وأعلمه أن ذلك كافٍ مُقْنِع، والباء في قوله: ﴿بِاللَّهِ﴾ زائدة على مذهب سيبويه، وكأنه قال: وكفى الله، وهي عنده كقولهم: بحسبك أن

تفعل، وغيره يراها غير زائدة متعلقة بـ ﴿كَانَ﴾، على معنى: أكيف بالله، و«الْوَكِيلُ» القائم بالأمر المغني فيه عن كل شيء.

③ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في السبب في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: سببها أن بعض المنافقين قال: إنَّ محمداً له قلبان؛ لأنه ربما كان في شيء فتزع في غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأول، فقالوا ذلك عنه، فنفاه الله تعالى. وقال ابن عباس أيضاً: بل السبب أنه كان في قريش في بني فهر رجل منهم يدعى أن له قلبين؛ ويقال له: ذو القلبين، قال الشعبي: هو أبو مغمّر، وكان يقول: أنا أذكى من محمد وأفهم، فلما وقعت هزيمة بدر طاش لُبُّه،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَأَتَّبِعْ مَا يوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَلَا تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ ۝ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَى تَنْظِهِرُونَ مِنْهُمْ أَمْ هُنَّ أَهْنَكُمْ ۝ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۝ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَاتَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ الَّذِينَ وَلُوا بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُمْ أَمْهَنَهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝

وحدث أبا سفيان بن حرب كالمختل فنزلت الآية بسببه ونفياً لدعواه. وقيل: إنه كان ابن خَطْل. وقال الزهراوي: جاء هذا اللفظ على جهة المثل في زيد بن حارثة والتوطئة لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾، أي: كما أنه ليس لأحد قلبان، كذلك ليس دعيه ابنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر من الآية أنها بجملتها نفى لأشياء كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت، وإعلامٌ بحقيقة الأمر، فمنها أن بعض العرب كانت تقول: إن الإنسان له قلب يأمره وقلب ينهيه، وكان تضاد الخواطر بجملتها على ذلك، ومن هذا قول الكميت:

تَذَكَّرَ مَنْ أُنَى وَمِنْ أَيْنَ شُرْبُهُ
يُؤَامِرُ نَفْسِيهِ كَذِي الْهَجْمَةِ الْأَبْلُ
والناس حتى الآن يقولون إذا

وصفوا أفكارهم في شيء ما: يقول لي أحد قَلْبِي كذا، ويقول الآخر كذا، وكذلك كانت العرب تعتقد الزوجة إذا ظهر منها بمنزلة الأم وتراه طلاقاً، وكانت تعتقد الدُعَى المُتَبَيِّئِ ابناً، فأعلم الله تبارك وتعالى أنه لا أحد بقلبين، ويكون في هذا طعن على المنافقين الذين تقدم ذكرهم، أي: إنما هو قلب واحد، فإِذَا حَلَّه إِيمَانٌ وَإِذَا كَفَرُ؛ لأن درجة الكفار كأنها متوسطة، يؤمن قلبٌ ويكفر الآخر، فنفاها الله تعالى، وبَيَّنَّ أنه قلب واحد، وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية متى نسي شيئاً أو وَهَمَ، يقول على جهة الاعتذار: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾، أي: إذا نسي قلبه الواحد يُذَكِّرُهُ الآخر، وكذلك أعلم أن الزوجة لا تكون أمًا، وأن الدُعَى لا يجعله ابناً.

وقرأ نافع، وابن كثير: ﴿الْأَلَاءِ﴾ دون ياءٍ، ورُوي عن أبي عمرو، وابن جُبَيْرٍ: ﴿الْأَلَايِ﴾ بياء ساكنة من غير هَمْزٍ، وقرأ ورش بياء مكسورة من غير هَمْزٍ، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، وطلحة، والأعمش بِهَمْزَةٍ مكسورة بعدها ياءٌ.

وقرأ ابن عامر: ﴿تَنْظَاهِرُونَ﴾ بشد الظاء والألف، وقرأ عاصم، والحسن، وأبو جعفر، وقتادة: ﴿تَنْظَاهِرُونَ﴾ بضم الشاء وتخفيف الظاء، وأنكرها أبو عمرو، وقال: إنما هذا في الْمُعَاوَنَةِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس بمنكر، ولفظة ظهار تقتضيه.

وقرأ عاصم، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: ﴿تَنْظَاهِرُونَ﴾ بفتح الشاء والظاء المخففة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿تَنْظَاهِرُونَ﴾ بشد الظاء والهاء دون ألف، وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿تَنْظَاهِرُونَ﴾ بضم الشاء وسكون الظاء وكسر الهاء، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿تَنْظَاهِرُونَ﴾ ببناءين، وكانت العرب تُطْلَقُ وتقول: «أَنْتَ مِنِّي كَظْهَرِ أُمِّي» فنزلت الآية، وأنزل الله تبارك وتعالى كَفَّارَةَ الظَّهَارِ، وتفسيرُ الظَّهَارِ وبيانه أثبتناه في سورة المجادلة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الآية، سَبَّحُهَا أَنْ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ كانوا يدعون زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ، وذلك أنه كان عبداً لخديجة فوهبته لرسول الله ﷺ، فأقام عنده مُدَّةً، ثم جاء عمُّه وأبوه يرغبان في فدائه، فقال لهما النبي ﷺ - وذلك قبل البعث -: خِيَرَاهُ، فَإِنْ اخْتَارَكُمَا فَهُوَ لَكُمَا دون فدائه، فخيراه فاختر الرُّقَّ مع محمد ﷺ على خُرَيْتِهِ وقوبه، فقال محمد ﷺ: «يا معشر قريش، اشهدوا أنه ابنسي، يرثني وأرثه»، فرضي بذلك أبوه وعمُّه وانصرفا.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ﴾ تأكيد لبطلان القول، أي أنه لا حقيقة له في الوجود، إنما هو قول فقط، وهذا كما تقول: «أَنَا أُمِّشِي إِلَيْكَ عَلَى قَدَمٍ»، فَإِنَّمَا تَوَكَّدُ بِذَلِكَ الْمَسِيرَةَ، وهذا كثير. و﴿يَهْدِي﴾ معناه: يَبَيِّنُ، وهو يتعدى بغير حرف جرٍّ، وقرأ قتادة: ﴿يَهْدِي﴾ بضم الباء وفتح الهاء وشد الدال، و﴿السَّبِيلِ﴾ هي

سبيل الشرع والإيمان. وابن كثير، وابن عامر، وعاصم - في رواية جعفر - يقفون ﴿السَّبِيلَ﴾، ويطرحونها في الوصل، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم بالألف وضلاً ووقفاً، وقرأ أبو عمرو، وحمزة بغير أَلِفٍ وضلاً ووقفاً، وهذا كله في غير هذا الموضع، واتقفوا هنا خاصةً على طرح الألف وضلاً ووقفاً لمكان ألف الوصل التي تلقى اللام.

﴿٥﴾ - ﴿٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى بدعاء الأَدْعِيَاءِ إِلَى آبَائِهِمُ لِلصُّلْبِ، فمن جهل ذلك منه كان مولى وأخاً في الدين، فقال الناس: زيد بن حارثة، وسالم مولى أبي حذيفة، إلى غير ذلك، وذكر الطبري أن أبا بكرٍ قرأ هذه الآية ثم قال: أنا ممن لا يعرف أبوه، وأنا أخوكم في الدين ومولاكم، قال الراوي عنه: ولو علم والله أن أباه حَمَارٌ لَانْتَمَى إِلَيْهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورجال الحديث يقولون في أبي بكرٍ: نَفِيعُ بْنُ الْحَارِثِ.

و ﴿أَفْسَطُ﴾ معناه: أَعْدَلُ، وقال قتادة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ مُتَعَمِّدًا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».

وقوله عز وجل: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الآية رَفَعَ لِلحَرَجِ عَمَّنْ وَهَمَ وَنَسِيَ وأخطأ فجرى لسانه على العادة من نِسْبَةِ زَيْدٍ إِلَى مُحَمَّدٍ - ﷺ - وغير ذلك مما يُشَبِّهُهُ، وأبقى

الجناح في المتعمد مع الشرط أو الجزاء المنصوص.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يريد: لما مَضَى من فعلهم في ذلك، ثم هما صِفَتَانِ لله عز وجل تطردان في كل شيء، وقالت فرقة: خطؤهم فيما كان سلفه من قولهم ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، ولا يوصف ذلك بالخطأ إلا بعد النهي، وإنما الخطأ هنا بمعنى النسيان، وما يكون مقابل العمد. وحكي الطبري عن قتادة أنه قال: الخطأ الذي رفع الله فيه الجناح أن يعتقد في أحد أنه ابن فلان فينسب إليه، وهو في الحقيقة ليس بابنه، والعمد هو أن تنسبه إلى فلان وأنت تدري أنه ابن غيره، والخطأ مرفوع عن هذه الأمة عقابه، قال النبي ﷺ: «وَضِعْ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا أَكْرَهُوا عَلَيْهِ»، وقال عليه الصلاة والسلام: «مَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْخَطَأَ، وَإِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْعَمْدَ».

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. أزال الله تعالى بها أحكاماً كانت في صدر الإسلام، منها أن النبي ﷺ كان لا يُصلي على ميت عليه ذن، فذكر الله تعالى أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فجمع هذا أن المؤمن يلزم أن يحب النبي ﷺ أكثر من نفسه، حسب حديث عمر رضي الله عنه، ويلزم أن يمتثل أوامره، أحببت نفسه ذلك أم كرهته، قال رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية: «أَنَا أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ

أنفسهم، من ترك مالا فلورثته، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فعلي، أنا وليه، اقْرءُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾. وقال بعض العلماء العارفين: هو أولى بهم من أنفسهم؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو يدعوهم إلى النجاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «أَنَا آخِذٌ بِحُجْرِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقْحُمُونَ فِيهَا تَقْحُمُ الْقَرَارُ».

وشرف تعالى أزواج النبي ﷺ بأن جعلهن أمهات للمؤمنين: في حرمة النكاح والمبصرة، وَحَجَبَهُنَّ رضي الله عنهن بخلاف الأمهات، قال مسروق: قالت امرأة لعائشة رضي الله تعالى عنها: يا أُمِّه، فقالت: لَسْتُ لَكَ بِأُمٍّ، إِنَّمَا أَنَا أُمُّ رِجَالِكُمْ، وفي مصحف أبي بن كعب: «وَأَزْوَاجُهُ أُمَهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَكُمْ»، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَهَاتُهُمْ﴾، وسمع عمر رضي الله عنه هذه القراءة فأنكرها، فقيل له: إنها في مصحف أبي، فسأله فقررها أبي وأغلظ لعمر، وقد قيل في قول لوط عليه السلام: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾: إنما أراد المؤمنات، أي: تزوجوهن.

ثم حكم تعالى بأن أولى الأرحام أحق مما كانت الشريعة قررتها من التوارث بأخوة الإسلام وبالهجرة، فإنه كان بالمدينة توارث في صدر الإسلام بهذين الوجهين، اختلف

الرواة في صفته، وليس لمعرفته الآن حكم فاختصرته، ورد الله المواريث على الأنساب الصحيحة.

وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد القرآن، ويحتمل أن يريد اللوح المحفوظ، وقوله: ﴿مِنْ الْأَنْفُسِ﴾ متعلق بـ ﴿أَوْلَىٰ﴾ الثانية، وهذه الأخوة والهجرة التي ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَقْعَلُوا إِلَيْكُمْ أَوْلِيَاءَ كُمْ مَعْرُوفًا﴾ يريد الإحسان في الحياة، والصلة والوصية عند الموت، قاله قتادة، والحسن، وعطاء وابن الحنفية، وهذا كله جائز أن يُفعل مع الولي على أقسامه، والقريب الكافر يوصى له توصية. واختلف العلماء، هل يجعل وصياً؟ فجوّز بعض، ومنع بعض، ورد النظر إلى السلطان بعض، منهم مالك بن أنس رضي الله عنه: وذهب مجاهد، وابن زيد، والرماني، وغيرهم إلى أن المعنى: «إِلَى أَوْلِيائِكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»، ولفظ الآية يعضد هذا المذهب، وتعميم لفظ (الولي) أيضاً حسن كما قدمنا؛ إذ ولاية النسب لا تدفع الكافر، وإنما تدفع أن يلقي إليه بالمودة كولي الإسلام، والكتابي الذي ينتظر ذلك فيه يحتمل الوجهين اللذين ذكرنا.

و «سَطَرْتُ» من قولك: «سَطَرْتُ الْكِتَابَ» إذا أثبتته أسطواراً، ومنه قول العجاج:

فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ الَّتِي كَانَ سَطَرَ

قال قتادة: وفي بعض القراءة: «كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبًا».

سورة الأحزاب

سورة الأحزاب

أشار إلى أخذ الميثاق على كل واحد منهم عند بعثه، وعند إلقاء الرسالة إليه وأوامرها ومعتقداتها.

وذكر الله تعالى النبيين جملة، ثم خصص بالذكر أفراداً منهم تشريفاً وتعظيماً، إذ هؤلاء الخمسة صلى الله عليهم وسلم هم أصحاب الكتب والشرائع والحروب الفاصلة على التوحيد وأولو العزم، ذكره الشعلبي، وقدم ذكر محمد ﷺ على مزيته في الزمن تشريفاً خاصاً له أيضاً، وزوي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث».

وكثر أخذ الميثاق لمكان الصفة التي وصف بها، و﴿عَلِيّاً﴾ إشعاراً بحرمته هذا الميثاق وقوتها، واللام في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ﴾ متعلقة به ﴿أَخَذْنَا﴾، ويحتمل أن تكون لام كي، أي: بعثت الرسل وأخذت عليهم الميثاق في التبليغ لكي يجعل الله خلقه فرقين، فرقة يسألها عن صدقها، على معنى إقامة الحجة والتقرير، كما قال لعيسى عليه السلام: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ؟﴾ فتجيب كأنها قد صدقت الله في إيمانها في جميع أفعالها، فَيُسْأَلُهَا على ذلك، وفرقة كفرت فينالها ما أعد لها من العذاب الأليم، ويحتمل أن تكون اللام في قوله: ﴿لَيْسَ﴾ لام الصيرورة، أي: أخذ الميثاق على

الأنبياء ليصير الأمر إلى كذا، والأول أصوب.

والصدق في هذه الآية يحتمل أن يكون المضاد للكذب في القول، ويحتمل أن يكون من صدق الأفعال واستقامتها، ومنه: عود صدق، وصدقني السيف والمال، وقال مجاهد: ﴿الصَّادِقِينَ﴾ في هذه الآية أراد بها الرسل، أي: يسأل عن تبليغهم، وقال أيضاً: أراد المؤذنين المبلغيين من الرسل. وهذا كله محتمل.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾، إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، نزلت في شأن غزوة الخندق وما اتصل بها من أمر بني قريظة، وذلك أن رسول الله ﷺ أجلى بني النضير من موضعهم عن المدينة إلى خيبر، واجتمعت جماعة منهم ومن غيرهم من اليهود وخرجوا إلى مكة مستنهضين قريشاً إلى حرب رسول الله ﷺ، وجسروهم على ذلك، وأزمعت قريش السير إلى المدينة، ونهض اليهود إلى غطفان وبني أسد ومن أمثلهم من أهل نجد وتهامة، واستنفروهم إلى ذلك، فتحرب الناس وساروا إلى المدينة، واتصل الخبر برسول الله ﷺ فحفر الخندق حول ديار المدينة وحصنه، وكان أمراً لم يعهده العرب، وإنما كان من أعمال فارس والروم، وأشار به سلمان الفارسي رضي الله عنه، فورد الأحزاب قريش وكنانة والأحباش في نحو عشرة آلاف عليهم أبو سفيان بن حرب، ووردت

٧ - ٩ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً لسطر الأحكام المتقدمة في الكتاب. كأنه قال: كانت الأحكام مسطرة ملقاة إلى الأنبياء إذ أخذنا عليهم الميثاق في التبليغ والشرائع، فيكون ﴿وَإِذْ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾. ويحتمل أن يكون في موضع نصب بإضمار فعل تقديره: واذكر إذ، وهذا التأويل أبين من الأول.

وهذا الميثاق المشار إليه قال الزجاج وغيره: إنه الذي أخذ عليهم وقت استخراج البشر من صلب آدم كالدُّرِّ، قالوا: وأخذ الله تبارك وتعالى حينئذ ميثاق النبيين بالتبليغ وتصديق بعضهم بعضاً، وبجميع ما تتضمنه النبوة، وزوي نحوه عن أبي بن كعب. وقالت فرقة: بل

غطفان وأهل نجد عليهم عُنَيْنَةٌ بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، ووردت بنو عامر وغيرهم عليهم عامر بن الطفيل إلى غير هؤلاء، فحصرُوا المدينة، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة، على ما قال ابن إسحق، وقال مالك: كانت سنة أربع، وكانت بنو قريظة قد عاهدوا رسول الله ﷺ على الهدنة، وعاهدوه على ألا يلحقه منهم ضرر، فلما تمكن هذا الحصار واثقهم بنو النضير، فغدرُوا رسول الله ﷺ، ونقضوا العهد، وصاروا حزباً من الأحزاب، فضاعت الحال على رسول الله ﷺ والمؤمنين، وكثرت الظنون، ورسول الله ﷺ يبشر ويعد بالنصر.

ثم ألقى الله الرعب في قلوب المشركين، ويشسوا من الظفر بِمَنَعَةِ الخندق، وبما رأوا من جَلَدِ المؤمنين، وجاء رجل من قريش اسمه نوفل بن الحرث - وقيل غير هذا - فاقترح الخندق بفرسه فقتل فيه، فكان ذلك حاجزاً بينهم، ثم إن الله تعالى بعث الضبا لنصرة نبيه ﷺ على الكفار، فطردتهم، وهذبت بيوتهم، وأطفأت نيرانهم، وقطعت جبالهم، وأكفأت قدورهم، ولم يمكنهم معها قرار، وبعث الله مع الضبا ملائكة تشدد الرياح، وتفعل نحو فعلها، وتلقي الرعب في قلوب الكفرة حتى أزمعوا الرحلة بعد بضع وعشرين ليلة للحصر، فانصرفوا خائبين، فهما الجنود التي لم تُر. وقرأ الحسن: ﴿وَجَسُودًا﴾ بفتح الجيم، وقرأ الجمهور: ﴿تَمَلُّونَ﴾

بالتاء، فكأن في الآية مقابلة لهم، أي: أنتم لم تروا جنوده وهو بصير بأعمالكم، فيتبين في هذا القدرة والسلطان، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿يَغْمَلُونَ﴾ بالياء على معنى الوعيد للكفرة، وقرأ أبو عمرو أيضاً بالتاء، وهما حسنتان، ورؤي عن أبي عمرو: ﴿لَمْ يَزُوهَا﴾ من تحت، قال أبو حاتم: قراءة العامة: ﴿لَمْ تَزُوهَا﴾ بالتاء من فوق، ورؤي عن الحسن، ونافع، والأعرج: ﴿يَغْمَلُونَ﴾ بالياء.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿إِذْ هَذَا بَدَلٌ مِنَ الْأُولَى فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْ قَوْمِكُمْ﴾ يريد أهل نجد مع عُنَيْنَةَ بن حصن، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ يريد مكة وسائر تهامة، قاله مجاهد، وقيل: ﴿وَمِنْ قَوْمِكُمْ﴾ أي: من أعلى الوادي من قبل مشرق غطفان، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ من أسفل الوادي منه قبل المغرب، وقيل: إنما أراد ما يختص ببقعة المدينة، أي: نزلت طائفة في أعلى المدينة، وطائفة من أسفلها، وهذه عبارة عن الحصر.

و ﴿رَأَيْتَ الْقُلُوبَ الْكَافِرَةَ﴾ معناه: مالت عن مواضعها، وذلك فعل الواله الفزع، وأدغم الأعمش ﴿إِذْ رَأَيْتَ﴾، وبين الذال الجمهور، وكل حسن.

﴿وَلَقَدْ أَقْلَبْتُ الْقُلُوبَ الْكَافِرَةَ﴾ عبارة عما يجده الهلج من ثوران نفسه وتفرقها شعاعاً، ويجد كأن قلبه يضعد علواً لينفصل، فليس بلوغ القلوب الحناجر حقيقة بالنقلة، بل

يشير إلى ذلك، فيستعار لها بلوغ الحناجر، ورؤي أبو سعيد أن المؤمنين قالوا يوم الخندق: يا رسول الله، بلغت القلوب الحناجر، فهل من شيء نقوله؟ قال: «نعم، قولوا: اللهم استر عورتنا، وآمن روعاتنا»، فقالوها فضرب الله وجوه الكفار بالريح فزهقهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَطُّونَ بِاللَّهِ الْقُلُوبَ﴾، أي: تكادون تضطربون وتقولون: ما هذا الخلف للوعد؟ وهذه عبارة عن خواطر للمؤمنين لا يمكن للنشر دفعها، وأما المنافقون فجَلَّحُوا ونطقوا. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش، وطلحة: ﴿الْقُلُوبَ﴾ بألف في الوصل والوقف، وذلك اتباع لخط المصحف، وعلته تعديل رؤوس الآي، وطرد هذه العلة أن تلازم الوقف. وقد روي عن أبي عمرو أنه لا يصل، وكان يوافق خط المصحف وقياس الفواصل، وقرأ أبو عمرو أيضاً، وحمة في الوصل والوقف: ﴿الْقُلُوبَ﴾ بغير ألف، وهذا هو الأصل، وقرأ ابن كثير، والكسائي، وعاصم، وأبو عمرو بالألف في الوقف، وبحذفها في الوصل، وعللوا الوقف بتساوي رؤوس الآي، وبما يفعل العرب في القوافي من الزيادة والنقص.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا لَكِ ظَرْفُ زَمَانٍ، وَالْعَامِلُ فِيهِ﴾، ومن قال: إن العامل فيه ﴿وَتَقَطُّونَ﴾ فليس قوله بالقوي؛ لأن البداءة ليست بمتمكنة. و ﴿أَبْتَلِ﴾ معناه: اختبر

وامتحن الصابر منهم من الجازع، **﴿وَذَرُوا﴾** معناه: حركوا بعنف، وقرأ الجمهور: **﴿وَزَلَا﴾** بكسر الزاي، وقرأها: **﴿زَلْزَلَا﴾** بالفتح الجحدري، وكذلك **﴿زَلْزَلَهَا﴾** في **﴿إِذَا زُلْزِلَ﴾**، وهذا الفعل مر مضاعف (زَلَّ).

ثم ذكر تعالى قول المنافقين والمرضى القلوب، على جهة الدُّم لهم، وروي عن يزيد بن رومان أن معتب بن قشير قال: يعدنا محمد أن نفتح كنوز كسرى وقيصر ومكة ونحن الآن لا يقدر أحدنا أن يذهب إلى الغائط، ما يعدنا إلا غروراً، أي أمراً يغرنا ويوقنا فيما لا طاقة لنا به، وقال غيره من المنافقين نحو هذا فنزلت الآية فيهم، وقولهم: **﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾** إنما هو على جهة الهزء، كأنهم يقولون: على زعم هذا الذي يدعي أنه رسول، ويدل على هذا أن من المحال أن يكون اعتقادهم أن ذلك الوعد هو من الله ومن رسوله ثم يصفونه بالغرور، بل معناه: على زعم هذا.

﴿١٣﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه المقالة روي أن بني حارثة قالوها، وبيوتهم بحدود المدينة، وقال مقاتل: بنو سلمة، وقيل: القائل لذلك عبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه. وقرأ السلمي، وحفص، واليماني، والأعرج: **﴿لَا مَقَامَ﴾** بضم الميم، بمعنى: لا موضع إقامة، وقرأ الباقون: **﴿لَا مَقَامَ﴾** بفتح الميم، بمعنى: لا موضع قيام، وهي قراءة أبي جعفر،

وشيبة، وأبي رجاء، والحسن، وقتادة، والشَّخمي، وعبدالله بن مسلم، وطلحة، والمعنى: في موضع القتال وموضع الممانعة. **﴿فَأَرْجِعُوا﴾** معناه: إلى منازلكم وبيوتكم، وكان ذلك على جهة التخذيل عن رسول الله ﷺ.

والفريق المستأذن، روي أن أوس بن قَيْظي، استأذن في ذلك عن اتفاق من عشيرته، فقال: إن بيوتنا عورة، أي منكشفة للعدو، وقيل: أراد: خالية للسراق، يقال: اعور المنزل إذا انكشف، ومنه قول الشاعر:

لَنَا الشُّدَّةُ الْأُولَى إِذَا الْقِرْنُ اعْوَرَا

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الفريق بنو حارثة، وهم كانوا عاهدوا الله إثر أخذ لا يؤلُّون الأدبار، وقرأ ابن عباس، وابن يعمر، وقتادة، وأبو رجاء: **﴿عَوْرَةً﴾** بكسر الواو فيهما، وهو اسم فاعل، قال أبو الفتح: «صحة الواو في هذه شاذة؛ لأنها متحركة قبلها فتحة»، وقرأ الجمهور: **﴿عَوْرَةً﴾** ساكنة الواو على أنه مصدر وُصف به، والبيت المَعْوَر هو المنفرد المعروض لمن شاء بسوء، فأخبر الله تعالى عن بيوتهم أنها ليست كما ذكره، وأن قصدهم الفرار، وأن ما أظهره من أنهم يريدون حماية بيوتهم وخاصة نفوسهم ليس كذلك، وأنهم إنما يكرهون نصر رسول الله ﷺ، ويريدون خزيه وأن يغلب.

ولو دخلت المدينة من أقطارها، واشتد الخوف الحقيقي، ثم سُئلوا

الفتنة والحرب لمحمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم لطاروا إليها وأنوها مجيبين فيها، ولم يلبثوا في بيوتهم لحفظها إلا يسيراً، قيل: قَدَّر ما يأخذون سلاحهم. وقرأ الحسن البصري: **﴿ثُمَّ سُوِّلُوا الْفِتْنَةَ﴾** بغير همز، وهي من سَالَسَالُ كخاف يخاف لغة في (سأل) العين فيها واو، وحكى أبو زيد: هما يتساولان، وروي عن الحسن: **﴿سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾**، وقرأ مجاهد: **﴿سُئِلُوا﴾** بالمد. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: **﴿لَا تَوْهَا﴾** بمعنى: لجأوها، وقرأ عاصم، وأبو عمرو: **﴿لَا تَوْهَا﴾** بمعنى: لأعطوها من أنفسهم، وهي قراءة حمزة، والكسائي، فكأنها ردُّ على السؤال ومشبهة له، قال الشعبي: وقرأها النبي عليه الصلاة والسلام بالمد.

ثم أخبر عنهم تبارك وتعالى أنهم قد كانوا عاهدوا على ألا يفرُّوا، وروي عن يزيد بن رومان أن هذه إشارة إلى بني حارثة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهم مع بني سلمة كانتا الطائفتين اللتين هُمَّا بالفشل في يوم أحد، ثم تابوا وعاهدوا على ألا يَقَعَ منهم فرار، فوقع يوم الخندق من بني حارثة.

وفي قوله تعالى: **﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾** تَوْعُذٌ. والاقطار: الشواحي، واحدها قَطْرٌ وقُتْرٌ، والضمير فيها يحتمل المدينة ويحتمل البيوت.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية أن يخاطبهم بتوبيخ، فأعلمهم بأن الفرار لا ينجي من القدر، وبأنهم لا يُمَتُّون في تلك الأوطان، بل تنقطع أعمارهم من يسير من المدة. والقليل الذي استثناءه هي مدة الآجال، قاله الربيع بن خثيم، ثم وقفهم على عاصم من الله يستندون إليه، ثم حكم بأنهم لا يجدون ذلك، ولا ولي ولا نصير من الله عز وجل. وقرأت فرقة: ﴿يُمَتُّونَ﴾ بالياء، وقرأت فرقة: ﴿تُسْتَعُونَ﴾ بالتاء على المخاطبة.

ثم وبَّخهم بإخباره أن الله تعالى يعلم المعوقين، وهم الذين يعوقون الناس عن نُصْرَةِ الرسول ﷺ، ويمنعونهم بالأقوال والأفعال من ذلك، ويسعون على الذين ينصرونه، تقول: عاقني أمر كذا، وعوقني إذا بالغت وضعفت الفعل.

وأما القائلون فاختلف الناس في حالهم - فقال ابن زيد وغيره: أراد المنافقين، يقول المنافق لإخوانه في النسب وقرباته: «هَلُمُّوا إِلَيْنَا»، أي: إلى المنازل والأكل والشرب وترك القتال، وزوي أن جماعة منهم فعلت ذلك. وزوي أن رجلاً من المؤمنين رجع إلى داره فوجد أخاً له منافقاً، بين يديه رغيف وشواء ونبيد، فقال له: أتجلس يا فلان هكذا ورسول الله ﷺ في القتال؟ فقال له أخوه: هَلُمُّوا إلينا ما أنا فيه يا فلان، ودعني من محمد فقد والله هَلَكْتُ، وماله قَبْلُ بأعدائه. فشتمه أخوه وقال: والله لأعرفن رسول الله ﷺ،

فذهب إلى النبي ﷺ فوجد الآية نزلت.

وقالت فرقة: بل أراد من كان من المنافقين يداخل كفار قريش والعرب، فإنه كان منهم من يداخلهم، وقال لهم: «هَلُمُّوا إِلَيْنَا»، أي إلى المدينة فإنكم تغلبون محمداً، والإخوان - على هذا - هم في الكفر والمذهب الشوء.

و «هَلُمُّوا» بمعنى: أقبل، ومن العرب من يستعملها على حد واحد في المذكر والمؤنث والمفرد والجمع، وهذا على أنها اسم فعل، وهذه لغة أهل

الحجاز، ومنهم من يجريها مجرى الأفعال فيلحقها الضامرات المختلفة، فيقول: هَلُمُّوا، وَهَلُمُّوا، وَأَصِل (هَلُمُّوا): (هَالُمُّوا)، نقلت حركة الميم إلى اللام فاستغني عن الألف، وأدغمت الميم في الميم لسكونها فجاء (هَلُمُّوا)، وهذا مثل تعليل: (رُدُّوا) من اَرْدَدْتُ. واليأس: القتال، و «إِلَّا قَلِيلًا» معناه: إلا إتياناً قليلاً، وقيلته يحتمل أن تكون لِقَصْر مُدَّتِهِ وقِلَّةُ أَزْمَتِهِ، ويحتمل أن تكون لِقِلَّةِ عِقَابِهِ، وأنه رياء وتلميع لا تحقيق.

﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَشِحَّةً﴾ جمع شحيح، ونصبه على الحال من «وَالْقَائِلِينَ»، أو من فعل مضمر دل عليه قوله: «وَالْمُعْوِقِينَ»، أو من الضمير في «يَأْتُونَ»، أو على الذم، وقد منع

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْشُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٩﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ إِخْوَانَهُمْ هَلْ يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقْظُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذُهِبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسَّيِّئَةِ جَدِيدًا أَشِحَّةً عَلَى الْغَفَرِ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا حَافِظَ اللَّهِ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢١﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَحْزَابِ يَسْتَؤْنُونَ عَنْ آبَائِهِمْ وَلَوْ كَانَ أَوْ أَدْبَارَهُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٢﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ مِنْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿٢٣﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٤﴾

بعض النحاة أن يعمل في هذه الحال «وَالْمُعْوِقِينَ» أو «وَالْقَائِلِينَ» لمكان التفريق بين الصلة والموصول بقوله: «وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ» وهو غير داخل في الصلة. وهذا الشئ قيل: هو بأنفسهم على المؤمنين، وقيل: بإخوانهم، وقيل: بأموالهم في النفقات في سبيل الله، وقيل: بالغنيمة عند القسم، والصواب تعميم الشئ، وأن يكون بكل ما فيه للمؤمنين منفعة.

وقوله: «فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ»، قيل: معناه: فإذا قوي الخوف من العدو، وثوق أن يستأصل جميع أهل المدينة، لاذ هؤلاء المنافقون بك، ينظرون نظر الهلع المختلط، كنظر الذي يغشى عليه من الموت، «فَإِذَا ذُكِبَ» ذلك الخوف العظيم «سَلَفُوكُمْ» أي: خاطبوكم مخاطبة

بليغة، يقال: خطيب سَلَّاقٌ ومِسْلَاقٌ ومِسْلَقٌ، ولساناً أيضاً كذلك إذا كان فصيحاً مقتدرًا، وقرأ ابن أبي عبة: ﴿صَلِّقُواكُمْ﴾ بالصاد. ووصف الألسنة بالجذَّة لِقَطْعِهَا المعاني، ونفوذها في الأقوال.

وقالت فرقة: معنى قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ لَقُوفُ﴾ أي: إذا كان المؤمنون في قوة وظهور، وخشي هؤلاء المنافقون سطوتك يا محمد رأيهم يصانعون وينظرون إليك نظر فاذع منك خائف هلع، فإذا ذهب خوفك عنهم باشتغالك بعدو ونحوه - كما كان مع الأحزاب - سلقوكم حيثنذ، واختلف الناس في المعنى الذي فيه تسلقون - فقال يزيد بن رومان وغيره: ذلك في أذى المؤمنين وسبهم وتنقيص الشرع ونحو هذا، وقال قتادة: ذلك في طلب العطاء من الغنيمة والإلحاف في المسألة، وهذان القولان يترتبان مع كل واحد من التأويلين المتقدمين في الخوف، وقالت فرقة: السَّلُّ هو في مخادعة المؤمنين بما يُرضيهم من القول على جهة المصانعة والمخاتلة.

وقوله: ﴿أَشِجَّةٌ﴾ حال من الضمير في ﴿سَلِّقُواكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَى الْخَيْرِ﴾ يدلُّ على عموم الشُّحِّ في قوله أولاً ﴿أَشِجَّةٌ عَلَيْكُمْ﴾، وقيل في هذا: معناه: أشجَّة على مال الغنائم، وهذا على مذهب من قال: إن (الخير) في كتاب الله حيث وقع فهو بمعنى المال. وقرأ ابن أبي عبة: ﴿أَشِجَّةٌ﴾ بالرفع، أخبر تبارك وتعالى عنهم أنهم لم يؤمنوا، ولا

كامل تصديقهم، وجمهور المفسرين على أن هذه الإشارة إلى منافقين لم يكن لهم قط إيمان، ويكون قوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي أنها لم تكمل قط، أي أنها كالمُحْبَطَةِ، وحكى الطبري عن ابن زيد عن أبيه أنه قال: نزلت في رجل بدري نافق بعد ذلك ووقع في هذه المعاني فأحبط الله عمله في بدر وغيرها، وهذا فيه ضعف.

والإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ يحتمل أن تكون إلى إحباط عمل هؤلاء المنافقين، ويحتمل أن تكون إلى جملة حالهم وما وصف من شحهم ونظرهم وغير ذلك من أعمالهم، أي أن أمرهم يسير لا يبالي به، ولا له أثر في دفع خير ولا جلب شر.

٢٠ - ٢١ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿يَحْسِبُونَ﴾ للمنافقين، والمعنى أنهم من الفزع والجزع بحيث رحل الأحزاب وهزمهم الله تعالى وهؤلاء يظنون أنهم لم يذهبوا، بل يريدون الكَرَّةَ إلى المدينة، ثم أخبر تعالى عن معتقد هؤلاء المنافقين أن ودهم إذا أتى الأحزاب وحاصروا المدينة أن يكونوا هم قد خرجوا إلى البادية ومع الأعراب وهم أهل العمود والرحيل من قَطَرٍ إلى قَطَرٍ، ومن كان منهم مقيماً بأرض مستوطناً فلا يُسْمَوْنَ أعراباً، وغرضهم من البداوة أن يكونوا سالمين من القتال. وقرأ ابن عباس، وطلحة ابن مصرف: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ بَدَّوْا فِي الْأَعْرَابِ﴾ بشد

الدال منونة، وهو جمع بادٍ كغزير وعُزَّى. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «بدا» فعلاً ماضياً. وقرأ أهل مكة، ونافع، وابن كثير، والحسن: ﴿يَسْتَلُونَ﴾، أي عن أنبائكم، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، والأعمش، والحسن: ﴿يَسْأَلُونَ﴾ بغير همز، نحو قوله تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، وقرأ الجحدري، وقاتدة، والحسن - بخلاف عنه -: ﴿يَسْأَلُونَ﴾، أي: يسأل بعضهم بعضاً، قال الجحدري في الإمام: ﴿يَسْأَلُونَ﴾.

ثم سأل الله تعالى نبيّه عنهم، وحقّر شأنهم بأن أخبر أنهم لو حضروا لما أغنوا ولما قاتلوا إلا قتلاً قليلاً لا نفع له، قال التغلبي: هو قليل من حيث هو رياء من غير حسبة ولو كان كثيراً.

ثم أخبر تبارك وتعالى على جهة الموعظة بأن كل مسلم ومدع في الإسلام يجب أن يقتدي بمحمد عليه الصلاة والسلام حين قاتل وصبر وجاد بنفسه. وقرأ جمهور الناس: ﴿إِسْوَءٌ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ عاصم وحده: ﴿أَسْوَءٌ﴾ بضم الهمزة، وهما لغتان، ومعناها: قدوة، وتأسى الرجل إذا اقتدى، و«رجاء الله» تابع للمعرفة به، و«رجاء اليوم الآخر» ثمره العمل الصالح، و«ذَكَرُ الله كثيراً» من خير الأعمال، فنبّه عليه.

وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ قَدْ ذَهَبُوا، فَإِذَا جَدُّوهُمْ لَمْ يَذْهَبُوا وَدُّوا أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

وصف تعالى فِعْلَ المؤمنين حين رأوا تجمع الأحزاب لحربهم، وصبرهم على البلاء، وتصديقهم وعد الله تعالى على لسان نبيه ﷺ، واختلف المتأولون ماذا أرادوا بوعد الله ورسوله؟ - فقالت فرقة: أرادوا ما أعلمهم به رسول الله ﷺ حين أمرهم بحفر الخندق، فإنه أعلمهم بأنهم سيخضرون، وأمرهم بالاستعداد لذلك، وبأنهم سينصرون بعد ذلك، فلما رأوا الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، فسلموا الأمر وانتظروا أجره.

وقالت فرقة: أرادوا بوعد الله ما نزل في سورة البقرة، من قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْعَلُوا أَنْتُمْ وَلَكُمُ الْيَأْنُكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

ويحتمل أن يكون المؤمنون نظروا في هذه الآية، وفي قول رسول الله ﷺ عند أمرهم بحفر الخندق، وأشاروا بالوعد إلى جميع ذلك، وهما مقالتان، إحداهما من الله تعالى، والأخرى من رسوله ﷺ.

وزيادة الإيمان هنا هي في أوصافه لا في ذاته؛ لأن ثبوته وإبعاد الشكوك والشبه عنه زيادة في أوصافه، ويحتمل أن يزيد إيمانهم بما وقع، وبما أخبر به رسول الله ﷺ مما لم يقع، فتكون الزيادة بهذا الوجه - فيما يؤمن به لا نفس الإيمان. وقرأ ابن أبي عبيدة:

﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ بواو جمع.

و «التسليم»: الانقياد لأمر الله تعالى كيف جاء، ومن ذلك ما ذكرناه من أن المؤمنين قالوا لرسول الله ﷺ عند اشتداد ذلك الخوف: إن هذا أمر عظيم، فهل من شيء نقوله؟ فقال: «قولوا: اللهم آمين روعاتنا، واسر عيوننا»، فقالها المسلمون في تلك الضيقات.

ثم أنشئ الله عز وجل على رجال من المؤمنين عاهدوا الله تعالى على الاستقامة التامة فوفوا وقصوا نخبهم، أي نذرهم وعهدهم، والنخب في كلام العرب الثنر والشيء الذي يلتزمه الإنسان ويعتقد الوفاء به، ومنه قول الشاعر:

قَضَى نَخْبَهُ فِي مُلْتَقَى الْقَوْمِ هَوْبُرٍ
المعنى أنه التزم الصبر إلى فتح أو موت فمات، ومن ذلك قول جرير: بِطَخْفَةٍ جَالِدْنَا الْمُلُوكَ وَخَيْلُنَا غَشِيَةً بِسَطَامٍ جَزَيْنَ عَلَى نَخْبٍ
أي: على أمر عظيم التزم القيام به، كأنه خطر عظيم.

وقد يُسَمَّى الموت نخباً، وبه فسر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، وقال الحسن: ﴿قَضَى نَخْبَهُ﴾: مات على ما عهد، ويقال للذي جاهد في أمر حتى مات: قَضَى نَخْبَهُ، ويقال لمن مات: قَضَى فُلَانٌ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَى نَخْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبَدُّلاً ﴿٢٢﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَظِيمِهِمْ لَمَنْ بَلَغُوا أَحْقَارَ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٤﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَفَّ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٥﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَزْنُوا إِن كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَبَنَاتَهَا فَنَعْلَمَكُنَّ أُمَّتِكُنَّ وَأَسْرَحَكُنَّ سِرًّا كَمَا جَاءَكُمْ ﴿٢٧﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآرَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٨﴾ يٰٓيَسَا۟ءَ النَّسَاءِ الَّتِي يَأْتِيَنَّ مِنْكُنَّ بِفِدْيَةِ شَيْءٍ فَبِئْسَ بَصْعَةً لِّهِنَّ الْعَدَابُ ضَعِفَيْنَّ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٩﴾

نخبه، وهذا تجوز، كأن الموت أمر لا بد للإنسان أن يقع به فسمي نخباً لذلك.

فيمُن سُمي المفسرون أنه أشير إليه بهذه الآية أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، وذلك أنه غاب عن بدر، فساء ذلك وقال: لئن شهدت مع رسول الله ﷺ مشهداً لَيَرَوْنَّ الله ما أصنع، فلما كانت أحد أبلى بلاء حسناً حتى قُتل، ووجد فيه نيْف على ثمانين جرحاً، فقالت فرقة: إن هذه الإشارة هي إلى أنس بن النضر ونظرائه ممن استشهد في ذات الله تعالى. وقال مقاتل والكلبي: الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه هم أهل العقبة السبعون أهل البيعة. وقالت فرقة: الموصوفون بقضاء النخب هم جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وثقوا بعهود الإسلام

على التمام، فالشهداء منهم، والعشرة الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة منهم، إلى من حصل في هذه المرتبة بمن لم يتص عليه، ويصح هذه المقالة أن رسول الله ﷺ كان على المنبر، فقال له أعرابي: يا رسول الله، من الذي قضى نحبه؟ فسكت عنه النبي ﷺ ساعة، ثم دخل طلحة بن عبيد الله على باب المسجد، وعليه ثوبان أخضران، فقال رسول الله ﷺ: «أين السائل؟» فقال: هأنذا يا رسول الله، قال: «هذا ممن قضى نحبه». فهذا دليل على أن النخب ليس من شروط الموت. وقال معاوية بن أبي سفيان: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نحبه»، وروت هذا المعنى عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ.

وقوله تعالى: «وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ»، يقول: ومنهم من ينتظر الحصول على أعلى مراتب الإيمان والصلاح، وهو بسبيل ذلك، وما بذلوا ولا غيروا، ثم أكد بالمصدر. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما على منبر البصرة: «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَذَلُّ بِتَبْدِيلَا»، رواه عنه أبو نصره وروى عنه عمرو بن دينار: «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَأَخْرَوْا بِذَلُّوا بِتَبْدِيلَا».

واللام في قوله سبحانه: «يَتَجَرَّى اللَّهُ» لام الصيرورة والعاقبة، ويحتمل أن تكون لام كي، وتعذيب المنافقين ثمرة إدامتهم الإقامة على النفاق إلى موتهم، والتوبة موازية لتلك الإدامة، وثمره التوبة تركهم دون عذاب، فهما درجتان: إدامة

على نفاق، أو توبة منه، وعنهما ثمرتان: تعذيب أو رحمة، فذكر الله تعالى - على جهة الإيجاز - واحدة من هذين، وواحدة من هذين، ودل ما ذكر على ما ترك ذكره. ويذكر على أن معنى قوله: «لَيُعَذِّبَ»: ليديم على النفاق قوله: «إِنْ شَاءَ» ومعادلته بالتوبة وبحرف [أو]، ولا يُجَوِّزُ أَحَدٌ أَنَّ «إِنْ شَاءَ» يصح في تعذيب منافق على نفاقه، بل حتم الله على نفسه بتعذيبه.

(٢٥) - (٢٧) تفسير قوله عز وجل:

عَدَّ الله تعالى في هذه الآيات نعمه على المؤمنين في هزم الأحزاب، وأن الله ردهم بغيظهم لم يشفوا منه شيئاً، ولا نالوا مراداً، وكفى الله كل مؤمن كان مع رسول الله ﷺ أن يُقاتل الأحزاب. وروى أن المراد بالمؤمنين هنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقوم معه عثوا للقتال وبرزوا ودعوا إليه. وقيل: عنى رجلاً من المشركين اسمه عمرو بن عبد ود، فكفاهم الله مداومة ذلك ودعوته بأن هزم الأحزاب بالريح والملائكة، وصنع ذلك بقوته وعزته. قال أبو سعيد الخدري: حُبَسْنَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَلَمْ نُصَلِّ الظُّهْرَ وَلَا الْعَصْرَ وَلَا الْمَغْرِبَ وَلَا الْعِشَاءَ، حَتَّى كَانَ بَعْدَ هَوَيٍّ مِنَ اللَّيْلِ كَفِينَا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ»، وأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأقام، وصلى الظهر فأحسنها، ثم كذلك كل صلاة بإقامة إقامة.

وقوله تعالى: «وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ» يريد بني قريظة بإجماع

من المفسرين، قال الرماني: وقال الحسن: الذين أنزلوا من صياصيم بنو النضير، وقال الناس هم بنو قريظة، وذلك أنهم لما غدروا برسول الله ﷺ وظاهروا الأحزاب عليه أراد الله النعمة منهم، فلما ذهب الأحزاب جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وقت الظهر، فقال: يا محمد، إن الله يأمرك بالخروج إلى بني قريظة، فنادى رسول الله ﷺ في الناس، وقال لهم: «لَا يُصَلِّتُنْ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قَرِظَةَ»، فخرج الناس إليها، ووصلها قوم من الصحابة بعد العشاء وهم لم يصلوا العصر وقوفاً مع لفظ النبي ﷺ، فلم يخطئهم رسول الله ﷺ في ذلك، وصلى قوم في الطريق، ورأوا أن قول النبي ﷺ إنما خرج مخرج التأكيد، فلم يخطئهم أيضاً، وحصر رسول الله ﷺ بني قريظة خمساً وعشرين ليلة، ثم نزلوا على حكم سعد بن معاذ الأوسي رضي الله عنه، وكان بينهم وبين الأوس جلف، فَرَجَّزُوا حُتُوَهُ عَلَيْهِمْ، فَحَكَمَ فِيهِمْ سَعْدٌ بَأَن تَقْتُلَ الْمُقَاتِلَةَ، وَتُسَبَّى الذَّرِيَّةُ وَالْعِيَالُ وَالْأَمْوَالُ، وَأَن تَكُونَ الْأَرْضُ وَالشَّارُ لِلْمُهَاجِرِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَتْ لَهُ الْأَنْصَارُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَرَدْتُ أَن تَكُونَ لَهُمْ أَمْوَالٌ كَمَا لَكُمْ أَمْوَالٌ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقَعَةٍ»، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِرَجَالِهِمْ فَأَخْرَجُوا أَرْسَالاً، وَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ، وَهُمْ مِنَ الثَّمَانِمَةِ إِلَى التَّسَعِمَةِ،

وسيق فيهم خِيَتِي بن أخطب النضري، وهو الذي كان أدخلهم في الغدر برسول الله ﷺ، فلما ذهب الأحزاب دخل عندهم، فأخذه الحضر حتى نزل فيمن نزل على حُكْم سعيد، فلما قُرِبَ وعليه حلَّتَانِ فُجَّاجَتَانِ ويدها مجموعتان إلى عنقه وأبصر رسول الله ﷺ قال له: يا محمد، والله ما لُمْتُ نفسي في عداوتك، ولقد اجتهدت ولكن من يَحْذِلُ الله يَحْذِلُ، ثم قال: أيُّها الناس، لا بأس، إنه أمر الله وَقَدَرَهُ وَمَلَحَمَةٌ كُتِبَ على بني إسرائيل، ثم تقدم فضربت عنقه، وفيه يقول جَبَلُ بن جَوَالِ الثُّغَلِي:

لَعَنَكَ مَا لَأَمْ ابْنُ أَخْطَبَ نَفْسَهُ
وَلِكِنَّ مَنْ يَحْذِلُ الله يَحْذِلُ
لَجَاهَدَ حَتَّى أَبْلَغَ النَّفْسَ عُذْرَهَا
وَقَلْقَلْ يَبْغِي الْعِزُّ كُلَّ مُقْلَقِلٍ
وقوله: ﴿ظَاهَرُوهُمْ﴾ معناه: عاونوهم، وقرأ عبدالله بن مسعود: ﴿الَّذِينَ آزَرُوهُمْ﴾، وهي بمعنى: ظاهروهم. والصِّيَاصِي: الحصون، واحداها: صِيَصَة، وهي كل ما يُتَمَتَّعُ به، ومنه يقال لقرون البقر: الصِّيَاصِي، والصِّيَاصِي أيضاً شَوْكُ الحَاكَةِ، وتُتَّخَذُ من حديد، ومنه قول دُرَيْدِ بن الصَّمَّة:

.....
كَوَفَّعَ الصِّيَاصِي فِي النَّسِيجِ الْمَمْدُودِ
وَالْفَرِيقُ الْمَقْتُولُ: الرُّجَالُ الْمُقَاتِلَةُ،
وَالْفَرِيقُ الْمَأْسُورُ: الْعِيَالُ وَالذَّرِيَّةُ.
وقرأ الجمهور: ﴿وَتَأَيَّرُونَ﴾ بكسر
السين، وقرأها أبو حيوة:
﴿وَتَأَيَّرُونَ﴾ بضم السين.
وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ استعاره،

من حيث حصل ذلك لهم بعد موت الآخرين وقتلهم، وقوله: ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطْوَها﴾ يريد بها البلاد التي فتحت بغد كالعراق والشام واليمن ومكة، فوعَدَ الله بها عند فتح حصون بني قُرَيْظَةَ، وأخبر أنه قد قضى بذلك، قاله عكرمة. وذكر الطبري عن فِرْقِي أَنَّهُمْ خَصَصُوا ذَلِكَ، فقال الحسن: أراد الروم وفارس، وقال قتادة: كنا نتحدث أنها مكة، وقال يزيد بن رومان، ومقاتل، وابن زيد: هي خَيْبَر، وقالت فرقة: اليمن.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا وجه لتخصيص شيء من ذلك دون شيء.

﴿٢٨﴾ - ﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل: اختلف الناس في سببها - فقال قتادة: سببها غيرة غارتها عائشة رضي الله تعالى عنها، وقال ابن زيد: وقع بين أزواجه تغاير ونحوه مما شقي هو به - ﷺ - فنزلت الآية بسبب ذلك، وبشر الله أن يصرف إرادته في أن يؤوي إليه من يشاء، وقال أبو الزبير: نزل ذلك بسبب أن رسول الله ﷺ سألَه أزواجه النفقة، وتَشَطَّنَ في تكليفه منها فوق وُسْعِهِ، وقالت فرقة: بل السبب أنهم طلبن منه ملابس وثياباً، وقالت واحدة: لو كُنَّا عند غير رسول الله ﷺ لكننا لنا الحلي والمتاع. وقال بعض الناس: أمر رسول الله ﷺ بتلاوة هذه الآية عليهن، وتخييرهن بين الدنيا والآخرة وأمر الطلاق مُرْجَأً، فلو اخترن أنفسهن نظر كيف يسرحهن هو، وليس فيها تخييرهن في الطلاق؛ لأن التخيير يتضمن ثلاث

تطبيقات وهو قد قال: ﴿وَأَسْرَحَنَّ سَرَكَاً جَيَّلاً﴾، وليس مع بَتِّ الطلاق سراح جميل، وقالت فرقة: بل هي آية تخيير، واختارته عليه الصلاة والسلام، ولم يعد ذلك طلاقاً، وهو قول عائشة أيضاً.

واختلف الناس في التَّخْيِيرِ إذا اختارت المرأة نفسها - فقال مالك: هي طالق ثلاثاً، ولا منكرة للزوج، بخلاف التمليك، وقال غيره: هي طلاق بائنة، وقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: إذا خيَّرَ الرجل امرأته فاختارت فهي طلاق، وهذا مخالف جداً.

قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، أي: إن كانت عظيم همتكن ومطلبكن، أي التَّعَمُّقُ فيها والثَّيْلُ من نعمتها. و«زينة الدنيا»: المال والبنون، و«تَعَالَيْنَ» دعاء، و«أَمَتَكُنَّ» معناه أعطى المتاع الذي ندب الله إليه في قوله: ﴿وَتَتَّبِعُونَ﴾، وأكثر الناس على أنها من المندوبات، وقالت فرقة: هي واجبة، و«السَّراحُ الْجَمِيلُ» يحتمل أن يكون ما دون بَتِّ الطلاق، ويحتمل أن يكون في بقاء جميل المعتقد وحسن العشرة وجميل الثناء وإن كان الطلاق بائناً. و«أَعَدَّ» معناه: يَسَّرَ وَسَّيَّ، و«فَتَعَالَيْنَا»: الطائعات لله والرسول.

وأزواج الرسول ﷺ اللواتي نزلت الآية فيهن تَسَعٌ، خمس قرشيات: عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنه، وحفصة بنت عمر رضي الله عنه، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت

عَزَّ وَجَلَّ: ﴿٣٠﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسیر قوله

قال أبو رافع: كان عمر رضي الله عنه كثيراً ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب في الصباح، وكان إذا بلغ ﴿يٰٓنِسَاءَ الْاٰتِيَّاتِ﴾ رفع بها صوته، فقليل له، فقال: أذكرهن العهد.

وَقَرَأَ الْجُمُهورُ: ﴿مَنْ يَأْتِ﴾ بَيَاءٍ وَتَاءٍ، ﴿وَمَنْ يَنْتُ﴾ بَيَاءٍ حَمَلًا عَلَى اللفظ، وقرأ عمرو بن فايد، والسجدي، ويعقوب: ﴿تَأْتِ﴾ بَتَاءَيْنِ وَ﴿تَنْتُ﴾ بَتَاءٍ مِنْ فَوْقِ

حملاً على المعنى. وقال قوم:
الفاحشة إذا وردت معرفةً فهي الزنى
واللواط، وإذا وردت منكراً فهي
سائر المعاصي وكل مستفحش، وإذا
وردت منعوتة بالبيان فهي عقوق
الزوج وفساد عشرته، ولذلك نصفها
بالبيان إذ لا يمكن سترها، والزنى
وغيره يُستتر به فلا يكون مبنياً، ولا
محالة أن الوعيد واقع على ما خفي
منه وما ظهر. وقالت فرقة: بل
قوله: ﴿يَفْجِسُ مَيْتَةً﴾ يعم جميع
المعاصي، وكذلك الفاحشة حيث
وردت. ولما كان أزواج النبي ﷺ
في مهبط الوحي وفي منزل أوامر الله
ونواهيه قوي الأمر عليهن ولزمهن
بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم
غيرهن، فضعف لهن الأجر
والعذاب، والإشارة بالفاحشة إلى
الزنى وغيره.

وقرأ ابن كثير، وشبل، وعاصم: **﴿مُبَيَّنَةٌ﴾** بفتح الباء، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وقتادة بكسرهما، وقرأت فرقة: **﴿يُضَعَّفُ﴾** بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه: **﴿نُضَاعِفُ﴾** بنون مضمومة **﴿الْعَذَابُ﴾** نصباً، وهي قراءة ابن محيصن، وهذه مُفاعلة من واحد كطارقت النعل وعاقبت اللص. وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي: **﴿يُضَنَّفُ﴾** بياء مضمومة وعين مفتوحة **﴿الْعَذَابُ﴾** رفعا، وقرأ أبو عمرو: **﴿يُضَعَّفُ﴾** بتشديد العين على بناء المبالغة **﴿الْعَذَابُ﴾** رفعا، وهي قراءة الحسن، وابن كثير، وعيسى. وقرأ ابن كثير، وابن عامر: **﴿نُضَعَّفُ﴾** بالنون وكسر العين المشددة **﴿الْعَذَابُ﴾** نصباً، وهي قراءة الجحدري.

وقوله: ﴿ضَعُفٌ﴾ معناه: يكون العذاب عذابين، أي: يضاف إلى عذاب سائر الناس عذاب آخر مثله. وقال أبو عبيدة، وأبو عمرو - فيما حكى الطبري عنهما -: بل يضاف إليه عذابان مثله فيكون ثلاثة أعذبة، وَضَعُفَ الطبري، وكذلك هو غير صحيح وإن كان له باللفظ تعلّق احتمال، وكون الأجر مرتين مما يفسد هذا القول؛ لأنّ العذاب في الفاحشة بلزاء الأجر في الطاعة، والإشارة بذلك إلى تضعيف العذاب.

و ﴿يَقْنُتْ﴾ معناه: يطيع ويخضع بالعبودية، قاله الشعبي وقتادة. وقرأ نافع، وابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿يَقْنُتْ﴾ بالياء،

وَمَنْ يَقْتُلْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَعْمَلْ صَالِحًا تَزُودَهَا
أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَسْأَلُ النَّبِيُّ
لِأَنْتُمْ كَأَحَدٍ مِنَ النَّبِيِّ إِنْ أُنْفِقُوا فَمَا تَغْضَضُونَ لِأَقْوَالِ
فَيُطَمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَدْ
فِي يَتُوكُمْ وَلَا تَبْرَحْنَ نَبِيَّ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ
الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرْتُ مَا بَيْنَ يَدَيْ يَتُوكُمْ
إِنَّمَا بَيْنَ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنْ أَلَّ اللَّهُ كَانَتْ لَطِيفًا خَيْرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَالْقَانِطِينَ وَالْقَانِطَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ
وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالْحَافِظِينَ
فَرُوحَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

أبي أُمَيَّةَ. وأربع غير قرشيات:
ميمونة بنت الحارث الهلالية،
وصفية بنت حُيَيِّ بن أخطب
الخبزريَّة، وزينب بنت جحش
الأسدية، وجُوَيْرِيَّة بنت الحارث
المصطلقية رضي الله عن أزواج
رسول الله أجمعين.

وفي الحديث أن النبي ﷺ لما خرج من إبلاثة الشهر، ونزلت هذه الآية، بدأ بعائشة فقال: «إني ذاكركم لِكِ أمرأ، ولا عليك ألا تعجلي حتى نستأمر ي أبويك»، ثم تلا الآية، فقالت له: وفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: «وقد علم أن أبوي لا يأمراني بفراقه»، ثم تتابع أزواج النبي ﷺ على مثل قول عائشة رضي الله عنها، فاخترن الله ورسوله.

و﴿وَعَمَلٌ﴾ بالتاء، و﴿تُؤْتِيهَا﴾ بالنون، وهي قراءة الجمهور. قال أبو علي: أسند ﴿بَقِيتُ﴾ إلى ضمير، فلما تبين أنه لمؤنث حمل في ﴿تَعْمَلُ﴾ على المعنى، وقرأ حمزة، والكسائي كل الثلاثة بالياء حملاً في الأولين على لفظ [مَنْ]، وبها قرأ الأعمش، وأبو عبد الرحمن، وابن وثاب، وقرأ الأعمش أيضاً: ﴿فَسَوْفَ يُؤْتِيهَا اللَّهُ أَجْرَهَا﴾.

و «الإغثاء»: التيسير والإغداؤ، و«الرِّزْقُ الكريم»: الجنة، ويجوز أن يكون في ذلك وعد دنياوي، أي أن أزواجها في الدنيا على الله، وهو كريم من حيث هو حلال وقصد وبرضى من الله في نيله، وقال بعض المفسرين: العذاب الذي تُوعَدُن به ضعفين هو عذاب الدنيا ثم عذاب الآخرة، وكذلك الأجر، وهذا ضعيف اللهم إلا أن يكون أزواج النبي ﷺ لا تدفع عنهم حدود الدنيا عذاب الآخرة، على ما هي حال الناس عليه، بحكم حديث عبادة بن الصامت، وهذا أمر لم يَرَوْ في أزواج النبي ﷺ ولا حُفِظَ تَقَرُّرُهُ.

ثم خاطبهم الله تعالى بأنهن لسن كأحد من نساء عصرهن فما بعد، بل هن أفضل بشرط التقوى؛ لما منحهن الله من صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام وعظم المحل منه ونزول القرآن في حقهن، وإنما خصص النساء لأن فيمن تقدم أسية ومريم، فتأمل، وقد أشار إلى هذا قتادة.

ثم نهاهن الله عما كانت الحال عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال

برخيم الصوت. ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ أي: لا تَلْن، وقد يكون الخضوع بالقول في نفس الألفاظ ورخامتها وهيتها، وإن لم يكن المعنى مريباً، والعرب تستعمل لفظة الخضوع بمعنى الميل والغزل، ومنه قول ليلى الأخيلية حين قال لها الحجاج: هل رأيت قط من توبة شيئاً تنكرينه؟ فقالت: لا والله أيها الأمير؛ إلا أنه أنشدني يوماً شعراً ظننت منه أنه خضع لبعض الأمر، فأنشده أنا:

وَذِي حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ لَا تَبْجَحْ بِهَا
فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيْثُ سَبِيلُ
الحكاية. وقال ابن زيد: الخضوع بالقول ما يدخل في القلوب الغزل.

وقرأ الجمهور: ﴿فَيَطْمَعُ﴾ بالنصب على أنه نصب بالفاء في جواب التمني، وقرأ الأعرج، وأبان بن عثمان: ﴿فَيَطْمَعُ﴾ بالجزم، وكسر للالتقاء، وهذه فاء عطفة محضة، وكان النهي دون جواب ظاهر، وقراءة الجمهور أبلغ؛ لأنها تعطي أن الخضوع بسبب الطمع، قال أبو عمرو الداني: قرأ الأعرج، وعيسى بن عمر: ﴿فَيَطْمَعُ﴾ بفتح الياء وكسر الميم.

و «المَرَضُ» في هذه الآية، قال قتادة: هو النفاق، وقال عكرمة: الفسق والغزل، وهذا أصوب، وليس للنفاق مدخل في هذه الآية، والقول المعروف هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس.

﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجمهور بكسر القاف، وفتحها نافع وعاصم، فأما الأولى فيصح أن تكون من الوقار، تقول: وقَرَّ يَقَرُّ

وقاراً، وقَرَنَ مثل عَدَنَ، ويصح أن تكون من القَرَار، تقول: قَرَزْتَ بالمكان - بفتح الراء - أَقَرُّ، والأصل: أَقَرَزَنَ، حذفت الراء الواحدة تخفيفاً - كما قالوا في ظَلَلْتُ: ظَلَلْتُ - ونقلوا حركتها إلى القاف، واستغني عن الألف، وقال أبو علي: بل عَلَّ بأن أبدلت الراء ياء فنقلت حركتها إلى القاف ثم حذفت الياء لسكونها وسكون الراء بعدها.

وأما الثانية فعلى لغة العرب: «قَرَزْتُ - بكسر الراء - أَقَرُّ - بفتح القاف - في المكان»، وهي لغة ذكرها أبو عبيد في «الغريب المصنف»، وذكرها الزجاج وغيره، وأنكرها قوم منهم المازني وغيره، قالوا: وإنما يقال قَرَزْتُ - بكسر الراء - من قَرَّة العين، وأما من القَرَار وإنما هو قَرَزْتُ - بفتح الراء -.

وقرأ عاصم: ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ - بكسر الباء - وقرأ ابن أبي عبله: ﴿وَأَقْرَزْنَ﴾ بألف وصل وزاءين الأولى مكسورة. فأمر الله تعالى نساء النبي ﷺ في هذه الآية بملازمة بيوتهن، ونهاهن عن التَّبَجُّع، وأعلم أنه فعل الجاهلية الأولى.

وذكر الثعلبي وغيره أن عائشة رضي الله عنها كانت إذا قرأت هذه الآية تكيي حتى تبُلْ خمارها، وذكر أن سودة قيل لها: لم لا تحججين وتعتمرين كما تفعل أخواتك؟ فقالت: قد حَجَجْتُ واعتمرت وأمرني الله أن أَقَرَّ في بيتي، قال الراوي: فوالله ما خرجت من باب حَجَرْتِها حتى أخرجت جنازتها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبكاء عائشة رضي الله عنها إنما كان بسبب سفرها أيام الجمل، وحينئذ قال لها عُمَار رضي الله عنه: إن الله قد أمرك أن تَقْرِي في بيتك.

و «التَّبْرُجُ»: إظهار الزينة والتصنع بها، ومنه التَّبْرُوجُ؛ لظهورها وانكشافها للعيون.

واختلف الناس في «الجاهلية الأولى» - فقال الحكم بن عتيبة: ما بين آدم ونوح عليهما السلام، وهي ثمانمائة سنة، وحكى لهم سير ذميمة، وقال ابن الكلبي وغيره: ما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بين نوح وإدريس عليهما السلام، وذكر قصصاً، وقالت فرقة: ما بين موسى وعيسى عليهما السلام، وقال عامر الشعبي: ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وقال أبو العالية: هي زمن داود وسليمان عليهم السلام، كان فيه للمرأة قميص من الدر غير مخطط الجانبين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يظهر عندي أنه أشار إلى الجاهلية التي لجقنها، فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة؛ لأنهم كانوا لا غيرة عندهم، وكل أمر النساء دون حجة، وجعلها أولى بالإضافة إلى حالة الإسلام، وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى، وقد مر اسم الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإسلام فقالوا: جاهلي في الشعراء، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في البخاري: «سمعت أبي في الجاهلية يقول»، إلى غير هذا.

و «الزَّجَسُ» اسم يقع على الإثم وعلى العذاب وعلى النجاسات والتفائص، فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت، ونصب «أَهْلَ الْبَيْتِ» على المدح، أو على النداء المضاف، أو بإضمار: أغني.

واختلف الناس في أهل البيت - من هم؟ فقال عكرمة، ومقاتل، وابن عباس رضي الله عنهما: هم زوجاته خاصة، لا يدخل معهن رجل، وذهبوا إلى أن «الْبَيْتَ» أريد به مساكن النبي ﷺ، وقالت فرقة - هي الجمهور - : أَهْلُ الْبَيْتِ: علي وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم، وفي هذا أحاديث نبوية، قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: في، وفي علي وفاطمة والحسن والحسين»، ومن حجة الجمهور قوله تعالى: «عَنكُم» و«يُطَهَّرُكُمْ» بالميم، ولو كان للنساء خاصة لكان: «عَنكُنَّ» و«يُطَهَّرُكُنَّ»، والذي يظهر لي أن زوجاته لا يخرجن عن ذلك البتة، فأهل البيت زوجاته وبنته وبنوها وزوجها، وهذه الآية تقتضي أن الزوجات من أهل البيت؛ لأن الآية فيهن، والمخاطبة لهن، أما إن أم سلمة قالت: نزلت هذه الآية في بيتي، فدعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فدخل معهم تحت كساء خنبري، وقال: «هؤلاء أهل بيتي» - وقرأ الآية - وقال: «اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، وقالت أم سلمة: فقلت: وأنا يا رسول الله؟

فقال: «أنت من أزواج النبي، وأنت إلى خير». وقال الشعبي: هم بنو هاشم، فهذا على أن «الْبَيْتَ» يراد به النسب، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم، وزوي نحوه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢١) - (٢٥) تفسير قوله عز وجل: اتصال هذه الألفاظ يعطي أن «أَهْلَ الْبَيْتِ» نسأوه، وعلى قول الجمهور هي ابتداء مخاطبة، أمر الله تعالى أزواج النبي ﷺ - على جهة الموعظة وتعدد النعمة - بذكر ما يُتلى في بيوتهن، ولفظ «الذكر» هنا يحتمل مقصدين كلاهما موعظة وتقدير نعمة: أحدهما أن يريد: «وَأَذْكُرَنَّ»، أي: تذكُرْنه وافدُرْنه قدره، وفكُرْن في أن من هذه حاله ينبغي أن يُحسِّن أفعاله، والآخر أن يريد: «وَأَذْكُرَنَّ» بمعنى: احفظن وافرأن وألزمنه الألسنة، وكأنه يقول: واحفظن أوامر الله ونواهيه، وذلك الذي يُتلى في بيوتكن من آيات الله، وذلك مُؤذِكُنَّ إلى الاستقامة. و«الْحِكْمَةُ» هي سُنة الله تبارك وتعالى على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام دون أن تكون في قرآن مثَلُو، ويحتمل أن تكون وصفاً للآيات، وفي قوله: «لَطِيفٌ بِكُنَّ» تأنيس وتعدد نعمة؛ أي: لطيف بِكُنَّ في هذه النعمة، وفي قوله: «خَبِيرٌ» تحذير ما.

قوله تعالى: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ» الآية. روي عن أم سلمة أن سببها أنها قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله، يذكر الله تعالى الرجال

في كتابه في كل شيء، ولا يذكرنا،
فترلت الآية في ذلك.

وروى قتادة أن نساء من الأنصار
دخلن على أزواج النبي عليه الصلاة
والسلام، فَقُلْنَ لَهُنَّ: «ذَكَرَكُنَّ اللَّهُ
تعالى في القرآن ولم يذكر سائر
النساء بشيء»، فنزلت الآية في
ذلك. وروى عن ابن عباس
رضي الله عنهما أن نساء النبي قلن
له: «ما له تعالى يذكر المؤمنين ولم
يذكر المؤمنات»، فنزلت الآية في
ذلك.

وبدأ تعالى بذكر «الإسلام» الذي
يَعُمُّ الإيمان وعمل الجوارح، ثم ذكر
«الإيمان» تخصيصاً له وتبييناً على أنه
عُظُم الإسلام ودعامته، و«الْقَائِمُ»:
العابد المطيع، و«الصَّادِقُ»: معناه:
فيما عوهد عليه أَنْ يفي به ويكمله،
و«الصَّابِرُ»: عن الشهوات وعلى
الطاعات في المَكْرَه والمَسْطَط،
و«الْخَاشِعُ»: الخائفُ لله المستكينُ
لربوبيته الوقورُ، و«الْمُتَّصِدِّقُ»
بالفرض والثقل، وقيل: بل هي في
الفرض خاصة، والأوّل أمدح،
و«الصائِم» كذلك في الفَرَض
والثقل، و«حِفْظُ الْفَرْجِ» هو من الزنى
وشبهه، ويدخل مع ذلك كل ما
يؤدي إلى الزنى أو هو في طريقه.
وفي قوله: ﴿وَالْحَقِّقِينَ﴾ حذف
ضمير يدل عليه المتقدم، تقديره:
والحافظانها، وفي ﴿وَالَّذِينَ﴾ أيضاً
مثله، و«المَغْفِرَةُ» هي سِتْرُ ذُنُوبِهِم
وَالصَّفْحُ عنها، و«الْأَجْرُ الْعَظِيمُ»:
الْحَيَّةُ.

٢٦ - ٢٧ تفسير قوله عز وجل:

قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ لفظه النفي

ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا، وهذه العبارة: (ما كان) و (ما ينبغي) ونحوها تجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون، وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلاً، كقوله: ﴿مَا كَانَ لَكُمُ أَنْ تُتْبِعُوا شَجَرَهُ﴾، وربما كان العلم بامتناعه شرعاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِإِسْرَءِيلَ أَنْ يَكْفُرَ﴾، وربما كان حظره بحكم شرعي لهذه الآية، وربما كان في المندوبات، كما تقول: «ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل» ونحو هذا.

وسبب هذه الآية فيما قال قتادة، وابن عباس، ومجاهد أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش، فظنت أن الخطبة لنفسه، ففلما بين أنه إنما يريد لها لزيد بن حارثة كرهت وأبت، فنزلت الآية، فأذعن زينب حينئذ وتزوجته، وقال ابن زيد: إنما أنزلت بسبب أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهبت نفسها للنبي ﷺ فزوجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك هي وأخوها، وقالوا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجها غيره. فنزلت الآية بسبب ذلك، فأجابا إلى تزويج زيد.

و ﴿الْحَيْرِ﴾: مصدر بمعنى التَّخَيْرِ،
وهذه الآية في ضمن قوله تعالى:
﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.
وهذه الآية تَقْوَىٰ في قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ صِلًا مَبْغِيًا ﴿١٥٠﴾ وَإِذْ يَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرَكَ زَوْجَتَهَا الْحَى لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَكَ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿١٥١﴾ تَأْكُلُ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فَمَا فَضَّلَ اللَّهُ لَكَ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿١٥٢﴾ الَّذِينَ يَتْلُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيُخَوِّفُونَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿١٥٣﴾ تَأْكُلُ مِنْ حَرَجٍ أَبَا أُخَيْدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٥٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴿١٥٥﴾ وَسَبِّحُوهُ كَثْرَةً وَأَسْبَلًا ﴿١٥٦﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿١٥٧﴾

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْغِيَرَةُ﴾ ۚ أَنْ [مَا] نَافِيَةٌ لَا مفعولة.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، وشيبة، والأعرج، وعيسى: ﴿أَنْ تَكُونَ﴾ **بِالْثَّاءِ** على لفظ ﴿الْمُؤَيَّدَةِ﴾. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، والحسن، والأعمش، وأبو عبد الرحمن: ﴿أَنْ يَكُونَ﴾ على معنى ﴿الْمُؤَيَّدَةِ﴾، وأن تأنيثها غير حقيقي. وقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿مَا كَانَ مِنْ لَدُنْهِ﴾ دون علامة تأنيث يُقَوِّي هذه القراءة التي بالياء.

ثم توعد تعالى وأخبر أن من يعص الله ورسوله فقد ضلّ، وهذا العصيان يؤمّ الكفر فما دونه، وكلّ عاص آخذ من الضلال بقدر معصيته.

ثم عاتب تعالى نَبِيَّه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ الآية. واختلف الناس في تأويلها - فذهب قتادة، وابن زيد، وجماعة من المفسرين - منهم الطبري وغيره - إلى أن النبي ﷺ توقع منه استِحْسَانُ لزينب وهي في عصمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد فيتزوجها هو، ثم إن زيدا لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غِلْظَةً قول وعِصْيَاناً أمر وأذى باللسان وتَعْظُماً بالشرف قال له: ﴿أَتَقِيَّ اللَّهَ؟﴾ أي فيما تقول عنها، و﴿أَتَسِيكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ؟﴾ وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها، وهذا هو الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف. وقالوا: خَشِيَ رسول الله ﷺ قَالَةَ الناس في ذلك، فعاتبه الله على هذا. وقرأ ابن أبي عتبة: ﴿مَا اللَّهُ مُظْهِرُهُ؟﴾ وقال الحسن: ما نزل على رسول الله ﷺ أَشَدُّ عليه من هذه الآية، وقال هو وعائشة رضي الله عنهما: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتّم هذه الآية لِشِدَّتِهَا عليه، وروى ابن زيد في نحو هذا القول أن النبي ﷺ طلب زيدا في داره فلم يجده، ورأى زينب حاسرة فأعجبته فقال: «سبحان الله مُقْلَبُ الْقُلُوبِ» وروى في هذه القصة أشياء يطول ذكرها، وهذا الذي ذكرنا مُسْتَوَفٍّ لمعانيها.

وذهب قوم من المتأولين إلى أن الآية لا كبير عتب فيها، ورووا

عن علي بن الحسين أنه قد كان أوحى إلى النبي ﷺ أن زيدا يطلق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكى زيد للنبي ﷺ خُلِقَ زينب وأنها لا تطيعه، وأعلمه بأنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والرواية: ﴿أَتَقِيَّ اللَّهَ؟﴾ أي في أقوالك - «وأمسك عليك زوجك»، وهو يعلم أنه سيفارقها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يُرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها، وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاة وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تبارك وتعالى على هذا القدر من أن خشي الناس في شيء قد أباحه الله له بأن قال: «أَمْسِكْ» مع علمه بأنه يطلق، وأعلمه أن الله أحق بالخشية، أي في كل حال.

قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ أَيَّ بِالْإِسْلَامِ وَغَيْرِهِ، وَأَنْتُمْ عَلَيْهِ أَيَّ بِالْعَقْدِ، وَهُوَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَزَيْنَبُ بِنْتُ حُجْشِ هِيَ بِنْتُ أُمَيْمَةَ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ عَمَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ثم أعلم تعالى أنه تزوجها منه لما قضى زيد وطره منها ليكون سُنَّةً للمسلمين في أزواج أَدْعِيائِهِمْ، وَلَيَّبِينَ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَحَرَمَةِ الْبَنُوَّةِ، وَرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَزَيْدٍ: «مَا أَجَدُ فِي نَفْسِي أَوْثَقَ مِنْكَ، فَاخْطُبْ زَيْنَبَ عَلَيَّ»، قال: فذهبت وولَّيْتُهَا ظَهْرِي تَوَقِيراً لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَخَطَبْتُهَا فَفَرَحَتْ وَقَالَتْ:

ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدِها، ونزل القرآن فتزوجها النبي ﷺ ودخل بها.

وَالْوَطْرُ: الْحَاجَةُ وَالْبُغْيَةُ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْجَمَاعِ، وَرَوَى جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبَائِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَطَرُ زَوْجَتِكَهَا». وَذَهَبَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَمِنْ قَوْلِ شُعَيْبٍ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْحَلَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَٰئِلَتَيْنِ﴾ إِلَى أَنْ تَرْتَبِطَ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْمَهْجُورِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ: «أَنَّكَ حَكَّهُ إِيَّاهَا»، فَتُقَدِّمُ ضَمِيرَ الزَّوْجِ كَمَا فِي الْآيَتَيْنِ، وَهَذَا عِنْدِي غَيْرُ لَازِمٍ؛ لِأَنَّ الزَّوْجَ فِي الْآيَةِ مُحَاطَبٌ فَحَسُنَ تَقْدِيمُهُ، وَفِي الْمَهْجُورِ الزَّوْجَانِ غَائِبَانِ فَقَدِّمُ مِنْ شَتَّى، وَلَمْ يَبْقَ تَرْجِيحٌ إِلَّا بِدَرَجَةِ الرِّجَالِ وَأَنَّهُمُ الْقَائِمُونَ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ فِيهِ حَذْفُ مِضَافٍ تَقْدِيرُهُ: «وَكَانَ حُكْمُ أَمْرِ اللَّهِ»، أَوْ «مُضْمَنٌ أَمْرُ اللَّهِ»، وَإِلَّا فَالْأَمْرُ قَدِيمٌ لَا يوصف بأنه مفعول، ويحتمل - على بُعد - أَنْ يَكُونَ «الْأَمْرُ» وَاحِدَ الْأُمُورِ الَّتِي شَأْنُهَا أَنْ تُفْعَلَ. وَرَوَى أَنَّ عَائِشَةَ وَزَيْنَبَ تَفَاخَرَتَا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَا الَّتِي سَيَقُتُّ صَفَتِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْجَنَّةِ فِي سَرَقَةِ حَرِيرٍ، وَقَالَتْ زَيْنَبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَا الَّتِي رَزَّوْنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: كَانَتْ زَيْنَبُ تَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي لِأَوَّلُ عَلَيْكَ بِثَلَاثٍ مَا مِنْ نَسَائِكَ امْرَأَةٍ تَدُلُّ بِهَنْ، إِنَّ جَدِّي وَجَدُكَ وَاحِدٌ، وَإِنَّ اللَّهَ أَكْحَلَكَ إِيَّايَ مِنَ السَّمَاءِ، وَإِنَّ السَّفِيرَ فِي ذَلِكَ جَبْرِيلُ.

﴿٣٨﴾ - ﴿٤٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة، أعلمهم أنه لا حرج على رسول الله ﷺ في نيل ما فرض الله له وأبأه، من تزوجه لزينب بعد زيد، ثم أعلم أن هذا ونحوه هو السُنَنُ الأقدم في الأنبياء، من أن ينالوا ما أحله الله لهم، وحكى الشعلبي عن مقاتل وابن الكلبي أن الإشارة إلى داود عليه السلام، حيث جمع الله بينه وبين من فُتِنَ بها. ﴿وَسَكَّوْا﴾ نصب على المصدر، أو على إضمار فعل تقديره: الزم أو نحوه، أو على الإغراء، كأنه قال: فَعَلَيْهِ سُنَّةُ اللَّهِ. ﴿وَالَّذِينَ خَلَّوْا﴾ هم الأنبياء، بدليل وصفهم بغد بقوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾.

﴿وَأَمَرَ اللَّهُ﴾ في هذه الآية، أي: مأمورات الله والكائنات عن أمره، فهي مقدورة، وقوله: ﴿قَدْ رَأَى فِيهِ حَذَفٌ مِثْلُ مَا فِي ذَا قَدَرٍ وَعِزٌّ قَدَرٌ﴾ وقرأ ابن مسعود: ﴿الَّذِينَ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ تعريض بالعتاب الأول في خشية النبي ﷺ النَّاسِ، ثم رد الأمر كله إلى الله، وأنه المحاسب على جميع الأعمال والمعتقدات، وكفى به لا إله إلا هو، ويحتمل أن يكون ﴿حَسِبًا﴾ بمعنى «مُحْسِبٍ»، أي كافياً.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾. أذهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس منافقين وغيرهم من بعد تزوج رسول الله ﷺ زينب زوجة دَعِيَّه زيدا؛ لأنهم كانوا

استعظموا أن يتزوج زوجة ابنه، فنفى القرآن تلك الصورة في البُتُوَّة، وأعلم أن محمداً لم يكن في حقيقة أمره أباً أحد من رجال المعاصرين له، ولم يُقصد بهذه الآية أن النبي ﷺ لم يكن له ولد فيحتاج إلى الاحتجاج في أمر بنه بأنهم كانوا ماتوا، ولا في أمر الحسن والحسين بأنهما كان طفلين، ومن احتج بذلك فإنه تأول نفْيَ البُتُوَّة عنه بهذه الآية على غير ما قُصد بها.

وقرأ ابن أبي عبله وبعض الناس: ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ بالرفع على معنى: هو رسول الله، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم، والأعرج، وعيسى: ﴿رَسُولٌ﴾ بالنصب على العطف على ﴿أَبَا﴾ وهؤلاء قرءوا ﴿وَلَكِنْ﴾ بالتخفيف، وقرأت فرقة: ﴿وَلَكِنْ﴾ بشد النون، فينتصب [رَسُول] على أنه اسم [لَكِنْ] والخبر محذوف.

وقرأ عاصم وحده، والحسن، والشعبي، والأعرج بخلاف: ﴿وَمَنْ أَلْفَ النَّبِيِّ﴾ بفتح التاء على معنى أنهم به خُتِمُوا، فهو كَالْخَاتَمِ والطابع لهم، وقرأ الباقر والجمهور بكسر التاء بمعنى أنه خَتَمَهُمْ أي جاء آخرهم، وروت عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أَنَا خَاتَمُ أَلْفِ نَبِيٍّ»، وهذه الألفاظ عند جماعة علماء

يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ، وَسَلَّمَ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٣٨﴾ تَأْتِيهَا الْبُتُوَّةُ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٣٩﴾ وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٠﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤١﴾ وَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَهْلَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَالَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَعْتَدُوهُنَّ فَمَيْمُونُهُنَّ وَسِرْحُونُهُنَّ سِرَاحًا جَدِيدًا ﴿٤٣﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّذِينَ آمَنَتْ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنِسَاءَ عَمَلِكِ وَنِسَاءَ خَالِكَ وَنِسَاءَ خِلْدِكَ الَّذِينَ هَاجَرُوا مَعَكَ وَامْرَأَةُ الْمُؤْمِنَةِ إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٤٤﴾

٤٢٤

الأمة خَلْفًا وَسَلَفًا مُتَّقِلًا على العموم التام، مُقْتَضِيَةً نَصًّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وما ذكره القاضي ابن الطيب في كتابه المسمى بالهداية من تجويز الاحتمال في ألفاظ هذه الآية ضعيف، وما ذكره الغزالي في هذه الآية وهذا المعنى في كتابه الذي سَمَّاهُ بالاعتقاد إلحاذ عندي، وتطرق خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين في ختم محمد عليه الصلاة والسلام النبوة، فالحذر الحذر منه، والله الهادي برحمته. وقرأ ابن مسعود: ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ نَبِيًّا خَتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، قال الرُّمَّانِي: خُتِمَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْإِسْتِصْلَاحُ، فمن لم يصلح به فمَيْمُونٌ من صلاحه.

قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ عموم، والمقصود به هنا علمه تبارك

وتعالى بما رآه الأصلح لمحمد ﷺ، ما قدره في الأمر كله.

ثم أمر تعالى عباده بأن يذكروه ذكراً كثيراً، وجعل ذلك دون حد ولا تقدير لسهولته على العبيد، ولِعَظَم الأجر فيه قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يعذر أحد في ترك ذكر الله إلا من غلب على عقله، وقال: الكثير: ألا ينساه أبداً، وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ: «أكثرُوا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون».

وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَنَى وَالْفَقْرِ﴾ أراد: في كل الأوقات، فحدّد الزمن بطرفي النهار وليله، وقال قتادة، والطبري وغيرهما: الإشارة إلى صلاتي الغداة والعصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية مدنية فلا يتعلق بها من زعم أن الصلاة إنما فرضت أولاً صلاتين في طرفي النهار، والرواية بذلك ضعيفة، و«الأصيل» من العصر إلى الليل.

ثم عدّد تعالى على عباده نعمته في الصلاة عليهم، وصلاة الله تبارك وتعالى على العبيد هي رحمته لهم، وبركته لديهم، ونشره إلينا الجميل، وصلاة الملائكة الدعاء للمؤمنين، وروى فرقة أن النبي ﷺ قيل له: يا رسول الله، كيف صلاة الله على عباده؟ قال: «سُبُوحٌ قُدُّوسٌ، رحمتي سبقت غضبي»، واختلف في تأويل هذا القول - فقليل: إنه كله من كلام الله، وهي صلاته على عباده، وقيل: «سُبُوحٌ قُدُّوسٌ» من كلام محمد ﷺ، يُقدِّمه بين يدي نطقه

باللفظ الذي هو صلاة الله، وهو: «رحمتي سبقت غضبي»، وقدم عليه الصلاة والسلام هذا من حيث فهم من السائل أن تَوَهُّم في صلاة الله على عباده وجهاً لا يليق بالله تعالى، فقدم التنزيه لله والتعظيم بين يدي إخباره.

وقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنْهُ﴾ أي: صَلَاتِهِ وصلاة ملائكته لكي يهديكم وينقذكم من الكفر إلى الإيمان، ثم أخبر تبارك وتعالى برحمته بالمؤمنين تأنيساً لهم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَلْقَوُكُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قيل: يوم القيامة المؤمن تحييه الملائكة بالسلام، ومعناه: السلامة من كل مكروه. وقال قتادة رضي الله عنه: يوم دخولهم الجنة يُحَيِّي بعضهم بعضاً بالسلام، أي: سلمنا وسلمت من كل هم وتخوف. وقيل: تحييه الملائكة يومئذ، وأما «الأجر الكريم» فإنه جنة الخلد في جوار الله تبارك وتعالى.

١٥ - (٤٩) تفسير قوله عز وجل:

هذه الآيات فيها تأنيس للنبي ﷺ وللمؤمنين، وتكريم لجميعهم، وقوله: ﴿شَهِدُوا﴾ معناه: على أمتك بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم في تبليغ أنبيائهم، ونحو ذلك، وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ معناه: مُبَشِّر للمؤمنين برحمة الله وبالجنة. و﴿نَذِيرًا﴾ معناه: للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ غُلِيًّا ومُعَاذًا رضي الله عنهما، فبعثهما إلى اليمن، وقال: «أذهبَا فَبَشِّرَا وَلَا

تُنْفَرَا، وَسِرَا وَلَا تُعَسِّرَا، فَإِنِّي قَدْ أَنزَلَ عَلَيَّ»، وقرأ الآية، و«الدعاء إلى الله» هو تبليغ التوحيد والأخذ به، ومكافحة الكفرة. و﴿يَاذِيكُم﴾ معناه هنا: بأمره إِيَّاكَ وتقديره ذلك في وقته وأوانه. و﴿وَسِرَاجًا مُّبِينًا﴾ استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه، فكان المهتدين به والمؤمنين يخرجون بنوره من ظلمة الكفر.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسِّرْ﴾، الواو عاطفة جملة على جملة، والمعنى منقطع من الذي قبله، أمره تعالى بأن يبشّر المؤمنين بالفضل الكبير من الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قال لنا أبي رضي الله عنه: هذه من أرجى آية عندي في كتاب الله تعالى؛ لأن الله سبحانه قد أمر نبيه أن يشّر المؤمنين بأن لهم عنده فضلاً كبيراً، وقد بيّن الله تعالى الفضل الكبير ما هو في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾، فالآية التي في هذه السورة خبر، والتي في ﴿حَدِّثْهُمْ﴾ تفسير لها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْلِعَنَّ﴾ و«الْمُتَّقِينَ» نهى له عن السماع منهم في أشياء كانوا يطلبونها مما لا يجب، وفي أشياء كانوا يدخلونها مدخل الناصح وهي غش، إلى نحو هذا المعنى. وقوله: ﴿وَدَعَّ أَدْنَاهُمْ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يأمر بترك أن يؤذيهم هو ويعاقبهم، فكان المعنى: فاصفح عن زلّهم ولا تؤذهم، فالمصدر - على هذا -

مضاف إلى المفعول، ونُسخ من الآية - على هذا التأويل - ما يخص الكافرين، وناسخه آية السيف، والمعنى الثاني أن يكون قوله: ﴿وَدَّعَ أَذْنَهُمْ﴾ بمعنى: أعرض عن أقوالهم وما يؤذونك، فالمصدر - على هذا التأويل - مضاف إلى الفاعل، وهذا تأويل مجاهد، ثم أمره تعالى بالتوكل عليه، وأنسه بقوله: ﴿وَكُنْ بِاللهِ وَكِيلًا﴾، ففي قوة الكلام وغد بنصر. وتقدم القول في ﴿كُنْ بِاللهِ﴾. والوكيل: الحافظ القائم على الأمر.

ثم خاطب تعالى المؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل البناء، واستدل بعض الناس بقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ وبمهلة ﴿ثُمَّ﴾ على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح، وأن من طلق المرأة قبل نكاحها - وإن عتيها - فإن ذلك لا يلزمه، وقال هذا نيف على ثلاثين من صاحب وتابع وإمام، سقى البخاري منهم اثنين وعشرين. وقالت طائفة من أهل العلم: إن طلاق المعينة الشخص أو القبيل أو البلد لازم قبل النكاح، منهم مالك وجميع أصحابه وجمع عظيم من علماء الأمة.

وقرأ جمهور القراء: ﴿تَسْوَرُهُنَّ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وطلحة، وابن وثاب: ﴿تَمَسُوهُنَّ﴾، والمعنى فيهما الجماع، وهذه العدة إنما هي لاستبراء الرحم وحفظ النسب في الحمل، فمن لم تمس فلا يلزم ذلك فيها.

وقرأ جمهور الناس بتشديد الدال من ﴿تَسْدُونَهَا﴾ على وزن تفتعلونها،

من العَدُّ، وروى ابن أبي برزة عن ابن كثير ﴿تَسْدُونَهَا﴾ بالتخفيف، من العدوان، كأنه قال: فما لكم من عدة تعتدونها عدواناً وظلماً لهن. والقراءة الأولى أشهر عن ابن كثير، وتخفيف الدال وَهْمٌ من ابن أبي برزة.

ثم أمر تعالى بتمتع المطلقة قبل البناء، واختلف الناس في المتعة - فقالت فرقة: هي واجبة، وقالت فرقة: هي مندوب إليها، منهم مالك وأصحابه، وقال قوم: المتعة للتي لم يُفرض لها، ونصف المهر للتي فُرض لها، وقال سعيد بن المسيب: بل المتعة كانت لجميعهن بهذه الآية، ثم نسخت آية البقرة بالنصف لمن فُرض لها ما تضمنته هذه الآية من المتعة.

وهذه الآية خصصت آيتين: إحداهما ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾، فخصصت هذه الآية من لم يُدخل بها، وكذلك خصصت من ذوات الثلاثة الأشهر، وَهُنَّ مَنْ قَعَدْنَ عَنْ الْمَحِيضِ، ومن لم يحضن من صغير المطلقات قبل البناء. والسرّاح الجميل هو الطلاق يتبعه عشرة حسنة وكلمة طيبة دون أذى.

﴿٥٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجمهور: ﴿الَّتِي﴾ بناءً من فوق، وقرأ الأعمش: ﴿الَّتِي﴾ بياء من تحت. وذهب ابن زيد، والضحاك في تفسير قوله: ﴿إِنَّا أَنْمَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى أن المعنى أن الله تعالى أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، وأباح له كل

النساء بهذا الوجه، وأباح له ملك اليمين، وأباح له بنات العم والعمة والخال والخالة ممن هاجر معه، وخصص هؤلاء بالذكر تشريفاً وتنبهاً؛ إذ قد تناولهن - على تأويل ابن زيد - قوله: ﴿أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾، وأباح له الواهبات خاصة له، فهذه - على تأويل ابن زيد - إباحة مُطلقة في جميع النساء حاشى ذوات المحارم، لا سيما - على ما ذكره الضحاك - أن في مصحف ابن مسعود ﴿وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ وَاللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾. ثم قال - بعد هذا -: ﴿تَرْجِي مَنْ نَشَأَ مِثْنُ﴾ أي: من هذه الأصناف كلها، ثم تجري الضمائر بعد ذلك على العموم إلى قوله: ﴿وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ فيجيء هذا الضمير مقطوعاً من الأول عائداً على أزواجه التسع فقط، على الخلاف في ذلك.

وتأول غير ابن زيد في قوله: ﴿إِنَّا أَنْمَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ أن الإشارة إلى حفصة وعائشة رضي الله عنهما ومن في عصمته بمن تزوجن بمهر، وأن ملك اليمين بغد حلال له، وأن الله تعالى أباح له ﷺ مع المذكورات بنات عمه وعماته وخاله وخالاته ممن هاجرن معه، والواهبات خاصة له ﷺ، فيجيء الأمر - على هذا التأويل - أضيق على النبي ﷺ، ويؤيد هذا التأويل ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ يتزوج في أي النساء شاء، وكان ذلك يشق على نسائه، فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه الناس إلا من سمي سر نسائه بذلك».

كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿تَرْجِيءُ﴾ بالهمز، وقرأ عاصم - في رواية حفص - وحمزة، والكسائي: ﴿تَرْجِي﴾ بغير همز، وهما لغتان بمعنى. ﴿وَتَوَيَّأَ﴾ معناه: تَضَمَّنَ وتَقَرَّبَ، وقال المبرد: هو مُعَدَّى (رَجَا يَرْجُو)، تقول: رَجَا الرجل وأَرْجَيْتُهُ جعلته ذا رجاء.

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى فسح لِنَبِيِّهِ فيما يفعله في جهة النساء، والضمير في ﴿يُنْهَنَ﴾ عائذ على من تقدم ذكره من الأصناف حيث الخلاف المذكور في ذلك.

وهذا الإرجاء والإيواء يحتمل معاني: منها في القَسَمِ، أي: تَقَرَّبَ من شِئْتِ في القِسْمَةِ لها من نفسك، وتَوَخَّرَ من شِئْتِ، وتَكثَّرَ لمن شِئْتِ، لا حرج عليك في ذلك، فإذا علمن هن أن هذا هو حُكْمُ الله وقضائِه زالت الأنفة والتغاير عنهن، وقررت أعينهن. هذا تأويل مجاهد، وقتادة، والضحاك؛ لأن سبب الآية إنما كان تغايراً - وقع بين زوجات النبي عليه الصلاة والسلام - عليه، فشقي بذلك، ففسح الله تبارك وتعالى له، وأبَّهَنَ بهذه الآيات.

وقال ابن زيد، وابن عباس: في طلاق من شاء مِمَّنْ حصل في عصمته، وإمساك من شاء، وقال ابن زيد: وكان عليه الصلاة والسلام قد همَّ بطلاق بعض نسائه، فقلن له: اقسم لنا ما شئت، فكان ممن أَرْجَأَ سودة وجويرة وصفية وأم حبيبة وميمونة، وأوى إليه عائشة وأم سلمة وحفصة وزينب رضي الله عنهن أجمعين.

وقال الحسن بن أبي الحسن: المعنى: في تزوج من شاء من النساء وترك من شاء، وقالت فرقة: المعنى: في ضَمِّ من شاء من الواهبات وتأخير من شاء.

وعلى كل معنى فالآية معناها التسعة عليه - ﷺ - والإباحة؛ قالت عائشة رضي الله عنها: لما قرأ علي رسول الله ﷺ هذه الآية قلت: ما أرى ريك إلا يسارع في هواك.

وذهب جِبَّةُ الله في النامسخ والمنسوخ له إلى أن قوله: ﴿تَرْجِي مَن نَّشَاءُ﴾ الآية ناسخ قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ الآية، وقال: ليس في كتاب الله ناسخ تقدم المنسوخ سوى هذا. وكلامه يضعف من جهات.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَنْتَهِيَنَّ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ يحتمل معاني: أحدهما أن تكون [مَن] للتبعية، أي: مَن أَرَدْتَهُ وطلبتَه نفسك مِمَّنْ كنت عَزَلْتَهُ وأخَرْتَهُ فلا جناح في ردِّه إلى نفسك وإيوائه إليك بعد عزلته. ووجه ثان وهو أن يكون مُقَوِّياً ومُؤَكِّداً لقوله: ﴿تَرْجِي مَن نَّشَاءُ مِمَّنْ وَتَوَيَّأَ إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ﴾، فيقول بغد: ﴿وَمَن يَنْتَهِيَنَّ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ فذلك سواء لا جناح عليك في جميعه، وذلك كما تقول: ﴿مَن لَقِيكَ مِمَّنْ لم يلقك جميعهم لك شاكرين﴾، وأنت تريد: «مَن لَقِيكَ ومَن لم يلقك»، وهذا المعنى يصح أن يكون في القَسَمِ، ويصح أن يكون في الطلاق والإمساك، وفي الواهبات، وبكل واحدٍ قالت فرقة. وقرأ الجمهور: ﴿ذَلِكَ أَذَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُنَّ﴾ برفع الأعين، وقرأ ابن محيصن: ﴿أَنْ تُقَرَّ﴾ بضم التاء من

﴿تُقَرَّرُ﴾ وكسر القاف ﴿أَعْيُنُهُنَّ﴾ نصباً. وقوله: ﴿يَمَّا أَتَيْنَهُنَّ﴾ أي: من نفسك ومالك. وقرأ جمهور الناس: ﴿كُلُّهُنَّ﴾ رفعاً على التأكيد للضمير في ﴿وَرَضَيْنَ﴾، ولم يجوز الطبري غيرها، وقرأ جويرة بن عابد: ﴿كُلُّهُنَّ﴾ بالنصب على تأكيد ضمير ﴿أَتَيْنَهُنَّ﴾، والمعنى أَنَّهُنَّ يَسْلَمْنَ لله ولحكمه، وكُنَّ قبل لا يتسامحن بينهن للغيرة، ولا يَسْلَمْنَ للنبي ﷺ أَنَفَهُ، نحا إلى هذا المعنى ابن زيد، وقتادة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ خبر عام، والإشارة إلى ما في قلب رسول الله ﷺ من محبة شخص دون شخص، وكذلك يدخل في المعنى أيضاً المؤمنون. وقوله: ﴿حَلِيمًا﴾ صفة تقتضي منه تبارك وتعالى صفحاً وتأنيساً في هذا المعنى؛ إذ هي خواطر وفكر لا يملكها الإنسان في الأغلب.

واتفقت الروايات على أنه عليه الصلاة والسلام عدل بينهن في القسمة حتى مات، ولم يمثل ما أبيع له معهن ضبطاً لنفسه، وأخذاً بالفضل، غير أن سودة وهبت يومها لعائشة توصلاً لمسرة رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدِ﴾، قيل كما قدمنا: إنما حظرت عليه النساء إلا التسع اللواتي كن عنده، فكانت الآية ليست متصلة بما قبلها. قال ابن عباس، وقتادة رضي الله عنهم: لما هجرهن رسول الله ﷺ شهراً وآلى منهن، ثم خرج وخيَّرن فاخترن الله ورسوله، جازاهن الله بأن حظر عليه النساء

غيرهن، وقُتِّعه بهن، وحظر عليه
تبديلهن، ونسخ بذلك ما أباحه له
من قبل من التوسعة في جميع
النساء. وقال أبي بن كعب،
وعكرمة: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ
بَعْدُ﴾ أي: من بعد الأصناف
المسماة. ومن قال بأن الإباحة كانت
له مطلقة قال هنا: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ
الْنِسَاءُ﴾ معناه: لا يحل لك
اليهوديات ولا النصرانيات، وهذا
تأويل فيه بُعْدٌ وإن كان زوي عن
مجاهد، وكذلك قَدَّر: «ولا أن تُبدلَ
اليهوديات والنصرانيات بالمسلمات،
وهو قول أبي رزين، وسعيد بن
جبير. وقال أبي بن كعب: ﴿لَا يَحِلُّ
لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ يعني: لا يحل
لك العمات ولا الخالات ونحوهن،
وأمر مع ذلك ألا يتبدل بأزواجه
التسع، ومنع أن يطلّق منهن ويتزوج
غيرهن، قاله الضحاك. وقيل: ممن
تَزَوَّج وحصل في عصمته، أي: لا
يُبدّلها بأن يأخذ زوجة إنسان ويعطيه
هو زوجته، قال ابن زيد: وهذا شيء
كانت العرب تفعله. وهذا قول
ضعيف أنكره الطبري وغيره في
معنى الآية، وما فعلت العرب هذا
قط، وما زوي من حديث عُيَيْنَةَ بن
حصن أنه دخل على النبي ﷺ وعنده
عائشة رضي الله عنها فقال: (من
هذه الحميراء؟ فقال له النبي ﷺ: «هذه عائشة»، فقال عُيَيْنَةُ: يا
رسول الله، إن شئت نزلت لك عن
سيدة نساء العرب جمالاً ونسباً)
فليس بتبدل، ولا أراد ذلك، وإنما
احتقر عائشة لأنها كانت صبيّة فقال
هذا القول.

وقرأ أبو عمرو - بخلاف -:
﴿تَحِلُّ﴾ بالتاء على معنى: جماعة
النساء، وقرأ الباقون بالياء من تحت،
على معنى: جميع النساء، وهما
حسان؛ لأن تأنيث لفظ النساء ليس
بحقيقي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ
حُسْنُهُنَّ﴾، قال ابن عباس
رضي الله عنهما: نزل ذلك بسبب
أسماء بنت عميس، أعجب
رسول الله ﷺ حُسْنُهَا حين مات
عنها جعفر بن أبي طالب، [فأراد أن
يتزوجها]، وفي هذه اللَّفْظَةِ:
﴿أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ دليل على جواز
أن ينظر الرجل إلى من يريد
زواجها، وقد أراد المغيرة بن شعبة
زواج امرأة فقال له النبي ﷺ: «انظر
إليها فإنه أجدر أن يؤدِمَ بينكما»،
وقال ﷺ لآخر: «انظر إليها فإن في
أعين الأنصار شيئاً»، قال الحميدي:
يعني: صفراء، وقال سهل بن
أبي حشمة: رأيت محمد بن مسلمة
يطارد بُيُوتَةَ بنت الضحاك على إجار
من أجاجير المدينة، فقلت له:
أنفعل هذا؟ فقال: نعم، قال
النبي ﷺ: «إذا ألقى الله في قلب
أحدكم خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر
إليها».

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ﴾. ﴿مَا﴾ في موضع رفع بدل
من ﴿النِّسَاءِ﴾، ويجوز أن تكون في
موضع نصب على الاستثناء، وفي
النصب ضعف، ويجوز أن تكون
﴿مَا﴾ مصدرية، والتقدير: إلا ملك
يمينك، وبمعنى (مملوك)، وهو في
موضع نصب لأنه استثناء من غير

الجنس الأول. و«الرَّقِيبُ» فعيل
بمعنى فاعل، أي: راقب.

﴿٥٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تتضمن قصتين: إحداهما
الأدب في أمر الطعام والجلوس،
والثانية أمر الحجاب.

فأما الأولى فالجمهور من المفسرين
على أن رسول الله ﷺ لَمَّا تزوج
زينب بنت جحش أولم عليها، فدعا
الناس، فلما طعموا قعد نفر في
طائفة من البيت، فشغل على
رسول الله ﷺ مكانهم، فخرج
ليخرجوا بخروجه، ومز على حجر
نسائه، ثم عاد فوجدهم في مكانهم
وزينب في البيت معهم، فلما دخل
ورأهم انصرف، فخرجوا عند ذلك،
قال أنس: فأعلم أو أعلمته
بانصرافهم فجاء، فلما وصل الحجرة
أرعى الستر بيني وبينه ودخل،
ونزلت الآية بسبب ذلك. وقال
قتادة، ومقاتل - في كتاب الثعلبي -:
إن هذا جرى في بيت أم سلمة،
والأول أشهر، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما: نزلت في ناس من
المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي
عليه الصلاة والسلام، فيدخلون عليه
قبل الطعام إلى أن يدرك، ثم يأكلون
ولا يخرجون. وقال إسماعيل بن
أبي حكيم: هذا أدب أدب الله به
الثقلاء، وقال ابن أبي عائشة في
كتاب الثعلبي: بحسبك من الثقلاء
أن الشرع لم يحتملهم.

وأما آية الحجاب فقال أنس بن
مالك وجماعة: سبها أمر القعود في
بيت زينب، القصة المذكورة آنفاً،
وقالت فرقة: بل في بيت أم سلمة،

وقال مجاهد: نزلت آية الحجاب بسبب ذلك، وقالت عائشة رضي الله عنهما وجماعة: سبب الحجاب كلام عمر رضي الله عنه، وأنه كلم رسول الله ﷺ مراراً في أن يحجب نساءه، فكان رسول الله ﷺ لا يفعل، وكان عمر يتابع، فخرجت سودة ليلاً لحاجتها - وكانت امرأة تفرغ النساء طوياً - فناداها عمر رضي الله عنه: قد عرفناك يا سودة - حرصاً على الحجاب - وقالت له زينب بنت جحش: عجبا لك يا ابن الخطاب، تغار علينا الوحي ينزل في بيوتنا؟ فما زال عمر رضي الله عنه يتابع حتى نزلت آية الحجاب.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وافقت ربي في ثلاث: منها الحجاب، ومقام إبراهيم، و﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكَ﴾ الحديث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يُبَكَّر من شاء إلى دار الدعوة، ينتظرون طبخ الطعام ونضجه في حديث وأنس، وكذلك إذا انتهوا منه جلسوا كذلك، فنهى الله تعالى المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي ﷺ، ودخل في النهي سائر المؤمنين، وألزم الناس أدب الله لهم في ذلك، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل، لا قبله لا انتظار نضج الطعام.

و ﴿تَنْظِرِينَ﴾ معناه: منتظرين، و﴿إِنَّهُ﴾ مصدر أتى الشيء يأتي إذا فرغ وحان إتي، ومنه قول الشاعر:

تَمَحَّضَتِ الْمَثُونُ لَهُ يَتِيمٌ
أَتَى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامٌ
وقرأ الجمهور بفتح النون من ﴿إِنَّهُ﴾ وأمالها حمزة والكسائي. ثم أكد المنع وحصر وقت الدخول بأن يكون عند الإذن، ثم أمر بعد الطعام بأن يفترق جمعهم ويتشر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَنْظِرِينَ لِجَدِيدٍ﴾ عطف على قوله: ﴿غَيْرَ نَظْرِينَ﴾، و﴿غَيْرٍ﴾ منصوبة على الحال من الكاف والميم في ﴿لَكُمْ﴾، أي: غَيْرَ ناظرين ومستأنسين. وقرأ ابن أبي عملة: ﴿غَيْرٍ﴾ بكسر الراء، وجوازه على تقدير: غير ناظرين إناء أنثم. وقرأ الأعمش: ﴿إِنَّهُ﴾ على جمع (إني) بملء بعد النون. وقرأت فرقة: ﴿فَيَسْتَخِي﴾ بإظهار الياء المكسورة قبل الساكنة، وقرأت فرقة: ﴿يَسْتَخِي﴾ بسكون الياء دون ياء مكسورة قبلها. وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَخِي﴾ معناه: لا يقع منه تزك قول الحق، ولما كان ذلك يقع من البشر لعللة الاستحياء نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك في البشر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ الآية هي آية الحجاب، و﴿المتاع﴾ عام في جميع ما يمكن أن يطلب على غرف السكنى والمجاورة من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا. ﴿ذَلِكَ أَمَلُهُمْ لِقَائِهِمْ﴾ و﴿قُلُوبُهُنَّ﴾ يريد الخواطر التي تعرض للنساء في أمر الرجال.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ

تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآية، روي أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال: لو مات رسول الله - ﷺ - لتزوجت عائشة، فأتى به، هكذا كثر عنه ابن عباس - (بعض الصحابة)، وحكى مكي عن مغمر أنه قال: «هو طلحة بن عبيدالله».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لله در ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا عندي لا يصح على طلحة الله عاصمه منه، وروي أن رجلاً من المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أُم سَلَمَةَ بعد أبي سلمة، وحفصة بعد خنيس بن حذافة. «ما بال محمد يتزوج نساءنا، والله لو قد مات لأجلنا السهام على نساته»، فنزلت الآية في هذا، حرم الله نكاح أزواجه بعده، وجعل لهن حكم الأمهات، ولما توفي رسول الله ﷺ وارتدت العرب ثم رجعت تزوج عكرمة بن أبي جهل قبيلة بنت الأشعث بن قيس، وكان رسول الله ﷺ قد تزوجها ولم يبين بها، فصعب ذلك على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقيل له، فقال له عمر رضي الله عنه: مهلاً، إنها ليست من نساته، إنه لم يخبرها ولا أرخى عليها حجاباً، وقد أبانتها منه ودثها مع قومها، فسكن أبو بكر رضي الله عنه، وذهب عمر إلى ألا يشهد جنازة زينب بنت جحش إلا ذو محرم منها مراعاة للحجاب فدلته أسماء بنت عميس على سترها في النعش بالقبّة، وأعلمته أنها رأت ذلك في بلاد الحبشة فصنّعه، وروي أن

قتادة: هو الحجاب، أي: أُنِج لهذه الأصناف الدخول على النساء دون الحجاب ورؤيتهن، وقال مجاهد: ذلك في وضع الجلباب وإبداء الزينة.

ولما ذكر الله تعالى الرخصة في هذه الأصناف، وانجزمت الإباحة، عَطَفَ فأمرهن بالتقوى عطف جملة، وهذا في غاية البلاغة والإيجاز، كأنه قال: اقتصِرْ على هذا وأتقِن الله فيه أن تتعدّيه إلى غيره، ثم توعّبه تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

٥٦ - ٥٨ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية شَرَفَ الله بها رسوله ﷺ، وذكر منزلته منه، وظهر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء في أمر زوجاته، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿يَسْلُتُونَ﴾، قالت فرقة: الضمير فيه لله وللملائكة، وهذا قول من الله تعالى شَرَفَ به ملائكته، فلا يصحبه الاعتراض الذي جاء في قول الخطيب عند النبي ﷺ: «من أطاع الله ورسوله رَشِدَ، ومن يعصهما فقد ضل»، فقال له رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت»، قالوا: لأنه ليس لأحد من البشر أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير واحد، والله أن يفعل من ذلك ما يشاء. وقالت فرقة: في الكلام حذف تقديره: إن الله يصلي على النبي وملائكته يصلون، ودل الظاهر من القول على ما تَرَكَ، وليس في الآية اجتماع في ضمير، وقالت فرقة: بل جمع الله تعالى

والإخوة وأبنائهم وأبناء الأخوات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْلُتْنَ فِيهِ﴾ دخل فيه الأخوات والأمهات وسائر القربات ومن يتصل من المنصرفات لهن، هذا قول جماعة من أهل العلم، ويؤيد قولهم هذه الإضافة المخصصة في قوله: ﴿يَسْلُتْنَ﴾، فقال ابن زيد وغيره: إنما أراد جميع النساء المؤمنات، وتخصيص الإضافة إنما هي في الإيمان.

قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾، قالت طائفة:

من الإمام دون العبيد، وقالت طائفة: من العبيد والإماء، ثم اختلفت هذه الطائفة - فقالت فرقة: ما مَلَكَته من العبيد دون من ملك سواهن، وقالت فرقة: بل من جميع العبيد، كان في يملكهن أو يملك غيرهن، والمُكَاتَب إذا كان عنده ما يؤدي فقد أمر رسول الله ﷺ بضرب الحجاب دونه، وفعلت ذلك أم سلمة مع مكاتبها نبهان، ذكره الزهراوي.

وقالت فرقة: دخل الأعمام في الآباء، وقال الشعبي، وعكرمة: لم يذكرهن لإمكان أن يصفوا لأبنائهم، وكذلك الأخوال، وكرهوا أن تضع المرأة خمارها عند عمها أو خالها.

واختلف المتأولون في المعنى الذي رفع فيه الجُناح بهذه الآية - فقال

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِنَ وَلَا أَبْنَائِنَ وَلَا إِخْوَانِنَ وَلَا أُمَّهَاتِنَ وَلَا أَيْمَنِنَ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٤﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْتُلُوا أَيْمَنَهُمْ وَأَنَّمَا عَلَيْهِمْ بِئَاتُهَا الَّذِي قُلْنَا زَوَّجَكَ وَبَيَاتُكَ رَسُولَ الْمُؤْمِنِينَ يَدْرِكُ عَلَيْهِمْ مِنْ جَلِيلِهِمْ ذَلِكَ أَذَقْنَا أَنْ يَعْرِفَ فَلَا يُؤْذِنُ وَلَا يَكُ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٧﴾ لَنْ لِنَبْنِيَهُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ غَافِلِينَ ﴿٥٨﴾ أَتَيْتُمَا تُقَفُّوا أَخِذُوا وَقُفُّوا أَعْيُنَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَاوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٥٩﴾

ذلك صُنع في جنازة فاطمة بنت النبي ﷺ.

٥٩ - ٥٩ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْرَأُ شَيْئًا أَوْ تَخْفَؤْ﴾ الآية... وعيد وتوبيخ لمن تقدم التعريض به في الآية قبلها، ممن أشير إليه بقوله: ﴿ذَلِكَكُمْ أَظْهَرَ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِمْ﴾، ومن أشير إليه في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، ف قيل لهم في هذه الآية: إن الله يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة، ويُجازيكم عليها، ثم ذكر تبارك وتعالى الإباحة فيمن سُمي من القرابة؛ إذ لا تقتضي أحوال البشر إلا مداخلة من ذُكر، وكثرة تزاده، وسلامة نفسه من أمر الغزل؛ لما تتحاماه النفوس من ذوات المحارم، فمن ذلك الآباء والأولاد

الملائكة مع نفسه في ضمير، وذلك جائز للبشر فعله، ولم يقل رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت» لهذا المعنى، وإنما قاله لأن الخطيب وقف على «من يعصهما» وسكت سكتة، ومما يؤيد هذا أن في كلام النبي ﷺ في مصنف أبي داود: «فجمع ذكر الله وذكر رسوله في ضمير»، ومما يؤيد القول الأول أن في كتاب مسلم: «بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله»، وهذا يحتمل أن يكون لما خطأه في وقفه وقال له: «بئس الخطيب أنت» أصح له بعد ذلك جميع كلامه؛ لأن فصل ضمير اسم الله تعالى من ضمير غيره أولى لا محالة، فقال له: «بئس الخطيب أنت» لموضع خطئه في الوقف، وحمله على الأولى في فصل الضميرين وإن كان جمعهما جائزاً.

وقراءة الجمهور: ﴿وَلَيْسَ كَذِبٌ﴾ نصباً عطفاً على المكنون، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما بالرفع عطفاً على الموضع قبل دخول [إِن]، وفي هذا نظر.

وصلاة الله تعالى رحمةً منه وبركة، وصلاة الملائكة دعاءً وتعظيم، والصلاة على رسول الله ﷺ في كل حين من الواجبات وجوب الشئ المؤكدة التي لا يصح تركها، ولا يغفلها إلا من لا خير فيه، وقال عليه الصلاة والسلام: «أكثرُوا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة فإنه يوم مشهود».

وصفَّتها على ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام في كتاب الطبري، ومن طريق ابن عباس

رضي الله عنهما، أنه لما نزلت هذه الآية قال له قوم من الصحابة: هذا السلام عليك يا رسول الله عرفناه، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، وَارْحَمْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ كَمَا رَحِمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»، وفي بضع الروايات زيادة ونقص، وهذا معناه.

وقرأ الحسن: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَصَلُّوا عَلَيْهِ﴾، وهذه الفاء تُقَوِّي معنى الشرط، أي: صَلَّى الله فصلوا أنتم، كما تقول: أعطيتك فخذ، وفي حرف عبدالله: ﴿صَلُّوا عليه كما صَلَّى الله عليه وسلموا تسليماً﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية، قال الجمهور معناه: بالكفر ونسبة الصاحب والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به، وفي الحديث (قال الله: شتمني عبيدي فقال: إن لي ولداً، وكذبني فقال: إنه لن يبعث)، وقال عكرمة معناه: بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وخلقها، وقد قال رسول الله ﷺ: «لعن الله المصورين»، وقالت فرقة: ذلك على حذف مضاف، تقديره: يؤذون أولياء الله.

وإذاية الرسول ﷺ هي بما يؤذيه به من الأقوال في غير معنى واحد، ومن الأفعال أيضاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في الذين طعنوا عليه حين اتَّخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُجَيٍّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والطعن في تأمير أسامة إذاية له أيضاً.

وقوله: ﴿لِيُتْرَ﴾ معناه: أبعدوا من كل خير.

وإذاية المؤمنين والمؤمنات هي أيضاً بالأفعال والأقوال القبيحة والبهتان والكذب الفاحش المختلف، وزوي أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال يوماً لأبي بن كعب، إني قرأت البارحة هذه الآية ففرغت منها ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، والله إنني لأضربهم وأنهرهم، فقال له أبي: لست منهم يا أمير المؤمنين، إنما أنت مُعَلِّمٌ وَمَقُومٌ، وذكر أبو حاتم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ثم قال لأبي رضي الله عنه: كيف تقرأ هذه الآية؟ فقرأها كما قرأها عمر رضي الله تعالى عنه.

تفسير قوله عز وجل:

لما كانت عادة العربيات التبذل في معنى الحجة، وكنَّ يكشفن وجوههن كما تفعل الإماء، وكان ذلك داعياً إلى نظر الرجال إليهن وتشعب الفكرة فيهن - أمر الله رسوله ﷺ بأمرهن بإذن الجلابيب ليقع تسترهن، ويبين الفرق بين الإماء والحرائر، فتعرف الحرائر بسترهن، فيكف عن معارضتهن من كان غزلاً أو شاباً.

وزوي أنه كان في المدينة قوم يجلسون على الصعداء لرؤية النساء

ومعارضتهن ومراودتهن، ونزلت الآية بسبب ذلك.

و «الْجَلْبَاب»: ثوب أكبر من الخمار، وزوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه أنه الرداء. واختلف الناس في صورة إدناؤه - فقال ابن عباس، وعبيدة السلماني: ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها، وقال ابن عباس أيضاً، وقناة: ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه.

وقوله تعالى: «ذَلِكَ أَتَى أَنْ يَعْرِفَنَّ»، أي: على الجملة بالفرق حتى لا يختلطن بالإماء، فإذا عُرِفْنَ لم يقابلن بأدنى من المعارضة مراقبة لرتبة الحرية، وليس المعنى أن تُعرف المرأة حتى تُعلم من هي، وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى أمة تقشعت فنعها الدرة محافظة على زِيِّ الحرائر.

وباقى الآية تزجية ولطف وحض على التوبة وتطميع في رحمة الله، وفيها تأنيس للنساء في ترك الجلابيب قبل هذا الأمر المشروع.

﴿٦٠﴾ - ﴿٦١﴾ تفسير قوله عز وجل:

اللَّامُ فِي «لَيْنٍ» هِيَ الْمُؤَذِّنَةُ بِمَجِيءِ الْقَسَمِ، وَاللَّامُ فِي «لَتُعْرَبَنَّكَ» هِيَ لَامُ الْقَسَمِ، وَتَوَعَّدَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأَصْنَافَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَقَرَنَ تَوَعُّدَهُ بِقِرْنَةٍ مَتَابَعَتِهِمْ فِي تَرْكِهِمُ الْإِنْتِهَاءَ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: إِنَّ هَذِهِ الْأَصْنَافَ لَمْ

تنته. ولم ينفذ الله عليهم هذا الوعيد، فهذه الآية دليل على بطلان القول بإنفاذ الوعيد في الآخرة، وقالت فرقة: إن هذه الأصناف انتهت، وتستر جميعهم بأمرهم وكفوا، وما بقي من أمرهم أنفذ الله وعيداً بإزائه، وهو مثل نهى النبي ﷺ عن الصلاة عليهم، إلى غير ذلك مما أحله رسول الله ﷺ بالمنافقين: من الإذلال في إخراجهم من المسجد، وبما نزل فيهم من سورة براءة، وغير ذلك، فهم لم يمتثلوا الانتهاة جملة، ولا نفذ عليهم الوعيد كاملاً.

و «الْمُتَنَفِّثُونَ» صنف يظهر الإيمان ولا يبطنه، «وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ» هُوَ الْغُلُزُ وَحِبُّ الزُّنَى، قَالَهُ عِكْرَمَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَيَقْطَعُ أَلْيَٰى فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ»، «وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ» هُمْ قَوْمٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ بِغَزْوِ الْعَرَبِ الْمَدِينَةَ، وَبِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَيَغْلِبُ، إِلَىٰ نَحْوِ هَذَا مِمَّا يَرْجِفُونَ بِهِ نَفْسُ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَصْنَافُ مُتَفَرِّقَةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ دَاخِلَةً: فِي جَمْلَةِ الْمُنَافِقِينَ لَكِنَّهُ نَصٌّ عَلَىٰ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ - وَقَدْ ضَمَّهُمْ عُمُومُ لَفْظَةِ الْفَنَاقِ - تَنْبِيْهُاً عَلَيْهِمْ، وَتَشْرِيداً بِهِمْ، وَغَضاً مِنْهُمْ.

و «تُعْرَبَنَّكَ» معناه: نحضك عليهم بعد تعيينهم لك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لِنُسَلِّطَنَّكَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: لِنَحْرُسَنَّكَ

بِهِمْ. وقوله: «ثُمَّ لَا يُجَاوِزُكَ» أي بعد الإغراء؛ لأنك تنفيهم بالإخافة والقتل، «إِلَّا قَلِيلاً» يحتمل أن يريد: إِلَّا جَوَاراً قَلِيلاً وَوَقْتاً قَلِيلاً، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: إِلَّا عِدداً قَلِيلاً كَأَنَّهُ قَالَ: إِلَّا أَقِلَاءً. وقوله: «تَلْعَوِيكَ» يجوز أن ينتصب على الدَّم، قاله الطبري، ويجوز أن يكون بدلاً من «أَقِلَاءَ» الذي قدرناه قبل في أحد التأويلات، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في «يُجَاوِزُكَ»، كَأَنَّهُ قَالَ: يَنْتَقُونَ مِنَ الْمَدِينَةِ مُلْعَوِينَ، فَلَمَّا تَقَرَّرَ «لَا يُجَاوِزُكَ» تَقْدِيرُ «يَنْتَقُونَ» حَسَنٌ هَذَا، وَاللَّعْنَةُ: الْإِبْعَادُ، وَ«تُقْفَوُا» معناه: حُصِرُوا وَقُدِرَ عَلَيْهِمْ، وَ«أَخِذُوا» معناه: أُسِرُوا، وَالْأَخِيزُ: الْأَسِيرُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْعَرَبِ: «أَكْذَبَ مِنَ الْأَخِيزِ الصُّبْحَانِ»، وَقَرَأَ جُمْهُورُ النَّاسِ: «تَقْسِيلاً» بِشَدِّ التَّاءِ، وَيُؤَيِّدُهَا الْمَصْدَرُ بَعْدَهَا، وَقَرَأَتْ فِرْقَةٌ بِتَخْفِيفِ التَّاءِ، وَالْمَصْدَرُ - عَلَىٰ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ - عَلَىٰ غَيْرِ الْمَصْدَرِ، قَالَ الْأَعْمَشُ: كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ غَيْرَ هَذَا الْمَوْضِعِ فَهُوَ «قُتِلُوا» بِالتَّخْفِيفِ.

وقوله تعالى: «سُنَّةَ اللَّهِ» نصب على المصدر، ويجوز فيه الإغراء على بعد، و «الَّذِينَ خَلَّوْا» هم منافقوا الأمم، وقوله: «وَكُنْ حِدَّةً لِّسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً»، أي: من غالب يستقر تبديله، فيخرج عن هذا تبديل العصاة والكفرة، ويخرج عنه ما يبدله الله من سُنَّةٍ بِسُنَّةٍ فِي النَّسْخِ.

﴿٦٣﴾ - ﴿٦٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ، متى هو؟ فلم يُجِبْ في ذلك بشيء، ونزلت الآية أمرة أن يَرُدَّ العلم فيها إلى الله؛ إذ هي من مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها، ثم توعد العالم بقربها في قوله: ﴿وَمَا يَذُرُكَ﴾ الآية... أي: ينبغي أن تحذر، و﴿قَرِيبًا﴾ لفظة واحد جمعاً وإفراداً ومذكراً ومؤنثاً، ولو كان صفة لـ ﴿السَّاعَةِ﴾ لكان «قريبة». ثم توعد الكافرين بعذاب لا ولي لهم فيه ولا ناصر.

وقوله: ﴿يَوْمَ﴾ يجوز أن يكون متعلقاً بما قبله، والعامل فيه ﴿يَجِدُونَ﴾، وهذا تقدير الطبري، ويجوز أن يكون العامل فيه ﴿يَقُولُونَ﴾ ويكون ظرفاً للقول.

وقرأ الجمهور: ﴿تَقَلَّبَ وَجُوهُهُمْ﴾ على المفعول الذي لم يسم فاعله، بضم التاء وشد اللام المفتوحة، وقرأ أبو حية: ﴿تَقَلَّبَ وَجُوهُهُمْ﴾ بفتح التاء، بمعنى تَنَقَّلَبَ، وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿تَتَقَلَّبَ﴾ بتاءين، وقرأ خارجة، وأبو حية: ﴿تَقَلَّبَ﴾ بالنون، وقرأ عيسى بن عمر الكوفي: ﴿تَقَلَّبَ﴾ بالتاء المضمومة وكسر اللام ونصب الوجوه، أي تَقَلَّبَ السعير وجُوهُهُمْ، فيومئذ يتمنون الإيمان وطاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم التمني.

ثم لا ذلوا بالتشكي من كبرائهم في أنهم أضلُّوهم، وقرأ جمهور الناس: ﴿سَادَتَنَا﴾ وهو جمع سيد، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وابن عامر وحده - من السبعة -، وأبو

عبدالرحمن، وأبو رجاء، وقتادة، والعامية في المسجد الجامع بالبصرة: ﴿سَادَاتِنَا﴾، على جمع الجمع، و﴿السَّيْلَ﴾ مفعول ثان؛ لأن «أضل»، مُعَدَّى بالهمزة، و«أضل» يتعدى إلى مفعول واحد، وهي سبيل الإيمان والهدى، ثم دعوا بأن يضاعف الله للكبراء المضللين العذاب، أي: عن أنفسهم وعمَّن أضلُّوا. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحذيفة بن اليمان، والأعرج - بخلاف عنه -:

﴿لَعَنَّا كَبِيرًا﴾ بالياء، من الكبير، وقرأ الباقون والجمهور: ﴿لَعَنَّا كَبِيرًا﴾ بالثاء ذات الثلاث، والكثرة أشبه بمعنى اللعنة من الكبير، أي: ألعنهم مرات كثيرة.

﴿٦٥﴾ - ﴿٦٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

الَّذِينَ آذَوْا مُوسَى هُم قَوْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، واختلف الناس في الإذاية التي كانت وبرأه الله منها - فقالت فرقة: هي قصة قارون وإدخاله المرأة البغي في أن تدعي على موسى، ثم تبرئتها موسى وإشهارها لمداخلة قارون، وقد تقدمت القصة في ذكر قارون. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هي أن موسى وهارون عليهما السلام خرجا من فحوص الثَّيِّ إلى جبل، فمات هارون فيه، فجاء موسى وحده، فقال قوم: هو قتله، فبعث الله ملائكة حملوا هارون عليه السلام حتى طافوا به في

سُئِلَ النَّاسُ عَنْ السَّاعَةِ فَلَمْ يَمْلِكُوا أَنْ يَدْرِكُوا لَهَا السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلَايَةً وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ نَبَلَّيْنَا أَطْعَمَنَا اللَّهُ وَأَطْعَمَنَا الرَّسُولُ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحُوا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا أَنهَمْ ضَعُفَيْنِ مِنْكَ الْعَذَابِ وَالْعَنَمِ لَعَنَّا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْغِرْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيُغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

٤٢٧

أسباط بني إسرائيل، ورأوا آية عظيمة دلَّتهم على صدق موسى عليه السلام، ولم يكن فيه أثر [القتل]، وروي أنه جِئِي فَأخبرهم بأمره وبرأه موسى، وقال ابن عباس، وأبو هريرة، وجماعة: هي ما تضمنه حديث النبي عليه الصلاة والسلام، قال: «كان بنو إسرائيل يقتلون عراة، وكان موسى عليه السلام يستتر كثيراً ويخفي بدنه، فقال قوم: هو أدر أو أبرص أو به آفة، فاعتسل موسى يوماً وحده وجعل ثيابه على حجر، ففَرَّ الحجر بثيابه وأتبعه موسى يقول: ثوبِي حَجَرٌ، ثوبِي حَجَرٌ، ثوبِي حَجَرٌ، فَمَرَّ فِي أَتْبَاعِهِ فِي مِلْحٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ سَلِيمًا مِمَّا ظُنُّوا بِهِ...» الحديث بطوله خرَّجه البخاري، فَبَرَّاهُ اللَّهُ مما قالوا.

و «الْوَجِيه»: المكرم الوجه، وقرأ الجمهور: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وقرأ

عبد الله بن مسعود: ﴿وكان عبداً لله﴾. ثم وصّى الله المؤمنين بالقول السداد، وذلك يعمّ جميع الخيرات، وقال عكرمة: أراد: «لا إله إلا الله»، والسداد يعمّ جميع هذا، وإن كان ظاهر الآية يُعطي أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافاً للأذى الذي قيل في جهة الرسول ﷺ وجهة المؤمنين، ثم وعد تعالى بأنه يجازي على القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب. وباقى الآية بين.

﴿٧٢﴾ - ﴿٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في الأمانة - فقال ابن مسعود رضي الله عنه: هي في أمانات المال كالودائع ونحوها، وزوي عنه أنه في كل الفرائض، وأشدّها أمانة المال.

وذُهِبَ فرقة هي الجمهور إلى أنها كل شيء يؤتمن الإنسان عليه، من أمر ونهي وشأن دين ودنيا، فالشرع كله أمانة، قال أبي بن كعب رضي الله عنه: من الأمانة أن تؤتمن المرأة على فرجها. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: غسل الجنابة أمانة، ومعنى الآية، إذا عرضنا على هذه المخلوقات العظام أن تحمل الأوامر والنواهي، وتقتضي الشواب إن أحسنت والعقاب إن أساءت، فأبَت هذه المخلوقات وأشقت.

ويحتمل أن يكون هذا العرض بإدراك يخلقه الله لها، ويحتمل أن يكون هذا العرض على من فيها من الملائكة، وزوي أنها قالت: ربّ دُرْزني مسخرة لما شئت أنت، طائعة فيه، ولا تكلفني إلى نظري وعملي، لا أريد ثواباً. وحمل الإنسان

الأمانة: أي: التزم القيام بحقّها، وهو في ذلك ظُلوم لنفسه، جهول بقدر ما دخل فيه، وهذا تأويل ابن عباس، وابن جُبَيْر، وقال الحسن: ﴿وَحَمَلَهَا﴾ معناه: خان فيها، والآية في الكافر والمنافق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والعصاة على قدرهم.

وقال ابن عباس وأصحابه، والضحاك، وغيره: الإنسان: آدم، تحمّل الأمانة، فما تمّ له يوم حتى عصى المعصية التي أخرجه من الجنة. وزوي أن الله تبارك وتعالى قال له: يا آدم، إنّي عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، أفتحملها أنت بما فيها؟ قال: وما فيها؟ قال: إن أحسنت أجزت، وإن أسأت عوقبت، قال: نعم قد حملتها، قال ابن عباس رضي الله عنهما، فما مرّ له ما بين الأولى والعصر حتى عصى ربّه.

وقال ابن مسعود، وابن عباس: الإنسان: ابن آدم، قابيل الذي قتل أخاه، وكان قد تحمّل لأبيه أمانة أن يحفظ الأهل بعده، وكان آدم عليه السلام سافر عنهم إلى مكة في حديث طويل ذكره الطبري وغيره.

وقال بعضهم: الإنسان: النوء كله، وهذا حسن مع عموم الأمانة.

وقال الزجاج: معنى الآية: إنا عرضنا الأمانة في نواهيها وأوامرنا على هذه المخلوقات، فقمّن بأمرها، وأطعن فيما كلفناها، وتأبّين من حمل المذمة في معصيتنا، وحمل الإنسان المذمة فيما كلفناه من أوامرنا وشرعنا، والإنسان - على تأويله - الكافر والعاصي.

وتستقيم هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَائِفِينَ﴾، فعلى التأويل الأول الذي حكيناه يكون قوله: ﴿أَتَيْنَا طَائِفِينَ﴾ إجابة لأمر أمرت به، وتكون هذه الآية إجابة وإشفاقاً من أمر عرض عليها وخيّرت فيه، زوي أن الله عرض الأمانة على هذه المخلوقات فأبَت، فلما عرضها الله تبارك وتعالى على آدم عليه السلام قال: أنا أحملها بين أذني وعاتقي، فقال الله: إنّي سأعينك، وقد جعلت لبصرك حجاباً فأغلقه عما لا يحلّ لك، ولِفَرْجك لباساً فلا تكشفه إلا على ما أخلّكت لك. وزوي في هذا المعنى أشياء تركتها اختصاراً لعدم صحتها.

وقال قوم: إن الآية من المجاز، أي: إنا إذا قايستنا يُقَلّ الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال رأينا أنها لا تُطيقها، وأنها لو تكلمت لأبنتها وأشفقت، فعبر عن هذا المعنى بالآية، وهكذا كما تقول: عرضت الجمل على البعير فأباه، وأنت تريد بذلك: قايست قوّته يُقَلّ الجمل فرأيت أنها تقصر عنه.

قوله تعالى: ﴿لِعَذَابِ اللَّهِ﴾ هي لام العاقبة؛ لأن الإنسان لم يحمل ليقع العذاب، لكن حمل فصار الأمر وآل إلى أن يُعَذَّب من نافق أو أشرك، وأن يتوب على من آمن. وقرأ الجمهور: ﴿يَتُوبُ﴾ نصباً، عطفاً على قوله: ﴿لِعَذَابِ اللَّهِ﴾، ورفعها الحسن على القطع والاستئناف. وباقي الآية بين.

كمل بعون الله وتوفيقه تفسير سورة الأحزاب والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة سبا

هي مَكِّيَّة، واختلف في قوله تعالى: ﴿وَبَرِّى الَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ﴾ الآية - فقالت فرقة: هي مَكِّيَّة، والمراد المؤمنون بالنبي عليه الصلاة والسلام، وقالت فرقة: هي مدنية، والمراد من أسلم بالمدينة من أهل الكتاب كابن سلام وأشباهه.

﴿١﴾ - تفسير قوله عز وجل: الألف والسلام في ﴿الْحَمْدُ﴾ لاستغراق الجنس، أي: الحمد على تنوعه هو لله تعالى من جميع جهات الفكرة، ثم جاء بالصفات التي تستوجب المحامد، وهي: مُلْكُهُ جميع ما في السموات وما في الأرض، وعِلْمُهُ المحيط بكل شيء، وحِكْمَتُهُ وخبرته بالأشياء، إذ وجودها إنما هو به جلَّت قدرته، ورحمته بأنواع خلقه، وغفرائه لمن سبق في علمه أن يغفر له من مؤمن. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ يحتمل أن تكون الألف واللام للجنس أيضاً، وتكون الآية خبراً أن الحمد في الآخرة هو له وحده لإنعامه وأفضاله وتغمُّده وظهور قدرته وغير ذلك من صفاته، ويحتمل أن تكون الألف واللام فيه للعهد والإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَزِدُّهُمْ دَعْوَتَهُمْ أَنْ يَحْمَدُوا رَبَّ الْغَالِيَتِ﴾، أو إلى قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ﴾.

﴿وَيَلِيحُ﴾ معناه: يدخل، ومنه قول الشاعر:
رَأَيْتُ الْقَوَافِي يَتَلَحَّجْنَ مَوَالِجَا
تَضَائِقُ عَنْهَا أَنْ تَوَلَّجَهَا الْإِبْرَ

و ﴿يَتَزَجُّ﴾ معناه: يصعد. وهذه الرُتَبُ حصرت كل ما يصح عمله من شخص أو قول أو معنى، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿وَمَا يَتَزَلُّ مِنْ السَّمَاءِ﴾ بضم الباء وفتح الثون وشذ الزاي. عز وجل:

رُوي أن قائل هذه المقالة هو أبو سفيان بن حرب، قال: «واللأت والعزى ما ثم ساعة تأتي، ولا قيامة ولا حشر». فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقسم بربه مقابلة لِقَسَمِ أَبِي

سفيان، قبل: رداً وتكذيباً وإيجاباً لما نفاه، وأجاز نافع الوقف على ﴿بَلَى﴾، وقرأ الجمهور: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بالثاء من فوق، وحكى أبو حاتم قراءة: ﴿لَيَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بالياء على المعنى في البعث.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي - بخلاف عنه -: ﴿عَلَيْهِ﴾ بالخفض على البدل من ﴿رَبِّي﴾، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿عَالِمٌ﴾ بالرفع على القطع، أي: هو عالم، ويصح أن يكون ﴿عَالِمٌ﴾ رفع بالابتداء، وخبره ﴿لَا يَغْرُبُ﴾ وما بعده، ويكون الإخبار بأن «العالم» لا يعزب عنه شيء إشارة إلى أنه قدر وقتها وعِلْمُهُ، والوجه الأول أقرب. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿عَلَامٌ﴾ على المبالغة مخفوضاً على البدل. و﴿يَغْرُبُ﴾ معناه: يغيب ويبعد، وبه



فسر مجاهد وقتادة. وقرأ جمهور القراء بضم الزاي، وخفضوها الكسائي، وابن وثاب، وهما لغتان. و﴿يَمْقَالُ ذَرَفُ﴾ معناه: مقدار تثاقلها، وهذا في الأجرام بين، وفي المعاني بالمقايسة. وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ بالرفع عطفًا على قوله: ﴿يَمْقَالُ﴾، وقرأ نافع، والأعمش، وقتادة: ﴿أَصْفَرُ﴾، و﴿أَكْبَرُ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿ذَرَفُ﴾، ورويت عن أبي عمرو، وفي قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ضمير تقديره: إلا هو في كتاب مبين، والكتاب المُبِينُ هو اللوح المحفوظ.

واللام في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ يصح أن تكون متعلقة بقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ويصح أن تكون متعلقة بقوله: ﴿لَا يَغْرُبُ﴾، ويصح

وقرأ عاصم - في رواية حفص -: ﴿الْبُرِّ﴾ بالرفع على الثَّعْتِ، والباقون بالكسر على نعت «الرُّجْزِ»، و«الرُّجْزُ» هو العذاب الشَّيْءُ جداً، وقرأ ابن محيصن: «رُجْزٍ» بضم الراء. ﴿٦﴾ - ﴿٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال الطبري والشعبي وغيرهما: ﴿بَرِّ﴾ معطوف على ما قبله من الأفعال، والظاهر أنه مُستأنف، وأن الواو إنما عطفت جملة على جملة، وكان المعنى الإخبار بأن

أهل العلم يروون الوحي المنزل على محمد ﷺ حقاً وأنه يهدي إلى صراط مستقيم.

وقوله: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ﴾ مفعول به ﴿بَرِّ﴾، و﴿الْحَقِّ﴾ مفعول ثانٍ، و﴿مُرِّ﴾ عماد. و﴿الَّذِيكَ أُنْزِلَ﴾ أَيْلَة. قيل: هم من أسلم من أهل الكتاب، وقال قتادة: هم أمة محمد عليه الصلاة والسلام المؤمنون به كائناً من كان، و﴿يَهْدِي﴾ معناه: يُرشد، و﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الطريق المعتدل، وأراد طريق الشرع والدين.

ثم حكى عن الكفار مقالتهن التي قالوها على جهة التعجب والهُزء، أي: قالها بعضهم لبعض، كما يقول الرجل لمن يريد أن يُعجبه: هل أذلك على أضحوكة نادرة؟ فلما كان البعث عندهم من البعيد المحال

أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْعَبِيدِ ﴿٨﴾ أَفَأَفْتَرُوا لِي مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّاءِ وَالْآرِضِينَ إِن شَاءَ تُخَفِّفْ بِهِمُ الْآرِضَ وَأَوْسِقُطْ عَلَيْهِمْ كَيْفَ تَنْزِيلُ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَاجَالُ أَوَّيْ مَعَهُ وَالظُّفْرُ وَالنَّسَاءُ الْحَدِيدِ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدِرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَسَلْبْنِ أَرْبَعَ عُذُوها شَهْرٍ وَوَأَها شَهْرٍ وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْذِنُ رِيءَهُ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ وَنَسْجِلُ بِهِمَا كُتُوباً وَتُؤَدُّ رَأْسِيتَ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَدِّرْ مِنْ عِبَادِي الشُّكْرُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا أَضَيَّتْ عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْجِنَّ أَنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا يَبُوءُ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

٤٢٩

أن تكون متعلقة بما في قوله: ﴿إِلَّا﴾ في كِتَابٍ ثَبِينٍ من معنى الفعل؛ لأن المعنى: إلا أثبتته في كتاب مبين. و﴿الْمَغْفِرَةَ﴾ تغفد الذنوب، و﴿الرُّزْقُ﴾ الكريم، الجنة.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ معطوف على ﴿الَّذِينَ﴾ الأولى، أي: وليجزي الذين سَعَوْا، و﴿مُعْجِزِينَ﴾ معناه: محاولين تعجيز قدرة الله فيهم. وقرأ الجحدري، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ دون ألف، أي: معجزين قدرة الله تبارك وتعالى بزعمهم. وقال ابن الزبير: معناه: مُشْبِطِينَ عن الإيمان من أراده، مدخلين عليه العجز في نشاطه، وهذا هو سعيهم في الآيات، أي: في شأن الآيات. ثم بيّن تعالى جزاء هؤلاء الساعين، كما بيّن قبل جزاء المؤمنين.

جعلوا من يُخبر بوقوعه في حيز من يُتَعَجَّب منه، والعامل في ﴿إِذَا﴾ فعل مضمر قبلها فيما قال بعض الناس، تقديره: يُتَبَيَّنُ بَأْتِكُمْ تُبْعَثُونَ إِذَا مُرُقْتُمْ، ويصح أن يكون العامل ما في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَبِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ من معنى الفعل؛ لأن تقدير الكلام: يُتَبَيَّنُ بَأْتِكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ إِذَا مُرُقْتُمْ. وقال الزجاج: العامل في ﴿إِذَا﴾ هو ﴿مُرُقْتُمْ﴾ وهو خطأ وإفساد للمعنى المقصود، ولا يجوز أن يكون العامل ﴿يُتَبَيَّنُ بَأْتِكُمْ﴾ بوجه، و﴿مُرُقْتُمْ﴾ معناه: بالبلى وتقطع الأوصال في القبور وغيرها. وكسر الألف من ﴿إِنَّكُمْ﴾ لأن ﴿يُتَبَيَّنُ بَأْتِكُمْ﴾ في معنى: يقول لكم، ولمكان اللام التي في الخبر. و﴿جَدِيدٍ﴾ بمعنى: مُجَدَّد.

وقولهم: «أَفْتَرَى» هو من قول بعضهم لبعض، وهي ألف الاستفهام دخلت على ألف الوصل، فحذف ألف الوصل، وبقيت مفتوحة غير ممدودة، فكان بعضهم استفهم بعضاً على محمد - ﷺ -: «أَحَالُ الْغَفْرَةِ عَلَى اللَّهِ هِيَ حَالُهُ أَمْ حَالُ الْجَنُونِ؟» لأن هذا القول إنما يصدر عن أحد هذين. فأضرب القرآن عن قولهم وكذبه، فكانه قال: ليس الأمر كما قالوا، ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، والإشارة بذلك إليهم، ﴿فِي الْعَذَابِ﴾، يريد: عذاب الآخرة؛ لأنهم يصيرون إليه، ويحتمل أن يريد: في العذاب في الدنيا بمكابدة الشرع ومكابדתه، ومحاولة إطفاء نور الله وهو يَبْتِئُ، وهذا كله عذاب، وفي الضلال البعيد، أي: قويت

الخيرَةُ وتمكَّنَ الثَّلْفُ لَأنَّهُ قد أبعد صاحبه عن الطريق الذي ضلَّ منه.

﴿١١﴾ - ﴿١٠﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

الضمير في ﴿يَرَوْنَ﴾ لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، وقفهم الله على قدرته، وخوفهم من إحاطتها بهم، المعنى: أليس يرون أمامهم ووراءهم سمائي وأرضي، لا سبيل لهم عن فقد ذلك عن أبصارهم، ولا عدم إحاطته بهم.

وقرأ الجمهور: ﴿إِنْ شَأْنًا فَخِيفَ﴾ ﴿أَوْ شَيْطَ﴾ بالنون في الثلاثة، وقرأ حمزة، والكسائي بالياء فيهن، وهي قراءة ابن وثاب، وابن مسرّف، والأعمش، وعيسى، واختارها أبو عبيدة. و«خَسِفُ الْأَرْضِ» هو إَهْوَاؤُهَا بهم وتهوُّرها وغرقهم فيها، و«الْكَسْفُ» قيل: هو مفردة اسم القطعة، وقيل: هو جمع كَسْفَةٍ، على مثال ثَمَرَةٍ وَثَمَرٍ، ومشهور جمعها كِسْفٌ كَبْدَةٌ ويَذَرُ.

وأدغم الكسائي الفاء في الباء في قوله تعالى: ﴿فَخِيفَ بِهِمْ﴾، قال أبو علي: وذلك لا يجوز؛ لأنَّ الباء أضعف في الصوت من الفاء فلا تدغم فيها، وإن كانت الباء تدغم في الفاء في قولك: «اضرب فلاناً»، وهذا كما تدغم الباء في الميم في قولك: «اضرب محمداً»، ولا تدغم الميم في الباء في قولك: «أصم بك»؛ لأنَّ الباء انحطت عن الميم بفعل الغنة التي في الميم.

والإشارة بقوله: ﴿فِي ذَلِكَ﴾ إلى إحاطة السماء بالمرء، ومماشة الأرض له على كل حال. و«الْمُنِيبُ»: الرَّاجِعُ.

ثم ذكر تعالى نعمته على داود وسليمان عليهما السلام احتجاجاً على ما منح محمداً ﷺ، أي: لا تستبعدوا هذا فقد تفضلنا على عبيدنا قديماً بكذا، فلما فرغ التمثيل بمحمد عليه الصلاة والسلام رجع التمثيل لهم بسبيل وما كان من هلاكهم بالكفر والعُتُو، والمعنى: قلنا: يا جبال، و﴿أَرَبِي﴾ معناه: أرجعي معه؛ لأنَّ مضاعف آب يؤوب، فقال ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم: معناه: سبحي معه، أي: يُسَبِّح هو وترجع هي معه التسبيح، أي: تردُّ بالذكر، ثم ضوعف الفعل للمبالغة، وقيل: معناه: سيري معه؛ لأنَّ التأريب سير النهار، كأنَّ الإنسان يسير بالليل ثم يرجع السير بالنهار، أي يُرَدُّه، فكأنَّه يُؤَوِّبه، فقليل له: التأريب، ومنه قول الشاعر:

يَوْمَانِ يَوْمٌ مُقَامَاتٍ وَأُنْدِيَّةٌ
ويَوْمٌ سِيرٍ إِلَى الْأَعْدَاءِ تَأْوِيبٌ
ومنه قول ابن مقبل:

لَجِئْنَا بِحَيٍّ أَوْبُوا السَّيْرَ بَغْدَا
ذَفَعْنَا شَعَاغَ الشُّنْسِ وَالطَّرْفَ يَجْنَحُ
وقال مؤرج: ﴿أَرَبِي﴾: سبحي بلغة الحبشة، وهذا ضعيف غير معروف، وقال وهب بن مُثَنِّه: المعنى: نوحى معه والطير تساعدك على ذلك، قال: فكان داود عليه السلام إذا نادى بالثياحة والحنين أجابته الجبال وعكفت الطير عليه من فوقه، قال: فمن حيثئذ سُمع صدى الجبال، وقرأ الحسن، وقتادة، وابن أبي إسحق: ﴿أَوْبِي﴾ بضم الهمزة وسكون الواو، أي: أرجعي معه، أي في السير أو

في التسبيح، وأمر الجبال كما تؤمر الواحدة المؤنثة لأنَّ جميع ما لا يعقل كذلك يُؤَمَّر، وكذلك يكنى عنه ويوصف، ومنه المثل «يا خيل الله اركبي»، ومنه ﴿مَتَّارِبٌ أُخْرَى﴾، وهذا كثير.

وقرأ الأعرج، وعاصم - بخلاف - وجماعة من أهل المدينة: ﴿وَالطَّيْرُ﴾ بالرفع عطفاً على لفظ قوله: ﴿يَجِئَالُ﴾، وقرأ نافع، وابن كثير، والحسن، وابن أبي إسحق، وأبو جعفر: ﴿وَالطَّيْرُ﴾ بالنصب - فقليل: ذلك عطف على ﴿فَضَلًا﴾ وهو مذهب الكسائي، وقال سيبويه: هو على موضع قوله: ﴿يَجِئَالُ﴾؛ لأنَّ موضع المنادي المفرد نصب، وقال أبو عمرو: تُضَيِّبُهَا بِإِضْمار فعل تقديره: وسخرنا الطير. وقوله: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ معناه: جعلناه لَيْثاً، وروى قتادة أنَّ الحديد كان له كالشمع لا يحتاج في عمله إلى نار، وقيل: أعطاه قُوَّةٌ يَفْنِي بها الحديد، وزوي أنه لقي ملكاً - وداود عليه السلام يظنه إنساناً - وداود متنكر خرج ليسأل الناس عن نفسه في خفاء، فقال داود لذلك الشخص الذي تمثل فيه الملك: ما قولك في هذا الملك داود؟ فقال له الملك: نَعَمْ العبد لولا خلَّةٌ فيه، فقال داود: وما هي؟ قال: يرتزق من بيت المال، ولو أكل من عمل يده لَنَمِتَ فضائله، فرجع فدعا الله في أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه، فعلمه صنعة اللبوس، وألان له الحديد، فكان - فيما زوي - يصنع فيما بين يومه وليلته دِزْعاً تُساوي ألف درهم،

حتى ادّخر منها كثيراً وتوسّعت معيشته، وكان ينفق بيت المال في مصالح المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿أَن أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ﴾، قيل: إنّ [أَن] مفسّرة لا موضع لها من الإعراب، وقيل: هي في موضع نصب بإسقاط حرف الجرّ، و«السَّابِغَاتُ»: الدروع الكاسيات ذوات القفول، قال قتادة: داود عليه السلام أول من صنعها، ودرع الحديد مؤنثة، ودرع المرأة مذكرة. قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ﴾. اختلف المتأولون، في أي شيء هو التقدير من أشياء السَّرْد؟ إذ السَّرْد هو إتياع الشيء بالشيء من جنسه، قال الشماخ:

كَمَا تَابَعَتْ سَرْدَ الْعَيْنِ الْخَوَارِزُ
ومنه: سَرْدَ الحديث، وقيل للدرع: مسرودة لأنها ثوبعت فيها الحلق بالحلق، ومنه قول الشاعر:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا
دَاوُدُ أَوْ صَنَعَ السُّوَابِغُ تَبْعُ
وقول دُرَيْد:

....
فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ
قال ابن زيد: التقدير الذي أمر به هو في قدر الحلقة، أي: لا تعملها صغيرة فتضعف حتى لا تقوى الدرع على الدفاع، ولا كبيرة فينال لبسها من خلالها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التقدير الذي أمر به هو في المسمار، يريد: قدر المسمار والحلق، حتى لا تدق المسمار فتسلس، ويروى: فَيُسَلْسِلُ، ولا تغلظه فينقصم،

بالقاف - وبالفاء أيضاً رواية -، وروى قتادة أن الدروع كانت قبله صفائح فكانت ثقلاً، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع بين الخفة والحصانة، أي: قدر ما يأخذ من هذين المعنيين بقسطه، أي: لا يقصد الحصانة فيثقل، ولا الخفة وحدها فيزيل المنعة.

قوله: ﴿وَأَعْمَلُوا صَلْبَةً﴾، لما كان الأمر لداود وآله حكيم وإن كان لم يخبر لهم ذكر لدلالة المعنى عليهم، ثم توعدهم بقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أي: لا يخفى عليّ حسنه من قبّحه، وبحسب ذلك يكون جزائي لكم.

﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال الحسن: عقر سليمان عليه السلام الخيل أسفاً على ما فوته من وقت صلاة العصر، فأبدله الله خيراً منها وأسرع، الريح بأمره، وقرأ الجمهور: ﴿الرَّيْحُ﴾ بالنصب على معنى: ولسليمان سخرنا الريح، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - والأعرج: ﴿الرَّيْحُ﴾ بالرفع على تقدير: تسخّرت الريح، أو على الابتداء، والخبر في المجرور، وذلك على حذف مضاف تقديره: ولسليمان تسخير الريح، وقرأ الحسن: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ﴾، وكذلك جَمَعَ في كل القرآن.

قوله تعالى: ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاهُهَا شَهْرٌ﴾، قال قتادة: إنها كانت تقطع به في العُدُّ إلى قرب الزّوال مسيرة شهر، وتقطع به في الرّواح من بعد الزّوال إلى الغروب مسيرة شهر، وروى عن الحسن البصري أنه قال:

كان يخرج من الشام من مُسْتَقَرِّه بتدمر التي بنتها له الجن بالصفاح والعمد فيقيل في اصطخر، ويروح منها فيبيت في كابل من أرض خراسان، ونحو هذا، وكانت الأعاصير تَقِلُّ بساطه وتحمله بعد ذلك الرُّخاء، وكان هذا البساط يحمل - فيما روي - أربعة آلاف فارس وما يشبهها من الرجال والعُدَد ويتسع لهم، وروى أكثر من هذا بكثير، ولكن عدم صحته مع بُعد شبهه أوجب اختصاره، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «خير الجيوش أربعة آلاف»، وما كان سليمان ليعدو الخير.

وقرأ ابن أبي عبله: ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّحَتْهَا شَهْرٌ﴾، وكان سليمان عليه السلام إذا أراد قوماً لم يُشْر به حتى يُظْلَهُمْ في جو السماء.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ بَعْنُ الْقِطْرِ﴾، روي عن ابن عباس، وقاتدة أنه كان يسيل له باليمن عين جارية من نحاس يُصنع له منها جميع ما أحب، والقطر: النحاس، وقالت فرقة: القطر: الفيلز كله، النحاس والحديد وما جرى مجراه، كانت تسيل له منه عيون، وقالت فرقة: بل معنى ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ بَعْنُ الْقِطْرِ﴾: أدبنا له النحاس، على نحو ما كان الحديد يلين لداود، قالوا: وكانت الأعمال تتأني منه لسليمان وهو بارد دون نار، ومعنى المذاب، وقالوا: لم يلين النحاس ولا ذاب لأحد قبله.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْجِبِّ مَن يَعْمَلُ﴾، يحتمل أن تكون [مَن] في موضع

نصب على الإتيان لما تقدم بإضمار فعل تقديره: وسخرنا من الجن مَنْ يعمل، ويحتمل أن تكون في موضع رفع على الابتداء، والخبر في المجرور، و﴿يَزِغُ﴾ معناه: يضل، أي ينحرف عاصياً، وقال: ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ ولم يقل: «عن إرادتنا» لأنه لا يقع في العالم شيء يخالف الإرادة، وقد يقع ما يخالف الأمر. قال الضحاك: وفي مصحف عبدالله: ﴿وَمَنْ يَزِغُ عَنْ أَمْرِنَا﴾ بغير «مِنْهُمْ». وقوله: ﴿مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، قيل: عذاب الآخرة، وقيل: بل كان قد وكل بهم ملك بيده سوط من نار السعير، فمن عصى ضربه فأحرقه.

﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

المحارب: الأبنية العالية الشريفة، قال قتادة: القصور والمساجد، وقال ابن زيد: المساكن، والمحارب أشرف موضع في البيت، والمحارب موضع العبادة أشرف ما يكون منه، وغلب عُرف الاستعمال في موضع وقوف الإمام لشرفه، ومن هذه اللفظة قول عدي بن زيد:

كذمى أَلْعَاج في المحارِبِ أو كا
لَبْيَض في الرُّوض زَهْرُهُ مُسْتَنْبِرُ
والتماثيل، قيل: كانت من زجاج ونحاس، تماثيل أشياء ليست بحيوان، وقال الضحاك: كانت تماثيل حيوان، وكان هذا من الجائز في ذلك الشرع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونُسَخ بشعر محمد ﷺ.

وقال قوم: حرم التصوير لأن الصور كانت تُعبد، وحكى في الهداية أن فرقة تجوز التصوير وتحتج

بهذه الآية، وذلك خطأ، وما أحفظ من أئمة العلم من يجوزوه.

والجوابي جمع جابية، وهي البركة التي يجيء إليها الماء الذي يجتمع، قال الرازي:

فَصَبَّخْتُ جَابِيَةَ صُهَارِجَا
كَأَنَّهُ جِلْدُ السَّمَاءِ خَارِجَا
وقال مجاهد: هي جمع جوبة، وهي الحفرة العظيمة في الأرض، وفي هذا نظر، ومنه قول الأعشى:

نَفَى الدُّمَّ عَنْ آلِ الْمُحَلَّتِي جَفْنَةً
كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِي تَفْهَنُ
وأنشد الطبري: «تَرَوْحُ عَلَى آلِ الْمُحَلَّتِي»، ويروى: «السَّيْحُ» بالسُّين المهملة والحاء المهملة، وهو الماء الجاري على وجه الأرض، ويروى بالشين والحاء منقوطين، فيقال: أراد كسرى، ويقال: أراد شيخاً من فلاحى سواد العراق غير معين، وذلك أنه لضعفه يذخر الماء في جابية فهي تَفْهَقُ أبداً، فشبهت الجفنة بها لعظمتها، وقال مجاهد، وقاتدة، والضحاك، وابن زيد: «الجوابي: الحياض». وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي:

﴿كَجَوَابٍ﴾ بغير ياء في الوصل والوقف، وقرأ أبو عمرو، وعيسى بغير ياء في الوقف وبياء في الوصل، وقرأ ابن كثير بياء فيهما. وَجَّه حذف الياء التخفيف والإيجاز، وهذا كحذفهم الياء في «القاض، والقاز، والهاد»، وأيضاً فلما كانت الألف واللام تعاقب التنوين وكانت الياء تحذف مع التنوين وجب أن تحذف مع ما عاقبته، كما يُعْمَلون الشيء أبداً عمل نقيضه.

و﴿رَأْسَيْنِ﴾ معناه: ثابتات لكبرها، ليست مما يُنقل ولا يُحمل، ولا يستطيع عمله إلا الجن، وبالثبت فسرهما الناس. ثم أمروا مع هذه النعم بأن يعملوا بالطاعات.

وقوله: ﴿شُكْرًا﴾ يحتمل أن يكون نصبه على الحال، أي: اعملوا بالطاعة في حال شكر منكم الله على هذه النعم، ويحتمل أن يكون نصبه على جهة المفعول، أي: اعملوا عملاً هو الشكر، كأن الصلاة والصيام والعبادات كلها هي نفسها الشكر إذ سُدَّت مسدده، وفي الحديث أن النبي ﷺ صعد المنبر فتلا هذه الآية، ثم قال: «ثلاث من أوتيهن فقد أوتي في العمل شكراً: العدل في الغضب والرضى، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السر والعلانية»، وروي أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أطيق شكرك على نِعَمِكَ وإِنهَامِي وقُدْرَتِي على شكرك نِعْمَةً لك؟ فقال: الآن يا داود عرفتنى حق معرفتي، وقال ثابت: روي أن مُصَلَّى آل داود لم يَخُل قَطُّ من قائم يصلي ليلاً ونهاراً، كانوا يتناوبونه دائماً، وكان سليمان عليه السلام - فيما روي - يأكل الشعير، ويطعم أهله الخشكار، ويطعم المساكين الذُّمَك. وروي أنه ما شبع قط، فقيل له في ذلك فقال: أخاف إن شبت أن أنسى الجيع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْلٌ مِّنْ عِبَادِي الشُّكُورِ﴾ يحتمل أن تكون مخاطبة لآل داود، ويحتمل أن تكون مخاطبة لمحمد ﷺ، وعلى كل حال ففيها تنبيه وتحريض، وسمع عمر بن

الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول: اللهم اجعلني من القليل، فقال له: ما هذا الدعاء؟ فقال: أردت قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾، فقال عمر: كل الناس أعلم من عمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، والقِلَّةُ أيضاً بمعنى الخمول منحة من الله تبارك وتعالى، فلهذا الدعاء محاسن.

﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير عائد على سليمان عليه السلام، ﴿وَقَصَّيْنَاكَ﴾ بمعنى: أنفدنا وأخرجناه إلى حيز الوجود، وإلاً فالقضاء الأخير به متقدم في الأزل، وروي عن ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهما في قصصها أن سليمان عليه السلام كان يتعبد في بيت المقدس، وكان ينبت في محرابه كل سنة شجرة، فكان يسألها عن منافعها ومضارها وسائر شأنها فتحبره، ويأمر فيها فتقلع وتصرف في منافعها، أو تُغرس لتتناسل، فلما كان عند موته خرجت شجرة فقال لها: ما أنت؟ قالت: أن الخروب، خرجت لخراب ملكك هذا، فقال: ما كان الله ليخبره وأنا حي، ولكنه لا شك حضور أجلي، فاستعد عليه السلام وغرسها، وصنع منها عصاً لنفسه، وجد في عبادته، وجاءه بعد ذلك ملك الموت، فأخبره أنه قد أمر بقبض روحه، وأنه لم يبق له إلا مدة يسيرة، فروي أنه أمر الجن حينئذ فصنعت له قبة من زجاج تشف. وحصل فيها يتعبد، ولم يجعل لها

باباً، وتوكل على عصاه على وضع يتماسك معه وإن مات، ثم توفي ﷺ على تلك الحالة، وروي أنه استعد في تلك القبة بزيادة سنة، وكان الجن يتوهمون أنه يتغذى بالليل، وكانوا لا يقربون من القبة، ولا يدخلون من كوى كانت في أعاليها، ومن رام ذلك منهم احترق قبل الوصول إليها، هذا في مدة حياة سليمان عليه السلام في القبة، فبقيت تلك الهيبة عن الجن، وروي أن القبة كان لها باب، وأن سليمان أمر بعض أهله بكتمان موته عن الجن والإنس، وأن يترك على حاله تلك سنة، وكان غرضه في هذه السنة أن يعمل الجن عملاً كان قد بُدئ في زمن دود عليه السلام وقدر أن بقي منه عمل سنة، فأحب الفراغ منه، فلما مضى لموته سنة خر عن عصاه، وقد أكلتها الأرضة، وهي الدودة التي تأكل العود، فرأت الجن انخزازه فتوهمت موته، فجاء جسور منهم فاقترب فلم يحترق، ثم عاد فاقرب أكثر، ثم قرب حتى دخل من بعض الكوى فوجد سليمان عليه السلام ميتاً فأخبر بموته، فنظر ذلك الأجل فقدر أنه سنة، قال بعض الناس: جعلت الأرضة فأكلت يوماً وليلة، ثم قيس ذلك بأكلها في العَصَا فَعُلِمَ أنها أكلت منذ سنة، فهكذا كانت دلالة دابة الأرض على موته. وللمفسرين في هذا القصص إكثار عُمْدَتِهِ ما ذكرناه. وقال كثير من المفسرين: ﴿دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾: سوسة العود، وهي الأرضة. وقرأ ابن عباس، والعباس بن الفضل:

﴿الْأَرْضِ﴾ بفتح الراء، جمع أرضة، فهذا يقوي ذلك التأويل. وقالت فرقة: ﴿دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾: حيوان من الأرض، شأنه أن يأكل العود، وذلك موجود، وليست السوسة من دواب الأرض. وقالت فرقة منها أبو حاتم اللغوي: ﴿الْأَرْضِ﴾ هنا مصدر أَرْضَتِ الْأَنْوَابَ وَالْخَشَبَ إذا أكلتها الأرضة، كأنه قال: دابة الأكل الذي هو بتلك الصورة، على جهة السوس.

وفي مصحف عبدالله: ﴿أَكَلَتْ مِثْسَاتَهُ﴾، والمِثْسَاة هي العصا، ومنه قول الشاعر:

إِذَا دَبَّيْتُ عَلَى الْمِثْسَاةِ مِنْ كِبَرٍ
فَقَدْ تَبَاعَدَ مِثْكَ اللَّهُوُ وَالْعَزَلُ
وكذا قرأت جماعة من القراء غير همز، منها أبو عمرو، ونافع، قال أبو عمرو: ولا أعرف لها اشتقاقاً، فأنا لا أهمزها؛ لأنها إن كانت مما لا يهمز فقد احتطت؛ لأنه لا يجوز لي همز ما لا يهمز، وقال غيره: أصلها الهمز، وهي من المِثْسَاة بهمة مفتوحة، من: نَسَأْتُ الْإِبِلَ والغنم والثاقفة إذا سَفَتَهَا، ومنه قول طرفة:

أَمَوْنَ كَعِيدَانِ الْأَرَانِ نَسَأَتْهَا
عَلَى لَاجِبٍ كَأَنَّهُ ظَهَرَ بُرْجُودٌ
ويُروى: «وَعَسَسَ كَالْوِجَاحِ»، وخففت همزتها جملة، وكان القياس أن تخفف بينَ يَيْنَ. وقرأ باقي السبعة على الأصل بالهمز. وقرأ حمزة: ﴿مِثْسَاتُهُ﴾ بفتح الميم وبغير همز، وقرأت فرقة: ﴿مِثْسَاتُهُ﴾ وهذا لا وجه له إلا التخفيف في تسكين

المتحرك لغير علة، كما قال امرؤ القيس:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ
إِثْمًا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ
وقرأت فرقة: ﴿مِنْ سَأْتِهِ﴾ بفصل
﴿مِنْ﴾ وكسر الشاء في ﴿سَأْتِهِ﴾،
وهذه تنحو إلى: سببة القوس؛ لأنه
يقال: سببة وسأة، فكأنه قال: «من
سأته» ثم سكن الهمزة، ومعناها: من
طرف عصاه، أنزل العصا منزلة
القوس.

وقال بعض الناس: إن سليمان عليه
السلام لم يمت إلا في سفر
مضطجعاً، ولكنه كان في بيت مبني
عليه، وأكلت الأرضة عتبة الباب
حتى خَرَّ البيت فعلم موته، وهذا
ضعيف.

وقرأ الجمهور: ﴿تَبَيَّنَ الْجِنُّ﴾
بإستاد الفعل إليها، أي: بأن أمرها،
كأنه قال: افتضحت الجن، أي
للإنس، هذا تأويل. ويحتمل أن
يكون قوله: ﴿تَبَيَّنَ الْجِنُّ﴾ بمعنى:
علمت الجن وتحققت، ويريد
بالجن: جمهورهم والفعلة منهم
والخدمة، ويريد بالضمير في
﴿كَانُوا﴾ رؤساءهم وكبارهم؛ لأنهم
هم الذين يدعون علم الغيب
لأتباعهم من الجن والإنس
ويؤهمونهم ذلك، قاله قتادة، فتبين
الأتباع أن الرؤوس لو كانوا عالمين
ما لبثوا. و [أَن] - على التأويل الأول
- بدل من ﴿الْجِنِّ﴾، وعلى التأويل
الثاني مفعولة محضة، وقرأ يعقوب:
﴿تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ﴾ على الفعل
المجهول، أي: تَبَيَّنَتْهَا النَّاسُ، و
[أَن] - على هذه القراءة - بدل،

ويجوز أن تكون في
موضع نصب بإسقاط
حرف الجر، أي: بأن،
على هذه القراءة، وعلى
التأويل الأول من القراءة
الأولى.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: مذهب سيويه
أن [أَن] في هذه الآية لا
موضع لها من الإعراب،
وإنما هي مؤذنة بجواب ما
تنزل منزلة القسم من الفعل
الذي معناه التحقق
واليقين؛ لأن هذه الأفعال
التي هي: تبينت وتحققت
وعلمت وتبينت ونحوها

تحل محل القسم في
قولك: علمت أن لو قام زيد ما قام
عمرو، وكأنك قلت: والله لو قام زيد
ما قام عمرو، فقوله: ﴿مَا يَسْتُرُوا﴾ -
على هذا القول - جواب ما تنزل منزلة
القسم لا جواب «العذاب المهيئ»،
وفي كتاب النحاس إشارة إلى أنه يقرأ
بنصب «الجن»، أي: تَبَيَّنَتْ الْإِنْسُ
الْجِنُّ، و«العذاب المهيئ» هو العمل
في تلك الشجرة، والمعنى أن الجن
لو كانت تعلم الغيب لما خفي عليها
أمر سليمان عليه السلام، وقد ظهر أنه
خفي عليها بدوامها في الخدمة
الصعبة وهو ميت، فالْمُهيئُ: المُذِلُّ،
من الهوان. قال الطبري: وفي بعض
القراءات ﴿قَلَمًا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْإِنْسُ أَنْ
الْجِنُّ لَوْ كَانُوا﴾، وحكاها أبو الفتح
عن ابن عباس، والضحاك،
وعلي بن الحسين. وذكر أبو حاتم
أنها كذلك في مصحف ابن مسعود،

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ
كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ جَنَّتَيْنِ
ذَوَاتِ أَكْأَلٍ حَمِيمٍ وَأَقْبَلَ وَنُوءٍ وَمِنْ سِيَدٍ لِجَلِيلٍ
﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً
وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالٍ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٧﴾
فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ وَفَرَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْجَلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿١٨﴾ وَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَهِكَ فَكَفَرُوا بِهِ لَوْلَا
فِرْقَانُ الْآمُورِ مِيزِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ
إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَوْمَئِذٍ بِالْآخِرَةِ مَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٢٠﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ذَرُّوا قُرْبَى السُّنُوبِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكِ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهْرٍ ﴿٢١﴾

وأكثر المفسرون في قصص هذه الآية
بما لا صحة له، ولا تقتضيه ألفاظ
القرآن، وفي معانيه بُعد، فاختصرته
لذلك.

﴿١٥﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا مثل لقريش يقوم أنعم الله
عليهم وأرسل إليهم الرُّسُلَ فكفروا
وأعرضوا فانتقم منهم، أي: فأنتم
أيها القوم مثلهم. وسبأ: أراد به
القبيل، واختلف، لِمَ سُمِّيَ القبيل
بذلك؟ فقالت فرقة: هو اسم امرأة
كانت أم القبيل، وقال الحسن بن
أبي الحسن في كتاب الرُّمَّاني: هو
اسم موضع، قَسَمِي القبيل به، وقال
الجمهور: هو اسم رجل كان أباً
للقبيل كلهم، قيل: هو ابن
يشجب بن يعرب، ورؤي في هذا
القول حديث أن النبي ﷺ سأله
قُرْوة بن مُسَيْك عن سبأ، ما هو؟

فقال: «هو اسم رجل مِنْهُ تناسلت قبائل اليمن».

وقرأ نافع، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة، والأعرج: ﴿لِسَبَإٍ﴾ بهمزة منونة مكسورة، على معنى الْحَيِّ، وقرأ أبو عمرو، والحسن: ﴿لِسَبَأٍ﴾ بهمزة مفتوحة غير مصروف، على معنى القبيلة.

وقرأ جمهور القراء: ﴿مَسَاكِينُهُمْ﴾؛ لأن كلَّ أحد له مسكن، وقرأ الكسائي وحده: ﴿فِي مَسْكِينِهِمْ﴾ بكسر الكاف، أي: في موضع سكناهم، وهي قراءة الأعمش، وعلقمة، قال أبو علي: والفتح حَسَنٌ أيضاً، لكن هذا كما قالوا: «مَسْجِدٌ»، وإن كان سيوبه يرى هذا اسم البيت، وليس موضع السجود، قال: هي لغة الناس اليوم، والفتح هي لغة الحجاز، وهي اليوم قليلة، وقرأ حمزة، وحفص: ﴿مَسْكِينِهِمْ﴾ بفتح الكاف، على المصدر، وهو اسم جنس يراد به الجمع، وهي قراءة إبراهيم النخعي، وهذا الأفراد هو كما قال الشاعر:

كُلُّوا فِي بَغْضِ بَطْنِكُمْ تَخْفُوا
وكما قال الآخر:

.....
قَدْ عَضَّ أَغْنَاهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ
و ﴿ءَايَةٍ﴾ معناه: عبرة وعلامة على فضل الله وقدرته، و﴿جَنَّتَانِ﴾ ابتداء، وخَبَرَهُ في قوله سبحانه: ﴿عَنْ بَيْنِ وَبَيْنٍ﴾، أو خبر ابتداء تقديره: هي جنتان، هي جملة بمعنى: هذه حالهم، والبدل من ﴿ءَايَةٍ﴾ ضعيف، وقد قاله مكي

وغيره، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿آيَةً جَنَّتَيْنِ﴾ بالنصب، وروي أنه كان في ناحية اليمن وإد عظيم بين جبلين، وكانت حُقَّتَا الوادي منبت فواكه وزرع، وكان قد بُني في رأس الوادي عند أول الجبلين جسر عظيم من حجارة من الجبل فارتدع الماء فيه وصار بحيرة عظيمة، وأخذ الماء من جَنَّتَيْهَا فمشى مرتفعاً يسقي جنات جنبتَي الوادي، قيل: بَنَتْهُ بلقيس، وقيل: بناه جُمَيْرُ أَبُو الْقَبَائِلِ الْيَمِينِ كلها، كانوا بهذا الحال في أرغد نعم، وكانت لهم بعد ذلك قُرَى ظاهرة مُتَّصِلَةٌ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ، وكانوا أرباب تلك البلاد في ذلك الزمان.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّوا﴾ فيه حذف، كأنه قال: قيل لهم: كُلُّوا، و﴿طَيِّبَةً﴾ معناه: كريمة التربة، حَسَنَةُ الهواء، رغبة من التَّعِيمِ، سليمة من الهوامِّ والمضار، هذه عبارات المفسرين، وكان ذلك الوادي - فيما روي عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه - لا يدخله برغوث ولا قملة ولا بعوضة ولا عقرب ولا شيء من الحيوان الضَّارِّ، وإذا جاء به أحد من سفر سقط عن أول الوادي، وروي أن الماشي كان إذا مَشَى بِمَكْتَلٍ فوق رأسه بين أشجاره كان يمتلئ بِمَكْتَلِهِ دون أن يمد يداً، وروي أن هذه المقالة من الأمر بالأكل والشرب والتوقيف على طيب البلد والغفران من الرُّبِّ مع الإيمان به هي من قول الأنبياء لهم. وقرأ رُوَيْسٌ عن يعقوب: ﴿بِلَدَّةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبًّا غَفُورًا﴾

بالنصب في الكل. وبعث إليهم - فيما روي - ثلاثة عشر نبياً فكفروا بهم وأعرضوا، فبعث الله على ذلك السَّدَّ جراداً أعمى توالد فيه وَخَرُّهُ شيئاً بعد شيء، وأرسل سيلاً في ذلك الوادي فحمل ذلك السَّدَّ، فيروى أنه كان من العِظَمِ وكثرة الماء بحيث ملأ ما بين الجبلين وحمل الجثث وكثيراً من الناس ممن لم يمكنه الفرار، وروي أنه لما خرق السَّدَّ كان ذلك يُسِّسُ الْجَثَّاتِ فَهَلَكَتْ بهذا الوجه، وروي أنه صرف الماء من موضعه الذي كان فيه أولاً فتعطل سَفِيُّ الْجَثَّاتِ.

واختلف الناس في لفظة ﴿الْعَرِمِ﴾ - فقال المغيرة بن حكيم، وأبو ميسرة: الْعَرِمُ في لغة اليمن جمع عِزْمَةٍ وهو كل ما بُني أو سُنِمَ لِيُسْكِنَ الماء، ويقال لذلك بلغة الحجاز: الْمُسْنَاءُ، كأنها الجسور والسُّدَادُ ونحوها، ومن هذا المعنى قول الأعشى:

وَفِي ذَاكَ لِلْمُؤْتَسِّي أُنْسُوءَ
وَمَأْرَبٌ غَفَى عَلَيْهَا الْعَرِمُ
رِجَامٌ بَنَاءٌ لَهُمْ جَنْبِيرُ
إِذَا جَاءَ مَوَازُهُ لَمْ يَمِرْ
ومنه قول الآخر:

مِنْ سَبَأٍ الْحَاضِرِينَ مَأْرَبٌ إِذْ
يَبْشُرُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهَا الْعَرِمَا
وقال ابن عباس، وقتادة، والضَّحَّاكُ: اسم وادي ذلك الماء بعينه الذي كان السَّدُّ يُبْنِي له، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: إن سيل ذلك الوادي كان يصل إلى مكة وتُتَفَعُّ به، وقال ابن عباس: الْعَرِمُ: الشديد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكأنه صفة للسَّيل، من العَرَامَة، والإضافة إلى الصفة مبالغة، وهي كثير في كلام العرب.

وقالت فرقة: العَرَم: اسم الجُرْذ، وهذا ضعيف. وقيل: العَرَم: صفة للمطر الشديد الذي كان عند ذلك السَّيل.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَلُّهُمْ يَخْنَخِنُهُمْ جَنَّتِي﴾ قول فيه تجوُّز واستعارة؛ وذلك أن البدل من الخَمْط والأثل لم يكن جئات، لكن هذا كما تقول لمن جُرد ثوباً جيداً وضرب ظهره: «هذا الضَرْبُ ثوبٌ صالحٌ لك»، ونحو هذا. وقوله: ﴿ذَوَاتُ﴾ تشبیه «ذات». و«الْخَمْطُ»: شجر الأراك، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقيل: «الْخَمْطُ»: كل شجر له شوك وثمرته كريهة الطعم بمرارة، أو حمضة، أو نحوه، ومنه: تَخَمْطُ اللبن: إذا تغير طعمه. و«الأثل»: ضرب من الطرفاء، هذا هو الصحيح، وكذا قال أبو حنيفة في كتاب النبات، قال الطبري: وقيل: هو شجر شبيه بالطرفاء، وقيل: إنه السَّمُر. و«السَّدْرُ» معروف، وله نبق شبيه العُثاب، لكنه دونه في الطعم بكثير. و«لِلْخَمْطِ» ثمر غث هو البرير، و«لِلْأَثَلِ» ثمر قليل الغناء غير حسن الطعم.

وقرأ ابن كثير، ونافع: «أَكُلْ» بضم الهمزة وسكون الكاف. وقرأ الباقون بضم الهمزة وضم الكاف، وروى أيضاً عن أبي عمرو السكون في الكاف، وهما بمعنى الجنى والثمرة، ومنه قوله تعالى: ﴿تَوَقَّ

أَكْلُهَا﴾ أي جنأها. وقرأ الجمهور بتوین ﴿أَكَلٍ﴾ وصِفَتُهُ [خَمْطٌ] وما بعده، قال أبو علي: البدل فيه هذا لا يحسن؛ لأن «الْخَمْطُ» ليس بالأكل، و«الأكل» ليس بالخمط نفسه، والصفة أيضاً كذلك؛ لأن الخَمْط اسم لا صفة، وأحسن ما فيه عطف البيان، كأنه بيّن أن «الأكل» هذه الشجرة ومنها، ويحسن قراءة الجمهور أن هذا الاسم قد جاء مجيء الصفة في قول الهذلي:

عُقَارٌ كَمَاءِ الثِّيءِ لَيْسَتْ بِخَمْطَةٍ
وَلَا خَلَةٍ يَكْوِي الشُّرُوبُ شَهَابُهَا
وقرأ أبو عمرو بإضافة «أَكَلٍ» إلى «خَمْطٍ» وبضم الكاف، أي: «أَكُلْ خَمْطٍ»، ورجح هذه القراءة أبو علي.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما أجراه عليهم، وقوله: ﴿وَهَلْ يُجْزَى﴾، أي: يُناقش ويُعارض بمثل فعله، قدرأ بقدر؛ لأن جزاء المؤمن إنما هو بتفضل وتضعيف، وأما الذي لا يُزاد ولا ينقص فهو الكفور، قاله الحسن بن أبي الحسن، وقال طاوس: هي المناقشة، وكذلك إن كان المؤمن ذا ذنوب فقد يغفر له ولا يجازى، والكافر يجازى ولا بُدّ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من نُوقِشَ الحساب عَذِبٌ»، وقرأ جمهور القراء: «يُجَازَى» بالياء وفتح الزاي، وقرأ حمزة، والكسائي: «يُجْزَى» بالنون وكسر الزاي «الْكُفُورُ» بالنصب، وقرأ مسلم بن جندب: «وَهَلْ يُجْزَى»، وحكى عنه أبو عمرو الداني أنه قرأ: «يُجْزَى» بضم الياء وكسر الزاي.

قال الزجاج: يقال: جَزَيْتُ في الخير، وجازيت في الشر. فَتَتَرَجَّح قراءة الجمهور.

﴿١٨﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية وما بعدها وصف لحالهم قبل مجيء السَّيل، وهي أن الله تبارك وتعالى - مع ما كان منهم - منحهم من الجنَّتين والنعمة الخاصة بهم، كان قد أصلح لهم البلاد المتصلة بهم وعمُرُها، وجعلهم أربابهم، وقدر السَّير فيها بأن قرب القرى بعضها من بعض، حتى كان المسافر من مأرب إلى الشام ليبيت في قرية ويقيم في قرية، فلا يحتاج إلى حمل زاد، و«القرى»: المدن، ويقال للجمع الصغير قرية أيضاً، وكلها من: قَرَيْتُ، أي جَمَعْتُ، والقرى التي بورك فيها هي قرى الشام بإجماع من المفسرين، والقرى الظاهرة هي التي بين الشام ومأرب، وهي الصغار التي هي البوادي. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي قرى عربية بين المدينة والشام، وقاله الضحَّاك، واختلف في معنى «ظَهَرَةُ» - فقالت فرقة: معناه: مُستعلة مرتفعة في الإكام والظراب، وهي أشرف القرى، وقالت فرقة: يظهر بعضها من بعض، فهي أبدأ في قبضة عين المسافر، ولا يخلو من رؤية شيء منها بهذا الوجه. والذي يظهر لي أن معنى «ظَهَرَةُ»: خارجة عن المدن، فهي عبارة عن القرى الصغار التي في ظواهر المدن، وإنما فصل بهذه الصفة بين القرى الصغار وبين القرى المطلقة التي هي المُدن؛ لأن ظواهر المدن ما خرج عنها في

الفيافي والفحوص، ومنه قولهم: نزلنا بظاهر فلانة، أي: خارجاً عنها. وقوله: ﴿ظَهْرَهُ﴾ نظير تسمية الناس إيّاها البادية والضاحية، ومن هذا قول الشاعر:

فَلَوْ شَهِدْتُني مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةً
قُرَيْشُ الْبَطَاحِ لَا قُرَيْشُ الظَّوَاهِرِ
يعني الخارجين عن بطحاء مكة، وفي حديث الاستسقاء: «وجاء أهل الضواحي يشتكون: الفرق الفرق».

وقوله تعالى: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا أَسْبَابَ﴾، هو ما ذكرناه من أن المسافرين فيها كان يقبل في قرية ويبيت في أخرى على أيّ طريق سلك، لا يعوزه ذلك. وقوله تعالى: ﴿يَسِيرُوا فِيهَا﴾ معناه: وقلنا لهم. ﴿يَسِيرُوا فِيهَا﴾ معناه: من الخوف من الناس المفسدين، وآمنين من الجوع والعطش وآفات المسافرين.

ثم حكى عنهم مقالة قالوها على جهة النظر والأثر، وهي طلب البُعد بين الأسفار، أو الإخبار بأنها بعيدة على القراءات الأخرى، وذلك أن نافعاً، وعاصماً، وحمزة، والكسائي قرءوا: ﴿بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بكسر العين على معنى الطلب، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والحسن، ومجاهد: ﴿بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بشد العين وكسرهما على معنى الطلب أيضاً، فهاتان معناهما الأثر بأنهم ملؤا التهمة في القرب، وطلبوا استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير. وفي كتاب الرُماني أنهم قالوا: لو كان جنى ثمارنا أبعد لكان أشهر وأكثر قيمة، وقرأ ابن السميّغ، وسفيان بن حسين، وسعيد بن أبي

الحسن - أخو الحسن - وابن الحنفية: ﴿رَيْنَا﴾ بالنصب ﴿بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بفتح الباء وضم العين، وينصب ﴿بَيْنَ﴾ أيضاً. وقرأ سعيد بن أبي الحسن - من هذه الفرقة -: ﴿بَيْنَ﴾ بالرفع وإضافته إلى الأسفار، وقرأ ابن عباس، وأبو رجاء، والحسن البصري، وابن الحنفية: ﴿فَقَالُوا﴾ بالرفع ﴿بَعْدَ﴾ بفتح العين والدال، وقرأ ابن عباس، وابن الحنفية أيضاً، وعمرو بن فايد، ويحيى بن يَعْمَر: ﴿رَيْنَا﴾ بالرفع ﴿بَعْدَ﴾ بفتح العين وشدها وفتح الدال. فهذه القراءة معناها الإخبار بأنهم استبعدوا القريب، ورأوا أن ذلك غير مقنع لهم، حتى كأنهم أرادوها متصلة الدور، وفي هذا تعسف وتسخط على أقدار الله تعالى وإرادته، وقلة شكر على نعمته، بل هي مقابلة النعمة بالشكّي. وفي هذا المعنى ونحوه مما اقترن بكفرهم ظلموا أنفسهم ففرّقهم الله تعالى، وخرب بلادهم، وجعلهم أحاديث، ومنه المثل السائر: «تفرّقوا أيادي سبأ»، وأيدي سبأ، يقال المثل بالوجهين، وهذا هو تمزّقهم كل مُتَزَق، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «إن سبأ أبو عشر قبائل»، فلما جاء السَّيْلُ على مأرب وهو اسم بلدهم تيامن منهم ستة قبائل، أي: تبددت في بلاد اليمن، وتشاءمت منها أربعة، فالْمُتَيَامِنَةُ كَثْدَةُ والأزْدُ وأشعر ومذّج وأنمار التي منها بَجِيلَةٌ وخَثْعَمٌ، وطائفة قيل لها: جَنْمِرٌ، بقي عليها اسم الأب الأول، والتي تشاءمت لَخْمٌ وجَذَامٌ وعَسَانٌ

وخَزَاعَةٌ، نزلت تهامة، ومن هذه المتشائمة أولاد قَيْلَة، وهم الأوس والخزرج، ومنها عاملة وغير ذلك. ثم أخبر تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام وأُمَّته - على جهة التنبيه - أن هذه القصص فيها آياتٌ وعِبَرٌ لكل مؤمن على الكمال، ومن اتصف بالصبر والشكر فهو المؤمن الذي لا تنقصه حلة جميلة بوجه.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ﴾ بتخفيف الدال ﴿إِبْلِيسُ﴾ رفعاً ﴿ظَنَّهُ﴾ نصباً على المصدر، وقيل: على الظرفية، أي: في ظنّه، وقيل: على المفعول، على معنى أنه لما ظن عمل عملاً يصدق به ذلك الظن، فكانه إنما أراد أن يصدق ظنه، وهذا نحو من قولك: «أخطأت ظنّي وأصبحت ظنّي». وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿صَدَقَ﴾ بتشديد الدال، والظنّ - على هذا مفعول بـ [صَدَقَ]، وهي قراءة ابن عباس، وقتادة، وطلحة، [وعاصم]، والأعمش. وقرأ الزهري، وأبو الهجهاج، وبلال بن أبي بُرْزَة: ﴿صَدَقَ﴾ بتخفيف الدال ﴿إِبْلِيسُ﴾ نصباً ﴿ظَنَّهُ﴾ رفعاً. وقرأت فرقة: ﴿صَدَقَ﴾ بتخفيف الدال ﴿إِبْلِيسُ﴾ بالرفع ﴿ظَنَّهُ﴾ بالرفع على البدل، وهو بدل الاشتمال.

ومعنى الآية أن ما قال إبليس من أنه سيفتن بني آدم ويغويهم، وما قال من أن الله لا يجد أكثرهم شاكرين، وغير ذلك كان ظناً منه وصدق فيهم، وأخبر الله تعالى عنهم أنهم

اتَّبِعُوهُ، وهو اتِّبَاعٌ في كُفْرٍ؛ لِأَنَّهُ فِي قِصَّةِ قَوْمِ كُفَّارٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي شَأْنِهِ﴾ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، لِبَيَانِ الْجِنْسِ لَا لِلتَّبَعِيضِ؛ لِأَنَّ التَّبَعِيضَ يَقْتَضِي أَنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اتَّبَعَ إِبْلِيسَ.

و«السُّلْطَانُ»: الْحُجَّةُ، وَقَدْ يَكُونُ الِاسْتِعْلَاءُ وَالِاسْتِقْدَارُ؛ إِذَا اللَّفْظُ مِنَ السُّلْطَانِ، وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: وَاللَّهُ مَا كَانَ لَهُ سَوْطٌ وَلَا سَيْفٌ وَلَكِنَّهُ اسْتَمَالَهُمْ فَمَالُوا بِتَزْيِينِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ أَيُّ: لِنَعْلَمُ مَوْجُودًا؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ بِهِ مُتَقَدِّمٌ أَوَّلًا، وَقُرَأَتْ فِرْقَةٌ: «إِلَّا لِيُغْلَمَ» بِالْبَاءِ مَضْمُومَةٌ عَلَى الْمَجْهُولِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ﴾ آيَةٌ تَعْجِيزٌ وَإِقَامَةٌ حُجَّةٌ، وَيُرْوَى أَنَّ ذَلِكَ نَزَلَ عِنْدَ الْجُوعِ الَّذِي أَصَابَ قَرِيشًا. وَالْجَمْهُورُ عَلَى ﴿قُلْ أَدْعُوا﴾ بِضَمِّ اللَّامِ، وَرَوَى عَبَّاسٌ عَنْ أَبِي عَمْرٍو: ﴿قُلْ أَدْعُوا﴾ بِكَسْرِ اللَّامِ ﴿الَّذِينَ﴾ يَرِيدُ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَصْنَافَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَرِيشًا وَالْعَرَبَ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: نَعْبُدُهَا لِتَشْفَعَ لَنَا، وَنَحْنُ هَذَا، فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُعْجِزَةً لِلْكَلِّ مِنْهُمْ. ثُمَّ جَاءَ بِصِفَةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُوْنَهُمْ آلِهَةً، مِنْ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مِلْكَ الْإِخْتِرَاعِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّهُمْ لَا شِرْكََ لَهُمْ فِيهَا، وَهَذَانِ نَوْعَا الْمِلْكِ: إِمَّا اسْتِبْدَادًا وَإِمَّا مُشَارَكَةً، فَفَنَى عَنْهُمْ جَمِيعَ ذَلِكَ، وَنَفَى أَنَّ يَكُونَ لِلَّهِ مُعِينٌ فِي شَيْءٍ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَ«الظَّهِيرُ»:

الْمُعِينُ. ثُمَّ تَقَرَّرَ فِي الْآيَةِ بَعْدَ أَنَّ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُمْ لَا تَصَحُّ مِنْهُمْ شَفَاعَةٌ لَهُمْ؛ إِذْ هَؤُلَاءِ كُفْرَةٌ، وَلَا يَأْذَنُ اللَّهُ فِي الشَّفَاعَةِ فِي كَافِرٍ.

تفسير قوله عز وجل: المعنى: إِنْ كُلُّ مَنْ دَعَا إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَلَا تَنْفَعُ شَفَاعَتُهُمْ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَيَمُنْ أَمِنْ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: وَلَا هُمْ شَفَعَاءُ عَلَى الْحَدِّ الَّذِي ظَنَنْتُمْ أَتُمْ.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَوْزَرَ﴾

لَمْ يَزَلْ - فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: مَعْنَاهُ: لِمَنْ أَرَادَ لَهُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: مَعْنَاهُ: لِمَنْ أَدْنَى لَهُ أَنْ يَشْفَعَ هُوَ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاللَّفْظُ يَعْجِزُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا انْفَرَدَ لِلشَّافِعِ فَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَشْفُوعَ فِيهِ مُعَيَّنٌ لَهُ، وَإِذَا انْفَرَدَ لِلْمَشْفُوعِ فِيهِ فَالشَّافِعُ لَا مُحَالَةَ عَالَمٍ مُعَيَّنٍ لَذَلِكَ، وَانْظُرْ أَنَّ اللَّامَ الْأُولَى تُشِيرُ إِلَى الْمَشْفُوعِ فِيهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِمَنْ﴾، تَقُولُ: شَفَعْتُ لِفُلَانٍ.

وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو، وَحَمْزَةٌ، وَالْكَسَائِيُّ بِضَمِّ الْأَلْفِ - مِنْ «أَوْزَرَ» -، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ: «أَوْزَرَ» بِفَتْحِهَا وَالضَّمِيرُ فِي «قُلُوبِهِمْ» عَائِدٌ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ دَعَوْهُمْ آلِهَةً، فَفِي الْكَلَامِ حَذْفُ يَدُلُّ عَلَيْهِ الظَّاهِرُ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَلَا هُمْ شَفَعَاءُ كَمَا تَحْسِبُونَ أَنْتُمْ، بَلْ هُمْ

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْلِيَآكُمْ لَعَلَّ هُنَّ أَوْفَىٰ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٤﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرُنَا وَلَا تَسْأَلُنَا عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا شُرَكَاءَ كَلَّابًا لِلَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٣٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَاتُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِيثُونَ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ قُلُوبُنَا بِهِذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِّلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أَوْلَا أَنْتُمْ لَكُمُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤١﴾

عَبْدَةٌ وَمُسْتَسْلِمُونَ أَبَدًا حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ.

وَتَظَاهَرَ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ، أَعْنِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾، إِنَّمَا هِيَ فِي الْمَلَائِكَةِ إِذَا سَمِعَتِ الْوَحْيَ إِلَىٰ جِبْرِيلَ بِالْأَمْرِ بِأَمْرِ اللَّهِ بِهِ سَمِعَتْ كَجَزْءٍ سِلْسِلَةٍ الْحَدِيدِ عَلَى الصَّفْوَانِ، فَتَفْزَعُ عِنْدَ ذَلِكَ تَعْظِيمًا وَهَيْبَةً، وَقِيلَ: خَوْفٌ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، فَإِذَا فُزِعَ ذَلِكَ فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، أَيُّ: أَطِيرَ الْفَزَعُ عَنْهَا وَكُشِفَ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَلِجِبْرِيلَ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟﴾ فَيَقُولُ الْمُسْتَوْلُونَ: قَالَ الْحَقُّ «وَمَوَّ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ». وَبِهَذَا الْمَعْنَى مِنْ ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ فِي صَدْرِ الْآيَاتِ تَنَسَّقُ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى الْأُولَى، وَمَنْ لَمْ يَشْعُرْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ مُشَارَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَوَّلِ قَوْلِهِ:

﴿الَّذِينَ رَعَيْتُمْ﴾ لم تتصل له هذه الآية بما قبلها، فلذلك اضطرب المفسرون في تفسيرها، حتى قال بعضهم في الكفار - بعد حلول الموت - فُزِعَ عن قلوبهم بفقد الحياة فرأوا الحقيقة، وزال فزعهم من شبه ما يقال لهم في حياتهم، فيقال لهم حينئذ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟﴾ فيقولون: قال الحق، يَقْرَءُونَ حين لا ينفعهم الإقرار. وقالت فرقة: الآية في جميع العالم، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ يريد: في القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتأويل الأول في الملائكة هو الصحيح، وهو الذي تظاهرت به الأحاديث. وهذان بعيدان.

وقرأ الجمهور: ﴿فَزِعَ﴾ بضم الفاء وكسر الزاي، ومعناه: أطيّر الفزع عنهم، وهذه الأفعال جاءت مخالفة لسائر الأفعال؛ لأنَّ «فَعَلَ» أصلها الإدخال في الشيء. وقولك: فزعت زيدا معناه: أزلت الفزع عنه. وكذلك: جزعته: أزلت الجزع عنه، ومنه في الحديث: «فدخل ابن عباس على عمر فجزعته»، ومنه: مَرَضْتُ فلاناً: أزلت المرض عنه. وانظر أن مضارع هذه الأفعال يلحق بـ (تَحَثُّ) وتَحَرَّجَ وتَفَكَّهَ وتَأَثَّمُ وتَخَوَّتْ، وقرأ ابن عامر: ﴿فَزِعَ﴾ بفتح الفاء والزاي وشد الزاي، وهي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، وطلحة، وأبي المتوكل الناجي، واليماني. وقرأ الحسن البصري - بخلاف -: ﴿فَزِعَ﴾ بضم الفاء وكسر الزاي وتخفيفها. كأنه بمعنى: أفلح، ومن قال إنها في العالم أجمعه قال: معنى هذه

القراءة: فزع الشيطان عن قلوبهم، أي بادر. وقرأ أيوب عن الحسن أيضاً: ﴿فَزِعَ﴾ بضم الفاء وبراء مهملة مشددة وبغين منقوطة، من التفرغ، قال أبو حاتم: ورواها عن الحسن نحو من عشرة أنفس، وهي قراءة أبي مجلز، وقرأ مطر الوراق عن الحسن: ﴿فَزِعَ﴾ على بناء الفعل للفاعل، وهي قراءة مجاهد، وقرأ الحسن أيضاً: ﴿فَزِعَ﴾ بالراء المهملة مخففة، من الفراغ. قال أبو حاتم: ما أظن الثقات رَوَوْها عن الحسن على وجوه إلا لصعوبة المعنى عليه فاختلفت ألفاظه فيها. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَفْرَنْقِعَ﴾، وهي قراءة ابن مسعود. ومعنى هذا كله: وقع فراغها من الفزع والخوف. ومن قرأ شيئاً من هذا على بناء الفعل للمفعول فقوله تعالى: ﴿عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ في موضع رفع، و«أَفْرَنْقِعَ» معناه: تفرق.

وقوله تعالى: ﴿مَاذَا﴾ يجوز أن تكون [مَا] في موضع نصب بـ ﴿قَالَ﴾، ويصح أن تكون في موضع رفع بمعنى: أي شيء قال؟ والنصب في قولهم: ﴿الْحَقُّ﴾ على نحوه في قوله تعالى: ﴿مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا سُبْحَانَ﴾؛ لأنهم حققوا أن ثم ما أنزل، وحققوا هنا أن ثم ما قيل. وباقي الآية تحميداً وتمجيداً.

﴿٧﴾ - ﴿٨﴾ تفسير قوله عز وجل: أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ على جهة الاحتجاج، وإقامة الدليل على الرازق لهم من السموات والأرض - [أَن يَسْأَلَهُمْ]: من هو؟ ثم أمره أن يقتضب الاحتجاج بأن يأتي بجواب

السؤال؛ إذ هم في بهتة ووجمة من السؤال، وإذ لا جواب لهم ولا لمفطور إلا بأن يقول: هو الله. وهذه السبيل في كل سؤال جوابه في غاية الوضوح؛ لأن المحتج يريد أن يقتضب ويتجاوز إلى حجة أخرى يوردها. ونظائر هذا في القرآن كثير.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَوْ إِنَّا كُفَرْنَا﴾ تلطف في الدعوى والمحاورة والمعنى، كما تقول لمن خالفك في مسألة: أهدنا مخطيء، أي: تثبت وثبتته، والمفهوم من كلامك أن مخالفك هو المخطيء، فكذلك هذا معناه: وإنا لعللى هدى أو في ضلال مبين، وإنيكم لعللى هدى أو في ضلال مبين، فلنتبينه، والمقصود أن الضلال في حيز المخاطبين، وحذف أحد الخبرين لدلالة الباقي عليه. وقال أبو عبيدة: [أو] في الآية بمعنى واو النسق، والتقدير: وإنا وإياكم لعللى هدى أو في ضلال مبين، وهما خبران غير مبتدأين، وهذا القول غير متجه واللفظ لا يساعده، وإن كان المعنى - على كل قول - يقتضي أن الهدى في حيز المؤمنين والضلال في حيز الكفرة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ الآية - مهادنة ومشاركة، وهي منسوخة بآية السيف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا﴾ الآية... إخبار بالبعث من القبور، وقوله: ﴿يَقْتَضِ﴾ معناه: يحكم، والفتاح: القاضي، وهي مشهورة في لغة اليمن، وهذا كله منسوخ بالسيف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ يحتمل

الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَن تَصُدُّهُمْ عَنْ هُدًى بَعْدَ إِجَاءِهِمْ بِكُفْرِهِمْ مِنْ ۖ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأَ النَّدَامَةُ لِمَا أَرَاؤا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِي أَغْصَانِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مَثَرُكُمْ إِنَّا بَعَثْنَا فِيكُمْ هُدًى وَكَفَرْتُمْ ۖ كَذَبْتُمْ عَنْهُ ۖ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا مَوْلَىٰ ۖ وَآوَلَدْنَا وَآمَنَّا بِمُعَذِّبِينَ ۖ قُلْ إِن رَّبِّي بِسِطْرِ الرَّزْقِ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِن كَذَّبَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ ۖ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا أَلَّا يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَآوَلَدُكُمْ بِاللَّهِ عِندَنَا زُفًى ۖ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَنَكْتُبَنَّ لَهُمْ جِزَاءَ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ۖ وَالَّذِينَ سَمِعُوا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ۖ قُلْ إِن رَّبِّي بِسِطْرِ الرَّزْقِ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۖ

٤٣٢

أَوَعَدُ؟ فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ بِأَنْ يُخْبِرَهُمْ عَنْ مِيعَادِ يَوْمٍ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ أَحَدٌ وَلَا يَتَقَدَّمُهُ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ وَالْمِيعَادُ بِمَعْنَى، وَخُولَفَ فِي هَذَا، وَالَّذِي عَلَيْهِ النَّاسُ أَنَّ الْوَعْدَ فِي الْخَيْرِ، وَالْوَعِيدُ فِي الْمَكْرُوهِ، وَالْمِيعَادُ يَقَعُ لِهَذَا وَلِهَذَا، وَأَضَافَ الْمِيعَادَ إِلَى الْيَوْمِ تَحْزُورًا مِنْ حَيْثُ كَانَ فِيهِ، وَتَحْتَمِلُ الْآيَةُ أَنْ يَكُونَ اسْتَعْجَالُ الْكُفْرَةِ لِعَذَابِ الدُّنْيَا، وَيَكُونُ الْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَيْضًا، وَلَمْ يَجِرْ لِلْقِيَامَةِ ذِكْرٌ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ.

٢٨ - ٢٩ تفسير قوله عز وجل:

حُكِيَتْ فِي هَذِهِ آيَةِ مَقَالَةٍ قَالَهَا بَعْضُ قَرِيْشٍ، وَهِيَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ وَلَا بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، وَكَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِجَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا فَعَلُوا هَذَا لِمَا وَقَعَ الْإِحْتِجَاجُ عَلَيْهِمْ بِمَا فِي التَّوْرَةِ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: «وَالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» هِيَ السَّاعَةُ وَالْقِيَامَةُ، وَهَذَا خَطَأٌ لَمْ يَفْهَمْ قَائِلُهُ أَمْرَ «بَيْنَ يَدَيْهِ» فِي اللُّغَةِ وَأَنَّهُ الْمَتَقَدِّمُ فِي الزَّمَنِ، وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ.

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ عَنْ حَالَةِ الظَّالِمِينَ فِي صِيغَةِ التَّعَجُّبِ مِنْ حَالِهِمْ، وَجَوَابَ [لَوْ] مُحذُوفٍ، وَ«يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ» يَرِيدُ: يَتَحَاوَرُونَ وَيَتَجَادَلُونَ، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ

أَنْ تَكُونَ رُؤْيَا قَلْبٍ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: «شُرَكَاءُ» مَفْعُولًا ثَالِثًا، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، أَيْ: أُرُونِي بِالْحُجَّةِ وَالِدَلِيلِ كَيْفَ وَجَّهَ الشَّرْكَ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هِيَ رُؤْيَا بَصَرٍ، وَ«شُرَكَاءُ» حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ الْمَفْعُولِ بِـ «أَلْخَفَّتُمْ» وَالْعَائِدِ عَلَى «الَّذِينَ»، وَهَذَا ضَعِيفٌ، لِأَنَّهُ اسْتِدْعَاءُ رُؤْيَا الْعَيْنِ فِي هَذَا لَا غِنَاءَ لَهُ، وَقَوْلُهُ: «كَلَّا» رَدٌّ لِمَا تَقَرَّرَ مِنْ مَذْهَبِهِمْ فِي الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَوَصَفَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفْسَهُ بِاللَّاتِقِ مِنَ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ.

٣٠ - ٣١ تفسير قوله عز وجل:

هَذَا إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَنَّهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى جَمِيعِ الْعَالَمِ، وَ«الْكُفَّاءَةُ»: الْجَمْعُ الْأَكْمَلُ مِنَ النَّاسِ، وَهِيَ نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ، وَقَدْ مَهَّمَا لِلْإِهْتِمَامِ، وَهَذِهِ إِحْدَى الْخِصَالِ الَّتِي خُصَّ بِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالَّتِي حَصَرَهَا فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُجِّلَتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَبُعِثْتُ كُلُّ نَبِيٍّ إِلَى خَاصٍّ مِنَ النَّاسِ وَبُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»، وَفِي هَذِهِ الْخِصَالِ زِيَادَةٌ فِي كِتَابِ مُسْلِمٍ.

وَقَوْلُهُ: «وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» يَرِيدُ بِهِ الْعُمُومَ فِي الْكُفْرَةِ، وَالْمُؤْمِنُونَ هُمُ الْأَقْلُ.

ثُمَّ حَكَى عَنْهُمْ مَقَالَتَهُمْ فِي الْهُزْءِ بِأَمْرِ الْبُعْثِ، وَاسْتَعْجَالِهِمْ - عَلَى مَعْنَى التَّكْذِيبِ - بِقَوْلِهِمْ: «مَتَى هَذَا

الْجَدَلُ بِأَنَّ الْأَتْبَاعَ وَالضَّعِيفَاءَ مِنَ الْكُفْرَةِ يَقُولُونَ لِلْكِبَارِ وَالرُّؤُوسِ - عَلَى جِهَةِ التَّذْنِيبِ وَالتَّوْبِيخِ وَرَدُّ اللَّائِمَةِ عَلَيْهِمْ -: لَوْلَا أَنْتُمْ لَأَمَّا نَحْنُ وَاهْتَدَيْنَا، أَيْ: أَنْتُمْ أَغْوَيْتُمُونَا وَأَمَرْتُمُونَا بِالْكَفْرِ، فَقَالَ لَهُمُ الرُّؤَسَاءُ - عَلَى جِهَةِ التَّقْرِيرِ وَالتَّكْذِيبِ -: أَنْحَنُ صَدَدْنَاكَمَ عَنْ الْهُدَى؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ، أَيْ: دَخَلْتُمْ فِي الْكُفْرِ بِبِصَاثِرِكُمْ، وَأَجْرَمْتُمْ بِنَظَرِ مَنْكُمْ، وَدَعَوْتَنَا لَمْ تَكُنْ ضَرْبَةً لِأَزْمِ عَلَيْكُمْ؛ لِأَنَّا دَعَوْنَاكُمْ بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَلَا بَرَهَانٍ، هَذَا كُلُّهُ يَتَضَمَّنُهُ اللَّفْظُ.

٣٢ تفسير قوله عز وجل:

هَذِهِ مَرَاجَعَةٌ مِنَ الْأَتْبَاعِ لِلرُّؤَسَاءِ حِينَ قَالُوا لَهُمْ: إِنَّمَا كُفَرْتُمْ بِبِصَاثِرِكُمْ وَمِنْ أَنْفُسِكُمْ، فَقَالَ الْمُسْتَضْعَفُونَ: بَلْ كَفَرْنَا بِمَكْرِهِمْ بِنَا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَضَافَ الْمَكْرَ إِلَى اللَّيْلِ

والنهار من حيث هو فيهما، ولتدلّ هذه الإضافة على الدُّؤوب والزمان، كما قالوا: لَيْلٌ نائم ونهار صائم، وأنشد سيبويه:

فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى هَمِّي

وهذه قراءة الجمهور، وقرأ قتادة بن دعامة: ﴿بَلْ مَكْرٌ مُّتَوْنًا﴾ [الْبَلِيلُ وَالنَّهَارُ] نصباً، وذكرت عن يحيى بن يَعْمَرٍ، وكان معناها الإحالة على طول الأمل والاغترار بالأيام، مع أثر هؤلاء الرؤساء بالكفر. و«التُّدُّ»: المثل والشبيه، والضمير في قوله: ﴿وَأَسْرُوا﴾ عام في جميع من تقدم من المستضعفين والمستكبرين، و«أَسْرُوا» معناه: اعتقدوها في نفوسهم، ومعتقدات النفس كلها سِرٌّ، لا يعقل غير ذلك، وإنما يظهر ما يصدر عنها من كلام أو قرينة. وقال بعض الناس: ﴿أَسْرُوا﴾ أظهروا، وهي من الأضداد، وهذا كلام من لم يعتبر المعنى، أما نفس الندامة فلا تكون إلا مُسْتَسْرَّةً ضرورة، وأما الظاهر عنها فغيرها، ولم يثبت قط في لغة أن (أَسْرَ) من الأضداد.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي: وافوه وتيقنوا حصولهم فيه. وباقي الآية بين.

(٣٤) - (٣٧) تفسير قوله عز وجل:

هذه تسلية للنبي ﷺ عن فعل قريش وقولها، أي: هذه يا محمد سيرة الأمم، فلا يهملك أمر قومك، و«القرية»: المدينة، و«المُتَرَفُّ»: المنعم البطل الغني القليل تعب النفس والجسم، فعادتهم المبادرة بالتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ يحتمل أن يعود الضمير على «المُتَرَفِّينَ»، ويكون ذلك من قولهم مع تكذيبهم، ولما كانت قريش مثلهم أمره الله تعالى أن يقول: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الْآيَةَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي «قَالُوا» لِقَرِيشٍ، ويكون كلام «المُتَرَفِّينَ» قد تقدم، ثم تطرد الآية بعد. ومعنى قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ الاحتجاج بأن الله لم يعطنا هذا وقدره لنا إلا لرضاه عنا وعن طريقتنا، ونحن ممن لا يُعَذَّبُ البتة؛ إذ الله الذي تَزْعُمُ أَنْتِ عِلْمَهُ بجميع الأشياء وإحاطته قد قَدَّرَ علينا النِّعَمَ، فهو إذا راضٍ عنا. وقال بعض المفسرين: معنى قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ أي: بالفقر، وهذا ليس كالأول في القوة، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول: إِنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا ظَنُّوْا، بَلْ يَبْسُطُ الرِّزْقَ وَقَدْرَهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَشِيئَةِ فِي كَافِرٍ وَمُؤْمِنٍ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى رِضَى اللَّهِ وَالْقَرَبِ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يُعْطِي ذَلِكَ أَمْلًا وَاسْتِدْرَاجًا، وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ كَأَنْتُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ، وَقَرَأْتَ فِرْقَةً: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ وفرقة بالتشديد، وهي راجعة إلى معنى التضييق الذي هو ضد البَسْطِ.

ثم أخبرهم أن أموالهم وأولادهم ليست بمقربة من الله ﴿زُلْفَى﴾، وهي مصدر بمعنى القرب، وكأنه قال: تقريبكم عندنا تقريباً، وقرأ الضحاك: ﴿زُلْفَى﴾ بفتح اللام والتنوين. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ استثناء، و«مَنْ»

في موضع نصب بالاستثناء. وقال الزجاج: هي بدل من الضمير في ﴿تَقْرَبُكَ﴾، وقال الفراء: هي في موضع رفع، وتقدير الكلام: ما هو مقرب إلا من آمن. وقرأ الجمهور: ﴿جَزَاءُ الضُّعْفِ﴾ بالإضافة، وقرأ قتادة: ﴿جَزَاءُ﴾ منوناً ﴿الضُّعْفِ﴾ رفعا، وحكى عنه الذاني [جَزَاءُ] نصباً منوناً [الضُّعْفِ] نصباً. و«الضُّعْفُ» هنا اسم جنس، أي التضعيف؛ إذ بعضهم يجازى إلى عشرة، وبعضهم أكثر صاعداً إلى سبعمائة بحسب الأعمال ومشية الله فيها.

وقرأ الجمهور: ﴿فِي الْغُرَفَاتِ﴾ بالجمع، وقرأ حمزة وحده: ﴿فِي الْغُرَفَةِ﴾ على اسم الجنس يراد به الجمع، ورويت عن الأعمش، وهما في القراءة حستانان. قال أبو علي: وقد يجيء هذا الجمع بالآلف والتاء «الغُرَفَات» ونحوه للكثير، ومنه قول حسان:

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُ يُلْمَعْنَ بِالضُّحَى
وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا
فلم يرد إلا كثرة جفان، وتأمل نقد الأعمش في هذا البيت.

وقرأ الأعمش، والحسن، وعاصم - بخلاف -: ﴿فِي الْغُرَفَاتِ﴾ بسكون الراء.

(٣٨) - (٣٩) تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر تعالى المؤمنين العاملين للصالحات وثوابهم عقَّب بذكر ضدهم وذكر جزائهم ليظهر تباين المنازل، وقرأت فرقة: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ وفرقة: ﴿مُعْجِزِينَ﴾، وقد تقدم تفسيرها.

و «تَحْضُرُونَ» من الإحضار والإعداد.

ثم كرر بسط الرزق وقدرته تأكيداً وتبييناً، وقصد به هنا رزق المؤمنين، وليس سوفه على المعنى الأول الذي جُلب للكافرين، بل هذا هنا على جهة الوعظ والتزهيد في الدنيا، والحض على التفقه في الطاعات، ثم وعد بالخلف في ذلك وهو بشرط الاقتصاد والنية في الطاعة ودفع المضرات وعد منجز، إما في الدنيا، وإما في الآخرة. وزو أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله قال لي: اتفق أنفق عليك»، وفي البخاري «إن الملك ينادي كل يوم، اللهم أعط متفقاً خلفاً، ويقول ملك آخر: اللهم أعط متسكياً تلفاً»، وقال مجاهد: المعنى: إن كان خلف فهو مؤليه وميسره، وقد لا يكون الخلف.

وأما قوله: «وَقَوْ خَيْرَ الْزَّوْجَيْنِ» فمن حيث يقال في الإنسان: إنه يرزق عياله، والأمير جنده، لكن ذلك من مال يملك عليهم، والله تعالى من خزان لا تقنى، ومن إخراج من عدم إلى وجود. وقرأ الأعمش: «وَيُقَدَّرُ» بضم الباء وشد الدال.

٤١ - تفسير قوله عز وجل: هذه آية وعيد للكفار، والمعنى: واذكر يوم. وقرأ الجمهور: «تَحْشُرُهُمْ» «ثُمَّ نَقُولُ» بالنون فيهما، ورواه أبو بكر عن عاصم، وقرأ حفص عن عاصم بالياء فيهما، وذكرها أبو حاتم عن أبي عمرو.

والقول للملائكة هو توقيف تقوم منه الحجة على الكفار عبيدتهم، نحو

قوله تعالى لعيسى عليه السلام: «هَـ أَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ» وإذ قال الله تعالى للملائكة هذه المقالة قالت الملائكة: «سُبْحَنَكَ»، أي: تنزيهاً لك عما فعل هؤلاء الكفرة، ثم برءوا أنفسهم بقولهم: «هَـ أَنتَ وَلِشَاءٍ مِنْ دُونِهِمْ» يريدون البراءة من أن يكون لهم علم أو رضى أو مشاركة في أن يعبدهم البشر، ثم قرروا أن البشر إنما عبدوا الجن وبإغوائها للبشر، فلم تنف الملائكة عبادة البشر إياها، وإنما قررت أنها لم تكن لها في ذلك

مشاركة، ثم ذُبت الجن. وعبادة البشر للجن هي فيما نعرفه نحن: طاعتهم إياهم، وسماعهم من وسوستهم وإغوائهم، فهذا نوع من العبادة، وقد يجوز أن كان في الأمم الكافرة من عبد الجن، وفي القرآن آيات يظهر منها ذلك في الأنعام وغيرها.

ثم قال سبحانه: «فَالْيَوْمَ»، وفي الكلام حذف، تقديره: «فيقال لهم»، أي: لمن عبَدَ ولمن عبَدَ: «لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا».

قوله تعالى: «وَإِذَا نُنَاقِلُ عَنْهُمْ» أي: نُنَاقِلُ. ذكر في هذه الآية أقوالهم وأنواع كلامهم عندما يُقرأ عليهم القرآن، ويسمعون حكمه وبراهينه البينة، فقائل طعن على النبي ﷺ بأنه يقدح في الأوثان ودين الآباء،

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِنَّا كُنَّا نُؤَادِيهِمْ يَوْمَئِذٍ ۖ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنتَ وَلِشَاءٍ مِنْ دُونِهِمْ ۚ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ۚ قَالُوا لَا تَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ وَنُقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ ۖ إِنَّ كُتُوبَهَا تَكْذِبُونَ ۚ وَإِذَا نُنَاقِلُ عَنْهُمْ ۖ إِنَّا تَنَاقَلْنَا بِهَا الْقُلُوبَ ۖ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۚ قَالُوا مَا هَؤُلَاءِ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا لَكُمْ مَا هَؤُلَاءِ إِلَّا أَفْكٌ مَقْرُورٌ ۚ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِن هَؤُلَاءِ إِلَّا سَاحِرٌ مِينٌ ۚ وَمَا أَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ۚ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا لَبِثُوا عَشْرَ مِائَةٍ ۖ إِنِّي أَخْلَصْتُكَ لِيَوْمِئِذٍ ۚ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكَ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَارِ ۚ وَقَدْ رَأَيْتُمْ نَفْعَكُمْ وَأَمَّا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ۖ إِنَّ هُوَ لَا يَذِيرُكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۚ قُلْ مَا سَأَلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنَّ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ مُهِينٌ ۚ قُلْ لِي ربي يَقْضِي بِالْحَقِّ ۚ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ

وقائل طعن عليه بأن هذا القرآن مفترى، أي: مصنوع من قِبل محمد ويدعي أنه من عند الله، وقائل طعن عليه بأن ما عنده من الرقة واستجلاب النفوس واستمالة الأسماع إنما هو سحر يجلب به ويستدعي، تعالى الله عن أقوالهم، وتقدست الشريعة عن طعنهم.

٤٢ - تفسير قوله عز وجل: معنى هذه الآية أنهم يقولون بأرائهم في كتاب الله تبارك وتعالى، فيقول بعضهم: سحر، وبعضهم: افتراء، وهو منهم تجرؤ لا يستندون فيه إلى إثارة علم، ولا إلى خبر من يُقبل خبره، فإنما ما أتيناهم كتباً يدرسونها، ولا أرسلنا إليهم نذيراً فيمكنهم أن يدعوا أن أقوالهم تستند إلى أمره.

وقرأ جمهور الناس: «يَدْرُسُونَهَا» بسكون الدال، وقرأ أبو حية:

قريش، وفي ﴿تَنَزَّلُ﴾ على الأمم الذين من قبلهم، والمعنى: من القوة والنعم والظهور في الدنيا، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد رضي الله عنهم. والثاني بالعكس، والمعنى: من الآيات والبيان والنور الذي جشتم به، والثالث أن يعود الضمير على الأمم المتقدمة، والمعنى: من شكر النعمة وجزاء الجملة. و«المُعْشَارُ»: العُشْر، ولم يأت هذا البناء إلا في العشرة والأربعة، فقالوا: مِرْزَاع ومِغْشَار، وقال قوم: المِغْشَارُ: عُشْر الغُشْر، وهذا ليس بشيء.

و «التَّكْبِيرُ» مصدر كالإنكار في المعنى، وكالعرب في الوزن، وسقطت الياء منه تخفيفاً لأنها آخر آية، و«كَتِفَ» تعظيم للأمر، وليست استفهاماً مجرداً، وفي هذا تهديد لقريش، أي: إنهم مُعْرَضُونَ لنكير مثله.

ثم أمر نبيه ﷺ أن يدعوهم لعبادة الله، والنظر في حقيقة بُيُوتِهِ هو، ويعظمهم بأمر يقرب للأفهام، فقلوه: ﴿بِرَّحْدَةٍ﴾ معناه: بقضية واحدة إيجازاً لكم وتقريباً عليكم، وقلوه: ﴿أَنْ﴾ مفسرة، ويجوز أن تكون بدلاً من ﴿وَحْدَةٍ﴾. وقلوه: ﴿تَقُومُوا إِلَيْهِ مَتَى وَفَرْدَكُ﴾ يحتمل أن يريد بالطاعة والإخلاص والعبادة، فتكون الواحدة التي وعظ بها هذه،

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْأَبْطُلُ مَا يُبْدِي ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَمَا يُؤْمِرُ إِلَى رَفْعِ أَتَمِّهِ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٤٨﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ ذُكِرُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَادُ شَرٌّ مِنْ مَكَانٍ يَعِيدُ ﴿٥٠﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ يَعِيدُ ﴿٥١﴾ وَجَلَّ لِلَّهِ يَوْمَئِذٍ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٢﴾

سورة قلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ كَهَ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحٍ مَتَى وَتَلَّتْ رِيحِي وَرِيَاحِي فَمَا أُبَدِّلُ مِنْ مَلَكٍ كُلٍّ فَنُوحٍ وَفُودٍ ﴿١﴾ مَا يَفْجَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا يُرْسِلُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ تَبَّأْتُمُ النَّاسَ أَذْكَرَ وَأَنْعَمْتَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كُلَّ مَنْ خَلَقَ غَيْرَ اللَّهِ بَرَزُوا لَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤَفَّفُونَ ﴿٣﴾

٤٣٤

﴿يَذَرُ سَوْتَهَا﴾ بفتح الدال وشدها وكسر الراء، والمعنى: ما أرسلنا من نذير يشافهمهم بشيء، ولا يبأثر أهل عصرهم ولا من قُرب من آبائهم، وإلا فقد كانت النذارة في العالم وفي العرب مع شعيب وصالح وهود، ودعوة الله وتوحيده أمر قديم، ولم تخل الأرض من داع إليه، فإنما المعنى: مِنْ نَذِيرٍ يختص بهؤلاء الذين بعثناك إليهم، وقد كان عند العرب كثير من نذارة إسماعيل عليه السلام، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، ولكن لم يتجرّد للنذارة ولا قاتل عليها إلا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

ثم مثل لهم بالأمم المكذبة قبلهم، وقلوه: ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَعَشَارَ مَا بَلَّغْتُمْ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أحدها أن يعود الضمير في ﴿بَلَّغُوا﴾ على

ثم عطف عليها أَنْ تَتَفَكَّرُوا في أمره هو، هل به جنة أو هو بريء من ذلك؟ الوقف عند أبي حاتم ﴿تَتَفَكَّرُوا﴾، فيجئ ﴿مَا يَصَاحِكُ﴾ نفيًا مُستأنفًا، وهو عند سيويه جواب ما تنزل منزلة القسم؛ لأن (تَفَكَّرَ) من الأفعال التي تعطي التحقيق كَتَبِينَ، وتكون الفكرة - على هذا - في آيات الله والإيمان به، ويحتمل أن يريد بقيامهم أن يكون لوجه الله في معنى التفكير في محمد عليه الصلاة والسلام، فتكون الواحدة التي وعظ بها ﴿أَنْ تَقُومُوا﴾، والمعنى: أَنْ تقوموا للفكرة في أمر حاجتهم، وكأن المعنى أن يفكر الواحد بينه وبين نفسه، وتتناظم الآيات على جهة طلب التحقيق، هل بمحمد - ﷺ - جنة أم لا؟ وعلى هذا لا يوقف على الفكرة. وقدم المثنى لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدي من فكرة واحد، فإذا انقذ الحق بين الاثنين فكّر كل واحد منهما بعد ذلك فيزيد بصيرة، وقد قال الشاعر:

إِذَا اجْتَمَعُوا جَاءُوا بِكُلِّ غَرِيبَةٍ
فَيَزِدَادُ بَغْضَ الْقَوْمِ مِنْ بَغْضِهِمْ عِلْمًا
وقرأ يعقوب: ﴿ثُمَّ تَفَكَّرُوا﴾ بتاء واحدة، وقال مجاهد: ﴿بِرَّحْدَةٍ﴾ معناه: لا إله إلا الله، وقيل غير هذا مما لا تعطيه الآية.

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْكَ﴾ يترتب على أن محمداً ﷺ جاء في الزمان من قبل العذاب الشديد الذي تُوعَدُوا به.

(٤٧) - (٥١) تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى في هذه الآية بالتبَرُّي من طلب الدنيا وطلب الأجر على

الرسالة، وتسليم كل دنيا إلى أربابها، والتوكل على الله في الأجر وجزاء الحد، والإقرار بأنه شهيد على كل شيء من أفعال البشر وأقوالهم وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَقْدِفُ بِالْحَقِّ﴾، يريد: بالوحي وآيات القرآن، واستعار له القذف من حيث كان الكفار يرمون بآياته وحكمه، وقرأ الجمهور: ﴿عَلَّامٌ﴾ بالرفع، أي: هو علَّامٌ، ونصبها عيسى بن عمر، وابن أبي إسحق، إما على البدل من اسم [إِنَّا]، أو على الممدح، وقرأ الأعمش: ﴿وَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، وقرأ عاصم: ﴿الْغُيُوبِ﴾ بكسر الغين.

قوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يريد الشرع وأمر الله ونهيه، وقال قوم: يعني السيف، وقوله: ﴿وَمَا يَشِيئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، قالت فرقة: الباطل غير الحق، من الكذب والكفر ونحوه، استعار له الإبداء والإعادة ونفاهما عنه، كأنه قال: وما يصنع الباطل شيئاً. وقالت فرقة: الباطل: الشيطان، والمعنى: وما يفعل الباطل شيئاً مفيداً، أي: ليس يخلق ولا يرزق. وقالت فرقة: [ما] استفهام، كأنه قال: وأي شيء يصنع الباطل؟

وقرأ الجمهور: ﴿صَلَّتْ﴾ بفتح اللام، ﴿فَإِنَّمَا أَصْلُ﴾ بكسر الضاد، وقرأ الحسن، وابن وثاب: ﴿صَلَّلَتْ﴾ بكسر اللام ﴿أَصْلُ﴾ بفتح اللام، وهي لغة تميم.

وقوله: ﴿فِيمَا﴾ يحتمل أن يكون بمعنى الذي، ويحتمل أن تكون [ما]

مصدرية، و﴿قَرِيبٌ﴾ معناه: بإحاطته وإجابته وقدرته.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الآية - فقال ابن عباس، والضحاك: هذا في عذاب الدنيا، وزوي أن ابن أبزي قال: ذلك في جيش يغزو الكعبة فيخسف بهم في بيدااء من الأرض، ولا ينجو إلا رجل من جهنمة، فيخبر الناس بما نال الجيش، وقالوا: وبسبه قيل:

.....

وَعِنْدَ جُهَنَّمَ الْخَبِيرُ الْيَقِينُ وهذا قول بعيد، وروي في هذا المعنى حديث مطول عن حذيفة، وروى الطبري أنه ضعيف السند مكذوب فيه على ابن رواد بن الجراح وقال قتادة: ذلك في الكفار في بدر ونحوها. وقال الحسن بن أبي الحسن: ذلك في الكفار عند خروجهم من القبور للقيامة. وهذا أرجح الأقوال عندي.

وأما معنى الآية فهو التعجب من حالهم إذا فزعوا من أخذ الله إياهم، ولم يتمكن لهم أن يفوت منهم أحد، وقوله: ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ معناه: أنهم للقدرة قريب حيث كانوا، قيل: من تحت الأقدام، وهذا يتوجه على بعض الأقوال، والذي يغم جميعها أن يقال: إنَّ الأخذ يجيئهم من قرب في طمأنينتهم، بينا الكافر يؤمل ويظن ويترجى إذ غشيه الأخذ، ومن غشيه أخذ من قريب فلا حيلة له ولا روية، وقرأ الجمهور: ﴿وَأُخِذُوا﴾ وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا﴾، كأنه قال: وحالهم أخذ.

٢٧ - ٢٨ تفسير قوله عز وجل:

الضمير عائد على الله تعالى في قوله: ﴿يَوْمَ﴾، وقيل: على محمد ﷺ وشرعه والقرآن. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وعامة القراء: ﴿الْتَنَائُشُ﴾ بضم الواو دون همز، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم أيضاً بالهمز، والأولى معناها: التناول، من قولهم: ناش ينوش إذا تناول، وتناوش القوم في الحرب إذا تناول بعضهم بعضاً بالسلاح، ومنه قول الشاعر:

فَهَيَّ تَنُوشُ الْخَوْصَ نُوْشاً مِنْ عَلَا
نُوشاً بِهِ تَقْطَعُ أَجْوَازَ الْفَلَآ
فكأنه قال: وأنى لهم تناول مرادهم وقد بُعدوا عن مكان إمكان ذلك. وأما الهمز فيحتمل أن يكون مما تقدم وهمزت الواو لما كانت مضمومة بضمة لازمة، كما قالوا: أَقْنَتْ وغير ذلك، ويحتمل أن يكون من الطلب، تقول: «تَنَاءَشْتُ الشيء» إذا طلبته من بعيد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تَنَاشُ الشيء: رُجُوعُه، حكاه عنه ابن الأنباري، وأنشد:

تَمَسَّنِي أَنْ تَنُوبَ إِلَيْكَ مَيِّ
وَلَيْسَ إِلَى تَنَاشُيْهَا سَبِيلُ
وكأنه قال في الآية: وأنى لهم طلب مرادهم وقد بُعد؟ وقال مجاهد: المعنى: من الآخرة إلى الدنيا.

وقرأ الجمهور: ﴿وَيَقْدِفُونَ﴾ بفتح الباء وكسر الدال، على إسناد الفعل إليهم، أي: يرحمون بظنونهم، ويرمون بها الرسول وكتاب الله،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَاطِرُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ

وَلَنْ يَكْفُرُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِلَّهِ اللَّهُ تَرَجَّحَ الْأُمُورُ
 ١ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
 وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ٢ إِنَّا الشَّيْطَانُ لَكِنَّهُ دُعَاؤُ فَاتَّخِذُوهُ
 عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حَازِئَكُمْ لِيُكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ٣ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
 مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ٤ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ عَمَلِهِمْ فَرَأَاهُمْ حَسَنًا
 فَإِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ
 عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ٥ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ
 الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ نَزَّتْ فَاحْيَيْنَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ
 مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ٦ مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْغَزَا فَلَئِنَّ الْغَزَا جَمِيعًا
 إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ
 يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ
 ٧ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا
 وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمِرُ مِنْ مُعَمَّرٍ
 وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ٨

٤٣٥

الفرق المشابهة لهم من كل أمة، وهو جمع شبيعة، وقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يصلح في بعض الأقوال المتقدمة تعلقه بـ [فِعْلٍ]، ويصلح - على قول من قال: إن الفزع يوم القيامة - تعلقه بـ ﴿بِأَسْبَإِهِمْ﴾، أي: بمن اتصف بصفته من قبل في الزمان الأول، لأن ما يفعل بجميعهم إنما هو في وقت واحد، لا يقال فيه: من قبل.

و «الشُّكُّ الْمُرِيبُ»: أقوى ما يكون من الشُّكِّ وأشدُّه إظلاماً، والله أعلم.

كامل بعون الله وتوفيقه تفسير سورة سبأ والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة فاطر

هذه السورة مكية.

١ - ٥ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، الألف واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ لاستغراق الجنس على أتم عموم؛ لأن الحمد بالإطلاق على الأفعال الشريفة بالكمال هو لله، والشكر مستغرق فيه؛ لأنه فضل من فضوله. و﴿فَاطِرُ﴾ معناه: خالق، لكن يزيد في المعنى الانفراد بالابتداء لخلقها،

وذلك غيب عنهم، في قولهم: سخر واقتراء وغير ذلك، قاله مجاهد، وقال قتادة: كذفهم بالغيب هو قولهم: لا بعث ولا جنة ولا نار. وقرأ مجاهد بضم الياء وفتح الدال، على معنى: ويزجهم الوحي بما يكرهون من السماء.

قوله: ﴿وَجِيلَ بَيْنَهُمُ﴾ الآية. قال الحسن: معناه: من الإيمان والتوبة والرجوع إلى الأمانة والعمل الصالح، وذلك أنهم اشتبهوا في وقت لا تنفع فيه التوبة، وقاله أيضاً قتادة، وقال مجاهد: معناه: جيل بينهم وبين نعيم الدنيا ولذاتها، وقيل: معناه: جيل بينهم وبين الجنة ونعيمها، وهذا يتمكن جداً على القول بأن الأخذ والفزع المذكور هو يوم القيامة.

قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ أي

ومنه قول الأعرابي: «أنا فطرناها»، أراد: ابتدأت حفرها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أفهم معنى ﴿فَاطِرُ﴾ حتى سمعت قول الأعرابي. وقرأ الزهري: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَطَرُ﴾، وقرأ جمهور الناس: ﴿جَاعِلُ﴾ بالخفض، وقرأت فرقة: ﴿جَاعِلُ﴾ بالرفع، على قطع الصفة، وقرأ خالد بن نشيط: ﴿جَعَلُ﴾ على صيغة الماضي «الْمَلَكَةُ» نصباً، فأما على هذه القراءة الأخيرة فنصب قوله: ﴿رُسُلًا﴾ على المفعول الثاني، وأما على القراءةتين المتقدمتين فقيل: أراد بـ [جَاعِلُ] الاستقبال؛ لأن القضاء في الأزل، وحذف التنوين منه تخفيفاً، وعمل عمل المستقبل في ﴿رُسُلًا﴾ وقالت فرقة: ﴿جَاعِلُ﴾ بمعنى الماضي، و﴿رُسُلًا﴾ نصب بإضمار فعل، و﴿رُسُلًا﴾ معناه: بالوحي وغير ذلك من أوامر، فجبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل رُسُلٌ، والملائكة المتعاقبون رُسُلٌ، والمُسَدَّدون لحكام العدل رُسُلٌ، وغير ذلك. وقرأ الحسن: ﴿رُسُلًا﴾ بسكون السين.

و ﴿أَزْلَى﴾ جمع واجِذَه (ذو)، ومنه: الثَّقِيُّ ذو ثنية، والقوم أولوا ثني، وحكي عن الحسن أنه قال في تفسير قول مريم عليها السلام: ﴿إِنْ كُنْتُ نَفْسًا﴾: علمت أن الثَّقِيَّ ذو ثنية. وقوله تعالى: ﴿مَتَّى وَتِلْكَ رُوحٌ﴾ ألفاظ معدولة من اثنين وثلاثة وأربعة، فعدلت في حالة التنكير فتعرفت بالعدل، فهي لا تنصرف للعدل والتعريف، وقيل: للعدل

والصفة، وفائدة العدل الدلالة على التكرار؛ لأن «مَثْنَى» بمنزلة قولك: اثنين اثنين. وقال قتادة: إن أنواع الملائكة هي هكذا، منها ما له جناحان، ومنها ما له ثلاثة، ومنها ما له أربعة، وشذ منها ما له أكثر من ذلك، وزوي أن لجبريل عليه السلام ستمائة جناح فيها اثنان يبلغان من المشرق إلى المغرب. وقالت فرقة: المعنى: إن في كل جانب من الملك جناحين، ولبعضهم أربعة، وإلا فلو كانت ثلاثة لواحد لما اعتدلت في معتاد ما رأينا نحن من الأجحنة، وقيل: بل هي ثلاثة لواحد كالحوث، والله أعلم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ تقرير لما يقع في النفوس من التعجب والاستغراب عند الخبر بالملائكة أولي الأجحنة، أي: ليس هذا ببدع في قدرة الله تبارك وتعالى؛ فإنه يزيد في خلقه ما يشاء، وزوي عن الحسن. وابن شهاب أنهما قالَا: المزيد هو حسن الصوت، قال الهيثم الفارسي: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي: «أنت الهيثم الذي تزين القرآن بصوتك، جزاك الله خيراً»، وقيل: الزيادة: الخط الحسن، وقال عليه الصلاة والسلام: «الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً»، وقال قتادة: الزيادة: ملاحه العيينين، وقيل غير هذا، وإنما ذكر هذه الأشياء من ذكرها على جهة المثال، لا أن المقصود هي فقط، وإنما مثلوا بأشياء هي زيادات خارجة عن الغالب المعتاد الموجود كثيراً، وباقي الآية بين.

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ﴾، «مَا» شرط، و«يَفْتَحُ» جزم بالشرط، و«مِنْ رَحْمَةٍ» عام في كل خير يعطيه الله لعباده جماعتهم وأفرادهم، وقوله: ﴿مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ﴾ فيه حذف مضاف، أي: من بعد إيساكه، ومن هذه الآية سميت الصوفية ما يُعطاه (الصُوفِي) من الأموال والمطاعم وغير ذلك: الفتوحات، ومنها كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: «مُطرنا بنوء الفتح»، ويقرأ الآية.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا﴾ الآية... خطاب لقريش، وهو متجه لكل كافر، لا سيما لعُباد غير الله، وذكرهم تعالى بنعمته عليهم في خلقتهم وإيجادهم، ثم استفهمهم على جهة التقرير والتوقيف بقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ عِزَّ اللَّهُ؟﴾ أي: فليس إلا الخالق، لا ما تعبدون أنتم من الأصنام، وقرأ حمزة: «غَيْرِ» بالخفض نعت على اللفظ، وخبر الابتداء ﴿يَزِيدُكُمْ﴾ وبها قرأ أبو جعفر، وشقيق، وابن وثاب، وقرأ الباقر بالرفع، وهي قراءة شعبة بن نصح، وعيسى، والحسن بن أبي الحسن، وذلك يحتمل ثلاثة أوجه: النعت على الموضع والخبر مضمّر، تقديره: في الوجود، أو في العالم. وأن يكون «عِزَّ» خبر الابتداء الذي هو في المجرور، والرفع على الاستثناء، كأنه قال: هل خالق إلا الله؟ فجرت «عِزَّ» مجرى الفاعل الذي بعد إلا. وقوله: ﴿بَيْنَ أَسْمَاءَ﴾ يريد: بالمطر، ومن «الأرض» يريد: بالنبات، وقوله:

﴿فَأَن تَوَفُّكُونَ﴾ أي: فلا وجه تصرفون (فيه) عن الحق.

ثم سلّى نبيه ﷺ بما سلف من حال الرسل مع الأمم، و«الْأُمُورُ» تعم جميع الموجودات المخلوقات، إلى الله مصير جميع ذلك اختلاف أحوالها، وفي هذا وعيد للكفار ووعد للنبي ﷺ.

ثم وعظ جميع العالم وحذرهم غرور الدنيا بنعيمها وزخرفها، الشاغلة عن المعاد الذي له يقول الإنسان: يا ليتني قدمت لحياتي، ولا ينفعه «لَيْت» يومئذ، وحذر غرور الشيطان، وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ عبارة عن جميع خبره عز وجل في خير وتنعيم أو عذاب وعقاب. وقرأ الجمهور: «الْفُرُوزُ» بفتح الغين، وهو الشيطان، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأ سماك العبدي، وأبو حيوة: «الْفُرُوزُ» بضم الغين، وذلك يحتمل أن يكون جمع غار كجاليس وجُلُوس، ويحتمل أن يكون جمع غر، وهو مصدر غره يغره غراً، ويحتمل أن يكون مصدرأ وإن كان شاذاً في الأفعال المتعدية أن يجيء مصدرها على «فُعُول» لكنه قد جاء: «لَزُمَهُ لَزُوماً»، و«نَهَكَهُ المرضُ نُهوَكًا»، فهذا مثله، وكذلك هو مصدر في قوله تعالى: ﴿فَدَلَّهْمَا يُدَبِّرُ﴾.

﴿١-٥﴾ قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ﴾ الآية... يُقَوَّى قراءة من قرأ: «الْفُرُوزُ» بفتح الغين، وقوله: ﴿فَأَعِزَّهُ عُدُوًّا﴾ أي: بالمُبَايَنَةِ والمقاطعة والمخالفة له باتباع

الشُّرْع. و«الجزْبُ»: الحاشية والصاغية، واللام في ﴿يَكُونُوا﴾ لام الصيرورة؛ لأنه لم يدعهم إلى السعير، وإنما اتفق أن صار أمرهم عن دعائه إلى ذلك، و«السَّعِيرُ» طبقة من طبقات جهنم، وهي سبع طبقات.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في موضع رفع بالابتداء، وهذا هو الحسن لعطف ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عليه بعد ذلك، فهما جملتان تعادلتا، وجوز بعض الناس أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ بدلاً من الضمير في ﴿يَكُونُوا﴾، وجوز غيره أن يكون في موضع خفض بدلاً من ﴿أَصْحَابُ﴾، وهذا محتمل، غير أن الابتداء أرجح.

وقوله تعالى: ﴿أَفَنُزِّنْ لَهُمُ﴾ الآية... توقيف، وجوابه محذوف، تقديره عند الكسائي: تذهب نفسك حسرات عليه، ويمكن أن يتقدر: كمن اهتدى، ونحو هذا من التقدير، وأحسنها ما دل اللفظ بغد عليه، وقرأ طلحة: ﴿أَمْنُ﴾ بغير فاء، وهذه الآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام عن كفر قومه، ووجب التسليم لله تعالى في إضلال من شاء وهداية من شاء، وأمر نبيه ﷺ بالإعراض عن أمرهم، وألاً يبخع نفسه أسفاً عليهم. وقرأ الحسن: ﴿تَذْهَبُ﴾ بفتح التاء والهاء ﴿نَفْسُكَ﴾ بالرفع، وقرأ أبو جعفر، وقتادة، وعيسى، والأشهب: ﴿تَذْهَبُ﴾ بضم التاء وكسر الهاء ﴿نَفْسُكَ﴾ نصباً، ورويت عن نافع. و«الحسرة»: هم

النفس على فوات أمر، واستشهد ابن زيد لذلك بقوله: ﴿يَحْصِرَنَّ عَلَى مَا قَرَّرْتُ فِي جَنِّ اللَّهِ﴾، ثم توعد الكفرة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

هذه آية احتجاج على الكفرة في إنكارهم البعث من القبور، فدلهم على المثال الذي يعاينوه وهو سواء مع إحياء الموتى. و«الْبَلَدُ الْمَمَيَّتُ» هو الذي لا نبت فيه، قد اغبر من القحط، فإذا أصابه الماء من السحاب اخضر وأنبت، فتلك حياته، و«الشُّورُ» مصدر: نشر الميت إذا حيي، ومنه قول الأعشى:

.....
يَا عَجَبًا لِلْمَيِّتِ الشَّائِرِ
وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ يحتمل ثلاثة معان: أحدها أن يريد: من كان يريد العزة بمغالبة فله العزة، أي: ليست لغيره، ولا تتيه إلا له، وهذا المغالب مغلوب، ونحا إليه مجاهد، وقال: من كان يريد العزة بعبادة الأوثان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تمسك بقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً يَكُونُونَ لَهُمْ عِزًّا﴾. والمعنى الثاني: من كان يريد العزة وطريقها القويم، ويحب ثيلها على وجهها، فله العزة، أي: به وعن أمره، لا تنال عزته إلا بطاعته، ونحا إليه قتادة.

والمعنى الثالث - وقاله الفراء -: من كان يريد علم العزة فله العزة،

أي: هو المتصف بها. و«جَنِينًا» حال.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أي التوحيد والتمجيد وذكر الله ونحوه. وقرأ الضحاك: ﴿يُصْعَدُ﴾ بضم الياء، وقرأ الجمهور: ﴿الْكَلِمُ﴾ وهو جمع كلمة، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿الْكَلَامُ﴾. و«الطَّيِّبُ» الذي يستحسن سماعه الاستحسان الشرعي. وقال كعب الأحبار: إن لا «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» لدويًا حول العرش كدوي النحل، تذكر بصاحبها.

قوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، اختلف الناس في الضمير، على من يعود؟ فقالت فرقة: يعود على ﴿وَالْعَمَلُ﴾، ثم اختلفت هذه الفرقة - فقال قوم: الفاعل بـ ﴿يَرْفَعُ﴾ هو ﴿الْكَلِمُ﴾، أي: والعمل يرفعه الكلم، وهو قول: «لا إله إلا الله»؛ لأنه لا يرفع عمل إلا بتوحيده. وقال بعضهم: الفعل مسند إلى الله تعالى، أي: والعمل الصالح يرفعه هو، وهذا أرجح الأقوال.

وقال ابن عباس، وشهر بن حوشب، ومجاهد، وقتادة: الضمير في ﴿يَرْفَعُهُ﴾ عائد على ﴿الْكَلِمُ﴾، أي: إن العمل الصالح هو يرفع الكلم، واختلفت عبارات أهل هذه المقالة - فقال بعضها: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن العبد إذا ذكر الله تعالى، وقال كلاماً طيباً، وأدّى فرائضه، ارتفع قوله مع

بالريح، وعبر المفسرون عن هذه
بعبارات لا تختص باللفظة، فقال
بعضهم: المواخر هي التي تجيء
وتذهب بريح واحدة، وقال مجاهد:
الريح تمخر السفن، ولا تمخر الريح
من السفن إلا الفلك العظام، هكذا
وقع لفظه في البخاري، والصواب
أن تكون الفلك هي الماخرة لا
التمخورة.

وقوله تعالى: ﴿لَتَبْتَغُوا﴾ يريد
بالتجارة والحج والغزو وكل سفر له
وجه شرعى.

(١٣) - (١٤) تفسير قوله عز وجل:

﴿يُؤَلِّجُ﴾ معناه: يُدْخِلُ، وهذه عبارة عن أن ما نقص من الليل زاد في النهار، فكأنه دخل فيه، وكذلك ما نقص من النهار يدخل في الليل. والألف واللام في ﴿الْأَجَلُ وَالْقَمَرُ﴾ هي للعهد، وقيل: هي زائدة لا معنى لها ولا تعريف. وهذا هو الصواب. و﴿الْأَجَلُ الْمُسَمَّى﴾ هو قيام الساعة، وقيل: أماد الليل وأمد النهار، ف﴿أَجَلٌ﴾ - على هذا - اسم جنس. وقرأ جمهور القراء: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالثاء، وقرأ يعقوب والحسن بـالياء. و﴿الْقَطْمِيرُ﴾: القشرة الرفيعة التي على نوى التمرة، هذا قول الناس الحجة، وقال جُوَيْرٍ عن رجاله: القَطْمِيرُ: القمع الذي في رأس التمرة، وقال الضحاك: والأول أشهر وأصوب.

ثم بيّن تعالى أمر الأصنام بثلاثة
أشياء، كُلُّهَا تعطي بطلانها: **أُولُهَا**
أَنهَا لَا تَسْمَعُ إِنْ دُعِيَتْ، والثاني **أَنهَا**
لَا تُجِيبُ إِنْ لَوْ سَمِعَتْ، وإِنَّمَا جَاءَ
بهَذَا لِأَنَّ لِقَائِلَ مُتَعَسِّفٍ أَنْ يَقُولَ:

وغيره: هذه عبارة تقتضي
أن الجلية تخرج منهما
وهي إنما تخرج من
الملح، وذلك يجوز، كما
قال في آية أخرى: ﴿يَخْرُجُ
مِنْهَا الزَّوْلُ وَالْمَرْءُ﴾،
وكما قال: ﴿يَنْقُشُ الرِّجْلُ
وَالْأَيْدِي أَلَّهُ بِأَيْدِيكُمْ رُسُلَ
يُنَكِّمُ﴾، والرسول إنما هي
من الإنس.

وقال بعض الناس: بل
الجلية تخرج من
البحرين؛ وذلك أن صدف
اللؤلؤ إنما يلحقه - فيما
يزعمون - ماء السماء،
فمنه ما يخرج ويوجد
الجوهر فيه، ومنه ما ينشق

في البحر عند موته ويقطعه فيخرج
جوهرة بالعطش وغير ذلك من
الحيل، فهذا هو من الماء الفُرات،
فُنُسِبَ إليه الإخراج لما كان من
الحلية بسبب، وأيضاً فإن البحر
الفرات كله ينصب في البحر فيجيءُ
الإخراج منهما جميعاً، وقد خُطِئَ
أبو ذؤيب في قوله في صفة الجوهرة:
فَجَاءَ بِهَا مَا شِئْتَ مِنْ لَطْمِيَّةٍ
عَلَى وَجْهِهَا ماءُ الْفُرَاتِ يَمْسُجُ
وليس ذلك بخطئٍ على ما ذكرنا من
تأويل هذه الفقرة.

و ﴿أَفَلَا يَكْفُرُ﴾ في هذا الموضع جمع
بدليل صفته بجمع.

و ﴿مَوَاسِرَ﴾ جمع مَاسِرَة، وهي التي تمخر الماء، أي تُسْقِيهِ، وقيل: الماخرة: التي تشق الرياح، وحينئذ يحدث الصوت، والمَخَر: الصوت الذي يحدث من جرى السفينة

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَأَتْ سَاعَةً ثُمَّ آتَاهُ هَذَا
 مِلْحٌ أَجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكَلُونَ لَحْمًا طَرِيبًا وَتَسْتَخْرِجُونَ
 جِلْدَهُ تَلْبَسُونَهَا وَرَى الْفَالَكُ فِيهِ مَوَازِيرَ لَبَنٍ غَوَامٍ فَضْلُهُ
 وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤْلِجُ
 النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
 لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴿١٦﴾ إِنْ
 تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَا يَعْبَهُوا أَسْتَجَابُوا لَكُمْ
 وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُبَشِّرُكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ
 ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
 الْحَمِيدُ ﴿١٨﴾ إِنْ يَأْذَنْ بِذَهَابِكُمْ لَا يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾
 وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ
 تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمْلِهَا لَا يَجْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
 إِنَّمَا تُذَكِّرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَمِنْ زَكَاةٍ فَإِنَّهُمْ ذَكَّرُوا لِنَفْسِهِمْ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢١﴾

تفسير قوله عز وجل:

هذه آية أخرى يستدل بها كل عاقل، ويقطع أنها مما لا مدخل لصنم فيه، و﴿الْحَرِينَ﴾ يريد بهما جميع الماء المالح وجميع الماء العذب حيث كان، فهو يعني به جملة هذا وجملة هذا. و﴿الْفَرَاتِ﴾: الشديد العذوبة، و﴿الْأُجَاجِ﴾: الشديد الملوحة التي تميل إلى المرارة من ملوحته. قال الرماني: هو من: أَجْجَبْتُ النَّارَ، كأنه يحرق من حرارته. وقرأ عيسى الثقفي: ﴿سَبِغْ شِرَابَهُ﴾ بغير ألف وشد الباء، وقرأ طلحة: ﴿مَلِجْ﴾ بفتح الميم وكسر اللام.

و «اللحم الطريُّ»: الحوت، وهو موجود في البحرين، وكذلك القُلك تجري في البحرين، وبقيت الحليَّة وهي اللؤلؤ والمرجان، فقال الرُّجَّاج

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٦﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿١٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾ وَمَا آتَاكَ بِشَيْءٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ إِذْ أَنتَ لِأَنذِرٍ ﴿٢٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢١﴾ وَإِن يَكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَيَاذُرُّوهُم بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَفِي الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرِيمٌ سُودٌ ﴿٢٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٦﴾ لِيُؤْتِيَهُمَ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٧﴾

الثقيل، وهذه الآية في الذنوب والآثام والجرائم، قاله قتادة، وابن عباس، ومجاهد، وسببها أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين: اكفروا بمحمد وعلي وزركم، فحكم الله بأنها لا يحملها أحد عن أحد، ومن تطرق من الحكام إلى أخذ قريب بقرب في جريمة - كفعل زياد ونحوه - فإن ذلك لأن المأخوذ ربما أعان المجرم بمؤازرة ومواصلة، أو اطلاع على حالة وتقدير لها، فهو قد أخذ من الجرم بنصيب، وهذا هو

عساها تسمع، والثالث أنها تنبأ يوم القيامة من الكفار.

﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكَ﴾ أي: بأن جعلوهم شركاء لله، فأضاف الشرك إليهم من حيث هم قرؤوه، فهو مصدر مضاف إلى الفاعل، وقوله: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يحتمل أن يكون بكلام وعبرة يقدر الله الأصنام عليها، ويخلق لها إدراكاً يقتضيها، ويحتمل أن يكون بما يظهر هنالك من جمودها وبطولها عند حركة كل ناطق، ومداغة كل محتج، فيجيء هذا على طريق التجوز، كقول ذي الرمة:

وَقَفْتُ عَلَى زَنْجٍ لِمِيَّةٍ نَاطِقِي
تُخَاطِبُنِي أَثَارُهُ وَأَخَاطِبُهُ
وَأَسْقِبُهُ حَتَّى كَادَ بِمَا أَبُتُّهُ
تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَتَلَاغِبُهُ
قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾، قال المفسرون - قتادة وغيره -: الخَيْرُ: أراد به تعالى نفسه، فهو الخبير الصادق الخبر، نبأ بهذا فلا شك في وقوعه. ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ من تمام ذكر الأصنام، كأنه قال: ولا يُخبرك مثل من يُخبر عن نفسه، وهي قد أخبرت عن أنفسها بالكفر بهؤلاء. ﴿١٥﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية موعظة وتذكير، والإنسان فقير إلى الله تعالى في دقائق الأمور وجلالها، لا يستغني عنه طرفة عين، وهو مُستغْن عن كل أحد، والله تعالى غني عن الناس، وعن كل شيء من مخلوقاته، غني على الإطلاق، و﴿الْحَكِيمُ﴾: المحمود بالإطلاق. وقوله: ﴿يَعَزِّزُ﴾ أي: بمتع. و﴿يُزِدُ﴾ معناه: تحمل الوزر

وقوله: ﴿بِالْقَلْبِ﴾ أي: وهو بحال غيبة عنهم، إنما هي رسالة، ثم خصص من الأعمال إقامة الصلاة تنبيهاً عليها وتشريفاً لها. ثم حضَّ سبحانه وتعالى على الشُّرْكَى؛ بأن رَجَى عليه غاية الترجية، وقرأ طلحة: ﴿وَمَنْ أَرْكَى فَإِنَّمَا يَرْكِي لِقَفِيهِ﴾. ثم توعد تعالى بعد ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَلَمِيعٌ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكل عبارة مُقَصِّرَة عن تبيين فصاحة هذه الآية، وكذلك كتاب الله كله، ولكن يظهر الأمر لنا نحن في مواضع أكثر منه في مواضع بحسب تقصيرنا.

﴿١٩﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل: مضمون هذه الآية طعن على الكفرة، وتمثيل لهم بالعُنفى

المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلِيَجْلِبَ أَقْبَالَهُمْ وَتَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ لأنهم أغرؤهم، وهو معنى قوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلِيهِ وَزَرَهَا وَوَزَرَ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ»، وأنشئت «وَاِزْرَةً» لأنه ذهب بها مذهب النفس، وعلى ذلك أجريت «مُثْقَلَةً». والجمل: ما كان على الظهر في الأجرام، ويُستعار للمعاني كالذنوب ونحوها، فيجعل كل محمول متصلاً بالظهر، كما يجعل كل اكتساب منسوباً إلى اليد. واسم [كان] مضمراً، تقديره: ولو كان الداعي.

ثم أخبر تعالى نبيه ﷺ أنه إنما ينذر أهل الخشية، وهم الذين يُمنحون العلم، أي: إنما ينتفع بالإندار هم، وإلا فلينذره جميع العالم بَعَثَهُ.

والظلمات، وتمثيل المؤمنين - بإزائهم - بالبصراء والأنوار، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنْزِرُ﴾ ودخول [لَا] فيها وفيما بعدها إنما هو على نية التكرار، كأنه قال: «ولا الظلمات والنور، ولا النور والظلمات»، فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني، ودلّ مذكور الكلام على متروكه.

و ﴿أَنْزَرُ﴾ شدة حرّ الشمس، قال رؤبة بن العجاج: الخُرُور بالليل والسموم بالنهار، وليس كما قال، وإنما الأمر كما حكى الفراء وغيره: إن السموم تختص بالنهار، والحرور يقال في حرّ الليل وفي حرّ النهار، وتأول قوم الظلّ في هذه الآية: الجنة، والحرور: جهنم.

وشبه المؤمنين بالأحياء، والكفرة بالأموات، من حيث لا يفهمون الذكر ولا يُقبلون عليه، ثم ردّ الأمر إلى مشيئة الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَمِّعُ مَنْ يُشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾. وهذا تمثيل ما يحسه البشر ويشاهدونه، فهم يرون أن الميت الذي في القبر لا يسمع، وأما الأرواح فلا تُردّ؛ إذ تتضمن الأحاديث أن أرواح المؤمنين في شجر عند العرش في قناديل وغير ذلك، وأن أرواح الكفرة في سجين ونحوه، وفي بعض الأخبار أن الأرواح عند القبور، فربما سمعت، وكذلك أهل قلب بدر إنما سمعت أرواحهم، وكذلك سماع الميت خفق النعال، إنما هو برّد روحه عليه عند لقاء المملّكين، فهذه الآية لا تعارض حديث القلب؛ لأن الله تبارك وتعالى ردّ على أولئك

أرواحهم في القلب ليؤنّخهم، وهذا على قول عمّر وابنه عبد الله رضي الله تعالى عنهما - وهو الصحيح -: إن رسول الله ﷺ قال: «ما أنتم بأسمع منهم»، وأما عائشة رضي الله عنها فمذهبيها أن رسول الله ﷺ لم يُسمعهم، وإنما قصد توبيخ الأحياء من الكفرة، وجعلت هذه الآية أصلاً، واحتجت بها، فمثل الله تعالى في هذه الآية الكفرة بالأشخاص التي في القبور - وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «بِمُسْمِعٍ مَنْ» على الإضافة.

ثم سألني نبيه ﷺ بقوله: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، أي: ليس عليك غير ذلك، والهداية والإضلال إلى الله تعالى.

و ﴿يَذِيرُ﴾ معناه: بالنعيم الدائم لمن آمن، و﴿يَذِيرُ﴾ معناه: من العذاب الأليم لمن كفر. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ معناه: إن دعوة الله قد عمّت جميع الخلق، وإن كان فيهم من لم تباشره النذارة فهو ممن بلغته؛ لأن آدم عليه السلام بعث إلى بنيهِ، ثم لم تنقطع النذارة إلى وقت محمد ﷺ، والآيات التي تتضمن أن قريشاً لم يأثمهم نذيرٌ معناه: نذيرٌ مباشر، وما ذكره المتكلمون من فرض أصحاب الفترات ونحوهم فإنما ذلك بالفرض لا أنه يوجد أمة لم تعلم أن في الأرض دعوة إلى عبادة الله تعالى.

ثم سألني نبيه ﷺ بما سلف من الأمم لأنبيائهم، و﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ و﴿الزُّبُرِ﴾ و﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ شيء واحد، لكنه أكد أوصافه بعضها

ببعض، وذكره بجهاته. و﴿الزُّبُرِ﴾: من: زبرْتُ الكتاب إذا كتبتَه. ثم توعد قريشاً بذكره أخذ الأمم الكافرة.

٢٧ - ٢٨ تفسير قوله عز وجل: الرؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ رؤية القلب، وكل توقيف في القرآن على رؤية فهي رؤية القلب؛ لأن الحجّة بها تقوم، ولكن رؤية القلب لا تتركّب البتة إلا على حاسة، فأحياناً تكون بحاسة البصر، وقد تكون غيرَ، وهذا يُعرف بحسب الشيء المُتكلّم فيه. و [أَنْ] سادة مسدّ المفعولين اللذين للرؤية، هذا مذهب سيبويه؛ لأن [أَنْ] مع ما دخلت عليه جملة، ولا يلزم ذلك في قولك: رأيت أو ظننت ذلك؛ لأن قولك ذلك ليس بجملة كما هي [أَنْ]، ومذهب الزجاج أن المفعول الثاني محذوف، تقديره: ألم تَرَ أن الله أنزل من السماء ماء حقاً؟ ورجع من خطاب بذكر الغائب إلى المتكلم بنون العظمة لأنه أغيب في العبارة.

قوله تعالى: ﴿الْوَهَّاءُ﴾ يحتمل أن يريد الصّفرة والحُمْرة والبياض والسواد وغير ذلك، ويؤيد هذا أطراد ذكر هذه الألوان فيما بعده، ويحتمل أن يريد الأنواع، والمعتبر فيه - على هذا التأويل - أكثر عدداً.

و ﴿جُدَّةٌ﴾ جمع جُدَّة، وهي الطريقة تكون من الأرض والجبل كالقطعة العظيمة المتصلة طولاً، ومنه قول امرئ القيس:

كَأَنَّ سَرَائِهِ وَجُدَّةَ ظَهْرِهِ
كَتَائِنٍ بِجَرِي بَيْتَهُنَّ دَلِيصُ

وحكى أبو عبيدة في بعض كتبه أنه يقال: «جُدْ» في معنى «جديد»، ولا مدخل لمعنى الجديد في هذه الآية، وقرأ الزهري: «جُدْ» بفتح الجيم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَزَّيْبُ سُوْدٌ﴾ لفظان لمعنى واحد، قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُفْضِلُ الشَّيْخَ الْغَزِيْبَ»، أي الذي يخضب بالسود، وقدم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر، وكذلك هو في المعنى، لكن كلام العرب الفصيح يأتي كثيراً على هذا النحو.

وقوله تعالى: ﴿تُخَيِّلُ الْوَنْنَ﴾ قبله محذوف إليه يعود الضمير، تقديره: «والأنعام خلقت مختلف ألوانه»، والدواب نعم الناس، ولكن ذكراً تنبيهاً منهما. وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ يحتمل أن يكون من الكلام الأول فيجيء الوقف عليه حسناً، وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين، ويحتمل أن يكون من الكلام الثاني، يخرج مخرج السبب، كأنه قال: كما جاءت القدرة في هذا كله إنما يخشى الله من عباده العلماء، أي المحصلون لهذه العبر، الناظرون فيها. وقال بعض المفسرين: الخشية رأس العلم، وهذه عبارة وعظيمة لا تثبت عند النقد، بل الصحيح المطرد أن يقال: العلم رأس الخشية وسببها، والذي ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «خشية الله رأس كل حكمة»، وقال: «رأس الحكمة مخافة الله»، فهذا هو الكلام المنير، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كفى بالزهد علماً»، وقال مسروق: «كفى بالمرء علماً أن يخشى الله»،

وقال تعالى: ﴿سَيَذْكُرْ مَنْ يَتَنَبَّأُ﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «أعلمكم بالله أشدكم له خشية»، وقال الربيع بن أنس: «من لم يخش الله فليس بعالم»، ويقال: إن فاتحة الزبور: «رأس الحكمة خشية الله»، وقال ابن مسعود: «كفى بخشية الله علماً، وبالاغترار به جهلاً»، وقال مجاهد والشعبي: «إنما العالم من يخشى الله»، و[إنما] في هذه الآية لتخصيص العلماء لا للحضر، وهي

لفظة تصلح للحضر، وتأتي أيضاً دونه، وإنما يعلم ذلك بحسب المعنى الذي جاءت فيه، فإذا قلت: إنما الشجاع عنترة، وقلت: إنما إله واحد، بان لك الفرق بينهما فتأمل.

وهذه الآية بجملتها دليل على الواحدية والقدرة، والقصد بها إقامة الحجة على كفار قريش.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣١﴾ تفسير قوله عز وجل: قال مطرف بن عبدالله بن الشخير: «هذه آية القراء»، وهذا على أن «يتلون» بمعنى: يقرءون، وإن جعلناها بمعنى: يتبعون، صح معنى الآية، وكانت في القراء وغيرهم ممن اتصف بأوصاف الآية، و«كتاب الله» هو القرآن، و«إقامة الصلاة» إقامتها بجميع شروطها، و«الثقة» هي الصدقات ووجوه البر،

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣١﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٢﴾ الَّذِي أَلْهَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنَ فَضْلِهِ لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْثُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٤﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا لَعَلَّ نَصَلِحَ أَعْمَالُ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ نُزِيلْ نَجْمًا كَرِيمًا تَذَكَّرُوا وَجَاءَ كُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٥﴾ إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ غَنِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٦﴾

فالسر من ذلك هو التطوع، والعلانية هو المفروض، و﴿يَرْجُونَ﴾ جملة في موضع رفع خبر [إن]، و﴿كُتُوبٌ﴾ معناها: تكسد ويتعذر ربحها، ويقال: «نعوذ بالله من بوار الأيتم».

واللام في ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ﴾ متعلقة بفعل مضمر يقتضيه لفظ الآية، تقديره: وعدهم بالأبواب إن فعلوا ذلك كله وأطاعوه، ونحو هذا من التقدير. وقوله: ﴿وَرَبِّدُهُمْ﴾ قالت فرقة: هو تضعيف الحسنات من العشر إلى السبعمئة، وتوفية الأجور - على هذا - هي المجازاة مقابلة. وقالت فرقة: إن التضعيف داخل في توفية الأجور، وأما الزيادة من فضله فهي: إما النظر إلى وجهه الكريم وإما الشفاعة في غيرهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَّعٍ

وَرِيَادَةً»، و﴿عَفُورٌ﴾ معناه: متجاوز عن الذنوب سائر لها، و﴿شَكُورٌ﴾ معناه: مُجَازٍ على اليسير من الطاعة، مُقَرَّبٌ لعبده به. ثم ثَبَّتَ تعالى أمر نبيِّه بقوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ الْاِسْمَةَ، وَ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة، والذي بين يدي القرآن هو التوراة والإنجيل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ وعيد.

(٣٢) - (٣٤) تفسير قوله عز وجل:

﴿أَوْرَثْنَا﴾ معناه: أعطيناه فرقة بعد موت فرقة، والميراث - حقيقةً ومجازاً - إنما يقال فيما صار لإنسان بعد موت آخر، والمراد بالكتاب هنا معاني الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده، فكأن الله تعالى لما أعطى أمة محمد ﷺ القرآن - وهو قد تضمَّن معاني الكتب المنزلة قبله - فكأنه ورَّث أمة محمد ﷺ الكتاب الذي كان في الأمم قبلهم.

و﴿الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا﴾ يريد بهم أمة محمد عليه الصلاة والسلام، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وكأن اللفظ يحتمل أن يريد جميع المؤمنين من كل أمة إلا أن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلا لأمة محمد ﷺ، والأول لم يُورَّثوه. و﴿أَصْطَفَيْنَا﴾: اخترنا وفضلنا، و﴿الْعِبَادَ﴾ عامٌ في جميع العالم مؤمنهم وكافرهم.

واختلف الناس في عود الضمير من قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ - فقال ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهم ما مُقتضاه أن الضمير عائد على ﴿الَّذِينَ﴾، والأصناف الثلاثة هي كلها في أمة محمد صلوات الله

وسلامه عليه، فالظالم لنفسه: العاصي المُسْرِف. و﴿المقتصد﴾: مُتَّقِي الكِبَائِر، وهو الجمهور من الأمة، و﴿السَّابِقُ﴾: المُتَّقِي على الإطلاق، وقالت هذه الفرقة: الأصناف الثلاثة في الجنة، وقاله أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، والضمير في ﴿يَتَنَبَّهْنَ﴾ عائد على الأصناف الثلاثة، قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: دخلوا الجنة كلهم، وقال كعب الأحبار: وفي رواية: تحاكَت مناكبهم، وقال أبو إسحق السبيعي: أما الذي سمعت منذ ستين سنة، فكلهم ناج، وقال ابن مسعود: هذه الأمة يوم القيامة ثلاث: ثَلُثٌ يدخلون الجنة بغير حساب، وثَلُثٌ يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثَلُثٌ يجيئون بذنوب عظام، فيقول الله: من هؤلاء؟ - وهو أعلم بهم - فتقول الملائكة: هم مذنبون إلا أنهم لم يشركوا، فيقول عز وجل: أدخلوهم في سعة رحمتي، وقالت عائشة رضي الله عنها في كتاب الثعلبي: السَّابِقُ من أسلم قبل الهجرة، والمقتصد من أسلم بعدها، والظالم نحن. وقال الحسن: السَّابِقُ من رجحت حسناته، والمقتصد من استوت بسببته، والظالم من خُفَّت موازينه، وقال سهل بن عبد الله: السابق العالِمُ، والمقتصد المتعلِّم، والظالم الجاهل. وقال ذو الثون: الظالم الذَّاكِرُ الله بلسانه فقط، والمقتصد الذَّاكِرُ بقلبه، والسابق الذي لا ينساه. وقال الأنطاكي: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد

صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال، وروى أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «كلهم في الجنة»، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»، وقال عليه الصلاة والسلام: «أنا سابق العرب، وسلمان سابق الفرس، وصُهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبشة»، أراد عليه الصلاة والسلام أن هؤلاء رؤوس السابقين، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «سابقنا أهل جهاد، ومقتصدنا أهل حضرنا، وظالمنا أهل بدونا، لا يشهدون جماعة ولا جمعة».

وقال عكرمة، وقاتدة، والحسن ما مقتضاه أن الضمير في ﴿وَمِنْهُمْ﴾ عائد على «العباد»، والظالم لنفسه: الكافر والمنافق، والمقتصد: المؤمن العاصي، والسابق: المُتَّقِي على الإطلاق، قالوا: وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾، والضمير في قوله تعالى: ﴿يَتَنَبَّهْنَ﴾ - على هذا القول - خاص على الفرقين: المقتصد والسابق، والفرقة الظالمة في النار، قالوا: وبعيد أن يكون ممن اصْطَفَى ظالمٌ كما يقتضي التأويل الأول، ووُيِّ هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال بعض العلماء: قُدِّمَ الظالم لأنه لا يتكلل إلا على رحمة الله، والمقتصد هو المعتدل في أموره، لا يُسرف في جهة من الجهات، بل يلزم الوسط. وقال عليه الصلاة

والسلام: «خير الأمور أوساطها».

وقالت فرقة - لا معنى لقولها -: إن قوله تعالى: «الَّذِينَ آمَنَّا» هم الأنبياء، والظالم لنفسه منهم من وقع في صغيرة، وهذا قول مردود من غير ما وجه.

وقرأ الجمهور: «سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» وقرأ أبو عمران الجوني: «سَبَاقٌ».

وقوله تعالى: «يَا ذِي الْأَلْهَامِ» معناه: بأمره ومشيته فيمن أحب من عباده، وقوله: «ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» إشارة إلى الاصطفاء وما يكون من الرحمة.

وقال الطبري: السُّبُوق بالخيرات هو الفضل الكبير، قال في كتاب الثعلبي: جمعهم في دخول الجنة لأنه ميراث، والبَار والعاق سواء في الميراث مع صحة النسب، فكذلك هؤلاء مع صحة الإيمان.

وقرأ الجمهور: «جَنَّتْ» بالرفع على البدل من «الْفَضْلُ»، وقرأ الجحدري: «جَنَّتْ» بالنصب بفعل مضمر يُفسره «يَسْلُوْنَ»، وقرأ زر بن حبیش: «جَنَّتْ عَذْنٌ» على الأفراد، وقرأ أبو عمرو: «يُدْخِلُونَهَا» على بناء الفعل للمجهول، ورويت عن ابن كثير، وقرأ الباقون بفتح الباء وضم الخاء.

و «الْأَسَاوِرُ» جمع أسورة، وأسورة جمع سوار، بضم السين وكسرهما، وفي حرف أبي «أساوير»، وهو جمع أسوار، وقد يقال ذلك في الحلبي، ومشهور أسوار أنه الجيد الرُمي من جند الفرس، و«يَمْلُونَ» معناه: نساء ورجالاً. وقرأ عاصم - في رواية أبي

بكر -: «وَلَوْلُوا» بالنصب عطفاً على موضع «أَسَاوِرُ»، وكان عاصم - في رواية أبي بكر - يقرأ: «وَلَوْلُوا» بسكون الواو الأولى دون حمز ويهمز الثانية، ورؤي عنه ضد هذا، وقرأ الباقون: «وَلَوْلُوا» بالهمز والخفض عطفاً على «أَسَاوِرُ».

و «الْحَزَنُ» في هذه الآية عام في جميع الأحزان، وخُصَّص المفسرون ها هنا، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: حزن أهوال يوم القيامة وما يُصيب هنالك من ظلم نفسه من الغم والحزن، وقال: ابن عباس رضي الله عنهما: حزن جهنم، وقال عطية: حزن الموت، وقال قتادة: حزن الدنيا في الخوف ألا تُتَقَبَّلَ أعمالهم، وقيل غير هذا مما هو جزء من الحزن، ولا معنى لتخصيص شيء من هذه الأحزان؛ لأن الحزن أجمع قد ذهب عنهم، وقولهم: «لَقُفُّوا شُكُورًا» وصفوه بأنه تبارك وتعالى يغفر الذنوب، ويجازي على القليل من الأعمال الصالحة بالكثير من الثواب، وهذا هو شكره لا رب سواه.

٢٦ - ٢٧ تفسير قوله عز وجل: «الْمَقَامَاتُ»: الإقامة، من: أقام، والمَقَامَةُ - بفتح الميم -: القيام، وهي من: قام، و«دَارُ الْمَقَامَةِ»: الْجَنَّةُ. و«النَّصَبُ» تعب البدن، و«الْغُوبُ» تعب النفس اللازم من تعب البدن، وقال قتادة: الغُوب: الوجع، وقراءة الجمهور «لُغُوبٌ» بضم اللام، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والسُّلَمي: «لُغُوبٌ» بفتح اللام، أي: شيء

يُغَيِّبُنَا، ويحتمل أن تكون مصدرًا كالْوَلُوغِ والْوُضُوءِ.

ثم أخبر تعالى عن حال الذين كفروا معادلاً بذلك الإخبار قبل عن الذي اصطفى، وهو يؤيد تأويل من قال: إن الثلاثة الأصناف هي كلها في الجنة؛ لأن ذكر الكافرين إنما جاء ها هنا. وقوله تعالى: «لَا يَنْصَرِفُ عَلَيْهِمْ» معناه: لا يُجْهَرُ؛ لأنهم لو ماتوا لبطلت حواسهم فاستراحوا، وقرأ الحسن البصري، والشفقي: «فَيَمُوتُونَ»، ووجهها العطف على «يَقِفُ»، وهي قراءة ضعيفة.

وقوله تعالى: «وَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابٍ» لا يعارضه قوله: «كُلَّمَا حَتَّ ذَنْبُهُمْ سَمِعُوا»؛ لأن المعنى: لا يُخَفَّفُ عنهم نوع عذابهم، والنوع في نفسه يدخله أن تخبو وأن تسعر، ونحو ذلك. وقرأ الجمهور: «يَجْزَى» بنون «كُلٌّ» بالنصب، وقرأ أبو عمرو - بخلاف -: «يَجْزَى» بياء مضمومة على الفعل المجهول «كُلٌّ» رفعاً.

و «يَصْطَرِحُونَ» يفتعلون، من الصُّرَاح، أصله «يَضْرَحُونَ» فأبدلت الشاء طاء لقرب مخرج الطاء من الصاد، وفي الكلام محذوف تقديره: فيقال لهم: «أَوَلَمْ نَعِزِّكُمْ؟» على جهة التوقيف والتوبيخ. و [ما] في قوله سبحانه: «مَا يَذْكُرُ» ظرفية، واختلف الناس في المدة التي هي للتذكير - فقال الحسن بن أبي الحسن: «البلوغ»، يريد أنه أول حال التذكير، وقال قتادة: ثمان عشرة سنة، وقالت فرقة: عشرون سنة، وحكى الزجاج سبع عشرة سنة، وقال

و ﴿عَلَيْكَ﴾ جمع خليفة، كسفيته وسفائن ومدينة ومدائن، وقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: فعلية وبال كفره وضرره، و«الْمَقْتُ» احتقار الإنسان من أجل معصية، أو بغضه لدينه الذي يأتيه، فإن كان الاحتقار تعسفاً منك فلا يُسمى مقتاً، و«الْحَسَارُ» مصدر: خسر الرجل يخسر، أي: خسروا آخرتهم ومعادهم بأن صاروا إلى النار والعذاب.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ﴾ الآية، احتجاج على الكفار في بطلان أمر أصنامهم، وقفهم النبي ﷺ - بأمر ربهم - على حجتهم التي يزعمون أنها حق، ثم وقفهم - مع انضاح عجزهم عن خلق شيء - على السموات، هل لهم فيها شريك؟ وظاهرٌ بعد هذا أيضاً، ثم وقفهم هل عندهم كتاب من الله تعالى يبين لهم فيه ما قالوه؟ أي: ليس ذلك كله عندهم، ثم أضرب بعد هذا الجحد المقدّر فقال: إنما يَعْبُدُونَ أنفسهم غروراً.

و ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ تنزّل عند سيوبه منزلة «أخبروني»، ولذلك لا تحتاج إلى مفعولين، وأضاف الشركاء إليهم من حيث هم جعلوهم شركاء لله، أي: ليس للأصنام شركة بوجه إلا بقولكم، فالواجب إضافتها إليكم، و﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تعبدون. و«الرُّؤْيَا» في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ رؤية بصر، و«الشُّرْكُ»: الشُّركة، مصدر أيضاً، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿بَيْنَاتٍ﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير،

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الحد في ذلك ستون، وهي سنّ الإعذار، وهذا أيضاً قول حسنٌ مُتَّجِه، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة نودي: أين ابن السُّتين؟» وهو العمر الذي قال الله فيه: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَذْكُرُ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: «من عمّرهُ الله ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر»، وقرأ الجمهور: ﴿نَا يَذْكُرُ﴾ وقرأ الأعمش: ﴿مَّا يَذْكُرُ﴾، (من أذكّر).

و ﴿النَّذِيرُ﴾ في قول الجمهور: الأنبياء، كل نبيّ نذير أمته ومعاصريه، ومحمد ﷺ نذير العالم في غابر الزمن، قال الطبري: «وقيل: النذير الشَّيْبُ»، وهو قول حسن إلا أن الحُجَّة إنما تقوم بالندارة الشرعية، وباقي الآية بين.

٣٨ - ﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:﴾ هذا ابتداء تذكير بالله تعالى، ودلائل على وحدانيته وصفاته التي لا تُبْتَغَى الألوهية إلا معها، و«الغَيْبُ» ما غاب عن البشر، و«ذَاتُ الصُّدُورِ» ما فيها من المعتقدات والمعاني، ومثله قول أبي بكر رضي الله عنه: «ذو بطن بنت خارجة»، ومنه قول العرب: «الذئب مغبوط بذئ بطنه»، أي بالنفع الذي فيه، فمن رآه ظلّه رآه سابقاً قريب عهد بأكل.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ خَلْقَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ كُفْرِهِ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَمِنْ عَلَى يَدَيْهِ مِنْهُ بَلَاءٌ يَدْعُوا الْقُلُوبَ بَعْضُهُمْ بِعَصَا الْأَعْرَابِ ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يُعَسِّفُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٠﴾ وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أُنْفُسِكُمْ لَيْتَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُوا هُدًى مِنْ أَهْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَوَنُّرًا ﴿٤١﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَحْدِلَ هُنَّ اللَّهُ بِتَبْدِيلِهَا وَلَنْ يَحْدِلَ هُنَّ اللَّهُ بِتَحْوِيلِهَا ﴿٤٢﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ شَيْئًا فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٣﴾

ابن عباس رضي الله عنهما: أربعون سنة، وهذا قول حسن ورويت فيه آثار، وروي أن العبد إذا بلغ أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان على وجهه، وقال: وجه لا يفلح، وقال مسروق بن الأجدع: من بلغ أربعين سنة فليأخذ حذره من الله، ومنه قول القائل:

إِذَا الْمَرَةُ وَفِي الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءً وَلَا يَسْتُرُ
قَدَعَهُ وَلَا تَنْفُسَ عَلَيْهِ الَّذِي أَزْتَأَى
وَأِنْ جَرَّ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ لَهُ الدُّهُرُ
وقال قوم: الحد خمسون، ومنه قول القائل:

أَخُو الْخَمْسِينَ مُجْتَمِعٌ أَشْدَى
وَنَجِدُ فِي مُدَاوَرَةِ الشُّنُونِ
وقال آخر:

وَإِنْ أَمْرًا قَدْ عَاشَ خَمْسِينَ حِجَّةً
إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وَرْدِهِ لَقَرِيبٌ

وأبو عمرو، وحمزة، والأعمش، وابن وثاب، ونافع - بخلاف عنه -: ﴿يَسْتَرْ﴾ بالإفراد، والمراد به الجمع، ويحتمل أن يراد به الأفراد. كما تقول: أنا من هذا الأمر على واضحة، أو على جليّة. و﴿الْفُرُوزُ﴾ الذي كانوا يتعاطونه قولهم: الأصنام تُقَرَّب من الله زلفى، ونحوه ممّا يغيظهم.

ولمّا ذكر الله تعالى ما يبيّن فساد أمر الأصنام، ووقف على الحُجّة على بطلانها، عقب ذلك بذكر عظمتها وقدرته، ليتبيّن الشيء بضده، وتؤكد حقارة الأصنام بذكر الله تعالى، فأخبر عن إمساكه السموات والأرض بالقدرّة، وقوله: ﴿أَن تَزُولَا﴾ معناه: كراهة أن تزولا، ولشلا تزولا، ومعنى الزوال هنا التثقل من مكانها، والسقوط من علوّها، وقال بعض المفسرين: معناه: أن تزولا عن الدوران، ويظهر من قول ابن مسعود أن السماء لا تدور وإنما تجري فيها الكواكب، وذلك أن الطبري أسند أن جندباً البجليّ رحل إلى كعب الأحبار ثم رجع، فقال له ابن مسعود: حدّثنا ما حدّثك، فقال: حدّثني أن السماء في قطب كقطب الرّحى، وهو عمود على منكب ملك، فقال ابن مسعود: لوددت أنك افتديت رحلتك بمثلك راحلتك ورّحلتك، تَنَكَّبْتُ اليهودية في قلب عبد فكادت أن تفارقه، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمِيسُكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾، وكفى بها زوالاً أن تدور، ولو دارت لكانت قد زالت. وقوله: ﴿وَلَكِن زَالًا﴾ قيل: يوم القيامة عند طي السموات ونسف

الجبال، فكأنه قال: ولئن جاء وقت زوالهما، وقيل: بل ذلك على جهة التوهّم والفرض، ولئن فرضنا زوالهما، وكأنه قال: ولو زالتا، وقال بعضهم: ﴿لَكِن﴾ في هذا الموضع بمعنى (لو)، وهذا قريب من الذي قبله، وكذا قرأ ابن أبي عبة: ﴿وَلَوْ زَالًا﴾. وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: من بعد تركه الإمساك. وقالت فرقة: أنصافه تعالى بالحلم والغفران في هذه الآية إنما هو إشارة إلى أن السماء كادت تزول والأرض كذلك لإشراك الكفّرة، فيمسكهما الله تعالى جلماً منه عن المشركين، وترئفاً ليغفر لمن آمن منهم، كما قال: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرُنَّ﴾ الآية.

﴿٤٣﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ لكفار قريش، كانت قبل الإسلام تأخذ على اليهود والنصارى في تكذيب بعضهم بعضاً، وتقول: لو جاءنا نحن رسول لكننا أهدى من هؤلاء وهؤلاء. و﴿جَهَدَ أَيَتَنَبَّه﴾ منصوب على المصدر، أي: بغاية اجتهداهم، و﴿إِلَى الْأَثَمِ﴾ يريدون اليهود والنصارى، و﴿الثُّفُورُ﴾: البُعد عن الشيء والفرع منه والاستبشاع له.

و ﴿أَسْتَكْبَارًا﴾ قيل فيه: بدل من الثُّفُور، وقيل: مفعول من أجله، أي: نفروا من أجل الاستكبار، وأضاف «المكر» إلى «السّيء» وهو صفة، كما قيل: دار الآخرة، ومسجد الجامع، وجانب الغربي،

وقرأ الجمهور بكسر الهمزة من ﴿السّيء﴾، وأسكنها حمزة وحده، وهو في الثانية يرفع الهمزة كالجماعة، ولحنّ هذه القراءة الزّجاج، ووَجَّهَهَا أبو عليّ الفارسي بوجوه، منها أن يكون قد أسكن لتوالي الحركات، كما قال:

... قُلْتُ صَاحِبَ قَوْمٍ

.....

على أن المُبَرِّد روى هذا: «قلت صاح قَوْم». وكما قال امرؤ القيس: فاليَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْقِبِ إِثْمًا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاغِلٍ على أن المُبَرِّد قد رواه: «فاليوم فاشْرَبَ»، وكما قال جرير:

سِيرُوا بَنِي آلَ عَمٍّ فَلَا هَوَاؤَ مَنَزَلُكُمْ وَنَهْرٌ يَبْزِي قَلْنَ تَغْرِفُكُمْ الْعَرَبُ وقرأ ابن مسعود: ﴿وَمَكْرًا سَيِّئًا﴾،

قال أبو الفتح: يعضده تنكير ما قبله من قوله: ﴿أَسْتَكْبَارًا﴾. و﴿يَحْيَى﴾ معناه: يُحْيِط وَيُجَلُّ وينزل، ولا يُسْتَعْمَل إلا في المكروه، وقوله: ﴿إِلَّا يَأْهَلِيهِ﴾ معناه أنه لا بُدَّ أن يحيق بهم إما في الدنيا وإلا ففي الآخرة، فعاقبته الفاسدة لهم، وإن حاق في الدنيا بغيرهم أحياناً فعاقبه ذلك على أهلّه، وقال كعب الأحبار لابن عباس رضي الله عنهما: إن في التوراة: «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها»، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا أوجدك هذا في كتاب الله، ﴿وَلَا يَحْيَى الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا يَأْهَلِيهِ﴾».

و ﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون. و﴿السُّئَةُ﴾: الطريقة والعادة. وقوله تعالى: ﴿فَلَن يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾

ولكنه احتج عليهم في المدينة، ووافقها قول رسول الله ﷺ في المعنى، فمن هنا قيل ذلك، وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل شيء قلباً، وإن قلب القرآن يس»، وروى عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن في القرآن لسورة تشفع لقارئها، ويغفر لمستمعها، وهي يس»، وقال يحيى بن أبي كثير: «بلغني أن من قرأ سورة يس ليلاً لم يزل في فرح حتى يصبح، وكذا في النهار»، ويصدق ذلك التجربة.

① - ⑦ تفسير قوله عز وجل:

أَمَّا حِمْرَةٌ وَالْكَسَائِي الْبَاءُ فِي ﴿يَسْ﴾ غير مفرطين، والجمهور يفتحونها، ونافع يتوسط في ذلك، وقوله تعالى: ﴿يَسْ﴾ يدخله من الأقوال ما تقدم في الحروف المقطعة في أوائل السور، ويختص هذا بأقوال: منها أن سعيد بن جبيرة قال: إنه اسم من أسماء محمد ﷺ، ودليله ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وقال السيد الحميري:

يَا نَفْسُ لَا تَمَحْضِي بِالْبُضْحِ مُجْتَهِدًا
عَلَى الْمَوْدَةِ إِلَّا آلَ يَاسِينَ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: «يا إنسان» بالحبشية، وقال أيضاً في الثعلبي: هو بِلَغَةِ طَيِّءٍ، يقولون: «إيسان» بمعنى إنسان، ويجمعونه على «ياسين»، فهذا منه. وقالت فرقة: الباء حرف نداء، والسُّنَيْنُ أقيمت مقام «إنسان» انتزع منه حرف فأقيم مقامه. ومن قال: «هو اسم من أسماء السورة أو

لأهلك الجميع. وقوله: ﴿يَسْ﴾ مبالغة، والمراد بنو آدم لأنهم المجازون، وقيل: المراد معهم الجن، وقيل: كل ما دب من الحيوان إذ أكثره إنما هو لمنفعة بني آدم وبسببهم. والضمير في ﴿ظَهَرِهَا﴾ عائذ على الأرض المتقدم ذكرها، ولو لم يتقدم لها ذكر لأمكن في هذا الموضع لبيان الأمر، ولكانت كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ونحوه، و«الْأَجَلُ الْمُسَمَّى» يوم القيامة، وباقي الآية توعد، وفيه وعد للمؤمنين.

كامل تفسير سورة فاطر والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة يس

هذه السورة مكية بإجماع، إلا أن فرقة قالت: إن قوله تعالى: ﴿وَنَكُتُ مَا قَدَّمُوا وَآتَرَهُمْ﴾ نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد رسول الله ﷺ، فقال لهم: «يَا زَكُم تَكُتَبُ آتَاكُمْ»، وكره عليه الصلاة والسلام أن يُغَرَّوا المدينة، فعلى هذا فهي مدنية، وليس الأمر كذلك، وإنما نزلت الآية بمكة،

سورة يس

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظُهُرِهِمْ كَذَاتٍ وَلَكِنَّ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ۝

سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْ ۝ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَن صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ لِتُذَكِّرَ قَوْمًا نَذِيرًا ۝ أَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا جَعَلْنَا فِي آعْتِقِهِمْ أَغْلًا لَا يَفِي إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخِشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبِ فَبَشِيرٌ يُمْغِفِرُ وَأَجْرُكَ يَوْمَ ۝ إِنَّا نَحْنُ الْغَوْفُ وَنَكُتُ مَا قَدَّمُوا وَأُنْذِرُهُمْ كُلَّ نَفٍ وَأَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝

٤٤

وَلَنْ نَجِدَ لِسَانَ اللَّهِ تَحْوِيلًا أَي: لتعذبه الكفرة المكذبين، وفي هذا وعيد بين.

① - ⑩ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا توعدهم تعالى في الآية قبلها بسنة الأولين، وأنه لا يبدلها ولا يحولها في الكفرة، وقفهم في هذه الآية على رؤيتهم لما رأوا من ذلك في طريق الشام وغيره، كديار ثمود ونحوها، و«يُعْجِزُهُ» معناه يفوته ويُفْلِته، و«إِنْ» في قوله: ﴿يَسْ﴾ تنوين زائدة مؤكدة، و«عَلِيمًا قَدِيرًا» صفتان لا تقتان بهذا الوضع؛ لأنه معهما لا يتعذر شيء.

ثم بين الوجه في إمهاله من أمهل من عباده، إن ذلك إنما هو لأن الآخرة من وراء الجميع، وفيها يستوفى جزاء كل أحد، ولو كان عز وجل يجازي على الذنوب في الدنيا

القرآن» فذلك مُشترك في جميع السُور.

وقرأ الجمهور: ﴿يَسْ﴾ بسكون النون وإظهارها، وإن كانت النون الساكنة تخفى مع حروف الفم فإنما هذا على الانفصال وأن حق هذه الحروف المقطعة في الأوائل أن تظهر. وقرأ عاصم، وابن عامر - بخلاف عنهما - بإدغام الثون في الواو على عُرف الاتصال، وقرأ ابن أبي إسحق - بخلاف - بنصب النون، وهي قراءة عيسى بن عمر، ورواها عن الغنوي. وقال قتادة: ﴿يَسْ﴾ قَسَمَ، وقال أبو حاتم: قياس هذا القول نصب النون، كما تقول: الله لأفعلن كذا، وقرأ الكلبي بضمها وقال: هي بلغة طيء، يا إنسان، وقرأ أبو السماك، عن ابن أبي إسحق - بخلاف - بكسرهما، وهذه الوجوه الثلاثة هي للالتقاء، قال أبو الفتح: ويحتمل الرفع أن يكون اجتزاء بالسسين من: يا إنسان، وقال الزجاج: النصب كأنه قال: أثُلُ يَسِينُ، وهذا مذهب سيبويه على أنه اسمٌ للسورة. و[يَسِين] تشبه الجملة من الكلام فلذلك عُدَّت آيةً، بخلاف [طَسَن]، فلم تنصرف [يَسِين] للعجمة والتعريف.

و﴿لَيْكُمُ﴾: الْمُخَيَّرُ، فيكون بمعنى: مفعول، أي أحيكم في مواظبه وأوامره ونواهيه، ويحتمل أن يكون بناءً فاعِلٍ، أي ذو الحكمة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ﴾ يجوز أن يكون جملة في موضع رفع على أنها خبر بعد خبر،

ويجوز أن يكون في موضع نصب على أنها في موضع الحال من ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾، و«الصُّرَاطُ»: الطريق، والمعنى: على طريق هدى ومهتج رشاد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿تَنْزِيلُ﴾ بالرفع على خبر الابتداء، وهي قراءة أبي جعفر، وشيبة، والحسن، والأعرج، والأعمش، وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي: ﴿نَزِيلُ﴾ بالنصب على المصدر، واختلف عن عاصم، وهي قراءة طلحة، والأشهب، وعيسى بن عمر، والأعمش، بخلاف عنهما.

قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاءَهُمْ﴾، اختلف المفسرون في ﴿مَّا﴾ فقال عكرمة: ﴿مَّا﴾ بمعنى الذي، والتقدير: الشيء الذي أُنذِرَهُ الآباء من النار والعذاب، ويحتمل أن تكون [مَّا] مصدرية، أي: ما أُنذِرَ آبَاءَهُمْ، والآباء - على هذا - هم الأقدمون على مر الدهر، وقوله: ﴿هَنَئِهِمْ﴾ - مع هذا التأويل - بمعنى: فإِنَّهُمْ، دخلت الفاء لقطع الجملة من الجملة. وقال قتادة: [مَّا] نافية، أي إن آباءهم لم يُنذِرُوا، فالآباء - على هذا - هم القريبون منهم، وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ بَلَاغًا مِنْ نَذِيرٍ﴾، وهذه النذارة المنفئة هي نذارة المباشرة والأمر والنهي، وإلا فدعوة الله تعالى لم تنقطع من الأرض قط، وقوله: ﴿هَنَئِهِمْ﴾ - على هذا - الفاء واصله بين الجملتين ورابطة الثانية بالأولى.

و﴿حَقَّ الْقَوْلُ﴾ معناه: وجب العذاب وسبق القضاء به، وهذا فيمن

لم يؤمن من قريش، كمن قُتل ببدر وغيرهم.

٨ - ٩ تفسير قوله عز وجل: قال مكِّي: هي حقيقة في أحوال الآخرة إذا دخلوا النار، وقوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ الآية - يُضعف هذا القول؛ لأن بصر الكافر بعد القيامة إنما هو حديد، يرى قُبُح حاله. وقال الضحاك: معناه: منعناهم من النفقة في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾. وقال ابن عباس، وابن إسحق: هي استعارة لحال الكفرة الذين أرادوا محمداً ﷺ بِسُوءٍ، فجعل الله تعالى هذه مثلاً لهم في كف أذاهم عنه حين يبتئوه. وقال عكرمة: نزلت حين أراد أبو جهل ضربه بالحجر العظيم فمنعه الله منه، وفي غير ذلك من المواطن. وقالت فرقة: الآية مستعارة المعنى من منع الله إياهم وحُولِهِ بينه وبينهم. وهذا أرجح الأقوال؛ لأنه لما ذكر أنهم لا يؤمنون لما سبق لهم في الأزل عَقِبَ ذلك بأن جعل لهم من المنع وإحاطة الشقاوة ما حالهم معه حال المغلوبين.

و«الْعُلُ» ما أحاط بالعُنُق على معنى التضييق والتشيت والتعذيب والأشهر، ومع العُنُق اليدان أو اليد الواحدة، هذا معنى التعليل، وقوله: ﴿هَنَئِهِ﴾ يحتمل أن يعود على الأغلال، أي: هي عريضة تبلغ بحرفها الأدقان، والدُّقْن مجتمع اللَحْيَيْنِ، فيضطر المغلول إلى رفع وجهه نحو السماء، وذلك هو الإقْمَاحُ، وهو نحو الإقناع في

الهيئة، ونحوه ما يفعله الإنسان والحيوان عند شرب الماء البارد وعند الملوحات والحموضة القوية ونحوه. ويحتمل - وهو قول الطبري - أن تعود [هي] على الأيدي - ولم يتقدم لها ذكر - لوضوح مكانها في المعنى، وذلك أن العُلَّ يكون في العنق مع اليدين. ورؤي في مصحف ابن مسعود وأبي: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِمْ﴾، وفي بعضها ﴿فِي أَيْدِيهِمْ﴾، وقد ذكرنا معنى الإقماح. وقال قتادة: الْمُقْمَحُ الرافع رأسه، وقال أيضاً: ﴿مُغْلَلُونَ﴾: مُغْلَلُونَ عن كل خير، وأرى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الناس الإقماح، فجعل يديه تحت لَحْيَيْهِ وألصقهما ورفع رأسه.

وقرأ الجمهور: ﴿سُدًّا﴾ برفع السين فيهما. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن مسعود، وطلحة، وابن وثاب، وعكرمة، والثَّخَعِي، وابن كثير بفتحها فيهما. قال أبو علي: قال قوم: هما بمعنى واحد، أي: حائلاً يَسُدُّ طريقهم، وقال عكرمة: ما كان مما يفعله البشر فهو بالضم، وما كان جَلْقَةً فهو بالفتح، و«السُّدُّ» ما سُدَّ وحال، ومنه قول الأعرابي في صفة سحاب: «طَلَعَ سُدٌّ مع انتشار الطفل»، أي: سحاب سُدُّ الأفق، ومنه قولهم: «جراذ سُدُّ»، ومعنى الآية أن طريق الهدى سُدَّ دونهم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ منقوطة، أي: جعلنا على أعينهم غشاوة. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، وابن يَعمَر، وعمر بن عبدالعزيز،

والتَّخَعِي، وابن سيرين بالعَيْن مهملة، ورويت عن النبي ﷺ، وهي من العشاء أي: أضغنا أبصارهم، والمعنى: فهم لا يُبْصِرُونَ رشداً ولا هدى، وقرأ يزيد اليزيدي: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ بياء دون ألف وبالعَيْن منقوطة.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه مخاطبة لمحمد عليه الصلاة والسلام، مُضْمِنُهَا تسليته عنهم، أي: إنهم قد حتم عليهم بالكفر، فسواء إنذارك وتركه، والألف في قوله تعالى: ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ ألف التسوية؛ لأنها ليست باستفهام، بل المستفهم والمستفهم مستويان في علم ذلك.

وقراءة الجمهور: ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾ بالمد، وقرأ ابن محيصن، والزهري: ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾ بهمزة واحدة على الخبر، و﴿سَوَاءٌ﴾ رفع بالابتداء، وقوله: ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْ﴾ جملة من فعلية متعدلين يُقَدَّرُان تقدير فعل واحد هو خبر الابتداء، كأنه قال: وسواء عليهم جميع فَعَلْكَ، ففسر هذا الجميع بـ «أَنْذَرْتُ أَمْ لَمْ تُنْذِرْ»، ومثله قولك: سواء عندي قَمْتُ أَمْ قَعَدْتُ، هكذا ذكر أبو علي في تحقيق الخبر، والخبر هو الابتداء. وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ﴾ ليس على جهة الحصر بإنمّا، بل على جهة تخصيص من ينفعه الإنذار. و«اتَّبَعَ الذِّكْرُ» هو العمل بما في كتاب الله تبارك وتعالى والافتداء به، قال قتادة: الذِّكْرُ القرآن. وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: بالخلوات عند مغيب الإنسان عن عيون البشر، ثم قال:

﴿يَبْقَى﴾ فوَحَّد الضمير مراعاة لَلْفَظ: [مَنْ]. و«الأجر الكريم» كل ما يأخذه الأجير مقترناً بحمد على الإحسان وتكرمة، وكذلك هي الجنة للمؤمنين.

ثم أخبر تعالى بإحيائه الموتى رداً على الكفرة، ثم توَعَّدَهم بذكره كتب الآثار وإحصاء كل شيء. وكل ما يصنعه الإنسان فداخل فيما قدم ويدخل في آثاره، ولكنه تبارك وتعالى ذكر الأمر من الجهتين، ولْيُنْبَهَ على الآثار التي تبقى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شر، وإلا فذلك كله داخل فيما يقدم ابن آدم. وقال قتادة: ﴿مَا قَدَّرُوا﴾ معناه: من عمل، وقاله ابن زيد، ومجاهد. وقد يبقى للمرء أن يُسْتَنْ به بعد موته فيؤجر أو يأثم، ونظير هذه الآية: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّرَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، وقرأت فرقة: ﴿وَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ بالنصب، وقرأ مسروق بالرفع.

وقال ابن عباس، وجابر بن عبدالله، وأبو سعيد الخدري: إن هذه الآية نزلت في بني سَلِمة حين أرادوا الثَّغْلَةَ إلى جانب المسجد، وقد بينا ذلك في أول السورة. وقال ثابت البُنَّاني: مشيت مع أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعت فحبسني، فلما انقضت الصلاة قال لي: مشيت مع النبي ﷺ إلى الصلاة فأسرعت فحبسني، فلما انقضت الصلاة قال: «أما علمت أن الآثار تُكْتَبُ؟» فهذا احتجاج بالآية، وقال مجاهد، وقاتدة، والحسن: الآثار في هذه الآية الخطأ، وحكى الثعلبي عن أنس أنه قال: الخطأ إلى الجمعة.

وقوله: ﴿وَكُلٌّ﴾ نصب بفعل مضمّر يدل عليه ﴿أَحْصَيْنَتْهُ﴾، كأنه قال: أحصينا كل شيء أحصيناه، و«الإمام»: الكتاب المقتدى به الذي هو حجة، وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: أراد اللوح المحفوظ، وقالت فرقة: أراد صحف الأعمال.

١٣ - ١٧ تفسير قوله عز وجل:

ضرب المثل مأخوذ من الضرب أي المشبه في النوع، كما تقول هذا ضرب هذا، واختلف، هل يتعدى فعل ضرب المثل إلى مفعولين أو إلى واحد؟ فمن قال إنه يتعدى إلى مفعولين جعل في هذه الآية ﴿مَثَلًا﴾ و﴿أَصْحَبَ﴾ مفعولين لقوله: ﴿أَضْرِبَ﴾، ومن قال إنه يتعدى إلى مفعول واحد جعله ﴿مَثَلًا﴾، وجعل ﴿أَصْحَبَ﴾ بدلاً منه. ويجوز أن يكون المفعول ﴿أَصْحَبَ﴾، ويكون قوله: ﴿مَثَلًا﴾ نصباً على الحال، أي: في حال تمثيل منك.

و «الْقَبِيَّةُ» - على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، الزهري - أنطاكية. واختلف في المرسلين - فقال قتادة وغيره: كانوا من الحواريين الذين بعثهم عيسى عليه السلام حين رفع وُضِبَ الذي أُلقي عليه شبهه، فافترق الحواريون في الآفاق، فقص الله هنا قصة الذين نهضوا إلى أنطاكية. وقالت فرقة: بل هؤلاء أنبياء من قَبْلَ الله تبارك وتعالى، وهذا يرجّحه قول الكفرة: ﴿مَا أُنْشِرَ إِلَّا بَشَرٌ

مِثْلُكَ﴾، فإنها محاوراة إنما يقال لمن أذى الرسالة من الله، والآخر محتمل. وذكر النقاش في قصص هذه الآية شيئاً يطول، وصحته غير مُتَيَقِّنة فاختصرته.

واللازم من الآية أن الله بعث إليها رسولين فدعوا أهل القرية إلى عبادة الله وحده وإلى الهدى والإيمان فكذبوهما، فشدد الله أمرهما بثالث، وقامت الحجة على أهل القرية، وآمن منهم الرجل الذي جاء يسعي، وقتلوه في آخر أمره

وكفروا، فأصابتهم صيحة من السماء فحمدوا.

وقرأ جميع القراء: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ بتشديد الزاي الأولى، على معنى: قوينا وشددنا، وبهذا فسر مجاهد وغيره، وقرأ عاصم - في رواية المفضل عن أبي بكر - بالتخفيف للزاي، على معنى: غلبناهم أمرهم وفي حرف ابن مسعود: «بالثالث» بألف ولا م.

وهذه الأئمة أنكرت الثبوتات بقولها: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا الرَّجْمَ مِنْ سَمَاءٍ﴾، وراجعتهم الرسل بأن زدوا العلم إلى الله، وقنعوا بعلمه، وأعلموهم أنهم إنما عليهم البلاغ فقط، وما عليهم من هدام وضلالهم، وفي هذا وعيد لهم.

وَأَضْرِبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أُنْشِرُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَمَا أَنْزَلْنَا الرَّجْمَ مِنْ سَمَاءٍ إِنَّا أَنْتَزِينِ ﴿١٥﴾ قَالُوا لَوْ أَنَّا نَسْمُو أَوْ نَنْحَدِّثُ يُأْتِنَا إِلَٰهُكُم بِالْعِلْمِ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُ بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَرَجْمَنَّكُمْ وَلَيَسَّيَنَّ لَكُمْ يَوْمَ تَذَٰبَبُ إِلَٰهُكُمْ ﴿١٨﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ مَعَكُمْ آيَةٌ فَمِنْكُمْ أَتَسْمُرُونَ ﴿١٩﴾ أَمْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَدْعُو أَتَسْمُرُونَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ أَتَسْمُرُونَ لَأَنْتُمْ كُرَاهٌ لَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَالَّذِي يَرْجُوهُ الْعَالَمُونَ ﴿٢٣﴾ إِنِّي أَخَافُ دُونََ اللَّهِ عَذَابَ إِلَٰهِي ﴿٢٤﴾ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْهَمَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِمَا عَلَّمْتُكُمْ فَمَنْ يُؤْمِنْ فَلْيُحْسِنِ الْعَمَلُ وَمَنْ أَلْمَنَ فَإِنْ أَتَى الْإِنْسَانَ لُسُومٌ غَضِبَ وَلَا يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ عِصْيَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعِي إِلَىٰ بَلَاءٍ قَوْلِي لَعَلَّهُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَا غَفَرِي لِي فِي جَعَلِنِي مِنَ الْمَكْرُمِينَ ﴿٢٨﴾

١٧ - ٢١ تفسير قوله عز وجل:

قال بعض المتأولين: إن أهل القرية أسرع فيهم الجذام عند تكذيبهم المرسلين، فلذلك قالوا: ﴿إِنَّا نَطَّيَّرُ بِكُمْ﴾، وقال مقاتل: احتبس عنهم المطر فلذلك قالوه، ومعناه: تشاء منا بكم، مأخوذ من الحكم بالطير، وهو معنى متداول في الأمم، وقُلِّمًا يستعمل «تَطْيِيرُ» إلا في الشؤم، وأما حكم الطير عند مستعمله ففي التيمُّن والشؤم، والأظهر أن تطيُّر هؤلاء إنما كان بسبب ما دخل قريتهم من اختلاف الكلمة وافتتان الناس، وهذا على نحو تطيُّر قريش بمحمد ﷺ، وعلى نحو ما خوطب به موسى عليه السلام. وقال قتادة: قالوا: إن أصابنا شرٌ فإنما هو من أجلكم.

﴿أَتَعْبُوهَا مَنْ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا أَجْرًا وَهُمْ يَنْهَوْنَ﴾، أي: وهم على هدى من الله. وهذه الآية حاكمة بنقص من يأخذ أجرة على شيء من أفعال الشرع التي هي لازمة له كالصلاة ونحوها، فإنها كالتبليغ لمن بعث، بخلاف ما لا يلزمه كالإمارة والقضاء، وقد ارتزق أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه.

وزوي عن أبي مجلز، وكعب الأحبار، وابن عباس أن اسم هذا الرجل حبيب، وكان نجاراً، وكان - فيما قال وهب بن مئبّه - قد تجذّم، وقيل: كان في غار يعبد ربّه، وقال ابن أبي ليلى: «سُيِّقَ الأُمَمُ ثلاثة لم يكفروا قطّ طرفه عين: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وصاحب يسن، ومؤمن آل فرعون»، وذكر الناس في أسماء الرسل: صادق ومصدوق وشلوم، وغير هذا، والصّحّة معدومة فاخترت.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ: قرأ الجمهور: ﴿وَمَا لِيَ﴾ بفتح الياء، وقرأ الأعمش، وحزمة بسكون الياء، وقد تقدم مثل هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ﴾ تقرير لهم - على جهة التوبيخ - في هذا الأمر الذي يشهد العقل بصحته، إنّ من فطر واخترع وأخرج من العدم إلى الوجود فهو الذي يستحق أن يُعبد، ثم أخبرهم بأنهم محشورون إليه يوم القيامة. ثم وقفهم أيضاً - على جهة التوبيخ - على اتخاذ الآلهة من دون الله، وهي لا تزُدّ عنهم المقادير التي يريد الله بهم، لا بقوة منها ولا بشفاعه. وقرأ طلحة السّمان،

عامر: ﴿أَيْنَ﴾ بهمزتين الثانية مكسورة، على معنى: أين ذُكرتم تنظيرون؟ وقرأ نافع وأبو عمرو، وابن كثير بتسهيل هذه الهمزة الثانية وردها ياء ﴿أَيْنَ﴾ ذُكرتُم، وقرأ الماجشون: ﴿أَنْ﴾ بفتح الألف، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿إِنْ﴾ ذُكرتُم، بكسر الألف، وقرأ أبو عمرو - في بعض ما روي عنه - وزر بن حبيش أيضاً: ﴿أَنْ﴾ بهمزتين مفتوحتين، وشاهده قول

الشاعر:

وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُزْلِينَ ﴿٢٢﴾ إِنْ كَانَتْ الْأَصْحَةُ وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جُودُونَ ﴿٢٣﴾ يَحْصِرُهُ عَلَى الْعِصَا وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَكُنْ أَهْلَكَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٢٦﴾ وَءَايَةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبَ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٨﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٩﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَءَايَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ فِي ظُلُمٍ ﴿٣١﴾ وَاللَّيْلُ نَجْزِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٢﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٣﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٤﴾

وله تَجَمُّعٌ معناه: بالحجارة. قاله قتادة رضي الله عنه. وقولهم عليهم السلام: ﴿مَلِكُكُمْ نَمَكُكُمْ﴾ معناه: حظكم وما صار لكم من شرّ أو خير معكم، أي: من أفعالكم وبكسباتكم، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا، بل ببغيتكم وكفركم، وبهذا فسر الناس. وسُمّي الحظ والنصيب طائر استعاره، أي هو مما يحصل عن النظر في الطائر، وكثُر استعمال هذا المعنى حتى قالت المرأة الأنصارية: «طار لنا حين اقتسيم المهاجرون عثمان بن مظعون»، ويقول الفقهاء: طار لفلان في المحاضّة كذا.

وقرأ ابن هُرْمَز، والحسن، وعمرو بن عبيد: ﴿طَيَّرُكُمْ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم، وابن

الشاعر:

أَنْ كُنْتَ ذَا بُرْدَيْنِ أَخَوَى مُرْجَلًا
فَلَسْتَ بِرَاعِ الْبَيْنِ عَمَّكَ مَخْرَمًا
وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ الْقَعْقَاعِ،
وَالْأَعْمَشُ: ﴿أَيْنَ﴾ بسكون الياء
﴿ذُكِرْتُمْ﴾ بتخفيف الكاف، فهي
﴿أَيْنَ﴾ المنقولة في الظرف، وهذه
قراءة خالد، وطلحة، وقتادة،
والحسن في تخفيف الكاف فقط. ثم
وصفهم تعالى بالإسراف والتّعدي.
وأخبر تبارك وتعالى ذكره عن حال
رجل جاء من أقصى المدينة، سمع
المرسلين وفهم عن الله فجاء يسعى
على قدميه وسمع قولهم، فلما فهمه
زوي أنه تعقّب أمرهم وسبّره بأن قال
لهم: أنطلبون أجراً على دعوتكم
هذه؟ قالوا: لا، فدعا عند ذلك
قومه إلى اتباعهم والإيمان بهم إذ هو
الحق، ثم احتجّ عليهم بقوله:

وعيسى الهمداني: ﴿يُرْدُنِي﴾ بياء مفتوحة، وزويت عن عاصم، ونافع، وأبي عمرو.

ثم صَدَعَ بإيمانه وأعلن فقال: ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾، واختلف المفسرون - فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وكعب، وَوْهَب: خاطب بها قومه على جهة المبالغة والتثنية، وقيل: خاطب بها الرُّسُل على جهة الإشهاد بهم، والاستحفاظ للأمر عندهم. وقرأ الجمهور بسكون النون على نيّة الياء بعدها، وروى أبو بكر عن عاصم فَتَحَهَا، قال أبو حاتم: هذا خطأ لا يجوز؛ لأنه أَمَرُ، فإما حذف النون أو كسرهما على نيّة الياء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهنا محذوف تواترت به الأحاديث والروايات، وهو أنهم قتلوه، واختلف، كيف؟ قال قتادة وغيره: رجموه بالحجارة، وقال ابن مسعود: مشؤوا عليه بأقدامهم حتى خرج قُصْبُهُ من دُبُرِهِ، فقبل له عند موته: ﴿أَتَحِلُّ لِحَبْلَتِهِ﴾، وذلك - والله أعلم - بأن عُرِضَ عليه مقعده منها، وتحقق أنه من سكانها برؤيته ما أَقَرَّ عينه، فلما تحصيل له ذلك تَمَيَّ أن يعلم قومه بذلك، فقبل: أراد بذلك الإشفاق والتَّصَحُّحَ لهم، أي: لو علموا ذلك لَأَمْنُوا بالله، وقيل: أراد أن يندموا على فعلهم به ويحزنهم ذلك، وهذا موجود في جِبِلَّةِ البشر، إذا نال خيراً في أرض غريبة ودَّ أن يعلم ذلك جيرانه وأترابه الذين نشأ فيهم؛ ولا سيما في الكرامات، ونحو من ذلك قول الشاعر:

والعِزُّ مَطْلُوبٌ وَمُلْتَمَسٌ
وَأَحْبَبُهُ مَا كَانَ فِي الْوَطَنِ
والتأويل الأول أشبه بهذا العبد الصالح، وفي ذلك قال النبي ﷺ: «نصح قومه حياً وميتاً»، وقال قتادة بن دعامة: نصحهم على حالة الغضب والرضى، وكذلك المؤمن لا تجده إلا ناصحاً للناس.

و ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَا عَفْرَى﴾ يجوز أن تكون مصدرية، أي: بغفران رأيي لي، ويجوز أن تكون بمعنى الذي، وفي ﴿عَفْرَى﴾ ضمير عائذ، قال الزهري: ويجوز أن تكون استفهاماً، ثم ضَعَفَهُ.

﴿٢٨﴾ - ﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه مخاطبة لمحمد ﷺ، فيها توعد لقريش، إذ هو المروء لهم من المثل أن ينزل بهم من عذاب الله ما نزل بقرم حبيب النجار، فنفي عز وجل أنه أنزل على قوم هذا الرجل جنداً من السماء، قال مجاهد: أراد أنه لم يرسل رسولاً ولا استغثبهم، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أراد أنه لم يحتج في تعذيبهم إلى جند من جند الله كالحجارة والغرق والريح وغير ذلك، بل كانت صيحة واحدة؛ لأنهم كانوا أيسر وأهون من ذلك، قال قتادة: والله ما عاتب الله قومه بعد قتله حتى أهلكهم.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ - فقالت فرقة: ﴿مَا﴾ نافية، وهذا يجري مع التأويل الثاني في قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ﴾. وقالت

فرقة: ﴿مَا﴾ عطف على ﴿جُنْدٍ﴾: أي: «من جند ومن الذي كُتِبَ منزِلين على الأمم مثلهم قبل ذلك».

وقرأ الجمهور: ﴿إِلَّا صِيحَةً﴾ بالنصب على خبر (كان)، أي: ما كان عذابهم إلا صيحة واحدة، وقرأ أبو جعفر، ومعاذ بن الحارث: ﴿إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً﴾ بالرفع، وضعفها أبو حاتم، والوجه فيها أنها ليست (كان) التي تطلب الاسم والخبر، وإنما التقدير: ما وقعت أو حدثت إلا صيحة واحدة. وقرأ ابن مسعود، وعبد الرحمن بن الأسود: ﴿إِلَّا رُقِيَّةً وَاحِدَةً﴾، وهي الصيحة من الديك ونحوه من الطير. و﴿حَكِيمُونَ﴾: ساكتون موتى لا طون بالأرض، شُبِّهُوا بالرماد الذي خمدت ناره وطُفِئَتْ.

وقوله تعالى: ﴿يَحْشَرُهُ﴾ نداء لها على معنى: هذا وقت حضورك وظهورك، هذا تقدير نداء مثل هذا عند سبويه، وهو معنى قويم في نفسه، وهو منادى منكور على هذه القراءة. وقال الطبري: المعنى: يا حشرة العباد على أنفسهم، وذكر أنها في بعض القراءات كذلك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: يا ريباً للعباد. وقرأ ابن عباس، والضحاك، وعلي بن الحسين، ومجاهد، وأبي بن كعب: ﴿يَا حَشْرَةَ الْعِبَادِ﴾ بالإضافة. وقول ابن عباس حَسَّنَ مع قراءته، وتأويل الطبري ذلك في القراءة الأولى ليس بالبين، وإنما يتجه أن يكون المعنى تلُفُّاً على العباد كان الحال يقتضيه، وطباع كل بشر تُوجِبُ عند سماعه

حالهم وعذابهم على الكفر وتضييعهم أمر الله تعالى أن يشفق ويتحسر على العباد. وقال أبو العالية: المراد بالعباد الرسل الثلاثة، فكأن هذا التحسر من الكفار، حين رأوا عذاب الله تلَّهُفُوا على ما فاتهم، وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ الآية، يدافع هذا التأويل.

والحسرة: التَّلَهُفَات التي تترك صاحبها حسيراً، وقرأ الأعرج، ومسلم بن جندب، وأبو الزناد: ﴿يَا حَسْرَةً﴾ بالوقف على الباء، وذلك على الحرص على بيان معنى الحسرة وتقديره للنفس، والنطق بالباء في مثل هذا أبلغ في التشفيق وهز النفس، كقولهم: أوه ونحوه. وقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ الآية، تمثيل لفعل قرش.

ثم عَنَاهُمْ بقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، و﴿كَرَّ﴾ هنا خبرية، و﴿أَنْتُمْ﴾ بدل منها، و«الرؤية» رؤية البصر، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا مَنْ أَهْلَكْنَا﴾، وقرأ الجمهور: ﴿أَنْتُمْ﴾ بفتح الألف، وكسرها الحسن البصري. وقرأ الجمهور: ﴿لَمَّا﴾ بتخفيف الميم، وذلك على زيادة (ما) للتأكيد، والمعنى: «الجميع»، وشدها الحسن، وابن جُبَيْر، وعاصم، وقالوا: هي بمنزلة (إلا)، وقيل: المراد: (لَمَّا) حذفت إحداهما، وفيه ضعف، وفي حرف أبي: ﴿وَلِنْ مِنْهُمْ إِلَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، قال قتادة: محشورون يوم القيامة.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ

وَبَعَثَ الْأَجْسَادَ، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ يراد به كفار قرش، وقرأ نافع، وشيبة، وأبو جعفر: ﴿الْمَيِّتَةَ﴾ بكسر الياء وشدها، وقرأ أبو عمرو، وعاصم بسكون الياء خفيفة، وإحيائها بالمطر.

وقرأ الجمهور: ﴿تَرَوِي﴾ بفتح التاء والميم، وقرأ طلحة، وابن وثاب، وحمزة، والكسائي بضمهما، وقرأ الأعمش بضم الشاء وسكون الميم، والضمير فيه قالت فرقة: هو عائد على الماء الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿مِنْ أَلْعْيُونِ﴾؛ لأن التقدير: (ما)، وقالت فرقة: هو عائد على جميع ما تقدم مُجْمَلًا، كأنه قال: «من ثمر ما ذكرنا»، وقال أبو عبيدة: هو من باب أن يذكر الإنسان شيئين أو ثلاثة ثم يعيد الضمير على واحد ويكني عنه، كما قال الأزرق بن طرفه بن العمزد الفراسي الباهلي:

رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي
بَرِيئًا، وَمِنْ أَجْلِ الطُّوبَى رَمَانِي
وهذا الوجه في الآية ضعيف.

و [مَا] في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِيلَتُهُ أَيْدِيَهُمْ﴾، قال الطبري: هي اسم معطوف على «الثمر»، أي: ويقع الأكل من الثمر ومما عملته الأيدي بالغرس والزراعة ونحوه. وقالت فرقة: هي مصدرية، وقيل: هي نافية، والتقدير: إنهم يأكلون من ثمره وهو شيء لم تعمله أيديهم، بل هي نعمة من الله تبارك وتعالى عليهم. وقرأ جمهور القراء: ﴿عِيلَتُهُ﴾ بالهاء الضمير، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم - في

رواية أبي بكر -، وطلحة، وعيسى: ﴿عَمِلَتْ﴾ بغير ضمير.

ثم نزه تبارك وتعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن كل ما يلحد به ملحد، أو يشرك به مشرك. و«الزواج»: الأنواع من كل شيء، وقوله: ﴿وَمَا لَا يَمْلِكُونَ﴾ نظيره قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآيات جعلها الله تعالى أدلة على القدرة وجوب الألوهية له، و«تَسْلَخُ» معناه: نكشط ونقشر، فهي استعارة، و«مُظْلِمُونَ»: داخلون في الظلام، واستدل قوم من هذه الآية على أن الليل أصل والنهار فرع طارئة عليه، وفي ذلك نظر.

و «مُسْتَقَرُّ الشُّمُسِ» - على ما روي في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام من طريق أبي ذر رضي الله تعالى عنه - بين يدي العرش، تسجد فيه كل ليلة بعد غروبها، وفي حديث آخر أنها تسجد في عين حمئة ولها وجبة عظيمة. وقالت فرقة: مُسْتَقَرُّهَا هو في يوم القيامة حين تكوُّر، فهي تجري لذلك المستقر. وقالت فرقة: مُسْتَقَرُّهَا كناية عن غيوبها؛ لأنها تجري كل وقت إلى حدٍّ محدود تُغْرِبُ فيه. وقيل: مُسْتَقَرُّهَا آخر مطالعها في المتقلبين لأنهما نهايتا مطالعها، فإذا استقر وصولها كُرِّت راجعة، وإلا فهي لا تستقر عن حركتها طرفة عين، ونحا إلى هذا ابن قُتَيْبَةَ. وقالت فرقة: مُسْتَقَرُّهَا وقوفها عند الزوال في كل يوم، ودليل استقرارها وقوف ظلال الأشياء حينئذ.

﴿سَابِقُ النَّهَارِ﴾ بدون تنوين في القاف وينصب ﴿النَّهَارُ﴾، ذكره الزهراوي وقال: حذف التنوين تخفيفاً. ﴿وَالْفَلْكَ﴾ - فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما - متحرك مستدير كفلكة المغزل، فيه جميع الكواكب. ﴿وَالْقَمَرِ﴾ معناه: يجرون ويعومون، قال مكّي: لما أسند إليها فعل من يعقل جمعت بالواو والنون. ﴿وَالْقَمَرِ﴾ - ﴿٤١﴾ - تفسير قوله عز وجل:

وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح، وأبو جعفر محمد بن علي، وجعفر بن محمد عليهم السلام: ﴿لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا﴾.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والحسن، والأعرج: ﴿وَالْقَمَرِ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿الْأَيُّلِ﴾ عطف جملة على جملة، ويصح وجه آخر، وهو أن يكون ﴿وَالْقَمَرِ﴾ ابتداءً وخبره محذوف، كأنه قال: في الوجود والمشاهدة، ثم فسر ذلك بجملتين من ابتداءٍ وخبرٍ وابتداءٍ وخبر، الليل واحدة، والقمر ثانية.

وقرأ الباقون بنصب «القمر» على إضمار فعل يُفسره ﴿قَدَرْتَهُ﴾، وهي قراءة أبي جعفر، وابن محيصن، والحسن - بخلاف عنه - و﴿مَنَازِلُ﴾ نصب على الظرف، وهذه المنازل هي المعروفة عند العرب، وهي ثمانية وعشرون منزلة، يقطع القمر منها كل ليلة أقل من واحدة فيما يزعمون، وعودته هي استهلاله رقيقاً، وحينئذ يشبه العرجون، وهو الفُصن من النخلة الذي فيه شمار يخ الثمر، فإنه ينحني ويصفق إذا قدم، ويجيء أشبه شيءً بالهلال، قاله الحسن بن أبي الحسن، والوجود يشهد به، وقرأ سليمان التيمي: ﴿كَالْعُرْجُونِ﴾ بكسر العين، و﴿الْفَكْدِيرِ﴾ معناه: العتيق الذي قد مرَّ عليه زمن طويل.

و ﴿بَنِي﴾ هنا مستعملة فيما لا يمكن خلافه؛ لأنها لا قدرة لها على غير ذلك. وقرأ الجمهور: ﴿سَابِقُ النَّهَارِ﴾ بالإضافة، وقرأ عبادة:

﴿سَابِقُ النَّهَارِ﴾ بدون تنوين في القاف وينصب ﴿النَّهَارُ﴾، ذكره الزهراوي وقال: حذف التنوين تخفيفاً. ﴿وَالْفَلْكَ﴾

- فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما - متحرك مستدير كفلكة المغزل، فيه جميع الكواكب. ﴿وَالْقَمَرِ﴾ معناه: يجرون ويعومون، قال مكّي: لما أسند إليها فعل من يعقل جمعت بالواو والنون.

﴿٤١﴾ - تفسير قوله عز وجل:

﴿وَالْقَمَرِ﴾ معناه: علامة ودليل، ورفعها بالابتداء، وخبرها في قوله: ﴿لَهَا﴾، و﴿أَنَا﴾ بدل من ﴿وَالْقَمَرِ﴾، وفيه نظر، ويجوز أن تكون (أَنْ) مفسرة لا موضع لها من الإعراب. و﴿الْحَمَلُ﴾: منع الشيء أن يذهب سفلًا، وذكر الذرية لضعفهم عن السفر فالنعمة فيهم أمكن.

وقرأ نافع، وابن عامر، والأعمش: ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ بالجمع، وقرأ الباقون بالإنفراد، وهي قراءة طلحة، وعيسى، والضمير المتصل بالذريات هو ضمير الجنس، كأنه قال: ذريات جنسهم أو نوعهم، هذا أصح ما يتجه في هذا، وخلط بعض الناس في هذا حتى قالوا: الذرية تقع على الآباء، وهذا لا يعرف لغة.

وأما معنى الآية فيحتمل تأويلين: أحدهما قاله ابن عباس -

رضي الله عنهما - وجماعة، وهو أن يريد بالذريات المحمولين أصحاب نوح عليه السلام في السفينة، ويريد بقوله: ﴿مِنْ نَسْلِهِ﴾ السفن الموجودة في جنس بني آدم إلى يوم القيامة، وإيّاها أراد بقوله: ﴿وَلَنْ نَسْأَلَ نَفْسَهُمْ﴾. والتأويل الثاني قاله مجاهد، والسدي، وروي عن ابن عباس أيضاً، وهو أن يريد بقوله: ﴿أَنَا حَمَلًا ذُرِّيَّتَهُمُ﴾ الآية، السفن الموجودة في بني آدم إلى يوم القيامة، ويريد بقوله: ﴿وَسَلَفًا لَّهُمْ﴾ الآية، الإبل وسائر ما يركب، فتكون المماثلة في أنه مركوب مُبْلَغ إلى الأقطار فقط، ويعود قوله: ﴿وَلَنْ نَسْأَلَ نَفْسَهُمْ﴾ على السفن الموجودة في الناس، وأما من خلط القولين فجعل الذرية في الفلك قوم نوح عليه السلام في سفينته، وجعل ﴿مِنْ

يُثْلِيهِ. في الإبل، فإن هذا نظر فاسد يقطع به قوله: ﴿وَلَنْ نُنْزِلَهُمْ﴾، فتأمل.

و «الْمَلَكُ» جمع، والإفراد على وزنه، ولكن ليست حركات الجمع حركات الإفراد. و «الْمُؤَقَّرُ» في قوله: ﴿يَنْتَجِهْ﴾ يتجه على أحد التأويلين أن تكون للتبعيض، وعلى التأويل الآخر أن تكون لبيان الجنس، فانظره، ويقال: الإبل مراكب البر.

و «الصَّرِيخُ» هنا بناء الفاعل، بمعنى: المُضْرِك، وذلك أنك تقول: صارخ بمعنى مستغيث، ومُضْرِك بمعنى مُغِيث، وَيَجِيءُ صَرِيخُ مَرَّةً بمعنى هذا ومرة بمعنى هذا؛ لأن فاعلاً من أبنية اسم الفاعل، فمرة: يجيء من صَرَخَ إذا استغاث، ومرة: يجيء من أَصْرَخَ إِذْ أَغَاثَ.

وقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾، قال الكسائي: نصب على الاستثناء، كأنه قال: إلا أن نرحمهم، وقال الزجاج: نصب على المفعول من أجله، كأنه قال: إلا لأجل رحمتنا إيّاهم. وقوله: ﴿مَتَاعًا﴾ عطف على قوله: ﴿رَحْمَةً﴾، و﴿إِنْ يَشَاءُ﴾ يريد آجالهم المضروبة لهم.

والكلام تام في قوله: ﴿وَلَنْ نُنْزِلَهُمْ﴾، وقوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ استئناف إخبار عن السائرين في البحر، ناجين كانوا أم مغرقين، فهم بهذه الحال لا نجاة لهم إلا برحمة الله. وليس قوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ مربوطاً بالمغرقين، وقد يصح ربطه به، والأول أحسن فتأمل.

ثم ابتدأ الإخبار عن عثو قريش

بقوله: ﴿وَإِنَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال مقاتل، وقاتدة: هو عذاب الأمم التي سبقتهم في الزمن، و«ما خلفهم» هو عذاب الآخرة التي تأتي بعدهم في الزمن، وهذا هو النظر، وقال الحسن: خُوفُوا بما مضى من ذنوبهم وبما يأتي منها، وهذا نحو الأول في المعنى؛ لأن التخويف بالذنب إنما هو من عقابه والمجازاة عليه. وقال مجاهد: «ما بين أيديهم» هو الآخرة، و«ما خلفهم» عذاب الأمم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فجعل الترتيب كأنهم يسيزون من شيء إلى شيء، ولم يعتبر وجود الأشياء في الزمن، وهذا النظر يكره عليه قوله تعالى: ﴿وَمَصَدَقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾، وإنما المُطَرَّد أن يقاس ما بين اليد والخلف بما يسوقه الزمن، فتأمل. وجواب [إذًا] في هذه الآية محذوف، تقديره: أعرضوا، ويفسره قوله سبحانه: ﴿إِلَّا كَلُوفًا عَنَّا مَعْزِينَ﴾، و«الآيات»: العلامات والدلائل.

١٧٠ - ﴿٥٠﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ لِقَرِيش. وسبب هذه الآية أن الكفار لما أسلم حواشيهم من الموالى وغيرهم من المستضعفين، قطعوا عنهم نفقاتهم وجميع صلاتهم، وكان الأمر بمكة أولاً فيه بعض الاتصال في وقت نزول آيات المَوَادعة، فندب أولئك المؤمنون قرابتهم من الكفار أن يصلوهم، وأن ينفقوا عليهم مما رزقهم الله، فقالوا عند ذلك: ﴿أَنْظِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ

أَنْظِمُهُ﴾. قال الرماني: ونسوا ما يجب من التعاطف وتألف الجنس. وقالت فرقة: سببها أن قريشاً شحت - بسبب أزمة - على المساكين جميعاً من مؤمن وغيره، فندبهم النبي ﷺ إلى النفقة على المساكين، فقالوا هذا القول.

وقولهم يحتمل معنيين من التأويل: أحدهما يخرج على اختبارات لجهال العرب، فقد روي أن أعرابياً كان يرعى إبله، فيجعل السمان في الخصب والمهازيل في المكان الجذب، ف قيل له في ذلك فقال: أكرم ما أكرم الله وأهين ما أهان الله، فيخرج قول قريش على هذا المعنى، كأنهم رأوا الإمساك عمن أمسك الله عنه رزقه، ومن أمثالهم: «كن مع الله على المذبر». والتأويل الثاني أن يكون كلامهم بمعنى الاستهزاء بقول محمد ﷺ: إِنْ تُمْ إِلَهًا هُوَ الرِّزَاقُ، فكأنهم قالوا: لم لا يرزقهم إلهك الذي تزعم؟ أي: نحن لا نطعم من لو يشاء هذا الإله الذي زعمت لأطمعه، وهذا كما يدعي الإنسان أنه غني ثم يحتاج إلى معونتك في مال فتقول له - على جهة الاحتجاج والهزء به -: أطلب معونتي وأنت غني؟ أي: على قولك.

وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي سَكَلٍ تُبْنِينَ﴾ يحتمل أن يكون من قول الكفرة للمؤمنين، أي: في أمركم لنا بنفقة أموالنا، وفي غير ذلك من دينكم، ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى للكفرة، استأنف زجرهم بهذا.

﴿٥١﴾ - ﴿٥٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه نفخة البعث، والصور: القرآن في قول جماعة المفسرين، وبذلك تواردت الأحاديث، وذهب أبو عبيدة إلى أنه جمع صورة، خرج مخرج بُسْر وبُسْرَة، وكذلك سورة البناء جَمْعُهَا سُورٌ، والمعنى عنده وعند من قال بقوله: نُفِخَ في صور بني آدم فعادوا أحياء. والـأَجْدَاثُ: القبور، وقرأ الأعرج: ﴿فِي الصُّورِ﴾ بفتح الواو، جمع صُورَة. و﴿يَسْلُوكُ﴾: يمشون مشية الذئب بسرعة، ومنه قول الشاعر:

عَسَلَانَ الذَّنْبِ أَمْسَى قَارِباً
بَرَزَ اللَّيْلُ عَلَيْهِ فَنَسَلَ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
﴿يَسْلُوكُ﴾: يخرجون، وقرأ الجمهور بكسر السين، وضئها ابن أبي إسحق، وأبو عمرو.

ونداؤهم بالوَيْل هو بمعنى: هذا وثُكٌّ وأَوَان حضورك، وهو منادى مضاف، ويحتمل أن يكون نصبه على المصدر والمنداد محذوف، كأنهم قالوا: «يا قومنا وَيْلُنَا»، وقرأ ابن أبي ليلى: ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾ بناءً التأنيث. وقرأ الجمهور: ﴿مَنْ بَعَثْنَا؟﴾ على معنى الاستفهام، وروي عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهما أنهما قرآ: ﴿مِنْ بَعَثْنَا﴾ بكسر الميم مِنْ [مِنْ] ويسكون العين وكسر الشاء في ﴿بَعَثْنَا﴾ نصباً على المصدر، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿مَنْ أَهْبَأْنَا مِنْ مَرْقِدِنَا﴾، وفي قراءة أبي: ﴿مَنْ

كسرت للالتقاء. وقرأت فرقة بكسر الياء والخاء وشُدَّ الصاد المكسورة كالتي قبلها ثم أتبت كسرة الخاء بكسرة الياء، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾.

ومعنى هذه القراءات كلها أنهم يتحاورون ويتراجعون الأقوال بينهم ويتدافعون في شئونهم. وقرأ حمزة: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾، وهي تحمل معنيين: أحدهما ما في القراءات قبلها، أي: يخصم بعضهم بعضاً، والثاني أنهم يخصمون أهل الحق في زعمهم، كأنه قال: تأخذهم الصيحة وهم يظنون بأنفسهم أنهم خَصِمُوا أو غَلَبُوا؛ لأنك تقول: خاصمت فلاناً فخصمته، إذا غلبته.

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ قَبِيَّةً﴾ عبارة عن إعجال الحال، والثَّوْبِيَّةُ مصدر من: وَضَى، وقوله: ﴿وَلَا إِلَهَ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يحتمل تأويلات: أحدها: ولا يرجع أحدٌ إلى منزله وأهله لإعجال الأمر، بل تقبض نفسه حيثما أخذته الصيحة، والثاني معناه: ولا إلى أهلهم يرجعون قولاً، وهذا أبلغ من الاستعجال، وخص بالذكر الأهل لأن القول معهم في ذلك الوقت أهم على الإنسان من الأَجْنَبِيِّين وأؤكد في نفوس البشر، والثالث تقديره: ولا إلى أهلهم يرجعون أبداً، فخرج هذا عن معنى وصف الاستعجال إلى معنى ذكر انقطاعهم وابتئارهم من دنياهم.

وقرأ الجمهور: ﴿إِلَّا﴾ بفتح الياء وكسر الجيم، وقرأ ابن محيصن بضم الياء وفتح الجيم.

ثم حكى عنهم - على جهة التقرير عليهم - قولهم: ﴿مَنْ هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي يوم القيامة الذي تزعم، وقيل: أرادوا: متى هذا العذاب الذي تتهدّدنا به؟ وسُمُوا ذلك وعداً من حيث تنفيذ قرائن الكلام أنه في شرّ، والوعد متى وَرَدَ مطلقاً فهو في خير، وإذا قُيِدَ بقرينة الشرّ استعمل فيه، والوعيد دائماً هو في الشرّ.

و﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون، و[مَا] نافية، وهذه الصيحة هي صيحة القيامة والنفخة الأولى في الصور، روي ذلك عن عبدالله بن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ، وفي حديثه أن بعدها نفخة الصّعق، ثم نفخة الحشر، وهي التي تدوم فما لها من فواق.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والأعرج، وشبل، وابن قسطنطين المكي: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد المكسورة، وأصلها يَخْتَصِمُونَ، نقلت حركة التاء إلى الخاء وأدغمت التاء الساكنة في الصاد. وقرأ نافع، وأبو عمرو أيضاً بفتح الياء وسكون الخاء وشُدَّ الصاد المكسورة، وفي هذه القراءة جمع بين ساكنين ولكنه ليس بجمع مخض، ووجهها أبو علي، وأصلها: يَخْتَصِمُونَ، حذفت حركة التاء دون نقل وأدغمت في الصاد. وقرأ عاصم، والكسائي، وابن عامر، ونافع أيضاً، والحسن، وأبو عمرو - بخلاف عنه - بفتح الياء وكسر الخاء وشُدَّ الصاد المكسورة، أصلها: يَخْتَصِمُونَ، أعلت كالتي قبلها ثم

وسكون الغين، وقرأ الباقون: ﴿فِي شُغْلٍ﴾ بالضم فيهما، وهي قراءة أهل المدينة والكوفة، وقرأ مجاهد، وأبو عمرو أيضاً بالفتح فيهما، وقرأ ابن هبيرة على المنبر بفتح الشين وسكون الفين، وهي كلها بمعنى واحد.

واختلف الناس في تعيين هذا الشغل، فقال ابن مسعود، وابن عباس، وابن المسيب: افتضاض الأبيكار، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما: سماع الأوتار، وقال مجاهد: معناه نعيم شغلهم، وهذا هو القول الصحيح، وتعيين شيء دون شيء لا قياس له، ولما كان النعيم كله نوعاً واحداً من حيث هو نعيم وَحْدَهُ فقال: ﴿فِي شُغْلٍ﴾، ولو اختلف لقال: في أشغال، وحكى الثعلبي عن طاوس أنه قال: لو علم أهل الجنة عَمَنَ شغلوا ما هنأهم ما شغلوا به، قال الثعلبي: وسئل بعض العلماء عن قوله عليه الصلاة والسلام: «أكثر أهل الجنة البُلَّة»، فقال: لأنهم شغلوا بالنعيم عن المُتَّعَم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَكَهْرُونَ﴾ ومعناه: أصحاب فاكهة، كما يقال: تايّر ولايّن وشاجم ولاجم، وقرأ أبو رجاء، ومجاهد، ونافع أيضاً، وأبو جعفر: ﴿فَكَهْرُونَ﴾، ومعناه: فرحون طربون، مأخوذ من: الفكاهة، أي: لا همّ لهم، وقرأ طلحة، والأعمش، وفرقة: ﴿فَأَكْبَهِينَ﴾، جَعَلَتِ الخبر في الظرف الذي هو قوله: ﴿فِي شُغْلٍ﴾، ونصببت [فَأَكْبَهِينَ] على الحال.

قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ

وَيُضْمَرُ الخبر: «حَقٌّ» أو نحوه، وقال الجمهور: ابتداء الكلام: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ﴾.

واختلف في هذه المقالة، من قالها؟ فقال ابن زيد: هي من قول الكفار لما رأوا البعث والنشور الذي كانوا يكذبون به في الدنيا، وقالت فرقة: ذلك من قول الله تبارك وتعالى لهم على جهة التوبيخ والتوقيف، وقال الفراء: هو من قول الملائكة، وقال قتادة ومجاهد: هو من قول المؤمنين للكفار على جهة التقرع.

ثم أخبر تعالى أن أمر القيامة والبعث من القبور ما هو إلا صيحة واحدة فإذا الجميع حاضر محشور، وقرأت فرقة: ﴿إِلَّا صِيحَةً﴾ بالنصب، وفرقة بالرفع، وقد تقدم إعراب نظيرها.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ نصب على الظرف، يريد يوم الحشر المذكور، وهذه مخاطبة يحتمل أن تكون لجميع العالم.

٥٥ - ٥٦ تفسير قوله عز وجل: هذا إخبار من الله عز وجل عن حال أهل الجنة بعد ذكره أهوال القيامة وحالة الكفار. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وطلحة، وخالد بن إلياس: ﴿فِي شُغْلٍ﴾ بضم الشين

إِنْ أَصْحَبَ الْجَنَّةَ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَهْرُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَائِدَتُورٌ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَنْشَرُوا الْيَوْمَ أَيْهَا الْمَجْرُمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَغْبَدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَسَلْنَا مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَسْلَمُوهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَنْ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَ بِهِمْ تَوَكَّلُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ يَعْصِرْ يُسَخِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنِ كَانَ كَاذِبًا وَيَحْيِيَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

هَيْئًا. قال أبو الفتح: لم أر لها في اللغة أصلاً، ولا مرّ بنا «مُهْبُوب»، ونسبها أبو حاتم إلى ابن مسعود، وقولهم: ﴿مِنْ مَرْقِدًا﴾ يحتمل أنهم يريدون موضع الرقاد حقيقة، ويروى عن أبي بن كعب، وقاتدة، ومجاهد أن جميع البشر ينامون نومة قبل الحشر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير صحيح الإسناد، وإنما الوجه في قولهم: ﴿مِنْ مَرْقِدًا﴾ أنها استعارة وتشبيه، كما تقول في قتل: هذا مرقده إلى يوم القيامة، وفي الثعلبي أنهم قالوا: ﴿مِنْ مَرْقِدًا﴾ لأن عذاب القبر كان كالرقاد في جنب ما صاروا إليه من عذاب جهنم. وقال الزجاج: يجوز أن يكون [هَذَا] إشارة إلى المرقد، ثم استأنف بقوله: ﴿وَمَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾،

ظَلَّلِيَّ، ﴿م﴾ ابتداء، ﴿وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾ معطوف عليه، ﴿فِي ظَلَّلِيَّ﴾ خبره، ويحتمل أن يكون ﴿م﴾ بدلاً من قوله: ﴿فَنَكُونُ﴾، ويكون في قوله: ﴿فِي ظَلَّلِيَّ﴾ في موضع الحال، كأنه قال: مُسْتَظْلَلِينَ. وقرأ الجمهور: ﴿ظَلَّلِيَّ﴾ وهو جمع (ظَلَّ)؛ إذ الجنة لا شمس فيها، وإنما هواؤها سَخَسَجٌ كوقت الإسفار قبل طلوع الشمس، ويحتمل أن يكون جمع (ظَلَّة)، قال أبو علي: كَبُرْمة وِبَرَام، وغير ذلك، وقال منذر بن سعيد: ظِلَالٌ: جمع ظَلَّة بكسر الظاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي لغة في ظَلَّة. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿فِي ظَلَّلِيَّ﴾، وهي جمع ظَلَّة، وهي قراءة عبدالله، وطلحة، وأبي عبد الرحمن، وهذه عبارة عن الملابس والمراتب من الحجال والستور ونحوها، من الأشياء التي تُظَلُّ وهي زينة.

و «الْأَرَائِكُ»: الشُرُزُ المفروشة، قال بعض الناس: من شروطها أن تكون عليها حَجَلَةٌ وإلا فليست بأريكة، وبذلك قيدها ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعكرمة، وقال بعضهم: الأريكة: السُريرُ كان عليه حَجَلَةٌ أو لم تكن.

وقوله: ﴿مَا يَكُونُ﴾ بمنزلة: ما يتمنون، قال أبو عبيدة: العرب تقول: «أدع علي ما شئت»، بمعنى: تمنى علي، وتقول: «فلان فيما أدعى»، أي: فيما دعا به؛ لأنه افتقل، من دعا يدعو، وأصل هذا الفعل: يَذْعِيون، نُقلت حركة الياء إلى العين قبلها، وحذفت الياء

لاجتماعها مع الواو الساكنة، فبقي يَذْعُون، قُلبت التاء دالاً وأدغمت في الأخرى، وخُصَّت الدال بالبقاء دون التاء لأنها حرف جلد والتاء حرف همس، قال الرماني: المعنى: إن من ادعى شيئاً فهو له؛ لأنه قد هذبت طباعهم فهم لا يدعون إلا ما يحسن منهم.

قوله: ﴿سَلَّمُ﴾، قيل: هي صفة لـ [ما]، أي: مُسَلَّم لهم وخالص، وقيل: هو ابتداء، وقيل: خبر ابتداء، وقرأ ابن مسعود: وعيسى الثقفي، وأبي بن كعب، والغنوي: ﴿سَلَاماً﴾ بالنصب على المصدر، وقرأ محمد بن كعب القرظي: ﴿يَسْلَمُ﴾ وهو بمعنى (سلام). و﴿قَوْلًا﴾ نصب على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية، فيه حذف تقديره: ويقول للكفرة، وهذه معادلة لقوله تعالى لأصحاب الجنة: ﴿سَلَّمُ﴾، و﴿وَأَنزَلْنَا﴾ معناها: انفصلوا وانحجزوا؛ لأن العالم في الموقف إنما هم مختلطون، ثم خاطبهم بما يميزوا به توبيخاً لهم وتوقيفاً على عهده إليهم ومخالفتهم عهده. وقرأ الجمهور: ﴿أَنزَلْنَا﴾ بفتح الهاء، وقرأ الهذلي، وابن وثاب: ﴿أَلَمْ أَغْهَذَا﴾ بكسر الميم والهمزة وفتح الهاء، وهي على لغة من يكسر أول المضارع سوى الياء، وروي عن ابن وثاب: ﴿أَغْهَذَا﴾ بكسر الهاء، ويقال: عَهِدَ وَعَهْدَ. و«عبادة الشيطان»: طاعته والانقياد لأعدائه، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي: ﴿وَأَن أَغْبُدُونِي﴾ بضم

النون من [أن]، وَأَتَّبَعُوا بِهَا ضمة الباء والدال وواو الجماعة أيضاً. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة: ﴿وَأَن أَغْبُدُونِي﴾ بكسر النون على أصل الكسر للالتقاء، وقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى الشرائع، فمعنى هذا أن الله عهد إلى بني آدم وقت إخراج نسهم من ظهره: ﴿أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ وأن تعبدوا الله، وقيل لهم: هذه الشرائع موجودة. وبعث آدم عليه السلام إلى ذُرِّيَّته، ولم تخل الأرض من شريعة إلى ختم الرسالة بمحمد ﷺ. و«الصُّرَاطُ»: الطريق، ويقال: إنها دخيلة في كلام العرب وعربتها.

﴿٦٦﴾ - ﴿٦٥﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه أيضاً من المخاطبة للكفار على جهة التقرير.

و «الْجِبِلُّ»: الأمة العظيمة، قال النقاش عن الضحاك: أقلها عشرة آلاف ولا حد لأكثرها، وقرأ نافع، وعاصم بكسر الجيم والباء وشذ اللام، وهي قراءة أبي جعفر، وشيبة، وأهل المدينة، وأبي رجاء، والحسن - بخلاف عنه - وقرأ الأشهب العقيلي بكسر الجيم وسكون الباء والتخفيف. وقرأ الحسن، والزهري، والأعرج بضم الجيم والباء والتشديد، وهي قراءة ابن أبي إسحق، وعيسى، وابن وثاب، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، والهذيل بن شرحبيل بضم الجيم وسكون الباء والتخفيف، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: ﴿جِبِلًا﴾ بضم الجيم والباء والتخفيف، وذكر أبو حاتم عن بعض الخراسانيين

بكسر الجيم وبياء بنقطتين ساكنة. وقرأ الجمهور: ﴿تَكُونُوا تَقُولُونَ﴾ بالثاء، وقرأ طلحة بالياء.

ثم وقفهم على جهنم التي كانوا يُوعدون فيَكْذِبُونَ، و﴿جَهَنَّمَ﴾ أول طبقة من النار، و﴿أَصْلَوْهَا﴾ معناه: باشروها.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى محمداً ﷺ أخباراً تشاركه فيها أمته بقوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾، أي: في ذلك اليوم يكون ذلك.

وروي في هذا المعنى أن الله يجعل الكفرة يتخاصمون، فإذا لم يأتوا بشيء تقوم لهم به حجة رجعوا إلى الإنكار فناكروا الملائكة في الأعمال، فعند ذلك يختم الله على أفواههم فلا ينطقون بحرف، ويأمر الله جوارحهم بالشهادة فتشهد، وروي عقبة بن عامر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن أول ما يتكلم من الكافر فخذة اليسرى»، وقال أبو سعيد الخدري: (اليمين ثم سائر جوارحه)، وروي أن بعض الكفرة يقول يومئذ لجوارحه: «تَبَّا لك وسُخْقاً، فعنك كنت أماحك» ونحو هذا من المعنى، وقد اختلفت فيه ألفاظ الرواة، وروي عبدالرحمن بن محمد بن طلحة عن أبيه عن جده أنه قرأ: ﴿وَلْيُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَلْيَشْهَدْ أَرْجُلُهُمْ بِزِيَادَةِ لَامٍ﴾ (كي) النصب، وهي مخالفة لخط المصحف.

٦٦ - ٦٧ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿أَعْيَنَهُمْ﴾ مراد به كفار قريش، ومعنى الآية يَبَيِّنُ أنهم في قبضة القدرة وبروج العذاب إن

شاءه الله لهم، وقال الحسن وقتادة: أراد الأعين حقيقة، والمعنى: لأعيناهاهم فلا يَرَوْنَ كيف يمضون، ويؤيد هذا محاسبة المسخ الحقيقي، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد أعين البصائر، والمعنى: ولو شئنا حتمنا عليهم بالكفر فلم يهتد منهم أحد. و﴿الطَّمَسُ﴾ إِذْقَابُ الآثار من المشي والهيئات حتى كأنه لم يكن، أي: جعلنا جلود وجوههم متصلة حتى كأن لم يكن فيها أعين قط.

قوله: ﴿فَأَسْتَبْقُوا الصِّرَاطَ﴾ معناه: على الفرض، والتقدير: فإننا لو شئنا لأعيناهاهم فاحسب أو قدّر أنهم يستبقون الصراط، أي: الطريق، فأئني لهم بالإبصار وقد أعيناهاهم؟ و (أئني) لفظة استفهام فيه مبالغة، قدّره سيويه: كيف؟ ومن أين؟

و ﴿لَسَخَّتْهُمْ﴾ تقديره: تبديل خَلْقِهِمْ لتصير كالقردة والخنازير ونحوه مما تقدم في بني إسرائيل وغيرهم، وقال الحسن، وقتادة، وجماعة من المفسرين: معناه: لجعلناهم مقعدين مبطلين لا يستطيعون تصرفاً، وقال ابن سلام: هذا التوعد كُله يوم القيامة. وقرأ الجمهور: ﴿مَكَانَاتِهِمْ﴾ بالإنفراد، بمعنى المكان، كما يقال: دار ودارة، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - ﴿مَكَانَاتِهِمْ﴾ جمعاً، وهي قراءة الحسن، وابن أبي إسحق. وقرأ الجمهور: ﴿مُضَيَّاتٍ﴾ بضم الميم، وفتحها أبو حيوة.

ثم بيّن تعالى دليلاً في تنكيسه المعمرين، وأن ذلك ما يفعله

إلا الله، وقرأ الجمهور: ﴿تَنَكُّسُهُ﴾ بفتح النون الأولى وسكون الثانية وضم الكاف خفيفة، وقرأ عاصم - بخلاف عنه - وحمزة بضم الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف مُشَدَّدة على المبالغة، وأنكرها أبو عمرو على الأعمش. ومعنى الآية: نُحَوِّلْ خَلْقَهُ من القوة إلى الضعف، ومن الفهم إلى البَلَه، ونحو ذلك. وقرأ نافع، وأبو عمرو - وفي رواية: عباس -: ﴿تَقُولُونَ﴾ بالثاء، على معنى: قل لهم، وقرأ الباقون بالياء على ذكر الغائب.

ثم أخبر تعالى عن حال نبيه ﷺ، ورد قول من قال من الكفرة: إنه شاعر، وإن القرآن شعر بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يقول الشعر ولا يرويه ولا يَزِنُهُ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلاً كسر وزنه، وإنما كان يُخَرِّجُ المعاني فقط، من ذلك أنه أنشد يوماً بيت طرفة:

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا
وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تَزُودْ بِالْأَخْبَارِ
وَأَنْشَدَ يَوْمًا - وقد قيل له: من أشعر الناس؟ - فقال: الذي يقول:
أَلَمْ تَرِنَايَ كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا
وَجَذْتُ بِهَا وَإِنْ لَمْ تَطْلُبْ طِيبًا؟
وأنشد يوماً:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبِيدِ
لِيَبِينَنَّ الْأَنْسَرُ وَعَيَسِيَّة؟
وقد كان عليه الصلاة والسلام ربما أنشد البيت المستقيم في النادر، روي أنه أنشد بيت ابن رواحة:

يَبِيتُ يُجَافِي جُثْبَهُ عَنْ فَرَاشِهِ
إِذَا اسْتَفْتَلَتْ بِالْمَشْرُوكِينَ الْمُضَاجِعُ

وقال الحسن بن أبي الحسن: أنشد النبي عليه الصلاة والسلام:

كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا
فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نَشْهَدُ أَنَّكَ
رَسُولُ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا
رواه الثعلبي: وإصابته الوزن أحياناً
لا توجب أنه تعلم الشعر، وروى أنه
عليه الصلاة والسلام أتى في نشر
كلامه أحياناً ما يدخل في وزن،
كقوله يوم حُين:

«أَنَا السُّبِّي لَا كَذِبُ
أَنَا إِبْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»
وكذلك يأتي في آيات القرآن
الكريم وفي كل كلام، وليس ذلك
بشعر ولا في معناه.

وهذه الآية تقتضي - عندي -
غضاضة على الشعر ولا بدّ، ويؤيد
هذا قول عائشة رضي الله عنها: كان
الشعر أبغض الحديث إلى
رسول الله ﷺ، وكان يتمثل بشعر
أخي قيس طرفة فيعكسه، فقال له أبو
بكر رضي الله عنه: ليس هكذا،
فقال: (ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي)،
وقد ذهب قوم إلى أن الشعر لا غش
عليه، وإنما منعه من التخلّي بهذه
الحلية الرفيعة ليجيء القرآن من قِبَلِهِ
أعرب، فإنه لو كان له إدراك الشعر
لقل في القرآن: هذا من تلك القوة.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وليس الأمر عندي كذلك، وقد كان
عليه الصلاة والسلام من الفصاحة
والبيان في النشر في الرتبة العليا،

ولكن كلام الله تبارك
وتعالى يبين بإعجازه،
ويبرز برصفه، ويخرجه
إحاطة علم الله عن كل
كلام، وإنما منع الله
نبيه ﷺ من الشعر ترفيعاً
له عمّا في قول الشعراء
من الشّخيل وتزويق
الكلام، وأما القرآن فهو
ذكر الحقائق والبراهين،
فما هو بقول شاعر،
وهكذا كان أسلوب كلامه
عليه الصلاة والسلام؛ لأنه
لا ينطق عن الهوى،
والشعر نازل الرتبة عن
هذا كله.

والضمير في ﴿عَلَّمَنَّهُ﴾

عائد على محمد ﷺ قولاً واحداً،
والضمير في ﴿لَهُ﴾ يحتمل أن يعود
على محمد ﷺ، أو يعود على
القرآن الكريم وإن كان لم يذكر
لدلالة المجاورة عليه، وتبين
ذلك قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ
مُبِينٌ﴾.

وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿لِيُنْذِرَ﴾
بالثاء على مخاطبة محمد ﷺ،
وقرأ الباقر بالباء، أي: لِيُنْذِرَ
القرآن، أو لِيُنْذِرَ محمد ﷺ،
واللام متعلقة بـ ﴿مُبِينٌ﴾، وقرأ
محمد اليماني: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ على
الفعل المجهول، قال أبو حاتم:
ولو قرئ بفتح الباء والذال - أي:
ليتحفظ ويأخذ بحظه - لكان جائزاً،
وحكاها أبو عمرو الداني عن
محمد اليماني.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي:

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صَارِفَاتٍ آيَاتٍ أَنْتُمَا فَمَهُمْ لَهَا
مَلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾
وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمِسَارِبٌ فَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا
مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَمْ يَجِدْ لَهُمْ جُنُودًا مُخْتَصِرِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ
إِنَّا نَعْلَمُ مَا تُبْصِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا لَإِن شَاءَ أَتَا
خَلْقَهُمْ مِن تُفُفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبْنَا
مَثَلًا وَلِيٍّ خَلَقْنَاهُ قَالِ مَنْ يَعْجِزُ الْعَظِيمُ وَهِيَ رُوسُهُ ﴿٧٨﴾
قُلْ يُحْيِي الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾
الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَأْتُمْ
مِنْهُ ثَوَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِن تَحْتِهَا نَارًا وَهُوَ الْخَلِيقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾
إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾
فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ نَفْسٍ وَلَئِنْ رَجَعْتُمْ
لِلَّيْلِ وَالنَّصَا فَاتَرْتُمْ ﴿٨٣﴾

١٥٥

حي القلب والبصيرة، ولم يكن ميتاً
لكفره، وهذه استعارة، قال
الضحّاك: ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ معناه:
عاقلاً، ﴿وَيَحْيِ الْقَوْلُ﴾ معناه: يتحتم
العذاب ويجب الخلود، وهذا كقوله
تعالى: ﴿حَقَّتْ لِكُلِّ الْعَادِ﴾.

﴿٧٦﴾ - ﴿٧١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة في أمر قريش
وإعراضها عن الشرع وعبادتها
الأصنام، فتبهمهم الله تعالى في هذه
الآية على إنعامه عليهم ببهيمة
الأنعام. وقوله: ﴿أَيُّدِينَا﴾ عبارة عن
القدرة، عبر عنها بـ (يد) وبـ (يدين)
وبـ (أيد)، وذلك من حيث كان البشر
إنما يفهمون القدرة والبطش باليد،
فعبّر لهم بالجهة التي اقتربت من
أفهامهم، والله تبارك وتعالى مئزّة عن
الجراحة والتشبيه كلّ. وقوله تعالى:
﴿نَهْمُ لَهَا مَلِكُونَ﴾ تنبيه على النعمة

في أن هذه الأنعام ليست بعاتية ولا مُبْتَرَّة، بل تُقْتَنَى وتقرب منافعها.

وقوله: ﴿وَدَلَّلْنَاهَا﴾ معناه: سَخَّرْنَاهَا ذليلة، و«الرُّكُوبُ»: المركوب، وهو فَعُول بمعنى: مَفْعُول، وليس إلا في ألفاظ محصورة، كالرُّكُوب، والحُلُوب، والْقُدُوع. وقرأ الجمهور: ﴿رُكُوبُهُمْ﴾ بفتح الراء، وقرأ أبوي بن كعب، وعائشة رضي الله عنها: ﴿رُكُوبَتُهُمْ﴾. و«الْمَنَافِعُ» إشارة إلى الأصواف والأوبار وغيرها، و«الْمَشَارِبُ»: الألبان.

ثم عئفهم في اتخاذ الآلهة طلباً للاستئصال بها والتعاضد، ثم أخبر أنهم لا يستطيعون، ويحتمل أن يكون الضمير فيه للكفار، وفي ﴿نَصَرَهُمْ﴾ للأصنام، ويحتمل عكس ذلك لأنهما صحيحان في المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَمَّمْ جُدُّ﴾ يحتمل أن يكون الضمير الأول للكفار والثاني للأصنام، على معنى: وهؤلاء الكفار مُجْتَمِعُونَ مُتَخَرِّبُونَ لهذه الأصنام في الدنيا، لكنهم لا يستطيعون التناصر مع ذلك، ويحتمل العكس، أي: يحضرون لهم في الآخرة عند الحساب، على معنى التوبيخ والنقمة، وسأهم جُنداً في هذا التأويل إذ هم عُدَّة للنقمة منهم وتوبيخهم، وجرت ضمائر الأصنام في هذه مجرى من يعقل إذ أنزلت في عبادتها منزلة عقل، فعولمت في العبارة بذلك.

ثم أنس نبيّه ﷺ بقوله: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾، وتوعد الكفار

بقوله: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُيْرُوتُكَ وَيَعْلَمُونَ﴾.

﴿٧٧﴾ - ﴿٨١﴾ تفسير قوله عز وجل: قال ابن جبير: هذه الآيات نزلت بسبب أن العاص بن وائل السهمي جاء إلى النبي ﷺ بِعَظْمِ رَمِيمٍ، فَنَقَّه وقال: يا محمد، من يُحْيِي هذا؟ وقال مجاهد وقتادة: إن الذي جاء بالعظم الثَّجَرُ أُمَيَّةُ بن خلف، وقاله الحسن، وذكره الرماني، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو عبدالله بن أبي ابن سلول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو وهم يَمُنُّ نسبه إلى ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأن السورة مكيَّة، والآية مكيَّة بإجماع، ولأن عبدالله بن أبي لم يجاهر قط هذه المجاهرة، واسم (أبي) هو الذي خلط على الرواة؛ لأن الصحيح هو ما رواه ابن وهب عن مالك، وقاله ابن إسحاق وغيره: إنَّ أبا بن خلف أخوا أُمَيَّة بن خلف هو الذي جاء بالعظم الرميم بمكة فَنَقَّه في وجه النبي ﷺ، وقال: من يُحْيِي هذا يا محمد؟ ولأبي هذا مَعَ النبي ﷺ مقامات ومقالات إلى أن قتله بيده يوم أحد بالحربة بجرح في عنقه، ورُوي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له حين فَتَّ العظم: «الله يُحْيِيهِ وَيُحْيِيهِ وَيُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ». ثم نزلت الآيات مُبَيِّنَةً الحجة في أن الإنسان نطفة ثم يكون بعد ذلك خصيماً مبيناً، فهل هذا إلا إحياء بعد موت وعدم حياة؟

وقوله: ﴿وَيَسَى﴾ يحتمل أن يكون نسيان الذهول، ويحتمل أن يكون

نسيان الترك، و«الرَّمِيمُ»: البالي المُفْتَت، وهو الرفات.

ثم دَلَّهم تبارك وتعالى على الاعتبار بالنشأة الأولى، ثم عَقَّب ذلك بدليل ثالث في إيجاد النار في العود الأخضر المرتوي ماءً، وهذا هو زناد العرب، والنار موجودة في كل عود غير أنها في المتخلخل المفتوح المسام أوجد، وذلك هو المزخ والعقار، وأعاد الضمير على الشجر مُذَكِّراً من حيث راعى اللفظ فجاء كالتمر والحصى وغيره.

﴿٨١﴾ - ﴿٨٢﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا تقرير وتوقيف على أمر تدل صحتُه على جواز بعث الأجساد من القبور وإعادة الموتى.

وجَمَعَ الضمير جَمَعَ من يعقل في قوله سبحانه: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ من حيث كانتا متضمتين مَنْ يَعْقِل من الملائكة والشقلين. هذا تأويل جماعة من المفسرين، وقال الرماني وغيره: الضمير عائد على الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهم مثال للبعث، وتكون الآية نظير قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، وقرأ سَلامُ أبو المُثَنِّبِ، وابن أبي إسحاق، ويعقوب، والأعرج: ﴿يُقَدِّرُ﴾ على الاستقبال، وقرأ الجمهور: ﴿يَقْدِرُ﴾ على اسم الفاعل، وقرأ الجمهور: ﴿الْخَلْقُ﴾ وقرأ الحسن: ﴿الْخَالِقُ﴾.

ورفع ﴿فَيَكُونُ﴾ على معنى: فهو يكون، وهي قراءة الجمهور، وقرأ ابن عباس، والكسائي: ﴿فَيَكُونُ﴾



واللفظ يحتمل أن يعم جميع هذه المذكورات. و «الزَّاجِرَاتُ زَجْرًا»، قال مجاهد، والسدي: الملائكة التي تزجر السحاب وغيره من مخلوقات الله، وقال قتادة، هي آيات القرآن المتضمنة النواهي الشرعية.

وقوله: ﴿فَالنَّاتِيَاتُ ذِكْرًا﴾ معناه: القارئات، وقال مجاهد، والسدي: أراد الملائكة التي تتلو ذكره، وقال قتادة: أراد بني آدم الذين يتلون كتبه المنزلة، وتسبيحه وتكبيره، ونحو ذلك.

وقرأ أبو عمرو، وحمزة: ﴿وَالصَّافَّاتُ صَفًّا﴾ بالإدغام، وهي قراءة ابن مسعود، ومسروق، والأعمش. وقرأ الباقون وجمهور الناس بالإظهار، وكذلك في كلها، قال أبو حاتم: «والإظهار اختيارنا»، وأما «الْحَامِلَاتُ وَفَرًا» والجاريات يُسْرَأُ، فلا يجوز فيهما الإدغام لِيُتَغَدَّ التاء من الحرفين.

ثم بيّن تعالى المَقَسِّمَ عليه أنه توحيد، وأنه واحد، أي: مُتَّحِدٌ من جميع الجهات التي ينظر فيها المفكر. ثم وصف تعالى نفسه بِرُبُوبِيَّتِهِ جميع المخلوقات، وذكر «الْمَشَارِقُ» لأنها مطالع الأنوار، والعيون بها أكلف، وفي ذكرها غثية عن ذكر المَعَارِبِ: إِذْ مَعَادِلُهَا لَهَا مفهومة عند كل ذي لُبٍّ، وأراد

بالنصب، قال أبو علي: لا ينصب الكسائي إذا لم يتقدم (أن)، ونصب ابن عامر وإن لم يتقدم (أن)، والنصب هنا قراءة ابن محيصن. وقوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ أمرٌ للشَّيْءِ الْمُخْتَرَعِ عند تعلُّق القدرة به لا قبل ذلك ولا بعده، وإنما يُؤمر تأكيداً للقدرة وإشارة بها، وهي أوامر دون حروف وأصوات، بل من الكلام القائم بالذات.

ثم نزه الله تبارك وتعالى نفسه تنزيهاً عاماً مطلقاً، وقرأ الجمهور: ﴿مَلَكُوتُ﴾، وقرأ الأعمش، والثيبي: ﴿مَلَكَةٌ﴾ ومعناه: ضَبْطُ كُلِّ شَيْءٍ والقدرة عليه.

كامل تفسير سورة يس والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الصافات

هي مَكِّيَّة، وعددها في المدني والشامي والكوفي مائة آية وآيتان وثمانون آية.

١ - ٧ تفسير قوله عز وجل:

أقسم الله تعالى في هذه الآيات بأشياء من مخلوقاته، واختلف الناس في معناها - فقال ابن مسعود، ومسروق، وقاتدة: هي الملائكة التي تصف في السماء في عبادة الله تعالى وذكره صفوفاً، وقالت فرقة: أراد كل من يصف من بني آدم في قتال في سبيل الله، أو في صلاة وطاعة، والتقدير: والجماعات الصافات،

تبارك وتعالى مشارق الشمس وهي مائة وثمانون في السنة فيما يزعمون، من أطول أيام السنة إلى أقصرها، ثم أخبر عن قدرته بتزيين السماء بالكواكب، وانتظم في ذلك التزيين أن جعلها حفظاً وجزأ من الشياطين المردة، وهم مسترقو السمع.

وقرأ الجمهور بإضافة «الزَّيْنَةُ» إلى «الكواكب»، وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم بتنوين ﴿زَيْنَةٍ﴾ وحُفِضَ ﴿الْكَوَاكِبُ﴾ على البدل منها، وهي قراءة ابن مسعود، ومسروق - بخلاف عنه - وأبي زُرْعَةَ ابن عمرو بن جرير، وابن وثاب، وطلحة. وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿بِزَيْنَةٍ﴾ بالتنوين «الْكَوَاكِبُ» بالنصب، وهي قراءة ابن وثاب، وأبي عمرو، والأعمش، ومسروق، وهذا في الإعراب نحو قوله تعالى:

﴿أَوْ إِنْ أَنْذَرْتُمْ فِي يَوْمٍ كَانَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ﴾
يَتَّبِعُكُمْ، وحكى الزهراوي قراءة
بتنوين: ﴿زَيْتَةٍ﴾ ورفع
﴿الْكَوَاكِبِ﴾.

و «الْمَارِدُ»: المتجرّد للشر، ومنه:
شجرة مرداء، أي: لا ورق عليها،
ومنه: الْأَمْرُذُ. وخصّ تعالى السماء
الدنيا بالذكر لأنها التي تُبَاشِرُهَا
أَبْصَارُنَا، وأيضاً فالحفظ من
الشياطين إنما هو فيها وحدها.
و﴿وَجَنَّتَا﴾ نصب على المصدر،
وقيل: مفعول من أجله، والواو
زائدة.

٨ - ١٥ تفسير قوله عز وجل:

«الْمَلَأُ الْأَعْلَى»: أهل السماء الدنيا
فما فوقها، وسمي الكلّ منهم
«أَعْلَى» بالإضافة إلى مَلَأِ الْأَرْضِ
الذي هو أسفل، والضمير في
﴿يَسْمَعُونَ﴾ للشياطين. وقرأ جمهور
القراء والناس: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ بسكون
السين وتخفيف الميم، وقرأ حمزة،
وعاصم - في رواية حفص - وابن
عباس - بخلاف عنه - وابن وثاب،
وعبدالله بن مسلم، وطلحة،
والأعمش: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ بشد السين
والميم، بمعنى: لا يسمعون،
فينتفي على القراءة الأولى سماعهم
وإن كانوا يَسْمَعُونَ، وهو المعنى
الصحيح، ويعضده قوله تعالى:
﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾،
ويُنتَفِي على القراءة الأخيرة أن يقع
منهم اسمتاع أو سماع، وظاهر
الأحاديث أنهم يستمعون حتى الآن
لكن لا يسمعون، وإن سمع أحد
منهم شيئاً لم يفلت قبل أن يلقي
ذلك السمع إلى الذي يجيئه؛ لأن

من وقت محمد عليه الصلاة والسلام
مُلِئَتِ السَّمَاءُ حَرَساً شَدِيداً وَشُهْباً،
وكان الرجم في الجاهلية أخف،
وروي في هذا المعنى أحاديث
صَحَّاحٌ مُضْمِنُهَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ كَانَتْ
تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ فَتَقْعُدُ لِلْسَّمْعِ
وَاحِداً فَوْقَ آخَرٍ، يَتَقَدَّمُ الْأَخْسَرُ نَحْوَ
السَّمَاءِ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ، ثُمَّ الَّذِي
يَلِيهِ، فيقضي الله تعالى الأمر من
الأمر في الأرض فيتحدث به أهل
السماء، فيسمعه منهم ذلك الشيطان
الأذنى، فليقيه إلى الذي تحته، وربما
أحرقه شهاب وقد ألقى الكلام،
وربما لم تحرقه جملة، فتتزل تلك
الكلمة إلى الكهان فيكذبون معها مائة
كذبة، فتصدق تلك الكلمة، فيصدق
الجاهلون الجميع، فلما جاء الله
بالإسلام حُرِسَتِ السَّمَاءُ بِشِدَّةٍ فَلَا
يُفْلَتُ شَيْطَانٌ سَمِعَ بَيْتَةً، ويروى أنها
لا تسمع الآن شيئاً، والكواكب
الراجمة هي التي يراها الناس
تَنَقُّضُ، قال النقاش، ومكي:
وليست بالكواكب الجارية في
السماء، لأن تلك لا تُرى حركتها،
وهذه الراجمة تُرى حركتها لأنها
قريبة مثلاً، وفي هذا نظر.
و﴿وَيَذْفُونَ﴾ معناه: يُزْجَمُونَ.

و «الدُّخُورُ»: الإصغار والإهانة؛
لأن الزُّجْرَ الدَفْعُ بعنف، قال
مجاهد: مَطْرُودِينَ. وقرأ الجمهور
بضم الدال، وقرأ أبو عبد الرحمن
السُّلَمي: ﴿دُخُوراً﴾ بفتح الدال،
و«الْوَاصِبُ»: الدائم، قاله مجاهد،
وقتادة، وعكرمة. وقال السدي،
وأبو صالح: الواصِبُ: الْمُوجِعُ،
ومنه: الوصب، والمعنى: هذه

الحال الغالبة على جميع الشياطين،
إلا من شَذَّ فخطف خبراً أو نبأ فأتبعه
شهاب فأحرقه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿خَطَفَ﴾
بفتح الخاء وكسر الطاء خفيفة، وقرأ
الحسن، وقتادة: ﴿خَطَفَ﴾ بكسر
الهاء والطاء وتشديد الطاء، قال أبو
حاتم: يقال: هي لغة بكر بن وائل،
وتميم بن مرة، وروي عن ابن عباس
رضي الله عنهما بكسر الخاء والطاء
مخففة. و«الثَّقِيبُ»: النافذ بضوئه
وشعاعه المنير، قاله قتادة،
والسدي، وابن زيد، و«حَسَبَ
ثاقب» إذا كان شيئاً منيراً.

١٦ - ١٧ تفسير قوله عز وجل:

الاستفتاء نوعٌ من أنواع السؤال،
وكأنه سؤال من يُبْتَلِ بقوله ويجعل
حُجَّةً، وكذلك هي أقوالهم في هذا
الفاصل، لا يمكنهم أن يقولوا إلا
أن خَلَقَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأُمَمِ
والملائكة والإنس والجن والسموات
والأرض والمشارق وغير ذلك، هو
أشدُّ من هؤلاء المخاطبين، وبأنَّ
الضمير في ﴿عَلَقْنَا﴾ يُراد به ما تقدم
ذكره، وقال مجاهد وقتادة
وغيرهما: وفي مصحف عبدالله بن
مسعود: ﴿أَمْ مَنْ عَدَدْنَا﴾ يريد
الصَّافَاتِ وغيرها، والسموات
والأرض وما بينهما، وكذلك قرأ
الأعمش، وقرأ أيضاً: ﴿أَمَّنْ﴾
مُخَفِّفَةً الميم دون (أَمْ).

ثم أخبر تعالى إخباراً جزماً عن
خلقه لآدم الذي هو أبو البشر،
وأضاف الخلق من الطين إلى جميع
الناس حيث الأب مخلوق منه، وقال
الطبري: خَلَقَ ابْنُ آدَمَ مِنْ تَرَابٍ وَمَاءٍ

عن نفسه، كأنه قال: «قل لهم: عجبٌ» وقوله: ﴿يَسْخَرُونَ﴾ أي: وهم يسخرون من نبوتك والحق الذي عندك. وقوله تعالى: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يريد: بالآية، وهي العلامة والدلالة، وروى أنها نزلت في زكاته، وهو رجل مكِّي مشرك، لقي النبي ﷺ في جبل خال وهو يرعى غنماً له، وكان أقوى أهل زمانه، فقال له: يا زكاته، إن أنا صرعتك أتؤمن بي؟ قال: نعم، فصرعه ثلاثاً، ثم عرض عليه آيات من دعاء شجرة وإقبالها، ونحو ذلك مما اختلفت فيه ألفاظ الحديث، فلما فرغ من ذلك كله لم يؤمن، وجاء إلى مكة فقال: يا بني هاشم، ساجدوا بصاحبكم هذا أهل الأرض، فنزلت الآية فيه وفي نظرائه. و﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ معناه: يطلبون أن يكونوا ممن يسخر، ويجوز أن تكون بمعنى: يستخِر، كقوله: «واستغنى الله»، فيكون فعل واستغنى بمعنى، بهذا فسر مجاهد وقتادة، وفي بعض القراءات القديمة: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ بالحاء غير منقوطة، وهذه عبارة عما قال زكاته؛ لأنه استسخر النبي عليه الصلاة والسلام. وقوله تعالى: ﴿أَوَدَا يَتَنَ﴾. قرأ بضم الميم أبو جعفر، وابن أبي إسحق، وعاصم، وأبو عمرو،

ونارٍ وهواءٍ، وهذا كله إذا اختلط صار طيناً لازباً، وهو اللازم، أي: يلزم ما جاوره ويلصق به، وهو الصلصال كالفخار، وعبر ابن عباس، وعكرمة عن اللازب بالحر، أي الكريم الجيد، وحقيقة المعنى ما ذكرناه، يقال: «ضربة لازب ولازم» بمعنى واحد.

وقرأ الجمهور: ﴿عَجِبْتُ﴾ بفتح التاء، أي يا محمد من إعراضهم عن الحق وعماتهم عن الهدى، وأن يكونوا كافرين مع ما جنتهم به من عند الله. وقرأ حمزة والكسائي بضم الشاء، ورويت عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن وثاب، والشَّخعي، وطلحة وسفيان، والأعمش، وذلك على أن يكون تعالى هو المتعجب، ومعنى ذلك من الله سبحانه أنه صفة فعل، كقوله عليه الصلاة والسلام: «تعجب الله إلى قوم يساقون إلى الجنة في السلاسل»، وقوله: «تعجب الله من الشاب ليست له صبوة»، فإنما هي عبارة عما يظهره في جانب المتعجب منه من التعظيم أو التحقير حتى يصير الناس متعجبين منه، فمعنى هذه الآية: بل عجبٌ من ضلالهم وسوء تخيلهم، وجعلتها للناظرين فيها وفيما اقترن معها من شرعي وهداي متعجباً، وروى عن شريح إنكار هذه القراءة، وقال: إن الله لا يعجب، قال الأعمش: فذكرت ذلك لإبراهيم فقال: إن شريحاً كان مُعْجَباً بعلمه، وإنَّ عبد الله أعلم منه. وقال مكِّي، وعلي بن سليمان في كتاب الزهراوي: هو إخبار من النبي ﷺ

والعامة، وكسرهما الحسن، والأعرج، وشيبة، ونافع. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع: ﴿أَو أَبَاؤُنَا﴾ بسكون الواو، وهي التي للقسمة أو التخيير، وقرأ الجمهور بفتحها، وهي واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام.

ثم أمره الله تعالى أن يجيب تقريرهم بـ ﴿يَمُ﴾ ويزيدهم في الجواب أنهم - في البعث - في صغار وذلة، «والدَّاحِزُ»: الصغير الدليل، وقد تقدم غير مرة ذكر القراءات في الاستفهامين.

١٩ - ٢٦ تفسير قوله عز وجل: هذا استنفاث إخبار جرّه ما قبله، فأخبر تعالى أن بعثهم من قبورهم إنما هي زجرة واحدة، هي نفخة البعث في الصور، وقوله: ﴿يُنْظَرُونَ﴾ يحتمل أن يريد:

ثم عرض عليه آيات من دعاء شجرة وإقبالها، ونحو ذلك مما اختلفت فيه ألفاظ الحديث، فلما فرغ من ذلك كله لم يؤمن، وجاء إلى مكة فقال: يا بني هاشم، ساجدوا بصاحبكم هذا أهل الأرض، فنزلت الآية فيه وفي نظرائه. و﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ معناه: يطلبون أن يكونوا ممن يسخر، ويجوز أن تكون بمعنى: يستخِر، كقوله: «واستغنى الله»، فيكون فعل واستغنى بمعنى، بهذا فسر مجاهد وقتادة، وفي بعض القراءات القديمة: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ بالحاء غير منقوطة، وهذه عبارة عما قال زكاته؛ لأنه استسخر النبي عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿أَوَدَا يَتَنَ﴾. قرأ بضم الميم أبو جعفر، وابن أبي إسحق، وعاصم، وأبو عمرو،

بالأبصار، أي: ينظرون ما هُمْ فيه، وصدق ما كانوا يُكذِّبون به، ويحتمل أن يكون بمعنى: ينتظرون ما يُفعل بهم ويؤمنون به.

ثم أخبر عنهم أنهم في تلك الحال يقولون: ﴿يَوَيْلًا﴾، يُنادون الويل، بمعنى: هذا وقتٌ حضورك وأوانُ حُلُولك، ورأى أبو حاتم الوقف ها هنا، وجعل قوله: ﴿هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ من قول الله أو الملائكة لهم، ورأى غيره أن باقي الآية من قول الكفرة. و«الدِّين»: الجزاء والمقارضة، كقولهم: «كما تدين ثدان»، وأجمعوا أن قوله: ﴿هَذَا يَوْمَ الْقَصَلِ﴾ ليس من قول الكفرة، وإنما المعنى: يُقال لهم: هذا يوم الفصل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ﴾ معنى: أنواعهم وضرباءهم، قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وابن عباس، وقتادة، ومنه قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾، وقوله: ﴿وَرَادَا الثَّوُوسُ زَيْجَتَ﴾، أي: تُوعت، زوي أنه يضم عند هذا الأمر كل شكل إلى شكله، وكل صاحب من الكفرة إلى صاحبه، ومعهم ما كانوا يعبدون من دون الله، من آدمي رضي بذلك أو صنم أو وثن توبيخاً لهم وإظهاراً لسوء حالهم. قال الحسن: المعنى: وأزواجهم المشركات من النساء، وزوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورجَّحه الرمانى.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا دَوْمٌ﴾ معناه: قوموهم واحملوهم على طريق الجحيم، و«الْجِيمُ» طبقة من

طبقات جهنم يقال إنها الرابعة، ثم يأمر الله تعالى بوقفهم، و«وَقَفَ» يتعدى بنفسه، تقول: «وقفتُ زيداً»، وأمره بذلك على جهة التوبيخ لهم والسؤال، واختلف الناس في الشيء الذي يُسألون عنه - فروي عن ابن مسعود أنه قال: يُسألون: هل يحبون شرب الماء البارد؟ وهذا على طريق الهزء بهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يسألون عن لا إله إلا الله، وقال الجمهور من المفسرين: عن أعمالهم، ويوقفون على قُبْحها، وهذا قول مُتَّجِه عام في الكفر وغيره، وزوي عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا رَجُلٍ دَعَا إِلَى شَيْءٍ كَانَ لَازِمًا لَهُ»، وقرأ: ﴿وَقَفُّوا لَهُمْ مَسْئَلُونَ﴾، وزوي ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ اللَّهِ حَتَّى يَسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَعَنْ عَمَلِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ كَيْفَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عَمَلٍ فِيمَا عَلِمَ، وَيَحْتَمِلُ عِنْدِي أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى عَلَى مَا فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾»، أي: تُسألون عن امتناع التناصر. وقرأ بتاء واحدة شبيهة، ونافع، وقرأ خالد بتاءين، وكذلك في حرف عبدالله، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بإدغام التاء في التاء من قراءة ابن مسعود، وقال الثعلبي: هذا جواب أبي جهل حين قال في بدر: ﴿حَنُّ جَمِيعٍ مُنْتَهَرٍ﴾.

ثم أخبر تعالى بجوابهم في ذلك اليوم في حالة الاستسلام والإلقاء باليد.

﴿٢٧﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الجماعة التي يقبل بعضها على بعض هي جنٌ وإنس، قال قتادة: وتَسْأَلُهُمْ هو على معنى التفرع واللوم والسخط، والقائلون: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ إما أن يكون الإنس للشياطين، وهو قول مجاهد، وابن زيد، أو ضَعْفَةُ الإنس للكبراء والقادة. واضطرب المتأولون في معنى قولهم: ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾، وعبر ابن زيد عنه بطريق الجنة والخير، ونحو هذا من العبارات التي تُفسر بالمعنى ولا تختص بنفس اللفظة، وبعضهم نحا في تفسير اللفظة إلى ما يختصها، والذي يتحصل من ذلك معان: منها أن يريد باليمين: القوة والشدة، فكأنهم قالوا: إنكم كنتم تُغَوِّوُنَا بقوة منكم، وتحملونا على طريق الضلالة بمتابعة منكم في شدة، فعبّر عن هذه المعاني باليمين، كقول العرب: «بِئْدَيْنِ مَا أَوْزَدَ»، وكما قالوا: «اليد» - في غير موضع - عن القوة، وقد ذهب بعض الناس ببیت الشماخ هذا المذهب، وهو قوله:

إِذَا مَا رَايَةَ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ
تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ
فقالوا: معناه: بقوة وعزيمة، وإلا فكلُّ أحد يتلقاها بيمينه لو كانت الجارحة، وأيضاً فلما استعار الربة للمجد فكذا لم يرد باليمين الجارحة.

ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا: إنكم كنتم تأتوننا من الجهة التي يُحَسِّنُهَا تمويهكم وإغواؤكم، ويظهر فيها أنها جهة الرشد

والصواب، فتصير عندنا كاليمين الذي نَتِمُّنَ بالسَّاحِ الذي يجيئنا من قَبْلِهَا، فكأنهم شَبَّهُوا أقوال هؤلاء الْمُؤْمِنِينَ بالسَّوانح التي هي عندهم محمودة، كأن التَّمويه في هذه الغوايات قد أظهر فيها ما يوشك أن يُحمد به.

ومن المعاني التي تحتلها الآية أن يريدوا: إنكم كنتم تأتوننا، أي تقطعون بنا عن أخبار الخير واليمين؛ فعَبَّرَ عنها باليمين؛ إذ اليمين هي الجهة التي يُتِمُّنَ بها وبكل ما فيها ومنها.

ومن المعاني التي تحتلها الآية أن يريدوا: إنكم كنتم تَجِيئُونَا من جهة الشهوات وعدم النظر؛ والجهة الثقيلة من الإنسان هي اليُمْنَى لأن كبده فيها، وجهة شماله فيها قلبه، وهي أخف، وهذا معنى قول الشاعر:

تَرَكْنَا لَهُمْ شِقَّ الشَّمَالِ

أي: نزلنا لهم عن موضع الهروب؛ لأن المنهزم إنما يرجع على شِقِّه الأيسر، إذ هو أخف شِقِّه، وإذ قلب الإنسان في شماله وَتَمَّ نظره، فكأن هؤلاء كانوا يأتون من جهة الشهوات والثقل، وأكثر ما يتمكن هذا التأويل مع إغواء الشياطين، وهو قَلْبٌ مع إغواء بني آدم.

وقيل: المعنى: يحلفون لنا ويأتوننا إثيان من إذا حَلَفَ لنا صدَّقناه، فاليمين - على هذا -: الْقَسَمُ.

وقد ذهب بعض الناس في ذكر إبليس جهات بني آدم في قوله: ﴿بَنِي

بَنِي آدَمَ وَيَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ إلى ما ذكرناه من جهة الشهوات، فقال: ما بين يديه هي مغالطته فيما يراه، وما خلفه هي مسارقتها في الخفاء، وعن يمينه هو جانب شهواته، وعن شماله هو نظره بقلبه وتحذيره فقد يغلبه الشيطان فيه، وهذا فيمن جعله في جهات ابن آدم الحاضرة لديه، ومنهم من جعلها في جهات أموره وشئونه فيُتَسَّع التأويل على هذا.

ثم أخبر تعالى عن قول الجنِّ المجيبين لهؤلاء: ﴿لَنْ نَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ كما ذكرتم، بل كان لكم اكتساب الكفر والبصيرة فيه، وإنما حملناكم على ما حملنا عليه أنفسنا، وما كان لنا عليكم حُجَّةٌ ولا قوة إلا طغيانكم وإرادتكم الكفر، فقد حَقَّ القول على جميعنا، وتعيَّن العذاب لنا، وإنا جميعاً لذائقون، والدُّوق هنا مستعار، وينحو هذا فُسْر قتادة وغيره أنه قول الجنِّ إلى ﴿عَذَابٍ﴾.

ثم أخبر الله تعالى أنهم اشتركوا جميع في العذاب وحصلوا فيه، وأن هذا فعله بأهل الجُزْمِ واختِاقَابِ الإثم والكفر.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل: هؤلاء أهل الجُزْمِ الذين جهلوا الله سبحانه، وعظَّموا أصناماً وأوثاناً، فإذا قيل: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ - وهي كلمة الحق والعروة الوثقى - أصابهم كِبَرٌ، وعظَّم عليهم أن يتركوا أصنامهم وأصنام آبائهم، كما قيل عن أبي طالب إذ قال له رسول الله ﷺ: «أبي عم، قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله»، فقال

أبو جهل: أيرغب عن ملَّة عبدالمطلب؟ فقال آخر ما قال: أنا على ملَّة عبدالمطلب. ويعرضه عليه الصلاة والسلام قول لا إله إلا الله جرت السُّنة في تلقين الموتى المحتضرين ليخالفوا الكفرة ويخضعوا لها.

وأما الطائفة التي قالت: ﴿إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ رَبِّنَا لِشَاعِرٍ تَجُنُّونَ﴾ فهي من قريش، وإشارتهم بالشاعر المجنون هي لمحمد ﷺ، فردَّ الله تعالى عليهم، أي: ليس الأمر كما قالوا من أنه شاعر، بل جاء بالحق من عند الله، وصدق الرسل المتقدمين له كموسى وعيسى وإبراهيم عليهم السلام.

ثم أخبر تعالى مخاطباً لهم - ويجوز أن يكون التأويل: قل لهم يا محمد -: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْآخِرِ﴾، وقرأ قوم بنصب ﴿الْعَذَابِ﴾، ووَجَّهَهَا أنه أراد: (لذائقون)، فحذفت النون تخفيفاً، وهي قراءة قد لحت، وقرأ أبو السمال: ﴿لِلذَائِقِ﴾ بالتنوين، ﴿الْعَذَابِ﴾ بالنصب. [الآلِيم]: المُولَم.

ثم أعلمهم أن ذلك جزاء لهم بأعمالهم واكتسابهم، ثم استثنى عباد الله استثناءً منقطعاً، وهم المؤمنون الذين أخلصهم الله تعالى لنفسه. وقرأ الجمهور بفتح اللام من ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾، وقرأ الحسن، وقاتدة، وأبو رجاء، وأبو عمرو بكسر اللام، وزويت هذه التي في الصافات عن الحسن بفتح اللام.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى العباد

المخلصين، وقوله: ﴿مَمْلُوءٌ﴾ معناه: عندهم، فقد قَرَّتْ عيونهم بعلم ما يستدرُّ عليهم من الرزق، وبأن شهواتهم تأتيهم لحينها، وإلا فلو كان ذلك معلوماً عند الله فقط لما تخصص أهل الجنة بشيء، وقوله: ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ تنميطٌ بليغٌ للثمن؛ لأنه رُبُّ مرزوق غير مُكرم، وذلك أعظم التنكيل.

و «السُّرُرُ»: جمع سرير، وقرأ أبو السَّمال بفتح الراء الأولى، وفي هذا التأويل حديث مروي عن النبي ﷺ أنهم في الجنان ترفع عنهم ستور فينظر بعضهم إلى بعض، ولا محالة أن أعظم أحيائهم هم فيها متحيزون في قصورهم.

و «يُنَادُونَ» معناه: يطوف الولدان، حسب ما فسّره آية أخرى، و «الكأسُ» قال الزجاج، والطبري، وغيرهما: هو الإناء الذي فيه خمر وما يجري مجراه من الأنبذة ونحوها، ولا يُسَمَّى كأساً حتى يكون فيه هذا المشروب المذكور، وقال الضحاك: كلُّ كأس في القرآن هو خمر، وذهب بعض الناس إلى أن الكأس بنيةٌ مخصوصةٌ في الأواني، وهو كلُّ ما اتسع فمه ولم يكن له مقبض، ولا يُراعى في ذلك كونه بخمر أم لا. وقوله: ﴿يَنبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْ جَارٍ مُطَرَّدٍ، فَالْمِيمُ فِيهِ أَصْلِيَّةٌ؛ لَأَنَّهُ مِنَ الْمَاءِ الْمَعِينِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْعَيْنِ فَتَكُونَ الْمِيمُ زَائِدَةً، أَيْ: مِمَّا يُعَيَّنُ بِالْعَيْنِ غَيْرِ مُسْتَوٍ وَلَا فِي حَرْزٍ، وَخَمْرُ الدُّنْيَا إِنَّمَا هِيَ مَعْصُورَةٌ مَخْتَزَنَةٌ، وَخَمْرُ الْآخِرَةِ جَارِيَةٌ أَنْهَارًا.

وقوله سبحانه: ﴿لَا فِيهَا﴾ يحتمل أن يعود على الكأس أو على الخمر، وهو الأظهر، قال الحسن بن أبي الحسن: خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿صَفْرَاءُ﴾، فهذا موصوف به الخمر وحدها، و«لَذَّةٌ لِلشَّيْرِينَ» أي: ذات للذة، فوصفها بالمصدر اتساعاً، وقد استعمل هذا حتى قيل: لذة بمعنى: لذية، ومنه قول الشاعر:

بَحْدِيثِكَ اللَّذُّ الَّذِي لَوْ كَلَّمْتُ
أُسْدَ الْقَلَاةِ بِهِ أَتَيْتُ سِرَاعاً
وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ لم تعمل (لا)؛ لأن الظرف حال بينها وبين ما شأنها أن تعمل فيه. و«الغَوْلُ»: اسم عامٌ في الأذى، تقول: غاله كذا وكذا إذا ضره في خفاء، ومنه الغيلة في القتل، وقال عليه الصلاة والسلام في الرضاع: «لقد هممتُ أن أنهي عن الغيلة»، ومن اللفظة قول الشاعر:

مَضَى أَوْلُونَا نَاعِمِينَ بِعَيْشِهِمْ
جَمِيعاً وَعَالَتْنِي بِمَكَّةَ عُوْلُ
أي: عاقتني عواثق، فهذا معنى من معاني «الغَوْل»، ومنه قول العرب في مثل من الأمثال: «ما له عمل ما غاله»، يضرب للرجل الحديد الذي لا يقوم لأمر إلا أغنى فيه، أو للرجل يدعى له بأن يؤدي ما أذاه، وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد: «الغَوْلُ» وجع في البطن، وقال ابن عباس أيضاً، وقتادة: هو صداع في الرأس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والاسم أعم من هذا كله، فنفي عن خمر الجنة جميع أنواع الأذى، إذ

هي موجودة في خمر الدنيا، وقد نحا إلى هذا العموم سعيد بن جبير، ومنه قول الشاعر:

وَمَا زَالَتِ الْخَمْرُ تَغْتَالُنَا
وَتَسْذِيبُ بِالْأَوَّلِ الْأَوَّلِ
أي: تؤذينا بذهاب العقل.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿يُزْفُونَ﴾ بفتح الزاي، وكذلك في الواقعة، من قولك: نُزِفَ الرجل إذا سَكِرَ، ونَزَفَتْهُ الخمرُ، والتزيفُ: السكران، ومنه قول الشاعر:

فَلَسَّمْتُ فَأَهَا أَخِذاً بِقُرُونِهَا
شُرِبَ التَّزْيِفُ بِبَرْدِ مَاءِ النَّحْشَرِجِ
وبإذهاب العقل فسّر ابن عباس، ومجاهد، وقتادة ﴿يُزْفُونَ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي بكسر الزاي، وكذا في الواقعة، من: أنزف بمعنيين: أحدهما سَكِرَ، ومنه قول الأبيّرد الرياحي:

لَعَمْرِي لَيْتَ أَنْزَفْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ
لَيْسَ الْتَذَامِي كُنْشُمُ آلِ أَبَجْرَا
والثاني بُعد شربائه، يقال: أنزف الرجل إذا تمّ شربائه، فهذا كله منفى عن أهل الجنة، وقرأ عاصم هنا بفتح الزاي، وفي الواقعة بكسر الزاي، وقرأ ابن أبي إسحق بفتح الياء وكسر الزاي.

قوله تعالى: ﴿فَصَبْرُكُمُ الْفَلَوُكُ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، وقتادة: معناه: على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، ولا يمتد طرف إحداهن إلى أجنبي، فهذا هو قصر الطّرف. و«عَيْنٌ»: جمع عيناة، وهي الكبيرة العين في جمال.

يَقُولُ أَيْ نَأْتِيكَ لِنِ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٠﴾ وَأَنَا وَمِنَّا وَكَأَنَّا أَبَاوَعْلَمَاءُ تَنَا
لْمَدِينُونَ ﴿٥١﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِقُونَ ﴿٥٢﴾ فَأُطْلِعَ قَرَاءُ فِي سَوَاءِ
الْحَجِيمِ ﴿٥٣﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرَوِّينَ ﴿٥٤﴾ وَلَوْ لَا يَمَعُهُ رَيِّ
لَكُنْتُ مِنَ الْمَحْضَرِينَ ﴿٥٥﴾ أَفَمَا عَنْ بَيْتَيْنِ ﴿٥٦﴾ إِلَّا مَوْنَنَا
الْأَوَّلُ وَمَا عَنْ مَعْدِيَيْنِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ هَذَا الْقَوْمَ الْعَظِيمَ ﴿٥٨﴾
لِيُثَلَّ هَذَا فَاثْمَعِ الْعَمَلُونَ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ خَيْرٌ زَلًّا أَمْ شَجَرَةً
الزَّقُومِ ﴿٦٠﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ مِنْ أَصْلِ الْحَجِيمِ ﴿٦٢﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٣﴾
فَأَنَّهُمْ لَا يَكُونُ فِيهَا قِبَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ
عَلَيْهَا أَشْوَاقًا مِنْ حَبِيمٍ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَجِيمِ ﴿٦٦﴾
إِنَّهُمْ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ فَهُمْ عَلَى آثَرِهِمْ يَهْرَوْنَ ﴿٦٨﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ بِقُلُوبِهِمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ
مُنْذِرِينَ ﴿٧٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧١﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٢﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَعْمَلْ
الْمُجِيبُونَ ﴿٧٣﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

﴿٥٠﴾ - ﴿٥١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا التساؤل الذي بين أهل الجنة هو تساؤل راحة وتنعم، يتذكرون أمورهم في الجنة وأمر الدنيا وحال الطاعة والإيمان فيها، فأخبر تعالى عن قول قائل منهم في قصته، فهو مثال لكل من له قرين سوء، ويعطي هذا المثال التحفظ من قرنائه السوء، واستشعار معصيتهم، وعبر عن قول هذا الرجل بالمضي من حيث كان أمراً متيقناً حاصلًا لا محالة. فقال ابن عباس

وغيره: كان هذا من البشر مؤمن وكافر، وقالت فرقة: هما اللذان ذكر الله في قوله: ﴿يَتَنَبَّأُ لَرَأَيْتُمْ أَفْعَدَّ﴾، وقال مجاهد: كانا إنسيًا وجنّيًا من الشياطين الكفرة، والأول أصوب. وقرأ الجمهور: ﴿لَيْنَ الْمَصْدِقِينَ﴾ بتخفيف الصاد، من التصديق، وقرأت فرقة بالتشديد للصاد، من التصدق.

وقال قُراث بن ثعلبة البهراني في قصص هذين: إنهما كانا شريكين بشمانيّة آلاف دينار، فكان أحدهما يعبد الله ويقصّر من التجارة والنظر، وكان الآخر كافرًا مُقْبِلًا على ماله، فحلّ الشركة مع المؤمن وبقي وحده لتقصير المؤمن، ثم إنه جعل كلما اشترى شيئاً - من دارٍ وجارية وبستان ونحوه - عَرَضَهُ على المؤمن وفَخَّرَ عليه، فيمضي المؤمن عند ذلك

وأما قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ بِيضٌ مَكْنُونٌ﴾ فقد اختلف الناس - ما هو؟ فقال السدي، وابن جُبَيْر: شبه ألوانهن بلون قشر البيضة الداخلي، وهو الغِرْقِيُّ، وهو المكنون، أي: المصون في كِنٍ، ورجّحه الطبري، قال: وأما خارج قشر البيضة فليس بمكنون، وقال الجمهور: شبه ألوانهن بلون قشر بيض النعام، وهو بياض قد خالط صفرة حسنة، قالوا: والبيض نفسه في الأغلب هو المكنون بالريش، ومتى شدّت به حال فلم يكن مكنوناً خرج عن أن يُشَبَّه به، وهذا قول الحسن، وابن زيد، ومنه قول امرئ القيس:

كَبُرَ الْمَقَانَةُ الْبَيَاضُ بِصَفَرَةٍ
غَذَاهَا نَجِيرُ الْمَاءِ غَيْرَ الْمُحَلَّلِ

وهذا المعنى كثير في أشعار العرب. وقال ابن عباس رضي الله عنهما - فيما حكى الطبري -: البيضُ المكنون أراد به الجوهر المصون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأنه تردّه اللفظة من الآية.

وقالت فرقة: إنما شبههنّ بالبيض المكنون تشبيهاً عاماً، جملة المرأة بجملة البيضة، وأراد بذلك: تناسب أجزاء المرأة، وكل جزء منها ينسبته في الجودة إلى نوعه نسبة الآخر من أجزائها إلى نوعه، فنسبة شعرها إلى عينها مستوية إذ هما غاية في نوعيهما، والبيضة أشد الأشياء تناسب أجزاء؛ لأنك من حيث جنتها فالنظر واحد.

ويتصدق بنحو ذلك الثمن ليشتري به من الله في الجنة، فكان في أمرهما في الآخرة ما تضمنته هذه الآية. قال الطبري: وهذا الحديث يؤيد قراءة التشديد. و﴿مِنَ الْمَصْدِقِينَ﴾ معناه: مجازون محاسبون، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي. والذين: الجزاء، وقد تقدم.

﴿٥١﴾ - ﴿٥٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

في الكلام حذف تقديره: فقال لهذا الرجل حاضروه من الملائكة: قرينك هذا في جهنم يُعَذَّبُ، فقال عند ذلك: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِقُونَ﴾. ويحتمل أن يخاطب بـ ﴿أَنْتُمْ﴾ الملائكة، ويحتمل أن يخاطب رفقاءه في الجنة، ويحتمل أن يخاطب خَدَمَتَهُ، وكل هذا حكى المهدوي، وقرأ الجمهور: ﴿مُطْلِقُونَ﴾ بفتح الطاء مشددة، وقرأ أبو عمرو - في رواية

حسين - بسكونها مع فتح النون، وقرأ أبو البرهم بسكونها وكسر النون على أنها ضمير المتكلم، وزد هذه القراءة أبو حاتم وغيره ولحسوها؛ وذلك أنها جمعت بين نون الإضافة ونون المتكلم، والوجه أن تقول: «مُطْلِعِي»، ووجه القراءة أبو الفتح ابن جني وقال: أنزل الفاعل منزلة الفعل المضارع، وأنشد الطبري على هذا:

وَمَا أَذْرِي وَظَلَمِي كُلُّ ظَلَنٍ
أَسْأَلُكَ إِلَى قَوْمِي شَرَّاجِي؟
قال الفراء: يريد: شراحيل.

وقرأ الجمهور: «فَأَمَّلَ» موصولة الألف مشددة الطاء المفتوحة، وقرأ أبو عمرو في رواية الحسين بضم الألف وسكون الطاء خفيفة وكسر اللام، وهي قراءة أبي البرهم. قال الزجاج: هي قراءة من قرأ: «مُطْلِعُونَ» بكسر النون، وزوي أن لأهل الجنة كوى وطاقت يشرفون منها على أهل النار إذا شاءوا على جهة النعمة والعبرة؛ لأن لهم في عذاب أهل النار وتوبيخهم سروراً وراحة، حكاه الرماني عن أبي علي.

و «سَوَاءُ الْجَحِيمِ» وسطه، قاله ابن عباس، والحسن، والناس، وسُمِّي بسواء الجحيم لاستواء المسافة منه إلى الجوانب، والجحيم متراكم جمر النار، وزوي عن مطرف بن عبدالله، وخُلَيْدِ الْعَصْرِيِّ أنه رآه قد تَغَيَّرَ جَبَرُهُ ومِيزُهُ، أي: تبدلت حاله، ولولا ما عرفه الله إِيَّاهُ لم يميزه، فقال له المؤمن عند ذلك: «تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لَتَزِينَنَّ»، أي: تهلكني بإغوائك،

والردي: الهلاك، ومنه قول الأعشى:

أَفَى الطُّوفِ جَفَتْ عَلَى الرَّدَى
وَكَمْ مَنْ رَدَّ أَهْلَهُ لَمْ يَرْمِ
وفي مصحف ابن مسعود: «إِنْ كِدْتُ لَتُغْوِينَ» بالواو، من الغي، وذكرها أبو عمرو الداني بالراء، من الإغراء، والشاء في هذا كله مضمومة.

ورفع «يَقْمَةُ رَبِّي» بالابتداء، وهو إعراب ما كان بعد (لولا) عند سيبويه، والخبر محذوف تقديره: تداركته ونحوه، و«الْمُحْضَرِّينَ» معناه: في العذاب.

وقول المؤمن: «أَفَنَّا نَحْنُ بِمَبِيتَيْنِ» إلى قوله: «وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ» يحتمل أن يكون مخاطبة لرفقائه، لما رأى ما نزل بقرينه ونظر حاله في الجنة وحال رفقائه قَدَّرَ النعمة قدرها، فقال لهم - على جهة التوقيف - ما قال، ويجيء - على هذا التأويل - قوله: «إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَوْرِ الْأَعْظِمِ» وما بعده متصلاً بكلامه، خطاباً لرفقائه. ويحتمل أن تكون «أَفَنَّا نَحْنُ» إلى قوله: «بِمُعَذِّبِينَ» مخاطبة لقرينه على جهة التوبيخ، كأنه يقول: أين الذي كنت تقول من أننا نموت وليس بعد الموت عقاب ولا عذاب؟ ويكون قوله تعالى: «إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَوْرِ الْأَعْظِمِ» إلى قوله: «فَلَيَمْلِكُ الْغَمَلُونَ» يحتمل أن يكون من خطاب المؤمن لقرينه، وإليه ذهب قتادة، ويحتمل أن يكون من خطاب الله تعالى لمحمد ﷺ وأُمَّته، وتقوى هذا لأن قول المؤمن: «لِيُنْزِلَ

هَذَا فَلَيَمْلِكُ الْغَمَلُونَ» والآخرة ليست بدار عمل - يَفْلُقُ إِلَّا عَلَى تَجَوُّزٍ، كأنه يقول: لمثل هذا كان ينبغي أن يعمل العاملون.

٦٢ - ٦٣ (٧٠) تفسير قوله عز وجل: الألف من قوله تعالى: «أَذَلَّكَ» للتقرير، والمراد تقرير قریش والكفار، وجاء «خَيْرٌ نُزْلًا» بلفظ التخيير بين شيئين لا اشتراك بينهما من حيث كان الكلام تقريراً، والاحتجاج يقتضي أن يوقف المتكلم خصمه على قسمين أحدهما فاسد، ويحملة بالتقرير على اختيار أحدهما، ولو كان الكلام خبراً لم يَجُزْ ولا أفاد أن يقول: الجنة خير من شجر الزقوم. وأما قوله تعالى: «خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا» فهذا على اعتقادهم في أن لهم مُسْتَقَرًّا خيراً، وقد تقدم إيعاب هذا المعنى. وفي بعض البلاد الجدية المجاورة للصحاري شجرة مُرَّة مسمومة لها لبن إن مس جسم أحد تورم ومات منه في أغلب الأمر، تُسَمَّى شجرة الزقوم، والتزقم في كلام العرب: البلع على شدة وجهه.

وقوله تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَاهَا قِشَّةً لِّلظَّالِمِينَ»، قال قتادة، ومجاهد، والسدي: يريد أبا جهل ونظراً، وذلك أنه لما نزلت الآية قال الكفار: وكيف يخبر محمد عن النار أنها تُنبت الأشجار وهي تأكلها وتذهبها؟ ففتنوا بذلك أنفسهم وجهلة أتباعهم، وقال أبو جهل: إنما الزقوم الثمر بالزبد، ونحن نترقمه. وقوله: «وَإِنْ أَصْلَ الْجَحِيمِ» يعني ملاصق أساسها الذي لها كالجدران، وفي قراءة ابن

مسعود: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَابِتَةٌ فِي أُصْلِ الْجَحِيمِ﴾.

قوله: ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾^(٧١) اختلف الناس في معناه - فقالت فرقة: شُبّه بشجر شجرة معروفة يقال لها: رُءُوس الشياطين، وهي بناحية اليمن، يقال لها: أشتن، وهي التي ذكر النابغة في قوله:

.... من أشتن سود أسافلُهُ

ويقال: إنه الشجر الذي يقال له: الصُوم، وهو الذي يعني ساعدة بن جؤيّة في قوله:

مُوَكَّلٌ بِشُدُوفِ الصُّومِ يَرْقُبُهَا
مِنَ الْمَغَارِبِ مَخْطُوفَ الْحَشَا زَرِمٌ

وقالت فرقة: شبه برؤوس صنف من الحيات يقال له: الشياطين، وهي ذات أعراف، ومنه قول الشاعر:

عَنْجَرَةٌ تَخْلِفُ جَيْنَ أَخْلَفُ
كَمِثْلِ شَيْطَانِ الْحَمَاطِ أَعْرَفُ

وقالت فرقة: شبه بما استقر في النفوس من كراهة رؤوس الشياطين وقُبْحها وإن كانت لم تُز، وهذا كما تقول للأشعث المتفتش الشعر الكريه المنظر: هذا وجه شيطان، ونحو هذا قول امرئ القيس الكندي:

أَيْشَتُلْنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي
وَمَسْئُونَةُ زُرُقٍ كَأَنْيَابِ أَغْوَالٍ؟
فإنما شبه بما استقر في النفوس من هيتها.

و «الشُّوبُ»: المزج والخلط، قاله ابن عباس، وقتادة. وقرأ شيبان النحوي بضم الشين، قال الزجاج: فَتَحُّهَا الْمَضْدَرُ وَضَمُّهَا الْإِسْمُ.

و «الحميم»: السخن جداً من الماء ونحوه، وقد يريد به ها هنا شرايبهم الذي هو طينة الخبال وما ينماع منهم، هذا قول جماعة من المفسرين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ﴾^(٧٢) يحتمل أن يكون لهم انتقال أجساد في وقت الأكل والشرب ويرجعون إلى معظم الجحيم، ذكره الرمانى، وشبّهه بقوله تعالى: ﴿يَطْوُونَ يَنبَاءَ وَبَيْنَ جَبِينِ آتُونَ﴾^(٧٣)، ويحتمل أن يكون الرجوع إنما هو من حال ذلك الأكل الممّذب إلى حال

الاحتراق دون أكل، وبكل احتمال قيل. وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَأَنْ تُثَقِّلَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾، وفي كتاب أبي حاتم عنه: «مَقِيلُهُمْ»، من القائلة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلَقَوْا﴾^(٧٤) إلى آخر الآية تمثيل لقريش، و «يَهْرَعُونَ»، قال قتادة، والسدي، وابن زيد: معناه: يسرعون كأنهم يساقون بِعَجَلَةٍ، وهذا تكسبهم للكفر وحرصهم عليه، والإهرأع: سُرُ شديد، قال مجاهد، كهينة الهرولة وفيه شبه رعدة، وكأنه أيضاً سير الفارغ.

(٧١) - (٧٩) تفسير قوله عز وجل:

مَثَلُ تَعَالَى لِقَرِيشٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْأُمِّ الَّتِي ضَلَّتْ قَدِيمًا، وَجَاءَهَا الْإِنْدَارُ، وَأَهْلَكَهَا اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هَرَبًا ۚ فَبَيْنَ أَفْوَانٍ ۚ وَرَكَعًا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۚ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۚ إِنَّكَ لَكَذَلِكَ بِمُحْسِنِ الْمُحْسِنِينَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۚ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۚ وَكَانَ مِنْ شِيعَتِهِ لِبَرْهَمٍ ۚ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۚ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۚ أَفَبِكُلِّ عِلْقٍ ذَرْأَةٍ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۚ قُلْ فَلِمَ كَرِهَ الْغَالِيُونَ ۚ فَظَنُّوا نَظْرَهُ فِي الشُّجُورِ ۚ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۚ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۚ وَرَأَى إِلَهُ الْهَيْمَمِ ۚ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۚ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ۚ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صُرُفًا بِالْأَيْمَنِ ۚ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِيضُونَ ۚ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُبُونَ ۚ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۚ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۚ فَرَأَاهُ بِكَيْدٍ جَعَلَتْهُمْ أَلسْفِلِينَ ۚ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ۚ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۚ فَتَسْتَأْذِنُهُ بَعْلُكَ سَلِيمٌ ۚ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَتَّى إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ آيَاتِ بِحُكْمٍ ۚ فَانْظُرْ مَا ذَرَأْتِ ۚ قَالَ يَتَابِعُ أَقْفَلُ مَا تَوَمَّرَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ۚ

الَّذِينَ ۚ يقتضي الإخبار بأنه عذبهم، ولذلك حسن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾.

ونداء نوح عليه السلام قد تضمن أشياء: منها الدعاء على قومه، وسؤال النجاة، وطلب الثمرة، وفي جميعها وقعت الإجابة. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَتِمَّ الْوَعْدُ﴾ يقتضي الخبر بأن الإجابة كانت على أكمل ما أراد نوح عليه السلام. و «الْكُرْبُ الْعَظِيمُ»، قال السدي: هو الغرق، ومن الكرب تكذيب الكفرة، وركوب الماء وهوله، قال الرمانى: الكرب: الخبر الثقيل على القلب.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هَرَبًا ۚ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة: أهل الأرض كلهم من ذرية نوح، وقال الطبري: العرب من أولاد سام،

والسودان من أولاد حام، والشرك والصُّفْلِب وغيرهم من آل يافث. وروي عن سُمرة بن جندب أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «سام وحام ويافث»، وقالت فرقة: إن الله أبقى من ذرية نوح، ومَدَّ نسله، وبارك في ضِئْضِئِهِ، وليس الأمر أن أهل الدنيا انحصروا إلى نسله، بل في الأمم من لا يرجع إليه، والأول أشهر عن علماء الأمة، وقالوا: نوح هو آدم الأصغر.

وقوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ معناه: ثناء حسناً جميلاً باقياً آخر الدهر، قاله ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي، وقوله: ﴿سَلَّمَ﴾ - على هذا التأويل - رفع بالابتداء مستأنف، سلم الله به عليه ليقندي بذلك البشر، قاله الطبري: هذه أمة لنوح في العالمين أن يذكره أحد بسوء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا جزاء ما صبر طويلاً على أقوال الكفرة الفجرة.

وقال الفراء وغيره من الكوفيين: قوله: ﴿سَلَّمَ﴾ الآية، جملة في موضع نصب بـ ﴿رَكْنَا﴾، وهذا هو المتروك عليه، فكأنه قال: وتركنا على نوح تسليماً، يُسَلِّم عليه إلى يوم القيامة، وفي قراءة عبدالله: ﴿سَلَاماً﴾ نصباً بـ ﴿اتْرَكْنَا﴾، صلى الله على نوح وعلى آله وسلم تسليماً، وشرف وكرم، وعلى جميع أنبيائه.

و ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ معناه: في الباقين غابر الدهر، والقراءة بكسر الخاء، وما كان من إهلاكه فهو بفتحها.

٨٠ - ٨١ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ إشارة إلى إنعامه على نوح بالإجابة كما اقترح، وأثنى تعالى على نوح بالإحسان لصبره على أذى قومه ومطاولته لهم، وغير ذلك من عبادته وأفعاله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ يقتضي أنه أغرق قوم نوح وأمنته ومكذبيه، وليس في ذلك نص على أن الغرق عم جميع أهل الأرض، لكن قد قال به جماعة من العلماء، وأسندت به أحاديث أنه لم يبق إلا من كان معه في السفينة، وعلى هذا يترتب القول بأن الناس اليوم من ذريته، وقالوا: لم يكن الناس يومئذ بهذه الكثرة؛ لأن عهد آدم عليه السلام كان قريباً، وكانت دعوة نوح عليه السلام ونبوته قد بلغت جميعهم لطول المدة واللبث فيهم، وكان الجميع كفرة عبدة أوثان لم ينسبهم الحق إلى نفسه، فلذلك أغرق جميعهم.

قوله تعالى: ﴿مِنْ شَيْعَةٍ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي: الضمير عائد على نوح عليه السلام، والمعنى: في الدين والتوحيد، وقال الطبري وغيره عن الفراء: الضمير عائد على محمد ﷺ، والإشارة إليه. وذلك كله محتمل؛ لأن «الشيعه» معناها: الصنف الشائع الذي يشبه بعضه بعضاً، والشَيْخ: الفرق، وإن كان الأعرف أن المتأخر في الزمن هو شيعة للمتقدم، ولكن قد يجيء في الكلام عكس ذلك، قال الشاعر:

وَمَالِي إِلَّا آلَ أَخْمَدَ شَيْعَةً
وَمَالِي إِلَّا مُشْعَبَ الْحَقِّ مُشْعَبٌ
فجعلهم شيعة لنفسه، وقوله: ﴿يَقْلِبْ سَلِيلَ﴾، قال المفسرون: يريد: من الشك والشرك وجميع النقاص التي تلحق قلوب بني آدم كالغل والحسد والكبر ونحوه، قال عروة بن الزبير: لم يلعن شيئاً قط.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ الْإِلَهُ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾، ﴿أَلَيْسَ﴾ استفهام بمعنى التقرير، أي: أكذباً ومُحالاً آلهة دون الله تريدون؟ ونصب ﴿الْإِلَهُ﴾ على البدل من [إفكاً]، وسهلت الهمزة الأصلية من الإفك. ﴿فَمَا تَكْفُرُ﴾ توبيخ وتحذير وتوعذ.

ثم أخبر تعالى عن نظرة إبراهيم عليه السلام في النجوم، روي أن قومه كان لهم عيد يخرجون إليه، فدعوا إبراهيم عليه السلام للخروج معهم، فنظر حينئذ واعتذر بالسقم، وأراد البقاء خلافهم إلى الأصنام، وقال ابن زيد، عن أبيه: أرسل إليه ملكهم أن غداً عيد فاحضر معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال: إن هذا يطلع مع سقمي، فقالت فرقة: معنى ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أي: فيما نجم إليه من أمر قومه وحاله معهم، وقال الجمهور: نظر في نجوم السماء، وروي أن علم النجوم كان عندهم منظوراً فيه مُستَعْمَلاً، فأوهمهم هو من تلك الجهة، وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يُحتاج فيهما إلى نظر في النجوم.

واختلف في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ -

فقال فرقة: هي كذبة في ذات الله، أخبرهم عن نفسه أنه مريض، وأن الكوكب أعطاه ذلك، قال ابن عباس وغيره: أشار لهم إلى مرض وسقم يُعدي كالطاعون، ولذلك تَوَلَّوْا مُذْبِرِينَ، أي: فَارِضِينَ منه. وقال بعضهم: بل تَوَلَّوْا مُذْبِرِينَ لكفرهم به واحتقارهم لأمره، وعلى هذا التأويل - في أنها كذبة - يجيء الحديث: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ كَعَلَ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله في سارة: هي أختي».

وقالت فرقة: ليست بكذبة، ولا يجوز الكذب عليه، ولكنها من المعارض، أخبرهم بأنه سقيم في المال، أو على عرف ابن آدم؛ لأن ابن آدم لا بُدَّ أن يسقم ضرورة. وقيل - على هذا - أراد: إني سقيم النفس من أموركم وكفركم، فظهر لهم من كلامه أنه أراد سقماً بالجسم حاضراً، وهكذا هي المعارض. وهذا التأويل لا يردُّه الحديث وذكر الكذبات؛ لأنه قد يقال لهذا كَذِبٌ على الاتساع بحسب اعتقاد المخبر والكذب الذي هو قصد قول الباطل والإخبار بصدق ما في النفس بغير منفعة شرعية هو الذي لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(٩١) - (٩٨) تفسير قوله عز وجل:

«رَأَى مَعْنَاهُ: مَالٌ، ومنه قول علي بن زيد:

خَبِثَ لَا يَنْفَعُ الرَّيَاحُ وَلَا يَنْتَفِعُ إِلَّا الْمَصَادِقُ التَّخْرِيرُ وقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ هو على جهة الاستهزاء بِعَبْدَةِ تلك الأصنام، ورُوي

أن عبادتهم كانت ترك الطعام في بيوت الأصنام، ويعتقدون أنها تصيب منه شميماً، ونحو هذا من المعتقدات الباطلة، ثم كان خدمة البيت يأكلونه. فلما دخل إبراهيم عليه السلام وقف على الأكل والنطق والمخاطبة للأصنام بقصد الاستهزاء بعباديتها، ثم مال عند ذلك إلى ضرب تلك الأصنام بفأس حتى جعلها جُذَازاً.

واختلف في قوله: ﴿بِالْيَمِينِ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يُعْنَى يديه، وقيل: أراد: بِقُوَّتِهِ؛ لأنه يجمع يديه بالفأس، وقيل: أراد بيمين القسم في قوله: ﴿وَتَأَلَّوْا لَآكِيدَ الْأُنْتُكِرِ﴾، و﴿سَرَّارٍ﴾ نصب على المصدر بفعل مضمَر من لفظه، وفي مصحف عبدالله: ﴿صَفْقًا بِالْيَمِينِ﴾. والضمير في قوله: ﴿فَأَقْبَلُوا﴾ لكفار قومه، وقرأ الجمهور: ﴿يَرْفُونَ﴾ بفتح الياء، من: رَفَّ إذا أَسْرَعَ، وزُفَّت الإبل إذا أَسْرَعَتْ، ومنه قول الفرزدق:

فَجَاءَ قَرِيبُ السَّوْلِ قَبْلَ إِقَالِهَا
يَرْفُ وَجَاءَتْ خَلْفَهُ وَهِيَ رُفْفُ
ومنه قول الهذلي:

وَرَفَّتِ السَّوْلُ مِنْ بَرْدِ الْعِشِيِّ كَمَا
رَفَّتِ السُّعَامُ إِلَى حَفَائِهِ الرُّوْحُ
وقرأ حمزة وحده: ﴿يَرْفُونَ﴾ بضم الياء، من: أَرَفَّ إذا دخل في الرِّفِيف، وليست بهمزة تعدية، هذا قول، وقال أبو علي: معناها: يحملون غيرهم على الرِّفِيف، وحكاها عن الأصمعي، وهي قراءة مجاهد، وابن وثاب، والأعمش. وقرأ مجاهد، وعبدالله بن زيد:

﴿يَرْفُونَ﴾ بفتح الياء وتخفيف الفاء من: رَفَّ يَرْفُ، وهي لغة منكرة، قال الكسائي: والفراء لا يعرفها بمعنى: رَفَّ. وقال مجاهد: الرِّفِيف: السيلان.

وذهبت فرقة إلى أن ﴿يَرْفُونَ﴾ معناه: يَتَمَهَّلُونَ في مشيهم كزفاف العروس، والمعنى أنهم كانوا على طمأنينة من أن ينال أحد ألهتهم بسوء لِعِزَّتِهِمْ، فكانوا لذلك مُتَمَهِّلِينَ، وَرَفَّ بمعنى أَسْرَعَ هو المعروف.

ثم إن إبراهيم عليه السلام قال لهم في محاوراة طويلة قد تضمنتها الآية: ﴿أَتَقْبَلُونَ مَا تَحْنُونَ﴾، أي: أتجعلون إلهاً مُعْتَمَداً شيئاً صنعتموه من عود وحجر، وعلمتموه بأيديكم؟ وأخبرهم بخبر لا يمكنهم إنكاره وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾، واختلف المتألون في قوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ - فذهب جماعة من المفسرين إلى أن [ما] مصدرية، والمعنى: وأعمالكم، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد، وذلك موافق لمذهب أهل السنة في ذلك، وقالت فرقة: هي بمعنى الذي، وقالت فرقة: [ما] استفهام، وقالت فرقة: هي نفْي، بمعنى: وأنتم لا تعملون شيئاً في وقت خلقكم ولا قبله، ولا تقدرون على شيء، والمعتزلة مضطرة إلى الزوال عن أن تجعل [ما] مصدرية.

و «الْبُتِّيَّانُ» قيل: كان في موضع إيقاد النار، وقيل: بل كان للمنجنيق الذي رمي عنه، وقد تقدم قصص نار إبراهيم عليه السلام، وجعلهم الله الْأَسْفَلِينَ بَأْنَ غَلَبُوا وَذَلُّوا ونالتهُم العقوبات.

﴿٩٩﴾ - ﴿١٠٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: إن قوله إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ كان بعد خروجه من النار، وأنه أشار بذهابه إلى هجرته من أرض بابل حيث كانت مملكة نمرود، فخرج إلى الشام، ويؤوى: إلى بلاد مصر. وقالت فرقة: إن قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ ليس مراده به الهجرة كما في آية أخرى، وإنما مراده لقاء الله بعد الاحتراق؛ لكنه ظن أن النار سيموت فيها، فقال هذه المقالة قبل أن يطرح في النار، فكأنه قال: إني سائر بهذا العمل إلى ربِّي، وهو سيهديني إلى الجنة، نحا إلى هذا المعنى قتادة، وللعارفين بهذا الذهاب تمثيل واحتجاج في الصفاء، وهو مخمّل حسن في ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ وحده، والأول أظهر في نمط الآية عما بعده؛ لأن الهداية معه تترتب، والدعاء في الولد كذلك، ولا يصح مع ذهاب الفناء.

قوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، [مِنَ] للتبعية، أي: ولدًا يكون في عداد الصالحين، وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ﴾، قال كثير من العلماء، منهم العباس بن عبدالمطلب - وقد رفعه - وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، وكعب، وعبيد بن عمير: هي البشارة المعروفة بإسحق، وهو الذبيح، وكان أمر ذبحه بالشام، وقال عطاء، ومقاتل: كان بيت المقدس، وقال بعضهم: بل بالحجاز، جاء مع ابنه على البراق، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: والبشارة التي بعد هذه في هذه الآية هي بشارة نبوته، كما قال في موسى

عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لِمَن رَّحِمْنَا آخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾، وهو كان قد وهبه له قبل ذلك، وإنما أراد النبوة، فكذلك هذه. وقالت هذه الفرقة في قول الأعرابي: «يا بن الذبيحين»: أراد إسحق، والعلم أب، وقيل: إنه أمر بذبحه بعد ما ولد له يعقوب، فلم يتعارض الأمر بالذبح مع البشارة بولده وولد ولده.

وقالت فرقة: هذه البشارة هي بإسماعيل عليه السلام، وهو الذبيح، وأمر ذبحه كان بالحجاز وبمنى، وثم رمى إبراهيم عليه السلام الشيطان بالجمرات، وقيل الكبش وسر الستن، وهذا قول ابن عباس أيضاً، وابن عمر رضي الله عنهما، وروي عن الشعبي، والحسن، ومجاهد، ومعاوية بن أبي سفيان - ورفعه معاوية إلى النبي ﷺ - ومحمد بن كعب، وبه كان أبي رضي الله عنه يقول، ويستدل بقول الأعرابي للنبي ﷺ: «يا بن الذبيحين»، ويقول عليه الصلاة والسلام: «أنا ابن الذبيحين»، يعني إسماعيل وعبدالله أباه، ويستدل بأن البشارة اقترنت من ورثته ويعقوب، فلو قال له في صباه: اذبحه، لتأقض ذلك البشارة ويعقوب عليهم السلام، ويستدل بظاهر هذه الآية أنه بشر بإسماعيل وانقض أمر ذبحه، ثم بشر بإسحق بعد ذلك، وسمعه يقول: كان إبراهيم يجيء من الشام إلى مكة على البراق زائراً ويعود من يومه. وقد ذكر ذلك الثعلبي عن سعيد بن جبير، ولم يذكر أن ذلك على البراق، وذكر القصة عن ابن إسحق وفيها ذكر

البراق كما سمعت أبي يحيى.

وذكر الطبري أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الذبيح إسماعيل، وتزعم اليهود أنه إسحق، وكذبت اليهود، وذكر أيضاً أن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه سأل عن ذلك رجلاً يهودياً كان أسلم وحسن إسلامه فقال: الذبيح إسماعيل عليه السلام، وإن اليهود تعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أن تكون هذه الآيات والفضل والله في أيكم.

و «السعي» في هذه الآية العمل والعبادة والمعونة، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. وقال قتادة: السعي على القدم، يريد سعيًا متمكنًا، وهذا في المعنى نحو الأول، وقرأ الضحاك: «معه السعي وأسرف في نفسه حزنًا»، قال: وهكذا في حرف ابن مسعود، وهي قراءة الأعمش، وقوله: ﴿إِنِّي أَرَى فِي السَّمَاءِ آتٍ أَذْهَبُكَ﴾ يحتمل أن يكون رأى ذلك بعينه، ورؤيا الأنبياء وحى، وعين له وقت الامتثال، ويحتمل أن أمر في نومه بذبحه فعبر هو عن ذلك، أي: إني رأيت في النوم ما يوجب أن أذهبك.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مَاذَا رَبِّي﴾ بفتح التاء والراء، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿مَاذَا تُرِي﴾ بضم التاء وكسر الراء، على معنى: ما يظهر منك من جلد أو جزء، وهي قراءة ابن مسعود، والأسود ابن يزيد، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، ومجاهد. وقرأ الأعمش، والضحاك بضم الياء وفتح الراء، على الفعل

والتقدير: فلما أجزنا
ساحة الحيّ أجزنا
وانتحي. وقال بعض
البصريين الجواب
محذوف، وتقديره: فلما
أسلما وتلّهُ للجبين أجزل
أجرهما، أو نحو هذا مما
يقضيه المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُ﴾
معناه: وضعه بقوة،
ومنه الحديث (تَلَّهُ)
رسول الله ﷺ في يده،
أي: وضعه بقوة، والثُلُ
من الأرض مأخوذ من
هذا، كأنه ثُل في ذلك
الموضع، و﴿لِلْجَبِينِ﴾
معناه: لتلك الجهة

المجهول. فأما الأولى فهي من رؤية
الرأي، وهي رؤية تعدى إلى مفعول
واحد، وهو - في هذه الآية - إما
[ماذا] تحملهما على أن تجعلهما
بمنزلة اسم واحد، وإما [ذا] على أن
تجعلها بمعنى الذي، وتكون [ما]
استفهاماً، وتكون الهاء محذوفة من
الصلة. وأما القراءة الثانية فيكون
تقدير مفعولها كما مر في هذه، غير
أن الفعل فيها منقول من: رأى زيد
الشيء، وأرئته إياه، إلا أنه من باب
أعطيت، فيجوز أن يقتصر على أحد
المفعولين. وأما القراءة الثالثة فقد
ضعفها أبو علي، وتنجح على
تحامل، وفي مصحف ابن مسعود
رضي الله عنه: ﴿افْعَلْ مَا أَمَرْتُ
بِهِ﴾.

﴿١٠٣﴾ - ﴿١٠٤﴾ تفسير قوله عز وجل:
قرأ جمهور الناس: ﴿آتَلَّكُمْ﴾ أي:
أنفسهما، واستسلما لله. وقرأ علي،
وعبدالله، وابن عباس، ومجاهد،
والشوري: ﴿سَلَّمَا﴾، والمعنى:
فوضا إليه في قضائه وقدره، وانحسلا
على أمره، فأسلم إبراهيم ابنه،
وأسلم الابن نفسه.

واختلف النحاة في جواب [لَمَّا] -
فقال الكوفيون: الجواب ﴿وَتَكَذَّبْتَهُ﴾
والواو زائدة. وقالت فرقة:
الجواب: ﴿وَتَلَّهُ﴾ والسواو زائدة
كزيادتها في ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ وقال
البصريون: الجواب محذوف،
تقديره: فلما أسلما سَلَّمَا وتلّهُ، هذا
قول سيبويه والخليل، وهو عندهم
كقول امرئ القيس:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى
بِنَا بَطْنَ خَبْتِ ذِي جِقَابٍ عَقَلُفَلْ

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَتَكَذَّبْتَهُ أَنْ يَبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ
صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَّاكَ تَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْ
الْبَلَاءِ الْمُؤْمِنِ ﴿١٠٦﴾ وَقَدْ بَنَيْتُهُ بِذِي عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَكَرَّمَا عَلَيْهِ فِي
الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَّاكَ تَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ
الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا
مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١١٣﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْكَرْبِ الْعَظِيمِ
﴿١١٤﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَائِزِينَ ﴿١١٥﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ
النَّبِيِّينَ ﴿١١٦﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٧﴾ وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٨﴾ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ
﴿١١٩﴾ إِنَّا كَذَّاكَ تَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّهُمَا مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنْ إِبْرَاهِيمَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٢﴾
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَأَنْتُمْ أَكْبَرُونَ بَعْدَ بَعْلَاؤِي وَتَرَكْتُ أَحْسَنَ
الْحَالَتَيْنِ ﴿١٢٣﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٤﴾

معنى: كانت عندك رؤيا صادقة حقاً
من الله، فعملت بحسبها حين آمنت
بها واعتقدت صدقها، ويحتمل أن
يزيد: صدقت بعملك ما حصل عن
الرؤيا في نفسك، كأنه قال: قد
وقَّبتا حقها من العمل، والرؤيا اسم
لما يُرى من قِبَل الله في المنام،
والحُلم اسم لما يُرى من قِبَل
الشيطان، ومنه الحديث الصحيح
«الرؤيا من الله والحُلم من الشيطان».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَّاكَ﴾ إشارة
إلى ما عمل إبراهيم، كأنه يقول: إنا
بهذا النوع من الإخلاص والطاعة
نجزي المحسنين، وقوله: ﴿إِنَّ
هَذَا﴾ يحتمل أن يشير إلى ما في
القصة من امتحان واختبار وستر
معتقد، فيكون ﴿الْبَلَاءُ﴾ - على هذا
المعنى - الاختبار بالشدة، ويحتمل
أن يشير إلى ما في القصة من سرور

وعليها، كما يقولون في المثل:
لليذين وللهم، وكما تقول: سقط
لِشِقِّهِ الأيسر، وقال ساعدة بن
جُوَيْتَةَ:

فَطَلَّ تَلِيلًا لِلْجَبِينَيْنِ
وهم ما اكتنف الجبهة من هنا
وهنا.

وروي في قصص هذه الآية أن
الذبيح قال لأبيه: اشذُ رباطي
بالحبل لئلا أضطرب، واصرف
بصرك عني لئلا ترحمني، ورُدَّ
وجهي نحو الأرض، قال قتادة: كبَّه
لِفيه وأخذ الشفرة، والثُلُ للجبين
ليس يقتضي أن الوجه نحو الأرض،
بل هي هيئة من ذُبَح للقبلة على
جنبه. وقوله: ﴿أَنْ يَبْرَاهِيمُ﴾ مفسرة
ولا موضع لها من الإعراب.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا﴾
يحتمل أن يريد: بقلبك، على

بالفدية وإنقاذ من تلك الشدة في إنقاذ الذبح، فيكون البلاء بمعنى النعمة، وإلى كل احتمال قد أشارت فرقة من المفسرين، ورؤي في الحديث أن الله تعالى أوحى إلى إسحاق أني قد أعطيتك بصبرك لأمرى دعوة أعطيك فيها ما سألت، فسألني، فقال: يا رب أئتما عبد لقيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئاً فأدخله الجنة.

والضمير في ﴿وَدَّيْنَهُ﴾ عائد على الذبيح، والذبيح اسم لما يذبح، ووصفه بالعظم لأنه مُتَقَبَّلٌ يقيناً، قاله مجاهد، وقال عمرو بن عبيد: الذبيح الكبش، والعظيم يجزي السنة به وكونه ديناً باقياً آخر الدهر، وقال الحسن بن الفضل: عظيم لأنه من عند الله كان، وقال أبو بكر الوراق: لأنه لم يكن عن نسل بل عن التكوين، وروي عن ابن عباس، وابن جبير أن كونه عظيماً هو أنه من كباش الجنة رعى فيها أربعين خريفاً، وقال ابن عباس: هو الكبش الذي قُرب ولد آدم، وقال ابن عباس، والحسن: كان غلاً أهبط عليه من ثبير، وقول الجمهور: إنه كبش أبيض أقرون أعين وجده ورأه مربوطاً بِسُمُرة، وروي أنه انفلت فأتبعه ورماه بحصيات في مواضع الجمرات، فبذلك مضت السنة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: رجم الشيطان عند جمرة العقبة وغيرها، وقد تقدم هذا، وأهل السنة على أن هذه القصة تُسخ في العزم على الفعل، والمعتزلة تقول: إنه لا يصح نسخ إلا بعد وقوع الفعل،

وافترقت في هذه الآية على فرقتين: فقالت فرقة: وقع الذبح والتأم بعد ذلك، وهذا كذب صراح، وقالت فرقة منهم: بل كان إبراهيم لم ير في منامه إلا إمرار الشفرة فقط فظن أنه ذبح مجهز، فنفذ لذلك، فلما وقع الذي رآه وقع النسخ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا لا اختلاف أن إبراهيم أمر الشفرة على حلق ابنه فلم تقطع.

ورؤي أن صفحة نحاس اعترضته بحرفها، والله أعلم كيف كان، فقد كثر الناس في القصص بما صحته معدومة فاختصرته. وقد تقدم تفسير مثل قوله: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ معناه: بمثل هذا الفعل، وباقي الآية بين.

ويمما يستغرب في هذه الآية أن عُبيد بن عمير قال: ذبح في المقام، وذكر الطبري عن جماعة لم يُسمها أنها قالت: كان الأمر وإراعة الذبح، والقصة كلها بالشام، وقال الجمهور، ذبح بمنى، وقال الشعبي: رأيت قُرْنِي كبش إبراهيم معلقين في الكعبة.

﴿١١٧﴾ - ﴿١١٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

من قال إن الذبيح هو إسماعيل جعل هذه البشارة بولادة إسحق، وهي البشارة المترددة في غير ما سورة، ومن جعل الذبيح إسحق جعل هذه البشارة لنفس النبوة فقط.

والمة على موسى وهارون هي في النبوة وسائر ما جرى معها من مكانتهما عند الله، والكَرْبُ العظيم هو تعبد القبط لهم، ثم جيش فرعون

حين قالت بنو إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُذْرَكُونَ﴾، ثم البحر بعد ذلك، والضمير في ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ عائد على الجماعة المتقدم ذكرها، وهم موسى وهارون وقومهما. وقال قوم: أراد موسى وهارون عليهما السلام ولكن أخرج ضميرهما مخرج الجمع تفخيماً، وهذا ما تفعله العرب، تكني عن ثَقَطَم بكناية الجماعة. والكتاب المستين: التوراة.

﴿١١٩﴾ - ﴿١٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

«الصراف المستقيم» يريد به في هذه الآية طريق الشرع والنبوة المؤدي إلى الله تعالى، وقد تقدم القول في مثل قوله: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ.

وإلياس نبي من أنبياء الله تعالى، قال قتادة، وابن مسعود: هو إدريس عليه السلام، وقال الطبري: هو إلياس بن ياسين، بن فنحاص، بن العيزار، بن هارون، بن عمران. وقالت فرقة: هو من ولد هارون عليه السلام. وقرأ جمهور القراء: ﴿وَلِإِسْهَاقَ﴾ بهمزة مكسورة، وهو اسم، وقرأ ابن عامر، وابن محيصن، وعكرمة، والحسن، والأعرج: ﴿وَلِإِسْهَاقَ﴾ بغير همز وبصلة الألف، وهذا يتجه على أحد وجهين: إما أن يكون حذف الهمزة، كما حذفها ابن كثير في قوله: ﴿إِنَّا لَنُحْدِي إِلَيْكَ﴾، أراد: لإحْدَى، فنزل المنفصل منزلة المتصل، كما قد ينزل في كثير من الأمور، وإما أن يجعلها الألف التي تصحب اللام للتعريف، كالتيسع، وفي مصحف

فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُّخْضَرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَا عِبَادَ إِلَّا لِلّٰهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٢٧﴾ وَإِنْ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٢٨﴾ وَكَانَ آتِيَهُ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكْ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَلَيْسَ لَوْطَا
لِّمَنِ الْمَرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُ وَأَهْلُهُ أَجْمَعُونَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا جَعَزَا
فِي الْعَذَابِ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِذْ كُنَّا لَمَكْرُومٍ عَلَيْهِمْ
مُّصِيبِينَ ﴿١٣٧﴾ وَإِلَّا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنْ يُؤْمِنُ لَيْسَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفَالِكِ الْأَشْخَرُونَ ﴿١٤٠﴾ فَخَاسَمَهُمْ فَكَانَ
مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْقَمَّةَ الْخَوْتُ وَهُوَ لَيْلٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾
فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْنَيْنَاهُ شَجَرَةً
مِّن يَّقُوتٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مَادَّةٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾
فَقَاتُوا أَفْتَنَهُمُ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتَاهُ الزُّبُرُ الْبَنَاتُ
وَلَهُمُ الْبُتُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَكَيْنِ كَذِبًا وَأَنَا نَسَىٰ
شَهَادَتَهُمَا ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ أَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَّ
اللَّهُ وَلَهُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَغَىٰ الْبَنَاتُ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١٥٣﴾

مسعود، والأعمش:
﴿وَإِنْ إِبْرَاهِيمَ لَمِمَّنْ
الْمُرْسَلِينَ﴾ و﴿سَلَامٌ عَلَىٰ
إِبْرَاهِيمَ﴾، وهي لغة في
(إذريس) كإبراهيم
وإبراهيم.

وقوله: ﴿أَنذَعُونَ﴾ معناه:
أتعبدون؟ و﴿الْبَغْلُ﴾: الرُبُّ
بلغة اليمن، قاله عكرمة،
وقتادة. وسمع ابن عباس
رضي الله عنهما رجلاً
يَتَشَدُّ ضَالَةً، فقال له آخر:
أنا بَغْلُها، فقال ابن
عباس: الله أكبر ﴿أَنذَعُونَ
بَعْلًا﴾. وقال الضحاك،
وابن زيد، والحسن:

البَغْلُ اسم صنم كان لهم،

ويقال له: بَغْلُ بَكْ، وإليه نَسَبُ
النَّاسِ، وذكر ابن إسحق عن فرقة أن
﴿بَعْلًا﴾ اسم امرأة كانت أَتَتْهُمْ
بضلالة. وقوله: ﴿أَخْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾
من حيث قيل للإنسان على التجوز:
إنه يخلق، وجب أن يكون تعالى
أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ؛ إِذْ خَلَقَهُ اخْتِرَاعَ
وإيجاد من عدم، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ
مجاز، كما قال الشاعر:

وَلَأَنْتَ تُفَرِّي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ
ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يُفَرِّي
﴿١٢٦﴾ - ﴿١٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم
بنصب الجميع على البدل من قوله:
﴿أَخْسَنُ﴾، وقرأ الباقون وعاصم
أيضاً برفعهم على القطع
والاستئناف. والضمير في ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾
عائد على قوم إيلياس. و﴿مُخْضَرُونَ﴾
معناه: مجموعون لعذاب الله، وقد

أَبَىٰ بن كعب: ﴿وَإِنْ إِبْرَاهِيمَ﴾ بِالْف
مكسورة وياء ساكنة بعدها وسين
مفتوحة، وكذلك فيه: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ
إِبْرَاهِيمَ﴾، وقرأ نافع، وابن عامر،
﴿سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾، وقرأ
الباقون: ﴿عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾ بِالْف
مكسورة ولام ساكنة، وجعلها
الحسن، وأبو رجاء موصولة، فوجه
الأولى أنها - فيما يزعمون - مفصولة
في المصحف، فدل ذلك على أنها
بمعنى (أهل)، و (ياسين) اسم أيضاً
لإيلياس، وقيل: هو اسم
لمحمد ﷺ، وَوَجْهُ الثَّانِيَةُ أَنَّهُ جُمِعَ
إِلْيَاسِي، كما قالوا: أَعْجَمِي
وَأَعْجَمِيُون، قال أبو علي:
والتقدير: إِلْيَاسِيْن، فحذف كما
حذف من أَعْجَمِيْن، ومن الأشعرين
والتَّمِيرِيْن والمُهَلَّبِيْن، ونحوه.
وحكى أبو عمرو أن منادياً نادى يوم
الكلاب: هلك البيزidon وَيُزَوَّى قول
الشاعر:

قَدْ بَنَيْتُ مِنْ نَضْرِ الْخُبَيْبِيْن قَيْدِي

.....

بكسر الباء الثانية، نسبة إلى أبي
خُبَيْب. ويقال: سُمِّي كل واحد من
آلِ إِبْرَاهِيمَ إِلْيَاس، كما قالوا: شابت
مفارقة، فُسْمِي كل جزء من المَفْرُقِ
مَفْرُقًا، ومنه قولهم: «جَمَلَ دُو
عَنَانِي»، وعلى هذا أَشَدُّ ابْنِ جُنِّي:

مَرَّتْ بِنَا أَوَّلَ مِن أُمُوسِ
تَمِيْسُ فِينَا مِشْيَةَ الْعُرُوسِ
فسمي كل جزء من أُمُسِ أُنْسًا، ثم
جَمَعَ. وقال أبو عبيد: لم يُسَلِّمْ على
آلِ أحد من الأنبياء المذكورين قَبْلُ،
فلذلك تُرْجِعُ قِرَاءَةً من قرأ: ﴿إِلَ﴾
إِذْ هُوَ اسْمٌ وَاحِدٌ لَهُ. وقرأ ابن

تقدم تفسير مثل ما بقي من الآية،
وتقدم أيضاً القول في قوله تعالى:
﴿سَلَّمَ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾.

ولوط، قيل: هو ابن أخته، وقد
تقدمت قصته بكاملها، وامرأته هي
العجوز المَهْلَكَةُ، وكانت كافرة، فإما
كانت مستترَةً منه وإما كانت مُغْلَنَةً،
وكان نكاح الوثنيات والإقامة عليهم
جائزاً، و﴿الْعَابِرُونَ﴾: الباقون، بقي،
ومعناه ها هنا: بقيت في الهلاك.

ثم خاطب الله تعالى قريشاً، أو هو
على معنى: قُلْ لهم يا محمد:
وإنكم لتمرؤن عليهم في الصباح
وبالليل، فواجب أن يقع اعتباركم
ونظركم، ثم ويخبرهم بقوله: ﴿أَفَلَا
تَعْقِلُونَ؟﴾

﴿١٢٦﴾ - ﴿١٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هو يونس بن متى عليه السلام، وهو
من بني إسرائيل، روي أنه تنبأ ابن

ثمانية وعشرين سنة فتفسخ تحت أعباء النبوة كما يفسخ الربع تحت الحمل، وقد تقدم شرح قصته، ولكن نذكر منها ما يتفهم به هذه الألفاظ.

فروى أن الله تعالى بعثه إلى قومه، فدعاهم مرة فخالفوه فوعدهم بالعذاب، وأعلمه الله تعالى بيوم العذاب فحذّده لهم يونس، ثم إن قومه لما رأوا مخايل العذاب قبل أن يباشروهم تابوا وآمنوا فتاب الله عليهم وصرف العذاب عنهم، وكان في هذا تجربة ليونس عليه السلام، فلحقت بيونس غصبة، ويروى أنه كان في سيرتهم أن يقتلوا الكذاب إذا لم تقم له بيّنة، فخافهم يونس وغضب مع ذلك، فأبقي إلى الفلك، أي أراد الهروب ودخل في البحر، وعبر عن هروبه بالإباق من حيث هو عبدالله فرّ عن غير إذن مولاة، فهذه حقيقة الإباق، والفلك في هذا الموضع واحدة، والمشحون: الموقر، وهنا قصص محذوف إيجازاً واختصاراً. وروى عن ابن مسعود أنه لما حصل في السفينة وأبعدت وكذت ولم تجر والسفن تجري يمينا وشمالا، فقال أهل السفينة: إن فينا لصاحب ذنب وبه يجلسنا الله، فقالوا: لنقترع، فأخذوا لكل واحد سهماً، ثم قالوا: اللهم ليطف سهم المذنب وليغرق سهم الغير، فطفا سهم يونس، ففعلوا نحو هذا ثلاثاً، وفي كل مرة تقع القرعة عليه، فأزمعوا معه أن يطرحوه، فجاء إلى ركن من أركان السفينة ليقع منه فإذا بدابة من دواب البحر ترقبه وترصده، فدفع إلى الركن الآخر فوجدها كذلك، حتى استدار بالمركب وهي لا تفارقه، فعلم أن ذلك من عند الله، فترامى إليها فالتقمته،

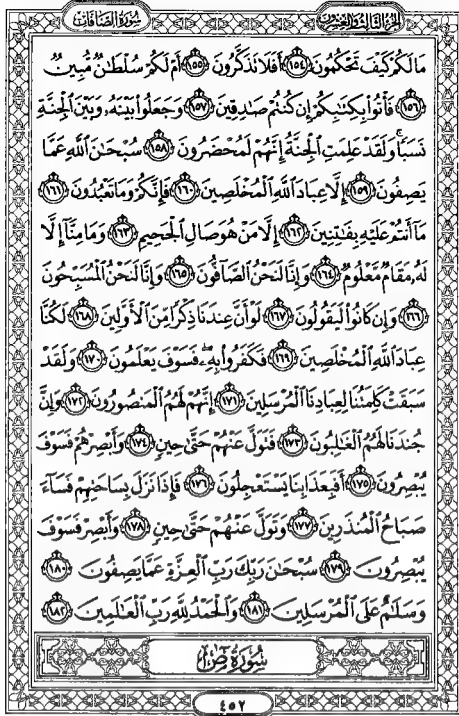
ويروى أنها إنما التقمته بعد أن وقع في الماء، وروى أن الله تعالى أوحى إلى الحوت أني لم أجعل لك يونس رزقاً، وإنما جعلت بطنك له جزأً وسجنًا، فهذا معنى ﴿فَنَاقَهُ﴾، أي: فارغ، وكذلك فسّر ابن عباس، والسدي. و﴿المُدْحَضُ﴾: الزاهق المغلوب في مُحاجة أو مساهمة أو مُسابقة. ومنه: الحجة الداحضة، و﴿المُليّم﴾: الذي أتى ما يلام عليه، يقال: ألام الرجل إذا دخل في اللوم، وبذلك فسّر مجاهد، وابن زيد، ومنه قول الشاعر:

سَقَمًا عَذَلْتُ وَلَمْتُ غَيْرَ مُلِيمٍ
وَهَذَا كَقَبْلِ الْيَوْمِ غَيْرَ حَكِيمٍ

ثم استنقذه الله تبارك وتعالى من بطن الحوت بعد مدة اختلف الناس فيها - فقالت فرقة: بعد سبع ساعات، وقال مقاتل بن حيان: بعد ثلاثة أيام، وقال عطاء بن أبي رباح: بعد سبعة أيام، وقالت فرقة: بعد أربعة عشر يوماً، وقال أبو مالك، والسدي: بعد أربعين يوماً، وهو قول ابن جريج أنه بلغه. وجعل تعالى علّة استنقاذه مع القدرة السابقة تسبيحه، واختلف الناس في ذلك - فقال ابن جبير: هو قوله في بطن الحوت: سبحان الله، وقالت فرقة: بل التسبيح هو الصلاة التطوع، واختلفت هذه الفرقة - فقال قتادة، وابن عباس، وأبو العالية: صلاته في وقت الرخاء نفعته في وقت الشدة، وقال هذا جماعة من العلماء، وقال الضحاك بن قيس على منبره: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس كان عبداً لله ذاكراً، فلما أصابته الشدة نفعه ذلك، ثم تلا هذه الآية، وإن فرعون كان

طاغياً باغياً، فلما أدركه الغرق قال: آمَنْتُ فلم ينفعه ذلك، فاذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة. وقال قتادة في الحكمة: إن العمل يرفع صاحبه إذا عشر، فإذا صرع وجد مُتَكَاً، وقال الحسن بن أبي الحسن: كان تسبيحه صلاة في بطن الحوت، وروى أنه كان يرفع لحم الحوت بيديه ويقول: يا ربّ لا بُيِّنْ لكَ مسجداً حيث لم يَبْنِه أحد قبلي، ويصلي، وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن يونس حين نادى في الظلمات ارتفع نداؤه إلى العرش، فقالت الملائكة: هذا صوت ضعيف من موضع غربة، فقال: هذا عبدي يونس، فاجاب الله دعوته...» وذكر الحديث. وقال ابن جبير: الإشارة بقوله: ﴿يَا أَلْسَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وكتب الناس في القصص بما اختصرناه لعدم الصحة، وروى أن الحوت مشى به البحار كلها حتى قذفه في نصيبين من ناحية الموصل، فنبذه الله في عراء من الأرض، وهو الأرض الفيحاء التي لا شجر فيها ولا معلّم، ومنه قول الشاعر:

وَرَفَعْتُ رَجُلًا لَا أَخَافُ عِثَارَهَا
وَتَبَدَّدْتُ بِالْبَلَدِ الْعَرَاءِ ثِيَابِي
وقال السدي، وابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَيِّدٌ﴾: إنه كان كالطفل المنفوس، بضعة لحم، وقال بعضهم: كاللحم التيء إلا أنه لم ينقص من خلقته شيء، فأنعشه الله تعالى في ظلّ اليقطينة بلبن أزوية كانت تغاديه وترواحه،



وقيل: بل كان يتغذى من اليقطينة، ويجد منها ألوان الطعام وأنواع شهوراته.

واختلف الناس في اليقطين - فقالت فرقة: هي شجرة لا نعرفها، سماها الله باليقطين، وهي لفظة مأخوذة من: قَطَنَ إذا أقام بالمكان. وقال سعيد بن جبّير، وابن عباس، والحسن، ومقاتل: اليقطين: كل ما لا يقوم على ساق من عود كالبقول والقرع والحنظل والبطيخ ونحوه مما يموت من عامه، وزوي نحوه عن مجاهد، وقال ابن عباس، وأبو هريرة، وعمر بن ميمون: اليقطين: القرع خاصة، وعلى هذين القولين فيما أن يكون قوله تعالى: ﴿شَجَرَةٍ﴾ تجوّزاً، وإما أن يكون أنبتّها عليه ذات ساقٍ خرقاً للعادة؛ لأنّ الشجر في كلام العرب إنما يقال لما كان على ساق من عود، وحكى بعض الناس أنها كانت قرعة وهي تجمع خصالاً بَرْدُ الظلِّ والملبس وعظم الورق وأنّ الذباب لا يقربها، حكى النقاش أن ماء ورق القرع إذا رُش به مكان لم يقربه ذباب، ومشهور اللغة أن اليقطين: القرع، وقد قال أمية بن أبي الصلت في قصة يونس عليه السلام:

فَأَنْبَتَ يَقِطِيناً عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ
مِنْ اللَّهِ، لَوْلَا اللَّهُ أَلفِي ضَاجِحاً
فنبت يونس عليه السلام وصحّ وحسن جسمه؛ لأنّ ورق القرع أنفع شيء لمن تسلّخ جسده كيونس. وزوي أنه كان يوماً نائماً فأبّيس الله تلك اليقطينة، وقيل: بعث عليها الأرضة فقطعت عروقها، فانتبه

يونس لِحَرِّ الشمس، فعزّ عليه شأنها وجزع له، فأوحى الله تعالى إليه: يا يونس، جزعت لينس اليقطينة ولم تجزع لإهلاك مائة ألف أو يزيدون تابوا فنبت عليهم.

﴿١٤٧﴾ - ﴿١٥٧﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ:

قال الجمهور: هذه الرسالة إلى مائة ألف هي الرسالة الأولى التي أبق بعدها، ذكرها الله تعالى في آخر القصص تنبيهاً على رسالته، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَنَاسُوا﴾ فتَنَنَّهُمْ إلَى جِبْنٍ، وتمتّع هذه الأمة هو الذي أغضب يونس عليه السلام حتى أبق، وقال قتادة، وابن عباس أيضاً: هذه الرسالة أخرى بعد أن نُبذَ بالعراء، وهي إلى أهل يَنْتَوِي من ناحية الموصل.

وقرأ جعفر بن محمد رضي الله عنه: ﴿وَيَزِيدُونَ﴾ بالواو، وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: [أو] بمعنى (بل)، وكانوا مائة ألف وثلثين ألفاً، وقال أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: كانوا مائة وعشرين ألفاً، وقال ابن جبّير: كانوا مائة وسبعين ألفاً، وزوي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿بَلْ يَزِيدُونَ﴾، وقالت فرقة: [أو] هنا بمعنى الواو، وقالت فرقة: هي للإيهام على المخاطب، كما تقول: «ما عليك أنت»، أنا أعطي فلاناً ديناراً أو ألف دينار، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، وهذا المعنى قليل التمكّن في قوله سبحانه: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾. وقال المبرّذ وكثير من البصريين: المعنى على نظر البشر وحذرهم، أي: من رآهم قال: هم مائة ألف أو يزيدون.

وزوي في قوله تعالى: ﴿فَنَاسُوا﴾ فتَنَنَّهُمْ إلَى جِبْنٍ، أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم، وفرّقوا بينها وبين الأمهات، وناحوا وضجّوا وأخلصوا، فرفع الله عنهم، والتمتّع هنا هو بالحياة، والحين: آجالهم السابقة في الأزل، قال قتادة والسدي، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿حَتَّى جِبْنٍ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿فَنَاسُوا﴾ فتَنَنَّهُمْ إلَى جِبْنٍ، مثال لقريش: أي: إن آمنوا أمثوا كما جرى لهؤلاء، ومن هنا حسن انتقال القول والمحاورة إليهم بقوله تعالى: ﴿نَاسَفَيْنَهُمْ﴾،

يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ، وهذا المعنى قليل التمكّن في قوله سبحانه: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾. وقال المبرّذ وكثير من البصريين: المعنى على نظر البشر وحذرهم، أي: من رآهم قال: هم مائة ألف أو يزيدون.

فإنما يعود على ضميرهم على ما في المعنى من ذكرهم.

و «الاستيفاء»: السؤال، وهو هنا بمعنى التوبيخ والتفريع على قولهم البهتان على الله، وجعلهم النبات لله تعالى عن ذلك. وأمره بتوقيفهم على جهة التوبيخ أيضاً - هل شاهدوا أن الملائكة إناث فيصح لهم القول به.

ثم أخبر تعالى عن فرقة منهم بلغ بها الإنك والكذب إلى أن قالت: ولد الله الملائكة لأنه نكح في سروات الجن، وهذه فرقة من بني مدلج فيما روي.

وقرأ الجمهور: «أَضَطَّقِي» بألف قطع هي للاستفهام، وهذا على جهة التقرير والتوبيخ على نسبتهم إليه تعالى اختيار الآدمي عندهم، وقرأ نافع في رواية إسماعيل: «أَضَطَّقِي» بألف وصل على الخبر، كأنه سبحانه يحكي شنيع قولهم، ورواها إسماعيل عن أبي جعفر، وشيبة.

ثم قرأ ويخ وعرض للتذكير والنظر واستفهم عن البرهان والحجة على جهة التقرير وضمهم إلى الاستظهار بكتاب أو أمر يظهر صدقهم. وقرأ الجمهور: «نَذْكُرُونَ» مشددة الذال والكاف، وقرأ طلحة بن مصرف بسكون الذال وضم الكاف خفيفة.

﴿١٥٨﴾ - ﴿١٥٩﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله تعالى: «وَجَعَلُوا» لفرقة من كفار قريش والعرب، قال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الطبري: إن بعضهم قال: إن الله وإبليس أخوان، وقال مجاهد: قال قوم لأبي بكر الصديق: إن الله نكح سروات الجن، وقال بعضهم: إن

الملائكة بناته، و «الجنة» - على هذا القول الأخير تقع على الملائكة، سميت بذلك لأنها مستجننة، أي: مستورة.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَلِمَ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ». من جعل «الجنة» الشياطين جعل العلامة في «عَلِمَتْ» والضمير في «إِنَّهُمْ» عائد عليهم. أي: جعلوا الشياطين ليست من الله، والشياطين تعلم ضد ذلك من أنها ستخضر أمر الله وثوابه وعقابه. ومن جعل «الجنة» الملائكة جعل الضمير في «إِنَّهُمْ» للقائليين هذه المقالة، أي: علمت الملائكة أن هؤلاء الكفرة سيحضرون عذاب الله وعقابه، وقد يتداخل هذان القولان.

ثم نزه تبارك وتعالى نفسه عما يصفه الناس ولا يليق به، ومن هذا استثنى العبادة المخلصين؛ لأنهم يصفونه بصفاته العلى، وقالت فرقة: استثناءهم من قوله: «لَمُحْضَرُونَ»، وهذا يصح على قول من رأى «الجنة» الملائكة.

وقوله تعالى: «فَالَّذَرَوْا رَبَّهُمْ وَيَأْتِيهِمْ يَوْمَئِذٍ الْمُلْكُ» بمعنى: قل لهم يا محمد: إنكم وأصنامكم ما أنتم بمضلين أحداً عليها وبسببها، إلا من سبق عليه القضاء وضمه القدر بأن يضلى الجحيم في الآخرة، وليس إليكم إضلال من هدى الله. وقالت فرقة: «عَلَيْهِ» بمعنى «فيه»، و«الفاتن»: المضل في هذا الموضع، وكذلك فسر ابن عباس، والحسن بن أبي الحسن، وقال ابن الزبير على المنبر: «إن الله هو الهادي والفاتن»، و«مَنْ» في موضع نصب بـ «يَقْتَتِلُونَ»، وقرأ الجمهور: «صَالِ الْجَحِيمِ» بكسر اللام

من (صَالٍ)، وحذفت الياء للإضافة. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «صَالِ الْجَحِيمِ» بضم اللام، وللنحاة في معناه اضطراب أقوال، وأقواها أنه (صَالُونَ) حذفت النون للإضافة، ثم حذفت الواو للالتقاء، وخرج لفظ الجمع بعد لفظ الأفراد، كما قال تعالى: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَوْفُونَ إِلَيْكَ»، إذ لما كانت [مَنْ] وهي من الأسماء التي فيها إبهام ويكنى بها عن أفراد وعن جمع.

ثم حكى تعالى قول الملائكة: «وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُفْقَهُمْ» وهذا يؤيد أن «الجنة» أراد بها الملائكة، كأنه قال: ولقد علمت كذا، وإن قولنا لكذا، وتقدير الكلام: وما مثلك، وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ السَّمَاءَ مَا فِيهَا مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ جَبْهَةٌ مَلَكٍ أَوْ قَدَمَاهُ»، وقرأ ابن مسعود: «وَأِنْ كُنَّا إِلَّا لَأَنَّهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ».

و «الْقَائِلُونَ» معناه: السواقفون صفوفاً، و«الْمُسْتَوْفُونَ» يحتمل أن يريد به الصلاة، ويحتمل أن يريد قول: «سبحان الله»، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان إذا أقيمت الصلاة صرف وجهه إلى الناس فقال لهم: عدلوا صفوفكم وأقيموها، فإن الله إنما يريد بكم هدى الملائكة، فإنها تقول: «وَأَيْنَا كُنَّا الْقَائِلُونَ» و«أَيْنَا كُنَّا الْمُسْتَوْفُونَ»، ثم يرى تقويم الصفوف، وعند ذلك ينصرف ويكبر، قال الزهراوي: قيل: إن المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة مذ نزلت هذه الآية، ولا يصطف أحد من أهل الجبل غير المسلمين. ثم ذكر عز وجل مقالة بعض

ثم قرأ الله تعالى نبيه ﷺ - على
جهة التوبيخ لهم - على استعجالهم
عذاب الله. وقرأ الجمهور: ﴿نَزَّلَ

وذكر أبو حاتم عن صالح
قال: قرأتُ على عاصم
النجد، فلما ختمتُها

١ - ٥ تفسير قوله عز وجل:
 قرأ الحسن، وأبى بن كعب، وابن

أبي إسحق: «صَاد» بكسر الدال، على أنه أَمْرٌ مِنْ: صَادَى يُصَادَى إِذَا ضَاهَى وَمَاتَلَّ، أي صار كالصُّدَى الذي يحكي الصياح، والمعنى: ماثل القرآنَ بعملك، وقارنه بطاعتك، وهكذا فُسِّرَ الحسن، أي: انظر أين عملك منه؟

وقال الجمهور: إنه الحرف المعجم المعروف، ويدخله ما يدخل سائر أوائل السور من الأقوال، ويختص هذا الموضع بأن قال بعض الناس: معناه: صدق محمد ﷺ، وقال الضحاك: معناه: صدق الله، وقال مجاهد بن كعب القرظي: هو مفتاح أسماء الله (صَمَد، صَادِق الوعد، صانع المصنوعات).

وقرأها الجمهور بسكون الدال، وقرأ ابن أبي إسحق - بخلاف عنه - بكسر الدال وتوניה «صَادِ»، على القسم، كما تقول: الله لأَفْعَلَنَّ، وحكى الطبري وغيره عن ابن أبي إسحق دون تشوين، وألحقه بقول العرب: حاث باث، وخاز باز، وقرأت فرقة منها عيسى بن عمر: «صَادَ» بفتح الدال، وكذلك يفعل في نطقه بكل الحروف، يقول: قاف، ونون، ويجعلها كَأَيْنَ وليت، قال الثعلبي: «وقيل معناه: صَادَ محمدُ القلوبُ بأن استمالها للإيمان».

وقوله تعالى: «وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ» قَسَمَ، وقال السدي، وابن عباس، وسعيد بن جبَّير: معناه: ذي الشرف الباقي المخلَّد، وقال قتادة، والضحاك: ذي التذكرة للناس والهداية لهم، وقالت فرقة: معناه:

ذي الذكر للأُمم والبَقَصَص والغُيُوب. وأما جواب القسم فاختلف فيه - فقالت فرقة: الجواب في قوله: «صَ»؛ إذ هو بمعنى: صدق محمد، أو صدق الله، وقال الكوفيون والزُّجاج: الجواب قوله تعالى: «إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ الْآلِ»، وقال بعض البصريين - ومنهم الأخفش -: الجواب في قوله: «إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلُ». قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان بعيدان.

وقال قتادة، والطبري: الجواب مُقَدَّرٌ قَبْلَ [بَلْ]، وهذا هو الصحيح، تقديره: «والقرآن ما الأَمْرُ كما تزعمون»، ونحو هذا من التقدير، فتأمله. وحكى الزُّجاج عن قوم أن الجواب قوله تعالى: «كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ» وهذا متكلف جداً.

و «كَزَّ» للتكثير، وهي خبرٌ فيه مثالٌ ووعيد، وهي في موضع نصب بـ «أَهْلَكْنَا»، و«الْقُرْنُ»: الأُتمة من الناس يجمعها زمن واحد، وقد تقدم تحديده مراراً، وقوله تعالى: «فَنَادَوْا» معناه: مستغيثين، والمعنى أنهم فعلوا ذلك بعد المعايبة فلم ينفع ذلك، ولم يكن في وقت نفع، و«وَلَاتَ» بمعنى: ليس، واسمها مقدر عند سيبويه، وتقديره: ولات الحين حين مناص، وهي (لَا) لحقتها تاء، كما لحقت «رُبَّتْ» وثُمَّتْ، وقال الزُّجاج: وهي كتاء جَلَسَتْ وقَامَتْ، تاء الحروف كتاء

الأفعال دخلت على ما لا يُعرب في الوجهين، ولا تستعمل (لَا) مع التاء إلا في الحين والزمان والوقت نحوه، ومن ذلك قول الشاعر:

... وَلَات سَاعَةً مِّنْهُمْ
وقال الآخر:

تَذَكَّرْ حُبَّ لَيْلَى لَاتَ حِينًا
وَأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ أَقْرَبِنَا
وأنشد بعضهم:

طَلَبُوا ضَلَحًا وَلَاتَ أَوَانٍ
فَأَجَبْنَا أَنْ لَيْسَ حِينٌ بَقَاءٍ
وأنشده الزُّجاج بكسر التاء، وهذا كثير، وقرأ الجمهور فتح التاء من «وَلَاتَ» والنون من «حِينَ» وزوي عن عيسى كسر التاء من «وَلَاتَ» ونصب النون من «حِينَ» وزوي عنه أيضاً كسر النون منها.

واختلفوا في الوقف على [لَاتَ] - فذكر الزُّجاج أن الوقف بالتاء، وقف الكسائي بالهاء، ووقف قوم - واختاره أبو عبيد - على [لَا] وجعلوا التاء موصولة بحين، فقالوا: «لَا تَحِينُ»، وذكر أبو عبيد أنها كذلك في مصحف عثمان، ويحتج لهذا القول بقول أبي جزة:

الْعَاطِفُونَ تَحِينُ مَا مِنْ عَاطِفٍ
وَالْمُطْعِمُونَ زَمَانٌ مَا مِنْ مُطْعِمٍ
يمدح آل الزُّبير. وقرأ بعض الناس: «وَلَاتَ حِينُ» برفع النون على إضمار الخبر.

و «الْمَنَاصُ»: الْمَفَرُّ، ناص ينوص إذا فات وفرَّ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: ليس بحين نَزُو ولا فِزَار، ضبط القوم.

والضمير في ﴿وَعَجَبًا﴾ لكفار قريش، واستغربوا أن يُنبئ بشرّ منهم فأُنذِرهم وحذّرهم، وأن وُحِدَ الإله، وقالوا: كيف يكون إله واحد يرزق الجميع وينظر في كل أمرهم؟

و ﴿عَجَبًا﴾ بناءً مبالغته، كما قالوا: سريع وسُرْعاء، وهذا كثير، وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي، وعيسى بن عمر: ﴿عُجَبًا﴾ بشد الجيم، ونحوه قال الراجز:

جاءوا بِصَبْدٍ عَجَبٍ مِنَ الْعَجَبِ
أُزْرِقِي الْعَيْنَيْنِ طُوالِ الدُّنْبِ
وقد قالوا: رجلٌ كُرّامٌ، أي كريم.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

رُوي في قِصص هذه الآية أن أشراف قريش وجماعتهم اجتمعوا عند مرض أبي طالب عم النبي ﷺ، فقالوا: إن من القبيح علينا أن يموت أبو طالب ونؤدي محمداً بعده فيقول العرب: تركوه مدة عمه فلما مات آذوه، ولكن لنذهب إلى أبي طالب فليصنفا منه، وليربط بيننا وبينه ربطاً، فنهضوا إليه فقالوا: يا أبا طالب، إن محمداً يسبُّ آلَهمنا ويُسفِّه آراءنا وآراء آبائنا، ونحن لا نُقارُّه على ذلك، ولكن انفصل بيننا وبينه في حياتك، بأن يقيم في منزله يعبد ربّه الذي يزعم، ويدع آلَهمنا وسببها، ولا يعرض لأحد ممّا بشيء من هذا، فبعت أبو طالب في محمد عليه الصلاة والسلام، فقال: يا محمد، إن قومك قد دعوك إلى النُصفه، وهي أن تدعهم وتعبد ربّك وحدك، فقال: «أو غير ذلك يا عم؟» قال:

وما هو؟ قال: يُعطونني كلمة تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم الجزية بها العجم، قالوا: وما هي فإننا نبادر إليها؟ قال: لا إله إلا الله، فنفروا عند ذلك وقالوا: ما يرضيك منا غير هذا؟ قال: والله لو أعطيتُموني الأرض ذهباً ومالاً، وفي رواية: لو جعلتم الشمس في يميني، والقمر في شمالي ما أرضاني منكم غيرها، فقاموا عند ذلك وبعضهم يقول: «أَجْعَلُ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب؟» ويرددون هذا المعنى، وعقبه بن أبي مُعيط يقول: ﴿أَنْشَأُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِ الْهَيْكَلِ﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجلبت هذا الخبر تام المعنى، وفي بعض رواياته زيادة ونقصان، والمعنى متقارب.

ولما ذهبوا قال رسول الله ﷺ: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله»، قال: والله لولا أن تكون سبّة في بنيّ بعدي لأفترّضت بها عينك، ومات وهو يقول: على مِلة عبدالمطلب، فنزلت في ذلك: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَنطَلَقُ اللَّأَلَّا مِنْهُمْ﴾ عبارة عن خروجهم عن أبي طالب، وانطلاقهم من ذلك الجمع، هذا قول جماعة من المفسرين. وقالت فرقة: هي عبارة عن إذاعتهم لهذه الأقاويل، فكأنه كما يقول الناس: انطلق الناس بالدعاء للأمير، ونحوه، أي: استفاض كلامهم

بذلك، و﴿اللأَلَّا﴾: الأشراف والرؤوس يسدون مسد الجميع في الآراء، ونحوه.

وقولهم: ﴿إِنْ أَنْشَأُوا﴾، [أن] مفسرة لا موضع لها، ويجوز أن تكون في موضع نصب بإسقاط حرف الجر، أي: بأن، فهي بتقدير المصدر، كأنه قال: وانطلق الملاء منهم بقولهم: امشوا، ومعنى الآية أنه قال بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على كل أمر آلهتكم. وذهب بعض الناس إلى أن قولهم: ﴿أَنْشَأُوا﴾ هو دعاء لكسب الماشية، وفي هذا ضعف؛ لأنه كان يلزم أن تكون الألف مقطوعة؛ لأنه يقال: «أَنْشَى الرَّجُلُ» إذا صار صاحبة ماشية، فهذا المعنى غير متمكن في الآية، وإنما المعنى: سيروا على طريقتكم ودوموا على سيرتكم، أو يكون المعنى أَمْراً من نقل الأقدام قالوه عند انطلاقهم، وهي في مصحف ابن مسعود: ﴿وَأَنطَلَقُ المَلَأُ مِنْهُمْ يَمْشُونَ أَنْ اصْبِرُوا﴾. وقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَنَيْءٌ يَرَادُ﴾ يريدون ظهور محمد - ﷺ - وعُلُوّه بالنبوة، أي: يراد منا الانقياد له.

وقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ يريدون بمثل هذه المقالة من أن الإله واحد. واختلف المتأولون في قولهم: ﴿فِي أَلِيلَةِ الْآخِرَةِ﴾ - فقال مجاهد: أرادوا ملتهم واخلتهم التي العرب عليها، ويقال لكل ما تشبه أمة: مِلة. وقال ابن عباس، والسدي: أرادوا ملة النصارى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك مُتَّجِهٌ لَأَنَّهَا مَلَّةٌ شَهْرٌ فِيهَا التَّثْلِيثُ وَأَنَّ الْإِلَهَ لَيْسَ بِوَاحِدٍ. وقالت فرقة: معنى قولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَاكَ أَيَّ مَا سَمِعْنَا أَنَّهُ يَكُونُ مِثْلَ هَذَا، وَلَا أَنَّهُ يُقَالُ فِي الْمَلَّةِ الْآخِرَةِ الَّتِي كُنَّا نَسْمَعُ أَنَّهَا تَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك أَنَّهُ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ النَّاسُ يَسْتَشْعِرُونَ خُرُوجَ نَبِيِّ وَحْدُوهُ مَلَّةٌ وَدِينٌ، وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا مَا رُوِيَ مِنْ أَقْوَالِ الْأَحْبَارِ أُولَى الصَّوَامِعِ، وَمَا رُوِيَ عَنْ شَقِّ وَسْطِيحٍ، وَمَا كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَعْتَقِدُ مِنْ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْهُمْ. وقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخِلُّقٌ﴾ إشارة إلى جميع ما يُخْبِرُ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى.

ثم قالوا على جهة التقرير من بعضهم لبعض، وَمُضْمِنٌ ذَلِكَ الْإِنْكَارُ - ﴿أَنزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ مِنْ بَيِّنَاتٍ؟﴾ بمعنى: نحن الأشراف الأعلام، فَلِمَ خُصَّ هُوَ؟ وكيف يصحُّ هذا؟ فردَّ الله قولهم بما يقتضيه [بَل]؛ لأنَّ المعنى لَيْسَ تَخْصِيصُ اللَّهِ وَإِنْعَامُهُ جَارِيًا عَلَى شَهَوَاتِهِمْ، ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾، أي في ريب أن هذا التذكير حق. ثم توعدهم بقوله: ﴿بَلْ لَنَا بِدُورٍ عَذَابٌ﴾، أي: لو ذاقوه لتحققوا أن هذه الرسالة حق، أي هم لجهالتهم لا يُبَيِّنُ لَهُمُ النَّظَرُ، وَإِنَّمَا يُبَيِّنُ لَهُمْ مَبَاشَرَةُ الْعَذَابِ. وقرأ ابن مسعود: ﴿أَمْ أَتُنْزِلُ﴾ بميم بين الهمزتين.

ثم وَقَّعَهُمُ احْتِجَاجًا عَلَيْهِمْ، أَعْنَدَهُمْ خَزَائِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي فِيهَا الْهُدَى وَالتَّوْبَةُ وَكُلُّ فَضْلٍ، فَيَكُونُ لَهُمْ تَحْكُمُ فِي الرِّسَالَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ؟ و [أَمْ] هُنَا لَمْ تُعَادِلْهَا أَلْفٌ، فَهِيَ الْمُقْطُوعَةُ الَّتِي مَعْنَاهَا الْإِضْرَابُ عَنِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ وَاسْتِفْهَامٌ، وَقَدْ رُفِعَ سَبِيحُهُ بِ «بَلِّ وَالْأَلْفِ»، كَقَوْلِ الْعَرَبِ: «إِنِّهَا لِإِبْلِ أَمْ شَاءَ»، وَالْخَزَائِنُ لِلرَّحْمَةِ مُسْتَعَارَةٌ، كَأَنَّ الْمَعْنَى: مَوْضِعُ جَمْعِهَا وَحِفْظِهَا، وَمِنْ حَيْثُ كَانَتْ ذَخَائِرُ الْبَشَرِ تَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ خَوْطُبِ فِي الرَّحْمَةِ بِمَا يَنْحُو إِلَى ذَلِكَ، قَالَ الطَّبْرِيُّ: يَعْنِي بِالْخَزَائِنِ الْمَفَاتِيحِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

١٠ - ١١ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَنزَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَعَادِلَةً لِلْأَلْفِ الْمَقْدَرَةِ فِي «أَنزَلَ» الْأُولَى، وَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَمْ لَهُمْ هَذَا الْمُلْكُ فَتَكُونُ الرِّسَالَةُ وَالتَّوْبَةُ عَلَى اخْتِيَارِهِمْ وَنَظَرِهِمْ، ﴿فَلْيَرْفَعُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، أَي: إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. و«الأسباب» كُلُّ مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْأَشْيَاءِ، وَهِيَ هُنَا بِمَعْنَى الْحِبَالِ وَالسَّلَالِمِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَرَادَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ.

قوله تعالى: ﴿جُنْدٌ مَّا هُمَ إِلَّا مَهْزُومٌ﴾، اختلف المتأولون في الإشارة بـ «هَٰؤُلَاءِ» إِلَى مَا هِيَ - فقالت فرقة: أشار إلى الارتقاء في الأسباب، أي: هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ إِنْ رَامُوا ذَلِكَ جُنْدٌ مَهْزُومٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قوي.

وقالت فرقة: الإشارة بـ «هَٰؤُلَاءِ» إِلَى حِمَايَةِ الْأَصْنَامِ وَعُضْدِهَا، أَي: هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ جُنْدٌ مَهْزُومٌ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْإِشَارَةُ بِـ «هَٰؤُلَاءِ» إِلَى يَوْمِ بَدْرٍ، وَكَانَ غَيْبًا أَعْلَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ أَنَّ جُنْدًا مُشْرِكِينَ يُهْزَمُونَ، فَخَرَجَ فِي بَدْرٍ، وَقَالَتْ فَرَقَةٌ: الْإِشَارَةُ إِلَى مَنْ حَضَرَ عَامَ الْخَنْدَقِ بِالْمَدِينَةِ. وقوله: ﴿مِنْ الْأَحْزَابِ﴾، أَي: مِنْ جَمَلَةِ الْأَحْزَابِ وَالْأُمَمِ الَّذِينَ تَعَصَّبُوا فِي الْبَاطِلِ وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى. وَ [مَا] فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جُنْدٌ مَّا هُمَ إِلَّا﴾ زَائِدَةٌ مُؤَكِّدَةٌ، وَفِيهَا تَخْصِيصٌ.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾ - فقال ابن عباس، وقَتَادَةُ: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَتْ لَهُ أَوْتَادٌ وَخَشَبٌ يُلْعَبُ لَهَا بِهَا وَعَلَيْهَا، وَقَالَ السَّيِّدِي: كَانَ يَقْتُلُ النَّاسَ بِالْأَوْتَادِ وَيَشْدُهُمْ فِي الْأَرْضِ بِهَا، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: أَرَادَ الْمَبَانِي الْعِظَامَ الثَّابِتَةَ. وَهَذَا أَظْهَرَ الْأَقْوَالِ، كَمَا يُقَالُ لِلْجِبَالِ أَوْتَادٌ لِثَبُوتِهَا. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُقَالَ لَهُ: «ذُو الْأَوْتَادِ» عِبَارَةٌ عَنْ كَثْرَةِ أَخْبِيَّتِهِ وَعِظَمِ عَسَاكِرِهِ، وَنَحْوُ مَنْ هَذَا قَوْلُهُمْ: «أَمَلُ الْعُمُودِ». وَقَرَأَتْ فَرَقَةٌ: ﴿لَيْكَةٍ﴾، وَقَرَأَتْ فَرَقَةٌ: ﴿الْأَيْكَةِ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ.

ثم أخبر تعالى أن هَٰؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ هُمُ الْأَحْزَابُ، وَضُرِبَ بِهِمُ الْمَثَلُ

﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^{١٥}
 إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَإِلَاشْرَاقِ^{١٦} وَالطُّلُوعِ
 مَحْمُودَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ^{١٧} وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
 وَفَصَّلَ الْخِطَابَ^{١٨} وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوُ الْحَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا
 الْيَحْرَبَ^{١٩} إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ
 خَصَمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا وَبَعْضٍ فَاتَّكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
 وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الْبَصِيرِ^{٢٠} إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً
 وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكُونِلِي بَيْنَهُمَا فِي الْخِلَابِ^{٢١} قَالَ
 لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِنِّي نَجْمَكُمُ الْكَافِرِينَ أَتَيْنَاكَ بِالنَّجْمِ
 بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقِيلَ
 مَا هُمْ وَعَلَى دَاوُدَ أَمْرًا فَفَتَنَّهُ فَاسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ^{٢٢}
 فَفَتَنَّاكَ اللَّهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَقَابٍ^{٢٣}
 بِنْدَاوُدَ إِذْ جَعَلْنَاهُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَحَاكُم بَيْنَ النَّاسِ
 بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ لِمَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ^{٢٤} الْحَسَابِ

جهة الاستخفاف والهزء، ويدل على ذلك ما علم من كفرهم واستمر، ولفظ الآية يعطي إقراراً بيوم الحساب.

قوله تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾، أي: من هذه الأقاويل التي يريدون بها الاستخفاف، ولا تلتفت إليها، ﴿وَادْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾، في الدين والصُّدْع به، فتأس به وتأيد كما تأيد، و«الأيد»: القوة، وهي في داود متضمنة قوة البدن وقوته على الطاعة. و«الأَوَّابُ»: الرجوع إلى طاعة الله تعالى، قاله مجاهد وابن زيد، وفسره السدي بالمُسْبِح، وذكر الشعلبي أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرُّزْقَةُ يُسْفَنُ»، وكان داود أزرق، وأخبر تبارك وتعالى عما وهب لداود من الكرامة، في أن سَخَّرَ الجبال معه تسبُّح،

على النار. وقال ابن زيد: وأبو عبسدة، ومؤرج، والفراء: المعنى مختلف، الضَّمُّ كما تقدم من معنى فوق، والفتح بمعنى الإفاقة، أي: ما يكون لهم بعد هذه الصبيحة من إفاقة ولا استراحة، ففوق مثل جواب من أجب.

ثم ذكر عز وجل عنهم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا مَجِّلْنَا قَطَنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾، والقِطُ: الحِطُّ والنصيب، والقِطُ أيضاً: الضُّكُّ والكتاب من السلطان يصِلُّه ونحوه، ومنه قول الأعشى:

وَلَا الْمَلِكُ الشُّغْمَانُ يَوْمَ لَقِيَّتِهِ
 يَغْبِطُطِهِ يَغْبِطِي الْقُطُوطُ وَيَأْفِقُ
 وهو من: قَطَطْتُ، أي: قطعت. واختلف الناس في «القِطُ» هنا، ما أرادوا به؟ فقال سعيد بن جبیر: أرادوا به: عَجَلٌ لنا نصيبنا من الخير والنعيم في دنيانا، وقال أبو العالية، والكلبي: أرادوا: عَجَلٌ لنا صحفنا بأيماننا، وذلك لما سمعوا في القرآن أن الصحف تُعْطَى يوم القيامة بالآيمان والشماثل قالوا ذلك، وقال ابن عباس، وغيره: أرادوا ضِدَّ هذا من العذاب ونحوه، فهذا نظير قولهم: ﴿تَأْمِطِرُ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾. وقال السدي: المعنى: أرنا منازلنا في الجنة حتى نباعك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى كل تأويل فكلامهم خرج على

لقريش في أنهم كذبوا، ثم أخبر أن عقابه حق على جميعهم، فكذلك يحق عليكم أيها المكذبون بمحمد عليه الصلاة والسلام، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿إِنَّ كُلَّ لَمَّا﴾، وحكى أبو عمرو الداني أن فيها: ﴿إِنَّ كُلَّهُمْ إِلَّا كَذَبٌ﴾.

١٥ - ٢٠ تفسير قوله عز وجل: ﴿يَنْظُرُ﴾ بمعنى: ينتظر، وهذا إخبار من الله تعالى لرسوله ﷺ، صدقه الوجود، فالصبيحة - على هذا التأويل - عبارة عن جميع ما نابهم من قتل أو أسر وغلبة، وهذا كما تقول: صاح فيهم الدهر، وقال قتادة: توعدهم الله بصبيحة القيامة والنفخ في الصور، قال الشعلبي: روي هذا التفسير مرفوعاً إلى النبي ﷺ. وقالت طائفة: توعدهم تعالى بصبيحة يهلكون بها في الدنيا، وعلى هذين التأويلين فمعنى الكلام أنهم بمدرج عقوبة، وتحت أمر خطير ما ينتظرون فيه إلا الهلكة، وليس معناه التوعد بشيء معين ينتظره محمد ﷺ فيهم كالتأويل الأول. وقرأ الجمهور: ﴿فُوقًا﴾ بفتح الفاء، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن وثاب، والأعمش، وأبو عبد الرحمن: ﴿فُوقًا﴾ بضم الفاء. قال ابن عباس، وغيره: هما بمعنى واحد، أي: ما لها من انقطاع وعودة، بل هي متصلة حتى مهلكهم، ومنه: ﴿فُوقًا الْخُلْبَةِ﴾، المهلة التي بين الشُّخْبَتَيْنِ، وجعلوه مثل قصاص الشعر وقصاصه، وغير ذلك، ومنه الحديث عن النبي ﷺ: «من رابط فُوقًا ناقة حرم الله جسده»

وظاهر الآية عموم الجبال، وقالت فرقة: بل هي الجبال التي كان فيها وعندها، وتسبيح الجبال هنا حقيقة. و«الإشراق»: وقت ضياء الشمس وارتفاعها، ومنه قولهم: «أشرق بُيُورُ كَيْمًا نُغَيْرُ»، أي: ادخل في الشروق، وفي هذين الوقتين كانت صلاة بني إسرائيل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: صلاة الضحى عندنا هي صلاة الإشراق، وهي في هذه الآية.

وقوله: «وَالطَّيْرُ» بالنصب عطف على «الْجِبَالِ»، أي: وسَخَرْنَا الطَّيْرَ، و«مَخْشُورَةً» نصب على الحال، ومعناه: مجموعة، وقرأ ابن أبي عَبلَةَ: «وَالطَّيْرُ مَخْشُورَةً» بالرفع فيهما، والضمير في [لَهُ] قالت فرقة: هو عائد على الله تعالى، فَ «كُلُّ» - على هذا - يراد به: داود، والجبال، والطير. وقالت فرقة: هو عائد على داود عليه السلام، و«كُلُّ»: الجبال والطير.

وقوله تعالى: «وَسَدَدْنَا مَلَكُوتَ» عبارة عامة لجميع ما وهب الله تعالى من قوة وجُند ونعمة، وقد خصص بعض المفسرين في ذلك أشياء دون أشياء، فقال السدي: بالجنود، وقال آخرون: بهَيِّبَةُ جعلها الله له. وقرأ الجمهور: «وَسَدَدْنَا» بتخفيف الدال الأولى، ورُوي عن الحسن شدُّها على المبالغة. و«الْحِكْمَةُ»: الفهم في الدين وجودة النظر، هذا قول فرقة، وقالت فرقة: أراد بالحكمة الثبُوت، وقال أبو العالية: الحكمة: العلم الذي لا تردُّه العقول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هي عقائد البرهان.

واختلف الناس في «فَضْلِ الْخُطَابِ» - فقال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: هو فصل القضاء بين الناس بالحق وإصابته وفهمه. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وشُرَيْح، والشعبي: هو إيجاب اليمين على المدعى عليه، والْبَيِّنَةُ على المدعي، وقال زياد، والشعبي أيضاً: هو قول: «أما بعد»، فإنه أول من قالها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يعطيه لفظ الآية أن الله تعالى آتاه أنه كان إذا خاطب في نازلة فصل المعنى وأوضحه، لا يأخذه في ذلك حَصَرٌ ولا ضعف، وهذه صفة قليل من يدركها، فكان كلامه عليه السلام فضلاً، وقد قال الله تبارك وتعالى في صفة القرآن: «إِنَّهُ لَكَوْلٌ نَصْلٌ»، ويزيد محمد ﷺ على هذه الدرجة بالإيجاز في العبارة، وجمع المعاني الكثيرة في اللفظ اليسير، وهذا هو الذي تَخَصَّصَ هو - عليه الصلاة والسلام - به في قوله: «وَأُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»، فإنها في الجلال التي لم يُؤْتها أحدٌ قبله، وذكر «جوامع الكلم» معدودٌ ومُسَلَّمٌ له ﷺ.

(٦٦) - (٦٧) تفسير قوله عز وجل: هذه مخاطبة للنبي ﷺ، واستُفْتِيحت بالاستفهام تعجباً من القصة وتفخيماً لها؛ لأن المعنى: هل أتاك هذا الأمر العجيب الذي هو عبرة؟ فكأن هذا الاستفهام إنما هو تهفئة لنفس المخاطب وإعداد لها للتلقّي، و«الْحَضْمُ» - جارٍ مجرى

«عَذْلٌ وَزُورٌ» - يوصفُ به الواحد والاثنان والجمع، ومنه قول لبيد:

وَحَضْمٌ يَعْدُونَ الدُّخُولَ كَأَنَّهُمْ قُرُومٌ غَيَّارَى كُلِّ أَزْهَرٍ مُضْغَبٍ
وتحتمل هذه الآية أن يكون التَّسْوِيرُ للمحارب من اثنين فقط؛ لأن نفس الخصومة إنما كانت بين الاثنين، فتجيء الضمائر في «سُورَةُ» و«دَخَلُوا» و«قَالُوا» على جهة التَّجَوُّز في العبارة عن الاثنين بلفظ الجمع، وتحتمل أنه جاء مع كل واحد فرقة كالعاضدة أو المؤنسة، فيقع على جميعهم «حَضْمٌ»، وتجيء الضمائر حقيقة.

و«سُورَةُ» معناه: عَلَوْا سُورَةَ، وهو جميع «سُورَةَ»، وهي القطعة من البناء، وهذا كما تقول: تَسَمَّتُ الحائط أو البعير إذا علوت سنامه. و«الْمِخْرَابُ»: الموضع الأرفع من القصر أو المسجد، وهو موضع التَّعْبُد، والعامل في [إِذَا] الأولى [نَبَأٌ]، وقيل: «أَتَاكَ»، والعامل في الثانية «سُورَةُ»، وقيل: هي بدلٌ من الأولى.

وقوله تعالى: «فَفَرَّجَ بَيْنَهُمْ» يحتمل أن يكون فزعه من الداخلين أنفسهم لشلا يؤذوه، وإنما فزع من حيث دخلوا من غير الباب ودون استئذان، وقيل: إن ذلك كان ليلاً، ذكره الثعلبي. ويحتمل أن يكون فزعه من أن يكون أهل مُلْكِهِ قد استهانوه حتى ترك بعضهم الاستئذان، فيكون فزعه من فساد السيرة لا من الداخلين، ويظهر من قولهم: «لَا تَخَفْ» أنهم فهموا فزعه.

وهنا قَصَصَ طَوَّلَ الناس فيه،

واختلفت الروايات فيه، ولا بد أن نذكر منه ما لا يقوم تفسير الآية إلا به، ولا خلاف بين أهل التأويل أن هؤلاء الخصم إنما كانوا ملائكة بعثهم الله تعالى ضرب مثل لداود عليه السلام، فاختصموا إليه في نازلة قد وقع هو في نحوها، فأفتى بفثيا هي واقعة عليه في نازلته، ولما شعر وفهم المراد خز وأتاب واستغفر، أما نازلته التي وقع فيها فروي أنه عليه السلام جلس في ملا من بني إسرائيل فأعجب بعمله، وظهر منه ما يقتضي أنه لا يخاف على نفسه الفتنة، ويقال: بل وقعت له في نحو هذا محاورة مع الملكين الحافظين عليه، فقال: جرباني يوماً، وإن غبتما عني فلإني لا أواقع مكروهاً، وقال السدي: كان قد قسّم دهره: يوماً يقضي فيه بين الناس، ويوماً للعبادة، ويوماً لشأن نفسه، فعُين يومٌ خلّوه للعبادة لما تمنى أن يُعطى مثل فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، والتزم أن يُمتحن كما اُمْتُحِنُوا، وقيل: السبب غير هذا مما هو تطويل لا يصح.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن داود أخذ يوماً في عبادته، وانفرد في محرابه يصلي ويسبح، إذ دخل عليه طائر من كوة فوق بين يديه، فروي أنه كان طائراً حسن الهيئة، حمامة، فمدّ داود يده إليها ليأخذها، فما زالت تطمعه وتبعتها حتى صعدت الكوة التي دخلت منها، فصعد ليأخذها فتنحى الطائر له، فتطلع داود فإذا هو بامرأة تغتسل عريانة، فرأى منظراً جميلاً

فَنَنَّهُ، ثم إنها شعرت به فأسبلت شعرها على بدنّها فتجلّت به فزاده ذلك ولوعاً بها، ثم إنه انصرف وسأل عنها فأخبر أنها امرأة رجل من جنده يقال له: «أوريّا»، وأنه في بعث كذا وكذا، فيروي أنه كتب إلى أمير تلك الحرب أن قدّم فلاناً يقاتل عند التابوت، وهو موضع قلما يخلص منه أحد، فقدمه فاستشهد هنالك، ويروي أن داود كتب أن يؤمر ذلك الرجل على جملة من الرجال، وترمى به الغارات والوجوه الصعبة من الحرب حتى قُتل في الثالثة من نهضاته، وكان لداود عليه السلام - فيما روي - تسع وتسعون امرأة، فلما جاءه الكتاب بقتل من قُتل في حربه، جعل كلما سُمي رجل يسترجع ويتفجع، فلما جاء اسم الرجل قال: كتب الموت على كل نفس، ثم إنه خطب المرأة وتزوجها فكانت أم سليمان عليه السلام فيما روي عن قتادة، فبعث الله تعالى إليه الخصم ليُفتي أن هذا ظلم، وقالت فرقة: إن هذا كله همّ به داود عليه السلام ولم يفعله، والمعاتبه على الهمّ، وقال آخرون: إنما الخطأ في أنه لم يجزع عليه كما جزع على غيره من الجند، إذ كان عنده أمر المرأة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والرؤا على الأول أكثر، وفي كتب بني إسرائيل في هذه القصة صور لا تليق، وقد حدّث بها قصاص في صدر هذه الآية، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من حدّث بما

قال هؤلاء القصاص جلدته حدّين لما ارتكب في حرمة من رفع الله محله.

وقوله تعالى: ﴿حَسَنًا﴾ تقديره: نحن خصمان، وهذا كقول الشاعر: وَفُلَا إِذَا جَاوَزْتُمَا أَضْ غَايِرَ وَجَاوَزْتُمَا الْحَيَيْنِ نَهْدًا وَخَشَعَمَا نَزِيْعَانِ مِنْ جَزَمِ بَنِي زَيْلَانَ إِنَّهُمْ أَبْوَأُ أَنْ يُمَيِّرُوا فِي الْهَزَاهِزِ مَخَجَمَا ومثله قول العرب في المثل: «مُخَيِّئَةً فِهَيْلِي»، والتقدير: أنت محسنة، ومنه قول عليه الصلاة والسلام: «أَيُّونَ ثَابِتُونَ».

و﴿يَنِي﴾: اعتدى واستطال، ومنه قول الشاعر:

وَلَكِنْ أَلْقَى حَمَلٌ بَنَ نَذِرٍ
بَنَى وَابْنِي مُزْتَعَةً وَخِيَمٍ
وقوله تعالى: ﴿فَأَمَرَ بَنِيَّ بِالْحَيِّ وَلَا تُنْطِطْ﴾ إغلاظ على الحاكم، واستدعاء لعدله، وليس هذا بارتباب منه، ومنه قول الرجل للنبي ﷺ: (فاحكم بيننا بكتاب الله)، وقرأ الجمهور: ﴿تُنْطِطْ﴾ بضم التاء وكسر الطاء الأولى، ومعناه: ولا تبعد في حكمك، وقرأ أبو رجاء، وقاتدة بفتح التاء وضم الطاء الأولى، وهي قراءة الحسن، والجحدري، والمعنى: ولا تبعد، يقال: شَطَّ إِذَا بَعُدَ، وَأَشْطَّ إِذَا أَبْعَدَ غَيْرَهُ، وقرأ زُرُّ بْنُ حُبَيْشٍ: ﴿تُنْطَاطُطُ﴾ بضم التاء وبألِفٍ بعد الشين. و«سواء الصراط» معناه: وسط الطريق ولاجه.

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا آخِي﴾، إعراب [آخِي] عطف بيان، وذلك أن ما جرى من هذه الأشياء صفة كالخُلُقِ والخُلُقِ وسائر الأوصاف فإنه نعت

محض، والعامل فيه هو العامل في الموصوف، وما كان منها مما ليس ليوصف به البتة فهو بدل، والعامل فيه مكرر، تقول: «جاءني أخوك زيد»، فالتقدير: جاءني أخوك، جاءني زيد، فاقتصر على حذف العامل في البذل والمبدل منه، كما في قوله تعالى: «أَلَمْ يَرَوْا كَرَاهِلَكُنَّا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ» ﴿٢١﴾، وما كان منها مما لا يوصف به واحتيج إلى أن يبين به ويجري مجرى الصفة فهو عطف بيان، وهو بين في قول الشاعر:

... يَأْضُرُّ نَضْرُ نَضْرًا
فإن الرواية في الثاني بالتونين تدل على أن النداء ليس بمكرر عليه، فليس ببدل، ووضح فيه عطف البيان.

وهذه الأخوة مستعارة؛ إذ هما ملكان، ولكن من حيث تصوّرا آدميين تكلمًا بالأخوة التي بينهما في الدين والإيمان، والله أعلم.

والنعمجة في هذه الآية عبر بها عن المرأة، والنعمجة في كلام العرب تقع على أنثى بقر الوحش، وعلى أنثى الضأن، وتُعرَّب العربُ بها عن المرأة، وكذلك بالشاة، قال الأعشى:

فَرَمَيْتُ غَفْلَةً عَيْنِي عَنْ شَاتِيهِ
فَأَصْبَتْ حَبَّةً قَلْبِهَا وَطَحَالِهَا
أراد: عن امرأته. وفي قراءة ابن مسعود: «وَيَسْمُونَ نَعْجَةً أَنْثَى»، وقرأ حفص عن عاصم: «وَلَى» بفتح الباء، وقرأ الباقر بسكونها، وهما حسنتان، وقرأ الحسن

والأعرج: «بِنَعْجَةٍ» بكسر النون، والجمهور على فتحها، وقرأ الحسن: «تَسْعُ وَتَسْمُونَ» بفتح التاء فيهما، وهي لغة. وقوله تعالى: «أَكْفَلَيْهَا»، أي: رُدّها في كفالتي، وقال ابن كيسان: المعنى: اجعلها كفلي، أي: نصيبي.

قوله تعالى: «وَعَزَّنِي» أي: عَلَّنِي، ومنه قول العرب: «مَنْ عَزَّ بَرًّا»، أي: من غلب سلب. وقرأ أبو حيوة بتخفيف الزاي، قال أبو الفتح: أراد: عَزَّنِي، فحذف إحداهما تخفيفاً، كقول أبي زَيْيد:

.....
أَحْسَنَ بِهِ فَهْنُ إِلَيْهِ شُوسُ
قال أبو حاتم: ورويت بتخفيف الزاي عن عاصم، وقرأ ابن مسعود، وأبو الضحى، وعبيد بن عمير: «وَوَعَزَّنِي»، أي: غَالَّنِي. ومعنى قوله: «فِي الْخُطَابِ»، أي: كان أوجه مَنِي وأقوى، فإذا خاطبته كان كلامه أقوى من كلامي، وقوته أعظم من قوتي، فيروى أن داود عليه السلام لما سمع هذه الحجة قال للآخر: ما تقول؟ فأقرّ وألذ، فقال له داود: لئن لم ترجع إلى الحق لأكسرن الذي فيه عينك، وقال للثاني: «لَقَدْ ظَلَمَكَ»، فتبسما عند ذلك، وذهبا ولم يرهما لحينه، فشعر حينئذ للأمر، وروي أنهما ذهبا نحو السماء بمزأى منه، وقيل: بل بيئنا عليه فعله في تلك المرأة وزوجها، وقال له: إنما نحن مثال لك. وقال بعض الناس: إن داود قال: «لَقَدْ ظَلَمَكَ» قبل أن يسمع حجة الآخر، وهذه كانت خطيئته،

ولم تنزل به هذه النازلة المروية قط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف من جهات؛ لأنه خالف متظاهر الروايات، وأيضاً فقوله: «لَقَدْ ظَلَمَكَ» معناه أن ظهر صدقك ببيئة أو باعتراف، وهذا من بلاغة الحاكم التي تزد المعوج إلى الحق، وتفهمه ما عند القاضي من الفطنة. وقال الشعلبي: كان في النازلة اعتراف من المُدعى عليه حذف اختصاراً، ومن أجله قال داود عليه السلام: «لَقَدْ ظَلَمَكَ».

وقوله عليه السلام: «يُسْأَلُ تَعْيِكَ»، أضاف المصدر إلى المفعول. و«الْخُلَطَاءُ»: الأشرار والمتعاقبون في الأملاك والأموار، وهذا القول من داود وغظّ وبسط لقاعدة حق؛ ليحذر من الوقوع في خلاف الحق، و«تَأً» في قوله: «وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ» زائدة مؤكدة.

وقوله: «وَلَطَّنَ دَاوُدُ» معناه: شعر وعلم، وقالت فرقة: «وَلَطَّنَ» هنا بمعنى: أيقن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظن أبداً في كلام العرب إنما حقيقته توقف بين معتقدين يغلب أحدهما الآخر، وثوقه العربُ على العلم الذي ليس عن الحواس، ولا له اليقين التام البتة، ولكن يخلط الناس في هذا ويقولون: «ظَنَّ» بمعنى: أيقن، ولسنا نجد في كلام العرب شاهداً يتضمن أن يقال: رأى زيد كذا وكذا فظنّه، وانظر إلى قوله تعالى: «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا»، وإلى قول دريد بن الصمة:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِالْفَنِيِّ مُدْجِجٍ
سَرَاتِهِمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ
وإلى هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ﴾،
فإنك تجد بينها وبين اليقين درجة،
ولو فرضنا أهل النار قد دخلوها
وباشروها لم يقل: ﴿فَظَنُّوا﴾، ولا
استقام ذلك، ولو أخبر جبريل داود
بهذه الفتنة لم يعبر عنها بـ ﴿ظَنَّ﴾،
فإنما تُعبر العرب بها عن العلم الذي
يقارب اليقين وليس به، ولم يخرج
بعد إلى الإحساس.

وقرأ جمهور الناس: ﴿نَنَّهُ﴾ بفتح
الناء وشد النون، أي: ابتليناه
وامْتَحَنَاهُ، وقرأ عمر بن الخطاب
رضي الله عنه، وأبو رجاء، والحسن
- بخلاف عنه -: ﴿فَنَنَّهُ﴾ بشد الناء
والنون، على معنى المبالغة، وقرأ
أبو عمرو - في رواية علي بن
نصر -: ﴿فَنَنَّهُ﴾ بتخفيف الناء
والنون، على أن الفعل لِلْخُضْمِينَ،
أي: امْتَحَنَاهُ عن أمرنا، وهي قراءة
قتادة، وقرأ الضحاك: ﴿افْتَنَاهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَحَزَّ رَاكِعًا وَأَنَابٌ﴾،
أي: ألقى بنفسه نحو الأرض متطامناً
متواضعاً، والركوع والسجد:
الانخفاض والثرابي نحو الأرض،
وخصصتهما الشرائع على هيئات
معلومة، وقال قوم: يقال: «حَزَّ ثَمَ
ركم» وإن كان لم ينته إلى الأرض،
وقال الحسين بن الفضل: المعنى:
حَزَّ من ركوعه، أي: سَجَدَ بعد أن
كان راکعاً، وقال أبو سعيد الخدري
«رَأَيْتُنِي أَكْتُبُ سُورَةَ صَ، فَلَمَّا بَلَغْتَ
هَذِهِ الْآيَةَ سَجَدَ الْقَلَمُ، وَرَأَيْتُنِي فِي
مَنَامٍ آخَرَ وَشَجَرَةً تَقْرَأُ سُورَةَ صَ،
فَلَمَّا بَلَغْتَ هُنَا سَجَدْتُ، وَقَالَتْ:

اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا أَجْرًا،
واحطط عني بها وزراً،
وارزقني بها شكراً،
وتقبلها مني كما تقبلت من
عبدك داود، قال
النبي ﷺ: «وَسَجَدْتُ أَنْتَ
أَنْتَ يَا أَبَا سَعِيدٍ؟ فَقُلْتُ:
لَا، فَقَالَ: «أَنْتَ كُنْتَ
أَحَقَّ بِالسَّجْدَةِ مِنْ
الشَّجَرَةِ، ثُمَّ تَلَا
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْآيَاتِ
حَتَّى بَلَغَ «وَأَنَابٌ»
فَسَجَدَ، وَقَالَ كَمَا قَالَتْ
الشَّجَرَةُ. «وَأَنَابٌ»
معناه: رجع وتاب.

ويُروى عن مجاهد أن
داود عليه السلام بقي في

ركعته تلك لاصقاً بالأرض يبكي
ويدعو أربعين صباحاً حتى نبت
العشب من دمه، ويروى غير هذا
مما لا تثبت صحته، ويروى أنه لما
غفر الله له أمر المرأة قال: يا رب،
كيف لي بدم زوجها إذا جاء يطلبني
يوم القيامة؟ فأوحى الله إليه: إني
سأستوهبه لك يا داود، وأجعل له أن
يَهَبَهُ راضياً بذلك، فحينئذ سُرَّ داود
عليه السلام واستقرت نفسه، وروي
عن عطاء الخراساني، ومجاهد أن
داود عليه السلام نقش خطيئته في
كفه، فكان يراها دائماً ويعرضها على
الناس في كل حين من خطبه وكلامه
وإشارته وتصرفه تواضعاً لله وإقراراً،
وكان يسبح في الأرض ويصيح:
«إِلَهِي، إِذَا ذَكَرْتُ خَطِيئَتِي ضَاقتْ
عليَّ الأرض برحبها، وَإِذَا ذَكَرْتُ
رَحْمَتَكَ ارْتَدَّ إِلَى رُوحِي، سَبَحَانِكَ

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٥﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا آمَنًا وَعِشْوًا
الْمُصَلِّينَ كَمَا يَفْعِلُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ
﴿٢٦﴾ كُنْتُ أَمْرًا لَكَ إِنَّكَ لَنَذِيرٌ وَآيَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ يَرْجُونَ وَنَسْتَدْكُرُ أَوْلَا
الْأَلْبَابِ ﴿٢٧﴾ وَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ
﴿٢٨﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ الْغَيْثُ فَنَحَّاهُ فَنَحَّاهُ الْغَيْثُ فَنَحَّاهُ الْغَيْثُ فَنَحَّاهُ الْغَيْثُ
أَجَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٢٩﴾
رُدُّوهُنَّ إِلَى فُطُوفٍ مَسْنُوءٍ الشُّرْقُ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا
سُلَيْمَانَ وَالْأَقْيْنَ عَلَ بْنَ كُرَيْشٍ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣١﴾ فَقَالَ رَبِّ آفُقْ
لِي وَهَبْ لِي مَمْلُوكًا لَا أَبْحَثُ بِهَدْيِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٢﴾
فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَحْرِيًّا وَأَمْرًا رَمَقًا حَتَّى أَصَابَ ﴿٣٣﴾ وَالْأَقْيَيْنِ
كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ آخَرَيْنِ مُفْرَقَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٥﴾ هَذَا
عَطَاءُ بْنُ قَامَسٍ وَأَمْرًا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٦﴾ ثُمَّ آخَرَيْنِ مُفْرَقَيْنِ وَحَسَنَ
مَتَابٍ ﴿٣٧﴾ وَأَمْرًا بِغَيْرِ حِسَابٍ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَلَيْسَ لِي بِمُنَى الشَّيْطَانِ
يُضَيِّبُ وَعَدَابٍ ﴿٣٨﴾ كَرِهُنَّ يَوْمَ ذَلِكَ هَذَا مَغْسِلَ يَارَودَ وَشَرَابٍ ﴿٣٩﴾

إِلَهِي، أُنِيتْ أطباء الدين لِيُذَاوُوا
عَلَّتِي فكلُّهم عليك دَلَّتِي، وكان
يُدخل في صدر خطيئته الاستغفار
للخطائين، وما رفع رأسه إلى السماء
بعد خطيئته حياءً حتى قبض،
صلَّى الله تعالى على نبينا وعليه
وعلى جميع النبيين وسلَّم.

﴿٢٥﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿فَنَفَرْنَا لَمْ ذَلِكَ﴾
معناه: سترنا، و﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى
الذنب المتقدم، و﴿الزَّلْفَى﴾: القُربى
والمكانة الرفيعة. و﴿الْمَتَابُ﴾:
المرجع في الآخرة، من: آب يؤوب
إذا رجع. وبعد ذلك حذف يدلُّ عليه
ظاهر الكلام، تقديره: وقلنا
له: ﴿يَكْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾،
واستدل بعض أهل الظاهر من هذه
الآية على احتياج الأرض إلى خليفة
من الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا بلازم من الآية، بل لزومه من الشرع والإجماع، ولا يقال: «خليفة الله» إلا لرسوله، وأما الخلفاء فكل واحد منهم خليفة الذي قبله، وما يجيء في الشعر من تسمية أحدهم خليفة الله فذلك تجوز وغلو، كقول ابن قيس الرقيات:

خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي بَرِّيَّتِهِ
جَعَتْ بِذَلِكَ الْأَقْلَامُ وَالْكَتَبُ
أَلَا تَرَى أَنَّ الصَّحَابَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حَزَرُوا هَذَا الْمَعْنَى،
فَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ: خَلِيفَةُ
رَسُولِ اللَّهِ، فَبِهَذَا كَانَ يَدْعَى مَدَّتَهُ،
فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالُوا: يَا
خَلِيفَةَ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ، فَطَالَ
الْأَمْرُ، وَرَأَوْا أَنَّهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ
سَيَطُولُ أَكْثَرَ فِدَعُوهُ: أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،
وَقَصَرَ هَذَا الْأَسْمُ عَلَى الْخُلَفَاءِ.

وقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَيْتَ كَرُّ أُولَئِكَ الْآلَتِ﴾ اعتراض بين
الكلامين من أمر داود وسليمان،
وهو خطاب لمحمد ﷺ، وعظمة
لأُمته، ووعيد للكفرة به. وقرأ أبو
حيوة: ﴿يُضِلُّونَ﴾ بضم الباء،
و﴿نُؤَا﴾ معناه - في هذه الآية -:
تركوا.

وأخير تبارك وتعالى أن الذين كفروا
يظنون أن خلق السموات والأرض
وما بينهما إنما هو باطل لا معنى له،
وأن الأمر ليس يؤول إلى ثواب
وعقاب، وأخبر تعالى عن كذب
ظنهم، وتوعدهم بالنار. ثم وَقَفَ
على الفرق - عنده - بين المؤمنين
العاملين بالصالحات، وبين

المفسدين الكفرة، وبين المثقين
والفُجَّار، وفي هذا التوقيف حضٌ
على الإيمان وترغيب فيه، ووعيد
للكفرة.

ثم أحال في طلب الإيمان والتقوى
على كتابه العزيز بقوله: ﴿يَكْتُبُ
أَنزَلْنَاهُ﴾، والمعنى: هذا كتاب لمن
أراد التمسك بالإيمان والقربة إلينا،
وفي هذه الآية اقتضاب وإيجاز
بديع، كإعجاز كل القرآن العزيز.
وصفه بالبركة لأن أجمعها فيه؛ لأنه
يورث الجنة، ويُنقذ من النار،
ويحفظ المرأة في حال الحياة الدنيا،
ويكون سبب رفعة شأنه في الحياة
الآخرة. وقرأ الجمهور: ﴿لِيَتَذَكَّرُوا﴾
بالياء وشد الدال والباء، والضمير
للعالم، وقرأ حفص عن عاصم:
﴿لِيَتَذَكَّرُوا﴾ بالتاء على المخاطبة،
وقرأ أبو بكر عنه بتخفيف الدال،
أصله: تتدبروا، وظاهر هذه الآية
يقتضي أن التذبر من أسباب إنزال
القرآن، فالترتيل إذاً أفضل لهذا؛ إذ
التذبر لا يكون إلا مع الترتيل، وباقي
الآية بين.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:
الْهَبَّةُ وَالْعَطِيَّةُ بمعنى واحد،
فوهب الله تعالى سليمان لداود
عليهما السلام ولداً، وأثنى عليه
بأوصاف من المدح تضمنها قوله
تعالى: ﴿يَغْمُ الْكَبِدَ﴾، و﴿أَرَابُ﴾
معناه: رجاء، ولفظة ﴿أَرَابُ﴾ هي
العامل في [إذ]؛ لأن أمر الخيل
مقتضٍ أوبة عظيمة.

واختلف المتأولون في قصص هذه
الخيال المعروضة - فقال الجمهور:
إن سليمان عليه السلام عرضت عليه

آلاف من الخيل تركها أبوه له -
وقيل: ألف واحد - فأجريت بين
يديه عشاء، فتشاغل بحسنها وجريها
ومحبتها حتى فاتته وقت صلاة
العشاء، - قال قتادة: صلاة العصر،
وَرَوَى عن علي بن أبي طالب
رضي الله عنه - فأسف لذلك،
وقال: رُدُّوا عَلَيَّ الْخَيْلَ، وقال
الحسن: فطفق يضرب أعناقها
وعراقيها بالسيف عرقاً لها لما كانت
سبب فوت الصلاة، فأبدله الله تعالى
أسرع منها الريح، وقال قوم - منهم
الثعلبي -: كانت بالناس مجاعة،
ولحوم الخيل لهم حلال، فإنما
عقرها لتؤكل على وجه القربة بها،
كالهذي عندنا، ونظير هذا ما فعله
أبو طلحة الأنصاري بحائطه؛ إذ
تصدق به لما دخل عليه الدُّبْسِي وهو
في الصلاة فشغله.

و «الصَّافِنُ»: الفرس الذي يرفع
إحدى يديه ويقف على طرف
سُنْبِيهِ، وقد يفعل ذلك برجله، وهي
علامة الفَرَاة، وأشدُّ الرَّجَاجِ:

أَلِفٌ الصُّفُونُ فَلَا يَزَالُ كَأَنَّهُ
مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا
وقال أبو عبيدة: الصَّافِنُ: الذي
يجمع يديه ويسويهما، وأما الذي
يقوم على طرف السُنْبِكِ فهو
المخيم، وفي مصحف ابن مسعود:
«الصُّوْفَنُ الْجِيَادُ»، و«الْجِيَادُ»:
جمع جَوْدٍ، كثُوبٌ وثياب، وسُمِّيَ
به لأنه يجود بجريه.

وقال بعض الناس: «الْخَيْرُ» هنا
أراد به: الخيل، والعرب تسمي
الخيال الخير، وكذلك قال عليه
الصلاة والسلام لزيد الخيل: «أَنْتَ

زَيْدُ الْخَيْرِ، وَ﴿حَبَّ﴾ مفعول به نصب لذلك عند فرقة، كأن ﴿أَحَبَّتْ﴾ بمعنى: أثرت. وقالت فرقة: المفعول بـ﴿أَحَبَّتْ﴾ محذوف، و﴿حَبَّ﴾ نصب على المصدر، أي: أَحَبَبْتُ هذه الخيل حُبَّ الخير، ويكون ﴿الْخَيْرِ﴾ - على هذا التأويل - غير الخيل، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿حُبَّ الْخَيْلِ﴾ باللام. وقالت فرقة: ﴿أَحَبَّتْ﴾ معناه: سَقَطْتُ إلى الأرض لذنبي، مأخوذ من: أَحَبَّ البعيرُ إذا أَعْيَا وَسَقَطَ هُزَالاً، و﴿حَبَّ﴾ - على هذا - مفعول من أجله.

والضمير في ﴿تَوَارَتْ﴾ للشمس وإن كان لم يجر لها ذكرٌ صريح، إلا أن المعنى يقتضيها مذكورة ويتضمنها؛ ولأن العشيَّ يقتضي لها ذكراً إذ هو مُقَدَّر متوهم بها. وقال بعض المفسرين في هذه الآية: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يريد به الخيل، أي: دخلت اصطبلاتها.

وقال ابن عباس، والزهرائي: إن مَسَحَهُ بالسَّوْقِ والأعناق لم يكن بالسيف، بل بيده تكريماً لها ومحبةً، ورجحه الطبري، وقال بعضهم: بل غسلًا بالماء، وقد يقال للغسل مسح لأن المسح بالأيدي يقترب به. وهذه الأقوال عندي إنما تترتب على نحو من التفسير في هذه الآية، ورؤي عن بعض الناس. وذلك أنه رأى أن هذه القصة لم يكن فيها فوت صلاة، ولا تَضَمُّن أمر الخيل أوبةً ولا رجوعاً. فالعامل في [إِذَا] فعلٌ مضمَرٌ تقديره: اذكر إذ عُرِضَ، وقالوا: عُرِضَ على سليمان الخيل وهو في الصلاة،

فأشار إليهم، أي: إني في الصلاة، فأزالوها عنه حتى أدخلوها الاصطبلات، فقال هو لما فرغ من صلاته: ﴿إِنِّي أَحَبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾، أي الذي عند الله في الآخرة، بسبب ذكر ربي، فكأنه يقول: فشغلني ذلك عن رؤية الخيل، حتى أدخلت اصطبلاتها، ردوها عليّ، فطفق يمسح أعناقها وسوقها محبةً لها. وذكر الثعلبي أن هذا المسح إنما كان وشماً في السَّوْقِ والأعناق بوسم حَبَسَ في سبيل الله تعالى. وجمهور الناس على أنها كانت خيلاً موروثة. قال بعضهم: قتلها حتى لم يبق منها أكثر من مائة فرس، فمن نسل تلك المائة كل ما يوجد اليوم من الخيل. وهذا بعيد. وقال بعضهم: كانت خيلاً أخرجها الشيطان له من البحر، وكانت ذوات أجنحة، ورؤي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنها كانت عشرين فرساً، و﴿تَطَفَّقَ﴾ معناه: دام يفعل، كما تقول: جعل يفعل.

وقرأ الجمهور: ﴿بِالسَّوْقِ﴾ بواو ساكنة، وهو جمع ساق، وقرأ ابن كثير وحده بالهمز، قال أبو علي: وهي ضعيفة، ولكن وجهها في القياس أن الضمة لما كانت تلي الواو، قُدِّرَ أنها عليها فهمزت كما يفعلون بالواو المضمومة، وهذا نظير إِمَالَتِهِمْ أَلْفَ «مَقَلَاتٍ» من حيث وَلِيَتْ القاف الكسرة قَدَّرُوا أن القاف هي المكسورة.

وَوَجْهُ هَمْزِ (السَّوْقِ) هي أن أبا حية الثُمَيْرِي كان يهزم كل واو ساكنة

قبلها ضمة، وكان يُثْبِتُ:

أَحَبَّ أَلْمُؤَرِّدَانِ إِلَيْكَ مُؤَسَّى

وقرأ ابن محيصن: ﴿بِالسَّوْقِ﴾ بهمزة بعدها واو. وقوله: ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ على كل تأويل فإن ﴿عَنْ﴾ هنا للمجازاة من شيء إلى شيء، فتدبره فإنه مطرد.

ثم أخبر تعالى عن فِئْتِهِ لسليمان، وامتحانه إياه بزوال مُلْكِهِ، ورؤي في ذلك أن سليمان عليه السلام قالت له حِظِّيَّةٌ من حظاياها: إن أخي له خصومة، فأرغب أن تقضي له بكذا وكذا، لشيء غير الحق، فقال سليمان عليه السلام: أفعل، فعاقبه الله تعالى بأن سلَّطَ على خاتمه جنياً، وذلك أن سليمان عليه السلام كان لا يدخل الخلاء بخاتم ملكه توقيراً لاسم الله تعالى، فكان يضعه عند امرأة من نسائه، ففعل ذلك يوماً، فألقى الله تعالى شَبَهَهُ على جني اسمه صخر - فيما رؤي عن ابن عباس رضي الله عنهما -

وقيل غير هذا مما اختصرناه لعدم الصحة، فجاء إلى المرأة فدقعت إليه الخاتم، فاستولى على ملك سليمان وبقي فيه أربعين يوماً، وطرح خاتم سليمان في البحر، وجعل يعبث في بني إسرائيل وشَبَهُ سليمان عليه السلام عليه، حتى أنكروا أفعاله، ومكَّنه الله تعالى من جميع الملك، قال مجاهد: إلا من نساء سليمان فإنه لم يكشفهن، وكان سليمان عليه السلام خلال ذلك قد خرج فاراً على وجهه مُنْكَرًا، لا ينتسب لقوم إلا ضربوه، وأدركه جوعٌ وفاقة، فمُرَّ

يوماً بامرأة تغسل حوتاً ميتاً، فسألها منه لجوعه، وقيل: بل اشتراه فأعطته حوتين، وجعل يفتح أجوافهما، وإذا خاتمه في جوف أحدهما، فعاد إليه ملكه، وسُخِّرَ له الجِنُّ والريح من ذلك اليوم، وفرَّ صخر الجنِّي، فأمر به سليمان فيبقي إليه، فأطبق عليه في حجارة، وسجنه في البحر إلى يوم القيامة، فهذه هي الفتنة التي فتن سليمان عليه السلام واشتجن بها.

واختلف الناس في الجسد الذي ألقى على كرسيه - فقال الجمهور: هو الجنِّي المذكور، سمَّاه «جَسَداً» لأنه كان قد تمثَّل في جسد سليمان عليه السلام ولُبَّسَ به، وهذا أصحُّ الأقوال وأبينُّها معنى. وقالت فرقة: بل ألقى على كرسيه جسد ابن له ميّت، وقالت فرقة: بل شِئُّ الولد الذي وُلِدَ له حين أقسم ليطوَّقَنَّ على نسائه ولم يستثن في قَسَمه، وقال قوم: مرض سليمان عليه السلام مرضاً كالإغماء حتَّى صار على كرسيه جسداً كان بلا روح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله غير متصل بمعنى هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿أَنَابَ﴾ معناه: ارعوى وانثنى وأجاب إلى طاعة ربه، ومعنى هذا: من تلك الحَوِيَّة التي وقعت الفتنة بسببها.

ثم إن سليمان عليه السلام استغفر ربَّه، واستوهبه ملكاً، واختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿لَا يَبْقَى لِأَحَدٍ مِنَّا بَقِيَّةٌ﴾ - فقال الجمهور: أراد أن يفرده به بين البشر لتكون خاصة له وكرامة، وهذا هو الظاهر

من قوله عليه الصلاة والسلام في خبر العفريت الذي ظهر له في صلاته، فأخذه وأراد أن يؤثقه بسارية من سواري المسجد، قال: «ثم ذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْنِرْ لِي وَعَبِّ لِي مَلَكاً لَا يَبْقَى لِأَحَدٍ مِنَّا بَقِيَّةٌ﴾ فأرسلته»، وقال قتادة، وعطاء بن أبي رباح: إنما أراد سليمان عليه السلام: لا ينبغي لأحد من بعدي مدة حياتي، أي: لا أُنْصَلِّبه ويصير إلى أحد كما صار الآن إلى الجنِّي.

وزوي في مثالب الحجاج بن يوسف أنه لما قرأ هذه الآية قال: «لقد كان حسوداً»، وهذا من فسق الحجاج، وسليمان عليه السلام مقطوع أنه إنما قصد بذلك قصداً بَرّاً جائزاً؛ لأنَّ للإنسان أن يرغب من فضل الله فيما لا يناله أحد، لا سيما بحسب المكانة والنبوة، وانظر أيضاً إلى قوله عليه السلام: ﴿لَا يَبْقَى﴾، فإنما هي لفظة محتملة وليست بقطع في أنه لا يعطي الله تعالى نحو ذلك الملك لأحد، ومحمد ﷺ لو ربط الجنِّي لم يكن ذلك نقصاً لما أوتيهِ سليمان عليه السلام، لكن لما كان فيه بعض الشبه تركه جزئياً منه عليه الصلاة والسلام على اختياره أبداً أنسر الأمرين وأقربهما إلى التواضع.

﴿٣٦﴾ - تفسير قوله عز وجل:

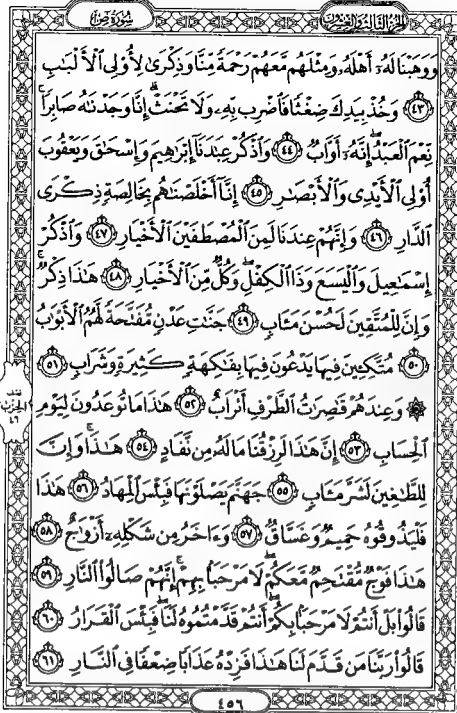
قرأ الحسن، وأبو رجاء: ﴿الزَّيَّاحَ﴾، والجمهور على الإفراد، وسُخِّرَ الله تعالى الريح لسليمان عليه السلام، وكان له كرسِيٌّ عظيم، يقال: إنه يحمل أربعة آلاف فارس، ويقال: أكثر، وفيه الشياطين، وتُظْلَمُ

الطير، وتأتي عليه الريح الإعصار فتُفْلَهُ من الأرض حتَّى يحصل في الهواء، ثم تتولاه الرخاء - وهي اللينة القوية المتشابهة لا تأتي فيها دُفْعُ مفرطة - فتحمله، غُدُوها شهر، وَرَوَّاحها شهر ﴿جَنَّتْ أَسَابَ﴾ أي: أراد، قاله وهبٌ وغيره، وأنشد الثعلبي:

أَصَابَ الْكَلَامَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ
فَأَخْطَا الْجَوَابَ لَدَى الْمَفْصَلِ
يُشَبِّهُ أَنَّ «أَسَابَ» مُعْدَى: صَابَ يَصُوبُ، أي: حيث وجه جنوده وجعلهم يصوبون صوب السحاب والمطر. وقال الزجاج: معناه: قَصَدَ، كذلك قولك للمتكلم: «أَصَبْتَ» معناه: قصدت الحق.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ بَنَاءٍ وَرَعَايَ﴾ بدلٌ من «الشَّيْطَانِ»، والمعنى: كل من بنى مصانعه للحروب. و«مُتَّقِينَ» معناه: مؤثقين، قد قرن بعضهم ببعض، و«الْأَصْفَادِ»: القيود والأغلال.

واختلف الناس في المشار إليه بقوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ - فقال قتادة: إشارة إلى ما فعله بالجن، فامتنن على مَنْ شِئْتُ منهم، وأطلقه من وثاقه وسرَّحه من خدمته، أو أُمْنِيكَ أَمْرُهُ كما تريد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أشار إلى ما وهبه من النساء وأقدره عليهن من جماعهن، وقال الحسن: أشار إلى ما أعطاه من الملك، وأمره بأن يُنَزَّ على من يشاء ويُمسك عمن يشاء، فكانه وقفه على قدر النعمة ثم أباح له التصرف فيه بمشيئته، وهو تعالى قد علم بأن مشيئته إنما تتصرف



من أجله كانت المحنة؛ إما ترك التغيير عند الملك، وإما ترك مواساة الجار، وقيل: أشار إلى منسه إياه في تعرضه لأهله، وطلبه منه أن يشرك بالله، وكان أيوب قد تشكى هذا الفعل، وكان أشد عليه من مرضه.

وقرأ الجمهور: ﴿أَن﴾ بفتح الهمزة، وكسرهما عيسى بن عمر، وهي في موضع نصب بإسقاط حرف الجر، وقرأ جمهور الناس: ﴿نُصِبَ﴾ بضم النون وسكون

بحكم طاعة الله. وهذا أصح الأقوال وأجمعها لتفسير الآية. وباقي الآية بين.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: أيوب هو نبي من بني إسرائيل، من ذرية يعقوب عليهما السلام، وهو المُنْتَلَى في جسده وماله وأهله، وسَلِمَ معتقده ودينه.

وروي في ذلك أن الله تعالى سلط الشيطان عليه ليفتنه عن دينه، فأصابه في ماله، وقال له: إن أعطتني رجع مالك، فلم يطعه، فأصابه في أهله وولده فهلكوا عن آخرهم، وقال له: إن أعطتني رجعوا، فلم يطعه، فأصابه في جسده، فثبت أيوب على أمر الله تعالى سبع سنين وسبعة أشهر. قاله قتادة، وروى أنس عن النبي ﷺ أن أيوب عليه السلام بقي في محنته ثمانين عشرة سنة يتساقط لحمه حتى ملأ العالم، ولم يصبر عليه إلا أمرأته. وروي أن السبب الذي امتحنه الله تعالى من أجله أنه دخل على بعض الملوك فرأى منكراً فلم يغيره، وروي أن السبب أنه ذبح شاة وطبخها وأكلت عنده وجاره جائع لم يعطه منها شيئاً، وروي أن أيوب لما تناهى بلاؤه وصبره مر به رجلان يَمْنُ كان بينه وبينهما معرفة ففَرَّعَاهُ وقالاً له: لقد أذنبت ذنباً ما أذنب أحد مثله، وفهم منهما شَمَاتاً به، فعند ذلك دَعَا ونادى ربّه.

وقوله عليه السلام: ﴿سَنَى الشَّيْطَانُ﴾ يحتمل أن يشير إلى منسه حين سلطه الله عليه حسبما ذكرنا، ويحتمل أن يريد منسه إياه حين حمله أول الأمر على أن يواقع الأمر الذي

ومنه قول النابغة:

كَلَيْلِي لِيَهْمَ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد قيل في هذا البيت: إن «ناصب» بمعنى «مُنْصِب»، وإنه على التَّسْب، أي: ذا نصب.

وهنا في الآية محذوف كثير، تقديره: فاستجاب له وقال له: ﴿أَرْكَضَ بِرِجْلِكَ﴾، والركض: الضرب بالرجل، والمعنى: اركض الأرض، وروي عن قتادة أن هذا الأمر كان في الجابية من أرض الشام، وروي أن أيوب عليه السلام أمر بركض الأرض فركض فيها فنبعت له عين ماء صافية باردة، فشرب منها فذهب كل مرض في داخل جسده، ثم اغتسل فذهب ما كان في ظاهر بدنه، وروي أنه ركض مرتين، ونبع له

الصاد، وقرأ هبيرة عن حفص عن عاصم بفتحهما، وهي قراءة الجحدري، ويعقوب، ورويت عن الحسن، وأبي جعفر، وقرأ أبو عمارة عن حفص عن عاصم: ﴿بِئْصَبٍ﴾ بضم النون والصاد، وهي قراءة أبي جعفر بن القعقاع، والحسن - بخلاف عنه - وروى أيضاً هبيرة عن حفص عن عاصم بفتح النون وسكون الصاد. وذلك كله بمعنى واحد، معناه: المشقة، وكثيراً ما يستعمل «التَّصَبُّ» في مشقة الإعياء. وقرئ بعض الناس بين هذه الألفاظ، والصواب أنه لغات من قولهم: «أَتَصَبَّنِي الأمرُ» وَتَصَبَّنِي إِذَا شَقَّ عَلِي، فمن ذلك قول الشاعر:

تَعَنَّكَ نَصَبٌ مِنْ أُمَيْمَةَ مُنْصِبٍ

.....

عينان شرب من إحداهما واغتسل في الأخرى. وقرأ نافع، وشيبة، وعاصم، والأعمش: ﴿وَعَذَابُكَ زَكِيٌّ﴾ بضم نون التنوين، وقرأ عاتمة قراءة البصرة بكسرهما. و﴿مُتَّسِلٌ﴾ معناه: موضع غسل، وماء غُسل، كما تقول: هذا الأمر مُتَّعِبٌ، وهذا الماء مُتَّسِلٌ مثله.

وروي أن الله تعالى وهب له أهله وماله في الدنيا، ورَدَّ من مات منهم وما هلك من ماشيته، ثم بارك في جميع ذلك، ووَلِدَ له الأولاد حتى تضاعفت الحال، وروي أن هذا كله وعد في الآخرة، أي: يفعل الله له ذلك في الآخرة. الأول أكثر في قول المفسرين. و﴿رَحِمْتَ﴾ نصب على المصدر، وقوله تعالى: ﴿وَذَكَّرْنَا﴾ معناه: موعظة وتذكرة يعتبر بها أولو العقول، ويتأسَّون ببصيره في الشدائد، ولا يئأسون من رحمة الله تعالى على كل حال. وروي أن أيوب كانت زوجته مُدَّة مرضه تختلف إليه فيلقاها الشيطان في صورة طبيب، ومرة في هيئة ناصح، وعلى غير ذلك، فيقول لها: لو سجد هذا المريض للصنم الفلاني لبريء، ولو ذبح عناقاً للصنم الفلاني لبريء، ويعرض عليها وجوهاً من الكفر، فكانت ربما عرضت ذلك على أيوب، فيقول لها: أَلْقَيْتِ عدوَّ الله في طريقك؟ فلما أغضبه بهذا ونحوه حلف لئن برى من مرضه ليضربنَّها مائة سوط، فلما برى أمره الله تعالى أن يأخذ ضغثاً فيه مائة قضيب. و﴿الضُّغْثُ﴾: القبضة الكبيرة من القضبان ونحوها

من الشجر الرطب، قاله الضحاك وأهل اللغة، فيضرب به ضربة واحدة فتبرَّ يمينه، ومنه قولهم: «ضَغْثٌ عَلَى إِبَالَةٍ»، والإبالة: الحُزْمَة من الحطب، قال الشاعر:

وَأَسْفَلَ مِنِّي نَهْدَةً قَدْ رَبَطْتُهَا
وَأَلْقَيْتُ ضِغْثاً مِنْ خَلَا مُتَطَيَّبٍ
وهذا حكم قد ورد في شرعنا عن النبي ﷺ مثله في حدِّ رجل رَمَى بالزُّنَى، فأمر رسول الله ﷺ بعذق فيه مائة شمرخ أو نحوها، فُضِرْبَ به ضربة، ذكر الحديث أبو داود، وقال به بعض فقهاء الأمة، وليس يرى ذلك مالك وأصحابه، وكذا جمهور العلماء على ترك القول به، وأن الحدود والبرَّ في الإيمان لا يقع إلا بتمام عدد الضربات.

٢٥٩ - ٢٦٠ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن كثير: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ على الأفراد، وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما وأهل مكة، وقرأ الباقون: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَكَ﴾ على الجمع، فأما على هذه القراءة فدخل الثلاثة في الذكر وفي العبودية، وأما على قراءة من قرأ: ﴿عَبْدَنَا﴾ فقال مكِّي وغيره: دخلوا في الذكر، ولم يدخلوا في العبودية إلا من غير هذه الآية، وفي هذا نظر، وتأول قوم من المتأولين من هذه الآية أن الذبيح إسحق، من حيث ذكر الله تعالى بعقب ذكر أيوب أنبياء امتحنهم بمحن كما امتحن أيوب، ولم يذكر إسماعيل لأنه يَمَن لم يُمْتَحَن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا ضعيف كله.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوَّلِ الْآيِدِي﴾،

وقرأ الحسن، والثقفى، والأعمش، وابن مسعود: ﴿أَوَّلِي الْآيِدِ﴾ بحذف الياء، وأما (أَوَّلُو) فهو جمع (ذُو)، وأما القراءة الأولى فـ ﴿الْآيِدِي﴾ فيها عبارة عن القوة في طاعة الله، قاله ابن عباس، ومجاهد. وقالت فرقة: بل معناه، أولي الأيدي والنعم التي أسداها الله تعالى إليهم: من النبوة والمكانة. وقال قوم: المعنى: أيدي الجوارح، والمراد الأيدي المتصرفة في الخير، والأبصار الثابتة فيه، لا كالتى هي مهملة في جلِّ الناس. وأما من قرأ: ﴿الْآيِدِ﴾ بغير ياء فيحتمل أن تكون كالتى بالياء وحذفت تخفيفاً، ومن حيث كانت الألف واللام تعاقب التنوين وجب أن تحذف معها كما تحذف مع التنوين. وقالت فرقة: ﴿الْآيِدِ﴾ معناها: القوة، والمراد: في طاعة الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَبْصَرُ﴾ عبارة عن البصائر، أي: يُبْصِرُونَ الحقائق، وينظرون بنور الله تعالى، وينحو هذا فسر الجميع.

وقرأ نافع وحده: ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى﴾ على الإضافة، وهي قراءة أبي جعفر، والأعرج، وشيبة. وقرأ الباقون: ﴿بِخَالِصَةِ ذِكْرَى﴾ منوناً، وقرأ الأعمش: ﴿بِخَالِصَتِهِمْ ذِكْرَى﴾، وهي قراءة طلحة، ويحتمل أن تكون ﴿خَالِصَةً﴾ اسم فاعل، كأنه عبَّر بها عن مَزِيَّة أو رُتَبَة، فأما من أضافها فـ ﴿ذِكْرَى﴾ مخفوض بالإضافة، وأما من تَوَّنَ فـ ﴿ذِكْرَى﴾ بدلٌ من ﴿خَالِصَةٍ﴾، ويحتمل أن تكون ﴿خَالِصَةً﴾ مصدراً كالعافية، وكخاتنة الأغين، وغيرها،

فـ ﴿ذِكْرَى﴾ - على هذا - إما أن يكون في موضع نصب بالمصدر على تقدير: إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِأَنْ أَخْلَصْنَا لَهُمْ ذِكْرَى الدار، وتكون ﴿عَالِمَةً﴾ مصدرًا، من: أَخْلَصَ، على حذف الزوائد، وإما أن يكون ﴿ذِكْرَى﴾ في موضع رفع بالمصدر، على تقدير: إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِأَنْ خَلَصْتُ لَهُمْ ذِكْرَى الدار، وتكون ﴿عَالِمَةً﴾ من: خَلَصَ. و﴿الْدَارُ﴾ في كل وجه في موضع نصب بـ ﴿ذِكْرَى﴾، و﴿ذِكْرَى﴾ مصدر. وتحتل الآية أن يريد بالدار الدَارُ الآخرة، على معنى: أَخْلَصْنَاهُمْ بِأَنْ خَلَصَ لَهُمُ التذكير بالدار الآخرة، ودعا الناس إليها وحضهم عليها، وهذا قول قتادة، أو على معنى: خَلَصَ لَهُمْ ذِكْرُهُم للدار الآخرة، وخوفهم لها، والعمل بحسب ذلك، وهذا قول مجاهد، وقال ابن زيد: المعنى: إِنَّا وَهَبْنَاهُمْ أَفْضَلَ مَا فِي الدَارِ الآخرة، وَأَخْلَصْنَاهُمْ بِهِ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ إِيَّاهُ. ويحتمل أن يريد بالدار دار الدنيا، على معنى ذكر الثناء والتعظيم من الناس، والحمد الباقي الذي هو الخلد المجازي به، فتجيء الآية في معنى قوله تعالى: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾، وفي معنى قوله: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾.

و ﴿الْمُطَفِّئِينَ﴾ أصله: المصطفئيين، تحركت الياء، وما قبلها مفتوح فانقلبت ألفًا، ثم اجتمع سكون الألف وسكون الياء التي هي علامة الجمع فحذفت الألف. و﴿الْأَخْيَارِ﴾ جمع خير، وخيرٌ

مخفف من خَيْرٍ، كَمِيتٍ ومِيتٍ. وقرأ حمزة والكسائي ﴿وَاللَّيْسَ﴾، كأنه أدخل لام التعريف على (لَيْسَ) فأجراه مجرى ضَيْغَمٍ ونحوه، وهي قراءة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - والكوفيين. وقرأ الباقون: ﴿وَالَيْسَ﴾، قال أبو علي: الألف واللام فيه زائدتان غير معروفتين، كما هي في قول الشاعر: وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُوًا وَعَسَاقِلًا وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَنَاتِ الْأَوْزِيرِ وَ «بَنَاتُ أَوْزِرٍ»: ضربٌ من الكمأة. واختلف في نبوة (ذِي الْكِفْلِ)، وقد تقدم تفسير أمره.

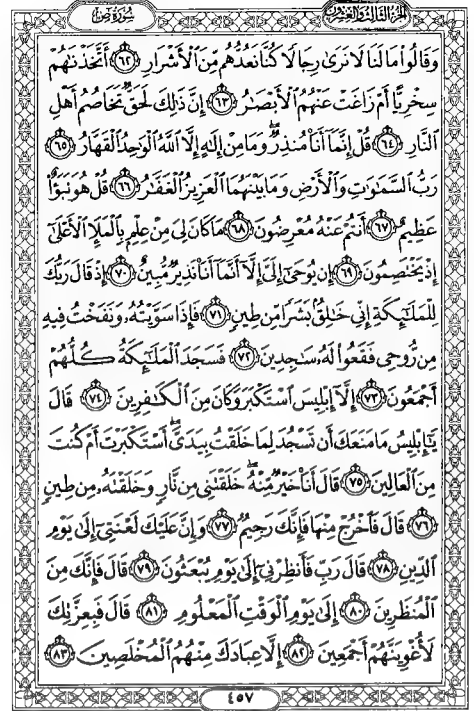
وقوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يشير إلى مدح من ذكر وإبقاء الشرف له ميتاً فيتأكد بهذا التأويل قول من قال آنفاً: إن «الدار» يراؤ بها الدار الدنيا، والثاني أن يشير بـ ﴿هَذَا﴾ إلى القرآن، أي: هو ذكر للعالم. و«المآب»: المرجع حيث يؤوبون، و﴿جَنَّتْ﴾ بدل من ﴿حَنَ﴾، و﴿فُتِنَتْ﴾ نعت للجئات، و﴿الْأَتْرَابَ﴾ مفعول لم يُسم فاعله، والتقدير عند الكوفيين: مَفْتَحَةٌ لَهُمْ أَبْوَابُهَا، ولا يجوز ذلك عند أهل البصرة، والتقدير عندهم: الأبواب منها، وإنما دعا إلى هذا الضمير أن الصفة لا بد أن يكون فيها عائد على الموصوف.

و﴿قَصِيرَتِ الظَّرِي﴾، قال قتادة: معناه: على أزواجهن، و﴿أَنْزَابٍ﴾ معناه: أمثال، وأصله في بني آدم أن تكون الأسنان واحدة، أي: مُسْتَأْجِسَادُهُم التراب في وقت واحد. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو:

﴿يُوعَدُونَ﴾ بالياء من تحت، واختلفا في سورة [آ]، فقرأ أبو عمرو بالتاء من فوق، وقرأ الباقون في السورتين بالتاء، و«الثَّاقِدُ»: الفناء والانتضاء.

﴿٥٥﴾ - ﴿٦١﴾ تفسير قوله عز وجل: التقدير: الأمر هذا، ويحتمل أن يكون التقدير: هذا واقع، أو نحوه، و«الطَّاعِي»: الْمُفْرِطُ فِي الشَّرِّ، مأخوذ من: طغى يطنى، والطغيان هنا في الكفر، و«المآب»: المرجع، و﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل من قوله: ﴿لَنْتَرَّ مَتَابٍ﴾، و﴿يَصَلُّونَهَا﴾ معناه: يباشرون حرماً وحرقتها، و﴿لِلْهَادِ﴾: ما يفرشه الإنسان ويتصرف به.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذوقُوا﴾ يحتمل أن يكون ﴿هَذَا﴾ ابتداء، والخبر ﴿جِيءَ﴾، ويحتمل أن يكون التقدير: الأمر هذا فليذوقوه، ويحتمل أن يكون ﴿هَذَا﴾ في موضع نصب بفعل يدل عليه ﴿فَلْيَذوقُوا﴾، و﴿جِيءَ﴾ - على خبر ابتداء مضمر. قال ابن زيد: الحميم: دموعهم تجتمع في حياض فيسقونها. وقرأ الجمهور: ﴿وَعَسَاقٍ﴾ بتخفيف السين، وهو اسم بمعنى السائل، وروي عن قتادة أنه ما يسيل من صديد أهل النار، ويروى عن السدي أنه ما يسيل من عيونهم، ويروى عن كعب الأحبار أنه ما يسيل من حمة عقارب النار، وهي - يُقَالُ - مجتمعة في عين هنالك، وقال الضحاك: هو أشد الأشياء برداً، وقال عبد الله بن بُريدة: هو أثن الأشياء، وروى ذلك أبو سعيد عن النبي ﷺ. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿وَعَسَاقٍ﴾ بتشديد السين،



الواحد من حيث ذلك الواحد درجات ورُتَّب من العذاب، وقوي وأقل منه، وأيضاً فمن جهة أخرى على أن يُسمَّى كل جزء من ذلك باسم الكل، كما قالوا: «شابت مفارقته»، فجعلوا كل جزء من المَفرق مَفرقاً، وكما قالوا: «جمل ذو غنَّابين»، ونحو هذا، ألا ترى أن جماعة من المفسرين قالوا: إن هذا الآخر هو الزمهير، فكانهم جعلوا كل جزء منه زمهيراً. وقرأ أبو عمرو وحده: «وَأُخْرُ» على الجمع،

وهي قراءة الحسن، ومجاهد، والجحدري، وابن جبير، وعيسى، وهو رفع على الابتداء، وخبره «أَزْوَاجٌ»، و«مِنْ شَكْلِهِ» في موضع الصفة. ورجع أبو عبيد هذه القراءة، وكذلك أبو حاتم لكون الصفة جمعاً، ولم ينصرف (أُخْرُ) لأنه معدول عن الألف واللام صفة، وذلك أن حق (أَفْعَل) وجمعه ألا يستعمل إلا بالألف واللام، فلما استعملت (أُخْرُ) دون الألف واللام كان ذلك عدلاً لها، وجاز في (أُخْرُ) أن يوصف بها النكرة كقوله تعالى: «فَبَعْدُ مِنْ أَتَايَ أُخْرُ»، بخلاف جميع ما عُدل عن الألف واللام كشجر ونحوه في أنه لا يجوز أن توصف به النكرة لأن هذا العدل في (أُخْرُ) اعتُدَّ به في منع الصرف، ولم يعتد به في الامتناع من صفة النكرة،

كما يعتدون بالشيء في حُكْم دون حُكْم، نحو اللام في قولهم: «لا أبا لك»، واللام المتصلة بالكاف اعتُدَّ بها فاصلة للإضافة، ولذلك جاز دخول (لا)، ولم يُعتدَّ بها في أن أعرب (أبا) بالحرف، وشأنه - إذا انفصل ولم يكن مضافاً - أن يعرب بالحركات، فجاءت (اللام) ملغاة الحكم من حيث أعرب بالحركات كأنه مضاف، وهي مُتَعَدِّ بها فاصلة في أن جَوُزَتْ دخول (لا). وقرأ مجاهد: «مِنْ شَكْلِهِ» بكسر الشين. و«أَزْوَاجٌ» معناه: أنواع، والمعنى: لهم حميمٌ وعَسَاقٌ وأغذية أخرى من ضَرْب ما ذُكر ونحوه وأنواع كثيرة.

وقوله تعالى: «مَدَّ نَوْجٌ» هو مما يقال لأهل النار إذا سيق عاتة الكفار وأتباعهم؛ لأن رؤساءهم يدخلون النار أولاً، والأظهر أن قائل ذلك لهم ملائكة العذاب، وهو الذي حكاه الثعلبي وغيره، ويحتمل أن يكون ذلك من قول بعضهم لبعض، فيقول البعض الآخر: «لَا مَرَجًا بَيْنَهُمْ»، أي: لا سعة مكان ولا خير يلقونه. و«النَّوْجُ»: الفريق من الناس، وقوله تعالى: «بَلْ أَنتُمْ لَا مَرَجًا بَيْنَهُمْ» حكاية لقول الأنبياء حين سمعوا قول الرؤساء. و«أَنْتُمْ قَدْ شَبَّوْهُ لَنَا» معناه: بإغوائكم أسلفتم لنا ما أوجب هذا، فكأنكم فعلتم بنا هذا.

وقوله تعالى: «قَالُوا رَبَّنَا» حكاية لقول الأنبياء أيضاً، دعوا على رؤسائهم بأن يكون عذابهم مضاعفاً. (٦٦) - (٦٧) تفسير قوله عز وجل: الضمير في «قَالُوا» لأشراف الكفار ورؤسائهم، أخبر الله تعالى عنهم

بمعنى: سيال، وهي قراءة قتادة، وابن أبي إسحق، وابن وثاب، وطلحة. والمعنى فيه على نحو ما قدمناه من الاختلاف، غير أنها قراءة ضعف؛ لأن «عَسَاقاً» إما أن يكون صفة فيجبيء في الآية حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، وذلك غير مستحسن هنا، وإما أن يكون اسماً فالأسماء على هذا الوزن قليلة في كلام العرب كالقياد ونحوه.

وقرأ جمهور الناس: «وَأُخْرُ» بالإنفراد، وهو رفع بالابتداء، واختلف في تقدير خبره - فقالت طائفة: تقديره: ولهم عذاب آخر، وقالت طائفة: خبره «أَزْوَاجٌ»، و«مِنْ شَكْلِهِ» في موضع الصفة، ومعنى «مِنْ شَكْلِهِ»: من مثله وضربه، وجاز - على هذا القول - أن يُخبر بالجميع الذي هو «أَزْوَاجٌ» عن

أنهم يتذكرون - إذا دخلوا النار - لقوم من مستضعفي المؤمنين، فيقولون هذه المقالة، وهذا مطرد في كل أمة جاءها رسول، وروي أن القائلين من كفار عصر النبي ﷺ هم: أبو جهل بن هشام، وأمّية بن خلف، وأهل القليب، ومن جرى مجراهم، وأن الرجال الذين يُشِيرُونَ إلى ذكرهم هم عمار بن ياسر، وسلمان، وصهيب ومثلهم، قاله مجاهد وغيره. والمعنى: كنا في الدنيا نعدّهم أشراراً لا خلاق لهم. وأمال الرءاء من ﴿الْأَنْكَارِ﴾ أبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وفتحها ابن كثير، وعاصم، وأشَمَّ نافع، وحمزة. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بألف وصل، على أن يكون ذلك في موضع الصفة لـ (رجال)، وقرأ الباقر بألف، قطع للاستفهام، ومعناها تقريراً أنفسهم على هذا، على جهة التوبيخ لها والأسف، أي: اتَّخَذْنَاهُمْ ولم يكونوا كذلك، واستبعد معنى هذه القراءة أبو علي.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين، وهي قراءة الأعرج، وشيبة، وابن مسعود وأصحابه، وأبي جعفر، ومجاهد، والضحاك، ومعناها من السُّخْرَةِ والاستخدام، وقرأ الباقر بكسر السين، وهي قراءة الحسن، وأبي رجاء، وعيسى، وابن محيصن، ومعناها المشهور من السُّخْرِ الذي هو بمعنى الهُزء، ومنه قول الشاعر: إني أتشتني لساناً لا أسُرُّ بها من علو لا كذب فيها ولا سُخْرُ

وقالت فرقة: يكون بكسر السين من السُّخْرِ. و [أم] في قولهم: ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ معادلة لـ [ما] في قولهم: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى﴾، وذلك أنها قد تعادل ما يعادل (من)، وأنكر بعض النحويين هذا وقال: إنها لا تعادل إلا الألف فقط، والتقدير في هذه الآية: أمفقودون هم أم زاعت؟ ومعنى هذا الكلام: أَلَيْسُوا معنا أم هم معنا ولكن أبصارنا تميل عنهم فلا نراهم؟ والزيغ: الميل.

ثم أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمَقْصَدُكُمْ أَهْلَ النَّارِ﴾، و﴿مَقْصَدُكُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿لَمَقْ﴾. وقرأ ابن أبي عبة: ﴿مَقْصَدُكُمْ﴾ بفتح الميم، وقرأ ابن محيصن: ﴿مَقْصَدُكُمْ﴾ بالتثنية ﴿أَهْلَ النَّارِ﴾ برفع اللام.

ثم أمر تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يتجرّد للكفار من جميع الأغراض إلا أنه منذر لهم، وهذا توعدٌ بليغ محرّك للنفوس، وباقي الآية بين.

٧ - ٧١ تفسير قوله عز وجل: الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ إلى التوحيد والمعاد، فهي إلى القرآن وجميع ما تضمّنه وعُدّه أن التصديق به نجاة والتكذيب به هلكة. وحكى الطبري أن شريحاً اختصم إليه أعرابي، فشهد عليه، فأراد شريح أن ينفذ الحكم، فقال الأعرابي: أتحكم عليّ بالنِّبَأ؟ فقال شريح: نعم، إن الله تعالى يقول في القرآن: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾، وقرأ الآية، وحكم عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الجواب من شريح إنما هو بحسب لفظ الأعرابي، ولم يُحرّز معه الكلام، وإنما قصد إلى ما يقطع به؛ لأن الأعرابي لم يفرّق بين الشهادة والنِّبَأ، والشَّيْب، والعرب بمعنى الخبر. وبئخهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

ثم قال: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ وَاللَّيْلِ أَكْثَرُ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، وهذا احتجاج لصحة أمر محمد ﷺ، كأنه يقول: هذا أمر خطير، وأنتم عنه معرضون مع صحته، ودليل صحته أنني أخبركم فيه بغيوب لم تأت إلا من عند الله، فإني لم يكن لي علم بالملا الأعلى وقت خصومتهم لولا أن الله تعالى أخبرني بذلك. وأراد بهم الملائكة، والضمير في ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ عند جمهور المفسرين هو للملائكة.

واختلف الناس في الشيء الذي هو اختصاصهم فيه - فقالت فرقة: اختصاصهم في أمر آدم عليه السلام وذريته في جعلهم في الأرض، وبدل على ذلك ما يلي من الآيات، فقول الملائكة: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ هو الاختصاص، وقالت فرقة: بل اختصاصهم في الكفارات وغفر الذنوب ونحوه؛ فإن العبد إذا فعل حسنةً اختلفت الملائكة في قدر ثوابه في ذلك حتى يقضي الله بما شاء، وورد في هذا حديث فسره ابن فورك؛ لأنه يتضمن أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له ربّه عز وجل في نومه: فيم يختصمون؟ فقلت: لا أدري، فقال:

في الكفارات، وهي: إِسْبَاغُ الوضوءِ في السُّبَرَات، ونقل الخُطَى، إلى الجماعات، الحديث بطوله، قال: «فوضع الله سبحانه وتعالى يده بين كتفيَّ حتَّى وجدتُ برِّدَهَا فيما بين ثديي».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فتفسير هذا الحديث أن اليَدَ هي نعمة العِلْم، وقوله ﷺ: «بَرِّدَهَا»، أي: الشُّرور بها والتَّلَج، كما تقول العرب في الأمر السَّار: يا بَرِّدْهُ على الكبد، ونحو هذا، ومنه قول النبي ﷺ: «الصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ هِيَ الْغَنِيْمَةُ الْبَارِدَةُ»، أي: السهلة التي يُسَرُّ بها الإنسان.

وقالت فرقة: المراد بـ «أَلْتَلَّى أَلْعَلَّى» الملائكة، وقوله تعالى: «إِذْ يَخْطُبُونَ» مقطوعٌ منه، ومعناه: إذ يختصم العرب الكافرة في الملاي الأعلَى، فيقول بعضها: هي بناتُ الله، ويقول بعضها: هي آلهة تُعْبَد، وغير ذلك من أقوالهم.

وقالت فرقة: أراد بـ «أَلْتَلَّى أَلْعَلَّى» قريشاً، وهذا ضعيف لا يَتَقَوَّى مِنْ جهة.

وقرأ جمهور الناس: «إِلَّا أَنَا» بفتح الألف كأنه يقول: إِلَّا الْإِنْدَار، وقرأ أبو جعفر: «إِلَّا إِنَّمَا» على الحكاية، كأنه قيل له: «أَنْتَ نَذِيرٌ مُبِينٌ»، فحكى هو المعنى، وهذا كما يقول الإنسان: أنا عالم؟ فيقال له: أَنْتَ عالم، فيحكي المعنى.

و «إِذْ» في قوله تعالى: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ» بدلٌ من [إِذ] الأولى، على تأويل من رأي الخصومة في شأن من

سيخلف في الأرض، وعلى الأقوال الأخرى يكون العامل في [إِذ] الثانية فعل مضمَر تقديره: اذْكُرْ إِذْ قَالَ، و«الْبَشَرُ الْمَخْلُوقُ» هو آدم عليه السلام... و«سَيِّئُهُ» يريد به شخصه. و«وَفَحَّشُ ذِيهِ» عبارة عن إجراء الروح فيه، وهي عبارة على نحو ما يفهم البشر من إجراء الأشياء بالنفخ، وقوله تعالى: «مِنْ رُوحِي» هي إضافة مِلْكٍ إلى مَالِك؛ لأن الأرواح كلها هي ملك الله تبارك وتعالى، وأضاف إلى نفسه تشريفاً. وقوله تعالى: «سَيِّئَاتِكُمْ» اختلف الناس فيه - فقالت فرقة: هو السجود المتعارف، وقالت فرقة: معناه: خاضعين، على أصل السجود في اللغة. ثم أخبر تعالى أن الملائكة بأجمعهم سجدوا إلا إبليس فإنه استكبر عن السجود.

وقوله: «كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» يحتمل أن يريد به: وكان من أول أمره من الكافرين في علم الله تعالى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يريد: ووجد عند هذه الغفلة من الكافرين، وعلى القولين فقد حكم الله تعالى على إبليس بالكفر، وأخبر أنه كان قد عقد قلبه في وقت الامتناع.

(٧٥) - (٨١) تفسير قوله عز وجل: القائل لإبليس هو الله عز وجل، وقوله: «مَا مَنَعَكَ تَقَرَّرَ وَتَوَيْخَ»، وقرأ عاصم الجحدري: «لَمَّا خَلَقْتُ» بفتح اللام من «لَمَّا» وشد الميم، وقرأ جمهور الناس: «يَدَيَّ» بالتثنية، وقرأت فرقة: «بِيَدِي» بتخفيف الياء، وقد جاء في

كتاب الله تعالى: «وَمَا عَمِلْتَ آيَاتًا» بالجمع، وهذه كلها عبارة عن القدرة والقوة، وعبر عن هذا المعنى بذكر اليَد تقريباً على السامعين؛ إذ المعتاد عن البشر أن القوة والبطش والافتدَار إنما هو باليد، وقد كانت جهالة العرب بالله تعالى تقتضي أن تنكر نفوسها أن يكون خلقٌ بغير مِمَاسَّة ونحو هذا من المعاني المعقولة. وذهب القاضي ابن الطيب إلى أن اليَد والوجه والعين صفات ذات زائدة على القدرة والعلم وغير ذلك من متقرر صفاته تعالى، وذلك قول مرغوب عنه، ويُسمِّيها الصفات الخبرية. وروي في بعض الآثار أن الله تعالى خلق أربعة أشياء بيده، وهي: العرش، والقلم، وجنة عدن، وآدم، وسائر المخلوقات بقوله: كُنْ، وهذا - إن صحَّ - فإنما ذكر على جهة التشريف للأربعة والتنبيه منها، وإلا فإذا حَقَّقْنَا النظر فكل مخلوق هو بالقدرة التي بها يقع الإيجاد بعد العدم.

وقرأت فرقة: «أَسْتَكْبَرْتَ» بصلة الألف، على الخبر عن إبليس، وتكون «أَمْ» بنية الانقطاع لا مُعَادِلَةً لها، وقرأت فرقة: «أَسْتَكْبَرْتَ» بقطع الألف، على الاستفهام، ف [أَمْ] - على هذا - مُعَادِلَةٌ لِلألف، وذهب كثير من النحويين إلى أن «أَمْ» لا تكون مُعَادِلَةً لِلألف مع اختلاف الفعلين، وإنما تكون مُعَادِلَةً إِذَا دخلتا على فعل واحد، كقولك: أَرِيدُ قَامَ أَمْ عَمِرُوا؟ وقالوا: وإذا اختلف الفعلان كهذه الآية فليست معادلة. ومعنى الآية:



ولا خلاف أنه أهبط إلى الأرض. «والرَّجِيمُ»: المرجوم بالقول السيئ، و«اللَّعْنَةُ»: الإبعاد، و«يَوْمَ الدِّينِ»: يوم القيامة، و«الدِّينُ»: الجزاء.

وإنما حدَّ الله تعالى له اللعنة بيوم الدين، ولعنته إيَّاه إنما هي مُخلَّدة، ليحصر له أمر التوبة؛ لأن امتناع توبته بعد يوم القيامة بيِّن؛ إذ ليست الآخرة دار عمل.

ثم إن إبليس طلب النُّظرة وتأخير الأجل إلى يوم بعث الأجساد من القبور، فأعطاه الله تعالى

الإبقاء إلى يوم الوقت المعلوم، واختلف الناس في تأويل ذلك - فقال الجمهور: أسعفه الله تعالى في طلبته وأخره إلى يوم القيامة، وهو الآن حيٌّ مُغْوٍ مُضِلٌّ - وهذا هو الأصح من القولين -، وقالت فرقة: لم يُسْعَفْ بِطَلْبَتِهِ، وإنما أسعف إلى الوقت الذي سبق من الله تبارك وتعالى أن يموت إبليس فيه. وقال بعض هذه الفرقة: مات إبليس يوم بدر.

٨٢ - ٨٣ تفسير قوله عز وجل:

القاتل هو إبليس، أقسم بِعِزَّةِ الله تعالى، وقال قتادة: علم عدو الله أنه ليست له عِزَّةٌ فأقسم بِعِزَّةِ الله سبحانه أنه يغوي ذرية آدم أجمع، إلا من أخلصه الله للإيمان به.

أحدث لك الاستكبار الآن أم كنت قديماً مِمَّنْ لا يليق أن يكلف مثل هذا لِعُلُوِّ مكانك؟ وهذا على جهة التوبيخ.

وقول إبليس: «أَنَا خَيْرٌ مِنْكَ» قياسٌ أخطأ فيه، وذلك أنه لما توهم أن النار أفضل من الطين قاس أن ما خلق من الأفضل فهو أفضل من الذي خلق من المفضول، ولم يدر أن الفضائل تخصيصات من الله تعالى يسم بها من يشاء، وفي قوله ردُّ على حكمة الله تعالى وتجويز، وذلك بيِّن في قوله: «أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ»، ثم قال: «أَنَا خَيْرٌ مِنْكَ»، وعند هذه المقالة اقترن كُفر إبليس به، إما عناداً - على قول من يجيزه -، وإما بأن سلب المعرفة، وظاهر أمره أنه كُفِرَ عناداً؛ لأن الله تعالى قد حكم عليه بأنه كافر، ونحن نجده خلال القصة يقول: (يا رَبِّ، وَبِعِزَّتِكَ، وإلى يوم يبعثون)، فهذا كله يقتضي المعرفة، وإن كان للتأويل فيه مزاحم فتأمله.

ثم أمر الله تعالى إبليس بالخروج على جهة الدُخُور له، وقالت فرقة: أمره بالخروج من الجنة، وقالت فرقة: من السماء. وحكى الثعلبي عن أبي الحسن، وأبي العالية أن قوله تعالى: «مِنْهَا» يريد تعالى: من الخلقة التي أنت فيها، ومن صفات الكرامة التي كانت له، قال الحسن بن الفضل: ورجعت له أضدادها، وعلى القول الأول فإنما أمر أمراً يقتضي بعده عن السماء،

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا استثناء الأقل عن الأكثر، على باب الاستثناء؛ لأن المؤمنين أقل من الكفرة بكثير، بدليل بعث النار وغيره، وجوز قوم أن يُستثنى الكثير من الجملة ويترك الأقل على الحكم الأول، واحتجوا بقوله: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ امْتَعَكَ مِنْ الْقَلِيلِ» وقال من ناقضهم: العباد هنا يعُمُّ البشر والملائكة، فبقي الاستثناء على بابيه في أن الأقل هو المستثنى. وفتح اللام وكسرها في «الْمُخْلِصِينَ» تقدم.

والقائل: «فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ» هو الله تعالى، قال مجاهد: المعنى: فالحق أنا. وقرأ الجمهور بالنصب في الاثنين، فأما الثاني فمنصوب به «أَقُولُ»، وأما الأول

فيحتمل الإغراء، أو القسم على إسقاط حرف القسم، فكأنه قال: «فوالحق»، ثم حذف الحرف، كما تقول: «الله لأفعلن»، تريد: والله، ويُقَوِّي ذلك قوله: «لَأَنلَاكَ»، قال سيبويه: قلت للخليل: ما معنى «لأفعلن» إذا جاءت مبتدأ؟ فقال: هو بتقدير قَسَم منوي. وقالت فرقة: الأول منصوب بفعل مضمر.

وقرأ ابن عباس، ومجاهد برفع الاثنين، فأما الأول فبالابتداء، وخبره في قوله: «لَأَنلَاكَ»؛ لأن المعنى: أن أملاً، وأما الثاني فعلى الابتداء أيضاً. وقرأ عاصم، وحمزة بالرفع في الأول، وهي قراءة مجاهد، والأعمش، وأبان بن تغلب، وإعراب هذه بيّن. وقرأ الحسن: «فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ» بخفض القاف على القسم، ذكرها أبو عمرو الداني.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم بأنه ليس بسائل أجِر ولا مال، وأنه ليس ممن يتكلف ما لم يجعل إليه، ولا يتحلّى بغير ما هو فيه. قال الحسين بن الفضل: هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: «قُلْ لَا أَتَلَكُمُ عَلَيْهِ أَجْرٌ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»، وقال الزبيري بن العموم رضي الله عنه: نادى منادي للنبي ﷺ: «اللهم اغفر للذين لا يدعون ولا يتكلفون، ألا إني بريء من التكلف، وصالحو أمتي».

وقوله تعالى: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّاسِ» يريد: القرآن، و«إِلَّا ذِكْرٌ»

أي: تذكيرة. ثم توعدهم تعالى بقوله: «وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ بِمَا بَعْدَ جِيءَ»، وهذا على حذف تقديره: وَلَعَلَّكُمْ صَدَقَ نَبِيِّهِ بَعْدَ حِينٍ مِنْ تَوَعَّدَكُمْ.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: «بِمَا بَعْدَ جِيءَ» إلى أي وقت أشار؟ لأن (الحين) في اللغة يقع على القليل والكثير من الوقت، فقال ابن زيد: أشار إلى يوم القيامة، وقال قتادة والحسن: أشار إلى الآجال التي لهم؛ لأن كل واحد منهم يعرف الحقائق بعد موته، وقال السدي: أشار إلى يوم بدر؛ لأنه يوم عرف الكفار فيه صدق وعيد القرآن لهم.

كمل تفسير سورة (ص) والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الزمر

هذه السورة مكّية بإجماع، غير ثلاث آيات نزلت في شأن وحشي قاتل حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، وهي: «قُلْ يَكْبَادِى الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» الآيات، وقالت فرقة: بل إلى آخر السورة هو مدني، وقيل: فيها مدني سبع آيات.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

«تَنْزِيلُ» رفع بالابتداء، والخبر

قوله: «يَنْزِلُ اللَّهُ»، وقالت فرقة: «تَنْزِيلُ» خبر ابتداء تقديره: هذا تنزيل، والإشارة إلى القرآن الكريم، وقرأ ابن أبي عبلة: «تَنْزِيلُ» و«الْكِتَابُ» في قوله: «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» هو القرآن الكريم، ويظهر لي أنه اسم عام لجميع ما ينزل من عند الله من الكتب، وكأنه تعالى أخبر إخباراً مجرداً أن الكتب الهادية الشارعة إنما تنزلها من الله عز وجل، وجعل هذا الإخبار مقدمة وتوطئة لقوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ»، و«العزیز» في قدرته، و«الحكيم» في إبداعه. و«الْكِتَابُ» الثاني هو القرآن لا يحتمل غير ذلك. وقوله سبحانه: «بِالْحَقِّ» يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون معناه: متضمناً الحق، أي: الحق فيه وفي أحكامه وفي أخباره، والثاني أن يعني الاستحقاق والوجوب وشمول المنفعة للعالم في هدايتهم ودعوتهم إلى الله.

وقوله تعالى: «فَاعْبُدِ اللَّهَ» يحتمل أن يكون الفاء عاطفة جملة من القول على جملة وواصلة، ويحتمل أن تكون كالجواب؛ لأن قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» جملة، كأنه ابتداء وخبره، كما لو قال: الكتاب منزل، وفي الجمل التي هي ابتداء وخبر إيهاماً ما يشبه الجزاء، فجاءت الفاء كالجواب، كما تقول: زيد قائم فأكرمه، ونحو هذا قول الشاعر:

وَقَائِلَةً خَوْلَانْ فَانْكُحْ فَتَانَهُمْ

التقدير: هذه خولان. و﴿مُخَلَّصًا﴾ حال، و﴿الَّذِينَ﴾ نصب به، ومعنى الآية الأمر بتحقيق النِّبَّةِ لله في كلِّ عمل، و﴿الَّذِينَ﴾ هنا يعم المعتقدات وأعمال الجوارح. وقوله سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ بمعنى: من حقه ومن واجباته، لا يقبل غيره، وهذا كقولك: «الله الحمد»، أي: واجباً ومستحقاً. قال قتادة: ﴿الَّذِينَ الْخَالِصُ﴾: لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ رفع بالابتداء، وخبره في المحذوف المقدر، وتقديره: «يقولون: ما نعبدهم»، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿قالوا: ما نعبدهم﴾، وهي قراءة ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير. و﴿أُولَئِكَ﴾ يريد: معبودين، وهذه مقالة شائعة في العرب، يقول كثير منهم في الجاهلية: «الملائكة بنات الله، ونحن نعبدهم لِيُقَرَّبُونَا»، وطائفة منهم قالت ذلك في أصنامهم وأوثانهم. وقال مجاهد: قد قال ذلك قوم من اليهود في عَزْرِي، وقوم من النصارى في عيسى، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿نَعْبُدُكُمْ﴾ بالكاف، ﴿لِيُقَرَّبُونَا﴾ بالتاء. و﴿زُلْفَى﴾ بمعنى: قُرْبَى وتوصلة، كأنه قال: لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ تَقَرُّبًا، وكان هذه الطوائف كلها كانت ترى نفوسها أقل من أن تتصل هي بالله، فكانت ترى أن تتصل بمخلوقاته، و﴿زُلْفَى﴾ - عند سيبويه - مصدرٌ

في موضع الحال، كأنه ينزل منزلة: مُتَقَرِّبِينَ، والعامل فيه ﴿لِيُقَرَّبُونَا﴾، هذا مذهبه وفيه خلاف. وباقي الآية وعيدٌ في الدنيا والآخرة.

⑤ - ⑥ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية إما أن يكون معناها: إن الله لا يهدي الكاذب الكفار في حال كذبه وكفره، وإما أن يكون لفظها العموم ومعناها الخصوص فيمن حتم الله عليه بالكفر، وقضى في الأزل أنه لا يؤمن أبداً، وإلا فقد وجد الكاذب الكفار وقد هُدي كثيرًا. وقرأ أنس بن مالك، والجحدري: ﴿كَذَّابٌ كَفَّارٌ﴾ بالمبالغة فيهما، وزويت عن الحسن، والأعرج، ويحيى بن يَغَمَر، وهذه المبالغة إشارة إلى المستوعِّل في الكُفْر، القاسي فيه، الذي يُظَنُّ بأنه محتوم عليه.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ معناه: اتخاذه التشريف والتبني، وعلى هذا يستقيم قوله سبحانه: ﴿لَا ضَلْفَى يَمَّا يَخْلُقُ﴾، وأما الاتخاذ المعهود بالتوالد فمستحيل أن يتَّوَّهُم في جهة الله سبحانه وتعالى، ولا يستقيم عليه معنى قوله: ﴿لَا ضَلْفَى﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ لفظ يَغْمُ اتخاذ النسل واتخاذ الاصطفاء، فأما الأول فمعقول، وأما الثاني فمعروف بخبر الشَّرع، ومما يدل على أن المعنى هنا

الاصطفاء والتبني قوله تعالى: ﴿يَمَّا يَخْلُقُ﴾، أي: من موجوداته ومُخْدَثَاتِهِ. ثم نَزَّهَ تعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما لا يكون مِدْحَةً. واتَّصافه تعالى بالقَهَّار على الإطلاق؛ لأنَّ أحدًا من البشر إن اتَّصَفَ بالقَهْر فمَقْيُودٌ في أشياء كثيرة قليلة، وهو في حَيْزِ قَهْرِهِ لغيره مقهور لله تعالى على أشياء كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿يَالْحَقُّ﴾ معناه: بالواجب الواقع موقعه الجامع للمصالح. وقوله تعالى: ﴿يَكُونُ أَيْلًا﴾ معناه: يُعيد من هذا على هذا، ومنه: كَوَّرَ العمامة التي يلتوي بعضها على بعض، فكأن الذي يطول من النهار أو من الليل يصير منه على الآخر جزءً فيستره، وكأن الآخر الذي يقصر يَلْجُ في الذي يطول فَيُسْتَرُّ فيه، فيجيء ﴿يَكُونُ﴾ - على هذا - معادلاً لقوله تعالى: ﴿يُولِجُ﴾، ضِدًّا له. قال أبو عبيدة: هما بمعنى واحد، وهذا من قوله تقريب لا تحرير.

وتسخيرُ الشمس دَوَامُهَا على الجري واتِّساقُ أمرها على ما شاء الله تبارك وتعالى، و﴿الْأَجَلُ الْمُسَمَّى﴾ يحتمل أن يكون يوم القيامة حين تنفسد البُيُوتَةُ ويزول جَزْيُ هذه الكواكب، ويحتمل أن يريد أوقات مغيبها كل يوم وليلة، ويحتمل أن يريد أوقات رجوعها إلى قوانينها كُلُّ شهر في القمر، و (كُلُّ) سنة في الشمس.

وقالت فرقة: قوله

تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ عبارة عن سبق

ذلك في علم الله تعالى،

فلما كان ذلك أمراً حتماً

واقعاً ولا بُدَّ، حَسُنَ أن

يُخبر عن تلك الحال التي

كانت وثيقة، ثم عطف

عليها حالة جعل الزوجة

منها، فجاءت معانٍ مترتبة

وإن كان خروج خلق

العالم من آدم إلى الوجود

إنما يجيء بعد ذلك.

والزَّوجُ آدمُ هي حواء

عليهما السلام، وُخِّلِقت

من ضلعيه القصير فيما

زوي، ويؤيد هذا الحديث

الذي فيه: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خَلَقْتَ مِنْ

ضِلْعٍ أَعْوَجَ، فَإِنْ ذَهَبَتْ نَقِيبُهُ

كَسَرْتَهُ»، وقالت فرقة: خُلِقَتْ حواء

من نفس طين آدم عليه السلام.

والأول أصح، وقد تقدم شرح ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ

قِيلَ: معناه: إِنْ المخلوق الأول من

هذه الأنعام خُلِقَ في السماء وأُهِيط

إلى الأرض، وقالت فرقة: بل لما

نزل الأمر بخلقه وإيجاده من عند الله

- وكانت العادة في نعم الله تعالى

ورحمته وأمطاره وغير ذلك أن يُقال:

إِنها من السماء - عبَّر عن هذه بـ

﴿أَنْزَلْنَا﴾، وقالت فرقة: لما كانت

الأمطارُ تنزل، وكانت الأعشاب

والنبات عنها كانت هذه الأنعام عن

النبات في سمتها ومعانيها قال فيها:

﴿أَنْزَلْنَا﴾، فهو على التدرج، كما قال

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ جَعَلْنَا مِنْهَا رُجُوحًا وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ
مِنْ الْأَنْعَامِ فَنُفِيتُكُمْ أَنْزَلْنَا خَلْقَكُمْ فِي بَطُونٍ أَمْهَنَ بَطُونٍ
خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا نَصْرَ قَوْمٍ ۝ إِن تَكْفُرُوا أَفَإِنَّ
اللَّهَ عِنْدَ عُنُقِكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ
لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ لَكُمْ رَيْكُومٌ جُمِعَ كُمْ
فَبَشِّرْهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۚ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يُدَاتِ الصُّدُورُ ۝
وَلَا تَأْسَ الْأَنْسُ صُرْدًا رِيَّةً مُمِيبًا إِلَيْهِمْ إِذَا حُكِمَ لَهُمْ
نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ جَعَلَ لَهُ آيَاتًا
يُفْضِلُ عَنْ سَبِيلِهِ فَلَمَّا تَمَثَّلَ لَكُمْ كَيْفَ قِيلَ إِلَيْكُمْ مِنْ أَصْحَابِ
النَّارِ ۝ آمَنَ هُوفَيْنِ ۚ آتَاءَ الْبَلَّ سَاجِدًا وَقَامًا يَحْذَرُ
الْآخِرَةَ وَرَجُوا رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِمْ فَلَمَّا يَسْتَوْي الَّذِينَ يَمُنُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَنْذَرُكُمْ أَنْتُمْ أُولَا الْأَلْبَابِ ۝ قُلْ يَتَجَاوَزُ الَّذِينَ
آمَنُوا الْفُجُورَ كَمَا يَتَجَاوَزُ الْفُجُورَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةُ الْعَالَمِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةُ الْعَالَمِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

تفسير قوله عز وجل:

النفس الواحدة المرادة في هذه الآية

هي نفس آدم عليه السلام، قاله قتادة

وغيره، ويحتمل أن يكون اسم

الجنس. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهَا

رُجُوحًا﴾ ظاهر اللفظ يقتضي أن جعل

الزوجة من النفس هو بعد أن خُلِقَ

الخلق منها، وليس الأمر كذلك،

واختلف الناس في تأويل هذا الظاهر

- فقالت فرقة: قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

وَاحِدَةٍ﴾ هو أخذ الذريرة من ظهر آدم،

وذلك شيء كان قبل خلق حواء منه،

وقالت فرقة: ﴿ثُمَّ﴾ إنما هي لترتيب

الإخبار لا لترتيب المعاني، فكأنه

تعالى قال: «ثم كان من أمره قبل

ذلك أن جعل منها زوجها»، وفي

نحو هذا يُنشَد هذا البيت:

قُلْ لِمَنْ سَادْتُمْ سَادَ آبُوهُ

ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

أسنمة الآبال في ربابه

وكما قال الشاعر:

تَعَالَى الثَّدْيُ فِي مَثْنِيهِ وَتَحَدَّرَا

وجعلها ثمانية أزواج لأن كل واحد

فيه زوج للذكر من نوعه، وهي:

الضأن والمعرز والبقر والإبل.

قوله تعالى: ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بَطُونٍ

أَمْهَنَ بَطُونٍ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، قال

ابن زيد: معناه: يخلقكم في البطون

خلقاً من بعد خلق آخر في ظهر آدم

وظهور الآباء، وقال مجاهد،

وعكرمة، والسدي: يخلقكم في

البطون رُتْباً خلقاً بعد خلق على

المُضْغَةِ والعَلَقَةِ وغير ذلك. وقرأ

عيسى بن عمر، وطلحة بن

مصرف: ﴿يَخْلُقْكُمْ﴾ بإدغام القاف

في الكاف في جميع القرآن، وقرأ

الجمهور: ﴿أَمْهَنَ بَطُونٍ﴾ بضم

الهمزة، وكسرها يحيى بن وثاب،

وهما لغتان. وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ

تَلْتَلِي﴾ قالت فرقة: الأولى: ظهر

الأب، ثم رحم الأم، ثم المشيمة

في البطن. وقال مجاهد، وقاتدة،

والسدي، وابن زيد: هي المشيمة،

والرحم، والبطن. وهذه الآية كلها

معتبر وتنبية لهم على الخالق الصانع

الذي لا يستحق العبادة غيره، وهذا

كله في رد أمر الأصنام والإفساد له.

ثم قال تعالى لهم: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ

رَبُّكُمْ﴾، وقد قامت على ذلك

البراهين وأتسقت الأدلة، ﴿فَإِنَّ

نُصْرَتَكُمْ﴾، أي: من أي جهة

تفضلون؟ وبأي سبب؟

﴿يُتَشَدَّدُ﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

هذه الآية مخاطبة للكفار الذين لم يُرد الله أن يطهر قلوبهم، و«عِبَادَةٌ» هم المؤمنون، ويحتمل أن تكون مخاطبة لجميع الناس؛ لأن الله غني عن جميع الناس وهم فقراء إليه، وبين بُعد البشر عن رضى الله إن كفروا بقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾.

واختلف المتأولون من أهل السُنَّة في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْجُوا لِيَمْلِكُوا أَكْثَرَهُمْ﴾ - فقالت فرقة: الرضى بمعنى الإرادة، والكلام ظاهره العموم ومعناه الخصوص فيمن قضى الله له بالإيمان وحتمه له، فعباده - على هذا - ملائكته ومؤمنو البشر والجن، وهذا يتركب على قول ابن عباس رضى الله عنهما. وقالت فرقة: الكلام عموم صحيح، والكفر يقع ممن يقع بإرادة الله تعالى؛ إلا أنه بعد وقوعه لا يرضاه ديناً لهم، وهذا يتركب على الاحتمال الذي تقدم آنفاً، ومغنى ﴿وَلَا يَرْجُوا﴾: لا يشكره لهم ولا يشيهم به خيراً، فالرضى - على هذا - هو صفة فعل بمعنى القبول ونحوه، وتأمل الإرادة فإنَّ حقيقتها إنما هي فيما لم يقع بعد، والرضى فإنما حقيقته فيما قد وقع، واعتبر هذا في آيات القرآن نجده، وإن كانت العرب قد تستعمل في أشعارها على جهة التجوز هذا بَدَلْ هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَشْكُرُوا يَرْجُو لَكُمْ﴾ عموم، والشكر الحقيقي في ضمنه الإيمان. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿يَرْجُو﴾ بضمه مُشَبَّعَةً على الهاء، وقرأ ابن عامر، وعاصم بضمه مُخْتَلَسَةً، واختلف

عن نافع وأبي عمرو، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿يَرْجُو﴾ بسكون الهاء. قال أبو حاتم: وهو غلط لا يجوز.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِدْ وَارِدَةً وَتَزِدْ أُخْرَى﴾، أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، وأنت «الواردة» و«الأخرى» لأنه أراد الأنفس، و«الواردة»: الثقل، وهذا خبر مُضْمَنُه الحَضُّ على أن ينظر كل أحد في خاصة أمره، وما ينوبه في ذاته، ثم أخبرهم بأن مرجعهم في الآخرة إلى ربهم، أي: إلى ثوابه أو عقابه، فيوقف كل أحد على أعماله؛ لأنه المطلع على نيّات الصدور وسرائر الأفئدة، و«ذات الصُّدُر»: ما فيه من خبيثة، ومنه قولهم: «الذنب مغبوط بذى بطنه».

﴿٨﴾ تفسير قوله عز وجل: «الإنسان» في هذه الآية يراؤه الكافر بدلالة ما وصفه به آخراً من اتخاذ الأنداد لله تبارك وتعالى، ولقوله تعالى: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾.

وهذه آية بين الله تعالى بها على الكفار أنهم على كل حال يَلْجَأُونَ في حال الضرورات إليه، وإن كان ذلك عن غير يقين منهم ولا إيمان، فلذلك ليس بِمُغْتَدِّ به، و«يُتَبَيَّن» معناه: مقارباً مراجعاً بصيرته.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً﴾ يحتمل أن يريد: في كشف الضرر المذكور، أو يريد أي نعمة كانت، واللفظ يعمهما، و«حَوَّلَهُ» معناه: مَلَكَهُ وحكَّمه فيها ابتداءً منه لا مجازاة، ولا يقال في الجزاء: حَوَّلَ، ومنه الحَوَّل، ومنه قول زهير:

هَذَاكَ إِنْ يُسْتَحْوَلُوا الْمَالُ يُخَوَّلُوا

وهذه رواية، ويؤى: يُسْتَحْوَلُوا. قوله تعالى: ﴿يَنبَى مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾. قالت فرقة: ﴿مَا﴾ مصدرية، والمعنى: نبى دعاءه إليه في حال الضرر ورجع إلى كفره، وقالت فرقة: ﴿مَا﴾ بمعنى الذي، والمراد بها الله سبحانه وتعالى، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، وقد تقع (ما) مكان (من) فيما لا يحصى كثرة من كلامهم. ويحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، ويكون قوله: ﴿يَنبَى﴾ كلاماً تائماً، ثم نفى أن يكن دعاء هذا الكافر خالصاً ومقصوداً به من قبل النعمة، أي في حال الضرر. ويحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، ويكون قوله: ﴿يَنْقَلِبُ﴾ يريد: من قبل الضرر، فكأنه يقول: ولم يكن هذا الكافر يدعو في سائر زمنه قبل الضرر، بل ألجأه ضرره إلى الدعاء.

و«الأنذاد»: الأمثال التي تضاد وتزاحم ويعارض بعضها بعضاً، قال قتادة: المراد: من الرجال يطيعونهم في معصية الله تعالى، وقال غيره: المراد: الأوثان. وقرأ الجمهور: ﴿يَنْبَى﴾ بضم الياء، وقرأها بفتح الياء أبو عمرو، وعيسى، وابن كثير، وشبل.

ثم أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم - على جهة التهديد - قولاً يخاطب به واحداً واحداً منهم: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾، أي: تلذذ به، واصنع ما شئت «قليلاً»، وهو عُمرُ ذلك المخاطب. ثم أخبره أنه من

أصحاب النار، أي: من سكانها والمخلّدين فيها.

④ - ⑤ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن كثير، ونافع، وحمزة: ﴿أَمَّنْ﴾ بتخفيف الميم، وهي قراءة أهل مكة، والأعمش، وعيسى، وشيبة بن نصاح، وزويت عن الحسن، وضعّفها الأخفش وأبو حاتم. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، والحسن، والأعرج، وقتادة، وأبو جعفر: ﴿أَمَّنْ﴾ بتشديد الميم.

فأما الأولى فلها وجهان: أحدهما - وهو الأظهر - أنَّ الألف ألف تقرير واستفهام، كأنه يقول: أهذا القانت خير أم هذا المذكور الذي يتمتع بكفره قليلاً وهو من أصحاب النار؟ وفي الكلام حذف يدل على سياق الآيات مع قوله آخرًا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْكُورُونَ وَالَّذِينَ لَا يَمْكُورُونَ﴾، ونظيره قول الشاعر:

فَأَقْسِمُ لَوْ شِئْتُ أَنَا نَارُ سَوْأَةٍ
سَوْأَةٍ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَذْفَعًا
وَيُوقَفُ - على هذا التأويل - على قوله سبحانه: ﴿وَبَرِّحُوا رَحْمَةً رَبِّهِ﴾. والوجه الثاني أن تكون الألف نداء، والخطاب لأهل هذه الصفات، كأنه يقول لصاحب هذه الصفات: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي؟ فهذا السؤال بـ ﴿هَلْ﴾ هو للمقانت، ولا يُوقَفُ - على هذا التأويل - على قوله سبحانه: ﴿وَبَرِّحُوا رَحْمَةً رَبِّهِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المعنى صحيح إلا أنه أجنبي من معنى الآية قبله وبعده. وضعّفه أبو علي الفارسي، وقال مكّي: إنه

لا يجوز عند سيبويه لأن حرف النداء لا يسقط مع المُبْهَم، وليس كما قال مكّي، أما مذهب سيبويه في أن حرف النداء لا يسقط مع المُبْهَم فَتَعَم؛ لأنه يقع الإلباس الكثير بذلك، وأما أن هذا الموضع سقط فيه حرف النداء فلا وألف ثابتة فيه ظاهرة.

وأما القراءة الثانية فإنها ﴿أَم﴾ دخلت على (مَنْ)، والكلام - على هذه القراءة - لا يحتمل إلا المعادلة بين صنفين، فيحتمل أن يكون ما يُعَادِل (أَم) متقدماً في التقدير، كأنه يقول: «أهذا الكافر خير أم مَنْ»، ويحتمل أن تكون (أَم) قد ابتدأ بها بعد إضراب مقدر، ويَكُونُ المعادل في آخر الكلام. والأوّل أثبت.

و «الْقَانَتْ»: المطيع، كذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما، والقنوت في الكلام يقع على القراءة، وعلى طول الكلام في الصلاة، وبهذا فسرهما ابن عمر رضي الله عنهما، وزوي عن ابن عباس أنه قال: «من أحب أن يهون الله عليه الوقوف يوم القيامة فَلْيُنْزِلهُ الله في سواد الليل ساجداً وقائماً»، ويقع القنوت على الدعاء وعلى الصمت عبادة، وزوي أبو سعيد عن النبي ﷺ أن القنوت الطاعة، وقال جابر بن عبد الله، سئل رسول الله ﷺ: أي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت».

و «الْأَنَاءُ»: الساعات، واحداً إنى كِمَعَى، ومنه قولهم: «لن يعدو شيء إناء»، ومنه قوله تعالى: ﴿عَنَّا نَظِيرٌ إِنَّهُ﴾ على بعض التأويلات في ذلك، ويقال في واحداً أيضاً: «أَنَا»

على وزن «فَعَا»، ويقال فيه: «إِنِّي» بكسر الهمزة وسكون النون، قال الهذلي:

حَلَوُ وَمُرْكَعُظِفِ الْقِدْحِ مِرْئُهُ
فِي كُلِّ إِنِّي قَضَاءُ اللَّيْلِ يَنْتَعِلُ
وَقَرَأَ الضحّاك: ﴿سَاجِدٌ وَقَائِمٌ﴾ بالرفع فيها.

وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ معناه: يحذر حالها وهولها. وقرأ سعيد بن جبّير: ﴿يَحْذَرُ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾. و «أَوَّلُ» معناه: أصحاب، واحدهم: ذو.

وقرأ الجيمهون: ﴿قُلْ يَبْعَايَ﴾ بفتح الباء، وأسكنها أبو عمرو، وعاصم، والأعمش، وقرأ أبو عمرو، وعاصم أيضاً، والأعمش، وابن كثير، «بِئَا عِبَادَ» بغير ياء في الوصل. ويروى أن هذه الآية نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة. ووعد تعالى بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ متعلقاً بـ ﴿أَحْسَنُوا﴾، وكأنه يريد: إن الذين يحسنون في الدنيا لهم حسنة في الآخرة، وهي الجنة والنعيم، قاله مقاتل، ويحتمل أن يريد: إن الذين يحسنون لهم حسنة في الدنيا، وهي العافية والطهور وولاية الله تعالى، قاله السدي، وكان قياس قوله أن يكون ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ متأخراً، ويجوز تقديمه. والقول الأول أرجح، وهو أن الحسنة في الآخرة. و «أَنْزَلَ اللَّهُ» يريد بها البلاد المجاورة التي تقتضيها القصة التي الكلام فيها، وهذا حض على

وقوله: ﴿عِبَادِي﴾ يريد جميع العالم، خوْفهم الله تعالى الثَّار وحذرهم منها، فمن هدي وآمن نجا، ومن كفر حصل فيما خوْف منه. واختلفت القراءة في قوله: ﴿يَعْبَادِي﴾، وقد تقدم نظيره.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الآية. قال ابن زيد: إن سبب نزولها زيد بن عمرو بن نفيل، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والإشارة إليهم. وقال ابن إسحق: الإشارة بها إلى عبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، والزبير رضي الله تعالى عنهم، وذلك أنه لما أسلم أبو بكر رضي الله عنه سمعوا ذلك فجاءوه فقالوا: أسلمت؟ قال: نعم، وذكرهم بالله تعالى فأمِنوا بأجمعهم، فنزلت فيهم هذه الآية، وهي على كل حال عامة في الناس إلى يوم القيامة، يتناولهم حكمها. و«الطَّاغُوتُ» كل ما يُعبد من دون الله تعالى، و«الطَّاغُوتُ» أيضاً الشيطان، وبه فسرها مجاهد، والسدي، وابن زيد، وأوقعه هنا على جماعة الشياطين، ولذلك أثبت الضمير في ﴿يَعْبُدُونَهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ كلام عام في جميع الأقوال، وإنما قصد الثناء على هؤلاء ببصائر هي لهم وقوام في نظرهم، حتى أنهم إذا سمعوا قولاً مَيَّزوه واتبعوا أحسنه، واختلف المفسرون في العبارة عن هذا. فقالت فرقة: أحسن القول كتاب الله تعالى، أي إذا سمعوا الأقاويل

وسمعوا القرآن أتبعوا القرآن، وقالت فرقة: «القول» هو القرآن، وأحسنه ما فيه من عفو وصفح واحتمال على صبر ونحو ذلك، وقال قتادة: أحسن القول طاعة الله تعالى، وهذه أمثلة وما قلناه أولاً يعمها.

﴿١٩﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل: أسقط العلامة التي في الفعل المسند إلى الكلمة لوجهين: أحدهما الحائل الذي بين الفعل والفاعل، ولو كان متصلاً به لم يحسن ذلك، والثاني أن «الكلمة» غير مؤنث حقيقي، وهذا أخف وأجود من قولهم: «حضر القاضي اليوم امرأة»؛ لأن التأنيث هنا حقيقي، وقالت فرقة: في هذا الكلام محذوف اختصره لدلالة الظاهر عليه، تقديره: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب تتأسف أنت عليه؟ أو نحو هذا من التقدير، ثم استأنف قوله النبي ﷺ على أنه يريد أن يتخذ من في النار، أي: ليس هذا إليك. وقالت فرقة: الألف في قوله: ﴿أَفَأَنْتَ﴾ إنما هي مؤكدة زادها لطول الكلام، وإنما معنى الآية: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه؟ ولكنه زاد الألف الثانية تأكيداً للأمر، وأظهر الضمير العائد تشهيراً لهؤلاء القوم، وإظهاراً لِحِصَّةِ منازلهم كقول الشاعر:

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْئاً
وإنما أظهر الضمير تنبيهاً على عظم قدر الموت، وهذا كثير.

ثم استفتح تعالى إخباراً آخر بـ ﴿تَكُنْ﴾، وهذه مُعَادَلَةٌ وتحضيض على التقوى لمن فكَّر وازدجر. وقوله تعالى: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي: من

تحت الغرف، وعادلت: ﴿عُرْفُ يَنْ قَوْفَهَا عُرْفُ﴾ ما تقدم من قوله سبحانه: ﴿لَهُمْ يَنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ يَنْ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهَا ظُلَلٌ﴾، و«العُرفُ»: ما كان من المساكن مرتفعاً عن الأرض، وفي الحديث: «إن أهل الجنة لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ فِي الْأَفَقِ»، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ نصب على المصدر، ونصبه إمَّا بفعل مضمر من لفظه، وإمَّا بما تضمن الكلام قبل من معنى الوعد على الاختلاف الذي للنحاة في ذلك.

ثم وقف تعالى نبيه ﷺ على معتبر من مخلوقاته، والخطاب للنبي ﷺ وكل بشر داخل معه في معناه، وقال الطبري وغيره: أشار إلى ماء المطر، وقالوا: العيون منه، وذلك أنها تنماع عند وجوده وتنبس عند فقده، وقال الحسن بن مسلم ابن يثاق: الإشارة إلى العيون، وليست العيون من المطر، ولكن ماؤها نازل من السماء، وقال الشعبي: كل ماء في الأرض فمن السماء نزل، والقولان متقاربان، و«سَلَكُهُ» معناه: أجراه، ومنه قول الشاعر:

حَتَّى سَلَكَ الشَّوَى مِثْلَهُ فِي مَسَكٍ
مِنْ نَسْلِ جَوَابَةِ الْأَقَا فِي مِهْدَا جٍ

ومنه قول امرئ القيس:
نَطَعْنَهُمْ سُلْكَاً وَمَخْلُوجَةً
كَرَّكَ لَأَمْنِينَ عَلَى نَابِلٍ
واحد الينابيع: ينبوع، وهو العين يُبْنِي لها بناءً، مبالغة من النبع. و«الزَّرْعُ» هنا واقع على كل ما يُزْرَع، وقالت فرقة: «الزَّرْعُ»: أعراضه من

الحمرة والصفرة وغير ذلك، و﴿يَهِيْجُ﴾: يَنْبَس، وهاج الزرع والنبات إذا يبس، ومنه قول علي رضي الله عنه في الحديث الذي في غريب ابن قتيبة: «دُمْتُ رهينة، وأنا به زعيم ألا يَهِيْج على الثَّقَوَى زرع قوم ولا يَنْبَس على الثَّقَوَى... أصل الحديث». و«الْحَطَّامُ»: اليابس المتفتت، ومعنى قوله تعالى: ﴿لَذِكْرِيْ﴾ أي: للعبث من القبور وإحياء الموتى على ما يوحيه هذا المثال المذكور.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُؤِيْ أَنْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَمَنْ سَخَّرَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الآية، نزلت في علي وحمة رضي الله عنهما وأبي لهب وابنه، وهما اللذان كانا من القاسية قلوبهم. وفي الكلام يدلُّ عليه الظاهر، تقديره: كالقاسي القلب والمُعْضِر عن أمر الله، و«سَخَّرَ» صَدْرُهُ استعارة لتحصيله للنظر الجيد والإيمان بالله، و«الثَّور» هداية الله، وهي أشبه شيءٍ بالضوء، قال ابن مسعود رضي الله عنه: قُلْنَا: يا رسول الله، كيف انشراح الصدر؟ قال: «إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انْشَرَحَ وَانْفَسَحَ»، قلنا: وما علامة ذلك؟ قال: «الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَانُّفُ عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالتَّأَهُبُ لِلْمَوْتِ»، و«الْقَسْوَةُ»: شدة القلب، وهي مأخوذة من قسوة الحجر، شبه قلب الكافر به في صلابته، وقلة انفعاله للوعظ. وقال مالك بن دينار: «مَا ضُرِبَ عَبْدٌ بِعَقوبةٍ أَعْظَمَ مِنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ»، ويدلُّ قوله تبارك

وتعالى: ﴿قَوْلٌ لِّقَسِيَّةٍ قُلُوبُهُمْ﴾ على المحذوف المُقَدَّر.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا﴾ يريد به القرآن، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سبب هذه الآية أن قوماً من الصحابة قالوا: يا رسول الله، حدثنا بأحاديث حسنة، وأخبرنا بأخبار الدهر، فنزلت الآية في ذلك، وقوله: ﴿مُتَشَبِّهًا﴾ معناه: مستوياً لا تناقض فيه ولا

تدافع، بل يشبه بعضه بعضاً في رصانة اللفظ، ووثاقة البراهين، وشرف المعاني؛ إذ هي اليقين في العقائد في الله تعالى وصفاته وأفعاله وشرعه. وقوله: ﴿تَتَنَبَّأُ﴾ معناه: موضع تَنْبِيْةٍ للقصص والأقضية والمواعظ، تُنَبِّئُ فيه ولا يُمَلِّ مع ذلك، ولا يعرض لها ما يعرض للحديث المعاد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يُنَبِّئُ فيه الأمر مراراً، ولا ينصرف ﴿تَتَنَبَّأُ﴾ لأنه جمع ولا نظير له في الواحد.

وقوله تعالى: ﴿نَفْسٌ مِّنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ عبارة عن قف شغل الإنسان عندما يداخله خوف، ولين قلب عند سماع موعظة أو زجر قرآن ونحوه، وهذه علامة وقوع المعنى المتخشع في قلب السامع، وفي الحديث أن أبي بن كعب قرأ

أَمَنْ سَخَّرَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهَوَّلَ عَلَى ثَوْرَيْنِ رَبِّهِ قَوْلٌ لِّقَسِيَّةٍ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْ لَتَيْكَ فِي صَلَاتِكَ مَيِّينَ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّتَانِيَّ نَفْسُهُ مِّنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هَدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِيَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَمَنْ بَنَى بِوَجْهِهِ سَوَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْتَبَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبَ النَّاسَ فِي هَذِهِ الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قَوْلُهُ إِنَّا عَرَبِيٌّ غَرِيْبٌ يُّوجِبُ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّجَارِيَةٍ شَرَّكَاهُ مُتَشَدِّكُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا أَرَجَلَ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لِّلْحَمْدِ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ يَمُوتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَكْبَحَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذْرَافَكُمْ تَخْصِيصُكُمْ ﴿٣١﴾

٤٦١

عند النبي ﷺ فَرَّقَتْ الْقُلُوبَ، فقال النبي ﷺ: «اغْتَنَمُوا الدَّعَاءَ عِنْدَ الرَّقَّةِ فَإِنَّهَا رَحْمَةٌ»، وقال العباس: قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ اقْشَعَرَ جِلْدُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا يَتَحَاتُّ عَنِ الْيَابِسَةِ وَرَقُهَا»، وقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: كان الصحابة تدع أعينهم وتقشعر جلودهم عند سماع القرآن، قيل لها: إن أقواماً اليوم إذا سمع أحدهم القرآن خَرُّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان، وقال ابن عمر رضي الله عنهما وقد رأي ساقطاً عند سماع القرآن: إِنَّا لَنَخْشَى اللَّهَ وَمَا نَسْقُطُ، هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أحدهم، وقال ابن سيرين: بينا وبين هؤلاء القوم الذين يصرعون عند قراءة القرآن أن يجعل أحدهم على حائط باسطاً

على الحال و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال، وقالت فرقة: نصب على التوطئة للحال، والحال قوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾، ونفى عنه العوج لأنه لا اختلاف فيه ولا تناقض ولا مغمز بوجه. واختلفت عبارة المفسرين - فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: المعنى: غير متضاد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غير مختلف، وقال مجاهد: غير ذي لئس، وقال السدي: غير مخلوق، وقال بكر بن عبدالله المزني: غير ذي لحن. و«العوج» بكسر العين في الأمر، وفتحتها في الأشخاص.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر الله تعالى أنه ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل مجتملاً، جاء بعد ذلك بمثل في أهم الأمور وأعظمها خطراً وهو التوحيد، فمثل تعالى الكافر العابد للأوثان والشرائطين يعبد لرجال عدو، في أخلاقهم شكاسة ونقص وعدم مسامحة، فهم لذلك يُعَذَّبُونَ هذا العبد بأنهم يتضايقون في أوقاتهم، ويضايقون هذا العبد في كثرة العمل، فهو أبداً دائب ناصب، فكَذَلِكَ عَابِدِ الْأَوْثَانِ، والذي يعتقد أن ضره ونفعه عندها هو معذب الفكر بها، وبحراسة حاله منها، ومتى أرضى صنماً منها بالذبح له في زعمه تفكر فيما يصنع مع الآخر، فهو أبداً في نصب وضلال، وكذلك هو المصانع للناس، الْمُتَمَنِّحِينَ بِخِدْمَةِ الْمُلُوكِ.

ومثل تعالى المؤمن بالله تبارك وتعالى وحده يعبد لرجل واحد يكلفه شغله، فهو يعمل على تودة، وقد

مجاهد: يجشو على وجهه في النار، وقالت فرقة: لِمَا رُوي أن الكافر يلقي في النار مكتوباً مربوطاً يده إلى رجله مع عنقه، ويكُتَبُ على وجهه، فليس له شيء يبقى به إلا وجهه، وقالت فرقة: المعنى صفة ما ينالهم من كثرة العذاب، وذلك أن يتقي به بجميع جوارحه وفيه حواشيه، فإذا بلغ به العذاب إلى هذه الغاية ظهر أنه لا متجاوز بعدها. وهذا المعنى عندي أقيس بلاغة، وفي

هذا المضمار يجري قول الشاعر:

يَلْقَى السُّيُوفَ بِوَجْهِهِ وَيَنْخَرُهُ
وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ الْمَغْفِرِ
لأنه إنما أراد عظيم جرأته عليها، فهو يلقاها بكل مجن، وبكل شيء منه حتى بوجهه وينخره. وقوله تعالى: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْبِرُونَ﴾ معناه: باشروا، وهنا محذوف تقديره: جزاء ما كنتم تكسبون.

ثم مثل لقريش بالأمم السالفة، ثم أخبر تعالى بما نال تلك الأمم من كونها في الدنيا أحاديث مُلْعَنَةٌ، وأخرى أعظم من هذا، مع ما نال نفوسهم من الألم والذل والكرب، ثم أخبر أن ما أعذب لهم من عذاب الآخرة أكبر من هذا كله الذي كان في الدنيا.

قوله: ﴿فَرَأَيْنَا﴾، قالت فرقة: نصب على المصدر، وقالت فرقة: نصب

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ﴾، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٩﴾ يُكْفِّرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْفِقَارٍ ﴿٣٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِقَاتُ ضَرِّهِ أَوْ إِنْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَمَلُوا عَلَى مَكَانَتِهِمْ إِنْ عَمِلُوا سُوءًا فَسَوْفَ يُعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٥﴾

رجليه، ثم يقرأ عليه القرآن كله، فإن رمى بنفسه فهو صادق.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ يحتمل أن يشير إلى القرآن، أي: ذلك الذي هذه صفته هدى الله، ويحتمل أن يشير إلى الخشية واقشعرار الجلد، أي: ذلك أمانة هدى الله، ومن جعل: ﴿تَقْشَعِرُ﴾ في موضع الصفة لم يقف على ﴿تَنَائِي﴾، ومن جعله مُسْتَأْنَفًا وإخباراً منقطعاً وقف على ﴿تَنَائِي﴾. وبإقافي الآية بين.

﴿٣٤﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا تقرير بمعنى التعجب، والمعنى: أقمم يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كالمنعمين في الجنة؟ واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿يَتَّقِي بِوَجْهِهِ﴾ - فقال

سأس مولاه، فالمولى يغفر زلته، ويشكره على إجادته عمله.

وقوله تعالى: ﴿صَرَبَ﴾ مأخوذ من الضرب الذي هو الشبيه، ومنه قولهم: «هذا ضرب هذا»، أي: شبيهه، و﴿مَكَلا﴾ مفعول بـ ﴿صَرَبَ﴾، و﴿رَبَّلا﴾ بدل، قال الكسائي: وإن شئت على إسقاط الخافض، أي: «مثلاً للرجل»، أو «في رجل»، وفي هذا نظر.

و﴿مُنْكَسِرُونَ﴾ معناه: لا سَمَحَ في أخلاقهم، بل فيها لجأ ومتابعة ومحاذقة، ومنه قول الشاعر:

خُلِفْتُ شَكْسًا لِلْأَعَادِي مَشْكَسًا

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿سَالِمًا﴾ على معنى اسم الفاعل، بمعنى: سلم من الشركة فيه، قال أبو عمرو: معناه: خالصاً، وهذه بالألف قراءة ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والجحدري، والزهري، والحسن - بخلاف عنه -، وقرأ الباقون: ﴿سَلَكًا﴾ بفتح السين وسكون اللام، وهي قراءة الأعرج، وأبي جعفر، وشيبة، وأبي رجاء، وطلحة، والحسن - بخلاف -، وقرأ سعيد بن جبّير: ﴿سِلْمًا﴾ بكسر السين وسكون اللام، وهما مصدران وصف بهما الرجل، بمعنى: خالصاً وأثراً قد سلّم له.

ثم وقف الكفار بقوله: ﴿مَلَّ بِسُورَيَانِ مَثَلًا﴾، ونصب ﴿مَثَلًا﴾ على التمييز، وهذا توقيف لا يجب عنه أحد إلا بأنهما لا يستويان، فلذلك عاملتهما العبارة الوجيزة على أنهم قد جاوبوا، فقال: ﴿الْحَمْدُ

لِلَّهِ﴾ على ظهور الحجة عليكم من أقوالكم، ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأضرب عن مقدّر محذوف يقتضيه المعنى، تقديره: الحمد لله على ظهور الحجة، وأن الأمر ليس كما يقولون، بل أكثرهم لا يعلمون. و﴿أَكْثَرُ﴾ في هذه الآية على بابها، لأننا وجدنا الأقل منهم عليم أمر التوحيد وتكلم به، ورفض أمر الأصنام، كَوَرَقَةٍ وَزَيْدٍ، وقُس.

ثم ابتدأ تعالى القول معهم في غرض آخر من الوعيد بيوم القيامة والخصومة فيه، ومن التحذير من حال الكذبة على الله، المكذبين بالصدق، فقدم تعالى لذلك توطئة مُضَمِّنُهَا وَغَطَّ النُّفُوسَ وَتَهَيَّئَتْهَا لِقَبُولِ الْكَلَامِ وخوف الوعيد، وهذا كما تريد أن تنهى إنساناً عن معاصيه، أو تأمره بخير، فتفتتح كلامك بأن تقول: كلنا يفتنى، أو: لا بُدَّ للجميع من الموت، أو: كلُّ من عليها فإن، ونحو هذا مما تُرَفِّقُ به النفس الذي تحدثه، ثم بعد ذلك تورد قولك. فأخبر تعالى أن الجميع مَيِّتٌ، وهذه قراءة الجمهور، وقرأها: ﴿مَائِتٌ﴾ و﴿مَائِثُونَ﴾ بألف ابن الزبير، وابن محيصن، وابن أبي إسحق، واليماني، وعيسى بن عمر، وابن أبي عقرب، وابن أبي عبله، والضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ لجميع العالم. ودخل رجل على صِلَةَ بن أَشْيَمَ فَنَعَى إِلَيْهِ أَخَاهُ، وبين يَدَي صِلَةَ طَعَامٍ، فقال صِلَةُ للرجل: اذُنْ فَكُلْ، فَإِنَّ أَخِي قَدْ نَعَى إِلَيَّ مِنْذُ زَمَانٍ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾.

والضمير في ﴿ثُمَّ لَأَنْكَرَ﴾ قيل: هو عامٌ أيضاً، فيختصم يوم القيامة المؤمنون والكافرون فيما كان من ظلم الكافرين لهم في كل موطن ظلموهم فيه، ومن هذا قول علي رضي الله عنه: أنا أول من يجثو يوم القيامة للخصومة بين يدي الرحمن عز وجل، فيختصم علي، وحمزة، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم مع عُتْبَةَ، وشَيْبَةَ، والوليد، ويختصم أيضاً المؤمنون بعضهم مع بعض في ظُلَامَاتِهِمْ، قاله أبو العالية وغيره، وقال الزبير بن العوام للنبي ﷺ: أَيَكْتَبُ عَلَيْنَا مَا كَانَ بَيْنَنَا فِي الدُّنْيَا مِنْ خَوَاصِ الذُّنُوبِ؟ قال: «نعم، حتى يُؤَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقُّهُ»، وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية قلنا: كيف نختصم ونحن إخوان؟ فلما قُتِلَ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وضرب بعضنا وجه بعض بالسيوف قلنا: هذا الخصام الذي وعدنا ربنا تعالى، ويختصم أيضاً - على ما روي - الروح مع الجسد في أن يُذَنَّبَ كل واحد منهما صاحبه، ويجعل المعصية في حيزه، فيحكم الله تعالى بشركتهما في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى الآية عندي أن الله تعالى توعدهم بأنهم سيتخاصمون يوم القيامة في معنى ردّهم في وجه الشريعة، وتكذيبهم لرسول ﷺ.

ثم وقفهم الله تعالى توقيفاً معناه نفى الموقف عليه بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أي: لا أحد أظلم ممن كَذَّبَ على الله، والإشارة بهذا

الكذب إلى قولهم: إِنَّ اللَّهَ صَاحِبَةٌ
وولداً، وقولهم: هذا حلالٌ وهذا
حرامٌ افتراءً على الله تعالى، وكذبوا
أيضاً بالصدق، وهو تكذيبهم أقوال
محمد ﷺ عن الله تعالى، ما كان
من ذلك معجزاً أو غير معجز، ثم
توعدهم تبارك وتعالى توعداً فيه
احتقارهم بقوله تعالى على وجه
التوقيف: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِلْكَافِرِينَ﴾، والمَثْوَى: موضع
الإقامة.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصَّدَقِ
مَعَادِلٍ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ﴾: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ
بِالصَّدَقِ﴾، فـ ﴿مَنْ﴾ هناك للجميع
والعموم، و﴿الَّذِينَ﴾ هنا للجنس
أيضاً، كأنه قال: والفريق الذي جاء
بعضه بالصدق، وصدق به بنقضه،
ويستقيم اللفظ والمعنى على هذا
الترتيب. وفي قراءة ابن مسعود:
﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصَّدَقِ وَصَدَّقُوا
بِهِ﴾، وهو هنا القرآن وأنباؤه،
والشرع بجملته.

وقالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ يراد به:
الذين، وحذفت النون لطول الكلام،
وهذا غير جيد، وتركيب ﴿جَاءُوا﴾
عليه يرُدُّ ذلك، وليس كقول
الفرزدق:

.... إِنَّ عَمِّي اللَّذَا
قَتَلَا الْمُـلُوكَ....

ونظير الآية قول الشاعر:

وإِنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفُلْجٍ دِمَاؤُهُمْ
هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ،

وهو الذي صدق به، وقالت فرقة
من المفسرين: الذي جاء بالصدق
هو جبريل، والذي صدق به هو
محمد ﷺ، وقال علي بن
أبي طالب رضي الله عنه، وأبو
العالية، والكلبي، وجماعة: الذي
جاء بالصدق هو محمد ﷺ،
والذي صدق به هو أبو بكر
رضي الله عنه، وقال قتادة، وابن
زيد: الذي جاء بالصدق هو
محمد ﷺ، والذي صدق به هم
المؤمنون، وقال مجاهد: هم أهل
القرآن، وقال أبو الأسود ومجاهد
وجماعة: الذي صدق هو علي
رضي الله عنه، وقالت فرقة بالعموم
الذي ذكرناه أولاً، وهو أصوب
الأقوال.

وقرأ أبو صالح، ومحمد بن
جُحادة، وعكرمة بن سليمان:
﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ بالتخفيف في الدال،
بمعنى: استحق به اسم الصدق،
فعلَى هذه القراءة يكون إسناد الأفعال
كلها إلى محمد ﷺ، وكأنه أُمِّتَ في
ضمن القول، وهو الذي يُحَسِّنُ:
﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. قال ابن
عباس رضي الله عنهما: اتَّقُوا
الشُّرَكَ.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ
اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يحتمل أن تتعلق بقوله
تعالى: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: الذين
أَحْسَنُوا لكي يكفِّر، قاله ابن زيد،
ويحتمل أن تتعلق بفعل مضمر
مقطوع مما قبله، كأنك قلت:
«بَشَّرَهُمُ اللَّهُ تعالى بذلك ليَكْفِرَ» لأن
التكفير لا يكون إلا بعد التَّيَسُّير
للخير، و﴿أَسْرَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ هو

كُفِّرَ أهل الجاهلية ومعاصي أهل
الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اللَّهُ يَكْفِي
عَبْدَهُ﴾ تقوية لنفس النبي عليه
الصلاة والسلام، لأن كفار قريش
كانوا خُوفُهُ من الأصنام، وقالوا:
أَنْتَ تُشْبِهُا ونخاف أن تُصَيِّكَ بجنون
أو عِلَّة، فنزلت الآية في ذلك. وقرأ
حمزة، والكسائي: ﴿عِبَادَهُ﴾ يريد
الأنبياء المختصين به وأنت أحدهم،
فيدخل في ذلك المطيعون من
المؤمنين والمتوكلون على الله
تعالى، وهذه قراءة أبي جعفر،
ومجاهد، وابن وثاب، وطلحة،
والأعمش. وقرأ الباقون: ﴿عَبْدَهُ﴾
وهو اسم جنس، وهي قراءة
الحسن، وشيبة، وأهل المدينة،
وَيُقْوِي أن الإشارة إلى محمد ﷺ
قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّدُكَ﴾؛ وقوله:
﴿مِنْ دُونِهِ﴾ يريد: بالذين يعبدون
من دونه، وروي أن رسول الله ﷺ
بعث خالد بن الوليد إلى كسر
العُزَّى، فقال سائئها: يا خالد، إني
أخاف عليك منها، فلها قوة لا يقوم
لها شيء، فأخذ خالد الفأس فهشم
به وجهها وانصرف.

ثم قرَّر تعالى أن الهداية والإضلال
من عنده بالخلق والاختراع، وأن ما
أراد من ذلك لا رادُّ له، ثم توعدهم
بعزَّته وانتقامه، فكان ذلك وانتقم
منهم يوم بدر وما بعده.

﴿٣٨﴾ - ﴿٤٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء احتجاج عليهم بحجة
أخرى، وجملتها أن وَقَفُوا على
الخالق المخترع، فإن قالوا إنه الله
لم يبق لهم في الأصنام غرض إلا أن

يقولوا: إنها تضر وتنفع، فلما تفعد من قولهم إن الله هو الخالق قيل لهم: أفرايتهم هؤلاء إذا أراد الله أمراً، أبهم قدرة على نقضه؟ وحذف الجواب عن هذا لأنه من البين أنه لا يجيب أحد إلا أنه لا قدرة للأصنام على شيء من ذلك. وقرأ: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ بِلَاءٍ مَفْتُوحَةٍ جَمْهُورُ الْقُرَاءِ وَالنَّاسِ، وَقُرْ الْأَعْمَشُ: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِحَذْفِ الْبَاءِ فِي الْوَصْلِ، وَزَوَى خَارِجَةً بِغَيْرِ بَاءٍ أَصْلًا. وَقُرْ جَمْهُورُ الْقُرَاءِ، وَالْأَعْرَجُ، وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَالْأَعْمَشُ، وَعَيْسَى، وَابْنُ وَثَابٍ: ﴿كَتَيْفَتُ ضُرَّةٍ﴾ بالإضافة، وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: ﴿كَاشِفَاتُ ضُرَّةٍ﴾ بالتثنية ونصب ﴿ضُرَّةٍ﴾، وهي قراءة شيبة، والحسن، وعيسى - بخلاف عنه - وعمر بن عُبيد، وهذا هو الوجه فيما لم يقع بعد، وكذلك الخلاف في ﴿تَمِيسِكُ رَحْمَتِي﴾.

ثم أمره تعالى أن يصدع بالاتكال على الله تعالى، وأنه حسبه من كل شيء ومن كل ناصر. ثم أمره بتوعدهم في قوله: ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ﴾، أي: على ما رأيتموه متمكناً لكم، وعلى حالاتكم التي استقر رأيكم عليها، وقرأ الجمهور: ﴿مَكَاتِبِكُمْ﴾ بالإنفراد، وقرأها بالجمع الحسن وعاصم. وقوله: ﴿اعْمَلُوا﴾ لفظ أمر بمعنى الوعيد، و«العذاب المخزي» هو عذاب الدنيا يوم بدر وغيره، و«العذاب المقيم» هو عذاب الآخرة.

٤١ - ٤٢ تفسير قوله عز وجل:

هذا إعلامٌ بعلو مكانة محمد ﷺ

واصفاء ربّه عز وجل له. و«الكتاب»: القرآن. وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يريد: متضمناً الحق في أخباره وأحكامه، والآخر أن يريد أنه أنزله بالواجب من إنزاله، وبلاستحقاق لذلك، لما فيه من مصلحة العالم وهداية الناس، وكان هذا الذي فعل الله تعالى من إنزال كتاب إلى عبده هو إقامة حجة عليهم، وبقي تكسيهم بعد إليهم، فمن اهتدى فلنفسه عجل وسعى، ومن ضلّ فعليه

جنى، والهدى والضلال إنما لله تعالى فيهما خلق واختراع، وللعبد تكسب عليه يقع الثواب أو العقاب. وأخير تعالى نبئه أنه ليس عليهم بوكيل ولا مسيطر، و«الوكيل»: القائم على الأمر حتى يكمله.

ثم نبّه تعالى عن آية من آياته الكبرى تدل الناظر على الوحدانية، وأن ذلك لا يشرك فيه لصنم، وهي حالة التوفى، وذلك أن الله تعالى ما توفاه على الكمال فهو الذي يموت، وما توفاه توفياً غير مكمل فهو الذي يكون في النوم، قال ابن زيد: النوم وفاة، والموت وفاة، وكثرت فرقة في هذه الآية وهذا المعنى، ففرقت بين النفس والروح، وفرّق قوم أيضاً بين نفس التمييز ونفس التخيل، إلى غير ذلك من الأقوال التي هي غلبة الظن، وحقيقة الأمر في هذا هي

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَوَلَمْ نَخُذْ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُعَفَاءَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ أَتَوَلَّوْا لِمَا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شَمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٧﴾ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَشَاءَ مَعَهُ لَا فَنَاءَ وَلَا يَوْمَ سَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَهُمُ اللَّهُ مَا لَهُمْ يَكُونُوا يَحْسَبُونَ ﴿٤٨﴾

مما استأثر الله تبارك وتعالى به وغيبه عن عباده في قوله سبحانه: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، وكيفيك أن في هذه الآية ﴿يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾، وفي الحديث الصحيح أن الله قبض أرواحنا حين شاء، وردّها علينا حين شاء، في حديث بلال في الوادي، فقد نطقت الشريعة بقبض الروح والنفس في النوم، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، فظاهر أن التفصيل والخوض في هذا كله عناء، وإن كان قد تعرّض للقول في هذا ونحوه الأئمة، ذكر الشعبي وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: في ابن آدم نفس بها العقل والتمييز، وفيه روح بها التنفس والتحرك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه. و«الأجل المسمى» في

إليها الضُّرُّ والنفع والألوهية، ونفي ذلك عنها، فعوملت معاملة من يعقل. و﴿وَحَدِّمْ﴾ منصوب عند سيبويه على المصدر، وعند الفراء على الحال.

٤٦ - ٤٨ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالدعاء إليه، ورد الحكم إلى عدله، ومعنى هذا الأمر تضمن الإجابة، و﴿اللَّهُمَّ﴾ عند سيبويه منادى، وكذلك عند الكوفيين، إلا أنه خالفهم في هذه الميم المشددة، فقال سيبويه: هي عوض من حرف النداء المحذوف إيجازاً، وهي دلالة على أن ثم ما حذف، وقال الكوفيون: بل هو فعل اتصل بالمكتوبة، وهو (أَمَّ) ثم حذفت الهمزة تخفيفاً، فكان معنى اللهم: يا الله أُمِّ برحمتك وفضلك. و﴿فَايْلُ﴾ منادى مضاف، أي: يا فاطر السموات، و﴿الْقَبِيحُ﴾: ما غاب عن البشر، و﴿وَالشَّهَادَةُ﴾: ما شاهده.

ثم أخبر تعالى عن سوء حال الكفرة يوم القيامة، وأن ما ينزل بهم لو قدروا على الاقتداء منه بضعف الدنيا بأسرها لفعلوا، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَدَا لَكُمْ يَوْمَ اللَّهِ﴾ الآية. أي: كانت ظنونهم في الدنيا متفرقة متنوعة حسب ضلالهم وتخيلاتهم فيما يعتقدونه، فإذا عاينوا العذاب يوم القيامة وقصرت بهم حالاتهم ظهر لكل واحد خلاف ما كان يظن. وقال سفيان الثوري: ويل لأهل الرِّبَا من هذه الآية، وقال عكرمة بن عمار: فزع محمد بن المنكدر عند الموت، فقيل له: ما هذا؟ فقال:

والروا في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ﴾ واو عطف دخلت عليها ألف الاستفهام، ومنتى دخلت ألف الاستفهام على واو العطف أو فائه أحدثت معنى التقرير.

ثم أمره بأن يخبر بأن جميع الشفاعة إنما هي لله تعالى، و﴿حَكِيمًا﴾ نصب على الحال، والمعنى أن الله تعالى يشفع ثم لا يشفع أحد قبل شفاعة هو إلا بإذنه، فمن حيث شفاعة غيره موقوفة على إذنه فالشفاعة كلها له ومن عنده.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ الآية، قال مجاهد وغيره: نزلت في قراءة النبي ﷺ سور النجم عند الكعبة بمحضر من الكفار، وعند ذلك ألقى الشيطان في أُمِّيَّتِهِ، فقال: «إِنَّهُمْ الْغَرَابِيُّونَ الْعُلَى، وَإِنْ شفاعتهن لثَرَّتْجَى»، فاستبشر الكفار بذلك وسرّوا، فلما أذهب الله ما ألقى الشيطان أنفوا واستكبروا واشمأزت نفوسهم، ومعناه: تَقَبَّضَتْ كِبَرًا وَأَفْنَةً وكراهية ونفوراً، ومنه قول عمرو ابن كلثوم:

إِذَا عَصَّ الشَّقَافُ بِهَا اشمأزت
وَوَلَّتْهُمْ عَشْوَزَةً رُبُونَا
و ﴿الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يريد تعالى الذين يُعْبَدُونَ من دونه، وجاءت العبارة في هذه الآيات عن الأصنام كما تأتي عَمَّن يفعل، من حيث صارت في حيز من يعقل، ونُسب

وَيَدَا لَكُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ٤٦ فَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ ضَرْعًا تَمَّ إِذَا حَوَّلَتْهُ
نِعْمَةً يَنُكَ قَالَ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ عَلَيَّ فَتْنَةٌ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٧ فَذَلَّلْنَا الَّذِينَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَمَا أَغْنَى
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ٤٨ فَاصْبِرْ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا
وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ٤٩ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٥٠
قُلْ يُجِيبُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْ تَهْتَفُتُمْ مِنْ
زِمَّةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥١
وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ
الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٢ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ
إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
بَغْتَةً وَتُمْرَ لَا تَشْعُرُونَ ٥٣ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ
عَلَى مَا قَرِطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتَ لِمَنِ السَّعِيرِينَ ٥٤

هذه الآية هو عُمر كل إنسان.

وقرأ جمهور القراء: ﴿فَضَى عَلَيْهَا﴾ بفتح القاف والضاد، وقرئ حمزة، والكسائي: ﴿قَضَى عَلَيْهَا﴾ بضم القاف وكسر الضاد، وهي قراءة ابن وثاب، وطلحة، والأعمش، وعيسى.

ثم أحال تعالى أهل الفكرة على النظر في هذا ونحوه، فإنه من البين أن هذه القدرة لا يملكها إلا الواحد الصمد.

٤٦ - ٤٨ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَيَّ﴾ هنا مقطوعة مما قبلها، وهي مقدرة بالألف وبل، وهذا تقرير وتوبيخ، فأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يوقفهم على الأمر، وعلى أنهم يرضون بهذا مع كون الأصنام بصورة كذا وكذا من عدم المملك والعقل.

أخاف هذه الآية. وقوله: ﴿وَمَآءٌ﴾ معناه: نزل وثبت ولزم، وقوله: ﴿مَآءٌ كَانُوا﴾ هو على حذف مضاف، تقديره: وحق بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون.

٤٩ - ٥٢ تفسير قوله عز وجل:

هذه حُجَّةٌ تلزم عُبَادَ الْأَوْثَانِ للتناقص في أعمالهم، وذلك أنهم يعبدون الأوثان ويعتقدون تعظيمها، فإذا أُرْفِتْ آزِفَةٌ أو نالت شِدَّةٌ نبذوها ونسوه ودَعَوْا الخالقَ المخترع ربَّ السموات والأرض، و﴿الْإِنْسَانُ﴾ في الآية للجنس، و﴿حَوْلَانَهُ﴾ معناه: ملُكَنَاهُ، قال الزجاج وغيره: التَّخْوِيلُ: العطَاءُ عن غير مجازاة، و﴿النَّعْمَةُ﴾ هنا عامٌ في جميع ما يسديه الله إلى العبد، فمن ذلك إزالة الضَّرِّ المذكور، ومنه الصُّحَّةُ والأَمْنُ والمالُ، وتقوى الإشارة إليه في الآية بقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وبقوله تعالى أخيراً: ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، ويذكر الكسب.

وذكر تعالى الضمير في قوله: ﴿أُوتِيتُمْ﴾، وذلك يحتمل وجوهاً: منها أن يريد بالنعمة المال كما قدما، ومنها أن يُعِيد الضمير على المذكور إذ اسم النعمة يعُمُّ ما هو مُذَكَّرٌ ويعُمُّ ما هو مُؤنَّثٌ، ومنها أن تكون [مَآءٌ] في قوله: ﴿إِنَّمَا﴾ بمعنى (الذي)، وعلى الوجهين الأولين [مَآءٌ] كافَّةٌ، وقوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موضع نصب على الحال، مع أن تكون [مَآءٌ] كافَّةٌ، وأما إذا كانت بمعنى (الذي) فإن ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موضع خبر [إِنَّمَا]، ودالٌّ على الخبر المحذوف، كأنه قال: «هو على علم»، وقوله:

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل أن يريد: على علم مِنِّي يُوجِبُ المكاسب والتجارات وغير ذلك، قاله قتادة، ففي هذا التأويل إعجاب بالنفس وتَعَاطُي مُفْرَط، ونحو هذا، ويحتمل أن يريد: عَلَىٰ عِلْمٍ من الله تعالى في، وشيء سبق لي، واستحقاق حُرَّتِهِ عند الله تعالى، لا يَضُرُّني معه شيء، وفي هذا التأويل اعتزاز بالله تبارك وتعالى وَعَجْزٌ وَتَمَنُّ على الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾، أي: ليس الأمر كما قال، بل هذه الغفلة به فتنة له وابتلاء.

ثم أخبر تعالى عَمَّنْ سَلَفَ من الكفرة أنهم قد قالوا نحو هذه المقالة، كقارون وغيره، وأنهم ما أغنى عنهم كسبهم واحتجابهم للأموال، وكذلك لا يُغْنِي هَؤُلَاءِ. ثم ذكر تعالى - على جهة التوعُّد لهؤلاء في نفس المثال - أن أولئك أصابهم جزاء سيئات ما كسبوا، وأن الذين ظلموا بالكفر من هَؤُلَاءِ المعاصرين لك سيصيبهم ما أصاب المتقدمين، وهذا خبر من الله تعالى أَبْرَزُهُ الوجود يوم بدرٍ وغيره، و﴿مُغْجِرِينَ﴾ معناه: مُفْلِتِينَ وناجين بأنفسهم.

ثم قرَّر تعالى عَلَى الحَقِيقَةِ في أمر الكسب وَسَعَةَ النعم فقال: أَوَلَمْ يَغْلُمُوا أَنَّ اللهَ هو الذي يَسْطُرُ الرزق لقوم وَيُضَيِّقُهُ على قوم بمشيئته وسابق علمه، وليس ذلك لِكَيْسٍ أَحَدٍ ولا لعجزه، وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ معناه: يُضَيِّقُ، كما قال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾.

٥٣ - ٥٥ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآيات عامة في جميع الناس إلى يوم القيامة، في كل كافر ومؤمن، أي أن توبة الكافر تمحو كفره، وتوبة العاصي تمحو ذنبه، واختِلاف - هل يكون في المشيئة أو هو مغفور له ولا بُدُّ؟ - فقالت فرقة من أهل السُنَّة: هو مغفور له ولا بُدُّ، وهذا مقتضى ظواهر القرآن، وقالت فرقة: التائب في المشيئة، لكن يَغْلِبُ الرجاء في ناحيته، والعاصي في المشيئة، لكن يغلب الخوف في ناحيته.

واختلف المفسرون في سبب نزول الآيات - فقال عطاء بن يسار: نزلن في وحشي قاتِل حمزة، وقال السُّدي، وقتادة، وابن أبي إسحق: نزلن في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا، وفتنتهم قريش فافتنوا، ثم ندموا وظنوا أنهم لا توبة لهم، فنزلت، منهم الوليد، وهشام بن العاصي، وهذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأنه كتبها بيده إلى هشام بن العاصي - الحديث. وقالت فرقة: نزلن في قوم كفار من أهل الجاهلية، قالوا: وما ينفعنا الإسلام ونحن قد زينا وقتلنا النفس وأتينا كل كبيرة، فنزلت، وقال علي، وابن مسعود، وابن عمر رضي الله عنهم: هذه أرجى آية في القرآن، وروى ثوبان أن النبي ﷺ قال: «مَا أَحَبُّ أَنْ لِي الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا بِهذه الآية: يا عبادي».

و ﴿أَتَرْفُؤُهُ﴾ معناه: أَرَطُوا وتعدُّوا الطور، و«القنوط»: أعظم اليأس، وقرأ نافع وجمهور الناس:

أبو الفتح: جمع بين العوض والمؤوض منه، وروي ابن جمار عن أبي جعفر: ﴿يَا حَسْرَتِي﴾ بكسر التاء وبعدها ياء ساكنة، قال سيبويه: «ومعنى نداء الحسرة والويل: أي هذا وفشك وزمائك فاحضري». و﴿قُرْطُكُ﴾ معناه: قصرت في اللازم، وقوله: ﴿فِي جُنْبِ اللَّهِ﴾ معناه: في مقاصدي إلى الله، وفي جهة طاعته، أي: في تضييع شريعته والإيمان به، و«الجُنْبُ» يُعَبِّرُ به عن هذا ونحوه، ومنه قول الشاعر:

أَفِي جُنْبٍ بَكَرٍ قَطَعْتَنِي مَلَامَةً
لَعَمْرِي لَقَدْ طَالَتْ مَلَامَتُهَا بِبَا

ومنه قول الآخر:

السَّاسُ جُنْبٌ وَالْأَمِيرُ جُنْبٌ
وقال مجاهد: ﴿فِي جُنْبِ اللَّهِ﴾ أي: في أمر الله. وقول الكافر: «وَأِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّاجِرِينَ» ندامة على استهزائه بأمر الله، والسُّخْرُ: الاستهزاء.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُ﴾ في الموضعين عطف على قوله: ﴿أَنْ تَقُولُ﴾ الأول، و﴿كَرَّةٌ﴾ مصدر، من: كَرَّ يَكُرُّ، وقوله: ﴿فَأَكْرُتُ﴾ نصب بـ (أَنْ) مُضْمَرَةٌ مَقْدَرَةٌ، وهو عطف على قوله: ﴿كَرَّةٌ﴾، والمراد: لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَكَرُّنَا، فلذلك احتيج إلى (أَنْ) لتكون هي مع الفعل بتأويل المصدر ونحوه قول الشاعر - أشده الفراء -:

فَمَا لَكَ مِنْهَا غَيْرَ ذِكْرِي وَخَشْيَةٍ
وَتَسْأَلُ عَنْ رُكْبَانِهَا أَيْنَ يَمُومُوا؟
وقد قدر بعض الناس الكلام بأنه: «لو أَنَّ لِي أَنْ أَكُرَّ»، ذكره الطبري،

سبحانه: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ توعدُ بعذاب الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ معناه أن القرآن العزيز تضمّن عقائد نيرة، وأوامر ونواهي مُنْجِية، وعدّات على الطاعات والبر، وحدوداً على المعاصي ووعيداً على بعضها، فالأحسن أن يسلك المرء طريق التّفهُّم والتحصيل والطاعة والانتهاء والعفو في الأمور ونحو ذلك، فهو أحسن من أن يسلك طريق الغفلة

والمعصية فيجزى أو يقع تحت الوعيد، فهذا هو المعنى المقصود بـ «أَحْسَنَ»، وليس أن بعض القرآن أحسن من بعض من حيث قرآن، وإنما هو أَحْسَنُ كله بالإضافة إلى أفعال الإنسان وما يلقى من عواقبها، قال السدي: الأَحْسَنُ هو ما أمر الله تبارك وتعالى به في كتابه. و﴿بَقَّةٌ﴾ معناه: فجأة وعلى غير موعد، و﴿تَشْعُرُونَ﴾ مشتق من الشعار.

٥٦ - ٥٧ تفسير قوله عز وجل: ﴿أَنْ﴾ في هذه الآية مفعول من أجله، أي: أنيئوا وأسلموا من أجل أن تقول نفس، وقرأ الجمهور: ﴿بَحْسَرَتِي﴾ والأصل: يا حَسْرَتِي، ومن العرب من يَزُدُ ياء الإضافة ألفاً، فيقول: يا غلاما، ويا جارا، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿يَا حَسْرَتَايَ﴾ بفتح الياء، وروى عنه بسكونها، قال

أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولُ لِحَسْبِ الْكَافِرِ إِنَّكَ كَافِرٌ تَوَّابٌ ﴿٥٧﴾ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلْ قَدْ جَاءَ نَكَائِي فَكَذَّبْتُ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتُ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَوَجَّهُهُمْ مُسْوَدَّةً أُنْفُسُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيَسْمَعُ اللَّهُ الَّذِينَ أَتَوْا بِمَقَارِبِهِمْ لَا يَتَسْمَعُ الشَّيْءَ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ اللَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَقْبِرُوا اللَّهَ قَامِرُونَ عَبْدًا يَأْتِيهِ الْمَلُوكُ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ أَنْ أَشْرَكَ لِيَحْبِطَ عَنْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلَى اللَّهُ فَاعْبُدْهُ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

﴿تَقَطُّوا﴾ بفتح النون، قال أبو حاتم: «يلزمهم أن يقرأوا: ﴿مِنْ يَغْدُ مَا قَنِطُوا﴾ بالكسر، ولم يقرأ به أحد»، وقرأ الأشهب العقيلي بضم النون، وقرأ أبو عمرو، وابن وثاب، والأعمش بكسرها، وهي لغات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عموم بمعنى الخصوص؛ لأن الشُّرْكَ ليس بداخل في الآية إجماعاً، وهي أيضاً في المعاصي مقيدة بالمشيئة، و﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال. وروى أن رسول الله ﷺ قرأ: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا يَبَالِي»، وقرأ ابن مسعود: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ يَشَاءُ».

قوله تعالى: ﴿وَأَنبِئَا﴾ معناه: ارجعوا وميلوا بنفوسكم، و«الإنابة»: الرجوع بالنفس إلى الشيء، وقوله

وهذا «الكون» في الآية داخل في التمني.

وقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ جوابٌ لِنفي مقدَّر في قول هذه النفس، كأنها قالت: «فَعُمُرِي فِي الدُّنْيَا لَمْ يَتَسَعِ لِلنَّظَرِ، أَوْ قَالَتْ: «فَلِأَنِّي لَمْ يَتَبَيَّنْ لِي الْأَمْرُ فِي الدُّنْيَا»، ونحو هذا، وحقُّ (بَلَىٰ) أَنْ يَجِيءَ بَعْدَ نَفْيِ عَلَيْهِ تَقْرِيرٌ.

وقرأ الجمهور: ﴿قَدْ جَاءَتْكَ﴾ بفتح الكاف وبفتح التاء من قوله: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ﴾، على مخاطبة الكافر ذي النفس، وقرأ ابن يَعمَرَ، والجحدري بكسر الكاف والتاء في الثلاثة على خطاب النفس المذكورة، قال أبو حاتم: روتها أم سلمة عن النبي ﷺ، وقرأ الأعمش: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْهُ﴾ بالهاء.

ثم خاطب تعالى نبيه ﷺ بخبر يراه يوم القيامة من حالة الكفار، وفي ضمن هذا الخبر وعيدٌ لمعاصري محمد صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿كَرَىٰ﴾ هو من رؤية العين، وكذبهم على الله تعالى هو في أن جعلوا له البنات والصاحب، وشروا ما لم يأذن به الله، إلى غير ذلك. وقوله: ﴿وَجُوهُهُمْ مُّسْوَدَّةٌ﴾ جملة في موضع الحال، وظاهر الآية أن لون وجوههم يتغير وتسود حقيقة، ويحتمل أن يكون في العبارة تجوُّزٌ، وعبر بالسواد عن اربداد وجوههم وغالب همهم وظاهر كآبتهم، و«مُسْوَىٰ»: موضع الثواء والإقامة، و«المتكبر»: رافع نفسه إلى فوق حقه، قال ﷺ: «الكبر

سفه الحق وغمط الناس» أي احتقارهم.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل: ذكر الله تعالى حالة المتقين ونجاتهم ليعادل بذلك ما تقدم من ذكر الكفرة، وفي ذلك ترغيب في حالة المتقين؛ لأن الأشياء تبين بأضدادها. وقرأ الجمهور: ﴿يَمْقَارِيهِمْ﴾ على اسم الجنس، وهو مصدرٌ من الفوز، وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿يَمْقَارَاتِهِمْ﴾ على الجمع، من حيث النجاة لأنواع ولأسباب مختلفة، وهي قراءة الحسن، والأعرج، وأبي عبد الرحمن، والأعشى. وفي الكلام حذف مضاف تقديره: وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِأَسْبَابٍ أَوْ بَدَوَاعِي مَفَازَتِهِمْ. وقال السدي: ﴿يَمْقَارِيهِمْ﴾: بفضائلهم، وقال ابن زيد: بأعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كلام مستأنف دالٌّ على الوجدانية، وهو عموم معناه الخصوص، و«الوكيل»: القائم على الأمر الزعيم بإكماله وتتميمه.

و«المقاليذ»: المفاتيح، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما، واحدها: مفلاة، مثل مفتاح، وفي كتاب الزهراوي: واحد المقاليذ: إقليد، وهذه استعارة، كما تقول: بيدك يا فلان مفتاح هذا الأمر؛ إذا كان قادراً على السعي فيه، وقال السدي: المقاليذ: الخزائن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عبارة غير جيدة، ويُسبِّه أن

يقول قائل: المقاليذ إشارةٌ للخزائن أو دالةٌ عليها فيسوغ هذا القول، كما أن الخزائن أيضاً في جهة الله تعالى إنما تجيء استعارة، بمعنى: اتساع قدرته، وأنه يبتدع ويخترع، ويُسبِّه أن يقال فيما أوجد من المخلوقات كالماء والنار وغير ذلك: إنها في خزائنه سبحانه، وهذا كله تجوُّز على جهة التقريب والتفهم للسامعين، وقد ورد القرآن بذكر الخزائن، ووقعت في الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «ما فتح اللبلة من الخزائن»، والحقيقة في هذا غير بعيدة، لكنه ليس اختزان حاجة ولا قلة قدرة كما هو اختزان البشر. وقال عثمان رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ عن مقاليذ السموات والأرض فقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ﴾ منصوب بـ ﴿أَعْبُدَ﴾، كأنه قال: أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَعْبُدُ فيما تأمروني؟ ويجوز أن يكون نصبه بـ ﴿تَأْمُرُونِي﴾ على إسقاط (أن)، تقديره: أَفَغَيْرَ اللَّهِ تأمروني أن أَعْبُدَ. وقرأت فرقة: ﴿تَأْمُرُونِي﴾ بنونين، وهذا هو الأصل، وقرأ ابن كثير بنون مشددة مكسورة بعدها ياء مفتوحة. وقرأ ابن عامر بنون خفيفة مكسورة وياء ساكنة، وهذا على حذف النون الواحدة، وهي الموطنة لباء المتكلم، ولا يجوز حذف النون الأولى، وهو لحن لأنها علامة رفع الفعل، وفتح نافع الباء على هذا

ولا نفوا عنه ما لا يليق به.

واختلف الناس في المعنى بالضمير في قوله سبحانه: ﴿قَدُرُوا﴾ -

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل ذلك في كفار قريش الذين كانت هذه الآيات كلها محاورة لهم ورداً عليهم.

وقالت فرقة: الآية نزلت في قوم من اليهود، تكلموا في صفات الله تعالى وجلاله فألحدوا وجسّموا وأتوا بكل تخليط، فنزلت الآية فيهم، وفي الحديث أنه

جاء خبر بالمدينة إلى رسول الله ﷺ، فجلس إليه، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: حدثنا، قال: «إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة جعل السموات على إصبع، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، وجميع الخلائق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك»، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصدقاً له، ثم قرأ هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فرسول الله ﷺ تمثل بالآية وقد كانت نزلت، وقوله في الحديث: «تصديقاً له»، أي في أنه لم يقل إلا ما رأى في كتب اليهود، ولكن النبي ﷺ أنكر المعنى لأن التجسيم فيه ظاهر، [واليهود معروفون

باعقاده، لا يُحسنون خلقه على تأويله من أن الإصبع عبارة عن القدرة، أو أنها إصبع خلق يخلقه لذلك، ويعضد هذا تنكير الإصبع].

وروى سعيد بن المسيب أن سبب نزول الآية أن طائفة من اليهود جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، هذا الله خلق الأشياء، فمن خلق الله؟ فغضب رسول الله ﷺ وساورهم فتزلت الآية، وقرأ جمهور الناس: ﴿قَدُرُوا﴾ بسكون الدال، وقرأ الأعمش بفتحها، وقرأ أبو حية، وعيسى بن عمر، والحسن، وأبو نوفل: ﴿وَمَا قَدَرُوا﴾ بتشديد الدال ﴿حَقَّ قَدْرُهُ﴾ بفتحها.

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَبِيحًا قَبَضَتْهُ﴾ معناه: في قبضته، وقال ابن عمر ما معناه: إن الأرض في قبضة اليد الواحدة، والسموات مطويات باليمين الأخرى؛ لأن كلتي يديه يمين، ورواه عن النبي ﷺ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الأرض جميعاً قبضته والسموات وكل ذلك بيمينه. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿مُطَوَّيَاتٍ﴾ بكسر الشاء المنونة، والناس على رفعها.

وعلى كل وجه فاليمين هنا والقبضة وكل ما ورد عبارة عن القدرة والقوة، وما اختلج في الصدور من غير ذلك باطل، وما ذهب إليه القاضي من أنها صفات زائدة على صفات الذات قول ضعيف. وبحسب ما يختلج في النفوس التي لم يصنها العلم قال سبحانه وتعالى:

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٦﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بَوْرٍ رَبَّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَحَّتْ أَنفُسُهُمْ ۖ وَفَالَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُولُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ رَبِّكُمْ وَيُذَكِّرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بِأَلْوَابٍ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَمِيسَرَتُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوا خَالِدِينَ ﴿٧١﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٢﴾

الحذف فقرأ: ﴿تَأْمُرُونِي﴾، وقرأ الباقون بشد النون وسكون الباء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ الآية، قالت فرقة: في الآية تقديم وتأخير، كأنه قال: «ولقد أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك وإلى الذين من قبلك»، وقالت فرقة: الآية على وجهها، والمعنى: ولقد أوحى إلى كل نبي لئن أشركت ليحبطن عملك، و«حبط» معناه: بطل وسقط. وبهذه الآية بطلت أعمال المرتد من صلاته وحجّه وغير ذلك.

٦٦ - ٦٧ تفسير قوله عز وجل:

المكتوبة منصوبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَزَمُوا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا﴾ الله حق قدره معناه: وما عظموا الله حق عظمتهم، ولا وصفوه بصفاته،

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: هو مُنْزَه عن جميع الشبه التي لا تليق به.

ثم ذكر سبحانه وتعالى التَّفْخِيحَ في الصُّورِ لِيُصْعِقَ الْأَحْيَاءَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالسَّمَاءِ، وفي بعض الأحاديث من طريق أبي هريرة عن النبي ﷺ أَنَّ قَبْلَ هَذِهِ الصَّعْقَةِ صَعْقَةُ الْفَرْعِ، وَلَمْ تَنْصَحْهُمْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَ﴿فَصَيَّقَ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَعْنَاهُ: خَرَّ مَبْتَأًا، وَالصُّورُ: الْقُرْنُ، وَلَا يَتَصَوَّرُ هُنَا غَيْرَ هَذَا، وَمِنْ يَقُولُ: الصُّورُ جَمْعُ صَوْرَةٍ فَإِنَّمَا يَتَوَجَّهُ قَوْلُهُ فِي نَفْخَةِ الْبَعْثِ. وَقَرَأَ قَتَادَةُ: ﴿وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ﴾ بِفَتْحِ الْوَاوِ، وَهِيَ جَمْعُ صَوْرَةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، قَالَ السُّدِّيُّ: اسْتَنْى جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَمَلَكَ الْمَوْتِ، ثُمَّ أَمَاتَهُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْحَالِ، وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقِيلَ: اسْتَنْى الْأَنْبِيَاءُ، وَقَالَ ابْنُ جَبْرِ: اسْتَنْى اللَّهُ الشَّهَدَاءَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُفِّخُ فِيهِ أُثْرَى﴾ هِيَ نَفْخَةُ الْبَعْثِ، وَرَوَى أَنْ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعِينَ، لَا يَدْرِي أَبُو هُرَيْرَةَ: سَنَةً أَوْ يَوْمًا أَوْ شَهْرًا أَوْ سَاعَةً. وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

﴿٦٩﴾ - ﴿٧٢﴾ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأَشْرَقَتِ﴾ مَعْنَاهُ: أَضَاءَتْ وَعَظُمَ نَوْرُهَا، يَقَالُ: شَرَقَتِ الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ، وَأَشْرَقَتْ إِذَا أَضَاءَتْ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَبِيدُ بْنُ عَمِيرٍ: ﴿وَأَشْرَقَتْ﴾ بِضَمِّ الْأَلْفِ وَكَسْرِ الرَّاءِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَتَرْتَّبُ مِنْ فِعْلِ يَتَعَدَّى، فَهَذَا عَلَى أَنْ يَقَالُ: أَشْرَقَ

السَّبِيْتُ وَأَشْرَقَهُ السُّرَاجُ، فَيَكُونُ الْفِعْلُ مُتَجَاوِزًا وَغَيْرَ مُتَجَاوِزٍ بِلَفْظِ وَاحِدٍ، كَرَجَعَ وَرَجَعْتُهُ، وَوَقَفَ وَوَقَفْتُهُ، وَمِنْ الْمُتَعَدِّيِّ مِنْ ذَلِكَ يَقَالُ: أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ، وَالْأَرْضُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأَرْضُ الْمُبْدَلَةُ مِنَ الْأَرْضِ الْمَعْرُوفَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُنْزِلُ رَبِّي﴾ إِضَافَةٌ خَلَقَ إِلَى خَالِقِهِ، أَيُّ: بِنُورِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَ﴿الْكِتَابِ﴾: كِتَابُ حِسَابِ الْخَلَائِقِ، وَوَحَّدَهُ عَلَى اسْمِ الْجِنْسِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ لَهُ كِتَابٌ عَلَى جِدَةٍ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: وَضَعَ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ. وَهَذَا شَاذٌ، وَلَيْسَ فِيهِ مَعْنَى التَّوَعُّدِ وَهُوَ مَقْصِدُ الْآيَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوَاقِعَ الْبَلَاءِ﴾ أَيُّ: اسْتَشْهَدُوا عَلَى أَمَمِهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّهَدَاءَ﴾، قِيلَ: هُوَ جَمْعُ شَهِيدٍ، وَالْمَرَادُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: الشَّهَدَاءُ: جَمْعُ شَهِيدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهَذَا أَيْضًا يَزُولُ عَنْهُ مَعْنَى التَّوَعُّدِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِالشَّهَدَاءِ الْأَنْبِيَاءَ أَنْفُسَهُمْ، فَيَكُونُ مِنْ عَطْفِ الصِّفَةِ عَلَى الصِّفَةِ بِالْوَاوِ، كَمَا تَقُولُ: جَاءَنِي زَيْدُ الْكَرِيمِ وَالْعَاقِلِ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: الشَّهَدَاءُ: الْحَفَظَةُ.

وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْعَالَمِ بِأَجْمَعِهِ إِذِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ مَعْنَاهُ: لَا يَوْضَعُ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِمْ غَيْرَ مَوْضِعِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

عَمِلَتْ﴾ مَعْنَاهُ: جُوزِيَتْهُ مُكْتَمَلًا، وَفِي هَذَا وَعِيدٌ صَرَحَ عَنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿وَسَيِّقَ﴾ وَ﴿وَيَوَاقِعَ﴾ بِكَسْرِ أَوَّلِهِ، وَقَرَأَهَا وَنَظَائِرُهَا بِإِشْمَامِ الضَّمِّ الْحَسَنِ، وَابْنُ ثَوَابٍ، وَعَاصِمٌ، وَالْأَعْمَشُ. وَ﴿زُرَّمَا﴾ مَعْنَاهُ: جَمَاعَاتٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَاحْدَتُهَا زُرْمَةٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فُتِحَتْ﴾ جَوَابُ ﴿إِذَا﴾، وَالْكَلَامُ هُنَا يَتَقَضَى أَنْ فَتَحَهَا إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ مَجِيئِهِمْ، وَفِي وَقُوفِهِمْ قَبْلَ فَتَحِهَا مَذَلَّةٌ لَهُمْ، وَهَكَذَا هِيَ حَالُ السَّجُونِ وَمَوَاضِعِ الثُّغَافِ وَالْعَذَابِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿وَفُتِحَتْ﴾، فَالْوَاوُ مُؤَدِّنَةٌ بِأَنَّهُمْ يَجِدُونَهَا مَفْتُوحَةً كَمَا نَزَلَتِ الْأَفْوَاحُ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿فُتِحَتْ﴾ بِشَدِّ التَّاءِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ، وَحُمَزَةٌ، وَالْكَسَائِيُّ بِتَخْفِيفِهَا، وَهِيَ قِرَاءَةُ طَلْحَةَ، وَالْأَعْمَشُ. ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَوْقِيفَ الْخِزْنَةِ لَهُمْ عَلَى مَجِيئِ الرُّسُلِ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿يَأْتِيَكُمْ﴾ بِالْيَاءِ مِنْ تَحْتِ، وَقَرَأَ الْأَعْرَجُ: ﴿تَأْتِيَكُمْ﴾ بِالتَّاءِ مِنْ فَوْقِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْكُمْ﴾ أَعْظَمُ فِي الْحُجَّةِ، أَيُّ: رُسُلٌ مِنْ جَنْسِكُمْ لَا يَصْعَبُ عَلَيْكُمْ مَرَامُهُمْ وَلَا فَهْمُ أَقْوَالِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَا لَيْلَى﴾ جَوَابُ عَلَى التَّقْرِيرِ عَلَى نَفْيِ أَمْرٍ، وَلَا يَجُوزُ هُنَا الْجَوَابُ بِ(نَعَمْ) لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِنَا، وَهَكَذَا كَانَ يَتَرْتَّبُ الْمَعْنَى: ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا حُجَّةً، إِلَّا أَنَّ كَلِمَةَ الْعَذَابِ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ،

موت إنسان، وهؤلاء إنما ورثوا مواضع أهل النار لو كانوا مؤمنين، و﴿تَنَبَّأُ﴾ معناه: تتخذ أمكنة ومساكن.

ثم وصف تعالى حالة الملائكة من العرش وحفوفهم به، وقال قوم: واحد ﴿حَافِينَ﴾: حاف، وقالت فرقة: لا واحد لحافين لأن الواحد لا يكون حافاً؛ إذ الحفوف الإحداف بالشيء، وهذه اللفظة مأخوذة من الحفاف الذي هو الجانب، ومنه قول الشاعر:

لَه لَحَفَاتٌ عَنْ حِفَافِي سَرِيرِهِ
إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَتَأَلَّلُ
أَي: عن جانبه. وقالت فرقة: ﴿يَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ زائدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب أنها لا ابتداء الغاية.

قوله تعالى: ﴿يَسْبِخُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، قالت فرقة: معناه أن تسبيحهم يتأتى بحمد الله تعالى وفضله، وقالت فرقة: تسبيحهم هو ترديد حمد الله تبارك وتعالى وتكراره. وقال الثعلبي: مُتَلَذِّذِينَ لَا مُتَعَبِّدِينَ وَلَا مُكَلَّفِينَ.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ختم للأمر، وقول جزم عند فصل القضاء، أي: إن هذا الحاكم العدل ينبغي أن يُحمد عند نفوذ حكمه وإكمال قضائه، ومن هذه الآية جعلت ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خاتمة المجالس والمجتمعات في العلم، وقال قتادة: فتح الله أول الخلق بالحمد فقال:

مُؤَذِّنَةٌ بِأَنهَا قَدْ فَتَحَتْ قَبْلَ
وَصَوْلَهُمْ إِلَيْهَا، وَقَالَتْ
فِرْقَةٌ: هِيَ زَائِدَةٌ،
وَجَوَابُ ﴿إِذَا﴾ هُوَ
﴿فَتَحَتْ﴾، وَقَالَ الزُّجَّاجُ
عَنِ الْمُبَرِّدِ: جَوَابُ
﴿إِذَا﴾ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ
بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿خَلِيلِينَ﴾... سَعِدُوا،
وَقَالَ الْخَلِيلُ: الْجَوَابُ
مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: حَتَّى
إِذَا جَاءَهَا جَاءَهَا
وَفَتَحَتْ أَبْوَابَهَا، وَهَذَا
كَمَا قَدَّرَ الْخَلِيلُ قَوْلَ اللَّهِ
تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاكَ
لَا يَجِبُ﴾، وَكَمَا قَدَّرَ
أَيْضاً قَوْلَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْخَيْ وَاتَّخَى
.....

أَي: أَجَزْنَا وَاتَّخَى. وقد قال قوم - أشار إليهم ابن الأنباري وضعف قولهم -: هذه واو الثمانية، وقد تقدم القول في واو الثمانية مستوعباً في سورة الكهف، وسقطت هذه الواو في مصحف ابن مسعود، فهي كالأولى.

وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تحية، ويحتمل أن يريد أنهم قالوا لهم: سلام عليكم وأمنة لكم، و﴿يُسَبِّحُونَ﴾ معناه: أَعْمَالاً وَمُعْتَقِدَاتٍ وَمُسْتَقَرّاً وَجِزَاءً.

وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ﴾ يريد أرض الجنة، قاله قتادة، وابن زيد، والسُّدِّي، والورثة هنا مستعارة؛ لأن حقيقة الميراث أن يكون يصير شيء إلى إنسان بعد

وَرَى الْمَلَائِكَةُ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ الزُّمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٧٦﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٧٧﴾ مَا يَجِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرُكَ ثَقَلُهم فِي الْيَدِ ﴿٧٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَيَجِدُوا إِلَهُ الْكَافِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ مُخْتَلَفٌ فِي الْحَقِّ فَآخَذَ نوحًا فَقَالَ إِنَّكَ كَاذِبٌ ﴿٧٩﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ لِكُلِّ شَيْءٍ وَرَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَرَمِ ﴿٨٠﴾

٤٦٧

أي الكلمة المقتضية من الله تعالى تخليدكم في النار، وهي عبارة عن قضائه السابق لهم بذلك، وهي التي في قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْ أَتْبَاعِكَ﴾، و﴿الْمَثْوَى﴾: موضع الإقامة.

﴿٧٦﴾ - ﴿٧٥﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿وَسِبِّحْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا﴾ لفظ يعم كل من يدخل الجنة من المؤمنين الذين اتقوا الشُّرُكَ؛ لأن الذين لم يتقوا المعاصي قد يساق منهم، وهم الذين سَبَقَ لهم أن يغفر الله تعالى لهم من أهل المشيئة، وأيضاً فالذين يدخلون النار ثم يخرجون منها قد يساقون زَمْراً إلى الجنة بعد ذلك فيصيرون من أهل هذه الآية، والواو في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، وختم القيامة بالحمد في هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجعل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فاتحة كتابه، فبه يبدأ كل أمر، وبه يُخْتَم، وحمد الله تبارك وتعالى وتقديسه ينبغي أن يكون من المؤمنين، كما قال الشاعر:

وَأَخْرُسِيءُ أَنتَ فِي كُلِّ ضِجَّةٍ
وَأَوَّلُ شَيْءٍ أَنتَ عِنْدَ هُبُوبِي
كامل تفسير سورة الزمر والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة غافر

هذه السورة مكيّة بإجماع، وقد روي في بعض آياتها أنها مدنية، وذلك ضعيف، والأول أصح، وهذه الحواميم التي روى أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنها ديباج القرآن، ووقفه الزجاج على ابن مسعود رضي الله عنه، ومعنى هذه العبارة أنها خلت من الأحكام، وقُصرت على المواعظ والزجر وطرق الآخرة محضاً، وأيضاً فهي قصار لا يلحق لقارئ فيها سآمة. وروي أن ابن مسعود روى أن النبي ﷺ قال: «من أراد أن يرتع في رياض مونة من الجنة فليقرأ الحواميم»، وهذا نحو الكلام الأول في المعنى. وقال عليه الصلاة

والسلام: «مثل الحواميم في القرآن مثل الجيزات في الثياب».

① - ⑤ تفسير قوله عز وجل:

قد تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور، وتلك الأقوال كلها تترتب في ﴿حَم﴾، ويختص هذا الموضع بقول آخر قاله الضحّاك، والكسائي: إن ﴿حَم﴾ هجاء (حَم) بضم الحاء وشذ الميم المفتوحة، كأنه يقول: «حَم الأَمْر» ووقع تنزيل الكتاب من الله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «الرَّ، وَحَم، وَهِي حروف (الرحمن) مُقَطَّعة في سورة»، وقال القرطبي: أقسم الله تعالى بحلمه ومُلْكِهِ، وسأل أعرابي النبي ﷺ عن ﴿حَم﴾ ما هو؟ فقال: «بدء أسماء وفواتح سورة».

وقرأ ابن كثير بفتح الحاء، وروي عن أبي عمرو كسرهما على الإمالة، وروي عن نافع الفتح، وروي عنه الوسط بينهما، وكذلك اختلف عن عاصم، وروي عن عيسى كسر الحاء على الإمالة، وقرأ جمهور الناس بفتح الحاء وسكون الميم، وقرأ عيسى بن عُمر أيضاً بفتح الحاء وفتح الميم الأخيرة في النطق، ولذلك وجهان: أحدهما التحريك للاتقاء مع الياء الساكنة، والآخر أن تكون حركة إعراب، وذلك نصب بفعل مضمّر تقديره: اقرأ حَم، وهذا على أن يجري مجرى الأسماء، والحُجّة فيه قول شُرَيْح بن أوفى الغنبي:

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ الرُّمُحِ شَاجِرٌ
فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقْدِمِ؟

وقال الكمي:

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمِ آيَةً
تَأْوَلَهَا مِثْلًا تَقِي وَمُغْرِبُ
وقرأ أبو السمال بكسر الميم الأخيرة، وذلك للاتقاء الساكنين، و﴿حَم﴾ آية.

و﴿نَزِيلُ﴾ رفع بالابتداء، والخبر قوله تعالى: ﴿يَزِيلُ عَنْهُ﴾، وعلى القول بأن ﴿حَم﴾ إشارة إلى حروف المعجم يكون قوله: ﴿نَزِيلُ﴾ خبر ابتداء، و﴿الْكِتَابُ﴾: القرآن، وقوله تعالى: ﴿غَافِرٌ﴾ بدل من المكتوبة، وإن أردت بـ ﴿غَافِرٍ﴾ المُضَيِّ - أي: عُفْرَانِه في الدنيا وقضاءه بالعُفْرَانِ والشَّر على المذنبين - فيجوز أن تكون ﴿غَافِرٍ﴾ صفة؛ لأن إضافته إلى المعرفة تكون محضة، وهذا يترجح جداً، وإذا أردت بـ ﴿غَافِرٍ﴾ الاستقبال - أي: عُفْرَانُهُ يوم القيامة - فالإضافة غير محضة، و﴿غَافِرٍ﴾ نكرة، فلا يجوز أن تكون نعتاً؛ لأن المعرفة لا تُنعت بالنكرة، وفي هذا نظر. وقال الزجاج: ﴿غَافِرٍ﴾ و﴿قَابِلٍ﴾ صفتان، و﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ بَدَلٌ، و﴿الَّذِي﴾ اسم الجنس، وأما ﴿الَّتِي﴾ فيحتمل أن يكون مصدراً كالعموم والشموم فيكون اسم جنس، ويحتمل أن يكون جمع توبة، كشمرة وتُمر، وساعة وساع. وقبول التوبة من الكافر مقطوع به؛ لإخبار الله تعالى، وقبولها من العاصي في وجوبها قولان لأهل السنة، وحكى الطبري عن أبي بكر بن عياش أن رجلاً جاء إلى عُمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني قتل، فهل لي من توبة؟

لا على لفظها. وقوله تعالى: ﴿يَا خُذُوهُ﴾ معناه: ليهلكوه، كقوله سبحانه: ﴿فَاخْذُوهُمْ﴾، والعرب تقول للقتيل: أخِذْ، وللأسير، أخِذْ، ومنه قولهم: «أَكْذَبُ مِنَ الْأَخِذِ الصُّبْحَانِ»، وقال قتادة: ﴿يَا خُذُوهُ﴾ معناه: ليقتلوه. و﴿يُدْخِلُوا﴾ معناه: ليُزْلِقُوا وليُذهبوا، والمذخضة: المزلّة والممزقة. وقوله تعالى: ﴿كَانَ عِقَابٌ﴾ تعجيب وتعظيم، وليس باستفهام عن كيفية وقوع الأمر.

٦ - ٧ تفسير قوله عز وجل: في مصحف عبدالله بن مسعود: «وكذلك سبقت كلمة ربك»، والمعنى: وكما أخذت أولئك المذكورين وأهلكتهم فكذلك حقت كلماتي على جميع الكفار، من تقدم منهم ومن تأخر، أنهم أهل النار وسكانها، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿كَلِمَاتٌ﴾ على الجمع، وهي قراءة الأعرج، وأبي جعفر، وابن نصاح. وقرأ الباقر على الأفراد، وهي للجنس، وهي قراءة أبي رجاء، و قتادة، وهذه كلها عبارة عن حتم القضاء عليهم. وقوله: ﴿أَنَّهُمْ﴾ بدل من ﴿كَلِمَةٍ﴾.

ثم أخبر تعالى بخبر يتضمن تشريف المؤمنين وتعظيم الرجاء لهم، وهو أن الملائكة الحاملين للعرش والذين حول العرش - وهم أفضل الملائكة - يستغفرون للمؤمنين، ويسألون الله تبارك وتعالى لهم الجنة والرحمة، وهذا معنى قوله تعالى في غير هذه الآية: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا

وقابل الشؤب وعداً، وشديد العقاب عدلاً. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الطول: السعة والغنى. ثم صدق تعالى بالتوحيد في قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وبالبعث والحشر في قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَجِدُ إِلَّا إِلَهَ إِلَهٍ﴾ يريد: جدالاً باطلاً، لأن الجدال فيها يقع مع المؤمنين لكن في إثباتها وشرحها، وقوله تعالى: ﴿نَلَّا بِعَرَّةٍ﴾ أنزله منزلة: «فَلَا يَخْزُنُكَ وَلَا يَهْمُنُكَ» لتدل الآية على أنهم ينبغي ألا يغتروا بإملاء الله تعالى لهم، فالخطاب له والإشارة إلى من يقع منه اغترار، ويحتمل أن يكون ﴿بِعَرَّةٍ﴾ بمعنى: تظن أن وراء قلبهم وإمهالهم خيراً لهم، فتقول: عسى ألا يُعَذِّبُوا. وحل الفعل من الإدغام لسكون الحرف الثاني، وحيث هما متحركان لا يجوز الحل، لا تقول: زيد يُعَزُّرُكَ. وتقلبهم في البلاد عبارة عن تمتعهم بالمساكن والمزارع والأسفار وغير ذلك.

أنهم ينبغي ألا يغتروا بإملاء الله تعالى لهم، فالخطاب له والإشارة إلى من يقع منه اغترار، ويحتمل أن يكون ﴿بِعَرَّةٍ﴾ بمعنى: تظن أن وراء قلبهم وإمهالهم خيراً لهم، فتقول: عسى ألا يُعَذِّبُوا. وحل الفعل من الإدغام لسكون الحرف الثاني، وحيث هما متحركان لا يجوز الحل، لا تقول: زيد يُعَزُّرُكَ. وتقلبهم في البلاد عبارة عن تمتعهم بالمساكن والمزارع والأسفار وغير ذلك.

ثم مثل لهم بمن تقدمهم من الأمم، أي: كما حلّ بأولئك كذلك ينزل بهؤلاء. و﴿الْأَخْرَابُ﴾ يريد بهم عاداً وثموداً وأهل مدين وغيرهم، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿بِرَسُولِهَا﴾ رداً على «الأمة»، وضمير الجماعة هو على معنى الآية

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ﴿٦﴾ وَفَهُمُ السَّعْيَاتِ وَمَنْ فِي السَّعْيَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧﴾ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِنُذُورِ لَعْنَتِ اللَّهِ أَكْزَبَ مِنْ مَقْتَلِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿٨﴾ قَالُوا إِنَّا أَنَا أَتَيْنَا وَآبَائُنَا أَتَيْنَا أَتَيْنَا فَاعْرِضْنَا لِيَوْمِنَا قَهْلٍ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخُذَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٠﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١١﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٢﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَافِ ﴿١٣﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤُنْ لَا يُخَيَّرُ عَلَى أَلْوَيْنِهِمْ شَيْءٌ لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٤﴾

فقال: نعم، اعمل ولا تياس، ثم تلا هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَقَابِلِ الْتَوْبِ﴾. [و ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ صفة، وقيل: بدل].

ثم عقب تعالى هذا الوعيد بوعد ثان في قوله سبحانه: ﴿ذِي الطُّولِ﴾، أي: ذي الطول والمن بكلّ نعمة، فلا خير إلا منه، فترتب في الآية وعيد بين وغدّين، وهكذا رحمة الله تعالى تغلب غضبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: سمعت هذه النزعة من أبي رضي الله عنه، وهي نحو من قول عمر رضي الله عنه: «لن يغلب عسّر يُسْرَيْنِ»، يريد قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. و﴿الطُّولُ﴾: الإنعام، ومنه «ما خليت بطائل» وحكى الشعبي عن أهل الإشارة أنه تعالى غافر الذنب فضلاً،

مَسْئُولًا، أي: سألته الملائكة، وفَسَّر تعالى في هذه الآية المُجْمَلُ الذي في قوله تعالى في غير هذه الآية: ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، لأنه معلوم أن الملائكة لا يستغفرون لكافر، وقد يجوز أن يقال: معنى ذلك أنهم يستغفرون للكفار بمعنى طلب هدايتهم والمغفرة لهم بعد ذلك، وعلى هذا النحو هو استغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه، واستغفار رسول الله ﷺ للمنافقين، وبلغني أن رجلاً قال لبعض الصالحين: ادْعُ لي واستغفر لي، فقال له: تَبْ وأتبع سبيلي يستغفر لك من هو خير مني، وتلاً هذه الآية. وقال مطرف بن الشخير: وجدنا أنصح العباد للعباد الملائكة، وأغش العباد للعباد الشياطين، وتلا هذه الآية، وروى جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِي رُبِّي أَنْ أُحْدِثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ. وَقُرَأَتْ فِرْقَةٌ: ﴿الْعَرْشُ﴾ بضم العين، والجمهور على فتحها.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾. نصب ﴿رَحِمْتَ﴾ على التمييز، وفيه حذف تقديره: يقولون، ومعناه: وَسِعْتَ رَحِمَتَكَ وَعِلْمَكَ كُلَّ شَيْءٍ، وهذا نحو قولهم: «تَفَقَّاتُ شَحْمًا، وَتَصَبَّيْتُ عِرْقًا، وَطَبْتُ نَفْسًا». وسبيل الله الْمُتَّبَعَةُ هي الشرائع.

وقرأ جمهور الناس: ﴿جَنَّتِ عَذِينَ﴾ على جمع الجنات، وقرأ الأعشى - في رواية المفضل -: ﴿جَنَّةَ عَذِينَ﴾

على الإفراد، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه، و«الْعَذَنُ»: الإقامة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ مَلَاحَ مِنْ عَالِيِهِمْ وَأَزْجَاهُمْ وَزَيْنَتِهِمْ﴾. رُوي عن سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه في تفسير ذلك أن الرجل يدخل الجنة قبل قرابته، فيقول: أين أبي؟ أين أمي؟ أين زوجتي؟ فيلحقون به لصالحهم، ولتنبههم عليهم وطلبه إياهم، وهذه دعوة الملائكة، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿وَذُرُّهُمْ﴾ بالإفراد.

وقوله تعالى: ﴿وَقِهِمْ﴾ أصله: أوْقِهِمْ، حذف الواو إتباعاً لحذفها في المستقبل، واستغني عن ألف الوصل لتحرك القاف، ومعناه: اجعل لهم وقاية تقيهم السيئات، واللفظ يحتمل أن يكون الدعاء في أن يدفع الله عنهم نفس السيئات حتى لا ينالهم عذاب من أجلها، ويحتمل أن يكون الدعاء في رفع العذاب اللاحق من السيئات، فيكون في اللفظ - على هذا - حذف مضاف، كأنه قال: وَقِهِمْ جزاء السيئات.

١٦ - تفسير قوله عز وجل: أخبر الله تعالى بحال الكفرة، وجعل ذلك عقب حال المؤمنين ليتبين الفرق، وروي أن هذه الحال تكون للكفار عند دخولهم النار؛ فإنهم إذا أدخلوا فيها مقتوا أنفسهم، أي: مَقَتَ بعضهم بعضاً، ويحتمل أن يمقت كل واحد نفسه، فإن العبارة تحتل المعنيين، و«الْمَقَتُ» هو احتقارٌ ويُبْغَضُ عن ذنب وريبة،

هذا حذو، وإذا مقت الكفار أنفسهم نادتهم ملائكة العذاب - على جهة التوبيخ - فيقولون لهم: مَقَتَ الله إِيَّاكُمْ فِي الدُّنْيَا - إذ كنتم تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ - أكثر من مَقَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ، هذا هو معنى الآية، وبه فُسِّر مجاهد، وقتادة، وابن زيد. وأضاف تعالى المصدر إلى الفاعل في قوله سبحانه: ﴿لَمَقَّتْ أَلَّهُ﴾ والمفعول محذوف لأن القول يقتضيه. واللام في قوله تعالى: ﴿لَمَقَّتْ﴾ يحتمل أن تكون لام الابتداء أو لام القسم، وهو أصوب. و«أَكْدَرُ» خبر الابتداء. والعامل في «إِذْ» فعل مضمر تقديره: «مَقَتَكُمْ إِذْ»، وقدره قوم: «اذكروا إِذْ»، وذلك ضعيف يحل ربط الكلام، اللهم إلا أن يُقَدَّرَ أن مَقَتَ الله لهم هو في الآخرة، وأنه أكبر من مقتهم أنفسهم، فيصح أن يُقَدَّرَ المضمر: «اذكروا»، ولا يجوز أن يعمل فيه قوله تعالى: ﴿لَمَقَّتْ﴾ لأن خبر الابتداء قد حال بين «الْمَقَتِ» وبين «إِذْ»، إذ هي في صِلَتِهِ، ولا يجوز ذلك.

واختلف المفسرون في معنى قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَّا أَتَيْنَ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، والضحاك، وابن مالك: أرادوا بموتهم كونهم ماء في الأصلاب، ثم إحياءهم في الدنيا، ثم إِمَاتَتِهِم الموت المعروف، ثم إحياءهم يوم القيامة، فالواو هي كالتي في سورة البقرة ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَخْبَعْنَاكُمْ ثُمَّ يُبْسِكُمْ ثُمَّ يُجَبِّحُكُمْ﴾، وقال ابن زيد: أرادوا أنه

لطلبتكم، أو نحو هذا من الرد والزجر.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى مقتهم أنفسهم، ويحتمل أن يكون إشارة إلى العذاب الذي هم فيه، أو إلى المنع والزجر والإهانة التي قلت إنها مقدرة محذوفة الذكر لدلالة ظاهر القول عليها، ويحتمل أن تكون إشارة إلى مقت الله تعالى إياهم، ويحتمل أن تكون المخاطبة بـ ﴿ذَلِكُمْ﴾ لمعاصري محمد ﷺ في الدنيا، ويحتمل أن تكون للكفار عامة. وقوله تعالى: ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَرَدَّهُ﴾ معناه: بحالة توحيد ونفي لما سواه من الآلهة والأنداد. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَشْرِكْ بِهِ تَقَرُّوا أَيُّهَا﴾ إذا ذكرت اللات والعزى وغيرهما صدقتم واستقرت نفوسكم، والحكم اليوم بعذابكم وتخليدكم في النار لا لتلك التي كنتم تشركونها معه في الألوهية، و«الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» صفتا مدح لا في المكان ومضادة السفلى والصغر.

١٣ - ١٧ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء مخاطبة في معنى توحيد الله تعالى وتبيين علامات ذلك. وآيات الله تَعَمُّ آيَاتِ قدرته وآيات قرآنيّه والمعجزات الظاهرة على أيدي رسله، وتنزيل الرزق هو في تنزيل المطر وفي تنزيل القضاء والحكم بتل ما يناله المرء في تجارة وغير ذلك. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيُنْزِلُ﴾ بالتخفيف، وقرأ الحسن، والأعرج، وعيسى وجماعة بالتشديد. وقوله تعالى: ﴿وَمَا

أَمَاتَهُمْ حَقِيقَةً، ثم أحياهم في البعث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والخلاف في هذه الآية مقول كله في آية سورة البقرة، وهذه الآية يظهر منها أن معناها منقطع من معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ إِلَى الْإِيمَانِ فَكُفِّرُوا﴾، وليس الأمر كذلك، بل الآيتان متصلتا المعنى، وذلك أن كفرهم في الدنيا كان أيضاً بإنكارهم البعث، واعتقادهم أنه لا حشر ولا عذاب، ومقتهم لأنفسهم إنما عظمه لأن هذا

المعتقد كذبهم، فلما تقرر مقتهم لأنفسهم ورأوا خزيًا طويلاً عريضاً رجعوا إلى المعنى الذي كان كفرهم به وهو البعث، وخرج إلى الوجود مقترباً بعذابهم، فأقرؤا به على أتم وجوهه، أي: كنا قد كفرنا بإنكارنا البعث، ونحن اليوم نقر أنك أحييتنا اثنتين وأمتنا اثنتين، كأنهم قصدوا تعظيم قدرته سبحانه وتعالى، واسترضاءه بذلك، ثم قالوا عقيب ذلك الإقرار طمعاً منهم: فها نحن معترفون بذنوبنا، فهل إلى خروج من سبيل؟ وهذا كما تكلف إنساناً أن يَقْرَ لك بحق وهو ينكر، فإذا رأى الغلبة وضرع أقر بذلك الأمر مُتَمَتِّماً أوفى مما كنت تطلبه به أولاً، وفيما بعد قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾، محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر، تقديره: لا إسعاف

الْيَوْمَ تَجْرَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٣﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَقَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَاسِبٍ وَلَا شَافِعٍ يُطَاعُ ﴿١٤﴾ يَعْلَمُ عَائِنَةُ الْآعِينِ وَمَا تَخْفَى الصُّدُورُ ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٦﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدُّ رَهْمًا فَهُمْ قُوَّةٌ وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَقُرُورٌ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢١﴾

أحياهم نسماً عند أخذ العهد عليهم وقت أخذهم من صلب آدم عليه السلام، ثم أماتهم بعد ذلك، ثم أحياهم في الدنيا، ثم أماتهم ثم أحياهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف لأن الإحياء فيه ثلاث مرات.

وقال السدي: أرادوا أنه أحياهم في الدنيا ثم أماتهم، ثم أحياهم في القبور وقت سؤال منكر ونكير ثم أماتهم فيه، ثم أحياهم في الحشر. وهذا أيضاً يدخله الاعتراض الذي في القول قبله، والأول أثبت الأقوال.

وقال محمد بن كعب القرظي: أرادوا أن الكافر في الدنيا هو حي الجسد ميت القلب، فكأن حالهم في الدنيا جمعت إحياء وإماتة، ثم

يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ معناه: وما يتذكر تذكرًا يُغْتَدِّبُهُ وينفع صاحبه؛ لأننا نجد من لا يُنِيب يتذكر لكن لما كان ذلك غير نافع عُذَّ كَأَنَّهُ لم يكن.

وقوله تعالى: ﴿قَادِعُوا اللَّهَ تَحْلِيصِينَ﴾ مخاطبة للمؤمنين أصحاب محمد ﷺ، و﴿ادْعُوا﴾ معناه: اعبدوا.

وقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ يحتمل أن يريد بالدرجات صفاته العُلَى، وعَبَّرَ تعالى بما يقرب لأفهام السامعين، ويحتمل أن يريد: رفيع الدرجات التي يعطيها للمؤمنين، ويتفضل بها على عباده المخلصين في جنته. والعَرْشُ هو الجسم المخلوق الأعظم الذي السموات السبع والأرضون فيه كاللدنانير في القلاة من الأرض.

وقوله تعالى: ﴿يَلْتَمِزُ الرُّوحَ﴾. قال الضحاك: الروح هنا هو الوحي والقرآن وغيره مما لم يُثَلَّ، وقال قتادة والسدي: الروح السُّبُوة ومكانتها، كما قال: ﴿رُوحًا يَنْ أَمْرًا﴾، وسمى هذا روحاً لأنه يُحيي به الأمم والأزمان كما يُحيي الجسد بروحه، ويحتمل أن يكون إلقاء الروح عاملاً لكل ما ينعم الله تعالى به على عباده المهتدين في تفهيمه الإيمان والمعقولات الشرعية. والمقدر - على هذا التأويل - هو الله تعالى. وقال الزجاج: الروح كل ما به حياة الناس، وكل مهتد حي، وكل ضال كالميت. وقوله تعالى: ﴿يَنْ أَمْرٍ﴾ إن جعلت جنساً للأمور ف﴿يَنْ﴾ للتبعية، أو لابتداء

الغاية، وإن جعلنا الأمر من معنى الكلام ف﴿يَنْ﴾ إمَّا لابتداء الغاية، وإمَّا بمعنى الباء، ولا تكون للتبعية.

وقرأ أبي بن كعب وجماعة: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ بالياء وكسر الذال، وفي الفعل ضمير يحتمل أن يعود على الله تعالى، أو على الروح، أو على ﴿يَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَنْ أَمْرٍ﴾ يَشَاءُ مِنْ عِبَادَةٍ، وقرأ محمد بن السميع اليماني: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ بالياء وفتح الذال وضم الميم من ﴿يَوْمَ﴾، وجعل اليوم منذراً على الاتساع، وقرأ جمهور الناس: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ بالتاء على المخاطبة لمحمد ﷺ، و﴿يَوْمَ﴾ بالنصب، وقرأ أبو عمرو، ونافع، وجماعة: ﴿الْأَلَاقي﴾ بدون ياء، وقرأ أبو عمرو أيضاً، وعيسى، ويعقوب: ﴿الْأَلَاقي﴾ بالياء، والخلاف فيها كالخلاف الذي مر في ﴿يَوْمَ الْآثَارِ﴾، ومعناه: تلاقي جميع العالم بعضهم ببعض، وذلك أمر لم يتفق قط قبل ذلك اليوم. وقال السدي: معناه: تلاقي أهل السماء والأرض، وقيل: معناه: تلاقي الناس مع بارئهم، وهذا المعنى الأخير هو أشدها تخويفاً، وقيل: يلتقي المرء وعمله.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُؤُهُ﴾ معناه: في براز من الأرض يُنْفَذُهُم البصر ويُسمعهم الداعي، ونُصِبَ ﴿يَوْمَ﴾ على البذل من الأول، فهو نصب المفعول، ويحتمل أن ينصب على الظرف ويكون العامل فيه قوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَى﴾ وهي حركة إعراب لا حركة بناء؛ لأن الظرف لا

يُنْبِئُ إِلَّا إِذَا أَضِيفَ إِلَى غير متمكن كيومئذ، وكقول الشاعر:

عَلَى حِينٍ عَابَتْهُ الْمِشِيبُ عَلَى الصَّبَا
وَقُلْتُ أَلَمَّا أَضْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعٌ؟
وكقوله تعالى: ﴿مَلَأَ يَوْمَ يَنْفَعُ الْفَالِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، وأما في هذه الآية فالحجلة أَسَمٌ متمكن، كما تقول: «جِئْتُ يَوْمَ زَيْدٌ أَمِيرٌ» فلا يجوز البناء، فتأمل.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: من بواطنهم وسرائرهم وذوات صدورهم، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ بضمير بدل المكتوبة.

وقوله تعالى: ﴿لَسَنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ﴾. روي أن الله تعالى يُقَرِّرُ هذا التقرير ويسكت العالم هبةً وجزعاً، فيجيب هو نفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارِ﴾، قال الحسن: هو تعالى السائل وهو المجيب، وقال ابن مسعود: إنه تعالى يقرر فيجيب العالم بذلك، وقيل: يُنَادِي بالتقرير مَلَكٌ فيجيب الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا تأمل المؤمن أنه لا حول لمخلوق ولا قوة إلا بالله، فالزمان كله وأيام الدهر أجمع إنما الملك فيها للواحد القهار، لكن ظهور ذلك للكفرة والجهلة يتضح يوم القيامة. وإذا نُؤْمِلُ تسخير أهل السموات وعبادتهم ونفوذ القضاء في الأرض فأَيُّ مَلِكٍ لغير الله؟

ثم يُعَلِّمُ الله تبارك وتعالى أهل الموقف بأنه يوم المجازاة بالأعمال

صالحها وسيئها، وهذه الآية نص في أن الشواب والعقاب على اكتساب العبد، وأنه يوم لا يوضع فيه أمر في غير موضعه، وذلك قوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾. ثم أخبرهم عن نفسه بسرعة الحساب، وتلك عبارة عن إحاطته بالأشياء علماً، فهو يحاسب الخلائق في ساعة واحدة كما يبرزهم؛ لأنه لا يحتاج إلى عدّ وفكر، وروي أن يوم القيامة لا ينتصف حتى يقبل المؤمنون في الجنة والكافرون في النار.

﴿١٨﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل: أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالإنذار للعالم والتحذير من يوم القيامة وأهواله، وهو الذي أراد بـ «يوم الآزفة»، قاله مجاهد، وابن زيد، وقتادة، ومعنى ﴿الْآزَفَةُ﴾: القريبة، من أَرَفَ الشيء إذا قَرُبَ، والآزفة في الآية صفة لمحدوف قد علم واستقر في النفوس هوله، فعبر عنه بالقرب تخويفاً، والتقدير: يوم الساعة الآزفة، أو الطامة الآزفة، ونحو هذا، فكما لو قال: «وأنذرهم الساعة» لَعَلِمَ هولها بما استقر في النفوس من أمرها، فكذلك عُلِمَ هنا إذا جاء بصفتها التي تقتضي حُلُولها واقترابها.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ معناه: عند الحناجر، قد صعدت من شدة الهول والجزع، وهذا أمر يحتمل أن يكون حقيقة يوم القيامة من انتقال قلوب البشر إلى حناجرهم وتبقى حياتهم، بخلاف الدنيا التي لا تبقى لأحد فيها حياة مع تنقل قلبه، ويحتمل

أن يكون تجوّزاً عبّر به عما يجده الإنسان من الجزع وصعود نفسه وتضايق حنجرتة بصعود القلب، وهذا كما تقول العرب: كادت نفسي أن تخرج، وهذا المعنى يجده المفزط الجزع كالذي يساق إلى القتل ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿كَظِيمٍ﴾ حال مما أبدل منه قوله تعالى: ﴿إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾، أو مما ينضاف إليه ﴿الْقُلُوبُ﴾؛ إذ المراد: إذ قلوب الناس لدى حناجرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿تَنَحَّصَ فِيهِ الْأَنْفُسُ تَهَيِّئِينَ﴾ أراد تعالى: تشخص فيه أبصارهم. «وَالْكَافُومُ»: الذي يرد غيظه وجزعه في صدره.

فمعنى الآية أنهم يطعمون برء ما يجدونه في الحناجر والحال تغالبهم، ثم أخبر تعالى أن الظالمين ظلم الكفرهم في تلك الحال ليس لهم حميم، أي: قريب يهتم لهم ويتعصب، ولا لهم شفيع يطاع فيهم، وإن همّ بعضهم بالشفاعة لبعض فهي شفاعة لا تقبل، ويروى أن بعض الكفرة يقولون لإبليس يوم القيامة: اشفع لنا، فيقوم ليشفع فتبدو منه أثنت ربح يؤذي بها أهل المحشر، ثم ينحصر ويكبح ويخزي. و﴿يُطَاعُ﴾ في موضع الصفة لـ ﴿شَفِيعٍ﴾؛ لأن التقدير: ولا شفيع مطاع، وموضع ﴿يُطَاعُ﴾ يحتمل أن يكون خفصاً حملاً على اللفظ، ويحتمل أن يكون رفعاً عطفاً على الموضع قبل دخول ﴿وَمِنْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه كلها عندي اعتراض في الكلام بليغ.

وقوله تعالى: ﴿يَسْلَمُ حَائِنَةُ الْأَعْيُنِ﴾ متصل بقوله: ﴿سَرِيعَ الْحِسَابِ﴾؛ لأن سرعة حسابه تعالى للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى رؤية وفكرة، ولا شيء مما يحتاجه الحاسبون، وقالت فرقة: ﴿يَسْلَمُ﴾ متصلة بقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ يَتَّبِعُهُمْ مَنْ﴾، وهذا قول حسن، يقويه تناسب المعنيين، ويضعفه بُعد الآية من الآية وكثرة الحائل. والخائنة مصدر كالخيانة، ويحتمل في الآية أن تكون ﴿حَائِنَةُ﴾ اسم فاعل، كما تقول: ناظرة الأعين، أي: يعلم الأعين إذا خانت في نظرها، وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالى بجميع الخفيات، فمن ذلك كسر الجفون، والغمز بالعين، والنظرة التي تفهم معنى، أو يريد بها صاحبها معنى، ومن هذا قول النبي ﷺ حين جاءه عبيد الله بن أبي سرح ليُسَلِّمَ بعد رَدِّته بشفاعة عثمان رضي الله عنه، فتلکأ عليه رسول الله ﷺ ثم بايعه، ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «هلا قام إليه رجل حين تلکأت فضرب عنقه؟» فقالوا: يا رسول الله، ألا أزمأت إلبنا، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة أعين»، وفي بعض الكتب المنزلة من قول الله عز وجل: «أنا مرصاد لهم»، أنا العالم بمجال الفكر وكسر الجفون، وقال مجاهد: خائنة الأعين: مسارقة النظر إلى ما لا يجوز.

ثم قوى الله تعالى هذا الإخبار بأنه

وعُظِّمَهَا والذي عرضه على جهة التحدي: العصا واليد، فوقعت المعارضة في العصا وحدها، ثم انفصلت القضية عن إيمان السحرة وغلبة الكافرين. و«السُّلْطَانُ»: البُرْهَانُ، وقرأ عيسى بن عمر: «سُلْطَانٍ» بضم اللام، والناس على سكنونها. وخَصْرُ تعالي هاما وقارون بالذكر تنبيهاً على مكانهما من الكفر، ولكونهما أشهر رجال فرعون، وقيل: إن قارون هذا ليس بقارون بني إسرائيل، وقيل: هو ذلك ولكنه كان منقطعاً إلى فرعون خادماً له مستعيناً معه. وقوله: «سَيِّئٌ» أي: في أمر العصا، «كَذَّابٌ» في قوله: إني رسول من الله.

ثم أخبر عنهم أنهم لما جاءهم موسى عليه السلام بالبُيُوتِ والحق من عند الله قال هؤلاء الثلاثة وأجمع رأيهم على أن يقتل أبناء بني إسرائيل أتباع موسى عليه السلام وشبَّانهم وأهل القوة منهم، وأن تُسْتَحْيَى النساء للخدمة والاسترقاق، وهذا رجوع منهم إلى نحو القتل الأول الذي كان قبل ميلاد موسى عليه السلام، ولكن هذا الأخير لم يتم لهم عزمهم فيه، ولا أعانهم الله تعالى على شيء منه، وقال قتادة: هذا قتل غير الأول الذي كان حذر المولود، وسموا من ذكرنا من بني إسرائيل أبناءً كما تقول لأفخاذ القبيلة أو المدينة وأهل الظهور فيها: هؤلاء أبناء فلانة.

وقوله تعالى: «وَمَا كَيْدُ

كَانَ عَاقِبَةً» خبر «كَانَ» مقدم، وفي «كَيْفَ» ضمير، وهذا على أن تكون «كَانَ» ناقصة، وأما إن جعلناها تامة بمعنى حَدَثَ وَوَقَعَ فـ «كَيْفَ» ظرف ملغى لا ضمير فيه.

وقرأ ابن عامر وحده: «أَشَدُّ مِنْكُمْ» بالكاف، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام، وذلك على الخروج من غيبة إلى الخطاب، وقرأ الباقر: «أَشَدُّ مِنْهُمْ»، وكذلك هي في سائر المصاحف، وذلك أوفق لتناسب ذكر الغائب، و«الآثَارُ فِي الْأَرْضِ» هي المباني والمآثر والصِّيتُ الدنيوي. و«ذنوبهم» كانت تكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، و«الواقى»: السائر المانع، مأخوذ من الوقاية.

٢٢ - ٢٥ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: «ذَلِكَ» إشارة إلى أخذه إياهم بذنوبهم وإن لم يكن لهم منه واق، ثم ذكر تعالى أن السبب في إهلاكهم هو ما قريش عليه من أن جاءهم رسول من الله ببينات من المعجزات والبراهين فكفروا به، وذكر أن الله تعالى أخذهم، ووصف نفسه بالقوة وشدة العقاب، وهذا كله بيان في وعيد قريش.

ثم ابتدأ تبارك وتعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومَلَيْئِهِ، وهي قصة فيها للنبي ﷺ تسلية وأسوة، وفيها لقريش والكفار به وعيد ومثال يخافون منه أن يحل بهم ما حل بأولئك من النعمة، وفيها للمؤمنين وعد ورجاء بالنصر والظفر وحمد عاقبة الصبر. وآيات موسى كثيرة،

يعلم ما تخفي الصدور، مما لم يظهر على عين ولا غيرها، ومثل المفسرون في هذه الآية بنظر الرجل إلى امرأة هي حرمة لغيره فقالوا: خائنة الأعين هي النظرة الثانية، وما تخفي الصدور، أي: عند النظر الأولى التي لا يمكن المرء دفعها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المثال جزء من خائنة الأعين.

ثم قدح تعالى في جهة الأصنام، فأَعْلَمَ أنه لا رب غيره، يقضي بالحق، أي: يُجَازِي الحسنة بعشر والسيئة بمثلها، وينصف المظلوم من الظالم، إلى غير ذلك من أقضية الحق والعدل، والأصنام لا تقضي شيئاً ولا تنفذ أمراً. و«يَدْعُونَ» معناه: يعبدون، وقرأ جمهور القراء: «يَدْعُونَ» بالياء على ذكر الغائب، وقرأ نافع - بخلاف عنه - وأبو جعفر، وشيبة: «تَدْعُونَ» بالتاء، على معنى: قل لهم يا محمد: والذين تدعون أنتم. ثم ذكر تعالى لنفسه صفتين بَيِّنٌ غُرُوُ الْأَصْنَامِ عنهما، وهي في جهة الله تعالى عبارة عن الإدراك على إطلاقه.

ثم أحال كفار قريش - وهم أصحاب الضمير في «يَسِيرُوا» - على الاعتبار بالأمم القديمة التي كذبت أنبياءها فأهلكها الله تعالى، وقوله تعالى: «يَنْظُرُوا» يحتمل أن يجعل في موضع نصب جواب الاستفهام، ويحتمل أن يكون مجزوماً عطفاً على «يَسِيرُوا»، و«كَيْفَ» في قوله تعالى: «كَيْفَ

وابن وثاب، وروي عن الأعمش أنه قرأ: ﴿يُظْهِرُ﴾ برفع الراء، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَيُظْهِرُ﴾ بفتح الباء.

ولما سمع موسى عليه السلام مقالة فرعون - لأنه كان معه في مجلس واحد - دعا ربّه تعالى وقال: ﴿إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ الآية، وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر: ﴿عُدْتُ﴾ ببيان الدال، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿عُدْتُ﴾ بالإدغام، واختلف عن نافع، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿عُدْتُ﴾ على الإدغام في الخط.

ثم حكى الله تعالى مقالة رجل مؤمن من آل فرعون، وشرفه بالذكر، وخلد ثنائه في الأمم، سمعت أبي رحمه الله تعالى يقول: سمعت أبا الفضل الجوهري على المنبر يقول - وقد سئل أن يتكلم في شيء من فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم - فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وقال:

عَنِ الْمُرَةِ لَا تَسْأَلُ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمَقَارِنِ يَفْتَدِي
ماذا تريدون من قوم قرنهم الله تعالى بنبيه ﷺ، وخصهم بمشاهدته وتلقي الوحي منه؟ وقد أننى الله عز وجل على رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، فجعله الله تعالى في كتابه وأثبت في المصاحف لكلامه في مجلس من مجالس الكفر، وأين هو من عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ جرّد سيفه بمكة وقال: والله لا أعبد الله سرّاً بعد اليوم؟

لفرعون أكبر من مسأرتة، وحكمه بنبو موسى عليه السلام أظهر من توريتة في أمره، وأما فرعون فإنما لجأ إلى المخرفة والاضطراب والتعاطي، ومن ذلك قوله: ﴿دَرَوِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾، أي: إني لا أبالي عن رب موسى، ثم رجع إلى قومه يريهم النصيحة والحماية لهم فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾، والدين: السلطان، ومنه قول زهير:

لَيْسَ حَلَلْتُ بِجَوْ فِي بَنِي أَسَدٍ
فِي دِينٍ عَمَرُوا وَحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ
وقرأ ابن عامر، وابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿وَأَن﴾، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿أَوْ أَن﴾ ورجحها أبو عبيدة بزيادة الحرف، فعلى الأولى خاف أمرين، وعلى الثانية خاف أحد أمرين، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، والحسن، وقناة، والجحدري، وأبو رجاء، ومجاهد، وسعيد بن المسيب، ومالك بن أنس: ﴿يُظْهِرُ﴾ بضم الياء وكسر الهاء ﴿الْفَسَادُ﴾ نضياً، وقرأ ابن كثير، وابن عامر: ﴿يُظْهِرُ﴾ بفتح الياء والهاء ﴿الْفَسَادُ﴾ بالرفع على إسناد الفعل إليه، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وأبي بكر عن عاصم، والأعرج، وعيسى، والأعمش،

وَقَالَ فِرْعَوْنُ دَرَوِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾
وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ
فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ
اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا
فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي
يَعِدُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُولُ
لَكُمْ أَلَسْأَلُكُمْ أَيَّامَ ظُهُورِي فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنِي
بِأَسْمَاءِ اللَّهِ إِنْ جَاءَ نَاقَالُ فِرْعَوْنَ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا
أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ بِقَوْلِ مُوسَى
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ نَاقَالِ قَوْمِ نُوحٍ
وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾
وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُكُونُ مَدِيرِينَ
مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يَضِلْهُ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي صَنْكَلٍ عِبَارَةٌ
وجيزة تعطي قوتها أن هؤلاء الثلاثة
لم يقدرهم الله تعالى على قتل أحد
من بني إسرائيل، ولا نجحت لهم
سعاية فيهم، بل أضل الله سعيهم
وكيدهم.

﴿٢٨﴾ - ﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

الظاهر من أمر فرعون أنه لما
بهت آيات موسى عليه السلام انهذ
ركنه، واضطربت معتقدات
أصحابه، ولم يفقد منهم من يجاذبه
الخلاف في أمره، وذلك بين من
غير ما موضع من قصتهما، وفي
هذه الآية على ذلك دليلان:
أحدهما قوله: ﴿دَرَوِي أَقْتُلْ
مُوسَى﴾، فليست هذه من ألفاظ
الجبابة المتمكنين من إنفاذ
أوامرهم، والدليل الثاني مقالة
المؤمن وما صدع به، وأن مكاشفته

وقرأت فرقة: ﴿رَجُلٌ﴾ بسكون الجيم كَعَضْدٌ وَعَضْدٌ، وَسَبْعٌ وَسَبْعٌ، وقرأ الجمهور: ﴿رَجُلٌ﴾ بضم الجيم.

واختلف الناس في هذا الرجل - فقال السدي وغيره: كان من آل فرعون، وكان يكتنم إيمانه، فـ ﴿يَكْتَنُّهُ﴾ - على هذا - في موضع الصفة دون تقديم ولا تأخير، وقال مقاتل: كان ابن عم فرعون، وقالت فرقة: لم يكن من أهل فرعون بل من بني إسرائيل، وإنما المعنى: وقال رجل مؤمن يكتنم إيمانه من آل فرعون، ففي الكلام تقديم وتأخير. والأول أصح، ولم يكن لأحد من بني إسرائيل أن يتكلم بمثل هذا عند فرعون، ويحتمل أن يكون من غير القبط ويقال فيه: من آل فرعون إذ كان في الظاهر على دين فرعون ومن أتباعه، وهذا كما قال أراكة الثقفي يرثي أخاه ويتعزى برسول الله ﷺ:

فَلَا تَبْكُ مَيِّتًا بَعْدَ مَيِّتٍ أَجَنَّهُ
عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ وَأَلَّ أَبِي بَكْرٍ

يعني المسلمين إذ كانوا في طاعة أبي بكر رضي الله عنه. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَقُولُ﴾ مفعول من أجله، أي: لأجل أن يقول: وجُلج معهم هذا المؤمن في هذه المقالات، ثم غالطهم بغد في أن جعله في احتمال الصدق والكذب، وأراهم أنها نصيحة. وحذفت النون من ﴿يَكُ﴾ تخفيفاً على ما قال سيويه، وتشبيهاً بالنون في يفعلون ويفعلان على مذهب المبرد، وتشبيهاً بحرفي العلة - الياء والواو - على مذهب أبي علي الفارسي، وقال: كأن الجازم دخل على «يكن»

وهي مجزومة بعد فأشبهت النون الياء من «يقضي» والواو من «يدعو» لأن حقها على اللسان سواء.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَبْدُكُمْ﴾ - فقال أبو عبيدة وغيره: ﴿بَعْضُ﴾ بمعنى «كُلُّ»، وأنشدوا قول القطامي عَمِيرَ بْنَ شَيْمٍ:

قَدْ يُذْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ
وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزُّلْ

وقال الزجاج: هو إلزام الحجة بأيسر ما في الأمر، وليس فيه نفي إصابة الكل، وقالت فرقة: أراد: يصيبكم بعض العذاب الذي يُذَكِّرُ، وذلك كاف في هلاككم، ويظهر لي أن المعنى: يصيبكم القسم الواحد مما يعد به، وذلك هو بعض ما يعد؛ لأنه عليه السلام كان وعدهم إن آمنوا بالنعيم، وإن كفروا بالعذاب، فإن كان صادقاً فالعذاب بعض ما وعد به، وقالت فرقة: أراد ببعض ما يعدكم: عذاب الدنيا لأنه بعض عذاب الآخرة، أي: وتصيرون بعد ذلك إلى الباقي، وفي البعض كفاية في الإهلاك.

ثم وعظهم هذا المؤمن بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، قال السدي: مُسْرِفٌ بالقتل، وقال قتادة: بالكفر.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل: قول هذا المؤمن: ﴿يَقُولُ لَكُمْ أَلَمْ تَكُنْ أَلْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ استنزال لهم ووعظ من جهة شهواتهم، وتحذير من زوال ترفهم، ونصيحة لهم في أمر دنياهم، وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يريد أرض مصر وما والاها من مملكتهم.

ثم قررهم على من هو الناصر لهم من بأس الله تعالى، وهذه الأقوال تقتضي زوال هبة فرعون، ولذلك استكان هو ورجع يقول: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ كما يقول من لا تحكم له. وقوله: ﴿أُرِيكُمْ﴾ من رأى، وقد عُدِّي بالهمزة، فللفعل مفعولان: أحدهما الضمير في ﴿أُرِيكُمْ﴾، والآخر ما في قوله: ﴿إِلَّا مَا أَرَى﴾، وكان الكلام: «أُرِيكُمْ ما أَرَى»، ثم أدخل في صدر الكلام (ما) النافية وقَلَبَ معناها بـ (إِلَّا) الموجبة تخصيصاً وتأكيذاً للأمر، كما تقول: «قام زيد»، فإذا قلت: «ما قام إلا زيد» فقد أَقَدَّتْ تخصيصه وتأكيده أمره، و (أَرَى) متعدية إلى مفعول واحد، وهو الضمير الذي فيه، العائد على (ما)، تقديره: إلا ما أراه، وحَذَفَ هذا المفعول من الصلة حسنً لطول الصلة.

وقرأ الجمهور: ﴿الرُّشَادِ﴾ مصدر (رشد)، وفي قراءة معاذ بن جبل رضي الله عنه: ﴿سَبِيلَ الرُّشَادِ﴾ بشد الشين، قال أبو الفتح: وهو اسم فاعل في بَيَّنَّتْ مبالغة، وهو من الفعل الثلاثي (رَشَدَ)، فهو كَعَبَادٍ من عَبَدَ، وقال النحاس: هو وهم، وتوهمه من الفعل الرباعي. وقوله رحمه الله مردود، قال أبو حاتم: كان معاذ بن جبل يفسرها: سبيل الله، ويبعد عندي هذا على معاذ رضي الله عنه، وهل كان فرعون يدعي إلا أنه إله؟ ويقلق بناء اللفظة على هذا التأويل.

واختلف الناس في المراد بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي آمَنَ﴾ - فقال الجمهور: هو المؤمن المذكور أولاً،

ظَلَمَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، والبرهان وقوعه، ومحال أن يقع إلا ما يريد الله تعالى، وقوله: ﴿يَوْمَ النَّادِ﴾ معناه: ينادي قوم قوماً ويناديهم الآخرون.

واختلف المتأولون في التنادي المشار إليه - فقال قتادة: هو نداء أهل الجنة أهل النار: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ الآية. ونداء أهل النار لهم: ﴿أَيُّضًا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ الآية، وقالت فرقة: بل هو النداء الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِ﴾، وقال ابن عباس

رضي الله عنهما وغيره: هو التنادي الذي يكون بالناس عند النفخ في الصور نفخة الفرع في الدنيا، وأنهم يفرون على وجوههم للفرع الذي ينالهم، وينادي بعضهم بعضاً، وروي هذا التأويل عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون المراد التذكير بكل نداء في القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة ولها أجوبة بنداء، وهي كثيرة، منها ما ذكرناه، ومنها: يأهل الجنة خلود لا موت، ومنها نداء أهل الغدرات، والنداء ﴿لَمَعَتْ أَلْوَانُ﴾، والنداء ﴿لَمِنَ أَلْوَانِكَ الْيَوْمَ﴾، إلى غير ذلك.

وقرأت فرقة: ﴿النَّادِ﴾ بسكون الدال في الوصل، وهذا على إجرائهم الوصل مجرى الوقف في غير ما موضع، وقرأ نافع، وابن كثير:

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِئٌ مُرْتَابٍ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَيْدُ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْعَمُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُكْرِبٍ بِآيَاتِهِ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُنَ ابْنِي بَنِي صَرَخًا لَعَلِّي أَنْتَ لَعَلِّي أَنْتَ سَبَبُ السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعْ إِلَيَّ يَا إِلَهَ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّكَ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنَ يَتَقَوْمٌ اتَّيْعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّسَادِ ﴿٣٧﴾ يَتَقَوْمٌ إِنَّمَا هَؤُلَاءِ الْجَنَّةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٨﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا أَثْمَارُهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَنَ هُوَ مُمِيزٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْرُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾

٤٧١

قَصَّ الله تبارك وتعالى أقاويله إلى آخر الآيات، وقالت فرقة: بل كلام ذلك المؤمن قديم، وإنما أراد الله تعالى بالذي آمن موسى عليه السلام، واحتجت هذه الفرقة بقوة كلامه، وأنه جُلِّحَ معهم بالإيمان، وذكر عذاب الآخرة، وغير ذلك، ولم يكن كلام الأول إلا بملاينة لهم.

وقوله تعالى: ﴿يُنْذِرُ يَوْمَ الْآخِرَةِ﴾ أي: مثل يوم من أيامهم؛ لأن عذابهم لم يكن في يوم واحد ولا عصر واحد، و«الآخِرَة»: المتحزبون على أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام، و«يُنْذِرُ»: الثاني بدل من الأول، و«الذُّبَابُ»: العادة، وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: من نفسه، أي: يظلمهم هو، فالإرادة هنا على بابها لأن الظلم منه لهم لا يقع البتة، وليس معنى الآية أن الله لا يريد

﴿النَّادِ﴾ بالياء في الوصل والوقف، وهذا على الأصل، وقرأ الباقون: ﴿النَّادِ﴾ بغير ياء فيهما، وروي ذلك عن نافع، وابن كثير، وحذفت الياء مع الألف واللام حملاً على حذفها مع معاقبها وهو التنوين، وقال سيبويه: حذفت الياء تخفيفاً، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك، وأبو صالح، والكلبي: ﴿النَّادِ﴾ بشد الدال، وهذا معنى آخر ليس من النداء، بل هو من البعير إذا هرب، وبهذا المعنى فسّر ابن عباس والسدي هذه الآية، وروت هذه الفرقة في هذا المعنى حديثاً أن الله تعالى إذا طوى السموات نزلت ملائكة كل سماء فكانت صفّاً بعد صف مستديرة بالأرض التي عليها الناس للحساب، فإذا رأى العالم هول القيامة وأخرجت جهنم عقناً إلى أهلها فرّ الكفار وتذوّا مدبرين إلى كل وجهة، فتردهم الملائكة إلى المحشر خائبين لا عاصم لهم، قالت هذه الفرقة: ومصادق هذا الحديث في كتاب الله تعالى قوله سبحانه: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أُنْجَايَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾، وقوله تعالى: ﴿يَتَنَقَّرَ لِمَنَ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَظَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ معناه على بعض الأقاويل في التنادي: تفرون هروباً من الفرع، وعلى بعضها: تفرون مذبرين إلى النار، والعاصم: المنجي.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ معناه على بعض الأقاويل في التنادي: تفرون هروباً من الفرع، وعلى بعضها: تفرون مذبرين إلى النار، والعاصم: المنجي.

٢٤ - ٢٥ تفسير قوله عز وجل:

قدمنا الخلاف في هذه الأقوال

كلها، هل هي من قول مؤمن آل فرعون أو من قول موسى عليه السلام؟ وقالت فرقة من المتأولين منهم الطبري: يوسف المذكور هو يوسف بن يعقوب عليه الصلاة والسلام، وقالت فرقة: بل هو حفيده يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام. و«الْبَيْتَات» التي جاء بها يوسف عليه السلام لم تُعَيَّنْ لنا حتى نقف على معجزاته، وروي عن وهب بن مُثَنِّب أن فرعون موسى لحق يوسف، وأن هذا التقريع كان له. وروى أشهب عن مالك أنه بَلَغَهُ أن فرعون عَمَّر أربعمئة وأربعين سنة، وقالت فرقة: بل هو فرعون آخر.

وقوله تعالى: ﴿قُلْتُمْ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَيْنِهِ رَسُولًا﴾ حكاية حال لريبة قولهم لأنهم إنما أرادوا: لن يجيء بعد هذا من يدعي مثل ما ادعى، ولم يُقَرَّ أولئك قط برسالة الأول ولا الآخر ولا بأن الله تعالى يبعث الرُّسل، فحكى ريبة قولهم، وجاءت عبارتهم مشنعة عليهم، ولذلك قال لهم بأثر هذا: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِئٌ مُرْتَابٌ﴾، أي: كما صيركم من الكفر والضلالة بهذا الحد فنحو ذلك هو إضلاله لصنفكم أهل السرف في الأمور وتعددي الطور والارتباب بالحقائق، وفي مصحف أبي بن كعب، وابن مسعود: ﴿قُلْتُمْ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ﴾.

ثم أنحى لهم على قوم صفئهم موجودة في قوم فرعون، فكأنه أرادهم فزال عن مخاطبتهم حُسْنُ

أدب واستخلاصاً، فقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾، أي: بالإبطال لها والرَّدْ بغير برهان ولا حجة أنتهم من عند الله. ﴿كَبُرَ مَقَاتُ﴾ جدالهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾، فاختصر ذكر الجدل لتقدم الدلالة فيما ذكر عليه، وردُّ الفاعل به ﴿كَبُرَ﴾ نصباً على التمييز، كقولك: تَنَقَّأْتُ شَخْماً وَتَضَبَّيْتُ عَرَقاً، و﴿يَطْبَعُ﴾ معناه: يختم بالضلال ويحجب عن الهدى.

وقرأ أبو عمرو، والأعرج - بخلاف عنه -: ﴿عَلَى كُلِّ قَلْبٍ﴾ بالتنوين ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ على الصفة، وقرأ الباقر بالإضافة إلى ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾، قال أبو علي: المعنى: يطبع الله على القلوب إذا كانت قلباً قلباً من كل متكبر، ويؤيد ذلك أن في مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿عَلَى قَلْبٍ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وينتج أن يكون المراد عموم قلب المتكبر الجبار بالطبع، أي: لا ذرة فيه من الإيمان ولا مقاربة، فهي عبارة عن شدة إطلاقه.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: ذكر الله عز وجل مقالة فرعون حين أعيته الحيل في مقاومة موسى عليه السلام بحجة، وظهر لجميع المشاهدين أن ما يدعو إليه موسى عليه السلام هو عبادة إله السماء، فنادى فرعون هامان - وهو وزيره والناظر في أموره - فأمره أن يبني له بناءً عالياً نحو السماء، و«الضَّرْحُ» كل بناء عظيم شنيع القدر، مأخوذ من الظهور والصراحة، ومنه قولهم: «صريح النَّسب»، وصرَّح بقوله،

فيروى أن هامان طبخ الآجُرْ - ولم يُطْبَخْ قبله - وبناه ارتفاع اربعمائة ذراع، فبعث الله تبارك وتعالى جبريل عليه السلام فمسحه بجناحه فكسره ثلاث كسر، تفرقت اثنتان ووقعت ثالثة في البحر، وروي أن هامان لم يكن من القبط، وقيل: كان منهم، و«الْأَسْبَابُ»: الطُّرُق، قاله السدي، وقال قتادة: الأبواب، وقيل: عنى: لعله يجد مع قربه من السماء سبباً يتعلّق به، وقرأ الجمهور: ﴿فَأَطْلِعْ﴾ رفعا عطفاً على ﴿أَبْلَغْ﴾، وقرأ حفص عن عاصم، والأعرج: ﴿فَأَطْلِعْ﴾ نصباً بالفاء في جواب التمني. ولما قال فرعون بمحضر من مَلَيْهِ: ﴿فَأَطْلِعْ إِلَيَّ إِلَهُ مُوسَى﴾ اقتضى كلامه الإقرار بإله موسى، فاستدرك ذلك استدراكاً قلَقاً بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كُذَّابًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَذَرُ﴾ أي: أنه كما تَخَرَّقَ فرعون في بناء الصُّرْح والأخذ في هذه الفنون المقصرة، كذلك جرى جميع أمره، ورُئِنَ له، أي: رُئِنَ الشيطان سوء عمله في كل أفعاله، وقرأ الجمهور: ﴿وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ﴾ بفتح الصاد، بإسناد الفعل إلى فرعون، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم، وجماعة بضم الصاد وفتح الدال المشددة: ﴿وَصَدَّ﴾ عطفاً على ﴿رُئِنَ﴾ وحملاً عليه، وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿وَصَدَّ﴾ بكسر الصاد على معنى صُدَّ أصله صُدِّدَ، فنقلت الحركة ثم أدغمت الدال في الدال، وقرأ ابن أبي إسحق، وعبدالرحمن بن أبي بكرة:

والخليل أنها (لا) النافية دخلت على (جَزَمَ)، ومعناها: ثَبِتَ وَوَجِبَ، ومن ذلك جَزَمَ بمعنى كَسَبَ، كقول الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عُبَيْنَةَ طَعْنَةً
جَزَمْتُ فَرَارُهُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا
أَي: أوجبت لهم ذلك وثبتته لهم، فكان الكلام نفي للكلام المردود عليه بـ (لا)، وإثبات لمستأنف بـ (جَزَمَ)، و(أَنْ) - على هذا النظر -

في موضع رفع بـ ﴿جَزَمَ﴾، وكذلك ﴿أَنْ﴾ الثانية والثالثة، ومذهب جماعة من أهل اللسان أن ﴿لَا جَزَمَ﴾ هي بمعنى (لَا يُدْ) و (لَا مَحَالَةَ) فـ ﴿أَنْ﴾ - على هذا النظر - في موضع نصب بإسقاط حرف الجر، أي: لا محالة بأن ما، و﴿مَا﴾ بمعنى (الذي) واقعة على الأصنام وما عبدوه من دون الله تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: ليس له قُدْرٌ وَحَقٌّ يجب أن يُدْعَى أحدٌ إليه، فكأنه قال: تدعوني إلى ما لا غناء له ويَبِينُ أيدينا خطب جليل من الرُّدِّ إلى الله تعالى. وأهل الإسراف والشرك هم أصحاب النار بالخلود والملازمة، أي: وكيف أطيعكم مع هذه الأمور الحقائق وفي طاعتكم رفض العمل بحسبها والخوف منها؟ قال ابن مسعود ومجاهد: المسرفون سَفَاكُوا الدماءَ بغير جَلْها، وقال قتادة: هم المشركون.

ثم توعدهم بأنهم سيذكرون قوله هذا عند حلول العذاب بهم، وسوف بالسجين إذ الأمر يحتمل أن يخرج

وحفص عن عاصم، وأبو رجاء، وشيبة، والأعمش: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بفتح الياء وضم الخاء، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، والأعرج، والحسن، وأبو جعفر، وعيسى: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بضم الياء وفتح الخاء.

٤١ - ٤٥ تفسير قوله عز وجل:

قد تقدم ذكر الخلاف، هل هذه المقالة لموسى عليه السلام أو لمؤمن آل فرعون. والدعاء إلى طاعة الله تعالى وعبادته

وتوحيده هو الدعاء إلى سبب النجاة، فجعله دعاء إلى النجاة اختصاراً واقتضاباً، وكذلك دعاؤهم إياه إلى الكفر واتباع دينهم هو دعاء إلى سبب دخول النار، فجعله دعاء إلى النار اختصاراً، ثم بين عليهم ما بين الدعوتين من التَبَوُّن في أن الواحدة كُفْرٌ وشِرْكٌ، والأخرى دعوة إلى الإسناد إلى عِزَّة الله تعالى وغفرانه.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ليس معناه أنني جاهل به، بل معناه أن العلم بأن الأوثان وفرعون وغيره ليس لهم مدخل في الألوهية، وليس لأحد من البشر علمٌ بوجه من وجوه النظر بأن لهم في الألوهية مدخلاً، بل العلم اليقيني بغير ذلك من حدودهم متحصل.

و ﴿لَا جَزَمَ﴾ مذهب سيبويه

وَيَقُولُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفُورِ ﴿٤٢﴾ لَأَسْأَلَنَّ دَعْوَتِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَإِنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنْتَ الْمُتَرَفِّعِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَنَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ قَوْلَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَآكِرُوهًا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ لِّلشُّعْمَتِئِذِ لَوْلَا أَسْتَكْرَأُ وَإِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعْثًا فَمَهِّلْ أَشْرَ مَشْعُوتِكَ عَنَّا فَصِيبَ آتِ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكْرَأُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدَّحَكُمْ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

﴿وَصَدَّ﴾ بفتح الصاد ودال مهمله مُشَدَّدَةٌ مرفوعة منونة عطفاً على قوله: ﴿سُوءٌ عَلَيْهِ﴾. و(السَّيِّئُ): سبيل الشرع والإيمان، و(التَّبَابُ): الخُسران، ومنه: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٌ وَتَبَّ﴾، وبه فسر مجاهد وقاتدة، وتَبَّ فرعون ظاهر لأنه خسر ماله في الصرح وغيره، وخسر مُلكه، وخسر نفسه، وخُلد في جهنم.

ثم وعظ الذي آمن فدعا إلى اتباع أمر الله تعالى، وقوله: ﴿أَتَدْعُونِي أَهْدِيكُمْ﴾ يقوِّي أن المتكلم موسى عليه السلام، وإن كان الآخر يحتمل أن يقول ذلك، أي: اتبعوني في اتباع موسى عليه السلام.

ثم زهد في الدنيا وأخبر أنها شيء يَتَمَتَّع به قليلاً، ورغب في الآخرة، إذ هي دار الاستقرار. وقرأ نافع، وابن عامر، وحزمة، والكسائي،

ذلك على التقدير بأيام الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ﴾ يحتمل أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ عطفاً على ﴿وَعِشْيَا﴾ والعامل فيه ﴿يَوْمَ﴾، ويحتمل أن يكون كلاماً مقطوعاً والعامل فيه ﴿يَوْمَ﴾. ﴿أَدْخَلُوا﴾، والتقدير على كل قول: «يقال أَدْخَلُوا»، وقرأ نافع، وحمرزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش، وابن وثاب، وطلحة: ﴿أَدْخَلُوا﴾ بقطع

الألف، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن كثير، وأبو عمر، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، والحسن، وقتادة: ﴿أَدْخَلُوا﴾ بصلة الألف على الأمر لآل فرعون، و﴿ءَالٍ﴾ - على هذه القراءة - منادى مضاف، و﴿أَشَدَّ﴾ نصب على الظرفية.

والضمير في قوله: ﴿يَتَحَاوَرُونَ﴾ لجميع كفار الأمم، وهذا ابتداء قصص لا يختص بآل فرعون، والعامل فيه ﴿وَرِثَةٍ﴾ فعل مضمَر تقديره: واذكر، وقال الطبري: و﴿رِثَةٍ﴾ هذه عطف على قوله تعالى: ﴿إِذِ الْقَوْمُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد، و﴿الْمُحَاجَّةُ﴾: التَّحَاوُرُ بالحجة والخصومة. و﴿الضُّعْفَاءُ﴾ يريد: في القدر والمنزلة في الدنيا،

الوعيد في الدنيا أو في الآخرة، وهو تأويل ابن زيد، وروى البيهقي وغيره عن أبي عمرو فتح الباء من ﴿أَتَرَى﴾، والضمير في ﴿فَوْقَهُ﴾ يحتمل أن يعود على موسى عليه السلام أو على مؤمن آل فرعون، وقال قائلوا ذلك: إن ذلك المؤمن نجا مع موسى عليه السلام وفر في جملة من فر معه، وكان من المتبعين. وقرأ عاصم: ﴿فَوْقَهُ﴾ بالإمالة. و﴿وَحَافٍ﴾ معناه: نزل، وهي مستعملة في المكروه، وسوء العذاب: العَرْقُ وما بعده من النار وعذابها.

٤٦ - ٤٧ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، ﴿النَّارُ﴾ رفع على البدل من ﴿سَوَاءٌ﴾، وقالت فرقة: ﴿النَّارُ﴾ رفع بالابتداء، وخبره ﴿يُعْرَضُونَ﴾ وقالت فرقة: هذا الغدو والعشي هو في الدنيا، أي: في كل غدو وعشي من أيام الدنيا يعرض آل فرعون على النار، وروي في ذلك عن الهذيل بن شرحبيل، والسدي أن أرواحهم في أجواف طير سود تروح بهم وتغدو إلى النار، وقاله الأوزاعي حين قال له الرجل: إني رأيت طيوراً بيضاً تغدو من البحر ثم ترجع بالعشي سوداً مثلها، قال الأوزاعي: تلك هي التي في حواصلها أرواح آل فرعون، يحترق ريشها ويسود بالعرض على النار، وقال كعب بن محمد القرظي وغيره: أراد تعالى أنهم يُعرضون في الآخرة على النار على تقدير ما بين الغدو والعشي؛ إذ لا غدو ولا عشي في الآخرة، وإنما

سورة غافر

سورة غافر

قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ فَأَلَيْسَتْ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٤٦﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهَدَىٰ وَأَوْثَقْنَا بِسَيْلٍ كَانَتْ تَكْتَبُ ﴿٤٩﴾ هَذَىٰ وَكَرَّيْنَا لِلْأُولَىٰ الْأَلْبَبِ ﴿٥٠﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ وَاعْبُدْ اللَّهَ حَقَّ الْعِبَادَةِ لِذَلِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطَانُ أَتْمُهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّاكِبًا مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ فَاسْتَغْزِبُوا إِنَّهُ هُوَ السَّكِيمُ ﴿٥٢﴾ الْبَصِيرُ ﴿٥٣﴾ لَخَلْقُ السَّجُودِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسَوِّىةُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٥﴾

٤٧٣

وَالَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا هُم أَشْرَافُ الْكَفَارِ وكبراءهم، ولم يصفهم بالكبر إلا من حيث استكبروا، لا أنهم في أنفسهم كبراء، ولو كانوا كذلك في أنفسهم لكانت صفتهم الكبرياء أو نحوه مما يوجب الصفة لهم، و﴿التَّبَعُ﴾ قيل: هو جمع واحد تابع كغائب وغيب، وقيل: هو مفرد بوصف به الجمع كعذل وزور وغيره. وقولهم: ﴿مُنْتَوْنَ عَنَّا﴾ أي: تحملون عنا كلَّه ومشقته، فأخبرهم المستكبرون بأن الأمر قد انجزم بحصول الكل منهم فيها، وأن حكم الله تعالى قد استمر بذلك.

وقولهم: ﴿كُلٌّ فِيهَا﴾ ابتداء وخبر، والجملة خبر ﴿إِنَّا﴾، وقرأ ابن السمين: ﴿إِنَّا كُلًّا فِيهَا﴾ بالنصب على التأكيد، ثم قال جميع من في النار لخزنتها وزياتيتها: ادعوا

ربكم عسى أن يخفف عنا مقدار يوم من أيام الدنيا من العذاب، فراجعهم الخزنة - على معنى التوبيخ والتقرير - ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ﴾ الآية، فأقر الكفار عند ذلك وقالوا: ﴿بَلَىٰ﴾، أي: قد كان ذلك، فقال لهم الخزنة عند ذلك: فادعوا أنتم إذاً، وهذا على معنى الهزء بهم، أي: فادعوا أيها الكافرون الذين لا معنى لدعائكم، وقالت فرقة: ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ هو من قول الخزنة، وقالت فرقة: هو من قول الله تعالى إخباراً منه لمحمد ﷺ، وجاءت هذه الأفعال على صيغة الماضي - ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ - لأنها وصف حال متيقنة الوقوع فحسُن ذلك فيها.

(٥١) - (٥٢) تفسير قوله عز وجل:

أخبر الله تعالى أنه ينصر رسله عليهم السلام والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، قال بعض المفسرين: وهو خاص فيمن أظهره الله تعالى على أمته كنوح وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وليس بعام لأننا نجد من الأنبياء عليهم السلام من قتله قومه كيحيى عليه السلام ولم ينصر عليهم. وقال السدي: الخبر عام على وجهه، وذلك أن نصرة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام واقعة ولا بُدَّ، إما في حياة الرسل المنصورين كنوح وموسى عليهما السلام، وإما فيما يأتي به الزمان بعد موتهم، ألا ترى ما صنع الله تبارك وتعالى ببني إسرائيل بعد قتلهم يحيى

عليه السلام بتسليط بختنصر عليهم حتى انتصر ليحيى عليه السلام؟ ونصر المؤمنين داخل في نصر الرسل عليهم السلام، وأيضاً فقد جعل الله تعالى للمؤمنين الفضلاء وذاً، وهبهم نصراً إذا ظلموا، وحضت الشريعة على نصرتهم، ومنه قول النبي ﷺ: «من ردَّ عن أخيه المسلم في عرضه كان حقاً على الله أن يردَّ عنه نار جهنم»، وقوله ﷺ: «من حمى مؤمناً من منافق يغتابه بعث الله ملكاً يحميه يوم القيامة».

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، يريد يوم القيامة، وقرأ الأعرج، وأبو عمرو - بخلاف -: ﴿تَقُومُ﴾ بالياء، وقرأ نافع، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿يَقُومُ﴾ بالياء، و﴿الْأَشْهَادُ﴾ يحتمل أن يكون من الشهادة، ويحتمل أن يكون من المشاهدة بمعنى المصدر، وقال الزجاج: أشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب، وقالت فرقة: أشهاد جمع شهد، وشهد جمع شاهد كصاحب وصاحب وتاجر وتاجر، وقال الطبري: أشهاد جمع شهيد كشراف وأشراف.

و ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ﴾ بدل من الأول، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وقتادة، وعيسى، وأهل مكة: ﴿لَا تَنْفَعُ﴾ بالياء من فوق، وقرأ الباقون: ﴿لَا يَنْفَعُ﴾ بالياء، وهي قراءة أبي جعفر، وطلحة، وعاصم، وأبي رجاء، وهذا لأن تأنيث المعذرة غير حقيقي، ولأن الحائل قد وقع، و﴿الْمَعْذِرَةُ﴾ مصدر كالمعذر. و﴿الْفَنَاءُ﴾: الإبعاد، و﴿سُوءَ الدَّارِ﴾

فيه حذف مضاف تقديره: سوء عاقبة الدار.

ثم أخبر الله تعالى بقصة موسى عليه السلام وما آتاه الله تعالى من النبوة تأنيساً لمحمد ﷺ، وضرب أسوة، وتذكيراً بما كانت العرب تعرفه من أمر موسى عليه السلام، فبيّن ذلك أن محمداً ﷺ ليس بدع من الرسل. و«الهدى»: النبوة والحكمة، والتوراة تعُم ذلك جميعه. وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ عبارة عن أن طوائف بني إسرائيل قرناً بعد قرن تصير فيهم التوراة إماماً، فكان بعضهم يرثها عن بعض، وتجيء الورثة في حق الصدر الأول منهم على تجوز. و«الكتاب»: التوراة.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر وانتظار إنجاز الوعد، أي: فستكون عاقبة أمرك كعاقبة أمره، وقال الكلبي: نسخت آية القتال الصبر حيث وقع، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ﴾ يحتمل أن يكون ذلك قبل إعلام الله إياه أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ لأن آية هذه السورة مكية وآية سورة الفتح مدنية متأخرة، ويحتمل أن يكون الخطاب في هذه الآية له المراد أمته، أي: أنه إذا أمر هو بهذا فغيره أخرى بامتثاله. و«الإبكار»: والبكور بمعنى واحد، وقال الطبري: الإبكار من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، وحكى عن قوم أنه من طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى، وقال الحسن: «بِالْمَعْنَى» يريد صلاة العصر،

التأويل - مصدر مضاف إلى المفعول. وقال النقاش: المعنى: مما يخلق الناس؛ إذ هم في الحقيقة لا يخلقون شيئاً، فالخلق في قوله تعالى: ﴿مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ مضاف إلى الفاعل على هذا التأويل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقتضي أن الأقل منهم يعلم ذلك، ولذلك مثل الأكثر الجاهل بالأعمى، والأقل العالم بالبصير، وجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات يعادلهم قوله:

﴿الْمُسِيءُونَ﴾، وهو اسم جنس يعُمّ المسيئين. وأخبر تعالى أن هؤلاء لا يستون، فذلك الأكثر الجهلاء من الناس لا يستون مع الأقل الذين يعلمون.

وقرأ أكثر القراء، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، والحسن: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ بالياء على الكناية عن الغائب، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وقتادة، وطلحة، وعيسى، وأبو عبد الرحمن: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ بالتاء من فوق على المخاطبة، والمعنى: قل لهم يا محمد.

ثم جزم تعالى الإخبار بأن الساعة آتية، وهي القيامة المتضمنة للبعث من القبور، والحساب بين يدي الله تعالى، وافتراق الجمع إلى الجنة وإلى النار. وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ

وَالْإِنْكَارِ﴾ يريد به صلاة الصبح.

ثم أخبر تعالى عن أولئك الكفار الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان، وهم يريدون بذلك طمسها والزّد في وجهها، أنهم ليسوا على شيء بل في صدورهم وضمايرهم كبر وأنفة عليك حسداً منهم على الفضل الذي آتاك الله تعالى، ثم نفى أن يكونوا يبلغون آمالهم بحسب ذلك الكبر فقال: ﴿مَّا هُمْ بِبَالِيَةٍ﴾، وهنا حذف مضاف تقديره: بباليي إرادتهم فيه، وهذا النفي الذي يتضمن أنهم لا يبلغون أملاً تأنيساً لمحمد ﷺ. ثم أمره بالاستعاذة بالله في كل أمره من كل مُستعاذٍ منه لأن الله يسمع أقواله وأقوال مخالفيه، وهو بصير بمقاصدهم ونياتهم ومجازي كل بما استوجه، والمقصود بأن يُستعاذ منه عند قوم الكبر المذكور، كأنه قال: هؤلاء لهم كبر لا يبلغون منه أملاً، فاستعذ بالله من حالهم في ذلك. وذكر الشعلي أن هذه الاستعاذة من الدجال وفتنته، والأظهر ما قدمناه من العموم في كل مُستعاذٍ منه.

٥٧ - ٥٨ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿لَخَلَقُ النَّاسِ وَالْأَنْفُسِ﴾ الآية توبيخ لهؤلاء الكفار المتكبرين، كأنه تعالى قال: مخلوقات الله تعالى أكبر وأجل قدراً من خلق البشر، فما لأحد منهم أن يتكبر على خالقه، ويحتمل أن يكون الكلام في معنى البعث والإعادة، فأعلم تعالى أن الذي خلق السموات والأرض قوي قادر على خلق الناس تارة أخرى، و«الخلق» - على هذا

إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٥٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْفَلَاحَ لَسْتُمْ كُنُوزًا فِيهِ وَالْتِهَارُ مُبَوَّسَاتٌ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْصَرُوا لَهُ كُونَ ﴿٦٠﴾ كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَنَبَّأُونَ أَنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾

يها أي: في ذاتها ونفسها، وإن وجد من العالم من يرتاب فيها فليست فيها في نفسها ريبة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ آية تفضل ونعمة ووعده لأمة محمد ﷺ بالإجابة عند الدعاء، وهذا وعد مقيّد بشرط المشيئة وهي موافقة المقدور لمن شاء الله تعالى، لا أن الاستجابة عليه حتم لكل داع لا سيما من تعدى في دعائه، فقد عاب رسول الله ﷺ دعاء الذي قال: اللهم أعطني القصر الأبيض الذي عن يمين الجنة. وقالت فرقة: معنى ﴿ادْعُونِي﴾: اعبدونني، و﴿أَسْتَجِبْ﴾ معناه: بالشواب والنصر، وبدل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، ويحتاج له بحديث النعمان بن بشير أن

قائم، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^١
معناه: خالق كل شيء
مخلوق، وما يستحيل أن
يكون مخلوقاً كالقرآن
والصفات فليس يدخل في
هذا العموم، وهذا كما قال
تعالى: ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾^٢
معناه: كل شيء بعثت
لتدميره. وقرأت فرقة:
﴿تُفَكِّكُنَّ﴾ بالياء، وفرقة:
﴿يُفَكِّكُونُ﴾ بالياء،
والمعنى في القراءة
الأولى: قُلْ لَهُمْ،
و﴿تُفَكِّكُونُ﴾ معناه:
تُصرفون عن طريق النظر
والهُدى، وهذا تقرير

بمعنى التوبيخ والتقريع .

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ﴾ أي: على هذه الهيئة وبهذه الصفة صرف الله الكفار الجاحدين بآياته سبحانه وتعالى من الأمم المتقدمة عن طريق الهدى، ثم بين نعمته سبحانه وتعالى في أن جعل الأرض قراراً ومهاداً للعباد، والسماء بناءً وسقفاً. وقرأ الناس: ﴿صُورَكُمْ﴾ بضم الصاد، وقرأ أبو رزين بكسرهما، وقرأت فرقة: ﴿صُورَكُمْ﴾ بسكون الواو على نحو بُسْرَةٍ وبُسْر.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي كَانَتْ لِلرَّاسِخِينَ﴾ يريد:
من المستلذات طعماً ولبساً ومكاسب
وغير ذلك، ومتى جاء ذكر الطُّبَيِّاتِ
بقريئة «رَزَقَكُم» ونحوه فهذا هو
المُسْتَلْذُ، ومتى جاء بقريئة تحليل أو
تحريم - كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ

الرَّزْقِ ﴿١٠﴾ وكما قال: ﴿وَيَحْدُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ - فالطَّيِّبَاتُ في مثل هذا: الحلال، وعلى هذا النظر تخرج مذهب مالك رحمه الله تعالى في الطَّيِّبَاتِ والخَبَائِثِ، وقولُ الشَّافعي رحمه الله تعالى: إِنَّ الطَّيِّبَاتِ هِيَ الْمُسْتَلَذَاتُ والخَبَائِثُ هِيَ الْمُسْتَقْدَرَاتُ ضَعِيفٌ يَنْكُسرُ بِمُسْتَلَذَّاتٍ مُخَرَّمَةٍ وَمُسْتَقْدَرَاتٍ مُحَلَّلَةٍ لَا رُدَّ لَهُ فِي صَدْرهَا، وَأَمَّا حَيْثُ وَقَعَتِ الطَّيِّبَاتُ مَعَ الرِّزْقِ فَإِنَّهَا هِيَ تَعْدِيدُ نِعْمَةٍ فِيمَا يَسْتَحْسِنُهُ الْبَشَرُ وَلَا سِيمَا هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي هِيَ مَخَاطَبَةٌ لِلْكَفَّارِ، فَإِنَّمَا عُدَّتْ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةُ الَّتِي يَعْتَقِدُونَهَا نِعْمَةً . وباقِي الْآيَةِ بَيِّنُ .

٦٥ - ٦٧ تفسیر قوله عز وجل:

لما سردت الآيات صفات الله التي
تُبَيِّنُ فساد حال الأصنام كان من أُتِيَتْهَا
أَنَّ الأصنام مواتٌ جمادٍ، وأنه عزٌّ
وجلُّ الحيِّ القيومِ، وصدور الأمر
من لدنه وإيجادُ الأشياءِ وتدبيرُ الأمرِ
كلُّه وعلمُه بالكلِّ، دليلٌ قاطعٌ على
أنَّهُ حيٌّ لا إلهَ إلاَّ هو.

وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ
الْذِينَ أَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كلام
متصل مقتضاه: ادعوه مخلصين
بالحمد، وبهذه الألفاظ قال ابن عباس
رضي الله عنهما: من قال: «لَا إِلَهَ
إِلَّا الله» فليقل أثرها: «الحمد لله رب
العالمين»، وقال نحو هذا سعيد بن
جبير ثم قرأ هذه الآية.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يصدع
بأنه نُهي عن عبادة الأصنام التي
عبدها الكفار من دون الله سبحانه
وتعالى، ووقع النهي لما جاءه الوحي
والهدى من ربه. وأمر بالإسلام الذي

[illegible]

النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة»،
وقرأ هذه الآية. وقال ابن عباس
رضي الله عنهما: المعنى: وحُدوني
أغفر لكم، وقيل للشوري: ادع الله
تعالى فقال: إن ترك الذنوب هو
الدعاء.

وقرأ ابن كثير، وأبو جعفر:
﴿سَيَذَخُلُونَ﴾ بضم الياء وفتح الخاء،
وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وابن
عامر، والحسن، وشيبة:
﴿سَيَذَخُلُونَ﴾ بفتح الياء وضم الخاء،
واختلف عن أبي عمرو، وعن عاصم،
و«الذَّخْر»: الصاغر الذليل.

٦١ - ٦٤ تفسیر قوله عز وجل:

هذا تنبيه على آيات الله تعالى، وعبر
مَنْ تأملها العاقل أدته إلى توحيد الله
تبارك وتعالى والإقرار بربوبيته، وقوله
تعالى: ﴿وَاللَّهُكَارِمْ﴾ مجازة:
يُبصر فيه، كما نقول: نهارٌ صائمٌ وليلٌ

هو الإيمان والأعمال، وقوله تعالى: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أن أستسلم لرب العالمين وأخضع له بالطاعة.

ثم بيّن تعالى أمر الوجدانية والألوهية بالعبارة في ابن آدم وتدرج خلقه، فأوله خلق آدم من تراب من طين لازب، فجعل البشر من تراب لما كان منسلماً من المخلوق من التراب، وقوله: ﴿مِنْ تُفَعْفَ﴾ إشارة إلى التناسل من آدم فمن بعده «الطُفَّة» [هي] الماء الذي خلق المرء منه، و«الْعَلَقَةُ»: الدم الذي يصير من النطفة، و«الطُّفْلُ» هنا اسم جنس، و«بُلُوغُ الْأَشُدِّ» اختلف فيه - ف قيل: ثلاثون، وقيل: ستة وثلاثون، وقيل: أربعون، وقيل: ستة وأربعون، وقيل: عشرون، وقيل: ثمانية عشر، وقيل: خمسة عشر، وهذه الأقوال الأخيرة ضعيفة في الأشد.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ﴾ عبارة تتردد في الأدراج المذكورة كلها، فمن الناس من يموت قبل أن يخرج طفلاً، وآخرون قبل الأشد، وآخرون بعد الشيخوخة، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَبْلُغُوا أَجَلَ مُسَمًّى﴾ أي: هذه الأصناف كلها مخلوقة مُسَيَّرَةٌ ليلبغ كل واحد منها أجلاً مُسَمًّى لا يتعداه ولا يتخطاه، وليكون معتبراً، ولعلكم أيها البشر تعقلون الحقائق إذا نظرتهم في هذا وتدرتكم حكمة الله فيه.

٧٣ - ٧٤ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَصَّقَ أَمْرًا﴾ عبارة عن إنفاذ الإيجاد وإخراج المخلوق من العدم، وإيجاد الموجودات هو

بالقدرة، واقتران الأمر بذلك هو عظمة في الملك وتخضع للمخلوقات وإظهاراً للقدرة، والأمر للموجد إنما يكون في حين تلبس القدرة بإيجاده، لا قبل ذلك لأنه حينئذ لا يخاطب في معنى الوجود والكون، ولا بعد ذلك لأن ما هو كائن لا يقال له: كُنْ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ﴾ الآية. ظاهرها أنها في الكفار المجادلين في رسالة محمد ﷺ والكتاب الذي جاء به، بدليل قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ الآية، وهذا قول ابن زيد وجمهور المفسرين، وقال محمد بن سيرين وغيره: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ﴾ الآية إشارة إلى أهل الأهواء من هذه الأمة، وروى هذه الفرقة في نحو هذا حديثاً، وقالوا: هي في أهل القدر ومن جرى مجراهم، ويلزم قائل هذه المقالة أن يجعلوا قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ الآية... كلاماً مقطوعاً مستأنفاً في الكفار، ﴿الَّذِينَ﴾ ابتداءً، وخبره ﴿فَتَوَفَّى يَمَلُوكَ﴾، ويحتمل أن يكون خبر الابتداء محذوفاً، والفاء متعلقة به، وقوله تعالى: ﴿إِذْ الْأَغْلُلُ﴾ يعني يوم القيامة، والعامل في الظرف ﴿يَمَلُوكَ﴾، وعبر عن ظرف الاستقبال بظرف لا يقال إلا في الماضي، لأنه لما تيقن وقوع الأمر حسن تأكيده بالإخراج في صيغة الماضي، وهذا كثير في القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَى﴾، قال الحسن بن أبي الحسن: لم تجعل السلاسل في أعناق الكفار لأنهم أعجزوا الرب تعالى

ولكن لترسيهم إذا أطفاهم اللهب. وقرأ الجمهور: ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ رفعاً عطفاً على ﴿الْأَغْلُلُ﴾ وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ بالنصب ﴿يَسْحَبُونَ﴾ بفتح الباء وإسناد الفعل إليهم وإيقاع الفعل على السلاسل، وقرأت فرقة: ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ بالخفض على تقدير: إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل، فعطف على المراد من الكلام لا على ترتيب اللفظ، إذ ترتيبه فيه قلب، وهو على حد قول العرب: «أَدْخَلْتُ الْقَلَنْسُوَّةَ فِي رَأْسِي»، وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه: ﴿وَفِي السَّلَاسِلِ يَسْحَبُونَ﴾، و﴿يَسْحَبُونَ﴾ معناه: يُجَسَّرُونَ، والسَّخْبُ: السَّجَرُ، و«الحميم»: الذائب الشديد الحر من النار، ومنه يقال للماء السخن: حميم. و﴿يَسْحَبُونَ﴾ قال مجاهد: معناه: توقد النار بهم، والعرب تقول: «سَجَرْتُ النَّوْرَ» إذا مَلَأْتُهَا نَاراً، وقال السدي: ﴿يَسْحَبُونَ﴾: يحرقون.

ثم أخبر تعالى أنهم يوقفون يوم القيامة على جهة التوبيخ والتفريع، فيقال لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدون في الدنيا؟ فيقولون: ضلوا عنا، أي: تلىقوا النار وغابوا واضمحلوا، ثم تضطرب أفعالهم ويفزعون إلى الكذب فيقولون: بل لم تكن نعبد شيئاً، وهذا من أشد الاختلاط وأبين الفساد في الذهن والنظر، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾، أي: بهذه الصفة المذكورة وبهذا الترتيب.

الأنعام

الأنعام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ
بِتَايَئَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَفُتِحَ يَلْمُوعُ وَخَبِرَ
هَذَاكَ الْمُبْطُلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ
لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
مَنْفَعٌ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
الْأَشْيَاقِ تَحْمِلُونَ ﴿٨٠﴾ وَتُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِهِ
اللَّهُ تُكَذِّبُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَأَسَاءُوا فِي الْأَرْضِ فَمَا عَصَيْنَاهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ
مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوْا بَاسًا قَالُوا أَمَّا بِنَا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ فَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُنْ لَكَ بِنَفْعِهِمْ إِيمَانٌ لِمَا رَأَوْا بَاسًا سَأَلَتْ
اللَّهُ الْكَلْبَىٰ فَدَخَلَتْ فِي عِجَابِهِمْ وَخَبِرَ هَذَاكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

١٧٦

٧٥ - ٧٨ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: يقال للكفار المعذبين: لكم العذاب الذي أنتم فيه بما كنتم تكفرون وتفرحون في الدنيا بالمعاصي والكفر وتمرحون، قال مجاهد: معناه: الأشتر والبطر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفخر والخيلاء. وقوله تعالى: ﴿أَنْتَلُوا﴾، يقال لهم قبل هذه المحاورة في أول الأمر: ادخلوا، لأن هذه المخاطبة إنما هي بعد دخولهم وفي الوقت الذي فيه الأغلال في أعناقهم، وأبواب جهنم هي السبعة المؤدية إلى طبقاتها وأدراكها السبعة. و«المثوى»: موضع الإقامة.

ثم آتس الله تعالى نبيه ﷺ ووعدته بقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ في نصرك وإظهار أمرك، فإن ذلك إما أن ترى بعضه في حياتك

فتقرر به عينك، وإما أن تموت قبل ذلك فإلى أمرنا وتعذيبنا يصيرون ويرجعون، وقراءة الجمهور: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بضم الياء، وقرأ أبو عبد الرحمن ويعقوب: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بفتح الياء وقرأ طلحة بن مصرف، ويعقوب - في رواية الوليد بن حسان -: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بفتح التاء منقوطة من فوق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية رد على العرب الذين قالوا: إن الله تعالى لا

يبعث بشراً رسلاً، واستبعدوا ذلك، وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾، قال النقاش: هم أربعة وعشرون، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ روي من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الله عز وجل بعث ثمانية آلاف رسولاً»، وروي عن سلمان، عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «بعث الله أربعة آلاف نبي»، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «بعث الله تعالى رسلاً من الحبشة أسوداً» وهو الذي لم يقص على محمد ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ساقه على أن هذا الحبشي مثال لما لم يقص، لا أنه هو المقصود وحده، فإن هذا بعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ رَدٌّ عَلَى قَرِيشٍ فِي إِنْكَارِهِمْ أَمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ﴾، وقولهم: إنه كاذب على الله تعالى، والإذن يتضمن علماً وتمكيناً، فإذا اقترن به أمر قوي كما هو في إرسال النبي، ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: إذا أراد إرسال رسول وبعثه نبي قضى ذلك وأنفذه بالحق، وخسر كل مبطل، وحصل على فساد آخرته، وتحتمل الآية معنى آخر وهو أن يريد بـ«أمر الله» القيامة، فتكون الآية توعداً لهم.

٧٩ - ٨٢ تفسير قوله عز وجل:

هذه آيات عِبر وتعدد نعم، و«الأنعام»: الأزواج الثمانية، و«مِنْهَا» الأولى للتبعية، لأن المذكور ليس كل الأنعام، بل الإبل خاصة، و«مِنْهَا» الثانية لبيان الجنس؛ لأن الجميع منها يؤكل، وقال الطبري في هذه الآية: إن الأنعام تعم الإبل والبقر والغنم والخيول والبغال والحمير وغير ذلك مما يُنتفع به من البهائم، فـ«مِنْهَا» في الموضوعين للتبعية - على هذا - لكنه قول ضعيف، وإنما الأنعام: الأزواج الثمانية التي ذكر الله تعالى فقط، ثم ذكر الله تعالى المنافع ذكراً مُجْمَلًا لأنها أكثر من أن تحصى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ يريد قطع المَهَامِهِ الطويلة والمشاق البعيدة، و«الْفَلْكَ»: السفن، وهو هنا جمع، و«تَحْمِلُونَ» يريد: براً وبحراً، وذكر تعالى الحَمْلَ عليها وقد تقدم ذكر ركوبها لأن المعنى مختلف في الأمرين وبينهما تغاير، لأن الركوب هو المتعارف

فيما قَرُبَ، ويستعمل دأباً في القرى والمواطن، فهو نظير الأكل منها وسائر المنافع، ثم خصص بعد ذلك السفر الأطول وحوائج الصدور مع البُعد، وهذا هو الحمل الذي قرنه بشيبه من أمر السفن.

ثم ذكر الله تعالى آياته عامة جامعة لكل عِزَّة وموضع نظر، وهذا غير منحصر لاتساعه، ولأن في كل شيء له آية تدل على وحدانيته، ثم قرَّره على جهة التوبيخ - بقوله: ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ؟﴾

ثم احتجَّ تعالى على قريش بما يظهر في الأمم السالفة من نعمات الله في الكفرة الذين كانوا أكثر عدداً، وأشدَّ قوَّة أبدان وممالك، وأعظم آثاراً في المباني والأفعال من قريش والعرب، فلم يُغن عنهم كسبهم ولا حالهم شيئاً حين جاءهم عذاب الله وأخذَه. [وما] في قوله: ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ؟﴾ نافية، قال الطبري: وقيل: هي توقيف وتقرير.

الضمير في ﴿جَاءَهُمْ﴾ عائد على الأمم المذكورين الذين جُعلوا مثلاً وعبرة. واختلف المفسرون في الضمير في ﴿فَرَحُوا﴾، على من يعود؟ فقال مجاهد وغيره: هو عائد على الأمم المذكورين، أي: بما عندهم من العلم في ظنهم ومعتقدهم من أنهم لا يُبعثون ولا يُحاسبون، وقال ابن زيد: اغتروا بعلمهم بالدنيا والمعاش، وظنوا أنه لا آخرة ففرحوا، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَتَكَبَّرُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْكِبَرَةِ الدُّنْيَا﴾، وقالت فرقة: الضمير عائد على الرُّسل، وفي هذا التأويل حذف تقديره: كذبهم ففرحوا - أي: الرُّسل

- بما عندهم من العلم بالله تعالى والثقة به وبأنه سينصرهم.

و ﴿وَمَآءٌ﴾ معناه: نزل وثبت، وهي مستعملة في الشَّر، و ﴿مَآءٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآءٌ كَانُوا بِهِ﴾ هو العذاب الذي كانوا يكذبون به ويستهزئون بأمره، والضمير في ﴿يَوْمٍ﴾ عائد على الكفار بلا خلاف.

ثم حكى تعالى حالة بعضهم ممن آمن بعد تلُّس العذاب بهم فلم ينفعهم ذلك، وفي ذكر هذا حضُّ للعرب على المبادرة، وتخويف من التَّأني، لئلا يدركهم

عذاب لا تنفعهم توبة بعد تلُّسهم بهم، وأما قصة قوم يونس عليه السلام فقد رأوا العذاب ولم يكن تلُّس بهم، وقد مرَّ تفسيرها مُستقصى في سورة يونس عليه السلام. و ﴿سَكَنَ﴾ نصب على المصدر، و ﴿خَلَّتْ﴾ معناه: مضت واستمرت وصارت عادة. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا لَكُ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَوَاقَاتِ الْعَذَابِ، أَي: ظهر خُسْرَانُهُمْ وحضر جزاء كفرهم.

كمل تفسير سورة (غافر) والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة فصلت

هذه السورة مكيَّة بإجماع من



المفسرين، ويروى أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله ﷺ ليبيِّن عليه أمر مخالفته لقومه، وليحتجَّ عليه فيما بينه وبينه، وليُبعد ما جاء به، فلما تكلم عتبة قرأ رسول الله ﷺ: ﴿حَرِّ﴾، ومرَّ في صدر هذه السورة حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنِ امْرَأَةٌ فَعَلْ أُنثَىٰ فَكَرِهَ صَعِقَتْ مِثْلَ صَعِقَةِ عَادَ وَنَمُودَ﴾، فأزعج الشيخ وقفَّ شعره، وأمسك على فم رسول الله ﷺ بيده وناشده بالرحم أن يُمسك، وقال حين فارقه: «والله لقد سمعتُ شيئاً ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي».

١ - ٧ تفسير قوله عز وجل:

تقدم القول في أوائل السور وفيما تختص به الحواميم، وأمال الأعمش ﴿حَرِّ﴾ في كلها، و ﴿نَزِيلٌ﴾ خبر

الابتداء، إمّا على أن يقدر الابتداء في ﴿حَرَّ﴾ على ما تقتضيه بعض الأقاويل فيها، إذا جعلت اسماً للسورة أو للقرآن أو إشارة إلى حروف المعجم، وإمّا على أن يكون التقدير: هذا تنزيل، ويجوز أن يكون ﴿تَنْزِيلٌ﴾ ابتداءً وخبره في قوله تعالى: ﴿كَتَبْتُ فُصِّلْتُ﴾، على معنى: ذو تنزيل. و﴿الْحَكِيمُ﴾ صفتا رجاء ورحمة الله تعالى، و﴿فُصِّلْتُ﴾ قال السدي: معناه: بُيِّنَتْ آياته، أي: فُسِّرَتْ معانيه، ففصل بين حلاله وحرامه، وزجره وأمره ونهييه، ووعدته ووعيده، وقيل: فُصِّلْتُ في التنزيل، أي: نزل نجوماً ولم ينزل مرة واحدة، وقيل: فصلت المواقف وأنواع أواخر الآي، ولم يكن يرجع إلى قافية واحدة ونحوها كالشعر والسجع، و﴿قُرْءَانًا﴾ نصب على الحال عند قوم، وهي مؤكدة لأن هذه الحال ليست مما تنتقل، وقالت فرقة: هو نصب على المصدر، وقالت فرقة: ﴿قُرْءَانًا﴾ توطئة للحال و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال، وقالت فرقة: ﴿قُرْءَانًا﴾ نصب على المدح، وهذا قول ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قالت فرقة: معناه: يعلمون الأشياء ويعقلون الدلائل وينظرون على طريق النظر، فكان القرآن فُصِّلَ آياته لهؤلاء إذ هم أهل الانتفاع بها فُحْصُوا بالذكر تشريفاً، ومن لم يتفع بالتفصيل فكانه لم يُفْصَلْ له، وقالت فرقة: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ متعلق في المعنى بقوله تعالى: ﴿عَرَبِيًّا﴾، أي: جعلناه

بكلام العرب لقوم يعلمون ألفاظه، ويحققون أنها لم يخرج شيء منها عن كلام العرب، وكأن الآية رادة على من زعم أن في كتاب الله تعالى ما ليس في كلام العرب، فالعلم - على هذا التأويل - أخص من العلم على التأويل الأول، والأول أشرف معنى، ويبيّن أنه ليس في القرآن إلا ما هو من كلام العرب، إمّا على أصل لغتها، وإمّا ما عربته من لغة غيرها ثم ذكر في القرآن وهو معرب مستعمل.

وقوله تعالى: ﴿يَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ نعت للقرآن، أي: يبشّر من آمن بالجنة ويُنذِر من كفر بالنار، والضمير في ﴿أَكْرَمَهُمْ﴾ عائد على القوم المذكورين. وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ نفى لسمعهم النافع الذي يعتد به سمعاً. ثم حكى تعالى عنهم مقالتهن التي باعدوا فيها كل المباحة، وأرادوا بها أن يؤسوه من قبولهم دينه، وهي: ﴿قُلُوبًا فِي أَكْحَبٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾، و﴿أَكْبَدَ﴾ جمع كنان، وهو باب فَعَالٍ وأفعلة، والكثائن: ما يجمع الشيء ويضمه ويحول بينه وبين غيره، ومنه الكُنْ، ومنه كثانة النبل، وبها فُسِرَ مجاهد هذه الآية، و [من] في قولهم: ﴿مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ لابتداء الغاية، وكذلك هي في قولهم: ﴿وَمِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ جَبَابٌ﴾ مؤكدة لابتداء الغاية، و﴿الْوَقْرُ﴾ الثقل في الأذن الذي يمنع السمع، وقرأ ابن مصرف: ﴿وَقَرٌّ﴾ بكسر الواو، و﴿الْجَبَابُ﴾ الذي أشاروا إليه هو مخالفته إياهم، ودعوته إلى الله تبارك وتعالى دون

أصنامهم، أي: هذا أمر يحجبنا عنك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه مقالة يحتمل أن تكون معها قرينة الجذ في المحاوراة وتتضمن المباحة، ويحتمل أن تكون معها قرينة الهزل والاستخفاف، وكذلك قولهم: ﴿فَأَعْمَلُ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون القول تهديداً، ويحتمل أن يكون مشاركة محضة. وقرأ الجمهور: ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾ على معنى الأمر لمحمد ﷺ، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش: ﴿قَالَ إِنَّمَا﴾ على معنى المضي والخبر عنه، وهذا هو الصدح بالتوحيد والرسالة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، قال الحسن: علّمه الله تعالى التواضع، و [أن] في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُم﴾ رفع على المفعول الذي لم يُسم فاعله، وقوله: ﴿فَأَسْتَفِيحُوا﴾ أي: على محجة الهدى وطريق الشرع والتوحيد، وهذا المعنى مُضْمَنٌ في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾، و﴿الْوَيْلُ﴾: الحزن والشبور، وفُسِرَ الطبري وغيره في هذه الآية بفتح أهل النار وما يسيل منهم. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال الحسن، وقتادة، وغيرهما: هي زكاة المال، وروي أن الزكاة قنطرة الإسلام، من قطعها نجا ومن جانبها هلك، واحتج لهذا التأويل بقول أبي بكر رضي الله عنه في الزكاة وقت الردة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والجمهور: الزكاة في هذه الآية: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» التوحيد، كما قال موسى عليه السلام

لفرعون: ﴿عَلَّكَ إِلَهَ أَنْ تَزَكَّى﴾، وَيُزَجِّحُ هذا التأويل أَنَّ الآية من أَوَّلِ الْمَكِّيَّ وَزَكَاةَ الْمَالِ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَإِنَّمَا هَذِهِ زَكَاةُ الْقَلْبِ وَالبَدَنِ، أَي: تَطْهِيرُهُمَا مِنَ الشُّرْكِ وَالمَعَاصِي، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالرَّبِيعُ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَمَقَاتِلُ: مَعْنَى الزَّكَاةِ هُنَا النِّفَقَةُ فِي الطَّاعَاتِ، وَأَعَادَ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمْ كَكِرُونَ﴾ توكيداً.

٨ - ١٠ تفسير قوله عز وجل:

ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ حَالَةَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعْدَلاً بِذَلِكَ حَالَةَ الْكُفَّارِ الْمَذْكُورِينَ لِيَتَبَيَّنَ الْفَرْقُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَعْنَاهُ: غَيْرُ مَنْقُوصٍ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: مَعْنَاهُ: غَيْرُ مَقْطُوعٍ، يُقَالُ: مَنَنْتُ الْجَبَلَ إِذَا قَطَعْتَهُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ: غَيْرُ مُحْصَرٍّ؛ مُحْصَرٌّ، فَهُوَ مُعَدَّدٌ لِأَنَّهُ يُمَنُّ بِهِ، وَيُظْهِرُ فِي الْآيَةِ أَنَّهُ وَصَفَهُ بِعَدَمِ الْمَنِّ وَالْأَدَى، وَمِنْ حَيْثُ هُوَ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ تَشْرِيفٌ لَا مَنٌّ فِيهِ، وَأَعْطِيَا الْبَشَرَ هِيَ الَّتِي يَدْخُلُهَا الْمَنُّ، وَقَالَ السَّدِيُّ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْمَرْضَى وَالزُّمْنَى إِذَا عَجَزُوا عَنْ إِكْمَالِ الطَّاعَاتِ كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ كَأَصَحِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهِ ﷺ بِأَنْ يَوْقِفَهُمْ مُؤَبَّخاً عَلَى كُفْرِهِمْ بِخَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَمَخْتَرَعِهِمَا، وَوَصَفَ صُورَةَ الْخَلْقِ وَمُدَّتَهُ، وَالحِكْمَةَ فِي خَلْقِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي مَدَّةٍ مُتَّعِدَةٍ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى إِيجَادِهَا فِي حِينٍ وَاحِدٍ هِيَ إِظْهَارُ الْقُدْرَةِ فِي تَرْتِيبِ ذَلِكَ حَسَبَ شَرَفِ الْإِيجَادِ أَوَّلًا أَوَّلًا، قَالَ قَوْمٌ: لِيُعْلَمَ عِبَادَهُ

التَّائِي فِي الْأُمُورِ وَالْمَهَلِّ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي نَظِيرِ قَوْلِهِ: ﴿أَهْنَكُمْ﴾، وَاخْتَلَفَ رَوَاةُ الْحَدِيثِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي ابْتَدَأَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ خَلْقَ الْأَرْضِ، فَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَغَيْرِهِ أَنَّ أَوَّلَ يَوْمٍ هُوَ الْأَحَدُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ فِيهِ وَفِي الْاِثْنَيْنِ الْأَرْضَ، ثُمَّ خَلَقَ الْجِبَالَ وَنَحْوَهَا يَوْمَ الثَّلَاثَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَمِنْ هُنَا قِيلَ: هُوَ يَوْمٌ ثَقِيلٌ، ثُمَّ خَلَقَ الشَّمَارَ وَالشَّجَرَ وَالْأَنْهَارَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَمِنْ هُنَا قِيلَ: هُوَ يَوْمٌ رَاحَةٌ وَتَفَكُّرٌ فِي هَذِهِ الَّتِي خَلَقْتَ فِيهِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَمَا فِيهَا يَوْمَ الْخَمِيسِ وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَفِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْهُ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ السَّدِيُّ: وَسُمِّيَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ لِاجْتِمَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ فِيهِ وَتَكَامُلِهَا. فَهَذِهِ رَوَايَةٌ فِيهَا أَحَادِيثٌ مَشْهُورَةٌ، وَلَمَّا لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ السَّبْتِ شَيْئاً أَمْتَنَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ الشَّغْلِ فِيهِ، وَوَقَعَ فِي كِتَابِ مُسْلِمٍ أَنَّ أَوَّلَ يَوْمٍ خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ الْبَرِّيَّةَ يَوْمَ السَّبْتِ، ثُمَّ رُتِبَ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَجُعِلَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ عَارِياً مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا مِنْ آدَمَ وَحْدَهُ. وَالظَّاهِرُ مِنَ الْقَصَصِ فِي طِينَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الْجُمُعَةَ الَّتِي خُلِقَ فِيهَا آدَمُ قَدْ تَقَدَّمَتْهَا أَيَّامٌ وَجُمُعٌ كَثِيرَةٌ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَيَّامَ الَّتِي خُلِقَ فِيهَا الْمَخْلُوقَاتِ هِيَ أَوَّلُ الْأَيَّامِ، لِأَنَّ بِلِيجَادِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالشَّمْسِ وَجُدِ الْيَوْمِ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَجْعَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَيْنِ﴾ عَلَى التَّقْدِيرِ وَإِنْ لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ خَلَقَتْ بَعْدَ

وَكَانَ تَفْصِيلُ الْوَقْتِ يَعْطَى أَنَّهَا الْأَحَدُ وَيَوْمَ الْاِثْنَيْنِ كَمَا ذَكَرَ.

وَالْاِثْنَادُ: الْأَشْبَاهُ وَالْأَمْثَالُ، وَهَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى كُلِّ مَا عُبِدَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَصْنَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ السَّدِيُّ: أَكْفَاءٌ مِنَ الرِّجَالِ يَطِيعُونَهُمْ. وَالرُّؤَاسِي هِيَ الْجِبَالُ الثَّوَابِتُ، رَسَا الْجَبَلُ إِذَا ثَبَتَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَزَكَّ فِيهَا﴾ أَي: جَعَلَهَا مُثَبَّتَةً لِلطَّيْبَاتِ وَالْأَطْعَمَةِ، وَجَعَلَهَا طَهُوراً، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَرَكَةِ، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَوَقَّسَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، وَفِي مَصْحَفِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿وَوَدَّرَ﴾.

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَقْوَاتَهَا﴾ - فَقَالَ السَّدِيُّ: هِيَ أَقْوَاتُ الْبَشَرِ وَأَرْزَاقُهُمْ، وَأَضَافَهَا إِلَى الْأَرْضِ مِنْ حَيْثُ هِيَ فِيهَا وَعَنْهَا، وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ أَقْوَاتُ الْأَرْضِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالْأَشْجَارِ وَالصَّخُورِ وَالْمَعَادِنِ وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا قَوَامُ الْأَرْضِ وَمَصَالِحُهَا، وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي هَذَا حَدِيثاً مَرْفُوعاً، فَشَبَّهَهَا بِالْقُوَّةِ الَّذِي بِهِ قَوَامُ الْحَيَوَانِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَادَ أَقْوَاتَهَا مِنَ الْمَطَرِ وَالْمِيَاهِ، وَقَالَ عِكْرَمَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَمُجَاهِدٌ أَيْضاً: أَرَادَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَقْوَاتَهَا﴾: خَصَائِصَهَا الَّتِي قَسَمَهَا فِي الْبِلَادِ، فَجَعَلَ فِي الْيَمَنِ أَشْيَاءَ لَيْسَتْ فِي غَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ فِي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَنْطَارِ لِيَحْتَاجَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَيَتَقَوَّتَ مِنْ هَذِهِ فِي هَذِهِ مِنَ الْمَلَابِسِ وَالْمَطْعُومِ،

والإشارة بهذا كله إلى تسخيرها وما قدره الله تعالى من أعمالهما. وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَرِهًا﴾ فيه محذوف ومقتضب، والتقدير: أتينا طوعاً وإلاً أتينا كرهاً، وقوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ أراد الفرقتين المذكورتين، جعل تعالى السموات سماء والأرضين أرضاً، ونحو هذا قول الشاعر:

أَلَمْ يَخْزُنْكَ أَنَّ حَبَالَ قَوْمِي
وَقَوْمِكَ قَدْ تَبَايَنَّا انْقِطَاعًا؟
جعلها فرقتين وعبر عنهما بتبايننا. وقوله: ﴿طَائِفِينَ﴾، لما كان ممن يقول - وهي حال من يعقل - جرى الضمير في ﴿طَائِفِينَ﴾ ذلك المجري، وهذا كقوله تعالى: ﴿رَأَيْتُمْ لِي سَيِّدِينَ﴾.

واختلف الناس في هذه المقالة من السماء والأرض - فقالت فرقة: نطقنا حقيقة، وجعل الله تعالى لهما حياة وإدراكاً يقتضي نطقهما، وقالت فرقة: هذا مجاز، وإنما المعنى أنهما ظهر فيهما من اختيار الطاعة والخضوع والتذلل ما هو بمنزلة قول: ﴿أَتَيْنَا طَائِفِينَ﴾. والقول الأول أحسن لأنه لا شيء يدفعه، ولأن العبرة فيه أتم، والقدرة فيه أظهر.

وقوله تعالى: ﴿فَقَضَّيْنَهُنَّ﴾ معناه: فأوجدن، ومنه قول أبي ذؤيب: وَعَلَيْهِمَا تَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا
داود أو صنع السوابغ تُبْعُ
وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَاءٍ أَمْرًا﴾ قال مجاهد، وقتادة: أوحى إلى سكانها وعمرتها من الملائكة وإليها هي في نفسها ما شاء الله تعالى من الأمور التي بها قوامها وصلاحها، قال السدي، وقتادة: من الأمور التي

وأراد العبرة فيه، فإنه يجده كما قال عز وجل. وقال ابن زيد وجماعة: معناه: مُنَوِّهًا أمر هذه المخلوقات ونفعها للمحتاجين إليها من البشر، فعبر عنهم بالسائلين، بمعنى الطالبين؛ لأنهم من شأنهم ولا بُدَّ طَلَب ما ينتفعون به، فهم في حكم من سأل هذه الأشياء؛ إذ هم بحال حاجة إليها. ولفظة «سواء» تجري مجرى «عذل» و«زور» في أن ترد على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث.

١١ - ١٢ تفسير قوله عز وجل: ﴿اسْتَوَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ﴾ معناه: بقدرته واختراعه، أي: إلى خلق السموات وإيجادها، وقوله تعالى: ﴿وَرَوَىٰ دُكَّانٌ﴾ روي أنها كانت جسماً رخواً كالدخان أو البخار، وروي أنه مما أمره الله أن يصعد من الماء، وهنا لفظ متروك يدل عليه الظاهر، وتقديره: فأوجدها وأتقنها وأكمل أمرها، وحينئذ قال لها وللأرض: ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾. وقسراً الجمهور: ﴿أَتَيْنَا﴾ من أتى يأتي، ﴿قَالَ﴾ أَيْنَا طَائِفِينَ على وزن فَعَلْنَا، وذلك على معنى: اثنيًا أو امرئ وإرادتي فيكما، وقرأ ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد: ﴿أَتَيْنَا﴾، من أتى يُؤْتِي، ﴿قَالَ﴾ أَيْنَا طَائِفِينَ على وزن أفعلنا، وذلك بمعنى أعطينا من أنفسكما من الطاعة ما أردته منكما،

فَقَضَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا
وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الَّتِي يُصَدِّقُ بِهَا نَبِيُّكَ فَقَدِيرَ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿١١﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ
عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٢﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ يَدْعُهُمْ
خَلْفَهُمْ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً
فَإِنَّا لَنَامُنُّ بِالرُّسُلِ بِكَفْرٍ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِثْلَهُ قُلْ اللَّهُ أَشَدُّ
الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْمَدُونَ
﴿١٤﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْصُورَاتٍ لِيَذِبَهُمْ
عَذَابَ الْخَزْزِيرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ
لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى
الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿١٦﴾ وَنَحْنُ الَّذِينَ أَمْوُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿١٧﴾ وَيَوْمَ يُخْسَرُ
أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمَا شَهِدَ
عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَسُلُوكُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

وهذا نحو القول الأول إلا أنه بوجه أعم منه.

وقوله تعالى: ﴿فِي آيَةِ آيَاتِهِ﴾ يريد تعالى: باليومين الأولين، وهذا كما تقول: بنيت جدار داري في يوم، وأكملت جميعها في يومين، أي: بالآول.

وقرأ الحسن البصري، وأبو جعفر، وجمهور الناس: ﴿سَوَاءً﴾ بالنصب على الحال، أي: سواء هي وما انقضى فيها، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿سَوَاءً﴾ بالرفع، أي: هي سواء، وقرأ الحسن، وابن أبي إسحق، وعيسى، وعمرو بن عبيد: ﴿سَوَاءً﴾ بالخفض على نعت «الأيام». واختلف المتأولون في معنى «لِلسَّائِلِينَ» - فقال قتادة، والسدي: معناه: سواء لمن سأل عن الأمر واستفهم عن حقيقة وقوعه

هي لغيرها مثل ما فيها من جبال البرد ونحوها، وأضاف الله تعالى الأمر إليها من حيث هو فيها.

ثم أخبر الله تعالى أن الكواكب زين بها السماء الدنيا، وذلك ظاهر اللفظ بحسب ما يقتضيه حس البصر، وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّتَا﴾ منصوب بإضمار فعل، أي: وحفظناها حفظاً. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جميع ما ذكر، أي: أوجده بقدرته وعزته وأحكمه بعلمه.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فإن أعرضت قريش والعرب الذين دعوتهم إلى الله تعالى عن هذه الآيات البينات فأعلمهم أنك تحذرهم أن يصيبهم مثل العذاب الذي أصاب الأمم التي كذبت كما تكذب هي الآن، وقرأ جمهور الناس: ﴿صِغْفُورٌ﴾، وقرأ الشُّعبي، وأبو عبد الرحمن، وابن محيصن: ﴿صَغْفَرَةٌ﴾، فأمّا هذه القراءة الأخيرة ففيها المعنى بَيِّنٌ؛ لأن الصغفة: الهلاك للإنسان، وأما الأولى فالمعروف في الصاعقة أنها الوقعة الشديدة من صوت الرعد، وهي تكون معها في الأحيان قطعة نار، فَشَبَّهَتْ هنا وقعة العذاب بها لأن عاداً لم تُعَذَّبْ إلا بريح، وإنما هذا تشبيه واستعارة، وبالوقعة فسر هنا الصاعقة قتادة وغيره. وخضّ تعالى عاداً وثموداً بالذكر لوقوف قريش على بلادها في اليمن والحجر بطريق الشام.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: قد تقدموا في الزمن واتصلت نذارتهم إلى أعمار عاد وثمود، وبهذا الاتصال قامت الحجة، وقوله تعالى: ﴿وَيَنْتَظِرُ﴾ أي: جاءهم رسول بعد اكتمال أعمارهم وبعد

تقدم وجودهم في الزمن، فلذلك قال تعالى: ﴿وَيَنْتَظِرُ﴾، وجاء من مجموع العبارة إقامة الحجة عليهم في أن الرسالة والنبوة عمتهم خبراً ومباشرة، ولا يتوجه أن يجعل ﴿وَيَنْتَظِرُ﴾ عبارة عما أتى بعدهم في الزمان؛ لأن ذلك لا يلحقهم منه تقصير، وأما الطبري رحمه الله تعالى فقال: إن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَيَنْتَظِرُ﴾ عائِد على الرُّسل، والضمير في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ على الأمم، وتابَّعه الشُّعبي، وهذا غير قوي لأنه يُفَرِّق الضمائر ويشعّب المعنى.

و [أَنْ] في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ نصب على إسقاط الخافض، التقدير: «بأن»، و﴿تَعْبُدُوا﴾ مجزوم على النهي، ويتوجه أن يكون منصوباً على أن تكون [لا] نافية، وفيه بُعد، وكان من مقالات تلك الأمم إنكار بعثة البشر واستدعاء الملائكة، وهذه أيضاً كانت من مقالات قريش، وقولهم: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كُفْرُونَ﴾ ليس على جهة الإقرار بأنهم أرسلوا بشيء، وإنما معناه: على زعمكم ودعواكم.

ثم وصف تعالى حالة القوم، وأن عاداً طلبوا التكبر ووضعوا أنفسهم فيه بغير حق بل بالكفر والمعاصي، وعزّتهم قوتهم وعظم أبدانهم والنعم عليهم، فقالوا: على جهة التقرير: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟﴾ أي: لا أحد أشد منّا قوة، فعرض الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وهذا بَيِّنٌ في العقل، فإن الموجد للشيء المخترع له المذهب متى شاء أقوى منه، وأخبر تبارك وتعالى عنهم بجحودهم لآياته

المنصوبة للنظر والمنزلة من عنده؛ إذ لفظ الآية يعم ذلك.

﴿١٥﴾ - ﴿١٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي في الحديث أن الله تعالى أمر خزنة الريح ففتحوا على عاد منها قدر حلقة الخاتم، ولو فتحوا قدر منخر الثور لهلكت الدنيا، ورُوي أن الريح كانت ترفع العير بأوقارها فتطيرها حتى تطرحها بالبحر، وقال جابر بن عبد الله، واليمني: حبس عنهم المطر ثلاثة أعوام، وإذا أراد الله بقوم شراً حبس عنهم المطر، وأرسل عليهم الريح. واختلف الناس في الضّرصر - فقال قتادة، والسدي، والضحاك: هو مأخوذ من الضّر وهو البزد، والمعنى: ريحاً باردة لها صوت، وقال مجاهد: ضّرصر: شديدة السموم عليهم، وقال الطبري وجماعة من المفسرين: هو من ضّرصر إذا صوّت صوتاً يشبه الصاد والراء، وكذلك يجيء صوت الريح في كثير من الأوقات بحسب ما تلقى.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والأعرج، والحسن، والشُّعبي، وعيسى: ﴿فَنَحْسَاتٍ﴾ بسكون الحاء، وهي جمع نحس، يقال: يوم نحس وقوم نحس، فهو مصدر يوصف به أحياناً ويضاف إليه «اليوم» أحياناً، وعلى الصفة به جمع في هذه الآية، واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسٍ مَّتَّيَّرٍ﴾، وقال الشُّعبي: نحسات وليست بنحسات بكسر الحاء، وقرأ الباقون، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو رجاء، وقتادة، والجحدري، والأعمش: ﴿نَحْسَاتٍ﴾ بكسر الحاء، وهي جمع نحس على

والسدي، وابن زيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ليس الهدى هنا بمعنى الإرشاد، وهذا كما هي الآن شريعة الإسلام مبينة لليهود والنصارى المختلطين بنا، ولكن يعرضون ويشتغلون بالضد، فذلك استجاب العمى على الهدى. وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبُوا أَمْرِي عَلَى الْهُدَى﴾ عبارة عن تكسبهم في العمى، وإلا فهو بالاختراع لله تعالى: ويدلك على أنها إشارة إلى تكسبهم قوله تعالى: ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿الْعَذَابِ أَلْوَنٌ﴾ وصف بالمصدر، والمعنى: الذي معه هوان وإذلال، ثم قرن تعالى بذكرهم ذكر من آمن واتقى ونجا به لِيَبَيِّنَ الفرق.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ﴾ نصب بإضمار فعل تقديره: واذكر يوم. وقرأ نافع وحده، والأعرج، وأهل المدينة: ﴿فَنُخْشِرُ﴾ بالنون ﴿أَعْدَاءَ﴾ بالنصب، إلا أن الأعرج كسر الشين. وقرأ الباقون: ﴿يُخْشِرُ﴾ بالياء المرفوعة ﴿أَعْدَاءَ﴾ رفعا، وهي قراءة الأعمش، والحسن، وأبي رجاء، وأبي جعفر، وقتادة، وعيسى، وطلحة، ونافع. فيما روي عنه - وحجتهم ﴿يُزْزَوْنَ﴾. و﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ هم الكفار المخالفون لأمره، و﴿يُزْزَوْنَ﴾ قال قتادة وأهل اللغة: يُكْفَ أَوْلَهُمْ حبسا على آخرهم، وفي حديث أبي قحافة يوم الفتح: (ذلك الوازع)، وقال الحسن البصري: لا بُدَّ للقاضي من وَزَعَةٍ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: إني لا أزيد من

يُجِيلُ شَفِيفُهَا الْمَاءُ
الـ

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿نُخْشِرُ﴾ معناه: متتابعات، وكانت آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء. و﴿عَذَابُ الْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا﴾: الهلاك بسبب الكفر ومخالفة أمر الله تعالى، ولا خِزْيَ أعظم من هذا إلا ما في الآخرة من الخلود في النار.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَمَّا نُمُودٌ﴾ بغير صرف، وهذا على إرادة القبيلة، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وبكر بن حبيب: ﴿وَأَمَّا نُمُودٌ﴾ بالتنوين والإجاء، وهذا على إرادة الحي، وبالصرف كان الأعمش، ويحيى بن وثاب يقرآن في جميع القرآن إلا في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْنَةُ نُمُودٌ أُنَاقَةٌ﴾ لأنه في المصحف بغير ألف. وقرأ ابن أبي إسحق، والأعرج - بخلاف - والأعمش، وعاصم: ﴿نُمُودٌ﴾ بالنصب، وهذا على إضمار فعل يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَهَدَيْتَهُمْ﴾، وتقديره عند سيبويه: مهما يكن من شيء فهدينا نُمود هديناهم، والرفع عنده أوجه، وزوي عن ابن أبي إسحق، والأعمش: ﴿نُمُوداً﴾ منونة منصوبة، وروى المفضل عن عاصم الوجتين. وقوله تعالى: ﴿فَهَدَيْتَهُمْ﴾ معناه: بيّنا لهم، قاله ابن عباس، وقتادة،

وَقَالُوا لِلْجُلُودِ هُمْ لَمْ يَشْهَدُوا عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِنْ تَرْجِعُونَ ﴿١٩﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ أَعْمَلْتُمْ ﴿٢٠﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَاصْبِرْهُمْ مِنْ الْخَيْرِينَ ﴿٢١﴾ فَإِنْ بَصُرُوا قَالَ تَارَ مَوْتُ لَكُمْ وَإِنْ بَسَعْتُمْ أَوْ قَامَهُمْ مِنْ الْمَعْنِيِّينَ ﴿٢٢﴾ وَقَضَّيْنَاهُمْ قِرَاءَةً فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ بِحُجَّتِهِمْ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرَأَيْتُمْ أَصْلَاءَ الْإِنِّ وَالْإِنْسِ يَجْعَلُهُمَا نَحْتًا أَقْدَامًا لِيَكُونَ مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٧﴾

وزن خَيزر، فهو صفة اليوم مأخوذ من النُخس، وقال الطبري: نُخِسَ ونُخِسَ لفتان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس كذلك، بل اللغة الواحدة تجمعها، أحدهما مصدرٌ والآخر من أمثلة اسم الفاعل، وأنشد الفراء: أَبْلِغْ جُذَامًا وَلَخْمًا أَنَّ إِخْوَتَهُمْ طَبِئًا وَبَهْرَاءَ قَوْمٍ تَصْرَفُهُمْ نَجِسٌ وقالت فرقة: إن «نُخْسَاتٍ» بالسكون مخففة من «نُجْسَاتٍ» بالكسر، والمعنى في هذه اللفظة: مشائيم، من النُخس المعروف، قاله مجاهد، وقتادة، والسدي. وقال الضحاك: معناه: شديدة، أي: شديدة البرد حتى كان البرد عذاباً لهم، قال أبو علي: وأنشد الأصمعي في النُخس بمعنى البرد:

كَأَنَّ سُلَاقَةَ عُرِضَتْ لِنُخْسٍ

وَرَزَعَهُ اللهُ تَعَالَى.

و ﴿حَقَّ﴾ غايه لهذا الحشر المذكور، وهذا وصف حال من أحوالهم في بعض أوقات القيامة، وذلك عند وصولهم إلى جهنم، فإن الله تعالى سيقرهم عند ذلك على أنفسهم، ويُسألون سؤال توبيخ عن كفرهم، فينكرون ذلك ويحسبون أن لا شاهد، ويظنون السؤال سؤال استفهام واستخبار، فيطلق الله تعالى جوارحهم بالشهادة عليهم، فروي عن النبي ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يَنْطِقُ مِنَ الْإِنْسَانِ فَمَعْدَهُ الْبَسْرَى، ثُمَّ تَنْطِقُ الْجَوَارِحُ، فيقول الكافر: تَبَّ لَكَ أَيَّتُهَا الْأَعْضَاءُ فَعَنكَ كُنْتُ أَدْفَعُ»، وفي حديث آخر: «يجيئون يوم القيامة وعلى أفواههم الفدايم فيتكلم الفخذ والكف».

ثم ذكر تعالى محاورتهم لجلودهم في قولهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾، أي: وعذابنا عذاب لكم، واختلف الناس، ما المراد بالجلود؟ فقال جمهور الناس: هي الجلود المعروفة، وقال عبيد الله بن أبي جعفر: كثر بالجلود عن الفروج وإيائها أراد، وأخبر الله تعالى أن الجلود ترد جوابهم بأن الله تعالى الخالق المبدئ المعيد هو الذي أنطقهم، وقوله تعالى: ﴿أَنْطَقَ كُلُّ شَيْءٍ﴾ يريد: كل شيء ناطق، مما هي فيه عادة أو خرق عادة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوْنَ﴾ يحتمل أن يكون من كلام الجلود ومحاورتها، ويحتمل أن يكون من كلام الله عز وجل لهم، أو من كلام ملك بأمره، وأما المعنى

فيحتمل وجهين: أحدهما أن يريد: وما كنتم تتصاؤون وتحتجزون أنفسكم عن المعاصي والكفر خوف أن يُشهد، أو لأجل أن يُشهد، ولكنكم ظنتم أن الله سبحانه لا يعلم فانهمكتم وجاهرتهم، وهذا هو منحنى مجاهد، والسُّر يُنصرف على هذا المعنى ونحوه، ومنه قول الشاعر:

وَالسُّرُّ دُونَ الْفَاجِشَاتِ وَمَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سُرٍّ
والمعنى الثاني أن يريد: وما كنتم تمنعون وما يمكنكم ولا يسعكم الاختفاء عن أعضائكم والاستئثار عنها بكفركم ومعاصيكم، ولا تظنون أنها تصل بكم إلى هذا الحد، وهذا هو منحنى السدي، كأن المعنى: وما كنتم تدفعون بالاختفاء والسُّر أن تشهد؛ لأن الجوارح لزيمة لكم، وفي إلزامه إياهم الظن بأن الله لا يعلم إلزامهم الكفر والجهل بالله تعالى، هذا المعتقد يؤدي بصاحبه إلى تكذيب أمر الرسل، واحتقار قدرة الله تعالى لا رب غيره، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَلَكِنْ رُحِمْتُمْ أَنْ اللَّهُ﴾، وحكى الطبري عن قتادة أنه عبّر به ﴿تَسْتَرْوْنَ﴾ عن «تَظُنُّونَ»، وذلك تفسير لم ينظر فيه إلى اللفظ ولا ارتبط فيه معه، وذكر الطبري وغيره حديثاً عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: إِنِّي لَمُسْتَسْتَرٍ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ إِذْ دَخَلَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ، قَرَشِيَانِ وَثُقَفِي، أَوْ ثُقَفِيَانِ وَقَرَشِي، قَلِيلٌ فَقَهُ قُلُوبِهِمْ، كَثِيرٌ شَحْمٌ بَطُونُهُمْ، فَتَحَدَّثُوا بِحَدِيثٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَى اللَّهَ يَسْمَعُ مَا قُلْنَا؟

قال الآخر: إنه يسمع إذا رفعنا ولا يسمع إذا أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع شيئاً منه فإنه يسمعه كله، فجنحت رسول الله ﷺ وأخبرته بذلك، فنزلت: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوْنَ﴾ الآية، فقرأ حتى بلغ ﴿وَإِنْ يَسْتَعْجِلُ فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْجِلِينَ﴾، وذكر النقاش أن الثلاثة: صفوان بن أمية، وفرقد بن ثُعامة، وأبو فاطمة، وذكر الثعلبي أن الثُقافي عَبْدُ يَالِيلٍ، وَالْقَرَشِيُّ خُتَنَاهُ: ربيعة وصفوان ابنا أمية بن خلف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن يكون هذا بعد فتح مكة، فالآية مدنية، ويشبه أن رسول الله ﷺ قرأ الآية متمثلاً بها عند إخبار عبدالله إياه، والله تعالى أعلم.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿ذَلِكُمْ﴾ رفع بالابتداء، والإشارة به إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ﴾، قال قتادة: الظن ظنان، ظن منج وظن مهلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالمنجي هو أن يظن الموحّد العارف بربه تعالى أن الله تعالى يرحمه، والمهلك ظنون الكفرة الجاهلين على اختلافها، وفي هذا المعنى ليحيى بن أكثم رؤيا حسنة مؤنسة، و﴿ظَنُّكَ﴾ خبر ابتداء.

وقوله تعالى: ﴿أَرَدْتُمْ أَنْ يَكُونَ خَبيراً بَعْدَ خَبَرٍ، وَجُورَ الْكَوْفِيِّونَ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، وَالْبَصْرِيُّونَ لَا يُجِيزُونَ وَقُوعَ الْمَاضِي حَالاً إِذَا اقْتَرَنَ بِقَدْ، تَقُولُ: رَأَيْتَ زَيْدًا قَدْ قَامَ، وَقَدْ يَجُوزُ

القَسَم، وهي آية وعيد لقريش، و«العذاب الشديد» هو عذاب الدنيا في بذر وغيرها، و«الجزاء بأسوأ أعمالهم» هو عذاب الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الجزاء المتقدم، و﴿جَزَاءٌ﴾ خبر الابتداء، و﴿أَنَّا﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿جَزَاءٌ﴾، ويجوز أن يكون ﴿ذَلِكَ﴾ خبر ابتداء تقديره: الأمر ذلك، ويكون قوله تعالى: ﴿جَزَاءٌ﴾ ابتداء و﴿أَنَّا﴾ خبره. وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: موضع البقاء وسكن العذاب الدائم، فالظرفية فيه متمكنة على هذا التأويل، ويحتمل أن يكون المعنى: هي لهم دار الخلد، ففي قوله: ﴿فِيهَا﴾ معنى التحديد، كما قال الشاعر:

وفي الله إن لم تُنصِفُوا حَكَمَ عَذْلٌ
وفي قراءة عبدالله بن مسعود:
﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَصْدَاءِ اللَّهِ السَّارِ دَارُ
الْخُلْدِ﴾، وسقط: ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾،
وجحودهم بآيات الله تعالى مطردة في
علاماته المنصوبة لخلقه، وفي آيات
كتابه المنزلة على نبيه ﷺ.

ثم ذكر الله عز وجل مقالة كفار يوم
القيامة إذ دخلوا النار، فإنهم يرون
عظيم ما حل بهم وسوء منقلبهم،
فتجول أفكارهم فيمن كان سبب
غوايتهم وبإدائ ضلالتهم، فيعظم
غيظهم وحنقهم عليه، ويودون أن
يحصل في أشد العذاب، فيحينئذ
يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَلْذِينَ أَضَلَّانَا﴾،
وظاهر اللفظ يقتضي أن «الذي» في

قولهم: ﴿أَلْذِينَ﴾ إنما هو
للجنس، أي: أرنا كلُّ مُعُو من الجن
والإنس، وهذا قول جماعة من
المفسرين، وقال علي بن أبي طالب
رضي الله عنه، وقتادة: طلبوا ولد
آدم الذي سنَّ القتل والمعصية من
البشر، وإبليس الأبالسة من الجن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وتأمل هذا، هل يصح عن علي بن
أبي طالب رضي الله عنه؟ لأن ولد
آدم مؤمن عاصي، وهؤلاء إنما طلبوا
المُضِلِّين بالكفر المؤدي إلى الخلود،
وإنما القوي أنهم طلبوا النوعين،
وقد أصلح بعضهم هذا القول بأن
قال: يطلب ولد آدم كلُّ عاصٍ دخل
النار من أهل الكبائر، ويطلب إبليس
كلُّ كافر، ولفظ الآية يزحم هذا
التأويل؛ لأنه يقتضي أن الكفار إنما
طلبوا اللذنين أضلأ.

وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي:
﴿أَرِنَا﴾ بكسر الراء، وهي رؤية عين،
ولذلك فعل هو متعدي إلى مفعولين،
وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر
عن عاصم: ﴿أَرِنَا﴾ بسكون الراء،
فقال هشام ابن عمار عن عامر: هي
خطأ، وقال أبو علي: هي مخففة من
﴿أَرِنَا﴾ كما قالوا: ضحك وفخذ،
وقرأ أبو عمرو بإشمام الراء الكسر،
ورويت عن أهل مكة. وقولهم:
﴿تَجْعَلُهُمَا نَحْتًا أَقْدَامًا﴾ يريدون: في
أسفل طبقة في النار، وهي أشد
عذاباً، وهي ذرّة المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلْذِينَ﴾ قالوا
رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقْنُوا الآية... آية
وعيد للمؤمنين، قال سفيان بن
عبدالله الثقيفي: (قلتُ للنبي عليه

الصلاة والسلام: أخبرني بأمر
أعتصم به، فقال: «قل ربِّي الله ثم
استقم»، قلت: ما أخوف ما تخاف
علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان
نفسه وقال: «هذا».

واختلف الناس في مقتضى قوله
تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقْنُوا﴾ - فذهب
الحسن، وقتادة، وجماعة إلى أن
معناه: استقاموا بالطاعات واجتناب
المعاصي. وتلا عمر بن الخطاب
رضي الله عنه هذه الآية وهو على
المنبر ثم قال: استقاموا - والله - الله
تعالى بطاعته، ولم يروغوا وروغان
الثعالب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ذهب رضي الله عنه إلى حمل الناس
على الأثم الأفضل، وإلا فيلزم -
على هذا التأويل - من دليل خطابه
ألا تنزل الملائكة عند الموت على
غير مستقيم على الطاعة. وذهب أبو
بكر الصديق رضي الله عنه وجماعة
معه إلى أن المعنى: ثم استقاموا
على قولهم: ﴿رَبَّنَا اللَّهُ﴾، فلم يَحْتَلْ
توحيدهم ولا اضطراب إيمانهم،
وروي أنس بن مالك أن
رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية وقال:
«قد قالها الناس ثم كفر أكثرهم،
فمن مات عليها فهو ممن استقام».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
المعنى: هو في أول درجات
الاستقامة، أمن الخلود، فهذا كقوله
عليه الصلاة والسلام: «من كان آخر
كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»،
وهذا هو المعتقد إن شاء الله تعالى،
وذلك أن العصاة من أمة محمد ﷺ
وغيرها فرقتان: فأما من قضى الله

تعالى بالمغفرة له وترك تعذيبه فلا محالة أنه ممن تنزل عليه الملائكة بالبشارة، وهو إنما استقام على توحيده فقط، وأما من قضى الله تعالى بتعذيبه مدة ثم بإدخاله الجنة فلا محالة أنه يلقي جميع ذلك عند موته ويعلمه، وليس يصح أن تكون حاله كحالة الكافر اليائس من رحمة الله تعالى، وإذا كان هذا فقد حصلت له البشارة بالألّا يخاف الخلود ولا يحزن منه، وبأنه يصير آخرًا إلى الخلود في الجنة، وهل العصاة المؤمنون إلا تحت الوعد بالجنة؟ فهم داخلون فيمن يقال لهم: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، ومع هذا كله فلا يختلف في أن الموحّد المستقيم على الطاعة أنتم حالاً وأكمل بشارة، وهو مقصد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وعلى نحو ذلك قال سفيان الثوري: ﴿أَسْتَقْمُوا﴾: عملوا بناحو ما قالوا، وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله تعالى، وقال الفضل: زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية، وبالجمله فكلمنا كان المرء أشد استعداداً كان أسرع فوزاً بفضل الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تَحْذَرُوا﴾ وَلَا تَحْزَنُوا، أمنة عامة في كل هم مستأنف، وتسليه تامة عن كل فائت ماض، وقد قال مجاهد: المعنى: لا تخافوا ما تقدّمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم من دنياكم، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ لَا تَخَافُوا﴾ بإسقاط الألف، بمعنى: يقولون لا تخافوا.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المتكلم بـ ﴿يَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ هم الملائكة القائلون: ﴿أَلَا تَحْذَرُوا﴾ وَلَا تَحْزَنُوا، أي: يقولون للمؤمنين عند الموت وعند مشاهدة الحق: نحن كنا أولياءكم في الدنيا ونحن هم في الآخرة، قال السدي: المعنى: نحن حفظتكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة. والضمير في قولهم: ﴿فِيهَا﴾ عائد على الآخرة، و﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تطلبون. و﴿زَلَا﴾ نصب على المصدر، وقراءة الجمهور بضم الزاي، وقرأ أبو حيوه بإسكانها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ الآية... ابتداء توصية لمحمد ﷺ، وهو لفظ يعم كل من دعا قديماً وحديثاً إلى الله تبارك وتعالى وإلى طاعته من الأنبياء عليهم السلام ومن المؤمنين، والمعنى: لا أحد أحسن ممن هذه حاله، وإلى العموم ذهب الحسن، ومقاتل، وجماعة، ويبيّن أن حالة محمد ﷺ كانت كذلك مبرزة، وإلى تخصيصه في الآية ذهب السدي، وابن زيد، وابن سيرين، وقال قيس بن أبي حازم، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وعكرمة: نزلت هذه الآية في المؤذنين، قال قيس: ﴿وَعَلَى صُلْبِكَا﴾ هو الصلاة بين الأذان والإقامة، وذكر النقاش ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى القول بأنها في المؤذنين أنهم داخلون فيها، وأما نزولها فمكيّة بلا خلاف، ولم يكن بمكة أذان، وإنما

ترتب بالمدينة، وإن الأذان لَمِن الدعاء إلى الله تعالى، ولكنه جزء منه، والدعاء إلى الله تعالى بقوة كجهاد الكفار وردع الطغاة وكف الظلمة وغيره أعظم عناء من تولي الأذان؛ إذ لا مشقة فيه، والأصوب أن يعتقد أن الآية نزلت عامة، قال زيد بن علي: المعنى: ممّن دعا إلى الله تعالى بالسيف. وقرأ الجمهور: ﴿إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ بنونين، وقرأ ابن أبي عبله: ﴿إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ بنون واحدة، وقال الفضيل بن رُفَيْدَة: كنت مؤذناً في أصحاب ابن مسعود، فقال لي عاصم بن هُبيرة: إذا أكملت الأذان فقل: إني من المسلمين، ثم تلا هذه الآية.

ثم وعظ الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام، ونبهه على أحسن مخاطبة، فقرّر أن الحسنة والسيئة لا تستوي، أي: فالحسنة أفضل، وكوّر [لا] في قوله تعالى: ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ تأكيداً ليدل على أن المراد: «ولا تستوي الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة» فحذف اختصاراً ودلت [لا] على هذا الحذف. وقوله تعالى: ﴿أَدْعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ آية جمعت مكارم الأخلاق وأنواع الحلم، والمعنى: ادفع أمورك وما يعرض لك مع الناس ومخالطتك لهم بالفعل أو بالسيرة التي هي أحسن الفعلات والسّير، فمن ذلك بذل السلام، وحسن الأدب، وكظم الغيظ، والسّماحة في القضاء والافتضاء، وغير ذلك. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا فعل

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

[إِذَا] شرط، وجواب الشرط قوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ﴾. و«السنزغ»: فعل الشيطان في قلب أو يد، من إلقاء غضب أو جفد أو بطش في اليد، فمن الغضب هذه الآية، ومن الحقد قوله تعالى: ﴿نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، ومن البطش قول النبي ﷺ: «لا ينشر أحدكم على أخيه بالسلاح لا ينزغ الشيطان في يده فيلقبه في حفرة من خفر النار»، وندب الله تعالى

المؤمن هذه الفضائل عصمه الله تعالى من الشيطان، وخضع له عدوه، وفسر مجاهد وعطاء هذه الآية بالسلام عند اللقاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا شك أن السلام هو مبدأ الدفع بالتي هي أحسن، وهو جزء منه. ثم قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُ وَلِيُّ حَبِيبٍ﴾، فدخل كاف التشبيه لأن الذي عنده عداوة لا يعود ولياً حميماً، وإنما يحسن ظاهره فيشبه بذلك الولي الحميم، و«الحميم» هو القريب الذي يحتمل للإنسان، والضمير في قوله تعالى: ﴿يُلْقِيهَا﴾ عائد على هذه الخلق التي يتضمنها قوله تعالى: ﴿وَأَدْعَ بِلَائِي مِنْ أَحْسَنَ﴾، وقالت فرقة: المراد: وما يُلْقَى لا إله إلا الله، وهذا تفسير لا يقتضيه اللفظ. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ مدح ببلغ للصبر، وذلك بين للمتأمل؛ لأن الصبر على الطاعات وعن الشهوات جامع لخصال الخير كلها. و«الحظ العظيم» يحتمل أن يريد: من العقل والفضل، فتكون الآية مدحاً، وروي أن رجلاً شتم أبا بكر الصديق رضي الله عنه بحضرة النبي ﷺ، فسكت أبو بكر ساعة، ثم جاش به الغضب فرد على الرجل، فقام النبي ﷺ، فاتبعه أبو بكر وقال: يا رسول الله قمت حين انتصرت؟ فقال: «إنه كان يرؤ عنك ملك، فلما قُرِبت تنصرت ذهب الملك وجاء الشيطان، فما كنت لأجالسه»، ويحتمل أن يريد: ذو حظ من الجنة وثواب الآخرة، فتكون الآية وعداً، وبالجنة فسر قتادة «الحظ» هنا.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَرَ الْأَرْضَ خَشِيعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُتَّى الْوَقْتُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ إِنْ الَّذِي يَلْجُدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنُؤَلِّقُ فِي الْآخِرَةِ أَمْ مَنْ يَأْتِي أَمَّا يَوْمَ الْقِسْمَةِ أَعْمَلُوا مِمَّا شِئْتُمْ إِنَّهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾ إِنْ الَّذِي كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكُنْتُ عَزِيزٌ ﴿٣٨﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٣٩﴾ مَا قَالُوكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَكَوَيْدُنَا أَنْ نَحْيِيَ آلَ آدَمَ إِذْ هُمْ أَتَوْا آلَهُمْ فَوَقَّعْنَا بَيْنَهُمْ وَبَنَّا بَيْنَهُمْ مَكَانًا بَعِيدًا ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتُوهُ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٢﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمَلِ ﴿٤٣﴾

٤٨١

في ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ قالت فرقة: هو عائد على الآيات المتقدم ذكرها، وقالت فرقة: الضمير عائد على الشمس والقمر، والاثنا عشر جمع، وجمع ما لا يعقل يؤنث، فلذلك قال: ﴿خَلَقْنَاهُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن حيث يقال: شمس وأقمار لا اختلافهما بالأيام ساع أن يعود الضمير مجموعاً، وقالت فرقة: هو عائد على الأربعة المذكورة، وشأن الضمير ما لا يعقل إذا كان العدد أقل من العشرة أن يجيء هكذا، فإذا زاد أُرِدَ مؤنثاً، فنقول: الأجذاع انكسرت والجذوع انكسرت، ومنه ﴿إِنَّ عَذَّةَ النَّفُورِ﴾ الآية، ومنه قول حسان بن ثابت:

.....
وَأَسْيَافُنَا يَفْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

في هذه الآية المتقدمة إلى مكارم الأخلاق بالدفع بالتي هي أحسن، ثم أنشأ تعالى على من لقيها وعذته، وعلم أن خلقه البشر تغلب أحياناً وتشور بهم ثورة الغضب ونزغ الشيطان، فذلهم على مذهب ذلك وهي الاستعاذة به عز وجل.

ثم عدد الله تعالى آياته ليعتبر فيها من صدف عن التوحيد، فذكر الليل والنهار، وذكرهما يتضمن ما فيهما من الطول والقصر والتداخل والاستواء في مواضع وسائر عبرهما، وكذلك ذكر الشمس والقمر متضمن عجائبهما وحكمة الله تعالى فيهما ونفعه عباده بهما، ثم قال تعالى: لا تسجدوا لهذه المخلوقات وإن كانت تنفعكم؛ لأن النفع بها إنما هو بتسخير الله تعالى إياها فهو الذي ينبغي أن يسجد له، والضمير

وقال السموأل:

وَلَا عَيْبَ فِينَا غَيْرَ أَنْ سَبَّوْنَا
بِهَا مِنْ قِرَاجِ الدَّارِعِينَ قُلُوبُ
وهذا مَهْجٌ كثير وإن كان قد يوجد
الأمر متداخلاً بعبه على بعض.

ثم خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بما
يتضمن وعيدهم وحقارة أمرهم،
وأن الله تعالى غير محتاج إلى
عبادتهم بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ
أَسْكَنْتُمُ الَّذِينَ فِي الْوُحُوشِ
مَنْ دُونِ النَّاسِ فَالَّذِينَ فِي
الْمَلَأْنِئَةِ عَنْكُمْ وَهُمْ صَافُونَ
يَسْبَحُونَ﴾ وفي هذه الآية ليست بظرف
مكان، وإنما هي بمعنى المنزلة
والقربة، كما تقول: زيد عند الملك
جليل، وفي نفسه رفيع، ويروى أن
تسبيح الملائكة قد صار لهم كالتفليس
لابن آدم، و﴿يَسْتَمُونَ﴾ معناه:
يملئون.

ثم ذكر تعالى آية منصوية ليُغْتَبَرُ بها
في أمر البعث من القبور، ويستدل
بما شوهد من هذه الآية على ما لم
يشاهد بعد من تلك، وهي آية يراها
عياناً كل مَفْطُور على عقل.
و«خسوع الأرض» هو ما يظهر عليها
من استكانة وشعث بالجذب وضيئ
السُّمُوم، فهي عابسة كما الخاشع
عابس يكاد يبكي، و«الماء المُنْزَل»
هو المطر، و«اهتزاز الأرض» هو
تخلخل أجزائها بالماء وتشققها
للنبات، و«زُبُوحًا» هو انتفاخها بالماء
وعلو سطحها به، وقرأ الجمهور:
﴿وَرَبَّاتٍ﴾ وقرأ أبو جعفر بن القعقاع:
﴿وَرَبَّاتٍ﴾ بالالف مهموزة، ورواها
الرواسي عن أبي عمرو، وهو أيضاً
بمعنى: عَلَتْ وارتفعت، ومنه الربيئة

وهو الذي يرتفع حين يرصد للقوم،
ثم ذكر تعالى بالأمر الذي ينبغي أن
يقاس على هذه الآية والعبرة، وذلك
إحياء الموتى، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، و«الشيء»
في اللغة: الموجود.

﴿٤٠﴾ - ﴿٤٣﴾ تفسير قوله عز وجل:
هذه آية وعيد، و«الإلحاد»: الميل،
وهو هنا عن الحق، ومن
«الإلحاد» لحد الميت لأنه في
جانب، يقال: لَحَدَ الرجلُ وَلَحَدَ
بمعنى، وقرأ الجمهور: ﴿يَلْحَدُونَ﴾
بضم الياء من أَلَحَدَ، وقرأ ابن
وُثَّاب، وطلحة، والأعمش:
﴿يَلْحَدُونَ﴾ بفتح الياء والحاء من
لَحَدَ.

واختلف المفسرون في الإلحاد
الذي أشير إليه، ما هو؟ فقال قتادة
وغيره: الإلحاد بالتكذيب، وقال
مجاهد وغيره: الإلحاد بالمكائد
والصفير واللغو الذي ذهبوا إليه،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
إلحادهم هو أن يوضع الكلام غير
موضعه، ولفظة الإلحاد تعم هذا
كله.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾
أي: فنحن بالمرصاد لهم
وسنعذبهم، ثم قرأهم تعالى على
هذين القسمين أيهما خير؟ وهذا
التقرير هم المراد به، أي: فقل لهم
يا محمد: ﴿أَقْمِنَ﴾، قال مقاتل:
نزلت هذه الآية في أبي جهل، وفي
عثمان بن عفان رضي الله عنه،
وقيل: في عمار بن ياسر
رضي الله عنه، وحسن التفضيل هنا
بين الإلقاء في النار والأمن يوم

القيامة - وإن كانا لا يشتركان في
صفة الخير - من حيث كان الكلام
تقريراً لا مجرد خبر، لأن المُقَرَّرُ قد
يُقَرَّرُ خصمه على قسمين أحدهما بين
الفساد حتى يرى جوابه، فعساه يقع
في الفاسد المعنى فيبين جهله، وقد
تقدم نظير هذه الآية واستيعاب القول
في هذا المعنى، ولا يتجه هنا أن
يقال: خاطب على معتقدهم كما
يتجه ذلك في قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ
مُسْتَقَرٌّ﴾ فتأمل. وقوله تعالى:
﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وعيد في صيغة
الأمر بإجماع من أهل العلم، ودليل
الوعيد ومُبيِّنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِالَّذِ كَرَّمَا جَاءَهُمْ﴾ يريد تعالى
قريشاً، و«الذُّكْرُ»: القرآن بإجماع،
واختلف الناس في الخبر عنهم، أين
هو؟ فقالت فرقة: هو في قوله
تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَتَدَوَّنُونَ مِنْ مَّكَانٍ
بَعِيدٍ﴾، ذكر النقاش أن بلال بن أبي
بُرْدَةَ سأل عن هذا في مجلسه وقال:
لم أجد لها نفاذاً، فقال أبو عمرو بن
العلاء: إنه منك لقريب، ﴿أُولَئِكَ
يَتَدَوَّنُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وَيُرْذُ هذا النظر كثرة الحائل، وأن
هناك قوماً قد ذكروا يَخْسُرُ رُذُوقُهُ
تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَتَدَوَّنُونَ﴾ عليهم.
وقالت فرقة: الخبر مضمّر تقديره:
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ
هلكوا أو ضلُّوا، وقال بعض نحاة
الكوفة: الجواب في قوله تعالى:
﴿وَأَنْتُمْ لَكِنَّا غَيْرٌ﴾، حكى ذلك
الطبري، وهو ضعيف لا يتجه،

وسأل عيسى بن عمر عمرو بن عبيد عن هذا فقال عمرو: معناه في التفسير: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم كفروا به وإنه لكتاب عزيز، فقال عيسى بن عمر: أجذت يا أبا عثمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يَحْسُنُ في هذا هو إضمار الخبر، ولكنه عند قوم في غير هذا الموضع الذي قُدِّرَ هولاء فيه، وإنما هو بعد ﴿حَكِيمٌ جَبِيدٌ﴾، وهو أَشَدُّ إِظْهَاراً لِمَذْمَةِ الكفار به؛ وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاِبَةٌ﴾ داخل في صفة الذكر المكذَّب به فلم يتم ذِكرُ المخبر عنه إلا بعد استيفاء وصفه، وهذا كما تقول: أتخالف زيداً وهو العالم الودود الذي من شأنه ومن أمره، فهذه كلها أوصاف. ووصف تعالى الكتاب بالعزَّة لأنه بِصِحَّةِ معانيه ممتنع الطعن فيه والإزراء عليه، وهو محفوظ من الله تعالى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: كريم على الله تعالى، وقال مقاتل: منيع من الشيطان، وقال السدي: غير مخلوق.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، قال قتادة، والسدي: يريد الشيطان، وظاهر اللفظ يعم الشيطان وأن يجيء أمرٌ يُبْطِلُ منه شيئاً، وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ معناه: ليس فيما تقدمه من الكتب ما يُبْطِلُ شيئاً منه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: ليس يأتي بعده من نظر ناظرٍ وفكرة عاقلٍ ما يُبْطِلُ شيئاً منه، والمراد باللفظة على الجملة:

لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات. وقوله تعالى: ﴿نَزِيلٌ﴾ خبر ابتداء، أي: هو تنزيل. وقوله تعالى: ﴿مَّا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ فِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون تسلياً للنبي ﷺ عن مقالات قومه، أي: ما تلقى يا محمد من المكروه منهم ولا يقولون لك من الأقوال المؤلمة إلا ما قد قيل ولقي به من تقدمك من الرسل، فلتتأمل بهم، ولتُنْفِضْ لأمر الله تعالى ولا يهملك شأنهم، والمعنى الثاني أن تكون الآية تلخيصاً لمعاني الشرع، أي: ما يقال لك من الوحي وتُخاطَبُ به من جهة الله تعالى إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، ثم فسَّرَ الله تعالى ذلك الذي قيل لجميعهم وهو: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقَرٍّ﴾ للطائعين، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ للكافرين، وفي هذه الكلمات جماع الرُّجْر والنهي والموعظة، وإليها يرجع كل نظر.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: الأَعْجَمِيُّ هو الذي لا يفصح عربياً كان أو غير عربي، والعجمي: الذي ليس من العرب فصيحاً كان أو غير فصيح، وهذه الآية نزلت بسبب تخليط كان من قريش في أقوالهم من أجل الحروف التي وقعت في القرآن وهي ممَّا عُرِبَ من كلام العجم كالسَّجِين والإسْتَبْرَق ونحوه، فقال عز وجل: ولو جعلنا هذا القرآن أعجمياً لا يبين لقالوا واعترضوا: لولا بُيِّنَتْ آياته، واختلف القراء في قوله: ﴿مَّا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ فِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾، فقراءة الجمهور على الاستفهام وهمزة

مدودة قبل الألف، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والأعمش: ﴿مَّا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ فِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ بهمزتين، وكأنهم كانوا ينكرون ذلك فيقولون: لولا بُيِّنَ، أعجمي وعربي مختلط؟ هذا لا يَحْسُنُ، وتأول ابن جبير أن معنى قولهم: أُنَجِّثُنَا عُجْمَةً ونحن ومحمد عرب؟ ما لنا وللعُجْمَةِ، وقرأ الحسن البصري، وأبو الأسود، والجحدري، وسلام، والضحاك، وابن عباس، وابن عامر - بخلاف عنهما -: ﴿أَعْجَمِيَّ﴾ دون استفهام ويسكون العين، كأنهم قالوا: أعجمية وإعراب؟ إن هذا لشاذ، أو كأنهم قالوا: لولا فَصْل فصلين فكان بعضه أعجمياً يفهمه العجم وبعضه عربياً يفهمه العرب؟ وهذا تأويل لابن جبير أيضاً، وقرأ عمرو بن ميمون: ﴿أَعْجَمِيَّ﴾ بهمزة واحدة مقصورة ويفتح العين، فأخبر الله تبارك وتعالى عنهم أنه لو كان على أي وجه تُخَيَّلُ لكان لهم قولٌ واعتراضٌ فاسد، هذا مقصد الكلام.

وأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم: إن القرآن هُدًى وشفاء للمؤمنين المبصرين للحقائق، وإنه على الذين لا يؤمنون ولا يُصِرُّون نظرهم في المصنوعات عَمَى، لأنهم في أذانهم وقر، وعلى قلوبهم أقفال، وعلى أعينهم غشاوة. واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٍ عَمَتْ﴾ - فقالت فرقة: يريد بـ ﴿وَمَوْعِظَةٍ﴾ القرآن، وقالت فرقة: ﴿وَمَوْعِظَةٍ﴾ يريد به الوقر، والوقر: الثقل في الأذن المانع من السمع، وهذه كلها استعارات، أي: هم لما

واختلف عن عاصم، وهي قراءة أبي جعفر، وشيبة، والأعرج، والحسن - بخلاف - وفي مصحف عبدالله: ﴿فِي ثَمَرَةٍ﴾. و﴿الْأَكْمَامِ﴾ جمع كُم، وهو غلاف الثمر قبل ظهوره.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ تقديره: واذكر يوم يناديهم، والضمير في ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ ظاهره والأسبق فيه أنه يريد به الكفار عبدة الأوثان، ويحتمل أن يريد به كل من عبد من دون الله تبارك وتعالى من إنسان وغيره، وفي هذا ضعف. وأما الضمير في قوله تعالى: ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ فلا احتمال لعودته إلا على الكفار. و﴿أَذْنَكَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناه: أغلظناك ما مثا من يشهد ولا شهد بأن ذلك شريكاً. و﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: نسوا ما كانوا يقولون في الدنيا ويدعون من الآلهة والأصنام، ويحتمل أن يريد: وصل عنهم الأصنام، أي: تليفت عنهم فلم يجدوا منها نصراً وتلاشى لهم أمرها. وقوله تعالى: ﴿وَطَلَّوْا﴾ يحتمل أن يكون متصلاً بما قبله ويكون الوقف عليه، ويكون قوله سبحانه: ﴿هَآلَمْ يَنْجِيصِ﴾ استثناء، نفى أن يكون لهم منجى وموضع روغان، تقول: حاص الرجل إذا راغ يطلب النجاة من شيء، ومنه في الحديث: «فاحصوا خيضة حمر الوحش إلى الأبواب»، ويكون الظن - على هذا التأويل - على بابه، أي: ظنوا أن هذه المقالة ﴿هَآلَمْ يَنْجِيصِ﴾ منجاة لهم أو أمر يؤمّنون به. ويحتمل أن يكون

الموقف فتعظم السبعة عليهم ويجل المصاب، وهذا تأويل الضحاك بن مزاحم.

ثم ضرب الله تعالى أمر موسى للنبي عليهما الصلاة والسلام ولقرش، أي: فغل أولئك كأفعال هؤلاء حين جاءهم مثل ما جاء هؤلاء، والكلمة السابقة هي حتم الله تأخير عذابهم إلى يوم القيامة، والضمير في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ سَكِّ يَنْتَه﴾ يحتمل أن يعود على موسى عليه السلام أو على كتابه.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَيْلَ صَلِّمَا يَنْتَه﴾ الآية... نصيحة بيئة للعالم وتحذير وترجية وصدع بأن الله تعالى لا يرضع شيئاً من عقوبات عباده في غير موضعها، بل هو العادل المتفضل الذي يجازي كل عبد بتكسبه.

٤٧ - ٤٨ تفسير قوله عز وجل: المعنى أن علم وقت الساعة ومجيئها يرده كل مؤمن متكلم فيه إلى الله عز وجل، وذكر تعالى الثمار وخروجها من الأكمام وحمل الإناث مثلاً لجميع الأشياء؛ إذ كل شيء خفي فهو في حكم هذين، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، والحسن، وطلحة، والأعمش: ﴿مَنْ ثَمَرَةٍ﴾ بالإنفراد على أنه اسم جنس، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ بالجمع،

إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمَ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْذَكَ مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ ۚ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَلُّوا مَا لَهُمْ مِنَ النِّجْمِ ۚ لَا يُسْمِعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَا الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَسْتَوْسِقُ ۚ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ رُدَّتْهُ مَسَّتهُ لِيَقُولَ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَ رَبِّي لَكَلْبَتَيْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْمُلُوا ۖ وَلَيَذَنَّهُمْ فِي عَذَابٍ عَلِيمٍ ۚ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَغْرَضَ وَتَجَبَّنَّ بِهِ ۚ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَا عَرِيضٍ ۚ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَعْمٌ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَمْسَلْ وَمَنْ هُوَ شِقَاقِي بَعِيدٍ ۚ سَأَرْبِيهِمْ ۚ أَلَيْسَ لِي الْأَفْئِدُ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۚ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخْبِطٌ ۚ

٤٨٢

لم يفهموا ولا حصلوا كالأعمى وصاحب الوقر. وقرأ ابن عباس، ومعاوية، وعمرو بن العاص: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٌ﴾ بكسر الميم مثونة، وقال يعقوب: لا أدري أتوتوا أم فتحوا الياء على الفعل الماضي، وبغير ياء رواها عمرو بن دينار، وسليمان بن قتة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذه القراءة أيضاً فيها استعارة، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ لِي الْأَفْئِدُ﴾ يحتمل معنيين، وكلاهما مقول للمفسرين: أحدهما أنها استعارة لقلة فهمهم، شبههم بالرجل ينادى على بُعد يسمع منه الصوت ولا تفهم تفاصيله ولا معانيه، هذا تأويل مجاهد، والآخر أن الكلام على الحقيقة، وأن المعنى: إنهم يوم القيامة يُنادون بكفرهم وبيع أفعالهم من بُعد حتى يسمع ذلك أهل

الوقف في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَقَلٍ﴾، ويكون ﴿وَطَوَّاءَ﴾ متصلاً بقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ حَيٍّ﴾، أي: طئوا ذلك، ويكون الظن - على هذا التأويل - بمعنى اليقين، وبه فسر السدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عبارة يطلقها أهل اللسان على الظن، ولست تجد ذلك إلا فيما علم علماً قوياً وتقرر في النفس ولم يتألبس به بعد، وإلا فمتى تألبس بالشئ وحصل تحت إدراك الحواس فليست تجدهم يوقعون عليه لفظ الظن.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ﴾ آيات نزلت في كفار، قيل: في الوليد بن المغيرة، وقيل: في عتبة بن ربيعة، وجُلَّ الآية يعطي أنها نزلت في كفار وإن كان أولها يتضمن خلقاً ربما شارك فيها بعض المؤمنين، و﴿دُعَاءَ الْخَيْرِ﴾ إضافة المصدر إلى المفعول، والفاعل محذوف تقديره: من دعاء الخير هو، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿مِنْ دُعَاءٍ بِالْخَيْرِ﴾ والخير في هذه الآية: المسأل والصحة، وبذلك تليق الآية بالكافرين، وإن قدرناه خير الآخرة فهو للمؤمنين، وأما اليأس والفئط على الإطلاق فمن صفة الكافر وحده.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ هَذَا لِي﴾ أي: بهعلي وبما سعي، ولا يرى أن النعم إنما هي بفضل من الله تعالى، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ قول بين فيه الجحد والكفر، ثم يقول هذا

الكافر: ولئن كان ثم رجوع كما يقولون ليكون لي حال تُرضيني من غنى ومال وينين، فتوعدهم الله تعالى بأنه سيُعرفهم بأعمالهم الخبيثة مع إذاقتهم العذاب عليها، فهو عذاب وخزي، وغلظة العذاب: شدته وصعوبته، وقال الحسن بن محمد بن أبي طالب رضي الله عنهم: للكافر أمتيتان: أما في الدنيا فهذه: ﴿إِنَّا لِي عِنْدُكَ لِلْحُسْنَى﴾، وأما في الآخرة ف﴿يَكُنِّي كُتُّ رَبِّكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأمانى على الله تعالى وترك الجد في الطاعة مذموم لكل أحد، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «الكَيْسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى».

٥١ - ٥٢ تفسير قوله عز وجل: ذكر الله تعالى الخلق الذميمة من الإنسان جملة، وهي في الكفار بينة متمكنة، وأما المؤمن في الأغلب فيشكر عند النعمة، وكثيراً ما يصبر عند الشدة. وقرأ جمهور القراءة والناس: ﴿وَنَقَا﴾، الهمزة عين الفعل، وقرأ ابن عامر: ﴿وَنَاءَ﴾، الهمزة لام الفعل، وهي قراءة أبي جعفر، والمعنى فيهما واحد، قال أبو علي: ناء قلب نأى، (رَجَعَ فَعَلَ فَلَعَ)، ومنه قول الشاعر:

وَكُلُّ خَلِيلٍ رَأَيْتَنِي فَهُوَ قَائِلٌ
مَنْ أَجْلِكَ هَذَا هَامَةُ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ
ومنه قول الآخر:

وَقَدْ شَأْنِي أَهْلُ السَّبَاقِ وَأَمَعْتُوَا

و «ناء» معناه: بعد ولم يميل إلى شكر ولا طاعة.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرُ دُعَاءَ عَرِيضٍ﴾، أي: طويل أيضاً، فاستغنى بالصفة الواحدة عن لزيمتها إذ العَرَضُ يقتضي الطول ويتضمنه، ولم يقل: «طويل» لأن الطويل قد لا يكون عريضاً، فعريض أدل على الكثرة.

ثم أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقف قريباً على هذا الاحتجاج وموضع تقريرهم بأنفسهم فقال تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ هَذَا الشَّرْعُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَبِأَمْرِهِ خَالَفْتُمُوهُ أَنْتُمْ، أَلَسْتُمْ عَلَى هَلَكَةٍ مِنْ اللَّهِ تعالى؟ فمن أفضل ممن يبقى على مثل هذا الغرر مع الله تعالى؟ وهذا هو الشقاق.

ثم وعد الله تعالى نبيه ﷺ بأن سَيُري الكفار آياته، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ - فقال أبو المنهال، والسدي، وجماعة: هو وعد بما يفتحه الله تعالى على رسوله ﷺ من الأقطار حول مكة وفي غير ذلك من الأرض كخبير ونحوها، و﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أراد به فتح مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل حسن ينتظم الإعلام بغيب ظهر وجوده كذلك بعد، ويجري مع لفظ الاستئناف الذي في الفعل، وقال الضحاك، وقتادة: ﴿سَرِيهَتْ عَيْنَانِي فِي الْأَفَاقِ﴾ هو ما

تفسير سورة الشورى

هذه السورة مكية بإجماع من أكثر المفسرين، وقال مقاتل: فيها مدني [قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الَّذِي يَنْشُرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾] إلى قوله: ﴿يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الشعبي: إِنَّ ﴿حَدَّ﴾ ﴿عَقَّ﴾ هذه الحروف بأعينها نزلت في كل كتب الله تعالى المنزلة على كل نبي ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ فَاتِكَ﴾.

❶ - ❷ تفسير قوله عز وجل:

فَصَلَّتْ ﴿حَدَّ﴾ ﴿عَقَّ﴾ ولم يفعل ذلك بـ ﴿كَهَمَصَ﴾ لتجري هذه مجرى الحواميم أخواتها، وقرأ الجمهور: ﴿حَدَّ﴾ ﴿عَقَّ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَمَّ سَقَّ﴾ بسقوط (عين)، والأقوال في هذا كالأقوال في أوائل السور، وروى حذيفة حديثاً في هذا مضمناً أن ستكون في هذه الأمة مدينتان يشقهما نهر بالمشرق، تهلك إحداهما ليلاً ثم تصبح الأخرى سالمة، فيجتمع فيها جبابرة المدينتين متعجبين من سلامتها، فتَهْلِكُ في الليلة القابلة، وأن ﴿حَدَّ﴾ ﴿عَقَّ﴾ معناه: حُمَّ هذا الأمر، و (عين) معناه: عدلاً

والسلام: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾، التقدير: أو لم يكف ربك؟ والباء زائدة للتأكيد، و [أَنْ] يحتمل أنه في موضع رفع على البدل من الموضع؛ إذ التقدير: أو لم يكف ربك؟ ويحتمل أن يكون في موضع خفض على البدل من اللفظ، وهذا كله بدل الاشتمال، ويصح أن تكون في موضع نصب على إسقاط حرف الجر، أي: لأنه. وقرأ الجمهور: ﴿أَنَّهُ﴾ بفتح الألف، وقرأ بعض

الناس: ﴿إِنَّهُ﴾ بكسرها على الاعتراض أثناء القول.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا﴾ استفتاح يقتضي إقبال السامع على ما يقال له، فاستفتح الإخبار عن أنهم في شك وريب وضلال أذاهم إلى الشك في البعث. وقرأ جمهور الناس: ﴿فِي رَيْبٍ﴾ بكسر الميم، وقرأ أبو عبد الرحمن، والحسن: ﴿فِي مُرْيَةٍ﴾ بضم الميم، والمعنى واحد، ثم استفتح تعالى الإخبار بإحاطته لكل شيء على معنى الوعيد لهم، وإحاطته هي بالقدرة والسلطان، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

كامل تفسير سورة (حم فصلت) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الشُّرَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ عَقَّ ۝ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ فَاتِكَ ۝
 اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَّرُونَ مِنْ قُوَّتِهِ ۝
 وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي
 الْأَرْضِ ۝ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا
 مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝
 ۝ وَكَذَلِكَ أُوحِيَ إِلَيْكَ فَاعْرِضْ لِلنَّازِمِ الْفَرَقَى وَمَنْ
 حَوَّاهَا وَنُذِرِيَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْخَنَةِ وَفَرِيقٌ فِي
 السَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُلْخِلُ
 مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نصِيرٍ ۝
 أَوَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِينَ وَهُوَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ ۝
 إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝

٤٨٣

أصاب الأمم المكذبة في أقطار الأرض قديماً، ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يوم بدر، وقال ابن زيد، وعطاء: «الآفاق» هي آفاق السماء، وأراد به الآيات في الشمس والقمر والرياح وغير ذلك، «وفي أنفسهم» عبرة الإنسان بجسمه وحواشيه وغريب خلقته وتدرجه في البطن ونحو ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه آيات قد كانت مرتبة فليس المعنى يجري مع قوله تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ﴾، والتأويل الأول أرجحها، والله أعلم.

والضمير في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ عائد على الشرع والقرآن، فإظهار الله تعالى إياه وفتح البلاد عليه يَتَّبِعُ لهم أنه الحق، ثم قال تعالى وغداً لنبيته عليه الصلاة

من الله، و(سين) سيكون ذلك، و (قاف) معناه: يقع ذلك بهم. وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يستفيد علم الفتن والحروب من هذه الحروف التي في أوائل السور.

والكاف من قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ نعتٌ لمصدر محذوف، والإشارة به ﴿كَذَلِكَ﴾ تختلف بحسب الأقوال في الحروف، وقرأ جمهور القراء: ﴿يُوحَى﴾ بالياء على إسناد الفعل إلى الله تعالى، وهي قراءة الحسن، والأعرج، وأبي جعفر، والجحدري، وعيسى، وطلحة، والأعمش، وقرأ أبو حيوة، والأعشى عن أبي بكر عن عاصم: ﴿تُوحَى﴾ بنون العظمة، ويكون قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ﴾ ابتداءً وخبره ﴿الْقُرْآنُ﴾، ويحتمل أن يكون خبره: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿يُوحَى﴾ بالياء وفتح الحاء على بناء الفعل للمفعول، وهي قراءة مجاهد، والتقدير: يُوحَى إليك القرآن، يوحى الله تعالى، وهذا كما قال الشاعر:

لِيُبْنِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ

ومنه قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْأُدْحَى وَالْأَصْبَالِ يَسَّالُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ لِقَاكَ﴾ يريد: من الأنبياء الذين نزلت عليهم الكتب.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: المُلْكُ والخلق والاختراع، و﴿الْعَلَمِ﴾ من علو القدر والسلطان، و﴿الْعَظِيمِ﴾ كذلك، وليس بعلو مسافة ولا عظم جزم، تعالى الله عن ذلك. وقرأ نافع، والكسائي: ﴿يَكَادُ﴾

بالياء، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿يَكَادُ﴾ بالثاء، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، ونافع، وابن عباس، وأبو جعفر، وشيبة، وقتادة: ﴿يَنْفَطِرُنَ﴾ من «النفط»، وهو مطاوع «فطر»، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، والحسن، والأعرج، وأبو رجاء، والجحدري: ﴿يَنْفَطِرُونَ﴾ من «الانفطار»، وهو مطاوع «فطر»، والمعنى فيهما: يَتَصَدَّعْنَ وَيَتَشَقَّقْنَ من سرعة جريهن خضوعاً وخشية من سلطان الله تعالى، وتعظيماً له وطاعة، وما وقع للمفسرين هنا من ذكر الثقل ونحوه مردود، وذلك لأن الله تعالى لا يوصف به، وقوله تعالى: ﴿يَنْتَظِرُونَ﴾ أي: من أعلاهن، وقال الأخفش علي بن سليمان: الضمير للكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى: من فوق الفِرَقَ والجماعات الملحدة التي من أجل أقوالها تكاد السموات ينفطرن، فهذه الآية - على هذا - كالأية التي في ﴿كَهَبَعَسَ﴾، وقالت فرقة: معناه: من فوق الأرضين إذ قد جرى ذكر الأرض، وذكر الزجاج أنه قرئ: ﴿يَنْفَطِرُونَ يَمُنُّ فَوْقَهُنَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: معناه: يقولون سبحان الله، وقيل: معناه: يُصَلُّونَ لربهم، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾، قالت فرقة: هذا منسوخ بقوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف؛ لأنَّ التَّشْخِصَ لا يتصور في الأخبار.

وقال السدي ما معناه: إن ظاهر هذه الآية العموم، ومعناها الخصوص في المؤمنين، فكأنه تعالى قال: ويستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين، إذ الكفار عليهم لعنة الله تعالى والملائكة والناس أجمعين، وقالت فرقة: بل هي على عمومها، لكن استغفار الملائكة ليس بطلب غفران الله تعالى للكفرة على أن يبقوا كفرة، وإنما استغفارهم لهم بمعنى طلب الهداية التي تؤدي الغفران لهم، وكأن الملائكة تقول: اللّهُمَّ اهد أهل الأرض واغفر لهم، ويؤيد هذا التأويل تأكيده صفة الغفران والرحمة لنفسه بالاستفتاح، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، أي: لما كان الاستغفار لجميع من في الأرض يبعد أن يجاب رَجُيْ عَزَّ وَجَلَّ بأن استفتح الكلام تهيئةً لنفس السامع، فقال تعالى: أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُطَلِّبُ هَذَا مِنْهُ إِذْ هَذَا أَوْصافه، وهو سبحانه أهل المغفرة.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تسلية للنبي ﷺ، ووعد للكفار، وإزالة عن النبي عليه الصلاة والسلام جميع الكلف سوى التبليغ فقط، لئلا يهتم بعدم إيمان قريش وغيرهم، فقال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هُوَ الْحَفِيزُ عَلَيْهِمْ كَفَرَهُم، الْمُخْصِي لأعمالهم، الْمُجَازِي لَهُمْ عَلَيْهَا بِعَذَابِ الْآخِرَةِ، وَأَنْتَ فَلَسْتَ عَلَيْهِمْ

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قل يا محمد: وما اختلفتم فيه أيها الناس من تكذيب وتصديق وإيمان وكفر وغير ذلك، فالحكم فيه المجازاة عليه ليست إلي ولا بيدي، وإنما ذلك إلى الله تعالى الذي صفاته ما ذكر من إحياء الموتى والقدرة على كل شيء، ثم قال: ذلكم الله ربّي، عليه توكلّي، وإليه إنابتي ورجوعي، وهو فاطر السموات والأرض، أي: مخترعهما وخالقهما، شئ بعضهما من بعض.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يريد تعالى زوج الإنسان الأنثى، وبهذه النعمة اتفق الذؤء، وليست الأزواج ها هنا الأنواع، وأما الأزواج المذكورة مع الأنعام فالظاهر أيضاً والمُتَشَبِّه أَنه يريد إناث الذكران، ويحتمل أن يريد الأنواع، والأول أظهر. وقوله تعالى: ﴿يَذَرُوكُم فِيهِ﴾ أي: يخلقكم نسلًا بعد نسل، وقرناً بعد قرن، قاله مجاهد والناس، فلطفلة «ذراً» تزيد على لفظة «خَلَقَ» وهو توالي الطبقات على مر الزمان، وقوله: ﴿فِيهِ﴾ الضمير على «الْجَعَلَ» الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾، وهذا كما تقول: كَلَّمْتُ زَيْدًا كلاماً أكرمه فيه، وقال العتبي: الضمير للتزويج، ولفظة «في» مشتركة على معان وإن كان أصلها الوعاء، وإليه يردها النظر في كل وجه.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، الكاف مؤكدة للتشبيه، فَنَفِي التشبيه أؤكد ما يكون، وذلك

للعرض، وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في نفسه وذاته، وارتباب الكفار به لا يقيّد.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ﴾ مرتفع على خبر الابتداء المضمر، كأنه تعالى قال: هم فريق في الجنة وفريق في السعير.

ثم قوى تبارك وتعالى تسلياً نبيه ﷺ بأن عرفه بأن الأمر موقوف على مشيئة الله تعالى من إيمانهم أو كفرهم، وأنه تعالى لو أراد كونهم أمة واحدة على دين واحد لجمعهم عليه، ولكن

يدخل من سبقت له السعادة عنده في رحمته، ويُبَشِّرُهُ في الدنيا لعمل أهل السعادة، وإن الظالمين بالكفر المُبْسِرِينَ لعمل أهل الشقوة ما لهم من ولي ولا نصير.

وقوله تعالى: ﴿أَوِ اتَّخَذُوا﴾ كلام منقطع مما قبله، وليست بمعادلة، ولكن الكلام كأنه أضرب عن حجة لهم أو مقالة مقررة فقال: بل اتخذوا، هذا مشهور قول النحويين في مثل هذا، وذهب بعضهم إلى أن «أَمْ» هذه بمنزلة ألف الاستفهام دون تقدير إضراب، ثم أثبت تعالى الحكم بأنه عز وجل هو الولي الذي تنفع ولايته، وأنه هو الذي يحيي الموتى ويحشرهم إلى الآخرة ويبعثهم من قبورهم، وأن قدرته على كل شيء تعطي هذا وتقتضيه.

فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ كَثِيرٍ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَهُ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ آلِهَةً مِّنْ دُونِ آلِهِ مَن يَنْبُذُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا لَأَمِّنَ بَعْدَ مَا جَاءَهُمْ الْوَعْدُ بِمَا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَلَئِنِ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكَيْفَ مِّنْ بَعْدِهِمْ لَنَنصِفَنَّكَ إِنَّهُ مَن يَرِيبُ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالٌ وَلَكُمْ أَعْمَالٌ لَّكُم مِّنْ لَّاحِقَةٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

٤٨٤

بوكيل ولا ملازم لأمرهم حتى يؤمنوا، و«الوكيل»: القيم على الأمر، وما في اللفظ هذا من موادة فهو منسوخ بآية السيف.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، أي: وكما قضينا أمرك هذا وأمضيته في هذه الصورة، كذلك أوحينا إليك قرآنًا عربياً مبيناً لهم، لا يحتاجون معه إلى آخر سواء؛ إذ فهمه مُثَاتٌ لهم، ولم تُكَلِّفَكَ إِلَّا إنذار من ذكر، و«أَمْ الْقُرَى» هي مكة، والمراد أهل مكة، ولذلك عطف «وَمَنْ» عليها، وهي في الأغلب لمن يعقل، و«يَوْمُ الْحَجْمِ» هو يوم القيامة، واقتصر في «شِذْرُ» على المفعول الأول لأن المعنى: وتُنذِرُ أَمْ القرى العذاب وتُنذِرُ النَّاسَ يوم الجمع، لاجتماع أهل الأرض بأهل السماء، أو لاجتماع بني آدم

أَنْتَ تَقُولُ: زَيْدٌ كَعَمْرُو، وزيد مثل عمرو، فإذا أردت المبالغة التامة قلت: زَيْدٌ كَمِثْلِ عَمْرُو، ومن هذا قول أوس بن حجر:

وَقَتَلَنِي كَمِثْلِ جُدُوعِ التَّخِيلِ
تَغْشَاهُمْ مُسْبِلٌ مِنْهُمْ
ومنه قول الآخر:

سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ إِذَا أَبْصَرْتَ فَضْلَهُمْ
مَا إِنْ كَمِثْلِهِمْ فِي النَّاسِ مِنْ أَحَدٍ
فجرت الآية في هذا الموضع على عُزْفِ كلام العرب، وتفتقر الآية مع هذه الشواهد في أن الشواهد متى أردت أن تتبع بذهنك اللفظ فتقدّر للجذوع مثلاً موجوداً وتشبه القتلى بذلك المثل أمكنك، ولا يمكنك هذا في جهة الله تعالى إلا أن تجعل له ما يتحصل في الذهن من العلم بالله تعالى، إذ المثل والمثال واحد.

وذهب الطبري وغيره إلى أن المعنى: «ليس كهو شيء»، وقالوا: لفظة «مِثْل» في الآية توكيد وواقعة موقع هو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومما يؤيد دخول الكاف توكيداً أنها قد تدخل على الكاف نفسها، وأنشد سيويه:

وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤْتَفَيْنَ

و «المقاليذ»: المفاتيح، قاله ابن عباس، والحسن. وقال مجاهد: أصلها بالفارسية، وهي هنا استعارة لوقوع كل أمر تحت قدرته، وقال السدي: المقاليذ: الخزائن، وفي العبارة - على هذا - حذف مضاف، قال قتادة: من ملك مقاليد خزائن

فالخزائن في ملكه، ويُسْطُ الرزق وقدره بَيِّنٌ، وقد مضى تفسيره غير مرة.

١٣ - ١٤ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: شرع الله تعالى لكم وبين من المعتقدات والتوحيد ما وصى به نوحاً من قبل، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي عَظَفَ عَلَىٰ مَاءٍ﴾، وكذلك ما ذكر بعد من إقامة الدين مشروع اتفقت النبوات فيه، وذلك في المعتقدات أو في جملة أمرها من أن كل نبوة فإنما مُضْمِنُهَا معتقدات وأحكام، فيجئ المعنى على هذا:

شرع لكم شريعة هي كشريعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام في أنها ذات المعتقدات المشهورة التي هي في كل نبوة، وذات أحكام كما كانت تلك كلها، وعلى هذا يخرج ما حكاه الطبري عن قتادة فقال: ﴿مَاءً وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ يريد به الحلال والحرام، وعليه روي أن نوحاً عليه السلام أول من أتى بتحريم البنات والأمهات، وأما الأحكام بانفرادها فهي في الشرائع مختلفة، وهي المراد في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، و «أَنَّ» في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَتَيْنَا الَّذِينَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ بَدَلًا مِنْ [مَاءٍ]، أو في موضع خفض بدلاً من الضمير في «به»، أو في موضع رفع على خبر ابتداء تقديره: ذلك أن، و «يجوز» أن تكون مفسرة بمعنى «أي» لا موضع لها من الإعراب، و «إقامة الدين» هو توحيد الله تعالى ورفض ما سواه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ نهى

عن المهلك من تفرق الأنحاء والمذاهب، والخير كله في الألفة واجتماع الكلمة، ثم أخبر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بصعوبة موقع هذه الدعوة إلى إقامة الدين على المشركين بالله تعالى، العابدين للأصنام، قال قتادة: كبر عليهم «لا إله إلا الله»، وأبى الله تعالى إلا نصرها وإظهارها. ثم سلاه تعالى عنهم بقوله: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي أَيُّ﴾: يختار ويصطفى، قاله مجاهد وغيره، و «يَنْسِبُ» معناه: يرجع عن الكفر، ويخرض على الخير ويطلبه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ عبارة يجمع خطابها كفار العرب واليهود والنصارى وكل مدعو إلى الإسلام، فلذلك حسن أن يقال: «مَا تَفَرَّقُوا»، يعني بذلك أوائل اليهود والنصارى، و «الْعِلْمُ الَّذِي جَاءَهُمْ» هو ما كان حصل في نفوسهم من علم كُتِبَ الله تعالى، فبغى بعضهم على بعض، وأذاهم ذلك إلى الاختلاف في الرأي، و «الكلمة السابقة» قال المفسرون: هي حتمه تعالى القضاء بأن مجازاتهم إنما تقع في الآخرة، فلولا ذلك لفصل بينهم في الدنيا وغلب المحق على المبطل.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إشارة إلى معاصري محمد ﷺ من اليهود والنصارى، وقيل: هي إشارة إلى العرب، و «الكتاب» هو القرآن، والضمير في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ شَكَّ مِنْهُ﴾ يحتمل أن يعود على «الكتاب»، أو على محمد ﷺ، أو على «الأجل المُسَمَّى»، أي: في شك من البعث

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد: إنها نزلت في طائفة من بني إسرائيل همت برّد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومجادلتهم بأن قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، وديننا أفضل، فنزلت الآية في ذلك، وقيل: بل نزلت في قريش لأنها كانت أبداً تجادل هذا المعنى، وتطمع في ردّ الجاهلية، و﴿يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ معناه: في توحيد الله، أي: بالإبطال والإلحاد وما أشبهه، والضمير في ﴿مَنْ بَعْدَ مَا أَسْخَبَ لَهُ﴾ يحتمل أن يعود على الله تعالى، أي: بعد ما دخل الناس في دينه، ويحتمل أن يعود على الشرع والدين، ويحتمل أن يعود على محمد ﷺ، و﴿دَاجِلَةٌ﴾ معناه: زاهقة، والدخض: الزلّ، وباقي الآية وعيد.

١٧ - ١٨ تفسير قوله عز وجل: لَمَّا أَنهَى الله تعالى القول على الذين يحاجون في توحيد الله تعالى ويرمون إخفاء نوره، صدع في هذه الآية بصفته تعالى من إنزال الكتاب الهادي للناس، والكتاب هنا اسم جنس يعم جميع الكتب المنزلة، وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: بأن كان ذلك حقاً واجباً للمصلحة والهدى، ويحتمل أن يكون المعنى: مُضْمِنًا الحق، أي: بالحق في أحكامه وأوامره ونواهي. و﴿أَلْيَازَانِ﴾ هنا: العدل، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقناة، والناس. وحكى الثعلبي عن مجاهد

وكانت شديدة الموقع من نفسه، أعني قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتُ﴾ لأنها جملة تحتها جميع الطاعات وتكاليف النبوة، وفي هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام: «شَيْبَتُنِي هُوْدُ وَأَخَوَاتُهَا»، فقيل له: لم ذلك؟ فقال: لأن فيها ﴿فَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتُ﴾، وهذا الخطاب له ﷺ بحسب قوته في أمر الله تعالى، وقال هو عليه الصلاة والسلام لأمتة بحسب ضعفهم: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُخْصُوا».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَّبِعْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ يعني قريشاً فيما كانوا يهوؤنه من أن يعظم محمد ﷺ آلهتهم وغير ذلك، ثم أمره الله تبارك وتعالى أن يؤمن بالكتب المنزلة قبله من عند الله تعالى، وهو أمر يعم سائر أمتة. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ قالت فرقة: اللام في ﴿لِأَعْدِلَ﴾ بمعنى «أن»، لأن التقدير: أمرت بأن أعدل بينكم، وقالت فرقة: المعنى: وأمرت بما أمرت من التبليغ والشرع لكي أعدل، فحذف من الكلام ما يدل الظاهر عليه، وقوله تعالى: ﴿لَنَّا أَعْتَلْنَا وَلَكُمْ أَعْتَلُكُمْ﴾ إلى آخر الآية منسوخ ما فيه من موادة بآية السيف، وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا جدال ولا مناظرة، قد وضح الحق وأنتم تعاندون، وفي قوله: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وعيد.

وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ مَنْ بَعْدَ مَا أَسْخَبَ لَهُ جَهَنَّمَ دَاجِلَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٥﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْيَازَانَ وَمَا يُدْرِكُ لَعْلَ السَّاعَةِ قَرِيبٌ ﴿١٦﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ الْأَيْنَ الَّذِينَ يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٧﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٨﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١٩﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ فِيهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢١﴾

على قول من رأى أن الإشارة إلى العرب، ووصف الشك بـ ﴿ثَرِيبٍ﴾ مبالغة فيه.

١٩ - ٢١ تفسير قوله عز وجل: اللام في قوله تعالى: ﴿فَلَذَلِكَ﴾ قالت فرقة: هي بمنزلة «إلى» كما قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ أي: إليها، كأنه قال: فإلى ما وصّى به الأنبياء من التوحيد فاذع، وقالت فرقة: بل هي بمعنى: «من أجل»، كأنه قال: فمن أجل أن الأمر كذا ولكونه كذا فاذع أنت إلى ربك وتبلغ ما أزيلت به.

وخطب ﷺ بأمر الاستقامة وهو عليه الصلاة والسلام قد كان مستقيماً بمعنى: دُم على استقامتك، وهكذا الشأن في كل أمور بشيء هو متليس به إنما معناه الدوام، وهذه الآية ونحوها كانت نصب عين النبي ﷺ،

أنه قال: هو هنا الميزان الذي بأيدي الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا شك أنه داخل في القول وجزء منه، وكل شيء من الأمور فالعدل فيه إنما هو بتقدير ووزن مستقيم، فيحتاج في الأجرام إلى آلة وهي العمود والكفتان التي بأيدي البشر، ويحتاج في المعاني إلى هيئات في النفوس وفهوم توازن بين الأشياء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذُرُّكَ لَكُلِّ السَّاعَةِ قَرِيبٌ﴾ وعيد للمشركين، أي: فانظر في أي غرر هم، وجاء لفظ ﴿قَرِيبٌ﴾ مذكراً من حيث تأنيث الساعة غير حقيقي، وإذ هي بمعنى الوقت. ثم وصف تعالى حالة الجهلة المكذبين بها، فهم لذلك يستعجلون بها، أي: يطلبون تعجيلها ليبيّن العجز ممن تحققها، فالمصدق بها مشفق خائف، والمكذب مستعجل مقيم لحجته على تكذيبه بذلك المستعجل به. ثم استفتح تعالى الإخبار عن الممارين في الساعة في أنهم في ضلال قد يمد بهم، فرجوعهم عنه صعب متعذر، وفي هذا الاستفتاح مبالغة وتأکید وتهية للنفس السامع.

ثم رُجى تبارك وتعالى عباده بقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾، و﴿لَطِيفٌ﴾ هنا بمعنى رفيق متخف، والعباد هنا: المؤمنون ومن سبق له الخلود في الجنة، وذلك أن الأعمال بخواتمها، ولا لطف إلا ما آل إلى الرحمة، وأما الإنعام على الكافر في الدنيا فليس بلطف بل هو إملاء واستدراج، قال الجنيد: لطف

بأوليائه حتى عرفوه، ولو لطف بالكفار لما جحدوه، وقيل: لطيف بأن نشر عنهم المناقب وستر عنهم المثالب، وقيل: هو الذي لا يخاف إلا عدله، ولا يرجى إلا فضله.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ معناه: إرادة عامل مستعد عارف لا إرادة مُتَمَنٍّ لم يُدِن نفسه، و﴿الْحَرْثُ﴾ هنا عبارة عن السعي والتكسب والإعداد، ولما كان حرث الأرض أصلاً من أصول المكاسب استعير لكل

تكسب، ومنه قول ابن عمر رضي الله عنهما: «احرث لديك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»، وقوله تعالى: ﴿تَرَدُّ لَكَ فِي حَرْثِكَ﴾ وغد منتجز، وقوله تعالى في حرث الدنيا: ﴿تُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ معناه: ما شئنا ولمن شئنا، فرب مُتَمَنِّح مُضَيِّق عليه حريص على حرث الدنيا يريد له لا يحس بغيره، نعوذ بالله من ذلك، وهذا الذي لا يعقل غير الدنيا هو الذي نفي أن يكون له نصيب في الآخرة. وقرأ سلام: ﴿تُؤْتِيهِ﴾ برفع الهاء، وهي لغة أهل الحجاز، ومثله قراءة أهل الحجاز: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾، برفع الهاء فيها.

٢١ - ٢٣ تفسير قوله عز وجل: ﴿أَمْ﴾ هذه منقطعة لا معادلة، وهي بتقدير «بل وألف الاستفهام»،

ذَلِكَ الَّذِي يَشِيرُ اللَّهُ بِإِعَادَةِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢١﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخْلِقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ فَإِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴿٢٤﴾ وَلَوْ سَئَلْتَهُ أَإِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَيْبَ بِصَبْرٍ ﴿٢٥﴾ وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ أَفْقَاتٍ مِنْ بَعْدِ مَا قُضُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَعَلِهِمْ إِذْ أَنْشَأَ قَدِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٢٨﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٩﴾

و«الشركاء» في هذه الآية يحتمل أن يكون المراد بهم الشياطين والمُؤْمِنُونَ من أسلافهم، ويكون الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ للمحمد ﷺ، أي: شرع الشركاء لهم ما لم يأذن به الله، فالاشتراك هنا هو في الكفر والغواية، وليس بشركة الإشراف بالله تعالى، ويحتمل أن يكون المراد بالشركاء الأصنام والأوثان على معنى: أم لهم أصنام جعلوها شركاء لله في ألوهيته؟ ويكون الضمير في ﴿تَرْعَوْا﴾ لهؤلاء المعاصرين من الكفار ولآبائهم، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ للأصنام الشركاء، أي: شرع هؤلاء الكفار لأصنامهم وأوثانهم ما لم يأذن به الله تعالى، و﴿تَرْعَوْا﴾ معناه: أثبتوا ونهجوا ورسموا. و«الدين» هنا: العوائد والأحكام والسيرة، ويدخل

في ذلك أيضاً المعتقدات؛ لأنهم في جميع ذلك وضعوا أوضاعاً، فأما في المعتقدات فقولهم: إن الأصنام آلهة، وقولهم: إنهم يعبدون الأصنام زُلْفَى، وغير ذلك، وأما في الأحكام فكالْبَجِيرَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِي، وغير ذلك من السوانب ونحوها، وَالْإِذْنَ في هذه الآية: الأمر.

و «كلمة الفصل» هي ما سبق من قضاء الله تعالى بأن يؤخر عذابهم إلى الآخرة، والقضاء بينهم هو عذابهم في الدنيا ومجازاتهم. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بِكُسر الهمزة على القطع والاستثناف، وقرأ مسلم بن جندب بفتح الهمزة، وهي في موضع رفع عطف على ﴿كَالْمُتَرِّ»، المعنى: وأن الظالمين لهم في الآخرة عذاب.

وقوله تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ هي رؤية بصر، و﴿الظَّالِمِينَ﴾ مفعول، و﴿مُشْفِقِينَ﴾ حال، وليس لهم في هذا الإشفاق مدح؛ لأنهم إنما أشفقوا حين نزل بهم ووقع، وليسوا كالمؤمنين الذين هم في الدنيا مشفقون من الساعة كما تقدم، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ في موضع الحال، و«الروضات»: المواضع المُنُونَةُ النَّضْرَة، وهي مرتفعة في الأغلب من الاستعمال، وهي الممدوحة عند العرب وغيرهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ يَرْوَاهُ﴾، ومن ذلك تفضيلهم روضات الحزن لجودة هوائها، قال الطبري: ولا تقول العرب لموضع الأشجار: رياض.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ

عِبَادَهُ﴾ إشارة إلى قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَيُبَيِّرُ الْفُؤُومِينَ يَأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا﴾. وقرأ جمهور الناس: ﴿يُبَيِّرُ﴾ بضم الياء وفتح الياء وشُدُّ الشين مكسورة، وذلك على التعدية والتضعيف، وقرأ مجاهد، وحميد: ﴿يُبَيِّرُ﴾ بضم الياء وسكون الياء وكسر الشين، على التعدية بالهمزة، وقرأ ابن مسعود، وابن يَغْمَر، وابن أبي إسحق، والجحدري، والأعمش، وطلحة: ﴿يُبَيِّرُ﴾ بفتح الياء وضم الشين، ورويت عن ابن كثير، وقال الجحدري في تفسيرها: ترى النظرة في الوجوه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتْلُو عَنِّي أَحَدًا إِلَّا أَلْهَمَّ فِي الْقُرْآنِ﴾، اختلف الناس في معناه - فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هي آية مكية نزلت في صدر الإسلام، ومعناها استكفاف شر الكفار، ودفع أذاهم، أي: ما أسألكم على القرآن والدعاء إلى الله تعالى إلا أن تؤدوني لقراءة بيني وبينكم، فتكفوا عني أذاكم، قال ابن عباس، وابن إسحاق، وقتادة: ولم يكن في قريش بطن إلا ولرسول الله ﷺ فيه نسب أو صهر فالآية - على هذا - هي استعطاف ما، ودفع أذى، وطلب سلامة منهم، وذلك كله منسوخ بآية السيف ويحتمل هذا التأويل أن يكون معنى الكلام استدعاء نصرهم، أي: لا أسألكم غرامة ولا شيئاً إلا أن تؤدوني لقرايتي منكم، وأن تكونوا أولى من غيركم، وقال مجاهد: إلا أن تصلوا رحمي باتباعي، وقال ابن عباس

رضي الله عنهما أيضاً ما يقتضي أنها مدنية، وسببها أن قوماً من شباب الأنصار فآخروا المهاجرين، ومالوا بالقول على قريش، فنزلت الآية بذلك على معنى: إلا أن تؤدوني فتراعوني في قرايتي وتحفظوني فيهم، وقال بهذا المعنى في الآية علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، واستشهد بالآية حين سيق إلى الشام أسيراً، وهو تأويل ابن جبير، وعمرو بن شعيب، وعلى هذا التأويل قال ابن عباس رضي الله عنهما: قيل: يا رسول الله، مَنْ قرايتك الذين أمرنا بمودتهم؟ فقال: «علي وفاطمة وابناهما»، وقيل: هم ولد عبدالمطلب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقريش كلها عندي قُرْبَى وإن كانت تفاضل، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ومن مات على بغضهم لم يشم رائحة الجنة»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً في كتاب الثعلبي: سبب هذه الآية أن الأنصار جمعت لرسول الله ﷺ مالا وساقته إليه، فردّه عليهم ونزلت الآية في ذلك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: معنى الآية مِنْ قُرْبَى الطاعة والتزلف إلى الله تعالى، كأنه قال: إلا أن تؤدوني لأنني أقربكم من الله تعالى، وأريد هدايتكم وأدعوكم إليها، وقال الحسن بن أبي الحسن: معناه: إلا أن تتواددوا إلى الله تعالى بالتقرب إليه، وقال عبدالله بن القاسم في

كتاب الطبري: معنى الآية: **إِلَّا أَنْ تَتَوَدَّعُوا بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَتَصْلُوا قُرَابَتَكُمْ**، فالآية - على هذا - أمر بصلة الرحم.

وذكر النقاش عن ابن عباس، ومقاتل، والسدي، والكلبي أن الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة سبأ: **﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾**، والصواب أنها مُحْكَمَةٌ، وعلى كُلِّ قول فالاستثناء منقطع، و**﴿إِلَّا﴾** بمعنى «لكن».

و **﴿يَقْرَفُ﴾** معناه: يكتسب، ورجلٌ قرفة إذا كان محتالاً كسوباً، وقرأت فرقة: **﴿يَزِيدُ﴾** على إسناد الفعل لله تعالى، وقرأ جمهور الناس: **﴿يَزِدُّ﴾** على نون العظمة، وزيادة الحُسْنِ هو التضعيف الذي وعد الله تعالى به مؤمني عباده، قاله الحسن بن أبي الحسن، و**﴿عَفُورٌ﴾** معناه: سائر عيوب عبیده، و**﴿شُكُورٌ﴾** معناه: مجاز على الدقيقة من الخير، لا يضيع عنده عمل العامل.

(٢٤) - (٢٧) تفسير قوله عز وجل:

﴿أَمْ﴾ هذه أيضاً مقطوعة مُضْمَنَةٌ إضراباً عن كلام متقدم، وتقريراً على هذه المقالة منهم. وقوله تعالى: **﴿إِنْ يَنْزِلِ اللَّهُ بِخَبْرَةٍ﴾** معناه في قول قتادة وفرقة من المفسرين: يُنْشِئُكَ القرآن، والمراد الرُّدُّ على مقالة الكفار وبيان إبطالها، وذلك كأنه يقول: وكيف يصح أن تكون مفترياً وأنت بمرأى من الله تعالى ومسمع، وهو قادر لو شاء أن يختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمر افتراؤك، فمقصد اللفظ هذا المعنى،

وحذف ما يدل عليه الظاهر اختصاراً واقتصاراً، وقال مجاهد في كتاب الثعلبي وغيره: المعنى: **﴿إِنْ يَشِإِ اللَّهُ﴾** يختم على قلبك بالصبر لأذى الكفار، ويربط عليه بالجلد، فهذا تأويل لا يتضمن الرُّدُّ على مقالهم.

وقوله تعالى: **﴿وَنَسِخَ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾** فعل مستقبل، خبر من الله تعالى أنه يمحو الباطل ولا بد، إما في الدنيا وإما في الآخرة، وهذا بحسب نازلة نازلة، وكتبت **﴿وَنَسِخَ﴾** في المصحف بحاء مرسلة كما كتبوا **﴿وَيَذِيعُ الْإِشْنُ﴾** إلى غير ذلك مما ذهبوا فيه إلى الحذف والاختصار. وقوله تعالى: **﴿يَكْتَنِبُونَ﴾** معناه: بما سبق في قديم علمه وإرادته من كون الأشياء، فالكلمات: المعاني القائمة القديمة. وقوله تعالى: **﴿إِنَّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾** يَذَاتُ الصُّدُورِ **﴿خَبْرٌ مُضْمَنٌ وَعِيدٌ﴾**.

ثم ذكر تعالى النعمة في تفضله بقبول التوبة عن عباده، وبقبول التوبة فيما يستأنف العبد من زمنه وأعماله مقطوع به بهذه الآية، وأما ما سلف من أعماله فينقسم: فأما التوبة من الكفر فمباحية كل ما تقدمها من مظالم العابد الفانية، وغير ذلك، وأما التوبة من المعاصي فلاهل السنة فيها قولان: هل تذهب المعاصي السابقة للعبد بينه وبين خالقه سبحانه؟ فقالت فرقة: هي مُذْهَبَةٌ لها، وقالت فرقة: هو في مشيئة الله تعالى، وأجمعوا على أنها لا تُذْهِبُ مظالم العباد، وحقيقة التوبة: الإقلاع عن المعاصي والإقبال والرجوع إلى الطاعات، ويلزمها

الندم على ما فات والعزم على ملازمة الخيرات، وقال سري السقطي: التوبة: العزم على ترك الذنوب والإقبال بالقلب إلى علائم الغيوب سبحانه وتعالى، وقال يحيى بن معاذ: التائب من كسر شباهه على رأسه، وكسر الدنيا على رأس الشيطان، ولزم الفطام حتى أتاه الجمام. وقوله تعالى: **﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾** بمعنى: من عباده، وكأنه تعالى قال: التوبة الصادرة عن عباده، وقرأ جمهور القراء، والأعرج، وأبو جعفر، والجحدري، وقاتدة: **﴿يَفْعَلُونَ﴾** بالياء على الكناية عن غائب، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن مسعود، وعلقمة: **﴿تَفْعَلُونَ﴾** بالتاء على المخاطبة، وفي الآية توعد.

وقوله تعالى: **﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾**، قال الزجاج، وغيره: معناه: يُجِيبُ، والعرب تقول: أجاب واستجاب بمعنى، ومنه قول الشاعر:

وَدَاعَ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى الثَّدَى
فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ
و **﴿الَّذِينَ﴾** - على هذا القول - مفعولٌ بـ **﴿يَسْتَجِيبُ﴾**، وروي هذا المعنى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، ونحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقالت فرقة: المعنى: ويستدعي الذين آمنوا الإجابة من ربهم بالأعمال الصالحة. - ودلّ قوله تعالى: **﴿وَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾** - على أن المعنى: **﴿فَيُجِيبُهُمْ﴾** - وحملت هذه الفرقة «استجاب» على المعهود من

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿وَنَشْرَحْ رَحْمَتَهُ﴾ - فقالت فرقة: أراد بالرحمة المطر، وعدد النعمة بعينها بلفظين الثاني منهما يؤكد الأول، وقالت فرقة: الرحمة في هذا الموضع: الشمس، فذلك تعديد نعمة غير الأولى، وذلك أن المطر إذا ألم بعد القنط حسن موقعه، فإذا دام سُيم فنجيء الشمس بعده عظيمة الموقع. وقوله تعالى: ﴿وَمَوْءُودُ الْوَزْءِ﴾ أي: من هذه أفعاله فهو الذي ينفع إذا والى، وتُحمد أفعاله ونعمه، لا كالذي لا يضر ولا ينفع من أوثانكم.

ثم ذكر تعالى الآية الكبرى، والصنعة الدالة على الصانع، وذلك خلقه السموات والأرض، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَشَأٌ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ يخرج على وجوه: منها أن يريد أحدهما فيذكر الاثنين، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الْوُحُوشُ وَالْأَنْعَامُ﴾، وذلك إنما يخرج من الملح وحده، ومنها أن يكون تعالى قد خلق السموات وبث دواب لا نعلمها نحن، ومنها أن يريد الحيوانات التي توجد في السحاب وقد تقع أحياناً كالصفادع ونحوها، فإن السحاب داخل في اسم السماء، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال في تفسير ﴿وَمَا بَشَأٌ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾: هم الناس والملائكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعيد غير جارٍ على عُرف اللغة أن تقع الدابة على الملائكة. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾

وجلُّ أعلم بالمصلحة في كل أحد، وله بعبده خبرة ونَصَرٌ بأخلاقهم ومصلحهم، فهو ينزل لهم من الرزق القدر الذي به صلاحهم، فربُّ إنسان لا يصلح ولا تكتف عاديته إلا بالفقر، وآخر بالغنى، وروى أنس بن مالك في هذا المعنى والتقسيم حديثاً عن النبي ﷺ، ثم قال أنس رضي الله عنه: اللهم إني من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرني. وقال خُباب بن الأرت: فينا نزلت لأننا نظرنا إلى أحوال بني

قريظة وبني النضير وبني قُيْنُقاع فتمنيناها.

٢٨ - ٣٣ تفسير قوله عز وجل: هذا تعديد نعم الله تعالى الدالة على وحدانيته، وأنه الإله الذي يستحق أن يعبد دون ما سواه من الأنداد، وقرأ: ﴿يَزَلْ﴾ بالثقل جهور القراء، وقرأ: ﴿يُنْزِلْ﴾ مخففة ابن وثاب، والأعمش، ورويت عن أبي عمرو، ورجحها أبو حاتم، وقرأ جمهور الناس: ﴿قَتْلُوا﴾ بفتح النون، وقرأ يحيى بن وثاب عن الأعمش بكسر النون، وقد تقدم ذكرها، وهما لغتان، يقال: قَتَطَ وقَتِطَ، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل له: أجديت الأرض وقنط الناس، فقال: مُطِرُوا إذا، بمعنى: إن الفرج عند الشدة.

وَمَنْ آتَيْنَاهُ الْخُورَ فِي الْبَحْرِ لَا نَصْلُهُ ۚ إِنَّ نَاشِئَكَ مِنَ الرَّيْحِ فَظَلَمَ ۚ رَوَّاكَ عَلَى ظَهْرِهِ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٢٨ أَوْ يَوْمَ يَفْعَلُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيُفَعُّ عَنْ كَثِيرٍ ۝٢٩ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ۝٣٠ مَا أُرِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَنُعْثِ الْخَيَافَةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ۝٣١ وَالَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا ۝٣٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ وَالْآيَةِ ۝٣٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٣٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٣٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٣٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٣٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٣٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٣٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٤٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٤١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٤٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٤٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٤٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٤٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٤٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٤٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٤٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٤٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٥٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٥١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٥٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٥٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٥٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٥٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٥٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٥٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٥٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٥٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٦٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٦١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٦٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٦٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٦٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٦٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٦٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٦٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٦٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٦٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٧٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٧١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٧٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٧٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٧٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٧٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٧٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٧٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٧٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٧٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٨٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٨١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٨٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٨٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٨٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٨٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٨٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٨٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٨٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٨٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٩٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٩١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٩٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٩٣ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٩٤ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٩٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٩٦ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٩٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٩٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝٩٩ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْآيَةِ ۝١٠٠

باب «استفعل»، أي: طَلَبَ الشيء، و﴿الَّذِينَ﴾ - على هذا القول - فاعل بـ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾. وقالت فرقة: المعنى: ويُجيب المؤمنون ربهم، ف﴿الَّذِينَ﴾ فاعل بمعنى: يجيبون دعوة شرعه ورسالته، والزيادة من فضله هي تضعيف الحسنات، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «هي قبول الشفاعات في المؤمنين والرضوان».

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَسَلَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِمَا يَدَّوهُ لَبَغَا فِي الْأَرْضِ﴾، قال عمرو بن حَرْث وغيره: إنها نزلت لأن قوماً من أهل الصُفَّة طلبوا من رسول الله ﷺ أن يُغنيهم الله تعالى، ويبسط لهم الأرزاق والأموال، فأعلمهم تعالى أنه لو جاء الرزق على اختيار البشر واقتراحهم لكان سبب بغيتهم وإفسادهم، ولكنه عزَّ

يريد: يوم القيامة عند الحشر من القبور.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ﴾، قرأ جمهور القراء: ﴿فِيمَا﴾ بفاء، وكذلك هي في جُلِّ المصاحف، وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿بِمَا﴾ دون فاء، وحكى الزجاج أن أبا جعفر وغيره من المدنيين أثبت الفاء، قال أبو علي الفارسي: ﴿أَصَابَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَ﴾ يحتمل أن تكون في موضع جزم وتكون ﴿مَا﴾ شرطية، وعلى هذا لا يجوز حذف الفاء عند سيبويه، وجوّز حذفها أبو الحسن الأخفش وبعض البغداديين على أنها مُراداة في المعنى، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿أَصَابَ﴾ صِلَةً لـ ﴿مَا﴾، وتكون [مَا] بمعنى «الذي»، وعلى هذا يجوز حذف الفاء وثبوتها، لكن معنى الكلام مع ثبوتها بالتلازم، أي: لولا كَسْبُكُمْ لما أصابتكم مصيبة، والمصيبة إنما هي بسبب كَسْبِ الأيدي، ومعنى الكلام مع حذفها يجوز أن يكون التلازم، ويجوز أن يُعزَى منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما في هذه الآية فالتلازم مطرد مع الثبوت والحذف، وأما معنى الآية فاختلف الناس فيه - فقالت فرقة: هي إخبار من الله تعالى، فإن الرزايا والمصائب في الدنيا إنما هي مجازاة من الله تعالى على ذنوب المرء، وتمحيص لخطاياهم، وإنَّ الله تعالى يعفو عن كثير فلا يعاقب عليه بمصيبة، قال النبي ﷺ: «لا يصيب

ابن آدم خدش عود أو عشرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو عنه أكثر»، وقال عمران بن حصين وقد سُئل عن مرضه: «إِنَّ أَحَبَّهُ إِلَى اللَّهِ تعالى، وهذا مما كسبت يدي، وعفو ربِّي سبحانه كثير»، وقال مُرَّة الهمداني: رأيت على ظهر كف شريح قُرْحَةً، فقلت: ما هذا؟ فقال: «هذا بما كسبت يدي، ويعفو عن كثير»، وقيل لأبي سليمان الداراني: ما بال الفضلاء لا يلومون من أساء إليهم؟ فقال: لأنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي ابتلاهم بذنوبهم، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُثْبِتَ عَلَى عَبْدِهِ الْعُقُوبَةَ إِذَا أَصَابَتْهُ فِي الدُّنْيَا مَصِيبَةٌ بِمَا اكْتَسَبَتْ يَدَاهُ»، وقال الحسن بن أبي الحسن: معنى الآية في الحدود، أي: ما أصابكم من حد من حدود الله تبارك وتعالى - وتلك مصيبة تنزل بشخص الإنسان ونفسه - فإنما هي بكسب أيديكم، ويعفو الله سبحانه عن كثير فيستره على العبد حتى لا يُحَدَّ عليه.

ثم أخبر تعالى عن قُصُور ابن آدم وضعفه، وأنه في قبضة القدرة، ولا يعجز طلب ربه عز وجل، ولا يمكنه الفرار منه.

و «الجواري»: جمع جارية، وهي السفينة، وقرأ: «الْجَوَارِي» بالياء نافع، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة، ومنهم من أثبتتها في الوصل ووقف على الراء، وقرأ أيضاً عاصم بحذف الياء في وصل ووقف، وقال أبو حاتم: نحن نُثْبِتُهَا فِي كُلِّ حَالٍ،

و «الأعلام»: الجبال، ومنه قول الخنساء:

وإِنْ صَخْرًا لَتَأْتُنَّ الْهَدَاةَ بِهِ
كَأَنَّهُ عَلَّمَ فِي رَأْسِهِ نَارَ
ومنه المثل: «إِذَا قَطَعْنَ عَلَمًا بَدَا عَلَمٌ»، فَجَزَيَّ السَّفْنَ فِي الْمَاءِ آيَةً عَظِيمَةً، وتسخير الريح لذلك نعمة منه تعالى، وهو لو شاء أَنْ يُسَكِّنَ الرِّيحَ عَنْهَا لَرَكَدَتْ، أَي: أَقَامَتْ وَقَرَّتْ وَلَمْ يَتَمَّ مِنْهَا غَرَضٌ. وقرأ أبو عمرو، وعاصم: «الرَّيْحَ» واحدة، وقرأ: «الرَّيْحَ» نافع، وابن كثير، والحسن. وقرأ الجمهور: «فَيُظْلِلُنَّ» بفتح اللام، وقرأ قتادة: «فَيُظْلِلُنَّ» بكسر اللام. وباقى الآية بَيِّنٌ، فيه الموعظة، وتشريف الصِّبَارِ الشُّكُورِ بالتخصيص، والصبر والشكر فيهما الخير كله، ولا يكونان إلا في عالم.

﴿٢٨﴾ - ﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل: أَوْثَقْتُ الرَّجُلَ: إِذَا أَنْشَبْتَهُ فِي أَمْرٍ يَهْلِكُ فِيهِ، فالإيقاق في السِّفْنِ هو تغريقها، والضمير في «كَسْبُوا» هو لركابها من البَشَرِ، أي: بذنوب البشر، ثم ذكر تعالى ثانية «وَيَثِقُ عَنِ الْبَشَرِ» مبالغة وإيضاحاً، وقرأ نافع، وابن عامر، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة: «وَيُثْقَلُ» بالرفع على القطع والاستثناء، وحسن ذلك إذا جاء بعد الجزاء، وقرأ الباقيون والجمهور: «وَيُثْقَلُ» بالنصب على تقدير (أَنْ)، وهذه الواو ونحوها هي التي يسميها الكوفيون «وَاوَ الصَّرْفِ»؛ لَأَنَّ حَقِيقَةَ وَاوِ الصَّرْفِ هي التي تريد بها عطف فعل على اسم فتقدر (أَنْ) لتكون مع الفعل بتأويل المصدر فيجيء عطفه على

الاسم، وذلك نحو قول الشاعر:

تَقْضِي بُبَائَاتٍ وَيَسْأَمُ سَائِمٌ
فكانه أراد؛ وسأمة سائِم، فتقدر
«وَأَنْ يَسْأَمَ» ليكون ذلك بتأويل
المصدر الذي هو «سأمة»، قال أبو
علي: حسن النصب إذا كان قبله
شرط وجزاء وكل واحد منهما غير
واجب.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَّجِيسٍ﴾
هو معلومهم الذي أراد أن يعلمه
المجادلون في آياته عز وجل،
و«المحيص»: المنجى وموضع
الروغان، يقال: حاص إذا راغ،
وفي حديث هرقل: (فحاصوا خيضةً
حُمر الوحش إلى الأبواب). ثم
وعظ تعالى عباده وحقر عندهم أمر
الدنيا وشأنها، ورغبهم فيما عنده من
نعيمهم والمنزلة الرفيعة لديه، وعظم
قدر ذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ
مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ﴾
عطف على قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا﴾، وقرأ جمهور القراء:
﴿كَتَبَرُوا﴾ على الجمع، قال الحسن:
هي كل ما تُوعَد فيه بالنار، وقال
الضحاك: أو كان فيه حد من
الحدود، وقال ابن مسعود
رضي الله عنه: الكبائر من أول
سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية،
وقال علي بن أبي طالب، وابن
عباس رضي الله عنهم: هي كل ما
ختمه الله تعالى بنار أو غضب أو
لعنة أو عذاب، وقرأ حمزة،
والكسائي، وعاصم: ﴿كَبِيرٌ﴾ على
الإفراد الذي هو اسم الجنس، وقال

ابن عباس رضي الله عنهما: كبير
الإثم هو الشرك والفواحش، وقال
السدي: الزنى، وقال مقاتل:
موجبات الحدود، ويحتمل أن يكون
[كبيراً] اسم جنس بمعنى «كبائر»
فتدخل فيه الموبقات السبع على ما
قد تفسر من أمرها في غير هذه
الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا عَصِيتُمْ مُّمٌّ
يَتَّبِعُونَ﴾ حض على كسر الغضب
والندب في إطفائه؛ إذ هو جمرة
من جهنم، وباب من أبوابها، وقال
رجل للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا
تغضب»، قال: زدني، قال: «لا
تغضب»، ومن جاهد هذا العارض
من نفسه حتى غلبه فقد كفي همًا
عظيمًا في دنياه وآخرته.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا
لِرَبِّهِمْ﴾ مدح لكل من آمن بالله تعالى
وقبل شرعه، ومدح تعالى القوم
الذين أنهرهم شورى بينهم لأن في
ذلك اجتماع الكلمة، والتحاب
واتصال الأيدي، والتعااضد على
الخير، وفي الحديث: «ما تشاور
قوم قط إلا همدوا لأحسن ما
بحضرتهم»، وقوله تعالى: ﴿وَيَمَّا
رَفَعْنَاهُمْ نُفُوسَهُمْ﴾ معناه: في سبيل الله
ويرسم الشرع وعلى حدوده في
القوام الذي مدحه الله تعالى في غير
هذه الآية.

وقال ابن زيد: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ
اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ الآية نزلت في
الأنصار، والظاهر أن الله تعالى مدح
كل من أتصف بهذه الصفة كائناً من
كان، وهل حصل الأنصار في هذه
الصفة إلا بعد سبق المهاجرين إليها؟

رضي الله تعالى عن جميعهم بمته.

﴿٣٩﴾ - ﴿٤١﴾ تفسير قوله عز وجل:
مدح الله تعالى في هذه الآية قوماً
بالانتصار من البغي، ورجح ذلك
قوم من العلماء، وقالوا: الانتصار
بالواجب تغيير منكر، ومن لم ينتصر
مع إمكان الانتصار فقد ترك تغيير
المنكر.

واختلف الناس في المراد بالآية بعد
اتفاقهم على أن من بغى عليه وظلم
فجائر له أن ينتصر بيد الحق وحاكم
المسلمين - فقال مقاتل: الآية في
المجروح ينتصف من الجراح
بالقصاص.

وقالت فرقة: إنها نزلت في بغى
المشرك على المؤمن، فأباح الله
تعالى له الانتصار منه دون تعدد،
وجعل العفو والإصلاح مقروناً
بأجر، ثم نسخ جميع ذلك بآية
السيف، وقالت هذه الفرقة - وهي
الجمهور -: إن المؤمن إذا بغى على
مؤمن وظلمه، فلا يجوز للأخر أن
ينتصف منه بنفسه ويجازيه على
ظلمه، مثال ذلك أن يخون إنسان
آخر، ثم يتمكن الآخر من خيانة
الأول، فمذهب مالك رحمه الله
تعالى ألا يفعل، وهو مذهب جماعة
عظيمة معه، ولم يروا هذه الآية من
هذا المعنى، واحتجوا بقول
النبي ﷺ: «أَذِ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ
اتَّعَمَكَ، وَلَا تَخُنْ مِنْ خَانَكَ»، وهذا
القول أنزه وأقرب إلى الله تبارك
وتعالى.

وقالت طائفة من أهل العلم: هذه
الآية عامة في المشركين والمؤمنين،
ومن بغى عليه وظلم فجائر له أن

١٢ - ١٣ - تفسير قوله عز وجل:

المعنى: إنما سبيل الحكم والإثم على الذين يظلمون الناس، أي: الذين يضعون الأشياء غير مواضعها، من القتل وأخذ المال والأذى باليد وباللسان، و«البغي» بغير الحق» هو نوع من أنواع الظلم خصه بالذكر تنبيهاً على شدته وسوء حال صاحبه، ثم توعدهم تعالى بالعذاب الأليم في الآخرة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

اعتراض بين الكلامين، ثم عاد في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ سَبْرًا﴾ إلى الكلام الأول، كأنه تعالى قال: «ولمَّا انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، ولمن صَبَرَ وغَفَرَ، واللام في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ سَبْرًا﴾ يصحح أن تكون لام القسم، ويصحح أن تكون لام الابتداء، و [مَنْ] ابتداء، وخبره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾. و«عَزَمُ الْأُمُور»: مُحْكَمُهَا وَمُتَّقِنُهَا والحمد العاقبة منها.

ومن رأى أن هذه الآية هي فيما بين المؤمنين والمشركين وأن الصبر للمشركين كان أفضل قال: إن الآية نُسخَت بآية السيف، ومن رأى أن الآية إنما هي بين المؤمنين قال: هي محكمة، والصبر والغفران أفضل إجماعاً، وقال رسول الله ﷺ: «إذا

ينتصف لنفسه، ويخون من خانه في المال حتى ينتصر منه، وقالوا: إن الحديث: «ولا تُخَن من خانك» إنما هو في رجل سأل رسول الله ﷺ: هل يزني بِخُرْمَةٍ من زنى بِخُرْمَتِهِ؟ فقال له النبي ﷺ ذلك يريد به الزنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك ورد الحديث في معنى الرزى، ذكر ذلك الرواة، أما إنَّ عمومها ينسحب في كل شيء. وقوله تعالى: ﴿وَحَزْزًا سَيِّئَةً سَيِّئَةً﴾ قال الزجاج: سُمِّي العقوبة باسم الذنب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إذا أخذنا السيئة في حق الله تعالى بمعنى المعصية، وذلك أن المجازاة من الله تعالى ليست سيئة إلاَّ إن سُمِّيت باسم موجبها، وأما إن أخذنا السيئة بمعنى المصيبة في حق البشر، أي: يسوء هذا هذا ويسوءه الآخر، فلنا نحتاج إلى أن نقول: «سُمِّي العقوبة باسم الذنب»، بل الفعل الأول والفعل الآخر سيئة، وقال ابن أبي نجيج، والسدي: معنى هذه الآية أن الرجل إذا شتم بشتمة فله أن يردها بعينها دون أن يتعدى، وقال الحسن بن أبي الحسن: ما لم تكن حدًا أو عوراء جدًّا، واللام في قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَنْصَرَ﴾ لام التقاء القسم. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ سَبِيلٍ﴾ يريد: من سبيل حَرَج في إباحة الانتصار والخلاف فيه، هل هو بين المؤمن والمشرك أو بين المؤمنين على ما تقدَّم؟

وَرَكَّبَهُمْ بِعُرْضُونِ عَلَيْهَا أَخْشَعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفِي خَفِيَّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَبِيرِينَ الَّذِينَ خَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَّا إِنْ أَظْلَمُوا فِي عَذَابٍ مُقَبَّرٍ ﴿١٢﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٣﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَكٍ يُوَسِّدُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿١٤﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَأَنْزَلْنَا عَنْهُمْ غَيْظًا إِنَّ عَذَابَكَ إِلَّا الْبَلْغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَيَّ بِهَا وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سِنِينَ يَمُودُمْ أَيْدِيَهُمْ إِنْ إِلَى اسْتِكْفَارٍ كُفُورٍ ﴿١٥﴾ اللَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً إِنَّهَا وَهَبَ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ﴿١٦﴾ أَوْ ذَكَرَهُمْ ذَكَرْنَا وَإِنَّا لَمَّا وَهَبْنَا لِمَنْ يَشَاءُ عِزًّا فَلْيَسِّرْ لَكَ ﴿١٧﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِئِكَ أَنْ يَكُفِّرَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ يَنْزِلَ جِبَابٌ أَوْ يَرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ ﴿١٨﴾

كان يوم القيامة نادى مناد: من كان له على الله أجر فليقم، فيقوم عسى من الناس كثير، فيقول: ما أجركم؟ فيقولون: نحن الذين عفونا عمن ظلمنا في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ تحقير لأمر الكفرة فلا يبالي بهم أحد من المؤمنين، فقد أصارهم كفرهم وإضلال الله تعالى إياهم إلى ما لا فلاح لهم معه، ثم وصف تعالى لنبيه محمد ﷺ حالهم في القيامة عند رؤيتهم العذاب، فاجتزأ من صفتهم وصفة حالهم بأنهم يقولون: ﴿هَذَا إِلَيْنَا مَرْفَعٌ مِنْ سَبِيلٍ﴾، وهذه المقالة تدل على سوء ما أطلعوا عليه، و«المرء»: موضع الرَّد إلى الدنيا، والمعنى الذي قصدوه أن يكون ردُّ فيكون منهم استدراك للعمل

من قول الله تعالى وإخباره
لمحمد ﷺ .

١٦١ - ﴿٤٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾: إِنْجَاءٌ عَلَى الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ التي أظهر الكفار ولايتها، واعتقدوا ذلك ديناً، المعنى: فما بالهم يُوالون هذه التي لا تضر ولا تنفع، ولكن من يُضلل الله فما له من سبيل هدى ونجاة.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأمرهم بالاستجابة لدعوة الله تعالى وشريعته، وحذرهم إتيان يوم القيامة الذي لا يُرَدُّ أَحَدٌ بعده إلى عمل، والذي لا ملجأ ولا منجى لأحد فيه، إلا إلى العلم بالله تعالى والعمل الصالح في الدنيا، فأخبرهم أنه لا ملجأ لهم ولا نكير، و«النكير» مصدر بمعنى الإنكار، وهو بمنزلة «عذير الحي» ونحوه من المصادر، ويحتمل أن يكون من أبنية اسم الفاعل من «نَكَرَ»، وإن كان المعنى يبعد به؛ لأن «نَكَرَ» إنما معناه: لم يُعَيِّرْ وظن الأمر غير ما عهِدَ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقَمَا أَنزَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَبِطًا﴾: تَأْنِيسٌ لمحمد ﷺ، وإزالة لهمه بهم، وأعلمه أنه ليس عليه إلا البلاغ إليهم وتوصيل الحجة، ثم جاءت عبارة في باقي الآية هي بمنزلة ما تقول: والقوم قوم عُتُوٌّ وتناقض أخلاق واضطراب، إذا أذيقوا رحمةً فرحوا بها وبطروا، وإن تُصِبْهم سَيِّئَةٌ - أي: مصيبة - تسوؤهم في أجسادهم أو في نفوسهم - وذلك بذنوبهم وقبيح فعلهم - فإنهم كُفِرَ عند ذلك غير

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لَمَّا كَانَ نظرهم ضعيفاً وَلَحْظُهُم بمهانة وَصَفَ بالخفاء، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

فَقُضَّ الطَّرْفُ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ

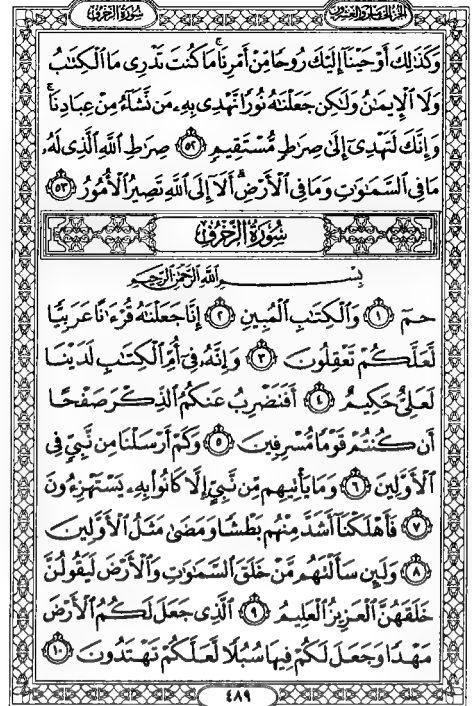
.....

وقال قوم - فيما حكى الطبري -: لَمَّا كَانُوا يُحْشَرُونَ غُمِيًّا وَكَانَ نظرهم بعيون قلوبهم جعله طرفاً خفياً، أي: لا يبدو نظرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا التأويل تكلف.

وقال قتادة والسدي: المعنى: يسارقون النظر، لَمَّا كَانُوا مِنَ الْهَمِّ وَسُوءِ الْحَالِ لَا يَسْتَطِيعُونَ النَّظَرَ بِجَمِيعِ الْعَيْنِ وَإِنَّمَا يَنْظُرُونَ مِنْ بَعْضِهَا قَالَ: ﴿مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: قليل، فالطَّرْفُ هنا - على هذا التأويل - يحتمل أن يكون مصدراً، أي: يطرف طرفاً خفياً.

و «قول الذين آمنوا» هو في يوم القيامة عندما عابنوا حال الكفار وسوء متقلبهم، و«خُسران الأهلين» يحتمل أن يراد به أهلهم الذين كانوا في الدنيا، ويحتمل أن يراد به أهلهم الذين كانوا يكونون لهم في الجنة إن لو دخلوها، وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ يحتمل أن يكون من قول المؤمنين يومئذ، حكاه الله تعالى، ويحتمل أن يكون استئنافاً



والإيمان، والرؤية في هذا رؤية عين.

والضمير في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا﴾ عائد على النار، وعاد الضمير مع أنها لم يتقدم لها ذكر من حيث دل عليها قوله تعالى: ﴿رَأَوْا الْعَذَابَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَلَدَّلَ﴾ يحتمل أن يتعلق به «خَشِيعِينَ»، ويحتمل أن يتعلق بما بعده من قوله تعالى: ﴿يَنْظُرُونَ﴾، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿مِنْ أَلَدَّلَ﴾ بكسر الدال، و«الخشوع»: الاستكانة، وقد يكون محموداً، وإنما يخرج به إلى حالة الذمّ قوله تعالى: ﴿مِنْ أَلَدَّلَ﴾، فيقوى - على هذا - تعلق [مِنْ] به «خَشِيعِينَ».

وقوله تعالى: ﴿مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ يحتمل ثلاث معانٍ، قال ابن عباس ومجاهد: ﴿خَفِيٍّ﴾: ذليل.

صُبْر، وعَبَّرَ بالإنسان الذي هو اسم عامٌ ليدخل في الآية المتقدمة جميع الكفرة من المجاورين يومئذ ومن غيرهم، وجمع الضمير في قوله تعالى: ﴿تُحْيِيهِمْ﴾ وهو عائذ على لفظ «الإنسان» من حيث هو اسم جنس يعم كثيراً.

(١٩) - (٥٢) تفسير قوله عز وجل:

الآية الأولى آية اعتبار دالة على القدرة والملك المحيط بالخلق، وأن مشيئته تعالى وجل نافذة في جميع خلقه، وفي كل أمرهم، وهذا لا مدخل لصنم فيه، فإن الذي يخلق ما يشاء ويخترع إنما هو الله سبحانه، وهو الذي يُقَسِّمُ الخلق، فيهب الإناث لمن شاء أن يجعل نسله نساءً، ويهب الذكور لمن شاء على هذا الحد، أو ينوعهم: مرة يهب ذكراً، ومرة أخرى أنثى، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾، وقال محمد بن الحنفية: يريد بقوله: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ الثَّوَامُ، أي: يجعل في بطن زوجاً من الذرية ذكراً وأنثى. والعقيم: الذي لا يولد له، وهذا كله مُدَبَّرٌ بالعلم والقدرة، وهذه الآية تقضي بفساد وجود الخنثى المشكل.

وبدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإناث تأنيساً بهن وتشريعاً لهن، لِيُتِمَّ بِصَوْنِهِنَّ والإحسان إليهن، قال النبي ﷺ: «من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له حجاباً من النار»، وقال واثل بن الأسقع: «من يُؤْمِنُ المرأةَ تَكْبِيرُهَا بالأثني قبل الذكر؛ لأن الله تعالى بدأ بالإناث»، حكاه عن الثعلبي، وقال

إسحق بن بشر: نزلت هذه الآية في الأنبياء عليهم السلام ثم غُمِّت، فلو طُوعَ عليه السلام أبو بنات لم يولد له ذكر، وإبراهيم عليه السلام ضده، ومحمد عليه الصلاة والسلام وُلد له الصنفان، ويحيى بن زكريا عليهما السلام عقيم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ الآية... نزلت بسبب خَوْضِ كان للكفار في معنى تكليم الله تعالى موسى عليه السلام ونحو ذلك، ذهبت قريش واليهود في ذلك إلى تجسيم ونحوه، فنزلت الآية مُبَيِّنَةً صورة تكليم الله تبارك وتعالى عباده كيف هو، فبيّن تعالى أنه لا يكون لأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا ينبغي له ولا يمكن فيه أن يكلمه الله تبارك وتعالى إلا بأن يوحى إليه أحد وجوه الوحي من الإلهام، قال مجاهد: والثقت في القلب، وقال النقاش: أو وحي في منام، وقال إبراهيم التخعي: كان من الأنبياء عليهم السلام من يُخَطُّ له في الأرض ونحو هذا، أو بأن يُسمعه كلامه دون أن يعرف هو للمتكلم جهة ولا خبراً كموسى عليه السلام، وهذا معنى ﴿مِنْ رِزْقِ رَبِّهِ﴾، أي: من خفاء عن المتكلم لا يحده ولا يتصور بذهنه عليه، وليس كالحجاب في الشاهد، أو بأن يرسل إليه ملكاً يشافهه بوحى الله تبارك وتعالى.

وقرأ جمهور القراء والناس: ﴿أَوْ يُرْسِلْ﴾ بالنصب ﴿فَيُوحِي﴾ بالنصب أيضاً، وقرأ نافع، وابن عامر، وأهل المدينة: ﴿أَوْ يُرْسِلْ﴾ بالرفع

﴿فَيُوحِي﴾ بسكون الياء ورفع الفعل، فأما القراءة الأولى فقال سيبويه: سألت الخليل عنها فقال: هي محمولة على «أن» غير التي في قوله تعالى: ﴿أَن يَكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾؛ لأن المعنى كان يفسد لو عطف على هذه، وإنما التقدير في قوله تعالى: ﴿وَحَيًّا﴾: إلا أن يوحى وحياً، وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ رِزْقِ رَبِّهِ﴾ «وَمِنْ» متعلقة بفعل يدل عليه ظاهر الكلام، تقديره: أو يُكَلِّمُهُ من وراء حجاب، ثم عطف تعالى ﴿أَوْ يُرْسِلْ﴾ على هذا الفعل المقدر. وأما القراءة الثانية فعلى أن ﴿يُرْسِلْ﴾ في موضع الحال أو على القطع، كأنه تعالى قال: «أو هو يرسل»، وكذلك يكون قوله تعالى: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ مصدراً في موضع الحال، كما تقول: أتيتك رخصاً وعدواً، وكذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ رِزْقِ رَبِّهِ﴾ في موضع الحال أيضاً، كما هو قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهَجِ أَكْثَرُ مِنْ أَلْسِنِهِ﴾ في موضع الحال، وكذلك ﴿وَمِنْ﴾ وما عملت فيه في هذه الآية أيضاً، ثم عطف تعالى قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلْ﴾ على هذه الحال المتقدمة، وفي هذه الآية دليل على أن الرسالة من أنواع التكليم، وأن الحالف المُرْسِلَ حانث إذا حلف ألا يكلم إنساناً فأرسل وهو لا ينوي المشافهة وقت يمينه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، المعنى: وبهذه الطرق ومن هذا الجنس أوحينا إليك، أي: كالرُسل، و«الرُوح» في هذه الآية: القرآن وهدى الشريعة، سمّاه روحاً من

تفسير سورة الزخرف

هذه السورة مكية بإجماع من أهل العلم.

١ - ٩ تفسير قوله عز وجل: تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور، وقوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ﴾ خفض بواو القسم، والمبين، يحتمل أن يكن من «أَبَان» الذي هو بمعنى «بان» أي: ظهر، فلا يحتاج إلى مفعول، ويحتمل أن يكون مُعَذَى من «بَان»، فهذا لا بُدَّ من مفعول تقديره: المبين الهدى والشرع ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ معناه: سُمِينَاهُ وصَيَّرْنَاهُ، وهو إخبارٌ عليه وقع القسم، والضمير في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائد على ﴿الْكِتَابِ﴾، و﴿عَرَيْنَا﴾ معناه: بلسانكم لثلا يبقى لكم عذر، وقوله تعالى: ﴿لَمَلَكْكُمْ﴾ ترجح بحسب معتقد البشر، أي: إذا أبصر المُبْصِر من البشر هذا الفعل مثلاً يُرجى منه أن يعقل ويفهم الكلام.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾، وهذا الإخبار الثاني واقع أيضاً تحت القسم، و﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾: اللوح المحفوظ، هذا فيه تشريف للقرآن وترفع، واختلف المتأولون، كيف هو في «أُمُّ الْكِتَابِ»؟ فقال قتادة، وعكرمة، والسدي، وعطية بن سعيد: القرآن بأجمعه فيه منسوخ، وكان جبريل عليه السلام ينزل، وهنالك هو عليّ حكيم، وقال الجمهور الناس:

حيث يُحيي به البشر والعالم، كما يحيي الجسد بالروح، فهذا على جهة التشبيه. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: واحد من أمورنا، ويحتمل أن يكون «الأمر» بمعنى الكلام، و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية. وقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْآيَاتُ﴾ توقيف على مقدار النعمة، والضمير في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائد على ﴿الْكِتَابِ﴾، و﴿نَهْدِي﴾ معناه: نُرْشِدُ، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدَى﴾ بفتح التاء وكسر الدال، وقرأ حوشب: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدَى﴾ بضم التاء وفتح الدال على بناء الفعل للمفعول، وفي حرف أبي: ﴿وَأَنَّكَ لَتَدْعُو﴾، وهي تضد قراءة الجمهور، وقرأ ابن السميع، وعاصم الجحدري: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي﴾ بضم التاء وكسر الدال.

وقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ﴾ يعني صراط شرع الله تعالى ورحمته، فبهذا الوجه ونحوه من التقدير أضيف الصراط إلى الله تعالى، واستفتح تعالى القول في الإخبار بصيرورة الأمور إلى الله تعالى مبالغة وتخفيفاً وثبتيّاً، والأمور صائرة على الدوام إلى الله تعالى، ولكن جاءت هذه العبارة مستقلة تقريراً لمن في ذهنه أن شيئاً من الأمور إلى البشر، وقال سهل بن أبي الجعد: احترق مصحف فلم يبق منه إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّا إِلَهُكَ نَصِيرٌ﴾.

كامل تفسير سورة الشورى والحمد لله رب العالمين

إنما في اللوح المحفوظ ذكركه ودرجته ومكانته من العلو والحكمة، وقرأ جمهور الناس: ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ بضم الهمة، وقرأها بكسر الهمة يوسف بن عمر والي العراق، وعيسى بن عمر.

وقوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ بمعنى: أَفَتَضْرِبُ، تقول العرب: أضربت عن كذا وضربت إذا عرضت عنه وتركته، و«الذكر» هو الدعاء إلى الله تعالى والتذكير بعذابه والتخويف من عقابه، قال أبو صالح: «الذكر» هنا أراد به العذاب نفسه، وقال مجاهد، والضحاك: «الذكر»: القرآن، وقوله تعالى: ﴿صَحْحًا﴾ انتصابه كانتصاب ﴿سُئِنَاهُ﴾، فيحتمل أن يكون بمعنى العفو والفقر للذنب، فكأنه تعالى يقول: أفنشرُك تذكيركم وتخويفكم عفواً عنكم وغفراً لإجرامكم أن كُنتُمْ، أو من أجل أن كنتم قوماً مسرفين؟ هذا لا يصلح، وهذا هو قول ابن عباس، ومجاهد. ويحتمل قوله تعالى: ﴿صَحْحًا﴾ أن يكون بمعنى: مَغْفُولاً عنه، أي: نتركه يَمُرُّ لا تؤخذون بقوله ولا يَتَذَكَّرُهُ، ولا تُنَبِّهون عليه، وهذا المعنى نظير قول الشاعر:

تَمُرُّ الصَّبَا صَفْحًا بِسَاكِنِ ذِي الْغَضَى
وَيَضْلَعُ قَلْبِي أَنْ يَهْبَ هُبُوبُهَا
أي: تَمُرُّ مغفولاً عنها، فكأن هذا المعنى: أَفَتَضْرِبُكُمْ سُدَى؟ وهذا هو منحي قتادة وغيره، ومن اللفظة قول كثير:

صَفُوحًا فَمَا تَلَقَّاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ
فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَضَلُ مَلَّتْ
وقرأ السميوط بن عمرو،

والسدوسي: ﴿صَفْحًا﴾ بضم الصاد.

وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي:

﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ بكسر الألف، وهو جزء

دل ما تقدم على جوابه، وقرأ

الباقون، والأعرج، وقتادة: ﴿أَنْ

كُنْتُمْ﴾ بفتح الألف، بمعنى: من

أجل أن كنتم، وفي قراءة ابن

مسعود: ﴿إِذْ كُنْتُمْ﴾ و«الإسراف» في

الآية هو الكفر والضلال البعيد في

عبادة غير الله تعالى والتشريك به.

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ

فِي الْأَوَّلِينَ﴾ الآية تسليّة

لمحمد ﷺ، وذكره أشوة له ووعيد

لهم وتهديد بأن يصيبهم ما أصاب

من هو أشد بطشاً منهم، و«الأولون»

هم الأمم الماضية كقوم نوح وعاد

وثمود وغيرهم، والضمير في قوله

تعالى: ﴿كَأَوْأَيُّ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ظاهره

العموم، والمراد به الخصوص فيمن

استهزؤا، وإلا فقد كان في الأولين

من لم يستهزئ، والضمير في

﴿يَنْهَكُمْ﴾ عائد على قريش، وقوله

تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي:

سَلَفَ أمرهم وسُتُهم وصاروا عبرة

غابر الدهر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ

الآية... ابتداء احتجاج على قريش

يوجب عليهم التناقص في أمرهم،

وذلك أنهم يُقَرُّون أن الخالق الموجد

لهم وللسموات والأرض هو الله

تعالى، وهم مع ذلك يعبدون أصناماً

ويدعونها آلِهَتهم، ومقتضى جواب

قريش أن يقولوا: خلقهن الله، فلما

ذكر تعالى المعنى جاءت العبارة

عن الله تعالى بـ «العزیز العليم»

ليكون ذلك توطئة لما عدد بعد ذلك

من أوصافه التي ابتدأ

الإخبار بها وقطعها من

الكلام الذي حكى معناه

عن قريش.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله

عز وجل:

هذه أوصاف فعل،

وهي نِعَم من الله تعالى

على البشر تقوم بها الحجة

على كل كافر مشرك بالله

تعالى، وقوله تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

ليس من قول المسؤولين،

بل هو ابتداء إخبار من الله

تعالى، قرأ جمهور

الناس: ﴿مِهَادًا﴾، وقرأ

ابن مسعود، وطلحة،

والأعمش: ﴿مَهْدًا﴾، والمعنى

واحد، أي: يَتَهَدَّى وَيَتَصَرَّف فيها،

و«السُّبُل»: الطُّرُق، و﴿تَهْتَدُونَ﴾

معناه: في المقاصد من بلد إلى

بلد ومن قُطْر إلى قُطْر، ويحتمل

أن يريد: تهتدون بالنظر والاعتبار.

وقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً﴾ هو المطر بإجماع، واختلف

المتأولون في معنى قوله تعالى:

﴿يَقْدِرُ﴾ - فقالت فرقة: معناه:

بقضاء وحشم في الأزل، وقال

آخرون: المعنى: بقدر في الكفاية

للصلاح، لا إكثار فيفسد، ولا قلة

فيقصر، بل غيثاً مُغِيثاً سيلاً نافعاً،

وقالت فرقة: معناه: بتقدير وتحديد،

أي: قدرًا ما معلوماً، ثم اختلف

قائلوا هذه المقالة - فقال بعضهم:

يُنْزَل كل عام ماءً قدرًا واحدًا، لا

يُفْضَل عام لكن يكثر مرة مرة

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا
كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا رَجَعَلًا
لِكُرْمِنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامَ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١١﴾ لَنَسْأَلَنَّهُنَّ أَعْلَى طَهُورٍ
ثُمَّ نَذْكُرُنَّ أَنْعَمَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٢﴾ وَإِنَّا لَنَرِيهَا
لَمُسْتَقْبَلُونَ ﴿١٣﴾ رَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّا لِلْإِنْسَانِ
لَكُفْرٌ مُبِينٌ ﴿١٤﴾ أَوِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَحَكُمْ
بِالْبَيْنِ ﴿١٥﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا حَزَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا
ظَلَّ رَجَهِهُ مُسُوْدًا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٦﴾ أَوْ مِنْ يَسْتَوْفٍ
الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَاءِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ وَجَعَلُوا لِلْمَلَائِكَةِ
الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِّتَ أَشْهَدُ وَأَخْلَقَهُمْ سُبْحَانَ
مُهَيْدٍ لَهُمْ وَنَسْتَأْذِنُ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ
مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ يَأْتِيَنَّهُمْ
كِتَابَانِ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢٠﴾ بَلْ قَالُوا
إِنَّا رَجَدْنَا إِلَى آتِئَاتِهِ وَإِنَّا لَنَافِرُهُمْ مُتَهَدِّونَ ﴿٢١﴾

هنا، وقالت فرقة: بل يُنْزَل الله

تعالى تقديرًا ما في عام، ويُنْزَل في

آخر تقديرًا بحسب ما سبق به قضاؤه

لا إله غيره. و«أَنْشَرْنَا» معناه:

أَحْيَيْنَا، يقال: نَشَرُ المَيْتَ وَأَنْشَرَهُ

غيره، و«بَلْدَةً» اسم جنس،

ووصفها بـ «مَيْتًا» دون ضمير من

حيث هي واقعة موقع «قُطْر» ونحوه؛

إذ التأنيت فيها غير حقيقي، وقرأ

الجمهور: ﴿مَيْتًا﴾ بسكون الياء،

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿مَيْتًا﴾

بياء مكسورة مشددة، وهي قراءة

عيسى بن عمر، والأولى أرجح لشيء

لفظها بـ «زُورٍ وَعَذَل»، فَحَسُنَ

وصف المؤنث بها، وقرأ أكثر

السبعة، والأعرج، وأبو جعفر:

﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ﴾ بضم التاء وفتح

الراء، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن

عامر، وابن ثاب، وعبد الله بن

جَبَّيْرَ، وعيسى: ﴿كَذَلِكَ تَخْرُجُونَ﴾
بفتح التاء وضم الراء.

و «الأزواج»: الأنواع من كل شيء، و «يَن» في قوله تعالى: ﴿يَن الْفُلْكَ وَالْأَنْفَرِ﴾ للتبعيض، وذلك أنه لا يُركب من الأنعام غير الإبل، وتدخل البغال والخيول والحُمير فيما يُركب بالمعنى، واللام في قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ لام الأمر، ويحتمل أن تكون لام «كي»، و «مَا» في قوله تعالى: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ واقعة على النوع المركوب، والضمير في «ظُهُورِهِ» عائد على النوع الذي وقعت عليه «مَا»، وقد بَيَّنَّت آية أخرى ما يقال عند ركوب الْفُلْكَ وهو ﴿يَسِرَ اللَّهُ بِجَهَنَّمَ وَتَرْتَسَّهَا إِنْ رَزَقَ لَقَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وإنما هذه خاصة فيما يركب من الحيوان، ويقال عند النزول منها: اللَّهُمَّ أَنْزِلْنَا مِنْزَلاً مَبَارَكاً وأنت خير المنزلين.

والسُّنة للراكب إذا ركب أن يقول: الحمد لله على نعمة الإسلام، أو على النعمة بمحمد عليه الصلاة والسلام، أو على النعمة في كل حال، وقد روى هذا اللفظ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ، ثم يقول: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ الآية، وركب أبو مجلز لاحق بن حميد وقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي﴾ الآية، ولم يذكر نعمة، وسمعه الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال: ما هكذا أمرتم، فقال أبو مجلز: فقلت له: فيكف أقول؟ قال: قل: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، أو نحو ذلك، ثم تقول بعد ذلك: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي﴾

الآية، وكان طائوس إذا ركب قال: اللَّهُمَّ هذا من مثك وفضلك، ثم يقول: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإن قَدَرْنَا أن ذُكر النعمة بالقلب والتذكُّر بدأ الراكب بـ ﴿سُبْحَنَ الَّذِي﴾، وهو يرى نعمة الله تعالى في ذلك وفي سواه، و«المُفْرِن»: الغالب الضابط المستولي على الأمر المُطِيق له، وقد روي أن بعض الأعراب ركب حملاً فقيل له قل: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، فقال: أما والله إني لمُفْرِنٌ ثَبَّاهُ، فضرب به الجمل فوقه فقتله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا رَبُّنَا لَنَنْفِلَنَّهُ﴾ ﴿أَمْرٌ بِالْإِقْرَارِ بِالْبَعْثِ وترداد القول به، وذلك داعية إلى استشعار النظر فيه، وروى عن النبي ﷺ أن الإنسان إذا ركب ولم يقل ما في هذه الآية جاء الشيطان فقال له: تَعْتَهُ، فإن كان يحسن تَعْتَى، وإلا قال له: تَمْتَهُ، فيتمنى الأباطيل ويقع زمنه بذلك.

﴿١٥﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿جَعَلُوا﴾ لكفار قریش والعرب، والضمير في ﴿لَهُ﴾ لله تعالى، و«الجزء»: القطع من الشيء، وهو بعض الكل، فكأنهم جعلوا جزءاً من عباده نصيباً وله وحطاً، وذلك في قول مجاهد وكثير من المتأولين قول العرب: الملائكة بنات الله، وقال بعض أهل اللغة: الجزء: الإناث، يقال: أَجْزَأَتْ المرأة إذا ولدت أنثى، ومنه قول الشاعر:

إِنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْمًا فَلَا عَجَبَ
قَدْ تُجْزِيءُ الْحُرَّةُ الْمَذْكَارَ أَخْيَانًا
وقد قيل: إن هذا البيت موضوع، وقال قتادة: المراد بالجزء الأصنام وفروع وغيره ممن عُبد من دون الله، أي: جزءاً يندأ، فعلى هذا فتعنيف الكفرة في فصلين: في أمر الأصنام، وفي أمر الملائكة. وقوله تعالى: ﴿لَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أتى بلفظ الجنس العام والمراد بعض الإنسان وهو هؤلاء الجاعلون ومن أشبههم، و«مُيِّنٌ» في هذه الآية غير مُتَعَدٍّ.

وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ ضُرَابٌ وَتَقْرِيرٌ، وهذه حجة بالغة عليهم؛ إذ المحمود من الأولاد والمحبوب قد خوله الله تعالى بني آدم فكيف يتخذ هو لنفسه النصيب الأدنى؟ و«وَأَصْفَكُمُكُمْ» معناه: خَصَّكُمْ وجعل ذلك لكم صفوة.

ثم قامت الحجة عليهم في هذا المعنى وكانت بقوله تعالى: ﴿وَأَرَادَ يُنْسَأَ﴾ الآية، و«مُسَوَّدٌ» خبر ﴿ظَلَّ﴾، و«الْكُطَيْمُ»: الممتلئ غيظاً قد ردَّ غيظه إلى جوفه فهو يتجرعه ويروم رده، وهذا محسوسٌ عند الغيظ، ثم زاد توبيخهم وإفساد رأيهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْشُأْ﴾، و«من» في موضع نصب بفعل يدل عليه ﴿جَعَلُوا﴾، كأنه تعالى قال: أو مَنْ يُنْشَأُ في الحلية جعلتم أو اتخذتم؟ ويجوز أن يكون في موضع رفع كأنه تعالى قال: أو مَنْ يُنْشَأُ في الحلية هو الذي خصصتم به الله تعالى؟ ونحو هذا، والمراد بـ «من» النساء، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، والسدي، و«يُنْشَأُ» معناه:

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَالَ مَثَرُهُمْ
 إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَمَةٍ وَإِنَّا عَلَيْنَا أَنُفِثَهُمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٣٧﴾
 قُلْ أُولَٰئِكَ حَتَّىٰ تَأْمُرَهُمْ بِأَعْيُنِنَا وَتَقُولُوا أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي فَتْنَةٍ
 إِنَّا بِنَايَ أَرْسَلْنَاهُ بِكُفْرُونٍ ﴿٣٨﴾ فَانْقَسَمْنَا لَهُمْ وَفَأَنْظَرْنَاهُمْ كَيْفَ
 كَانَ عَقِيبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
 إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ
 وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ بَلْ
 مَنَعْتَ هَٰؤُلَاءَ وَمَآبَهُمْ حَتَّىٰ تَأْتِيَ الْهَقْلَ وَرَسُولُ يُبَيِّنُ ﴿٤٢﴾
 وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٤٣﴾ وَقَالُوا
 لَوْلَا نَزَلَ هَٰذَا الْفَرَقَانُ عَلَيْنَا مِنْ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرَقَيْنِ عَظِيمِ ﴿٤٤﴾ أَفَرَأَى
 يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ لَنَحْنُ قَسَمَانِ إِنَّهُمْ يَعْشَوْنَ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
 بَعْضًا سُلُوفًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْلَا
 أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ
 لِيُصِيبَهُ سِقَاةٌ مِّنْ فَضْضٍ وَمَعَآجٍ عَلَيْهِمْ يُظَاهَرُونَ ﴿٤٦﴾

والأعرج، وشيبة، وقتادة، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً﴾، وهذه القراءة أدل على رفعة المنزلة وقربها في التكرمة، كما قيل: «مَلِكٌ مُّقْرَّبٌ»، وقد تصرف المعنيان في كتاب الله تعالى في الملائكة في غير هذه الآية، فقال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، وقال سبحانه في أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَجَعَلُوا الملائكة عِبَادَ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً﴾.

ينبت ويكير، وقرأ جمهور القراء: ﴿يُنْشَأُ﴾ بفتح الياء وسكون النون، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يُنْشَأُ﴾ بضم الياء وسكون النون على تعدية الفعل بالهمزة، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم - في رواية حفص -: ﴿يُنْشَأُ﴾ بضم الياء وفتح النون وشد الشين على التعدية بالتضعيف، وهي قراءة ابن عباس أيضاً، والحسن، ومجاهد، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿أَوْ مِّنْ لَاَ يَنْشَأُ إِلَّا فِي الْجَلِيَّةِ﴾، والجلية: الحلبي من الذهب والفضة والأحجار، والخصام: المحاجة ومجاذبة المحاور، وقلما تجد امرأة إلا تفسد الكلام وتخلط المعاني، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وهو في الكلام غير مبين﴾، و﴿يُبَيِّنُ﴾ في هذه الآية مُتَعَدٍّ، والتقدير: غير مبين غَرَضًا أَوْ مَنَزَعًا أَوْ نَحْوَ هَٰذَا، وقال ابن زيد: المراد بـ ﴿أَوْ مِّنْ لَاَ يَنْشَأُ فِي الْجَلِيَّةِ﴾ الآية: الأصنام والأوثان؛ لأنهم كانوا يتخذون كثيراً من الذهب والفضة، وكانوا يجعلون الحلبي على كثير منها.

ولما فرغ تَغْنِيْفُهُمْ على ما أتوه في جهة الله تعالى بقولهم: «الملائكة بنات الله سبحانه» بين الله تعالى فساد مقالاتهم، فعينها بجهة أخرى من الفساد، وذلك شنيع قولهم في عباد الله تعالى مختصين مُّقْرَّبِينَ: «إِنَّهُمْ إِنِثَاءٌ»، وقرأ أكثر السبعة، وابن عباس، وابن مسعود، وابن جبير، وعلقمة: ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءٌ﴾، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والحسن، وأبو رجاء، وأبو جعفر،

أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. وقرأ جمهور الناس: ﴿سَتَكُنُّ شَهَادَتُهُمْ﴾ برفع (شهادة) وبناء الفعل للمفعول، وقرأ الأعرج، وابن عباس، وأبو جعفر، وأبو حيو: ﴿سَتَكُنُّ شَهَادَتُهُمْ﴾ بنون الجمع، و﴿شَهَادَتُهُمْ﴾ بالنصب، وقرأت فرقة: ﴿سَيَكُنُّ﴾ على معنى: سيكتب الله شهادتهم بالنصب، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿سَتَكُنُّ شَهَادَتُهُمْ﴾ على بناء الفعل للمفعول وجمع الشهادات، وفي قوله تعالى: ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ وعبد مفصح، و﴿أَشْهَدُوا﴾ في هذه معناه: أَحْضَرُوا؟ وليس ذلك من شهادة تحمل المعاني التي يطلب أن تؤدَّى.

ذكر الله تعالى احتجاج الكفار بمذاهبهم لبيان فساد مزاعمهم، وذلك

وقرأ نافع وحده: ﴿أَشْهَدُوا﴾ بهمزيين وبلا مد بينهما وفتح الأولى وضم الثانية وتسهيلها بين الهمزة والواو، ورواها المفضل عن عاصم بتخفيف الهمزتين، وقرأ المسيبي عن نافع بمد بين الهمزتين، وقرأ أبو عمرو، ونافع أيضاً، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد: ﴿أَوْشِهُدُوا﴾ بتسهيل الثانية بلا مد، وقرأ جماعة من القراء بتسهيل الثانية ومد بينهما، وقرأ آخرون: ﴿أَشْهَدُوا﴾ بهمزة واحدة بغير استفهام، وهي قراءة الزهري، وهي في صفة الإنثاء، أي: أشهدوا خلقهم؟ ومعنى الآية التوبيخ وإظهار فساد دعواهم وأنها مجردة من الحجة، وهذا نظير الآية الرائدة على المُتَّجِمِينَ وأهل الطبائع في قوله تعالى: ﴿مَّا

أنهم جعلوا إمهال الله تعالى لهم وإنعامه عليهم - وهم يعبدون الأصنام - دليلاً على أنه يرضى عبادة الأصنام ديناً، وذلك كالأمر به، فنفى الله تعالى عن الكفرة أن يكون لهم علم بهذا، وليس عندهم كتاب منزل يقتضي ذلك، وإنما هم يظنون ويحدثون ويخمنون، وهذا هو الخرض والتخرض.

وقرأ الجمهور: ﴿عَلَى أُمَّةٍ﴾ بضم الهمزة، وهي اليملة والديانة، والآية - على هذا - تعيب عليهم التقليد، وقرأ مجاهد، والجحدري، وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: ﴿عَلَى إِمَّةٍ﴾ بكسر الهمزة، وهي بمعنى النعمة، ومنه قول الأعشى:

وَلَا أَلَمَلِكُ الثُّغَمَانُ يَوْمَ لَقِيَهُ
بِإِمَّتِهِ يُعْطِي الْقُطُوطَ وَيَأْفُقُ
ومنه قول عدي بن زيد:

ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمَلِكِ وَالْإِ
مَّةِ وَارْتَهُمُ الْقُبُورُ
فالآية - على هذا المعنى - استمرار في احتجاجهم؛ لأنهم يقولون: وجدنا آباءنا في نعمة من الله تعالى وهم يعبدون الأصنام، فذلك دليل رضاه عنهم، وكذلك اهتدينا نحن بذلك على آثارهم، وذكر الطبري عن قوم أن «الإمَّة»: الطريقة، من قولك: أُمَمْتُ كذا إمَّةً.

ثم ضرب الله تعالى المثل لنبيه ﷺ، وجعل له الأسوة فيمن مضى من النُّذُر والرُّسُل عليهم السلام، وذلك أن المُشْرِفِينَ من قومهم - وهم أهل النعم والمال - قد قابلوهم بمثل هذه المقابلة.

وقرأ جمهور القراء: ﴿قُلْ أَوْ لَوْ﴾،

والمعنى: قُلْنَا للنذير: ﴿قُلْ أَوْ لَوْ﴾، وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿قُلْ أَوْ لَوْ﴾، ففي ﴿قَالَ﴾ ضمير يعود على النذير، وباقي الآية يدل على أن ﴿قُلْ﴾ في قراءة من قرأها ليست بأمير لمحمد ﷺ، وإنما هي حكاية لما قيل للنذير، وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَوْ﴾ هي ألف الاستفهام دخلت على واو عطفت جملة كلام على جملة متقدمة، و﴿لَوْ﴾ في هذا الموضع كأنها شرطية بمعنى «إن»، كأن معنى الآية: أَوْ إِنْ جِئْتُمْ بِبُتَيْنِ وَأَوْضَحَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُكُمْ يَصْحَبُكُمْ لَجَاجُكُمْ وَتَقْلِيدُكُمْ؟ فَأَجَابَ الْكُفَّارَ حِينَئِذٍ لِنُذْرِهِمْ: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنفَقْنَا مِنْهُمْ﴾ الآية... وعيد لقريش، وضرب مثل بمن سلف من الأمم المعدية المكذبة بأنبيائها، كما كذبت هي بمحمد ﷺ، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَوْ لَوْ جِئْتُمْ﴾، وقرأ أبو جعفر، وأبو شيخ [الهناي] وخالد: ﴿أَوْ لَوْ جِئْتُمْ﴾، وقرأ الأعمش: ﴿قُلْ أَوْ لَوْ أَوْيْتُمْ﴾.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل: والمعنى: واذكر إذ قال إبراهيم، ولما ضرب تعالى المثل لمحمد ﷺ بالنُّذُر وجعلهم أسوة له، خص إبراهيم عليه السلام بالذكر لعظم منزلته، وذكر محمداً عليه الصلاة والسلام بمنازمة إبراهيم عليه السلام لقومه، أي: فافعل أنت فعله، وتجلد تجلده، و﴿بِرَّاءٍ﴾ صفة تجري على الواحد والاثنين والجمع، كعذل وزور، وقرأ جمهور الناس: ﴿بِرَّاءٍ﴾

بفتح الباء، وقرأت فرقة: ﴿بِرَّاءٍ﴾ بضم الباء، وفي مصحف عبدالله وقراءة الأعمش: ﴿إِنِّي﴾ بنون واحدة ﴿بِرِّيَّ﴾، قال الفراء: «ومن الناس من يكتب شكل الهمزة المخففة ألفاً في كل موضع ولا يراعي حركة ما قبلها»، قال: «فربما كان خط مصحف عبدالله بألف كما في مصحف الجماعة لكن كان يلفظ بها بكسر الراء».

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ قالت فرقة: الاستثناء متصل، وكانوا يعرفون الله تعالى ويعظمونه، إلا أنهم كانوا يشركون معه أصنامهم، فكان إبراهيم عليه السلام قال لهم: أنا لا أوافقكم إلا على عبادة الله الفاطر، وقالت فرقة: الاستثناء منقطع، والمعنى: لكن الذي فطرني معبودي، وعلى هذا فلم يكونوا يعبدون الله تعالى لا قليلاً ولا كثيراً، وعلل إبراهيم عليه السلام لقومه عبادته لله تعالى بأنه الهادي المنجي من العذاب، وفي هذا استدعاء لهم وترغيب لهم في الله تعالى وتطبيع في رحمته.

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ قالت فرقة: ذلك عائد على كلمته بالتوحيد في قوله: ﴿إِنِّي بِرَّاءٌ﴾، وقال مجاهد، وقتادة، والسدي: ذلك مراد به «لا إله إلا الله»، وعاد الضمير عليها وإن كانت لم يجر لها ذكر لأن اللفظ يتضمنها، وقال ابن زيد: المراد بذلك الإسلام ولفظته، وذلك قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿زَيْنَ دُرَيْيْنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾ وقوله: ﴿إِذْ قَالَ

لَمْ رُبُّهُ أَتْلَمَ قَالَ أَتَلَمْتُ رَبِّي
الْعَلَمِينَ ﴿٣١﴾، وقوله تعالى:
﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمَسْلِينِ مِنْ قَبْلِ
وَالْعَقَبِ﴾: الذرية وولد الولد ما امتد
فرعهم.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعَ﴾
الآية... كلام متصل بما قبله لأنه
لما قال تعالى: ﴿فِي عَقِيْبِهِ﴾ وكانت
قريش من عقبه اقتضى الكلام أن
يقدر فيه: لكن هؤلاء ليسوا ممن
بقيت الكلمة فيهم بل ممتعهم،
والمعنى في الآية: بل أمهلت هؤلاء
ومتعتهم بالنعمة مع كفرهم حتى
جاءهم الحق ورسول مبين، وذلك
هو شرع الإسلام والرسول
محمد ﷺ، و﴿مَتَّعْتُ﴾ بضم التاء
هي قراءة الجمهور، وقرأ قتادة:
﴿مَتَّعْتُ﴾ بفتح التاء الأخيرة على
معنى: قل يا رب بل متعت، ورواها
يعقوب عن نافع، وقرأ الأعمش:
﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾ وهي تعضد قراءة
الجمهور، و﴿يُنِيْءُ﴾ في هذه الآية
يحتمل التعدي وترك التعدي.

ثم أخبر تعالى عنهم على جهة
التفريع بأنهم قالوا للقرآن: هذا
سحر، وأنهم كفروا به، وإنما جعلوه
بزعمهم سحراً من حيث كان عندهم
يفرق بين المرء وولده وزوجه،
فجعلوه لذلك كالسحر، ولم ينظروا
إلى الفرق في أن المفارق بالقرآن
يفارق عن بصيرة في الدين،
والمفارق بالسحر يفارق عن خلل في
دينه.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿قَالُوا﴾ لقريش، وذلك
أنهم استبعدوا أولاً أن يرسل الله

تعالى بشراً، فلما تقرّر أمر
موسى، وعيسى، وإبراهيم عليهم السلام
ولم يكن لهم في ذلك
مدفع رجعو يناقضون فيما
يخص محمداً ﷺ بعينه
فقالوا: لم كان محمداً -
عليه الصلاة والسلام - ولم
يكن نزول الشرع على
رجل من إحدى القريتين
عظيم؟ وقدر المبرد
قولهم: على رجل من
رجلين من القريتين،
والقريتان: مكة والطائف،
ورجل مكة الذي أشاروا
إليه، قال ابن عباس
رضي الله عنهما: هو

الوليد بن المغيرة المخزومي، وقال
مجاهد: هو عتبة بن ربيعة، وقال
قتادة: بلغنا أنه لم يبق فخذ من
قريش إلا ادعاه، ورجل الطائف،
قال قتادة: هو عروة بن مسعود،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
حبيب بن عبد بن عمير، وقال
مجاهد: كنانة بن عبد ياليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
إنما قصدوا إلى من عظم ذكره بالسُّن
والقِدَم؛ وإلا فرسول الله ﷺ كان
حينئذ أعظم من هؤلاء لكن لما عظم
أولئك قبل مدة النبي ﷺ وفي صباه
استمر ذلك لهم.

ثم وقف تعالى - على جهة التوبيخ
لهم - بقوله: ﴿أَمَرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ
رَبِّكَ﴾، المعنى: أعلى اختيارهم
وإرادتهم تنقسم الفضائل والمكانة
عند الله تعالى؟ و﴿الرَّحْمَةُ﴾ اسم يعمُ

وَلْيُسْوَئِهِمْ أَتُونَا وَسِرّاً عَلَيْهِمْ يَكُونُ ﴿٣٢﴾ وَزُخْرًا وَأَنْ
كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾ وَمَنْ يَفْسَحْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ يَقْضِرْ لَهُ شَيْطَانًا
فَهُوَ لَهُ فَرِينٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٥﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ نَا قَالَ بَلَغْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَنَسِ الْقَرِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَنْ نَنْفَعَكَ الْيَوْمَ
إِذْ ظَلَمْتَ أَتُفَكِّرُ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكَوْنَ ﴿٣٧﴾ أَفَأَنْتَ تَشْمِيعُ
الْأَصْمَ أَوْ تَهْدِي السَّمْعَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾
فَأَمَّا مَنْ هَبَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٣٩﴾ أَوْزَيْنَاكَ الَّذِي
وَعَدْنَاهُمْ فَأَنَّا عَلَيْنَاهُمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٠﴾ فَاسْتَسْمِعْ بِالَّذِي أَزْيَى
إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تَسْمَعُونَ ﴿٤٢﴾ وَسَمِعْنَا مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا
أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَسُلَاقِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَحْكُمُونَ ﴿٤٥﴾

٤٩٧

جميع هذا، ثم أخبر تعالى خبراً
جازماً بأنه تعالى قاسم المعاش
والدرجات في الدنيا ليسخر بعض
الناس بعضاً، المعنى: فإذا كان
اهتمامنا بهم أن نقسم الأهم
الفاني فالأخرى أن نقسم الأهم
الخطير، وفي قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ
قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَبِشَرُهُمْ﴾ تزهيد في
السعيات، وعون على التوكل
على الله تعالى، والله ذو القائل:

لَمَّا أَتَى «نحن قسمنا بينهم» زال الجرا
وقرأ الجمهور: ﴿مَبِشَرُهُمْ﴾، وقرأ
ابن مسعود، والأعمش:
﴿مَعَايِشُهُمْ﴾. وقرأ جمهور الناس:
﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين، وقرأ أبو
رجاء، وابن محيصن: ﴿سُخْرِيًّا﴾
بكسر السين، وهما لغتان في معنى
التسخير، ولا مدخل لمعنى الهُزء في
هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَمْنَعُونَ﴾، قال قتادة، والسدي: يعني الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لا شك أن الجنة هي الغاية، ورحمة الله تبارك وتعالى في الدنيا بالهداية والإيمان خير من كل مال، وهذا اللفظ تحقير للدنيا، ثم استمر القول في تحقيقها بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية، وذلك أن معنى الآية أن الله تعالى أبقي على عباده وأنعم بمرعاة بقاء الخير والإيمان وشاء حفظه على طائفة منهم بقية الدهر، ولولا كراهية أن يكون الناس كفاراً كلهم وأهل حب في الدنيا وتجرّد لها لوّسع الله تعالى على الكفار غاية التوسعة ومكّنهم من الدنيا؛ إذ حقرتها عنده تقتضي ذلك؛ لأنها لا قدر لها ولا وزن لفنائها وذهاب رسومها، فقلوه تعالى: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ معناه: في الكفر. قاله ابن عباس، وقتادة، والحسن، والسدي، ومن هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»، ثم يتركب معنى الآية على معنى هذا الحديث، واللام في قوله تعالى: ﴿لَمَن يَكْفُرْ﴾ لام الملك، واللام في قوله تعالى: ﴿إِلَهُيْنِهِمْ﴾ لام تخصيص، كما تقول: هذا الكساء لزيد لدابته، أي: هو لدابته جلس ولزيد ملك، قال المهدوي: ودلت هذه الآية على أن السقف لرب البيت الأسفل؛ إذ هو منسوب إلى البيوت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفقه واهن.

وقرأ جمهور القراء: ﴿سُقْفًا﴾ بضم السين والقاف، وقرأ مجاهد: ﴿سُقْفًا﴾ بضم السين وسكون القاف، وهذان جمعان، وقرأ ابن كثير، وأبو جعفر: ﴿سُقْفًا﴾ بفتح السين وسكون القاف على الأفراد، و«المعارج»: الأدرج التي يطلع عليها، قاله ابن عباس، وقتادة، والناس، وقرأ طلحة: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ بزيادة ياء، و﴿يَظْهَرُونَ﴾ معناه: يغلبون، ومنه حديث عائشة رضي الله تعالى عنها: (والشمس في حجرتها قبل أن تظهر)، و«السُرُرُ» جمع سرير، واختلف الناس في «الزُّخْرُف» - فقال ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي: الزُّخْرُف: الذهب نفسه، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَالْحِمْرَةَ فَإِنَّهَا مِنْ أَحَبِّ الزَّيْنَةِ إِلَى الشَّيْطَانِ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الحُسْن أحمر والشهوات تتبعه. وقال ابن زيد: الزُّخْرُف: أثاث البيت وما يتخذ له من الستور والنيماق ونحوه، وقالت فرقة: الزُّخْرُف: التزويق والنقش ونحوه من التزيين، وشاهد هذا القول ﴿حَتَّىٰ إِنَّا لَنَذِرُ الْأَرْضَ زُخْرُفَهَا وَارْبَتْكَ﴾. وقرأ جمهور القراء: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا﴾ بتخفيف الميم من [لَمَّا]، فتكون [إِنْ] مخففة من الثقيلة، واللام في [لَمَّا] داخلية لتفصيل بين النفي والإيجاب، وقرأ عاصم، وحزمة، وهشام - بخلاف عنه - والحسن،

وطلحة، والأعمش، وعيسى: ﴿لَمَّا﴾ بتشديد الميم من [لَمَّا]، ف [إِنْ] نافية بمعنى (ما)، و [لَمَّا] بمعنى (إلا)، وقد حكى سيبويه: «نشدتك إِنْ لَمَّا فعلت»، وحمله على (إلا)، وفي مصحف أبي بن كعب: «وما ذلك إِلَّا متاع الحياة الدنيا»، وقرأ أبو رجاء: ﴿لَمَّا﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم، ف [مَا] بمعنى (الذي) والعائد عليها محذوف، والتقدير: وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لِلَّذِي هو متاع الحياة الدنيا، وفي قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وعدّ كريم وتحريض على التقوى إذ في الآخرة هو الثباين في المنازل.

٣٦ - ٣٧ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَمَنْ يَغْتَسِ شَرْطِيَّةً﴾ و (عَشَا يَغْشُو) معناه: قلّ الإبصار، كالذي يعتري في الليل وكالذي هو الأغشى من الرجال، يقال: عَشَا الرجلُ يغشو عَشْواً إذا فسد بصره فلم يَرِ، أو لم يَرِ إِلَّا قليلاً، وقرأ قتادة، ويحيى بن سلام البصري: ﴿وَمَنْ يَغْشَى﴾ بفتح الشين، وهي من قولهم: غَشِيَ يَغْشَى، والأكثر عَشَا يَغْشُو، ومنه قول الشاعر:

مَتَى تَأْتِيهِ تَغْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ
تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدٍ
وفي شعر آخر:

تَجِدُ حَطْبًا جَزْلاً وَنَارًا تَأْجَجَا
وقرأ الأعمش: ﴿وَمَنْ يَغْشَى عَنِ الرَّحْمَنِ﴾، وسقط «ذَكَرَ»، فالمعنى

في الآية: ومن يقل نظره في شرع الله تعالى ويغض جفونه عن النظر في ذكر الرحمن، أي: فيما ذكر به عبادته، فالمصدر مضاف إلى الفاعل، ﴿تَقِيضُ لَمْ شَبَطْنَا﴾، أي: نُيَسَّرُ له، وهذا هو العقاب على الكفر بالختم والطبع وعدم الفلاح، وهذا كما يقال: إن الله تعالى يعاقب على المعصية بالتزويد في المعاصي، ويُجازي على الحسنات بالتزويد في الحسنات، وقد روي هذا المعنى مرفوعاً. وقرأ الجمهور: ﴿تَقِيضُ﴾ بالنون، وقرأ عاصم، والأعمش، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿يُقَيِّضُ﴾ بالياء ﴿شَبَطْنَا﴾ أي: يُقَيِّضُ الله، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يُقَيِّضُ لَهُ شَيْطَانٌ﴾ بفتح الياء الثانية وشدها ورفع النون من ﴿شَيْطَانٌ﴾.

والضمير في ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ عائد على الشياطين، وفي ﴿يَمَسُّوهُمْ﴾ عائد على الكفار، و«السَّبِيلُ» هي سبيل الهدى والفوز، والضمير في ﴿يَحْسِبُونَ﴾ للكفار، وقرأ نافع، وابن كثير، وعاصم - في رواية أبي بكر - وابن عامر، وأبو جعفر، وشيبة، وقتادة، والزهري، والجحدري: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾ على التثنية، يريد العاشي والقرين، قاله سعيد الحريري، وقتادة، وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، والحسن، وابن محيصن، والأعرج، وعيسى، والأعمش، وعاصم: ﴿جَاءَنَا﴾، يريد العاشي وحده، وفاعل [قَالَ] هو العاشي.

وقوله تعالى: ﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ يحتمل ثلاث معان: أحدها أن يريد: بُعْدُ المشرق من المغرب، فسماهما مشرقين، كما يقال: القمران، والعمران، قال الفرزدق:

.....

لَنَا قَمَرَاهَا وَالشُّجُومُ الطُّوَالُغُ
والثاني أن يريد مشرق الشمس في أطول يوم ومشرقها في أقصر يوم، فكأنه أخذ نهايتي المشرق، والثالث أن يريد: بُعْدُ المشرقين من المغربين فاكتفى بذكر المشرقين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ أَلْيَوْمَ﴾ الآية... حكاية عن مقالة تقال لهم يوم القيامة، وهي مقالة موحشة خَرَمَتْهُمُ روح التأسّي؛ لأنه يوقفهم بها على أنه لا ينفعهم التأسّي، وذلك لعظم المصيبة وطول العذاب واستمرار مدته؛ إذ التأسّي، راحة لكل مصاب في الدنيا في الأغلب، ألا ترى إلى قول الخنساء:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي
عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَسَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ
أَعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي
فهذا التأسّي قد كفاها مثونة قتل النفس، فنفى الله تعالى عنهم الانتفاع بالتأسّي، وفي ذلك تعذيب لهم ويأس من كل خير، وفاعل ﴿يَنْفَعُهُمْ﴾ الاشتراك.

وقرأ جمهور القراء: ﴿أَنْكُرُ﴾ بفتح الألف، وقرأ ابن عامر وحده:

﴿إِنْكُمُ﴾ بكسر الألف، وقد يجوز أن يكون فاعل ﴿يَنْفَعُهُمْ﴾ التَّبَرُّؤُ الذي يدل عليه قوله: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾، وعلى هذا يكون ﴿أَنْكُمُ﴾ في موضع نصب على المفعول من أجله، وتخرج الآية عن معنى نفى الأسوة.

⑩ - ⑪ تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر الله تعالى حالة الكفار في الآخرة وما يقال لهم وهم في العذاب اقتضى ذلك أن تُشفق النفوس، وأن ينظر كل سامع لنفسه ويسعى في خلاصها، فلما كانت قریش مع هذا الذي سمعت لم تزل عن غُثَّهَا وإِعْرَاضِهَا عن أمر الله تعالى رجعت المخاطبة إلى محمد ﷺ على جهة التسليّة له عنهم، وشبّههم بالصمّ والعمي إذ كانت حواسهم لا تفيد شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي صُلْبِهِ تُبَيِّنُ﴾ يريد بذلك قریشاً بأنفسهم، ولذلك لم يقل: «أر من كان»، بل جاء بالواو العاطفة كأنه تعالى يقول: «وهؤلاء»، ويؤيد ذلك أيضاً عود الضمير عليهم في قوله تعالى: ﴿فَلَنَّا يَنْتَهُمُ﴾، ولم يَجْرِ لهم ذكر إلا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ﴾ الآية... آية تتضمن وعيداً واقعاً، وذهب جمهور العلماء إلى أن الْمُتَوَعِّدِينَ هم الكفار، وأن الله تعالى أرى نبيه ﷺ الذي وعدهم في بدر والفتح وغير ذلك، وذهب

الحسن، وقتادة إلى أن المَوَّعِدِينَ هم في هذه الأمة، وأن الله تعالى أكرم نبيه ﷺ عن أن ينتقم منهم بحضرته وفي حياته فوقعت النعمة منهم بعد أن ذهب به، وذلك في الفتن الحادثة في صدر الإسلام مع الخوارج وغيرهم، وقال الحسن وقتادة: أَكْرَمَ الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ عن أن يرى في أمته ما يكره كما رأى الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم، فكانت النعمة بعد ذهابه ﷺ، وقد روي حديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَإِنَّا يَنْهَىٰ مَنِيعُونَ﴾ فقال: (يعلي بن أبي طالب)، والقول الأول في توعد الكفار أكثر.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتمسك بما جاءه من عند الله تعالى من الوحي المثلوث وغيره، والـصُّرَاطُ: الطريق وقرأ الجمهور: ﴿أَوْحَىٰ﴾ على بناء الفعل للمفعول، وقرأ الضحَّاك: ﴿أَوْحَىٰ﴾ على بناء الفعل للفاعل، أي: أَوْحَى الله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لَذِكْرُ لَكَ﴾ يحتمل أن يريد تبارك وتعالى: وإِنَّه لَشَرَفٌ وَحَمْدٌ فِي الدُّنْيَا - والقوم على هذا - قريش ثم العرب، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي، وابن زيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل، فإذا قالوا له: لِمَنْ يَكُونُ

الأمر بعدك؟ سكت، حتى إذا نزلت هذه الآية فكان إذا سُئِلَ عن ذلك قال: لقريش، فكانت العرب لا تقبل ذلك حتى قبلته الأنصار رضي الله عنهم، وروى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»**، وروى أبو موسى الأشعري عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: **«لا يزال هذا الأمر في قريش ما داموا إذا حكموا عدلوا، وإذا استُرحموا رحموا، وإذا عاهدوا وفوا، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»**، وروى معاوية أنه ﷺ قال: **«لا يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين»**، ويحتمل أن يريد تعالى: **«وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ وَالْقَوْمُ»** - على هذا - أمته بأجمعها، وهذا قول الحسن بن أبي الحسن، وقوله تعالى: ﴿رَسَوٰى تَنْتَلُوْنَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناه: عن أوامر القرآن ونواهيه، وقال الحسن بن أبي الحسن: معناه: عن شكر النعمة فيه: واللفظ يحتمل هذا كله ويعمه.

واختلف المفسرون في المراد بالسؤال في قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَلِ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ - فقالت فرقة: أراد تعالى أن أسأل جبريل عليه السلام، ذكر ذلك النقاش.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفيه بُغْدٌ، وقال ابن زيد، وابن جبير، والزهرى: أراد تعالى: وأسأل الرُّسُلَ إذا لقيتهم

ليلة الإسراء، أما إن النبي ﷺ لم يسأل الرُّسُلَ عليهم السلام ليلة الإسراء عن هذا لأنه ﷺ كان أثبت يقيناً من ذلك ولم يكن في شك، وقالت فرقة: أراد تعالى: وأسألني أو أسألنا عمن أرسلنا، والأولى - على هذا التأويل - أن يكون ﴿فَنَزَّلْنَا﴾ استفهام أمره أن يسأل به، كأن سؤاله: يا رب من أرسلت قبلي من رُسُلِكَ؟ أجعلت في رسالته الأمر بالهبة يُعبدون؟ ثم ساق السؤال محكي المعنى فردَّ المخاطبة إلى محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾، وقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وعطاء: أراد تعالى: وأسأل تُبَاعَ من أرسلنا وَحَمَلَةَ شرائعهم؛ لأن المفهوم أنه لا سبيل له إلى سؤاله الرُّسُلَ إِلَّا بالنظر في آثارهم وكتبهم وسؤال من حفظها، وفي قراءة ابن مسعود، وأبي بن كعب: ﴿وَأَسْأَلُ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ رُسُلَنَا﴾، فهذه القراءة تؤيد هذا المعنى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَلِ الْقُرْيَةَ﴾ مفهوم أنه لا يسأل إِلَّا أهلها، ومما ينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، فمفهوم أن الرُّدَّ إنما هو إلى كتاب الله تعالى وسُنة رسوله ﷺ، وأن المحاوراة في ذلك إنما هي لِتُبَاعِثَهُمْ وحفظه الشرع. وقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَ﴾ أخرج الضمير على حدٍّ من يعقل مراعاةً للفظ الآلهة.

١١ - تفسير قوله عز وجل:

هذه آية ضرب مثل وأسوة لمحمد بموسى صلى الله وسلم عليهما، ولكفار قريش بقوم فرعون وملئيه، والآيات التي أرسل بها موسى عليه السلام هي التسع وغير ذلك مما جاءت به الروايات، وخص الله تعالى الملاء بالذكر لأنهم يسدون مسد جميع الناس، ثم وصفهم تعالى بالضحك من آيات موسى عليه السلام كما كانت قريش تضحك وتسخر من أخبار محمد ﷺ.

ثم وصف تعالى صورة عرض الآيات عليهم وأنها كانت شيئاً بعد شيء، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا﴾ عبارة عن شدة موقعها في نفوسهم بجدّة أمرها وحدوثه، وذلك أن أول آية عرضها موسى عليه السلام هي العصا واليد، وكانت أكبر آية، ثم كل آية بعد ذلك تقع فتعظم عندهم لحينها وتكبر لأنهم قد كانوا أنشأوا التي قبلها بها، كما قال الشاعر:

عَلَى أَنَّهُ تَغْفُو الْكُلُومَ وَإِنَّمَا
تُوكَلُّ بِالْأَذْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي
وذهب الطبري إلى أن الآيات هنا هي الحجج والبيّنات. ثم ذكر تعالى أخذهم بالعذاب في القتل والضفادع والدّم وغير ذلك، وهذا كما أخذ قريشاً بالسنين والدخان. وقوله تعالى: ﴿لَمَّا هُمْ تَرَجَّ بِحَسَبِ مَعْتَقَدِ الْبَشَرِ وَظَنُّهُمْ، وَ﴿يَرْجَعُونَ﴾﴾ معناه: يتوبون ويقلعون.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾، جازئ أن يكون قائل ذلك من أعلمهم بكفر السحرة فيكون قوله

استهزاء وهو يعلم قدر السحر وانحطاط منزلته، ويكون قوله: ﴿عِنْدَكَ﴾ بمعنى في زعمك وعلى قولك، ويحتمل أن يكون القائل ليس من المتمردين الخذاق منهم، ويطلق لفظ الساحر لأحد وجهين: إما لأن السحر كان عند عائمهم علم الوقت، فكأنه قال: يأبها العالم، وإما لأن هذه الاسمية قد كانت انطلقت عندهم على موسى عليه السلام لأول ظهوره فاستصحبها هذا القائل في مخاطبته قلّة تحرير وغباوة، ويكون القول -

على هذا التأويل - جذاً من القائل، ويكون قوله: ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ بمعنى: إن نفعنا دعوتك، وهذا التأويل أرجح، أعني أن كلام هذا القائل مقترن بالجد. وقرأ ابن عامر وحده: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ بهاء مضمومة فقط.

ثم أخبر تعالى عنهم أنه سبحانه لما كشف عنهم العذاب نكثوا، ولو كان الكلام هزلاً من أوله لما وقع نكت.

٥١ - تفسير قوله عز وجل:

نداء فرعون يحتمل أن يكون بلسانه في نادية، ويحتمل أن يكون بأن أمر من ينادي في الناس، ومعنى هذه الحجة التي نادى بها أنه أراد أن يبين فضله على موسى عليه السلام؛ إذ هو ملك مصر وصاحب الأنهار والنعم، وموسى - عليه السلام - خامل متعلل لا دنيا له، قال: فلو أن إله موسى يكون حقاً كما يزعم لما

وَمَا يُرِيدُونَ آيَةَ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا وَآخَذْنَهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٢﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْمُغْ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ فَلَمَّا كَفَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٤﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَرُوا النَّيْلَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥٥﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَيِّتٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٦﴾ فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَرْجَلُهُ مَعَهُ الْمَلَكُ مَكَّةَ مُقَرَّبِينَ ﴿٥٧﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ، فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا أَقْوَمَ فَخَرِيقِينَ ﴿٥٨﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٦٠﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا إِلَهُنَا خَيْرٌ أَوْ هُوَ أَضَرُّهُ لَكَ الْإِجْدَالُ بَلْ هُوَ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٦٢﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٣﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَمَعْنَاهُمْ مِثْلَكِ فِي الْأَرْضِ تَخْلُفُونَ ﴿٦٤﴾

٤٩٣

ترك الأمر هكذا، ومِصْر من بحر الإسكندرية إلى أسوان بطول النيل، والأنهار التي أشار إليها هي الخلجان الكبار الخارجة من النيل، وعظمتها نهر الإسكندرية وتئيس ودمياط ونهر طولون.

وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾، قال سيبويه: [أم] هذه المعادلة، والمعنى: «أفأنت لا تبصرون أم تبصرون؟» فوضع موضع قوله: «أم تبصرون» الأمر الذي هو حقيق أن يُبصر عنده وهو أنه خير من موسى عليه السلام، و [لا] - على هذا النظر - نافية، وقالت فرقة: المعنى: أفلا تبصرون أم لا تبصرون؟ ثم اقتصر على [أم] لدلالة ظاهر الكلام على المحذوف منه، وابتدأ قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ إخباراً منه، فقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ - على هذا النظر - بمنزلة «هَلَا» و«لَوْلَا» على

إلى ذلك وأطاعوه في الكفر لفسقهم ولما كانوا بسبيله من الفساد.

و ﴿ءَاسَفُونَ﴾ معناه: أغضبونا، بلا خلاف، وإغضاب الله تعالى هو أن تعمل الأعمال الخبيثة التي تظهر من أجلها أفعاله الدالة على إرادة السوء بمن شاء، والغضب - على هذا - صفة فعل، وهو ما يتردد، فإذا كان مما ظهر من الأفعال فهو صفة فعل، وإذا رُدَّ إلى الإرادة فهو صفة ذات، وفي هذا نظر.

وقرأ جمهور القراء: ﴿سَلَفًا﴾ بفتح السين واللام، جمع سالف كحارس وحرس، والسلف هو الفارط من الأمم المتقدم، أي: جعلناهم متقدمين للأمم الكافرة عظةً ومثلاً لهم يعتبرون بهم أو يقعون فيما وقعوا فيه، ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ: «يذهب الصالحون أسلافاً»، وقوله في ولده إبراهيم عليهما السلام: «ندفته عند سلفنا الصالح عثمان بن مظعون»، وقرأ حميد الأعرج، وحمزة، والكسائي: ﴿سَلَفًا﴾ بضم السين واللام، وهي قراءة عبدالله وأصحابه، وسعيد بن عياض، وابن كثير، وهو جمع سليف، وذكر الطبري عن القاسم بن معن أنه سمع العرب تقول: مضى سليف من الناس، بمعنى السلف، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وحميد الأعرج أيضاً: ﴿سَلَفًا﴾ بضم السين وفتح اللام، كأنه جمع سُلْفَةٍ بمعنى الأمة والقطعة، والآخرُونَ هم من يأتي من البشر إلى يوم القيامة.

٥٧ - ٥٨ تفسير قوله عز وجل:

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره في تفسير

من السماء تكرمه له، وقرأ الجمهور: ﴿أَلْقَى﴾ على بناء الفعل للمفعول، وقرأ الضحاك: ﴿أَلْقَى﴾ بفتح الهمزة والقاف على بناء الفعل للمفاعل ﴿أَسَاوِرَ﴾ نصباً، وقرأ جمهور القراء: ﴿أَسَاوِرَ﴾، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿أَسَوِرَ﴾ وهي قراءة الأعرج، والحسن، وقتادة، وأبي رجا، ومجاهد، وقرأ أبي بن كعب: ﴿أَسَاوِرَ﴾، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿أَسَاوِيرَ﴾، ويقال: سَوَّارٌ وإِسَوَّارٌ لما يجعل في

الذراع من الحلي، حكى أبو زيد اللغتين، وأبو عمرو بن العلاء، وهو كالتَّسْلُبِ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والناس، وكانت عادة الرجال يومئذ خَبَسَ ذلك والتَّزَيْنَ به، و﴿أَسَاوِرَ﴾ جمع «أَسَوَارٍ». ويجوز أن يكون جمع «أَسَوِرَةٍ» كَأَسْقِيَةٍ وَأَسَاقِي، وكذلك «أَسَاوِرَةٍ» جمع «إِسَوَارٍ» والهاء في «أَسَاوِرَةٍ» عوض عن الياء المحذوفة؛ لأن الجمع إنما هو «أَسَاوِيرَ» كما في مصحف ابن مسعود، فحذفوا الياء جعلوا الهاء عوضاً منها، كما قالوا ذلك في زنادقة وبطارقة وغير ذلك، و﴿أَسَوِرَةٍ» جمع «إِسَوَارٍ». وقوله: ﴿مَقَرَّيْنِ﴾ أي: يحمونه ويشهدون له ويقيمون حجته.

ثم أخبر تعالى عن فرعون أنه استخف قومه بهذه المقالة، أي: طلب خَفَّتْهم وإجابتهم إلى غرضه، وأجابوه

وَأَنَّهُ لَعَلَّمُ السَّاعَةَ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ ۖ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُرْهُدٌ وَمُبِينٌ ۖ وَلَنَجْآءُ عِيسَى بِالْبَنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَآئِينَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ فَاتَّخَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلِيمٍ ۖ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۖ يَتَّبِعُوا لَأَمْرِي ۖ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ۖ الَّذِينَ آمَنُوا يَتَّبِعُونَكُمْ وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۖ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۖ طُفَّافٌ عَلَيْهِمْ يَصْحَافُ مِنْ ذَهَبٍ وَكَوْابٍ ۖ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَكَذَلِكَ أُعْرِضُ وَأَنْتُمْ فِيهَا تَخْلَدُونَ ۖ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۖ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ۖ

معنى التحضيض، وقالت فرقة: [أم] بمعنى «بل».

وقرأ بعض الناس: ﴿أَمَا أَنَا خَيْرٌ﴾، حكاه الفراء، وكان مجاهد يقف على [أم] ثم يبتدىء «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ»، قال قتادة: وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا﴾.

و ﴿مَهِينٌ﴾ معناه: ضعيف، وقوله: ﴿وَلَا يَكَاذِبِينَ﴾ إشارة إلى ما بقي في لسان موسى عليه السلام من أثر الجمرة، وذلك أنها كانت أحدث في لسانه عقدة، فلما دعا في أن تُحْلَلَ يُفْقَهُ قوله أجيبت دعوته، لكن بقي أثر كان البيان يقع معه، لكن فرعون عير به، وقوله: ﴿وَلَا يَكَاذِبُ﴾ يقتضي أنه كان يبين، وقرأ أبو جعفر محمد بن علي: ﴿يَبِينُ﴾ بفتح الياء الأولى. وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَى﴾ يريد:

هذه الآية أنه لما نزلت: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ الآية ونزل مع ذلك ذكر عيسى عليه السلام وحاله وكيف خلق من غير فحل، قالت فرقة: ما يريد محمد - عليه الصلاة والسلام - من ذكر عيسى إلا أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى - عليه السلام - فهذا كان صدودهم من ضربه مثلاً، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو جعفر، والأعرج، والثخفي، وأبو رجاء، وابن وثاب: ﴿يَصُدُّونَ﴾ بضم الصاد بمعنى يُعرضون، وقرأ الباقون، وابن عباس، وابن جبير، والحسن، وعكرمة: ﴿يَعْبُدُونَ﴾ بكسر الصاد بمعنى يَضُجُّون، قال ابن عباس وغيره، وأنكر ابن عباس رضي الله عنهما ضم الصاد، ورويت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال الكسائي: هما لغتان بمعنى واحد مثل يعرِشون ويعرُشون.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ ابتداء معنى ثان، وذلك أنه لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ جساء عبدالله بن الزُبَيْري ونظراؤه، فقالوا: نحن نخصم محمداً، آلهتنا خير أم عيسى؟ وعلموا أن الجواب أن يقال لهم: عيسى قالوا: وهذه آية الحصب لنا أو لكل الأمم من الكفار؟ فقال النبي ﷺ: «بل لكل من تقدم وتأخر من الكفار»، قالوا: نحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى إذ هو خير منها، وإذ قد عُبد فهو من الحَصَب إذن، فقال الله تعالى: ﴿مَا

صَرَّيْهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾، أي: ما مثّلوا لك هذا التمثيل إلا جدلاً منهم ومغالطة، ونسوا أن عيسى ﷺ لم يُعبد برضى منه ولا عن إرادة، ولا له في ذلك ذنب.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿آلِهَتُنَا﴾ بهمزة استفهام وهمزة بعدها بين بين وألف بعدها، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بهمزتين مُحَقَّقَتَيْنِ بعد الثانية ألف، وقرأ ورش عن نافع بغير استفهام: ﴿آلِهَتُنَا﴾ على مثال الخبر، وقرأ قالون عن نافع: ﴿آلِهَتُنَا﴾ بهمزة واحدة بعدها مدّة، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿خَيْرٌ أَمْ هَذَا﴾، فالإشارة إلى محمد ﷺ، وخُرِجَت هذه القراءة على التأويل الأول الذي فسرناه، وكذلك قالت فرقة ممن قرأ: ﴿آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾: إن الإرادة محمد ﷺ، وهو قول قتادة، وقال ابن زيد، والسدي: المراد بـ ﴿هُوَ﴾ عيسى عليه السلام، وهذا هو المترجح.

و «الجدال»: عند العرب: المحاورة بمغالطة أو تحقيق أو ما اتفق من القول، إنما القصد به أن يَغْلِبَ صاحبه في الظاهر لا أن يتطلّب الحق في نفسه، وروى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدال»، ثم قرأ: ﴿مَا صَرَّيْهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾، قال أبو أمامة: ورأى النبي ﷺ قوماً يتنازعون في القرآن فغضب حتى كأنما صبّ على وجهه الخل، وقال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فما ضلّ قوم إلا أوتوا

الجدل»، ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم أهل خصام ولّد.

وأخبر تعالى عن عيسى عليه السلام أنه عبد أنعم الله عليه بالثبوة والمنزلة العالية، وجعله مثلاً لبني إسرائيل، [وقوله: ﴿رَوَّيْنَاكَ﴾ الآية]، أي: لا تستغربوا أن يُخلق عيسى من غير فحل فإن القدرة تقتضي ذلك وأكثر منه.

وقوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا بَدَلًا مِّنْ بَنِي آدَمَ مَلَائِكَةً يَّسْكُنُونَ الْأَرْضَ وَيُخْلِفُونَ بَنِي آدَمَ فِيهَا﴾، وقال ابن عباس، ومجاهد: يخلف بعضهم بعضاً.

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَئِمٌّ لِلْسَّاعَةِ﴾ قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والضحاك، وابن زيد: الإشارة به إلى عيسى عليه السلام، وقالت فرقة: إلى محمد ﷺ، وقال أيضاً الحسن، وقتادة: إلى القرآن، وقرأ جمهور الناس: ﴿لَئِمٌّ﴾ بكسر العين وسكون اللام، وقرأ ابن عباس، وأبو هريرة، وقتادة، وأبو مالك الغفاري، ومجاهد، وأبو نضرة المنذر بن كعب، ومالك بن دينار: ﴿وَأَنَّهُ لَعَلِّمٌ﴾ بفتح العين واللام، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَأَنَّهُ لَلْعَلِّمِ﴾ بلامين، وقرأ أبي بن كعب: ﴿وَأَنَّهُ لَذِكْرٌ لِلْسَّاعَةِ﴾، فمن قال إن الإشارة لعيسى عليه السلام حسن مع تأويله «علّم» و«عَلِمَ»، أي: هو إشعار بالساعة وشُرْط من أسرارها، يعني خروجه في آخر الزمان،

وكذلك من قال الإشارة إلى محمد ﷺ إذ هو آخر الأنبياء عليهم السلام، فقد تميزت الساعة به نوعاً وقدراً من التمييز وبقي التحديد التام الذي انفرد الله تعالى بعلمه، ومن قال الإشارة إلى القرآن حُسْنُ قوله في قراءة من قرأ: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بكسر العين وسكون اللام، أي: يُعَلِّمُكُمْ بها وبأحوالها وصفاتها، وفي قراءة من قرأ: ﴿لَذِكْرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمَنَّكَ﴾، أي: قل لهم يا محمد: لا تشكَّنْ فيها، وقوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى الشَّرع، ثم أمره بتحذير العباد من الشيطان وإغوائه، ونَبِّههم على عداوته.

(٦٣) - (٦٨) تفسير قوله عز وجل: «الْبَيِّنَاتُ» التي جاء بها عيسى عليه السلام هي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص إلى غير ذلك، وقال قتادة: الإنجيل، و«الْحِكْمَةُ»: الثبوت، قاله السدي وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال أبو عبيدة: [بَعْضُ] بمعنى «كل»، وهذا ضعيف ترده اللغة، ولا وجه له ولا حجة من قول لييد:

.....
أَوْ يَغْتَلِقُ بَعْضَ النَّفُوسِ جَمَاهُهَا
لأنه أراد نفسه ونفس من معه، وتلك بعض النفوس، وإنما المعنى الذي ذهب إليه الجمهور أن الاختلاف بين الناس هو في أمور كثيرة لا تُحصى عدداً، منها أمور أخروية ودينية، ومنها ما لا مدخل له في الدين، فكل نبي إنما يبعث ليبين

أمر الأديان والآخرة، فذلك بعض ما يختلف فيه، وقوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ حكاية عن عيسى عليه السلام إذ أشار إلى شرعه.

و«الأحزاب» المذكورون، قال جمهور المفسرين: أراد تعالى: اختلفت بنو إسرائيل وتحزَّبوا، فمنهم من آمن به وهو قليل، وكفر الغير، وهذا إذا كان معهم حاضراً، وقال قتادة: الأحزاب هم الأربعة الذين كان لهم الرأي، والمناظرة صرفت إليهم في أمر عيسى عليه السلام، وقال ابن حبيب وغيره: الأحزاب: النصارى، اختلفت مذاهبهم فيه بعد رفعه عليه السلام، فقالت فرقة: هو الله، وهم اليعقوبية، قال الله عز وجل عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، وقالت فرقة: هو ابن الله، وهم النسطورية، فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾، وقالت فرقة: هو ثالث ثلاثة، وهم الملكانية، قال الله تعالى فيهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِكُ تَلَكُفٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُرِىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ فَيُضِلُّهُمْ وَأَمْثَلُ ذَلِكَ لِقَوْمٍ يُغْوٰى﴾، ومن تلقائهم ومن أنفسهم ثار شرهم ولم يدخل عليهم الاختلاف من غيرهم.

والضمير في ﴿يُظْهَرُونَ﴾ لقريش، والمعنى: ينتظرون، و﴿بَنَتَ﴾ معناه: فجأة دون مقدمة ولا إنذار بها، ثم وصف تعالى بعض حال القيامة وأنها - لهول مطلعها والخوف المطيف بالناس فيها - يتعادي ويتباغض كل خليل كان في الدنيا على غير تقى؛ لأنه يرى أن الضرر

دخل عليه من قِبَلِ خليله، وأما المتقون فيرون أن النفع دخل من بعضهم على بعض، هذا معنى كلام علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم.

وقوله تعالى: ﴿يَعْبَادِي﴾، المعنى: يقال لهم، أي: للمتقين، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿يَا عِبَادِي﴾ بفتح الياء، وهذا هو الأصل، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿يَا عِبَادِي﴾ بسكون الياء، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿يَعْبَادِي﴾ بحذف الياء، قال أبو علي: وحذفها أحسن لأنها في موضع تنوين وهي قد عاقبت، فكما يحذف التنوين في الاسم المفرد المنادى كذلك تحذف الياء هنا لسكونها على حرف كما أن التنوين كذلك، ولأنها لا تنفصل عن المضاف كما لا ينفصل التنوين من المثنون، وذكر الطبري عن المعتمر، عن أبيه أنه قال: سمعت أن الناس حين يُعْثون ليس منهم أحد إلا أزع، فينادي مناد: ﴿يَعْبَادِي لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فيرجوها الناس كلهم، قال: ويتبعها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، قال: فَيُنَاسُ منها جميع الكفار.

وقرأ الحسن، والزهري، وابن أبي إسحق، وعيسى بن عمر، ويعقوب: ﴿لَا خَوْفَ﴾ بنصب الفاء من غير تنوين، وقرأ ابن محيصن: ﴿لَا خَوْفَ﴾ برفع الفاء من غير تنوين.

٦٩ - ٧٢ تفسیر قوله عز وجل:

﴿الَّذِينَ﴾ نَعَتْ لِلْعِبَادِ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿يَعْبُدُونَ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى
أَمْرَهُ بِإِيْهِمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ هُمْ
وَأَزْوَاجُهُمْ، وَ﴿تُحْمَلُونَ﴾ مَعْنَاهُ:
تُحْمَلُونَ وَتُسْرَوْنَ، وَالْحَبْرَةُ وَالْحَبُورُ:
السَّرُورُ، وَ﴿الْأَكْوَابُ﴾: ضَرْبٌ مِنْ
الْأَوَانِي كَالْأَبَارِيْقِ إِلَّا أَنَّهَا لَا أَذَانَ لَهَا
وَلَا مِقَابِضَ.

وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ﴾ بإثبات الهاء الأخيرة، وكذلك في مصحف المدينة ومصاحف الشام، وقرأ الباقون، وأبو بكر عن عاصم، والجمهور: ﴿مَا تَشْتَهِي﴾ بحذف الهاء، وكذلك وقع في أكثر المصاحف، وحذفها من الصلة لطول القول حسن، وذلك كثير في التنزيل، كقوله تعالى: ﴿أَمَدًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَسَلَّمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَىٰ﴾، وغير ذلك، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّهُ الْأَعْيُنُ﴾ بالهاء فيها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْرِثُواهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ليس المعنى أن الأعمال أوجب على الله إدخالهم الجنة، وإنما المعنى أن حظوظهم منها على قدر أعمالهم، وأما نفس دخول الجنة وأن يكون المرء من أهلها ففضل الله تعالى وهداه.

٧٤ - ٨١ تفسیر قوله عز وجل:

لما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة
وما يقال لهم عقب ذلك بذكر حال

الكفرة من الخلود في النار والإبلاس؛ لِيُبَيِّنَ الفرق ولتُضَحَّحَ الأمور التي منها التَّذْأَرَةُ. و«المجرمون» في هذه الآية: الكفار؛ بدليل الخلود وما تضمنته ألفاظ الآية من مخاطبة مالك وغير ذلك، و«المُبْلِسُ»: المُبْعَدُ اليائس من الخير، قاله قتادة وغيره، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَهُمْ فِيهَا مُبْلِسُونَ﴾، أي: في جهنم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾، أي: ما وضعنا العذاب فيمن لا يستحقه، ولكن هم

ثم ذكر تعالى عن أهل النار أنهم ينادون مالك خازن النار فيقولون - على معنى الرغبة التي هي في صيغة الأمر -: ﴿يَقْنِصْ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، أي: لِيُؤْتِنَا مَدَّةً حَتَّى لَا يَتَكَرَّرَ عَذَابُنَا، وقرأ النبي ﷺ على المنبر: ﴿يَكْفِكَ﴾ بالكاف، وهي قراءة الجمهور، وقرأ ابن مسعود، ويحيى، والأعمش: ﴿يَا مَالٍ﴾ بالترخيم، ورويت عن علي رضي الله عنه، ورواها أبو الدرداء

إِنَّ الْمُتَجَرِّبِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ وَهُمْ
 فِيهِ مَبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَا ظَنَنْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾
 وَنَادَىٰ بِصَاحِبِكْ لِغُضِّ عَنَّا رُكَّ قَالَ أَتَيْتُكُمْ بِكِتَابٍ ﴿٧٩﴾ أَفَدَّ
 جِشْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرْتُمُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٠﴾ أَمْ أَتَيْتُكُمْ بِأَمْرًا
 فَإِنَّمَا تُمَيِّتُونَ ﴿٨١﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ
 وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْفُتُونَ ﴿٨٢﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلزَّخَرِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ
 الْعَالِدِينَ ﴿٨٣﴾ مَبْحَنَ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ السَّعْدِ
 عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٤﴾ فَذَرَهُمْ يَمْشُوا وَمَا يَلْبَعُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ
 الَّذِي يَوْمَعُونَ ﴿٨٥﴾ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ
 إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَدَيْهِ مَنَازِلُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَعْنَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٧﴾
 وَلَا يَعْصِيكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشُّعْنَةُ إِلَّا مَن
 شَاءَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَهُمْ
 لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَإِن يُوقَعُوكُمْ ﴿٨٩﴾ وَيَقِيلُوا بَلْ نَحْنُ وَآلَاءُ قَوْمٍ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَصْحَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ وَسَلِّمْ وَتَسْلَمُونَ ﴿٩١﴾

رضي الله عنه عن النبي ﷺ
والقضاء» - في هذه الآية - بمعنى
الموت، كقوله تعالى: ﴿فَوَكَّرْهُ مَوْتِي
فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، وروي في تفسيرها
عن ابن عباس رضي الله عنهما أن
مالكاً يقيم بعد سؤالهم ألف سنة -
وقيل: ثمانين سنة، وقال
عبدالله بن عمرو رضي الله عنه:
أربعين سنة - ثم يقول لهم:
﴿إِنَّكُمْ مَيِّتُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ﴾ الآية، يحتمل أن يكون من قول مالك لأهل النار، ويكون قوله: ﴿جِئْتَكُمْ﴾ على حد ما يُدخل أحد - حمّله الرئيس كتابه - نفسه في فعل الرئيس، فيقول: غلبناكم وفعلنا بكم ونحو هذا، ثم يقطع كلام مالك في قوله: ﴿كَرُمُونَ﴾، ويحتمل أن يكون

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ﴾، من قول الله تعالى لقريش بعقب حكاية أمر الكفار مع مالك، وفي هذا توعدٌ وتخويف فصيح، بمعنى: انظروا كيف يكون حالكم، ثم تتصل الآية - على هذا - بما بعدها من أمر قريش.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمَرْتُمُوهُمْ أَنْ يُرِيدُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، هل أحكموا أمراً من أمور مكروهم وتبديريهم على محمد ﷺ كما فعلوا في اجتماعهم على مثله في دار الندوة إلى غير ذلك، و﴿أَمْ﴾ - في هذه الآية - المنقطعة، وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّا مَبْرُؤُونَ﴾، أي: فإنا مُحْكَمُونَ نصره وحمايته، و﴿الْإِبْرَامُ﴾ أن تجمع خيطين ثم تفتلهما فتلاً متقناً، و﴿البريم﴾ خيط فيه لوان.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ﴾ الآية، قال محمد بن كعب القرظي: نزلت لأن كثيراً من العرب كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يسمع السرار، ومنه حديث الثقفى والقرشيّين الذين سمعهم ابن مسعود رضي الله عنه يقولون عند الكعبة: أترى الله يسمعنا؟ فقال أحدهم: يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا. الحديث، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه يسمع - أي: يدرك - السُّرَّ والنجوى، وأن رسله الحفظة من الملائكة يكتبون أعمال البشر مع ذلك، وتُعدُّ للجزاء يوم القيامة.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ - فقاتلت فرقة:

«العابدون» هو من العبادة، ثم اختلفوا في معنى الآية بعد ذلك - فقال قتادة، والسدي، والطبري: المعنى: قل لهم يا محمد: إن كان للرحمن ولد - كما تقولون - فأنا أول من يعبد على ذلك، ولكن ليس له شيء من ذلك تعالى وجل، قال الطبري: هذا إطفاف في الخطاب، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَوْ إِيَّاكُمْ لَكُلُّ هُنَّ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى في مخاطبة الكفار: ﴿إِنَّ شُرَكَاءَكُمُ﴾.

وقال مجاهد: المعنى: إن كان لله تعالى ولد في قولكم فأنا أول من عبد الله وحده وكذبكم، وقال قتادة أيضاً، وزهير بن محمد، وابن زيد: [إِنْ] نافية بمعنى «ما»، فكأنه تعالى قال: «قُلْ ما كان للرحمن ولد»، وهنا هو الوقف على هذا التأويل، ثم يتدىء: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾، قاله أبو حاتم، وقالت فرقة: العابدون، من عَبد الرجل إذا أنف وأنكر الشيء، قال الشاعر:

مَتَى مَا يَشَأْ ذُو الرُّؤْيِ يَضْرِبْ خَلِيلَهُ
وَيَغْبِذْ عَلَيْهِ لَا مَحَالَةَ ظَالِماً
ومنه حديث عثمان وعلي رضي الله عنهما في المرجومة حين قال علي: وحمله وفصاله ثلاثون شهراً، قال: فما عَبد عثمان أن بعث إليها لثرد، والمعنى: إن جعلتم للرحمن ولداً وكان ذلك في قولكم فأنا أول الأنفين المنكرين لذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَدٌ﴾ بفتح الواو واللام، وقرأ ابن مسعود، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش: ﴿وُلْدٌ﴾ بضم الواو وسكون اللام، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾، وهي على هذا المعنى، قال أبو حاتم: العبد - بكسر الباء - الشديد الغضب، وقال أبو عبيدة: معناه: أول الجاحدين، والعرب تقول: «عَبَدَنِي حَقِّي» أي: جحدني.

٨٢ - ٨٣ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا قَالَ: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ نَزَّهُ الرَّبُّ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْمَقَالَةِ الَّتِي قَالُوهَا، وَ﴿سُبْحَنَ﴾ تنزيه، وخصَّ السموات والأرض والعرش لأنها أعظم المخلوقات، وقوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا﴾ مهادنةً ما وترك وهي منسوخة بآية السيف، وقرأ الجمهور: ﴿حَتَّى يَلْقَؤُا﴾، وقرأ أبو جعفر، وابن محيصن: ﴿حَتَّى يَلْقَوْا﴾، وقال الجمهور: اليوم الذي توعدهم به يوم القيامة، وقال عكرمة وغيره: هو يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ آية حكم بعظمته وإخباراً بألوهيته، أي: هو النافذ أمره في كل شيء. وقرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وأبي بن كعب، والحكم بن أبي العاص، وجابر بن زيد، وأبو شيخ، وبلال بن أبي بردة، ويحيى بن يغمر، وابن السميع: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي

الْأَرْضِ اللَّهُ، وَالْحَكِيمُ: المحكم.

و ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل، من البركة، أي: تزيّدت بركاته، و ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ حصر لجميع الموجودات المحسوسة، و ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ معناه: علم تحديد قيامها والوقوف على تعيينه وحصره، وهذا هو الذي استأثر بعلمه، وإلا فنحن عندنا علم الساعة أنها واقعة ذات أهوال وصفات مآ، والمصدر في قوله تعالى: ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ مضاف إلى المفعول، وقرأ أكثر القراء: ﴿وَلِإِيَّاهِ يُزْجَعُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو: ﴿وَلِإِيَّاهِ رُجْعُونَ﴾ بالتاء من فوق مضمومة، وقرأ الأسود، والأعمش: ﴿يُخْشَرُونَ﴾ بالياء من تحت.

٨٦ - ٨٧ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ﴾ الآية مخاطبة لمحمد ﷺ، و ﴿الَّذِينَ﴾ هم المعبودون، والضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ هو للكفار الذين عبدوا غير الله تعالى، فأعلم تعالى أن كل من عُبد من دون الله فإنه لا يملك شفاعته عند الله يوم القيامة، وقرأ الجمهور: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ ابن وثاب: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتاء من فوق. ثم استثنى تعالى من هذا الإخبار، واختلف الناس في المستثنى - فقال قتادة: استثنى ممن عبد من دون الله عيسى وعزيراً والملائكة

عليهم السلام، والمعنى: فإنهم يملكون شفاعته بأن يُمَكِّنَهُم الله تعالى إياها؛ إذ هم ممن شهد بالحق وهم يعلمون في كل أحوالهم، فالاستثناء - على هذا التأويل - متصل، وقال مجاهد وغيره: استثنى في المشفوع فيهم، كأنه قال: لا يشفع هؤلاء الملائكة وعزير وعيسى إلا فيمن شهد بالحق وهم يعلمون بالتوحيد، فالاستثناء - على هذا التأويل - منفصل، كأنه تعالى قال: لكن من شهد بالحق يشفع فيهم هؤلاء، والتأويل الأول أصوب، والله تعالى أعلم.

ثم أظهر تعالى الحجة عليهم من أقوالهم وإقرارهم بأن الله تعالى هو خالقهم وموجدهم بعد العدم، ثم وقفهم - على جهة التقرير والتوبيخ - بقوله: ﴿فَأَن يُّؤْفَكُونَ﴾، أي: فلائي جهة يصرفون؟ وقرأ جمهور القراء: ﴿وَقِيلَ يَا رَبِّ﴾ بالنصب، وهو مصدر كالقول، والضمير فيه لمحمد ﷺ، وحكى مكي قولاً أنه لعيسى عليه السلام، وهو ضعيف، واختلف الناس في الناصب له - فقالت فرقة: هو معطوف على قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ وَنَجِّهِمْ﴾، وقالت فرقة: العامل فيه ﴿يَكْتُبُونَ﴾، أي: أقوالهم وأفْعَالُهُمْ وقِيلَهُ، وقالت فرقة: الناصب له ما في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ من قوة الفعل، أي: ويعلم قِيلَهُ، ونزل قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا رَبِّ﴾ بمنزلة: وشكوى محمد - عليه

الصلاة والسلام - واستغاثته من كفرهم وعُثُوبهم، وقرأ عاصم، وحزمة، وابن وثاب، والأعمش: ﴿وَقِيلَ يَا رَبِّ﴾ بالخفض عطفاً على ﴿السَّاعَةِ﴾، وقرأ الأعرج، وأبو قلابه، ومجاهد: ﴿وَقِيلَ يَا رَبِّ﴾ بالرفع على الابتداء، والخبر في قوله: ﴿يَرْفَعُ إِنَّا هُنَاكَ قَوْمٌ لَا يَرْجُونَ﴾، أي: قِيلَهُ هذا القول، أو يكون التقدير: وقِيلَهُ يَا رَبِّ مسموعٌ ومُتَقَبَّلٌ، ف ﴿يَرْفَعُ﴾ - على هذا - منصوب الموضع بـ ﴿وَقِيلَ﴾. وقرأ أبو قلابه: ﴿يَا رَبِّ﴾ بفتح الباء المشددة، وأراد: يا ربنا، على لغة من يقول: يا غلاماً، ثم حذف الألف تخفيفاً واتباعاً لِخَطِّ المصحف.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَ عَنَّهُمْ﴾ مادةً منسوخة بآية السيف، وقوله تعالى: ﴿سَلَّمَ﴾ تقديره: قل أمري سلاماً، أي: مُسَالَمَةً، وقالت فرقة: المعنى: وقل سلام عليكم على جهة المودة والملاينة، والتسخ قد أتى على هذا السلام، سواء كان تحية أو عبارة عن المودة. وقرأ جمهور القراء: ﴿يَتَلَمَّونَ﴾ بالياء، وقرأ نافع، وابن عامر - في رواية هشام عنه - والحسن، والأعرج، وأبو جعفر: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالتاء من فوق.

كامل تفسير سورة الزخرف والحمد لله رب العالمين

يتزوج ويُعْرُس وقد خرج اسمه في الموتى لأن الآجال تقطع في شعبان، وقرأ الحسن، والأعرج، والأعمش: ﴿يُفَرِّقُ﴾ بفتح الباء وضم الراء، و﴿حَكِيذٌ﴾ بمعنى: محكم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْرًا﴾ نصب على المصدر، و﴿وَمِنْ عِنْدَنَا﴾ صفة لقوله تعالى: ﴿أَمْرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِيينَ﴾ يحتمل أن يريد الرُّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويحتمل أن يريد الرحمة التي ذُكِرَ بُدْءُها على التأويل الأول نصب قوله تعالى: ﴿رَحْمَتٌ﴾ على المصدر، ويحتمل أن يكون نصبها على الحال.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ﴾، تقرير وثبيت، أي: إن كنت موقناً فهذا يكون يقينك، كما تقول لإنسان يقيم نفسه: العلم غرضك إن كنت رجلاً. وقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ رَبُّ رَبَّائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مالكم ومالك آبائكم.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾ بالرفع على القطع والاستئناف، وهي قراءة الأعرج، وابن أبي إسحق، وأبي جعفر، وشيبة. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي، بالكسر على البدل من ﴿رَبِّ﴾ المتقدم، وهي قراءة ابن محيصن، والأعمش، وأما قوله تعالى: ﴿رَبُّكَ رَبُّ رَبَّائِكُمْ﴾ فالجمهور على رفع الباء، وقرأ الحسن بالكسر، ورواه أبو موسى عن الكسائي.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إضرابٌ قبله نفياً مقدراً، كأنه يقول:

الكتاب ويحسن القسم به، ويكون الذي وقع القسم عليه ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾.

واختلف الناس في تعيين الليلة المباركة. فقال قتادة، وابن زيد، والحسن: هي ليلة القدر، وقالوا: إن كُتِبَ الله تعالى كلها إنما نزلت في رمضان، التوراة في أوله، والإنجيل في وسطه، والزبور في نحو ذلك، ونزل القرآن في آخره في ليلة القدر، ومعنى هذا النزول أن ابتداء نزوله كان في ليلة القدر، وهذا قول الجمهور، وقالت فرقة:

بل أنزله الله تعالى جملة ليلة القدر إلى البيت المعمور، ومن هناك كان جبريل عليه السلام، يتلقاه، وقال عكرمة وغيره: الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان.

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرِّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ معناه: يفصل من غيره ويتخلص، وروي عن عكرمة في تفسير هذه الآية أن الله تعالى يفصل للملائكة في ليلة النصف من شعبان، وقال الحسن، وعمر مولى غفرة، ومجاهد، وقتادة: في ليلة القدر يفصل كل ما في العام المقبل من الأقدار والآجال والأرزاق وغير ذلك، ويكتب ذلك لهم إلى مثلها من العام المقبل، قال هلال بن يساف: كان يقال: انتظروا القضاء في شهر رمضان. وروي في بعض الحديث عن النبي ﷺ أن الرجل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الدُّخَانِ

حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُنَرَّكَةٍ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفَرِّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝ يَغْشَى السَّانِ هَذَا غَدَابٌ أَلَيْسَ ۝ رَبَّنَا أَكَيْفَ عَذَابَ الْعَذَابِ ۝ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَنْ هُمُ الذَّكَرَى ۝ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۝ ثُمَّ تُنَادُوا عَنْهُمْ وَقَالُوا مَعْزُومُونَ ۝ إِنَّا كَاذِبُونَ قُلُوبًا ۝ إِنْ كُنَّا بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝ يَوْمَ يُطِشُّ الْإِنْسُ الْكُفْرَى ۝ إِنَّا مُنْذِرُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝ أَنْ أَدْرَأَ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝

٤٩٦

تفسير سورة الدخان

هذه السورة مكِّيَّة، لا أحفظ خلافاً في شيء منها.

١ - ١٠ تفسير قوله عز وجل: تقدم القول في ﴿حَمْدٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ قَسَمَ أقسم الله تبارك وتعالى به، و﴿الْمُبِينِ﴾ يحتمل أن يكون من الفعل المتعدي، أي: يبين الهدى والشرع ونحوه، ويحتمل أن يكون من غير المتعدي، أي: هو مبين في نفسه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يحتمل أن يقع القسم عليه، ويحتمل أن يكون ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ في وصف الكتاب فلا يحسن وقوع القسم عليه، وهو اعتراضٌ يتضمن تفخيم

ليس هؤلاء مَن يؤمن ولا مَن تنفعه وصاة، بل هم في شك يلعبون في أقوالهم وأعمالهم.

واختلف الناس في الدخان الذي أمر الله تعالى بارتقاؤه - فقالت فرقة منها علي بن أبي طالب، وزيد بن علي، وابن عمر، وابن عباس، وأبو سعيد الخدري، والحسن بن أبي الحسن رضي الله تعالى عنهم: هو دخان يجيء مقبل يوم القيامة، يصيب المؤمن منه مثل الزكام، وينضح رؤوس المنافقين والكافرين حتى تكون كأنها مصلية حنيذة، وقالت فرقة منها عبدالله بن مسعود، وأبو العالية، وإبراهيم النخعي: هو الدخان الذي رآه قريش حين دعا رسول الله ﷺ عليهم بسبع كسبع يوسف عليه السلام، فكان الرجل يرى من الجذب والجوع دخاناً بينه وبين الناس، وما يأتي من الآيات يقوي هذا التأويل، وقال ابن مسعود: خمس قد مضين: الدخان، والزمّام، والبطشة والقمر والرؤم، وذكر الطبري حديثاً عن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول آيات الساعة الدخان، ونزول عيسى ابن مريم، ونارٌ تخرج من قعر عدن»، وضعف الطبري سند هذا الحديث، واختار قول ابن مسعود في الدخان، ويحتمل - إن صحّ حديث حذيفة - أن يكون قد مرّ دخان، ويأتي دخان آخر.

⑪ - ⑫ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَنْشَأُ﴾ معناه: يغطّي، وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يكون إخباراً من الله تعالى كأنه

يعجب منه، على نحو من قوله تعالى لما وصف قصة الذبح: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْبَلَاءُ الْعَلِيمُ﴾، ويحتمل أن يكون ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من قول الناس، كأن تقدير الكلام: يقولون هذا عذاب أليم، ويؤيد هذا التأويل سياقة تعالى حكاية عنهم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾، وَعَلِمَ الله تبارك وتعالى أن قولهم في حال الشدة ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ إنما هو عن غير حقيقة منهم فدل على ذلك بقوله: ﴿أَفْ لَكُمْ الْذِكْرُ﴾ أي: من أين لهم أن يتذكروا وهم قد تركوا الذكرى وراء ظهورهم بأن جاءهم رسول مبين وهو محمد ﷺ فكفروا به؟ ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: أعرضوا وقالوا: إنه يُعَلِّمُ هذا الكلام الذي يتلو، وإنه مجنون. وإخباره تعالى بأنه يكشف العذاب عنهم قليلاً إخباراً عن إقامة الحجة عليهم ومبالغة في الإملاء لهم. ثم أخبر تعالى بأنهم عائدون إلى الكفر، وقال قتادة: هو توعدّ بمعاد الآخرة، ثم أخبر تعالى بأنه ينتقم منهم بسبب هذا كله في يوم البطشة، وقدم اليوم وذكره على الذي عمل فيه تهنئاً به وتخويفاً منه، والعامل فيه ﴿مُنْفِقُونَ﴾، وقد ضعف البصريون هذا من حيث هو خبر [إِنْ]، وأبعدوا أن يعمل خبرها فيما قبلها، وقالوا: العامل فعل مضمر يدل عليه ﴿مُنْفِقُونَ﴾.

واختلف الناس في يوم البطشة الكبرى - فقال ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقاتدة: هو يوم القيامة، وقال عبدالله بن مسعود، وابن عباس

أيضاً، وأبي بن كعب، ومجاهد: هو يوم بدر، وقرأ جمهور الناس: ﴿تَبِطُّشٌ﴾ بفتح النون وكسر الطاء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن بضم الطاء، وقرأ الحسن أيضاً، وأبو رجاء، وطلحة بن مصرف بضم النون وكسر الطاء، ومعناها: تُسَلِّطُ عليهم من يبطش بهم.

ثم ذكر تعالى قوم فرعون على جهة المثل لقريش، و﴿تَنَاقَّ﴾ معناه: امتحناً واختبرنا، والرسول الكريم قال قتادة: هو موسى عليه السلام، ومعنى الآية يعطي ذلك بلا خلاف، وهنا متروك يدل عليه الظاهر: تقديره: قل لهم أدوا، وهذا مأخوذ من الأداء، كأنه يقول: أن ادفعوا إليّ وأعطوني ومكنوني، واختلف المتأولون في الشيء المؤدى في هذه الآية، ما هو؟ فقال مجاهد، وابن زيد، وقاتدة: طلب منهم أن يؤدوا إلى بني إسرائيل، وإياهم أراد بقوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: اتبعوني إلى ما أدعوكم إليه من الحق، فقوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ منادى مضاف، والمؤدى هو الطاعة والإيمان والأعمال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر من شرع موسى عليه السلام أنه بُعث إلى دعاء فرعون إلى الإيمان، وأن يرسل بني إسرائيل، فلما أبى أن يؤمن بقيت المكافحة في أن يرسل بني إسرائيل، وفي إرسالهم قوله: ﴿أَنْ أَدَّوْا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾، أي: بني إسرائيل، ويقوي ذلك قوله بعد: ﴿وَإِنْ لَّزِمْتُمْ لِي فَاعْلَمُوا﴾، وهذا

وحكم عليهم بالإجرام المُضْمَن
للكفر حين يشس منهم، وهنا أيضاً
محذوف من الكلام تقديره: فقال الله
تعالى له: فَأَسْرِ بِعِبَادِي، وهذا هو
الأمر الذي أَنْفَذَهُ اللهُ تعالى إلى
موسى عليه السلام بالخروج من ديار
مصر ببني إسرائيل، وقد تقدم شرحه
وقَصَصُهُ في سورة الأنبياء عليهم
السلام وغيرها، وقرأ جمهور الناس:
﴿فَأَسْرِ﴾ موصولة الألف، وقرأ:
﴿فَأَتَرِ﴾ بقطع الألف الحسن،
وعيسى، ورويت عن أبي عمرو،
وأعلمه تعالى بأنهم مُتَّبِعُونَ، أي:
يتبعهم فرعون وجنوده.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ زَهْرًا﴾، متى قالها سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام؟ فقالت فرقة: هذا كلام متصل، إنكم مُتَّبِعُونَ وאתرك البحر إذا انفرك لك زهراً، وقال قتادة وغيره: خطوب عليه السلام به بعد أن جاز البحر وخشي أن يدخل فرعون وقومه وراءه، وأن يخرجوا من المسالك التي خرج منها بنو إسرائيل، فَهَمَّ موسى عليه السلام بأن يضرب البحر عسى أن يلتئم ويرجع إلى حاله فقيل له عند ذلك: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ زَهْرًا﴾.

واختلفت عبارة المفسرين في تفسير الرَّهْوِ - فقال مجاهد وعكرمة: معناه: يَبْسَأُ، من قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبْسَأُ﴾، وقال الضحاك بن مزاحم: معناه: دَمَأَ لَيْثًا، وقال عكرمة أيضاً: جُدْأًا، وقال ابن زيد: سهلاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: ساكنًا، أي: كما جُرْتُهُ، وهذا القول

موضع نصب، بمعنى: لا تكفروا من أجل أني أتاكم بسلطان مبين، فكأن مقصد الكلام التوبيخ، كما تقول لإنسان: لا تنضب أن الحق قليل لك.

وقوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ﴾
الآية كلام قاله موسى عليه
السلام لخوف لحقه من
فرعون وملائه، و﴿عُذْتُ﴾
معناه: استجرتُ
وتحرمت، وأدغم الذال
في التاء الأعرج، وأبو
عمرو، واختلف الناس في
قوله: ﴿أَنْ يَّؤْمِنَ﴾ - فقال
قتادة وغيره: أراد الرجم
بالحجارة المؤذي إلى

القتل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو صالح: أراد الرجم بالقول من السباب والمخالفة ونحوه، والأول أظهر؛ لأنه أُميد منه ولم يُعَدَّ من الآخر، بل قيل فيه عليه السلام وله، وقوله: ﴿تَتَوَلَّوْا إِلَيَّ﴾ معناه: تَوَلَّوْا بِي، والمعنى: تصدَّقوا، وقوله: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ مُتَّارِكَةٌ صَرِيحَةٌ، قال قتادة: أراد: خَلُّوا سَبِيلِي.

وقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ قبله
محذوف من الكلام تقديره: فما كُفِّرَ
عنه، بل تطرّفوا إليه، وعَتَزُوا عليه
وعلى دعوته فدعا ربّه، وقرأ
الحسن بن أبي الحسن، وعيسى:
﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ بكسر الألف من [إِنْ]،
على معنى: قال إِنْ، وقرأ جمهور
الناس، والحسن أيضاً: ﴿أَنَّ هَؤُلَاءِ﴾
بفتح الألف، والقراءتان حستانان،

وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتٍ بِكُم بِسُلْطَانٍ ثَبِينٍ ﴿١١﴾ وَإِنِّي عِدْتُ
بِرَبِّي وَبِكُرْآنٍ تَرْجُمُونِ ﴿١٢﴾ وَإِن لَّوَدَعْتُم أَرْضَ مَعْرُوفٍ فَإِنِّي لَذَائِقُهَا
رَيْبُهُ أَتَى حُلُوكَ قَوْمٍ تَجْرِمُونَ ﴿١٣﴾ فَأَنسِ عِبَادِي لِلْإِلَهِ أَكْثَرُ
مُتَّبِعُونَ ﴿١٤﴾ وَأَتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿١٥﴾ كَذَلِكَ
تُرْكَوْنَ فِي جَنَّتٍ وَتُحْيَوْنَ ﴿١٦﴾ وَتُزَوَّجُ وَمَقَاوِرُ كَرِيمٍ ﴿١٧﴾ وَتَعْمَلُونَ
كَأَنَّهُمْ أَفْنَاكِهِمْ ﴿١٨﴾ كَذَلِكَ وَأُورِثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٩﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ
بَيَّنَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَالِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِذْ هُوَ
كَانَ عَلَايَا مِنَ الْمُفْسِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى
الْعَالِيَةِ ﴿٢٣﴾ وَمَا أَلَيْسَتْ لَهُمْ مَآفِقُهُ بَلْكَوْا مُجِيدٌ ﴿٢٤﴾ إِن هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٢٥﴾ إِن هِيَ إِلَّا مَوَئِئَاتُ الْأَوَّلِ وَمَا
تَحْنُ بِمُتَحَرِّينَ ﴿٢٦﴾ فَأَنَّا إِنَّا بَنَاءَانِ أَكْثَرُ صَدِيدِينَ ﴿٢٧﴾ أَهْمُ
خَيْرًا مَّ قَوْمٍ تُوِّجُ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَجِينِ ﴿٢٩﴾
مَاطَلَقْنَاهُمَا لِأَيِّ آلَ الْخَقِ وَلَئِن لَّا أَعْلَمُوهُنَّ لَيَظُنُّنَّ أَنَّهْنَّ شِجْرَةٌ لَّيْلًا

قَرِيبَ نَصْ فِي أَنَّهُ إِنَّمَا يَطْلُبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَطْ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾، فَكُنِيَ عَنْهُمْ بِـ﴿عِبَادِي﴾، فَيُظْهِرُ أَنَّهُ إِيَّاهُمْ أَرَادَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿رَسُولٌ مُّيِّنٌ﴾ مَعْنَاهُ: عَلَى وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْذِيهِ إِلَى عِبَادِهِ.

١٩ - ٢٨ تفسیر قوله عز وجل:

المعنى: كانت رسالته وقوله: أَنْ
أَدُّوا وَأَلَّا تَعْلُوا، وعِبْر بالْعُلُوِّ عن
الطغيان والعُتُوِّ على الله تعالى وعلى
شرعه ورسوله. وقرأ الجمهور:
﴿إِنِّي مَكْرُومٌ﴾ بكسر الألف من
﴿إِنِّي﴾ على الإخبار المؤكد،
«السلطان»: الحُجَّة، فكأنه قال: لا
تكفروا فإن الدليل المؤدي إلى
الإيمان بَيِّن، وقرأت فرقة: ﴿إِنِّي
مَكْرُومٌ﴾ بفتح الألف، و [أَنْ] في

الأخير هو الذي تؤيده اللغة؛ فإن العيش الرّاهي هو الذي في خَفَضٍ ودَعَا وسكون، حكاة المبرد وغيره، والرّهو في اللغة هو هذا المعنى، ومنه قول عُمَيْرِ بْنِ شَيْبَةَ الْقَطَامِي: يَمْشِينَ رَهْوَاً فَلَا أَعْجَازَ خَاذِلَةً وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَكَلَّمُ. فإنما معناه: يمشين اثتاداً وسكوناً وتماهلاً، ومنه قول الآخر:

أَوْ أُمَّةٌ خَرَجَتْ رَهْوَاً إِلَى عَيْدٍ
أَي: خرجوا في سكون وتماهل، فقال لموسى عليه السلام: اترك البحر ساكناً على حاله من الافتراق ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، والرّهو من أسماء الكُرْكِيِّ الطائر، ولا مدخل له في تفسير الآية، ويشبه عندي أنه سُمِّيَ رَهْوَاً لسكونه وأنه أبدأ على تماهل.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰرُكَ﴾ الآية... قَبْلَهُ محذوف تقديره: فغرقوا وقطع الله دابرهم، ثم أخذ الله تعالى يعجب من كثرة ما تركوا من الأمور الرفيعة العظيمة في الدنيا، و﴿كَذَٰرُكَ﴾ خبر للتكثير، والجنات والعيون رُوي أنها كانت متصلة على ضفتي النيل جميعاً من رشيد إلى أسوان، وأما العيون فيحتمل أنه أراد الخلجان الخارجة: من النيل فشبهها بالعيون، ويحتمل أنه كانت تَمُّ عيون ونضبت كما يعتري في كثير من بقاع الأرض، وقرأ قتادة، ومحمد بن السميع اليماني، ونافع - في رواية خارجة عنه -: ﴿وَمَقَامٌ﴾ بضم الميم، أي: موضع

إقامة، وكذلك قرأ اليماني في كل القرآن إلا في مريم ﴿خَيْرَ مَقَامًا﴾، فكأن المعنى: كم تركوا من موضع حسن كريم في قدره ونفعه، وقرأ جمهور الناس، ونافع: ﴿وَمَقَامٌ كَرِيمٌ﴾ بفتح الميم، أي: موضع قيام، فعلى هذه القراءة قال ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير: أراد المنابر، وعلى ضم الميم في ﴿مَقَامٌ﴾ قال قتادة: أراد المواضع الحسن من المساكن وغيرها، والقول بالمنابر يهي جداً.

و «النُّعْمَةُ» - بفتح النون -: غضارة العيش ولذاعة الحياة، و«النُّعْمَةُ» - بكسر النون -: أعم من هذا؛ لأن النُّعْمَةَ بالفتح هي من جملة النعم بالكسر، وقد تكون الأمراض والآلام والمصائب نِعْمًا، ولا يقال فيها نعمة بالفتح، وقرأ أبو رجاء: ﴿وَنُفْعَةً﴾ بالنصب، وقرأ جمهور الناس: ﴿نُفْعَةً﴾ بمعنى: ناعمين، والفاكة: الطيب النفس، أو يكون بمعنى: أصحاب فاكهة كلابن وتامر، وقرأ أبو رجاء، والحسن - بخلاف عنه - وابن القعقاع: ﴿فَكِهَيْنَ﴾، ومعناه قريب من الأول، لكن الفكة يُستعمل كثيراً في المستخف المستهزئ، فكأنه ها هنا يقول: كانوا في هذه النعمة مُسْتَحْفَيْنَ بشكرها والمعرفة بحقها.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأُورِثَهَا﴾ معناه: الأمر كذلك، وسَمَاءُ وراثته من حيث كانت أشياء أناس وصلت

إلى آخرين بعد موت الأولين، وهذه حقيقة الميراث في اللغة، وربطها الشرع بالنسب وغيره من أسباب الميراث، و«الآخرون»: من مَلَكَ مصر بعد القبط، وقال قتادة: القوم الآخرون هو بنو إسرائيل، وهذا ضعيف لأنه لم يُزَوَّ في التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في شيء من ذلك الزمان ولا ملكوها قط، إلا أن يريد قتادة أنهم ورثوا نوعها في بلاد الشام، وذكر الثعلبي عن الحسن أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

نفت هذه الآية أن تكون السماء والأرض بكت على قوم فرعون، فافتضى اللفظ أن للسماء والأرض بكاء، واختلف المتأولون في معنى ذلك - فقال علي بن أبي طالب، وابن عباس، ومجاهد، وابن جبير رضي الله تعالى عنهم: إن الرجل المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض موضع عباداته أربعين صباحاً، وبكى عليه من السماء موضع صعود عمله، قالوا: فلم يكن في قوم فرعون مَنْ هذه حاله، فهذه معنى الآية. وقال السدي، وعطاء: بكاء السماء حُزْراً أطرافها، وقالوا: إن السماء احمرت يوم قتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان ذلك بكاء عليه، وهذا هو معنى الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى الجيد في الآية

أنها استعارة بارعة فصيحة تتضمن تحقير أمرهم، وأنهم لم يتغير عن هلاكهم شيء، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا كَانَ مَكْرَهُمْ لِلزُّلُومِ إِنَّهُ الْجَبَالُ﴾ على قراءة من قرأ: ﴿لِزُّوْلٍ﴾ بكسر اللام ونصب الفعل وجعل [إن] نافية، ومثل هذا المعنى النبي ﷺ: «لَا يَنْتَطِحُ فِيهَا عِزٌّ» فإنه يتضمن التحقير، لكن هذه الألفاظ هي بحسب ما قيلت فيه وهو قتل المرأة الكافرة التي كانت تؤذي النبي ﷺ، وعظم قصة فرعون وقومه يجيء بحسبها جمال الرصف وبهاء العبارة في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾، ومن نحو هذا أننعكس قول جرير:

لَمَّا أَتَى خَبَرَ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ
سُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشُوعُ
فيقال في التحقير: «مات فلان» فما خشعت الجبال» ونحو هذا، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مَاتَ مُؤْمِنٌ فِي غَرْبَةٍ غَابَتْ عَنْهُ فِيهَا بَوَاكِيهِ إِلَّا بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ»، ثم قرأ هذه الآية وقال: «إِنَّهُمَا لَا يَبْكِيَانِ عَلَى كَافِرٍ»، ومن التفخيم ببكاء المخلوقات العظام قول يزيد بن مَفْزَع:

فَالرِّيحُ تَبْكِي شَجْوَهَا
وَالْبَرْقُ يَلْمَعُ فِي الْعَمَامَةِ
وقول الفرزدق:

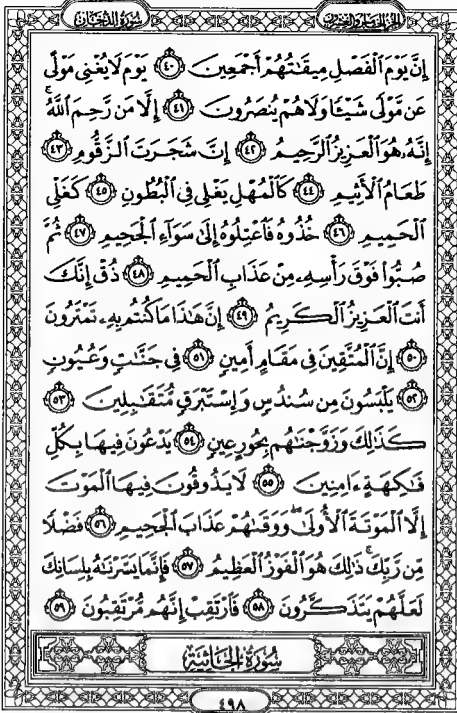
فَالشَّمْسُ طَالِعَةً لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ
تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرُ
و «مَنْظَرِينَ» معناه: مؤخرين ومهملين.

ثم ذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل في إنجائهم من فرعون وقومه، و«الْعَذَابُ الْمُهِنُ» هو ذبح الأبناء والتسخير في المهن كالبنيان والحفر ونحوه، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿مِنْ عَذَابِ الْمُهِنِ﴾ بسقوط التعريف بالألف واللام من [الْعَذَابِ]. وقوله تعالى: ﴿مِنْ رُزُقٍ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿مِنْ الْمَذَابِ﴾، و«مِنْ» بكسر الميم هي قراءة الجمهور، وروى قتادة أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقرؤها: ﴿مَنْ﴾ بفتح الميم «فِرْعَوْنُ» برفع النون.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلْرِ﴾ أي: على شيء قد سبق عندنا فيهم وثبت في علمنا أنه سينفذ، وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمَكَلِيمِ﴾ يريد: على جميع الناس، هذا على التأويل المتقدم في العلم، والمعنى: لقد اخترناهم لهذا الإنجاء وهذه النعم على سابق علم لنا فيهم، وخصصناهم بذلك دون العالم، ويحتمل قوله تعالى: ﴿عَلَى عِلْرِ﴾ أن يكون: على علم لهم وفضائل فيهم، والمعنى: اخترناهم للنبوات والرسالات، فيكون قوله تعالى: ﴿عَلَى الْمَكَلِيمِ﴾ - في هذا التأويل - معناه: على عالم زمانهم، وذلك بدليل فضل أمة محمد ﷺ لهم وعليهم، وأن أمة محمد ﷺ هي خير أمة أخرجت للناس، وقوله تعالى: ﴿وَرَأَيْنَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ لفظ جامع لمعجزات موسى عليه السلام، والعبر التي

ظهرت في قوم فرعون من الجراد والقمل والضفادع وغير ذلك، ولما أنعم به على بني إسرائيل من تظليل الغمام والمن والسلوى وغير ذلك، فإن لفظ الآيات يعُم جميع هذا. و«الْبَلَاءُ» - في هذا الموضع -: الاختبار والامتحان، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ الْفَاسِقُ مِنَ الْغَائِبَةِ وَالْخَائِرُ مِنَ الْفِتْنَةِ﴾، و«ثِيْرٌ» هنا بمعنى يَبِّن.

ثم ذكر تعالى قريشاً وحكى عنهم - على جهة الإنكار لقولهم حين أنكروا فيه ما هو جائز في العقل - فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ﴾، أي: ما آخر أمرنا ومُنْتَهَى وجودنا إلا عند موتنا، ﴿وَمَا تَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ أي: بمبعوثين، يقال: أنشَرَ الله الميت فَنَشَرَ هُوَ. وقول قريش: ﴿فَأَنَّا يَا بَنِيَّ﴾ مخاطبة للنبي ﷺ، إلا أنه من حيث كان النبي ﷺ مسنداً في أقواله وأفعاله إلى الله تعالى وبواسطة ملك خاطبوه كما تخاطب الجماعة وهم يريدونه ربه تعالى وملائكته، واستدعى الكفار في هذه الآية أن يحيي لهم بعض آبائهم - وسَمُّوا قُصْصًا - لكي يسألوهم عما رأوا في آخرتهم، ولم يستقص في هذه الآية الرَّد عليهم لبيان وإثباته في غير ما آية من كتاب الله تعالى، فإن الله تعالى قد جزم البعث من القبور في أجل مسمى لا يتعداه أحد، وقد يثبت الأمثلة من الأرض الميتة وحال النبات أَمَرَ البعث من القبور.



تكون ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَجَعُ﴾ في موضع نصب على الاستثناء المتصل، وإن كان الضمير يراد به الكفار فالاستثناء منقطع، ويصح أن يكون في موضع رفع على الابتداء والخبر مقدراً، تقديره: فإنه يغني بعضهم عن بعض بالشفاعة ونحوها، أو يكون تقديره: فإن الله ينصره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُوفِ طَعَامٌ الْأَثِيرِ﴾، روي عن ابن زيد أن ﴿الْأَثِيرِ﴾

المشار إليه هو أبو جهل، ثم هي - بالمعنى - تتناول كل أثيم وكل تاجر يكتسب الإثم، وروي عن همام أن أبا الدرداء أقرأ أعرابياً فكان يقول: «طعام اليتيم»، فرد عليه أبو الدرداء مراراً فلم يُلْقَنْ، فقال له: طعام الفاجر، فقرئت كذلك، وإنما هي على التفسير، وهي الشجرة الملعونة في القرآن، وهي تنبت في أصل الجحيم، وروي أن أبا جهل قال لما نزلت هذه الآية وأشار الناس بها إليه صنع عجوة بَزْد ثم دعا إليها ناساً فقال لهم: تَزَقَّمُوا فَإِنَّ الزقوم هو عجوة يُثْرَدُ بالزبد وهو طعامي الذي حدث به محمد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما قصد بذلك ضرباً من المغالطة والتلليس على المجلة.

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿أَهْمَ حَيَرُ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ تقرير فيه وعيد، وتُبَّعٌ ملك جُمَيْرِي، وكان يقال لكل ملك فيهم: تُبَّع، إلا أن المشار إليه في هذه الآية رجل صالح من الثَّابِغَة، قال كعب الأحبار: ذم الله تعالى قومه ولم يذمه، ونهى العلماء عن سبه، وروي عن النبي ﷺ من طريق سهل بن سعد أن تُبَّعاً هذا أسلم وآمن بالله تعالى، وروي أن ذلك كان على يد أهل كتاب كانوا بحضرته، وقال ابن عباس رضي الله عنهم: كان تُبَّع نبياً، وروي أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أدري أكان تُبَّع نبياً أو غير نبى»، وقال ابن جبير رضي الله عنه: هو الذي كسا الكعبة، وقد ذكره ابن إسحق في السيرة، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ﴾ يريد: بالكفر، وقرأت فرقة: ﴿أَنَّهُمْ﴾ بفتح الألف، وقرأ الجمهور بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية... إخبار فيه تنبيه وتحذير، وقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يريد: بالواجب المفضي إلى الخيرات وفيض الهبات. و﴿يَوْمُ الْفُضْلِ﴾ هو يوم القيامة، وهذا هو الإخبار بالبعث، وهو أمر جوَّره العقل وأثبتته الشَّرع بهذه الآية وغيرها، و«المولى» في هذه الآية يعمُّ جميع الموالى من القرابات وموالي العتق وموالي الصَّدَاقَة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ إن كان الضمير يراد به العالم فيصح أن

﴿٣٩﴾ - ﴿٤٠﴾ تفسير قوله عز وجل: قال ابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهم: «المُهْل»: دُرْدُيُّ الزيت وعكروه، وقال ابن مسعود، وابن عباس أيضاً رضي الله عنهم: «المُهْل»: ما ذاب من ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص ونحوه، قال الحسن: كان ابن مسعود على بيت المال لعمر رضي الله عنه بالكوفة، فأذاب يوماً فضةً مكسرة، فلما انماعت قال: يدخل من الباب، فدخلوا فقال لهم: هذا أشبه ما رأينا في الدنيا بالمُهْل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى أن هذه الشجرة إذا طعمها الكافر في جهنم صارت في جوفه تفعل كما يفعل المُهْل السخن من الإحراق والفساد، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم

في رواية أبي بكر: ﴿تَغْلِي﴾ بالثاء، أي: الشجرة، وهي قراءة عمرو بن ميمون، وأبي رزين، والحسن، والأعرج، وأبي جعفر، وشيبة، وابن محيصن، وطلحة. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص: ﴿يَغْلِي﴾ بالياء على معنى الطعام، وهي قراءة مجاهد، والحسن - بخلاف عنه - و﴿الْحَمِيمِ﴾: الماء السخن الذي يتطاير من غليانه.

وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ الآية - معناه: يقال يومئذ للملائكة عن هذا الأثيم: خذوه فاعتلوه، و﴿الْعُتْلُ﴾: السُّوق بمنف وإهانة ودفع قوي متصل، كما يساق أبدأ مرتكب الجرائم، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ بضم الثاء، والباقون بكسرها، وقد روي الضم عن أبي عمرو، وكذلك روي الوجهان عن الحسن، وقتادة، والأعرج، و﴿السُّوَاءُ﴾: الوسط، وقيل: المُعْظَم، وذلك متلازم، المُعْظَم أبدأ من مثل هذا إنما هو في الوسط، وفي الآية ما يقتضي أن الكافر يُصَبُّ على رأسه من حميم جهنم، وهو ما يغلي فيها من دُوب، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ ذَوْبِ رَبِّهِمْ فِي سَائِغٍ مِنْ عَذَابٍ﴾، وإلى هذا نظر بعض ولادة المدينة، فإنه كان يصب الخمر على رأس الذي شربها أو توجد عنده عقوبة له وأدباً، ذكر ذلك ابن حبيب في الواضحة.

وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْكَرِيمُ﴾، مخاطبة على معنى التقرع، ويروى عن قتادة أن

أبا جهل لما نزلت ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقْلِقِ﴾ ﴿طَلَّمَ الْأَثِيمِ﴾: أَيْتَهُدُّنِي محمد - عليه الصلاة والسلام - وأنا ما بين جَبَلَيْهَا أعزُّ مني ولا أكرم؟ فنزلت هذه الآيات وفي آخرها ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْكَرِيمُ﴾، أي: على قولك، وهذا كما قال جرير:

أَلَمْ يَكُنْ - فِي وَسْوَمْ قَدْ وَسَنْتُ بِهَا
مَنْ حَانَ - مَوْعِظَةً يَا زُهْرَةَ الْيَمَنِ؟
يقولها للشاعر الذي سَمَى نفسه به، وذلك في قوله:

أَبْلِغْ كُلَّيْنَا وَأَبْلِغْ عَنْكَ شَاعِرَها
أَنْسِي الْأَعْرُ وَأَنْسِي زُهْرَةَ الْيَمَنِ
فجاء بيت جرير على جهة الهُزُو. وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّكَ﴾ بكسر الألف، وقرأ الكسائي وحده: ﴿أَنَّكَ﴾ بفتح الألف، والمعنى واحد في المقصد وإن اختلف المآخذ إليه، ويفتح الألف قرأها على المنبر الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، أسندها إليه الكسائي وأتبعه فيها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تُنذَرُونَ﴾ عبارة عن قول يقال للكفرة عند عذابهم، أي: هذه الآخرة وجهنم التي كنتم تشكون فيها.

ثم ذكر تعالى حالة الْمُتَّقِينَ بعقب ذكر حالة الكفار ليبين الفرق، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ بضم الميم، وهي قراءة أبي جعفر، وشيبة، وقتادة، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، والحسن، والأعرج، وقرأ الباكون: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ بفتح الميم، وهي قراءة أبي رجاء،

وعيسى، ويحيى، والأعمش، و﴿أَمِينٍ﴾ معناه: تؤمن فيه الغير، فكانه فعليل بمعنى مفعول، أي: مأمون فيه، وكسر عاصم العين من ﴿وَعِثُوبٍ﴾، قال أبو حاتم: وذلك مردود عند العلماء، ومثله: ثِيُوبُ وَيُوتُ بكسر الشين والباء. و﴿السُّدُسُ﴾: رقيق الحرير، و﴿الْإِسْتَبْرَقُ﴾: خَشِيشُهُ، وقرأ ابن محيصن: ﴿وَأَسْتَبْرَقُ﴾ بالوصل وفتح القاف، وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ وصف لمجالس أهل الجنة، لأن بعضهم لا يستدبر بعضاً في المجالس.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَرَوَّجْتَهُمْ﴾ تقديره: الأمر كذلك، وقرأ الجمهور: ﴿جِينٍ﴾، وهو جمع غَيْنَاءَ، وقرأ ابن مسعود: ﴿بِجِينٍ جِينٍ﴾، وهو جمع غَيْنَاءَ، أي: بيضاء، وكذلك هي من النوق، وقرأ عكرمة: ﴿بِحُورٍ﴾ بغير تنوين في [حور]، وأضافها إلى [جِينٍ]، قال أبو الفتح: الإضافة هنا تفيد ما تفيد الصفة، وروى أبو قرصافة عن النبي ﷺ أنه قال: «إخراج القمامة من المسجد من مهوور الحور العين»، وقوله تعالى: ﴿يَتَغَوَّنَ فِيهَا﴾ معناه: يدعون الخدمة والمتصرفين.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾، قَدَّرَ قَوْمٌ ﴿إِلَّا﴾ بـ «يسوى»، وضمت ذلك الطبري وقدرها بـ «تغد»، وليس تضعيفه بصحيح، بل يصح المعنى يسوى ويتسق، وأما معنى الآية فَبَيِّنُ أَنَّهُ تعالى نفى عنهم ذوق الموت، وأنه لا ينالهم من ذلك غير ما تقدَّم في الدنيا.

والضمير في قوله تعالى: ﴿يَسَّرَهُ﴾ عائد على القرآن، وقوله: ﴿يَسَّرَ لَكَ﴾ معناه: بلغة العرب، ولم يُرد الجارحة، وقوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ معناه: فارتقب نصرنا لك إنهم مرتقبون - فيما يظنون - الدوائر عليك، وفي هذه الآية وعْدُ له ﷺ ووعدُ لهم، وفيها مُتاركة، وهذا وما جرى مجراه منسوخ بآية السيف.

كمل تفسير سورة الدخان والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الجاثية

هذه السورة مَكِّيَّة بلا خلاف في ذلك.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

تقدّم القول في الحروف المقطّعة في أوائل السور، و﴿نَزِيلٌ﴾ رفع بالابتداء أو على خبر ابتداء مضمر، و﴿الْمُرْسَلُ﴾ معناه عامٌ في شدة أخذه إذا انتقم، ودفاعه إذا حَمَى ونصر، وغير ذلك، و﴿الْمُحْكِمُ﴾: المُحْكِمُ للأشياء، وذكر تعالى الآيات التي في السموات والأرض مُجْمَلَةٌ غير مفصلة، فكانها إحالة على غوامض تشيرها الفكر، ويخير بكثير منها الشُّرْع، فلذلك جعلها للمؤمنين؛ إذ في ضمن الإيمان العقل والتصديق. ثم ذكر تعالى خلق البشر والحيوان وكأنه أغمض مما أحال عليه أولاً وأكثر تلخيصاً، فجعله للموقنين

الذين لهم نظر يؤديهم إلى اليقين في معتقداتهم، ثم ذكر اختلاف الليل والنهار والعبدة بالمطر والرياح فجعل ذلك لقوم يعقلون؛ إذ كل عاقل يحصل هذه ويفهم قدرها.

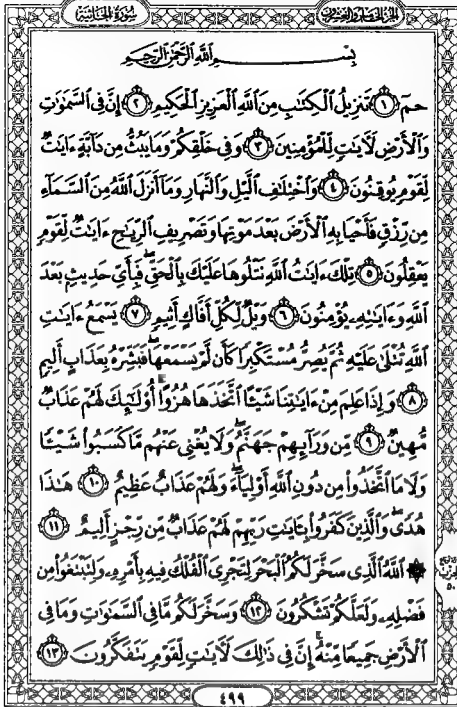
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإن كان هذا النظر ليس بلازم ولا بد فإن اللفظ يعطيه.

و﴿يَسَّرَ﴾ معناه: ينشر في الأرض، و«الدابة»: كل حيوان يدب أو يمكن فيه أن يدب، يدخل في ذلك الطير والحوث، شاهد الطير في قول الشاعر:

صَوَّاعِفُهَا لَطِيرٍ هِنْ دَبِيبٌ
وقول الآخر:

دَبِيبٌ قَطَا الْبَطْحَاءِ فِي كُلِّ مَثَلٍ
وشاهد الحوت قول أبي موسى: «وقد ألقى البحر دابةً مثل الظُّرْب»، ودواب البحر لفظ مشترك في اللغة.

وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿آيَاتٍ﴾ بالنصب في الموضعين الآخرين، وهي قراءة الجحدري، والأعمش، وقرأ الباقون والجمهور: ﴿آيَاتٍ﴾ بالرفع فيهما، فأما من قرأ: ﴿آيَاتٍ﴾ بالنصب فحمل [آيَاتٍ] في الموضعين على نصب [إِنَّ] في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ﴾، ولا يعرض في ذلك العطف على عاملين الذي لا يجيزه سيبويه



وكثير من النحويين لأننا نقدر (في) معادة في قوله تعالى: ﴿وَأَخْتَلَفَ﴾ الليل والنهار، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود: ﴿وفي﴾ اختلاف، فكانه تعالى قال - على قراءة الجمهور -: وفي اختلاف الليل، وذلك أن ذكرها قد تقدم في قول تعالى: ﴿وفي حَقِّكَ﴾، فلما تقدم ذكر الجار جاز حذفه من الثاني ويُقدَّر مثنياً، كما قدَّر سيبويه في قول الشاعر:

أَكُلُ أَمْرِي تَخْسِبِينَ أَمْرًا
وَنَارٌ تَوْقُدُ بِاللَّيْلِ نَارًا؟
أي: وكلُّ نارٍ، وكما قال الآخر:
أَوْضَيْتُ مِنْ بَرَّةٍ قَلْبًا حُرًّا
بِالْكَلْبِ خَيْرًا وَالْحَمَاءِ شَرًّا
أي: وبالحماة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الاعتراض كله إنما هو في

[آيات] الثاني؛ لأن الأول قبله حرف الجر ظاهر، وفي قراءة أبي بن كعب، وابن مسعود رضي الله عنهما في الثلاثة المواضع: «لآيات»، قال أبو علي: وهذا يدل على أن الكلام محمول على [إن] في قراءة من أسقط اللامات في الآيتين الأخيرتين.

وأما من رفع «إِنَّ» في الموضعين فوجهه العطف على موضع [إن] وما عملت فيه لأن موضعها رفع بالابتداء، ووجه آخر وهو أن يكون قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ نَفْثِكُمْ مُسْتَأْنَفًا﴾ ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة، وقال بعض الناس: يجوز أن يكون جملة في موضع الحال فلا تكون غريبة على هذا.

و «اختلاف الليل والنهار» إمّا بالثور والظلام وإمّا بكونهما خلفه، و«الرّزق المُنزّل من السماء» هو المطر، سماء رزقاً بآله لأن جميع ما يُرْتزق فَعَن المطر هو، وتصريف الرياح هو بكونها صَبًا ودبوراً وجنوباً وشمالاً، وأيضاً بكونها مرة رحمة ومرة عذاباً، قاله قتادة، وأيضاً بليتها وشِدَّتْها وحَرّها وبردها. وقرأ طلحة وعيسى: ﴿وَصَرِيحُ الرِّيحِ﴾ بالإفراد، وكذلك في جميع القرآن إلا ما كان فيه مبشرات، وخالف عيسى في الجحجر فقراً: «الرِّيحُ نَافِخٌ».

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما ذكر، وقوله: ﴿تَتْلُوهَا﴾ فيه حذف مضاف، أي: نتلوا شأنها وتفسيرها وشرح العبرة

بها، ويحتمل أن يريد بـ «آيات الله» القرآن المُنزّل في هذه المعاني، فلا يكون في ﴿تَتْلُوهَا﴾ حذف مضاف. وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه: بالصدق والإعلام بحقائق الأمور في أنفسها. وقوله: ﴿فَيَأْتِي حَديثُ﴾ الآية... توبيخ وتقريع، وفيه قوة التهديد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، وقتادة: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم أيضاً، والأعشى: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بالياء على مخاطبة الكفار، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بالياء من فوق، من اليقين.

٧ - ١١ تفسير قوله عز وجل:

«الْوَيْلُ» في كلام العرب: المصائب والحزن والهمُّ والشدة من هذه المعاني، وهي لفظة تستعمل في الدعاء على الإنسان، وروي في بعض الآثار أن في جهنم وادياً اسمه وَيْلٌ، وذهب الطبري إلى أن المراد بالآية ومقتضى اللغة أنه الدعاء على أهل الإفك والإثم بالمعاني المتقدمة. و«الْأَفَاكُ»: الكذاب الذي يقع منه الإفك مراراً. و«الْأَثِيمُ» بناءً مبالغة، اسم فاعل من: إِثِمَ يَأْثِمُ.

وروي أن سبب هذه الآية أبو جهل، وقيل: النضر بن الحارث، والصواب أن سببها ما كان المذكوران - وغيرهما - يفعلان، وأنها تعم كل من دخل تحت الأوصاف المذكورة إلى يوم القيامة.

و «يُبَيِّرُ» معناه: يثبت على عقيدته من الكفر، وقوله تعالى: ﴿فَسَيَرُ»

يَعَذِّبُ أَلِيمٌ»، حَسَنَ ذلك لما أفصح عن العذاب، ولو كانت البشارة غير مُقَيِّدة بشيء لما حملت إلا على المحاب.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ بفتح العين وتخفيف اللام، والمعنى: وإذا أخبر بشيء من آياتنا فعلم نفس الخبر لا المعنى الذي تضمنه الخبر، ولو علم المعاني التي تضمنها أخبار الشرع وعرف حقائقها لكان مؤمناً، وقرأ قتادة، ومطرز الوزاق: ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ بضم العين وتشديد اللام، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ﴾ على لفظ «لَيْكَ أَفَّاكَ» لأنه اسم جنس له الصفات المذكورة تغد.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ دَرَجَاتٍ جَهَنَّمَ﴾ قال فيه بعض المفسرين: معناه: من أمامهم، وهذا كالتخلاف الذي في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ دَرَجَاتُكُمْ مَلِكًا﴾، ولحظ قائل هذه المقالة الأمر من حيث تأول أن الإنسان كأنه من عمره يسير إلى جنة أو نار، فهما أمامه، وليس لفظ «الوراء» في اللغة كذلك، وإنما هو ما يأتي خلف الإنسان، وإذا اعتبر الأمر بالتقدم والتأخر في الوجود على أن الزمان كالطريق للأشياء استقام الأمر، فما يأتي بعد الشيء في الزمان فهو وراءه، فكان الملك وأخذ السفينة وراء ركوب أولئك إياها، وجهنم وإحراقها للكفار يأتي بعد كفرهم وأفعالهم، وهذا كما تقول: افعل كذا وأنا من ورائك عضداً، أو كما تقول ذلك على التهديد: أنا من وراء التَّقْصِي عليك، ونحو هذا. وقوله تعالى:

﴿وَلَا مَا أَخَذُوا﴾ يعني بذلك الأوثان. وقوله تعالى: ﴿هَذَا مُذُنٌ﴾ إشارة إلى القرآن، وقرأ ابن كثير، وعاصم - في رواية حفص -: ﴿أَبِيٌّ﴾ على النعت لـ ﴿عَذَابٌ﴾، وهي قراءة ابن محيصن، وابن مُطَرِّف وأهل مكة، وقرأ الباقون: ﴿أَلِيمٌ﴾ على النعت لـ ﴿زَجَرٍ﴾، وهي قراءة الحسن، وأبي جعفر، وشيبة، وعيسى، والأعمش. و«الرَّجُزُ»: أشدُّ العذاب، وقوله تبارك وتعالى: ﴿هَؤُلَاءِ عَذَابٌ﴾ بمنزلة قولك: لهم حظٌّ، فمن هذه الجهة ومن جهة تغاير اللفظتين حَسَنَ قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ مِّنْ زَجَرٍ﴾ إِذِ الرَّجُزُ هو العذاب.

﴿١٢﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية عبرة في جريان السفن في البحر، وذلك أن الله تعالى سَخَّرَ هذا المخلوق العظيم لهذا المخلوق الحقيق الضعيف، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهِ﴾، أناب القدرة والإذن مناب أن يأمر البحر والناس بذلك، و«الابتغاء» من فضل الله تعالى، هو بالسَّجَّارَةِ في الأغلب، وكذلك مقاصد البرِّ من حجٍّ وجهادٍ هي أيضاً ابتغاء فضل، والتَّصِيدُ فيه أيضاً هو ابتغاء فضل.

و«تَسْخِيرُ ما في السَّمَوَاتِ» هو تسخير الشمس والقمر والنجوم والسَّحَابِ وَالرِّيحِ وَالْهَوَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ الموكلة بهذه كلها، ويروى أن بعض الأخيار نزل به ضيف فقدم إليه رغيفاً، فكان الضيف احتقره، فقال له المضيف: لا تحتقره فإنه لم يستدر حتى سَخَّرَ فيه من المخلوقات والملائكة ثلاثمائة وستون بَيْنَ من

ذكرنا من مخلوقات السَّماءِ وبين الملائكة وبين صناع بني آدم الموصلين إلى استدارة الرُّغِيفِ. و«تَسْخِيرُ ما في الأرضِ» هو تسخير البهائم والمياه والأودية والجبال وغير ذلك.

ومعنى قوله تعالى: ﴿يَجْمَعُهُمُ إِلَيْهِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل إنعام فهو من الله تعالى، وقرأ جمهور الناس: ﴿يُنْفِثُهُ﴾ وهو وقف جيد، وقرأ مُسْلِمَةُ بن مُحَارِبٍ:

﴿يُنْفِثُهُ﴾ بفتح الميم وشُدَّ النون المضمومة، بتقدير: هو مَنَّهُ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يُنْفِثُهُ﴾ بكسر الميم وفتح النون المشددة ونصب النَّاءِ على المصدر، وقال أبو حاتم: سَنَدُ هذه القراءة إلى ابن عباس رضي الله عنهما مُظْلَمٌ، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس، وعبدالله بن عمر، والجلحدي، وعبدالله بن عُبَيْدِ بْنِ غَمَيْرٍ، وقرأ مُسْلِمَةُ بن مُحَارِبٍ أيضاً: ﴿يُنْفِثُهُ﴾ بكسر الميم وبالرفع في النَّاءِ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية نزلت في صدر الإسلام، أمر الله تعالى المؤمنين فيها أن يتجاوزوا عن الكفار، وألا يعاقبهم بذنب، بل يأخذون أنفسهم بالصبر لهم، قاله محمد بن كعب القرظي، والسدي. قال أكثر الناس: هذه آية

ثُمَّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ وَلِلَّذِينَ لَا يُرْجُونَ آيَاتَ اللَّهِ يَجْزِي قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢﴾ مِّنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلَنَقَسُوا مِنَّ شَئٍ أَتَيْنَا فِيهِمْ فَتَنًا وَإِنَّا بِنُفْسِنَا بِلِئَالِ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ وَرَفَعْنَاهُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ يَسْتَبِشِينَ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا أَخْتَلَفُوا إِلَّا يَوْمَ يَمَاجُءُ هُمُ الْمَأْمُورِينَ ﴿١٤﴾ رَبُّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِّ عَمَلِهِم مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّعَمَّهُمْ وَلَا تَنفَعُ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّهُمْ لَنُغْفِرُ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بِضَعْمِهِمْ أُولَئِكَ فِي الْمُنَاقِبِ ﴿١٧﴾ هَذَا بَصَرُ النَّاسِ وَهَدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّمَّا هُمْ وَمَا نُنْفِثُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٩﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْحَيَ وَاتَّخَذَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٠﴾

منسوخة بآية القتال، وقالت فرقة: الآية مُحْكَمَةٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية تتضمن الغفران عموماً، فينبغي أن يقال: إن الأمور العظام كالقتل والكُفْر مجاهرة ونحو ذلك قد نسخ غفرانه بآية السيف والجزية وما أحكمه الشرع لا محالة، وإن الأمور المحقرة كالجفاء في القول ونحو ذلك يحتمل أن تبقى محكمة وأن يكون العفو عنها أقرب إلى التقوى.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لَمَّا أُنْزِلَتْ ﴿ثُمَّ ذَٰلِكَ الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال فنحاص اليهودي: احتاج رب محمد، تعالى الله عز وجل عن قوله، فأخذ عمر رضي الله عنه سيفه ومَرَّ لِيَقْتُلَهُ، فردَّه رسول الله ﷺ وقال له: «إِنَّ رَبَّكَ

يقول: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا احتجاج بها مع قدم نزولها، وقد ذكر مكِّي وغيره أنها نزلت بمكة في عمر رضي الله عنه لما أراد أن يبطش بمشرك شتمه، وأما الجزم في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُوا﴾ فهو جواب شرط مقدر، وتقديره: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا، فإن يجيبوا يغفروا، وأخصر من هذا عندي أَنَّ ﴿قُلْ﴾ هي بمثابة: اندب المؤمنين إلى الغفر.

وقوله تعالى: ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ قالت فرقة: معناه: أيام إنعامه ونصره وتنعيمه في الجنة وغير ذلك، ف ﴿يَرْجُونَ﴾ - على هذا - هو على بابه، وقال مجاهد: أيام الله تعالى هي أيام نعمه وعذابه، ف ﴿يَرْجُونَ﴾ - على هذا - هي التي تنتزل منزلة «يخافون»، وإنما تنزل منزلتها من حيث الرجاء والخوف متلازمان، لا نجد أحدهما إلا الآخر معه مقترن، وقد تقدّم شرح هذا غير مرة.

وقرأ جمهور القراء: ﴿يُجْزَى﴾ بالياء على معنى: ليجزي الله، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، والأعمش، وأبو عبد الرحمن، وابن وثاب: ﴿لَيُجْزَى﴾ بالنون، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع - بخلاف عنه -: ﴿لَيُجْزَى﴾ على بناء الفعل للمجهول ﴿قَوْمًا﴾، وهذا على أن يكون التقدير: لَيُجْزَى الجزاء قوماً، وباقي الآية وعيد.

١٥ - (١٧) تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا تقرر في الآية التي قبل هذه

أن الله تعالى يجزي قوماً بكسبهم ويعاقبهم على ذنوبهم واجترامهم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ هي لام الحظ، لأن الحظوظ والمحاب إنما تستعمل فيها اللام التي هي كَلَامُ الْمَلِكِ، تقول: «الأمور لي ولزيد متأتية»، ويستعمل في ضد ذلك «عَلَى»، فتقول: «الأمور على فلان مُسْتَعَصِيَةً»، وتقول: «لَزَيْدَ مَالٌ وعليه ذنب»، وكذلك جاء العمل الصالح في هذه باللام والإساءة بِعَلَى، وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَيْبَكُمُ ثَجَّحْتُ﴾ معناه: إلى قضائه وحكمه.

والكتاب في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ هو الثوراة، والحكم هو السنة والفقه، فيقال: إنه لم يتسع فقه الأحكام على لسان نبي ما اتسع على لسان موسى عليه السلام، و«الثبوة» هي ما تكرر فيهم من الأنبياء عليهم السلام. وقوله تعالى: ﴿وَوَرِّقْتُهُمُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ يعني من المستلذات الحلال، وبهذا تتم النعمة ويحسن تعددها، وهذه إشارة إلى المن والسلوى وطيبات الشام بسعد؛ إذ هي الأرض المباركة، وقد تقدّم القول في معنى الطيبات وتلخيص قول مالك والشافعي في ذلك. وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْكَلْبِ﴾ يريد: على عالم زمانهم.

و «البيّنات من الأمر» هي الوحي الذي فصلت لهم به الأمور، ثم بين

تعالى خطأهم وعظمه بقوله تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْحَكْمُ بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾، وذلك أنهم لو اختلفوا اجتهداً في طلب الصواب لكان لهم عذر في الاختلاف، وإنما اختلفوا بغياً بينهم وهم قد تبيّنوا الحقائق، ثم توعدهم تعالى بوقف أمرهم على قضائه بينهم يوم القيامة.

١٦ - (١١) تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ثم جعلناك على شريعة فلا محالة أنه سيختلف عليك كما تقدّم لبني إسرائيل، فاتبع شريعتك، والشريعة في كلام العرب الموضع الذي يرد فيه الناس في الأنهار والمياه، ومنه قول الشاعر:

وفي الشرائع من جيلان مقتنص
رث الثياب خفي الشخص منسرب
فشريعة الدين من ذلك، كأنها من حيث يرد الناس أمر الله ورحمته والقرب منه، وقال قتادة: الشرائع: الفرائض والحدود والأمر والنهي. وقوله تعالى: ﴿مِنْ الْأَمْرِ﴾ يحتمل أن يكون واحد الأمور، أي: من دين الله تعالى وتوابعه التي بثها في سالف الزمان، ويحتمل أن يكون مصدرًا من أمر يأمر، أي: على شريعة من الأوامر والثواهي فسمى الله تعالى جميع ذلك أمراً، والذين لا يعلمون هم الكفار الذين كانوا يريدون صرف محمد ﷺ إلى إرادتهم.

و«يَتَنَزَّأ» من الغناء، أي: لن يكون لهم عنك دفاع، ثم حفر

تعالى شأن الظالمين مشيراً بذلك إلى كفار قريش، ووجه التحقير أنه تبارك وتعالى قال: وهؤلاء يتولى بعضهم بعضاً، والمتفقون يتولاهم الله تعالى، فخرجوا عن ولاية الله تعالى وتبرأت منهم، ووكل الله تعالى بعضهم إلى بعض.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يريد القرآن، و«البصائر» جمع بصيرة، وهي المعتقد الوثيق في الشيء، كأنه مصدر من إبصار القلب، فالقرآن فيه بينات ينبغي أن تكون بصائر، و«البصيرة» في كلام العرب: الطريقة من الدّم، ومنه قول الشاعر:

رَاخُوا بِصَائِرِهِمْ عَلَى أَكْثَانِهِمْ
وَبَصِيرَتِي يَغْدُو بِهَا عَتْدُ أَيَّ
وَفَسَّرَ النَّاسُ هَذَا الْبَيْتَ بِطَرِيقَةِ
الدَّمِّ؛ إِذَا كَانَتْ عَادَةُ طَالِبِ الدَّمِّ
عِنْدَهُمْ أَنْ يَجْعَلَ طَرِيقَهُ مِنْ دَمٍ
خَلْفَ ظَهْرِهِ لِيُعْلَمَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ
يُدْرِكْ ثَأْرَهُ وَأَنْ يَطْلِبَهُ، [ويظهر فيه
أنه يريد بصيرة القلب. أي: قد
أطرح هؤلاء بصائرهم وراء
ظهورهم].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الآية قول يقتضي أنه نزل بسبب افتخار كان للكفار على المؤمنين، قالوا: «لئن كانت آخره كما تزعمون لَنُفَضِّلَنَّ فِيهَا عَلَيْكُمْ كَمَا فَضَّلْنَا فِي الدُّنْيَا». و«أَمْ» هذه ليست بمعادلة، وهي بمعنى «بَلْ» مع ألف الاستفهام، و«أَجْرَحُوا» معناه: اكتسبوا، ومنه جوارح الإنسان

وجوارح الصّيد، وتقول العرب: «فلان جارحة أهله» أي: كاسيهم. وقرأ أكثر القراء: ﴿سَوَاءٌ بِالرَّفْعِ نَجَّيْهُمْ وَمَتَّأْتُهُمْ﴾ بالرفع، وهذا على أن ﴿سَوَاءٌ﴾ رفع بالابتداء، و«مُخَيَّاتُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» خبره، و«كَالَّذِينَ» في موضع المفعول الثاني لـ «نَجَّيْهُمْ» وهذا على أحد معنيين، إما أن يكون الضمير في «نَجَّيْهُمْ» يختص بالكفار المجترحين، فتكون الجملة خبراً عن أن حالهم في الزمّنين حال سوء، والمعنى الثاني أن يكون الضمير في «نَجَّيْهُمْ» يعمّ الفريقين، والمعنى أن مخيّا هؤلاء ومماتهم سواء، وهو كريم، ومخيّا هؤلاء ومماتهم سواء، وهو غير كريم، ويكون اللفظ قد لفّ هذا المعنى وذوّن السامع يُفَرِّقُهُ؛ إذ قد تقدّم إبعاد أن يجعل الله تعالى هؤلاء كهؤلاء، قال مجاهد: والمؤمن يموت مؤمناً ويُبْعَث مؤمناً، والكافر يموت كافراً ويُبْعَث كافراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: مقتضى هذا الكلام أن لفظ الآية خبر، ويظهر لي أن قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ نَجَّيْهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ داخل في المحسبة المُنْكَرَةُ السيئة، وهذا احتمال حسن، والأول أيضاً جيد. وقرأ طلحة، وعيسى - بخلاف عنه - ﴿سَوَاءٌ﴾ بالنصب «نَجَّيْهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» بالرفع، وهذا يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ﴾ في موضع المفعول الثاني لـ «نَجَّيْهُمْ» كما هو في قراءة الرّفْع،

وينصب قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ﴾ على الحال من الضمير في «نَجَّيْهُمْ»، والوجه الثاني أن يكون قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ﴾ في نيّة التأخير، ويكون قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ﴾ مفعولاً ثانياً لـ «نَجَّيْهُمْ»، وعلى كلا الوجهين: «نَجَّيْهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» مرتفع به «سَوَاءٌ» على أنه فاعل، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والأعمش: ﴿سَوَاءٌ﴾ بالنصب «نَجَّيْهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» بالنصب، وذلك على الظرف، أو على أن يكون [مُخَيَّاتُهُمْ] بدلاً من الضمير في [نَجَّيْهُمْ]، أي: نجعل محياهم ومماتهم سواء، وهذه الآية متناولة بلفظها حال العصاة من حال أهل التقوى، وهي موقف للعارفين يكون عنده، وروي عن الربيع بن خيثم أنه كان يرددّها ليلة جمعة، وكذلك عن الفضيل بن عياض، وكان يقول لنفسه: ليت شعري من أي الفريقين أنت؟ وقال الشعبي: كانت هذه الآية تسمّى مبكى العابدين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما لفظها فيعطي أنه اجترح الكفر بدليل معادلته بالإيمان، ويحتمل أن تكون المعادلة بين الاجترح وعمل الصالحات ويكون الإيمان في الفريقين، ولهذا بكى الخائفون رضي الله عنهم، وأمّا مفعولاً ﴿حَسِبَ﴾ فقوله تعالى: ﴿أَنْ نَجَّيْهُمْ﴾ يسدّ مسدّ المفعولين. وقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [مأ] مصدرية، والتقدير: ساء الحكم حكّمهم.

الخطاب أيضاً بتشديد الذال، وقرأ الأعمش: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتأني.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الآية. حكاية مقالة بعض قريش، وهذه صيغة دهرية من كفار العرب، ومعنى قولهم: ما في الوجود إلا هذه الحياة التي نحن فيها وليست ثم آخرّة ولا بقث.

واختلف المفسرون في معنى قولهم: ﴿نُتُوْا وَنَحْيَا﴾ - فقالت فرقة: المعنى: نحن موتى قبل أن نوجد ثم نحيا في وقت وجودنا. وقالت فرقة: المعنى: نموت حين نحن نطف وذم ثم نحيا بالأرواح فينا، وهذا قول قريب من الأول، ويسقط على القولين ذكر الموت المعروف الذي هو خروج الروح من الجسد، وهو الأهم في الذكر، وقالت فرقة: المعنى: نحيا ونموت، فوقع في اللفظ تقديم وتأخير، وقالت فرقة: الغرض من اللفظ العبارة عن حال النوع، فكأن النوع بجملته يقول: إنما نحن نموت طائفة وتحيا طائفة دأباً. وقولهم: ﴿وَمَا يَبْكَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: طول الزمان، وهو المهلك لأن الأوقات تستوي فيه كمالاتها، فنفي الله تعالى عنهم علمهم بهذا، وأعلم أنها ظنون منهم وتخرض يفضي بهم إلى الإشراك بالله تعالى، والدهر والزمان تستعملهما العرب بمعنى واحد، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وما يهلكنا إلا دهر يمر﴾، وقال مجاهد: الدهر هنا الزمان، وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه

قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويفارق هذا الاستعمال قول النبي ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر»، وفي حديث آخر: «قال الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار»، ومعنى هذا الحديث: فإن الله تعالى هو الذي يفعل ما تنسبونه إلى الدهر وتسبونه بسببه، وإذا تؤملت أمثلة هذا الكلام ظهرت إن شاء الله تعالى.

٢٥ - ٢٦ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائذ على كفار قريش، والآيات هي آيات القرآن وحروفه بقرينة قوله تعالى: ﴿تَتْلُو﴾، وعائذ هذه الآية سوء مقاولتهم، وأنهم جعلوا بدل الحجة التمني المتشطط والطلب لما قد حتم الله تعالى ألا يكون إلا إلى أجل مسمى.

وقرأ الحسن، وعمر بن عبد الله، وابن عامر - فيما روي عنه عبد الحميد - وعاصم - فيما روي هارون وحسين عن أبي بكر عنه -: ﴿حُجَّتْهُمْ﴾ بالرفع على اسم [كان] والخبر في [أن]، وقرأ جمهور الناس: ﴿حُجَّتْهُمْ﴾ بالنصب على خبر مقدم واسم كان في [أن].

وكان بعض قريش قد قال: اخي لنا قضيّاً - فإنه كان شيخ صدق - حتى نسأله، إلى غير ذلك من هذا النحو، فنزلت الآية في ذلك، وقيل لمحمد ﷺ: ﴿انْتَوُا﴾ من حيث المخاطبة له والمراد هو وإلهه

والمَلَك الوسيط الذي ذكر هو لهم، فجاء من ذلك جملة قيل لها: ﴿انْتَوُا﴾ و﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم بالحال السابقة في علم الله تعالى التي لا تبدل، وهي أنه يحيي الخلق ويميتهم بعد ذلك ويحشرهم بعد إمامتهم إلى يوم القيامة، وقوله سبحانه: ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أي: في نفسه وذاته، و﴿الأكثر﴾ الذي لا يعم هم الكفار، و﴿الأكثر﴾: هنا على بابه.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ قالت فرقة: العامل في [يَوْمَ] قوله تعالى: ﴿يَحْشُرُ﴾، وجاء قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلاً مؤكداً، وقالت فرقة: العامل في [يَوْمَ] فعل يدل عليه الملوك، وذلك أن يوم القيامة حال ثالثة ليست بالسماء ولا بالأرض لأن ذلك يتبدل، فكأنه تعالى قال: والله ملوك السموات والأرض والملك يوم القيامة، وينفرد ﴿يَحْشُرُ﴾ بالعمل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، و﴿الْمُطَلِّونَ﴾: الداخلون في الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَرَوَى كُلُّ انْتَوٍ حَيَاتُهُ﴾ وصف حال القيامة وهولها، و﴿الأمّة﴾: الجماعة العظيمة من الناس التي قد جمعها معنى أو وصف شامل لها، وقال مجاهد: الأمّة: الواحد من الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قيل في اللغة، وإن قيل في إبراهيم ﷺ: أمّة، وقالها النبي ﷺ في قس بن ساعدة، فذلك تجوز على جهة التشريف والتشبيه.

هَلْ وافقته أو خالفته؟
وقالت فرقة: أراد: إلى
كتابه الذي كتبه الحفظة
على كل واحد من الأمة،
فباجتماع ذلك قيل له:
كتابه، وهنا محذوف يدل
عليه الظاهر، تقديره:
فيقال لهم: ﴿الْيَوْمَ
نُجْزِيكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا
كِتَابُنَا﴾ يحتمل أن تكون
الإشارة إلى الكتب
المنزلة، أو إلى اللوح
المحفوظ، قال مجاهد،
ومقاتل: يشهد بما سبق
فيه من سعادة أو شقاء،
ويحتمل أن تكون إلى
كُتب الحفظة، وقال ابن قتيبة: هي
إلى القرآن.

واختلف الناس في قوله تعالى:
﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ - فقالت فرقة:
معناه: نكتب، وحقيقة النسخ وإن
كانت أن يُنقل خط من أصل يُنظر فيه
فإن أعمال العباد هي في هذا التأويل
كالأصل، فالمعنى: إِنَّا كُنَّا نَقِيدُ كل
ما عملتم، وقال الحسن: هو كتب
الحفظة على بني آدم، وروى ابن
عباس رضي الله عنهما وغيره أن الله
يأمر بعرض أعمال العباد كل يوم
خميس فيُنقل من الصحف التي ترفع
الحفظة كل ما هو مُعد أن يكون عليه
ثواب أو عقاب، ويُلغى الباقي،
قالت فرقة: فهذا هو النسخ من
أصل، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما أيضاً: معنى هذه
الآية أن الله تعالى يجعل الحفظة

تنسخ من اللوح المحفوظ كل ما
يفعله العباد ثم يُمسكونه عندهم،
فتأتي أفعال العباد على نحو ذلك
فَيُقَيَّدُ أيضاً، فذلك هو الاستنساخ،
وكان ابن عباس رضي الله عنهما
يقول: أَلَسْتُمْ عرباً؟ وهل يكون
الاستنساخ إلا من أصل؟

﴿٣٠﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:
ذكر الله تبارك وتعالى حال
الطائفتين من المؤمنين والكافرين،
وفرق بينهم في الذكر ليبين الأمر في
نفس السامع، فإن الأشياء تبيّن بذكر
أصداها معها، و«الفوز» هو نيل
البُغية.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَفْزَرُ
تَكْفُرًا﴾ [فيه محذوف] فإن التقدير
فيه: وأما الذين كفروا فيقال لهم:
ألم تكن...، فحذف «يُقَالُ لهم»
اختصاراً وبقيت الفاء دالة على
الجواب الذي تطلبه «أما»، ثم قدم
عليها ألف الاستفهام من حيث له
صدر القول على كل حالة،
ووقف الله تعالى الكفار على
الاستكبار لأنه من شر الخلال.

وقرأ حمزة وحده: ﴿وَالسَّاعَةَ﴾
بالنصب عطفاً على قوله تعالى:
﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾، ورويت عن أبي عمرو،
وعيسى، والأعمش. وقرأ ابن
مسعود: ﴿حَقٌّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ
فِيهَا﴾، وكذلك قرأ أيضاً الأعمش.
وقرأ الباقون: ﴿وَالسَّاعَةَ﴾ رفعا،
ولذلك وجهان، أحدهما الابتداء
والاستئناف، والثاني العطف على
موضع [إِنَّ] وما عملت فيه؛ لأن
التقدير: «وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ»، قاله أبو
علي في الحُجَّة، وقال بعض النحاة:

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَدَّاكُمْ سَيَّاتٍ مَا عَمِلُوا وَأَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَعِشُونَ ﴿٣٠﴾
وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَفَسْنَا نُوحًا وَفَارُكًا وَهُوَ السَّارُومَا
لَكُمُنَّ نَصِيرِينَ ﴿٣١﴾ تَذَكَّرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي دُونِ السَّاعَةِ كَمَا كَانُوا
فِي الدُّنْيَا قَالُوا لَوْلَا جُزْءُ مَا كَانُوا يَعِشُونَ ﴿٣٢﴾
فَلِلَّهِ الْمُنْدَرِبُ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَهُ
الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٤﴾

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿٣٠﴾ تَزِيلُ الْكُتُبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٣١﴾ مَا خَلَقْنَا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ
كَفَرُوا عَمَّا أُذُنُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ
أَتُنْثِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُونَ مِنْ عِلْمٍ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٣٣﴾ وَمَنْ أَسْأَلَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ
لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ آيَاتِهِ غَفْلُونَ ﴿٣٤﴾

٥٠٢

و ﴿حَاقَّةٌ﴾ معناه: على الركب،
قاله مجاهد والضحاك، وهي هيئة
المنذوب الخائف المعظم، وفي
حديث: «فجثا عمر رضي الله عنه
على ركبتيه»، وقال سلمان الفارسي
رضي الله عنه: في القيامة ساعة قدر
عشر سنين، يخر الجميع فيها جثاة
على الركب.

وقرأ جمهور الناس: ﴿كُلُّ أَثَرٍ نَدَعَى
إِلَى كَيْفِهَا﴾ بالرفع على الابتداء، وقرأ
يعقوب: ﴿كُلُّ أَمَةٍ نَدَعَى﴾ بالنصب
على البديل من ﴿كُلُّ﴾ الأولى، إذ
في ﴿كُلُّ﴾ الثانية إيضاح موجب
الجثو، وقرأ الأعمش: ﴿وَتَرَى كُلَّ
أَمَةٍ جاثية نَدَعَى﴾ بإسقاط ﴿كُلِّ
أَمَةٍ﴾ الثانية.

واختلف المتأولون في قوله تعالى:
﴿إِلَى كَيْفِهَا﴾ - فقالت فرقة: أراد:
إلى كتابها المُنْزَل عليها فتحاكم إليه،

لا يعطف على موضع «إِنَّ» إلا إذا كان العامل الذي عطفته «إِنَّ» نافية، وكذلك هو على موضع الباء في قوله:

فَلَسْنَا بِالْجَبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ
فلما كانت «ليس» نافية جاز العطف
على الموضع قبل دخول الباء،
ويظهر نحو هذا النظر من كتاب
سيبويه، ولكن قد ذكرنا ما حكى أبو
علي وهو القدوة. وقولهم: ﴿إِنْ
نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ معناه: إِنْ نَظُنُّ بَعْدَ
قبول خبركم إِلَّا ظَنًّا، وليس يعطينا
يقيناً.

وقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَا لَكُمْ﴾ الآية ...
 حكاية حال يوم القيامة، و﴿رَفَاعًا﴾
 معناه: نزل وأحاط، وهي مستعملة
 في المكروه، وفي قوله تعالى: ﴿مَّا
 كَانُوا﴾ حذف مضاف تقديره: جزاء
 ما كانوا، أي: عقاب كونهم
 يستهزون.

﴿٢٤﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
﴿تَسْكُرُوا﴾ معناه: نثرُكُمْ كما
تركتم لقاء يومكم هذا، فلم يقع
منكم استعداد له ولا تأهب، فسميت
العقوبة في هذه الآية باسم الذنب،
و«المأوى»: الموضع الذي يسكنه
الإنسان ويكون فيه عامة أوقاته أو
كلها أجمع، و«آيات الله» لفظ جامع
لآيات القرآن وللأدلة التي نصبها الله
تعالى لينظر فيها العباد.

وقرأ أكثر القراء: ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾
بضم الباء المنقوطة من تحت وفتح
الراء، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن
وثاب، والأعمش، والحسن: ﴿لَا
يُخْرَجُونَ﴾ بإسناد الفعل إليهم بفتح

البياء وضم الراء .
 ﴿يُسْتَعْبَوْنَ﴾ : تُطْلَبُ
 منهم مراجعة إلى عمل
 صالح .

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخر السورة تحميداً له تعالى وتحقيقاً لألوهيته، وفي ذلك كسر للأمر الأصنام والأنصاب. وقرءاة الناس: ﴿رَبِّ﴾ بالخفض في الثلاثة على الصفة، وقرأ ابن محيصن بالرفع فيها، على معنى: هُوَ رَبُّ، و«الكُبرياء» بناءً مبالغة، وفي الحديث: «يقول الله تعالى: الكبرياء رداً لي، والعظمة لإزاري،

فمن نازعني شيئاً منهما قصصته.

كامل تفسیر سورة البجائية والحمد لله
رب العالمين

تفسير
سورة الأحقاف

هذه السورة مكية، لم يختلف فيها إلا في آيتين: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْآيَةُ، ووقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرِ أَوَّلُوا الْقُرْآنِ مِنَ الْكُفْلِ﴾ الآية، فقال بعض المفسرين: هاتان الآيتان مدينتان وُضعتا في سورة مكية.

١ - ٦ تفسير قوله عز وجل:
تقدم القول في الحروف المقطعة
التي في أوائل السور، ﴿نَزِيلٌ﴾ رفع

وَأَذْخِرَ النَّاسَ كَأَوَّلَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَوْمَ الْقِيَامِ وَكُفِّرُوا بَعْدَ ذَلِكَ عَذَابُهُمْ ۝١٠ هُوَذَا نَحْنُ عَلَيْهِمْ بِأَبْنَاءَ يَنْتَوَيْتُمْ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْحَقِّ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى هَؤُلَاءِ سَعَوْتُمْ بِبَيْتِهِ ۝١١ أَفَتَقُولُونَ أَفَقَدْ مَلَإَ أَرْضَنَا قَوْمَهُمْ فَلَا تَحْكُمُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ فِيهِ كَذَّبُوا بِهِ شَبْهًا يَبْئُتِي وَيَنْتَكِرُ هُوَ أَفْهَقُ الرَّجِيمِ ۝١٢ قُلْ مَا كُنْتُمْ بِذُعَائِهِمْ الرُّسُلُ وَمَا أَدْرَايُ مَا تَفْعَلُونَ وَلَا يَحْكُمُ النَّبِيُّ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَّا أَنْزَارٌ مِنْ رَبِّهِ ۝١٣ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِمْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مَوْلَايَ فَتَنَّمْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَإِهْدِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٤ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتُّوَكَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْدِئُوا بِهِمْ فَسَبِقُونِ هَذَا أَفَنْتُمْ قَوْلَهُمْ ۝١٥ وَمِنْ قَبْلِهِ كَذَّبَ مُوسَىٰ إِمَامًا رَحْمَةً وَهَذَا كَذَّبَ مُصَدِّقًا لِمَا بَعَثَ فِيهِ مِنْ رُسُلِهِ ۝١٦ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا فَلَا حُكْمَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْكُمُونَ ۝١٧ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٨

بالابتداء، أو خبر ابتداء مضمّر،
 ﴿وَالْكِتَابُ﴾: القرآن، والْعِزَّةُ
 والإحكام صفتان مقتضيتان أن من
 هما له غالب كل من حادّه.

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّكَوَاتِ﴾ الآية.. موعظةٌ وزجرٌ، أي: فاشهدوا أيها الناس وانظروا ما يراد بكم ولِمَ خَلَقْتُمْ، وقوله: ﴿إِلَّا بِأَلْفَاظٍ﴾ معناه: إلا بالواجب الحسن الذي قد حق أن يكون، وبأجل مُسَمًّى، وقُتْنَاهُ وجعلناه موعداً لفساد هذه البنية، وذلك هو يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿عَمَّا أَثِرُوا مُعْرِضُونَ﴾، [مَا] مصدرية، والمعنى: على الإنذار، ويحتمل أن تكون [مَا] بمعنى الذي، والتقدير: عن ذكر الذي أُنذروا به والتحفُّظ منه، ونحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ يحتمل

﴿أَرَيْتُمْ﴾ وجهين: أحدهما أن تكون متعدية و [مأ] مفعول بها، ويحتمل أن تكون مُتَبَّهَةٌ لا تتعدى، و تكون [مأ] استفهاماً على معنى التوبيخ. و ﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تعبدون، قال الفراء: وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿مَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَنْ أَرْضٍ﴾ [مِنْ] للتبويض؛ لأن كل ما على وجه الأرض من حيوان ونحوه فهو من الأرض، ثم وقفهم تعالى على السموات، هل لهم فيها شرك؟ ثم استدعى تعالى منهم كتاباً منزلاً قبل القرآن يتضمن عبادة صنم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَتَاكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ معناه: أو بقية قديمة من علم أحد العلماء تقتضي عبادة الأصنام، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَوْ أَتَاكُمْ﴾ على المصدر كالشجاعة والسماحة، وهي البقية من الشيء وكأنها أثره، وقال الحسن بن أبي الحسن: المعنى: من علم تستخرجونه فتثيرونه، وقال مجاهد: المعنى: هل من أحد يَأْتِرُ علماً في ذلك، أي: ينقله، وقال القُرطبي: هو الإسناد، ومن ذلك قول الأعشى:

إِنْ أَلْزَمِي فِيهِ تَمَازُتُ مَا
بُيِّنَ لِلسَّامِعِ وَالْأَثَرِ

أي: وللمُشِيدِ عن غيره، ومنه قول عمر رضي الله عنه: «فَمَا خَلَفْتُ بِهَا ذَاكراً ولا أثراً»، وقال أبو سلمة بن عبدالرحمن، وقتادة: المعنى: أو خاصة من علم، فاشتقاقها من الأثرة، كأنه قد أثر الله تبارك وتعالى بها من هي عنده، وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: المراد

بالأثرة الخَطُّ في التراب، وذلك شيء كانت العرب تفعله وتتكهَّن به وتزجر، وهذا من البقية والأثر، وروي عن النبي ﷺ أنه سئل عن ذلك فقال: «كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخْطُ، فَمَنْ وافق خطه فذاك»، ظاهر هذا الحديث يُقَوِّي أمر الخَطِّ في التراب، وأنه شيء له وجه إذا وُفِّقَ أحد إليه، هكذا تأوله كثير من العلماء، وقالت فرقة: بل معناه الإنكار، أي: أنه كان من فعل نبي قد ذهب وذهب الوحي إليه والإلهام في ذلك، ثم قال: «فَمَنْ وافق خطه»، على جهة الإبعاد، أي: إن ذلك لا يمكن مِنْ لَيْسَ بِنَبِيٍّ مُيسَّرٍ لذلك، وهذا كما يسألك أحد فيقول: أيطير الإنسان؟ فتقول: إنما يطير الطائر، فمن كان له من الناس جناحان طار، أي: ذلك لا يكون.

والأثرة تستعمل في بقية الشرف، فيقال: إن لبنى فلان أثرة من شرف؛ إذا كانت عندهم شواهد قَدِيمَةٍ، وتستعمل في غير ذلك كقول الراعي:

وَذَاتِ أَثَرَةٍ أَكَلْتُ عَلَيْهَا
نَبَاتاً فِي أَكْمَتِهِ فَفَارَا
يريد الأثرة في الشَّخْم، أي: البقية.

وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي - فيما حكى الطبري -: «أَوْ أَثَرَةٍ» بفتح الهمزة والياء والراء دون ألف، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس، وقتادة، وعكرمة، وعمرو بن ميمون، والأعمش، وهي واحدة جمعها أَثَرٌ كَقَشْرَةٍ وَقَشْرٍ، وحكى الثعلبي أن عكرمة قرأ: «أَوْ مِيزَاتٍ

مِنْ عِلْمٍ»، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، والسلمي - فيما حكى أبو الفتح -: «أَثَرَةٍ» بسكون الاء، وهي الفُعْلَةُ الواحدة مما يُؤَثَر، أي: قد قنعت لكم بحجة واحدة وتخيَّر واحد وأثر واحد يشهد بصحة قولكم، وقرأت فرقة بضم الهمزة وسكون الاء، وهذه كلها بمعنى: هل عندكم شيء خَصَّكُمْ الله به من علم وأثركم به؟

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ الآية .. توبيخٌ لِعَبَدَةِ الْأَصْنَامِ، أي: لا أحد أضلُّ مِنْ هَذِهِ صِفَتِهِ، وجاءت الكنايات في هذه الآية عن الأصنام كما تجيء عمن يعقل وذلك أن الكفار قد أنزلوها منزلة الآلهة وبالمحل الذي دونه البَشَرُ فخطوبوا على نحو معتقدهم فيها، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: «مَالاً يَسْتَجِيبُ». والضمير في قوله سبحانه: ﴿وَقَمَّ عَنْ دُعَائِهِمْ﴾ هو للأصنام في قول جماعة، ووصف الأصنام بالغفلة من حيث عاملها معاملة من يعقل، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿وَقَمَّ عَنْ دُعَائِهِمْ﴾ وفي «عَفِلُون» للكفار، أي: ضلالهم بأنهم يدعون من لا يستجيب ثم يَفْعِلُون فلا يتأملون ما عليهم في دعائهم مِنْ هَذِهِ صِفَتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿كَانُوا لَمْ يَأْتُواكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وصف لما يكون يوم القيامة بين الكفار وأصنامهم من التبيري والمنكرة، وقد بيَّن ذلك في غير هذه الآية، وذلك قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا كَانُوا يَتَّبِعُونَكَ﴾.

(٧) - (٩) تفسير قوله عز وجل:

«الآيات» المذكورة هي آيات القرآن بدليل قوله تعالى: ﴿تَنقُلْ﴾ وقول الكفار: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وإنما قالوا ذلك عن القرآن من حيث قالوا: هو يفرق بين المرء وولده، وبينه وبين زوجه، إلى نحو هذا مما يوجد مثله للسحر بالوجه الآخر.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾، ﴿أَمْ﴾ مقطوعة مقدرة بـ «بل» وهمزة الاستفهام، و﴿افْتَرَيْنَاهُ﴾ معناه: اشتقّه واختلقه، فأمره الله تبارك وتعالى أن يقول: إن افتريته فالله حسبي في ذلك، وهو كان يعاقبني ولا يهمني، ثم رجع القول إلى الاستفهام إلى الله تعالى والاستنصار به عليهم، وانتظار ما يقتضيه علمه بما يفيضون فيه من الباطل ومزادة الحق، وذلك يقتضي معاقبتهم، ففي اللفظ تهديد، والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾ يحتمل أن يعود على القرآن، ويحتمل العودة على [ما]، والضمير في ﴿يَبْدِئُ﴾ عائد على الله تعالى، و﴿يَبْدِئُ﴾ في موضع رفع، و﴿أَنفَاضُ الرَّجُلِ﴾ في الحديث والسب نحوه، إذا خاض فيه واستمر. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ترجية واستدعاء إلى التوبة لأنه في خلال تهديده إياهم بالله جاءت هاتان الصفتان.

ثم أمره الله تعالى أن يحتج عليهم بأنه لم يكن بدعاً من الرُّسل، أي: قد جاء غيري قبلي، قاله ابن عباس، والحسن، والأعرج، و«البدع» و«البديع» من الأشياء: ما لم يُر مثله، ومنه قول عدي بن زيد:

فَمَا أَنَا بِدَعٍ مِنْ حَوَادِثِ تَغْتَرِي
رِجَالاً عَرَتْ مِنْ بَدْعٍ يُؤْسِي وَأَسْعِدِ
وقرأ عكرمة، وابن أبي عبيدة، وأبو حيوة: ﴿بَدْعاً﴾ بفتح الدال، قال أبو الفتح: التقدير: «ذَا بَدْعٍ» بحذف المضاف، كما قال:

وَكَيْفَ تَوَاصِلُ مَنْ أَصْبَحَتْ
خُلَاتُهُ كَأَبِي مَرْحَبٍ؟
واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ - فقال ابن عباس، وأنس بن مالك، وعكرمة، وقتادة، والحسن: معناه: في الآخرة، وكان هذا في صدر الإسلام، ثم بعد ذلك عرفه الله تعالى بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبأن المؤمنين لهم من الله فضل كبير وهو الجنة، وبأن الكافرين في نار جهنم، والحديث الذي وقع في جنازة عثمان بن مظعون يؤيد ذلك: «فوالله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي»، وفي بعض الروايات «به»، ولا حجة لنا

في الحديث على رواية «به»، والمعنى عندي في هذا القول أنه لم تتكشف له الخاتمة فقال: «لا أدري»، وأما مَنْ وافى على الإيمان فقد أعلم بنجاته من أول الرسالة، وإلا فكان للكفار أن يقولوا: وكيف تدعوننا إلى ما لا تدري له عاقبة؟ وقال الحسن أيضاً وجماعة: معنى الآية: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا من أن أنصر عليكم أو من أن تُمَكِّنُوا مِنِّي، ونحو هذا من المعنى. وقالت فرقة: معنى الآية: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم من الأوامر والنواهي وما تُلْزِمُنَا الشريعة

من أغراضها، وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال: نزلت الآية في أمر كان النبي ﷺ ينتظره من الله تعالى في غير الثواب والعقاب، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما تأخر خروج النبي ﷺ من مكة حين رأى في النوم أنه مهاجر إلى أرض ذات نخل وسبخة قُلَيْلُ المسلمون لتأخر ذلك فنزلت الآية.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ﴾ معناه الاستسلام والتبزي من علم الغيبات والوقوف مع النذارة من عذاب الله تعالى.

(١١) - (١٣) تفسير قوله عز وجل:

هذه آية توقيف على الخطر العظيم الذي هم بسبيله في أن يكذبوا بأمر نافع لهم مُنْجٍ من العذاب دون حُجَّة ولا دليل لهم على التكذيب، فالمعنى: كيف حالكم مع الله تعالى؟ وماذا تنتظرون منه وأنتم قد كفرتم بما جاء من عنده؟ وجواب هذا التوقيف محذوف، تقديره: أليس قد ظلمتم؟ ودل على هذا المقدار قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

و «أَنبِئْتُ» في هذه الآية يحتمل أن تكون مُنْجِيَّة، فهي لفظة موضوعة للسؤال لا تقتضي مفعولاً، ويحتمل أن تكون جملة «كَانَ» وما عملت فيه تُسَدُّ مسدً مفعولياً.

واختلف الناس في المراد بالشاهد - فقال الحسن، ومجاهد، وابن سيرين: هذه الآية مدنية والشاهد عبدالله بن سلام، وقول الله تعالى: ﴿عَلَّ يَلِيلِهِ﴾ الضمير فيه عائد على

﴿١٧﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَبَنِي قَيْلٍ﴾، للقرآن، و ﴿كُتِبَ مُوسَى﴾ هو الثَّورَة، وقرأ الكلبي: ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾، ينصب الباء على إضمار: أنزل الله، أو نحو ذلك. و«الإمام»: خيط البئاء، وكل ما يهتدى به ويُقتدى به فهو إمام، ونُصب ﴿إِمَامًا﴾ على الحال، و﴿رَحِمَتْ﴾ عطفاً على ﴿إِمَامًا﴾، والإشارة بقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كُتِبَ﴾ إلى القرآن، و﴿مُصَدِّقٌ﴾ معناه: للتوراة التي تضمنت خبره وأمر محمد ﷺ، فجاء هو مصدقاً لذلك الإخبار، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ لِسَانًا﴾.

واختلف الناس في نصب قوله: ﴿لِسَانًا﴾ - فقالت فرقة من النحاة: هو منصوب على الحال، وقالت فرقة: ﴿لِسَانًا﴾ توطئة مؤكدة، و﴿عَرَبِيٌّ﴾ حال، وقالت فرقة: ﴿لِسَانًا﴾ مفعول بـ ﴿مُصَدِّقٌ﴾، والمراد - على هذا القول - باللسان محمد ﷺ، فكأن القرآن بإعجازه وأحواله البارة يصدق الذي جاء به، وهذا قول صحيح المعنى جيّد، وغيره مما قلّمنا منجّه.

وقرأ نافع، وابن عامر، وابن كثير - فيما روي عنه - وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، وأبو رجاء، والناس: ﴿لِشْنِيرٍ﴾ بالثاء أنت يا محمد، ورجّحها أبو حاتم، وقرأ الباكون، وابن كثير، والأعشى: ﴿لِسْنِيرٍ﴾ أي القرآن، و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم الكفار الذين جعلوا العبادة في غير موضعها في جهة

التأويل - يعني به تصديق موسى بأمر محمد ﷺ وتبشير به، فذلك إيمان به، وأما من قال: الشاهد ابن سلام فإيمانه بيّن، وكذلك الإسرائيلي الذي كان بمكة في قول من قاله. وحكى بعضهم أن العامل بـ [أَمَنَ] هو محمد ﷺ، وهذا من القائلين بأن الشاهد هو موسى بن عمران عليه السلام، وإنما اضطر إلى هذا لأنه لم ير وجه إيمان موسى عليه السلام، ثم قرن تعالى استكبارهم وكفرهم بإيمان هذا

المذكور فبان ذنبهم وخطوهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، قال قتادة: هي مقالة أشرف قريش يريدون عَمَّاراً وَضْهِيّاً وبِلَالاً ونحوهم ممن أسلم وأمن بالنبي ﷺ. وقال الزجاج، والكلبي، وغيرهما: هي مقالة كنانة وعامر وسائر قبائل العرب المجاورة، وقالت ذلك حين أسلمت عَفَّار ومُزَيْنَة وَجُهَيْنَة، وقال الثعلبي: هي مقالة اليهود حين أسلم عبدالله بن سلام وغيره منهم.

و «الإِفْكَ»: الكذب، ووصفوه بالقدّم بمعنى أنه في أمور متقدمة، وهذا كما تقول لرجل حدثك عن أخبار كسرى وقيصر: هذا حديث قديم، ويحتمل أن يريدوا أنه إفك قيل قديماً.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي لَئِنْ بَنَيْتُ إِلَيْكَ وَابْنًا فَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٧﴾ أَوَّلُكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْحَنَةِ وَعَدَ الصَّديقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِي قَالَ لُؤْلُوهُ أَيُّ لَكُمْ أَوْتِدَ ابْنِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِغِيَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ أَمْ إِنَّكَ عِدَّاءُ الْحَقِّ يَقُولُ مَاهَذَا إِلَّا أَسْطُورٌ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ أَوَّلُكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ فَخَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْخَلْقِ وَالْإِنْسَانِ أَنَّهُمْ كَانُوا خَيْرِينَ ﴿٢٠﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿٢١﴾ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُم مِّنْ قَبْلِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا قَالُوا لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الْيَوْمَ تُعْزَرُونَ عَذَابَ الْهَوْنِ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَقْسِمُونَ ﴿٢٢﴾

قول محمد ﷺ في القرآن: إنه من عند الله، وقال الشعبي: الشاهد رجل من بني إسرائيل غير عبدالله بن سلام كان بمكة، والآية مكئية، وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ومجاهد، وفرقة: الآية مكئية والشاهد عبدالله بن سلام، وهي من الآيات التي تضمنت غيباً أبرزه الوجود، وقد روي عن عبدالله بن سلام أنه قال: فني نزلت، وقال مسروق بن الأجدع والجمهور: الشاهد هو موسى بن عمران عليه السلام، والآية مكئية، ورجّحه الطبري، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ يريد بالمثل الثَّورَة، والضمير عائد - على هذا التأويل - على القرآن، أي: جاء شاهد من بني إسرائيل بمثله وشهد أنه من عند الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿فَتَأْمَنَ وَاسْتَغْبَرَهُ﴾ - على هذا

الأوثان والأصنام، وقوله تعالى: ﴿وَشَرَكُوا﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع عطفاً على قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ﴾، ويجوز أن يكون في موضع نصب، واقعة موقع فعل عطفاً على ﴿يُنْذِرُ﴾، أي: ويُنْشِرُ المحسنين.

ولما عبّر تعالى عن الكفار بـ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عبّر عن المؤمنين بـ ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ ليتناسب لفظ الإحسان في مقابلة الظلم، ثم أخبر تعالى عن حسن حال المؤمنين المستقيمين، ورفع عنهم الخوف والحزن، وذهب كثير من الناس إلى أن معنى الآية: ثم استقاموا بالطاعات والأعمال الصالحات، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: بالدوام على الإيمان وترك الانحراف عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول أتم رجاءً وأوسع، وإن كان في الجملة المؤمنة من يُعَذَّب وينفذ عليه الوعيد فهو ممن يخلد في الجنة وينتفي عنه الخوف والحزن الحال بالكفرة.

و «الخوف» هو الهمُّ بما يُستقبل، و «الحزن» هو الهمُّ بما مضى، وقد يستعمل فيما يُستقبل استعارة لأنه حزنٌ لخوف أمرٍ ما، وقرأ ابن السمين: ﴿قَلَّا خَوْفٌ﴾ بدون تنوين، وقوله تعالى: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْمُلُونَ﴾، [ما] واقعة على الجزء الذي هو اكتساب العبد، وقد جعل الله تعالى الأعمال أمارات على جزاء العبد، لا أنها توجب على الله تعالى شيئاً.

قوله تعالى: ﴿وَصَبَّأْنَا الْإِنْسَانَ﴾، يريد

النوع، أي: هكذا مضت شرائعي وكتبي لأنيائي، فهي وصية من الله تعالى في عباده، وقرأ جمهور القراء: ﴿حُسْنًا﴾ بضم الحاء وسكون السين ونصبه على تقدير: وصيناه ليفعل أمراً ذا حُسن، فكأن الفعل سلط عليه مفعولاً ثانياً، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وأبو عبد الرحمن، وعيسى: ﴿حَسَنًا﴾ بفتح الحاء والسين، وهذا كالأول، ويحتمل كونهما مصدرين كالْبُخْل والبَخْل، ويحتمل أن يكون هذا الثاني اسماً لا مصدرًا، أي: ألزمناه بهما فعلاً حَسَنًا، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿إِحْسَنًا﴾ ونصب على هذا المصدر الصريح، والمفعول الثاني في المجرور، والباء مُتَعَلِّقَةٌ بـ ﴿وَصَبَّأْنَا﴾، أو بقوله تعالى: ﴿إِحْسَانًا﴾.

وبز الوالدين واجب بهذه الآية وغيرها، وعقوقهما كبيرة من الكبائر، وقال النبي ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى حِجَابٌ إِلَّا شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ودعوة الوالدين».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولن يَدْعُوا إِلَّا إِذَا ظَلَمَهُمَا الولد، فهذا الحديث في عموم قوله ﷺ: «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ».

ثم عدّد تعالى على الأبناء حق الأمهات، وذكر تعالى الأمّ في هذه الآية في أربع مراتب، والأب في مرتبة واحدة، وجمعهما الذكر في قوله تعالى: ﴿يُؤَلِّدِيهِ﴾، ثم ذكر الحَمْلَ للأمّ ثم الوضع لها ثم الرُّضَاع الذي عبّر عنه بالفِصَال، فهذا يناسب

ما قال رسول الله ﷺ حين جعل للأمّ ثلاثة أرباع البر والرُّبُع للآب، وذلك إذ قال له رجل: (يا رسول الله، من أبرُّ؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثم من؟ قال: «أَبَاكَ»).

وقوله تعالى: ﴿كَرِهًا﴾ معناه: في باقي استمرار الحمل حين تُتَوَقَّع حوادثه، ويحتمل أن يراد: في وقت الحمل؛ إذ لا نذير لها في حمله ولا في تركه، قال مجاهد، والحسن، وقتادة: المعنى: حملته مشقةً ووضعت مشقةً، وقرأ أكثر القراء: ﴿كَرِهًا﴾ بضم الكاف، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والأعرج، وشيبة: ﴿كَرْهًا﴾ بفتح الكاف، وقرأ بهما معاً مجاهد، وأبو رجاء، وعيسى، قال أبو علي: هما بمعنى، الضم: الاسم، والفتح: المصدر، وقالت فرقة: الكرّه - بضم الكاف - المشقة، والكرّه - بفتح الكاف - هو الغلبة والقهر، وضَعُفُوا - على هذا - قراءة الفتح، قال بعضهم: لو كان كَرْهًا لَرَمَتْ به عن نفسها؛ إذ الكرّه القهر والغلبة، والقول الذي قدّمناه أصوب.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَضَعُوكُمُوهَا﴾ وذلك أنها مفاعلة من الاثنين كأنه فاعل أمه وفاصلته، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو رجاء، وقتادة، والجاحدي: ﴿وَفَضْلُهُ﴾، كأن الأم هي التي فصلته.

وقوله تعالى: ﴿تَلْتَمِشُونَ شَهْرًا﴾ يقتضي أن مدّة الحمل والرضاع هي هذه المدّة؛ لأن في القول حذف مضاف

تقديره: ومدة حمله وفصاله، وهذا لا يكون إلا بأن يكون أحد الطرفين ناقصاً، وذلك إما أن تلد المرأة لسته أشهر وترضع عامين، وإما أن تلد لستة أشهر على العرف وترضع عامين غير ربع عام، فإن زادت مدة الحمل نقصت مدة الرضاع وبالعكس، فيترتب من هذا أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وأقل ما ترضع الأم الطفل عاماً وتسعة أشهر، وإكمال العامين هو لمن أراد أن يكمل الرضاع، وهذا في أمر الحمل هو مذهب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم، وهو مذهب مالك رحمه الله.

واختلف الناس في «الأشد» - فقال الشعبي، وزيد بن أسلم: إذا كتبت عليه السيئات ولهُ الحسنات، وقال ابن إسحاق: ثمانية عشر عاماً، وقيل: عشرون عاماً، وقال ابن عباس، وقتادة: ثلاثة وثلاثون عاماً، وقال الجمهور من الشُّطَّار: ستة وثلاثون عاماً، وقال هلال بن يساف وغيره: أربعون عاماً. وأقوى الأقوال ستة وثلاثون، ومن قال بالأربعين قال في الآية: إنه تعالى أكد وفسر الأشد بقوله سبحانه: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، وإنما ذكر تعالى الأربعين لأنها حد للإنسان في صلاحه ونجابتة، وفي الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْزِي يَدَهُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ جَاوَزَ الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَتُبْ وَيَقُولُ: يَا أَبَتِي وَجْهٌ لَا يُفْلَحُ»، وقال أيمن بن خُرَيْم الأسدي:

إذا المرء وثى الأربعين ولم يكن

لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءً وَلَا سِتْرُ فِدْعُهُ وَلَا تَنْفُسَ عَلَيْهِ الَّذِي أَزْنَى وَإِنْ جَرَّ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ لَهُ الْعُمُرُ وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَوَى أَشَدُّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

وقوله: ﴿أَرْبَعِينَ﴾ معناه: ادفعني عن الموانع وازجرني عن القواطع لأجل أن أشكر نعمتك، ويحتمل أن تكون ﴿أَرْبَعِينَ﴾ بمعنى: اجعل خطي ونصبي، هذا من التوزيع، والقوم الأوزاع، ومن قولك: توزعوا المال، ذ[أن] - على هذا - مفعول صريخ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نعمتك في التوحيد. و﴿صَلِّحًا رَضَةً﴾: الصلوات، والإصلاح في الذريرة كونهم أهل طاعة وخيرية، وهذه الآية معناها أن هكذا ينبغي للإنسان أن يفعل، هذه وصية الله تعالى في كل الشرائع.

وقال الطبري: وذكر أن هذه الآية من أولها نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ثم هي تتناول من بعده، وكان رضي الله عنه قد أسلم أبوه عام الفتح، فإنما يتجه هذا التأويل على أن أبا بكر رضي الله عنه كان يطمع في إيمان أبويه ويرى مخايل ذلك فيهما، فكانت هذه عنده نعمة عليهما، أي: ليسا ممن عسى في الكفر ولجّ وحُتم عليه ثم ظهر إيمانهما بعد، والقول بأنها عامة في نوع الإنسان لم يقصد بها أبو بكر ولا غيره أصح، وباقي الآية بين إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ النَّسِيلِينَ﴾.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ دليل على أن الإشارة بالإنسان في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ﴾ إلى الجنس، وقرأ جمهور القراء: ﴿يُتَّقِلُ﴾ بالياء مضمومة على بناء الفعل للمفعول، وكذلك ﴿يُتَجَاوَزُ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم فيهما بالنون التي للعظمة، ﴿أَحْسَنُ﴾ بالنصب، وهي قراءة ابن وثاب، وطلحة، وابن جبير، والأعمش - بخلاف - وقرأ الحسن: ﴿يُتَّقِلُ﴾ بياء مفتوحة ﴿وَيُتَجَاوَزُ﴾ كذلك، أي: الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ﴾ يريد الذين سبقت لهم رحمة الله تعالى، وقوله: ﴿وَعَدَ الْوَيْدِ﴾ نصب على المصدر المؤكد لما قبله.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أَيُّ لَكُمْآءَ الْآيَةِ﴾، [الذي] يعني به الجنس على حد العموم الذي في الآية التي قبلها في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ﴾، هذا قول الحسن وجماعة، ويشبه أن لها سبباً من رجل قال ذلك لأبويه، فلما فرغ من ذكر ذلك الموقف عقب بذكر هذا العاق، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الطبري: نزلت في الآية في ابن لأبي بكر، ولم يُسمَّه، وقال مروان بن الحكم: نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقال قتادة: وذلك أنه كان أكبر أولاد أبي بكر وشهد بدرأً وأحدًا مع الكفار، وقال لأبيه في الحرب:

يعرج منهم أحد، وقوله: ﴿وَهُمَا يَسْتَنْبِئَانِ اللَّهَ﴾ يعني الوالدين، ويقال: استغثت الله واستغثت بالله بمعنى واحد. و﴿وَبِكَأَنَّ دَعَاءَ لِمَنِ يُحْثَرُ وَيُحْثَرُ لَأَمْرٍ يُسْتَعْجَلُ إِلَيْهِ﴾. وقرأ الأعرج: ﴿أَنَّ وَغَدَ اللَّهُ حَقٌّ﴾ بفتح الهمزة، والناس على كسرهما. وقوله: ﴿مَا هَذَا إِلَّا آتٍ أَتِيهِ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: ما هذا القول الذي يتضمن البعث من القبور إلا من شيء قد سطره الأولون في كتبهم، يعني الشرائع، وظاهر ألفاظ الآية أنها نزلت في مشار إليه قال وقيل له، فعنى الله تعالى أقواله تحذيراً من الوقوع في مثلها.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الظَّاهِرُ أَنَّهُمْ إِشَارَةٌ إِلَى جَنَسٍ يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾، ويحتمل - إن كانت الآية في مُشار إليه - أن يكون قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ بمعنى: صنف هذا المذكور وجنسه هم الذين حق عليهم القول، أي: قول الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ بَنُو آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يقتضي أن الجن يموتون كما يموت البشر قرناً بعد قرن، وقد جاء حديث يقتضي ذلك، وقال الحسن بن أبي الحسن في بعض مجالسه: «الجن لا تموت»، فاعترضه قتادة بهذه الآية فسكت.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ﴾ يعني المحسنين والمسيئين، وقال ابن زيد: درجات المحسنين تذهب علواً ودرجات المسيئين تذهب سفلاً، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿وَلَوْ فَيَهُمْ﴾ بالتاء من فوق، أي: الدرجات،

تعريف، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وابن محيصن، وشبل، وعمرو بن عبيد: ﴿أَفَ﴾ بالفتح، وهي لغة، الكسر والفتح، وقرأ نافع، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، وشيبة، والحسن، والأعرج: ﴿أَفَ﴾ بالكسر والتنوين، وذلك علامة تنكير، وهي كصيه، وكما تستعظم رجلاً حديثاً غير معين فتقول: «إِيَّاهُ مُنُونَةٌ، فَإِنْ كَانَ حَدِيثاً مُشَاراً إِلَيْهِ قُلْتُ: «إِيَّاهُ» بغير تنوين، و﴿أَفَ﴾ أصلها في الأقدار، وكانت العرب إذا رأت قدراً قالت: أف، ثم صيّرته الاستعمال يقال في كل ما يكره من الأقوال والأفعال.

وقرأ هشام عن ابن عامر، وعاصم، وأبو عمرو - فيما روي عنه -: ﴿أَتَعِدَّائِي﴾، وقرأ أبو عمرو، ونافع، وشيبة، والأعرج، والحسن، وأبو جعفر، وجمهور القراء: ﴿أَتَعِدَّائِي﴾ بنونين، والقراءة الأولى هي بإدغام النون في النون، وقرأ نافع أيضاً: ﴿أَتَعِدَّائِي﴾ بنون واحدة وإظهار الياء، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، وقتادة، وأبو رجاء، وابن وثاب، وجمهور الناس: ﴿أَنْ أَخْرَجَ﴾ بضم الهمزة وفتح الراء، وقرأ الحسن، وابن يَعمَر، والأعمش، وابن مصرف، والضحاك: ﴿أَنْ أَخْرَجَ﴾ بفتح الهمزة وضم الراء، والمعنى: أن أخرج من القبر للحشر والمعاد، وهذا القول منه استفهام بمعنى الهُزء والاستبعاد، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ الْأَنْفُسُ مِن قَبْلِي﴾ معناه: هلكت ومضت ولم

لَمْ يَبْقَ إِلَّا شَيْءٌ وَيَعْبُوبُ وَصَارَ يَقْتُلُ ضُلَّالَ الشَّيْبِ ودعاه للمبارزة، فكان بمكة على نحو هذا الخلق، فقيل إنها نزلت فيه، وروى أن مروان بن الحكم خطب وهو أمير المدينة فدعا الناس إلى بيعة يزيد، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: جعلتموها هِرْقَلِيَّةً، كلما مات هِرْقَلُ وَلِيَّ هِرْقَلٍ، وكلما مات قيصِرُ وَلِيَّ قيصِرٍ، فقال مروان: خذوه، فدخل عبد الرحمن بيت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فقال مروان: إن هذا هو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِي أُنْفِيَ لَكُمْ﴾، فسمعت عائشة رضي الله عنها فأنكرت ذلك عليه، وسب مروان وقالت: والله ما نزل في آل أبي بكر من القرآن غير براءتي، وإني لأعرف فيمن نزلت هذه الآية، وذكر ابن عبد البر أن الذي خطب هو معاوية رضي الله عنه، وذلك وهم، والأصوب أن تكون عائشة في أهل هذه الصفات ولم يقصد بها عبد الرحمن ولا غيره من المؤمنين، والدليل القاطع على ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وكان عبد الرحمن رضي الله عنه من أفضل الصحابة، ومن الأبطال، وممن له في الإسلام غناء، ويكفيه مقامه مع مروان يوم اليمامة وغيره.

وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وطلحة بن مصرف: ﴿أَفَ﴾ بكسر الفاء بغير تنوين، وذلك فيها علامة

اشتره فأكله؟ أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية؟

و «عَذَابُ الْهُونِ» العذاب الذي اقترن به هوان، وهو عذاب العصاة في الدنيا، فعذاب المحدود في معصية كالحرابة ونحوها مقترن بهون، وعذاب المقتول في حرب لا هون معه، والهون والهوان بمعنى.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بذكر هود عليه السلام وقومه عاد على جهة المثال لقريش، وهذه الأخوة هي أخوة القرابة؛ لأن هوداً عليه السلام كان من أشرف القبيلة التي هي عاد.

واختلف الناس في هذه الأحقاف، أين كانت؟ فقال ابن عباس، والضحاك: هي جبل بالشام، وقيل: كانت بلاد نخل، وقيل: هي رمال بين مَهْرة وعدن، وقال ابن عباس أيضاً: بين عُمان ومَهْرة، وقال قتادة: هي بلاد الشجر الموصلة للبحر اليماني، قال ابن إسحق: هي بين حضرموت وعُمان، والصحيح من الأقوال أن بلاد عاد كانت في اليمن، ولهم إزم ذات العماد. و«الْأَحْقَافُ» جمع حقف، وهو الجبل المستطيل المُعَوَّج من الرمل، قال الخليل: هي الرمال العظام، وكثيراً ما تحدث هذه الأحقاف في بلاد الرمل في الصحارى؛ لأن الرياح تصنع ذلك.

وقوله تعالى: «وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ» اعتراض مقيم للحجة أثناء قصة هود عليه السلام؛ لأن قوله تعالى: «أَلَّا تَتَذَكَّرُ إِلَّا أَلَّا اللَّهُ» هو من نذارة هود عليه السلام،

وقرأ ابن كثير، والحسن، والأعرج، وأبو جعفر، ومجاهد، وقتادة، وابن وثاب: «أَذْهَبْتُمْ» بهمزة مطولة على التوبيخ والتقرير الذي هو في لفظ الاستفهام، وقرأ ابن عامر: «أَذْهَبْتُمْ» بهمزتين وتقريراً أيضاً، والتوبيخ والتقرير إخبار بالمعنى ولذلك حسنت الفاء، وإلا فهي لا تحسن في جواب على حد هذه مع الاستفهام المحض.

و «الطُّيْبَاتُ»: الملاذ،

وهذه الآية وإن كانت في الكفار فهي وإزعة لأولي

التهى من المؤمنين عن الشهوات واستكمال الطيبات، ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه: «أَتَنْظُرُونَ أَنَّا لَا نَعْرِفُ طِيبَ الطَّعَامِ؟ ذَلِكَ لُبَابُ الْبُرِّ بصغار المعزى، ولكننا رأينا الله تعالى نعى على قوم أنهم أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا»، ذكر هذا في كلامه مع الربيع بن زياد، وقال أيضاً نحو هذا لخالد بن الوليد حين دخل الشام فقدم إليه طعام طيب، فقال عمر رضي الله عنه: هذا لنا، فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير؟ فقال خالد:

لهم بالجنة، فيكى عمر وقال: لئن كان حظنا في الحطام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونا بعيداً، وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: اشتريت لحماً بدرهم، فرآني عمر رضي الله عنه فقال: أوكُلُما انتهى أحدكم شيئاً

وَأَذْكُرُ لِمَا عَادُوا أَنْذَرْتَهُمْ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَتَذَكَّرُ إِلَّا أَلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٠﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُسْأَلَكُمْ عَنْ مَا لَمْ نَحْمِلْهُ فَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُ أَنَا نَكُتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُنْفِذُ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا مَجْهُولُونَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُطِيرٌ نَحْنُ هُمْ وَأَسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ تَذَكَّرُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كُنْتُمْ لَهَا كُرُوحُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ رُبًا لِهَؤُلَاءِ نَحْنُ نَصْرُهُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَهُكُمْ وَمَا كَانُوا بِأَعْيُنٍ رُوحُونَ ﴿٢٧﴾

وقرأ جمهور الناس: «وَلِيَوْمِهِمْ» بالياء، وقرأ نافع - بخلاف عنه - وأبو جعفر، وشيبة، والأعرج، وطلحة، والأعمش: «وَلَيُؤْفِقِيَهُمْ» بالنون، وقرأ اللؤلؤي في حرف أبي بن كعب، وابن مسعود رضي الله عنهما: «وَلَيُؤْفِقِيَهُمْ» بنون أولى ونون ثانية مشددة ويفتح اللام، وكل امرئ ينجني ثمرة عمله من خير أو شر ولا يظلم في مجازاته، بل يوضع كل أمر في موضعه من ثواب أو عقاب.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر يوم يُعْرَضُ، وهذا العرض هو بالمباشرة، كما تقول: عرضت العود على الثار والجاني على السوط، والمعنى: يقال لهم: أذهبتم طيباتكم. وقرأ الجمهور على الخبر ولذلك حسنت الفاء بعد ذلك،

و﴿خَلَّتْ﴾ معناه: مضت إلى الأرض الخلاء ومُرت أزمانها، وفي مصحف عبدالله رضي الله عنه: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ الثُّدُرُ مِنْ قَبْلِهِ وَيَغْدِيهِ﴾، وروي فيه: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ الثُّدُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ بَعْدِهِ﴾. والثُّدُرُ جمع نذير، بناء اسم الفاعل.

وقولهم: ﴿إِنَّا فُكِّنَّا﴾ معناه: لِنُضَرِّقَنَّا، وقولهم: ﴿فَأَنَّا يَمَّا تَيَدَّنَا﴾ تصميم على التكذيب، وتعجيز منهم له في زعمهم.

المعنى: قال لهم هود عليه السلام: إن هذا الوعيد ليس من قبلي، وإنما الأمر لله تعالى، وعلم وقته عنده، وإنما علي أن أبلغ فقط. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَنَّا فُكِّرُ﴾ بفتح الباء وشد اللام، قال أبو حاتم: وقرأ أبو عمرو في كل القرآن بسكون الباء وتخفيف اللام. و﴿أَنَّا فُكِّرُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ أي: مثل هذا من أمر الله تعالى، وتجهلون خلق أنفسكم.

والضمير في ﴿رَأَوْهُ﴾ يحتمل أن يعود على «العذاب»، ويحتمل أن يعود على الشيء المرئي الطالع عليهم، وهو الذي فسره قوله: ﴿عَارِضًا﴾، وهو ما يعرض في الجو من السحاب الممطر، ومنه قول الأعشى:

يَا مَنْ رَأَى عَارِضًا قَذِيبُ أَزْوَاجِهِ
كَأَنَّمَا الْبَرْقُ فِي خَافَاتِهِ الشُّعْلُ
وقال أبو عبيدة: العارض: الذي يرى في أقطار السماء عشيًا ثم يصبح من الغد قد استوى، وروى في معنى قوله تعالى: ﴿مُسْتَقِيلٌ أَرْوَيْتُمْ﴾ أن

هؤلاء القوم كانوا قد قحطوا مدة، فطلع عليهم هذا العارض على الهيئة والجهة التي كانوا يمتطرون بها أبدأ، جاءهم من قبل واد لهم يسمونه المنيث، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ففرحوا به وقالوا: هذا عارض ممطرنا وقد كذب هود فيما أوعده به، فقال لهم هود عليه السلام: ليس الأمر كما رأيتم، بل هو ما استعجلتم به في قولكم: ﴿فَأَنَّا يَمَّا تَيَدَّنَا﴾، ثم قال: ﴿رَبِّجْ فِيهَا عَذَابَ آلِيمٍ﴾، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿مُنْظَرْنَا قَالَ هُودُ بَلْ هُوَ﴾ بإظهار المقدر، لأن قراءة الجمهور هي كقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ، أي: يقولون: سلام عليكم.

قال الزجاج: وقرأ قوم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ بضم التاء الأولى وكسر الجيم، و﴿رَبِّجْ﴾ بدل من المبتدئ في قوله: ﴿هُوَ مَا﴾، و﴿مُنْظَرْنَا﴾ نعت لـ ﴿عَارِضٍ﴾، وهو نكرة إضافية غير محضة؛ لأن التقدير: ممطر لنا في المستقبل، فهو في حكم الانفصال، وقد مضى في غير هذه السورة قصص الرِّيح التي هبَّت عليهم، وأنها كانت تحمل الطعنة كجرادة.

و﴿تَذَذِرُ﴾ معناه: تُهْلِكُ، والدَّمَارُ: الهلاك، ومنه قول جرير: وَكَانَ لَهُمْ كَبْكِرٌ ثُمُودَ لَمَّا رَغَا ظَهْرًا قَدَمَرُهُمْ دَمَارًا وقوله تعالى: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ ظاهره العموم ومعناه الخصوص في كل ما أمرت بتدميره، وروي أن هذه الريح رمتهم أجمعين في البحر.

وقرأ حمزة، وعاصم: ﴿لَا يُرَى﴾ على بناء الفعل للمفعول ﴿مَسْكَنُهُمْ﴾ رفعا، التقدير: لا يرى شيء منها، وقرأ جمهور القراء: ﴿لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾، أي: لا ترى أيها المخاطب شيئا منهم، [وهي قراءة ابن مسعود، وعمرو بن ميمون، والحسن - بخلاف عنهما - ومجاهد، وعيسى، وطلحة]، وقرأ الحسن بن بن أبي الحسن، والجحدري، وقتادة، وعمرو بن ميمون، والأعمش، وابن أبي إسحق، وأبو رجاء، ومالك بن دينار - يعني بلا خلاف عنهما خاصة ممن ذكر: ﴿لَا تَرَى﴾ بالتاء المنقوطة من فوق مضمومة ﴿إِلَّا مَسْكَنَهُمْ﴾ رفعا، ورويت عن ابن عامر، وهذا نحو قول ذي الرُّمَّة:

كَأَنَّهَا جَمَلٌ وَهْمٌ وَمَا بَقِيَتْ
إِلَّا النُّجِيزَةُ وَالْأَلْوَاخُ وَالْعَصَبُ
ونحو قوله:

فَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَائِصُ
وفي هذه القراءة استكراه، وقراءة الأعمش، وعيسى: ﴿مَسْكَنُهُمْ﴾ على الأفراد الذي هو اسم جنس، والجمهور على الجمع في اللفظة، ووجه الأفراد تصغير الشأن وتقريبه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ لِفَنَاءٍ﴾.

ثم خاطب تعالى قريشاً - على جهة الموعظة - بقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ﴾ [مأ] بمعنى «الذي»، و﴿إِنْ﴾ نافية وقعت مكان «ما» ليختلف اللفظ ولا يتصل [مأ] بـ «ما»؛ لأن الكلام كأنه قال: في

بفتح الهمزة، وهي لغة في الإفك، وهما بمعنى الكذب، وكذلك هي الإشارة في قراءة من قرأ: ﴿أَفَكُكُمْ﴾ بفتح الهمزة والفاء والكاف على الفعل الماضي، بمعنى: صرّفهم، وهي قراءة ابن عباس

رضي الله عنهما، وأبي عياض، وعكرمة، وحظلة بن الثمان، وقرأ أبو عياض أيضاً وعكرمة - فيما حكى الثعلبي -: ﴿أَفَكُكُمْ﴾ بشد الفاء وفتح الهمزة والكاف، وذلك على تعدية الفعل بالتضعيف، وقرأ عبدالله بن الزبير: ﴿أَفَكُكُمْ﴾ بمد الهمزة وفتح الفاء والكاف على التعدية بالهمزة، قال الزجاج: جعلهم يأفكون، كما يقال: أكفّرهم، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما - فيما روى قطرب - ﴿أَفَكُكُمْ﴾ بهمزة مفتوحة

ممدودة وفاء مكسورة وكاف مضمومة على وزن فاعل بمعنى: صارفهم، وحكى الفراء أنه يقرأ: ﴿أَفَكُكُمْ﴾ بفتح الهمزة والفاء وضم الكاف، وهي لغة في «الإفك»، والإشارة بـ [ذَلِكَ] على هذه القراءات التي ليست مصدراً يحتمل أن تكون إلى الأصنام، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا بِفَتْرُوكَ﴾ يحتمل أن تكون [مَا] مصدرة فلا تحتاج إلى عائد، ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي» فهناك عائد محذوف تقديره: يفترونه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ابْتِدَاءً وَضَفَ قِصَّةَ الْحَنِّ وَوَفَادَتِهِمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ﴾، و﴿صَرَفْنَا﴾ معناه: رددتهم عن حال ما، ويحتمل أنها الاستماع في السماء، ويحتمل

سبويه، في دخول «مِنْ» في الجواب.

و ﴿وَمَا﴾ معناه: نزل ولزم، وهذا مستعمل في المكاره، والمعنى: جزاء ما كانوا به يستهزئون.

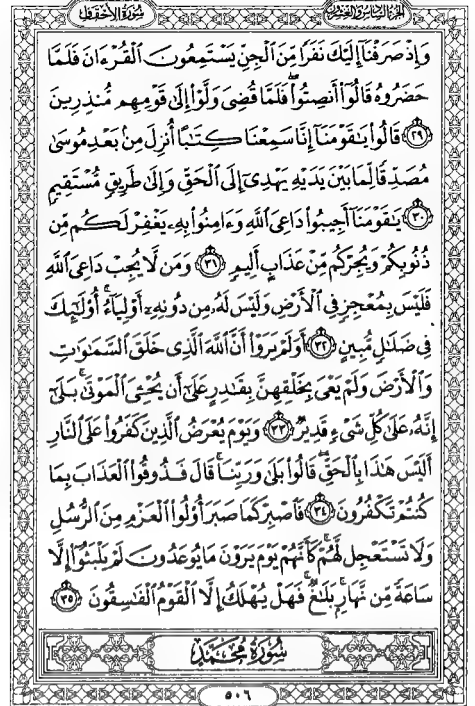
﴿٢٧﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ مخاطبة لقريش على جهة التمثيل لهم بمأرب وسدوم وحجر ثمود، وقوله تعالى: ﴿وَصَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني لهذه القرى المهلكة.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ يعني:

هلاً نصرتهم أصنامهم التي اتخذوها، و﴿قُرْبَانًا﴾ إما أن يكون المفعول الثاني بـ ﴿اتَّخَذُوا﴾، و﴿إِلَٰهَةً﴾ بدل منه، وإما أن يكن حالاً و﴿إِلَٰهَةً﴾ المفعول الثاني، والمفعول الأول هو الضمير العائد على ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾، والتقدير: اتخذوهم. وقوله تعالى: ﴿بَلْ سَلَوْا عَنْهُمْ﴾ معناه: أثلفوا لهم حتى لم يجدوهم وفي وقت حاجة.

وقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ﴾ تختلف الإشارة به بحسب اختلاف القراءات في قوله سبحانه: ﴿إِفْكِهِمْ﴾، فقرأ الجمهور بكسر الهمزة وسكون الفاء وضم الكاف، والإشارة بـ [ذَلِكَ] - على هذه القراءة - إلى قولهم في الأصنام: إنها آلهة، وذلك هو اتخاذهم إياها آلهة، وكذلك هي الإشارة في قراءة من قرأ: ﴿أَفَكُكُمْ﴾



الذي ما مكثاكم، ومعنى الآية: ولقد أعطيناهم من القوة والغنى والبسطة في الأموال والأجسام ما لم نعظمكم، ونالهم بسبب كفرهم هذا العذاب، فأنتم أخرى بذلك إذا كفرتم، وقالت فرقة: ﴿إِنْ﴾ شرطية والجواب محذوف تقديره: الذي إن مكثاكم فيه طغيتم. وهذا تنطع في التأويل.

ثم عدد تعالى عليهم نعم الحواس والإدراك، وأخبر أنها لم تُغن حين لم تستعمل على ما يجب، و [مَا] نافية في قوله تعالى: ﴿مَا أَفْنَى عَنْهُمْ﴾، ويُقَوِّي ذلك دخول ﴿مِنْ﴾ في قوله سبحانه: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾، وقالت فرقة: [مَا] في قوله تعالى: ﴿مَا أَفْنَى عَنْهُمْ﴾ استفهام بمعنى التقرير، و﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ - على هذا - تأكيد، وهذا على غير مذهب

أَنْ تَكُونَ بُغْدَهُمْ قَبْلَ الْوَفَادَةِ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ الْخِلَافِ هُنَا، هَلْ هُمْ الْوَفْدُ أَوْ الْمُتَجَسِّسُونَ؟ وَرَوَى أَنَّ الْجَنَّ كَانَ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ تَسْتَرْقُ السَّمْعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ حُرِسَتْ بِالشُّهْبِ الرَّاجِمَةِ، فَضَاقَتْ الْجَنُّ ذُرْعًا بِذَلِكَ، وَأَتَى رَأْيَ مَلَكِهِمْ عَلَى الْإِفْتِرَاقِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَطَلَبِ السَّبَبِ الْوَجِبِ لِهَذَا الرَّجْمِ وَالْمَنْعِ مِنْ اسْتِرْاقِ السَّمْعِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ.

وَاخْتَلَفَ الرُّوَاةُ بِغُدٍّ - فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: جَاءَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْجَنِّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فَسَمِعُوا الْقُرْآنَ، وَوَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مَسْذِرِينَ، وَلَمْ يَعْرِفِ النَّبِيُّ ﷺ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى عَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَكَانَ سَمَاعُهُمْ لِقَرَاتِهِ وَهُوَ بِنَخْلَةٍ عِنْدَ سَوِّقِ عَكَاظٍ وَهُوَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: بَلْ أَشْعَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِوَفَادَةِ الْجَنِّ عَلَيْهِ وَاسْتَعَدَّ لَذَلِكَ، وَوَفَدَ عَلَيْهِ أَهْلُ نَصِيبِينَ مِنْهُمْ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالتَّحْرِيرُ فِي هَذَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَهُ جَنٌّ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ بِهِمْ، وَهُمْ الْمَتَفَرِّقُونَ مِنْ أَجْلِ الرَّجْمِ، وَهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَّ أَوْحَى إِلَيْ﴾ الْآيَةِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَفَدَ عَلَيْهِ وَفَدَ وَهُوَ الْمَذْكُورُ صَرْفُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ قَتَادَةُ: صُرِفُوا إِلَيْهِ مِنْ نِيْتَوَى، وَأَشْعَرُ بِهِ قَبْلَ وَرُودِهِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: لَمْ يَشْعُرْ بِهِ، وَاخْتَلَفَ فِي عَدَدِهِمْ اخْتِلَافًا مُتَبَاعِدًا فَاخْتَصَرْتُهُ لَعَدَمِ الصَّحَةِ فِي ذَلِكَ، أَمَّا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا فَقَالَ: كَانُوا

سَبْعَةُ نَفَرٍ مِنْ أَهْلِ نَصِيبِينَ، وَقَالَ زُرٌّ: كَانُوا تِسْعَةً فِيهِمْ زَوْبَعَةٌ، وَرَوَى فِي ذَلِكَ أَحَادِيثٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، زَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنِّي خَارِجٌ إِلَى وَفْدِ الْجَنِّ، فَمَنْ يَتَّبِعْنِي؟» فَسَكَتَ أَصْحَابُهُ، فَقَالَهَا ثَانِيَةً فَسَكَتُوا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «أَنَا أَتُبْعُكَ»، قَالَ: فَخَرَجَتْ مَعَهُ حَتَّى جَاءَ شُعْبُ الْحَجْوَنَ فَأَدَارَ لِي دَائِرَةً وَقَالَ: «لَا تَخْرُجْ مِنْهَا»، ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي، فَسَمِعْتُ لَغَطًا وَدَوْنًا كَدَوِي السُّورِ الْكَاسِرَةِ، ثُمَّ فِي آخِرِ اللَّيْلِ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ قَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُمْ، وَأَعْطَاهُمْ زَادًا فِي كُلِّ عَظْمٍ وَزَوْثَةً، فَقَالَ: «يَا عَبْدُ اللَّهِ، مَا رَأَيْتَ؟» قَالَ: فَأَخْبَرْتَهُ، فَقَالَ: «لَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَخْرُجَ فَيَخْطِفُكَ بَعْضُهُمْ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَمِعْتُ لَهُمْ لَغَطًا، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ تَذَارَوْا فِي قَيْتِلٍ لَهُمْ فَحَكَمْتُ بِالْحَقِّ بَيْنَهُمْ».

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاضْطَرَبَتِ الرِّوَايَاتُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَرَوَى عَنْهُ مَا ذَكَرْنَا، وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا مِنَ الْجَنِّ وَهُوَ شَبِيهُ رَجُلِ الزُّطِّ السُّودِ الطَّوَالِ حِينَ رَأَاهُ بِالْكُوفَةِ، وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا شَاهَدَ أَحَدًا مِثْلَ لَيْلَةِ الْجَنِّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاخْتَصَرْتُ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ وَتَطَوَّلِيهَا لَعَدَمِ صَحَّتِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَفَرَ يَنْ أَلْجِنَ﴾ يَقْتَضِي أَنَّ الْمَصْرُوفِينَ رَجَالٌ لَا أُنْثَى مَعَهُمْ، فَالْتَفَرُّ وَالزَّهْطُ وَالْقَوْمُ: الَّذِينَ لَا أُنْثَى فِيهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا خَصَّصْتُمْ قَالُوا أَنُصِوْنَا﴾ فِيهِ تَأْدِبٌ مَعَ الْعَالِمِ وَتَعْلِيمٌ كَيْفَ يُتَعَلَّمُ. وَقَرَأَ

جَمْهُورُ النَّاسِ: ﴿فُضِيَ﴾ عَلَى بِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ، وَقَرَأَ حَبِيبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ، وَأَبُو مَجْلَزٍ عَلَى بِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْفَاعِلِ، أَيِ: قَضَى مُحَمَّدٌ ﷺ الْقِرَاءَةَ، وَقَالَ ابْنُ عَمْرٍ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، فَكَانَ إِذَا قَالَ: ﴿فَيَأْتِي مَالًا رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ قَالُوا: لَا شَيْءَ مِنْ آلَاكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ، رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، وَلَمَّا وَلَّتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَفَرَّقَتْ عَلَى الْبِلَادِ مَنذِرَةً لِلْجَنِّ، قَالَه قَتَادَةُ: مَا أَسْرَعَ مَا عَقَلَ الْقَوْمُ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَهَنَالِكَ وَقَعَتْ قِصَّةُ سَوَادٍ وَشِصَارٍ وَخُنَافَرٍ وَأَشْبَاهِهَا، صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَسَلَّم.

﴿٣٠﴾ - ﴿٣٣﴾ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: الْمَعْنَى: قَالَ هَؤُلَاءِ الْمَنذَرُونَ لَمَّا بَلَغُوا قَوْمَهُمْ: ﴿يَقُومُونَ إِنَّا سَيَمْنَا كَتَبْنَا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَخَصَّصُوا مُوسَى ﷺ لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا لِأَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ مِنَ الْجَنِّ كَانَتْ تَتَدَبَّرْنَ بِدِينِ الْيَهُودِ، وَإِمَّا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدًا ﷺ وَبَشَّرَ بِهِ، فَأَشَارُوا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ حَيْثُ كَانَ الْأَمْرُ مَذْكُورًا فِي تَوْرَاتِهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي كِتَابِ الثَّعْلَبِيِّ: لَمْ يَكُونُوا عُلَمَاءُ أَمْرِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلِذَلِكَ قَالُوا: ﴿يَرْبِّي بَسْمِ مُوسَى﴾، وَقَوْلُهُمْ: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّتْ يَدَايِي﴾ يُؤَيِّدُ هَذَا، وَمَا بَيْنَ يَدَيْهِ هُوَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، وَالْحَقُّ «وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ» هُمَا بِمَعْنَى

متقارب، لكن من حيث اختلف اللفظ - وربما كان الحق أعم - وكان أحدهما قد يقع في مواضع لا يقع فيها الآخر، حَسَنَ التكرار.

و «داعى الله» هو محمد ﷺ، والضمير في «يَدْعِي» عائد على الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿يَقْفِرْ لَكُمْ﴾ معناه: يغفر الله لكم، وقوله: ﴿وَيُجْزِكُمْ﴾ معناه: يمنحكم ويجعل دونكم حفظة حتى لا ينالكم عذاب، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ الآية يحتمل أن يكون كلام المنذرين، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى لمحمد ﷺ، والمراد بها إسماع الكفار، وتعلق اللفظ إلى هذا المعنى من قول الجن: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾، فلما حكى ذلك قيل: ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ فهو بحال كذا، و«المُعْجِز»: الذاهب في الأرض بذا عجز طالبه ولا يُقدَّر عليه، وزوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ بزيادة ميم﴾.

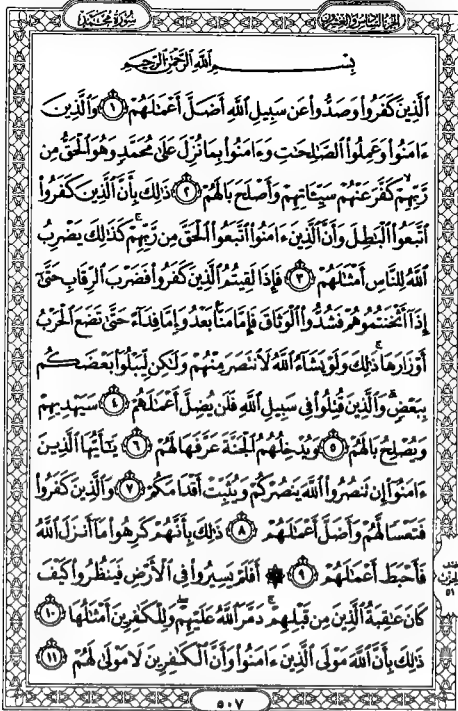
وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرْوُونَ﴾، الضمير لقريش، وهذه آية مثل واحتجاج؛ لأنهم قالوا: إن الأجساد لا يمكن أن تُبعث ولا تُعَاد، وهم مع ذلك معترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض فأقيمت عليهم الحجة من أقوالهم، و«الرؤية» في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرْوُونَ﴾ رؤية القلب، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَمْ يَبَيِّنْ﴾ بسكون العين وفتح الباء الأخيرة، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿يَبَيِّنْ﴾ بكسر العين وسكون الباء، وذلك على حذف.

والباء في قوله تعالى: ﴿يَقْدِرُ﴾ زائدة مؤكدة، فمن حيث تقدم نفي في صدر الكلام حَسَنَ التأكيد بالباء، وإن لم يكن النَّفْيُ ما دخلت هي عليه، كما هو في قولك: «ما زيد بقائم»، كأن بدل ﴿أُولَئِكَ يَرْوُونَ﴾ أو ليس أَلَّذِي خَلَقَ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، والجمهور: ﴿يَقْدِرُ﴾، وقرأ الجحدري، والأعرج - بخلاف - وعيسى، وعمرو بن عبيد: ﴿يَقْدِرُ﴾ بالياء، على فعل مستقبل، ورجحها أبو حاتم وغلط قراءة الجمهور لقلق الباء عنده، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿وَلَمْ يَنْفِي بِخَلْقِهِمْ قَادِرٌ﴾ بغير ياء، و﴿بَكَّرَ﴾ جواب بعد النفي المتقدم، فهو إيجاب لما نفى، والمعنى: بل رأوا ذلك، أي: لو نفهمم وقع في قلوبهم. ثم استأنف لفظ الإخبار المؤكد بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

❶ - ❷ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر يوم، وهذا وعيد للكفار من قريش وسواهم، و«العَرْضُ» - في هذه الآية - عرض مباشرة، كما تقول: عرضت الجاني على السوط، والمعنى: يقال لهم: أليس هذا العذاب حقاً وقد كنتم تكذبون به؟ فيجيبون: بلى وربنا، فذلك تصديق حيث لا ينفع، وزوي عن الحسن أنه قال: إنهم ليعذبون في النار وهم راضون بذلك لأنفسهم، فيعترفون أنه العدل، فيقول لهم المحاور من الملائكة عند ذلك: ﴿قَدْ رَوُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم.

وقوله تعالى: ﴿قَاتِرٌ﴾، الفاء عاطفة هذه الجملة من الوصاة على هذه الجملة من الأخبار عن حال الكفرة في الآخرة، والمعنى بينهما، مرتبط، أي: هذه حالهم مع الله تعالى فلا تستعجل أنت فيما حُمِلَتْ، واصبر له، ولا تخف في الله أحداً. وقوله تعالى: ﴿يَنْ أَرْسِلْ﴾ تبغيض، والمراد من خُفِظَتْ له مع قومه شدة ومجاهدة كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم صلى الله عليهم وسلم، هذا قول عطاء الخراساني وغيره، وقال ابن زيد ما معناه أن ﴿يَنْ﴾ لبيان الجنس، قال: والرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم أولوا عزم، ولكن قوله تعالى: ﴿قَاتِرٌ كَمَا صَبَرُ أُولَئِكَ الْعَزِيزُ﴾ يتضمن رسلاً وغيرهم، فبين بعد ذلك جنس الرسل خاصة تعظيماً لهم، ولتكون القدوة المضروبة لمحمد ﷺ أشرف، وذكر الشعلبي هذا القول عن علي بن مهدي الطبري، وحكي عن أبي القاسم الحكيم أنه قال: الرسل عليهم السلام كلهم أولوا عزم إلا يونس عليه السلام، وقال الحسن بن الفضل: هم الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام؛ لأنه تبارك وتعالى قال بعقب ذكرهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا﴾، وقال مقاتل: هم ستة: نوح ﷺ صبر على أذى قومه طويلاً، وإبراهيم ﷺ صبر على النار، وإسحق ﷺ صبر نفسه في الذبح، ويعقوب ﷺ صبر على الفقد لولده وعمى بصره وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ويوسف ﷺ صبر على السجن،



المعنيين في قراءة الرفع، وليس يدخلها قول أبي مجلز، ونصبها بفعل مضمر، وقرأ أبو مجلز، وأبو سراج الهذلي: ﴿بَلِّغْ﴾ على الأمر، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿بَلِّغْ﴾ بالخفض نعتاً للنهار.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ﴾ على بناء الفعل للمجهول، وقرأ بعضهم - فيما حكى هارون -: ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ﴾ على بناء الفعل للفاعل وكسر اللام، وحكاها أبو عمرو عن الحسن وابن

محيصن، وقرأ ابن محيصن أيضاً بفتح الياء واللام، قال أبو الفتح: وهي مرغوب عنها، وروى زيد بن ثابت عن النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ﴾ بضم الياء وكسر اللام ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقِينَ﴾ بالنصب.

وفي هذه الآية وعيد محض وإنذار بيّن، وذلك أن الله تعالى جعل الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، وأمر بالطاعة ووعد عليها بالجنة، ونهى عن الكفر وأوعد عليه بالنار، ﴿فَلَنْ يَهْلِكَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ﴾ كما قال ﷺ، قال الثعلبي: يقال: إن قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أرجى آية في كتاب الله تعالى للمؤمنين.

كامل تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

وأيوب ﷺ صبر على البلاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وانظر أن النبي ﷺ قد قال في موسى عليه السلام: «يرحم الله موسى، أودى بأكثر من هذا فصبر»، ولا محالة أن لكل نبي ورسول عزماً وصبراً، صلى الله عليهم وسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ﴾ معناه: لا تستعجل لهم عذاباً فإنهم إليه صائرون، ولا تستطل تعميرهم في هذه النعمة فإنهم يوم يرون العذاب كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة، لاحتقارهم ذلك؛ لأن المنقضي من الزمان إنما يصير عَدَمًا، فكثيره الذي ساءت عاقبته كالقليل.

وقرأ أبي بن كعب رضي الله عنه: ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾، وقرأ جمهور الناس: ﴿بَلِّغْ﴾، وذلك يحتمل معاني: أحدها أن يكون خبر ابتداء، المعنى: هذا بلاغ، وتكون الإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ إما إلى القرآن والشريعة، أي: هذا إنذار وتبليغ، وإما إلى المدة التي تكون كساعة من نهار، كأنه تعالى قال: لم يلبثوا إلا ساعة كانت بلاغهم، وهذا كما تقول: «متاع قليل» ونحوه من المعنى، والثاني: أن يكون ابتداء والخبر محذوف، والثالث: ما قاله أبو مجلز، فإنه كان يقف على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ﴾، ويقول: ﴿بَلِّغْ﴾ ابتداءً وخبره مقدم في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾، وقدح الناس في هذا القول بكثرة الحائل، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وعيسى: ﴿بَلِّغْ﴾، وهي قراءة تحتل

تفسير

سورة محمد

هذه السورة مدنية بإجماع، غير أن بعض الناس قال في قوله تعالى: ﴿وَكُنْ مِنْ قَرِيبٍ مِمَّنْ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِينِكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ﴾ الآية: إنها نزلت بمكة في وقت دخول النبي ﷺ فيها عام الفتح أو سنة الحديبية، وما كان مثل هذا فهو معدود في المدني؛ لأن المراعى في ذلك إنما هو ما كان قبل الهجرة أو بعدها.

① - ② تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية... إشارة إلى أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله ﷺ، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية... إشارة إلى الأنصار أهل المدينة الذين

أوه، وفي الطائفتين نزلت الآية، قاله ابن عباس، ومجاهد. ثم هي بعد تعم كل من دخل تحت ألفاظها. وقوله تعالى: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد الفعل المجاوز فيكون المعنى: وصدّوا غيرهم، ويحتمل أن يكون الفعل غير متعد فيكون المعنى: وصدّوا أنفسهم، و«سَبِيلُ اللَّهِ»: شرعه وطريقه الذي دعا إليه، وقوله تعالى: ﴿أَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أثلفها، لم يجعل لها غاية خير ولا نفعاً، وروي أن هذه الآية نزلت بعد بدر، وأن الإشارة بقوله: ﴿أَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾ هي إلى الإنفاق الذي أنفقوه في سفرهم إلى بدر، وقيل: المراد بالأعمال أعمالهم البرّة في الجاهلية، من صلة الرحم ونحوه، واللفظ يعم جميع ذلك.

وقرأ الناس: ﴿زُلْ﴾ بضم النون وشذّ الزّاي، وقرأ الأعمش: ﴿أَنْزَلَ﴾ معدى بالهمزة، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَحَ بَالَهُمْ﴾، قال قتادة: معناه: حالهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أمرهم، وقال مجاهد: شأنهم، وتحرير التفسير في اللفظة أنها بمعنى الفكر والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب، فإذا صلح ذلك فقد صلحت حاله، فكأن اللفظة مشيرة إلى إصلاح عقيدتهم، وغير ذلك من الحال تابع، فقولك: «خطر في بالي كذا» وقولك: «أصلح الله بالك»، المراد بهما واحد، ذكره المبرد، و«الْبَالُ» مصدر كالحال والشأن، ولا يستعمل منهما فعل، وكذلك عُرفه ألا يُثْنَى

ولا يُجمع، وقد جاء مجموعاً ولكنه شاذ؛ فإنهم قالوا: بالات.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، الإشارة إلى الأفعال التي ذكر الله تعالى أنه فعلها بالكفار وبالمؤمنين، و«الباطل»: الشيطان وكل ما يأمر به، قاله مجاهد، و«الحَقُّ» هنا هو الشرع ومحمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ إشارة إلى الاتباع المذكور من الفريقين، أي: كما اتبعوا على هذين السبيلين كذلك يبين أمر كل فرقة، ويجعل لها ضرباً من القول وصنفاً، وضرب المثل مأخوذ من الضرب والضرب الذي هو بمعنى النوع.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس، وقاتدة، وابن جريج، والسدي، والضحاك: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف التي في (براءة): ﴿تَأْتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وإن الأسر والمن مع الفداء مرتفع، فمتى واقع أسر فإنما معه القتل ولا بد، وروي نحوه عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وقال ابن عمر، وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهم، وعطاء ما معناه: إن هذه الآية مُحْكَمَةٌ مُبَيَّنَّةٌ لتلك، والمن والفداء ثابت، وقد مرّ رسول الله ﷺ على ثمامة بن أثال، وفادى أسرى بدر، وقاله الحسن، وقال: لا يقتل الأسير إلا في الحرب، يُهَيَّبُ بذلك على العدو، وكان عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه يفادي رجلاً برجل، ومنع الحسن أن يفادوا بالمال، وقد

أمر عمر بن عبدالعزيز بقتل أسير من الترك ذكر أنه قتل مسلمين، وقالت فرقة: هذه الآية خصصت من الأخرى بأهل الكتاب فقط، فيهم المن والفداء، وعُباد الأوثان ليس فيهم إلا القتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى قول أكثر العلماء الآيتان مُحْكَمَتَانِ، وقوله تعالى هنا: ﴿فَضَرَبَ الرِّجَالَ﴾ بمثابة قوله تعالى هنالك: ﴿تَأْتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وصرّح هنا بذكر المن والفداء، ولم يصرّح به هناك وهو أمر مقرر، وهذا هو القول القوي.

وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبَ الرِّجَالَ﴾ مصدر بمعنى الفعل، أي: فاضربوا رقابهم، وعيّن من أنواع القتل أشهره وأعرفه فذكره، والمراد: اقتلوههم بأي وجه أمكن، وقد زادت آية أخرى: ﴿وَأَضْرِبُوا رِجْلَهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، وهي من أنكى ضربات الحرب لأنها تعطل من المضروب جميع جسده، إذ البنان أعظم آلة المقاتل وأصلها. و«أَضْرِبُوا» معناه: بالقتل، و«الْبَنَانُ» في القوم أن يكسر فيهم القتلى والجرحى، والمعنى: فشدوا الوثاق بمن لم يقتل ولم يترتب فيه إلا الأسر، و«بَنَانٌ» مصدران منصوبان بفعلين مضميرين. وقرأ جمهور الناس: ﴿فِدَاءً﴾، وقرأ شبل عن ابن كثير: ﴿فَدَى﴾، مقصوراً.

وإمام المسلمين مخيّر في أسراه في خمسة أوجه: القتل أو الاسترقاق أو ضرب الجزية أو المن أو الفداء، وترجّح النظر في أسير أسير بحسب

حاله من إذابة المسلمين أو ضد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَصْعَ كَثْرَتُ أَوْزَارَهُمْ﴾ معناه: حتى تذهب وتزول أثقالها، و«الأوزار» - جمع وزر - الأثقال فيها والآلات لها، ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

وَأَعْذَتْ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا
رِمَاحاً طَوَّالاً وَخَيْلاً ذُكُوراً
وقال الشعبي: قيل: الأوزار في هذه الآية الأثام، جمع وزر؛ لأن الحرب لا بد أن يكون فيها آثام في أحد الجانبين.

واختلف المتأولون في الغاية التي عندها تضع الحرب أوزارها - فقال قتادة: حتى يسلم الجميع فتضع الحرب أوزارها، وقال حذاق أهل النظر: حتى تغلبوهم وتقتلوهم، وقال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليهما السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر اللفظة أنها استعارة يراد بها التزام الأمر أبداً، وذلك أن الحرب بين المؤمنين والكافرين لا تضع أوزارها، فجاء هذا اللفظ كما تقول: أنا أفعل كذا وكذا إلى يوم القيامة، فإنما تريد أن تفعله دائماً.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ تقديره: الأمر ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَشَاءَ اللَّهِ لَأَنَّصَرَّ بِهِمْ﴾ أي: بعذاب من عنده يهلكهم به في حين واحد، لكنه تعالى أراد اختبار المؤمنين، وأن يبلو بعض الناس ببعض. وقرأ جمهور القراء: ﴿فَاتْلُوا﴾، وقرأ عاصم، والجحدري - بخلاف عنه -: ﴿فَاتْلُوا﴾ بفتح القاف والتاء، وقرأ أبو

عمرو، وحفص عن عاصم، والأعرج، وقتادة، والأعمش: ﴿فَاتْلُوا﴾ بضم القاف وكسر التاء، وقرأ زيد بن ثابت، والحسن، والجحدري، وعيسى، وأبو رجاء هكذا وشددوا التاء، والقراءة الأولى أعماها وأوضحها معنى.

قال قتادة: نزلت هذه الآية فيمن قُتل يوم أحد، وقوله تعالى: ﴿سَيَذَرُكُمْ﴾ أي: إلى طريق الجنة، وقد تقدّم القول في إصلاح البال، وقد روى عباس بن الفضل عن أبي عمرو: ﴿يُذْخِلُهُمْ﴾ بسكون اللام، وفي التغابن ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾، وفي سورة الإنسان ﴿إِنَّمَا نَطْعِنُكُمْ﴾ بسكون الطاء والميم.

قوله تعالى: ﴿عَرَفْنَاكُمْ﴾، قال أبو سعيد الخدري، وقتادة، ومجاهد: معناه: بيننا لهم، أي: جعلهم يعرفون منازلهم منها، وفي نحو هذا المعنى قول النبي ﷺ: ﴿لَأُحَدِّثَكُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ أَعْرَفَ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ فِي الدُّنْيَا﴾، وقالت فرقة: معناه: سألها لهم ووسمها كل منزل باسم صاحبه، فهذا نحو من التعريف، وقالت فرقة: معناه: شرفها لهم ورفعها وعلاها، وهذا من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها، ومنه أعراف الخيل، وقال مؤرج وغيره: معناه: طيبها، مأخوذ من العرف، ومنه طعام معرف، أي: مُطَيَّب، وعرفت القدر، أي: طيبتها بالملح والتوابل.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَصْرُوا اللَّهَ﴾ فيه حذف مضاف، أي: ديس الله ورسوله، والمعنى: تنصروه بجذكم وإيمانكم، ينصركم بخلق القدرة لكم

والجرأة وغير ذلك من المعارف. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيُنَبِّئُ﴾ بفتح التاء المثناة وشد الباء، وقرأ المفضل عن عاصم: ﴿وَيُنَبِّئُ﴾ بسكون التاء وتخفيف الباء، وهذا التثيت هو في مواطن الحرب على الإسلام، وقيل: على الصراط في القيامة.

وقوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّاكُمْ﴾ معناه: عثاراً لهم وهلاكاً، وهي لفظة تقال للكافر، ومنه قول الشاعر:

يَا سَيِّدِي إِنْ عَثَرْتُ خَذَّ بِيَدِي
وَلَا تُثْلُ لَا وَلَا تُثْلُ ثَغْسَا
وقال الأعشى في هذا المعنى:

بَذَاتِ لَوْثٍ عَفْرَنَاءَ إِذَا عَثَرْتُ
فَالثَغْسُ أَذْنَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ: لَمَّا
ومنه قول أُمِّ مِسْطَحٍ لَمَّا عَثَرَتْ فِي مِرْطِهَا: ثَغْسُ مِسْطَحٍ، وقال ابن السكيت: الثغس: أن يُجَرَّ على وجهه، و﴿فَتَمَسَّا﴾ مصدر نَصَبَهُ فعل مضمر.

وقوله تعالى: ﴿كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يريد القرآن، وقوله سبحانه: ﴿فَأَحْطِ أَفْعَالَهُمْ﴾ يقتضي أن أعمالهم في كفرهم التي هي برُّ مقيدة محفوظة، ولا خلاف أن للكفار حِفْظَ يَكْتُبُونَ سيئاتهم، واختلف الناس في حسناتهم - فقالت فرقة: هي مُلَغَاة، يشابون عليها بنعيم الدنيا فقط، وقالت فرقة: هي مُخْصَاة من أجل ثواب الدنيا، ومن أجل أن [الكافر] قد يسلم فيضاف ذلك إلى حسناته في الإسلام، وهذا أحد التأويلين في قول النبي ﷺ لحكيم بن حزام: «أسلمت على ما أسلفت من خير»، فقوم قالوا: تأويله: أسلمت على أن يُعَدَّ لك ما سلف من خير، وهذا هو

بمكة عام دخلها رسول الله ﷺ،
وقيل: عام الفتح وهو مُقبل إليها،
وهذا كله حُكمه حُكم المدني.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿أَنْتَنَ كَانَ﴾ الآية.
توقيف وتقرير على شيء متفق عليه،
وهي معادة بين هذين الفريقين، وقال
قتادة: الإشارة بهذه الآية إلى
محمد ﷺ في أنه الذي على بيته من
ربه، وإلى كفار قريش في أنهم الذين
زُين لهم سوء أعمالهم، وبقي اللفظ
عاماً لأهل هاتين الصفتين غابر
الدهر. وقوله تعالى: ﴿عَلَى يَنْتَنَ مِنْ
رَبِّهِ﴾ معناه: على قضية واضحة
وعقيدة نيرة بيّنة، ويحتمل أن يكون
المعنى: «على أمر بين وبين»
وألحق الهاء للمبالغة كعلامة ونسابة،
والذي يُسند إليه قوله تعالى: ﴿زَيْنَ﴾
هو الشيطان، وإِتباع الأهواء: طاعتها،
كأنه يذهب إلى ناحية والمرء يذهب معها.

واختلف الناس في معنى قوله
تعالى: ﴿نَتَلَّ الْجَنَّةَ﴾ الآية - فقال
الثَّغَر بن شُميل وغيره: ﴿نَتَلَّ﴾
معناه: صفة، كأنه قال: صفة الجنة
ما تسمعون فيها كذا وكذا، وقال
سيبويه: المعنى: فيما يُتلى عليكم
مثل الجنة، ثم فسّر الذي يُتلى
بقوله: فيها كذا وكذا، والذي ساق
إلى أن تُجعل ﴿نَتَلَّ﴾ بمثابة «صفة»
هو أن المُتَلَّ به ليس في الآية،
ويظهر أن القصد بالتمثيل هو إلى
الشيء الذي يتخيله المرء عند
سماعه: «فيها كذا وكذا»، فإنه
يتصور عند ذلك بقاعاً على هذه
الصورة، تلك هي مثل الجنة

ويصح أن يعود على
الفعله التي يتضمنها قوله
تعالى: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ
بِأَنَّ﴾ ابتداء وخبره في
[أَن]، وهذه الآية نزلت
يوم أحد، ومنها انتزع
رسول الله ﷺ رده على
أبي سفيان بن حرب حين
قال له: «الله مولانا ولا
مولى لكم».

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْذَرُ
كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْتَمُ﴾، أي:
أكلاً مجرداً من فكرة
ونظر، فالتشبيه بالمعنى
إنما وقع في ما عدا الأكل
من قلة الفكر وعدم
النظر، فقوله تعالى: ﴿كَمَا﴾ في
موضع الحال، وهذا كما تقول:
الجاهل يعيش عيش البهيمة، فأما
مقتضى اللفظ فالجاهل والعالم
والبهيمة من حيث لهم عيش فهم
سواء، ولكن معنى كلامك: يعيش
عديم النظر والفهم كما تعيش
البهيمة. و«الْمَشْوَى»: موضع
الإقامة، وقد تقدم القول غير مرة في
قوله تعالى: ﴿وَكَايَنَ﴾، وضرب الله
تعالى مثلاً لمكة بالقرى المهلكة على
عظمتها كقرية قوم هود وغيرهم،
﴿وَأَخْرَجَكَ﴾ معناه: وقت الهجرة،
ونسب الإخراج إلى القرية حملاً
على اللَّفْظ، وقال: ﴿أَهْلَكْنَهُمْ﴾
حملاً على المعنى، ويقال: إن هذه
الآية نزلت إثر خروج النبي ﷺ من
مكة في طريق المدينة، وقيل: نزلت
بالمدينة، وقيل: نزلت بعد الحديبية

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمِعُونَ وَكُلًّا كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْتَمُ وَالنَّارُ مَشْوًى لَهُمْ ﴿١٠﴾ وَكَانَ مِنْ قَرَابَةٍ مِنْ أَشَدِّ قُوَّةٍ مِنْ قَرَابَةِكَ الَّتِي أَخْرَجَكَ أَهْلَكَ عَنْهَا فَلَا تَأْخُذُ بِهِمْ ﴿١١﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ زَيْنٌ يُعَذِّبُكُمْ بِهِ سَوْءَ عَذَابٍ وَأَبْعَا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٢﴾ نَتَلَّ الْجَنَّةَ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَصَلٍ مُمِصًى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقَامًا جَمِيعًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٣﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا الَّذِينَ أُولُوا الْأُولِيَّ مَاذَا قَالَ أَيْفَاءً أَوْ لِيكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَابْعَا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآيَاتُهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٥﴾ يَهْكُلُ يَنْظُرُونَ لَا أَسَاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَشَّةٌ تَقْدَحُ آسْرَاطَهُمَا فَإِنَّهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ يَنْتَنَ وَكَرِهَهُمْ ﴿١٦﴾ فَأَمَّا تَوَلَّيْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِكُمْ وَلَئِنَّكُمْ لَفِي السَّعَةِ وَالْمَوْتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٧﴾

٥٠٨

التأويل الذي أشرنا إليه، وقالت
فرقة: معناه: أسلمت على إسقاط ما
أسلفت من خير، إذ قد جوزيت عليه
ينعم دنياك، وذكر الطبري أن
أعمالهم التي أخبر في هذه الآية أنه
يحبطها هي عبادتهم الأصنام
وكفرهم، ومعنى «فَأَخْطَ»: جعلها
من الفعل الذي لا يزكو ولا يُعْتَدُّ به،
فهو لذلك كالذي أحبط.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ توقيف
لقريش وتوبيخ، و﴿الَّذِينَ﴾
قَبْلَهُمْ يريد ثمود وقوم لوط وقوم
شعيب وأهل السد وغيرهم،
و«الذَّمَاةُ»: الفساد وهدم البناء
وإذهاب العمران، وقوله تعالى:
﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ من ذلك، والضمير
في قوله تعالى: ﴿أَسْأَلُكُمْ﴾ يحتمل
أن يعود على العاقبة المذكورة،

كفره، فكان القول يَمُرُّ صفحاً، فإذا خرج قال: ﴿مَاذَا قَالَ آيَّتَانِ؟﴾ وهذا أيضاً فيه ضرب من الاستخفاف لأنه كان يصرح أنه يقصد الإعراض وقت الكلام، ولو لم يكن ذلك بقصد لم يبعد أن يجري على بعض المؤمنين، وروي أن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما يَمُنُّ سِئِلَ هذا السؤال، حكاه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما. و﴿آيَّتَانِ﴾ معناه: مبتدئاً، كأنه قال: ما القول الذي اثبتته الآن قبل انفصالنا عنه؟ وقرأ الجمهور: ﴿آيَّتَانِ﴾ على وزن فاعل، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿أَيَّتَانِ﴾ على وزن فِعل، وهما اسما فاعل من «اثبتت»، وجرياً على غير فعلهما، ولم يُستعمل فعلهما، وهذا كما جرى «فقير» على «افتقر» ولم يستعمل «فقر»، وهذا كثير، والمفسرون يقولون: ﴿آيَّتَانِ﴾ معناه: الساعة الماضية القريبة ميئاً، وهذا تفسير بالمعنى.

ثم أخبر تبارك وتعالى أنه طبع على قلوب هؤلاء المنافقين الفاعلين لهذا، وهذا الطبع يحتمل أن يكون حقيقة ويحتمل أن يكون استعارة، وقد تقدّم القول فيه.

﴿٧﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ بِمَا هُمْ أَهْلُهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ عَقِبَ بِذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَبَيْنَ الْفِرْقِ، وَشَرَفَهُمْ بِإِسْنَادِ فِعْلِ الْاهْتِدَاءِ إِلَيْهِمْ، وَهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى تَكْسِبِهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَادَهُمْ هُكَىً﴾ بِحَتْمِ

يريد به أن يكون كذلك في المستقبل، فنفي ذلك في الآية، وقرأت فرقة: ﴿غَيْرَ يَسِينٍ﴾ بالياء، قال أبو علي: وذلك على تخفيف الهمز، قال أبو حاتم عن عوف: كذلك كانت في المصحف ﴿غَيْرَ يَسِينٍ﴾ فغَيَّرَهَا الْحِجَاجُ.

وقوله تعالى في اللبّن: ﴿لَنْ يَنْتَفِرَ لَكُمْ فِيهِ لَبَنٌ﴾ نفى لجميع وجوه الفساد في اللبّن، وقوله تعالى: ﴿لَذَرُ لَشَرِّينَ﴾ جمعت طيب المطعم وزوال الآفات من الصداق وغيره، و﴿لَذَرُ﴾ نعت على النسب، أي: ذات لذّة، وتصفية العسل مذّهبة لُبُوسَتُهُ وضرره، وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ الشَّيْءِ﴾ أي: من هذه الأنواع، لكنها بعيدة الشبه إذ تلك لا عيب فيها ولا تَعَبُ بِرُوحِهِ. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ معناه: وتنعيم أعطته المغفرة وسببته، وإلّا فالمغفرة إنما هي قبل الجنة. وقوله تعالى: ﴿وَسُئِلُوا﴾ الضمير عائد على [مَنْ] لأن المراد به جمع.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَنْعِزُ بِإِلَهِكَ﴾ يعني بذلك المنافقين من أهل المدينة، وذلك أنهم كانوا يحضرون عند النبي ﷺ ويسمعون كلامه وتلاوته، فإذا خرجوا قال بعضهم لمن شاء من المؤمنين الذين علموا وانتفعوا: ﴿مَاذَا قَالَ آيَّتَانِ؟﴾ فكان منهم من يقول هذا استخفافاً، أي: ما معنى ما قال؟ وما نفعه؟ وما قدره؟ ومنهم من يقول ذلك جهلاً ونسياناً لأنه كان في وقت الكلام مقبلاً على فكرته في أمر دنياه وفي

ومثالها، أو في الكلام حذف يقتضيه الظاهر، كأنه تعالى يقول: مثل الجنة يَبِينُ ظاهر في نفس من وعى هذه الأوصاف. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿بِقَالَ الْجَنَّةِ﴾، وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَمْثَالُ الْجَنَّةِ﴾، وعلى هذه التأويلات كلها ففي قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ هُوَ خَلَدٌ﴾ حذف تقديره: أساكن هذه؟ أو تقديره: أهولاً؟ إشارة إلى المتقين، ويحتمل عندي أن يكون الحذف في صدر الآية، كأنه تعالى قال: أيكون مثل هذه الجنة كمن هو خالد في النار؟ ويكون قوله مستفهماً عنه بغير ألف استفهام، فالمعنى: أمثل أهل الجنة - وهي بهذه الأوصاف - كمن هو خالد في النار؟ فتكون الكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ مؤكدةً للتشبيه، ويجيء قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ في موضع الحال على هذا التأويل.

و﴿مَاءٌ غَيْرٌ آسِنٌ﴾ معناه: غير متغير، قاله ابن عباس، وقتادة، وسواء أئثن أو لم ينتن، يقال: آسَنَ الماء - بفتح السين - وآسِنٌ - بكسرهما -، وقرأ جمهور القراء: ﴿آسِنٌ﴾ على وزن فاعِلٍ، وقرأ ابن كثير: ﴿آسِنٌ﴾ على وزن فِعلٍ، وهذه قراءة أهل مكة، والآسِنُ: الذي يُمْشِي عليه من ريح مُنْتَنَةٍ من ماء، ومنه قول الشاعر:

الشَّارِكُ الْقَرْنَ مُضْفَرًا أَنَامِلُهُ
يَمِيلُ فِي الرُّمَحِ مِثْلَ الْمَائِجِ الْأَسَنِ
وقال الأخفش: «آسِنٌ» لغة، والمعنى الإخبار به عن الحال، ومن قال: «آسِنٌ» على وزن فاعل فهو

أن يكون الفاعل في ﴿زَادَهُمْ﴾ الله تعالى، والزيادة في هذا المعنى تكون إما بزيادة التفهيم والأدلة، وإما بورود الشرائع والأوامر والنواهي والأخبار، فيزيد الاهتداء لِتَرْيِدِ عِلْمِ ذَلِكَ وَالْإِيمَانِ بِهِ، وذلك بفضل الله تعالى، ويحتمل أن يكون الفاعل في ﴿زَادَهُمْ﴾ قول المنافقين، واضطرابهم؛ لأن ذلك مما يتعجب المؤمن منه، ويحمد الله تعالى على إيمانه، ويتزيّد بصيرة في دينه، فكأنه تعالى قال: والمهتدون المؤمنون زادهم فعل هؤلاء المنافقين هدى، أي: كانت الزيادة بسببه فأسند الفعل إليه، وقالت فرقة: إن هذه الآية نزلت في قوم من النصارى آمنوا بمحمد ﷺ، فالفاعل في ﴿زَادَهُمْ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام، أي: كان سبب الزيادة فأسند الفعل إليه، وقوله تعالى - على هذا القول -: ﴿أَفْتَدُوا﴾ يريد تعالى: في إيمانهم بعبسى عليه السلام، ثم زادهم محمد ﷺ هدى حين آمنوا به، والفاعل في ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ يتصرف القول فيه بحسب التأويلات المذكورة، وأقواها أن الفاعل الله تعالى، و﴿أَنَّهُمْ﴾ معناه: أعطاهم، أي: جعلهم مُتَّقِينَ لَهُ، والتقدير: تقواهم إياه، وقرأ الأعشى: ﴿وَأَنطَاهُمْ﴾، وهي بمعنى أعطاهم، ورواها محمد بن طلحة عن أبيه، وهي في مصحف عبدالله.

وقوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ يَظُنُّونَ﴾ يريد المنافقين، والمعنى: ينتظرون، أي: هكذا هو الأمر في

نفسه وإن كانوا هم في أنفسهم ينتظرون غير ذلك، فإن ما في أنفسهم غير مراعى لأنه باطل. وقرأ جمهور القراء: ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾، فـ ﴿أَن﴾ بدل من ﴿السَّاعَةِ﴾، وقوله تعالى - على هذه القراءة -: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ إخبار مستأنف، والفاء عاطفة جملة من الكلام على جملة. وقرأ أهل مكة - فيما روى الرؤاسي -: ﴿إِن تَأْتِيَهُمْ﴾ بكسر الألف وجزم الفعل على الشرط، والفاء في ﴿فَقَدْ﴾ جواب الشرط، وليست بعاطفة على نحو ما في القراءة الأولى فَنَمَّ نحو من معنى الشرط، و﴿بَعَثَ﴾ معناه: فجاء، وروي عن أبي عمرو: ﴿بَعَثَ﴾ بفتح الغين وشد التاء، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ - على القراءةتين - معناه: فينبغي أن يقع الاستعداد والخوف منها لمن حزم ونظر لنفسه، والذي جاء من أشراطها محمد عليه الصلاة والسلام لأنه آخر الأنبياء، فقد بان من أمر الساعة قدر ما، وفي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أنا من أشراط الساعة»، وقال عليه الصلاة والسلام: «بعث أنا والساعة كهاتين» وأشار بإصبعه «وكفرتي رهان»، ويقال: شَرَطَ أو أشراط بسكون الراء وتخفيفها، وَأَشْرَطَ الرجل نَفْسَهُ: ألزمها أموراً، وقال أوس بن حجر:

فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهُوَ مُغْصِمٌ
وَأَلْقَى بِأَسْبَابِ لَهُ وَتَوَكَّلَا
وقوله تعالى: ﴿فَأَن لَّهُمُ الْآيَةُ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: فأتى

لهم الخلاص أو النجاة إذا جاءتهم الذكري بما كانوا يُخْبِرُونَ به في الدنيا فيكذبون به ويكون جاءهم العذاب مع ذلك؟ ويحتمل أن يكون المعنى: فأتى لهم ذكراهم وعملهم بحسبها إذا جاءتهم الساعة؟ وهذا تأويل قتادة، ونظيره ﴿وَأَن لَّهُمُ الْكَفَافُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ الآية إضراب عن أمر هؤلاء المنافقين ذكر الأهم من الأمر، والمعنى دُم على ذلك، وهذا هو القانون في كل مَنْ أَمَرَ بِشَيْءٍ هُوَ مُتَلَبِّسٌ بِهِ، وهذا خطاب للنبي ﷺ، وكل واحد من الأمة داخل فيه، واحتج بهذه الآية من قال من أهل السنة: إن العلمَ النَّظَرُ قبل القول والإقرار في مسألة أول الواجبات، ويؤب البخاري رحمه الله تعالى: العلم قبل القول والعمل لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ الآية، واجب على كل مؤمن أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من لم يكن عنده ما يتصدق به فليستغفر للمؤمنين والمؤمنات فإنها صدقة»، وقال الطبري وغيره: ﴿مُتَلَكِّمٌ﴾: تصرفكم في يقظتكم، ﴿وَمُتَوَكِّلٌ﴾: في منامكم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مُتَلَكِّمٌ﴾: تصرفكم في حياتكم الدنيا، ﴿وَمُتَوَكِّلٌ﴾: إفاقتكم في قبوركم وفي آخرتكم.

٢٠ - ٢١ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء وصف حال المؤمنين في جدهم في دين الله تعالى وحرصهم على ظهوره، وحال المنافقين من الكسل والفشل والحرص على فساد الدين وأهله، وذلك أن المؤمنين كان حرصهم يبعثهم على تمني الظهور وتمني قتال العدو وفضيحة المنافقين ونحو ذلك مما هو ظهور للإسلام، فكانوا يأبسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ، والله تعالى قد جعل كل ذلك بآحاد مضروبة وأوقات لا تتعدى، فمدح الله تعالى المؤمنين بحرصهم. وقولهم: ﴿لَوْلَا زُيِّلَتْ سُورَةٌ﴾ معناه: تتضمن إظهارنا وأمرنا بمجاهدة العدو ونحوه.

ثم أخبر تعالى عن حال المنافقين عند نزول القتال، وقوله سبحانه: ﴿مُخَكَّمَةٌ﴾ معناه: لا يقع فيه نسخ، وبهذا خصص «السورة» بالإحكام، وأما الإحكام الذي هو بمعنى الإتيان فالقرآن كله سواء فيه، وقال قتادة: كل سورة فيها القتال فيه مُحَكَّمَةٌ، وهذا هو أشد القرآن على المنافقين، وهذا أمر استقراره قتادة من القرآن، وليس من تفسير هذه الآية في شيء، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿سُورَةٌ مُخَكَّمَةٌ﴾. والمرض الذي في القلوب استعارة لفساد المعتقد، وحقيقة المرض والصحة في الأجسام وتُسْتَعَارُ المعاني، وتُنْظَرُ الخائف المُولَّه قريب من نظر المغشي عليه، وخشيتهم هذه للوصف والتشبيه.

قوله تعالى: ﴿فَأَوَّلَ لَهْمَ﴾ الآية، ﴿أَوَّلَ﴾ وزنها أفعِل، وهو مِن وَلَيْلِكَ الشيء يَلَيْلِكَ، وقالت فرقة: وزنه

أفْلَع، وفيه قلب لأنه مشتق من الويل، والمشهور من استعمال «أَوَّلَى» أنك تقول: هذا أولى بك من هذا، أي: أحق، وقد تستعمل العرب «أَوَّلَى لَكَ» فقط، على جهة الحذف والاختصار لما معها من القول، فتقول على جهة الزجر والتوعد: «أَوَّلَى لَكَ يَا فلان»، وهذه الآية من هذا الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَ﴾، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه للحسن

رضي الله عنه: «أَوَّلَى لَكَ»، وقالت فرقة من المفسرين: ﴿أَوَّلَى﴾ رفع بالابتداء و«طاعة» خبره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا هو المشهور من استعمال «أولى»، وقالت فرقة من المفسرين: ﴿فَأَوَّلَ لَهْمَ﴾ ابتداء وخبر، معناه الزجر والتوعد، ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ رَقُولَ مَعْرُوفٍ﴾ - فقال بعضها: التقدير: طاعة وقول معروف أمثل، وهذا تأويل مجاهد ومذهب الخليل وسيبويه، وحسن الابتداء بالنكرة لأنها مَحْصُصَةٌ فيها بعض التعريف، وقال بعضها: التقدير: الأمر طاعة وقول معروف، أي: الأمر المُرضي لله تعالى، وقال بعضها: التقدير: قولهم لك يا محمد - على جهة الهُزء والخديعة -: طاعة وقول

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُخَكَّمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَنَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلَ مَعْرُوفٍ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْصَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ عَذَابُهُمْ أَهْلًا ۖ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْصَامَكُمْ ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۚ أَفَلَا يَذَّكَّرُونَ ۚ الْقُرْآنُ أَنْزَلَ عَلَى قُلُوبِ أَقْبَالِهَا ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْلَازَبُوا بِرِجْلِهم مِّنْ بَيْتِ مَنَافٍ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَأَ لَهُمْ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۚ فَكَفَّ إِذَا تُنْفِثَهُ الْمَلَائِكَةُ بِصُرُوتٍ وَجْهَهُمْ وَأَذْرَهُمْ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْطَبُوا أَعْنَاقَهُمْ ۚ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَفَهُمْ ۚ

٥٩

معروف، فإذا عزم الأمر كرهوه، ونحو هذا من التقدير، قاله قتادة، وقال أيضاً ما معناه: إن تمام الكلام الذي معناه الزجر والتوعد ﴿فَأَوَّلَى﴾، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ ابتداء كلام، و«طاعة» - على هذا القول - ابتداء، وخبره ﴿لَهُمْ﴾، والمعنى: إن ذلك منهم على جهة الخديعة، فإذا عزم الأمر ناقضوا وتعاصوا.

وقوله تعالى: ﴿عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ استعارة، كما قال:

قَدْ جَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فِجْدُوا
ومن هذا الباب «نَامَ لَيْلَكَ» ونحوه. وقوله تعالى: ﴿صَدَقُوا اللَّهَ﴾ يحتمل أن يكون الصدق الذي هو ضد الكذب، ويحتمل أن يكون من قولك: «عَوْدَ صَدَقَ»، والمعنى متقارب.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾

مخاطبة لهؤلاء الذين في قلوبهم مرض، أي: قل لهم يا محمد. وقرأ نافع وأهل المدينة: ﴿عَسَيْتُمْ﴾ بكسر السين، وقرأ أبو عمرو، والحسن، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿عَسَيْتُمْ﴾ بفتح السين، والفتح أفصح لأنها من «عسى» التي تصحبها «أن»، والمعنى: فهل عسى أن تفعلوا إن توليتم غير أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم؟ وكأن الاستفهام الداخِل على «عسى» غير معناها بعض التغيير كما يغير الاستفهام قولك: أو لو كان كذا وكذا؟ وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ معناه: إن أعرضتم عن الحق، وقال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى؟ ألم يفسدوا الدَّم الحرام ويقطعوا الأرحام ويعصوا الرَّحْمَنَ عَزَّ وَجَلَّ؟ وقرأ الجمهور: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾، والمعنى: إن أعرضتم عن الإسلام، وقال كعب الأحبار ومحمد بن كعب القرظي: المعنى: إن توليتم أمور الناس، من الولاية، وعلى هذا قيل: إنها نزلت في بني هاشم ونبي أمية، ذكره الثعلبي، وروى عبدالله بن مُعَفَّل أن النبي ﷺ قرأ: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ بواو مضمومة ولا مشددة مسكورة، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ بضم التاء والواو وكسر اللام المشددة، على معنى: إن وَلَّيْتُكُمْ ولاة جَوْر فملتَم إلى ديناهم دون إمام العدل، أو على معنى: إن تَوَلَّيْتُمْ بالتعذيب والتشكيل وأفعال العرب في جاهليتها وسيرتها من الغارات والسبأ، فإنما كانت ثمرتها الإفساد

في الأرض وقطيعة الرُّحَم، وقيل: معناه: إن تولاكم الناس وولكلهم الله تعالى إليهم. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ بضم التاء وشذ الطاء المكسورة، وقرأ أبو عمرو: ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ بفتح التاء والطاء المخففة، وهي قراءة سلام ويعقوب.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى مرضى القلوب المذكورين، و﴿لَعَنَهُمُ﴾ معناه أبعدهم، وقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَرُ وَأَعْمَى أَبْصَرَهُمْ﴾ استعارة لعدم فهمهم فكانهم عَمِيَ وَصُمَّ.

﴿٢٤﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَقَانِ﴾ توقيف وتوبيخ، وتذبير القرآن. زعيم بالتبيين والهدى، و [أَمْ] منقطعة وهي الْمُقَدَّرَةُ بَيِّنٌ وألف الاستفهام، وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالَهُا﴾ استعارة الزين الذي منعهم الإيمان، ويروى أن وفد اليمن وفد اليمن وفد على النبي ﷺ وفيهم شاب، فقرأ النبي ﷺ هذه الآية، فقال الفتى: عليها أقفالها حتى يفتحها الله تعالى ويفرجها، قال عمر رضي الله عنه: فعظم في عيني، فما زالت في نفس عمر حتى ولي الخلافة فاستعان بذلك الفتى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمُ﴾ الآية، قال قتادة: إنها نزلت في قوم من اليهود كانوا قد عرفوا من التوراة أمر محمد ﷺ، وتبين لهم الهدى بهذا الوجه، فلما باشروا أمره حسدوه فارتدوا عن ذلك القدر من الهدى، وقال ابن عباس

رضي الله عنهما وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم، والآية تعم كل من دخل في ضمن لفظها غابر الدهر، و﴿سُورَكُ﴾ معناه: رجأهم سُؤْلَهُمْ وأمانيتهم، وقال أبو الفتح عن أبي علي: إنه بمعنى: دَلَاهُمْ، مأخوذ من السَّوَل وهو الاسترخاء والتدلي، وقرأ جمهور القراء: ﴿وَأَمَلَى لَهُمُ﴾، وأمال ابن كثير، وشبل، وابن مصرف [أَمَلَى]، وفاعل [أَمَلَى] هنا قال الحسن: هو الشيطان، جعل وعده الكاذب بالإبقاء كالإبقاء، وذلك أن الإملاء هو الإبقاء مُلَاوَةً من الدهر، يقال: مُلَاوَةٌ وَمُلَاوَةٌ ومِلَاوَةٌ بضم الميم وفتحها وكسرها، وهي القطعة من الزمان، ومنه «المَلَوَان»، وهما الليل والنهار، فإذا أَمَلَى الشيطان إملاءً ما فلا صحَّة له إلا بطمعهم الكاذب، ويحتمل أن يكون الفاعل في [أَمَلَى] الله عز وجل، كأنه تعالى قال: الشيطان سَوَّلَ لهم، وأَمَلَى الله لهم، وحقيقة الإملاء إنما هو بيد الله تعالى، وهذا هو الأرجح. وقرأ الأعرج، ومجاهد، والجحدري، والأعمش: ﴿وَأَمَلَى لَهُمُ﴾ بضم الهمزة وكسر اللام وإرسال ياء المتكلم، ورواها الخُفَّاف عن أبي عمرو، وقرأ أبو عمرو: ﴿وَأَمَلَى﴾ بفتح الياء على بناء الفعل للمفعول، وهي قراءة شيبة، وابن سيرين، والجحدري، وعيسى البصري، وعيسى الهمداني، وهذا يحتمل فاعله من الخلاف ما في القراءة الأولى.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾

الآية، قيل: إنها نزلت في بني إسرائيل الذين تقدم ذكرهم في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ورؤي أن قوماً من بني قريظة والنضير كانوا يعدون المنافقين في أمر رسول الله ﷺ والخلاف عليه ينضرب ومؤازرة، فذلك قولهم: ﴿سَلِّطْكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمَمِ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿أَسْرَارَهُمْ﴾ بفتح الهمزة وذلك على جمع «سر» لأن أسرارهم كانت كثيرة، وقرأ حمزة والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ بكسر الهمزة، وهي قراءة ابن وثاب، وطلحة، والأعمش، وعيسى، وهو مصدر اسم للجنس.

قوله تعالى: ﴿فَكَيفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُ الْمَلَائِكَةَ﴾ الآية، يحتمل أن يتوعدوا بها، وأنها على معنيين: أحدهما هذا هلعهم وجزعهم لفرض القتال وقراع الأعداء، فكيف فزعهم وجزعهم إذا توفيتهم الملائكة؟ والثاني أن يريد: هذه معاصيهم وعنادهم وكفرهم، فكيف تكون حالهم مع الله تعالى إذا توفيتهم الملائكة؟ وقال الطبري: المعنى: والله أعلم بأسرارهم، فكيف علمه بها إذا توفيتهم الملائكة؟ وهم هنا ملك الموت والمتصرفون معه، والضمير في ﴿يَتَوَفَّيْتُهُمْ﴾ للملائكة، وفي نحو هذا أحاديث تقتضي صفة الحال، ومن قال إن الضمير في ﴿يَتَوَفَّيْتُهُمْ﴾ للكفار الذين يَتَوَفَّوْنَ فذلك ضعيف.

وَمَا آسَخَطَ اللَّهُ هُوَ الْكُفْرُ، وَالرَّضْوَانُ هنا هو الحق والشرع المؤدي إلى الرضوان، وقد تقدم القول في تفسير قوله تعالى:

﴿تَأَخَّطَ أَعْمَلُهُمْ﴾، وقرأ الأعمش: ﴿فَكَيفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾.

(٢٩) - (٣٢) تفسير قوله عز وجل:

هذه آية توبيخ للمنافقين ونضح لهم، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ توقيف، وهي أم، المنقطعة، وقد تقدم تفسير مرض القلب، وقوله تعالى: ﴿أَنْ لَّنْ يَخْرُجَ اللَّهُ أَصْفَتَهُمْ﴾ أي: يديها من مكانها في نفوسهم، والضعن: الحقد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَنَرَيْنَهُمْ﴾ مقارنة في

شهرتهم، ولكنه تعالى لم يعينهم قط بالأسماء والتعريف الثام إبقاء عليهم وعلى قرباتهم وإن كانوا قد عرفوا بلحن القول، وكانوا في الاشتهار على مراتب كعبد الله بن أبي، والجند بن قيس وغيرهم ممن هو دونهم في الشهرة، والسبب: العلامة التي كان الله تعالى يجعل لهم لو أراد التعريف الثام بهم، وقال ابن عباس، والضحاك: إن الله تعالى قد عرفه بهم في سورة براءة في قوله تعالى: ﴿وَلَا ضَلَّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾، وفي قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَكِنْ تَقُولُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾، وهذا في الحقيقة ليس بتعريف تام بل هو لفظ يشير إليهم على الإجمال لا أنه سمي أحداً، وأعظم ما رؤي في اشتهارهم أن النبي ﷺ أمر يوماً فأخرجت جماعة منهم من المسجد،

وَلَوْ نَشَاءُ لَنَرَيْنَهُمْ فَلَقَرْنَهُمْ بِسَمَتِهِمْ وَلَقَرْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَتَبْلُوَكُمْ فِي مَدَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٠﴾ وَتَبْلُوَكُمْ فِي الْأَزْدِينَ كُنُوزًا وَسُدُورًا وَسَبِيلَ اللَّهِ وَشَأْوِ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنَبْذُرَنَّ اللَّهُ شَيْئًا وَمَسِيحُطَ أَعْمَلُهُمْ ﴿٣١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْغُوا أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاؤُوا وَهُمْ كَافِرِينَ يَقُولُ اللَّهُ لَنْ نَبْذُرَهُمْ وَلَا تَهْتَدُوا وَنَدْعُو إِلَى السَّبِيلِ وَأَشْرُ الْأَعْدَاءِ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَفْزَحَ أَعْمَلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّمَا لِلنَّبِيِّ الْأَذْيَانُ لَوْ وَهَوْا وَلَنْ تَقُولُوا وَتَقُولُوا بِأَجْرٍ كَرِيمٍ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٤﴾ إِنْ يَسْتَلِكُمْ مَوَالِيَهُمْ خِيَرَتُهُمْ يَتَخَلَّوْا وَخِيَرَتُهُمْ أَصْحَابُكُمْ ﴿٣٥﴾ هَذَا شَرْهُهُ لَكُمْ تَدْعُونَ لِيُخْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَسْعَىٰ وَمَنْ يَسْعَىٰ فَلِنَبَايَعُ مِنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَشْرُ الْفُقَرَاءِ وَلَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَلِكُمْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٦﴾

كأنه وسهم بهذا، لكنهم أقاموا على الشبزي من ذلك وتمسكوا بلا إله إلا الله فحققت دماؤهم.

ورؤي عن حذيفة ما يقتضي أن النبي ﷺ عرفه بهم أو ببعضهم، وله في ذلك كلام مع عمر رضي الله عنهما.

ثم أخبره تعالى أنه سيعرفهم في لحن القول، ومعناه: في مذهب القول ومنحاه ومقصده، وهذا كما يقول لك إنسان قولاً معتقداً له وتفهم أنت من مقاطع كلامه وهيئته وقرائن أمره أنه على خلاف ما يقول، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: «فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض» الحديث، أي: أدقّب بها في جهات الكلام، وقد يكون هذا اللحن متفقاً

عليه، أن يقول الإنسان قولاً يفهم السامعون منه معنى، ويفهم الذي أتفق مع المتكلم منه معنى آخر، ومنه الحديث الذي قال سعد بن معاذ وابن رواحة لرسول الله ﷺ: عضل والقارة، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

.....
... وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا
أي: ما فهمه عنك صاحبه وخفي على غيرك، فأخبر الله تعالى نبيه ﷺ أن أقوالهم المَحْرَفة التي هي على خلاف عقدهم سَتَبَيِّنُ له فيعرفهم بها، واحتج بهذه الآية من جعل الحد في التعريض بالقذف، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ مخاطبة للجميع من مؤمن وكافر.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالنون، وكذلك ﴿تَلَاكُمْ﴾، وكذلك ﴿يَبْلُوكُمْ﴾، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالياء، على معنى: وليبلونكم الله، وكذلك ﴿يَغْلُمُ﴾، وكذلك ﴿يَبْلُوكُ﴾، وروى رويس عن يعقوب: ﴿وَيَبْلُوكُ﴾ بالرفع على القطع والإعلام بأن ابتلاءه دائم، وكان الفضل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللَّهُمَّ لَا تَبَيِّنْ لَنَا فَإِنَّكَ إِن بَلَوْتَنَا فَضَحْتَنَا وَهَتَكْتَ أَسْتَارَنَا. وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَلَاَ الْجَاهِدِينَ يَكْفُرُ الْفَاسِقِينَ﴾ معناه: حتى نعلمهم مجاهدين قد خرج جهادهم إلى الوجود، وَيَأْنُ تَكْشِفُهُمُ الذي به يتعلّق ثوابهم، وَعِلْمُ الله تبارك وتعالى بالمجاهدين قديم أزلي، وإنما المعنى ما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدُّوا﴾ يحتمل أن

يكون المعنى: وصدّوا غيرهم، ويحتمل أن يكون غير مُتَعَدٍّ بمعنى: وصدّوا هم في أنفسهم، وقوله تعالى: ﴿وَتَقَاتُوا الرِّسُولَ﴾ معناه: خالفوه فكانوا في شق وهو ﷺ في شق، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ مَا بَيْنَ لَهْمٍ آلْهَدَى﴾، قالت فرقة: نزلت في قوم من بني إسرائيل فعلوا هذه الأفاعيل بعد تبيينهم لأمر محمد ﷺ من التوراة، وقالت فرقة: نزلت في قوم من المنافقين حدث الثفاق في نفوسهم بعد ما كان الإيمان داخلها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في المطعميين في سفرة بدر، ﴿وَتَبَيَّنَ آلْهَدَى﴾ هو وجوده عند الداعي إليه، وقالت فرقة: بل هي عامة في كل كافر، وألزمهم أنهم قد تَبَيَّنَ لهم الهدى من حيث كان الهدى بيئاً في نفسه، وهذا كما تقول لإنسان يخالفك في الاحتجاج على معنى التوبيخ له: أنت مخالف في شيء واضح لا خفاء به عليك، بمعنى أنه هو هكذا في نفسه. وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَصُرُوا إِلَهُ شَيْئًا﴾ تحقير لهم، وقوله سبحانه: ﴿وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَالِهِمْ﴾ أما على قول من يرى أن أعمالهم الصالحة مِن صِلَة رحم ونحوه - تُكْتَبُ، فيجاء هذا الإحباط فيها متمكناً، وأما على قول من لا يرى ذلك فمعنى ﴿وَسَيُحِطُّ﴾ أنها عبارة عن إعدام أعمالهم وإفسادها وأنها لا توجد شيئاً مُتَّفَعاً به، فذلك إحباط على تشبيه واستعارة.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُؤِيَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي بَنِي أَسَدٍ مِنَ الْعَرَبِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَسْلَمُوا

وقالوا لرسول الله ﷺ: نحن قد آثرناك على كل شيء وجئناك بنفوسنا وأهلينا، كأنهم مثوا بذلك، فنزل فيهم ﴿يَسْتَرُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الآية، ونزلت فيهم هذه الآية، فإن كان هذا فالإبطال الذي نهوا عنه ليس بمعنى الإفساد الثام؛ لأن الإفساد الثام لا يكون إلا بالكفر، وإلا فالحسنات لا تبطلها المعاصي، وإن كانت الآية عامة على ظاهرها نهى الناس عن إبطال أعمالهم، فالإبطال هو الإفساد الثام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، رُوي أنها نزلت بسبب أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله، إن حاتمًا كانت له أفعال بر، فما حاله؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو في النار»، فبكى عدي رضي الله عنه وولّى، فدعاه رسول الله ﷺ فقال له: «أبي وأبوك وأبو إبراهيم خليل الرحمن في النار»، ونزلت هذه الآية في ذلك، وظاهر الآية العموم في كل ما تناولته الصفة، وقوله تعالى: ﴿تَلَا تَهْتُوا﴾ معناه: فلا تضعفوا، وهو من «وَهَنَ الرَّجُلُ» إذا ضعف، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ بالتشديد في الدال، وقرأ جمهور القراء: «السَّلَامِ» بفتح السين، وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: «السَّلَامِ» بكسر السين، وهي قراءة الحسن، وأبو رجاء، والأعمش، وعيسى، وطلحة، وهو بمعنى المسالمة، وقال الحسن بن أبي الحسن وفرقة ممن قرأ بكسر

السين: إنه بمعنى الإسلام، أي: فلا تهنوا وتكونوا داعي إلى الإسلام فقط غير مقاتلين بسببه، وقال قتادة: معنى الآية: لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت للأخرى، وهذا حسنٌ مُلْتَمِثٌ مع قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون في موضع الحال، والمعنى: لا تهنوا وأنتم بهذه الحال، والمعنى الثاني أن يكون إخباراً مقطوعاً، أخبرهم فيه بمغيب أبرزه الوجود بعد ذلك، و﴿الْأَعْلَوْنَ﴾ معناه: الغالبون والظاهرون، من العُلُوِّ. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معناه: بنصره ومعونته. و﴿يَرْكَزُ﴾ معناه: يُنْقِصُ ويذهب، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من ترك صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»، أي: ذهب بجميع ذلك عنه على جهة التغلب والقهر، والمعنى: لن يترككم ثواب أعمالكم أو جزاءها، واللفظة مأخوذة من الوتر الذي هو الدُّخْل، وذهب قوم إلى أنها من الوتر الذي هو الفرد، والمعنى: لن يُفردكم من ثواب أعمالكم، والأول أصح، وفسرها ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابه: يَظْلِمُكُمْ.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لِلدُّنْيَا لُغُوبٌ وَلَهُوَ﴾ تحقيق لأمر الدنيا، أي: فلا تهنوا في الجهاد بسببها، وَوَضَفُهَا باللعب واللهو هو على أنها وما فيها مما يختص بها لعبٌ ولهوٌ، وإلا ففي الدنيا ما ليس لعباً ولا لهواً وهو

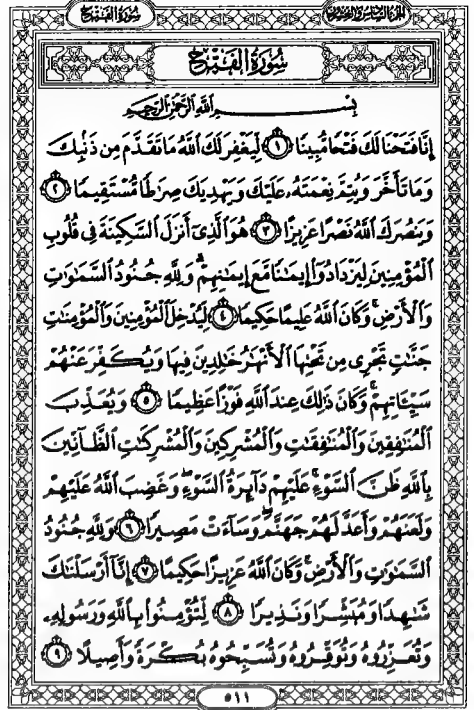
الطاعة وأمر الآخرة وما جرى مجراه، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَيْتُمْ وَتَنَقَّوْا يُؤَيِّدْكُمُ الْيُورُكُمُ﴾ معناه: هذا هو المطلوب منكم لا غيره، لا تُسألون أموالكم أن تنفقوها في سبيل الله، وقال سفيان بن عُيَيْنَةَ: المعنى: لا يسألكم كثيراً من أموالكم إخفاء، وإنما يسألكم غِيضاً من فيض، ربع العشر، فطُيِّبُوا أنفسكم، ثم قال تعالى مُنْبِئاً على خُلُقِ ابن آدم: ﴿إِنْ يَتَّبِعْكُمُوهَا فَيُخْرِجَكُم مِّنْهَا﴾، والإخفاء هو أشد السَّوَال، وهو المُخْجَل الذي يستخرج ما عند المسؤول كرهاً، ومنه حفاء الرجل والتَّخْفِي من البحث عن الشيء، وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُوا﴾ جزم على جواب الشرط، وقرأ جمهور القراء: ﴿وَيُخْرِجُ﴾ جزماً عطفاً على ﴿تَبْتَغُوا﴾، وقرأ عبدالوارث عن أبي عمرو: ﴿وَيُخْرِجُ﴾ بالرفع على القطع بمعنى: وهو يُخْرِجُ، وحكاها أبو حاتم عن عيسى، وقرأت فرقة: ﴿وَيُخْرِجُ﴾ بالنصب على معنى: يكن يُخْلُ وإخراج، فلما جاءت العبارة بفعل دلَّ على أن «أن» التي مع الفعل بتأويل المصدر الذي هو الإخراج، والفاعل في قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُ﴾ على كل الاختلافات المذكورة يحتمل أن يكون الله تعالى، ويحتمل أن يكون البخل الذي يتضمنه اللفظ، ويحتمل أن يكون السؤال الذي يتضمنه اللفظ أيضاً، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وابن سيرين، وابن محيصن، وأيوب: ﴿وَيُخْرِجُ﴾ بفتح الباء «أَضْغَائِكُمْ» رفعاً على أنها فاعلة،

وروي عنهم ﴿وَيُخْرِجُ﴾ بضم التاء وفتح الراء على ما لم يُسَمِّ فاعله، وقرأ يعقوب: ﴿وَيُخْرِجُ﴾ بضم النون وكسر الراء ﴿أَضْغَائِكُمْ﴾ نصباً. و«الأضغان» كما قلنا: معتقدات السوء، وهذا الذي كان يُخاف أن يعترى المسلمين هو الذي تقرب به محمد بن مسلمة إلى كعب بن الأشرف حين قال له: إن هذا الرجل قد أكثر علينا وطلب منا الأموال.

ثم وقف تعالى عباده المؤمنين على جهة التوبيخ لبعضهم: ﴿هَكَأُنْتُمْ﴾، وكرر هاء التنبيه تذكيراً. وقوله تعالى: ﴿عَن نَّفْسِي﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: فإنما يبخل عن شُحِّ نفسه، والآخر أن تكون بمنزلة «علی» لأنك تقول: بخلت عليك بكذا وبخلت عنك بمعنى أَمْسَكْتُ عنك. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ معنى مطرد في قليل الأشياء وكثيرها.

وقوله تعالى: ﴿يَتَّبَدِّلُ قَوْمًا﴾ قيل: الخطاب لقريش، والقوم الغَیْرُ هم أهل المدينة، وقال عبدالرحمن بن جبیر وشريح بن عبيد: الخطاب لمن حضر المدينة، والقوم الغَیْرُ هم أهل اليمن، وقالت فرقة: الخطاب لجميع المسلمين والمشرکین والعرب حينئذ، والقوم الغیر فارس. وروي أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل عن هذا وكان سلمان إلى جنبه، فوضع يده على فخذه وقال: «قوم هذا، لو كان الدين في الثريا لناله رجال من أهل فارس»، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُ لَكُم مِّنْهَا آلَاءٌ﴾ معناه: في الخلاف

منها بعضاً نزل بالمدينة،
وأما صدر السورة
ومعظمها فكما قلنا،
ويقضي بذلك قول
النبي ﷺ لعمر بن
الخطاب رضي الله عنه
وهما في تلك السفرة:
«لقد أنزلت عليّ سورة هي
أحب إليّ من الدنيا بما
فيها»، ذكر مكّي هنا أن
المعنى: بشرط أن تبقى
الدنيا ولا تنفي، وفي هذا
نظر، وكان رسول الله ﷺ
خرج في تلك الوجهة
ليعتمر بمكة فصدّه
المشركون - والقصة
مشهورة - سنة ست من



الهجرة.

١ - ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَاكَ فِتْحًا مِّنَّا﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال قوم - فيما حكى الزهرواي -:
﴿فِتْحًا لَّكَ﴾ يريد به فتح مكة، وحكاه
الشعلبي أيضاً، ونسبه النقاش إلى
الكلبي، وأخبره تعالى به على معنى:
قضينا به، و«الْفَتْحُ»: القاضي بلغة
اليمن، وقيل: المراد إنا فتحنا لك بأن
هديناك إلى الإسلام ليفخر، وقال
جمهور الناس - وهو الصحيح الذي
تعضده قصة الحديبية: إن قوله
تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ إنما معناه: إن
ما يسر الله تعالى لك في تلك الخرجة
فتح مبين تستقبله، ونزلت السورة
مؤنسة للمؤمنين لأنهم كانوا
استوحشوا من ردّ قريش لهم، ومن
تلك المهادنة التي هادتهم النبي ﷺ،
فنزلت السورة مؤنسة لهم في صدهم
عن البيت، ومُذهبة ما كان في

قلوبهم، ومنه حديث عمر
رضي الله عنه الشهير، وما قال
للنبي ﷺ ولأبي بكر رضي الله عنه،
واستقبل رسول الله ﷺ في تلك
السفرة أنه هادن عدوّه ريثما يتقوى
هو، وظهرت على يديه آية الماء في
بشر الحديبية حيث وضع فيه سهمه
وثاب الماء حتى كفى الجيش،
واتفقت بيعة الرضوان، وهي الفتح
الأعظم، قاله جابر بن عبد الله،
والبراء بن عازب، وبلغ هديه مجله،
قاله الشعبي، واستقبل فتح خيبر،
وامتلأت أيدي المؤمنين خيراً، ولم
يفتحها إلا أهل الحديبية، لم يشركهم
فيها أحد، وفيه نظر؛ لأن أصحاب
السفينة مع جعفر بن أبي طالب
رضي الله عنه شاركوه في القسم،
فينبغي أن يقال: لم يشركهم أحد من
المتخلفين عن الحديبية، واتفقت في
ذلك الوقت ملحمة عظيمة بين الروم
وفارس ظهرت فيها الروم فكانت من
جملة الفتح على رسول الله ﷺ،
وسرّ بها هو والمسلمون لظهور أهل
الكتاب على المجوس والنجّاد
الشوكة العظمى من الكفر.

ثم عظم الله تعالى أمر نبيه ﷺ
وفزّفه بأن أنبأه بأنه قد غفر له ما
تقدّم من ذنبه وما تأخر، فقوله
تعالى: ﴿لَقَدْ غَفَرْنَا لَكَ﴾ هي لام «كي»،
لكنها تخالفها في المعنى، والمراد
هنا أن الله تعالى فتح لك لكي يجعل
لك ذلك أمانة وعلامة لغفرانه لك،
فكانها لام صيرورة، ولهذا قال عليه
الصلاة والسلام: «لقد أنزلت عليّ
الليليلة سورة هي أحب إليّ من
الدنيا»، وقال الطبري وابن كيسان:

والتولي والبخل بالأموال ونحو هذا،
وحكى الشعلبي قولاً أن القوم الغير
هُم الملائكة عليهم السلام.

كمل تفسير سورة محمد والحمد لله
رب العالمين

تفسير سورة الفتح

هذه السورة نزلت على
رسول الله ﷺ مُنْصَرَفَةً من الحديبية،
وفي ذلك أحاديث كثيرة عن أنس
وابن مسعود وغيرهما تقتضي
صحته، وهي بهذا في حكم المدني،
وقال الزهري: عن مجاهد عن ابن
عباس رضي الله عنهما: إنها نزلت
بالمدينة، والأول أصح، ويشبه أن

المعنى: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَسَبْحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرُهُ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ، وَبِنِهَا هَذِهِ الْآيَةِ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ السورة، وهذا ضعيف من وجهين: أحدهما أن السورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ إنما نزلت في آخر مدة النبي ﷺ ناعية له نفسه حسب ما قال ابن عباس رضي الله عنهما عندما سأل عمر رضي الله عنه عن ذلك، والآخر أن تخصيص النبي ﷺ بالتشريف كان يذهب لأن كل واحد من المؤمنين مخاطب بهذا الذي قال الطبري، أي: سَبِّحْ واستغفر لكي يغفر الله لك، ولا يقتضي هذا أن الغفران قد وقع، وما قدمناه أولاً يقتضي وقوع الغفران للنبي ﷺ، ويدل على ذلك قول الصحابة رضي الله عنهم له ﷺ حين قام حتى توزعت قدماء: أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟» فهذا نص في أن الغفران حكم قد وقع، وقال مُنذر بن سعيد: المعنى: مجاهدتك في الله تعالى المقترنة بالفتح هي ليغفر، وحكى الثعلبي عن الحسين بن الفضل أن المعنى: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَاسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ... الآية، وهذا نحو قول الطبري.

وقوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال سفيان الثوري: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ يريد به قبل النبوة و﴿مَا تَأَخَّرَ﴾ كل شيء لم يعمل، وهذا

ضعيف، وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب البتة، وأجمع العلماء على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذائل، [وَجُوزَ بعضهم الصغائر التي ليست برذائل]، واختلفوا هل وقع ذلك من محمد ﷺ أو لم يقع؟ وحكى الثعلبي عن عطاء الخراساني أنه قال: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ هو ذنب آدم وحواء عليهما السلام، أي: ببركتك، و﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هي ذنوب أمّتك، قال الثعلبي: الإمامية لا تجوز الصغائر على النبي ﷺ ولا على الإمام، والآية تردّ عليهم، وقال بعضهم: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ هو قوله عليه الصلاة والسلام يوم بدر: «اللَّهُمَّ إِنْ تَوَلَّيْتَ هَذِهِ الْعَصَابَةَ لَمْ تُعْبِدْ»، و﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هو قوله عليه الصلاة والسلام يوم حنين: «لَنْ تُغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ». وهذا كله مُعْتَرَض.

و «إِتِمَامُ النُّعْمَةِ عَلَيْهِ» هو إظهاره وتغلبه على عدوه والرضوان في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ يَرْمِطُ مُسْقِطًا﴾ معناه: إلى صراط مستقيم، فحذف الجار فتعدى الفعل، وقد تعدى هذا بغير حرف جر. و«النصر العزيز» هو الذي معه غلبة العدو والظهور عليه، والنصر غير العزيز هو الذي مُضْمَنُته الحماية ودفع العدو فقط. و«إِزْأَالُ السُّكِينَةِ» في قلوب المؤمنين - وهي فيلة من السكون - هو تسكينها لتلك الهدنة مع قريش حتى اطمأنت وعلموا أن وعد الله تعالى على لسان رسوله ﷺ حق، فازدادوا بذلك إيماناً إلى

إيمانهم الأول وكثر تصديقهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما آمنوا بالتوحيد زادهم العبادات شيئاً شيئاً، فكانوا يزيّدون إيماناً حتى قال تعالى لهم: ﴿أَلَيْسَ أَكْمَلَ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فمنحهم أكمل إيمان لأهل السموات والأرض، لا إله إلا الله، وفُسِّر ابن عباس رضي الله عنهما السُّكِينَةَ بالرحمة. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ جَنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى تسكين النفوس أيضاً، وأن تكون مسلمة، لأنه ينصر متى شاء وعلى أي صورة شاء، مما لا يُدْبِرُهُ البشر، ومن جنده السُّكِينَةَ التي أنزلها في قلوب أصحاب محمد ﷺ فثبتت بصائرهم، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ أي: ويكون: فهي دالة على الوجود بهذه الصفة لا مُعَيَّنَةٌ وقناً ماضياً، و«العلم» و«الإحكام» صفتان مقتضيتان عزة النصر لمن أراد الموصوف بهما نصره.

٥ - ٧ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِسْمِهِمْ﴾ معناه: فازدادوا وتلقوا ذلك، فتمكن - بعد ذلك - قوله تعالى: ﴿لِيُنْزِلَ الْآيَاتِ﴾ أي: بتكسبهم القبول لما أنزل الله تعالى عليهم، ويروى في معنى هذه الآية أنه لما أنزلت ﴿وَمَا أَذْرَى مَا يَفْعَلُ بِكُمْ﴾ تكلم فيها أهل الكتاب، وقالوا: كيف ننبع من لا يعرف ما يفعل به وبالناس معه، فبين الله تعالى في هذه السورة ما يفعل به بقوله تعالى: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، فلما سمعها المؤمنون قالوا: هنيئاً مريئاً، هذا لك

فيه، ومن هذا قول الشاعر:

وَدَائِرَاتِ الدَّهْرِ أَنْ تَدُورَا

ومنه قول الآخر:

وَيَعْلَمُ أَنَّ النَّائِبَاتِ تَدُورُ

وهذا كثير، ويحسن أن تسمى المصيبة دائرة من حيث كمالها أن تحيط بصاحبها كما يحيط شكل الدائرة على السواء من النقطة، وقد أشار النقاش إلى هذا المعنى.

و «غضب الله تعالى» متى ما قصد به الإرادة فهو صفة ذات، ومتى ما قصد به ما يظهر من الأفعال على المغضوب عليه فهو صفة فعل.

و «لَقَمْتُمْ»: أبعدهم، وقال تعالى في هذه: ﴿غَزَبْنَا عَنِ كَيْبًا﴾ فذكر صفة العزة من حيث تقدم الانتقام من الكفار، وفي التي قُبِلَ قَرَنٌ بالحكمة العلم من حيث وعد بمغيبات، وقرن باللفظتين ذكر جنود الله تعالى التي منها السكينة ومنها نقمته من المنافقين والمشركين، فلكل لفظ وجه من المعنى، وقال ابن المبارك في كتاب النقاش: جنود الله في السماء الملائكة، وفي الأرض الغزاة في سبيل الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعض من كل.

(٨) - (١١) تفسير قوله عز وجل:

من جعل الشاهد محض الشهاده من يوم يحصلها فقوله تعالى: ﴿شَهِدًا﴾ حال واقعة، ومن جعل الشاهد مؤدّي الشهادة فيه حال مستقبل، وهي التي يسميها النجاة: المُقَدَّرَة. والمعنى: شاهداً على الناس بأعمالهم وأقوالهم حين بلغت

يعتقدونه بغير صفاته، فهي ظنون سوء من حيث هي كاذبة مؤدية إلى عذابهم في نار جهنم. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةٌ السُّوءِ﴾ كأنه يقوي التأويل الآخر، أي: أصابهم ما أرادوا بكم. وقرأ جمهور القراء: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةٌ السُّوءِ﴾ كالأول، ورجحها الفراء وقال: قلما تضم العرب السين، قال أبو علي: هما متقاربان والفتح أشد مطابقة في اللفظ، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿ظَنُّ السُّوءِ﴾ بفتح السين، و ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ بضم السين؛ وهو اسم، أي: دائرة السوء الذي أرادوه بكم في ظنهم السوء، وقرأ الحسن بضم السين في الموضعين، وروي ذلك عن أبي عمرو ومجاهد. وسمى تعالى المصيبة التي دعا بها عليهم دائرة من حيث يقال في الزمان: إنه يستدير، ألا ترى أن السنة والشهر كأنها مستديرات تذهب على ترتيب وتجيء من حيث هي تقديرات للحركة العظمى، ومنه قول النبي ﷺ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ»، فيقال للأقدار والحوادث التي هي في طي الزمان: دائرة لأنها تدور بدوران الزمان، كأنك تقول: إن أمر كذا يكون في يوم كذا من سنة كذا، فمن حيث يدور ذلك اليوم حتى يبرز إلى الوجود تدور هي أيضاً

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ تَحْتِ أَعْيُنِنَا ﴿١١﴾ سَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنْتَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا السُّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٣﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥﴾ سَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرِنَا أَخَذُوا هَادِرُونَ لَنَنْعِمَ بِكُمْ بِرِيدُونَ أَنْ يَسْأَلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ نَتَّعِبَ عَنْكُمْ كَذَلِكَ قَالَتْ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ فَمُسْتَوْذِنِينَ بَلْ تَحْسَدُونَ أَنَّا كَاوُوا لَا يُفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾

٥١٢

يا رسول الله فما لنا؟ فنزلت هذه الآية ﴿لَنُخَلِّقَنَّ الْفُتُونَةَ وَالْمُؤْمِنِينَ جَنَّاتٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، فعرفه الله تعالى ما يفعل به وبالمؤمنين والكافرين، وذكر النقاش أن رجلاً من عك قال: هذا لك يا رسول الله فما لنا؟ فقال النبي ﷺ: «هي لي ولأمتي كهاتين»، وجمع بين إصبعيه.

وقوله تعالى: ﴿يُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فيه ترتيب الجمل في السرد لا ترتيب وقوع معانيها؛ لأن تكفير السيئات قبل إدخالهم الجنة.

وقوله تعالى: ﴿الْظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ﴾ قيل معناه: من قولهم: ﴿لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ الآية، فكأنهم ظنوا بالله تعالى ظن سوء في جهة الرسول ﷺ والمؤمنين، وقيل: ظنوا بالله تعالى ظن سوء إذ هم

إليهم الشَّرْع، ومبشراً أهل الطاعة برحمة الله تعالى، ونذيراً لأهل الكفر ينذرهم من عذاب الله عز وجل.

وقرأ جمهور الناس في كل الأمصار: ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ بالتاء على مخاطبة الناس، على معنى: قل لهم، وكذلك الأفعال الثلاثة بعد، وقرأ أبو عمرو بن العلاء، وابن كثير، وأبو جعفر: ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ بالياء على استمرار خطاب محمد ﷺ، وكذلك الأفعال الثلاثة بعد، وقرأ الجحدري: ﴿وَتَعَزَّوْهُ﴾ بفتح التاء وسكون العين وضم الزاي، وقرأ محمد بن السمينغ اليماني، وابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَتَعَزَّوْهُ﴾ بزائين، من العزة، وقرأ جعفر بن محمد: ﴿وَتَعَزَّوْهُ﴾ بفتح التاء وسكون العين وكسر الزاي، ومعنى [تَعَزَّوْهُ]: تعظموه وتكبروه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال قتادة: معناه: تصروه بالقتال، وقال بعض المتأولين، الضمائر في قوله تعالى: ﴿وَتَعَزَّوْهُ وَتَقَرَّبْهُ وَتَسْجُدْهُ﴾ هي كلها لله تعالى، وقال الجمهور: ﴿وَتَعَزَّوْهُ وَتَقَرَّبْهُ﴾ هما للنبى ﷺ، و﴿وَتَسْجُدْهُ﴾ هي لله تعالى، وهي صلاة البرذنين، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿وَتَسْجُدْهُوا لله﴾، وفي بعض ما حكى أبو حاتم: ﴿وَتَسْجُدْهُوا لله﴾ بالنون، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلِيَسْجُدْهُوا لله﴾، و﴿البُكْرَةُ: الغدو، والأصيل: العشي﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلَيْكَ يَاسِرُونَ﴾ يريد تعالى: في بيعة الرضوان، وهي

بيعة الشجرة حين أخذ رسول الله ﷺ الأهباء لقتال قريش لما بلغه مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه رسوله إليهم، وذلك قبل أن ينصرف رسول الله ﷺ من الحُدَيْبِيَّة، وكان في ألف وأربعمائة رجل، قال النقاش: وقيل: كان في ألف وثمانمائة، وقيل: وسبعمائة، وقيل: وستمائة، وقيل: ومائتين، وبايعهم رسول الله ﷺ على الصبر المتناهي في قتال العدو إلى أقصى الجهد، حتى قال سلمة بن الأكوع وغيره: بايعنا رسول الله ﷺ على الموت، وقال عبدالله بن عمر، وجابر بن عبدالله رضي الله عنهم: بايعنا رسول الله ﷺ على ألا نفر، و﴿المُبايعة﴾ في هذه الآية مفاعلة من البيع؛ لأن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وبقي اسم البيعة بغد على مُعاقِدة الخلفاء والملوك، وعلى هذا سمت الخوارج أنفسهم الشُّرأة، أي: اشتروا بزعمهم الجنة بأنفسهم، ومعنى ﴿إِنَّمَا يَبَايِعُوكَ الله﴾ أن صفقتهم إنما يُمضيها الله تعالى ويمنح الثمن، وقرأ تمام بن العباس بن عبدالمطلب: ﴿إِنَّمَا يَبَايِعُوكَ الله﴾، قال أبو الفتح: ذلك على حذف المفعول لدلالة الأول عليه وقُرْبه منه.

وقوله تعالى: ﴿يَذُكَّرُ﴾، قال جمهور المتأولين: اليَد بمعنى «النعمة»، أي: نعمة الله تعالى في نفس هذه المبايعة - لما يُستقبل من محاسنها - فوق أيديهم التي يمدونها لبيعتك، وقال آخرون: يَذُكَّرُ هنا

بمعنى قوة الله تعالى فوق قواهم، أي: في نصرك ونصرهم، فالآية - على هذا - تعديد نعمة عليهم مستقبلة مُخَبِّر بها، وعلى التأويل الأول: تعديد نعمة حاصلة يشرف بها الأمر، قال النقاش: يَذُكَّرُ في الثواب فوق أيديهم. وقوله تعالى: ﴿هَتَنَ تَكَتْ﴾ أي: نقض هذا العهد فإنما يجني على نفسه، وإيأها يُهْلِكُ، فنكته عليه لا له، وقرأ جمهور القراء: ﴿بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ الله﴾ بالنصب على التعظيم، وقرأ ابن أبي إسحق: ﴿بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ الله﴾ بالرفع على أن الله تعالى هو المعاهد، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿عَلَيْهِ﴾ مضمومة الهاء، وروي ذلك عن ابن أبي إسحق، و﴿الأجر العظيم﴾: الجنة، لا يفنى نعيمها ولا ينقضى أمدها. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، والعامية: ﴿نَسْؤُيْهِ﴾ بالياء، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿نَسْؤُيْهِ﴾ بالنون، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿نَسْؤُفْ يُوْتِيهِ الله﴾.

١١ - ١٢ تفسير قوله عز وجل: «المخلفون من الأعراب» قال مجاهد وغيره: هم جُهَيْنَةُ وَمَرْيَنَةُ ومن كان حول المدينة من القبائل، فإنهم في خروج رسول الله ﷺ إلى عُمُرَةَ عام الحديبية رأوا أنه يستقبل عدواً عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة وهم الأحابيش، ولم يكن تمكن إيمان أولئك المجاورين للمدينة، فقعدها عن النبي ﷺ وتخلّفوا، وقالوا: لن

يرجع محمد ولا أصحابه من هذه السفرة، ففضحهم الله تعالى في هذه الآية وأعلم محمداً ﷺ بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم، فكان كذلك، قالوا: شغلنا الأموال والأهلون فاستغفر لنا، وهذا منهم حُبٌّ وإبطال، فلذلك قال الله تعالى: ﴿بَقُولُونَ يَا لَيْسَ بِهِ شَيْءٌ﴾ يعني به قولهم: «فاستغفر لنا»؛ لأنهم قالوا ذلك مصانعة من غير توبة ولا ندم، قال: وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ الآية معناه: ولا ينفعكم استغفاري، وهل أملك لكم شيئاً والله تعالى قد أراد

ثم قال تعالى لنبيه ﷺ: قل لهم: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْئاً﴾، أي: من يحمي أموالكم وأهلكم إن أراد بكم فيها سوءاً؟ وقرأ جمهور القراء: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾، بفتح الضاد، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿سُوءاً﴾ بالضم، ورجحها أبو علي، وهما لغتان، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾. ثم ردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، ثم فسر لهم العلّة التي تخلفوا من أجلها بقوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنَّا وَابِلٌ يَبْرِئُهُمُ مِنَ الْعَذَابِ﴾ وفي قراءة عبد الله: ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ بغير ياء، و﴿بُورًا﴾ معناه: فاسدين هلكى بسبب فسادهم، والبوار: الهلاك، و﴿بَارَتِ السَّلْعَةُ﴾ مأخوذ من هذا، و﴿بُورٌ﴾ يوصف به الجمع والإفراد، ومنه قول ابن الزبيري:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
والبُورُ في لغة أزد عمان: الفاسد، ومنه قول أبي الدرداء: «فأصبح ما جمعوا بوراً» أي: فاسداً ذاهباً، ومنه

قول حسان بن ثابت:

لَا يَنْفَعُ الطُّولُ مِنْ نُوكِ الْقُلُوبِ وَقَدْ
يَهْدِي إِلَهُ سَبِيلَ الْمُغْشَرِ الْبُورِ
وقال الطبري في قوله تعالى: ﴿بَقُولُونَ يَا لَيْسَ بِهِ شَيْءٌ﴾ يعني به قولهم: «فاستغفر لنا»؛ لأنهم قالوا ذلك مصانعة من غير توبة ولا ندم، قال: وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ الآية معناه: ولا ينفعكم استغفاري، وهل أملك لكم شيئاً والله تعالى قد أراد

ضركم بسبب معصيتكم؟ كما لا أملك إن أراد بكم البُتْع في أموالكم وأهلكم. ﴿١٣﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿لَمَّا قَالَ تَعَالَى لِهَم: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ توعدهم بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، أي: وأنتم هكذا فأنتم ممن أعدت لهم السعير وهي النار المؤجّجة. والسعير: ما تحرك به النار، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وَيْلٌ لِمَنْ يَسْتَعْرِ حَرْبًا».

ثم رجع بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية؛ لأن القوم لم يكونوا مجاهرين بالكفر فلذلك جاز وعيدهم وتوبيخهم ممزوجاً فيه بعض الإمهال والترجئة؛ لأن الله تعالى كان قد علم منهم أنهم سيؤمنون.

ثم إن الله تعالى أمر نبيه ﷺ - على ما روي - بغزو خيبر وعده بفتحها، وأعلمه أن المخلفين إذا رأوا مسيره إلى يهود - وهم عدوٌ مستضعف - طلبوا الكون معه رغبة في عَرْض الدنيا والغنيمة، وكان كذلك. وقوله

تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ معناه: أن يغيروا وعده لأهل الحديبية بغنيمة خيبر، وقال عبدالله بن زيد بن أسلم: كلام الله تعالى هو قوله: ﴿قُلْ لَنْ تَغْرِبُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُفْنِتُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾، وهذا قول ضعيف لأن تلك نزلت في رجوع رسول الله ﷺ من تبوك، وهذا في آخر عمره ﷺ، وآية هذه السورة نزلت سنة الحديبية، وأيضاً فقد غزت جهينة ومُزينة بعد هذه المدة مع رسول الله ﷺ، وقد فصلهم رسول الله ﷺ - بعد ذلك - على تميم وغطفان وغيرهم من العرب، الحديث المشهور، فأخبره الله تعالى أن يقول لهم في هذه الغزوة إلى خيبر: ﴿لَنْ تَبْغُوا﴾، وخصَّ الله تعالى بها أهل الحديبية.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يريد تعالى وعده قبل باختصاصهم بها، وقول الأعراب: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ معناه: بل يعزُّ عليكم أن نصيب مغنماً ومالاً، فردَّ الله تعالى على هذه المقالة بقوله سبحانه: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: لا يفقهون من الأمور مواضع الرشد، وذلك هو الذي خلفهم عن رسول الله ﷺ حتى كان ذلك سبباً لمنعهم من غزو خيبر، وقرأ أبو حية: ﴿تَحْسُدُونَنَا﴾ بكسر السين، وقرأ الجمهور من القراء: ﴿كَلِمَ﴾، قال أبو علي: هذا أخص بما كان مقيداً حديثاً، وقرأ الكسائي، وحمزة، وابن مسعود وطلحة، وابن وثاب: ﴿كَلِمَ﴾، والمعنى فيهما متقارب.

سورة الفتح

سورة الفتح

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَارْتَدَّ بِكُمْ عَنْهُمْ بِطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٩﴾ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُمْ فَمَا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَوفُ هُمْ فَتَضَيِّقُكُمْ وَتَهْمُهُمْ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٠﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢١﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ آلَاءَهُ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ أَنْ حَرَامٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَأَمِيتَ مُحِلِّينَ رُءُوسَكُمْ وَمَقْصِرِينَ لَأَنْفَافِهِمْ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ ذِيكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٣﴾

٥١٤

بمعنى: لأنهم بايعوا تحت الشجرة جاز أن يجعل ﴿رَضَى﴾ بمعنى: أظهر النعمة عليهم، بسبب بيعتهم، فالرَضَى - على هذا - صفة فعل، وقد تقدّم القول في المبايعة ومعناها.

وكان سبب هذه المبايعة أن رسول الله ﷺ أراد أن يبعث لقريش رجلاً يبين لقريش أن النبي ﷺ لا يريد حرباً وإنما جاء معتمراً، فبعث إليهم خِزْأَش بن أُمَيَّة الخزاعي، وحمله على جمل له يقال له: الثعلب، فلما كلمهم عقروا الجمل وأرادوا قتل خِزْأَش فمنعته الأحابيش، وبلغ ذلك النبي ﷺ فأراد بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر: يا رسول الله إنك قد علمت فظاظتي على قريش، وهم يبغيضوني، وليس هناك من بني عدي بن كعب من يحميني، ولكن ابعت عثمان بن عفان، فبعثه رسول الله ﷺ، فذهب، فلقبه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن

دابته وحمله عليها، وأجاره حين جاء قريشاً فأخبرهم، فقالوا له: إن شئت يا عثمان أن تطوف بالبيت فطوف، وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه، فقال عثمان رضي الله عنه: ما كنت لأطوف به حتى يطوف رسول الله ﷺ، ثم إن بني سعيد بن العاص على جهة المبررة، فأبطأ على رسول الله ﷺ، وكانت الحديبية من مكة على نحو عشرة أميال، فصرخ صارخ من عسكر رسول الله ﷺ:

قُتِلَ عُثْمَانُ، فحمي رسول الله ﷺ والمؤمنون وقالوا: لا نبرح إن كان هذا

حتى نلقى القوم، فدعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، ونادى مناديه: أيها الناس، البيعة البيعة. نزل روح القدس، فما تخلف عن البيعة أحد ممن شهد الحديبية إلا الجُد بن قيس المنافق، وحينئذ جعل رسول الله ﷺ يده على يده، وقال: «هذه يد عثمان»، وهي خير من يد عثمان، ثم جاء عثمان رضي الله عنه بعد ذلك سالماً، والشجرة سَمُرَةٌ كانت هنالك ذهبت بعد سنين، فسمّر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالموضع في خلافته فاختلف أصحابه في موضعها، فقال عمر رضي الله عنه: سيروا هذا التكلف.

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، قال قوم: معناه: من كراهية البيعة على الموت ونحوه، وهذا ضعيف فيه مذمة للصحابه رضي الله عنهم، وقال الطبري، ومنذر بن سعيد: معناه: من

الإيمان وصحته والحب في الدين والحرص عليه، وهذا قول حسن لكنه من كانت هذه حاله فلا يحتاج إلى نزول ما يسكنه، أما إنه يحتمل أن يجازى بالسكينة والفتح القريب والمغانم، وقال آخرون: معناه: من الهم بالانصراف عن المشركين والأنفة في ذلك على نحو ما خاطب فيه عمر رضي الله عنه وغيره، وهذا تأويل حسن يترتب معه نزول السكينة والتعويض بالفتح القريب، والسكينة هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى والصبر له. وقرأ الناس: ﴿وَأَنْتُمْ﴾ قال هارون: وقد قرئت: ﴿وَأَنَا هُمْ﴾ بالتاء بنقطتين.

و«الْفَتْحُ الْقَرِيبُ»: خير، وذلك أن رسول الله ﷺ انصرف بالمؤمنين وقد وعده الله بخير، وخرج إليهم لم يلبث، قال أبو جعفر النحاس: وقد قيل: الفتح القريب: فتح مكة و«المغانم الكثيرة»: فتح خيبر، وقرأ يعقوب في رواية رويس: ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ على مخاطبتهم بالتاء من فوق، وقرأ الجمهور: ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾ على الغيبة.

واختلف الناس في عدة التابعين رضي الله عنهم - فقيل: ألف وخمسمائة، قاله قتادة، وقيل: وأربعمائة، قاله جابر بن عبد الله، وقيل: خمسمائة وخمسة وعشرون، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: وثلاثمائة، قاله ابن أبي أوفى، وقيل غير هذا مما ذكرناه من قبل، وأول من بايع ذلك اليوم رجل من بني أسد يقال له: أبو سنان بن وهب، قاله الشعبي.

٢٠ - ٢١ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ﴾ الآية - مخاطبة للمؤمنين ووعد بجميع

المغانم التي أخذها المسلمون، ويأخذونها إلى يوم القيامة، قاله مجاهد وغيره، وقوله تعالى: ﴿فَعَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يريد خيبر، وقال زيد بن أسلم وابنه: المغانم الكثيرة: خيبر، ﴿هَذِهِ﴾ إشارة إلى البيعة والتخلّص من أمر قريش، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ يريد من ولي عورة المدينة بعد خروج النبي ﷺ والمؤمنين منها، وذلك أنه كان من أحياء العرب ومن اليهود من يعادي، وكانت قد أمكنتهم فرصة، فكفّهم الله تعالى عن ذراري المسلمين وأموالهم، وهذه للمؤمنين العلامة أن الله تعالى ينصرهم ويلطف بهم، قاله قتادة، وحكى الثعلبي عنه أنه قال: كفّ الله تعالى غطفان عن النبي ﷺ حين جاءوا لنصر أهل خيبر، وذكره النقاش، وقال الثعلبي أيضاً عن بعضهم: إنه أراد كفّ قريش.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرِجُوا لِرَّ تَقْذِرُوا عَلَيْنَا﴾، قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: الإشارة إلى بلاد فارس والروم، وقال الضحاك وابن زيد: الإشارة إلى خيبر، وقال قتادة والحسن: الإشارة إلى مكة، وهذا هو القول الذي يتسق معه المعنى ويتأيد، وقوله تعالى: ﴿مَدَّ أَمَّاكُ اللَّهُ يَهَا﴾ معناه: بالقدرة والقهر لأهلها، أي: قد سبق ذلك في علمه وظهر فيها أنهم لم يقدروا عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَنَّاكُمُ الْإِيْنِ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ﴾، الإشارة إلى قريش ومن والاها في تلك السنة، قاله قتادة، وفي هذا تقوية لنفوس

المؤمنين، وقال بعض المفسرين: أراد الروم وفارس، وهذا ضعيف، وإنما الإشارة إلى العدو الآخر.

وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى وقعة بدر، وقيل: إشارة إلى عادة الله تعالى من نصرة الأنبياء عليهم السلام قديماً، ونصب ﴿سُنَّةَ﴾ على المصدر، ويجوز الرفع، ولم يُقرأ به.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْ أَلَيْزَا كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية، روي في سببها أن قريشاً جمعت جماعة من فتيانها، وجعلوهم مع عكرمة بن أبي جهل، وخرجوا يطلبون غزوة في عسكر رسول الله ﷺ، واختلف الناس في عدد هؤلاء اختلافاً متفاوتاً، فلذلك اختصرته، فلما أحسّ بهم المسلمون وبعث رسول الله ﷺ في أثرهم خالد بن الوليد وسماه حينئذ «سيف الله» في جملة من الناس، ففروا أمامهم حتى أدخلوهم بيوت مكة، وأسروا منهم جملة، فسيقوا إلى رسول الله ﷺ، فمنّ عليهم وأطلقهم، فهذا هو كفّ الله تعالى أيديهم عن المسلمين بالرعب، وكفّ أيدي المسلمين عنهم بالنهي في بيوت مكة وغيرها، وذلك هو «بَطْن مكة»، وقال قتادة: أسر النبي ﷺ هذه الجملة بالحديبية عند عسكره ومنّ عليهم، وذلك هو «بَطْن مكة»، قال النقاش: الحرم كله مكة، والظفر عليهم هو أسر من أسر منهم، وما في هذه الآية تحريض على العمل الصالح؛ لأن من استشعر أن الله تعالى يُبصر عمله أصلحه.

وقرأ الجمهور من القراء: ﴿وَمَا

تَمْلُوكُونَ﴾ بالتاء على الخطاب، وقرأ أبو عمرو وحده بالياء على ذكر الكفار وتهديدهم.

(٢٥) - (٢٦) تفسير قوله عز وجل: يريد الله تعالى بقوله: ﴿مَنْ أَلَزَيْتُمْ كَذِبًا﴾ أهل مكة الذين تقدّم ذكرهم، وقوله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هو منعهم النبي ﷺ وأصحابه من العُمرة عام الحُدَيْبِيَّةِ، وذلك أن النبي ﷺ خرج من المدينة في ذي القعدة سنة ست من الهجرة يريد العُمرة وتعظيم البيت، وخرج معه بمائة بدنة، قاله النقاش، وقيل: بسبعين، قاله المسود بن مخزومة، ومروان بن الحكم، فلما دنا من مكة قال أهل مكة: هذا محمد الذي قد حاربنا وقتل فينا يريد أن يدخل مكة مراغمةً لنا، والله لا تركناه حتى يموت دون ذلك، فأجمعوا ليخزيه واستنجدوا بقبائل من العرب وهم الأحابيش، وبعثوا فغزروا لرسول الله ﷺ المياه التي تقرب من مكة، فجاء رسول الله ﷺ حتى نزل على بئر الحُدَيْبِيَّةِ، وحينئذ وضع سهمه في الماء فجرى غمرأ حتى كفى الجيش، ثم إن رسول الله ﷺ بعث إلى مكة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبعث أهل مكة إليه رجالاً منهم غزوة بن مسعود، ويُدَيْل بن ورقساء، وتوقف رسول الله ﷺ هنالك أياماً حتى سَفَر سهيل بن عمرو، وبه انعقد الصلح على أن ينصرف رسول الله ﷺ عنهم ويعتمر من

العام القابل، فهذا كان صَدَّهُمْ
إِيَّاهُ، وهو مستوعب في كتب
السِّيَر فلذلك اختصرناه.

وقرأ الجمهور: ﴿وَالْهَدْيُ﴾ بسكون
الدال، وقرأ الأعرج، والحسن بن
أبي الحسن: ﴿وَالْهَدْيُ﴾ بكسر الدال
وشدّ الياء، وهما لغتان، وهو
معطوف على الضمير في قوله
تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾، أي: وصدّوا
الهدي، و﴿مَعْكُوكُمْ﴾ حال، ومعناه:
محبوساً، تقول: عكفت الرجل عن
حاجته إذا حبسته، وقد قال أبو
علي: إن «عكف» لا أعرفه متعدياً،
وحكى ابن سيده وغيره تَعَدَّيْهِ، وهذا
العَكْفُ الذي وقع للهدي كان من
قَبْلِ المشركين بصدّهم، ومن قَبْلِ
المسلمين لرويتهم وتصرفهم في
أمرهم فحبسوا هديهم، و﴿أَنْ﴾ في
قوله تعالى: ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَجْلَهُ﴾ يحتمل
أن يعمل فيها الصّدُّ، كأنه تعالى
قال: وصدّوا الهدي كراهة أن، أو
عَنْ أَنْ، ويحتمل أن يعمل فيها
العكف، فيكون ﴿أَنْ﴾ مفعولاً من
أجله، أي: الهدي المحبوس لأجل
أن يبلغ مَجْلَهُ، وهذا هو حبس
المسلمين، وإلّا فحبس المشركين
ليس لأجل أن يبلغ الهدي مَجْلَهُ،
و﴿مَجْلَهُ﴾: مكة والبيت.

وذكر الله تعالى العلة في أن صَرَفَ
المسلمين ولم يمكنهم من دخول
مكة في تلك الوجهة، وهي أنه كان
بمكة مؤمنون، رجال ونساء، خفي
إيمانهم، فلو استباح المسلمون
بيضتها أهلكت أولئك المؤمنين، قال
قتادة: فدفع الله تعالى عن المشركين
بركة أولئك المؤمنين، وقد يدفع الله

تعالى بالمؤمنين عن الكفار، وقوله
تعالى: ﴿لَوْ تَقَوَّيْتُمْ﴾ صفة
للمذكورين، وقوله تعالى: ﴿أَنْ
تَقَوَّيْتُمْ﴾ يحتمل أن تكون بدلاً من
﴿يَجَالُ﴾، كأنه تعالى قال: ولولا
قوم مؤمنون أن تطشّوهم، أي: لَوْلَا
وَتَقَوَّيْتُمْ قوماً مؤمنين، فهي على هذا
في موضع رفع، ويحتمل أن يكون
في موضع نصب بدلاً من الضمير في
قوله تعالى: ﴿لَوْ تَقَوَّيْتُمْ﴾، كأنه
تعالى قال: لم تعلموا وطأهم أنه
وطء مؤمنين، والوطء هنا: الإهلاك
بالسيف وغيره، على وجه التشبيه،
ومنه قول الشاعر:

وَوَطِئْتُنَا وَطْأً عَلَى حَنْقٍ
وَطْءُ الْمُقْبِدِ نَابِتُ الْهَزَمِ
ومنه قول النبي ﷺ: «اللهم اشد
وطأتك على مُضَرٍّ»، ومنه قول
النبي ﷺ: «إِنْ آخِرَ وَطْءِ الرَّبِّ يَوْمَ
وَجْءٍ بِالطَّائِفِ؛ لَأَنهَا كَانَتْ آخِرَ وَقْعَةٍ
لِلنَّبِيِّ ﷺ، ذكر هذا المعنى النقاش.

و «المَعْرَةَ»: السوء والمكروه
اللاصق، مأخوذ من العِرْ والعُرَّة وهو
الجرب الصعب اللازم. واختلف
الناس في تفسير هذه المعرة - فقال
ابن زيد: هي المأثم، وقال ابن
إسحق: هي الدِّئَة، وهذان ضعيفان
لأنه لا إثم ولا دِئَة في قتل مؤمن
مستور الإيمان من أهل الحرب،
وقال الطبري - وحكاه الثعلبي -: هي
الكفارة، وقال مُنْذَر: المَعْرَةُ: أن
يعيبهم الكفار ويقولوا: قتلوا أهل
دينهم، وقال بعض المفسرين: هي
الاملام والقول في ذلك وتألم النفس
منه في باقي الزمان، وهذه أقوال
حسان، وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف

تقديره: لمكنّاكم من دخول مكة
وأيدناكم عليهم، وقرأ الأعمش:
﴿فَتَنَّا لَكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً﴾.

واللام في قوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ﴾
يحتمل أن تتعلق بمحذوف من القول
تقديره: لولا هؤلاء لدخلتم مكة لكن
شرفنا هؤلاء المؤمنين بأن رحمانهم
ودفعنا بسببهم عن مكة لِيَدْخُلَ الله
تعالى، أي: ليبين لناظر أن الله
يُدْخِلُ في رحمته من يشاء، أو أي:
لِيَقْعَ دخولهم في رحمة الله تعالى
ودفعه عنهم، ويحتمل أن يتعلق
بالإيمان المتقدم الذكر، فكأنه تعالى
قال: ولولا قول مؤمنون آمنوا
لِيَدْخُلَ الله في رحمته، وهذا مذكور
لكنه ضعيف؛ لأن قوله تعالى: ﴿مَنْ
يَشَاءُ﴾ يضعف هذا التأويل.

ثم قال تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي:
لو ذهبوا عن مكة، تقول: زَيْلْتُ
زيداً عن موضعه إزالةً، أي:
أذهبته، وليس هذا الفعل من «زال»
يزول، وقد قيل: هو منه، وقرأ
أبو حيوة وقتادة: ﴿تَزَيَّلُوا﴾ بألف
بعد الزاي، أي: ذهب هؤلاء عن
هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء. وقوله
تعالى: ﴿يُنْهَكُم﴾ لبيان الجنس إذا
كان ضمير ﴿تَزَيَّلُوا﴾ خاصاً
بالمؤمنين أو بالكافرين، وهي أيضاً
لبيان الجنس إذا كان الضمير في
﴿تَزَيَّلُوا﴾ للجميع من المؤمنين
والكافرين، قال النحاس: وقد قيل:
إن قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ
مُؤْمِنُونَ﴾ الآية - يريد تعالى مَنْ في
أصْلَاب الكافرين ممن سيؤمن في
غابر الدهر، وحكاه الثعلبي والنقاش
عن علي بن أبي طالب



إِلَّا الله، والله أكبر، وحكاية الثعلبي عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهذه كلها أقوال متقاربة حسان؛ لأن هذه الكلمة بقي النار، فهي كلمة التقوى، وقال الزهري عن المسور، ومروان: كلمة التقوى المشار إليها هي: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وهي التي أباه كفار قريش فألزمها الله تعالى للمؤمنين وجعلهم أحق بها، ولا إله إلا الله» أحق باسم كلمة التقوى» من «بسم الله الرحمن الرحيم»، وفي

رضي الله عنه عن النبي ﷺ مرفوعاً.

والعامل في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ﴾ قوله تعالى: ﴿لَعَنَّا﴾، ويحتمل أن يكون المعنى: واذكر إذ جعل، و«الحبيّة» التي جعلوها هي حبيّة أهل مكة في الصدّ، قال الزهري: وحبيّة سهيل ومن شاهد عقد الصلح في أن منعوا أن يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» ولجّوا حتى كتب «باسمك اللهم»، وكذلك منعوا أن يكتب «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» ولجّوا حتى قال ﷺ لعلي رضي الله عنه: «امحُ، واكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله... الحديث، وجعلها تعالى حبيّة جاهلية لأنها كانت بغير حجة وفي غير موضعها؛ لأن رسول الله ﷺ لو جاءهم محارباً لغدروا في حبيّتهم، وإنما جاء معظماً للبيت لا يريد حرباً، فكانت حبيّتهم جاهلية صرفاً.

و «السكينة» هي الطمأنينة إلى أمر رسول الله ﷺ، والثقة بوعد الله تعالى، والطاعة وزوال الأنفة التي لحقت عمر وغيره، و«كليمّة» ألقنوى قال الجمهور: «هي لا إله إلا الله»، وروي ذلك عن النبي ﷺ، وقال عطاء بن أبي رباح: «هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»، وقال أبو هريرة وعطاء الخراساني: «هي لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «هي لا إله

رسول الله ﷺ كان في عام الحُدُيبية في أربع عشرة مائة، ثم سار إلى مكة بعد ذلك بعامين في عشرة آلاف فارس ﷺ.

٢٧ - ٢٨ - تفسير قوله عز وجل:

زوي في تفسير هذه الآية أن رسول الله ﷺ رأى في منامه عند خروجه إلى الغمرة أنه يطوف بالبيت هو وأصحابه، بعضهم محلّقون وبعضهم مقصّرون، وقال مجاهد: أرى ذلك بالحديبية، فأخبر الناس بهذه الرؤيا، ووثق الجميع بأن ذلك يكون في وجهتهم تلك، وقد كان سبق في علم الله تعالى أن ذلك يكون لكن ليس في تلك الوجهة، وروي أن رؤياه ﷺ إنما كانت أن ملكاً جاءه فقال له: ﴿لَتَنَحُنَّ لَاسْتَبِدَّ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا يَكُنْ مِنْكُمْ مَقْصِرِينَ﴾، وأنه بهذا أعلم

مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «وكانوا أهلها وأحقّ بها»، والمعنى: وكانوا أهلها على الإطلاق في علم الله تعالى وسابق قضائه سبحانه لهم، وقيل: أحقّ بها من اليهود والنصارى في الدنيا، وقيل: أهلها في الآخرة بالثواب، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَكْلُ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ إشارة إلى علمه تعالى بالمؤمنين الذين دفع عن كفار قريش بسببهم، وإلى علمه بوجه المصلحة في صلح الحُدُيبية، فيروى أنه لما انعقد أمّن الناس في تلك المدة الحرب والفتنة، وامتزجوا، وعَلّت دعوة الإسلام وانقاد إليه كل من كان له فهم من العرب، وزاد عدد المسلمين في تلك المدة أضعاف ما كان قبل ذلك، ويقتضي ذلك أن

مكة لم يكن من دُون دخول النبي ﷺ وأصحابه مكة، بل كان بعد ذلك بعام، لأن الفتح كان سنة ثمان من الهجرة، ويحسن أن يكون «الفتح» هنا اسم جنس يُعْم كل ما وقع للنبي ﷺ فيه ظهور وفتح عليه، وقد حكى مكي في ترتيب أعوام هذه الأخبار عن قطرب قولاً خطأ جعل فيه الفتح سنة عشر، وجعل حجّ أبي بكر رضي الله عنه قبل الفتح، وذلك كله تخليط وخوض فيما لم يتقنه معرفة.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ الآية... تعظيم لأمر الرسول ﷺ، وإعلام بأنه يظهر على جميع الأديان، ورأى بعض الناس [أن] لفظة [يُظْهِرُهُ] تقتضي محو غيره به فلذلك قالوا: إن هذا الخبر يظهر للوجود عند نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام، فإنه لا يبقى في وقته دين إلا الإسلام، وهذا قول الطبري والثعلبي، ورأى قوم أن الإظهار هو الإِعلاء وإن بقي من الدين الآخر أجزاء، وهو موجود الآن في دين الإسلام، فإنه قد كان عمّ أكثر الأرض وظهر على كل دين، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِاللَّهِ شَهِدًا﴾ معناه: شاهداً، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما: شاهداً عندكم بهذا الخبر ومُغْلِماً به، والثاني: شاهداً على هؤلاء الكفار المنكرين أمر محمد ﷺ الرّادّين في صدره، ومعاقباً لهم بحكم الشهادة، فالآية - على هذا - وعيد للكفار الذين شأخوا في أن يكتب «محمد رسول الله» ﷺ، فردّ الله تبارك

وتعالى قد أخبر بهما ووقعت الثقة بالأمرين، فالاستثناء من أيهما كان هو استثناء من واجب.

وقال قوم: ﴿إِنْ﴾ بمعنى «إِذْ»، فكأنه تعالى قال: «إِذْ شَاءَ اللهُ»، وهذا حسن في معناه لكن كون «إِنْ» بمعنى «إِذْ» غير موجود في لسان العرب، وللناس بعد في هذا الاستثناء أقوالاً مخلطة غير هذه لا طائل فيها اختصرتها، وقرأ ابن مسعود: ﴿إِنْ شَاءَ اللهُ لَا تَخَافُونَ﴾ بدل ﴿عَامِيَتِ﴾.

ولما نزلت هذه الآية علم المسلمون أن تلك الرؤيا ستخرج فيما يستأنفونه من الزمان، واطمأنت قلوبهم بذلك وسكنت، فخرجت في العام المقبل، خرج رسول الله ﷺ إلى مكة في ذي القعدة سنة سبع، ودخلها ثلاثة أيام هو وأصحابه، وصدقت رؤياه. وقوله تعالى: ﴿فَقَلِمَ مَا لَمْ تَمْلُكُوا﴾ يريد ما قدره من ظهور الإسلام في تلك المدة ودخول الناس فيه، وما كان أيضاً بمكة من المؤمنين الذين دفع الله تعالى بهم، وقوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي: من قبل ذلك وفيما يدنو إليكم.

واختلف الناس في الفتح القريب - فقال كثير من الصحابة رضي الله عنهم: هو بيعة الرضوان، وزوي عن مجاهد وابن إسحق أنه الصلح مع الكفار بالحذبيّة، وقد زوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: «نعم»، وقال عبدالله بن زيد: الفتح القريب هو فتح مكة، وهذا ضعيف لأن فتح

الناس، فلما قضى الله تعالى بالصلح في الحديبية، وأخذ رسول الله ﷺ في الصدر قال المنافقون: وأين الرؤيا؟ ووقع في نفوس المسلمين شيء من ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾، و«صدق» هذه تتعدى إلى مفعولين، تقول: صدقت زيداً الحديث، واللام في ﴿لَتَنْخُلَنَّ﴾ لام القسم الذي تقتضيه «صِدْقِي»؛ لأنها من قبيل: تَبَيَّنَ وَتَحَقَّقَ، ونحو هذا مما يعطي القسم.

واختلف الناس في معنى الاستثناء في هذه الآية - فقال بعض المتأولين: هو استثناء من المَلَك المُخْبِر للنبي ﷺ في قوله، فذكر الله تعالى مقالته كما وقعت، وقال آخرون: هو أخذ من الله تعالى عباده بأدبه في استعمال الاستثناء في كل فعل يوجب وقوعه، كان ذلك مما يكون ولا بُدُّ، أو كان مما قد يكون وقد لا يكون، وقال بعض العلماء: إنما استثنى من حيث كل واحد من الناس متى ردّ هذا الوعد إلى نفسه أمكن أن يتم هذا الوعد فيه وألاً يتم، إذ قد يموت الإنسان أو يمرض أو يغيب، وكل واحد في ذاته محتاج إلى الاستثناء، فلذلك استثنى عز وجل في الجملة إذ فيهم ولا بُدُّ من يموت، وقال آخرون: استثنى لأجل قوله تعالى: ﴿عَامِيَتِ﴾ لا لأجل إعلامه بالدخول، فكأن الاستثناء مؤخّر عن موضعه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا فرق بين الاستثناء من أجل الأمن أو من أجل الدخول؛ لأن الله تبارك

وتعالى عليهم بهذه الآية كلها.

قوله تعالى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ﴾، قال جمهور الناس: هو ابتداء وخبر استوفى فيه تعظيم منزلة النبي ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ ابتداء وخبره ﴿أَيُّدَاءُ﴾، و﴿رُحَمَاءُ﴾ خبر ثانٍ، وقال قوم من المتأولين: ﴿تُحَمَّدُ﴾ ابتداء، و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ صفة له، و﴿الَّذِينَ﴾ عطف عليه، و﴿أَيُّدَاءُ﴾ خبر عن الجميع، و﴿رُحَمَاءُ﴾ خبر بعد خبر، ففي القول الأول اختص النبي ﷺ بوصفه وهؤلاء بوصفهم، وفي القول الثاني اشترك الجميع في الشدة والرحمة، والأول عندي أرجح لأنه خبر مضاد لقول الكفار: لا نكتب محمد رسول الله، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إشارة إلى جميع الصحابة رضي الله عنهم عند الجمهور، وحكى الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الإشارة إلى من شهد الحديبية بـ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، و﴿أَيُّدَاءُ﴾ جمع شديد أصله أشيداء، أدغم لاجتماع المثلثين، وقرأ الجمهور: ﴿أَيُّدَاءُ﴾ و﴿رُحَمَاءُ﴾ بالرفع، وروى قرعة عن الحسن ﴿أَيُّدَاءُ﴾ و﴿رُحَمَاءُ﴾ بنصبهما، قال أبو حاتم: ذلك على الحال، والخبر ﴿رَبِّهِمْ﴾، قال أبو الفتح: وإن شئت نصبت ﴿أَيُّدَاءُ﴾ على المدح.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ رُكَّامًا سَجِدًا﴾، أي: ترى هاتين الحالتين كثيراً فيهم، و﴿يَتَّبِعُونَ﴾ معناه: يطلبون، وقرأ عمرو بن عبدة: ﴿وَرُضُونَا﴾ بضم الراء، وقوله تعالى: ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ معناه: علامتهم، واختلف الناس في

تعيين هذه السيمة - فقال مالك بن أنس: كانت جباههم مترية من كثرة السجود في التراب، كان يبقى على المسح أثره، وقال عكرمة، وقال أبو العالية: يسجدون على التراب لا على الأثواب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وخالد الحنفي، وعطية: هو وغد بحالهم يوم القيامة من أن الله تبارك وتعالى يجعل لهم نوراً من أثر السجود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كما يجعل غرة من أثر الوضوء... الحديث، ويؤيد هذا التأويل اتصال القول بقوله تعالى: ﴿فَضَّلَا مِنْ اللَّهِ وَرِضُونًا﴾، كأنه تعالى قال: علامتهم في تحصيل الرضوان يوم القيامة سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ويحتمل أن تكون السيمة بدلاً من قوله: ﴿فَضَّلَا﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السمت الحسن هو السيمة، وهو خشوع يبدو على الوجه، وهذه حالة مكثري الصلاة لأنها تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وتقل الضحك، وتروء النفس بحالة تخشع معها الأعضاء، وقال الحسن بن أبي الحسن، وشيخ بن عطية: السيمة بياض وشفرة وتهيج يعتري الوجوه من السهر، وقال منصور: سألت مجاهدًا: هل السيمة هي الأثر يكون بين عيني الرجل؟ فقال: لا، وقد تكون مثل ركة البعير وهو أفسى قلباً من الحجارة، وقال عطاء بن أبي رباح، والربيع بن أنس. السيمة حسن يعتري وجوه المصلين، وذلك أن الله تعالى يجعل لها في عين

الرائي حسناً تابعاً للإجلال الذي في نفسه، ومتى أجل الإنسان أضرأ حسن عنده منظره، ومن هذا الحديث، الذي في الشهاب «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»، وهو حديث غلط فيه ثابت بن موسى الزاهد، سمع شريك بن عبدالله يقول: حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، ثم نزع شريك لما رأى ثابتاً الزاهد فقال يعنيه: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»، فظن ثابت أن هذا الكلام حديث متركب على السند المذكور فحدث به عن شريك. وقرأ الأعرج: ﴿مِنْ إِثْرِ﴾ بسكون الشاء وكسر الهمزة، قال أبو حاتم: هما بمعنى، وقرأ قتادة: ﴿مِنْ آثارٍ﴾ جمعاً.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَيْجٍ﴾ الآية. المثل هنا: الوصف أو الصفة، وقال بعض المتأولين: التقدير: الأمر ذلك، وتم الكلام، ثم قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَيْجٍ﴾ وقال مجاهد: المعنى: ذلك الوصف هو مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل، وتم القول، و﴿كَزَيْجٍ﴾ ابتداء تمثيل يختص بالقرآن، وقال الطبري، وحكاه الضحاك: المعنى: ذلك المعنى هو وصفهم في التوراة، وتم القول، ثم ابتداء ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَيْجٍ﴾ وقال آخرون: المثلان جميعاً في التوراة وفي الإنجيل.

وقوله تعالى: ﴿كَزَيْجٍ﴾ هو على كل الأقوال وفي أي كتاب منزل فَرَضَ مَثَلُ للنبي ﷺ وأصحابه في أن

تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية بإجماع من أهل التأويل.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

كانت عادة العرب - وهي إلى الآن - الاشتراك في الآراء، وأن يتكلم كل بما شاء ويفعل ما أحب، فمشى بعض الناس ممن لم تتمرن نفسه مع النبي ﷺ على بعض ذلك، قال قتادة: فربما قال قوم: لو نزل كذا وكذا في معنى كذا، ولو فعل الله كذا، وينبغي أن يكون كذا، وأيضاً فإن قوماً ذبحوا ضحاياهم قبل النبي ﷺ، حكاة الحسن بن أبي الحسن، وقوماً فعلوا في بعض حروبه وغزواته شيئاً بآرائهم، فنزلت هذه الآية ناهية عن جميع ذلك.

وحكى الشعبي عن مسروق أنه قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها في يوم الشك، فقالت للجارية: اسقه عسلاً، فقلت: إني صائم، فقالت: نهى رسول الله ﷺ عن صيام هذا اليوم، وفيه نزلت: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وقال ابن زيد: معنى ﴿لَا تَقْدِمُوا﴾: لا تمشوا بين يدي رسول الله ﷺ، وكذلك بين يدي العلماء فإنهم ورثة الأنبياء، وتقول العرب: تَقَدَّمْتُ في كذا وكذا وقَدَّمْتُ فيه إذا قلت فيه.

وقرأ الجمهور من القراء:

الثاني أن يكون [أَزَرَهُ] أو [أَزَرَهُ] بمعنى أعانه وقواه، مأخوذ من الأزر وشده، فيحتمل أن يكون الفاعل الشَّطْءُ، ويحتمل أن يكون الفاعل الزُّرْعُ؛ لأن كل واحد منهما يُقَوِّي صاحبه، وقال مجاهد وغيره: ﴿تَكَزَّرَ﴾ وزنه فاعلُه، والأول أصوب، أنَّ وزنه أَفْعَلُهُ، ويدل على ذلك قول الشاعر:

لَا مَالَ إِلَّا الْعِطَافُ تُزْزِرُهُ
أَمْ ثَلَاثِينَ وَإِنَّهُ الْجَبَلُ
وقرأ ابن كثير: ﴿عَلَى سَوْقِهِ﴾ بالهمز، وهي لغة ضعيفة، يهزمون الواو قبلها ضمة، ومنه قول الشاعر:

لَحَبِ الْمُؤَقَّدَانِ إِلَيَّ مُؤَسَى

و ﴿يُتَجَبُّ الزُّرْعُ﴾ جملة في موضع الحال، فإذا أعجب الزُّرْعُ فهو أخرى أن يُعْجَبَ غيرهم لأنه لا عيب فيه؛ إذ قد أعجب العارفين بالعيوب، ولو كان معيباً لم يُعْجَبَهم، وهنا تم المثل.

وقوله تعالى: ﴿يُنِظَرُ يَوْمَ الْكُفَّارِ﴾ ابتداء كلام قبله محذوف تقديره: جعلهم الله تعالى بهذه الصفة ليغيظ بهم الكفار، و﴿الْكُفَّارُ﴾ هنا: المشركون، قال الحسن: من غيظ الكفار قول عمر رضي الله عنه بمكة: «لَا عَيْدَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سُرّاً بعد اليوم»، وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ هي لبيان الجنس وليست للتبعيض، لأنه وغد مَرَجٌ للجميع.

كمل تفسير سورة الفتح والحمد لله رب العالمين

النبي ﷺ بُعث وحده فكان كالزرع حبة واحدة، ثم كثر المسلمون فهم كالشَّطْءِ وهم فراخ الشَّيْبَةِ التي تنبت حول الأصل، يقال: أَشْطَأَتِ الشجرة إذا أخرجت غصونها، وَأَشْطَأَ الزُّرْعُ إذا أخرج شطأه، وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان: ﴿شَطْءُ﴾ بفتح الطاء والهمزة دون مد، وقرأ الباقون بسكون الطاء، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿شَطْءُ﴾ بفتح الطاء دون همز، وقرأ أبو جعفر: ﴿شَطْءُ﴾، زَمَى بالهمزة وفتح الطاء، وَرَوِيَتْ عن نافع، وشيبة، وزوي عن عيسى ﴿شَطْءُ﴾ بالمد والهمزة، وقرأ الجحدري: ﴿شَطْءُ﴾ بالواو، وقال أبو الفتح: هي لغة، أو بدل من الهمزة، ولا يكون الشَّطْءُ إِلَّا فِي الْبَرِّ وَالشَّعِيرِ، وهذه كلها لغات، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الزرع» النبي ﷺ، «فأزره» علي بن أبي طالب رضي الله عنه، «فاستغلظ» بأبي بكر رضي الله عنه، «فاستزوى» على سوقه» بعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿تَكَزَّرَ﴾ وزنه أَفْعَلُهُ، قاله الحسن، ورجحه أبو علي، وقرأ ابن ذكوان وحده: ﴿فَأَزَرَهُ﴾ على وزن أَفْعَلُهُ دون مد، ولذلك كله معنيان: أحدهما ساواة طولاً، ومنه قول امرئ القيس:

بِمَخْنِيَةِ قَدْ أَزَرَ الضَّالَّ نَبْثَهَا
مَجَرَّ جَبُوشٍ غَانِمِينَ وَخَبِيبٍ
أي: هو موضع لم يُزْعَ نَبْثُهُ فَكَمُلَ حتى ساوى شجر الضَّالِّ، فالفاعل - على هذا المعنى - الشَّطْءُ، والمعنى

﴿تَقْدِمُوا﴾ بضم التاء وكسر الدال، وقرأ ابن عباس، والضحاك، ويعقوب، بفتح التاء والدال على معنى: لا تتقدموا، وعلى هذا يجيء تأويل ابن زيد في المشي، والمعنى على ضم التاء: بين يدي قول الله ورسوله.

وروي أن سبب هذه الآية هو أن وفد بني تميم لما قدم قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، لو أمّرت الأقرع بن حابس، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، بل أمر القعقاع بن مَبْد، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أردت إلا خلافي، وروى: إلى خلافي، فقال عمر رضي الله عنه: ما أردت خلافك، وارتفعت أصواتهما، فنزلت الآية في ذلك، وذهب بعض قائلي هذه المقالة إلى أن قوله تعالى: ﴿لَا تَقْدِمُوا﴾ معناه: لا تقدموا ولا، فهو من تقدم الأمراء، وعموم اللفظ أحسن، أي: اجعلوه مبدأ في الأقوال والأفعال. و﴿سَبِّحْ﴾ معناه: لأقوالكم، و﴿عَلِّمْ﴾ معناه: بأفعالكم ومقتضى أقوالكم.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية هي أيضاً في ذلك الفن المتقدم، وروي أن سببها كلام أبي بكر وعمر رضي الله عنهما المتقدم في أمر الأقرع والقعقاع، والصحيح أنها نزلت بسبب عادة الأعراب في الجفاء وعلو الصوت والعنجهية، وكان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه يَمُنُّ في صوته

جهازة، فلما نزلت هذه الآية افتنم وخاف على نفسه وجلس في بيته لم يخرج وهو كئيب حزين، حتى عرف رسول الله ﷺ خبره، فبعث إليه فأنسه وقال له: ﴿امش في الأرض بسطاً فإنك من أهل الجنة﴾، وقال له مرة: ﴿أما ترضى أن تعيش حميداً، وتموت شهيداً، فعاش كذلك ثم قُتل رضي الله عنه باليامة يوم مسيلمة. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿لَا تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ﴾ بزيادة باء. وقوله تعالى: ﴿كَبَّهْرَ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: كحال جهركم في جفائه وكونه مخاطبة بالأسماء والألقاب، وكانوا يدعون النبي ﷺ: يا محمد، قاله ابن عباس وغيره، فأمرهم الله تعالى بتوقيره وأن يدعوهم بالنبوة والرَّسالة والكلام اللين، فتلك حالة الموقر، وكره العلماء رفع الصوت عند قبر النبي ﷺ وبحضرة العالم وفي المساجد، وفي الجميع آثار.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَحْبَطَ﴾ مفعول من أجله، أي: مخافة أن تحبط، والحبط: الفساد في العمل بعد تفرُّره، يقال: حبط بكسر الباء، وأحبطه الله، وهذا الحبط إن كانت الآية مُعْرِضة بمن يجهر استخفافاً واحتقاراً وجزأةً فذلك كفر والحبط معه على حقيقته، وإن كان التعريض للمؤمن الفاضل الذي يفعل ذلك غفلة وجرياً على طبعه فإنما يحبط عمله البر في توقيف النبي ﷺ وغيض الصوت عنده إن لو فعل ذلك، كأنه قال: مخافة أن تحبط الأعمال التي هي مُعَدَّة أن

تعملوها فتؤجروا عليها، ويحتمل أن يكون المعنى: أن تأثموا ويكون ذلك سبباً إلى الوحشة في نفوسكم، فلا تزال معتقداتكم تندرج القهقري حتى يؤول ذلك إلى الكفر فيُحِيط الأعمال حقيقة، وظاهر الآية أنها مخاطبة لفضلاء المؤمنين الذين لا يفعلون ذلك احتقاراً، وذلك أنه لا يقال لمنافق يعمل ذلك جرأة: «وأنت لا تشعر» لأنه ليس له عمل يعتقد هو عملاً، وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿تَحْبِطُ أَفْعَالَكُمْ﴾.

ثم مدح تعالى الصنف المخالف لمن تقدّم ذكره وهم الذين يُغَضُّون أصواتهم عند النبي ﷺ، وغيض الصوت: خَفَضَهُ وكَسَرَهُ، وكذلك البصر، ومنه قول جرير:

فَغَضُّ الطَّرْفِ إِنَّكَ مِنْ تُمَيْرٍ

وروي أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا بعد ذلك لا يكلمان رسول الله ﷺ إلا كأخي السرار، وأن النبي ﷺ كان يحتاج مع عمر رضي الله عنه بعد ذلك إلى استعادة اللفظ؛ لأنه كان لا يسمعه من إخفائه إيّاه.

و﴿اتَّخَنَ﴾ معناه: اختبر وطهر كما يمتحن الذهب بالنار، فيسرها وهيأها للتقوى، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: امتحن للتقوى: أذهب عنها الشهوات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: من غلب شهوته وغضبه فذلك الذي امتحن الله تعالى قلبه للتقوى، وبذلك تكون الاستقامة.

الثائب، وغفرانه ورحمته لمن أناب ورجع.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ الآية. سببها أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عتبة بن أبي مُعَيْطٍ إلى بني المصطلق مُصَدِّقاً، فُروى أنه كان معادياً لهم فأراد إذإيتهم، فرجع من بعض طريقه وكذب عليهم - قاله الضحاك - وقال للنبي ﷺ: إنهم قد منعوا الصدقة وطردوني وارتدوا، فغضب النبي ﷺ وهم بغزوهم ونظر في ذلك، وبعث خالد بن الوليد إليهم، فورد وفداهم منكربين لذلك، وروي عن أُمِّ سَلَمَةَ وابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهم أن الوليد بن عتبة لما قرب منهم خرجوا إليه متلقين له، فرأهم على بُعْدٍ ففزع منهم وظن بهم الشر وانصرف فقال ما ذكرناه، وروي أنه لما قرب منهم بلغه عنهم أنهم قالوا: لا نعطيه الصدقة ولا نعطيه، فعمل على صَحَّةِ هذا الخبر وانصرف فقال ما ذكرناه، فنزلت الآية بهذا السبب، والوليد - على ما دَكَرَ مجاهد وقتادة - هو المشار إليه بالفاسق، وحكى الزهرواي: قالت أُمُّ سَلَمَةَ: هو الوليد بن عتبة ثم هي باقية فيمن اتصف بهذه الصفة غابر الدهر. «والفَسْقُ»: الخروج عن نهج الحق، وهو مراتب متباينة كلها مظنة للكذب وموضع تَثَبُّتٍ وَتَبَيُّنٍ، وتَأَسُّسِ القائلون بقبول خبر الواحد بما يقتضيه دليل خطاب هذه الآية؛ لأنه يقتضي أن غير الفاسق إذا جاء بنبي أن يعمل بحسبه، وهذا ليس

خطيبهم فخطب وفخر، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه فخطب وذكر الله تعالى والإسلام وأزبى على خطيبهم، ثم قام شاعرهم فأنشد مفتخراً، فقام حسان بن ثابت رضي الله عنه ففخر بالله تعالى وبالرسول ﷺ وبالبسالة فكان أشعر من شاعرهم، فقال بعضهم لبعض: والله إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ثم نزلت فيهم هذه الآية.

هذا تلخيص ما تظاهرت به الروايات في هذه الآية، وقد رواه موسى بن عتبة عن أبي سلمة عن الأقرع بن حابس، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿أَكْثَرُهُمْ بُنُو تَمِيمٍ لَا يَغْفُلُونَ﴾.

و «الْحُجْرَات» جمع حجرة، وقرأ الجمهور من القراء: ﴿الْحُجْرَاتِ﴾ بضم الحاء والجيم، وقرأ أبو جعفر القارئ وحده: ﴿الْحَجَرَاتِ﴾ بفتح الحاء والجيم. وقوله تعالى: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ يعني في الثواب عند الله تعالى، وفي انبساط نفس النبي ﷺ لهم وقضائه لحوائجهم ووَدَّه لهم، وذلك كله خير، ولا محالة أن بعضه انزوى بسبب جفائهم. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾ ترجية لهم وإعلام بقبوله توبة

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَآئِمَّةٍ فَمَا يُضْلِمُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَتِيدِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّاهُم بَيْنَ الْبَغْيِ وَالنَّصِيحَةِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَتَبَيَّنُوا أَلَمَّا يَتَّبِعِ خَافِي إِلَىٰ أَمْرِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخْرُجُ قَوْمٌ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّغَاتِ بَشَرًا لَّغِيظُ اللَّهُ الْقُوسَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

٥١٦

٨ - تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ بَدَأُوا بَنَاءَ دُونَكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾ نزل في وفد بني تميم، حيث كان الأقرع بن حابس، والزبيرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وغيرهم، وذلك أنهم وفدوا على رسول الله ﷺ فدخلوا المسجد ودنوا من حجر أزواج النبي ﷺ وهي تسع، فعملوا وناذوا ولم ينتظروا، ونادوا بجملة: يا محمد اخرج إلينا، يا محمد اخرج إلينا، فكان في فعلهم ذلك جفاء وبداءة وقلة توقير، فترى رسول الله ﷺ مدة ثم خرج إليهم، فقال له الأقرع بن حابس: يا محمد، إن مدحي زين، ودُمِّي شين، فقال له النبي ﷺ: «ويلك ذلك الله تعالى»، واجتمع الناس في المسجد، فقام

باستدلال قوي، وليس في موضع الكلام على مسألة خبر الواحد.

وقرأ الجمهور من القراءة: ﴿تَقِيَّبُوا﴾ من التَّيَّبِ، وقرأ حمزة، والكسائي، والحسن، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، وعيسى: ﴿تَقَيَّبُوا﴾ من التَّيَّبْتُ. و﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ تَقِيَّبُوا﴾ مفعول من أجله، كأنه تعالى قال: مخافة أن تصيبوا، وقال قتادة: قال رسول الله ﷺ عندما نزلت هذه الآية: «التَّيَّبْتُ من الله والمعجلة من الشيطان»، قال منذر بن سعيد: هذه الآية ترد على من قال إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحه لأن الله تعالى أمر بالتَّيَّبِين قبل القبول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله يقتضي أن المجهول الحال يخشى أن يكون فاسقاً، والاحتياط لازم. قال النقاش: وقوله تعالى: ﴿تَقِيَّبُوا﴾ أبلغ من ﴿تَقَيَّبُوا﴾؛ لأنه قد يَتَّبَت من لا يَتَّبِين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ توبيخ للكذبة ووعيد بالفضيحة، أي: فليفكر الكاذب في أن الله تعالى يفضحه على لسان رسوله ﷺ، ثم قال: ﴿لَوْ يَطْمَعُكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَنَبِّئْكَ، أَي: لشقيتم وهلكتم، والعنت: المشقة، أي: لو يطيعكم أيها المؤمنون في كثير مما ترونه باجتهادكم وتقدمكم بين يديه، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ لِّكُمُ الْآيَاتِ﴾ الآية، كأنه تعالى قال: ولكن أنعم بكذا وكذا، وفي ذلك كفاية وأمر لا تقومون بشكره، فلا

تتقدموا في الأمور واقتنعوا بإنعام الله تعالى عليكم، وحَبَّبَ الله تبارك وتعالى الإيمان وزَيَّنَهُ بأن خلق في قلوب المؤمنين حُبَّهُ وَحَسَنَهُ، وكذلك تكريه الكفر والفسوق والعصيان، وحكى الرُّمَّاني عن الحسن أنه حَبَّبَ الإيمان بما وصف من الثواب عليه، وكره الثلاثة المقابلة للإيمان بما وصف من العقاب عليها، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ﴾ رجوع من الخطاب إلى ذكر الغيبة، كأنه تعالى قال: ومن فعل هذا معه وقَبَلَهُ وشكر عليه فأُولَئِكَ هم الراشدون.

وقوله تعالى: ﴿فَقَبَلًا يَرَى اللَّهَ وَنِعْمَةً﴾ مصدر مؤكد بنفسه لأن ما قَبَلَهُ هُوَ بمعناه؛ إذ التَّحْيِيْب والتَّزْيِين هو نفس الفضل، وقد يجيء المصدر مؤكداً لما قَبَلَهُ إذا لم يكن هو نفس ما قَبَلَهُ، كقولك: جاء زيد حقاً ونحوه، وكان قتادة رحمه الله تعالى يقول: قد قال تعالى لأصحاب محمد ﷺ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَنَبِّئْكَ﴾، وأنتم والله أسخف رأياً وأطيش أحلاماً، فليتهم رجل نفسه وليتصح كتاب الله تبارك وتعالى.

⑨ - ⑩ تفسير قوله عز وجل: ﴿طَائِفَتَانِ﴾ مرفوع بإضمار فعل، والطائفة: الجماعة، وقد تقع على الواحد، واحتج لذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، ورأى بعض الناس أنه يجزي أن يشهد حد الزناة واحد، فهذه الآية الحكم فيها في الأفراد وفي الجماعات واحد.

واختلف الناس في سبب هذه الآية

- فقال أنس بن مالك والجمهور: سببها ما وقع بين المسلمين وبين المتحزبين منهم أيضاً مع عبدالله بن أبي إسن سَلُول حين مرَّ به رسول الله ﷺ وهو متجه لزيارة سعد بن عبادَة رضي الله عنه في مرضه، فقال عبدالله بن أبي لما غَشِيَهُ حمار رسول الله ﷺ: لا تُعَبِّرُوا علينا، ولقد آذانا نَسْنُ حمارك، فردَّ عليه عبدالله بن رواحة رضي الله عنه الحديث بطوله... فتلاحي الناس حتى وقع بينهم ضرب بالجريد، ويروي بالحديد.

وقال أبو مالك، والحسن: سببها أن فرقتين من الأنصار وقع بينهما قتال فأصلحه رسول الله ﷺ بعد جهد ونزلت الآية في ذلك.

وقال السُّدي: كانت بالمدينة امرأة من الأنصار يقال لها: أُمُّ بَدْرٍ، وكان لها زوج من غيرهم، فوقع بينهما شيء أوجب أن يأنف لها قومها وله قومه، فوقع قتال نزلت الآية بسببه.

و ﴿بَنَتْ﴾ معناه: طلبت الغلو بغير الحق، ومدافعة الفتنه الباغية تتوجه في كل حال، وأما التَّهَيُّؤُ لقتالها فمع الولاة، وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أمشركون هم أهل صفين والجمال؟ قال: لا، من الشُّرك فزوا، قيل: أقمنا ففوق؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا، وقال النبي ﷺ: «حكم الله تعالى في الفتنه الباغية ألاَّ يُجهز على جريح، ولا يُطلب هارب، ولا يُقتل أسير»، و ﴿يَقِيَّبُ﴾ معناه: ترجع، و﴿الإقساط﴾: الحكم بالعدل.

وقد تتداخل هذه
الجموع، وكلها في
كتاب الله تعالى، فمنه
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾،
ومنه ﴿أَوْ بَيُّوتٍ
إِخْوَانِكُمْ﴾، فهذا جاء على
الأقل في الاستعمال.

(١١) - (١٢) تفسير قوله
عز وجل:

هذه الآية التي بعدها
نزلت في خلق أهل
الجاهلية، وذلك لأنهم
كانوا يجرون مع شهوات
نفوسهم، لم يَقْوَاهُمْ أَمْرُ
من الله تعالى ولا نهي،
فكان الرجل يسخر ويلمز

ويهمز وينبز بالألقاب
ويظن الظنون فيتكلم بها ويغتاب
ويفتخر إلى غير ذلك من أخلاق
النفوس الباطلة، فنزلت هذه الآية
تأدياً لأمة محمد ﷺ.

وذكر بعض الناس لهذه الآيات
أسباباً، فومأ قيل: إن هذه الآية ﴿لَا
يَحْزَنَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ نزلت بسبب
عكرمة بن أبي جهل، وذلك أنه كان
يمشي بالمدينة مسلحاً، فقال له
قوم: هذا ابن فرعون هذه الأمة،
فعز عليه ذلك وشكاه إلى
رسول الله ﷺ، والقوي عندني أن
هذه الآيات نزلت تقريماً لسائر
الخلق، ولو تبعت الأسباب لكانت
أكثر من أن تحصى.

و ﴿يَحْزَنَ﴾ معناه: يستهزئ،
والهَمْز إنما يترتب متى ضعف امرؤ
إمّا لصغر وإمّا لعلّة حادثة أو لِرِزْيَةٍ أو
لنقيصة يأتيه، فينهي المؤمنون عن

يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَخِيًّا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُم بِعَظْمِ الظَّنِّ لَمَّةٌ
وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّ أَحَدُكُمْ أَن
يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاقْرَأُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ
رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ يَتَأْتِي النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَا مَنَاقِلُ لَمْ تُوْصُوا وَلَكِنْ
قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَلَنْ يُظِلَّوْا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ لِيَلْزِكُمْ عَنْكُمْ لَكُمْ شَيْءٌ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣﴾
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ أَتُمْلِكُونَ اللَّهَ يَدْبِرُكُمْ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
﴿١٥﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمْتُ بِلِ اللَّهِ
يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

٥١٧

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
إِخْوَةٌ﴾، يريد تعالى أخوة الدين،
وقرأ الجمهور من القراء: ﴿بَيْنَ
أَخَوَيْكُمْ﴾ وذلك رعاية لحال أقل عدد
يقع فيه القتال والتشاجر، والجماعة
متى قصدوا الإصلاح فإنما هو بين
رجلين رجلين، وقرأ ابن عامر،
والحسن - بخلاف عنه: ﴿بَيْنَ
إِخْوَتِكُمْ﴾، وقرأ ابن مسعود،
وزيد بن ثابت، وابن سيرين،
والحسن، وعاصم الجحدري،
وثابت البناني، وحماد بن سلمة:
﴿بَيْنَ إِخْوَانِكُمْ﴾، وهي حسنة لأن
الأكثر من جمع الأخ في الدين
ونحوه من غير النسب إخوان،
والأكثر من النسب إخوة وآخاء، قال
الشاعر:

وَجَدْتُمْ أَخَاكُمْ بَيْنَنَا إِذْ نَسَبْتُمْ
وَأَيُّ بَنِي الْآخَاءِ تَنْبُو مَنَاسِبُهُ؟

الاستهزاء في هذه الأمور وغيرها نهياً
عاماً، فقد يكون ذلك المُسْتَهْزَأُ به
خيراً من الساخر. و«القوم» في كلام
العرب واقع على الذُكران، وهو من
أسماء الجمع كالرَّهْط، وقول من قال
إنه من القيام أو جمع قائم ضعيف،
ومن هذا قول الشاعر وهو زهير:

وَمَا أَذْرِي وَسَوْفَ إِخْسَالُ أَذْرِي
أَفْزَمُ آلِ جِضْنٍ أَمْ نِسَاء؟

وهذه الآية تقتضي اختصاص القوم
بالذُكران، وقد يكون مع الذُكران
نساء فيقال لهم: «قَوْمٌ» على تغليب
حال الذكور، ثم نهى الله تعالى
النساء عما نهى عنه الرجال من
ذلك، وقرأ أبي بن كعب، وابن
مسعود: «عَسَوْا أَنْ يَكُونُوا»
و«عَسَيْنَ أَنْ يَكُنَّ».

و «تَلْمِزُوا» معناه: يظعن بعضهم
على بعض بذكر النقاظ ونحوه،
وقد يكون «اللَّمْزُ» بالقول وبالإشارة
ونحو هذا مما يفهمه الآخر،
و«الهُمَزُ» لا يكون إلّا باللسان، وهو
مشبه بالهمز بالعود ونحوه مما
يقتضي التُمَاثَة، قال الشاعر:

وَمَنْ هَمَزْنَا عِزَّةً تَبَزَّكَغَا
وقيل لأعرابي: أنهمز الفأرة؟
فقال: الهُرُّ يهمزها، وحكى الثعلبي
أن «اللَّمْزَ» ما كان في المَشْهَد، وأن
«الهُمَزَ» ما كان في المَغِيب، وحكى
الزهرائي عن علي بن سليمان
عكس ذلك، فقال: الهمز أن تعيب
بالحضرة واللّمز في الغيبة، ومنه قوله
تعالى: ﴿وَلَيْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ
لُْمَزَةٍ﴾، ومنه قوله تعالى:
﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾،
وقرأ الجمهور: «تَلْمِزُوا» بكسر

الميم، وقرأ الأعرج والحسن بضمها، قال أبو عمرو بن العلاء: هي عربية، وقال أبو حاتم: قراءتنا بالضم وأحياناً بالكسر، وقوله تعالى: ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ معناه: بعضكم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، كأن المؤمنين كنفس واحدة إذ هم إخوة كما قال رسول الله ﷺ: «كالجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى سائرُه بالسَّهر والحُمى»، وهم كما قال أيضاً: «كالبنيان يشُدُّ بعضُه بعضاً».

و «التَّابِز»: التَّلْقُب، والتَّبْزُّ والتَّلْقُب واحد، إذ اللَّقْب هو ما يُعرف به الإنسان من الأسماء التي يكره سماعها، وزوي أن بني سلمة كانوا قد كثرت فيهم الألقاب، فدعا رسول الله ﷺ رجلاً منهم فقال له: يا فلان، فقبل له: إنه بغضب من هذا الاسم، ثم دعا آخر كذلك، فنزلت الآية في هذا، وليس من هذا قول المحدثين: سليمان الأعمش، وواصل الأحذب. ونحوه مما تدعو الضرورة إليه وليس فيه قصد استخفاف ولا أذى، وقد قال عبدالله بن مسعود لِعَلْقَمَةَ: أو تقول أنت ذلك يا أعور؟ وأسند النقاش إلى عطاء، قال رسول الله ﷺ: «كفُّوا أولادكم»، قال عطاء، مخافة الألقاب، وقال ابن زيد: معنى ﴿وَلَا تَابِزُوا بِأَلْقَابِكُمْ﴾ أي: لا يقل أحدٌ لآخر: يا يهودي بعد إسلامه، ولا «يا فاسق» بعد توبته، ونحو هذا، وحكى النقاش أن كعب بن مالك، وابن أبي حذَرْدٍ تَلَاَحَبَا، فقال له كعب: يا أعرابي، يريد أن يُبعده من

الهجرة، فقال له الآخر: يا يهودي؛ لمخالطة الأنصار اليهود في يثرب، فنزلت الآية.

وقوله تعالى: ﴿يَسَّ الْأَنْفُسُ الْفُسُوقَ﴾ بعدَ الْإِيمَانِ، يحتمل معنيين: أحدهما فبئس اسم تكتسبونه بعصيانكم ونيزكم بالألقاب فتكونون فُسَاقاً بالمعصية بعد إيمانكم، والثاني بئس ما يقول الرجل لأخيه يا فاسق بعد إيمانه، وقال الرُّمَّانِي: هذه الآية تدل على أنه لا يجتمع الفسوق والإيمان، وهذه نزعة اعتزالية، ثم شدد الله تعالى عليهم النهي بأن حكم بظلم من لم يتب ويُقلع عن هذه الأشياء التي نهى عنها.

ثم أمر تبارك وتعالى المؤمنين باجتنب كثير من الظن، وألَّا يعملوا ولا يتكلموا بحسبه لما في ذلك وفي التجسس من التقاطع والتدابير، وحكم على بعضه أنه إثم؛ إذ بعضه ليس بإثم ولا يلزم اجتنابه، وهو ظنُّ الخير بالناس، حُسْنُهُ بالله تعالى، والمظنون من شهادات الشهود، والمظنون به من أهل الشر، فإن سقوط عدالته وغير ذلك هو من حكم الظنِّ به، وظنُّ الخير بالمؤمن محمود، والظنُّ المنهني عنه هو أن يظن سوءاً برجل ظاهره الصلاح، بل الواجب أن يزيل الظنَّ وحكمه ويتأول الخير، وقال بعض الناس: [إِثْمٌ] معناه: كذب، ومنه قول النبي ﷺ: «إِنَّا كُنَّا وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ». وقال بعض الناس: معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بَعَشَرُ الظَّنِّ إِنَّهُ﴾ أي: إذا تكلم الظَّانُّ إثمٌ، وما لم يتكلم فهو في فُسْحَةٍ

لأنه لا يقدر على دفع الخواطر التي يُبيحها قول النبي ﷺ: «الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ». وذكر النقاش عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «احترسوا من الناس بسوء الظن».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما زال أولوا العزم يحترسون من سوء الظنِّ ويسدُّون ذرائعه، قال سلمان الفارسي: إِنِّي لأَعُدُّ عِرَاقَ قِذْرِي مخافة الظنِّ، وكان أبو العالية يختم على بَقِيَّةِ طعامه مخافة سوء الظنِّ بخادمه، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الأمانة خير من الخاتم، والخاتم من سوء الظنِّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، أي: لا تبحثوا عن مُحَبَّاتِ أمور الناس، وادفعوا بالتي هي أحسن، وأخبروا بالظواهر الحسنة. وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وابن سيرين، والهُذَلِيُّونَ: ﴿وَلَا تَحَسَّسُوا﴾ بالحاء غير منقوطة، وقال بعض الناس: التجسس - بالجيم - في الشرِّ، والتَّحَسُّس - بالحاء - في الخير، وهكذا ورد القرآن ولكن قد يتداخلان في الاستعمال، وقال أبو عمرو بن العلاء: التجسس: ما كان من وراء وراء، والتَّحَسُّس: الدخول والاستعلام، وصحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً». وذكر الثعلبي حديث حراسة عمر بن الخطاب مع ابن عوف رضي الله عنهما وجودهما الشُّرب في ربيعة بن أمية بن خلف، وذكر

أيضاً حديثه في نحو ذلك مع أبي محجن الثقفي، وقال زيد بن وهب: قيل لابن مسعود: هل لك في الوليد بن عتبة تقطر لحيته خمر؟ فقال: إنا قد نهينا عن التجسس، فإن يظهر لنا أمر أخذنا به.

و «وَلَا يَنْتَبِ» معناه: ولا يذكر أحدكم من أخيه شيئاً هو فيه ويكره سماعه، وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت عن امرأة: ما رأيت أجمل منها إلا أنها قصيرة، فقال لها النبي ﷺ: «اغْتَيْبَهَا»، نظرت إلى أسوأ ما فيها فذكرته، وقد قال النبي ﷺ: «إِذَا ذَكَرْتَ مَا فِي أَخِيكَ فَقَدْ اغْتَيْبْتَهُ، وَإِذَا ذَكَرْتَ مَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهَّتَهُ»، وفي حديث آخر: «الْغَيْبَةُ أَنْ يُذْكَرَ الْمُؤْمِنُ بِمَا يَكْرَهُ»، قيل: وإن كان حقاً؟ قال: «إِذَا قُلْتَ بِاطْلًا فَذَلِكَ هُوَ الْبُهْتَانُ»، وقال معاوية بن قرة، وأبو إسحق السبيعي: إذا مر بك رجل أقطع فقل: ذلك الأقطع، كان غيبة، وحكى الزهراوي عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الْغَيْبَةُ أَشَدُّ مِنَ الزُّنَى، لِأَنَّ الزَّانِيَ يَتُوبُ فَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَالَّذِي يَغْتَابُ يَتُوبُ فَلَا يُتَابُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَجِلَّ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد يموت من اغتبت أو يأتى، وزوي أن رجلاً قال لابن سيرين: إني قد اغتبتك فحللني، فقال: إني لا أحلل ما حرم الله، والغيبة مشتقة من «غاب غيب»، وهي القول في الغائب، واستعملت في المكروه، ولم يبح في هذا المعنى إلا ما تدعو الضرورة إليه كتجريح الشهود، وفي

التعريف لمن استنصح في الخطاب ونحوه لقول النبي ﷺ: «أَمَّا مَعَاوِيَةُ فَصَلُّوكَ لَا مَالَ لَهُ»، وما يقال في الفسقة أيضاً وفي وفاة الجور ويُقصد به التحذير منهم، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أَعْنِ الْفَاجِرَ تَرَعُونَ؟ اذْكُرُوا الْفَاجِرَ بِمَا فِيهِ حَتَّى يَعْرِفَهُ النَّاسُ إِذَا لَمْ تَذْكُرُوهُ»، ومنه قوله: «بَشِ ابْنَ الْعَشِيرَةِ».

ثم مثل تعالى الغيبة بأكل لحم ابن آدم الميت، والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم، فمنه قول سؤيد بن أبي كاهل:

فَلِذَا لَا قِيَّةُ عَظْمَنِي
وَإِذَا يَخْلُولُهُ لَحْمِي رَنَحَ
ومنه قول الآخر:

إِذَا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَزْتُ لُحُومَهُمْ
وَإِنْ هَذَمُوا سَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا
فوفقههم الله تعالى - على جهة التوبيخ - بقوله: «أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا»، فالجواب عن هذا: لا، وهم في حكم من يقولها، فخطبوا على أنهم قالوا: لا، ف قيل لهم: «فَكْرَهُتُمُوهُ»، وبعد هذا مُقَدَّرُ تقديره: فكذلك فأكروها الغيبة التي هي نظير ذلك، وعلى هذا المقدَّر يعطف قوله: «وَأَتَّقُوا اللَّهَ»،

قاله أبو علي الفارسي، وقال الرُّمَّاني: كراهية هذا اللحم يدعو إليها الطبع، وكراهية الغيبة يدعو إليها العقل، وهو أحق أن يجاب لأنه بصيرٌ عالمٌ، والطَّبعُ أعمى جاهلٌ، وقرأ الجمهور: «هَيْئًا» بسكون الياء خفيفة، وقرأ نافع، وابن القعقاع، وشيبة، ومجاهد بكسرها مشددة، وقرأ أبو حية: «فَكْرَهُتُمُوهُ» بضم

الكاف وشدَّ الراء، ورواها أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ. ثم أعلمهم الله تعالى بأنه تَوَاتَّبَ رحيم إنقاء منه تعالى وإنهالاً وتمكيناً من التوبة.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: «مَنْ ذَكَرَ وَأُنْذِرَ» يحتمل أن يريد آدم وحواء عليهما السلام، فكأنه تعالى قال: إنا خلقناكم جميعاً من آدم وحواء، ويحتمل أن يريد بالذكر والأنثى اسم الجنس، وكأنه تعالى قال: إنا خلقنا كل واحد منكم من ماء ذكر وأنثى، وقصد هذه الآية التسوية بين الناس، ثم قال تعالى: «وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا»، أي: لئلا تفاخروا ويريد بعضكم أن يكون أكرم من بعض، فإن الطريق إلى الكرم غير هذا، «وَأَنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ»، وروي أبو بكره: قيل: يا رسول الله، من خير الناس؟ قال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ»، وفي حديث آخر: «مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَمْرُهُمْ بِمَعْرُوفٍ، وَأَنْهَاهُمْ عَنْ مَنكَرٍ، وَأَوْصَلَهُمْ لِلرَّحِمِ، وَأَتَقَاهُمْ».

وحكى الزهراوي أن سبب نزول هذه الآية غضب الحارث بن هشام، وعَتَّاب بن أسيد حين أَدَّنَ بلال يوم فتح مكة على الكعبة، وحكى الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سببها قول ثابت بن قيس لرجل لم يفسح له عند النبي ﷺ: يا بَنُ فُلانة، فوبَّخه النبي ﷺ، وقال له: «إِنَّكَ لَا تَفْضُلُ أَحَدًا إِلَّا فِي الدِّينِ وَالتَّقْوَى»، فنزلت

هذه الآية، ونزل الأمر بالتفش في ذلك أيضاً.

و «الشعوب» جمع شُعب، وهو أعظم ما يوجد من جماعات الناس مرتبطاً بنسب واحد، وتتلوه القبيلة ثم العماراة ثم البطن ثم الفخذ ثم الأسرة والفصيلة، وهما قرابة الرجل الأدنُون، فمُضر وربيعة وجُمير شعوب، وقيس وتميم ومذحج ومراد قبائل، مُشبهة بقبائل الرأس لأنها قطع تقابلت، وقريش وسليم عمارات، وبنو قُصي وبنو مخزوم بطون، وبنو هاشم وبنو أمية ونحوهما أفخاذ، وبنو عبدالمطلب أسرة وفصيلة. وقال ابن جبير: الشعوب: الأنخاذ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الشعوب: البطون، وهذا غير ما تماماً عليه اللغويون. وقال الثعلبي: وقيل: الشعوب في العجم والقبائل في العرب والأسباط في بني إسرائيل، وأما الشعب الذي في همدان الذي يُنسب إليه الشعبي فهو بطن يقال له: الشعب، وقيل للأمم التي ليست بعرب: «شعوبية» نسبة إلى الشعوب، وذلك أن تفصيل أنسابها خفي فلم يُعرف أحدٌ منهم إلا بأن يقال: فارسي، تركي، رومي، فكأنهم عرفوا بشعوبهم وهي أعم ما يُعبر به عن جماعتهم، ويقال لهم الشعوبية بفتح الشين، وهذا من تعيين النسب، وقد قيل فيهم غير ما ذكرت، وهذا أولى عندي.

وقرأ الأعمش: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، وقرأ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿لِتَعْرِفُوا أَنْ﴾

على وزن «تَفْعِلُوا» بكسر العين ويفتح الألف من «أَنْ» وإعمال [تَعْرِفُوا] فيها، ويحتمل - على هذه القراءة - أن تكون اللام في قوله تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ لام «كَيْ»، ويضطرب معنى الآية مع ذلك، ويحتمل أن تكون لام الأمر، وهو أجود في المعنى، ويحتمل أن يكون المفعول محذوفاً تقديره: «الحق»، وإذا كانت لام «كَيْ» فكأنه تعالى قال: يأيها الناس أنتم سواء من حيث أنتم مخلوقون، وإنما جعلتم قبائل لأن تتعارفوا ولأن تعرفوا الحقائق، وأما الشرف، والكرم فهو بتقوى الله تعالى وسلامة القلوب، وقرأ ابن مسعود: ﴿لِتَعَارَفُوا بَيْنَكُمْ، وخيركم عند الله أتقاكم»، وزوي أن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَرَهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ». ثم نبه تعالى على الحذر بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: بالمتقي الذي يستحق رتبة الكرم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ مَا سَمِعْنَا﴾، قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمة، وهي قبيلة كانت تجاور المدينة، وكانوا قد أظهروا الإسلام، وكانت نفوسهم - مع ذلك - دجلة، إنما يُحبون المغانم وعرض الدنيا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وذهبوا مرةً إلى أن يتسموا بالمهاجرين، فنزلت هذه الآية مُسميةً لهم بالأعراب، مُعرفةً لهم بذلك أقدارهم، ومُخرجةً ما في صدورهم من صورة معتقدتهم، وهم أعراب مخصوصون كما ذكرنا، قال أبو

حاتم عن ابن الزبير: سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ بغير همز، فردّ عليه بهنرٍ وقطع. وقد أخبر الله تعالى أن في الأعراب على الجملة من يؤمن بالله واليوم الآخر، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المُدعين في الإيمان: ﴿لَنْ تَنُورُوا﴾، أي: لم تصدقوا بقلوبكم، ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

والإسلام يقال بمعنيين: أحدهما الذي يُؤمن الإيمان والأعمال، وهو الذي في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنُورُوا﴾، والآخر الذي في قوله ﷺ: «بُيِّنَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»، والذي في تعليم النبي ﷺ لجبريل عليه السلام حين قال: ما الإسلام؟ قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، والذي في قوله ﷺ: «لَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوْ مُسْلِمًا، إِنِّي لِأَعْطِيَ الرَّجُلَ وَغَيْرَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ» الحديث، فهذا الإسلام ليس هو في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

والمعنى الثاني للفظ الإسلام هو الاستسلام والإظهار الذي يستعصم به ويحقق الدُّم، وهذا هو الإسلام في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، والإيمان الذي هو التصديق أخص من الأول.

ثم صرح تعالى لهم بأن الإيمان لم يدخل قلوبهم، ثم فتح تعالى لهم باب التوبة بقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَطِيبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، الآية، وطاعة الله

الْمِثَّةُ الْمُبْتُلَةُ لِلصَّدَقَةِ الْمَكْرُوهَةِ مَا وَقَعَ دُونَ كُفْرِ نِعْمَةٍ.

وقرأ أبو جعفر، ونافع، وشيبة، وقتادة، وابن وثاب: ﴿يَمَّا تَسْمُونَ﴾ بالتاء على الخطاب، وقرأ ابن كثير، وعاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿يَمَّا يَفْلُمُونَ﴾ بالياء من تحت على ذكر الغائب.

كامل تفسير سورة الحجرات والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة ق

هي مكية بإجماع من المتأولين، وروى أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة ق هُوَ اللهُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ وَكَرَاهَتُهُ».

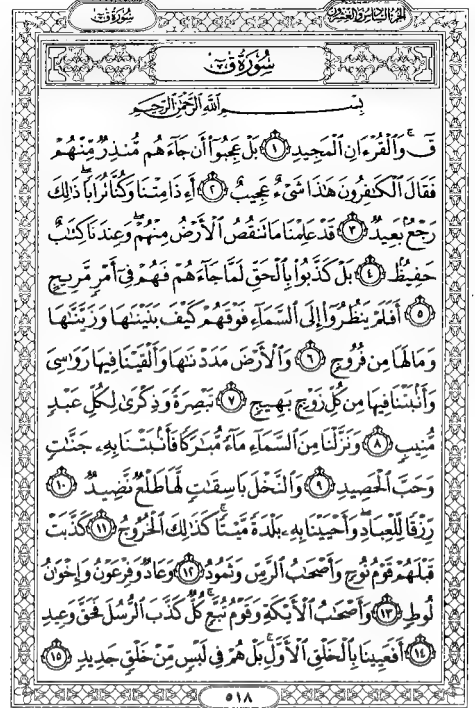
١ - ٢ - تفسير قوله عز وجل: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ اسم من أسماء القرآن، وقال أيضاً: اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، وقال قتادة والشعبي: هو اسم السورة، وقال ابن زيد، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك: هو اسم الجبل المحيط بالدنيا، وهو فيما يزعمون من زُمُرْدَة خضراء منها خُضْرَة السماء وخُضْرَة البحر. و﴿الْحَيِّدُ﴾: الكريم في أوصافه الذي جمع كل علي، و﴿ق﴾ - على هذه الأقوال - مُقْسَمٌ به وبالقرآن المجيد، وجواب القسم مُنْتَظَرٌ، واختلف الناس فيه - فقال

بقوله: ﴿أَتُمْنُونَ اللَّهَ يَدِينُكُمْ﴾ أي: بقولكم: «أمنّا»، وهو يعلم منكم خلاف ذلك لأنه العليم بكل شيء.

وقوله تعالى: ﴿يَتُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ نزل في بني أسد أيضاً، وذلك أنهم قالوا في بعض الأوقات للنبي ﷺ: إنا آمنّا بك وأتبعناك ولم نحاربك كما فعلت محارب وحصفة وهوازن وغطفان وغيرهم، فنزلت هذه الآية، حكاه الطبري وغيره. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿يَتُونُونَ عَلَيْكَ إِسْلَامَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ﴾ يحتمل أن يكن مفعولاً صريحاً، ويحتمل أن يكون مفعولاً من أجله، وقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ يَتُونُ عَلَيْكَ أَنْ هَذَا كَذِبٌ لِّزَيْنِ﴾ أي: بزعمكم إذ تقولون آمنّا، فقد لزمكم أن الله تعالى ماؤ عليكم، ويدلك على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فعلق عليهم الحكمين: هم ممنونٌ عليهم على الصدق، وأهل أن يقولوا أسلمنا من حيث هم كذبة، وقرأ ابن مسعود: ﴿إِذْ هَذَا كَذِبٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتُونُ عَلَيْكَ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى: يُنْعِمُ، كما تقول: مَنْ اللهُ عليك، ويحتمل أن يكون بمعنى: يَذْكُرُ إحسانه فيجزي معادلاً لـ ﴿يَتُونُ عَلَيْكَ﴾، وقال الناس قديماً: إذا كُفِّرَتِ النِّعْمَةُ حَسُنَتِ الْمِثَّةُ، وإِنَّمَا



تعالى ورسوله ﷺ في ضمنها الإيمان والأعمال.

وقرأ الجمهور من القراء: ﴿لَا يَلْتَفِكُمْ﴾، من (لَا تَلَيْتُ) إذا نقص، يقال: «لَا تَفُتْ حَقَّهُ» إذا نقصه منه، وقرأ أبو عمر، والأعرج، والحسن، وعمر: ﴿لَا يَأْتِيكُمْ﴾ من (أَلْتِ) يَأْتِي، وهو بمعنى (لَا ت)، وكذلك يقال: (أَلْتِ) بكسر اللام (يَأْتِي)، ويقال أيضاً في معنى (لَا ت): (أَلْتِ يُولِي)، ولم يُقرأ بهذه اللغة. وباقي الآية يَبَيِّنُ في الترجية.

١٥ - ١٨ - تفسير قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصرة تُعْطِي ذلك المعنى. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَأُوا﴾ أي: لم يشكوا في إيمانهم، ولم يَدْخُلْهُمْ ريب، وهم الصادقون إذ جاء فعلهم مُصَدِّقاً لقولهم. ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتوبيخهم

ابن كيسان: جوابه ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾، وقيل: الجواب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا﴾، وقال الزهراوي، عن سعيد الأخفش: الجواب ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، وضَعَفَه النحاس، وقال الكوفيون من النحاة: الجواب ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾، والمعنى: قد عَجِبُوا، قال منذر بن سعيد: وقد قيل: إن جواب القسم في قوله تعالى: ﴿مَا يَنْدُلُ الْقَوْلُ لَكُمْ﴾، وفي هذه الأقوال تكلف وتحكم على اللسان، وقال الزجاج، والمبرد، والأخفش، الجواب مُقَدَّر، تقديره: ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ لَتُبْعَثُنَّ﴾، وهذا قول حسن، وأحسن منه أن يكون الجواب هو الذي يقع عنه الإضراب بـ ﴿بَلْ﴾، كأنه تعالى قال: والقرآن المجيد ما ردوا أمرك بحجة، أو ما كذبوك ببرهان، أو نحو هذا مما لا بد لك من تقديره بعد الذي قدر الزجاج، لأنك إذا قلت الجواب «لَتُبْعَثُنَّ» فلا بد بعد ذلك أن تقدّر خيراً عنه يقع الإضراب، وهو الذي جعلناه جواباً وجاء في المقدّر أخصر.

وقال جماعة من المفسرين في قوله تعالى ﴿ق﴾: إنه حرف دال على كلمة، نحو قول الشاعر:

قُلْتُ لَهَا قِيفِي فَقَالَتْ قَاف

.....

واختلفوا بعد، فقال القرطبي: هو دال على أسماء الله تعالى هي: قاذر وقاهر وقريب وقاض وقابض، وقيل: المعنى: قضي الأمر من رسالتك ونحوه «والقرآن المجيد»، فجواب القسم في الكلام الذي يدلُّ

عليه ﴿ق﴾، وقال قوم: المعنى: قف عند أمرنا، وقيل: المعنى: قهر هؤلاء الكفرة، وهذا أيضاً وقع عليه القسم، ويحتمل أن يكون المعنى: قيامهم من القبور حق «والقرآن المجيد»، فيكون أول السورة من المعنى الذي أطرد بعد، وعلى هذه الأقوال فشم كلام مضمّر وقع عنه الإضراب، وهو خبر عنهم، كأنه تعالى قال: ما كذبوك ببرهان، أو نحو هذا مما يليق مظهرًا.

وقرأ الجمهور من القراء: ﴿قَاف﴾ بسكون الفاء، قال أبو حاتم: ولا يجوز غيرها إلا جواز سوء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه القراءة تخسّن مع أن تكون ﴿ق﴾ حرفاً دالاً على كلمة. وقرأ الشافعي، وعيسى: ﴿قَاف﴾ بفتح الفاء، وهذه تحسّن مع القول بأنها اسم للقرآن أو لله تعالى، وكذلك قرأ الحسن، وابن أبي إسحق: ﴿قَاف﴾ بكسر الفاء، وهي في رتبة التي قبلها في أن الحركة للالتقاء، وفي أنها اسم للقرآن، «والمجيد» الكريم الأوصاف الكثير الخير.

واختلف الناس في الضمير في ﴿عَجِبُوا﴾، لمن هو؟ فقال جمهور المتأولين: هو لجميع الناس، مؤمنهم وكافرهم؛ لأن كل مفطور عَجِبَ من بعثة بشر رسولاً لله، لكن: المؤمنون نظروا واهتدوا، والكافرون بقوا على عمايتهم وصموا وحاجوا بذلك العجب، ولذلك قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا نَحْنُ عَجِبُ﴾، وقال آخرون: بل الضمير في ﴿عَجِبُوا﴾ للكافرين، وكرّر الكلام

تأكيداً ومبالغة، والإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ يحتمل أن تكون إلى نفس مجيء البشر، ويحتمل أن تكون إلى القول الذي يتضمنه الإنذار وهو الخبر بالبعث، ويؤيد هذا القول ما يأتي بعده.

وقرأ الجمهور: ﴿إِذَا﴾، وقرأ الأعرج، وشيبة، وأبو جعفر: ﴿إِذَا﴾ على الخبر دون استفهام، والعمل في ﴿إِذَا﴾ فعل مضمّر، كأنه تعالى قال: أنبئْتُ إذا؟ وإلى هذا الفعل وقعت الإشارة بقولهم: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، قال ابن جني: ويحتمل أن يكون المعنى: إذا مبتأ بعد رجوعنا، فيدل ﴿رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ على هذا الفعل الذي هو (بَعْدُ) ويحل محل الجواب لقولهم: ﴿إِذَا﴾.

و «الرَّجْعُ» مصدر رجعه، وقولهم: ﴿بَعِيدٌ﴾ معناه: بعيد في الأفهام والفكر كونه، فأخبر الله تعالى - ردًا على قولهم - بأنه تعالى يعلم ما تأكل الأرض من ابن آدم وما ثبقي منه، وأن ذلك في كتاب، وكذلك يعود في الحشر معلوماً ذلك كله، «والحفيظ»: الجامع الذي لم يفته شيء، وقال الرُّمَّانِي: حفيظ: منيع من أن يذهب ببلى ودروس، وروي في الخبر الثابت أن الأرض تأكل ابن آدم إلا عَجِبَ الدُّنْبُ وهو عظم كالخردلة فمنه يُرْكَبُ ابن آدم، وحفّظ ما تنقص الأرض إنما هو ليعود بعينه يوم القيامة، وهذا هو الحق، وذهب بعض الأصوليين إلى أن الأجساد المبعوثة يجوز أن تكون غير هذه، وهذا عندي خلاف لظاهر كتاب الله تعالى، ولو كانت غيرها

فكيف كانت تشهد الجلود والأيدي والأرجل على الكفرة إلى غير ذلك مما يقتضي أن أجساد الدنيا هي التي تعود؟ وقال ابن عباس، ومجاهد، والجمهور: المعنى: ما تنقص من لحومهم وأبشارهم وعظامهم، وقال السدي: معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما يحصل في بطن الأرض من موتاهم، وهذا قول حسن مُضْمَنُ الوعيد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً - فيما حكى الثعلبي -: معناه: قد علمنا ما تنقص الأرض بالإيمان من الكفرة الذين يدخلون في الإيمان، وهذا قول أجنبى من المعنى الذي قبل وبعد.

وقبل قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ مُضْمَرٌ عنه وقع الإضراب، تقديره: ما أجادوا النظر، أو نحو هذا، والذي يقع عنه الإضراب بـ (بَلْ) الأغلب فيه أنه منفي تقضي (بَلْ) بفساده، وقد يكون أمراً موجباً تقضي (بَلْ) بترك القول فيه لا بفساده، وقرأ الجمهور: ﴿لَمَّا﴾ بفتح اللام وشد الميم، وقرأ الجحدري: ﴿لِمْمَا﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم، قال أبو الفتح: هي كقولهم: «أعطيته لِمَا سَأَلَ»، وكما في التاريخ «لِخُمْسِ خَلْقُونَ»، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّهَا لِرَؤْفَاءَ إِلَّا هُوَ﴾ ومنه قول الشاعر:

.....

إِذَا هَبَّتْ لِقَارِيهَا الرِّيحُ
و «المَرِيحُ»: معناه: المختلط، قاله ابن زيد، أي: بعضهم يقول ساحر، وبعضهم يقول كاهن، وبعضهم يقول شاعر، إلى غير ذلك من تخليطهم،

وكذلك عادت فكرة كل واحد منهم مختلطة في نفسها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المَرِيحُ: المُنْكَرُ، وقال مجاهد: المُتَنَبِّسُ، والمَرِيحُ: المضطرب أيضاً، وهو قريب من الأول، ومنه في الحديث: «مَرَجَتْ عَهْدُهُمْ»، ومن الأول: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ»، وقال الشاعر:

مَرَجَ الدِّينَ فَأَعْدَدْتُ لَهُ
مُشْرِفَ الْحَارِكِ مَخْبُوكَ الْكَتَدِ
ثم دلَّ تعالى على العبرة بقوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ الآية. و«وَرَزَّيْنَاهَا» معناه: بالنجوم، و«الْفُرُوجُ»: الفطور خلالها وأثناءها، قاله مجاهد وغيره، وحكى النقاش أن هذه الآية تعطي أن السماء مستديرة، وليس الأمر كما حكى إذا تُدْبِرَ اللفظ وما يقتضي. و«الرَّوَّاسِي»: الجبال، و«الرَّوْجُ»: النُّوجُ، و«الْبَهِيحُ»: قال ابن عباس، وقتادة، وابن زيد: هو الحسن المنظر.

وقوله تعالى وجل: ﴿تَبِيرَهُ وَذَكَّرْنَاهُ﴾ منصوب على المصدر بفعل مضمر، و«الْمُنِيبُ»: الراجع إلى الحق عن فكرة ونظر، وقال قتادة: هو المقبل بقلبه إلى الله تعالى، وخَصَّ تعالى هذه الصنيفة بالذكر تشريفاً من حيث هي المتفعلة بالتبصرة والذكرى، وإلا فهذه المخلوقات هي تبصرة وذكري لكل بشر، وقال بعض النحويين: ﴿تَبِيرَهُ وَذَكَّرْنَاهُ﴾ مفعولان من أجلهما، وهذا محتمل، والأول أرجح.

١٥ - ١٤ تفسير قوله عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾، قيل: يعني جميع المطر،

كله يتصف بالبركة، وإن ضَرَّ بعضه أحياناً ففيه مع ذلك الضَّرُّ الخاص البركة العامة، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا جاء المطر فسالت الميازيب قال: «لَا مَخْلَ عَلَيْهِمُ الْعَامَ»، وقال بعض المفسرين: «مَاءٌ مُبْرَكٌ» يريد به ماء مخصوصاً خالصاً للبركة ينزله الله تعالى كل سنة، وليس كل المطر يتصف بذلك. وَحُبُّ الحصيد هو البرُّ والشعير ونحوه مما هو نبات محبب يُحصَد، و«الْمُؤَيَّدُ» صفة لمحذوف، وقال مجاهد: حُبُّ الحصيد: الحنطة.

و «بَاسِقَتِي» معناه: طويلات ذاهبات في السماء، ومنه قول أبي نوفل في ابن هُبيرة:

يَا بْنَ الْأَزِينِ بِجَدِّهِمْ
بَسَقَتْ عَلَى قَيْسٍ قَزَازَةٌ
وروى قطبة بن مالك عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿بَاسِقَاتِ﴾ بالصاد، قال أبو الفتح: الأصل السين، وإنما الصاد بدلٌ منها لاستعلاء القاف. و«الطَّلُعُ» أول ظهور الثمر في الكَفْرِى وهو أبيض منضد كحَبِّ الرمان، فما دام ملتصقاً ببعضه ببعض فهو نضيد، وإذا خرج من الكفري وتفرق فليس بنضيد. و«رَزَقًا» نصب على المصدر، والضمير في «يَدِي» عائد على المطر، ووصف البلدة بـ «مَيْتَ» على تقدير الفُطْر والبلد، وقرأ الناس: «مَيْتًا» مخففاً، وقرأ أبو جعفر، وخالد: «مَيْتًا» بالثقل، ثم بين تبارك تعالى موضع الشبهة فقال: «كَذَلِكَ الْخُرُوجُ»،

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ آدَمَ مَوْسِمَ رَيْبِهِ فَتَبَسَّسْهُ وَخَنَ أَعْيُنَ آلِهِ
 مِنْ جَلَدٍ الْوَارِدِ ﴿١٦﴾ إِذْ بَلَغُوا الْمُلَاقَاتِ مِنَ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدُ
 مَا يَلِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٧﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ
 الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٨﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ
 يَوْمُ الْوَعْدِ ﴿١٩﴾ وَمَا كُنْتُ كُلِّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَهِيدٌ ﴿٢٠﴾ لَقَدْ
 كُنْتُ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا إِذْ كُنْتُ غَافِلًا عَنْ عَذَابِكَ إِذْ وَصَرْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ
 ﴿٢١﴾ وَقَالَ رَبُّهُ هَذَا مَالِي عَتِيدٌ ﴿٢٢﴾ أَلَيْفَ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
 عَتِيدٍ ﴿٢٣﴾ مَتَاعُ الْخَيْرِ مُعْتَدٍ قَرِيبٍ ﴿٢٤﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 آخَرَ أَلَيْفَ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتَهُ
 وَلَكِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مَعِيدٍ ﴿٢٦﴾ قَالَ لَا تَخْضَعُوا لِلدِّينِ وَقَدْ كُنْتُمْ
 إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ ﴿٢٧﴾ مَا بَدَلِ الْقَوْلَ الَّذِي وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٨﴾
 يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٢٩﴾ وَأَزَلَّتْ
 الْحِسَّةُ لِلنَّارِ بَهِيمٍ ﴿٣٠﴾ هَذَا مَا وَعَدُونَا لِكُلِّ أَثَرٍ حَافِظٍ ﴿٣١﴾
 ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ ﴿٣٣﴾ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٤﴾ ادْخُلُوهَا
 بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٥﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٦﴾

فَتَعَلَّمْ مِنْهُمَا دِينَ مُوسَى
 عليه السلام، ثم إن قومه
 أنكروا عليه ذلك، فندبهم
 إلى محاجة الخبرين
 فوقعت بينهم مجادلة
 عظيمة، واتفقوا على أن
 يدخل جميعهم النار التي
 في القربان فمن أكلته النار
 فهو المبطل، فدخلوا
 فاحترق قوم ثُبُع وخرج
 الخبران تخرج جباههما،
 فهلك القوم المخالفون
 وأمن سائر قوم ثُبُع بدين
 الخبرين، وفي الحديث
 اختلاف كثير أثبت أصح
 ذلك على ما في سير ابن
 هشام. وذكر الطبري عن

وهذه الآيات كلها إنما هي أمثلة
 وأدلة على البعث، و«الخروج» يريد
 به الخروج من القبور.
 و«وَأَصْحَابُ الرِّيَاسِ» قوم كان لهم بئر
 عظيمة وهي الرُّس، وكل ما لم
 يُطَوَّ من بئر أو معدن أو نحوه فهو
 رُس، وأنشد أبو عبيدة للناطقة
 الجعدي:

سَبَقْتُ إِلَى قَرْطِ نَاهِلٍ
 تَنَابِلَةٍ يَخْفَرُونَ الرُّسَاسَا
 وجاءهم نبي يسمى حنظلة بن
 سفيان فيما روي، فجعلوه في الرُّس
 وردموا عليه وأهلكهم الله تعالى،
 وقال كعب الأحبار في كتاب
 الزهرواي: أصحاب الرُّس هم
 أصحاب الأخدود، وهذا ضعيف؛
 لأن أصحاب الأخدود لم يكذبوا
 نبيا، إنما هم ملك أحرق قوما،
 وقال الضحاك: الرُّس بئر قتل فيها
 صاحب يسن، قال منذر: روي عن
 ابن عباس رضي الله عنهما أنهم قوم
 عاد.

و«الْأَيْكَةُ» شجر ملتف، وهم قوم
 شعيب عليه السلام، والألف واللام
 من «الْأَيْكَةُ» غير معرفتين لأن «أَيْكَةُ»
 اسم علم كطلحة، يقال: أَيْكَةُ
 وَلَيْكَةُ، فهي كالألف واللام في
 الشمس والقمر وفي الصفات الغالبة،
 وفي هذا نظر، وقرأ: «الْأَيْكَةُ»
 بالهمزة أبو جعفر، ونافع، وشيبة،
 وطلحة.

و«قَوْمٌ ثُبُعٌ» هم جنمير، و«ثُبُع»
 اسم الملك فيهم، يذهب ثُبُع ويحيى
 ثُبُع، مثل كسرى في الفرس وقيصر
 في الروم، وكان أسعد أبو كرب أحد
 التابعة رجلاً صالحاً صاحب خبرين

ولا يدغم المستقبل منه، فيقال:
 عي، ومنه قول الشاعر:

عُيُوبُهُمْ كَمَا
 عَيْتُ بَبِيضَتِهَا الْحَمَامَةُ

و«الخلق الأول» إنشاء الإنسان من
 نقطة على التدرج المعلوم، وقال
 الحسن: الخلق الأول آدم عليه
 السلام، وحكاة الرُّماني، و«اللُّبْسُ»:
 الشُّكُّ والريب واختلاط النظر،
 و«الخلق الجديد»: البعث من
 القبور.

١٦ - تفسير قوله عز وجل:
 هذه الآيات فيها إقامة حُجج على
 الكفار في إنكارهم البعث والجزاء،
 و«الخلق» إنشاء الشيء على تقدير
 وترتيب حكمي، و«الإنسان»: اسم
 الجنس، وقال بعض المفسرين:
 الإنسان هنا آدم عليه السلام،
 و«نُوسٌ» معناه: تتحدث في

سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ
 قال: «لَا تَلْعَنُوا ثُبُعاً فَإِنَّهُ كَانَ
 قد أسلم»، وذكر الثعلبي عن ابن
 عباس رضي الله عنهما أن ثُبُعاً كان
 نبياً.

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾، قال سيبويه:
 التقدير: كُلُّهُمْ، وحذف لدلالة ﴿كُلٌّ﴾
 عليه إيجازاً، والوعيد الذي حق هو
 ما سبق به القضاء من تعذيب الكفرة
 وإهلاك الأمم المكذبة، وفي هذا
 تخويف من كذب محمداً ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَبِهْنَا بِالْمُتَلَقِّيِ
 الْأَوَّلِ﴾ توقيف للكفار وتوبيخ وإقامة
 للحجة الواضحة عليهم، وذلك أن
 جوابهم على هذا التوقيف هو: لم
 يقع عي، ثم هم مع ذلك في لبس
 من الإعادة، وهذا تناقض، يقال:
 عَيِّيَ يَغْيَا إذا عجز عن الأمر، ويدغم
 هذا الفعل الماضي من هذا الفعل،

فكرتها، وسُمِّي صوت الحُلِيِّ وسوسة لخفائه، والوسوسة إنما تستعمل في غير الخير.

وقوله تعالى: ﴿وَعَزَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ عبارة عن قدرة الله تعالى على العبد، وكون العبد في قبضة القدرة والعلم، قد أحيط به، فالقُرْبُ هو بالقدرة والسلطان؛ إذ لا ينحجب عن علم الله تبارك وتعالى باطن ولا ظاهر، وكل قريب من الأجرام فبينه وبين قلب الإنسان حجب، والوريد عرق كبير في العُنُق، يقال: إنهما وريدان عن يمين وشمال، قال الفراء: هو ما بين الحلقوم والعلباوين، وقال الحسن: الوريد: الوتين، قال الأشرم: هو نهر الجسد، هو في القلب الوتين، وفي الظهر الأبهر، وفي الذراع والفخذ: الأكحل والنَّسَا، وفي الخنصر: الأسليم، والحبل اسم مشترك فخصَّصه بالإضافة إلى الوريد، وليس هذا بإضافة الشيء إلى نفسه، بل هي كإضافة الجنس إلى نوعه، كما تقول: لا يجوز حي الطير بلحمه.

وأما قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى النَّفُّانَ﴾ فقال المفسرون: العامل في ﴿إِذْ﴾ هو ﴿أَقْرَبُ﴾، ويحتمل عندي أن يكون العامل فيه فعلاً مضمراً تقديره: اذكر إذ يَتَلَقَّى، ويحسن هذا المعنى لأنه أخبر خبراً مجرداً بالخلق، والعلم بخطرات الأنفس، والقرب بالقدرة والملِك، فلما تمَّ الإخبار أخبر بذكر الأحوال التي تُصَدَّقُ هذا الخبر وتُبيِّنُ روده عند السَّامِعِ، فمنها: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى

النَّفِّانَ﴾، ومنها مجيء سكرة الموت، ومنها النفخ في الصور، ومنها مجيء كل نفس. و«النَّفِّانَ»: المَلَكَانِ الْمُؤَكَّلَانِ بكلِّ إنسان، مَلَكُ اليمين الذي يكتب الحسنات، ومَلَكُ الشمال الذي يكتب السيئات، قال الحسن: الحفظة أربعة: اثنان بالثَّهَارِ واثنان باللَّيْلِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويؤيد ذلك الحديث «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار». الحديث بكماله. ويروى أن مَلَكُ اليمين أمير على مَلَكِ الشمال، وأن العبد إذا أذنب يقول مَلَكُ اليمين للآخر: تَشَبَّتَ لَعَلَّهُ يَتُوبَ، ورواه إبراهيم التيمي وسفيان الثوري، و«يُبَيِّدُ» معناه: قاعد، وقال قوم هو بمنزلة «أكيل» فهو بمعنى مُقَاعِد، وقال الكوفيون: أراد «تُعَوِّدُ» فجعل الواحد موضع الجنس، والأول أصوب لأن المُقَاعِدَ إنما يكون عند قعود الإنسان، والقاعد يكون قاعداً على كل هيئات الإنسان، وقال مجاهد: قَعِيدٌ رصد، ومذهب سيبويه أن التقدير: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فاكتفى بذكر الآخر عن ذكر الأول، ومثله عنده:

وَعَزَّةٌ مَسْطُولٌ مَعْنَى غَرِيمُهَا
ومثله قول الفرزدق:

إِنِّي ضَمِنْتُ لِمَنْ أَتَانِي مَا جَنَى
وَأَبَى فِكَانَ وَكُنْتُ غَيْرَ غَدُورٍ
وهذه الأمثلة كثيرة، ومذهب المبرد أن التقدير: عن اليمين قعيد وعن الشمال، فأخر «يُبَيِّدُ» عن مكانه،

ومذهب الفراء أن لفظ «قعيد» يدل على الاثنين والجميع فلا يحتاج إلى تقدير غير الظاهر.

قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾، قال الحسن بن أبي الحسن، وقتادة: يكتب الملكان جميع الكلام، فيثبت الله من ذلك الحسنات والسيئات ويمحو غير ذلك، وهذا ظاهر الآية. وقال أبو الجواز، ومجاهد: يكتبان عليه كل شيء حتى أنبئه في مرضه، وقال عكرمة: المعنى: ما يلفظ من قول خير أو شر، وأما ما خرج عن هذا فإنه لا يُكْتَبُ، والأول أصوب، وروى أن رجلاً قال لجملة: «خَلْ»، فقال مَلَكُ اليمين: لا أكتبها، وقال مَلَكُ الشمال: لا أكتبها، وقال مَلَكُ الشمال: لا أكتبها، فأوحى الله تعالى إلى مَلَكِ الشمال أن اكتب ما ترك صاحب اليمين، وروى نحوه عن هشام الحمصي، وهذه اللفظة إذا اعتبرت فهي بحسب مشيئته بعبيره، فإن كان في طاعة فإن «خَلْ» حسنة، وإن كان في معصية فهي سيئة، والمتوسط بين هذين عسر الوجود، ولا بد أن يقترن بكل أحوال المرء قرائن تخلصها للخير أو لخلافه، وحكى الشعلبي عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن مقعد المَلَكَيْنِ على الثَّيْتَيْنِ، فقلهما اللسان ومدادهما الرِّيقُ»، وقال الضحاك، والحسن: مقعدهما تحت الشمر، وكان الحسن يحب أن ينظف عنقه لذلك، قال الحسن: حتى إذا مات المرء طويت صحيفته، وقيل له يوم

الكتاب الذي يلقيه منشوراً، وقال بعض النظار: ﴿سَائِقٌ﴾ اسم جنس، و﴿شَيْدٌ﴾ كذلك، فالساق للناس ملائكة يؤكلون بذلك، والشهداء الحفظة في الدنيا وكل ما يشهد، وقال ابن عباس، والضحاك: السائق مَلَكٌ، والشَّهيد جوارح الإنسان، وهذا يبعد على ابن عباس رضي الله عنهما لأن الجوارح إنما تشهد بالمعاصي، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ يعم الصالحين، فإنما معناه: شهيد بخيره وشره، ويقوى في ﴿شَيْدٌ﴾ اسم الجنس، فتشهد بالخير الملائكة والباق، ومنه قوله ﷺ: «لا يسمع صدى صوت المؤذن إنس ولا جان ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»، وكذلك تشهد بالشر الملائكة والباق والجوارح، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: السائق مَلَكٌ والشَّهيد العمل، قال ابن مسلم: السائق شيطان، حكاه عنه الشعلي، والقول في كتاب منذر بن سعيد، وهو قول ضعيف.

(٢٢) - (٢٨) تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجحدري: ﴿لَقَدْ كُنْتُ﴾ بكسر التاء على مخاطبة النفس، وكذلك كسر الكافات بعد، وقال صالح بن كيسان، والضحاك، وابن عباس: معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُ﴾ الآية أن يقال للكافر العاقل من ذوي التي معها السائق والشَّهيد إذا حصل بين يدي الرحمن عز وجل، وعاین الحقائق التي كان لا يُصدّق بها في الدنيا ويتغافل عنها وعن النظر فيها: لقد كنت في غفلة من هذا، فلما كشف الغطاء عنك الآن احتد

إن شئت علقت الباء بـ ﴿جَاءَتْ﴾ كما تقول: «جئت بزید»، أي: سقته، وإن شئت كانت بتقدير: ومعها الموت.

واختلف المتأولون في معنى «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالمَوْتِ» - فقال الطبري - وحكاه الشعلي - الحق: الله تعالى، وفي إضافة السكرة إلى اسم الله تعالى بُغْذٌ، وإن كان ذلك سائغاً من حيث هي خلق له، ولكن فصاحة القرآن ورفصه لا يأتي فيه هذا، وقال بعض المتأولين: المعنى: وجاءت سكرة فراق الحياة بالموت، وفراق الحياة حق يعرف الإنسان ويحيد منه بأمّله، ومعنى هذا الحيد أنه يقول: أعيش كذا وكذا، فمتى فكر في قرب الموت حادّ بذهنه وأمله إلى مسافة بعيدة من الزمان، وأيضاً فحذر المرء وتحزّزاته ونحو هذا جيد كله. وقد تقدّم القول في التّفخ في الطّور مراراً، ويؤمّ ألّوعيد هو يوم القيامة، وأضافه إلى الوعيد تخويفاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَيْدٌ﴾، قرأ طلحة بن مصرف: ﴿مَعَهَا﴾ بالحاء مثقلة. و«السائق»: الحادث على السير، واختلف الناس في السائق والشَّهيد - فقال عثمان بن عفان، ومجاهد وغيرهما: مَلَكَانِ مُوَكَّلَانِ بكل إنسان، أحدهما يسوقه، والآخر من حفظته يشهد عليه، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: السائق مَلَكٌ، والشَّهيد العمل، وقال منذر بن سعيد: السائق مَلَكٌ، والشَّهيد النبي ﷺ، قال: وقيل: الشَّهيد

القيامة: ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كُلُّ نَفْسٍ أَلَيْمٌ عَلَيْكَ حَيَاتُهَا﴾، عَدَلُ الله من جعله حسيب نفسه. و«الرقيب»: المراقب، و«العتيد»: الحاضر.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ عَطْفٌ - عُنْدِي - عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَنْتَلَى﴾، فالتقدير: وإذا تجيء سكرة الموت، وجعل الماضي في موضع المستقبل تحقيقاً وتبييناً للأمر، وهو أحث على الاستعداد واستشعار القرب، وهذه طريقة العرب في ذلك، وتبين هذا في قوله تعالى: ﴿وَيُفِخُ فِي الصُّورِ﴾، ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فإنها صيرورة بمعنى الاستقبال. وقرأ أبو عمرو: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ﴾ بإدغام التاء في السين، وسكرة الموت: ما يعتري الإنسان عند نزعه، والناس فيها مختلفة أحوالهم، لكن لكل أحد سكرة، وكان رسول الله ﷺ يقول: «إِن لِّلْمَوْتِ لِسَكْرَاتٍ». وقوله تعالى: ﴿يَالْحَقُّ﴾ معناه: بلقاء الله تبارك وتعالى وفقد الحياة الدنيا، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالمَوْتِ﴾، وقرأها ابن جبير، وطلحة، ويروى أن أبا بكر الصديق قالها لابنته عائشة رضي الله عنهما، وذلك أنها قد عدت عند رأسه تبكي وهو ينازع فقالت:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الشَّرَاءَ عَنِ الْفَتَى إِذَا حُشِرَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصُّدُرُ ففتح أبو بكر رضي الله عنه عينيه وقال: لا تقولني هكذا وقولي: «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالمَوْتِ ذَلِكَ مَا كُنْتُ مِنْهُ تَجِيد»، وقد روي هذا الحديث عن مشاهير القراء: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ النَّوَى بِالْحَقِّ﴾ فقال أبو الفتح:

بصرک، أي: بصيرتك، وهذا كما تقول: «فلان حديد الذهن والفؤاد» ونحوه، وقال مجاهد: هو بصر العين، أي: اشتد التفاته إلى ميزانه وغير ذلك من أهوال القيامة، وقال زيد بن أسلم: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ نَجِئًا﴾، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ الْآيَةَ مَخاطبة للنبي محمد ﷺ، المعنى أنه خاطب بها في الدنيا، أي: لقد كنت يا محمد في غفلة عن معرفة هذا القصص والغيب حتى أرسلناك وأنعمنا عليك وعلمناك فبصرک اليوم حديد.

وهذا التأويل يضعف من وجوه: أحدها أن «الغفلة» إنما تنسب أبداً إلى مقصّر، ومحمد ﷺ لا تقصير له قبل بعثه ولا بعده، وثانيها أن قوله تعالى - بعد هذا - ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ يقتضي أن الضمير إنما يعود على أقرب مذكور، وهذا الذي يقال له: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ - وإن جعلناه عائداً على ذي النفس في الآية المتقدمة - جاء هذا الاعتراض لمحمد ﷺ بين الكلامين غير متمكن، فتأمل، وثالثها أن معنى توقيف الكافر وتوبيخه على حاله في الدنيا يسقط، وهو أجرى في الآية وأولى بالوصف، والوجه عندي ما قاله الحسن، وسالم بن عبدالله أنها مخاطبة للإنسان ذي النفس المذكورة من مؤمن وكافر. ﴿وَنُكَلِّفُنَاكَ عِطَافَةً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الحياة بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَيْدٌ﴾، قال جماعة من

المفسرين: قرينه من زبانية جهنم، أي قال: هذا العذاب الذي لهذا الإنسان الكافر حاضرٌ عتيْدٌ. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ففي هذا تحريض على الكافر واستعجال به.

وقال قتادة، وابن زيد: بل قرينه الملك الموكَّل بسوقه، فكأنه قال: هذا الكافر الذي جعل إلي سوقه، فهو لدي حاضرٌ، وقال الزهراوي: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾: شيطانه، وهذا ضعيف، وإنما أوقع فيه أن القرين في قوله: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْلَيْتُهُ﴾ هو شيطانه في الدنيا ومُغْوِيه بلا خلاف، ولفظة القرين اسم جنس، فسائقه قرين، وصاحبه من الزبانية قرين، وكتاب سيئاته في الدنيا قرين، وتحتمله هذه الآية، أي: هذا الذي أحصيته عليه عتيْد لدي، وموجب عذابه. ومُتَمَاشِي الإنسان في طريقه قرين، ومنه قول الشاعر:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَفْتَدِي
والقرين الذي في هذه الآية غير القرين الذي في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْلَيْتُهُ﴾ إذ المقارنة تكون على أنواع، وقال بعض العلماء: قرينه في هذه الآية عَمَلُهُ قلباً وجوارحاً.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ معناه: يقال: أَلْقِيَ فِي جَهَنَّمَ، واختلف الناس، لمن يقال ذلك؟ فقالت جماعة من المفسرين: هو قول لِمَلَكَين من ملائكة العذاب، وقال عبدالرحمن بن زيد في كتاب

الزهراوي: هو قول للسانين والشهيد، وحكى الزهراوي أن المأمور بإلقاء الكافر في النار اثنان، وعلى هذين القولين لا نظر في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ﴾، وقال مجاهد وجماعة من المتأولين: هو قول للقرين، إما السابق وإما الذي هو من الزبانية حسب ما تقدم، واختلف أهل هذه المقالة في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ﴾ وهي مخاطبة لواحد - فقال المبرد: معناه: أَلَيْسَ أَلَيْسَ، فإنما أراد تشنية الأمر مبالغة وتأكيذاً فردُّ التشنية إلى الضمير اختصاراً، كما قال:

لَقَدْ كُنْتَ لَأَمِينٍ عَلَى نَابِلٍ
يريد: ارم، ارم. وقال بعض المتأولين: المراد: «الْقَيْن»، فعوض من النون ألفاً كما نُعْوِضُ من التنون، وقال جماعة من أهل العلم بكلام العرب: هذا جرى على عادة العرب، وذلك أنها كان الغالب عندها أن يترافق في الأسفار ونحوها ثلاثة، فكل واحد منهم يخاطب اثنين، فكسر ذلك في كلامها وأشعارها حتى صار عُرفاً في المخاطبة، فاستعمل في الواحد، ومن هذا قولهم في الأشعار: خليلي، وصاحبي، وَقَفَا تَبَكُّ، ونحوه، وقد جرى المحدثون على هذا الرسم، فيقول الواحد: حدثنا - وإن كان قد سمع وحده -، ونظير هذه الآية في هذا القول قول الحجاج: يَا حَرَسِي اضْرِبْنَا عَنْقَهُ، وهو دليل على عادة العرب، ومنه قول الشاعر:

فَإِنْ تَزْجُرَانِي بِأَبْنٍ عَفْوَانَ تَنْزَجِرْ
وَإِنْ تَدْعَانِي أَحْمَ عِزْضًا مُنْعَا
وقرأ الحسن بن أبي الحسن:
﴿أَلْقِيَا﴾ بتنوين [أَلْقِيَا]، و﴿وَكُفَّارٍ﴾
بناءً مبالغة، و﴿عَيْنِي﴾ معناه: عاند
عن الحق، أي: مُتَحَرِّفٌ عنه.

وقوله تعالى: ﴿مُنَاجٍ لِلنَّعْرِ﴾ لفظ
عامٌ للمال والكلام الحسن والتعاون
على الأشياء، وقال قتادة، ومجاهد،
وعكرمة: معناه: الرُّكَاةُ المفروضة،
وهذا التخصيص ضعيف، و﴿مَتَّيْنٍ﴾
معناه: بلسانه ويده، و﴿ثَرِيبٍ﴾
معناه: مُتَلَيِّسٌ بما يُزْتَابُ به، أَرَابَ
الرجلُ إذا أتى بريئة ودخل فيها. قال
الثعلبي: قيل: نزلت في الوليد بن
المغيرة، وقال الحسن: ﴿ثَرِيبٍ﴾:
شاك في الله تعالى ودينه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي حَمَلَ الْوُجُوهَ﴾
الآية، يحتمل أن يكون ﴿الَّذِي﴾ بدلاً
من ﴿وَكُفَّارٍ﴾، ويحتمل أن يكون
صفةً له من حيث تَخْصُصُ ﴿وَكُفَّارٍ﴾
بالأوصاف المذكورة فجاز وصفه بعد
بالمعرفة، ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِي﴾
ابتداءً وخبره في قوله تعالى:
﴿فَالْيَايَا﴾، ودخلت الفاء للإبهام الذي
في ﴿الَّذِي﴾ فحصل الشُّبُه بالشرط،
وفي هذا نظر، وَيَقْوَى عندي أن يكون
﴿الَّذِي﴾ ابتداءً، ويتضمن القول حيثئذ
بني آدم والشياطين المُغْوِين لهم في
الدُّنْيَا، ولذلك تحرَّك القرين الشيطان
الْمُغْوِي في الدُّنْيَا فرام أن يُبْرِئ نفسه
ويخلصها بقوله لربه: ﴿رَبَّنَا مَا
أَلْفَيْتُمْ﴾، وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا أَفْقَيْتُمْ﴾
ليست بحجة لأنه كذب في نفي
الإطغاء عن نفسه جملة، والحقيقة أنه
أطغاه بالوسوسة والتزيين، وأطغاه الله

تعالى بالخلق والاختراع حسب سابق
قضائه الذي هو عدل منه لا ربَّ غيره،
ويوصف بالضلال البعيد مبالغة، أي:
لِتَعْتَدِرْ رجوعه إلى الهدى.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيْ﴾
معناه: قال الله تعالى لا تختصموا
لدي بهذا النوع من المقالة التي لا
تفيد شيئاً إذ قد استوجب جميعكم
النار. وقد أخبر تعالى بأنه تقع
الخصومات لديه في الظلمات
ونحوها مما فيه اقتصاص واقتضاء،
فأَيَّدَه تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْصِمُونَ﴾،
وجمع الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا
تَخْصِمُوا﴾ يريد تعالى بذلك مخاطبة
جميع القُرَّاء؛ إذ هو أمرٌ شائع لا يقف
على اثنين فقط، وهذا كما يقول
الحاكم لخصمين: لا تغلظوا علي،
يريد الخصمين ومن هو في حكمهما،
وتَقَدِّمْتُهُ تعالى إلى الناس بالوعيد هو ما
جاءت به الرُّسُل عليهم السلام والكتب
من تعذيب الكفرة.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل:
المعنى: قد قَدِّمْتُ بالوعيد أنني
أُعَذِّبُ الْكُفَّارَ في ناري فلا يُبَدِّلُ
القول لدي ولا يُنْقِصُ ما أبرمه
كلامي، ثم أزال موضع الاعتراض
بقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْبَيِّدِ﴾، أي:
هذا عدلٌ فيهم؛ لأنِّي أعذرت
وأمهلت وأنعمت بالإدراكات وهديت
السييل والتَّجْدِينَ وبعثت الرُّسُل.
وقال الفراء: معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا
يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيْ﴾ أي: ما يكذب لدي
لعلمي بجميع الأمور، فتكون
الإشارة - على هذا - إلى كذب الذي
قال: ﴿وَمَا أَفْقَيْتُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾،
يجوز أن يعمل في الظرف قوله
تعالى: ﴿يُظَلَّلِرَ لِلْبَيِّدِ﴾، ويجوز أن
يعمل فيه فعل مضمر، وقرأ الجمهور
من القراء وحفص عن عاصم:
﴿نَقُولُ﴾ بالنون، وهي قراءة الحسن،
وأبي رجاء، وأبي جعفر،
والأعمش، ورجحها أبو علي بما
تقدَّم من قوله تعالى: ﴿قَدِّمْتُ﴾
وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنَا﴾، وقرأ
نافع، وعاصم - في رواية أبي بكر -
﴿يُقُولُ﴾، على معنى: يقول الله،
وهي قراءة الأعرج، وشيبة، وأهل
المدينة، وقرأ الحسن، وابن
مسعود، والأعمش أيضاً: ﴿يُقَالُ﴾
على بناء الفعل للمفعول.

وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ تقرير
وتوقيف، واختلف الناس، هل وقع
هذا التقرير فامتلات أو هي لم
تمتلي؟ فقال بكل وجه جماعة من
المتاولين، وبحسب ذلك تأولوا
قولها: ﴿هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾، فمن قال:
إنها امتلات جعل قولها: ﴿هَلْ مِنْ
مَّزِيدٍ﴾ على معنى التقرير ونفي
المزيد، أي: وهل عندي موضع يُزَادُ
فيه شيء؟ ونحو هذا التأويل قول
النبي ﷺ: ﴿وهل ترك لنا عقيل
منزلاً﴾، وهو تأويل الحسن،
وعمر، وواصل. ومن قال إنها
كانت غير ملأى جعل قولها: ﴿هَلْ
مِنْ مَّزِيدٍ﴾ على معنى السؤال والرغبة
في الزيادة، قال الرُّمَّانِي: وقيل:
المعنى وتقول حَزَنَتْهَا، والقول إنها
لقائلة أظهر.

واختلف الناس في قول جهنم - هل
هو حقيقة أو مجاز؟ أي: حالها حال

من لو نطق لقال كذا وكذا، فيجري هذا مجرى:

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى
ومجرى قول ذي الرُّمة:

تَكَلَّمْنِي أَخْبَارُهُ وَمَلَايِبُهُ
والذي يترجِّح في قول جهنم: ﴿هَلْ مِنْ مَّرِيءٍ﴾ أنها حقيقة، وأنها قالت ذلك وهي غير ملأى، وهو قول أنس مالك رضي الله عنه، ويبين ذلك الحديث الصحيح المتواتر، قول النبي ﷺ: «يقول الله لجهنم: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول: قُطْ، قُطْ، وينزوي بعضها إلى بعض»، وقد اضطرب الناس في معنى هذا الحديث، وذهب جماعة من المتكلمين إلى أن «الجبار» اسم جنس، وأنه يريد المتجبرين من بني آدم، ورووا أن الله تعالى يُعِدُّ من الجبابرة طائفة يملأ بهم جهنم آخرًا، وروي عن النبي ﷺ أن جلدة الكافر يصير غُلظتها أربعين ذراعًا، ويُعْظَمُ بدنه على هذه النسبة، وهذا كله من ملء جهنم، وذهب الجمهور إلى أن الجبار اسم الله تبارك وتعالى، وهذا هو الصحيح، فإن في الحديث الصحيح «يفضع ربُّ العالمين فيها قَدَمَهُ»، وتأويل هذا أن «القَدَمَ» ما قَدَّمَ لها من خلقه وجعلهم في علمه من ساكنيها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرَ اللَّذَاتِ مَاتُوا أَنَّ لَهُنَّ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِنَّ﴾، فالقَدَمُ ما قَدَّمَ من شيء، ومنه قول الشاعر:

صَلَّ لِزَنْكَ وَأَتَّخِذْ قَدَمًا
يُنْجِيكَ يَوْمَ الْعِشَارِ وَالزَّلَلِ

ومنه قول العجاج:

وَنُشِئُ الْمُلْكَ لِمُلْكٍ ذِي قَدَمٍ
أي: ذي شرف متقدِّم، وهذا التأويل مروي عن ابن المبارك، وعن النضر بن شميل، وهو قول الأصوليين، وفي كتاب مسلم بن الحجاج: «يفضع الجبار فيها رجله»، ومعناه الجمع الذي أُعِدَّ لها، يقال للجمع الكثير من الناس: «رجلٌ» تشبيهًا برجل الجراد، قال الشاعر:

فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ وَأَنْزَوَى
إِلَيْهِمْ مِنَ الْحَيِّ الْيَمَانِيِّ أَزْجَلُ
وملاك النظر في هذا الحديث أن الجارحة والتشبيه وما جرى مجراه منتف كل ذلك، فلم يبق إلا إخراج الألفاظ على هذه الوجوه السائغة في كلام العرب.

و «أَزْلَفْتُ»: معناه: قُرِبتُ، وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيد وبيان أن هذا التقريب هو في المسافة، لأن «قُرِبتُ» كان يحتمل أن يكون المعنى: بالوعد والإخبار، فَرُفِعَ الاحتمال بقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿هَذَا مَا نُعْذُونَ﴾ الآية يحتمل أن يكون معناه: يقال لهم في الآخرة عند إزلاف الجنة: هذا هو الذي كنتم توعدون به في الدنيا، ويحتمل أن يكون المعنى أنه خطاب لأمة محمد ﷺ، أي: هذا هو الذي توعدون به أيها الناس لكل أبواب حفيظ، و«الأواب»: الرجوع إلى الطاعة وإلى مرشد نفسه، وقال ابن عباس، وعطاء: الأواب المُسْبِحُ، من قوله تعالى: ﴿يَبْجِلُ أَوْيَ مَعْرِ﴾، وقال الشعبي،

ومجاهد، هو الذي يذكر ذنوبه فيستغفر، وقال المحاسبي: هو الراجع بقلبه إلى الله تعالى، وقال عُتَيْد بن عمير: كُتِّا نتحدث أن الذي إذا قام من مجلسه استغفر الله تعالى ممَّا جرى في ذلك المجلس، وكذلك كان النبي ﷺ يفعل. و«الحفيظ» معناه: لأوامر الله تعالى فيمتثلها، ولتواحيه فيتركها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حفيظ لذنوبه حتى يرجع عنها.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ حَيَّى الْكَافِرَ بِالْقَبْرِ﴾ يحتمل أن يكون من نعت «الأواب» أو بدلًا من «كُلِّ»، ويحتمل أن يكون رفعًا بالابتداء، والخبر: يقال لهم: ﴿أَسْأَلُوكَ بِالسَّلَاطِ﴾، ويحتمل أن تكون شرطية فيكون الجواب: يقال لهم: ﴿أَسْأَلُوكَ بِالسَّلَاطِ﴾، وقوله تعالى: ﴿بِالسَّلَاطِ﴾ معناه: غير مشاهد له، وإنما يصدق رسوله ويسمع كتابه، وجاء أن معناه: يوم القيامة، و«المُنِيبُ»: الراجع إلى الخير والمائل إليه، وقوله تعالى: ﴿أَسْأَلُوكَ﴾ تقرير يقال لهم، أو: فيقال لهم، على ما تقدَّم. و«سلام» معناه: بأمن وسلامة من جميع الآفات، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْحُجُودِ﴾ مقابل لقوله تعالى قَبْلُ في أمر الكفار: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ خبر بأنهم يُعطون آمالهم أجمع، ثم أبهم تعالى الزيادة التي عنده للمؤمنين المنعمين، وكذلك هي مُبْهِمة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْتَدْنَا﴾، وقد فسر

ذلك الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بئله ما اطلعت عليه»، وقد ذكر الطبري وغيره في تعيين هذا المزيد أحاديث مطولة وأشياء ضعيفة؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَلَا تَمَنَّاهُمْ فَتَنَّمْهُمْ يَعْثُبُونَهَا كَلْفًا وَتَعْثُقًا﴾، وزوي عن جابر بن عبد الله، وأنس رضي الله عنهما أن المزيد: النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَكَمْ لِلْإِنسَانِ لَلْكَثِيرِ﴾، وهي خبرية، والمعنى: كثيراً أهلكنا قبلهم. و«القرن»: الأمة من الناس الذين يمر عليهم قدر من الزمان، واختلف الناس في ذلك القدر - فقال الجمهور: مائة سنة، وقيل غير هذا، وقد تقدم القول فيه غير مرة، و«شدة البطش» هي بكثرة القوة والأموال والمُلْك والصحة والأذهان إلى غير ذلك. وقرأ الجمهور من الناس: ﴿فَتَقَبَّلُوا﴾ بشد القاف المفتوحة على إسناد الفعل إلى القرون الماضية، والمعنى: ولجوا البلاد من أنقابها، وفي الحديث: «إن على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال»، والمراد: تطرفوا ومشوا طماعية في النجاة من الهلكة، ومنه قول الشاعر:

وقد تَقَبَّلْتُ في الآفَاقِ حَتَّى
رَضِيتُ مِنَ التَّيْسِمَةِ بِالْإِبَابِ
وقول الحارث بن جَزْءٍ التَّيْشُكْرِيُّ:
تَقَبَّلُوا في الْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ الْمَوْتِ
بِوَجَالِ الْوَافِي الْأَرْضِ كُلَّ مَجَالٍ

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، وابن يَغْمَر، ونضار بن يسار، وأبو العالية: ﴿فَتَقَبَّلُوا﴾ بشد القاف المكسورة على الأمر لهؤلاء الحاضرين، و﴿حَدَلَ مِنْ عَجَبٍ﴾ توقيف وتقرير، أي: لا محيص، و«المحيص» موضع الحيص وهو الروغان والحباد، قال قتادة: حاص الكفرة فوجدوا أمر الله مُتَّبِعاً مُذْرِكاً، وفي صدر البخاري: «فحاصوا خبيضة خمر الوحش إلى الأبواب» وقال ابن عبد شمس في وصف ناقته:

إِذَا خَاصَ الدَّلِيلُ رَأَيْتُ مِنْهَا
جُحُوحاً لِلطَّرِيقِ عَلَى اتِّسَاقٍ
وقرأ أبو عمرو - في رواية عُبيد عنه -: ﴿فَتَقَبَّلُوا﴾ بفتح القاف وتخفيفها، وهي بمعنى التشديد، واللُّفْظَةُ أيضاً قد تقال بمعنى البحث والطلب، تقول: نَقَبَ عن كذا إذا استقصى عنه، ومنه «نقيب القوم» لأنه الذي يبحث عن أمورهم ويباحث عنه، وهذا عندي تشبيه بالدخول من الأنقاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ﴾ يعني إهلاك من مضى، و«الذِّكْرَى»: التذكرة، و«القلب» عبارة عن العقل إذ هو محله، والمعنى: لمن كان له قلب واع

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قُرُونٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ عَاجِلٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ وَأُتِيَ السَّمْعُ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُثُوفٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَعِذْ بِرَبِّكَ يَوْمَ تَكُونُ الْكُفُوفُ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ وَالْحَقُّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ الْحَقُّ وَنَبِيُّنَا رُسُلُ الْمَصِيرِ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ ﴿٤٤﴾ هُنَّ أَعْرَابٌ يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ الْفُرْقَانِ مَنْ يَخَافِ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّذِينَ دَرَّوْا ﴿١﴾ فَالْحَوْلَاتِ وَقُرْ ﴿٢﴾ فَالْمُرِيدِ يَسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمَقِيسِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا وَعْدٌ لِعَادِي ﴿٥﴾ وَلَوْلَا لَيْلٌ لَوِغَ ﴿٦﴾

٥٢٠

ينتفع به، وقال الثبلي: معناه: قلب حاضر مع الله تعالى لا يغفل عنه طرفه عين، وقوله تعالى: ﴿أَزَّ أَلَى السَّمْعِ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ معناه: صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة، وانبته في سماعها، فذلك إلقاء له عليها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي﴾، أي: أثبتتها عليك، وقال بعض الناس: قوله تعالى: ﴿أَلَى السَّمْعِ﴾ وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾، وقوله: ﴿سُيِّطَ فِي آيَاتِهِمْ﴾، هي مما قل استعمله الآن وبعدت معانيه، وقول هذا القائل ضعيف، بل هي بيئة المعاني، وقد مضت في مواضعها، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قال بعض المتأولين: معناه: وهو مُشَاهِد مُقْبِل على الأمر غير مُعْرِض ولا متفكر في غير ما يسمع، وقال

فتادة: هي إشارة إلى أهل الكتاب، فكأنه تعالى قال: إن هذه العبر لتذكيرة لمن له فهم فيتدبر الأمر، أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحتها لعلمه بها من كتاب التوراة وسائر كتب بني إسرائيل، فـ ﴿شَهِدْ﴾ على التأويل الأول من المشاهدة، وعلى التأويل الثاني من الشهادة، وقرأ السدي: ﴿أَوْ أَلْقِي السُّنْعُ﴾، قال ابن جني: أي أَلْقِي السُّنْعُ منه، حكى أبو عمرو الداني أن قراءة السدي ذكرت لعاصم فمقت السدي وقال: أليس الله تعالى يقول: ﴿يَلْقَوْنَ السُّنْعَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الآية... خبر مضمّن الرّد على اليهود الذين قالوا: إن الله خلق الأشياء كلها في ستة أيام ثم استراح يوم السبت، فنزلت ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُؤُوبٍ﴾، واللفظ: الإعياء والنّضب والسّأم، يقال: لَغَبَ الرجل يَلْغُبُ إذا أعيا، وقرأ السلمي، وطلحة: ﴿لُغُوبٍ﴾ بفتح اللام.

وتظاهرت الأحاديث بأن بدء خلق الأشياء كان يوم الأحد، وفي كتاب مسلم، وفي الدلائل لثابت حديث مضمّن أن ذلك كان يوم السبت، وعلى كل قول فأجمعوا على أن آدم عليه السلام خلق يوم الجمعة، فمن قال إن البداية يوم السبت جعل خلق آدم عليه السلام كخلق بنيه لا يُعد من الجملة الأولى، وجعل اليوم الذي

كملت المخلوقات عنده يوم الجمعة.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، قال بعض المفسرين: المراد أهل الكتاب لقولهم: ثم استراح يوم السبت، وهذه المقالة من أهل الكتاب كانت بمكة قبل الهجرة، وقال النّظار من المفسرين: قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يراد به أهل الكتاب وغيرهم من الكفرة، وعم بذلك جميع الأقوال الزائفة من قريش وغيرهم، وعلى هذا التأويل يجيء قول من قال إن الآية منسوخة بآية السيف، و﴿سَبَّحْ﴾ معناه: صلّ بإجماع من المتأولين. وقوله تعالى: ﴿يَحْمَدُ رَبَّكَ﴾ الباء للاقتران، أي: سَبَّحَ سُبْحَةً يكون معها حَمْدٌ، ومثله: ﴿تَبْتَثُ بِالْأَذْهَانِ﴾ على بعض الأقوال فيها، و﴿فَقَلَّ طُلُوعُ الشَّمْسِينَ﴾ هي الصّبح، و﴿وَقَلَّ الْغُرُوبُ﴾ هي العصر، قاله قتادة، وابن زيد، والناس، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَقَلَّ الْغُرُوبُ﴾ الظهر والعصر، ﴿وَمِنْ أَلِيلٍ﴾ هي صلاة العشاءين، وقال ابن زيد: هي العشاء فقط، وقال مجاهد: هي صلاة الليل، وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَ الشَّجُورَ﴾، قال عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبو هريرة، والحسن، والشعبي، وإبراهيم، ومجاهد، والأوزاعي: هي الركعتان بعد المغرب، وأسنده الطبري، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، كأنه روعي أدبار صلاة النهار كما

روعي أدبار النجوم في صلاة الليل فقيل: هي الركعتان مع الفجر، وروي عن ابن عباس أن «أدبار السجود» الوتر، حكاه الثعلبي، وقال ابن زيد، وابن عباس أيضاً، ومجاهد: هي النوافل إثر الصلوات، وهذا جار مع لفظ الآية، وقال بعض العارفين: هي صلاة الليل، وقال الثعلبي: وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿فَقَلَّ طُلُوعُ الشَّمْسِينَ﴾ ركعتا الفجر، و﴿وَقَلَّ الْغُرُوبُ﴾ الركعتان قبل المغرب، وقال بعض التابعين: رأيت أصحاب محمد ﷺ يهتئون إليها كما يهتئون إلى المكتوبة، وقال قتادة: ما أدركت أحدا يصلي الركعتين قبل المغرب إلا أنسا وأبا برزة. وقرأ ابن عباس، وابن كثير، ونافع، وحزمة، وأبو جعفر، وشيبة، وعيسى، وشبل، وطلحة، والأعمش: ﴿وَإِذَا بَرَأَ﴾ بكسر الالف، وهو مصدر أضيف إليه وقت ثم حذف الوقت، كما قالوا: جئتك مقدّم الحج وخفوق السّجّم ونحوه، وقرأ الباقر، والحسن، والأعرج: ﴿وَأَذْبَرَ﴾ بفتح الهمزة، وهو جمع دُبر كطُنب وأطناب، أي: وفي أدبار السجود، أي: في أعقابها، قال أوس بن حجر:

عَلَى دُبُرِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَأَرَضْنَا
وَمَا حَوَّلَهَا جَذَبَ بَيْنَيْنِ تَلَمُعُ
① - ② تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ﴾ هو بمنزلة «وانتظر»، وذلك أن محمداً ﷺ لم يؤمر بأن يستمع في يوم النداء لأن

كُلٌّ من فيه يستمع، وإنما الآية في معنى الوعيد للكفار، وقيل لمحمد ﷺ: تحسّن وتسّمع هذا اليوم وارقبه فإن فيه تبين صحة ما قلته، وهذا كما تقول لمن تُعذّه بورود فُتّح: استمع كذا وكذا، أي: كُنْ منتظراً له مستمعاً، فعلى هذا فنصب ﴿يَوْمَ﴾ إنما هو على المفعول الصريح. وقرأ ابن كثير: ﴿الْمُنَادِي﴾ بالياء وصلّاً ووفقاً على الأصل الذي هو ثبوتها؛ إذ الكلام غير تام، وإنما الحذف أبداً في الفواصل وفي الكلام التام تشبيهاً بالفواصل، وقرأ أبو عمرو، ونافع في الوقف بغير ياء لأن الوقف موضع تغيير، ألا ترى أنها تُبدل من التاء فيه الهاء في نحو «طلحة» و«حمزة»، وتبدل من التنوين الألف، ويضعف فيه الحرف كقولك: هذا فوجٌ، ويحذف فيه الحرف في القوافي. وقرأ الباقون، وطلحة، والأعمش، وعيسى بحذف الياء وصلّاً ووفقاً اتباعاً لخط المصحف، وأيضاً فإن الياء تحذف مع التنوين فوجب أن تحذف مع معاقب التنوين، وهما الألف واللام.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ قَرِيْبَ﴾، قيل: وصفه بالقرب من حيث يسمع جميع الخلائق، وروي عن النبي ﷺ أن ملكاً ينادي من السماء: أيتها الأجساد الهامدة، والعظام البالية، والرّمم الواهية، هلُمّ إلى الحشر والوقوف بين يدي الله تعالى، وقال كعب الأحبار، وقناة، وغيرهما: المكان

صخرة بيت المقدس، واختلفوا في معنى صفتها بالقرب - فقال قوم: وصفها بذلك لقربها من النبي ﷺ، أي: من مكة، وقال كعب الأحبار: وصفها بالقرب من السماء، وروي أنها أقرب الأرض إلى السماء بشمانية عشر ميلاً، وهذا الخبر إن كان بوحى وإلا فلا سبيل إلى الوقوف على صحته.

و «الصُّبْحَةُ» هي صيحة المنادي، و «الخروج» هو من القبور، و «يَوْمُهُ» هو يوم القيامة، و «يوم الخروج» في الدنيا هو يوم العيد، وقال حسان بن ثابت:

وَلَأَنْتَ أَحْسَنُ إِذْ بَرَزْتَ لَنَا
يَوْمَ الْخُرُوجِ بِسَاحَةِ الْقَضْرِ
مِنْ ذُرَّةٍ أَعْلَى بِهَامِلِكَ
مِمَّا تَرْتَبُ حَايِزُ الْبُخْرِ
قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْفَقُ﴾، العامل في ﴿يَوْمَ﴾ هو «الْمَصِيرُ»، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر بتشديد الشين، والباقون خففوها، و «سِرَاعاً» حال، قال بعض النحويين: هي من الضمير في قوله تعالى: ﴿عَنَّهُمْ﴾، والعامل في الحال «تَشَفَّقُ»، وقال بعضهم: التقدير: يوم تشفق الأرض عنهم يخرجون سراعاً، فالحال من الضمير في «يخرجون»، والعامل «يخرجون»، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْكَ يُبَيِّرُ﴾ معادلٌ لقول الكفرة: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا

يَقُولُونَ﴾ وعيدٌ محض للكفرة، واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ - فقال قناة: نهى الله تعالى عن التجبر، وتقدّم فيه، فمعناه: وما أنت عليهم بمُتَعَظِّمٍ، من الجبروت، وقال الطبري وغيره: معناه: وما أنت عليهم بِمُسْلُطٍ، تُجْبِرُهُم على الإيمان، ويقال: جَبَرْتُهُ على كذا، أي: قَسَرْتُهُ، ف «جَبَّارٌ» مبالغة من جَبَر، وأنشد المُفَضَّل:

عَصَيْنَا عَزْمَةَ الْجَبَّارِ حَتَّى
صَحَبْنَا الْخَوْفَ إِلْفًا مُغْلَمِينَا

قال: أراد بالجبار النعمان بن المنذر لولايته، ويحتمل أن نصب «عَزْمَةً» على المصدر وأراد: عصينا مقدّمين عزمة جبار، فمدح نفسه وقومه بالعتو والاستعلاء، أخلاق الجاهلية والحياة الدنيا، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المؤمنين قالوا: يا رسول الله، لو خُوفُنَا، فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولو لم يكن هذا سبباً فإنه لما أُغْلِمَهُ أنه ليس بِمُسْلُطٍ على جبرهم أمره بالاقتصار على تذكير الخائفين من المؤمنين.

كامل تفسير سورة ق، وبها كامل تفسير الجزء الثالث عشر والحمد لله رب العالمين

الكواء فسألته عن هذه فقال:
الذاريات: الرياح، والحاملات:
السحاب، والجاريات: السفن،
والمقسمات: الملائكة، ثم قال له:
سل سؤال تعلم ولا تسأل سؤال
تعت.

وهذا القسم واقع على قوله تعالى:
﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾، و﴿ تُوعَدُونَ ﴾
يحتمل أن يكون من الإبعاد،
ويحتمل أن يكون من الوعد، وأيهما
كان فالوصف له بالصدق صحيح،
و﴿ صَادِقٌ ﴾ هنا موضوع بدل «صدق»
وضع الاسم موضع المصدر.

و «الذين»: الجزاء، وقال مجاهد:
الحساب، والظاهر في الآية أنها
للكفار وأنها وعيد محض بيوم
القيامة.

ثم أقسم الله تعالى بمخلوق آخر
فقال: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴾،
فظاهر لفظة «السما» أنها لجميع
السموات، وقال عبدالله بن
عمرو بن العاص: هي السماء
السابعة، و﴿ الْحُبُوبِ ﴾ - بضم الحاء
والباء - الطرائق التي هي على نظام
في الأجرام، فحُبُك الرمال والماء:
الطرائق التي تصنع فيها الريح الهابئة
عليها، ومنه قول زهير:

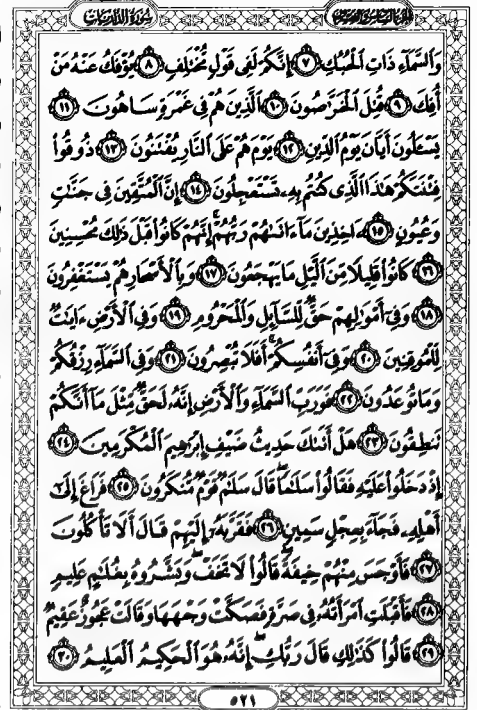
مُكَلَّلٌ بِعَمِيمِ الثُّبُتِ تُسَجُّهُ
رِيحٌ خَرِيقٌ لَصَاحِي مَائِهِ حُبُكُ
وَحُبُكُ الدَّرْعِ: الطرائق المتصلة في
موضع اتصال الحلق بعضها ببعض،
وفي بعض أجنحة الطير حُبُك على
نحو هذا، ويقال لتكسير الشعر:
حُبُك، وفي الحديث: «إن من
ورائكم الكذاب المُضِلُّ، وإن رأسه
من ورائه حُبُكاً حُبُكاً»، يعني جُفُوداً

السحاب المؤثرة بالماء،
وقال ابن عباس
رضي الله عنهما، وغيره:
هي السفن المؤثرة بالناس
ومتاعهم، وقال جماعة
من العلماء: هي أيضاً -
مع هذا - جميع الحيوان
الحامل، وفي جميع ذلك
مُغْتَبَرٌ، و﴿ وَذَرَأٌ ﴾ مفعول
صريح.

و «الجاريات يسراً» قال
علي بن أبي طالب
رضي الله عنه، وغيره:
هي السفن في البحر،
وقال آخرون: هي
السحاب بالريح، وقال
آخرون: هي الجواري من

الكواكب، واللفظ يقتضي جميع
هذا، و﴿ يَسْرًا ﴾ نعت لمصدر
محذوف، وصفات المصادر
المحذوفة تعود أحوالاً، و﴿ يَسْرًا ﴾
معناه: بسهولة وقلة تكلف.

و «الْمُقَسَّمَاتُ أُمُراً»: الملائكة،
و«الأمر» هنا اسم الجنس، فكأنه
تعالى قال: والجماعات التي تقسم
أمر الملكوت من الأزاق والأجال
والخلق في الأرحام وأمر الرياح
 وغير ذلك؛ لأن كل هذا إنما هو
بملائكة تخدمه، فالآية تتضمن جميع
الملائكة لأنهم كلهم في أمور
مختلفة، وأنت «الْمُقَسَّمَاتُ» من
حيث أراد الجماعات، وقال أبو
الطفيل عامر بن واثلة: كان علي
رضي الله عنه على المنبر، فقال: لا
تسألوني عن آية من كتاب الله تعالى
أو سنة ماضية إلا قلت، فقام إليه ابن



تفسير

سورة الذاريات

هذه السورة مكتبة بإجماع من
المفسرين.

١ - تفسير قوله عز وجل:
أقسم الله تعالى بهذه المخلوقات
تنبيهاً عليها، وتشريفاً لها، ودلالة
على الاعتبار فيها، حتى يصير الناظر
فيها إلى توحيد الله تعالى.

و «الذاريات»: الرياح، بإجماع من
المتاولين، يقال: ذرت الريح وأذرت
بمعنى، وفي الرياح مُعْتَبَرٌ من شدتها
حيناً ولينها حيناً، وكونها مَرَّةً رحمة
ومَرَّةً عذاباً، إلى غير ذلك، و﴿ ذَرَأٌ ﴾
نصب على المصدر.

و «الحاملات وقرأ» قال علي بن
أبي طالب رضي الله عنه: هي

كتاب الله تعالى كثير، ويحتمل أن يعود الضمير على القول الذي يصرف بسببه من أراد الإسلام بأن يقال: هو سحر، هو كهانة، وهذا قول حكاه الزهراوي، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿عَنَّهُ﴾ على القول، أي: يصرف عنه بتوفيق الله تعالى إلى الإسلام من غلبت سعادته، وهذا على أن يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَبِى قَوْلٍ تُخَلِّفُ﴾ للكفار فقط، وهذا وجه حسن لا يُخل به إلا أن عرف الاستعمال في «أفك» إنما هو في الصرف من خير إلى شر، وتأمل ذلك تجدها أبداً في المصروفين المذمومين، وحكى أبو عمرو عن قتادة أنه قرأ: ﴿مَنْ أَفَكَ﴾ بفتح الهمزة والفاء.

وقوله تعالى: ﴿يُنِِّلَ الْفَرْصُونَ﴾ دعاء عليهم، كما تقول: قاتله الله، أو قتله الله، وعَفَرَى خَلَقَى، وقال بعض المفسرين: معناه: لُعن الخراصون، وهذا تفسير لا تعطيه اللفظة، و«الْخَرَّاصُ»: الْمُخْمَنُ القاتل بظنه وتقديره، فَتَحَتَهُ الكاهن والمرتاب ونحوه مَمَّن لا يقين له، والإشارة إلى مُكَذِّبِي محمد ﷺ على كل جهة من طرقهم. و«الْعَمْرَةُ» ما يُغْشَى الإنسان ويغويه كغمرة الماء، والمعنى: في غمرة من الجهالة، و«سَاهُونَ» معناه: عن أنهم في غمرة وعن غير ذلك من وجوه النظر، وقوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ﴾ معناه: يقولون: متى يوم الدين؟ على معنى التكذيب، وجائز أن يقترب بذلك من بعضهم هزواً ولأَن يقترب، وقرأ السلمي، والأعمش:

الباء، كما قالوا على جهة التخفيف: «إِبْلٌ» و«إِطْلٌ» بسكون الباء والطاء، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿الْحَبْكُ﴾ بفتح الحاء والباء، وقرأ الحسن أيضاً فيما روي عنه: ﴿الْحَبْكُ﴾ بكسر الحاء وضم الباء، وهي قراءة شاذة غير متوجهة، وكأنه أراد كسرهما ثم تَوَهَّم ﴿الْحَبْكُ﴾ وهي قراءة الضم بعد أن كسر الحاء فضم الباء، وهذا على تداخل اللغات، وليس في كلام العرب هذا البناء، وقرأ عكرمة: ﴿الْحَبْكُ﴾ بضم الحاء وفتح الباء جمع حُبْكة، وهذه كلها لغات، والمعنى ما ذكرناه، والفرس المحبوك: الشديد الخلقة الذي له حُبْك في مواضع من منابت شعره، وذلك دليل على حسن بنيته.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَبِى قَوْلٍ تُخَلِّفُ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لجميع الناس، مؤمن وكافر، أي: اختلفتم بأن قال منكم فريق: آمنا بمحمد وكتابه، وقال فريق آخر: كفرنا، وهذا قول قتادة، ويحتمل أن يكون خطاباً للكفرة فقط، أي: أنتم في جنس من الأقوال مختلف في نفسه، قوم منكم يقولون: ساحر، وقوم يقولون: كاهن، وقوم يقولون: شاعر، وقوم يقولون: مجنون، إلى غير ذلك، وهذا قول ابن زيد، والضمير في ﴿عَنَّهُ﴾ قال الحسن، وفتادة: هو عائد على محمد ﷺ، أو كتابه، أو شرعه، و﴿يُؤَفِّكُ﴾ معناه: يُصرف، فالمعنى: يُصرف من الكفار عن كتاب الله تعالى من صُرف ممن غلبت شقاوته، وكان قتادة يقول: المأفوك مثا اليوم عن

شعره، فهو تكسره، ويظهر في المنسوجات من الأكسية وغيرها طرائق في موضع تداخل الخيوط هُنَّ حُبْك، ويقال: نسج الثوب فأجاد حبكه، فهذه من الحُبْك في اللغة، وقال منذر بن سعيد: إن السماء في تألف جرمها هي هكذا لها حُبْك، وذلك لجودة خلقتها وإتقان صنعتها، ولذلك عبّر ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُوكِ﴾ بأن قال: حُبْكُهَا: حُسْنُ خِلْقَتِهَا، وقال ابن جبير: الحُبْك الزينة، وقال ابن الحسن: حُبْكُهَا كواكبها، وقال ابن زيد: الحُبْك الشدة، حُبِكت: شُدَّت، وقرأ: ﴿سَمًا شِدَادًا﴾ وقال ابن جني: الحُبْك طرائق الغنم ونحو هذا، وواحد «الحُبْك» حَبَاك، ويقال للضفيرة التي تُشَدُّ بها حظار القصب ونحوه - وهي مستطيلة تصنع في ترحيب الغراسات المصطفة -: حَبَاكُ، وقد يكون واحد الحُبْك حبيكة، وقال الزجاج:

كَأَنَّمَا جَلَّلَهَا الْحَوَاكُ
طَلُفَسَةً فِي وَثِيهَا حَبَاكُ
وقرأ جمهور الناس: ﴿الْحَبْكُ﴾ بضم الحاء والباء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو مالك الغفاري بضم الحاء وسكون الباء تخفيفاً، وهي لغة بني تميم، كرُسل في رُسل، وهي قراءة أبي حيوة، وأبي السَّمال، وقرأ الحسن أيضاً، وأبو مالك الغفاري: ﴿الْحَبِكُ﴾ بكسر الحاء والباء على أنها لغة كِلْطِل وإِيل، وقرأ الحسن أيضاً: ﴿الْحَبْكُ﴾ بكسر الحاء وسكون

﴿إِنَّا﴾ بكسر الهمزة وفتح الياء مخففة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ مُمْ عَلَى النَّارِ يُنْفَخُونَ﴾ قال الزجاج: نصب ﴿يَوْمَ﴾ على الظرف من مُقَدَّر تقديره: هو كائن يومَ هم على النار، أو نحو هذا، وقال الخليل وسيبويه: نصبه على البناء لما أضيف إلى غير متمكن، قال بعض النحاة: وهو في موضع رفع على البديل من ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾، و﴿يُنْفَخُونَ﴾ معناه: يحرقون ويعذبون في النار، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والجميع، ومنه قيل لِلْحَرَّةِ: فَتْنٌ، كأن الشمس أحرقت حجارتها، ومنه قول كعب بن مالك:

مَعَاطِنٌ تَهْوِي إِلَيْهَا الْحُقُوفُ
فِي يَحْسَبُهَا مَنْ رَأَاهَا الْفَتِينَا
وَفَتْنَتْ الذُّهَبَ: أحرقت، ولما كان لا يُحَرَّقُ إِلَّا لمعنى الاختبار قيل لك اختبار: فَتْنَةٌ، واستعملوا افْتَتَنَ بمعنى اخْتَبَرَ، و﴿عَلَى﴾ هنا موصولة إلى معنى «في»، وفي قوله تعالى: ﴿ذُرُّوهُ فَتَنْتَكُمْ﴾ إضمار، أي يقال لهم: ذوقوا حرقكم وعذابكم، قاله قتادة وغيره، والذوق استعارة، و﴿هَذَا﴾ إشارة إلى حرقهم، واستعجالهم هو قولهم: ﴿إِنَّا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ وغير ذلك من الآيات التي تقتضي استعجالهم على جهة التكذيب منهم.

ولما ذكر تعالى حال الكفرة وما يلقون من عذاب الله عز وجل عقب ذلك بذكر المتقين وما يلقون من النعيم ليبين الفرق ويتبع الناس طريق الهدى، و«الجنات» و«العيون»

معروف، والمتني في الآية مطلق في اتقاء الكفر والمعاصي، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ﴾ نصب على الحال، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿أَخِذُونَ﴾ بواو، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: آخذين في دنياهم ما آتاهم ربهم من أوامره ونواهيه وفرائضه وشرعه، فالحال على هذا محكية، وهي متقدمة في الزمان على كونهم في جنات وعيون، وقال جماعة من المفسرين: معنى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ مَا آتَاهُمُ رَبُّهُمْ﴾ أي: مخلصين لنعم الله تعالى التي أعطاهم من جنته ورضوانه، وهذه حال متصلة في المعنى لكونهم في الجنات، وهذا التأويل أرجح عندي لاستقامة الكلام به، وقوله تعالى: ﴿قَدْ ذُكِّرَ﴾ يريد: في الدنيا، ﴿مُحْسِنِينَ﴾ بالطاعة والعمل الصالح.

١٧ - ٢٦ تفسير قوله عز وجل:

معنى قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ﴾ أي: ما يَهْتَمُّونَ ﴿أَن نُّوَمِّهِمْ﴾ كان قليلاً لاشتغالهم بالصلاة والعبادة، فالمراد: من كل ليلة، و«الهجوع»: النوم، وقال الأحنف بن قيس: «لست من أهل هذه الآية»، وهذا إنصاف منه، وقيل لبعض التابعين: مدح الله تعالى قوماً كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، ونحن قليل من الليل ما نقوم، فقال: رحم الله تعالى امرأ رقد إذا نرس، وأطاع ربه إذا استيقظ. وفسر أنس بن مالك هذه الآية بأنهم كانوا يتنفلون بين المغرب والعشاء، وقال الربيع بن خثيم: المعنى: كانوا يصيبون من الليل حظاً، وقال مطرف بن

عبدالله: قل ليلة أتت عليهم هجوعها كلها، وقال ابن أبي نجیح ومجاهد: فالمراد عند هؤلاء بقوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي: من الليالي، وظاهر الآية عندي أنهم كانوا يقومون الأكثر من ليلهم، أي: من كل ليلة، وقد قال الحسن في تفسير هذه الآية: كابدوا قيام الليل، لا ينامون منه إلا قليلاً.

وأما إعراب الآية فقال الضحاك في كتاب الطبري ما يقتضي أن المعنى: كانوا قليلاً في عددهم، وتم خبر ﴿كَانَ﴾، ثم ابتدأ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ ما يَهْتَمُّونَ، فـ [مَا] نافية، و﴿قَلِيلًا﴾ وقف حسن. وقال بعض النحاة: [مَا] زائدة، و﴿قَلِيلًا﴾ مفعول مقدم لـ ﴿يَهْتَمُّونَ﴾، وقال جمهور النحويين: [مَا] مصدرية، و﴿قَلِيلًا﴾ خبر [كَانَ] والمعنى: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، و«الهجوع» مرتفع به ﴿قَلِيلًا﴾ على أنه فاعل، وعلى هذا الإعراب يجيء قول الحسن وغيره - وهو الظاهر عندي - أن المراد: كان هجوعهم من الليل قليلاً، وفسر ابن عمر والضحاك ﴿يَسْتَفْرِغُونَ﴾ بـ «يُصَلُّونَ»، وقال الحسن: معناه: يدعون في طلب المغفرة، والأسحار مظنة الاستغفار، ويروى أن أبواب الجنة تفتح فجر كل يوم، وفي قصة يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ أنه أشر الاستغفار لهم إلى السحر، قال أبو زيد في كتاب الطبري: السحر السدس الأخير من الليل.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ آمَرْنَاهُمْ بِحَقِّ﴾، الصحيح أنها محكمة، وأن هذا

الحق هو على وجه الندب لا على وجه الفرض، و﴿مَلُومٌ﴾ يراد به: متعارف، وكذلك قيام الليل الذي مدح به ليس من الفرائض، وأكثر ما تقع الفضيلة بفعل المندوبات. وقال منذر بن سعيد: هي الزكاة المفروضة، وهذا ضعيف لأن السورة مكيّة وفرض الزكاة بالمدينة، وقال قوم من المتأولين: كان هذا ثم نسخ بالزكاة، هذا غير قوي، وما شرّع الله تعالى وجلّ بمكة قبل الهجرة شيئاً من أخذ الأموال.

واختلف الناس في ﴿وَالْمُحْرَوْنَ﴾ اختلافاً هو عندي تخليط من المتأخرين؛ إذ المعنى واحد، وإنما عبّر علماء السلف في ذلك العبارات على جهة المثالات فجعلها المتأخرون أقوالاً، وحصرها مكّي في ثمانية، و﴿المحروم﴾ هو الذي تبعد عنه إمكانات الرزق بعد قربها منه فيناله حرمان وفاقة، وهو مع ذلك لا يسأل، فهذا هو الذي له حق في أموال الأغنياء كما للسائل حق، قال الشعبي: أعياني أن أعلم ما «المحروم»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المحروم: المحارب الذي ليس له في الإسلام سهم مال، فهو ذو الحرفة المحدود، وقال أبو قلابة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ: هذا المحروم، وقال ابن زيد: هو الذي أصيبت ثمرته، وقال غيره: هو الذي ماتت ماشيته، وقال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: هو الكلب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد يكون الكلب محروماً في بعض الأوقات والحالات، ألا ترى إلى الذي كان يأكل الشرى من العطش... الحديث؛ إلى غير هذا من الأقوال التي إنما ذكرت مثلاً، كأنه يقول: الذي أصيبت ثمرته من المحرومين، والمعنى الجامع لهذه الأقوال أنه الذي لا مال له لحرمان أصابه، وإلا فالذي تصاب ثمرته وله مال غيرها كثير ليس في هذه الآية بإجماع.

وبعد هذا مقدّر من الكلام تقديره: فكونوا مثلهم أيها الناس وعلى طريقهم فإن النظر المؤدي إلى ذلك متجه، ففي الأرض آيات لمن اعتبر وأيقن، وهذه إشارة إلى لطائف الحكمة وعجائب الخلقة التي في الأرضين والجبال والمعادن والعيون وغير ذلك، وقرأ قتادة: ﴿آيَةٍ﴾ على الأفراد.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَفْئِكَزٍ﴾ إحالة على النظر في شخص الإنسان، فإنه أكثر المخلوقات التي لدينا عبرة لما جعل الله تبارك وتعالى فيه - مع كونه من تراب - من لطائف الحواس، من أمر النفس وحياتها ونطقها، واتصال هذا الجزء منها بالعقل، ومن هيئة الأعضاء واستعدادها لتنفع أو تحمل أو تعين، قال ابن زيد: إنما القلب مضغة في جوف ابن آدم جعل الله فيه العقل، أفيدري أحذ ما ذاك العقل؟ وما صفته؟ وكيف هو؟ وقال الرّماني: النفس خاصة الشيء الذي لو بطل كل ما سواها مما ليست مضمنة به

لم تبطل، وهذا تعمق لا أحمد. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ توقيف وتوبيخ.

قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾، قال الضحاك، ومجاهد، وابن جبير: أراد تعالى المطر والثلج، وقال واصل الأحدب، ومجاهد: أراد القضاة والقدر، أي: الرزق عند الله تعالى يأتي به كيف شاء، لا رب غيره، وقرأ ابن محيصن: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾. ويحتمل أن يكون من الوعد، ويحتمل أن يكون من الوعيد، والكل في السماء، قال الضحاك: المراد: من الجنة والنار، وقال مجاهد: من الخير والشر، وقال ابن سيرين: المراد الساعة، ثم أقسم تعالى بنفسه على صحة هذا القول والخبر، وشبهه في اليقين به بالنطق من الإنسان، وهو عنده في غاية الوضوح ولا يمكن أن يقع فيه من اللبس ما يقع في الرؤية والسمع، بل النطق أشد تخلصاً من هذه. واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿يُنْثَلُ مَا﴾ - فقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿يُنْثَلُ﴾ بالرفع، ورويت عن الحسن، وابن أبي إسحاق، والأعمش - بخلاف عنهم -، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، وأهل المدينة، وجلّ الناس: ﴿مُنْثَلُ﴾ بالنصب، فوّجه الأولى الرفع على النعت لـ ﴿حَقٌّ﴾، وجاز نعت النكرة بهذا الذي قد أضيف إلى المعرفة من حيث كان ﴿يُنْثَلُ﴾ شائعاً عاملاً لوجوه

كثيرة، فهو لا تُعرّفه الإضافة إلى معرفة؛ لأنك إذا قلت: «رَأَيْتُ مِثْلَ زَيْدٍ» فلم تُعرّف شيئاً لأن وجوه المماثلة كثيرة، فلما بقي الشياخ جرى عليه حكم النكرة فُتعت به النكرة، و [مَا] زائدة تعطي تأكيداً، وإضافة ﴿يُنْثَلُ﴾ هي إلى قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ﴾. ووجه قراءة النصب أحد ثلاثة أوجه: إما أن يكون ﴿يُنْثَلُ﴾ قد بُني لَمَّا أُضيف إلى غير متمكن وهو في موضع رفع على الصفة لـ ﴿حَقٌّ﴾، ولحقه البناء لأن المضاف إليه قد يُكسب المضاف بعض صفاته كالتأنيث في قوله:

.....
... شَرَقْتُ صَدْرُ الْقَنَاءِ ...

والتعريف في «غلام زيد» إلى غير ذلك، ويجري ﴿يُنْثَلُ﴾ حينئذ مجرى ﴿عَذَابٌ يَوْمِيٌّ﴾ على قراءة من فتح الميم، ومنه قول الشاعر:

عَلَى حِينٍ غَائِبَتْ الْمَشِيبُ عَلَى الصَّبَا

.....
ومنه قول الآخر:

لَمْ يَنْتَعِ الشَّرْبُ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ هَتَفَتْ

.....
فَ غَيْرَ فاعلة ولكنه فتحها.

والوجه الثاني - وهو قول المازني - أن ﴿يُنْثَلُ﴾ بُني لكونه مع «مَا» شيئاً واحداً، ويجيء - على هذا - في مضمار: «وَنَحْمًا، وَأَيْتَمًا، وَإِنْتَمًا» ومنه قول حُمَيْد بن ثور:

أَلَا هَيْمًا مِمَّا لَقِيتُ وَهَيْمًا
وَوَيْحَ لِمَنْ لَمْ يَذَرْ مَا هُنَّ وَنَحْمًا
فلولا البناء وجب أن يكون منوناً، وكذلك قول الشاعر:

.....
فَأَكْرَمَ بِنَا خَالًا وَأَكْرَمَ بِنَا ابْنَتًا
والوجه الثالث أن ينصب ﴿يُنْثَلُ﴾ على الحال من قوله تعالى: ﴿لَحَقُّ﴾، وهي حال من نكرة، وفيه خلاف، ولكن جوّز ذلك الجرمي، وأما غيره فبإيه حالاً من الذكر المرفوع في قوله تعالى: ﴿لَحَقُّ﴾؛ لأن التقدير: لَحَقُّ هو، وفي هذا نظر، و«النطق» في هذه الآية: الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني، ورُوي أن بعض العرب الفصحاء سمع هذه الآية فقال: من أحوج الكريم إلى أن يحلف؟ والحكاية وقعت في كتاب الثعلبي و«سبل الخيرات» متممة عن الأصمعي، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله قوماً أقسم لهم بهم بنفسه فلم يصدقوه»، وروي أبو سعيد الخدري أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «لَوْ قَرَأَ أَحَدُكُمْ مِنْ رِزْقِهِ لَتَبِعَهُ كَمَا يَتَّبِعُهُ الْمَوْتُ»، وأحاديث الرزق والأشعار فيه كثيرة.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ أُنْثَى﴾ تقرير لتجتمع نفس المخاطب، وهذا كما تبدأ المرأة إذا أردت أن تحدثه بعجيب فتقرّره: هل سمع ذلك أم لا؟ فكأنك تقتضي منه أن يقول: لا، ويستطعمك الحديث. و«نَحْمٌ» اسم جنس يقع للجميع وللواحد، وروي أن أضياف إبراهيم عليه السلام هؤلاء هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وأتباع لهم من الملائكة عليهم السلام، وجعلهم تعالى مكرمين إما لأنهم عنده كذلك، وهذا قول حسن، وإما من

حيث أكرمهم إبراهيم عليه السلام وخدمهم هو وسارة وذبح لهم العجل، وقيل: من حيث رفع مجالسهم. و«سَكَنًا» منصوب على المصدر، كأنهم قالوا: نُسَلِّمُ سلاماً، أو سلمت سلاماً، ويتجه أن يعمل فيه «قَالُوا» على أن يجعل «سَكَنًا» بمنزلة «قولا»، ويكون المعنى حينئذ أنهم قالوا تحية وقولاً معناه سلاماً، وهذا قول مجاهد، و [سَلَامٌ] مرتفع على خبر ابتداء، أي: أمري سلام، أو واجب لكم سلام، أو على الابتداء والخبر محذوف كأنه قال: سلام عليكم، وإبراهيم عليه السلام قد حيا بأحسن؛ لأن قولهم دعاء وقوله واجب قد تحضّل لهم. وقرأ ابن وثاب، والضحّي، وحمزة، والكسائي، وطلحة، وابن جبير: ﴿قَالَ سَلِّمْ﴾ بكسر السين وسكون اللام، والمعنى: نحن سلام، أو أنتم سلام، وقوله تعالى: ﴿قُوَّةٌ تُشَكِّرُونَ﴾ معناه: لا نميزهم ولا عهد لنا بهم، وهذا أيضاً على تقدير: أنتم قوم منكرون، وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في تلك الأرض وذلك الزمن.

و «راغ» معناه: مضى أثناء حديثه مخفياً زواله وانصرف مستعجلاً كأنه لم يرد أن يفارقهم فمضى إلى ناحية من داره مستعجلاً ورجع لحيته، وهذا تشبيه بالروغان المعروف؛ لأن الراغ يوهم أنه لم يزل، و«العجل» هو الذي حنّاه لهم، وحسبك أنه عليه السلام أوقف للضيافة أوقافاً تُمضيها الأمم على اختلاف أديانها وأجناسها.

﴿٢٧﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ فَأَمْسَكُوا عَنْهُ فقال: أَلَا تَأْكُلُونَ؟ فيروى في الحديث أنهم قالوا له: إِنَّا لَا نَأْكُل إِلَّا مَا أَذِنَّا لَنَمَنِ، فقال لهم إبراهيم عليه السلام: وَأَنَا لَا أُبَيْحُهُ لَكُمْ إِلَّا بِشْمَنِ، قالوا: وما هو؟ قال: أَنْ تَسْمُوا اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ الْإِبْتِدَاءِ، وَتَحْمَدُوهُ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْأَكْلِ، فقال بعضهم لبعض: بِحَقِّ اتَّخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى خَلِيلاً، فَلَمَّا اسْتَمَرُّوا عَلَى تَرْكِ الْأَكْلِ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، وَالْوَجَسُ: تَحَسُّسُ النَّفْسِ وَخَوَاطِرُهَا فِي الْحَذَرِ، وَذَلِكَ أَنْ أَكَلَ الضَّيْفَ أَمَنَةً وَدَلِيلَ عَلَى انْبِسَاطِ نَفْسِهِ، وَالطَّعَامَ حُرْزَةً وَذِمَامًا، وَالْإِمْتِنَاعَ عَنْ ذَلِكَ وَحِشَةً، فَخَشِيَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ إِمْتِنَاعَهُمْ مِنْ أَكْلِ طَعَامِهِ إِنَّمَا هُوَ لَشَرٍّ يَرِيدُونَهُ، فَقَالُوا لَهُ: لَا تَخَفْ، وَعَزَّوْهُ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ، وَيُشْرُوهُ وَيُشْرُوا سَارَةَ مَعَهُ بِغَلَامٍ عَلِيمٍ، أَي: عَالِمٍ فِي حَالِ تَكْلِيفِهِ وَتَحْصِيلِهِ، أَي: سَيَكُونُ عَلِيمًا، وَ«عَلِيمٌ» بِنَاءٌ مَبَالُغَةٌ. وَجَمْهُورُ النَّاسِ عَلَى أَنَّ الْغَلَامَ هُنَا هُوَ إِسْحَاقُ بْنُ سَارَةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي ذَكَرَتْ الْبَشَارَةُ بِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا الْغَلَامُ هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ، وَهَذَا وَهَمْ، وَيُرْوَى أَنَّهُ عَرَفَ كُونَهُمْ مَلَائِكَةً اسْتِدْلَالًا مِنْ بَشَارَتِهِمْ إِيَّاهُ بِالْغَيْبِ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْثُهُمْ إِبْرَاهِيمَ إِلَى أَهْلِهِ بِالسَّلَامِ﴾، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ: قَرَّبْتُ إِلَيْهِمْ مِنْ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْمَنْزِلِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْإِقْبَالُ كَمَا يَقُولُ: أَقْبَلَ

فلان يشتمني أو يفعل كذا إذا جد في ذلك وتلبس به، و«الضرة»: الضيعة، كذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وسفيان، والضحاك، والمضطر الذي يصيح، وقال قتادة: معناه: في رثة، وقال الطبري: قال بعضهم: قالت: أوه، بصياح وتعجب، وقال النحاس: وقيل: ﴿فِي صَرَفٍ﴾: فِي جَمَاعَةِ نِسْوَةٍ يَتَبَادَرْنَ نَظْرًا إِلَى الْمَلَائِكَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَصَكَتَ وَجْهَهَا﴾ معناه: ضربت وجهها، قال ابن عباس

رضي الله عنهما: لطمت، وهذا مما يفعله الذي يَرُدُّ عَلَيْهِ أَمْرٌ يَسْتَهْوِلُهُ، وَقَالَ سَفِيَانُ، وَالسَّدِي، وَمُجَاهِدٌ: ضَرَبْتُ بِكَفِّيْنَهَا وَجْهَهَا، وَهَذَا مُسْتَعْمَلٌ فِي النَّاسِ حَتَّى الْآنَ، وَقَوْلُهَا: ﴿عَجَزَ عَقِيمٌ﴾ إِمَّا أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُهُ: إِنِّي عَجُوزٌ عَقِيمٌ فَكَيْفَ أَلِدُ؟ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: عَجُوزٌ عَقِيمٌ يَكُونُ مِنْهَا وَلَادَةٌ؟ وَقَدَّرَهُ الطَّبْرِيُّ: أَتَلَدُ عَجُوزٌ عَقِيمٌ، وَيُرْوَى أَنَّهَا كَانَتْ لَمْ تَلِدْ قَطُّ، وَ«الْعَقِيمُ» مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تَلِدُ، وَمِنْ الرِّيَاحِ الَّتِي لَا تَلْقَحُ شَجَرًا فَهِيَ لَا بَرَكَةَ فِيهَا. وَقَوْلُهُمْ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ أَي: كَقَوْلِنَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ قَالَ رَبُّكَ أَنْ يَكُونَ، وَ«الْحَكِيمُ» ذُو الْحِكْمَةِ، وَ«الْعَلِيمُ» مَعْنَاهُ: بِالْمَصَالِحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ.

ثم قال إبراهيم عليه السلام

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ مِنْ قَبْلِكَ لِيُزِيلَ عَنْهُمْ حِجْرًا مِنْ بَلَدٍ لِيُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَتَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِمْ عَذْرَاؤُكَ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ فَأَخْرَجْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ الْيَتِيمَ الَّذِي يَكْفُرُ بِالْآيَاتِ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿وَنَزَّلْنَا بِآيَةِ الْيَتِيمِ الَّذِي يَكْفُرُ بِالْآيَاتِ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿وَنَزَّلْنَا بِآيَةِ الْيَتِيمِ الَّذِي يَكْفُرُ بِالْآيَاتِ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿وَنَزَّلْنَا بِآيَةِ الْيَتِيمِ الَّذِي يَكْفُرُ بِالْآيَاتِ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿وَنَزَّلْنَا بِآيَةِ الْيَتِيمِ الَّذِي يَكْفُرُ بِالْآيَاتِ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿وَنَزَّلْنَا بِآيَةِ الْيَتِيمِ الَّذِي يَكْفُرُ بِالْآيَاتِ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿وَنَزَّلْنَا بِآيَةِ الْيَتِيمِ الَّذِي يَكْفُرُ بِالْآيَاتِ﴾ ﴿٣٦﴾

للملائكة: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ؟﴾، وَالْخَطْبُ: الْأَمْرُ الْمُنْهَمُ، وَقِيلَ: إِنَّمَا يُعْبَّرُ بِهِ عَنِ الشَّدَائِدِ وَالْمَكَارِهِ غَالِبًا حَتَّى قَالُوا: «خُطُوبُ الرُّمَّانِ» وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: مَا هَذِهِ الطَّامَةُ الَّتِي جِئْتُمْ لَهَا؟ فَأَخْبَرُوهُ حِينَئِذٍ أَنَّهُمْ أَرْسَلُوا إِلَى سِدُومَ قَرْيَةٍ لَوُطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِهْلَاكِ أَهْلِهَا الْكُفْرَةَ الْعَاصِينَ الْمَجْرُمِينَ، وَ«الْمَجْرُمُ»: فَاعِلُ الْجَرَائِمِ وَهِيَ صِفَاتُ الْمَعَاصِي مِنْ كُفْرٍ وَنَحْوِهِ، وَاحْدَتُهَا جَرِيْمَةٌ. وَقَوْلُهُمْ: ﴿لِيُزِيلَ عَنْهُمْ﴾ أَي: لِيُهْلِكَهُمْ بِهَذِهِ الْحِجَارَةِ، وَمَتَى اتَّصَلَتْ «أَرْسَل» بِ«عَلَى» فَهِيَ فِي مَعْنَى الْمَبَالُغَةِ فِي الْمُبَاشَرَةِ وَالْعَذَابِ، وَمَتَى اتَّصَلَتْ بِ«إِلَى» فَهِيَ أَخْفَى، وَانْظُرْ ذَلِكَ تَجَدُّهُ مَطْرَدًا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حِجْرًا مِنْ بَلَدٍ﴾ بَيَانٌ تَخْرُجُ بِهِ عَنْ مَعْنَى حِجَارَةِ الْبَرْدِ الَّتِي هِيَ

من ماء، ويروى أنه طين طُبخ في نار جهنم حتى صار حجارة كالآجر، و﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ نعت لـ ﴿حِجَارَةٍ﴾، وقيل: معناه: متروكة، وسومها من الإهلاك والإصابة، وقيل: معناه: معلّمة بعلامتها من السماء، والسُومى: العلامة، أي أنها ليست من حجارة الدنيا، وقال الزهراوي والرُّماني: قيل: معناه على كل حجر اسم المضروب به، قال الرُّماني: وقيل: كان عليها أمثال الخواتيم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تسويمها أن كان في الحجارة السود نقط بيض، وفي البيض سود، ويحتمل أن يكون المعنى أنها بجملتها معلومة عند ربك لهذا المعنى معلمة له، لا أن كل واحد منها له علامة خاصة به، و«المُسرف»: الذي يتعدى الطور، فإذا جاء مطلقاً فهو لأبعد غايات الكفر فما دونه.

ثم أخبر الله تعالى أنه أخرج بأمره من كان في قرية قوم لوط من المؤمنين منجياً لهم، وأعاد الضمير على القرية ولم يصرح لها قبل ذلك بذكر لشهرة أمرها، ولأن القوم المجرمين معلوم أنهم في قرية ولابد، قال المفسرون: ولا فرق بين تقدم ذكر المؤمنين وتأخره، وإنما هما وصفان، ذكرهم أولاً بأحدهما ثم آخراً بالثاني، قال الرُّماني: الآية دالة على أن الإيمان هو الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر أن في المعنى زيادة تحسن التقديم للإيمان، وذلك أنه ذكره مع الإخراج من القرية كأنه تعالى يقول:

لقد أمرنا بإخراج كل مؤمن، ولا يشترط فيه أن يكون عاملاً بالطاعات بل التصديق بالله تعالى فقط، ثم لما ذكر حال الموجودين ذكرهم بالصفة التي كانوا عليها وهي الكاملة التصديق والأعمال. والبيت من المسلمين هو بيت لوط عليه السلام وكان هو وابنتاه، وقيل: وبنته، وفي كتاب الثعلبي: وقيل: لوط وأهل بيته ثلاثة عشر، وهلكت امرأته فيمن هلك. وهذه القصة بجملتها ذكرت على جهة المثال لقريش، أي: أنهم إذا كفروا أصابهم مثل ما أصاب هؤلاء المذكورين.

﴿٣٧﴾ - ﴿٤٤﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: وتركنا في القرية المذكورة - وهي سدوم - أثراً من العذاب باقياً مؤرخاً لا يفنى ذكره، فهو آية - أي: علامة - على قدرة الله تبارك وتعالى وانتقامه من الكفرة، ويحتمل أن يكون المعنى: وتركنا في أمرها، كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْمُتَلَبِّينَ﴾، وقال ابن جريج: ترك فيها حجراً منضوداً كبيراً جداً، و«الذين يخافون العذاب» هم العارفون بالله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾، أي: وتركنا في موسى وقصته أثراً أيضاً هو آية، ويحتمل أن يكون عطفاً على قوله تعالى قبل: ﴿وَفِي آلِ هَارُونَ﴾، أي: وتركنا في آل هارون هو صاحب مصر، و«السُّلطان» في هذه الآية: الحجة، و«تَوَلَّى» معناه أعرض وأدبر عن أمر الله تعالى، و«رُكْنُهُ»: سلطانه

وجنده وشدة أمره، وهو الأمر الذي يركن فرعون إليه ويستند في شدائده، وقال ابن زيد: ﴿يَرْكَبُهُ﴾: بجُموعه، وقال قتادة: بقومه، وقول فرعون في موسى عليه السلام: «سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» هو تقسيم ظن أن موسى عليه السلام لا بُدَّ أن يكون أحد هذين، وقال أبو عبيدة: ﴿أَزِي﴾ هنا بمعنى «الواو»، واستشهد ببيت جرير:

أَتَغْلِبَةَ الْفَوَارِسَ أَوْ رِيَاخَا
عَدَلْتُ بِهِمْ طَهْيَةً وَالْخَشَابَا؟
والخشاب: بيوت في بني تميم، وقول أبي عبيدة ضعيف لا داعية إليه في هذا الموضع، و﴿فَتَبَدَّلْنَاهُمْ﴾ معناه: طرحناهم، و«الْيَمُّ»: البحر، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿فَتَبَدَّلْنَاهُ﴾، و«المُليم»: الذي أتى من المعاصي ونحوها ما يلام عليه، وقال أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ:

وَتَن يَخْذُلُ أَخَاهُ فَقَدْ أَلَامَا
وقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ عطف على قوله عز وجل: ﴿وَفِي مُوسَى﴾. وعَادُ هي قبيلة هود النبي ﷺ، و«العقيم» معناه: التي لا بركة فيها، لا تُلْقح شجراً ولا تسوق مطراً، وقال سعيد بن المسيب: كانت ريح الجنوب، وروي عن علي رضي الله عنه: كانت نكباء، وهذا عندي لا يصح عن علي رضي الله عنه لأنه يראد قول النبي ﷺ: «فُصِرَتْ بِالصَّبَا، وَأَهْلِكَ عَادُ بِالدُّبُورِ»، و﴿بَذَرٌ﴾ معناه: تَدَع، وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلِيمٌ﴾ يعني ممَّا أَذْنُ الله تعالى



المخراق الذي بيد ملك يسوق السحاب. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ يحتمل أن يريد: فجأة وهم يبصرون بعيونهم حالهم، وهذا قول الطبري، ويحتمل أن يريد: وهم ينتظرون ذلك في تلك الأيام الثلاثة التي أعلموا به فيها ورأوا علاماته في تلونهم، وهذا قول مجاهد حسب ما تقدم تفسيره، وانتظارهم للعذاب هو أشد من العذاب.

٤٥ - ٥٢ تفسير قوله عز وجل:

قال بعض المفسرين: ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بيننا، ما استطاعوا أن يقوموا من مصارعهم، وقال قتادة وغيره: معناه: من قيام بالأمر ودفعه، كما تقول: فلان له بكذا وكذا قيام، أي: استصلاح وانتهاض، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ﴾ بالنصب، وهو عطف إما على الضمير في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾؛ إذ هو بمنزلة «أهلكتناهم»، وإما على الضمير في قوله تعالى: ﴿نَسَبْنَاهُمْ﴾، وقرأ أبو عمرو - فيما روى عنه عبد الوارث -: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ﴾ بالرفع، وذلك على الابتداء والخبر، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ﴾ بالخفض عطفًا على ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ﴾، وقد روي النصب عن أبي عمرو.

لها في إهلاكه، و«الريميم»: الفاني المتقطع ببساً أو قِدماً من الأشجار والورق أو الجبال أو العظام، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ بَنَى الْعِظَمَ وَيَوْمَ رِيمٍ﴾، أي في قوام الرماد، وزوي حديث: «إِنَّ تِلْكَ الرِّيحَ كَانَتْ تَهْبُ عَلَى النَّاسِ فِيهِمْ الْعَادِيَّ وَغَيْرِهِ، فَتَنْزِعُ الْعَادِيَّ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ وَتَذْهَبُ بِهِ».

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ تَوَدَّ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَسَبَّحُوا لِلَّهِ يَوْمَئِذٍ﴾ يحتمل أن يراد: قيل لهم في أول بعث صالح عليه السلام: آمنوا وأطيعوا فتمتعوا متاعاً حسناً إلى آجالكم، وهو «الحين» على هذا، وهو قول الحسن حكاة عنه الرُّماني، ويجيء قوله تعالى: ﴿فَتَعَبَّوْا مُرْتَبًا لَفْظًا فِي الْآيَةِ وَمَعْنَى فِي الْوُجُودِ مَتَأَخَّرًا عَنِ الْقَوْلِ لَهُمْ: ﴿تَسَبَّحُوا﴾، ويحتمل أن يريد: إِذْ قِيلَ لَهُمْ بَعْدَ عَقْرِ النَّاقَةِ: ﴿تَسَبَّحُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ وهي «الحين» على هذا التأويل، وهو قول الفراء، ويجيء قوله تعالى: ﴿فَتَعَبَّوْا﴾ غير مُرْتَبِّ الْمَعْنَى فِي وَجُودِهِ، لِأَن عَتَوْهُمْ كَانَ قَبْلَ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: ﴿تَسَبَّحُوا﴾، وَكَأَنَّ الْمَعْنَى: فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ قَبْلَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ أَنْ عَتَوْا، وَهُوَ السَّبَبُ فِي أَنْ قِيلَ لَهُمْ ذَلِكَ وَغُذِّبُوا. وقرأ جمهور القراء: ﴿الْصَّيْقَةُ﴾، وقرأ الكسائي - وهي قراءة عُمَر وَعِثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: ﴿الْصَّغْفَةُ﴾، وهي - على القراءتين - الصيحة العظيمة، ومنه يقال للوقعة الشديدة من الرعد: صاعقة، وهي التي تكون معها النار التي يروى في الحديث أنها من

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ نصب بإضمار فعل تقديره: وبيننا السماء بنيناها، و«الأيد»: القوة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، ووقعت في المصحف بياءين، وذلك على تخفيف الهمز، وفي هذا نظر. وقوله تعالى: ﴿لَتُؤْيِسُونَ﴾ يحتمل أن يريد: إنا نوسع الأشياء قوة وقدرة، كما قال تعالى: ﴿عَلَّ الْوَسْوَاعِثُ قَدْرَهُ﴾، أي: الذي يوسع أهله إنفاقاً، ويحتمل أن يريد: لموسعون في بناء السماء، أي: جعلناها واسعة، وهذا تأويل ابن زيد، وقال الحسن: أوسع الرزق بمطر السماء، و«الماهد»: المهية الموطىء للموضع الذي يتمهد ويفترش.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَجُلَيْنِ﴾ أي: مُضْطَحِّبَيْنِ مُتَلَازِمَيْنِ،

وقال مجاهد: معناه أن هذه إشارة إلى المتضادات والمتقابلات من الأشياء كالليل والنهار، والشقوة والسعادة، والهدى والضلال، والسماء والأرض، والسود والبياض، والصحة والمرض، والكفر والإيمان، ونحو هذا، ورجحه الطبري بأنه أدل على القدرة التي توجد الضدين بخلاف ما يفعل بطبعه فغلاً واحداً كالسرخين والتبريد، وقال ابن زيد وغيره: هي إشارة إلى الأنثى والذكر من كل حيوان، والترجي الذي في قوله تعالى: ﴿لَمَلَكْكُمْ﴾ هو بحسب خلق البشر وعرفهم، وقرأ الجمهور: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتشديد الذال والإدغام، وقرأ أبي بن كعب: ﴿تَعَذَّرُونَ﴾ بناءً وخفة الذال.

وقوله تعالى: ﴿فَيَرْوُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أمر بالدخول في الإيمان وطاعة الله تعالى، وجعل الأمر بذلك بلفظ الفرار لينبه على أن وراء الناس عقاباً وعذاباً وأمرأ حقه أن يُفَرَّ منه، فجمعت لفظة ﴿فَرَّوْا﴾ بين التحذير والاستدعاء، وينظر إلى هذا المعنى قول النبي ﷺ: «لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك...» الحديث. قال الحسين بن الفضل: من فرَّ إلى غير الله تعالى لم يمتنع من الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْمَعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ نهى عن عبادة الأصنام والشياطين وكل مدعو من دون الله تعالى، وفائدة تكرار قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْ ذِي ذِكْرِ تُبَيِّنُ﴾ الإِبْلَاحُ وهُزُّ النفس وتحكيم التحذير، وإعادة

الألفاظ بعينها في هذه المعاني بليغة بقرينة شدة الصوت.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ تقديره: سيرة الأمم كذلك، أو الأمر في القديم كذلك، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالُوا سَائِرٌ أَوْ جَنُودٌ﴾ معناه: إلا قال بعض هذا وبعض الجميع، ألا ترى أن قوم لوط عليه السلام لم يقولوا قط: هو ساحر، وإنما قالوا: به جنة، فلما اختلفت الفرق جعل الخبر عن ذلك بإدخال ﴿أَوْ﴾ بين الصيغتين، وليس المعنى أن كل أمة قالت عن نبيها: إنه ساحر أو مجنون، فليست هذه كالمقدمة في فرعون، بل هذه كأنه تعالى قال: إلا قالوا: هو ساحر، أو قالوا: هو مجنون.

﴿٥٣﴾ - ﴿٥٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ﴾ توقيف وتعجب من توارد نفوس الكفرة في تكذيب الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم على تفرق أزمانهم، أي: إنهم لم يتواصوا لكنهم فعلوا فعلاً كأنه فعل من تواصى، والعلّة في ذلك أن جميعهم طاغ، والطاغي: المستعلي في الأرض المفسد العاتي على الله.

قوله تعالى: ﴿فَقَوْلَ عَنَّهُمْ﴾ أي: عن الحرص المفرط عليهم وذهاب اليقين حسرات، ويحتمل أن يراد فتول عن التعب المفرط في دعائهم وضمهم إلى الإسلام، فلست بمصيطر عليهم ولست بملوم إذ بلغت، فنح نفسك عن الحزن عليهم وذكر فقط فإن الذكرى نافعة للمؤمنين ولمن قضى له أن يكون

منهم في ثاني حال، وعلى هذا التأويل فلا نسخ في الآية إلا في معنى المودة التي فيها؛ فإن آية السيف نسخت جميع الموادعات، وروى قتادة - وذكره الطبري - عن علي رضي الله تعالى عنه أنه لما نزلت: ﴿فَقَوْلَ عَنَّهُمْ﴾ ما أنت بملوم ﴿﴾ حزن المسلمون وظنوا أنه أمر بالتولي عن الجميع وأن الوحي قد انقطع، حتى نزلت: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿﴾ فسروا بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿﴾، اختلف الناس في معناه مع إجماع أهل السنة أن الله تعالى لم يرد أن تقع العبادة من الجميع؛ لأنه تعالى لو أراد ذلك لم يصح أن يقع الأمر بخلاف إرادته - فقال علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم: المعنى: ما خلقت الجن والإنس إلا لأمرهم بعبادتي وليقرؤا لي بالعبودية، فعبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾؛ إذ العبادة هي مضمن الأمر، وقال زيد بن أسلم، وسفيان: المعنى خاص، والمراد وما خلقت الطائعين من الجن والإنس إلا لعبادتي، ويؤيد هذا التأويل أن ابن عباس رضي الله عنهما روى عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وقال ابن عباس أيضاً: معنى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾: ليتذللوا لي ولقدرتي وإن لم يكن ذلك على قوانين الشرع، وعلى هذا التأويل فجميع الجن والإنس عابد متذل، والكفار كذلك، ألا تراهم

عند القحوط والأمراض وغير ذلك؟ وتحتمل الآية أن يكون المعنى: وما خلقت الجن والإنس إلا مَعْدِينَ ليعبدوني، وكأن الآية تعديد نعمة، أي: خلقت لهم حواس وعقولا وأجساما منقادة لحق العبادة، وهذا كما تقول: البقر مخلوق للحرث، والخيول للحرب، وقد يكون منها ما لا يحرث وما لا يُحارب به أصلاً، فالمعنى أن الإعداد في خلق هؤلاء إنما هو للعبادة، لكن بعضهم تكسب صرف نفسه عن ذلك، ويؤيد هذا المنزع قول النبي ﷺ: «اعملوا فكلُّ مُيسَّر لما خلق له»، وقوله: «كلُّ مولود يولد على الفطرة...» الحديث.

وقوله تعالى: «مِنْ رَزَقِي» أي: أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم، وقوله تعالى: «أَنْ يُطْعَمُونَ» إما أن يكون المعنى: أن يطعموا خلقي، فأضيف إلى الضمير على جهة التَّجَوُّز، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، وإما أن يكون الإطعام هنا بمعنى النفع على العموم، كما تقول: أعطيت فلانا كذا وكذا طعمة، وأنت قد أعطيته عرضاً أو بلداً يجيبه، ونحو هذا، فكأنه تعالى قال: «ولا أريد أن ينفعوني»، فذكر جزءاً من المنافع وجعله دالاً على الجميع. وقرأ الجميع: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ»، وروى أبو إسحاق السبيعي، عن عبد الله بن زيد، قال أبو عمرو الداني: عن ابن مسعود قال: أقراني رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ»، وقرأ جمهور القراء: «الْمَتِّينُ» بالرفع، إما على أنه خبر بعد خبر،

أو صفة لـ «الرَّزَّاقِ»، وقرأ يحيى بن وثَّاب، والأعمش: «الْمَتِّينِ» بالخفض على النعت لـ «الْقَوَّةِ»، وجاز ذلك من حيث تأنيث «الْقَوَّةِ» غير حقيقي، فكأنه قال: ذو الأيد والحبل، ونحوه قوله تعالى: «فَمَنْ جَاءَهُ مَوَظَّةٌ»، وجوز أبو الفتح أن يكون خفض «الْمَتِّينِ» على الجوار، و«الْمَتِّينِ»: الشديد.

قوله تعالى: «إِنَّا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا»، يريد تعالى أهل مكة، وهذه آية وعيد صراح، وقرأ الأعمش: «فَإِنَّا لِلَّذِينَ كَفَرُوا»، و«الذُّنُوبُ»: الحظ والنصيب، وأصله من الذلُّ، وذلك أن الذُّنُوبَ هو ملء الدلو من الماء، وقيل: الذُّنُوبُ: الذُّلُّ العظيمة، ومنه قول الشاعر:

إِنَّا إِذَا نَازَلْنَا غَرِيبَ
لَهُ ذُنُوبٌ وَآثَا ذُنُوبُ
فَلِإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ

وهو السَّجَل، ومنه قول غَلَمَّةَ بن عبيدة:

وَفِي كُلِّ يَوْمٍ قَدْ خَبَطْتُ بِنِعْمَةٍ
فَحَقُّ لِسَانِي مِنْ تَذَاكُ ذُنُوبُ
فروي أن الملك لما سمع هذا البيت قال: نعم وأذُنُبُ، ومنه قول حسان:

لَا تَبْعِدَنَّ زَيْبَعَةَ بَيْنَ مُكَدَّمٍ
وَسَقَى الْغَوَاذِي قُبْرَهُ بِذُنُوبِ

و «أصحابهم» يراد به من تقدَّم من الأمم الْمُعَذِّبَةِ، وقوله تعالى: «فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ» تحقيق للأمر، بمعنى: هو نازل بهم لا محالة في وقته المعلوم فلا يَسْتَعِجِلُوهُ، وقرأ ابن وثَّاب: «فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» بالناء من فوق،

وبه قرأت فرقة، والباقون بالياء. ثم أوجب تعالى لهم الويل من يومهم الذي يأتي فيه عذابهم، و«الْوَيْلُ»: الشقاء والهَمُّ، وروى أن في جهنم وادياً يُسمى وَيْلاً، والطبري يذهب أبداً إلى أن التوعد إنما هو به، وذلك في موضع قلق؛ لأن هذا الويل إنما هو من يومهم الذي هو في الدنيا، و«مِنْ» لا ابتداء الغاية، وقال جمهور المفسرين: هذا التوعد هو بيوم القيامة، وقال آخرون - ذكره الثعلبي -: هو بيوم بدر، وفي «يُوعَدُونَ» ضمير عائد على الكلام، التقدير: يوعدون به، أو يوعدونه. ثم تفسير سورة الدَّارِيَات والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الطور

هي مَكِّيَّة بإجماع من المفسرين والرواة.

١ - ١٤ تفسير قوله عز وجل:

هذه مخلوقات أقسم الله تعالى بها تنبيهاً منه وتشريفاً، وليكون ذلك سبب النظر فيها والاعتبار بها، وذلك يؤول إلى التوحيد والمعرفة بحقوق الله تعالى.

و «الطور»، قال بعض أهل اللغة: كل جبل طور، فكأنه تبارك وتعالى أقسم بالجبال؛ إذ هو اسم جنس، وقال آخرون: الطور: كل جبل أجرد لا يُنبِت شجراً، وقال مجاهد في كتاب الطبري: الطور: الجبل

بالسريانية، وهذا ضعيف؛ لأن من حكاه في العربية يقضي على هذا، ولا خلاف أن في الشَّام جبلاً يُسَمَّى بالطُّور، وهو طور سيناء، فقال نوف البكالي: إنه الذي أقسم الله تعالى به لفضله على الجبال؛ إذ قد روي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أنني مهبط على أحدكم أمري - يريد رسالة موسى عليه السلام - فتناولت كلها إلا الطُّور فإنه استكان لأمر الله تعالى وقال: حسبي الله، فأهبط الله تعالى الأمر عليه، ويقال: إنه بمدينة، وقال مقاتل بن حيان: هما طوران.

و «الكتاب المَسْطُور» معناه بإجماع: المکتوب أسطراً، واختلف الناس في هذا الكتاب المقسم به - فقال بعض المفسرين: هو الكتاب المنتسخ من اللوح المحفوظ للملائكة لتعرف منه جميع ما يفعله وتصرفه في العالم، وقال آخرون: بل أقسم الله تعالى بالقرآن، فإنه قد كان علم أنه يتخذ في رَقٍّ منشور، وقال آخرون: أقسم الله تعالى بالكتب القديمة المنزلة، التوراة والإنجيل والزبور، وقال الفراء - فيما حكى الرُّمَّاني -: أقسم بالصحف التي تُعطى وتؤخذ يوم القيامة بالآيمان والشماثل، وقال قوم: أقسم بالكتاب الذي فيه أعمال الخلق، وهو الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وكتب بعض الناس «تَضْطُور» بالصاد، والقصد بذلك تشابه النطق بالحروف، والجمهور على السَّين. و«الرَّقُّ»: الورق المعدة للكتِّب، وهي مُرَقَّعةً فلذلك سُمِّيت رَقًّا، وقد غلب الاستعمال على هذا

الذي هو من جلود الحيوان، و«المنشور» خلاف المطوي، وقد يحتمل أن يكون نُشْرُهُ بمعنى بُشْرُهُ وترقيقه وصنعه، وقرأ أبو السَّمال: ﴿فِي رَقٍّ﴾ بكسر الراء.

واختلف الناس في ﴿وَالْيَبِيتِ أَلَمَمُورٍ﴾ - فقال الحسن بن أبي الحسن البصري: هي الكعبة، وقال علي بن أبي طالب، وابن عباس، وعكرمة رضي الله عنهم: هو بيت في السماء يقال له: الضراح، وهو بحيان الكعبة، ويقال: الضريح، ذكر ذلك الطبري، وهو الذي ذكر في حديث الإسراء، قال جبريل للنبي ﷺ: «هذا البيت المعمور، يدخل كل يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه، آخر ما عليهم»، وبهذا عمارته، ويروى أنه في السماء السابعة، وقيل: السادسة، وقيل: إنه مقابل الكعبة، لو خَرَّ لسقط عليها، وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: في كل سماء بيت معمر، وفي كل أرض كذلك، وهي كلها على خط مع الكعبة، وقاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

و «السَّقْفُ الْمَرْفُوعُ»: السماء، و«السَّقْفُ» طول في انحناء، ومنه أسقف النصارى، ومنه السَّقْفُ؛ لأن الجدار وسَقْفه فيهما طول في انحناء.

واختلف الناس في ﴿الْمَنْشُورِ﴾ - فقال مجاهد، وشمر بن عطية: معناه: المَوْقَدُ ناراً، وروي (إن البحر هو جهنم) وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليهودي: أين جهنم؟ فقال: هي البحر، فقال علي

رضي الله عنه: ما أظنه إلا صادقاً، وقرأ: ﴿وَالْيَبِيتِ الْمَنْشُورِ﴾، [ومنه ما روي عن النبي ﷺ: «إن البحر هو جهنم»،] قال الثعلبي: وروي أن النبي ﷺ قال: «لا يركبن البحر إلا حاج أو معتمر أو مجاهد، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحرأ»، وفي حديث آخر قال: «البحر نار في نار». وقال قتادة: المسجور: المملوء ماء، وهذا معروف من اللغة، ورجَّحه الطبري لوجود ماء البحر كذلك، ولهذا يعود القول الأول؛ لأن قولهم: «سَجَزْتُ الثُّور» معناه: ملأتها بماء يحترق ويتقد، والبحر المسجور: المملوء ماء، وهكذا هو معرض للعبث، ومنه قول الثمر بن تَوَلَّب:

إِذَا شَاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةً
تَرَى حَوْلَهَا النَّبْعَ وَالسَّمَائِمَا
سَقَتْهَا زَوَاعِدُ مَنْ صَبَفَ
وَأَنَّ مِنْ خَرِيفٍ فَلَنْ يَغْدَمَا
يصف ثوراً وعيناً مملوءة ماء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المسجور هو الذي ذهب ماؤه، فالمسجور: الفارغ، ويروى أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة، وهذا معروف في اللغة، فهو من الأضداد، وقيل: يوقد البحر ناراً يوم القيامة، فذلك السَّجَرُ، وقال ابن عباس أيضاً: الْمَسْجُورُ: المحبوس، ومنه ساجور الكلب، وهي القلادة من عود أو حديد التي تمسكه، وكذلك لولا أن البحر يُمَسَّكُ لفاض على الأرض، وقال علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهم: البحر المُقْسَمُ به



واديّاً يُسَمَّى وَيَلَا. و«الْخَوْضُ»: التخبط في الأباطيل، يُشَبِّه بحوض الماء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيْهِ فَلْيُنذِرْهُمْ قَاعِزٍ عَنْهُمْ﴾ و«يَوْمٍ» الثاني بدل من «يَوْمٍ»، و«يَدْعُونَ» قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناه: يدفعون في أعناقهم بشدة وإهانة وتغشّة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيْمَ﴾، وفي الكلام محذوف مختصر، تقديره: يقال لهم: «هَذِهِ

هو في السماء تحت العرش، والجمهور على أنه بحر الدنيا، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ﴾، وقال منذر بن سعيد: المعنى هو القسم بجهنم، وسماها بحراً لِسَعَتِهَا وتموجها، كما قال في الفرس: «وإن وجدناه لبحراً».

والقسم واقع على قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾، ويريد عذاب الآخرة للكفار، قاله قتادة، والعامل في «يَوْمٍ» هو «وَأَقْبَلَ» و«يَدْعُ» و«يَدْعُ» يكون العامل فيه «يَدْعُ»، والأول أبين، قال مكي: لا يعمل فيه «يَدْعُ»، وقوله تعالى: ﴿تَمُورٌ﴾ معناه: تذهب وتجيء بالرياح متقطعة متفتنة، والغبار المَؤَارُ: الذي يجتمع ويذهب ويجيء بالرياح ثم هو كله إلى ذهاب، ومنه قول الأعرابي: «وَعَاذَرْتُ التُّرَابَ مَوْرًا» يصف سنة قحط، وأنشد ابن المثنى:

.....
مَوْرُ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ
أَرَادَ مُضِيِّهَا. وقال الضحّاك: ﴿تَمُورٌ»: تموج، وقال مجاهد: تدور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تشقق، وهذه كلها تفاسير بالمعنى؛ لأن السماء العالية يعترها هذا كله.

وسَيَّرَ الجبال هو في أول الأمر ثم تَنَفَّثَتْ أثناء السير حتى تصير أخيراً كالعهن المنفوش، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ﴾ عاطفة جملة على جملة، وهي تتضمن ربط المعنى وتأكيده وإثبات الويل للمكذّبين، و«الْوَيْلُ»: السوء والمشقة والهُمّ الأطول، ويروى أن في جهنم

يحتمل أن يكون من خطاب أهل النار فيكون إخبارهم بذلك زيادة في غمّهم وسوء حالهم، ويحتمل - وهو الأظهر - أن يكون إخباراً لمحمد ﷺ ومعاصريه، لما فرغ من ذكر عذاب الكفار عقب ذلك بنعيم المؤمنين ليبين الفرق ويقع التحريض على الإيمان. و«الْمُتَّقُونَ» هنا هم مُتَّقُوا الشُّرْكَ لأنهم لا بُدَّ من مصيرهم إلى الجنّات، وكلما زادت الدرجة في التقوى قوي الحصول في حكم الآية حتى أن المؤمنين على الإطلاق هم في هذه الآية قطعاً على الله تعالى بحكم خبره الصادق. وقرأ جمهور الناس: ﴿فَنَكِيهِنَّ﴾، ومعناه: فرحين مسرورين، وقال أبو عبيدة: هو من باب «لَا يَنْ وَتَامِرٍ»، أي: لهم فاكهة، والمعنى الأول أبرع، وقرأ

النَّارُ، وإخبارهم بهذا على جهة التوبيخ والتفريع، وقرأ أبو رجاء العطاردي: ﴿يَوْمَ يَدْعُونَ﴾ من الدعاء، بسكون الدال وفتح العين.

١٥ - ١٦ تفسير قوله عز وجل: ﴿هَذِهِ النَّارُ﴾ وَقُفُوا بعد ذلك على الجهتين اللتين يمكن منهما دخول الشك في أنها النار، وهما: إما أن يكون ثم سخر يُلْبَس ذات المرئي، وإما أن يكون في بصر الناظر اختلال، وأمرهم بِصَلِّيْهَا على جهة التفريع، ثم قيل لهم على جهة قطع رجائهم: ﴿قَاصِرُوْا أَوْ لَا تَصِيْرُوا سَوَآءَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: عذابكم ختم فسواء جزعكم وصبركم، لا بد من جزاء أعمالكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَفِّقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَعِيْرٍ﴾ الآيات...

خالد فيما حكى أبو حاتم: ﴿فَكَيْهَيْنِ﴾، والفَكَيْهَةُ والفَاكِيَةُ: المسرور المتنعم. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا رِئْصَ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ أي: من إنعامه ورضاه عنهم، وقوله تعالى: ﴿وَوَقَّهْتُ رَحْمَتِي عَنْ آلِ الْفَجْرِ﴾، هذا متمكن في مُثْقِي المعاصي الذي لا يدخل النار، ويكون في مُثْقِي الشُّرْك الذي ينفذ عليه الوعيد بمعنى: ووقاهم ربهم عذاب الخلود في الجحيم، ويحتمل أن يكون ﴿الْجَحِيمِ﴾ من طبقات جهنم ليست بمأوى العصاة من المؤمنين، بل هي مخصصة للكفرة، فهم وإن عَذَّبُوا في نار فليسوا في عذاب الجحيم. وقرأ الجمهور: ﴿وَوَقَّهْتُ﴾ بتخفيف القاف، وقرأ أبو حية بتشديدها على المبالغة، وذلك كله مُثَقِّقٌ من الوقاية وهي الحائل بين الشيء وبين ما يضره. والمعنى: يقال لهم: ﴿كَلُّوا وَأَسْرَبُوا هَيْتًا﴾، و﴿هَيْتًا﴾، نصب على المصدر، وقوله تعالى: ﴿يَا كَاذِبِينَ تَعْلَمُونَ﴾ معناه أن رُتِبَ الجنة ونعيمها هي بحسب الأعمال، وأما نفس دخولها فهو برحمة الله تعالى وتغمله، والأكل والشرب والتبهي ليس من الدخول في شيء، وأعمال العباد الصالحة لا توجب على الله تعالى التنعيم إيجاباً، لكنه سبحانه قد جعلها أَمَارَةً على من سبق في علمه تنعيمه، وعلَّق الشواب والعقاب بالتكسب الذي في الأعمال.

وقوله تعالى: ﴿تُنَكِّبِينَ﴾ نصب على الحال، على حدِّ قوله تعالى:

﴿فَكَيْهَيْنِ﴾، والعامل في هاتين الحالتين الفعل المقدر في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّتَيْنِ﴾، ويجوز غير هذا، وفي هذا نظر، وقرأ أبو السَّمال: ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ بفتح الرَّاء الأولى و﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ معناه: جعلنا لكل فرد منهم زوجاً، و﴿الْحُورِ﴾ جمع حوراء، وهي البيضاء القوية بياض بَيَاضِ الْعَيْنِ وسواءً سوادها، و﴿الْعِينِ﴾ جمع عيناء، وهي الكسيرة العينية مع جمالهما، وفي قراءة ابن مسعود، وإبراهيم التُّخَيْمِي: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِعِيسٍ عِينٍ﴾، قال أبو الفتح: التَّيْسَاءُ: البيضاء، وقرأ عكرمة: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ حُوراً عِيناً﴾، وحكى أبو عمرو عن عكرمة أنه قرأ: ﴿بِعِيسٍ عِينٍ﴾ على إضافة [عِيسٍ] إلى [عِينٍ].

٢١ - ٢٨ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن كثير، وعاصم، وحزمة، والكسائي، وابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطلحة، والحسن، وقتادة، وأهل مكة: ﴿وَأَتَيْنَهُمُ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وقرأ نافع، وأبو جعفر، وابن مسعود - بخلاف عنه - وأبو عمرو - بخلاف عنه - وشيبة، والجحدري، وعيسى: ﴿وَأَتَيْنَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وروى خارجة عنه مثل قراءة حمزة، وقرأ ابن عامر، وابن عباس، وعكرمة، وابن جُبَيْر، والضحاك: ﴿وَأَتَيْنَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وقرأ أبو عمرو، والأعرج، وأبو رجاء، والشعبي، وابن جُبَيْر، والضحاك: ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ

ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، فلكون «الذُرِّيَّة» جمعاً في نفسه حسن الإفراد في هذه القراءات، ولكون المعنى يتقضي انتشاراً وكثرة حسن جمع الذُرِّيَّة في قراءة من قرأ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

واختلف الناس في معنى الآية - فقال ابن عباس، وابن جُبَيْر، والجمهور: أخبر الله تعالى أن المؤمنين الذي تتبعم ذريتهم في الإيمان فيكونون مؤمنين كأبائهم - وإن لم يكونوا في التقوى والأعمال كالآباء - فإنه يُلْحَقُ الأبناء بمراتب أولئك الآباء كرامةً للآباء، وقد ورد في هذا المعنى حديث عن النبي ﷺ، فجعلوا الحديث تفسير الآية، وكذلك وردت أحاديث تقتضي أن الله تعالى يرحم الآباء رعباً للأنباء الصالحين، وذهب بعض الناس إلى إخراج هذا المعنى من هذه الآية، وذلك لا يترتب إلا بأن نجعل اسم «الذُرِّيَّة» بمثابة نوعهم على نحو ما في قوله تعالى: ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُورِ﴾، وفي هذا نظر. وقال ابن عباس أيضاً، والضحاك: معنى هذه الآية أن الله تعالى يلحق الأبناء الصغار بأحكام الآباء المؤمنين في الموارثة والدفن في قبور الإسلام، وفي أحكام الآخرة في الجنة، وحكى أبو حاتم عن الحسن أنه قال: الآية في الكبار من الذُرِّيَّة وليس فيها من الصغار شيء، وقال منذر بن سعيد: هي في الصغار لا في الكبار، وحكى الطبري قولاً معناه أن الضمير في قوله تعالى:

موضع الخبر، وأغنى خبر الأول عن ذكر خبر الثاني، و«اللغو»: السقط من القول، و«التأنيث» يلحق خمر الدنيا في نفس شربها وفي الأفعال التي تكون من شربها، وذلك كله مرتفع في الآخرة.

و«اللؤلؤ المكنون» أجمل اللؤلؤ لأن الصّون والكنّ يحسنه، وقال ابن جبير: أراد أنه الذي في الصدف لم تنله الأيدي، وقيل للنبي ﷺ إذا كان الغلمان كالؤلؤ المكنون فكيف المخدومون؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «هم كالقمر ليلة البدر»، ثم وصف تعالى عنهم أنهم في جملة تنعمهم يتساءلون، أي: عن أحوالهم وما نال كل واحد منهم، وأنهم يتذكرون حال الدنيا وخشيتهم فيها عذاب الآخرة، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تسألهم إذا بعثوا في النفخة الثانية، و«الإشفاق» أشد الخشية ورقة القلب، وقد قرأ أبو حية: «وَوَقَّانَا» بتشديد القاف، وقرأ الجمهور بتخفيفها، وأمال عيسى الشقفي «وَقَّانَا» بتخفيف القاف، و«السُّموم»: الحار، قال الرُّماني: هو الذي يبلغ مسام الإنسان، وهو النار في هذه الآية، وقد يقال في حرّ الشمس وفي الريح: سُموم، وقال الحسن: السُّموم اسم من أسماء جهنم و«تَدْعُوهُ» يحتمل أن يريد: تعبده، ويحسن هذا على قراءة من قرأ: «أَنَّهُ» بفتح الالف، وهي قراءة نافع - بخلاف - والكسائي، وأبي جعفر، والحسن، وأبي نوفل، أي: من أجل أنه، وقرأ باقي السبعة،

يلحق المقصّر بالمحسن ولا ينقص المحسن من أجره شيئاً، وهذا تأويل ابن عباس، وابن جُبَيْر والجمهور، ويحتمل قوله تعالى: «وَمَا أَلْتَهُمْ مِن عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ» أن يريد: من عملهم الحسن والقيبح، ويكون الضمير في «عَمَلُهُم» عائداً على الأنبياء، وهذا تأويل ابن زيد، ويُحَسِّن هذا الاحتمال قوله تعالى: «كُلُّ أَمْرٍ بِنَا كَسَبَ رَهِينٌ»، والرَّهين: المرتهن، وفي هذه الألفاظ وعيد، وحكى أبو حاتم عن الأعمش أنه قرأ: «وَمَا لَتَنَاهُمْ» بغير ألف وفتح اللام، قال أبو حاتم: لا تجوز هذه القراءة على وجه من الوجوه.

و«أَمَذَذْتُ الشَّيْءَ» إذا سيرت إليه شيئاً آخر يكثره أو يكثر لديه، وقوله تعالى: «يَنَّا يَنْتَحِرُونَ» إشارة إلى ما روي من أن المُنعم إذا اشتهى لحماً نزل ذلك الحيوان بين يديه على الهيئة التي اشتهاه فيها، وليس يكون في الجنة لحم يَخْتَرُ، ولا يتكلف فيه الذبح والسلخ والطبخ، وبالجمله لا كلفة في الجنة.

و«يَنْتَزِعُونَ» معناه: يتعاطون، ومنه قول الأخطل:

نَازَعَتْهُ طَيْبُ الرِّاحِ الشُّمُولِ وَقَدْ
صَاحَ الدُّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِي
و«الكأس»: الإناء وفيه الشراب، ولا يقال في فارغ «كأس»، قاله الزجاج، وقرأ الجمهور من السبعة وغيرهم: «لَا لَقَوْا» بالرفع «وَلَا تَأْتِيهِ» كذلك، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والحسن: «لَا لَقَوْا فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِ» بالنصب على التبرية، وعلى الوجيين، فقوله تعالى: «فِيهَا» هو

﴿يَوْمَ﴾ عائذ على الذُّرَّة، والضمير الذي بعده في «دُرِّيَّهُمْ» عائذ على «الَّذِينَ»، أي: اتَّبِعَهُم الكبار وألحقنا نحن بالكبار الصغار، وهذا قول مستكره.

وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا» هو في موضع الحال، فمن رأى أن الآية في الأنبياء الصغار فالحال من الضمير في قوله تعالى: «وَأَتَيْنَهُمُ»، فهو من المفعولين، ومن رأى أن الآية في الأنبياء الكبار فيحتمل أن يكون الحال من المفعولين، ويحتمل أن يكون من المتبیین الفاعلين، وأرجح الأقوال في هذه الآية القول الأول؛ لأن الآيات كلها في صفة إحسان الله تعالى إلى أهل الجنة، فذكر من جملة إحسانه أنه يرعى المُخسِن في المسيء، ولفظة «لَحَنَّا» تقتضي أن للمُلْحَق بعض التقصير في الأعمال.

وقرأ الجمهور من القراء: «أَلْتَهُمْ» بفتح اللام من «أَلَّتْ»، وقرأ ابن كثير، وأبو يحيى، وشبل: «الْإِتْنَاهُمْ» من أَلَّتْ بكسر اللام، وقرأ الأعرج: «وَمَا أَلْتَنَاهُمْ» على وزن أَفْعَلَنَاهُمْ، وقرأ ابن كعب، وابن مسعود: «لِإِتْنَاهُمْ» من «لَات»، وهي قراءة ابن مصرف، ورواها القواسم عن ابن كثير، وتحتمل قراءة من قرأ: «أَلْتَهُمْ» بفتح اللام أن تكون من «لَات» فإنه يقال: أَلَّتْ يُلِثُ إِلاَّتَةً، وَلَاتٌ يَلِثُ لَيْتًا، وَأَلَّتْ يُوَلِثُ إِيلاَتًا، وَأَلَّتْ يَأَلْتُ، وَأَلِثْتُ يَأَلِثُ إِيلاَتًا، وَوَلَّتْ يَلْتُ وَلَتًا، كلها بمعنى بعض.

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى

جهل: «إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يُرِيدُنِي مَا أَرَاهَا»، يقال: أَرَأَبَ وَرَأَبَ، ومنه قول الشاعر:

.....
فَقَدْ رَأَبَنِي مِنْهَا الْغَدَاةُ سُفُورَهَا
وقول الآخر:
وَقَدْ رَأَبَنِي قَوْلُهَا يَا هَئَا
.....

وأمر الله تعالى نبيّه ﷺ بتوعددهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَضُّوا لِيَ مَعَكُمْ مِرَّةً الْمُرَّةِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِهَذَا﴾ يحتمل أن يشير إلى هذه المقالة «هو شاعر»، ويحتمل أن يشير إلى ما هم عليه من الكفر وعبادة الأصنام والأحلام:

العقول، و﴿أَمْ﴾ المتكررة في هذه الآية قدرها بعض النحاة بألف الاستفهام، وقدرها مجاهد بـ «بل»، والنظر المحرر في ذلك أن منها ما يتقدّر بـ «بل» والهمزة على حدّ قول سيبويه في قولهم: «إِنَّمَا لِإِبِلٍ أَمْ شَاءَ»، ومنها ما هي معادلة، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾، وقسراً مجاهد: ﴿يَسَلُّ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾، وهو معنى قراءة الناس إلا أن العبارة بـ «أَمْ﴾ خرجت مخرج التوقيف والتوبيخ، وحكى الثعلبي عن الخليل أنه قال: «ما في سورة الطور من استفهام كُله استفهام وليس بعطف»، و﴿قَوْلُهُ﴾ معناه: «قال عن الغير: إنه قاله»، فهي عبارة عن كذب مخصوص.

ثم عجزهم تعالى بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾، والمماثلة المطلوبة منهم هي في النظم والرصف والإيجاز، واختلف الناس، هل

فنسبت محمداً ﷺ إلى ذلك، فنفى الله تعالى عنه ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ الآية. روي أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة فكثرت آراؤهم في محمد ﷺ، حتى قال قائل منهم: ترئصوا به رب المنون فإنه شاعر سيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى وغيرهم، فافترقوا على هذه المقالة، فنزلت الآية في ذلك.

و «التَّرِئُصُ»: الانتظار، ومنه قول الشاعر:

تَرِئُصُ بِهَا رَيْبُ الْمُنُونِ لَعَلَّهَا
تُطْلُقَ يَوْمًا أَوْ يَمُوتَ خَلِيلُهَا
وأشدّ الطبري:

..... لَعَلَّهَا
سَيَهْلِكُ عَنْهَا زَوْجُهَا أَوْ سَيَجْنَحُ
وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَضُّوا﴾ وعيدٌ في صيغة أمر، و«الْمُنُونُ» من أسماء الموت، وبه فسر ابن عباس رضي الله عنهما، ومن أسماء الدهر، وبه فسر مجاهد، وقال الأصمعي: الْمُنُونُ واحد لا جمع له، وقال الأخفش: هو جمع لا واحد له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: و«الرَّيْبُ» هنا: الحوادث والمصائب لأنها تريب من نزلت به، ومنه قول النبي ﷺ في أمر بنته فاطمة رضي الله تعالى عنها حين ذكر أن علياً رضي الله عنه يتزوج بنت أبي



والأعرج، وجماعة: ﴿إِنَّمَا﴾ على القطع والاستئناف، ويحسن مع هذه القراءة أن يكون ﴿تَدْعُوهُ﴾ بمعنى نعيده، أو بمعنى الدعاء نفسه، ومن رأى ﴿تَدْعُوهُ﴾ بمعنى الدعاء نفسه فيحتمل أن يجعل قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ﴾ بالفتح هو نفس الدعاء الذي كان في الدنيا، و﴿الَّذِي﴾ هو الذي يَبْرُ ويُحْسِنُ، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

جَاءَتْ مِنْ الْبَيْضِ رُغْرًا لَا لِبَاسَ لَهَا
إِلَّا الدَّهْسَاسُ وَأُمُّ بَسْرَةٍ وَأَبُ
٢٩ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا أمر لرسول الله ﷺ بالدعاء إلى الله تعالى ومتابعة نشر الرسالة، ثم قال تعالى مؤنساً له عليه الصلاة والسلام: فما أنت بإنعام الله تعالى عليك ولطفه بك كاهن ولا معجون، وكانت العرب قد عهدت ملابسة الجن الإنس بهذين الوجهين،

كانت العرب قادرة على الإتيان بمثل القرآن قبل مجيء محمد ﷺ؟ فقال شَذَاذٌ يُسَمُّونَ أهل الصرفة: كانت قادرة وُضُرفت، وقال الجمهور: لم تكن قط قادرة، ولا في قدرة البشر أن يأتي بمثله؛ لأن البشر لا يفارقه النسيان والسهو والجهل، والله تعالى محيط علمه بكل شيء، فإذا ترتبت اللفظة في القرآن عِلِمَ بالإحاطة التي تصلح أن تليها وَيَحْسُنَ معها المعنى، وذلك متعذر في البشر. والهاء في ﴿يُنْزِلُهُ﴾ عائدة على القرآن، وقرأ الجحدري: ﴿يُحْدِثُ مِثْلِهِ﴾ بإضافة «الحديث» إلى ﴿يُنْزِلُهُ﴾، فإنها - على هذا - عائدة على محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، قال الطبري: معناه: أَمْ خُلِقُوا خَلَقَ الجماد من غير شيء فهم لا يؤمرون ولا يُنْهَوْنَ كما هي الجمادات عليه؟ وقال آخرون: معناه: أَمْ خُلِقُوا من غير علّة ولا لغاية عقاب ولا ثواب فهم لذلك لا يسمعون ولا يتشرعون؟ وهذا كما تقول: فعلت كذا وكذا من غير علّة، أي: لغیر علّة، ثم وقفهم تعالى على جهة التوبيخ على أنفسهم، أهم الذين خَلَقُوا الأشياء فهم لذلك يتكبرون؟ ثم خصّص تعالى من الأشياء السموات والأرض لعظمتها وشرفها في المخلوقات، ثم حكم تعالى عليهم بأنهم لا يوقنون ولا ينظرون نظراً يؤدّبهم إلى اليقين.

(٣٧) - (٤٤) تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنٌ رَبِّكَ﴾ بمنزلة قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنٌ رَبِّكَ﴾ بمنزلة قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنٌ رَبِّكَ﴾

الاستغناء عن الله تعالى في جميع الأمور؟ لأن المال والصحة والقوة وغير ذلك من الأشياء كلها مِنْ خَزَائِنِ الله تبارك تعالى. قال الزهراوي: وقيل: يريد بالخزائن العلم، وهذا قول حسن إذا تَوَاضَعُ وبَسَط، قال الرُّمَّاني: خزانته تعالى: مقدوراته. و«المُضْطَرُ»: المُسَلِّطُ القاهر. وبذلك فسّر ابن عباس رضي الله عنهما، وأصله بالسَّيْنِ، ولكن كتبه بعض الناس وقرأ بالضاد مراعاة للطاء ليتناسب الُطْق، وحكى أبو عبيدة: «تسيطر عليّ» إذا اتخذتني خولاً.

و«السُّلَمُ»: السبب الذي يصعد به كان ما كان من خشب أو بناء أو حبال أو غيره، ومنه قول ابن مقبل:

لَا تُخْرِزُ الْمَرْءَ أَحْجَاءَ الْبِلَادِ وَلَا تُبْنِي لَهُ فِي السَّمَوَاتِ السَّلَالِيمُ
وحكى الرُّمَّاني قال: لا يقال: «سُلَمٌ» إِلَّا لِمَا بُنِيَ مِنَ الْأَدْرَاجِ وَإِنَّمَا السُّلَمُ الْمُشَبَّكُ، وبيت الشعر يردُّ عليه، والمعنى: أَلْهَمَ سُلَمٌ إِلَى السَّمَاءِ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ؟ أي: عليه ومنه، وهذه حروف يسد بعضها مسد بعض، والمعنى: يستمعون الخبر بصحة ما يدعون، فليأتوا بالحجة المبيّنة في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْآلِهَةُ الْآلِيَّةُ...﴾ معناه: أم هم أهل الفضيلة علينا فيلزم لذلك انتحائهم وتكبرهم؟ ثم قال تعالى: أم تسألهم يا محمد على الإيمان بالله تعالى وشرعه أجرة يُثْقَلُهم غَزْمُها فهم لذلك يكرهون الدخول فيما

يوجب غرامتهم؟ ثم قال تعالى: أم عندهم علم الغيب فهم يَبَيِّنُونَ ذلك للناس سُنتاً وشرعاً يكتبونه، وذلك عبادة الأوثان وتسييب السوائب وغير ذلك من شرهم؟ وقيل: المعنى: فهم يعلمون متى يموت محمد الذي يتربصون به؟ و«يَكْتُبُونَ» بمعنى يحكمون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني تعالى: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون؟ ثم قال تعالى: أم يُرِيدُونَ كيداً بك وبالشَّرع؟ ثم جزم الخبر بأنهم هم المكيدون، أي: هم المغلوبون، فسئى تعالى غلبتهم كيداً إذ كانت عقوبة الكيد.

ثم قال تعالى: أم لهم إله غير الله يعصمهم ويمنعهم ويدفع في صدر إهلاكهم، ثم نزه تبارك وتعالى نفسه عما يُشْرِكُونَ به من الأصنام والأوثان، وهذه الأشياء التي وقفهم تعالى عليها حصرت جميع المعاني التي توجب الانتحاء والتكبر والبعد من الانتمار، فوقفهم تعالى عليها، أي: ليست لهم، ولا يبقى شيء يوجب ذلك إِلَّا أَنَّهُمْ قوم طاغون، وهذه صفة فيها تكسبهم وإثارهم، فتعلق بذلك عقابهم. ثم وصفهم تعالى بأنهم على الغاية من العتو والتمسك بالأقوال الباطلة في قوله تعالى: ﴿وَأَن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ الْآلَةِ﴾ وذلك أن قريشاً كان في جملة ما اقترحت «أَن تُسْقِطَ السَّمَاءُ عَلَيْنَا كِسْفًا»، وهي القطع، واحدها كِسْفَةٌ، وتُجْمَعُ أيضاً على «كِسْف» كَثَمَرَةٌ وَتَمَرٌ، وقال الرُّمَّاني: هي التي

تكون بقدر ما يكشف ضوء الشمس، فأخبر الله تعالى عنهم في هذه الآية أنهم لو رأوا كسفاً ساقطاً حسب اقتراحهم لبلغ بهم العتو والجهل والبعد عن الحق أن يُغالطوا أنفسهم وغيرهم ويقولوا: «سَحَابٌ مَرْكُومٌ»، أي: كثير قد تراكم بعضه فوق بعض، ولهذه الآية نظائر في آيات أخر.

﴿٤٥﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنَهُمْ﴾ وما جرى مجراه من المواعدة منسوخ بآية السيف، وقرأ أبو جعفر، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿يَلْقَوُا﴾، والجمهور على ﴿يَلْقَوُا﴾، واختلف الناس في اليوم الذي تُوعَدُوا به - فقال بعض المتأولين: هو موتهم واحداً واحداً، وهذا على تجويز، والصغق: التعذيب في الجملة وإن كان الاستعمال قد كثر فيه فيما يصيب الإنسان من الصيحة المفرطة ونحوه، ويحتمل أن يكون اليوم الذي تُوعَدُوا به يوم بذر لأنهم عذبوا فيه، وقال الجمهور: التوعد بيوم القيامة لأن فيه صعقة تعم جميع الخلائق، ولكن لا محالة أن بين صعقة المؤمن وصعقة الكافر فرقاً، وقرأ جمهور القراء: ﴿يَضَعُقُونَ﴾ من: ضَعِقَ الرجل بكسر العين، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿يَضَعُقُونَ﴾ بفتح الياء وكسر العين، وقرأ عاصم، وابن عامر، وأهل مكة - في قول شبل -: ﴿يَضَعُقُونَ﴾ بضم الياء وفتح العين، وذلك من: أصعق الرجل غيره، وحكى الأخفش: «ضَعِقَ الرجل»

بضم الصاد وكسر العين، قال أبو علي: فجائز أن يكون منه، فهو مثل «يَضَرُقُونَ»، قال أبو حاتم: وفتح أهل مكة الياء في قول إسماعيل.

و ﴿يُنِي﴾ معناه: يكون منه غناء ودفاع، ثم أخبر تعالى بأنهم لهم دون هذا اليوم - أي: قبله - عذاب، واختلف الناس في تعيينه - فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هو بدر والفتح ونحوه، وقال مجاهد: هو الجوع الذي أصاب قريشاً، وقال البراء بن عازب، وابن عباس أيضاً: هو عذاب القبر، ونزع ابن عباس رضي الله عنهما في وجود عذاب القبر بهذه الآية، وقال ابن زيد: هو مصائب الدنيا في الأجسام وفي الأحبة وفي الأموال، هي للمؤمنين رحمة وللكافرين عذاب، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: «ذَوْنُ ذَلِكَ قَرِيباً وَلَكِنْ لَا يَغْلُوبُونَ».

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر لحكم الله تبارك وتعالى والمضي على نذارته ووَعْدِهِ بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، ومعناه: بإدراكنا وأَعْيُنُ حَفِظْنَا لك وحيطتنا، كما تقول: فلان يرعاه الملك بعين، وهذه الآية ينبغي أن يُقدَّرَها كل مؤمن في نفسه فإنها تفسح مضائق الدنيا، وقرأ أبو السَّمال: «بِأَعْيُنِنَا» بنون واحدة مشددة.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْمَدُ رَبَّكَ﴾ - فقال أبو الأحوص عوف بن مالك: هو التسيب المعروف، أي: يقول في

كل قيام: سبحان الله ويحمده، وقال عطاء: المعنى: حين تقوم من كل مجلس، وقال ابن زيد: التسيب هنا هو صلاة النوافل، وقال الضحاك، وابن زيد: هذه إشارة إلى الصلوات المفروضة، فقوله تعالى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾: الظهر والعصر، أي: حين تقوم من نوم القائلة، وقوله تعالى: ﴿وَرِينَ اللَّيْلِ﴾: المغرب والعشاء، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْجُو﴾: الصبح، ومن قال هي النوافل جعل «إِذْ يَرْجُو» ركعتي الفجر، وعلى هذا القول جماعة كثيرة منهم: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبو هريرة، والحسن، رضي الله عنهم، وقد روي مرفوعاً، ومن جعله التسيب المعروف جعل قوله تعالى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مثلاً، أي: حين تقوم وحين تقعد وفي كل تصرُّفك، وحكى منذر عن الضحاك أن المعنى: حين تقوم في الصلاة بعد تكبيرة الإحرام فقل: «سبحانك اللهم ويحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جذك...» الحديث.

وقرأ سالم بن أبي الجعد، ويعقوب: «وَإِذْ يَرْجُو» بفتح الهمزة بمعنى: وأعقاب، ومنه قول الشاعر:

فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْعَدَاةِ كَنَاطِرٍ
مَعَ الصُّنْحِ فِي أَغْقَابِ نَجْمٍ مُعْرَبٍ
وَقَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ: ﴿وَإِذْ يَرْجُو﴾ بكسر الهمزة.

كمل تفسير سورة الطور والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة النجم

هي مكية بإجماع من المتأولين، وهي أول سورة أعلن بها رسول الله ﷺ، وجهر بقراءتها في الحرم والمشركون يستمعون، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته وقال: يكفيني هذا، وسبب هذه السورة أن المشركين قالوا: إن محمداً يتقول القرآن ويخلق أقواله، فنزلت السورة في ذلك.

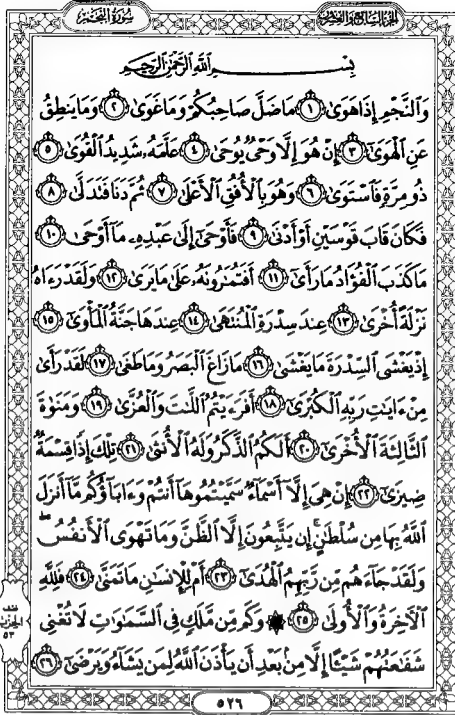
﴿١﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

أقسم الله تعالى بهذا المخلوق تشريفاً له وتنبهاً منه ليكون معتبراً فيه، حتى تؤول العبرة فيه إلى معرفة الله تبارك وتعالى، وقال الزهراوي: المعنى: ورب النجم، وفي هذا قلق مع لفظ الآية، واختلف المتأولون في تعيين النجم المقسم به - فقال ابن عباس، ومجاهد، والفراء، ويثني منذر بن سعيد: هو الجملة من القرآن إذا تنزلت، وذلك أنه روي أن القرآن نزل على النبي ﷺ نجوماً، أي: أقداراً مقدرة في أوقات ما، ويجيء ﴿هوى﴾ - على هذا التأويل - بمعنى نزل، وفي هذا الهويُّ بُعدٌ وتحاملٌ على اللغة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِمَوْجِ السَّجُورِ﴾، والخلاف في هذا كالخلاف في ذلك، وقال الحسن، ومعر بن المثنى، وغيرهما: النجم

هنا اسم جنس، أراد: والنجوم إذا هوت، واختلف قائلوا هذه المقالة في معنى ﴿هوى﴾ - فقال جمهور المفسرين: هوى للغروب، وهذا هو السابق إلى الفهم من كلام العرب، وقال الحسن بن أبي الحسن، وأبو حمزة اليماني: هوى عند الانكدار في القيامة، فهي بمعنى قوله تعالى: ﴿وإذا أنكركم اتكرت﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - في كتاب الثعلبي -: هوى في الانقضاض في أثر

العفريّة، وهي رجوم الشياطين، وهذا القول تسعده اللغة، والتأويلات في ﴿هوى﴾ محتملة كلها قوية، ومن الشاهد في النجم الذي هو اسم الجنس قول الراعي:

فَبَاتَتْ تَعْدُ النُّجْمَ فِي مُسْتَحِيرَةٍ
سَرِيعَ بِأَيْدِي الْأَكْلِيلِ جُمُودَهَا
يصف إهالة صافية، والمستحيرة: القِدْرُ التي يُطْبَخُ فيها، قاله الزجاج، وقال الرُّمَّاني: هي شحمة صافية حين ذابت. وقال مجاهد، وسفيان: النُّجْمُ في قَسَمِ الآية: الثُّرَيَّا، وسقوطها مع الفجر هو هَوِيُّها، والعرب لا تقول النُّجْمُ مطلقاً إلا للثُّرَيَّا، ومنه قول العرب: «طَلَعَ النُّجْمُ عَشَاءً»، فابتنى الراعي طَلَعَ النُّجْمُ غَدِيَّةً، فابتنى الراعي شُكْنَةً، و﴿هوى﴾ - على هذا القول - يحتمل الغروب ويحتمل الانكدار،



و﴿هوى﴾ في اللغة معناه: خرق الهواء ومقصده السُّفْلُ، أو مُصِيرُهُ وإن لم يقصده، ومنه قول الشاعر:

هَوَى ابْنِي مِنْ شَفْعَا جَبَلٍ
فَزَلْتُ رَجُلَهُ وَرَكَدُهُ
وقول الشاعر:

وَأَنَّ كَلَامَ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ
لِكَائِلِ تَهْوِي لَيْسَ فِيهَا نِصَالُهَا
وقول زهير:

هَوِيَّ الذُّلُ أَسْلَمَهَا الرُّشَاءُ
ومنه قولهم للجراد: الهاوي، ومنه: هَوِيَّ العقاب. والقسم واقع على قوله تعالى: ﴿مَا سَلَ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾، والصلالة أبداً يكون بغير قصد من الإنسان إليه، والغى: شيء كأنك تتكسبه وتريده، فنفى الله تعالى عن قلبه هذين الحالين، وغوى الرجل

يَغْوِي إِذَا سَلَكَ سَبِيلَ فَسَادٍ
وَالْعَوَجِ، نفى الله تعالى عن نبيه ﷺ
أَنْ يَكُونَ ضَلُّ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ الَّتِي
أَسْلَكَهُ اللهُ تَعَالَى إِثَابَهَا، وَأَثَبَتْ اللهُ
تَعَالَى فِي سُورَةِ الضُّحَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ
قَبْلَ النَّبُوَّةِ ضَالًّا بِالإِضَافَةِ إِلَى حَالِهِ
مِنَ الرُّشْدِ بَعْدَهَا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَطِّقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾
يريد تعالى محمداً ﷺ أَنَّهُ لَيْسَ
بِمُتَكَلِّمٍ عَنْ هَوَاهُ، أَيْ: بِهَوَاهُ
وَشَهَوَتِهِ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:
الْمَعْنَى: وَمَا يَنْطِقُ الْقُرْآنُ الْمَنْزُولُ عَنْ
هَوَىٰ وَشَهْوَةٍ، وَنَسَبَ تَعَالَى النَّطْقَ
إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ يُفْهَمُ مِنْهُ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا كَيْتَابًا يَنْطِقُ بِكَ
بِالْحَقِّ﴾، وَأَسْنَدَ الْفِعْلَ إِلَى الْقُرْآنِ
وَلَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ ذِكْرٌ لِلدَّلَالَةِ الْمَعْنَى
عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ
يُوحَىٰ﴾ يُرَادُ بِهِ الْقُرْآنُ بِإِجْمَاعٍ،
وَالْوَحْيُ: الْإِقَاءُ الْمَعْنَى فِي خَفَاءٍ،
وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ تَعْمُ الْمَلَكُ وَالْإِلَهَامُ
وَالْإِشَارَةُ وَكُلُّ مَا يُحْفَظُ مِنْ مَعَانِي
الْوَحْيِ. وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿عَلَيْهِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِلْقُرْآنِ،
وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَمَّا
الْمُعَلِّمُ فَقَالَ قَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ، وَابْنُ
عَبَّاسٍ: هُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
أَيُّ: عَلَّمَ مُحَمَّدًا ﷺ الْقُرْآنَ، وَقَالَ
الْحَسَنُ: الْمُعَلِّمُ الشَّدِيدُ الْقُوَى
هُوَ اللهُ تَعَالَى، وَ«الْقُوَى» جَمْعُ قُوَّةٍ،
وَهَذَا فِي جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
مُتِمِّكٌ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذِي
قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، وَ«ذُو
مِرْقَةٍ» مَعْنَاهُ: ذُو قُوَّةٍ، قَالَهُ قَتَادَةُ،
وَابْنُ زَيْدٍ، وَالرَّبِيعُ، وَمِنْهُ قَوْلُ
النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَحُلْ الصَّدَقَةَ

لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»، وَأَضْلَ
الْمِرَّةُ مِنْ مَرَاتِرِ الْحَبْلِ وَهِيَ فَتْلُهُ
وَإِحْكَامُ عَمَلِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ
الْقَيْسِ:

.....
بِكُلِّ مُمْرٍ الْقَتْلُ شُدَّتْ بِبِذْبُلٍ
وَقَالَ قَوْمٌ مِمَّنْ قَالَ إِنَّ «ذَا الْمِرَّةَ»
جَبْرِيلُ: مَعْنَى «ذُو مِرَّةٍ»: ذُو هَيْئَةٍ
حَسَنَةٍ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَاهُ: ذُو
جِسْمٍ طَوِيلٍ حَسَنٍ، وَهَذَا كُلُّهُ
ضَعِيفٌ.

و «أَسْتَوَى» مُسْتَدٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى
فِي قَوْلِ الْحَسَنِ الَّذِي قَالَ: إِنَّهُ
الْمُتَّصِفُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «شَدِيدُ
الْقُوَى»، وَكَذَلِكَ يَجِيءُ قَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿وَمَعَهُ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ صَفَةً لِلَّهِ
تَعَالَى عَلَى مَعْنَى: وَعَظَمَتُهُ وَقُدْرَتُهُ
وَسُلْطَانُهُ نَتَلَقَى نَحْنُ أَنَّهُ بِالْأَفْقِ
الْأَعْلَى، وَيَجِيءُ الْمَعْنَى نَحْوُ قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾،
وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُتَّصِفَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:
«شَدِيدُ الْقُوَى» هُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
قَالَ: إِنَّ «أَسْتَوَى» مُسْتَدٌ إِلَى
جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاخْتَلَفُوا بَعْدَ
ذَلِكَ - فَقَالَ الرَّبِيعُ، وَالزَّجَّاجُ:
الْمَعْنَى: فَاسْتَوَى جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي الْجَوِّ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى
فَرَأَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَرَاءٍ قَدْ سُدَّ
الْأَفْقُ، لَهُ سِتْمَاةٌ جَنَاحٌ، وَحِينَئِذٍ دَنَا
مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى كَانَ قَابَ
قَوْسَيْنِ، وَكَذَلِكَ هُوَ الْمَرْنِي - فِي
هَذَا الْقَوْلِ - فِي «النُّزْلَةِ الْآخِرَى» فِي
صَفَتِهِ الْعَظِيمَةِ لَهُ سِتْمَاةٌ جَنَاحٌ عِنْدَ
السُّدْرَةِ، وَقَالَ الطَّبْرِيُّ وَالْفَرَاءُ:
الْمَعْنَى: فَاسْتَوَى جَبْرِيلُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَعَهُ بِالْأَفْقِ

الْأَعْلَى﴾ يعني محمداً ﷺ وقد
تقدّم ذكره في الضمير في «عَلَيْهِ»،
وفي هذا التأويل العطف على
المُضْمَرِ الْمَرْفُوعِ دُونَ أَنْ يُوَكَّدَ،
ذَلِكَ عِنْدَ النَّحَاةِ مُسْتَقْبَحٌ، وَأَنْشَدَ
الْفَرَاءُ حُجَّةً عَلَى قَوْلِهِ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّبْعَ يَضْلُبُ عُودَهُ
وَلَا يَسْتَوِي وَالْخَزْوَاعُ الْمُتَقَصِّفُ
وَقَدْ يَنْعَكُسُ هَذَا التَّرْتِيبُ فَيَكُونُ
﴿أَسْتَوَى﴾ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَ﴿وَمَعَهُ﴾
لَجَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَمَّا «الْأَعْلَى»
فَهُوَ عِنْدِي لِقِمَّةِ الرَّأْسِ وَمَا جَرَى
مَعَهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: هُوَ أَفْقُ
مُشْرِقِ الشَّمْسِ، وَهَذَا التَّخْصِصُ لَا
دَلِيلَ عَلَيْهِ.

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ، إِلَى مَنْ اسْتَدَّ
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ -
فَقَالَ الْجُمْهُورُ: اسْتَدَّ إِلَى جَبْرِيلَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَيْ: دَنَا إِلَى
مُحَمَّدٍ ﷺ عِنْدَ حَرَاءٍ، فَقَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ، وَأَنْسَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فِي
حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ مَا يَقْتَضِي أَنَّهُ مُسْتَدٌّ
إِلَى اللهِ تَعَالَى، ثُمَّ اخْتَلَفَ الْمُتَأَوِّلُونَ
- فَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ الدُّنُوُّ إِلَى جَبْرِيلَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ إِلَى
مُحَمَّدٍ ﷺ، وَ«دَنَا فَتَدَلَّى» - عَلَى هَذَا
الْقَوْلِ - مَعَهُ حَذْفُ مِضَافٍ، أَيْ: دَنَا
سُلْطَانُهُ وَوَحْيُهُ وَقُدْرَتُهُ، وَالْإِنْتِقَالُ
وَهَذَا الْأَرْصَافُ مُنْتَفِيَةٌ فِي حَقِّ اللهِ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَالصَّحِيحُ عِنْدِي أَنْ جَمِيعٌ مَا فِي
هَذِهِ الْآيَاتِ هُوَ مَعَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكَدْ
رَأَاهُ تَرَلَّةً أُنْزِلَ﴾، فَإِنَّ ذَلِكَ
يَقْتَضِي بَنْزَلَ مُتَقَدِّمَةً، مَا رُويَ قَطُّ أَنَّ
مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ لَيْلَةِ

الإسراء، أما إن رؤية القلب لا تُمنع بحال.

و ﴿وَمَا أَسْمَ مِنْ [تَدْلَى]، فَبَيَّنَ تعالى بقوله: ﴿فَنَدَّكَ﴾ هيئة الذنوب كيف كانت. و ﴿قَابَ﴾ معناه: قَدَّرَ، وقال قتادة وغيره: معناه: من طرف العود إلى طرفه الآخر، وقال الحسن ومجاهد: من الوتر إلى العود في وسط القوس عند المقبض. وقرأ محمد بن السَّمْنَعِ اليماني: ﴿وَكَانَ قَيْسَ قَوْسَيْنِ﴾، والمعنى قريب من قَاب، ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ: ﴿لَقَابَ قَوْسٍ أَحَدَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا﴾، وفي حديث آخر: ﴿لَقَابَ قَوْسٍ أَحَدَكُمْ فِي الْجَنَّةِ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَذَنٌ﴾، معناه: على مقتضى نظر البشر، أي: لو رآه أحدكم لقال في ذلك: قوسان أو أذني، وقال أبو رزين: ليست بهذه القوس ولكن قدر الذراعين أو أذني، وحكى الزهراوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن القوس في هذه الآية ذراع تُقاس به الأطوال، وذكره الثعلبي وأنه من لغة الحجاز.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدُكَ مَا أَوْحَى﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: فأوحى الله تعالى إلى عبده محمد - ﷺ - ما أوحى، وقال بعض العلماء: المعنى: فأوحى الله تعالى إلى عبده جبريل - عليه السلام - ما أوحى، وفي قوله تعالى: ﴿مَا أَوْحَى﴾ إبهام على جهة التخييم والتعظيم، الذي عُرف من ذلك فرض الصلاة. وقال الحسن: المعنى: فأوحى

جبريل إلى عبد الله محمد عليهما الصلاة والسلام ما أوحى، كالأول في الإبهام، وقال ابن زيد: المعنى: فأوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحى الله تعالى إلى جبريل عليهما الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، قرأ جمهور القراء بتخفيف الذال على معنى: لم يكذب قلب محمد عليه الصلاة والسلام الشيء الذي رأى بل صدقه وتحققه نظراً. و ﴿كَذَّبَ يَتَدَلَّى﴾، وقال أهل التأويل - ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو صالح -: رأى محمد ﷺ تعالى بفؤاده، وقال النبي ﷺ: ﴿جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى نَورَ بَصَرِي فِي فُؤَادِي فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِفُؤَادِي﴾، وقال آخرون من المتأولين: ما رآه بعينه لم يكذب ذلك قلبه بل صدقه وتحققه، ويحتمل أن يكون التقدير: «فيما رأى»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - فيما زُوي عنه - وعكرمة، وكعب الأحبار: إن محمد ﷺ رأى ربّه عزَّ وجلَّ بعيني رأسه، ويبسط الزهراوي هذا الكلام عنهم، وأبى عائشة رضي الله عنها، وقالت: أنا سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآيات فقال لي: «هو جبريل فيها كلها»، وقال الحسن: المعنى: ما رأى من مقذورات الله تعالى وملكوته، وسأل أبو ذر النبي ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نورٌ أتى أَرَاهُ»، وهذا هو قول الجمهور، وحديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قاطع لكل تأويل في اللفظ؛ لأن قول

غيرها إنما منتزَع من ألفاظ القرآن. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما - فيما روى عنه هشام -: ﴿مَا كَذَّبَ﴾ بتشديد الذال، وهي قراءة أبي رجاء، وأبي جعفر، وقتادة، والجحدري، وخالد، ومعناه بيّن على بعض ما قلناه، وقال كعب الأحبار: إن الله تعالى قسم الكلام والرؤية بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام: فكلّم موسى مرّتين، ورآه محمد مرّتين، وقالت عائشة رضي الله عنها: لقد قف شعري لسماع هذا، وقلت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ الآية. وذهبت هي وابن مسعود، وقتادة، وجمهور العلماء إلى أن المرثي هو جبريل عليه السلام في المرتين: في الأرض وعند سيدة المنتهى ليلة الإسراء، وقد تقدّم ذلك في سورة الإسراء، وهو مشهور في كتب الصحاح.

وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر هذه السورة كلها بفتح أواخر الآيات فيها، وأمال عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿رَأَى﴾، وقرأ نافع، وأبو عمرو، بين الفتح والكسر، وأمال حمزة والكسائي جميع ما في السورة، وأمال أبو عمرو - فيما روى عنه أبو عبيد -: ﴿الْأَعْلَى﴾ و ﴿نَدَّكَ﴾.

(٢٧) - تفسير قوله عزَّ وجلَّ: قوله تعالى: ﴿أَنفَتَرْتَبَهُ﴾ خطاب لقرش، وهو من المَراء، والمعنى: أتجادلونه في شيء رآه وأبصره؟ وهذه قراءة الجمهور وأهل المدينة، وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس، وابن مسعود، وحمزة

والكسائي: «أَفْتَمَرُونَهُ» بفتح التاء دون ألف بعد الميم، والمعنى: أفتجحدونه؟ وذلك أن قريشاً لما أخبرها رسول الله ﷺ بأمره في الإسراء كذبوا واستخفوا حتى وصف لهم بيت المقدس وأمر غيرهم وغير ذلك مما هو في حديث الإسراء مستقصى، ورواها سعيد عن الثَّخَعِي: «أَفْتَمَرُونَهُ» بضم التاء، قال أبو حاتم: وذلك غلط من سعيد. وقوله تعالى: «يَرَى» مستقبلاً والرؤية قد مضت عبارة تَعْم ما مضى وتشير إلى ما يمكن أن يقع بَعْدُ، وفي هذا نظر.

واختلف الناس في الضمير في قوله تعالى: «وَلَقَدْ رَآهُ» حسب ما قَدَّمناه، فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وكعب الأحبار: هو عائد على الله تعالى، وقال ابن مسعود، وعائشة، ومجاهد، والربيع: هو عائد على جبريل عليه السلام، و«رَآهُ» معناه: مَرَّةً، ونصبه على المصدر في موضع الحال. و«بِذْرَةِ الْمُتَنَهَّى» هي شجرة نَبَق، قال كعب: هي في السماء السابعة، وروى ذلك مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: في السماء السادسة، وقيل لها «سدرة المتنهي»: لأنها إليها ينتهي علم كل عالم، ولا يعلم ما وراءها صُعُداً إلا الله تبارك وتعالى، وقيل: سُمِّيَتْ بذلك لأنها إليها ينتهي من مات على سُنَّة النبي ﷺ، وهم المؤمنون حقاً من كل جيل، وقيل: سُمِّيَتْ بذلك لأن ما نزل من أمر الله تعالى فعندها

يُنْتَلَقَى، ولا يتجاوزها ملائكة العلو، وما صعد من الأرض فعندها يُنْتَلَقَى ولا يتجاوزها ملائكة السفلى، ورُوي عن رسول الله ﷺ: «أَنَّ الْأَسْمَ تَسْتَظِلُّ بِظِلِّ الْفَتْنِ مِنْهَا»، وقال رسول الله ﷺ: «رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبَقُهَا مِثْلُ قَلَالِ هَجَرٍ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيلَةِ».

قوله تعالى: «عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى»، قال الجمهور: أراد تعالى أن يعظم مكان السُدْرَةِ ويشرفه بأن جنة المأوى عندها، قال الحسن: وهي الجنة التي وعد بها المؤمن العالم، وقال قتادة، وابن عباس - بخلاف -: هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء والمؤمنين وليست بالجنة التي وعد بها المؤمنون جنة النعيم، وهذا يحتاج إلى سند، وما أراه يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنس بن مالك - بخلاف - وابن الزبير، وأبو الدرداء، وزُرُّ بن حُبَيْش، وقاتدة، ومحمد بن كعب: «عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى» بالهاء في «جَنَّتْ»، وهو ضمير محمد ﷺ، والمعنى: سَتَرَهُ وَضَمَّهُ إِبْوَءَ اللَّهِ تَعَالَى وَجَمِلَ صُنْعَهُ بِهِ، يقال: «جَنَّتْ» الليل وأَجَنَّتْ، ورَدَّتْ عائشة وصحابة معها رضي الله عنهم هذه القراءة وقالوا: أجن الله من قرأها، والجمهور قرأوا: «جَنَّتْ» كالأية الأخرى: «لَقَدْ جَنَّتْ الْمَأْوَى نَزَلًا»، وحكى الشعلبي أن معنى «جَنَّتْ الْمَأْوَى»: ضَمَّهُ الْمَبِيتُ وَاللَّيْلُ. وقوله تعالى: «إِذْ يَنْتَقَى اللَّيْذَرَةُ مَا يَنْتَقَى»، العامل في «إِذْ»

«رَآهُ»، والمعنى: رآه في هذه الحال، و«مَا يَنْتَقَى» معناه: من قدرة الله تعالى وأنواع الصفات التي يَخْتَرَعُهَا لَهَا، وذلك مُبْتَهَمٌ على جهة التَفْخِيمِ والتَعْظِيمِ، وقال مجاهد: ذَلِكَ تَبَدَّلَ أَغْصَانُهَا دُرّاً وَيَاقُوتاً وَنَحْوَهُ، وقال ابن مسعود، ومسروق، ومجاهد، وإبراهيم: ذلك جراد من ذهب كان يغشاها، وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «رَأَيْتُهَا ثُمَّ حَالَ دُونَهَا فِرَاشٌ مِنَ الذَّهَبِ»، وقال الربيع، وأبو هريرة: كان يغشاها الملائكة كما يغشى الطير الشجر، وقيل غير هذا مما هو تكلف في الآية لأن الله تعالى أبهم ذلك وهم يريدون شرحه، وقد قال رسول الله ﷺ: «فَغَشَّيْهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ».

قوله تعالى: «مَا رَأَى الْبَصَرُ»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: ما حال هكذا ولا هكذا، وقوله تعالى: «وَمَا كُنَّا» معناه: ولا تجاوز الحد المرئي بل وقع عليه وقوعاً صحيحاً، وهذا تحقيق للأمر ونفي لوجوه الريب عنه.

قوله تعالى: «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى»، قالت جماعة من أهل التأويل: لقد رأى الكبرى من آيات ربِّه، والمعنى: من آيات ربِّه التي يمكن أن يراها البشر، فـ «الْكُبْرَى» - على هذا - مفعول بـ «رَآهُ»، وقال آخرون: المعنى: لقد رأى بعضاً من آيات ربِّه الكبرى، فـ «الْكُبْرَى» - على هذا - وصف لـ «آيَاتِ»، والجمع مما لا يعقل في المؤنث يوصف أبداً على حد وصف

الواحدة، وقال ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم: رأى رفرفاً أخضر من الجن قد سد الأفق، وقال ابن زيد: رأى جبريل عليه السلام في الصورة التي هو بها في السموات.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ مخاطبة لقريش، وهي من رؤية العين لأنه أحال على أجرام مرئية، ولو كانت «رأى» التي هي استفاء لم تتعد.

ولما فرغ من ذكر عظمة الله تعالى وقدرته قال - على جهة التوقيف -: أرايتم هذه الأوثان وحقارتها وبعدها عن هذه القدرة والصفات العلية؟

و «اللآت» صنم كانت العرب تعظمه، قال أبو عبيدة وغيره: كان في الكعبة، وقال قتادة: كان بالطائف، وقال ابن زيد: كان بنحلة عند سوق عكاظ، وقول قتادة أرجح، ويؤيده قول الشاعر:

وَقَرَّتْ ثَقِيفٌ إِلَى لَائِنِهَا
بِمُثْقَلِ الْخَائِفِ الْخَاسِرِ

والثاء في «اللآت» لام فعل كالباء من باب، وقال قوم: هي ثاء التأنيث، والتصريف يمنع ذلك، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وأبو صالح: ﴿اللَّاتُ﴾ بشد التاء، وقالوا: كان

هذا الصنم حجراً، وكان عنده رجل من يَهْزُ يَلْتُ سويق الحاج على ذلك الحجر ويخدم الأصنام، فلما مات عبدوا ذلك الحجر الذي كان عنده إجلالاً لذلك الرجل وسَمَوْه باسمه، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير، وابن عامر.

و «العُزَّى» صخرة بيضاء كانت

العرب أيضاً تعبدوها وتُعظمها، قاله سعيد بن جبير، وقال مجاهد: كانت شجيرات تعبد ثم لما بليت انتقل أمرها إلى صخرة، و«عُزَّى» مؤنثة «عزیز» ككُبْرَى وعُظْمَى، وكانت هذه الأوثان تُعَظَّم وتُعبد، الوثن منها له قبيلة تُعَظَّمه، ويحيى كل من عز من العرب فيعظمها بتعظيم حاضرها، وقال أبو عبيدة مغمم: كانت العُزَّى ومناة في الكعبة، وقال ابن زيد: كانت العُزَّى في الطائف، وقال قتادة: كانت بنحلة، وأما مناة فكانت بالمشلل من قديد، وذلك بين مكة والمدينة، وكانت أعظم هذه الأوثان قدراً، وأكثرها عابداً، وكانت الأوس والخزرج تُهَلُّ لَهَا، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَوَنَزَّ النَّازِلَةُ الْآخَرَى﴾ فأكدها بهاتين الصفتين، كما تقول: رأيت فلاناً وفلاناً، ثم تذكر ثالثاً أجل منهما فتقول: وفلاناً الآخر الذي من أمره وشأنه، ولفظه «آخر» و«أخرى» يوصف بهما الثالث من المعدودات، وذلك نص في الآية، ومنه قول ربيعة بن مكرم:

وَلَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بِآخَرِ ثَالِثٍ

وهو التأويل الصحيح في قول الشاعر:

جَعَلْتُ لَهَا عُودَيْنِ مِنْ
نَشْمٍ وَآخَرِ مِنْ نَسَامَةٍ
وقرأ ابن كثير وحده: ﴿وَمَنَاةُ﴾ بالهمزة والمد، وهي لغة فيها، والأولى أشهر وهي قراءة الناس، ومنها قول جرير:

أَزِيدَ مَنَاةَ تُوعِدُ يَا بَنَ تَيْمٍ
تَأْمَلُ أَيْنَ تَأَةً بِكَ الْوَعِيدُ

وقف تعالى الكفار على هذه الأوثان وعلى قولهم فيها؛ لأنهم كانوا يقولون: هي بنات الله، فكأنه قال: أرايتم هذه الأوثان وقولكم هي بنات الله؟ ألكم الذكر وله الأنثى؟ أي: التثنية المستحسن المحبوب هو لكم موجود فيكم، والمذموم المستقل عندكم هو له بزعمكم؟ ثم قال تعالى - على جهة الإنكار -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُتِلَ ضَرِيحٌ﴾ عوجاء، قاله مجاهد، وقيل: ﴿ضَرِيحٌ﴾ معناه: جائرة، قاله ابن عباس وقتادة، وقال سفيان: معناه: منقوصة، وقال ابن زيد: معناه: مخالفة، والعرب تقول: «ضُرْتُه حقُّه أضيُّرُهُ» بمعنى: منعته منه وظلمته فيه، و«ضَرِيحٌ» من هذا التصريف، وأصلها فُعْلَى بضم الفاء «ضَوْرِي» لأنه القياس؛ إذ لا يوجد في الصفات فُعْلَى بكسر الفاء، كذا قال سيبويه وغيره، فإذا كان هذا فهو «ضَوْرِي» كسروا أولها كما كُسر أوَّل «عَيْنٍ وَبَيْضٍ» طلباً للتخفيف؛ إذ الكسرة والياء أخف من الضمة والواو، كما قالوا: «بُيُوتٌ وَعِصِيٌّ» وهي في الأصل فُعُول بضم الفاء، وتقول العرب: «ضُرْتُه أضُرُّهُ»، فكان يلزم على هذا التصريف أن تكون «ضَوْرِي» فُعْلَى، وفي جميع هذا نظر. وقرأ ابن كثير: «ضَرِيحٌ» بالهمز على أنه مصدر كذُكِرَى، وقرأ الجمهور بغير همز.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسَاءَةٌ﴾، يعني تعالى أن هذه الأوصاف - من أنها إناث، وأنها تُعبد من دون الله ألهة ونحو هذا - ما هي

محمد ﷺ، بمعنى أنه لم ينل كرامتنا بتأميل بل بفضل من الله تعالى، أو بمعنى: بل إنه تمنى كرامتنا فنالها؛ إذا الكل لله تعالى يهب من يشاء، هذا ما تقتضيه الآية وإن كان اللفظ يعمه.

و «الْآخِرَةُ وَالْأُولَى»: الداران، أي: له كل أمرهما ملكاً ومقدوراً وتحت سلطانه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ يَن مَّلكٍ﴾ الآية... رُدُّ على قريش في قولهم: «الأوثان شفعاؤنا»، كأنه تعالى يقول: هذه حال الملائكة الكرام فكيف بأوثانكم؟ و﴿وَكَمْ﴾ للتكثير، وهي في موضع رفع بالابتداء، والخبر «لَا تُقْنِي»، والغنى: جلبُ الثَّغفِ ودفع الضرِّ بحسب الأمر الذي يكون فيه الغنى، وجمع الضمير في ﴿سُكِّنْتُمُهمْ﴾ على معنى ﴿وَكَمْ﴾، ومعنى الآية أن يأذن الله تعالى في أن يُشْفِعَ لشخص ما يرضى عنه كما أذن في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجِلُّونَ الصَّرِيحَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ الآية.

(٢٧) - (٣١) تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ هم كفار العرب، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَتُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ بأوصاف الأنوثة، وأخبر الله تعالى عنهم أنهم لا علم لهم بذلك، وإنما هي ظنون منهم لا حجة لهم عليها، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿مَنْ عِلْمٍ إِلَّا تَبَاعُ الظُّنُّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الظُّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾، يعني: في المعتقدات والمواضع التي يريد الإنسان أن يُحَرِّزَ ما يفعل ويعتقد، فإنها مواضع

إلى حسن العاقبة العقل والشرع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْمُدَّةُ﴾ اعتراض بين الكلامين فيه توبيخ لهم؛ لأن سرد القول إنما هو: «إن يتبعون إلا الباطل وما تهوى الأنفس أم للإنسان ما تمنى»، ثم اعترض بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْمُدَّةُ﴾، أي: يفعلون هذه القبائح والهدى حاضر والحال هذه، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْمُدَّةُ﴾ جملة في موضع الحال.

و «الهدى» المشار إليه هو محمد ﷺ وشرعُه، وقرأ ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّكُمُ﴾ بالكاف فيهما، وقال الضحاك عنهما: إنهما قرأا: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.

و «الإنسان» في قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَقْنَى﴾ اسم الجنس، كأنه تعالى يقول: ليست الأشياء بالتمني والشهوات، إنما الأمر كله لله تعالى، والأعمال جارية على قانون أمره ونهيه، فليس لكم أيها الكفرة مرادكم في قولكم: «هذه آلهتنا وهي تشفع لنا وتقرِّبنا زلفى» ونحو هذا. وقال ابن زيد، والطبري: الإنسان هنا هو

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئَلُونَ الْمُؤْمِنِينَ كَشْفَةَ الْأُنْفُسِ ﴿٢٧﴾ وَمَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ سَبَلُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنْ رِبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَسَاءً لِمَا عَمِلُوا وَبِجْزَى الَّذِينَ آخَسُوا بِالْحَسَنِ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كَثَباً أَلَيْسَ الْفَوْحُ حَسّاً إِلَّا لِلَّهِ إِنْ رِبِّكَ وَسِعَ الْغُفْرَةَ هُوَ أَفْضَلُ بِكَ إِذَا أَنْشَأَ كَرِيماً ﴿٣٢﴾ الْأَرْضُ وَإِذَا أَنْشَأَ حِجَةً فِي بَطُونٍ أَمْهَتَكُمْ فَلَا تَذْكُرُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٣﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٤﴾ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَكَذَبَ ﴿٣٥﴾ أَعْنَدَهُ عِلْماً الْغَيْبِ هُوَ بَرُّى ﴿٣٦﴾ أَمْ لَمْ يَلْتَأْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُوسَى ﴿٣٧﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٨﴾ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٤٠﴾ وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى ﴿٤١﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤٢﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٣﴾ وَأَنْ هُوَ أَصْحَاكُ وَأَنْكِ ﴿٤٤﴾ وَأَنْ هُوَ أَمَاتُ وَأَحْيَا ﴿٤٥﴾

إلا أسماء، أي: تسميات اخترعتموها أنتم وآباؤكم، لا حقيقة لها، ولا أنزل الله تعالى بها بُرهاناً ولا حجة، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿سُلْطَانٍ﴾ بضم اللام، وقرأ هو وابن مسعود، وابن عباس، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ بالثاء على المخاطبة، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، ونافع، والأعمش أيضاً، والجمهور: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ بالياء على الحكاية عن الغائب.

و «الظَّنُّ»: مَنَلُ النفس إلى أحد معتقدين متخالفين دون أن يكون ميلها بحجة ولا بُرهان، و«مَرَى» الأنفس» هو إرادتها الملذة لها، وإنما تجد هوى الأنفس دائماً في ترك الأفضل لأنها مجبولة بطبعها على حب الملذ، وإنما يردعها ويسوقها

وحقائق لا تنفع الظنون فيها، وأما في الأحكام وظواهرها فَيُجْزَى فيها بالمظنونان. ثم سلى تعالى نبيه ﷺ وأمره بالإعراض عن هؤلاء الكفرة، وما في الآية من موادعتهم منسوخ بآية السيف. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّهُ إِلَّا الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ معناه أن لا يُصدق بغيرها، وسعيه وعمله إنما هو لندياه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَهُمْ مِنْ الْإِلَهِ﴾ معناه: هنا انتهى تحصيلهم من المعلومات، وذلك أن المعلومات منها ما هي معقولات نافعة في الآخرة، ومنها ما هي أمور فانية وأشخاص بائدة كالفلاحة وكثير من الصنائع وطلب الرياسة على الناس بالمخرقة، وكلها معلومات ولها علم، ومبلغ علم الكفرة إنما هو في هذه الدنياويات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ الآية... متصل في معنى التسلية بقوله تعالى: ﴿تَقَرَّبْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ الآية... وعيد للكفار ووعيد للمؤمنين، وأسند الضلالة والهدى إليهم بكسبهم وإن كان الجميع خلقاً له واختراعاً، واللام في قوله تعالى: ﴿يَجْزَى﴾ متعلقة بقوله تعالى: ﴿مَلَّ﴾، وبقوله تعالى: ﴿أَهْدَى﴾، فكأنه تعالى قال: ليصير أمرهم جميعاً إلى أن يجزي، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ اعتراض بين الكلامين، وقال بعض النحويين: اللام متعلقة بما في المعنى من التقدير، لأن تقديره: والله ما في السموات وما في الأرض

يضل من يشاء ويهدي من يشاء لِيَجْزَى. والنظر الأول أقل تكلفاً من هذا الإضمار، وقال قوم: اللام متعلقة بقوله تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَحْمَتِي وَرَحْمَتِي﴾، وهذا بعيد. والْحُسْنَى هي الجنة، ولا حُسْنَى دونها.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾ المتقدم قبله، و﴿يَحْيُونَ﴾ معناه: يَدْعُونَ جانباً، وقرأ جمهور القراء والناس: ﴿كَثِيرَ الْآثِرِ﴾، وقرأ ابن وثاب، وطلحة، والأعمش، وعيسى، وحمزة، والكسائي: ﴿كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾ على الأفراد الذي يراد به الجمع، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ولا صِدْقِي حَيٍّ، وكقوله تعالى: ﴿وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾.

واختلف الناس في الكبائر، ما هي؟ فذهب الجمهور إلى أنها السبع الموبقات التي وردت في الأحاديث، وقد مضى القول في ذكرها واختلاف الأحاديث فيها في سورة النساء، وتحريم القول في الكبائر أنها كل معصية يوجد فيها حد في الدنيا وتوعّد بنار في الآخرة، أو لعنة أو نحو هذا خاصاً بها، فهي كثيرة العدد، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما - حين قيل له: أَسْبَغَ هي؟ - فقال: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع، وقال زيد بن أسلم: كبير الإثم هنا يراد به الكفر، و«الفواحش» هي المعاصي المذكورة، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ هو استثناء يصح أن

يكون متصلاً، وإن قدرته منقطعاً ساغ ذلك.

واختلف الناس في معنى ﴿اللَّهُمَّ﴾ - فقال ابن عباس، وابن زيد: معناه: ما أَلْمُوا به من الشُّرْكِ والمعاصي في الجاهلية قبل الإسلام، قال الثعلبي، عن ابن عباس، وزيد بن ثابت، وزيد بن أسلم، وأبيه: إن سبب الآية أن الكفار قالوا للمسلمين: قد كنتم بالأسس تعملون أعمالنا، فنزلت الآية، فهي مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناه: إلا ما أَلْمُوا به من المعاصي، الفلته والسقطة دون دوام، ثم يتوبون منه، وذكر الطبري عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال: هي اللَّئِمَةُ من الزُّنَى والسرقة وشرب الخمر ثم لا يعود، وهذا كالذي قبله، فكأن هذا التأويل يقتضي الرِّقْق بالنَّاس في إدخالهم في الوعد بالحسنى؛ إذ الغالب في المؤمنين موقعة المعاصي، وعلى هذا أنشدوا - وقد تمثل به النبي ﷺ :-

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا
وَأَنْتَ عَبْدُكَ لَا أَلْمَا
وقال أبو هريرة، وابن عباس، والشعبي، وغيرهم: اللَّئِمَةُ: صغار الذنوب التي بين الحدّين الدنيا والآخرة، وهي ما لا حدّ فيه ولا وعيد مختصاً بها مذكوراً لها، وإنما يقال صغار بالإضافة إلى غيرها، وإلاّ فهي بالإضافة إلى الناهي عنها كبائر كلها، ويعضد هذا قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حِظَّهُ مِنْ

الزنى لا محالة، فزنى العين النظر، وزنى اللسان النطق، والفرج يكذب ذلك أو يصدقه، فإن تقدم فرجه فهو زان، وإلا فهو السَّم، وزوي أن هذه الآية نزلت في نُبْهَان الثَّمار، فالناس لا يتخلصون من موقعة هذه الصغائر، ولهم - مع ذلك - الحسنى إذا اجتنبوا التي هي في أنفسها كبائر، وتظاهر العلماء في هذا القول وكثر المائل إليه، وذكر الطبري عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: اللَّئِم ما دون الشُّرك، وهذا عندي لا يصح عن عبدالله بن عمرو، وذكر المهدوي عن ابن عباس، والشعبي: اللَّئِم ما دون الزُّنى، وقال نفطوية: اللَّئِم ما ليس بمعتاد، وقال الرُّماني: اللَّئِم الهمُّ بالذنب وحديث النفس به دون أن يواقع، وحكى الشعلبي عن سعيد بن المسيب أنه ما خطر على القلب، وذلك هو لئمة الشيطان، قال الزهرواي: وقيل: اللَّئِم نظرة الفجأة، وقاله الحسن بن الفضل. ثم أسَّ تعالى بعد هذا بقوله: ﴿إِنَّ رَيْكَ وَرَيْحُ الْكَافِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَشَدُّ بِكَرًا﴾ الآية. رُوي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها نزلت بسبب قوم من اليهود كانوا يُعْظَمُونَ أنفسهم، ويقولون للطفل إذا مات عندهم: هذا صديق عند الله تعالى، ونحو هذا من الأقاويل المُمَوِّهة، فنزلت الآية فيهم ثم هي بالمعنى عامة لجميع البشر. وحكى الشعلبي عن الكلبي ومقاتل أنها نزلت في قوم من المؤمنين فخرُوا بأعمالهم. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَشَدُّ

بِكَرًا﴾ قال مكى بن أبي طالب في المشكل: معناه: هو عالم بكم، وقال جمهور أهل المعاني: بل هو التفضيل بالإطلاق، أي: هو أعلم من الموجودين جملة، والعامل في ﴿إِنَّهُ﴾ هو ﴿أَعْلَمُ﴾، وقال بعض النحاة: العامل فيها فعل مضمر تقديره: اذكروا إذ، والمعنى الأول أئين؛ لأنَّ تقديره: فإذا كان علمه قد أحاط بكم وأنتم في هذه الأحوال وقع بكم التخفي فأحرى أن يقع بكم وأنتم تغفلون وتجترحون.

والإنشاء من الأرض يراد به خلق آدم عليه السلام، ويحتمل أن يراد به إنشاء الغذاء، و﴿أَجَّةٌ﴾ جمع جنين، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ظاهره النهي عن أن يُزَكِّي أحد نفسه، ويحتمل أن يكون نهياً عن أن يُزَكِّي بعض الناس بعضاً، وإذا كان هذا فإنما ينهى عن تزكية السمعة والمدح للدنيا، أو القطع بالتزكية، ومن ذلك الحديث في عثمان بن مظعون عند موته، وأما تزكية الإمام والقعدة أهدأ ليوثهم به أو لِيَتَهَمَ الناس بالخير فجائز، وقد زكى رسول الله ﷺ بعض أصحابه، أبا بكر وغيره رضي الله عنهم، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائز للضرورة إليها، وأصل التزكية إنما هو التقوى، والله تعالى هو أعلم بتقوى الناس منكم.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَدَّكَ﴾ الآية. قال مجاهد، وابن زيد، وغيرهما: نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، وذلك أنه كان قد سمع قراءة النبي ﷺ، وجلس

إليه، ووعظه رسول الله ﷺ، فَقَرَّبَ من الإسلام، وطمع النبي ﷺ فيه، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين وقال له: أنت ترك ملَّةَ آبائك؟ أرجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمِلُ لك بكل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد بن المغيرة على ذلك، ورجع عما هم به من الإسلام، وضلَّ ضلالاً بعيداً، وأعطى ذلك المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشحَّ، فنزلت الآية فيه. وذكر الشعلبي عن قوم أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه في قصة جرت له مع عبدالله بن سعيد بن أبي سرح، وذلك كله عندي باطل، وعثمان عن مثله مُتَزَّة. وقال السُّدي: نزلت في العاص بن وائل، فقوله تعالى: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى﴾ - على هذا القول - هو في المال، وقال مقاتل بن حيان في كتاب الثعلبي: المعنى: وأعطى من نفسه قليلاً في قربه من الإيمان، ثم أكْثَى، أي: انقطع ما أعطى، وهذا بين من اللفظ، والآخر يحتاج إلى رواية. و﴿تَوَكَّلْ﴾ معناه: أدبر وأعرض، والمراد: عن أمر الله تعالى، و﴿وَأَكْثَى﴾ معناه: انقطع عطاؤه، وهو مُشَبَّه بالحافر في الأرض، فإنه إذا انتهى إلى كُدَيْة - وهي ما صلب من الأرض - وقف وانقطع حفره، وكذلك: أَجْبَلَ الحافر إذا انتهى إلى جبل، ثم قيل لمن انقطع عمله: أَكْثَى وَأَجْبَلَ.

وقوله تعالى: ﴿أَعِنْدُ عِلْمٍ الْغَيْبِ فَهَوَ بَرَكَةً﴾ معناه: أعلم من الغيب أن

من تحمّل ذنوب آخر فإن المُتَحَمِّلَ
عنه ينتفع بذلك فهو لهذا الذي عَلمَهُ
يرى الحقُّ وله فيه بصيرة، أم هو
جاهل لم يتَبَّنَّ بما في صحف موسى -
وهي التوراة - وفي صحف إبراهيم -
وهي كتب نزلت عليه من السماء -
من أنه لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى؟
أي: لا تحمل حاملة جِملَ أُخْرَى،
ولإنما يؤخذ كل أحد بذنوب نفسه،
فلما كان جاهلاً بهذا وقع في إعطاء
ماله الذي قال له: أَنَا أَتَحَمَّلُ عَنْهُ
ذَرَكِ الْآخِرَةَ.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِي وَفَّى﴾، وفي ما هو المؤثري؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الولي بالولي في القتل ونحوه، فوفى إبراهيم عليه السلام وَبَلَّغَ هذا الحكم من أنه لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، والرابع: وفى طاعة الله تعالى في ذبح ابنه عليهما السلام، وقال الحسن، وابن جُبَيْر، وقتادة: وفى تبليغ رسالته والمجاهدة في ذات ربه تعالى، وقال عكرمة: وفى هذه العشر الآيات: ﴿أَلَا نُرِزُّ وَرِزَّةً وَرَدًّا أُخْرَى﴾ ﴿﴾ فما بعدها، وقال ابن عباس، وقتادة، وعكرمة: وفى ما افترض عليه من الطاعات على وجهها، وتكملت له شعب الإيمان والإسلام، فأعطاه الله تعالى براءته من النار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وفى شرائع الإسلام ثلاثين سهماً، وقال أبو أمامة - ورفعه إلى النبي ﷺ: وفى أربع

صلوات في كل يوم،
والأقوى من هذه كلها
القول العام لجميع
الطاعات المستوفية لدين
الإسلام، فروي أنها لم
تفرض على أحد مكتملة
فوقها إلا على إبراهيم
ومحمد ﷺ، ومن الحجة
لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا
أَتْلُوهُ إِلَّا بِإِذْنِ رَبِّهِ
يَكُونَنَّ قُلُوبُكَ

وقرأ ابن جُبَيْر، وأبو مالك، وابن السميع: ﴿وَقَى﴾ مخففة الفاء، والخلاف فيهما وقى به كالخلاف فيما وقاه على القراءة الأولى التي فسرنا،

ورويت هذه القراءة عن النبي
وقرأها أبو أمامة.

و «الوزر»: الثقل، وأنت «الوازنة»
 إنما لأنه أراد النفس، وإما أنه أراد
 المبالغة كعلامة ونسابة وما جرى
 مجراهما، و«أن» في قوله سبحانه:
 ﴿أَلَّا نَرَىٰ﴾ مخففة من الثقيلة،
 وتقديرها: أنه لا تزل، وحسن
 الحائل بينها وبين الفعل أن بقي
 الفعل مرفوعاً، فهي كقوله تعالى:
 ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكَ رَاحِلٌ﴾ ونحوه،
 و«أن» في موضع رفع أو خفض
 كلاهما مترتب.

٣٩ - ٥١ تفسیر قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ﴾، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَأَنْ﴾ ﴿وَأَنْتُمْ﴾ معطوف كل ذلك على ﴿أَنْ﴾ المقدرة، ثم قال تعالى: ﴿أَلَا نُرِزُّ زُبُرَهُ﴾، وهي كلها بفتح الألف في قراءة

وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۖ مِن تَلْفَعَةٍ وَأُنْثَى ۖ وَأَن
عَلَيْهِ النِّشَآءُ الْآخِرَى ۖ هُوَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ وَهُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ ۖ وَأَنَّهُ أَعْلَمُ عَادَاتِ الْأُولَى ۖ وَسَمِعَ إِفَّا الْآخَى ۖ
وَقَدْ نُوْحٌ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَكْثَرُ عِلْمٍ وَالْعَوْنُكَ
أَعْوَى ۖ فَسَنَنْهَا مَاعِشَى ۖ بِأَيِّ آلَةٍ رَّبِّكَ تَسْأَلَى ۖ
هَذَا آيَةٌ مِّنَ الذِّكْرِ الْأُولَى ۖ أَوَلَيْتَ الْآيَةَ ۖ لَمِيسَ لَهَا مِن
دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۖ وَإِن هَذَا لَوَإِذٍ يَّحْجِبُونَ ۖ فَتَضَعُ حَكْرَ
وَلَا تَكُنْ ۖ وَأَمَّا سَيِّدُونَ ۖ فَاعْلَمُوا وَلَوْ أَعْبَدُوا ۖ

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَفَرَأَيْتَ السَّاعَةَ وَاشْفَى الْفَسْرُ ❶ وَإِنْ رَوَّاءُ آتِيَةً يَرْضُوا
وَيَقُولُ لِمَ إِسْعُرْتُمْ سَيْرَ ❷ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَ هَـٰٓؤُلَاءِ
وَكَأَلِ امْرِئٍ مُّسْتَقَرًّا ❸ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ
مُؤَيَّدَةٌ مَّرَدِّجُهُ ❹ حَكِيمَةٌ مُّؤَيَّدَةٌ فَطَافَتِ الْأَنْدُرُ
فَمَوَّلَتْ عَنْهُمْ ❺ فَمَوْلَتْ عَنْهُمْ إِلَى مَعَىٰ وَعَكَبَتْ ❻

الجمهور، وقرأ أبو السمال قعنب:
﴿وَإِنِ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُتَعَنَى﴾ بكسر
الهمزة فيها وفيما بعدها، وزوي عن
ابن عباس رضي الله عنهما أن
قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا
سَعَىٰ﴾ منسوخ بقوله تعالى:
﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِذْنِ
أَلْفَنَّا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وهذا لا يصح
عندي عن ابن عباس
رضي الله عنهما لأنه خبر لا يُسَخَّ،
ولأن شروط النسخ ليست هنا اللهم
إلا أن يُتَجَوَّزَ في لفظة النسخ ليفهم
سائلاً، وقال عكرمة: هذا الحكم
كان في قوم إبراهيم وموسى عليهما
السلام، وأما هذه الأمة فلها سَعَى
غيرها، والدليل حديث سعد بن
عبادة، قال: يا رسول الله: هل
لأمي إن تطوعت عنها أجر؟ قال: نعم،
وقال الربيع بن أنس: هذا

الإنسان في هذه الآية هو الكافر، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره، وسأل عبدالله بن طاهر بن الحسين والي خراسان الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْفِيكَ إِيمَانًا﴾، فقال له: ليس له بالعدل إلا ما سعى، وله بفضل الله ما شاء الله، فقبل عبدالله رأس الحسين، وقال الجمهور: الآية محكمة. والتحرير عندي في هذه الآية أن ملاك المعنى هو في اللام من قوله تعالى: ﴿لِلْإِنْسَانِ﴾، فإذا حققت الشيء الذي حق الإنسان أن يقول فيه: «لي كذا» لم تجده إلا سعيه، وما تمَّ بغد من رحمة بشفاعة أو رعاية أب صالح أو ابن صالح أو تضعيف حسنات أو تغمد بفضل أو رحمة دون هذا كله، فليس هو للإنسان ولا يسعه أن يقول: «لي كذا وكذا» إلا على تجوز وإلحاق بما هو له حقيقة، واحتج بهذه الآية من يرى أنه لا يعمل أحد عن أحد بعد موته بيدن ولا مال، وفروق بعض العلماء بين البدن والمال، وهي عندي كلها فضائل للعامل وحسنات تُذكر للمعمول عنه، وقد أمر رسول الله ﷺ سعداً رضي الله عنه بالصدقة عن أمه، والسُّغْي: الكسب.

وقوله تعالى: ﴿يَرَى﴾ فاعله حاضرو القيامة، أي: يراه الله تعالى ومن شاهد الأمر، وفي عرض الأعمال على الجميع تشريد للمُحسنين وتوبيخ للمُسيئين، ومنه قول النبي ﷺ: «من سَمِعَ بأخيه فيما يكره سَمِعَ الله به سامع خلقه يوم القيامة».

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعْزِلُهُ الْآجِرَةَ الْآزِقَةَ﴾ وعيد للكافرين ووعد للمؤمنين.

و «الْمُنْتَهَى»: يحتمل أن يريد به الحشر والمصير بعد الموت، فهو مُنتهى بالإضافة إلى الدنيا وإن كان بعده مُنتهى آخر هو الجنة أو النار، ويحتمل أن يريد بالمنتهى الجنة أو النار، فهو منتهى على الإطلاق، ولكن في الكلام حذف مضاف، أي: إلى عذاب ربك ورحمته، وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لَكَ رَبِّكَ آلُتْنِي﴾: «لا فكرة في الرب»، وروى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا ذكر الرب فانتهوا»، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: خرج رسول الله ﷺ يوماً على أصحابه فقال: «فيم أنتم؟» قالوا: نتفكر في الخالق سبحانه وتعالى، فقال عليه الصلاة والسلام: «تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ فَإِنَّهُ لَا تَحِيطُ بِالْفِكْرَةِ...» الحديث.

وذكر تعالى الضحك والبكاء لأنهما صفتان تجمعان أصنافاً كثيرة من الناس؛ إذ الواحدة دليل السرور والأخرى دليل الحزن في الدنيا والآخرة، فنبتة تعالى على هاتين الخاصتين اللتين هما للإنسان وحده، وقال مجاهد: المعنى: أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار، وحكى الثعلبي في هذا أقوالاً استعارية كَمَنْ قال: أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر، ونحوه، ﴿وَأَمَّاكَ وَآخِيَا﴾ بَيَّنَّ، وحكى الثعلبي قولاً أنه

أحباً بالإيمان وأساءت بالكفر. و «الرُّؤُوسَيْنِ» في هذه الآية يريد به المُضْطَّحَّيْنِ من الناس، من الرجل المرأة وما ضارع من الحيوان، والخشْي مُتَمَيِّزٌ ولا بُدَّ لإحدى الجهتين.

و «النُّطْفَةُ» في اللغة: القطعة من الماء كانت يسيرة أو كثيرة، ويراد بها هنا الذُكْران، وقوله: ﴿تَمَتَّى﴾ يحتمل أن يكون من قولك: [أمتى الرجل] إذا خرج منه المني، ويحتمل أن يكون من قولك: «مَتَى الله الشيء» إذا خلقه، فكأنه قال: إذا تُخَلِّقُ وتَقْدِّرُ، و «النُّشْأَةُ الأُخْرَى» هي إعادة الأجسام إلى الحشر بعد البلى في التركيب، وقرأ الناس: «النُّشْأَةُ» بسكون الشين وبالهزمة والقصر، وقرأ أبو عمرو، والأعرج: «النُّشْأَةُ» بمدودة، و«أَتَى» معناه: أَكْسَبَ، تقول: قَنِيتُ المال أي: كسبته، ثُمَّ تُعَدَّى بعد ذلك بالهزمة، وتُعَدَّى بالضعيف، ومنه قول الشاعر:

كَمْ مِنْ غَنِيٍّ أَصَابَ الدُّهْرُ قُرْوَتَهُ
وَمِنْ فَقِيرٍ تَقَنَّى بَعْدَ إِفْلَالٍ
وعبر المفسرون عن «أَتَى» بعبارات مختلفة، فقال بعضهم: أَتَى معناه: اكْتَسَبَ ما يُقْتَنِي، وقال مجاهد: معناه: أَزْضَى وَأَغْنَى، وقال حزمي: معناه: أَغْنَى نفسه و«أَتَى» أفقر عباده إليه، وقال الأخفش: أَغْنَى: أفقر، وهذه عبارات لا تقتضيا اللفظة، والوجه فيها بحسب اللغة: أَكْسَبَ ما يُقْتَنَى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَتَى: أَفْنَعَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والقناعة خير قنينة، والغنى عَرْضُ
زائل، فَاللهُ دَرُ ابن عباس
رضي الله عنهما.

و «الشُعْرَى»: نجم في السماء،
وقال مجاهد وابن زيد: هو مزْمُ
الجوزاء، وهما شعريان: إحداهما
الغميصاء والأخرى العُبُور، لأنها
عبرت المَجْرَةَ، وكانت خزاعة ممن
يعبد هذه الشعري، ومنهم أبو كبشة،
ذكره الزهرواي والشعلبي، واسمه
عبد الشعري، فلذلك خُصَّتْ
بالذكر، أي: وهو ربُّ هذا المعبود
الذي هو لكم.

و «عَادَ»: قوم هود، واختلف في
معنى وصفها بالأولى - فقال ابن زيد
والجمهور: ذلك لأنها في
وَجْه الدَّهْرِ وقديمه، فهي أولى
بالإضافة إلى الأُمَم المتأخرة،
وقال الطبري: سميت بالأولى لأن
عاداً أخيرة - وهي قبيلة - كانت بمكة
مع العماليق وهم بَنُو لَقَيْم بن هِزَال،
والقول الأول أَبْسَن؛ لأن هذا
الأخير لم يصح، وقال المبرد: عاد
الآخيرة هي ثمود، والدليل قول
زهير:

.....
كَأَخْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَنْفِطِمْ
ذكره الزهراوي، وقيل: الآخيرة:
الْجَبَارُونَ. وقرأ ابن كثير، وعاصم،
وابن عمر، وحزمة، والكسائي:
«عَادًا» منونة «أَلَوَلَى» مهموزة،
وقرأ نافع فيما يروى عنه: «عَادَ
أَلَوَلَى» بإزالة التنوين والهمز، وهذا
كقراءة من قرأ: «أَحَدُ الله»، وكقول
الشاعر:

.....
وَلَا ذَاكِرِ الله إِلَّا قَلِيلًا
وقرأ قوم: «عَادِ الْأَوَلَى»،
والنطق بها «عَادِنِ الْأَوَلَى»، اجتمع
سكون نون التنوين وسكون لام
التعريف فكَسرت النون لالتقاء
الساكنين، ولا فرق بينها وبين قراءة
الجمهور إِلَّا ترك الهمز، وقرأ نافع
أيضاً، وأبو عمرو بالوصل
والإدغام: «عَادًا لَوَلَى» بإدغام
النون في اللام ونقل حركة الهمزة
إلى اللام، وعاب أبو عثمان
المازني والمبرد هذه القراءة وقال:

إن هذا النقل لا يخرج اللام عن
حدِّ السكون، وحتى ألف الوصل أن
تبقى كما تقول العرب إذا نقلت
الهمزة من قولهم: «الْأَخْمَرُ» فإنهم
يقولون: «الْخَمَرُ جاء»، فكذلك
يقال هنا: «عادًا لِلْوَلَى»، قال أبو
علي: والقراءة سائغة، وأيضاً فمن
العرب من يقول: «لَخَمَرُ جاء»
فيحذف الألف مع النقل وَيَغْتَدُّ
بحركة اللام ولا يراها في حكم
السكون، وقرأ نافع فيما روي عنه:
«عَادًا لَلْوَلَى»، بهمز «اللَّوَلَى»،
يهمز الواو، ووجه ذلك أنه لم
يكن بين الواو والضمة حائل يحمل
الهمزة فهمزها كما تهمز
الواو المضمومة، وكذلك فعل من
قرأ: «عَلَى سُوَيْقِهِ»، وكما قال
الشاعر:

لَحَبِّ الْمُؤَقِدَانِ إِلَيَّ مُؤَسَى
.....
وهي لغة. وقرأ الجمهور:
«وَتَمُودًا» بالنصب عطفاً على
«عَادًا»، وقرأ عاصم، والحسن،

وعصمة: «وَتَمُودًا» بغير صرف،
وهي في مصحف ابن مسعود
رضي الله عنه بغير ألف بعد
الذال.

وقوله تعالى: «فَتَأْتَيْنِ» ظاهره:
فما أبقى عليهم، وتأول ذلك
بعضهم: فما أبقى منهم عينا
تطرف، وقد قال ذلك الحجاج حين
سمع قول من يقول: إن ثقيفاً من
ثمود، فأنكر ذلك وقال:
إن الله تعالى قال: «وَتَمُودًا فَتَأْتَيْنِ»
وهؤلاء يقولون: بقي
منهم باقية.

٥٢ - ٥٣ تفسير قوله عز وجل:
نصب «قَوْرٍ نُوحٍ» عطفاً على
«وَتَمُودَ»، وقوله تعالى: «مِنْ
قَبْلُ» لأنهم كانوا أول أمة كذبت
من أهل الأرض، و«نوح» أول
الرُّسُل، وجعلهم «أَظْلَمَ وَأَطْغَى»
لأنهم سبقوا إلى التكذيب دون
اقتداء بأحد قبلهم، وأيضاً فإنهم
كانوا في غاية من العُتُو، وكان عُمرُ
نوح عليه السلام قد طال في
دعائهم، وكان الرجل يأتي إليه مع
ابنه فيقول: احذرْكَ من هذا الرجل
فإنه كذاب، ولقد حذرنِي منه أبي
وأخبرني أن جَدِّي حذَّره منه،
فمشت على هذا أخلاقهم ألفاً إِلَّا
خمسِينَ عاماً.

و «الْمُؤْتَفِكَةُ» قرية قوم لوط عليه
السلام بإجماع من المفسرين،
ومعنى «الْمُؤْتَفِكَةُ»: المتقلبة؛ لأنها
أَفِكَتْ فأنفكت، ومنه «الإفْكُ» لأنه
قَلْب الحق كذباً، وقرأ الحسن بن
أبي الحسن: «وَالْمُؤْتَفِكَاتِ» على

الجمع، و﴿أَهْوَى﴾ معناه: طرحها في هواء عال إلى أسفل، وهذا ما روي من أن جبريل عليه السلام اقتلعها بجناحه حتى بلغ قرب السماء فهبط الجميع، ثم اتبعوا بحجارة، وهي التي غشاها الله تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿يَبَايَآءَ بَيْنَهُمْ﴾ تخالفاً للإنسان الكافر، كأنه قيل له: هذا هو الذي له هذه الأفاعيل، وهو خالقك المنعم عليك بكل النعم، ففي أيها تشك؟ و﴿تَنَازَعُوا﴾ معناه: تَنَازَعُوا، وقرأ يعقوب: ﴿رَبِّكَ تَمَارَى﴾ بتاء واحدة مشددة، وقال أبو مالك الغفاري: إن قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَرَىٰ ذُرِّيَّتَهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تَنَازَعُوا﴾ هو في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

وقوله تعالى: ﴿مَهَذَّابُنَا﴾ يحتمل أن يشير إلى محمد ﷺ، وهو قول قتادة، وأبي جعفر، ومحمد بن كعب القرظي، ويحتمل أن يشير إلى القرآن، وهو تأويل قوم، وقال أبو مالك: الإشارة بهذا التذير إلى ما سلف من الأخبار عن الأمم، و﴿نَذِيرٌ﴾ يحتمل أن يكون بناء اسم فاعل، ويحتمل أن يكون مصدرًا، و﴿نُذِرْ﴾ جمع نذير، وقال: ﴿أَلَّا تَرَىٰ﴾ بمعنى أنه في الرتبة والأوصاف والمنزلة من تلك المتقدمة، والأشبه أن تكون الإشارة إلى محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنزَلْتُ﴾ معناه: قربت القربة، و﴿الْأَرْزَاقُ﴾

عبارة عن القيامة بإجماع من المفسرين، و﴿أَرْزَفَ﴾ معناه: قُرِبَ جدًا، وقال كعب بن زهير:

بَانَ الشَّبَابُ وَأَنْسَى الشَّبَبُ قَدْ أَرْزَفَا
وَلَا أَرَى لِشَبَابٍ ذَاهِبٍ خَلْفًا
وقوله تعالى: ﴿كَاشِفَةٌ﴾ يحتمل أن يكون صفة لمؤنثة، والتقدير: حال كاشفة، أو مئة كاشفة، أو سعاية، قال الرُّمَّانِي: أو جماعة، ويحتمل أن يكون مصدرًا كالعاقبة و﴿مَائِنَةٌ﴾ و﴿أَلْعَنُي﴾، ويحتمل أن يكون بمعنى «كاشف» والهاء للبالغة، كما قال تعالى: ﴿فَبَلَّ تَرَىٰ لَهُمْ مِن بَاطِنٍ﴾، وأما معنى ﴿كَاشِفَةٌ﴾ فقال الطبري، والزجاج: هو من كشف السر، أي: ليس من دون الله من يكشف وقتها ويعلمه، وقال الزهراوي عن منذر بن سعيد: هو من كشف السر ودفعه، أي: ليس من يكشف هولها وخطبها، وقرأ طلحة: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنَّا تَذْصُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ وَهِيَ عَلَى الظَّالِمِينَ سَاءَتِ الْفَاشِيَةُ﴾.

و﴿مَهَذَّابُنَا﴾ هو القرآن، وقوله تعالى: ﴿أَنْمَنَ﴾؟ توقيف وتوبيخ، وفي حرف أبي، وابن مسعود رضي الله عنهما: ﴿تَنْجِبُونَ﴾ و﴿تَنْجِبُونَ﴾ بغير واو عطف. وقرأ الحسن: ﴿تَنْجِبُونَ تَضْجِبُونَ﴾ بضم التاء فيهما وكسر الجيم والحاء وحذف واو العطف، وفي قوله تعالى وجل: ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حض على البكاء عند سماع القرآن، وروى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا

القرآن أنزل يُخَوِّفُ، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتابكوا»، ذكره الثعلبي.

و«السَّامِدُ»: اللاعب اللاهي، وبهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين، وقال الشاعر:

قَبْلَ قَسَمٍ فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ
ثُمَّ دَعْ عَنْكَ الشُّمُودَا
و«سَمَدٌ» بلغة جُمَيْر: غَيٌّ، وهذا كله معنى قريب بعضه من بعض، وأسند الطبري عن أبي خالد الوالبي، قال: خرج علينا علي رضي الله عنه ونحن قيام ننتظره للصلاة فقال: مالي أراكم سامدين؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يشبه أنه رآهم في أحاديث ونحوها مما يُظَنُّ أنه غفلة ما، وقال إبراهيم: كانوا يكرهون أن ينتظروا خروج الإمام قيامًا، وفي الحديث: «إذا أقيمت الصلاة فلا تقوموا حتى تروني».

ثم أمر تعالى بالسجود وعبادة الله تعالى تحذيرًا وتخويفًا، وها هنا سجدة في قول كثير من أهل العلم منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وردت بها أحاديث صحاح، وليس يراها مالك رحمه الله تعالى، وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: إنه قرأ بها عند النبي ﷺ فلم يسجد.

ثم تفسير سورة النجم والحمد لله رب العالمين

**تفسير
سورة القمر**

وهي مكّة بإجماع إلا آية واحدة
اختلف فيها، فقال جمهور الناس:
هي مكّة، وقال قوم: هي مما نزل
يوم بدر، وقيل: بالمدينة، وهي
قوله تعالى: ﴿سَبِّحْهُمُ الْجَمْعَ وَيُؤْتُونَ
الذِّكْرَ﴾، وسيأتي القول في
ذلك.

١ - تفسير قوله عز وجل: ﴿اَقْرَبَ﴾ معناه: قربت إلا أنه أبلغ، كما أن اقترَد أبلغ من قَدَر، و﴿السَّاعَةُ﴾ القيامة، وأمرها مجهول التحديد، لم يعلم إلا أنها قُرِبت دون تحديد، وقال النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وأشار بالسَّبَّابَةِ والوسطى، وقال أنس رضي الله عنه: خطب رسول الله ﷺ وقد كادت الشمس تغيب، فقال: «ما بقي من الدنيا فيما مضى إلا كمثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى»، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنِّي لأُرْجُو اللَّهَ أَنْ يُؤَخِّرَ أَمَّتِي نِصْفَ يَوْمٍ» وهذا منه ﷺ على جهة الرجاء والظن، لم يجزم به خبراً، فأناف الله تعالى على أمله وأخر أمته أكثر من رجائه، وكل ما يَروى في عمر الدنيا من التحديد فضعف واهن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنشَأَ الْقَمَرُ﴾
إخباراً عما وقع في ذلك، وذكر
الشعبي في ذلك أنه قيل: إن
المعنى: يئنق القمر يومئذ، وهذا
ضعيف والأمة على خلافه، وذلك

أَن قَرِيشًا سَأَلَتْ
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ آيَةً، فَقِيلَ:
 مَجْمَلَةٌ - وَهَذَا قَوْلُ
 الْجُمْهُورِ - وَقِيلَ: بَلْ
 عَيْنُنَا شَقَّ الْقَمَرِ، ذَكَرَهُ
 الثَّعْلَبِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،
 فَأَرَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى انْشِقَاقَ
 الْقَمَرِ، فَسَرَّاهُ
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَجَمَاعَةً
 مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَافِرِ،
 فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«اشهدوا»، وممن قال من
الصحابه رأيتُه: عبدالله بن
مسعود، وجبير بن
مطعم، وأخبر به
عبدالله بن عمر، وأنس،

وابن عباس، وحذيفة بن اليمان،
وقال المشركون عند ذلك: سحرنا
محمد، وقال بعضهم: سحر القمر،
وقالت قريش: استخبروا المسافرين
القادمين عليكم، فما ورد أحد إلا
أخبر بانشقاقه، وقال ابن مسعود:
رأيتُه انشَقَّ فذهبت فرقة وراء جبل
حراء، وقال ابن زید: كان يُرى
نصفه على ثَمِينَتَيْنِ وَالْآخَرُ عَلَى أَبِي
قُبَيْسٍ، وقرأ حذيفة: ﴿اَقْتَرَبَتِ
السَّاعَةُ وَقَدْ انشَقَّ الْقَمَرُ﴾، وذكر
الشملي عنه أن قراءته: ﴿اَقْتَرَبَتِ
السَّاعَةُ انشَقَّ الْقَمَرُ﴾ دون واء.

قوله تعالى: ﴿إِن يَرَوْا آيَةً يُرْءَاكِبْ﴾، جاء اللفظ مستقبلاً لينتظم ما مضى وما يأتي، فهو إخبار بأن حالهم هكذا، واختلف الناس في معنى ﴿يُرْءَاكِبْ﴾ - فقال الزجاج: قيل: معناه دائم مُتَمَادٍ، وقال قتادة،

خُسُفًا أَبْصَرَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ عَرَادٌ مُتَشَفِّرٌ ①
مُطِيعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكُفْرُونُ هَذَا صَوْرٌ مُتَشَفِّرٌ ②
قَالَهُمْ قَوْمٌ مُنْجٍ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَالُوا بِحُجْرَتِنَا وَآذَنُوا ③
رَبَّهُمْ أَنَّى مُعَارَفُ قَاتِنِينَ ④ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا هُمْ مُتَشَفِّرُونَ ⑤
وَعَبَّرْنَا أَسْفَلَ الْأَرْضِ عَمَهُمْ فَاذْهَبْنَا عَنْهُمْ أَفْقًا مَعْدُودًا ⑥
وَحَمَلْنَاهُمْ عَلَى ذُلِّ آلِ الْوُجُهِ وَهُمْ مُتَشَفِّرُونَ ⑦ فَجَرَّيْنَا عَنْهَا كِحَالَ كَلْبٍ إِذَا
فُكِّفَ ⑧ وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهَا بِآيَةٍ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑨ فَكَيْفَ كَانَ
عَلَيَّ وَنَذَرُ ⑩ وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقَوْمَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑪
كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَلَيَّ وَنَذَرُ ⑫ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا صَرْصَرًا يَوْمَ عَجَسٍ مُتَشَفِّرِينَ ⑬ نَزَعَ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ عَجَبَارُ
فَخَلَّ شُعَيْرٌ ⑭ فَكَيْفَ كَانَ عَلَيَّ وَنَذَرُ ⑮ وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقَوْمَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑯ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالدَّنَازِ ⑰ فَقَالَ الْغَمَرُ
نَسْنَا وَاحِدًا أَنْتُمْ عِدَاؤُنَا إِنَّا أَنَّى صُلْبِي وَسُفَرُ ⑱ إِنَّمَا الذِّكْرُ عَلَيْهِ
مِنْ بَيْنِنَا لَدَهُمْ كَذَّابٌ ⑲ أَشِرُّ ⑳ سَعَتِمْ مَنْ عَدَا مِنْ الْكَذَّابِ
لَا يُرَى ㉑ إِنَّمَا مَرَسُولُوا النَّاسُ وَفَنَدَّ لَهُمْ فَانْتَهَبُوا ㉒ وَاصْطَبَرُوا ㉓

ومجاهد، والكسائي، والفراء:
معناه: ذاهبٌ مارٌّ عن قريب يزول،
وقال الضحّاك، وأبو العالية: معناه:
مشدودٌ، من مرارير الجبل، كأنه سخرٌ
قد استتمّر، أي: أخكم، ومنه قول
الشاعر:

حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَذْرِ مَرِيْرَتِهِ
صَدَقَ الْعَزِيْمَةُ لَا زَنَا وَلَا ضَرَعًا
ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ كَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا
شَهَوَاتِهِمْ وَمَا يَهْوُونَ مِنَ الْأُمُورِ، لَا
بِذَلِيلٍ وَلَا يَتَنَبَّهَتْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى -
عَلَى جِهَةِ الْخَبَرِ الْجَزْمِ -: ﴿وَكُلُّ
أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾، كَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ:

وكلُّ شيءٍ إلى غاية، فالحق يستقر
ثابتاً ظاهراً، والباطل يستقر زاهقاً
ذاهباً، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع:
﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ بالجرِّ في
[المُسْتَقَرِّ]، يعني بذلك أشرطها،
والجمهور على كسر القاف من

﴿مُسْتَقَرٌّ﴾، وقرأ نافع - بخلاف - وابن نصاح بفتحها، قال أبو حاتم: لا وجه لفتحها، و«الأنباء» جمع نبي، ويدخل في هذا جميع ما جاء به القرآن من المواعظ والقصص ومثلات الأمم الكافرة، و﴿مُرْجَرُ﴾ معناه: موضع زجر وانتهاء، وأصله «مُرْجَرٌ» قلبت التاء دالاً ليناسب مخرجها مخرج الزاي، وكذلك تبدل تاء «افتعل» من كل فعل أوله زاي كازْدَلَفَ وازْدَادَ ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ﴾ مرتفع إمّا على البدل من ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَدْعُ﴾، وإمّا على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هذه حكمة، و﴿بَلَلَةٌ﴾ معناه: يبلغ المقصد بها من وعظ النفوس والبيان لمن له عقل، وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَتَنَّى﴾ أَلْتَدْرُكُ؟ يحتمل أن تكون [مَا] نافية، أي: ليس تُغني مع عتوّ هذا الناس، ويحتمل أن تكون استفهاماً بمعنى التقرير، أي: فَمَا غَنَاءُ التَّدْرِكِ؟ هؤلاء الكفرة؟

ثم سأل تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: لا تذهب نفسك عليهم حسرات، وتَمَّ القول في قوله تعالى: ﴿عَنْهُمْ﴾، ثم ابتداءً وعيدهم، والعامل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ قوله تعالى: ﴿يَجْزِيكَ﴾، و﴿خُشَعًا﴾ حال من الضمير في ﴿يَجْزِيكَ﴾، وتصرف الفعل يقتضي تقدم الحال، قال المهدوي: ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿عَنْهُمْ﴾، وقال الرُّمَّانِي: المعنى: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ واذكر يوم، وقال الحسن: المعنى: فتولَّ عنهم

اليوم، وانحذفت الواو من ﴿يَتَدَعُ﴾ لأن كَتَبَ المصحف اتَّبَعُوا اللَّفْظ لا ما يقتضيه الهجاء، وأمّا حذف الياء من ﴿الدَّعِ﴾ ونحوه فقال سيبويه: حذفوها تخفيفاً، وقال أبو علي، حذف مع الألف واللام؛ إذ هي تحذف مع معاقبها وهو التنوين، وقرأ جمهور القراء: ﴿إِلَّا تَتَذَكَّرُ﴾ بضم الكاف، وقرأ ابن كثير، وشبل، والحسن: ﴿تَذَكَّرُ﴾ بسكون الكاف، وقرأ مجاهد، والجحدري، وأبو قلابة: ﴿تَذَكَّرُ﴾ بكسر الكاف وفتح الراء على أنه مبني للمفعول، والمعنى في ذلك كله أنه منكور غير معروف ولا يُرى مثله، قال الخليل: التَّكْرُ نَعَتْ للأمر الشديد والرجل الداهية، وقال مالك بن عوف النَّضْرِي:

أَفْدِيمَ مُحَاجٍ إِنَّهُ يَوْمٌ تُكْرَرُ
مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ يَخْمِي وَيَكْرُرُ
و «تُكْرَرُ» فَعْلٌ، وهو صفة، وذلك قليل من الصفات، ومنه «مِشْيَةٌ سَجَّحَ» قال الشاعر:

دَعَا التَّخَايُفُ وَامْشُوا مِشْيَةً سَجَّحاً
إِنَّ الرُّجَالَ ذُوو عَضْبٍ وَتَذَكِيرُ
ومثله: «رَجُلٌ شُلٌّ» و«نَاقَةٌ أُجْدٌ».

وقرأ جمهور القراء: ﴿خُشَعًا﴾، وهي قراءة الأعرج، وأبي جعفر، وشيبة، والحسن، وقتادة. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿خَاشِعًا﴾، وهي قراءة ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والجحدري، وهي إفراد بمعنى الجمع، ونظيره قول الشاعر:

وَسَبَابَ حَسَنٍ أَوْجَهُهُمْ
مِنْ إِسَادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعْدُ

وَرَجَّحَ أَبُو حَاتِمٍ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ، وَذَكَرَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمَنْطُوعَةِ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَشْهَدَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّوْمِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ «خُشَعًا» وَ«خَاشِعًا»، فَقَالَ: «خَاشِعًا»، بِالْأَلْفِ، وَفِي مَصْحَفِ أَبِي بَنِي كَعْبٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «خَاشِعًا»، وَخَصَّ تَعَالَى الْأَبْصَارَ بِالْخُشُوعِ لِأَنَّهُ فِيهَا أَظْهَرَ مِنْهُ فِي سَائِرِ الْجَوَارِحِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيَاءٍ أَوْ صَلَفٍ أَوْ خَوْفٍ وَنَحْوِهِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ فِي الْبَصَرِ.

و «الْأَجْدَاتُ» جَمْعُ جَدَّتٍ وَهُوَ الْقَبِيرُ، وَشَبَّهَهُمُ تَعَالَى بِالْجِرَادِ الْمُنْتَشِرِ، وَقَدْ شَبَّهَهُمُ فِي أُخْرَى بِالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ، وَفِيهِمْ مِنْ كُلِّ هَذَا شَبْهٍ، وَذَهَبَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ إِلَى أَنَّهُمْ أَوَّلًا كَالْفَرَاشِ حِينَ يَمُوجُ بَعْضٌ فِي بَعْضٍ، ثُمَّ فِي رَتْبَةٍ أُخْرَى كَالْجِرَادِ إِذَا تَوَجَّهُوا نَحْوَ الْمُحْشَرِ وَالذَّاعِي، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ عَلَيْهَا السَّلَامُ دَعَتْ لِلْجِرَادِ فَقَالَتْ: «اللَّهُمَّ أَحْشِهَا بِغَيْرِ رِضَاعٍ، وَتَابِعْ بَنِيهَا بِغَيْرِ شِيَاعٍ».

و «الْمُهْطَعُ»: الْمُسْرِعُ فِي مَشْيِهِ نَحْوَ الشَّيْءِ مَعَ هَزٍّ وَزَهَقٍ وَمَدٍّ بِصَرٍّ نَحْوَ الْمَقْصَدِ إِمَّا لَخَوْفٍ أَوْ طَمَعٍ وَنَحْوِهِ، وَيَقُولُ الْكَافِرُونَ: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ مَخَابِلِ هَوْلِهِ وَعَلَامَاتِ مَشَقَّتِهِ.

① - ⑦ تفسير قوله عز وجل:

سَوْفَ هَذِهِ الْقِصَّةُ وَعَبْدٌ لِقَرِيشٍ وَضُرِبَ مِثْلَ لَهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَذْذِرُ﴾ إِخْبَارٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُمْ زَجِرُوا نَوْحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالسَّبِّ وَالنَّجَةِ وَالتَّخْوِيفِ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ

وقرأ: ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَنْصُرْ لَكُمْ مِنْ
الْمُتَّبِعِينَ﴾ وذهب مجاهد إلى أن
﴿وَأَزْدَجِرْ﴾ من كلام قوم نوح، كأنهم
قالوا: «مجنون وازدجر»، والمعنى:
استطير جنونا واستعر جنونا، وهذا
قول فيه تشف وتحم، وقرأ نافع،
وأبو عمرو، وعاصم، والأعرج،
والحسن: ﴿إِنِّي﴾ بفتح الألف، أي:
بأنّي، كأن دعاءه كان هذا المعنى،
وقرأ عاصم أيضاً، وابن أبي إسحق،
وعيسى: ﴿إِنِّي﴾ بكسر الألف، كأن
دعائه كان هذا اللفظ، قال سيبويه:
المعنى: قال: إنّي، وذهب جمهور
المفسرين إلى أن المعنى: قد غلبني
الكفار بتكذيبهم وتخويفهم فانتصر
لي منهم بأنّ تهلكهم، ويحتمل أن
يريد: فانتصر لنفسك إذ كذبوا
رسولك، ويؤيده قول ابن عباس
رضي الله عنهما: إن المراد بقوله
﴿لَئِنْ كَانَ كَذِبًا﴾ الله تعالى، فوقعت
الإجابة على نحو ما دعا نوح عليه
السلام، وذهبت المتصوفة إلى أن
المعنى: إنّي قد غلبتني نفسي في
إفراطي في الدعاء على قومي فانتصر
مئني يا رب بمعاينة إن شئت، والقول
الأول هو الحق إن شاء الله تعالى،
يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا
أَبْرَأَ السَّمَاءِ﴾ الآية، وذلك هو
الانتصار من الكفار.

وقرأ جمهور القراء: ﴿فَفَتَحْنَا﴾
بتخفيف الثاء، وقرأ ابن عامر، وأبو
جعفر، والأعرج: ﴿فَفَتَحْنَا﴾ بشدّها
على المبالغة، ورّجّحها أبو حاتم
بقوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا لَهُمُ الْأَبْرَأَ﴾.
قال أبو حاتم: يعني بالأبواب
المجرّة، وهي شرج السماء كشرج

الغبيّة، وقال قوم من أهل التأويل:
الأبواب حقيقة، فتحت من السماء
أبواب جري منها الماء، وقال
جمهور المفسرين: هو تشبيه ومجاز
لأن المطر كثر كأنه من أبواب،
و«المُنْهَمَر»: الشديد الوقوع الغزير،
قال امرؤ القيس:

رَاحَ تَمْرِهِ الصَّبَا ثُمَّ انْتَحَى
فِيهِ شُبُوبٌ جَثُوبٌ مُنْهَمِرٌ
وقرأ الجمهور: ﴿وَوَجَرْنَا﴾ بشدّ
الجيم، وقرأ ابن مسعود وأصحابه،
وأبو حنيفة، والمفضل عن عاصم
بتخفيفها، وقرأ الجمهور: ﴿فَالْتَقَى
أَلْمَاءُ﴾ على اسم الجنس الذي يعُمُّ
ماء السماء وماء العيون، وقرأ علي
ابن أبي طالب، والحسن، وعاصم،
والجحدري: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾،
ويروى عن الحسن: ﴿فَالْتَقَى
الْمَاوَنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّكَ أَمْرٌ قَدْ قَرِرَ﴾
قال فيه الجمهور: المعنى: على رتبة
وحالة قد قدرت في الأول وقضيت،
وقال جمهور من المتأولين: المعنى:
على مقادير قد قدرت وربّبت وقت
التقاءه، وروّوا أن ماء الأرض على
سبعة عشر ذراعاً، وكان ماء السماء
ينزل عليه بقية أربعين ذراعاً أو نحو
هذا لأنه مما اختلفت فيه الروايات،
ولا خير يقطع العذر في شيء من
هذا التحديد، وقرأ أبو حنيفة:
﴿قَدَّرَ﴾ بشدّ الدال.

و«ذات ألواح ودسر» هي السفينة،
قيل: كانت ألواحها وخشبها من
ساج، و«الدسر»: المسامير، واحدها
دسار، وهذا هو قول الجمهور، وهو
عندي من الدفع المُتَّبَاع، لأن

المسمار يدفع أبداً حتى يستوي،
وقال الحسن، وابن عباس أيضاً:
الدسر مقدم السفينة لأنها تَدْسُرُ الماء
أي تدفعه، والدسر: الدفع، وقال
مجاهد وغيره: الدسر: نُطَقَ
السفينة، وقال أيضاً: الدسر:
عوارض السفينة، وقال أيضاً:
أضلاع السفينة، وقد تقدم القول في
شرح قصة السفينة، مستوعباً،
وجمهور الناس على أنها كانت كهيئة
السفن اليوم كجوجو الطائر، وورد
في بعض الكتب أنها كانت مربعة
طويلة في السماء واسعة الشل ضيقة
العلو، وكان أعلاها مفتوحاً للهواء
والتنفس، قالوا: لأن الغرض منها
إنما كان السلامة حتى يزول الماء،
ولم يكن طلب الجري وقصد
المواضع المعيّنة، ومع هذه الهيئة
فلها مجرى ومرسى، والله أعلم كيف
كانت، والجميع محتمل.

قوله تعالى: ﴿يَاغِيثُنَا﴾، قال
الجمهور: معناه: بحفظنا وكفائتنا
وتحت نظر ممّا لأهلها، فسُمّي هذه
الأمياء أغيثنا تشبيهاً، إذ الحافظ
المُتَحَفّي من البشر إنما يكون ذلك
الأمر نُضِبَ عينه، وقيل: المراد من
حفظها من الملائكة، سمّاهم عيوناً،
وقال الرّئاسي: وقيل: إن قوله
تعالى: ﴿يَاغِيثُنَا﴾ يريد به العيون
المتفجرة من الأرض، وهذا
ضعيف، وقرأ أبو السّمال: ﴿يَاغِيثُنَا﴾
مُدْغمة، وقرأ جمهور الناس:
﴿كَيْزٌ﴾ بضم الكاف وكسر الفاء،
واختلفوا في المعنى - فقال ابن
عباس، ومجاهد: يراد بها الله
تعالى، كأنه قال: غَضَباً وانتصاراً لله

تعالى، أي: انتصر لنفسه فأنجى المؤمنين وأغرق الكافرين، وقال مكي: ﴿يُرَادُ بِهَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنُونَ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا مِنْ حَيْثُ كَفَرُوا بِهِمْ، فَجَازَاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِالنَّجَاةِ، وَقَرَأَ يَزِيدُ بْنُ رُوْمَانَ، وَعَيْسَى، وَقَتَادَةُ: ﴿كَفَرُوا﴾ بَفَتْحِ الْكَافِ وَالْفَاءِ.

والضمير في ﴿تَرَكْنَاهَا﴾ قال مكي بن أبي طالب: هو عائذ على هذه الفعلية والقصة، وقال قتادة، والنقاش، وغيرهما: هو عائذ على هذه السفينة، قالوا: وإن الله تعالى أرساها على الجودي حين تناولت الجبال وتواضع هو، وهو جَبِيلٌ بالجزيرة بموضع يقال له: «بَاقُزْدِي»، وأبقى خشبها هنالك حتى رأت بعضه أوائل هذه الأمة، قال قتادة: وكم من سفينة كانت بعدها قد صارت رماداً. و﴿تَذَكَّرْ﴾ أصله «تَذَكَّرَ»، أبدلوا من التاء دالاً لتناسب الدال في النطق، ثم أذغموا الدال في الدال، وهذه قراءة الناس، قال أبو حاتم: رويت عن النبي ﷺ بإسناد صحيح، وقرأ قتادة: ﴿تَذَكَّرْ﴾ بإدغام الثاني في الأول، قال أبو حاتم: وذلك رديء، ويلزمه أن يسقرأ: ﴿وَأَذْكُرْ بِغَدِ أُمَّةٍ﴾، و﴿تَذَكَّرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿تَذَكَّرْ﴾ قال ابن عباس، و﴿تَذَكَّرْ﴾ توقيف لقريش، و﴿التَّذَكُّرُ﴾ هنا جمع «تَذِير» المصدر، بمعنى: كيف كان عاقبة إنذاري لمن لم يخفل به كأنتم أيها القوم؟

و﴿يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ معناه: سهلناه وقربناه، و﴿الذِّكْرُ﴾: الحفظ عن ظهر

قلب، قاله ابن جبير: لم يُسْتَظْهِرْ مِنْ كَتَبِ اللَّهِ تَعَالَى سِوَى الْقُرْآنِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يُسَّرُ بِمَا فِيهِ مِنْ حُسْنِ النِّظْمِ وَشَرَفِ الْمَعْنَى، فَلَهُ لَوْطَةٌ بِالْقُلُوبِ وَامْتِزَاجٌ بِالْعُقُولِ السَّالِمَةِ.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَذِرُونَ﴾ استدعاء وحض على حفظه وذكره لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس، قال مطر: معناه: هل من طالب علم فيُعَانُ عليه؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الآية تعديد نعمة في أن الله تبارك وتعالى يسر الهدى ولا يخل من قبله، فله در من قبل وامتدى، وتقدم تعليل: ﴿تَذَكَّرْ﴾.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

«عَادُ قَبِيلَةٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَصَصُهَا.

قوله تعالى: ﴿تَذَكَّرْ كَذَّابًا﴾ و﴿تَذَكَّرْ﴾، موضوع «كَيْفَ» نصب، إما على خبر «كَانَ» وإما على الحال، و﴿كَانَ» بمعنى: وَجَدَ وَوَقَعَ فِي هَذَا الْوَجْهِ، وَ﴿تَذَكَّرْ﴾ جمع «تَذِير» وهو المصدر، وقرأ ورش وحده: «تَذِيرِي» بالياء، وقرأ الباكون: «تَذِيرِي» بغير ياء على خط المصحف.

و«الصُّرُصُرُ» قال ابن عباس، وقاتدة، والضحاك: معناه: الباردة، وهو من الصر، وقال جماعة من المفسرين: معناه: المصنوعة نحو هذين الحرفين، مأخوذ من: صررت الريح إذا هبت دُفْعاً كأنها تنطق هذين الحرفين: الصاد والراء، وضوعف

الفعل كما قالوا: «كَتَبَ وَكَتَفَ» من «كَبَ وَكَفَ»، وهذا كثير، ولم يختلف القراءة في سكن الحاء من «تَحَنَّنَ» وإضافة اليوم إليه إلا ما روي عن الحسن أنه قرأ: «فِي يَوْمٍ» بالتثنية «نَحْنُ» بكسر الحاء، و﴿تَسْتَبْرَأُ» معناه: متتابع، قال قتادة: استمر بهم ذلك النحس حتى بلغهم جهنم، قال الضحاك في كتاب الثعلبي: المعنى: كان مراً عليهم، وذكره النقاش عن الحسن، وروى أن ذلك اليوم الذي كان لهم فيه نحس مستمر كان يوم أربعاء، وروى في بعض الأحاديث في تفسير هذه الآية: يوم نحس مستمر يوم الأربعاء، فتأول بعض الناس في ذلك أنه مستصحب في الزمان كله، وهذا عندي ضعيف، وإن كان أبو بشر الدولابي ذكر حديثاً رواه أبو جعفر المنصور عن أبيه محمد عن أبيه علي عن أبيه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «آخِرُ أَرْبَعَاءِ مِنَ الشَّهْرِ يَوْمُ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ»، ويوجد نحو هذا في كلام الفرس والأعاجم، وقد وجد ذكر الأربعاء التي لا تدور في بعض شعر الخراسانيين المولدين، وذكر الثعلبي عن زر بن حبيش في تفسير هذه الآية لعاد أنه كان في أربعاء لا تدور، وذكره النقاش عن جعفر بن محمد وقال: كان القمر منحوساً في رجل، وهذه نزعة سوء عياداً بالله تعالى أن تصح عن جعفر بن محمد.

وقوله تعالى: ﴿تَنَجَّ النَّاسُ﴾ معناه: تنقلهم من مواضعهم نزعاً

فتطرحهم، وروي عن مجاهد أنها كانت تلقي الرجل على رأسه ففتت رأسه وعنقه وما يلي ذلك بين يديه.

قال القاضي أبي محمد رحمه الله: فلذلك حسن التشبيه بأعجاز النخل، وذلك أن المثقفر هو الذي ينقلع من فطره، فذلك الشَّعْبُ الذي لأعجاز النخل كان يشبهها ما تقطع وتشعب من شخص الإنسان، وقال قوم: إنما شبههم بأعجاز النخل لأنهم كانوا يحفرون حفراً ليمتنعوا فيها من الريح، فكانه شبه الحفر بعد الترع بحفر أعجاز النخل، والنخل تذكّر وتؤنث فلذلك قال تعالى هنا:

﴿تَنْعِرُ﴾، وفي غير هذه السورة: ﴿عَارِيَةً﴾، والكاف في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ في موضع الحال، قاله الزجاج، وما روي من خبر الخلجان وغيره ضعيف كله، وفائدة قوله تعالى: ﴿تَنْكِفُ﴾ كان عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿﴾ التخويف وهز الأتفس. قال الرُّمَّانِي: لما كان الإنذار أنواعاً كرر التذكير والتنبية، وفائدة تكرار قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَشِّرْنَا الْفَرَّانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ التأكيد والتحريض وتنبيه الأتفس، وهذا موجود في تكرار الكلام، مثل قول النبي ﷺ: «أَلَا هل بلغت؟ أَلَا هل بلغت؟ أَلَا هل بلغت؟»، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام: «أَلَا وقول الزُّور، أَلَا وقول الزُّور، أَلَا وقول السُّور»، وكان رسول الله ﷺ إذا سلّم على قوم

سلّم عليهم ثلاثاً، فهذا كله نحو واحد وإن تنوع.

و «ثُمُود» قبيلة صالح عليه السلام، وهم أهل الحنجر، وقرأ الجمهور: ﴿أَبْشَرْنَا وَجِدًا﴾، ونصبه بإضمار فعل يدل عليه ﴿نَنَعِمُ﴾، و﴿وَجِدًا﴾ نعت لـ ﴿بَشَرًا﴾، وقرأ أبو السَّمَال: ﴿أَبْشَرْنَا وَجِدًا نَنَعِمُ﴾، ورفعهُ إمّا على إضمار فعل مبني للمفعول، والتقدير: أَيْتَبَأْ بَشَرًا؟ وإمّا على الابتداء، والخبر في قوله تعالى: ﴿نَنَعِمُ﴾، و﴿وَجِدًا﴾ على هذه القراءة حال، إمّا من الضمير في ﴿نَنَعِمُ﴾ وإمّا على المقدّر مع ﴿مِثْلًا﴾، كأنهم يقولون: أَبْشَرْنَا كائن مّا واحداً؟ وفي هذا نظر، وحكى أبو عمرو الداني أن قراءة أبي السَّمَال: ﴿أَبْشَرْنَا وَجِدًا﴾، بالرفع فيهما، وهذه المقالة من ثمود حسد منهم لصالح عليه السلام، واستبعاد أن يكون نوع من البشر يفضل بعضه بعضاً هذا الفضل، فقالوا: أنكون جميعاً ونتبع واحداً، ولم يعلموا أن الفضل بيد الله تعالى يُؤْتِيهِ من يشاء، ويُفيض نور الهدى على من رَضِيهِ.

وقولهم: ﴿لَيْلَى سَلَكِي﴾ معناه: في أمرٍ مُتَّخَذٍ مُهْلِكٍ بالإتلاف، و﴿سُتْرٌ﴾ معناه: في احتراق أنفُسٍ واستِعَارَها حقاً وهماً باتباعه، وقيل في «السُّعْر»: العناء، وقيل: الجنون، ومنه قيل: ناقة مسعورة إذا كانت تفرط في سيرها، ثم زادوا بالتوقيف بقولهم: ﴿هَاتِلِي الذِّكْرَ عَلَيَّ مِنْ بَيْنَتَايَا؟﴾ و«أَلْقِي» بمعنى «أَنْزِلْ»، وكأنه يتضمن عجلة في

الفعل، والعرب تستعمل هذا الفعل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبْلَهُ بَيْنِي﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَلَقْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا قَلِيلًا﴾، و«الذِّكْر»: هنا: الرِّسَالَةُ وما يمكن أن جاءهم به من الحكمة والموعظة.

ثم قالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِرٌ﴾، أي: ليس الأمر كما يزعم، و«الأشِر» البَطَرُ المَرِخُ، فكأنهم زَمَوْهُ بأنه أَشَرُ فأراد العُلُوُّ عليهم، وأن يقتادهم ويتملك طاعتهم، فقال الله تعالى لصالح عليه السلام: ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ﴾، وهذه بالياء من تحت قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجمهور الناس، وقرأ ابن عامر، وحمزة، وعاصم، وابن وثاب، وطلحة والأعمش: ﴿سَتَعْلَمُونَ﴾ بالتاء على معنى: قل لهم يا صالح، وقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ﴾ تقريب يراد به الزَّمان المستقبل لا يوماً بعينه، ونحوه المثل «مع اليوم غداً»، وقرأ جمهور الناس: ﴿الْآثِرِ﴾ بكسر الشين كحذر بكسر الذال، وقرأ مجاهد - فيما ذكر عنه -: ﴿الْأَشَرِ﴾ بضم الشين كحذر بضم الذال، وهما بناءان من اسم الفاعل، وقرأ أبو حيوة: ﴿الْأَشَرِ﴾ بفتح الشين كأنه وصف بالمصدر، وقرأ أبو قلابة: ﴿الْأَشَرِ﴾ بفتح الشين وشُدَّ الرَاءُ، وهو الأفعَل، ولا يستعمل إلا بالآلف واللام، وهو كان الأصل لكنه رفض تخفيفاً وكثرة استعمال.

أصحابه على عقرها، ويروى أن ملاً القبيل اجتمع على عقرها، ورويت أسباب غير هذين، وقد تقدّم ذلك.

و «الصَّيْحَةُ» يروى أن جبريل عليه السلام صاحها في طرف من منازلهم فتفتتوا وهمدوا وكانوا كهشيم المحتظر، و «الهشيم» ما تهشم وتفتت من الأشياء، وقرأ جمهور الناس: «كَهْشِيرَ الْحُظَرِ» بكسر الظاء، ومعناه الذي يصنع حظيرة من الرعاء ونحوهم، قال ابن إسحاق السبيعي، والضحاك، وابن زيد، وهي مأخوذة من الحظر وهو المنع، والعرب وأهل البوادي يصنعونها للمواشي والسكنى أيضاً من الأغصان والشجر المورق والقصب ونحوه، ولهذا كله هشيم يفتت، إمّا في أول الصنعة وإمّا عند بلى الحظيرة وتساقط أجزائها، وحكى الطبري عن ابن عباس، وقتادة أن «المُحْتَظَر» معناه: المحترق، قال قتادة: كهشيم مُحْزَق. وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو رجاء: «الْمُحْتَظَرِ» بفتح الظاء، ومعناه الموضع الذي احتظر، فهو مُفْتَعَل من الحظر، أو الشيء الذي احتظر به، وقد روي عن سعيد بن جبیر أنه فسر «كَهْشِيرَ الْحُظَرِ» بأن قال: هو التراب الذي يسقط من الحائط البالي، وهذا متوجه لأن الحائط حظيرة، والسَّاقِط هشيم، وقال أيضاً هو وغيره: الْمُحْتَظَر معناه: المحرق بالنار، أي: كأنه ما في الموضع المحتظر بالنار، وما ذكرناه عن ابن عباس وقتادة هو على قراءة كسر الظاء، وفي هذا التأويل بعض البُعد، وقال قوم:

الناقة فيه يومهم، وأمرهم بالتساوي مع الذين ترد الناقة في يومهم. وقال آخرون: معناه: الماء بين جميعهم وبين الناقة قسمة. و «مُحْضَر» معناه: محضور مشهود مُتَوَاسِي فيه، وقال مجاهد: المعنى: «كُلُّ شَيْءٍ»، أي: من الماء يوماً ومن لبن الناقة يوماً «مُحْضَر» لَهُمْ، فكانه أنبأهم بنعمة الله تعالى عليهم في ذلك.

و «صَاحِبُهُمْ» هو قُدار بن سالف، وبسببه سُمي الجزار القُدَار للشبه في الفعل، قال الشاعر:

إِنَّا لَنَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ رُءُوسَهُمْ
ضَرْبَ الْقُدَارِ نَقِيعَةَ الْقُدَامِ
وقد تقدّم شرح أمر قدار بن سالف.

و «تَعَاطَى» هو مطاوع «عاطى»، فكان هذه الفعلة تدافعها الناس وأعطاه بعضهم بعضاً، فتعاطاه هو وتناول العقر بيده، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ويقال للرجل الذي يدخل نفسه في تحمّل الأمور الثقيل: متعاط، على الوجه الذي ذكرناه، والأصل «عَطَا يعطو» إذا تناول، ثم يقال: عطى غيره، ثم يقال: تعاطى، وهذا كما يقال: جَزَى وجازى وتجارى، وهذا كثير.

ويروى أنه كان مع شَرْب وهم التسعة رهط - فاحتاجوا ماء فلم يجدوه بسبب وزد الناقة، فحملة

وَيَسْأَلُهُمْ أَتَى الْمَاءَ قِسْمَهُ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُحْضَرٌ ۖ فَأَدَا صَاحِبُهُمْ
فَعَاطَى مُعْطَرٌ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذَرٌ ۖ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُظَرِ ۖ وَلَقَدْ يَنْتَظِرُونَ
لِلَّذِكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ۖ كَذَّبَ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ۖ إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا لُوطٌ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَيْنِنَا
كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۖ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَبُوا
بِالنَّذْرِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَافِيَةٍ فَظَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذَفَعُوا
عَدَايَ وَنَذَرٌ ۖ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌ ۖ
فَذَفَعُوا عَدَايَ وَنَذَرٌ ۖ وَلَقَدْ يَنْتَظِرُونَ ۖ أَنِ الْبُذُرُ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ
ۖ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ۖ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَّبَتْ
أَعْيُنُهُمْ فَمَقْدِرٌ ۖ أَكْفَارُهُمْ مِنْ أَكْفَارِهِمْ أَمْ لَهُمْ بَرَآءَةٌ
فِي الزُّبُرِ ۖ أَمْ يَقُولُونَ كُلُّ شَيْءٍ مُنْشَرٌ ۖ سُبْحَنَ رَبِّهِمْ
وَيَقُولُونَ الدُّبُرُ ۖ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ
ۖ إِنِ الْمُرْجُ مِنْ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۖ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ
عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۖ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۖ

٢٧ - ٣٥ تفسير قوله عز وجل:

هذه الناقة التي اقترحوها أن تخرج من صخرة صماء من الجبل، وقد تقدّم قصصها، فأخبر الله تعالى صالحاً عليه السلام - على وجه التأنيس - أنه يُخرج لهم الناقة ابتداء واختباراً، ثم أمره تعالى بارتقاب الفرج وبالصبر، و «اضْطَبِر» أصله: اضْطَبَر «افتعل»، أبدلت التاء طاء لتناسب الصاد، ثم أمره تعالى أن يخبر ثمود بأن الماء قسمة بينهم، وهو ماء البئر الذي كان لهم.

واختلف المتأولون في معنى هذه القسمة - فقال جمهور منهم: قسمة بينهم، يتساوون فيه في اليوم الذي لا ترد الناقة فيه، وذلك - فيما روي - أن الناقة كانت ترد البئر غباً، وتحتاج جميع مائها يومها، فنهاهم الله تعالى عن أن يستأثر أهل اليوم الذي لا ترد

المحتظر - بالفتح -: الهشيم نفسه، وهو مفتعل، وهو كمسجد الجامع وشبهه.

وقد تقدم قصص قوم لوط عليه السلام، و«الحاصب»: السحاب الرامي بالبرد وغيره، فشبّه تلك الحجارة التي رُمي بها قوم لوط به في الكثرة والتوالي، وهو مأخوذ من الحصباء، كأن السحاب تحصب مقصده، ومنه قول الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَخْصِبُهُمْ
بِحَاصِبِ كَنْدِيفِ الْقُطْنِ مَثُورِ
وقال ابن المُسَيَّب: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأهل المدينة: حصبوا المسجد، و«آل لوط»: ابنته فيما روي، و«سحر» مصروف لأنه نكرة لم يُرد به يوم معين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ نصب على المصدر، أي: فعلنا ذلك إنعاماً على القوم الذين نجيناهم، وهذا هو جزاؤنا لمن شكر نعمنا وآمن وأطاع.

٣٦ - ٣٧ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ولقد أنذر قومهم أخذنا إياهم ويطنشنا بهم، أي: عذابنا لهم، و﴿فَكَارَوا﴾ معناه: تشككوا وأهدى بعضهم الشك إلى بعض بتعاطيهم الشبه والضلال، و«الأنذر» جمع نذير وهو المصدر، ويحتمل أن يراد بالأنذر هنا وفي قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ﴾ جمع نذير الذي هو اسم الفاعل. و«الضئيف» يقع للواحد وللجميع، وقد تقدم ذكر أضيافه وقصصهم مستوعباً.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَسَّا أَقْيَمَهُمْ﴾ قال قتادة: هي حقيقة، جرّ جبريل عليه السلام شيئاً من جناحه على أعينهم فاستوت مع وجوههم، قال أبو عبيدة: مَطْمُوسَةٌ بجلد كالوجه، وقال ابن عباس، والضحاك: هذه استعارة، وإنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل فلم يروا شيئاً، فجعل ذلك كالطمس. وقوله تعالى: ﴿بِكُرْءٍ﴾ قيل: كان ذلك عند طلوع الشمس، وأدغم ابن محيصة الدال في الصاد من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمُ﴾، والجمهور على الإظهار، و﴿بِكُرْءٍ﴾ نكرة ها هنا فلذلك صُرِفَتْ.

وقوله تعالى: ﴿نُذِرُوا عَلَيْنِ﴾ يحتمل أن يكون من قول الله تعالى لهم، ويحتمل أن يكون من قول الملائكة، و﴿وَنَذِرُ﴾ جمع المصدر، أي: وعاقبة نُذِرِي التي كذبتهم بها، وقال تعالى: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ في صفة العذاب لأنه لم يكشفه عنهم كاشف بل اتصل ذلك بموتهم، وهم مدة موتهم تحت الأرض معذبون بانتظار جهنم ثم يتصل ذلك بعذاب النار فهو أمر متصل مستقر، وكرر قوله تعالى: ﴿نُذِرُوا عَلَيْنِ وَنَذِرُ﴾ تأكيداً وتوبيخاً، وروى ورش عن نافع: ﴿وَنُذِرِي﴾ بياء.

و «آل فرعون» قومُه وأتباعه، ومنه قول الشاعر:

فَلَا تَبِكْ مِيتاً بَعْدَ مِيتٍ أَجْنُئْ
عَلَيَّ وَعَبَّاسُ وَآلُ أَبِي بَكْرٍ
يريد المسلمين في مواراة النبي ﷺ، ويحتمل أن يريد به «آل فرعون» قرابته على عرف الآل،

وخصهم بالذكر لأنهم عمدة القوم وكبرائهم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يحتمل أن يريد آل فرعون المذكورين أخذناهم كذلك، يريدهم بالضمير لأن ذلك الإغراق الذي كان في البحر كان بالعزة والقدرة، ويكون قوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يريد بها التسع، ثم أكد بقوله: ﴿كُلَّهَا﴾، ويحتمل أن يكون قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذَرُ﴾ كلاماً تاماً ثم يكون قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ يعود الضمير في ﴿كَذَّبُوا﴾ على جميع ما ذكر من الأمم، ويجيء جميع الآيات مستقيماً، ويجيء قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُمُ﴾ كذلك يعود على جميع الأمم المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿أَكْفَرُوا خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ﴾ الآية... خطاباً لقريش، وقَّعهم على جهة التوبيخ، أتمَّ خصلة من مال أو قوة أبدان وبسطة أو عقل أو غير ذلك مما يقتضي أنكم خير من هؤلاء المعذبين لما كذبوا فترجى لكم - بذلك الفضل - النجاة من العذاب حين كذبتم رسولكم؟ أم لكم في كتب الله تعالى المثولة براءة من العذاب؟ قاله الضحاك، وابن زيد، وعكرمة.

ثم قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ وَاثِقُونَ بَأَنَّا مَنْتَصِرُونَ بقوتنا على جهة الإعجاب والتعاطي، سيهزمون فلا ينفع جمعهم، وقرأ أبو حنيفة: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بالثاء من فوق.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ - فقراً الجمهور من الناس: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ - بالنصب، وقالوا: المعنى: إِنَّا خَلَقْنَا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ، وليست ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ في موضع الصفة لـ ﴿شَيْءٍ﴾، بل هو فعل دالٌّ على الفعل المضمر، وهذا المعنى يقتضي أن كل شيء مخلوق إلّا ما قام دليل العقل على أنه ليس بمخلوق كالقرآن والصفة، وقرأ أبو السّمّال - ورجّحه أبو الفتح -: ﴿إِنَّا كُلَّ﴾ بالرفع على الابتداء، والخبر ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، قال أبو حاتم: «هذا هو الوجه في العربية، وقرأتنا بالنصب مع الجماعة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقرأها قوم من أهل السُّنة بالرفع، والمعنى عندهم على نحو ما هو عند الأولين من أن كل شيء فهو مخلوق بِقَدَرٍ سابق، و﴿خَلَقْنَاهُ﴾ - على هذا - ليست صفة لـ ﴿شَيْءٍ﴾، وهذا هو مذهب أهل السُّنة، ولهم احتجاج قويٌّ بالآية على هذين القولين.

وقالت القُدْرِيَّةُ - وهم الذين يقولون: لا قَدَر، والمرء وحده فاعل أفعاله -: القراء: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ﴾ برفع ﴿كُلِّ﴾، و﴿خَلَقْنَاهُ﴾ في موضع الصفة لـ ﴿كُلِّ﴾، أي: إِنَّ أَمْرَنَا وشأننا كل شيء خلقناه فهو بِقَدَرٍ، أي: بمقدارٍ وعلى حدٍّ ما في هيئته وزمنه وغير ذلك، فيزيلون بهذا التأويل موضع الحُجّة عليهم بالآية.

﴿سَيَهْزِمُ﴾ بالنون وكسر الزاي ﴿الْجَمْعُ﴾ بالنصب ﴿وَتُؤَلَوْنَ﴾ بالتاء من فوق.

ثم تركت هذه الأقوال وأضرب عنها تهماً بأمر الساعة التي عذابها أشدّ عليهم من كل هزيمة وقاتل، فقال تعالى: ﴿يَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْخَى وَأَمَرٌ﴾، «أدخى» أفعَلَ من الداهية وهي الرُزِيَّةُ العظمى تنزل بالمرء، و﴿أَمَرٌ﴾ من الممرارة، واللفظة ها هنا مستعارة لأنها ليست فيما يُدَق.

ثم أخبر تعالى عن المجرمين أنهم في الدنيا في حيرة وإتلاف وفقد هدى، وفي الآخرة في احتراق وتسعر من حيث هم صائرون إليه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: في خُسران وجنون، و﴿السُّعْرُ﴾ الجنون، وأكثر المفسرين على أن المجرمين هنا يراد بهم الكفار، وقال قوم: المراد بالمجرمين القدرية الذين يقولون إن أفعال العباد ليست بِقَدَرٍ من الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهم الْمُتَوَعَّدُونَ بالسَّحْبِ في جهنم، والسَّحْبُ هو الجُرُّ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿إِلَى النَّارِ﴾. وقوله تعالى: ﴿تَذَرُونَهَا﴾ استعارة، والمعنى: يقال لهم: ذوقوا، على جهة التوبيخ.

سورة القمر

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا شَتَّىٰ أُمَمًا مِّمَّنْ فَعَلُوا فِي الْزُبُرِ ﴿٥٤﴾ وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٍّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْفَلَقِينَ فِي جَنَّتِنَا وَنَهْرٍ ﴿٥٢﴾ فِي مَقْعَدِ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَكِكْهُمُ وَالنَّحْلُ دَاتُ الْأَكَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾

٥٣١

٥٥ - ٥٥ تفسير قوله عز وجل:

هذه عِدَّةٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ أن جمع قريش سيهزم نصرة له، والجمهور على أن الآية مكية، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال: كنت أقول في نفسي: أي شيء يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ في الدرع وهو يقول: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلَوْنَ الدُّرُورُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإنما كان رسول الله ﷺ في بدر مستشهداً بالآية.

وقال قوم: إن الآية نزلت يوم بدر، وذلك ضعيف، والصواب أن الوعد أنجز يوم بدر، قال أبو حاتم: قرأ بعض القراء: ﴿سَيَهْزِمُ﴾ بفتح الباء وكسر الزاي ﴿الْجَمْعُ﴾ نصباً، قال أبو عمرو الداني: قرأ أبو حنيفة:

تفسير

سورة الرحمن

وهي مَكِّيَّة فيما قال الجمهور من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وقال نافع بن أبي نُعَيْم، وعطاء، وقتادة، وكُرَيْب، وعطاء الخراساني، عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي مدينة نزلت عند إياية سهيل بن عمرو وغيره أن يكتب في الصلح: «بسم الله الرحمن الرحيم»، والأول أصح، وإنما نزلت حين قالت قريش بمكة: «وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟» وفي السيرة أن ابن مسعود جهر بقراءتها في المسجد حتى قامت إليه أندية قريش فضربوه، وذلك قبل الهجرة.

① - ③ تفسير قوله عز وجل:

﴿الرَّحْمَنُ﴾ بناءً مبالغاً من الرحمة، وهو اسم اختص الله تعالى بالاتصاف به، وحكى ابن فورك عن قوم أنهم يجعلون ﴿الرَّحْمَنُ﴾ آية تامة، كأن التقدير: الرحمن رؤبنا، وقاله الرُّمَّاني وأن التقدير: الله الرحمن، وقال الجمهور: إنما الآية ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿﴾، فهو جزء آية.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ تعديد نعمة، أي: هو مَنْ به، وعلمه الناس، وخصَّ حُفَاطَه وفهمته بالفضل، قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه»، ومن الدليل على أن القرآن غير مخلوق أن الله تعالى ذكر القرآن في كتابه في أربعة وخمسين موضعاً ما

بمعنى، وروي عن عاصم شدَّ الرء من ﴿مُسْطَرٍّ﴾، قال أبو عمرو: وهذا لا يكون إلا عند الوقوف، لغة معروفة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَنَهْرٍ﴾ بفتح الهاء والنون على أنها اسم الجنس يراد به الأنهار، أو على أنه بمعنى سعة في الرزق والمنازل، ومنه قول قيس بن الخطيم:

مَلَكْتُ بِهَا كُفْيَ قَائِمْزٍ فَتَنَهَرْتُ فَتَقَهَا
يَرَى قَائِمٍ مِنْ خَلْفِهَا مَا وَرَاءَهَا
فقوله: «أَنَهَرْتُ» معناه جعلت فتقها كنهر، وقرأ زهير الفرقي، والأعمش: ﴿وَنَهْرٍ﴾ بضم النون والهاء على أنه جمع نهارٍ، إذ لا ليل في الجنة، وهذا سائغ في اللفظ قلبي في المعنى، ويحتمل أن يكون جمع نهر، وقرأ مجاهد، وحמיד، وأبو السَّمال، والفياض بن غزوان: ﴿نَهْرٍ﴾ بسكون الهاء على الأفراد.

وقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ يحتمل أن يريد الصدق الذي هو ضد الكذب، أي: في المقعد الذي صدقوا في الخبر به، ويحتمل أن يكون من قولك: «عُوِدَ صَدَقَ» أي: جيّد، و«رَجُلٌ صَدَقَ» أي: خيّر وذو خلال حسان، وقرأ جمهور الناس: ﴿فِي مَقْعَدٍ﴾ على اسم الجنس، وقرأ عثمان البتي: ﴿فِي مَقَاعِدٍ﴾ على الجمع، و«المليك المقتدر» هو الله تبارك وتعالى.

كامل تفسير سورة القمر والحمد لله رب العالمين

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إني أجد في كتاب الله تعالى قوماً يُسحبون في النَّارِ على وجوههم لأنهم كانوا يُكذِّبون بالقَدَر، يقولون: المرء يخلق أفعاله، وإني لا أراهم، فلا أدري أَشَيْءٌ مضى أم شيء بقي، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: خاضعت قريش رسول الله ﷺ في القَدَر فنزلت هذه الآية، قال أبو عبدالرحمن السلمي: فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ أفي شيء نستأنفه أو في شيء قد فرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «اعملوا فكلُّ مُيسَّرٍ لما خُلِقَ لَهُ، سَتَيْسَرُهُ لِلْيُسْرَى، سَتَيْسَرُهُ لِلْعُسْرَى». وقال أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «القدرية الذين يقولون الخير والشر بأيدينا، ليس لهم في شفاعتي نصيب، ولا أنا منهم ولا هم مني».

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَجِدَّةً﴾ أي: إلا قولة واحدة وهي «كن»، وقوله تعالى: ﴿كَلِمَةٍ بِالْبَصَرِ﴾ تفهيم للناس بأعجل ما يحسون، وفي أشياء من أمر الله تعالى أوحى من لمح البصر، و«الأشياء»: الفرق المتشابهة في مذهب أو دين ونحوه، الأول شيعة للأخر والأخر شيعة للأول.

ثم أخبر تعالى أن كل أفعال الأمم المَهْلَكَة مكتوبة محفوظة عليهم إلى يوم الحساب، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، و﴿مُسْطَرٍّ﴾ مُفْتَعَل من السطر، تقول: سطرْتُ وأسطرْتُ

منها موضع صرّح فيه بلفظة الخلق ولا أشار إليه، وذكر الإنسان على الثلث من ذلك في ثمانية عشر موضعاً كلها نصت على خلقه، وقد اقترن ذكرهما في هذه السورة على هذا النحو.

و «الْإِنْسَانُ» هنا اسم الجنس، حكاه الزهراوي وغيره: و«الْبَيَّانُ»: النطق والفهم والإبانة عن ذلك بقول، قاله ابن زيد والجمهور: وذلك هو الذي فُضِّل به الإنسان من بين سائر الحيوان، وقال قتادة: هو بيان الحلال والحرام والشرائع، وهذا جزء من البيان العام، وقال قتادة: «الْإِنْسَانُ» هو آدم عليه السلام، وقال ابن كيسان: «الْإِنْسَانُ» محمد ﷺ، وهذا التخصيص لا دليل عليه، وكل المعلومات داخلية في البيان الذي علّمه الإنسان، فكان الله تعالى قال: من ذلك البيان وفيه معتبر كون الشمس والقمر بحسبان، فحذف هذا كله، ورفع «الْأَشْسَ» بالابتداء، وهذا ابتداء تعديد نعم.

واختلف الناس في قوله تعالى: «يَحْسُبَانِ» - فقال مكي، والزهراوي، عن قتادة: هو مصدر كالحساب في المعنى، كالغفران والطُغْيَان في الوزن، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى، والضحاك، هو جمع حِسَابٍ، كشيْهَابٍ وشُهْيَانٍ، والمعنى: إن هذين لهما في طلوعهما وغروبهما وقطعهما البروج وغير ذلك حسابات، وهذا مذهب ابن عباس، وأبي مالك، وقتادة. وقال ابن زيد: لولا الليل

والنهار لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً من مقادير الزمان، وقال مجاهد: الحُسْبَان: القُلُوك المستدير، شبهه بحسبان الرّحى وهو العود المستدير الذي باستدراته تدور المطحنة.

قوله تعالى: «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ» ، قال ابن عباس، والسدي، وسفيان: «النَّجْم»: النبات الذي لا ساق له، وسُمي نجماً لأنه نَجَم أي: ظهر وطلع، وهو مناسب للشجر يشبه به، وقال مجاهد، وقاتدة، والحسن: النّجم: اسم الجنس من نجوم السماء، والنسبة التي لها من السماء هي التي للشجرة من الأرض لأنهما في ظاهرهما، وسُمي الشجر من اشتجار غصونه وهو تداخلها، واختلف الناس في هذا السجود - فقال مجاهد والحسن: ذلك في النجم بالغروب ونحوه، وفي الشجر بالظل واستدارته، وكذلك في النجم على القول الآخر، وقال مجاهد أيضاً ما معناه: إن السجود في هذا كله تجوُّز، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل ونحوه، ومنه قول الشاعر:

تَرَى الْأَكْثَمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ
وقال تعالى: «يَسْجُدَانِ» وهما جمعان لأنه راعى اللفظة، لأنه اسم مفرد اسم للنوع، وهذا كقول الشاعر:

أَلَمْ يَخْرُوكْ أَنْ جِبَالٍ قَوْمِي
وَقَوْمِكَ قَدْ تَبَايَنَتَا انْقِطَاعًا
وقرأ الجمهور: «وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا»

بالنصب عطفاً على الجملة الصغيرة وهي «يَسْجُدَانِ»؛ لأن هذه جملة من فعل وفاعل وهذه كذلك، وقرأ أبو السّمّال: «وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا» بالرفع عطفاً على الجملة الكبيرة وهي قوله تعالى: «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ» ؛ لأن هذه جملة من مبتدأ وخبر والأخرى كذلك، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «وَحَفْصُ الْمِيزَانِ»، ومعنى «وَضِيعُ»: أَقْرَ وَأَثْبِت، و«الْمِيزَانُ»: العَدْلُ فيما قال الطبري، ومجاهد، وأكثر الناس. وقال ابن عباس، والحسن، وقاتدة: إِنَّهُ المِيزَان المعروف، وهو جزء من الميزان الذي يعبر به عن العدل، ويظهر عندي أن قوله تعالى: «وَوَضَعَ أَلْيَازًا» يريد به العدل، وأن قوله تعالى: «أَلَّا تَطْغَوْا فِي أَلْيَازًا» ، وقوله: «وَلَا تُخَيِّرُوا أَلْيَازًا» يريد به الميزان المعروف، وكل ما قبل محتمل سائغ. وقوله تعالى: «أَلَّا تَطْغَوْا» نهي عن التعمد الذي هو طغيان بالميزان، وأما ما لا يقدر البشر عليه من التحرير بالميزان فذلك موضوع عن الناس، و«أَلَّا» هو بتقدير: لئلا، أو مفعول من أجله، و«تَطْغَوْا» نصب، ويحتمل أن تكون «أَن» مفسرة فيكون «تَطْغَوْا» جزم بالنهي، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «لَا تَطْغَوْا» بغير «أَن». وقرأ جمهور الناس: «وَلَا تُخَيِّرُوا» من أَخْسَرَ، أي: نَقَصَ وَأَسَدَ، وقرأ بلال بن أبي

بُرْدَة: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا﴾ بفتح التاء وكسر السين من خَسَرَ، ويقال: خَسَرَ وأَخْسَرَ بمعنى نقص وأفسد كَجَبَرَ وأَجْبَرَ، وقرأ بلال أيضاً - فيما حكى عنه ابن جني - : ﴿تُخْسِرُوا﴾ بفتح التاء والسين من خَسِرَ بكسر السين.

واختلف الناس في ﴿لِلْأَنَارِ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما في بعض ما روي عنه: هم بنو آدم فقط، وقال الحسن بن أبي الحسن: هم الثقلان الجن والإنس، وقال ابن عباس أيضاً، وقتادة، وابن زيد، والشعبي: هم الحيوان كله. و﴿الْأَكْمَامُ﴾ في النخل موجودة في موضعين: فجملته فروع النخلة في أكمام من ليفها، وطلع النخلة في كِم من جهة، وقال قتادة: أكمام النخل رقابها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والِكِم من النبات كل ما التف على شيء وستره، ومنه كمائم الزهر، وبه شبه كُم الثوب.

﴿وَلَقَدْ ذُو الْقَعْفِ وَالرِّيحَانُ﴾، الحب ذو العصف هو القمح والشعير وما جرى مجراه من الحب الذي له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه، وهي العصيفة إذا يبست، ومنه قول علقمة بن عبدة:

تَسْقِي مَذَانِبَ قَدْ مَالَتْ عَصِيفَتُهَا
خَذَرُهَا مِنْ أَيْيِ الْمَاءِ مَطْمُومٌ
قال ابن عباس رضي الله عنهما: العصف: الثبن، وتقول العرب: خرجنا نتعصف، أي: يستعجلون عصيفة الزرع، وقرأ ابن عامر، وأبو

البرهسم: ﴿وَالْحَبُّ﴾ - بالنصب عطفاً على ﴿الْأَرْزِينِ﴾ - ﴿ذَا الْقَعْفِ وَالرِّيحَانِ﴾، إلا أن أبا البرهسم خفض النون. واختلفوا في الريحان - فقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: معناه: الرُّزْقُ، ومنه قول الشاعر وهو النُّجَيْرُ بْنُ تَوَلَّبَ:

سَلَامُ الْإِلَهِ وَرَزْحَانُهُ
وَجَيْشُهُ وَسَمَاءُ دِرْزُ
وقال الحسن: هو ريحانكم هذا، وقال ابن جبير: هو كل ما قام على ساق، وقال ابن زيد، وقتادة: الريحان هو كل مشوم طيب الريح من النبات، وفي هذا النوع نعمة عظيمة، فمنه الأزهار والمندل والعقاقير وغير ذلك، وقال الفراء: العصف فيما يؤكل، والريحان كل ما لا يؤكل. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَقَدْ ذُو الْقَعْفِ وَالرِّيحَانُ﴾، وهذه القراءة في المعنى كالأولى، وفي الإعراب حسنة الاتساق عطفاً على ﴿فَكَهْةٌ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن محيصن: ﴿وَلَقَدْ﴾ بالرفع ﴿ذُو الْقَعْفِ وَالرِّيحَانِ﴾ بخفض ﴿الرِّيحَانِ﴾ عطفاً على ﴿الْقَعْفِ﴾، كأن «الحب» هُما له على أن «العصف» منه الورق وكل ما يُعصف باليد والريح فهو رزق البهائم، و«الريحان» منه الحب وهو رزق الإنس، والريحان - على هذه القراءة - لا يدخل فيه المشوم إلا بتكلف. و«ريحان» هو من ذوات الوار، قال أبو علي: إما أن يكون ريحان اسماً وُضع موضع

المصدر، وإما أن يكون مصدراً على وزن فَعْلَان كَاللَّيْثَانِ وما جرى مجراه، أصله رَوْحَان، أبدلت الواو ياءً كما أبدلوا الباء واواً في «أشأوي»، وإما أن يكون مصدراً مما شُدَّ في المعتل كما شُدَّ كَيْثُونَةٌ وَيَثُونَةٌ، فأصله رَوْحَان، قُلبت الواو ياءً وأدغمت الياء في الياء فجاء «رَّحَان» فخفف، كما قالوا: مَيِّتٌ وَمَيِّتٌ، وَهَيْنٌ وَهَيْنٌ.

و «آلَاءٌ»: النعم، واحدها إلى مثل مَيْيَ وَأَلَّى مثل نَقَى، حكى هذين أبو عبيدة، وألَّى مثل أَمْنٍ، وإلَّى مثل حِصْنٍ، حكى هذين الزهراوي، والضمير في قوله تعالى: ﴿رَزَقْنَا﴾ للجن والإنس، وساغ ذلك ولم يُصْرَحْ لها بذكر على أحد وجهين: إما أنهما قد ذكرا في قوله تعالى: ﴿لِلْأَنَارِ﴾ على ما تقدم من أن المراد به الثقلان، وإما على أن أمرهما مفسر في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ و﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ فساغ تقديمهما في الضمير اتساعاً. وقال الطبري: يحتمل أن يقال: هذا من باب ﴿أَلْيَا فِي جَهَنَّمَ﴾، و«يا غلام اضربا عنقه»، وقال منذر بن سعيد: خوطب من يعقل لأن المخاطبة بالقرآن كله للإنس والجان، ويروى أن هذه الآية لما قرأها النبي ﷺ سكت أصحابه رضي الله عنهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن جواب الجن خير من سكوتكم، إني لما قرأتها على الجن قالوا: لا نُكَذِّبُ بِالْآيَةِ ربنا».

ومتى وقع ذكر المشرق والمغرب فهي إشارة إلى ناحيتين بجملة، ومتى وقع ذكر المشرق والمغرب فهي إشارة إلى مشرق كل يوم ومغربه، ومتى ذكر المشرق والمغربان فهي إشارة إلى نهايتي المشرق والمغرب؛ لأن ذكر نهايتي الشيء ذكرٌ لجميعه، وقال مجاهد: هو مشرق الصيف ومغربه ومشرق الشتاء ومغربه.

﴿١٤﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ﴾ معناه: أرسلهما إرسالاً غير منحاز بعضهما من بعض، ومنه: مَرَجَتِ الدَّابَّةُ، ومنه: الأمر المريج، أي: المختلط الذي لم يتحصل منه شيء، ومنه ﴿وَمِنْ مَّارِجٍ مِّن تَّارٍ﴾. واختلف الناس في البحرين - فقال الحسن، وقادة: بحر فارس وبحر الروم، وقال الحسن أيضاً: بحر القلزم واليمن وبحر الشام، وقال ابن عباس، وابن جبير: بحرٌ في السماء وبحر في الأرض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: هو مطر السماء - سماءً بحراً - وبحر الأرض، والظاهر عندي أن قوله تعالى: ﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ﴾ يريد بهما نوعي الماء العذب والأجاج، أي: خلطهما في الأرض وأرسلهما متداخلين في وضعهما في الأرض قريب بعضهما من بعض، والعبارة في هذا التأويل منيرة، وأشد مندر بن سعيد:

وَمَمْرُوجَةُ الْأَمْوَاهِ لَا الْعَذْبُ غَالِبٌ عَلَى الْمِلْحِ طَبِياً لَا وَلَا الْمِلْحُ يَغْذُبُ وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْلِيَّانِ﴾ فعلى التأويلين الأولين معناه: مُعْدَانِ

خُلِقَ مِنْهُ. وَالْفَخَّارُ: الطين الطيب إذا مسه الماء فخر أي: رَبا وعَظُم. و«الجان»: اسم جنس كالجنَّة، و«المارج»: اللَّهَبُ المضطرب من النار، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهو أحسن النار المختلط من الألوان الشثي، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «كيف بك إذا كنت في حُشالة من الناس قد مَرَجْتَ عهودهم وأماناتهم».

وكرر قوله تعالى: ﴿فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ تأكيداً وتنبيهاً للنفوس وتحريكاً لها، وهذه طريقة من الفصاحة معروفة، وهي من كتاب الله تعالى في مواضع، وفي حديث النبي ﷺ، وفي كلام العرب. وذهب قوم منهم ابن قُتَيْبَةَ وغيره إلى أن هذا التكرار إنما هو لما اختلفت النعم المذكورة كُرِّرَ التوقيف مع كل واحدة منها وهذا أحسن، قال الحسين بن الفضل: التكرار لطرد الغفلة والتأكيد.

وخصَّ تعالى ذكر المشرقين والمغربين بالتشريف في إضافة الربِّ إليهما لِعَظَمَتِهِمَا في المخلوقات، وأنهما طرفا آية عظيمة وعبرة وهي الشمس وجريها، وحكى النقاش أن «المشرقين» هما مشرق الشمس والقمر و«المغربين» كذلك، على ما في ذلك من العبر، وكلُّ مُتَجِّه،

رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٤﴾ فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿١٥﴾ مَجَّ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٦﴾ بَيْنَهُمَا بَرْحٌ لَّا يَتَّبَعِيَانِ ﴿١٧﴾ فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿١٨﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا الذُّلُومُ وَالْمِغْرَمَاتُ ﴿١٩﴾ فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٠﴾ وَلَهُ الْغَوَاةُ السُّفُنَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢١﴾ فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٢﴾ كُلٌّ مِّنْ عِندِهَا فَنَافٍ وَبَقِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْعَرْشِ وَالْإِكْرَارُ ﴿٢٣﴾ فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٤﴾ يَسْتَفْهِمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٥﴾ فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٦﴾ سَمِعَ لَكُمْ آيَةَ الْفُلْقَادِ ﴿٢٧﴾ فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٢٨﴾ يَمْشُرُ الْخَيْلَ وَالْإِنْسَانَ اسْتَطْعَمَ أَن تَفْعُدُوا مِن أَفْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَّا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٢٩﴾ فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٠﴾ يُرْسِلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٍ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْصَرِفَانِ ﴿٣١﴾ فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٣﴾ فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْلَخُ عَنْ ذِيهِ إِسْرٌ وَلَا جَبَانٌ ﴿٣٥﴾ فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴿٣٦﴾

٥٢٢

﴿١٤﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال كثير من المفسرين: «الإنسان»: آدم عليه السلام، وقال آخرون: أراد اسم الجنس، وساغ ذلك من حيث أبوهم مخلوق من الصلصال. واختلف الناس في اشتقاق الصلصال، فقال مكي - فيما حُكي - والنقاش: هو من «صَلَّ اللَحْمُ وغيره» إذا أُنْتُش، فهي إشارة إلى الحمأة، وقال الطبري وجمهور المفسرين: هو من «صَلَّ» إذا صَوَّت، وذلك في الطين لكرمه وجودته، فهي إشارة إلى ما كان في تربة آدم عليه السلام من الطين الحُرِّ، وذلك أن الله تبارك وتعالى خلقه من طين طيب وخيب ومختلف اللون، فمرة ذكر في خلقه هذا ومرة هذا، وكل ما في القرآن في ذلك من صفات ترددت على التراب الذي

لالتقاء وحققهما أن يلتقيا لولا البرزخ، وعلى القول الثالث أنهما يلتقيان كل سنة مرة، فمن ذهب إلى أنه بحر يجتمع في السماء فهو قول ضعيف، وإنما يتوجه اللقاء فيه وفي القول الرابع بنزول المطر، وفي القول الخامس بالأنهار في البحر وبالعيون قرب البحر.

و «الْبَرْزَخُ»: الحاجز في كل شيء، فهو في بعض هذه الأقوال أجرام الأرض، قاله قتادة، وفي بعضها القدرة، والبرزخ أيضاً المدة التي بين الدنيا والآخرة للموتى، فهو حاجز، وقال بعض الناس: إن ماء الأنهار لا يختلط بالماء المِلْح بل هو بذاته باق فيه، وهذا يحتاج إلى دليل أو حديث صحيح وإلا فالعيان لا يقتضيه، وذكر الشعلبي في «مَجَّ الْبَحْرَيْنِ» أَلْغَاوًا وَأَقْوَالًا باطنة لا يجب أن يلتفت إلى شيء منها.

واختلف الناس في قوله تعالى: «لَا يَبْيِغَانِ» - فقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: معناه: لا يبغي واحد منهما على الآخر، وقال قتادة أيضاً، والحسن: لا يبغيان على الناس والعمران، وهذان القولان على أن اللفظ من الْبَغْي، وقال بعض المتأولين: هي من قولك: بَغَى إذا طلب، فمعناه: لا يبغيان حالاً من الأحوال غير حالهما اللتين خلّقا وسُخِّرَا لهما. وقال ابن عباس، وقتادة، والضحاك: اللؤلؤ: كِبَارُ الجواهر والمرجان: صغاره، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، ومُرَّةُ الْهَمْدَانِي عكس هذا، والوصف بالصغير هو الصواب في اللؤلؤ،

وقال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: المرجان حجر أحمر، وهذا هو الصواب في المرجان، واللؤلؤ بناء غريب لا يُحفظ منه في كلام العرب أكثر من خمسة: اللؤلؤ، والجُجُؤ، والدُؤُؤ، واليُؤُؤ - وهو طائر - واليُؤُؤ، وهو الأصل.

واختلف الناس في قوله تعالى: «مِنْهُمَا» - فقال أبو الحسن الأخفش في كتاب (الحجة): وزعم قوم أنه قد يخرج اللؤلؤ والمرجان من المِلْح ومن العذب، وردّ الناس على هذا القول لأنّ الجِسْ يخالفه ولا يخرج ذلك إلا من المِلْح، وقد ردّ الناس على الشاعر في قوله:

فَجَاءَ بِهَا مَا شِئْتُ مِنْ لَطْمِيَّةٍ
عَلَى وَجْهِهَا مَاءُ الْفَرَاتِ يَمْسُجُ

وقال الجمهور من المتأولين: إنما يخرج ذلك من الأجاج في المواضع التي تقع فيها الأنهار والمياه العذبة، فلذلك قال تعالى: «مِنْهُمَا»، وهذا مشهور عند الغواصين، وقال ابن عباس، وعكرمة: إنما تتكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر لأنّ الصدف وغيرها تفتح أجوافها للمطر، فلذلك قال تعالى: «مِنْهُمَا»، وقال أبو عبيدة ما معناه: إن خروج هذه الأشياء إنما هو من المِلْح لكنه تعالى قال: «مِنْهُمَا» تَجَوُّزًا، كما قال الشاعر:

.....
مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا
وكما قال الآخر:

.....
عَلَفْتُهَا يَبْنَأَ وَمَاءَ بَارِدًا
فمن حيث هما نوع واحد هذه

الأشياء إنما هو منهم وإن كانت تختص عند التفصيل المبالغ بأحدهما، وهذا كما قال تعالى: «سَجَّ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا»، وإنما هو في إحدهما وهي الدنيا إلى الأرض، وقال الرُّمَّانِي: العذب فيهما كاللِّقَاح للملح، فهو كما يقال: الولد يخرج من الذكر والأنثى، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وأهل المدينة: «يُخْرَجُ» بضم الياء وفتح الراء «اللؤلؤ» رفعاً. وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «يُخْرَجُ» بفتح الياء وضم الراء على بناء الفعل للفاعل، وهي قراءة الحسن، وأبي جعفر. وقرأ أبو عمرو - في رواية حسين الجعفي عنه -: «يُخْرَجُ» بضم الياء وكسر الراء على إسناده إلى الله تعالى، أي: يتمكنه وقدرته «اللؤلؤ» نصباً، ورواه عنه أيضاً بالنون مضمومة وكسر الراء.

و «الْجَوَارِ» جمع جارية وهي السفن، وقرأ الحسن، والشَّعْبِي: «الْجَوَارِي» بإثبات الياء، وقرأ أبو جعفر، وشيبة بحذفها، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: «الْمَشَاتُ» بفتح الشين، أي: أنشأها الله تعالى أو الناس، وقرأ حمزة، وأبو بكر - بخلاف عنه -: «الْمَشِيَّاتُ» بكسر الشين، أي: تُنشِئُ هي السَّيْرُ إقبالاً وإدباراً، و«الْأَعْلَامُ» الجبال وما جرى مجراها من الطُّرَاب والآكام، وقال مجاهد: ماله شراع فهو من المنشآت وما لم يرفع له شراع فليس من المنشآت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قوله تعالى: ﴿كَالْأَعْيُنِ﴾ هو الذي يقتضي هذا الفرق، وأما لفظة «المنشآت» فتعم الكبير والصغير.

والضمير في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَرَّةٍ عَلَيْكَ يَوْمَ﴾ للأرض، وكنتى تعالى عنها ولم يتقدم لها ذكر لوضوح المعنى، كما قال تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ إلى غير ذلك من الشواهد، والإشارة بالفناء إلى جميع الموجودات على الأرض من حيوان وغيره، فغلبت عبارة من يعقل فلذلك قال: ﴿مَنْ﴾.

و «الوجه» عبارة عن الذات لأن الجارحة منفية في حق الله تعالى، وهذا كما تقول: هذا وجه القول والأمر، أي: حقيقته وذاته، وقرأ جمهور الناس: ﴿ذُرِّ الْمَلَكُوتِ﴾ على صفة لفظة الوجه، وقرأ عبدالله بن مسعود، وأبى رضي الله عنهما: ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ على صفة الرب تبارك وتعالى.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ﴾ يحتمل أن يكون في موضع الحال من «الوجه» والعامل فيه «وَبَيْنَ»، أي هو دائم في هذه الحال، ويحتمل أن يكون فعلاً مُسْتَأْنَفاً إخباراً مجرداً، والمعنى: إن كل مخلوق من الأشياء فهو في قوامه وتمسكه ورزقه إن كان مما يُرزق بحال حاجة إلى الله تعالى، فمن كان يسأل بنطق فالأمر فيه بين، ومن كان من غير ذلك فحاله يقتضي السؤال فأسند فعل السؤال إليه.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأٍ﴾ أي: يظهر شأن من قدرته التي سبقت في الأزل في ميقاته من الزمن، من إحياء وإماتة ورفع

وخفض وغير ذلك من الأمور التي لا يعلم نهايتها إلا هو تعالى وجل، و«الشأن» اسم جنس للأمور، قال الحسين بن الفضل: معنى الآية سؤق المقادير إلى المواقيت، وقد ورد في بعض الأخبار أن الله تعالى له في كل يوم في اللوح المحفوظ ثلاثمائة وستون نظرة، يُعَرِّفُ فيها وَيُذَلُّ، وَيُحْيِي وَيُمِيت، وَيُعْزِي فيها وَيُعْزِم، إلى غير ذلك من الأشياء، لا إله إلا هو. وفي الحديث أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية فقل: ما هذا الشأن يا رسول الله؟ قال: «يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع ويضع»، وذكر النقاش أن سبب هذه الآية قول اليهود: إن الله استراح يوم السبت فلا ينفذ فيه شيئاً، تعالى عن قولهم.

وقوله تعالى: ﴿سَنَرُكُمْ لَكُمْ آيَةً﴾ الْفَلَّاحِينَ عبارة عن إتيان الوقت الذي قدر فيه وقضى أن ينظر في أمر عباده، وذلك يوم القيامة، وليس المعنى أن تُثم شغلاً يفرغ منه، وإنما هي إشارة وعيد، وقد قال ﷺ لأَرْبُ الْعَقَبَةِ: «أما والله لأقرعن لكم ما حييت». و«السَّعْرُ» من كل آدمي حقيقة، وفي قوله تعالى: ﴿سَنَرُكُمْ﴾ جزئي على استعمال العرب، ويحتمل أن يكون التوعّد بعذاب في الدنيا، والأول أبين. وقرأ نافع، وابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿سَنَرُكُمْ﴾ بفتح النون وضم الراء، وقرأ الأعرج، وقتادة ذلك بفتح الراء والنون، ورويت عن عاصم، ويقال: فَرَعَ بفتح الراء، وفَرَعَ بكسرها، ويصح منهما جميعاً أن يقال: يَفْرَعُ بفتح الراء، وقرأ عيسى بكسر النون وفتح الراء، قال أبو حاتم: هي لغة سُفْلَى مضر، وقرأ أبو عمرو،

وحمزة، والكسائي بالياء المفتوحة، وقرأ حمزة، والكسائي بضم الياء، وقرأ أبو عمرو بفتحها وضم الراء، وقرأ الأعمش - بخلاف - وأبو حيوة: ﴿سَيَفْرَعُ﴾ بضم الياء وفتح الراء وبناء الفعل للمفعول، وقرأ عيسى بن عمر أيضاً: ﴿سَنَفْرَعُ﴾ بفتح النون وكسر الراء، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿سَنَفْرَعُ إِلَيْكُمْ﴾.

و «الْفَلَّاحِينَ»: الجن والإنس، يقال لكل ما يعظم أمره: ثَقِيل، ومنه ﴿وَأَفْرَجَتِ الْأَرْضُ أَفْقَالَهَا﴾، وقال النبي ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي»، ويقال لبض النعام: ثَقْل، قال لبيد: فَتَذْكُرَائِقْلًا.....

وقال جعفر بن محمد الصادق: سُمِّي الجن والإنس ثَقْلَيْنِ لأنهما ثقلا بالذنوب، وهذا بارع ينظر إلى خلقهما من طين ونار، وقرأ ابن عامر: ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ بضم الهاء.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَسْأَلْتُمُوهُنَّ لَيَكُنَّ مِنْ أَفْطَارِ السَّنَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ - فقال الطبري: قال قوم: في الكلام محذوف تقديره: يقال لكم: يا معشر الجن والإنس، قالوا: وهذه حكاية عن حال يوم القيامة، ﴿يَوْمَ أَتَيْنَاكُمْ عَلَى قُرْآنٍ وَبَشِّرِ الدَّالِّ، قَالَ الضُّحَاكُ: وذلك أنه يفتر الناس في أفطار الأرض والجن كذلك لما يرون من هول يوم القيامة، فيجدون سبعة صفوف من الملائكة قد أحاطت بالأرض فيرجعون من حيث جاءوا، فحينئذ يقال لهم: ﴿يَكْمَشِرُ إِلَيْنِ وَالْإِنْسِ﴾. وقال بعض المفسرين: بل هي مخاطبة في الدنيا، والمعنى: إن

وَالسَّلَيطُ: ذَهْنُ الشَّيْخِ،
وَقَرَأَ جَمْهُورُ الْقُرَاءِ:
﴿وَنَحْسٌ﴾ بِالرَّفْعِ عَطْفًا
عَلَى ﴿شَوَاطِئَ﴾، فَمَنْ قَالَ
إِنَّ النَّحْسَ هُوَ الْمَعْرُوفُ -
وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ، وَابْنِ
عَبَّاسٍ أَيْضًا - قَالَ: وَيُرْسَلُ
عَلَيْهِمَا نَحْسٌ، أَيْ:
يُذَابُ وَيُرْسَلُ عَلَيْهِمَا،
وَمَنْ قَالَ هُوَ الدِّخَانُ قَالَ:
يُعَذِّبُونَ بِدِخَانٍ يُرْسَلُ
عَلَيْهِمَا. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ،
وَأَبُو عَمْرٍو، وَالنَّحْيِيُّ،
وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ:
﴿وَنَحْسٌ﴾ بِالْخَفْضِ
عَطْفًا عَلَى ﴿نَارٍ﴾، وَهَذَا
مُسْتَقِيمٌ عَلَى مَا حَكِيْنَاهُ

وَالسَّلَيطُ: ذَهْنُ الشَّيْخِ،
وَقَرَأَ جَمْهُورُ الْقُرَاءِ:
﴿وَنَحْسٌ﴾ بِالرَّفْعِ عَطْفًا
عَلَى ﴿شَوَاطِئَ﴾، فَمَنْ قَالَ
إِنَّ النَّحْسَ هُوَ الْمَعْرُوفُ -
وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ، وَابْنِ
عَبَّاسٍ أَيْضًا - قَالَ: وَيُرْسَلُ
عَلَيْهِمَا نَحْسٌ، أَيْ:
يُذَابُ وَيُرْسَلُ عَلَيْهِمَا،
وَمَنْ قَالَ هُوَ الدِّخَانُ قَالَ:
يُعَذِّبُونَ بِدِخَانٍ يُرْسَلُ
عَلَيْهِمَا. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ،
وَأَبُو عَمْرٍو، وَالنَّحْيِيُّ،
وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ:
﴿وَنَحْسٌ﴾ بِالْخَفْضِ
عَطْفًا عَلَى ﴿نَارٍ﴾، وَهَذَا
مُسْتَقِيمٌ عَلَى مَا حَكِيْنَاهُ

استطعتم الفرار من الموت بآن تنفذوا
من أقطار السموات والأرض، وقال
ابن عباس رضي الله عنهما: إن
استطعتم بأذهانكم وفكركم أن تنفذوا
فتعلموا علم أقطار السموات
والأرض، و«الأقطار»: الجهات،
وقوله تعالى: ﴿فَانْشُؤْا﴾ صيغته الأمر
ومعناه التعجيز. و«السلطان» هو القوة
على غرض الإنسان، ولا يستعمل إلا
في الأعظم من الأمر والحجج أبدًا من
القوي في الأمور، فلذلك يعبر كثير
من المفسرين عن السلطان بأنه
الحجة، وقال قتادة: السلطان هنا
الملك، وليس لهم ملك.

و«الشواط»: لهب النار، قاله
ابن عباس رضي الله عنهما
وغيره، وقال أبو عمرو بن العلاء:
لا يكون الشواط إلا من النار وشيء
معها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وكذلك النار كلها لا تحس إلا شيء
معها.

وقال مجاهد: الشواط هو اللهب
الأخضر المنقطع، ويؤيد هذا القول
قول حسان بن ثابت يهجو أمية بن
أبي الصلت:

هَجَوْتُكَ فَاحْتَضَعْتَ خَلِيفَ دُلٍّ
بِقَافِيَةٍ تَأْجُجُ كَالشَّوْاطِ
وقال الضحاك: هو الدخان الذي
يخرج من اللهب وليس بدخان
الخطب. وقراء الجمهور: ﴿شَوَاطِئَ﴾
بضم الشين، وقراء ابن كثير وحده،
وشبل، وعيسى: ﴿شَوَاطِئَ﴾ بكسر
الشين، وهما لغتان، وقال
ابن عباس، وابن جبير: النحاس:
الدخان، ومنه قول الأعشى:

يُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلَيطِ
لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نَحْسًا

الإبهام، كأنه تعالى يقول: فإذا
انشقت السماء فما أعظم الهول،
وانشقاق السماء انفطارها عند
القيامة، وقال قتادة: السماء اليوم
خضراء وهي يوم القيامة حمراء،
فمعنى قوله تعالى: ﴿وَرَدَّةٌ﴾ أي:
كحمرة الورد، وهو النوار
المعروف، وهذا قول الزجاج
والرؤماني. وقال ابن عباس، وأبو
صالح، والضحاك: هي من لون
الفرس الورد، فأنشأت لكون السماء
مؤنثة.

واختلف الناس في قوله تعالى:
﴿كَالَّذِينَ﴾ - فقال مجاهد،
والضحاك: هو جمع دهن، قالوا:
وذلك أن السماء يعترها يوم القيامة
ألوان وذوب وتميع من شدة الهول،
وقال بعضهم: شبه لمعانها بلمعان
الدهن، وقال جماعة من المتأولين:

عن أبي عمرو بن العلاء، ومن رأى
أن الشواط يختص بالنار قدر هنا:
وشيء من نحاس، وحكى أبو حاتم
عن مجاهد أنه قرأ: ﴿وَنَحْسٌ﴾
بكسر النون والجزم، وعن
عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قرأ:
﴿وَنَحْسٌ﴾ بفتح النون وضم الحاء
والسين المشددة على أنه فعل، كأنه
يقول: وَنَقُشْتُ بِالْعَذَابِ، وعن ابن
جندب أنه قرأ: ﴿وَنَحْسٌ﴾ كما
تقول: يَوْمَ نَحْسُ، وحكى أبو عمرو
مثل قراءة مجاهد عن طلحة بن
مصرف، وذلك لغة في نحاس،
وقيل: هو جمع نحس، ومعنى الآية
مستمر في تعجيز الجن والإنس،
أي: أنتم بحال من يرسل عليه هذا
فلا تتصرون.

﴿٣٧﴾ - ﴿٤٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

جواب ﴿إِذَا﴾ محذوف مقصوده به

الدهان: الجلد الأحمر، وبه شبهها،
وأشدد منذر بن سعيد:

يَبْعَثُ الدَّهَانَ الْحُمْرَ كُلَّ عَشِيَّةٍ
بِمَوْسَمٍ بَذَرٍ أَوْ بِسُوقٍ عُكَاظٍ
وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْفَعُ﴾ نفى
للسؤال، وفي القرآن الكريم آيات
تقتضي أن في القيامة سؤالاً وآيات
تقتضي نفية كهذه وغيرها، فقال
بعض الناس: ذلك في مواطن دون
مواطن، وهو قول قتادة وعكرمة،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما -
وهو الأظهر في ذلك -: إن السؤال
متى أثبت فهو بمعنى التقرير
والتوبيخ، ومتى نفى فهو بمعنى
الاستخبار المحض والاستعلام؛
لأن الله تبارك وتعالى عليم بكل
شيء، وقال الحسن، ومجاهد: لا
تسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم
بسميهم، والسما التي يعرف بها
المجرمون هي سواد الوجوه وزرقة
العيون في الكفرة، قاله الحسن،
ويحتمل أن يكون غير هذا من
التشبيهات.

واختلف المتأولون في قوله تعالى:
﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَفْئِدَةِ﴾ - فقال ابن
عباس رضي الله عنهما: يؤخذ كل
كافر بناصيته وقدمه فيطوى ويجمع
كالخطب، ويلقى كذلك في النار،
وقال النقاش: روي أن هذا الطي
على ناحية الصلب قعساً، وقاله
الضحاك، وقال آخرون: بل على
ناحية الوجه، قالوا: فهذا معنى
﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَفْئِدَةِ﴾، وقال قوم
في كتاب الثعلبي: إنما يسحب
الكفرة سحباً، فبعضهم يُجرُ بقدميه،
وبعضهم بناصيته، فأخبر في هذه

الآية أن الأخذ يكون بالنواصي
ويكون بالأقدام.

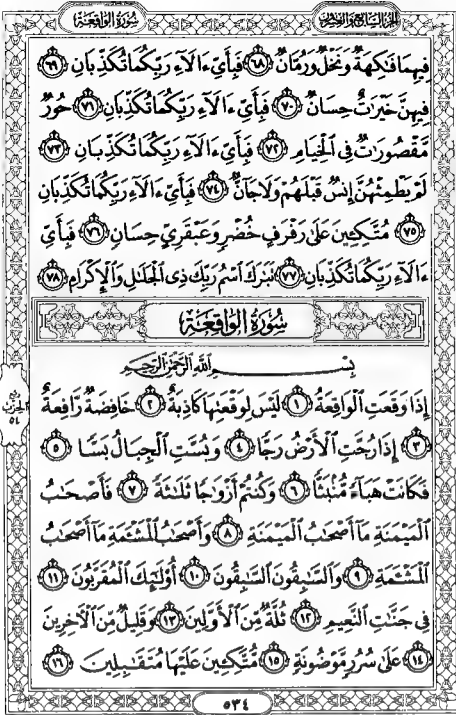
وقوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ قبلها
محذوف تقديره: يقال لهم على جهة
التوبيخ والتقرير، وفي مصحف ابن
مسعود رضي الله عنه: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ
الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبَان، تَصَلِّيَانَهَا لَا
تَمُوتَانِ فِيهَا وَلَا تَحْيَيَانِ﴾. وقرأ
جمهور الناس: ﴿يَطْرُقُونَ﴾ بفتح الياء
وضم الطاء وسكون الواو، وقرأ
طلحة بن مصرف: ﴿يَطْرُقُونَ﴾ بضم
الياء وفتح الطاء وشد الواو، وقرأ أبو
عبدالرحمن: ﴿يُطْطَفُونَ﴾، وهي
قراءة علي بن أبي طالب
رضي الله عنه، والمعنى في هذا كله
أنهم يترددون بين نار جهنم وجمرها
وبين حميم، وهو ما غلي في جهنم
من مائع عذابها، والحميم: الماء
السخن، وقال قتادة: إن العذاب
الذي هو الحميم يغلي منذ خلق الله
تعالى جهنم، وأتى الشيء: حَضَرَ،
وأتى اللحم أو ما يُطبخ أو يُغلى:
نضج وتناهى حره والمراد منه،
ويحتمل أن يكون من هذا ومن هذا،
وكونه من الثاني أبين، ومنه قوله
تعالى: ﴿غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾، ومن
المعنى الآخر قول الشاعر:

أَتَى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ نَمَامٌ
ويشبه أن يكون الأمر في المعنيين
قريباً بعضه من بعض، والأول أعم
من الثاني.

﴿٤٦﴾ - ﴿وَلَا يَنْفَعُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُ﴾
﴿نَافٍ﴾ يحتمل أن تقع على جميع
المتصفين بالخوف الزاجر عن

معاصي الله تعالى، ويحتمل أن تقع
لواحد منهم، وبحسب هذا قال
بعض الناس في هذه الآية: إن كل
خائف له جتان، وقال بعضهم: إن
جميع الخائفين لهم جنتان،
والْمَقَامُ هو وقوف العبد بين يدي
ربه تعالى، يفسره: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ
لِرَبِّهِمُ الْآلَيْنِ﴾، وأضاف المقام
إلى الله تعالى من حيث هو بين
يديه. قال الثعلبي: ﴿مَقَامُ رَبِّهِ﴾
قيامه على العبد، بيانه: ﴿أَمَّنْ مَوْ
قَائِهِ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾،
وحكى الزهراوي هذا المعنى عن
مجاهد، وفي هذه الإضافة تنبيه
على صعوبة الموقف، وتحريض
على الخوف الذي هو أسرع المطايا
إلى الله عز وجل، وقال قوم: أراد
جنة واحدة وثنى على نحو قوله
تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلِّ كَفَّارٍ
عَبِيرٍ﴾، وقول الحجاج: يا
غلام اضربا عنقه، وهذا ضعيف؛
لأن معنى التثنية متجه بلا وجه
للفرار إلى هذه الشأفة، ويؤيد
التثنية قوله تعالى: ﴿ذَرَاةَ
أَفْئَةٍ﴾، وهي تثنية (ذات) لأن
أصل (ذات) ذوات.

و «الْأَفْئَان» يحتمل أن يكون جمع
فَتْنٍ وهو الغُصْن، وهذا قول
مجاهد، فكأنه تعالى مدحها بظلالها
وتكاثف أغصانها، ويحتمل أن يكون
جمع فَنٍّ، وهو قول ابن عباس
رضي الله عنهما، فكأنه تعالى
مدحها بكثرة أنواع فواكهها ونعيمها.
و ﴿رَبَّانٍ﴾ معناه: نوعان،
و ﴿مُتَّكِينَ﴾ حال، إما من محذوف
تقديره: يتمتعون متكئين وإما من



«طَمَثٌ» معناه: جامع بكرأ أو غيرها.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا جَنَّةٌ﴾ - فقال مجاهد: الجن قد تجامع نساء البشر مع أزواجهن إذا لم يذكر الزوجُ الله تعالى، فنفي في هذه الآية جميع المجامعات، وقال حمزة بن حبيب: الجنُّ في الجنة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم، فنفسى في هذه الآية الافتراض عن البشريَّات والجنَّيات، ويحتمل اللفظ أن يكون مبالغة وتأكيذاً

كأنه تعالى قال: لم يطمئن شيء، أراد العموم التام لكنه صرَّح من ذلك بالذين يُعقل منه أن يَطْمِثَ، وقال أبو عبيدة والطبري: إن من العرب من يقول: ما طَمَثَ هذا البعير جبل قط، أي: ما مَسَّه، فإن كان هذا المعنى: ما أدامه جبلٌ فهو يقرب من الأول وإلا فهو معنى آخر غير ما قدمناه، وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد: ﴿وَلَا جَنَّةٌ﴾ بالهمز.

٥٨ - ٦٩ تفسير قوله عز وجل:

«الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ» من الأشياء التي قد برع حُسْنُهَا، واستشعرت النفوسُ جلالها، فوقع التشبيه بها لا في جميع الأوصاف لكن فيما يُشبه ويحسن بهذه المشبهات، فالياقوت في أمْلَاسِهِ وشُفوفه، ومنه قول النبي ﷺ في صفة المرأة من نساء أهل الجنة: «يَرَى مَخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخَفْ﴾، «الْأَمْكَاءُ»: جلسة المتنعم المتمتع، وقرأ جمهور الناس: ﴿فُرُشٌ﴾ بضم الراء، وقرأ أبو حيوة: ﴿فُرُشٌ﴾ بسكون الراء، وزوي في الحديث أنه قيل لرسول الله ﷺ: هذه البطائن من إشتبرق فكيف الظواهر؟ قال عليه الصلاة والسلام: «هي من نور يتلألأ»، و«الْإِسْتَبْرَقُ» ما خُسِّنَ وَحُسِّنَ من الديباج، و«السُّنْدُسُ» ما رُقَّ منه، وقد تقدم القول في لفظة الإِستبرق، وقرأ ابن محيصن: ﴿مَنْ أَسْتَبْرَقَ﴾ على أنه فعل والألف وصل.

و «الْجَنَى» ما يُجْتَنَى من الشمار، ووصفه بالدنو لأنه فيما روي في الحديث يتناوله الرجل على أي حالة كان من قيام أو جلوس أو اضطجاع لأنه يدنو إلى مشتهيه.

والضمير في قوله تعالى: ﴿يَبْرُقُ﴾ للفرش، وقيل: للجنات؛ إذ الجنَّتان جنات في المعنى.

و «قَاصِرَاتُ الطُّرْفِ» هن الحور العين قَصَرْنَ أَلْحَاضَهُنَّ على أزواجهن، وقرأ أبو عمرو عن الكسائي وحده، وطلحة، وعيسى، وأصحاب علي، وابن مسعود رضي الله عنهما: ﴿يَطْمُثُهُنَّ﴾ بضم الميم، وقرأ جمهور القراء: ﴿يَطْمِثُهُنَّ﴾ بكسر الميم، والمعنى: لم يَقْتَضِضْهُنَّ؛ لأن الطمَث دم الفرج فيقال لدم الحيض: طَمَثٌ، ويقال لدم الافتضاخ: طَمَثٌ، فإذا نفى الطمَثُ فقد نفى القرب منهن على جهة الوطء، قال الفراء: لا يقال «طَمَثٌ» إلا إذا افتَضَّ، وقال غيره:

العظم، والمرجان في أمْلَاسِهِ وجمال منظره، وبهذا النحو من النظر سَمَّتِ العرب النساءَ بهذه الأشياء كدرة بنت أبي لهب، ومَرْجَانة أم سعيد، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ﴾ آية وغد ووسط لنفوس جميع المؤمنين لأنها عامة، قال ابن المنكدر، وابن زيد، وجماعة من أهل العلم: هي للبرِّ والفاجر، والمعنى: إن جزاء من أحسن بالطاعة أن يُحسن إليه بالنعيم، وحكى النقاش أن النبي ﷺ فسر هذه الآية فقال: «هل جزاء التوحيد إلا الجنة؟»

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، اختلف الناس في معنى «دُونِهِمَا» - فقال ابن زيد وغيره: معناه: إن هاتين دون تينك في

المنزلة والقدر، والأوليان جَنَّتَا السابقين والأخريان جَنَّتَا أصحاب اليمين، قال الرُّمَّاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجنات الأربع للخائف مقام ربِّه تعالى، وقال الحسن: الأوليان للسابقين والأخريان للتابعين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: من دونهما في القرب من المُتَعَمِّين، وهاتان المُوَخَّرَتَا الذِّكْر أفضل من الأوليين، يدل على ذلك أنه وصف عيني هاتين بالتَّضَخ والأخريين بالجري فقط، وجعل هاتين مُدْهَاتَيْن من شدة النِّعْمَة والأوليين ذواتا أَفْنَان، وكل جنة ذات أفنان وإن لم تكن مُدْهَامَةً، وأكثر الناس على التَّأْوِيل الأول، وهذا استدلال لا يست بقواطع، وروي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: جنتان للمقربين من ذهب، وجنتان لأهل اليمين من فضة هما دون الأوليين.

و «مُدْهَاتَانِ» معناه: قد علا لونهما دُهمَةً وسوادً من النضرة والخضرة، كذا فسره ابن الزبير رضي الله عنهما على المنبر، ومنه قوله تعالى: «وَالَّذِي أَخْرَجَ الْأَرْزَقَ فَعَزَّاهُ عَنْهُ آخَرُ» و «النَّضَاحَة»: الفؤارة التي يهيج ماؤها، قال ابن جبير: المعنى: نضاختان بأنواع الفاكهة، وهذا ضعيف.

وكرر تعالى «النَّخْلَ وَالرُّمَّانَ» لأنهما ليسا من الفاكهة، وقال يونس بن حبيب وغيره: كررهما - وهما من أفضل الفاكهة - تشريفاً لهما، كما

قال تعالى: «وَنَزَعْنَاهُ وَرُسُلِهِ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ».

٧٠ - ٧٨ تفسير قوله عز وجل: «خَيْرَتٌ» جمع «خَيْرَةٌ» وهي أفضل النساء، ومنه قول الشاعر:

وَلَقَدْ طَعْنْتُ مَجَامِعَ الرِّبَلَاتِ
رَبَلَاتٍ هَشِدٍ خَيْرَةٌ الْمَلِكَاتِ
وقالت أم سلمة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى: «خَيْرَتُ حَسَنٌ»، قال: «خيرات الأخلاق حسان الوجوه»، وقرأ بكر بن حبيب السهمي: «خَيْرَاتٌ» بشد الياء المكسورة، وقرأ أبو عمرو بفتح الياء.

وقوله تعالى: «تَقْصُورَتُ» معناه: محجوبات مصونات، وكانت العرب تمدح النساء بملزمة البيوت، ومنه قول الشاعر:

وَتَقْصُرُ عَنْ إِنِّيَانِهِنَّ فَتَعْدُرُ
يصف أن جيرانها يَزُرْنَها ولا تزورهن، ويروى أن بيت الأعشى قد ذم، وهو قوله:

كَأَنَّ مِشْبَتَهَا مِنْ بَيْتٍ جَارَتْهَا
مَرُّ السَّحَابَةِ لَا زَيْتٌ وَلَا عَجَلُ
ف قيل في ذمه: هذه جِوَالَةٌ خُرَاجَةٌ ولأجته، ومن مدح القصر قول كثير:

وَأَنْتِ الَّتِي حَبَبْتَ كُلَّ قَصِيرَةٍ
إِلَيَّ وَلَمْ تَشْغُرْ بِذَلِكَ الْقَصَائِرِ
أريد قَصِيرَاتِ الْجِبَالِ وَلَمْ أَرِدْ قِصَارَ الْخَطَى، شَرُّ النِّسَاءِ الْبَحَائِرُ

وقال الحسن: مقصورات في الخيام: لسن بطوافات في الطرق.

و «الْخِيَامُ»: البيوت من الخشب والثمام وسائر الحشيش، وهي بيوت

المرتحلين من العرب، وخيام الجنة بيوت اللؤلؤ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هي دُرٌّ مجوَّف، ورواه ابن مسعود عن النبي ﷺ، وإذا كان المسكن عند العرب من شعر فهو بيتٌ، ولا يقال له خيمة، ومن هذا قول جرير:

مَتَى كَانَ الْخِيَامُ بِذِي طُلُوحٍ
سُقِبَتِ الْعَيْنُ أَتَيْتُهَا الْخِيَامُ

ومنه قول امرئ القيس:

أَمْزَحْ خِيَامَهُمْ أَمْ عَشُرْ؟

فاستفهم: هل هم منجدون أم غائرون؟ لأن العُشْرَ مما لا ينبت إلا في تهامة والمَرْحُ مما لا ينبت إلا في نجد.

و «الرَّفْرَفُ»: ما تدلى من الأسرة من غالي الثياب والبُسْط، وقال ابن جبير: الرَّفْرَفُ رياض الجنة، والأول أصوب وأبين، وَوَجْهُ قول ابن جبير أنه من: رَفَّ الثَّبْتُ إذا نَعِمَ وحسن. وما تدلى حول الخباء من الخرقَة الشفافة يُسَمَّى رَفْرَفًا، وكذلك يسميه الناس اليوم، وقال الحسن بن أبي

الحسن: الرَّفْرَفُ: المرافق، و«العبقري»: بُسْطٌ حسان فيها صور وغير ذلك تصنع بعبقر، وهو موضع يعمل فيه الوشي والديباج ونحوه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: العبقري: الزُّرْبَاني، وقال ابن زيد: هي الطنافس، وقال مجاهد: هي الديباج الغليظ، وقرأ زهير الفرقي: «رَفَارِفٌ» بالجمع وترك الصرف، وقرأ أبو طعمة المدني، وعاصم - في بعض ما روي عنه -: «رَفَارِفٌ» بالصرف، وكذلك قرأ عثمان بن

عَفَّانَ رضي الله تعالى عنه: ﴿زَقَّارِفٍ وَعَبَّاقِرِيٍّ﴾ بالجمع والصرف، ورويت عن النبي ﷺ، وغلط الزجاج والرُّمَّاني هذه القراءة، وقرأ أيضاً عثمان بن عفان رضي الله عنه في بعض ما روي عنه: ﴿عَبَّاقِرِيٍّ﴾ بفتح القاف والياء، وهذا على أن اسم الموضع «عَبَّاقِر» بفتح القاف، والصحيح في اسم الموضع «عَبَّقَر»، قال امرؤ القيس:

كَأَنَّ صَلِيلَ الْمَرْوِ حِينَ تُشَدُّهُ
صَلِيلُ زُرُوفٍ يُشْتَقَّدُنْ بِعَبَّقَرَا
قال الخليل والأصمعي: العرب إذا استحسنت شيئاً واستجادته قالت: عَبَّقَرِي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومنه قول النبي ﷺ: «فَلَمْ أَرِ عَبْقَرِيًّا مِنْ النَّاسِ يُفْزِرُ قَرِيَّةً»، وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: الْعَبْقَرِيُّ سَيِّدُ الْقَوْمِ وَعَيْنُهُمْ، وقال زهير:

بِحَيْلٍ عَلَيْهَا جَنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ
جَدِيدُونَ يَوْمًا أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَفْلُوا
ويقال: عَبَّقَرٌ مَسْكَنٌ لِلْجَنِّ، وقال ذو الرُّمَّة:

حَتَّى كَأَنَّ رِيَاضَ الْقُفِّ أَلْبَسَهَا
مِنْ وَشْيِ عَبْقَرٍ تَجْلِيلٌ وَتَنْجِيدٌ
وقرأ الأعرج: «خُضْرٌ» بضم الضاد.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ على إتباع «الرَّبِّ»، وقرأ ابن عامر وأهل الشام: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ على إتباع «الاسم»، وكذلك في الأول، وفي حرف أبيي، وابن مسعود رضي الله عنهما: ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ في الموضعين، وهذا الموضع ممَّا

أريد فيه بالاسم مُسَمَّاهُ، والدعاء بهاتين الكلمتين حَسَنٌ مَرْجُوٌّ الإجابة، وقال رسول الله ﷺ: «الظُّلُومُ بِنَاذِرِ الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». كمل تفسير سورة الرحمن والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الواقعة

وهي مكيَّة بإجماع ممن يُعَدُّ بقوله من المفسرين، وقيل: إن فيها آيات مدنية أو ممَّا نزل في السفر، وهذا كله غير ثابت، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ دَاوَمَ عَلَى قِرَاءَةِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ لَمْ يَفْتَقِرْ أَبَدًا»، ودعا عثمانُ ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنهما إلى عطائه فأبى أن يأخذ، فقليل له: خذ للعيال فقال: إِنْهُمْ يَقْرَأُونَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ، وسمعت النبي ﷺ يقول: «مَنْ قَرَأَهَا لَمْ يَفْتَقِرْ أَبَدًا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيها ذكر القيامة وحظوظ الناس في الآخرة، وفهم ذلك غشَّى لا فقر معه، من فهمه شغل بالاستعداد.

﴿١﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الْوَاقِعَةُ﴾ اسمٌ من أسماء القيامة كالصَّاحَّةِ وَالْآزفةِ وَالطَّامَةِ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهذه كلها أسماء تقتضي تعظيمها وتشنيع أمرها، وقال الضحاك: الواقعة: الصيحة، وهي النفخة في الصور، وقال بعض المفسرين: الواقعة صخرة بيت المقدس تقع عند

القيامة، فهذه كلها معانٍ لأجل القيامة.

و ﴿كَذِبَةٌ﴾ يحتمل أن يكون مصدرًا كالعاقبة والعافية وخاتمة الأعين، فالمعنى: ليس لها تكذيب ولا ردٌّ وَلَا مَثْنَوِيَّةٌ، وهذا قول قتادة والحسن، ويحتمل أن يكون صفة لمقدَّر، كأنه تعالى قال: ليس لوقعتها حال كاذبة، ويحتمل الكلام - على هذا معنيين: أحدهما كاذبةٌ أي: مكذوبة فيما أخبر به عنها، وسماها كاذبةً لهذا، كما تقول: قصة كاذبة، أي: مكذوب فيها، والثاني حال كاذبة، أي: لا يمضي وقوعها، كما تقول: فلان إذا حمل لم يكذب.

وقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ رفع على خبر ابتداء، أي: هي خافضة رافعة، وقرأ الحسن، وعيسى الشقفي، وأبو حنيفة: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ بالنصب على الحال بعد الحال التي هي ﴿لَيْسَ يَوْفَعِيهَا كَذِبَةٌ﴾، ولك أن تتابع الأحوال كما لك أن تتابع أخبار المبتدأ، والقراءة الأولى أشهر وأبرع معنى، وذلك أن موقع الحال من الكلام موقع ما لو لم يُذكر لاستغني عنه، وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها موقع ما يَتَّهَمُ به.

واختلف الناس في معنى هذا الخفض والرفع في هذه الآية - فقال قتادة، وعثمان بن عبدالله بن سراقه: القيامة تخفض أقواماً إلى النار، وترفع أقواماً إلى الجنة، وقال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: الصيحة تخفض صوتها لتسمع

الأدنى، وترفعه لتسمع الأقصى، وقال جمهور من المتأولين: القيامة تنفطر بها السماء والأرض والجبال، وانهدام هذه البنية يرفع طائفة من الأجرام ويخفض أخرى، فكأنها عبارة عن شدة الهول والاضطراب.

والعامل في قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ و﴿رُجَّتِ﴾؛ لأن هذه بدل من ﴿إِذَا﴾ الأولى، وقد قالوا: إنَّ ﴿رُجَّتِ﴾ هو العامل في الأولى، وذلك لأن معنى الشرط فيهما قوي، فهي كَمَنْ وَمَا في الشرط يعمل فيها ما بعدها من الأفعال، وقد قيل: إنَّ ﴿إِذَا﴾ مضافة إلى ﴿رُجَّتِ﴾ فلا يصح أن تعمل فيها، وإنما العامل فيها فعل مقدر.

ومعنى ﴿رُجَّتِ﴾: زُلْزِلَتْ وَخُرُكَتْ بعنف، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومنه: ارتج السهم في الغرض، إذا اضطرب بعد وقوعه، والرجة في الناس الأمر المحرك، واختلف اللغويون في معنى ﴿وَبَسَّتِ﴾ - فقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة: معناه: فَتَّتَتْ كما تُبْسُ البسيطة وهي السوق، ويقال: بَسَسْتُ الدقيق إذا ثريته بالماء ويقي متفتتاً، وأنشد الطبري في هذا:

لَا تَخْبِرَا خَبْرًا وَبَسَا بَسَا
وقال: هذا قول لص أعجله الخوف عن العجين فقال هذا لصاحبيه، وقال بعض اللغويين: ﴿بَسَّتِ﴾ معناه: سُيِّرَتْ، قالوا: وَالْخَبْرُ: السَّيْرُ الشَّدِيدُ وضرب الأرض بالأيدي، والبس: السَّيْرُ الرقيق، وأنشدوا البيت:

لَا تَخْبِرَا خَبْرًا وَبَسَا بَسَا
وَجَنَبَاهَا نَهْشَلًا وَعَبَسَا
ذكر هذا أبو عثمان اللغوي في كتاب «الأفعال».

و «الْهَبَاءُ»: ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ولا يكاد يُرَى إِلَّا فِي الشَّمْسِ إِذَا دَخَلَتْ مِنْ كُوَّةٍ، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال قتادة: الهباء ما يتطاير من يبس النبات، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الهباء ما يتطاير من حوافر الخيل والدواب. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: الهباء ما يتطاير من شرر النار فإذا طُفِيَءَ لَمْ يَوْجَدْ شَيْءٌ. و «الْمُنْبَثُّ» - بالثاء المثناة -: الشائع في جميع الهواء، وقرأ الشَّعْبِيُّ: ﴿مُنْبَثًّا﴾ بالثاء بنقطتين، أي: متقطعاً، ذكر ذلك الشعلبي، والقول الأول في الهباء أحسن الأقوال.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ﴾ لجميع العالم؛ لأن الموصوفين من أصحاب المشأمة ليسوا في أمة محمد ﷺ، و «الْأَرْوَاحُ»: الأنواع والضروب، قال قتادة: هذه منازل النار يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا حَبُّ اللَّبَنَةِ﴾ ابتداء و [مَا] ابتداء ثانٍ، و «فَأَمَّا حَبُّ اللَّبَنَةِ﴾ خبر [مَا]، والجملة خبر الابتداء الأول، وفي الكلام معنى التعظيم، كما تقول: «زيد ما زيد»، ونظير هذا في القرآن كثير، و «الْمَيْمَنَةُ» أظهر ما في اشتقاقها أنها من ناحية اليمين، وقيل: من اليمين، وكذلك «الْمَشْأَمَةُ» إما أن تكون من اليد الشؤمى، وإما أن تكون من

الشؤم، وقد فُسِّرَتْ هذه الآية بهذين المعنيين؛ إذ أصحاب المَيْمَنَةِ الميامين على أنفسهم، قاله الحسن والربيع، ويشبه أن اليمين والشؤم إنما اشتقّا من اليمين والشمال، وذلك على طريقتهم في السانح والبارح، وكذلك اليمين والشؤم اشتقّا من اليمين والشؤمى.

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّيْقُونِ﴾ ابتداء، و «السَّيْقُونِ» الثاني قال بعض النحويين: هو نعت للأول، ومذهب سيبويه أنه خبر الابتداء، وهذا كما تقول: الناس الناس، وأنت أنت، وهذا على معنى التفخيم للأمر وتعظيمه، والمعنى هو أن تقول: السَّابِقُونَ إِلَى الْإِيمَانِ السَّابِقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ والرحمة، أولئك...، ويشجّه هذا المعنى على الابتداء والخبر.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمَرْبُورُونَ﴾ ابتداء وخبر، وهو في موضع الخبر على قول من قال: «السَّابِقُونَ» الثاني صفة، و «الْمَرْبُورُونَ» معناه: من الله تعالى في جنة عدن، قال جماعة في أهل العلم: وهذه الآية متضمنة أن العالم يوم القيامة على ثلاثة أصناف: مؤمنون هم على يمين العرش وهنالك الجنة، وكافرون وهم على شمال العرش هنالك النار، والقول في يمين العرش وشماله نحو من الذي مر في سورة الكهف في اليمين والشمال، وقد قيل في أصحاب الميمنة واليمين: إنهم من أخذ كتابه بيمينه، وفي أصحاب المشأمة والشمال: إنهم من أخذه بشماله، فعلى هذا ليست نسبة اليمين والشمال إلى العرش، وقال علي بن

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٣﴾ كُلًّا كُوبًا ﴿١٤﴾ وَأَبَاقُ وَكَافُورٍ ﴿١٥﴾ يُعِينُونَ ﴿١٦﴾
لَا يَصْغُرُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٧﴾ وَفِي كَهْفٍ ثَمَانَةٌ ﴿١٨﴾ وَفِي الْوُاقِعِ ﴿١٩﴾
وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا شَيْءٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ يُرْمَوْنَ ﴿٢٠﴾ وَهُمْ فِي الْوُاقِعِ ﴿٢١﴾ كَأَمْثَلِ النَّوْلِ ﴿٢٢﴾
الْمُكُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءُ لِّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ مَا أَصْحَابُ
الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٣٠﴾ وَظِلِّ مَتْدُودٍ ﴿٣١﴾
وَمَاءٍ شَاكِبٍ ﴿٣٢﴾ وَفِي كَهْفٍ كَثِيرٍ ﴿٣٣﴾ لَا مَقْطُوعَ وَلَا
مَمْرُوعٍ ﴿٣٤﴾ وَفِي مَرْوَةِ ﴿٣٥﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ﴿٣٦﴾ فَعَلَّاهُنَّ
أَفْكَارًا ﴿٣٧﴾ عُرْيَا نُرَايَا ﴿٣٨﴾ لَا لَصَاحِبَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنْ
الْأَوَّلِينَ ﴿٤٠﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤١﴾ وَأَصْحَابُ الْإِيمَانِ ﴿٤٢﴾ مَا أَصْحَابُ
الْإِيمَانِ ﴿٤٣﴾ فِي سُبُوحٍ وَنُجُومٍ ﴿٤٤﴾ وَظِلِّ مِّنْ جُحُومٍ ﴿٤٥﴾ لَا يَأْرَبُونَ
وَلَا كِبِيرٍ ﴿٤٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مَمْرُوعِينَ ﴿٤٧﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ
عَلَى الْخَبْثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٨﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ ﴿٤٩﴾ أَهَذَا مِمَّا وَكُنَّا تُرَايَا ﴿٥٠﴾
وَعَظَمَاءُ نَأْتِجُهُمْ مَّرْجُوعًا ﴿٥١﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا رَأَتْ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٥٣﴾ لَمَجُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٤﴾

صدر الدنيا أكثر عددًا، وقال الحسن وغيره: المراد السابقون من الأمم والسابقون من هذه الأمة، وذلك إما أن يقرن أصحاب الأنبياء عليهم السلام بجموعهم إلى أصحاب محمد ﷺ، فأولئك أكثر عددًا لا محالة، وإما أن يقرن أصحاب الأنبياء عليهم السلام ممن سبق في أثناء الأمم السالفة إلى السابقين من جميع هذه الأمة، فأولئك أكثر، وروي أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم حزنوا لقلة سابقي

أبي طالب رضي الله عنه: أصحاب اليمين أطفال المؤمنين، وقيل: المراد ميمنة آدم عليه السلام ومشأته المذكورتان في حديث الإسراء في الأسبوبة.

و «السابقون» معناه: قد سبقت لهم السعادة وكانت أعمالهم في الدنيا سبقاً إلى أعمال البر وإلى ترك المعاصي، فهذا عموم في جميع الناس، وخُصَّص المفسرون من هذا أشياء، فقال عثمان بن أبي سودة: هم السابقون إلى المساجد، وقال ابن سيرين: هم الذين صلوا للقبليتين، وقال كعب: هم أهل القرآن، وقيل: هم غير هذا مما هو جزء من الأعمال الصالحة، وروي أن النبي ﷺ سئل عن السابقين فقال: «هم الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سُئِلُوا بذلوه وحكموا للناس بحكمهم لأنفسهم»، وقرأ طلحة بن مصرف: «فِي جَنَّةِ التَّيْمِيمِ» على الأفراد، و«الْمَرْفُوعُونَ» عبارة عن أعلى منازل البشر في الآخرة، على سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ متكئين، وقيل لعامر بن عبد قيس في يوم حلبة: من سبق؟ فقال: المقربون.

﴿١٣﴾ - تفسير قوله عز وجل:

«الْثَّلَاثَةُ»: الجماعة والفرقة، وهي تقع للقليل والكثير، واللفظ في هذا الموضع يعطي أن الجملة من الأولين أكثر من الجملة من الآخرين وهي التي عبّر عنها بالقليل، واختلف المتأولون في معنى ذلك - فقال قوم - حكى قولهم مكي -: المراد بذلك الأنبياء عليهم السلام لأنهم كانوا في

هذه الأمة على هذا التأويل، فنزلت ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٥٣﴾ فرضوا، وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها تأولت أن الفريقين في أمة كل نبي هي في الصدر ثلثة وفي آخر الأمة قليل، وقال النبي ﷺ فيما روي عنه: «الفريقان في أمتي، فسابق أول الأمة ثلثة، وسابق سائرهما إلى يوم القيامة قليل».

وقرأ الجمهور: «سُرُرٍ» بضم الراء، وقرأ أبو السَّمَال: «سُرُرٍ» بفتح الراء، و«الْمَوْضُوعَةُ»: المنسوجة بتركيب بعض أجزائها على بعض كحلق الدرع، فإن الدرع موضوعة، ومنه قول الأعشى:

وَمَنْ نَسَجَ دَاوُدَ مَوْضُوعَةً
تَسِيرُ مَعَ الْحَيِّ عَيْرًا فَعَيْرًا
وكذلك سقيفة الخوص ونحوه

موضوعة، ومنه وضين الناقة وهو حزامها لأنه موزون، فهو كقتيل وجريح، ومنه قوله:

إِلَيْكَ تَعْدُو قَلْبًا وَضِيئُهَا
مُغْتَرَضًا فِي بَطْنِهَا جَنِيئُهَا
مُخَالَفًا دِينَ الثُّصَارَى دِيئُهَا

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه السرر الموضوعة هي مَرْمُوعَةٌ بالذهب، وقال عكرمة: هي مشبكة بالذر والياقوت، و«مُنَكِّيْن» و«مُنَكِّيلَيْن» حالان، وفيهما ضمير مرفوع، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «مُنَكِّيشُنَ عليها ناعمين».

و «الْوِلْدَانُ»: صغار الخدم، عبارة عن أنهم صغار الأستان، ووصفهم تعالى بالخلد وإن كان جميع ما في الجنة كذلك إشارة إلى أنهم في حال الولدان مخلدون لا تكبر لهم سن،

وقال مجاهد: لا يموتون، وقال الفراء: ﴿تَحْدَرُونَ﴾ معناه: مُقَرَّطُونَ بِالْحَلْدَاتِ، وهي ضرب من الأقرط، والأول أصوب لأن العرب تقول للذي كبر ولم يشب: إنه مخلد.

و «الأكواب»: ما كان من أواني الشرب لا أذن له ولا خرطوم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي جراز من فضة، وقال أبو صالح: مستديرة أفواهاها، وقال قتادة والضحاك: ليست لها غرى، و «الإبريق»: ما له خرطوم، قال مجاهد: وأذن، وهو من أواني الخمر عند العرب، ومنه قول عدي بن زيد:

وَتَدَاعَوْا إِلَى الصُّبُوحِ فقامت
قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقٌ
و «الكأس»: الآنية المُعَدَّة للشرب بها بشرطة أن يكون فيها خمر ونبيذ، أو بسبيل ذلك، ومتى كان فارغاً فهو مُتَسَبِّبٌ إلى جنسه زجاجاً كان أو غيره، ولا يقال لآنية فيها ماء أو لبن: كأس.

وقوله تعالى: ﴿يَنْعِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: من خمر سائلة، فوزنها مفعول، أصلها معيون، وهذا تأويل قتادة، وقوله تعالى: ﴿لَا يُصَدَّقُونَ عَنَّا﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن المعنى: لا يلحق رؤوسهم الصداق الذي يلحق من خمر الدنيا، وقال قوم: معناه: لا يفرقون عنها، بمعنى: لا تقطع عنهم لذتهم بسبب من الأسباب كما يفرق أهل خمر الدنيا بأنواع من التفريق، هذا كما قال:

«يَتَصَدَّقُ السحاب عن المدينة»... الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُزِفُونَ﴾ قال مجاهد، و قتادة، وابن جبير، والضحاك: معناه: لا تذهب عقولهم سُكْرًا، والتزيف: السكران، ومنه قول الشاعر:

شُرِبَ التَّزْيِيفُ بِبَرْدِ مَاءِ الْحَشْرِجِ
وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي إِسْحَقَ: ﴿وَلَا يُزِفُونَ﴾ بكسر الزاي وفتح الباء، من: «تَزَفَ الْبَيْتُ» إذا استقى ماءً، فهي بمعنى: تَمَّ خمرهم ونفدت، وهكذا قال أبو الفتح. وحكاها أبو حاتم عن ابن أبي إسحاق، والجمحدي، والأعمش، وطلحة، وابن مسعود، وأبي عبد الرحمن، وعيسى بضم الباء وكسر الزاي، قال: ومعناها: لا يفنى شرابهم، والعرب تقول: «أنزف الرجل غَبْرَتَهُ». وتقول أيضاً: «أنزف» إذا سكر، ومنه قول الأبيد:

لَتَحْمِرِي لَيْثِنَ أَنْزَفْتُمُ أَوْ صَحَوْتُمُ
لَيْثِنَ السَّدَامَى كُنْتُمْ أَلْ أَبْجَرَا
وعطفت «الفاكهة» على «الكأس» والأباريق.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا يَنْتَحِرُونَ﴾، زوي أن العبد يرى الطائر يطير فيشتهيه فينزل له كما اشتهاه، وربما أكل منه ألواناً بحسب تصرف شهرته إلى كثير مما زوي في هذا المعنى.

وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل عن عاصم: ﴿وَحُورٍ عَيْنٍ﴾ بالخفض، وهي قراءة الحسن، وأبي عبد الرحمن، والأعمش: وابن القعقاع، وعمرو بن عبيد. وقرأ

أبي بن كعب، وابن مسعود: ﴿وَحُورًا عَيْنًا﴾ بالنصب، وقرأ الباقون من السبعة: ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ﴾ بالرفع، كل هذه القراءات محمولة الإعراب على المعنى لا على اللفظ، فالخَفَضُ كأن المعنى: قيل: تنعمون بهذا كله وبحور عين، وكأن المعنى في قراءة النصب: وتعطون هذا كله وحوراً عيناً، وكأن المعنى في الرفع: لهم هذا كله وحور عين، ويجوز أن يعطف ﴿وَحُورٌ﴾ على الضمير المستقر في ﴿مُتَّكِئِينَ﴾، قال أبو علي: لم يؤكد لكون طول الكلام بدلاً من التوكيد، ويجوز أن يُعطف على «الولدان» وإن كان طواف الحور يقلق، ويجوز أن يعطف على الضمير المقدّر مع قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾. وفي هذا كله نظر، وقد تقدم معنى «حور عين»، وقرأ إبراهيم النخعي: ﴿وَجِيرَ عَيْنٍ﴾.

وخصّ (سبحانه) المكنون من اللؤلؤ لأنه أصفى لوناً وأبعد عن الغير، وسألت أم سلمة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن هذا التشبيه فقال: «صفاؤهن كصفاء الدرّ في الأصداف الذي لا تمسه الأيدي»، و ﴿جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أن هذه الرُتَب والنعم هي بحسب أعمالهم؛ لأنه زوي أن المنازل والقسم في الجنة هي مقسمة على قدر الأعمال، ونفس دخول الجنة هو برحمة الله تبارك وتعالى وفضله لا بعمل عامل، فأما هذا الفضل وأن دخولها ليس بعمل عامل ففيه حديث صحيح، قال

رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة أحد بعمله»، قالوا: «ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة».

و «اللُّغُو»: سقط القول من فحش وغيره، و «التَّائِيْمُ» مصدر بمعنى: لا يُؤْتَم أَحَدٌ هناك غيره ولا نفسه بقول كأن يسمع ويتألم بسماعه. و «يَلَا» مستثنى، والاستثناء متصل، وقال قوم: هو منقطع، و «سَكَنَّا» نعت للقبيل، كأنه تعالى قال: إلا قبلاً سالماً من هذه العيوب وغيرها، وقال أبو إسحق الزجاج أيضاً: «سَكَنَّا» مصدر وناصبه «يَلَا»، كأنه تعالى ذكر أنهم يقول بعضهم لبعض: سلاماً سلاماً، وقال بعض النحاة: «سَكَنَّا» منتصب بفعل مضمر تقديره: اسلموا سلاماً.

﴿٢٧﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

«السُّرُرُ» شجرٌ معروف، وهو الذي يقال له: شجر أم غيلان، وهو من العضاء له شوك، وفي الجنة شجر على خلقته له ثمر كقلال هَجَر، طيب الطعم والريح، ووصفه تعالى بأنه مخضود، أي: مقطوع الشوك لا أذى فيه، وقال أمية بن أبي الصلت: إِنَّ الْحَدَائِقَ فِي الْجَنَّةِ ظَلِيلَةٌ فِيهَا الْكَوَاعِبُ سِدْرُهَا مَخْضُودٌ

وعبر بعض المفسرين عن «مَخْضُودٍ» بأنه الموقر حملاً، وقال بعضهم: هو قطع الشوك، وهو الصواب، أما إن وقره هو كرمه، وزوي عن الضحاك أن بعض الصحابة أعجبهم سدرٌ وجَّ فقالوا: ليت لنا في الآخرة مثل هذا، فنزلت الآية، ولأهل تحرير النظر هنا إشارة

في أن هذا الخضد بإزاء أعمالهم التي سلموا فيها؛ إذ أهل اليمين تؤابون لهم سلام، وليسوا بسابقين.

و «الطَّلُحُ» كذلك من العضاء شجرٌ عظيم كثير الشوك، وشبهه في الجنة على صفات كثيرة مباينة لحال الدنيا، و «مَنْضُودٌ» معناه: مركب ثمره بعضه على بعض من أرضه إلى أعلاه. وقرأ علي بن أبي طالب، وجعفر بن محمد رضي الله عنهما، وغيرهما: «وَطَّلَعَ مَنْضُودٌ». ف قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنما هو «وَطَّلَحَ» فقال: وما للطَّلُح والجنة؟ ف قيل له: أنصلحها في المصحف؟ فقال: إن المصحف اليوم لا يُهاج ولا يُغير، وقال علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم: «الطَّلُحُ»: الموز، وقاله مجاهد وعطاء، وقال الحسن: ليس بالموز ولكنه شجر ظله بارد طيب.

و «الظِّلُّ الْمَمْدُودُ» معناه: الذي لا تنسخه شمس، ويُفسر ذلك قول النبي ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد في ظلها مائة سنة لا يقطعها، واقرأوا إن شئتم: ﴿وَزَلَّيْ تَمْدُورٌ﴾». إلى غير هذا من الأحاديث في هذا المعنى، وقال مجاهد: هذا الظل هو من طَلَحها وسدرها.

وقوله تعالى: «لَا مَقْطُوعَةٍ أَيْ: بزوال الإتيان كحال فاكهة الدنيا، ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ ببعد السَّناول، ولا بشوك يؤذي في شجراتها، ولا بوجه من الوجوه التي تمتنع بها فاكهة الدنيا.

وقرأ جمهور الناس: «وَفَرَشَ» بضم

الراء، وقرأ أبو حية: «وَفَرَشَ» يسكونها، والفَرَشُ: الأيوة، وروي من طريق أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن في ارتفاع السرير منها مسيرة خمسمائة سنة، وهذا والله أعلم لا يثبت، وإن قُدِّر فتأول خارج عن ظاهره، وقال أبو عبيدة وغيره: أراد بالفَرَش النساء، و «مَنْزُوعَةٍ» معناه في الأقدار والمنازل، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

ظَلَلْتُ مُفْتَرَشَ الْهَلَبَاءِ تَشْتُمْنِي
عِنْدَ الرُّسُولِ فَلَمْ تَصُدِّقْ وَلَمْ تُصِيبْ
ومنه قول الآخر في تعديده على صهره: «وَأَفْرَشْتُكَ كَرِيمَتِي».

قوله تعالى: «إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنَازَةً»، قال قتادة: الضمير عائد على «الحوور العين» المذكورات قبل، وهذا فيه بُعْدٌ لَأَنَّ تِلْكَ قِصَّةً قَدْ انْقَضَتْ جَمَلَةً، وقال أبو عبيدة مَعْمَر: قد ذكرهن في قوله تعالى: «وَفَرَشَ تَرَوْعَةً» فلذلك رَدُّ الضمير وإن لم يتقدم ذكر لدلالة المعنى على المقصد، وهذا كقوله تعالى: «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ» ونحوه، و «أَنشَأْنَاهُنَّ» معناه: خلقناهن شيئاً بعد شيء، وقال رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآية: «عجائز كنَّ في الدنيا عُمُشاً رُفصاً»، وقال عليه الصلاة والسلام لعجوز: «إن الجنة لا يدخلها عجوز»، فحزنت فقال: «إِنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ أَنْشَأْتَ خَلْقاً آخَرَ».

قوله تعالى: «فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً»، قيل: معناه: دائمات البكارة، متى عاود الواطيء وجدها بكراً.

و«الْعُرْبُ» جمع عَرُوب وهي الْمُتَحَبِّبَةُ إِلَى زوجها بإظهار محبته، قاله ابن عباس، والحسن، وعَبَّرَ عَنْهُنِ ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً بالعواشق، ومنه قول لبيد:

وَفِي الْحُدُوجِ عَرُوبٌ غَيْرُ فَاجِحَةٍ
رَبِّا الرُّوَادِفِ يَغْشَى دُونَهَا الْبَصَرُ
وقال ابن زيد: الْعُرُوبُ: الْحَسَنَةُ الْكَلَامِ، وقد تجيء الْعُرُوبُ صفة دَمٍّ على غير هذا المعنى، وهي الفاسدة الْأَخْلَاقِ كَأَنَّهَا عَرَبَتْ، ومنه قول الشاعر:

وَمَا بَدَلَ مِنْ أُمِّ عُثْمَانَ سَلَفَعٍ
مَنْ السُّودِ وَزَهَاءِ الْعَيْنَانِ غَرِيبُ
وقرأ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي: ﴿عُرْبًا﴾ بضم الراء، وقرأ حمزة، والحسن: ﴿عُزْبًا﴾ بسكونها، وهي لغة بني تميم، واختلف عن نافع، وأبي عمرو، وعاصم.

وقوله تعالى: ﴿أَرْبَابًا﴾ معناه: في الشكل والقَدِّ حتى يقول الراثي: هم أَثَرَابٌ، والتَّزْبُ هو الذي مَسَّ الثَّرَابَ مع تَزْبِهِ في وقت واحد، وقال قتادة: ﴿أَرْبَابًا﴾ بمعنى: سُنًا واحدة، ويروى أن أهل الجنة هم على قدر ابن أربعة عشر عاماً في الشباب والنضرة، وقيل: على أمثال أبناء ثلاث وثلاثين سنة، مُرْدَأٌ بِيضاً مكحلين.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ الْأَوَّلِينَ﴾ وَثَلَاثَ مَرَّاتٍ الْآخِرِينَ ﴿﴾ - فقال الحسن بن أبي الحسن وغيره: الأولون: سَالِفُ الْأُمَمِ، منهم جماعة عظيمة هم أصحاب اليمين، والآخرون: هذه

الْأُمَّة، منهم جماعة عظيمة أهل يمين.

قال القاضي أَبُو مُحَمَّدٍ رحمه الله: بل جميعهم إِلَّا مَنْ كَانَ مِنَ السَّابِقِينَ.

وقال قوم من المتأولين: هاتان الفرقتان في أمة محمد ﷺ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «الثَّلَاثَانِ مِنْ أُمَّتِي»، فعلى هذا التابعون بإحسان ومن جرى مجراهم ثَلَاثَةُ أَوَّلَى، وسائر الأمة ثَلَاثُ أُخْرَى في آخر الزمان.

﴿١١﴾ - ﴿٥٠﴾ تفسير قوله عز وجل: إِعْرَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذَ الْأَيْمَانَ مِمَّا اخْتَبَرُوا﴾ قد تقدم في نظيره، وفي الكلام هنا معنى الْإِنْجَاءِ عَلَيْهِمْ وتَعْظِيمِ مَصَابِهِمْ.

و«السُّمُومُ»: أَسَدٌ مَا يَكُونُ عِنْدَ الْحَرِّ الْيَابِسِ الَّذِي لَا بَلَلَ فِيهِ.

و«الْحَمِيمُ»: الْأَسَدُ، وهو بناءٌ مبالغة، واختلف الناس في هذا الشيء الأسود الذي يُظَلُّ أَهْلُ النَّارِ، ما هو؟ فقال ابن عباس: ومجاهد، وأبو مالك، وابن زيد: هو الدخان، وهذا قول الجمهور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: هو سَرَادِقُ النَّارِ المحيط بأهلها، فإنه يرتفع من كل ناحية حتى يُظَلُّهُمْ. وحكى النقاش أن «الْيَحْمُومَ» اسمٌ من أسماء جهنم، وقاله ابن كيسان، وقال ابن أبي بريدة، وابن زيد أيضاً في كتاب الثعلبي: هو جبلٌ في النار أسود يُفْرَغُ أَهْلُ النَّارِ إِلَى ذِرَاهُ فيجدونه أشدَّ شَيْءٍ وَأَمْرَهُ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾، قال الطبري وغيره: معناه: ليس له صفة

مدح في الظلال، وهذا كما تقول: ثوب كريم ونسب كريم، تعني بذلك أن له صفات مدح، ويحتمل أن يصفه بعدم الكرم على معنى ألا كرامة لهم، وذلك أن المرء في الدنيا قد يصبر على سوء الموضع لقربة إكرام يناله فيه من أحد، فجمع هذا الظل في النار أنه سَيِّئُ الصِّفَةِ وهم فيه مُهَانُونَ.

و«الْمُثَرَّفُ»: الْمَنْعُمُ في سرف وتخوض، و﴿يَمْرُؤُنَ﴾ معناه: يعتقدون اعتقاداً لا يثبون عنه إقلاعاً، قال ابن زيد: لا يثبون ولا يستغفرون، و«الْجَنَّتِ»: الْإِثْمُ، ومنه قول النبي ﷺ: «مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْجَنَّتِ...». الحديث، أراد عليه الصلاة والسلام: لم يبلغوا الْحُلُمَ فتتعلق بهم الآثام، وقال الخطابي: الْجَنَّتِ في كلام العرب الْعَدْلُ الثَّقِيلُ، يشبه الْإِثْمَ به. واختلف المفسرون في المراد بهذا الْإِثْمِ - فقال قتادة، والضحاك، وابن زيد: هو الشرك، وهذا هو الظاهر، وقال قوم - فيما ذكر مكِّي -: هو الحنث في قَسَمِهِم الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الآية في التكذيب بالبعث، وهذا أيضاً يتضمن الكفر، فالقول به على عمومه أولى، وقال الشعبي: الْجَنَّتِ الْعَظِيمُ: الْيَمِينُ الْعَمُوسُ.

وقد تقدم ذكر اختلاف القراء في قوله تعالى: ﴿أَيْدَا﴾ و﴿أَيْدَا﴾، ويختص من ذلك بهذا الموضع أن ابن عامر يخالف فيه أصله فيقرأ: ﴿أَيْدَا﴾ بتخفيف الهمزتين فيهما على الاستفهام، ورواه أبو بكر

لَا تَبْدَأُ الْغَايَةَ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿عَلَيْهِ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْمَأْكُولِ أَوْ عَلَى الْأَكْلِ، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَا يَكْلُوْنَ مِنْ شَجَرَةٍ﴾ عَلَى الْإِنْفِرَادِ. وَ﴿الْمَبِيرُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمَجَاهِدٌ، وَعُكْرَمَةُ، وَالضَّحَّاكُ: هُوَ جَمْعُ «أَهْيَمٍ» وَهُوَ الْجَمْلُ الَّذِي أَصَابَهُ الْهَيْامُ - بَضْمُ الْهَاءِ - وَهُوَ دَاءٌ مَعْطَشٌ يَشْرَبُ مِنْهُ الْجَمْلُ حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يَسْقَمَ سَقَمًا شَدِيدًا، وَالْأَنْثَى هَيْمَاءٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ جَمْعُ هَيْمَاءَ كَعَيْنَاءَ وَعَيْنٍ وَيَضَاءَ وَبَيْضَ، وَقَالَ قَوْمٌ آخَرُونَ: هُوَ جَمْعُ هَايِمٍ وَهَايِمَةٌ، وَهُوَ أَيْضًا مِنْ هَذَا الْمَعْنَى لِأَنَّ الْجَمْلَ إِذَا أَصَابَهُ ذَلِكَ هَامَ عَلَى وَجْهِهِ وَذَهَبَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ: الْهَيْمُ هُنَا الرَّمَالُ الَّتِي لَا تُرَوَّى مِنَ الْمَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْهَيْامَ - بَفَتْحِ الْهَاءِ - هُوَ الرَّمْلُ الدَّقُّ الْعَمُرُ الْمُتَرَاكِمُ، وَقَالَ ثَعْلَبٌ: الْهَيْامُ - بَضْمِ الْهَاءِ - الرَّمْلُ الَّذِي لَا يَتِمَّاسُكَ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَالْكَسَائِيُّ: ﴿شَرَبَ الْهَيْمُ﴾ بِفَتْحِ الشَّيْنِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ الْأَعْرَجِ، وَابْنُ الْمُسَيَّبِ، وَشُعَيْبُ بْنُ الْحَبَّابِ، وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ مُصَدَّرٌ، وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ: ﴿شَرَبَ الْهَيْمُ﴾ بِكَسْرِ الشَّيْنِ، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ اسْمٌ، وَقَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَبَاقِي السَّبْعَةِ: ﴿شَرَبَ الْمَبِيرُ﴾ بِضَمِّ الشَّيْنِ، وَاخْتَلَفَ فِيهِ - فَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ

مصدر، وقال آخرون: هو اسم لما يُشرب.

و«الشَّرْبُ»: أَوَّلُ مَا يَأْكُلُ الضَّيْفُ، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو - فِي رِوَايَةِ ابْنِ عِيَّاشٍ - : ﴿تُؤْلَهُمْ﴾ بِسُكُونِ الزَّايِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ، وَالْيَزِيدِيُّ عَنْ أَبِي عَمْرٍو بِضَمِّ الزَّايِ، وَهِيَ بِمَعْنَى كَالشُّغْلِ وَالشُّغْلِ. وَ«الدَّيْنُ»: الْجَزَاءُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ الْخَالِقُ، وَحَضَرَ عَلَى التَّصْدِيقِ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ، ثُمَّ سَاقَ تَعَالَى الْحُجَّةَ الْمَوْحِيَّةَ لِلتَّصْدِيقِ، كَأَنَّهُ مُعْتَرِضًا مِنَ الْكُفَّارِ قَالٌ: وَلِمَ أَصْدَقُ؟ فَقِيلَ لَهُ: أَفَرَأَيْتَ كَذًا وَكَذَا؟ الْآيَاتُ، وَلَيْسَ يَوْجَدُ مَفْطُورٌ يَخْفَى عَلَيْهِ أَنَّ الْمَنِيَّ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ وَلَا إِرَادَةٌ وَلَا قُدْرَةٌ وَ﴿أَنَّهُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ لَيْسَتْ الْمَعَادِلَةُ عِنْدَ سَيَّبِيهِ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ قَدْ تَكَرَّرَ،

وَبَيْضَ، وَقَالَ قَوْمٌ آخَرُونَ: هُوَ جَمْعُ هَايِمٍ وَهَايِمَةٌ، وَهُوَ أَيْضًا مِنْ هَذَا الْمَعْنَى لِأَنَّ الْجَمْلَ إِذَا أَصَابَهُ ذَلِكَ هَامَ عَلَى وَجْهِهِ وَذَهَبَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ: الْهَيْمُ هُنَا الرَّمَالُ الَّتِي لَا تُرَوَّى مِنَ الْمَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْهَيْامَ - بَفَتْحِ الْهَاءِ - هُوَ الرَّمْلُ الدَّقُّ الْعَمُرُ الْمُتَرَاكِمُ، وَقَالَ ثَعْلَبٌ: الْهَيْامُ - بَضْمِ الْهَاءِ - الرَّمْلُ الَّذِي لَا يَتِمَّاسُكَ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَالْكَسَائِيُّ: ﴿شَرَبَ الْهَيْمُ﴾ بِفَتْحِ الشَّيْنِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ الْأَعْرَجِ، وَابْنُ الْمُسَيَّبِ، وَشُعَيْبُ بْنُ الْحَبَّابِ، وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ مُصَدَّرٌ، وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ: ﴿شَرَبَ الْهَيْمُ﴾ بِكَسْرِ الشَّيْنِ، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ اسْمٌ، وَقَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَبَاقِي السَّبْعَةِ: ﴿شَرَبَ الْمَبِيرُ﴾ بِضَمِّ الشَّيْنِ، وَاخْتَلَفَ فِيهِ - فَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ

عَنْ عَاصِمٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَّلًا نَبْعُوتُونَ﴾. وَالْعَامِلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَّلًا﴾ فِعْلٌ مُضَمَّرٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَبْعُوتُونَ﴾، تَقْدِيرُهُ: أَتَبَعْتُ أَوْ أَتَحَشَّرْتُ؟ وَلَا يَعْمَلُ فِيهِ مَا بَعْدَهُ لِأَنَّهُ مُضَافٌ إِلَيْهِ، وَقَرَأَ عِيسَى الثَّقَفِيُّ: ﴿مُتَنَّا﴾ بِضَمِّ الْمِيمِ، وَقَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ: ﴿يَتَنَّا﴾ بِكَسْرِهَا، وَهَذَا عَلَى لُغَةٍ مِنْ يَقُولُ: مِثُّ أَمُوتَ عَلَى وَزْنِ فَعِلَ بِكَسْرِ الْعَيْنِ يَفْعُلُ بِضَمِّهَا، وَلَمْ يُحَكَّ مِنْهَا عَنِ الْعَرَبِ إِلَّا هَذِهِ اللَّفْظَةُ وَأُخْرَى هِيَ فَضِلَ يُفَضِّلُ. وَقَرَأَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ: ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا﴾ بِسُكُونِ الْوَاوِ مِنْ «أَوْ» وَمَعْنَى الْآيَةِ اسْتِبْعَادُ أَنْ يَبْعَثُوا هُمْ وَأَبَاؤُهُمْ عَلَى حَدٍّ وَاحِدٍ مِنَ الْاسْتِبْعَادِ، وَقَرَأَ الْجَمْهُورُ: ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا﴾ بِتَحْرِيكِ الْوَاوِ عَلَى أَنَّهَا وَائِلَةٌ دَخَلَ عَلَيْهَا أَلْفُ الْاسْتِفْهَامِ، وَمَعْنَاهَا شِدَّةُ الْاسْتِبْعَادِ فِي الْآبَاءِ، كَأَنَّهُمْ اسْتَبْعَدُوا أَنْ يَبْعَثُوا ثُمَّ أَتَوْا بِذِكْرِ مَنْ يَبْعَثُ فِيهِمْ أَبْعَدَ، وَهَذَا بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِلِسَانِ الْعَرَبِ.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهِ ﷺ أَنْ يَعْلَمَهُمْ بِأَنَّ الْعَالَمَ مُحْشُورٌ مَبْعُوثٌ لِيَوْمٍ مَعْلُومٍ مَوْقُتٍ. وَ﴿يَمَقُتُّ﴾ مِفْعَالٌ مِنَ الْوَقْتِ، كَمِيعَادٍ مِنَ الْوَعْدِ.

(٥١) - (٥٢) تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ مُخَاطَبَةٌ لِكُفَّارٍ قَرِيشٍ وَمَنْ كَانَ فِي حَالِهِمْ، وَ﴿يَنْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَنْ شَجَرٍ﴾ يَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ لِلتَّبْعِيضِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ لِبَتْدَاءِ الْغَايَةِ، وَ﴿يَنْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَنْ دُورٍ﴾ لِبَيَانِ الْجَنَسِ، وَالضَّمِيرُ فِي «يَتَنَّا» عَائِدٌ عَلَى الشَّجَرِ، وَ﴿يَنْ﴾ لِلتَّبْعِيضِ أَوْ

وإنما المعادلة عنده: أقام زيد أم عمرو؟ وهذه التي في هذه الآية معادلة عند قوم من النحاة. وأما إذا تغاير الفعلان فليست بمعادلة إجماعاً، وقرأ الجمهور: ﴿تُنْتَوْنَ﴾ بضم التاء، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو السَّمال: ﴿تَمْنُونُ﴾ بفتح التاء، ويقال: «أمنى الرجل ومَنَى» بمعنى واحد.

وقرأ جمهور القراء: ﴿نَحْنُ قَدْزَنَّا﴾ بشد الدال، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿نَحْنُ قَدْزَنَّا﴾ بتخفيف الدال، والمعنى فيهما يحتمل أن يكون بمعنى: قضينا وأثبتنا، ويحتمل أن يكون بمعنى: سوينا وعدلنا التَّقدُّم والتَّأخُّر، أي: جعلنا الموت رُتْباً، ليس يموت العالم دفعة واحدة بل بترتيب لا يعدوه أحد، وقال الطبري: معنى الآية: قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم، أي: تموت طائفة ونبدلها بطائفة، وهكذا قرناً بعد قرن، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ﴾ أي: على تبديلكم إن أردناه، وأن ننشحكم بأوصاف لا يصلها علمكم ولا تحيط بها فكركم، قال الحسن: من كونهم قردة وخنازير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: تأول الحسن هذا لأن الآية تنحو إلى الوعيد، وجاءت لفظة السبق هنا على نحو قوله ﷺ: «فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا لا تفوتنكم». وقرأ جمهور الناس: «النَّشَاءُ» بسكون الشين، وقرأ قتادة، وأبو الأشهب، وأبو عمرو - بخلاف -: «النَّشَاءُ» بفتحها وبالمد، وقال أكثر

المفسرين: أشار إلى خلق آدم عليه السلام ووقف عليه لأنك لا تجد أحداً ينكر أنه من ولد آدم عليه السلام، وأنه من طين، وقال بعضهم: أراد تعالى بالنشأة الأولى نشأة إنسان إنسان في طفولته، فيعلم المرأة نشأته كيف كانت بما يرى في نشأة غيره.

ثم حضض تعالى على التذكُّر والنظر المؤدي إلى الإيمان، وقرأ الجمهور: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ مشددة الذال، وقرأ طلحة: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بسكون الذال وضم الكاف، وهذه الآية نص في استعمال القياس والحض عليه.

﴿٦٣﴾ - ﴿٦٤﴾ تفسير قوله عز وجل: وقف تعالى الكفار على أمر الزرع الذي هو قوام العيش، وبين لكل مفطور أن الحراث الذي يثير الأرض ويفرق الحب ليس يفعل في نبات الزرع شيئاً، وقد يُسمى الإنسان زارعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿يُعْجِبُ الرِّزْقَ﴾، لكن معنى هذه الآية: أنتم تزرعون زرعاً يتم أم نحن؟ وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولن زرعتم، ولكن قل: حرثت»، ثم تلا أبو هريرة رضي الله عنه هذه الآية.

و «الْحُطَامُ»: اليابس المتفتت من النبات الصائر إلى ذهاب، وبه شبه حطام الدنيا، وقيل: المعنى: تيناً لا قنح فيه، و«تَفَكَّرُونَ» قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: معناه: تعجبون، وقال عكرمة: تلاومون، وقال الحسن: معناه: تندمون، وقال ابن زيد: تفجعون، وهذا كله تفسير لا يخص اللفظة، والذي يخص

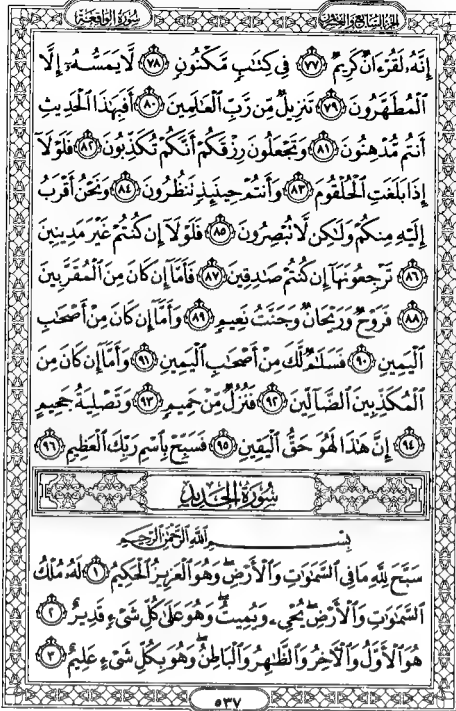
اللفظة هو: تطرحون الفكاهة عن أنفسكم، وهي المَسَرَّة والجزل، ورجل فكه إذا كان منبسط النفس غير مكترث بشيء، و«تَفَكَّرَ» من أخوات «تَحَرَّجَ» و«تَحَوَّبَ». وقرأ الجمهور: ﴿فَطَلَّئْتُ﴾ بفتح الظاء، وروي سفيان الثوري في قراءة عبدالله كسر الظاء، قال أبو حاتم: طُرحت عليها حركة اللام المحذوفة، وذلك رديء في القياس، وهي قراءة أبي حنيفة، وروى أحمد بن موسى: ﴿فَطَلَّئْتُمُ﴾ بلامين الأولى مفتوحة عن الجحدري، ورويت عن ابن مسعود رضي الله عنه بكسر اللام الأولى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُفْرَقُونَ﴾ قبله حذف تقديره: «يقولون»، وقرأ الأعمش، وعاصم الجحدري: ﴿إِنَّا لَمُفْرَقُونَ﴾ بهزتين على الاستفهام، والمعنى يحتمل أن يكون: إنا المعذبون من الغرام، وهو أشد العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ عَرَاماً﴾، ومنه قول الأعشى:

إِنْ يُعَذَّبُ يَكُنْ عَرَاماً وَإِنْ يُفْطَحْ جَزِيلاً فَلَيْسَ لَا يُبَالِي ويحتمل أن يكون المعنى: إنا المحملون الغرام، أي: غرماً في النفقة وذهاب زرعنا، تقول: «غَرِمَ الرجل وأغرمته فهو مُغْرَمٌ»، وتقدم تفسير «المحروم» وأنه المحدود المُحَارَف.

و «المُزْنُ»: السحاب بلا خلاف، ومنه قول الشاعر:

وَنَحْنُ كَمَا الْمُزْنُ مَا فِي نَصَابِنَا كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بِخَيْلٍ و «الأجاج» أشد المياه ملوحة، وهو ماء البحر الأخضر، و«تُزْرُونَ» معناه:



والفقر والغني إذا أقويا
سواء في الحاجة إلى
النار، ولا شيء يغني
غناها في البرد، ومن
قال: «إن أقوى من
الأضداد من حيث يقال
أقوى الرجل إذا قويت
دابته» فقد أخطأ، وذلك
فعل آخر كأترب إذا
أترى.

ثم أمر تبارك وتعالى
نبيه ﷺ بتنزيه ربه عزَّ
وجلَّ وتنزيه أسمائه العلى
عما يقوله الكفرة الذين
حُجِّروا في هذه الآيات.

(٧٥) - (٨٧) تفسير قوله

عزَّ وجلَّ:

اختلف الناس في [لا] من قوله
تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْجِعِ
النُّجُومِ﴾ - فقال بعض النحويين:
هي زائدة، والمعنى: فأقسم،
وزيادتها في بعض المواضع
معروف، كقوله تعالى: ﴿لَا يَلْمِزُ
أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، وغير ذلك، وقال
سعيد بن جببر وبعض النحويين:
هي نافية، كأنه تعالى يقول:
فلا صحة لما يقوله الكفار، ثم ابتدأ
تبارك وتعالى فقال: «أقسم»
وقال بعض المتأولين: هي مؤكدة
تعطي في القسم مبالغة، وهي
كاستفتاح كلام يشبهه في القسم
لا في شائع الكلام، ومنه قول
الشاعر:

فَلَا وَأَبِي... لَا أَخُونَهَا

المعنى: «فأبى»، ولهذا نظائر،
وقرأ الحسن والثقفى: «فَلَا تُقْسِمُ»

تقتدحون من الأزند، تقول: أوريت
النار من الزناد، وورى الزناد نفسه،
والزناد قد يكون من حجرين ومن
حجر وحديدة ومن شجر لا سيما في
بلاد العرب، فإن أزندهم من شجر ولا
سيما في الشجر الرخو كالمرخ والعفار
والكلخ وما أشبهه، ولعادة العرب في
أن زنادهم من شجر قال تعالى: ﴿أَنَّا
أَنشَأْنَاهُمْ شَجَرًا﴾، وقال بعض أهل
النظر: أراد بالشجرة نفس النار، كأنه
تعالى يقول: نوعها أو جنسها،
فاستعار الشجرة لذلك، وهو قول فيه
تكلف، وقرأ الجمهور: ﴿أَنْتُمْ﴾
بالمذ، وروي عن أبي عمرو،
وعيسى: ﴿أَنْتُمْ﴾ بغير مذ، وضعفها
أبو حاتم.

و ﴿تَذَكَّرَ﴾ معناه: تُذكر نار
جهنم، قاله مجاهد وقتادة،
و«الْمَتَاعُ» ما يُتَنَفَّع به، و«الْمُقَوِّينَ»
في هذه الآية: الكائنون في الأرض
القواء، وهي الفياقي، وعبر الناس
في تفسير «الْمُقَوِّينَ» بأشياء ضعيفة،
كقول ابن زيد: الخائفون ونحوه،
ولا يقوم منها إلا ما ذكرناه، ومن
قال معناه: المسافرون فهو نحو ما
قلناه، وهي عبارة ابن عباس
رضي الله عنهما، تقول: «أصبح
الرجل» دخل في الصباح، و«أضحَرَ»
دخل في الصحراء، و«أقوى» دخل
في الأرض القواء، ومنه «أقوت
الدار»، وأقوى الطلل: أي: صار
قواء، ومنه قول النابغة:

أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبْدِ
وقول الآخر:

أَقْوَى وَأَقْفَر بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثِمِ

بغير ألف، قال أبو الفتح: التقدير:
فلأنا أقسم.

وقرأ الجمهور من القراء: ﴿بِمَوْجِعِ﴾
على الجمع، وقرأ عمر بن
الخطاب، وابن مسعود، وابن عباس
- رضي الله تعالى عنهم - وأهل
الكوفة، وحمزة، والكسائي:
﴿بِمَوْجِعٍ﴾ على الأفراد، وهو مراد به
الجمع، ونظير هذا كثير، ومنه قوله
تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ
النَّحِيرِ﴾، جَمَعَ من حيث لكل حمار
صوت مختص، وأفرد من حيث
الأصوات كلها صوت.

واختلف الناس في «النُّجُوم» هنا -
فقال ابن عباس، وعكرمة،
ومجاهد، وغيرهم: هي نجوم القرآن
التي نزلت على محمد ﷺ، وذلك
أنه روي في القرآن نزل من عند الله
عزَّ وجلَّ في ليلة القدر إلى السماء

الدنيا - وقيل: إلى البيت المعمور - جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك على محمد ﷺ نجوماً مقطعة في مدة من عشرين سنة، ويؤيد هذا القول عود الضمير على القرآن في قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾، وذلك أن ذكره لم يتقدم إلا على هذا التأويل، ومن لا يتأول هذا التأويل يقول: إن الضمير يعود على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر لشبهة الأمر ووضوح المعنى، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، وغير ذلك. وقال جمهور كثير من المفسرين: النجوم هنا الكواكب المعروفة، واختلف في مواقعها - فقال مجاهد وأبو عبيدة: هي مواقعها عند غروبها وطلوعها، وقال قتادة: مواقعها هي مواضعها من السماء، وقيل: مواقعها عند الانقراض إثر العفارت، وقال الحسن: مواقعها عند انكدار النجوم.

وقوله تعالى: ﴿وَرِئَاءُ لَقَسٍّ تَأْكِيذٌ لِلأَمْرِ وَتَنْبِيهِ مِنَ الْمَقْسَمِ بِهِ، وليس هذا باعتبار ضابط بين الكلامين، بل هذا معنى قصد التهميم به، وإنما الاعتراض بقوله تعالى: ﴿لَوْ تَكُونُونَ﴾، وقد قال قوم: إنه قوله تعالى: ﴿وَرِئَاءُ لَقَسٍّ﴾ اعتراض، وإن ﴿لَوْ تَكُونُونَ﴾ اعتراض في اعتراض، والتحرير هو الذي ذكرناه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ﴾ هو الذي وقع القسم عليه، ووصفه بالكرم على معنى إثبات صفات المدح له ودفع صفات الحطية عنه.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ بعد اتفاقهم

على أن «الْمَكْنُونُ»: المصون - فقال ابن عباس، ومجاهد: أراد الكتاب الذي في السماء، وقال عكرمة: أراد التوراة والإنجيل، كأنه تعالى قال: إنه لكتاب كريم ذكر كرمه وشرفه في كتاب مكنون، فمعنى الآية - على هذا - الاستشهاد بالكتب المنزلة، وهذا كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، وقال بعض المتأولين: أراد مصاحف المسلمين، وكانت يوم نزلت الآية لم تكن، فهي - على هذا - إخبار بغيث، وكذلك هو كتاب مصون إلى يوم القيامة، ويؤيد هذا لفظة «الْمَسْ» فإنها تشير إلى المصاحف، وهي مستعارة من مس الملائكة.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ وفي حكمه - فقال بعض من قال إن الكتاب المكنون هو الذي في السماء، قال: الْمُطَهَّرُونَ هنا: الملائكة، قال قتادة: فأما عندكم فيمسه المشرك النجس والمنافق، قال الطبري: الْمُطَهَّرُونَ: الملائكة والأنبياء عليهم السلام ومن لا ذنب له، وليس في الآية - على هذا القول - حكم مس المصحف لسائر بني آدم، ومن قال بأنها مصاحف المسلمين قال: إن قوله تعالى ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ إخبار مضمته النهي، وضمة السين - على هذا - إعراب، وقال بعض هذه الفرقة: الكلام نهْي، وضمة السين ضمة بناء، قال جميعهم: فلا يمس المصحف من بني آدم إلا الطاهر من

الكفر والجنابة والحدث الأصغر، قال مالك: لا يحمله غير طاهر بعلاقته ولا على وسادة، وفي كتاب رسول الله ﷺ لعمر بن حزم: «ولا يمس القرآن إلا طاهراً»، وقد رخص أبو حنيفة وقوم أن يمس الجنب والحائض على حائل، غلاف ونحوه، ورخص بعض العلماء في مسه بالحدث الأصغر وفي قراءته عن ظهر قلب، منهم ابن عباس وعامر الشعبي، لا سيما للمعلم والصبيان، وقد رخص بعضهم للجنب في قراءته، وهذا الترخيص كله إنما هو على القول الذي ذكرناه من أن «المطهرين» هم الملائكة، أو على مراعاة لفظة المس، فقد قال سلمان رضي الله عنه: لا أمس المصحف ولكن أقرأ القرآن. وقرأ جمهور الناس: ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ بفتح الطاء والهاء المشددة، وقرأ نافع، وأبو عمرو - بخلاف عنهما -: ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة، وهي قراءة عيسى الشقفي، وقرأ سلمان الفارسي: ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ بفتح الطاء خفيفة وكسر الهاء وشدها، على معنى الذين يُطَهَّرُونَ أنفسهم، ورويت عنه بشد الطاء والهاء، وقرأ الحسن، وعبدالله بن عون، وسلمان الفارسي - بخلاف عنه -: ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ بمعنى: الْمُتَطَهِّرِينَ، والقول بأن «لَا يَمَسُّهُ» نهْي قول فيه ضعف، وذلك أنه إذا كان خبراً فهو في موضع الصفة، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿تَزِيلُ﴾ صفة أيضاً، فإذا جعلناه نهياً جاء معنى أجنبياً مُعْتَرِضاً بين

الصفات، وذلك لا يحسن في رصف الكلام فتدبره، وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿مَا يَمْسُهُ﴾، وهذا يُقَوِّي ما رَجَّحته من الخبر الذي معناه: حَقُّهُ وَقَدْرُهُ أَلَّا يَمْسَهُ إِلَّا طَاهِرٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾ مخاطبة للكفار، و«الحديث» المشار إليه هو القرآن المتضمن البعث، وأن الله تعالى هو خالق الكل، وأن ابن آدم مصرف بقدره وقضائه، وغير ذلك، و﴿مُذْهِبُونَ﴾ معناه: يُلَاقِينَ بعضكم بعضاً ويتبعه في الكفر، مأخوذ من الدهن ليلينه واملأسيه، وقال أبو قيس بن الأُسَلْتِ:

الْحَزْمُ وَالْقُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الْإِذْهَانِ الْفُهْمَةُ وَالْهَوَاعِ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي المهاددة فيما لا يحل، والمداراة هي المهاددة فيما يحل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

﴿مُذْهِبُونَ﴾: مكذبون.
قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقاتلين في المطر الذي نزله الله تعالى رزقاً للعباد: هذا بَشْوَرٌ كذا وكذا، وهذا بَشْوَرُ الْأَسَدِ، وهذا بَشْوَرُ الْجَوَازِ، وغير ذلك، والمعنى: وتجعلون شكر رزقكم، كما تقول لرجل: جعلت يا فلان إحساني إليك أن سببتني، فالمعنى: جعلت شكر إحساني، وحكى الهيثم بن عدي أن من لغة أزد شنوءة: ما رزق فلان؟ بمعنى: ما شكره؟ وكان علي بن أبي طالب

رضي الله عنه يقرؤها: ﴿وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، وكذلك قرأ ابن عباس رضي الله عنهما، ورويت عن النبي ﷺ إلا أن ابن عباس رضي الله عنهما ضم التاء وفتح الكاف، وعلي رضي الله عنه فتح التاء وسكن الكاف وخفف الذال، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وَكَانَ شُكْرُ الْقَوْمِ عِنْدَ الْمَنِيِّ
كَيْ الصُّحُوحَاتِ وَقَوَّ الْأَغْنِي
وقد أخبر الله تعالى أنه أنزل من السماء ماءً مباركاً فأنشأ به جنات وحبّ الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقاً للعباد، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: بهذا الخبر، وقرأ عاصم في رواية المفضل عنه: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ بفتح التاء وسكون الكاف وتخفيف الذال كقراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكذبهم في مقالهم بَيِّنٌ لأنهم يقولون: هذا بنوء كذا، وذلك كذب منهم وتخوُّص. وذكر الطبري أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: مُطَرْنَا ببعض عشائين الأسد، فقال له: «كذبت بل هو رزق الله»، والمنهي عنه المكروه هو أن يعتقد أن للطلح من النجوم تأثيراً في المطر، وأما مراعاة بعض الطوائع على مقتضى العادة فقد قال عمر للعباس رضي الله عنهما وهما في الاستسقاء: يا عباس، يا عم النبي ﷺ: كم بقي من نوء الثريا؟ فقال العباس رضي الله عنه: العلماء يقولون إنها تعترض الأفق بعد سقوطها سبعة، قال ابن المسيب: فما مضت سبع حتى مُطِرُوا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ توقيف على موضع عجز يقتضي النظر فيه أن الله تبارك وتعالى مالك كل شيء، والضمير في ﴿بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ لنفس الإنسان، والمعنى يقتضيها وإن لم يتقدم لها ذكر، و«الحُلُقُوم» مجرى الطعام، وهذه الحال هي نزاع المرء للموت. وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ﴾ إشارة إلى جميع البشر، وهذا من الانتصاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿جَبَبِيلٌ﴾ بكسر النون، و﴿نَظَرُونَ﴾ معناه: إلى المنازع في الموت. وقوله تعالى: ﴿وَتَحَنَّنَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ يحتمل أن يريد ملائكته ورسله، ويحتمل أن يريد: بقدرتنا وغلبتنا، فعلى الاحتمال الأول يجيء قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَحْسِرُونَ﴾ من النظر بالعين، وعلى التأويل الثاني يجيء من النظر بالقلب، وقال عامر بن عبد قيس: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إليه مني.

ثم عاد التوقيف والتقرير ثانية بلفظ التخصيص، و«الْمَدِينُ»: المملوك، هذا أصح ما يقال في معنى اللفظة هنا، ومن عبّر عنها بالمُجَازِي أو المُحَاسِبِ فذلك هنا قلق، والمملوك يقلب كيف شاء المالك، ومن هذا الجملك قول الأخطل:

رَبَّتْ قَرْبَى فِي جَجْرِهَا ابْنُ مَدِينَةٍ
تَرَاهُ عَلَى مَسْحَاتِهِ يَسْتَرْكُلُ
أراد: ابن أمة مملوكة، وهو عبد يخدم الكرم، وقد قيل في معنى هذا البيت: أراد أكاراً حَضَرِيّاً لأن الأعراب في البادية لا يعرفون

الفلاحة وعمل الكرم، فَتَسَبَّهَ إِلَى المدينة لما كان من أهلها، فمعنى الآية: فَلَوْلَا تَرْجِعُونَ النَفْسَ الْبَالِغَةَ إِلَى الْحُلُقُومِ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَمْلُوكِينَ وَلَا مَقْهُورِينَ، وَدَيْنُ الْمَلِكِ حُكْمُهُ وَسُلْطَانُهُ، وَقَدْ نَحَا إِلَى هَذَا الْمَعْنَى الْفَرَاءُ، وَذَكَرَهُ مُسْتَوْعِبًا النِقَاشَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ سَدَّتْ مَسَدَ الْأَجُوبَةِ وَالْبَيِّنَاتِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا التَّخْصِصَاتُ، وَ﴿إِذَا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا﴾ وَ﴿إِنْ﴾ الْمُتَكَرِّرَةُ، وَحَمَلَ بَعْضُ الْقَوْلِ بَعْضًا إِبْجَازًا وَاقْتِضَابًا.

﴿٨٨﴾ - ﴿٨٩﴾ تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ:

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ حَالَ الْأَزْوَاجِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، وَحَالَ أَمْرِيَّ مِنْهُمْ، فَأَمَّا الْمَرْءُ مِنَ السَّابِقِينَ الْمُقْرِبِينَ فَسِلْقَى عِنْدَ مَوْتِهِ زَوْحًا وَرِيحَانًا، وَ«الرَّوْخُ»: الرَّحْمَةُ وَالسَّعَةُ وَالْفَرْجُ وَالْفَرْحُ، وَمِنْهُ: رُوحُ اللَّهِ، وَ«الرَّيْحَانُ»: الطَّيِّبُ، وَهُوَ دَلِيلُ النِّعَمِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الرِّيحَانُ: الرُّزْقُ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ، وَقَتَادَةُ، وَالْحَسَنُ: الرِّيحَانُ هُوَ الشَّجَرُ الْمَعْرُوفُ فِي الدُّنْيَا، يَلْقَى الْمُقَرَّبَ رِيحَانًا مِنَ الْجَنَّةِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ، وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ: ﴿فَرُوحٌ﴾ بِضَمِّ الرَّاءِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: مَعْنَاهُ: رُوحُهُ تَخْرُجُ فِي رِيحَانَةٍ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الرِّيحَانُ: الْإِسْتِرَاحَةُ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: الرِّيحَانُ مَا تَنْسِبُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ، وَقَالَ الْخَلِيلُ: هُوَ طَرَفُ كُلِّ بَقْلَةٍ طَيِّبَةٍ فِيهَا أَوَائِلُ الثَّوَرِ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ

رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: «هُمَا رِيحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا»، وَقَالَ الثَّمَرُ بْنُ تَوَلَّبَ:

سَلَامُ الْإِلَهِ وَرَنَحَائِهِ
وَرَحْمَتُهُ وَسَمَاءُ دِرْزِ
وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ:
﴿فَرُوحٌ﴾ بِضَمِّ الرَّاءِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَلَّمَ لَكَ مِنْ أَحْسَنِ الْأَيِّينِ﴾ عِبَارَةٌ تَقْتَضِي جُمْلَةً مَدْحَ، وَصِفَةً تَخْلُصُ وَحْصُولَ فِي عَالٍ مِنَ الْمَرَاتِبِ، وَالْمَعْنَى: لَيْسَ فِي أَمْرِهِمْ إِلَّا السَّلَامُ وَالنَّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ، وَهَذَا كَمَا تَقُولُ فِي مَدْحِ رَجُلٍ: أَمَّا فَلَانُ فَتَنَاهِيكَ بِهِ، أَوْ بِحَسْبِكَ أَمْرُهُ، فَهَذَا يَقْتَضِي جُمْلَةً غَيْرَ مُفَصَّلَةٍ مِنْ مَدْحِهِ، وَقَدْ اضْطَرَّتْ عِبَارَاتُ الْمُتَأَوَّلِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَلَّمَ لَكَ﴾ - فَقَالَ قَوْمٌ: الْمَعْنَى: فَيَقَالُ لَهُ: «مُسَلِّمٌ لَكَ أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ»، وَقَالَ الطَّبْرِيُّ: الْمَعْنَى: فَسَلَامٌ لَكَ أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَقِيلَ الْمَعْنَى: فَسَلَامٌ لَكَ يَا مُحَمَّدُ، أَيْ: لَا تَرَى فِيهِمْ إِلَّا السَّلَامَةَ مِنَ الْعَذَابِ، فَهَذِهِ الْكَافُ فِي ﴿لَكَ﴾ إِمَّا أَنْ تَكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ - وَهُوَ الْأَظْهَرُ - ثُمَّ لِكُلِّ مُعْتَبَرٍ فِيهَا مِنْ أَمْتِهِ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ لِمَنْ يَخَاطَبُهُ مِنْ أَصْحَابِهِ الْيَمِينِ، وَغَيْرُ هَذَا مِمَّا قِيلَ فِيهِ تَكَلُّفٌ.

و «الْمُكَذَّبُونَ الضَّالُّونَ» هُمُ الْكَفَّارُ أَصْحَابُ الشَّمَالِ وَالْمَشَاقِمَةِ، وَ«الْثُّرُلُ» أَوَّلُ شَيْءٍ يَقْدَمُ لِلضَّعِيفِ، وَ«التَّضْلِيلَةُ» أَنْ تَبَاشَرَ بِهِمُ النَّارُ، وَ«الْجَحِيمُ» مَعْظَمُ النَّارِ وَحَيْثُ تَرَكَاهَا. وَلَمَّا كُمِّلَ تَقْسِيمُ أَحْوَالِهِمْ وَانْقَضَى

الْخَبَرُ بِذَلِكَ أَكَّدَ تَعَالَى الْإِخْبَارَ بِأَنْ قَالَ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَخَاطِبَةً تَدْخُلُ مَعَهُ أَمْتُهُ فِيهَا: إِنْ هَذَا الَّذِي أَخْبَرْتِكَ بِهِ لَهُ حَقٌّ الْيَقِينِ، وَإِضَافَةُ الْحَقِّ إِلَى الْيَقِينِ عِبَارَةٌ فِيهَا مَبَالِغَةٌ لِأَنَّهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، فَذَهَبَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى أَنَّهُ مِنْ بَابِ «دَارِ الْآخِرَةِ» وَ«مَسْجِدِ الْجَمَاعَةِ»، وَذَهَبَتْ فِرْقَةٌ مِنَ الْحُدَاقِ إِلَى أَنَّهُ كَمَا تَقُولُ فِي أَمْرٍ تُؤَكِّدُهُ: هَذَا يَقِينُ الْيَقِينِ، أَوْ صَوَابُ الصَّوَابِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ نَهَايَةُ الصَّوَابِ، وَهَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ «دَارِ الْآخِرَةِ» وَمَا أَشْبَهَهَا يَحْتَمِلُ أَنْ تَقْدُرَ شَيْئًا أَصْفَتْ الدَّارَ إِلَيْهِ وَوَصَفَتْهُ بِالْآخِرَةِ ثُمَّ حَذَفَتْهُ وَأَقَمَّتِ الصِّفَةَ مَقَامَهُ، كَأَنَّكَ قُلْتَ: «دَارِ الرَّجْعَةِ الْآخِرَةِ»، أَوْ «دَارِ النِّشْأَةِ الْآخِرَةِ»، أَوْ «الْحَلَقَةِ الْآخِرَةِ»، وَهَذَا لَا يَنْجُو هَذَا، وَإِنَّمَا هِيَ عِبَارَةٌ مَبَالِغَةٌ وَتَأْكِيدٌ مَعْنَاهَا أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ هُوَ نَفْسُ الْيَقِينِ وَحَقِيقَتُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَسْبِيحٌ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ عِبَارَةٌ تَقْتَضِي الْأَمْرَ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ أَقْوَالِ الْكُفْرَةِ وَسَائِرِ أُمُورِ الدُّنْيَا الْمُخْتَصَّةِ بِهَا، وَالْإِقْبَالَ عَلَى أُمُورِ الْآخِرَةِ، وَعِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَالدَّعَاءَ إِلَيْهِ، وَرَوَى عَقِبَةُ بْنُ عَامِرٍ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ ﴿تَسْبِيحٌ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»، فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿تَسْبِيحٌ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قَالَ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: سَبِّحْ اللَّهَ تَعَالَى بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْعُلَى، وَ«الْأَسْمِ» هُنَا بِمَعْنَى الْجِنْسِ، أَيْ: بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ، وَ«الْعَظِيمِ» صِفَةُ لِلرَّبِّ تَعَالَى، وَقَدْ



التسبيح ممّا ذكر دائم مستمر، واختلفوا، هل هذا التسبيح حقيقة أو مجاز على معنى أن أثر الصنعة فيها يُتَّبَعُ الرائي على التسبيح؟ قال الزجاج وغيره: والقول بالحقيقة أحسن، وقد تقدم القول فيه غير مرة، وهذا كله في الجمادات، وأمّا ما يمكن التسبيح منه فقول واحد أن تسبيحهم حقيقة، وقال قوم من المفسرين: التسبيح في هذه السورة الصلاة، وهذا قول متكلف، فأما فيمن يمكن منه ذلك فسائق، وعلى أن

يحتمل أن يكون «الاسم» هنا واحداً مقصوداً، ويكون «العظيم» صفة له، فكأنه أمره أن يسبحه باسمه الأعظم وإن كان لم يُنصَّ عليه، ويؤيد هذا ويشير إليه اتصال سورة الحديد وأولها فيه التسبيح وجملة من أسماء الله تعالى، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «اسم الله الأعظم موجود في ستّ آيات من أول سورة الحديد»، فتأمل هذا فإنه من دقيق النظر، والله تعالى في كتابه العزيز غوامض لا تكاد الأذهان تدرّكها.

كمل تفسير سورة الواقعة والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الحديد

وهي مدنية، قال النقاش وغيره: بإجماع من المفسرين، وقال غيره: هي مكية، ولا خلاف أن فيها قرآناً مدنياً لكن يشبه صدرها أن يكون مكياً، والله تعالى أعلم، وقد ذكرنا قول ابن عباس رضي الله عنهما أن اسم الله عز وجل الأعظم هو في ستّ آيات من أول سورة الحديد، ورؤي أن الدعاء بعد قراءتها مستجاب.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال أكثر المفسرين: التسبيح هنا هو التَّنْزِيهِ المعروف في قولهم: «سبحان الله»، وهذا عندهم إخبار بصيغة الماضي مُضْمَنَةً الدوام وأن

ملك البشر مجازاً فان، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: على كل شيء مقدور.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾. الأول: الذي ليس لوجوده بداية مُفْتَتَحَةٌ، والآخِر: الذي ليس لها نهاية منقضية. وقال أبو بكر الوراق: هو الأول بالآزلية والآخر بالأبدية، وهو الأول بالوجود؛ إذ كلُّ موجود بعده وبه، والآخِر إذا نظر العقل في الموجودات حتى يكون إليه متهاها، قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ إِلَهَ رَبِّكَ الْغَنِيُّ﴾. و﴿وَالْظَّاهِرُ﴾ معناه: بالأدلة ونظر العقول في صنعته، و﴿وَالْبَاطِنُ﴾ بلفظه وغوامض حكمته وباهر صفته التي لا تصل إلى معرفتها - على ما هي عليه - الأوهام، ويحتمل أن يريد تعالى بقوله: ﴿وَالْظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ الذي بهر

سجود ظلال الكفار هي صلاتهم، وأمّا في الجمادات فيقلق، وذلك أن خضوعها وخشوع هبتها قد يُسمى في اللغة سجوداً تجوزاً واستعارة، كما قال الشاعر:

.....

تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سَجْدًا لِلْحَوَافِرِ
وبعد أن تُسمى تلك صلاة إلا على تجوز.

وقوله تعالى: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عامٌ في جميع المخلوقات، وقال بعض النحاة: التقدير: ما في السموات وما في الأرض، ف﴿مَا﴾ نكرة موصوفة، فلما تكرر موصوفها حذفها وأقام الصفة مقامها، وهو العزيز بقدرته، وسلطانه، الحكيم بلفظه وتدبيره وحكمته، ومَلِكُ السموات والأرض هو سلطانها الحقيقي الدائم؛ لأن

وَمَلَكٌ فِيمَا ظَهَرَ لِلْعُقُولِ وَفِيمَا خَفِيَ عَنْهَا، فَلَيْسَ فِي الظَّاهِرِ غَيْرُهُ حَسَبَ قِيَامِ الْأَدَلَّةِ، وَلَيْسَ فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ وَفِيمَا خَفِيَ عَلَى النَّظَرِ مِمَّا عَسَى أَنْ يُتَوَهَّمُ غَيْرُهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عَامٌ فِي الْأَشْيَاءِ عَمُومًا تَامًا.

وقد تقدم القول في خلق السموات والأرض، وأكثر الناس على أن بدء الخلق في يوم الأحد، ووقع في مسلم أن البداية في يوم السبت، وقال بعض المفسرين: الأيام الستة من أيام القيامة، وقال الجمهور: من أيام الدنيا، وهو الأصوب، والاستواء على العرش هو بالغلبة والقهر المستمرين بالقدرة، وليس ما في قهر العباد من المحاولة والتعب، وقد تقدم القول في مسألة الاستواء مستوعباً في طه وغيرها. ﴿وَمَا يَلْبِغُ فِي الْأَرْضِ﴾ هو المطر والأموات وغير ذلك، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ هو النبات والمعادن وغير ذلك، ﴿وَمَا يَزُولُ مِنْ السَّمَاءِ﴾ الملائكة والرحمة والعذاب وغير ذلك، ﴿وَمَا يَمْزُجُ فِيهَا﴾ هو الأعمال صالحها وسيئها والملائكة وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ معناه: بقدرته وعلمه وإحاطته وهدايته، أجمعت الأمة على هذا التأويل فيها، وإنها مخرجة عن معنى لفظها المعهود، ودخل في الإجماع من يقول بأن هذا أمر المشتبه كله، ينبغي أن يمر ويؤمن به ولا يُفسَّر، وقد أجمعوا على تأويل هذه لبيان وجوب إخراجها عن ظاهرها، قال سفيان الثوري:

المعنى: علمه معكم، وتأويلهم هذه حجة عليهم في غيرها.

﴿٥﴾ - ﴿٦﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ تَزْجِعُ الْأُمُورَ﴾ خَبَرٌ يعم جميع الموجودات، و﴿الْأُمُورُ﴾ هنا ليست جمع المصدر، بل هي جميع الموجودات لأن الأمر والشئ والموجود أسماء شائعة في جميع الموجودات أعراضها وجواهرها، وقرأ الجمهور: ﴿تَزْجِعُ﴾ بضم التاء، وقرأ الأعرج، وابن أبي إسحق: ﴿تَزْجَعُ﴾ بفتح التاء.

وقوله تعالى: ﴿يُؤَيِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ الآية تنبيه على العبرة فيما يتجاذبه الليل والنهار من الطول والقصر، وذلك متشعب مختلف حسب اختلاف الأقطار والأزمان الأربعة، وذلك بحر من بحار الفكرة لمن تأمله، و﴿يُؤَيِّجُ﴾ معناه: يُدْخِلُ، و﴿ذَاتُ الصُّدُورِ﴾: ما فيها من الأسرار والمعتقدات وذلك أعمش ما يكون، وهذا كما قالوا: «الذنب مغبوط يذني بطنه»، وكما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «إنما هو ذو بطن بنت خارجة».

وقوله تعالى: ﴿ءَايِسُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية. أمر للمؤمنين بالشبوت على الإيمان والنفقة في سبيل الله، ويروى أن هذه الآية نزلت في غزوة العُسرة، وهي غزوة تبوك، قاله الضحاك، وقال: الإشارة بقوله تعالى: ﴿قَالَتَيْنِ آمَنُوا بِكَ وَرَأَيْنَاكَ﴾ إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، وحكمها باقي يندب إلى هذه الأفعال بقية الدهر. وقوله

تعالى: ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾ تزهيد وتنبيه على أن الأموال إنما تصير إلى الإنسان من غيره ويتركها لغيره، وليس له من ذلك إلا ما تضمنه قول رسول الله ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فألبست، أو تصدقت فأمضيت»، ويروى أن رجلاً مر بأعرابي له إبل فقال له: يا أعرابي، لمن هذه الإبل؟ فقال: هي لله تعالى عندي، فهذا موافق مصيب إن كان ممن صحب قوله عمله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية توطئة لدعائهم وإيجاب لأنهم أهل هذه الرتبة الرفيعة، فإذا تقرر ذلك فلا مانع من الإيمان، وهذا كما تريد أن تندب رجلاً إلى عطاء فتقول له: أنت يا فلان من قوم أجواد فينبغي أن تُكرم، وهذا مُطْرَد في جميع الأمور، إذا أردت من أحد فعلاً خَلَفْتَهُ بخلق أهل ذلك الفعل وجعلت له رتبته، فإذا تقرر في هؤلاء أن رسول الله ﷺ يدعوهم، وأنهم بمن أخذ الله ميثاقهم، فكيف يمتنعون من الإيمان؟ وقرأ جمهور القراء: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ على بناء الفعل للفاعل، وقرأ أبو عمرو: ﴿وَقَدْ أُخِذَ﴾ على بناء الفعل للمفعول، والأخذ على كل هو الله تعالى، وهذا الأخذ كان حين الإخراج من ظهر آدم عليه السلام على ما مضى في غير هذه السورة، والمخاطبة ببناء الفعل للمفعول أشد غِلْظًا على المخاطب، ونحوه قول الله تعالى: ﴿فَأَسْتَمِعْ كَمَا

أَمَرْتُ، وكما تقول لإمرىء: افعل ما قيل لك، فهو أبلغ من قولك: افعل ما قلت لك.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، قال الطبري: المعنى: إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال فالآن، وهذا معنى ليس في لفظ الآية وفيه إضمار كثير، وإنما المعنى عندي أن قول الله تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يقتضي أن يُقَدَّرَ بآثره: فأنتم في رتب شريفة وأقدار رفيعة إن كنتم مؤمنين، أي: إذا دتم على ما بدأتم به.

وقرأ بعض السبعة: ﴿يَزَلُّ﴾ مثقلة، وقرأ بعضهم: ﴿يَنْزِلُ﴾ مخففة، وقرأها الحسن وعيسى بالوجهين، وقرأ الأعمش: ﴿أَنْزَلُ﴾، والعبد في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِي﴾ محمد ﷺ، و«الآيات» آيات القرآن، و«الطُّلُمَات» الكفر، و«الثَّوَر» الإيمان، وما في الآية وغد وتأنيس مؤكداً.

١٠ - ١١ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله وأنتم تموتون وتتركون أموالكم؟ فاب مناب هذا القول قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرَىٰ مَا تَكْمُلُونَ وَالْآخِرُ﴾ وفيه زيادة تذكير بالله عز وجل وعبرة، وعنه يلزم القول الذي قدرناه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مَنكَرٌ مَّنْ أَفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٌ﴾ الآية، روي أنها نزلت بسبب أن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنفقت نفقات كثيرة حتى قال الناس: هؤلاء

أعظم أجراً من كل من أنفق قديماً، فنزلت الآية مبينة أن النفقة قبل الفتح أعظم أجراً، وهذا التأويل على أن الآية نزلت بعد الفتح، وقد قيل: إنها نزلت قبل الفتح تحريضاً على الإنفاق، والأول أشهر، وحكى الشعلبي أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفي نفقاته، وفي معناه قول النبي ﷺ لخالد بن الوليد رضي الله عنه: «اتركوا لي أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

واختلف الناس في الفتح المشار إليه في هذه الآية - فقال أبو سعيد الخدري، والشعبي: هو فتح الحديبية، وقد تقدم في سورة الفتح تقدير كونه فتحاً، ورفع أبو سعيد رضي الله عنه إلى النبي ﷺ أن أفضل ما بين الهجرتين فتح الحديبية. وقال قتادة، ومجاهد، وزيد بن أسلم: هو فتح مكة الذي أزال الهجرة، وهذا هو المشهور الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»، وقال له رجل بعد فتح مكة: أبايعك على الهجرة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الهجرة قد ذهبت بما فيها، وإن الهجرة لشأنها شديد، ولكن أبايعك على الجهاد»، وحكم الجهاد باق إلى غابر الدهر، فمن أنفق في وقت حاجة السبيل أعظم أجراً ممن أنفق مع استغناء السبيل، وأكثر المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿يَسْتَوِي﴾ مسند إلى ﴿يَنْ﴾ وترك ذكر المعادل الذي لم يستر معه لأن قوله تعالى: ﴿يَنْ﴾ الَّذِينَ أَفَقُوا مِنْ بَعْدِ قَدْ فَسَّرَهُ وَبَيَّنَّهُ،

ويحتمل أن يكون فاعل ﴿يَسْتَوِي﴾ محذوفاً تقديره: لا يستوي منكم الإنفاق، ويؤيد ذلك أن ذكره قد تقدم في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿مَنْ أَفَقَ﴾ ابتداءً وخبره الجملة الآتية بَعْدُ.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْخُسْفَى﴾ وهي الوجه لأن ﴿وَعَدَ﴾ ليس يعوقه عائق عن أن ينصب الفعل المقدم، وقرأ ابن عامر: ﴿وَكُلَّ وَعَدَ اللَّهُ الْخُسْفَى﴾، فأما سيبويه رحمه الله تعالى فقدّر الفعل خبراً لابتداء، وفيه ضمير عائد، وحذفه عنده قبيح لا يجري إلا في الشعر ونحوه، ومنه قول الشاعر:

قَدْ أَضْبَحْتُ أُمَّ الْخِيَارِ تَدْعِي
عَلَيَّ ذَنْباً كَلُّهُ لَمْ أَضْنَعْ
قال: ولكن حملوا الخبر على الصفات كقول جرير:

وَمَا شَيْءٌ خَمِنَتْ بِمُسْتَبَاحٍ
وعلى الصلوات كقوله تعالى: ﴿أَمْسَتْ اللَّهُ بَرَكَ رَسُولًا﴾، وذهب غير سيبويه إلى أن ﴿وَعَدَ﴾ في موضع الصفة، كأنه قال: أولئك وكل وعد الله الحسنى، وصاحب هذا المذهب جعل في هذا التعلُّف في المعنى فراراً من حذف الضمير من خبر الابتداء. و«الْخُسْفَى»: الجنة، قاله مجاهد، وقاتدة، والوعد يتضمن ما قبل الجنة من نصر وغنيمة. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قول فيه وعد ووعد.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَفْزِعُ اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا﴾ الآية. قال بعض

لِلإِيمَان يُعْطَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورًا،
فَيُطْفَأُ نُورُ كُلِّ مَنْفِقٍ وَيَبْقَى نُورُ
الْمُؤْمِنِينَ، حَتَّى إِنْ مِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ
بِضَاءٌ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَصَنْعَاءَ، رَفَعَهُ
قَادَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ
كَالتَّخْلَةِ السُّحُوقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ
بِضَاءٌ مَا يَقْرُبُ مِنْ قَدَمَيْهِ، قَالَ ابْنُ
مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ
بِهِمْ نُورُهُ بِالْإِنْطِفَاءِ مَرَّةً وَبَيِّنُ مَرَّةً،
عَلَى قَدْرِ الْمَنَازِلِ فِي الطَّاعَةِ
وَالْمَعْصِيَةِ، وَخَصَّ تَعَالَى «بَيْنَ
الْأَيْدِي» لِأَنَّهُ مَوْضِعُ حَاجَةِ الْإِنْسَانِ
إِلَى النُّورِ.

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿وَيُؤَيِّنُكُمْ﴾ - فقال بعض المتأولين : المعنى : وعن أيمانهم ، فكأنه تعالى خصَّ جهة اليمين تشريفاً ، وناب ذلك مناب أن يقول : وفي جميع جهاتهم ، وقال آخرون منهم : المعنى : وبأيمانهم كَتَبُهم بالرحمة ، وقال جمهور المفسرين : المعنى : يَسْعَى نورهم بين أيديهم ، يريد تعالى الضوء المنبسط من أهل النور ، وبأيمانهم أَضَلُّه والشئ الذي هو مُتَّقَد فيه ، فَضَمَّن هذا القول أنهم يحملون الأنوار ، وكوئُهم غير حاملين [لها] أَكْرَم ، ألا ترى أن فضيلة عَبَاد بن بشر ، وأُسَيْد بن حُضَيْر رضي الله عنهما إنما كانت بنور لا يحملانه ؟ هذا في الدنيا فكيف في الآخرة ؟ ومن هذه الآية انتزع حمل المُعْتَق للشمعة . وقرأ الناس : ﴿وَيُؤَيِّنُكُمْ﴾ جمع يمين ، وقرأ سهل بن سعد ، وأبو حيوة : ﴿وَيُؤَيِّمَانِيَهُمْ﴾ بكسر الألف ، وهو معطوف على قوله تعالى : ﴿يَزِيدُكُمْ﴾

جواب الاستفهام، وذلك
قلق، قال أبو علي: لأن
السؤال لم يقع عن
القرض، وإنما وقع
السؤال عن فاعل القرض،
وإنما تنصب الفاء فعلاً
مردوداً على فعل مستفهم
عنه، لكن هذه الفرقة
حملت ذلك على المعنى،
كأنه قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا
الَّذِي يُقْرِضُ﴾ بمنزلة أن لو
قال: أيقرض الله أحد
فيضاعفه، وقرأ ابن كثير:
﴿فَيَضَعُهُ﴾ مشددة العين
مضمومة الفاء، وكذلك
قرأ ابن عامر، إلا أنه فتح
الفاء. و«الأجر الكريم»:

الذي يقرنُ به رضى وإقبال، وهذا معنى الدعاء: «يا كريم العفو»، أي: أنَّ مع عفوه رضى ومغنى، وعفو البشر ليس كذلك.

١٢ - ١٤ تفسير قوله عز وجل:

العامل في ﴿يَوْمَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، والرؤية في هذه الآية رؤية عين، والثور، قال الضحاك بن مزاحم: هي استعارة، عبارة عن الهدى والحق الذي هم عليه وهدايتهم الناس إلى الحق وصدقهم في الأفعال والأقوال، وقيل: تَبَعُّهُمْ الرشد واعتقادهم به واقتصاصهم آثاره وعلاماته وأنواره، وقيل: هي استعارة، عبارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه، وقال الجمهور: بل هو نور حقيقة، وروى في هذا عن ابن عباس وغيره آثار مضمناها أن كل مؤمن مُظهر

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ ذُرِّيَّتُهُم بِأَكْفَادِهِمْ وَاِذْ يَسْعَىٰ
بِبَنَاتِكُمِ الْيَوْمَ حَتَّىٰ تَجْرِيَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
هُوَ الْعَذَابُ الْعَظِيمُ ﴿١١﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لَئِنْ
أَمَرْنَا أَنْ نَظُرَ إِلَىٰ نَفْسٍ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَارْجِعُوا فَلْتَنصُرُوا
فَقُربَ يَتِيمِهِمْ يَسْأَلُهُمْ رَبَّاهُ بِفِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَهُ هُمُ الْيَتِيمُ
الْعَذَابُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ تَأْتِيهِمْ أَتَمُّ نَجْمٍ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ
أَنْفُسَكُمْ وَتَفْتَنَهُمُ الْآيَاتُ وَأَنْ تَبْلُغُوا الْأَمَانَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَلَمْ تُؤْمَرُوا بِهَا الْغُرُورُ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَمْ يَأْتِخُذْ بَعِثَكُمْ يَتِيمًا وَلَا
مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْفَىٰكُمْ أَتَمَّ أَهْلًا وَلَكِنْ كُنْتُمْ مُبْصِرِينَ
﴿١٤﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
وَمَا زَلْ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ
فَقَالَ عَلَيْهِمُ الْأُمْدَ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٥﴾
أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَمَّى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهِ أَمْ يَبْئَسَ لَكُمْ الْآيَاتُ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ الْمُضْجِرِينَ وَالْمُضْجِرَاتِ وَأَوْفُوا
اللَّهُ فَرَصًا حَسَنًا يَضَعُفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾

النحويين: ﴿تَنْ﴾ ابتداءً، و﴿ذَا﴾ خبره، و﴿الَّذِي﴾ صفة، وقال آخرون منهم: ﴿مَنْ﴾ ابتداءً، و﴿ذَا﴾ زائدة مع ﴿الَّذِي﴾، و﴿الَّذِي﴾ خبر الابتداء، وقال الحسن: نزلت هذه الآية في التطوع في جميع أمر الدين، و﴿الْقَرْضُ﴾ و﴿السُّلْفُ﴾ ونحوه: أن يعطي الإنسان شيئاً وينتظر جزاءه، و﴿التضعيف﴾ من الله تعالى هو في الحسنات، يضاعف الله تعالى لمن يشاء من عشرة إلى سبعمائة، وقد ورد أن التضعيف يزيد على سبعمائة، وقد مرّ ذكر ذلك في سورة البقرة بوجوه من التأويل. وقرأ أبو عمرو، ونافع، وحمزة، والكسائي: ﴿فِيضَاعُفُهُ﴾ بالرفع على العطف أو على القطع والاستئناف، وقرأ عاصم، وابن عامر: ﴿فِيضَعِفُهُ﴾ بالنصب بالفاء في

أَيَّدِيهِمْ، كأنه تعالى قال: كافياً بين أيديهم وكأننا بسبب إيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿يُتْرِكُكُمْ﴾ معناه: يقال لهم: بُشراكم جنات، أي: دخول جنات، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ إلى آخر الآية مخاطبة لمحمد ﷺ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بدون «هو».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾، قال بعض النحاة: ﴿يَوْمَ﴾ بدل من الأول، وقال آخرون منهم: العامل فيه مضمرة تقديره: اذكر، ويظهر لي أن العامل فيه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، ويجيء معنى الفوز أفخم، كأنه تعالى يقول: إن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري المنافقين كذا وكذا، لأن ظهور المرء يوم خمول عدوه ومضاده أبداع وأفخم، وقول المنافقين هذه المقالة المحكية هو عند انطفاء أنوارهم كما ذكرنا قبل، وقولهم: «انظرونا» معناه: انتظرونا، ومنه قول الحطية:

وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ إِبْنَاءَ عَاشِيَةِ
لِلْخُمْسِ طَالَ بِهَا حَبْسِي وَتَبَسَّاسِي
وقرأ حمزة وحده، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش: «انظرونا» بقطع الألف وكسر الظاء على وزن أَكْرِمَ، ومنه قول عمرو بن كلثوم:
أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا
وَأَنْظِرْنَا نَخْبِرَكَ الْيَقِينَا

ومعناه: آخرونا، ومنه النظرة إلى مُبَسَّرَةٍ، وقول النبي ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُفسِراً» الحديث، ومعنى قولهم

«آخرونا»: آخروا مشيكم لنا حتى نلحق فنقتبس من نوركم، و«أَفْتَبَسَ الرَّجُلُ وَاسْتَفْتَسَ»: أخذ من نور غيره قبساً.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾، يحتمل أن يكون من قول المؤمنين، ويحتمل أن يكون من قول الملائكة، وقوله تعالى: ﴿وَرَاءَكُمْ﴾ حكى المهدوي وغيره من المفسرين أنه لا موضع له من الإعراب، وأنه كما لو قال: ارجعوا ارجعوا، وأنه على نحو قول أبي الأسود الدؤلي: «وراءك أوسع لك»، ولست أعرف مانعاً يمنع أن يكون العامل فيه ﴿ارْجِعُوا﴾، والقول لهم: ﴿فَالْيُسُورُ﴾ هو على معنى التوبيخ لهم، أي: أنكم لا تجدونه، ثم أعلم عز وجل أنه يضرب بينهم في هذه الحال بسور حاجز، فيسعى المنافقون في ظلمة، ويأخذهم العذاب من الله تعالى، وحكي عن ابن زيد أن هذا السور هو الأعراف المذكور في سورة الأعراف، وقد حكاها المهدوي، وقيل: هو حاجز آخر غير ذلك، وقال عبدالله بن عمرو، وكعب الأحبار، وعُبادة بن الصامت، وابن عباس: هو الجدار الشرقي في مسجد بيت المقدس، وقال زياد بن أبي سودة: قام عبادة بن الصامت على السور الشرقي من بيت المقدس فبكى وقال: من ها هنا أخبرنا النبي ﷺ أنه رأى جهنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفيه باب يسمى باب الرحمة، سمّاه في تفسير هذه الآية عبادة وكعب،

وفي الشرق من الجدار المذكور وإد يقال له: وادي جهنم، سمّاه في تفسير هذه الآية عبدالله بن عمرو، وابن عباس رضي الله عنهم، وهذا القول في السور بعيد، والله تعالى أعلم. وقال قتادة، وابن زيد: الرحمة الجنة، والعذاب جهنم، والسور في اللغة الحجاب الذي للمدن وهو مذكر، والسور أيضاً جمع سورة وهي القطعة من البناء فيضاف بعضها إلى بعض حتى يتم الجدار، فهذا اسم جمع يسوغ تذكيره وتأنيثه، وهذا الجمع هو الذي أراد جرير في قوله:

لَمَّا أَتَى خَبَرَ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ
سُورَ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالِ الْخُشَعُ
وذلك أن المدينة لم يكن لها قط حجي، وأيضاً فإن وصفه أن جميع ما في المدينة من بناء تواضع أبلغ، ومن رأى أنه قصد السور الذي هو الحجي قال: إن ذلك إذا تواضع فغيره من المباني أخرى بالتواضع، فإذا كان السور في البيت يحتمل الوجهين فليس هو في قوة مَرُ الرِّيح، وصدر القناة، وغير ذلك مما هو مذكر مخض استفاد التأنيث مما أضيف إليه.

قوله تعالى: ﴿بِأَيْمَانِهِ الرِّجَّةُ﴾، أي: جهة المؤمنين، و﴿رَظَاهِرُهُ﴾ أي: جهة المنافقين، والظاهر هنا البادي، ومنه قول الكتاب: «من ظاهر مدينة كذا».

وقوله تعالى: ﴿يُنَادُوهُمْ﴾ معناه: ينادي المنافقون المؤمنين: ألم نكن معكم في الدنيا؟ فيرد المؤمنين عليهم: بل كنتم معنا ولكنكم

عرضتم أنفسكم للفتنة وحب العاجل والقتال عليه، قال مجاهد: فَنَتَشْتَمُ أنفسكم بالنفاق، و﴿وَرَبَّيْتُمْ﴾ معناه هنا: بإيمانكم، فأبطلتم به حتى مئثم، وقال قتادة: معناه: تَرَبَّيْتُمْ بنا وبمحمد ﷺ الدوائر، وشككتكم في أمر الله تعالى، و﴿الارتياح﴾: الشكك، و﴿الأماني التي غرَّتكم﴾ هي قولهم: سيهلك محمد هذا العام، ستهزمه قريش، ستأخذه الأحزاب، إلى غير ذلك من أمانيتهم، وطول الأمل غرَّاز لكل أحد، وأمر الله الذي جاء، هو الفتح وظهور الإسلام، وقيل: هو موت المنافقين وموافاتهم على هذه الحالة الموجبة للعذاب. و﴿الغُرُورُ﴾: الشيطان بإجماع من المتأولين، وقرأ سماك بن حرب بضم الغين، وأبو حيوة، وينبغي لكل مؤمن أن يعتبر هذه الآية في نفسه وتسويفه في توبته.

⑩ - ⑪ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿فَأَيُّكُمْ لَا يُؤَدُّ يَمْكُم فِدْيَتَهُ﴾ استمرار في مخاطبة المنافقين، قاله قتادة وغيره، وروي في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حديث. وهو: أن الله تعالى يُفَرِّد الكافر فيقول له: «أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكنث تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: قد سألتك ما هو أنيسر من ذلك وأنت في صلب أببك آدم، لا تشرك بي، فأبيت إلا الشرك»، وقرأ جمهور القراء والناس: ﴿يُؤَدُّ﴾ بالياء من تحت، وقرأ أبو جعفر القاري:

﴿يُؤَدُّ﴾ بالناء من فوق، وهي قراءة ابن عامر في رواية هشام عنه. وهي قراءة الحسن، وابن أبي إسحق، والأعرج.

قوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾، قال المفسرون: معناه: هي أولى بكم، هذا تفسير بالمعنى، وإنما هي استعارة لأنها من حيث تَضُمُّهُمْ وتباشرهم هي تَوَالِيهِمْ وتكون لهم مكان المولى، وهذا نحو قول الشاعر:

.....

تَجِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ
وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ الآية ابتداء معنى مستأنف، وروي أنه كثر الضحك والمزاج في بعض تلك المدة في قوم من شبان المسلمين فنزلت هذه الآية، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ملَّ الصحابة ملَّة فنزلت الآية. ومعنى ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أَلَمْ يَجْنِ، يقال: آن الشيء يأتي إذا حان، ومنه قول الشاعر:

تَمَحَضَّتِ الْمُسُونُ لَهْ يَمُونُ
أَتَى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامُ
وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ وروي عنه أنه قرأ: ﴿أَلَمْ يَتْنِ﴾، وهذه الآية على معنى الحض والتفريع، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عوتب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، وسمع الفضل بن موسى قارئاً يقرأ هذه الآية والفضل يحاول معصية فكانت الآية سبب توبته، وحكى الثعلبي عن ابن المبارك أنه في صباه حرك العود ليضربه فإذا به قد نطق بهذه الآية

فتاب ابن المبارك وكسر العود وجاءه التوفيق.

و «الخشوع»: الإخبات والتطامن، وهي هيئة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب، فلذلك خصَّ تعالى القلب بالذكر، وروى شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما يرفع من الناس الخشوع»، وقوله تعالى: ﴿لِيُذَكِّرَ اللَّهُ﴾ أي: لأجل ذكر الله ووجه الذي بين أظهرهم، ويحتمل أن يكون المعنى: لأجل تذكير الله تعالى إياهم وأمره فيهم، وقرأ عاصم في رواية حفص: ﴿وَمَا تَزَلْ﴾ مخفف الزاي، وقرأ الباقون، وأبو بكر عن عاصم: ﴿وَمَا تَزَلْ﴾ بتشديد الزاي، على معنى: تَزَلَّ الله من الحق، وقرأ أبو عمرو - في رواية عياش - وهي قراءة الجحدري، وابن القعقاع: ﴿وَمَا تَزَلْ﴾ بكسر الزاي وشذها. وقرأ نافع. وأبو عمرو، والأعرج، وأبو جعفر: ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ بالياء على ذكر الغائب، وقرأ حمزة - فيما روى عنه سليمان -: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ على مخاطبة الحضور. والإشارة في قوله تبارك وتعالى: ﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ إلى بني إسرائيل المعاصرين لموسى ﷺ، ولذلك قال: ﴿يَنْ قَبْلَ﴾، وإنما شَبَّه أهل عصر نبي بأهل عصر نبي آخر. و«الأند» قيل: معناه انتظار الفتح، وقيل: أمد الحياة، و﴿سَسَّ﴾ معناه: صلبت وقلَّ خيرها وانفعالها للطاعات وسكنت إلى معاصي الله تعالى ففعلوا من العصيان والمخالفة ما هو مآثور عنهم.

وقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْصِرُ

الَّذِينَ يَدْعُونَ مَوْتَهُمْ ﴿١٨﴾ الآية مخاطبة لهؤلاء المؤمنين الذين ندبوا إلى الخشوع، وهذا ضرب مثل واستدعاء إلى الخير برفق وتقريب بليغ، أي: لا يبعد عنكم أيها التاركون للخشوع رجوعكم إلي وتلبسكم به، فإن الله يحيي الأرض بعد موتها، وكذلك يفعل بالقلوب، يردها إلى الخشوع بعد بُعْدِهَا عنه، وترجع هي إليه إذا وقعت الإنابة والتكسب من العبد بعد نفورها منه كما يحيي الأرض بعد أن كانت ميتة غبراء، وباقي الآية بين:

﴿١٨﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأ جمهور القراء: ﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ﴾ بتشديد الصاد المفتوحة، على معنى المتصدقين، وكذا هي في مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه: ﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ﴾ بالثاء، وهو يؤيد هذه القراءة، وأيضاً فيجاء قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ملائماً في الكلام للصدقة، وقرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم: ﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ﴾ بتخفيف الصاد، على معنى الذين صدّقوا رسول الله ﷺ فيما بلغ عن الله تعالى، وآمنوا به، ويؤيد هذه القراءة أنها أكثر تناولاً للأئمة لأن كثيراً ممن لا يتصدق تعمه اللفظة في التصديق، ثم إن تقييدها بقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ﴾ يرّد مقصد القراءتين بعضه من بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ معطوف على المعنى؛ لأن معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ﴾: إن الذين تصدّقوا، ولا يصح هنا عطف لفظي، قاله أبو علي في الحجة، وقد تقدّم معنى

«القرض» ومعنى «المضاعفة» التي وعد الله تعالى بها هذه الأئمة، وتقدّم معنى وصف الأجر بالكرم، كل ذلك في هذه السورة.

ويؤيد عندي قراءة من قرأ: ﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ﴾ بشد الصاد أن الله تعالى حضّ في هذه السورة على الإنفاق في سبيل الله، ثم ذكر في هذه الصدقة ووعدهم، ثم ذكر أهل الإيمان والتصديق في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، وعلى قراءة من قرأ: ﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ﴾

بتخفيف الصاد فذكر المؤمنين مكرراً في اللفظ، وكون الأصناف مفردة بأحكامها من الوعد أئين، والإيمان بمحمد ﷺ يقتضي الإيمان بجميع الرسل عليهم السلام، فلذلك قال تعالى: ﴿وَرُسُلِهِ﴾.

و «الْمُصْذِقُونَ» بناء مبالغة من الصدق، أو من التصديق على ما ذكر الزجاج: «وفعل لا يكون - فيما أحفظه - إلا من فعل ثلاثي، وقد أشار بعض الناس إلى أنه يجيء من غير الثلاثي، وقال: «مسبك» من «أمسك»، وأقول إنه يقال: مسك الرجل، وقد حكى: مسك الشيء، وفيه نظر.

قوله تعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، اختلف الناس في تأويل ذلك - فقال ابن مسعود، ومجاهد، وجماعة: «والشُّهَدَاءُ» معطوف على قوله

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْحَرِيرِ ﴿١٩﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَمَلٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَارَانَهُمْ يَبِيعُ قَدْرَهُ مُضْمَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَنَعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ إِنَّكُمْ أَنتُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَائِلُونَ ﴿٢٣﴾ لَا يُحِبُّ كُلُّ خُلُقٍ خَيْرٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ يَبْتَخُلُوتُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَكُونُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامِ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٥﴾

تعالى: ﴿الصَّادِقُونَ﴾ والكلام متصل، ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى هذا الاتصال - فقال بعضها: وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم صديقون وشهداء، فكل مؤمن شهيد، قاله مجاهد، وروى البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مؤمنو أمتي شهداء»، وتلا رسول الله ﷺ هذه الآية، وإنما خص رسول الله ﷺ ذكر الشهداء السبعة تشريفاً، ولأنهم في أعلى رتب الشهادة، ألا ترى أن المقتول في سبيل الله مخصوص أيضاً من السبعة بتشريف ينفرد به، وقال بعضها: وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم صديقون وشهداء لكن من معنى الشاهد لا من معنى الشهيد، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَكَلَّوْا شُهَدَاءَ عَلَى الْأَنْسَاءِ﴾، فكأنه تبارك

الغيث نبات مُعْجَبٌ أُنِيقَ، ثم هاج، أي: يَسِرُّ واصفر ثم تحطم ثم تفرق بالرياح واضْمَحَلَّ.

اختلف المتأولون في لفظة ﴿الْكُفَّارُ﴾ هنا - فقال بعض أهل التأويل: هو من الكفر بالله تعالى، وذلك أنهم أشد تعظيماً للدين، وأشد إعجاباً بمحاسنها، وقال آخرون منهم: هو من «كُفَّرَ الْحَبُّ» أي: سَتَرَهُ في الأرض، وهم الزُّراع، وخَصُّهُمْ بالذكر لأنهم أهل البصر بالنبات والفلاحة فلا يعجبهم إلاَّ المعجب حقيقة الذي لا عيب فيه، و«هَاجَ الزُّرْعُ» معناه: يَسِرُّ واصفَرَّ، و«حُطَّامٌ» بناءً مبالغة، يقال: حطيم وحُطَامٌ بمعنى محطوم أو محتطم، كعجيب وعُجَابٌ بمعنى معجب أو مُتَعَجِّبٌ منه.

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، كأنه تعالى قال: والحقيقة ما هنا... ثم ذكر العذاب أولاً تَهَمُّماً به من حيث الحذر في الإنسان ينبغي أن يكون أولاً، فإذا تحذَّر من المخاوف مدَّ حينئذ أمله، فذكر الله تعالى ما يَحْذَرُ قبل ما يطمع فيه وهو المغفرة والرَّضْوَانُ، وروي عن عاصم ضمُّ الراء من «وَرَضْوَانٍ».

و «مَتَاعُ الْغُرُورِ» معناه: الشيء الذي لا يُعْظَمُ الاستمتاع به إلاَّ مُغْتَرّاً، وقال عكرمة وغيره: متاع الغرور: القواريرُ، لأن الفساد والآفات تسرع إليها، فالدين كذلك أو هي أشد.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر تعالى المغفرة التي في الآخرة ندب في هذه الآية إلى

الكرامة عَقَّبَ تعالى بذكر الكفرة المكذبين ليبين الفرق، فذكرهم تعالى بأنهم أصحاب الجحيم وسُكَّانُهُ.

﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية وعظ وتبيين لأمر الدنيا وضعة منزلتها، و﴿أَنَّا﴾ سادة مسدِّ المفعولين للعلم لأنها لا تدخل على اثنين، وهي - وإن كُفَّت عن العمل - فالجملة بعدها نافية. و«الحياة الدنيا» في هذه الآية عبارة عن الأشغال والتصرفات والفكر التي هي مختصة بالحياة الدنيا، وأما ما كان من ذلك في طاعة الله تعالى وسبيله، وما كان من الضرورات التي تقيم الأود وتعين على الطاعات، فلا مدخل له في هذه الآية، وتأمل حالة الملوك بعد فقرهم بين لك أن جميع ترفهم لعب ولهو. و«الزينة» التحسين الذي هو خارج من ذات الشيء، و«التفاخر» هو بالأنساب والأموال وغيرها، و«التكاثر» هو الرغبة في الدنيا وعددها لتكون العِزَّة للكثير على المذهب الجاهلي.

ثم ضرب تعالى مثلاً للدنيا، فالكاف في قوله تعالى: ﴿كَثَلٌ﴾ في موضع رفع صفة لما تقدم، وصورة هذا المثل أن الإنسان ينشأ في حجر مملكة فما دون ذلك، فيشب ويقوى ويكسب المال والولد ويغشاه الناس، ثم يأخذ بعد ذلك في انحطاط فيشيخ ويضعف ويسقم وتصيبه النوائب في ماله وذريته ويموت ويضمحل أمره، وتصير أمواله لغيره وتتغير رسومه، فأمره مثل مطر أصاب أرضاً فنبت عن ذلك

وتعالى قال في هذه الآية: هم أهل الصدق والشهادة على الأمم عند ربهم، وقال ابن عباس، ومسروق، والضحاك: الكلام تام في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ ابتداء مستأنف، ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى الاستئناف - فقال بعضها: معنى الآية: والشهداء فإنهم صديقون حاضرون عند ربهم، وعنى بـ «الشَّهَادَةُ» الأنبياء عليهم السلام، فكان الأنبياء عليهم السلام يشهدون للمؤمنين بأنهم صديقون، وهذا يفسره قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، وقال بعضها: قوله تعالى: ﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ ابتداء يريد به الشهداء في سبيل الله، واستأنف الخبر عنهم بأنهم عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، فكانه تعالى جعلهم صنفاً مذكوراً، وحده، وفي الحديث: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْعُلْيَا يَرَاهُمْ مَنْ دُونَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ، وَإِنْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمَا وَأَنْعَمَا».

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ خبر عن الشهداء فقط على الأخير من الأقوال، وهو خبر عن المؤمنين المذكورين في أول الآية على الأقوال الثلاثة الأول، وقوله تعالى: ﴿وَنُورُهُمْ﴾ قال جمهور المفسرين هو حقيقة حسب ما روي مما تقدم ذكره في هذه السورة، وقال مجاهد وغيره: هو مجازي عبارة عن الهدى والكرامة والبشرى التي حصلوا فيها. ولما فرغ ذكر المؤمنين وأهل

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصُدُّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْلَهُمْ مَثَلًا لِّكَثِيرٍ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَادٍ وَثَمُودَ وَرُسُلًا وَفَقَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن شَاءَ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٧﴾

٥٤١

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما معناه: إنه أراد عُرْف المصيبة، وخصها بالذكر لأنها أهم على البشر، وهي بعض من الحوادث، فدل على أن جميع الحوادث خيرها وشرها كذلك، وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يعني بالقحوط والزلازل وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يريد: بالموت والأمراض وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ معناه: إلا والمصيبة في كتاب، و﴿ثُمَّ أَمَّا﴾: نخلقها،

يقال: برأ الله الخلق، أي: خلقهم، والضمير عائد على المصيبة، وقيل: على الأرض، وقيل: على الأنفس، قاله ابن عباس، وقتادة، وجماعة، وذكر المهدوي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر، وهي كلها معانٍ صحاح لأن الكتاب السابق أزلي قبل هذه كلها. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يريد تحصيل الأشياء كلها في كتاب.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ معناه: فعل الله تعالى هذا كله وأعلمكم به ليكون سبب تسليمكم وقلة اكتراثكم بأمر الدنيا، فلا تحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا الفرح المبطر بما آتاكم فيها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس أحد لا يحزن ويفرح، ولكن من أصابته مصيبة فجعلها صبراً ومن أصاب

المسارعة إليها والمسابقة، وهذه الآية حجة عند جميع العلماء في النذب إلى الطاعات، وقد استدل بها بعضهم على أن أول أوقات الصلوات أفضل لأنها تقتضي المسارعة والمسابقة، وذكر بعضهم في تفسير هذه الآية أشياء هي على جهة المثال، فقال قوم من العلماء، منهم ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ معناه: كونوا في أول صف في القتال، وقال آخرون - منهم أنس بن مالك رضي الله عنه -: اشهدوا تكبيرة الإحرام مع الإمام، وقال آخرون - منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه -: معناه: كن أول داخل في المسجد وآخر خارج منه، وهذا كله على جهة المثال.

وذكر تعالى العُرْض من الجنة إذ المعهود أنه أقل من الطول، وقال قوم من أهل المعاني: عبّر عن المساحة بالعُرْض، ولم يقصد أن طولها أكثر ولا أقل، وقد ورد في الحديث أن سقف الجنة العرش، وورد في الحديث أن السموات السبع في الكرسي كالدرهم في الفلاة، وأن الكرسي في العرش كالدرهم في الفلاة.

وقوله تعالى: ﴿أَعْيَتْ ظَاهِرُهَا﴾ مخلوقة الآن مُعَدَّة، ونص عليه الحسن في كتاب النقاش.

وقوله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ﴾ قال ابن زيد: المعنى: ما حدث من حادث خير أو شر، فهذا على معنى لفظ «أصاب» لا على عُرف المصيبة فإن عُرفها في الشر،

خيراً فجعله شكراً وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿مَّا أَتَاكُمْ﴾ على وزن فعل ماض، وهذا ملائم لقوله تعالى: ﴿فَاتَكُمْ﴾، وقرأ الباقون من السبعة: ﴿آتَاكُمْ﴾ على وزن «أعطاكم» بمعنى: آتاكم الله تعالى: وهي قراءة الحسن، والأعرج وأهل مكة، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿أَوْتَيْتُمْ﴾، وهي تؤيد قراءة الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَجِبُ كُلَّ خَيْرٍ﴾ يدل على أن الفرح المنهي عنه إنما هو ما أدى إلى الاختيال والفخر، وأما الفرح بنعم الله تعالى المقترن بالشكر والتواضع فأمر لا يستطيع أحد دفعه عن نفسه، ولا حرج فيه.

٢٦ - ٢٧ تفسير قوله عز وجل:

اختلف النحاة في إعراب

﴿الَّذِينَ﴾، فقال بعضهم: هو في موضع رفع على الابتداء والخبر عنهم محذوف معناه الوعيد والذم، وحذفه على جهة الإبهام نحو حذف الجواب في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية، وقال بعضهم: هو رفع على خبر الابتداء، تقديره: هم الذين يبخلون، وقال بعضهم: هو في موضع نصب بإضمار «أعني» أو نحوه، وقال بعضهم: هو في موضع نصب صفة لـ ﴿كُلٌّ﴾ لأن ﴿كُلٌّ﴾ وإن كان نكرة فهو تخصيص لنوع ما، يسوغ لذلك وصفه بالمعرفة، وهذا هو مذهب الأخفش. و﴿يَبْخُلُونَ﴾ معناه: بأموالهم وأفعالهم الحسنة من إيمانهم وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَا زُرَّارُ النَّاسُ بِالْبَخْلِ﴾ يحتمل أن يصفهم بحقيقة الأمر بالسنتهم، ويحتمل أن يريد أنهم يقتدى بهم في البخل فهم لذلك كأنهم يأمرهم، وقرأ الحسن: ﴿بِالْبَخْلِ﴾ بفتح الخاء والباء، وقرأ جمهور القراء وأهل العراق: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ بإثبات هـ، وكذلك في إمامهم، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ بترك هـ، وهي قراءة أهل المدينة، وكذلك في إمامهم، وهذا لم يثبت قراءة إلا وقد قرئ على النبي ﷺ، قال أبو علي: فهو في القراءة التي ثبت فيها يَحْسُنُ أن يكون فصلاً ولا يَحْسُنُ أن يكون ابتداءً؛ لأن حذف الابتداء غير سائغ.

و «الكتاب» اسم جنس لجميع

الكتب المنزلة، و«الميزان»: العدل في تأويل أكثر المتأولين، وقال ابن زيد وغيره من المتأولين: أراد الموازين المتصرفة بين الناس، وهذا خير من القول الأول، وقوله تعالى: ﴿يَقُومُ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ يقوي القول الأول.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾، عبر تعالى عن خلقه واتخاذها بالإنزال، كما قال تعالى في الثمانية الأزواج من الأنعام، وأيضاً فإن الأمر بِكُونَ الأشياء لما كان يُلقى من السماء جعل الكل نزولاً منها، وقال جمهور كثير من المفسرين: الحديد هنا أراد به جنسه من المعادن وغيرها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل آدم عليه السلام من الجنة ومعه السندان والكَلْبَتَانِ والمِيقَةُ. وقال حذاق من المفسرين: أراد به السلاح، ورتب معنى الآية: فإن الله تعالى أخبر أنه أرسل رسلاً، وأنزل كُتُباً وعدلاً مشروعاً، وسلاحاً، يحارب بها من عاند ولم يَهْدِ يَهْدِي الله، فلم يبق عُذْر، وفي الآية - على هذا التأويل - حِصٌّ على القتال وترغيب فيه، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَضُرُّهُ﴾ يقوي هذا التأويل، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ أي: لِيَعْلَمَهُ موجوداً، فالتغير ليس في علم الله تعالى، بل في هذا الحدث الذي خرج من العدم إلى الوجود، وقوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ معناه: ما سمع من الأوصاف الغائبة عنه فأسن بها لقيام دلالة عليها، ثم وصف تبارك وتعالى نفسه بالقوة والعزة ليبين أنه لا حاجة به إلى الثمرة

لكنها نافعة من عظم بها نفسه من الناس.

ثم ذكر تعالى رسالة نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام تشريفاً لهما بالذكر، ولأنهما من أول الرسل عليهم السلام، ثم ذكر تعالى نعمه على ذريتهما، وقوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ﴾ يعني الكتب الأربعة فإنها جميعاً في ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذكر تعالى أنهم مع ذلك منهم من فسق وعَدَّ، فكذلك - بل أخرى - جميع الناس ولذلك يشرع السلاح للقتال.

﴿٧٨﴾ - ﴿٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿فَقَيْنَا﴾ معناه: جئنا بهم بعد الأولين، وهو مأخوذ من القفا، أي جاء بالثاني في قفا الأول، فيجيء الأول بين يدي الثاني، ومنه القوافي التي تأتي في أواخر أبيات الشعر، ثم ذكر تعالى عيسى عليه السلام تشريفاً وتخصيصاً، وقرأ الحسن: ﴿الْأَنْجِيلِ﴾ بفتح الهمزة، قال أبو الفتح: هذا مثال لا نظير له، و﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَةً﴾ مفعولات ﴿جَعَلْنَا﴾، والجعل في هذه الآية بمعنى: الخلق، وقوله تعالى: ﴿ابْتَدَعُوا﴾ صفة لـ ﴿وَرَهَابَةً﴾، وخصها بأنها ابتدعت لأن الرأفة والرحمة في القلب لا كسب للإنسان فيهما، وأمّا الرهبانية فهي أفعال بَدَن مع شيء في القلب، ففيها موضع للكسب، قال قتادة: الرأفة والرحمة من الله تعالى، والرهبانية هم ابتدعوها، والمراد بالرأفة والرحمة حب بعضهم في بعض وتوادهم، والمراد بالرهبانية

رفض النساء واتخاذ الصوامع، والمعتزلة تعرب ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾ أنها نصب بإضمار فعل يفسره ﴿أَبْتَدَعُوهَا﴾، وليست بمعطوفة على الرأفة والرحمة، ويذهبون في ذلك إلى أن الإنسان يخلق أفعاله، فيعربون الآية على هذا، وكذلك أعربها أبو علي.

وروي في ابتداعهم الرهبانية أنهم افترقوا ثلاث فرق: ففرقة قاتلت الملوك على الدين فُعْلِبَتْ وقُتِلَتْ، وفرقة قعدت في المدن يدعون إلى الدين وَيُؤَيِّنُونَهُ، ولم تُقَاتَلْ، فأخذتها الملوك فنشرت بالمشايير، وقُتِلُوا، وفرقة خرجت إلى الفيافي وبنّت الصوامع والديارات، وطلبت أن تسلم قبل أن تعتزل فتركت وذاك، وَتَسَمَّوْا بالرهبان، واسمهم مأخوذ من الرهب وهو الخوف، وهذا هو ابتداعهم، ولم يعرض الله تعالى ذلك عليهم لكنهم فعلوا ذلك ابتغاء رضوان الله، هذا تأويل أبي أمامة وجماعة، وقال مجاهد: المعنى: كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، فـ «كُتِبَ» - على هذا - بمعنى؛ قَضِيَ، ويحتمل اللفظ أن يكون المعنى: ما كتبنا عليهم إلا في عموم المندوبات؛ لأن ابتغاء رضوان الله تعالى بالقرب والنوافل مكتوب على كل أمة، فلا استثناء - على هذا الاحتمال - مُتَّصِلٌ.

واختلف الناس في الضمير الذي في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾، من المراد به؟ فقيل: إن الذين ابتدعوا الرهبانية لأنفسهم لم يدوموا على ذلك ولا وقَّروا

حقه، بل غيَّروا وبدَّلُوا، قاله ابن زيد وغيره، والكلام سائغ وإن كان فيهم مَنْ رَعَى، أي: لم يرعوها بأجمعهم، وفي هذا التأويل لزوم الإتمام لكل من بدأ بِتَقْلٍ وتَطَوُّعٍ، وأنه يلزمه أن يرعاه حقَّ رعاية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الضمير للملوك الذين حاربوهم وأجلوهم، وقال الضحاك وغيره: الضمير للأخلاف الذين جاءوا بعد المبتدعين لها، وباقي الآية بَيِّنٌ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿كُتِبَتْهَا عَلَيْهِمْ لَكِنْ أَبْتَدَعُوهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآيَاتِهِ رَسُولَهُ﴾، اختلف الناس، من المخاطب بهذا؟ فقالت فرقة من المتأولين: خوطب بها أهل الكتاب، فالمعنى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بَعِيسَى اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِمُحَمَّدٍ، ويؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «ثلاثة يؤتيهم الله أجورهم مرتين، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي» الحديث، وقال آخرون: المخاطبة للمؤمنين من أمة محمد ﷺ، قيل لهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ، أي: اثبتوا على ذلك ودوموا عليه، وهذا هو معنى الأمر أبداً لمن هو متلبس بما يؤمر به.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كُفْلَيْنِ﴾ أي: نصيبين بالإضافة إلى ما كان الأمم قبل يعطونه، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «كُفْلَيْنِ»: ضعفين بلسان الحبشة، وروي أن

عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال لبعض الأخبار: كم كان التضعيف للحسنات فيكم؟ فقال: ثلاثمائة وخمسون، فقال عمر رضي الله عنه: الحمد لله الذي ضاعف لنا إلى سبعمائة، ويؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح الذي يقتضي أن اليهود عملت إلى نصف النهار على قيراط، والنصارى من الظهر إلى العصر على قيراط، وهذه الأمة من العصر إلى الليل على قيراطين، فلما احتجت اليهود والنصارى عن ذلك وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل أجراً، قال تعالى: هل نقصتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإنه فضلي أوتيه من أشياء. و«الكُفْلُ»: الحظ والنصيب. و«الثور» هنا إما أن يكون وعداً بالثور الذي يسعى بين الأيدي يوم القيامة، وإما أن يكون استعارة للهدى الذي يُنْشَى به في طاعة الله تعالى.

﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي أنه لما نزل هذا الوعد للمؤمنين حسد أهل الكتاب على ذلك، وكانت اليهود تعظم دينها وأنفسها، وتزعم أنها أحباء الله وأهل رضوانه، فنزلت هذه الآية معلمة أن الله تعالى فعل ذلك وأعلم به ليعلم أهل الكتاب أنهم ليسوا كما يزعمون، ولأنه في قوله تعالى: ﴿يَتَلَا﴾ زائدة، كما هي في قوله تعالى: ﴿وَحَكَّمُ عَلَى قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ على بعض

وقرأ ابن مُحَيِّن: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ بالإدغام، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿قَدْ يَسْمَعُ الله﴾، وفيها: ﴿والله قد يَسْمَعُ تحاوركمَا﴾. واختلف الناس في اسم التي تجادل - فقال قتادة: هي خَوْلَة بنت ثعلبة، وقيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: هي بنتُ حكيم، وقال بعض الرواة، وأبو العالية: هي خَوْلَة بنت دليج، وقال المهدي: وقيل: خولة بنت دليج، وقالت عائشة رضي الله عنها: هي جميلة، وقال ابن إسحق: هي خولة بنت الصامت، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيها: خَوْلَة بنتُ خُوَيْلِد، وقال محمد بن كعب القُرظي، ومنذر بن سعيد: هي خولة بنت ثعلبة.

قال ابن سلام: ﴿جَدُولٌ﴾: تقاتل في القول، وأصل «الجدل»: القتال. وأكثر الرواة على أن الزوج في هذه الآية أَوْسُ بن الصامت الأنصاري، أخو عبادة بن الصامت، وحكى النقاش - وهو في المصنفات - حديثاً عن سلمة بن صخر البياضي أنه ظاهر من امرأته إن واقعها مدة شهر رمضان، فواقعها ليلة، فسأل قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ فأبوا وهابوا ذلك، وعظموا عليه جريرته، فذهب هو إلى رسول الله ﷺ بنفسه فسأله واسترشد، فنزلت الآية وقال له رسول الله ﷺ: «أتعتق رقبة؟» فقال: والله ما أملك غير رقبتي، فقال: «أنصوم شهرين متتابعين؟» فقال: يا رسول الله وهل أتيتُ إلا في الصوم؟ فقال: «أنطعم ستين

الواحدة ياء، وقرأ الحسن - فيما روى مطرف -: ﴿لَيْلًا﴾ بكسر اللام الأولى وسكون الياء، وتعليلها كالتي تقدمت.

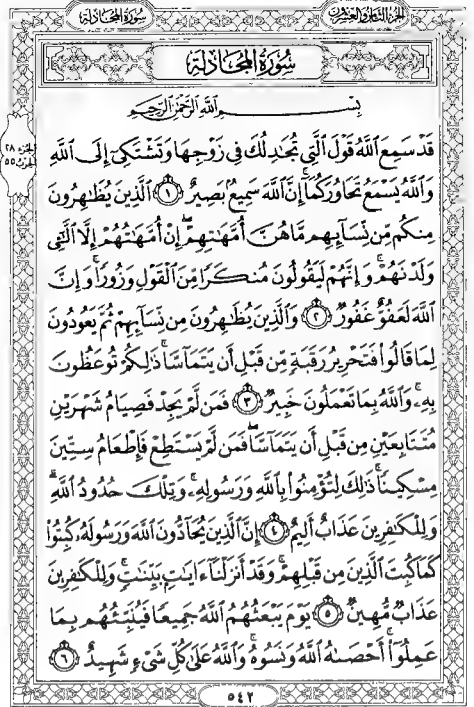
وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾ معناه أنهم لا يملكون فضل الله تبارك وتعالى، ولا يدخل تحت قدرتهم، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿أَلَا يَقْدِرُوا﴾ بغير نون، وباقي الآية يَبَيِّنُ.

كمل تفسير سورة الحديد والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية بإجماع، إلا أن النقاش حكى أن قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ الآية مكية، وروى أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قرأ سورة المجادلة كُتِبَ من حزب الله».

﴿سَمِعَ﴾ بفتح السين - تفسير قوله عز وجل: ﴿سَمِعَ اللَّهُ﴾ عبارة عن إدراك المسموعات على ما هي عليه بأكمل وجوه ذلك دون جارحة ولا تكييف ولا تحديد، تعالى الله عن ذلك، وقرأ الجمهور: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ بالبيان،



التأويلات، وقرأ ابن عباس، والجحدري: ﴿لَيْسَ لَمْ﴾ وروى إبراهيم التيمي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كُنِيَ يَغْلَمُ﴾ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَكَيْلًا يَغْلَمُ﴾، وروي عن جطان الرقاشي أنه قرأ: ﴿لَأَنْ يَغْلَمُ﴾، وقرأ ابن مسعود، وابن جبير، وعكرمة: ﴿لَكَيْنِ يَغْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، وقرأ الحسن - فيما روى ابن مجاهد -: ﴿لَيْلًا يَغْلَمُ﴾ بفتح اللام الأولى وسكون الياء، فأما فتح اللام فلغة في لام الجر مشهورة، وأصل هذه القراءة: ﴿لَأَنْ لَا﴾، استغنى عن الهمزة بلام الجر فحذفت فجاء «لَنْ لَا»، فأدغمت النون في اللام للتشابه فجاء «لَلَّاءُ»، فاجتمعت أمثلة فقلبت اللام

مسكيناً؟ فقال: لا أجد، فأعطاه رسول الله ﷺ صدقات قومه فكفر بها، فرجع سلمة إلى قومه فقال: إني وجدت عندكم الشدة والغلبة، ووجدت عند رسول الله ﷺ الرخصة والرفق، وقد أعطاني صدقاتكم.

وأما ما رواه الجمهور في شأن أوس بن الصامت فاختمه أن أوساً ظاهر من امرأته خولة بنت خُزَيْلد، وكان الظاهر في الجاهلية يوجب عندهم فُرْقَةً مُؤَبَّدَةً، قاله أبو قلابة وغيره، فلما فعل ذلك جاءت زوجته رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أوساً أكل شبابي، ونثرت له بطني، فلما كبرث ومات أهلي ظاهر مني، فقال رسول الله ﷺ: «ما أراك إلا حرمت عليه»، فقالت: يا رسول الله لا تفعل؛ فإنني وحيدة ليس لي أهل سواه، فراجعها رسول الله بمثل مقالاته، فراجعته، فهذا هو مجادلتها، وكانت في خلال جدالها تقول: اللّهُمَّ إيلك أشكو حالي وانفرادي وفقرتي إليه، وروي أنها كانت تقول: اللّهُمَّ إن لي منه صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، فهذا هو اشتكاؤها إلى الله، فنزل الوحي - عند جدالها - على رسول الله ﷺ بهذه الآية، وكانت عائشة رضي الله عنها حاضرة لهذه القصة كلها، فكانت تقول: سبحان مَنْ وَسِعَ سَمْعُهُ الأصوات، لقد كنت حاضرة لهذه القصة كلها، وكان بعض كلام خولة يخفى علي،

وسمع الله تعالى جدالها، فبعث رسول الله ﷺ في أوس وقال له: «أتعتق رقية؟» فقال: والله ما أملكها، فقال: «أتصوم شهرين متتابعين؟» فقال: والله ما أقدر أن أصبر إلا على أكالات ثلاث في اليوم، ومتى لم أفعل ذلك غشي بصري، فقال له: «أنتطعم؟» فقال: لا أجد إلا أن يُعينني رسول الله بمعونة وصلاة - يريد الدعاء - فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً، ودعاً له، وقيل: بثلاثين صاعاً، فكفر بالإطعام وأمسك أهله.

وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «تَحَاوَرَكُ فِي زَوْجِهَا»، والمحاورَةُ: مراجعة القول ومعاطاته، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «يَنْظَهُرُونَ» بالتشديد، وقرأ أبي بن كعب - بخلاف عنه -: «يَنْظَهُرُونَ»، وقرأ عامر، وحزمة، والكسائي: «يَنْظَاهِرُونَ»، وقرأ أبي بن كعب أيضاً: «يَنْظَاهِرُونَ»، وقرأ عاصم، وأبو جعفر، والحسن، وقتادة: «يَنْظَاهِرُونَ» بضم الياء من قولك «فَاعَلَّ»، وهذه مستعملة جداً، وقولهم: «الظَّهَارُ» دليلٌ عليها، والمراد بهذا كله قول الرجل لامرأته: أنت عليّ كَظْهَرِ أُمِّي، يريد: في التحريم، كأنها إشارة إلى الركوب إذ عُرِفَ في ظهور الحيوان، وكان أهل الجاهلية يقولون ذلك، فردَّ الله تعالى بهذه الآية على فعلهم، وأخبر بالحقيقة من أن الأم هي الوالدة، وأما الزوجة فلا يكون حكمها حكم الأم. وقرأ جمهور الناس: «أُمّهَاتِهِمْ» بنصب

الأُمّهات، وقرأ عاصم - في رواية المفضل عنه -: «أُمّهَاتِهِمْ» بالرفع، وهذا على اللغتين في [مَا]، لغة أهل الحجاز ولغة تميم، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «مَا هُنَّ بِأُمّهَاتِهِمْ» بزيادة باء الجرّ، وجعل الله تعالى القول بالظهار مُنْكَراً وزوراً، فهو مُحَرَّمٌ لكنه إذا وقع لزم، هكذا قال به أهل العلم، لكن تحريمه تحريم المكروهات جداً، وقد رَجَّى الله بعده بأنه عَفُوٌّ غَفُورٌ مع الكفارة.

③ - ④ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في معنى قوله تعالى: «ثُمَّ يَؤُودُونَ لِمَا قَالُوا» - فقال قوم: المعنى: والذين يظهرون من نسايتهم في الجاهلية، كأنه تعالى قال: والذين كان الظهار عادتهم ثم يعودون إلى ذلك في الإسلام، وقاله القتيبي، وقال أهل الظاهر: المعنى: والذين يظهرون ثم يظهرون ثانية، فلا تلزم عندهم كفارة إلا بأن يعيد الرجل التظاهر، قال منذر بن سعيد: حينئذ هو عائد إلى القول الذي هو منكر وزور، وهذا قول ضعيف وإن كان القشيري قد حكاه عن بكير بن عبدالله بن الأشج، وقال بعض الناس: في هذه الآية تقديم وتأخير، وتقديرها: «فتحريم رقية لما قالوا»، وهذا أيضاً قولٌ يُفْسِدُ نَظْمَ الآية، وحكي عن الأخفش لكنه غير قوي، وقال قتادة، وطاوس، ومالك، والزهري، وجماعة كبيرة من أهل العلم معنى: «ثُمَّ يَؤُودُونَ لِمَا قَالُوا» أي: بالوطء، المعنى: ثم يعودون لما قالوا إنهم لا يعودون إليه، فإذا ظاهر الرجل ثم وَطِئَ فحينئذ تلزمه

﴿مَنْ قَتَلَ أَنْ يَمَاسًا﴾ -

فقال الحسن، والثوري،
وجماعة: من قتل الوطء،
وجعلت المسيس ها هنا:
الوطء، فأباح للمظاهر
التقبيل والمضاجعة
والاستمتاع بأعلى المرأة
كالحيض، وقال الجمهور
من أهل العلم: ﴿مَنْ قَتَلَ
أَنْ يَمَاسًا﴾ عام في نوعي
المسيس: الوطء
والمباشرة، فلا يجوز
لمظاهر أن يطأ ولا يقبل
ولا يلمس بيده ولا يفعل
شيئاً من هذا النوع إلا بعد
الكفارة، وهذا قول مالك
رحمه الله، وقوله تعالى:

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى «التحرير»، أي:
فعل ذلك عظة لكم لتنتهوا عن
الظهار.

و «المتتابع» في الشهرين صياهما،
ولا يفرق بين أيامهما، وجائز أن
يصومهما الرجل بالعدد فيصوم ستين
يوماً تبعاً، وجائز أن يصومهما
بالأهلة، يبدأ مع الهلال ويفطر مع
الهلال، فإن جاء أحد شهره ناقصاً
فذلك يجزئ عنه، وجائز أن يبدأ
صومه في وسط شهرين ببعض الشهر
الأول فيصوم إلى الهلال، ثم يصوم
شهرًا بالهلال، ثم يتم الشهر الأول
بالعدد، ولا أحفظ خلافاً من أهل
العلم أن الصائم في الظهار إن أسد
التتابع باختياره أنه يبدأ صومهما،
واختلف الناس إذا أسده لعذر غالب
كالمرض والنسيان ونحوه - فقال
أصحاب الرأي، والشافعي في أحد

الْمَ تَرَأَى اللَّهُ يَمَاسًا فِي السَّنَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ
مِنْ جَنَاحٍ فَلَنَسْأَلَهُ أَأَهْوَأَ بَعْضُهُمْ وَأَلْهَوَسَ إِلَّا هُوَ سَادُّهُمْ
وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَنْ مَا كَانُوا أَنْ يَمَاسَهُمْ
يَمَاسُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٥﴾ الْمَ تَرَأَى الَّذِينَ
هُوَ أَعْيَنَ النَّجْوَى ثُمَّ يَمُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَيَنْتَجِرُونَ بِالْأَنفُسِ
وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذْ جَاءُوكَ خِيَرَكَ بِمَا لَوْ كُنْتَ
بِهِ اللَّهُ يَعْلَمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِمَا تَقُولُ حَسْبُهُمْ
جَهَنَّمُ صَلَوَاتُ أَبِيكَ الْمَصِيرِ ﴿٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَسْجُدُوا لِلْأَنفُسِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّيْتُمْ
بِالْبَرِّ وَالنَّوْفَى وَأَنْتُمْ اللَّهُ الَّذِينَ الْيَوْمَ تُخْشَوْنَ ﴿٧﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى
مِنَ الشَّاطِطِينَ لِيُخْرِكَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئاً
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسْجُدُوا لِلْمَاجِلِينَ فَاتَّسَعُوا فَيَسْجُدُوا
لِلَّهِ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَانْشُرُوا وَاتَّعَزَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٩﴾

٥٢٣

الكفارة في ذمته وإن طلق أو ماتت
امرأته، وقال الشافعي، وأبو حنيفة،
ومالك أيضاً، وفريق من أهل العلم:
﴿يَمُودُونَ﴾ معناه: بالعزم على إمساك
الزوجة وَوَطَّيْهَا والتزام التكفير
لذلك، فمتى وقع من المظاهر هذا
العزم فقد لزمت الكفارة ذمته، طلق
أو ماتت امرأته، وهذان القولان في
مذهب مالك، وهما حسنان، لزمت
الكفارة فيهما بشرطين: ظهارٌ وَعَوْدٌ
واختلف في «العود»، ما هو؟ فقال
الشافعي: العود الموجب للكفارة أن
يمسك عن طلاقها بغير الظهار،
وبمضي - بعد الظهار - ما يمكنه أن
يطلق فيه فلا يطلق.

و «الرَّغْبَةُ» في الظهار لا تكون عند
مالك إلا مؤمنة، ردُّ هذا المطلق إلى
المُقَيَّد الذي في كفارة القتل الخطأ.
واختلف الناس في قوله تعالى:

قوله، والشافعي، وابن جبير،
والحكم بن عُيينة، والثوري:
يبتدئ، وقال مالك، والشافعي،
وغیره: يَبْنِي، وأجمعوا على
الحائض أنها تبني في صومها
المتتابع.

وإطعام المساكين في الظهار هو
بالمُدِّ الهاشمي عند مالك، وهو مُدٌّ
وثلاث بمُدِّ النبي ﷺ، وقيل: مُدَّان
غير ثلث، وروى ابن وهب أنه يطعم
مُدَّين بمُدِّ النبي ﷺ، وفي العلماء
من يرى إطعام الظهار مُدّاً بمُدِّ
النبي ﷺ، ولا يجزئ في إطعام
الظهار إلا إكمال عدد المساكين، ولا
يجزئ أن يطعم ثلاثين مرّتين ولا ما
أشبهه، والطعام هو غالب قوت
البلد. وقال مالك، وعطاء، وغيره:
إطعام المساكين أيضاً هو قبل الثمّاس
خَمَلًا على العتق والصوم، وقال أبو
حنيفة، وجمهور من أهل العلم: لم
يُخَصَّ الله تعالى على الشرط هنا
فنحن لا نلزمه، وللمظاهر إذا كان
من أهل الإطعام أن يطأ قبل الكفارة
ويستمتع.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا﴾ إشارة
إلى الرخصة والتسهيل في النقل من
التحرير إلى الصوم والإطعام، ثم
شدّد تعالى بقوله: ﴿يَلْكَ حُدُودُ
اللَّهِ﴾، أي: فالتزموها وقفوا عندها،
ثم توعّد الكافرين بهذا الحديث
والحكم الشرعي.

٥ - ٧ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية نزلت في المنافقين وقوم
من اليهود كانوا في المدينة يَتَمَرَّسُونَ
برسول الله ﷺ، ويتربصون بهم
الدوائر، ويدبرون عليهم، ويتمنون

فيهم المكروه، ويتناجون بذلك، فنزلت هذه الآيات إلى آخر أمر النجوى فيهم.

و «المُحَادَّةُ»: أن يعطي الإنسان صاحبه حدّ قوله أو سلاحه وسائر أفعاله، وقال قوم: هي أن يكون الإنسان في حدّ وصاحبه في حدّ مخالف. و «كُتِبَ الرجلُ» إذا بقي حزنان يبصر ما يكره ولا يقدر على دفعه، وقال قوم - منهم أبو عبيدة -: أضله: كُبدوا، أي: أصابهم داء في أكبادهم، فأبدلت الدال تاء، وهذا غير قوي. و «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» هم منافقو الأمم الماضية الذين حادوا الرسل عليهم الصلاة والسلام قديماً، وقوله تعالى: «وَقَدْ أَرْسَلْنَا عَائِثَ بْنَنْتِ» يريد: في هذا القرآن، فليس هؤلاء المنافقون بأعذر من المتقدمين.

وقوله تعالى: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ»، العامل في «يَوْمَ» «يَوْمَ»، ويحتمل أن يكون فعلاً مضمراً تقديره: اذكر، وقوله تعالى: «وَتَوَّأَ» نسياناً على بابه؛ لأن الكافر لا يحفظ تفاصيل أعماله، ولما أخبر تعالى أنه على كل شيء شهيد وَقَفَ محمداً ﷺ توقيفاً تشاركه فيه أمته.

وقوله تعالى: «مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ»، يحتمل «نَجْوَى» أن يكون مصدرًا مضافاً إلى «ثَلَاثَةٍ»، كأنه تعالى قال: من سِرار ثلاثة، ويحتمل «نَجْوَى» أن يكون المراد به جمعاً من الناس سُمِّيَ بالمصدر، كما قال تعالى في آية أخرى: «وَإِذْ تُمْ نَجْوَى»، أي: أَلُّوا نجوى، فيكون قوله

تعالى: «ثَلَاثَةٍ» - على هذا - بدلاً من «نَجْوَى» أو صفة، وفي هذا نظر، وقوله تعالى: «إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ» أي: يعلمهم وإحاطته ومقدرته، وقرأ جمهور الناس: «مَا يَكُونُ»، وقرأ أبو جعفر القارىء، وأبو خيثرة: «مَا تَكُونُ» بالياء منقوطة من فوق، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «وَلَا أَرْبَعَةَ إِلَّا اللَّهُ خَامِسَهُمْ»، وكذلك: «إِلَّا اللَّهُ رَابِعُهُمْ» و «إِلَّا اللَّهُ سَادِسُهُمْ»، وقرأ جمهور القراء: «وَلَا أَكْثَرَ» عطفاً على اللفظ المخفوض، وقرأ الحسن، والأعمش، وابن أبي إسحق: «وَلَا أَكْثَرُ» بالرفع عطفاً على الموضع؛ لأن التقدير: ما يكون نجوى، ومن جعل النجوى مصدراً محضاً قدر قبل «أَذْكُرُ» فعلاً تقديره: ولا يكون أدنى، وقرأ الخليل بن أحمد: «وَلَا أَكْثَرُ» بالياء بواحدة من تحت، وباقى الآية بَيِّنْ.

﴿٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية نزلت في قوم من اليهود نهاهم رسول الله ﷺ عن التناجي بحضرة المؤمنين وإظهار ما يُستراب به من ذلك فلم ينتهوا فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد وقادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في اليهود والمنافقين، وقرأ جمهور القراء: «وَيَنْتَجِرُونَ» على وزن «يَنْتَفِعِلُونَ»، وقرأ حمزة، والأعمش، وطلحة، وابن وثاب: «وَيَنْتَجِرُونَ» على وزن «يفتعلون»، وهما بمعنى واحد أبداً كَيَقْتَتِلُونَ ويتقاتلون، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: «وِعِضَيَانِ الرَّسُولِ».

وقوله تعالى: «وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْوَةٌ» الآية، يريد بذلك ما كانت اليهود تفعله من قولهم في التحية: السَّام عليك يا محمد، وذلك أنه زوي أن اليهود كانت تأتي فتقول: السَّام عليك يا محمد - والسَّام: الموت، وإيَّاه كانوا يسريدون - فكان رسول الله ﷺ يقول: «وعليكم»، فسمعتهم عائشة رضي الله تعالى عنها يوماً فقالت: بل عليكم السَّام واللعة، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، إن الله يكره الفُحْش والتُّفْحُش»، قالت: أما سمعت ما قالوا؟ قال: «أما سمعت ما قلتُ لهم؟ إني قلتُ: وعليكم».

ثم كشف الله تعالى حُبْ طويَّتهم والحُجَّة التي إليها يستريحون، وذلك أنهم كانوا يقولون: نحن الآن نلقى محمداً بهذه الأمور التي تسوؤه ولا يُصيبنا سوء، ولا يُعاقبنا الله تعالى بذلك، ولو كان نبياً لهلكنا بهذه الأقوال، وجعلوا أن أمرهم مؤخر إلى عذاب جهنم، فأخبر الله تعالى بذلك، وأنها كافيَّتْهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآية كلها في منافقين، ويُشبه أن يكون في المنافقين من تخلَّق بخلُق اليهود.

﴿٩﴾ - ﴿١٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

وَصَّى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالألَّا يكون منهم تناج في مكروه، وذلك عام في جميع الناس إلى يوم القيامة، وخصَّ تبارك وتعالى «الإِثْمَ» بالذكر لعمومه، و«الْعُدْوَانُ» لعظمته في نفسه؛ إذا هي

كقولك: «كَحَلَّتْ الْعَيْنُ»، وهو ضرب من التعدي كَأَنَّ المفعول ظرف، وقد ذكر سيبويه رحمه الله تعالى هذا المعنى من تَعَدَّى الأفعال، وقرأ بعض الناس: «لِيُخْزَنَ» بفتح الياء والزاي، و«الَّذِينَ» على هذه القراءة رفع بإسناد الفعل إليهم، يقال: خَزَنَ الرجل بكسر الزاي.

ثم أخبر تعالى أَنَّ الشيطان والتناجي الذي هو منه ليس بضارٍّ أحدًا إِلَّا أَنْ يكون ضرًّا بِإِذْنِ اللَّهِ، أي: بأمره وقدره، ثم أمر تعالى بتوكل المؤمنين عليه تبارك وتعالى، وهذا كله يُقَوِّي أَنَّ التناجي الذي من الشيطان إنما هو الذي وقع للمؤمنين منه خوف، وللخوف اللاحق للقلوب في هذا قال رسول الله ﷺ: «لَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ وَاحِدٍ».

(١١) - (١٢) تفسير قوله عز وجل: «وَقَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ: «نَسْخُوا»، وقرأ الحسن، وداود بن أبي هند: «نَفَسَخُوا»، وقرأ جمهور القراء: «فِي الْمَخْلِيسِ»، وقرأ عاصم وحده، وقتادة، وعيسى: «فِي الْمَجْلِسِ».

واختلف الناس في سبب الآية والمقصود بها - فقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد: نزلت في مقاعد الحرب والقتال، وقال زيد بن أسلم، وقتادة: نزلت بسبب تضايق الناس في مجلس النبي ﷺ، وذلك أنهم كانوا يتنافسون في القرب منه وسماع كلامه والنظر إليه، فيأتي الرجل الذي له الحق والسُّنُّ والقدم في الإسلام فلا يجد مكاناً، فنزلت الآية بسبب ذلك، وقال مقاتل: أقام

﴿إِنَّمَا﴾ للحصر ولكنها لتأكيد الخبر، واختلف الناس في النجوى التي هي من الشيطان التي أخبر عنها في هذه الآية - فقال جماعة من المفسرين: أراد: إنما النجوى في الإثم والعدوان ومعصية الرُّسُول من الشيطان، وقال قتادة وغيره: الإشارة إلى نجوى المنافقين واليهود، وقال عبدالله بن زيد بن أسلم: الإشارة إلى نجوى قوم من المسلمين كانوا يقصدون مناجاة رسول الله ﷺ وليس لهم

حاجة ولا ضرورة إلى ذلك، وإنما كانوا يريدون التَّنَجُّج بذلك، وكان المسلمون يظنون أن تلك النجوى في إخبار بَعْدُو قاصِدٍ ونحوه، وهذا القولان يَعْضُدُّهُمَا ما يأتي من ألفاظ الآية، ولا يُعَضِّدُ القول الأول. وقال عطية العوفي في هذه الآية: نزلت في المناجاة التي يراها المؤمن فتسوؤه، وفيما يراه النائم فكأنه نجوى يناجي بها، وهذا قول أجنبى من المعنى الذي قبله والذي بعده.

وقرأ نافع وأهل المدينة: «لِيُخْزَنَ» بضم الياء وكسر الزاي، والفعل منسوب إلى الشيطان، وقرأ أبو عمرو، والحسن، وعاصم، وغيرهم: «لِيُخْزَنَ» بفتح الياء وضم الزاي، تقول: «خَزَنْتُ قَلْبَ الرَّجُلِ» إذا جعلت فيه حزناً، فهو

يَكُنُّهُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدْ مَوَّاهُ بَيْنَ يَدَيْ يَحْزَنُ كَرُّ صَدَقَةٍ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْعَمُوا لَمْ يَحْزَنُوا وَإِنَّمَا اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ أَمْ نَقُتُّمْ أَنْ نَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ يَحْزَنُ كَرُّ صَدَقَةٍ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقْبِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ أَلَمْ نُرِ الْإِنْسَانَ لَوْلَا أَوَّلُهُمْ عَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا يَتَنَبَّهُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٥﴾ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَزْوَاجُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْشُرُونَ لَهُ كَمَا يَحْشُرُونَ لَكُمْ وَيَحْشُرُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا إِنَّمَا هُمْ الْكَافِرُونَ ﴿١٧﴾ اسْتَوْدَعَهُمْ الشَّيْطَانُ فَأَسْهَمَهُمْ فِي كَيْدِ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ إِنَّا هِزْبٌ لِّلْقَلِيلِ مِنَ السَّامِعِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّا الَّذِينَ يَحْدُثُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَأُولَئِكَ فِي الْأَذْكَانِ ﴿١٩﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٠﴾

ظَلَامَاتِ الْعِبَاد، وكذلك «معصية الرسول» ذكرها طعنًا على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك.

وقرأ جمهور الناس: «فَلَا تَنْتَجَوْا» على وزن «تَنَفَّاعِلُوا»، وقرأ ابن محيىصن: «فَلَا تَتَنَاجَوْا» بحذف التاء الواحدة، وقرأ بعض القراء: «فَلَا تَتَنَاجَوْا» بتشديد التاء لأنها أدغمت في التاء، وقرأ الأعمش وأهل الكوفة: «فَلَا تَتَنَجَّجُوا» على وزن «تَفْتَعِلُوا»، والناس على ضم العين من «الْمُتَنَوِّجَاتِ»، وقرأها أبو حيوة بكسر العين حيث وقع. وقرأ الضحاك وغيره: «وَمَغْصِيَّاتِ الرُّسُلِ» على الجمع فيهما.

ثم أمر تعالى بالتناجي في البرِّ والتقوى، وذكر بالحشر الذي معه الحساب ودخول إحدى الدارين.

قوله تعالى: «إِنَّمَا النَّجْوَى»، ليست

واختلف الناس في ترتيب قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ دَرَجَاتٍ﴾ - فقال جماعة من المتأولين: المعنى: يرفع الله المؤمنين العلماء منكم درجات، فلذلك أمر بالتفسيح من أجلهم، ويجيء - على هذا - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بمنزلة قولك: جاءني العاقل والكريم والشجاع، وأنت تريد رجلاً واحداً. وقال آخرون: المعنى: يرفع الله المؤمنين والعلماء، الصنفين جميعاً درجات، لكننا نعلم تفاضلهم في الدرجات من مواضع آخر، ولذلك جاء الأمر بالتفسيح عاماً للعلماء وغيرهم. وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وغيره: المعنى: «يرفع الله الذين آمنوا منكم»، وتم القول، ثم ابتداء بتخصيص العلماء بالدرجات، ونصبهم بإضمار فعل، فالمؤمنون رفع على هذا التأويل، وللعلماء درجات، وعلى هذا التأويل قال مطرف ابن عبدالله بن الشخير: «فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع»، ثم توعد تعالى وحذر بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يُنَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَزَّيْتُمْ أَسْرُؤَلْ﴾ الآية، روي عن ابن عباس، وقادة في سببها أن قوماً من شباب المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي ﷺ في غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم، وكان رسول الله ﷺ سمحاً لا يرد أحداً، فنزلت هذه الآية مشددة عليهم في أمر المناجاة، وقال مقاتل: نزلت في الأغنياء لأنهم

يتمثل له الرجال قياماً فليَتَبَوَّأَ مقعده من النار، وقوله تعالى: ﴿يَسْجُدْ لَكُمْ﴾ معناه: في رحمته وجنته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ اسْجُدُوا فَاسْجُدُوا﴾ معناه: إذا قيل لكم ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك، ومنه نشوز العظام، أي نباتها، والنشز من الأرض: المرتفع، واختلف الناس في هذا النشوز الذي أمروا بامتثاله، ما هو؟ فقال الحسن، والضحاك، وقادة: معناه: إذا دُعوا إلى قتال أو طاعة أو صلاة ونحوه، وقال آخرون: إذا دُعوا إلى القيام عن النبي ﷺ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام أحياناً كان يُحب الانفراد في أمر الإسلام، فربما جلس قوم وأراد كل أحد أن يكون آخر الناس عهداً بالنبي ﷺ، فنزلت الآية أمراً بالقيام عنه متى فهم ذلك بقول أو فعل، وقال آخرون: معناه: انشزوا في المجلس بمعنى التفسيح؛ لأن الذي يريد التوسع يرتفع إلى فوق في الهواء، فإذا فعل ذلك جملة اتسع الموضع، فيجيء ﴿اسْجُدُوا﴾ في غرض واحد مع قوله تعالى: ﴿تَسْجُدُوا﴾، وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿اسْجُرُوا﴾ برفع الشين، وهي قراءة أبي جعفر، وشيبة، والأعرج. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: ﴿اسْجُرُوا﴾ بكسر الشين فيها، وهي قراءة الحسن، والأعمش، وطلحة، يقال: نَشَرَ يَنْشُرُ كَحَشَرَ يَحْشُرُ وَيَخْشِرُ وَعَكَفَ يَغْكَفُ وَيَغْكِفُ، وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ﴾ جواب الأمر.

رسول الله ﷺ قوماً ليجلس أشياخ من أهل بدر ونحو ذلك، فنزلت الآية، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يقيم أحد من مجلسه ثم يجلس فيه الرجل، ولكن تفسيحوا يفسح الله لكم»، وقال بعض الناس: إنما الآية مخصوصة في مجلس النبي ﷺ وليس في سائر المجالس، ويدل على ذلك قراءة من قرأ: ﴿فِي الْمَجْلِسِ﴾، ومن قرأ: ﴿فِي الْمَجْلِسِ﴾، فذلك مراد أيضاً لأن لكل أحد مجلساً في بيت النبي ﷺ وموضعه، فجمع لذلك، وقال الجمهور من أهل العلم: السبب مجلس النبي ﷺ والحكم مطرد في سائر المجالس التي هي للطاعات، ومنه قول النبي ﷺ: «أحبكم إلى الله أَلْيَنُكُمْ مَنَاكِبَ فِي الصَّلَاةِ وَرُكْبًا فِي الْمَجَالِسِ»، وهذا قول مالك رحمه الله تعالى، وقال: ما أرى الحكم إلا يطرد في مجالس العلم ونحوها غابر الدهر، ويؤيد هذا القول قراءة من قرأ: ﴿فِي الْمَجْلِسِ﴾، ومن قرأ: ﴿فِي الْمَجْلِسِ﴾ فذلك - على هذا التأويل - اسم جنس، فالسنة المندوب إليها هي التفسيح، والقيام منهى عنه، وحديث النبي ﷺ حديث نهى أن يقوم الرجل فيجلس الآخر في مكانه، فأما القيام إجلالاً فجائز بالحديث، وهو قوله ﷺ حين أقبل سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه: «قوموا إلى سيدكم»، وواجب على المعظم ألا يُحب ذلك وبأخذ الناس به، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أحب أن

غلبوا الفقراء على مناجاة رسول الله ﷺ وعلى مجلسه. وقال جماعة من الرواة: لم يعمل بهذه الآية بل نُسخت قبل العمل، لكن استقر حكمها بالعزم عليه، كأمر إبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه عليه السلام، وصُحَّ عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما عمل بها أحد غيري، وأنا كنتُ سبب الرخصة والتخفيف عن المسلمين، وذلك لأنني أردت مناجاة النبي ﷺ في أمر ضروري، فصرفت ديناراً بعشرة دراهم، ثم ناجيته عشر مرات، أقدم في كل مرة درهماً، وروي عنه أنه تصدَّق في كل مرة بدينار، قال علي رضي الله عنه: ثم فهم رسول الله ﷺ أن هذه العبادة قد شقت على الناس، فقال لي: يا علي، كم ترى أن يكون حد هذه الصدقة؟ أترأه ديناراً؟ قلت: لا، قال: فنصف دينار؟ قلت: لا، قال: فكَمْ؟ قلت: حبة من شعير، قال: إنَّك لزهيد، فأَنزل الله تعالى الرخصة للواجدين، وأما من لا يجد فالرخصة له ثابتة بقوله سبحانه: ﴿إِنْ لَرَّ عَيْدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقال مقاتل: بقي هذا الحكم عشرة أيام، وقال قتادة: بقي ساعة من نهار، وقرأ الجمهور من الناس: ﴿صَدَقَتْ﴾ بالإنفراد، وقرأ بعض القراء: ﴿صَدَقَاتٍ﴾ بالجمع.

١٣ - تفسير قوله عز وجل:

«الإِشْفَاقُ»: الفرع من العجز عن الشيء المتصدَّق به أو من ذهاب المال في الصدقة، وله وجوه كثيرة يقال فيها الإِشْفَاق، لكنه في هذا

الموضع كما ذكرت. ﴿وَكَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: رجع بكم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾ الآية، معناه: دوموا على هذه الأعمال التي هي قواعد شرعكم، ومن قال إن هذه الصدقة منسوخة بآية الزكاة فقوله ضعيف لا يحصل كفية النسخ، وما ذكر في نحو هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما لا يصح عنه، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَوْلًا﴾. نزلت في قوم من المنافقين تولوا قوماً من اليهود وهم المغضوب عليهم، وقال الطبري: ﴿مَا هُمْ﴾ يريد المنافقين، و﴿يَنْهَكُمْ﴾ يريد به المؤمنين، و﴿يَنْهَكُمْ﴾ يريد به اليهود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل يجري مع قوله تعالى: ﴿مُذَبِّحِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾، ومع قوله عليه الصلاة والسلام: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين»، لأنه مع المؤمنين بقوله ومع الكافرين بقلبه، لكن هذه الآية تحتمل تأويلاً آخر وهو أن يكون قوله تعالى: ﴿مَا هُمْ﴾ يريد به اليهود، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْهَكُمْ﴾ يريد به المنافقين، فيجاء فعل

المنافقين - على هذا التأويل - أخس لأنهم تولوا قوماً مغضوباً عليهم ليسوا من أنفسهم فيلزمهم ذمهم ولا من القوم المحققين فتكون الموالاة صواباً. وقوله تعالى: ﴿رَبِّحُوا﴾ يعني المنافقين؛ لأنهم كانوا إذا وقفوا على ما يأتون به من بغض النبي ﷺ وشتمه وموالاة عدوه

حلفوا أنهم لا يفعلون ذلك واستسهلوا الحنث، وروي من هذا نوازل كثيرة اختصرتها إيجازاً، وإذا تُبعت في المصنفات وجدت كقول ابن أبي: «لَيْتَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ» وحلفه على أنه لم يفعل، وغير ذلك.

و «الْعَذَابُ الشَّدِيدُ» هو عذاب الآخرة، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَيُّنَهُمْ﴾ جمع يمين، وقرأ الحسن: ﴿إِيمَانَهُمْ﴾ أي: ما يظهرونه من الإيمان.

و «الْجُنَّةُ»: ما يُستتر به ويُتقى المحذور، ومنه «الْمِجَنُّ» وهو الثَّرسُ، وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون الفعل غير مُتَعَدٍّ، كما تقول: صدَّ زيدٌ، أي: صدوا هم أنفسهم عن سبيل الله وعن الإيمان برسوله، ويحتمل أن يكون الفعل متعدياً، أي: صدوا غيرهم من الناس عن الإيمان ممن اقتدى بهم وجرى في مضارهم، ويحتمل أن يكون المعنى: فصدوا المسلمين عن قتلهم، وتلك سبيل الله فيهم لكن ما أظهروه من الإيمان صدوا به المسلمين عن ذلك، و«المُهيِّن»: المُذِلُّ، من الهوان.

١٤ - تفسير قوله عز وجل:

روي أن المنافقين فخرُوا بكثرة أموالهم وأولادهم وأظهروا السرور بذلك فنزلت الآية معلمة أن ذلك لا غناء له عنهم ولا مدفع بسببه، والعامل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ «أَصْحَابُ» على تقدير فعل.

وأخبر الله تعالى عنهم في هذه الآية



سواه، وقال غيره: ومن لم يؤمر بقتال فهو غالب بالحجة.

﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

نفث هذه الآية أن يوجد من يؤمن بالله تعالى حق الإيمان ويلتزم شعبه على الكمال يؤاد كافرأ أو منافقأ، ومعنى «يؤاد» يكون بينهما من اللطف بحيث يؤد كل واحد منهما صاحبه، وعلى هذا التأويل قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: اللهم لا تجعل لمشرك قبلي بدأ فتكون سبباً للموعدة، فإنك

تقول: وتلا هذه الآية. وتحتمل الآية أن يُراد بها: لا يوجد من يؤمن بالله والبعث يؤاد من حاد الله من حيث هو محاد؛ لأنه حينئذ يؤد المحادة، وذلك يوجب ألا يكون مؤمناً.

ويروى أن هذه الآية نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة ومخاطبته أهل مكة، وظاهر هذه الآيات أنها متصلة المعنى، وأن هذه في معنى الذم للمنافقين الموالين لليهود، وإذا قلنا إنها في أمر حاطب جاء ذلك أجنبياً في أمر المنافقين وإن كان شبيهاً به، و«الإخوان» هنا إخوة النسب بدليل اقترانه بالأباء، وعُرف «الإخوان» أنه في الأولاء، كما أن عُرف «الإخوة» أنه في النسب، وقد يكون مستعملاً في إخوان الوؤد.

و ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ معناه: أثبتة وخلقته بالإيجاد، وذهب

أنهم ستكون لهم أيمان يوم القيامة وبين يدي الله تعالى يُخَيَّلُ إليهم بجهلهم أنها تنفعهم وتقبل منهم، وهذا هو حسابهم أنهم على شيء، أي: على فعل أي شيء نافع لهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - في كتاب الثعلبي -: قال عليه الصلاة والسلام: «ينادي مناد يوم القيامة: أين خصماء الله؟ فتأتي القدرية مسودة وجوههم مزرقة أعينهم، فيقولون: ما عبدنا شمساً ولا قمراً، ولا اتخذنا من دونك إلهاً»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: صدقوا والله ولكن أتاها الإشرار من حيث لا يعلمون، ثم تلا هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ معناه: تملكهم من كل جهة وغلب على نفوسهم، وهذا الفعل مما استعمل على الأصل، فإن قياس التعليل يقتضي أن يقال: استَحَادَ، وحكى الفراء في كتاب «اللغات» أن عمر رضي الله عنه قرأ: ﴿أَسْتَحَادَ﴾.

و ﴿يُحَادُّونَ﴾ معناه: يعطون الحد من الأفعال والأقوال، وقال بعض أهل العلم بالمعاني: معناه: يكونون في حد غير الحد الذي شرع الله تبارك وتعالى، ثم قضى الله تعالى على مُحَادَّة بالذل، وأخبر بأنه كتب فيما أمضى من قضائه وقدره في الأول أنه يغلب هو ورسله كل من حاد الله والرسل. وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿وَرُسُلِي﴾ بفتح الباء، وقرأ الباقون بسكونها، وقال الحسن: ما أمر الله تعالى قط رسولاً بالقتال إلا وأغلبه وظفره بقوته وعزته، لا رب

أبو علي الفارسي وغيره من المعتزلة إلى أن المعنى: جعل في قلوبهم علامات تعرف الملائكة بها أنهم مؤمنون، وذلك أنهم يرون أن العبد يخلق إيمانه، وقد صرح النقاش بهذا المذهب، وما أراه قاله إلا غير مُحَصَّل لما قال، وأما أبو علي الفارسي فعن بَصَر به. وقرأ جمهور القراء: ﴿كَتَبَ﴾ على بناء الفعل للفاعل، و«الْإِيمَانَ» بالنصب، وقرأ أبو حنيفة، وعاصم - في رواية المفضل عنه -: ﴿كَتَبَ﴾ على بناء الفعل للمفعول، و«الْإِيمَانَ» بالرفع.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين الذين تقتضيهم معنى الآية؛ لأن المعنى: لكنك تجدهم لا يؤادون من حاد الله، وقوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ مَنَّهُ﴾ معناه: يهْدِي

وَلَطَفَ وَنُورَ وَتَوَفَّقَ إِلَهِي يَنْقُدُحَ مِنْ
الْقُرْآنَ وَمِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقِيلَ:
الْمَعْنَى: بِالْقُرْآنَ، لِأَنَّهُ رُوحٌ، وَقِيلَ:
الْمَعْنَى: بِجَبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ.

و «الْحِزْبُ»: الْفَرِيقُ الَّذِي يَجْمَعُهُ
مَذْهَبٌ وَاحِدٌ، وَ«الْمُفْلِحُ»: الْفَائِزُ
بِنُجَاتِهِ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

كَمَلْ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْمَجَادِلَةِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

تفسير

سورة الحشر

هذه السورة مدنية باتفاق من أهل العلم، وهي سورة بني النضير؛ وذلك أن رسول الله ﷺ كان قد عاهد بني النضير على سلّم وهم يرون أنه لا تُردُّ له رايةٌ، فلما جرت هزيمة أُخذ ارتابوا وداخلوا قريشاً وغدروا، فلما رجع النبي ﷺ من أحد تبين له معتقد بني النضير وغدرهم بعده وموالاتهم للكفار، فجمع إليهم وحاصرهم وعاهدهم على أن يُجلبهم عن أرضهم، فارتحلوا إلى بلاد مختلفة: خيبر والشام وغير ذلك من البلاد، ثم كان أمر بني قريظة مرجعه ﷺ من الأحزاب.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قد تقدّم القول في تسبيح الجمادات التي يتناولها عموم «ما في السموات وما في الأرض»، وأن أهل العلم

اختلفوا في ذلك، فقال قوم: ذلك على الحقيقة، وقال آخرون: ذلك مجاز، أي: أن آثار الصنعة فيها والإيجاد لها كالتسبيح وداعية إلى التسبيح بمن له أن يسبح، وقال مكي: ﴿سَبِّحْ﴾ معناه: صلّى وسجد، فهذا كله بمعنى الخضوع والطوع، و﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صفتان مناسبتان لما يأتي بعد من قصة العدو الذين أخرجهم من ديارهم.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هم بنو النضير، وكانت قبيلة عظيمة من بني إسرائيل موازية في القدر والمنزلة لبني قريظة، وكان يقال للقبيلتين: الكاهنان لأنهما من ولد الكاهن بن هرون، وكانت أرضهم وحصونهم قريبة من المدينة، ولهم نخل وأموال عظيمة، فلما رجع رسول الله ﷺ من أحد خرج إلى بني النضير فحاصرهم وأجلاهم على أن يحملوا من أموالهم ما أفلتتم الإبل حاشى الحلقة - وهي جميع السلاح -، فخرجوا إلى بلاد مختلفة، فذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا أَوَّلَ لَشَرٍّ﴾ اختلف الناس في معنى ذلك بعد اتفاقهم على أن «الْحَشْرُ» هو الجمع والتوجيه إلى ناحية ما - فقال الحسن بن أبي الحسن، وغيره: أراد تعالى حشر القيامة، أي: هذا أوله، والقيام من القبور آخره، وروى الحسن أن النبي ﷺ قال لهم: «امضوا، هذا أول الحشر وأنا على الأثر». وقال عكرمة، والزهراوي،

وغيرهما: المعنى: لأول موضع الحشر وهو الشام؛ وذلك أن أكثر بني النضير جاءت إلى الشام، وقد روي أن حشر القيامة هو إلى الشام، وأن النبي ﷺ قال لبني النضير: «اخرجوا»، قالوا: إلى أين يا محمد؟ قال: «إلى أرض المحشر»، وقال قوم - في كتاب المهدي - المراد الحشر في الدنيا الذي هو الجلاء والإخراج، فهذا الذي فعل رسول الله ﷺ ببني النضير أوله، والذي فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأهل خيبر آخره، وأخبرت الآية بمغيب، وقد أخبر النبي ﷺ بجلاء أهل خيبر، ويحتمل أن يكون آخر الحشر في قول النبي ﷺ في مرضه: «لَا يَنْقُضُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»، فإن ذلك يتضمن إجماع بقاياهم، قال الخليل - فيما حكى الزجاج -: سميت جزيرة لأنه أحاط بها بحر الحبشة وبحر فارس ودجلة والفرات. وفي هذه الإحاطة نظر.

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ يَخْرِجُوكُمْ﴾ معناه: لم تعتدوهم عددهم، فلم تكن آمالكم وظنونكم تنتهي إلى أنهم يخرجون ويدعون أموالهم لكم، وبحسب ذلك من المنعة والغلة والثمن ظنوا أنهم لن يُقدَّرَ عليهم، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرِيدُ مَنْ جُنُودَ اللَّهِ أَن يَرْحَبَ اللَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْشَرُوا﴾ عبارة عن إظهار الله تعالى المسلمين عليهم وإلقائهم في حيز الهزم والذل. وقرأ الجمهور: ﴿الرَّعْبَ﴾ بسكون العين،

وقرأ أبو جعفر، وشيبة: ﴿الرُّعْبُ﴾ بضم العين.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ - فقال الضحاك، والزجاج، وغيرهما: كلما هدم المسلمون من تحصينهم في القتال هدموا هم من البيوت وجبروا الجضم دأباً، فهذا معنى تخريبهم، وقال الزهري وغيره: كانوا لما أبيع لهم ما تستقل به الإبل لا يدعون خشبة حسنة ولا نجافاً ولا سارية إلا قلعوها وخربوها البيوت عنه. وقوله تعالى: ﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ من حيث فغلهم بكفرهم داعية إلى تخريب المؤمنين بيوتهم، فكانهم قد خربوها بأيدي المؤمنين، وقال جماعة من المفسرين: إنهم لما أزمعوا الجلاء شحوا على ترك البيوت سليمة للمؤمنين فهدموا وخربوها بمعنى الإفساد على من يأتي، وقال قتادة: خرب المؤمنون من خارج ليدخلوا وخربوها هم من داخل، وقرأ جمهور القراء: ﴿يُخْرِبُونَ﴾ بسكون الخاء وتخفيف الراء، وقرأ أبو عمرو وحده، والحسن - بخلاف عنه - و قتادة، وعيسى: ﴿يُخْرِبُونَ﴾ بفتح الخاء وشد الراء، فقال فريق من العلماء اللغويين: القراءتان بمعنى واحد، وقال أبو عمرو بن العلاء: «خرب» معناه: هدم وأفسد، و«أخرب» معناه: ترك الموضع خراباً وذهب عنه.

ثم نبه تبارك وتعالى المؤمنين وغيرهم ممن له أن ينظر على نصرة رسوله ﷺ وصنعة له فيمن حاذة

وناواه بقوله: ﴿فَاعْتَرُوا بِكَاؤُنِي الْأَنْصُرَ﴾، أي: العقول والأفهام. عَزَّ وَجَلَّ: تفسير قوله

أخبر تعالى في هذه الآية أنه كتب على بني إسرائيل جلاء، وكانت بنو النضير ممن حل بالحجاز عند موت موسى عليه الصلاة والسلام ببسير؛ لأنهم كانوا من الجيش الذي رجع، وقد عصوا في أن لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق لجماله وعقله، وقد كان موسى عليه السلام قال لهم: لا

تستحيوا أحداً، فلما رجع ذلك الجيش إلى بني إسرائيل بالشام وجدوا موسى عليه السلام ميتاً، وقال لهم بنو إسرائيل: أنتم عصاة، والله لا دخلتم علينا بلادنا، فقال أهل ذلك الجيش عند ذلك: ليس لنا أحب من البلاد التي غلبنا أهلها، فانصرفوا إلى الحجاز فكانوا فيه، فلم يجر عليهم الجلاء الذي أجراه بختنصر على أهل الشام، وقد كان الله تعالى كتب على بني إسرائيل جلاء فنالهم هذا الجلاء على يدي محمد ﷺ، ولولا ذلك لعذبهم الله تعالى في الدنيا بالسيف والقتل كأهل بدر وغيرهم، ويقال: جلاً الرجل، وأجلاه غيره، وقد يقال: أجلى الرجل نفسه، بمعنى: جلا.

و «الْمُشَاقَّةُ»: كون الإنسان في شق ومخالفه في شق.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاؤُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْ هَا فَاقِمْهُ عَلَى أَصُولِهَا فَإِنْ ذَنُوبُ الْخَرَىٰ أَفْسَقِينَ ﴿٢﴾ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُ فَمَا أَرْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣﴾ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ قَضَاءً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَبْصُرُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا آتَوْا وَيُؤْفِقُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنُ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦﴾

وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ﴾ سببها أن بعض أصحاب النبي ﷺ وضعوا أيديهم في نخل بني النضير يقطعون ويحرقون، فقال بنو النضير: ما هذا الإفساد يا محمد وأنت تنهى عن الفساد؟ فكف عن ذلك بعض الصحابة، وذلك في صدر الحرب معهم، فنزلت الآية مُعْلِمة أن جميع ما جرى من قطع أو إمساك فبإذن الله تعالى، وردت الآية على قول بني النضير إنَّ محمدًا ينهى عن الفساد وها هو ذا يُفسد، فأعلم الله تعالى أن ذلك بإذنه وليجزى الفاسقين من بني النضير.

واختلف الناس في «الْيَتَامَى» - فقال الحسن، ومجاهد، وأبو زيد، وعمرو بن ميمون: اليتيم: النخلة، اسمان بمعنى واحد، وجمعها لَيْنٌ وليانٌ، وقال الشاعر:

وَسَالِفَةً كَسَحُوقِ اللَّيْلِ
نَ أَضْرَمَ فِيهَا الْعَوِيُّ السَّعْزُ
وقال آخر:

طَرَأَ الْخَوَافِي وَاقَعَ فَوْقَ لَيْلَةٍ
نَذَى لَيْلَهُ فِي رَيْشِهِ يَشْرَفُ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما
وجماعة من اللغويين: اللَّيْنَةُ من
النَّخْلِ ما لم تكن عجوة، وقال
سفيان بن سعيد الثوري: اللَّيْنَةُ؛
الكريمة من النَّخْلِ، وقال أبو عبيدة -
فيما رُوي عنه - وسفيان: اللَّيْنَةُ: ما
تمرها لَوْنٌ، وهو نوعٌ من التمر يقال
له: اللَّوْنُ، قال سفيان: هو شديد
الصفرة يَشْفُ عن نواه فَيُرَى من
خارج، وأصلها «لَوْنَةٌ» فأبدلت
لموافقة الكسرة، وقال أبو عبيدة
أيضاً: اللَّيْنُ: ألوان النَّخْلِ المختلطة
التي ليس فيها عجوة ولا نوى. وقرأ
ابن مسعود والأعمش: «أَوْ
تَرَكْتُمُوهَا قَوْماً عَلَى أَصُولِهَا».

وقوله تعالى: «وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى
رَسُولِهِ مِنْهُمْ» الآية.. إعلالٌ أنَّ ما
أخذ من بني النضير ومن فُذِّكَ فهو
خاصٌّ للنبي ﷺ، وليس على حكم
الغنيمة التي يُوجِف عليها ويُقاتل
فيها، بل على حكم خُمس الغنائم،
وذلك أنَّ بني النضير لم يوجِف
عليها ولا قوتلت كبير قتال، فأخذ
منها رسول الله ﷺ لنفسه قوتٌ
عِياله، وقَسَم سائرُها في المهاجرين
ولم يُعط الأنصار منها شيئاً، غير أنَّ
أبا دُجَانَةَ سِمَاكَ بْنَ حُنَيْفٍ،
وسهل بن حنيف شكيا فاقة عظيمة
فأعطاهما، هذا قول جماعة من
العلماء، وفي ذلك قال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه: كانت أموال

بني النضير ممَّا أفاء الله تعالى على
رسوله ﷺ ممَّا لم يوجِف المسلمون
عليه بخيل ولا ركاب، فكان
رسول الله ﷺ ينفق منها على أهله
نفقة سنة، وما بقي منها جعله في
السلاح والكرراع عُدة في سبيل الله
تعالى، قال بعض العلماء: وكذلك
كل ما فُتِح على الأئمة ممَّا لم
يوجِف عليه فهو لهم خاصة،
والوجيف دون التقريب، يقال:
وجف الفرس وأوجفه الراكب،
والإيجاف: سرعة السير والاجتهاد
فيه.

(٧) - (٨) تفسير قوله عز وجل:

أهل القرى المذكورون في هذه
الآية هم أهل الصفراء والينبوع
ووادي القرى وما هنالك من قرى
العرب التي تُسمى قرى عربية،
وحكمها مخالف لبني النضير، ولم
يحبس رسول الله ﷺ من هذه لنفسه
شيئاً، بل أمضاها لغيره؛ وذلك أنها
في ذلك الوقت فتحت، واختلف
الناس في صفة فتحها - فقيل: غزاها
رسول الله ﷺ، وبعث بعثاً إلى كل
مكان فأطاع وأعطاه أهله فكان ممَّا
لم يوجِف عليه، وكان حكمه حكم
الغنائم، وليس في الآية نسخ على
هذا التأويل، وأعطى رسول الله ﷺ
جميع ذلك للمهاجرين ولم يعط
الأنصار شيئاً، وقال قتادة: ويزيد بن
رومان: كانت هذه القرى قد أوجِف
عليها ولكن كان هذا حكم ما لم
يوجِف عليه، ثم نسخ الله تعالى هذا
الحكم بآية الأنفال فجعل فيها
الخُمس لهذه الأصناف وبقيت
الأربعة الأخماس للمقاتلة، وآية هذه

السورة لم يكن فيها شيء للمقاتلة،
وهذا القول يضعف لأن آية الأنفال
نزلت إثر بَدْء قبل بني النضير وقبل
أمر هذه القرى بسنة ونيف،
والقريبى في هذه الآية قرابةُ
النبي ﷺ، مُنعوا الصدقة فَعُوضُوا
من الفيء.

وقوله تعالى: «كَانَ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ
الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» مخاطبة للأنصار لأنه
لم يكن للمهاجرين في ذلك الوقت
غنى، وقرأ جمهور الناس: «يَكُونُ»
بالياء، وقرأ ابن مسعود، وأبو
جعفر، وهشام عن ابن عامر بالتاء،
وهي «كان» التامة، وقرأ جمهور
الناس: «دُولَةً» بضم الدال ونصب
الهاء، وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي:
«دُولَةً» بفتح الدال ونصب الهاء،
وقرأ أبو جعفر بن القعقاع. وهشام
عن ابن عامر: «دُولَةً» بضم الدال
والهاء، وقال عيسى بن عمر: هما
بمعنى واحد، وقال الكسائي وحُذِّق
النظرة: الفتح في المُلْك - بضم
الميم - لأنها الفعل في الدهر، الضم
في المِلْك - بكسر الميم - والمعنى
أنها كالعواري، فيتداول الأغنياء ذلك
المال بتصرفاتهم ويبقى المساكين بلا
شيء، ولا حظ في شيء من هذه
الأموال ليتيم غني ولا لابن سبيل
حاضر المال، وقد مضى القول في
الغنائم في سورة الأنفال.

وزُوي أنَّ قوماً من الأنصار تكلموا
في هذه القرى المُفْتَتَحَة وقالوا: لنا
منها سهمنا، فنزل قوله تعالى: «وَمَا
ءَاتَاكُمْ رَسُولُكُمْ فَحْذَرُوا» الآية..
مؤدباً في ذلك وزاجراً، ثم اطرَد بغدُ
معنى الآية في أوامر النبي ﷺ

ونواحيه، حتى قال قوم: إن الخمر محرمة في كتاب الله تعالى بهذه الآية، وانتزع منها ابن مسعود رضي الله عنه لعنة الواشمة والمستوشمة... الحديث، ورأى مُحَرَّمًا في ثيابه المخيطة فقال له: اطرح هذا عنك، فقال له الرجل: أنقرأ عليّ بذلك آية من كتاب الله تعالى؟ فقال ابن مسعود رضي الله عنه: نعم، وتلا هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿يُلْقِفُوا أَلْسِنَهُمْ﴾ بيان لقوله تعالى: ﴿وَاللَّسَّانَ﴾، فكُرِّرَ لام الجر كما كانت الأولى مجرورة باللام ليبين أن البدل إنما هو منها، ثم وصفهم تعالى بالصفة التي تقتضي فقرهم وتوجب الإشفاق عليهم، وهي إخراجهم من ديارهم وأموالهم، وجميع المهاجرين إمَّا أخرجهم الكفار وإمَّا أحوال الكفار وظهورهم وفرض الهجرة في ذلك الوقت، ووصفهم بالفقر وإن كان لهم بعض أموال وهي حال الفقراء في اللغة، وقد مضى بيان هذا في سورة الكهف. وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ﴾ في موضع الحال، والفضل والرضوان يراد بهما الآخرة والجنة، ونَصَرَ الله هو نَصَرَ شرعه ونبيه ﷺ.

و «الضادون» في هذه الآية يجمع صدق اللسان وصدق الأفعال لأن أفعالهم في أمر هجرتهم إنما كانت وفق أقوالهم.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا﴾ هم الأنصار، والضمير في «قَبْلِهِمْ» للمهاجرين،

و«الدَّار» هي المدينة، والمعنى: تَبَوَّءُوا الدَّارَ مع الإيمان معاً، وبهذا الاقتران يصح معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، فتأمل. والإيمان لا يَتَبَوَّأُ لأنه ليس مكاناً، ولكن هذا من بليغ الكلام، ويتخرج على وجوه كلها جميل حسن.

وأثنى الله تعالى في هذه الآية على الأنصار بأنهم يحبون المهاجرين رضي الله عن جميعهم، وبأنهم يُؤْتِرُونَ على أنفسهم، وبأنهم قد وُقُوا شَحْ أَنْفُسِهِمْ، لأن مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَوْقِ شَحْ نَفْسِهِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أن هُوَاءَ الممدوحين قد وُقُوا الشَّحْ.

و «الْحَاجَةُ»: الْحَسَدُ في هذا الموضع، قاله الحسن، ويعمُّ بغد جميع الوجوه التي هي بخلاف ما فعله النبي ﷺ في إعطاء المهاجرين أموال بني النضير والقرى. و«أُولَئِكَ» معناه: أعطوا، والضمير المرفوع بأن لم يُسَمَّ فاعله هو للمهاجرين.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية... صفة للأنصار، وقد روي من غير ما طريق - أنها نزلت بسبب رجل من الأنصار - قال أبو المتوكل، هو ثابت بن قيس، وقال أبو هريرة رضي الله عنه في كتاب مكِّي: كنية هذا الرجل أبو طلحة، وخلط المهدي في ذكر هذا الرجل - نَدَبَ

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُكُونَ مِنَ الْآبِئِرَةِ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَئِنْ أَشْرَكْتَ بِهِمْ عَمَّا فِطَرْتُمْ عَلَيْهِمْ لَيَكْفُرْنَ بِكُمْ كَمَا كَفَرُوا بِاللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْيُنُهُمْ كَيْفَ يُفَكِّرُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَفْقَهُوْنَ شَيْئًا وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٤﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْكُفْرِ لَيَعْلَلَنَّ اللَّهُ لَهُمْ بَأْسًا زَهِيدًا ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَكُنْ لِلنَّبِيِّينَ الْإِشْرَاقُ قَبْلَ هَٰذَا وَمَا كُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا خَوْفٌ وَمَأْسَاةٌ مِنَ السُّعَادِ ﴿١٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ لِلنَّبِيِّينَ الْإِشْرَاقُ قَبْلَ هَٰذَا وَمَا كُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا خَوْفٌ وَمَأْسَاةٌ مِنَ السُّعَادِ ﴿١٧﴾ أَلَمْ يَكُنْ لِلنَّبِيِّينَ الْإِشْرَاقُ قَبْلَ هَٰذَا وَمَا كُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا خَوْفٌ وَمَأْسَاةٌ مِنَ السُّعَادِ ﴿١٨﴾ أَلَمْ يَكُنْ لِلنَّبِيِّينَ الْإِشْرَاقُ قَبْلَ هَٰذَا وَمَا كُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا خَوْفٌ وَمَأْسَاةٌ مِنَ السُّعَادِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ يَكُنْ لِلنَّبِيِّينَ الْإِشْرَاقُ قَبْلَ هَٰذَا وَمَا كُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا خَوْفٌ وَمَأْسَاةٌ مِنَ السُّعَادِ ﴿٢٠﴾

رسول الله ﷺ إلى ضيافة مهاجري، فانتدب الأنصاري، ولم يكن له مال فذهب بالضيف وقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ، قالت: والله ما عندي إلا قوت الضبيبة، فقال لها: تومي صبيانك، وأطفي السراج، وقدمي ما عندك للضيف، ونوهمه أنا نأكل، ففعل ذلك، فلما غدا على رسول الله ﷺ قال: «عجب الله من فعلك البارحة»، ونزلت الآية في ذلك.

والإيثار على النفس أكرم خلق، وقال حذيفة العدوي: طلبت يوم اليرموك ابن عَمِّ لي في الجرحى ومعني شيء من ماء، فوجدته، فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم، فإذا رجل يصيح: آو فأشار ابن عَمِّي أن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أنشرب؟ فإذا آخر

يقول: آه، فأشار هشام أن انطلق إليه، فجنّته فإذا به قد فاضت نفسه، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات، فعجبت من إيشارهم رحمهم الله تعالى، وقال أبو يزيد البسطامي: قديم علينا شاب من بلخ فقال لي: ما حذّ الزُّهد عنكم؟ فقلت: إذا فقدنا صَبْرنا، وإذا وجدنا شَكْرنا، قال: هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ، قلت: فما الزهد عنكم؟ قال: إذا فقدنا شَكْرنا، وإذا وجدنا آثَرنا.

وروي أن سبب هذه الآية أن النبي ﷺ لما قَسَم هذه القرى في المهاجرين قال للأَنْصار: «إِنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُ لِلْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَدِيَارِكُمْ وَشَارَكْتُمُوهُمْ فِي هَذِهِ الْغَنِيمَةِ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَمْسَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ وَتَرَكْتُمْ لَهُمْ هَذِهِ»، فقالوا: بل نقسم لهم من أموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة، فنزلت هذه الآية.

و «الْخَصَاصَةُ»: الفاقة والحاجة، وهم مأخوذ من خصاص البيت، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفروج والفتوح، فكأن حال الفقير هي كذلك يتخللها النقص والاحتياج، و«شُحُّ النَّفْسِ» هو كثرة طَمَعِهَا وضبطها على المال والرغبة فيه وامتداد الأمل، هذا جماع شح النفس، وهو داعية كل خلق سوء، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَقَرَى الضَّعِيفَ، وَأَعْطَى فِي النَّائِبَةِ، فَقَدْ بَرَى مِنْ الشُّحِّ».

واختلف الناس بعد هذا الذي قلناه

- فذهب الجمهور والعارفون بالكلام إلى هذا، وعلى هذا التأويل كان عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه يطوف وهو يقول: اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي، لَا يَزِيدُ عَلَيَّ ذَلِكَ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: إِذَا وَقَفْتَهُ لَمْ أَفْعَلْ سَوْأً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: شُحُّ النَّفْسِ فَقْرٌ لَا يُذْهِبُهُ غِنَى الْمَالِ بَلْ يَزِيدُهُ وَيَنْصِبُ بِهِ.

وقال ابن زيد، وابن جببر، وجماعة: من لم يأخذ شيئاً نهاه الله تعالى عنه ولم يمنع الزكاة المفروضة فقد برىء من شُحِّ النَّفْسِ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: شُحُّ النَّفْسِ هُوَ أَكْلُ مَالِ الْغَيْرِ بِالْبَاطِلِ، وَأَمَّا مَنَعُ الْإِنْسَانِ مَالَهُ فَهُوَ يُبْخَلُّ، وَهُوَ قَبِيحٌ وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِالشُّحِّ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «شُحُّ» بِكسر الشين، و«يُوقُّ» وزنه «يُقْعَلُ»، من وقى يقي، مثال: وَزَنَ يَزِنُ، وَقَرَأَ أَبُو حَيَّةَ: «يُوقُّ» بفتح الواو وشد القاف، و«الْمُفْلِحُونَ»: الْفَائِزُونَ بِبَغْيَتِهِمْ.

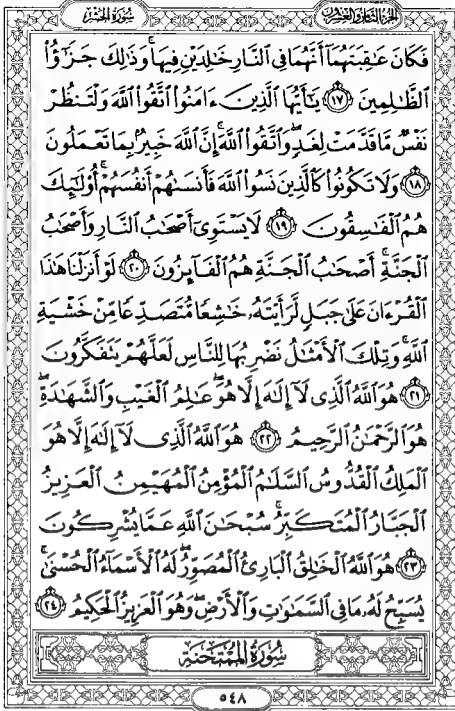
واختلف الناس في تأويل قوله تعالى: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» - فقال الفراء: أراد الفرقة الثالثة من الصحابة، وهي التي آمنت أو كبرت في آخر مُدَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وقال جمهور العلماء: أراد من يجيء من التابعين وغيرهم إلى يوم القيامة، فوصف الله تبارك وتعالى القول الذي ينبغي أن يلتزمه كل من لم يكن من الصدر الأول. وإعراب «الَّذِينَ» رفيع عطفاً على «هُمْ» أو على «وَالَّذِينَ» أو رفع بالابتداء. وقوله

تعالى: «يَقُولُونَ» حال فيها الفائدة، والمراد: والذين جاءوا قائلين كذا، أو يكون «يَقُولُونَ» صفة.

ولهذه الآية قال مالك وغيره: إنه من كان له في أحد في الصحابة قول سوء أو بغض فلا حظ له في الغنيمة أدباً له، وجاء بعض العارفين إلى علي بن الحسين رضي الله عنهما فسبوا أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فقال لهم: أمِنَ المهاجرين الأولين أنتم؟ قالوا: لا، قال: أَمِنَ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ أَنْتُمْ؟ قالوا: لا، قال: فقد تبرأتم من هذين الفريقين، وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله تعالى فيهم: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» الآية... فقوموا، فعَلَّ الله تعالى بكم وقَعَل، وقال الحسن: أدركت ثلاثمائة من الصحابة منهم سبعون بدرية كلهم يحدثنني أن النبي ﷺ قال: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قَيْدَ شَبِيرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ»، فالجماعة ألا تسبوا الصحابة، ولا تُماروا في دين الله تعالى، ولا تُكفروا أحداً من أهل التوحيد بذنوب.

و «الْغِلَّ»: الجفد والاعتقاد الرديء، وقَرَأَ الْأَعْمَشُ: «فِي قُلُوبِنَا غِمْرًا»، والغمر: الجفد. وقد تقدم الاختلاف في قراءة: «رَوَوْقٌ».

⑪ - ⑫ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية نزلت في عبدالله بن أبي ابن سلول، ورفاعة بن التابوت، وقوم من منافقي الأنصار كانوا بعثوا إلى بني النضير وقالوا لهم: اثبتوا في معاقلكم فإننا معكم كيفما تقلبت حالكم، وإنما أرادوا بذلك أن تقوى



من المكئين: ﴿جَذَارٌ﴾ على معنى الجنس، وقرأ كثير من المكئين، وهارون عن ابن كثير: ﴿جَذِرٌ﴾ بفتح الجيم وسكون الدال، ومعناه: أصل بنيان كالسُور ونحوه، وقرأ الباقون من القراء: ﴿جُدِرٌ﴾ بضم الجيم والدال، وهو جمع جَذَارٍ، وقرأ أبو رجاء، وأبو خنوة: ﴿جُذِرٌ﴾ بضم الجيم وسكون الدال، وهو تخفيف في جمع جَذَارٍ، ويحتمل أن يكون من جذر النخيل، أي:

من وراء نخيلهم إذ هي ممّا يتقى به عند المضايقة.

وقوله تعالى: ﴿بِأَسْهُمَ يَبْتَهِرُ شَدِيدٌ﴾ أي: في غائلتهم وإخنيهم، وفي قراءة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿تَحْشِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ أَشْتَتُ﴾، وهذه حال الجماعات المتخاذلة، وهي المغلوبة أبداً في كل ما تحاول، واللفظة مأخوذة من الشتات وهو التفرق ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿كَنْتَلُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ معناه: مثلهم كمثل الذين من قبلهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم بنو قَيْنُقَاعَ؛ لأن النبي ﷺ أجلاهم عن المدينة قبل بني النضير، وكانوا مثلاً لهم، وقال قتادة ومجاهد: الذين من قبلهم أهل بدر الكفار؛ فإنهم قبلهم ومثل لهم في أن غلبوا وقُهرُوا، وقال

نفوسهم عسى أن يثبتوا حتى لا يقدر محمد عليه الصلاة والسلام عليهم فيتم لهم مرادهم، وكانوا كذبة فيما قالوا من ذلك، ولذلك لم يخرجوا حين أخرج بنو النضير بل قعدوا في ديارهم، وقوله تعالى عز وجل: ﴿وَلَيْنَ نَّصْرُوهُمْ﴾ معناه: ولئن حاولوا نصرهم فإنهم ينهزمون ثم لا ينصر الله تعالى أحداً منهم.

وجاءت الأفعال غير مجزومة في قوله تعالى: ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ ولا يَنْصَرُّوهُمْ، لأنها راجعة على حكم أنفسهم لا على حكم الشرط، وفي هذا نظر.

ثم خاطب تعالى أمة محمد ﷺ مُخْبِراً أن اليهود والمنافقين أشد خوفاً من المؤمنين منهم من الله تعالى لأنهم لا يتوقعون عاجل الشر من المؤمنين ولا يؤمنون بأجل العذاب من الله تعالى، وذلك لقلة فهمهم للأمر وتوفيقيهم للحق.

﴿١٤﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ لبني النضير وجميع اليهود، هذا قول جماعة من المفسرين، ويحتمل أن يريد بذلك اليهود والمنافقين؛ لأن دخول المنافقين في قوله تعالى: ﴿بِأَسْهُمَ يَبْتَهِرُ شَدِيدٌ تَحْشِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ أَشْتَتُ﴾ متمكن بَيِّن، ومعنى الآية: لا يقاتلونكم في جيش بِفَخْصٍ، و﴿الْفَرَى﴾: المدن، قال الفراء: هذا جمع شاذ، قال الزجاج: ما في القرآن فليس بشاذ، وهو مثل: ضَبْعَةٌ وضُيعٌ.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وكثير

بعض المتأولين: الضمير في قوله تعالى: ﴿كَنْتَلُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ للمنافقين، وهم منافقوا الأمم المتقدمة؛ وذلك أنهم غلبوا ونالتهم الذلة على وجه الدهر، فهم مثل لهؤلاء، ولكن قوله تعالى: ﴿قَرِيباً﴾ إما أن يكون في زمن موسى عليه السلام وإلا فالتأويل المذكور يضعف، إلا أن يجعل ﴿قَرِيباً﴾ ظرفاً للذوق، فيكون التقدير: ذاقوا وبأل أمرهم قريباً من عصيانهم وبعثانه، ولا يكون المعنى أن المثل قريب في الزمن مِنَ الْمُثَلِّ له، وعلى كل تأويل فـ ﴿قَرِيباً﴾ ظرف أو نعت لظرف. و﴿الْوَيْالُ﴾: الشدة والمكروه وعاقبة السوء، و﴿الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ هو في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿كَنْتَلُ الشَّيْطَانِ﴾ معناه: مثل هاتين الفرقتين من

المنافقين وبني النضير كمثل الشيطان والإنسان، فالمنافقون مثلهم الشيطان، وبني النضير مثلهم الإنسان، وذهب مجاهد وجمهور من المتأولين إلى أن الشيطان والإنسان في هذه الآية اسمًا جنس؛ لأن العرف أن يعمل هذا الشياطين بناس كما يغوي الشيطان الإنسان ثم يفر عنه بعد أن يورطه، كذلك أغوى المنافقون بني النضير وحرّضوهم على الثبوت ووعدهم النصر، فلما غدر بنو النضير وكشفوا عن وجوههم تركهم المنافقون في أسوأ حال، وذهب قوم من رواة القصص أن هذا في شيطان مخصوص مع عابد من العباد مخصوص، وذكر الزجاج أن اسمه برصيصا، قالوا: إنه استودع امرأة، وقيل: سيقت إليه ليشفيها بدعائه من الجنون، فسؤل له الشيطان الوقوع عليها فحملت فخشي الفضيحة، فسؤل له قتلها ودقنها ففعل، ثم شهره، فلما استخرجت المرأة وحمل العابد شرّ حمل، وهو قد قال: إنها ماتت فقمّت عليها ودفنتها، فلما وجدت مقتولة علموا كذبه، فتعرّض له الشيطان وقال له: اكفر واسجد لي وأنا أنجيك ففعل، وتركه عند ذلك وقال: إني بريء منك، وهذا كله حديث ضعيف، والتأويل الأول هو وجه الكلام، وقول الشيطان: «إني أخاف الله» رياء وسمعة، وليست على ذلك عقيدته، ولا يعرف الله تعالى حق معرفته، ولا يحجزه خوفه عن سوء يوقع فيه ابن آدم من أول إلى آخر.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾ الآية، يحتمل الضمير أن يعود على المخصوصين المذكورين، ويحتمل أن يعود على اسمي الجنسين، أي: هذا هو عاقبة كل شيطان وإنسان يكون أمرهما هكذا، وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد: ﴿عَاقِبَتُهُمَا﴾ بالرفع، وقرأ الجمهور: ﴿عَاقِبَتُهُمَا﴾ بالنصب، وموضع [أَنْ] يخالف إعراب «العاقبة» في القراءتين، وقرأ ابن مسعود، والأعمش: ﴿خَالِدَانِ﴾ بالرفع على أنه خبر [أَنْ] والظرف ملغى، ويلحق هذه القراءة من الاعتراض إلغاء الظرف مرتين، قاله الفراء، وذلك جائز عند سيبويه على التأكيد.

﴿٧٨﴾ - ﴿٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية وعظ وتذكير وتقريب للآخرة، وتحذير ممن لا تخفى عليه خافية، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَتَنْظُرَ﴾ بسكون اللام وجزم الراء على أصل لام الأمر، وقرأ يحيى بن الحارث، وأبو حيو، وفرقة كذلك بلام الأمر إلا أنها كسرت على أصل لام الأمر، وقرأ الحسن بن أبي الحسن - فيما روي عنه -: ﴿وَلَتَنْظُرَ﴾ بنصب الراء على لام «كي»، كأنه تعالى قال: وأمرنا بالتقوى لتنظر، أو كأنه تعالى قال: اتقوا الله وليكن تقواكم لتنظر.

وقوله تعالى: ﴿لِمَنِّي﴾ يريد يوم القيامة، قال قتادة: قرب الله تعالى القيامة حتى جعلها غداً، وذلك لأنها آتية لا محالة، وكل آت قريب، ويحتمل أن يريد تعالى بقوله: ﴿لِمَنِّي﴾ ليوم الموت لأنه لكل إنسان

كغده، ومعنى الآية: ما قدمت من الأعمال، فإذا نظرها الإنسان تزيد من الصالحات وكف عن السيئات، وقال مجاهد، وابن زيد: الأمس الدنيا وغد الآخرة.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ بالبناء من فوق على مخاطبة جميع الذين آمنوا، وقرأ أبو حيو: ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ بالياء من تحت كناية عن «نفس» التي هي اسم الجنس، و«الذين نسوا الله» هم الكفار، والمعنى: تركوا الله تعالى وغفلوا عنه حتى كانوا كالكاسين، وعبر تعالى عما خصهم به من الضلالة بـ ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، سمي عقوبتهم باسم ذنبهم بوجه ما، وهذا أيضاً هو الجزاء بالذنب على الذنب، فكسبوا هم نسيان جهة الله تعالى فعاقبهم الله تعالى بأن جعلهم ينسون أنفسهم، قال سفيان: المعنى: حظ أنفسهم، ويعطي لفظ هذه الآية أن من عرف نفسه ولم ينسها عرف ربه سبحانه، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: اعرف نفسك تعرف ربك، وروي عنه أنه قال أيضاً: من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَلَا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ بزيادة «لا».

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ الآية... موعظة للإنسان، وذم لأخلاقه في غفلته وإعراضه عن داعية الله تعالى، وذلك أن القرآن نزل عليهم وفهموه وأعرضوا عنه، وهو لو نزل على جبل وفهم الجبل منه ما فهم الإنسان لخشع واستكان

وتصدع من خشية الله تبارك وتعالى، وإذا كان الجبل على عظيم وقوته يفعل هذا فما عسى أن يحتاج ابن آدم ليفعل، لكنه يُعرض ويصد على حقارته وضعفه، وضرب الله تبارك وتعالى هذا المثل ليتفكر فيه العاقل ويخشع ويلين قلبه، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿مُصْذَعًا﴾ على إدغام التاء في الصاد.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ جاء بالأوصاف التي توجب لمخلوقاته هذه الخشية، و﴿الْعَلَبُ﴾: ما غاب عن المخلوقين، و﴿الشَّهَادَةُ﴾: ما شهدوه، وقال حرب المكي: الغيب الآخرة، والشهادة الدنيا، وقرأ جمهور الناس: ﴿الْقُدُوسُ﴾ بضم القاف، وهو فاعل من تَقَدَّسَ إذا تَطَهَّرَ، وحظيرة القدس الجنة لأنها طاهرة، ومنه: رُوح القدس، والأرض المقدسة، وبيت المقدس، وروى عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿الْقُدُوسُ﴾ بفتح القاف، وهي لغة. و﴿السَّلَامُ﴾ معناه: الذي سَلِمَ من جورهِ، وهذا اسم على حذف مضاف، أي: ذو السلام، لأن الإيمان به وتوحيده وأفعاله هي لمن آمن سلامٌ كلها. و﴿الْمُؤْمِنُ﴾ اسم فاعل من «أَمَنَ» بمعنى «أَمَنَ»، وقال أحمد بن يحيى ثعلب: معناه: الْمُصَدِّقُ الْمُؤْمِنِينَ في أنهم آمنوا، قال النحاس: أو في شهادتهم على الناس في القيامة، وقال ناسٌ من المتأولين: معناه: الْمُصَدِّقُ نفسه في أقواله الأزلية، لا إله غيره، و﴿الْمُهَيِّجِينَ﴾ معناه: الأمين والحفيظ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما،

وقال مؤرج: المهيمن: الشاهد بلغة قريش، وهذا بناء لم يجر منه في الصفات إلا مُهَيِّجِينَ وَمُسَيِّطِرَ وَمُهَيِّجِينَ وَمُسَيِّطِرَ، وجاء منه في الأسماء «مُخَيِّر» وهو اسم وادٍ ومُذَيِّبِر، وهو «الْجَبَّارُ» هو الذي لا يدانيه شيء ولا يلحق رتبته، ومنه «نخلة جبارة» إذا لم تلحق، وأنشد الزهراوي:

أطافت به جيلان عند قطافه
وزدت إليه الماء حتى تجبراً
و ﴿التَّكْبَرُ﴾ معناه: الذي له التكبر حقاً.

ثم نزه تعالى نفسه عن إشراك الكفار به الأصنام التي ليس لها شيء من هذه الصفات، و﴿الْبَارِئُ﴾ بمعنى: الخالق، برأ الله تعالى الخلق، أي: أوجدهم، و﴿الْمُصَوِّرُ﴾ هو الذي يوجد الصور، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿الْمُصَوِّرُ﴾، على إعمال «الْبَارِئُ» فيه، وهي حسنة، يُراد بها الحُسن في الصور، وقال قوم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنه قرأ: ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ بفتح الواو وكسر الراء، على قولهم: «الحسن الوجه».

وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: ذات الحسن في معانيها القائمة بذاته لا إله إلا هو، وهذه الأسماء هي التي حصرها رسول الله ﷺ بقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ فِيهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخَوِّنُونَ الرَّسُولَ وَإِنَّا لَتَوَسِّلُونَ آلَهُ بِمَا يَكُونُ لَكُمْ رَيْبُكُمْ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أَهْلُكَ وَمَا أَهْلُكَ إِلَّا بَنُو أَخِيكَ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنِ يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ إِن يَتَّبِعْكُمْ تَحْكُمُوا لَكُمْ أَعْدَاءُ وَيَسْطُرُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدَّ أَنْ تَكْفُرُوا ۝ لَنْ نَنفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْعَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَذَّبْتُمْ بآيَاتِنَا وَيُنْعِمُ الْعَدَاوَةَ وَالنَّفْسَ أَبَدًا حَتَّى تَقُولُوا لِلَّهِ حُدُودُ الْآلِ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لَا يَبُوءُ لَا سَفْعُونَ لَكَ وَمَا أَمَّاكَ لَكَ مِن اللَّهِ مِن شَيْءٍ زَيْنًا عَلَيْكَ وَكُنَّا وَإِلَيْكَ آتِينَ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآخِرُ نَارِنَا لَكَ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝

٥٤٩

اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة»، وقد ذكرها الترمذي وغيره مُسَنَّدَةً، واختلف الرواة في بعضها، ولم يصح فيها شيء إلا إحصاؤها دون تغيين، وباقى الآية بَيِّنٌ.

كمل تفسير سورة الحشر والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة الممتحنة

وهي مدنية بإجماع من المفسرين. ﴿الْعَدُوُّ﴾ اسم يقع للجمع والمفرد، والمراد به ها هنا كفار قريش، وهذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أبي

بَلْتَعَةِ، وذلك أن رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى مكة عام الفتح، فوَرَى عن ذلك بِخَيْرٍ، فشاع في الناس أنه خارج إلى خيبر، وأخبر هو جماعة من أصحابه بقصده إلى مكة، فكتب حاطب بن أبي بلتعة، فكتب حاطب إلى قوم من كفار مكة يخبرهم بقصد رسول الله ﷺ إليهم، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ فبعث علياً والزبير وثالثاً، قيل هو المقداد، وقيل أبو مرثد، وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فانطلقوا حتى وجدوا المرأة، واسمها سارة، مولاة لقوم من قريش، وقيل: بل كانت امرأة من مزينة ولم تكن سارة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، ففتشوا جميع رحلها فما وجدوا شيئاً، فقال بعضهم: ما معها كتاب، فقال علي رضي الله عنه: ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذب، والله لتخرجن الكتاب أو لتجرذنك، فقالت: اعرضوا عني، فحلته من فروة رأسها، وقيل: أخرجته من حجزتها، فجاءوا به رسول الله ﷺ، فقال لحاطب: من كتب هذا؟ فقال: أنا يا رسول الله، ولكن لا تعجل علي، فوالله ما فعلت ذلك ارتداداً عن ديني ولا رغبة عنه، ولكني كنت امرأة ملصقة في قريش ولم أكن من أنفسها، فأحببت أن تكون لي عندهم يد يزعموني بها في قرايتي، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «صدق حاطب، إنه من أهل بدر، وما يدريك

يا عمر لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، لا تقولوا لحاطب إلا خيراً»، فنزلت الآية لهذا السبب. وروي أن حاطباً كتب: «إن رسول الله ﷺ يريد غزوكم في مثل الليل والسييل، وأقسم بالله لو غزاكم وحده لئصر عليكم فكيف وهو في جم كثير».

و «تَلَوْتُ» في موضع الصفة لـ «أَوَّلِيَّة»، و «أَلْقَيْتُ» يتعدى بحرف الجر وبغير حرف الجر، فدخل الباء وزوالها سواء، وهذا نظير قوله عز وجل: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي»، وقوله تعالى: «سَكَّنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ»، وروي المعلق عن عاصم أنه قرأ: «وَقَدْ كَفَرُوا لِمَا بَلَامَ».

وقوله تعالى: «يَخْرُجُونَ» في موضع الحال من الضمير في «كَفَرُوا»، والمعنى: يُخرجون الرسول ويُخرجونكم، وهي حال مؤكدة فلذلك ساق الفعل مستقبلاً والإخراج قد مر، وتضييق الكفار على النبي ﷺ والمؤمنين إخراج إذ كان مؤدياً إلى الإخراج، وقوله تعالى: «أَنْ تَوَمَّنَا» مفعول من أجله، أي: أخرجوكم من أجل أن آمنتم بربكم، وقوله تعالى: «إِنْ كُنْتُمْ» شرط جوابه متقدم في معنى ما قبله، وجاز ذلك لما لم يظهر عمل الشرط، والتقدير: إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، و «جَهَنَّا» نصب على المصدر، وكذلك «أَيْتَنَّا»، ويجوز أن يكون ذلك مفعولاً من أجله، و «الْمَرْضَاءُ» مصدر كالرَضَى، و «تُورِثُ» بدل من

«تَلَوْتُ»، ويجوز أن يكون في موضع خبر ابتداء كأنه تعالى قال: أنتم تُسرون، ويصح أن يكون فعلاً مرسلأ ابتداءً به القول، والإنشاء بالموءة معنى ما، والإسراء بها معنى زائد على الإلقاء، فترجح بهذا أن «تُورِثُ» فعل ابتداءً به القول، أي: تفعلون ذلك وأنا أعلم، وقوله تعالى: «أَعْلَمُ» يحتمل أن يكون «أفعل»، ويحتمل أن يكون فعلاً لأنك تقول: «علمت بكذا» فتدخل الباء، وقوله تعالى: «وَأَنَا أَعْلَمُ» الآية... جملة في موضع الحال، وقرأ أهل المدينة: «وَأَنَا» بإشباع الألف في الإدراج، وقرأ غيرهم: «وَأَنَا» بطرح الألف في الإدراج.

والضمير في «يَعْلَمُ» عائد على الاتخاذ المذكور، و «سَوَاءٌ» يجوز أن يكون مفعولاً بـ «حَلَّ»، وذلك على تعدي «حَلَّ»، ويجوز أن يكون ظرفاً على غير التعدي لأنه يجيء بالوجهين، والأول أحسن في المعنى، و «السَّوَاءُ»: الوسط، وذلك لأنه تتساوى نسبته إلى أطراف الشيء، و «السَّبِيلُ» هنا شرع الله تعالى وطريق دينه.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

أخبر الله تعالى أن مداراة هؤلاء الكفار غير نافعة في الدنيا وأنها ضارة في الآخرة، ليبين فساد رأي مصانعتهم، فقال تعالى: «إِنْ يَتَفَرَّقْكُمْ» أي: إن يتمكنوا منكم وتخلصوا في ثقافتهم ظهرت العداوة وانبسطت أيديهم بضرركم وقتلكم، وألستهم بسببكم، وهذا هو السوء، وأشد من هذا كله أنهم إنما يُقْنِئهم

منكم أن تكفروا، وهذا هو وُدُّهم.

ثم أخبر تعالى أن هذه الأرحام التي رغبتم في وصلها ليست بنافعة يوم القيامة، فالعامل في ﴿يَوْمَ﴾ قوله تعالى: ﴿تَنْفَعُكُمْ﴾، وقال بعض النحاة في كتاب الزهراوي: العامل فيه ﴿يُصِلُ﴾ وهو ممَّا بعده لا ممَّا قبله.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو،
والعامة: ﴿يُفْصَلُ﴾ بضم الياء
وسكون الفاء وتخفيف الصاد
مفتوحة، وقرأ ابن عامر، والأعرج،
وعيسى: ﴿يُفْصَلُ﴾ بضم الياء وفتح
الفاء وشد الصاد منصوبة، واختلف -
على هاتين القراءتين - في إعراب
قوله تعالى: ﴿يَبْكُكُمْ﴾ - فقيل: نُصب
على الظرف، وقيل: رُفع على ما لم
يُسَمِّ فاعله إلا أن لفظه بقي منصوباً
لأنه كذلك كثر استعماله، وقرأ
عاصم، والأعمش: ﴿يَفْصَلُ﴾ بفتح
الياء وسكون الفاء وكسر الصاد
خفيفة، وقرأ حمزة، والكسائي،
وابن وثاب: ﴿يُفْصَلُ﴾ بضم الياء
وفتح الفاء وشد الصاد المكسورة،
وإسناد الفعل في هاتين القراءتين
إلى الله تعالى، وقرأ النَّخْعِي،
وطلحة بن مصرف: ﴿نُفْصَلُ﴾ بنون
العظمة مرفوعة وفتح الفاء وشد
الصاد، وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا
تَقْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيد وتحذير.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿إِسْرَءُ﴾
بكسر الهمزة، وقرأ عاصم وحده:
﴿أُسْرَءُ﴾ بضمها، وهما لغتان،
والمعنى: قُدوة وإمام،
و«إِبْرَاهِيمُ» ﷺ هو خليل الرحمن عزَّ
وجلَّ، واختلف الناس في «الذين
معه» - فقال قوم من المتأولين: أراد

من آمن به من الناس،
وقال الطبري وغيره: أراد
الأنبياء الذين كانوا في
عصره عليه السلام وقريباً
من عصره، وهذا القول
أزجج لأنه لم يُزو أن
إبراهيم عليه السلام كان له
أتباع مؤمنون في مكافته
نمرود، وفي البخاري أنه
عليه الصلاة والسلام قال
للسارة حين رحل بها إلى
الشام مهاجراً من بلد
النمرود: ما على الأرض
من يعبد الله غيري
وغيرك، وهذه الأسوة
مفيدة في التَّسْري من
الإشراك وهو مُطَّرد في

كل ملة، وفي نبينا ﷺ أسوة حسنة على الإطلاق لأنها في العقائد وفي أحكام الشرع كلها.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بِرَاءة﴾ على وزن فُعْلَاء، والهمزة الأولى لام الفعل، وقرأ عيسى الثقفي: ﴿بِرَاءة﴾ على وزن فُعال بكسر الفاء ككريم وِكِرَام، وقرأ يزيد بن القعقاع: ﴿بِرَاءة﴾ على وزن فُعال بضم الفاء ككُؤَام، وقد رُويت عن عيسى قراءة - قال أبو حاتم: زعموا أنه عيسى الهمداني -، «وَجُوز»: [بِرَاءة] على المصدر بفتح الباء، يُوصَفُ به الجمع والأفراد.

وقوله تعالى: ﴿كَرَّزْنَا بِكَ﴾ معناه: كذبناكم في أقوالكم ولم نؤمن بشيءٍ منها، ونظير هذا قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله عز وجل: «افهو مؤمن بي كافر بالكوكب»، ولم

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أَنُورٌ مِّنْ أَنُورٍ حَسَنَةٍ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
 وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١﴾ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ
 بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةَ اللَّهِ وَلَيُؤْتِيَنَّهُ اللَّهُ غَنُورًا مِّنْ
 بَيْنِهِمْ كَمَا هُوَ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْبِلُوا إِلَيْكُم فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخَرِّجُوا
 مِّن دِينِكُمْ أَنَّ يَبْرُؤُوهُ وَتُقَسِّطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ إِلَهَ الْغَنِيِّ لَذُو بَرَكَاتٍ
 ﴿٢﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا
 مِّن دِينِكُمْ وَظُهُرُ أَعْيُنِ أَخْرَاجِكُمْ أَنْ تَتَوَلَّوْهُم مِّن يَّوْمِكُمْ فَأُولَٰئِكَ
 هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ
 مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعْنَ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ
 فَلَا يَرَحُونَ إِلَى الْكَفَّارِ لَا هُنَّ لَكُمْ وَلَا يَحِلُّ لهنَّ وَأَنَّهُنَّ
 مَا أَتَفَقُوا إِلَّا بِحَبْلٍ عَلَيْهِنَّ نَكَحُوهُنَّ إِذَا دَخَلْتُمُوهُنَّ أَمْوَئًا
 وَلَا تَتَّبِعُوا بِهِنَّ الْكُفَّارَ وَسَلَامًا أَتَفَقَهُمْ وَلَسَلَامًا أَتَفَقُوا
 إِلَيْكُمْ حَكَمَ اللَّهُ بِكُمْ بَيْنَكُمْ بَيْنَهُم وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ وَإِن فَاتَكُمْ
 نَارٌ مِّنْ أَرَضَائِكُمْ إِلَى الْكَفَّارِ فَعَايِذُكُمْ فَأُولَٰئِكَ ذَهَبَتْ
 أَرْزَاقُهُمْ فَتَلَّ مَا أَتَفَقُوا وَأَتَفَقُوا اللَّهُ إِلَهُنَّ أَيْتُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾

يُلحق العلامة في [بَدَا] لَأَن تَأْنِيث
العداوة والبغضاء غير حقيقي.

ثم استثنى تعالى استغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه، فذكر أنه كان عن موعدة، وقد فسرنا ذلك في موضعه، وهذا استثناء ليس من الأول، والمعنى عند مجاهد، وقتادة، وعطاء الخراساني، وغيرهم أن الأسوة لكم في هذا الوجه لا في هذا الآخر لأنه كان في علّة ليست في نازلتكم، ويحتمل أن يكون الاستثناء من الثبري والقطيعة التي ذكرت، أي: لم تبق صلة إلا كذا.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾
الآية... حكاية عن قول إبراهيم
عليه الصلاة والسلام والذين معه أنه
هكذا كان.

٥ - ٧ تفسیر قوله عز وجل :
قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا جَعْمَلْنَا ﴾

الآية... حكاية عن إبراهيم عليه السلام ومن معه، والمعنى: لا تغلبهم علينا فتكون لهم فتنة وسبب ضلالة لأنهم يتمسكون بكفرهم ويقولون: إنما غلبناهم لأننا على الحق وهم على الباطل، نحا هذا المعنى قتادة، وأبو مجلز، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن أدياننا، فكأنه قال: لا تجعلنا مفتونين، فعبر عن ذلك بالمصدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أرجح الأقوال لأنهم إنما دعوا لأنفسهم، وعلى منحنى قتادة إنما دعوا للكفار، أما إن مقصدهم إنما هو أن يندفع عنهم ظهور الكفار الذي بسببه فتن الكفار، فجاء في المعنى تحليل بليغ، ونحوه قول النبي ﷺ: «بئس الميت سعد» لليهود؛ لأنهم يقولون: لو كان محمد نبياً لم يمت صاحبه.

وقوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ» الآية... خطاب لأمة محمد ﷺ، وقوله سبحانه: «لَنْ يَبْدُلَ مِنْ قَوْلِهِ» «لَكُمْ»، وكرر حرف الجر ليتحقق البدل، وذلك عرف هذه المبدلات، ومنه قوله تعالى: «لِلْفَقَرَةِ الْهَجْرِيَّةِ»، وهو في القرآن كثير، وأكثر ما يلزم من الحروف اللام، ثم أعلم تعالى باستغنائه عن العبادة، وأنه الحميد في ذاته وأفعاله، لا ينقص ذلك كفر كافر ولا نفاق منافق.

وَرُوي أن هذه الآيات لما نزلت وأزعم المؤمنون امتثال أمرها وضرم حبال الكفرة وإظهار عداوتهم،

لحقهم تأسف على قرباتهم أن لم يؤمنوا ولم يهتدوا حتى يكون بينهم الود والتواصل، فنزلت «عسى الله» الآية مؤنسة في ذلك، ومُرَجِيَّة أن يقع، فوقع ذلك بإسلامهم في الفتح، وصار الجميع إخواناً، ومن ذكر أن هذه المودة تزوج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان وأنها كانت بعد الفتح فقد أخطأ؛ لأن النبي ﷺ تزوجها وقت هجرة الحبشة، وهذه الآيات نزلت سنة ثمان من الهجرة، ولا يصح ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما إلا أن يسوقه مثلاً وإن كان متقدماً لهذه الآية لأنه استمر بعد الفتح كسائر ما نشأ من المودات، و«عسى» من الله واجبة الوقوع إن شاء الله.

١١ - تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في هؤلاء الذين لم ينه عنهم أن يتبرؤا منهم - فقال مجاهد: هم المؤمنون من أهل مكة الذين آمنوا ولم يهاجروا وكانوا لذلك في رتبة سوء لتركهم فرص الهجرة، وقال آخرون: أراد المؤمنين التاركين للهجرة كانوا من أهل مكة وغيرهم، وقال الحسن، وأبو صالح: أراد خُزاعة وبني الحارث وقبائل من العرب كفاراً إلا أنهم كانوا مظاهرين للنبي ﷺ، مُحِبِّين فيه وفي ظهوره، ومنهم كنانة وبنو الحارث بن عبد مناة ومُرِيَّة، وقال قوم: أراد من كفار قريش من لم يقاتل ولا أخرج ولا أظهر سوءاً، وعلى هذين القولين فالآية منسوخة بالقتال، وقال عبدالله ابن الزبير رضي الله عنهما: أراد النساء والصبيان من الكفرة، وقال:

إن الآية نزلت بسبب أم أسماء حين استأذنت النبي ﷺ في برها وصلتها فأذن لها، وكانت المرأة خالتها فيما روي فسئمتها في حديثها أمًا، وقال أبو جعفر بن النحاس، والشعلبي: أراد المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة، وهذا قول ضعيف، وقال مزة الهمداني، وعطية العوفي: نزلت في قوم من بني هاشم منهم العباس رضي الله تعالى عنه، وقال قتادة: نسختها «فَأَقْضُوا الشَّرِيعَةَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهَا». وقوله تعالى: «أَنْ يَبْرُؤُوا» بدل، وهذا هو بدل الاشتمال، و«الْإِقْسَاطُ»: العدل، و«وَلَا يَبْرُؤُوا» معناه: عاونوا، و«الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوهُمْ» مَرْدَةٌ قريش.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ» الآية... نزلت إثر صلح الحديبية، وذلك أن الصلح تضمن أن يَرُدَّ المؤمنون إلى الكفار كل من جاء مسلماً من رجل أو امرأة، فنقض الله تعالى من ذلك أمر النساء بهذه الآية، وحكم بأن المهاجرة المؤمنة لا تُرَدُّ إلى دار الكفر بل تبقى تستبرئ وتزوج، ويعطى زوجها الكافر الصداق الذي أنفق، وأمر أيضاً المؤمنين بطلب صداق من فرت امرأته من المؤمنين، وحكم تعالى بهذا في النازلة، وسماهنَّ تعالى مؤمنات قبل أن يَتَقَنَّ ذلك لأنه ظاهر أمرهن، و«مُهَجَّرَاتٍ» نصب على الحال، و«فَأَنْتَحِرْنَ» معناه: جربوهن واستخبروا حقيقة ما عندهن.

واختلف الناس في هذا الامتحان،

كيف كان؟ فقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة: كان بأن تُسْتَخْلَف المرأة أنها ما هاجرت لبغض زوجها، ولا بجريرة جَرَّتْهَا، ولا بسبب من أعراض الدنيا سوى حب الله تعالى ورسوله ﷺ والدَّار الآخرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: الامتحان أن تُطالب بأن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلت ذلك لم تُرد، وقال فريق منهم عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: هو أن تعرض عليها الشروط التي في الآية بعد هذا من ترك السرقة والزنى والبهتان والعصيان، فإذا أقرت المرأة بذلك فهو امتحانها، وقيل: إن هذه الآية نزلت في أميمة بنت بشر امرأة حسان بن الدحاحة، وفي كتاب الثعلبي أنها نزلت في سبيعة بنت الحارث.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِنتِهَى﴾ إشارة إلى الاسترابة ببعضهن، وحض على امتحانهن، وذكر تعالى العلة في ألا يُرَدَّ النساء إلى الكفار وهي امتناع الوطء وحُزْمَتُهُ، وقرأ طلحة: ﴿لَا هُنَّ يُخْلِلْنَ لَهُمْ﴾.

(١٠) - (١١) تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى بأن يُؤْتَى الكفار مهور نسائهن اللاتي هاجرن مؤمنات، ورفع الجناح في أن يتزوجن بعد إيتاء أجورهن، وأمر المسلمين بفراق الكافرات وألا يمسكوا بعضهن، فقيل: الآيات في عابדות الأوثان ومن لا يجوز نكاحها ابتداءً، وقيل: هي عامة تُسَخَّ منها نساء أهل الكتاب.

و «العِصْمُ» جمع عصمة، وهي أسباب الصحة والبقاء في الزوجية، وكذلك العصمة في كل شيء هي السبب الذي يُعْتَصَم به ويعتمد عليه، وقرأ جمهور السبعة والناس: ﴿تُنِكَوْا﴾ بضم التاء وكسر السين وتخفيفها، من «أَمَسَكَ»، وقرأ أبو عمرو وحده، وابن جبير، ومجاهد، والأعرج، والحسن - بخلاف: ﴿وَلَا تُنَسِّكُوا﴾، من «مَسَّكَ» بالشد في السين، وقرأ الحسن، وابن أبي ليلى، وابن عامر - في رواية عبد الحميد -: ﴿وَلَا تُنَسِّكُوا﴾ بفتح التاء والميم وفتح السين وشدّها، وقرأ الحسن: ﴿وَلَا تُنَسِّكُوا﴾ بفتح التاء وسكون الميم وكسر السين مخففة، ورأيت لأبي علي الفارسي أنه قال: سمعتُ الفقيه أبا الحسن الكرخي يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنِكَوْا بِعَصِمِ الْكَافِرِينَ﴾: إنه في الرجال والنساء، فقلت له: النحويون لا يرون هذا إلا في النساء؛ لأن «كَوَّافِر» جمع «كافرة»، فقال: وإيش يمنع من هذا؟ أليس الناس يقولون: طائفة كافرة وقرية كافرة؟ فَبُهِتُ وقلت: هذا تأييد.

وأمر الله تعالى أن يُسَأَلَ أيضاً الكافرون أن يدفعوا الصدقات التي أعطاهم المؤمنون لمن فر من أزواجهم إلى الكفار، وقر الحكم بذلك على الجميع، فروي عن ابن شهاب أن قريشاً قالت: نحن لا نرضى هذا الحكم ولا نلتزمه ولا ندفع لأحد صداقاً، فنزلت بسبب ذلك هذه الآية الأخرى ﴿وَإِنْ فَادَّكَ﴾ الآية، فأمر الله تعالى المؤمنين أن

يدفعوا إلى من فرّت زوجته ففاتت بنفسها إلى الكفار صداقه الذي أنفق، قال ابن عباس رضي الله عنهما - في كتاب الثعلبي -: خمس نسوة من نساء المهاجرين رجعن عن الإسلام ولَحِقْنَ بالمشركين: أم الحكم بنت أبي سفيان، وكانت تحت عياض بن شداد، وفاطمة بنت أبي أمية أخت أم سلمة، وكانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعبدية بنت عبد العزيز، كانت تحت هشام بن العاص. وأم كلثوم بنت جرول، كانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأعطاهم النبي ﷺ مهور نسائهم من الغنيمة.

واختلف الناس، من أي مال يُدفع إليه الصداق؟ فقال محمد بن شهاب الزهري: يُدفع إليه من الصدقات التي كانت تدفع إلى الكفار بسبب من هاجر من أزواجهم، أراد الله تعالى دفعها إليهم حين لم يرضوا حكمه حسب ما ذكرناه، وهذا قول صحيح يقتضيه قوله تعالى: ﴿فَعَايَظْتُمْ﴾، وسنبين ذلك عند تفسير اللفظة إن شاء الله تعالى، وقال مجاهد، وقتادة: يُدفع إليه من غنائم المغازي، وقال هؤلاء: المعاقبة هي الغزو والمغنم، وتأولوا اللفظة بهذا المعنى، وقال الزهراوي أيضاً: يُدفع إليه من أيّ وجوه الفيه أمكن.

و «المعاقبة» في هذه الآية ليست بمعنى مجازاة السوء بسوء، ولكنها بمعنى: قَصْرْتُمْ منهم إلى الحال التي صاروا إليها منكم، وذلك بأن يفوت إليكم شيء من أزواجهم، وهكذا هو

عليه من الحيض والحمل لفريته بهتان، وبعض أقوى من بعض، وذلك أن بعض الناس قال: ﴿يَبِّئْ يَزِيْرَهُ﴾ يراد به اللسان في الكلام، والفم في الثبلة ونحوها، و«بين الأَرْجُل» يراد به الفروج، ووُلِدَ الإلحاق ونحوه. و«المعروف» الذي نُهي عن العصيان فيه، قال أنس، وابن عباس، وزيد بن أسلم رضي الله عنهم: هو النُّوح وشق الجيوب ووشم الوجوه ووصل الشعر وغير ذلك من أوامر الشريعة فرضها وندبها.

ويُروى أن جماعة من النساء فيهن هند بنت عتبة - بايغن رسول الله ﷺ، فقرأ عليهن الآية، فلما قرَّرن على ألا يُشركن قالت هند: وكيف نطمع أن تقبل منا ما لم تقبله من الرجال، بمعنى أن هذا يَبِّئْ لزومه، فلما وقف على السُّرقة قالت: والله إني لأُصيب الهنة من مال أبي سفيان لا أدري ما يحلُّ لي من ذلك، فقال أبو سفيان - وكان حاضراً -: ذلك حلالٌ فيما مضى وبقي، وقال لها رسول الله ﷺ: «كُلِّي وولديك بالمعروف»، وقد تكرر هذا المعنى في الحديث الآخر، قولها: «إن أبا سفيان رجل مسيك»، فلما وقف على الزُّنى قالت: يا رسول الله وهل تزني الحُرَّة؟ قال لها رسول الله ﷺ: «لا، ما تزني الحُرَّة»، وذلك أن الزُّنى في قريش إنما كان في الإماء في أغلب الأمر، وفيما يعرف مثل هند، وإلا فالباغيا قد كُنَّ أحراراً، فلما وقف على قتل الأولاد قالت: نحن ربِّناهم صغاراً،

في القاف، وقرأ الأعرج أيضاً وأبو حيوة، والزهراري أيضاً: ﴿عَقَبْتُمْ﴾ بفتح القاف خفيفة، وقرأ الثَّخعي، والزهري أيضاً: ﴿عَقِبْتُمْ﴾ بكسر القاف، وكلها بمعنى: غَنَيْتُمْ، وزوي عن مجاهد: ﴿أَعَقَبْتُمْ﴾ بألف مقطوعة قبل العين. وهذه الآية كلها قد ارتفع حكمها. ثم ندب تعالى إلى التقوى وأوجبها، وذكر العلة التي بها تجب التقوى وهي الإيمان بالله تعالى والتصديق بوحدانيته وصفاته وعقابه وإنعامه.

١٢ - ١٣ تفسير قوله عز وجل: هذه بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا، وهي كانت في المعنى بيعة الرجال قبل فرض القتال، وسماهم تبارك وتعالى: «المؤمنات» بحسب الظاهر من أمرهن، ورفض الإشراك هو محض الإيمان، وقتل الأولاد هو من خوف الفقر والفاقة، وكانت العرب تفعل ذلك. وقرأ الحسن، وأبو عبد الرحمن: ﴿يَقْتُلْنَ﴾ بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء مشددة.

و «الإثنيان بالبهتان» قال أكثر المفسرين: معناه أن تُنسب إلى زوجها ولدًا ليس هو له، واللَّفْظُ أعم من هذا التخصيص، وإن الفرية بالقول على أحد من الناس بعظيمة لمن هذا، وإن الكذب فيما أوْتُمِنَ

بَيِّنَاتُ النَّبِيِّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ بَيِّنَاتٌ عَلَيْكَ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَضْرِبْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْ لَدُهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِمُتَهَنِّينَ يَقْرَبْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَرْجُلَهُنَّ وَلَا يَصْنَعْنَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسُؤُا مِنَ الْكَافِرِينَ أَصْحَابُ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

سُورَةُ الْمَتَحْنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُومٍ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ تَقُولُونَ لَقَدْ رَأَوْا نَرَضًا وَاللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾

٥٥١

التعقيب على الحمل والدواب، أن يركب هذا عُقْبَةً وهذا عُقْبَةً، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَلِنْ فَاتَكُمُ أَخَذَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾، ويقال: عاقب الرجل صاحبه في كذا، أي: جاء فعل كل واحد منهما بعقب ففعل الآخر، ويقال: أعقب الرجل، ومنه قول الشاعر:

وَحَارَزَتِ الثُّكْدُ الْجِلَادَ وَلَمْ يَكُنْ لِعُقْبَةٍ قَدْرُ الْمُسْتَعِيرِينَ مُعْقِبُ وَيَقَال: عَقَبَ - بشد القاف - أي: أصاب عُقْبِي، والتَّعْقِيبُ: غَزْوٌ إِثْرُ غَزْوٍ، ويقال: عَقَبَ - بتخفيفها -، ويقال: عَقِبَ - بكسرها -، كل ذلك بمعنى يقرب بعضه من بعض، ويجمع ذلك قُربى. وقرأ الجمهور الناس: ﴿عَاقَبْتُمْ﴾، وقرأ الأعرج، ومجاهد، والزهري، وعكرمة، وحמיד: ﴿عَقَبْتُمْ﴾ بالتشديد

وقتلهم أنت ببدرك كباراً، فضحك رسول الله ﷺ، فلما وقف على العصيان في المعروف قالت: ما جلسنا هذا المجلس وفي أنفسنا أن نعصيك، ويروى أن جماعة نساء بايعن النبي ﷺ فقلن: يا رسول الله نبايعك على كذا وكذا الآية. فلما فرغن قال رسول الله ﷺ: «فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ»، فقلن: الله ورسوله أرحم بنا ممّا بأنفسنا.

وقوله تعالى: ﴿فَيَايَهُنَّ﴾ معناه: امض معهن صفقة الإيمان بأن يُعْطِينَ ذلك من أنفسهن ويُعْطِينَ عليه الجنة، واختلفت هيئات مبايعة رسول الله ﷺ النساء بعد الإجماع على أنه لم تمسّ يده الشريفة يد امرأة أجنبية - فيروى عن عائشة رضي الله عنها وغيرها أنها قالت: إنه بايع النساء قولاً، وقال: «إنما قلتي لمائة امرأة كقولتي لامرأة واحدة»، وقالت أسماء بنت يزيد بن السكن: كنت في النسوة المبايعات، فقلت: يا رسول الله، أبسط يدك نبايعك، فقال لي ﷺ: «إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ لَكِنْ أَخَذُ عَلَيْهِنَّ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِنَّ»، وذكر النقاش حديثاً أن النبي ﷺ مدّ يده المكرمة من خارج بيت، ومدّ نساء من الأنصار أيديهن من داخله فَبَايَعْنَ، وما قَدَمْتُهُ أثبت، وروى عن الشعبي أنه ﷺ لفّ ثوباً كثيفاً على يده، وجاء نسوة فَلَمَسْنَ يده كذلك، وروى عن الكلبي أنّه قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلمس النساء يده وهو خارج من بيتٍ وهُنَّ فيه لا يراهُنَّ، وذكر النقاش وغيره أن

النبي ﷺ بايعه النساء بمكّة على الصّفا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يصفّحهن، وروى من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه، رفعه النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن عروة بن مسعود الثقفي أنه ﷺ غَمَسَ يده في إناء فيه ماء، ثم دفعه إلى النساء يغتمسن أيديهن فيه. ثم أمره تبارك وتعالى بالاستغفار لهنّ، ورجأهنّ في غفرانه ورحمته بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، قال ابن زيد، والحسن، ومنذر بن سعيد: هم اليهود لأن غضب الله عزّ وجلّ قد صار عرفاً لهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم في هذه الآية كفار قريش؛ لأن كل كافر فعلية غضب الله تعالى لا يردّ ذلك ثبوت غضب الله على اليهود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا سيّما في المردة ككفار قريش، إذ أعمالهم معصية ليست بمجرد ضلال بل فيها مناورات مقصودة، وفي الكلام في التشبيه الذي في قوله تعالى: ﴿كَمَا يَبِيسُ﴾ يتبيّن الاحتياج إلى هذا الخلاف، وذلك أن اليأس من الآخرة إمّا أن يكون بالكذب بها، وهذا هو يأس كفار مكة، وإمّا أن يكون باليأس عن الحظ فيها والنعمة مع التصديق بها، وهذا هو يأس اليهود، فمن قال إن القوم المشار إليهم هم كفار مكّة قال: معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا يَبِيسُ﴾

الْكُفَّارُ: كما يبس الكافر من صاحب قبر؛ لأنّه إذا مات له حميم قال: هذا آخر العهد به، لن يبعث أبداً، فمعنى الآية أن اعتقاد أهل مكّة في الآخرة كاعتقاد الكافر في البعث ولقاء موته، وهذا هو تأويل ابن عباس، والحسن، وقادة في معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا يَبِيسُ الْكُفَّارُ﴾.

ومن قال إن القوم المشار إليهم هم اليهود قال: معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا يَبِيسُ الْكُفَّارُ﴾: كما يبس الكافر من الرّحمة إذا مات وكان صاحب قبر، وذلك أنه يروى أن الكافر إذا كان في قبره عُرض عليه مقعده من الجنة إن لو كان مؤمناً، ثم يُعرض عليه مقعده من النار الذي يصير إليه، فهو يائس من رحمة الله تعالى مع علمه بها ويقينه، وهذا تأويل مجاهد، وابن جبير، وابن زيد في قوله تعالى: ﴿كَمَا يَبِيسُ الْكُفَّارُ﴾، فمعنى الآية أن يأس اليهود من رحمة الله تعالى في الآخرة مع علمهم بها كيأس ذلك الكافر في قبره، وذلك لأنهم قد رين على قلوبهم، وحملهم الحسد على ترك الإيمان، وغلب على ظنونهم أنهم مُعَذَّبُونَ، وهذه كانت صفة كثير من مُعاصري النبي ﷺ.

و ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ على القول الأول لابتداء الغاية، وفي القول الثاني هي لبيان الجنس أو للتبويض، يتوجهان فيها، وبيان الجنس أظهر.

كامل تفسير سورة الممتحنة
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الصف

وهي مدنية في قول الجمهور، وقال مكّي عن ابن عباس رضي الله عنهما، والمهدوي عن عطاءٍ ومجاهد: إنها مكيّة، والأول أصح لأن معاني السورة تعضده، ويشبه أن يكون فيها المكّي.

① - ⑤ تفسير قوله عز وجل:

قد تقدّم القول غير مرّة في تسبيح الجمادات، و«العزير» في سلطانه وقدرته، و«الحكيم» في أفعاله وتدبيره، واختلف الناس في السبب الذي نزلت فيه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ - فقال ابن عباس، وأبو صالح: نزلت بسبب أن جماعة قالوا: لوددنا أن نعرف أجب الأعمال إلى ربنا حتى نعني به، ففرض الله تعالى الجهاد، وأعلمهم بفضل له، وأنه يحب المقاتلين في سبيله كالبنين المرصوص، وكان إذ فُرض قد تكبره قوم منهم، وفُر من فُر يوم أحد، فعاتبهم الله تعالى بهذه الآية، وقال قتادة والضحاك: نزلت بسبب أن جماعة من شباب المسلمين كانوا يتحدثون عن أنفسهم في الغزو بما لم يفعلوا، ويقولون فعلنا وصنعنا، وذلك كذب، فنزلت الآية في ذلك، وقال ابن زيد: نزلت في المنافقين لأن جملة منهم كانوا يقولون للمؤمنين: نحن منكم ومعكم، ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك، فنزلت الآية عتاباً لهم.

وحكم هذه الآية باق غابر الدهر، وكل من يقول ما لا يفعل فهو ممقوت مذق الكلام، والقول الأخير في المنافقين إنما يتوجه بأن يكونوا غير مُجَلِّحين بالنفاق، فلذلك خوطبوا بالمؤمنين، أي: في زعمكم وما تظهرون، والقول الأول يترجح بما يأتي بعد من أمر الجهاد والقتال.

و«المَقْتُ»: البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت، هذا حدُّ المقت، فتأمل، و«مَقْتًا» نصب على التمييز، والتقدير كُبر فعلكم مقتاً، والمراد: كبر مَقْتُ فِعْلِكُمْ، فحذف المضاف إليه ونصب المضاف على التمييز، وهذا كما تقول: تَفَقَّأَ شَحْمًا بَطْنُكَ، ثم تقول: تَفَقَّأَ بَطْنُكَ شَحْمًا، و«أَن تَقُولُوا» يحتمل أن يكون بدلاً من المقدر، ويحتمل أن يكون خبر ابتداءٍ مضمر، ويحتمل - على غير هذا التقدير - أن يكون فاعلاً بـ ﴿كَبَّرَ﴾، وقول المرء ما لا يفعل يوجب مقت الله تعالى، ولذلك فُر كثير من العلماء من الوعظ والتذكير وآثروا السكوت.

ثم أكد تعالى الإخبار بمحبته للمقاتلين صفًا، ومحبة الله تعالى هي ما يظهر عليهم من نصره وكرامته، وهي هنا صفة فعل وليست بمعنى الإرادة لأن الإرادة لا يصح أن يقع ما يخالفها، ونحن نجد المقاتلين على غير هذه الصفة كثيرًا، وقال بعض الناس: قتال الرُّجَالَةِ أفضل من قتال الفرسان لأن الشَّرَاصَ فيه يتمكن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف خفي على قائله مقصد الآية، وليس المراد نفس التصفاء، وإنما المقصد الجد في كل أوطان القتال وأحواله، وقصد بالذِّكْر أشد الأحوال وهي الحالة التي تخرج إلى القتال صفًا متراضًا، ونابت هذه الحال المذكورة مناب جميع الأحوال، وقضت الآية بأن الذين يبلغ جُدُّهم إلى هذه الحال حُرِّيُونَ أَلَا يُقْصَرُوا عَنْ حَالٍ، و«الْمَرْصُوصُ»: المصروف المُتَضَام، وقال أبو بَخْرِيَّة: «إذا رأيتموني ألتفت في الصف فجزوا فؤادي»، ومنه قول الشاعر:

بِالشَّامِ بَيْنَ صَفَائِحِ
صُمِّ تَرْصُصٍ بِالْجُثُوبِ
وقال منذر بن سعيد، والفراء، وغيرهما: المرصوص: المعقود بالرصاص، وهذا يحتمل أن يكون أصل اللفظة.

ثم ذكر تعالى مقالة موسى عليه السلام، وذلك ضرب مثل للمؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون، ذكَّره الله تعالى بقوم آذوا نبيهم على علم منهم بنبوته، وَزَاغُوا فَأَزَاغَ اللهُ تعالى قلوبهم، فاحذروا أيها المؤمنون أن يُضَيَّرَكم العصيان وقول الباطل إلى مثل حالهم، وقال أبو أمامة: هم الخوارج، وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: هم الحرورية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: المعنى أنهم أشباههم في أنهم لما زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ تعالى قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ تقرير، والمعنى: تؤذونني بتعنتكم

وَأَقْرَبَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَئِن رَّسُولَ اللَّهِ لَشَيْءٌ مُّصِداً
لِّمَا يَنبَغِي مِنَ التَّوْبَةِ وَنَبَشِّرُ الرَّسُولَ بِأَن يَأْتِيَنَّ مِنْ بَعْدِي سِتْرَةٌ أَهْمُهُ أَحَدٌ فَلَمَّا
جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ
عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾
يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَنُورِهِمْ وَاللَّهُ مَعَهُمْ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ
الْكُفْرُونَ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذْكَرُ
عَلَى بَعْضِ نَجْمِكُمْ مِنَ عَالَمِ الْإِيمِ ﴿١٤﴾ تَوَّشَّعُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُبْهِرُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾
يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَهُوَ مُجِبٌ عَلَىٰ نَجْوَى الْأَنْهَارِ وَيُصَلِّحُ
طَيِّبَةً فِي حَبْنِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٦﴾ وَآخِرُ نَجْوَى النَّصْرِ
مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا
أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ
قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَمَثَّلَ طَائِفَةٌ مِنْهُنَّ بِنُوحٍ ابْنِ نوحٍ
وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا

أوقعت الاسم على
مسماه، وفي هذه الآية
إنما أراد: اسمه هذه
الكلمة، وذكر أبو علي
هذا العرض، ومنه ينفك
إعراب قوله تعالى:
﴿يَقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، وقرأ
ابن كثير، وأبو عمرو،
ونافع، وعاصم - في
رواية أبي بكر -: ﴿مِنْ
بَغْدِي﴾ بفتح الياء، وقرأ
ابن عامر، وحمزة،
والكسائي، وعاصم - في
رواية حفص -: ﴿مِنْ
بَعْدِي﴾ بسكون الياء.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا
جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآية...

يحتمل أن يريد عيسى عليه
السلام، وتكون الآية وما بعدها
تمثيلاً بأولئك لهؤلاء المعاصرين
لمحمد ﷺ، ويحتمل أن يكن
التمثيل قد فرغ عند قوله:
﴿أَخَذْ﴾، ثم خرج إلى ذكر
أحمد، لما تفرَّق ذكره فقال تعالى
مخاطبة للمؤمنين: فلما جاء أحمد
هؤلاء الكفار قالوا: هذا سحر
مبين، و«الْبَيِّنَات» هي الآيات
والعلامات، وقرأ جمهور الناس:
﴿هَذَا سِحْرٌ﴾ إشارة إلى ما جاء به،
وقرأ ابن مسعود، وطلحة،
والأعمش، وابن وثاب: ﴿هَذَا
سَاحِرٌ﴾ إشارة إليه بنفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ تعجب
وتقرير، أي لا أحد أظلم منه،
و«افتراء الكذب» هو قولهم: «هذا

وعصيانكم واقتراحاتكم، وهذه كانت
أفعال بني إسرائيل.

وانظر أنه تعالى أسند الزَّيْغ إليهم
لكونه فعل حطیطة، كما قال
تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَتْهُمُ
أَنفُسُهُمْ﴾، وهذا بخلاف قوله
تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾
فقد أسند التوبة إلى نفسه لكونها
فعل رفعة، ومنه قوله تعالى حكاية
عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا
مَرَضْتُ فَهُوَ يَافِقُ﴾، و«زَاغَ»
معناه: مال، وصار عُرفها
في الميل عن الحق، و«أَزَاغَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ﴾ معناه: طبع عليها وختم
وكثُرَ مِيلُهَا عَنِ الْحَقِّ، وهذه
العقوبة على الذنب بالذنب، وأمال
ابن أبي إسحق «زَاغُوا».

٦ - ٨ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر يا محمد إذا قال
عيسى - عليهما الصلاة والسلام -،
وهذا مثال آخر ضربه الله تعالى
لكفار قریش، وحكي عن موسى
عليه السلام أنه قال: ﴿يَنْقُورُ﴾
وعن عيسى عليه السلام أنه قال:
﴿يَنْبِيئُ إِسْرَءِيلَ﴾ من حيث لم يكن
له فيهم أب. و«مُصَدِّقًا» حال
مؤكد، و«وَبَشِّرًا» عطف عليه،
وقوله: ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾ وقوله:
﴿أَتَمَّهُ أَخَذَ﴾ جملتان كل واحدة
منهما في موضع خفض على
الصفة لـ «رَسُولٌ»، و«أَخَذَهُ» فعل
سَمِي به، ويحتمل أن يكون أفعَل
كأسود، وهو في هذه الآية للكلمة
لا الشخص، وليست على حدِّ
قولك: جاءنا أحمد؛ لأنك ها هنا

سحر» وما جرى مجرى هذا من
الأقوال بغير دليل، وقرأ الجمهور:
﴿يَذْعِي﴾ على بناء الفعل للمفعول،
وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿يَذْعِي﴾
بمعنى: ينتمي وينتسب، ومن ذلك
قول الشاعر:

فَرَمَيْتُ فَوْقَ مُلَاةٍ مَخْبُوكَةٍ
وَأَبْنَيْتُ لِلْأَشْهَادِ حَزْرَةً أَدْعِي
والمعنى - على هذه القراءة -
إنما هو إشارة إلى الأنبياء عليهم
السلام، لما حكى عن الكفار أنهم
قالوا: «هذا سحر» بين بعد ذلك
أن العقل لا يقبله، أي: وهل
أظلم من هذا الذي يزعم أنه نبيُّ
ويُدْعَى إلى الإسلام. وهو مع ذلك
مُفْتَرٍ على ربِّه؟ وهذا دليل واضح
لأن مسالك أهل الافتراء والمُخَرَّجَةَ
إنما هي دون هذا وفي أمور
خسيسة، وضبط النقاش هذه

القراءة ﴿يُدْخِي﴾ بضم الياء وفتح الدال المشددة على ما لم يسم فاعله.

والضمير في ﴿يُرِيدُونَ﴾ للكفار، واللام في قوله تعالى: ﴿لِيَلْزَمُوا﴾ لام مؤكدة دخلت على المفعول؛ لأن التقدير: يريدون أن يطفثوا، وأن مع الفعل في تأويل المصدر، فكأنه تعالى قال: يريدون إطفاء، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدم، تقول: ليزيد ضربت ولزؤيتك قصدت. وثور الله هو شرعه سبحانه وإبراهيمه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَأْتُوهُمْ﴾ إشارة إلى الأقوال، أي بقولهم: سخر وشغر وتكهن وغير ذلك.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وابن محيصن، والحسن، وطلحة، والأعرج: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّهُ﴾ بالتشوين ﴿ثَوْرَهُ﴾ بالنصب، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والأعمش: ﴿وَاللَّهُ تَمِّمُ ثَوْرَهُ﴾ بالإضافة، وهي في معنى الانفصال، وفي هذا نظر.

١٣ - تفسير قوله عز وجل:

هذا تأكيد لأمر الرسالة وشدة لأزرها، كما يقول الإنسان لأمر يشبهه ويقرّبه: أنا فعلته، أي: فمن يقدر على معارضة فليعارض، والرسول المشار إليه هو محمد ﷺ، وقوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِينَ كَلِمَةٌ﴾ لفظ يصلح للعموم، وأن يكون المعنى: ألا يبقى موضع فيه دين غير الإسلام، وهذا لا يكون إلا عند

نزل عيسى عليه السلام، قاله أبو هريرة، ومجاهد، ويحتمل أن يكون المعنى: أن يظهره حتى لا يوجد دين إلا والإسلام أظهر منه، وهذا قد كان ووجد.

ثم ندب تعالى المؤمنين وحضهم على الجهاد بهذه التجارة التي بينها، وهي أن يعطي المرء نفسه وماله ويأخذ ثمناً جنة الخلد، وقرأ جمهور الناس والقراء: ﴿تُجِبُّكُمْ﴾ بتخفيف النون وكسر الجيم دون شد، وقرأ ابن عامر وحده، والحسن، والأعرج، وابن أبي إسحق: ﴿تُجَبِّيْكُمْ﴾ بفتح النون وشد الجيم، وقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر، أي: آمنوا، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿أَلَيْمٌ، آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا﴾. وقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ فعل مرفوع تقديره: ذلك أنه تؤمنون، وقال الأخفش: هو عطف ببيان على ﴿تَجِبُّكُمْ﴾، قال المبرد: هو بمعنى: آمنوا على الأمر، ولذلك جاء ﴿يَقْبِزُ﴾ مجزوماً، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى الجهاد والإيمان، و﴿خَيْرٌ﴾ هنا يحتمل أن يكون للتفضيل، فالمعنى: من كل عمل، ويحتمل أن يكون إخباراً أن هذا خير في ذاته ونفسه.

والجزم في قوله تعالى: ﴿يَقْبِزُ﴾ على الجواب للأمر المقدر في ﴿تُؤْمِنُونَ﴾، أو على ما يتضمنه قوله: ﴿هَلْ أَذِلُّكُمْ﴾ من الحض والأمر، وإلى نحو هذا ذهب الفراء، وزوي عن أبي عمرو بن

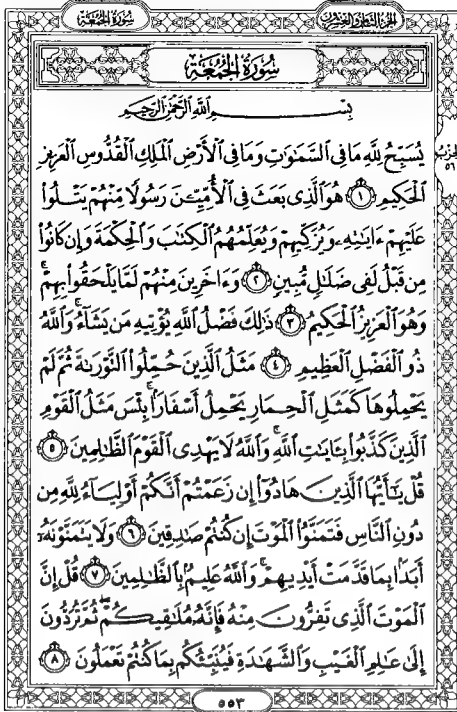
العلاء أنه قرأ: ﴿يَغْفِلُكُمْ﴾ بإدغام الراء في اللام، ولا يجوز ذلك سيبويه، وقوله تعالى: ﴿وَسَنُكِنُّكُمْ﴾ عطف على ﴿جَنَّتْ﴾، و﴿طِيبُ المساكين﴾: سَعَتُهَا وجمالها، وقيل: طيبها المعرفة بدوام أمرها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الصحيح، وأي طيب مع الفناء والموت؟

١٤ - تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى﴾، قال الأخفش: هي في موضع خفض عطفاً على ﴿تَجِبُّكُمْ﴾، وهذا قول قلق قد ردّ عليه ناس واخترج له آخرون، والصحيح ضعفه لأن هذه «الأخرى» ليست ممّا دلت عليه، إنما هي ممّا أعطي ثمناً جزاءً على الإيمان والجهاد بالنفس والمال. وقال الفراء: ﴿وَأُخْرَى﴾ في موضع رفع، وقال قوم: ﴿أُخْرَى﴾ في موضع نصب بإضمار فعل، كأنه تعالى قال: يغفر ذنوبكم ويدخلكم جنات ويمنحكم أخرى وهي النصر والفتح القريب، وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿نُصْرًا مِنْ اللَّهِ وَفَتْحًا﴾ بالنصب فيهما، ووصفها تعالى بأن النفوس تحبها من حيث هي عاجلة في الدنيا، وقد وكلت النفس بحب العاجل، ففي هذا تحريض، ثم قوّاه تعالى بقوله: ﴿وَيُشِيرُ الْكُوفِينَ﴾، وهذه الألفاظ في غاية الإيجاز وبراعة المعنى.

ثم ندب الله تعالى المؤمنين إلى النصر، ووضع لهم هذا الاسم وإن كان العزف قد خص به



بمحمد ﷺ، وذلك أنه لا يؤمن أحد حق الإيمان بعيسى عليه السلام إلا وفي ضمن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأنه بشر به وحرّض عليه، وقيل: كان المؤمنون قديماً به ظاهرين بالحجة وإن ظلّوا مفترقين في البلاد، مغلوبين في ظاهر الحياة الدنيا، وقرأ مجاهد، وخميد، والأعرج، وابن محيصن: ﴿فَإَيْدُنَا﴾ مخففة الياء ممدودة الألف.

كامل تفسير سورة الصّف والحمد لله ربّ العالمين

تفسير سورة الجمعة

وهي مدنيّة، وذكر النقاش قولاً أنها مكّيّة، وذلك خطأ ممّن قاله؛ لأنّ أمر اليهود لم يكن إلاّ بالمدينة، وكذلك أمر الجمعة لم يكن قط بمكّة، أعني إقامتها وصلاتها، وأمّا أمر الانفضاض فلا مرية في كونه بالمدينة، وذكر النقاش عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كُنّا جلوساً عند رسول الله ﷺ حين نزلت سورة الجمعة، وهذا أيضاً ضعيف؛ لأنّ أبا هريرة رضي الله عنه إنّما أسلم أيام خير.

الأوس والخزرج، وسّمّاهم الله تعالى به. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والأعرج، وعيسى: ﴿أَنْصَارًا﴾ مثنوياً [له]، وقرأ الباقون، والحسن، والجحدري بالإضافة، وفي حرف عبدالله: ﴿أَنْتُمْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.

ثم ضرب تعالى المثل بقوم بادروا حين دُعوا، وهم الحواريون، والحواريون خُلصان الأنبياء عليهم السلام، سُمّوا بذلك لأنه ردّد اختيارهم وتصفيتهم وكذلك ردّد تخيل الحوار، واللفظتان من «الْحَوْر»، وقيل: سُمّوا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا غسّالين نصرّوا عيسى عليه السلام، واستعمل اسمهم حتى قيل للناصر العاضد: حوارى، وقال النبي ﷺ: «حواري الزبير»، واقتراق طوائف بني إسرائيل هو في أمر عيسى عليه السلام، قال قتادة: والطائفة الكافرة ثلاث فرق: اليعقوبية وكلّهم قالوا: هو الله، والإسرائيلية وهم قالوا: هو ابن الله، والنسطورية وهم قالوا: هو إله، وأمه إله، والله تعالى ثالثهما، تعالى الله سبحانه عن أقوالهم علّوا كبيراً.

قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾، قيل: ذلك قبل محمد ﷺ، وبعد فترة من رفع عيسى عليه السلام، ردّد الله تعالى الكثرة عليهم لمن آمن به فغلبوا الكافرين الذين قتلوا صاحبه الذي ألقى عليه الشبه، وقيل: ذلك لمحمد ﷺ، أصبح المؤمن بعيسى عليه السلام ظاهراً لإيمانه

① - ② تفسير قوله عز وجل:

تقدّم القول في مثل ألفاظ الآية الأولى بأجمعها، واختلفت القراءة في إعراب الصفات في آخرها، فقرأ جمهور الناس: ﴿الَّذِينَ﴾ بالخفض نعتاً [له]، وكذلك ما بعده، وقرأ أبو وائل شقيق، ومسلمة، وأبو الدينار: ﴿الْعَمَلِكُ﴾ بالرفع على القطع، وكذلك ما بعده، وفتح أبو الدينار القاف من ﴿الْقُدُوسِ﴾.

و «الْأُمِّيُّونَ» يراد بهم العرب، والأُمّي في اللغة: الذي لا يكتب ولا يقرأ، منسوب إلى «أم القرى» وهي مكّة، وهذا ضعيف؛ لأنّ الوصف بالأميين - على هذا - يقف على قريش. وإنما المراد جميع العرب، وفيهم قال النبي ﷺ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَحْسِبُ وَلَا نَكْتُبُ، الشهر هكذا وهكذا»، وهذا الآية تعديد نعم الله

تعالى عليهم فيما أولاهم، و«الآيات المثلوة»: القرآن، و«يُرَكِّبُهُمْ» معناه: يطهرهم من الشرك، وينمي الخير فيهم، و«الكتاب»: الوحي المثلث، و«الحكمة»: السنة التي هي على لسانه عليه الصلاة والسلام.

ثم أظهر تعالى تأكيد النعمة بذكر حالهم التي كانت في الضد من الهداية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَن كَانُوا مِن قَبْلُ لَنِي ضَلُّكِلْمُتَيْنِ﴾، و«آخِرِينَ» في موضع خفض عطفاً على «الْأَوَّلِينَ»، أو في موضع نصب عطفاً على الضمائر المتقدمة، واختلف الناس في المغنيين بقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَهُمْ» فقال أبو هريرة رضي الله عنه وغيره: أراد فارس، وقد سئل رسول الله ﷺ: من الآخرون؟ فأخذ بيد سلمان الفارسي رضي الله عنه وقال: «لو كان الدين في الثريا لناله رجال من هؤلاء»، خرجه مسلم، وقال سعيد بن جبير، ومجاهد: أراد الروم والعجم، فقوله تعالى: ﴿وَيُنْهَهُمْ» - على هذين القولين - إنما يريد به: في البشرية والإيمان، كأنه تعالى قال: وآخريين من الناس، وقال مجاهد أيضاً، وعكرمة، ومقاتل: أراد التابعين في أبناء العرب، فقوله تعالى: ﴿وَيُنْهَهُمْ» يريد به النسب والإيمان، وقال ابن زيد، ومجاهد، والضحاك، وابن حبان: أراد بقول تعالى: ﴿وَأَخْرَجَهُمْ» جميع طوائف الناس، ويكون «وَيُنْهَهُمْ» في البشرية والإيمان على ما قلناه، وذلك أننا نجد بعثه عليه الصلاة

والسلام إلى جميع الخلائق، وقال ابن عمر رضي الله عنهما لأهل اليمن: أنتم هم.

وقوله تعالى: ﴿لَنَّا يَلْحَقُوا» نفى لما قُرب من الحال، والمعنى أنهم مزعمون أن يلحقوا بهم، وهي «لم» زيدت عليها «ما» تأكيداً، قال سيبويه: «لَمَّا» نفى قولك: «قد فعل»، و«لَمْ» نفى قولك: «فعل» دون «قَدْ».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا فَضْلَ اللَّهِ» الآية... تبيين لموقع النعمة وتخصيصه إليهم بها.

٥ - ٨ تفسير قوله عز وجل:

الذين حُمِلُوا التوراة هم بنو إسرائيل والأحبار المعاصرون لرسول الله ﷺ، و«حُمِلُوا» معناه: كُلِّفُوا القيام بأوامرها ونواهيها، فهذا كما حمل الإنسان الأمانة، وليس ذلك من الحمل على الظهر وإن كان مُشْتَقّاً منه، وذكر تعالى أنهم لم يَحْمِلُوها، أي: لم يُطِيقُوا وَيَقْفُوا عند حدّها حين كذبوا بمحمد ﷺ والتوراة تنطق بِبُتُوته، فكأن كل خير لم ينتفع به من حُمِلَ، كمثل حمارٍ عليه أسفارٌ فهي عنده والزبل وغير ذلك بمنزلة واحدة.

وقرأ يحيى بن يَعْمَر: «حَمَلُوا» بفتح الحاء والميم مخففة، وقرأ المأمون العباسي: «يَحْمَلُ» بضم الياء وفتح الحاء وشد الميم المفتوحة، وفي مصحف ابن مسعود: «كَمَثَلِ حِمَارٍ» بغير تعريف، و«السُّفْرُ»: الكتاب المجتمع الأوراق مُنْضَدة، ثم بيّن تعالى حال مثلهم وفساده بقوله سبحانه: ﴿يَشَسْ

مَثَلُ الْقَوْمِ»، والتقدير: بش المثل مثل القوم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ بَنَاتُكَ الَّذِينَ هَادُوا» الآية. روي أنها نزلت بسبب أن يهود المدينة لما ظهر رسول الله ﷺ خاطبوا يهود خيبر في أمره، فذكروا بُتُوته، وقالوا لهم: إن رأيتم أتباعه أطعناكم، وإن رأيتم خلافه خالفناكم معكم، فجاءهم جواب أهل خيبر يقولون: نحن أبناء إبراهيم خليل الرحمن، وأبناء عزير ابن الله، ومثا الأنبياء، ومتى كانت البُتوة في العرب؟ نحن أحق بالنبوة من محمد - عليه الصلاة والسلام -، ولا سبيل إلى اتباعه، فنزلت الآية بمعنى: إنكم إذا كنتم من الله بهذه المنزلة فقربه وفراق هذه الحياة الخسيسة أحب إليكم فتمنوا الموت إن كنتم صادقين تعتقدون في أنفسكم هذه المنزلة.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم لا يَتَمَتُّونَهُ ولا يَلْقُونَهُ إِلَّا كَرَهًا لعلهم بسوء حالهم عند الله تعالى وبعدهم عنه، هذا هو اللازم من ألفاظ الآية، وروي كثير من المفسرين أن الله تعالى جعل هذه الآية معجزة لمحمد ﷺ، وآية باهرة، وأعلمه أنه إن تمنى أحد منهم الموت في أيام معدودة مات وفارق الدنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «تمنوا الموت» على جهة التعجيز وإظهار الآية، فما تمناه أحد خوفاً من الموت وثقةً بصدق محمد ﷺ.

ثم توعدهم تعالى بالموت الذي لا محيد لهم عنه، ثم بما بعده من الرُذِّ إلى الله تعالى، وقرأ ابن مسعود

رضي الله عنه: ﴿تَفِرُّونَ مِنْهُ مَلَأَيْكُمْ﴾ بإسقاط ﴿يَأْتِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَيَنْتَحِمُ﴾ أي: إنباء معاقب مجاز عليه بالتعذيب، وقرأ ابن أبي إسحق: ﴿فَتَمَتُّوا الْمَوْتَ﴾ بكسر الواو، وكذلك يحيى بن يعفر.

٩ - ١١ تفسير قوله عز وجل:

النداء بالجمعة هو في ناحية المسجد، وكان على الجدار في مسجد رسول الله ﷺ، وقال السائب بن يزيد: كان للنبي ﷺ مؤذن واحد على باب المسجد، وفي مصحف أبي داود: وكان بين يديه وهو على المنبر أذان، وهو الذي استعمل بنو أمية، وبقي بقرطبة إلى الآن، ثم زاد عثمان رضي الله عنه النداء على الزوراء يُسمع الناس، فقوم عبّروا عن زيادة عثمان بالثاني كأنهم لم يعتدوا الذي كان بين يدي النبي ﷺ، وقوم عبّروا عنه بالثالث. وقرأ ابن الزبير، والأعمش: ﴿الْجُمُعَةُ﴾ بإسكان الميم، وهي لغة.

والمأمور بالسعي هو المؤمن الصحيح البالغ الحُرّ الذَّكَرُ، ولا جمعة على مسافر في طاعة، فإن حضرها أحسن وأجزته، واختلف الناس في الحد الذي يلزم منه السعي - فقال مالك: ثلاثة أميال من منزل الساعي إلى المنادي، وقال فريق: من منزل الساعي إلى أول المدينة التي فيها النداء، وقال أصحاب الرأي: يلزم أهل المدينة كلها السعي من سمع النداء ومن لم يسمع وإن كانت أقطارها فوق الثلاثة أميال،

وقال أبو حنيفة: ولا يلزم من منزله خارج المدينة كزرارة من الكوفة، وإنما بينهما مجرى نهر، ولا تجوز لهم إقامتها لأن من شروطها الجامع والسلطان القاهر والسوق القائمة، وقال بعض أهل العلم: السعي من خمسة أميال، وقال الزهري: من ستة أميال، وقال أيضاً: من أربعة أميال، وقال ابن المنكدر، وقال ابن عمر، وابن المسيب، وابن حنبل: إنما يلزم السعي من سمع النداء، وفي هذا نظر.

والسعي في الآية ليس الإسراع في المشي كالسعي بين الصفا والمروة، وإنما هو بمعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾، فالقيام والوضوء ولبس الثوب والمشى سعي كله إلى ذكر الله تعالى، قال الحسن، وقتادة، ومالك، وغيرهم: إنما تؤتى الصلاة بالسكينة، والسعي هو بالثبته والإرادة والعمل، والذَّكَرُ هو وعظ الخطبة، قاله ابن المسيب، ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَلِأَوَّلٍ، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ طُوِيتِ الصُّحُفُ وَجَلَسَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمْعُونَ الذِّكْرَ»، والخطبة عند جمهور العلماء شرط في انعقاد الجمعة، وقال الحسن: هي مستحبة، وقرأ عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس،



وابن عمر، وابن الزبير، وجماعة من التابعين رضوان الله عليهم أجمعين: ﴿فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وقال ابن مسعود: لو قرأت: ﴿فَانْتَوُوا﴾ لَأَسْرَعْتُ حَتَّى يَقَعَ رِدَائِي.

واختلف الناس في البيع في الوقت المنهي عنه إذا وقع: ما الحكم فيه؟ بعد إجماعهم على وجوب امتناعه بدءاً - فقال الشافعي: يمضي، وقال مرة: يُفسخ ما لم يفت، فإن فات مضى. وقال مالك: يُفسخ ما لم يفت، فإن فات أصلح بالقيمة، واختلف في وقت التقويم - فقيل: وقت القبض، وقيل: وقت الحكم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى السعي وترك البيع، وقوله سبحانه: ﴿فَانْتَوُوا﴾ أجمع الناس على أن مقتضى هذا الأمر الإباحة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾

تفسير سورة المنافقون

وهي مدنيّة بإجماع، وذلك أنها نزلت في غزوة بني المصطلق بسبب أن عبدالله بن أبيّ ابن سلول كان منه في تلك الغزوة أقوال، وكان له أتباع يقولون قوله، فنزلت السورة كلها بسبب ذلك، ذكر الله تعالى فيها ما تقدم من المنافقين من خليفهم وشهادتهم في الظاهر بالإيمان، وأنهم كذّبة، وذكر تعالى فيها ما تأخر منهم ووقع في تلك الغزوة، وسيأتي بيان ذلك فصلاً فصلاً عند تفسير الآيات إن شاء الله تعالى.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ:

فضح الله تعالى بهذه الآية سريرة المنافقين، وذلك أنهم كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: نشهد أنك لرسول الله، وهم في إخبارهم هذا كاذبون؛ لأن حقيقة الكذب أن يخبر الإنسان بضد ما في قلبه، وكسرت الألف من ﴿إِنَّ﴾ في الثلاثة لدخول اللام المؤكدة في الخبر وذلك لا يكون مع المفتوحة، وقوله تعالى: ﴿يَشْهَدُ﴾ وما جرى مجراها من أفعال اليقين والعلم تجاب بما يجاب به القسم، وهي بمنزلة القسم.

وقرأ الناس: ﴿أَتَيْنَهُمْ﴾ جمع يمين، وقرأ الحسن بن أبي الحسن - بخلاف عنه -: ﴿إِيمَانُهُمْ﴾ بكسر الألف، أي: هذا الذي يُظهرون،

رضي الله عنه، وقيل: عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في كتاب الثعلبي: بقي معه ثمانية نفر، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «لولا هؤلاء لكانت الحجارة سُومت على المُتَقَضِّين من السماء»، وفي حديث آخر: «والذي نفس محمد بيده لو تابعتهم حتى لا يبقى منكم أحد لسال عليكم الوادي ناراً»، وقال قتادة: بلغنا أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات؛ لأن قدوم العير كان يوافق يوم الجمعة، بسبب أن المراحل كانت تُعطى ذلك، وقال تعالى: ﴿إِنِّي﴾ ولم يقل: ﴿إِلَيْهَا﴾ تقديماً للأهم إذ كانت هي سبب اللّهُو ولم يكن اللّهُو سببها، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَمِنَ التِّجَارَةِ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

وتأمل أن قُدِّمت التجارة مع الرّؤية لأنها أهم، وأُخِّرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الآيتين.

وفي هذه الآية قيام الخطيب، وأول من استراح في الخطبة عثمان رضي الله عنه، وأول من خطب جالساً معاوية رضي الله عنه. والرزاق صفة فعل، وقد يتصف بها بعض البشر تجوّزاً إذا كان سبب رزق الحيوان، والله تعالى خير الرازقين.

كمل تفسير سورة الجمعة والحمد لله رب العالمين

أنه للإباحة في طلب المعاش، وأن ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾، إلا ما روي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ذلك الفضل المُتَبَقَّى هو عبادة مريض أو صلة صديق أو اتباع جنازة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا ينبغي أن يكون المرء بقية يوم الجمعة، ويكون تخيُّره صبح يوم السبت، قاله جعفر بن محمد الصادق، وقال مكحول: الفضل المُتَبَقَّى: العلم، فينبغي أن يطلب إثر الجمعة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ الآية، نزلت بسبب أن رسول الله ﷺ كان قائماً على المنبر يخطب يوم الجمعة، فأقبلت عير من الشام تحمل ميرة، وصاحب أمرها دحية بن خليفة الكلبي، قال مجاهد: وكان من عرفهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والمعازف والصياح من ورائها، فدخلت العير بمثل ذلك، فانفض أهل المسجد إلى رؤية ذلك وسماعه، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر، ولم يبق معه غير اثني عشر رجلاً، قال جابر بن عبدالله رضي الله عنه: أنا أحدهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم تُمرّ بي تسميتهم في ديوان فيما أذكر، إلا أنني سمعت أبي رحمه الله تعالى يقول: هم العشرة المشهود لهم بالجنة، واختلف في الحادي عشر، فقيل: عمار بن ياسر

وهذا على حذف مضاف تقديره: إظهار، «وَالْجَنَّةُ»: ما يُنْسَرُّ به في الأجرام والمعاني، وقوله تعالى: «فَصَدُّوا» يحتمل أن يكون غير مُتَعَدٍّ، تقول: «صدَّ زيد»، ويحتمل أن يكون متعدياً كما قال:

صَدَدَتِ الْكَأْسُ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو

فالمعنى: صدُّوا غيرهم ممن كان يريد الإيمان، أو من المؤمنين في أن يقاتلوهم أو ينكروا عليهم، وتلك سبيل الله تعالى فيهم، وقد تقدّم تفسير نظير هذه الآية.

وقوله تعالى: «ذَلِكَ» إشارة إلى فعل الله تعالى بهم في فضيحتهم وتوبيخهم، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى سوء ما عملوا، فالمعنى: سوء عملهم بأن كفروا بعد إيمان.

وقوله تعالى: «وَأَمَّا نَرُ كَفْرًا» إما أن يراد به: منهم من كان آمن ثم نافق بعد صحبة من إيمانه، وقد كان هذا موجوداً، وإما أن يريدهم كلهم، فالمعنى: ذلك بأنهم أظهرُوا الإِيمان ثم كفروا في باطن أمرهم، فسُمِّي ذلك الإِظهار إيماناً، وقرأ بعض القراء: «فَطَبَعَ» على بناء الفعل للفاعل، وقرأ جمهور القراء: «فَطَبَعَ» بضم الطاء على بناءه للمفعول بغير إدغام، وأدغم أبو عمرو، وقرأ الأعمش: «فَطَبَعَ اللهُ»، وعبر الله تعالى بالطبع على ما خلق في قلوبهم من الربِّ والشكِّ وحَمَمَ عليهم به من الكفر والمصير إلى النار.

وقوله تعالى: «وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبَخَّخُوا أَجْسَاهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ» توبيخ لهم؛ لأنهم كانوا رجالاً أجمل شيء وأفصحه، فكان منظرهم يروق وقولهم يخلب، لكن الله تعالى جعلهم كالخشب المُسَدَّةِ إذ لا أفهام لهم نافعة، ولا نظر يصيب، فذلك المنظر لا مخبر له كالخشب المُسَدَّةِ، إنما هي أجرام لا عقول لها، معتمدة على غيرها، لا تثبت بنفسها، ومنه قولهم: «تساند القوم» إذا اصطَفُوا وتقابلوا للقتال، وقد يحتمل أن يُشَبَّه اصطفاؤهم في الأندية باصطفاف الخشب المُسَدَّةِ، وخلوهم من الأفهام النافعة بخلو الخشب من ذلك، وقال رجل لابن سيرين: رأيتني في النوم محتضناً خشبة، فقال ابن سيرين: أظنك من أهل هذه الآية، وتلا: «كَأَنَّهُمْ خَشْبٌ مُّسَدَّدٌ».

وقرأ عكرمة، وعطية: «يُسْمَعُ» بالياء مضمومة، وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، وعاصم: «خُشْبٌ» بضم الخاء والشين، وقرأ قنبل، وابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: «خُشْبٌ» بضم الخاء وسكون الشين، وهي قراءة البراء بن عازب رضي الله عنه، واختيار أبي عبيد، وقرأ سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب: «خُشْبٌ» بفتح الخاء والشين، وذلك كله جمع «خَشْبَةٍ» بفتح الخاء والشين، فالقراءتان أولاً كما تقول: بَذَنَةٌ وَيَذَنٌ وَيَذَنٌ، قاله سيبويه، والأخيرة على الباب في ثَمَرَةٍ وَثَمَرٌ.

وكان عبداً لله بن أبي من أبيه

المنافقين وأطولهم، ويدل على ذلك أنه لم يوجد قميص يكسو العباس رضي الله عنه غير قميصه، وقد تقدم في سورة البقرة تحرير أمر المنافقين وكيف سترهم الإسلام.

وقوله تعالى: «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَحِيفَةٍ عَلَيْهِمْ» فَضَحَ أيضاً لما كانوا يُسِرُّونه من الخوف، وذلك أنهم كانوا يتوقعون أن يأمر النبي ﷺ - عن الله - بقتلهم، قال مقاتل: فكانوا متى سمعوا نُشْدان ضالة، أو صياحاً بأي وجه كان، أو أخبروا بنزول وحى، طارت قلوبهم وطاشت عقولهم حتى يسكن ذلك ويكون في غير شأنهم، وجرى هذا اللفظ مثلاً في الخائف، ونحوه قول الشاعر:

يُرَوِّعُهُ السَّرَارُ بِكُلِّ أَرَضٍ
مَخَافَةً أَنْ يَكُونَ بِهِ السَّرَارُ

وقول جرير:

مَا زِلْتُ تَخَسُّبُ كُلَّ شَيْءٍ بَغْضَهُمْ
خَيْلاً تَكْرَهُ عَلَيْهِمْ وَرِجَالاً

ثم أخبر تعالى بأنهم هم العدو، وحذر منهم، و«الْعَدُوُّ» يقع للواحد وللجمع. وقوله تعالى: «فَتَنَلَّهُهُ اللهُ» دعاء يتضمن الإقصاء والمناوذة وتمني الشر لهم. وقوله تعالى: «أَنْتَ يُؤْفِكُونَ» معناه: يُصَرِّفُونَ، فيحتمل أن تكون «أَنْتَ» استفهاماً، كأنه تعالى قال: كيف يُصَرِّفُونَ؟ أو: لأني سبب لا يرون رُشد أنفسهم؟ ويحتمل أن تكون «أَنْتَ» ظرفاً لـ «فَتَنَلَّهُهُ» كأنه تعالى قال: فأتاهم الله كيف انصرفوا وصرَّفوا، فلا يكون في القول استفهام على هذا.

من المنافقين، فكذب رسول الله ﷺ زيداً وصدق أيمان عبدالله بن أبي، فبقي زيد في منزله لا يتصرف حياة من الناس، فنزلت هذه السورة عند ذلك، فبعث رسول الله ﷺ في زيد وقال: لقد صدقك الله يا زيد ووفت أذنك، فخزي عند ذلك عبدالله بن أبي ابن سلول، ومقتة الناس، ولأمة المؤمنين من قومه، وقال بعض منهم: امض إلى رسول الله ﷺ واعترف بذنبك فيستغفر لك، فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأي وقال لهم: لقد أشرت علي بالإيمان فأمنت، وأشرت علي أن أعطي زكاة مالي ففعلت، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا هو قصص هذه السورة موجزاً. و «تعال» نداء يقتضي لفظه أنه دعاء الأعلى للأسفل، ثم استعمل في كل داع لما فيه من حسن الأدب، وقرأ نافع، والمفضل عن عاصم: ﴿لَوْأَنَّ﴾ بتخفيف الواو، وهي قراءة الحسن - بخلاف -، ومجاهد، وأهل المدينة، وقرأ الباقون، وأبو جعفر، والأعمش: ﴿لَوْأَنَّ﴾ بشد الواو على تضعيف المبالغة، وهي قراءة طلحة، وعيسى، وأبي رجاء، وزر، والأعرج، وقرأ بعض القراء هنا: ﴿يَصُدُّونَ﴾ بكسر الصاد، والجمهور بضمها.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. روي أنه لما نزلت: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لَأَزِيدَنَّ عَلَى السبعين»، وفي حديث آخر: «لو

لِعمر، فإزدحم هو وبنان بن وبرة الجهني - وكان حليفاً للأوس -، فكسع الجهجاء بناناً، فغضب بنان وثأورا، ودعا الجهجاء بالمهاجرين، ودعا بنان بالأنصار، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية»، فلما أخرج بالقصة قال: «دعوها فإنها مئنة»، واجتمع في الأمر عند عبدالله بن أبي قوم من المنافقين - وكان فيهم زيد بن أرقم فتى صغيراً لم يتحفظ منه -، فقال عبدالله بن أبي: أو

قد تداعوا علينا؟ والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول: «سَمْنُ كلبك يَأْكُلُكَ»، وقال لهم: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وقال لهم: إنما يقيم هؤلاء المهاجرون مع محمد بسبب معونتهم لهم وإنفاقكم عليكم، ولو قطعتم ذلك عنهم لَفَرُّوا، فذهب زيد بن أرقم إلى عمه - وكان في حجره - وأخبره، فأثنى به رسول الله ﷺ فأخبره، وقال له رسول الله ﷺ: «يا زيد، غضبت على الرجل، أو لعلك وهمت؟» فأقسم زيد ما كان شيء من ذلك، ولقد سمع من عبدالله بن أبي ما حكى، فعاتب رسول الله ﷺ عبدالله بن أبي عند رجال من الأنصار، فبلغه ذلك فجاء وحلف ما قال، وكذب زيدا، وحلف معه قوم

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّازٍ وَسَمْ وَأَرَأَيْتُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا إِلَهُ خَزَائِنِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَهْجُوهُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ ثَرَاكُمْ مِمَّنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سُورَةُ النَّافِقِينَ

٥٥٥

٥ - ٨ تفسير قوله عز وجل:

كان من أمر عبدالله بن أبي ابن سلول أنه خرج مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق، فبلغ الناس إلى ماء سبق إليه المهاجرون، وكانهم غلبوا الأنصار عليه بعض الغلبة، فقال عبدالله بن أبي لأصحابه: قد كنت قلت لكم في هؤلاء الجلابيب ما قلت فلم تسمعوا مني، وكان المنافقون ومن لا يتحرى يُسمون المهاجرين رضي الله عنهم الجلابيب، ومنه قول حسان بن ثابت:

أَرَى الْجَلَابِيبَ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثُرُوا
وَابْنُ الْفَرِيعَةِ أَمْسَى بِنِصَّةِ الْبَلَدِ
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَحْضُرُ عَلَيْنَا يَا حَسَّانَ؟» ثم إن الجهجاء الغفاري - وكان أجيراً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه - وزد إلى الماء بفرس

علمت أني إن زدت عُفْر لهم لَزْتُ، فكانه عليه الصلاة والسلام رجا أن هذا الحد ليس على جهة الحتم جملة، بل على أن ما يجاوزه يخرج عن حكمه، فلما فعل ابن أبي وأصحابه ما فعلوا شدد الله تعالى عليهم في هذه السورة، وأعلم أنه لا يغفر لهم دون حد في الاستغفار، وفي قول النبي ﷺ: «لو علمت أني لو زدت عُفْر لهم» نص على رفض دليل الخطاب.

وقرأ جمهور الناس: «أَسْتَغْفِرُ» بالقطع وألف الاستفهام، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «أَسْتَغْفِرْتُ» بمدة على الهمزة، وهي ألف التسوية، وقرأ أيضاً بوصل الألف دون همز على الخبر، وفي هذا كله ضعف؛ لأنه في الأولى أثبت همزة الوصل وقد أغنت عنها همزة الاستفهام، وفي الثانية حذفت همزة الاستفهام وهو يريد بها، وهذا مما لا يستعمل إلا في الشعر.

وقوله تعالى: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ» إشارة إلى عبدالله بن أبي ومن قال بقوله: قاله علي بن سليمان، ثم سقه تعالى أخلامهم في أن ظنوا أن إنفاقهم هو سبب رزق المهاجرين، ونسوا أن حرمان الرزق بيد الله تعالى، إذا انسدت باب انفتح غيره. وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشي: «حَتَّى يُنْفَضُوا» بضم الباء وتخفيف الضاد، يقال: أَنْفَضَ الرجل إذا فني طعامه فنفض وعاءه. و«الخزائن» موضع الإعداد، ونجد القرآن قد نطق في غير موضع بالخزائن، ونجد في الحديث «خزنة الرياح»، وفي القرآن «بَيْنَ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ

بَرٍّ»، فجائز أن يكون هذا عبارة عن القدرة، وأن هذه الأشياء إيجادها عند ظهورها، وجائز - وهو الأظهر - أن منها أشياء مخلوقة موجودة يصرفها الله تعالى حيث يشاء، وظواهر ألفاظ الشريعة تعطي هذا، ومعناه في التفسير قال: عتت على الخزان، وفي الحديث: «ما انفتح باب من خزائن الرياح على قوم عاد إلا قدر حلقة الخاتم، ولو انفتح من خزائن الرياح على قدر منخر الثور لهلكت الدنيا»، وقال رجل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقرأ: «وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ»، وقال الجنيدي: «خزائن السماء الغيوب، وخزائن الأرض القلوب».

قرأ الجمهور: «لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ» بضم الباء وكسر الراء، بمعنى أن العزيز يخرج الذليل ويُبْعِدُه، وقرأ أبو حاتم: «لَتُخْرِجَنَّ» بنون الجماعة مفتوحة وضم الراء «الْأَعَزُّ» نصباً «مِنَ الْأَذَلِّ» أيضاً نصباً على الحال، وذكرها أبو عمرو الداني عن الحسن، ورُويَت هذه القراءة: «لَتُخْرِجَنَّ» بضم النون وكسر الراء، وقرأ قوم - فيما حكى الفراء والكسائي، وذكرها المهدي -: «لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ» بفتح الباء وضم الراء ونصب «الْأَذَلَّ» على الحال، بمعنى أننا نحن الذين كنا أعز سنخرج أذلاء، وجاءت هذه الحال معرفة وفيها شذوذ، وقد حكى سيبويه: «ادخلوا الأول فالأول».

ثم أعلم الله تعالى أن العزة لله سبحانه، وللرسول ﷺ، وللمؤمنين، وفي ذلك وعيد، وزوي أن

عبدالله بن عبدالله بن أبي - وكان رجلاً صالحاً - لما سمع الآية جاء إلى أبيه وقال له: أنت والله يا أبت الذليل ورسول الله ﷺ العزيز، فلما وصل إلى المدينة وقف عبدالله بن عبدالله على باب السكة التي يسلكها أبوه، وجرّد السيف ومنعه الوصول، وقال: والله لا دخلت إلى منزلك إلا أن يأذن لك في ذلك رسول الله ﷺ، وعبدالله بن أبي في أذل حال، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث إليه أن خله يمضي إلى منزله، فقال: أما الآن فنع.

١١ - ١٢ تفسير قوله عز وجل: الإلهاء: الاشتغال بشهوة ولذة، و«ذُكِرَ الله» هنا عام في التوحيد والصلاة والدعاء وغير ذلك من فرض ومندوب، هذا قول الحسن وجماعة من المفسرين، وقال الضحاك، وعطاء وأصحابه: المراد بالذكر الصلاة المكتوبة، والأول أظهر، وكذلك قوله تعالى: «وأنفقوا مما رزقناكم» قال جمهور من المتأولين: المراد الزكاة، وقال آخرون: ذلك عام في مفروض ومندوب، وقوله تعالى: «يَأْتِيَكُمُ الْوَيْلُ» أي: علامته وأوائل أمره، وقوله: «لَوْلَا أَعْرَضْتُ عَنْهُ لَآتَى الْوَيْلُ قَرِيبًا» طلباً للكرّة والإمهال، وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه: «أَعْرَضْتُ» بغير ياء، وسماء تعالى قريباً لأنه آت، وأيضاً فإنما يتمنى ذلك ليقضي فيه العمل الصالح فقط، وليس يتسع الأمل حينئذ لطلب العيش وتصرفه، وفي مصحف أبي: «فَاتَّصَدَّقَ»، وقوله

تفسير سورة التغابن

قال بعض المفسرين: هي مدنية، وقال آخرون منهم: هي مكية إلا من قوله تعالى وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَرْزَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ﴾ إلى آخر السورة فإنه مدني، وذكر الشعلبي عن ابن عمران أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا وفي تشابيك رأسه مكتوب خمس آيات من فاتحة سورة التغابن».

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِنٌ عَلَىٰ كُلِّ قَوْمٍ فَذِيرٌ﴾ عموم معناه التنبيه، و«الشيء» هو الموجود.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ تعديد نعمة، والمعنى: فمنكم كافر لنعمته في الإيجاد حين لم يوجد لجهله بالله، ومنكم مؤمن بالله، والإيمان بالله تعالى شكر لنعمته، فالإشارة - على هذا التأويل في الإيمان والكفر - هي إلى اكتساب العبد، هذا قول جماعة من المتأولين، وحجتهم قول النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»، وقول الله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ﴾ قوله تعالى: ﴿فَيْنَكُم﴾ تعطي هذا كله، وكذلك يقويه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقيل: المعنى: خلقكم منكم مؤمن ومنكم كافر في أصل

تعالى: ﴿مَنْ يَبْذِلِ اللَّهُ تَكْلًا هَادِيًا لَمْ يَذَرَهُمْ﴾، فمن قرأ بالجزم عطف على موضع ﴿تَكْلًا هَادِيًا لَمْ يَذَرَهُمْ﴾ لأنه لو وقع هناك فعل كان مجزوماً، وكذلك من قرأ: ﴿وَيُكْفِّرُ﴾ بالجزم عطفاً على موضع ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وقرأ أبو عمرو، والحسن، وأبو رجاء، وابن أبي إسحق، ومالك بن دينار، وابن محيصن، والأعمش، وابن جبير، وعبيد الله بن الحسن العنبري: ﴿وَأَكُونُ﴾ بالواو نصباً، قال أبو حاتم - وكان من العلماء الفصحاء -:

﴿وَأَكُونُ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿قَرِيبٌ﴾، وقال أبو حاتم في كتبها في المصحف بغير واو: إنهم حذفوا الواو كما حذفوها من «اتَّخَذَ» وغيره، ورجحها أبو علي، وفي مصحف أبي بن كعب، وابن مسعود رضي الله عنهما: ﴿فَأَتَنَصَّدَّقُ وَأَكُونُ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ حُضْرٌ عَلَى المبادرة ومساابقة الأجل بالعمل الصالح، وقرأ السبعة والجمهور: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالثاء على المخاطبة لجميع الناس، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالياء على تخصيص الكفار بالوعيد.

كامل تفسير سورة المنافقون والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الشُّكْرُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَتُكْفَرُونَ ﴿٢﴾ وَتُكْفَرُونَ مِنْ اللَّهِ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُبْشِرُونَ وَمَا تُنْكِرُونَ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بُدَايَةُ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَقَالُوا تِلْكَ بَشَرٌ كُنَّا نَمْنَعُهُمْ رُسُلَهُمْ بِالْهَيْبَةِ فَقَالُوا ابْشِرْهُمْ نَبَأَهُمْ وَتَنَزَّلُ الْأَنْجِلُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبُغْيِهِمْ وَلَنْ تُنْفِذَ نَجْمُ الْوَعْدِ وَمَا يَعْلَمُ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَأَمَّا يَوْمَ الْوَعْدِ وَالَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيَذَرُهُ حَتَّىٰ تَحْمِلَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

تعالى: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ظاهره العموم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الحج، وزوي عنه أنه قال في مجلسه يوماً: «ما من رجل لا يؤدي الزكاة والحج إلا طلب الكفرة عند موته»، فقال له رجل: أما تتقي الله؟ أمؤمن يطلب الكفرة؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: نعم وقرأ الآية.

وقرأ جمهور السبعة والناس: ﴿وَأَكُنْ﴾ بالجزم عطفاً على الموضع؛ لأن التقدير: إن تؤخرني أضدق وأكُنْ من الصالحين، هذا مذهب أبي علي الفارسي، فأما ما حكاه سيبويه عن الخليل فهو غير هذا، وهو أنه جزم على تؤم الشرط الذي يدل عليه التمني، ولا موضع هنا لأن الشرط ليس بظاهر، وإنما يعطف على الموضع حيث يظهر الشرط، كقوله

الْخَلْقَةَ، فهي جملة في موضع الحال، فالإشارة - على هذا - في الإيمان والكفر هي إلى اختراع الله تعالى وخلقه، وهذا تأويل ابن مسعود، وأبي ذر رضي الله عنهما، ويجري مع هذا المعنى قول النبي ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يَكُونُ فِي بطن أمه نطفة أربعين يوماً، ثم علقه أربعين يوماً، ثم مضغه أربعين يوماً، ثم يجيء مَلَكٌ فيقول: يا رب، أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل، فيكتب ذلك في بطن أمه»، ف قوله في الحديث: «أَشَقِيَّ أَمْ سَعِيدٌ؟» هو في هذه الآية ﴿فَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ كَارِئِ رَبِّهِمْ﴾، ويجري مع هذا المعنى قوله في الغلام الذي قتله الخضر: «إِنَّهُ طبع يوم طبع كافرًا»، وما روى ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «خلق الله فرعون في البطن كافرًا، وخلق يحيى بن زكريا مؤمنًا»، وقال عطاء بن أبي رباح: معنى الآية: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكوكب، ومؤمن بالله كافر بالكوكب، وقدم الكافر لأنه أعرف من جهة الكثرة.

وقوله تعالى: ﴿يَالْحَقُّ﴾ أي: حين خلقها محقوقاً في نفسه ليس عبثاً ولا لغير معنى، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَصَوَّرَكَ﴾ بضم الصاد، وقرأ أبو رزَين: ﴿صَوَّرَكَ﴾ بكسرهما، وهذا تعديد النعمة في حسن الخلقة لأن أعضاء ابن آدم متصرفة في جميع ما تتصرف به أعضاء الحيوان وزيادات

كثيرة فُضِّلَ بها، ثم هو مفضل بحسن الوجه وجمال الجوارح، وحُجَّة هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلَّمْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، وقال بعض العلماء: النعمة المُعَدَّة هنا إنما هي صورة الإنسان من حيث هو إنسان مدرك عاقل، فهذا هو الذي حُسِّنَ له حتى لحق ذلك كمالات كثيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول أجرى على لغة العرب لأنها لا تعرف الصور إلا الشك.

وذكر تعالى علمه بما في السموات والأرض، فعلم أعظم المخلوقات، ثم تدرج القول إلى أخفى من ذلك وهو جميع ما يقوله الناس في سرٍّ وعَلَن، ثم تدرج إلى خفيٍّ وهو ما يهجس بالخواطر، و«ذات الصدر»: ما فيه من خطرات واعتقادات، كما يقال: «الذنب مغبوطٌ بذِي بطنه»، والصدر هنا عبارة عن القلب.

٥ - ٦ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ جزم، أصله: يأتيكم، قال سيبويه: «واعلم أن الآخر إذا كان يُسَكَّن في الرفع حذف في الجزم»، والخطاب في هذه الآية لقريش، ذُكِّروا ما حلَّ بعبادِ وثمود وقوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام وغيرهم ممن سمعت قريش أخبارهم، و«يَا أَلَمْرُ»: مكروهه وما يسوء منه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ﴾ إشارة إلى ذوق الوبال وكون عذاب الآخرة لهم، ثم ذكر تعالى من مقالات أولئك الماضين ما هو مشبه لقول

الكفار من قريش من استبعاد بعثة الله تعالى للبشر، وثبوة أحد من بني آدم، وحسد الشخص المبعوث. وقولهم: ﴿إِبْرَءْ﴾ رفع بالابتداء، وجمع الضمير في ﴿يَهْدُونَا﴾ من حيث كان «البشر» اسم هذا النوع الآدمي، كأنهم قالوا: أناس هداة؟ وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ﴾ عبارة عما ظهر من هلاكهم وأنهم لن يضروا الله شيئاً فبان أنه كان غنياً أولاً، ويسبب ظهور هلاكهم بعد أن لم يكن ظاهراً ساغ استعمال هذا الغناء مُستنداً إلى اسم الله تعالى؛ لأن بناء «اسْتَفْعَلَ» إنما هو لطلب الشيء وتحصيله بالطلب.

وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يخص قريشاً ثم هي بعد تعم كل كافر بالبعث، وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «الزعم كنية الكذب»، وقال عليه الصلاة والسلام: «بئس مطية الرجل زعموا»، ولا توجد «زعم» مستعملة في فصيح من الكلام إلا عبارة عن الكذب أو قول انفرد به قائله فيريد قائله أن يلقي عهده على الزاعم، ففي ذلك ما ينحو إلى تضعيف الزعم، وقول سيبويه: «زعم الخليل» إنما يجيء فيما انفرد به الخليل.

ثم أمره الله تعالى أن يجيب نفهم بما يقتضي الرد عليهم وإيجاب البعث وأن يؤكد ذلك بالقسم، ثم توغدهم في آخر الآية بأنهم يُخَيَّرُونَ بأعمالهم على جهة التوقيف والتوبيخ المؤدي إلى العقاب.

أن كل شيء بقضاء الله وقدره وعلمه، هانت عليه مُصِيبَتُهُ، وسَلِمَ الأمر لله تعالى. وقرأ سعيد بن جبير، وطلحة بن مُصَرِّف: ﴿نَهْدُ﴾ بالنون، وقرأ الضحاك: ﴿يَهْدُ﴾ بضم الياء وفتح الدال ﴿قَلْبُهُ﴾ رفعا، وقرأ عكرمة، وعمرو بن دينار: ﴿يَهْدُ قَلْبُهُ﴾ برفع القلب، وزوي عن عكرمة أنه سَكَنَ بدل الهززة ألفا، على معنى أن صاحب المصيبة يُسَلِّم فتسكن نفسه، ويُرشد الله تعالى المؤمن به إلى الصواب في الأمور. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكِلُ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ﴾ عموم مطلق على ظاهره.

(١٧) - (١٥) تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ عطف على قوله: ﴿فَاتَّبِعُوا﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّا قَوْلُنَا﴾ إلى آخر الآية وعيد وتبرئة لمحمد ﷺ إذا بلغ، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تحريض للمؤمنين على مكافحة الكفار والصبر على دين الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِتٍ مِنْ آَرْزُكُمْ وَأَرْزُكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَعْدُوهُمْ﴾ إلى آخر السورة، قرآن مدني، اختلف الناس في سببه - فقال عطاء بن أبي رباح: إنه نزل في عوف بن مالك الأشجعي، وذلك أنه أراد غزوا مع النبي ﷺ، فاجتمع أهله وأولاده فنبطوه وشكروا إليه فراقه، فلم يغز، ثم إنه ندم وهم بمعاقتهم، فنزلت الآية بسببه

وهو يوم التغابن؛ وذلك أن كل واحد يُبعث من قبره وهو يرجو حظا أو منزلة، فإذا وقع الجزاء غير المؤمنون الكافرين لأنهم يُجزون الجنة ويحصل الكفار في النار، نحا هذا المعنى مجاهد وغيره، وليس هذا الفعل في «التغابن» من اثنين، بل هو كتَوَاضَعَ وتَحَامَلَ.

وقرأ نافع، وابن عامر، والمفضل عن عاصم: ﴿نُكْفَرُ﴾ بنون، وكذلك ﴿نُدْخِلُهُ﴾، وهي قراءة الأعرج، وأبي جعفر،

وشيبة، والحسن - بخلاف - وطلحة، وقرأ الباقون، والأعمش، وعيسى، والحسن في الموضعين بالياء، على معنى: يُكْفَرُ الله، والأول هو نون العظمة.

وقوله تعالى: ﴿مَّا آَسَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ يحتمل أن يريد المصائب التي هي رزايا، وخصها بالذكر لأنها الأهم على الناس والأبين أثرا في نفوسهم، ويحتمل أن يريد جميع الحوادث من خير وشر، وذلك أن الحكم واحد في أنها بإذن الله تعالى، و«الإِذْنُ» في هذا الموضع عبارة عن العلم والإرادة وتمكين الوقوع.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ قال فيه المفسرون: المعنى: من آمن بالله تعالى وعرف

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا رِجْسٌ مَقْصُورٌ ﴿١٥﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَلِلَّهِ يَكِلُ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ ﴿١٦﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ قُلْتُ تَوَلَّيْتُ لِمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُنِينُ ﴿١٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَلْبُكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِتٍ مِنْ آَرْزُكُمْ وَأَرْزُكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَعْدُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفُسُكُمْ أَنْفُسُكُمْ وَمَنْ يُوَفِّ شَخْ نَفْسِهِ، فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢١﴾ إِنْ تَقَرُّصُوا لِلَّهِ فَرْضًا حَسَنًا يَضَعِفْ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ الْغَيْرُ لِلْعَزِيمِ ﴿٢٣﴾

سُورَةُ الطَّلَافِ

٥٥٧

(٨) - (١١) تفسير قوله عز وجل:

هذا دعاء إلى الله تعالى وتبليغ وتحذير، و«التور»: القرآن. والعامل في «يَوْمٍ» يحتمل أن يكون «لَتَبَيِّنَنَّ»، ويحتمل أن يكون «حَيِّثُ»، وهو تعالى خير في كل يوم لكن يخص ذلك اليوم لأنه يوم تضرهم فيه خِبرَةُ الله تعالى بأمورهم، وقرأ جمهور السبعة: ﴿يَتَمَكَّدُ﴾ بضم العين، وقرأ أبو عمرو بسكونها، وزوي عنه أنه أشمها الضم، وقرأ سلام، ويعقوب: ﴿تَجْمَعُكُمْ﴾ بالنون وضم العين، وهذا على جواز تسكين الحركة وإن كانت للإعراب، كما قال جرير:

.....
فَلَمْ تَغْرِفْكُمْ الْعَرَبُ
و «يوم الجمع» هو يوم القيامة،

محذوف تقديره: إنفاقاً خيراً، ومذهب سيئويه أنه نصب بإضمار فعل يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَتَقِفُوا﴾.

وقرأ أبو حية: ﴿يُوقُ﴾ بفتح الواو، وشد القاف، وقرأ ابن عمر رضي الله عنهما: ﴿شُحْ﴾ بكسر الشين، وتقدم تفسيره في سورة الحشر، وقال الحسن: نظرك إلى امرأة لا تملكها من الشُّح، وقيل: يا رسول الله، ما يُدخل العبد النار؟ قال: «شُحْ مطاع، وهوى مُتَّبِع، وجُبْنُ هالِع، وإعجاب المرء بنفسه، ذكره النقاش، والحديث في المصنفات أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت شُحاً مُطاعاً وهوى مُتَّبِعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فملكك بخونصة نفسك».

وقرأ جمهور السبعة: ﴿يُضَعِّفُهُ﴾، وقرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿يُضَعِّفُهُ﴾، وذهب بعض العلماء إلى أن هذا الحَضُّ هو على أداء الزكاة المفروضة، وذهب آخرون منهم إلى أن الآية في المندوب إليه، وهو الأصح إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ إخبار بمجازاته تعالى على الشيء، وأنه يحيط به عن شاء الله العظيم، لا رب غيره.

كامل تفسير سورة التغابن والحمد لله رب العالمين

إني أعوذ بك من مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ، وقال عمر لحذيفة رضي الله عنهما: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أحب الفتنة وأكره الحق، فقال عمر: ما هذا؟ قال: أحب ولدي وأكره الموت.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تهديد في الدنيا وترغيب في الآخرة.

١٦ - ١٧ تفسير قوله عز وجل:

قال قتادة وفريق من الناس: إن قوله تعالى: ﴿وَالْتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ناسخ لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾، وردي أن الأمر نزل بحق الثقة فشق ذلك على الناس حتى نزل ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وذهبت فرقة منهم أبو جعفر النحاس إلى أنه لا نسخ في الآيتين، وأن قوله تعالى: ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ مقصده: فيما استطعتم، ولا يُعقل أن يطيع أحد فوق طاقته واستطاعته، فهذه على التأويل مُبَيَّنَةٌ لتلك، وتحتل هذه الآية أن تكون: فاتقوا الله مدة استطاعتكم التقوى، وتكون ﴿مَا﴾ ظرفاً للزمان كله، كأنه يقول: حياتكم وما دام العمل ممكناً.

قوله تعالى: ﴿خَيْرًا﴾، ذهب بعض النحاة إلى أنه نصب على الحال، وفي ذلك ضعف، وذهب آخرون منهم إلى أنه نصب بقوله سبحانه: ﴿أَتَقِفُوا﴾، قالوا: والخير هنا المال، وذهب فريق آخرون منهم إلى أنه نعت لمصدر

محذرة من الأزواج والأولاد وفنتتهم، ثم صرف تعالى عن معاقبتهم بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَقْفُوا وَتَصَفَحُوا وَتَفْفَرُوا﴾.

وقال بعض المفسرين: سبب الآية أن قوماً آمنوا بالله تعالى وتبسطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة فلم يهاجروا إلا بعد مدة، فوجدوا غيرهم قد تفقه في الدين، فندموا وأسفوا وهُمُوا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم.

ثم أخبر تعالى أن الأموال والأولاد فتنة تشغل المرء عن مراشده، وتحمله من الرغبة في الدنيا على ما لا يحمد في آخرته، ومنه قوله ﷺ: «الولد منخله مجبنة»، وخرج أبو داود حديثاً في مصنفه أن رسول الله ﷺ كان يخطب يوم الجمعة حتى جاء الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما، وعليهما قميصان أحمران يجبرانهما، يَغْثُرَانِ ويقومان، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر حتى أخذهما وصعد بهما، ثم تلا هذه الآية وقال: إني رأيت هذين فلم أصبر، ثم أخذ في خطبته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه ونحوها هي فتنة الفضلاء، فأما فتنة الجهال الفسقة فمؤدية إلى كل مهلكة، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يقولن أحدكم: اللهم اعصمني عن الفتنة، فإنه ليس يرجع أحد إلى أهل ومالٍ إلا وهو مشتمل على الفتنة، ولكن ليقل: اللهم

وزيد بن علي، وجعفر بن محمد رضي الله عن الصحابة والتابعين: ﴿فِي قُبُلٍ عَذْبَةٍ﴾، وروى عن بعضهم وعن ابن عمر رضي الله عنهما: ﴿لِقُبُلٍ عَذْبَةٍ﴾، أي: لاستقبالها، وروى ابن عمر القراءتين عن النبي ﷺ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿لِقُبُلٍ طَهْرَةٍ﴾.

ومعنى هذه الآية ألا يطلق أحد امرأته إلا في طهر لم يمسه فيه، هذا على مذهب مالك رحمه الله وغيره ممن قال: إن «الأقراء»: الأطهار، فيطلق عندهم المطلق في طهر لم يمسه فيه، وتعد به المرأة ثم تحيض حيضتين تمتد بالطهر الذي بينهما، ثم تقيم في الطهر الثالث مُتَعَدَّةً به، فإذا رأت أول الحيضة الثالثة حُلَّتْ، ومن قال بأن «الأقراء»: الحيض - وهم العراقيون - قال: ﴿لِعَذْبَةٍ﴾ معناه: أن تطلق طاهراً فتستقبل ثلاث حيض كوامل، فإذا رأت الطهر بعد الثالثة حُلَّتْ، ويخف عند هؤلاء من في طهر الطلاق أو لم يمسه، وكذلك مالك يقول: «إن طلق في طهر قد مس فيه مضى الطلاق»، ولا يجوز طلاق الحائض لأنها تطول العدة عليها، وقيل: بل تَعُدُّ، ولو علل بالتطويل لا ينبغي أن يجوز ولو رضيت، والأصل في ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: طلقْتُ امرأتي وهي حائض، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لِعُمَرَ: «مَرَّةٌ فليراجعها ثم ليُنْسِكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم يطلقها إن شاء،

إفراد إلى مخاطبة جماعة، وهذا موجود، وقال آخرون منهم: إن في نداء النبي ﷺ أريدت أمته معه، فلذلك قال تعالى: ﴿طَلَّقْتُمْ﴾، وقال آخرون منهم: إن المعنى: يَأْيُهَا النبي قل لهم: إذا طلقتم، وقال آخرون: إنه من حيث يقول الرجل العظيم: «فَعَلْنَا، وَضَعْنَا»، خوطب النبي ﷺ في هذه بـ «طَلَّقْتُمْ» إظهاراً لتعظيمه، وهذا على نحو قوله تعالى في عبدالله بن أبي: «هُمَ الَّذِينَ يَقُولُونَ» إذا كان قوله مما يقوله جماعة، فكذلك النبي ﷺ في هذه الآية ما يُخاطب به فهو خطاب لجماعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يظهر لي في هذا أنهما خطابان مفترقان، خوطب النبي ﷺ على معنى تنبيه لسماع القول وتلقي الأمر، ثم قيل له: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمْ﴾، أي: أنت وأمثك، فقوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمْ﴾ ابتداء كلام كما لو ابتداء السورة به، وطلاق النساء حلَّ عِضْمَتِهِنَّ، وصورة ذلك وتنويعه مما لا يختص بالتفسير.

وقوله تعالى: ﴿طَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾، أي: لاستقبالها وقوامها وتقريبها عليهن. وقرأ عثمان، وابن عباس، وأبي بن كعب، وجابر بن عبدالله، ومجاهد، وعلي بن الحسين،

بَيِّنَاتُهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَإِلَّا فَحُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُعَدِّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ إِذَا بَلَغَنَّ الْأُجُوهُ فَاسِيكُهُنَّ يَمْعُرُوهِنَّ وَأَفَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُنْ مِنْكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَنْكِحْ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَبِرِّقَةٍ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسِبُ وَمَنْ يُنْكِحْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ وَإِنْ اللَّهُ بَلَغَ أَمْرُهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّتِي بَيَّنَّ مِنَ الْحَيْضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَنْكِحْ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُشْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَنْكِحْ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئًا لَهُ وَيُعْظِمُ اللَّهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية بإجماع من أهل التفسير.

﴿١﴾ - ﴿٥﴾ تفسير قوله عز وجل: الطلاق على الجملة مكروه لأنه تبديد شمل في الإسلام، وروى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تطلقوا النساء إلا من رية، فإن الله لا يحب الدواقين ولا الذواقات»، وروى أنس عنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق».

واختلف في البداية بالنبي ﷺ ثم قوله تعالى بعد ذلك: ﴿طَلَّقْتُمْ﴾ - فقال بعض النحويين - حكاة الزهراوي -: ذلك خروج من مخاطبة

فذلك العدة التي أمر الله تعالى بها أن يُطَلَّقَ لها النساء، وروى حذيفة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «طَلَّقُوا الْمَرْأَةَ فِي قُبُلِ طَهْرِهَا»، ثم أمر تعالى بإحصاء العدة لما يلحق ذلك من أحكام الرجعة والسكنى والميراث وغير ذلك.

ثم أخبر تعالى بأنهن أحق بسكنى بيوتهن التي طُلِّقن فيها، فنهى عن إخراجهن وعن خروجهن، وسنة ذلك ألا تبين المرأة المطلقة «بعيدة» عن بيتها ولا تغيب عنه نهائراً إلا في ضرورة وما لا خطب له من جائز التصرف، وذلك لحفظ النسب والشحر بالنساء، فإن كان البيت ملكاً للزوج أو بكراء منه فهذا حكمه، فإن كان لها فعليه الكراء، فإن كان قد امتعته مدة الزوجية ففي لزوم خروج العدة له قولان في المذهب: للزوم رعاية لانفصال مكارمة النكاح، والسقوط من أجل أن العدة من سبب النكاح.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: «إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ» - فقال قتادة، والحسن، ومجاهد: ذلك الزنى، فيخرجن للحد، وهو قول الشعبي، وزيد بن أسلم، وحماد، والليث. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذلك البذاء على الأخماء، فتخرج ويسقط حقها في السكنى، وتلزم الإقامة في مسكن تتخذه حفظاً للنسب، وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه: «إِلَّا أَنْ يَفْحَشْنَ عَلَيْكُمْ»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: الفاحشة جميع المعاصي، فمتى

سُرقت أو زنت أو أرتبت في تجارة أو غير ذلك فقد سقط حقها في السكنى، وقال ابن عمر، والسدي: الفاحشة الخروج عن البيت خروج انتقال، فمتى فعلت ذلك سقط حقها في السكنى، وقال قتادة أيضاً: المعنى: أن يأتين بفاحشة في نشوز عن الزوج فيطلق بسبب ذلك فلا يكون عليه سكنى، وقال بعض الناس: الفاحشة متى وردت معرفة فهي الزنى، ومتى جاءت منكورة فهي في المعاصي، فمرة يراد بها سوء عشرة الزوج ومرة غير ذلك.

وقرأ عاصم: «مُبَيَّنَةٍ» بفتح الياء المشددة، تقول: بأن الأمر وبَيَّنْتَهُ على التضعيف على التعدية، وقرأ الجمهور بكسرهما، تقول: بأن الأمر وبَيَّنَ بمعنى واحد، إلا أن التضعيف للمبالغة، ومن ذلك قولهم: قد بَيَّنَّ الضُّبْحُ لذي عينين.

وقوله تعالى: «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ» إشارة إلى جميع أوامره في هذه الآية، وقوله سبحانه: «لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا»، قال قتادة وغيره: يريد به الرجعة، أي: أخصوا العدة، وامثلوا هذه الأوامر المثقفة لسائكم، الحافظة لأسابكم، وطلِّقوا على السنة، تجدوا المخلص إن ندمتم، فإنكم لا تدرن لعل الرجعة تكون بعد، والإحداث هنا بَيَّنَّ التوجيه، عبارة عما يوجد من التراجع، وجوز قوم أن يكون المعنى: أمراً من الشئخ، وفي ذلك بُعد.

وقوله تعالى: «فَإِذَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ» يريد به آخر القُرء، والإِنْسَانُ

بِالْمَعْرُوفِ هو حُسْنُ الْعِشْرَةِ فِي الْإِنْفَاقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالْمُعَارَظَةُ بِالْمَعْرُوفِ هِيَ آدَاءُ الْمَهْرِ وَالْمَتْعَةِ وَدَفْعُ جَمِيعِ الْحَقُوقِ وَالْوَفَاءُ بِالشَّرْطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ حَسَبَ نَازِلَةٍ نَازِلَةٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ» يريد: على الرجعة، وذلك شرط في صحة الرجعة، وللمرأة منع الزوج من نفسها حتى يُشْهَدَ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد: على الرجعة وعلى الطلاق؛ لأن الإِشْهَادَ يرفع من النوازل إشكالات كثيرة، وتُقَيِّدُ تَارِيخَ الْإِشْهَادِ مِنَ الْإِشْهَادِ، وَقَالَ التَّحْصِي: الْعَدْلُ مَنْ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ رِبَاةٌ، وَهَذَا قَوْلُ الْفُقَهَاءِ، وَالْعَدْلُ حَقِيقَةُ الَّذِي لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: «وَأَقِيمُوا أَشْهَادَ اللَّهِ» أَمْرٌ لِلشُّهُودِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ» إِشَارَةٌ إِلَى إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ فُصُولِ الْأَحْكَامِ وَالْأُمُورِ فَإِنَّمَا تَدُورُ عَلَى إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ.

قوله تعالى: «وَمَنْ يَتَيَّ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكثير من المتأولين: هو في معنى الطلاق، أي: ومن لا يتعدى في طلاق السنة إلى طلاق الثلاث وغير ذلك يجعل الله له مخرجاً إن ندم بالرجعة، ويرزقه ما يطعم أهله، ويوسع عليه، ومن لا يتيق الله فربما طلق وتب وندم فلم يكن له مخرج، وزال عنه رزق زوجته، وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما نحو هذا، فقال لمُطَلِّقُ ثَلَاثًا: إِنَّكَ لَمْ تَتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى، فَبَاتَتْ مِنْكَ أَمْرَاتُكَ وَلَا أَرَى

﴿بَلِّغْ﴾، ورويت عن أبي عمرو،
والأعمش، وهي قراءة طلحة بن
مصرف. وقرأ جمهور الناس:
﴿قَدَّرَا﴾ بسكون الدال، وقرأ بعض
القراء: ﴿قَدَّرَا﴾ بفتح الدال، وهذا
كله حُضٌّ على التوكل.

١ - ٧ تفسیر قوله عز وجل:

«الأنثى» هو جمع ذات فيما حكى أبو عبيدة، وهو ضعيف، والذي عليه الناس أنه جمع «التي»، وقد يجيء جمعاً لـ «الذي»، واليائسات من المحيض على مراتب، فبائسة هو أول يأسها فهذه ترفع إلى السُّنة وبقية الاحتياط على حكم من ليست ببائسة لأنها لا تدري لعل الدم يعود، وبائسة قد انقطع عنها الدم لأنها طعنت في السن ثم طُلقت وقد مرت عاداتها بانقطاع الدم إلا أنها ممن يخاف أن تحمل نادراً، فهذه التي في الآية على أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَبَيْتُمْ﴾، وهو قول من جعل الارتباب بأمر الحول، وهو الأظهر، وبائسة قد هرمت حتى يثق أنها لا تحمل، فهذه ليست في الآية لأنها لا ترتاب بحملها، لكنها في حكم الأشهر الثلاثة إجماعاً فيما علمت، وهي في الآية على تأويل من يرى أن قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَبَيْتُمْ﴾ معناه في حكم اليائسات، وذلك أنه روى إسماعيل بن أبي خالد أن قوماً منهم أبي بن كعب رضي الله عنه، وخلاّد بن النعمان لما سمعوا قول الله تعالى: ﴿وَالْمُفْلَتْنَ

المرضي، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: هذه أكثر الآيات حُضًّا على التفويض، وروي أن رجلاً قال لِعُمَر رضي الله عنه: وَلَيْ مِمَّا وَلَأكَ اللهُ تَعَالَى، فقال له عمر: أَنْتَ أَلَمْ تَقْرَأِ الْقُرْآنَ؟ قال: لَا، قال عمر: فَإِنِّي لَا أُولِي مِنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَتَعَلَّمِ الرَّجُلُ رَجَاءَ الْوَلَايَةِ، فَلَمَّا حَفِظَ كَثِيراً مِنَ الْقُرْآنِ تَخَلَّفَ عَنْ عُمَرَ، ثُمَّ لَقِيَهُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أَبْطَأَ بِكَ؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْقُرْآنَ فَأَغْنَانِي اللَّهُ عَنِ

عمر وعن بابيه، ثم قرأ هذه الآية من هذه السورة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ﴾
 بَيَّانٌ وَحُضٌّ عَلَى التَّوَكُّلِ، أَي: لَا بَدَ
 مِنْ نَفْذِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَوَكَّلْتَ أَيُّهَا
 الْمَرْءُ أَمْ لَمْ تَتَوَكَّلْ، قَالَ مَسْرُوقٌ،
 الْوَابِرَةُ، وَإِنْ لَمْ تَتَوَكَّلْ وَكَذَلِكَ إِلَى
 عَجْزِكَ وَتَسَخُّطِكَ، وَأَمْرُهُ عَزَّ وَجَلَّ
 فِي الرَّجْهِينِ نَافِذٌ.

وقرأ داود بن أبي هند - ورويت
عن أبي عمرو -: ﴿بَالِغُ أَمْرُهُ﴾
بَرْقِعُ الأَمْرِ، وحذف مفعول تقديره:
بَالِغُ أَمْرُهُ ما شاء، وقرأ جمهور
السبعة، والناس: ﴿بَالِغُ أَمْرُهُ﴾
بنصب الأَمْرِ، وقرأ حفص
والمفضل عن عاصم: ﴿بَلِغُ أَمْرِهِ﴾
على الإضافة وترك التنوين في

سُورَةُ التَّوْبَةِ

أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجَدَكُمْ وَلَا تَصَارَوْهُمْ لِلنَّصِيقِ
عَلَيْهِمْ وَلَا كُنْ أُولَئِكَ حَمَلٍ فَاقْفُوا عَنْهُمْ حَتَّى يَبْضَعَ حَمَلُهُمْ
فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْحَمُوا أَوْصَارَهُنَّ وَالْأَمْرُ بِالْإِيتِكَ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ
نَعَسْتُمْ فَمَنْ رَضِعَ لَهُ أَوْ أُخْرَى ١ يَنْفِقُ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ
وَمَنْ قُدْرَتُهُ رِزْقُهُ فَلْيَنْفِقْ وَمَا أُنْثَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا
إِلَاءَ مَا أَنَهَا سِجِلٌّ اللَّهُ بَعْدَ عَشْرِ مُرَّاتٍ ٢ وَكَانَ مِنْ قُرْبِهِ
عَنْتَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرَسُولُهُ فَمَا سَبَّحَتْهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبَهَا
عَذَابًا ثَقِيلًا ٣ نَذَاتَ رِيَالٌ أَمْهَا وَكَانَ عَقِيبَهُ أَمْهَا خُسْرًا ٤
أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاقْفُوا اللَّهَ يَأْمُرُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا
فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ٥ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ
لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُحِلُّوا الصَّلَاةَ مِنَ الظَّلَامَاتِ إِلَى النُّورِ
وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ يُخْلِلِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لِرِزْقِكَ ٦ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمَنْ أَرْضٍ وَمَنْلَهُمْ يَنْزِلُ الْأَمْزِ بِهِنَّ لِيَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَاللَّهُ الَّذِي قَدْ أَطَاعَ بِكُلِّ شَيْءٍ وَعَلَّمَ ٧

٥٥٩

لك مخرجاً، وقال ابن عباس أيضاً:
معنى ﴿يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا﴾: يخلصه من
كرب الدنيا والآخرة، واختلفت ألفاظ
رؤاة هذه القصة عن ابن عباس
رضي الله عنهما، لكن هذا هو
المعنى.

وقال بعض رواة الآثار: نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأسجعي، وذلك أنه أسر ولده، وقدر عليه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأمره بالتقوى، فقبل: لم يلبث أن تفلت ولده، وأخذ قطع غنم للقوم الذين أسروه، وجاء أباه، فسأل عوف رسول الله ﷺ: أظطرب له تلك الغنم؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، ونزلت الآية في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتُكِبْ عَلَى آيَاتِ اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الآية كلها عظة لجميع الناس، و«الحسب» الكافي

يَرِيضَكَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴿٨﴾ قالوا: يا رسول الله، فما عِدَّةٌ من لا قُرءَ لها من صِغَرٍ أَوْ كِبَرٍ؟ فنزلت هذه الآية، فقال قائلٌ منهم: فما عِدَّةُ الحامل؟ فنزلت ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْصَاءُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، وقد تقدّم ذكر الخلاف في تأويل ﴿إِنْ أَرَبَيْتُمْ﴾.

و «أولات» جمع ذات، وأكثر أهل العلم على أن هذه الآية تعم الحوامل المطلقات والمعتدات من الوفاة، والحُجَّةُ حديثُ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ، قالت: «كنت تحت سعد بن خولة، فتوفي في حَجَّةِ الْوِدَاعِ»، ووضعت حملها قبل أربعة أشهر، فقال لها النبي ﷺ: «قَدْ حَلَلْتَ»، وأمرها أن تنزّوج. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: نزلت سورة النساء الفُصْرَى بعد الطُولَى، يعني أن قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْصَاءُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ نزل بعد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْفِقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، وقال علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم: إنما هذه في المطلقات، وأمّا في الوفاة فعِدَّةُ الحامل آخر الأجلين، فإنّ وضعت قبل أربعة أشهر وَعَشْرَ تَمَدَّتْ إِلَى آخرها، والقول الأول، أشهر، وعليه الفقهاء، وقرأ الضحّاك: ﴿أَحْصَاءُهُنَّ﴾ على الجمع.

وأمر الله تعالى إسكان المطلقات، ولا خلاف في التي لم تُبْتِ، وأمّا الْمُبْتَوَاتُ فَمَالِكٌ رحمه الله تعالى يرى لها السكنى لمكان حفظ النسب، ولا يرى لها نفقة لأنّ

النفقة بإزاء الاستمتاع، وهو قول الأوزاعي، والشافعي، وابن أبي ليلى، وأبي عُبَيْدٍ، وابن المسيّب، وعطاء، والشَّعْبِي، وسليمان بن يسار. وقال أصحاب الرأي والشُّوْرَى: لها السكن والنفقة، وقال جماعة من العلماء: ليس لها سكنى ولا نفقة.

و «الْوُجْدُ»: السَّعَةُ في المال، وضمّ الواو وفتحها وكسرهما هي كلها بمعنى واحد، وقرأ الجمهور: ﴿وَبَيْعُكُمْ﴾ بضم الواو بمعنى السَّعَةِ في الحال، وقرأ الأعرج - فيما ذكر عِصْمَةُ -: ﴿وَجِدْكُمْ﴾ بفتح الواو، وذكرها أبو عمرو عن الحسن، وأبي حنيفة، وقرأ الفياض بن غزوان، ويعقوب بكسر الواو، وذكرها المهدوي عن الأعرج، وعمرو بن ميمون.

وأما الحامل فلا خلاف في وجوب سكنائها ونفقتها، بُتِّتْ أَوْ لَمْ تُبْتِ؛ لأنها مُبَيَّنَّةٌ في الآية، واختلفوا في نفقة الحامل المتوفى عنها زوجها على قولين لعلماء الأمة، فمنعها قوم، وأوجبها في الشركة قوم، وكذلك النفقة على الموضع واجبة وهي الأجر مع الكسوة وسائر المؤن التي يَسْطُهَا في كتب الفقه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ رَايَا بَيْنَكُمْ بِمَرْوَةٍ﴾، أي: ليأمر كل واحد صاحبه بخير، ولا شك أن من أمر بخير فهو أسرع إلى فعل ذلك الخير، وليقبل كل أحد ما أمّر به من المعروف فالقبول والامتثال هو الائتثار، وقال الكسائي: ﴿وَأَنْتُمْ رَايَا﴾ معناه: تشاوروا، ومنه قوله تعالى:

﴿إِنَّكَ أَلَمَلًا تَأْتِرُونَ بَكَ لَقَدْ تَقُولُكَ﴾، ومنه قول امرئ القيس:

وَنَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتِرُ
وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَقَاتَرْتُمْ﴾ أي: تشطّطت المرأة في الحدّ الذي يكون أجرة على الرِّضَاعِ فليزوّج أن يسترضع أخرى بما فيه رفقه، إلا إن لم يقبل المولود غير أمّه فتجبر حينئذ على رضاعه بأجرة مثله ومثل الزوج في حالهما أو غناهما. ثم حضّ الله تعالى أهل الجِدَّةِ على الإنفاق وأهل الإقتار على التوسط، كلٌّ بقدر حاله، وهذا هو العدل بينهم لئلا تضيع هي ولا يتكلّف هو ما لا يطيق.

واختلف العلماء في الذي يعجز عن نفقة امرأته - فقال مالك، والشافعي، وأحمد، وإسحق، وأبو هريرة، وابن المسيّب، والحسن: يُفَرَّقُ بينهما، وقال أصحاب الرأي، وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، وجماعة: لا يُفَرَّقُ بينهما، ثم رجى تعالى باليسر تسهلاً على النفوس وتطبيياً لها.

وقرأ الجمهور: ﴿وَيُعْظِمُ﴾ بالياء، وقرأ الأعمش: ﴿وَتُعْظِمُ﴾ بالنون، واختلف عنه.

﴿٨﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿كَأَيُّنَ﴾ هي كاف الجر دخلت على «أي»، وهذه قراءة الجمهور، وقرأ ابن كثير، وعُبَيْدٌ عن أبي عمرو: ﴿وَكَايُنَ﴾ ممدودة مهموزة، كما قال الشاعر:

وَكَايُنَ بِالْأَبَاطِحِ مِنْ صَدِيقٍ
.....

وقرأ بعض القراء: ﴿وَكَايْنِ﴾ بتسهيل الهمزة، وفي هذين الوجهين قَلْب؛ لأنَّ الياء قبل الألفات. و«الْعَتُوْ» تَرْكُ الانتمار والقبول.

وقوله تعالى: ﴿فَمَاسَبَّتْهَا﴾ قال بعض المتأولين: الآية في الآخرة، أي: ثُمَّ هو الحساب والتعذيب والذوق وخسارة العاقبة، وقال آخرون: ذلك في الدنيا، ومعنى ﴿فَمَاسَبَّتْهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ لَمْ نَغْفِرْ لَهُمْ زَلَّةً بَلْ أَخَذُوا بِالدَّقَائِقِ مِنَ الذَّنُوبِ. وقرأ نافع، وأبو بكر، وابن ذكوان: ﴿نُكْرًا﴾ بضم الكاف، وأسكنها الباقون، وهي قراءة عيسى، وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يظهر منه أنه بيان لوجه خُسران عاقبتهم، فيتأبد بذلك أن تكون المحاسبة والتعذيب والذوق في الدنيا.

ثم ندب تعالى أولي الأبواب إلى الثَّقَوِي تحذيراً، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صفة لـ «أولي الأبواب»، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿فَنُدْخِلُهُ﴾ بالنون، وكذلك روى المفضل عن عاصم، وقرأ الباقون بالياء، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَكُمْ دُكْرًا رَسُولًا﴾، اختلف الناس في تقرير ذلك - فقال قوم من المتأولين: المراد بالاسمين القرآن، و«رَسُولًا» بمعنى رسالة، وذلك موجود في كلام العرب، وقال آخرون: ﴿رَسُولًا﴾ نعت أو كالنعت لقوله سبحانه: ﴿ذِكْرًا﴾،

فالمعنى: ذُكِرَ ذا رسول، وقيل: «الرسول» ترجمة عن «الذَّكْر» كأنه بدلٌ منه، وقال آخرون: المراد بهما جميعاً محمد ﷺ، والمعنى: ذا ذُكْرٍ رسولاً، وقال بعض خُذَّاق المتأولين: الذَّكْرُ اسْمٌ من أسماء الرسول عليه الصلاة والسلام، واحتج بهذه القاضي أبو بكر الباقلاني في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحْدَثٍ﴾، وقال بعض النحاة: معنى الآية: ذُكِرَ بعث رسولاً، فهو منصوب بإضمار فعل، وقال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون ﴿رَسُولًا﴾ معمولاً للمصدر الذي هو الذَّكْر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأَبَيْنُ الأقوال عندي معنى أن يكون «الذَّكْر» القرآن، و«الرَّسُولُ» مُحَمَّدًا ﷺ، والمعنى: بعث رسولاً، لكن الإيجاز اقتضى اختصار الفعل الناصب للرسول، ونحنا هذا المنحى السُّدِّي.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر: ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ بفتح الياء، وقرأها بكسر الياء ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي، والحسن، والأعمش، وعيسى. وسائر الآية بَيِّنٌ، والرزق المشار إليه رزق الجنة لدوامه ودُورِهِ.

﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

لا خلاف بين العلماء أن السموات سبع لأن الله تعالى قال: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾، وفُسِّر

رسول الله ﷺ أمرهن في حديث الإسراء، وقال عليه الصلاة والسلام لسعيد رضي الله عنه: «حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع أَرْقَعَةٍ»، ونطقت بذلك الشريعة في غير ما موضع، وأما الأرض فالجمهور على أنها سبع أرضين، وهو ظاهر هذه الآية، وأن المماثلة إنما هي في العدد، ويستدل بقول رسول الله ﷺ: «من غصب شبراً من أرض طُوقِهِ من سبع أرضين»، إلى غير هذا ممَّا وردت به روايات، وروي عن قوم من العلماء أنهم قالوا: الأرض واحدة، وهي مماثلة لكل سماء بانفرادها في ارتفاع جرمها، وفي أن فيها عالماً يَغْبُدُ، كما في كل سماء عالم يَغْبُدُ.

وقرأ الجمهور: ﴿يُنْزِلُهُنَّ﴾ بالنصب، وقرأ عاصم: ﴿يُنْزِلُهُنَّ﴾ بالرفع، و«الْأَمْرُ» هنا الوحي وجميع ما يأمر به تعالى مَنْ يعقل ومن لا يعقل، فإِنَّ الرِّيحَ والسُّحَابَ وغير ذلك مأمُورٌ كله، وباقي السُّورة حُضُّ على توحيد الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَزَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم معناه الخصوص، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ عموم على إطلاقه.

كمل تفسير سورة الطلاق والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة التحريم

وهي مدنية بإجماع من أهل العلم بلا خلاف.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

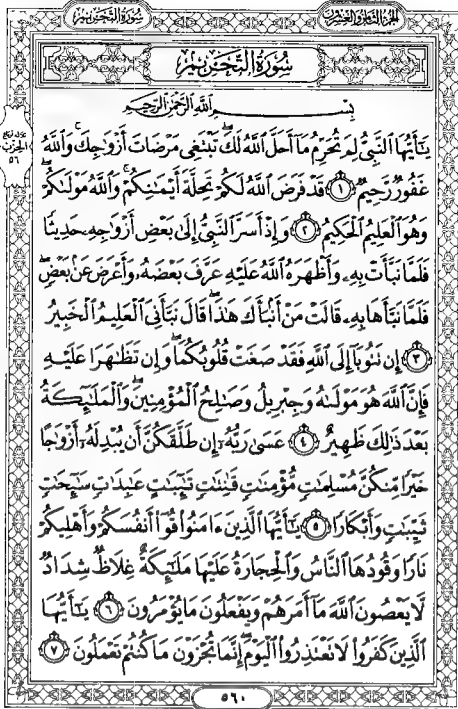
رؤي في الحديث عن زيد بن أسلم والشعبي وغيرهما ما معناه أن رسول الله ﷺ لما أهدى إليه المقوقس مارية القبطية اتخذها سُرْبَةً، فلما كان في بعض الأيام وهو يوم حفصة بنت عمر رضي الله عنهما - وقيل: بل كان في يوم عائشة رضي الله عنها - جاء رسول الله ﷺ إلى بيت حفصة فوجدها قد مَرَّتْ لزيارة أبيها، فبعث رسول الله ﷺ في جاريته، فَقَالَ معها، فجاءت حفصة فوجدتهما، فأقامت خارج البيت حتى أخرج رسول الله ﷺ مارية وذهبت، فدخلت حفصة غَيْرِي متغيرة، فقالت: يا رسول الله، أما كان في نسائك أهون عليك مني؟ أفني بيتي وعلى فراشي؟ فقال لها رسول الله ﷺ مترضياً لها: «أيرضيك أن أحرمتها؟» قالت: نعم، فقال: «إنني قد حرمتها»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وقال مع ذلك: «والله لا أطوها أبداً»، ثم قال: «لا تخبري بها أحداً»، فمن قال: إن ذلك كان في يوم عائشة قال: استكتمها خوفاً من غضب عائشة، وحسن عشرة لها، ومن قال: بل كان في يوم حفصة قال: استكتمها لنفس الأمر، ثم إن حفصة

قرعت الجدار الذي كان بينها وبين عائشة رضي الله عنهما لتبشّرها بالأمر، ولم ترى في إفشائه إليها حرجاً، واستكتمتها، فأوحى الله بذلك إلى نبيه ﷺ، ونزلت الآية.

وروي عن عكرمة أن هذا نزل بسبب أم شريك التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وذكر النقاش نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما. وروي عبيد بن عمير عن عائشة رضي الله عنها أن هذا التحريم المذكور في الآية

إنما هو بسبب الشراب العسل الذي شربه عند زينب بنت جحش، فتمالأت عائشة وحفصة وسودة على أن تقول له من دنا منها: أكلت مغافير - والمغافير ضمغ العُزْفُط - وهو حلز ثقيل الريح، ففعلن ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكني شربت عسلاً»، فقلن له: جَرَسَتْ نحله العُزْفُط، فقال رسول الله ﷺ: «لا أشربه أبداً»، وكان يكره أن توجد منه رائحة ثقيلة، فدخل - بعد ذلك - على زينب رضي الله عنها فقالت له: ألا نسقيك من ذلك العسل؟ فقال: «لا حاجة لي به»، قالت عائشة رضي الله عنها: تقول سودة حين بلغها امتناعه: والله لقد حرمتها، قلت لها: اسكتي.

والقول الأول - أن الآية نزلت بسبب مارية - أصح وأوضح، وعليه



تفقّه الناس في الآية، وحتى حرّم الرجل مالا أو جارية دون أن يعتق أو يشترط عتقا أو نحو ذلك فليس تحريمه بشيء، واختلف العلماء إذا حرّم زوجته بأن يقول: «أنت عليّ حرام» أو: «الحلال عليّ حرام»، ولا يستثنى زوجته - فقال مالك: هي ثلاث في المدخول بها، وينوي في غير المدخول بها، فهو ما أراد من واحدة أو اثنتين أو ثلاث، وقال عبد الملك بن الماجشون: هي ثلاث في الوجهين، ولا ينوي في شيء، وقال أبو المصعب وغيره - ورواه ابن خُوَيْرٍ منداد عن مالك -: إنّها واحدة بائنة في المدخول بها، وروي عن عبد العزيز بن الماجشون أنه قال: يحتملها على واحدة رجعية، وقال غير واحد من أهل العلم: التحريم لا شيء، وإنما عاتب الله رسوله ﷺ

فيه ودلّه على تجلّة اليمين المبينة في المائدة لقوله: «قد حرّمها والله لا أطؤها أبداً»، وقال مسروق: ما أبالي أحرمتها أو قصعة من ثريد، وكذلك قال الشعبي: «ليس التحريم بشيء»، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْهُمْ طَبْعَتْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾، ومُحَرَّم زوجته قد سمى حراماً ما جعله الله حلالاً، وحرّم ما أحلّ الله له، وقال أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، وابن مسعود، وابن عباس، وعائشة، وابن المسيّب، وعطاء، وطاوس، وسليمان بن يسار، وابن جُبَيْر، وقتادة، وأبو ثور الأوزاعي، والحسن، وجماعة: التحريم يلزم فيه تكفير يمين بالله تعالى، والتجلّة إنما هي من أجل التحريم، ولم يقل رسول الله ﷺ: «والله لا أطؤها»، وقال أبو قلابة: «التحريم ظهار»، وقال أبو حنيفة، وسفيان، والكوفيون: «هو ما أراد من الطلاق، فإن لم يرد بذلك طلاقاً فهو لا شيء»، وقال آخرون: «هو ما أراد من الطلاق، فإن لم يرد طلاقاً فهي يمين».

ودعا الله تعالى نبيه ﷺ باسم الثبوة الذي هو دال على شرف منزلته وعلى فضيلته التي خصّه بها دون البشر وقدره، كالمعاتب على سبب تحريمه على نفسه ما أحلّ الله تعالى له.

وقوله تعالى: ﴿يَتَنَبَّأُ مَرْصَاتَ آَزَاجِكُ﴾ جملة في موضع الحال من الضمير الذي في ﴿شَرِّمُ﴾،

و«المرصاة» مصدر كالرّضى، ثم غفر له تعالى ما عاتبه فيه ورجمه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ وَصَّ اللَّهُ﴾ أي: بيّن وأثبت، وقال قوم من أهل العلم: هذه إشارة إلى تكفير التحريم، وقال آخرون: هي إشارة إلى تكفير اليمين المقتربة بالتحريم. و«التجلّة» مصدر، وزنها «تفعيلة»، وأدغم لاجتماع المثليين، وأحال في هذه الآية على الآية التي فسّر فيها الإطعام في كفارة اليمين بالله تعالى، و«المؤلى»: المؤالي الناصر العاضد.

وقوله تعالى: ﴿وَرَاةَ أَسَرِّ النَّبِيِّ﴾ الآية معناه: اذكر يا محمد ذلك على وجه التأنيب والعتب لهن، وقال الجمهور: «الحديث» هو قوله ﷺ في أمر مارية، وقال آخرون: إنما هو قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما شربت عصلاً»، و«بفض أزواجه» هي حفصة رضي الله عنها، و«نبتات» معناه: أخبرت، وهذه قراءة الجمهور، وقرأ طلحة: «أَنْبَتَاتُ»، وكان إخبارها لعائشة رضي الله عنها، وهذا ونحوه هو التظاهر الذي عوتبنا فيه، وقال ميمون بن مهران: الحديث الذي أسرّ إلى حفصة أنه قال لها: وأبشري بأن أبا بكر وعمر يملكان أمر أمتي من بعدي خلافة. وتعدّت «نبتاً» في هذه الآية مرة إلى مفعولين ومرة إلى واحد لأن ذلك يجوز في أنبأ ونبتاً إذا كان دخولهما على غير الابتداء والخبر، فمتى دخلت على الجملة تعدّت إلى ثلاثة مفاعيل، ولا يجوز الاختصار، وقوله سبحانه: ﴿وَأَظْهَرُ﴾ الله عَلَيْهِ أي: أطلعه.

وقرأ الكسائي وحده، وأبو عبدالرحمن، وطلحة، والحسن، وقتادة: ﴿عَرَفَ﴾ بتخفيف الراء، وقرأ الباقر وجمهور الناس: ﴿عَرَفَ﴾ بشدها، والمعنى في اللفظة مع التخفيف: جاري بالعتب واللوم، كما تقول لإنسان يؤذيك: قد عرفت لك هذا، ولأعرفن لك هذا، بمعنى: لأجازيتك عليه، ونحوه في المعنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فعلم الله تعالى زعيم بمجازاتهم، وكذلك معرفة النبي ﷺ، والمعنى مع الشّد في الرّاء: أعلم به وأبئت عليه، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنْ بَعْضِ﴾ أي: تكرماً وحياءً وحسن عشرة، قال الحسن: ما استقصى كريم قط، وروي أن رسول الله ﷺ طلق حينئذ حفصة رضي الله عنها، ثم إن الله تعالى أمره بمراجعتها، وروي أن رسول الله ﷺ عاتبها ولم يطلقها، فلما أخبر رسول الله ﷺ بالخبر وأنها أفسحته إلى عائشة ظنت أن عائشة فضحتّها، فقالت: «من أنبأك هذا؟» على جهة التثبّت، فلما أخبرها أن الله تعالى أخبره سكنت وسلمت.

① - ② تفسير قوله عز وجل: المخاطبة بقوله تعالى: ﴿إِنْ نَوَّأَ إِلَى اللَّهِ﴾ هي لحفصة وعائشة رضي الله عنهما، وفي حديث البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعمر: من اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ قال: حفصة

وعائشة، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَفَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ معناه: مالت عن المَعْدَلَةِ والصواب، والصَّغَا: الميْلُ، ومنه صاغية الرجل، وهم حواشيته الذين يميلون إليه، ومنه: أَصْغَى إِلَيْهِ بِسْمَعِهِ، وَأَصْغَى الْإِنَاءَ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿فَقَدْ زَاغَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، والزَّيْغُ: الميْلُ، وعُزْفُهُ في خلاف الحق، قال مجاهد: كنا نرى «صَفَتْ» شيئاً هيناً حتى سمعنا قراءة ابن مسعود: ﴿زَاغَتْ﴾، وجمع القلوب من حيث الاثنان جَمْعٌ، ومن حيث لا لَبْس في اللفظ، وهذا نظير قول الشاعر:

.....

ظَهَرَاهُمَا مِثْلَ ظُهُورِ الثُّرَسَيْنِ
ومعنى الآية: إِنَّ ثُبْتًا فَقَدَ كَانَ مِنْكُمَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَابَ مِنْهُ، وهذا الجواب الذي هو للشرط هو متقدم في المعنى، وإنما ترتب جواباً في اللفظ، و﴿وَلَا تَنْظُرُوا﴾ معناه: تتعاوننا، فأدغمت التاء في الظاء بعد البدل، وقرأ عكرمة، مولى ابن عباس ببناءين على الأصل، وقرأ الكوفيون، وطلحة، وأبو رجاء، والحسن بتخفيف الظاء على حذف التاء الواحدة، وروي عن أبي عمرو أنه قرأ بتشديد الظاء والهاء دون ألف، و﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: الناصر والمعين. وقوله تعالى: ﴿وَجَبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على اسم الله تعالى في قوله: ﴿هُوَ﴾، فيكون ﴿وَجَبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في الولاية، ويحتمل أن يكون ﴿وَجَبْرِيلُ﴾ رفعاً بالابتداء وما

بعده عطف عليه و﴿ظَهْرُ﴾ الخبر، فيكونون حينئذ من الظهر لا في الولاية، ويختص بأنه مولى الله سبحانه وتعالى.

وآختلف الناس في «صالح المؤمنين» - فقال الطبري وغيره من العلماء: ذلك على العموم يدخل في ذلك كل صالح، وقال الضحاك، وابن جبير، وعكرمة: المراد أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ، وقال مجاهد نحوه، وقال أيضاً: وعلي رضي الله عنه، وروى علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «صالح المؤمنين علي بن أبي طالب»، ذكره الثعلبي، وقال قتادة، والعلاء بن زياد، وغيرهما: هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإنما يترتب ذلك بأن تكون مظاهرتهم بأنهم قدوة وأسوة، فهو عونٌ بهذا المعنى. وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون اسم جنس مفرد، ويحتمل أن يريد: «وصالحوا» فحذفت الواو في خط المصحف كما حذفوها في قوله تعالى: ﴿سَنَنْتُكَ الزَّيَّاتَةَ﴾ وغير ذلك.

ويروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، لا تكثر بأمرك نساءك، والله معك وجبريل معك وأبو بكر معك وأنا معك، فنزلت الآية موافقة نحواً من قول عمر. قال المهدوي: روي أن هذه الآية نزلت على لسان عمر رضي الله عنه، وكذلك روي

أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لزوجات النبي ﷺ: «عَسَى رَبُّهُ أَنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ»، فنزلت الآية على نحو قوله، وقال عمر رضي الله عنه: قالت لي أم سلمة: «يا بن الخطاب أدخلت نفسك في كل شيء حتى دخلت بين الرسول ﷺ وبين نسائه»، فأخذتني أخذاً كسرتني به، وقالت لي زينب بنت جحش: يا عمر: أما يقدر رسول الله ﷺ أن يعط نساءه حتى تعظهن أنت؟

وقرأ الجمهور: ﴿طَلَّقَكُنَّ﴾ بفتح القاف وإظهارها، وقرأ أبو عمرو - في رواية عباس عنه - بإدغامها في الكاف وشدها، قال أبو علي: وإدغام القاف في الكاف حسن، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، والكوفيون، والحسن، وأبو رجاء، وابن محيصن: ﴿أَنْ يُبَدِّلَهُ﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال، وقرأ نافع، وأبو عمرو، والأعرج، وأبو جعفر: ﴿أَنْ يُبَدِّلَهُ﴾ بفتح الباء وشد الدال، وهذه لغة القرآن في هذا الفعل.

وكرر تعالى الصفات مبالغة وإن كان بعضها يتضمن بعضاً، فالإسلام إشارة إلى التصديق والعمل، والإيمان تخصيص وتنبية على شرف وقعه، و«قانتات» معناه: مطيعات، و«السائحات» قيل: معناه: صائحات، قاله أبو هريرة، وابن عباس، وقاتدة، والضحاك، وذكر الزجاج أن النبي ﷺ قاله، وقيل: معناه: مهاجرات، قاله زيد بن أسلم، وقال ابن زيد: ليس في الإسلام سياحة إلا الهجرة، وقيل:

وفي حديث آخر:
**«رحم الله رجلاً قال: يا
 أهله، صلاتكم،
 صيامكم، منكيتمكم،
 يتيمكم»**، وقرأ الجمهور:
«وَوَدَّهَا» بفتح الواو،
 وقرأ مجاهد، والحسن،
 وطلحة، وعيسى،
 والفياض بن غزوان، وأبو
 حيوه بضمها، وقيل: هما
 بمعنى، وقيل: الضم
 مصدر والفتح اسم،
 ويروى أن الحجارة هي
 حجارة الكبريت، وقد
 تقدم في البقرة، ويروى
 أنها جميع أنواع الحجارة،
 وفي بعض الحديث أن

عيسى ابن مريم عليه السلام سمع
 أنبياً بفلاة من الأرض، فتتبعه حتى
 بلغ إلى حجر يئز ويحزن، فقال له:
 ما لك أيها الحجر؟ قال: يا روح الله
 إني سمعت الله تعالى يقول:
«وَوَدَّهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» فخفت أن
 أكون من تلك الحجارة، فعجب منه
 عيسى عليه السلام وانصرف، وشبه
 أن يكون هذا المعنى في التوراة أو
 في الإنجيل، فذلك الذي سمع
 الحجر إذا غُبر عنه بالعربية كان هذا
 اللفظ.

ووصف الملائكة بالغلظة معناه في
 القلوب والبطش الشديد والفظاظة،
 كما قال تعالى لنبيه ﷺ: **«وَلَوْ كُنْتَ
 فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَتَّخَذُوا مِنْ حَوْلِكَ»**،
 و**«السُّدَّةُ»** القوة، وقيل: المراد
 شدتهم على الكفار فهي بمعنى
 الغلظة. ثم وصفهم تعالى بالطواعية

لربهم، وكثر المعنى تأكيداً بقوله
 سبحانه: **«وَيَقَعْلُونَ مَا يُمُرُونَ»** وفي
 قوله تعالى: **«وَيَقَعْلُونَ مَا يُمُرُونَ»** ما
 يقتضي أنهم يدخلون الكفار النار
 بجذ واختيار ويغلظون عليهم، فكانه
 قال بعد تقرير هذا المعنى: فيقال
 للكفار: **«لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ»**، أي: أن
 المذرة لا تنفعكم، وإنما تجزون
 بأعمالكم، فلا تلوّموا إلا أنفسكم.

ثم أمر عباده بالتوبة، والتوبة فرض
 على كل مسلم، و**«تاب»** معناه:
 رجع، فتوبة العبد رجوعه من
 المعصية إلى الطاعة، وتوبة الله
 تعالى على العبد إظهار صلاحه
 ونعمته عليه في الهداية للطاعة،
 وقبول توبة الكافر يقطع على الله
 تعالى بها إجماعاً من الأمة، واختلف
 الناس في توبة العاصي - فجمهور
 أهل السنة على أنه لا يقطع بقبولها
 ولا ذلك على الله تعالى بواجب،
 والدليل على ذلك دعاء كل أحد من
 التائبين في قبول التوبة، ولو كان
 مقطوعاً بها لما كان للدعاء معنى في
 قبولها، وظواهر القرآن في ذلك هي
 كلها بمعنى المشيئة، وروي عن
 الحسن الأشعري أنه قال: التوبة إذا
 توافرت شروطها قطع الله تعالى
 بقبولها لأنه أخبر بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 وهذا تمسك بظواهر القرآن، وعلى
 هذا القول أطيقت المعتزلة، والتوبة:
 الندم على فارتط معصية، والعزم على
 ترك مثلها في المستقبل، هذا من
 المتمكن، وأما غير المتمكن
 كالمجبوب في الزنى فالندم وحده
 يكفيه، والتوبة عبادة كالصلاة

يَتَأْتِيهَا اللَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ
 أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَى
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 مَعَهُ، وَهُمْ يُسْعَوْنَ فِي الْأَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُنَّهُمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
 أَنْتُمْ أَنْتُمْ تَفَاعَلْنَا وَأَغْفِرَ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥﴾
 يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ
 وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَرِشَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ
 عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا
 مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِينَ ﴿٧﴾
 وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ رِيعُونَ إِذْ
 قَالَتْ رَبِّ أَتَيْنَ لِيِ عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجَّيْتَنِي مِنَ رِيعُونَ
 وَعَمِلْتُ وَنَجَّيْتَنِي مِنَ الْقَوَارِ الْأَثَلِيَّةِ ﴿٨﴾ مَرْيَمُ ابْنَتْ
 عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَانَا فَرَجَهَا وَفَضَّلْنَاهَا مِنْ رُوحِنَا
 وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا فَكَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٩﴾

معناه: ذاهبات في طاعة الله تعالى،
 وشبه الصائم بالسائح من حيث
 ينهمك السائح ولا ينظر في زاد ولا
 مطعم، وكذلك الصائم يمسك عن
 ذلك فيستوي هو والسائح في
 الامتناع وشطف العيش بفقد الطعام،
 وقوله تعالى: **«فَيَنْبَغِي وَأَنْبَكَرُ»** تقسيم
 لكل واحدة من الصفات المتقدمة،
 وليست هذه الواو مما يمكن أن يقال
 فيها: واو الشمانية؛ لأنها ها هنا
 ضرورية ولو سقطت لاختل المعنى.

٦ - ٨ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: **«فَوَرَأَ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ»**
 معناه: اجعلوا وقاية بينكم وبين
 النار، وقد تقدم غير مرة تحليل
 اللفظة، وقوله تعالى: **«وَأَهْلِيكُمْ»**
 معناه: بالوصية لهم والتقديم
 والحمل على طاعة الله تعالى، وفي
 حديث: **«لَا تَزْنِي فَيَزْنِي أَهْلُكَ»**،

وغيرها، فإذا تاب العبد وحصلت توبته بشروطها وقبلت ثم عاود الذنب فتوبته الأولى لا تفسدها عودة، بل هي كسائر ما يحصل من العبادات.

و «النُّصُوحُ» بناءً مبالغة من النُّصَح، أي: توبة نصحت صاحبها وأرشدته، وقرأ الجمهور: «نُصُوحًا» بفتح النون، وقرأ أبو بكر عن عاصم، وخارجة عن نافع، والحسن، والأعرج، وعيسى: «نُصُوحًا» بضم النون، وهو مصدر، يقال: نصح يَنْصُحُ نَصَاحَةً ونُصُوحًا، قاله الزجاج، فوصف التوبة بالمصدر كالعدل والزور ونحوه، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: التوبة النُّصُوحُ هي أن يتوب ثم لا يعود ولا يريد أن يعود، وقال أبو بكر الوراق: هي أن تضيق عليك الأرض بما رحبت كتوبة الذين خَلُفُوا.

وقوله تعالى: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ» الآية ترجية، وقد روي أن «عَسَىٰ» من الله تعالى واجبة، والعامل في «يَوْمَ» هو «وَيَسْأَلُكُمْ»، وروي في معنى قوله تعالى: «يَوْمَ لَا يَخْرَىٰ اللَّهُ الْيَتِيمَ» أن محمداً ﷺ تضرع في أمر أمته فأوحى الله تعالى إليه: إن شئت جعلت حسابهم إليك، فقال: يا رب أنت أرحم بهم، فقال الله تعالى: إذا لا أخزيك فيهم، فهذا معنى قوله تعالى: «يَوْمَ لَا يَخْرَىٰ اللَّهُ الْيَتِيمَ»، والخزى المكروه الذي يترك الإنسان حيران خجلاً مهموماً بأن يرى نقصه أو سوء منزلته.

وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ» يحتمل أن يكون معطوفاً على

«الَّذِينَ» فيخرج المؤمنون من الخزي، ويحتمل أن يكون ابتداءً، «وَتُورَثُم يَسَنَ» جملة هي خبره، ويبقى النبي ﷺ مخصوصاً مفضلاً بأنه لا يخزي، وقد تقدم القول في نظير قوله تعالى: «تُورَثُم بَيْنَ يَدَيْهِمْ» و«رَأَيْتُمُوهُ»، وقرأ سهل بن سعد: «بِإِيمَانِهِمْ» بكسر الهمزة. وقولهم: «أَتَيْتُمْ لَنَا تَوْرَتًا» قال الحسن بن أبي الحسن: هو عندما يرون من انطفاء نور المنافقين حسب ما تقدم تفسيره، وقيل: يقول من أعطي من النور بقدر ما يرى من موضع قدميه فقط. ﴿٩﴾ - ﴿١٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تأكيد لأمر الجهاد وفرضه المتقدم، والمعنى: دُم على جهاد الكافرين بالسيف، وجاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، وضربهم في كل جرائمهم وعند قوة الظن بهم، ولم يعين الله تعالى رسوله ﷺ منافقاً يقع القطع بنفاقه؛ لأن التشهد الذي كانوا يظهره كان مُلبساً لأمرهم، مُشبهاً لهم بالعصاة من الأمة، و«الغِلَظَةُ عليهم» هي فظاظة القلب والانتهاز وقلة الرفق بهم، وقرأ الضحاك: «وَأَغْلِظْ» بكسر اللام وقطع الألف.

وهذان المثلان اللذان للكفار والمؤمنين أن من كفر لا يُغني عنه من الله شيء، ولا ينفعه وزر ولو كان متعلقاً بأقوى الأسباب، وأن من آمن لا يدفعه دافع عن رضوان الله تعالى ولو كان في أسوأ منشا وأخس حال، وقال بعض الناس: إن في المثلين عبرة لزوجات النبي ﷺ حين تقدم عتابهن، وفي هذا بُعد لأن

النص أنه للكفار يُبعد هذا.

واختلف الناس في خيانة هاتين المرأتين - فقال ابن عباس وغيره: خانتا في الكفر، وفي أن امرأة نوح كانت تقول للناس: إنه مجنون، وأن امرأة لوط كانت تقول لقومه متى ورد ضيف، فتخبر به، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وما بغت زوجة نبي ولا ابنتي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في نسائهم بهذا، وقال الحسن - في كتاب النقاش -: خانتاهما بالكفر والزنى وغيره، وقرأ الجمهور: «تُغْنِيَا» بالياء، وقرأ بشر بن عبيد: «تُغْنِيَا» بالتاء من فوق.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: امرأة فرعون اسمها «آسية»، وقولها: «وَعَمِلَيْهِ» معناه: وكفره وما هو عليه من الضلالة، هذا قول كافة المفسرين، وقال جمهور من المفسرين: معناه: من ظلمه وعقابه وتعذيبه لي، وروي في هذا أن فرعون أتصل به إيمانها بموسى عليه السلام، وأنها تحب أن تغلب، فبعث إليها قوماً فقال: إن رأيتم منها ذلك فابطحوها في الأرض، وتؤدوا يديها ورجليها، وألقوا عليها أعظم حجر، وإن لم تروا ذلك فهي امرأتي، قال: فذهب القوم، فلما أحسَّت الشر منهم دعت بهذه الدعوات؛ فقبض الله تعالى روحها، ووضع أولئك الحجر بشخص لا روح فيه، وروي غير هذا مما يطول فاخصرته لعدم صحته. وقال آخرون - في كتاب النقاش -: «وَعَمِلَيْهِ» كناية عن الوطء والمضاجعة، وهذا ضعيف.

تفسير سورة الملك

وهي مكية بإجماع، وكان رسول الله ﷺ يقرأها كل ليلة عند أخذ مضجعه، ورواه جماعة مرفوعاً إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وروى عنه أنه قال: «إنها لتنجي من عذاب القبر، وتجادل عن حافظها حتى لا يُعَذَّب»، ويروى أن في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أجاد وأطيب، ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «وَيَذُثُ أَنْ سُورَةُ ﴿تَبَرَكَ الَّذِي يَدُّهُ الْمُلْكُ﴾ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ».

❶ - تفسير قوله عز وجل:

﴿تَبَرَكَ﴾ تَفَاعَلَ، من البركة، وهي التَّزِيدُ في الخيرات، ولم يستعمل «يتبارك» ولا «متبارك». وقوله تعالى: ﴿يَدُّهُ الْمُلْكُ﴾ عبارة عن تحقيق المُلْك؛ وذلك أن اليدَ في عُرف الآدميين هي آلة التملك، فهي مستعارة لذلك، و«الْمُلْكُ» على الإطلاق هو الذي لا يبيد ولا يختل منه شيء، وذلك هو مُلْكُ الله تعالى، والمراد في هذه الآية: ملك الملوك، فهي بمنزلة قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلُوكِ﴾ ذكره الثعلبي عن ابن عباس، وقوله تعالى: ﴿عَنْ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، فالشيءُ معناه في اللغة: الموجود.

و «الموت والحياة» معنيان يتعاقبان جسم الحيوان، يرتفع أحدهما بحلول الآخر، وما جاء في الحديث

الذي من شأنه أن يُسِير الشيء برفق ولطف. وقوله تعالى: ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ إضافة مخلوق إلى خالق، ومملوك إلى مالك، كما تقول: بَيْتُ الله، وناقَة الله، كذلك الروح والجنس كله هو روح الله.

وقرأ الجمهور: ﴿وَصَدَقَتْ﴾ بشد الدال، وقرأ أبو مجلز بتخفيفها، وقرأ جمهور الناس: ﴿بِكَمَلَتْ﴾ على الجمع، وقرأ الجحدري: ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ على الأفراد، فأما الأفراد فَيُقَوِّي أَنْ يَرِيدَ أَمْرَ عَيْسَى

عليه السلام، ويحتمل أن يريد اسم جنس وهو التوراة، ومن قرأ بالجمع فَيُقَوِّي أَنَّهُ يَرِيدُ التَّوْرَةَ، ويحتمل أن يريد أمر عيسى عليه السلام. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحَمْزَة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، ونافع: ﴿وَكِتَابِهِ﴾ على التوحيد، وقرأ أبو عمرو، وحفص عن عاصم، وخارجة عن نافع: ﴿وَكُتُبِهِ﴾ بضم التاء على الجمع، وقرأ أبو رجاء بسكون التاء: ﴿وَكُتُبِهِ﴾، وذلك كله مُرَادُ بِهِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ.

و «الْقَائِمُونَ»: العابدون، والمعنى: كانت من القوم القانتين في عبادتها وحال دينها.

كامل تفسير سورة التحريم، وبها
كامل تفسير الجزء الرابع عشر
والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْمَلِكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَرَكَ الَّذِي يَدُّهُ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝^١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝^٢ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفْوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝^٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَايِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝^٤ وَلَقَدْ رَمَيْنَا الْكَافِرَةَ الْدَانِيَا بِمَصْيَاحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝^٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُومُونَ الْمَصِيرَ ۝^٦ إِذَا الْغَوَاقِبُ أُتِقُوا أَلْهَمُوا لَهُمْ شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝^٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَوَاقِبِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَائِنَهَا أَلَمْ يَكُنْ يَدِيرُ ۝^٨ قَالُوا بَلْ قَدْ جَاءَنَا نَارٌ كَذِبًا وَقَدْ جَاءَنَا نَارُ اللَّهِ مِنَ سُورٍ ۝^٩ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝^{١٠} وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝^{١١} فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝^{١٢} إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝^{١٣}

٥٦٢

واختلف الناس في الفرج التي أحصنت مريم عليها السلام - فقال الجمهور: هو فرج الذراع الذي كان عليها، وأنها كانت صبيّة، وأن جبريل عليه السلام نفخ فيه الروح من جيب الذراع، وقال قوم: هو الفرج الجارحة، ولفظة «أَحْصَنَتْ» - إذا كان فرج الجارحة - متمكنة حقيقة، والإحصان: صَوْنُهُ، وهي فيه مستعملة، وإذا قدرناه فرج الذراع فلفظة «أَحْصَنَتْ» مستعارة من حيث أحصنته وصانته ومن حيث سار مسلماً لولدها.

وقوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا﴾ عبارة عن فعل جبريل عليه السلام، ونَفَخَ جبريل عليه السلام حقيقة، وإن ذهب داهب إلى أن النَّفْخَ فعل الله تعالى، فهو عبارة عن خلقه واختراعه الولد في بطنها، وشبه ذلك بالنفخ

من قوله ﷻ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ كَبِشٍ أَمْلَحٍ فَيَذْبَحُ عَلَى الصِّرَاطِ»، فقال أهل العلم: ذلك تمثال كبش يُوقَع الله تعالى العلم الضروري لأهل الدارين أنه الموت الذي خافوه في الدنيا، ويكن ذلك التمثال حاملاً للموت لا على أنه يحل الموت فيه، فتذهب عنه حياته، ثم يقرن الله تعالى بذبح ذلك التمثال إعدام الموت، وقوله تعالى: «خَلَقَ النَّفْسَ وَالْمَيِّتَةَ لِيَلْبُوكُمْ»، أي: ليختبركم في حال الحياة ويُجازيكم بعد الموت، وقال أبو قتادة - ونحوه عن ابن عمر -: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «لِيَلْبُوكُمْ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ عَمَلَاءُ؟» فَقَالَ: «يَقُولُ تَعَالَى: أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلَاءَ، وَأَشَدُّ لَهَّ تَعَالَى خَوْفًا، وَأَحْسَنُكُمْ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ نَظَرًا، وَإِنْ كَانُوا أَقْلَكُمْ تَطَوُّعًا»، وقال ابن عباس، وسفيان الثوري، والحسن بن أبي الحسن: أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلَاءَ: أَزْهَدُكُمْ فِي الدُّنْيَا. وقوله تعالى: «لِيَلْبُوكُمْ» دال على فعل، تقديره: فينظر أو يعلم أَيْكُمْ، وقال جماعة من المتأولين: الموت والحياة عبارة عن الدنيا والآخرة، سُمِّيَ هذه موتاً من حيث فيها الموت، وسُمِّيَ تلك حياة من حيث لا موت فيها، فوصفهما بالمصدرين على تقدير حذف مضاف كعَذْلٍ وَزُورٍ، وقَدَّمَ الموت في اللفظ لأنه متقدم في النفس هبة وغلظة.

و «يَلْبَاقُ» قال الزجاج: هو مصدر، وقيل: هو جمع طَبَقَةٍ أو جمع طبق مثل رخبه ورحاب أو جبل وجبال، والمعنى: بعضها فوق

بعض، وقال أبان بن تغلب: سمعت أعرابياً يذم رجلاً فقال: شره طباق، وخيره غير باق، وما ذكر بعض المفسرين في السموات أن بعضها من ذهب وفضة وياقوت ونحو هذا ضعيف كله لم يثبت بذلك حديث، ولا يعلم أحد من البشر حقيقة لهذا.

وقوله تعالى: «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ» معناه: من قِلَّةٍ تناسب ومن خروج عن الاتفاق، والأمر المتفاوت هو الذي يجاوز الحدود التي له زيادة أو نقصاً، وقرأ جمهور القراء: «مِنْ تَفَوُّتٍ» وقرأ حمزة، والكسائي، وابن مسعود، وعلقمة، والأسود، وابن جبير وطلحة، والأعمش: «مِنْ تَفَوُّتٍ»، وهما بمعنى واحد، وقال بعض العلماء: «فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ» معني به السموات فقط، وهي التي تضمن اللفظ، وإياها أراد بقوله تعالى: «هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ»، وإياها أراد بقوله: «يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ» الآية، قالوا: وَإِلَّا فَيَ الْأَرْضِ فُطُورٌ، وقال آخرون: «فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ» معني به جميع ما خلق الله تعالى من الأشياء فإنها لا تفاوت فيها ولا فطور جارية على غير إتقان، ومتى كانت فطوراً لا تفسد الشيء المخلوق من حيث هو ذلك الشيء بل هي إتقان فيه ليست تلك المرادة في الآية، وقال منذر بن سعيد: أمر الله تعالى بالنظر إلى السماء وخلقها ثم أمر تعالى بالتكرير في النظر، وكذلك جميع المخلوقات متى نظرها ناظر ليرى فيها خَلْقاً أو نقصاً فإن بصره ينقلب خاسئاً حسيراً، وَزَجَّعَ الْبَصَرَ تَزْدِيدُهُ فِي

الشيء الْمُبْصَر. وقوله تعالى: «كَرِّهَ» معناه: مَرَّيْنِ، ونصبه على المصدر، و«الخاسي» الُمُبْعَدُ بِذُلٍّ عن شيء أراده وعرض عليه، ومنه الكلب الخاسي، ومنه قول النبي ﷺ لابن صياد: «خَسَأَ، فَلَنْ تَعُدَّ قَدْرَكَ»، ومنه قوله تعالى في الكفار الحريصين على الخروج من جهنم: «أَخْسَأُوا فِيهَا»، وكذلك هذا البصر يحرض على رؤية فُطُورٍ أو تَفَاوُتٍ فلا يجد ذلك فينقلب خاسئاً، والـ «حَسِيرٌ»: الْمُعْنِي الْكَأَلَ، ومنه قول الشاعر:

لَهُنَّ الْوَجَى لَمْ كُنْ عَوْنًا عَلَى النَّوَى
وَلَا زَالَ مِثْلَهَا ظَالِمٌ وَحَسِيرٌ
(٦) - (٧) تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ:

أخبر الله تعالى أنه زَيْنُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا إِلَيْنَا - أي: التي تلينا - بمصاييح وهي النجوم، فإن كان جميع النجوم في السماء الدنيا فهذا اللفظ عامٌ للكواكب، وإن كان في سائر السموات كواكب فليما أن يريد كواكب السماء الدنيا فقط، وإما أن يريد الجميع على أن ما في غيرها لما كانت هي تشف عنه ويظهر منها فقد تزينت به بوجه ما، وَمَنْ تَكَلَّفَ القول لمواضع الكواكب وفي أي سماء هي فقوله ليس من الشريعة.

وقوله تعالى: «وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا» معناه: وجعلناها منها، وهذا كما تقول: أَكْرَمْتُ بَنِي فُلَانٍ وصنعت بهم، وَأَنْتَ إِنَّمَا فَعَلْتَ ذَلِكَ بِبَعْضِ دُونِ بَعْضٍ، ويوجب هذا التأويل في الآية أن الكواكب الثابتة والبروج وكل ما يُهْتَدَى به في البر والبحر فليست برواجم، وهذا نص في

سورة الملك

سورة الملك

الشفاعة، فالذي يقال في هذا أَنَّ **جَهَنَّمَ** تختص به الطبقة العليا من النار، ثم قد تسمى الطبقات كلها **جَهَنَّمَ** باسم بعضها، وهذا كما يقال: «نجم» للشريا، ثم يقال ذلك للكواكب اسم جنس، فالذي في هذه الآية **جَهَنَّمَ** بأسرها، أي: جميع الطبقات، والتي في الأثر هي الطبقة العليا لأنها مقر العصاة، و«الشهيق» أقيح ما يكون من صوت الحمار، فاحتدام النار وجليانها يصوت مثل ذلك.

قوله تعالى: **كَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْظِ**، أي: يُزَابِل بعضها بعضاً لشدة الاضطراب، كما قال الشاعر في صفة الكلب يحتدم في جريه: يكادُ يخرج من إهابه وقرأ الضحاك: **«تَمَيَّزُ»** بالأنف، وقرأ طلحة: **«تَمَيَّزُ»** ببناءين، وقرأ الجمهور: **«تَمَيَّزُ»** مخففة التاء، وقرأ البزري وقوم: **«كَكَادُ تَمَيَّزُ»** بضم الدال وشذ التاء على أنها **«تَمَيَّزُ»** وأدغم إحدى التاءين في الأخرى، وقرأ قوم بإدغام الدال في التاء، وهذا فيه إدغام الأقوى في الأضعف، وقوله تعالى: **«يَنْزِلُ الْقَيْظُ»** معناه: على الكفرة بالله تعالى، وقوله سبحانه: **«كَلَّمَآ أَلَيْتَ فِيهَا نَجْجَ»** الفوج هو الفريق من الناس، ومنه قوله تعالى: **«فِي دِينٍ أَلَيْتَ أَوْلَآجَ»**، والآية تقتضي أنه لا

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ أَوْ أَجْهَرُ أَوْ أَيْمَنُ، عَلَيْهِ إِذَا تَصَدَّقَ ١٠ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١١ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ دُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا وَإِلَيْهَا النُّشُورُ ١٢ أَمْ أَنَسُمْ مَن فِي السَّمَاوَاتِ أَن يُنْزِلَ بِكُمْ السَّمَاءَ فِدَاةً أَوْ تَمُورُ ١٣ أَمْ أَنَسُمْ مَن فِي السَّمَاوَاتِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ١٤ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَذِيرُهُمْ ١٥ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِدٌ وَيَقْبَضُونَ مَا يُبْسِكُهُمْ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ١٦ أَفَنُفِئُوا هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرِفُهُ مَن دُونُ الرَّحْمَنِ إِنَّا لَكَاثِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ١٧ أَمْ نَظُنُّ هَذَا الَّذِي يَرْفَعُونَ أَمْسَكَ رِيقَهُ بَلْ لَّمْ يَشَأْ فِي عُنُقِهِ وَنُفِئُوا ١٨ أَفَنُفِئُوا مَكْبَأً عَلَى رُجُوعِهِمْ أَمْ يَبْشَرُونَ ١٩ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٢٠ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّعْيَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٢١ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٢٢ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٢٣ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢٤

٥٦٣

حديث السير، وقال قتادة: خلق الله تعالى النجوم للسماء زينة ورجوماً للشياطين. وليهتدى بها في البر والبحر، ومن قال غير هذه الخصال الثلاث فقد تكلف وأذهب حظه من الآخرة. و**«أَعْتَدْنَا»** معناه أعددنا، والضمير في **«لَهُمْ»** عائد على الشياطين.

وقرأ جمهور الناس: **«وَالَّذِينَ كَذَّبُوا رِيقتَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ»** بالرفع على الابتداء، والخبر في المجرور المتقدم، وقرأ الحسن - في رواية هارون عنه -: **«عَذَابٌ جَهَنَّمَ»** بالنصب على معنى: وأعدنا للذين كفروا عَذَابَ جَهَنَّمَ، فالواو عاطفة فعل على فعل، وتضمنت هذه الآية أن عَذَابَ جَهَنَّمَ للكفار المخلفين، وقد جاء في الأثر أنه يمر على جَهَنَّمَ زَمْزَمْ تخفق أثوابها، قد أخلتها

يلقى فيها أحد إلا سئل - على جهة التوبيخ - عن الثُّدْر، فأقروا بأنهم جاؤهم وكذبوهم، وقوله تعالى: **«كَلَّمَآ»** حَضَرَ، فإذا الآية تقتضي في الأطفال من أولاد المشركين وغيرهم وَمَنْ نُقَدِّرْهُ صاحب فترة أنهم لا يدخلون النار لأنهم لم يأتهم نذير.

(واختلف الناس في أمر الأطفال، فاجتمعت الأمة على أولاد الأنبياء عليهم السلام أنهم في الجنة)، واختلفوا في أولاد المؤمنين - فقال الجمهور: هم في الجنة، وقال قوم: هم في المشيئة. واختلفوا في أولاد المشركين - فقالت فرقة: هم في النار، واحتجوا بحديث روي: «هم من آبائهم»، وتأول المخالف هذا الحديث أنه في أحكام الدنيا، وقال آخرون: هم في المشيئة، وقال آخرون: هم في الجنة واحتج هذا الفريق بهذه الآية في مسألة الخزنة، وبحديث وقع في صحيح البخاري في كتاب التعبير يتضمن أنهم في الجنة، وبقوله عليه الصلاة والسلام: **«كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأُبْوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ يَنْصَرَانِهِ أَوْ يَمَجْسَانِهِ»**، والأطفال لم يبلغوا أن يصنع بهم شيء من هذا.

وقوله تعالى: **«إِن أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ»** يحتمل أن يكون من قول الملائكة حين أخبروا عن أنفسهم أنهم كذبوا الثُّدْر، ويحتمل أن يكون من كلام الكفار للثُّدْر.

١٠ - ١١ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وقال الكفار للخزنة في محاورتهم: لو كنا نسمع أو نعقل سَمِعْنَا أَوْ عَقَلْنَا يُنْتَفَعُ بِهِ وَيَغْنِي شَيْئًا

لَأَمْتًا وَلَمْ نَسْتَوْجِبِ الْخُلُودَ فِي السَّعِيرِ.

ثم أخبر تعالى محمداً ﷺ أنهم اعترفوا بذنبهم في وقت لا ينفع فيه الاعتراف، وقوله تعالى: ﴿فَسُحْقًا﴾ نصب على جهة الدعاء عليهم، وجاز ذلك فيه وهو من قِبَلِ الله تعالى من حيث هذا القول فيهم مستقر أزلاً وجوده لم يقع ولا يقع إلا في الآخرة، فكأنه لذلك في حيز المتوقع الذي يدعى فيه، كما تقول: سحقاً لزيد وبُعْداً، وانتصب في هذا كله بإضمار فعل، وأما ما وقع وثبت فالوجه فيه الرفع، كما قال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ ﴿١٦﴾ وَ﴿١٧﴾ عَلَيْنَا﴾، وغير هذا من الأمثلة. وقرأ الجمهور: ﴿فَسُحْقًا﴾ بسكون الحاء، وقرأ الكسائي: ﴿فَسُحْقًا﴾ بضم الحاء، وهما لغتان.

ثم وصف تعالى أهل الإيمان وهم الذين يخشون ربهم، وقوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: بالغيب الذي أخبروا به من الحشر والصراط والميزان والجنة والنار، فأمنوا بذلك وخشوا ربهم فيه، ونحا إلى هذا قتادة، والمعنى الثاني: يخشون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس، أي: في خلواتهم، ومنه تقول العرب: «فلان سالم الغيب»، أي: لا يضر، فالمعنى: يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعبادتهم وانفرادهم، فالاحتمال الأول مذح بالإخلاص والإيمان، والثاني مذح بالأعمال الصالحة في الخلوات، وذلك أحرى أن يفعلوها علانية.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِنَّ﴾ مخاطبة لجميع الخلق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سببها أن المشركين قال بعضهم لبعض: أسيروا قولكم لا يسمعكم إلا محمد، فالمعنى: إن الأمر سواء عند الله تعالى لأنه يعلم ما هجس في الصدر دون أن يُنطق به، فكيف إذا نُطق به سراً أو جهراً، و«ذات الصدر»: ما فيها، وهذا كما يقال: «الذئب مغبوط بذئ بطنيه»، وقد تقدم تفسيره غير مرة.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، اختلف الناس في إعراب ﴿مَنْ﴾ - فقال بعض النحاة: إعرابها رفع، كأنه تعالى قال: ألا يعلم الخالق خلقه؟ فالمفعول على هذا محذوف، ومنهم من قال: إعرابها نصب، كأنه تعالى قال: ألا يعلم الله من خلق؟ وقال مكِّي: وتعلّق أهل الزُّبَيْع بهذا التأويل؛ لأنه يعطي أن الذين خلقهم الله تعالى هم العباد من حيث قال: ﴿مَنْ﴾، فتخرج الأعمال عن ذلك، لأن المعتزلة تقول: العباد يخلقون أعمالهم، وتعلّقهم بهذا التأويل ضعيف، والكلام مع المعتزلة في مسألة خلق الأعمال مأخذه غير هذا؛ لأن هذه الآية لا حجة فيها لهم ولا عليهم.

و «الذَّلُولُ» فعول بمعنى مفعول، أي: مذلول، فهي كَرْكُوبٍ وْخَلُوبٍ، يقال: ذلول بين الذل، بكسر الذال، وذليل بين الذل، بضم اللام.

واختلف المفسرون في معنى

«المناكب»، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: مناكبها: أطرافها، وهي الجبال، وقال منذر بن سعيد: جوانبها، وهي النواحي، وقال مجاهد: هي الطُّرُق والفجاج، وهذا قول جار مع اللغة؛ لأنها تنكب يمنة ويسرة وينكب الماشي فيها، فهي مناكب.

وهذه الآية تعديد نعم في تقرب التصرف للناس، وفي التمتع في رزق الله تعالى، و«الثُّور»: الحياة بعد الموت.

﴿١٦﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ عاصم، وحزمة، والكسائي، وابن عامر: ﴿أَمْنًا﴾ بهمزتين محققتين من غير مدٍّ، وقرأ أبو عمرو، ونافع: «الثُّورُ أَمْنُكُمْ» بهمزة ومدٍّ، وقرأ ابن كثير: «الثُّورُ وَأَمْنُكُمْ»، يُبدل الهمزة واواً لكونها بعد ضمة، ويمدُّ بعد الواو.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ فِي السَّمَكِ﴾ جارٍ على عُرف تَلْقَى البشر أوامر الله تعالى، ونزول القدر بحوادثه ونعمه وِنَقَمه وآياته من تلك الجهة، وعلى ذلك صار رفع الأيدي والوجوه في الدعاء إلى تلك الجهة والناحية. و«خَسَفُ الْأَرْضِ»: أن تذهب سفلاً. و«ثُورٌ» معناه: تتمرّج وتذهب كما يذهب التراب الموار في الريح، وكما يذهب الدَّم الموار، ومنه قول الأعرابي: «وغادرت التراب مواراً».

و «الحاصِبُ»: البرْد وما جرى مجراه؛ لأنه في اللغة الرِّيح ترمي بالحصباء، ومنه قول الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَرْجُمُهُمْ
بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ الْقَطَنِ مَثُورٍ
وَقَرَأَ جَمُورُ السَّبْعَةِ: ﴿فَسَمْعُونَ﴾
بِالتَّاءِ، وَقَرَأَ الْكَسَائِيُّ وَحْدَهُ:
﴿فَسَمِعْلَمُونَ﴾ بِالْيَاءِ، وَقَرَأَ السَّبْعَةُ
وغيرهم: ﴿نَذِيرٍ﴾ بِغَيْرِ يَاءٍ، عَلَى
طَرِيقَتِهِمْ فِي الْفَوَاصِلِ الْمَشْبَهَةِ
بِالْقَوَافِي، وَقَرَأَ نَافِعٌ فِي رَوَايَةٍ وَزَّش
وَحْدَهُ ﴿نَذِيرِي﴾ بِيَاءٍ عَلَى الْأَصْلِ،
وَكَذَلِكَ فِي ﴿تَكْوِيرٍ﴾، وَ﴿تُكْوِيرٍ﴾:
مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْإِنْكَارِ، وَ﴿النَّذِيرُ﴾
كَذَلِكَ، وَمِنَهُ قَوْلُ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ:

فَأَنْذَرْتُ مِثْلَهَا نَضْحًا قُرَيْشًا
مِنَ الرَّحْمَنِ إِنْ قَبِلْتُ نَذِيرِي
ثُمَّ أَحَالَ عَلَى الْعِبَرَةِ فِي أَمْرِ الطَّيْرِ
وَمَا أَحْكَمَ مِنْ خَلْقَتِهَا، وَذَلِكَ يُبَيِّنُ
عَجْزَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْتَانِ، وَ﴿صَقَّتْ﴾
جَمْعٌ «صَاقَةٌ» وَهِيَ الَّتِي تَبْسُطُ
جَنَاحَهَا وَتَصْفُفُهَا حَتَّى كَأَنَّهَا سَاكِنَةٌ،
وَ﴿قَبْضُ الْجَنَاحِ﴾ ضَمُّهُ إِلَى الْجَنْبِ،
وَمِنَهُ قَوْلُ أَبِي خِرَاشٍ:

يَحُثُّ الْجَنَاحُ بِالتَّبْسِطِ وَالْقَبْضِ
وَهَاتَانِ حَالَانِ لِلطَّائِرِ يَسْتَرِيحُ مِنْ
إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ عَطْفُ الْمَضَارِعِ عَلَى اسْمِ
الْفَاعِلِ، وَذَلِكَ كَمَا عَطَفَ اسْمُ
الْفَاعِلِ عَلَى الْمَضَارِعِ فِي قَوْلِ
الشَّاعِرِ:

بَاتَ يُغْشِيهَا بَعْضُ بَابِرٍ
يَفْصِدُ فِي أَسْوَقِهَا وَجَائِرٍ
وَقَرَأَ طَلْحَةُ بْنُ مَرْصُوفٍ: ﴿أَمَّنْ﴾
بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ فِي هَذِهِ، وَقَرَأَ الَّتِي
بَعْدَهَا مُثْقَلَةً كَالْجَمَاعَةِ، وَ﴿الْجُنْدُ﴾
أَعْوَانُ الرَّجُلِ عَلَى مَذْهِبِهِ، وَقَوْلُهُ

تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضُرٍّ﴾
خَطَابٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ تَقْدِيرِ: قُلْ
لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: أَمَّنْ هَذَا.

﴿١١﴾ - ﴿٢٥﴾ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:
هَذَا أَيْضًا تَوْقِيفٌ عَلَى أَمْرٍ لَا مَدْخَلَ
لِلْأَصْنَافِ فِيهِ، وَالْإِشَارَةُ بِالرُّزْقِ إِلَى
الْمَطَرِ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ الْأَرْزَاقِ، ثُمَّ أَخْبَرَ
تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَجُّوا وَتَمَادَوْا فِي
الْتِمَنِيعِ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ
الْعُتُوُّ، وَ﴿التُّفُورُ﴾، الْبُعْدُ عَنِ الْحَقِّ
بِسُرْعَةٍ وَمُبَادَرَةٍ، يُقَالُ: نَفَرْنَا عَنِ الْأَمْرِ
تُفُورًا، وَنَفَرْنَا إِلَى الْأَمْرِ تَفِيرًا، وَتَفَرَّتْ
الدَّابَّةُ تَفَارًا.

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي سَبَبِ
قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يَبْنِي مِكًا﴾ الْآيَةُ
- فَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ رُوَاةِ الْأَسْبَابِ:
نَزَلَتْ مِثْلًا لِحِمْزَةِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَأَبِي جَهْلٍ بْنِ
هَشَامٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ
الْكَلْبِيِّ وَغَيْرُهُمَا: نَزَلَتْ مِثْلًا
لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَلَأَبِي جَهْلٍ بْنِ هَشَامٍ،
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا، وَمُجَاهِدٌ،
وَالضَّحَّاكُ: نَزَلَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْكَافِرِينَ عَلَى الْعَمُومِ، وَقَالَ
قَتَادَةُ: نَزَلَتْ مَخْبِرَةً بِأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ،
وَأَنَّ الْكَافِرَ يَمْشُونَ فِيهَا عَلَى
وُجُوهِهِمْ، وَالْمُؤْمِنُونَ يَمْشُونَ عَلَى
اسْتِقَامَةٍ، وَقِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: كَيْفَ
يَمْشَى الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ؟ فَقَالَ:
«الَّذِي أَمَّاهُ فِي الدُّنْيَا عَلَى قَدَمَيْهِ
قَادِرٌ أَنْ يَمْشِيَهُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى
وَجْهِهِ».

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ
رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوَّفَ الْكُفَّارَ عَلَى مَا
بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ حِينَئِذٍ، فِيهِ الْأَقْوَالُ
الثَّلَاثَةُ الْأُولَى الْمَشْنُوعُ مَجَازٌ بِتَخِيلٍ،

وَفِي الْقَوْلِ الرَّابِعِ هُوَ حَقِيقَةُ تَقَعُّ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَيُقَالُ: «أَكْبَّ الرَّجُلُ» إِذَا رَدَّ
وَجْهَهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَ«كَبَّهْ غَيْرَهُ»،
قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَهَلْ
يَكْبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاقِرِهِمْ
إِلَّا حَصَائِدَ أَلْسِنَتِهِمْ؟» فَهَذَا الْفِعْلُ
خِلَافُ لِلْبَابِ، أَفْعَلَ لَا يَتَعَدَّى،
وَفَعَلَ يَتَعَدَّى، وَنَظِيرُهُ «قَشَعَتْ
الرِّيحُ السَّحَابَ فَانْقَشَعَ»،
وَ«أَمَدَّنَ» فِي هَذِهِ الْآيَةِ «أَفْعَلَ»
مِنَ الْهَدْيِ.

وَقَرَأَ طَلْحَةُ: ﴿أَمَّنْ يَنْفِشِي﴾
بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ، وَأَفْرَدَ تَعَالَى السَّمْعَ
لَأَنَّهُ اسْمُ جِنْسٍ يَقَعُ لِلْقَلِيلِ
وَالْكَثِيرِ، وَ﴿قَلِيلًا﴾ نَصَبٌ بِفِعْلِ
مَضْمَرٍ، وَ﴿مَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ، وَهِيَ فِي
مَوْضِعِ رَفْعٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَلِيلًا
مَا تَشْكُرُونَ﴾ يَقْتَضِي ظَاهِرُهُ أَنَّهُمْ
يَشْكُرُونَ قَلِيلًا، فَهَذَا إِمَّا أَنْ يُرِيدَ
بِهِ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ لِلْكَافِرِ مِنْ
شُكْرِ، وَهُوَ قَلِيلٌ غَيْرُ نَافِعٍ، وَإِمَّا
أَنْ يُرِيدَ نَفْيَ الشُّكْرِ عَنْهُمْ جَمْلَةً
فَعَبَّرَ بِالْعَلَّةِ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ:
«هَذِهِ أَرْضٌ قَلَّمَا تُنْبِتُ كَذَا» وَهِيَ
لَا تُنْبِتُهُ الْبَشَّةُ، وَمَنْ شُكِرَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ أَنَّهُ
كَانَ يَقُولُ فِي سَجُودِهِ: «سَجَدَ
وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ
سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ».

و «ذَرَّكَرُ» مَعْنَاهُ: بِئُكُمُ،
وَالْحَشَرُ الْمَشَارُ إِلَيْهِ هُوَ بَعَثُ
الْقِيَامَةِ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿هَذَا أَوْعَدُهُ﴾، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ
يَسْتَعْبِلُونَ أَمْرَ الْقِيَامَةِ وَيُوقَفُونَ عَلَى
الْصَدَقِ فِي الْإِخْبَارِ بِذَلِكَ.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم أن علم يوم القيامة والوعد الصدق هو مما ينفرد الله تعالى به، وأن محمداً ﷺ إنما هو نذير، يعلم ما علم، ويخبر بما أمر أن يخبر به.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾، الضمير للعذاب الذي تضمّنه الوعد، وهذه حكاية حال تأتي، والمعنى: فإذا رآوه، و﴿رَأَوْهُ﴾ معناه: قريباً وقال الحسن: عياناً، وقال ابن زيد: حاضراً، و﴿يَتَذَكَّرُ﴾ معناه: ظهر فيها السوء، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ بكسر السين، وقرأ أبو جعفر، والحسن، ونافع أيضاً، وابن كثير، وأبو رجاء، وشيبة، وابن وثاب، وطلحة بالإشمام بين الضم والكسر، وقرأ جمهور الناس: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بفتح الدال وشدها، على وزن تَفَعَّلُونَ، أي: تتداعون أمره بينكم، وقال الحسن: تَدْعُونَ أنه لا جنة ولا نار، وقرأ أبو رجاء، والحسن، والضحاك، وقتادة، وابن يسار، وسلام: ﴿تَذَعُونَ﴾ بسكون الدال، على معنى: تستعجلون، كقولهم: ﴿يَجْعَلْ لَنَا فِتْنَةً﴾، ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جَنَّاتِكُمْ﴾، وغير ذلك.

وروي في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ الآية.. أنهم كانوا يذعنون على محمد ﷺ وأصحابه بالهلاك، وقيل: بل كانوا يتآمرون بينهم بأن يهلكوهم بالقتال ونحوه، فقال الله تعالى له: قل لهم: أرايتم إن كان هذا الذي تريدون بنا وتَمَّ ذلك فينا،

أو أرايتم إن رحمنا الله فنصرنا ولم يهلكنا مَنْ يُجيركم من العذاب الذي يوجب كفركم على كل حال؟ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ﴾ بنصب الياءين، وأسكن الكسائي، وعاصم - في رواية أبي بكر - الياء في ﴿مَعِيَ﴾، وقرأ حمزة بإسكان الياءين، وروى الحسن عن نافع أنه أسكن الياء من ﴿أَهْلَكْنِي﴾، وقال أبو علي: التحريك في الياءين حسن وهو

الأصل، والإسكان - كراهية الحركة في حرف اللين - للنجاة من ذلك.

وقرأ الكسائي وحده: ﴿فَسَيَفْلُحُونَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء على المخاطبة، ثم وقفهم تعالى على مياهم التي يعيشون منها إن غارت - أي: ذهبت في الأرض - من يجيئهم بماء كثير كاف، و﴿الْفُورُ﴾ مصدر يوصف به على معنى المبالغة، ومنه قوله الأعرابي: «وغازت التراب مَوراً والماء غَوراً»، و﴿الْمَعِينُ﴾ فَعِيلٌ من «مَعَنَ الماء» إذا كثر أو مفعولٌ من «الْعَيْنُ»، أي: جارٍ كالعين، أصله مَغِينٌ، وقيل: هو من «الْعَيْنُ» لكن من حيث يرى بعين الإنسان، لا من حيث يشبه العين الجارية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مَعِينٌ: عذب، وعنه - في كتاب الثعلبي - مَعِينٌ:



جارٍ، وفي كتاب النقاش: مَعِينٌ: طاهرٌ، وقال بعض المفسرين وابن الكلبي: أشير في هذا الماء إلى بشر زمزم وبشر ميمون، ويشبه أن تكون هاتان عظم ماء مكة، وإلا فكانت فيها آبارٌ كثيرة كحُم والجفر وغيرهما.

كمل تفسير سورة الملك والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القلم

وهي مكِّيَّة، ولا خلاف فيها بين أحد من أهل التأويل.

﴿١﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿ت﴾ حرف مقطوع في قول

جمهور المفسرين، فيدخله من الاختلاف ما يدخل أوائل السور، ويختص هذا الموضع من الأقوال بأن قال ابن عباس ومجاهد: ﴿ت﴾ اسم الحوت الأعظم الذي عليه الأرضون السبع فيما يروى، وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: ﴿ت﴾ اسم للدواة، فهذا إما أن يكون لغة لبعض العرب أو تكون لفظة أعجمية، قال الشاعر:

إِذَا مَا الشُّوقُ بَرَّحَ بِي إِلَيْهِمْ
أَلْقَيْتُ الثُّوْبَ بِالذَّمْعِ السَّجُومِ
فمن قال بأنه اسم الحوت جعل «الْقَلَمَ» الْقَلَمَ الذي خلقه الله تعالى وأمره فكتب الكائنات، وجعل الضمير في «يَسْطُرُونَ» للملائكة، ومن قال بأن ﴿ت﴾ اسم للدواة جعل «الْقَلَمَ» هو المتعارف بأيدي الناس، نص ذلك ابن عباس، وجعل الضمير في «يَسْطُرُونَ» للناس، فجاء القسم - على هذا - بمجموع أمر الكتاب الذي هو قوائم للعلوم والمعارف وأمور الدنيا والآخرة، فإن القلم أخو اللسان ومطية الفطنة ونعمة من الله تعالى عامة، وروى معاوية بن قرة أن النبي ﷺ قال: «قَنَ لَوْحٌ مِنْ نُورٍ»، وقال ابن عباس أيضاً وغيره: (نَ) حرف من حروف الرحمن، وقالوا: إنه تَقَطَّعَ في القرآن إلى «الَّر» و«حَمَ» و«نَ».

وقرأ عيسى بن عمر - بخلاف -: «نُونٌ» بالنصب، والمعنى: اذكر نون، وهذا يَفْقَى مع أن يكون اسماً للسورة، فهو مؤنث سُمِّيَ به مؤنث، ففيه تأنيث وتعريف ولذلك لم ينصرف، وانصرف «نُوحٌ» لأنَّ الخِفَّةَ

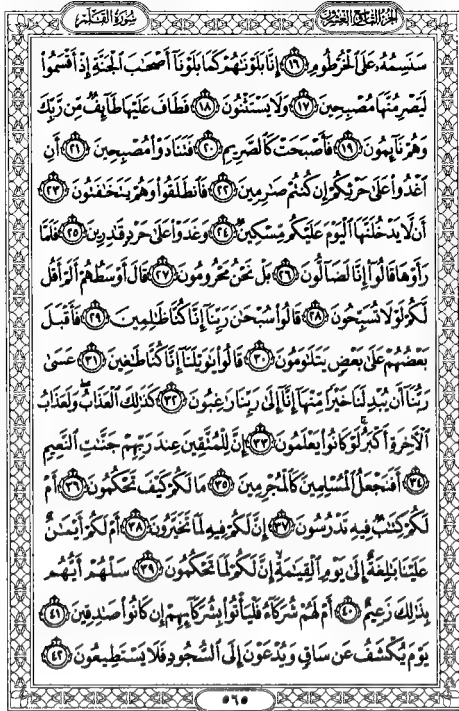
بكونه على ثلاثة أحرف غلبت على علَّة العُجْمَةِ، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحق، والحسن: ﴿ت﴾ بكسر النون، وهذا كما تقول في القسم: الله، وكما قالوا: جَنِيْرٌ، وقيل: كُسِرَتْ لاجتماع الساكنين، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم: «نُونٌ» بسكون النون، وهذا على أنه حرف منفصل فحقه الوقوف عليه، وقرأ قوم منهم الكسائي: «نُنْ وَالْقَلَمُ» بالإدغام دون غُثَّة، وقرأ آخرون بإدغام وِبَغْثَةٍ، وقرأ الكسائي ويعقوب، وأبو بكر عن عاصم بالإخفاء بين الإدغام والإظهار، و«يَسْطُرُونَ» معناه: يكتبون سطوراً، فإن أراد الله تعالى الملائكة فهو كتب الأعمال وما يؤمرون به، وإن أراد تعالى بني آدم فهي الكتب المنزلة والعلوم وما جرى مجراها.

وقوله تعالى: «مَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ لِّمَنْ يَعْبُودُ رَبَّكَ» هو جواب القسم، و«مَا» ها هنا عاملة لها اسم وخبر، وكذلك هي متى دخلت الباء في الخبر، وقوله تعالى: «يَنْعَمَتِ رَبِّكَ» اعتراض، كما تقول لإنسان: أنت - بحمد الله - فاضل.

وسبب هذه الآية أن قريشاً رمت رسول الله ﷺ بالجنون، وهو سَثَرُ العقل، بمعنى أن كلامه خطأ ككلام المجنون، فنفى الله تعالى ذلك عنه، وأخبره بأن له الأجر، وبأنه على الخلق العظيم تشريفاً له ومدحاً.

واختلف الناس في معنى «مَتَّوْنٌ» - فقال أكثر المفسرين: هو الواهن

المنقطع، يقال: «جبل ممنون» أي: ضعيف، وقال آخرون: معناه: غير ممتنون عليك، أي: لا يكدره من به، وقال مجاهد: معناه: غير مُسَرَّد ولا محسوب محصّل، أي: بغير حساب، وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: (خُلُقُهُ القرآن)، أي: آدابه وأوامره، وقال عليّ رضي الله عنه: الخُلُقُ العظيم أدب القرآن، وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن الخُلُقِ بالدين والشرع، وذلك لا محالة رأس الخلق ووكيده، أما إنَّ الظاهر من الآية أن الخُلُقَ هو الذي يضاد مقصد الكفار في قولهم: «مجنون» أي: غير محصّل لما يقول، وإنما مدحه تعالى بكرم السجية وبراعة القريحة والمَلَكَ الجميلة وجودة الضرائب، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»، وقال جُنَيْد: «سُمِّيَ خُلُقُهُ عَظِيماً إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ هِمَّةٌ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى، عَاشَرَ الْخَلْقَ بِخُلُقِهِ وَزَايَلَهُمْ بِقَلْبِهِ، فَكَانَ ظَاهِرُهُ مَعَ الْخَلْقِ وَبَاطِنُهُ مَعَ الْحَقِّ»، وفي وصية بعض الحكماء: «عليك بالتَّخَلُّقِ مَعَ الْخَلْقِ، وبِالْصَّدْقِ مَعَ الْحَقِّ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ خَيْرُ كُلِّهِ»، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنْ الْمُؤْمِنُ لَيُذْرَكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةً قَائِمُ اللَّيْلِ صَائِمُ النَّهَارِ»، وقال: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ»، وقال: «أَحْبَبُكُمْ إِلَيَّ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً»، والعدل والإحسان والعفو والصلة من الخُلُقِ.



لرسول الله ﷺ: لو
عبدت ألهتنا وعظمتها
لعبدنا إلهك وعظمتها،
وودوا أن يداهنهم
رسول الله ﷺ ويميل إلى
ما قالوا فيميلوا هم أيضاً
إلى قوله ودينه،
و«الإذهان»: الملاينة فيما
لا يحل، والمُدارة:
الملاينة فيما يحل، وقوله
تعالى: ﴿يَذْهَبُونَ﴾
معطوف وليس بجواب؛
لأنه لو كان لنصب.

و«الحلاف»: المُردّد
لحلفه الذي قد كثر منه،
و«المهين»: الضعيف
العقل والرأي، قاله

مجاهد وهو من «مهن» إذا ضعف،
والميم فاء الفعل، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما: المهين: الكذاب.
و«الهماز»: الذي يقع في الناس،
وأصل الهمز في اللغة الضرب طعناً
باليد أو بالعصا أو نحوه، ثم استعير
للذي ينال بلسانه، قال منذر: وبعينه
وإشارته، وسُميت الهمزة لأن في
النطق بها حدة وعجلة فشبّهت بالهمز
باليد، وقيل لبعض الأعراب: أتهمز
الفارة؟ فقال: الهرة تهمزها، وقيل
لآخر: أتهمز إسرائيل؟ فقال: إني إذا
لرجل سوء.

و«التميم» مصدر كالتميمة، وهو
نقل ما يُسمع ممّا يسوء ويحوش
النفوس، وروى حذيفة أن النبي ﷺ
قال: «لا يدخل الجنة قذات»، وهو
النشام، وذهب كثير من المفسرين
إلى أن هذه الأوصاف هي أجناس لم

وقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِي﴾، أي:
أنت وأمتك، و﴿يُصِرُّونَ﴾ أي: هم،
واختلف الناس في معنى قوله تعالى:
﴿بِأَيْتِكُمُ الْفُتُونُ﴾ فقال أبو
عثمان المازني: الكلام تام في قوله
تعالى: ﴿وَيُصِرُّونَ﴾، ثم استأنف
قوله تعالى: ﴿بِأَيْتِكُمُ الْفُتُونُ﴾،
وقال الأخفش: بل الإصرار عامل في
الجملة المستفهم عنها، في معناها،
وأما الباء فقال أبو عبيدة مغمّر،
وقتادة: هي زائدة، والمعنى: أيكم
المفتون؟ وقال الحسن، والضحاك:
﴿الْمُفْتُونُ﴾ بمعنى الفتنة، كما قالوا:
«ماله معقول» أي: عقل، وكما
قالوا: «أقبل منسوره وذغ مغسوره»،
فالمعنى: بأيكم هي الفتنة والفساد
الذي سُمّوه جنونا؟ وقال آخرون:
المعنى: بأيكم فتن المفتون؟ وقال
الأخفش: المعنى: بأيكم فتنة
المفتون؟ ثم حذف المضاف وأقيم
المضاف إليه مقامه، وقال مجاهد،
والفراء: الباء بمعنى «في» أي: في
أي فريق منكم النوع المفتون؟ وهذا
قول حسن قليل التكلف، ولا نقول
إن حرفاً بمعنى حرف، بل نقول: إن
هذا المعنى يتوصل إليه بـ «في»
وبالباء أيضاً. وقرأ ابن أبي عبيدة:
﴿فِي أَيُّكُمُ الْمُفْتُونُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَن صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الآية وعبيد،
والعالم في قوله سبحانه: ﴿بِمَن
صَلَّ﴾ هو «أَعْلَمُ»، وقد قوّاه حرف
الجر فلا يحتاج إلى إضمار
فعل، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْلُ
الْمُكَلِّبِينَ﴾ يريد قريشاً، وذلك
أنهم قالوا في بعض الأوقات

يرد بها رجل بعينه، وقالت طائفة:
بل نزلت في مُعين، واختلف فيه -
فقال بعضهم: هو الوليد بن
المغيرة، ويؤيد ذلك غناء وأنه
أشهرهم بالمال والبنين، وقال
الشعبي وغيره: هو الأخنس بن
شريق، ويؤيد ذلك أنه كانت له هنة
في حلقه كزئمة الشاة، وأيضاً فكان
من ثقيف مُلصقاً في قريش، وقال
ابن عباس في كتاب الثعلبي: هو أبو
جهل، وذكر النقاش عتبة بن ربيعة،
وقال مجاهد: هو الأسود بن عبد
يغوث، وظاهر اللفظة عموم من بهذه
الصفة، والمخاطبة بهذا المعنى
مستمرة باقي الزمان لا سيما لولاة
الأمر.

١٢ - ﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

قال كثير من المفسرين: الحَيْر هنا
المال، فوصفه بالشح، وقال

آخرون: بل هو على عمومه في المال والأفعال الصالحة، ومن يُمنع إيمانه وطاعته فقد مُنِع الخير، و«المعتدي»: المتجاوز لحدود الأشياء، و«الأنيم» فَعِيل من الإنم بمعنى آثم، وذلك من حيث أعماله قبيحة تُكسب الإنم.

و «العُتْلُ»: القويُّ البنية، الغليظُ الأعضاء، المُصَحَّح، القاسي القلب، البعيدُ الفهم، الأَكُولُ الشُّروْبُ الذي هو بالليل جيفة وبالنهار حمار، وكل ما عبَّر به المفسرون عنه من خلال النقص فمن هذه التي ذكُرَتْ تُضَدُّر، وقد ذكر النقاش أن النبي ﷺ فسر «العُتْلُ» بنحو هذا، وهذه الصفات كثيرة التلازم، والعُتْلُ: الدَّفْع بشدة، منه الْعَتْلَة - وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ معناه: بعد ما وصفناه به، فهذا الترتيب إنما هو في قول الواصف لا في حصول تلك الصفات في الموصوف، وإلا فكونه عُتْلًا هو قبل كونه صاحب خير يمنعه.

و «الرَّزِيم» في كلام العرب: الملتصق في القوم وليس منهم، وقد فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، وقال مرة الهَمْدَانِي: إنما ادَّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة، يعني الذي نزلت فيه هذه الآية، ومن ذلك قول حسان بن ثابت:

وَأَنْتَ رَزِيمٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ
كَمَا نَيْطٌ خَلَفَ الرَّابِيعَ الْقَدَحَ الْفَرْدُ
وقول حسان أيضاً:

رَزِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً
كَمَا زَيْدٌ فِي غَرْضِ الْأَدِيمِ الْأَكَارُغُ
فقال كثير من المفسرين: هذا هو

المراد بالآية، وذلك أن الأخنس بن شَرِيْق كان من ثقيف حليفاً لقريش، وقال ابن عباس: أراد بالزَّيْم أن له زَمَّةً في عنقه كزَمَّة الشَّاة، وهي الهَمَّة التي تتعلق في حلقها، وما كنا نعرف المشار إليه حتى نزلت فعرّفناه بِرَزِيمَتِهِ، وقال أبو عبيد: يُقَال لِلثَّيْس: رَزِيمٌ؛ إِذْ لَهُ زَمَمَتَان، ومنه قول الأعرابي في صفة شاته: (كَأَنَّ رَزَمَتَيْهَا تَتَوَّانُ قُلَيْسِيَّةً) وروى أن الأخنس بن شريق كان بهذه الصفة، كان له زَمَّة، وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما نزلت هذه الصفات لم نعرف صاحبها حتى نزل (زَينم) فَعُرِف بِرَزَمَتِهِ، وقال بعض المفسرين: الزَّيْم: المريب القبيح الأفعال.

واختلفت القراءة في قوله تعالى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِينَ﴾ - فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وحفص عن عاصم، وأهل المدينة: ﴿أَنْ كَانَ﴾ على الخبر، وقرأ حمزة: ﴿أَنَّ كَانَ﴾ بهمزتين مخففتين على الاستفهام، وقرأ ابن عامر، والحسن، وابن أبي إسحق، وعاصم، وأبو جعفر: ﴿أَنَّ كَانَ﴾ على الاستفهام بتسهيل الهمزة الثانية، والعامِل في ﴿أَنْ﴾ فعل مضمَر تقديره: كَفَّرَ أَوْ جَحَدَ أَوْ عَدَدَ، ويُفسر هذا الفعل قوله تعالى: ﴿إِذَا تَلَّى عَلَيْهِ﴾ الآية، وجاز أن يعمل المعنى وهو متأخر من حيث كان قوله تعالى: ﴿أَنْ كَانَ﴾ في منزلة الظرف؛ إِذْ يُقَدَّرُ بِاللَّامِ، أي: لأن كان، وقد قال فيه بعض النحاة: إنه في موضع خفض باللام كما لو

ظهرت، فكما عمل المعنى في الظرف المتقدم كذلك يعمل في هذا، ومنه قوله تعالى: ﴿يَبْنِيكُمْ إِذَا مُرِفَتَكُمْ كُلُّ مُرِفَةٍ لَكُمْ لِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، فالعامل في ﴿إِذَا﴾ معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ تُبْعَثُونَ﴾، أو نحوه من التقدير، ولا يجوز أن يعمل [يُنْبِئُ] في ﴿إِذَا﴾ لأنه مضاف إليه قد أُضيف إِذَا إلى الجملة، ولا يجوز أن يعمل في ﴿إِنْ﴾، قال: لأنها جواب لـ ﴿إِذَا﴾ ولا تعمل فيما قبلها.

وأجاز أبو علي أن يعمل فيه ﴿عَتْلٍ﴾ وإن كان قد وُصِف، ويصح - على هذا النظر - أن يعمل فيه ﴿رَزِيمٍ﴾ لا سَبِيحاً على قول من يفسره بالقبيح الأفعال، ويجوز أن يعمل في (أَنْ كَانَ) «تَطِيغُهُ» التي يقتضيهما قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِغُ﴾، وهذا على قراءة الاستفهام يُبْعَدُ، وإنما يَتَجَه: لَا تُطِغُهُ لِأَجْلِ كونه كذا، وَلَهُ - على كُلِّ وَجْه - مفعولٌ من أجله، وتأمل. وقد تقدم القول في «الأساطير» في غير ما موضع.

وقوله تعالى: ﴿سَاسُهُ عَلَى لَئْلُوٍ﴾ معناه: على الأنف، قاله المبرد، وذلك أن الخرطوم يستعار في أنف الإنسان، وحقيقته في مخاطم السباع، ولم يقع التوعد في هذه الآية بأن يُوسَم هذا الإنسان على أنفه بِسِمَةٍ حَقِيقَةٍ، بل هذه عبارة عن فعل يشبه الوَسْم على الأنف، واختلف الناس في ذلك الفِعل - فقال ابن عباس: هو الضرب بالسيف، أن يُضْرَب به في وجهه وعلى أنفه

فيجيء ذلك كالوشم على الأنف، وحل به ذلك يوم بدر، وقال محمد بن يزيد المبرد: ذلك في عذاب الآخرة في جهنم، وهو تعذيب بنار على أنوفهم، وقال آخرون: ذلك في يوم القيامة، أن يُوسم على أنفه بِسْمَةِ يُعْرَفُ بها كُفْرُه وانحطاط قدره، وقال قتادة وغيره: معناه: سَيُفعل به في الدنيا من الذم والمقت والإشهار بالشَّر ما يبقى فيه ولا يخفى به، فيكون ذلك كالوشم على الأنف ثابتاً بَيِّنًا، وهذا المعنى كما تقول: «سَأَطْرُقُكَ طُوقَ الحمامة» أي: أثبت الأمر بَيِّنًا فيك، ونَحْوُ هذا أراد جرير بقوله:

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرْزَدَقِ مِيسْمِي

وفي الوشم على الأنف تشويهه، فجاءت استعارة في المذمات بليغة جداً، وإذا تأملت حال أبي جهل ونظرائه وما ثبت لهم في الدنيا من سوء الأُحودثة رأيت أنهم قد وَسِمُوا على الخراطيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾، يريد تعالى قريشاً، أي: امتحناهم، وأصحاب الجئة - فيما ذكر - قوم إخوة، كان لأبيهم جئةٌ وحرثٌ مُغِلٌّ، فكان يُمسك منه قُوته ويتصدق على المساكين بياقيه، وقيل: بل كان يحمل المساكين معه في وقت حصاده وجده فيجزئهم منه، فمات الشيخ، فقال ولده: نحن جماعة، وفعل أبينا كان خطأ، فلنذهب إلى جئتنا، ولا يدخلها علينا مسكين ولا نعطي منها شيئاً، قال: فبيئوا أمرهم وعزمهم على هذا، فبعث الله طائفاً

بالليل من النار أو غير ذلك فاحترقت، فقيل: أصبحت سوداء، وقيل: بيضاء كالزرع اليابس المحصود، فلما أصبحوا إلى جئتهم لم يروها فحسبوا أنهم قد أخطؤوا الطريق، ثم تبينوا فعلوا أن الله تعالى أصابهم فيها، فتابوا حينئذ وأنابوا وكانوا مؤمنين من أهل الكتاب، فشبه الله تعالى قريشاً بهم في أنه امتحنهم بمحمد ﷺ وهداه كما امتحن أولئك بفعل أبيهم وبأوامر شرعهم، فكما حل بأولئك العقاب في جنتهم كذلك يحل بهؤلاء في جميع دنياهم وحياتهم، ثم التوبة معروضة لمن بقي منهم كما تاب أولئك، وقال كثير من المفسرين: السنون السبع التي أصابت قريشاً هي بمثابة ما أصاب أولئك في جئتهم.

وقوله تعالى: ﴿بَصُرْتُمَا﴾ أي: لَبِجُدْنَاهَا، وصرام النخل جد ثمره، وكذلك في كل شجرة، و﴿مُسَيَّرِينَ﴾ معناه: إذا دخلوا في الصباح، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَسْتَوُونَ﴾ معناه ولا يتوقفون في ذلك ولا يثنون عن رأي منع المساكين، وقال مجاهد: معناه: ولا يقولون: «إن شاء الله»، بل عزموا على ذلك عزم من يملك أمره. والطفائف: الأمر الذي يأتي بالليل، ذكر هذا التخصيص الفراء ويرده قوله تعالى: ﴿إِذَا مَنَّكَ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾، والصريم: قال الفراء ومنذر وجماعة: أراد به الليل، من حيث اسودت جئتهم، وقال آخرون: أراد به الصبح، من حيث ابيضت كالحصيد، قاله سفيان الثوري،

والصريم: يقال لِلَّيْلِ وَلِلنَّهَارِ من حيث كل واحد منهما ينصرم من صاحبه، وقال ابن عباس: الصريم: الرماد الأسود بلغة جذيمة، وقال ابن عباس أيضاً وغيره: الصريم: رملة باليمن معروفة لا تثبت، فشبه جئتهم بها.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿تَنَادَوْا﴾ معناه: دَعَا بعضهم بعضاً إلى المضي لميعادهم، وقرأ بعض السبعة: ﴿أَنْ أَغْدُوا﴾ بضم النون، وبعضهم بكسرها، وقد تقدم هذا مراراً، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يحتمل أن يكون من «صرام النخل»، ويحتمل أن يريد: إن كنتم أهل عزم وإقدام على رأيكم، من قولك: «سيف صارم».

و﴿يَتَخَفَتُونَ﴾ معناه: يتكلمون كلاماً خفياً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافَتَ بَيْنَهُمَا﴾، وكان هذا التخافت خوفاً من أن يشعر بهم المساكين، وكان لفظهم الذي يتخافتون به ﴿أَنْ لَا يَسْخَبَنَّ إِلَيْكَ عَنَّا كَيْفَ﴾، وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبيدة: ﴿لَا يَدْخُلْنَاهَا﴾ بسقوط [أَنْ].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ حَزَبٌ﴾ يحتمل أن يريد به: على منع، من قولهم: «حازبت الإبل»، إذا قلت ألبائها فمَنَعْتَهَا، وحازدت السنة: إذا كانت شهباء لا غلة لها، ومنه قول الشاعر:

وَحَازَدَتِ الشُّكْدُ الْجِلَادَ وَلَمْ يَكُنْ
لِغُفْبَةِ قَدْرِ الْمُسْتَعْمِرِينَ مُغِيبٌ
ويحتمل أن يريد بالحزد: القصد، وبذلك فسر بعض اللغوين، وأنشد عليه:

هو العذاب الذين ينزل بقرش بغته، ثم عذاب الآخرة أشد عليهم من عذاب الدنيا، قال كثير من المفسرين: العذاب النازل بقرش الممائل لأمر الجنة هو الجذب الذي أصابهم سبع سنين حتى رأوا الدخان وأكلوا الجلود.

ثم أخبر تعالى أن المتقين لهم عند ربهم جنات النعيم، فروي أنه لما نزلت هذه الآية قالت قرش: إن كان ثم جنات نعيم فلنا فيها أكبر الحظ، فنزلت: ﴿أَتَجْعَلُ الْكَافِرِينَ كَالَّذِينَ﴾، وهذا على جهة التوقيف والتوبيخ. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَكُمْ﴾ توبيخ آخر، ابتداء وخبر، جملة منحازة، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَعْكُورُونَ﴾ جملة منحازة كذلك، و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿تَعْكُورُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ﴾ هي المقدرة بـ «بل وألف الاستفهام»، و﴿يَكُنَّ﴾ معناه: مُنْزَل من عند الله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَّا تَعْرِفُونَ﴾، قال بعض المتأولين: هو استئناف قول على معنى: إن كان لكم كتاب فلحكم فيه مُتَّخِر، وقال آخرون: ﴿إِنَّ﴾ معمولة لـ ﴿تَدْرُسُونَ﴾، أي: في الكتاب: إن لكم ما تختارون من النعيم، وكُسرت الألف من ﴿إِنَّ﴾ لدخول اللام في الخبر، وهي في معنى «أَنْ» بفتح الألف، وقرأ طلحة، والضحاك: ﴿أَنْ لَكُمْ﴾ بفتح الألف، وقرأ الأعرج: ﴿أَنْ لَكُمْ﴾ على الاستفهام.

٣٩ - ٤٠ تفسير قوله عز وجل: ﴿أَمْ لَكُمْ﴾ قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ﴾

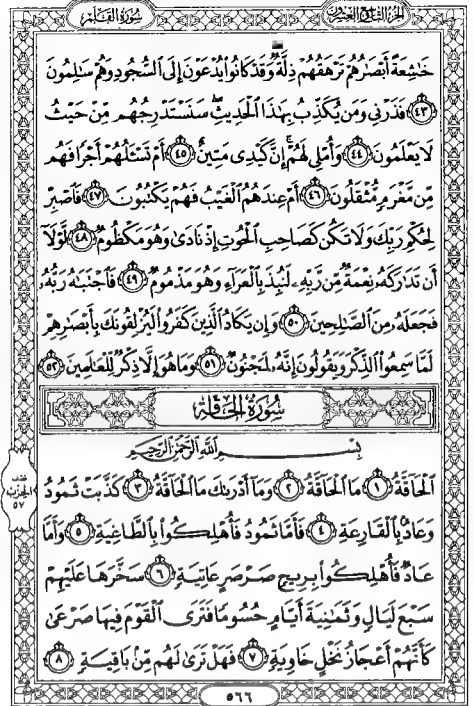
قد حُرْمنا غَلَّتْها وبركتها، فقال لهم أغد لهم قولاً وعقلاً وخُلُقاً، وهو الأوسط، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمَّةٌ وَسَطًا﴾، أي: عُدلاً خبيراً، و﴿تُسُورُونَ﴾ قيل: هي عبارة عن طاعة الله تعالى وتعليمه والعمل بطاعته، وقال مجاهد وأبو صالح: هي كانت لفظة الاستثناء عندهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يرُدُّ عليه قولهم: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾. فبادر القوم وتابوا عند ذلك، وسبَّحوا واعترفوا بظلمهم في اعتقادهم منع الفقراء.

٣٨ - ٣٩ تفسير قوله عز وجل: ﴿يَتْلُونَ﴾ معناه: يجعل كل واحد اللوم في حيز صاحبه ويبريء نفسه، ثم أجمعوا على أنهم طغوا، أي: تعدوا ما يلزم من مواساة المساكين ثم انصرفوا إلى رجاء الله تعالى وانتظار الفرج من لَدُنْه في أن يبدلهم بسبب توبتهم وإنابتهم خيراً من تلك الجنة.

وقرأ جمهور القراء: ﴿يُؤَيِّلُكُمْ﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال، وكذلك قرأ الحسن، وابن محيصن، والأعمش، وقرأ نافع، وأبو عمرو بالتثنية وفتح الباء.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْمَلَأْنَا﴾ ابتداء مخاطبة للنبي ﷺ في أمر قرش، والإشارة بـ ﴿كَذَلِكَ﴾ إلى العذاب الذي نزل بالجنة أي: كذلك العذاب



أَقْبَلَ سَبِيلَ جَاءَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ يَخْرُدُ خَزْدَ الْجَنَّةِ الْمُخِيلَةِ أي: يقصد قصددها، ويحتمل أن يريد بالخرْد: الغضب، يقال: «جَرْدَ الرجلُ يخرْدُ خَرْدًا» إذا غضب، ومنه قول الأشهب بن زُمَيْلَةَ:

أَسْوَدَ شَرَى لَأَقْتَ أَسْوَدَ خَفِيَّةٍ تَسَاقُوا عَلَى خَزْدِ دِمَاءِ الْأَسَاوِدِ وقوله تعالى: ﴿تَقْدِيرٌ﴾ يحتمل أن يكون من القُدرة، أي: هم قادرون في زعمهم، ويحتمل أن يكون من التقدير، كأنهم قد قَدَّرُوا على المساكين، أي: ضيقوا عليهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رَذْفٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي: محترقة، حسبوا أنهم قد ضلُّوا الطريق، وأنها ليست تلك، فلما تَحَقَّقُوا علموا أنها قد أُصِيبَتْ، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ بِمُحْمَدٍ﴾، أي:

إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿مَخَاطَبَةٌ لِلْكَفَّارِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: هَلْ أَقْسَمْنَا لَكُمْ قَسَمًا فَهَوَ عَهْدُ لَكُمْ بِأَنَّا نُنْعِمُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا بَعْدَهُ؟ وَقَرَأَ جَمْهُورُ الْقُرَاءِ: ﴿يَكْفُفُ﴾ بِالرَّفْعِ عَلَى الصِّفَةِ لـ ﴿أَبْتَنُ﴾، وَقَرَأَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: ﴿بِالْفَتْحِ﴾ بِالنَّصْبِ عَلَى الْحَالِ، وَهِيَ حَالُ مَنْ نَكَرَ مَخْصَصَةً بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَيْكَ﴾ وَقَرَأَ الْأَعْرَجُ: ﴿أَبْتَنُ لَكُمْ﴾، وَكَذَلِكَ فِي الَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهَا لَأَنْبَاءً لِّمَنْ يَخْتَرُنَ﴾.

ثم أمر الله تعالى محمداً ﷺ - على جهة إقامة الحجة عليهم - أن يسألهم عن الزعيم لهم بذلك، من هو؟ والزعيم: الضامن للأمر والقائم به.

ثم وقفهم تعالى على أمر الشركاء عسى أن يظنوا أنهم ينفعونهم في شيء من هذا، وقراء ابن مسعود، وابن أبي عبلة: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ بكسر الشين دون ألف، والمراد بذلك - على القراءتين - الأصنام، وقوله تعالى: ﴿لْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ قيل: هو استدعاء وتوقيف في الدنيا، أي: ليحضروهم حتى نرى هل هم بحال من يضرون وينفع أم لا، وقيل: هو استدعاء وتوقيف على أن يأتوا بهم يوم القيامة، يوم يكشف عن ساق.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْفُفُ عَنْ سَاقٍ﴾، قال مجاهد: هي أول ساعة من القيامة، وهي أفضعها، وتظاهر حديث عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ يَنَادِي مَنَادٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لِيَتَّبِعْ كُلُّ أَحَدٍ مَا يَعْبُدُ، قَالَ: فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ

الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، وكذلك كلُّ عابد لكل معبود، ثم تبقى هذه الأمة وَغُيَّرَاتُ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَهُمْ مَنَافِقُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنَ الْكُفْرَةِ، فيقال لهم: ما شأنكم؟ لم تقفون وقد ذهب الناس؟ فيقولون: ننتظر ربنا، قال: فيجيئهم الله في غير الصورة التي عرفوه بها، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، قال: فيقول: أتعرفونه بعلامة ترونها؟ فيقولون: نعم، فيكشف لهم عن ساق، فيقولون: نعم أنت ربنا، ويخرون للسجود، فيسجد كل مؤمن وترجع أصلاب المنافقين والكفار كصياصي البقر عظماً واحداً فلا يستطيعون سجوداً. هكذا هو الحديث وإن اختلفت منه ألفاظ بزيادة أو نقصان، وعلى كل وجه مما ذكرته من كشف الساق وما في الآية أيضاً من ذلك فإنما هو عبارة عن شدة الهول وعظم القدرة التي يري الله تعالى ذلك اليوم، حتى يقع العلم أن تلك القدرة إنما هي لله تعالى وحده، ومن هذا المعنى قول الشاعر في صفة الحرب:

كَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ سَاقِهَا
وَبَدَا مِنَ الشُّرِّ الْبَرَّاحُ

ومنه قول الآخر:

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا

.....

وقول الآخر:

فِي سَنَةٍ قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا
خُمْرَاءُ تَبْرِي اللَّحْمِ عَنْ عَرَقِهَا
وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ مَنْ أَرَادَ الْجِدَّ فِي أَمْرٍ يُحَاوِلُهُ فَإِنَّهُ يَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ

تشميراً وجداً، وقد مدح الشعراء بهذا المعنى، فمعه قول دُرَيْدٍ:

كَيْمِشُ الْإِزَارَ خَارِجَ نَصْفِ سَاقِهِ
صَبُورٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ طَلُوعُ أَنْجَدٍ
وعلى هذا من أراد الجِدَّ والتشمير في طاعة الله تعالى، قال عليه الصلاة والسلام: «إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى نَصْفِ سَاقِهِ».

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُكْشَفُ﴾ بضم الياء على بناء الفعل للمفعول، وقراء ابن مسعود: ﴿يُكْشِفُ﴾ بفتح الياء وكسر الشين على معنى: يكشف الله، وقراء ابن عباس: ﴿تُكْشِفُ﴾ بفتح التاء على أن القيامة هي الكاشفة وقراء ابن عباس أيضاً: ﴿تُكْشَفُ﴾ بضم التاء على معنى: تكشف القيامة والشدة الحال الحاضرة، وحكى الأخفش عنه أنه قرأ: ﴿تُكْشِفُ﴾ بالنون مفتوحة وكسر الشين، ورويت عن ابن مسعود.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَنُونَ﴾ ظاهرة أن ثم دعاء إلى سجود، هذا يرده ما قد تقرر في الشرع من أن الآخرة ليست بدار عمل، وأنه لا تكليف فيها، وإذا كان هذا فإنما الداعي ما يروونه من سجود المؤمنين فيريدون أن يسجدوا عند ذلك فلا يستطيعون، وقد ذهب بعض العلماء إلى أنهم يُدْعَوْنَ إِلَى السَّجْدِ عَلَى جِهَةِ التَّوْبِخِ، وَخَرَجَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَذَلِكَ غَيْرُ لَازِمٍ، وَعَقِيدَةُ الْأَشْعَرِيَّةِ أَنَّ الْإِسْطَاعَةَ إِنَّمَا تَكُونُ مَعَ التَّلَاسُّ

بالفعل لا قبله، وهذا القدر كاف من هذه المسألة ها هنا.

و ﴿حَنِيمَةً﴾ نصب على الحال، وجوارحهم كلها خاشعة، أي: ذليلة، ولكنه تعالى خصَّ الأَبصار بالذكر لأن الخشوع فيها أبين منه في كل جارية. وقوله تعالى: ﴿رَفَعْنَاهُ ذَلَّةً﴾ معناه: تزج نفوسهم وتظهر عليهم ظهوراً يخزيهم، وقوله سبحانه: ﴿وَوَدَّ كَاوًا يَدْعُونَ إِلَى الشُّجْرِ﴾ يريد في دار الدنيا وهم سالمون مما نال عظام ظهورهم من الاتصال العُشْو، وقال بعض المتأولين: السُّجود هنا عبارة عن جميع الطاعات، وخصَّ السُّجود بالذكر من حيث هو عَظْم الطاعات، ومن حيث به وقع امتحانهم في الآخرة، وقال إبراهيم التيمي، والشعبي: أراد بالسُّجود الصلوات المكتوبة، وقال ابن جُبَيْر: المعنى: كانوا يسمعون النداء للصلاة و﴿حَيٍّ عَلَى الْفَلَاحِ﴾ فلا يجيئون، وفُلج الربيع بن خُثَيْم فكان يُهاذى بين رجلين إلى المسجد، فقيل له: إنك لمعذور، فقال: من سمع ﴿حَيٍّ عَلَى الْفَلَاحِ﴾ فليجب ولو خُبُوءاً، وقيل لابن المسيَّب: إن طارقاً يريد قتلَكَ فاجلس في بيتك، فقال: أسمع ﴿حَيٍّ عَلَى الْفَلَاحِ﴾ فلا أجيب؟ والله لا فعلتُ، وهذا كله قريب بعضه من بعض.

وقوله تعالى: ﴿مَنْزَرَةٍ وَمَنْ يَكْذِبُ يَكْذِبُ﴾ لَلَّذِينَ وعيد، ولم يكن ثمَّ مانع ولكنه كما تقول: «دعني مع فلان»، أي: سأعاقبه، و﴿وَمَنْ﴾ في موضع نصب عطفاً على الضمير في

﴿مَنْزَرَةٍ﴾، أو نصب على المفعول معه، و«الحديث» المشار إليه هو القرآن المخبر بهذه الغيوب. و«الاستدراج» هو الحمل من رتبة إلى رتبة حتى يصير المحمول إلى شرٍّ، وإنما يُستعمل الاستدراج في الشرِّ، وهو مأخوذ من الدرج، قال سفيان الثوري: تُسبغ عليهم النعم ويمنعون الشكر، وقال غيره: كلما زادوا ذنباً زيدوا نعمة، وفي معنى الاستدراج قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُغْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، وقال الحسن: «كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَمَغْرُورٍ بِالشَّرِّ عَلَيْهِ».

و ﴿وَأَنَّى لَكُمْ﴾ معناه: أؤخرهم ملاوة من الزمان، وهي البرهة والقطعة، يقال: ملاوة بضم الميم وفتحها وكسرها، و«الكَيْدُ» هنا عبارة عن العقوبة التي تحلُّ بالكفار من حيث هي على كَيْد منهم، فسُمِّي العقوبة باسم الذنب، و«الْمَتْنِ»: القوي الذي له متانة، ومنه الْمَتْنُ: الظُّهر.

٤٦ - ٥٢ تفسير قوله عز وجل: هذه «أُمُّ» التي تتضمن الإضراب عن الكلام الأول لا على جهة الرفض له، لكن على جهة التُّزْك والإقبال على ما سواه، وهذا التوقيف هو لمحمد ﷺ، والمراد به توبيخ الكفار؛ لأنه لو سألهم أجراً فأنقلهم عدم ذلك لكان لهم بعض العُذر في إعراضهم وفراهم.

وقوله تعالى: «أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ» معناه: هل لهم علم بما

يكون فيُدعون مع ذلك أن الأمر على اختيارهم جاز؟

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ بالصبر لحُكْمِهِ، وَأَنْ يَمْضِيَ لِمَا أُمِرَ بِهِ مِنَ التبليغ واحتمال الأذى والمشقة، ونهى عن الضُّجر والعجلة التي وقع فيها يونس عليه السلام، ثم ذكر تعالى القصة باقتضاب وذكر ما وقع في آخرها من نذاته من بطن الحوت وهو مكظوم، أي: غيظه في صدره، وحقيقة «الكظم» هو الغيظ والحزن والندم، فحمل المكظوم عليه تجوراً وهو في الحقيقة كاظم، ونحو هذا قول ذي الرُّمة:

وَأَنْتَ مِنْ حُبِّ مَيِّ مُضْمِرٍ حَزَنًا
عَانِي الْفَوَادِ قَرِيبُ الْقَلْبِ مَكْظُومٌ
وقال الثَّعَالِبي: المكظوم الذي أخذ بكظمه وهو مجاري القلب، ومنه سُمِّيَت «الكاظِمة» وهي القناة في جوف الأرض.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَذَكَّرَ﴾ أسند الفعل دون علامة تأنيث لأن تأنيث النعمة غير حقيقي، وقرأ ابن مسعود، وأبُو بِنِ كَعْب، وابن عباس: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَذَاكَّرَ﴾ على إظهار العلامة، وقرأ ابن هرمز: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَذَاكَّرَ﴾ بشد الدال على معنى: تَذَاكَّرَ، وهي حكاية حال تأتي فلذلك جاء بالفعل مستقبلاً. بمعنى: لولا أن يقال فيه: تَذَاكَّرَ نعمة من ربه، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾، فهذا وجه هذه القراءة، ثم أذغمت التاء في الدال. و«النُّعْمة» هي الصَّفْح والتَّوْب والاجْتِبَاء الذي سبق له عنده، و«العَرَاء»: الأرض الواسعة

التي ليس فيها شيء يُؤاري من بناء أو نبات أو غيره من جبل ونحوه، ومنه قول الشاعر:

فَرَفَعْتُ رَجُلًا لَا أَخَافُ عِشَارَهَا
وَنَبَذْتُ بِالْأَرْضِ الْقَرَاءَ نِيَابِي
وقد بُذِ يونس عليه السلام بالأرض القراء غير مذموم. و«اجْتَبَاهُ» معناه: اختاره واصطفاه.

ثم أخبر تعالى نبيه ﷺ بحال نظر الكفار إليه، وأنهم يكادون من الغيظ والعداوة يُزلقونه فَيُذْهِبُونَ قدمه من مكانها ويسقطونه. وقرأ جمهور القراء: «لَيُزْلِقَنَّكَ» بضم الياء، من «أَزْلَقَ»، وقرأ نافع وحده: «لَيُزْلِقُونَكَ» بفتح الياء من «زَلَقْتُ الرَّجُلَ»، يقال: زَلَقْتُ الرجل - بكسر اللام - وَزَلَقْتُهُ - بفتحها -، مثل «حَزَنَ» و «حَزَنَتُهُ»، وَشَتَرَتِ الْعَيْنُ وَشَتَرَتُهَا، وفي مصحف ابن مسعود: «لَيُزْهِقُونَكَ» بالهاء، وروى التَّخَعُّيُّ أن في قراءة ابن مسعود: «لَيُزْهِقُونَكَ»، وفي هذا المعنى الذي في نظرهم من الغيظ والعداوة قول الشاعر:

يَتَفَارِضُونَ إِذَا التَّفَقُّوا فِي مَجْلِسٍ
نَظَرًا يُزِيلُ مَوَاطِيءَ الْأَقْدَامِ
وذهب قوم من المفسرين - وذكره الفراء - إلى أن المعنى: يأخذونك بالعين، وذكر أن اللَّفْعَ بالعين كان في بني إسرائيل، قال ابن الكلبي: كان رجل يتجوع ثلاثة أيام ثم لا يتكلم على أي شيء إلا أصابه بالعين، فسأله الكفار أن يصيب النبي ﷺ فأجابهم إلى ذلك لكن عصم الله تعالى نبيه ﷺ، وقال

الزجاج: كانت العرب إذا أراد أحدهم أن يعتانَ أحدًا تجوِّع ثلاثة أيام، وقال الحسن: دواء من أصابته العين أن يقرأ هذه الآية، و«الذِّكْرُ» في الآية القرآن. ثم قرر تعالى أن هذا القرآن العزيز ذِكرٌ للعالمين من الجنة والإنس، وَوَعَّظَ لَهُمْ، وَحُجَّةٌ عليهم، فالحمد لله الذي أنعم علينا به، وجعلنا من أهله وحملته، لا ربَّ غيره.

تم تفسير سورة القلم والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الحاقة

وهي مكية بإجماع. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: خرجت يوماً بمكة معترضاً لرسول الله ﷺ فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام، فجلت فوقفت وراءه، فافتتح سورة الحاقة، فلما سمعت سُرَّدَ القرآن قلت في نفسي: إنه لشاعر كما تقول قريش، حتى بلغ إلى قوله تعالى: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٣﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْكَافِرِينَ ﴿٤﴾»، ثم مرَّ حتى انتهى إلى آخر السورة، فأدخل الله تعالى في قلبي الإسلام.

﴿١﴾ - ﴿٤﴾ تفسير قوله عز وجل: «الحاقة» اسم فاعل من «حقَّ الشيء» يَحِقُّ، إذا كان صحيح الوجود، ومنه

﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَقَابِ﴾، والمراد به البعث والقيامة، قاله ابن عباس وغيره، وسُمِّيت القيامة حاقة لأنها حَقَّتْ لكل عامل عمله، وقال بعض المفسرين: «الحاقة» مصدر كالعاقبة والعافية، فكأنه قال: ذات الحق، وقال ابن عباس وغيره: سُمِّيت القيامة حاقة لأنها تبدي حقائق الأشياء، واللفظة رفع بالابتداء، و﴿مَا﴾ رفع بالابتداء أيضاً، و«الْحَقَّاهُ» الثانية خبر ﴿مَا﴾، والجملة خبر الأولى، وهذا كما تقول: «زَيْدٌ مَا زَيْدٌ»، على معنى التعظيم له وإنهام التعظيم أيضاً ليتخيل السامع أقصى جهده.

وقوله تعالى: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَقَّاهُ ﴿١﴾» مبالغة في هذا المعنى، أي: أن فيها ما لم تدره من أهوالها وتفصيل صفاتها، و﴿مَا﴾ تقرير وتوقيف، وقوله تعالى: «وَمَا الْحَقَّاهُ ﴿٢﴾» ابتداء وخبر في موضع نصب بـ «أَدْرَاكَ»، و﴿مَا﴾ الأولى ابتداء، وخبرها «أَدْرَاكَ مَا الْحَقَّاهُ»، وفي «أَدْرَاكَ» ضمير عائد على «مَا»، هو ضمير الفاعل.

ثم ذكر تعالى تكذيب ثمود وعاد بهذا الأمر الذي هو حق مشيراً إلى أن مَنْ كَذَّبَ بذلك ينزل به مثل ما نزل بأولئك. و«القارعة» من السماء: القيامة أيضاً لأنها تفرق القلوب بصفاتها. و«ثمود» اسم عربي معرفة، فإذا أريد به القبيلة لم ينصرف، وإذا أريد به الحي انصرف، وأما «عاد» فكونه على ثلاثة أحرف وساكن الأوسط دفع في صدر كل علة فهو مصروف.

في مصحف أبي بن كعب: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ مَعَهُ﴾، وفي حرف أبي موسى الأشعري: ﴿وَمَنْ تَلْقَاءُ﴾، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾، و﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ﴾: ما يليه في المكان، وكثر استعمالها حتى صارت بمنزلة: عندي وفي ذمتي وما يليني بأي وجه وليني.

و «المؤتفكات»: قرى قوم لوط عليه السلام، وكانت أربعاً فيما روي، واثبتت: قُليت وصار عليها سافلها فاثبتت هي فهي مؤتفكة، وقرأ الحسن هنا: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةُ﴾، على الأفراد، و«الْحَاطِطَةُ» إما أن يكون صفةً لمحدوف، كأنه قال: بالفيغلة الخاططة، وإما أن يريد المصدر، أي: بالخط في كفرهم وعصيانهم.

وقوله تعالى: ﴿نَمَصَّرَ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ يحتمل أن يكون «الرسول» اسم جنس، كأنه قال: فعصى هؤلاء الأقوام والفرق أنبياء الله تعالى الذين أرسلهم إليهم، ويحتمل أن يكون «الرسول» بمعنى الرسالة، وقال الكلبي: يعني موسى عليه السلام، وقال غيره - في كتاب الشعلبي -: يعني لوطاً عليه السلام، و«الرابية»: النامية التي قد عظمت جداً، ومنه: الربا، وربا المال، ومنه: ﴿أَهْمَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾.

ثم عدد تعالى على الناس نعمته في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَّا طَفَا الْكَوَا﴾ والمراد: طغى الماء في وقت الطوفان الذي كان على قوم نوح عليه السلام، والطغيان: الزيادة على الحدود المتعارفة في الأشياء،

ومعناه: طغى على خُزّانه في خروجه، وعلى البشر في أن أغرقهم، قال قتادة: غلاً على كل شيء خمسة عشر ذراعاً، و«الجارية»: السفينة.

والضمير في قوله تعالى: ﴿لِنَجْمَلَهَا﴾ عائذ على الفعلة، أي: من تذكرها ازدجر، ويحتمل أن يعود على «لِلَّارِيَةِ»، أي: من سمعها اعتبر، و«الجارية» يراد بها سفينة نوح عليه السلام، قاله منذر، وقال المهدوي: المعنى: في السفن الجارية، وقال قتادة: أبقي الله تعالى تلك السفينة حتى رأى بعض عيادها أوائل هذه الأمة، وغيرها من السفائن التي صنعت بعدها قد صارت رماداً.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَّهَا أَذُنٌ دَجِيَّةٌ﴾ عبارة عن الرجل الفهم المنور القلب الذي يسمع القول فيتلقاه بفهم وتدبر، قال أبو عمران الجوني: ﴿دَجِيَّةٌ﴾ عَقَلْتُ عن الله عز وجل، ويروى أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إني دعوت الله أن يجعلها أذنك يا علي»، قال علي رضي الله عنه: فما سمعتُ بعد ذلك شيئاً فنسيته.

وقرأ الجمهور: ﴿وَرَبَّهَا﴾ بكسر العين على وزن «تَلَيَّهَا»، وقرأ ابن كثير - في رواية الحلواني - وقيل، وابن مصرف: ﴿وَتَغَيَّهَا﴾ بسكون العين، جعل الياء التي هي علامة في المضارع بمنزلة الكاف من «كَتَبَ»؛ إذ حرف المضارعة لا يفارق الفعل فَيُسَكَّن تخفيفاً، كما يقال: «كَتَفَ»، ونحو هذا قول الشاعر:

قَالَتْ سُلَيْمَى اسْتَرْ لَنَا سَوِيْقاً

على أن هذا البيت منفصل، فهو أبعد، لكن ضرورة الشعر تسامح به.

ثم ذكر تعالى بأمر القيامة، و«الصُّورُ»: القرن الذي يُنفخ فيه، قال سليمان بن أرقم: بلغني أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن الصور فقال: «هو قرن من نور، فمه أوسع من السموات» والنفخة المشار إليها في هذه الآية نفخة القيامة التي للفرع، ومعها يكن الصعق ثم نفخة البعث، وقيل: هي نفخات ثلاث: نفخة الفرع، نفخة الصعق، ثم نفخة البعث، والإشارة بآيتنا هذه إلى نفخة الفرع لأن حمل الجبال هو بعدها، وقرأ الجمهور: ﴿نَفْخَةٌ﴾ بالرفع، لما نعت صح رفعه، وقرأ أبو السَّمال بالنصب.

وقرأ جمهور القراء: ﴿وَجَلَّتْ﴾ بتخفيف الميم، بمعنى: حملتها الرياح والقدرة، وقرأ ابن عامر فيما روي عنه: ﴿وَحُمِلَتْ﴾ بشد الميم، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما أنها حاملة حَمَلَتْ قدرة الله تعالى وغفياً وشدة ثَقُلَتْها، فهي مُحَمَلَةٌ حاملة، والآخر أن تكون محمولة حَمَلَتْها ملائكة أو قدرة.

وقوله تعالى: ﴿فَذَكَّا دَكَّةً وَجِدَّةً﴾. قال: ﴿فَذَكَّا﴾ وقد ذكر جمعاً، وساغ ذلك لأن المذكور فرقتان، وهذا كما قال الشاعر:

أَلَمْ يَخْزُنْكَ أَنْ جِبَالَ قَوْمِي
وَقَوْمِكَ قَدْ تَبَايَسَتْ انْقِطَاعاً
ومنه قوله تعالى: ﴿كَانَا رَفَقًا﴾، و«دَكَّةً» معناه: سُوي جميعهما، كما يقال: «ناقة دكاء» إذا ضعفت

فاستوت حديتها مع ظهرها.

و «الْوَاقِعَةُ»: القيامة والطامة الكبرى، وقال بعض الناس: هي إشارة إلى صخرة بيت المقدس، وهذا ضعيف، و«انشقاق السماء» هو تفتطرها وتَمَيُّزُ بعضها من بعض، وذلك هو الوهن الذي ينالها، كما يقال في الجذران البالية المشققة: واهية و«الملْك» اسم جنس يريد به الملائكة، وقال جمهور المفسرين: الضمير في «أَرْبَابَهُمْ» عائد على السماء، أي: الملائكة على نواحيها وما لَمْ به منها، و«الرُّجَا» الجانب من الحائط والبشر ونحوه، ومنه قول الشاعر:

كَأَنَّ لَمْ تَرِي قَبْلِي أَسِيرًا مُقَيَّدًا
وَلَا رَجُلًا يُزْمَى بِهِ فِي الرُّجْوَانِ
أَي: يُلْقَنِي فِي بَشَرٍ فَلَا أَجِدُ مَا
أَتَمْسُكَ بِهِ، وقال الضحاك: [أيضاً]
وابن جبير: الضمير في «أَرْبَابَهُمْ»
عائد على الأرض وإن لم يتقدم لها
ذكر قريب لأن القصة واللفظة
تقتضيان إفهام ذلك، وفسرنا هذه
الآية بما روي أن الله تعالى يأمر
ملائكة السماء الدنيا فيقفون صفاً
على حافات الأرض، ثم يأمر ملائكة
السماء الثانية فيصفون خلفهم، ثم
كذلك ملائكة كل سماء، فكلما بدا
أحد من الجن والإنس وجد الأرض
قد أحيط بها، قالوا: فهذا تفسير هذه
الآية، وهو أيضاً معنى قوله تعالى:
﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾،
وهو أيضاً تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ
الْنَّازِئَاتِ تُنْزِلْنَ مُنْزِلًا﴾ على قراءة من
شد الدال، وهو تفسير قوله تعالى:
﴿يَتَمَنَّوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

تَنْزُدُوا مِنَ السَّمَاءِ السَّادَةِ وَالْأَرْضِ
فَأَنْتَذَرُوا.

واختلف الناس في الثمانية الحاملين
العرش - فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - هي ثمانية
صفوف من الملائكة لا يعلم أحد
عدّتهم، وقال ابن زيد: هم ثمانية
أملأ على هيئة الوعول، وقال
جماعة من المفسرين: هم على هيئة
الناس، أرجلهم تحت الأرض
السابعة ورؤوسهم وكواهلهم فوق
السماء، وروي عن النبي ﷺ أنه
قال: «هُمُ الْيَوْمُ أَرْبَعَةٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ
الْقِيَامَةِ قَوَاهِمُ اللَّهِ تَعَالَى بِأَرْبَعَةٍ
سَوَاهِمٍ وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿فَوَقَّهَتْ﴾ قِيلَ: هُوَ لِلْمَلَائِكَةِ
الْحَمْلَةِ، وَقِيلَ: لِلْعَالَمِ كُلِّهِ، وَكُلُّ
قُدْرَةٍ كَيْفَمَا تَصَوَّرْتَ فَإِنَّمَا هِيَ
بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُوَّتِهِ.

٨٧ - ٨٨ تفسير قوله عز وجل:
الخطاب بقوله تعالى: ﴿تَرْسُونَ﴾
لجميع العالم، وروي عن أبي موسى
الأشعري، وابن مسعود أن في
القيامة عَرَضَتَيْنِ، فِيهِمَا مَعَاذِيرُ،
وَتَوْقِيفٌ، وَخُصُومَاتٌ، وَجِدَالٌ، ثُمَّ
تَكُونُ عَرْضَةٌ ثَالِثَةٌ تَنْطَايِرُ فِيهَا
الصُّحُفُ بِالْإِيمَانِ وَالشَّمَائِلُ. وَقُرَأَ
حَمْزَةً وَالْكَسَائِي: ﴿لَا يَخْفَى﴾
بِالْبَاءِ، وَهِيَ قِرَاءَةٌ عَلِي بْنِ أَبِي طَالِبٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَابْنِ وَثَّابٍ، وَطَلْحَةَ،
وَالْأَعْمَشَ، وَعَيْسَى، وَقُرَأَ
بِالْباقُونَ بِالثَّاءِ عَلَى مِرَاعَاةِ تَأْنِيثِ
﴿حَافِيَةٍ﴾، وَهِيَ قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ،
وقوله تعالى: ﴿حَافِيَةٍ﴾ معناه: ضمير
ولا مُعْتَقَد.

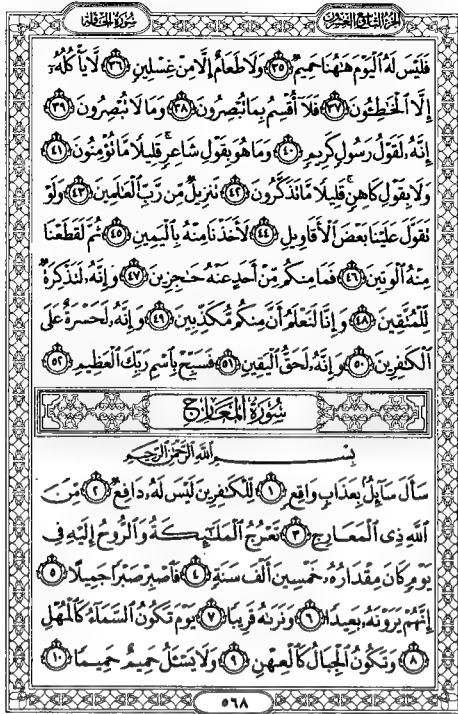
و «الَّذِينَ يُعْطُونَ كُتُبَهُمْ بِأِيمَانِهِمْ»

هم الْمُخْلَدُونَ فِي الْجَنَّةِ أَهْلُ
الْإِيمَانِ، وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ
فِي الْفَرْقَةِ الَّتِي يَنْفَذُ عَلَيْهَا الْوَعْدُ مِنْ
أَهْلِ الْمَعَاصِي، مَتَى تَأْخُذُ كُتُبُهَا؟
فَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَظْهَرُ أَنَّهَا تَأْخُذُهَا
مَعَ النَّاسِ، وَذَلِكَ يُوْنَسِبُهَا مَدَّةَ
العَذَابِ، قَالَ الْحَسَنُ: فَإِذَا أُعْطِيَ
كِتَابُهُ بَيِّنَتُهُ لَمْ يَقْرَأْ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ
لَهُ، فَإِذَا أْذِنَ لَهُ قَالَ: ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا
كِتَابَهُ﴾، وَقَالَ آخَرُونَ: الْأَظْهَرُ أَنَّهُ إِذَا
أَخْرَجُوا مِنَ النَّارِ، وَالْإِيمَانُ يُوْنَسِبُهُمْ
فِي وَقْتِ الْعَذَابِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا هو ظاهر هذه الآية لأن من
يسير إلى النار كيف يقول: ﴿هَؤُلَاءِ
أَقْرَبُوا كِتَابَهُ﴾؟

وأما «هَؤُلَاءِ» فقال قوم: أصله
«هَؤُلُمَاءُ» ثُمَّ نَقِلَهُ التَّخْفِيفُ
وَالِاسْتِعْمَالُ، وَقَالَ آخَرُونَ: هَذِهِ
الْمِيمُ ضَمِيرُ الْجَمَاعَةِ. وَفِي هَذَا كُلِّهِ
نَظَرٌ، وَالْمَعْنَى عَلَى كُلِّ وَجْهٍ:
تَعَالَوْا، فَهُوَ اسْتِدْعَاءٌ لِلْفِعْلِ الْمَأْمُورِ
بِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَقْرَبُوا كِتَابَهُ﴾ هُوَ
اسْتِبْشَارٌ وَسُرُورٌ.

وقوله: ﴿إِنِّي نَسَنْتُ﴾ الآية عبارة عن
إيمانه بالبعث وغيره، قال قتادة: ظُنُّ
هَذَا ظَنًّا يَقِينًا فَتَفَعَّلَ، وَقَوْمٌ ظَنُّوا ظَنًّا
شَكًّا فَشَقُّوا بِهِ، وَ«نَسَنْتُ» هُنَا وَاقِعَةٌ
مَوْقِعٌ «تَيَقَّنْتُ»، وَهِيَ فِي مُتَيَقِّنٍ لَمْ
يَقَعْ بَعْدَ وَلَا خَرَجَ إِلَى الْحَصَنِ، وَهَذَا
هُوَ بَابُ الظَّنِّ الَّذِي يَقَعُ مَوْقِعٌ
الْيَقِينِ، وَقُرَأَ بَعْضُ الْقُرَاءِ: ﴿كِتَابَهُ﴾
و«حَسَابَهُ» وَ«مَائِدَهُ» وَ«سُلْطَانَهُ»
بِالْهَاءِ فِي الْوَصْلِ وَالْوَقْفِ اقْتِدَاءً بِخَطِّ
الْمَصْحُفِ، هِيَ فِي الْوَصْلِ بِنِيتَةٍ
الْوَقْفِ لِأَنَّهَا هَاءُ السُّكُوتِ فَلَا مَعْنَى



تنطق بذلك ملوك الدنيا الكفرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر عندي أن سلطان كل أحد هو حاله في الدنيا من عدد وعُدَد، ومنه قول النبي ﷺ: «لَا يُؤْمَنُ الرجل في سلطانه، ولا يُجلس على تكرمته إلا بإذنه».

٣٠ - ٣١ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: يقول الله تعالى، أو الملك - بأمره - للزبانية: «خُذُوا فَنُفُوسَهُ» أي: اجعلوا في عنقه

غلاً، قال ابن جريج: نزلت في أبي جهل.

و «ذَرَعُهَا» معناه: مبلغ كَيْلُهَا، وقد جعل الله تعالى السبعمائة، والسبعين، والسبعة، مواقف ونهايات لأشياء عظام، فلذلك مشى العرب وغيرهم على أن يجعلوها نهايات، وهذه السلسلة من الأشياء التي جعل الله تعالى فيها السبعين نهاية، وقرأ السدي: «ذَرَعُهَا سَبْعِينَ» بالياء، وهذا على حذف خبر الابتداء، واختلف الناس في قدر هذا الذراع - فقال ابن عباس، ومحمد بن المنكدر، وابن جريج: هو بذراع الملك وقال نوف البكالي وغيره: في الذراع سبعون باعاً، في كل باع كما بين الكوفة ومكة. وهذا يحتاج إلى سند. وقال حذاق من المفسرين: هي بالذراع المعروفة

لها في الوصل، وطرَحَ الهاءات في الوصل لا في الوقف الأعمش وابن أبي إسحق، قال أبو حاتم: قراءتنا إثبات الهاءات في الوقف وطرحها في الوصل، وبذلك قرأ ابن أبي محيصن، وسلام، قال الزهراوي: إثبات الهاء في الوصل لَحْنٌ لا يجوز عند أحد عُلِمَتْ.

و «رَأَيْتَهُ» معناه: ذات رضى، فهو بمعنى مرضية، وليست بناء اسم فاعل، و «عَالِكُهُ» معناه: في المكان والقدر وجميع وجوه العلو.

و «الْقُطُوف» جمع قطف، وهو ما يُجْتَنَى من الثمار ويقطف، ودُنُوها هو أنها تأتي طوع التمني فيأكلها القائم والقاعد والمضطجع بفيه من شجرتها. و «أَتَلَفْتَهُ» معناه: قَدِمْتُمْ، و «الأيام الخالية» هي أيام الدنيا لأنها في الآخرة قد خلت وذهبت، وقال وكيع، وابن جبير وعبد العزيز بن ربيع: المراد: بما أسلفتم من الصوم. وعَمُومُها في كل الأعمال أولى وأحسن.

و «الَّذِينَ يُؤْتُونَ كُتُبَهُمْ بِشْمَائِلِهِمْ» هم الْمُخَلَّدُونَ في النار أهل الكفر، فيتمتُونَ أن لو كانوا معدومين لا يجري عليهم شيء. وقوله: «يَبْتَنَّتْهَا كَانَتْ الْقَائِيَّةُ» إشارة إلى مَوْتَةِ الدنيا، أي: ليتها لم يكن بعدها رجوع ولا حياة، وقوله: «فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْعِرُونَ» يحتمل أن يريد الاستفهام على معنى التقرير لنفسه والتوبيخ، ويحتمل أن يريد النفي المحض، و «السُّلْطَانُ» في الآية: الْحُجَّةُ، على قول عكرمة ومجاهد، وقال بعضهم - ونحا إليه ابن زيد -:

منا، وإنما خوطبنا بما نعرفه ونحصله، وقال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هي، وقال سويد بن نجيع - في كتاب الشعلي -: بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لو وُضع منها حلقة على جبل لذاب كالرصاص. وقوله تعالى: «فَأَدْخِلُوهُ» معناه: فأَدْخِلُوهُ، ومنه قول أبي وجزة السعدي يصف حمر وحش:

حَتَّى سَلَكْنَا الشَّوْىَ مِنْهُمْ فِي مَسَكٍ
 مَنْ نَسَلِ جَوَابِيَةِ الْآفَاقِ مِهْدَاجٍ
 وَرَوَى أَنَّ هَذِهِ السَّلْسَلَةُ تَدْخُلُ فِي
 فَمِ الْكَافِرِ وَتَخْرُجُ مِنْ دَبْرِهِ، فَهِيَ فِي
 الْحَقِيقَةِ الَّتِي تُسَلِّكُ فِيهِ، لَكِنْ الْكَلَامُ
 جَرَى مَجْرَى قَوْلِهِمْ: أَدْخَلْتُ
 الْقَلْبُوسَةَ فِي رَأْسِي، وَفِي فِي
 الْحَجَرِ، وَرَوَى أَنَّ هَذِهِ السَّلْسَلَةَ

تُلَوَّى حول الكافر حتى تغمّه وتغضطه، فالكلام - على هذا - على وجهه، وهو المسلوك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَى عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ المراد به: على إطعام طعام المسكين، وإضافة الطعام إلى المسكين من حيث له إليه نسبة ما، وخُصَّت هذه الخُلة من خلال الكافر بالذكر لأنها من أَضَرَّ الخلال في البشر، إذا كشرت في قوم هلك مساكنهم.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿حَمِيمٍ﴾ - فقال جمهور المفسرين: هو الصديق اللطيف المودة، فنفى الله تعالى أن يكون للكافر هنالك من يواليه، ونفى أن يكون له طعام إلا من غسلين، وقال محمد بن المستنير: الحميم الماء الحار، فكأنه تعالى أخبر أن الكافر ليس له ماء ولا شيء مانع ولا طعام إلا من غسلين، وهو - فيما قال اللغويون - ما يجري من الجراح إذا غُسلت، قال ابن عباس: هو صديد أهل النار، وقال قتادة وابن زيد: الغسلين والزقوم أخبث شيء وأبشعه، وقال الضحاك، والربيع هو شجر يأكله أهل النار، وقال بعض المفسرين: هو شيء يجري من ضريع لأن الله تعالى قد أخبر أنه ليس لهم طعام إلا من ضريع، وفي أخرى إلا من غسلين، فهما شيء واحد أو اثنان متداخلان، ويحتمل أن يكون الإخبار هنا عن طائفة وهناك عن طائفة ويكون الغسلين والضريع متباينين على ما يفهم في لسان العرب. وخبر ﴿لَيْسَ﴾ في

﴿لَيْسَ﴾، وقال المهدوي: ولا يصح أن يكون ﴿هَهُنَا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد يصح ذلك إن شاء الله تعالى. و «الخاطيء»: الذي يفعل ضد الصواب متعمداً لذلك، و «المخطيء»: الذي يفعله غير متعمد، وقرأ الحسن، والزهري: ﴿الْمَخَاطِيُونَ﴾ بالياء دون همز، وقرأ طلحة، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع - بخلاف عنه -: ﴿الْمَخَاطُونَ﴾ بضم الطاء دون همز.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ﴾، قال بعض النحاة: (لَا) زائدة، والمعنى: فأقسم، وقال آخرون منهم: [لَا] رد لما تقدم من أقوال الكفار، والبداية ﴿أَقْسَمُ﴾، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿فَلَا أَقْسَمُ﴾ لأن لام القسم معها ألف القسم.

قوله تعالى: ﴿يَا بُيُوتَ رَبَّنَا لَا تُخَيِّرْ رَبَّنَا بَيْنَ دُعَاةٍ﴾. قال قتادة بن دعامة: أراد الله تعالى أن يعم في هذا القسم جميع مخلوقاته، وقال غيره: أراد الأجساد والأرواح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن عام.

وقال ابن عطاء: ما تبصرون من آثار القدرة وما لا تبصرون من آثار القدرة، وقال قوم: أراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَا يُخَيِّرُونَ﴾ الملائكة.

و «الرُّسُولُ الكريم» هو جبريل عليه السلام في تأويل جماعة من العلماء، ومحمد ﷺ في قول آخرين، وأضيف القول إليه لأنه هو الذي تلاه وبلغه.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

نَفَى تعالى أن يكون القرآن قول شاعر كما زعمت قريش، ونصب ﴿قَلِيلًا﴾ بفعل مضمر يدل عليه ﴿تُؤْمِنُونَ﴾، و (مَا) يحتمل أن تكون نافية فينتفي إيمانهم البتة، ويحتمل أن تكون مصدرية ويتصف القلة إما الإيمان وإما العبد الذين يؤمنون، فعلى اتصاف إيمانهم بالقلة فهو الإيمان اللغوي؛ لأنهم قد صدقوا بأشياء يسيرة لا تغني عنهم شيئاً؛ إذ كانوا يصدقون أن الخير والصلة والعفاف الذي كان يأمر به رسول الله ﷺ صواب، ثم نفى تعالى أن يكون [القرآن] قول كاهن كما زعم بعضهم. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، والحسن، والجحدري: ﴿قَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿قَلِيلًا مَا يَذْكُرُونَ﴾ بالياء فيهما، وقرأ الباقون بالتاء من فوق، ورجح أبو عمرو قراءة التاء من فوق بقوله: ﴿فَمَا يَنْكُرُ﴾، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿مَا تَذْكُرُونَ﴾ بتاءين. و ﴿نَزِيلٌ﴾ رُفِعَ بالابتداء، أي: هو تنزيل.

ثم أخبر تعالى أن محمداً لو تقول علينا شيئاً لعاقبه بما ذكر، والتقول أن يقول الإنسان عن آخر: إنه قال شيئاً لم يفعله، وقرأ ذكوان وابنه محمد: ﴿وَلَوْ يَقُولُ عَلَيْنَا﴾ بالياء وضم القاف، وهذه القراءة معرضة بما صرحت به قراءة الجمهور، وبُيِّنَ التعريض قوله تعالى: ﴿عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَأَنذَرْنَا يَأْتِينَ﴾ اختلف في معناه - فقال

ابن عباس رضي الله عنه: ﴿يَأْتِينَ﴾: بالقُوَّة، ومعناه: لَنَلْنَا عقابه بقوة منا، أو يكون المعنى: لنزعنا منه قوته، وقال آخرون: هي عبارة عن الهوان، كما يقال لمن يُسَجَّن أو يُقام لعقوبة: قد أخذ بيده وبيمينه.

و «الْوَتِينَ» نياط القلب، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عِزُّ غليظ تصادفه شفرة الناحر، ومنه قول الشماخ:

إِذَا بَلَغْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي
غَرَابَةً فَاشْرَقِي بِدَمِ الْوَتِينَ
فمعنى الآية: لأذهبنا حياته معجلاً. و «الحاجز»: المانع، وجمع [حاجزين] على معنى أحد؛ لأنه يقع على الجمع، ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: «لم تحل الغنائم لأحد سود الرؤوس قبلكم».

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتَهُ لَذِكْرَهُ﴾ عائد على القرآن، وقيل: على محمد ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتَهُ أَن يَنْكَرَ مُكَذِّبِينَ﴾ وعبد، وكونه حسرة على الكافرين هو من حيث كفروا به ويَزُون من آمن به يَنْعَم وهم يُعَذِّبُونَ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتَهُ لَحَىٰ آتِينَ﴾، ذهب الكوفيون إلى أنها إضافة الشيء إلى نفسه، كدار الآخرة ومسجد الجامع، وذهب البصريون والحذاق إلى أن الحق مضاف إلى الأبلغ من وجوهه، وقال المبرد: إنما هو كقولك: عين اليقين ومحض اليقين.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتسبيح

باسمه العظيم، وفي ضمن ذلك الاستمرار على رسالته، والمُضِيُّ لأدائها وإبلاغها وروي أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «اجعلوها في ركوعكم»، واستحب التزام ذلك جماعة من العلماء، وكره مالك لزوم ذلك لثلاث يُعَدُّ فرضاً واجباً.

تم تفسير سورة المعارج والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة المعارج

وهي مكية، لا خلاف بين الرواة في ذلك.

﴿١﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور السبعة: «سَأَلَ» بهمة محققة، قالوا: والمعنى: دَعَا داع، والإشارة إلى من قال من قريش: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمِطْ عَيْنَنَا حِجَابَهُ مِنْ أَسْمَاءٍ أَوْ أَثْنَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»، وروي أن قائل ذلك هو النضر بن الحارث، وإلى من قال: ﴿رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَنَا وَلِقْنَا﴾. وقال بعضهم: المعنى: بحث باحث واستفهم مُسْتَفْهِم، قالوا: والإشارة إلى قول قريش: «مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ؟» وما جرى مجراه، قاله الحسن وقتادة.

فأما من قال: المعنى: دَعَا داع فالباء في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ﴾ على عُرفها، وأما من قال: المعنى: استفهم مُسْتَفْهِم فالباء تَوْضُل توصيل

«عَنْ»، كأنه تعالى قال: «عن عذاب»، وهو كقول علقمة بن عيدة:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي
بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبٌ
وقرأ نافع، ابن عامر: «سَأَلَ» ساكنة الألف، واختلف القراء فيها، فقال بعضهم: هي «سَأَلَ» المهموزة إلا أنها سهلت، كما قال:

... لَا هَنَّاكَ الْمَرْتَعُ

ونحو ذلك، وقال بعضهم: هي لغة من يقول: «سِلْتُ أَسْأَلَ وَتَسْأَوُلَانِ»، وهي لغة مشهورة حكاها سيويه فتجيء الألف متقلبة عن الواو التي هي عين كقال وخاف، وأما قول الشاعر:

سَأَلْتُ هُذَيْلَ رَسُولَ اللَّهِ فَاجْشَأْ
صَلْتُ هُذَيْلَ بِمَا سَأَلْتُ وَلَمْ تُصِبْ
فإن سيويه قال: هو على لغة تسهيل الهمزة، وقال غيره: هو على لغة من قال: «سِلْتُ»، وقال بعضهم في الآية: هي من «سَأَلَ يَسِيلُ» إذا جرى، وليست من معنى السؤال، قال زيد بن ثابت وغيره: في جهنم وإد يسمى «سائلاً»، والإخبار هنا عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل - إن لم يصح أمر الوادي - أن يكون الإخبار عن نفوذ القدر بذلك العذاب، فاستعير له لفظ السَّيْلَ لِمَا عُهِدَ مِنْ نَفْوذِ السَّيْلِ وتصميمه.

وقرأ ابن عباس: «سَأَلَ سَيْلٌ» بسكون الياء، وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود: «سَأَلَ سَالٍ» مثل

«قال»، أُلغيت الباء من الحَظْ تخفيفاً، والمراد «سابل» إذ سؤال الكفار عن العذاب - حسب قراءة الجماعة - إنما كان على أنه كذب، فوصفه الله تعالى بأنه واقع وعيداً لهم.

قوله تعالى: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾، قال بعض النحويين: اللام تُؤصل المعنى توصيل «علَى»، وروي أن في مصحف أبي بن كعب: قوله تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وقال قتادة والحسن: المعنى: كأن قاتلاً قال: لِمَنْ هذا العذاب الواقع؟ ف قيل: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾.

و «المعارج» في اللغة: الدَّرَج في الأجرام، وهي هنا مستعارة في الرُتب والصفات الحميدة، قاله ابن عباس، وقتادة، وقال ابن عباس: «المعارج»: السموات تعرج فيها الملائكة من سماء إلى سماء، وقال الحسن: هي المراقي في السماء. وقوله تعالى: ﴿تَرْجُّ الْمَلَكُوتُ﴾ معناه: تصعد، على أصل اللغة في اللفظة. و«الروح» عند جمهور العلماء هو جبريل عليه السلام، خصّصه بالذكر تشريفاً، وقال مجاهد: الروح: ملائكة حافظة للملائكة الحافظين لبني آدم، لا تراهم الملائكة كما لا نرى نحن الملائكة، وقال بعض المفسرين: هو اسم الجنس في أرواح الحيوان.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ - فقال منذر بن سعيد وجماعة من الخُذّاق: المعنى: تعرج الملائكة والروح إليه في يوم من أيامكم هذه،

ومقدار المسافة - إن لو عرجها آدمي - خمسون ألف سنة، وقال ابن إسحق، فَمَنْ جعل «الروح» جبريل ونوعاً من الملائكة قال: المسافة هي من قعر الأرض السابعة إلى العرش، قاله مجاهد، ومن جعل «الروح» جنس أرواح الحيوان قال: المسافة بين وجه هذه الأرض إلى منتهى العرش علواً، قاله وهب بن مُثَنَّب، وقال قوم: المعنى: تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره في نفسه خمسين ألف سنة من أيامكم، ثم اختلفوا في تعيين ذلك اليوم - فقال عكرمة، والحكم: أراد الله تعالى مدة الدنيا فإنها خمسون ألف سنة، لا يدري أحد ما مضى منها ولا ما بقي، فالمعنى: تعرج الملائكة والروح إليه في مدة الدنيا وبقاء هذه البنية، ويتمكن - على هذا - في «الروح» أن يكون اسم جنس أرواح الحيوان. وقال ابن عباس وغيره: بل اليوم المشار إليه هو يوم القيامة - ثم اختلفوا - فقال بعضهم: قدره في الطول قدر خمسين ألف سنة، وهذا هو ظاهر قول النبي ﷺ: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل الله له صفائح من نار يوم القيامة تكوى بها وجهه وظهره وجنياه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة». وقال ابن عباس، وأبو سعيد الخدري: بل قدّره في قول وشدته ورزاياه للكفار قدر خمسين ألف سنة، وهذا كما تقول في اليوم العصيب: إنه كَسَنَة، ونحو هذا، قال أبو سعيد: قيل: يا رسول الله، ما أطول يوماً مقداره

خمسون ألف سنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده إنه ليخفُ على المؤمن حتى يكون أخفُ عليه من صلاة مكتوبة»، وقال عكرمة: المعنى كان مقدار ما ينقضي فيه من القضايا والحساب قدر ما ينقضي بالعدل في خمسين ألف سنة من أيام الدنيا.

وقد ورد في يوم القيامة أنه كألف سنة، وهذا يشبه أن يكون في طوائف دون طوائف.

والعامل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ - على قول من يقول إنه يوم القيامة - قوله تعالى: ﴿بَيْنَ دَافِعٍ﴾، وعلى سائر الأقوال «تَرْجُّ». وقرأ جمهور القراء: «تَرْجُّ» بالتاء من فوق، وقرأ الكسائي وحده: «يُغْرُجُّ» بالياء لأن التأنيث غير حقيقي، وبالياء من تحت قرأ ابن مسعود لأنه كان يُذكّر الملائكة، وهي قراءة الأعمش.

ثم أمر تعالى نبيّه ﷺ بالصبر الجميل، وهو الذي لا يلحقه عَثَبٌ من فُشَل ولا شُك ولا قَلَّة رضى ولا غير ذلك، والأمر بالصبر الجميل محكم في كل حالة، وقيل: نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَيِّكًا﴾ يعني يوم القيامة: لأنهم يكذبون به فهو في غاية البعد عندهم، وإنه تعالى يراه قريباً من حيث هو واقع وآت وكل آت قريب، وقال بعض المفسرين: الضمير في ﴿يَرَوْنَهُ﴾ عائد على العذاب، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ نصب بإضمار فعل على البذل من الضمير المنصوب، و«المُهْل»: عَكْرُ الزيت، قاله ابن

الجميع وشغل بنفسه،
وقرأ ابن كثير - من طريق
السُّدي - وأبو جعفر وشيبة
- بخلاف عنهما - وأبو
حيوة: ﴿وَلَا يُسْأَلُ﴾ على
بناء الفعل للمفعول،
فالمعنى: ولا يُسأل
إبصاره؛ لأن كل مجرم له
سيما يُعرف بها، وكذلك
كل مؤمن له سيما خير،
وقيل: المعنى: لا يُسأل
عن أعماله وذنوبه ليؤخذ
بها وليُّه ووزره.

و ﴿يَصْرَوْنَهُمْ﴾ - على
هذه القراءات - قيل:
معناه: في النار، وقال ابن
عباس رضي الله عنهما:

في المحشر يبصر المجرم حميمه ثم
يفر عنه لشغله بنفسه، تقول: بَصُرَ
فلان بالشيء ويَبْصُرُهُ به: أَرَبْتُهُ إِيَّاهُ:
ومنه قول الشاعر:

إِذَا بَصُرْتُكَ الْبَيْدَاءَ فَاسْهَرِي
وَأَمَّا الْآنَ فَأَقْتَصِدِي وَقَبْلِي
وقرأ قتادة: ﴿يُنْصَرُّوهُمْ﴾ بسكون
الباء وكسر الصاد خفيفة، وقال
مجاهد: ﴿يَبْصَرُونَهُمْ﴾ معناه: يُبصر
المؤمنون الكفار في النار، وقال ابن
زيد: يُبصر الكفار من أضلَّهم في
النار عبرة وإشفافاً عليهم وخزياً
لهم.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
المُجْرِم - في هذه الآية -: الكافر،
بدليل شدة الوعيد وذكر ﴿لَقَى﴾، وقد
يدخل مجرم المعاصي فيما ذكر من
الابتداء. وقرأ جمهور الناس:
﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بكسر الميم، وقرأ الأعرج

عباس وغيره، فهي لسوادها وانكدار
أنوارها تشبه ذلك، والمُهل أيضاً ما
أذيب من فضة ونحوها، قاله ابن
مسعود وغيره، فتجيء له ألوان
وتُمِيع مختلط، والسماء أيضاً
للأهوال التي تدرکہا تصوير مثل
ذلك، و﴿الْعِهْنُ﴾ الصوف دون تقييد،
وقال بعض اللغويين: هو الصوف
المصبوغ ألواناً، وقيل: المصبوغ أي
لون كان، وقال الحسن: هو
الأحمر، واستدل من قال إنه
المصبوغ ألواناً بقول زهير:

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ
نَزَلْنَ بِهِ حَبَّ الْقَتَا لَمْ يَحْطُمْ
وَحَبَّ الْقَتَا هُوَ عِنَبُ الثُّعْلَبِ،
وكذلك هو عند طيبة وقبل تحطيمه
ألوان، بعضه أحمر، وبعضه أصفر،
وبعضه أخضر؛ لاختلافه في
النضج، وتشبه الجبال به على هذا
لأنها جدد بيضٌ وحُمْرٌ وسودٌ،
فيجيء التشبيه من وجهين: أحدهما
في الألوان، والثاني في الانتقاش،
ومن قال إن ﴿الْعِهْنُ﴾ هو الصوف
دون تقييد جعل التشبيه في الانتقاش
وتخلخل الأجزاء فقط، قال الحسن:
والجبال يوم القيامة تسير بالريح ثم
يشد الأمر بها فتصير كالْعِهْنِ، ثم لا
يزال الأمر بها فتصير هباءً مَئِيَّاتًا.

وقرأ السبعة والحسن والمديون
وطلحة والناس: ﴿وَلَا يَسْأَلُ﴾ على
بناء الفعل للفاعل، و﴿الْحَمِيمُ﴾ - في
هذا الموضع -: القريب والولي،
فالمعنى: ولا يسأله نصرة ولا منفعة
لعلمه أنه لا يجدها عنده، قال قتادة:
المعنى: ولا يسأله عن حاله لأنها
ظاهرة، قد بصر كل أحد حالة

يَصْرَوْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ
وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّدُهَا وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ يُنْصَرُّوهُمْ كَذَّبُوا عَنْهَا لَقَىٰ لَقَىٰ نَارَ الشَّوْرِ لِلشَّوْرِ
مَنْ أَذْبَرُ وَتَوَلَّىٰ وَجْهَ قَارُونَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا سَأَلَ الْمَخَضِرُ مَتَّعًا
الْمَصْلِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَابُّونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ فِي
أَنفُسِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٠﴾ لِّسَائِلِ الْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ يَصُفُّونَ
يَوْمَئِذٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ عَذَابٍ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ رُوحِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ
أَرْجَائِهِمْ وَأَمَّا مَلَائِكَتُهُمْ فَيَسْأَلُهُمْ فِي مَا هُمْ عَنْهُمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ ابْتِغَىٰ وَرَاءَ
ذَلِكَ مَا وَلَّىٰكَ هُوَ الْعَادُونَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٢٨﴾
وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ يَابُّونَ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٣٠﴾
أُولَٰئِكَ فِي جَذَّةٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ لِّبِنِ أُولَٰئِكَ أَفْعَالُ مَأْهُومِينَ ﴿٣٢﴾
عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِّ الرَّحْمَنِ ﴿٣٣﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ أَمْرِي قَدِيرٌ
أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَافِثَةٍ ﴿٣٤﴾ كَلَّا لَا تَتْلُوهُمْ مَتَّعْتُهُمْ وَتَآخَرُوا عَنْهَا ﴿٣٥﴾

بفتحها، ومن حيث أضيف إلى غير
متمكن جاز فيه الوجهان، وقرأ أبو
حيوة: ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾ منوَّناً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾
بفتح الميم، «والصاحبة» - هنا -:
الزوجة.

و «الْفَصِيلَةُ» - في هذه الآية -:
قراية الرجل الأدنون، مثال ذلك بنو
هاشم مع النبي ﷺ، والفصيله في
كلام العرب أيضاً: الزوجة، ولكن
ذكر «الصاحبة» في هذه الآية لم يبق
في معنى الفصيله إلا الوجه الذي
ذكرناه. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنْصَرُّوهُمْ﴾
الفاعل هو الفداء الذي تضمنه قوله
سبحانه: ﴿لَوْ يَفْقَدِي﴾، فهو
كالمقدم الذكر، وقرأ الزهري:
﴿تُؤَيِّدُهُ﴾ و﴿تَنْجِيهِ﴾ برفع الهاءين.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّا لَنَقُومَنَّا بِهَذَا لَدُنْكَ وَلَٰكِن لَّا نَعْلَمُ لَكُمْ كَلِمَاتٍ نَّعْلَمُهَا نَحْنُ وَلَا نَكُنُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾

﴿لَقَدْ﴾ وهي طبقة من طبقات جهنم، وفي هذا اللفظ تعظيم لأمرها وهولها. وقرأ السبعة، وأبو جعفر والحسن، والناس: ﴿نَزَاعَةً﴾ بالرفع، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿نَزَاعَةً﴾ بالنصب، فالرفع على أن يكون ﴿لَقَدْ﴾ بدلاً من الضمير المنصوب و﴿نَزَاعَةً﴾ خبر ﴿إِنْ﴾، أو على إضمار مبتدأ، أي: هي نزاعة، أو على أن يكون الضمير في ﴿إِنَّمَا﴾ للقصة و﴿لَقَدْ﴾ ابتداء، و﴿نَزَاعَةً﴾ خبر، أو على أن يكون ﴿لَقَدْ﴾ خبر ﴿إِنْ﴾ و﴿نَزَاعَةً﴾ بدلاً من ﴿لَقَدْ﴾ أو على أن يكون ﴿لَقَدْ﴾ خبراً و﴿نَزَاعَةً﴾ خبرٌ بعد خبر، وقال الزجاج: ﴿نَزَاعَةً﴾ رفع بمعنى المدح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو القول بأنها خبر ابتداء تقديره: هي نَزَاعَةٌ؛ لأنه إذا تضمن الكلام معنى المدح أو الذم جاز لك القطع رفعاً بإضمار مبتدأ، أو نصباً بإضمار فعل. ومن قرأ بالنصب فذلك إما على مدح ﴿لَقَدْ﴾ كما قلنا، وإما على الحال من ﴿لَقَدْ﴾ لما فيها من معنى التلطي، كأنه تعالى قال: كلاً، إنها النار تَلَطَّى نَزَاعَةً، قال الزجاج: فهي حال مؤكدة.

و «الشَّوَى» جلد الإنسان، وقيل: جلد الرأس والهامة، قاله الحسن، ومنه قول الأعشى:

قَالَتْ قُتِيلَةُ مَالَهُ
قَدْ جُلِّلَتْ شَيْباً شَوَاتُهُ؟
ورواه أبو عمرو بن العلاء:
«سَرَاتُهُ»، فلا شاهد في البيت على هذه الرواية، قال أبو عبيدة: سمعتُ

عربياً يقول: «اقشعرت شَوَاتِي». والشَّوَى أيضاً قوائم الحيوان، ومنه «عَبْلُ الشَّوَى»، والشَّوَى أيضاً كُلُّ عضو ليس بمقتل، ومنه «رَمَى فَأَشَوَى» إذا لم يُصَبِّ المقتل، وقال ابن جبير: الشَّوَى: العَصَب والعقب، فنارٌ «لَطَّى» تُذهب هذا من ابن آدم وتنزعه.

وقوله تعالى: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَرَوَّكْ﴾ يريد الكفار، واختلف الناس في دعائها - فقال ابن عباس وغيره: هي حقيقة، تدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، وقال الخليل بن أحمد: هي عبارة عن حرصها عليهم واشتدائاتها لهم وما توقعه من عذابها، وقال ثعلب: ﴿تَدْعُوا﴾ معناه: تُهلك، تقول العرب: «دعاك الله» أي: أهلكك، وحكاها الخليل عن العرب.

و «أَوْعَى» معناه: جعله في الأوعية، تقول: وعيت العلم وأوعيت المال والمتاع، ومنه قول الشاعر:

الْخَيْرُ يَنْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ
وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادٍ
وهذه إشارة إلى كفار أغبياء جعلوا جمع المال وكيد أمرهم ومعنى حياتهم، فجمعوه من غير جُلٍّ، ومنعوه من حقوق الله تعالى، وكان عبدالله بن حكيم لا يربط كيسه ويقول: سمعتُ الله تعالى يقول: ﴿وَمَعَ فَأَوْعَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ الْإِنْسَنُ﴾ عموم لاسم الجنس، لكن الإشارة هنا إلى الكفار لأن الأمر فيهم وكيد كثير، و«الهِلَعُ» فرْعٌ واضطراب يعتري الإنسان عند المخاوف وعند

المطامع، ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: «شَرُّ ما في العبد شُحُّ هَالِغٍ وَجُبْنُ خَالِغٍ»، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ معناه: إلا المؤمنين الذين أُمِرُوا الآخرة وأكد عليهم من أمر الدنيا، والمعنى: إن هذا المعنى فيهم يقل لأنهم يجاهدونه بالتقوى. وقرأ الجمهور: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ﴾ بالإنفراد، وقرأ الحسن: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ﴾ بالجمع، وقوله تعالى: ﴿دَائِرُونَ﴾، قال الجمهور: المعنى: مرابطون قائمون لا يخلون في وقت من الأوقات بها فيتركونها، وهذا في المكتوبة، وأما النافلة فالدوام عليها هو الإكثار مِنْهَا بحسب الطاقة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أحبُّ العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه»، وقال ابن مسعود: الدوام: صلاتها لوقتها، وتَرْكُهَا كُفْرٌ، وقال عتبة بن عامر: ﴿دَائِرُونَ﴾: يَقْرُونَ في صلاتهم ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، ومنه الماء الدائم.

﴿٢٤﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل: قال قتادة، والضحاك، وقوم: «الحَقُّ المَعْلُومُ» هو الزكاة المفروضة. وقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد: هذه الآية في الحقوق التي سوى الزكاة، وهي ما نذبت الشريعة إليه من المواساة، وقد قال ابن عمر، والثعلبي، ومجاهد، وكثير من أهل العلم: إن في المال حقاً سوى الزكاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأصح في هذه الآية؛ لأن السورة مكية وفرض الزكاة

وبيانها إنما كان بالمدينة.

و «السائل»: المتكفف، و «المحروم»: الذي قد ثبت فقره ولم تنجح سعايته لدنياه، قالت عائشة رضي الله عنها: هو الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه، وقال بعض أهل العلم: المحروم من احترق زرعه، وقال بعضهم: المحروم من ماتت ماشيته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه أنواع الحرمان، لا أن الاسم يلزم هذا خاصة.

وقال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: المحروم: الكلْبُ، أراد - والله أعلم - أن يعطي مثلاً من الحيوان ذي الكبد الرطبة لما فيه من الأجر حسب الحديث المأثور، وقال الشعبي: أعياني أن أعلم من المحروم، وحكى عنه النقاش أنه قال وهو ابن سبعين سنة: سألت عنه وأنا غلام فما وجدت شفاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: رحم الله تعالى الشعبي فإنه في هذه المسألة محروم، ولو أخذ اسم جنس فيمن عسرت مطالبه كان له وإنما كان يطلب نوعاً مخصوصاً كالسائل.

و «يَوْمَ الدِّينِ» هو يوم القيامة، سُمِّيَ بذلك لأنه يوم المجازاة، والدِّين: الجزاء، تقول العرب: «كما تُدِينُ ثُدان»، ومنه قول الفُثَيد الزَّمَانِي:

وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدَا
بِذُنَاهُمْ كَمَا ذَاتُوا
و «الإشفاق»: الخوف من أمر يتوقع؛ لأن نيل عذاب الله تعالى

للمؤمنين متوقع، والأكثر ناج بحمد الله تبارك وتعالى، لكن عذاب الله عز وجل لا يأمنه إلا من لا بصيرة له. و «الفروج» في هذه الآية هي الفروج المعروفة، والمعنى: يحفظونها من الزنى، وقال الحسن ابن أبي الحسن: أراد فروج الشيا، وإلى معنى الوطء يعود، ثم استثنى تعالى الوطء الذي أباحه الشرع في الزوجات والمملوكات. وقوله تعالى: «إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ»، حسن دخول «وَعَلَىٰ» في هذا الموضع قوله تعالى: «غَيْرِ مُلْمُومِينَ»، فكأنه تعالى قال: إلا أنهم غير ملومين على أزواجهم وما ملكت أيمانهم.

وقوله تعالى: «أَتَتَنَّى» معناه: طلب، وقوله سبحانه: «وَرَكَّ ذَٰلِكَ» معناه: سوى ما ذكر، كأنه أمر قد حُدَّ فيه حُدٌّ فمن طلب بُغيته وراء الحد فهو كمستقبل حد في الإجمار وهو يتعدى وراءه إلى خلفه، و «العادون»: الذين يتجاوزون حدود الأشياء التي لها حدود، كان ذلك في الإجمار أو في المعاني.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

«الْأَمَانَاتُ» جمع أمانة، وجَمَعَهَا لأنها تكون متنوعة من حيث هي في الأموال والأسرار، وفيما بين العبد وربّه سبحانه فيما أَمَرَهُ به ونهاه عنه، قال الحسن: الدين كله أمانة، وقرأ ابن كثير وحده من السبعة: «لَأَمَانَتِهِمْ» بالإنفراد، و «الْعَهْدُ»: كل ما تقلده الإنسان من قول أو فعل أو مودة، إذا كانت هذه الأشياء على طريق البر فهو عهد ينبغي رَغْبُهُ

وحفظه، وقد قال النبي ﷺ: «حُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ». و «رَعُونَ» جمع راع أي: حافظ.

وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ» معناه: في قول جماعة من المفسرين - أنهم يحفظون ما يشهدون فيه ويتقنونه ويقومون بمعانيه حتى لا يكن لهم فيه تقصير، وهذا هو وصف من تمثيل النبي عليه الصلاة والسلام: «عَلَىٰ مِثْلِ الشَّمْسِ فَاشْهَد»، وقال آخرون: معناه: الذين إذا كانت عندهم شهادة ورأوا حقاً يدرس، أو حرمة الله تعالى تُثَنِّكهم قاموا بشهادتهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: شهادتهم في هذه الآية أن الله تعالى وحده لا شريك له، وروي عن النبي ﷺ أنه قال:

«خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها». واختلف الناس في معنى هذا الحديث بحسب المعنيين للذين ذكرنا في الآية: أحدهما أن يكون يحفظها متقنة فيأتي بها ولا يحتاج أن يستفهم عن شيء منها ولا أن يعارض، والثاني إذا ما رأى حقاً يعمل بخلافه وعنده في إحياء الحق شهادة، وروي أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «سيأتي قوم يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمِنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُشْهَدُونَ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السُّمْنُ»، واختلف الناس في معنى هذا الحديث - فقال بعضهم: هم قوم مؤمنون يتعرضون ويحرصون على وضع أسمائهم في وثائق الناس، وينصبون لذلك الحبال من زِيٍّ وهَيْثَةٍ، وهم غير عدول في أنفسهم، فيغترون بذلك ويضرون.

عاصم، وابنُ يَغمَر، وأبو رجاء، وطلحة: ﴿يَدْخُلُ﴾ بفتح الياء وضم الخاء على بناء الفعل للفاعل، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رَدُّ لِقَوْلِهِمْ وطمعهم، أي: الأمر ليس كذلك.

ثم أخبر تعالى عن خلفهم من نطفة قدرة، وأحال في العبارة عنها على علم الناس، أي: مَنْ خُلِقَ من ذلك فليس بنفس خَلَقَهُ يُعْطَى الجنة، بل بالأعمال الصالحة إن كانت، وقال قتادة في تفسيرها: إنما خُلِقَتْ من قَدَرٍ يا بن آدم فأتى الله تعالى، وقال أنس: كان أبو بكر رضي الله عنه إذا خطبنا ذكر مناتين ابن آدم، ومُرُورُهُ في مجرى البول مرتين، وكونُهُ نطفة في الرُّجَم ثم عُلِقَ ثم مُضِغَةٌ إلى أن يخرج فيتلوث في نجاسته طفلاً، فلا يُقْلَع أبو بكر رضي الله عنه حتى يتقَدَّر أحدنا نفسه.

﴿٤٠﴾ - ﴿٤١﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأ الجمهور: ﴿لَا أَتَيْتُمْ﴾ وذلك على أن تكون [لا] زائدة، أو على أن تكون رداً لفعل الكفار وقولهم، ثم يقع الابتداء بالقسم، وقرأ ابن كثير: ﴿فَلَا تُقِيمُ﴾ دون ألف مفردة. و «المشارق والمغارب» هي مطالع الشمس والقمر وسائر الكواكب وحيث تَغْرُبُ لأنها مختلفة عند التفصيل، فلذلك جمع، وقرأ عبدالله بن مسلم، وابن محيصن: ﴿بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ على الإفراد، ومتى ورد المشرق والمغرب على الإفراد فهي عبارة عن موضع الشروق وموضع الغروب بجملة وإن كان يتفصل، ومتى ورد المشرق والمغربان فهي عبارة عن

الكعبة أحياناً وقرأ القرآن، فكان كثير من الكفار يقومون من مجالسهم مسرعين إليه يتسمعون قراءته، ويقول بعضهم لبعض: شاعر وكاهن ومفتر وغير ذلك. و ﴿بِكَ﴾ معناه: فيما يليك، و«المهطع»: الذي يمشي مسرعاً إلى شيء قد أقبل عليه ببصره، قال ابن زيد: لا يطف.

و ﴿عِزِينَ﴾ جمع عِزَّة، قال بعض النحاة: أصلها عِزْوَةٌ، وقال آخرون منهم: أصلها عِزْهَةٌ وجمعت بالواو والنون عِزْواً مما انحذف منها نحو سنة وسنون، ومعنى العِزَّة: الجمع اليسير، فكأنهم قالوا: ثلاثة ثلاثة، أو أربعة أربعة، ومنه قول الراعي:

أَخْلَيْفَةُ الرَّحْمَنِ إِنَّ عَشِيرَتِي
أَمْسَى سَرَاتُهُمْ إِلَيْكَ عِزِينَا
وقال أبو هريرة رضي الله عنه: خرج النبي ﷺ على أصحابه وهم جلث متفرون فقال: «ما لي أراكم عِزِينَ»؟

وقوله تعالى: ﴿يَطْلَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةً يَنْبَغِي﴾ نزلت لأن الكفار قالت: إن كانت ثم آخرَةٌ وَجْهَةٌ فنحن أهلها وفيها؛ لأن الله تعالى لم ينعم علينا في الدنيا بالمال وبالبنين وغير ذلك إلا لرضاه عنا. وقرأ السبعة، والحسن، والجمهور: ﴿يَدْخُلُ﴾ بضم الياء وفتح الخاء على البناء للمفعول، وقرأ المفضل عن



قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا في ابتداء الشهادة لا في أدائها، ويجيء قوله عليه الصلاة والسلام: «وَلَا يُسْتَشْهِدُونَ»، أي: وهم غير أهل لذلك.

وقال آخرون من العلماء: هم شهود الزور، يؤدونها والمشهود عليهم لم يشهدهم ولا الآخر.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿يَشْهَدُونَ﴾ على الجمع، وهي قراءة أبي عبد الرحمن، والباقون: ﴿بَشَاهِدَتِهِمْ﴾ على الإفراد الذي هو اسم الجنس. و«المحافضة على الصلاة»: إقامتها في أوقاتها بشروط صحتها وكمالها، وقال ابن جريج: يدخل في هذه الآية التطوع.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ مُتَّبِعِينَ﴾ الآية. نزلت لأن رسول الله ﷺ كان يصلي عند

طرفي موضع الشروق وطرفي موضع الغروب. وأقسم الله تعالى في هذه الآية بمخلوقاته على إيجاب قدرته على أن تُبدلَ خيراً من ذلك العالم، وأنه لا يسبقه شيء إلى إرادته.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرْنَهُمْ يَؤُوسُونَ﴾ الآية وعبدٌ، وما فيه من معنى المهادنة فمنسوخ بآية السيف، وزوي عن ابن كثير أنه قرأ: ﴿يَلْقَوْنَ﴾ بغير ألف، وهي قراءة أبي جعفر، وابن محيصن.

و ﴿يَوْمَ يَبْعَثُونَ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿يَبْعَثُونَ﴾ بفتح الياء وضَمَّ الراء، وروى أبو بكر عن عاصم ضَمَّ الياء وفتح الراء.

و «الأجداث»: القبور. و«النُصَب»: ما نُصب للإنسان فهو يقصد مسرعاً إليه من علم أو بناء أو صنم لأهل الأصنام، وقد كثر استعمال هذا الاسم في الأصنام حتى قيل لها: الأنصاب، ويقال لشبكة الصائد: نُصْب، وقال أبو العالية: ﴿إِلَّا نَفْسٌ يُوَفُّونَ﴾ معناه: إلى غايات يستبقون، وقرأ جمهور السبعة وأبو بكر عن عاصم: ﴿نُصْبٌ﴾ بفتح النون، وهي قراءة أبي جعفر، ومجاهد، وشيبة، وابن وثاب، والأعرج، وقرأ الحسن، وقتادة - بخلاف عنهما -: ﴿نُصْبٌ﴾ بضم النون، وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿نُصْبٌ﴾ بضم النون والصاد، وهي قراءة الحسن عن أبي العالية، وزيد بن ثابت، وأبي رجاء. وقرأ مجاهد، وأبو عمران الجوني: ﴿نُصْبٌ﴾ بفتح النون والصاد.

و ﴿يُؤَفِّسُونَ﴾ معناه: يسرعون، ومنه قول الرازي:

لَأَتَعَسَّنَ نَعَامَةً مِيفَاضًا
خَرْجَاءَ ظَلَّتْ تَطْلُبُ الإِضَاضَا
و ﴿خَيْفَةً﴾ نصب على الحال ومعناه: ذليلة منكسرة، و ﴿زَمَنَهُمْ﴾ معناه: تظهر عليهم وتُلِحُّ وتَضَيِّقُ نفوسهم، ومن هذه اللفظة «المُرْهَقُ» من السادة بحوائج الناس، و«المُرْهَقُ» بالذنين، «وخلق فيها رَهَقٌ» أي: إسراراً إلى الناس، و«سَيِّفٌ فلان فيه رَهَقٌ»، ومنه «مراهقة الأحلام»، و«إرهاق الصلاة» أي: مزاحمة وقتها.

تم تفسير سورة المعارج والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة نوح

وهي مكية بإجماع من المتأولين، قال أنس بن كعب: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدرّكهم دعوة نوح».

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل: نوح عليه السلام هو نوح بن لامك، وقد مر ذكره وذكر عمره ﷺ، وصُرف «نوح» مع عُجمته وتعريفه لِخِفَّتِهِ وسكون الوسط من حروفه.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ﴾، يحتمل أن تكون «أَنْ» مفسرة لا موضع لها من الإعراب، ويحتمل أن

يكون التقدير: بأن أنذر قومك، وهي - على هذا - في موضع نصب عند قوم من النحاة، وفي موضع خفض عن آخرين، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿إِلَى قَوْمِهِ أَنْذِرَ قَوْمَكَ﴾ دون «أَنْ»، والعذاب الذي تُوعَدُوا به يحتمل أن يكون عذاب الدنيا وهو الأظهر والأليق بما يأتي بعد، ويحتمل أن يكون عذاب الآخرة.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا﴾ بضم النون [أَنْ] إبتاعاً لضمه الباء وتزكياً لمراعاة الحائل لَخَفَةِ السكون، فهو كأن ليس ثمَّ حائل، وقرأ عاصم، وحزمة، وأبو عمرو - في رواية عبدالوارث -: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا﴾ بكسر النون، وهذا هو الأصل في التقاء الساكنين من كلمتين، و﴿يَغْفِرُ﴾ جواب الأمر، وقوله سبحانه: ﴿يَنْ دُونِكُمْ﴾ قال قوم: [يَنْ] زائدة، وهذا نحو كوفي، وأما الخليل وسيبويه فلا يجوز عندهما زيادتها في الواجب، وقال قوم: هي لبيان الجنس، وهذا ضعيف لأنه ليس هنا جنس يبين، وقال آخرون: هي بمعنى «عن»، وهذا غير معروف في أحكام «يَنْ»، وقال آخرون: هي لابتداء الغاية، وهذا قول يتجه، كأنه يقول: يستدئ الغفران من هذه الذنوب العظام التي لهم، وقال آخرون: هي للتبعية، وهذا عندي أبين الأقوال، وذلك أنه لو قال: «يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» لعمَّ هذا اللفظ ما تقدم من الذنوب وما تأخر عن إيمانهم، والإسلام يجب ما قبله، فهي بعض من ذنوبهم، فالمعنى:

لِيَتَغَيَّرَ لَهُمْ ﴿٥﴾ معناه: ليؤمنوا فيكون ذلك سبب الغفران، وقوله سبحانه: ﴿جَمَلُوا أَسْمِعُكُمْ فِي آيَاتِهِمْ﴾ يحتمل أن يكون حقيقة ويحتمل أن يكون عبارة عن إعراضهم وشدة رفضهم لأقواله ودعائه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا نِيَابَهُمْ﴾، ومعناه: جعلوها أغطية على رؤوسهم. و«الإصرار»: الثبوت على معتقد ما، وأكثر استعماله في الذنوب.

ثم كرر ﷻ صفة دعائه لهم بياناً وتوكيداً، و«جهاراً» يريد علانية في المحافل، و«الإصرار» ما كان من دعائه الأفراد بينه وبينهم على انفراد، وهذا غاية الجِدِّ. وقوله: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ رِيحًا يَنْفُثُ فِيهَا غُفْرَانًا﴾ يقتضي أن الاستغفار سبب لنزول المطر في كل أمة، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استسقى بالناس فلم يزد على أن استغفر ساعة ثم انصرف، فقال له قوم: ما رأيك استسقيت يا أمير المؤمنين، فقال: والله لقد استنزلت المطر بمجاديع السماء، ثم قرأ هذه الآية رضي الله عنه، وشكا رجل إلى الحسن الجذب فقال له: استغفر الله سبحانه، وقال له آخر: ادع الله تعالى أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله تعالى، فقليل له في ذلك فتزع بهذه الآية. والاستغفار الذي أحال عليه الحسن ليس هو عندي لفظة الاستغفار فقط، بل الإخلاص والصدق في الأقوال والأعمال، وكذلك كان استغفار عمر رضي الله عنه.

المعنى أن نوحاً عليه السلام لم يعلم هل هم يمتن يؤخر أو ممن يعاجل، ولا قال لهم إنكم تؤخرون عن أجل قد حان لكم، لكن قد سبق في الأزل أنهم إما يمتن فضي له بالإيمان والتأخير، وإما يمتن فضي عليه بالكفر والمعالجة، ثم تشدد هذا المعنى ولاح بقوله: ﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾.

وقد حكى مكِّي القول بالأجلين ولم يُقدِّر قدره. وجواب [لَوْ] مُقَدَّر يقتضيه المعنى، كأنه قال: فما كان أحزمكم وأسرعكم إلى التوبة لو كنتم تعلمون.

٥ - ١١ تفسير قوله عز وجل: هذه المقالة قالها نوح عليه السلام بعد أن طال عمره وتحقق اليأس من قومه، وقوله: ﴿يَا نُوْحُ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عبارة عن استمرار دعائه وأنه لم يَنْ فِيهِ قَط. ويروى عن قتادة أن نوحاً عليه السلام كان يجيئه الرجل من قومه بابه فيقول لابنه: يا بني احذر هذا الرجل فإن أبي قد حذرني إياه ويقول إنه مجنون. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿دُعَائِي﴾ بالهمز وفتح الياء، وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بسكون الياء دون همز، وروى شبل عن ابن كثير: ﴿دُعَائِي﴾ بنصب الياء دون همز مثل «هدائي»، وقرأ عاصم أيضاً، ويعقوب، وسلام بهمة وياء ساكنة. وقوله تعالى: ﴿وَيَا كَلْبًا دَعَوْتُهُمْ

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٥﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِ وَجَعَلْ لَكُمْ جُنُودًا وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٦﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿٧﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿٩﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِي سُدُرٍ مِثْلُ شَرْبَةٍ وَجَعَلَ السَّمْعَ سِرَاجًا ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ أَنْتَبَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِآبَاءٍ ثُمَّ يُمِدُّكُمْ فِيهَا وَتُخْرَجُكُمْ مِنْهَا إِخْرَاجًا ﴿١١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٢﴾ لَتَسْكُنُوا مِنْهَا سُبُلًا وَجَارًا ﴿١٣﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَرْبِذَهُ مَاءَهُ وَوَلَدَهُ الْأَحْسَارَ ﴿١٤﴾ وَمَكْرًا أَمْكَارًا ﴿١٥﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿١٦﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَبِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿١٧﴾ مِمَّا خَطَبْتِهِمْ أَعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَخَرَجُوا مِنْهَا هَمِيمًا ﴿١٨﴾ رَبُّكَ أَنْصَارًا ﴿١٩﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا ﴿٢٠﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَاسُلًا عِيسَى أَفَأَنْتَ الْغَافِلُ ﴿٢١﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٢﴾

٥٧١

يغفر لكم من ذنوبكم، وقال بعض المفسرين: أراد: يغفر لكم من ذنوبكم المهم الموبق الكبير؛ لأنه أهم عليهم، وبه ربما كان اليأس عن الله تعالى قد وقع لهم، وهذا قول مُضْمَنَةٌ أن [من] للتبعيض، والله تعالى الموفق. وقرأ أبو عمرو: ﴿يَتَغَيَّرَ لَكُمْ﴾ بالإدغام، ولا يجيز ذلك الخليل وسيبويه؛ لأن الراء حرف مكرر فإذا أدغم في اللام ذهب التكرير واختل المسموع.

وقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِلَيْكُمْ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مما تَعَلَّتْ المعتزلة به في قولهم: «إن للإنسان أجلين»، وذلك أنهم قالوا: لو كان واحداً مُّحَدِّداً لما صحَّ التأخير إن كان الحد قد بلغ، ولا المعالجة إن كان الحد لم يبلغ. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس لهم في الآية تعلُّق؛ لأن

المصدر، والتقدير: فَنَبِّئُكُمْ نَبَاتًا، و«الإعادة فيها» هي بالدفن فيها الذي هو عُرف البشر، و«الإخراج» هو بالبعث يوم القيامة لموقف العرض والجزاء.

وقوله تعالى: ﴿بَسَاطًا﴾ يقتضي ظاهره أن الأرض بسيطة وغير كُروية، واعتقاد أحد الأمرين غير قادح في الشرع بنفسه اللهم إلا أن يتركب على القول بالكروية نظر فاسد، وأما اعتقاد كونها بسيطة فهو ظاهر كتاب الله تعالى، وهو الذي لا يلحق عنه فساد البتة، واستدل ابن مجاهد على صحة ذلك بماء البحر المحيط بالمعمور فقال: لو كانت الأرض كروية لما استقر الماء عليها. و«السُّبُل»: الطُّرُق، و«الفجاج»: الواسعة.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: فلما لم يطيعوا ويش نوح عليه السلام من إيمانهم قال نوح: رب إنهم عصوني وأتبعوا أشراهم وغواتهم، فعبر عنهم بأن أموالهم وأولادهم زادتهم خساراً، أي: خُسْرَانًا.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ونافع - في رواية خارجة عنه -: ﴿وَوَلَدَهُ﴾ بضم الواو وسكون اللام، وهي قراءة ابن الزبير، والحسن، والأعرج، والنخعي، ومجاهد. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿وَوَلَدَهُ﴾ بفتح الواو واللام وهما بمعنى واحد كَيُخْلَ وَيَخْلُ، وهي قراءة أبي عبد الرحمن، والحسن، وأبي رجاء، وابن ثواب، وأبي جعفر، وشيبة، وقرأ: ﴿وَوَلَدَهُ﴾ بكسر الواو الجحدري،

في اختلاف ألوان الناس وخلقهم وخلقهم وميلهم، و«الأطوار»: الأحوال المختلفة، ومنه قول النابغة:

فَإِنْ أَفَاقَ فَقَدْ طَارَتْ عَمَائِشُهُ
وَالْمَرْءُ يُخْلُقُ طَوْرًا بَعْدَ أَطْوَارِ
وقرأ الجمهور: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ بالثاء، وقرأت فرقة بالياء على فعل الغائب، و﴿يَلِيقًا﴾ قيل: هو مصدر، أي: مطابقة، جعل كل واحدة طبقاً للآخرى، ونحوه قول امرئ القيس:

طَبَّقَ الْأَرْضَ تَحَرَّى وَتَسَدَّى
وقيل: هو جمع «طبق»، وهو نعت لـ ﴿سَجَّ﴾، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿طَبَاقٍ﴾ بالخفض على النعت لـ ﴿سَمَوَاتٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ ساغ ذلك لأن القمر من حيث هو في إحداها فهو في الجميع، ويروى أن القمر في السماء الدنيا، وقال عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم: إن الشمس والقمر أففاؤهما إلى الأرض وإقبال نورهما وارتفاعه في السماء، وهذا الذي تقتضيه لفظة السراج، وقيل: إن الشمس في السماء الخامسة، وقيل: في الرابعة، وقال عبد الله بن عمرو: هي في الشتاء في الرابعة، وفي الصيف في السابعة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْتَبَرُ بَيْنَ الْأَرْضِ بَيْنَا﴾ استعارة، من حيث أخذ آدم عليه السلام من الأرض ثم صار الجميع ثابتاً منه، وقوله: ﴿بَيْنَا﴾ مصدر جار على غير

وروي أن قوم نوح عليه السلام كان قد أصابته قحوط وأزمة فلذلك بدأهم في وعده بأمر المطر ثم نئى بالأموال والبنين، قال قتادة: لأنهم كانوا أهل حب للدنيا وتعظيم لأمرها، فاستدعاهم الله تعالى إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها. و«مِذْرَار» مفعال من «اللَّزَّ» كمذكّار وميفات، وهذا البناء لا تلحقه هاء التأنيث.

﴿١٣﴾ - ﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل: وعدهم بالأموال والبنين والجنات والأنهار لمكان حبهم للدنيا، واختلف الناس في معنى قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ - فقال أبو عبيدة وغيره: معناه: تخافون، ومنه قول الهذلي:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَزُجْ لَسَعَهَا
وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ ثُوبٍ عَوَامِلٍ
قالوا: و«الوقار» بمعنى العظمة والسلطان، فكأن الكلام - على هذا - وعيد وتخويف. وقال بعض العلماء: ﴿تَرْجُونَ﴾ على بابها في الرجاء، وكأنه قال: ما لكم لا تجعلون رجاءكم لله تعالى وللقائه، و﴿وَقَارًا﴾ يكون - على هذا التأويل - منهم، كأنه يقول: تَوَدُّةً وتمكناً في النظر؛ لأن الكفر مُضْمَنُ الخفة والطيش وركوب الرأس.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، قال ابن عباس، ومجاهد: هي إشارة إلى التدرج الذي للإنسان في بطن أمه من النطفة والعلقة والمضغة، وقال جماعة من أهل التأويل: هي إشارة إلى العبرة

وزر، والحسن، وابن أبي إسحق، وطلحة، قال أبو عمرو: «وُلْد» بضم الواو، وسكون اللام: العشيرة والقوم، وقال أبو حاتم: يمكن أن يكون «وُلْد» بضم الواو جمع «وُلْد» وذلك كخُشْب وخُشْب، وقال حسان بن ثابت:

يَا بِكَرَّ آمِنَةَ الْمُبَارِكِ ذِكْرُهُ
مِنْ وَلَدٍ مُخَصَّصَةٍ بِسَعْدِ الْأَسْعِدِ
وقرأ جمهور الناس: «كِبَارًا» بشد الباء، وهو بناء مبالغة نحو حسان، قال عيسى: هي لغة يمانية، وعليها قول الشاعر:

وَالْمَرْءُ يُلْجِئُهُ بِفَثِيانِ الثَّدْيِ
خُلُقُ الْكَرِيمِ وَلَيْسَ بِالْوُضَاءِ
بضم الواو، وقرأ ابن مُحَنِّصٍ، وعيسى بن عمر: «كِبَارًا» بتخفيف الباء، وهو بناء مبالغة إلا أنه دون الأول، وقرأ ابن مُحَنِّصٍ - فيما روى عنه أبو الإخريط وهب بن واضح -: «كِبَارًا» بكسر الكاف، قال ابن الأنباري: هو جمع كبير، فكأنه جعل «مَكْرًا» مكان دُنُوب وأفاعيل ونحوه.

وقوله تعالى: «وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ» إخبار عن توأسيهم بأصنامهم على العموم، ما كان منها مشهور المكانة، وما كان منها يختص بواحد من الناس، ثم أخذوا يُتَّصُونَ على المشهور من الأصنام، وهذه الأصنام زوي أنها أسماء رجال صالحين كانوا في صدر الدنيا، فلما ماتوا صورهم أهل ذلك العصر من حجر وقالوا: ننظر إليها فنذكر أفعالهم، فهلك ذلك الجيل وكثر تعظيم الآخر لتلك الحجارة ثم

كذلك حتى عُبدت ثم انتقلت تلك الأصنام بأعيانها - وقيل: بل بالأسماء فقط - إلى قبائل من العرب، فكانت «وُدَّ» في كلب بدومة الجندل، وكانت «سُوَاع» في هذيل، وكانت «يَغُوث» في مُرَاد، وكانت «يَعُوقُ» في همدان، وكانت «نُسُر» في ذي الكلالع من جُمَيْر.

وقرأ نافع وحده - ورويت عن عاصم -: «وُدًا» بضم الواو، وقرأ الباقر، والأعمش، والحسن، وطلحة، وشيبة، وأبو جعفر - بخلاف عن الثلاثة -: «وُدًا» بفتح الواو، قال الشاعر:

حَبِيبَكَ وَدَّ قَلْبُنَا لَا يَجِلُّ لَنَا
لَهُوَ النِّسَاءِ وَإِنَّ الدِّينَ قَدْ عَزَمَا
فيقال: إنه أراد ذلك الصنم، ويروى بضم الواو وفتحها.

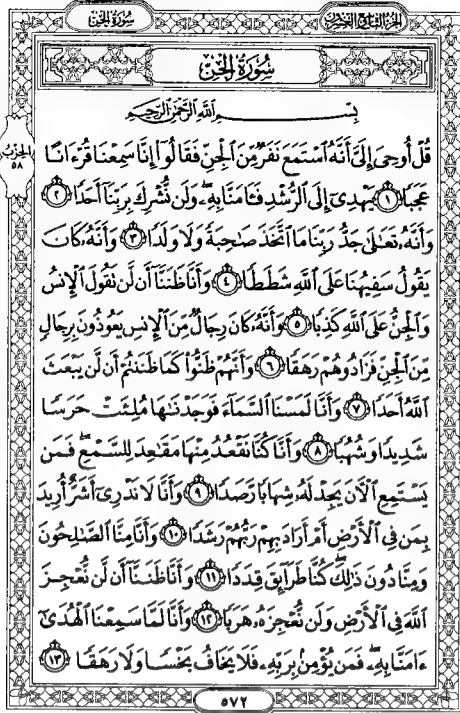
وقرأ الأعمش: «وَلَا يَغُوثًا وَيَعُوقًا» بالصرف، وذلك وهم لأن التعريف لازم ووزن الفعل. وقوله: «وَدَّ أَصْلًا كَبِيرًا» هو إخبار نوح عليه السلام عنهم، وهو منقطع مما حكاه عنهم، والمعنى: وقد أضل هؤلاء القائلون كثيراً من الناس والأتباع والعوام، ثم دعا عليهم إلى الله تعالى بالألّا يزيدهم إلّا ضلالاً، وذكر الظالمين لتعمّ الدعوة كل من جرى مجراه. وقال الحسن - في كتاب النقاش -: أراد بقوله: «وَدَّ أَصْلًا» الأصنام المذكورة، وعبر عنها بضمير من يعقل من حيث يعاملها جمهور أهلها معاملة من يعقل ويسند إليها أفعال العقل.

وقوله تعالى: «مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ» ابتداء إخبار من الله تعالى

لمحمد ﷺ، أي: إن دعوة نوح عليه السلام أُجيبَتْ فَالْأَمْرُهم إلى هذا، و [ما] في قوله تعالى: «يُنَادِي» زائدة، فكأنه تعالى قال: من خطيئاتهم أغرقوا، هي لابتداء الغاية، وقرأ: «مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ» على الأفراد الجحدرى والحسن، وقرأ أبو عمرو وحده، والحسن، وعيسى، والأعرج، وقتادة - بخلاف عنهم -: «مِمَّا خَطَايَاهُمْ» على تكسير الجمع، وقوله تعالى: «فَأَذِنُوا لَنَا» يعني جهنم، وعبر عن ذلك بفعل الماضي من حيث الأمر متحقق، وقيل: أراد عرضهم على النار غُدُوا وعشيًا عبر عنه بالإدخال، وقوله تعالى: «فَلَنْ يَجْزُوا» أي: لم يجد المغفرون أحداً سوى الله تعالى ينصرهم ويصرف عنهم بأس الله.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي عن محمد بن كعب، ومقاتل، والربيع، وابن زيد أن نوحاً عليه السلام لم يدع بهذه الدعوة إلّا بعد أن أخرج الله تعالى كل مؤمن من أصلابهم، وأعقم أرحام النساء قبل العذاب بسبعين سنة، قال قتادة وبعد أن أوحى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلّا من آمن، وقد كان قبل ذلك طامعاً فيهم حديثاً عليهم، وفي حديث النبي ﷺ أنه ربّما ضربه ناسٌ منهم أحياناً حتى يُعْشى عليه فإذا أفاق قال: اللهم أغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. «وَدَّيَّار» أصله دَيَّوَارٌ، وهو قَيْعَال من الدوران، أي: من يجيء ويذهب، يقال منه: دَوَّارٌ ووزنه قَعَالٌ، ودَيَّارٌ ووزنه قَيْعَالٌ وأصله دَيَّوَارٌ، وهذا كالتَّوَارِمْ والقِيَامِ.



«أَوْحَى يُوحِي»، وقرأ أبو
إياس جُؤَيَّةُ بن عائذ:
﴿قُلْ وَحْيِي﴾ من «وَحَى»
يَحْسِي، و«وَحَى»
و«أَوْحَى» بمعنى واحد،
وقال العجاج:

وَحَى لَهَا الْفَرَارُ فَاسْتَقَرَّتْ

وقرأ أيضاً جُؤَيَّةُ فيما
روى عنه الكسائي :-
﴿قُلْ أَجْسِي﴾، أبدلت
الواو همزة كما أبدلوا
في وسادة وإسادة، وغير
ذلك، وكذلك قرأ ابن
أبي عبة، وحكى الطبري
عن عاصم أنه كان يكسر
كل ألف في السورة من
«أَنْ» و«أَنْتَهُ» إلا قوله

تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾، وحكى
عن أبي عمرو أنه كان يكسر من
أولها إلى قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ
اسْتَقْتَمُوا﴾، فإنه كان يفتح هذه وما
بعدها إلى آخر السورة، فعلى ما
حكى يلزم أن تكون الألف مكسورة
في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾،
وليس ما ذكر بثابت. وذكر أبو علي
الفارسي أن ابن كثير، وأبا عمرو
فَتَحَا أربعة أحرف من السورة وكَسَرَا
غير ذلك - ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ ﴿وَأَلَّوِ
اسْتَقْتَمُوا﴾ ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾ ﴿وَأَنَّهُ
لَمَّا قَامَ﴾ - وأن نافعاً وعاصماً - في
رواية أبي بكر والمفضل - وافقاً في
الثلاثة الأولى وكَسَرَا ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ﴾
مع سائر ما في السورة، وذكر أن
ابن عامر وحمزة والكسائي كانوا
يقروون كل ما في السورة بالفتح إلا
ما جاء بعد قول أو فاء جزاء،

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَوْلَايَ﴾
وقرأ أبي بن كعب: ﴿وَلَا بُؤَيَ﴾،
وقرأ سعيد بن جبير: ﴿وَلَوْلَايَ﴾
بكسر الدال، يخص أباه بالدعوة،
قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم
يكفر لنوح أب ما بينه وبين آدم
عليهما السلام، وقرأ يحيى بن
يَعْمَر، والجحدري: ﴿وَلَوْلَايَ﴾
بفتح اللام والدال وشد الياء
مفتوحة، وهي قراءة التَّخْمِي، يخص
بالدعاء ابنه، ويُنْتَه هو المسجد فيما
قال ابن عباس وجمهور المفسرين،
وقال ابن عباس أيضاً: بَيَّنَّه شريعته
ودينه، استعار لهما بَيَّنَّا، كما يقال:
قُبَّه الإسلام وفُسطاط الدين، وقيل:
أراد سفينته، وقيل: أراد داره،
وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ تعميم
بالدعاء لمؤمني كل ملة، وقال بعض
العلماء: إن الذي استجاب لنوح
عليه السلام فأغرق بدعوته أهل
الأرض الكفار لجدير أن يستجيب له
فيرحم بدعوته المؤمنين. و«الثَّبَارُ»
الهلاك وَهَاب الرسم، وقرأ حفص
عن عاصم، وهشام وأبو قرة عن
نافع: ﴿يَتَوَكَّ﴾ بتحريك الياء، وقرأ
الباقون بسكونها.

تم تفسير سورة نوح والحمد لله رب
العالمين

تفسير سورة الجن

وهي مكية بإجماع من المفسرين.

① - ⑤ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس: ﴿قُلْ أُوْحَى﴾ من

وكذلك حفص عن عاصم، فترتب
إجماع القراء على فتح الألف من
﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقْتَمُوا عَلَى﴾
﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ﴾ وذكر الزهراوي عن
علقمة أنه كان يفتح الألف في
السورة كلها.

واختلف الناس في الفتح من هذه
الألفات وفي الكسر اختلافاً كبيراً
يطول حصره وتقضي معانيه - قال أبو
حاتم: أما الفتح فعلى «أُوْحَى» فهو
كله في موضع رفع على ما لم يُسَمَّ
فاعله، وأما الكسر فحكاية وابتداء
وبعد القول.

وهؤلاء النفر من الجن هم الذين
صادفوا رسول الله ﷺ يقرأ ببطن
نخلة في صلاة الصبح وهو يريد
عكاظ، وقد تقدم قصصهم في سورة
«الأحقاف» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ
صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾، وكان

سبب ذلك حراسة السماء من استراق السمع.

وقول الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا الْآيَاتِ هُوَ خُطَابُ مَنْهُمْ لِقَوْمِهِ الَّذِينَ تَوَلَّوْا إِلَيْهِمْ مَنذِرِينَ، وَ﴿قَوْلَانَا عَجَبًا﴾ معناه: ذو عجب؛ لأن العجب يقع من سامع القرآن لبراعته وفصاحته ومُضْمَنَاتِهِ، وليس نفس القرآن هو العجب، وقرأ جمهور الناس: ﴿إِلَى الرَّشِيدِ﴾ بضم الراء وسكون الشين، وقرأ عيسى الثقفي: ﴿إِلَى الرَّشِيدِ﴾ بفتح الراء والشين، ومن كسر الهمزة من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ تَعَالَى﴾ فعلى القطع، وتطف الجمله على قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾، ومن فتح الألف من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ تَعَالَى﴾ فقد اختلفوا في تأويل ذلك، فقال بعضهم: هي عطف على ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، فيجيء على هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ تَعَالَى﴾ ممَّا أَمَرَ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ أَوْحِيَ إِلَيْهِ، وليس يكون من كلام الجن، وفي هذا قلق، وقال بعضهم: بل هي عطف على الضمير في ﴿بَيِّنَةٍ﴾، كأنهم يقولون: فأمنا به وبأنه تعالى جَدُّ ربنا، وهذا القول أَبَيَّنَ في المعنى لكن فيه من جهة النحو العطف على الضمير المخفوض دون إعادة الخافض، وذلك لا يحسن.

وقرأ جمهور الناس: ﴿جَدُّ رَبَّنَا﴾ بفتح الجيم وإضافته إلى «الرَّبِّ» تعالى، وقال جمهور المفسرين: معناه: عظمته، وروي عن أنس أنه قال: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدُّ في أعيننا، أي: عَظُمَ، وقال أنس بن مالك، والحسن: جَدُّ

رَبَّنَا: غناه، فهذا هو الجَدُّ الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» وقال مجاهد: ذَكَرُهُ، وقال بعضهم: جلاله، وقال ابن عباس: قَدَّرَهُ وَأَمَرُهُ، وهذا كله مُتَّجِهٌ لِأَنَّ الْجَدَّ هُوَ حَظُّ الْمَجْدُودِ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ، وَجَدُّ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْحَظُّ الْأَكْمَلُ مِنَ السُّلْطَانِ الْقَاهِرِ وَالطَّبَقَاتِ الْعَلِيَّةِ وَالْعِظْمَةِ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الْيَهُودِيِّ حِينَ قَدَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ: «يَا بَنِي قَيْلَةَ هَذَا جَدُّكُمْ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ» أَي: حَظُّكُمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَبِخْتِكُمْ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ، وَابْنُهُ جَعْفَرُ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: لَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَى جَدُّ، وَهَذِهِ مَقَالَةٌ قَوْمٌ جَهْلَةٌ مِنَ الْجِنِّ جَعَلُوا اللَّهَ تَعَالَى جَدًّا، أَي: أَبَا أَبٍ، قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسُرِينَ: هَذَا قَوْلٌ ضَعِيفٌ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿وَلَنْ نُشْرَكَ رَبَّنَا أَحَدًا﴾ يَدْفَعُهُ، وَكَوْنُهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ - فِيمَا رَوَى - وَفَهْمُهُمُ الْقُرْآنَ، وَقَرَأَ مُحَمَّدُ بْنُ السَّمِيعِ الْيَمَانِيُّ: ﴿جَدِّي رَبَّنَا﴾ وَهُوَ الْجَدُّوِي وَالشُّفْعُ، وَقَرَأَ عِكْرَمَةُ: ﴿جَدُّ رَبَّنَا﴾ بِفَتْحِ الْجِيمِ وَضَمِّ الدَّالِ وَتَنوينِهَا وَرَفْعِ الرَّبِّ، كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: تَعَالَى عَظِيمٌ هُوَ رَبَّنَا، وَ﴿رَبَّنَا﴾ بِدَلٍّ، وَالْجَدُّ: الْعَظِيمُ فِي اللُّغَةِ، وَقَرَأَ حَمِيدُ بْنُ قَيْسٍ: ﴿جَدُّ رَبَّنَا﴾ بِضَمِّ الْجِيمِ، وَمَعْنَاهُ: الْعَظِيمُ، حِكَاةً سَبِيحِيَّةً وَأَضَافَهُ إِلَى «الرَّبِّ» فَكَأَنَّهُ قَالَ: «عَظِيمُ رَبَّنَا»، وَهَذِهِ إِضَافَةٌ تَجْرِيدٌ، يَرْفَعُ النِّحَاةَ هَذَا الْاسْمَ إِذَا أُضِيفَتِ الصِّفَةُ إِلَى الْمَوْصُوفِ، كَمَا تَقُولُ: «جَاءَنِي

كريمٌ زَيْدٌ» تَرِيدُ: زَيْدُ الْكَرِيمِ، وَيَجْرِي مَجْرَى هَذَا عِنْدَ بَعْضِهِمْ قَوْلُ الْمُتَنَبِّئِ:

.....

عَظِيمُ الْمُلْكِ فِي الْمُسْقَلِ
أَرَادَ: الْمُلْكَ الْعَظِيمُ، قَالَ بَعْضُ النِّحَاةِ: وَهَذَا الْمِثَالُ مُعْتَرِضٌ لِأَنَّهُ أَضَافَ إِلَى جِنْسٍ فِيهِ الْعَظِيمُ وَالْحَقِيرُ، وَقَرَأَ عِكْرَمَةُ أَيْضًا: ﴿جَدًّا رَبَّنَا﴾ بِفَتْحِ الْجِيمِ وَالدَّالِ وَتَنوينِهَا وَرَفْعِ «الرَّبِّ»، نَصَبَ [جَدًّا] عَلَى التَّمْيِيزِ كَمَا تَقُولُ: «تَفَقَّأْتُ شَخْمًا وَتَنَصَّبْتُ عِرْقًا»، وَقَرَأَ قَتَادَةُ: ﴿جَدًّا رَبَّنَا﴾ بِكَسْرِ الْجِيمِ وَشُدِّ الدَّالِ وَرَفْعِ «الرَّبِّ»، فَنَصَبَ [جَدًّا] عَلَى الْحَالِ، وَمَعْنَاهُ: حَقِيقَةٌ وَمُتَمَكِّنًا، وَهَذَا مَعْنَى غَيْرِ الْأَوَّلِ، وَقَرَأَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: ﴿تَعَالَى ذِكْرُ رَبَّنَا﴾، وَرَوَى عَنْهُ: ﴿جَلَالُ رَبَّنَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ كَانَ يُقُولُ﴾، لا خلاف أن هذا قول الجن، وكَسَرَ الألف فيه أَبَيَّنَ، وَفَتْحَهَا لَا وَجْهَ لَهُ إِلَّا اتِّبَاعُ الْعُطْفِ عَلَى الضَّمِيرِ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا: وَأَمَّا الْآنَ بَأَنَّ سَفِيهَنَا كَانَ قَوْلُهُ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا، وَالسَّفِيهِ الْمَذْكُورُ قَالَ جَمْهُورُ الْمَفْسُرِينَ: هُوَ إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ اسْمُ جِنْسٍ لِكُلِّ سَفِيهِ مِنْهُمْ، وَلَا مُحَالَةَ أَنَّ إِبْلِيسَ صَدَرَ فِي السَّفَهَاءِ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَحْسَنُ، وَ«الشُّطَطُ»: التَّعْدِي وَتَجَاوَزَ الْحَدَّ بِقَوْلٍ أَوْ بِفِعْلٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعْمَشِيِّ:

أَتَنْتَهُونَ؟ وَلَا يَنْتَهُي ذَوِي شَطَطٍ
كَالطَّنِّ يَذْهَبُ فِيهِ الرِّبْتُ وَالْفُتْلُ
وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَنَّا﴾ هُوَ كَلَامُ

أولئك النفر من الجن، لا يحتمل غير ذلك، وكسر الألف فيه أثبت، والمعنى: إنا كنا نظن قبل إيماننا أن الأقوال التي كنا نسمع من إبليس وغواة الجن والإنس في جهة الآلهة وما يتعلق بذلك حق وليست بكذب؛ لأننا كنا نظن بهم أنهم لا يكذبون على الله تعالى ولا يرضون ذلك، وقرأ جمهور الناس: ﴿تَقُولُ﴾ بالتاء وضم القاف مخففة، وقرأ الحسن، والجحدري، وابن أبي بكرة، ويعقوب: ﴿تَقُولُ﴾ بفتح التاء والقاف والواو مشددة، والتَقُولُ خاص بالكذب، والقول عام له وللصدق ولكن قولهم: ﴿كَذِبًا﴾ يرُدُّ القول هنا إلى معنى التَقُولُ.

٦ - ١٠ تفسير قوله عز وجل:

هذه الألف من ﴿أَنَّهُ﴾ اختلف في فتحها وكسرها والكسر أوجه، والمعنى في الآية ما كانت العرب تفعله في أسفارها وتغريبها في الرعي وغيره، فإن جمهور المفسرين رَوَوْا أن الرجل كان إذا أراد المبيت والحلول في واد صاح بأعلى صوته: يا عزيز هذا الوادي إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك، فيعتقد بذلك أن الجنّي الذي بالوادي يمنعه ويحميه، فروي أن الجن كانت تقول عند ذلك: ما نملك لكم ولا لأنفسنا من الله شيئاً، قال مقاتل: أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن ثم بنو حنيفة ثم قَسَا ذلك في العرب، وروي عن قتادة أن الجن كانت لذلك تحقّر بني آدم وتزدريهم لما يرون من

جهلهم، فكانوا يزدنونهم مخافة، ويتعرضون للتخيل لهم بمنتهى طاقتهم، ويغوونهم في إرادتهم لما رأوا رقة أحلامهم، فهذا هو الرهق الذي زادته الجن بني آدم، وقال مجاهد، والشَّعبي، وعبيد بن عمير: بنو آدم زادوا الجن رهقاً وهو الجرأة والانتحاء عليهم والطغيان وغشيان المحارم والإعجاب لأنهم قالوا: سدنا الجن والإنس، وقد فسر قوم الرهق بالإثم، وأنشد الطبري في ذلك بيت الأعشى:

لَا شَيْءَ يَنْفَعُنِي مِنْ دُونِ رُؤْيَيْهَا
هَلْ يَشْتَفِي وَابِقٌ مَا لَمْ يَصِبْ رَهَقًا؟

وقال: معناه: ما لم يغش محرمًا، فالمعنى: زادت الجنّ الإنس إثماً لأنهم عظموهم فزادوهم استحلالاً لمحارم الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ طَرَفٌ لِّمَنِ يُرِيدُ بَنِي آدَمَ الْكُفَّارُ، كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ مخاطبة لقومهم من الجن، وقولهم: ﴿أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما بعث الحشر من القبور، والآخر بعث آدمي رسولاً، و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن لَّنْ يَبْعَثَ﴾ مخففة من الثقيلة، وهي تسدُّ مسدَّ المفعولين، وذكر المهدوي تأويلًا أن المعنى: وأن الجنّ ظنوا كما ظننتم أيها الإنس، فهي مخاطبة من الله تعالى.

وقولهم: ﴿وَأَنَّا لَنَسَاءٌ أَلَسْنَا﴾ معناه: التَّمَسُّنا، ويظهر بمقتضى كلام العرب أنها استعارة لتجريبهم أمرها وتعرضهم لها، فسمي ذلك تَمَسُّاً إذ

كان التَّمَسُّ غاية غرضهم، ونحو هذا قول المتنبي:

تَعُدُّ الْقُرَى وَالْمُسْنَ بِنَا الْجَيْشِ لَمَسَةً
نُبَارٍ إِلَى مَا تَشْتَهِي يَدُكَ الْيُمْنِي
فعبّر عن صدم الجيش بالجيش وحربه باللمس، وهذا كما تقول: «اللمس فلاناً في أمر كذا» أي: جرب مذهبه فيه، و﴿يُمْنِي﴾ إما أن تكون في موضع المفعول الثاني لـ ﴿يَبْعَثُ﴾، وإما أن يقصر الفعل على مفعول واحد وتكون ﴿يُمْنِي﴾ في موضع الحال، وكان الأعرج يقرأ: ﴿يُمْنِي﴾ بغير همز، و«الشَّهْبُ» كواكب الرجم، و«الْحَرَسُ» يحتمل أن يريد الرمي بالشهب وكُرِّرَ المعنى بلفظ مختلف، ويحتمل أن يريد الملائكة.

و﴿مَقْعِدٌ﴾ جمع مقعد، وقد فسر رسول الله ﷺ صورة قعود الجن أنهم كانوا واحداً فوق واحد، فمتى أخرق الأعلى طلع الذي تحته مكانه، فكانوا يسترقون الكلمة فيبلغونها إلى الكهان يزدنون معها، ويزيد الكهان للكلمة مائة كذبة. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْتَعِجِ الْآنَ﴾ الآية... قطع على أنه كل من استمع الآن أحرقة شهاب، فليس هنا بُعد سَمْعٍ، إنما الإحراق عند الاستماع، وهذا يقتضي أن الرجم كان في الجاهلية ولكنه لم يكن بمستأصل، وكان الحرس ولكنه لم يكن شديداً، فلما جاء الإسلام اشتد الأمر حتى لم يكن فيه يُسْر ولا سماحة، ويدل على هذا قول النبي ﷺ لأصحابه وقد رأوا كوكباً راجماً: «ماذا كنتم تقولون لهذا في الجاهلية؟»، قالوا:

وَمَا أَلْفَيْتُمْ أَفْئِدَةً وَفِي السَّابِغَةِ: والظالم، قاله مجاهد، وقتادة، والناس، ومنه قول الشاعر:
قَوْمٌ هُمْ قَتَلُوا ابْنَ هِنْدَ عَنُوءَ
عَمْرَأَ وَهُمْ قَسَطُوا عَلَى الثُّغَمَانِ
وَالْمُقْسِطُ: العادل، وإنما هذا
التقسيم ليذكر حال الفريقين من
النجا والهلكة، ويُرَغَّبُ في الإسلام
من لم يدخل فيه، فالوجه أن يكون
﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ مخاطبة من الله تعالى
لمحمد ﷺ، ويؤيده ما بعده من
الآيات، و﴿تَحَرَّزُوا﴾ معناه: طلبوا
باجتهادهم، ومنه قول النبي ﷺ:
«لَا تَحَرَّزُوا بِصَلَاتِكُمْ طُلُوعِ الشَّمْسِ
وَلَا غُرُوبِهَا»، وقوله تعالى: ﴿إِجْهَدْ
حَقَّكَ﴾ نظير قوله تعالى: ﴿وَقُودَهَا
النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ﴾.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
الضمير في قوله تعالى:
﴿أَسْتَقْمُوا﴾. قال أبو مجلز،
والفراء، والربيع بن أنس، وزيد بن
أسلم، والضحاك - بخلاف عنه -:
هو عائد على قوله سبحانه: ﴿مَنْ
أَسْلَمَ﴾، و«الطريقة» طريقة الكفر،
أي: لو كفر من أسلم من الناس
لأسقيناهم ماء إملاء لهم
واستدرأجاً، وقال ابن عباس،
وقتادة، وابن جبير، ومجاهد:
الضمير عائد على «القاسطين»،
والمعنى: وهذا المعنى نحو قوله
تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ
آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ
سِقَاتِيهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ
أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ
مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْمَلُوا مِنْ قُوهِمْ

لِجَهَنَّمَ حَقًّا﴾، وقوله
تعالى: ﴿وَمَا دُونَ ذَلِكَ﴾
أي: غير الصالحين،
كانهم قالوا: ومنا قوم أو
فرقة دون صالحين، وهي
لفظة تقع أحياناً موقع
«غير»، و«الطرائق»: السَّيَرُ المختلفة، و«الْقِدَّةُ»
كذلك هي الأشياء
المختلفة كأنه قد
قُدَّ بعضها من بعض
وفصل، قال ابن عباس:
وعكرمة، وقتادة: ﴿طَرِيقَ
قِدَّةٍ﴾ أهواء مختلفة،
وقال غيرهم:
فرق مختلفون، قال
الكميت:

جَمَعَتْ بِالرَّأْيِ مِنْهُمْ كُلَّ رَافِضَةٍ
إِذْ هُمْ طَرِيقٌ فِي أَفْوَائِهِمْ قِدَّةٌ
قَوْلُهُمْ: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تُعْجِزَ
أَنْتَ﴾، الظن هنا بمعنى العلم، وهذا
إخبار منهم عن حالهم بعد إيمانهم
كما سمعوا من محمد ﷺ،
و«الهُدَى» يريدون به القرآن، سُمِّيه
هدى من حيث هو سبب الهدى،
و«الْبَخْسُ»: النقص، و«الرَّهَقُ»:
تحميل ما لا يطاق وما يثقل من
الأنكداد ويُفدح، وقال ابن عباس:
الْبَخْسُ نقص الحسنات، والرَّهَقُ
الزيادة في السيئات، وقرأ الأعمش
ويحيى بن وثاب: ﴿فَلَا يَخْفُفُ﴾
بالجزم دون ألف.

وقسم الله تعالى بعد ذلك حال
الناس في الآخرة على نحو ما قسم
قائل الجن بقوله: ﴿وَأَنَا مِمَّا الْمُتَسَلِّطُونَ

وَأَنَا مِمَّا الْمُتَسَلِّطُونَ وَمِمَّا الْقَائِمُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ
تَحَرَّوْا رِسْدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا الْقَائِمُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٢﴾
وَأَلُو اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٣﴾ لَقَدْ يَنْبَغُ
فِيهِ وَمَنْ يَعْزِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٤﴾ وَأَنَّ
الْمُسْلِمَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٥﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ
يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا ﴿١٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ
بِهِ أَحَدًا ﴿١٧﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿١٨﴾ قُلْ إِنِّي
أَنْبِئُكُمْ بِمَنْ اللَّهُ أَحَدُكُمْ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿١٩﴾ لَأَبْلَعُنَّ
مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ
مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٢﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَا
يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ
يَسْمَعُ الْكَلِمَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَسَدَّ لَهُ السَّمْعَ أَنْ يَذْكُرُوا
وَسَلَّاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

٥٧٣

كنا نقول: «ولد ملك مات ملك،
فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس
الأمر كذلك»، ثم وصف صعود
الجن.

وقد قال عزف بن الخريج - وهو
جاهلي -:

فَأَنْقَضَ كَالدُّرِيِّ يَنْشَبُعُهُ
تَفْعٌ يَشُورُ تَخَالَهُ طُطْبًا
وهذا في أشعارهم كثير. و﴿رَسَدًا﴾
نعت للشهاب، ووصفه بالمصدر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ
أَرِيدُ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية... معناه:
لا ندري، أيؤمن الناس بهذا النبي
فيرشدوا أم يكفرون به فينزل بهم
الشَّرُّ؟

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا كله من قول الجن إلى آخر
قوله تعالى: ﴿وَأَنَا الْقَائِمُونَ فَكَانُوا

وَمِنْ تَحْتِ أَيْلِهِمْ ﴿١١﴾، وهذا القول أُبَيِّنَ، لأن استعارة الاستقامة للكفر قلقة.

وقرأ الأعمش، وابن وثاب: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا﴾ بضم الواو، وقال أبو الفتح: هذا تشبيه بواو الجماعة ﴿أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ﴾، والماء العَذُّ هو الماء الكثير، وقرأ جمهور الناس: ﴿عَذَقًا﴾ بفتح الدال، وقرأ عاصم - في رواية الأعمش عنه - بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿لَفَتْنَهُمْ يَدٌ﴾ إن كان المسلمون فمعناه: لنختبرهم، وإن كان القاسطون فمعناه: لنمتحنهم ونستدرجهم، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حيث يكون الماء فَتَمَّ المال، وحيث المال فَتَمَّ الفتنة»، ونزع بهذه الآية، وقال الحسن، وابن المسيب، وجماعة من التابعين: كانت الصحابة مطيعين سامعين، فلما فتحت كنوز كسرى وقصر وثب بعثمان رضي الله عنه فقتل وثار الفتن. و﴿يَسْلُكُهُ﴾ معناه: يُدْخِلُهُ، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿يَسْلُكُهُ﴾ بفتح السين، أي: يسلكه الله، وقرأ بعض التابعين: ﴿يُسْلِكُهُ﴾ بضم الياء، من أسلك، وهما بمعنى، وقرأ باقي السبعة: ﴿يُسْلِكُهُ﴾ بنون مضمومة ولام مكسورة، و﴿صَعَدًا﴾ معناه: شاقاً، تقول: «فلان في صَعَدٍ من أمره» أي: في مشقة، وهذا أمر ينصَّعُدنِي، قال عمر رضي الله عنه: «ما تصعُدنِي شيءٌ كما تصعُدنِي خطبة النكاح»، وقال

ابن عباس، وأبو سعيد الخدري: صَعَدَ: جبل في النار، وقرأ قوم: ﴿صُعْدًا﴾ بضم الصاد والعين، وقرأ الجمهور بفتح الصاد والعين، وقرأ ابن عباس، والحسن بضم الصاد وفتح العين، قال الحسن: معناه: لا راحة فيه.

وَمَنْ فَتَحَ الْأَلْفَ مِنْ ﴿وَأَنَّ السَّيِّدَ لِلَّهِ﴾ جعلها عطفاً على قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾، ذَكَرَهُ سيبويه، والمساجد قيل: أراد بها البيوت التي للعبادة والصلاة في كل بلدة، وقال الحسن: أراد كل موضع سُجِد فيه، كان مخصوصاً لذلك أو لم يكن؛ إذا الأرض كلها مسجد لهذه الأمة، وزوي أن هذه الآية نزلت بسبب تغلب قريش على الكعبة حينئذ، ف قيل لمحمد ﷺ: المواضع كلها لله تعالى فاعبده حيث كان، وقال ابن عطاء: المساجد: الأرباب التي يُسجد عليها، واحداها مُسَجِدٌ - بفتح الجيم -، وقال سعيد بن جبیر: نزلت الآية لأن الجن قالت: يا رسول الله كيف نشهد الصلاة معك على نأينا عنك؟ فنزلت الآية ليخاطبهم بها على معنى: إن عبادتكم حيث كنتم مقبولة، وقال الخليل بن أحمد: معنى الآية: ولأن المساجد لله فلا تدعوا - أي: لهذا السبب -، وكذلك عنده ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ فَرِثِي ﴿إِلَافِيهِمْ رَحْلَةَ الشَّيْءِ وَالصَّيْفِ﴾ فَلْيَعْبُدُوا، وكذلك عنده ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، والمساجد المخصوصة بَيِّنَةُ التمكن في كونها لله تعالى، فيصح أن تفرد للصلاة والدعاء وقراءة العلم وكل ما

هو خالص لله تعالى، وألاً يتحدث فيها من أمور الدنيا، ولا يتجر، ولا تتخذ طريقاً، ولا يُجعل فيها لغير الله تعالى نصيب، ولقد قعدت للقضاء بين المسلمين في المسجد الجامع بالمرية ثم رأيت فيه من سوء خلق المتخاصمين وصياحهم وأيمانهم وفجور الخصام وغائلته ودخول النسوان ما رأيت تنزيه البيت عنه فقطعت القعود للأحكام فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً من الله تعالى، ويحتمل أن يكون إخباراً عن الجن، وقرأ بعض القراء - على ما تقدم -: ﴿وَأَنَّهُ﴾ بفتح الألف، وهذا عطف على قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، و«العَبْدُ» على هذه القراءة، قال قوم: هو نوح عليه السلام، والضمير في ﴿كَادُوا﴾ لِكُفَّارِ قومه، وقال آخرون هو محمد ﷺ، والضمير في ﴿كَادُوا﴾ للجن، والمعنى أنهم كادوا يَنْقُصُون عليه لاستماع القرآن، وقرأ آخرون: ﴿وَأَنَّهُ﴾ بكسر الهمزة، و«العَبْدُ» محمد ﷺ، والضمير في ﴿كَادُوا﴾ يحتمل أن يكون للجن على المعنى الذي ذكرناه، ويحتمل أن يكون لكفار قومه وللعرب في اجتماعهم على رد أمره، ولا يتَّجه أن يكون «العبد» نوحاً عليه السلام إلا على تحامل في تأويل نَسَقِ الآية، وقال ابن جبیر: معنى الآية أنها قول الجن لقومهم يحكون، و«العَبْدُ» محمد ﷺ، والضمير في ﴿كَادُوا﴾ لأصحابه الذين يطوعون له ويقنونون به في الصلاة، فهم عليه لَبِّدٌ، وهي

الجماعات، شُبِّهت بالشيء المتلبد بعضه فوق بعض، ومنه قول عبد مناف بن ربح:

صَابُوا بِسَيْتَةِ أَنْبِيَاءٍ وَأَرْزَعَةٍ
حَتَّى كَانُوا عَلَيْهِمْ جَانِبًا لَبِداً
يريد الجراد، سماه جانباً لأنه يُخْنِي
الأشياء بأكله، [ويروى جانباً بالباء
لأنه يجبي الأشياء بأكله].

وقرأ ابن عباس وجمهور السبعة: ﴿لَبِداً﴾ بكسر اللام، جمع لَبْدَةٍ، وقال ابن عباس: أعواناً، وقرأ ابن عامر - بخلاف عنه - ومجاهد، وابن محيصن: ﴿لَبِداً﴾ بضم اللام وتخفيف الباء المفتوحة، وهو جمع أيضاً، وزوي عن الجحدري: ﴿لَبِداً﴾ بضم اللام والباء، وقرأ أبو رجاء: ﴿لَبِداً﴾ بكسر اللام وشُدَّ الباء المفتوحة، وقرأ الجحدري والحسن - بخلاف عنهما -: ﴿لَبِداً﴾ بضم اللام وشُدَّ الباء، وهو جمع «لأبد»، فإن قدرنا الضمير للجن فَيَنْقُصُهُمْ عليه لاستماع الذكر، وهذا تأويل ابن عباس والضحاك، وإن قدرناه للكفار فبتمثلهم عليه وإقبالهم على أمره بالتكذيب والرد، وهذا تأويل الحسن وقتادة. ﴿وَيَدْعُوهُ﴾ معناه: يعبد.

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾، وهي قراءة جمهور السبعة، وهذه قراءة تؤيد أن «العَبْد» هو نوح عليه السلام، وقرأ عاصم، وحزمة، وأيوب، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَدْعُوا﴾ وهذه تؤيد أنه محمد ﷺ، وإن كان الاحتمال باقياً من كليهما، واختلف القراء في فتح الباء من [رَبِّي] وفي سكونها.

ثم أمر تعالى محمد ﷺ بالتبري من القدرة، وأنه لا يملك لأحد ضرراً ولا رشداً، بل الأمر كله لله تعالى، وقرأ الأعرج: ﴿رَشِداً﴾ بضم الراء والشين، وقرأ أبي بن كعب: ﴿لَا أَمْلِكُ لَكُمْ غِيّاً وَلَا رَشِداً﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِ﴾ أي: من عند سواه، و«الْمُلْتَحَذُ»: الملجأ الذي يُمال إليه ويُزَكَن، ومنه الإلحاد والميل، ومنه اللُحْدُ الذي يُمال به إلى أحد شِقَي القبر.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل: اختلف الناس في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَاً﴾ - فقال الحسن ما معناه: إنه استثناء منقطع، والمعنى: لن يُجيرني من الله أحدٌ إلاً بلاغاً، فإني إن بلغت رحماني بذلك، والإجارة للبلّاغ مستعارة إذ هو سبب إجارة الله تعالى ورحمته، وقال بعض النحاة: على هذا المعنى هو استثناء مُتَّصِل، والمعنى: لن أجد مُلْتَحِذاً إلاً بلاغاً، أي: شيئاً أميل إليه وأعتصم به إلا أن أبلغ وأطيع فيجيرني الله. وقال قتادة: التقدير: لا أملك إلاً بلاغاً فأما الإيمان والكفر فلا أملكه، قال بعض المتأولين: (إِلَّا) بتقدير الانفصال، و [لَنْ] شرط، و [لَا] نافية، كأنه يقول: ولن أجد مُلْتَحِذاً إن لم أبلغ من الله ورسالاته، و [مَنْ] في قوله: ﴿مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ لا ابتداء الغاية، وقوله: ﴿وَمَنْ يَقِصُّ اللَّهَ﴾ يريد الكفر بدليل الخلود المذكور، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿فَأَنْ لَّهُ﴾ على معنى: فجزاؤه أن له.

قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا رَأَوْا﴾، ساق

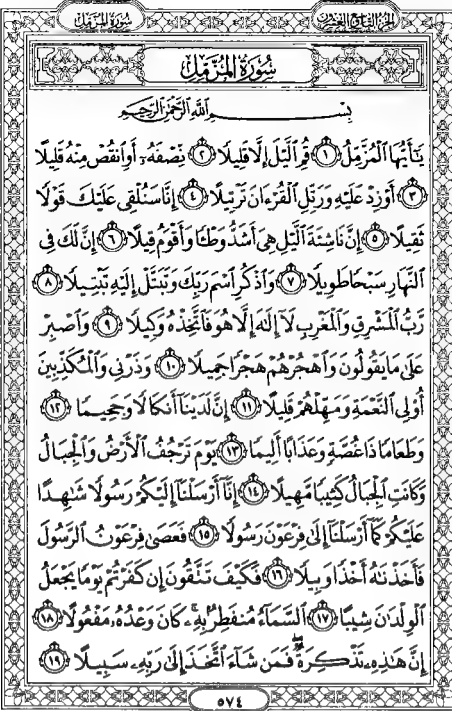
الفعل في صيغة الماضي تحقيقاً لوقوعه، وقوله سبحانه: ﴿مَنْ أَضَعَفُ﴾ يحتمل أن تكون ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع على الاستفهام والابتداء، و﴿أَضَعَفُ﴾ خبرها، ويحتمل أن تكون ﴿مَنْ﴾ في موضع نصب بقوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾، و﴿أَضَعَفُ﴾ خبر ابتداء مضمر.

ثم أمره الله تعالى بالتَّبَرِّي من معرفة الغيب في وقت عذابهم الذي وعدوا به، و«الْأَمْدُ»: المُدَّة والغاية، و﴿عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من ﴿رَبِّي﴾، ويحتمل أن يكون خبر ابتداء مضمر على القطع، وقرأ السدي: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على الفعل ونصب الباء، وقرأ الحسن: ﴿فَلَا يَظْهَرُ﴾ بفتح الباء والهاء «أَحَدٌ» بالرفع، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَرْزَقْنِي مِنْ رَّسُولِي﴾ معناه: فإنه يُظْهَرُ على ما شاء مما هو قليل من كثير، ثم يبتأ الله تعالى حول ذلك الملك الرسول حَفَظَةً رصداً لإبليس وحزبه من الجن والإنس.

وقوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ﴾، قال قتادة: معناه: ليعلم محمد أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم وحفظوا ومنع منهم، وقال سعيد بن جبير: معناه: ليعلم محمد أن الملائكة الحفظة الرصد النازلين بين يدي جبريل - عليه السلام - وخلفه قد أبلغوا رسالات ربهم، وقال مجاهد: معناه: ليعلم من كذب أو أنكر أن الرسل قد بلغت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا العلم لا يقع إلا في الآخرة.

وقيل: المعنى: لِيَعْلَمَ الله رُسُلَهُ



كَأَنَّ أَبَانَا فِي أَفَانِينٍ وَذَقِهِ
كَبِيرُ أَنَاسٍ فِي بَجَادِ مُزْمَلٍ
وخفض «مُزْمَلٍ» في هذا
البيت هو على الجوار،
وإنما هو نعت لـ «كَبِيرٍ»،
فهو عليه الصلاة والسلام -
على قول هؤلاء - إنما
دُعي بهينة في لباسه، وقال
قتادة: كان تَزْمَلُ في ثيابه
للصلاة واستعد فنودي
على معنى: يَا أَيُّهَا الْمُسْتَعِدُّ
للعادة المتزمل لها، وهذا
القول أمدح له ﷺ، وقال
عكرمة: معناه: يَا أَيُّهَا
المتزمل للنبوة وأعبائها،
أي: الْمُشْتَمِرُّ الْمَجْدُ،
وقال جمهور المفسرين

مبلغين خارجين إلى الوجود، لأن
علمه سبحانه بكل شيء قد تقدم،
وقرأ الجمهور: ﴿يَعْلَمُ﴾ بفتح اللام،
أي: ليعلم الله تعالى، وقرأ ابن
عباس رضي الله عنهما: ﴿لِيُعْلِمَ﴾
بضم الياء، وقرأ أبو حية: ﴿رِسَالَةً
رَبِّهِمْ﴾ على التوحيد، وقرأ ابن أبي
عبلة: ﴿وَأَحِيطَ﴾ على ما لم يَسْمُ
فاعله، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ
شَيْءٍ عَدَدًا﴾ معناه: كل شيء معدود،
وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ أَنَّ قَدْ﴾ الآية
مُضْمَنَةٌ أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ عِلْمَ ذَلِكَ، فعلى
هذا الفعل المضمن انعطف (أحاط -
أحصى)، والله تعالى المُرْشِدُ بِمَنْه
وكرمه.

كامل تفسير سورة الجن والحمد لله
رب العالمين

تفسير سورة المزمل

وهي مكية كلها في قول المهدوي
وجماعة، وقال الجمهور: هي مكية
إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾
إلى آخر السورة، فإن ذلك نزل
بالمدينة.

﴿١﴾ - تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ﴾
نداء للنبي ﷺ، واختلف الناس، لم
نودي بها؟ فقالت عائشة، والتخعي،
وجماعة: لأنه كان في وقت نزول
الآية مُتَزَمِّلاً بكساء، والْمَزْمِلُ:
الالتفاف في الثياب بِضَمٍّ وتشمير،
ومنه قول امرئ القيس:

كان لم يُفرض قط، ويؤيد هذا
الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ
قام ليلة في رمضان خلف حصير
الحجرة، فصلّى وصلى بصلاته
ناس، ثم كثروا من الليلة القابلة، ثم
غص المسجد بهم في الثالثة أو
الرابعة فلم يخرج رسول الله ﷺ،
فحصبوا بابه فخرج مغضباً وقال:
«إِنِّي إِنَّمَا تَرَكْتُ الْخُرُوجَ لِأَنِّي خِفْتُ
أَنْ تُفْرَضَ عَلَيَّكُمْ»، وقيل: إنه عليه
الصلاة والسلام لم يكلمهم إلا بعد
أن أصبح وقال آخرون: كان فرضاً
في وقت نزول هذه الآية، واختلف
هؤلاء - فقال بعضهم: كان فرضاً
على النبي ﷺ خاصة وبقي كذلك
حتى توفي ﷺ، وقيل: بل نُسخ عنه
ولم يمت إلا والقيام تطوع، وقال
بعضهم: كان فرضاً على الجميع،
ودام الأمر - على ما قال سعيد بن

والزهري بما في البخاري من أنه
عليه الصلاة والسلام لما جاءه الْمَلَكُ
في غار حراء وحاوره بما حاوره
رجع رسول الله ﷺ إلى خديجة
رضي الله عنها فقال: «رُزِلُونِي
رُزِلُونِي»، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا
الْمَزْمِلُ﴾، وعلى هذا نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا
الْمَزْمِلُ﴾، وفي مصحف ابن
مسعود، وأبني بن كعب: ﴿يَا أَيُّهَا
الْمُتَزْمِلُ﴾، وقرأ بعض الناس:
﴿يَا أَيُّهَا الْمُزْمِلُ﴾ بفتح الزاي
وتخفيفها وفتح الميم وشدها،
والمعنى: الذي زَمَلَهُ أهله أو زَمَلُ
للنبوة، وقرأ عكرمة: ﴿يَا أَيُّهَا
الْمُزْمِلُ﴾ بكسر الميم وشدها
وتخفيف الزاي، أي: الْمُزْمِلُ نفسه.
واختلف الناس في هذا الأمر بقيام
الليل كيف كان؟ فقال جمهور أهل
العلم: هو أمر على جهة التذنب قد

جبير - عشر سنين، وقالت عائشة، وابن عباس رضي الله عنهما: دام عاماً، ورؤي عنها أيضاً أنه دام ثمانية أشهر ثم رحمهم الله تعالى فنزلت: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ فخفف عنهم، وقال قتادة: بقي عاماً أو عامين، وقرأ أبو السمال: ﴿قُمُ اللَّيْلُ﴾ بضم الميم لاجتماع الساكنين، والكسر في كلام العرب أكثر كما قرأ الناس.

وقوله تعالى: ﴿تَنَسُّهُ﴾: يحتمل أن يكون بدلاً من قوله سبحانه: ﴿قِيلًا﴾، ويحتمل أن يكون بدلاً من ﴿أَيَّلًا﴾، وكيف تقلب المعنى فإنه أمر بقيام نصف الليل أو أكثر شيئاً أو أقل شيئاً، فالأكثر عند العلماء لا يزيد على الثلثين، والأقل لا ينقص عن الثلث، ويقوي هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما في بيت ميمونة رضي الله عنها، قال: فلما انتصف الليل أو قبله بقليل قام رسول الله ﷺ، ويلزم على هذا البذل الذي ذكرناه أن يكون الليل قد وقع عليه الوصف بـ «قليل»، وقد يحتمل عندي قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أن يكون استثناء من القيام، فيجعل الليل اسم جنس، ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: الليالي التي تُخل بقيامها عند العُذر ونحوه، وهذا النظر يحسن مع التذنب جداً، وقد تكلم الجرجاني في نظمه في هذه الآية بتطويل وتدقيق غير مفيد، أكثره غير صحيح، وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ أَتَقَسَّ﴾ بضم الواو، وقرأ الحسن، وعاصم، وحمة بكسر الواو، وقرأ عيسى بالوجهين،

والضميران في ﴿مِنَهُ﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾ عائدان على «النصف».

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَّلَ﴾ معناه في اللغة: تمهل وفرق بين الحروف لثنيين، والمقصد أن يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني، وبذلك يرق القلب ويفيض عليه النور والرحمة، قال ابن كيسان: المراد تَفَهُهُ تالياً له، ومنه: «الثَّغْرُ الرَّبْلُ» أي: الذي بينه فُسْح وتُتُوح، ورؤي أن قراءة رسول الله ﷺ كانت بَيِّنَةً مُتَرَسِّلَةً لو شاء أخذ أن يعد الحروف لعداها.

و «القول الثقيل» هو القرآن، واختلف الناس، لم سَمَاهُ ثقيلاً؟ فقال جماعة من المفسرين: لما كان يحل في رسول الله ﷺ من ثقل الجسم حتى أنه كان إذا أُوحي إليه وهو على ناقته بركت به، وحتى كادت فخذة أن تُرَضَّ فخذ زيد بن ثابت رضي الله عنه، وقال أبو العالية والقرظي: بل سَمَاهُ ثقيلاً لثقله على الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده ونحو ذلك، وقال خُذَّاق العلماء: معناه: ثقل المعاني من الأمر بالطاعات والتكاليف الشرعية من الجهاد ونحوه ومزاولة الأعمال الصالحة دائماً، قال الحسن: «إِنَّ هَذَا خَفِيفٌ وَلَكِنَّ الْعَمَلَ ثَقِيلٌ».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾، قال ابن جبير، وابن زيد: هي لفظة حبشية، تَنَشَّأ الرجل إذا قام من الليل، ف «ناشئة» - على هذا - جمع «ناشيء» أي: قائم، و﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ معناه: ثبوتاً واستقلالاً بالقيام، و﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي: بخلوا أفكارهم وإقبالهم على ما يقرؤونه، قال ابن

عباس وأنس بن مالك، وعلي بن الحسين: ناشئة الليل هي ما بين المغرب والعشاء، وقالت عائشة، ومجاهد: الناشئة القيام بعد النوم، ومن قام أول الليل قبل النوم فلم يقم ناشئة الليل، وقال ابن جبير، وابن زيد، وجماعة: ناشئة الليل ساعاته كلها، لأنها تنشأ شيئاً بعد شيء، وقال ابن عباس، وابن الزبير، وأبو مجلز، والحسن: ما كان بعد العشاء فهو ناشئة الليل وما كان قبلها فليس بناشئة، قال ابن عباس: كانت صلاتهم أول الليل فهي أشدُّ وَطْأً، أي: أجدر أن تخصوا ما فرض الله عليكم من القيام؛ لأن الإنسان متى نام لم يدر متى يستيقظ، وقال الكسائي: ناشئة الليل أوله، وقال ابن عباس، وابن الزبير أيضاً: الليل كله ناشئة، و﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ - على هذا - يحتمل أن يكون: أشد ثبوتاً، فيكون نسب الثبوت إليها من حيث هو للقائم فيها، ويحتمل أن يريد أنها صعبة القيام لمنعها النوم، كما قال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَكَ عَلَى مُضِرِّ»، فذكرها تعالى بالصعوبة لِيُعْلَمَ عَظَمُ الأجر فيها، كما قد وُعِدَ عليه الصلاة والسلام على الوضوء على المكاره والمشى في الظلام إلى المساجد ونحوه، وقرأ الجمهور: ﴿وَطْأً﴾ بفتح الواو وسكون الطاء، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، ومجاهد، وابن الزبير، وابن عباس: ﴿وَوَطْأً﴾ على وزن فَعَالٍ، والمعنى: مُوَافَقَةً، لأنه بخلوا البال من أشغال النهار يوافق قلب المرء لسانه وفكره عبارته، فهذه مواطأة صحيحة، وبهذا

المعنى فسر اللفظ مجاهد وغيره،
وقرأ قتادة - في رواية حسين -:
﴿وَطَأٌ﴾ بكسر الواو وسكون الطاء
والهمزة مقصورة، وقرأ أنس بن
مالك: ﴿وَأَضُوبٌ قِيلاً﴾، ف قيل له:
إنما هو ﴿أَقْوَمُ﴾ فقال: أَقْوَمُ وَأَضُوبٌ
وَأَهْيَأُ وَاحِدٌ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَ فِي النَّهَارِ
سَيَّاحٌ طَوِيلٌ﴾، أي: تصرفاً
وتردداً في أمورك كما يتردد السابح
في الماء، ومنه سُمِّيَ الْقَرَسُ
سباحاً لِتَنَبُّهِه واضطرابه، وقال قومٌ
من أهل العلم: إنما معنى الآية
التثنية على أنه إن فات حزب
الليل بنوم أو عذر فليخلف بالنهار
فإن فيه سباحاً طويلاً، وقرأ
يحيى بن يغمر: ﴿سَبَّخًا طَوِيلًا﴾
بالخاء المعجمة، ومعناه: خِفَّةٌ لك
من التكليف، والتسبيخ:
التخفيف، ومنه قول النبي ﷺ
لعائشة رضي الله عنها في السارق
الذي سرقها فكانت تدعو عليه:
(لا تُسَبِّخني عنه)، فمعناه: لا
تُخَفِّقني عنه، قال أبو حاتم: فسر
يحيى السَّبَّخَ بالثَّوْم.

وقال سهل: ﴿وَأَذْكُرْ أَنتَ رَبَّكَ﴾ يُرَادُ
به: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في
ابتداء صلاتك. و﴿تَبْتَئِلُ﴾ معناه:
انقطع من كل شيء إلا منه، وافرغ
إليه، وقال زيد بن أسلم: التَّبْتُئِلُ:
رفض الدنيا، ومنه: تَبْتُئِلُ الحبلُ،
وقولهم في المطلقة: بَتَّلَتْ، ومنه:
البتول، و﴿تَبَيَّلًا﴾ مصدر على غير
الصنر.

وقرأ حمزة، والكسائي، وابن
عامر، وعاصم - في رواية أبي

بكر -:
﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾
بالخفض على البدل من ﴿رَبِّكَ﴾،
وقرأ الباقون، وحفص عن عاصم:
﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ بالرفع
على القطع، أي: هو رَبُّ، أو على
الابتداء والخبر ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾،
وقرأ ابن عباس، وأصحاب عبدالله:
﴿رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾
بالجمع، و«الوكيل»: القائم بالأمور
الذي تُوكَلُ إليه الأشياء.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَلَى مَا
يَقُولُونَ﴾ الآية، قيل: هي مؤادة
منسوخة بآية السيف، والمراد بالآية
قريش. وقال بعض العلماء: قوله
تعالى: ﴿وَأَقْبِرْهُمْ هَجْرًا جَبَلًا﴾
منسوخ، وأما الصبر على ما يقولون
فقد يتوجه أحياناً ويبقى حكمه فيما
يتوجه من الهجر الجميل بين
المسلمين، قال أبو الدرداء: إنا
لنكشر في وجوه قوم وإن قلوبنا
لتلعنهم، والقول الأول أظهر؛ لأن
الآية إنما هي في كفار قريش وردهم
رسالته وإعلامهم بذلك، ولا يمكن
أن يكون الحكم في هذا المقام
باقياً.

﴿١١﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل:
قوله تعالى: ﴿وَرَبِّيَ وَالْكَافِرِينَ﴾
وعيد لهم، ولم يتعرض أحدٌ
لمنعه منهم لكنه إبلاغ بمعنى: لا
تشغل بهم فكراً وكلهم إليّ.
و«التَّعَمُّةُ»: غضارة العيش وكثرة
المال، والمُشار إليهم كفار قريش
أصحاب القلب بيدر، ويروى أنه
لم يكن بين نزول هذه الآية وبين
بدر إلا مدة يسيرة نحو عام،
وليس الأمر كذلك، والتقدير الذي

يَعْتَصِدُهُ الدليل من أخبار
رسول الله ﷺ يقتضي أن بين
الأمرين نحو عشر سنين، ولكن
ذلك قليل أمهلوه.

و ﴿لَدَيْنَا﴾ بمنزلة: عندنا،
و«الْأَنْكَالُ» جمع بُكْل وهو القيد
من الحديد، ويروى أنها قيود سود
من نار، و«الطعام ذو النُصَّة»:
شجرة الزقوم، قاله مجاهد وغيره،
وقيل: شوك من نار يعترض في
حلقهم لا يخرج ولا ينزل، قاله
ابن عباس رضي الله عنهما، وكل
مطعم هناك فهو ذو غصة، وروي
أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية
فَصَمَقَ. والعامل في قوله تعالى:
﴿يَوْمَ﴾ الفعل الذي تضمنه قوله
سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَدَيْنَا﴾، وهو
استقرار أو ثبوت. و«الرَّجْفَانُ»:
الاهتزاز والاضطراب من فزع
وهول، و«الْمَهِيلُ»: اللين الرخو
الذي يذهب بالريح وييجي، ففي
تهيله، والأصل مَهْيُول، استثقلت
الضمة على الياء فسُكُنَتْ، واجتمع
ساكنان فحذفت الواو، وكسرت
الهاء بسبب الياء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا﴾
الآية... خطاب للعالم لكن
المُواجهون قريش، وقوله تعالى:
﴿شَهِدًا عَلَيْكَ﴾ نحو قوله عز
وجل: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ
شَهِيدًا﴾، وتمثيله لهم أمرهم
بفرعون وعيد، كأنه تعالى يقول:
فحالهم من العذاب والعقاب إن
كفروا سائرة إلى مثل حال
فرعون. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ
فَرَعَوْتُ أَرْسَلْتُ﴾ يريد تعالى موسى

وسُلْطَانَهُ، والضمير في قوله تعالى: ﴿وَعَدَهُ﴾ ظاهر أنه الله تعالى، ويحتمل أن يكون لليوم لأنه يضاف إليه من حيث هو فيه.

(١٩) - (٢٠) تفسير قوله عز وجل:

الإشارة بـ ﴿هَذِهِ﴾ يحتمل أن تكون لما ذكر من الأثكال والجحيم والأخذ بالويل ونحوه، ويحتمل أن تكون إلى السورة بأجمعها، ويحتمل أن تكون إلى القرآن بمعنى أن الأقوال المنصوبة فيه تذكرة، والتذكيرة مصدر كالذكر، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ الآية ليس معناه إباحة الأمر وضده، بل يتضمن معنى الوعيد والوعد، و«السبيل» هنا سبيل الخير والطاعة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْلُغُ﴾ الآية، نزلت تخفيفاً لما كان استمر استعماله من أمر قيام الليل إما على الوجوب أو على الندب حسب الخلاف الذي ذكرناه، ومعنى الآية: إن الله يعلم أنك تقوم أنت وغيرك من أمتك قياماً مختلفاً، مرةً أكثر ومرةً يقل، ومرةً أدنى من الثلثين ومرةً أدنى من الثلث، وذلك لعدم تحصيل البشر لمقادير الزمان مع عذر النوم، وتقدير الزمان حقيقة إنما هو الله تعالى، وأما البشر فلا يحصي ذلك، فتاب الله عليهم، أي: رجع بهم من الثقل إلى الخفة، وأمرهم بقراءة ما تيسر منه، ونحو هذا تعطي عبارة الفراء ومنذر، فإنهما قالوا: ﴿مُحْصَوْهُ﴾: تحفظوه، وهذا التأويل هو على قراءة من قرأ: ﴿وَيُضْفِيهِ تِلْكَ﴾ بالخفض عطفاً على «الثلاثين»، وهي قراءة أبي عمرو، ونافع، وابن عامر، وأما من قرأ:

من شدة الهول، كما يرى الشيب في الدنيا من الهَمِّ المفرط كهول البحر ونحوه، وقال آخرون من المتأولين: هو تجوز وإبلاغ في وصف هول ذلك اليوم، وواحد الولدان: وليد، وواحد الشيب أشيب.

قوله تعالى: ﴿أَلَسَمَاءُ مُنْقَطِرَةٌ يَوْمَ﴾، قيل: هذا على النسب، أي: ذات انفطار، كامرأة حائض وطالق، وقيل: السماء تُذَكَّر وتؤنث، وينشد في التذكير:

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إِلَيْنِ قَوْماً
لَجِئْنَا بِالسَّمَاءِ مَعَ السَّحَابِ
وقيل: من حيث لم يكن تأنيثها حقيقةً جاز أن تسقط علامة التأنيث لها، وقيل: لم يرد باللفظة قصد السماء بعينها، وإنما أراد ما علا من مخلوقات الله تعالى، كأنه قصد قَصْدَ السَّقْفِ فذكر على هذا المعنى، قاله منذر بن سعيد، وأبو عبيدة مَعْمَر، والكسائي، و«الانفطار»: التصدع والانشقاق على غير نظام يُقصد، والضمير في ﴿يَوْمَ﴾ قال مُنْذِرٌ وغيره: هو عائد على اليوم، وقال مجاهد: هو عائد على الله تعالى، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالنَّفِّ﴾ أي: بالغمم الذي هو ظُلٌّ يأتي الله تعالى فيها، والمعنى: يأتي أمره وقدرته، وكذلك ﴿مُنْقَطِرَةٌ يَوْمَ﴾ أي: بأمره

عليه السلام، والألف واللام للعهد، و«الويل»: الشديد الرديء الغبى، يقال: كلاً وبيلاً ومستوبلاً إذا كان ضاراً لمن يراه.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ معناه: كيف تجعلون واقعياً لأنفسكم، و﴿يَوْمًا﴾ مفعول بـ ﴿تَتَّقُونَ﴾، وقيل: هو مفعول بـ ﴿كَفَرْتُمْ﴾ على أن تجعله بمنزلة «جحدتم»، فـ ﴿تَتَّقُونَ﴾ - على هذا - من التقوى، أي: تَتَّقُونَ عقاب الله، ويجوز أن يكون ﴿يَوْمًا﴾ ظرفاً، والمعنى: تَتَّقُونَ عقاب الله يوماً، و﴿يَجْعَلُ﴾ يصح أن يكون مُسْتَدًأً إلى اسم الله تعالى، ويصح أن يكون مسنداً إلى اليوم، وقوله تعالى: ﴿الْوَلَدَيْنِ﴾ يريد به صغار الأطفال، وقال قوم: هذه حقيقة، فتشيب رؤوسهم



قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعهدت أبي رحمه الله تعالى يستغفر إثر كل مكتوبة ثلاثاً بعقب السلام وَيَأْتِي فِي ذَلِكَ حَدِيثاً، فَكَأَنَّ هَذَا الاستغفار من النقص وتقلب الفكر أثناء الصلاة، وكان السلف الصالح يصلون إلى طلوع الفجر ثم يجلسون للاستغفار إلى صلاة الصبح.

كمل تفسير سورة المزمل والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة المدثر

هي مكية بإجماع من أهل التأويل. (١) - (٢) تفسير قوله عز وجل: اختلفت القراءة في ﴿الذِّكْرِ﴾ على نحو ما ذكرناه في ﴿الزَّيْلِ﴾، وفي حرف أبي بن كعب: ﴿الْمُذْثَرُ﴾ ومعناه: المُذْثَرُ بشيابه، والذُّثَارُ: ما يغطي الإنسان به من الثياب.

واختلف الناس، لم نأده بالمدثر؟ فقال جمهور المفسرين بما ورد في البخاري من أنه ﷺ لَمَّا فَرِغَ مِنْ رُؤْيَةِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَرُغَ مِنْهُ وَرَجَعَ إِلَى خَدِيجَةَ، قَالَ: «رَمَلُونِي رَمَلُونِي»، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الذِّكْرُ﴾، وقالت عائشة، والتَّحَعِّي، وقتادة: نُودِيَ وهو في حال تدثر فدعي بحال من أحواله، وروي أنه كان تدثر في قطيفة، وقال آخرون: معناه: يأبها النائم، وقال عكرمة: معناه: يأبها المدثر للنبوة، وأثقالها.

و «الضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ» هو السفر للتجارة، وضرب الأرض هو المشي للثَبَرُز والغائط، فذكر الله تعالى أعذار بني آدم التي هي حائلة بينهم وبين قيام الليل، وهي المرض والسفر في تجارة أو غزو، فخفف عنهم القيام لهذا، وفي هذه الآية فضيلة الضرب في الأرض للتجارة وسوق لها مع سفر الجهاد، وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أَحَبُّ الْمَوْتِ إِلَيَّ بَعْدَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ أَمُوتَ بَيْنَ شُعْبَتِي رَحْطِي أَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ أَبْتَغِي مِنْ فَضْلِ اللَّهِ.

ثم كرر الله تعالى الأمر بقراءة ما تيسر منه تأكيداً، والصلاة والزكاة هنا المفروضتان، فمن قال إن القيام بالليل غير واجب قال: معنى الآية: خذوا من هذا الثقل ما تيسر وحافظوا على فرائضكم، ومن قال إن شيئاً من القيام واجب قال: قد قرئ الله تعالى بالفرائض لأنه فرض.

وإقراض الله تعالى هو استلاف العمل الصالح عنده، وقرأ جمهور الناس: ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ على أن يكون ﴿هُوَ﴾ فضلاً، وقرأ محمد بن السميع، وأبو السَّمَال: ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ على أن يكون ﴿هُوَ﴾ ابتداءً و﴿خَيْرٌ﴾ خبره والجملة تُسَدُّ مَسَدَ المفعول الثاني لـ ﴿يَجِدُّهُ﴾.

ثم أمر الله تعالى بالاستغفار، وأوجب لنفسه صفة الغفران، لا إله غيره، قال بعض العلماء: فالاستغفار بعد الصلاة مستتب من هذه الآية ومن قوله تعالى: ﴿كَأَنَّا قَلِيلًا مِّنَ الْآلِ مَا يَهْجُونَ﴾ وَيَا لَأَسْفَهٍ لِّمَن يَسْتَفِرُّونَ ﴿١٠﴾.

﴿وَيَضَعُ يَدَهُ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿أَذْنًا﴾ - وهي قراءة باقي السبعة - فالمعنى عنده آخر، وذلك أن الله تعالى قد قدر أنهم يقدرون الزمان على نحو ما أمر به في قوله سبحانه: ﴿يَضَعُ أَوْ أَنْشَأَ يَدَهُ قَلِيلًا﴾ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ، فلم يبق إلا أن يكون قوله تعالى: ﴿غَيْرَ أَن لَّنْ نَّخْصُرَهُ﴾ [معنى]: لَن نطيقوا قيامه لكثرة وشدة، فخفف الله تعالى عنهم فضلاً منه لا لعلَّ جهلهم بالتقدير وإحصاء الأوقات، ونحو هذا تعطي عبارة الحسن وابن جبير، فإنهما قالا: ﴿نَخْصُرُهُ﴾: نطيقوه، وقرأ جمهور القراء والناس: ﴿وَلَنَلَّهُ﴾ بضم اللام، وقرأ ابن كثير في رواية شبل عنه: ﴿وَلَنَلَّهُ﴾ بسكون اللام.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْرُءُوا مَا يَنْشُرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ إباحة، هذا قول الجمهور، وقال ابن جبير وجماعة: هو فرض لا بُدَّ منه ولو خمسين آية، وقال الحسن وابن سيرين: قيام الليل فرض، ولو قدر حلب شاة، إلا أن الحسن قال: من قرأ مائة آية لم يحاجه القرآن، واستحسن هذا جماعة من العلماء، قال بعضهم: والركعتان بعد العتمة مع الوتر تدخلان في حكم هذا الأمر وامثاله، ومن زاد زاده الله تعالى ثواباً.

و ﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن﴾ مخففة من الثقيلة، والتقدير أنه يكون، فجاءت السين عوضاً من المحذوف، وكذلك جاءت في قول أبي مخنف:

وَلَا تَذْفِنُنِي بِالْقَلَاءِ فَلِإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَا مِثُّ أَنْ لَا أَذْوَفُهَا

واختلف الناس في أول ما نزل من كتاب الله تعالى، فقال جابر بن عبد الله، وأبو سلمة، والنخعي، وجماعة: هو ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ﴾ الآيات، وقال الزهري والجمهور: هو ﴿أَفَرَأَيْتَ لَكَ الْآلِيَ خَلَقَ﴾، وهذا هو الأصح، وحديث صدر البخاري نص في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَرَأَيْتَ لَكَ الْآلِيَ﴾ بغثة إلى جميع الخلق، قال قتادة: المعنى: أنذر عذاب الله ووقائعه بالأسم، وقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ معناه: عظمه بالعبادة وبث شرعه، وزوي عن أبي هريرة أن بعض المؤمنين قال: بِمَ نَفْتَحُ صلاتنا؟ فنزلت: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ - قال ابن سيرين، وابن زيد بن أسلم، والشافعي، وجماعة: هو أمر بتطهير الثياب حقيقة، وذهب الشافعي وغيره من هذه الآية إلى وجوب غسل النجاسات من الثياب، وقال الجمهور: هذه الألفاظ استعارة في تنقية الأفعال والنفس والعرض، وهذا كما تقول: فلان طاهر الثوب، ويقال للفاجر: دنس الثوب، منه قول الشاعر:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا تُؤَبِّ قَاجِرٍ
لَيْسْتُ وَلَا مِنْ عَذْرَةٍ أَتَقَسُّعُ
وقال الآخر:

لَأَهْمُ إِنَّ عَامِرَ بْنَ جَهْمٍ
أَوْ ذَمَّ حَبَابَ فِي ثِيَابٍ دُسِمِ
أي: دَنَسَ، وقال ابن عباس، والضحاك، وغيرهما: المعنى: ولا تلبسها على غدر ولا فجور، وقال

ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: المعنى: لا تلبسها من مكسب خبيث، وقال النخعي: المعنى: طهرها من الذنوب، وهذا كله معنى قريب بعضه من بعض، وقال طاوس: المعنى: قصرها وشمرها فذلك طهرة للثياب.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَالرُّجُزُ فَاهْجُزْ﴾ بكسر الراء، وقرأ حفص عن عاصم، والحسن، ومجاهد، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو عبد الرحمن والنخعي، وابن وثاب، وقاتدة، وابن أبي إسحق، والأعرج: ﴿وَالرُّجُزُ فَاهْجُزْ﴾ بضم الراء، ف قيل: هما بمعنى واحد يراد بهما الأصنام والأوثان، وقيل: للأصنام عموماً، قاله عكرمة، ومجاهد، والزهري، وقال ابن عباس: الرُّجُزُ: الشُّخْط، فالمعنى: اهجر ما يؤدي إليه ويوجه، وقال الحسن: كل معصية رجز، وروى جابر أن النبي ﷺ فسّر هذه الآية بالأوثان.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَكْبِرْ﴾ - فقال ابن عباس وجماعة: معناه: لا تُعْطِي عطاءً لِيُعْطَى أَكْثَرُ مِنْهُ، فكأنه من قولهم: «مَنْ إِذَا أُعْطِيَ»، وقال الضحاك: وهذا خاص بالنبي ﷺ ومباح لأئمة لكن لا أجر لهم فيه، قال مكِّي: وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَا مِنْ رَبِّكَ لِيُزِيلَ فِي أَمْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ فَلَا يَرِيحُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا معنى أجنبي من معنى هذه السورة.

وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿وَلَا تَسْتَكْبِرْ﴾: لا تقل: دعوت فلم أجِبْ، وزوي عن قتادة أن المعنى: لا تُدِلْ بعملك، ففي هذا التأويل تحريض على الجِدِّ وتخويف، وقال ابن زيد: معناه: ولا تَمُتْنِ على الناس بِبُيُوتِكَ تستكثر بأجر أو كسب تطلبه منهم، وقال الحسن بن أبي الحسن: معناه: ولا تَمُتْنِ على الله تعالى بِجِدِّكَ تستكثر أعمالك ويقع لك بها إعجاب، فهذه كلها من المعنى الذي هو تعديد اليد وذكرها، وقال مجاهد: معناه: ولا تَضَعُفْ تستكثر ما حَمَلْنَاكَ من أعباء الرسالة أو تستكثر من الخير، فهذا من قولهم: «حَبْلٌ مَنِينٌ» أي: ضعيف. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وَلَا تَمُتْنِ أَنْ تَسْتَكْثِرَ﴾، وقرأ الأعمش: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ بنصب الراء على تقدير «أَنْ» مضمرة، وضعف أبو حاتم الجزم، وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿وَلَا تَمُتْنِ فَتَسْتَكْثِرَ﴾ بالفاء العاطفة والجزم، وقرأ أبو السَّمَال: ﴿وَلَا تَمُتْنِ﴾ بنون واحدة مشددة.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، أي: لوجه ربك وطلب رضاه، كما تقول: فعلت كذا لله تعالى، والمعنى: على الأذى من الكفار، وعلى العبادات، وعن الشهوات، وعلى تكاليف النبوة، قال ابن زيد: وعلى حرب الأحمر والأسود، لقد حمل ﷺ أمراً عظيماً.

و «الثَّاقور»: الذي ينفخ فيه، وهو الصور، قاله ابن عباس وعكرمة، وقال خُفَّافٌ بِنُ ثَذْبَةٍ:

إِذَا نَاقَرُوا لَهُمْ يَوْمًا تَبَدَّى
أَجَابَ النَّاسُ مِنْ شَرْقٍ وَغَرْبٍ
وهو «فاعول» من الثَّقَر، وقال أبو
حَبَّان: أَمَّا زُرَّارَةُ بْنُ أَوْفَى فَلَمَّا بَلَغَ
﴿إِنَّا نَقَرُ فِي النَّاقُورِ﴾ خَرَّ مَبْتِئًا،
وروي أن النبي ﷺ قال يوماً
لأصحابه: «كيف أنعم وصاحب
القرن قد التقمه وحنى جبهته ينتظر
متى يؤمر بالنفخ؟» ففرغ الصحابة
فقالوا: كيف نقول يا رسول الله؟
قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم
الوكيل، على الله توكلنا».

و ﴿يَوْمَ عَيْبَرٍ﴾ معناه: فيه عسر في
الأمر الجارية على الكفار،
فوصف الله تعالى اليوم بالعسر لكونه
ظرف زمان له، وكذلك تجيء صفته
باليسر، وقرأ الحسن: «عَيْبَرٍ» بغير
ياء.

﴿١١﴾ - ﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل:
قوله تعالى: ﴿ذَرِكْ وَمَنْ حَلَّكَ﴾
وعيدٌ محض، والمعنى: أنا أكفي
عقابه وشأنه كله، ولا خلاف بين
المفسرين أن هذه الآية نزلت في
الوليد بن المغيرة المخزومي، فيروي
أنه كان يلقب بالوحيد لأنه لا نظير له
في ماله وشرفه في بيته، فذكر
«الوحيد» في الآية في جملة التعم
التي أعطي، وإن لم يثبت هذا،
فقوله تعالى: ﴿حَلَّكَ رَجِدًا﴾ معناه:
مُتَفَرِّدًا قَلِيلًا ذَلِيلًا، فجعلت له المال
والبنين، فجاء ذكر الوخدة مقدمة
حَسَنَ معها موقع المال والبنين،
وقيل: المعنى: خلقته وحدي لم
يشركني فيه أحد، ف ﴿رَجِدًا﴾ حال
من التاء في ﴿حَلَّكَ﴾.

و «الْمَالُ الْمُدْوَدُ» قال مجاهد، وابن

جبير: هو ألف دينار،
وقال سفيان: بلغني أنه
أربعة آلاف، وقاله قتادة،
وقيل: عشرة آلاف.
قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: فهذا مد في
العدد.

وقال النعمان بن سالم:
هي الأرض لأنها مُدَّتْ،
وقال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه: المال
الممدود: الرِّيحُ الْمُسْتَعْلُ
مشاهرة، فهو مد في
الزمان لا ينقطع.

و ﴿يَنْبِئُ شُهْرًا﴾ معناه:
حضوراً متلاحقين، قال
مجاهد وقتادة: كان له

عشرة من الولد، وقال ابن جبير:
كان له ثلاثة عشر، و«الشَّهْبِيدُ»
الشُّوْطَةُ والشَّهِيْةُ، قال سفيان:
المعنى: بسطت له العيش بَسْطًا.
وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْعَلْ أَنْ أَرِيْدَ﴾
وصف لجشع الوليد ورجسته في
الازدياد من الدنيا، وقوله تعالى:
﴿لَا زَجْرَ وَرُدُّ عَلَى أَمْنِيَةِ هَذَا
المذكور، ثم ذكر تعالى عنه أنه كان
معانداً مخالفاً لآيات الله وعيبره،
يقال: بغير عنود للذي يمشي مخالفاً
للإيل، ويحتمل أن يريد بالآيات
آيات القرآن، وهو الأصح في التأويل
بسبب كلام الوليد في القرآن بأنه
سحر، و«أَرْهَقَهُ» معناه: أكلفه بمشقة
وعسر، و«صَعَدَ» عقبة في نار
جهنم، وروي ذلك أبو سعيد
الخدري عن النبي ﷺ، كلما وضع
عليها شيء من الإنساب ذاب،

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١١﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ نَبَّأَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ فَكَّرَ
وَقَدَّرَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿١٦﴾ فَقالَ إِنَّ هَذَا لَآيَحْزَنُ
يُؤْتِرُنِي ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَأَقُولُ الْبَشَرَ ﴿١٨﴾ سَأُصْلِحُ سَفَرَهُ ﴿١٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ
مَاسَفَرَهُ ﴿٢٠﴾ لَا تَفِي وَلَا تَدْرُ ﴿٢١﴾ وَأَمَّا لِلْبَشْرِ ﴿٢٢﴾ عَلَيْهَا نِعْمَ عَمَلٌ
﴿٢٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَنْدَهُمْ الْآفَنَةَ
لِلَّذِينَ أَكْفَرُوا لِيَسْتَفِينَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَرِزْقًا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا
لَازِيدُونَ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ وَالْمُسُوْنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَسٌ
وَالْكُفْرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَلَكًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ وَمَا يُعَلِّمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا يَكُنْ لَدُنْكَ نَبِيٌّ شَيْءٌ كَلَّا
وَالْقَبْرِ ﴿٢٥﴾ وَلَيْلٍ إِذَا ذُكِرَ ﴿٢٦﴾ وَالصَّبْرُ إِذَا شَفَرُ ﴿٢٧﴾ إِنَّمَا لِحَدِي
الْكَبْرِ ﴿٢٨﴾ نَذِيرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ لِمَنْ شَاءَ يَسْكُرْ أَوْ يَنْقُصْ ﴿٣٠﴾ كُلُّ
نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوْنَةٌ ﴿٣١﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٢﴾ فِي جَنَّاتٍ يَجْعَلُ لَهَا
عَزَى الْمُحَرَّمِينَ ﴿٣٣﴾ سَاسًا سَكَّرُوا فِي سَفَرٍ ﴿٣٤﴾ قَالُوا لَوْلَا نُنْصِرُ
الْمُصْلِينَ ﴿٣٥﴾ وَلَوْلَا نُنْصِرُ الْمُسْكِينَ ﴿٣٦﴾ وَكَسَبَتْ غَوْشٌ مَعَ
الْمُطَاعِينَ ﴿٣٧﴾ وَكَانَ كَذِبًا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٣٨﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينَ ﴿٣٩﴾

٥٧٦

والصعود في اللغة: العقبة الشاقة.

قوله تعالى مخبراً عن الوليد: ﴿إِنَّهُ
فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ الآية. روى جمهور
من المفسرين أن الوليد سمع من
القرآن ما أعجبه ومَدَّحه، ثم سمع
كذلك مراراً حتى كاد أن يقارب
الإسلام، ودخل إلى أبي بكر
الصديق رضي الله عنه مراراً، فجاءه
أبو جهل فقال: يا وليد، أشعرت أن
قريشاً قد دُثِّمَتْ بدخولك إلى ابن أبي
قحافة، وزَعَمَتْ أنك إنما تقصد أن
تأكل طعامه؟ وقد أبغضتك لمقاربتك
أمر محمد، وما يخلصك عندهم إلا
أن تقول في هذا الكلام قولاً
يُرضيهم، ففتنه أبو جهل فافتتن،
وقال: أفعل ذلك، ثم فُكِّرَ فيما
عسى أن يقول في القرآن، فقال:
أقول هو شعر، ما هو بشعر، أقول:
هو كاهن، ما هو بكاهن، أقول: هو

سحر يؤثر، هو قول البشر، أي: ليس مُتَزَلًّا من عند الله تعالى، قال أكثر المفسرين: فقله تعالى: ﴿قُلْ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ دعاء عليه وتفتيح لحاله، أي: أنه ممن يستحق ذلك. ورؤي عن الزهري وجماعة غيره أن الوليد حاج أبا جهل وجماعة من قريش في أمر القرآن، وقال: إن له والله لحلاوة، وإن أصله لَعْدِيقٌ، وإن فرعه لَجَنَاقَةٌ، وإنه ليحكم ما تحته، وإنه ليَعْلُو ولا يَغْلَى، ونحو هذا من الكلام، فخالقوه فقالوا له: هو شاعر، فقال: والله ما هو شاعر، ولقد عرفنا الشعر هَزَجًا وبسيطه، قالوا: فهو كاهن، فقال: والله ما هو بكاهن، ولقد رأينا الكهان وزَمَزَمَتِهِمْ، قالوا: فهو مجنون، قال: والله ما هو بمجنون، ولقد رأينا الجنون وخفقه، قالوا: هو سحر، قال: أما هذا فيشبه أنه سحر، ويقول أقوال نفسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيحتمل قوله تعالى: ﴿قُلْ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أن يكون دعاء عليه على معنى تقبيح حاله، ويحتمل أن يكون دعاء مقتضاه استحسان منزعه الأول في مدحه القرآن، وفي نفيه الشعر والكهانة والجنون عنه، فيجري هذا مجرى قول النبي ﷺ لأبي جندل بن سهيل: ﴿وَيْلٌ لِّأُمِّهِ مِنْ عَرْبِ خَزْبٍ﴾، ومجرى قول عبد الملك بن مروان: قاتل الله كثيرًا، كأنه رآنا حين قال كذا، وهذا معنى مشهور في كلام العرب.

ثم وصف تعالى إذباره واستكباره وأنه ضلَّ عند ذلك وكفر، وإذا قلنا إن ذلك دعاء على مُسْتَحْسَن فعله

فيجيء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ فيما احتجَّ به للقرآن فرأى ما فيه من علو مرتبة محمد ﷺ فَعَبَسَ لذلك وَبَسَرَ، أي: قطب وقَبَضَ ما بين عينيه وازبَدَ وجهه حسداً له، فأذْبَرَ، أي: ازتكس في ضلاله، وزال إقباله أولاً ليهتدي وَلَجَقَّتْهُ الكبرياء، وقال: هذا سحرٌ يؤثر، ومعناه: يُزَوِّى وَيُحْمَل، أي: يحمله محمد عن غيره، وعلى التأويل الأول أن الدعاء عليه دعاء على مُسْتَفْبِح فعله يجيء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ معنى معاداً بعينه؛ لأن ﴿فَكَرَّ وَكَدَّرَ﴾ يقتضيه، لكنه إخبارٌ بترديده النَّظَرَ في الأمر، وقد روي أن النبي ﷺ دعا الوليد، فقال له: أنظُرْ وَأفْكُرْ، فلما فَكَرَ قال ما تقدم.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿سَقَرٌ﴾ هو الدرك السادس من جهنم على ما روي، وأُضْلِيه معناه: أجعله فيها مباشراً لنارها، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَزِيدُكَ مَا سَقَرٌ﴾ هو على معنى التعجب من عظم أمرها وعذابها، ثم بيّن تعالى ذلك بقوله: ﴿لَا تَبْقَىٰ وَلا تَذَرُ﴾، المعنى: لا تَبْقَى على من ألقى فيها ولا تَذَرُ غاية من العذاب إلا أوصلته إليها.

قوله تعالى: ﴿لَوْنَهُ لَبَّيْرٌ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وأبو زرين، وجمهور الناس: معناه: مُغَيَّرَةٌ للبشرات، مُحْرِقَةٌ للجلود، مُسَوْدَةٌ لها، فـ «البَشَرُ» جمع بشرة، وتقول العرب: لاحت النارُ الشيء إذا أحرقتهُ وسودته، وقال الشاعر:

لَا حُةَ الصَّيْفِ وَالْغِيَارِ وَإِشْفَا
قِي عَلَى سَقَبَةٍ كَقَوْسِ الضَّالِّ

وأشد أبو عبيدة:

يَا بِنْتَهُ عَمِّي لَأَحْنِي الْهَوَاجِرُ
وقال الحسن، وابن كيسان: ﴿لَوْنَهُ﴾ بناءً مبالغة من «لَا حُةَ يَلُوحُ» إذا ظهر، فالمعنى أنها تظهر للناس وهم البشر من مسيرة خمسمائة عام، وذلك لعظمها وهولها وزفيرها، وقرأ عطية العوفي: ﴿لَوَاحَةً﴾ بالنصب.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ابتداءً وخبره مقدم في المجرور، ولا خلاف بين العلماء أنهم خزنة جهنم المحيطون بأمرها، الذين إليهم جماع أمر زبائنها، وقد قال بعض الناس: إنهم على عدد حروف «يسم الله الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» لأن بها تقووا، ورؤي أن قريشاً لما سمعت هذا كثر إلغاطهم فيه وقالوا: لو كان هذا حقاً فإن العدد قليل، فقال أبو جهل: هؤلاء تسعة عشر وأنتم الدُّهُم، أفيعجز عشرة منا عن رجل منهم؟ وقال أبو الأشد بن الجمحي: أنا أجهدهم عن النار، إلى غير هذا من أقوالهم السخيفة، فنزلت في أبي جهل: ﴿أَنَّا لَكَ فَأْزَنٌ﴾ الآية. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وطلحة بن سليمان: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ بسكون العين من «عَشَرَ» لتوالي الحركات، وقرأ أنس بن مالك، وأبو حيوة: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ برفع التاء، ورؤي عن أنس بن مالك أنه قرأ: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ وضعفاً أبو حاتم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ تبين لفساد أقوال قريش، أي: إنا جعلناهم خلقاً لا قبل لأحد من الناس بهم، وجعلنا عدتهم هذا القدر فتنة للكفار، ليقع

منهم من التعاطي والطمع في المغالبة ما وقع، ويستيقن أهل الكتاب - التوراة والإنجيل - أن هذا القرآن من عند الله تعالى؛ إذ يجدون هذه العدة في كتبهم المنزلة التي لم يقرأها محمد ﷺ ولا هو من أهلها، ولكن كتابه يصدق ما بين يديه من كتب الأنبياء صلى الله عليه وعليهم وسلم؛ إذ جميع تلك حق يتعاقد، مُنْزَل من عند الله تعالى، قال هذا المعنى ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما، وبورود الحقائق من عند الله عز وجل يزداد كل من آمن إيماناً، ويزول الريب عن المصدقين من أهل الكتاب ومن المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَلَيْنَا فِي قُلُوبِهِمْ الرَّهْءَ الْآيَةِ... نَوْحٌ مِنَ الْفِتْنَةِ لِهَذَا الصَّنَفِ الْمَنَافِقِ أَوِ الْكَافِرِ، أَي: جَارُوا وَضَلُّوا وَلَمْ يَهْتَدُوا لِمَقْصِدِ الْحَقِّ، فَجَعَلُوا يَسْتَفْهَمُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَنْ مَرَادِ اللَّهِ تَعَالَى بِهَذَا الْمِثَالِ اسْتِعْبَاداً أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ الْحَسَنُ بْنُ الْفَضْلِ: السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ وَلَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ نِفَاقٌ، وَإِنَّمَا الْمَرَضُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْاضْطِرَابُ وَضَعْفُ الْإِيمَانِ.

(٣١) - (٣٢) تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾، أي: بهذه الصفة وهذا الرُّبُوعُ عَلَى الْقُلُوبِ يُضِلُّ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا وَرَدَ، وَذَلِكَ لَعَلَّهُمْ بِالْقُدْرَةِ، وَوَقُوفَ عَقُولِهِمْ عَلَى كُنْهِ سُلْطَانِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهَمَّ مَوْقِنُونَ مُتَّصِرُونَ صَحَّةَ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَكُتِبَ اللَّهُ تَعَالَى.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَلْبَسُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ إِعْلَاماً بِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهُ فَوْقَ مَا يَتَوَهَّمُ، وَأَنَّ الْخَبَرَ إِنَّمَا هُوَ عَنْ بَعْضِ الْقُدْرَةِ لَا عَنْ كُلِّهَا، وَالسَّمَاءُ عَامِرَةٌ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، كُلُّهُمْ فِي عِبَادَةِ مُتَّصِلَةٌ، وَخُشُوعٌ دَائِمٌ وَطَاعَةٌ، لَا فِتْرَةَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَلَا دَقِيقَةَ وَاحِدَةٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ لِلنَّارِ الْمَذْكُورَةِ، أَيْ: يُذَكِّرُ بِهَا الْبَشَرَ فَيَخَافُونَهَا فَيُطِيعُونَ اللَّهَ تَعَالَى، وَقَالَ بَعْضُ الْحَدَاقِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هِيَ﴾ يَرَادُ بِهَا الْحَالُ وَالْمَخَاطَبَةُ وَالنَّذَارَةُ، قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: وَقِيلَ: ﴿وَمَا هِيَ﴾ يَرَادُ نَارُ الدُّنْيَا، أَيْ: إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ لِلْبَشَرِ بِنَارِ الْآخِرَةِ.

وقوله تعالى وجل: ﴿كَلَّا﴾ رَدٌّ عَلَى الْكَافِرِينَ وَأَنْوَاعِ الطَّاعِنِينَ عَلَى الْحَقِّ، ثُمَّ أَقْسَمَ تَعَالَى بِالْقَمَرِ، تَخْصِيصٌ تَشْرِيفٌ وَتَنْبِيهُ عَلَى النَّظَرِ فِي عَجَائِبِهِ، وَقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي حَرَكَاتِهِ الْمَخْتَلِفَةِ الَّتِي هِيَ مَعَ كَثْرَتِهَا وَاجْتِلَافِهَا عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ لَا يَخْتَلُ، وَكَذَلِكَ هُوَ الْقِسْمُ بِاللَّيْلِ وَالصَّبْحِ، فَيَعُودُ التَّعْظِيمُ فِي آخِرِ الْفِكْرَةِ وَتَحْصِيلِ الْمَعْرِفَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، مَالِكِ الْكُلِّ، وَقِيَامِ الْوُجُودِ، وَثُبُورِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿إِذَا دَبَّرَ﴾ بفتح الدال والباء، وهي قراءة ابن عباس، وابن الزبير، وابن المسيب، ومجاهد، وعطاء، ويحيى بن يغمر، وأبي جعفر،

وشيبة، وأبي الزناد، وقتادة وعمر بن عبد العزيز، والحسن، وطلحة. وقرأ نافع، وحزمة، وحفص عن عاصم: ﴿إِذَا دَبَّرَ﴾ بتسكين الدال وفعل رباعي، وهي قراءة سعيد بن جببر، وأبي عبد الرحمن، والحسن - بخلاف عنهم - والأعرج، وأبي شيخ، وابن محيصن، وابن سيرين. قال يونس بن حبيب: «دَبَّرَ» معناه: انقضى، و«أَدَبَرُ» معناه: تولى، وفي مصحف ابن مسعود، وأبي بن كعب: ﴿إِذَا أَدَبَرُ﴾ بالألف في «إِذَا» والفعل رباعي، وهي قراءة الحسن، وأبي رزّين، وأبي رجاء، ويحيى بن يغمر، وسأل مجاهد ابن عباس رضي الله عنهما عن «دَبَّرَ اللَّيْلُ»، فتركه حتى إذا سمع المنادي الأول للصبح قال له: يا مجاهد هذا حين دَبَّرَ اللَّيْلُ، وقال قتادة: «دَبَّرَ اللَّيْلُ»: وَلَّى، وقال الشاعر:

وَأَبْيَ الَّذِي تَرَكَ الْمُلُوكَ وَجَمْعُهُمْ
بِهَضَامٍ هَائِلَةٍ كَأَمْسِ الدَّابِرِ
العرب تقول في كلامها: «كَأَمْسِ الْمُدْبِرِ»: قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: فَالْقَرَاءَتَانِ جَمِيعًا حَسَنَتَانِ.

وأشهر الصبح: أضاء وانتشر ضوءه قبل طلوع الشمس بكثير، والإشفاق رُتَب: أَوَّلُ وَوَسْطُ وَآخِرُ، وَمِنْ هَذِهِ اللَّفْظَةِ السُّفَرُ وَالسُّفَرُ وَالسُّفِيرُ، وَسَفَرَتِ الْمَرْأَةُ عَنْ وَجْهِهَا، وَكُلُّهَا وَرَجَعَ إِلَى مَعْنَى الظُّهُورِ وَالْإِنْجِلَاءِ، وَقَرَأَ عِيسَى بْنُ الْفَضْلِ، وَابْنُ السَّمِيعِ: ﴿إِذَا سَفَرُ﴾، فَكَانَ الْمَعْنَى: طَرَحَ الظُّلْمَةَ عَنْ وَجْهِهِ، وَضَعَفَهَا أَبُو حَاتِمٍ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَآبِتُونَ فِي الدُّنْيَا﴾، قَالَ قَتَادَةُ، وَأَبُو رَزِينٍ، وَغَيْرُهُمَا الضَّمِيرُ لِهَاجِهِمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ

هذه الرتبة لغفلته وسوء نظره.

ثم قوى تعالى هذا المعنى بقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾؛ إذ لزم بهذا القول أن المقصّر مرتين بسوء عمله، وقال الضحاك: المعنى: كل نفس حقت عليها كلمة العذاب، ولا يرتهن الله تعالى أحداً من أهل الجنة إن شاء الله تعالى. والهاء في ﴿رَهِينَةٌ﴾ للمبالغة، أو على تأنيث اللفظ لا على معنى الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ استثناء ظاهر الانفصال، وتقديره: لكن أصحاب اليمين؛ وذلك لأنهم لم يكتسبوا ما هم به مرتهون، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أصحاب اليمين في هذه الآية أطفال المسلمین، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الملائكة عليهم السلام، وقال الضحاك: هم الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وقال الحسن، وابن كيسان: هم المسلمون المخلصون، ليسوا بمُرتَهَنين. ثم ذكر تعالى حال أصحاب اليمين، وأنهم في جنات يسأل بعضهم بعضاً عمن غاب من معارفهم، فإذا علموا أنهم مجرمون في النار قالوا لهم - أو قالت الملائكة -: ﴿هَذَا سَكْرٌ فِي سَكْرٍ﴾، و«سَكْرٌ» معناه: أدخل، ومنه قول أبي وجزة السعدي:

حَتَّى سَلَكَنَ الشَّوَى وَنَهْنُ فِي مَسَكٍ
مَنْ نَسِلَ جَوَابَةَ الْآفَاقِ يَهْدَاجِ
(٤٢) - (٤٣) تفسير قوله عز وجل:

هذا هو اعتراف الكفار على أنفسهم، وفي نفى الصلاة يدخل

الحسن بن أبي الحسن لا نذير أدهى من النار، فهذا القول يقتضي أن ﴿نَذِيرًا﴾ حال من الضمير في ﴿إِنَّمَا﴾، أو من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا﴾، أو من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا﴾، وكذلك أيضاً على الاحتمال في أن تكون ﴿إِنَّمَا﴾ يراد بها قصة الآخرة وحال المعاد. وقال أبو رزين: الله جل ذكره هو النذير، فهذا القول يقتضي أن ﴿نَذِيرًا﴾ مفعول لفعل تقديره: اعبدوا نذيراً للبشر، أو اعدوا نذيراً للبشر، وقال ابن زيد: النذير محمد ﷺ، فهذا

القول يقتضي أن ﴿نَذِيرًا﴾ معمول لفعل تقديره، ناد نذيراً، أو بلغ نذيراً، ونحو هذا، ويحتمل أن يكون ﴿نَذِيرًا﴾ مصدراً مثل قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَذِيرٌ﴾؟ وهو اختيار الخليل في هذه الآية، ذكره الشعلبي، قال: ولذلك يوصف به المؤنث. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿نَذِيرٌ﴾ بالرفع على إضمار «هو».

قوله تعالى: ﴿لَنْ شَأْنٌ يُنْكَرُ أَنْ يَنْقَضَ أَوْ يَنْتَهَرَ﴾، قال الحسن: هو وعيد نحو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَأْنٌ فَلْيُزَيِّنْ وَمَنْ شَأْنٌ فَلْيُكْفِّرْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا لِسْتِغْيَارَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا لِسْتِغْيَارَ مِنْكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هو بيان في النذارة، وإعلام بأن كل أحد يسلك طريق الهدى والحق إذا حقق النظر، أو هو بعينه يتأخر عن

سورة المدثر

فَأَنذَرْتَهُمْ سَفْعَةَ الشَّيْطَانِ ۖ فَهَاتَمَهُمْ عَنِ الْتَذَكُّرِ ۖ وَمُعْرِضِينَ ۖ كَانَهُمْ حُمْرَ مُسْتَفْرِغَةٍ ۖ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۖ تَلَوْنَهَا يُنْهَى ۖ كُلُّ أَمْرٍ يُنْهَى ۖ أَنْ يُوَفَّى صُحُفًا مُنْشَرَةً ۖ لَا كَلِمَ لَا يَخَافُونَ ۖ الْآخِرَةَ ۖ كَلَّا ۖ إِنَّمَا تَذَكُّرَةٌ ۖ فَمَنْ شَأْنٌ ذَكَرَهُ ۖ وَمَا يَذْكُرُونَ ۖ لَا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۖ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى ۖ وَأَهْلُ الْغُفُورَةِ ۖ

سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَامَةِ ۖ أَيْحَسِبُ ۖ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عَظَامَهُ ۖ بَلْ يُقَدِّرُونَ عَنْ أَنْ شُؤِيَ بَنَانَهُ ۖ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۖ يَسْتَكْبِرُ أَنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَإِنَّا أَهْلُ الْبَصَرِ ۖ نَحْصِفُ الْقَمَرِ ۖ وَنُجْمِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ۖ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ ۖ أَيْنَ الْمَقَرِّ ۖ كَلَّا لَا وَزَرَ ۖ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرِّ ۖ يَبْكُ الْإِنْسَانُ ۖ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۖ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ وَلَوْ أَلْقَى ۖ مَعَاذِرَهُ ۖ لَا تَحْزَنْكَ بِهِ ۖ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۖ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ۖ وَوَعْدَهُ ۖ فَإِنَّا أَفْرَأْنَهُ ۖ فَالْيَقِ ۖ قُرْءَانَهُ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۖ

٥٧٧

يكون الضمير للنذارة وأمر الآخرة، فهو للحال والقصة، وتكون هذه الآية مثل قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۖ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾، و«الكُفْر» جمع كبيرة، وقرأ جمهور القراء: ﴿إِنَّمَا﴾ بهمزة في ألف «إخدى»، وزوي عن ابن كثير أنه قرأ: ﴿لَاخْدَى﴾ دون همزة، وهي قراءة نصر بن عاصم، قال أبو علي: التخفيف في «إخدى الكُفْر» أن تجعل الهمزة فيها بين يين، فأما حذف الهمزة فليس بقياس، وقد جاء حذفها، قال أبو الأسود الدؤلي لزياد:

يَا أَبَا الْمُغِيرَةِ رَبِّ أَمْرٍ مُغْضِلٍ
فَرَجَّحْتُهُ بِالشُّكْرِ مِثْلِي وَالذَّهْأِ
وأنشد ثعلب:

إِنْ لَمْ أَقَاتِلْ فَالْبِسُونِي بُرْقَعًا
وَتَشَخَّاتٍ فِي الْيَدَيْنِ أَرْبَعًا
قوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾، قال

الإيمان بالله تعالى، والمعرفة به، والخشوع له والعبادة. والصلاة تنتظم مُعْظَمَ الدين وأوامر الله تعالى وواجبات العقائد. وإطعام المساكين ينتظم الصدقة فرضاً وطواعيةً وكل احتمال تندب إليه الشريعة بقول أو فعل. والخوض مع الخائضين عُرْفُهُ في الباطل، قال قتادة: المعنى: كُلُّمَا غَوَى غَاوٍ غَوَوْا معه، والتكذيب بيوم الدين كُفْرٌ صَرَخَ بالله تعالى.

و «اليقين» معناه عندي: صحة ما كانوا يكذبون به من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة، وقال المفسرون: «اليقين»: الموت، وذلك عندي - هنا - مُتَعَقِّبٌ؛ لأن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حي، فإنما اليقين الذي عناه في الآية فهو الشيء الذي كانوا يكذبون به وهم أحياء في الدنيا فتيقنوه بعد الموت، وإنما يُفَسَّرُ اليقين بالموت في قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

ثم أخبر تعالى أن شفاعة الشافعين لا تنفعهم، فتقرر من ذلك أنَّ تَمَّ شافعين، وفي صحة هذا المعنى أحاديث، قال ﷺ: «تشفع الملائكة ثم النبيون ثم العلماء ثم الشهداء ثم الصالحون، فَيُشْفَعُونَ، ثم يقول الله تعالى: شفّع عبادي وبقيت شفاعة أرحم الراحمين، فلا يبقى في النار من كان له إيمان». وروى الحسن أنَّ الله يُدخل بشفاعة رجل من هذه الأمة إلى الجنة مثل ربيعة ومضر، وفي رواية أبي قلابة: أكثر من بني تميم. وقال الحسن: كنا نحدث أن

الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته.

ثم قال تعالى وجل: ﴿فَمَا لَمْ يَنُوحْ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، أي: والحال المنتظرة هي هذه الموصوفة؟ وقوله تعالى في صفة الكفار المعرضين في تَوَلَّىٰ واجتهاد في نفور: ﴿كَأَنَّهُمْ خُمُرٌ مُّسْتَنَفِرَةٌ﴾، إثبات لجهالتهم، لأن الخمر من جاهل الحيوان جداً، وقرأ الأعمش: ﴿خُمُرٌ﴾ بإسكان الميم، وفي حرف ابن مسعود: ﴿خُمُرٌ نافرة﴾، وقرأ نافع، وابن عامر، والمفضل عن عاصم: ﴿مُسْتَنَفِرَةٌ﴾ بفتح الفاء، وقرأ الباقون بكسر الفاء، واختلف عن نافع، وعن الحسن، والأعرج، ومجاهد، فأما فتح الفاء فمعناه: استنفرها فزعها من القسورة، وأما كسر الفاء فعلى أن «نَفَرٌ» و«اسْتَنَفَرٌ» بمعنى واحد، بمنزلة «عَجَبٌ» و«اسْتَعْجَبٌ» و«سَخِرَ» و«اسْتَسَخَرَ»، فكأنها نفرت هي، ويُقَوَّى ذلك قوله تعالى: ﴿فَزَنَّتْ﴾، وبذلك رجح أبو علي قراءة الكسر.

واختلف المفسرون في معنى «القسورة» - فقال ابن عباس، وأبو موسى الأشعري، وقتادة، وعكرمة: القسورة: الرُماة، وقال ابن عباس أيضاً، وأبو هريرة، وجهمور من اللغويين: القسورة: الأسد، وقال الشاعر:

مُضْمِرٌ تَحْذَرُهُ الْأَبْطَالُ
كَأَنَّهُ الْقَسُورَةُ الرَّبَابُ

وقال ابن جبير: القسورة: رجال القنص، وقاله ابن عباس أيضاً، وقيل: القسورة: رَكْتُ الناس، وقيل: القسورة: الرجال الشداد، قال لبيد:

إِذَا مَا هَتَفْنَا هَتَفَةً فِي نَدِينَا
أَتَانَا الرِّجَالُ الْعَانِدُونَ الْقَسَاوِرُ
وقال ثعلب: القسورة: سواد أول الليل خاصة لا آخره. واللفظة مأخوذة من القسر الذي هو الغلبة والقهر.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَن يُؤَيِّنَ صُحُفًا مُّثَنَّرَةً﴾، معناه: من هؤلاء المعرضين، أي: يريد كل إنسان منهم أن ينزل عليه كتاب من الله تعالى، وكان هذا من قول عبدالله بن أبي أمية وغيره، وروى أن بعضهم قال: إن كان يكتب في صحفٍ ما يُعمل فلتعرض تلك الصحف علينا، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمُثَنَّرَةً﴾ معناه: غير مطوية، منشورة، وقرأ سعيد بن جببر: ﴿صُحُفًا﴾ بسكون الحاء، وهي لغة تميمية، وقرأ: ﴿مُثَنَّرَةً﴾ بسكون النون وتخفيف الشين، وهذا على أن يشبه «نَشَرَ الثوب» ب «أَنشَرَ الله الميت»؛ إذ الطي كالصوت، وقد عكس التيمية التشبيه في قوله:

رَدَّتْ صَنَائِعُهُ عَلَيْهِ حَيَاتُهُ
فَكَأَنَّهُ مِنْ نَشَرِهَا مَشْشُورُ
ولا يقال في الميت يَحْيَا: مَشْشُورُ إلا على التشبيه بالشوب، وأما محفوظ اللغة فهو «نَشَرْتُ الصحيفة» و«أَنشَرَ الله الميت»، وقد جاء عنهم «نَشَرَ الله الميت».

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رد على إرادتهم، أي: ليس الأمر كذلك، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾، المعنى: هذه العلّة والسبب في إعراضهم، فكأن جهلهم بالآخرة سبب امتناعهم من الهدى

تفسير سورة القيامة

وهي مكية بإجماع من أهل التأويل، وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من سأل عن القيامة أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها فليقرأ هذه السورة، وقال المغيرة بن شعبه: يقول الناس: القيامة القيامة، وإنما قيامه المرء موته، وروى أيضاً عن ابن جبير أنه حضر جنازة رجل فقال: أنا هذا فقد قامت قيامته، وروى مثله عن علقمة، ذكره الثعلبي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقيامه الرجل في خاصته ليست بالقيام الجامعة لجميع الخلق بعد البعث، لكن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه كأنه قال هذا لمن يستبعد قيام الآخرة، ويظن طول الأمد بينه وبينها، فتوَعَّده بقيامه نفسه.

﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأ جمهور السبعة: ﴿لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وقرأ ابن كثير، والحسن - بخلاف عنه - والأعرج: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ، وَلَا أُقْسِمُ﴾ فأما القراءة الأولى فاختلف في تأويلها - فقال ابن جبير: [لَا] استفتاح كلام بمنزلة «ألا»، وأنشدوا على ذلك:

فَلَا وَأَبِيكَ ابْنَةُ الْعَامِرِيِّ لَا
يَدْعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفْرُ

وقال أبو علي: [لَا] صلة زائدة كما زبدت في قوله تعالى: ﴿لَيْلًا يَمُوتُ أَهْلُ الْكَثْبِ﴾، ويُعترض هذا بأن هذه في ابتداء كلام، ولا تُزاد «لا»

حتى هلكوا. وقرأ أبو حيوة: ﴿تَخَافُونَ﴾ بالتاء من فوق، ورويت عن ابن عامر. ثم أعاد تعالى الرَّد والزجر بقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾، وأخبر أن هذا القول والبيان وهذه المحاوره بجملة تذكيرة، فمن شاء وفقه لذكر معاده، ثم أخبر أن ذكر الإنسان معاده، وجَزَّه إلى فلاحه إنما هو كله بمشيئة الله تعالى، وليس يكون شيء إلا بها.

وقرأ نافع، وأهل المدينة، وسلام، ويعقوب: ﴿تَذْكُرُونَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ أبو جعفر، وعاصم، وأبو عمرو، والأعشى، وطلحة، وابن كثير، وعيسى، والأعرج: ﴿يَذْكُرُونَ﴾ بالياء من تحت، وروى عن أبي جعفر بالتاء من فوق وشذَّ الدَّال، كأنه «تَذْكُرُونَ» فأذغم.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ النَّفْيِ وَأَهْلُ الْفَقْرِ﴾ خبر جزم، معناه أن الله تعالى أَهْلُ بصفاته العُلَى، ونعمه التي لا تُحصى، ونعمه التي لا تُدفع، لأن يَنْقُى ويُطَاع، ويُنْخَذَرُ عصيانه وخلاف أمره، وأنه تعالى بفضله وكرمه أَهْلُ لأن يغفر لعباده إذا اتَّقَوْه. وروى أنس بن مالك أن النبي ﷺ فسَّر هذه الآية فقال عليه الصلاة والسلام: «يقول ربكم جلَّتْ عظمتُه: أنا أَهْلُ أَنْ أَتَقَى فلا يجعل معي إله غيري، ومن أَتَقَى أَنْ يَجْعَلَ معي إلهاً غيري فأنا أغفر له»، وقال قتادة: هو أَهْلُ لِأَن تُتَقَى محارمُه، وأن يغفر الذنوب.

كمل تفسير سورة المدثر والحمد لله رب العالمين

و«ما» ونحوهما من الحروف إلا في تضاعيف كلام، فيفصل عن هذا بأن القرآن كُلُّه كالسورة الواحدة وهو في معنى الاتصال فجاز فيه هذا. وقال الفراء: [لَا] نفْيٌ لكلام الكفار وَرَجَزٌ لهم وردُّ عليهم. ثم استأنف تعالى - على هذه الأقوال الثلاثة - قوله تعالى: ﴿أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، وأقسم الله تعالى بيوم القيامة تنبيهاً منه لعظمته وهوله.

وقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾، القول في [لَا] على نحو ما تقدم.

وأما القراءة الثانية فتحتمل أحد أمرين: إما أن تكون اللام دخلت على فعل الحال، والتقدير: لأنَّا أقسم، فلا تلحق النون لأن النون إنما تدخل في الأكثر لتفرق بين فعل الحال والفعل المستقبل، فهي تلزم المستقبل في الأكثر، وإما أن يكون الفعل خالصاً للاستقبال، فكان الوجه والأكثر أن تلحق النون، إما الخفيفة وإما الثقيلة، لكن قد ذكر سيوبه أن النون قد تسقط مع إرادة الاستقبال وتُغني اللام عنها، كما قد تسقط اللام وتُغني النون عنها، وذلك في قول الشاعر:

وَقَسِيلٌ مُرَّةٌ أَثَارُنُ قَسِيلُهُ
فَسَزَعُ وَإِنْ قَسِيلُهُمْ لَمْ يَثَارِ
المراد: لأنَّ أَرُنُ.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنِّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ فقول: [لَا] نافية، وإن الله تعالى أقسم بيوم القيامة ونَفَى أَنْ يُقْسِمَ بالنفس اللوامة، نصُّ عليه الحسن، وقد ذهب هذا المذهب قومٌ ممن قرأ: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ وذلك قلق، وهو في القراءة الثانية أمكن، وجمهور المتأولين على

أن الله تعالى أقسم بالأمرين.

واختلف في «النفس اللوامة»، ما معناه؟ فقال الحسن: هي اللوامة لصاحبها في ترك الطاعة ونحوه، فهي - على هذا - ممدوحة، ولذلك أقسم الله تعالى بها، وقال ابن عباس، وقتادة: هي الفاجرة الجشعة اللوامة لصاحبها على ما فاتته من سعي الدنيا وأغراضها، فهي - على هذا - ذميمة، وعلى هذا التأويل يحسن نفي القسم بها، والنفس في الآية اسم جنس لنفوس البشر، وقال ابن جبير ما معناه: إن القسم بها من اسم الجنس لأنها تلوم على الخير والشر، وقيل: المراد نفس آدم عليه السلام لأنها لم تزل لائمة له على فعله الذي أخرجه من الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكل نفس متوسطة ليست بالمطمئنة ولا بالأمامة بالسوء فإنها لوامة في الطرفين، مرة تلوم على ترك الطاعة، ومرة تلوم على فوت ما تشتهي، فإذا اطمأنت خلصت وصفت.

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ تقرير وتوبيخ، و«الإنسان» اسم الجنس، وهذه أقوال كانت لكفار قريش، فعليها الرّد. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَجْعَلُ عَظْمَهُ﴾ بالنون ونصب الميم من العظام، وقرأ قتادة بالتاء ورفع الميم من العظام، ومعنى ذلك: في القيامة وبعد البعث من القبور، وقرأ أبو عمرو بإدغام العين في العين.

ثم قال تعالى: ﴿يَكَلِّ﴾، وهي إيجاب ما نفي، وبإيها أن تأتي بعد النفي، والمعنى: بل نجمعها قادرين، فنصب ﴿تَدْرِين﴾ على الحال، وقرأ

ابن أبي عبلة: ﴿قَادِرُونَ﴾ بالرفع، وقال القتيبي: ﴿شَوَى بَكَتْ﴾ معناه: تُثَقِّفُهَا شَوَى، والبنان: الأصابع، وكأن الكفار لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام قيل لهم: إنها تجمع وَيُسَوَّى أكثرها تفرقاً وأدقها أجزاء وهي عظام الأنامل ومفاصلها، وهذا كله عند البعث. وقال ابن عباس وجمهور المفسرين: ﴿شَوَى بَكَتْ﴾: نجعلها في حياته هذه بضعة أو عظماً واحداً كخف البعير لا تفرق فيه، فكأن المعنى: قادرين الآن في الدنيا على أن نجعلها دون تفرق فتقل منفعة بيده، فكأن التقدير: بلى نحن أهل أن نجمعها قادرين الآن على إزالة منفعة بيده، ففي هذا توعداً. والقول الأول أجري مع رصف الكلام، ولكن على هذا القول الآخر جمهور من العلماء.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ يُفَكِّرْ﴾ أنامته. قال بعض المتأولين: الضمير في «أنامته» عائد على الإنسان، ومعنى الآية أن الإنسان إنما يريد شهوته ومعاصيه لينضي فيها أبداً قدماً ركباً رأسه ومطيعاً أملة ومُسَوِّفاً بتوبته. قاله مجاهد، والحسن، وعكرمة، وابن جبير، والضحاك والسدي، وقال السدي: المعنى: ليظلم على قدر طاقته، وقال الضحاك: المعنى: يركب رأسه في طلب الدنيا دائماً، وقوله تعالى: ﴿يَفْجُرْ﴾ تقديره: لكي يفجر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما يقتضي أن الضمير في «أنامته» عائد على «يوم القيامة»، والمعنى أن الإنسان هو في زمان وجوده أمام يوم القيامة وبين يديه، ويوم القيامة خلفه،

فهو يريد شهوته ليفجر في تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدي يوم القيامة، وهو لا يعرف قدر الضرر الذي هو فيه، ونظير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ الْإِنْسَانُ يُفَكِّرْ﴾ قول قيس بن سغيد:

أَزِدْتُ لِكَيْمًا يَغْلَمُ النَّاسُ أَنَّهَا
سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُفُودُ شُهُودُ
و ﴿يَكْ﴾ في أول الآية إضراب على معنى الترك لا على إبطال الكلام الأول، وقد تجيء «بَلْ» لإبطال الكلام الذي قبلها.

وسؤال الكافر «إِنَّا بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ؟» هو على معنى التكذيب والهُزء، كما تقول لِمُحَدِّثٍ بأمر تُكَذِّبُهُ: متى يكون هذا؟ و«إِنَّا» لفظة بمعنى «متى»، وهي مبنية لتضمنها معنى الاستفهام، فأشبهت الحروف المُضَمَّةُ المعاني، وكان حقها أن تُبْنَى على السكون، ولكن فتحت النون لالتقاء الساكنين: الألف وهي.

وقرأ أبو عمرو، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والجحدري، وعاصم، والأعشى، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿بَرَقَ﴾ بكسر الراء بمعنى: شَخَصَ وشق وحار، وقرأ نافع، وعاصم - بخلاف - وعبدالله بن أبي إسحق، وزيد بن ثابت ونصر بن عاصم: ﴿بَرَقَ﴾ بفتح الراء بمعنى: لَمَعَ وصار له بَرَقٌ عند الموت، والمعنى متقارب في القراءتين، وقال أبو عبيدة: بَرَقَ بالفتح: شَقَّ، وقال مجاهد: هذا عند الموت، وقال الحسن: هذا في يوم القيامة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَنَحَنَفَ﴾ أَلْقَرُ ﴿﴾ على أنه فاعل، وقرأ أبو حية: ﴿وَنَحِيفَ﴾ بضم الخاء وكسر

ربك يومئذ، والمستقر موضع الاستقرار.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ تستوفي كل عمل، أي: يُعلم بكل ما فعل، ويجده محصلاً، وقال ابن عباس، وابن مسعود: المعنى: بما قدم في حياته وآخر من شئ يعمل بها بعده، وقال ابن عباس أيضاً: بما قدم من المعاصي وآخر من الطاعات، وقال زيد بن أسلم: بما قدم من ماله لنفسه بما أخر منه للوارث.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ يضرب بمعنى الشرك، لا على معنى إبطال القول الأول، و﴿بَصِيرَةً﴾ يحتمل أن يكون خبراً عن «الإنسان» ولحقته هاء التانيث كما لحقت «علامة»، ونسابة، والمعنى: إنه فيه وفي عقله وفطرته حجة وشاهد مبصر على نفسه، ولو اعتذر عن قبيح أفعاله فهو يعلم قبحها، وكذلك لو استتر بسئوره واختفى بأفعاله - على التأويلين في المعاذير -، ويحتمل ﴿بَصِيرَةً﴾ أن يكون ابتداءً وخبره في قوله تعالى: ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾، والهاء للتانيث، ويراد بالبصيرة جوارحه، والملائكة الحفظة، وهذا هو تأويل ابن عباس رضي الله عنهما. و«المعاذير» هنا، قال الجمهور: هي الأعدار، جمع «مُعْذِرَة»، وقال السدي، والضحاك: هي السُّورُ بِلُغَةِ اليمن، يقولون للسُّر: المعذار، وقال الحسن: المعنى: بل الإنسان على نفسه بِلِيَّةٌ ومحنة، كأنه ذهب إلى البصيرة التي هي طريقة الدَّم وداعية طلب الثَّار، وفي هذا نظر.

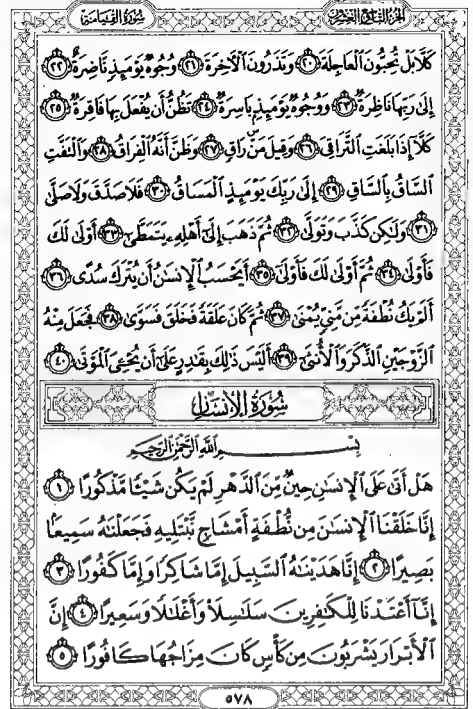
﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿يَوْمَ﴾ عائد على كتاب الله تعالى، ولم يُجر له ذكر

المأولون في معنى الجمع بينهما - وقال عطاء بن يسار: يُجمعان فيقذفان في النار، وقيل: في البحر فيصير نار الله العظمى، وقيل: يُجمع الضَّوْءَان فيذهب بهما.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَبْنِ الْكَرَّ﴾ بفتح الميم والفاء على المصدر، أي: أين الفرار؟ وقرأ ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وأيوب السخيتاني، وكلثوم بن عياض، ومجاهد، ويحيى بن يغمر، وحُماد بن سلمة، وأبو رجاء، وعيسى، وابن أبي إسحق: ﴿أَبْنِ الْمَفْزُورَ﴾ بفتح الميم وكسر الفاء، على معنى: أين موضع الفرار؟ وقرأ الزهري: ﴿أَبْنِ الْمِفْزُورَ﴾ بكسر الميم وفتح الفاء. بمعنى: أين الجَيْدُ الفرار.

و ﴿كَلَّا﴾ زَجْرٌ يقال للإنسان يومئذ، ثم يعلم أنه لا وَزَرَ له، أي: لا ملجأ ولا معين، وعبر المفسرون عن «الوزر» بالجبل، قال مطرف بن الشخير وغيره: «وهو كان وزر فُزَار العرب في بلادهم فلذلك استعمل» والحقيقة أن الملجأ جبالاً كان أو حصناً أو سلاحاً أو رجلاً أو غيره. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ بِبُيُوتِكُمْ﴾ معناه: إلى حكم ربك ونحوه من التقدير، و«المُسْتَقَرُّ» رفع بالابتداء، وخبره في المقدر الذي يتعلق به المجرور المتقدم، وتقدير الكلام: المُسْتَقَرُّ ثابت أو كائن إلى



السين (القَمَرُ) مفعول لم يُسم فاعله، يقال: خَسَفَ القمرُ وخَسَفَهُ الله، وكذلك الشمس، وقال أبو عبيدة وجماعة من اللغويين: الخسوف والكسوف بمعنى واحد، وقال ابن أبي أونس: الكسوف: ذهاب بعض النور، والخسوف: ذهاب جميعه، وروى عروة وسفيان أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقولوا كسفت الشمس ولكن قولوا خسفت».

وقوله تعالى: ﴿رَجِعَ النَّفْسُ وَالْقَلْبُ﴾، غلب التذكير على التانيث وقيل: ذلك لأن تانيث الشمس غير حقيقي، وقيل: المراد: وُجِع بين الشمس والقمر، وكذلك قرأ ابن أبي عبيدة، ولذلك أسقط علامة التانيث، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾. واختلف

ولكن القرائن تُبَيِّنُه، فهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسَ﴾.

واختلف المتأولون في السبب الموجب أن يؤمر رسول الله ﷺ هذا الأمر - فقال الشعبي: كان رسول الله ﷺ لحرصه على أداء الرسالة والاجتهاد في ذات الله تعالى، ربما أراد النطق ببعض ما أوحى إليه قبل كمال أداء الوحي، فأمر ألا يعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليه وحيه، وجاءت هذه الآية في هذا المعنى، وقال الضحاك: كان سببها أن رسول الله ﷺ كان يخاف أن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب عليه ذلك وشق، فنزلت الآية في ذلك، وقال كثير من المفسرين - وهو في صحيح البخاري عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يُعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفثيه مخافة أن يذهب عنه ما يوحي إليه لحينه، فنزلت الآية بسبب ذلك، وأعلمه الله تعالى أنه يجمعه في صدره.

وقوله تعالى: ﴿وَقَرَأَتْهُ﴾ يحتمل أن يريد به: وقراءته، أي: تقرأه أنت يا محمد، والقرآن مصدر كالقراءة، ومنه قول الشاعر في عثمان رضي الله عنه:

ضَحُوا بِأَشْمَطَ عَنَّا الشُّجُودَ بِهِ
يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَنْسِيحاً وَقُرْآنَا
ويحتمل أن يريد: علينا جمعه وتأليفه في صدرك، فهو مصدر من قولك: «قَرَأْتُ» أي: جَمَعْتُ، ومنه قولهم في المرأة التي لم تلد: «ما

قَرَأَتْ تَسْلَاقاً»، ومنه قول الشاعر: ذِرَاعِي نَكْرَةً أَذْمَاءُ بَنُكْرٍ
هَجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا
وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ﴾، أي: قرأه الملك الرسول عنا، وقوله سبحانه: ﴿فَاتَّبَعْ﴾ يحتمل أن يريد: بذهنك وفكرك، أي: فاستمع قراءته، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يريد: فاتبع في الأوامر والنواهي، قاله ابن عباس أيضاً، وقتادة، والضحاك. وقرأ أبو العالية: ﴿وَقَرَأَتْهُ فَإِذَا قَرَأَتْهُ فَاتَّبَعْ قَرَأَتْهُ﴾ بفتح القاف والراء والتاء من غير همز ولا ألف في الثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ﴾، قال قتادة وجماعة معه: معناه: أن تُبَيِّنَه لك وتُحَفِّظَكُه، وقال كثير من المتأولين: معناه: أن تُبَيِّنَه أنت، وقال قتادة أيضاً: معناه: أن تُبَيِّنَه حلاله وحرامه ومُجمِله ومُفسره.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ يُحِيزُونَ آلَآئِلَةَ﴾ رجوع إلى مخاطبة قريش، يرُدُّ عليهم وعلى أقوالهم في ردِّ الشريعة بقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس ذلك كما تقولون، وإنما أنتم قوم قد غلبتكم الدنيا بشهواتها، فأنتم تحبونها حباً تتركون معه الآخرة والتَّظَلُّرَ في أمرها، وقرأ الجمهور: ﴿يُحِيزُونَ﴾ بالتاء على المخاطبة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر والحسن، ومجاهد، والجدري، وقتادة: ﴿يُحِيزُونَ﴾ بالياء على ذكر الغائب، وكذلك ﴿وَيَذَرُونَ﴾.

ولما ذكر تعالى الآخرة أخبر بشيء من حال أهلها، فقوله تعالى:

﴿رُجُوعٌ﴾ رفع بالابتداء، والابتداء بالنكرة لأنها تخصصت بقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ و﴿ثُمَّ﴾ خبر ﴿رُجُوعٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ نَاطِرٌ﴾ جملة هي في موضع خبر بعد خبر، وقال بعض النحويين: ﴿ثُمَّ﴾ نعت لـ ﴿رُجُوعٌ﴾، و﴿إِنَّ رَبَّكَ نَاطِرٌ﴾ خبر عن ﴿رُجُوعٌ﴾، فعلى هذا كثر تخصيص «الرُّجُوعِ» فَحَسَّنَ الابتداء بها، و﴿ثُمَّ﴾ معناه: ناعمة، والثمرة: النعمة وجمال البشرية، قال الحسن: وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق جل وتعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ نَاطِرٌ﴾، حمل هذه الآية جميع أهل السنة على أنها متضمنة رؤية المؤمنين لله تعالى، وهي رؤية دون محاذاة ولا تكييف ولا تحديد، كما هو تعالى معلوم موجود لا يشبه الموجودات، كذلك هو مَرُئِي لا يشبه المرنثيات في شيء، فإنه ليس كمثله شيء، لا إله إلا هو. وروي عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: «حَدَّثَكُمْ عَنِ الدُّجَالِ أَنَّهُ أَعُورٌ، وَإِنْ رَيْكُمْ لَيْسَ بِأَعُورٍ، وَإِنْكُمْ لَنْ تَرَوْا رَيْكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا».

وقال ﷺ: «إِنْكُمْ تَرُونَ رَيْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَاهُ»، وقال الحسن: تنظرون إلى الله تعالى بلا إحاطة، وأما المعتزلة الذين ينفون رؤية الله تعالى فذهبوا في هذه الآية إلى أن المعنى: إلى رحمة ربها ناظرة، أو إلى ثوابه أو ملكه، فقدروا مضافاً محذوفاً، وهذا وجه سائغ في العربية، كما تقول: «فلان ناظر إليك في كذا» أي: إلى صنْعك في كذا،

والروية إنما يشتهر بأدلة قطعية غَيْرُ هذه الآية، فإذا ثبت حسن تأويل أهل السنة في هذه الآية وَقَرِي، وذهب بعض المعتزلة في هذه الآية إلى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ﴾ ليست بحرف الجز، وإنما هي «إلى» واحدة الآلاء، فكأنه تعالى قال: نَعْمَةٌ رَبُّهَا منتظرة أو ناظرة، من النظر بالعين، ويقال: «نظرْتُكَ» بمعنى «انتظرتُكَ»، ومنه قول الحطيئة:

وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ إِثْنَاءَ صَادِرَةِ
لِلْخَمْسِ طَالَ بِهَا حَوْزِي وَتَبَسَّاسِي
وَالْتَبَسَّاسُ أَنْ يُقَالَ لِلنَّاقَةِ: «بُسْ»
بُسْ لَتَدْرُ عَلَى الْحَالِبِ، وفُسر أبو
عبدة في غريبه هذا البيت على رواية
أخرى وهي:

.....
... طَارَ بِهَا حَوْزِي وَتَبَسَّاسِي
بالنون وهو السَّير الشديد، فتأمله.
و «الباسِرة»: العابسة المغمومة
النفوس، والبُسُور أشد العيوس،
وإنما ذكر تعالى الوجوه لأنه فيها
يظهر ما في النفوس من سرور أو
غم، والمراد أصحاب الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿تَنَلُّهُ﴾ إِنْ جَعَلْنَاهُ
بمعنى «توقن» فهو لم يقع بعد على
ما قد بَيَّنَّاهُ، وَإِنْ جَعَلْنَا الظَّنَّ هُنَا
عَلَيْ غَلَبَتِهِ فَذَلِكَ مُحْتَمَلٌ،
و«الفاقرة»: المصيبة التي تكسر فقار
الإنسان، قال ابن المسيب: هي
قاصمة الظهر، وقال أبو عبدة: هي
من «فَقَرْتُ البعير» إِذَا وَسَمْتُ أَنْفَهُ
بالنار.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ زَجَرَ لقریش
وتوكيد لهم بموطن من مواطن الهول
وأمر الله تعالى الذي لا محيد لبشر

عنه، وهي حالة الموت والمنازعة
التي كتبها على كل حيوان،
و﴿بَلَّتَتْ﴾ يريد النفس، و«التراقي»
جَمْعُ «تَرْقُوة»، وهي عظام أعلى
الصدر، ولكل أحدِ تَرْقُوتَانِ لكن من
حيث هذه الأفراد في كثيرين جُمع؛
إذ النفس المرادة اسم جنس،
والتراقي موازية للحلاقيم، فالأمر
كله كناية عن حال الحشرجة ونزاع
الموت، يَسْرُهُ الله تعالى علينا.

واختلف الناس في معنى قوله
تعالى: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ - فقال ابن عباس،
والضحك، وقتادة، وأبو قلابه:
معناه: مَنْ يَرْقِي وَيُطْبِ وَيُشْفِي ونحو
هذا مما يتمناه أهل المريض، وقال
ابن عباس أيضاً، وسليمان التيمي،
ومقاتل بن سليمان: هذا القول
للملائكة، والمعنى: مَنْ يَرْقِي بِرُوحِهِ
- أي: يصعد - إلى السماء؟ أملائكة
الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقرأ
حفص عن عاصم بالوقف على
[مَنْ]، وببتدي «كَلَّا»، وأدغم
الجمهور، قال أبو علي: لا أعرف
وجه قراءة عاصم، وكذلك قرأ:
﴿بَلِّ رَانَ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَكَنَ اللَّهُ الْفِرَاقُ﴾،
يريد: وتيقن المريض أنه فراق الأجابة
والأهل والمال والحياة، وهذا اليقين
فيما لم يقع بعد، ولذلك استعملت فيه
لفظة الظَّن، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما: أيقن أنه الفراق،
وقال في تفسيره: ذهب الظن.

واختلف في معنى قوله تعالى:
﴿وَاللَّيْلِ أَسَاؤُا بِإِسَاقٍ﴾ - فقال ابن
عباس، والحسن، والربيع بن أنس،
وإسماعيل بن أبي خالد: هذه

استعارة لشدة كرب الدنيا في آخر
يوم منها وشدة كرب الآخرة في أول
يوم منها، لأنه بين الحالتين قد
اختلطتا له، وهذا كما يقولون:
«شَمَرْتُ الحرب عن ساقٍ»، وعلى
بعض التأويلات في قوله تعالى:
﴿يَوْمَ يَكُنْفُ عَنْ سَاقٍ﴾. وقال ابن
المسيب، والحسن: هي حقيقة،
والمراد ساقا الميت عند تكفينه،
أي: لَقَمَها الكفن، وقال الشعبي،
وأبو مالك، وقتادة: هو التفافهما
بشدة المرض لأنه يقبض ويبسط
ويركب هذا على هذا وقال
الضحك: المراد سوق حاضريه من
الإنس والملائكة؛ لأن هؤلاء
يجهزون روحه إلى السماء، وهؤلاء
يجهزون بدنه إلى القبر. وقوله
تعالى: ﴿إِلَّا رَيْكُ﴾ معناه: إلى حكم
ربك وعدله، فإِذَا إلى جنة وإِذَا إلى
نار، و«الْمَسَاقُ» مصدر من السَّوَّقِ.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
هذه الآيات كلها إنما نزلت في أبي
جهل بن هشام، ثم كادت هذه الآية
أن تصرح به في قوله تعالى:
﴿يَتَنَلَّ﴾ فإنها كانت مشية بني
مخزوم، وكان أبو جهل يكثر منها،
وقوله تعالى: ﴿فَلَا مَكْدُ وَلَا مَكَلُ﴾
تقديره: فلم يُصَدَّقْ وَلَمْ يُصَلِّ، وهذا
نحو قول الشاعر:

فَأَيُّ حَمِيسٍ لَا أَبَانَا نَهَايُهُ
وَأَسِيَاؤُنَا يَفْطُرُنْ مِنْ كَبِيهِ دَمَا؟
وقول الآخر:

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا
وَأَيَّ عَبِيدٍ لَكَ لَا أَلْمَا؟
ف «فَلَا» في الآية نافية لا عاطفة.
و«يَدَيَّ» معناه: برسالة الله تعالى

ودينه، وذهب قوم إلى أنه من الصدقة والأول أصوب. ﴿وَيَسْتَفْهِمُ﴾ معناه: يمشي المُطَيِّط، وهي مشية بتبختر، قال زيد بن أسلم: كانت مشية بني مخزوم، وهي مأخوذة من المطأ وهو الظهر، لأنه يشني فيها، وقال النبي ﷺ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيِّطُ، وَخَدَمَتَهُمُ الرُّومُ وَفَارِسُ، سَلَّطَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ»، وقال مجاهد: نزلت هذه الآيات في أبي جهل بن هشام.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ لَكَ قُلُوبٌ﴾ وعيد ثان، ثم كرر ذلك تأكيداً، والمعنى: أولى لك الازدجار والانتها، وهو مأخوذ من «ولي»، والعرب تستعمل هذه الكلمة زجراً، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوَّلَكَ طَاعَةً وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾، ويروى أن رسول الله ﷺ لبَّبَ أبا جهل يوماً في البطحاء وقال له: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَكَ: ﴿أَوَلَمْ لَكَ قُلُوبٌ﴾»، فنزل القرآن على نحوها، وفي شعر الخنساء:

هَمَمْتُ بِتَفْهِي كُلِّ الْهُمُومِ
فَأَوَّلِي لِنَفْسِي أَوْلَى لَهَا
وقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْخِرُ﴾ توبيخ وتوقيف، و﴿سَنَى﴾ معناه: مهملاً لا يؤمر ولا يُنهى، ثم قرَّر تعالى على أحوال ابن آدم في يد الله التي إذا تَوَلَّمت لم يُنكر معها جواز البعث عاقل. وقرأ الجمهور: ﴿أَلَمْ يَكُنْ﴾ بالياء، وقرأ الحسن: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ بالناء من فوق، و«الطُّفَّة» القطعة من الماء، يقال ذلك للقليل والكثير. والمُنْيُ معروف. وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو عمرو - بخلاف - وابن محيصن، والجحدري، وسلام،

ويعقوب: ﴿مَنَى﴾ بالياء، يريد بذلك المني، ويحتمل أن يكون ﴿يَنَى﴾ من قولك: «أمنى الرجل»، ويحتمل أن يكون من قولك: «منى الله الخلق»، فكانه تعالى قال: من مني يخلق، وقرأ جمهور السبعة، والناس: ﴿نَمَنَى﴾ بالياء، يراد بذلك النطفة، و﴿نَمَى﴾ تحتمل الوجهِين اللذين ذكرنا. و«العلق» القطعة من الدَّم؛ لأن الدَّم هو العلق.

وقوله تعالى: ﴿فَلَقَّ سَوْدَى﴾ معناه: فخلق الله تعالى منه بشراً مركباً من أشياء مختلفة، فسَوَاهُ شخصاً مستقلاً، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿يَخْلُقُ﴾ بالياء فعلاً مستقبلاً. و«الرَّزَجِين» : النوعين ويحتمل أن يريد المزدوجين من البشر.

ثم وقف تعالى توقيف توبيخ وإقامة حجة بقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ﴾ عَلَيَّ أَنْ يُخَيَّرَ الْكَوْنُ، وقرأ الجمهور بفتح الياء الأخيرة من ﴿يُخَيَّرُ﴾ وقرأ طلحة بن سليمان، والفياض بن غزوان بسكونها، وهي تحذف من اللفظ لسكون اللام من [الموتى]. ويروى أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وبلى»، ويروى أنه كان يقول: «بلى» فقط.

كمل تفسير سورة القيامة والحمد لله رب العالمين

سورة الإنسان

سورة الإنسان

عَبَّاسُ رَبِّ عَصَا اللَّهِ يُعَرِّقُهَا فَيَجْعَلُهَا نَارًا لَّنَدْرُغَابُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ عَلَى خِيَرَةٍ مِنْ حَبِّكَ
وَبَيْتًا أَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعُكَ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ بِكَ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَوبًا فَطَقْنَا لَكَ ﴿١٠﴾ خَوْفَهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ
الْيَوْمِ وَلَقَدْهُمْ نَصْرٌ وَمَعِينٌ ﴿١١﴾ وَجَزَاءُكُمْ بِمَصَابِرِ وَجْهِهِ وَحَرِيرِ
﴿١٢﴾ مُتَكِينٍ فِيهَا عَلَيَّ الْأَرْكَانِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَائِبُهُمْ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قَطْرُهَا نَدِيرًا ﴿١٤﴾ وَطَافَ عَلَيْهِمْ بِانْبِغَازٍ
مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْرَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُهَا وَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَسُقُونَهَا فِيهَا كَأْسًا كَانَتْ مِنْ أَرْجَاءِ نَجِيلٍ ﴿١٧﴾ عَنَّا فِيهَا حِسْبَتُنَا سَلِيلًا
﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَوْهُمْ فَحَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مِنْ لُؤْلُؤِ
﴿١٩﴾ وَادْرَأْتِمْ لَمْ رَأَيْتُمْ لِيًّا مَكَامِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مِنْ سُتُورٍ
خَضِرَ وَإِسْتَفْرَقَ وَطَرُ أَسَاوِيرٍ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَ رِجْلُهُمْ سَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ نُنْزِلَهُ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ
مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْفَكَوْنَا ﴿٢٣﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٤﴾

٥٧٩

تفسير سورة الإنسان

قال بعض العلماء: هي مكية كلها، وحكى النقاش، والثعلبي عن مجاهد وقتادة أنها مدنية، وقال الحسن وعكرمة: منها آية مكية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَزْ كَفُورًا﴾، والباقي مدني، وأنها نزلت في صنيع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في إطعامه عشاءه وعشاء أهله وولده لمسكين ليلة، ثم ليتم ليلة، ثم لأسير ليلة ثالثة، متواليات، وقيل: نزلت في صنيع أبي الدرداء رضي الله عنه، الله تعالى أعلم.

١ - ٦ - تفسير قوله عز وجل:

«هَلْ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ قَدْ تَجِيءُ»

بمعنى «قد»، حكاه سيبويه، لكنها لا تخلو من تقرير، وبابها المشهور الاستفهام المحض، والتقرير أحياناً، فقال ابن عباس: هي هنا بمعنى «قد»، و«الإنسان» يراد به آدم عليه السلام، و«الحيين» هو المدة التي بقي فيها طيناً قبل أن تنفخ فيه الروح، أي: أنه شيء لم يكن مذكوراً مُتَوَّهاً به في العالم، وفي حالة العدم المحض قبل أن لم يكن شيئاً ولا مذكوراً. وقال أكثر المتأولين: «قُلْ» تقرير، و«الإنسان» اسم الجنس، أي: إذا تأمل كل إنسان نفسه علم بأنه قد مرَّ حين من الدهر عظيم لم يكن هو فيه شيئاً مذكوراً، أي: لم يكن موجوداً، وقد يُسمى الموجود شيئاً فهو مذكور بهذا الوجه. و«الحيين» هنا: المدة من الزمن غير محدودة تقع على القليل والكثير، وإنما يحتاج إلى تحديد الحيين في الإيمان، فيمن حلف ألا يكلم أخاه حيناً، فذهب بعض العلماء إلى أن الحيين سنة، وقال بعضهم: ستة أشهر، والقوي في هذا أن «الإنسان» اسم الجنس، وأن الآية جعلت عبرة لكل أحد من الناس ليعلم أن الصانع له قادر على إعادته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾، هو هنا اسم الجنس بلا خلاف لأن آدم عليه السلام لم يخلق من نطفة، و«أَنشَأَ» معناه: أخلط، واحدها «مَشْج» بفتح الميم والشين، قاله ابن السكيت وغيره، وقيل: «مَشْج» مثل عَدَلْ وأَعْدال، وقيل: «مَشْج» مثل شريف وأشرف.

واختلف في المقصود من «الخلط»

- فقيل: هو أمشاج ماء الرجل بماء المرأة، وأسند الطبري حديثاً - وهو أيضاً في بعض المصنفات - أن عظام ابن آدم وَعَصَبُه من ماء الرجل، ولحمه وشحمه من ماء المرأة، وقيل: هو اختلاط أمر الجنين بالنطفة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى غير ذلك، فهو أمر مختلط، وقيل: هو اختلاط الدم والبلغم والسواد والصفراء فيه. و«نَبَتْلِيهِ» معناه: نختبره بالإيجاد والكون في الدنيا، وهو حال من الضمير في «خَلَقْنَا»، كأنه قال: مختبرين له بذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَنَبِّئْهُمْ عَطْفَةَ جَمَلَةٍ نَعَمَ عَلَى جَمَلَةٍ نَعَمَ، قَالَ بَعْضُ النُّحَوِيِّينَ: إِنَّمَا الْمَعْنَى: فَلْيَنْبَتْلِيهِ جَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً، ثُمَّ تَرْتَبِ الْفَلْظُ مُؤَخَّرًا مُتَدَاخِلًا كَأَنَّهُ قَالَ: نَحْنُ نَبِّئْلِيهِ فَلِذَلِكَ جَعَلْنَاهُ وَالْإِبْتِلَاءُ - عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ - هُوَ بِالْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ لَا بِالْإِيجَادِ، وَلَيْسَ «نَبِّئْلِيهِ» حَالًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾، يحتمل أن يريد السبيل العامة للمؤمن والكافر، وذلك بخلق الحواس وموهبة الفطرة ونصب الصنعة الدالة على الصانع، و«هَدَيْنَاهُ» - على هذا - بمعنى أرشدناه، كما يرشد الإنسان إلى طريق ويُوقِف عليه. ويحتمل أن يريد بالسبيل اسم الجنس، أي: هدى المؤمن لإيمانه والكافر لكفره، ف«هَدَيْنَاهُ» - على هذا - كأنه بمعنى أريناه فقط، وليس الهدى في هذه الآية بمعنى خلق الهدى والإيمان، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورًا﴾ حالان وقسمتها «إِنَّا». قال

أبو عمرو الداني: وقرأ أبو العجاج: ﴿أَمَّا شَاكِرًا وَأَمَّا كَفُورًا﴾ وأبو العجاج هو كثير بن عبدالله السلمي، شامي، وَلَيْتَ البصرة لهشام بن عبدالملك.

و «أَعْتَدْنَا» معناه: أعدنا، وقرأ نافع، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «سَلَايَلًا» بالصرف، وهذا على ما حكاه الأخفش من لغة من يصرف كل ما لا ينصرف إلا أَفْعَلَ، وهي لغة الشعراء، ثم كثر حتى جرى في كلامهم، وقد غُلِّلَ بِعِلَّةٍ، وهي أنه لما كان هذا الضرب من الجموع يُجمع أشبه الأحاد فصرف، وذلك من شبه الأحاد موجود في قولهم: «صواحب وصواحيبات»، وفي قول الشاعر:

.....
... نَوَاكِسِي الْأَبْصَارِ
بِالْيَاءِ جَمْعُ «نَوَاكِسٍ»، وهذا الإجراء في «سَلَايَلًا» و«فَوَائِرًا» ثبت في مصحف ابن مسعود ومصحف أبي بن كعب ومصحف المدينة ومكة والكوفة والبصرة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة: «سَلَايَلًا» على ترك الصرف في الوصل والوقف، وهي قراءة عمرو بن عبيد. وقرأ أبو عمرو، وحمزة - فيما روي عنهما -: «سَلَايَلٍ» في الوصل، و«سَلَايَلًا» بآلِفٍ دون تنوين في الوقف، ورواه هشام عن ابن عامر؛ لأن من العرب من يقول: «رَأَيْتُ عُمَرَ»، يقف بآلِفٍ، وأيضاً فالوقف بالآلِف في [سَلَايَلًا] اتباعاً لخطِّ المصحف.

و «الآبِرَاءُ» جمع «بَارٌّ»، كشاهد وأشهاد، قال الحسن: هم الذين لا

يؤذون الذُّرَّ ولا يرضون بالشُّرَّ، و«الكَّاسُ»: ما فيه نبيذ أو نحوه مما يُشرب به، قال ابن كيسان: لا يقال «كأس» إلا لما فيه نبيذ ونحوه، ولا يقال «ظعينة» إلا إذا كان عليها امرأة، ولا يقال «مائدة» إلا وعليها طعام، وإلا فهو «خوان». و«المزاج»: ما تمزج به الخمر ونحوها، وهي أيضاً مزاج له لأنهما تمازجا مزاجاً، قال بعض الناس: المزاج نفس الكافور، وقال قتادة: قوم تمزج لهم بالكافور وتُختم بالمسك، وقال الفراء: يقال: إن في الجنة عيناً تُسَمَّى كافوراً، وقال بعض المتأولين: إنما أراد كافوراً في النكهة والعرف كما تقول إذا مدحت طعاماً: هذا الطعام مسك.

وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا﴾ قيل: هو بدل من قوله تعالى: ﴿كَافُورًا﴾، وقيل: هو مفعول بقوله تعالى: ﴿يَشْرَبُونَ﴾ أي: يشربون ماء هذه العين من كأس عطرة كالكافور، وقيل: نصب ﴿عَيْنًا﴾ على المدح أو بإضمار «أعني»، وقوله تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ بمنزلة «يَشْرَبُهَا»، فالباء زائدة، قال الهذلي:

شَرِبْنِ بِمَاءِ الْبَخْرِ...

أي: شربنا ماء البحر، وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿يَشْرَبُهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، و«عِبَادُ اللَّهِ» هنا خصوص في المؤمنين الناعمين؛ لأن جميع الخلق عباده. و﴿يَشْرَبُهَا﴾ معناه: يشقونها بعود قصب ونحوه حيث شاؤوا، فهي تجري عند كل أحد منهم، هكذا ورد الأثر، قال الشعلي:

وقيل: عين في دار النبي عليه الصلاة والسلام تُفَجَّر إلى دور الأنبياء عليهم السلام ودور المؤمنين. وهذا قول حسن.

﴿٧﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل: وصف الله تعالى حال الأبرار بأنهم كانوا يوفون بالذُّر، أي: كل ما نذروه وأعطوا به عهداً، يقال: وثى الرجل وأوفى، واليوم المشار إليه يوم القيامة، و«مُسْتَطِيرًا» معناه: متصلاً شائعاً كاستطارة الفجر والضدع في الزجاجة، وبه شبه في القلب، ومن ذلك قول الأعشى:

فَبَائِثٌ وَقَدْ أَوْرَثْتُ فِي الْفُؤَا
دِ صَدْعًا - عَلَى نَائِبِهَا - مُسْتَطِيرًا

وقول ذي الرُّمة:

أَرَادَ الطَّاعِنُونَ لِيَسْخَرُنُونِي
فَهَا جُؤَا صَدْعٌ قَلْبِي فَاسْتَطَارَا

وقوله تعالى: ﴿عَلَى حَبِيٍّ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على «الطعام»، أي: وهو محبوب للفاقة والحاجة، وهو قول ابن عباس ومجاهد، ويحتمل أن يعود على الله تعالى، أي: لوجهه وابتغاء مرضاته، قاله أبو سليمان الداراني، والأول أمدح لهم لأن فيه الإيثار على النفس، وعلى الاحتمال الثاني قد يفعله الأغنياء أكثر، وقال الحسن بن الفضل: الضمير عائد على الإطعام، أي: مُحَقِّقِينَ في فعلهم ذلك، لا رياء فيه ولا تكلف. و«المُسْكِينِ»: الطوائف المنكشف في السؤال، و«اليتيم»: الصبي الذي لا أب له من الناس، والذي لا أم له من البهائم، وهي صفة قبل البلوغ، وقد قال النبي ﷺ: «لَا يُثْمُ بَعْدَ حُلُمٍ»، و«الأسير» معروف، فقال

قتادة: أراد أسرى الكفار وإن كانوا على غير الإسلام، قال الحسن: ما كان أسراهم إلا مشركين؛ لأن في كل كبد رطبة أجرأ، وقال بعض العلماء: هذا مما تُسَخُّ بآية السيف، وإما أنه محكم ليحفظ حياة الأسير إلى أن يرى الإمام فيه رأيه، وقال مجاهد، وابن جبير، وعطاء: أراد المسجونين من الناس، ولهذا يُحْض على صدقة السجن، فهذا تشبيه، ومنه قول عمر الخطاب رضي الله عنه: «لَا يُؤْسَرُ أَحَدٌ فِي الْإِسْلَامِ بِغَيْرِ الْعَدُولِ» وروى الخدري أن النبي ﷺ فسر الأسير هنا بالملوك المسجون، وقال: أراد أسرى المسلمين الذين تركوا في بلاد الحرب رهائن وخرجوا لطلب الفداء، وقال أبو حمزة الثمالي: الأسير هنا المرأة، ودليله قول النبي ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُطْمَكِرُ يَتِيمَ اللَّهِ﴾، المعنى: يقولون لهم عند الإطعام، وهذا إما أن يكون المَطْمَع يقول ذلك نصّاً، فحكي ذلك، وإما أن يكون ذلك مما يقال في الأنفس وبالثنية، فمدح بذلك، وهذا تأويل مجاهد وابن جبير. وقرأ أبو عمرو في رواية ابن عباس بجزم الميم من ﴿تَطْمَكِرُ﴾ قال أبو علي: سكن تخفيفاً، و«الشُّكُورُ» مصدر كالشُّكْر، ووصف اليوم بالعُبُوس هو على التجوز، كما تقول: «ليلٌ نائمٌ» أي: فيه نوم، و«الْقَمَطَرِيُّ» والقَمَاطِرُ هو في معنى العُبُوس والازبداد، يقال: «اقمطر الرجل» إذا جمع ما بين عينيه

غضباً، ومنه قول الشاعر:

بَنِي عَمَّنَا هَلْ تَذْكُرُونَ بَلَاءَنَا
عَلَيْكُمْ إِذَا مَا كَانَ يَوْمٌ قُمَاطِرُ
وقال الآخر:

فَقِيرُوا إِذَا مَا الْحَرْبُ ثَارَ غِبَارُهَا
وَلَجَّ بِهَا الْيَوْمُ الْقُبُوسُ الْقُمَاطِرُ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من
عينيه مثل القطران، وعبر ابن عباس
عن القمطرير بالطويل، وعبر عنه ابن
الكلبي بالشديد، وذلك كله قريب
في المعنى.

وقرأ الجمهور: ﴿وَنَنْهَنَّهُمْ﴾ بتخفيف
القاف، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع:
﴿فَوَقَّاهُمْ﴾ بتشديد القاف،
والتنضرة حال البشرية، وذلك لا
يكون إلا مع فرح النفس وقرة
العين، وقرأ علي بن أبي طالب
رضي الله عنه: ﴿وَجَزَّاهُمْ﴾ بألف،
وقوله تعالى: ﴿يَمَّا صَبَرُوا﴾ عام،
عن الشهوات وعلى الطاعات
والشدائد، ففي هذا يدخل كل ما
خصص الناس من صوم ونحوه،
و﴿مُتَكِّينَ﴾ حال من الضمير
المنصوب في [جَزَّاهُمْ] وهو الهاء
والميم، وقرأ أبو جعفر وشيبة:
﴿مُتَكِّينَ﴾ بغير همز، و«الأرائك»:
السُرر المستورة بالحجال، وهذا
شرط لبعض اللغويين، وقال بعض
اللغويين: كل ما يَتَوَسَّدُ ويفترش مما
له حشو فهو أريكة وإن لم يكن في
حَجَلَةٍ. وقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ﴾
الآية عبارة عن اعتدال مس هوائها،
وذهاب ضرورتي الحر والقر عنها،
وكون هوائها سَجَسَجاً كما في
الحديث المأثور، ومس الشمس هو

أشد الحر، والزمهرير أشد البرد،
وقال ثعلب: الزمهرير بلغة طيبة:
القمر.

﴿٧٧﴾ - ﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:
اختلف النحويون في إعراب قوله
تعالى: ﴿وَدَانِيَةً﴾ - فقال الزجاج
وغيره: هو حال عطفاً على
﴿مُتَكِّينَ﴾، وقال أيضاً: يجوز أن
يكون صفة للجنة، فالمعنى:
وجزاهم جنة دانية، وقرأ جمهور
الناس: ﴿وَدَانِيَةً﴾ وقرأ الأعمش:
﴿وَدَانِيًا عَلَيْهِمْ﴾، وقرأ أبو حية:
﴿وَدَانِيَةً﴾ بالرفع، وقرأ أبي بن
كعب: ﴿وَدَانٍ﴾، فهو مفرد مرفوع
في الإعراب، ودنو الظلال بتوسط
أنعم لها لأن الشيء المظلل إذا بعد
فتر ظله لا سبما من الشجر.
و«التذليل» أن تطيب الثمرة فتتدلى
وتنعكس نحو الأرض، والتذليل في
الجنة هو بحسب إرادة ساكنيها، قال
قتادة، وسفيان، ومجاهد: إن كان
الإنسان قائماً تناول الثمر دون كلفة،
وإن كان قاعداً فكذلك، وإن كان
مضطجعاً فكذلك، فهذا تذليلها، لا
يرد اليد عنها بعد ولا شوك، ومن
اللفظة قول امرئ القيس:

... كَأَتْسُوبِ السَّقِيِّ الْمُذَلَّلِ

ومنه قول الأنصاري: «والنخل قد
ذُلَّت فهي مطوقة بشمرها»،
و«القطوف» جمع قطف وهو العنقود
من النخل والعنب ونحوهما.

و«الآيئة» جمع إناء، و«الكوب» ما
لا عروة له ولا أذن من الأواني،
وهي معروفة الشكل في تلك البلاد،
وهو الذي تقول له العامة «القب»،

لكنها تسمى ذلك ماله عروة، وذلك
خطأ أيضاً، وقال قتادة: الكوب
القَدَح، و«القوارير» الزجاج.
واختلف القراء، فقرأ نافع،
والكسائي، وأبو بكر عن عاصم:
﴿قَوَارِيرًا، قَوَارِيرًا﴾ بالإجراء فيهما
على ما تقدم في «سلاسل»، وقرأ
ابن عامر، وحمزة: ﴿قَوَارِيرَ،
قَوَارِيرَ﴾ بترك الإجراء فيهما، وقرأ
ابن كثير بالإجراء في الأول وتركه
في الثاني، وقرأ أبو عمرو إذا وقف
في الأول بألف دون تنوين، وبترك
الإجراء في الثاني. وقوله تعالى:
﴿مَنْ يَفْضَرْ﴾ يقتضي أنها من زجاج
ومن فضة، وذلك متمكن لكونه من
زجاج في شفوئه ومن فضة في
جوهره، وكذلك فضة الجنة شقافة،
وقال أبو علي: جعلها من فضة
لصفائها وملازمتها لتلك الصفة،
وليست من فضة في حقيق أمرها،
وإنما هذا كقول الشاعر:

أَلَا أَضْيَحَتْ أَسْمَاءُ جَاذِمَةَ الْوَضِلِ

وَضُنَّتْ عَلَيْنَا وَالضُّنَيْنُ مِنَ الْبُخْلِ
وقوله تعالى: ﴿مَذَرُوا﴾ يحتمل أن
يكون الضمير للملائكة، ويحتمل أن
يكون للطائفين، ويحتمل أن يكون
للمنعمين، والتقدير إما أن يكون
على قدر الأكف، قاله الربيع، أو
على قدر الري، قاله مجاهد، وهذا
كله على قراءة من قرأ: ﴿مَذَرُوا﴾
بفتح القاف، وقرأ ابن أبي، وعلي،
والجحدري، وابن عباس،
والشعبي، وقتادة: ﴿قَذَرُوا﴾ بضم
القاف وكسر الدال، قال أبو علي:
كأن اللفظ «قَذَرُوا» عليها، وفي
المعنى قلب لأن حقيقة المعنى أن



معناه: باقون، من الخلود، وجعلهم ولداناً لأنهم في هيئة الولدان في السن، لا يتغيرون عن تلك الحال، وقال أبو عبيدة وغيره: ﴿عَلَدُونَ﴾ معناه: مُقَرَّطُونَ، والخلدات حُلَى تَعْلَقُ في الأذن، ومنه قول الشاعر:

وَمُخَلَّدَاتٍ بِاللُّجَيْنِ كَأَنَّمَا
أَعْجَازُهُنَّ أَقَارِزُ الْكُتُبَانِ
وشهرة هذه اللغة في جفیر.

وشبههم تعالى باللولؤ المنثور في بياضهم وانتشارهم في المساكن

يجيئون ويذهبون، وفي جمالهم، ومنه سميت المرأة دُرَّة وجوهره، ثم كرَّر تعالى ذكر الرؤية مبالغة، و﴿نَمَّ﴾ ظرف، والعامل فيه ﴿رَأَيْتَ﴾ أو معناه، وقال الفراء: التقدير: إذا رأيت ما تُمُّ رأيت، وحذفت «ما». وقرأ حميد الأعرج: ﴿ثُمَّ﴾ بضم الثاء، و«التَّعِيمُ» ما هم فيه من حسن عيش. و«الْمُلْكُ الكبير» قال سفيان: هو استئذان الملائكة وتسليمهم عليهم وتعظيمهم لهم في ذلك كالملوك، وقال أكثر المفسرين: «الْمُلْكُ الكبير» اتساع مواضعهم، روي عن عبدالله بن عمر أنه قال: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف غلام، كلهم مختلف شغله من شغل أصحابه، وأدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في مُلكه مسيرة ألف عام، يرى أقصاه كما يرى أدناه.

يقال: قُدِّرَ عليهم، فهي مثل قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَقَاصِعَهُ لَنُتَوَّ بِالْقَصْبَةِ﴾، ومثل قول العرب: «إذا طلعت الجوزاء ألقى العود على الحرباء»، حكاه أبو علي.

وكون الزنجبيل مزاجاً هو على ما ذكرناه في العرب ولذع اللسان، وذلك من لذات المشروب، والزنجبيل طيب حار، وقال الشاعر: كَأَنَّ جَنِيًّا مِنَ الزَّنْجَبِيلِ
لِ بَاتٍ بِفَيْهَا وَأَزْيَا حَشُورَا

وقال المسيب بن علس: وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ بِهِ
إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلَاقَةُ الْخَمْرِ
وقال قتادة: الزنجبيل اسم لعين يشرب منها المقربون صرفاً، ويُمزج لسائر أهل الجنة. و﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿كُلًّا﴾، أو من ﴿زَجِيلاً﴾ على القول الثاني.

و﴿سَتِيلاً﴾ قيل: اسم بمعنى السُّلْسُ المُتَّقَادُ الْجَزِيَّة، وقال مجاهد: حديد الجرية، وقيل: هي عبارة عن اتساعها، وقال ابن الأعرابي: لم أسمع هذه اللفظة إلا في القرآن، وقال آخرون: ﴿سَتِيلاً﴾ صفة لقوله تعالى: ﴿عَيْنًا﴾، و﴿سُسً﴾ بمعنى: تُوصف وتشهر، وكونه مصروفاً مما يؤكد كونه صفة لا اسماً، وقال بعض المفسرين: ﴿سَتِيلاً﴾ أمر للنبي ﷺ ولأمرته بسؤال السبيل إليها، وهذا قول ضعيف لأن براعة القرآن وفصاحته لا تجيء هكذا، واللفظة معروفة في اللسان، وأن «السُّلْسُ والسُّلْسِيل»، بمعنى واحد ومتقارب.

و﴿مُخَلَّدُونَ﴾ قال جمهور الناس:

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ نافع، وحمزة، وأبان عن عاصم: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالرفع للابتداء، وهي قراءة الأعرج، وأبي جعفر، وشيبة، وابن محيصن، وابن عباس بخلاف عنه، وقرأ الباقون وعاصم: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالنصب على الحال، والعامل في ﴿وَلَهُمْ﴾ أو ﴿يَجْزِيهِمْ﴾، وهي قراءة عمر بن الخطاب، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجحدري، وأهل مكة. وقرأ الأعمش، وطلحة: ﴿عَالِيَهُمْ﴾، وكذلك هي في مصحف عبدالله، وقرأ أيضاً الأعمش: ﴿عَالِيَهُمْ﴾ بالنصب على الحال، وقد يجوز في النصب في القراءتين أن تكون على الظرف؛ لأنه بمعنى: فوقهم، وقرأت عائشة رضي الله عنها: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بناءً فعل

ماض، وقرأ مجاهد، وقتادة، وابن سيرين، وأبو حيو: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالياء.

و «السُّنْدُسُ» رقيق الديباج والمرتفع منه، وقيل: السندس هو الحرير الأخضر، و«الِإِسْتَبْرَقُ» والدَّمَقْسُ هما الأبيض، والأرجوان هو الأحمر. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿خُضْرُ وَإِسْتَبْرَقُ﴾ بالخفض فيهما، وهي قراءة الأعمش، وطلحة، ورويت عن الحسن، وأبي عمرو - بخلاف عنهما -، على أن «خُضْرًا» نعت للسندس، وجائز جمع صفة اسم الجنس إذا كان اسماً مفرداً، كما قالوا: «أهلك الناس الديناز الصُفْر والدُّرهم البيض»، وفي هذا قُبْح، والعرب تفرد صفة اسم الجنس وهو جمع أحياناً فيقولون: «هو حصي أبيض»، وفي القرآن: ﴿يَنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾، و﴿تَقْلِي تُنْفِرِ﴾ فكيف بأن لا يفرد هذا الذي هو صفة لواحد في معنى جمع. و﴿إِسْتَبْرَقُ﴾ في هذه القراءة عطف على «سُنْدُسٍ»، وقرأ نافع، وحفص عن عاصم، والحسن، وعيسى: ﴿خُضْرُ وَإِسْتَبْرَقُ﴾ بالرفع فيهما، ﴿خُضْرُ﴾ نعمت لـ «ثِيَابُ»، و﴿إِسْتَبْرَقُ﴾ عطف على «ثِيَابُ»، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، ونافع أيضاً: ﴿خُضْرُ﴾ رفعاً و﴿إِسْتَبْرَقُ﴾ خفضاً، «خُضْرُ» صفة لـ «ثِيَابُ» و﴿إِسْتَبْرَقُ﴾ عطف على «سُنْدُسٍ»، وقرأ ابن كثير، وعاصم - في رواية أبي بكر - : ﴿خُضْرُ﴾ خفضاً و﴿إِسْتَبْرَقُ﴾ رفعاً، فخفض ﴿خُضْرُ﴾ على ما تقدم أولاً،

و﴿إِسْتَبْرَقُ﴾ عطف على «ثِيَابُ»، و«الِإِسْتَبْرَقُ» غليظ الديباج، وقرأ ابن محيصن: ﴿وَإِسْتَبْرَقُ﴾ موصولة الألف مفتوحة القاف، كأنه مثال الماضي من بَرَقَ وَاسْتَبْرَقَ كَعَجِبَ وَاسْتَعْجَبَ، قال أبو حاتم: لا يجوز، والصواب أنه اسم جنس لا ينبغي أن يحمل ضميراً، ويؤيد ذلك دخول لام المعرفة عليه، والصواب فيه قطع الألف وإجراؤه على قراءة الجماعة. وقرأ أبو حيو: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابُ﴾ بالرفع «سُنْدُسُ خُضْرُ وَإِسْتَبْرَقُ» رفعاً في الثلاثة، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَوْ﴾ أي: جعل لهم حلي، و﴿أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة، وأسورة جمع سوار، وهو من حلي الذراع.

قوله تعالى: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾، قال أبو قلابه، والثخمي: معناه لا يصير بولاً بل يكون رشحاً من الأبدان أطيب من المسك، وهنا محذوف يقتضيه القول بتقديره: يقول الله تعالى لهم والملائكة عنه: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ الآية... تشبيث لمحمد ﷺ، وتقوية لنفسه على أفعال قرش وأحوالهم، و«حُكْمُ رَبِّهِ» تعالى أن يبلغ ويكافح ويتحمل المشقة ويصبر على الأذى ليعذر الله تعالى إليهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَوْكُرُوا﴾ هو تخيير في أن يعرف الذي ينبغي ألا يطيعه بأي وصف كان من هذين؛ لأن كل واحد منهم فهو آثم وهو كفور، ولم تكن الأمة حيثئذ من الكثرة بحيث يقع الإثم على

العاصي، واللفظ أيضاً يقتضي نهي الإمام عن طاعة آثم من العصاة أو كفور من المشركين، وقال أبو عبيدة: (أَوْ) بمعنى «الواو» وليس في هذا تخيير.

ثم أمره تعالى بذكر ربّه عزّ وجلّ دأباً بُكْرَةً وأصيلاً، ومن الليل بالسجود والتسبيح الذي هو الصلاة، ويحتمل أن يريد قول: «سبحان الله»، وذهب قوم من أهل العلم إلى أن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس، منهم ابن حبيب وغيره، فالْبُكْرَةُ: صلاة الصبح، والأصيل الظهر والعصر، ومن الليل: المغرب والعشاء، وقال ابن زيد وغيره: كان هذا فرضاً ونُسْخ، فلا فرض إلا الخمسة، وقال قوم، هو محكم على جهة التنب.

٢٧ - ٢٨ تفسير قوله عزّ وجلّ:

الإشارة بـ «هَذَلِكَ» إلى كفار قرش، و«العاجلة»: الدنيا، وحُبهم لها أنهم لا يعتقدون غيرها، و﴿وَيَذَرُونَ زُكَاةً مُّهُمْ﴾ معناه: فيما يأتي من الزمان بعد موتهم، وقال لبيد:

أَلَيْسَ وَرَآئِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي
لُزُومُ الْقَصَا تُحْنِي عَلَيْهَا الْأَصَابُ
ووصف اليوم بالثقل على جهة التّسب، أي: ذا ثقل من حيث الثقل فيه على الكفار، وهو كليل نائم.

ثم عدد تعالى النعمة على عباده في خلقهم وإيجادهم وإتقان بنيتهم وشد خلقتهم، و«الْأَسْرُ»: الخلقة وأتساق الأعضاء والمفاصل، وقد قال أبو هريرة، والحسن، والربيع: الأسر: المفاصل والأوصال، وقد قال

بعضهم: الْأَسْرُ: القوة، ومنه قول الشاعر:

فَأَنْجَاهُ عِدَّةَ الْمَوْتِ مِنِّي
شَدِيدُ الْأَسْرِ عَضُّ عَلَى اللَّجَامِ
وقول الآخر:

مِنْ كُلِّ مُجْتَنِبٍ شَدِيدِ أَسْرِهِ
سَلِسَ الْقِيَادَ تَخَالَهُ مُخْتَالًا
قال الطبري: ومنه قول العامة:
«خذه بأسره» يريدون: خذه كله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وأصل هذا فيما له شدٌّ ورياط
كالعظم ونحوه، وليس هذا مما
يختص بالعامة، بل هو في فصيح
كلام العرب، اللهم إلا أن يريد
العامة: جمهور العرب. ومن اللفظة
«الإسار» وهو القيد الذي يشدُّ به
الأسير.

ثم توعد تعالى بالتبديل، واجتمع
من القولين - تعديد النعمة والوعيد
والتبديل - احتجاج على منكري
البعث، أي: مَنْ هذا الإيجاد
والتبديل - إذا شاء - في قدرته فكيف
تتعذر عليه الإعادة؟

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ﴾
يَحْتَمِلُ أَنْ يُشِيرَ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ، أَوْ
إِلَى السُّورَةِ بِأَسْرِهَا، أَوْ إِلَى الشَّرِيعَةِ
بِجَمَلَتِهَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾
لَيْسَ عَلَى جِهَةِ التَّخْيِيرِ، بَلْ فِيهِ قُرِينَةٌ
التَّحْذِيرِ وَالْحُضُّ عَلَى اتِّخَاذِ السَّبِيلِ،
وَالسَّبِيلُ هُنَا سَبِيلُ النِّجَاةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ﴾ نَفْيٌ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَى
الِاخْتِرَاعِ وَإِبْجَادِ الْمَعَانِي فِي
نَفْسِهِمْ، وَلَا يَرُدُّ هَذَا مَا لَهُمْ مِنْ
الِاِكْتِسَابِ وَالْمِيلِ إِلَى الْكُفْرِ، وَقَرَأَ
عَبْدُ اللَّهِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا مَا

شَاءَ اللَّهُ﴾، وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ وَثَابٍ:
﴿تَشَاءُونَ﴾ بِكَسْرِ التَّاءِ، وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مَعْنَاهُ: يَعْلَمُ مَا
يَنْبَغِي أَنْ يُسَرَّ عِبْدُهُ إِلَيْهِ، وَفِي ذَلِكَ
حِكْمَةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ.

و ﴿الظَّالِمِينَ﴾ نَصَبٌ بِإِضْمَارِ فِعْلِ
تَقْدِيرِهِ: وَيُعَذِّبُ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ،
وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿وَالظَّالِمِينَ
أَعَدَّ لَهُمْ﴾، بِتَكْرِيرِ اللَّامِ، وَقَرَأَ
جُمْهُورُ السَّبْعَةِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ بِالتَّاءِ
عَلَى الْمُخَاطَبَةِ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو
عَمْرٍو: ﴿تَشَاءُونَ﴾ بِالْيَاءِ، وَقَرَأَ
الزَّبِيرُ، وَأَبَانُ بْنُ عَثْمَانَ، وَابْنُ أَبِي
عَبْلَةَ: ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ بِالرَّفْعِ، قَالَ أَبُو
الْفَتْحِ: ذَلِكَ عَلَى ارْتِجَالِ جُمْلَةٍ
مُسْتَأْنَفَةٍ.

ثم تفسير سورة الإنسان والحمد لله
رب العالمين

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية في قول جمهور
المفسرين، وحكى النقاش أنه قيل:
إن فيها من المدني قوله تعالى:
﴿وَإِذَا قُلُّوا زَكَوْا لَا يَزْكُورُوا﴾،
عَلَى تَأْوِيلٍ مِنْ قَالَ إِنَّهَا حِكَايَةٌ عَنْ
حَالِ الْمُنَافِقِينَ، وَإِنَّمَا بِمَعْنَى قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَيَذَرُونَ إِلَى الْأُتُورِ فَلَا
يَسْتَطِيقُونَ﴾، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: نَزَلَتْ
هَذِهِ السُّورَةُ وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
بَخِيرٍ... الحديث بطوله.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قال كثير من المفسرين:

«الْمُرْسَلَاتُ»: الرُّسُلُ إِلَى النَّاسِ مِنْ
الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كَأَنَّهُ تَعَالَى
قَالَ: وَالْجَمَاعَاتُ الْمُرْسَلَاتُ، وَقَالَ
أَبُو صَالِحٍ، وَمِقَاتِلُ، وَابْنُ مَسْعُودٍ:
الْمُرْسَلَاتُ: الْمَلَائِكَةُ الْمُرْسَلَةُ
بِالرُّوحِ وَبِالتَّعَاتُبِ عَلَى الْعِبَادِ طُرْفِي
النَّهَارِ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَيْضًا، وَابْنُ
عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ:
الْمُرْسَلَاتُ: الرِّيَّاحُ، وَقَالَ
الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: الْمُرْسَلَاتُ:
السَّحَابُ. وَ﴿عُرْفًا﴾ مَعْنَاهُ عَلَى الْقَوْلِ
الْأَوَّلِ: عُرْفًا مِنْ اللَّهِ وَإِفْضَالًا عَلَى
عِبَادِهِ بِبَعَثِهِ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ،
وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَنْدُمُ جَوَازِيَهُ
لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِقَوْلِهِ ﴿عُرْفًا﴾
مُتَّبَاعَةً، عَلَى التَّشْبِيهِ بِتَتَابُعِ عُرْفِ
الْفَرَسِ وَأَعْرَافِ الْجِبَالِ وَنَحْوِ ذَلِكَ،
وَالْعَرَبُ تَقُولُ: «النَّاسُ إِلَى فُلَانٍ
عُرْفٌ وَاحِدٌ» إِذَا تَوَجَّهُوا إِلَيْهِ،
وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ: بِالْعُرْفِ، أَيِ:
بِالْحَقِّ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَهَذِهِ
الْأَقْوَالُ فِي ﴿عُرْفًا﴾ تَتَّبَعَهُ فِي قَوْلٍ مِنْ
قَالَ: الْمُرْسَلَاتُ هِيَ الْمَلَائِكَةُ، وَمِنْ
قَالَ إِنَّ الْمُرْسَلَاتَ هِيَ الرِّيَّاحُ اتَّجَهَ
فِي «الْعُرْفِ» أَنْ يَقَالَ: التَّأْوِيلُ عَلَى
تَخْصِيصِ الرِّيَّاحِ الَّتِي هِيَ نِعَمٌ بِهَا
الْأَرْزَاقُ وَالنِّجَاةُ فِي الْبَحْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ
مِمَّا لَا نِقْمَةَ فِيهِ، وَيَكُونُ الصَّنْفُ
الْآخِرُ مِنَ الرِّيحِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿فَالْقَصَصَ عَصَا﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنْ
يَكُونَ ﴿عُرْفًا﴾ بِمَعْنَى: وَالْمُرْسَلَاتُ
الرِّيَّاحُ الَّتِي يَعْرِفُهَا النَّاسُ وَيَعْبُدُونَهَا،
ثُمَّ عَقَّبَ بِذِكْرِ الصَّنْفِ الْمُسْتَنْكَرِ
الضَّارِّ وَهِيَ الْعَاصِفَاتُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ

يريد بالعرف مع الرياح التتابع كعرف
الفرس ونحوه، وتقول العرب: «هَبَّ عُرْفٌ مِنْ رِيحٍ»، والقول في
العُرْف مع أن المرسلات هي الرياح
يُطْرَد على أن المرسلات هي
السحاب، وقرأ عيسى: «عُرْفًا»
بضم الراء. و«العاصف» من الرياح:
الشديدة العاصفة للشجر وغيره.

واختلف الناس في قوله تعالى:
﴿وَالنَّازِثَاتِ﴾ - فقال مقاتل، والسدي:
هي الملائكة تنشر صحف العباد
بالأعمال، وقال ابن مسعود،
والحسن، ومجاهد، وقتادة: هي
الرياح تنشر رحمة الله تعالى ومطره،
وقال بعض المتأولين: الناشرات
طوائف الملائكة التي تبشر إخراج
الموتى من قبورهم للبعث، فكأنهم
يحيونهم، وقال قوم: الناشرات
الرمم في بعث يوم القيامة، يقال:
نشر الميت، ومنه قول الأعشى:

.....

يَا عَجَبًا لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ
وقيل: الناشرات البقاع التي تحيا
بالأمطار، شبهت بالميت يُنشر،
وقال أبو صالح: الناشرات الأمطار
تحيي الأرض.

﴿فَالْمُغْلِقَاتِ﴾، قال ابن عباس، وابن
مسعود، وأبو صالح، ومجاهد،
والضحاك: هي الملائكة تفرق بين
الحق والباطل والحلال والحرام،
وقال قتادة، والحسن، وابن كيسان:
الفارقات آيات القرآن.

وَأَمَّا «الْمُغْلِقَاتِ ذُكْرًا» فهي في قول
الجمهور: الملائكة، قال مقاتل:
جبريل عليه السلام ونحوه، وقال
آخرون: هي الرسل عليهم السلام،

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَالْمُغْلِقَاتِ﴾
بسكون اللام، أي: تُلقيه من عند الله
تعالى وبأمره إلى الرسل عليهم
السلام، وقرأ ابن عباس
رضي الله عنهما - فيما ذكر
المهدوي -: ﴿فَالْمُغْلِقَاتِ﴾ بفتح
اللام وفتح القاف وشدها، أي: تَلْقَاهُ
من قبل الله تعالى: وقرأ ابن عباس
أيضاً: ﴿فَالْمُغْلِقَاتِ﴾ بفتح اللام وشدَّ
القاف وكسرهما، أي: تُلقيه هي
للرسل عليهم السلام، و«الذُّكْرُ»
الكتب والشرائع ومُصَنَّنَاتُهَا.

واختلف القراء في قوله تعالى:
﴿عُذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾، فقرأ ابن كثير،
ونافع، وابن عامر، وعاصم - في
رواية أبي بكر - وأبو جعفر، وشيبة
بسكون الذال في ﴿عُذْرًا﴾ وضمها في
﴿نَذْرًا﴾ وقرأ أبو عمرو، وحمزة،
والكسائي، وحفص عن عاصم،
 وإبراهيم التيمي بسكون الذال فيهما،
 وقرأ طلحة، وعيسى، والحسن -
بخلاف - وزيد بن ثابت، وأبو جعفر
وأبو حيو، والأعمش عن ابن كثير
عن عاصم بضمهما فيهما. وإسكانُ
الذال على أنهما مصدران، يقال:
عُذِّرَ وعذِرَ، ونذِرَ ونذير، كنكير
ونُكِرَ، وضم الذال يصحُّ معه
المصدر ويصح أن يكون جمعاً لنذير
وعاذر والذين هما اسما فاعل،
والمعنى أن الذُّكْر يُلْقَى بإعذار
وإنذار، أو يُلْقَى مُغْذِرُونَ ومُنْذِرُونَ،
وأما النصب في قوله تعالى: ﴿عُذْرًا
أَوْ نَذْرًا﴾ فيصح إذا كانا مصدرين
أن يكون ذلك على البدل من
«الذُّكْر»، ويصح أن يكون على
المفعول للذُّكْر، كأنه تعالى قال:

فَالْمُغْلِقَاتِ أَنْ تَذْكُرَ عُذْرًا، ويصح أن
يكون ﴿عُذْرًا﴾ مفعولاً من أجله،
أي: تُلْقَى الذُّكْر من أجل الإعذار
والإنذار، وأما إذا كان ﴿عُذْرًا أَوْ
نَذْرًا﴾ جمعاً فالنصب على الحال،
 وقرأ إبراهيم التيمي: ﴿عُذْرًا وَنَذْرًا﴾
بواو بدل «أو».

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَوَعْنٍ﴾، هذا الذي وقع عليه
القسم، والإشارة إلى البعث،
و«طَفَسُ النجوم» إزالة أضوائها
واستواؤها مع سائر جرم السماء،
و«فَرْجُ السماء» هو بانفطارها حتى
تحدث فيها فروج، و«تَسْفُ الْجِبَالِ»
هو بعد التسيير، وقيل: كونها هباءً
وهو تفريقها بالريح، وقرأ الجمهور:
﴿أُفٍّ﴾ بالهمزة وشدَّ القاف، وقرأ
بتخفيف القاف مع الهمز عيسى،
وخالد، وقرأ أبو عمرو وحده:
﴿وُقَّتْ﴾ بالواو، وقرأ بها أبو
الأشهب، وعيسى، وعمرو بن
عبيد، قال عيسى: هي لغة سُفْلَى
مضر، وقرأ أبو جعفر بواو واحدة
خفيفة القاف، وهي قراءة ابن
مسعود، والحسن، وقرأ الحسن بن
أبي الحسن: ﴿وَوُقَّتْ﴾ بواوَيْنِ،
على وزن فُعِلْتَ، والمعنى: جُعِلَ
لها وقت مُسَطَّر فجاء وحان، والواو
في هذا كله هي الأصل، والهمزة
بدل.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَبْرُئُ لَكُمْ﴾
تعجيب وتوقيف على عظم ذلك
اليوم وهوله، ثم فسر تعالى ذلك
الذي عَجِبَ منه بقوله: ﴿يَبْرُئُ
الْفَصْلِ﴾ يعني تعالى: بَيْنَ الخلق
في منازلهم وحسابهم ومنازلهم من

جنة أو نار، ومن هذه الآية انتزع القضاء الآجال في الحكومات ليقع فصل القضاء عند تمامها، ثم عظم سبحانه يوم الفصل بقوله: ﴿وَمَا أَذْرَبْكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾، على نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَذْرَبْكَ مَا الْخَافَةُ﴾ وغير ذلك، ثم أثبت تعالى الربيل للمكذبين في ذلك اليوم، والمعنى: للمكذبين به في الدنيا وبساتير فصول الشرع، وال«وَلَيْلٍ» هو الحرب والحزن على نوائب تحدث بالمرء، ويروى عن النعمان بن بشير، وابن مسعود، وعمار بن ياسر أن وادياً في جهنم اسمه «الْوَيْل».

١٦ - ٢٨ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور القراء: ﴿ثُمَّ تُنْفِثُهُمْ﴾ بضم العين على استئناف الخبر، وقرأ أبو عمرو - فيما زوي عنه -: ﴿ثُمَّ تُنْفِثُهُمْ﴾ بجزم العين عطفاً على ﴿تُنْهِلُكَ﴾، وهي قراءة الأعرج، وعلى حسب هاتين القراءتين يحجى التأويل في ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ فَمَنْ قرأ الأولى جعل ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ الأمام التي تقدمت قريشاً بأجمعها، ثم أخبر تعالى أنه يُنْفِثُ ﴿الْآخِرِينَ﴾ من قريش بيسر أولئك إذا كفروا وسلوكوا سبيلهم، وَمَنْ قرأ الثانية جعل ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ قوم نوح وإبراهيم ومن كان معهم، و﴿الْآخِرِينَ﴾ قوم فرعون وكل من تأخذ وقرب من مدة محمد ﷺ، وفي حرف عبدالله: ﴿وَسُتُنْفِثُهُمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَفْعُ الْإِجْرِمِينَ﴾، أي: في المستقبل، فتدخل هنا قريش وغيرها من الكفار.

وأما تكرار قوله تعالى في

هذه السورة: ﴿وَلَّيْلٌ يُؤْمِرُ لِلْمَكْذِبِينَ﴾ فقول: ذلك بمعنى التأكيد فقط، وقيل: بل في كل آية منها ما يقتضي التصديق، فجاء الوعيد على التكذيب يؤكد الذي في الآية.

ثم وقف تعالى على أصل الخلقة التي يقتضي النظر فيها تجويز البعث، و«الْمَاءُ الْمُهَيَّيْنُ» معنا: الضعيف، وهو المنى من الرجل والمرأة، و«الْقَرَارُ الْمَكِينُ» الرُّجْم وبطن المرأة، و«الْقَدَرُ الْمَعْلُومُ» وقت الولادة، ومعناه: معلوم عند الله

تعالى في شخص شخص، وأما عند الآدميين فيختلف، فليس بمعلوم قدر شخص بعينه، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونافع، والكسائي: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بتشديد الدال، وقرأ الباقون بتخفيفها، وهما بمعنى، من القدرة والقدر، ومن التقدير والتوقيف، وقوله تعالى: ﴿الْقَدِيرُونَ﴾ يَرْجُحُ قراءة الجماعة، أما إن ابن مسعود روى عن النبي ﷺ أنه فسر «القادرين» بالمقدرين، وقرأ ابن أبي عيلة: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بتشديد الدال ﴿قِيمَ الْقَدِيرُونَ﴾.

و «الْكِفَاتُ» الستر والوعاء الجامع للشيء بإجماع، تقول: كَفَت الرجل شعره، إذا جمعه بخرقه، والأرض تَكْفَتُ الأحياء على ظهرها، وتَكْفَتُ الأموات في بطنها، و«أَحْيَاءٌ» - على

الْمَكْذِبِينَ ﴿١٦﴾ جَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٧﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿١٨﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿١٩﴾ وَلَيْلٌ يُؤْمِرُ لِلْمَكْذِبِينَ ﴿٢٠﴾ أَنْ يَجْعَلَ الْأَرْضَ كِنَانًا ﴿٢١﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٢﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجْسًا شَهِيدًا ﴿٢٣﴾ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً قُرًّاءً ﴿٢٤﴾ وَلَيْلٌ يُؤْمِرُ لِلْمَكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾ أَنْ يَأْخُذُوا بِالْحَبْلِ أَطْلُقُوا إِلَى طُلُذِي ثَلَاثِ شُعْبٍ ﴿٢٦﴾ لَا ظُلِيلَ وَلَا يُعْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٢٧﴾ إِنَّمَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ ﴿٢٨﴾ كَأَنَّهُ جُمْلَةٌ صُفْرٍ ﴿٢٩﴾ وَلَيْلٌ يُؤْمِرُ لِلْمَكْذِبِينَ ﴿٣٠﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣١﴾ وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ فَعْدُهُمْ ﴿٣٢﴾ وَلَيْلٌ يُؤْمِرُ لِلْمَكْذِبِينَ ﴿٣٣﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكَوْا وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٤﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُم كَيْدٌ فَيَكْدُورُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَيْلٌ يُؤْمِرُ لِلْمَكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ الْإِنْسَانُ فِي ظُلُلٍ رَعْبُونَ ﴿٣٧﴾ وَفُورَكَ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٣٨﴾ كَوُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا كَذَبْنَاكُم بِنُجُومِ الْمُسْتَسِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَيْلٌ يُؤْمِرُ لِلْمَكْذِبِينَ ﴿٤١﴾ كَوُوا وَتَسْمَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تَجْرُمُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَيْلٌ يُؤْمِرُ لِلْمَكْذِبِينَ ﴿٤٣﴾ إِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَبُوا لَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٤﴾ وَلَيْلٌ يُؤْمِرُ لِلْمَكْذِبِينَ ﴿٤٥﴾ فَإِنَّا نَحْنُ حَدِيثُ بَدءِ يَوْمُئِذٍ ﴿٤٦﴾

٥٨١

هذا التأويل - معمول لقوله سبحانه: ﴿كِنَانًا﴾؛ لأنه مصدر، وقال بعض المتأولين: ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ إنما هو بمعنى أن الأرض فيها أقطار أحياء وأقطار أموات، يراد: ما بُنيت وما لا بُنيت، فنصب «أَحْيَاءَ» - على هذا - إنما هو على الحال من «الأرض»، والتأويل الأول أقوى، وقال بُنَان: خرجنا مع الشعبي إلى جنازة فنظر إلى الجبانة فقال: هذه كِفَاتُ الموتى، ثم نظر إلى البيوت فقال: هذه كِفَاتُ الأحياء، وكانت العرب تُسمي «بقيع الغرقدة» كَفْتَةً لأنه مقبرة يضم الموتى، وفي الحديث: «خُفِرُوا أَيْتَكُمْ، وَأُكُوَا أَسْقِيَتَكُمْ، وَخَفِنُوا صَبِيَانَكُمْ، وَأَغْلَقُوا أَبْوَابَكُمْ، وَأَطْفِئُوا مَصَابِيحَكُمْ»، ودفن ابن مسعود قملة في المسجد ثم قرأ: ﴿أَنْ يَجْعَلَ الْأَرْضَ كِنَانًا﴾، ولما

كان القبر كِفَاتاً كالبيت قُطِعَ من سرق منه .

و «الرَّوَاسِي» الجبال؛ لأنها رَسَتْ، أي: ثَبَتَتْ، و «الشَّايِخُ» المرتفع، ومنه: شَمَخَ بِأَنْفِهِ، أي: ارتفع واستعلى، شبه المعنى بالشخص. و «أَسْقَى» جعله سقياً للفلات والمنافع، و «سَقَى» معناه: للشفة خاصة، هذا قول لجماعة من أهل اللغة، وقال آخرون: هما بمعنى واحد، و «الْفَرَاتُ» الصافي، ولا يقال لِلْمِلْحِ فُرَاتٌ، وهي لفظة تجمع ماء المطر ومياه الأنهار، وخص النهر المشهور هذا تشريفاً له، وهو نهر الكوفة، وسيحان هو نهر بلخ، وجيحان هو نهر دجلة، والنيل نهر مصر، وُحِكِي عن عكرمة أن كل ماء في الأرض فهو من هذه، وفي هذا بُعد، والله تعالى أعلم.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ هو للمكذابين الذين لهم الويل، يقال لهم: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الآخرة، ولا خلاف في كسر اللام من قول تعالى: ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ في هذا الأمر الأول، وقرأ يعقوب - في رواية رويس -: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ﴾ بفتح اللام، على معنى الخبر، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ بكسر اللام، على معنى تكرير الأمر الأول، وبيان الْمُنْطَلَقِ إِلَيْهِ، وقال عطاء: الظِّلُّ الذي له ثلاث شعب هو دخان جهنم، رُوي أنه يعلو من ثلاثة مواضع فيراه الكفار فيظنون أنه مُثَنٌّ فيهرعون إليه فيجدونه على

أسوأ وصف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه المخاطبة إنما تقال يومئذ لِعَبْدَةِ الصُّلَيْبِ إذا أتبع كل أحد ما كان يعبد، فيكون المؤمنون في ظل الله تعالى، ولا ظِلٌّ إِلَّا ظِلُّهُ، ويقال لِعَبْدَةِ الصُّلَيْبِ: انطلقوا إلى ظِلِّ معبودكم وهو الصليب له ثلاث شعب، والشعب تفرق الجسم الواحد فرقاً، ثم نفى تعالى عنه محاسن الظِّلِّ.

والضمير في ﴿إِنَّمَا﴾ لجهنم، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿بِشَرَارٍ﴾ بـألف، جمع شرارة، وهي لغة تميم، و «القَصْر» في قول ابن عباس وجماعة من المفسرين: اسم نوع القصور، وهي الأُدُورُ الكبار مُشَيِّدة، وقد شبهت العرب بها الثوق، ومن المعنى قول الأخطل:

كَأَنَّهَا بُرْجٌ رُومِيٌّ يُشَيِّدُهُ
لَزْ بِجِصٍّ وَأَجْرٌ وَأَخْجَارٍ

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: القَصْرُ أيضاً خشب كان في الجاهلية يُقَطَّعُ من جَزَلِ الحطب من النخل وغيره، على قدر الذراع وفوقه ودونه، يُسْتَعَدُّ به للشَّاءِ، يُسَمَّى القَصْرُ، واحده قَصْرَة، وهو المراد في الآية، وإنما سُمِّيَ بالقَصْرِ لأنه يحيط بالقصرة. وقال مجاهد: القَصْرُ حُرْمُ الحطب، وهذه قراءة الجمهور. وقرأ ابن عباس أيضاً وابن جبير: ﴿كَالْقَصْرِ﴾ بفتح الصاد، جمع قَصْرَة، وهي أعناق الخيل والإبل، وكذلك هي أيضاً في الناس، وقال ابن عباس: جذور النخل، وقرأ ابن جُبَيْر أيضاً والحسن: ﴿كَالْقَصْرِ﴾ بكسر القاف

وفتح الصاد، وهي جمع قَصْرَة كَحَلَقَةٍ وَجَلَّتْ من الحديد.

واختلف الناس في «الجمالات»، فقال جمهور المفسرين: هي جمع «جمال» على صحيح البناء كرجال ورجالات، وقال آخرون: أراد بالصفَر: السود، وأنشدوا على ذلك بيت الأعشى:

تِلْكَ خَيْلي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي
مِنْ صَفَرٍ أَوْلَادُهَا كَالزَّرْبِيبِ

وقال جمهور الناس: بل «الصفَر»: الفاقعة لأنها أشبه بلون الشَّرَر، وشبهه الشَّرَر بالجمالات، وقرأ الحسن: «صَفَرٌ» بضم الصاد والفاء، وقال ابن عباس، وابن جبير: الجمالات قُلُوسُ السفن، وهي جمالاتها العظام إذا جمعت مستديرة بعضها إلى بعض جاء منها أجرام عظام، وقال ابن عباس: الجمالات قُطِعَ النحاس الكبار، وكان اشتقاق هذه اللفظة من اسم الجملة.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿بِكْسَرِ الْجِيمِ﴾، لحقت التاء جمالاً لتأنيث الجمع فهي كَحَجَرٍ وَجِدَارَةٍ، وقرأ ابن عباس، وأبو عبد الرحمن، والأعمش: ﴿جُمَالَةً﴾ بضم الجيم، وقرأ باقي السبعة والجمهور وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿جَمَالَاتٍ﴾ على ما تفسر بكسر الجيم، وقرأ ابن عباس أيضاً، وقتادة، وابن جبير، والحسن، وأبو رجاء - بخلاف عنهما -: ﴿جُمَالَاتٍ﴾ بضم الجيم، واختلف عن نافع، وأبي جعفر، وشيبة، وكان ضم الجيم فيها من الجملة لا من الجمل، وكسرها من الجمل لا من الجملة.

ولما ذكر تعالى المكذبين قال مخاطباً لمحمد ﷺ: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾، أي: في يوم القيامة أسكتهم الهيبة وذُلُّ الكفر، وهذا في موطن خاص فإنهم لا ينطقون فيه؛ إذ قد نطق القرآن بنطقهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ ﴿رَبَّنَا أَسْكِنْنَا﴾، فهي مواطن، و﴿يَوْمٌ﴾ مضاف إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَنْطِقُونَ﴾، وقرأ الأعرج، والأعمش، وأبو حنيفة: ﴿هَذَا يَوْمٌ﴾، لما أضاف إلى غير متمكن ببناء، فهي فتحة بناء، وهي في موضع رفع، ويحتمل أن يكون ظرفاً وتكون الإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ إلى زميها بشرز كالقصر. وقوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ معطوف على ﴿يُؤْذَنُ﴾، ولم ينصب في وجوب النفي لتشابه رؤوس الآي، والوجهان جائزان.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْقَصَلِ جَمَعَكُمُ﴾ مخاطبة للكفار يومئذ، و﴿الْأُولُونَ﴾ المشار إليهم قوم نوح وغيرهم ممن جاء في صدر الدنيا وعلى وجه الدهر. ثم وقف تعالى عبيده الكفار المستوجبين عقابه بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾، أي: إن كان لكم حيلة أو مكيدة تُنجيكم فافعلوها.

(١١) - (٥٠) تفسير قوله عز وجل:

ذَكَرَ تَعَالَى حَالَةَ الْمُتَّقِينَ عَقِبَ ذِكْرِ حَالَةِ أَهْلِ النَّارِ لِبَيِّنِ الْفَرْقِ، وَ«الظَّلَالُ» فِي الْجَنَّةِ عِبَارَةٌ عَنْ تَكَاثُفِ الْأَشْجَارِ وَجُودَةِ الْمَبَانِي، وَإِلَّا فَلَا شَمْسَ تُؤْذِي هُنَالِكَ حَتَّى يَكُونَ ظِلٌّ يَجِيرُ مِنْ حَرِّهَا، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿فِي ظِلِّلٍ﴾ وَقَرَأَ الْأَعْرَجُ، وَالْأَعْمَشُ: ﴿فِي ظِلِّلٍ﴾ بِضَمِّ الظَّاءِ، وَ«الْعَيُونُ» الْمَاءُ

النابع، وقوله تعالى: ﴿يَمَّا يَشْتَهِونَ﴾ إِعْلَامٌ بِأَنَّ الْمَأْكُلَ وَالْمَشْرَبَ هُنَالِكَ بِرَسْمِ شَهَوَاتِهِمْ، بخلاف ما هي الدنيا عليه، فإن فيها شاذٌ نادر، والغُزْفُ أَنْ الْمَرْءَ يَرُدُّ شَهْوَتَهُ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ وَجْده، وهنا محذوف يدل عليه اللفظ، تقديره: يقال لهم: كلوا. و﴿هَيَّئْنَا﴾ نصب على الحال، ويجوز أن يكون نصبه على جهة الدعاء. والكاف في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَّابٌ﴾ كاف تشبيه، والإشارة بذلك إلى ما ذكره من نعيم أهل الجنة.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَشَبِّهُوا﴾ مخاطبة لقريش، على معنى: قل لهم يا محمد، وهذه صيغة أمر معناها التهديد والوعيد، وقد بين ذلك قوله تعالى: ﴿قِيلَ﴾، ثم بين تعالى لهم الإجماع الموجب لتعذيبهم، وقال من جعل السورة كلها مكية: إن هذه الآية في كفار قريش، وقال من جعل هذه الآية منها مدنية: إن هذه الآية نزلت في المنافقين، وقال مقاتل: نزلت في ثقيف لأنهم قالوا للنبي ﷺ: حُطُّ عَنَّا الصَّلَاةَ فَإِنَّا لَا نَتَحَنَّى لَهَا مَسَبَّةً، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وقال: ﴿لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَا صَلَاةَ فِيهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ لَا يَرْكَوْنَ﴾، قيل: هي حكاية حال المنافقين في الآخرة إذا سجد الناس فأرادوا هم السجود فانصرفت أصلابهم إلى الأرض وصارت فقاراتهم كصيافي البقر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقال قتادة في آخرين: هذه حال كفار قريش في الدنيا، كان رسول الله ﷺ يدعوهم وهم لا يجيبون، ويذكر

الركوع عبارة عن جميع الصلاة، هذا قول الجمهور، وقال بعض المتأولين: عنى بالركوع التواضع، كما قال الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْخَوَافِرِ
أَيُّ: مُتَذَلِّلَةٍ، وتَأَوَّل قتادة الآية قاصدة الركوع نفسه، وقال: عليكم بحسن الركوع، والذي أقول: إن ذكر الركوع هنا وتخصيصه من بين سائر أحوال العبادة إنما كان لأن كثيراً من العرب كان يأنف من الركوع والسجود، ويراهم هيئة مُنْكَرَةً، لما كان في أخلاقهم من العجرفة، أَلَا تَرَى أَن بَعْضَهُمْ قَدْ سَتَلَ فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ تَقُولُ: اسْتَخَذْتُ أَوْ اسْتَحْذَيْتُ؟ فَقَالَ: كُلٌّ لَا أَتَوَّلُ، قِيلَ لَهُ: لِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّ الْعَرَبَ لَا تَسْتَخْذِيءُ، فَظَنَّ أَنَّهُ سَتَلَ عَنِ الْمَعْنَى، وَلَمْ يَفْهَمْ أَنَّهُ سَتَلَ عَنِ اللَّفْظَةِ، وَفِي كِتَابِ السَّيْرِ عَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ أَنَّهُ اسْتَعْفَى مُتَكَلِّمًا عَنْ قَوْمِهِ وَنَفْسِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ، فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قِيلَ: قَالَ لَهُ: لَا بُدَّ مِنَ الصَّلَاةِ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: سَيُؤْتِيكَهَا وَإِنْ كَانَتْ دَنَاءَةً.

وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يُؤَيِّدُ أَنَّ الْآيَةَ كُلَّهَا فِي قَرِيشَ، والحديث الذي يقتضيه الضمير في ﴿يَعْدُونَ﴾ هو القرآن، وهذا توقيف وتوبيخ، وروي عن يعقوب أنه قرأ: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بالتاء من فوق، على المواجهة، ورويت عن ابن عامر.

كامل تفسير سورة المرسلات والحمد لله رب العالمين

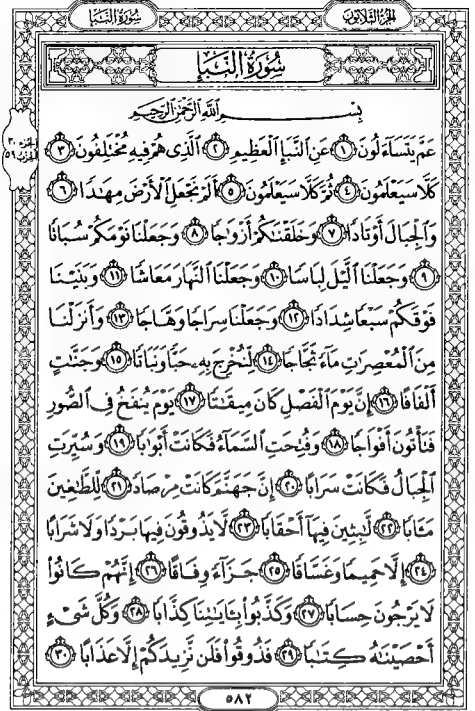
وقرأ السبعة، والحسن، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ بالياء في الموضعين، على ذكر الغائب، فظاهر الكلام أنه رد على الكفار في تكذيبهم، ووعد لهم في المستقبل، وكرر الزجر تأكيداً، وقال الضحاك: المعنى: كلاً سيعلمون، يعني الكفار على جهة الوعيد، ثم كلاً سيعلمون، يعني المؤمنين على جهة الوعد، وقرأ ابن عامر - فيما روي عنه - ومالك بن دينار، والحسن - بخلاف - ﴿كَلَّا سَتَعْلَمُونَ﴾ بالياء في الموضعين، على مخاطبة الحاضر، كأنه تعالى يقول: قل لهم يا محمد، وكرر عليهم الزجر والوعد للمؤمنين، فالعلم في هذه الآية بمعنى «ستعرفون»، فلذلك لم يتعد.

ثم وقفهم تعالى على آياته وغرائب مخلوقاته وقدرته التي يوجب النظر فيها الإقرار بالبعث والإيمان بالله تعالى، و«المهاد» الفرائش الممهدة الوطيء، وكذلك الأرض لبنيتها، وقرأ مجاهد، وعيسى، وبعض الكوفيين: «مهاد»، والمعنى نحو الأول، وشبه سبحانه الجبال بالأوتاد لأنها تمسك وتثقل وتمنع الأرض أن تميد، و«أزواجاً» معناه: أنواعاً في ألوانكم وصوركم وألستكم، وقال قوم: معناه مزدوجين ذكراً وأنثى.

وابن مسعود وعكرمة، وعيسى: «عمّا» بالالف، وقرأ الضحاك: «عمه» بهاء، وهذا إنما يكون عند الوقف.

و«النبا العظيم» قال قوم: هو الشرع الذي جاء به محمد ﷺ، وقال مجاهد وقتادة: هو القرآن خاصة، وقال قتادة أيضاً: هو البعث من القبور. ويحتمل الضمير في «يسألون» أن يريد به جميع العالم، فيكون «الاختلاف» حينئذ يراد به تصديق المؤمنين وتكذيب الكافرين ونزغات

الملحدين، ويحتمل أن يريد بالضمير الكفار من قريش، فيكون «الاختلاف» شك بعض وتكذيب بعض، وقولهم شغل وسخر وكهانة وجنون وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ متعلق بـ «يسألون» الظاهر، كأنه تعالى قال: لم يتساءلون عن هذا النبا؟ وقال الزجاج: الكلام تام في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، ثم كان مقتضى القول أن يجيب مجيباً فيقول: يتساءلون عن النبا العظيم، فاقضى إيجاز القرآن وبلاغته أن يبادر المحتج بالجواب الذي تقتضيه الحال والمجاورة، اقتضاباً للحنج وإسراعاً إلى موضع قطعهم، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَىٰ نَبِيُّكُمْ شِهَادَةٌ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾، وله أمثلة كثيرة، وقد وقع التنبيه عليها في مواضعها.



تفسير سورة النبأ

وهي مكية بإجماع، وليس فيها نسخ ولا حكم إلا ما قاله بعض الناس في قوله تعالى: ﴿لَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ من أنه منسوخ، وهو قول خلف، لأن الأخبار لا تُنسخ، وإنما ذكرنا هذا القول تنبيهاً على فساد.

١ - (١١) تفسير قوله عز وجل:

أصل «عم» عن ما، ثم أدغمت النون بعد قلبها فبقي «عمّا» في الخبر وفي الاستفهام، ثم حذفوا الألف في الاستفهام فرقاً بينه وبين الخبر، ثم من العرب من يخفف الميم تخفيفاً فيقول: «عم»، وهذا الاستفهام بـ «عم» هو استفهام توقيف وتعجيب منهم، وقرأ أبي بن كعب،

و «الشُّبَابُ» السُّكُونُ، وَسَبَّتَ الرجلُ معناه: استراح وأتَدَعَ وترك الشغل، ومنه الشُّبَابُ وهي علَّةٌ معروفة؛ سُمِّيَتْ بذلك لأن السكون أو السكوت أفرط على الإنسان حتى صار ضاراً قاتلاً، والنوم شبيه به إلا في الضرر، وقال أبو عبيدة: ﴿سُبَاتًا﴾: قَطْعاً للأعمال والتصرف، والسَّبْتُ: القَطْع، ومنه «سَبَّتَ الرجلُ شَعْرَهُ» إذا قطع شَعْرَهُ، ومنه النَّعَالُ السَّبِيَّةُ وهي التي قطع عنها الشعر.

و «لِبَاسًا» مصدر، وكان الليل كذلك من حيث يغشى الأشخاص فهي تلبسه وتتدرَّعُه، ويقال: جعله لباساً لأنه يطمس نور الأبصار ويلبس عليها الأشياء، والتصريف يضعف هذا القول لأنه كان يجب أن يكون «مُلبِساً»، ولا يقال: «لباس» إلا من لبس الثياب. و«وَجَعَلْنَا الْهَارَ مَعَاكًا» على حذف مضاف، أو على النسب، وهذا كما تقول: «لَيْلٌ نَائِمٌ». و«السَّيِّعُ الشَّدَادَةُ»: السموات، والأفصح في لفظة السماء التأنيث، ووصفها بالشدة لأنه لا يسرع إليها فساد لَوْنَاتِهَا، و«السَّرَاجُ»: الشمس، و«الْوَهَّاجُ»: الحارُّ المضطرم الانقَاد، المتعالي للهب، وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: إن الشمس في السماء الرابعة إلينا ظهرها، ولَهَبُهَا مضطرم علواً.

واختلف الناس في «الْمُعْصِرَاتِ» فقال الحسن بن أبي الحسن، وأبي بن كعب، وابن جُبَيْر، وزيد بن أسلم، ومقاتل، وقتادة: هي السموات، وقال ابن عباس، وأبو العالية، والربيع، والضحاك:

المُعْصِرَاتُ هي السحاب القاطرة، وهو مأخوذ من العصر؛ لأن السحاب ينعصر فيخرج منه الماء، وهذا قول الجمهور، وبه فسّر الحسن بن محمد العنبري القاضي بيت حسان:

كَلَنَاهُمَا حَلَبَ الْقَصِيرِ...

وقال بعض مَنْ سَمِيَتْ: هي السحاب التي فيها الماء ولَمَّا تُمَطَّر، كالمرأة المُعْصِر، وهي التي دنا حيضها ولم تحض بعد، وقال ابن كيسان: قيل للسحاب مُعْصِرَات من حيث تُغِيث، فهي من «الْعُصْرَةِ»، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفِيهِ يَمْصِرُونَ﴾، وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: المُعْصِرَات: الرياح لأنها تعصر السحاب، وقرأ ابن الزبير، وابن عباس والفضل بن عباس، وقتادة، وعكرمة: ﴿وَأَنْزَلْنَا بِالْمُعْصِرَاتِ﴾، فهذا يقوي أنه أراد الرياح. و«السَّجَّاجُ»: السريع الاندفاع كما يندفع الدَّم من عروق الذبيحة، ومنه قول النبي ﷺ وقد قيل له: ما أفضل الحج؟ فقال: «العَجُّ وَالسَّجُّ»، أراد: التضرع بالدعاء الجهير وذبح الهدي. و«الْحَبُّ»: جنس الحبوب الذي ينتفع به الحيوان، و«النبأُ»: الغُثْب الذي يستعمل رطباً لإنسان أو بهيمة، فذكر الله تعالى موضع المنفعتين. و«الْأَلْفَاكُ» جمع «ألف» بضم اللام و«ألف» جمع «ألفاء»، والمعنى مُلْتَمَّاتُ الأعْصَان والأوراق، وذلك أبداً موجود مع النضرة والري، وقال قوم: «الْأَلْفَاكُ» جمع «ألف» بكسر اللام، و«الْألفُ»: الجنة المُلْتَمَّةُ الأعْصَان، وقال الكسائي:

«الْفَافُ» جمع «لفيف»، وقد قال الشاعر:

أَحَابِيشُ أَلْفَافٍ تَبَايَنَ فَرْعُهُمْ
وَجَذُّهُمْ عَنْ نِسْبَةِ الْمُتَقَرَّبِ

(١٧) - (٢٣) تفسير قوله عز وجل:

«يَوْمَ الْفَصْلِ» هو يوم القيامة؛ لأن الله تعالى يفصل فيه بين المؤمنين والكافرين، وبين الحق والباطل، و«الْمِيقَاتُ» مِفْعَالٌ من الوقت، كميعادٍ من الوعد. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْعَخُ﴾ بدل من «يَوْمَ» الأول، و«الصُّورُ»: الْقَرْنُ الذي يُفْنَخ فيه لبعث الناس، هذا قول الجمهور، ويحتمل هذا الموضع أن يكون «الصُّور» فيه جمع «صورة»، أي: يوم يردُّ الله تعالى الأرواح إلى الأبدان، هذا قول بعضهم في «الصُّور»، وجوزَه أبو حاتم، والأول أشهر، وبه تظاهرت الآثار، وهو ظاهر كتاب الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يُفْعَخُ فِيهِ الثُّرَى﴾، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «وفي الصُّور» بفتح الواو. و«الأفواجُ»: الجماعات يتلو بعضها بعضاً، واحداها فَوْج.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، وشيبة، والحسن: «وَفُتِحَتْ» بشد الثاء على المبالغة، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «وَفُتِحَتْ» دون شد. وقوله تعالى: «فَكَانَتْ أَبْوَابًا» معناه: تنفطر وتشقق حتى يكون فيها فتوح كالأبواب في الجدران، وقال آخرون: فيما حكى مكي بن أبي طالب -: الأبواب هنا فُلُقُ الخشب التي تجعل أبواباً لفتوح الجدران، أي: تنقطع

النار، ومن الناس من ظن لذكر الأحقاب أن مدة العذاب تنحصر وتتم، فطلبوا التأويل لذلك، فقال مقاتل بن حيان: الحُقْبُ سبعة عشر ألف سنة، وهي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَذَرُونَا أَفْزِدْكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، وقد ذكرنا فساد هذا القول. وقال آخرون: الموصوف باللبث أحقاباً هم عصاة المؤمنين. وهذا أيضاً ضعيف، ما بغده في السورة يرُدُّ عليه، وقال آخرون: إنما المعنى: لا بشين فيها أحقاباً غير ذائقين بزداً ولا شرباً، فبهذه الحال يلبثون أحقاباً، ثم يبقى العذاب سمرداً وهم يشربون أشربة جهنم. وقرأ الجمهور: ﴿لَبِثِينَ﴾ وقرأ حمزة وحده، وابن مسعود، وعلقمة، وابن وثاب، وعمر بن ميمون، وعمر بن شرحبيل: ﴿لَبِثِينَ﴾ جمع «لَبِثٌ»، وهي قراءة معترضة، لأن فعلاً إنما يكون لما صار خُلُقاً كخَذِرٍ وْفِرْقٍ، وقد جاء شاذاً فيما ليس بخلق، وأنشد الطبري وغيره في ذلك بيت لبيد:

أَوْ مَسْحَلٍ عَمِلَ عِضَادَةً سَمَحَجَ
بِسَرَاتِهَا تَسْدُبُ لَهُ وَكُلُومُ
قال المعترض في القراءة: لا حجة في البيت لأن «عملاً» قد صار كالخلق الذي يواظب على العمل به حتى إنه يُسَمَّى به في وقت لا يعمل فيه، كما تقول: «كاتب» لمن كانت له صناعة وإن لم يكتب أكثر أحيانه، قال المحتجُّ لها: شبه «لبث» لدوامه بالخلق لما صار اللبث من شأنه.

٢٤ - ٢٧ تفسير قوله عز وجل: قال أبو عبيدة، والكسائي،

الصراف جسرٌ يُنصب على مثن جهنم، ثم يجوز عليه الناس، فجاج ومكدوس، وقال بعض المتأولين: «مرصاة» مفعال بمعنى راصد، وقرأ أبو مغمر المُنْقَرِي: ﴿أَنْ جَهَنَّمَ﴾ بفتح الألف، والجمهور على كسرها، و«الطاعون»: الكافرون، و«المآب»: المرجع، و«الأحقاب»: جمع حُقْب - بضم الحاء وفتح القاف، وحُقْب بكسر الحاء، وحُقْب بضمها وضم القاف، وهو جمع حَقْبَة، ومنه

قول مُثَمِّن:

وَكُنَّا كَعْدَمَانِي جَذِيمَةً حَقْبَةً
مَنْ الدَّهْرُ حَتَّى قَبِيلٌ لَنْ يَنْتَصِدَعَا
وهي المدة الطويلة من الدهر غير محدودة، ويقال للسنة أيضاً: حَقْبَة، وقال بشر بن كعب: حُلْداً على ما ورد في الكتب المنزلة ثلاثمائة سنة، وقال هلال الهجري: ثمانون سنة، قالوا: في كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، وقال ابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهم: ثمانون ألف سنة، وقال الحسن: سبعون ألف سنة، وقيل: خمسون ألف سنة، وقال أبو أمامة عن النبي ﷺ: «إِنَّهُ ثَلَاثُونَ أَلْفَ سَنَةٍ»، وأكثرُ الناس في هذا، واللازم أن الله تعالى أخبر عن الكفار أنهم يلبثون أحقاباً، كلما مرَّ حُقْبُ جاء غيره، إلى غير نهاية، قال الحسن: ليس لها عدة إلا الخلود في

السما إقطعاً صغاراً حتى تكون كالألواح الأبواب، والقول الأول أحسن، وقال بعض أهل العلم: تفتح في السماء أبواب للملائكة من حيث ينزلون ويصعدون، وقوله تعالى: ﴿ثَكَّاتٍ سَرَابًا﴾ عبارة عن تلاشيها وفنائها بعد كونها هباءً منبثاً، ولم يرد تعالى أن الجبال تعود تشبه الماء على بُعْدٍ من الناظر إليها.

و«مرصاة» موضع الرصد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَيْدَكَ لِالْإِرْصَادِ﴾، ويروى عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال: لا يدخل أحد حتى يجوز على جهنم، فمن كانت له أسباب نجاة نجا وإلا هلك، وقال قتادة: تعلموا أنه لا سبيل إلى الجنة حتى تقطع النار، وفي الحديث الصحيح: «إِنْ

سُورَةُ النَّبَا

سُورَةُ النَّبَا

إِنَّ الْمَتَيْنِ مَفَارًا ۝ عَذَابٌ وَأَعْيَابٌ ۝ وَكَوْاعِبَ آزَابٍ ۝ وَكُنُوسًا ۝ دِهَاقًا ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا كِتَابًا ۝ جَزَاءُ مَنْ رَزَقَهُ عِطَاءً ۝ حِسَابًا ۝ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْفُتْحُ ۝ قَمَنَ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رِيْدِهِ مَنَابًا ۝ إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ رَبًّا ۝

سُورَةُ النَّارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّارِ عَذِبٌ غَرَامًا ۝ وَالنَّارُ حَرٌّ شَدِيدٌ ۝ وَالنَّارُ حَرٌّ شَدِيدٌ ۝ فَالْمُذْذَبَاتِ أَمْرًا ۝ يَوْمَ جُمُعَاتٍ أَلْجِئَةً ۝ تَتَّبِعُهَا الْآرَاءُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَ يَوْمٍ وَاجِفَةً ۝ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةً ۝ يَقُولُونَ لَوْ نَالَهُمْ دُونَ فِي الْكَافِرِ ۝ أَوْ ذَا كُنَّا عِظَمًا نَخِرَ ۝ قَالُوا إِنَّكَ إِذَا كُرُهُ خَاسِرَةٌ ۝ قَالُوا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ قَالُوا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝

٥٨٣

والفضل بن خالد، ومعاذ النحوي: البَرْدُ في هذه الآية النوم، والعرب تسميه بذلك لأنه يُبْرَدُ سورة العطش، ومن كلامهم: «منع البَرْدُ البَرْدَ»، وقال جمهور الناس: البَرْدُ في هذه الآية مَسُّ الهواء البارد، وهو القُرْ، أي: لا يمسه منه ما يُسْتَلَذُّ ويكسر عذاب الحرِّ، فالذوق - على هذين القولين - مستعار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: البَرْدُ الشراب البارد المُسْتَلَذُّ، ومنه قول حسان بن ثابت:

يَسْقُونَ مِنْ وَرْدِ الْبَرِيصِ عَلَيْهِمْ
بَرْدِي يُصَفِّقُ بِالرَّحِيْقِ السُّلْسِلِ
ومنه قول الآخر:

أَمَانِي مِنْ سُعْدَى جِسَانٍ كَأَمَّا
سَقْنَتْ بِهَا سُعْدَى عَلَى ظَمَأٍ بَرْدَا
ثم قال تعالى: ﴿وَلَا شَرَابًا إِلَّا جَبَسًا﴾، فالاستثناء متصل، و«الحميم»: الحارُّ الذائب، وأكثر استعماله في الماء السخن والعرق، ومنه الحُمَامُ، وقال ابن دُرَيْدٍ: الحميم دُمُوعٌ أعينهم، وقال النقاش: الحميم الصُّفْرُ المذاب المتناهي الحر، واختلف الناس في «الغساق» - فقال قتادة، والتخمي، وجماعة: هو ما يسيل من أجسام أهل النار من صديد ونحوه، يقال: غسق الجرحُ إذا سَالَ منه قيح ودم، وغسقت العين إذا دمت وخرج قذاها، وقال ابن عباس ومجاهد: الغِسَاقُ مشروب لهم مفرط الزمهرير كأنه في الطرف الثاني من الحميم، يشوي الوجه بِبَرْدِهِ، وقال عبدالله بن بريدة: الغِسَاقُ المُتَن. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وعاصم، وجماعة من

الجمهور: «غَسَاقًا» مخففة السين، وهو اسمٌ على ما قدمناه، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن أبي إسحق، والشعبي، والحكم بن عُبَيْنَةَ، وقتادة، وابن وثاب: «وَسَقَاقًا» مشددة السين، وهي صفةٌ أُقيمت مقام الموصوف، كأنه تعالى قال: ومشروبًا غساقًا، أي: كأنه سائل من أبدانهم.

وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً وَكَفَّارًا﴾ معناه: لأعمالهم وكفرهم، أي: هو جزاؤهم الجدير بهم، الموافق مع التحذير لأعمالهم، فهي كُفْرٌ والجزاء نازِلٌ. و«يَرْجُونَ» قال أبو عبيدة وغيره: معناه: يخافون، وقال غيره: الرجاء هنا على بابهِ، ولا رجاء إلا وهو مُقْتَرَنٌ بخوف، ولا خوف إلا وهو مُقْتَرَنٌ برجاء، فذكر أحد القسمين لأن المقصد العبارة عن تكذيبهم، كأنه تعالى قال: إنهم كانوا لا يصدقون بالحساب، فهم لذلك لا يرجونه ولا يخافونه. وقرأ جمهور الناس: ﴿كَذَّابًا﴾ بشد الذال وكسر الكاف، وهو مصدر بلغة بعض العرب، وهي يمانية، ومنه قول أحدهم وهو يستغني: «أَلْخَلْتُ أَحَبَّ إِلَيْكَ أَمْ الْقِصَاصُ؟» ومنه قول الشاعر:

لَقَدْ طَالَمَا تَبَطَّطْنِي عَنْ صَحَابَتِي
وَعَنْ جَوْجٍ قِصَاصُهَا مِنْ شِفَائِيَا
وهذا عندهم مصدر من فَعَّلَ، وقال الطبري: لم يختلف القراءة في هذا الموضع في «كذاب»، وأراه أراد السبعة، وأمَّا في الشاذ فقرأ علي ابن أبي طالب، وعوف الأعرابي، وعيسى - بخلاف - والأعمش، وأبو رجاء: ﴿كَذَّابًا﴾ بكسر الكاف

وتخفيف الذال، وقرأ عبدالله بن عمر بن عبد العزيز: ﴿كَذَّابًا﴾ بضم الكاف وشد الذال على أنه جمع كاذب، ونصبه على الحال، قاله أبو حاتم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ يريد: كل شيء شأنه أن يُحصى، وفي هذا الخبر زَيْطٌ لأجزاء القصة بأولها، أي: هم مُكَذَّبُونَ كافرون ونحن قد أحصينا بالقول لهم في الآخرة: «دُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا»، وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يقول: ما نزلت في أهل النار آية أشد من قوله تعالى: ﴿فَدُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، ورواه أبو هريرة عن النبي ﷺ.

ولما ذكر تعالى أمر أهل النار عَقَبَ بذكر أهل الجنة ليعين الفرق، و«المفاز» موضع الفوز؛ لأنهم زحزحوا عن النار، وأدخلوا الجنة و«الحدائق» البساتين التي عليها جدران أو حظائر، و«أَزْأًا» معناه: على سَنٍّ واحدة، والشَّزبان هما اللذان مَسَا التراب في وقت واحد، و«الذهاق» المُشْرَعَة فيما قال الجمهور، وقال ابن جبير ومجاهد: معناه: المتابعة، وهي من الذهق، وقال عكرمة: هي الصافية، وفي البخاري، قال ابن عباس: سمعتُ أبي في الجاهلية يقول للساقى: اسقني كأسًا دهاقًا. و«اللغو» سقط الكلام، وهو ضروب، وقد تقدم القول في [كذابًا] إلا أن الكسائي من السبعة قرأ في هذا الموضع: ﴿كَذَّابًا﴾ بالتخفيف، وهو مصدر، ومنه قول الأعشى:

فَصَدَقْتُهَا وَكَذَّبْتُهَا
وَالْمَرْءُ يَنْتَفِعُ بِكَذَابَةِ
واختلف المتأولون في قوله
تعالى: ﴿حَسَابًا﴾ - فقال جمهور
المفسرين واللغويين: معناه:
مُحْسِبًا، أي: كافياً، من قولهم:
أحسبني هذا الأمر، أي: كفاني،
ومنه، حسبي الله، وقال مجاهد ما
معناه: إن ﴿حَسَابًا﴾ معناه: مُقْسَطًا
على الأعمال؛ لأن نفس دخول
الجنة هو برحمة الله تعالى وتفضله
لا بعمل، والدرجات فيها والنعم
على قدر الأعمال، فإذا
ضاعف الله تعالى لقوم حسناتهم
بسبعمائة مثلاً ومنهم الكثير من
الأعمال والمُقِلُّ أخذ كل واحد
سبعمائة بحسب عمله، وكذلك في
كل تضعيف، فالحساب هنا هو
بموازنة أعمال القوم، وقرأ
الجمهور: ﴿حَسَابًا﴾ بكسر الحاء
وتخفيف السين مفتوحة، وقرأ ابن
قطيب: ﴿حَسَابًا﴾ بفتح الحاء وشُدَّ
السين، قال أبو الفتح: جاء
بالاسم من أفعل على فَعَالٍ كما
قالوا: أدرك فهو ذَرَاكَ، وقرأ ابن
عباس، وسراج: ﴿عَطَاءَ حَسَنًا﴾
بالنون من الحسن، وحكى عنه
المهدوي أنه قرأ: ﴿حَسْبًا﴾ بفتح
الحاء وسكون السين وبالباء، وقرأ
شريح بن يزيد الحمصي:
﴿حَسَابًا﴾ بكسر الحاء وشُدَّ السين
المفتوحة، وقرأ نافع، وأبو عمرو،
والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة،
وأهل الحرمين: ﴿رَبُّ﴾ بالرفع،
وكذلك ﴿الرَّحْمَنُ﴾، وقرأ ابن
عامر، وعاصم، وابن مسعود،

وابن أبي إسحق وابن محيصن،
والأعمش: ﴿رَبِّ﴾ بالخفض،
وكذلك ﴿الرَّحْمَنُ﴾ وقرأ حمزة،
والكسائي: ﴿رَبِّ﴾ بالخفض، و
﴿الرَّحْمَنُ﴾ بالرفع، وهي قراءة
الحسن، وابن وثاب، والأعمش،
وابن محيصن - بخلاف عنهما،
ووجوه هذه القراءة بينة، وقوله
تعالى: ﴿لَا يَلْكُونَ يَتَذَكَّرُونَ﴾
الضمير للكفار، أي: لا يملكون
من أفضاله وإجماله أن يخاطبوه
بمعذرة ولا غيرها، وهذا في
موطن خاص.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في «الروح»
المذكور في هذا الموضع - فقال
الشعبي والضحاك: هو جبريل عليه
السلام، ذكره خاصة من بين
الملائكة تشریفاً، وقال ابن
مسعود: هو ملك عظيم، أكبر
الملائكة خلقة يسمى بالروح،
وقال ابن زيد: كان أبي يقول:
هو القرآن، وقد قال الله تعالى:
﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُحْمًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فالقيام فيه مستعار يراد به بياؤه
وظهوره وشدة آثاره، والأشياء الكائنة
عن تصديقه وتكذيبه، ومع هذا في
القول قلَّوْ، وقال مجاهد: الروح
خَلَقَ على صورة بني آدم يأكلون
ويشربون، وقال ابن عباس عن
النبي ﷺ: «الروح خلق غير
الملائكة، وحفظة للملائكة كما
الملائكة حفظة للأنبياء ولنا»، وقال
ابن عباس، والحسن، وقتادة: الروح
هنا اسم جنس يُراد به أرواح بني

آدم، والمعنى: يوم تقوم الأرواح في
أجسادها إثر البعث والنشأة الآخرة،
ويكون الجمع من الإنس والملائكة
صفاً، ولا يتكلم أحد هيبه وفزعاً،
إلا مَنْ أذن له الرحمن من مَلَكٍ أو
نبي، وكان أهلاً أن يقول صواباً في
ذلك الموطن، قال ابن عباس
رضي الله عنهما: الضمير في
﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ عائد إلى الناس خاصة،
و«الصواب» المشار إليه هو «لا إله
إلا الله»، قال عكرمة: أي: قالها في
الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ﴾
أي: الحق كونه ووجوده، وفي
قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ لِمَا
رَبَّيْهِ مَنَابِتًا﴾ وعدَّ ووعد وتحريض،
و«المناب» المرجع وموضع الأوبة،
والضمير الذي هو الكاف والميم
في ﴿أَنْذَرْتَكُمْ﴾ هو لجميع العالم
وإن كانت المخاطبة لمن حضر
النبي ﷺ من الكفار، و«العذاب»
القريب» عذاب الآخرة، ووصفه
بالقرب لِتَحَقُّقِ وقوعه، وأنه آت
وكل آت قريب، والجميع داخل
في النذارة منه، و«نظر المرء» إلى
ما قدمت يده من عمل» قيام
للحجة عليه، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما: «المرء» هنا
المؤمن، وقرأ ابن أبي إسحق:
﴿الْمَرْءُ﴾ بضم الميم، وضَعَفَهَا أبو
حاتم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبَسُنِي
كُتُّ رَبِّئِي﴾، قيل: إن هذا تَمَنُّ أن
يكون شيئاً حقيراً لا يُحاسب
ولا يُلتفت إليه، وهذا قد تجده
في الخائفين من المؤمنين، فقد

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ليتني كنت بكرة»، وقال أبو هريرة، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهما: إن الله تعالى يحضر البهائم يوم القيامة فيقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها بعد ذلك: كوني تراباً، فيعود جميعها تراباً، فإذا رأى الكفار ذلك تمسؤوا مثله. قال أبو القاسم بن حبيب: رأيت في بعض التفاسير أن الكافر هنا إبليس، إذا رأى ما حصل للمؤمنين من بني آدم من الثواب قال: يا ليتني كنت تراباً، أي: كآدم الذي خلق من تراب واحترقه هو أولاً.

كمل تفسير سورة النبأ والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة النازعات

هي مكية بإجماع من المتأولين.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قال ابن مسعود وابن عباس: «النازعات»: الملائكة تنزع نفوس بني آدم، و﴿عَرَفَا﴾ - على هذا القول - إما أن يكون مصدراً بمعنى الإغراق والمبالغة في الفعل، وإما أن يكون كما قال علي وابن عباس رضي الله عنهما: تفرق نفوس الكفرة في نار جهنم، وقال السدي وجماعة: النازعات: النفوس تنزع بالموت إلى ربها،

و﴿عَرَفَا﴾ هنا بمعنى الإغراق أي: تفرق في الصدور، وقال عطاء - فيما روي عنه -: النازعات: الجماعات النازعات بالقيسي، و﴿عَرَفَا﴾ بمعنى الإغراق، وقال الحسن، وقتادة، وأبو عبيدة، وابن كيسان، والأخفش: النازعات: النجوم لأنها تنزع من أفق إلى أفق، وقال قتادة: النازعات: النفوس التي تحن إلى أوطانها وتنزع إلى مذهبها، ولها نزع عند الموت، وقال مجاهد: النازعات: المنايا لأنها تنزع نفوس الحيوان، وقال عطاء وعكرمة: النازعات: القيسي أنفسهم لأنها تنزع بالسهم.

واختلف في «الناشطات» - فقال ابن عباس ومجاهد: هي الملائكة لأنها تنشط النفوس عند الموت، أي: تحلها كحل العقال، وتنشط بأمر الله تعالى إلى حيث كان، وقال مجاهد: الناشطات: المنايا، وقال ابن عباس أيضاً، وقتادة، والأخفش، والحسن: الناشطات: النجوم لأنها تنشط من أفق إلى أفق، أي: تذهب وتسير بسرعة، ومن ذلك قيل لبقر الوحش: التواشط؛ لأنهن يذهبن بسرعة من موضع إلى آخر، وقال عطاء: الناشطات في الآية: البقر الوحشية وما جرى مجراها من الحيوان الذي ينشط من قُطر إلى قُطر، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

أَمَسَتْ هُمُومِي تَنْشِطُ الْمَنَاشِطَا
السَّامِ بِسِي طَوْرًا وَطَوْرًا وَاسِطَا
وكان هذه اللفظة في هذا التأويل

مأخوذة من النشاط، وقال عطاء أيضاً وعكرمة: الناشطات: الأوثاق، تقول: نَشَطْتُ البعير والإنسان إذا رَیَطْتَهُ، وأنشَطْتُهُ إذا حَلَلْتَهُ، حكاه الفراء وخولف فيه، ومنه الحديث «كَأَنَّمَا أَنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ»، وقال ابن عباس أيضاً: الناشطات: النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج.

والسَّحَابُ: العوم في الماء، وقد يستعمل مجازاً في خرق الهواء والتقلب فيه، واختلف في «السَّابِحَاتِ» في الآية، ما هي؟ فقال قتادة والحسن: هي النجوم لأنها تسبح في فلك، وقال علي ومجاهد رضي الله عنهما: هي الملائكة لأنها تتصرف في الآفاق بأمر الله تعالى، تجيء وتذهب، وقال أبو زؤق: السَّابِحَاتُ: الشمس والقمر والليل والنهار، وقال بعض المتأولين: السَّابِحَاتُ: السحاب لأنها كالعائمة في الهواء، وقال عطاء وجماعة: السَّابِحَاتُ: الخيل، ويقال للفرس: سابح، وقال آخرون السَّابِحَاتُ: الحيتان دواب البحر فما دونها، وذلك من عظيم المخلوقات، فيروى أن الله تعالى بك في الدنيا ألف نوع من الحيوان، منها أربعمئة في البر وستمئة في البحر، وقال عطاء أيضاً: السَّابِحَاتُ: السفن، وقال مجاهد أيضاً: السَّابِحَاتُ: المنايا تسبح في نفوس الحيوان.

واختلف في «السَّابِقَاتِ»، فقال مجاهد: هي الملائكة، وقيل: هي الرياح، وقال عطاء: هي الخيل،

وقيل: النجوم، وقيل: المنايا تسبق
الآمال، وقال الشاعر:

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ
وَأَنَا الْمُنْبِرَاتُ فلا أحفظ خلافاً
أنها الملائكة، ومعناها أنها تدبر
الأمر التي يسخرها الله تعالى لها
وصرفها فيها كالرياح والسحاب
وسائر المخلوقات.

وقال ابن زيد: «الرَّاجِفَةُ»: الأرض
بأهلها، تهتز بنفخة الصور الأولى،
وقيل: الرَّاجِفَةُ النفخة نفسها،
و«الرَّادِفَةُ» النفخة الأخرى، ويروى
أن بينهما أربعين سنة، وقال عطاء:
الراجفة القيامة، والرادفة البعث،
وقال ابن زيد: الراجفة الموت،
والرادفة الساعة، وقال أبي بن
كعب: كان النبي ﷺ إذا ذهب ربع
الليل قام وقال: «يَأْتِيهَا النَّاسُ
اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتَّبِعُهَا
الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ».

ثم أخبر تعالى عن قلوب تجف
ذلك اليوم، أي: ترتعد خوفاً
وفرَقاً من العذاب، ووجيف القلب
يكون من الفزع، ويكون من
الإشفاق، ومنه قول الشاعر قيس بن
الخطيم:

إِنْ بَنِي جَحَجَبَى وَأَسْرَتَهُمْ
أَكْبَادُنَا مِنْ وَرَائِهِمْ تَجِفُّ
وَرُفَعُ «قُلُوبٌ» بالابتداء، وجاز
ذلك وهو نكرة لأنها قد تخصصت
بقوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ».

واختلف الناس في جواب
القسم، أين هو؟ فقال الفراء
والزجاج: هو محذوف دل الظاهر
عليه، تقديره: لَتُبْعَثَنَّ أَوْ لَتُعَاقَبَنَّ
يوم القيامة، وقال بعض النحاة:

هو في قوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّمَنِ يَخْتَفِى»، وهذا ضعيف
لِبُعْدِ الْقَوْلِ، ولأن المعنى هنالك
يستحق «أَنَّ»، وقال آخرون: هو
في قوله تعالى: «يَوْمَ» على تقدير
حذف اللام، كأنه تعالى قال:
لَيَوْمَ، وقال آخرون: هو موجود
في جملة قوله تعالى: «يَوْمَ تَرْجُفُ
الرَّاجِفَةُ» تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ
يَوْمَئِذٍ وَكَيْفَةُ، كأنه تعالى
قال: لَتَجِفَّنَّ قُلُوبُ يَوْمَ كَذَا، ولما
دَلَّتِ الْقُلُوبُ عَلَى أَصْحَابِهَا ذَكَرَ
بعد ذلك أبصارها وخشوعها، ذُلُّهَا
وما يظهر منها من الهم بالحال.

وقوله تعالى: «يَقُولُونَ» هي حكاية
حالهم في الدنيا، معناه: هم الذين
يقولون، وقولهم: «أَيُّنَا» هو على
جهة الاستخفاف والعجب
والتكذيب، وقرأ ابن أبي إسحق،
وابن يغمر: «أَيُّنَا» بهمزيين ومدة،
على الاستفهام، وقرأ جمهور القراء:
«أَيُّنَا» باستفهام وهمزة واحدة.

و«الحافرة» لفظة توقعها العرب
على أول أمر رُجِعَ إليه من آخره،
يقال: عاد فلان في الحافرة إذا
ارتكس في حالٍ من الأحوال، ومنه
قول الشاعر:

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَحٍ وَشَيْبٍ؟
مَعَادُ اللَّهِ مِنْ سَفْهِ وَعَارٍ
والمعنى: أيُّنا لمردودون إلى الحياة
بعد مفارقتها بالموت؟ وقال مجاهد
والخليل: الحافرة الأرض، فاعلة
بمعنى مفعولة، وقيل: بل هو على
النسب، أي: ذات حفر، والمراد
القبور لأنها حُفِرَتِ لِلْمَوْتَى،
فالمعنى: أيُّنا لمردودون أحياء في

قبورنا؟ وقال زيد بن أسلم: الحافرة
النار، وقرأ أبو حية: «فِي الْحَفِرَةِ»
بغير ألف، فقيل: هو بمعنى
الحافرة، وقيل: هي الأرض المثنتة
المتغيرة بأجساد موتاهها، من قولهم:
حُفِرَتْ أَسْنَانُهُ إِذَا تَاكَلَتْ وَتَغَيَّرَ
ريحها.

و«النَّاجِرَةُ»: الْمُصَوِّتَةُ بِالرَّيْحِ
الْمُجَوِّفَةُ، ومنه قول الشاعر:

وَأَخْلَيْتُهَا مِنْ مَخْطِهَا فَكَلَّأَهَا
قَوَارِيرُ فِي أَجْوِافِهَا الرِّيحُ تَنْخُرُ
وروي: تَضْفِرُ. وَ«نَجْرَةٌ» هي
قراءة حمزة، وعاصم، في رواية
أبي بكر - وعمر بن الخطاب،
وابن مسعود، وأبي بن كعب،
وابن عباس، وابن الزبير،
ومسروق، ومجاهد، وجماعة
سواهم، وقرأ الباقر، وحفص
عن عاصم، وعمر بن الخطاب،
وعلي بن أبي طالب، وابن
مسعود، والحسن، والأعرج، وأبو
رجاء، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو
عبد الرحمن، وابن جبير، وأهل
مكة، وشبل، وقتادة، وأيوب،
والثخعي، وابن وثاب: «نَجْرَةٌ»
دون ألف بعد النون، ومعناه: بالية
متعفنة قد صارت رميمًا، يقال:
نخر العود والعظم إذا بَلِيَ وصار
يتفتت، وحكي عن أبي عبيدة،
وأبي حاتم، والفراء، وغيرهم أن
النَّاجِرَةَ والنَّجْرَةَ بمعنى واحد،
كطابع وطبع، وحافر وحذر،
والأكثر من الناس على ما قدمناه،
قال أبو عمرو بن العلاء: النَّاجِرَةُ
التي لم تنخر بَعْدُ، والنَّجْرَةُ التي
قد بَلِيَتْ.

(١٢) - (٣٦) تفسير قوله عز وجل:

ذكر الله تعالى عنهم قولهم: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، وذلك أنهم لتكذيبهم بالبعث وإنكارهم قالوا: لو كان هذا حقاً لكانت كرتنا ورَجَعْتْنَا خاسرة؛ إذ هي إلى النار، وقال الحسن: ﴿خَاسِرَةٌ﴾ معناه: كاذبة، أي: ليست بكافية، وروي أن بعض صناديد قريش قال ذلك.

ثم أخبر الله تعالى عن حال القيامة فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، أي: نفخة في الصور، فإذا الناس قد نشروا وصاروا أحياء على وجه الأرض، وفي قراءة عبدالله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ وَقْعَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، «والساهرة» وجه الأرض، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فَإِذَا لَحْمٌ سَاهِرَةٌ وَتَخِيرُ
وَمَافَاهُوا بِهِ لَهُمْ مُقِيمٌ
وقال وهب بن منبه: الساهرة جبل بالشام يمدّه الله تعالى لحشر الناس يوم القيامة كيف شاء، وقال أبو العالية وسفيان: الساهرة أرض قريبة من بيت المقدس، وقال قتادة: الساهرة جهنم لأنه لا نوم لمن فيها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الساهرة أرض مكة، وقال الزهري: الساهرة الأرض كلها.

ثم وقف تعالى نبيه محمد ﷺ على جهة جمع النفس لتلقي الحديث، فقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثٌ مُّوسَى﴾ الآية. «الوادي المقدس» واد بالشام، قال منذر بن سعيد: هو بين المدينة ومصر، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، والأعمش، وابن أبي إسحق، وقعناب: ﴿طَوَى﴾ بكسر

الطاء مُتَوْنَةً، ورويت عن عاصم، وقرأ الجمهور: ﴿طَوَى﴾ بضم الطاء، وأجرى بعض القراء «طَوَى»، وترك إجراءه ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، والحسن، وجماعة وقد تقدم شرح هذه اللفظة في سورة طه.

وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ﴾ تفسير النداء الذي ناداه ربه، ويحتمل أن يكون المعنى: قال له اذهب، وفي هذه الألفاظ استدعاء حسن، وذلك أنه أمر أن يقول له: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا﴾، وهذا قول جواب

كل عاقل عنده: نعم أريد أن أتزكى، والتزكى هو التطهر من النقائص والتلبس بالفضائل، وفسر بعضهم ﴿تَزَكَّى﴾ بـ «تُسَلِّم»، وفسرها بعضهم بقول «لا إله إلا الله»، وهذا تخصيص، وما ذكرناه يعم كل هذا، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿تَزَكَّى﴾ بشد الزاي، وقرأ الساقون: ﴿تَزَكَّى﴾ بتخفيف الزاي.

ثم أمر [الله تعالى] موسى عليه السلام بأن يفسر له التزكي الذي دعاه إليه بقوله: ﴿وَأَهْدِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَحَسَّنْ﴾، والعلم تابع للهدى، والخشية تابعة للعلم، ﴿وَإِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

و «الآية الكبرى» العَصَا واليَدُ، قاله مجاهد وغيره، وهما قَصَب موسى عليه السلام للتحدي، فوقعت

إِذَا نَادَاهُ رَبُّهُ بِاللَّوَادِ الْمَقْدِسِ طَوَى ﴿١٢﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٣﴾ فَقَالَ لَهُ الْكَلْبُ إِنَّكَ بَنِيَّةٌ كَأَن تَكُونِ الْكِبْرَى ﴿١٤﴾ وَأَهْدِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَحَسَّنْ ﴿١٥﴾ فَتَحَسَّنْ فَتَدْنَى ﴿١٦﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿١٧﴾ أَخَذَهُ اللَّهُ تَكَالًا لَّا آخِرَ وَلَا أَوَّلَ ﴿١٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿١٩﴾ مَا أَنشَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن تِينٍ ﴿٢٠﴾ رَّعَىٰ سَعَتِكُمْ فَسَوَّيْنَاهُ أَفْطَسَ لَهَا وَوَرَجَّحَهَا ﴿٢١﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٢٢﴾ أَخْرَجَ مِنهَا مَاءَ حَارٍّ وَمَاءَ سَافٍ ﴿٢٣﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٢٤﴾ سَنَّا لِكُرْهُهُ لَافِدَةً ﴿٢٥﴾ فَإِذَا جَاءَ نَارُ الْهَامَةِ ﴿٢٦﴾ الْكَبْرَى ﴿٢٧﴾ يَوْمَ يُنَادُوا لِلَّهِ إِنَّهُنَّ مَا كُنَّ ﴿٢٨﴾ وَزُيِّنَ لِلْجَنَّةِ لِمَن بَرَى ﴿٢٩﴾ مَا مَأْمَنَ طَغَى ﴿٣٠﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٣١﴾ إِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٢﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣٣﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٤﴾ تَتَلَوَّنَا عَنْ السَّاعَةِ أَيَّامَ مَرْثَاهَا ﴿٣٥﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرِنَا ﴿٣٦﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مَنَظَرُهَا ﴿٣٧﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ مِّن يَحْشَاهَا ﴿٣٨﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوَّحُوا لَرَبِّهِمْ أَوَّحِينَ أَوْ جَحَنًا ﴿٣٩﴾

المعارضة في الواحدة، وانغلب فيها فريق الباطل. وقال بعض المفسرين: ﴿أَذْرَ بَتْنٍ﴾ حقيقة، قام من موضعه مولياً فازاً بنفسه من مجالسة موسى عليه السلام، وقال الجمهور: ﴿أَذْرَ﴾ كناية عن إعراضه عن الإيمان، و«بَتْنٍ» معناه: يجتهد على أمر موسى عليه السلام والرّد في وجه شرعه.

وقوله تعالى: ﴿فَتَحَسَّنْ﴾ معناه: جمع أهل مملكته، ثم ناداهم بقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، وروي عن ابن عباس أنه قال: المعنى: فننادى فحشر، وقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ نهاية في المخارقة، ونحوها باق في مملوك مصر وأتباعهم.

(٣٦) - (٣٦) تفسير قوله عز وجل: ﴿كَذَّالَ﴾ منصوب على المصدر، وقال قوم: «الآخرة» قوله: ﴿مَا

عَلِمْتُ لَكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ،
وَالْأُولَى قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتْلُوكُمْ﴾،
وروي أنه مكث بعد قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ
أَتْلُوكُمْ﴾ أربعين سنة، وقيل: كانت
هذه المدة بين الكلمتين، وقال ابن
عباس رضي الله عنهما: «الأولى»
قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ
غَيْرَ﴾، و«الآخرة»: قوله: ﴿أَنَا
رَبُّكُمْ أَتْلُوكُمْ﴾، قال ابن رُزَيْن: الأولى
كُفْرُهُ وعصيانُهُ، والآخرة قوله: ﴿أَنَا
رَبُّكُمْ أَتْلُوكُمْ﴾ وقال ابن زيد: الأولى
الدنيا، والآخرة الدار الآخرة، أي:
أخذهُ الله تعالى بعذاب جهنم
وبالغرق في الدنيا، وقال مجاهد:
هذه عبارة عن أول معاصيه وكُفْرِهِ
وآخرها، أي: نكّل بالجميع،
و﴿تَكَاَلَفَ﴾ نصب على المصدر،
والعامل فيه على رأي سيبويه
﴿أَخَذَ﴾؛ لأنه في معناه، وعلى رأي
أبي العباس المبرد فغلّ مضمر من
لفظ «نكال»، كأنه قال: نكّله نكالاً.

ثم وقف تعالى على موضع العبرة
بحال فرعون، وتعذيبه، وفي الكلام
وعيد للكفار المخاطبين برسالة
محمد ﷺ، ثم وقفهم مخاطبة منه
تعالى لجميع العالم، والمقصد
الكفار، ويحتمل أن يكون المعنى:
قل لهم يا محمد: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا﴾
الآية. وفي هذه الآية دليل على أن
بعث الأجساد من القبور لا يتعدّر
على قدرة الله تعالى، و«السَّمَكُ»
الارتفاع الذي بين سطح السماء
الأسفل الذي يليها وبين سطحها
الأعلى الذي يلي ما فوقها، وقوله
تعالى: ﴿فَسَوِّفُهَا﴾ يحتمل أن يريد:
خلقها ملساء مستوية ليس فيها مرتفع

ومنخفض، ويحتمل أن يكون عبارة
عن إتقان خلقها، ولا يقصد معنى
امّلاس سطحها، والله تعالى أعلم
كيف هي.

و﴿وَأَفْلَحْتُ﴾ معناه: أَظْلَمْتُ،
وَالْأَغْطَشُ: الأعمى، ومنه قول
الشاعر:

نَحَزْتُ لَهُمْ مَوْهِنًا نَاقَتِي
وَلَيْلُهُمْ مُذْلِيَهُمْ غَطَشُ
ونسب الليل والضحي إليها من
حيث هما ظاهران منها وفيها.

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ
دَحَاهَا﴾ متوجهة إلى أن الله تعالى
خلق الأرض ولم يذُحها، ثم استوى
إلى السماء وهي دخان فخلقها
وبناها، ثم دحا الأرض بعد ذلك،
وقرأ مجاهد: ﴿وَالْأَرْضُ مَعَ ذَلِكَ﴾،
وقال قوم: إن ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ معناه:
مع ذلك، والذي قلناه مترتب عليه
آيات القرآن كلها، ونسب الماء
والمرعى إلى الأرض من حيث هما
منها يظهران، وذُخِرَ الأرض:
بَسْطُهَا، ومنه قول أُمَيَّةَ بن أبي
الصلت:

دَارَ دَحَاهَا ثُمَّ أَسْكَنَّا بِهَا
وَأَقَامَ بِالْأُخْرَى الشَّيْءُ هِيَ أُنْجَدُ
وقرأ الجمهور: ﴿وَالْأَرْضُ﴾ نصباً،
وقرأ الحسن، وعيسى: ﴿وَالْأَرْضُ﴾
بالرفع، وقرأ الجمهور: ﴿وَالْجِبَالُ﴾
أَرْسَهَا ﴿نصباً﴾، وقرأ الحسن،
وعمر بن عبيد: ﴿وَالْجِبَالُ﴾ رفعاً.
و﴿أَرْسَهَا﴾ معناه: أثبتتها، وجميع
هذه النعم إذا تَدُبَّرَتْ فهي متاعٌ
للناس والأنعام، يتمتعون فيها وبها.
وقرأ الجمهور: ﴿سَنَاءً﴾ بالنصب،
وقرأ ابن أبي عبله: ﴿مَتَاعٌ﴾ بالرفع.

و«الطَّامَةُ الْكُبْرَى» هي القيامة، قاله
ابن عباس، والضحاك، وقال
الحسن، وابن عباس أيضاً: النفخة
الثانية، وقوله تعالى: ﴿مَا سَأَلَ﴾
معناه: ما عيّل من سائر عمله،
ويتذكر ذلك بما يرى من جزائه.
وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَذَرْتِ﴾ بضم
الباء وشد الراء المكسورة، وقرأ
عكرمة، ومالك بن دينار، وعائشة
رضي الله عنها: ﴿وَيَذَرْتُ﴾ بفتح
الباء والراء، وقرأ جمهور الناس:
﴿لَيْسَ يَرَى﴾ بالياء، أي: لمن يُبصر
ويُحْصَل، وقرأ عكرمة، ومالك بن
دينار، وعائشة رضي الله عنها:
﴿لَيْسَ تَرَى﴾ بالتاء، أي: تراه أنت يا
محمد، فالإشارة إلى كُفْرِ مكة، أو
إشارة إلى الناس والقصد كُفْرُ مكة،
ويحتمل أن يكون المعنى: لمن تراه
الجحيم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ
يُنْكَرُ بِلِقَائِهِمْ﴾، وقرأ ابن مسعود:
﴿لَيْسَ رَأَى﴾ على فعل ماض.

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿طَلَقَ﴾ معناه: تجاوز الحدود التي
ينبغي للإنسان أن يقف عندها،
و﴿وَأَنزَلَ الْغَيَاةَ﴾ عَلَى الْآخِرَةِ
لتكذيبه بالآخرة، و«المَأْوَى» المنزلُ
والمسكن حيث يأوي المرء ويلازم.
و«مَقَامُ رَبِّهِ» هو يوم القيامة وإنما
المراد: مَقَامُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، فأضاف
المقام إلى الله تعالى من حيث هو
بين يديه، وفي ذلك تفخيمٌ للمقام
وتعظيم لهوله وموقعه من النفوس،
قال ابن عباس رضي الله عنهما:
المعنى: خافه عند المعصية فأنتهى
عنها. و«الْهَوَى» هو شهوات النفس
وما جرى مجراها، وأكثر استعماله

إنما هو في غير المحدود، قال سهل الشَّسْثَرِي: لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء عليهم السلام وبعض الصديقين، وقال بعض الحكماء: إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه، وقال الفضل بن عياض: أفضل الأعمال خلاف الهوى.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ الآية... نزلت بسبب أن قريشاً كانت تلح في البحث عن وقت الساعة التي كان رسول الله ﷺ يخبرهم بها ويتوعدهم بأمرها ويكثر من ذلك، و﴿إِنَّا مَرْسَلُهَا﴾ معناه: متى ثبوتها ووقت رسوها، أي: ثبوتها، كأنه شيء يسير إلى غاية ما ثم يقف كما تفعل السفينة التي ترسو، وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي: ﴿إِنَّا﴾ بكسر الألف.

ثم قال تعالى لنبيه عليه السلام - علي جهة التوقيف -: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرُهَا﴾، أي: من ذكر تحديدها ووقتها، أي: لست من ذلك في شيء، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يسأل عن الساعة كثيراً، فلما نزلت هذه الآية انتهى. وقرأ أبو جعفر، وعمر بن عبدالعزيز، وأبو عمرو - بخلاف - وابن محيصن، والأعرج، وطلحة، وعيسى: ﴿مُنْذِرٌ﴾ بالرفع بتنوين «مُنْذِر»، وقرأ جمهور القراء: ﴿مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ بإضافة «مُنْذِرٌ» إلى «مَنْ».

ثم قرَّب تعالى أمر الساعة بإخياره أن الإنسان عند رؤيته إيَّاهَا يظن أنه لم يلبث إلا عشية يوم أو بكرة، فأضاف «الضُّحَى» إلى «العَشِيَّة» من حيث هما

طرفان للنهار، وقد بدأ بذكر أحدهما فأضاف الآخر إليه تجوّزاً وإيجازاً.

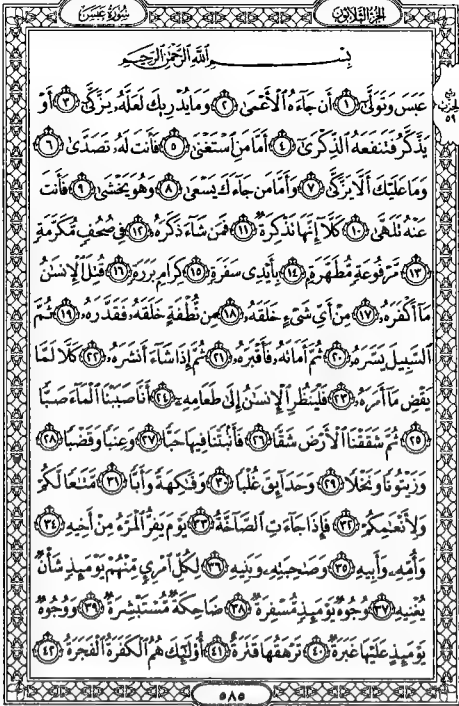
كامل تفسير سورة التازعات والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة عبس

وهي مكية كلها بإجماع من المفسرين.

وقصص هذه السورة التي لا تفهم الآية إلا به أن

رسول الله ﷺ كان شديد الحرص على إسلام قريش وأشرافهم، وكان يتخفى بدعائهم إلى الله تعالى، فيينا هو يوماً مع رجل من عظمائهم - قيل: هو الوليد بن المغيرة المخزومي، وقيل: عتبة بن ربيعة، وقيل: شيبة، وقيل: العباس، وقيل: أمية بن خلف، وقيل: أبي بن خلف وقال ابن عباس: كان في جمع منهم، فيهم عتبة والعباس وأبو جهل - إذ أقبل عبدالله بن أم مكتوم القرشي الفهري من بني عامر بن لؤي، وهو رجل أعمى، يقوده رجل آخر، فأومأ رسول الله ﷺ إلى قائده أن يؤخره عنه، ففعل، فدفعه عبدالله وأقبل نحو رسول الله ﷺ وقال: استذنني يا محمد، علمني مما علمك الله، فكان في ذلك كله قطع لحديث رسول الله ﷺ مع الرجل المذكور من



قريش، وكان رسول الله ﷺ قد قرأ عليه القرآن وقال له: أترى بما أقول بأساً؟ فكان ذلك الرجل يقول: لا والدومي - يعني الأصنام - ويري: ولا والدما - يعني الذبائح التي للأصنام -، فلما شغب عليه أمر عبدالله بن أم مكتوم عبس وأعرض عنه، وذهب ذلك الرجل، فيروى أن النبي ﷺ انصرف إلى بيته فلؤي رأسه وشخص بصره وأُنزلت عليه السورة. قال سفيان الثوري: فكان بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم قال: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي عز وجل، وبسط له رداءه، قال أنس بن مالك: رأيته يوم القادسية وعليه دُرْع ومعه راية سوداء، واستخلفه النبي ﷺ على المدينة مرتين.

① - ⑦ تفسير قوله عز وجل:

الغُبُوس: تقطيب الوجه وازداده

عند كراهية أمر، وفي مخاطبته ﷺ بلفظ ذكر الغائب مبالغة في العتب، لأن في ذلك بعض الإعراض، وقال كثير من العلماء، وابن زيد، وعائشة وغيرهما من الصحابة: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لَكُنْتُمْ هذه الآيات وآيات قصة زيد وزينب بنت جحش. والتَّوَلَّى هنا الإعراض، و﴿أَنْ﴾ مفعول من أجله. وقرأ الحسن: ﴿أَنْ جَاءَهُ﴾ بمدة تقرير وتوقيف، والوقف - على هذه القراءة - على ﴿تَوَلَّى﴾، وهي قراءة عيسى. وذكر الله تعالى ابن أم مكتوم بصفة العمى الذي شأن البشر احتقاره ويَبَيِّن أمره بِذِكْر ضده من عُنُو ذلك الكافر، وفي هذا دليل على أن ذكر هذه العاهات - متى كانت لمنفعة، أو أن شهرتها تعرف السامع صاحبها دون لبس - جائز، ومنه قول المحدثين سليمان الأعمش، وعبد الرحمن الأعرج، وسالم الأقطس، ونحو هذا، ومتى ذكرت هذه الأشياء على جهة التَّنْقِص فتلك الغيبة، وقد سمع رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها تذكر امرأة، فقالت: إنها لقصيرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد قلت كلمة لو مزجت بالبحر لمزجته».

ثم خاطب تعالى نبيه ﷺ بالعتب فقال: ﴿وَمَا يَذْكُرُ لَكُمْ يَذْكُرُ﴾ فَنَنْتَعَمُ إِلَيْكُمْ. أي: وما يطلعك على أمره وعقبى حاله؟ ثم ابتداء القول: ﴿لَكُمْ يَذْكُرُ﴾، أي: تنمو بركته ويتطهر لله تعالى وينفع إيمانه. وأصل «يَذْكُرُ»: يَتَرَكَّى، فادغم التاء في الزاي، وكذلك «يَذْكُرُ». وقرأ

الأعرج: ﴿يَذْكُرُ﴾ بسكون الذال وضم الكاف، ورويت عن عاصم، وقرأ جمهور السبعة: ﴿تَنْتَعَمُ﴾ بضم العين على العطف، وقرأ عاصم وحده، والأعرج: ﴿تَنْتَعَمُ﴾ بالنصب في جواب التمني؛ لأن قوله تعالى: ﴿أَوْ يَذْكُرُ﴾ في حكم قوله سبحانه: ﴿لَكُمْ يَذْكُرُ﴾.

ثم أكد تعالى عتب نبيه ﷺ بقوله: ﴿أَنَا مَنِ اسْتَعْتَيْتُ﴾، أي: بِمَالِهِ، و﴿سَدَّكَ﴾ معناه: تتعرض بنفسك، وقرأ ابن كثير، ونافع: ﴿تَضَدَّى﴾ بشد الصاد، على إدغام التاء، وقرأ الباقر، والأعرج، والحسن، وأبو رجا، وقتادة، وعيسى، والأعمش: ﴿تَضَدَّى﴾ بتخفيف الصاد، على حذف التاء، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿تَضَدَّى﴾ بضم التاء وتخفيف الصاد، على بناء الفعل للمفعول، أي: يُضَدِّدُكَ حَرْصُكَ على هؤلاء الكفار أن يسلموا، تقول: تَضَدَّى الرجلُ وضدَّته، كما تقول: تَكْسِبُ وَكَسْبَتُهُ، ثم قال تعالى تحقيراً لشأن الكفار: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكُرُ﴾، أي: وما يضرك ألا يفلح؟ فهذا حُصٌّ على الإعراض عن أمرهم، وترك الاكتراث بهم.

ثم قال تعالى مبالغة في العتب: ﴿وَأَنَا مَنِ اسْتَعْتَيْتُ﴾، أي: يمشي، وقيل: المعنى: يسعى في شؤنه وأمر دينه وتقرُّبه منك، وهو يخشى الله تعالى، ﴿فَأَنْتَ عَنْتَ﴾ تَلَهَّى، أي: تشتغل، تقول: لَبِثْتُ عن الشيء أَلَهَى إذا اشتغلت، وليس من اللَّهْو الذي هو من ذوات الواو، أما إنَّ المعنى يتداخل. وقرأ

الجمهور من القراءة: ﴿تَلَهَّى﴾ بفتح التاء، على حذف التاء الواحدة، وقرأ ابن كثير - فيما روي عنه -: ﴿تَلَهَّى﴾ بالإدغام، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿تَلَهَّى﴾ بتاءين، وروي عنه ﴿تَلَهَّى﴾ بفتح التاء وسكون اللام وتخفيف الهاء المفتوحة، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿تَلَهَّى﴾ بضم التاء، أي: يُلهيك حرصك على أولئك الكفار، وفي حديث النبي ﷺ: «وَمَا اسْتَأْذَنَ الله بعلمه قَالَهُ عَنْهُ» وقوله تعالى في هاتين: ﴿أَنَا مَنِ اسْتَعْتَيْتُ﴾، فالسبب ما ذكر من كفار قريش وعبد الله بن أم مكتوم، ثم هي بَعْدُ تناول من شَرِكْهُمْ في هذه الأوصاف، فحملة الشرع والعلم والحكام مخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير، وتقديمه على الشريف العاري من الخير، بِمَثَل ما خطب النبي ﷺ في هذه السورة.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ يا محمد، أي: ليس الأمر في حقِّه كما فعلت، إن هذه السورة والقراءة التي كنت فيها مع ذلك الكافر تذكرة لجميع العالم، لا يؤثر فيها أحد دون أحد، وقيل: المعنى: إن هذه الْمُغْتَبَةُ تذكرة لك يا محمد، ففي هذا التأويل إجلالٌ لمحمد ﷺ وتأنيس له. وقوله تعالى: ﴿فِي حُجُبٍ﴾ متعلق بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَذْكُرُ﴾، وهذا يؤيد أن التذكرة يراد بها جميع القرآن، وقال بعض المتأولين: الصحف هنا اللوح المحفوظ، وقيل: صحف الأنبياء عليهم السلام المنزلة، وقيل: مصاحف المسلمين.

واختلف الناس في «السفرة» - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الملائكة لأنهم كُتِبَتْ، يقال: سفرْتُ أي كُتِبْتُ، ومنه السُفْرُ، وقال ابن عباس أيضاً رضي الله عنهما: الملائكة سُفَرَةٌ لأنهم يسفرون بين الله تعالى وبين أنبيائه، وقال قتادة: هم القُرَاء، وواحد السُفَرَة: سافر، وقال وهب بن منبه: هم الصحابة؛ لأن بعضهم يسفر إلى بعض في الخير والتعليم والتعلم، والقول الأول أرجح، ومن اللفظة قول الشاعر:

فَمَا أَدْعُ السُّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي
وَلَا أُمْسِي بِخَيْشٍ إِنْ مَسَّيْتُ
و «الصحف» - على هذا - صحفٌ عند الملائكة أو اللوح، وعلى القول الآخر هي المصاحف.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ﴾ دعاء على اسم الجنس، وهو عموم يراد به الخصوص، والمعنى: قتل الإنسان الكافر، ومعنى ﴿قِيلَ﴾: هو أهل أن يُدعى عليه بهذا، وقال مجاهد: ﴿قِيلَ﴾ معناه: لئن، وهذا تحكُّم، وقوله تعالى: ﴿مَا أَكْفَرُوا﴾ يحتمل معنى التعجب، ويحتمل معنى الاستفهام توقيفاً، أي: أي شيء أكفَره؟ أي: جعله كافراً.

وقيل: إن هذه الآية نزلت في عتبة بن أبي لهب، وذلك أنه غاضب أباه فأتى النبي ﷺ، ثم إن أباه استصلحه وأعطاه مالا وجهزته إلى الشام، فبعث عتبة إلى النبي ﷺ وقال: إني كافر برَبِّ النجم إذا هَوَى، فيروى أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم ابعت إليه كلبك حتى يأكله»، ويروى أنه قال: «أما يخاف

أن يرسل الله عليه كلبه فيأكله»، ثم إن عتبة خرج في سفر فجاء الأسد فأكله من بين رفاقه.

﴿١٨﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿يَنْ أَيْ تَوَدَّ خَلَقَهُ﴾ استفهام على معنى التقرير على تفاعلة الشيء الذي خَلَقَ الإنسان منه، وهي عبارة تصلح للتحقير وللتعظيم، والقرينة تبين الغرض، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿لَآئِي يَوْمَ يُكَلِّمُ الْوَحْيُ﴾، و«الطفة» المشار إليها هي ماء الرجل وماء المرأة. وقرأ جمهور الناس: ﴿فَقَدَرُوا﴾ بشد الدال، وقرأ بعض القراء: ﴿فَقَدَرُوا﴾ بتخفيفها، والمعنى: جعله بقدرٍ وحدٍّ معلوم من الأعضاء والخُلُق والأجل وغير ذلك من إنجابه حسب إرادته تعالى في إنسانٍ إنسانٍ.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ - فقال ابن عباس، وقتادة، وأبو صالح، والسدي: هي سبيل الخروج من بطن المرأة ورحمها، وقال الحسن ما معناه: إن السبيل هي سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان، وتيسيره له هو هبة العقل، وقال مجاهد: أراد السبيل عامة، اسم الجنس في «هدى وضلال»، أي: يَسَّرَ قوماً لهذا وقوماً لهذا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَا إِلَهُكَ الْكَافِرُ﴾ معناه: أمر أن يجعل له قبر، وفي ذلك تكريم لثلاً يطرح كسائر الحيوان، والقابر هو الذي يتناول جعل الميت في القبر، والمقبر هو الذي يأمر بقبر الميت ويقرره.

﴿أَنْشَرُهُ﴾ معناه: أحياء، يقال: نَشَرَ المَيِّتَ وَأَنْشَرَهُ الله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا شَاكِرٌ﴾ يريد: إذا بلغ الوقت الذي قد شاء، وهو يوم القيامة، وقرأ بعض القراء: ﴿شَاكِرٌ﴾ بتحقيق الهمزتين، وقرأ جمهور الناس: ﴿إِنَّا شَاكِرٌ﴾ بمدًى ويتسهل الهمزة الأولى، وقرأ شعيب بن أبي حمزة: ﴿إِنَّا شَاءَ أَنْشَرُهُ﴾، وقرأ الأعمش: ﴿إِنَّا شَا أَنْشَرُهُ﴾ بهمزة واحدة.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَنَأْتِيَنَّكَ أَمْرُكَ﴾ رد لما عسى أن يكون للكفار من الاعتراضات في هذه الأقوال المسرودة، ونفي مؤكد لطاعة الإنسان لربه، وإثبات أنه ترك حق الله تعالى ولم يقض أمره، قال مجاهد: لا يقضي أحد أبداً ما افترض عليه. ثم أمر تعالى الإنسان بالعبرة والنظر إلى طعامه والدليل فيه، وذهب أبي بن كعب، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وغيرهم إلى أن المراد: إلى طعامه إذا صار رجيعاً ليتأمل حيث تصير عاقبة الدنيا، وعلى أي شيء يتفاني أهلها، وتستدير رحاها، وهذا نظير ما روي عن ابن عمر أن الإنسان إذا أحدث فإن ملكاً يأخذ بناصيته عند فراغه فيردُّ بصره إلى نحوه موقفاً له ومُعْجَباً، فينفع ذلك مَنْ له عقل، وذهب الجمهور إلى أن معنى الآية: فلينظر الإنسان إلى مطعماته وكيف يسرها الله تعالى له بهذه الوسائط المذكورة من صبِّ الماءِ وشق الأرض، ويروى أن رجلاً أضافه عابد، فقدم إليه رغيفاً فقاراً فكأن الرجل استخشنه، فقال له: كُلْهُ

فإن الله تعالى لم يُنعم به ويكمله حتى سخر فيه ثلاثمائة وستين عاملاً، الماء والريح والشمس ثلاثة من ذلك.

وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿أَنَا صَبِّئًا﴾ بفتح الألف على البدل، وهي قراءة الأعرج، وابن وثاب، والأعمش، ورد على هذا الإعراب قوم بأن الثاني ليس من الأول، وليس كما ردوا؛ لأن المعنى: فلينظر الإنسان إلى إنعامنا في طعامه، فترتب البدل وصح، و﴿أَنَا﴾ في موضع خفض، وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّا صَبِّئْنَا﴾ بكسر الألف على استثناف تفسير الطعام، وقرأ بعض الناس: ﴿أَنْتَى﴾ بمعنى كيف، ذكرها أبو حاتم، وصب الماء هو المطر، وشق الأرض هو بالثبات.

و «الحَبَّ»: جمع حَبَّة - بفتح الحاء - وهو كل ما يتخذ الناس ويؤثرونه كالقمح والشعير ونحوه، والحبَّة - بكسر الحاء - كل ما ينبت من البذور ولا يُحتفل به ولا هو بمُتَّخَذٍ، و«القَضْب» قال بعض اللغويين هو الفَصَافِص، وهذا عندي ضعيف لأن الفَصَافِص هي للبهائم، فهي داخلة في «الأَبَّ»، وقال أبو عبيدة: القَضْب: الرُّطْبَة، وقال الحسن: هو العَلَف، وأهل مكة يسمون القَتَّ القَضْب، قال ثعلب: لأنه يُقَضَّب كل يوم، والذي أقول: إنَّ القَضْب هنا هو كل ما يُقَضَّب ليأكله ابن آدم غصّاً من النبات كالبقول والهيلون ونحوه، فإنه من المَطْعوم جزء عظيم، ولا ذُكر له في الآية إلا في هذه اللفظة.

و «الْغُلْب»: الغِلَاطُ الناعمة القوية، و«الحديقَةُ»: الشجر الذي قد أحرق بجدار ونحوه، و«الأَبَّ»: المَرْعَى، قاله ابن عباس وابن زيد، ومجاهد، وقاتدة، وقال الضحاك: الأَبَّ: الثَّين، وفي اللفظة غرابية، وقد توقف في تفسيرها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. و«مَتَّعًا» نصب على المصدر، والمعنى: تتمتعون به أنتم وأنعامكم، فابن آدم في السبعة المذكورة، والأنعام في الأَبَّ.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل: «الصَّاحَّةُ»: اسم من أسماء يوم القيامة، واللفظة في حقيقتها إنما هي لنفخة الصور التي تصح الأذان أي: تُصَيِّها، ويستعمل هذا اللفظ في الداهية التي يُصَيِّمُ نبؤها الأذان لصعوبتها، وهذا استعارة، وكذلك في الصيحة المفردة التي يصعب وقْفُها على الأذن.

ثم ذكر تعالى فرار المرء من القوم الذين معهودهم ألا يفر عنهم في الشدائد، ثم رتبهم تعالى الأول فالأول محبةً وخوفاً، وقرأ أبو إياس جوية: «مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ» بضم الهاء في كلها، قال منذر بن سعيد وغيره: هذا الفرار هو خوف من أن يتبع بعضهم بعضاً بتيعات، إذ المُلَابَسَةُ تَعْلَقُ المطالبة، وقال جمهور الناس: إنما ذلك لِشِدَّةِ الهول، على نحو ما روي أن الرُّسُل تقول يومئذ: نفسي نفسي، لا أسالك غيري. و«الشَّائِنُ» الذي يُغْنِيهِ هو فكره في سيئاته، وخوفه

على نفسه من التخليد في النار، والمعنى: يُغْنِيهِ عن اللقاء مع غيره، والفكرة في أمره، قال قتادة: أفضى كل إنسان إلى ما يشغله عن غيره، وقال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «لَا يَضُرُّكَ فِي الْقِيَامَةِ كَانَ عَلَيْكَ ثِيَابٌ أَمْ لَا»، وقرأ هذه الآية. وقال عليه الصلاة والسلام نحوه لِسَوْدَةَ رضي الله عنها وقد قالت: واسوأناؤه، ينظر بعض الناس إلى بعض يوم القيامة، وقرأ جمهور الناس: «يُنَبِّئُ» بالغين منقوطة وضم الياء على ما فسرناه، وقرأ ابن محيصن والزهري، وابن السميع: «يُنَغِّيهِ» بفتح الياء وعين غير منقوطة، من قولك: عناني الأمر، أي: قصدني وأرادني.

ثم ذكر تعالى اختلاف الوجوه من المؤمنين الوائقين برحمة الله تعالى حين بدت لهم تباشيرها، ومن الكفار، و«تُسَيَّرَةُ» معناه: نَيَّرَةُ بادٍ ضوؤها وسرورها. و«تَقْفُهَا» معناه: تُلْبِخُ عليها، و«الْقَتْرَةُ»: الغبار، والغَيَّرَةُ الأولى إنما هي من العبوس والهَمُّ، كما يرى على وجه المهموم والميت والمريض شبه الغبار، وأما الْقَتْرَةُ فغبار الأرض، ويقال: إن ذلك يغشاهم من التراب الذي تعود إليه البهائم، ثم فسر تعالى أصحاب هذه الوجوه المغيرة بأنهم الكفرة، قريش يومئذ ومن جرى مجراها قديماً وحديثاً.

كمل تفسير سورة عبس والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة التكوير

وهي مكية بإجماع من المتأولين .
﴿١﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل :
هذه كلها أوصاف يوم القيامة ،
و«تكوير الشمس» هو أن تدار
ويذهب بها إلى حيث شاء الله
تعالى ، كما يدار كُرُزُ العمامة ، وعبر
المفسرون عن ذلك بعبارات ، فمنهم
من قال : ذهب نورها ، ومنهم من
قال : رمي بها ، قاله الربيع بن
خيثم ، وغير ذلك مما هو أشياء تابعة
لتكويرها . و«انكدار النجوم» هو
انقضاضها وهبوطها من مواضعها ،
ومنه قول الرازي :

أَبْصَرَ خَزْبَانٌ قَضَاءً فَانْكَدَرَ
تَقْضَى الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَرَ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما :
﴿انْكَدَرَتْ﴾ : تغيّرت ، من قولهم :
مَاءٌ كَبِيرٌ ، أي : متغيّر اللون . و«تَسِيرُ
الْجِبَالُ» قيل : هو نسفها ، وإنما ذلك
في صدر هول يوم القيامة .

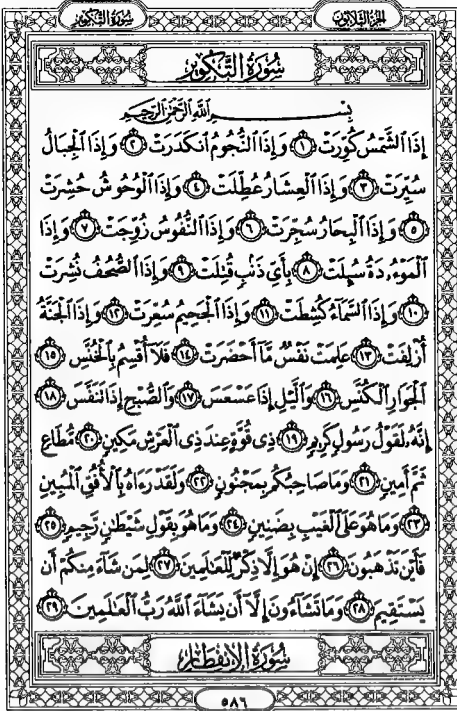
و«العشار» جمع عَشْرَاءَ ، وهي
الناقة التي قد مرَّ لحملها عشرة
أشهر ، وهي أنفس ما عند العرب ،
وَتَهْمُمُهُمْ بِهَا عَظِيمٌ للرجبة في
نسلها ، فإنما تُعْطَلُ عند شدة
الآهوال ، وقرأ مَضَرُّ عن اليزيدي :
﴿عُطِلَتْ﴾ بتخفيف الطاء .

و«خُشِرَ الْوُحُوشُ» هو جمعها ،
واختلف الناس في هذا الجمع ، ما
هو؟ فقال ابن عباس
رضي الله عنهما : هو خَشَرُهَا
بالموت ؛ لأنها لا تبعث يوم القيامة ،

ولا يحضر القيامة غير
الثقلين ، وقال قتادة
وجماعة : حشرت للجمع
يوم القيامة ، ويقصر
للجماع من القُرْآنِ ،
فجعلوا ألفاظ الحديث
حقيقة لا مجازاً ، مثلاً في
العدل ، وقال أبي بن
كعب : حشرت في الدنيا
في أول هول يوم القيامة ،
فلإنها تُفِرُّ في الأرض ،
وتجتمع إلى بني آدم تألّسا
بهم . وقرأ الحسن :
﴿خُشِرَتْ﴾ بشد الشين
على المبالغة .

و«تَسْجِيرُ الْبَحَارِ» قال
قتادة ، والضحاك : معناه :

فرغت من مائها وذهبت حيث
شاء الله تعالى ، وقال الحسن :
يبست ، وقال الربيع ابن خيثم :
معناه : مُلِثَتْ وفاضت وقُجِرَتْ من
أعاليها ، وقال أبي بن كعب :
وسُفِيان ، ووهب ، وابن زيد : معناه :
أضرمث ناراً كما يسجر الثُّورُ ، وقال
ابن عباس : جهنم في البحر
الأخضر ، ويحتمل أن يكون المعنى :
مُلِكت ويُقيد اضطرابها حتى لا تخرج
على الأرض بسبب الهول ، فتكون
اللفظة مأخوذة من «ساجور الكلب» ،
وقيل : هذه بحار نار في جهنم تسجر
يوم القيامة ، وقد تقدم نظير هذه
الأقوال منصوطة لأهل العلم في
قوله تعالى : ﴿وَالْخَرِ السَّجُورُ﴾ ،
وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو :
﴿سُجِرَتْ﴾ بتخفيف الجيم ، وقرأ
الباقون بشدها ، وهي مُتَرْجِمَةٌ بكون



البحار جمعاً ، كما قال تعالى :
﴿كَتَبْنَا بِقَنَدَةِ مَشْرُورًا﴾ ، وكما قال
سبحانه : ﴿صُحُفًا مَشْرُورَةً﴾ ، ومثله :
﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ و﴿وَبُجٍّ مُسَبِّحٍ﴾
لأنها جماعة ، وذهب قوم من
الملحدّين إلى أن هذه الأشياء
المذكورة استعارات في كل ابن آدم
وأحوال له عند موته ، فالشمس
نفسه ، والنجوم عيناه وحواشه ،
والعشار ساقاه ، وهذا قول سوء
وخيم عُثْ ذاهبٌ إلى إثبات الرموز
في كتاب الله تعالى .

و«تَرْوِجُ الثُّفُوسِ» هو تنويعها ؛
لأن الأزواج هي الأنواع ، والمعنى :
جعل الكافر مع الكافر ، والمؤمن
مع المؤمن ، وكل شكل مع شكله ،
رواه النعمان بن بشير عن
النبي ﷺ ، وقاله عمر بن الخطاب
وابن عباس رضي الله عنهم ، وقال :

هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾، وفي الآية - على هذا - حضٌ على دليل الخير، فقد قال عليه السلام: «المرء مع من أحب»، وقال عليه الصلاة والسلام: «فليُنظر أحدكم من يخالل»، وقال الله عز وجل: ﴿الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ بِمَنْحَرٍ يُعْتَضُّ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾، وقال مقاتل بن سليمان: زُوِجت نفوس المؤمنين بزوجاتهم من الحور العين وغيرهن، وقال عكرمة، والضحاك، والشعبي: زُوِجت الأرواح بالأجساد. وقرأ عاصم: ﴿زُوِجَتْ﴾ غير مدغم.

و «الْمَوْدَةُ»: اسم معناه: المثل عليه، ومنه: ﴿وَلَا يَزِيدُ﴾، ومنه: «اتَّيِدُ»، أي: تَوَقَّرَ واثقل، وعُرف هذا الاسم في البنات اللواتي كان قوم من العرب يدفنونهن أحياء، يحفر الرجل شبه البئر أو القبر ثم يسوق ابنته فيلقبها فيها، وإذا كانت صغيرة جداً خد لها في الأرض ودفنها، وبعضهم كان يفعل ذلك خشية الإملاق وعدم المال، وبعضهم غيراً وكرهية للبنات وجاهلية، وقرأ الجمهور: ﴿الْمَوْدَةُ﴾، بهمزة من «وَأَذْ»، وفي حرف ابن مسعود: ﴿وَأَذَا﴾، وقرأ البزري: ﴿الْمَوْدَةُ﴾، بهمزة مضمومة على الواو مثل «المعوذة»، وقرأ بعض القراء: ﴿الْمَوْدَةُ﴾، بضم الواو الأولى وتسهيل الهمزة، وقرأ الأعمش: ﴿الْمَوْدَةُ﴾، بسكون الواو على وزن «الْفَعْلَةُ»، وقرأ بعض السلف: ﴿الْمَوْدَةُ﴾، بفتح الواو والبدال

المشددة، جعل البنت مَوْدَةً، وقرأ جمهور الناس: ﴿سُيِّرَتْ﴾ وهذا على وجه التوبيخ للعرب الفاعلين ذلك؛ لأنها تُسأل ليصير الأمر إلى سؤال الفاعلين، ويحتمل أن تكون: مَسْؤُولاً عنها مطلوباً الجواب منهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾، وكما سُئل التراث والحقوق. وقرأ ابن عباس، وأبي بن كعب، وجابر بن زيد، وأبو الضحى، ومجاهد، وجماعة كبيرة منهم ابن مسعود، والربيع بن خيثم «سَأَلْتُ»، ثم اختلف هؤلاء، فقرأ أكثرهم: ﴿قُتِلَتْ﴾ بفتح اللام وسكون التاء [الثانية]، وقرأ أبو جعفر: ﴿قُتِلَتْ﴾ بشد التاء على المبالغة، وقرأ ابن عباس، وجابر، وأبو الضحى، ومجاهد: ﴿قُتِلَتْ﴾ بسكون اللام وضم التاء [الثانية]، وقرأ الأعرج: «سَبِلْتُ» بكسر السين وفتح اللام دون همز. واستدل ابن عباس رضي الله عنهما بهذه الآية في أن أولاد المشركين في الجنة لأن الله تعالى قد انتصر لهم ممن ظلمهم.

و «الصفحة المنشورة» قيل: هي صفح الأعمال تنشر ليقراً كل امرئ كتابه، وقيل: هي الصفح التي تتطايّر بالآيمان والشمال للجناء، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، والحسن، وأبو رجاء، وقتادة: ﴿سُيِّرَتْ﴾ بتخفيف الشين المكسورة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «نُسِرَتْ» بشد الشين على المبالغة.

و «الكشط»: التقشير، وذلك كما يكشط جلد الشاة حين تسلخ، وكشط السماء هو طيها كطَي السجل، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿قُطِطَتْ﴾ بالقاف، وهما بمعنى واحد.

و «سُيِّرَتْ» معناه: أُضِرَّت نارها، وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿سُيِّرَتْ﴾ بشد العين، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم بتخفيفها، وهي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال قتادة: سَعَرها غضب الله عز وجل وذنوب بني آدم.

و «أُزِلَّتْ» معناه: قُرِبَتْ ليدخلها المؤمنون، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من المفسرين: إلى هذين ما انتهى الحديث، وذلك أن الغرض المقصود بقوله تعالى: ﴿وَأَذَا﴾ في جميع ما ذكرنا إنما تم بقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾، أي: ما أحضرت من شر فدخلت به جهنم، أو من خير فدخلت به الجنة، و«نَفْسٌ» هنا اسم جنس، أي: علمت النفوس، ووقع الأفراد ليُبَيِّنَ الذهن على حقارة المرء الواحد وقلة دفاعه عن نفسه.

١٥ - ١٦ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِدُ﴾، إما أن تكون [لَا] زائدة، وإما أن يكون ردّاً لقول قريش في تكذيبهم بنبوّة محمد ﷺ وقولهم: إنه ساحر وكاهن ونحو ذلك، ثم أقسم الله

تعالى بالْخُنُسِ الجوارى الكُنُس؁ فقال جمهور المفسرين: إن ذلك الدَّارِى السبعة؁ الشَّمْسُ و الْقَمَرُ وَ زَحَلٌ وَ عَطَارِدُ وَ الْمَرِيخُ وَ الزُّهْرَةُ وَ الْمُشْتَرِى. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: المراد الخمسة دون الشمس والقمر؁ وذلك أن هذه الكواكب تُخْنَسُ في جريها؁ أي: تنقهر فيما ترى العين؁ وهي جوارٍ في السماء؁ وأثبت يعقوب الباء في «الجواري» في الوقف؁ وحذفها الباقون؁ وهي تَكْنَسُ في أبراجها؁ أي: تَسْتَبْرُ؁ وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه؁ والحسن؁ وقتادة: المراد النجوم كلها؁ لأنها تُخْنَسُ وَتَكْنَسُ بالنهار حين تختفي؁ وقال عبدالله بن مسعود؁ والنَّخِي؁ وجابر بن زيد؁ وجماعة من المفسرين: المراد «بالْخُنُسِ الجوارى الكُنُس» بقر الوحش لأنها تفعل هذه الأفعال في كناسها؁ وهي المواضع التي تأوي إليها من الشجر والغيران ونحوه؁ وقال ابن عباس؁ وابن جبير والضحاك: هي الظباء؁ وذهب هؤلاء في «الْخُنُسِ» إلى أنه من صفة الأنوف لأنها يلزمها الخُنُس؁ وكذلك هي بقر الوحش أيضاً؁ ومن ذلك قول الشاعر:

سوى بازٍ بيض أو غزالٍ صرمة
أغن من الخُنُسِ المناجر تؤام
و «عَسَسَ اللَّيْلُ» في اللغة إذا كان غير مستحكم الإنظام؁ فقال الحسن بن أبي الحسن: ذلك في وقت إقباله؁ وبه وقع القسم؁ وقال علي؁ وابن عباس؁ وزيد بن أسلم؁

ومجاهد؁ وقتادة: ذلك عند إداره وبه وقع القسم؁ ويرجح هذا قوله تعالى بَعْدُ: «وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ»؁ فكانهما حالان متصلان؁ ويشهد لذلك قول علقمة بن قُرْط: حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسًا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسَسَا وقال أبو العباس المبرد: أقسم تعالى بإقباله وإداره معاً؁ قال الخليل يقال: عَسَسَ الليل وسُغِسَ إذا أقبل وأدبر.

و «تَنَفَّسَ الصُّبْحُ»: استطار واتسع ضوءه؁ وقال علوان بن قيس: وَلَيْلٌ دَجِيٌّ قَدْ تَنَفَّسَ فَجْرُهُ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ خَالَوْهُ لَنْ يَتَنَفَّسَا والضمير في «إِنَّهُ» للقرآن؁ و«الرسول الكريم» في قول جمهور الناس: جبريل عليه السلام؁ وقال آخرون: هو محمد عليه الصلاة والسلام في الآيات كلها؁ والقول الأول أصح؁ و«رَسُولٌ» في هذه الآية صفة تقتضي رُفْعَ المذام؁ ثم وصفه تعالى بقوة منحه الله تعالى إيها.

واختلف الناس في تعلق قوله تعالى: «عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ»؁ فذهب بعض المتأولين إلى تعلقه بقوله سبحانه: «ذِي قُوَّةٍ»؁ وذهب آخرون إلى أن الكلام تم في قوله: «ذِي قُوَّةٍ»؁ وتعلق الظرف بقوله: «تَكِينٍ»؁ ومعناه: له مكانة ورفعة. وقوله تعالى: «مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ» معناه: مقبول القول مصدق فيما يقوله مؤتمن على ما يرسل به ويؤديه من وحي وامتنال أمر؁ وقرأ أبو جعفر: «ثُمَّ» بضم الثاء؁ وذكر الله

تعالى نفسه بالإضافة إلى عرشه تنبيهاً على عظم ملكوته.

وأجمع المفسرون على أن قوله تعالى: «وَمَا صَاحِبُكُمْ يُرَادُ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ»؁ والضمير في «رَأَاهُ» لجبريل عليه السلام؁ وهذه الرؤية التي كانت بعد أمر غار حراء حين رآه على كرسي بين السماء والأرض؁ وقيل: هي الرؤية التي رآه عند سدره المنتهى في الإسراء؁ وسُمي ذلك الموضع أفقاً مجازاً؁ وقد كانت لرسول الله ﷺ رؤية ثانية بالمدينة؁ وليست هذه. ووصف تعالى الأفق بالمُبِين لأنه كان في الشرق من حيث تطلع الشمس؁ قاله قتادة؁ وأيضاً فكل أفق فهو في غاية البيان.

وقوله تعالى: «وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٌ» بالضاد بمعنى: بخيل؁ أي: يشع به ولا يبلغ ما قيل له وبخيل كما يفعل الكاهن حتى يعطى حلوانه. وبالضاد هي في خطوط المصاحف كلها فيما قال الطبري؁ وهي قراءة نافع؁ وعاصم؁ وابن عامر؁ وحمزة؁ وعثمان بن عفان؁ وابن عباس؁ والحسن؁ وأبي رجاء؁ والأعرج؁ وأبي جعفر؁ وشيبة؁ وجماعة وافرة. وقرأ ابن كثير؁ وأبو عمرو؁ والكسائي؁ وابن مسعود؁ وابن عباس؁ وزيد بن ثابت؁ وابن عمر؁ وابن الزبير؁ وعائشة؁ وعمر بن عبدالعزيز؁ وابن جبير؁ وعروة بن الزبير؁ ومسلم بن جندب؁ ومجاهد؁ وغيرهم: «بِظَنِينٍ» بالطاء؁ أي: بمُتَّهَمٍ؁ وهذا في

على ما يليها، ويحتمل أن يكون تفجير تفرغ من قيعانها فيذهب الله تعالى ماءها حيث شاء، وقيل: يفجر بعضها إلى بعض فيختلط العذب بالمِلْح وتصير واحداً، وهذا نحو الاختلاف في ﴿سُحِرَتْ﴾ في السورة التي قبل. وقرأ مجاهد والربيع بن خيشم: ﴿فُجِرَتْ﴾ بتخفيف الجيم. و«بُغْثَةُ القبور» بُشُّها عن الموتى الذين فيها.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْتَ نَفْسٌ﴾ هو جواب [إذا]، و«نَفْسٌ» هنا اسم الجنس، وأفروها ليعين لذهن السامع حفارتها وقلتها وضعفها عن منفعة ذاتها إلا من رحم الله تعالى، وقال كثير من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿مَا دَمَّتْ وَأُتْرَتْ﴾: إنها عبارة عن جميع الأعمال؛ لأن هذا التقسيم يعم الطاعات المعلومه والمتروكة، وكذلك المعاصي. وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي: معناه: ما قدمت في حياتها وما أخرت مما سُنَّتهُ فعمل به بعد موتها.

ثم خاطب تعالى جنس ابن آدم فوقَّه - على جهة التوبيخ والتنبيه - على أي شيء أوجب أن يغترُّ برُّه الكريم فيعصيه ويجعل له نداً، وغير ذلك من أنواع الكفر، وهو الخالق الموجد بعد العدم. وروى أن النبي ﷺ قرأ: ﴿مَا عَزَلَهُ رَبُّكَ الْكَرِيمَ﴾ فقال: جهله، وقاله عمر رضي الله عنه وقرأ: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ تَطْلُوْنَ مَا ظَلَمْتُمْ﴾ وقال قتادة: غرَّه عدوُّه المسلط عليه، وقال بعض العلماء: غرَّه ستر الله تعالى عليه، وقال

ثم بيّن تعالى أن تكسب المرء على العموم في استقامة وغيرها إنما يكون مع خلق الله تعالى واختراعه الإيمان في صدر المرء، وروى أنه نزل قوله تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ فقال أبو جهل: هذا أمر قد وكل إلينا، فإن شئنا استقمنا وإن لم نشأ لم نستقم، فنزلت: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وفي الحديث: «يقول الله: يا ابن آدم، تريد وأريد، فتتعب فيما تريد، ولا يكون إلا ما

أريد».

كمل تفسير سورة التكويد والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الانفطار

وهي مكية كلها بإجماع من المفسرين.

١ - ﴿يَوْمَ نَبِّئُ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: هَذِهِ أَوْصَافُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَانْفِطَارُ السَّمَاءِ انْشِقَاقُهَا عَلَى غَيْرِ نِظَامٍ مَقْصُودٍ، إِنَّمَا هُوَ انْشِقَاقٌ لِتَزُولَ زِينَتُهَا. وَانْشِقَاقُ الْكَوَاكِبِ سَقُوطُهَا مِنْ مَوَاضِعِهَا الَّتِي هِيَ فِيهَا كَالنِّظَامِ. وَتَفْجِيرُ الْبَحَارِ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ امْتِلَانِهَا فَتَفْجَرُ مِنْ أَعَالِيهَا وَتَفِيضُ

المعنى نظير وصفة بأمين، وقيل: معناه: بضعيف القوة، من قولهم: بِشَرِّ ظَنُونٍ إِذَا كَانَتْ قَلِيلَةَ الْمَاءِ، وَرَجَّحَ أَبُو عُبَيْدَةَ قِرَاءَةَ الظَّاءِ مِثَالَةَ لِأَنَّ قَرِيشًا لَمْ تَبْخَلْ مُحَمَّدًا ﷺ فِيمَا يَأْتِي بِهِ وَإِنَّمَا كَذَبَتْهُ فَقِيلَ: مَا هُوَ بِمُتَّبِعِهِمْ.

ثم نفى تعالى عن القرآن أن يكون كلام شيطان، على ما قالت قريش إن محمداً كاهن، و﴿يَجِرْ﴾ معناه مُبْعَدٌ مَرْجُومٌ بِالْكَوَاكِبِ وَاللَّعْنَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ تَذَاهَبُونَ﴾ توقيف وتقرير، على معنى: أين المذهب لأحد عن هذه الحقائق، و«الذَّكْرُ» هنا مصدرٌ بمعنى التذكرة. ثم خصَّص تعالى من شاء الاستقامة بالذكر تشريعاً وتنبيهاً وذكرًا لتكسبهم أفعال الاستقامة.

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَزَعَتْ ۝ وَإِذَا الْيَحَاوُ فُجِرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا دَمَّتْ ۝ وَأُتْرَتْ ۝ يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ۝ إِنْ أَلاَّ بُرَّاءٌ لِي حَسِيرٌ ۝ وَلَئِنْ أَفْجَارًا لِّي حَسِيرٌ ۝ يَصُلُّونَ يَوْمَ الَّذِينَ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۝ وَالْأَمْرُ يَوْمَ لِلَّهِ ۝

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا لَوْ أَعْلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّهِمْ الْغَائِبِينَ ۝

٥٨٧

مقاعدهم من النار غُدوةً وعَشِيَّةً، فهم مشاهدون لها. ثم عَظُمَ تعالى قَدْرَ هَؤُلَ يَوْمِ الدِّينِ بقوله سبحانه: ﴿وَمَا آدْرَاكَ﴾، ﴿ثُمَّ مَا آدْرَاكَ﴾.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن أبي إسحق، وعيسى، وابن جندب ﴿يَوْمٌ﴾ برفع الميم على معنى: هو، يومٌ وقرأ الباقر، والحسن، وأبو جعفر وشيبة، والأعرج: ﴿يَوْمٌ﴾ بالنصب على الظرف، والمعنى: الجزء يومٌ، فهو ظرف في معنى خبر الابتداء.

ثم أخبر تعالى بضَعْفِ الناس يومئذ، وأنه لا يغني بعضهم عن بعض، وأن الأمر له تبارك وتعالى، قال قتادة: كذلك هو اليوم، والله تعالى هنالك لا يُنَازَعُه أحد، ولا يُمَكَّنُ أحداً من شيءٍ كما مكَّنه في الدنيا.

كامل تفسير سورة الانفطار والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة المطففين

وهي مكية في قول جماعة من المفسرين، واحتجوا بذكر الأساطير، وهذا على أن تطفيف الكيل والوزن كان بمكة حسب ما هو في كل أمّة، لا سيّما مع كفرهم، وقال ابن عباس، والسدي، والنقاش، وغيرهم: السورة مدنية، قال السدي: كان بالمدينة رجل يُكنى أبا جهينة، له مكيالان، يأخذ بالأوفى

في الكفار، وقرأ جمهور الناس: ﴿تَكْذِبُونَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ الحسن وأبو جعفر: ﴿يُكْذِبُونَ﴾ بالياء، والدّين هنا يحتمل أن يريد به الشرع، ويحتمل أن يريد الجزء والحساب.

و«الخافضون» هم الملائكة الذين يكتبون أعمال ابن آدم، ووصفهم تعالى بالكرم الذي هو نفي المَدَام، و﴿يَعْلَمُونَ مَا تَعْلَمُونَ﴾ لمشاهدتهم حال بني آدم، وقد روي حديث ذكره سفيان يقتضي أن العبد إذا عمل سيئة مما لا يرى ولا يُسمع مثل الخواطر المستضحبة ونحوها أن الملك يجد ريح تلك الخطيئة بإدراك قد خلقه الله تعالى لهم.

(٣٣) - (١٩) تفسير قوله عز وجل: «الْأَبْرَارُ» جمع بَرٍّ، وهو الذي قد اطَّردَ بَرُّه عموماً، فَبَرَّ رَبَّهُ في طاعته، إِيَّاهُ، وَبَرَّ آبُوهُ، وَبَرَّ النَّاسَ في رفع ضره عنهم، وجلب ما استطاع من الخير لهم، وَبَرَّ الحيوان وغير ذلك في أن لم يفسد منها شيئاً عبثاً وبغير منفعة مباحة، و«الْفُجَّارُ» الْكُفَّارُ، وَ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ معناه: يباشرون حرها بأبدانهم، و﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ هو يوم الجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُمَنَّا عَنْهَا﴾، قال بعض المتأولين: هذا تأكيد في الإخبار عن أنهم يَصْلَوْنَهَا، وأنهم لا يمكنهم المغيب عنها يومئذ، وقال آخرون: المعنى: وما هم عنها بغائبين في البرزخ، كأنه تعالى لما أخبر عن صليهم إِيَّاهَا يوم الدِّينِ أخبر بعد ذلك عن المدة التي قُبِلَ يوم الدِّينِ، وذلك أنهم يرون

غيره: غَرَّهُ كرم الله تعالى، ولفظة «الكريم» تُلَقَّنُ هذا الجواب، فهذا من لطف الله عز وجل بعباده العصاة المؤمنين. وقرأ ابن جبير، والأعمش: ﴿مَا أَغْرَاكَ﴾ على وزن أَفْعَلَك، والمعنى: ما دعاك إلى الاغترار؟ ويكون المعنى تعجباً مَحْضاً. وقرأ الجمهور: ﴿فَعَدَّكَ﴾ بشد الدال، وقرأ الكوفيون، والحسن، وأبو جعفر، وطلحة، والأعمش، وأبو رجاء، وعيسى، وعمرو بن عبيد: ﴿فَعَدَّكَ﴾ بتخفيف الدال، والمعنى: عدل أعضائك بعضها ببعض، أي: وازن بينها.

قوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾، ذهب الجمهور إلى أن ﴿فِي﴾ متعلقة بـ ﴿رَكَّبَكَ﴾ أي: في صورة قبيحة أو حسنة أو مشوهة أو سليمة أو نحو ذلك، وذهب بعض المتأولين إلى أن المعنى: فعدلك في أي صورة، بمعنى: إلى أي صورة، حتى قال بعضهم: المعنى: لم يجعلك في صورة خنزير ولا حمار، وذهب بعض المتأولين إلى أن المعنى الوعيد والتهديد، أي: الذي إن شاء ركبك في صورة حمار أو خنزير أو غيره، و﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا شَاءَ﴾ زائدة، فيها معنى التأكيد والتركيب والتأليف وجمع شيءٍ إلى شيءٍ، وروى خارجة عن نافع: ﴿رَكَّبَكَ كَلًّا﴾ بإدغام الكاف في الكاف.

ثم ردَّ تعالى على سائر أقوالهم وَرَدَّعَ عنها بقوله سبحانه: ﴿كَلًّا﴾، ثم أثبت تعالى لهم تكذيبهم بالدِّينِ، وهذا الخطاب عام ومعناه الخصوص

وَيُعْطَى بِالْأَنْقَصِ، فنزلت السورة، ويقال إنها أول سورة أنزلت بالمدينة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً - فيما روي عنه -: نزل بعضها بمكة، ونزل أمر التطفيف بالمدينة؛ لأنهم كانوا أشد الناس فساداً في هذا المعنى، فأصلحهم الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأمر الكيل والوزن وكيد جدأ، وتصرفه في المدن ضروري في الأموال التي هي حرام بغير حق، والإفساد فيه كبيرة لا ينعف فيها دافع إلا التوبة، ولا يُخْلَصُ إِلَّا رُدُّ الْمُظْلَمَةِ إِلَى صَاحِبِهَا. قال مالك بن دينار: احتضر جاز لي، فجعل يقول: جبال من نار، فقلت له: ما هذا؟ فقال: يا أبا يحيى، كان لي مكيالان، أخذ بالوافي وأعطي بالناقص، وقال عكرمة: أشهد على كل كِيَالٍ أَوْ وَزَانٍ أَنَّهُ فِي النَّارِ، وقال بعض العرب: لا تلتمسوا المروءة ممن مروءته في رءوس المكابيل وألسنة الموازين.

(١) - (٢) تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ﴾ معناه: الشُّور والحزن والشقاء الأذوم، وقد روي عن ابن مسعود وغيره أن وادياً في جهنم يسمى وَيْلًا، ورفع ﴿وَيْلٌ﴾ على الابتداء، ورفع على معنى: ثبت لهم واستقر، وما كان في حيز الدعاء والثرقب فهو منصوب نحو قولهم: رغيًا وسقيًا. و«المُطَفَّفُ»: الذي ينقص الناس حقوقهم، والتطفيف: النقصان، أصله من الشيء الطفيف وهو التُّزْر، والمُطَفَّفُ إنما يأخذ

بالميزان شيئاً طفيفاً. وقال سلمان: الصلاة مكيال، فمن أوفى أوفى له، ومن طُفِّفَ فقد علمتم ما قال الله تعالى في المطففين، وقال بعض العلماء: يدخل التطفيف في كل عمل وقول، ومنه قول عمر رضي الله عنه: طُفِّفْتُ معناه: نقصت الأجر أو العمل، ولذلك قال مالك رحمه الله: يقال لكل شيء وفاة وتطفيف، فجاء بالتقيضين. وقد ذهب بعض الناس إلى أن التطفيف هو تجاوز الحد في وفاة أو نقصان، والمعنى والقرائن بحسب قولي قول تبيين المراد، وهذا عندي حد صحيح، وقد بين الله تعالى أن التطفيف ما هنا إنما أراد به أمر الوزن والكيل.

﴿كَأَلُوا عَلَى النَّاسِ﴾ معناه: قبضوا منهم، و﴿كَالُوهُمْ﴾ معناه: أقبضوهم، يقال: كَلْتُ منك واكْتَلْتُ عليك، ويقال: كِلْتُكَ وِكِلْتُ لك، فلما حذف اللام تعدى الفعل، قاله الفراء والأخفش وأنشد أبو زيد: وَلَقَدْ جَعَلْتُكَ أَكْمُؤًا وَعَسَاقِلًا وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَنَاتِ الْأَوْبَرِ

وعلى هذا المعنى هي قراءة الجمهور، وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين، ويقف على [كألوا] [أو وزَّلوا] ويستدئهم يَخْسِرُونَ، أي: إذا كَالُوا أو وزنوا، ورويت عن حمزة، فقوله تعالى: ﴿هُمْ﴾ تأكيد للضمير، وظاهر هذه الآية يقتضي أن الكيل والوزن على البائع، وليس ذلك بالجلبي، وصدر الآية هو في المشترين، قدّمهم بأنهم يستوفون ويشأخون في ذلك، إذ لا تمكنهم

الزيادة على الاستيفاء لأن البائع يحفظ نفسه، فهذا مبلغ قدرتهم في ترك الفضيلة والسماحة والمندوب إليه، ثم ذكر تعالى أنهم إذا باعوا أمكنهم من الظلم والتطفيف أن يُخْسِرُوا لأنهم يتولون الكيل للمشتري منهم، وكذلك هم بحالة من يُخْسِرُ البائع إن قدر. و﴿يُخْسِرُونَ﴾ تعدى بالهمزة، يقال: خسر الرجل وأخسر غيره، والمفعول به [كألوا] محذوف.

ثم وقفهم تعالى على أمر القيامة ودكرهم بها، وهذا يؤيد أنها نزلت بالمدينة في قوم مؤمنين، وأريد بها - مع ذلك - من غير هذه الأمة. و﴿يُنَظُّونَ﴾ هنا بمعنى يتحقق ويعلم. و«اليوم العظيم» يوم القيامة، و﴿يَوْمٌ﴾ ظرف عمل فيه فعل مقدر، «تبعثون» ونحوه، وقال الفراء: هو بدل من «يوم عظيم» لكنه مبني، ويأبى ذلك البصريون لأنه مضاف إلى مغرب.

و«قيام الناس لرب العالمين» يختلف الناس فيه بحسب منازلهم، فروي عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه يقام فيه خمسين ألف سنة، وهذا بتقدير شدته، وقيل: ثلاثمائة سنة، قاله النبي عليه الصلاة والسلام، وقال ابن عمر: مائة سنة، وقيل: ثمانون سنة، وقال ابن مسعود: أربعون سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء لا يؤمرون ولا يكلمون، وقيل غير هذا، وفي هذا كله آثار مروية، ومعناها أن كل مُدَّةٍ لقوم ما تقتضي حالهم وشدة أمرهم ذلك، وزوي أن القيام فيه على المؤمن هو على ما بين الظهر إلى العصر،

السفلى، وقاله البراء عن النبي ﷺ، وقال عكرمة: «سجين» عبارة عن الخسار والهوان، كما تقول: بلغ فلان الحضيض، إذا صار في غاية الخمول، وقال قوم من اللغويين: «سجين» ثبوته بدل من لام، وهو من السجيل، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَجِئُ﴾ تعظيم لأمر هذا السجين وتعجب منه، ويحتمل أن يكون تقرير استفهام، أي: هذا مما لم تكن تعلمه قبل الوحي. قوله تعالى: ﴿يَكْتُبُ تَرْتُومَ﴾، مَنْ قَالَ بِالْقَوْلِ الْأَوَّلِ فِي «سَجِينِ» فَـ ﴿يَكْتُبُ﴾ مَرْتَفَعٌ عِنْدَهُ عَلَى خَبَرِ ﴿إِنَّ﴾، وَالظُّرْفُ الَّذِي هُوَ «لَيْ فِي سَجِينِ» مَلْفَى، وَمَنْ قَالَ فِي «سَجِينِ» بِالْقَوْلِ الثَّانِي فَـ ﴿يَكْتُبُ﴾ مَرْتَفَعٌ عِنْدَهُ عَلَى خَبَرِ ابْتِدَاءِ مَضْمَرٍ، وَالتَّقْدِيرُ: هُوَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ، وَيَكُونُ هَذَا الْكَلَامُ مُفَسَّرًا لـ «سَجِينِ»، مَا هُوَ. وَ«تَرْتُومَ» مَعْنَاهُ: مَكْتُوبٌ رَقْمٌ لَهُمْ بِشْرٌ، ثُمَّ أَثْبَتَ تَعَالَى لِلْمَكْذِبِينَ بِيَوْمِ الْحِسَابِ وَالذِّينِ الْوَيْلَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى مَا يَتَضَمَّنُهُ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَكْتُبُ تَرْتُومَ﴾، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ يُرْفَعُ لِيَوْمٍ غَرَضُ وَجْزَاءٍ، وَبِهَذَا يَتِمُّ الْمَوْعِدُ وَيَتَجَنَّبُ مَعْنَاهُ، وَ«الْمُتَعَذِّي»: الَّذِي يَتَجَاوَزُ حُدُودَ الْأَشْيَاءِ، وَ«أَيْمٍ» مِبَالِغَةٌ فِي «أَيْمٍ»، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿تَلَّى﴾ بِالتَّاءِ، وَقَرَأَ

وَرَوَى أَنَّهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ عَلَى قَدَرِ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ، وَفِي هَذَا الْقِيَامِ هُوَ إِلْجَامُ الْعِرْقِ لِلنَّاسِ، وَهُوَ أَيْضًا مُخْتَلَفٌ، فَيُرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ طَرِيقِ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ يُلْجِمُ الْكَافِرَ إِلْجَامًا، وَيُرَوَى أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَكُونُ فِيهِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى فَوْقٍ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى أَسْفَلٍ.

٧ - ١٧ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية وما بعدها يظهر أنها من نمط المكِّي، وهو أحد الأقوال التي ذكرناها قبل. و«كلاً» يجوز أن تكون ردًا لأقوال قرش، ويحتمل أن تكون استفتاحًا بمنزلة «الآء»، وهذا قول أبي حاتم واختاره، و«الفجاءة»: الكفار، و«كتابهم» يراد به الذي فيه تحصيل أمرهم وأفعالهم، ويحتمل عندي أن يكون المعنى: وعداؤهم وكتاب كونهم هو في سجين، أي: هنالك كتبوا في الأزل. وقرأ أبو عمرو، والأعرج وعيسى: «الذَّيَّار» بالإمالة، و«الأبرار» بالفتح، قاله أبو حاتم.

واختلف الناس في «سجين» ما هو؟ فقال الجمهور: هو قَعِيلٌ مِنَ السَّجَنِ، كَسَكِيرٍ وَشَرِيبٍ، أَيْ: فِي مَوْقِعٍ سَاجِنٍ وَسَاكِرٍ وَشَارِبٍ، فَجَاءَ «سَجِينُ» بِنَاءٍ مِبَالِغَةٍ، قَالَ مُجَاهِدٌ: وَذَلِكَ فِي صَخْرَةٍ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ، وَقَالَ كَعْبٌ حَاكِيًا عَنِ الثَّورَاءِ، وَأَبْيُ بْنُ كَعْبٍ: هُوَ فِي شَجَرَةٍ سَوْدَاءَ هُنَالِكَ، وَقِيلَ - عَنْ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي بَثْرِ هُنَالِكَ، وَقِيلَ تَحْتَ خَدِّ إِبْلِيسَ، وَقَالَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِي: هِيَ الْأَرْضُ

أبو حية: «تَلَّى» بالياء من تحت. و«الأساطير» جمع أسطورة وهي الحكايات التي سَطُرَتْ قَدِيمًا، وَقِيلَ: هُوَ جَمْعُ أَسْطَارٍ، وَأَسْطَارٌ جَمْعُ سَطَرٍ، وَيُرَوَّى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ كِلْدَةَ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَقُولُ: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، وَكَانَ هُوَ قَدْ كَتَبَ بِالْجِزَّةِ أَحَادِيثَ رُسْتَمٍ وَاسْفنديار، وَكَانَ يُحَدِّثُ بِهَا بِمَكَّةَ وَيَقُولُ: أَنَا أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ مُحَمَّدٍ، فَإِنَّمَا يَحْدِثُكُمْ بِأَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ زَجَزَ وَرَدُّ لِقَوْلِهِمْ «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، ثُمَّ أَوْجَبَ تَعَالَى أَنَّ مَا كَسَبُوا مِنَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ وَالْعَتُوِّ قَدْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، أَيْ: غَطَّى عَلَيْهَا وَغَلَبَ، فَهَمَّ مَعَ ذَلِكَ لَا يَبْصُرُونَ رَشْدًا، وَلَا يَخْلُصُ إِلَى قُلُوبِهِمْ خَيْرٌ، يَقَالُ:

رانت الخمر على عقل شاربها، وران الغشي على قلب المريض، وكذلك الموت، ومنه قول الشاعر:

ثُمَّ لَمَّا رَأَتْ رَائِتٌ بِهِ الْخَمِّ
رُؤًى أَلَا تَرِيئَهُ بَاتِقَاءِ
والبيت لأبي زُبَيْد، قال الحسن، وقتادة: الرئ: الذنب على الذنب حتى يموت القلب، ويروى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَذْنِبَ صَارَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، ثُمَّ كَذَلِكَ حَتَّى يَتَغَطَّى، فَذَلِكَ الرِّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾». وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بإدغام اللام في الراء، وقرأ نافع أيضاً بالإدغام والإمالة، قال أبو حاتم: القراءة بالفتح والإدغام، وعلّق تعالى اللوم بهم فيما كسبوه - وإن كان ذلك بخلقٍ منه سبحانه واختراع - لأن الثواب والعقاب متعلّق بكسب العبد، و﴿كَلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ يَصِلَحُ فِيهَا الْوَجْهَانِ﴾ اللذان تقدم ذكرهما، والضمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ﴾ وفي ﴿رَبِّهِمْ﴾ هو للكفار، فَمَنْ قَالَ بِالرُّوْيَةِ - وهم أهل السنة - قال: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَرُونَ رَبَّهُمْ، فهم محجوبون عنه، واحتجّ بهذه الآية مالك بن أنس عن مسألة الرؤية من جهة دليل الخطاب، وإلّا فلو حَجَبَ الرُّوْيَةُ عن الكلّ لما أغنى هذا التخصيص، وقال الشافعي: فَلَمَّا حَجَبَ قَوْماً بِالسَّخَطِ دَلَّ أَنْ قَوْماً يَرُونَهُ بِالرُّوْيَةِ. وَمَنْ قَالَ بِالْأَرُويَةِ - وهو قول المعتزلة - قال في هذه الآية: إِنَّهُمْ محجوبون عن

رحمة ربهم وعُفْرانهِ. وَصَلَّى الْحَجِيمُ هو مباشرة حرّ النار دون حائل.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ هَآؤُا﴾ هو على معنى التوبيخ لهم والتقريع، وقوله تعالى: ﴿هَآؤُا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَكْفُرُونَ﴾ مفعول لم يُسَمَّ فاعله؛ لأنه قول بُني له الفعل الذي هو [يُقَالُ]، وقوله تعالى: ﴿هَآؤُا﴾ إشارة إلى تعذيبهم وكونهم في الجحيم.

٨٧ - ٨٨ تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر تعالى أمر كتاب الفجار عَقِبَ ذَلِكَ يَذْكُرُ كِتَابَ ضُدَّهُمْ لِبَيِّنِ الْفَرْقِ، وَالْأَبْرَارُ جَمْعُ بَرٍّ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ بِكَسْرِ الرَّاءِ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ بَفَتْحِهَا، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو، وَحَمْزَةً، وَالْكَسَائِيُّ بِإِمَالَتِهَا. وَ«عَلِيُونَ» هُوَ جَمْعُ عَلِيٍّ، عَلًى وَزَنُ فِعْلِيلٍ بِنَاءٍ مَبَالِغَةٍ، يَرِيدُ بِذَلِكَ الْمَلَائِكَةَ فَلِذَلِكَ أَعْرَبَ بِالْوَاوِ وَالنُّونِ، وَقِيلَ: يَرِيدُ الْمَوَاضِعَ الْعَلِيَّةَ لِأَنَّهُ عَلُوٌّ فَوْقَ عَلُوٍّ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا الْاسْمُ عَلَى هَذَا الْوِزْنِ لَا وَاحِدَ لَهُ أَشْبَهَ «عَشْرِينَ» فَأَعْرَبَ إِعْرَابَ الْجُمُوعِ إِذْ أَشْبَهَهَا، وَهُوَ أَيْضاً مِثْلُ «قُسْرِينَ»، فَإِنَّكَ تَقُولُ: طَابَتْ قُسْرُونَ وَدَخَلَتْ قُسْرِينَ.

واختلف الناس في الموضع المعروف بِعِلِّيَّينَ، مَا هُوَ؟ فَقَالَ قَتَادَةُ: قَائِمَةُ الْعَرْشِ الْيُمْنَى، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: السَّمَاءُ السَّابِعَةُ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَرَوَى ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْعِلِّيُّونَ: الْجَنَّةُ، وَقَالَ مَكِّي: وَقِيلَ هُوَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ،

وقال الفراء عن بعض العلماء: هو في السماء الدنيا، والمعنى أن كتابهم الذي فيه أعمالهم هنالك تَهْتُمُّأُ بها وترفعاً لها، وأعمال الفجار في سَجِينٍ في أسفل سافلين؛ لأنه روى عن أَبِي بِنِ كَعْبٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَعْمَالَهُمْ يُصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَتَأْبَاهَا، ثُمَّ تُرَدُّ إِلَى الْأَرْضِ فَتَأْبَاهَا أَرْضٌ بَعْدَ أَرْضٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ فِي سَجِينٍ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ. وَ﴿يَكْتَبُ رَبُّهُمْ﴾ في هذه الآية خبر ﴿إِنَّ﴾ وَالظُّرْفُ مُلْتَمَى. وَ«الْمُقَرَّبُونَ» فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ.

و «الْأَرَائِكُ» جَمْعُ أَرِيكَةٍ، وَهِيَ الشَّجَرَةُ فِي الْحِجَالِ، وَ﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه: إِلَى مَا عِنْدَهُمْ مِنَ النِّعَمِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ: بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَقِيلَ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ -: يَنْظُرُونَ إِلَى أَعْدَائِهِمْ فِي النَّارِ كَيْفَ يُعَذِّبُونَ.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَرَوُا﴾ عَلَى مَخَاطِبَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بَفَتْحِ التَّاءِ وَكَسْرِ الرَّاءِ ﴿تَنْصُرُوهُ﴾ نَصَباً، وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ، وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ، وَطَلْحَةُ، وَيَعْقُوبُ: ﴿تُعْرِفُ﴾ بِضَمِّ التَّاءِ وَفَتْحِ الرَّاءِ ﴿تَنْصُرُوهُ﴾ رَفْعاً، وَقَرَأَ قَوْمٌ: ﴿يُعْرِفُ﴾ بِالْيَاءِ لِأَنَّ تَأْنِيثَ «النَّصْرَةِ» لَيْسَ بِحَقِيقِيٍّ، وَ«النَّصْرَةُ»: النِّعْمَةُ وَالرُّوْنَقُ، وَ«الرَّحِيقُ»: الْخَمْرُ الصَّافِيَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُ حَسَنِ:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصُ عَلَيْهِمْ
بَرْدَى يَصْفَقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ
و «تَخْتَوِرُ» يَحْتَمِلُ أَنْ يُخْتَمَ عَلَى كُؤُوسِهِ الَّتِي يَشْرَبُ بِهَا تَهْمُمُأُ



و «المِزَاج»: الخلط، والضمير عائد على «الرحيق»، واختلف الناس في «تَسْنِيمٍ» - فقال ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهم: التَّسْنِيمُ أشرف تراب في الجنة، وهو اسم مذكر لماء عَيْن في الجنة، وهي عَيْن يشربها المقربون صرفاً، ويمزج رحيق الأبرار بها، قاله ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وأبو صالح، وغيرهم. وقال مجاهد ما معناه: إن «تَسْنِيمًا» مصدر من «سَنِمْتُ» إذا علوت، ومنه

وَتَنَظَّفًا، والأظهر أنه مختوم شُرْبُهُ بالرائحة المسكِية حسب ما فسره قوله تعالى: ﴿حَتَّمْتُ مِسْكَ﴾.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿حَتَّمْتُ مِسْكَ﴾ - فقال ابن مسعود وعلقمة: معناه: جِلْطُهُ وَمِزَاجُهُ، وقال ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير: معناه: خاتمته، أي: تجد الرائحة عند خاتمة الشرب رائحة المسك، وقال أبو علي: المراد لذاذة المقطع وذكاء الرائحة مع طيب المطعم، وكذلك هو قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾. وقوله تعالى: ﴿نَجِيلًا﴾، أي: تجد في اللسان، وقد قال ابن مقل:

بِمَا يَحْتَقُّ فِي الْحَانُوتِ بِاطْنِهَا بِالْفُلْفُلِ الْجَوْنِ وَالرُّمَانِ مَخْتُومٌ وقال مجاهد: معناه: طيبه الذي يُخْتَمُ بِهِ مِسْكَ بَدَلِ الطِّينِ الَّذِي فِي الدُّنْيَا، وهذا إنما يكون في الكؤوس، لأن خمر الآخرة ليست في دنانٍ، إنما هي في أنهار، وقرأ الجمهور: ﴿حَتَّمْتُ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والكسائي، والضحاك، والتَّخَعِّي: «خَاتَمُهُ» وهذه بَيِّنَةٌ، المعنى: أنه يراد به الطبع على الرحيق، وروي عنهم أنهم كسر التاء.

ثم حُضِرَ تعالى على الجنة بقوله: ﴿وَقَدْ ذُكِّرَ لَكَ فَلَتَنَاتِ السَّكِينُونَ﴾، وَالتَّنَافُسُ فِي الشَّيْءِ الْمُغَالَاةُ فِيهِ، وَأَنْ يَتَّبِعَهُ كُلُّ وَاحِدٍ نَفْسَهُ، فَكَأَنَّ نَفْسَيْهِمَا تَتَبَارِيانِ فِيهِ، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِكَ: شَيْءٌ نَفِيسٌ، فَكَأَنَّ هَذَا يَعْظُمُهُ، وَيَعْظُمُهُ الْآخَرُ، وَيَسْتَبْقَانِ إِلَيْهِ.

بالكفر - أي: اكتسبوه - كانوا في دنياهم يضحكون من المؤمنين، وَيَسْتَحْفَظُونَ بِهِمْ، ويتخذونهم هزواً. ويروى أن هذه القصة نزلت في صناديد قريش وضعفة المؤمنين، وروي أنها نزلت بسبب أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة معه من المؤمنين مروا بجمع من الكفار في مكة، فضحكوا منهم، واستحَفَّوْا بِهِمْ عِشَاءً وَنُقْصَانِ عَقْلٍ، فنزلت الآية في ذلك.

٣٠ - ٣٦ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿رَبُّوْا﴾ للمؤمنين، ويحتمل أن يكون للكفار، وأما الضمير في ﴿يَقْتَارُونَ﴾ فهو للكفار لا يحتمل غير ذلك، وكذلك في قوله تعالى: ﴿أَنْفَلِبَا﴾. و﴿فَكَيْهٍ﴾ معناه: أصحاب فاكهة ومرح ونشاط وسرور باستخفافهم بالمؤمنين، يقال:

السنام، فكأنها عَيْنٌ قَدْ عَلَتْ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ فَهِيَ تَنْحَدِرُ، وَقَالَ مِقَاتِلُ ابْنِ سَلِيمَانَ، وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ الْأَبْرَارَ وَالْمُقَرَّبِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ يَقَعُ لِكُلِّ مَنْ نَعِمَ فِي الْجَنَّةِ، وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْمُتَأَوِّلِينَ إِلَى أَنَّ مَنْزِلَةَ الْأَبْرَارِ دُونَ مَنْزِلَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَنَّ الْأَبْرَارَ هُمُ أَصْحَابُ الْيَمِينِ، وَأَنَّ الْمُقَرَّبِينَ هُمُ السَّابِقُونَ.

و «عَيْنًا» منصوب إمَّا عَلَى الْمَدْحِ، وَإِمَّا أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ «تَسْنِيمٌ» عَلَى رَأْيٍ مِنْ رَأَى مُصَدَّرًا، وَيَنْتَصِبُ عَلَى الْحَالِ مِنْ «تَسْنِيمٍ»، أَوْ «يَسْقُوتُ»، قَالَ الْأَخْفَشُ: وَفِيهِ بُعْدٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَنْتَرِبَا﴾ معناه: يشربها، كقول الشاعر:

شَرِبْنَا بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَعَتْ
مَتَى لَجَجَ خُضْرٍ لَهُنَّ نَيْجٌ
ثم ذكر تعالى أَنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا

رجل فأكب كلابي وتامير، وهكذا بألف هي قراءة الجمهور، ويقال: رجل فكبة، من هذا المعنى، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿فَكَيْهَيْن﴾ بغير ألف، وهي قراءة أبي جعفر، وأبي رجاء، والحسن، وعكرمة.

وأما الضمير في «رَأَوْا» وفي «قالوا» فقال الطبري وغيره: هو للكفار، والمعنى أنهم يرمون المؤمنين بالضلال، والكفار لم يُرسلوا على المؤمنين حَفَظَةً لهم، وقال قوم: بل المعنى بالعكس، وإنما معنى الآية: وإذا رأى المؤمنون الكفار قالوا: إنهم ضالون، وهو الحق فيهم، ولكن ذلك يثير الكلام بينهم، فكان في الآية حُضاً على المواعدة، أي: إن المؤمنين لم يُرسلوا حافظين على الكفار، وهذا كله منسوخ - على هذا التأويل - بآية السيف.

ولما كانت الآية المتقدمة قد نطقت بيوم القيامة وأن الويل يومئذ للمكذبين، ساغ أن يقول: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ على حكاية ما يقال يومئذ وما يكون. و﴿الَّذِينَ﴾ رُفِعَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَعْيُنِ يَنْظُرُونَ﴾ معناه: إلى أعدائهم في النار، قال كعب: لأهل الجنة كُورٌ ينظرون منها، وقال غيره: بينهم جسم عظيم شفاف يرون منه حالهم.

و﴿هَلْ تُؤْتَبُ﴾ تقرير وتوقيف لمحمد ﷺ وأُمته، ويحتمل أن يريد: «يَنْظُرُونَ هَلْ تُؤْتَبُ»، فالنظر واقع على ﴿هَلْ تُؤْتَبُ﴾، والمعنى: هل جُوزي، ويحتمل أن يكون المعنى: يقول بعضهم لبعض. وقرأ

ابن محيصن، وأبو عمرو، وحزمة، والكسائي: ﴿هَثُوبٌ﴾ بإدغام اللام في التاء لتقاربهما في المخرج، وقرأ الباقون: ﴿هَلْ تُؤْتَبُ﴾ لا يُدغمون، وفي قوله تعالى: ﴿نَا كَاؤُا﴾ حذف تقديره: جزاء ما كانوا، أو عذاب ما كانوا يفعلون.

كامل تفسير سورة المطففين والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية بلا خلاف بين المتأولين.

﴿١﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه أوصاف يوم القيامة، وانشقاق السماء، هو تفتطرها لهول يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَأَشَقَّتْ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾، وقال الفراء: والزجاج، وغيرهما: هو تشققها بالغمام، وقال قوم: تشققها هو تفتحها أبواباً لنزول الملائكة وصعودهم في هول يوم القيامة. وقرأ أبو عمرو: ﴿أَشَقَّتْ﴾ يقف على التاء كأنه يُشِمُّها شيئاً من الجِرِّ، وكذلك في أخواتها. قال أبو حاتم: وسمعت أعرابياً فصيحاً في بلاد قيس يكسر هذه التاءات، وهي لغة.

و﴿أُذِّنَتْ﴾ معناه: استمعت وسمعت أمره ونهيه، ومنه قول النبي ﷺ: «ما أذن الله لشيءٍ إِذُنُهُ» لنبي يتغنى بالقرآن، ومنه قول الشاعر:

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا دُكِرَتْ بِهِ
وَإِذَا دُكِرَتْ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا
وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّتْ﴾، قال ابن عباس، وابن جبر: معناه: وحق لها أن تسمع وتطيع، ويحتمل أن يريد: وحق لها أن تشقق لشدة الهول وخوف الله تعالى.

و «مَدُّ الْأَرْضِ» هو إزالة جبالها حتى لا يبقى فيها عِوَجٌ ولا أُمْتٌ، فذلك مَدُّها، وفي الحديث: «إن الله تعالى يَمُدُّ الْأَرْضَ يوم القيامة مَدُّ الْأَدِيمِ الْمُكَاطِي».

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾، يريد: من الموتى، قاله الجمهور، وقال الزجاج: من الكنوز، وهذا ضعيف لأن ذلك يكون وقت خروج الدجال، وإنما تُلقَى يوم القيامة الموتى. و﴿وَحَلَّتْ﴾ معناه: حَلَّتْ عما كان فيها، أي: لم تمسك منهم بشيء.

وقوله تعالى: ﴿يَكَايُهَا الْإِنْسَانُ﴾ مخاطبة للجنس، و﴿الكَادِحُ﴾: العامل بشدة وسرعة واجتهاد مؤثر، ومنه قول النبي ﷺ: «من سأل وله ما يُغنيه جاءت مسأله حدثاً أو كدوحاً في وجهه يوم القيامة»، والمعنى: إنك عامل خيراً أو شراً، وأنت لا محالة في ذلك سائر إلى حيث ربك لأن الزمن يطير بعمر الإنسان، وإنما هو في مدة عمره في سير حيث إلى ربه. وهذه آية وعظ وتذكير، أي: فكن على حذر من هذه الحال، واعمل عملاً صالحاً تجده، وقرأ طلحة بإدغام كاف ﴿إِنَّكَ﴾ في كاف ﴿كَادِحٍ﴾ ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

وَمَا الْإِنْسَانُ إِلَّا ذُو غُرْبَارٍ
طِوَالِ الدُّفْرِ يَكْدَحُ فِي سَفَالٍ
وقال قتادة: من استطاع أن يكون
كده في طاعة الله تعالى فليفعل،
وقوله تعالى: ﴿مَلَكِيَّةٍ﴾ معناه:
فملاق عذابه أو تنعيمه.

واختلف النحاة في العامل في
﴿إِذَا﴾ - فقال بعض النحاة: العامل
﴿أَنْشَقَّتْ﴾، وأبى ذلك كثير من
أئمتهم؛ لأن ﴿إِذَا﴾ مضافة إلى
﴿أَنْشَقَّتْ﴾، ومن يجيز ذلك تضعيف
عنده الإضافة ويقوى معنى الجزاء
وقال آخرون منهم: العامل
﴿مَلَكِيَّةٍ﴾، وقال بعض خذائهم:
العامل فعل مضمّر. وكذلك اختلفوا
في جواب ﴿إِذَا﴾ - فقال كثير من
النحاة: هو محذوف لعلم السامع
به، وقال أبو العباس المبرد،
والأخفش: هو في قوله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ
كَدَمًا مَلَكِيَّةٍ﴾، أي: إذا انشقت
السماء فأنت ملاقي الله تعالى،
وقيل: التقدير: فيأتيها الإنسان،
وجواب [إذا] في الفاء المقدرة.
وقال الفراء عن بعض النحاة: هو
﴿أَذِنَتْ﴾ على تقدير زيادة الواو. فأما
الضمير في ﴿مَلَكِيَّةٍ﴾ فقال جمهور
المتاولين: هو عائد على الربّ
تعالى، فالفاء - على هذا - عاطفة
﴿مَلَكِيَّةٍ﴾ على ﴿كَادِحٌ﴾، وقال
بعض الناس: هو عائد على الكدح
فالفاء - على هذا - هي عاطفة جملة
الكلام على التي قبلها، والتقدير:
فأنت ملاقيه، والمعنى: ملاق جزاءه
خيراً كان أو شراً.

ثم قسم تعالى الناس إلى المؤمنين

والكافر، فالمؤمنون يعطون كتبهم
بأيمانهم، ومن ينفذ عليه الوعيد من
عصاتهم فإنه يعطى كتابه عند
خروجه من النار، وقد جوز قوم أن
يعطاه أولاً قبل دخول النار، وهذه
الآية ترد إلى هذا القول.
والجساب اليسير هو العرض،
وأما من نوقش الحساب فإنه يهلك
ويعذب، كذلك قال رسول الله ﷺ
لعائشة رضي الله عنها، وذلك أن
رسول الله ﷺ قال: «من حوسب
عُذِبَ»، فقالت عائشة
رضي الله عنها: ألم يقل الله
تعالى: ﴿نَسَوْنَ حِسَابَ حُسْبِيَ﴾؟
الآية؟ فقال عليه الصلاة والسلام:
«إنما ذلك العرض، وأما من نوقش
الحساب فإنه يهلك»، وفي الحديث
من طريق ابن عمر رضي الله عنه،
قال: «يدني الله تعالى العبد حتى
يضع عليه كنفه، فيقول: ألم أفعل
بك كذا وكذا؟ - يُعَدُّ عليه نعمه -،
ثم يقول له: فلم فعلت كذا وكذا؟
- لمعاصيه - فيقف العبد خزياناً،
فيقول الله تعالى: سترتها عليك في
الدنيا وأنا أخفها لك اليوم».
وقالت عائشة رضي الله عنها:
سمعت رسول الله ﷺ عليه وسلم
يقول: «اللهم حاسبني حساباً
يسيراً»، فقلت: يا رسول الله وما
هو؟ فقال: «أن يتجاوز عن
السيئات»، وروى ابن عمر أن
النبي ﷺ قال: «من حاسب نفسه
في الدنيا هوّن الله حسابه يوم
القيامة». وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ
أَهْلِيءَ﴾ أي: الذين أعدّ الله تعالى
له في الجنة، إمّا من نساء الدنيا

وإما من الحور العين وإما من
الجميع.

والكافر يؤتي كتابه من ورائه لأن
يديه مغلولتان، وروي أن يده تدخل
من صدره حتى تخرج من وراء ظهره
فيأخذ كتابه بها.

ويقال إن هاتين الآيتين نزلتا في أبي
سلمة بن عبد الأسد وفي أخيه
الأسود، وكان أبو سلمة من أفضل
المسلمين وأخوه من غداة الكافرين.
و﴿يَدْعُوا بُرُورًا﴾ معناه: يصيح متجهاً:
واثبورا واخرّنا ونحو هذا مما
معناه: هذا وقتك وأوثك، أي:
احضرنى، والثبور اسم جامع
للمكاره كالويل.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر،
والكسائي، وعمر بن عبد العزيز،
والجحدري، وأبو الشعثاء،
والأعرج: ﴿وَيُضَلَّى﴾ بشد اللام
وضم الياء على المبالغة. وقرأ نافع
أيضاً، وعاصم - في رواية أبان -
بضم الياء وتخفيف اللام، وهي
قراءة أبي الأشهب، وعيسى،
وهارون عن أبي عمرو. وقرأ
عاصم، وأبو عمرو، وحزمة، وأبو
جعفر، وقتادة، وعيسى، وطلحة،
والأعمش بفتح الياء على بناء الفعل
للفاعل، وفي مصحف ابن مسعود:
﴿وَيُضَلَّى﴾. وقوله تعالى: ﴿فِي
أَهْلِيءَ﴾ يريد في الدنيا، أي: تملكه
ذلك لا يدري إلا السرور بأهله دون
معرفة الله تعالى، والمؤمن إن سرّ
بأهله لا حرج عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ
يُحْزَرُونَ﴾ معناه: أن لن يرجع
إلى الله تعالى مبعوثاً محشوراً، قال

ابن عباس رضي الله عنهما: لم أعلم ما معنى ﴿يَجُورُ﴾ حتى سمعتُ أعرابية تقول لِبَنِيَّةٍ لها: حوري، أي: ارجعي. والظن هنا على بابهِ، و [أَنْ] وما بعدها تسدُّ مسدَّ مفعولي ﴿ظَنَ﴾، وهي «أَنَّهُ» المخففة من الثقلية، و«الْحَوْرُ»: الرجوع على الأدرج، ومنه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ».

ثم ردَّ الله تعالى على ظن هذا الكافر بقوله سبحانه: ﴿كَيِّنَ﴾، أي: يحور ويرجع، ثم أعلمهم أَنَّ الله تعالى لم يزل بصيراً بهم، لا تخفى عليه أفعال أحد منهم، وفي هذا وعيد.

⑪ - ⑩ تفسير قوله عز وجل:

[لا] زائدة، والتقدير: فأقسم، وقيل: [لا] ردُّ على أقوال الكفار، وابتدأ القول: أَقْسِمُ، وقَسَمَ الله تعالى بمخلوقاته هو على جهة التشريف لها وتعريضها للعبرة، إذا القسم بها منه منها. و«الشَّفَقُ» الحمرة التي تعقب غيبوبة الشمس مع البياض التابع لها في الأغلب، وقيل: الشفق هنا النهار كله، قاله مجاهد، وهو قول ضعيف، وقال أبو هريرة وعمر بن عبدالعزيز: الشفق البياض الذي يتلو الحمرة.

و «وَسَقَ» معناه: جَمَعَ وَضَمَّ، ومنه الوسق، أي: الأصوع المجموعة، والليل يَسِقُ الحيوان جملة، أي: يجمعها في نفسه ويضمها، وكذلك جميع المخلوقات التي في الأرض والهواء من البحار والجبال والرياح وغير ذلك.

و «اتَّسَقَ القمر» كماله وتمامه

بدرًا، فالمعنى: امتلاً من النور.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وعمر، وابن عباس - بخلاف عنهما - وأبو جعفر، والحسن، والأعمش، وقتادة، وابن جبير ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بضم الباء، على مخاطبة الناس، والمعنى: لتركبن الشدائد، الموت والبعث والحساب حالاً بعد حال، أو تكون الأحوال من النطفة إلى الهرم، كما تقول: طبقة بعد طبقة، و«عَنَ» نجيء بمعنى «بُعْدَ»، كما تقول: «ورث المجد كابرًا عن كابر»، وقيل: المعنى: لتركبن هذه الأحوال أمة بعد أمة، ومنه قول العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه في النبي ﷺ:

وَأَنْتَ لَمَّا بُعِثْتَ أَشْرَقَتْ الْأَرْضُ وَضَاءَتْ بِسُورِكَ الطُّرُقُ تُثْقَلُ مِنْ ضَالِبٍ إِلَى رَجَمٍ إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَأَ طَبَقٌ أَيْ: قَرَنَ مِنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ طَبَقُ الْأَرْضِ، قَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ:

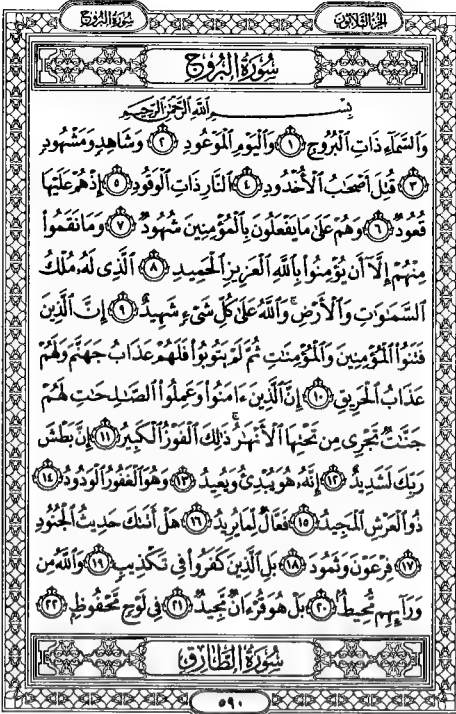
إِنِّي امْرُؤٌ قَدْ حَلَبْتُ الذَّهْرَ أَشْطَرَهُ وَسَاقَنِي طَبَقٌ مِثْلَهُ إِلَى طَبَقِي

أَيُّ: حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى: لَتَرْكَبُنَّ الْآخِرَةَ بَعْدَ الْأُولَى، وَقَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَتَيْرْكَبُنَّ﴾ عَلَى أَنَّهُمْ غُيِّبَ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْمَعْنَى: لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مِنْ قَبْلِكُمْ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «شَبْرًا بِشَبِيرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ»، فَهُوَ طَبَقٌ عَنْ طَبَقٍ، وَيَلْتَنِمُ هَذَا الْمَعْنَى مَعَ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَخْسَنُ مَعَ الْقِرَاءَةِ

الأولى، وقرأ ابن كثير، وحزمة، والكسائي، وعمرو بن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والأسود، وطلحة، وابن جُبَيْر، ومعروف، والشَّعْبِي، وأبو العالية، وابن وثاب، وعيسى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بفتح الباء، على معنى: أَنْتَ يَا مُحَمَّدَ، فَقِيلَ: الْمَعْنَى: حَالاً بَعْدَ حَالٍ مِنْ مَعَالِجَةِ الْكُفَّارِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَمَاءٌ بَعْدَ سَمَاءٍ فِي الْإِسْرَاءِ، وَقِيلَ: هِيَ عِدَّةٌ بِالنَّصْرِ، أَيْ: لَتَرْكَبُنَّ أَمْرَ الْعَرَبِ قَبِيلًا بَعْدَ قَبِيلٍ وَفَتْحًا بَعْدَ فَتْحٍ كَمَا كَانَ وَجَدَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الْمَعْنَى: لَتَرْكَبُنَّ السَّمَاءَ فِي أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَالاً بَعْدَ حَالٍ، تَكُونُ كَالْمَهْلِ وَكَالدَّهَانِ وَتَنْفَطِرُ وَتَشْتَقُّ، فَالسَّمَاءُ هِيَ الْفَاعِلَةُ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضاً، وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَتَيْرْكَبُنَّ﴾ عَلَى ذِكْرِ الْغَائِبِ، فَإِذَا أَنْ يَرَادَ مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَى الْمَعْنَانِ الْمَتَقَدِّمَةِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَعْنِي نَبِيَّكُمْ ﷺ إِمَاماً، قَالَ بَعْضُ النَّاسِ فِي كِتَابِ النِّقَاشِ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ الْقَمَرَ لِأَنَّهُ يَتَغَيَّرُ أَحْوَالاً وَأَسْرَاراً وَاسْتِهْلَالاً.

ثُمَّ وَقَفَ تَعَالَى نَبِيُّهُ ﷺ - وَالْمُرَادُ أَوْلَئِكَ الْكُفَّارَ - بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أَيْ: مَا حُجَّتُهُمْ مَعَ هَذِهِ الْبِرَاهِينِ السَّاطِعَةِ؟ وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بِضَمِّ الْيَاءِ وَشَدِّ الدَّالِ، وَقَرَأَ الضَّحَّاكُ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَتَخْفِيفِ الدَّالِ وَإِسْكَانِ الْكَافِ. وَ﴿يُؤْعَوْنَ﴾ مَعْنَاهُ: يَجْمَعُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْكَفْرِ، كَأَنَّهُمْ يَحْمِلُونَهَا فِي أَوْعِيَةٍ، تَقُولُ: وَعَيْثُ الْعِلْمِ وَأَوْعَيْتُ الْمَتَاعَ، وَجَعَلَ تَعَالَى



وهي اثنا عشر على ما قسمته، وهي التي تقطعها الشمس في سنة والقمر في ثمانية وعشرين يوماً، وقال قتادة: معناه: ذات الرمل والماء، يريد أنها مبنية في السماء، وهذا قول ضعيف.

و «اليوم الموعود» هو يوم القيامة باتفاق، قاله النبي ﷺ، ومعناه: الموعود به.

وقوله تعالى: «وَشَاهِدُوا» معناه: عليه، أو به، أو فيه، وهذا يترتب بحسب الخلاف في تعيين المراد بـ «وَشَاهِدُوا وَشَاهِدُوا»، فقد

البشارة في العذاب لما صرح به، وإذا جاءت مُطلقة فإنما هي في الخير.

ثم استثنى تعالى من كفار قريش القوم الذين كانوا سبق لهم الإيمان في قضائه. و «مَتَّوْنٌ» معناه: مقطوع، من قولهم: جبل متين، أي: مقطوع، ومنه قول الحارث بن جِلْزَةَ النَشْكِرِي:

فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَفْدِ
بِحِمْيَ مَنِبِئاً كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ
يريد: غباراً متقطعاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «مَتَّوْنٌ» مُدَدٌّ عليهم محسوبٌ مُنْعَصٌ بالْمَنْ. كمل تفسير سورة الانشقاق والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة البروج

وهي مكية بإجماع من المتأولين، لا خلاف في ذلك.

١ - ٣ تفسير قوله عز وجل: «وَشَاهِدُوا» اختلاف الناس في «البروج» - فقال الضحاك وقاتدة: هي القصور، ومنه قول الأخطل:

كَأَنَّهَا بُرْجُ رُومِي يُشِيدُهُ
بِإِنٍ بِحِصٍّ وَأَجْرٍ وَأَخْجَارٍ

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: البروج: النجوم لأنها تتبرج بنورها، والتبرج: التظاهر والتبدي، وقال الجمهور وابن عباس أيضاً: البروج هي المنازل التي عرفتها العرب،

ويرم الجمعة، والمشهود: يوم القيامة، وقال علي، وابن عباس، وأبو هريرة، والحسن، وابن المسيب وقاتدة: «شاهد» يوم الجمعة، و«مشهود» يوم عرفة، وقال ابن عمر: «شاهد» يوم الجمعة، و«مشهود» يوم النحر، وقال جابر: «شاهد» يوم القيامة، و«مشهود» الناس، وقال محمد بن كعب: الشاهد: أنت يا ابن آدم، والمشهود: الله تعالى، وقال ابن جبير بالعكس، وتلا: «وَكُنَّا بِاللَّهِ شَهِدًا»، وقال أبو مالك: الشاهد: عيسى عليه السلام، والمشهود: أمته، قال الله تعالى: «وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا»، وقال ابن المسيب: «شاهد»: يوم التروية، و«مشهود»: يوم عرفة، وقال بعض الناس في كتاب النقاش: الشاهد يوم الاثنين،

و«شاهد» وشاهد، فقد اختلف الناس في المشار إليه بهما - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: الشاهد: الله تعالى، والمشهود، يوم القيامة، وقال ابن عباس أيضاً، والحسن بن علي، وعكرمة: الشاهد: محمد ﷺ، والمشهود: يوم القيامة، قال الله تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا»، وقال تعالى في يوم القيامة: «وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ». وقال مجاهد وعكرمة أيضاً: الشاهد: آدم عليه السلام وجميع ذريته، والمشهود: يوم القيامة. و«شاهد» اسم جنس على هذا، وقال بعض من بسط قول مجاهد وعكرمة «شاهد» يراد به رجل فرد أو نَسَمَة من النسم، ففي هذا تذكير لحقارة المسكين ابن آدم، و«المشهود» يوم القيامة، وقال الحسن بن أبي الحسن وابن عباس أيضاً: الشاهد: يوم عرفة

والمشهود يوم الجمعة، وذكره الثعلبي. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الشاهد: يوم عرفة، والمشهود: يوم النحر، وعنه أيضاً: «شاهد»: يوم القيامة، و«مشهود» يوم عرفة، وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «شاهد»: يوم الجمعة، و«مشهود»: يوم عرفة، قاله علي وأبو بكر والحسن. وقال إبراهيم النخعي: الشاهد: يوم الأضحى، والمشهود: يوم عرفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ووصف هذه الأيام بشاهد لأنها تشهد لحاضريها بالأعمال، والمشهود فيما مضى من الأقوال بمعنى المشاهد - بفتح الهاء -، وقال الترمذي الشاهد: الملائكة الحفظة، والمشهود عليهم: الناس، وقال عبدالعزيز بن يحيى - عند الثعلبي -: الشاهد محمد عليه الصلاة والسلام، والمشهود عليهم أمته، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ سَهِيدًا﴾، أي: شاهداً، وقيل: الشاهد الأنبياء عليهم السلام، والمشهود عليهم أممهم، وقال الحسن بن الفضل، الشاهد أمة محمد ﷺ، والمشهود عليهم قوم نوح عليه السلام وسائر الأمم حسب الحديث المنصوص في ذلك. وقال ابن جبير أيضاً: الشاهد الجوارح التي تنطق يوم القيامة فتشهد على أصحابها، والمشهود عليهم أصحابها، وقال بعض العلماء: الشاهد الملائكة المتعاقبون في الأمة، والمشهود قرآن الفجر، وتفسيره ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ

مَشْهُودًا﴾ وقال بعض العلماء: الشاهد النجم، والمشهود عليه الليل والنهار، أي: يشهد النجم بإقبال هذا وإدبار هذا، ومنه قول النبي ﷺ: «حَتَّى يَطْلُعَ الشَّاهِدُ»، «الشاهد النجم» وقال بعض العلماء: الشاهد هو الله تعالى والملائكة وأولوا العلم، والمشهود به الوجدانية وأن الدين عند الله الإسلام، وقيل: الشاهد مخلوقات الله تعالى، والمشهود به وحدانيته، وأنشد الثعلبي في هذا المعنى قول الشاعر: وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَسُدُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ و ﴿يُنِيلُ﴾ معناه: فعل الله تعالى بهم ذلك لأنهم أهل له، فهو على جهة الدعاء بحسب البشر، لا أن الله تعالى يدعو على أحد، وقيل - عن ابن عباس -: معناه: لعن، وهذا تفسير بالمعنى، وقيل: هو إخبار بأن النار قتلتهم، قاله الربيع بن أنس، وسيأتي بيانه.

واختلف الناس في أصحاب الأخدود - فقيل: هم قوم كانوا على دين، وكان لهم ملك، فزنى بأخته، ثم حمله بعض الناس على أن يسن في الناس نكاح الأخوات والبنات، فحمل الناس على ذلك، فأطاعه كثير وعصته فزق، فخذ لهم أخاديد - وهي حفائر طويلة كالخنادق - وأضرم لهم ناراً وطرحهم فيها، ثم استمرت المجوسية في مطيعه، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: صاحب الأخدود ملك من حمير، كان بمزارع من اليمن، اقتتل هو والكفار مع المؤمنين، ثم غلب في آخر

الأمر، فحرقتهم على دينه إذ أبوا دينه، ومنهم كانت المرأة ذات الطفل التي تَلَكَّتْ فقال لها الطفل: امضي في النار فإنك على الحق. وحكى النقاش عن علي رضي الله عنه أن نبي أصحاب الأخدود كان حبشياً، وأن الحبشة بقية أصحاب الأخدود، وقيل: صاحب الأخدود ذو نواس في قصة عبدالله بن الثامر التي وقعت في السير، وقيل: كان صاحب الأخدود في بني إسرائيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورأيت في بعض الكتب أن صاحب الأخدود هو محرق، وأنه الذي حرق من بني تميم المائة، ويعترض هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَلَى مَا يَقُولُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، فينفصل عن هذا الاعتراض بأن هذا الكلام منقطع من قصة أصحاب الأخدود، وأن المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ﴾ قريش الذين كانوا يفتنون الناس المؤمنين والمؤمنات.

واختلف الناس في جواب القسم - فقال بعض النحاة: هو محذوف ليعلم السامع به، وقال آخرون: هو قوله تعالى: ﴿يُنِيلُ﴾، والتقدير: لَنُنِيلَ، وقال قتادة: هو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَلَدَكُمْ لَكَلْبٌ﴾، وقال آخرون: هو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الْأَنَارُ﴾ بدل من ﴿الْأَخْدُودُ﴾، وهو بدل اشتغال، وهذه قراءة الجمهور ﴿النَّارُ﴾ بخفض الراء، وقرأ قوم: ﴿النَّارُ﴾ بالرفع، على معنى: قتلهم النار. و«الوقود» - بالضم - مصدر من: وقدت النار

إذا اضطرمت، و«الْوُقُودُ» - بفتح الواو - ما توقد به، وقرأ الجمهور بفتح الواو، وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وأبو حنيفة بضمها.

وكان من قصة هؤلاء أن الكفار قَعَدُوا، وضم المؤمنون فعرض عليهم الدخول في الكفر، فمن أبى رُمي في أخطود النار فاحترق، فروي أنه احترق عشرون ألفاً. قال الربيع بن أنس، وابن إسحق، وأبو العالية: بعث الله تعالى على المؤمنين ريحاً فقبضت أرواحهم، أو نحو هذا، فخرجت النار وأحترقت الكافرين الذين كانوا على حافتي الأخطود، وعلى هذا يجيء ﴿يُنْزَلُ﴾ خبراً لا دعاءً، وقال قتادة: ﴿إِذْ نَزَّ عَلَيْنَا قُلُودٌ﴾ يعني المؤمنين.

و ﴿نَقَمُوا﴾ معناه: اعتدوا وتعدوا، وقرأ جمهور الناس: ﴿نَقَمُوا﴾ بفتح القاف، وقرأ أبو حنيفة، وابن أبي عملة: ﴿نَقَمُوا﴾ بكسر الفاء.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿فِئْرًا﴾ معناه: أخرقوا، وفتنت الذهب والفضة في النار: أحرقتهما، والْفَتْنُ: حجارة الحرّة السود لأن الشمس كأنها أحرقتهما. ومن قال إن هذه الآيات الأواخر في قريش جعل الفتنه الامتحان والتعذيب، ويقوي هذا التأويل بغض التقوية قوله تعالى: ﴿لَمْ يَرْبُوا﴾؛ لأن هذا اللفظ في قريش أحكم منه في أولئك الذين قد علم أنهم ماتوا على كفرهم، وأما قريش فكان فيهم وقت نزول الآية من تاب بعد ذلك وآمن بمحمد ﷺ. و«جَهَنَّمُ والحريق»

طبقتان من النار، ومن قال إن النار خرجت فأحرقت الكفار القعود جعل الحريق في الدنيا. و«البطش» الأخذ بقوة وسرعة، و«يَبْدَى وَيُبدئ» قال الضحاك، وابن زيد: معناه: ﴿يَبْدِئُ﴾ الخلق بالإنشاء و«يُبدئ» بالحشر، وقال ابن عباس ما معناه: إن ذلك عام في جميع الأشياء، فهي عبارة عن أنه يفعل كل شيء، أي: يُبدئ كل ما يبدئ ويُعيد كل ما يُعاد، وهذان قسمان يستوفيان جميع الأشياء، وقال الطبري: معناه: يبدئ العذاب ويعيده على الكفار.

و «الْعُقُودُ الْوُقُودُ» صفتا فغل، الأولى ستر على عبادته، والثانية لطف بهم وإحسان إليهم، وخصص العرش بإضافة نفسه إليه تشريفاً للعرش وتنبيهاً على أنه أعظم المخلوقات. وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل عن عاصم، والحسن، وابن وثاب، والأعمش، وعمر بن عبيد «المجيد» بخفض الدال صفة للعرش، وهذا على أن المجد والتمجد قد يوصف به كثير من الموجودات، وقد قالوا: مَجَّدَتِ الدابة إذا سمنت، وأمجدتها إذا أحسنت عليها، وقالوا: «في كل شجر نار واستمجد المزج والعقاز»، أي: كثرت نارهما، وقرأ الباقون والجمهور: «الْمَجِيدُ» بالرفع صفة لله تعالى. وقرأ الجمهور: «ذُرَّ الْعَرْشِ» وروي عن ابن عامر: «ذي الْعَرْشِ» نعتاً لقوله تعالى: ﴿إِذْ بَلَغَ رَبُّكَ﴾.

﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا توقيف للنبي ﷺ وتقرير،

بمعنى: فاجعل هؤلاء الكفرة الذين يخالفونك وراء ظهرهم ولا تهتم، فقد انتقم الله تعالى من أولئك الأقوياء الأشداء فكيف هؤلاء؟ و«الجنود»: الجموع المَعْدَّة للقتال والجري نحو غرض واحد، وناب فرعون بالذكر مناب قومه وآله إذ كان رأسهم، و﴿يَرْعَوْنَ وَتَوَدُّ﴾ في موضع خفض على البذل من «الجنود».

ثم ترك القول بحاله، وأضرب عنه إلى الإخبار بأن هؤلاء الكفار بمحمد ﷺ لا حجة لهم عليه ولا برهان، بل هو تكذيب مجرد سببه الحسد، ثم توعدهم بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي سَحَابٍ مُمِيطٍ﴾، أي: وعذاب الله تعالى ونقمته، وقوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ فِي سَحَابٍ مُمِيطٍ﴾ معناه يأتي من بعد كفرهم وعصيانهم.

ثم أضرب تعالى عن تكذيبهم مُبْطَلًا له وراداً عليه، وأخبر أنه قرآن مجيد، أي: لا مَدَمَّة فيه، وهذا مما تقدم من وصف غير الله تعالى بالمجد والتمجد. وقرأ ابن السميع اليماني: «قُرْآنٌ مَجِيدٌ» على الإضافة وأن يكون الله تعالى هو المجيد. و«اللُّوْحُ» هو اللوح المحفوظ الذي فيه جميع الأشياء، وقرأ جمهور القراء: «فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» بالخفض صفة للوح المشهور بهذه الصفة، وقرأ نافع وحده - بخلاف عنه - وابن محيصن، والأعرج: «مَحْفُوظٌ» بالرفع صفة للقرآن، على نحو قوله تعالى: ﴿وَرِثْنَا لَمْ نَحْفَظْهُنَّ﴾، أي: هو محفوظ في القلوب لا يدركه الخطأ والتبديل. وقال أنس: إن اللوح المحفوظ هو

أراد نجماً مخصوصاً وهو رُحل، ووصفه بالشقوب لأنه مُبَرَّز على الكواكب في ذلك، وقال ابن عباس: أراد الجدي، وقال بعض هؤلاء: ثَقَبَ النَجْمُ إذا ارتفع، فإنما وصف رُحلاً بالشقوب لأنه أرفع الكواكب مكاناً، وقال ابن زيد أيضاً وغيره: النجم الثاقب: الثريا، وهو الذي تطلق عليه العرب اسم الجنس معرفاً.

وجواب القسم في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْ نَقِيًّا﴾، وقرأ جمهور الناس: ﴿لَمَّا﴾ مخففة الميم، قال الحذاق من النحويين وهم البصريون: ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة، واللام لام التأكيد الداخلة على الخير، وقال الكوفيون: ﴿إِنْ﴾ بمعنى «ما» النافية، واللام بمعنى «إلا»، فالتقدير: ما كل نفس إلا عليها حافظ، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، والأعرج، وأبو عمرو، ونافع - بخلاف عنهما - وقتادة: ﴿لَمَّا﴾ بتشديد الميم، وقال أبو الحسن الأخفش: [لَمَّا] بمعنى «إلا»، لغة مشهورة في هذيل وغيرهم، تقول: أقسمت عليك لَمَّا فعلت كذا، أي: إلا فعلت كذا.

ومعنى هذه الآية - فيما قال قتادة وابن سيرين وغيرهما - إن كل نفس مكلفة فعليها حافظ يحصي أعمالها ويُعدها للجزاء عليها، وبهذا الوجه تدخل الآية في الوعيد الزاجر. وقال الفراء: المعنى: عليها حافظ يحفظها حتى يسلمها إلى القدر، وهذا قول فاسد المعنى لأن مدة الحفظ إنما هي بقدر، وقال أبو أمامة: قال

تُسَمَّى سماءً لِمَا كان من السماء، وتُسَمَّى السحاب سماءً، قال الشاعر:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ
رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا

وقال النابغة:

كَأَلَا فُحُونٍ غَدَاةٌ غِبَّ سَمَائِهِ

و «الطارق»: الذي يأتي ليلاً، وهو اسم الجنس لكل ما يظهر أو يأتي ليلاً، ومنه نهي النبي ﷺ الناس في أسفارهم أن يأتي الرجل أهله طروقاً، ومنه طروق الخيال، وقال الشاعر:

يا نائمَ اللَّيْلِ مُغْتَرًّا بِأَوَّلِهِ
إِنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقُنْ أَشْحَارًا

ثم بين تعالى الطارق الذي قَصَدَ من هذا الجنس المذكور وهو ﴿النَّجْمُ أَكْبَرُ﴾، وقيل: بل معنى الآية: والسماء جميع ما يطرق فيها من الأمور والمخلوقات، ثم ذكر تعالى بعد ذلك - على جهة التنبيه - أجل الطارقات قدراً وهو النجم الثاقب. فكأنه تعالى قال: وما أدراك ما الطارق حقُّ الطارق.

واختلف المتأولون في «النجم الثاقب» - فقال الحسن بن أبي الحسن ما معناه أنه اسم الجنس، لأنها كلها باقية أي: ظاهرة الضوء، يقال: ثَقَبَ النَجْمُ إذا أضاء، وَثَقَبَتِ النَّارُ كذلك، وَثَقَبَتِ الرَّائِحَةُ إذا سطعت، ويقال لِلْمَوْقِدِ: أَثَقَبَ نَارَكِ، أي: أَضْطَهَا، وقال ابن زيد:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝ إِنْ كُنْ نَقِيًّا ۝ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ نَسَمَهُ خَلْقٌ ۝ خَلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِصِ ۝ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ يُنْفِثُ الرُّسُلَ ۝ قَالَهُمْ مِنْ قَوْمٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝ وَالسَّاءُ ذَاتَ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضُ ذَاتُ الصَّالِعِ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۝ وَمَا هُوَ إِلَّا نَزْلٌ ۝ مِنْ يَكْدٍ وَكِيدٍ ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَيَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ وَرُيَا ۝

سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أُنْزِلَ أَتْرَجُ التَّارِجِ ۝ فَجَعَلَهُ غَافَةً أَحْوَى ۝ سُبْحَانَكَ فَلَا تَنسَى ۝ إِنْ أَمَّا شَاءَ اللَّهِ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرُ وَمَا يَخْفَى ۝ وَيَسِيرُكَ لِلْإِسْرَى ۝ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعْتَ الذَّكَرَى ۝ سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْفَى ۝ وَيَنْجِبُكَ الْأَنْفَى ۝ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝ نَحْنُ أَفْهَمُ مِنْ نَزْنَى ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝

٥٩١

في جهة إسرائيل عليه السلام، وقيل: هو من دُرَّة بيضاء، قاله ابن عباس، وهذا كله مما قَصُرَتْ به الأسانيد، وقرأ ابن السميع: ﴿فِي نُوحٍ﴾ بضم اللام.

كمل تفسير سورة البروج والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الطارق

وهي مكية، لا خلاف بين المفسرين في ذلك.

﴿١﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل: أقسم الله تعالى بالسماء المعروفة في قول جمهور المفسرين، وقال قوم: السماء هنا المطر، والعرب

النبي ﷺ في تفسير هذه الآية: (إن لكل نفس حَفَظَةً من الله تعالى يَذُبُّون عنها كما يَذُبُّ عن العسل، ولو وكل المرء إلى نفسه طرفة عين لا تخطفه الغَيْرُ وَالشَّيَاطِينُ).

وقوله تعالى: ﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ رِمًا خَلْفَهُ﴾ * توقف لمنكري البعث على أصل الخلقة الدالة على أن البعث جائز ممكن، ثم بادر اللفظة إلى الجواب اقتضاباً وإسراعاً إلى إقامة الحجة؛ إذ لا جواب لأحد إلا هذا. ﴿كَافِرِينَ﴾ قال كثير من المفسرين: هو بمعنى مدفوق، وقال الخليل وسيبويه: هو على النسب، أي: ذا دَفَقٍ، والدَّفَقُ: دَفَعَ الماءُ بعضه ببعض كدفع الوادي والسيل إذا جاء يركب بعضه بعضاً، ويصح أن يكون الماء دافقاً لأن بعضه يدفع بعضاً، فمنه دافقٌ ومدفوق.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ بَيْنَ يَدَيْهِ الصُّلْبَ وَالتَّرَائِبَ﴾، قال قتادة والحسن وغيرهما: معناه: من بين صُلْب كل واحد من الرجل والمرأة وترائبه، وقال سفيان وقاتدة أيضاً وجماعة: من بين صُلْب الرجل وترائب المرأة، والضمير في ﴿يُخْرِجُ﴾ يحتمل أن يكون للإنسان، ويحتمل أن يكون للماء، وقرأ الجمهور: ﴿الصُّلْبُ﴾ بسكون اللام، وقرأ أهل مكة وعيسى: ﴿الصُّلْبُ﴾ بضم اللام على الجمع. و«التَّرَائِبُ» من الإنسان: ما بين التَّرْقُوءَةِ إلى الثدي، قال أبو عبيدة: مُعَلَّقُ الحلي على الصدر، وجمع ذلك «تَرَيَّبٌ»، قال المثلث العدي:

وَمِنْ ذَهَبٍ يُسَنُّ عَلَى تَرِيٍّ
كَلَوْنِ الْعَاجِ لَيْسَ بِذِي غُضُونٍ
وَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

تَرَاتِيهَا مَضْقُولَةٌ كَالسَّجْنَجِلِ
فَجَمَعَ التَّرِيْبَةَ وَمَا حَوْلَهَا فَجَعَلَ
ذَلِكَ تَرَاتِبًا. وَقَالَ مَكِّي عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ: إِنَّ «التَّرَاتِبَ» أَطْرَافُ الْمَرْءِ،
رَجُلَاهُ وَبَدَاهُ وَعَيْنَاهُ، وَقَالَ مَعْمَرُ:
التَّرَاتِبُ جَمْعُ تَرِيْبَةٍ وَهِيَ عُصَاةُ
الْقَلْبِ، وَمِنْهَا يَكُونُ الْوَلَدُ، وَفِي هَذِهِ
الْأَقْوَالِ تَحْكُمُ عَلَى اللُّغَةِ، وَقَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: التَّرَاتِبُ
مَوْضِعُ الْقِلَادَةِ، وَقَالَ أَيْضًا: هِيَ مَا
بَيْنَ ثَدْيِي الْمَرْأَةِ، وَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ:
هِيَ أَضْلَاعُ الرَّجُلِ الَّتِي أَسْفَلَ
الصُّلْبِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ الصُّدْرُ،
وَقَالَ: هِيَ التَّرَاتِقِي، وَقَالَ: هِيَ مَا
بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ وَالصُّدْرِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجَائِهِ﴾
الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ لله تعالى،
واختلف المفسرون في الضمير في
﴿رَجَائِهِ﴾ فقال ابن عباس، وقتادة:
هو عائذ على الإنسان، أي: على
رؤده حيًا بعد موته، وقال الضحاك:
هو عائذ على الإنسان، لكن
المعنى: يُرجعه ماءً كما كان أولاً،
وقال الضحاك أيضاً: يُرجعه من
الكِبَرِ إلى الشباب، وقال عكرمة،
ومجاهد: هو عائذ على الماء، أي: يردّه في الإحليل، وقيل: في
الصُّلب، والعامِل في ﴿يَوْمَ﴾ - على
هذين القولين الآخرين - فعلٌ مضمَر،
تفديره: اذكر يومَ تُبلى السرائر،
وعلى القول الأول - وهو أظهر
الأقوال وأبينها - اختلفوا في العامِل

في ﴿يَوْمَ﴾ - فقال بعضهم: العامل «ناصرٌ» من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلْهُ﴾، وقيل: العامل «الرجعُ» من قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِ﴾، قالوا: وفي المصدر من القوة بحيث يعمل وإن حال خَبَرَانِ بينه وبين معموله، وقيل: العامل فعلٌ مضمَرٌ تقديره: «إنه على رجعه لقادرٌ» يُرْجعه يوم تُبْلَى السرائرُ، وكلُّ هذه الفِرَق فُرِثَ من أن يكون العامل «قادرٌ»؛ لأن ذلك يظهر منه تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده، وإذا تَوُملَ المعنى وما يقتضيه فصبح كلام العرب جاز أن يكون العامل «قادرٌ»، وذلك أنه على رجعه لقادرٌ، أي: على الإطلاق أولاً وآخراً وفي كل وقت، ثم ذكر تعالى وخَصَّصَ من الأوقات الوقت الأهم على الكفار؛ لأنه وقت الجزاء والوصول إلى العذاب، فتنجمت النفوسُ إلى حذرهِ والخوف منه.

و ﴿بَلَىٰ أَلَسْأَرَ﴾ معناه: تُختبر
وتُكشف بواطنها، وروى أبو الدرداء
عن النبي ﷺ أن السرائر التي
يتليها الله تعالى من العباد: التوحيد
والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة،
وصوم رمضان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه عظم الأمر. وقال أبو قتادة:
الوجه في الآية العموم في جميع
السرائر، وليس يمتنع في الدنيا من
المكارة إلا بأحد وجهين: إما بقوة
في ذات الإنسان وإما بناصر خارج
عن ذاته، فأخبر الله تعالى عن
الإنسان أنه يعدنهما يوم القيامة فلا
يعصمه من أمر الله تعالى شيء.

﴿١٢﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

«السَّمَاءُ» في هذا القَسَمِ يحتمل أن تكون تكون المعروفة، ويحتمل أن تكون السحاب، و«الرَّجْعُ»: المطر وماؤه، ومنه قول الهذلي:

أَبْيَضُ كَالرَّجْعِ رَسَوْتُ إِذَا
مَا شَأْنٌ فِي مُخْتَفِلٍ يَخْتَلِي
وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
الرَّجْعُ: السحاب والمطر، قال
الحسن: لأنه يرجع بالرزق كل عام،
وقال غيره: لأنه يرجع إلى الأرض،
وقال ابن زيد: الرجْعُ مصدر رجوع
الشمس والقمر والكواكب من حال
إلى حال، ومن منزلة إلى منزلة،
تذهب وترجع.

و «الصُّدُغُ»: النبات؛ لأن الأرض
تتصدع عنه، وهذا قول يناسب قول
من قال: إن الرَّجْعُ هو المطر، وقال
مجاهد: الصُّدُغُ: ما في الأرض من
شعاب ولصّاب وخندق وتشقّق
بحزب وغيره، وفيها أمور فيها
معتبر، وهذا قول يناسب القول
الثاني في «الرَّجْعِ».

والضمير في ﴿لَيْلَةٍ﴾ للقرآن - ولم
يتقدم له ذكر - من حيث القول في
جزء منه والحال تقتضيه. و﴿فَصَلِّ﴾
معناه: جُزْمٌ، فصل الحقائق من
الأباطيل، و«الْهَزْلُ»: اللَّعِبُ الباطل.

ثم أخبر تعالى عن قريش أنهم
يكيدون في أفعالهم وأقوالهم
وتمرسهم بالنبي عليه الصلاة والسلام
وتدبيرهم رد أمره، ثم قوى الله
تعالى ذلك بالمصدر وأكده، وأخبر
سبحانه عن أنه يفعل بهم عقاباً سَماً
كيداً، على العُرف في تسمية العقوبة
باسم الذنب، ثم ظهر من قوله

تعالى: ﴿فَيَهْلِكُ الْكَافِرِينَ﴾ أن عقابه
الذي سَمَّاهُ كيداً متأخر حتى ظهر
ببدر وغيره، وقرأ جمهور الناس:
﴿أَنهَلَهُمْ﴾، وقرأ ابن عباس:
﴿أَنهَلَهُمْ﴾ وفي هذه الآية مُوَادعة
نسختها آية السيف.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾ معناه:
قليلاً، قاله قتادة، وهو حال، وهذه
اللفظة إذا تقدمها شيء تُصَفُّه،
كقولك: سِتيراً رَوْدِداً، أو تقدمها فِعْلٌ
فيها كهذه الآية، وأما إذا ابتدأت بها
فقلت: «رَوْدِداً يا فلان» فهي بمعنى
الأمر بالتَمَهُّل، تجري مجرى
قولهم: صبراً يا زيد وقليلأ يا
عمرو.

كمل تفسير سورة الطارق والحمد لله
رب العالمين

تفسير سورة الأعلى

وهي مكية في قول الجمهور،
وحكى النقاش عن الضحاك أنها
مدنية، وذلك ضعيف، وإنما دعاه
إليه قول من قال: إن ذكر صلاة
العبد فيها.

﴿١﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:
﴿سَبِّحْ﴾ في هذه الآية بمعنى: نَزَّهْ
وقُدِّسْ وقل: سبحانه عن النقائص
والغير جميعاً وما يقول المشركون،
و«الاسم» الذي هو «ألف، سين،
ميم» يأتي في مواضع من الكلام
الفصيح يُراد به المسمى، ويأتي في
مواضع يُراد به التسمية، نحو

قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ
اسْماً» وغير ذلك، ومتى أُريدَ به
المسمى فإنما هو صِلَةٌ كالزائد، كأنه
تعالى قال في هذه الآية: سَبِّحْ
رَبِّكَ، أي: نَزَّهْ، وإذا كان الاسم
واحداً من الأسماء كزُيْدَ وعمرو
فيجىء في الكلام على ما قُلْتُ،
تقول: «زيد قائم» تريد المسمى،
وتقول: «زيد ثلاثة أحرف» تريد
التسمية، وهذه الآية تحتمل الوجه
الأول، وتحتمل أن يراد بالاسم
التسمية نفسها على معنى: نَزَّهْ اسم
رَبِّكَ عن أَنْ يُسَمَّى به صنم أو وثن
فيقال له: إِلَآهَةٌ وَرَبٌّ ونحو ذلك.

و«الْأَعْلَى» يصح أن يكون صفة
للإسم، ويصح أن يكون صفة للرب
تعالى، وذكر الطبري أن ابن عمر
وعلياً رضي الله عنهما قرأ هذه
السورة: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى،
الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى» قال: وهي في
مصحف أبي بن كعب كذلك، وهي
قراءة أبي موسى الأشعري وابن
الزبير، ومالك بن دينار، وروى ابن
عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ
كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سُبْحَانَ
رَبِّي الْأَعْلَى»، وكان ابن مسعود،
وابن عمر، وابن الزبير يفعلون
ذلك، ولما نزلت هذه السورة قال
النبي ﷺ: «اجعلوها في
سجودكم»، وقال قوم: معنى ﴿سَبِّحْ﴾
أَسَمَ رَبِّكَ: نَزَّهْ اسم الله تعالى عن
أن تذكره إلا وأنت خاشع، وقال
ابن عباس: معنى الآية: صلِّ باسم
ربك الأعلى، كما تقول: ابدأ
باسم الله تعالى، وحذف حرف
الجر.

و «سَوَى» معناه: عدل وأتقن حتى صارت الأمور مستوية دالة على قدرته ووحدانيته، وقرأ جمهور الفراء: ﴿قَدَّرَ﴾ بشد الدال، فيحتمل أن تكون من القَدَر والقضاء، ويحتمل أن تكون من التقدير والموازنة بين الأشياء، وقرأ الكسائي وحده: ﴿قَدَّرَ﴾ بتخفيف الدال، فيحتمل أن تكون من القدرة، ويحتمل أن تكون من التقدير والموازنة، وقوله تعالى: ﴿فَهْدَى﴾ عام لجميع الهدايات في الإنسان والحيوان، وقد خصص بعض المفسرين أشياء من الهدايات - فقال الفراء: معناه: هدى وأصل، واكتفى بالواحدة لدالتها على الأخرى، وقال مقاتل والكلبي: هدى الحيوان إلى وطء الذكور الإناث، وقيل: هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي، وقال مجاهد: هدى الناس إلى الخير والشر والبهائم للمراتع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الأقوال مثالات، والعموم في الآية أصوب في كل تقدير وفي كل هداية.

و «الْمَرْغَى»: النبات، وهو أصل في قوام العيش، إذ هو غذاء الأنعام، ومنه ما ينتفع به الناس في ذواتهم، و«الْعُثَاء»: ما يبس وجف وتحطم من النبات، وهو الذي يحمله السيل، وبه شبه الناس الذين لا قدر لهم، و«الأخوى» قيل: هو الأخضر الذي عليه سواد من شدة الخضرة والغضارة، وقيل: هو الأسود سواداً يضرب إلى الخضرة، ومنه قول ذي الرمة:

لَمَبِئَاءَ فِي شَفَقَتِهَا حَوَّةٌ لَعَسَ
وَفِي الثَّابِتِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنْبُ
وتقدير هذه الآية: أخرج المرعى أخوى، أي: أسود من خضرته ونضارته، فجعله عُثَاءً عند يُبْسِهِ، ف «أَتَوَيْ» حال، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: فجعله عُثَاءً أخوى، أي: أسود؛ لَأَن الثَّابِتَ إِذَا قَدُمَ وَأَصَابَتْهُ الْأَمْطَارُ اسْوَدَّ وَنَقَبُضَ فَصَارَ أَخْوَى، فهذا صفة.

قوله تعالى: ﴿سَفَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾، قال الحسن، وقناة، ومالك بن أنس: هذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانُكَ﴾ الآية وعده الله تعالى أن يفرقه، وأخبره أنه لا ينسى نسياناً لا يكون بعده تذکر فَيُذْهِبُ الآية، وذلك أن النبي ﷺ كان يحرك شفته مبادرة خوفاً منه أن ينسى، وفي هذا التأويل آية للنبي ﷺ في أنه أُمِّي وحفظ الله تعالى عليه الوحي وأمنه من نسيانه، وقال آخرون: ليست الآية في معنى تلك، وإنما هذه وغد بإقراء الشرع والسور، وأمر بالأل ينسى، على معنى التثبيت والتأكيد، وقد علم تعالى أن ترك النسيان ليس في قدرته، فهو نهى عن إغفال التعاهد، وأثبت الية في ﴿تَنْسَى﴾ لتعديل رؤوس الآي، وقال الجنيدي: معنى ﴿فَلَا تَنْسَى﴾: لا تترك العمل بما تضمن من أمر ونهي.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قال الحسن وقناة وغيرهما: معناه: مما قضى الله سبحانه بِتَسْخِجِهِ وَأَن تُزْفَعَ تِلَاوَتُهُ وَحُكْمُهُ، وقال الفراء وجماعة من أهل المعاني: هو

استثناء صِلَةٍ في الكلام، على سنة الله تعالى في الاستثناء، وليس ثم شيء أبيح نسيانه، وقال ابن عباس: إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَن ينسيكه لِتَسْخِجَ بِهِ، على نحو قوله ﷺ: «إِنِّي لَأَنْسَى، وَأَنْسَى لَأَسْنَ». وقال بعض المتأولين: إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَن يغلبك النسيان عليه ثم يذكرك به بعد، ومن هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام حين سمع قراءة عباد بن بشر: «رحمه الله تعالى، لقد أذكرني كذا وكذا آية في سورة كذا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونسيان النبي ﷺ ممتنع فيما أثير بتبليغه؛ إذ هو معصوم، فإذا بلغه ووعى عنه فالنسيان جائز على أن يتذكر بعد ذلك، أو على أن يسن، أو على النسخ.

ثم أخبره تعالى أنه يعلم الجهر من الأشياء وما يخفى منها، وذلك لإحاطته بكل شيء علماً، وبهذا يصح الخبر أنه لا ينسى شيئاً إِلَّا ذُكِّرَهُ الله تعالى به. وقوله تعالى: ﴿وَيَنْبِئُكَ الْيُسْرَى﴾ معناه: نذهب بك نحو الأمور الْمُسْتَحْسَنَةِ في دنياك وأخراك، من النَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَعُلُوِّ الرِّسَالَةِ وَالْمَنْزِلَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالرَّفْعَةِ فِي الْجَنَّةِ.

ثم أمره تعالى بالتذكير، واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿إِن تَنْمَتِ الذِّكْرَى﴾ فقال الفراء، والنحاس، والزهراوي: معناه: وإن لم تنفع فاقصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني، وقال بعض الحنّاق: إنما قوله تعالى: ﴿إِن تَنْمَتِ الذِّكْرَى﴾ اعتراض بين الكلامين على

المتأولين: ﴿تَزَكَّى﴾ معناه: أدى زكاة ماله، و﴿مَنَّ﴾ معناه: صلّى الخمس.

ثم أخبر الله تعالى الناس أنهم يؤثرون الحياة الدنيا، فالكافر يؤثرها إيشار كُفْرَ يَرَى أَلَا آخِرَةَ، والمؤمن يؤثرها إيشار معصية وغلبة نفس إلا من عصم الله تعالى. وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿يُؤْثِرُونَ﴾ بالياء، وقال: يعني الأشقيين، وهي قراءة ابن مسعود، والحسن، وأبي رجاء، والجدري. وقرأ الباقون والناس: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ بالثاء على المخاطبة، وفي حرف أبي بن كعب: ﴿بَلْ أَنْتُمْ تُؤْثِرُونَ﴾، وسبب الإيشار حبّ العاجل، والجهل ببقاء الآخرة، وقال عمر رضي الله عنه: ما الدنيا في الآخرة إلا كنفخة أرنب.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا﴾ قال الضحاك: أراد القرآن، وروي أن القرآن انتسخ من الصحف الأولى، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: الإشارة إلى معاني السورة، وقال ابن زيد: الإشارة إلى هذين الخبرين: إفلاح من تزكى، وإيشار الناس للدنيا مع فضل الآخرة عليها. وهذا هو الأرجح لقرب المشار إليه بـ ﴿هَذَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَيْلَى الصُّحُفِ الْأُولَى﴾، أي: لم ينسخ هذا قط في شرع من الشرائع، فهو في الأولى وفي الأخيرات، ونظير هذا قول النبي ﷺ: ﴿إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ﴾، أي: إنه مما جاء به الأولى واستمر في الغير.

السُّلَى من أطباق النار.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَخِي﴾ معناه: لا يموت فيها موتاً مريحاً ولا يحيا حياةً هنيئة، فهو لا محالة حي، وقد ورد في خبر أن العصاة في النار موتى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأراد على التشبيه لأنه كالسُّبَات والركود والهمود، فجعله موتاً. ﴿١٤﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَفْلَحَ﴾ في هذه الآية معناه: فاز ببغيته، و﴿تَزَكَّى﴾ معناه: طهر نفسه ونماها بالخير، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من قال لا إله إلا الله تطهر من الشرك»، وقال الحسن: من كان عمله زاكياً، وقال أبو الأحوص: من رَضَخَ من ماله وزكاه.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ معناه: وحده وضملي له الصلوات التي فرض عليه، وتَنَقَّلَ أيضاً بما أمكنه من صلاة وبر، وقال أبو سعيد الخدري، وابن عمر، وابن المسيب: هذه الآية في صبيحة يوم الفطر فـ ﴿تَزَكَّى﴾ هو أدى زكاة الفطر، و﴿ذكر اسم ربه﴾ هو ذكر الله تعالى في طريق المصلى إلى أن يخرج الإمام، و«الصلاة» هي صلاة العيد، وقد روي هذا التفسير عن النبي ﷺ. وقال قتادة وكثير من

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝ تُشَقِّقُ مِنْ عَيْنٍ رَانِيَةٍ ۝ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ ۝ لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُنْفِ مِنْ جُوعٍ ۝ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ تَأْنَمَةٌ ۝ لَمَسَعَهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُورٌ مُتَوَفَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مُوَضَّعَةٌ ۝ وَنَارٌ زَاكِيَةٌ مَبْنُوتَةٌ ۝ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّيِّئِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝ فَذَكِّرْ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۝ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۝

٥٩٢

جهة التوبيخ لقريش، أي: إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة، وهذا كنعو قول الشاعر:

لَقَدْ أَسْمَعْتُ - لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا -
وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي
وهذا كله كما تقول لرجل: قُلْ
لفلان وأعد له إن سمعك، إنما هو
توبيخ للمشار إليه.

ثم أخبر الله تعالى أنه سيدكّر من يخشى الله تعالى والدار الآخرة، وهم العلماء والمؤمنون، كل بقدر ما وفق، ويتجنب الذكرى ونفعها من سبقت له الشقاوة فكفر، ووجب له صلي النار، وقال الحسن: «النار الكبرى» نار الآخرة، والصغرى نار الدنيا، وقال بعض المفسرين: إن جميع نار الآخرة وإن كانت شديدة فهي تفاضل، ففيها شيء أكبر من شيء، وقال الفراء: الكبرى هي

وقرأ الجمهور: ﴿الْشَّحِيحُ﴾ مضمومة الحاء، وروى هارون عن أبي عمرو سكون الحاء، وهي قراءة الأعمش، وقرأ أبو رجاء: ﴿إِيزَهَمَ﴾ بغير ياء ولا ألف، وقرأ ابن الزبير: ﴿إِيزَاهَمَ﴾، وكذلك أبو موسى الأشعري في كل القرآن، وقرأ عبدالرحمن بن أبي بكر: ﴿إِيزَاهِمَ﴾ بكسر الهاء وبغير ياء في جميع القرآن. ورؤى أن ضُحِفَ إبراهيم عليه السلام نزلت في أول ليلة من رمضان، والتوراة في السادسة من رمضان، والزبور في اثنتي عشرة منه، والإنجيل في ثماني عشرة منه، والقرآن في أربع عشرة منه. كمل تفسير سورة الأعلى والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية بلا خلاف في ذلك بين أهل التأويل.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قال بعض المفسرين: ﴿حَلَّ﴾ بمعنى «قد»، وقال الحذاق: هي على بابها توقيف فائدته تحريك نفس السامع إلى تلقى الخبر، وقيل: المعنى: هل كان هذا من علمك لولا أن علمناك؟ ففي هذا التأويل تقرير النعمة. والغاشية: القيامة لأنها تغشى العالم كله بهولها وتغييرها لِبَنِيَّتِهِ، قاله سفيان وجمهور من المتأولين، وقال ابن

جبير ومحمد بن كعب: الغاشية: النار، وقد قال تعالى: ﴿وَنَقَّحْنُ وُجُوهَهُمُ النَّارَ﴾، وقال: ﴿وَيَنْفُخُ فِيهِمْ غَوَّاثٍ﴾، فهي تغشى سكانها، والقول الأول يؤيده قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾، والوجوه الخاشعة هي وجوه الكفار، وخشوعها ذُلُّها وتغيُّرها بالعذاب.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، فقال ابن عباس، والحسن، وابن جبير، وقتادة: معناه: عاملة في النار ناصبة فيها، والنَّصَبُ: الثَّعب، لأنها تكبرت عن العمل لله تعالى في الدنيا فأعملها في الآخرة في ناره، وقال عكرمة والسُّدِّيُّ: المعنى: عاملة في الدنيا ناصبة يوم القيامة، فالعمل - على هذا - هو مساعي الدنيا، وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم، وابن جبير: المعنى: هي عاملة في الدنيا ناصبة فيها. لأنها على غير هدى، فلا ثمرة لعاملها إلا النصب، وخاتمته النار، وقالوا: الآية في القسيسين وعُباد الأوثان وكل مجتهد في كفر، وقد ذهب إلى هذا المذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تأويل الآية، وبكى رحمه لراهب نصراني رآه مجتهداً، وفي الحديث أن النبي ﷺ ذكر القدرة فيبكي وقال: إن فيهم المجتهد.

وقرأ ابن كثير - في رواية شبل - وابن محيصن: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ بالنصب على الذم، والناصبُ فعل مضمر تقديره: أذمُّ أو أعني أو

نحو هذا، وقرأ الستة وحفص عن عاصم، والأعرج، وطلحة، وأبو جعفر والحسن: ﴿تَضَلَّى﴾ بفتح التاء وسكون الصاد، على بناء الفعل للفاعل، أي: الوجوه، وقرأ أبو بكر عن عاصم، وأبو عمرو - بخلاف عنه - وأبو رجاء، وأبو عبدالرحمن، وابن محيصن - واختلف عن نافع وعن الأعرج -: ﴿تَضَلَّى﴾ بضم التاء وسكون الصاد، وذلك يحتمل أن يكون من «ضَلَّيْتُ النار» بمعنى أصليته فيكون كَتَضَرَّبَ، ويحتمل أن يكون من أصليته فيكون كَتَكْرَمَ، قرأ بعض الناس: ﴿تَضَلَّى﴾ بضم التاء وفتح الصاد وشذ اللام، على التعدية بالتضعيف، حكاهما أبو عمرو بن العلاء. والحامية: المسفرة التوقد المتوهجة. والآية: التي قد انتهى حرها، كما قال تعالى: ﴿رَبِّكَ جَبَّيْرًا﴾، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقال ابن زيد: معنى «آية»: حاضرة لهم، من قولهم: آتى الشيء إذا حضر.

واختلف الناس في «الضريع» - فقال الحسن وجماعة من المفسرين هو الزقوم؛ لأن الله تعالى قد أخبر في هذه الآية أن الكفار لا طعام لهم إلا من ضريع، وقد أخبر أن الزقوم طعام الأثيم، فذلك يقتضي أن الضريع هو الزقوم. وقال سعيد بن جبيرة: الضريع حجارة في النار. وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة: الضريع شِبْرُق النار، وقال أبو

حنيفة: الضريع الشُّبرق، وهو مرعى سوء لا تعقد السائمة عليه شحماً ولا لحماً، ومنه قول ابن عَزَازَةَ الْهَدَلِيّ:

وَحَبَسْنَ فِي هَزْمِ الضَّرِيْعِ فَكُلُّهَا
حَذَبَاءُ دَابِيَّةُ الْيَدَيْنِ خَرُودُ
وقال أَبُو ذُوؤَب:

رَعَى الشُّبْرَقُ الرِّيَّانَ حَتَّى إِذَا دَوَّى
وَعَادَ ضَرِيْعاً بَانَ مِنْهُ الشُّحَايِصُ
وقيل: الضريع: العِشْرُق، وقال
النبي ﷺ: «الضريع شوك في النار»،
وقال بعض اللغويين: الضريع يَبْسُ
الْعَرْفَجُ إِذَا تَحَطَّم، وقال آخرون: هو
رَطْبُ الْعَرْفَجِ، وقال الزجاج: هو
نَبْتُ كَالْعَوْسَجِ، وقال بعض
المفسرين: الضريع نبت في البحر
أخضر مُتَيْنٌ مُجَوَّفٌ مستطيل، له نور
فيه كبير، وقال ابن عباس أيضاً:
الضريع شجر من نار. وكلُّ من ذكر
شيئاً مما قدمناه فإنما يعني أن ذلك
من نار ولا بُدَّ، وكلُّ ما في النار فهو
نارٌ، وقال قوم: ضريع: وادٍ في
جهنم، وقال جماعة من المتأولين:
الضريع طعام أهل النار، ولم يرد أن
يخصص شيئاً مما ذكر، قال بعض
اللغويين: وهذا مما لا تعرفه
العرب، وقيل: الضريع: الجلدَةُ
التي على العظم تحت اللحم، ولا
أعرف من تأول الآية بهذا، وأهل
هذه الأقاويل يقولون: الرُّقُومُ
لطائفة، والضريع لطائفة، والفِلسُ
لطائفة.

واختلف في المعنى الذي سُمِّي به
ضريعاً - فقيل: هو ضريع بمعنى
مُضِرٌّ، أي: مضعف للبدن مُهْزِلٌ،

ومنه قول النبي ﷺ في وَلَدَيَّ
جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
رضي الله عنهم: «مَا لِي أَرَاهُمَا
ضَارِعَيْنِ؟» يريد هزيلَيْنِ، ومن قَبِيلٍ
بمعنى مُفْعَل قول عمرو بن معد
يكرب:

أَمِنْ زَنْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ
يُؤْزَرُفَيْنِي وَأَصْحَابِي مُجَوِّعُ
يريد: المُسْمِع. وقيل: ضريع:
فَعِيل من المضارعة، أي لأنه يشبه
المرعى الجيد ويضارعه في الظاهر،
وليس به.

ولما ذكر تعالى وجوه أهل النار
عُتِبَ ذلك بذكر وجوه أهل الجنة
ليبين الفرق، وقوله تعالى: «لَسَنَآ»
يريد به: لعملها في الدنيا وطاعتها،
والمعنى: لثواب سعيها والتنعيم
عليه، ووصف تعالى الجنة بالعلو،
وذلك يصح من جهة المسافة
والمكان، ومن جهة المكانة والمنزلة
أيضاً.

وقرأ نافع وحده، وابن كثير،
وأبو عمرو - بخلاف عنهما -
والأعرج، وأهل مكة والمدينة:
«لَا تُسْمَعُ فِيهَا لَآغِيَةٌ» بضم التاء
من فوق، ورفع «لَآغِيَةٌ»، ففسره
بعضهم: لا تُسمع فيها كلمة
لاغية، أي: ذات لغو، فهي على
النسب، وفسره بعضهم على
معنى: لا تُسمع فيها فئة أو
جماعة لاغية ناطقة بسوء، وقال
أبو عبيدة: «لَآغِيَةٌ» مصدر كالعاقبة
والجائية، وقرأ الجحدري: «لَا
تُسْمَعُ» بضم التاء «لَآغِيًا»
بالنصب، وقرأ ابن كثير، وأبو

عمرو: «لَا يُسْمَعُ» بالياء من
تحت مضمومة «لَآغِيَةً» بالرفع،
وهي قراءة ابن محيصن، وعيسى،
والجحدري أيضاً، إلا أنه قرأ:
«لَآغِيَةً» بالنصب، على معنى: لا
يُسمع أحد كلمة لاغية، من
قولك: أَسْمَعْتُ زَيْدًا، وقرأ
الباقون، ونافع - في رواية خارجة
- والحسن، وأبو رجاء، وأبو
جعفر، وقتادة وابن سيرين، وأبو
عمرو - بخلاف عنه -: «لَا
تَسْمَعُ» بفتح التاء «لَآغِيَةً»
بالنصب، والمعنى إمّا على الكلمة
وإمّا على الفئة، والفاعل بـ [تَسْمَعُ]
إمّا الوجوه، وإمّا محمد ﷺ - قاله
الحسن - وإمّا أنت أيها المخاطب
عموماً. و«اللُّغُو» سَقَطَ القول،
فذلك يجمع الفُحْشَ وسائر الكلام
السُّفاسف الناقص، وليس في الجنة
نقصان ولا عيب فعل ولا قول،
والحمد لله وَلِيُّ النعمة.

﴿١٢﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَعْنِي﴾ في هذه الآية اسم
جنس، ويحتمل أن تكون عيناً
مخصوصة ذكرت على جهة
التشريف لها. وَرَفَعَ السُّرَّ أَشْرَفَ
لها، و«الْأَكْوَابُ» أَوَان كالأباريق لا
عَرَى لها ولا أَدَان ولا خراطيم،
وشكلها عند العرب معروف،
و«تَوَسُّعَةٌ» معناه: بِأَشْرَبَتِهَا مُعَدَّة،
و«التَّمْرِقَةُ»: الوسادة، ويقال:
نَمْرِقَةُ بكسر النون والراء، قال
زهير:

كُهُولاً وَشُبَّاناً جِسَاناً وَجُوهُهُمْ
عَلَى سُرَرٍ مَضْفُوفَةٍ وَنَمَارِقٍ

والزُّرَابِي» واحدتها «زُرَيْبِيَّة»، ويقال بفتح الزاي، وهي كالطنافس لها خَمَلٌ، قاله القراء، وهي ملونات و«بَيُوتَةٌ» معناه: كثيرة متفرقة.

ثم أقام تعالى الحجة على منكري قدرته على بعث الأجساد بأن وقَّعهم على مواضع العبرة في مخلوقاته، والإبل في هذه الآية هي الجمال المعروفة، هذا قول الجمهور من المتأولين، وفي الجمل آيات وعبر لمن تأمل، ليس في الحيوان ما يقوم من البروك بحمله سواه، وهو على قوته غاية في الانقياد، قال الثعلبي في بعض التفاسير: إن فأرة جرت بزمام ناقة فتبعتها حتى دخلت الجحر فبركت الناقة وأدنت رأسها من فم الجحر، وكان شريح القاضي يقول لأصحابه: اخرجوا بنا إلى الكُنَاسَةِ حتى ننظر إلى الإبل كيف خُلقت، وقال أبو العباس المبرد: الإبل هنا: السحاب لأن العرب قد تسميها بذلك إذ تأتي أرسالاً كالإبل، وتزجى كما تزجى الإبل، وهي في هيئتها أحياناً تشبه الإبل والنعام، ومنه قول الشاعر:

كَأَنَّ السَّحَابَ دُورُنَ السَّمَاءِ
وَنَعَامٌ تَعَلَّقَ بِالْأَرْجُلِ
وقرأ أبو عمرو - بخلاف - وعيسى: «الإِبلُ» بشد اللام، وهي السحاب كما ذكر قوم من اللغويين والنقاش، وقرأ الجمهور: «خُلِيتَ» بفتح القاف وضم الخاء،

وقرأ علي بن أبي طالب: «خُلِيتَ» بفتح الخاء وسكون القاف، على فعل المتكلم، وكذلك «زُرُعَتْ»، و«نُصِبَتْ»، و«سَطِخَتْ»، وقرأ أبو حيوة: «زُرُعَتْ»، و«نُصِبَتْ»، و«سَطِخَتْ» بالتشديد فيها. و«نُصِبَتْ» معناه: أثبتت قائمة في الهواء لا تنبطح، وقرأ الجمهور: «سَطِخَتْ» بتخفيف الطاء، وقرأ هارون الرشيد: «سَطِخَتْ» بشد الطاء على المبالغة، وهي قراءة الحسن. وظاهر هذه الآية أن الأرض سَطِخَ لا كُرَّة، وهو الذي عليه أهل العلم، والقول بكريتها - وإن كان لا ينقض ركناً من أركان الشرع - فهو قول لا يثبت علماء الشرع.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتذكير بهذه الآيات ونحوها. ثم نفى تعالى أن يكون مسيطراً على الناس، أي: قاهراً مُخْبِراً لهم مع تكبر متسلطاً عليهم، يقال: تسيطر علينا فلان، وقرأ بعض الناس: «بِمُسَيِّطِرٍ» بالسين، وبعضهم «بِمُحَيِّطِرٍ» بالصاد، وقرأ هارون: «بِمُسَيِّطِرٍ» بفتح الطاء، وهي لغة تميم، وليس في كلام العرب على هذا البناء غير «مُسَيِّطِرٍ» و«مُحَيِّطِرٍ»، وفي الأسماء «مُذَيِّبٍ» و«مُجَيِّمٍ»، وهو اسم واد، ويحتمل أن يكون هذان مُصَغَّرَيْنِ.

قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ» قال بعض المتأولين:

الاستثناء مُتَّصِلٌ، والمعنى: إلا من تولى وكفر فأنت مسيطر عليه، فالآية - على هذا - لا نسخ فيها، وقال آخرون منهم: الاستثناء منفصل، والمعنى: «لَسَتْ عَلَيْهِمْ يُمَيِّطِرُ» وتَمَّ الكلام، وهي آية مُؤَادعة منسوخة بالسيف، ثم قال تعالى: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ» يَذَّبُهُ، وهذا هو القول الصحيح؛ لأن السورة مكئية، والقتال إنما نزل بالمدينة، و«مَنْ» بمعنى «الذي». وقرأ ابن عباس، وزيد بن أسلم، وقتادة، وزيد بن علي: «أَلَا مَنْ تَوَلَّى»، بفتح الهمزة، على معنى استفتاح الكلام، و«مَنْ» - على هذه القراءة - شرطية. و«الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ» عذاب الآخرة؛ لأنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع والقتل وغيرهما، وقرأ ابن مسعود: «فِيَأْتِيَهُ يُعَذِّبُهُ اللَّهُ».

وقرأ الجمهور: «إِيَّاهُمْ» مصدر من «آبَ يَؤُوبُ» إذا رجع، وهو الحشر والرَّدُّ إلى الله تعالى، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «إِيَّاهُمْ» بشد الياء، على وزن «يُقَالُ» بكسر الفاء، أصله «فيعال»، من «أَيَّبَ»، أصله «فَيَعْلَلُ»، ويصح أن يكون من «أَوَّبَ» فيجيء «إيواباً» وسهلت الهمزة، وكان اللازم في الإدغام ردها «إِوَاباً»، لكن استحسنت فيه الياء على غير قياس.

كمل تفسير سورة الغاشية والحمد لله رب العالمين

يوم النحر، والوتر يوم عرفة، وروى أبو أيوب عنه عليه السلام أنه قال: «الشفع يوم عرفة ويوم الأضحى، والوتر ليلة النحر»، وروى عمران بن حصين عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «هي الصلوات منها الشفع ومنها الوتر»، وقال ابن الزبير وغيره: الشفع اليومان من أيام التشريق، والوتر اليوم الثالث، وقال آخرون: الشفع العالم، والوتر الله سبحانه؛ إذ هو تعالى الواحد محضاً، وسواه ليس كذلك، وقال بعض المتأولين، الشفع آدم وحواء عليهما السلام، والوتر الله سبحانه وتعالى، وقال ابن سيرين، ومسروق، وأبو صالح: الشفع والوتر شائعان في الخلق كله: الإيمان والكفر، والإنس والجن، وما اطرّد نحو هذا، فهي أضداد أو كالأضداد، وترها الله تعالى فرد واحد، وقيل: الشفع الصفا والمروة، والوتر البيث، وقال الحسين بن الفضل: الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية، والوتر أبواب النار لأنها سبعة، وقال مقاتل: الشفع الأيام والليالي، والوتر يوم القيامة لأنه لا ليل بعده، وقال أبو بكر السوّاق: الشفع تضاد أوصاف المخلوقين كالعز والذلّ ونحوه، والوتر اتحاد صفات الله تعالى، عز محض وكبر محض، ونحوه، وقيل: الشفع قرآن الحج والعمرة، والوتر الإفراؤ بالحج، وقال الحسن: أقسم الله تعالى بالعدد لأنه إما شفع وإما وتر، وقال بعض المفسرين: الشفع حواء والوتر آدم عليهما السلام، وقال ابن عباس ومجاهد:

الحجة، وقال مقاتل: المراد فجر ليلة جمع، وقال ابن عباس أيضاً: المراد فجر أول يوم المحرم لأنه فجر السنة، وقيل: المراد فجر العيون من الصخور وغيرها، وقال عكرمة: المراد فجر يوم الجمعة.

واختلف الناس في «الليالي العشر» - فقال بعض الرواة: هي العشر الأول من رمضان، وقال ابن عباس والضحاك: هي العشر الأواخر من رمضان، وقال يمان وجماعة من المتأولين:

هي العشر الأول من المحرم، وفيها يوم عاشوراء، وقال ابن الزبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي، وعطية العوفي: هي عشر ذي الحجة، وقال مجاهد: هي عشر موسى عليه السلام التي أتمها الله تعالى له. وقرأ الجمهور: «وَلَيَالِي عَشْرٍ» وقرأ بعض القراء: «وَلَيَالِي عَشْرٍ» بالإضافة، وكان هذا على أن «العشر» مشار إليه معيّن بالعلم به، ثم وقع القسم بلياليه، فكان «العشر» اسم لزمه، وهذا نحو قولهم: «فعلت كذا في العشر الأوسط»، فإنما هذا على أن «العشر» اسم لزم حتى عومل معاملة الفرد ثم وُصف به، ومن راعى فيه الليالي قال: «العشر الوسط».

واختلف الناس في «الشفع والوتر» - فقال جابر عن النبي صلى الله عليه وآله: «الشفع



تفسير سورة الفجر

وهي مكية عند جمهور المفسرين، وحكى أبو عمرو الداني في كتابه المؤلف في تنزيل القرآن عن بعض العلماء أنه قال: إنها مدنية، والأول أشهر وأصح.

١ - تفسير قوله عز وجل:

قال جمهور المفسرين: «الفجر» هنا هو المشهور الطالع في كل يوم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفجر: النهار كله، وقال ابن عباس أيضاً وزيد بن أسلم: الفجر الذي أقسم الله تعالى به: صلاة الصبح، وقرأ: «إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ»، وقال مجاهد: إنما أراد فجر يوم النحر، وقال الضحاك: المراد فجر ذي

الوتر صلاة المغرب، والشفع صلاة الصبح، وقال أبو العالية: الشفع الركعتان من المغرب، والوتر الركعة الأخيرة، وقال بعض العلماء: الشفع تنقل الليل مثنى مثنى، والوتر الركعة الأخيرة المعروفة.

وقرأ جمهور القراء والناس: ﴿وَالْوُتْرُ﴾ بفتح الواو، وهي لغة قريش وأهل الحجاز، وقرأ حمزة، والكسائي: والحسن - بخلاف - وأبو رجاء، وابن ثواب، وطلحة، والأعمش، وقتادة: ﴿وَالْوُتْرُ﴾ بكسر الواو، وهي لغة تميم وبكر، وذكر الزهراوي أن الأعرج رواها عن ابن عباس، وهما لغتان في الفرد، وأما في الدحل فإنما هو «وتر» بالكسر لا غير، وقد ذكر الزهراوي أن الأصمعي حكى فيه اللغتين، الفتح والكسر.

و «سرى الليل» ذهابه وانقراضه، هذا قول الجمهور، وقال ابن قتبية، والأخفش، وغيرهما: المعنى: إذا يُسْرَى فيه، فيخرج هذا الكلام مخرج «ليل نائم ونهار صائم»، وقال مجاهد، وعكرمة، والكلبي: أراد بهذا ليلة جمع لأنها يُسْرَى فيها، وقرأ الجمهور: ﴿يَسْرَى﴾ دون ياء في وصل ووقف، وقرأ ابن كثير: ﴿يَسْرِي﴾ بالياء في وصل ووقف، وقرأ نافع، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿يَسْرِي﴾ بياء في الوصل ودونه في الوقف، وحذفها تخفيف لاعتدال رؤوس الآي إذ هي فواصل كالقوافي، قال الزبيدي: الوصل في هذا وما أشبهه بالياء، والوقف بغير ياء على خط المصحف، ووقف

تعالى على هذه الأقسام العظام هل فيها مقنع وحسب لذي عقل. و«الحجر»: العقل والنهي، والمعنى: فيزدجر ذو الحجر وينظر في آيات الله تعالى.

ثم وقف تعالى على مصارع الأمم الخالية الكافرة، وما فعل بها من التعذيب والإهلاك، والمراد بذلك توعد قريش ونصب المثل لها. و«عاد» قبيلة، لا خلاف في ذلك، واختلف الناس في «إزم» - فقال مجاهد وقتادة: هي القبيلة بعينها، وعلى هذا قال ابن قيس الرقيات: مَجْدًا تَلِيدًا بِنَاءً أَوْلَهُ أَذْرَكَ عَادًا وَقَبْلَهَا إِزْمًا وقال زهير:

وَأَخْرَيْنَ تَرَى الْمَاضِي عُدَّتُهُمْ
مِنْ نَسَجِ ذَوَادٍ أَوْ مَا أَوْرَثَتْ إِزْمُ
وقال ابن إسحق: إزم هو أبو عاد كلها، وهو عاد بن عوص بن إزم بن سام بن نوح عليه السلام، وقال غير ابن إسحق: هو أحد أجدادها، وقال جمهور المفسرين: إزم مدينة لهم عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن، وقال محمد بن كعب، هي الإسكندرية، وقال سعيد بن المسيب والمقبري: هي دمشق، وهذان القولان ضعيفان، وقال مجاهد: «إزم» معناه: قديمة. وقرأ الجمهور: ﴿يَمَادٍ﴾ فصرخوا «عاداً» على إرادة الحي، ونعتوا بـ «إزم» بكسر الهمزة على أنها القبيلة بعينها، ويؤيد هذا قول اليهود للعرب سيخرج فينا نبي ننبه، نقتلكم معه قتل عاد إزم، فهذا يقتضي أنها قبيلة، وعلى هذه القراءة يتجه أن

يكون «إزم» أباً لعاد أو جداً غلب اسمه على القبيل. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «بعاد»، «إزم» على ترك الصرف في «عاد» وإضافتها إلى «إزم»، وهذا يتجه على أن يكون «إزم» أباً أو جداً، وعلى أن تكون مدينة. وقرأ الضحاك: «بعاد إزم» بفتح الدال والهمزة من «إزم» وفتح الراء والميم، على ترك الصرف في «عاد» والإضافة، وقرأ ابن عباس والضحاك: «بعاد إزم» بشد الميم على الفعل الماضي بمعنى: بلي وصار زيمياً، يقال: أرم العظم ورم وأزمه الله، تُعْذِي «زم» بالهمزة. وقرأ ابن عباس أيضاً: «أرم ذات» بالنصب في التاء، على إيقاع الإزمام عليها، أي: أبلاها ربك وجعلها رميمًا، وقرأ ابن الزبير: «أرم» بفتح الهمزة وكسر الراء، وهي لغة في المدينة، وقرأ الضحاك بن مزاحم: «أزم» بسكون الراء وفتح الهمزة وهي تخفيف في «أرم» كَفَخْذُ وَتُخْذُ.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿ذَاتِ الْوِئَامِ﴾ فمن قال: «إزم مدينة» قال: اليماد هي أعمدة الحجارة التي بُنيت بها، وقيل: القصور العالية والأبراج، يقال لها: عماد، ومن قال: «إزم» قبيلة قال: العماد إنما أعمدة أبنيتهم وإنما أعمدة بيوتهم التي يرحلون بها، لأنهم كانوا أهل عمود ينتجعون البلاد، قاله مقاتل وجماعة، وقال ابن عباس: هي كناية عن طول أبدانهم.

وقرأ الجمهور: ﴿لَمْ يَخْلَقْ﴾ بضم الياء وفتح اللام «مَنَلَهَا» رفعاً، وقرأ

﴿١٥﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذكر الله تعالى في هذه الآية ما كانت قریش تقوله وتستدل به على إكرام الله تعالى وإهانتة لعبده، وذلك أنهم كانوا يرون أن مَنْ عنده الغنى والثروة والأولاد فهو المكرم، وبضده المهان، ومن حيث كان هذا المقطع غالباً على كثير من الكفار جاء التوبيخ في هذه الآية لاسم الجنس؛ إذ قد يقع بعض المؤمنين في شيء من هذا المنزع، ومن ذلك حديث الأعراب الذين كانوا يقصدون المدينة على النبي ﷺ، فمن نال خيراً قال: هذا دين حسن، ومن ناله شراً قال: هذا دين سوء.

و ﴿أَنكَلَهُ﴾ معناه: اختبره، و ﴿يَمَعَهُ﴾ معناه: جعله ذا نعمة، وقرأ ابن كثير: ﴿أَكْرَمَنِي﴾ بالياء في وُضِلَ ووقف، وحذفها عاصم، وابن عامر وحمزة، والكسائي في الوجهين، وقرأ نافع بالياء في الوصل وحذفها في الوقف، وكذلك ﴿أَتَمَنِّي﴾، وخير في الوجهين أبو عمرو. وقرأ جمهور الناس: ﴿فَقَدَّرَ﴾ بتخفيف الدال، بمعنى: ضيق، وقرأ الحسن - بخلاف - وأبو جعفر، وعيسى، وخالد: ﴿فَقَدَّرَ﴾ «بشد الدال»، بمعنى: جعله على قدر، وقيل: هما بمعنى واحد في معنى التضييق؛ لأنه ضَعَفَ [قَدَّرَ] مبالغة لا تعديّة، ويقتضي ذلك قول الإنسان: «أَتَمَنِّي»، لأنَّ «قَدَّرَ» مُعَدِّي إنما معناه: أعطاه ما يكفيه، ولا إهانة مع ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رداً على قولهم ومعتقدهم، أي: ليس

يضر بها في أبدانهم حتى تنفذ إلى الأرض، وقيل: إنما فعل ذلك بزوجه آسية، وقيل: فعل ذلك بماشطة بنته لأنها كانت آمنت بموسى عليه السلام.

و «الطغيان»: تجاوز الحدود، و «الصُّبُّ» مستعمل في السُّوط لأنه يقتضي سرعة في النزول، ومنه قول الشاعر في المحدودين في الإفك: قُصِبَتْ عَلَيْهِمْ مُخَصَّدَاتٌ كَأَنَّهَا شَائِبٌ لَيْسَتْ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَطِرٍ ومن ذلك قول المتأخر في صفة الخيل:

صَبَبْنَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سَيَاطِنًا
فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٍ وَأَرْجُلُ
وإنما حُصَّ السُّوط بأن يستعار للعذاب لأنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره، وقال بعض اللغويين: السُّوط هنا مصدر، من: سَاطَ يَسُوطُ، فكأنه تعالى قال: خلط عذاب.

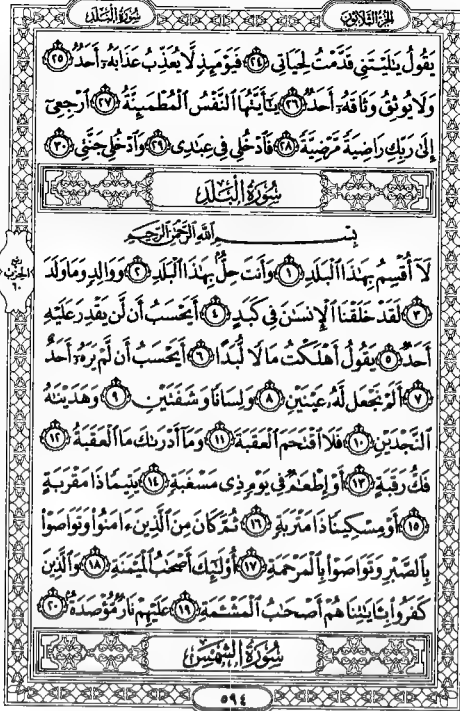
و «المِرْصَادُ» و «المَرْصَدُ»: موضع الرصد، قاله اللغويون، أي: أنه عند لسان كل قاتل، ومرصد لكل فاعل، وعلى هذا التأويل في المرصاد جاء جواب عامر بن قيس لعشمان رضي الله عنه حين قال له: أين ربك يا أعرابي؟ قال: بالمرصاد، ويحتمل أن يكون «المرصاد» في الآية اسم فاعل، كأنه تعالى قال: لِبَلِّالِرَّاصِدٍ، فعبر ببناء مبالغة، وروي في بعض الحديث «إِنَّ عَلَى جسر جهنم ثلاث قناطر، على إحداها الأمانة، وعلى الأخرى الدم، وعلى الأخيرة الرب تعالى، فذلك قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِّالِرَّاصِدٍ﴾».

ابن الزبير: «لَمْ يَخْلُقْ» بفتح الياء وضم اللام «مِثْلَهَا» نصباً، وذكر أبو عمرو الداني عنه أنه قرأ: «لَمْ تَخْلُقْ» بالنون وضم اللام «مِثْلَهَا» نصباً، وذكر التي قبل هذه عن عكرمة، والضمير في [مِثْلَهَا] يعود إما على المدينة وإما على القبيلة.

وقرأ يحيى بن وثاب: «وَلَمْ يُودَأْ» بتنوين الدال، و «جَاوُوا الصَّخْرَ» معناه: خرقوه ونحتوه، وكانوا في وديهم قد نحتوا بيوتهم في حجارة، و «الوادي» ما بين الجبلين وإن لم يكن فيه ماء، هذا قول كثير من المفسرين في معنى «جَاوُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي»، وقال الثعلبي: يريد: بوادي القرى، وقال قوم: المعنى: جابوا واديهم وجلبوا ماءهم في صخر شقوقه، وهذا فعل ذي القوة والآمال، وقرأ ابن كثير: «بِالْوَادِي» بالياء، وقرأ أكثر السبعة: «بِالْوَادِي» بدون ياء، واختلف في ذلك عن نافع وقد تقدم هذا.

و «فرعون» هو فرعون موسى عليه السلام، واختلف الناس في أوتاده - فقيل: أبنته العالية العظيمة، قاله محمد بن كعب، وقيل: جنوده الذين بهم ثبت ملكه، وقيل: المراد أوتاد أخبية عساكره وذكرت لكثرتها ودلالاتها على غزواته وطوافه في البلاد، قاله ابن عباس، ومنه قول الأسود بن يَعرَفَر:

.....
فِي ظِلِّ مُلْكٍ شَابِتِ الْأَوْتَادِ
وقال قتادة: كانت له أوتاد يلعب عليها الرجال بين يديه وهو مشرف عليهم، وقال مجاهد: كان يوتد الناس بأوتاد الحديد، يقتلهم بذلك،



وقد تقدم القول في سورة براءة في المسكين والفقير بما يغني عن إعادته.

وعدد تعالى عليهم جدهم في أكل التراث؛ لأنهم كانوا لا يؤرثون النساء ولا صغار الأولاد، وإنما كان يأخذ المال من يقايل ويحمي الحوزة واللمم؛ الجمع واللف، قال الحسن: هو أن يأخذ في الميراث حفظه وحظ غيره، وقال أبو عبيدة: للتمم ما على الإخوان إذا أكلت جميع ما عليه بأسره، ومنه قول الشاعر:

وَلَسْتُ بِمُسْتَنْبِتِي أَخَا لَا تَلْمُهُ
عَلَى شَعَبٍ أَيْ الرِّجَالِ الْمُهْذَبِ؟
و «الجِّم»: الكثير الشديد، ومنه قول الشاعر:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا
وَأَيَّ عَبِيدِكَ لَا أَلْمَا؟
ومنه: الجِّم من الناس.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردًا على أفعالهم هذه، وتوطئة للوعيد، أي: سترون أن أفعالكم ليست على قوام إذا دُكَّت الأرض، ودُكَّتْها هو تسويتها بذهاب جبالها، والناقة الدُّكاء هي التي لا سنام لها.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ معناه: وجاء قدره وسلطانه وقضاؤه، وقال منذر بن سعيد: معناه ظهوره للخلق هنالك، ليس مجيء نُقْلَةٍ، وكذلك مجيء الصاخة ومجيء الطامة.

و«الملك» اسم جنس، يريد جميع

إكرام الله تعالى وإهانته كذلك، وإنما ذلك ابتلاء، فحق من ابتلي بالغنى أن يشكر ويطيع، ومن ابتلي بالفقر أن يشكر ويصبر، وأما إكرام الله تعالى فهو بالتقوى، وإهانته فبالمعصية. ثم أخبرهم تعالى بأعمالهم من أنهم لا يكرمون اليتيم، وهو - من بني آدم - الذي فقد أباه وكان غير بالغ، ومن البهائم ما فقد أمه، وقال النبي ﷺ: «أَحِبَّ الْبُيُوتِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ مُكْرَمٌ».

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿تَحْضُونَ﴾ بمعنى: يَحْضُ بعضكم بعضاً، أو تَحْضُونَ أنفسكم، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿تَحْضُونَ﴾ بفتح التاء، بمعنى: يتحاضون، أي: يحض قَوْمٌ قوماً، وقرأ أبو عمرو: ﴿يَحْضُونَ﴾ بياء من تحت مفتوحة وبغير ألف، وقرأ عبدالله بن المبارك: ﴿تَحْضُونَ﴾ بضم التاء - على وزن تقاتلون -، أي: أنفسكم، أي: بعضكم بعضاً، ورواها الشَّيْزِيُّ عن الكسائي، وقد يجيء «فَاعَلَتْ» بمعنى «فَعَلَتْ»، وهذا منه، وإلى هذا ذهب أبو علي، وأنشد:

تَحَاسَنَتْ بِـ.....

أي: حَسُنَتْ، وأنشد أيضاً:

إِذَا تَخَازَرْتُ وَمَا بِي مِنْ خَزَزٍ

ويحتمل أن يكون مفاعلة، ويتجه ذلك على رجف، فتامله. وقرأ الأعمش: ﴿تَحْضُونَ﴾ ببناءين.

و«طعام» في هذه الآية بمعنى: إطعام، وقال قوم: أراد نفس طعامه الذي يأكل، ففي الكلام حذف تقديره: على بذلك طعام المسكين،

الملائكة، وزوي أن ملائكة كل سماء يكونون صفاً حول الأرض في يوم القيامة، وذكر الطبري في ذلك حديثاً طويلاً اختصرته، وبهذا المعنى يفسر قوله تعالى: ﴿يَوْمَ النَّارِ﴾ على قراءة من شد الدال، وقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿إِنْ أَسْتَفْتَمُ أَنْ نَقُولَا﴾ الآية.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي في هذه الآية: ﴿يُكْرَمُونَ﴾ بالتاء، وكذلك سائر الأفعال بعدها على الخطاب، وقرأ أبو عمرو، والحسن، ومجاهد، وأبو رجاء، وقتادة، والجحدري: ﴿يُكْرَمُونَ﴾ بالياء في جميعها، على ذكر الغائب؛ إذ قد تقدم اسم جنس الإنسان.

٢٣ - ٢٤ تفسير قوله عز وجل: رُوي في قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِ

يَوْمَئِذٍ يَجْمَعُهُمْ أَنَّهُا تُسَاقُ إِلَى الْحَشْرِ
بِسَبْعِينَ أَلْفَ زَمَامٍ، يُمَسَّكُ كُلُّ زَمَامٍ
مِنْهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، فَيُخْرَجُ مِنْهُ
عُتْقٌ فَتَنْتَقِي الْجَبَابِرَةُ مِنَ الْكَفَّارِ...
فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ مُخْتَلَفٍ الْأَلْفَاظِ
و«جَهَنَّمُ» هُنَا هِيَ النَّارُ بِجُمْلَتِهَا،
وَرُوي أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ
يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تَغَيَّرَ لَوْنُ النَّبِيِّ ﷺ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَذَّكَّرُ
الْإِنْسَانُ﴾، مَعْنَاهُ: يَتَذَكَّرُ عَصِيَانَهُ
وَطَغْيَانَهُ، وَيَنْظُرُ مَا فَاتَهُ مِنَ الْعَمَلِ
الصَّالِحِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّى لَهُ
الذِّكْرَى﴾، أَي: وَأَنَّى لَهُ نَفْعُ
الذِّكْرِ؟ ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّ
يَقُولُ: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾،
وَاخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لِحَيَاتِي﴾،
فَقَالَ جَمْهُورٌ مِنَ الْمُتَأَوِّلِينَ: مَعْنَاهُ:
لِحَيَاتِي الْبَاقِيَةِ، يَرِيدُ الْآخِرَةَ، وَقَالَ
قَوْمٌ مِنَ الْمُتَأَوِّلِينَ: الْمَعْنَى: لِحَيَاتِي
فِي قَبْرِي عِنْدَ بَعْثِي الَّذِي كُنْتُ أَكْذِبُ
بِهِ وَأَعْتَقِدُ أَنِّي لَنْ أَعُودَ حَيًّا، وَقَالَ
«لِحَيَاتِي» هُنَا مُجَازًا، أَي: لِيَتَنِي
قَدَمْتُ عَمَلًا صَالِحًا لِأَنْعَمَ بِهِ الْيَوْمَ
وَأَحْيَا حَيَاةً طَيِّبَةً، فَهَذَا كَمَا يَقُولُ
الْإِنْسَانُ: أَخْبِنِي فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَقَالَ
بَعْضُ الْمُتَأَوِّلِينَ: الْمَعْنَى: لَوْ قُتِلْتُ أَوْ
لَمَدَّةَ حَيَاتِي الْمَاضِيَةِ فِي الدُّنْيَا، وَهَذَا
كَمَا تَقُولُ: جَنَّتْ لَطُلُوعُ الشَّمْسِ،
وَلِتَارِيخُ كَذَا، وَنَحْوِهِ.

وَقَرَأَ جَمْهُورُ الْقُرَاءِ، وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي
طَالِبٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو
عَبْدِ الرَّحْمَنِ: ﴿يَعَذِّبُ﴾ وَ﴿يُؤْتِي﴾
بِكَسْرِ الذَّالِ وَالشَّاءِ، وَعَلَى هَذِهِ
الْقِرَاءَةِ فَالضَّمِيرُ فِي «عَذَابِهِ»
و«وَنَاقَهُ» اللَّهُ تَعَالَى، وَالْمَصْدَرُ
مُضَافٌ إِلَى الْفَاعِلِ، وَلِذَلِكَ مَعْنِيَانِ:

أَحَدُهُمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَكُلُّ عَذَابَ
الْكَفَّارِ يَوْمَئِذٍ إِلَى أَحَدٍ، وَالْآخَرُ أَنَّ
عَذَابَهُ مِنَ الشَّدَةِ فِي حَيْزٍ لَمْ يَعَذِّبْ
قَطُّ أَحَدًا بِمِثْلِهِ فِي الدُّنْيَا، وَيَحْتَمَلُ أَنَّ
يَكُونُ الضَّمِيرُ لِلْكَافِرِ، وَالْمَصْدَرُ
مُضَافٌ إِلَى الْمَفْعُولِ. وَقَرَأَ
الْكَسَائِيُّ، وَابْنُ سِيرِينَ، وَابْنُ أَبِي
إِسْحَاقَ، وَسَوَادُ الْقَاضِي: «يُعَذِّبُ»
و«يُؤْتِي» بِفَتْحِ الذَّالِ وَالشَّاءِ، وَرَوَيْتُ
كَثِيرًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَالضَّمِيرَانِ -
عَلَى هَذَا - لِلْكَافِرِ الَّذِي هُوَ بِمَنْزِلَةِ
جَنْسِهِ كُلِّهِ، وَالْمَصْدَرُ مُضَافٌ إِلَى
الْمَفْعُولِ، وَوَضَعَ «عَذَابُ» مَوْضِعَ
«تَعَذِّبُ»، كَمَا قَالَ:

وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمَائَةِ الرَّتَاعَا؟
وَيَحْتَمَلُ أَنَّ يَكُونُ الضَّمِيرَانِ فِي
هَذِهِ الْقِرَاءَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، كَأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ
قَالَ: لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا قَطُّ فِي الدُّنْيَا
عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَفَّارِ، فَالْمَصْدَرُ
مُضَافٌ إِلَى الْفَاعِلِ، وَفِي هَذَا التَّأْوِيلِ
تَحَامَلُ. وَقَرَأَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ:
﴿وَنَاقَهُ﴾ بِكَسْرِ الْوَاوِ.

وَلَمَّا فَرَّغَ ذِكْرَ هَؤُلَاءِ الْمَعَذِّبِينَ عَقَّبَ
تَعَالَى بِذِكْرِ نَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ وَحَالِهِمْ،
فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَنَادِيَنَّ النَّفْسُ الْمُنْمِئَةُ﴾
الْآيَةُ. وَ«الْمُنْمِئَةُ» مَعْنَاهُ: الْمَوْقِنَةُ
غَايَةِ الْيَقِينِ، أَلَا تَرَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ قَالَ: ﴿وَلَكِنَّ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي؟﴾
فَهِيَ دَرَجَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الْإِيمَانِ، وَهِيَ
الَّتِي يَبْقَى عَلَى النَّفْسِ فِي يَقِينِهَا مَطْلَبُ
يُحَرِّكُهَا إِلَى تَحْصِيلِهِ.

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذَا النَّدَاءِ، مَتَى
يَقَعُ؟ فَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ: هُوَ عِنْدَ
خُرُوجِ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ مِنْ جَسَدِهِ فِي
الدُّنْيَا، وَرُوي أَنَّ أَبَا بَكْرَ الصَّدِيقَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ الْمَلَكَ
سَيَقُولُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ عِنْدَ مَوْتِكَ»،
وَمَعْنَى «أَنْتَ حَيٌّ إِلَى رَبِّكَ» - عَلَى هَذَا
التَّأْوِيلِ -: ازْجَعِي بِالْمَوْتِ، وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿فِي عَنَدِي﴾ مَعْنَاهُ: فِي عِدَادِ
عِبَادِي الصَّالِحِينَ، وَهَذِهِ قِرَاءَةُ
الْجَمْهُورِ، بِجَمْعِ «عَبَادِي». وَقِيلَ:
النَّدَاءُ عِنْدَ قِيَامِ الْأَجْسَادِ مِنَ
الْقُبُورِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَنْتَ حَيٌّ إِلَى
رَبِّكَ» مَعْنَاهُ: بِالْبَعْثِ مِنْ مَوْتِكَ
ارْجَعِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقِيلَ:
«الرَّبُّ» هُنَا: الْإِنْسَانُ ذُو النَّفْسِ،
أَي: ادْخُلِي فِي الْأَجْسَادِ، وَ«النَّفْسُ»
اسْمُ جَنْسٍ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:
هَذَا النَّدَاءُ هُوَ الْآنَ لِلْمُؤْمِنِينَ، كَمَا
ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى حَالَ الْكَافِرِينَ قَالَ: يَا
مُؤْمِنُونَ دُومُوا وَجُدُوا حَتَّى تَرْجِعُوا
رَاضِينَ مَرْضِيَيْنَ، فَالنَّفْسُ - عَلَى هَذَا
- اسْمُ الْجَنْسِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ،
وَعُكْرَمَةُ، وَأَبُو شَيْخٍ، وَالضَّحَّاكُ،
وَالْبِمَانِيُّ، وَمُجَاهِدٌ، وَأَبُو جَعْفَرٍ:
﴿فَادْخُلِي فِي عَنَدِي﴾، فَالنَّفْسُ -
عَلَى هَذَا - لَيْسَتْ بِاسْمِ الْجَنْسِ،
وَإِنَّمَا خَاطَبَ مُفْرَدَةً، قَالَ أَبُو شَيْخٍ:
الرُّوحُ تَدْخُلُ فِي الْبَدَنِ، وَفِي
مَصْحَفِ أَبِي بَنٍ كَعْبٍ: «يَنَادِيئُهَا
الْأَيُّمَةُ الْمُنْمِئَةُ»، الَّتِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةٌ
مَرْضِيَّةٌ، فَارْجَعِي فِي عَنَدِي»، وَقَرَأَ
سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: «فَادْخُلِي فِي
عِبَادِي وَلِجِي جَنَّتِي». وَتَحْتَمَلُ قِرَاءَةُ
«عَبْدِي» أَنْ يَكُونَ «الْعَبْدُ» اسْمُ
جَنْسٍ، جَعَلَ عِبَادَهُ كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ
دَلَالَةً عَلَى الْإِلْتِحَامِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَهُمْ يَذُّ عَلَى مَنْ
سِوَاهُمْ». وَقَالَ آخَرُونَ: هَذَا النَّدَاءُ
إِنَّمَا هُوَ فِي الْمَوْقِفِ عِنْدَمَا يُنْطَلَقُ

بأهل النار إلى النار، فنداء النفوس - على هذا - إنما هو نداء أرباب النفوس مع النفوس. ومعنى ﴿أَرْجِيحُ إِلَيْكَ رَبِّكَ﴾ - على هذا -: إلى رحمة ربك، والعبادة هنا: الصالحون المتقون.

كمل تفسير سورة الفجر والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة البلد

وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وقال قوم: هي مدنية.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿لَأَقْسِمُ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ واختلفوا - فقال الزجاج وغيره: [لَا] صلة زائدة مؤكدة، واستأنف قوله تعالى: ﴿أَقْسِمُ﴾، وقال مجاهد: [لَا] رد للكلام متقدم للكفار، ثم استأنف قوله تعالى: ﴿أَقْسِمُ﴾، وقال بعض المتأولين: [لَا] نفي للقسمة بالبلد، أخبر الله تعالى أنه لا يُقسِمُ به.

ولا خلاف بين المفسرين أن البلد المذكور هو مكة. واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ يَلِّ يَهْدَا آلَكَ﴾ - فقال ابن عباس وجماعة: معناه: وأنت حلال بهذا البلد يحل لك فيه قتل من شئت، وكان هذا يوم فتح مكة، وعلى هذا يترتب قول من قال: السورة مدنية نزلت عام الفتح، ويتركب على هذا التأويل قول من

قال: [لَا] نافية، أي: إن هذا البلد لا يُقسِمُ الله تعالى به، وقد جاء أهله بأعمال توجب إحلال حرمة، ويترجى أيضاً أن تكون [لَا] غير نافية. وقال بعض المتأولين: ﴿وَأَنْتَ يَلِّ يَهْدَا آلَكَ﴾ معناه: ساكن بهذا البلد، وعلى هذا يجيء قول من قال: هي مكية، والمعنى على إيجاب القسم بين، وعلى نفيه أيضاً يتجه على معنى: لا أقسم ببلد أنت ساكنه على أذى هؤلاء القوم وكفرهم. وذكر الثعلبي عن شرحبيل بن سعد أن معنى ﴿وَأَنْتَ يَلِّ يَهْدَا آلَكَ﴾، أي: قد جعلوك حلالاً مُستحل الأذى والإخراج والقتل لك لو قدروا، وإعراب ﴿آلَكَ﴾ عطف بيان.

وقوله تعالى: ﴿وَوَالِإِذَا وَمَا وَلَدَ﴾ قسم مستأنف على قوله من قال: [لَا] نافية، ومعطوف على قول من قال: [لَا] نافية، واختلف الناس في معنى قوله سبحانه: ﴿وَوَالِإِذَا وَمَا وَلَدَ﴾ - فقال مجاهد: هو آدم عليه السلام وجميع ولده، وقال بعض رواة التفسير: هو نوح عليه السلام وجميع ولده، وقال أبو عمران الجوني: هو إبراهيم عليه السلام وجميع ولده، وقال ابن عباس ما معناه: إن الوالد والولد هنا على العموم، فهي أسماء جنس يدخل فيها جميع الحيوان، وقال ابن عباس، وابن جبير، وعكرمة: ﴿وَوَالِإِذَا وَمَا وَلَدَ﴾ معناه: كل من ولد وأنسل، وقوله: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ لم يبق تحته إلا العاقر الذي ليس بوالد البتة. والقسم واقع على قوله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، واختلف الناس في «الكبد» - فقال جمهور الناس: «الإنسان» اسم الجنس كله، والكبد: المشقة والمكابدة، أي: يكابد أمر الدنيا وأمر الآخرة، ومن ذلك قول لبيد: يا عين هلا بكينيت أزيد إذ قُمنّا وقام الخصوم في كبد وقول ذي الإصبع:

لبي ابن عم لو أن الناس في كبد لظل محتجزاً بالشبل يزميني وبالمشقة في أنواع أحوال الناس فشره الجمهور، وقال الحسن: لم يخلق الله تعالى خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم، وقال ابن عباس، وابن شداد، وأبو صالح، والضحاك، ومجاهد: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ معناه: منتصب القامة واقفاً، وقال ابن زيد: «الإنسان» آدم عليه السلام، و«في كبد» معناه: في السماء، سماها كبدًا، وهذان القولان قد ضُعُفا، والقول الأول هو الصحيح.

ووزي أن سبب هذه الآية وما بعدها هو أبو الأنثيين، رجل من قريش شديد القوة، واسمه أنثيد بن كلدة الجُمحي، كان يحسب أن أحداً لا يقدر عليه، ويقال: بل نزلت في عمرو بن عبد ود، ذكره النقاش، وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة، وقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه خلف الخندق، وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أذنّب فاستفتى النبي عليه الصلاة والسلام فأمره بالكفارة، فقال: لقد أهلك ما لا في الكفارات والنفقات منذ تبعت محمداً، وكان

كل واحد منهم قد ادعى أنه أنفق مالا كثيراً على إفساد أمر النبي ﷺ، أو في الكفارات على ما تقدم، فوقف القرآن على جهة التوبيخ للمذكور، وعلى جهة التوبيخ لاسم الجنس كله.

و﴿يَقْدِرُ﴾ نُصِبَ بِهِ ﴿أَنْ﴾، و﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة، وكان قول هذا الكافر ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ كذباً منه؛ فلذلك قال تعالى: ﴿يَكْسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾؟ أي: أنه رئيس وأخصي فعله، فما له يكذب، ومن قال: «إن المراد اسم الجنس غير معين مفرد» جعل قوله تعالى: ﴿يَكْسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ بمعنى: أياظن الإنسان أن ليس عليه حافظة يرون أعماله ويحصونها إلى يوم الجزاء؟ وقال النبي ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه؟ وجسمه فيم أبلاه؟ وعن ماله، من أين اكتسبه؟ وأين أنفقه».

واختلف القراء في قوله: ﴿لُبَدًا﴾ - فقرأ جمهور الناس: ﴿لُبَدًا﴾ بضم اللام وفتح الباء، وقرأ مجاهد: ﴿لُبْدًا﴾ بضمهم، وذلك جمع «لُبْدَة» أو جمع «لبود» بفتح اللام، وقرأ أبو جعفر يزيد: ﴿لُبْدًا﴾ بضم اللام وفتح الباء وشدها، فيكون مفرداً نحو «زُمل»، ويكون جمع «لابد»، وقد روي عن أبي جعفر: ﴿لُبْدًا﴾ بسكون الباء، والمعنى في هذه القراءات كلها: مالا كثيراً ملتبداً بعضه فوق بعض من التكاثر والكثرة، وقرأ الحسن: ﴿لَمْ يَزِدْ﴾ بسكون الراء لتوالي الحركات.

ثم عدّد تعالى على الإنسان نعمه التي بها تقوم الحجة، وهو جوارحه، وقرن تعالى الشفتين باللسان لأن نعمة العبارة والكلام لا تصح إلا بالجميع، وفي الحديث: «يقول الله تعالى: ابن آدم، إن نازعك لسانك إلى ما لا يحل لك فقد أعتك عليه بشفتين فأطبق»، واختلف الناس في «التَّجْدِينَ» - فقال ابن مسعود، وابن عباس، والناس: طريق الخير وطريق الشر، أي: عرضنا عليه طريقهما، وليست الهداية هنا بمعنى الإرشاد، وقال ابن عباس أيضاً، والضحاك: التَّجْدَان: تَذْيَا الأُم، وهذا مثال، والتَّجْد: الطريق المرتفع، وأشد الأصمعي: كَمِيشُ الإِزَارِ خَارِجٌ يَضْفُ سَاقَهُ صَبُورٌ عَلَى الْأَزْرَاءِ طَلَاغٌ أَنْجُدَ ﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

«الْعَقَبَةُ» في هذه الآية - على عرف كلام العرب - استعارة لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال، تشبيه بالعقبة من الجبل، وهي ما صعب منه وكان صعوداً، و﴿أَفْتَنَهُمْ﴾ معناه: دخلها وجاوزها بسرعة وضغط وشدة، وأما المفسرون فأروا أن «العقبة» يراد بها جبل في جهنم لا يتنجي منه إلا هذه الأعمال ونحوها، قاله ابن عباس، وقتادة، وكعب. قال الحسن: العقبة جهنم، قال هو وقتادة: فافتجموها بطاعة الله تعالى، وفي الحديث «إن اقتحامها للمؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء».

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿فَلَا﴾ - فقال جمهور المفسرين:

هو تخضيض بمعنى «فألاً»، وقال آخرون: هو دعاء بمعنى أنه يستحق أن يُدعى عليه بالأفعال خيراً، وقيل: هو نفي، أي: فما اقتحم، وقاله أبو عبيدة، والزجاج، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا سَكَنَ لَكَ مَلَكٌ﴾، فهو نفي محض، كأنه تعالى قال: وهبنا له الجوارح وذلّلناه على السبيل فما فعل خيراً.

ثم عظم تعالى أمر العقبة في النفوس بقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾، ثم فسر تعالى اقتحام العقبة بقوله عز وجل: ﴿فَكُ رَقَبَةٌ﴾، وذلك أن التقدير: وما أدراك ما اقتحام العقبة؟ هذا على قراءة من قرأ: ﴿فَمَ رَقَبَةٌ﴾ بالرفع على المصدر، وأما من قرأ: ﴿فَكَ﴾ على الفعل، ونصب «الرقبة» فليس يحتاج أن يُقدّر: «وما أدراك ما اقتحام» بل يكون التعظيم للعقبة نفسها، ويجيء ﴿فَكَ﴾ بدلاً من ﴿أَفْتَنَهُمْ﴾ ومُتَبَيَّنًا له.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿فَكَ رَقَبَةٌ أَوْ إِبْطَامٌ﴾، وقرأ أبو عمرو: ﴿فَكَ رَقَبَةٌ أَوْ أَطْعَمَ﴾، وقرأ بعض التابعين: ﴿فَكَ رَقَبَةٌ﴾ بالخفض، وقرأ ابن كثير، والكسائي، وأبو عمرو أيضاً: ﴿فَكَ رَقَبَةٌ﴾ بالنصب ﴿أَوْ إِبْطَامٌ﴾، وترتيب هذه القراءات، ووجوهها بيّنة. و﴿فَكَ الرقبة﴾ معناه: بالعثق من رقة الأسر والرق، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «من أعتق نسمة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من النار»، وقال أعرابي للنبي ﷺ: ذلني على عمل أنجو به، فقال: «الشن

قصرت القول لقد عرضت المسألة، فُكَّ الرقبة وأُغْتِقِ التَّسْمَةَ، فقال الأعرابي: أليس هذا واحداً؟ فقال النبي ﷺ: «لا، جُتِيَ التَّسْمَةُ أَنْ تَفْرُدَ بَعِثُهَا، وَفُكَّ الرقبة أَنْ تُعْمِنَ فِي ثَمَنِهَا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك فك الأسير إن شاء الله تعالى وفداؤه أن ينفرد الفادي. ثم قال النبي ﷺ للأعرابي: «وَأُبْتِغِ عَلَيَّ ذِي الرِّجْمِ الظَّالِمَ، فَإِنْ لَمْ تُطَقْ هَذَا كُلَّهُ فَكُفَّ لَسَانَكَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ».

و «الْمُسْتَغْبَةِ»: المجاعة، والسَّاعِبُ: الجائع، وقرأ جمهور الناس: «ذِي مَسْبَغَةٍ» على نعت «يَوْمٍ»، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن، وأبو رجاء: «ذَا مَسْبَغَةٍ» على أن يعمل في [أَطْعَمَ] أو [إِطْعَامَ] على القراءتين المذكورتين، وفي هذا حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه؛ لأن التقدير: إنساناً ذا مسغبة، و«يَمِيناً» بدلٌ على هذه القراءة، ويصح أن يكون صفة لقوله تعالى: «ذِي مَسْبَغَةٍ»، ووصفت الصفة لما قامت مقام موصوفها المحذوف فأشبهت الأسماء، و«المسغبة» الجوع العام، وقد يقال في الخاص: سَبِغَ الرَّجُلُ إِذَا جَاعَ.

وقوله تعالى: «ذَا مَرَّةٍ» معناه: ذا قرابة، لتجتمع الصدقة والصلة، وهذا نحو ما قال رسول الله ﷺ: «لَزَيْنِبَ امْرَأَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: «تَصَدَّقْتُ عَلَى زَوْجِكَ فَهِيَ لَكَ صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ»، و«أَذَى» في قوله تعالى: «أَوْ شَكَيْتَ» فيها معنى الإباحة

ومعنى التَّخْيِيرِ؛ لأن الكلام يتضمن معنى الحَضُّ والأَمْرُ، وفيها أيضاً معنى التفصيل المجرد؛ لأن الكلام يجري مجرى الخبر الذي لا تكون «أَوْ» فيه إلا مفصلة، وأما معنى الشك والإبهام فلا مدخل لهما في هذه الآية، والإبهام نحو قوله تعالى: «وَلَيْتَآ أَوْ لَيْتَا كُنْتُمْ»، وقول أبي الأسود:

أَحِبُّ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا
وَعَبَّاسًا وَحِمَزةً أَوْ عَلِيًّا
و«ذَا مَرَّةٍ» معناه: مدقماً قد لصق بالتراب، وهذا مما ينحو إلى أن المسكين أشد فاقةً من الفقير، قال سفيان: هم المطرحون على ظهر الطريق قعوداً على التراب لا بيوت لهم، وقال ابن عباس: هو الذي يخرج من بيته ثم يقلب وجهه إلى بيته مستيقناً أنه ليس فيه إلا التراب.

وقوله تعالى: «ثُمَّ كَانَ» معطوف على قوله تعالى: «أَفْتَنَهُمْ»، ويتوجه فيه معاني «فَلَا أَفْتَنَهُمُ» المذكورة من النفي والتحضيض والدعاء، ورجح أبو عمرو بن العلاء قراءته: «فَكَ رَقَبَةٍ» بقوله تعالى: «ثُمَّ كَانَ»، ومعنى «ثُمَّ كَانَ» أي: كان وقت اقتحامه للعقبة من الذين آمنوا، وليس المعنى أنه يقتحم ثم يكون بعد ذلك؛ لأن الاقتحام كان يقع من غير مؤمن، وذلك غير نافع.

وقوله تعالى: «وَتَوَّاصَوْا بِالصَّيْرِ» معناه: على طاعة الله تعالى وبلائه وقضائه، عن الشهوات والمعاصي. و«الْمَرْحَمَةُ» قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما يؤدي إلى

رحمة الله تعالى، وقال آخرون: هو التراحم وعطف بعض الناس على بعض، وفي ذلك قوام الناس، ولو لم يتراحموا هلكوا.

و «الْمُيَمَّنَةُ» مفعلة، وهي - فيما روي - عن يمين العرش، وهو موضع الجنة ومكان المرحومين من الناس، و«الْمُشَامَةُ» الجانب الأُشَامُ، وهو الأيسر، وفيه جهنم، وهو طريق المعذبين، يؤخذ بهم ذات الشمال، وهذا مأخوذ من اليمين والشام للمواقف بباب الكعبة متوجهاً إلى مطلع الشمس، واليد الشؤمى هي اليسرى، وذُهب الزجاج وقوم إلى أن ذلك مأخوذ من اليَمْنِ والشُّؤْمِ.

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ونافع، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «مُوصَدَّةٌ»، على وزن «مُوعَدَةٌ»، وكذلك في سورة (الْهُمَزَةُ) وقرأ أبو عمرو، وحمزة، وحُفْصٌ عن عاصم بالهمز في السورتين، ومعناهما جميعاً: مُطَبَّقةٌ مغلفة، يقال: «أَوْصَدْتُ وَأَصَدْتُ» بمعنى: أطيقت وأغلقت، فمُوصَدَّةٌ - دون همز - من «أَوْصَدْتُ»، وقد يحتمل أن يهمز من يراها من «أَوْصَدْتُ» من حيث قيل: الواو حرف مضمومٌ على لغة من قرأ: «بِالسُّوقِ»، ومنه قول الشاعر:

لَحَبَّ الْمُؤَقَّدَانِ إِلَيَّ مُؤَسَّى

.....

بالهمز فيهما. و«مُوصَدَّةٌ» من «أَصَدْتُ»، ويحتمل أن يسهل الهمزة فيجيء «مُوصدة» من «أَصَدْتُ»، ومن اللفظة «الوصيد»، وقال الشاعر:

يقتضيه، قاله الزجاج، وجلى معناه: كشف وضوًا، والفاعل لـ «جلى» - على هذه التأويلات - النهار، ويحتمل أن يكون الفاعل الله تعالى، كأنه قال: والنهار إذا جلى الله الشمس، فأنقسم بالنهار في أكمل حالاته. و«يُغشى» معناه: يغطي، والضمير للشمس على تجوُّز في المعنى، أو للأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾ وكل ما بعده من نظائره في السورة يحتمل أن تكون [ما] فيه بمعنى «الذي»، قاله أبو عبيدة، أي: ومن بناها، وهو قول الحسن ومجاهد؛ لأن «ما» تقع عامة لمن يعقل ولما لا يعقل، فيجيء القسم بنفسه تعالى، ويحتمل أن تكون [ما] في جميع ذلك مصدرية، قاله قتادة، والمبرد، والزجاج، كأنه تعالى قال: والسماء وبنيانها.

و «طَحَا» بمعنى «دَحَا»، و«طَحَا» أيضاً في اللغة بمعنى: ذهب كلُّ مذهب، ومنه قول علقمة بن عبدة:

طَحَا بِكَ قَلْبُ فِي الْجِسَانِ طُرُوبُ
بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَضَرَ حَانَ مَشِيبُ
و «النفس» التي أقسم الله بها اسمُ الجنس، و«تَسْوِيَتُهَا» إكمال عقلها ونظرها، ولذلك ربط الكلام بقوله تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْرَهَا﴾... الآية، فالفاء تعطي أن التسوية هي هذا الإلهام، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْرَهَا﴾ أي: عرّفها طُرُق ذلك، وجعل لها قوة يصحُّ معها

تعالى في «طه»: ﴿وَلَا تَصْنَعُ﴾، و«الضحاء» -

بفتح الضاد والمد: ما فوق ذلك إلى الزوال.

والقمر يتلو الشمس من أول الشهر إلى نصفه في الغروب، تغرب هي ثم يغرب هو، ويتلوها في النصف الآخر بنحو آخر، وهو أن تغرب هي فيطلع هو. وقال الحسن بن أبي

الحسن: ﴿لَهَا﴾: تبعها دأباً في كل وقت؛ لأنه يستضيء منها فهو يتلوها لذلك.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: فهذا اتباع لا يختص بنصف أول من الشهر ولا بأخر، وقاله الفراء أيضاً: وقال الزجاج وغيره: ﴿لَهَا﴾ معناه: امتلاً واستدار فكان لها تابعا في المنزلة من الضياء والقدر؛ لأنه ليس في الكواكب شيء يتلو الشمس في هذا المعنى غير القمر، قال قتادة: إنما ذلك ليلة البدر، تغيب هي فيطلع هو.

و «الثَّهَارُ» في ظاهر هذه السورة والتي بعدها أنه من طلوع الشمس، وكذلك قال الزجاج في كتاب الأنواء وغيره. واليوم من طلوع الفجر، ولا يختلف أن نهايتهما مغيب الشمس، والضمير في ﴿جَلَّهَا﴾ يحتمل أن يعود على الشمس، ويحتمل أن يعود على الأرض وعلى الظلمة، وإن كان لم يجيء لذلك ذكر فالمعنى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۝ وَاللَّيْلُ إِذَا بَغَّسَهَا ۝ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ۝ وَالْأَرْضُ وَمَا طَرَاهَا ۝ وَالنَّفْسُ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَقْمْ وَجْرَهَا وَنَقَّوْنَهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ۝ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ۝ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَغُورُوا ۝ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَوَّاهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلُ إِذَا بَغَتْ ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّ ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى ۝ فَمَا مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ ۝ وَصَدَقَ الْحَقُّ ۝ فَتَنْبِيرُ الْمُنْشَى ۝ وَأَمَّا مَنْ يَحِلْ وَأَسْتَفَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنِ ۝ فَتَنْبِيرُ الْمُنْشَى ۝ وَمَا مَنَى عَنْهُ مَا لَهُ إِذَا رَدَّى ۝ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝ وَإِنَّ لَنَا الْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۝ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝

٥٩٥

قَزَماً يُعَالِجُ قُضْلاً أَبْنَاءُهُمْ
وَسَلَايَلاً حَلَقاً وَبَاباً مُزْصِداً
كامل تفسير سورة البلد والحمد لله
رب العالمين

تفسير سورة الشمس

وهي مكية.

١ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

أقسم الله تعالى بالشمس، إما على التنبيه منها وإما على تقدير: ورب الشمس، و«الضحى» - بضم الضاد والقصر -: ارتفاع الضوء وكماله، وبهذا فسر مجاهد، وقال قتادة: هو النهار كله، وقال مقاتل: ضحاها: حرّها، كقوله

اكتساب الفجور واكتساب التقوى، وجواب القسم في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾، والتقدير: لقد أفلح، والفاعل بـ «زكى» يحتمل أن يكون هو الله تعالى، وقاله ابن عباس وغيره، كأنه تعالى قال: قد أفلحت الفرقة أو الطائفة التي زكاها الله تعالى، و﴿مَنْ﴾ تقع على جمع أو أفراد، ويحتمل أن يكون الفاعل بـ «زكى» الإنسان وعليه تقع ﴿مَنْ﴾، وقاله الحسن وغيره، كأنه تعالى قال: قد أفلح من زكى نفسه، أي: اكتسب الزكاة التي قد خلقها الله تعالى له، و﴿زَكَّيْنَهَا﴾ معناه: طهرها ونماها بالخيرات، و﴿دَسَّيْنَهَا﴾ معناه: أخفاها وحقَّرها، أي: حقَّ قدرها بالمعاصي والبخل بما يحب، يقال: دَسَّ يَدْسُرُ ودَسًا - بشد السين - يُدْسِي، وأصله دَسَسَ، ومنه قول الشاعر:

وَدَسَّسْتُ غَمْرًا فِي الثَّرَابِ فَأَصْبَحَتْ
حَلَالَةً يَبْكِيْنَ لِلْفَقْدِ ضَعْفًا

وروي أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّيْنَهَا خَيْرَ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا»، وهذا الحديث يُقَوِّي أن المزكى هو الله تعالى، وقال ثعلب: معنى الآية: وقد خاب من دَسَّاهَا في أهل الخير بالرياء وليس منهم في حقيقته.

ولما ذكر الله تعالى صفة من دَسَّى نفسه ذكر فرقة فعلت ذلك لِيُغْتَبَرَ بهم وَيُنْتَهَى عن مثل فعلهم، و«الطغوى» مصدر، وقرأ الحسن،

وحَمَاد بن سلمة: «بَطْغَوْاهَا» بضم الطاء، مصدر كالتعجبى والرُّجعى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «الطغوى» هنا: العذاب، كَذَبُوا به حتى نزل بهم، ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى: ﴿فَأَنَّا نُمَوْدُ فَأَمْكُرُوا فَالْتَمَعُوا﴾، وقال جمهور المتأولين: الباء سببية، والمعنى: كذبت نمودُ نبيها بسبب طغيانها وكفرها. و﴿أَبَعَتْ﴾ عبارة عن خروجه إلى عقر الناقة بنشاط وحرص، و﴿أَشَقَّنَهَا﴾ هو قُدار بن سالف، وهو أحد التسعة الرهط المفسدين، ويحتمل أن يقع ﴿أَشَقَّنَهَا﴾ على جماعة حاولت العقر، ويروى أنه لم يفعل فعله بالناقة حتى ملأه على ذلك جميع الحي، فلذلك قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ لكونهم متفقين على ذلك.

و«رسول الله»: صالح عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿ثَاقَةَ اللَّهِ وَسَيِّئَهَا﴾ نُصِبَ بفعل مضمر تقديره: احفظوا أو ذروا أو اخذوا، على معنى: احذروا الإخلال بحق ذلك، وقد تقدم أمر الناقة والسقيا في غير هذه السورة بما أغنى عن إعادته، وقد تقدَّم التكذيب على العقر لأنه كان سبب العقر، ويروى أنهم كانوا قد أسلموا قبل ذلك وتابَعُوا صالحاً عليه السلام مدة ثم كَذَبُوا وعقروا، والجمهور من المفسرين على أنهم كانوا على كفرهم. و﴿فَكَذَّمْ﴾ معناه: أنزل العذاب مُفْلِقاً لهم مُكْرَراً ذلك، وهي

الدَّذْمَةُ، وفي بعض المصاحف ﴿فَكَذَّمْ﴾، وهي قراءة ابن الزبير بالهاء بين الدالين، وفي بعضها ﴿فَكْذَّمْ﴾، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿فَكَذَّمْهَا عَلَيْهِمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَذَّبْنَاهُمْ﴾ أي: بسبب ذنبهم، وقوله تعالى: ﴿نُسَوِّبْنَاهَا﴾ معناه: نسوَّى القبيلة في الهلاك، لم يُنَجَّ منهم أحداً.

وقرأ نافع، وابن عامر، والأعرج، وأهل الحجاز، وأبي بن كعب ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ بالفاء، وكذلك في مصاحف أهل المدينة والشام، وقرأ الباقر: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالسواو، وكذلك في مصاحفهم، وروي عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿وَلَمْ يَخَفْ عُقْبَاهَا﴾، والفاعل بـ [يخاف] على من قرأ: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ بالفاء يحتمل أن يكون الله تعالى، والمعنى: فلا ذرُّك على الله تعالى في فعله بهم، ولا يُسأل عما يفعل، وهذا قول ابن عباس والحسن، وفي هذا المعنى احتقار للقوم وتعفية لأثرهم، ويحتمل أن يكون صالحاً عليه السلام، أي: لا يخاف عقبي الله تعالى بهذه الفعلة بهم؛ إذ قد كان أنذرهم وحذَّهم، ومن قرأ: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالسواو فيحتمل الوجهين اللذين ذكرنا، ويحتمل زائداً أن يكون الفاعل بـ [يخاف] أشقاها المُنْبِعث، قاله الزجاج وأبو علي، وهو قول السدي والضحاك ومقاتل، وتكون الواو واو الحال، كأنه تعالى قال: انبعث لعقرها وهو لا يخاف عقبي فعله لكفره

تفسير سورة الليل

وهي مكية في قول الجمهور، وقال المهدي: وقيل: هي مدنية، وقيل: فيها مدني، وعددها عشرون آية بإجماع. ﴿٢١﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

أقسم الله تعالى بالليل إذا عشى الأرض وجميع ما فيها، وبالنهار إذا تجلّى أي: ظهر وضوء الأفاق، ومنه قول الشاعر:

تجلّى السرى من وجهه عن صبيحة
على السير مشراق كريمة شجونها
وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ ﴿١﴾، يحتمل أن تكون [ما] بمعنى «الذي» كما قالت العرب: «سبحان ما سبّح الرعد بحمده»، وقال أبو عمرو وأهل مكة: يقولون للرعد: «سبحان ما سبّحت له»، ويحتمل أن تكون [ما] مصدرية، وهو مذهب الزجاج. وقرأ جمهور الصحابة: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس، وعبدالله بن مسعود، وأبو الدرداء - وسمعا من النبي ﷺ - وعلقمة، وأصحاب عبدالله: ﴿وَالذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾، وسقط عندهم ﴿وَمَا خَلَقَ﴾، وذكر الثعلبي أن من السلف من قرأ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ بخفض [الذَّكَرَ] على البدل من [ما]،

على أن التقدير: وما خلق الله، وقراءة علي رضي الله عنه: ﴿وَمِنْ ذَكَرٍ﴾ تشهد لهذه، وقال الحسن: المراد هنا بالذكر والأنثى آدم وحواء عليهما السلام، وقال غيره: هو عام.

و «السَّغْيُ»: العمل، فأخبر تعالى مقسماً أن أعمال العباد شتى، أي: مفترقة جداً، بعضها في رضي الله تعالى، وبعضها في سخطه. ثم قسم تعالى الساعين، فذكر أن من أعطى - وظاهر ذلك إعطاء المال، وهي أيضاً تتناول إعطاء الحق في كل شيء، قول أو فعل، وكذلك البخل المذكور بعد - يكون الإيمان وغيره من الأقوال التي حق الشريعة ألا يُخل بها.

ويروى أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أنه كان يعتق ضعفة العبيد الذين أسلموا، وكان ينفق في رضي رسول الله ﷺ ماله، وكان الكفار يصدّ ذلك، وهذا قول من قال إن السورة كلها مكية، قال عبدالله بن أبي أوفى: هذه السورة في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأبي سفيان بن حرب، وقال مقاتل: مرّ أبو بكر رضي الله عنه على أبي سفيان وهو يعدّ ببلالاً، فاشتره منه، وقال السدي: نزلت هذه الآية بسبب أبي الدّخداح الأنصاري رضي الله عنه، وذلك أن نخلة لبعض المنافقين كانت مُطلّة على دار امرأة من المسلمين لها أيتام، فكان الثمر يسقط عليهم فيأكلونه فمنعهم المنافق من ذلك، واشتد عليهم،

سُورَةُ اللَّيْلِ

لَا يَصْلَحُ إِلَّا الْأَنْفَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ وَقَوْلَ ۝ وَسِجْناً ۝

الْأَنْفَى ۝ الَّذِي يُوقِي مَالَهُ يَتَرَكِ ۝ وَمَا لَاحِظٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقِلَ ۝

وَلَا آخِرَ خَيْرِكَ مِنَ الْأَوَّلِ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى ۝

أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيماً فِأَوْى ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا ۝ فَهَدَى ۝

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۝ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝

سُورَةُ الشُّرَحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْشُّرَحُ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَرَدَكَ ۝ أَلَيْسَ أَفْضَظْ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝

إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝

٥٩٦

وطغيانه، و«العقبى»: جزاء الشيء وخاتمته وما يجيء من الأمور بعقبه.

واختلف القراء في أَلِفَاتِ هذه السورة والتّين بعدها، ففتحها ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وقرأ الكسائي ذلك كله بالإضجاع، وقرأ نافع الكلّ بين الفتح والإمالة، وقرأ حمزة: ﴿وَضَحْنَهَا﴾ مكسورة، و«لَنَهَا» و«لَحْنَهَا» مفتوحتين، وكسر ما عدا ذلك، واختلف عن أبي عمرو، فمروءة كسر الجميع، ومروءة كقراءة نافع، قال الزجاج: سمى الناس الإمالة كسراً وليس بكسر صحيح، والخليل وأبو عمرو يقولان: إمالة.

كامل تفسير سورة الشمس والحمد لله رب العالمين

فقال رسول الله ﷺ: يغنيها بنخلة في الجنة، فقال: لا أفعل، فبلغ ذلك أبا الدحداح، فذهب إليه واشترى منه النخلة بحائط له، وجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أنا أشترى النخلة التي في الجنة بهذه، ففعل ذلك رسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يمرُّ على ذلك الحائط الذي أعطى أبو الدحداح، وقد تعلقت أفتاؤه ويقول: وكم قنوَ تعلق لأبي الدحداح في الجنة، وفي البخاري أن هذا اللفظ كان رسول الله ﷺ يقول في الأفتاء التي كان أبو الدحداح يعلّقها في المسجد صدقة، وهذا كله قول من يقول: بعض السورة مدني.

واختلف الناس في «الحُسنَى» في هذه السورة - فقال أبو عبد الرحمن السلمي وغيره: هي لا إله إلا الله، وقال ابن عباس، وعكرمة، وجماعة هي الخَلْفُ الذي وعد الله به، وذلك نصٌّ في حديث الملكين، إذ يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً ثلغاً. وقال مجاهد، والحسن، وجماعة: الحُسنَى: الجنة، وقال كثير من المتأولين: الحسنَى: الأجر والثواب مجملًا.

وقوله تعالى: ﴿مَسِيرُهُ يَلِينُ﴾ معنى: سيظهر تيسرنا بما يتدرج فيه من أعمال الخير، وختم تيسيره قد كان في علم الله تعالى أزلاً، و«اليسرى»: الحال الحسنة المرضية في الدنيا والآخرة، و«العُسرى»: الحال السيئة في الدنيا والآخرة ولا بُدَّ، ومن جعل ﴿يَجِلُّ﴾ في المال

خاصةً جعل ﴿وَأَسْتَفَى﴾ في المال أيضاً لتعظم المذمة، ومن جعل ﴿يَجِلُّ﴾ عامًا في جميع ما ينبغي أن نبذل من قول وفعل قال: «استغنى» عن الله تعالى ورحمته بزعمه. ثم وقف تعالى على موضع غناء ماله عنه وقت تَرْدِيهِ، وهذا يدل على أن الإعطاء والبخل المذكورين إنما هما في المال.

واختلف الناس في معنى ﴿رَزَى﴾ - فقال قتادة وأبو صالح: معناه: تَرَدَّى في جهنم، أي: سقط من حافاتها، وقال مجاهد: ﴿رَزَى﴾ معناه: هلك من الرَّذَى، وقال قوم: معناه: تَرَدَّى بأُكُفَّانِهِ من الرداء، ومنه قول مالك بن الريب:

وخطأ بأطراف الأيسّة مضجعي
ورّداً على عينيّ فضل ردايتي
ومنه قول الآخر:

نصيبك مما تخمّع الدهر كُلهُ
رداءةٍ تُلَوَّى فيهما وخنوط
ثم أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعاً، أي: تعريفهم بالسبل كلها، ومنحهم الإدراك، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، ثم كلُّ أحد بعد ذلك يتكسّب ما قُدِّرَ له، وليست هذه الهداية بالإرشاد إلى الإيمان، ولو كان ذلك لم يوجد كافر. ثم أخبر تعالى أن له الآخرة والأولى أي: الدارين.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَلْقَى﴾ إمّا مخاطبة منه سبحانه، وإمّا على معنى: قُلْ لهم يا محمد، وقرأ جمهور السبعة: ﴿تَوْمًا﴾ بتخفيف التاء، وقرأ البزي عن ابن كثير بشدّ التاء وإدغام الرّاء فيها، وقرأها كذلك

عُبَيْد بن عُمَيْر، وزوي عنه أيضاً: ﴿تَتَلَقَّى﴾ بتاءين، وكذلك قرأ ابن الزبير وطلحة.

قوله تعالى: ﴿لَا يَصَلَّهَا إِلَّا الْآتِقَى﴾، أي: لا يصلّاها صليّ خلود، ومن هنا ضلّت المرجئة لأنها أخذت نفي الصليّ مطلقاً في قليله وكثيره. و«الآتِقَى» هنا -: الكافر؛ بدليل قوله تعالى: ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾، والعرب تجعل «أفعل» في موضع «فاعل» مبالغة، كما قال طرفة:

تَمَتَّى رجالٌ أن أموت وإن أمُت
فتلك سبيلٌ لست فيها بأزحيد
ولم يختلف أهل التأويل أن المراد بـ «الآتِقَى» إلى آخر السورة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم هي تتناول كل من دخل في هذه الصفات. وقوله تعالى: ﴿يَتَزَكَّى﴾ معناه: يتطهّر ويتنمّى، وظاهر هذا الإتيان أنه في المندوبات، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَحْدِ عِنْدُكَ﴾ الآية... معناه: وليس إعطاؤه ليَجْزِي نِعْمًا قد أنزلت إليه، بل هو مبتدئ ابتغاء وجه الله تعالى.

وزوي في سبب هذا أن قريشاً قالوا - لما أغتق أبو بكر رضي الله عنه - بلالاً -: كانت لبلال يدٌ عنده، وذهب الطبري إلى أن المعنى: وليس يُعطي ليُثاب نِعْمًا يُجْزَى بها يوماً وينتظر ثوابها، وحوّم في هذا المعنى وحلّق بتطويل غير مُغْنٍ، ويتّجه المعنى الذي أراد بأنسر من قوله، وذلك أن يكون التقدير: وما لأحد عنده إعطاء ليقع عليه من ذلك الأحد جزاءً بعدد، بل هو لمجرد ثواب الله تعالى وجزائه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْبَاً﴾ نصب بالاستثناء المنقطع، وفيه نظر، والابتغاء: الطلب، ثم وعده تعالى بالرّضا في الآخرة، وهذه عِدَّة لأبي بكر رضي الله عنه. وقرئ: ﴿يُزْضَى﴾ بضم الياء على بناء الفعل للمفعول، وهذه الآية تشبه الرّضا في قوله تعالى: ﴿أَرْجَى إِلَيْكَ رَاضِيَةً مَرْثِيَةً﴾.

كامل تفسير سورة الليل والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الضحى

وهي مكية، لا خلاف في الرواة.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

تقدم تفسير «الضحى» بأنه سطوع الضوء وعظمته، وقال قتادة: الضحى هنا النهار كله، و«سَيِّئٌ» معناه: سكن واستقر ليلاً تاماً، وقال بعض المفسرين: «سَيِّئٌ» معناه: أقبل، وقال آخرون: معناه: أدبر، والأول أصح، ومنه قول الشاعر:

يا حَبِذاً الْقَمَرَاءُ وَاللَّيْلُ السَّاجِ
وَطَرَقَ مِثْلُ مَلَأِ السَّاسِجِ
ويقال: «بحر ساج» أي ساكن، ومنه قول الأعشى:

وما دُنْبُنَا أَنْ جَاشَ بَحْرُ ابْنِ عَمَكُم
وَبَحْرُكَ سَاجٌ لَا يُوَارِي الدَّعَامِصَا
و «طَرَفٌ سَاجٌ» إذا كان ساكناً غير مضطرب النظر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَدَعَكَ﴾ بشد الدال، من التوديع، وقرأ عروة بن الزبير وابنه هشام: ﴿وَدَعَكَ﴾ بتخفيف الدال، بمعنى تركك. و«قَنَّ» معناه: أبغض.

واختلف في سبب هذه الآية - فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أبطأ الوحي مُدَّةً عن رسول الله ﷺ وهو بمكة اختلفت في حدها الروايات حتى شق ذلك عليه، فجاءت امرأة من الكفار - وهي أم جميل امرأة أبي لهب - فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت الآية بسبب ذلك.

وقال ابن وهب عن رجاله عن عروة بن الزبير أن خديجة رضي الله عنها قالت: ما أرى الله إلا قد خلاك لإفراط جزعك ليظلم الوحي عنك، فنزلت الآية بسبب ذلك، وقال زيد بن أسلم: إنما احتبس عنه جبريل ليجزو كان في بيته.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأَوَّلِ﴾ يحتمل أن يريد الدارين: الدنيا والآخرة، وهذا تأويل ابن إسحق وغيره، ويحتمل أن يريد حاله في الدنيا قبل نزول السورة وبعدها، فوعده الله تعالى - على هذا التأويل - بالنصر والظهور، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى﴾، قال جمهور الناس: ذلك في الآخرة، وقال بعض أهل البيت: هذه أَرْجَى آية في القرآن؛ لأن رسول الله ﷺ لا يرضى وواحد من أمته في النار، وقال ابن عباس: رضاه ألا يدخل أحد من أهل بيته

النار، وقال ابن عباس أيضاً: رضاه أن الله تعالى وعده بألف قصر في الجنة بما تحتاج إليه من النعم والخدم، وقال بعض العلماء: رضاه في الدنيا بفتح مكة وغيره، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَلَسَيُعْطِيكَ﴾.

ثم وقفه تعالى على المراتب التي درجه فيها بإنعامه عليه فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾، والمعنى: ألم يجدك تحفياً الله وإنعامه، ويثمه كان فقد أبيه وكونه في كنف عمه أبي طالب، وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لم يتم النبي ﷺ من أبويه؟ قال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق. وقرأ الأشهب العقيلي: ﴿فَأَوَى﴾ بالقصر بمعنى: رحم، يقال: أُوِيْتُ لفلان، أي: رحمته. وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي: وجدك إنعامه بالثبوة والرّسالة على غير الطريق التي أنت عليها في نبوتك، فهدي، هذا قول الحسن والضحاك وفرقة.

و «الضلال» مختلف، فمنه البعيد ومنه القريب، فالبعيد ضلال الكفار الذين يعبدون الأصنام، ويحتجون لذلك ويغتبطون به، وكان هذا الضلال الذي ذكره الله تعالى لنبية ﷺ أقرب ضلال، وهو الكون واقعاً لا يُمَيِّزُ الْمُهَيَّجَ، لا لأنه تمسك بطريق آخر، بل كان يرتاد وينظر. وقال السدي: أقام على أمر قومه أربعين سنة، وقيل: معنى «وَوَجَدَكَ ضَالًّا»: تُنسب إلى الضلال، وقال الكلبي: وجدك في قوم ضلال، فكانك واحد منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورسول الله ﷺ لم يعبد صنماً قط، ولكنه أكل ذبائحهم حسب حديث زيد بن عمرو في أسفل بلدح، وجري على من يسير من أمرهم، وهو مع ذلك ينظر خطأ ما هم عليه، ودفع من عرفات وخالفهم في أشياء، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو ضلاله وهو صغير في شعاب مكة، ثم رده الله تعالى إلى جده عبدالمطلب، وقيل: هو ضلاله من حليلة مرضعته، وقال الترمذي، وعبدالعزیز بن يحيى: ﴿صَلَاً﴾: خايل الذكر لا يعرفك الناس، فهداهم إليك ربك، والصواب أنه ضلال من توقف لا يدري، كما قال عز وجل: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾. وقال ثعلب: هو تزويجه عليه السلام بنته في الجاهلية، ونحو ذلك.

و «العائل»: الفقير، وقرأ اليماني: ﴿عَيْلاً﴾ بشد الياء المكسورة، ومنه قول الشاعر:

وما يذري الفقير متى غناه
وما يذري الغني متى يعيل
وأعمال: كثر عياله، وعال: افتقر، ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ يَخِفُّ عَلَيْكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَغْنِي﴾، قال مقاتل: معناه: رزأك بما أعطاك من الرزق، وقيل: فقيراً إليه فأغناك به، والجمهور على أنه فقر المال وغناه، والمعنى في النبي ﷺ أنه أغنى الأغنياء بالصبر والقناعة، وقد حُبباً إليه، وقيل: أغني بالكفاف لتصرفه في مال خديجة رضي الله عنها، ولم يكن النبي ﷺ قط كثير المال، رفعه الله

عن ذلك، وقال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس».

ولما عُدَّ الله تعالى عليه هذه النعم الثلاث وصَّاه بثلاث وصايا، في كل نعمة وصية مناسبة لها، فبإزاء قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَكَأْوَى﴾ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، وبإزاء قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، وهذا على قول من قال: إن السائل هنا هو السائل عن العلم والدين، وليس بسائل المال، وهو قول الحسن وأبي الدرداء وغيرهما، وبإزاء قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا رِبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وأما من قال إن السائل سائل المال المحتاج، وهو قول الفراء وجماعة فقد جعلها بإزاء قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾، وجعل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَتِيمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ بإزاء قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾.

وقال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السؤال، يحملون زادنا إلى الآخرة. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ معناه: رُدْ رداً جميلاً، إما بعتاء أو بقول حسن. وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَوَجَدَكَ عَدِيمًا فَأَغْنَى﴾، وقرأ ابن مسعود، والشعبي، وإبراهيم التيمي: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَكْهَرْ﴾ بالكاف، قال الأخفش: وهي بمعنى القهر، ومنه قول الأعرابي: «وقاكم الله سَطْوَةً القادر وملكة الكاهر» وقال أبو حاتم: لا أظنّها بمعنى القهر؛ لأنه

قد قال الأعرابي الذي بال في المسجد: «فما كهرني النبي ﷺ»، فإنما هي بمعنى الانتهاز.

وأمره الله تعالى بالتحدث بنعمته، فقال مجاهد، والكلبي: معناه: بُثَّ القرآن ويُلَغُّ ما أرسلت به، وقال آخرون: بل هو عموم في جميع النعم، وكان بعض الصالحين يقول: لقد أعطاني الله كذا وكذا، ولقد صليت البارحة كذا وكذا، وذكرت الله تعالى كذا، فقيل له: إن مثلك لا يقول هذا، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا يَتِيمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وأنتم تقولون لا تحدث، وقال النبي ﷺ: «التَّحَدُّثُ بِالنَّعْمِ شُكْرٌ»، ومنه قول النبي ﷺ: «من أنشيت إليه يد فذكرها فقد شكرها، ومن سترها فقد كفرها»، ونصب ﴿الْيَتِيمَ﴾ بـ ﴿تَقْهَرْ﴾، والتقدير: مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم.

كامل تفسير سورة الضحى والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الشرح

وهي مكية بإجماع من المفسرين، لا خلاف بينهم في ذلك.

﴿١﴾ - ﴿٨﴾ تفسير قوله عز وجل: عُدَّ الله تعالى على نبيه ﷺ نعمه في أن شرح له صدره للثبوت وهيباً لها، وذهب الجمهور إلى أن شرح الصدر المذكور هو: تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقي ما يؤخى إليه. وقال

ابن عباس رضي الله عنه، وجماعة: هذه إشارة إلى شرحه بشق جبريل عليه السلام عنه في وقت صغره، وفي وقت الإسراء؛ إذ التشرية شق اللحم. وقرأ أبو جعفر المنصور: ﴿أَلَمْ نُشْرَحْ﴾ بنصب الحاء، على نحو قول الشاعر:

اضْرِبْ عَنْكَ الُّهُمُومَ طَارِقَهَا
ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسَ الْفَرْسِ
ومثله مما في نوادر أبي زيد:

مِنْ أَيِّ يَوْمِي مِنَ الْمَوْتِ أَفْرُ
أَيُّوْمَ لَمْ يُقْدِرْ أَمْ يَوْمَ قُدِرْ
كأنه تعالى قال: «أَلَمْ نُشْرَحْ»، ثم أبدل من النون ألفاً، ثم حذفها تخفيفاً. وهي قراءة مردودة.

و «الْوَزُّ» الذي وضعه الله تعالى عنه هو عند بعض المتأولين الشغل الذي كان على رسول الله ﷺ، وحيرته قبل المبعث؛ إذ كان يرى سوء ما قريش فيه من عبادة الأصنام، وكان لم يتجه له من الله أمر واضح، فوضع الله تعالى عنه ذلك الشغل بنبوته وإرساله. وقال أبو عبيدة وغيره: المعنى: خففنا عليك أثقال الثبوة، وأعناك على الناس، وقال قتادة، وابن زيد، والحسن، وجمهور من المفسرين: الوزُّ - هنا: الذنوب، وأصله الشغل، فشبهت الذنوب به، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿لَيَنْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، وكان رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الثبوة وزرّه ضجة قومه، وأكله من ذبائحهم، ونحو هذا، وقال الضحاك، وفي كتاب النقاش:

حضوره مع قومه المشاهد التي لا يحبها الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه كلها جزؤها المنشأ، كشهودة حرب الفجار، يُنبَلُ على أعمامه وقلبه في ذلك منيب إلى الصواب، وأما عبادة الأصنام فلم يتلبس بها قط. وقرأ أنس بن مالك: ﴿وَحَطَطْنَا عَنْكَ وَزْرَكَ﴾، وفي حرف ابن مسعود: ﴿وَحَلَلْنَا عَنْكَ وَفَرَكَكَ﴾، وفي حرف أبي: ﴿وَحَطَطْنَا عَنْكَ وَفَرَكَكَ﴾، وذكر أبو عمرو أن النبي ﷺ صوّب جميعها. وقال المحاسبي: إنما وصفت ذنوب الأنبياء عليهم السلام بالثقل وهي صغائر مغفورة لهممهم بها وتحسرهم عليها.

و «أَنْقَضَ» معناه: جعله نقضاً، أي: هزيراً مُعيباً من الشغل، وقيل: معناه: أسمع له نقيض وهو الصوت، وهو مثل نقيض السفن، وكل ما حملته ثقلاً فإنه يُنْقَضُ تحته، وقال عباس بن مرداس:

وَأَنْقَضَ ظَهْرِي مَا تَطَوَّقْتُ مِنْهُمْ
وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ مُشْفِيقاً مُتَحَنِّناً
وقوله تعالى: ﴿وَوَقَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ معناه: نؤمنا باسمك، وذهبنا به كل مذهب في الأرض، هذا ورسول الله بمكة، وقال أبو سعيد الخدري، والحسن، ومجاهد، وقتادة: معنى قوله تعالى: ﴿وَوَقَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، أي: قرئنا اسمك باسمنا في الأذان

والخطب، وروي في هذا حديث «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتُ مَعِي»، وهذا مُتَّجِهٌ إِلَّا أَنْ الآية نزلت بمكة قديماً والأذان شرع بالمدينة، وَرَفَعَ الذِّكْرَ نعمة على الرسول ﷺ، وكذلك هو جميل حَسَنٌ للقائمين بأمر الناس، وخمولى الذِّكْرَ والاسم حَسَنٌ للمنفردين للعبادة، وقد جعل الله تعالى التَّعَمُّ أَسْماً بحسب ما يصلح لشخص شخص، وفي الحديث «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَوْفُقُ عَبْدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: أَلَمْ أَفْعَلْ بِكَ كَذَا وَكَذَا - يَمْدُدُ عَلَيْهِ نِعْمَةً -» ويقول في جملة: أَلَمْ أُخْمَلْ ذَكَرَكَ فِي النَّاسِ؟ والمعنى في هذا التعدد الذي على النبي ﷺ: أي: يا محمد فقد جعلنا جميع هذا فلا تكثر بأذى قريش، فإن الذي فعل بك هذه النعم سيُظْفَرُكُ بهم وَيُتَّصَرَّكَ عليهم.

ثم قَوَّى تعالى رجاءه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَعَ الْفَائِزِينَ﴾، أي: مع ما تراه من الأذى فرج يأتيك، وكرر الله تعالى ذلك مبالغة وتبييناً للخير، فقال بعض الناس: المعنى: إن مع العُسر يسراً في الدنيا، وإن مع العُسر يسراً في الآخرة، وذهب كثير من العلماء إلى أن مع كل عُسْر يُسْرَيْنِ بهذه الآية، من حيث «العُسْر» مُعْرِفٌ للعهد، و«الْيُسْر» منكر، فالأول غير الثاني، وقد رُوِيَ في هذا التأويل حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»، وأما قول عمر به فنص في الموطأ



شاذة ضعيفة المعنى لم تثبت عن عالم، ومُر شريح على رجلين يصطرعان فقال: ليس بهذا أمر الفراغ، وتلا هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا رَيْبَ فَارْتَبْ﴾ أمر بالتوكل على الله عز وجل، وصرف وجه الرغبات إليه لا إلى سواه، وقرأ ابن أبي عبة: ﴿فَرْتَبْ﴾ بفتح الراء وشد العين مكسورة.

كمل تفسير سورة الشرح والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة التين

وهي مكية، لا أعرف في ذلك خلافاً بين المفسرين.

﴿٨﴾ - تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في معنى «التين» والزيتون» الذين أقسم الله تعالى بهما - فقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وإبراهيم، وعطاء، وجابر بن زيد، ومقاتل: هو التين الذي يؤكل والزيتون الذي يعتصر، وأكل النبي ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم تيناً أهدي إليه فقال: «لَوْ قُلْتُ إِنَّ فَاكِهَةَ الْجَنَّةِ نَزَلَتْ مِنَ الْجَنَّةِ قُلْتُ هَذِهِ؛ لِأَنَّ فَاكِهَةَ الْجَنَّةِ بَلَا عَجَم، فَكَلُّوا فَإِنَّهُ يَقْطَعُ الْبَوَاسِيرَ،

في رسالته إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما. وقرأ عيسى، ويحيى بن وثاب، وأبو جعفر: «الْمُسْرُ»، و«الْيُسْرُ» بضميتين، وقرأ ابن مسعود: «إِنَّ مَعَ الْقُسْرِ يُسْرًا» واحدة غير مكررة.

ثم أمر نبيه عليه الصلاة والسلام إذا فرغ من شغل من أشغال الثبوة والعبادة أن ينصب في آخر، والنصب: التعب، فالمعنى أن يدأب على ما أمر به ولا يفتر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: فإذا فرغت من فرضك فانصب في التثقل عبادة لربك، وقال ابن مسعود: فانصب في قيام الليل، وعن مجاهد: فإذا فرغت من شغل دنياك فانصب في عبادة ربك، وقيل: المعنى: فإذا فرغت من الركعات فاجلس في التشهد وانصب في الدعاء، وقال ابن عباس، وقتادة: معنى الكلام: فإذا فرغت من العبادة فانصب في الدعاء، وقال الحسن بن أبي الحسن: فإذا فرغت من الجهاد فانصب في العبادة، ويعترض هذا التأويل أن الجهاد فرض بالمدينة. وقرأ أبو السمال: «فَرُغْتُ» بكسر الراء، وهي لغة، وقرأ قوم: «فَانْصَبْ» بشد الباء وفتحها، ومعناها: إذا فرغت من الجهاد فانصب إلى المدينة، ذكرها النقاش منبهاً على أنها خطأ، وقرأ آخرون من الإمامية: «فَانْصَبْ» بكسر الصاد، بمعنى إذا فرغت من أمر الثبوة فانصب خليفة، وهي قراءة

وينفع من الثفرس» وقال عليه الصلاة والسلام: «نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة، هي سواكي وسواك الأنبياء من قبلي». وقال كعب وعكرمة: القسم بمنابتهما، وذلك أن التين ينبت كثيراً بدمشق، والزيتون ينبت بإيلاء، فأقسم الله تعالى بالأرضين، وقال قتادة: هما جبلان بالشام، على أحدهما دمشق، وعلى الآخر بيت المقدس، وقال ابن زيد: التين مسجد دمشق، والزيتون مسجد إيلياء، وقال ابن عباس وغيره: التين مسجد نوح عليه السلام على الجودي، والزيتون مسجد بيت المقدس، وقيل: التين مسجد نوح، والزيتون مسجد إبراهيم عليهما السلام، وقيل: التين والزيتون وطور سينين ثلاث مساجد بالشام، وقال محمد بن كعب

القرظي: التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيلياء، وأما طور سينين فلم يختلف أنه جبل بالشام كَلَّمَ الله تعالى عليه موسى عليه السلام.

واختلف في معنى «سِينِينَ» - فقال عكرمة، ومجاهد: معناه: حَسَنٌ مبارك، وقيل: معناه: ذو الشجر، وقرأ الجمهور: «سِينِينَ» وقرأ ابن إسحاق، وأبو رجاء: «سِينِينَ» بفتح السين، وهي لغة بكر وتميم وقرأ عمر بن الخطاب، وطلحة، والحسن وابن مسعود: «سِينَانًا» بسين مكسورة وألف، وقرأ أيضاً عمر رضي الله عنه بفتحها.

و «الْبَلَدُ الْأَمِينُ» مَكَّةُ بلا خلاف، وقيل: معنى «سِينِينَ»: المبارك، وقيل: معناه: شجر، وإحدها سِينِينَةٌ، قاله الأخفش، وسعيد بن مسعدة. و«أَمِين» فِعْلٌ مِنَ الْأَمْنِ، بمعنى: آمِنٌ، أَي: آمِنٌ مِنْ فِيهِ وَمَنْ دَخَلَهُ وما فيه من طير وحيوان.

والقسم واقع على قوله تعالى: «لَقَدْ عَلَّمْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»، ولا يدفع هذا أن يكون غيره من المخلوقات - كالشمس وغيرها - أحسن تقويماً منه بالمناسبة، وقال بعض العلماء بالعموم، أي: أن الإنسان أحسن المخلوقات تقويماً، ولم ير قوم الحنث على من حلف بالطلاق أن زوجته أحسن من الشمس، واحتجوا بهذه الآية.

واختلف الناس في تقويم الإنسان ما هو؟ فقال النخعي، ومجاهد، وقتادة: حُسْنُ صورته وحواسه، وقال بعضهم: هو انتصاب قامته،

وقال أبو بكر بن طاهر - في كتاب الثعلبي -: هو عقله وإدراكه للذات زِينَاهُ بِالْتَّمِيزِ، وقال عكرمة: هو الشباب والقوة، والصواب أن جميع هذا هو حُسْنُ التقويم، إلا قول عكرمة إذ قد يفضل فيه بعض الحيوان، و«الإنسان» هنا اسم الجنس، وتقدير الكلام: في تقويم أحسن تقويم؛ لأن «أَحْسَنَ» صفة لا بد أن تجري على موصوف.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: «ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ» - فقال عكرمة، وقتادة، والضحاك، والنخعي: معناه: بالهرم وذهول العقل وتغلب الكبر حتى يصير لا يعلم شيئاً، أما إن المؤمن مرفوع عنه القلم، والاستثناء - على هذا - منقطع. وهذا قول حَسَنٌ، وليس المعنى أن كل إنسان يعتره هذا، بل في الجنس من يعتره ذلك، وهذه عِبَرٌ منصوبة. وقرأ ابن مسعود: «السَّافِلِينَ» بالألف واللام.

ثم أخبر تعالى أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات - وإن نال بعضهم هذا في الدنيا - فلهم في الآخرة أجر عظيم غير ممنون، وقال الحسن: ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، وأبو العالية: المعنى: رددناه أسفل سافلين في النار على كفره، ثم استثنى تعالى الذين آمنوا استثناءً متصلاً، فهم - على هذا - ليس فيهم من يُرَدُّ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، وفي حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا بَلَغَ الْمُؤْمِنُ خَمْسِينَ سَنَةً خَفَّفَ اللَّهُ حِسَابَهُ، وَإِذَا بَلَغَ السُّتَيْنِ رَزَقَهُ اللَّهُ الْإِنَابَةَ إِلَيْهِ، فَإِذَا بَلَغَ السَّبْعِينَ أَحَبَّ

أَهْلُ السَّمَاءِ، فَإِذَا بَلَغَ ثَمَانِينَ كُتِبَتْ حَسَنَاتُهُ، وَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْ سَيِّئَاتِهِ، فَإِذَا بَلَغَ تِسْعِينَ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ، وَشَفَعَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ، وَكَانَ أَسِيرَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، فَإِذَا بَلَغَ مِائَةَ - وَلَمْ يَعْمَلْ شَيْئاً - كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي صَحْتِهِ، وَلَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ»، وفي حديث: «إِنْ الْمُؤْمِنُ إِذَا رَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ، كُتِبَ لَهُ خَيْرُ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي قَوْمِهِ، وَذَلِكَ أَجْرُ غَيْرِ مَمْنُونٍ»، و«مَمْنُونٌ» معناه: محسوب مُصْرَدٌ يُمَنُّ عَلَيْهِمْ بِهِ، قاله مجاهد وغيره، وقال كثير من المفسرين: معناه: مقطوع، من قولهم: «حَبْلٌ مَمْنُونٌ» أي: ضعيف منقطع.

واختلف في المخاطب بقوله تعالى: «فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْآيَاتِينَ» - فقال قتادة، والفراء، والأخفش: هو محمد ﷺ، قال الله تعالى له: فما الذي يَكْذِبُكَ فيما تُخْبِرُ به من الجزاء والبعث - وهو الدين - بعد هذه العبرة التي توجب النظر فيها صحة ما قلت؟ ويحتمل أن يكون «الدين» - على هذا التأويل - جميع دينه وشريعته، وقال جمهور من المتأولين: المخاطب الإنسان الكافر، أي: ما الذي يجعلك كذاباً بالدين، تجعل لله تعالى أنداداً، وتزعم ألا بعث بعد هذه الدلائل؟ قال منصور: قلت لمجاهد: قوله تعالى: «فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْآيَاتِينَ» يراد به النبي عليه الصلاة والسلام؟ فقال: معاذ الله، يعني به الشاك.

ثم وقف تعالى جميع خلقه على أنه سبحانه أحكم الحاكمين، على جهة التقرير، ورؤي عن قتادة أن

رسول الله ﷺ كان إذا قرأ هذه السورة قال: «بلى، وأنا على ذلكم من الشاهدين».

تم تفسير سورة التين والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة العلق

وهي مكية بإجماع، وهي أول ما نزل من كتاب الله تعالى، نزل صدرها في غار حراء حسب ما ثبت في صحيح البخاري، وغيره، وروى من طريق جابر بن عبد الله أن أول ما نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ﴾، وقال أبو ميسرة عمرو بن شرحبيل: إن أول ما نزل فاتحة الكتاب والقول الأول أصح، والترتيب في إخبار النبي ﷺ يقتضي ذلك.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

في صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه التَّحَنُّثُ في غار حراء، فكان يخلو فيه فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ثم ينصرف، حتى جاءه الملك وهو في غار حراء فقال له: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، ثم كذلك ثلاث مرات، فقال له في الثالثة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿١﴾... إلى قوله تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ يُعَمِّرُ﴾، قالت: فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره) الحديث بطوله.

ومعنى هذه الآية: اقرأ هذا القرآن باسم ربك، أي: ابدأ فعلك بذكر اسم الله، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ...﴾ هذا وجه، ووجه آخر في «كتاب الثعلبي» أن المعنى: اقرأ في أول كل سورة وقراءة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ووجه آخر أن يكون المقروء الذي أمر بقرائه هو «باسم ربك الذي خلق»، كأنه قال له: اقرأ هذه اللفظة.

ولما ذكر تعالى «الرَّبُّ»، وكانت العرب في الجاهلية تسمي الأصنام أرباباً، جاء بالصفة التي لا شركة للأصنام فيها، وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾، ثم مثل لهم من المخلوقات ما لا مدافعة فيه، وما يجده كل مفلطح في نفسه، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وخلق الإنسان من أعظم العبر حتى أنه ليس في المخلوقات التي لدينا أكثر عبراً منه، في عقله وإداركه ورباطات بدنه وعظمه. و«العلق» جمع علقه، وهي القطعة البسيرة من الدم. و«الإنسان» - هنا - اسم الجنس، ويمشي الذهن معه إلى جميع الحيوان، وليست الإشارة إلى آدم عليه السلام لأنه مخلوق من طين، ولم يكن ذلك مقررًا عند المخاطبين بهذه الآية، فلذلك ترك أصل الخلقة وسبق لهم الفرغ الذي هم به مفرغون تقريباً لأفهامهم.

ثم قال تعالى له: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ على جهة التأنيس، كأنه تعالى يقول: امض لما أمرت به، وربك ليس كهذه الأرباب، بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص، فهو ينصرك ويظهرك.

ثم عدّد تعالى نعمة الكتاب بالقلم على الناس، وهي موضع عبرة وأعظم منفعة في المخاطبات وتخليد المعارف، وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُن يَعْلَمُ﴾، قيل: المراد محمد عليه الصلاة والسلام، وقيل: اسم الجنس، وهو الأظهر، وعدّد تعالى نعمة اكتساب المعارف للإنسان بعد جهله بها.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفَّارٍ﴾ الآية... نزل بعد مدة في شأن أبي جهل بن هشام، وذلك أنه طغى لغناه، ولكثرة من يغشى ناديه من الناس، فناسب رسول الله ﷺ العداوة، ونهاه عن الصلاة في المسجد، ويروى أنه قال: لئن رأيت محمداً يسجد عند الكعبة لأطأن على عنقه، فيروى أن رسول الله ﷺ ردّ عليه القول وانتهره، فقال أبو جهل: أيتوعدني محمد والله ما بالوادي أعظم ندياً مني؟ وروى أيضاً أنه جاء والنبي ﷺ يصلي، وهم بأن يصل إليه ويمنعه من الصلاة، ثم كع عنه وانصرف، فقيل له: ما هذا؟ فقال: لقد اعترض بيني وبينه خندق من نار وهول وأجنيحة ويروى أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ دَنَا مِنِّي لِأَخَذْتَهُ الْمَلَائِكَةُ عِيَانًا»، فهذه السورة من قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ إلى آخرها نزلت في أبي

جهل. و﴿كَلَّا﴾ هي ردٌ على أقوال أبي جهل وأفعاله، ويتَّجه أن تكون بمعنى «حقاً»، فهي تثبت لما بعدها من القول. و«الطُّغْيَان» تجاوز الحدود الجميلة، و«الغنى» مُطغٍ إلا من عصم الله تعالى، والضمير في ﴿رَبِّكَ﴾ للإنسان المذكور، كأنه قال: أن رأى نفسه غنياً، وهي رؤية قلب تقرب من العلم، وكذلك جاز أن يعمل فيها فعل الفاعل في نفسه، كما تقول: وجدثني وظننتني، ولا يجوز أن تقول: ضريثي. وقرأ الجمهور: ﴿أَنْ رَأَى﴾ بالمد على وزن «رعا»، واختلَفوا في الإمالة وتركها، وقرأ ابن كثير - من طريق قنبل -: ﴿أَنْ رَأَى﴾ دون مدٍّ، على وزن «رَعَه»، على حذف لام الفعل، وذلك تخفيف.

ثم حَقَّرَ تعالى غنى هذا الإنسان وحاله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَ رَبِّكَ الرَّحْمَنُ﴾، أي: الحشر والبعث يوم القيامة، و«الرُّجْعَى» مصدر كالرجوع، وهو على وزن العُقبى ونحوه، وفي هذا الخبر وعيد للطاغين من الناس الناهي أبو جهل، وأن العبد المصلي محمد ﷺ. وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ توقيف، وهو فعل لا يتعدى إلى مفعولين على حدِّ الرؤية من العلم، بل يقتصر به. وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ إكمال للتوبيخ والوعيد بحسب التوقيفات الثلاثة يصلح مع كل واحد منها، فجاء بها في نسق، ثم جاء بالوعيد الكافي لجميعها اختصاراً واقتضاباً، ومع كل تقرير من الثلاثة تكملة مقدرة تنسج العبارات فيها،

وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ دالٌّ عليها مُعْنٍ، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ﴾ يعني العبد المصلي، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ يعني الإنسان الذي ينهى، ونسب تعالى الرؤية إلى الله تعالى بمعنى: يدرك أعمال الجميع بإدراك سمِّه رؤية، والله تعالى مُنْزَعٌ عن الجارحة وغير ذلك من مماثلة المحدثات، ثم توعده تعالى - إن لم يَنْتَه - بأن يُؤخَذَ بناصيته فيُجَرَّ إلى جهنم ذليلاً، تقول العرب: «سَفَعْتُ بيدي ناصية الفرس والرجل» إذا جذبتها مُذْلَلًا له، قال عمرو بن معد يكرب:

قَوْمٌ إِذَا سَمِعُوا الصُّبَاخَ رَأَيْتَهُمْ
مِنْ بَيْنِ مُلْجِمٍ مُهْرَهُ أَوْ سَافِعٍ
فَالآيَةُ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿يُؤَخِّدُ بِالرَّيِّ وَالْأَنْدَامِ﴾. وقال بعض العلماء: (لَتَسْفَعَنَّ) معناه: لَتُجْرِقَنَّ، من قولهم: «سَفَعَتُهُ النَّارُ» إذا أحرقته، واكتفى بذكر الناصية لدلالاتها على الوجه والرأس، وجاء ﴿لَتَسْفَعَنَّ﴾ في خط المصحف بألف بدل النون، وقرأ أبو عمرو - في رواية هارون -: ﴿لَتَسْفَعَنَّ﴾ مُثْقَلَةً النون، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿لَأَسْفَعَنَّ﴾ بالناصية، ناصية كاذبة فاجرة، وقرأ أبو حية: «ناصية كاذبة خاطئة» بالنصب في الثلاثة، وروي عن الكسائي أنه قرأ بالرفع فيها كلها. و«النَّاصِيَةُ» مقدم شعر الرأس، ثم أبدل تعالى النكرة من المعرفة في قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ﴾، ووصفها بالكذب والخطأ من حيث هي صفات لصاحبها، كما تقول: يَدٌ سَارِقَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْعُ نَادِيَهُ﴾ إشارة إلى قول أبي جهل: «وما بالوادي أعظم ندياً مني»، والنادي والندي: المجلس، ومنه: دار الندوة، ومنه قول زهير:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتُ حِسَانٍ وَجُوهُهُمْ
وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ
ومنه قول الأعرابية: «سَيِّدُ نَادِيهِ، وَشِمَالُ عَافِيهِ».

و «الرَّبَّانِيَّةُ» ملائكة العذاب، واحدهم «رَبَّيَّةٌ»، وقال الكسائي: «زني»، وقال عيسى بن عمرو الأخفش: «زَابِنٌ»، وهم الذين يدفعون الناس في النار، و الرَّبُّ: الدَّفْع، ومنه «حَرْبُ زُبُونٍ»، أي: تدفع الناس في نفسها، ومنه قول الشاعر:

وَمُسْتَفْجِبٌ مِمَّا يَرَى مِنْ أَنَاتِنَا
وَلَوْ رَبَّنَا الْحَرْبُ لَمْ يَسْرُفْ
ومنه قول عتبة بن أبي سفيان: «وقد زينتنا الحربُ وزَيَّنَّاها، فنحن بَثْوَا وهي أُمْنَا»، ومنه قول الشاعر:

عَدَثْنِي عَنْ زِيَارَتِكَ الْعَوَادِي
وَحَالَتْ بَيْنَنَا حَرْبُ زُبُونٍ
وحذفت الواو من ﴿سَتَدْعُ﴾ في خط المصحف اختصاراً وتخفيفاً، والمعنى: سندعو الزبانية لعذاب هذا الذي يدعو ناديه، وقرأ ابن مسعود:

﴿فَلْيَنْعُ إِلَى نَادِيهِ﴾.

ثم قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿كَلَّا﴾ ردّاً على قول هذا الكافر وأفعاله، ﴿لَا تُطْعَمُ﴾، أي: لا تلتفت إلى نهيه وكلامه، ﴿وَأَسْمُنُ﴾ لِسِرِّكَ، ﴿وَأَقْدَرُ﴾ إليه بسجودك وبالطاعة وبالأعمال الصالحة، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ



نزول الملك كان من الرابع عشر من رمضان، فلا يستقيم هذا التأويل إلا على قول من يقول: إن ليلة القدر تستدير الشهر كله ولا تختص بالعشر الأخير من رمضان، وقال قوم: معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ هَذِهِ السُّورَةَ فِي شَأْنِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَفِي فَصْلِهَا، وَلَمَّا كَانَتْ السُّورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ جَاءَ الضَّمِيرُ لِلْقُرْآنِ تَفْخِيماً وَتَحْسِيناً.

وقوله تعالى: ﴿فِي لَيْلَةٍ﴾ هو على نحو قول

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لقد خشيت أن ينزل في قرآن ليلة نزول سورة الفتح، ونحو قول عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك: لأننا أحقر في نفسي من أن ينزل في قرآن، وليلة القدر هي ليلة خضها الله تعالى بفضل عظيم، وجعلها أفضل من ألف شهر لا ليلة قدر فيها، قاله مجاهد وغيره، وخُصَّت هذه الأمة بهذه الفضيلة لما رأى محمد ﷺ أعمار أمته فتقاصرها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ عبارة تفخيم لها، ثم أدراه تعالى بغد بقوله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، قال ابن عبيّنه في صحيح البخاري: ما كان في القرآن ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أعلمه الله تعالى، وما كان فيه ﴿وَمَا يَذْكُرُكَ﴾

العبد من الله إذا سجد، فأكثرُوا من الدعاء في السجود، فَمَقِمْنَ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ.

وقاله مجاهد، قال: ألم تسمعوا ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْرَبْ﴾، وروى ابن وهب عن جماعة من أهل العلم أن قوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ﴾ خطاب لمحمد ﷺ، وأن ﴿وَاقْرَبْ﴾ خطاب لأبي جهل، أي: إن كنت تجترىء حتى ترى كيف تهلك.

وهذه السورة فيها سجدة عند جماعة من أهل العلم منهم ابن وهب من أصحاب مالك. كمل تفسير سورة العلق والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القدر

اختلف الناس في موضع نزول هذه السورة، فقال ابن عباس وغيره: هي مدنية، وقال قتادة: هي مكية.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ للقرآن وإن لم يتقدم ذكره لدلالة المعنى عليه، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أنزل الله تعالى ليلة القدر إلى السماء الدنيا جملة، ثم نَجَّمه على محمد ﷺ في عشرين سنة، وقال الشعبي وغيره: المعنى: إننا ابتدأنا إنزال هذا القرآن إليك ليلة القدر، وقد روي أن نزول الملك في حراء كان في العشر الأخير من رمضان، فيستقيم هذا التأويل، وقد روي أن

فإنه لم يُغَلَمْ. وذكر ابن عباس و قتادة وغيرهما أنها سُميت ليلة القدر لأن الله تعالى يقدر فيها الآجال والأرزاق وحوادث العام كلها ويدفع ذلك إلى الملائكة لثمنته، وقد روي هذا في ليلة النصف من شعبان، ولهذا ظواهر من كتاب الله عز وجل، نحو قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، وأما الصحة المقطوع بها فغير موجودة، وقال الزهري: معناها: ليلة القدر العظيم والشرف وعظم الشأن، من قولك: رجل له قدر، وقال أبو بكر الوراق: سُميت ليلة القدر لأنها تُكسب من أحيائها قدراً عظيماً لم يكن له قبل، وترده عظيماً عند الله تعالى، وقيل: سُميت بذلك لأن كل العمل فيها له قدر خبير.

وليلة القدر مستديرة في أوتار،

العشر الآخر من رمضان، هذا هو الصحيح المعمول عليه، وهي في الأوتار بحسب الكمال والنقصان في الشهر، فينبغي لمرتبتها أن يرتقيها من ليلة عشرين في كل ليلة إلى آخر الشهر؛ لأن الأوتار مع كمال الشهر ليست الأوتار مع نقصانه، وقد قال رسول الله ﷺ: «الثالثة تبقى، لخامسة تبقى، لسابعة تبقى»، وقال عليه الصلاة والسلام: «التمسوها في الثالثة والخامسة والسابعة والتاسعة»، وقال مالك: «بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين»، وقال ابن حبيب: يريد مالك: إذا كان الشهر ناقصاً فظاهر هذا أنه عليه السلام احتاط في كمال الشهر ونقصانه، وهذا لا تتحصل معه الليلة إلا بعمارة العشر كله، ورؤي عن أبي حنيفة وقوم أن ليلة القدر رُفعت، وهذا قول مردود، وإنما رُفع ثغينها، وقال ابن مسعود: من يقيم السنة كلها يصعبها، وقال أبو رزين: هي أول ليلة من شهر رمضان، وقال الحسن: هي ليلة سبع عشرة، وهي التي كانت في صبيحتها وقعة بدر، وقال كثير من العلماء: هي ليلة ثلاث وعشرين، وهي ليلة عبدالله بن أنيس الجهني، وقال ابن عباس، وقال أيضاً هو وجماعة من الصحابة: هي ليلة سبع وعشرين، واستدل ابن عباس على قوله بأن الإنسان خلق من سبع وجعل رزقه في سبع، واستحسن ذلك عمر رضي الله عنهم أجمعين، وقال زيد بن ثابت، وبلال: هي ليلة أربع وعشرين، وقال بعض العلماء: أخفاها الله تعالى عن عباده ليجدوا

في العمل ولا يتكلموا على فضلها ويقتصروا في غيرها.

ثم عظم الله تعالى أمر ليلة القدر، على نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَذِّنُكُمْ مَّا لَهَا أَهَمُّ﴾، وغير ذلك. ثم أخبر تعالى أنها أفضل لمن عمل فيها عملاً من ألف شهر، وهي ثمانون سنة وثلاثة أعوام وثلاث عام. ورؤي عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أنه قال حين عوتب في تسليمه الأمر لمعاوية رضي الله عنه: إن الله تعالى أرى نبيه ﷺ في المنام بني أمية ينزون على منبره تَزَوُّ القردة، فاهتم لذلك، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وهي خير من مدة مُلْك بني أمية، وأعلمه أنهم يملكون هذا القدر من الزمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ثم كشف الغيب أن كان من سنة الجماعة إلى قتل مروان الجعدي هذا القدر من الزمان بعينه، ثم إن القول يعارضه أنه قد مُلْك بنو أمية في غرب الأرض مدة غير هذه، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له من ذنبه ما تقدم من ذنبه».

و «الروح» هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو صنف حفظه للملائكة عليهم السلام، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَءُوا الْحِكْمَ وَلَا تُصَلِّوا عَلَيْهَا وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهَا الضَّلَاطَّ﴾، أي: نزولهم من أجل هذه الأمور المقدرة وبسببها، ورجيء ﴿سَلَامٌ﴾ خبر ابتداء مُستأنفاً، أي: سلام هي

هذه الليلة إلى أول يومها، وهذا قول نافع المقبري والفراء وأبي العالية، وقال بعضهم: ﴿يَن﴾ بمعنى «الباء»، أي: بكل أمر، ومن لم يقل: «تَقْدَر» الأمور في تلك الليلة، قال: معنى الآية: تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم بالرحمة والغفران والفواضل، ثم جعل قوله تعالى: ﴿يَن كُلِّي أَمْرٍ﴾ متعلقاً بقوله سبحانه: ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾، أي: من كل أمر مخوف ينبغي أن يسلم منه فيه سلام، وقال مجاهد: لا يُصيب أحداً فيها داء، وقال الشعبي ومنصور: ﴿سَلَّمَ﴾ بمعنى التحية، أي: تُسَلِّم الملائكة على المؤمنين، وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والكلبي: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، أي: يسلم فيها من كل امرئ سؤء، فهذا على أن ﴿سَلَّمَ﴾ بمعنى «سلامة»، وروي عنه أن «سلاماً» بمعنى «تحية»، وكل امرئ يراد بهم الملائكة، أي: من كل مُلْك تحية على المؤمنين، وهذا للعاملين بالعبادة فيها، وذهب من يقول بانتهاء الكلام في قوله تعالى: ﴿سَلَّمَ﴾ إلى أن قوله تعالى: ﴿هِيَ﴾ إنما هو إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين من الشهر؛ إذ هي الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات السورة، وذكر هذا الغرض ابن بكير، وأبو بكر الوراق، والنقاش عن ابن عباس.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿حَتَّى مَطْلَعِ﴾ بفتح اللام، وقرأ الكسائي، والأعمش، وأبو رجاء، وابن محيصن، وطلحة: ﴿حَتَّى مَطْلَعِ﴾ بكسر اللام، فقيل: هما مصدران

بمعنى واحد في لغة بني تميم، وقيل: بالفتح مصدر وبالكسر موضع الطلوع عند أهل الحجاز، والقراءة بالفتح أوجه على هذا القول، والأخرى تتخرج على تجويز، كأن الوقت ينحصر في ذلك الموضع ويتم فيه، ويتجه الكسر على وجه آخر، وهو أنه قد شذ من هذه المصادر ما كسر، كالمعجزة وقولهم: علاء المَكْبَر - بفتح الميم وكسر الباء - ومنه المَجِيزُ، فيجري «المَطْلِعُ» مصدراً مجرى ما شذ. وفي حرف أبي بن كعب: «سَلَامٌ هِيَ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ».

كمل تفسير سورة القدر والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة البينة

وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وقال ابن الزبير، وعطاء: هي مدنية، والأول أشهر.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

في حرف أبي: «مَا كَانَ الَّذِينَ»، وفي حرف ابن مسعود: «لَمْ يَكُنِ الْمُشْرِكُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ مُتَّفَكِينَ»، وقوله تعالى: «مُتَّفَكِينَ» معناه: منفصلين متفرقين، تقول: «انْفَكَّ الشيء عن الشيء» إذا انفصل عنه، و«ما انفكَّ» التي هي من أخوات «كان» لا مدخل لها في هذه الآية، ونفى في هذه الآية أن تكون هذه الصيغة منفكة.

واختلف الناس، عن ماذا؟ فقال مجاهد وغيره: لم يكونوا متفكّين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة، وأوقع المستقبل موقع الماضي في «تَأْيِيدِهِمْ» لأن باقي الشريعة وعظمتها لم يرد بَعْدُ. وقال الفراء وغيره: لم يكونوا متفكّين عن معرفة صحة نبوة محمد ﷺ والتوكف لأمره، حتى جاءتم البينة فتفرقوا عند ذلك. وذهب بعض النحويين إلى أن هذا النفي المتقدم مع «مُتَّفَكِينَ» يجعلها تلك التي هي مع «كان»، ويرى التقدير في خبرها: عارفين لأمر محمد ﷺ أو نحو هذا، ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى، وذلك أن يكون المراد: لم يكن هؤلاء القوم متفكّين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم حتى يبعث إليهم رسولا منذرا، تقوم عليهم به الحجة، وتتم على من آمن النعمة، فكأنه تعالى قال: ما كانوا ليُشْرَكُوا سدى، ولهذا نظائر في كتاب الله تعالى. وقرأ بعض الناس: «وَالْمُشْرِكُونَ» بالرفع، وقرأ الجمهور: «وَالْمُشْرِكِينَ» بالخفض، ومعناهما بين.

و «أَلْيَنَ» معناه: القصّة البينة والجلية، والمراد محمد ﷺ، وقرأ الجمهور: «رَسُولٌ» بالرفع، وقرأ أبي بن كعب: «رَسُولاً» بالنصب على الحال. و«الصُّحُفُ المطهرة»: القرآن في صحفه، قاله الضحاك وقتادة، وقال الحسن: الصحف المطهرة في السماء. وقوله تعالى: «فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ» فيه حذف مضاف، تقديره: فيها أحكام كُتِبَ

قيمة، و«قِيمَةٌ» معناه: قائمة معتدلة آخذة للناس بالعدل، وهو بناء مبالغة، فإلى «قِيمَةٌ» هو ذكر من آمن من الطافتين، ثم ذكر تعالى مذمة من لم يؤمن من أهل الكتاب من بني إسرائيل، من أنهم لم يفرقوا في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما رأوا الآيات الواضحة، وكانوا من قبل مضيقين على نبوته وصفته، فلما جاء من العرب حسدوه.

وقرأ جمهور الناس: «نَجَّيْنَهُ» بكسر اللام، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «مُخْلَصِينَ» بفتح اللام، وكأن «الَّذِينَ» - على هذه القراءة - منصوب بـ «لِيَعْبُدُوا»، أو بمعنى يدل عليه، على أنه كالظرف أو الحال، وفي هذا نظر، وقيل ليعسى عليه السلام: من المخلص لله تعالى؟ قال: الذي يعمل العمل لله تعالى ولا يحب أن يحمده الناس عليه. و«حُفَاءَ» جمع «حنيف»، وهو المستقيم المائل إلى طريق الخير، قال ابن جبير: لا تسمى العرب حنيفاً إلا من حج واختن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «حُفَاءَ»: حجاجاً مسلمين، و«حُفَاءَ» نصب على الحال، وكون الزكاة مع الصلاة في هذه الآية مع ذكر بني إسرائيل فيها يقوي قول من قال: السورة مدنية؛ لأن الزكاة إنما فرضت بالمدينة، ولأن النبي ﷺ إنما دفع إلى مناقضة أهل الكتاب بالمدينة.

وقرأ الجمهور: «وَذَلِكَ يَوْمٌ أَلْيَنَ» على معنى: الجماعة القيمة، أو الفرقة القيمة، وقال

همزُهُ كالنَّبِيِّ والذُّرَّةِ،
وقال بعض النحويين:
الْبَرِّيَّةُ مأخوذ من الْبَرِّي
وهو التراب، وهذا
الاشتقاق يجعل الهمز
خطأً وغلطاً، وهو اشتقاق
غير مرضي.

و «الذين آمنوا وعملوا
الصالحات» شروط نعم
جميع أمة محمد ﷺ،
وَمَنْ آمَنَ بِنَبِيِّهِ مِنَ الْأُمَمِ
الماضية. وقرأ جمهور
الناس: «خَيْرٌ» وقرأ
بعض قراء مكة: «خِيَارٌ»
بألف، وروي حديث عن
النبي ﷺ أنه قرأ هذه
الآية: «أُولَئِكَ هُمُ خَيْرُ

الْبَرِّيَّةِ»، ثم قال لعلي بن أبي طالب
رضي الله عنه: «أنت يا علي
وشيعتك»، ذكره الطبري، وفي
الحديث أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا
خير البرية، فقال له: «ذلك إبراهيم
عليه السلام».

وقوله تعالى: ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
جَنَّاتٌ﴾ فيه حذف مضاف تقديره:
سُكْنَى جَنَّاتٍ، أو دخولُ جَنَّاتٍ،
و«الْعَذْنُ»: الإقامة والدوام، عَدَنُ
بالموضع: أقام، ومنه المعدن لأنه
راس ثابت، قال ابن مسعود: جَنَّاتٌ
عَذْنٌ: بُطنان الجنة، أي: وَسَطُهَا.

وقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ﴾ قيل: ذلك في الدنيا، فرضاه
عنهم هو ما أظهر عليهم من أمارات
رحمته وغفرانه، ورضاهم عنه هو
رضاهم بجميع ما قَسَمَ لهم من
جميع الأرزاق والأقدار، وقال بعض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَفْقَالَهَا ②
③ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا ④ يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُ أَخْبَارَهَا ⑤
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا
لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ⑦ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ ⑧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَلَدِيَّةَ صَبْحًا ① فَاَلْمُورِيَّةَ قَدَحًا ② فَاَلْمُورِيَّةَ صَبْحًا
③ فَأَنْزِلُ بِهِ نَقْعًا ④ فَوْسَطُنَ بِهِ جَمْعًا ⑤ إِنَّ الْإِنْسَانَ
لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ⑥ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ⑦ وَإِنَّهُ لَحَبِيبُ
الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ⑧ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ إِلَى الْقُبُورِ ⑨

٥٩٩

محمد بن الأشعث الطالقاني:
﴿الْقَيْمَةُ﴾ هنا: الكتب التي جرى
ذكرها، وقرأ بعض الناس: «وَذَٰلِكَ
الدِّينُ الْقَيْمَةُ»، والهاء في «الْقَيْمَةُ» -
على هذه القراءة - بناء مبالغة كعلامة
ونسابة، ويتجه ذلك أيضاً على أن
تجعل ﴿الَّذِينَ﴾ بمنزلة الملة.

① - ⑧ تفسير قوله عز وجل:

حكّم الله تعالى في هذه الآية
بتخليد الكافرين من أهل الكتاب
والمشركين - وهم عبدة الأوثان - في
النار، وبأنهم شرُّ البرية، و«الْبَرِّيَّةُ»:
جميع الخلق؛ لأن الله تعالى برأهم،
أي: أوجدهم بعد العدم. وقرأ
نافع، وابن عامر، والأعرج:
﴿الْبَرِّيَّةُ﴾ بالهمزة، من «بَرَأَ»، وقرأ
الباقون والجمهور: ﴿الْبَرِّيَّةُ﴾ بشد
الياء بغير همز، على التسهيل،
والقياس الهمز إلا أن هذا مما ترك

الصالحين: رَضَا العباد عن الله تعالى
رضاهم بما يَرُدُّ من أحكامه، ورضاهُ
عنهم توفيقهم للرضا عنه، وقال أبو
بكر بن طاهر: الرضا عن الله تعالى
خروج الكراهية من القلب حتى لا
يكون إلا فرح وسرور، وقال سري
السقطي: إذا كنت لا ترضى عن الله
فكيف تطلب منه أن يرضى عنك؟
وقيل: ذلك في الآخرة، فرضاهم
عنه هو رضاهم بما منَّ عليهم به من
النعم، ورضاه عنهم هو ما روي من
أن الله تعالى يقول لأهل الجنة: «هل
رضيتُم بما أعطيتكم؟» فيقولون: نعم
يا ربنا، وكيف لا نرضى وقد أعطيتنا
ما لم تُعْطِ أحداً من العالمين؟
فيقول: «أفلا أعطيتكم أفضل من كل
ما أعطيتكم؟ رضواني فلا أسخط
عليكم أبداً»، وخَصَّ تعالى بالذكر
أهل الخشية لأنها رأس كل بركة،
الناحية عن المعاصي، الآمرة
بالمعروف.

كامل تفسير سورة «الم يكن»
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الزلزلة

وهي مكية، قاله ابن عباس وغيره،
وقال قتادة ومقاتل: هي مدنية لأن
آخرها نزل بسبب رجلين كانا
بالمدينة.

① - ⑧ تفسير قوله عز وجل:
العامل في «إِذَا» على قول
جمهور النحاة - وهو الذي يقتضيه

القياس - فعلٌ مضمَرٌ يقتضيه المعنى وتقديره: يُحْشَرُونَ إِذَا، أَوْ يُجَاوِزُونَ، ونحو هذا، ويمتنع أن يعمل فيه ﴿زَلَّزَلَتْ﴾ لأن معنى الشرط لا يفارقها، وقد تقدمت نظائرها في غير سورة.

و ﴿زَلَّزَلَتْ﴾ معناه: حُرِّكَتْ بعنف، ومنه الزلزال، وقوله تعالى: ﴿زَلَّزَلْنَا﴾ أبلغ من قوله: «زلزلاً» دون إضافة إليها، وذلك أن المصدر غير مضاف يقع على كل قدر من الزلزال وإن قل، وإذا أُضيف إليها وجب أن يكون على قدر ما يَسْتَحِقُّهُ وَيَسْتَوْحِيهِ جِزْمُهَا وَعِظْمُهَا، وهذا كما تقول: «أكرمْتُ زيدا كرامةً»، فلذلك يقع على كل كرامة وإن قلت بحسب «زيد» فإذا قلت: «كُرامَتُهُ» أوجبت أنك قد وفَّيته حَقَّهُ، وقرأ الجمهور: ﴿زَلَّزَلْنَا﴾ بكسر الزاي الأولى، وقرأ بفتحها عاصم الجحدري، وهو أيضاً مصدر كالوَسْوَاس ونحوه.

و «الْأَنْفَالُ»: الموتى الذين في بطنها، قاله ابن عباس، وهذه إشارة إلى البيعة، وقال قوم من المفسرين - منهم منذر بن سعيد والزجاج والنقاش -: أخرجت موادها وكنوزها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليست القيامة بموطن لإخراج الكنوز، وإنما تخرج كنوزها وقت الدجال. وقول الإنسان: «مَالَهَا» هو قول على معنى التَّعَجُّب من هول ما يرى، قال جمهور المفسرين: الإنسان هنا يراد به الكافر، وهذا متمكن

لأنه يرى ما لم يظن به قط ولا صدَّقه، وقال بعض المتأولين: هو عامٌ في المؤمن والكافر، فالكافر على ما قدمناه، والمؤمن - وإن كان قد آمن بالبعث - فإنه استهول المرأى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ليس الخبر كالمعاينة».

و «إِخْبَارُ الْأَرْضِ» قال ابن مسعود والثوري وغيرهما: هو شهادتها بما عمل عليها من عمل صالح وفاسد، فالتحديث - على هذا - حقيقة وكلام بإدراك وحياة يخلقها الله تعالى، وأضاف تعالى الأخبار إليها من حيث وَعَثَهَا وَحَصَّنَهَا، وانتزع بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿تُخَوِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أن قول المحدث: «حدثنا وأخبرنا» سواء، وقال الطبري وقوم: التحديث في الآية مجاز، والمعنى أن ما تفعله بأمر الله تعالى من إخراج أثقالها، وتَفَثَّتْ أَجْزَائِهَا، وسائر أحوالها، هو بمنزلة التحديث بأنبائها وأخبارها، ويؤيد القول الأول قول النبي ﷺ: «فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌ ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» وقرأ عبدالله بن مسعود: ﴿تُنَبِّئُ أَخْبَارَهَا﴾، وقرأ سعيد بن جبير: ﴿تُنَبِّئُ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾، الباء باء السبب. وقال ابن عباس، وابن زيد، والقرطبي: المعنى: أَوْحَى إِلَيْهَا، وهذا الوحي - على هذا التأويل - يحتمل أن يكون وحي إلهام، ويحتمل أن يكون وحياً

برسول من الملائكة، وقد قال الشاعر:

أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ
وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَّاتِ الثَّبِتِ
والوحي في كلام العرب: إلقاء المعنى إلقاء خفياً. وقال بعض المتأولين: ﴿أَوْحَى لَهَا﴾ معناه: أوحى إلى ملائكته المقربين أن تفعل في الأرض تلك الأفعال وقوله تعالى: ﴿لَهَا﴾ بمعنى: من أجلها، ومن حيث الأفعال فيها فهي لها.

وقوله تعالى: ﴿يَصْدُرُ النَّاشِ أَشْتَاتًا﴾ بمعنى: ينصرفون من موضع وردهم مختلفي الأحوال. وواحد «الأشتات» شَتٌّ، فقال جمهور الناس: الوزد هو الكون في الأرض بالموت والدفن، والصدر هو القيام للبعث، و«أَشْتَاتًا» معناه: قومٌ مؤمنون وقوم كافرون وقوم غصاة مؤمنون، والكل سائر إلى العرض ليرى عمله ويقف عليه، وقال النقاش: الوزد هو المحشر، والصدر أشتاتاً هو صدر قوم إلى الجنة وقوم إلى النار.

وقوله تعالى: ﴿يَسُورُوا أَعْمَلَهُمْ﴾ إما أن يكون معناه: جزاء أعمالهم، يراه أهل الجنة بالنعيم وأهل النار بالعذاب، وإما أن يكون قوله تعالى: ﴿يَسُورُوا أَعْمَلَهُمْ﴾ متعلقاً بقوله سبحانه: ﴿يَنْزِلُ رَبُّكَ أَوْحَى لَهَا﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاشِ أَشْتَاتًا﴾ اعتراضاً بين أثناء الكلام. وقرأ جمهور الناس:

﴿يَرْزَأُ﴾ بضم الياء على بناء الفعل للمفعول، وقرأ الحسن، والأعرج، وقتادة، وحُمّاد بن سَلَمَة، والزهرى، وأبو حَيوة: ﴿لِيَرْزَأُ﴾ بفتح الياء على بانه للفاعل.

ثم أخبر تعالى أنه من عمل عملاً رآه، قليلاً كان أو كثيراً، فخرجت العبارة عن ذلك بمثال التقليل، وهذا هو الذي يُسميه أهل الكلام مفهوم الخطاب، وهو أن يكون المذكور والمسكوت عنه في حكم واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَمَّا أَتَى﴾، وهذا كثير. وقال بعض الناس وبعض المفسرين: رؤية هذه الأعمال هي في الآخرة، وذلك لازم من لفظ السودة وسردها، فيرى الخير كله من كان مؤمناً، والكافر لا يرى في الآخرة خيراً لأن خيره قد عُجِّلَ له في دنياه، وكذلك المؤمن أيضاً تُعَجَّلُ له سيئاته الصغار في دنياه في المصائب والأمراض ونحوها، فيجئ من مجموع هذا أن من عمل من المؤمنين مثقال ذرة من خير أو شر رآه، فيخرج من ذلك ألا يرى الكافر خيراً في الآخرة، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها: (قلت: قلت: يا رسول الله، أ رأيت ما كان يفعل عبدالله بن جُددان من البرِّ وصلة الرحم وإطعام الطعام، أله في ذلك أجر؟ فقال: لا، إنه لم يقل قط: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين) وكان رسول الله ﷺ يسمي هذه الآية... (الجامعة الفأدة)، وقد نصَّ على ذلك حين

سُئِلَ عن الحُمْر... الحديث، وأعطى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه سائلاً تمرتين، فقبض السائل يده، فقال له سعد: ما هذا؟ إن الله تعالى قَبِلَ مثاقيل الذُّرِّ، وَقَعَلَتْ نحو هذا عائشة رضي الله عنها في حبة عنب، وسمع هذه الآية صمصمة بن عقال التميمي عند النبي ﷺ فقال: حَسْبِي، لا أبالي أن أسمع غيرها، وسمعتها رجلٌ عند الحسن فقال: انتهت الموعظة، فقال الحسن: فَقَّةُ الرَّجُلِ.

وقرأ هشام عن ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿يَرْزَأُ﴾ بسكون الهاء في الأولى والآخرة، وقرأ ابن كثير، وحزمة، والكسائي، ونافع - فيما رَوَى عنه ورش - والحلواني عن قالون عنه في الأولى: ﴿يَرْزَأُ﴾ وأما الآخرة فهو سكون وقف، وأما من أسكن الأولى فهي على لغة من يخفف، ومنه قول الشاعر:

.....

وَمِطْوَايَ مُشْتَاقَانِ لَهُ أَرْقَانِ
وهذه لغة لم يحكها سيبويه لكن حكاها الأخفش، وقرأ أبو عمرو حده بضم الهاء فيهما مُشْبِعَتَانِ، وقرأ أبان عن عاصم، وابن عباس، وأبو حيوة، وحמיד بن الربيع عن الكسائي: ﴿يَرْزَأُ﴾ بضم الياء، وهي رؤية بصر، بمعنى: يجعله يدركه ببصره، والمعنى: يَرَى ثوابه وجزاءه لأن الأعمال الماضية لا تُرى بعين أبداً، وهذا الفعل كله من «رَأَيْتُ» بمعنى

أَدْرَكْتُ ببصري، فتعديبه إنما هو إلى مفعول واحد، وقرأ عكرمة: ﴿خَيْراً يَرَاهُ﴾ و﴿شَرّاً يَرَاهُ﴾، وقال النقاش: ليست برؤية بصر، وإنما المعنى: يُصَيِّه ويناله.

ويُروى أن هذه السورة نزلت وأبو بكر رضي الله عنه يأكل مع رسول الله ﷺ، فترك أبو بكر رضي الله عنه الأكل ويكي، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، ما يُبكيك؟» قال: يا رسول الله، أو أسأل عن مثاقيل الذُّرِّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، ما رأيت في الدنيا ممَّا تكره فمثاقيل ذرِّ الشرِّ، ويُدْخِرُ الله لك مثاقيل ذرِّ الخير».

و «الذُّرَّة» نملة صغيرة حمراء رقيقة لا يرجح بها ميزان، ويقال: إنها تجري إذا مضى لها حول، وقد تُزَوَّل ذلك في قول امرئ القيس:

مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطُّرُفِ لَوْ دَبَّ مُخَوِّلٌ
مِنَ الذُّرِّ قَوْقُ الْإِنْبِ مِنْهَا لَأَثَرَا
وحكى النقاش أنهم قالوا: كان بالمدينة رجلان أحدهما لا يبالي عن الصغائر يرتكبها، كان الآخر يريد أن يتصدَّق فلا يجد إلاَّ اليسير فيستحي من الصدقة، فنزلت الآية فيهما، كأنه يقال لأحدهما: تصدَّق باليسير فإن مثقال ذرة الخير تُرى، وقيل للآخر: كُفَّ عن الصغائر فإن مقادير ذرِّ الشرِّ تُرى.

كامل تفسير سورة «الزلزلة»
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة العاديات

وهي مكية في قول جماعة من أهل العلم، وقال المهدوي عن أنس بن مالك: هي مدنية.

١ - ١١ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في المراد بالعاديات - فقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة: أراد الخيل لأنها تعدو بالفرسان وتضبح بأصواته، قال بعضهم: وسببها أن رسول الله ﷺ بعث خليلاً إلى بني كنانة سرية، فأبطأ أمرها عليه حتى أرجف بعض المنافقين، فنزلت الآية معلمة أن

خيله عليه الصلاة والسلام قد فعلت جميع ما في الآيات. وقال آخرون: القسم هو بالخيل جملة لأنها تعدو ضابحة قديماً وحديثاً، وهي حاضرة البلاد وهادمة الممالك وفي نواصبيها الخير إلى يوم القيامة، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وإبراهيم، وعبيد بن عمير: العاديات في هذه الآية الإبل لأنها تَضْبَحُ في عَدْوِها، وقال علي: والقسم بالإبل العاديات من عرفة ومن المزدلفة إذا دفع الحاج، وإبل غزوة بدر، فإنه لم يكن في الغزوة غير فرسين، فرس المقداد وفرس الزبير.

و «الضَّبْحُ» تصويت جهير عند العدو الشديد، ليس بصهيل ولا رُغَاءٍ ولا نُباح، بل هو غير المعتاد من صوت الحيوان الذي يضبح، وحكى ابن عباس رضي الله عنهما أنه ليس

يضبح من الحيوان غير الخيل والكلاب، وهذا عندي لا يصح عن ابن عباس، وذلك أن الإبل تضبح، والأسود من الحيات، واليوم والضدى والأرنب والشعلب والفرس، هذه كلها قد استعملت العرب لها الضبح، أنشد أبو حنيفة في صفة قوس:

حَنَانَةٌ مِنْ نَسَمٍ أَوْ تَأَلَّبِ
نَضْبَحُ فِي الْكَفِّ ضَبَاحَ الثُّغَلَبِ
والظاهر في الآية أن القسم بالخيل أو بالإبل أو بهما.

قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَّتِ﴾

قَدَمًا ﴿١﴾، قال علي بن أبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما: هي الإبل، وذلك أنها في عَدْوِها ترجم الحصى بالحصى فتتطاير منه النار، فذلك القَدْحُ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الخيل، وذلك بحوافرها في الحجارة، وذلك معروف، وقال عكرمة: الموريات قدحاً هي الألسن، فهذا على الاستعارة، أي: أنها تقدح الحُجَجَ وتظهرها، وقال مجاهد: الموريات قدحاً يراد به مكرُّ الرجال، وقال قتادة: الموريات الخيل تشعل الحرب، فهي أيضاً على الاستعارة البَيِّنَةُ، وقال ابن عباس أيضاً وجماعة من العلماء: الكلام عام يُدْخِلُ في القسم كل من يظهر بقدحه ناراً، وذلك شائع في الأمم طوال الدهر، وهو نفع عظيم من الله تعالى في



عباده، وقد وقف عليه في قوله سبحانه: ﴿فَرَقَّ شَرُّ النَّارِ الَّتِي تُورُونَ﴾، ومعناه: تُظْهِرُونَ بالقَدْح، قال عدي بن زيد:

فَقَدَحْنَا زِنَادَنَا وَوَزَيْنَا
فَوْقَ جُرُثُومَةٍ مِنَ الْأَرْضِ نَارًا
قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَّتِ ضَبَّاحًا﴾، قال علي بن أبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما: هي الإبل من مزدلفة إلى منى، أو في بدر، والعرب تقول: «أغار» إذا عدا حرباً، ونحوه، وقال ابن عباس وجماعة كثيرة: هي الخيل، واللفظة من الغارة في سبيل الله وغير ذلك من سير الأمم، وعُزِفَ الغارات أنها مع الصباح لأنها تسري ليلة الغارة.

و «الثَّقُعُ»: الثُّبَارُ الساطع المثار. وقرأ أبو حيو: ﴿فَالْمُورِيَّتِ﴾ بشد الثاء،

والضمير في ﴿يَوْمَ﴾ ظاهره أنه للصبح المذكور، ويحتمل أن يكون للمكان والموضع الذي يقتضيه المعنى وإن كان لم يجر له ذكر، ولهذا أمثلة كثيرة، ومشهور «إثارة النقع» هو للخيل، ومنه قول الشاعر:

يُخْرِجُنْ مِنْ فُرَجَاتِ النَّقْعِ دَائِمَةً
كَأَنَّ أَذَانَهَا أَطْرَافُ أَقْلَامٍ
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هو هنا للإبل تشير النقع بأخفافها.

قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمَاعًا﴾، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن مسعود رضي الله عنه: هي الإبل، و«جَمْعٌ» هي المزدلفة، وقال ابن عباس وجماعة: هي الخيل، والمراد جَمْعُ من الناس هم المغزؤون، وقرأ علي وابن مسعود وقاتدة: ﴿فَوَسَطْنَ﴾ بشد السين، وقال بشر بن أبي خازم:

فَوَسَطْنَ جَمْعَهُمْ وَأَقْلَّتْ حَاجِبُ
تَحْتِ الْعَجَاجَةِ فِي الْعُبَارِ الْأَقْتَمِ
وذكر الطبري عن زيد بن أسلم أنه كان يكره تفسيره هذه الألفاظ ويقول: هو قَسَمَ أقسم الله تعالى به، وجمهور العلماء والأمة مفسرون لها كما ذكرنا.

والقَسَمَ واقع على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتدرون ما الكنود؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «الكنود الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده»، وقد يكون في المؤمنين

الكنود بالنعمة، فتقدير الآية: إن الإنسان لنعمة ربّه لكنود، و«أزضَ كنود»: لا تنبت شيئاً، وقال الحسن بن أبي الحسن: الكنود: اللائم لربّه سبحانه، يعدّ السيئات وينسى الحسنات، والكنود: العاصي بلغة كندة، ويقال للبخيل: كنودٌ، قال أبو زبيد:

إِنْ تَفُتْنِي فَلَمْ أَطْبِ عَنكَ نَفْسًا
غَيْرَ أَنِّي أَمْسَى بِذَهْرٍ كَنُودٍ
وقال الفضيل: الكنود هو الذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة، ويعامل الله على عقد عوض.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُفِّرُ عَنْكَ ذَلِكَ لَشَيْءٍ﴾، يحتمل الضمير أن يعود على الله تعالى، وقاله قاتدة، أي: ورّبّه شاهد عليه، ونفس هذا الخير يقتضي الشهادة بذلك، ويحتمل أن يعود على الإنسان، أي: أفعاله وأقواله وحاله المعلومة من هذه الأخلاق تشهد عليه، فهو شاهد على نفسه بذلك، وهذا قول الحسن ومجاهد.

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُفِّرُ عَنْكَ ذَلِكَ لَشَيْءٍ﴾ عائذ على الإنسان لا غير، والمعنى: من أجل حب الخير لشديد، أي: بخيل بالمال ضابط له، ومنه قول الشاعر:

أَرَى الْمَوْتَ يَغْتَامُ الْكِرَامَ وَيَضْطَفِي
عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ
و «الْخَيْرُ»: المال على عرف ذلك في كتاب الله تعالى، قال عكرمة: الخير حيث وقع في القرآن فهو المال. ويحتمل أن يريد هنا الخير الدنيوي من مالٍ وصحةٍ وجاء عند الملوك ونحوه؛ لأن الكفار والجهال

لا يعرفون غير ذلك، فأما المحب في خير الآخرة فمدح مرجو له الفوز.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ توقيف على المال والمصير، أي: أفلاً يعلم ماله ومصيره فيستعد له؟ و«يَعْتَرُ» ما في القبور: نقضه مما يستره والبحث عنه، وهي عبارة عن البعث، وفي مصحف ابن مسعود: «يُحِثُّ ما في القبور»، وفي حرف أبي «وَيُخَيِّرُ الْقُبُورَ»، و«تَخْصِيلُ ما في الصدور»: تَمَيُّزُهُ وكشفه ليقع الجزاء عليه من إيمان وكفر ونبيّة، ويفسره قوله عليه الصلاة والسلام: «فيبعثون على نياتهم»، وقرأ يحيى بن يغمر، ونصر بن عاصم بفتح الحاء والصاد. ثم استأنف الخبر الصادق الجزم بأن الله تعالى خبير بهم يومئذ، وهو تعالى خبير دائماً، لكن خصّص يومئذ لأنه يؤمّ المُجازاة فإليه طمحت النفوس، وفي هذا وعيد مضرّح.

كامل تفسير سورة «العاديات»
والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة القارعة

وهي مكيّة بلا خلاف.

١ - تفسير قوله عز وجل:

قرأ: «القَارِعَةُ»، ما القَارِعَةُ؟ بالنصب عيسى، قال جمهور المفسرين: القارعة: القيامة نفسها؛ لأنها تفرع القلوب بهولها، وقال قوم

من المتأولين: القارعة: صيحة النفخة في الصور؛ لأنها تفرع الأسماع وفي ضمن ذلك القلوب. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَذِّنُكَ﴾ تعظيم لأمرها، وقد تقدم مثله.

و﴿يَوْمَ﴾ ظرف، والعامل فيه ﴿الْقَارِعَةُ﴾، وأمال أبو عمرو ﴿الْقَارِعَةُ﴾. و﴿الْقَارِشُ﴾ طير دقيق يتساقط في النار ويقصدها ولا يزال يتقحم على المصباح ونحوه حتى يحترق، ومنه قول النبي ﷺ: «وَأَنَا أَخَذُ بِحُجْرِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَتَقَحَّمُونَ فِيهَا تَقَاحُمُ الْقَرَّاشِ وَالْجَنَادِبِ»، وقال الفراء: الْقَرَّاشُ في الآية غوغاء الجراد، وهو صغيره الذي ينتشر في الأرض والهواء، و«المبثوث» معناه: المتفرق جمعه وجملته موجودة متصلة، وقال بعض العلماء: الناس أول قيامهم من القبور كالقاراش المبثوث؛ لأنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام، ثم يدعوه الداعي فيتوجهون إلى ناحية المحشر، فهم حينئذ كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد إنما توجّهه أبداً إلى ناحية مقصودة.

واختلف اللغويون في «العَيْنِ» - فقيل: هو الصوف عاماً، وقيل: هو الصوف الأحمر، وقيل: هو الصوف المُلَوَّن ألواناً، واحتج هؤلاء بقول زهير:

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعَيْنِ فِي كُلِّ مَثْرَلٍ
نَزَلْنَ بِهِ حَبَّ الْقَنَا لَمْ يَحْطَمْ
وَالْقَنَا: عنب الثعلب، وحبه قبل التحطيم منه الأخضر والأحمر والأصفر، وكذلك الجبال جُدَّد بيضٌ وحمَرٌ وصفَرٌ وسودٌ، فجاء التشبيه

ملائماً، وَكَوْنُ الْجِبَالِ كَالْعَيْنِ إِنَّمَا هُوَ قَبْلَ وَقْتِ التَّفْتِيتِ وَقَبْلَ النِّسْفِ وَمَصِيرُهَا هُنَا، وَهِيَ دَرَجَاتُ. وَالتَّفْشُ: خَلْخَلَةُ الْأَجْزَاءِ وَتَفْرِيقُهَا عَنْ تَرَاصُّهَا، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ جَبْرِ: «كَالصُّوفِ الْمَفْشُوشِ».

و«الموازين» هي التي في القيامة، قال جمهور العلماء والفقهائ والمحدثين: ميزان القيامة بعمود وكفتين ليبين الله تعالى أمر العباد بما عهدوه وتيقنوه، وقال مجاهد: ليس ثَمَّ ميزانٌ، إِنَّمَا هُوَ الْعَدْلُ مَثَلُ ذَكَرَهُ بِالْمِيزَانِ؛ إِذْ هُوَ أَعْدَلَ مَا يَدْرِي النَّاسُ، وَجُمِعَتِ الْمَوَازِينُ لِلإِنْسَانِ لَمَّا كَانَتْ لَهُ موزونات كثيرة متغايرة، وثقل هذا الميزان هو بالإيمان والأعمال، وَخِفَّتْهُ بَعْدُهَا وَقَلَّتْهَا، وَلَنْ يَخْفَ خِفَةٌ مُوقِفَةٌ مِيزَانِ مُؤْمِنٍ.

و«عَيْشَةً رَاضِيَةً» معناه: ذات رضى، على النسب، هذا قول الخليل وسيبويه، وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُهُمْ كَارِيَةً﴾، قال كثير من المفسرين: المراد بالأثم نفس الهاوية، وهي ذك من أذك النار، وهذا كما يقال للأرض: «أثم الناس» لأنها تؤويهم، وكما قال عتبة بن أبي سفيان في الحرب: «فنحن بنوها وهي أثمنا» فجعل الله تعالى الهاوية أثم الكافر لَمَّا كَانَتْ مَأْوَاهُ، وَقَالَ آخَرُونَ: هَذَا تَفَاوُلٌ بَشَرٌ فِيهِ تَجَوُّزٌ، كَمَا قَالُوا: «أُمُّهُ نَاكِلٌ» وَهُوَ تَجَمُّهُ، وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ وَغَيْرُهُ: الْمُرَادُ أُمُّ رَأْسُهُ لِأَنَّهُمْ يَهُودُونَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ. وَقَرَأَ طَلْحَةُ: «فَلِأَمِّهِ» بكسر الهمزة وضم الميم مشددة.

ثم قرّر تعالى نبيه ﷺ على دراية

أمرها وتعظيمه، ثم أخبره أنها ناز حامية، وقرأ: ﴿مَا هِيَ﴾ بطرح الهاء في الوصل ابنُ أبي إسحق والأعمش، وروى المبرد أن النبي ﷺ قال لرجل: «لَا أَمُّ لَكَ»، فقال: يا رسول الله، تدعوني إلى الهدى وتقول: لَا أَمُّ لَكَ؟ فقال: «إِنَّمَا أُرِيدُ: لَا نَارَ لَكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُهُمْ كَارِيَةً﴾».

كمل تفسير سورة القارعة والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة التكاثر

وهي مكية لا أعلم فيها خلافاً.
١ - ٨ تفسير قوله عز وجل: ﴿الْأَنكُمُ﴾ معناه: شغلكم بلداته، ومنه «لَهُوَ الْحَدِيثُ وَالْأَصْوَاتُ» واللهو بالنساء، وهذا خبر فيه تقرير وتوبيخ وتحسر. وقرأ ابن عباس وأبو عمران الجوني، وأبو صالح: ﴿الْأَهَاكُمُ﴾ على الاستفهام.

و«التكاثر» هو المفاخرة بالأموال والأولاد والعدد جملة، وهذا هيجزى أهل الدنيا وأبنائها العرب وغيرهم، لا يتخلص منه إلا العلماء المتقون، وقد قال الأعشى:

وَلَسْتُ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ خَصِي
وَأَسْمَا الْعِزَّةِ لِلْكَائِرِ
وقال النبي ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفئت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟»

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ - فقال بعضهم: حتى ذكرتم الموتى في تفاخركم بالآباء والسلف، وتكثرت بالعظام الرميم، وقال آخرون: المعنى: حتى مئتم وزرتم المقابر بأجسادكم مقابرهم، أي: قطعتم بالتكاثر أعمارهم، وعلى هذا التأويل روي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال: بعث القوم لقيامه ورب الكعبة، فإن الزائر منصرف لا يقيم، وحكى النقاش هذه النزعة عن عمر بن عبدالعزيز، وقال آخرون: هذا تأنيب على الإكثار من زيارة القبور، أي: جعلتم أشغالكم القاطعة لكم عن العلم والتعلم زيارة القبور تكثراً بمن سلف وإشادة بذكره، وقال: ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هُجْراً»، فكان نهي عليه الصلاة والسلام في معنى الآية، ثم أباح بَعْدَ لمعنى الاعتنا لا لمعنى المباحات والافتخار كما يفعل الناس في ملازمتها وتُسْنِمِها بالرخام والحجارة، وتلويها سرفاً، وبنیان النواويس عليها.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ زجر ووعيد، ثم كرر تعالى ﴿كَلَّا﴾ تأكيداً، ويأخذ الناس من هذا الزجر والوعيد المكروزين كل أحد على قدر خطئه من التوغل فيما يكره، هذا تأويل جمهور الناس، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كَلَّا

ستعلمون في القبور، كَلَّا ستعلمون في البعث، وقال الضحاك: الزجر الأول ووعيده للكفار والثاني للمؤمنين. وقرأ مالك بن دينار: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ فيها.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ جواب «لَوْ» محذوف مقدر في القول، أي: لا زدرتم وبادرتم إنقاذ أنفسكم من الهلكة، واليقين أعلى مراتب العلم. ثم أخبر تعالى الناس أنهم يرون الجحيم. وقرأ ابن عباس، والكسائي: ﴿تَزَوُّنَ﴾ بضم التاء، وقرأ الباقون بفتحها، وهي الأرجح، وكذلك في الثانية، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بفتح التاء في الأولى وضمها في الثانية، وروي ضمها عن ابن كثير وعاصم.

و «تَزَوُّنَ» أصله: تَزَايُون، نقلت حركة الهمزة إلى الراء، وقلبت الياء ألفاً لحركتها بعد مفتوح ثم حذفت الألف لسكونها وسكون الواو بعدها، ثم جلبت النون المشددة فحركت الواو بالضم لسكونها وسكون النون الأولى من المشددة؛ إذ قد حذفت نون الإعراب للبناء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا خطاب للمشركون، فالمعنى: على هذا - أنها رؤية دخول وصلي، وهو عين اليقين، وقال آخرون: الخطاب للناس كلهم، فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَكُ إِلَّا وَأَرَادُهَا﴾، فالمعنى أن الجميع يراها، ويجوز الناجي ويتكرس فيها الكافر. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ تأكيد في الخبر، وعَيْنُ اليقين حقيقة وغايته. وروي عن

الحسن وأبي عمرو أنهما همزا ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ و ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ بخلاف عنهما، وروي عن ابن كثير: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ بضم التاء.

ثم أخبر تعالى أن الناس مَسْئُولُونَ يومئذ عن نعيمهم في الدنيا، كيف نالوه؟ ولم آثروه؟ ويتوجه في هذا أسئلة كثيرة بحسب شخص شخص، هي منقادة لمن أعطي فهمها في كتاب الله تعالى، وقال ابن مسعود، والشعبي، وسفيان، ومجاهد: النعيم هو الأمن والصحة، وقال ابن عباس: هو البَدَن والحواس، يسأل المرء فيما استعملهما؟ وقال ابن جبير: هو كل ما يَتَلَذَّذُ به من طعام وشراب، وأكل رسول الله ﷺ هو وبعض أصحابه رطباً، وشربوا عليه ماء فقال لهم: هذا من النعيم الذي تُسألون عنه، ومضى عليه الصلاة والسلام يوماً هو وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما - وقد جاعوا - إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان، فذبح لهم شاة، وأطعمهم خبزاً ورطباً، واستعذب لهم ماء، وكانوا في ظِلٍّ، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم»، وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «النعيم المسؤول عنه كسرة تقوته، وماء يرويه، وثوب يواريه». وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «أن النعيم المسؤول عنه الماء البارد في الصيف»، وقال عليه الصلاة والسلام: «من أكل خبز البُر، وشرب الماء البارد في ظِلٍّ، فذلك النعيم الذي يسأل عنه»، وقال عليه الصلاة والسلام: «بَيْتٌ يَكُنُّكَ،



تفسير سورة الهمزة

وهي مكية بلا خلاف.

١ - ﴿١﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِيْ خُسْرٍ﴾، وفي مصحف عبدالله: ﴿والعصر، لقد خلقنا الإنسان في خسر﴾، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِيْ خُسْرٍ، وَإِنَّهُ فِيْهِ إِلَى آخِرِ الدُّفْرِ، إِلَّا الَّذِينَ﴾، وقرأ عاصم، والأعرج: ﴿لَفِيْ خُسْرٍ﴾ بضم السين، وقرأ سلام أبو المنذر: ﴿والعصر﴾ بكسر الصاد، ﴿والصبر﴾ بكسر الباء، وهذا لا يجوز إلا في الوقف، على نقل الحركة، وروي عن أبي عمرو: ﴿بالصبر﴾ بكسر الباء إشماماً، وهذا أيضاً لا يكون إلا في الوقف.

كمل تفسير سورة العصر والحمد لله رب العالمين

خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وأما المؤمن - وإن كان في خسر في دنياه في هزمه وما يقاسيه من شقاء هذه الدار - فذلك مغفوء عنه في جانب فلاحه في الآخرة، وربحه الذي لا يفنى، ومن كان في مدة عمره في التوضي بالحق والعمل بحسب الوصاة فلا خسر معه، وقد جُمع له الخير كله.

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿والعصر، ونوائب الدهر، إن الإنسان﴾، وفي مصحف عبدالله: ﴿والعصر، لقد خلقنا الإنسان في خسر﴾، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِيْ خُسْرٍ، وَإِنَّهُ فِيْهِ إِلَى آخِرِ الدُّفْرِ، إِلَّا الَّذِينَ﴾، وقرأ عاصم، والأعرج: ﴿لَفِيْ خُسْرٍ﴾ بضم السين، وقرأ سلام أبو المنذر: ﴿والعصر﴾ بكسر الصاد، ﴿والصبر﴾ بكسر الباء، وهذا لا يجوز إلا في الوقف، على نقل الحركة، وروي عن أبي عمرو: ﴿بالصبر﴾ بكسر الباء إشماماً، وهذا أيضاً لا يكون إلا في الوقف.

كمل تفسير سورة العصر والحمد لله رب العالمين

وخرقة تواريك، وكسرة تشد قلبك، وما سوى ذلك فهو نعيم، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «كل نعيم فهو مسؤول عنه، إلا نعيماً في سبيل الله عز وجل». كمل تفسير سورة «التكاثر» والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة العصر

وهي مكية.

١ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل: قال ابن عباس رضي الله عنهما: العَصْرُ: الدهر، يقال فيه: عَصُرَ وعُصِرَ - بضم العين والصاد - قال امرؤ القيس:

وَقُلْ يَعْزِمُ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي؟
وقال قتادة: العَصْرُ: العشي، وقال أبي بن كعب: سألت النبي ﷺ عن العصر فقال: «أَقْسَمَ رَبُّكَ بِآخِرِ النَّهَارِ»، وقال بعض العلماء - وذكره أبو علي - العصر: اليوم، والعصر: الليلة، ومنه قول حنيد:
وَلَنْ يَلْبَثَ الْعَصْرَانِ يَوْمَ وَلَيْلَةٍ
إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَا مَا تَيَمَّمَا
وقال بعض العلماء: العَصْرُ بكرة، والعصر عشيّة، وهما الأبردان، وقال مقاتل: العصر هي الصلاة الوسطى، أقسم الله تعالى بها.

و «الإنسان» اسم جنس، و«الخُسْرُ»: النقصان وسوء الحال، وذلك بين غاية البيان في الكافر، إنه

تفسير سورة الفيل

وهي مكية إجماعاً من الرواة.

١ - ٥ تفسير قوله عز وجل:

﴿كَيْفَ﴾ نصب بـ ﴿فَعَلَ﴾،

والجمهور على أنه فيل واحد، وقال الضحاك: ثمانية، فهو اسم الجنس، وقوله مردود، وحكى النقاش ثلاثة عشر.

وهذه السورة تنبيه على اعتبار في أخذ الله عز وجل لأبرهة ملك الحبشة ولجيشه حين أم به الكعبة ليهدمها، وكان صاحب فيل يركبه. وقصته مشهورة في السيرة طويلة، واختصارها أنه بنى في اليمن بيتاً، وأراد أن يرد إليه حج العرب، فذهب عربي فأحدث في البيت الذي بناه أبرهة، فغضب لذلك واحتفل في جموعه، وركب الفيل وقصد مكة، وغلب من تعرضه في طريقه من قبائل العرب، فلما وصل ظاهر مكة، وفرّ عبدالمطلب وقريش إلى الجبال والشعاب، وأسلموا له البلد، وغلب طغيانه، ولم يكن للبيت من البشر من يعصمه، جاءت قدرة الواحد القهار، وأخذ العزيز المقتدر الجبار، فأصبح أبرهة ليدخل مكة ويهدم الكعبة، فبرك فيله بذئ المغمس ولم يتوجه قبيل مكة، فبضعوه بالحديد فلم يمش إلى ناحية مكة، وكان إذا وجهه إلى غيرها هروا، فبينما هم كذلك في أمر الفيل بعث الله تعالى عليهم طيراً جماعات سوداً من البحر - وقيل خضراً -، عند كل طير ثلاثة أحجار

محيصن، والحسن - بخلاف عنه - : ﴿لَيْتَبْدَأَنَّ﴾ بنون مكسورة مُشَدَّدة قبلها ألف، يعني: هو وماله، وزوي عنه ضم الذال على نبد جماعة، هو وماله وعدده، أو يريد جماعة الهُزَمَات.

ثم عظم الله تعالى شأنها، وأخبر أنها نار الله الموقدة التي يبلغ إحراقها القلوب ولا تخمد، والنفوذ القلب، ويحتمل أن يكون المعنى: إنها لا يتجاوزها أحد حتى تأخذه بواجب عقيدة قلبه ونيته، فكأنها مطلة على القلوب باطلاع الله تعالى إيّاها، ثم أخبر تعالى أنها عليهم مؤصدة، ومعناه: مطبقة أو مغلقة، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أبواب النار بعضها فوق بعض. وقوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ﴾ جمع «عمود» مثل أديم وأدم، وهي عند سبويه أسماء جمع لا جموع جارية على الفعل. وقرأ ابن مسعود: ﴿مُؤَصَّدَةٌ بِعَمْدٍ مُّشَدَّدَةٌ﴾، وقال ابن زيد: المعنى: في عمد حديد مغلولين لها، والكل من نار، وقال أبو صالح: هذه النار هي في قبورهم. وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - وحمة، والكسائي: ﴿عُمْدٍ﴾ بضم العين والميم، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم بفتحهما. وقرأ الجمهور: ﴿مُشَدَّدَةٍ﴾ بالخفض، على نعت «العَمْد»، وقرأ عاصم: ﴿مُشَدَّدَةٌ﴾ بالرفع على اتباع ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾.

كامل تفسير سورة «الهمزة»
والحمد لله رب العالمين

واللَّهُمَّ: قريب من المعنى في «الهُمَزَةُ»، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَلْهَوْا أَفْسَكُكُمْ﴾، وقرأ ابن مسعود، والأعمش: ﴿وَيْلٌ لِلْهُمَزَةِ اللَّمَزَةِ﴾، وهذا البناء الذي هو «فَعْلَةٌ» يقتضي المبالغة في معناه، وقال أبو العالية، والحسن: الهمزُ بالحضور واللمزُ بالمغيب، وقال مقاتل ضد هذا، وقال ابن أبي نُجَيْج: الهمزُ باليد والعين واللمزُ باللسان، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾.

وقيل: نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق، وقيل: في جميل بن عامر الجمحي، ثم هي تتناول كل من اتصف بهذه الصفات.

وقرأ ابن عامر، وحمة، والكسائي، والحسن: ﴿جَمْعٌ﴾ بشد الميم، والباقون بالتخفيف، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَدٌ﴾ معناه: أحصاه وحافظ على عدده ألا يُنْقَصَ، فمنعه من الخيرات ونفقة البر، وقال مقاتل: المعنى استعده وأذخره، وقرأ الحسن: ﴿وَعَدَدَةٌ﴾ بتخفيف الدالين، فقيل: المعنى: جمع مالا وعدداً من عشيرة، وقيل: أراد «عَدَدٌ» مُشَدَّدٌ فحلّ التضعيف. وهذا قَلْبٌ.

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُ﴾ معناه: يحسب أن ماله هو معنى حياته وقوامها، وأنه حفظه مدة عمره ويحفظه، ثم ردّ تعالى على هذه المحسبة، وأخبر إخباراً مؤكداً أنه يُنْبِذُ في الحطمة، أي: التي تحطم ما فيها وتلتهمه. وقرأ: ﴿يَحْسَبُ﴾ - بفتح السين - الأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وقرأ ابن

أبو المليح الهذلي:
«فتركهم كعصف»،
 وقال أبو حاتم: وقرأ
 بعضهم: **«فجعلتهم»** -
 يعنون الطير - بفتح اللام
 وتاء ساكنة، وقال
 عكرمة: العصف: حب
 البر إذا أكل فصار أجوف،
 وقال الفراء: هو أطراف
 الزرع قبل أن يُسبَل.
 وهذه السورة متصلة في
 مصحف أبي بن كعب
 بسورة **«إيلاف قريش»**،
 لا فصل بينهما، وقال
 سفيان بن عيينة، كان لنا
 إمام يقرأ بهما متصلة
 سورة واحدة.

في منقاره ورجليه، كل حجر فوق
 العدسة ودون الحُمْصَة، فرمتهم
 بتلك الحجارة، وكان الحجر منها
 يقتل المرمي، وتتهراً لحومهم جرباً
 وأسقاماً، وانصرف أبرهة بمن معه
 يريد اليمن، فماتوا في طريقهم
 متفرقين في كل مرحلة، وتقطع أبرهة
 أنملة أنملة حتى مات، وحمل الله
 تعالى بيته المرفُوع، فنزلت هذه
 السورة مُنَبِّهَةً على الاعتبار بهذه
 القصة، ليعلم الكل أن الأمر كله لله
 تعالى، ويستسلموا للإله الذي
 ظهرت في ذلك قدرته حين لم تغن
 الأصنام شيئاً. فأصحاب الفيل هم
 أبرهة المليك ورجاله. وقرأ أبو
 عبد الرحمن: **«ألم تر»** بسكون
 الراء، **«والضليل»**: الخسار والتلف.
«والأبابل»: الجماعات تجيء شيئاً
 بعد شيء، وقال أبو عبيدة: لا واحد
 له من لفظه، وهذا هو الصحيح، لا
 ما تكلفه بعض النحاة وقال كعب:

كَادَتْ تُهْدِي مِنَ الْأَصْوَابِ رَاجِلَتِي
 إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ
 وقد تقدم تفسير «حجارة السَّجِيلِ»
 غير مرة، وهو من «سَجَجَ وكَلَّ»،
 أي: ماء وطن، كأنها الأجُرُّ ونحوه
 مما طُبِخَ، وهي المسومة عند الله
 تعالى للكفار والظالمين.

«والعصف»: ورق الجنطة وتبينه،
 ومنه قول علقمة بن عبدة:

تَسْقِي مَذَائِبَ قَدْ زَالَتْ عَصِيفَتُهَا
 حُدُورُهَا مِنْ أَتْنِي أَلْمَاءِ مَطْمُومٍ
 والمعنى: صاروا طحيناً ذاهباً
 كورق الجنطة أكلته الدواب وراثته
 فجمع المهانة والخسة والتلف. وقرأ

كامل تفسير سورة «الفيل» والحمد لله
 رب العالمين

تفسير سورة قريش

وهي مكية بلا خلاف.

١ - ٢ تفسير قوله عز وجل:

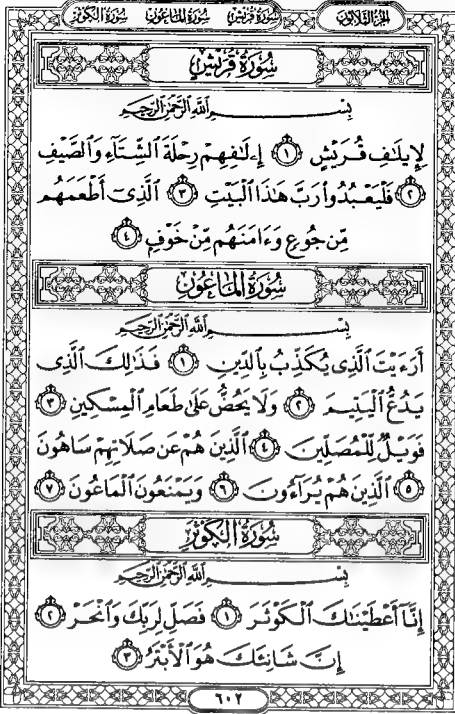
قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو
 عمرو، وحفص عن عاصم،
 وحزمة، والكسائي: **«إيلاف»**
قُرَيْشٍ **«إيلافهم»**، على
«إفعال» والهمزة الثانية ياء. وقرأ
 ابن عامر: **«إلافاً»**، على
«فعال» **«إيلافهم»**، على إفعال
 بياء في الثانية، وقرأ أبو بكر عن
 عاصم بهمزين فيهما، الثانية ساكنة

قال أبو علي: وتحقيق عاصم
 هاتين الهمزتين لا وجه له، وقرأ
 أبو جعفر **«إلفهم»** بلام ساكنة.

«قريش»: ولد النضر بن كنانة،
 والنضر بن النكش، تقول العرب:
«ألف الرجل الأمر وألفه غيره إياه»،
 فالفه تعالى ألف قريشاً، أي: جعلهم
 يألَفون رجلتين في العام، واحدة في
 الشتاء وأخرى في الصيف، ويقال
 أيضاً: **«ألف»** بمعنى «ألف»، وأنشد
 أبو زيد:

مِن الْمُؤَلِّفَاتِ الرُّمْلُ أَذْمَاءُ حُرَّةٍ
 شُعَاعُ الضُّحَى فِي جِيدِهَا يَتَوَضَّحُ
 فإلف وإلف مصدر «ألف»، وإيلاف
 مصدر «ألف»، قال بعض الناس:
 كانت الرحلتان إلى الشام في التجارة
 ونبل الأرباح، ومنه قول الشاعر:

سَفَرَيْنِ سَتَّهَمَا لَهُ وَلِغَيْرِهِ
 سَفَرُ الشَّتَاءِ وَرَحْلَةُ الْأَصْيَافِ



السامع كل من تعرفه بهذه الصفة، وهَمَزَ أبو عمرو ﴿أَرَاءَيْتَ﴾ - بخلاف عنه -، ولم يهَمْزها نافع وغيره. و«الدين»: الجزاء ثواباً وعقاباً، والحساب هنا قريب من الجزاء.

ثم قال تعالى: ﴿فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾، أي: راقب فيه هذه الخللا السيئة تجدها، و«دُعُ الْيَتِيمِ»: دَفَعَهُ بعنف، وذلك إما أن يكون المعنى: عن إطعامه والإحسان إليه، وإما أن يكون: عن حَقِّه وماله، فهذا أشد، وقرأ أبو رجاء: ﴿يَدْعُ﴾ بفتح الدال خفيفة، بمعنى: لا يُحَسِّنُ إليه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾، أي: لا يأمر بِصَدَقَةٍ، ولا يرى ذلك صواباً.

ويُروى أن هذه السورة نزلت في بعض المضطربين في الإسلام بمكة الذين لم يُحَقِّقُوا فيه، وفَتِنُوا فافتتنوا، وكانوا على هذا الخُلُق من الغشم وغِلَطَ العشرة والفظاظة على المساكين، وربما كان بعضهم يصلي أحياناً مع المسلمين مدافعةً وحيرة، فقال الله تعالى فيهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، وقال ابن جريج: كان أبو سفيان ينحر كل أسبوع جزوراً، فجاءه يتيماً فقرعه بعضاً، فنزلت السورة فيه، قال سعد أبي وقاص رضي الله عنه: سألتُ النبي ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون، قال: «هم الذين يُؤَخِّرُونَهَا عَنْ وَقْتِهَا»، يريد ﷺ - والله تعالى أعلم - تأخير تَرْكُ

هاتين الرحلتين لدينام فليعبدا ربَّ هذا البيت لآخرتهم، وقال قتادة: إِنَّمَا عُدَّتْ عليهم الرحلتان لأنهم كانوا يأمنون من الناس في سفرهم، والناس يُغَيِّرُ بعضهم على بعض، ولا تُمَكِّنُ قبيلاً من العرب أن يرحل آمناً كما تفعل قريش، فالمعنى: فليعبدا الذي خَصَّهم بهذه الحال فأطعمهم وآمنهم.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ جُوعٍ﴾ معناه أن أهل مكة قاطنون بَوَادٍ غير ذي زرع عُرْضَةٌ للجوع والجذب لولا لُطْفَ الله تعالى وأن جعله بدعوة إبراهيم عليه السلام تُجسِي إليه ثمرات كل شيء. وقوله تعالى: ﴿مِنْ خَوْفٍ﴾، أي: جعلهم - لِحُرْمَةِ البيت - مفضلين عند العرب، يأمنون والناس خائفون، ولولا فضل الله تعالى في ذلك لكانوا بمدرج المخاوف. وقال ابن عباس، والضحاك: ﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ معناه: من السُجْدَام، فلا ترى بمكة مجذوماً.

كامل تفسير سورة «قريش»
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الماعون

وهي مكية بلا خلاف علمته، وقال العلبي: هي مدنية.

١ - ﴿يَسِّرْهُ لَنَا وَيَمْحِمْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾

هذا توقيف وتنبيه لتذكر نفس

وقال ابن عباس: كانت رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى بَصْرَى من أرض الشام، وقال أبو صالح: كانت جميعاً إلى الشام، وقال ابن عباس أيضاً: كانوا يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماء والظل، ويرحلون في الشتاء إلى مكة للتجارة وسائر أغراضهم، فهاتان رحلتا الشتاء والصيف، وقال الخليل بن أحمد: فمعنى الآية: لأن الله تعالى فعل بقريش هذا ومكنهم من إلفهم هذه النعمة فليعبدا ربَّ هذا البيت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكرُ «البيت» هنا متمكن لتقدم حمايته في السورة التي قبلها.

وقال الأخفش وغيره: قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ متعلق بقوله سبحانه: ﴿فَعَلَّمَهُمْ كَتَمَ صِرَاطٍ مَأْكُورٍ﴾. أي: ليَفْعَلَ بقريش هذه الأفاعيل الجميلة، وقال بعض المفسرين: معنى الآية: اعجبوا لإيلاف قريش هذه الأسفار وإعراضهم عن عبادة الله تعالى، ثم أمرهم تعالى بالعبادة بَعْدُ، وأعلمهم أن الله هو الذي أطعمهم وآمنهم لا سفرهم، والمعنى: فليعبدا الذي أطعمهم بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَأَرَادْتُهُمْ مِنَ النَّفَرَاتِ﴾، وآمنهم بدعوته حيث قال: ﴿وَرَبِّ أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، ولا تشتغلوا بالأسفار فإنها طلب كسبٍ وعرضٌ دُنْيَا. وقال النقاش: كانت لهم أربع رحل، وهذا قول مردود، وقال عكرمة: معنى الآية كما ألفوا

وإهمال، وإلى هذا نَحَا مجاهد، وقال قتادة: ﴿سَاهُونَ﴾ هم التاركون لها، أو هم الغافلون الذين لا يبالي أحدهم صلى أم لم يُصَلِّ، وقال عطاء بن يسار: الحمد لله الذي قال: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾، ولم يقل: «في صلاتهم»، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿لَاهُونَ﴾ بدل «سَاهُونَ».

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرْكَوْنَ﴾ ﴿١﴾ بيان أَنَّ صلاة هؤلاء ليست لله تعالى بِنَيْتَةِ إيمان، وإنما هي رِيَاءٌ للبشر، فلا قبول لها، وقرأ ابن أبي إسحق، وأبو الأشهب: ﴿يُرْكَوْنَ﴾ مهموزة مقصورة مشددة الهمزة، وروى ابن أبي إسحق: ﴿يُرْكَوْنَ﴾ بغير شُدٍّ في الهمزة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ وصف لهم بقلة النفع لعباد الله، وتلك شرُّ خَلَّةٍ، وقال علي بن أبي طالب وابن عمر رضي الله عنهم: الماعون: الزكاة، قال الراعي:

قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا يَمْنَعُوا
مَاعُونَهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيلَا
وقال ابن مسعود رضي الله عنه: هو ما يتعاطاه الناس بينهم كالفأس والدلو والأنية والمقص ونحوه، وقاله الحسن، وقتادة، وابن الحنفية، وابن زيد، والضحاك، وابن عباس، وقال ابن المسيب: الماعون - بلغة قريش - المال، وسُيِّلَ النبي ﷺ ما الشيء الذي لا يجِلُّ منعه؟ فقال: «الماء والتار والملح»، روته عائشة رضي الله عنها، وفي بعض الطرق زيادة «والإبرة والخمير»، وحكى الفراء عن بعض

العرب أن الماعونَ الماء، وقال ابن مسعود: كُنَّا نَعُدُّ الماعونَ على عهد رسول الله ﷺ عارية القِذْرِ والدلو ونحوها.

كامل تفسير سورة «الماعون»
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الكوثر

وهي مكية.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قرأ الحسن: ﴿إِنَّا أَنْطَيْنَاكَ﴾، وهي لغة في «أعطى»، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «وَالْبَذُّ الْمُنْطِيَةُ خَيْرٌ مِنَ السُّفْلِ»، وقال الأعشى:

جِيَاذُكَ خَيْرُ جِيَاذِ الْمُلُوكِ
تُصَانُ الْجَلَالُ وَتُطْغَى الشَّعِيرَا
قال أنس، وابن عباس، وابن عمر - رضي الله عنهم - وجماعة من الصحابة والتابعين: الكوثر نهر في الجنة، حافته قباب من دُرٍّ مجوَّف، وطينه مسك، وحصباؤه ياقوت، ونحو هذا من صفاته وإن اختلفت ألفاظ الرواة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: الكوثر: الخير الكثير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: «كوثر» بناء مبالغة من الكثرة، ولا محالة أن الذي أعطى الله تعالى محمداً ﷺ من النبوة والحكمة والعلم بربه تعالى والفوز برضوانه والشرف على عباده هو أكثر الأشياء وأعظمها، فكأنه يقال في هذه الآية:

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْحِطَّ الْأَعْظَمَ، قال سعيد بن جبير: النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أعطاه الله تعالى إِيَّاهُ، فنعم ما ذهب إليه ابن عباس، ونعم ما تَمَّ ابن جبير رضي الله عنهما، وأمر النهر ثابت في الآثار في حديث الإسراء وغيره، صلى الله على محمد وسلم، ونفعنا بما منحنا من الهداية به. وقال الحسن: الكوثر: القرآن، وقال أبو بكر بن عياش: هو كثرة الأصحاب والأشياء، وقال جعفر الصادق: نوزَّ في قلبه دلُّه على الله تعالى وقطعه عما سواه، وقال أيضاً: هو الشفاعة، وقال هلال بن يساف: هو التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿نَصَلَّ لِرَبِّكَ﴾ أمر بالصلاة على العموم، ففيه المكتوبات بشروطها، والنوافل على أثرها، والتَّجَرُّ نحر الهدي والنسك في الضحايا في قول جمهور الناس، فكأنه تعالى قال: ليكن شغلك هذين، ولم يكن في ذلك الوقت جهاد، وقال أنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ ينحر يوم الأضحى قبل الصلاة فأمر أن يصلي ثم ينحر، وقاله قتادة، وقال القرطبي وغيره: في الآية طعن على كفار مكة، أي: أنهم يصلُّون لغير الله تعالى مُكَاً وَتَضُدِيَةً، وينحرون للأصنام، ونحوه، فافعل هذا أنت لربك تكن على صراط مستقيم.

وقال ابن جبير: نزلت هذه الآية يوم الحُدَيْبِيَّةِ وقت صلح قريش، قيل لمحمد ﷺ: صلِّ وانحر الهدي،

فهم غير نافع فيه.
و«الشأنى»: المُبْغِضُ.
وقال قتادة: الأبتَر يراد به هنا الحقير الدليل،
وقال عكرمة: مات ابن النبي ﷺ فخرج أبو جهل يقول «بُتِرَ محمد»، فنزلت السورة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في العاص بن وائل، سُمي النبي ﷺ حين مات ابنه عبدالله: أبتَر.

كامل تفسير سورة
«الكوثر» والحمد لله رب
العالمين

تفسير سورة الكافرون

وهي مكية إجماعاً.

① - ⑥ تفسير قوله عز وجل:

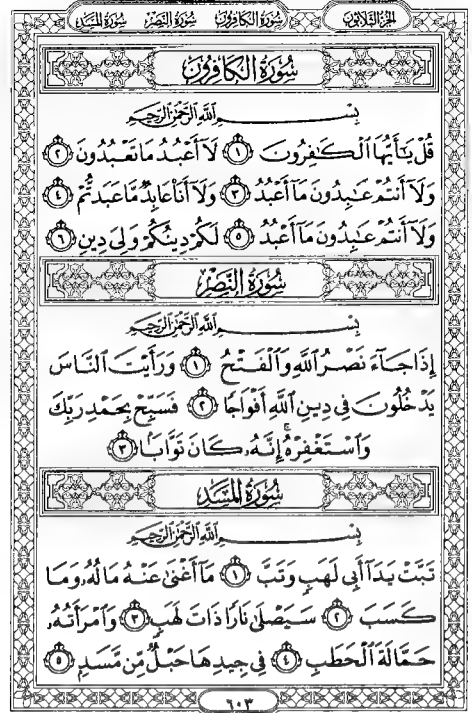
قرأ أبي بن كعب وابن مسعود:
﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وروي في سبب هذه السورة عن ابن عباس وغيره أن جماعة من غُتة قريش ورجالها قالوا للنبي ﷺ: دع ما أنت فيه ونحن نَمُولُكَ ونَرْوُجُكَ من شئت من كرائمنا، وَنَمْلُكَكَ علينا، وإن لم تفعل فلتعبد آلهتنا ونعبد إلهك حتى نشترك، فحيث كان الخير نلناه جميعاً، هذا معنى قولهم ولفظهم، لكن للرواة زيادة ونقص. وروي أن هذه الجماعة المذكورة هم: الوليد بن

المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمّية بن خلف، وأبي بن خلف، وأبو جهل، وابنا الحجاج، ونظراؤهم ممن لم يُسلم بعد، ورسول الله ﷺ معهم في هذه المعاني مقامات نزلت السورة في إحداها بسبب قولهم: هلُمّ نشترك في عبادة إلهك وآلهتنا، وزوي أنهم قالوا: اعبد إلهنا عاماً ونعبد إلهك عاماً، فأخبرهم عن أمره عز وجل أنه لا يعبد ما يعبدون، وأنهم غير عابدين ما يعبد، فلما كان قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾

محتملاً أن يُراد به «الآن» ويبقى المستأنف منتظراً ما يكون فيه من عبادته جاء البيان بقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدُ مَا عَبَدْتُمْ﴾ أي: أبداً وما حيث، ثم جاء قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون به أبداً كالذي كشف الغيب، فهذا كما قيل لنوح عليه السلام: ﴿أَنْتَ لَنْ يُؤْمَرَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ مَنَّ﴾، أما إن هذا في مُعَيَّنَيْن، وقوم نوح عموا بذلك، فهذا معنى التردد الذي في السورة، وهو بارع الفصاحة وليس بتكرار فقط، بل فيه ما ذكرته مع التأكيد والإبلاغ، وزاد الأمر بياناً وتبريأ منهم بقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، وفي هذا المعنى الذي عرضت قريش نزل أيضاً: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

وقرأ أبو عمرو: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ ساكنة الياء من [لي]، ونصبها الباقون - بخلاف عن كل واحد منهم - والقراءتان حسنتان، وأمال قوم ﴿عَابِدُ﴾ و﴿عَبِدُونَ﴾، وفتحها قوم، وهما حسنتان أيضاً، ولم يختلف



وعلى هذا تكون الآية من المدني، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: معنى الآية: صلِّ لِزُبُك، وضع يمينك على شمالك عند تحرك في الصلاة، فالتخر - على هذا - ليس بمصدر تَحَرَّ، بل هو الصدر، وقال آخرون: المعنى: ارفع يديك في استفتاح صلاتك عند تحرك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ شَيْئَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ردُّ على مقالة كان كثير من سفهاء قريش يقولها لما لم يكن لرسول الله ﷺ ولد، فكانوا يقولون: هو أبتَر، يموت فنستريح منه، ويموت أمره يموت، فقال الله تعالى - وقوله الحق -: ﴿إِنَّكَ شَيْئَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، أي: المقطوع المبتور من رحمة الله تعالى، ولو كان له بنون

الجمهور: المراد جميع وفود العرب؛ لأنهم قالوا: إذ فتح الحرم لمحمد، وقد حماه الله تعالى من الحبشة وغيرهم، فليس لكم به يدان. وذكر جابر بن عبد الله فُرقة الصحابة فبكى، وقال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «دخل الناسُ في الدين أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا أَتَابًا﴾ بِعَقِبِ ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ ترجمة عظيمة للمستغفرين، جعلنا الله تعالى منهم، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النَّصْر هو صلح الحُدَيْبية، وأنَّ الفتح هو فتح مكة، وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة على النبي ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق، في حجة الوداع، وعاش بعدها ثمانين يوماً أو نحوها، ﷺ.

كامل تفسير سورة «النصر»
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة المسد

وهي مكية بإجماع.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

رُوي في الحديث أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قال: «يا صفية بنت عبد المطلب،

عائشة رضي الله عنها عن النبي عليه الصلاة والسلام، وأنه ﷺ لَمَّا فُتِحَتْ مكة وأسلم العرب جعل يكثر أن يقول: «سبحان الله وبحمده، اللهم إني أستغفرك»، يتأول القرآن في هذه السورة وقال لها مرة: ما أراه إلا حضور أجلي، وتأوله عمر والعباس رضي الله عنهما بحضرة النبي ﷺ فصدقهما.

و «النَّصْرُ» الذي رآه رسول الله ﷺ غلبته لقريش وهوازن وغير ذلك، و«الْفَتْحُ» هو فتح مكة والطائف ومدن الحجاز وكثير من اليمن، و«دخول الناس في دين الله أفواجاً»؛ كان من فتح مكة إلى موت رسول الله ﷺ. قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في كتابه «الاستيعاب في الصحابة»، في باب أبي خراش الهذلي: لم يمت رسول الله ﷺ وفي العرب رجل كافر، بل دخل الكل في الإسلام بعد حُتَيْن والطائف، منهم من قديم، ومنهم من قدم وافده، ثم كان بعده ﷺ من الرِّدة ما كان، ورجعوا كلهم إلى الدين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمراد - والله أعلم - العرب عبدة الأوثان، وأما نصارى بني تغلب فما أراهم أسلموا قط في حياة رسول الله ﷺ، لكن أعطوا الجزية.

و «الأفواج»: الجماعة إثر الجماعة، وكما قال تعالى: ﴿كَلَّمَآ أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ﴾. قال مقاتل: المراد به «النَّاسُ» أهل اليمن، وقد منهم سبعمائة رجل، وقاله عكرمة، وقال

السبعة في حذف الياء من (دين)، وأثبتها سلام، ويعقوب في الوصل والوقف، وقال بعض العلماء: في هذه الألفاظ مُهاذنةٌ، وهي منسوخة بآية القتال.

كامل تفسير سورة «الكافرون»
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة النصر

وهي مدنية إجماعاً.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِذَا جَاءَ النَّصْرُ وَالْفَتْحُ﴾، وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جميعاً من الصحابة والأشياخ وبالحضرة ابن عباس، رضي الله عنهم، عن معنى هذه السورة وسببها، فقالوا كلهم: مقتضى ظاهر ألفاظها أن رسول الله ﷺ أمر عند الفتح التي فُتحت عليه - مكة وغيرها - بأن يسبح ربه ويحمده ويستغفره، فقال لابن عباس: فما تقول أنت يا ابن عباس؟ فقال: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه الله تعالى بقرْبه إذا رأى هذه الأمية، فقال عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما ذكرت. وهذا المنزع الذي ذكره ابن عباس ذكره ابن مسعود وأصحابه، ومجاهد وأصحابه، وقتادة، والضحاك، وروت معناه

يا فاطمة بنت محمد، لا أملك لكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما، ثم صعد الصفا ونادى بطون قريش: «يا بني فلان، يا بني فلان، وروي أنه صاح بأعلى صوته: «يا صباحاه»، فاجتمعوا إليه من كل وجه، فقال لهم: «أرأيتم لو قلت لكم: إني أنذركم خيلاً بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقني؟» قالوا: نعم، فقال: «إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تباً لك اليوم: ألهذا جمعنا؟ فافترقوا عنه، ونزلت هذه السورة.

﴿تَبَّتْ﴾ معناه: خسرث، والتَّاب: الخُسران والدمار، وأسند ذلك إلى اليمين من حيث اليد موضع الكسب والربح وضَمَّ ما يملك، ثم أوجب تعالى عليه أنه قد تبَّ، أي: حُتِمَ ذلك عليه، وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿تَبَّتْ يدا أبي لهبٍ، وقد تبَّ﴾. وأبو لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب، وهو عم النبي ﷺ، ولكن سبقت له الشقاوة. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن: ﴿أبي لهبٍ﴾ بسكون الهاء، وقرأ الباقر بتحريك الهاء، ولم يختلفوا في فتحها في ﴿ذَاتَ هَبٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ يستعمل أن تكون [ما] نافية، ويكون الكلام خبراً عن أن جميع أحواله الدنيوية

لم تُغن عنه شيئاً حين حُتِمَ عذابه بعد موته، ويحتمل أن تكون [ما] استفهاماً على وجه التقرير، أي: أين الغناء الذي لماله ولكسبه؟ ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يُراد به عرض الدنيا من عقار ونحوه، أو ليكون الكلام دالاً على أنه تعب في تكسبه، لم يجته عفواً بميراث وهبة ونحوه. وقال كثير من المفسرين: المراد بـ ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ بنوه، فكأنه تعالى قال: ما أغنى عنه ماله وولده، وقد قال رسول الله ﷺ: «خير ما كسب الرجل من عمل يده، وإن ولد الرجل من كسبه». وروي أن أولاد أبي لهب اختصموا عند ابن عباس رضي الله عنهما فتنازعا وتدافعوا، فقام ابن عباس يحجز بينهم فدفعه أحدهم فوق على فراشه، وكان قد كُفَّ بصره، فغضب وصاح: أخرجوا عني الكسب الخبيث، وقرأ أبي بن كعب، والأعمش: ﴿وَمَا اكْتَسَبَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَيَصِلَ نَارًا ذَاتَ هَبٍ﴾ حَتَمَ عليه بالنار، وإعلام بأنه يوافي على كفره، وانتزع أهل العلم بالأصول من هذه الآية جواز تكليف ما لا يطاق، وأنه موجود في قصة أبي لهب، وذلك أنه مخاطب مكلف أن يؤمن بمحمد ﷺ، ومكلف أن يؤمن بهذه السورة وصحتها، فكأنه قد كلف أن يؤمن، وأن يؤمن بأنه لا يؤمن، قال الأصوليون: ومتى ورد تكليف ما لا يطاق فهي أمارة من الله تعالى أنه قد حَتَمَ عذابه،

أي: عذاب ذلك المكلف، لقصة أبي لهب. وقرأ الجمهور: ﴿سَيَصِلُ﴾ بفتح الباء، وقرأ ابن كثير، والحسن، وابن مسعود بضمها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا أَهْلِ الْهَبِ﴾، هي أم جميل، أخت أبي سفيان بن حرب، عمة معاوية بن أبي سفيان. وعطف قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا أَهْلِ الْهَبِ﴾ على الضمير المرفوع دون أن يؤكد الضمير بسبب الحائل الذي ناب مناب التأكيد، وكانت أم جميل هذه مؤيدة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بلسانها وغاية قدرتها، وقال ابن عباس: كانت تجيء بالشوك فتطرحه في طريق النبي ﷺ وطريق أصحابه ليعقرهم، فبذلك سُميت حمالة الحطب، وعلى هذا التأويل فـ ﴿حَمَّالَةَ﴾ معرفة يراد به الماضي. وقيل: إن قوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ الْهَبِ﴾ استعارة لذنوبها التي تُحطبها على نفسها لآخرتها، فـ ﴿حَمَّالَةَ﴾ - على هذا - نكرة يراد به الاستقبال، وقيل: هي استعارة لسعيها على الدين والمؤمنين، كما تقول: «فلان يحطب على فلان»، فكانت هي تحطب على المؤمنين، وفي حبل المشركين، وقال الشاعر:

إِنَّ بَنِي الْأَدْرَمِ حَمَّلُوا الْحَطَبَ
هُمُ الْوُشَاءُ فِي الرُّضَا وَفِي الْغَضَبِ
وقرأ ابن مسعود: ﴿وَمُرْتَثَةً﴾.
وقرأ الجمهور: ﴿حَمَّالَةَ﴾ بالرفع،

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَاتِحَةِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفِيِّ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝

٦٠٤

في المسجد، فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني، ولأفعلن ولأفعلن، وإني لشاعرة، وقد قلت فيه:

مُذْمُومًا قَلِينَا
وَدِينُهُ أَبِينَا
فسكت أبو بكر، ومضت هي، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حجبتني عنها ملائكة فما رأيتني، وكفى الله شرها».

كمل تفسير سورة «المسد»
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الإخلاص

هذه السورة مكية، قاله مجاهد - بخلاف عنه - وعطاء وقتادة، وقال ابن عباس، والقرطبي، وأبو العالية: هي مدنية.

﴿١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، والربيع بن خيثم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ﴾، وروى أبي بن كعب أن المشركين سألو رسول الله ﷺ عن نسب ربه - تعالى عما يقول الجاهلون - فنزلت هذه السورة، وروى ابن عباس أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا له: يا محمد، صف لنا ربك وانسبه، فإنه

وقرأ عاصم: ﴿حَمَلَةً﴾ بالنصب على الذم، وهي قراءة الحسن والأعرج وابن محيصن، وقرأ ابن مسعود: ﴿حَمَلَةٌ لِلْحَطْبِ﴾ بالرفع ولام الجر وقرأ أبو قلابة: ﴿حَامِلَةً﴾ بكسر الميم بعد الألف.

قوله تعالى: ﴿فِي جِدِّهَا حَبْلٌ مِنْ نَسَبٍ﴾، قال ابن عباس، والضحاك، والسدي، وابن زيد: الإشارة إلى الحبل حقيقة، وهو الذي ربطت به الشوك وخطبه، قال السدي: والمسد: الليف، وقيل: ليف المقل، ذكره أبو الفتح، وقال ابن زيد: هو شجر باليمن يسمى المسد، تصنع منه الحبال، وقال التابعة:

مقدوفةٌ بدخيسٍ النخضِ بازُلها
له صريفٌ صريفٌ القغو بالمسد
القغو: البكرة، والمسد: الحبل. وقال عروة بن الزبير، ومجاهد، وغيرهما: هذا الكلام استعارة، والمراد: سلسلة من حديد في جهنم، ذزعها سبعون ذراعاً، ونحو هذا من العبارات، وقال قتادة: ﴿حَبْلٌ مِنْ نَسَبٍ﴾: قلادة من ودع، قال ابن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة فقالت: لأتفقئها على عداوة محمد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإنما عبّر عن قلادتها بحبل من مسدٍ على جهة التفاضل لها، وذكر تبرجها في هذا السعي الخبيث، وزوي في الحديث أن هذه السورة لما نزلت وقرئت بلغت أم جميل، فجاءت أبا بكر رضي الله عنه وهو مع النبي ﷺ

وصف نفسه في التوراة ونسبها، فارتعد رسول الله ﷺ حتى خر مغشياً عليه، ونزل عليه جبريل عليهما السلام بهذه السورة، وقال أبو العالية وقال قتادة: قالت الأحزاب لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأتاه الوحي بهذه السورة.

﴿وَأَحَدٌ﴾ معناه: واحد فرد من جميع جهات الوجدانية ليس كمثل شيء، و﴿هُوَ﴾ ابتداء، و﴿اللَّهُ﴾ ابتداء ثان، و﴿أَحَدٌ﴾ خبره، والجملة خبر الأول، وقيل: ﴿هُوَ﴾ ابتداء، و﴿اللَّهُ﴾ خبره، و﴿أَحَدٌ﴾ بدل منه، وحذف أبو عمرو التنوين من [أحد] لالتقاء الساكنين فقرأ: ﴿اللَّهُ أَحَدُ اللَّهُ﴾، وأثبت الباقون مكسوراً للالتقاء، وأما وقفهم كلهم فبسكون الدال، وقد روي عن أبي عمرو الوصل بسكون

تفسير سورة الفلق

هذه السورة قال ابن عباس: هي مدينة، وقال قتادة: هي مكية.

١ - ٥ تفسير قوله عز وجل: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد هو وآحاد أمته.

وقال ابن عباس، وابن جبير، والحسن، والقرطبي، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: «الْفَلَقُ»: الصبح، كقوله تعالى: «فَاللَّيْلُ الْإِصْلَاحُ»، وقال ابن عباس أيضاً وجماعة من الصحابة والتابعين: «الْفَلَقُ: جُبٌ فِي جَهَنَّمَ»، ورواه أبو هريرة عن النبي ﷺ.

وقوله تعالى: «مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ» يعلم كل موجود له شر. وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين بأن الله تعالى لم يخلق الشر: «مِنْ شَرِّ» بالتنوين «مَا خَلَقَ» على النفي، وهذه قراءة مردودة، مبنية على مذهب باطل، فالحمد لله تعالى خالق كل شيء.

واختلف الناس في «الغاسق» إذا وقب - فقال ابن عباس، ومجاهد والحسن: الغاسق: الليل، ووقب: أظلم ودخل على الناس، وقال الشاعر:

إِنْ هَذَا اللَّيْلُ قَدْ غَسَقَا
وَشَكَّوْثُ الْهَمِّ وَالْأَرْقَا

وقال محمد بن كعب: [غاسق]: النهار «إِذَا وَقَبَ» أي: دخل في الليل، وقال ابن زيد عن العرب: الغاسق: سقوط الثرى، وكانت

الدال، وروى عنه أيضاً تنوينها.

و «الصُّمْدُ» في كلام العرب: السيد الذي يَصْمَدُ إليه في الأمور ويستقل بها، وأنشدوا:

أَلَا بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرِي بَنِي أَسَدٍ
بَعْمَرُو بِنَ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصُّمْدِ
وبهذا تفسر هذه الآية؛ لأن الله تعالى جلَّت قدرته هو مُوجِد الموجودات، وإليه تصمد، وبه قوامها، ولا غنى بنفسه إلا هو سبحانه تبارك وتعالى. وقال كثير من المفسرين: الصُّمْدُ: الذي لا جوف له، كأنه بمعنى: المصمت، وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل ولا يشرب. وفي هذا التفسير كله نظر؛ لأن الجسم في غاية البعد عن الله تعالى وعن صفاته، فما الذي يُعطينا هذه العبارات؟ و«اللَّهُ الصُّمْدُ» ابتداء وخبر وقيل: «الصُّمْدُ» نعت والخبر فيما بعد.

وقوله تعالى: «لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ» رد على إشارة الكفار في النسب الذي سألوه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «تفكروا في كل شيء، ولا تتفكروا في ذات الله عز وجل».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن الأقدام تقف دون ذلك حسيرة، والمؤمنون يعرفون الله تعالى بواجب وجوده، وافتقار كل شيء إليه، واستغنائه عن كل شيء، وينفي العقل عنه كل ما لا يليق به عز وجل، وأن ليس كمثله شيء، وكل ما ذكرته فهو في ضمن هذه السورة الوجيزة البليغة.

وقوله تعالى: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» معناه: ليس له ضد ولا ند ولا شبيه، والكفو والكفو والكفو والكفو: النظير، وقرأ: «كُفُوًا» - بضم الكاف وهمز مسهل - نافع، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة. وقرأ بالهمز عاصم، وأبو عمرو - بخلاف عنه - وقرأ حمزة، وأبو عمرو: «كُفُوًا» بالهمز وإسكان الفاء، وروى عن نافع: «كُفَاً» بفتح الفاء وبغير همز، وقرأ سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كِفَاءً» بكسر الكاف وفتح الفاء والمد، و«كُفَاً» خبر «كَانَ»، واسمها «أَحَدٌ»، والظرف مُلغى، وسيبويه رحمه الله تعالى يستحسن أن يكون الظرف - إذا تقدم - خبراً، ولكن قد يجيء مُلغى في أماكن يقتضيها المعنى كهذه الآية، وكما قال الشاعر - أنشده سيبويه -:

مَا دَامَ فِيهِنَّ فَصِيلٌ حَيًّا
وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ «كُفُوًا» حَالٌ لِمَا تَقْدَمُ مِنْ كَوْنِهِ وَصِفًا لِلنَّكَرَةِ، كَمَا قَالَ:

لِعِزَّةٍ مُوجِشًا طَلَّلَ

قال سيبويه: هذا يقل في الكلام، وبابه الشعر، وقال رسول الله ﷺ: «إِنْ قُلَّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» تعدل ثلث القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لما فيها من التوحيد.

كمل تفسير سورة «الإخلاص»
والحمد لله رب العالمين

كيف قدر؛ لأنه عدوٌ مجدٌ ممتحن،
وقال الشاعر:

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتُهَا
إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ
وعين الحاسد في الغالب لاقفة،
نعوذ بالله عز وجل من شرها، قال
الشاعر:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَشْرِفَ ضَيْلَةٍ
طَوَيْتُ أَنَا حِلَّهَا لِسَانِ حُسُودِ
الحسد في الاثنين اللتين قال
رسول الله ﷺ حسدٌ مُستحسن غير
ضار، وإنما هو باعث على خير.

وهذه السورة خمس آيات، فقال
بعض الحدائق هي مراد الناس بقولهم
للحاسد إذا نظر إليهم: الخمس على
عينيك وقد غلظت العامة في هذا
فيشيرون بالأصابع لكونها خمسة.

وأمال أبو عمرو «حاسد»،
والباقيون يفتحون الحاء، وقال
الحسن بن الفضل: ذكر الله تعالى
الشرور في هذه السورة ثم ختمها
بالحسد ليظهر أنه أخس طبع.

كمل تفسير سورة «الفلق» والحمد لله
رب العالمين

تفسير سورة الناس

قال ابن عباس وغيره: هي مدنية،
وقال قتادة: هي مكية.

١ - ٦ تفسير قوله عز وجل:
«الْوَسْوَاسَ» اسم من أسماء
الشیطان، وهو أيضاً ما تُوسوس به

الأسقام والطاعون تهيج عنده، وقال
عليه الصلاة والسلام: «النجم هو
الغاسق»، فيحتمل أن يريد الثريا،
وقال عليه السلام لعائشة
رضي الله عنها - وقد نظر إلى
القمر -: «تعوذ بالله من شر غاسق
إذا وقب، فهذا هو»، وقال القتيبي
وغيره: هو البذر إذا دخل في
ساحوره فحسف، وقال الزهري:
الغاسق إذا وقب: الشمس إذا
غربت، و«وقب» في كلام العرب:
دخل (.....).

و «الثفائن في العقد»: السواحر،
ويقال: إن الإشارة أولاً إلى بنات
لبيد بن الأعصم اليهودي، كن
ساحرات، وهن اللواتي سحرن
النبي ﷺ، وعقدن له إحدى عشرة
عقدة، فأنزل الله تعالى إحدى عشرة
آية بعدد العقد هي المعوذتان، فشفي
النبي ﷺ، و«الثفت»: شبه النفخ
دون ثقل ريق، وهذا الثفت هو على
عقد تُعقد في خيوط ونحوها على
اسم المسحور فيؤذى بذلك، وهذا
الشان في زماننا موجود شائع في
صحراء المغرب، وحدثني ثقة أنه
رأى عند بعضهم خيطاً أحمر قد
عقدت فيه عقد على فُضْلان،
فمنعت بذلك رضاع أمهاتها، فكان
إذا حل عقد جرى ذلك الفصيل إلى
أمه في الحين فوضع، أعادنا الله
تعالى من شر السحر بقدرته. وقرأ
عبدالله بن القاسم، والحسن، وابن
عمر: «النافثات».

وقوله تعالى: «وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا
حَسَدَ»، قال قتادة: من شر عينه
ونفسه، يريد السعي الخبيث والإذابة

شهوات النفس وتُسَوِّله، وذلك هو
الهوى الذي تُهي المرأة عن اتباعه،
وأمر بمعصيته، والغضب الذي وصى
رسول الله ﷺ بطرحه وتركه حين
قال له رجل: أوصني، فقال: «لا
تغضب»، قال: زدني، قال: «لا
تغضب».

وقوله تعالى: «الْحَنَائِصَ» معناه:
الراجع على عقبه، المستتر أحياناً،
وذلك في الشيطان متمكن إذا ذكر
العبد الله تعالى وتعوذ، وتذكر
فأبصر، كما قال تعالى: «لَكَ الْبَصَرُ
أَتَقَوَّأُ إِذَا مَنَّهُمْ ظَلَمٌ مِنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ»، وإذا
فرضنا ذلك في الشهوات والغضب
ونحوهما فهو يخس بتذكر النفس
اللؤامة، ويلمة الملك، وبأن الحياة
يردع والإيمان يردع بقوة، فتخس
تلك العوارض المتحركة، وتنقم عند
من أعين بتوفيق الله، وقد اندرج هذان
المعنيان من الوسواس في قوله تعالى:
«مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ»، أي: من
الشياطين ونفس الإنسان.

ويظهر أيضاً أن يكون قوله تعالى:
«وَالنَّاسِ» يُراد به من يوسوس
بخدعة من البشر، ويدعو إلى
الباطل، فهو في ذلك كالشيطان.

وكلمهم قرأ: «النَّاسِ» غير مُمالة،
وروى الدوري عن الكسائي أنه أمال
النون من [الناس] في حال الخفض،
ولا يُميل في الرفع والنصب.

وقالت عائشة رضي الله عنها:
(كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى
فراشه جمع كفيه ونفت فيهما،
وقرأ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ،
وَالْمُعَوَّذَتَيْنِ»، ثم مسح بهما ما

كمل تفسير سورة «الناس»
والحمد لله رب العالمين

تعالى: إِنَّ من الناس شياطين، ومن
الجن شياطين، فتعوذوا بالله عزَّ
وجلَّ من شياطين الإنس والجن.

استطاع من جسده، يبدأ برأسه
ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل
ذلك ثلاثاً). وقال قتادة رحمه الله

فهرس

الصفحة	السورة
١	مقدمة مجد مكى
١٣	مقدمة المؤلف
٣٤	القول في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم
٣٩	تفسير سورة الفاتحة
٤٩	تفسير سورة البقرة
٢٧١	تفسير سورة آل عمران
٣٩٦	تفسير سورة النساء
٥٠٤	تفسير سورة المائدة
٦٠٠	تفسير سورة الأنعام
٦٨٢	تفسير سورة الأعراف
٧٧٤	تفسير سورة الأنفال
٨٢٢	تفسير سورة التوبة
٨٩٥	تفسير سورة يونس
٩٢٩	تفسير سورة هود
٩٧٧	تفسير سورة يوسف
١٠٢٦	تفسير سورة الرعد
١٠٤٥	تفسير سورة إبراهيم
١٠٦٣	تفسير سورة الحجر
١٠٨٢	تفسير سورة النحل
١١٢٥	تفسير سورة الإسراء
١١٧٣	تفسير سورة الكهف

السورة	الصفحة
تفسير سورة مريم	١٢١٧
تفسير سورة طه	١٢٤٤
تفسير سورة الأنبياء	١٢٧٣
تفسير سورة الحج	١٢٩٨
تفسير سورة المؤمنون	١٣٢٤
تفسير سورة النور	١٣٤٢
تفسير سورة الفرقان	١٣٧٤
تفسير سورة الشعراء	١٣٩٤
تفسير سورة النمل	١٤١٢
تفسير سورة القصص	١٤٣٢
تفسير سورة العنكبوت	١٤٥٤
تفسير سورة الروم	١٤٧٠
تفسير سورة لقمان	١٤٨٣
تفسير سورة السجدة	١٤٩٢
تفسير سورة الأحزاب	١٤٩٩
تفسير سورة سبأ	١٥٢٧
تفسير سورة فاطر	١٥٤٤
تفسير سورة يس	١٥٥٦
تفسير سورة الصافات	١٥٧١
تفسير سورة ص	١٥٨٩
تفسير سورة الزمر	١٦٠٨
تفسير سورة غافر	١٦٢٧
تفسير سورة فصلت	١٦٤٥
تفسير سورة الشورى	١٦٦٠
تفسير سورة الزخرف	١٦٧٤
تفسير سورة الدخان	١٦٩٠
تفسير سورة الجاثية	١٦٩٧
تفسير سورة الأحقاف	١٧٠٥
تفسير سورة محمد ﷺ	١٧١٧
تفسير سورة الفتح	١٧٢٨

الصفحة	السورة
١٧٤٠	تفسير سورة الحجرات
١٧٤٨	تفسير سورة ق
١٧٦٠	تفسير سورة الذاريات
١٧٦٩	تفسير سورة الطور
١٧٧٧	تفسير سورة النجم
١٧٨٩	تفسير سورة القمر
١٧٩٧	تفسير سورة الرحمن
١٨٠٧	تفسير سورة الواقعة
١٨١٩	تفسير سورة الحديد
١٨٣٠	تفسير سورة المجادلة
١٨٣٨	تفسير سورة الحشر
١٨٤٥	تفسير سورة الممتحنة
١٨٥٢	تفسير سورة الصف
١٨٥٥	تفسير سورة الجمعة
١٨٥٨	تفسير سورة المنافقون
١٨٦٢	تفسير سورة التغابن
١٨٦٦	تفسير سورة الطلاق
١٨٧١	تفسير سورة التحريم
١٨٧٦	تفسير سورة الملك
١٨٨١	تفسير سورة القلم
١٨٨٩	تفسير سورة الحاقة
١٨٩٥	تفسير سورة المعارج
١٩٠١	تفسير سورة نوح
١٩٠٥	تفسير سورة الجن
١٩١١	تفسير سورة المزمل
١٩١٥	تفسير سورة المدثر
١٩٢٢	تفسير سورة القيامة
١٩٢٧	تفسير سورة الإنسان
١٩٣٣	تفسير سورة المرسلات
١٩٣٨	تفسير سورة النبأ

الصفحة	السورة
١٩٤٣	تفسير سورة النازعات
١٩٤٧	تفسير سورة عبس
١٩٥١	تفسير سورة التكوير
١٩٥٤	تفسير سورة الانفطار
١٩٥٥	تفسير سورة المطففين
١٩٦٠	تفسير سورة الانشقاق
١٩٦٣	تفسير سورة البروج
١٩٦٦	تفسير سورة الطارق
١٩٦٨	تفسير سورة الأعلى
١٩٧١	تفسير سورة الغاشية
١٩٧٤	تفسير سورة الفجر
١٩٧٩	تفسير سورة البلد
١٩٨٢	تفسير سورة الشمس
١٩٨٤	تفسير سورة الليل
١٩٨٦	تفسير سورة الضحى
١٩٨٧	تفسير سورة الشرح
١٩٨٩	تفسير سورة التين
١٩٩١	تفسير سورة العلق
١٩٩٣	تفسير سورة القدر
١٩٩٥	تفسير سورة البينة
١٩٩٦	تفسير سورة الزلزلة
١٩٩٩	تفسير سورة العاديات
٢٠٠٠	تفسير سورة القارعة
٢٠٠١	تفسير سورة التكاثر
٢٠٠٣	تفسير سورة العصر
٢٠٠٣	تفسير سورة الهمزة
٢٠٠٤	تفسير سورة الفيل
٢٠٠٥	تفسير سورة قريش
٢٠٠٦	تفسير سورة الماعون
٢٠٠٧	تفسير سورة الكوثر

الصفحة	السورة
٢٠٠٨	تفسير سورة الكافرون
٢٠٠٩	تفسير سورة النصر
٢٠٠٩	تفسير سورة المسد
٢٠١١	تفسير سورة الإخلاص
٢٠١٢	تفسير سورة الفلق
٢٠١٣	تفسير سورة الناس
٢٠١٥	الفهرس

